التفسير المحرر للقرآن الكريم

الفاتحة - البقرة

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر سابقًا

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الأول

الدرر السنية
www.dorar.net

التفسير المحرر

للقرآن الكريم

١

ⓒ مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٣٦هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
مؤسسة الدرر السنية للنشر - القسم العلمي
التفسير المحرر للقرآن الكريم/ مؤسسة الدرر السنية للنشر - القسم العلمي
- الظهران، ١٤٣٦هـ
٩٤٤ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم
ردمك: ٦-٢٣-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨
١- القرآن - تفسير   أ- العنوان
ديوي ٢٢٧,٣   ١٤٣٦/١٠٨١

رقم الإيداع: ١٤٣٦/١٠٨١
ردمك: ٦-٢٣-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net
مؤسسة الدرر السنية - المملكة العربية السعودية
ص. ب ٣٩٣٦٤ الظهران ٣١٩٤٢ - جوال: ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠
ت: ٠١٣٨٦٨٠١٢٣ / فاكس: ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨ - بريد الكتروني nashr@dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الشَّيخ الدكتور
خالِد بن عُثمان السَّبت

الحمدُ للهِ، والصَّلاةُ والسَّلام على رسولِ اللهِ، وعلى آلِه وصَحْبِه وأتْباعِه إلى يومِ الدِّين.

أمَّا بعدُ:

فإنَّه لا يَخفَى كثرةُ المؤلَّفات في التَّفسير، المطبوع منها وغير المطبوع، على تَبايُنٍ بينها في الأسلوب والمضمون، مع تكرارٍ كثيرٍ فيما تَحويه هذه الكتُب؛ وذلك يُفوِّت على مَن رام تَتبُّعَها الزمانَ الطويلَ في أمرٍ يمكن تَلَافِيه.

ومِن هنا فإنَّ مَن يُطَالِع في كُتُب التَّفسيرِ سَيُوَاجِه جُملَةً مِن المُعَوِّقَات، فمن ذلك:

١- الأسلوبُ واللُّغة التي صِيغَت بها تِلك المؤلَّفات، إضافةً إلى بعض المُصْطَلَحات التي قد يَعْسُرُ فَهمُها على القارئ غيرِ المتخصِّص.

٢- كَثرةُ المعلومات وتداخُلها ما بين مناسبات، ومَرويَّات، وغريب، وإعراب، وقِراءات، وتوجيه لها، ونواحٍ بلاغيَّة، واستنباطات فقهيَّة، وغير ذلك ممَّا تَحويه كتُبُ التَّفسير.

٣- ما يُوجَدُ من تفاوُتٍ في مضامين هذه المؤلَّفات من حيثُ صِحَّةُ المادة العلميَّة من عدمها، إضافةً إلى تفاوتها من حيث القيمةُ العلميَّة لتلك المضامين، كما لا يَخفَى.

٤- ما نَجِدُه في كتُب التفسير من ذِكرِ الأقوال والخِلافات الكثيرة والتأويلات البَعيدة، ممَّا يُورِثُ القارئَ حَيْرَةً بحيث لا يتمكَّن من معرفةِ الراجح من المرجوح، إضافةً إلى أنَّ كثيرًا من تلك الأقوال هي مِن قَبيل اختلاف التنوُّع، أو اختلاف

التضادِّ الذي يؤول إلى التنوُّع؛ لإمكانِ الجمْع فيه بين تِلك المعاني المذكورة.

٥- هناكَ نِسبةٌ لا يُستهان بها من المعلومات التي حَوتْها تلك المؤلَّفات تُعَدُّ تَكرارًا لِمَا ذُكر في الكتُب التي سبقتْها، وهذا من شأنه أن يُورِثَ السآمةَ لدَى القارئ حيث يَقضي الوقتَ الطويل؛ ليصلَ إلى معلومة إضافيَّة.

٦- كثرة ما في كتُب التَّفسيرِ من الاستطرادِ والخروجِ عن مقصودِ التفسير.

فهذا وغيرُه اسْتَدْعَى كتابةَ مُؤَلَّفٍ في التفسير يَنْتَظِم أحسنَ ما في تِلك الكتُب، ويُقرِّب ذلك إلى كلِّ راغب في التفسير، من غير تَكرار ولا غُموض، مع ترتيبٍ للمعلومات المتنوِّعة تحتَ عناوينَ بارزة؛ بحيث يجِدُ القارئ بُغْيَتَه مباشرةً، فيقرأ في الجوانب التي يَطلُبها من بيانِ معنًى عامٍّ، أو مُناسَبَة، أو قِراءة، أو مرويَّات صحيحة، أو مُشْكِلٍ في الإعرابِ، أو نواحٍ بلاغيَّة، أو فوائد ذات أبواب متنوِّعة، إلى غيرِ ذلك ممَّا تجده في هذا الكتابِ الذي جَمَع ثمرةَ أهمِّ الكتُب المصنَّفة في التفسير، على تنوُّع اتِّجاهاتها ومَناهِجها.

كلُّ ذلك قد صِيغَ بعبارةٍ واضحة، سهلة قريبة، لا تَعْسُر على القارئ، وإنْ لم يكُن له عَهْدٌ بقِراءة كتُب التفسير.

هذا بالإضافة إلى مُراعاة أمورٍ ثلاثةٍ هي في غايةِ الأهميَّة:

الأوَّل: التعبير عن المعنى بعبارةٍ تَجمَعُ المعاني التي يُمكن أن تكونَ مُرَادَةً تحت الآية- ما أمكن.

الثاني: مُرَاعَاة تَرجيحاتِ المُحَقِّقين في التفسير، وإنْ لم يكُن لبعضهم مُؤَلَّفٌ مُفْرَد فيه، كالإمام ابن جرير، والحافظ ابن كثير، وشيخ الإسلامِ وتلميذِه ابن القيِّم، والشيخ محمد الأمين الشِّنقيطي، والشيخ عبد الرحمن السعدي، رحمهم الله.

الثالث: أنَّ مبناه على عقيدةِ السَّلف الصالح وفَهْمهم، فهو سالمٌ من البِدع الاعتقاديَّة وغيرها.

وخُلاصة القول: إنَّ هذا التفسيرَ المحرَّر جُهْدٌ مُتَميِّز، يَجمَعُ بين صِحَّةِ المعلومة، وسُهولةِ العبارة، مع حُسْن ترتيبٍ وتبويب- تُقَدِّمه هذه المؤسَّسةُ المباركة **الدُّرَر السَّنيَّة** لكلِّ مُسلم يتَطَلَّع إلى الوقوفِ على تفسير القرآن الكريم، واستخراج هِداياتِه أيًّا كان تخصُّصه، أو غرضُه؛ فهو يَفِي بحاجةِ المعلِّمين والمتعلِّمين، ويَنتفع به عُمومُ القرَّاءِ من المتخصِّصين في التَّفسير وغيرهم، فيَقرؤونه مُطْمئنينَ لسَلامتِه من العقائد الفاسِدة، والتأويلات المُسْتكْرَهة، والبِدع المُحْدَثَة، وتَبقَى تلك المراجعُ وما حوتْه من تِلك الكنوزِ والنَّفائس عُمدةً يَرجِع إليها طلَّابُ العِلمِ ويَنتفعون بها.

هذا، وقد راجعتُ هذا الكتابَ وقرأْتُه بإمعانٍ.

فاللهَ أسألُ أن يَنفعَ به، وأن يَتقبَّله بقَبول حَسنٍ، وأن يَجزيَ كلَّ مَن أَسْهم في كِتابتِه، أو إخراجِه، خيرَ الجزاءِ؛ إنَّه سميعٌ مجيبٌ.

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التَّفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

تقديم الشيخ الدكتور
أحمد سعد الخَطيب

أَحَمَدُك ربِّي بجميع المحامد، لا إلهَ إلَّا أنت سبحانك، أَستغفرُك وأتوبُ إليك، وأُصلِّي وأُسلِّم على أكرمِ خَلقِك، وأعظمِ رُسلِك؛ محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم، وأشهد أن لا إلهَ إلَّا أنت، وأنَّ محمدًا رسولُك وعَبدُك، وصفوتُك من خلقك، وأنَّ القرآن خيرُ كتاب أُنزل، على خيرِ نَبيٍّ أُرسل.

أمَّا بعد:

فإنَّ المشتغِلَ بالقرآن الكريم، المنشغِل به قلبًا وقالبًا، يَحتمي بجنابه القويِّ؛ إدراكًا منه بأنه قد آوى إلى رُكنٍ شديد، وحِصن عتيد؛ فلا يكاد يشعر بالأمن إلَّا في رِحابه، ولا يلتذُّ بالعيش إلَّا في جِواره، ولا يرتوي إلَّا منه، ولا يَرضى بغيره بديلًا، ولا ينصرف إلى سواه تحويلًا، فيسعى في كلِّ وقتٍ إلى خِدمته، وكلَّما انتهى مِن واحدةٍ دخل في سواها، ولِـمَ لا؟! وهو الكتاب الذي لا يَشبع منه العلماءُ، ولا يملُّه الأتقياء.

وربَّما سارت الخِدْماتُ بعضها إلى جوار بعض، يشدُّ بعضُها أزرَ بعض، دون كَلل من القائمين على ذلك أو مَلل، بل في سُرور وحبور؛ ابتغاءَ وجه الله العزيزِ الغفور، ثم التزوُّد ليوم النُّشور.

وهذا باختصارٍ هو حال مؤسَّسة **الدُّرَر السَّنيَّة**، التي وهَبتْ نفسها لِخدمة العِلم الشرعي عرْضًا وتأصيلًا، ومن أَجلِّ ذلك خدمة هذا الكتاب العزيز تشرُّفًا بها، ووثوقًا بأنَّ ما اختارته لنفسِها، واختطَّته لها هو سببُ الفلاح دُنيا وأخرى؛ ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقد آلتْ هذه المؤسَّسة على نفسها، أن تُقدِّم موسوعاتٍ في شتَّى المعارفِ الإسلاميَّة؛ خِدمةً لهذا الدِّين العظيم، وقيامًا بواجبٍ طالَما تقاصر عن أدائه كثيرون، فقدَّمت لطلَّاب العلم والمعرفة ما يَروي ظمأَهم مهما كان طلبُهم، ومن ذلك إخراجُ موسوعة في التَّفسير، مذلَّلة للطالبِين، تتميَّز بالعُمق والشمول، مع سُهولة العَرْض، فكان هذا "**التَّفسير المُحرَّر للقرآن الكريم**" الذي بين يدَي القارئ منه الآن: تفسير أمِّ الكتاب (سورة الفاتحة) وتفسير (سورة البقرة).

وهو تفسيرٌ محرَّر؛ لأنَّه خالصٌ لوجه الله، عتيقٌ من كلِّ غرض لا يحقِّق رضاه، ثم هو مُحرَّر لدِقَّة عبارته، مع يُسرها وسُهولتها، وخُلوِّها من سِمات التعقيد، ومُشكلات التقعيد.

هذا، وإنَّ مؤسَّسة **الدُّرر السَّنية** بهذا العمل الذي بين أيديكم مُبتداه، وقد عُقِد العزمُ على أن يبلغ بإذن الله على نفْس النَّهجِ منتهاه، تكون قد أَسدتْ معروفًا إلى طلَّاب المعرفة، المبتدئ منهم والمنتهي، فأهدتْهم كتابًا جامعًا في التفسير، متنوِّع الفوائد، ملبِّيًا لحاجيات قارئيه وطالبيه، بما حواه من أفانين العلوم التي طوَّف التفسير حولها؛ وذلك أنَّك واجدٌ فيه المعنى الإجمالي، وتفسير الآيات، وفيه الغريب والإعراب، وفيه البَلاغة واللَّطائف، وفيه الفوائدُ والفرائدُ، وفيه المناسبات والقراءات ذات الأثَر في التفسير، وفيه كذلك مُقدِّماتٌ رائِعة، وكليَّاتٌ جامِعة، وستقف- أيُّها القارئ- على هذا الجهد إجمالًا حينما تُطالعُ مُقدِّمة الكتاب، وباستفاضةٍ وبيانٍ عندما تُطالِع التفسيرَ ذاته.

والرَّائع حقًّا، أنه قد سِيق ذلك كله- كما أَسلفتُ- بأسلوبٍ مُيسَّر وسَط، رُوعي فيه عدمُ التكلُّف الذي يشقُّ معه فَهمُ المراد،كما رُوعي فيه أيضًا عدمُ الإخلال بما

يجب أن يكون عليه فَهمُ كتاب الله تعالى وتفسيرُه؛ فهو إذن خالٍ من التكلُّف والتساهُل معًا، ودليل ذلك أنك ستجد فيه الآراءَ القويَّة على تزاحمها، والمعاني المترتِّبة على اختلاف القِراءات أو الإعراب على تعدُّدها، مضمَّنةً في عبارته.

وإذا كان ذلك كذلك، فلا يَحيكنَّ في صَدرِكَ بعضُ الظنِّ بأنَّ سُهولةَ عبارته فارقتْ عُمقَ التناوُل، أو قادتْ إلى التخلِّي عن بعضِ الآراء لحسابِ بعضٍ، لا! بل مضى ذلك كلُّه جنبًا إلى جنب، فتحقَّق بذلك سموُّ الغَرض مع جودة المضمون، وذلك كلُّه بتوفيقٍ من الله وعونٍ منه، ولولا ذلك ما كان ما كان.

وقد مضَى هذا التفسير على نهجٍ واضحٍ في اقتفاء منهجِ أهل السُّنة والجماعة، في آيات العَقائد، بما يَضمنُ السلامةَ في الدِّين، وعدمَ الغلوِّ أو الابتداع فيه؛ فمنهجُ أهل السُّنة والجماعة عاصمٌ من ذلك كلِّه؛ فهو منهج السَّلف الكِرام الذين حمَلوا أمانةَ الدِّين على أعناقهم، وأدَّوْها كما حملوها، دونما زيفٍ أو شَطط، ودونما زيادة أو نقصان.

وكان لي شرفُ المشاركة في هذا العمل مقوِّمًا ومراجعًا، لجهدِ فريق عِلمي متميِّز، قام على أكتافه هذا العملُ المتميِّز، أسأل الله تعالى لي ولهم الأجرَ والمثوبة.

وممَّا أَسعَدني كذلك أنْ صاحبتُ في هذه المراجعة الشَّيخَ الجليلَ الدكتور خالد السبت حفظه الله، وهو صاحبُ جهد متميِّز في التقعيد والتأصيل والضبط لممارسة تفسيرِ القرآن وتدبُّره، وأرجو له أن يُواصِلَ الجهود في هذا الاتِّجاه، وألَّا يَبرحَهُ وقد تميَّز فيه، خصوصًا أنه مجالٌ تفتقر إليه المكتبة القرآنيَّة، وفَّق الله الشَّيخَ وأعانه على بلوغِ آماله.

وختامًا أقول:

إنَّ (**التفسير المُحرَّر للقرآن الكريم**) عملٌ يستحقُّ الثناء، وجهدٌ يستحقُّ الشُّكر، وهدفٌ يستحقُّ البذل، وثمرةٌ نسأل الله تعالى أن نَجنيَها قريبًا.

أ.د. أحمد سعد الخطيب

أستاذ التفسير وعلوم القرآن

عميد كُليَّة الدِّراسات الإسلاميَّة والعربيَّة للبنين بقنا – جامعة الأزهر

عضو المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميَّة بجمهوريَّة مصر العربيَّة

مُقدّمة التّفسير

الحمدُ لله الَّذي أَنزلَ الفرقانَ على عَبدِه ليكونَ للعالَمين نذيرًا، والصَّلاةُ والسَّلام علَى مَن أَرْسله داعيًا إليه بإذنِه وسِراجًا مُنيرًا.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ كتابَ اللهِ (القرآنَ العظيمَ) هو الحقُّ المبين، أنزله على عَبدِه ورسولِه الأمين؛ ليكونَ هدايةً للإنسِ والجنِّ أَجمعين، ويُخرِجهم من ظُلماتِ الباطلِ والشَّكِّ إلى نُورِ الحقِّ واليقين؛ فمَن استمسك به فقد اعتَصَم بالحبلِ القَويم، وهُدِي إلى الصِّراط المُستقيم.

قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥- ١٦].

وكتابُ الله هو أفضلُ الكتُب السَّماويَّة، وأعظمُ وحيٍ أُنزِل على البشريَّة.

قال الله عزَّ وجلَّ لنبيِّه محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

قال الحافظ ابنُ كثير رحمه الله: (فهو أمينٌ وشاهدٌ وحاكمٌ على كلِّ كتابٍ قَبْله، جعَل الله هذا الكتابَ العظيم- الذي أنزله آخِرَ الكتُب وخاتمَها- أشملَها وأعظمَها وأحكمَها، حيث جمع فيه محاسنَ ما قبله، وزاده من الكمالاتِ ما ليس في غيره؛ فلهذا جعله شاهدًا وأمينًا وحاكمًا عليها كلِّها، وتكفَّل تعالى بحفظه بنفسه الكريمة، فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩])[1].

وإنَّ سعادةَ كلِّ إنسان مرهونةٌ بهذا القرآن؛ فَهمًا له وتبليغًا، وعملًا به وتحكيمًا.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٢٨).

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

وقال سبحانه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقال تبارك وتعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: ١-٢].

وقدْ جُعلت تلاوتُه من أفضلِ الطَّاعات، وتدبُّره من أجلِّ وأعلى القُرُبات.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ * لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٢٩، ٣٠].

قال الشيخُ السعديُّ رحمه الله: (﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ﴾، أي: يَتَّبعونه في أوامره فيَمتثِلونها، وفي نواهيه فيَترُكونها، وفي أخبارِه فيُصدِّقونها ويعتقدونها، ولا يُقدِّمون عليه ما خالَفَه من الأقوال، ويَتلُون أيضًا ألفاظه بدراسته ومعانيه، بتتبُّعها واستخراجها)[1].

وعن أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: ((مَثَل المؤمنِ الذي يَقرأُ القرآنَ كمَثَل الأُتْرُجَّة؛ رِيحُها طيِّب وطَعمُها طيِّب، ومَثَلُ المؤمنِ الذي لا يَقرأ القرآنَ كمَثل التمرةِ؛ لا رِيحَ لها وطعمها حُلو، ومَثَلُ المنافقِ الذي يقرأ القرآن مثلُ الرَّيحانةِ؛ رِيحها طيِّب وطعمها مُرٌّ، ومَثَلُ المنافق الذي لا يَقرأ القرآن كمَثَل الحنظلةِ، ليس لها رِيحٌ وطعمها مُرٌّ))[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩).

(٢) رواه البخاري (٥٤٢٧).

وإنَّ إجالةَ الخاطرِ في حِكَمه، وتلمُّسِ أسراره ومراميه، بابٌ يُفتح بمعرفةِ تفسيره، والتمعُّن في بديع معانيه.

قال سبحانه: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

قال الزركشيُّ رحمه الله: (ومَن لم يكُنْ له عِلمٌ وفَهمٌ وتقوى وتدبُّرٌ لم يُدرِكْ من لذَّة القرآن شيئًا)(١).

وقال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّة رحمة الله: (ومِن المعلوم أنَّ كلَّ كلامٍ فالمقصودُ منه فَهمُ معانيه، دون مجرَّد ألفاظه، فالقرآنُ أَوْلى بذلك، وأيضًا فالعادة تمنع أن يَقرأَ قومٌ كتابًا في فنٍّ من العِلمِ كالطبِّ والحساب، ولا يستشرحوه؛ فكيف بكلامِ الله الذي هو عِصمتُهم، وبه نجاتهم وسعادتهم، وقيامُ دِينِهم ودُنياهم؟!)(٢).

وقال العلَّامةُ ابنُ القيِّم رحمه الله: (وبالجملةِ فلا شيءَ أنفعُ للقلب من قِراءة القرآنِ بالتدبُّر والتفكُّر؛ فإنَّه جامعٌ لجميع منازلِ السَّائرين، وأحوالِ العامِلين، ومقامات العارفين، وهو الذي يُورِثُ المحبَّةَ والشوقَ، والخوف والرجاء، والإنابة والتوكُّل، والرِّضا والتَّفويض، والشُّكر والصَّبر، وسائر الأحوال التي بها حياةُ القلبِ وكمالِه، وكذلك يَزْجُر عن جميعِ الصِّفاتِ والأفعال المذمومة، والتي بها فسادُ القلب وهلاكه، فلو علِم النَّاسُ ما في قراءةِ القرآنِ بالتدبُّر لاشْتَغلوا بها عن كلِّ ما سواها، فإذا قرأه بتفكُّر حتى مرَّ بآيةٍ وهو محتاجٌ إليها في شفاء قلبه كرَّرها ولو مِئةَ مرَّة ولو ليلةً؛ فقِراءةُ آيةٍ بتفكُّرٍ وتفهُّمٍ خيرٌ من قراءة خَتمةٍ بغير تدبُّرٍ وتفهُّمٍ، وأنفعُ للقلب وأدْعى إلى حُصولِ الإيمان، وذَوْق حلاوة القرآنِ)(٣).

---

(١) يُنظر: ((البرهان)) (٢/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (١٣/ ٣٣٢).

(٣) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) (١/ ١٨٧).

وقال الإمام ابنُ رجب رحمه الله: (ومِن أعظمِ ما يَتقرَّب به العبدُ إلى الله تعالى مِنَ النَّوافل: كثرةُ تلاوةِ القرآن، وسماعُهُ بتفكُّرٍ وتدبُّرٍ وتفهُّمٍ)(١).

وقد كانَ هذا ديدنَ النبيِّ المختارِ عليه الصَّلاة والسَّلام، وأصحابِه الأطهارِ الكِرام.

فعن أبي ذرٍّ رضي الله عنه، قال: ((صلَّى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ليلةً فقرأ بآيةٍ حتى أصبح...: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨](٢).

وعن ابن مَسعودٍ رضي الله عنه، قال: (كان الرَّجل منَّا إذا تعلَّم عَشرَ آياتٍ، لم يُجاوِزْهنَّ حتى يَعرِفَ معانيَهنَّ والعملَ بهنَّ) (٣).

هذا، وإنَّ شرفَ العِلم إنَّما يكونَ على قدْر شرَف المعلوم؛ وعليه فإنَّ أشرفَ العلومِ وأرفعَها قدرًا، وأَوْلاها بالتَّفضيلِ حقًّا وصِدقًا، هو عِلمُ التَّفسير؛ فموضوعُه كلامُ الحكيمِ الخبيرِ.

قال الرَّاغب: (أشرفُ صناعةٍ يَتعاطاها الإنسان، تفسيرُ القرآن)(٤).

لكنَّ الناظرَ إلى كتُب التفسير المنشورة ورقيًّا وإلكترونيًّا نظرةً فاحصة يمكنه إدراكُ مدى الحاجة إلى تَفسيرٍ شاملٍ وواضحٍ ومُحرَّر، يَستفيدُ منه جميعُ الفئات

(١) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) (٣/ ١٠٨٠).

(٢) رواه النَّسائيُّ (١٠١٠)، وابن ماجه (١٣٥٠)، وأحمد (٢١٥٣٣)، والبيهقي في ((السنن الكبرى)) (٤٩٠٥)

جوَّد إسناده أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٧٥٩)، وقال الألباني في ((أصل صفة الصلاة)) (٢/ ٥٣٤): أقلُّ أحواله أنَّه حسنٌ، وهو صحيح قطعًا بشاهده.

(٣) رواه الطبريُّ في ((التفسير)) (١/ ٤٤)، وابن سعد في ((الطبقات الكبرى)) (٦/ ٢١٢)، والطحاويُّ في ((شرح مشكل الآثار)) (١٤٥٠)، والحاكم (٢٠٤٧)، والبيهقي في ((السنن الكبرى)) (٥٢٨٩)

صحَّحه ابنُ جرير الطبري في ((التفسير)) (١/ ٤٤)، وقال الحاكم في ((المستدرك)): صحيح الإسناد، ولم يُخرجاه.

(٤) يُنظر: ((تفسير الراغب الأصفهاني)) (١/ ٣٦).

والمستويات في هذا العَصر، وأنَّ هذا أمرٌ مُلِحٌّ، ومطلبٌ ضروريٌّ، خصوصًا مع عزوف كثيرٍ من أهل العِلم وطلبتِه عن عِلم التَّفسير، فضلًا عن عُمومِ المسلمين!

والاستفادة المباشرة من كتُب التفسير- التي لا غِنَى عنها- يعوقها أمورٌ، منها:

• اللغة التي كُتِبت بها كثيرٌ من التفاسير، وهي لغةٌ عِلميَّةٌ قد لا تُفهم بسُهولةٍ لدَى القارئ غير المتخصِّص.

• ذِكر الأقوالِ دون ترجيحٍ في كثيرٍ من الأحيان؛ ممَّا يستدعي حيرةَ القارئ.

• كثرة الاستطرادات التي قد تُشتِّت القارئ بعيدًا عن الغاية المنشودة من عِلم التفسير.

• طريقةُ العَرْض غالبًا ما تتداخل فيها المعلومات دون فَصلٍ بين غريبِ الكلماتِ، والبلاغةِ والفوائدِ ومعاني الآيات، وغيرِ ذلك من جوانبِ التَّفسيرِ التي يَحتاج كلٌّ منها إلى ذِكرها مستقلةً عن الأخرى؛ فذلك أدْعَى لفَهمها واستيعابها.

لذا فقدْ قامت مؤسَّسةُ **الدُّرر السَّنيَّة**- أداءً لرِسالتها، وتحقيقًا لرؤيتها، المتمثِّلة في نشْر العِلم الشرعيِّ المؤصَّل- بالعملِ على إعداد كتابٍ مُحرَّر في التفسير؛ خِدمةً لكتاب الله تعالى، ولتيسيرِ الاستفادةِ منه على النَّاسِ كافَّةً، على أن يُنشرَ ما يتمُّ الانتهاءُ منه وتحريرُه من التفسيرِ تِباعًا، سواء على الموقع الإلكتروني أو على صفحات الكتُب، وبين أيديكم باكورةُ هذا العملِ (**تفسيرُ سورةِ الفاتحة وسورةِ البقرة**).

وقد قام بإعداد هذا التفسيرِ ثلَّةٌ من طلبةِ العِلم المتميِّزين بالقِسمِ العِلميِّ بمؤسَّسة الدُّرر السَّنيَّة، بإشراف الشَّيخِ عَلَوي بن عبد القادر السَّقَّاف، وقد قرأَ هذا التفسير وراجَعَه ودقَّقه كلٌّ من:

١ -الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت، أستاذ التَّفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام.

٢- الشيخ الدكتور أحمد بن سعد الخطيب، أستاذ التَّفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر بقنا.

مزايا هذا التَّفسير:

ويَتميَّز هذا التفسير بالأمور التالية:

١- الشُّمول والاستيعاب، مع حُسْن التَّرتيب والعرض.

٢- الحِرص على تَسهيلِ المعلومة، حيثُ صِيغت بعباراتٍ عِلميةٍ سهلةٍ، وواضحةٍ، ومختصَرة.

٣- الاهتمام بذِكرِ الأدلَّة، والاقتصار على ما صحَّ منها.

٤- الاعتماد على المصادرِ الأصليَّة المعتمَدة في كلِّ علمٍ من علومِ القرآن وتفسيره.

٥- التَّوثيق للمعلومات والنُّقولات.

٦- تخريج الأحاديثِ والآثارِ الواردة بهذا التَّفسير.

٧- الالتزام بمُعتقَد أهل السُّنَّة والجماعة، ونَبْذ ما يُخالفه.

وضمَّ هذا التَّفسير ما تفرّق في التفاسير من المهمّات، فحوى:

١- أسماء السُّور مع أسبابِ تَسميتِها.

٢- فضائل السُّور وخصائصها.

٣- بيان المكِّي والمدني.

٤- أسباب نُزول السُّور والآيات.

٥- مقاصِد السُّور.

٦- موضوعات السُّور.

٧- غريب الكلمات.

٨- مُشْكِل الإعراب.

٩- المناسبات بين الآيات.

١٠- فضائل الآيات.

١١- النَّاسخ والمنسوخ.

١٢- القِراءات المتواتِرة ذات الأثر في التَّفسير.

١٣- معاني الآياتِ، سواء الإجمالي، أو التفصيلي.

١٤- الآيات والأحاديث المناسِبة لمعاني الآيات.

١٥- الفوائِد التربويَّة.

١٦- الفوائد العلميَّة واللطائف العامة.

١٧- بلاغَة الآيات.

ضوابط العمل في هذا التفسير:

في بيان المَكيِّ والمَدَني:

• الاعتماد على الضَّابط الزَّماني، وهو أنَّ ما نزَلَ قبل الهجرة، فهو مكيٌّ، وما نزَل بعدَها فهو مدنيٌّ.

• ذِكر ما صحَّ من الأدلَّة على كون السورة مكيَّةً أو مدنيَّةً.

في غريب الكلمات:

• الاقتصار على الكلماتِ الغريبةِ فقط التي يُحتاج إلى معرفةِ معناها.

• الاعتناء في التَّعريف بذِكرِ معنى الكلمةِ، وأصلِ اشتقاقها، والرَّبط بينهما - إنْ أمكن.

• الاعتماد في بيانِ الغريبِ على أُمَّاتِ كتُب الغريبِ، مثل: ((غريبِ القرآن)) لابن قتيبة، ((غريب القرآن)) للسجستاني، ((مقاييس اللُّغة)) لابن فارس، ((المفردات)) للراغب، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي، ((التبيان)) لابن الهائم، وغيرها عندَ الحاجة.

في مشكل الإعراب:

• الاقتصار على بيان المشْكِل الذي يخدمُ التفسيرَ ممَّا خفِي إعرابُه، وأَشكل توجيهُه النَّحوي، أو خالَف في الظَّاهِر قواعدَ النُّحاة.

• جمْع المادَّة بالاعتمادِ على الكتُب التالية: ((مُشكل إعرابِ القرآن)) لمكيٍّ، و((التبيان في إعراب القرآن)) للعُكبري، و((الدُّر المصون)) للسمين الحلبي، وغيرها إذا دعَتِ الحاجة.

في المناسبات بين الآيات:

• الاقتصار على ذِكر أهمِّ المناسبات.

• الابتعاد عن المناسباتِ المتكلَّفة.

في القراءات:

• الاكتفاء بالقِراءات المتواترة.

• الاقتصار على ما له أثرٌ في التَّفسير.

• التعامُل مع القِراءات المذكورةِ على أنَّ الاختلافَ الواقع بينها، هو اختلافُ تنوُّع؛ فيُؤخذ بمعانيها في التفسير.

• عزْو القراءات إلى كِتاب: ((النشر)) لابن الجزري، وعزو معانيها إلى الكتُب المعنيَّة بذلك، مثل: ((معاني القِراءات)) للأزهري، ((الحُجة في القراءات السبع)) لابن خَالويه، ((حُجَّة القراءات)) لابن زنجلة، ((الإبانة عن معاني

القِراءات)) لمكي، ((الكشف)) لمكي، ((تفسير أبي حيان))، ((الدُّر المصون)) للسمين الحلبي.

في تفسير الآيات:

• تجزئة السُّورة إلى مقاطعَ تعتمد على الوحدة الموضوعيَّة لمجموعةِ آياتٍ متتالية.

• الاعتماد على ما نقَلَه المفسِّرون من إجماعاتٍ ثابتةٍ وصحيحة.

• الاعتماد في اختيارِ معاني الآيات في الجُملة، على المُبرَّزين في التفسير، وهم: ابن جرير، وابن كثير، وابن تيميَّة، وابن القيِّم، والسعدي، والشِّنقيطي، وابن عثيمين، مع الاستعانة بتفسيرِ الواحدي، وابن عطية، والقُرطبي، وابن رَجَب، وابن عاشور.

• الأصل في اختلافِ التنوُّع قَبولُه، ما لم يُضعِّف أحدُ المفسرين المعتمَدين بعضَ المعاني.

• إذا وُجد خلافُ تَضَادٍّ في معنى الآية، يُذكر المعنى الرَّاجح، مع الإشارةِ إلى الأقوال الأخرى إذا كانتْ قويَّةً ومحتَملَة.

• النَّظر في كلِّ ما يَذكُره المفسِّر عن تفسيرِ الآية المعنيَّة؛ لأنَّه قد يَذكُر في موضعٍ ما لا يَذكُره في مواضعَ أخرى، أو تكون عبارتُه أجودَ أو أوضحَ وأكملَ في موطنٍ دون آخر.

• في التَّفسير المجموع من كلامِ بعضِ أهل العِلم، كتفسير ابن تيميَّة، وابن القيِّم، وابن رجب، يكون العزوُ على الأصل، لا على الكِتاب الوسيط.

• الاكتفاء في توثيقِ التَّفسير بذِكر المصادر والمراجع التي أُخذ التَّفسير من مجموعها، دون التَّصريح بِمَن اختار هذا القولَ إلَّا عند وجود إشكالٍ ما في

تفسير الآية، اقتضى ذِكرَ القائلين بالقول المختار أو الأقوال الأخرى المحتَملة.

• ذِكر المراجع باختصار، منسوبةً لأصحابها، مثل: ((تفسير ابن جرير))، ((تفسير ابن كثير))... إلخ، عدا الواحديِّ والشِّنقيطي؛ لأنَّ لديهما أكثرَ من تفسير.

في أقوال السلف:

• ذِكر أقوال السَّلف - الموافقة للتَّفسير المختار - في الحاشية، وذلك في المواضعِ المشْكِلَة، أو التي كثُر فيها الخلاف.

• عزْو أقوال السَّلف لمصادرها الأصليَّة، كتفسير ابن جرير، وابن أبي حاتم، مع الاستعانةِ أحيانًا ببعض الكتُب التي جَمَعت أقوالهم، كـ((زاد المسير)) لابن الجوزي، و((تفسير ابن كثير))، و((الدُّر المنثور)) للسيوطي.

في الفوائد التربويَّة:

• أنْ تشملَ ما يتعلَّق بتزكيةِ النَّفْس وتهذيبها.

• ربْط كلِّ فائدةٍ بدليلها، مع عَرْضها مرتَّبةً بحسب ترتيبِ الآيات.

في الفوائد العلميَّة واللَّطائف:

• أنْ تشملَ ما عدا الفوائدَ التربويَّة والبلاغيَّة، سواء كانت فوائدَ عقديَّة أو فقهيَّة، أو غيرَ ذلك ممَّا يُستنبَط من الآيات.

• الاقتصار على غُرَر الفوائدِ والنُّكَت البديعة، دون الواضِحِ أو البدهيِّ من ذلك.

• ربْط كلِّ فائدةٍ بدليلها، مع عَرْضها مرتَّبةً بحسبِ ترتيب الآيات.

• الاعتماد في استخراجِ الفوائد التربويَّة، والفوائد العلميَّة واللَّطائف العامَّة، وكذا المناسبات، على التفاسير التالية:

((تفسير الرَّازي))، و((تفسير أبي حيَّان))، و((نَظْم الدُّرر)) للبقاعي، و((تفسير الشربيني))، و((تفسير السعدي))، و((تفسير المنار))، و((تفسير ابن عاشور))، و((الظِّلال)) لسيد قطب، و((تفسير ابن عثيمين)) وغيرها عند الحاجة.

في بلاغة الآيات:

- الحِرص على إبرازِ جمالِ ألفاظ القرآنِ وتركيب جُمَله ومدلولاتها.
- الاهتمام بتعريفِ المصطلحاتِ البلاغيَّة.
- تجنُّب الأوجهِ البلاغيَّة المخالفة للاعتقاد الصَّحيح؛ اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة.
- الاعتماد في جَمْع الأوجه البلاغيَّة على الكتب التالية:

((تفسير الزمخشري))، ((تفسير البيضاوي))، ((تفسير أبي حيَّان))، ((تفسير أبي السعود))، ((تفسير ابن عاشور))، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل. بالإضافةِ إلى كتابيْن مُساعديْن، هما: ((البرهان)) للزركشي، و((الإتقان)) للسيوطي.

- وممَّا اعتُمِدَ عليه في تَعريفِ المصطلحات البلاغيَّة:

((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني، و((مفتاح العلوم)) للسَّكَّاكي، و((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي، و((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة، و((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب، وغيرها.

هذا، والعملُ جارٍ على تفسيرِ بقيَّة القُرآنِ الكريمِ بهذا النَّهجِ المذكور، حتَّى بلوغ آخِر سورة منه إنْ شاء الله تعالى.

وقدِ اكتفَيْنا في نهاية كلِّ مجلَّد بِفهرسٍ مختصَرٍ لمواضِع المقاطعِ المفسَّرة من الآيات، على أنْ تُذكَرَ الفهارسُ التَّفصيليَّة في آخِر سلسلة التَّفسير- إنْ شاء اللهُ تعالى.

فدُونَكَ- أيُّها القارئ الكريم- هذا الكِتاب، الذي انْتظَمَ فيه ما تناثَرَ من دُررٍ في بطون التَّفاسير، وحوى ممَّا تفرَّق من نفائسِ العلم الشيءَ الكثير، حتى غَدَتْ قريبةَ المنَال، ظاهرةً في غاية الوضوح والتَّيسير.

وختامًا:

نسأل اللهَ العليَّ القديرَ أن يَتقبَّل منَّا جُهدَنا وسَعيَنا، وأنْ يَجعلَ القرآنَ قائدَنا وهادِيَنا، وحُجَّةً لنا لا عَلينا، وأن يَرزُقَنا تلاوتَه وتدبرُّه في جميعِ الأوقات، وأنْ يُكفِّر به عنَّا السَّيِّئات، ويَرفعنا به دَرجاتٍ عاليات.

والحمدُ لله الَّذي بنِعمته تتمُّ الصَّالحات،،

الاستعاذة

الاستعاذةُ مشروعةٌ قَبلَ تلاوة القرآنِ[١]؛ قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾[٢] [النحل: ٩٨].

وقد أجمَع العلماءُ على أنَّ التعوُّذ ليس من القُرآن ولا آية منه، وهو قولُ القارئ: (أعوذُ باللهِ مِن الشَّيطانِ الرَّجيم). وهذا اللفظ هو الذي عليه الجمهورُ من العلماء في التعوُّذ[٣].

ومعناها: أستجيرُ وألتجئ[٤]، بالمعبود الحقِّ سبحانه وتعالى[٥]، مَن كل جانٍّ

---

(١) وجمهورُ العلماءِ على أنَّه مستحبَّةٌ، وحَكَى الإجماعَ على ذلك ابنُ جَرير وغيُره. ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١١٣) (٤/ ٦٠٢).

(٢) قال ابن جرير: (يقولُ تَعالى ذِكرُه لنبيِّه محمَّد صلىَّ الله عليه وسلَّمَ: وإذا كنتَ يا محمَّد، قارئًا القرآن، فاستعذْ بالله من الشيطان الرجيم) ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٥٧).

وقال ابنُ تيميَّة: (الشيطان يُريد بوساوسه أن يَشغل القلبَ عن الانتفاع بالقرآن؛ فأمَر الله القارئَ إذا قرأ القرآن أن يستعيذَ منه؛ قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٨، ٩٩]... فإذا عاذ العبدُ بربِّه كان مستجيرًا به، متوكِّلًا عليه، فيُعيذه اللهُ من الشيطان، ويُجيره منه) ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٢٨٣).

وقال ابنُ كثير: (المشهورُ الذي عليه الجمهور أنَّ الاستعاذة لدفْع الوسواس فيها إنَّما تكون قبلَ التلاوة، ومعنى الآية عندهم: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾، أي: إذا أردتَ القراءة) ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١/ ٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١١٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٢١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٤٤)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (١٤/ ١٢)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٩).

قال ابنُ جَرير: (الله، أصله: الإله؛ أُسقطت الهمزة، التي هي فاء الاسم، فالْتقتِ اللامُ التي هي عينُ الاسم، واللامُ الزَّائدة التي دخلت مع الألِف الزائدة، وهي ساكنةٌ - فأُدغمت في الأخرى =

متمرِّدٍ[1]، مطرودٍ عن كلِّ خيرٍ[2].

ومِن فوائدِ الاستِعاذةِ ولطائفها:

الالتجاءُ إلى قادرٍ يدفع الآفاتِ عن العبد، لا سيَّما دفْع وساوسِ الشيطان الذي يسعى بشِدَّة إلى صدِّ العبد عن قِراءة القرآن وتدبُّره؛ لأنَّه من أعظم الطاعات، ولأنه لمَّا كان سعيُ الشيطان في الصدِّ عن ذلك أبلغَ، كان احتياجُ العبد إلى مَن يصونه عن شرِّ الشيطان أشدَّ[3]. ففي الاستعاذة استعانةٌ بالله تعالى، واعترافٌ له

= التي هي عينُ الاسم، فصارتَا في اللفظ لامًا واحدةً مشدَّدة) ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٢٤).
وقال الواحديُّ: (الأكثرون ذهبوا إلى أنَّه مشتقٌّ من قولهم: «أَلَهَ إلاهةً». أي: عبَد عبادةً... ومعناه: المستحقُّ للعبادة، وذو العبادة: الذي إليه تُوجَّهُ العبادةُ وبها يُقْصَدُ) ((التفسير الوسيط)) (١/ ٦٤).

(١) قال ابنُ جرير: (الشيطانُ في كلام العرب: كلُّ متمرِّد من الجنِّ والإنس والدوابِّ، وكلِّ شيء، وكذلك قال ربُّنا جلَّ ثناؤه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢]، فجعل من الإنس شياطينَ، مثل الذي جعل من الجِنِّ... وإنما سُمِّي المتمرِّد من كل شيء شيطانًا؛ لمفارقة أخلاقه وأفعاله أخلاقَ سائرِ جِنسه وأفعاله، وبُعدِه عن الخير) ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٠٩).
وقال ابن كثير: (الشَّيطان في لُغة العرب مشتقٌّ من شطَن إذا بَعُد؛ فهو بعيدٌ بطبعه عن طِباع البشر، وبعيدٌ بفسقه عن كلِّ خير، وقيل: مشتق مِن شاط؛ لأنَّه مخلوق من نار، ومنهم مَن يقول: كلاهما صحيح في المعنى، ولكن الأوَّل أصح، وعليه يدلُّ كلام العرب) ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١١٥).

(٢) قال ابنُ جرير: (أمَّا الرجيم فهو فعيل، بمعنى مفعول... وتأويل الرجيم: الملعون، المشتوم. وكل مشتوم بقولٍ رديء أو سبٍّ، فهو مرجومٌ، وأصل الرجم: الرَّمي بقولٍ كان أو بفِعل، ومن الرَّجمِ بالقول: قولُ أبي إبراهيم لإبراهيم صلوات الله عليه: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ [مريم: ٤٦]. وقد يجوز أن يكون قِيل للشيطان: رجيم؛ لأنَّ الله جلَّ ثناؤه طردَه من سمواته، ورجَمه بالشُّهب الثواقب) ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١١٠).
وقال ابنُ كثير: (الرجيم: فعيل بمعنى مفعول، أي: إنَّه مرجومٌ مطرود عن الخير كله، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥]... وقيل: رجيمٌ بمعنى راجِم؛ لأنَّه يَرجُم الناس بالوساوس والربائث، والأوَّل أشهر) ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١/ ٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٩).

بالقُدرة، وللعبدِ بالضَّعفِ والعجزِ عن مقاومة هذا العدوِّ المبين الباطني، الذي لا يَقدِر على منعِه ودفعِه إلَّا الله الذي خَلَقه، ولا يَقبل مصانعةً، ولا يُدارَى بالإحسان، بخلاف العدوِّ الإنساني(١).

ومنها: أنَّها طهارةٌ للفم ممَّا كان يتعاطاه العبدُ من اللَّغو والرَّفَث، وتطييبٌ له، وتهيُّؤٌ لتلاوة كلام الله عزَّ وجلَّ(٢).

ومنها: أنَّ الملائكة تَدنو من قارئِ القرآنِ وتَستمِعُ لقراءته. والشيطانُ ضد المَلَك وعدوُّه؛ فأُمِر القارئ أن يَطلبَ من الله تعالى مباعدةَ عدوِّه عنه؛ حتى يحضرَه خاصَّتُه وملائكتُه، فهذه وليمةٌ لا يَجتمع فيها الملائكةُ والشياطين(٣).

ومنها: أنَّ الاستعاذةَ قَبلَ القِراءة عنوانٌ وإعلام بأنَّ المأتيَّ به بعدها القرآن؛ ولهذا لم تُشرع الاستعاذةُ بين يَدي كلامٍ غيره، بل الاستعاذة مُقدِّمة وتنبيهٌ للسامع أنَّ الذي يأتي بعدها هو التلاوة، فإذا سمع السامعُ الاستعاذة، استعدَّ لاستماع كلام الله تعالى، وشُرِع ذلك للقارئ، وإنْ كان وحده(٤).

ومنها: أنَّ الشيطان يُجلِب على القارئِ بخيلِه ورَجْلِه؛ حتى يَشغلَه عن المقصود بالقرآن، وهو تدبُّره وتفُّهمه، ومعرفة ما أراد به المتكلِّم به سبحانه؛ فيَحرِص بجهدِه على أن يَحولَ بين قلبه وبين مقصود القُرآن؛ فلا يَكمُل انتفاعُ القارئ به، فأُمِر عند الشروع أن يستعيذَ بالله عزَّ وجلَّ منه(٥).

ومنها: أنَّ الشيطان أحرصُ ما يكون على الإنسان عندما يهمُّ بالخير، أو يَدخُل

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١١٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٩٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٩٤).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٩٣).

فيه؛ فهو يشتدُّ عليه حينئذ؛ ليقطعَه عنه. وكلَّما كان الفعل أنفعَ للعبد وأحبَّ إلى الله تعالى، كان اعتراضُ الشيطان له أكثرَ؛ فالشيطان بالرَّصْد للإنسان على طريق كلِّ خير، ولاسيَّما عند قِراءة القرآن، فأمَر سبحانه العبدَ أن يُحارِبَ عدوَّه الذى يَقطع عليه الطريق، ويَستعيذَ بالله تعالى منه أولًا، ثم يأخذ فى السَّير، كما أنَّ المسافر إذا عرَض له قاطعُ طريق اشتغل بدفْعه، ثم اندفَع فى سَيره[1].

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٩٣، ٩٤).

تَفسيرُ البَسْملةِ

البَسمَلةُ هي قولُ: بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

ومعناها: باسمِ اللهِ وحْدَه أقرأُ أو أتْلو، مُتبرِّكًا(١) بالبَداءةِ باسمِ المعبودِ الحقِّ تبارك وتعالى(٢)، ذي الرَّحمةِ الواسعةِ لجميعِ خَلْقه، وذي الرَّحمة الخاصَّة بعِباده المؤمنين(٣). وقيل: الرَّحمن اسمٌ دلَّ على اتِّصافه بالرَّحمة سبحانه، والرَّحيم اسمٌ دلَّ على وقوعِ الفِعل منه، وهو إيصالُ رَحْمتِه إلى خَلْقِه(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٢١).
قال ابنُ عُثيمين: (الجار والمجرور متعلِّق بمحذوف؛ وهذا المحذوف يُقدَّر فعلًا متأخرًا مناسبًا؛ فإذا قلتَ: «باسم الله» وأنت تريد أن تأكل؛ تُقدِّر الفعل: «باسم الله آكُل». قلنا: إنه يجب أن يكون متعلِّقًا بمحذوف؛ لأنَّ الجار والمجرور معمولان؛ ولا بدَّ لكل معمولٍ من عامل. وقدَّرناه متأخرًا؛ لفائدتين: الفائدة الأولى: التبرُّك بتقديم اسم الله عزَّ وجلَّ. والفائدة الثانية: الحصر؛ لأنَّ تأخير العامل يُفيد الحصر، كأنَّك تقول: لا آكُل باسم أحد متبركًا به، ومستعينًا به، إلا باسم الله عزَّ وجلَّ. وقدَّرناه فعلًا؛ لأنَّ الأصل في العملِ الأفعال. وهذه يَعرِفُها أهلُ النحو؛ ولهذا لا تَعمل الأسماء إلَّا بشروط. وقدَّرناه مناسبًا؛ لأنَّه أدلُّ على المقصود؛ ولهذا قال الرسولُ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((مَن لم يَذبحْ فلْيَذبحْ باسمِ الله)). أو قال صلَّى الله عليه وسلَّمَ «على اسمِ الله»، فخصَّ الفعل) ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٤).
(٢) يُنظر ما تَقدَّم في الاستعاذة.
(٣) الرَّحمن الرَّحيم: اسمان مشتقَّان من الرَّحمة على وجهِ المبالغةِ، ورحمن أشدُّ مبالغةً من رحيم. يُنظر: ((تفسير الراغب الأصفهاني)) (١/ ٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٢٤، ١٢٦).
ويُنظر لمعنى هذين الاسمين الكريمين: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٢٧-١٢٨)، ((تفسير الراغب الأصفهاني)) (١/ ٥١). ((تفسير القرطبي)) (١/ ١٥٠))، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٢/ ٢٣٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٥)، ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٥).
(٤) قال ابن القيِّم: (الرحمن دالٌّ على الصِّفة القائمةِ به سبحانه، والرَّحيم دالٌّ على تعلُّقها بالمرحوم؛ فكان الأوَّل للوصفِ والثاني للفِعل؛ فالأول دالٌّ أنَّ الرحمة صفتُه، والثاني دالٌّ على أنَّه يَرحم خَلْقَه برحمته، وإذا أردتَ فَهم هذا فتأمَّل قوله: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، =

مِن فوائدِ البَسملةِ ولَطائفِها:

١- لحَذْفِ العامِلِ- أقرأُ أو قِراءتي، على حسَب التقدير- في (بسمِ الله) فوائدُ عديدةٌ:

منها: أنَّه موطنٌ لا يَنبغي أن يتقدَّم فيه سوى ذِكر الله تعالى؛ فلو ذُكر الفعل- وهو لا يستغني عن فاعله- كان ذلك مناقضًا للمقصود؛ فكان في حَذْفِه مشاكلةُ اللفظ للمعنى؛ ليكون المبدوءُ به اسمَ الله، كما نقول في الصلاة: الله أكبر، ومعناه: مِن كلِّ شيء، ولكن لا نقول هذا المقدَّر، وليكون اللفظ مطابقًا لمقصود الجَنان، وهو أنْ لا يكونَ في القلب إلَّا الله وحده، فكما تجرَّدَ ذِكرُه في قلب المصلِّي، تجرَّد ذِكرُه في لسانه(١).

ومنها: أنَّ الحذفَ أبلغُ؛ لأنَّ المتكلِّم بهذه الكلمة كأنه يدَّعي الاستغناءَ بالمشاهدة عن النُّطق بالفعل، فكأنه لا حاجةَ إلى النُّطق به؛ لأنَّ المشاهدَةَ والحال دالَّةٌ على أنَّ هذا وكلَّ فِعل فإنَّما هو باسمه تبارك وتعالى، والحوالة على شاهدِ الحالِ أبلغُ من الحوالة على شاهد النُّطق(٢).

٢- **ومن فوائد البَسملةِ:** أنَّ البَدءَ باسمِ الله تعالى من الأَدبِ الذي أَوْحاه الله عزَّ وجلَّ لنبيِّه محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم في أوَّل ما نزَلَ من القرآن باتِّفاق، وهو قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١](٣).

= ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧]، ولم يجِئ قطُّ (رحمن بهم)؛ فعُلم أنَّ الرحمن هو الموصوفُ بالرحمة، ورحيم هو الراحِمُ برحمته) ((بدائع الفوائد)) (١/ ٢٤).

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٢١).

٣- ومنها: أنَّ فيها التبرُّكَ بتقديم اسمِ اللهِ عزَّ وجلَّ[١]، وحصُرْ الاستعانةِ به تبارك وتعالى[٢].

٤- وفي ذِكر صِفة الألوهيَّة- التي تُشير إلى القَهرِ والقُدرة- مرَّةً بذِكر اسم «الله»، ثم ذِكْر صِفة الرَّحمة مرَّتين، بذِكر اسمَي «الرحمن» و«الرحيم» عقبَ اسم الله تعالى؛ دلالةٌ على أنَّ رحمتَه أكثرُ من قَهره، وأنَّ رحمتَه تغلب غضبَه[٣] سبحانه[٤].

٥- ومن **اللَّطائف**: أنَّ ألف (اسم) حُذفت من قوله: (بسم الله)، وأُثبت في قوله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١]؛ قيل: لسببين:

الأوَّل: أنَّ كلمة (باسم الله) مذكورةٌ في أكثر الأوقات عند أكثرِ الأفعال؛ فلأجْل التخفيف حذَفوا الألف، بخِلاف سائرِ المواضِع، فإنَّ ذِكرَها قليل.

والثَّاني: ما ذكَره الخليلُ، حيث قال: إنَّما حُذفت الألف في قوله: (بسم الله)؛ لأنَّها إنما دخلتْ بسبب أنَّ الابتداء بالسِّين الساكنة غيرُ ممكن، فلمَّا دخلت الباء على (الاسم) نابتْ عن الألف، فسقطت في الخطِّ، وإنما لم تسقطْ في قوله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١]؛ لأنَّ الباء لا تنوبُ عن الألِف في هذا الموضِع كما في (بسم الله)؛ لأنَّه يُمكن حذفُ الباء من ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ مع بقاء المعنى صحيحًا؛ فإنَّك لو قلتَ: اقرأ اسمَ ربِّك، صحَّ المعنى، أمَّا لو حذفت الباء من (بسم الله) لم يصحَّ المعنى، فظهر الفَرقُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين – الفاتحة والبقرة)) (١/ ٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١/ ١١٩)، ((تفسير ابن عثيمين – الفاتحة والبقرة)) (١/ ٤).

(٣) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: ((إنَّ رحْمَتي غلبَتْ غضبي)) رواه البخاري (٣١٩٤) ومسلم (٢٧٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١/ ١٥٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٠٣).

هلِ البَسملةُ آيةٌ مِن سورةِ الفاتحةِ؟

ليستِ البسملةُ بآيةٍ من الفاتحة، وهذا مذهبُ جمهورِ العلماءِ من الحنفيَّة(١)، والمالكيَّة(٢)، والحنابلة(٣)، وهو قولُ أهلِ المدينةِ من القُرَّاءِ والفقهاءِ(٤)، وذهَب إلى هذا جمْعٌ من المفسِّرين، منهم: ابنُ جَرير(٥)، وابنُ العربيِّ(٦)، وابنُ عطيَّة(٧)، والقُرطبيُّ(٨)، وابنُ تَيميَّة(٩).

لحديث أبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((مَن صلَّى صلاةً لم يقرأْ فيها بأمِّ القرآن فهي خِداجٌ(١٠)، ثلاثًا، غير تمام. فقيل لأبي هُرَيرة: إنَّا نكونُ وراءَ الإمام؟ فقال: اقرأْ بها في نَفْسِك؛ فإنِّي سمعتُ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم يقولُ: قال اللهُ تعالى: قسَمْتُ الصَّلاةَ بيني وبين عَبدي نِصفينِ، ولعبدي ما

---

(١) يُنظر: ((تبيين الحقائق)) للزيلعي (١/ ١١٢)، ((مجمع الأنهر)) لشيخي زاده (١/ ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((مواهب الجليل)) للحطاب (٢/ ٢٥١)، ((شرح مختصر خليل)) للخرشي (١/ ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((الإنصاف)) للمرداوي (٢/ ٣٦)، ((كشاف القناع)) للبهوتي (١/ ٣٣٥).

(٤) قال ابنُ كثير: (وإنما اختلفوا في البَسملة: هل هي آية مستقلَّة من أوَّلها - كما هو عند جمهور قُرَّاء الكوفة، وقول الجماعة من الصحابة والتابعين، وخَلْق من الخلف - أو بعض آية، أو لا تُعدُّ من أوَّلها بالكليَّة - كما هو قول أهلِ المدينة من القرَّاء والفقهاء) ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٠١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٤٩).

(٦) يُنظر: ((أحكام القرآن)) (٤/ ٤٥٧).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٦٠ -٦١)، وقال: (وجمهورُ الفقهاء والقُرَّاء لا يَعدُّونَ البسملةَ آيةً) ((تفسيره)) (١/ ٦١).

(٨) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١/ ٩٤).

(٩) قال ابنُ تَيميَّة: (الأحاديثُ الصَّحيحة تدلُّ على أنها آيةٌ من كتاب الله، وليستْ من الفاتحة، ولا غيرها) ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٢/ ١٢٢).

(١٠) الخِداج: النُّقصان؛ يُقال: خَدجَتِ الناقة إذا ألقَتْ ولدَها قبلَ أوانه وإن كان تامَّ الخلق، وأخدجَتْه إذا ولدتْه ناقصَ الخَلق وإنْ كان لتمامِ الحمل. وقوله: ((فهي خِداج))، أي: فهي ذاتُ نُقصانٍ، أو فهي نُقْصانٌ؛ فيكون قد وصفَها بالمصدر نفْسه مبالغةً. ((الصحاح)) للجوهري (١/ ٣٠٧ - ٣٠٨)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ١٢ - ١٣).

سأَل، فإذا قال العبدُ: ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قال اللهُ: حمِدَني عَبْدي، فإذا قال: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، قال اللهُ: أثنى عليَّ عبدي، فإذا قال: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، قال: مجَّدَني عبدي، فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأَل، فإذا قال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، قال: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأَل))[1].

فلو كانتِ البسملةُ آيةً من سورة الفاتحةِ لَوردتْ في هذِه الرِّوايةِ مَعدودةً ضِمنَ آياتِها، وَلَمَا تحقَّق حينئذٍ التَّنصيفُ بَينَ ما للهِ تعالى، وما للعبدِ؛ فهي سبعُ آيات إجماعًا[2].

وقيل: إنَّها آيةٌ من الفاتحة مِن وجهٍ دون وجهٍ، أي: إنَّ الخِلافَ فيها راجعٌ إلى اختلافِ القُرَّاء، فمنهم مَن يُثبتها، ومنهم مَن لم يُثبتها[3].

---

(١) رواه مسلم (٣٩٥).

(٢) يُنظر: ((كشاف القناع)) للبهوتي (١/ ٣٣٥).

(٣) قال ابنُ تَيميَّة: (وقد كان كثيرٌ من السَّلف يقول: البَسملةُ آيةٌ منها، وكثيرٌ من السَّلف لا يَجعلُها منها، ويَجعل الآيةَ السَّابعة: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، كما دلَّ على ذلِك حديثُ أبي هُرَيرَةَ الصَّحيح، وكِلا القولين حقٌّ؛ فهي منها مِن وجهٍ، وليستْ منها من وجهٍ، والفاتحةُ سَبْعُ آياتٍ). ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٢٢/ ٣٥١).

وقال الشِّنقيطيُّ: (ومِن أحسن ما قِيل في ذلك: الجمعُ بين الأقوال، بأنَّ البَسملةَ في بعضِ القِراءات - كقِراءةِ ابن كثيرٍ - آيةٌ من القُرآن، وفي بعضِ القِراءاتِ ليستْ آيةً) ((المذكرة)) (١/ ٦٦).

تَفْسِيرُ
سُورَةِ الفَاتِحَةِ

سورة الفاتحة

أسماء السورة:

ثبتَت لسورة الفاتحة عدَّةُ أسماء، وهي:

١- فاتحة الكِتاب(١).

٢- أمُّ القرآن(٢).

٣- أُمُّ الكِتاب(٣).

٤- السَّبْع المَثاني(٤).

٥- القُرآن العظيم(٥).

٦- سورة الحَمْد(٦).

---

(١) قال ابنُ جرير: (سُمِّيت فاتحةَ الكتاب؛ لأنَّها يُفتتَح بكتابتها المصاحف، ويُقرأ بها في الصلوات؛ فهي فواتح لِمَا يتلوها من سُور القرآن في الكتابة والقِراءة) ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٠٥).

(٢) قال ابن جرير: (سمِّيت أمَّ القرآن؛ لتقدُّمها على سائر سُور القرآن غيرها، وتأخُّر ما سواها خلفها، في القراءة والكتابة، وذلك من معناها شبيهٌ بمعنى فاتحة الكتاب، وإنَّما قيل لها لكونها كذلك أمَّ القرآن؛ لتسمية العربِ كلَّ جامع أمرًا، أو مُقدَّمًا لأمر، إذا كانت له توابعُ تتبعه، هو لها إمام جامعٌ أُمًّا، فتقول للجلدة التي تجمع الدماغ: أمُّ الرأس) ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٠٥).

(٣) قال البخاريُّ: (سُمِّيت أمَّ الكتاب؛ لأنَّه يبدأ بكِتابتها في المصاحِف، ويُبدأ بقراءتها في الصَّلاة)) ((صحيح البخاري -كتاب التفسير. باب ما جاء في فاتحة الكتاب)) قبل حديث (٤٧٤٤)، ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٠٥).

(٤) قال ابنُ جرير: (أمَّا تأويل اسمها أنَّها السَّبع؛ فإنَّها سَبعُ آيات، لا خِلاف بين الجميع من القرَّاء والعلماء في ذلك... وأمَّا وصْف النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم آياتِها السَّبعَ بأنهنَّ مثانٍ؛ فلأنَّها تُثنَّى قراءتها في كلِّ صلاة تطوُّع ومكتوبة، وكذلك كان الحسنُ البصري يتأوَّل ذلك). ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٠٦-١٠٧).

ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ١٣٥).

(٥) قال القرطبيُّ: (سُمِّيت بذلك؛ لتضمُّنها جميعَ علوم القرآن؛ وذلك أنها تشتمل على الثَّناء على الله عزَّ وجلَّ بأوصاف كماله وجلاله، وعلى الأمر بالعبادات والإخلاصِ فيها، والاعترافِ بالعجز عن القِيام بشيءٍ منها إلَّا بإعانته تعالى، وعلى الابتهالِ إليه في الهدايةِ إلى الصِّراط المستقيم، وكفايةِ أحوال الناكثين، وعلى بَيانِ عاقبة الجاحِدين). ((تفسير القرطبي)) (١/ ١١٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٠١). وسُمِّيت بذلك؛ لكونها مُفتتَحةً بالحَمْد. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١/ ١١١).

الأدلَّة:

١- عن عُبادةَ بن الصَّامتِ رضي الله عنه، أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((لا صلاةَ لِمَن لم يقرأْ بفاتحةِ الكِتاب))[1].

٢- عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: ((كان النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم يُخَفِّفُ الرَّكعتَينِ اللَّتَينِ قبلَ صلاةِ الصُّبحِ، حتى إني لأقولُ: هل قرَأ بأمِّ الكتابِ؟!))[2].

٣- عن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((أمُّ القُرآنِ هي السَّبْع المثاني، والقرآنُ العَظيم))[3].

٤- عن أبي سَعيدِ بن المعلَّى رضي الله عنه، قال: ((مرَّ بي النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم وأنا أُصلِّي، فدَعاني فلم آتِهِ حتى صلَّيتُ، ثم أتيتُ فقال: ما منَعك أن تأتيَ؟ فقلتُ: كنتُ أُصلِّي، فقال: ألم يقُلِ اللهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾؟! ثم قال: ألَا أُعَلِّمُك أعظمَ سورةٍ في القرآنِ قبلَ أن أخرُجَ منَ المسجدِ؟ فذهَب النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم ليخرُجَ منَ المسجدِ فذَكَّرتُه، فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هي السَّبعُ المَثاني، والقرآنُ العظيمُ الذي أوتيتُه))[4].

فضائلُ السُّورة وخصائصُها:

لسورةِ الفاتحة فضائلُ كثيرة، وخصائصُ عظيمة، ورَدَت في السُّنَّة النبويَّة؛ منها:

١- أنَّها نور، ولم يُؤْتَها نبيٌّ قبل محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم

عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، قال: ((بينما جبريلُ قاعدٌ عند النبيِّ صلَّى الله

(١) رواه البخاريُّ (٧٥٦)، ومسلِم (٣٩٤).
(٢) رواه البخاريُّ (١١٦٥).
(٣) رواه البخاريُّ (٤٧٠٤).
(٤) رواه البخاريُّ (٤٧٠٣).

عليه وسلَّم، سمِع نقيضًا من فوقه؛ فرفَع رأسَه، فقال: هذا بابٌ من السَّماء فُتِح اليوم، لم يُفتح قطُّ إلَّا اليوم، فنزل منه مَلَك، فقال: هذا ملَكٌ نزل إلى الأرض، لم ينزلْ قطُّ إلَّا اليوم، فسلَّم، وقال: أبشِرْ بنورَينِ أوتيتَهما، لم يُؤتَهما نبيٌّ قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تَقرأ بحرفٍ منهما إلَّا أُعطيتَه))(١).

٢- أنَّه بقِراءتها تحصُل المناجاةُ في الصَّلاة بين العَبدِ وربِّه

عن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((مَن صلَّى صلاةً لم يقرأْ فيها بأُمِّ القرآن، فهي خداجٌ -ثلاثًا- غير تمام، فقيل لأبي هُرَيرَة: إنَّا نكونُ وراءَ الإمام، فقال: اقرأْ بها في نفسِك؛ فإنِّي سمعتُ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم يقول: قال الله تعالى: قسمتُ الصلاة بَيني وبَين عبدي نِصفين، ولعَبدي ما سأل، فإذا قال العبدُ: الحمدُ لله ربِّ العالَمين، قال الله تعالى: حَمَدني عَبدي، وإذا قال: الرَّحمن الرَّحيم، قال الله تعالى: أثْنَى عليَّ عبدي، وإذا قال: مالِك يومِ الدِّين، قال: مَجَّدني عبدي، (وقال مرَّة: فوَّض إليَّ عبدي)، فإذا قال: إيَّاك نعبُدُ وإيَّاك نستعين، قال: هذا بَيني وبَين عبدي، ولعَبدي ما سأل، فإذا قال: اهدِنا الصِّراطَ المستقيمَ صِراطَ الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالِّين، قال: هذا لعَبدي، ولعبدي ما سألَ))(٢) .

٣- أنَّه لا صَلاةَ لِمَن لم يقرأْ بها

عن عُبادةَ بنِ الصامتِ رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((لا صَلاةَ لِمَن لم يقرأْ بفاتحةِ الكِتابِ))(٣).

---

(١) رواه مسلم (٨٠٦).

(٢) رواه مسلم (٣٩٥).

(٣) رواه البخاريُّ (٧٥٦)، ومسلم (٣٩٤).

٤- أنها رقيةٌ شافيةٌ بإذن الله تعالى

عن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رضي الله عنه، قال: ((انطلَق نفرٌ من أصحابِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم في سَفرةٍ سافروها، حتى نزَلوا على حيٍّ من أحياء العرب، فاستضافوهم فأَبَوْا أن يُضيِّفوهم، فلُدِغ سيِّد ذلك الحيِّ، فسَعَوا له بكلِّ شيءٍ، لا ينفعه شيءٌ، فقال بعضُهم: لو أتيتم هؤلاءِ الرهطَ الذين نزلوا؛ لعلَّه أن يكون عند بعضهم شيءٌ، فأتَوْهم، فقالوا: يا أيُّها الرهط، إنَّ سيِّدنا لُدِغ، وسَعَينا له بكلِّ شيءٍ، لا ينفعُه؛ فهل عند أحدٍ منكم من شيءٍ؟ فقال بعضهم: نعَمْ، واللهِ إني لأرقي، ولكن واللهِ لقدِ استضفناكم فلم تُضيِّفونا! فما أنا براقٍ لكم حتى تجعلوا لنا جُعلًا، فصالَحوهم على قَطيعٍ من الغَنم، فانطلق يتْفُل عليه، ويقرأ: ﴿الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ﴾، فكأنَّما نشِط من عِقال، فانطلَق يمشي وما به قَلَبَةٌ[١]، قال: فأوْفوهم جُعلَهم الذي صالَحُوهم عليه، فقال بعضُهم: اقسِموا، فقال الذي رقَى: لا تَفعلوا حتى نأتيَ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم فنذكُرَ له الذي كان، فننُظرَ ما يأمُرنا، فقدِموا على رسولِ الله، فذكروا له، فقال: وما يُدريك أنَّها رُقيةٌ؟! ثم قال: قد أصبتُم، اقسِموا، واضرِبوا لي معكم سهمًا، فضحِكَ رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم))[٢].

بيان المكي والمدني:

سورةُ الفاتحة سورةٌ مكيَّة، نزلت قبل الهجرة[٣].

بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧].

وجاء عن أبي سَعيدِ بن المُعلَّى رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((... هي السَّبْعُ المثاني، والقرآنُ العظيم الذي أُوتيتُه))[٤].

---

(١) قَلَبَة: ألَمٌ وعِلَّة. ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ٩٨).

(٢) رواه البخاريُّ (٢٢٧٦).

(٣) وهو قول الجمهور، يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١١١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ١٣٥).

(٤) رواه البخاريُّ (٤٧٠٣).

فهذه الآية التي ورَد فيها ذِكر السَّبع المثاني، مكيَّةٌ بالإجماع، وقد جاء النصُّ من النبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام، بكون السَّبع المثاني هي سورةُ الفاتحة؛ فلزِم من ذلك أن تكون سورةُ الفاتحة مكيَّة(١).

ومن الأدلة على مكِّيتها كذلك، أنَّ الصلاة لا تصحُّ إلا بها، وقد شُرعت الصلاة بمكة، أي قبل الهجرة(٢).

مقاصد السُّورة:

مِن أهمِّ مقاصدِ سورة الفاتحة:

١- التعريف بالمعبودِ تبارَك وتعالى.

٢- بيان طَريقِ العبوديَّة.

٣- بيان أحوال النَّاس مع هذا الطَّريق(٣).

موضوعات السُّورة:

عرَضتِ السُّورةُ لعددٍ من الموضوعات الرئيسة، وهي:

١- صفات الله عزَّ وجلَّ.

٢- اليوم الآخر.

٣- إفراد الله تعالى بالعبادة، ومن ذلك: الاستعانة، والدُّعاء.

٤- التعريف بالصِّراط المستقيم؛ طريقِ المهتدين.

٥- تجنُّب طريق الغاوين من المغضوبِ عليهم والضالِّين.

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١/ ١١٥)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (١٧/ ١٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٠١)، (٤/ ٥٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٦٥).

(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣١).

مناسبة افتتاح القرآن بسورة الفاتحة:

افتَتح الله سبحانه كتابه بهذه السورة؛ لأنَّها جمَعتْ مقاصد القرآن، ولأنَّ فيها إجمالَ ما يحويه القرآن مفصلًا؛ فجميع القرآن تفصيل لِمَا أجملتْه، وفي ذلك براعة استهلال؛ لأنَّها تنزل من سور القرآن منزلَ دِيباجة الخطبة أو الكتاب[1].

(١) يُنظر: ((تناسق الدرر في تناسب السور)) للسيوطي (ص: ٤٩، ٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ١٣٥)، ((البرهان في تناسب سور القرآن)) للغرناطي (ص: ١٨٧).

الآيات (١-٧)

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١) ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ (٢) مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ (٣) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٤) ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ (٥) صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ (٦) غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ (٧)﴾.

المعنى الإجمالي:

يخبر الله تعالى عباده بأنَّ الحمد الكامل مستحقٌّ له وحده، ويرشدهم بما أخبر إلى أن يُثنوا عليه، ويمجِّدوه، ويَحمَدوه بجميع المحامِد التي لا يستحقُّها إلَّا هو، ذو الرَّحمة والمُلك، كما يُرشدهم سبحانَه إلى إفرادِه بالعبادة والاستعانة، وطلبِ الهِداية منه وحْده للطَّريق الواضحة التي لا اعوجاجَ فيها؛ طريق الذين أنعم الله عليهم، لا طريق اليهود المغضوب عليهم، ولا طريق النَّصارى الضالِّين.

غريب الكلمات:

﴿رَبِّ﴾: الرَّب: السيِّد، والمالِك، والمصلِح، والصَّاحب، والمربِّي، والخالِق، والمعبود، وأصله: إصلاح الشيء والقيام عليه[١].

﴿الصِّراط﴾: الطَّريق[٢].

مشكل الإعراب:

١- قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾: (إيَّا) ضمير نصْب منفصل، مبني على السكون في محل نصب، مفعول به مقدَّم لـ(نعبد)، ولو تأخَّر عن عاملِه لاتَّصل به، فقيل:

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٨١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٣٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٦٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٣).

نعبدك، والكاف حرف خطاب لا محلَّ له، وقيل: الكاف هو الضمير، و(إيَّا) جيء بها؛ لتعتمد عليها الكاف[1].

٢- **قوله:** ﴿غَيرِ﴾: مجرورٌ على البَدل مِن (الذين)، أو على النَّعت لهم، باعتبار (الذين) نكرة؛ لأنَّ (غير) في الأصل نكرة وإن أُضيفت إلى معرفة؛ لأنَّها لا تدلُّ على شيء معيَّن. ومَن قرأ (غيرَ) بالنصب؛ فهي إمَّا حال، أو منصوب على إضمار (أعْني)[2].

تفسير الآيات:

﴿الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ (١)﴾.

هذا خبرٌ من الله عزَّ وجلَّ فيه حمدَ نفسه الكريمه، وفي ضمنه إرشادٌ لعبادِه بأن يحمدوه سبحانه وتعالى[3].

﴿الْحَمْدُ لله﴾.

أي: جميعُ المحامد للمعبود تبارك وتعالى، لا يستحقُّها إلَّا هو وحده سبحانه، وهو حمدٌ دائم ومستمر.

والحَمْدُ: هو وصفُ المحمود سبحانه بالكَمال، مع محبَّته، وتعظيمِه جلَّ وعلا[4].

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٦٩)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٧٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١/ ٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٣٩-١٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٢١، ١٢٤، ١٣٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٦٥)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٦٦)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (١٤/ ١٢)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٩).

و(الله): اسمٌ ثابتٌ له سبحانه، يتضمَّن صِفةَ الألوهيَّة له عزَّ وجلَّ[١]. ومعناه: المألوه، أي: المعبود[٢].

﴿رَبِّ العالمين﴾.

أي: هو السيِّد، والمالِك، والمدبِّر لجميع العالَمِين، وهم كلُّ مَن سِوى اللهِ تعالى، مِن جميع أصناف المخلوقاتِ في كلِّ مكانٍ وزمانٍ[٣].

كما قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٣-٢٨].

﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا جاء وصْفُ الله سبحانه نَفْسَه بالرُّبوبيَّة، التي تَعني أنَّه السيِّد، المالك، المعبود الذي له مطلق التصرُّف في عِباده، والتي قد يُفهم منها معنى الجبروت والقهر؛ جاء وصفُه بالرَّحمة بعدها؛ لينبسطَ أملُ العبد في العفو إنْ زلَّ، ويَقْوَى رجاؤه إنْ هفَا[٤].

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٣)، ((تفسير السعدي)) (٥/ ٨٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٢١)، (١/ ١٢٤)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٦٤)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (١٤/ ١٢)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٩).

وممن قال بهذا من السلف: ابن عباس. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٤٢-١٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٣١).

وممن قال من السلف في معنى قوله تعالى ﴿الْعَالَمِينَ﴾ بنحو ما ذُكر: ابن عباس، وسعيد بن جبير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٣٥).

وأيضًا لما وصف الله تعالى نفسه بالربوبية بيَّن أن تربيته تعالى للعالمين ليست لحاجة به إليهم، كجلْب منفعة، أو دفْع مضرة، وإنما هي لعموم رحمته وشمول إحسانه(١).

﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢)﴾.

هما اسمانِ مشتقَّان من الرَّحمة على وجه المبالَغة، ورحمن أشدُّ مبالغةً من رَحيم؛ وذلك لأنَّ (رحمن) على وزن فعلان، وهذه الصيغة تفيد الكثرة والسعة(٢)، فالرَّحْمَن: ذو الرَّحمة الواسِعة لجميع خلقه، والرَّحِيم: ذو رحمةٍ خاصَّة، يختصُّ بها عبادَه المؤمنين(٣).

قال الله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ [العنكبوت: ٢١]، وقال سبحانه: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٣)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لما وصف تعالى نفسه بالرَّحمة، وكان هذا قد يؤدِّي بالعبد إلى غلَبة الرَّجاء عليه؛ نبَّه بصفة الملْك ليوم الدِّين؛ ليكون العبد من عمله على وَجَل، وليعلمَ أنَّ لعمله يومًا تظهر له فيه ثمرته من خيرٍ وشر(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (مادة: رحم)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٢٤، ١٢٦)، ((تفسير ابن عُثيمين – الفاتحة والبقرة)) (١/ ٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٢٧-١٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١/ ١٥٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٥). ((تفسير ابن عثيمين -الفاتحة والبقرة)) (١/ ٥).

وممن قال بهذا من السلف: الضحاك، والعرزمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٢٦)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٤٠).

﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٣)﴾.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: ﴿مَالِكِ﴾ قِراءتان:

١- ﴿مالِك﴾ بالألف مَدًّا، وهو: المتصرِّف بالفِعل في الأشياء المملوكةِ له[1].

٢- ﴿مَلِك﴾ بغير ألف قَصْرًا، وهو: المتصرِّف بالقول أمرًا ونهيًا في مَن هو مَلِكٌ عليهم[2].

﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٣)﴾.

أي: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ هو المتصرِّف في جميع خلْقِه بالقول والفِعل[3].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لله﴾ [الانفطار: ١٧-١٩].

وكما قال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ٤٠].

وقال أيضًا: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لله الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾.

أي: يوم الجَزاء والحِساب[4].

---

(١) قرأ بها: عاصمٌ، والكِسائيُّ، ويَعْقوب، وخَلَف. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (١/ ٢٧١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٣٣-١٣٤).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (١/ ٢٧١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٣٣-١٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الراغب الأصفهاني)) (١/ ٥٦)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٦/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٣٣)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٩١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٥٧-١٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٣٤).

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٤)﴾.

أي: قولوا: إيَّاك نَعبُد وإيَّاك نستعين[١].

والمعنى: لا نعبُد إلَّا أنت، متذلِّلين لكَ وحْدَك لا شريكَ لك، ولا نستعين إلَّا بك وحْدَك لا شريكَ لك[٢].

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٥)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لما ذُكِرَت العبادة والاستعانة بالله تعالى وحده، جاء سؤال الهداية إلى الطريق الواضح؛ فبالهداية إليه تصح العبادة، فمن لم يهتد إلى السبيل الموصلة لمقصوده لا يصحُّ له بلوغ مقصده[٣].

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٥)﴾.

أي: قولوا: اهدِنا الصِّراطَ المستقيم[٤].

والمعنى: دُلَّنا على الطَّريق الواضِح الذي لا اعوجاجَ فيه، ووفِّقنا لسلوكه، وثبِّتنا عليه[٥].

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ (٦)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٣٩-١٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٥٩، ١٦٠، ١٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٣٤-١٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٧٦-١٧٧)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٧/ ٥٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ١٨٩).

(٥) قال ابن جرير: (أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعًا على أن الصراط المستقيم هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه) ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٧٠).

ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٧٠، ١٧١، ١٧٦)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٣٧، ١٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩).

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا كان في الآية السابقة طلبُ الهِداية إلى أشرفِ طَريق، ناسَب ذلك سؤالَ أَحسنِ رفيقٍ[١]، فقال تعالى:

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

أي: طريق الذين أَنعمَ الله تعالى عليهم بالهِداية إلى الصِّراط المستقيم، وهم الذين علِموا الحقَّ وعمِلوا به؛ امتثالًا لِمَا أمَر الله عزَّ وجلَّ، واجتنابًا لِمَا نهى عنه سبحانَه، بإخلاصٍ لله تعالى، ومتابعةٍ للرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم، وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩][٢].

﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)﴾.

﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾.

أي: إنَّ مِن صفات الذين أَنعم الله تعالى عليهم، أنَّهم ليسوا كاليهود، ومَن سلَك طريقتَهم في ترْك العمل بالحقِّ بعد معرفته[٣].

فأخصُّ أوصاف اليهود، الغضبُ، كما قال الله تعالى فيهم: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٧٦-١٨٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٧٤)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (١٠/ ١٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٣٧، ١٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ١٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٦، ١٧).

(٣) قال ابنُ أبي حاتم: (لا أعلمُ بين المفسِّرين في هذا الحرْف اختلافًا) ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٣١). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٨٥)، ((تفسير الماوردي)) (١/ ٦١)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٧٠) ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٧٦)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ١٩٥).

عَلَيْهِ﴾[المائدة: ٦٠]، وقال سبحانه أيضًا: ﴿فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾[البقرة: ٩٠].

وعن عَديٍّ بن حاتمٍ رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((المغضوب عليهم: اليهود))(١).

﴿وَلا الضَّالِّينَ﴾.

أي: إنَّ من صِفات الذين أنعمَ الله تعالى عليهم، أنَّهم ليسوا كالنَّصارى، ومَن سلك طريقتَهم ممَّن جهِلوا الحقَّ، فعبَدوا الله تعالى بغير عِلم(٢).

فأخصُّ أوصاف النصارى الضلال، كما قال سبحانه: ﴿قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾[المائدة: ٧٧].

وعن عديٍّ بن حاتم رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((ولا الضالين: النَّصارى))(٣).

الفوائد التربويَّة:

١- إنَّ في هذه السورة من كليات العقيدة الإسلامية، وكليات التصور الإسلامي، وكليات المشاعر والتوجهات، ما يشير إلى طرفٍ من حكمة اختيارها

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٣٧٨) (١٩٤٠٠)، وابن حبان (١٦/ ١٨٣) (٧٢٠٦)، والطبراني (١٧/ ١٠٠) (٢٣٧). قال الهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٦/ ٢١٠): رجاله رجال الصَّحيح، غير عبَّاد بن حُبَيش، وهو ثِقة، وحسَّن إسنادَه ابن حجر في ((فتح الباري)) (٨/ ٩)، وصحَّحه بمجموع طرقه الألبانيُّ في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٣٢٦٣).

(٢) قال ابنُ أبي حاتم: (لا أعلم بين المفسِّرين في هذا الحَرْف اختلافًا) ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٣١). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٩٣-١٩٤)، ((تفسير الماوردي)) (١/ ٦١)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٤٠، ١٤١).

(٣) رواه أحمد (٤/ ٣٧٨) (١٩٤٠٠)، وابن حبان (١٦/ ١٨٣) (٧٢٠٦)، والطبراني (١٧/ ١٠٠) (٢٣٧). قال الهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٦/ ٢١٠): رجاله رجالُ الصَّحيح غير عبَّاد بن حُبَيش وهو ثِقة، وحسَّن إسنادَه ابن حجر في ((فتح الباري)) (٨/ ٩)، وصحَّحه بمجموع طُرقه الألباني في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٣٢٦٣).

للتكرار في كلِّ ركعة، وحكمة بطلان كلِّ صلاة لا تُذكَر فيها[١].

٢- أنَّه لما كان أوَّلُ السُّورة مشتملًا على الحمد لله، وتمجيده، والثناء عليه، وآخرُها مشتملًا على الذمِّ للمعرضين عن الإيمان به، والإقرار بطاعته- دلَّ ذلك على أنَّ مَطلع الخيرات، وعُنوان السعادات، هو الإقبالُ على الله عزَّ وجلَّ، ومطلعَ الآفات، ورأس المخالفات، هو الإعراضُ عنه سبحانه، والبعدُ عن طاعته[٢].

٣- أنَّ الله تعالى مستحقٌّ للحَمدِ الكامِل، ومختصٌّ به من جميع الوجوه؛ ولذا ينبغي على العبد أن يستشعرَ بأنَّ كلَّ قضاءٍ لله تعالى، فهو محمودٌ عليه جلَّ وعلا[٣].

٤- أنَّ رُبوبية الله عزَّ وجلَّ مبنيَّةٌ على الرحمة الواسعة للخَلق الواصلة؛ لأنَّه تعالى لما قال: ﴿ربِّ العَالَمِينَ﴾ كأنَّ سائلًا يسأل: (ما نوعُ هذه الربوبية؟ هل هي ربوبيَّة أخْذ، وانتقام؛ أو ربوبيَّة رحْمة، وإنعام؟) فقال تعالى: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾[٤].

٥- أنَّ في قوله: ﴿مالِكِ يَومِ الدِّين﴾ حثَّ الإنسانِ على أنْ يعملَ لذلك اليوم الذي يُدان فيه العاملون[٥].

٦- قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعبُدُ﴾ تبرؤ من الشرك، وقوله: ﴿وإِيَّاكَ نَستعينُ﴾ تبرؤ من الحول والقوة، وتفويض إلى الله عز وجل. وهذا المعنى في غير آية من القرآن، كما قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣] ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩] ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩]؛ لذا قال بعض السلف: الفاتحة سرُّ

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٢١).
(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ١٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين – الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١١).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٢).

القرآن، وسرُّها هذه الكلمة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَستعينُ﴾[١].

٧- تربية المسلم على اللُّجوء إلى الله عزَّ وجلَّ، ومِن ذلك استعانتُه به على العبادة، ودعاؤه دومًا أن يَهديَه الصِّراطَ المستقيم[٢].

الفوائد العلميَّة واللَّطائف:

١- في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، تقديم وصْفِ الله تعالى بالألوهيَّة على وصفه بالربوبية؛ وهذا إمَّا لأنَّ (الله) هو الاسمُ العَلَم الخاصُّ به، والذي تتبعه جميع الأسماء؛ وإمَّا لأنَّ الذين جاءتهم الرُّسُل يُنكرون الألوهيَّة فقط؛ ولأن اسم الله تعالى دالٌّ على كونه مألوهًا معبودًا، تؤلِّهه الخلائق محبَّةً وتعظيمًا وخضوعًا، وفزعًا إليه في الحوائج والنَّوائب، وذلك مستلزمٌ لكمال ربوبيَّته ورحمته[٣].

٢- في قوله تعالى: ﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾ إثباتُ البَعث والجزاء[٤].

٣- إيثار ذِكر إلهيته سبحانه وربوبيته ورحمته وملكه في أوَّل الفاتحة على ذكر سائر الصِّفات؛ لأن هذه الصفات الأربع مستلزمة لجميع صفات كماله عزَّ وجلَّ[٥].

٤- في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ تفصيلٌ بعد إجمال؛ فقولُه تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ مُجمَل، وقوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ مفصَّل. وفائدتُه: أنَّ النفسَ إذا جاء المُجمَل تترقَّب، وتتشوَّف للتفصيل والبيان، فإذا جاء التفصيلُ ورَد على نفسٍ مستعدَّة لقَبوله، متشوِّفة إليه[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٦).

(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٣).

(٥) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٥٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٩).

٥- إسنادُ النِّعمة إلى الله تعالى وحْدَه في هِداية الَّذين أنعم عليهم؛ لأنَّها فضلٌ محضٌ من الله[١].

٦- قدَّم المغضوب عليهم على الضالِّين؛ لأنَّهم أشدُّ مخالفةً للحقِّ من الضالِّين؛ فإنَّ المخالف عن علم يصعُب رجوعُه، بخلاف المخالِف عن جهل[٢]، ولأنَّ أخص الموصوفين بـ﴿المَغضُوبِ عَلَيهِمْ﴾ هم اليهود وأخص الموصوفين بـ﴿الضَّالِّينَ﴾ هم النصارى واليهود سابقون على النصارى في الزمن[٣].

بلاغة الآيات:

١- حُسن الافتتاح، وبراعة المطلَع والاستهلال لكتاب الله عزَّ وجلَّ بهذه السُّورة العظيمة، التي اشتملتْ على مقاصِد هذا الكتاب كلِّه، كما افتتح السُّورة نفسَها بجوامع الحَمْد والشُّكر والثَّناء؛ فإن كان أولها بسم الله الرحمن الرحيم- على قول مَن عدَّها منها- فناهيك بذلك حسنًا؛ إذ كان مطلعها، مفتتحًا باسم الله، وإن كان أولها الحمد لله؛ فحمد الله والثناء عليه بما هو أهله، ووصفه بما له من الصِّفات العليَّة أحسنُ ما افتتح به الكلام[٤].

٢- **قوله:** ﴿**الْحَمْدُ لله**﴾ جملة اسمية، وهي تدلُّ على ديمومة الحَمْد واستمراره وثباتِه[٥]. والألف واللام في ﴿الْحَمْدُ﴾ للاستغراق[٦]، فتعمُّ كلَّ أنواع الحمد.

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٠).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٥٢).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ١٦).

(٦) **الاستغراق:** في اللغة الاستيعابُ، والإحاطة والشُّمول. واصطلاحًا: هو استيفاء شيء بتمام أجزائه وأفراده، بحيث لا يخرج عنه شيءٌ. ومن أدواته المشهورة: اللَّام الجنسية أو الحقيقيَّة. والاستغراق قِسمان: حقيقي، وعرفي، فالحقيقي: أن تراد حقيقة الشيء الشائعة في الأفراد، دون النظر إلى الدَّلالة على عُمومٍ أو خصوص، ولا يصحُّ أنْ يُستعمل بدلَ اللام كلمة (كلّ)، مثل قوله: =

وقيل: لتعريفِ الجنسِ، ومعناه: الإشارة إلى ما يَعرِف كلُّ أحدٌ أنَّه هو الحمد[١].

واللام في قوله: ﴿لله﴾ تُفيد: الاستحقاق[٢]، والاختصاص، أي: الحمد كله مستحقٌّ لله تعالى، وخاصٌّ به سبحانه دون مَن سواه[٣].

٣- في قوله: ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ تخصيص اليوم بالإضافة؛ إمَّا لتعظيمه وتهويله، أو لتفرُّده تعالى بنفوذ الأمر فيه، وانقطاع العلائق بين المُلَّاك والأملاك حينئذٍ بالكليَّة[٤].

٤- في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ نواحٍ بلاغيَّة عديدة

- ففيه تقديمٌ وتأخير؛ حيث قدَّم المفعول به في قوله (إِيَّاكَ)، وهو يُفيد القصرَ[٥] والاختصاص، أي: لا نعبُد غيرَك، ولا نستعين بسواك، وهو أيضًا

= ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الآية: ٣٠]؛ فالمراد حقيقة الماء وماهيته، وليس كُلَّ أنواع الماء. والقرينةُ هي الواقعُ المشاهد. والاستغراق العرفي: أن تُراد الحقيقة في ضِمن جميع الأفراد التي يتناولها اللفظُ بحسب العُرْف، ومنه: قوله: ﴿وَخُلِقَ الإنسان ضَعِيفاً﴾ [الآية: ٢٨]، أي: وخُلق كلُّ فرد من أفراد جنس الإنسان ضعيفًا، والواقع يشهد لإرادة هذا الاستغراق. يُنظر: ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (٢/ ٣١)، ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ٢٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٤٣٧ - ٤٣٨)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ١١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٥-٣٦)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ٢٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١/ ٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ١٥٩-١٦٠).

(٢) اللام الواقعة بين ذات وذات من شأنها أن تُملَك، تكون للمِلك، كالدار لزيد؛ فإنْ أُضيفت إلى مَن لا يملك، فاللام للاختصاص، كالمِفتاح للدار، وأمَّا اللام الواقعة بين معنًى وذات فهي للاستحقاق، كالحمد لله، وبعضُهم يستغني بالاختصاص عن ذِكر الملك والاستحقاق. يُنظر: ((مغني اللبيب)) لابن هشام (ص: ٢٧٥). ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٨٠)، ((همع الهوامع)) للسيوطي (٢/ ٤٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٣٠، ١٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ١٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٦).

(٥) القصر: في اصطلاح البلاغيِّين هو تخصيصُ شيء بشيء وحصره فيه، ويُسمَّى الأمر الأول: مقصورًا، =

للتَّعظيم والاهتمام؛ لأنَّ العرب تقدِّم الأهم(١).

- وقُدِّمت العبادة على الاستعانة؛ لأن العبادة من أسباب حصول الإعانة وإجابة الحاجة، وأيضًا لكون العبادةِ هي المقصودة والغاية من الخلق، والاستعانة وسيلةٌ إليها، ولتتوافق رؤوس الآي(٢).

- وفيه التفات(٣) من ضمير الغَيبة إلى ضمير الخِطاب، ولو جرى الكلام

= والثاني: مقصورًا عليه، مثل: إنما زيد قائم، و: ما ضربت إلَّا زيدًا. وينقسم إلى قصر حقيقي، وقصر إضافي: فالحقيقي: أن يكون جميع ما سوى المقصور عليه، مثل: لا إله إلا الله. والإضافي: أن يكون المقصور عنه شيئًا خاصًّا يراد بالقصر بيان عدم صحة ما تصوره بشأنه، أو ادعاه المقصود بالكلام، أو إزالة شكه وتردده، إذا كان الكلام كله منحصرًا في دائرة خاصة؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنما هو قصرٌ بالإضافة إلى موضوع خاصٍّ يدور حول احتمالين أو أكثر من احتمالات محصورة بعدد خاص، ويستدلُّ عليها بالقرائن. مثل: قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. يُنظر: ((التعريفات)) للجرجاني (١/ ١٧٥-١٧٦)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٩)، ((تفسير الرازي)) (١/ ٢٠٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنير)) (١/ ٣٩-٤٠)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٤٢-١٤٣).

قال ابن القيم: (وتقديم العبادة على الاستعانة في الفاتحة من باب تقديم الغايات على الوسائل، إذ العبادة غاية العباد التي خلقوا لها، والاستعانة وسيلة إليها، ولأن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ متعلق بألوهيته واسمه الله ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ متعلق بربوبيته واسمه الرب فقدَّم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ كما قدَّم اسم الله على الربِّ في أول السورة، ولأنَّ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ قسم الربِّ، فكان من الشطر الأول، الذي هو ثناء على الله تعالى؛ لكونه أولى به، و﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قسم العبد، فكان من الشطر الذي له، وهو ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ إلى آخر السورة). ((مدارج السالكين)) (١/ ٧٥).

(٣) الالتفات: هو نقْل الكلام من أسلوب إلى أسلوب آخَر؛ تطريةً واستدرارًا للسامع، وتجديدًا لنشاطه، وصيانة لخاطره من الملال والضجر بدوام الأسلوب الواحد على سمعه، كالانتقال الخطاب إلى الغيبة، أو تغيير ضمير المتكلم نفسه تارة بجعله تاءً على جهة الإخبار عن نفسه، وتارةً يجعله كافًا، فيجعل نفسه مخاطبًا، وتارة يجعله هاءً، فيقيم نفسه مقامَ الغائب. وشرطه أن يكون الضمير في =

على الأصل لقال: إياه نعبد، وهذا التفنُّن في الكلام والعدول من أسلوب إلى آخر من عادة العرب؛ لأنَّ فيه تحسينًا للكلام، وتنشيطًا للسامع، وإيقاظًا له؛ فيكون أكثرَ إصغاءً للكلام، وقد تختصُّ مواقعه بفوائد أخرى غير هذه، ومنها هنا: أنَّ الخطاب فيه استحضار للقُرب من الله تعالى، فكأنه لَمَّا أثنى على الله عز وجل، اقترب وحضَر بين يديه سبحانه[1].

- وفيه تَكرار ﴿إِيَّاكَ﴾، وهذا التَّكرار؛ لأنَّ الفِعلين مختلفان، فاحتاج كلُّ واحدٍ منهما إلى تأكيد واهتمام، فتَكراره للتأكيد على تَخصيصِه تعالى بكلٍّ واحدة من العبادة والاستعانة، وإبراز الاستلذاذِ بالمناجاة والخِطاب[2].

- والمجيء بنون الجَمْع في قوله ﴿نَعْبُدُ﴾ و﴿نَسْتَعِينُ﴾؛ قيل لأنَّ المقام لَمَّا كان عظيمًا لم يستقلَّ به الواحد؛ استقصارًا لنفسه، واستصغارًا لها، فالمجيءُ بالنون لقصد التواضُع لا لتعظيم النَّفْس، وقيل: يجوز أن تكون للتعظيم، كأنه قيل للعبد: إذا كنت في العبادة فأنت شريف، وجاهك عريض، فقل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وإذا كنت خارج العبادة فلا تقل: نحن ولا فعلنا وغير ذلك[3]، وقيل: لأنَّ المقام مقام عبودية وافتقار إلى الربِّ تعالى، وإقرار بالفاقة إلى عبوديته واستعانته وهدايته. أي: نحن معاشر عبيدك مُقرُّون لك بالعبودية، وهذا كما يقول العبد للملك المعظَّم شأنه: نحن عبيدك ومماليكك،

= المتنقل إليه عائدًا في نفس الأمر إلى الملتفَّت عنه، وللمتكلم والخطاب والغيبة مقامات، والمشهور أن الالتفات هو الانتقال من أحدها إلى الآخر بعد التعبير بالأول. وهذا النوع قد يختص مواقعه بلطائف معان قلما تتضح إلا لأفراد بلغائهم أو للحذاق المهرة في هذا الفن والعلماء النحارير. يُنظر: ((البرهان)) للزركشي (٣/ ٣١٤)، ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٠٠ - ٢٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (١/ ٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٥٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١/ ٥٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١/ ٢١٢)، ((تفسير الشوكاني)) (١/ ٢٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ١٧).

وتحت طاعتك، ولا نخالف أمرك؛ فيكون هذا أحسنَ وأعظمَ موقعًا عند الملك من أن يقول: أنا عبدك ومملوكك؛ ولهذا لو قال: أنا وحدي مملوكك، استدعى مقته، فإذا قال: أنا وكل مَن في البلد مماليكك وعبيدك وجند لك، كان أعظمَ وأفخمَ؛ لأنَّ ذلك يتضمَّن أن عبيدك كثيرٌ جدًّا، وأنا واحد منهم، وكلنا مشتركون في عبوديتك والاستعانة بكَ، وطلب الهداية منك[1].

٥- في قوله: ﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُستَقِيمَ﴾

- ﴿اهِدْنا﴾ فِعل أمر، لكن المقصود به الالتِماس والدُّعاء، لا حقيقةَ الأمر؛ لأنَّه طلبٌ من الأدنى - وهو المخلوق - إلى الأعلى - وهو الخالِقُ سبحانه[2].

- تعدية الفِعل ﴿اهِدْنا﴾ بنفسِه، وعدَم تعديته بحَرْف الجَرِّ في قولِه سبحانه: ﴿اهْدِنا الصِّراطَ المستقيمَ﴾؛ لأجلِ أن يتضمَّن طلبُ الهداية: هِدايةَ العِلم، وهداية التَّوفيق[3].

٦- في قوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾

- تصريحٌ بعد إبهام، وتفصيلٌ بعد إجمال، وفائدتُه تشويق النَّفس، وتهيئتها؛ لتتلقَّى التفسير والتفصيل، فيكون أعونَ على الفَهم، وهذا الأسلوب له من الفائدة مثل ما للتوكيد المعنوي، وأيضًا فيه تقرير حقيقة هذا الصراط، وتحقيق مفهومه في نفوسهم، فيحصل مفهومه مرتين: فيحصل له من الفائدة ما يحصُل بالتوكيد اللفظي[4].

- وفيه أيضًا توكيدٌ؛ إذ ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ...﴾ بدلٌ من ﴿الصِّراطَ المستقيمَ﴾؛

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيِّم (٢/ ٣٩).
(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١/ ٦١)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ١٩٢).

والبدل على نيَّة تَكْرار العامل، كأنَّه قال: اهدِنا الصِّراط المستقيم، اهدِنا صراطَ الذين...، ففيه تثنيةٌ وتكرير، وإشعارٌ بأنَّ الطريق المستقيم بيانُه وتفسيرُه: صراط المسلمين؛ ليكونَ ذلك شهادةً لصراط المسلمين بالاستقامةِ على أبلغ وجهٍ وآكدِه، ويجوز أن يكون ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ﴾ عَطفَ بيان، وفائدتُه حينئذٍ الإيضاح[1]!

٧- في قوله: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ بعد قوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ التفات أيضًا، حيث صرَّح بالخِطاب عند ذِكر النِّعمة، ثم قال: غير المغضوب عليهم، فزَوَى لفظ الغضب عن الله تعالى؛ أدبًا ولُطفًا، وهذا غايةُ ما يصل إليه البيان[2].

٨- في قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾، وقوله: ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ تناسُب الفواصِل، وتوافُق رُؤوس الآي، وهو من حسن الكلام، وممَّا تتشنَّف به الأسماع، وقدْ حسُن لاختلافِ الفِقرات في مَعانيها، مع اتِّفاقها في حُروفها الأخيرة[3].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود))، (١/ ١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ١٩٢).
(٢) يُنظر: ((البرهان)) للزركشي، (٣/ ٣٢٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ١٧).
(٣) يُنظر: ((البرهان)) للزركشي (١/ ٧٨).

تَفْسِيرُ
سُورَةِ البَقَرَةِ

سُورَةِ البَقَرَةِ

أسماء السُّورة:

١- سمِّيت هذه السُّورةُ الكريمة، سورةَ البَقرة[١].

فعن أَبِي مَسعودٍ عُقبةَ بن عامرٍ رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((مَن قرَأ بالآيتَينِ مِن آخِرِ سورةِ البَقرةِ في ليلةٍ كفَتاه))[٢].

٢- سمِّيت هي وسورة آل عِمران، الزَّهراوينِ[٣].

فعن أبي أُمامةَ الباهليِّ رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ يقول: ((اقْرَؤوا القرآنَ؛ فإنَّه يأتي يومَ القيامةِ شَفيعًا لأصحابه، اقرَؤوا الزَّهرَاوَيْنِ[٤]: البقرةَ، وسورةَ آلِ عمرانَ...))[٥].

فضائلُ السُّورة وخصائصُها:

لهذه السُّورة الكريمةِ فضائلُ متعدِّدة، منها:

١- أنها تُنفِّر الشيطانَ من البَيت الذي تُقرأ فيه

فعَن أبي هُرَيرةَ رضي الله عنه، أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((لا تجْعَلوا بُيوتَكم مقابرَ؛ إنَّ الشيطانَ ينفِرُ من البيتِ الذي تُقرأ فيه سورةُ البَقرة))[٦].

٢- أنَّها وآلَ عمران تُدافعانِ عن قارئِهما يومَ القيامة، وفي قِراءتِها والعملِ بما فيها حصولُ البَركات لصاحِبها

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١/ ٢٤).

(٢) رواه البخاري (٥٠٠٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١/ ٢٤).

(٤) الزَّهراوان: أي المنيرتان، واحدتها زَهراء. ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٣٢١).

(٥) رواه مسلم (٨٠٤).

(٦) رواه مسلم (٧٨٠).

فعن أبي أُمامةَ الباهليِّ رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ يقول: ((اقْرَؤوا القرآنَ؛ فإنَّه يأتي يومَ القيامةِ شَفيعًا لأصحابه، اقرَؤوا الزَّهرَاوَين: البقرةَ، وسورةَ آلِ عمرانَ؛ فإنَّهما تأتِيان يومَ القِيامةِ كأنَّهما غَمامتانِ[1]، أو كأنهَّما غَيايتانِ[2]، أو كأنهما فِرْقانِ[3] من طَيرٍ صوافَّ[4]، تُحاجَّان عن أصحابِهما، اقرَؤوا سورةَ البقرةِ؛ فإنَّ أَخْذَها بَركةٌ، وتركَها حَسرةٌ، ولا يستطيعُها البَطَلَةُ))، قال معاويةُ ابن سلام -أحد رجال سند الحديث-: بلغَني أنَّ البطلَةَ السَّحرةُ[5].

٣- تعظيمُ الصَّحابة رضي الله عنهم لقارئِها هي وآل عمران

فعن أَنسٍ رضي الله عنه، قال: ((كان الرجلُ إذا قرَأَ البَقرة وآل عمران، جَدَّ فينا- يعني: عظُم- وفي رواية: يُعَدُّ فينا عَظيمًا، وفي أخرى: عُدَّ فينا ذا شأنٍ))[6].

بيان المَكِّي والمَدني:

سورة البَقرة سورةٌ مدنيَّة، نزلتْ بعد الهِجرة، ونقَل الإجماعَ على ذلك عددٌ من المفسِّرين[7].

---

(١) الغَمامة: السَّحابة. ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٣٨٩).

(٢) الغَياية: كلُّ شيءٍ أظلَّ الإنسانَ فوق رأسه كالسَّحابة وغيرها. ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٤٠٣).

(٣) فِرقان:، أي: قِطعتان، مثنَّى الفِرْق، وهو القِطعة من الشيَّء. ((كشف المشكل)) لابن الجوزي (٤/ ١٥٠)، ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٤٤٠).

(٤) صَوافّ: أي: مُصطفَّة متضامَّة؛ لتظلِّل قارئها. ((كشف المشكل)) لابن الجوزي (٤/ ١٥٠).

(٥) تقدم تخريجه (ص: ٥٩).

(٦) رواه أحمد (٣/ ١٢٠) (١٢٢٣٦)، وابن حبَّان (٣/ ١٩) (٧٤٤).

صحَّح إسنادَه ابن تَيميَّة في ((الصارم المسلول)) (٢/ ٢٤١)، وقال ابن كثير في ((البداية والنهاية)) (٦/ ١٧٩): على شرْط الشيخين، وصحَّحه الألباني في ((صحيح الموارد)) (١٢٦٨).

(٧) نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ تيميَّة في ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ١٩٣)، وابنُ كثير في ((تفسيره)) (١/ ١٥٥)، والشِّنقيطي في ((العذب النمير)) (٢/ ٣٦٢).

مقاصد السُّورة:

مَن أهمِّ المقاصد التي تضمَّنتها سورةُ البقرة:

١- الاهتمامُ بالجانب العَقَديِّ؛ فقد بيَّنت السورة الكثيرَ من أصول العقيدة، وأدلَّة التوحيد، وبراهين البعث(١).

٢- بيانُ جوانبَ من التَّشريع الإسلاميِّ، سواءً في العِبادات، أو الأحوال الشخصيَّة، أو المعاملات الماليَّة، أو الحدود، وغير ذلك(٢).

٣- بيانُ حقيقة اليَهود، وموقفهم من الرسل والدعوة الإسلامية في المدينة، ومناقشة بعض عقائدهم(٣).

موضوعات السُّورة:

من أَبرزِ الموضوعاتِ التي تناولتْها سورةُ البَقرة:

١- وصْف أصناف النَّاس، حيثُ قسَّمتْهم ثلاثةَ أقسام، هم: المؤمنون، والكافِرون، والمنافقون.

٢- وصيَّةُ الناس كافَّةً بعبادة ربِّهم، مع ذِكر بعض نِعمه الجليلة عليهم، التي تدلُّ على استحقاقِه سبحانَه وتعالى للعبادة وحْده، مع تحذيرهم إنْ لم يمتثلوا هذا الأمر، وتبشير مَن امتثل منهم بما أعدَّه الله تعالى له من النَّعيم المقيم.

٣- بداية خَلْق الإنسان، وحوار الله عزَّ وجلَّ مع ملائكتِه.

٤- قِصَّة استخلاف آدَم في الأرض، وقصَّته مع الشيطان.

٥- عَرْض أبرز الأحداث التي وقعتْ لبني إسرائيل.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١/ ٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٢٨).

٦- قِصَّة ابتلاء إبراهيمَ بالكلمات، وبنائِه الكعبةَ مع ولده إسماعيل، ووصيَّته لأبنائه ويعقوب، ووصية يعقوب لأبنائِه.

٧- عَرْض مجموعة من الأحكام الشرعيَّة في جانب العبادات، تتعلَّق بالصَّلاة والصَّدقة، والصَّوم، والحجِّ، وفي جانب المعاملات، كالرِّبا والدَّيْن، والرَّهن، وكذلك في جانب الأُسْرَة من النِّكاح والطَّلاق والإيلاء والعِدَد، وغير ذلك من أحكام.

٨- عَرْض وقائع في إحياء الله الموتى، ومنها: (قصة قتيل بني إسرائيل، وقصة الذين أصيبوا منهم بصاعقة أماتتهم، وقِصَّة الذين خرَجوا من دِيارهم وهم أُلوف حذرَ الموت، وقِصَّة الذي مرَّ على قريةٍ وهي خاويةٌ على عروشها، وقصَّة إبراهيم عليه السَّلام مع الطَّير).

٩- قِصَّة طالوت وجالوت مع الملأ من بني إسرائيل من بعدِ موسى عليه السَّلام.

١٠- قصَّة الذي حاجَّ إبراهيمَ عليه السَّلام في ربِّه.

الآيات (١-٥)

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥﴾.

غريب الكلمات:

﴿رَيْب﴾: الرَّيب: الشكُّ، أو هو الشكُّ مع الخَوف، ومع تُهمَة المشكوكِ فيه، وتوهُّمُ أمْرٍ ما بالشَّيء، والرَّيب مصدر رابني الشيء: إذا حصل فيه الريبة، وهي قلق النفس واضطرابها(١).

﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾: الذين يقُون أنفسهم تَعاطي ما يُعاقَب عليه من فِعل أو تَرْك، والتقوى جعْل النفس في وقاية مما تخاف، وأصل الاتِّقاء: الحَجْز؛ كأنَّهم وضعوا بينهم وبين العذاب حاجزًا يقيهم(٢).

﴿يُوقِنُونَ﴾: يعلمون علمًا متمكِّنًا في نفوسهم لا يمكن أن يدخله شكٌّ، وأصل اليقين: زوال الشَّكِّ(٣).

﴿الْمُفْلِحُونَ﴾: أي: الظَّافرون بما طلبوا، الباقون في الجنة؛ فأصل الفَلَاح: الظَّفَرُ وإدراك البُغية، والبقاء(٤).

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٨)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥٧)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٨٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٤٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨).

مشكل الإعراب:

١- قوله: ﴿الم﴾ حروف لا محلَّ لها من الإعراب[1].

٢- قوله: ﴿هُدًى﴾: منصوب على الحال من (ذا، أو الكتاب، أو مِن الهاء في فِيه). ويجوز أن يكون (هدى) مرفوعًا بضمَّةٍ مقدَّرةٍ، على أنَّه مُبتدأ، وخبره: شبه جملة (فيه). أو يُرفع على أنَّه خبر لمبتدأ محذوف، أي: هو هدى، أو خبر ثان لاسم الإشارة (ذلك). وعلامة إعرابه في الجميع مُقدَّرة؛ للتعذُّر[2].

المعنى الإجمالي:

افتُتِحَت هذه السورةُ العظيمة بالحروف المقطَّعة؛ لبيان إعجاز القرآن؛ إذ تُبرِزُ عجزَ الخَلْق عن معارضته بالإتيان بشيءٍ من مثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ من هذه الحروفِ العربيَّة التي يتحدَّثون بها!

وهذا القرآن لا شكَّ في أنَّه نزَل من عند الله عزَّ وجلَّ، وهو هُدًى من الضلالة للمتَّقين، المصدِّقين المقرِّين بالغيب، المؤدِّين الصلواتِ على أكملِ وجه، المنفقين من طيِّب ما رزَقهم الله، المصدِّقين بالقرآن وبجميع الكتُب السماويَّة السابقة المنزلَة من عند الله عزَّ وجلَّ، الموقِنين بالبعث والنُّشور، والثَّواب والعِقاب، والحساب والميزان، وغير ذلك ممَّا أعدَّ الله تعالى لخَلْقه يوم القيامة، ثم أخبر الله عزَّ وجلَّ عن هؤلاء المتَّقين المتَّصفين بجميع ما تقدَّم ذِكرُه، بأنَّهم على نورٍ وبُرهان وبصيرة من ربِّهم سبحانه، وأنهم وحْدهم دون غيرهم، هم الفائِزون والناجون.

تفسير الآيات:

﴿الم (١)﴾.

هذه الحروفُ المقطَّعة التي افتُتِحَت بها هذه السُّورة وغيرها، تأتي لبيان إعجازِ

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٧٤)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ١٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١/ ٨٦).

القرآن؛ حيث تُظهِر عجْزَ الخَلْق عن معارضته بمثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ من هذه الحروف العربيَّة التي يتحدَّثون بها[1]!

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا كان المرادُ بـ ﴿الم﴾ أنَّ هذا الكتاب من جِنس حُروفكم التي قد فُقتُم في التكلُّم بها سائرَ الخلق، ومع ذلك أنتم عاجزون عن الإتيان بسورةٍ مِن مثلِه؛ لأنَّه كلامُ الله- أشار إلى كمالِه، فأُشير إليه بأداة البُعد في قوله ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾؛ لعلوِّ مقدارِه، وجلالة آثارِه، وبُعد رتبته عن المحرومين. ولما عُلم كمالُه، أشار إلى تعظيمه بالتصريحِ بما يستلزمه ذلك التعظيمُ، فقال: ﴿لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾[2].

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

أي: إنَّ هذا القرآن، لا شكَّ في أنَّه حقٌّ في ذاته، وأنَّه نزَل من عند الله تعالى[3]، كما أنَّه لا يتضمَّن ما يوجب الرَّيْب[4].

كما قال تعالى: ﴿الم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [السجدة: ١-٢].

وقال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

أي: إنَّ القرآن هدًى من الضلالة، ونورٌ وتبيان للذين يتَّقون غضبَ الله تعالى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١/ ٧٩).

(٣) قال ابن أبي حاتم: (لا أعلمُ في هذا الحرف-أي: إنَّ الكتاب هو القُرآن-اختلافًا بين المفسِّرين) ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٢٣-٢٢٤).

وعقابَه، بامتثال ما أَمَر الله تعالى به، واجتنابِ ما نَهَى عنه[١].

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣)﴾.

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾.

أي: إنَّ مِن صفات المتَّقين أنَّهم يُصدِّقون ويُقِرُّون بالغيب[٢].

والغيبُ هو: كلُّ ما غاب عن العَبد، ومن الإيمان بالغيب: الإيمانُ بالله تعالى، وملائكتِه، وكُتبِه، ورُسلِه، واليومِ الآخِر[٣].

﴿يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾.

أي: يؤدُّون الصَّلوات بحدودِها، وفروضِها، وواجباتها، كما أمَر الله عزَّ وجلَّ[٤].

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾

أي: يُخرِجُون من طيِّب ما أعطاهم ربُّهم من الأموال[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٢٣٤، ٢٣٩)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تَيميَّة (١/ ٤٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٦٢- ١٦٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٦٤-١٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٢٤٢)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (١٣/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٦٥-١٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٦٧).

ومن المفسِّرين مَن فسَّر الصَّلاةَ المذكورة هنا، بأنَّها جِنس الصلوات المفروضة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٢٤٨-٢٤٩)، ((الجواب الصحيح)) لابن تَيميَّة (٢/ ٢٧٩).

ومن المفسِّرين مَن أدخل فيها النوافلَ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١).

ومنهم مَن أطلق الصلاة ولم يقيِّدها بشيء. يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٨١)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٨٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٢٥٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٠)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٨/ ٥٤٥).

ومِن المفسِّرين مَن خصَّص النفقة المذكورة هنا، بالزَّكوات المفروضة، والنَّفقات الواجِبة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٦٩). =

﴿والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤)﴾.

﴿والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾.

أي: إنَّ من صِفات المتقين أيضًا، أنَّهم يؤمنون بالقرآن الذي أُنزل إلى محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، ويُؤمنون أيضًا بجميع الكتُب السماويَّة السابقة، من قَبل بَعثةِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ[1].

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦].

وقال سبحانه أيضًا: ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

﴿وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

أي يؤمنون إيمانًا لا يتطرَّق إليه شكٌّ بالبعث والنُّشور، والثواب والعِقاب، والحِساب والميزان، وغير ذلك ممَّا أعدَّ الله تعالى لخَلْقِه يومَ القِيامة[2].

﴿أُوْلَـئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)﴾.

﴿أُوْلَـئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾.

= ومن المفسِّرين مَن جعَلها شاملةً للصَّدقات الواجبة والمستحبَّة.

يُنظر: ((تفسير الراغب الأصفهاني)) (١/ ٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١/ ١٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٣٥).

ومنهم مَن أطلق النفقة ولم يقيِّدها بشيء. يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٨١)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٨٥).

وممَّن أطلق القولَ من السَّلف، قتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٧٠-١٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٢٥٢)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (١١/ ٤١٩)، ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣١).

أي: إنَّ المتَّصفين بجميعِ ما تقدَّم ذِكرُه من صِفات المتقين، على نورٍ وبُرهانٍ وبصيرةٍ من ربِّهم سبحانه[1].

﴿وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

أي: وهم أيضًا فائزونَ بإدراك ما طلَبوا، وبالنَّجاة ممَّا منه هرَبوا[2].

الفَوائِد التربويَّة:

١- أنَّ التقوى في القلْب هي التي تؤهِّل العبدَ للانتفاع بهذا الكتاب؛ فكلُّ مَن كان أتقى لله تعالى، كان أقوى اهتداءً بالقرآن الكريم؛ لأنَّ الهدى عُلِّق بوصفٍ في قوله تعالى: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، والحُكم إذا عُلِّق بوصف، كانتْ قوة الحُكم بحسَب ذلك الوصفِ المعلَّق عليه[3].

٢- الإيمان بالغيب هو مفرق الطريق في ارتقاء الإنسان عن عالم المادِّية، ولكن الماديِّين في كل زمان، يريدون أن يعودوا بالإنسان القَهْقَرى إلى عالم المادِّية الذي لا وجودَ فيه لغير المحسوس، ويُسمُّون هذا «تقدمية» وهو في الحقيقة النَّكسة التي وقى الله المؤمنين إيَّاها، فجعل صفتهم المميزة، صفة: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾[4].

٣- في قوله تعالى: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤]، دلالةٌ على أهميَّة الإيمان بالآخِرة؛ لأنَّ الإيمان بها يستلزم الاستعدادَ لها بالأعمال الصَّالحات، وترْك المحرَّمات[5].

٤- خُتِمت السِّمات بقوله: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾؛ لأنَّها الخاتمة التي تربط

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٢٥٥، ٢٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٩).

(٤) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٧١).

الدنيا بالآخرة، والمبدأ بالمصير، والعمل بالجزاء؛ والتي تُشعر الإنسان أنه ليس لَقًى [شيئًا مُلقًى لهوانِه] مهملًا، وأنه لم يخلق عبثًا، ولن يترك سُدًى، وأنَّ العدالة المطلقة في انتظاره؛ ليطمئنَّ قلبه، وتستقر بلابله، ويفيء إلى العمل الصالح، وإلى عدْل الله ورحمته في نهاية المطاف(١).

الفوائد العلميَّة واللَّطائف:

١- بيان علوِّ القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾؛ فالإشارة بالبُعد تُفيد علوَّ مرتبته؛ وإذا كان القرآن عاليَ المكانة والمنزلة، فلا بدَّ أن يعود ذلك على المتمسِّك به بالعلوِّ والرِّفعة؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى قال: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣]؛ وكذلك ما وُصِف به القُرآنُ كالكرَم، والعظَمة، فإن للمشتغل به نصيبًا من ذلك(٢).

٢- نفي الرَّيْب عن القرآن في قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [البقرة: ٢]، يدلُّ على ثبوت كمال ضدِّه، فهو يُورث كمال اليقين؛ لما يتضمَّنه من الحجج والبراهين والدَّلائل التي لا تترك في الحقِّ لبسًا. والنفي الوارد في باب صفات الله تعالى، أو الملائكة، أو النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، أو القرآن، يدل على ثبوت كمال ضدِّه(٣).

٣- في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الكِتَابُ﴾ إشارةٌ إلى ما سيؤول إليه أمر القرآن من كونه مكتوبًا ومجموعًا في كتابٍ واحد(٤).

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠).

(٤) قال ابن عاشور: (وفي هذه التسمية معجزة للرسول صلى الله عليه وسلم بأن ما أوحي إليه سيكتب في المصاحف قال تعالى: ﴿وَهَـذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢]، وقال: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٠] وغير ذلك، ولذلك اتخذ النبيء صلى الله عليه وسلم من أصحابه كتابًا يكتبون ما أنزل إليه ومن أول ما ابتدئ نزوله... وقد وجد جميع ما حفظه المسلمون في قلوبهم على قدر ما وجدوه مكتوبًا يوم أمر أبو بكر بكتابة المصحف) ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٣).

٤- قال تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾، ولم يقُل: يفعلون الصَّلاة، أو يأتون بالصَّلاة؛ لأنَّه لا يكفي فيها مجرَّدُ الإتيان بصورتها الظاهرة؛ فإقامة الصَّلاة، إقامتها ظاهرًا بإتمام أركانها، وواجباتها، وشروطها، وإقامتها باطنًا بإقامة رُوحها، وهو حضور القلب فيها، وتدبُّر ما يقوله ويفعله منها، فهذه الصَّلاة هي التي قال الله فيها: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾، وهي التي يترتَّب عليها الثوابُ[١].

٥- كثيرًا ما يجمع الله تعالى بين الصَّلاة والزَّكاة في القرآن؛ وذلك لأسباب، منها: أنَّ الصَّلاة متضمِّنة للإخلاص للمعبود، والزكاة والنَّفقة متضمِّنة للإحسان إلى عَبيدِه[٢]، وسعادةُ العبدِ دائرةٌ بيَن الأمرَيْن، كما أنَّ الصلاةَ رأسُ العباداتِ البدنيةِ، والزكاةَ رأسُ العباداتِ الماليةِ، والعباداتُ راجعةٌ إلى هذين.

٦- في الإتيان بـ﴿مِن﴾ التي هي للتبعيض في قوله: ﴿مِـمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ إيماءٌ إلى كون الإنفاق المطلوب شرعًا، هو إنفاقُ بعض المال؛ لأنَّ الشريعة لم تُكلِّف الناس حرجًا، وهذا البعض يقلُّ ويتوفَّر بحسب أحوال المنفقين[٣].

٧- في قوله سبحانه: ﴿رَزَقْنَاهُمْ﴾ إشارة إلى أنَّ هذه الأموال التي بين أيديكم، ليست حاصلةً بقوَّتكم وملككم، وإنَّما هي رِزق الله الذي خوَّلكم، وأنعم به عليكم، فكما أنعم عليكم وفضَّلكم على كثيرٍ من عباده، فاشكروه بإخراج بعضِ ما أنعم به عليكم، وواسوا إخوانكم المعدَمين[٤].

٨- في قوله تعالى: ﴿مِـمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ دلالةٌ على أنَّ الإنفاقَ من غير الزَّكاة

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٣٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٠).

لا يتقدَّر بشيءٍ معيَّن؛ لإطلاق الآية، سواء كانت «مِن» للتبعيض؛ أو للبيان(١).

٩- في قوله تعالى: ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾، لم يذكر المعمولَ (المنفَق ذاته، والمنفَق عليهم)؛ لكثرة أسبابِه، وتنوُّع أهلِه(٢).

١٠- في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [البقرة: ٤]، بدأ بالقرآن مع أنَّه آخِر الكتُب السماوية زمنًا؛ لأنَّه مهيمنٌ على الكتُب السابقة، وناسخٌ لها(٣).

١١- في قوله تعالى: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤]، نصَّ جلَّ وعلا على الإيقان بالآخِرة مع دخولِه في الإيمان بالغيب لأهميَّته؛ لأنَّ الإيمان بها يُحمل على فِعل المأمور، وترْك المحظور(٤).

١٢- في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥]، دلالةٌ على أنَّ الفلاحَ مرتَّبٌ على الاتِّصاف بما ذُكر؛ فإنِ اختلَّت صفةٌ منها، نقَص من الفلاح بقدْر ما اختلَّ من تلك الصِّفات؛ وذلك لأنَّ الحكمَ المعلَّق على وصفٍ، يزيد بزيادته، وينقص بنقصانه، فالصحيح من قول أهل السُّنة والجماعة، والذي دلَّ عليه العقلُ والنقل، أنَّ الإيمان يَزيد، وينقص، ويتجزَّأ؛ ولولا ذلك ما كان في الجناتِ درجاتٌ(٥).

بلاغة الآيات:

١- قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ فيه من أوجه البلاغة:

- الإشارة للبعيد في ﴿ذَلِكَ﴾ بإدخال اللام، إشارة إلى علوِّ منزلة هذا الكتاب

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٥).

وشَرَفه، وبُعد مرتبته وعلوِّها على مرتبة كلِّ كتابٍ سواه(١).

- ﴿الْكِتَابُ﴾ جاء معرَّفًا بالألف واللام؛ للتَّفخيم لأمْره، ولبيان علوِّ شأنه(٢).

- ﴿هُدًى﴾: وُضِع المصدر ﴿هُدًى﴾ موضِعَ اسم الفاعِل (هادٍ)؛ للتأكيد على دَيمومة هِدايته واستمرارِها، وجاء منكَّرًا للتعظيم، وللدَّلالة على أنها هداية مُطلَقة لكل متَّقٍ في كلِّ ما يَحتاج إليه الخَلقُ للوصول إلى السعادة في الدَّارين(٣).

- وفي هذه الجُمل الأربع: ﴿الم﴾، ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾، ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾: جمالُ بلاغة؛ حيثُ جِيء بها متناسقةً هكذا من غير حرْف عَطْف؛ وذلك لمجيئها متآخيةً آخذًا بعضها بعُنق بعض؛ مع ما في كلِّ جملة مِن نُكتةٍ ذات جَزالة، ففيها ما يُسمَّى عند البَلاغيِّين بـ(الفصْل)(٤) -وهو عدم عطف الجمل بالواو-؛ لكمال الاتِّصال بينها(٥).

٢- قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾

- فيه حُسن ترتيب، وتقديمٌ للأهمِّ فالأهم؛ فالإيمانُ بالغيب لازمٌ للمكلَّف دائمًا، والصَّلاةُ لازمة في أكثرِ الأوقات، والنَّفقة لازمة في بعض الأوقات(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١/ ٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٧٤) ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٢٥-٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٢٥).

(٤) **الفصل**: من مباحث عِلم المعاني؛ وهو عدمُ عطفِ الجُمَل بالواو. وهو مقابلٌ للوَصلِ، ولكلٍّ من الفصل والوصل مواضِعُه الواجبة والجائزة. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٤٩ وما بعدها)، ((البلاغة الواضحة)) لعلي الجارم وأحمد أمين (ص: ٢٢٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٢٨)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٦٩).

- تقديم المفعول ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ على الفِعل ﴿يُنْفِقُونَ﴾: للاهتمامِ به، وللدلالة على كونه أهمَّ، ولإفادة الاختصاص، ولتناسب رُؤوس الآي[١].

٣- قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾

- في قوله ﴿أُنْزِل﴾: عبَّر عنه بلفظ الماضي، وإن كان بعضه مترقَّبًا؛ تغليبًا للموجود على ما لم يوجد، أو تنزيلًا للمنتظَر منزلةَ الواقِع؛ ففي هذا التعبير تغليبٌ المحقَّق على المقدَّر، وتنزيل ما في شَرَف الوقوع لتحقُّقه منزلةَ الواقع[٢].

- ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾: فيه تقديم لشِبه الجملة ﴿بِالْآخِرَةِ﴾؛ للاهتمام بأمْرها، والإشعارِ بالحَصْر والاختصاص، كأنَّ ما عدا الإيقانَ بالآخرة ليس بمستأهلٍ للإيقان به، والقطعِ بوقوعِه؛ فهو أساسُ الإيمان ورأسُه[٣].

- التأكيدُ بالجُملة الاسميَّة، مع أنَّها معطوفةٌ على جملة فعليَّة، آكَدُ في الإخبار عن هؤلاء بالإيقان، ومُشعِر بالاهتمام بهم. وذكر الضَّمير الظاهر (هم) مع أنَّه موجود في الفِعل (يوقنون)؛ زيادةً في التأكيد[٤].

٤- قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

- فيه الإتيان بحرْف ﴿على﴾ الذي يُفيد الاستعلاء؛ إشارة إلى تمكُّنهم من الهدى، واستقرارهم عليه، وتمسُّكهم به[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٠)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ١٨)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (١/ ٣٩)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٢١).

(٣) يُنظر: ((فتح القدير)) للشوكاني (١/ ٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٧١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٤).

- تنكير ﴿هُدًى﴾؛ ليُفيد ضربًا مُبهمًا لا يُبلَغ كُنْهُه، ولا يُقادَر قَدرُه، كأنه قيل: على أي هدًى، كما تقول: لو أبصرتَ فلانًا لأبصرتَ رجلًا(١).

- تَكرير اسم الإشارة ﴿أُوْلَـئِكَ﴾ ﴿وَأُوْلَـئِكَ﴾؛ للتَّأكيد، والعِناية بشأن المتَّقين، وللإشارة إلى علو مرتبتهم، وفيه دَلالةٌ على أنَّ كُلًّا من الهدى والفلاح مستقلٌّ بتميزهم به عن غيرهم، بحيث لو انفرد أحدُهما لكفى تميزًا على حِياله(٢).

- الإتيان بحَرْف العطف (الواو) في المبتدأ الثاني؛ لاختِلافِ الخَبرين وجودًا ومقصودًا، واستقلالِ كلٍّ من الهُدَى والفَلاح بتميُّزهم به عن غيرهم، ولو كان الخبر الثاني في معنى الأوَّل، لم يدخل العاطف؛ لأنَّ الشيءَ لا يُعطف على نفْسِه، كما في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩](٣).

- الإتيان بضَمير الفَصل ﴿هُمْ﴾ للتأكيد والحصر، ورفْع توهُّم مَن يَتشكَّك، أو يتوهَّم التشريك فيه، كأنَّه قال: هم المفلحون لا غيرهم(٤).

- ودخول الألف واللام على الخبر ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾ فيه إشعار بالحصْر كذلك، كأنَّهم قد استحقُّوا الوصف الكامل من الفلاح(٥).

- وفي هذه الآياتِ حُسن تقسيم؛ حيث استَوعبت جميعَ الأوصاف المحمودة، والعبادات البَدنيَّة والماليَّة التي يعكُف عليها المؤمنون(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٧٤)، ((فتح القدير)) للشوكاني (١/ ٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٧٣)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٧٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٥٩)؛ فقد أشار إلى ذلك الوجه عند الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾، حيث قال: (وأكَّد بقوله: (هم)، وبالألف واللام، كأنَّ الهداية انحصرت فيهم، وباسم الفاعل؛ ليدلَّ على الثبوت...).

(٦) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٢٧).

الآيات (٦-٧)

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾.

غريب الكلمات:

﴿أَأَنْذَرْتَهُمْ﴾: أأعلمتهم بما تحذِّرهم منه، وأصل الإِنْذار: إخبارٌ فيه تخويف، أو الإبْلاغُ[(١)].

﴿خَتَمَ﴾: طبَع على الشَّيء ووسَمه، وسدَّه وربَطَه، والخاتِم بمنزلة الطَّابع[(٢)].

﴿غِشَاوَةٌ﴾: غِطاء وسَاتر، مِن غشِيَ الشَّيءَ، أي: غَطَّاه وستَرَه[(٣)].

مشكل الإعراب:

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ﴾ سواء مبتدأ مرفوع، وأأنذرتهم خبره، وجملة ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ...﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾. ويجوز أن يكون ﴿سَوَاءٌ﴾ خبرَ إنَّ، وما بعده مرفوع بفِعله وسدَّت هذه الجملةُ مسدَّ الخبر، والتقدير: يَستوي عندهم الإنذارُ وتركُه. ويجوز أنْ يكون خبرُ إنَّ قولَه: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وما بينهما اعتراض. وقيل غير ذلك[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٥-٢٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٩).

(٤) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٧٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٢١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١/ ١٠٥).

المعنى الإجمالي:

يُخبِر الله عزَّ وجلَّ عن الكافرين، بأنَّ الإنذار وعدمَه عندهم سِيَّانِ، فهم سواء أُنذروا أم لم يُنذَروا، لا يُصدِّقون بما جاءهم به محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ من الحق؛ وذلك أنه قد طبَع الله على قلوبهم وسمعِهم؛ فلا ينفعهم الهُدى، وجعَل على أبصارهم غطاءً، فلا يُبصرون ما يَهديهم، وجزاء هؤلاء الكافرين عذابُ النار.

تفسير الآيات:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ(٦)﴾.

أي: إنَّ هؤلاء الذين كفروا، يتساوى في حقِّهم كِلا الأمرين، الإنذارُ وعدمه، فهم في كِلا الحالين لا يؤمنون بما جِئتَهم به- يا أيُّها الرسولُ- من الحقِّ[١].

﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(٧)﴾.

﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾.

أي: طَبَع اللهُ عليها، فلا يَنتفعون بهُدى[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٢٦٢-٢٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١، ٤٢).

وقد نصَّ ابن تَيميَّة على أنَّ هذا حالُ الكفَّار ما داموا على كُفرهم؛ بسبب موانعَ تمنعهم من الإيمان، وإلَّا فإنَّ إيمانهم ممكنٌ إذا زالت تلك الموانع، بإذن الله تعالى. يُنظر: ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (١٦/ ٥٨٤-٥٨٩)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩١).

ونصَّ كثيرٌ من المفسِّرين على أنَّ الآية خاصَّةٌ بقوم معيَّنين استمروا على كفرهم، وإلا فإنَّ هنالك من الكفار من آمن بعد نزول هذه الآية. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٢٥٨-٢٥٩)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٤٨).

(٢) قال القرطبيُّ: (الأمَّة مجمِعة على أنَّ الله تعالى قد وصف نفسَه بالختم والطَّبع على قلوب الكافرين؛ مجازاةً لكفرهم، كما قال تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥]) ((تفسير القرطبي)) (١/ ١٨٧). =

﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾.

أي: عليها غِطاء، فلا يُبصرون هُدًى[1].

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

أي: عذابُ النَّار[2].

الفَوائِد التربويَّة:

على المسلم أن يتفقَّدَ قلبَه؛ فهو محلُّ الوعي، ومَن لا يشعُر بالخوف عند الموعظة، ولا بالإقبال على الله تعالى، فإنَّ فيه شَبهًا من الكفَّار الذين لا يتَّعظون بالمواعظ، ولا يُؤمِنون عند الدَّعوة إلى الله عزَّ وجلَّ، كما قال سبحانه عنهم: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾[3].

الفَوائِد العلميَّة واللَّطائف:

١- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ...﴾، تسليةٌ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ حين يردُّه الكفَّار، ولا يَقبلون دعوتَه[4].

٢- في قوله سبحانه: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾، قيل: جَمَع القلوب والأبصار، ووحَّد السَّمع لوجوه:

أحدها: أنه وحَّد السَّمع؛ لأنَّ لكلِّ واحد منهم سمعًا واحدًا، كما يقال: أتاني برأس الكبشين، يعني رأس كلِّ واحد منهما، يُقال ذلك إذا أُمِن اللبس.

= يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٢٦٥-٢٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٧٤-١٧٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٢٦٩-٢٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٧).

الثاني: أنَّ السَّمع مصدرٌ في أصله، والمصادر لا تُجمع، يقال: رَجُلان صَوْمٌ، ورجالٌ صَومٌ، فرُوعي الأصل؛ ومما يدلُّ على ذلك جمع الأذن في قوله: ﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ [فصلت: ٥].

الثالث: أن نُقدِّر مضافًا محذوفًا، أي: وعلى حواسِّ سمعهم.

الرابع: أنَّ ما قبل لفظ السَّمع وما بعدَه ذُكر بلفظ الجمع، وذلك يدلُّ على أنَّ المراد منه الجمع أيضًا[١].

بلاغة الآيات:

١- في قوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

- في قوله: ﴿أأنذرتهم﴾ عدَل عن المصدر (إنذارهم) إلى الفعل؛ لما فيه من إيهام التجدد[٢].

- في قوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ﴾ حسُن دخول الهمزة، و(أَمْ)؛ لتقرير معنى الاستواء وتأكيده[٣].

٢- قال تعالى: ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ في قوله: ﴿وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ تكرَّر حرْف الجر؛ لتأكيد المعنى؛ فهم لا يَسمعون حقَّ السَّمع[٤].

٣- قوله: ﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ جاءت ﴿غِشَاوَةٌ﴾ نكرة؛ للتفخيم والتهويل، وليفيد أنَّ على أبصارهم نوعًا من الأغطية غير ما يتعارفه الناس، وهو غطاءُ التعامي عن آيات الله تعالى[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢/ ٢٩٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (١/ ٤١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤١).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١/ ٩٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٣٨).

٤- في قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ تنكير ﴿عَذَابٌ﴾؛ للتفخيم والتهويل والمبالغة، وللإشارة إلى أنَّه نوعٌ منه مجهول الكمِّ والكيف. ووصفُه بـ﴿عَظِيمٌ﴾؛ لتأكيد ما يُفيده التنكيرُ في ﴿عَذَابٌ﴾، ولدفْع الإيهام بقلَّته ونُدرته، ولتأكيد أنَّه بالغٌ حدَّ العظمة، وأنَّ لهم من بين الآلام العِظام نوعًا عظيمًا لا يعلم كُنهَه إلا الله[1].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٣)، ((تفسير أبي حيَّان)) (١/ ٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٣٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٢٩).

الآيات (٨-٢٠)

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ
ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ
فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا
تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ
وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ
ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟
ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ
بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا
رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ
أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ
عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ
أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ
يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ
لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿يُخَادِعُونَ﴾: أي: يُظهِرون غير ما في نُفوسهم. وأصل الإخداع: إخفاء الشَّيء(١).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٦١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٠). ويُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيميَّة (٦/ ١٩).

﴿مَرَضٌ﴾: أي: شكٌّ ونفاق، وأصلُ المرض: الفُتور، والخروج عن الاعتدال الخاصِّ بالإنسان(١).

﴿السُّفَهَاءُ﴾: أي: الجهلة، وأصل السَّفه: الجَهْل، والخفَّة في البَدن والعقل، والضَّعْف والحُمق، واستُعمل في خِفَّة النفس؛ لنُقصان العقل (٢).

﴿شَيَاطِينِهِمْ﴾: رؤوسهم في الكفر ومردتهم، جمْع شيطان، وهو كلُّ عاتٍ متمرِّد من الجنِّ والإنسِ والدواب، وأصلُه من: شَطَن، إذا تباعد؛ وذلك لبعده عن رحمة الله أو الخير، وقيل: أصله مِن شَاطَ إذا احترَق(٣).

﴿طُغْيَانِهِمْ﴾: عُتُوِّهِم وتكبُّرهم، أو غيهم وكُفْرهم، وأصل الطُّغيان: مجاوزة الحدِّ(٤).

﴿يَعمهون﴾: يتَحيَّرون ويجورون عَن الطَّرِيق؛ فأصل العَمَهِ: التردُّد في الأمْر من التحيُّر(٥).

﴿صُمٌّ﴾: الصَّمَمُ: فقدانُ حاسَّة السَّمع، وبه يُوصَف مَن لا يُصغِي إلى الحقِّ ولا يَقبله، وأصله: الصَّلَابة، وقيل: السدُّ(٦).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥١).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٨٤) (٣/ ٢٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٢).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٨٨) ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤) ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٢).

(٦) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣ / ٢٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (١ / ٥٣).

﴿بُكْمٌ﴾: جمع أَبْكَم، وهو الذي يُولَد أخرس؛ فكلُّ أبكمَ أخرسُ، وليس كلُّ أخرس أبكمَ، والبَكَم: آفة في اللِّسان مانعةٌ من الكلام(١).

﴿كصَيِّبٍ﴾: أي مطر، مأخوذٌ من الصَّوب، وأصل الصَّوْب: النُّزُولُ؛ سمِّي به المطر لأنَّه ينزل من السَّماء(٢).

﴿الصَّوَاعِق﴾: جَمْع صاعِقة، وهي النَّار التي تنزل من السَّماء عندَ اشتداد الرَّعد، وقيل: الصَّوت الشديد من الجوِّ، والوَقعُ الشَّديدُ منَ الرَّعْدِ، أو كلُّ عذاب مُهلك (الموت، والعذاب، والنار)، ومنه: صَعِق، إذا مات، وأصل صعق: يدلُّ على شِدَّة الصَّوت(٣).

﴿يَخْطَفُ﴾: يختلس بسرعة، أو يأخذ الشيء بسرعة(٤).

المعنى الإجمالي:

يُخبر الله عزَّ وجلَّ في هذه الآيات عن صِنف من الناس، يدَّعون بألسنتهم أنَّهم مؤمنون بالله، وبالبعث يومَ القِيامة، وهم مع ذلِك غيرُ مقرِّين بالإيمان حقيقةً بقلوبهم، وهم بفِعلهم هذا يَقصِدون مخادعةَ الله والذين آمنوا بادعاء الإيمان لأنفسهم، وإخفاءِ كُفرِهم، لكن بيَّن الله سبحانه أنَّ ما يقومون به ما هو إلَّا خديعة

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٨٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (١ / ٥٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣١٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٤-٤٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٣).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٩٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٦).

لأنفسهم، وذلك بِخذلان الله لهم في الدَّارينِ، وهم لا يحسُّون بأنَّهم هم المخدوعون.

في قلوب هؤلاء الصِّنف شكٌّ ونفاق، فزادهم الله شكًّا إلى شكِّهم، ونِفاقًا إلى نفاقهم، ولهم مع ذلك عذاب موجِع؛ جزاءً لكذبهم وإظهارِهم غيرَ الحقيقة، ولتكذيبهم لله تعالى ولرسولِه صلَّى الله عليه وسلَّمَ.

وإذا قيل لهؤلاء المنافقين: لا تُفسدوا في الأرض بالمعاصي، والنِّفاق والكُفر، واتِّخاذ الكافرين أولياءَ، قالوا: ما نقومُ به هو الإصلاح! وكذَبوا في ذلك، بل هم بعيدون عن الإصلاح، بكُفرهم ومعاصيهم، ومع هذا لا يدرون أنَّ ما يقومون به هو فسادٌ في الحقيقة.

وإذا قيل لهؤلاء المنافقين: آمنوا بمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وبما جاء به من ربِّه، كما آمن به أصحابُه رضي الله عنهم، قالوا أنؤمن كما آمن ضعفاء الرأي والعقولِ، ونفعل كما فعلوا؟!- يقصدون بذلك أصحابَ محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام- فأخبرهم الله تعالى أنَّهم هم ضعفاءُ العقول والرأي؛ فهم السُّفهاء في واقِع الأمر، ومع ذلك لا يعلمون بحقيقةِ سفههم.

وإذا لقِي هؤلاء المنافقون المؤمنين أخبروهم- كذبًا- أنَّهم مؤمِنون أيضًا، وإذا انصرفوا إلى رُؤسائهم من سادات الكفَّار والمشركين، والمنافقين، وكانوا معهم في خَلوة، قالوا لهم: إنَّا ما زلنا معكم على دِينكم، إنما نحن ساخِرون بالمؤمنين حين نقول لهم: آمنَّا بالله وباليوم الآخِر.

ثمَّ أخبر الله سبحانه أنَّه يَستهزئ بهم؛ مقابلةً لاستهزائِهم بالمؤمنين، وذلك بأن يُجري عليهم ما على المؤمنين من الأحكام الظاهِرة، كعصمة دِمائهم وأموالهم، ثم في الآخِرة يَلقَون جزاءَهم الأليم وخْدَهم، بأن يُلقَوا في الدَّرك الأسفل من النار، فكان هذا استهزاءً بهم، ويُملي الله لهؤلاء المنافقين بأنْ يتركَهم في عُتوِّهم وتمرُّدهم

بالكُفر، يتردَّدون حيارَى ضُلَّالًا، لا يجدون سبيلًا للخروج ممَّا هم فيه.

هؤلاء الصِّنف من البَشر هم الذين أخذوا الضَّلالة وترَكوا الهدى، فخسِروا وما كانوا راشدين بفِعلهم هذا.

مثَل هؤلاء المنافقين في إيمانهم ثمَّ كُفرهم بعد أن تبيَّن لهم الحق، كمَثَل مَن أوقد نارًا؛ لتضيءَ له، وينتفع بها، فلمَّا أنارتِ النارُ ما حول المستوقِد، فأبصر ما ينفعُه وما يضرُّه، خمَدت النار، وانطفأ النور، فذهب عنهم ما ينفعهم، وهو النور، وبقي ما يضرُّهم وهو الإحراقُ والدُّخَان، هؤلاء المنافقون صمٌّ لا يَسمعون هُدًى، وبكمٌ لا ينطِقون به، وعميٌ لا يُبصرونه بقلوبهم؛ فهم لذلك لا يعودون إلى الهُدى الذي باعوه بالضَّلالة.

وضرَب الله مثلًا آخَر لصنف آخر من المنافقين، وهو كصاحب مطرٍ منحدرٍ من السَّماء، فيه ظلماتٌ- هي ظلمة اللَّيل، وظلمة السَّحاب، وظلمة المطر- ورَعْد وبَرْق، كلَّما سمعوا صوت صاعقة، غطوا آذانهم بأصابعهم، يتَّقون بذلك سماعَ أصوات الصَّواعق المدوية، حذرًا من أن تصيبَهم فيموتوا، والله محيطٌ بهم قُدرةً وعلمًا؛ فلا يُعجِزونه، ولا يُغني عنهم حذرُهم شيئًا، يوشك البرقُ لشدَّة لمعانه وضعف أبصارهم، أن يَذهب بها فيُعميَها، كلَّما ظهرَ لهم نورُ البرق مشَوْا خُطوات، فإذا أظلم ما حولهم بتوقُّف البرق وقَفوا، ولو أراد الله لأخَذَ أسماعهم وأبصارهم، والله ذو قُدرةٍ بالغة على كلِّ شيء؛ فلا يُعجزه أمر أبدًا.

والمراد بهذا المَثَل أنَّ المنافقين إذا سمِعوا القرآن، وتُليت عليهم تكاليفُه ووعيدُه، وما فيه، اتَّقَوا سماع آياته؛ خوفًا من أن يحلَّ بهم الوعيد، وإشفاقًا من عقوبة نِفاقهم، سواء في الدُّنيا أو في الآخِرة، ولن ينفعهم اتقاؤُهم؛ فالله سبحانه محيطٌ بهم قدرةً وعلمًا، يوشك شدَّةُ نور القرآن بما تضمَّنه من البراهين القويَّة أن يرى معه هؤلاء المنافقون الحقَّ واضحًا، لكن لضعف بصائرهم لا يَستفيدون من

ذلك النور، ومع ذلك كلَّما أضاء لهم نورُ الحقِّ، أو لَمع في قلوبهم، مشَوا على ضوئه خطواتٍ قليلةً في سبيل الانقياد للحقِّ، لكن لا يمكُث ذلك الحقُّ في قلوبهم التي أظلمتْ بالشُّبهات والشكوك القوية أن يَخفِت فتعود لظُلمتها، فيقِفوا حائرين، ثم توعَّدهم الله بإذهاب أسماعهم وأبصارهم؛ عقوبةً لهم على نفاقهم وكُفرهم، والله ذو قُدرة بالغةٍ على كلِّ شيء.

تفسير الآيات:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ(٨)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لما تقدَّم وصفُ المؤمنين في بداية السورة بأربع آيات، ثم عرَّف الله تعالى حال الكافرين بآيتيْن، شرع سبحانه في بيان حال المنافقين الذين يُظهرون الإيمان ويُبطنون الكفر، ولما كان أمرهم يشتبه على كثيرٍ من الناس؛ أطنب في ذكرهم بصفاتٍ متعددة، كُلٌّ منها نفاق[1] فقال تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

أي: إنَّ المنافقين يقولون بألسنتهم: آمنَّا بالله، وبالبعث يومَ القيامة، قولًا مجرَّدًا ليس معه إيمانٌ حقيقيٌّ[2].

﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: ليسوا بمقرِّين بحقيقةِ الإيمان بقلوبهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٧٦).

(٢) قال ابنُ جَرير: (أجْمع جميعُ أهل التأويل على أنَّ هذه الآية نزلتْ في قوم من أهل النِّفاق، وأنَّ هذه الصِّفةَ صفتُهم) ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٢٧٥)، ويُنظر (١/ ٢٧٨-٢٧٩) منه، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٧٦-١٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٧٧).

كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].

﴿يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ (٩)﴾.

﴿يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾

بإظهارِهم الإيمانَ، وإبطانهم الكفرَ[١].

كما قال سبحانه: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨].

﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ﴾ قراءتان:

١- (وما يُخَادِعُون) قيل: على معنى أنَّ الخِداع وقع من اثنين، فهو واقعٌ منهم وإليهم؛ إذ خدَعوا أنفسهم، وأنفسهم خدَعتْهم[٢].

٢- (وَمَا يَخْدَعُونَ) قيل: على معنى أنَّ الخداع وقع من طرفٍ واحد، فهو واقعٌ منهم على أنفسهم[٣].

﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

أي: إنَّ هؤلاء المنافقين مخدُوعون في الحقيقة بصَنيعهم الذي يَحسَبون أنهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٧٧).

(٢) قرأ بها: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٠٧).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٨٧)، ((تفسير أبي حيَّان)) (١/ ٩٣).

(٣) قرأ بها: الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٠٧).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٩٣).

يخادعون به ربَّهم والمؤمنين، وذلك بخِذلان الله تعالى لهم في الدُّنيا والآخِرة، وهم مع ذلك لا يَدرُون بأنَّهم مخدوعون[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢][٢].

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠)﴾.

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا﴾.

في قلوبهم شكٌّ ونفاق؛ فزادهم اللهُ تعالى شكًّا ونفاقًا.

فالجزاءُ من جِنس العمل، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥][٣].

﴿وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: ﴿يَكْذِبُونَ﴾ قِراءتان:

١- (يَكْذِبُون) بالتَّخفيف، أي: إنهَّم كاذبون في قولهم: ﴿آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾[٤].

٢- (يُكَذِّبُون) بالتَّشديد، أي: يكذِّبون النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ والقرآن مرَّةً بعد مرَّة، ومن كذَّب بذلك، فقد كَذَب[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٢٨٠-٢٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١١).

(٣) نقل الإجماع على أن المراد بالمرض هنا: الشك: ابن جرير، في ((تفسيره)) (١/ ٢٨٦-٢٨٧)، والواحدي في ((التفسير الوسيط)) (١/ ٨٧).

ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٧٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٤٢).

(٤) قرأ بها: عاصم، وحمزة، والكسائيُّ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٠٧).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص:٨٨)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٢٢٨).

(٥) قَرَأَ بها: الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٠٧).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٦٨-٦٩)، ((حجة =

﴿وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾.

أي: لهم عذابٌ مؤلِم، أي: موجِع؛ بسبب كذِبهم في دعواهمُ الإيمانَ، وبسبب تكذيبهم لله تعالى ورسولِه عليه الصَّلاة والسَّلام(١).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١)﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ﴾.

أي: إذا قيل للمنافقين: لا تفسدوا في الأرض، بمعصية الله تعالى، وبالنِّفاق والكفر، واتِّخاذ الكافرين أولياء، والصَّدِّ عن سبيل الله، والتعويقِ عن طاعتِه وطاعةِ رسوله صلَّى الله عليه وسلَّم، والإرجافِ... إلى غير ذلك(٢).

﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾.

يدَّعون أنَّ ما يفعلونه من الفَساد، إصلاحٌ(٣).

﴿أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَـكِن لَّا يَشْعُرُونَ (١٢)﴾.

أي: هم المخالِفون في الحقيقة أمرَ الله عزَّ وجلَّ بالكُفر والمعاصي، ولكن لا يَدْرُون ولا يَفطنون إلى أنَّ ما يفعلونه هو فسادٌ في الحقيقة(٤).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاء أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء وَلَـكِن لَّا يَعْلَمُونَ (١٣)﴾.

= القراءات)) لابن زنجلة (ص:٨٨)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٢٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٢٩١-٢٩٣)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٧/ ١٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٢٩٨-٢٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٠٠)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٧/ ٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾.

أي: إذا قِيل للمنافقين: آمنوا بمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وبما جاءَ به من عند الله عزَّ وجلَّ، كما آمن أصحابُ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وكلُّ مَن آمن به[1].

﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾.

أي: يقولون: أنؤمِنُ كما آمَن ذوو الجهل وضعف الرأي وقلة المعرفة بالمصالح والمفاسد- يعنون الصحابة رضوان الله تعالى عليهم- فنكون نحن وإيَّاهم على طريقةٍ واحدة[2]؟!

﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء وَلَـكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾.

أي: هُم السُّفهاء في الحقيقة، فليست لديهم معرفةٌ صحيحةٌ لإقامة نفعٍ حقيقي؛ حيث يُفسِدون في الأرض، ويظنُّون أنَّ ذلك هو عينُ الإصلاح، وهذا هو السَّفَه[3].

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ (١٤)﴾.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾.

أي: إذا لقِي المنافقون المؤمنين، أظْهَروا لهم الإيمانَ نفاقًا[4].

﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾.

أي: إذا انصَرفوا إلى رُؤسائهم، من سادات الكفَّار والمشركين والمنافقين، خالِين بهم[5].

---

(١) حكى الواحديُّ إجماع المفسِّرين على أن المراد بالنَّاس في هذه الآية أصحابُ محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ والذين آمنوا به. يُنظر: ((التفسير الوسيط)) (١/ ٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٠٢-٣٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٠٤-٣٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٨١-١٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٠٦-٣١١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٨٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٠٦)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تَيميَّة (٥/ ١٨٨)، =

﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾.

أي: نحن معكم على دِينكم، ومِن ذلك التكذيبُ بمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، ومعاداتُه، ومعاداةُ أتباعه، والسُّخريةُ بهم بقولهم لهم: ﴿آمَنَّا بالله وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾[1].

﴿اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥)﴾.

﴿اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى أجْرى لهم ما للمؤمنين من الأحكام الظاهِرة، كعِصمة دِمائهم وأموالهم، لكنَّه سبحانه يُميِّز بينهم وبين المؤمنين في الآخِرة، ويُلقي بهم في الدَّرك الأسفل من النار، فكان ذلك استهزاءً بهم[2].

وهذا من الله سبحانه مقابلة لهم على استهزائهم بالمؤمنين؛ فالجزاء من جنس العمل.

كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩].

﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

أي: يَزيدهم على وجه الإملاءِ، والتَّرْك لهم في عتوِّهم وتمرُّدهم بالكُفر، يتردَّدون

= ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٨٢-١٨٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٤٤).

(١) حكى ابنُ جَرير الإجماع على أنَّ معنى قوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ إنَّما نحن ساخِرون. ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣١١).

ويُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (ص: ٩٠)، ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيميَّة (٦/ ٢٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣١٥-٣١٦)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٢٠/ ٤٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٨٣-١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ١٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٦).

حيارَى ضُلَّالًا، لا يجدون إلى المخرَج من ذلك سبيلًا[1].

﴿أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦)﴾.

﴿أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى﴾.

أي: استعاضوا بالضَّلالة عن الهُدَى[2].

﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

أي: خسِر المنافقون بأخْذهم الضَّلالةَ، وتركِهم الهُدى؛ وما كانوا راشدين بصَنيعهم هذا[3].

ثم ضرب الله لهم مثلًا يصوِّر حالهم، فقال:

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ (١٧)﴾.

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً﴾.

أي: مثَل المنافقين الذين آمَنوا أو أظهروا الإيمان ثم كفَروا، كمثَل مَن أوقَد نارًا؛ لتضيءَ له، وينتفعَ بها، والمراد بذلك تشبيههم بأنَّهم آمنوا أو أظهروا الإيمان[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣١٩-٣٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣).
وممَّن فسَّر قوله تعالى: (يمدُّهم) بـ يَزيدهم: أبو العالية. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٤٨).
وممَّن فسَّر طُغيانهم بكفرِهم: ابن عبَّاس، والسُّدي. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٤٩).
وممَّن فسر يَعمهون بـ يتردَّدون: ابن عبَّاس، ومجاهد، وأبو مالك، وأبو العالية، والرَّبيع بن أنس. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٨٥-١٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٨٦).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٧/ ٢٧٦)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٧٠). =

﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾.

أي: أنارتِ النارُ ما حولَ المستوقِد، فأبصر بها ما ينفعُه ويَضرُّه[١]، والمراد بذلك أنَّهم أبصَروا الحقَّ[٢]، أو أنهم انتفعوا بها انتفاعًا مؤقَّتًا، حيثُ حقنوا دماءَهم، وأحرزوا أموالَهم[٣].

﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾.

أي: خَمَدت النار، وانطفأ النور، فذهب عنهم ما يَنفعُهم وهو النور، وبقِي لهم ما يضرُّهم وهو الإحراقُ والدُّخَان؛ ذلك بأنَّهم كفروا بعد إيمانهم، فبقِيت في قلوبهم حرارةُ الكفرِ والشُّكوكِ[٤].

﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

أي: بقُوا في عِدَّة ظلمات، منها: ظُلمة اللَّيل، والظُّلمة الحاصِلة بعد فقْد النور، وهي أشدُّ من الظُّلمة الأُولى، والمراد: ما أصْبَحوا فيه من ظُلمات الكُفر، والشُّكوك، والنِّفاق[٥].

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨)﴾.

= وممَّن ذهَب إلى نحو هذا القول من السَّلف: مجاهد، وأبو العالية، والرَّبيع بن أنس، وعبد الرحمن ابن زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٤٠) ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٥٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٨٦).

(٢) وهذا اختيار ابن القيم في ((إعلام الموقعين)) (١/ ١٥١)، وابن كثير في ((تفسيره)) (١/ ١٨٦- ١٨٨)، وابن عثيمين في ((تفسير الفاتحة والبقرة)) (١/ ٦٥).

(٣) وهذا اختيارُ ابن جرير في ((تفسيره)) (١/ ٣٤٢)، والواحدي في ((التفسير الوسيط)) (١/ ٩٣-٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٤٢)، ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٠٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٦٣).

وممَّن رُوي عنه هذا القول من السَّلف: ابن عبَّاس في إحدى الرِّوايات عنه، والسُّدِّي، والضحَّاك. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٨٩).

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾.

أي: لا يَسمعون هُدًى، ولا يَنطِقون به، ولا يُبصرونَه بقلوبِهم[1].

كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وقال سُبحانه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣].

﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾.

أي: لا يَعودُون إلى الهُدى الذي باعوه بالضَّلالة[2].

ثم ضرب الله لهم مثلًا آخرَ، فقال:

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ واللهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩)﴾.

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾.

﴿أَوْ﴾ هنا للتنويع، فبعض المنافقين يشبه المثل الأول، وبعضهم يشبه هذا المثل الثاني، فضربه الله تعالى هاهنا لصنفٍ آخر من المنافقين[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٨٧، ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٤٨)، ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (ص: ٢١، ٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٨٧).

وممَّن ذهب إلى هذا القول من السَّلف: ابن مسعود، وابن عبَّاس في إحدى الرِّوايات عنه، وغيرهما من أصحاب رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ، و قتادة، والرَّبيع بن أنس والسُّدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٥٣).

(٣) ذهب ابن تيمية في ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٧/ ٢٧٦)، وابن كثير في ((تفسيره)) (١/ ١٨٩)، وابن عثيمين في ((تفسير القرآن الكريم.الفاتحة-البقرة)) (١/ ٦٦)، إلى أن ﴿أو﴾ هنا للتنويع، أي أن بعض المنافقين يشبه المثل الأول، وبعضهم يشبه المثل الثاني. =

والمرادُ بالصيِّب: القرآنُ الذي نزَل من عند الله تعالى، والذي يُظهر المنافقون بألسنتِهم إيمانَهم به(١).

﴿فِيهِ ظُلُمَاتٌ﴾.

هي ظُلمة اللَّيل، وظُلمة السَّحاب، وظُلمة المطر، والمرادُ: ما عليه المنافقون من الشكِّ، والكُفر، والنِّفاق(٢).

﴿وَرَعْدٌ﴾.

المراد به: وعيدُ القرآن وزواجره، وأوامِره ونواهيه(٣).

فهُم منها في حالِ خوفٍ وفزعٍ شديد، كقوله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]، وقال: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ * لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ [التوبة: ٥٦-٥٧].

﴿وَبَرْقٌ﴾.

= قال ابن كثير: (وذهب ابن جرير الطبري ومن تبعه من كثير من المفسرين أن هذين المثلين مضروبان لصنف واحد من المنافقين وتكون «أو» في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ بمعنى الواو، كقوله تعالى: ﴿وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤]، أو تكون للتخيير، أي: اضرب لهم مثلًا بهذا وإن شئت بهذا، قاله القرطبي. أو للتساوي مثل جالس الحسن أو ابن سيرين، على ما وجهه الزمخشري: أن كلًّا منهما مساوٍ للآخر في إباحة الجلوس إليه، ويكون معناه على قوله: سواء ضربت لهم مثلًا بهذا أو بهذا فهو مطابقٌ لحالهم) ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٩٤). يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٥٤-٣٥٦)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١/ ٢١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٦٩)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٧/ ٢٧٦)، ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عُثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ٦٦).
ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٥٤، ٣٧٤)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٧٤)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٩٠).

المراد به: حُججُ القرآن وبراهينه التي تُبهرهم[١].

﴿يَجْعَلُونَ أَصْابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ﴾.

﴿الصَّوَاعِقِ﴾.

المرادُ بها: آياتُ القرآن التي تتضمَّن التكاليفَ الشرعيَّة، والوعيدَ، وغيرَه[٢].

﴿يَجْعَلُونَ أَصْابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ﴾.

أي: يضعون أصابعَهم في آذانِهم؛ كي يتَّقوا سماعَ أصوات الصَّواعق، والمرادُ: أنَّهم يتَّقون سماعَ زواجر القُرآن الكريمِ ووعيده[٣].

﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾.

أي: حذرًا من حلول الوعيد الذي توعَّدهم اللهُ به في القُرآن، وإشفاقًا من حلول عُقوبةِ الله بهم على نِفاقِهم؛ إمَّا عاجلًا في الدُّنيا، وإمَّا آجلًا في الآخِرة[٤].

﴿واللهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ﴾.

أي: محيطٌ بهم قدرةً وعلمًا، فلا يُعجِزونه، ولا يُغني عنهم حذرُهم شيئًا[٥].

﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاء لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٧٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٩٦)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣١٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٧٥-٣٧٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٩٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١/ ٢١٩)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٧٥-٣٧٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٤)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٧٦-٣٧٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٦٩).

قَامُوا وَلَوْ شَاء اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)﴾.

﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾.

أي: يوشك البَرقُ من شِدَّة لَمَعانه، وقوَّة ضيائه -مع ضَعْف أبصارهم- أنْ يذهب بها فيُعميها، والمرادُ: أنَّ شِدَّة نور القرآن- بما يحويه من حُججٍ وبراهينَ ساطعة، يرَون معها الحقَّ واضحًا جدًّا- لا تتحمَّله بصائرُهم الضَّعيفة[1].

﴿كُلَّمَا أَضَاء لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾.

أي: إذا ظهر لهم نورُ الحقِّ، ولَمَع في قلوبِهم مشَوْا على ضوئِه، وخطَوا خُطواتٍ يسيرةً، لكنَّه لا يستقرُّ في قلوبهم المظلِمة بالشُّبهات والشكوك القويَّة، فلا يلبَث أن ينطفِئ، فيقفون حائرين! عائدين إلى تكذيبهم، فهُم في هذه الحال في شكٍّ وتردُّد[2]!

﴿وَلَوْ شَاء اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾.

هذا تهديدٌ ووعيدٌ لهم بإذهاب أسماعِهم وأبصارهم؛ عقوبةً لهم على نِفاقهم وكُفرهم[3].

﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: ذو قُدرةٍ على إيقاع ما أوعد به هذا الصِّنفَ من المنافقين، فلْيحذروا نِقمةَ الله وعذابَه عاجلًا أو آجلًا؛ فإنَّه سبحانه وتعالى لا يُعجزه شيءٌ أبدًا[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٧٨-٣٧٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٩٧)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣١٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ١٦).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٩٧)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٠٤)، ((الوابل الصيب)) (ص: ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٨١)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٨٤)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٩٧)، ((تفسير =

الفَوائِد التربويَّة:

١- أنَّ مجرد القول باللِّسان لا ينفع الإنسانَ، فلا بدَّ أن يتطابق القلبُ، واللِّسان على الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾. فهنا نفَى اللهُ عنهم الإيمانَ، فدلَّ على أنَّ حقيقة الإيمان ليس مجرد الإقرار باللسان[1].

٢- التحفُّظ من المنافقين فقد قال تعالى عنهم: ﴿يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ (٩)﴾؛ لأنَّه إذا قيل لك: (فلان يخدع) فإنَّك تزداد تحفظًا منه، وأنَّه ينبغي للمؤمن أن يكون يقظًا حذِرًا؛ فلا ينخدع بمِثل هؤلاء[2].

٣- أنَّ المكر السيِّئ لا يحيق إلَّا بأهله؛ فالمنافقون يُخادعون الله، ويظنُّون أنَّهم قد نجحوا، أو غلَبوا، ولكن في الحقيقة أنَّ الخداع عائدٌ عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾، فالحصر هنا يدلُّ على أنَّ خداعهم هذا لا يضرُّ الله تعالى شيئًا، ولا رسولَه، ولا المؤمنين[3].

٤- أن الإنسان إذا لم يكن له إقبال على الحق، وكان قلبه مريضًا فإنه يعاقب بزيادة المرض؛ لقوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا﴾[4].

٥- أنَّ أسبابَ إضلال الله العبدَ هي من العبد؛ لقوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمْ اللهُ مَرَضًا﴾[5].

= القرطبي)) (١/ ٢٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤).

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٨٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٤١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٤).

(٥) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٤٤).

٦- أنَّ من أعظم البلوى أن يُزَيَّن للإنسان الفسادُ، حتى يَرى أنَّه إصلاح؛ لقولهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾(١).

٧- أنَّه ليس كلُّ مَن ادَّعى شيئًا يُصدَّق في دعواه؛ لأنَّهم قالوا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾، فقال الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾، وليس كل ما زيَّنته النفس يكون حسنًا، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [فاطر: ٨](٢).

٨- العمل السيِّئ قد يُعمي البصيرة؛ فلا يَشعُر الإنسان بالأمور الظاهِرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾(٣).

٩- أن يُذكرَ للمدعوِّ من استجاب من الناس للحقِّ؛ ليكون ذلك مشجِّعًا له على قَبوله، لقوله تعالى: ﴿آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾(٤).

١٠- أنَّ الإنسان قد يظنُّ أنه أحسنَ عملًا وهو قد أساء؛ لأنَّ هؤلاء اشترَوُا الضلالة بالهدى؛ ظنًّا منهم أنَّهم على صواب، وأنهم رابِحون؛ فقال الله تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ﴾(٥).

١١- أنَّ للإيمان نورًا، وله تأثيرٌ حتى في قلب المنافق؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾(٦).

١٢- أنَّه ينبغي للإنسان أن يسألَ اللهَ عزَّ وجلَّ أن يُمتِّعه بسَمْعه، وبصره؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾(٧).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٤٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٩).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٦٠).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٦٥).
(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٧١).

الفوائد العلميَّة واللَّطائف:

١- قال السَّعديُّ في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾: (هذا من العجائب؛ لأنَّ المخادع، إمَّا أن ينتج خداعه ويحصُل له ما يريد، أو يسلم، لا له ولا عليه، وهؤلاء عاد خداعُهم عليهم، وكأنَّهم يعملون ما يعملون من المكر لإهلاكِ أنفسِهم، وإضرارها وكيدها؛ لأنَّ الله تعالى لا يتضرَّر بخداعهم شيئًا، وعباده المؤمنون لا يضرُّهم كيدُهم شيئًا، فلا يضرُّ المؤمنين أنْ أظهر المنافقون الإيمان، فسلمتْ بذلك أموالُهم، وحُقِنت دماؤهم، وصار كيدُهم في نحورهم، وحصَل لهم بذلك الخزيُ والفضيحة في الدُّنيا، والحزن المستمرُّ؛ بسبب ما يحصُل للمؤمنين من القوَّة والنصرة، ثم في الآخِرة لهم العذاب الأليم الموجع المفجِع؛ بسبب كذبِهم وكفرِهم وفجورِهم، والحال أنَّهم مِن جهلهم وحماقتهم لا يشعرون بذلك)[١].

٢- أنَّ الحِكمة كلَّ الحِكمة إنَّما هي الإيمانُ بالله تعالى، واتِّباع شريعته؛ فإنَّ كلَّ من لم يؤمن بالله وخالف شريعته فهو سفيهٌ، فيقتضي أنَّ ضدَّه يكون حَكيمًا رشيدًا؛ وذلك لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾[٢].

٣- في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ إثباتُ صِفة الاستهزاء لله تعالى، وهي صفةٌ فعليَّةٌ خبريَّة، ثابتةٌ لله عزَّ وجلَّ، على وجه المقابَلَة والجزاء؛ لذا فهي صفة كمالٍ له سبحانه[٣].

٤- تأمَّل قوله تعالى: ﴿أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾، كيف جعَل ضوءها خارجًا عنه منفصلًا، ولو اتَّصل ضوءُها به ولابَسه لم يذهب، ولكنه كان ضوءَ مجاورة لا

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٥١).

(٣) يُنظر: ((الحجة)) لقوام السنة الأصفهاني (١/ ٨٦١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١١١)، ((مختصر الصواعق لابن القيم)) (٢/ ٤٣).

ملابسة ومخالطة، وكان الضوء عارضًا، والظلمة أصليَّة، فرجع الضوء إلى معدِنه، وبقيت الظلمةُ في معدنها، فرجع كلٌّ منهما إلى أصله اللائق به، حُجَّة من الله قائمة، وحِكمة بالغة، تَعرَّف بها إلى أُولي الألباب من عبادِه(١).

٥- تأمَّل كيف قال الله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ﴾ فوحَّده، ثم قال: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾ فجمَعها؛ فإنَّ الحق واحد، وهو صراط الله المستقيم، الذي لا صراطَ يُوصل إليه سواه، وهو عبادته وحْدَه لا شريك له، بما شَرَعه على لسان رسولِه، لا بالأهواء والبِدع وطرقِ الخارجين عمَّا بعث الله به رسوله من الهُدى ودِين الحقِّ، بخِلاف طرق الباطل؛ فإنَّها متعدِّدة متشعِّبة، ولهذا يُفرد سبحانه الحقَّ ويَجمع الباطلَ، كقوله تعالى: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧](٢).

٦- قيل: خصَّ جلَّ ذِكرُه السمعَ والأبصار بأنَّه لو شاء أذهبها من المنافقين دون سائر أعضاء أجسامِهم؛ للذي جرى من ذِكرها في الآيتين، أي: قوله: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ﴾ [البقرة: ١٩]، وقوله: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢٠]، فجرَى ذِكرها في هاتين الآيتين على وجه المَثَل(٣).

بلاغة الآيات:

١- في قوله تعالى حِكايةً عن المنافقين: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ صيغة قصر، من قصْر الموصوف على الصِّفة، وهو مفيد للحصر كالنفي والاستثناء، كأنهم قالوا: إنَّ شأننا ليس إلَّا الإصلاح، وإنَّ حالنا متمحِّضة عن شوائب الفساد(٤).

---

(١) يُنظر: ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (ص: ٢١).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٢٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (ص: ٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٢)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ٤٦)، ((البرهان)) للزركشي =

٢- في قوله: ﴿أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ تأكيدٌ على فَسادِهم، وردٌّ بليغ على ما ادَّعوه في قولهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ حيث قصروا أنفسهم على هذا الوصف، فجاء الرد بليغًا؛ فبدأ بجُملة استئنافيَّة اسميَّة؛ للدَّلالة على الثُّبوت، وافتتحها بـ﴿أَلَا﴾ التي تُفيد التنبيه إلى تحقُّق ما بعدها، و﴿إِنَّ﴾ التي للتأكيد وتقرير النسبة، وأتى بضمير الفصل ﴿هُمُ﴾، ثم تعريف الخبَر ﴿الْمُفْسِدُونَ﴾؛ لردِّ ما في قصْر أنفسهم على الإصلاح من التعريض بالمؤمنين. ومثلها في التَّأكيد قوله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفهاء﴾[1].

- ويحتمل ﴿هُمُ﴾ أن يكون تأكيدًا للضمير في ﴿إِنَّهُمْ﴾ وإن كان فصلًا[2].

٣- في قوله تعالى حِكايةً عن المنافقين: ﴿أَنُؤْمِنُ﴾ استفهام في معنى الإنكار، أو الاستهزاء[3]، والغرَضُ منه: قصْد التبري من الإيمان على أبلغِ وجْهٍ[4].

٤- قوله: ﴿لا يَشْعُرُونَ﴾ و﴿لا يَعْلَمُونَ﴾ فيه تغايرٌ في الفواصل، وهو من محاسنِ البلاغة، وله أسرارٌ عجيبة تظهر بتأمُّل السِّياق، وهنا لمَّا كان النِّفاق- وما فيه من بغي وفسادٍ يؤدِّي إلى اشتجار الفتنة- أمرًا دنيويًّا مبنيًّا على العادات، وهو معلوم عند الناس، بل بمنزلة المحسوس عندهم- قال فيه: ﴿لا يَشْعُرُونَ﴾. ولَمَّا ذَكَر السَّفه في الآية الثانية، وهو جهلٌ مطبِق كان ذِكرُ العلم أكثرَ ملاءمةً، فقال: ﴿لا يَعْلَمُونَ﴾[5]. فالفرق بين قوله تعالى هنا: ﴿وَلَكِنْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾، وقوله

= (٤/ ٢٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٨٥).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٤٤)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٨٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٨٧).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٣٦).

تعالى فيما سبَق: ﴿وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: أنَّ الإفساد في الأرض أمرٌ حِسيٌّ يدركه الإنسان بإحساسه وشعورِه، وأمَّا السَّفه فأمْر معنويٌّ يُدرَك بآثاره، ولا يُحَسُّ به نفسه؛ فنفَى اللهُ تعالى العِلمَ عن المنافقين؛ لكونهم سفهاءَ، بكلمة ﴿يَعْلَمُونَ﴾ دون ﴿يَشْعُرُونَ﴾؛ لأنَّ اتِّصافهم بالسَّفه ليس ممَّا شأنه الخفاء، حتى يكون العلمُ به شعورًا، ويكون الجهل به نفيَ شعور، بل هو وصفٌ ظاهِر لا يَخفَى(١).

٥- في قوله: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ تأكيدٌ شديدٌ على عدم إيمانهم؛ حيث عدَل عن الفِعل- فلم يقل: (وما آمنوا)- إلى الاسم؛ لإخراج ذواتهم من عِداد المؤمنين، وأكَّده بالباء؛ للمبالغة في نفْي الإيمان عنهم. وتسلُّط النفيِ على اسم الفاعل- الذي ليس مُقيدًا بزمان؛ ليشملَ النفيُ جميعَ الأزمان(٢).

٦- قوله: ﴿آمنَّا﴾ ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ فيه مفارقةٌ بين الجُمَل؛ حيث خاطَبوا المؤمنين بالجملة الفِعليَّة ﴿آمَنا﴾، وخاطَبوا شياطينَهم بالجملة الاسميَّة ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾؛ والجملة الاسميَّة أثبتُ من الجملة الفعليَّة؛ فدلَّ أن إيمانهم قصير المدى لا يَعْدو تحريكَ اللِّسان، أو مدةَ التقائهم بالمؤمنين، وأنَّ رُكونهم إلى شياطينهم دائمٌ ومستمر التجدُّد، وهو أعلقُ بنفوسهم، وأكثر ارتباطًا بما رسَخ فيها(٣).

٧- قوله: ﴿اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ أتى بالفِعل المضارع (يستهزئ)، ولم يقل: (مستهزئ) المطابق لقولهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ﴾؛ ليُفيد حدوث الاستهزاء وتجدُّده وقتًا بعد وقت، وهكذا كانتْ نكايات الله فيهم، وبلاياه النازِلة بهم(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٤٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (١/ ٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٤٠).
(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٣٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - مع حاشية ابن المنير)) (١/ ٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٩٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٠).

٨- (أولاء) في قوله: ﴿أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُا﴾ اسم إشارة، والمشار إليه المنافقون، وجاءتِ الإشارة بصيغة البُعد؛ لبُعد منزلة المنافِق سفولًا[١].

٩- قوله: ﴿نارًا﴾ جاءت مُنكَّرة؛ للتعظيم والتهويل[٢].

١٠- قوله: ﴿فَلَمَّا أَضَاءتْ.. ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ﴾ فيه مراعاةُ النَّظير، وهو التناسُب والائتلاف، حيث جمَع بين أمرٍ وما يُناسِبه؛ إذ قال: ﴿بِنُورِهِمْ﴾ ولم يقل: بضوئهم مقابلَ ﴿أضاءتْ﴾؛ لأنَّ ذِكْر النور أبلغُ؛ لأنَّ الضوءَ فيه دَلالةٌ على النُّور وزِيادة (وهو الحرارة والإحراق) كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]، فلو قيل هنا: (ذهَب الله بضوئهم)، لأوهم الذَّهاب بالزِّيادة وبقاءَ ما يُسمَّى نورًا، والغرَض إزالة النُّور عنهم رأسًا، وطَمْسه أصلًا، وليس إزالةَ الضوء الذي هو زائدٌ عن النور؛ فأذهب النور وبَقِيت الزِّيادة (الحرارة والإحراق)[٣].

والإتيان بحرف الجر الباء أفاد أنَّه لم يبقَ مَطمعٌ في عودة ذلك النور إليهم بالكلية، وهذا مِن أسمى ما يصِلُ إليه البيان[٤].

- وأيضًا ففيه سرٌّ بديع، وهو انقطاعُ سرِّ تلك المعية الخاصَّة التي هي للمؤمنين من الله تعالى؛ فإنَّ الله تعالى مع المؤمنين، وإنَّ الله مع الصابرين، وإنَّ الله مع الذين اتَّقوا والذين هم مُحسِنون؛ فذَهاب الله بذلك النورِ انقطاعٌ لمعيَّته التي خصَّ بها أولياءَه، فقطعها بينه وبين المنافقين، فلم يبقَ عِندهم- بعد ذَهاب نورِهم- ولا معهم، فليس لهم نصيبٌ من قوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، ولا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٦٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٧٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٧٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٥).
(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٥).

مِن: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢][١].

١١- قوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾ تنكير (صيِّب) للتعظيم، وإشارة إلى أنَّه نوعٌ من المطر، شديد هائل، كما نُكرت النَّار في التمثيل الأوَّل[٢].

١٢- وفي الآيات: حُسن تقسيم؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى ابتدأ هذه السُّورة بالمؤمنين الخُلَّص، ثم الكفَّار الخلَّص، ثم بالمنافقين؛ وذلك لأنَّ التقسيم ممَّا يزيد الإنسانَ معرفةً وفَهمًا، وهو من بلاغة القرآن[٣].

١٣- وفيها من محاسن البلاغَة: ضَرْبُ الأمثال المحسوسات للأمور المعقولاتِ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (١/ ٢٦١).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٧٨، ٨٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٦٤).

الآيات (٢١-٢٥)

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿أَندَادًا﴾: أي: شركاء أمثالًا، ونظراءَ، واحدهم نِدٌ[١]، والنِّدُّ هو النظير المُناوِئ[٢].

﴿وَقُودُهَا﴾: أي: حَطَبُها المجعول للوقود، اسم لِمَا يُوقد، وأصل (وقد): اشتعال النار[٣].

المعنى الإجمالي:

أمَر الله تعالى جميعَ النَّاس بعبادته؛ لأنَّه هو الذي أوجدهم من العَدم، لعلَّهم بعبادتهم هذه يصِلُون للتقوى؛ فهو سبحانه الذي جعَل لكم الأرضَ ممهَّدة

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٨).

(٢) يُنظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٣/ ٤٢٠)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٩/ ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٩).

كالفراش، موطأة مثبَّتة يستقرُّ عليها الإنسان، وجعَل السماءَ سقفًا، وهو سبحانه أنزل من السَّحاب مطرًا، فأنبت للناس أنواعًا من الثِّمار رزقًا لهم.

ثمَّ نهاهم عن الشِّرك، فقال: ولا تتَّخذوا- أيُّها الناسُ- لله سبحانه نظراءَ بزعمكم، تساوونهم معه في العبادة، وأنتم تعلمون أنَّه إلهٌ واحد، لا نِدَّ له، ولا شريكَ.

ثمَّ تحوَّل الخِطابُ إلى الكفَّار والمنافقين، فقيل لهم: إذا كنتم- أيُّها الكفار والمنافقون- في شكٍّ من كون القرآن مُنزَّلًا من عند الله سبحانه على محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فأْتُوا من عندكم بسورة من مِثل هذا القرآن، واستعينوا على ذلك بمَن تقدِرون عليه من أعوانكم وشُهدائكم، إنْ كنتم صادقين في زعْمِكم أنَّ القرآنَ كلامٌ مُختلَق.

فإنْ لم تأتوا بها تُحدِّيتم به، ولن تأتوا به أبدًا، فجنِّبوا أنفسكم النارَ التي وقودها الناسُ والحجارة، واتقوها بفِعل ما أُمرتم به، واجتنابِ ما نُهيتم عنه.

وأخْبِرْ يا نبيَّ الله، مَن جمعوا بين التصديقِ والإقرار والانقياد لما جئتَ به، والعملِ الصالح- أخبِرْهم بما يسرُّهم، وهو أنَّ لهم جزاءً أُخرويًّا هو جنَّات، تَجري الأنهارُ من تحت أشجارها وغُرَفها، كلَّما أُعطوا ثمرةً من ثمارها، ظنوها نفْسَ الثمرة التي أُعطوها قبلُ في الدنيا أو في وقتٍ سابقٍ في الجنة، وإنَّما هو متشابه فقط في اللَّون والمنظر، لكن الطَّعم مختلف، ولهم أيضًا في تلك الجنان زوجاتٌ مطهَّرات، طهارة حسيَّة ومعنويَّة، وهم فيها باقون على الدَّوام.

تفسير الآيات:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١)﴾.

أي: اعبُدوا اللهَ تعالى- أيُّها الناس-؛ لأنَّه هو الذي أوجدكم أنتم ومن قبلكم

من العدم؛ وذلك من أجل أن تصلوا إلى مرتبة التقوى[1].

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)﴾.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾.

أي: اعبُدوا ربَّكم أيضًا؛ لأنه هو الذي جعَل لكم الأرض ممهَّدةً كالفِراش، موطأةً مثبَّتةً يستقرُّ عليها الإنسان، وجعَل لكم السماء سقفًا[2].

قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢].

﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾.

أي: وهو كذلك أَنزل من السَّحاب مطرًا؛ فأنبت للناس بسببه أنواعًا متعدِّدةً من الثِّمار؛ رزقًا لهم[3].

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

أي: لا تتَّخذوا له أمثالًا ونظراءَ بزعمكم، وهو الذي خلَقكم ورزقكم؛ فهو المستحقُّ لأنْ تُخلصوا له العبادة وحده لا شريكَ له، وأنتم تعلمون أنَّه إلهٌ واحدٌ، لا ندَّ له ولا شريكَ له في الخَلْق والرِّزْق وغير ذلك؛ فليس كمثله شيءٌ سبحانه وتعالى[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٨٤-٣٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٧٢-٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٨٧-٣٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٩٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٧٥-٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٩٠-٣٩٥)، ((تفسير الراغب الأصفهاني)) (١/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥).

كما جاء عن ابن مسعودٍ رضي الله عنه، أنه قال: سألتُ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((أيُّ الذنبِ أعظمُ عندَ اللهِ؟ قال: أنْ تجعل للهِ نِدًّا وهو خلقَك...)) الحديث(١).

وهذِه الآية قريبةٌ من قوله تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤](٢).

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣)﴾.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾.

أي: إذا كنتم- أيُّها الكفَّار والمنافقون- في شكٍّ من نزول القرآن من عند الله سبحانه على محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فأْتُوا من عندكم بسورةٍ مِثل القرآن، يَتحدَّاهم الله تعالى بذلك(٣).

﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

أي: استعينوا على الإتيان بسورةٍ من مثل القرآن، بمن شئتم من غير الله عزَّ وجلَّ، من كل من يشهد لكم فيوافقكم على عدم الإقرار بنزول هذا القرآن من عند الله تعالى، وذلك كأعوانكم وشركائكم، إن كنتم محقِّين في دعواكم أنَّ القرآن كلامٌ مختلَق تقوَّله بشر(٤).

---

(١) رواه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٩٥-٣٩٨)، ((النبوات)) لابن تَيميَّة (٢/ ٨٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٩٨-٢٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٤٠١)، ((النبوات)) لابن تَيميَّة (٢/ ٨٦٠-٨٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٩٨).

﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤)﴾.

أي: فإنْ لم تأتوا بسورةٍ من مِثل القرآن، ولن تأتوا بها أبدًا، فاجعلوا بينكم وبين عذاب النار وقايةً بفِعل أوامره سبحانه، واجتناب نواهيه؛ لتنقذوا أنفسكم من النَّارِ التي يُلقَى فيها العصاةُ من الناس، والحجارةُ؛ لإيقادِها وإضرامِها، وقد جُهِّزت وهُيِّئت مسبقًا لكلِّ مَن كفر فترك التصديقَ بالحقِّ والإقرار به والانقياد إليه[1].

﴿وَالْحِجَارَةُ﴾.

قيل: هي حجارةُ الكِبريت، وهي أشدُّ الأحجار حَرًّا إذا حَمِيتْ، وقيل المراد بها: الأصنام[2].

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٤٠٢-٤٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٩٩-٢٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦).

(٢) وهذا اختيار ابن جرير في ((تفسيره)) (١/ ٤٠٣)، وابن كثير في ((تفسيره)) (١/ ٢٠١-٢٠٢).

قال ابن رجب: (وأكثر المفسرين على أن المراد بالحجارة حجارة الكبريت توقد بها النار. ويقال: إن فيها خمسة أنواع من العذاب ليس في غيرها من الحجارة: سرعة الإيقاد، ونتن الرائحة، وكثرة الدخان، وشدة الالتصاق بالأبدان، وقوة حرها إذا أحميت) ((التخويف من النار)) من ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٤/ ٢٣٥).

وممَّن قال من السلف بأنَّ المقصودَ بالحجارة، حِجارةُ الكِبريت: ابن عبَّاس، وابن مسعود، وغيرُهما من أصحاب رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وابنُ جُرَيج، والسُّدِّي، وأبو جعفر محمَّد بن علي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٤٠٣)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٦٥).

قال الشنقيطي: (هذه الحجارة قال كثيرٌ من العلماء: إنها حجارة من كبريت. وقال بعضهم: إنها الأصنام التي كانوا يعبدونها. وهذا القول يبينه ويشهد له قوله تعالى: (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) ((أضواء البيان)) (١/ ١٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٨٤-٨٥).

وممَّن قال من السلف بأن المقصود بالحجارة حجارة الأصنام: الربيع بن أنس. يُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (١/ ٤٥).

الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لما ذكر الله تعالى ما أعدَّه لأعدائه الكافرين به وبرسله من العذاب، عطف بذكر حال أوليائه المؤمنين به وبرسله، والذين صدَّقوا إيمانَهم بأعمالهم الصالحة[١]، فقال تعالى:

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

أي: أخْبِر يا أيُّها الرَّسولُ، الذين آمَنوا بالله عزَّ وجلَّ، وآمَنوا بك، وبما جِئتَ به من عند الله تعالى، وصدَّقوا إقرارَهم ذلك بأعمالهم الصالحة- أخْبِرْهم خبرًا يسرُّهم، بأنَّ لهم في الآخرة بساتين، تجري الأنهارُ من تحت أشجارها وغُروسِها وغُرَفِها[٢].

﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾.

أي: كلَّما أُعطوا أيَّ ثمرةٍ من أشجار الجنَّة، ظنُّوا أنَّها نفس الثَّمرة التي أُعطوها سابقًا في الدنيا؛ لمشابهتها إيَّاها في المنظر، أو أنها التي أُعطوها في وقتٍ سابقٍ في الجنة، وإنَّما أُعطُوا الذي رُزِقوا من ثمارِ الجنَّةِ متشابهًا في اللَّون والمنظَر، لكنَّ الطعم مختلفٌ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٤٠٥-٤٠٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٠٣-١٠٤)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٠٣-٢٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٤٠٧، ٤١٢، ٤١٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٩١).

وممن قال من السلف أن معنى ﴿من قبل﴾ أي التي أعطوها في الدنيا: ابن عباس، وابن مسعود، وقتادة، ومجاهد، وعلي بن زيد، والسدي، وابن زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٦٦). =

﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾.

أي: إنَّ الذين آمنوا وعمِلوا الصالحات، لهم في الجنَّاتِ زوجاتٌ مطهَّرات من كلِّ أذًى ومكروه وريبة، طهارةً حِسيَّةً ومعنويَّة[١].

﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

أي: إنَّ الذين آمَنوا وعمِلوا الصَّالحات، باقونَ في الجنَّات على الدَّوام، آمِنون من الموت، وانقطاع النَّعيم[٢].

الفَوائِد التربويَّة:

١ - أوَّل نِداءٍ في المصحَف يوجَّه إلى الناس جميعًا، جاء للأمر بعبادة الله عزَّ وجلَّ وحدَه؛ لأنَّه متَّصفٌ بصفة الخَلْق، فاللهُ هو المستحقُّ لأن يُعبدَ وحدَه؛ لأنَّه هو الخالقُ، الذي أبرَزهم مِن العدمِ إلى الوجودِ، قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ وقال: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾[٣].

٢ - أنَّ التقوى مرتبةٌ عالية لا ينالها، إلَّا مَن أخلص العبادة لله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٤].

= وممن قال من السلف أن المقصود ما أُعطوه في وقت سابق في الجنة: يحيى بن أبي كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٤١٠).

(١) نقل الماورديُّ الإجماعَ على نحو ذلك. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (١/ ٨٧).
ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٤١٩). ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٦) ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٤٩، ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦، ٤٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٣٩) (٨/ ٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٧٤).

٣- في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، استحبابُ بشارة المؤمنين، وتنشيطهم على الأعمال بذِكر جَزائها وثمراتها[1].

٤- استحضار جلالة المبشِّر ومنزلته، وصِدقه، وعَظمة مَن أرسله بهذه البشارة، وقدْر ما بشَّر به، وضَمِنه للعِباد على أسهل شيء عليهم وأيسره، وقدْ جمَع سبحانه في هذه البِشارة بين نعيم البَدن بالجنَّات، وما فيها من الأنهار والثِّمار، ونعيم النَّفس بالأزواج المطهَّرة، ونعيم القلب وقُرَّة العين بمعرفة دوامِ هذا العَيش أبدَ الآباد، وعدَم انقطاعه، فقال سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[2].

الفوائد العلميَّة واللَّطائف:

١- أنَّ الإقرارَ بتوحيد الربوبيَّة مستلزمٌ للإقرار بتوحيد الألوهيَّة؛ لقوله تعالى: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُم ...﴾[3].

٢- أنَّ من طريق القرآن أنَّه إذا ذكَر الحُكم ذكَر العِلَّة غالبًا؛ فالحكم: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾؛ والعلَّة كونه ربًّا خالقًا لنا ولِمَن قَبلنا؛ ﴿الَّذِي خَلَقَكُم وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[4].

٣- أنَّ الله عزَّ وجلَّ منعمٌ على الإنسان كافرًا كان، أو مؤمنًا؛ لقولِه تعالى: ﴿لَكُمْ﴾[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٩٣).

(٢) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٧٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٧٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٧٩).

٤- أنَّه ينبغي لِمَن خاطب أحدًا أن يُبيِّن له ما تقوم به عليه الحُجَّة؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(١).

٥- أنَّ القرآن معجِزٌ كلُّه حتى السُّورة الواحِدة منه، ولو كانتْ قصيرةً؛ لقوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾(٢).

٦- أنَّ النار مخلوقةٌ الآن؛ لقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ﴾(٣).

٧- أنَّ الجناتِ أنواعٌ؛ لقوله تعالى: ﴿جَنَّات﴾(٤).

٨- لَمَّا كانت مجامعُ اللَّذَّات في المسكَن البَهيِّ، والمطعَم الشَّهيِّ، والمنكَح الوضِيِّ، ذكَرها الله تعالى فيما يُبشَّر به المؤمنون، فوصَف المسكنَ بقوله: ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، والمطعَمَ بقوله: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾، والمنكَحَ بقوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾، وقد بدأ بالمسكَن؛ لأنَّ به الاستقرارَ في دار المقام، وثنَّى بالمطعَم؛ لأنَّ به قوامَ الأجسام، ثم ذكَر ثالثًا الأزواج؛ لأنَّ بها تمامَ الالتئام(٥).

٩- أنَّ جزاءَ المؤمنين العاملين للصالحات أكبرُ بكثير ممَّا عملوا، وأعظم؛ لأنَّهم مهما آمنوا وعملوا، فالعُمُر محدود، ويَنتهي، لكن الجزاء لا يَنتهي أبدًا(٦).

١٠- في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أنَّ الجنةَ لا تَفنَى، ولا يفنى مَن فيها فأهل الجنَّة خالدون فيها أبدَ الآباد، وقد أجمَع على ذلك أهلُ السُّنَّة والجماعة(٧).

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٨٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٨٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٨٥).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٩٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢/ ٣٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٨٨).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٩٣).
(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٩٥).

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾

- فيه التفات، حيث انتقَل من الإخبار عنهم إلى خِطاب النِّداء، وتنويع الخِطاب فيه هزٌّ وتنشيط للسَّامع، واستفتاح آذانه للاستماع، وتأهيل نفْسه للقَبول. وفي الانتقال هنا من الغَيبة إلى الخِطاب حصولُ شرفِ المخاطبة والمكالمة، مع التنبيه على الأدلَّة، وإشعارٌ بأنَّ العبد إذا كان مشتغلًا بالعبوديَّة، فإنَّه يستمر في الترقِّي. وفيه: اهتمامٌ بأمر العبادة، وتفخيم لشأنها[١].

٢- قوله: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ ذكر الرب هنا مع إضافته إلى المخاطبين؛ للتفخيم والتعظيم، لتأكيد موجِب الأمرِ بالإشعار بعليَّتها للعبادة فناسب المقام؛ لأنَّ الربَّ الذي يتصف بصفات الربوبيَّة هو وحده المستحق للعبادة[٢].

٣- قوله: ﴿وأنتم تَعلَمُون﴾ مفعول (تعلمون) متروك، أي: وأنتم من أهل العِلم والمعرفة، وهو آكَدُ في التوبيخ، ويجوز تقدير مفعول، حُذِف لفَهمِه من السِّياق، فيكون فيه إيجاز[٣] بالحذف[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٨٨)، ((تفسير الرازي)) (٢/ ٣١٩-٣٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٥٩).

(٣) **الإيجاز**: هو الاختصار والجمْع للمعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة، وأداء المقصود من الكلام بأقلَّ من عبارات متعارَف الأوساط. ويكون الإيجاز محمودًا إذا لم يخِلَّ بالمقصود. قيل: الإيجاز حذف الفُضول، وتقريب البعيد. وقيل عن البلاغة كلها: هي إصابة المعنى وحسن الإيجاز. والحذف: لغة هو الإسقاط. والإيجاز بالحذف: هو حذف ما يُعلم ويُفهم من سياق الكلام بشرط وجود مقدر يدلُّ عليه. فقد يكون الإيجاز بالحذف وغيره. والفرق بين الحذف والإيجاز: أن يكون في الحذفِ مقدَّرٌ، بخِلاف الإيجاز؛ فإنَّه عبارةٌ عن اللَّفظ القليل الجامع للمعاني الجمَّة بنفسه. يُنظر: ((البيان والتبيين)) للجاحظ (١/ ٩٩)، ((العمدة في محاسن الشعر وآدابه)) لابن رشيق (١/ ٢٤٢)، ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٧٧)، ((البرهان)) للزركشي (٣/ ١٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٩٦).

٤- قوله: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ﴾ صِيغتُه أمْر، والمقصود معنى التعجيز(١).

- وتنكيرُ (سورة) لإرادة العموم والشُّمول، والإفراد أو النوعية، أي بسورة واحدة من نوع السور، وذلك صادق بأقل سورة تُرجمت باسم يخصها(٢).

٥- قوله: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ فيه إيجاز بديع! بذِكر الكناية عن الأمْر بترْك المعاندة؛ لأنَّ اتِّقاء النار يعني ترْكَ العناد، فأفادتْ مع الإيجاز البديع، تهويلَ شأن العِناد بإنابة اتِّقاء النار منابَه، وإبرازه في صورته، مضيفًا إلى ذلك تهويل صفة النار وتفظيع أمرها(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١٠٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٦٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٣٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٠٢).

الآيات (٢٦-٢٩)

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿يَنْقُضُونَ﴾: ينبذونه بعدَ القَبول، ويتركون العمل به، والنَّقض ضِدُّ الإبرام: وهو فكُّ تركيب الشيء وردُّه إلى ما كان عليه أوَّلًا، فنقض البناء: هدمه، ونقض المبرم: حلُّه(١).

﴿مِيثَاقه﴾: الميثاق: عقد مؤكَّد بيمين وعهد، أو العهد المُحكَم، وأصله: العقد والإحكام(٢).

مشكل الإعراب:

في قوله تعالى: ﴿أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً﴾

﴿ما﴾: صفة للنكرة قبلها (مثلًا)؛ لتزداد النكرة شياعًا.

﴿بَعُوضَةً﴾: بدَل منصوب من (ما). وثمَّة أقوال أخرى كثيرة(٣).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٣).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٨٣-٨٤)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري =

المعنى الإجمالي:

إنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يَستحيي أن يوضِّح ما يريد بواسطة ضرب المثل بأيٍّ من مخلوقاته، ولو كان في حقارته كالبَعوضة، فما فوقَها في الكِبَر أو الصِّغَر، وهنا يتمايز المخاطبون كلٌّ حسب اعتقاده ويقينه؛ فأمَّا المؤمنون، فهُم على يقينٍ أنَّ المثل المضروب حقٌّ؛ لكونه جاء من ربِّهم، وأمَّا غيرهم، فهُم يعترضون على ما يَضرِبُه الله تعالى من أمثال.

وإنَّ الحكمة من ضَرْب الله للأمثال أنْ يتمايزَ المؤمنُ من الكافر، فالأمثال المضروبة من الله تعالى سببٌ لإضلال الكثير، وهدايةِ الكثير، لكن لا يضلُّ به إلَّا الخارجين عن طاعةِ الله من أهل الكُفر والنِّفاق، الذين يُفسِدون العهودَ المأخوذةَ عليهم من الله بعد تأكيدها، ويقومون بقطْعِ كلِّ ما أمر الله بوصلِه كالأرحام، وغيرِها من شرائع الدِّين، ويفسدون في الأرض بالكفر والفسوق والعصيان، هؤلاء الذين ذُكرتْ أوصافُهم قد خَرَموا أنفسهم الرِّبح بنيل رحمةِ الله، والفوزِ بالفلاح الدَّائم.

ثمَّ يُنكر اللهُ على كلِّ مَن كفَر به كفره هذا؛ إذ كيف يَكفُرون مع وضوح الأدلَّة على وجودِه وعظيم قدرته، والحال أنَّهم كانوا عدمًا، ثم نَفَخ فيهم الرُّوح، ثم يَقبِض أرواحهم، ثم يُحييهم للبعث والنُّشور، ثم إليه يعودون يومَ القيامة.

هذا الربُّ جلَّ وعلا هو الذي أوجد لكم كلَّ ما على الأرض كرمًا وفضلًا منه، ثمَّ علا وارتفع قاصدًا إلى خلق السموات، فخَلَقَها سبعًا بإتقان، وهو محيطٌ علمًا بكلِّ شيء.

تفسير الآيات:

﴿إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾.

= (١/ ٤٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١/ ٢٢٤)، ((إعراب القرآن الكريم)) للدعاس (١/ ١٧).

أي: إنَّ الله تعالى لا يَستحيي أن يبيِّن الحقَّ عبر التشبيه بأيِّ شيءٍ كائنًا ما كان، ولو كان في الحقارة والصِّغر كالبعوضة فما فوقَها ممَّا هو أكبرُ منها، أو دونها في الصِّغر؛ وذلك لاشتمال الأمثال على الحِكمة، وإيضاح الحقِّ، والله تعالى لا يَستحيي من الحقِّ، ولابتلاء عبادِه واختبارهم بهذه الأمثال؛ ليتميَّز أهلُ الهداية والإيمان، من أهل الضَّلالة والكُفران[1].

ثم شرع في تفصيل مواقف الخلق من ضرب الأمثال في القرآن فقال:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾.

أي: إنَّ الذين أقرُّوا وصدَّقوا بقلوبهم وجوارحهم، يَعلَمون أنَّ هذا المثَل المضروب حقٌّ، حتى لو خفي عليهم تفصيله، فهم يَعلَمون أنَّه حقٌّ في الجُملة؛ لعِلمهم بأنَّ الله لم يضربْه عبثًا، بل لحِكمةٍ بالغة، فيزدادون بذلِك إيمانًا مع إيمانهم[2].

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾.

أي: إنَّ الذين كفروا فلم يقرُّوا بالحق وينقادوا إليه، لم يَفهَموا حِكمةَ المثل المضروب؛ لذا فهم يعترضون ويتحيَّرون، أو فهموه لكنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم؛ فيَزدادون كفرًا إلى كُفرهم[3].

ثم بيَّن الله تعالى حكمة ضرب المثل في كتابه، فقال:

﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٤٢٥-٤٣٠) ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١١١)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٠٧-٢٠٨) ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٣٦).

وعرَّف ابن القيِّم أمثال القرآن بأنَّها: (تشبيه شيءٍ بشيءٍ في حكمه، وتقريب المعقول من المحسوس، أو أحد المحسوسين من الآخر، واعتبار أحدها بالآخر) ((إعلام الموقعين)) (١/ ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٤٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٤٦).

أي: إنَّ ضرب المثل في القرآن بمثابة ابتلاء واختبار يتميَّز به المؤمن من الكافر، فهو إضلالٌ لكثيرٍ لم يَفهموه، وهم المنافقون والكفَّار، وهدايةٌ لكثيرٍ فهِموه، وهم المؤمنون(١).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤-١٢٥].

﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾.

أي: لا يُضلُّ اللهُ سبحانه بهذا المَثَل المضروبِ إلَّا الخارجين عن طاعتِه من أهل الكفر والنِّفاق، وهذا ما تقتضيه حِكمتُه وعدلُه(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣١].

﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٢٧)﴾.

﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾.

أي: يصِفُ اللهُ تعالى الفاسقين الذين يَضلُّون بالمَثل المضروب، فيُخبِر أنَّهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٤٣٢)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٣٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٤٣٤-٤٣٥)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (١٦/ ٥٨٨)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٠٩-٢١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧).

الذين يُفسِدون العهدَ الذي أخذ عليهم من بعد تأكيدِه. وهو وصيةُ الله تعالى بالإيمان به سبحانه وبجميع رُسله- ومنهم محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ- كما عهد إلى بني إسرائيل بذلك فنقضه كفارهم[1].

كما قال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ...﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ...﴾ [البقرة: ٨٤ - ٨٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا...﴾ إلى قوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ...﴾ [المائدة: ١٢ - ١٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة: ٧٠].

﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾.

أي: يَقطعون كلَّ ما أمر الله تعالى بوَصلِه، كالأرحام، والتَّصديق بالأنبياء، وغير ذلك من شرائع الدِّين[2].

﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾.

أي: ويفسدون في الأرض بالكُفر والمعاصي[3].

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٤٣٦-٤٣٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٠١-١٠٢)، ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١ / ٣٧٠).

جاء عن مقاتل بن حيان: (قوله: ﴿مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ في التوراة أن يؤمنوا بمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم ويصدِّقوه، فكفروا ونقضوا الميثاق الأول) ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٧٢).

(٢) نَسبَ ابن عطية هذا القول للجمهور. ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١١٣)، ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٤٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٧٢).

وبنحوِ هذا القول، قال السُّدِّي، ومقاتِل بن حيَّان. ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٧٢).

أي: إنَّهم بكُفرِهم وأفعالِهم التي يرتكبونها قد ضلُّوا، فحَرَموا أنفسهم من الرِّبحِ الحقيقيِّ بنَيلِ رحمة الله تعالى، والحصولِ على الفوزِ الأبديِّ(١).

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) ﴾.

أي: يُنكر الله تعالى على مَن كفر به، مُتعجِّبًا من كُفرهم مع وضوح الأدلَّة على وجودِه سبحانه، وعلى قُدْرته العظيمة، والحال أنَّه أماتهم مرَّتين، وأحياهم مرَّتين؛ وذلك بأنْ يُخرِجَهم من العدَم بعد أنْ كانوا نُطفًا في أصلابِ آبائهم، فيُحييهم بأنْ ينفُخَ الرُّوح فيهم؛ ليَخرجوا إلى عالم الوجود الدُّنيويِّ، ثم يُميتَهم بقَبْض أرواحهم من أجسادِهم، فتنقضيَ آجالُهم الدنيويَّة، ثم يُحييَهم في قُبورِهم للبَعث والنُّشور، ثم يُخرجَهم من قُبورِهم، ويَحشرَهم إليه يوم القِيامة(٢).

كما أخبر تعالى عن الكفَّار، أنَّهم يقولون يومَ القيامة: ﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١].

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩) ﴾.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٤٤٢)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١١٠)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٤٥٠-٤٥١)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ٣٥)، (١/ ١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٧٤-٣٧٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٧٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٠٥).

وممَّن قال بهذا من السَّلف: ابن عبَّاس، وابن مسعود، وغيرُهما من أصحاب رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ، و أبو مالك، ومجاهدٌ، يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٤٤٣)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٧٣).

أي: أوجَد لكم- من فَضله وكرمِه- جميعَ ما على الأرض؛ للانتفاعِ به، والاستمتاعِ، والاعتبار(١).

﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

أي: بعد أنْ خلَقَ اللهُ تعالى الأرض(٢)، علا وارتفع قاصدًا إلى خَلْقِ السَّموات، فخلَقَها بإحكامٍ وإتقانٍ، وهو العليم بما يَخلُق، وكيف يَخلقُه، كما أنَّ عِلمه سبحانه محيطٌ بجميع ما خلَق(٣).

كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ٩-١٢].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ [المؤمنون: ١٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٠٩-١١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢١٥).

(٣) وممن ذهب إلى أن استوى هنا بمعنى قصد وأراد وأقبل: الواحدي في ((الوجيز)) (ص: ٩٨)، وابن كثير في ((تفسيره)) (١/ ٢١٣)، والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ٤٨)، وابن عثيمين في ((تفسير الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٠٩-١١٠).

وممن ذهب إلى أن استوى هنا بمعنى علا وارتفع: ابن جرير في ((تفسيره)) (١/ ٤٥٨).

وقال البغوي: (﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَأَكْثَرُ مُفَسِّرِي السَّلَفِ: أي ارْتَفَعَ إلى السَّماء) ((تفسير البغوي)) (١/ ٧٨).

يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لصالح آل الشيخ (١/ ٥٢٢).

الفَوائِد التَّربويَّة:

١- المؤمِن لا يمكن أن يُعارِض ما أنزل الله عزَّ وجلَّ بعقله؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾[1].

٢- أنَّ إضلال مَن ضَلَّ راجع إلى وجود العِلَّة التي كانت سببًا في إضلال الله العبد؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾[2].

٣- في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ [البقرة: ٢٧]، التَّحذير من نقْض عهد الله من بعد ميثاقِه؛ لأنَّ ذلك يكون سببًا للفِسق[3].

الفوائد العلميَّة واللَّطائف:

١- في قوله تعالى ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾، دلالةٌ على رحمة الله تعالى بعبادِه حيث يُقرِّر لهم المعاني المعقولة بضَرْب الأمثال المحسوسة؛ لتتقرَّرَ تلك المعاني العظيمة في عقولِهم[4].

٢- أنَّ القياس حُجَّة؛ لأنَّ كلَّ مَثَل ضربه الله في القرآن، فهو دليلٌ على ثبوت القياس[5].

٣- إثبات الرُّبوبيَّة الخاصَّة؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾[6].

٤- أنَّ دَيدنَ الكافرين الاعتراضُ على حُكم الله، وعلى حِكمة الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾[7].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٩٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٠١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٠٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٩٩).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٠٠).

٥- كثرة الضُّلَّال وكثرة المهديِّين، بالنَّظر إلى كلٍّ واحد من القبيلين على حدة، لا بالقياس إلى مُقابليهم؛ فإنَّ المهديِّين قليلون بالإضافةِ إلى أهل الضَّلال، كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ﴾(١)

٦- أنَّ الموت يُطلَق على ما لا رُوحَ فيه، وإن لم تسبقْه حياةٌ(٢).

٧- أنَّ الجنين لو خرَج قبل أن تُنفَخ فيه الرُّوح، فإنَّه لا يثبت له حُكم الحيِّ؛ ولهذا لا يُغسَّل، ولا يُكفَّن، ولا يُصلَّى عليه، ولا يَرِث، ولا يُورث(٣).

٨- أنَّ الأصل الحِلُّ في كلِّ ما في الأرض من أشجار، ومياه، وثمار، وحيوان، وغير ذلك؛ وهذه قاعدة عظيمة، وتمَّ تأكيدُ هذا العموم بقوله تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾(٤).

٩- كمال خَلْق السَّموات؛ لقوله تعالى: ﴿فسوَّاهنَّ﴾(٥).

١٠- في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ إثباتُ الأفعالِ لله تعالى، كالاستواءِ.

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ فيه لَفٌّ ونَشْر(٦)؛ لأنَّه لَمَّا تقدَّم

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (١/ ٦٣-٦٤)، ((الدر المصون)) للحلبي (١/ ٢٣٣)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٠-٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١١٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١١١).

(٦) اللَّف والنَّشر: هو ذكر شيئين أو أشياء، إمَّا تفصيلًا - بالنصِّ على كلِّ واحد، أو إجمالًا - بأن يُؤتى بلفظ يشتمل على متعدِّد - ثم يذكر أشياء على عدَد ذلك، كل واحد يرجِع إلى واحدٍ من المتقدِّم، ويُفوَّض إلى عقل السامع ردُّ كلِّ واحد إلى ما يَليق به. فاللَّف يُشار به إلى المتعدِّد الذي يُؤتى به أوَّلًا. والنشر يُشار به إلى المتعدِّد اللَّاحق الذي يتعلَّق كلُّ واحد منه بواحد من السَّابق دون =

ذِكر المثل، وذكَر بعده الفريقين، عقَّبه ببيان أنَّه يُضلُّ به قومًا، ويَهدي به آخَرين(١).

٢- قوله: ﴿فَأَمَّا الذين﴾ ﴿فأمَّا﴾ حرف فيه معنى الشَّرط، وفائدته في الكلام أن يُعطيَه فَضْلَ توكيد(٢).

٣- قوله: ﴿يُوصَل﴾ بناء يوصل لِمَا لم يُسمَّ فاعله أبلغُ من بِنائه لِمَا سُمِّي فاعله؛ لأنَّه يَشمل ما أمَر الله بأن يَصِلوه هم، أو يصِله غيرُهم(٣).

٤- قوله: ﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾، و﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا... وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، و﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً﴾، و﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ فيها طِباق، ومُقابَلة- وهي تعدُّد الطِّباق في الكلام(٤). وفائدته: إبراز المعنى وتوضيحه بذِكر الشَّيء وضِده، وهو من محاسِن البيان.

٥- قوله: ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ﴾ جاء ترتيب هذه الصِّلات في غاية من الحسن؛ لأنَّه قد بدأ أولًا بنقض العهد، وهو أخصُّ هذه الثَّلاث، ثم ثنَّى بقَطْع ما أمر الله بوصْله، وهو أعمُّ من نقْض العهد وغيره، ثم أتى ثالثًا بالإفساد الذي هو أعمُّ من القَطع، وكلُّها ثمرات الفِسق(٥).

= تعيين. مثل: قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة: ١١١]، أي: وقالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا اليهود، وقالت النصارى: لن يدخُل الجنة إلا النصارى، وهذا لفٌّ ونَشْر إجمالي. يُنظر: في تفصيل أقسامه وأمثلة على ذلك: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (١/ ٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٢٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٢٠٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٧٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٢٠٨).

٦- في قوله: ﴿الفَاسِقُونَ﴾ أتى باسم الفاعل (فاسقون) صِلةً للألف واللام- والتقدير: الذين فسَقوا-؛ ليدلَّ على ثبوتهم في هذه الصِّفة، فيكون وصف الفِسق لهم ثابتًا، وتكون النتائج عنه متجددة متكرِّرة، فيكون الذمُّ لهم أبلغَ؛ لجمعهم بين ثبوت الأصل وتجدُّد فروعه ونتائجه[1].

٧- قوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾

- استفهام عن حال، وصَحِبه معنى التقرير والتوبيخ، أو صحِبه الإنكارُ والتعجُّب؛ فخرَج عن حقيقةِ الاستفهام، وإنكار الحال بـ(كيف) يستلزم إنكارَ الذَّات ضرورةً، وهو أبلغُ[2].

- ﴿تَكْفُرُونَ﴾: فيه التفات؛ لأنَّ الكلام قبلُ كان بصورة الغَيبة، وهنا بصيغة الخِطاب، ومن فوائده هنا: أنَّ الإنكار إذا توجَّه إلى المخاطَب كان أبلغَ من توجُّهه إلى الغائب؛ لجواز أنْ لا يصلَه الإنكار، كما أنَّ الإنكار على المخاطَب أردعُ له عن أن يقَعَ فيما أُنكر عليه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٢٠٩).

الآيات (٣٠-٣٣)

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٣١) قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣)﴾.

غريب الكلمات:

﴿خَلِيفَةً﴾: الخِلافة النِّيابة عن الغَير، خلف فلان فلانًا: قام بالأمر عنه، إمَّا معه وإمَّا بَعدَه، وأصله: مجيء شيءٍ بعدَ شيء يقوم مقامَه[١].

﴿وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾: أي: يُسيلها، وأصل السَّفك: الصَّبُّ والإراقة؛ يقال: سفَك دمَه: إذا أسالَه[٢].

﴿وَنُقَدِّسُ لك﴾: أي: نُطهِّر الأشياء ارتسامًا لك، أو نصفك بالتقديس، ونثبت ما يَليق بك، ونُقدِّسك ونُقدِّس لك بمعنى واحد، وأصل التقديس: التطهير[٣].

﴿سُبْحَانَكَ﴾: سُبْحَانَ: اسْم وُضِع مَوضِع المصدر، ومعناه التَّنزيه والتبرئة للربِّ- جل ثناؤه- من السُّوء، وأصله: المرُّ السَّريع في عِبادة الله تعالى[٤].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٢).

مشكل الإعراب:

قوله: ﴿سُبْحَانَكَ﴾: منصوب، مفعول مطلَق لِفِعل محذوف وجوبًا، على أنَّه مَصدرٌ، أو اسم مصدر (التسبيح)، أي: نُسبِّحك تسبيحًا. والكاف في محلِّ جرٍّ بالإضافة، ويجوز أن يكون الضمير مفعولًا به لأنه هو المُسبَّح، أو فاعلًا؛ إذ المعنى: تنزَّهْتَ(١).

المعنى الإجمالي:

يُذكِّر الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ، بقوله للملائكة بأنَّه سيجعل في الأرض خَلقًا يَخلُف بعضُهم بعضًا، وهو آدَمُ وذريَّته من بعده، فقالت الملائكة مُستعلِمين لا مُعترِضين: أتجعَلُ في الأرض مَن يفسدون فيها، ويَقتُل بعضُهم بعضًا؟! ولم نُستخلفْ نحن مع أنَّنا دائمو التسبيح بحمدك والتقديس لك؟! فأخبرهم تعالى أنَّه يَعلمُ ما لا يعلمون، ممَّا خفِيَ عليهم من الحِكَم والمصالِح بخَلْقه البَشَرَ، واستخلافِهم في الأرض.

وعلَّم اللهُ آدمَ عليه السَّلام أسمَاء كلِّ شيء، ثم أظهر الأشياءَ التي علَّمه أسماءها للملائكة، وأمَرهم أن يخبروه عن أسمائها، إنْ كانوا محقِّين في دعواهم العلمَ بالأشياء، وأنَّهم يستحقُّون الأفضلية على آدَم. فحِينها نزَّه الملائكة اللهَ سبحانه وتعالى، وأقرُّوا أنَّهم لا يعلمون شيئًا إلَّا ما علَّمهم سبحانه، وهو العالم بكلِّ شيء، والحَكيم الذي يَضَع الأمورَ في مواضعها.

فأمَر اللهُ تعالى آدمَ أن يُخبر الملائكة بأسماء تلك الأشياء، فأخبَرهم بها، فلمَّا أخبرهم بانَ فضلُه على الملائكة، فقال لهم الله تبارك وتعالى مقرِّرًا بأنه قد سبَق

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٨٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١/ ٢٦٥)، ((إعراب القرآن الكريم)) لدعاس (١/ ٢٠).

وأخبرهم أنَّه يعلم كلَّ ما يغيب عن الخلق في السَّموات والأرض، كما يعلم ما يُظهِره الملائكةُ وما يُخفُونه.

تفسير الآيات:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.

أي: واذكر[1] يا محمَّد، حين قال ربُّك للملائكة أنَّه سيجعل في الأرض خليفةً، وهو آدَمُ عليه السَّلام، وذُريتُه من بعده، يَخلُف بعضُهم بعضًا، جيلًا بعد جِيل[2].

﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾.

أي: قال الملائكةُ لربِّهم مُستَعْلمين لا مُعْتَرِضين: ما الحِكمةِ من إقامة ذُرِّية آدَم في الأرض، والحال أنَّهم سيُفسدون فيها، ويُعمِلون القَتلَ بينهم، ولم نُستخلفْ نحن في الأرض مع أنَّنا دائمون على تسبيحك تسبيحًا مصحوبًا بالحمدِ لك ودائمون على التقديس لك؟

والتسبيح هو تنزيهُ الله تعالى، أي: يُبعِدون كلَّ نقصٍ وعيب، فلا ينسبونه إلى الله عزَّ وجلَّ.

---

(١) قال أبو البقاء الكفوي: (كل ما ورد في القرآن: و(إذ)، فـ(اذكر) فيه مُضمَر، أي: اذكر لهم، أو في نفسك كيفما يقتضيه صدرُ الكلام، و(إذ) منصوبٌ به، وعليه اتِّفاق أهل التفسير) ((الكليات)) (ص: ٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٤٧٦-٤٧٧)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٣٥/ ٤٢-٤٥) ((الصفدية)) لابن تَيميَّة (٢/ ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢١٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٠-٢١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١١٢).
وقد حَكى الواحديُّ في ((التفسير الوسيط)) (١/ ١١٣)، والقرطبي في ((تفسيره)) (١/ ٢٦٣)، وابن القيم في ((مفتاح دار السعادة)) (١/ ٢٦)، الإجماعَ على أنَّ المراد بالخليفة هنا آدَمُ عليه السَّلام، ولكن ذهَب ابنُ كثير إلى أنَّ دعوى الإجماع هذه لا تصحُّ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢١٦).

والحمدُ هو وصفُ الله المحمودِ بالكمالِ، حبًّا وتعظيمًا له عزَّ وجلَّ.

والتقديس هو التطهيرُ، فيَصِفون الله تعالى بالطَّهارة من جميع الأدناس(١).

كما قال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ٥].

وعن أبي ذرٍّ رضي الله عنه، أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ، سُئِلَ: أيُّ الكلام أفضلُ؟ قال: ((ما اصطفَى اللهُ لملائكتِه أو لعباده: سُبحانَ اللهِ وبِحَمدِه))(٢).

﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

أي: أنا العالم بالظَّواهر والسرائر، أعلم ما خفِي عليكم ممَّا يحصُل بخَلْق البَشَر من المصالِح والحِكم، ومِن ذلك: أنَّه يكونُ منهم الرُّسُل والأنبياء والصِّدِّيقون وغيرُهم ممَّن يُحقِّق عبوديةَ الله تبارك وتعالى(٣).

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا أَعلم سبحانه الملائكةَ أنَّ الأمر على خِلاف ما ظنُّوا، شرَع في إقامة الدَّليل

---

(١) وقد نفى ابن عطية الخِلافَ في أنَّ معنى التقديس هو التَّطهير. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١١٨).
ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٤٩٩، ٥٠٢، ٥٠٤، ٥٠٥)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) لابن تَيميَّة (٧/ ٣٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١١٣-١١٥).
وممَّن قال مِن السَّلف: إنَّ التقديس هو التطهيرُ: ابن عبَّاس، والضحَّاك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٠٦)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٧٩)

(٢) رواه مسلم (٢٧٣١).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٣٧-١٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢١٦-٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص:٤٩).

عليه[1]، فقال:

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾.

أي: إنَّ الله تعالى قد عَلَّم آدَمَ عليه السَّلام أسماءَ كلِّ شيء[2].

﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

أي: أظْهَر الله تعالى تلك المسمَّياتِ للملائكة، وامتحنهم تحديًا لهم، فأمَرهم أن يُخبروه بأسماء ما عَرَض عليهم، إنْ كانوا حقًّا صادقين في دَعواهم بأنَّهم على علمٍ بالأشياء، ومستحَقُّون للأفضلية على آدَم[3].

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

هذا تنزيهٌ من الملائكة لله عزَّ وجلَّ بنفي علم أي شيءٍ، إلَّا ما علَّمهم الله تعالى، وهو العليم بغير تعليم، وهو الحكيم الذي يضَعُ الأشياءَ مواضعَها، حكيمٌ في

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١/ ٢٤٠).

(٢) نسَبه ابنُ تَيميَّة إلى الجمهور. كما في ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٩٤). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٢٢-٢٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١١٨-١١٩).

وممَّن قال من السَّلف بذلك: ابن عبَّاس ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقَتادَة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٤١)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٨٠).

قال القرطبيُّ: (قال ابنُ خُوَيز مِنداد: في هذه الآية دليلٌ على أنَّ اللغة مأخوذة توقيفًا، وأنَّ الله تعالى علَّمها آدم عليه السلام جملةً وتفصيلًا، وكذلك قال ابنُ عبَّاس: علَّمه أسماء كلِّ شيء، حتى الجَفْنة والمِحْلَب) ((تفسير القرطبي)) (١/ ٢٨٢).

وقال ابنُ كثير: (يقال: إنَّ هودًا عليه السلام أوَّلُ مَن تكلَّم بالعربية، وزعَم وهب بن منبه أنَّ أباه أوَّلُ من تكلَّم بها، وقال غيرُه: أوَّل مَن تكلم بها نوح، وقيل: آدم، وهو الأشبهُ) ((البداية والنهاية)) (١/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٢٣-٥٢٤)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤١٢-٤١٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١١٩).

خَلْقه وأمْره، وفي تعليم مَن يشاء، فنَفَى الملائكةُ الكرام أصلَ العلم عن أنفسهم، وأثبتوا كمالَ العِلم والحِكمة لله تبارك وتعالى(١).

﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

أي: أمَر اللهُ تعالى آدَمَ عليه السَّلام أن يُخبِر الملائكةَ بأسماء الأشياء التي علَّمها الله تعالى إيَّاه من قبلُ، وعرَضها سبحانه على الملائكة، فلم يعرفوها، فلمَّا أخبرهم آدَمُ بتلك الأسماء، فسمَّى كلَّ شيء باسمه، ظهَر فضلُه وشرفُه عليه السَّلامُ على الملائكة، فقال الله تعالى مقرِّرًا بأنه قد قال لهم من قَبلُ بأنَّه يعلم كلَّ ما يَغيب عن الخلْق، سواء في السموات أو في الأرض، كما يعلم سبحانه ما يُظهِره الملائكة، وما يُخفونه(٢).

كما قال تعالى إخبارًا عن قولِ الهُدهد لسليمان عليه السَّلام: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٢٥].

الفَوائد التربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، جوازُ امتحانِ الإنسان بما يدَّعي أنَّه مُجيدٌ فيه(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٢٨)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٣٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١١٨)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٢٢)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٣٨-١٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٢٥-٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤١٧-٤١٨).
وقدِ استخرَج ابن القيِّم من هذا المقطع وجوهًا تبيِّن فضلَ العلم، وشرفَ صاحبه. يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) (١/ ٥٢-٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٢١).

٢- جواز التحدِّي بالعبارات التي يكون فيها شيءٌ من الشدَّة؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾(١).

٣- في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، إشارةٌ إلى تقرير المخاطَب بما لا يُمكنه دفعُه(٢).

٤- عمومُ عِلم الله عزَّ وجلَّ، وأنَّه يتعلق بالمُشاهَد، والغائِب، وأنَّ الله تعالى عالِم بما في القلوب، سواء أُبدِي أم أُخفِي، وهذه المعرفة تَزرع في القلب خشيةَ الله تبارك وتعالى(٣).

الفوائد العلميَّة واللَّطائف:

١- دلَّ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ على أنَّه يَعلم أنَّ آدمَ يَخرُج من الجنَّة؛ فإنَّه لولا خروجُه من الجنة لم يَصِرْ خليفةً في الأرض، فإنَّه أمَرَه أن يسكُن الجنة ولا يأكل من الشجرة، ونهاه عن طاعة إبليس، وقد علِم قبل ذلك أنه يخرج من الجنَّة، وأنَّه إنَّما يَخرُج منها بسبب طاعته إبليسَ، وأكْله من الشَّجرة؛ ولهذا قال مَن قال من السَّلف: إنَّه قدَّر خروجه من الجنة قبل أن يأمُرَه بدخولها بقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(٤).

٢- في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ إثباتُ القول لله عزَّ وجلَّ، وأنَّه بحَرْف، وصوت؛ وهذا مذهبُ السَّلَف الصَّالح(٥).

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٢٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٨/ ٤٩٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١١٦). ويُنظر: ((خلق أفعال العباد)) للبخاري (ص: ٩٤١)، ((رسالة إلى أهل الثغر)) لأبي الحسن الأشعري (ص: ٤١٢)، ((الحجة)) =

٣- في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَاآدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾، جاء ابتِداء خِطاب آدَم بندائه مع أنَّه غيرُ بعيد عن سماع الأمْر الإلهيِّ؛ للتنويه بشأن آدَم، وإظهار اسمه في الملأ الأعلى؛ حتى ينالَ بذلك حُسنَ السُّمعة، مع ما فيه من التكريم عند الآمِر؛ لأنَّ شأن الآمِر والمُخاطِب إذا تَلطَّفَ مع المُخاطَب أن يَذكُرَ اسمَه ولا يَقتصِرَ على ضمير الخطاب؛ حتى لا يساويَ بخِطابِه كلَّ خِطاب، ومنه ما جاء في حديث الشَّفاعة بعد ذِكر سجود النبيِّ وحَمْدِه اللهَ بمحامدَ يُلهمه إيَّاها، فيقول: ((يا مُحمَّدُ، ارفعْ رأسك، سَلْ تُعطَ، واشفعْ تُشفَّع))[1].

بلاغة الآيات:

١- في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾

- إسنادُ القول إلى الربِّ في هذا المقام في غايةٍ من المناسَبة والبيان[2].
- وفيه التفاتٌ بتنويع الخِطاب، بخروجه من الخِطاب العام إلى الخِطاب الخاص[3].

٢- في قوله: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾

- عبَّر بالجُملة الاسميَّة؛ لإفادة الدَّلالة على الدَّوام والثَّبات، أي: هو وصفُهم الملازم لجِبلَّتهم[4].

= لقوام السنة الأصبهاني (١/ ١٣٣و٢٣٣)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٢١/ ٤٠٣)، (٦/ ٣١٥- ٥٤٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤١٧)، والحديث أخرجه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٢٢٥)؛ قال أبو حيان: (لأنه لما ذكر أنَّه خلَق لهم ما في الأرض، كان في ذلك صلاحٌ لأحوالهم ومعايشهم؛ فناسب ذكر الرب، وإضافتُه إلى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم تنبيهٌ على شرفه واختصاصه بخطابه، وهزٌّ لاستماع ما يُذكر بعد ذلك من غريب افتتاح هذا الجنس الإنساني، وابتداء أمره ومآله).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٢٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤٠٦).

- وتقديمُ المسنَد إليه ﴿نَحْنُ﴾ على الخبَر الفِعلي ﴿نُسَبِّحُ﴾ دون حرْف النَّفي، يحتمل أن يكون للتَّخصيص، بحاصل ما دلَّت عليه الجملةُ الاسميَّة من الدَّوام، أي: نحن الدَّائمون على التَّسبيح والتقديس دون هذا المخلوق[١].

- **قوله:** ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ النَّكرة فيه مبنيَّة مع (لا)، والنكرة لا تُبنَى على الفتح مع (لا) إلَّا إذا كانت (لا) لنفي الجِنس، فهي نكرةٌ في سياق النفي فتعم، والمعنى: أنَّهم نفَوا جِنسَ العلم من أصله عن أنفسهم، إلَّا شيئًا علَّمهم الله سبحانه إيَّاه، وهؤلاء الرُّسل الكرام عليهم صلواتُ الله وسلامُه- مع ما أعطاهم الله من العِلم والمكانة - يقولون: إنَّهم لا يعلمون من الغيب إلَّا ما علَّمهم الله[٢].

٣- قوله: ﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ فيه وضع للمُظهَر ﴿بِأَسْمَائِهِمْ﴾ موضع الضمير (بها)؛ لبيان شأنه، والاهتمام به[٣].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) .

(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٨٦-٣٨٧).

(٣) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٥٣).

الآيات (٣٤-٣٩)

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿إِبْلِيسَ﴾: أبو الشياطين، وأصل الإبلاس: اليأس، والحُزن المعترِض من شِدَّة اليأس، ومنه اشتقَّ إبليس، وقيل: هو اسمٌ أعجميٌّ[١].

﴿رَغَدًا﴾: رزقًا واسعًا كثيرًا بلا عناء، وأصله: أطيب العيش، وسعة المعيشة[٢].

﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾: أي: استزلهما، والزلة في الأصل: استرسال الرِّجْل من غير قصد، يقال: زلَّت رِجل تزل، والزلة: الخطأ؛ لأنَّ المخطئ زلَّ عن نهج الصواب، وقيل للذنب من غير قصد: زلَّة؛ تشبيهًا بزلة الرِّجْل[٣].

﴿حِينٍ﴾: الحين: وقتُ بلوغ الشيء وحصولِه، أو الدهر، وأصله: الزمان؛ قليله وكثيره[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦، ٢٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤١٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦٧).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٠٥).

مشكل الإعراب:

قوله ﴿رَغَدًا﴾: منصوب على أنَّه نعت لمصدر محذوف، أي: مفعول مطلق، وتقديره: (كُلَا أَكْلًا رغدًا). أو منصوب على أنَّه حال، وقيل: هو مصدر في موضِع الحال، أي: كُلَا طيِّبِين مهنَّئِين[1].

المعنى الإجمالي:

يُذَكِّر الله تعالى رسوله صلَّى الله عليه وسلَّم بمسارعة الملائكة إلى امتثال أمر ربهم بالسجود لآدم عليه السلام حين أمرهم بذلك، وامتناع إبليس عما أمره به ربُّه سبحانه من السجود له استكبارًا وكفرًا.

وأنه أذِن الله لآدَم وزَوجِه حواءَ عليهما السَّلام بأن يَسكُنَا الجنة، وأباح لهما أنْ يأكلَا منها رِزقًا واسعًا لا عناء فيه، واستثنى شجرةً واحدة عيَّنها لهما، فنهاهما عن الاقترابِ منها؛ فإنْ فعلَا كانا من المتعدين حدودَ الله.

فأَوقعهما الشَّيطانُ في المعصية، وذلك بأنْ وسوس لهما، فكان سببًا لإخراجهما ممَّا هما فيه من النَّعيم، فأمَرَهم الله تعالى بالهبوط إلى الأرض، حيث تَنشَبُ بينهم العداوات، يستقرُّون فيها أحياءً على ظهرها، وأمواتًا في القُبور إلى قيام السَّاعة.

فلقَّن الله آدمَ كلماتٍ تحصُل بها توبتُه من المعصية التي وقعتْ منه، فلَهَج بها آدمُ عليه السَّلام، فتاب اللهُ عليه؛ فهو سبحانه قابلُ التَّوبة، الرَّحيم بعِباده المؤمنين.

وأمَر اللهُ آدمَ وحواءَ وإبليسَ بالهبوط من الجنة جميعًا، وأنبأهم أنَّه إذا جاءهم منه شيءٌ يُرشدهم إلى الحقِّ من كتاب، أو رسول فاتَّبعوه، أنَّ لهم الأمنَ التامَّ، والسرورَ الدائم، أمَّا مَن جحَد الحقَّ، وكذَّب بالآيات، فهذا من أهل النار، الملازمين لها على الدَّوام.

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٨٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١/ ٢٨١)، ((إعراب القرآن الكريم)) لدعاس (١/ ٢١).

تفسير الآيات:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.

أي: يُذكِّر الله تعالى بأمْره لجميع الملائكة بالسُّجود لآدم إكرامًا وتعظيمًا له، وعبوديةً لله تعالى، وأنَّهم بادَروا جميعًا بالسجود، وامتنع إبليسُ من ذلك، وتَكبَّر على أمر الله تعالى، وعلى آدَم، فاتَّصف بكفرٍ عظيم[١].

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

أي: يُبيِّن الله تعالى إكرامَه لآدَمَ وزوجِه حواءَ عليهما السَّلام، بأنْ أذِن لهما في سُكنى الجنَّة، وأباح لهما أن يأكلَا منها رِزقًا واسعًا هنيئًا، لا عناءَ فيه[٢]، ينالانِه فيها حيثُ شاءَا، عدَا شجرةٍ واحدة فقط، عيَّنها لهم الحكيمُ الخبيرُ سبحانه، فنهاهم عن قُربانها، وإلَّا صارَا بالأكْل منها من الظالِمين، باعتدائهما على حدٍّ من حدود الله جلَّ وعلا[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٤٤-٥٤٦)، (١/ ٥٥٦-٥٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١/ ٢٩٣)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٤/ ٣٤٥، ٣٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٣٠، ٢٣٢، ٢٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤٢٦-٤٢٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٨٩-٢٩٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٢٥-١٢٧).

(٢) وممَّن فسرَّ الرَّغَدَ بنحو ما ذُكر: ابن عبَّاس، والسُّدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٥٠)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٤٩-٥٥١، ٥٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٣٣-٢٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤٣٣).

والجنة التي أُسْكنها آدَمُ وزوجُه هي جنَّة الخُلد في السماء. ونسبه ابنُ تيمية إلى سلف الأمَّة وأهل السنة والجماعة، وعزاه ابن كثير للأكثرين، وابن عاشور إلى جمهور السلف. يُنظر ((تفسير القرطبي)) (١/ ٣٠٢)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٤/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٣٣) ((البداية والنهاية)) لابن كثير (١/ ٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾.

﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: ﴿أزلَّهما﴾ قِراءتان:

١- (فأَزَالَهُما) من زالَ يزُولُ، ومعناه: فنحَّاهما[1].

٢- (فَأَزَلَّهُمَا) مِن زَلَلت وأزلَّني غيري، أي: أوْقَعهما في الزَّلل[2].

﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾.

أي: إنَّ الشَّيطانَ قد أوقعهما في المعصية والزَّلل، الذي أبعدهما عن الجنَّة، وذلك بأكْلِهما من الشجرة، فكان إبليسُ بإغوائه ووسوسته سَببًا في إخراجِهما من الرِّزق الواسع، والعيش الهنِيء، الذي كانَا ينعمان به في الجنَّة[3].

= عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٢٨). ويُنظر في أدلة القائلين بهذا القول والقول الآخر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٩).

(١) قرأ بها حمزةُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢١١).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ١٤٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٩٤).

(٢) قرَأ بها الباقون بالحذْفِ والتشْديد. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢١١).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ١٤٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٩٤).

(٣) قال ابنُ عطيَّة: (لا خِلافَ بين العلماء أنَّ إبليس اللَّعين هو متولِّي إغواء آدَمَ، واختُلف في الكيفيَّة، فقال ابنُ عباس وابنُ مسعود وجمهورُ العلماء: أغواهما مشافهةً، ودليلُ ذلك قولُه تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾، والمقاسمة ظاهرُها المشافهة) ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٢٨). =

﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾.

أي: أمَرَ الله تعالى آدَمَ وحواءَ وإبليس بالهبوطِ إلى الأرضِ؛ وأخبر بعداوة بعضهم لبعض[1].

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤].

﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾.

أي: يستقرُّون على ظهرها أحياءً، متمتِّعين بما يَرزُقهم الله تعالى، إلى أجَلٍ مُعيَّن، وهو انقضاءُ أعمارهم، ويستقرُّون في بطنها مقبورِينَ إلى وقتٍ مُحدَّد، وهو قيام السَّاعة[2].

= ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٦٠، ٥٧٠، ٥٧١)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٣٥-٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤٣٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٧١)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين-سورة الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٣٢).

وممَّن قال من السَّلف: إنَّ المقصود بقوله: ﴿اهْبِطُوا﴾ آدَمُ وحواءُ وإبليسُ: ابن عبَّاس، وأبو صالح، والسُّدِّي، وزاد بعضهم الحيَّة، إلَّا أنَّ ذلك لا يصحُّ؛ فالأخبارُ التي نصَّت على الحيَّة، إسرائيلياتٌ لا يُعوَّل عليها في تفسير الآية. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٧٢) و((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٧٨-٥٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٣٢). =

قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠].

وقال جلَّ وعلا: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٤-٢٥].

﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى ﴿كَلِمَاتٍ﴾ قراءتان:

١- (كَلِمَاتٌ) على أن الكلمات قد استنقذت آدَمَ بتوفيق الله تعالى له لقوله إيَّاها[1].

٢- (كَلِمَاتٍ) على أن آدم هو الذي تلقَّى الكلمات بالقَبول لمَّا علَّمه الله هذه الكلماتِ، وأمره بهن[2].

﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

أي: إنَّ الله عزَّ وجلَّ لقَّن آدَمَ كلماتٍ تحصُل بها توبتُه ممَّا وقَع من عصيانه لله

= وممَّن قال من السَّلف في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾، أي: على ظهرها وهم أحياء: ابن عبَّاس، وأبو العالية، والرَّبيع، وابن زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٧٥) و((تفسير ابن أبي حاتم) (١/ ٨٩).

وممَّن قال من السَّلف: إنَّ المستقرَّ يعني القرارَ في القُبور: ابن عبَّاس، والسُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٧٦)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٨٩).

وممَّن قال من السَّلف: إن قوله: ﴿مَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ يعني: إلى قيامِ الساعة: مجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٧٨).

(١) قرأ بها ابْنُ كَثِير. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢١١).

يُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الكشف)) لمكي (١/ ٢٣٧)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٧٥).

(٢) قَرَأَ بها الْبَاقُونَ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢١١).

يُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الكشف)) لمكي (١/ ٢٣٧)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٧٥).

سبحانه، فتلقَّفها آدَمُ عليه السَّلامُ متلقِّيًا لها بالقَبول، فاعترَف بذنبه، وسأل اللهَ تعالى مغفرتَه ورحمتَه، فتَابَ الله عليه ورحِمه، فهو التوَّاب، أي: كثير التَّوْب، بمعنى الرُّجوع على عبدِه بقَبول التوبة، وتوبته بتوفيق عبدِه للتوبة أولًا، وقَبولها منه ثانيًا، وهو الرَّحيمُ بعباده المؤمنين، يختصُّهم برحمته سبحانه[1].

وهذه الكلمات مذكورةٌ في قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣][2].

والآية شبيهةٌ بقوله تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه: ١٢١-١٢٢].

وقوله سبحانه: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨].

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾.

أي: قال الله تعالى لآدَمَ وحواءَ وإبليسَ: اهبطوا من الجنَّة، مُجتمِعين في هُبوطكم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٧٩، ٥٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٨٦)، ((تلخيص كتاب الاستغاثة لابن تيمية)) لابن كثير (١/ ٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٣٨) ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٣٤).

وممن قال بهذا من السلف: مجاهد، وسعيد بن جُبَير ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٣١) ((تفسير ابن كثير)) =

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

أي: أخْبر الله تعالى الذين أهبَطهم من الجنَّة، ويدخُل في هذا الخطاب ذرِّيتهم، بأنَّه إنْ جاءهم في أيِّ وقت وحين، كتابٌ أو رسول يبيِّن لهم الطريقَ، ويرشدهم إليه، واتَّبعوه في ذلك، أنَّ لهم الأمنَ التامَّ، والسرور الدائم، فلا يخافون ممَّا يستقبلون، ولا على ما فاتهم من أمور الدُّنيا يحزنون، وبهذا تحصُل لهم السَّعادة الدنيويَّة والأخرويَّة، بإذن الله عزَّ وجلَّ[1].

كما قال تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣].

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا بشَّر المؤمنين الذين اتَّبعوا الهُدى أتْبعَه إنذارَ الكافرين الذين نابَذوه[2] بقوله:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

أي: إنَّ مَن لم يتَّبع هُدى الله عزَّ وجلَّ فجَحَد الحقَّ، وكذَّب بالآيات الشرعيَّة أو الكونيَّة، فهو من أهل النارِ الملازمين لها على الدَّوام، لا يَخرُجون منها أبدًا[3].

= (١/ ٢٤٠-٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤٤٠-٤٤١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٣٧-١٣٨).

وممَّن قال من السَّلف: إنَّ المقصودين من قوله تعالى: ﴿اهْبِطُوا﴾ آدَم وحواء وإبليس: أبو صالح، والسُّدي. ومنهم مَن زاد الحيَّة، إلَّا أنَّ ذلك لا يصحُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٨٨)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٩٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٩٠- ٥٩١)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١/ ٣٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠).

الفَوائد التربويَّة:

١- أنَّ الله تعالى قد يَمتحن العبدَ، فينهاه عن شيءٍ قد تتعلَّق به نفسُه؛ ابتلاءً واختبارا؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾[1].

٢- أنَّ معصية الله تعالى ظلمٌ للنَّفس، وعدوانٌ عليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[2]؛ لأن الظلم وضع الشيء في غير موضعه، فوضع الأكل في غير ما يحلُّ ظلم.

٣- الحذَر من وقوع الزَّلل الذي يُمليه الشَّيطان؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾[3]؛ فالشيطان يَغرُّ بني آدَمَ كما غرَّ أباهم حين وسوس لآدَمَ وحواء، وقاسمَهُما إنِّي لكما لمن الناصِحين[4].

٤- إضافة الفِعل إلى المتسبِّب فيه؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾[5].

٥- أنَّه لا دوامَ لبَني آدَم في الدُّنيا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾[6]؛ وعليه فيَنبغي للمؤمن الزُّهدُ فيها، وعدمُ الاغترار بها.

٦- أنَّ الإنسانَ إذا صدَق في تفويض الأمر إلى الله، ورجوعِه إلى طاعة الله، فإنَّ الله تعالى يتوبُ عليه[7].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٣٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٣٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٣٣).
(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٣٦).

٧- أنَّ آدَمَ عليه السَّلام لم يَستغنِ عن التوبة، مع علوِّ شأنه، فالواحد منَّا أَوْلى بذلك(١).

٨- أنَّ مَن اتَّبع هُدى الله، فإنَّه آمِنٌ من بين يديه، ومِن خلفه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٢).

٩- أنَّه لا يُتعبَّد لله إلَّا بما شرع؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٣).

الفوائد العلميَّة واللَّطائف:

١- قال الله تعالى عن نفْسه: ﴿قُلْنَا﴾ ولم يقل: (قلت)؛ لأنَّ الجبَّار العظيم يُخبِر عن نفسه بفِعل الجماعة؛ تفخيمًا وإشادةً بذِكره(٤).

٢- فضلُ آدَمَ على الملائِكة؛ لأنَّ اللهَ أمَر الملائكةَ أن يسجُدوا له(٥).

٣- تركُ المأمورِ أشدُّ مِن فعلِ المحظورِ؛ فذنبُ آدم عليه السلام كان بفعلِ المحظورِ، فكان عاقبتُه أن اجتباه ربُّه، فتابَ عليه وهدَى، وذنبُ إبليسَ كان بتركِ المأمور فكان عاقبتُه ما ذكَر اللهُ سبحانه تعالى(٦).

٤- أنَّ الجنَّةَ في مكان عالٍ؛ لقوله تعالى: ﴿اهْبِطُوا﴾؛ والهبوط يكون من أعلى إلى أسفل(٧).

٥- أنَّه لا يمكن لبَني آدَم العيش إلَّا في الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾(٨).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢/ ٤٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٣٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١/ ٢٩١)، ويُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٢٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٢٦).

(٦) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ٣٩).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٣٣).

(٨) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٦- مِنَّة الله سبحانه وتعالى على أبينا آدَمَ، ومِنَّة الله على أبينا هي منَّةٌ علينا في الحقيقة؛ لأن النِّعمة الواصلة إلى الآباء تَلحَق الأبناء(١).

بلاغة الآيات:

١- **قوله تعالى:** ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ﴾ الاستكبارُ يعني التزايُدَ في الكِبْر؛ لأنَّ السِّين والتاء في قوله: ﴿اسْتَكْبَرَ﴾ للمُبالغة لا للطَّلب، وجاءت بصيغة الاستفعال إشارةً إلى أنَّ صاحب صِفة الكِبْر من الناس لا يكون إلَّا متكلِّفًا له، وما هو بكبيرٍ حقًّا(٢).

٢- **الإتيانُ بخبر** ﴿كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ دون أن يقول:(وكان كافرًا)؛ لأنَّ إثباتَ الوصف لموصوفٍ بعنوان كونِ الموصوف واحدًا من جماعةٍ يَثبُت لهم ذلك الوصفُ- أدلُّ على شدَّة تمكُّن الوصف منه، ممَّا لو أثبتَ له الوصفَ وحْدَه بناءً على أنَّ الواحد يزداد تمسُّكًا بفِعله، إذا كان قد شارَكه فيه جماعةٌ؛ لأنَّه بمقدار ما يرَى من كثرة المتلبِّسين بمِثل فِعله، تبعُد نفْسُه عن التردُّد في سداد عملِها، وعليه جاء قوله تعالى: ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتُ مِنَ الكَاذِبِينَ﴾ [النمل: ٢٧](٣).

٣- **قوله:** ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ خِطاب بضَمير الجَمْع للتعظيم، وهو معطوفٌ على قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾؛ ففيه التفاتٌ؛ حيث غير أسلوب إسناد القول إلى الله، فأتى به مسندًا إلى ضمير العظمة ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾، وأتى به في الآية السابقة مُسندًا إلى رب النبيِّ ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾؛ للتفنُّن؛ ولأنَّ القول هنا تضمَّن أمرًا بِفعل فيه غضاضة على المأمورين، فناسبه إظهارُ عظمة الآمِر، وأمَّا القول السابق، فمُجرَّد إعلام من الله بمراده؛ ليظهر رأيهم، فناسبه الإسنادُ إلى الموصوف بالربوبية المؤذنة بتدبير شأن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين – الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٣٤-١٣٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤٢٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٢٧).

المربوبين، وأضيف إلى ضمير أشرف المربوبين وهو النبي صلَّى الله عليه وسلَّم[١].

٤- قوله: ﴿فَسَجَدُوا﴾ عطف بفاء التعقيب؛ إشارةً إلى مبادرة الملائكة بالامتثال[٢].

٥- قوله: ﴿اسْكُنْ أَنْتَ﴾ فيه تأكيدٌ وتقرير لَمعنى المُضمَر، حيث أكَّد الضَّميرَ المستَتِر في: ﴿اسْكُنْ﴾ بقوله: ﴿أَنْتَ﴾؛ ليصحَّ العطفُ عليه، ولئلَّا يكون تابعُه المعطوفُ عليه أبرزَ منه في الكلام[٣].

- الأمْر بقوله: ﴿اسْكُنْ﴾ مُستعمَل في الامتنان بالتمكين والتخويل، وليس أمرًا له بأن يسعَى بنفْسه لسُكنى الجنة؛ إذ لا قُدرةَ له على ذلك السعيِ، فلا يُكلَّف به[٤].

٦- قوله: ﴿مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ عبر بـ﴿حَيْثُ﴾ التي للمكان المُبهَم -أي: أيُّ مكان- إشارةً إلى إطلاق الأكْل لهما من الجَنَّة على وجه التَّوسِعة البالِغة[٥].

٧- قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هذه الشَّجرةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فيه مبالغة في النهي، وتأكيد عليه؛ حيث علَّق النهي بالقربان منها؛ مبالغةً في تحريمِ الأكل، ووجوبِ الاجتناب عنه، مع أنَّ المنهيَّ عنه هو الأكْلُ من ثِمار الشجرة؛ لأنَّ النهيَ عن مجرَّد القُرْب أبلغُ، وأكَّد هذا النهيَ بالتنبيه على أنَّ القُرب من الشيء يُورِث داعيةً وميلًا يأخُذ بمجامع القلب، وهو مقتضى الألفة، والألفة داعية للمحبة، فلا يرى قبيحًا، ولا يسمع نهيًا، فيُلهيه عمَّا هو مقتضى النَّقل والعقل؛ إذ جَعَل قُربانهما إلى الشجرة

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٢١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٢٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤٢٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤٢٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٢٧)، ((تفسير القاسمي)) (١/ ٢٩٢).

سببًا لأنْ يكونَا من الظالمين، والسبب الداعي إلى الشرِّ منهيٌّ عنه، كما أنَّ السَّبب الموصل إلى الخير مأمورٌ به[١].

٨- قوله: ﴿مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ إبهام ذِكر الجَنَّة أو الكرامة والنَّعيم، والتعبير عنها بذلِك (كانا فيه)؛ للإيذان بفَخامتها وجلالتِها وملابستِهما له، أي: من المكان العظيم الذي كانا مستقِرَّيْنِ فيه[٢].

٩- قوله: ﴿مِنِّي﴾ متعلق بـ﴿يَأْتِيَنَّكُم﴾، وهذا شبيهٌ بالالتفات، لأنَّه انتقل من الضَّمير الموضوع للجمع، أو المعظِّم نفسه، إلى الضمير الخاصِّ بالمتكلِّم المفرد. وحِكمة هذا الانتقال هنا أنَّ الهُدَى لا يكون إلَّا منه وحده تعالى، فناسب الضمير الخاص كونه لا هاديَ إلَّا هو تعالى، فأعطى الخاص الذي لا يُشاركه فيه غيره الضَّميرَ الخاصَّ الذي لا يحتمل غيرَ الله تعالى[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٠)، ((تفسير القاسمي)) (١/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤٣٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٢٧٢).

الآيات (٤٠-٤٦)

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿وَأَوْفُوا﴾: أي: أدُّوه وافيًا تامًّا، وأصل الوفاء: تمام الشيء، وإتمام العهد والقيام بمقتضاه، وإكمال الشَّرط[1].

﴿فَارْهَبُونِ﴾: خافوني، وأصل الرهبة والرَّهب: مخافة مع تحرُّز واضطراب[2].

﴿بِالْبِرِّ﴾: الدِّين والطاعة، وأصله: الصِّدق في المحبَّة[3].

﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾: لثقيلة شاقَّة، وأصل الكِبَر: خِلافُ الصِّغر[4].

المعنى الإجمالي:

يُذكِّر اللهُ تعالى بَني إسرائيل - والمقصود بإسرائيل المنسوبين إليه، يعقوبُ عليه

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٩).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧١).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٥٣- ١٥٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٢) ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧٧).

السَّلام- يُذكِّرهم بنِعمته التي أسبَغها عليهم، ويأمُرهم بالوفاء بالعهد، وبمقابل الْتِزامهم بالعهد، سيُمضي الله ما وعدَهم به، وهو إدخالُهم الجنَّةَ، ثم ذكَّرهم بأنْ يَخشوه ويخافوه.

وأمَرَهم تبارك وتعالى أن يُصدِّقوا بقلوبهم وجوارحهم بالقرآن الذي يُوافق التوراةَ التي معهم، ونهاهم أن يكونوا أوَّلَ مَن يجحَد القرآنَ ومَن أُنزل عليه، ونهاهم أيضًا أن يَبيعوا آياتِه؛ فيَدَعوا الإيمانَ به وبما أرسلَه وأنزله، ويكتموا ما ورَد في كتابهم من الحقِّ مقابلَ الدنيا وشهواتها، ثم أمرهم أن يتَّقُوه وحْدَه سبحانَه.

ونهاهم أن يَخلِطوا الحقَّ بالباطل، ونهاهم أيضًا أن يُخفوا الحقَّ، وهم يعلمونه، والحالُ أنَّهم يعرِفون ما يترتَّب على إخفائهم من الضَّرَر، وأمرهم بأن يؤدُّوا الصَّلاةَ بأركانها وواجباتِها، ويعطوا الصدقةَ المفروضةَ، ويُصلُّوا جماعةً مع المؤمنين.

ثمَّ سألهم الله منكرًا عليهم أمْرَهم للنَّاس بالإيمان والخير، وترْكَهم أنفسَهم، وهم يقرؤون التوراةَ، ويعرفون ما فيها، أوَليس عندهم عقولٌ تدلُّهم على ضلالهم؟!

ثم يُرشد سبحانه وتعالى إلى الاستعانة بالصَّبر والصَّلاة في جميع الأمور، وإنْ كانت الصَّلاة ثقيلةً إلَّا على الخاشعين، وهم الذين أيقَنوا بملاقاتهم ربَّهم، وأنَّهم إليه عائِدون يوم القِيامة.

تفسير الآيات:

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾.

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾.

أي: يا بَنِي يعقوب كونوا مثلَ أبيكم في متابعة الحقِّ، واذكروا نِعمَ الله تعالى على آبائكم، ومنها النِّعم التي سيأتي ذِكرُها في هذه السُّورة الكريمة، وذِكرُ هذه النعمِ

يستوجب منهم القيامَ بشُكر الله تعالى عليها، بالدُّخول في دِينه ومتابعة رسولِه عليه الصَّلاة والسَّلام[(١)].

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾.

أي: لا تُخالفوا وصيةَ الله تعالى التي عَهِدَ بها إليكم من الإيمان به سبحانه، وبرسلِه، ومنهم محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام، وإقامةِ شرْعه، وبيان الحقِّ الذي تعرفونه، فإنَّكم إن أنفذتُم وصيةَ الله تعالى لكم، أمضَى لكم ما وعدَكم به، وهو تكفيرُ السيئاتِ، ودخولُ الجنَّة، ثم حذَّرهم نفْسَه بعد أن رغَّبهم، فإنْ تحقَّقت فيهم هذه الخشيةُ لله تعالى، فإنَّها تَحمِلهم على الإيفاء بعَهدِه عزَّ وجلَّ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ١٢].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٩٣، ٥٩٤)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٩٦، ٥٩٨)، ((تلخيص كتاب الاستغاثة لابن تيمية)) لابن كثير (١/ ٣٢١-٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٣٤).

عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦-١٥٧].

﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾.

﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾.

أي: يأمُر اللهُ تبارك وتعالى بَني إسرائيل بأنْ يُقرُّوا بقلوبهم وجوارحِهم بهذا الذي يُوافِق ما لديهم من التَّوراة، وهو القرآنُ الذي أنزله الله تعالى على محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وفي ضِمن ذلك الإشارةُ إلى أنَّ تكذيبهم للقرآن، هو تكذيبٌ لِمَا معهم من التوراة، التي يدَّعون إيمانَهم بها[1].

﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾.

أي: نهَى الله تعالى بني إسرائيل عن أن يكونوا أوَّلَ مَن يكفُر بالقرآن ومَن أُنزِل عليه، وهو محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ فعندهم من العِلم به ما ليس عند غيرِهم، وإلَّا فإنَّه يَقتدي بهم مَن بعدهم، فيكون إثمُ كُفره عليهم[2].

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

أي: نهاهم اللهُ تعالى عن أن يَبيعوا آياتِه؛ فيترُكوا الإيمانَ به سبحانه، ومتابعةَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٤٢-٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠-٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٠١-٦٠٢)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٢٨)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٣٤)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤٦٠).
وممَّن قال من السَّلف: إنَّ المقصود بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ القرآن: ابن جُرَيج. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٠٢).
وممَّن قال من السَّلف أنَّ المقصود به: محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ: أبو العالية. قال ابن أبي حاتم: (ورُوي عن الحسن، والسُّدِّي، والرَّبيع بن أنس نحوُ قول أبي العالية) ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٩٧).

رسولِه عليه الصَّلاة والسَّلام، وبيان ما في كِتابهم من الحقِّ، ومنه ما ورد فيه من أمْر محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، من أجْل الدُّنيا وشهواتها، كالإبقاء على ما يَحظَوْن به من المناصب والأموال، وغير ذلك؛ فإنَّ الدنيا بحذافيرها ثمنٌ قليل لا يُساوي شيئًا بجانب الإيمان بالله تعالى(١).

﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾.

أي: إنَّ اللهَ سبحانه وَحْدَه هو المستحقُّ للتقوى دون مَن سواه؛ فإنَّهم إذا اتَّقَوا الله وحْدَه، أوجب لهم ذلك، تقديمَ الإيمان بآياته على كلِّ شهوةٍ فانية(٢).

﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

أي: نهَى الله تعالى اليهودَ عن خلْط الحقِّ الذي أنزله الله تعالى بالباطِل الذي افترَوه، بحيث لا يتمايزان، أو يُظهروا الباطلَ في صورة الحق، كما نهاهم أيضًا عن كِتمان الحقِّ، والحال أنَّهم يعلمونه، ويعلمون ما في صَنيعهم هذا من الضَّرر العظيم على الناس، ومِن الحقِّ المذكور في هذه الآية، ما يعرِفه اليهودُ مِن أمر نبوَّةِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٤٣-٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٢٨-١٢٩)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٣٥)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٧/ ١٧٦)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تَيميَّة (١/ ٢٠٩-٢١١، ٢١٩-٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤٧٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٣٥).
قال ابنُ أبي حاتم: (عن أبي العالية في قوله: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾؛ يقول: ولا تَخلِطوا الحقَّ بالباطل، وأدُّوا النصيحة لعباد الله في أمْر محمَّد (صلَّى الله عليه وسلَّمَ) .... قال أبو محمَّد: ورُوي عن سعيد بن جُبَير، والرَّبيع بن أنس نحوُ ما ذكرنا عن أبي العالية) ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٩٨)، ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٠٩).

كما قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧١].

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾.

أي: بعد أن أمَر اللهُ عزَّ وجلَّ اليهودَ باعتناق دِين الإسلام، أمَرهم بأنْ يُقيموا الصَّلاة، أي: يؤدُّوها بأركانها، وواجباتِها على أحسنِ وجه، ويُعطوا الصَّدقةَ المفروضة أهلَها المستحقِّين لها، ويصلُّوا مع المصلين- ومنهم محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّمَ وأصحابُه رضي الله عنهم- ويكونوا من جملتهم(١).

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

أي: يوبِّخ اللهُ تعالى اليهودَ مُنكِرًا عليهم قُبْحَ صنيعهم في أمْر الناس بالإيمانِ والخيرِ، وتَرْكِ أنفسِهم لا يأمرونها بذلك، والحالُ أنَّهم يقرؤون التوراةَ ويتدارسونها بينهم، ويَعلمون منها ما أُمِروا به من الخير، وما عليهم إنْ قصَّروا في شرْع الله تعالى. أوَليس لهم عقولٌ يدركون بها ضلالهم، وتزجرهم عن الوقوع في ذلك(٢)؟!

كما قال تعالى إخبارًا عن شُعَيب عليه السَّلام: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨].

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢-٣].

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦١١-٦١٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤٧٢).

(٢) يُنظر:))جامع البيان)) (١/ ٦١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٤٦-٢٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٥٨).

أي: اطلبوا العونَ على جميع ما تُؤمِّلون من أمور الدُّنيا والآخِرة، وعلى تحمُّل المشاقِّ والمصائبِ بالصَّبر والصَّلاة، والصَّلاةُ ثقيلةٌ وذات مشقَّة على الأنفُس، لكنَّها سهلةٌ وخفيفةٌ على مَن خشَع، فخضَع لله تعالى واطمأنَّ إليه قلبُه، وظهرَ أثرُ ذلك الخشوعِ على جوارحِه، وهؤلاءِ الخاشعون هم الموقِنون بعودتهم إلى الله تعالى، والحشرِ إليه يوم القِيامة(١).

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

وقال سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٢].

الفَوائِد التربويَّة:

١- أنَّ تذكيرَ العبد بنِعمة الله عليه أدْعَى لقَبوله الحقَّ، وأقومُ للحُجَّة عليه؛ لقوله تعالى: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾(٢).

٢- وجوب إخلاص عِبادة الرَّهبة لله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾(٣).

٣- أنَّ جميع ما في الدُّنيا قليل(٤)، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦١٧-٦٢٤، ٦٢٧-٦٢٨)، ((القواعد النورانية الفقهية)) لابن تَيميَّة (ص: ٤٢)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٢٨/ ٣١)، ((الصلاة وأحكام تاركها)) لابن القيم (ص: ١٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٥١-٢٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١، ٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤٨٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٥-٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٤٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٤٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٥٠).

[البقرة: ٤١]، فينبغي الزهدُ فيها، وإيثار ما عند الله تعالى؛ فهو خيرٌ وأبقى.

٤- وجوب تقوى الله عزَّ وجلَّ، وإفراده بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾[١].

٥- مَن لَبَس الحقَّ بالباطِل، فلم يميِّز هذا من هذا، مع عِلمه بذلك، وكتَم الحقَّ الذي يَعلمه وأُمِر بإظهاره، فهو من دُعاةِ جهنمَ، والعياذ بالله تعالى[٢].

٦- وجوب بيانِ الحقِّ، وتمييزه عن الباطِل، فيُقال: هذا حقٌّ، وهذا باطلٌ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الحَقَّ بِالبَاطِلِ﴾[٣].

٧- مَن أمَر غيرَه بالخير ولم يفعلْه، أو نهاه عن الشرِّ فلم يَترُكْه، دلَّ على جهله وعدم عقلِه، خصوصًا إذا كان عالِمًا بذلك[٤].

٨- ليس في قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، أنَّ الإنسان إذا لم يقُمْ بما أُمِر به أنَّه يَترُك الأمرَ بالمعروف، والنهيَ عن المنكر؛ لأنَّها دلَّت على التوبيخ بالنِّسبة إلى الواجبين، وإلَّا فمِن المعلوم أنَّ على الإنسان واجبَينِ: أمْر غيرِه ونهيه، وأمْر نفْسِه ونهيها، فترْك أحدهما، لا يكون رُخصةً في ترْك الآخَر؛ فإنَّ الكمال أن يقوم الإنسان بالواجبين، والنَّقص الكامل أن يتركهما، وأمَّا قيامه بأحدهما دون الآخَر، فليس في رُتبة الأوَّل، وهو دون الأخير، وأيضًا فإنَّ النفوس مجبولةٌ على عدم الانقياد لمن يُخالِف قولُه فِعْلَه، فاقتداؤهم بالأفعال أبلغُ من اقتدائهم بالأقوال المجرَّدة[٥].

٩- أمرُ اللهِ بالاستعانة بالصَّبر يَشمَل جميعَ أنواعه، وهو: الصَّبر على طاعة الله

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٥١).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٥٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

حتى يُؤدِّيَها، والصَّبر عن معصية الله حتى يترُكَها، والصَّبر على أقدار الله المؤلِمة فلا يتسخَّطها[1].

١٠- قوله سبحانه: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ فيه الحث على الصلاة في جماعة[2].

١١- في قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ...﴾ الإرشاد إلى المطابقة بين القول والفعل، وبين العقيدة والسلوك، وهذا ليس أمراً هيِّنًا، ولا طريقًا معبَّدًا؛ فإنه في حاجة إلى رياضة وجهد ومحاولة، وإلى صلة بالله، واستمداد منه، واستعانة بهديه[3].

١٢- أنَّ خشوع العبد لله، ممَّا يُسهِّل عليه العبادةَ، فكلما كان لله أخشع كان له أطوع، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥][4].

١٣- أنَّ المؤمنين يُوقِنون أنَّهم راجِعون إلى الله تعالى، وهذا يستلزم أمورًا:

أولًا: الخوف من الله؛ لأنَّهم ما داموا يعلمون أنَّهم راجعون إلى الله تعالى، فسوف يخافون منه، والخوفُ في القلب؛ يعني: أنهم إذا علِموا أنَّهم سيرجعون إلى الله، فسوف يَخشَونَه في السِّرِّ والعلانية.

ثانيًا: مراقبة الله عزَّ وجلَّ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤٧٧).

(٢) قال الواحدي: (وإنما قال: واركعوا بعد قوله: وأقيموا الصلاة لأنه أراد الحث على إقامة الصلاة في جماعة) ((التفسير الوسيط)) (١/ ١٢٩).

وقال السعدي: (قوله: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أي: صلوا مع المصلين، ففيه الأمر بالجماعة للصلاة ووجوبها) ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١). ويُنظر: ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٢٣/ ٢٢٧-٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٦٥).

ثالثًا: الحياء منه؛ فلا يَفقِدك حيث أمَرَك، ولا يَجِدك حيث نهاك[١].

الفوائد العلميَّة واللَّطائف:

١- أنَّ الله تعالى يوجِّه الخطاب للمخاطَب؛ إمَّا لكونه أوعى من غيرِه، وإمَّا لكونه أَوْلى أن يَمتثِل، وهنا وجَّهه لبني إسرائيل؛ لأنَّهم أَوْلى أن يمتثلوا؛ لأنَّ عندهم من العِلم برسالة النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وأنَّها حقٌّ- ما ليس عند غيرِهم[٢].

٢- في قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾: دلالةٌ على أنَّ الصَّلاة واجبةٌ على الأمم السابقة، وأنَّ فيها ركوعًا، كما أنَّ في الصَّلاة التي في شريعتنا رُكوعًا[٣].

٣- أنَّ الأمم السابقة كانت عليهم زَكاة، قال تعالى: مخاطبًا بني إسرائيل: ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾[٤].

٤- جواز التعبير عن الكلِّ بالبعض إذا كان هذا البعضُ من مباني الكلِّ التي لا يتمُّ إلَّا بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾[٥].

٥- توبيخ بني إسرائيل، وأنَّهم جهلةٌ حمْقى ذَوُو غيٍّ؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[٦].

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا...﴾ إلى قوله: ﴿...مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ فيها ترتيب عجيبٌ، من حيثُ فصاحةُ الكلام وبنائه بعضه على بعض، مع أنَّها عُطِفت

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٦٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٤٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٥٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٥٧).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٦٠).

بالواو التي لا تقتضي في الوضع ترتيبًا؛ إذِ افتُتحت بذِكر النِّعم، واختُتِمَت بالأمر بالانقياد للمُنعِم، وذُكر بينهما تكاليف اعتقاديَّة، وأفعال بدنيَّة وماليَّة، وفي ذلك ما يدعو إلى محبَّة المنعِم، ووجوب طاعتِه(١).

٢- قوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ ﴿وَأَوْفُوا﴾ و﴿أُوفِ﴾ فيه ما يُعرَف عند البَلاغيِّين بالتَّعطُّف ويُسمِّيه بعضهم المشاركة؛ حيث علَّق لفظةً من الكلام بمعنًى، ثم كرَّرها بعينها وعلَّقها بمعنًى آخر، وهما مفترقتان؛ كلُّ لفظةٍ منهما في طرَف من الكلام، وفائدته التأكيد(٢).

٣- قوله: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾، و﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ فيه تقديم ضمير الفَصل؛ لإفادة التخصيص، وهو آكَدُ في إفادة التَّخصيص من (وإياي فارهبوا) (وإياي فاتقوا)؛ لِمَا فيه- مع التقديم- من تكرير المفعول وهو الياء في (فارهبون، واتقون) إذ أصله (فارهبوني، واتقوني)(٣).

٤- قوله: ﴿تَلْبِسُوا الْحَقَّ﴾، وقوله: ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾ تكرير ﴿الْحَقَّ﴾ لزيادة تقبيح المنهيِّ عنه؛ إذ في التصريح ما ليس في الضمير من التأكيد(٤).

٥- قوله: ﴿أَتَأْمُرُونَ﴾ الهمزة للتقرير مع التوبيخ، والتعجُّب من حالهم(٥). وأتى

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٢٩٢-٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٩٢)، (٤/ ١١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٣١)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ٧٥-٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٩٦).

وعلى القول بأنَّ المرادَ بـ(الحق) الأخير ليس عينَ الأول، بل هو نعت النبيِّ صلَّى الله عليهِ وسلم الذي كتَموه وكتبوا مكانه غيرَه-فليس فيه تأكيد.

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٣٣)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٣٦)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ٧٧).

بالمضارع وإنْ كان قد وقَع ذلك منهم؛ لأنَّه يُفهم من المضارع في كثيرٍ من المواضع: الديمومة وكثرة التلبُّس بالفعل؛ فصِيغةُ المضارع تُفيد التجدُّد والحدوث[1].

٦- قوله: ﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ عبَّر عن ترْك فِعلهم بالنِّسيان؛ مبالغةً في الترك، فكأنَّه لا يَجري لهم على بال، وعلَّقه بالأنفُس توكيدًا للمبالغة في الغفلة المُفرِطة[2].

٧- قوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ جُملة حاليَّة، وتصديرُ الكلام بالضمير ﴿وَأَنْتُمْ﴾، فيه زيادةٌ في المبالغة، وتسجيل لتبكيتهم وتقريعهم وتوبيخهم[3].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٩٥).

الآيات (٤٧-٥٧)

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾
وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا
هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ
أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿٤٩﴾ وَإِذۡ فَرَقۡنَا
بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ
أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم
مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ لَعَلَّكُمۡ
تَهۡتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ
ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ
إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ
فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ
تَشۡكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن
طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿لَا تَجْزِي﴾: أي: لا تقضي عنها ولا تُغني، والجزاء: القضاء، وأصله: قِيام الشيء مقامَ غيره ومكافأته إيَّاه[1].

﴿عَدْلٌ﴾: أي: فدية، وأصْل العدْل: ضد الجور والظُّلم، والعَدَالَةُ والمُعَادَلَةُ: لفظٌ يقتضي معنى المساواة[2].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ١٣٣/ ١٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢٨-٣٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٦-٢٤٧)، ((المفردات)) للراغب =

﴿يَسُومُونَكُمْ﴾: يُولُونَكم، أي: يولونكم إذلالًا واستخفافًا، وقيل: يُرسِلون عليكم، وسامه: كلَّفه العمل الشاق. وأصل السَّوْم: الذَّهاب في ابتغاء الشَّيء(١).

﴿يَسْتَحْيُونَ﴾: أي: يستبقونهنَّ أحياء، والاستحياء: الإبقاء حيًّا، واستفعل فيه بمعنى أفعل(٢).

﴿بَلَاءٌ﴾: أي: اختبار، وأصل البلاء: إخلاقُ الشَّيء، والاختبارُ، ثم صار يُطلق على المكروه والشدَّة، ويُقال: أُبلي بالنِّعمة، وبُلي بالشدَّة(٣).

﴿فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾: فلقناه لكم، والفرق يُقارب الفلق، لكن الفلق انشقاق، والفَرْق انفصال، وأصْل الفَرْق: الفصل والتمييز والتزييل بين الشيئين(٤).

﴿جَهْرَةً﴾: أي: علانية ظاهرًا، وأصله: إعلان الشيء وكشفُه وعلوُّه(٥).

﴿الصَّاعِقَةُ﴾: هي النَّار التي تنزلُ من السَّماء عندَ اشتداد الرَّعد، أو الصَّوت الشديد من الجوِّ، والوَقعُ الشَّديدُ منَ الرَّعْدِ، أو كلُّ عذاب مُهلك (الموت، والعذاب، والنار)، ومنه: صَعِق، إذا مات، وأصل صعق: يدلُّ على شِدَّة الصَّوت(٦).

= (ص: ٥٥١-٥٥٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٣٩-٦٤٠).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٠٣-٩٩٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٩٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٤٩-٢٥٠، ٢٥٣).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٤).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٥).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٥)، =

﴿الْغَمَامَ﴾: جمع غمامة، وهو سحابٌ أبيضُ يُواري وجْهَ السماء، لكنَّه يُبقيها مستنيرة؛ سُمِّي بذلك لأنَّه يغمُّ السَّماء، أي يَسترُها ويُواريها، وأصل الغَمِّ: ستر الشيء(١).

مشكل الإعراب:

قوله: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ﴾، ومثله ﴿وَإِذْ آتَيْنَا﴾، ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى﴾... وأمثالها: إذْ- في ذلك كُلِّه- ظرف زمان، متعلِّق بفعل محذوف تقديره (اذكروا)، مبني في محلِّ نصب، عطف على ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ﴾، والتقدير: واذكروا إذْ نَجَّيْناكم، واذكروا إذ فَرَقْنا...إلخ(٢).

المعنى الإجمالي:

يُخاطِب الله تعالى بَني إسرائيل، ويُذكِّرهم بِنِعمه التي أسبغها عليهم، ويَعني بها النِّعَمَ التي أَنعم بها على آبائهم، وأنَّه فضَّلهم على سائر الأُمم من أهل زمانهم، ثم بعدَ أنْ ذكَّرهم بنِعمه وفضله عليهم، حذَّرهم وخوَّفهم، وأمرَهم بأنْ يجعلوا بينهم وبين عذاب الله تعالى وقايةً في يوم القيامة، الذي لا تَقضي فيه نفْسٌ عن نفس حقًّا وجَب عليها، ولا تُقبل من نفْس شفاعةٌ لنفس أخرى، إذا كانت كافرةً، ولا يُقبل منها فِداءٌ، ولا أحد يُنقذهم من عذابِ الله تعالى.

ثم ذكَّرهم بإنجائه آباءَهم من فرعون وشيعتِه، الذين كانوا يُديمون تعذيبَهم بعذاب سيِّئ شديد، وهو ذبْح الأبناء الذُّكور، واستبقاء الإناث أحياءً؛ لإذلالهنَّ

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٤-٤٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٣).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٥-١٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٧١)، ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (ص: ٢٧٥-٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٩٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٦١)، ((إعراب القرآن الكريم)) لدعاس (١/ ٢٥).

وإهانتهنَّ، وفي ذلك الإنجاءِ من العذاب نعمةٌ عظيمة لهم من ربِّهم.

ثم ذَكَّر بني إسرائيل بأنَّه فَرَق البحرَ لهم؛ ليسلكوا طريقًا للنجاة، فأنقذهم الله بذلك، وأغْرَق فِرعونَ وقومَه، وبنو إسرائيل ينظرون؛ ليكون أشْفَى لصدورهم، وأنكى لعدوِّهم.

وذَكَّرهم مواعدتَه لموسى أربعين ليلةً، ثم عبادتهم العِجلَ بعد أن فارقَهم موسى، وهم في هذا الفِعل ظالمون بوضعِهم العبادةَ في غير موضعها، ثم تجاوز الله عنهم؛ لعلَّهم يَشكُرونه على هذه النِّعمة.

وذكَّرهم إعطاءَه التوراةَ لموسى؛ ليهتدوا بها باتِّباع ما فيها.

ثمَّ ذكَّرهم مناداةَ موسى لهم، وإخبارهم أنَّهم تعدَّوْا في حقِّ أنفسهم باتِّخاذهم العِجلَ معبودًا، وأنَّ عليهم التوبةَ لخالقهم، بأن يقتُل بعضُهم بعضًا، وأنَّ ذلك أفضلُ لهم عند خالِقهم الذي تابَ عليهم؛ فهو التوَّاب الرَّحيم.

وذكَّرهم حِين قالوا لموسى عليه السَّلام: لن نُقِرَّ بما جِئتَ به، حتى نَرَى اللهَ عِيانًا، فعُوقبوا بالصَّعق، ينظر بعضهم لبعض وهم يموتون، ثمَّ بعثَهم الله من بعد موتهم؛ ليشكروه على نِعمته عليهم بإحيائهم.

ثمَّ ذكَّرهم بتظليلهم بسحابٍ أبيضَ رقيق في أيَّام التِّيه؛ ليقيَهم حرارةَ الشَّمس، وبإنزال المنِّ والسَّلوى وأمرِهم بالأكلِ من طيِّب الرِّزق، ثم بيَّن تعالى أنَّهم بجحودهم، وعدمِ شُكرهم ومعصيتهم، لن يضرُّوا الله شيئًا، بل ذلك مضرَّةٌ لهم.

تفسير الآيات:

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧)﴾.

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾.

أي: يا بَنِي يعقوب كونوا مثلَ أبيكم في متابعة الحقِّ، واذكُروا نِعمه تعالى على آبائكم ذِكرًا يحملكم على شُكرها بالخضوع لله تعالى، وذلك بالدُّخول في دِينه، واتِّباع رسولِه الكريم صلَّى الله عليه وسلَّمَ، ومنها النِّعم التي سيأتي ذِكرُها في هذه السُّورة الكريمة(١).

﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

أي: واذكُروا تفضيلي لكم على سائرِ الأمم من أهل زَمانِكم، من إرسال الرُّسُل منكم، وإنزال الكتُب عليكم، وغير ذلك من النِّعم الخاصَّة(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠].

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٤٨)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا ذكَّرهم الله تعالى بنِعمه، عطَف على ذلك التحذيرَ من حلول نِقَمه بهم يومَ القِيامة، فقال(٣):

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٤-٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٥-٥٦).

قال ابنُ أبي حاتم: (عن أبي العالية: ﴿وأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العَالَمِينَ﴾، قال: بما أُعطوا من المُلك والرُّسل والكتُب، على عالَمِ مَن كان في ذلك الزَّمان؛ فإنَّ لكلِّ زمانٍ عالَمًا. قال أبو محمد: ورُوي عن مجاهد، والرَّبيع بن أنس، وقتادة وإسماعيل بن أبي خالد نحو ذلك) ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١٠٤). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٥٦).

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾.

أي: أمَرهم الله أن يعتقدوا ويَفعلوا ما يكونُ حاجزًا يَقِيهم من عذابِه سبحانه، في يوم القِيامةِ الذي لا تَقضِي فيه نفْسٌ عن نفْس حقًّا وجَب عليها لغيرها، ولا يُغني فيه أحدٌ- كائنًا من كان- عن أيِّ أحدٍ شيئًا، ولو كان من عَشيرته الأقرَبين، أو كان الشيءُ قليلًا ويسيرًا جدًّا(١).

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان: ٣٣].

﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾.

أي: لا يُقبَل من أيِّ نفْسٍ شفاعةٌ لنفْسٍ أخرى إذا كانت كافرةً على الإطلاق.

كما قال تعالى: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨].

وقال سبحانه عن أهل النار: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠٠-١٠١].

أمَّا المؤمنة فتُقبل منها، إنْ كانت الشفاعةُ بإذن الله تعالى، مع رِضاه سبحانه عن المشفوعِ له(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦].

﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾.

---

(١) نقل ابن عطية الإجماع على أنَّ هذه الآية في الكافرين. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٣٩).
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٣١)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٣٦، ٦٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٦٤).

أي: لا يُقبَل منها فِداءٌ[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ﴾ [آل عمران: ٩١].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ٧٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ [الحديد: ١٥] الآية.

﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾.

أي: ليس لهم أحدٌ يُنقِذهم من عذابِ الله تعالى[٢].

كما قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ١٠].

وقال سبحانه: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصافات: ٢٥-٢٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٨].

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٣٩، ٦٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٣٩، ٦٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٦٩).

أي: واذْكُروا يا بني إسرائيل، نِعمتي عليكم بإنجاءِ آبائكم من شِيعة فِرعونَ وقومِه وملئِه، الذين كانوا يُذيقونهم- ويُديمون عليهم- عذابًا سيِّئًا وشديدًا، وهو ذبْح الأبناء الذُّكور، واستبقاء الإناثِ أحياءً؛ لإذلالهنَّ، وإهانتهنَّ، واستضعافهنَّ، وإنجاءُ الآباء إنجاءٌ لهم؛ ولذا وُجِّه الخِطابُ إليهم(١).

﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

أي: وفي إنجائِنا لآبائكم من عدوِّكم نعمةٌ عظيمةٌ لكم من ربِّكم(٢).

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا ذكَر الله سبحانه وتعالى تسلُّطَ آل فِرعون على بني إسرائيل، ذكَر مآل هؤلاء المتسلِّطين، فقال(٣):

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾:

أي: ذَكَّرَ سبحانه بني إسرائيل بأنَّه فرَق البحر لهم، وبسبب دُخولِهم فيه، ففَصَل بعضَه عن بعض؛ ليسلكوا طريقًا يابسًا بيْن أجزاء البحر، فأنقذهم اللهُ تعالى بذلك من فِرعونَ وقومِه، الذين أغْرَقهم الله تعالى جميعًا، وأمكَن بني

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٤١-٦٤٤)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تَيميَّة (١/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٥٧، ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٧٠-٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢).

قال ابنُ أبي حاتم: (عن ابن عبَّاس: قوله: ﴿بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ يقول: نِعمة. ورُوي عن مجاهد، وأبي مالك، والسُّدِّي نحوُ ذلك)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١٠٦). يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٥٣).

ويُحتمل أن يكون المراد بـ ﴿ذَلِكُم﴾: أي سوء العذاب. يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٧٣-٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٧٨).

إسرائيل من النَّظر إليهم بأبصارهم وهم يَغرَقون، فكان ذلك أشْفَى لصدورهم، وأبلغَ في إهانةِ عدوِّهم(١).

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ * وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ [الشعراء: ٦١-٦٦].

﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٥١)﴾.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: ﴿وَاعَدْنَا﴾ قراءتان:

١- (وَعَدْنَا) على معنى أنَّه وعْدٌ من الله تعالى لموسى عليه السلام، وليس فيه وعدٌ مِن موسى عليه السلام(٢).

٢- (وَاعَدْنَا) على معنى أنَّ المواعدةَ من الله سبحانه لموسى عليه السلام، ومِن موسى عليه السلام لربِّه(٣).

﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾.

أي: واذكُروا يا بني إسرائيلَ مواعدتَنا لموسى تمامَ أربعين ليلةً، ثم عِبادتكم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٥٤، ٦٥٥، ٦٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٥٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٧٥-٧٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢).

(٢) قرأَ بها أبو جَعْفرٍ، وَالْبَصرِيَّانِ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢١٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الكشف)) لمكي (١/ ٢٣٩). ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٦٣).

(٣) قرأَ بها الْبَاقُونَ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢١٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الكشف)) لمكي (١/ ٢٣٩). ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٦٣).

العِجلَ من بعد أنْ فارقَكم موسى متوجِّهًا إلى الموعِد، وأنتم ظالمون بوضعِكم للعبادةِ في غير موضعها؛ لأنَّ العبادةَ لا تَنبغي إلَّا لله عزَّ وجلَّ، وأنتم قد اتخذتُمُ العِجل إلهًا، والشركُ بالله تعالى ظلمٌ عظيمٌ[1].

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٢)﴾.

أي: تجاوزْنا عنكم بمحوِ أثر ذنبِكم بعبادة العِجل، فلم نعاقبْكم؛ لتكونوا من الشاكِرين نعمةَ الله تعالى عليكم بالعَفوِ[2].

﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (٥٣)﴾.

أي: واذكُروا إعطاءَنا موسى التوراةَ، التي تُفرِّق بين الحقِّ والباطل؛ لتهتدوا بها باتِّباع الحقِّ الذي فيها[3].

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤)﴾.

أي: واذكُروا حين نادَى موسى عليه السَّلام قومَه، يؤكِّد لهم ظُلمَهم لأنفسهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٦٦-٦٦٩، ٦٧٥)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٦١)، ((العذب النمير)) (١/ ٧٧، ٨١-٨٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٧٥-٦٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٠١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٨٥).

قال ابنُ أبي حاتم: (عن أبي العالية في قوله: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ يعني مِن بعد ما اتَّخذوا العِجل، ورُوِي ذلك عن الرَّبيع بن أنس) ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١٠٨).

(٣) نقل ابنُ عطية في ((تفسيره)) (١/ ١٤٤) الإجماع على أن المراد بـ ﴿الكتاب﴾: التوراة.

ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٧٦، ٦٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٦١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٨٧-٨٩).

قال ابنُ أبي حاتم: (عن أبي العالية في قوله: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ وَالفُرْقَانَ﴾ قال: فرَّق فيه بين الحق والباطل، ورُوِي عن مجاهد، والرَّبيع بن أنس نحوُ ذلك) ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١٠٩).

باتِّخاذهم العِجلَ إلهًا يعبدونه؛ ولذا فقد وجَبتْ عليهم التوبةُ من هذا الجُرم الشنيع، في حقِّ مَن أوجدهم من العدَم، فالذي خلقَهم هو من يستحقُّ أن يُعبَد وحده لا شريك له، ثمَّ وصَف لهم كيفيَّةَ توبةِ الله تعالى عليهم بأنْ يَقتُل بعضُهم بعضًا، فذلك خيرٌ لهم عند الله تعالى، الذي تاب عليهم؛ فهو التوَّاب الرَّحيم(١).

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ(٥٥)﴾.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً﴾.

أي: واذكُروا حين قلتُم لموسى عليه السَّلام، لن نصدِّقك ولن نُقرَّ بما جئتَنا به، حتى نرى الله عِيانًا، ننظُر إليه بأبصارنا(٢).

كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٣].

---

(١) قال القرطبيُّ: (أجمعوا على أنَّه لم يُؤمَر كلُّ واحد من عَبَدة العِجل بأن يقتُل نفْسَه بيده) ((تفسير القرطبي)) (١/ ٤٠١).

ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٧٩، ٦٨٥-٦٨٧)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تَيميَّة (٤/ ٣٣-٣٤)، (٧/ ١٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٦١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٩٠-١٠٠).

وممَّن قال من السَّلف: إنَّ معنى ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾: أن يقتُل بعضهم بعضًا: ابن عبَّاس، وسعيد ابن جُبَير، ومجاهد، وقتادة، والحسن. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٨٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٠٥-٥٠٧).

وقال ابنُ أبي حاتم: (عن قَتادة في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً﴾، أي: عِيانا. قال أبو محمَّد: وكذا فسَّره الرَّبيعُ بن أنس: عِيانًا) ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١١١).

﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾.

أي: فعاقَبَكم الله تعالى بالصَّعْقِ فمتُّم، ينظرُ بعضكم إلى بعضٍ وهم يموتون[١].

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦)﴾.

أي: ثم أحييناكم من بعد موتكم بالصاعقة التي أهلكتكم؛ لتشكروني على نعمتي عليكم بإحيائكم؛ لتحدثوا توبةً من عظيم ذنبكم[٢].

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا ذكَر تعالى ما دفعَه عنهم من النِّقم، ذكَّرهم أيضًا بما أسبغَ عليهم من النِّعم، فقال[٣]:

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾.

أي: وارَيْنا عنكم وجْهَ السَّماء بالسَّحاب الأبيض الرَّقيق؛ لنَقِيَكم حرَّ الشَّمس في التِّيه[٤].

﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾.

---

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٠٠-١٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٩١، ٦٩٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٠٣، ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٩٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٠٧).

قال ابنُ أبي حاتم: (عن ابن عبَّاس قال: ثم ظَلَّل عليهم في التِّيه بالغمام -قال أبو محمَّد: ورُوي عن ابنِ عُمر، والرَّبيع بن أنس، وأبي مِجْلَز، والضحَّاك، والسُّدِّي، نحوُ قول ابن عبَّاس) ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١١٣).

أي: يذكُر الله تعالى لهم أيضًا أنَّه أنزَل عليهم رِزقًا طيِّبًا سهلًا يحصُلون عليه بلا كُلفةٍ، ولا مشقَّة[1].

والمنُّ قيل هو كل ما امتن الله تعالى به عليهم من الطعام والشراب، مما ليس فيه تحصيله كلفة ولا مشقة[2].

وقيل: هوالتُّرنجبين، وهو شيءٌ أبيضُ ينزِلُ على الشَّجر كالندى، حُلوٌ، يُشبِه العسلَ الأبيض[3].

والسَّلوى طائر، قيل: هو السُّمَانَى، وقيل: يُشبه السُّمَانَى[4].

﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢)، ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١/ ٤٠٦).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٤٢)، ونسبه الشنقيطي لأكثر المفسرين. يُنظر: ((العذب النمير)) (١/ ١٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٠٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٩٥).

وممَّن قال من السَّلف: إنَّ المنَّ هو التُّرنجبين: السُّدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٧٠١-٧٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٧٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٠٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٩٥).

قال ابن عطية: (السَّلْوى طير بإجماع من المفسرين، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والربيع بن أنس وغيرهم.

قيل: هو السُّمَانَى بعينه. وقيل: طائر يميل إلى الحمرة مثل السُّمَانَى، وقيل: طائر مثل الحمام تحشره عليهم الجنوب) ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٤٩).

وممن قال أن السَّلوى هو السُّمَانى: ابن عبَّاس - في رواية عنه - ومجاهد، والشعبيُّ، والضحَّاك، والحسن، وعِكرمة، والرَّبيع بن أنس. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١١٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٧٠٥).

وممَّن قال من السَّلف: إنَّ السلوى طائرٌ يُشبه السُّمَانَى: ابن عبَّاس - في رواية عنه - وابن مسعود، وغيرُهما من أصحاب رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ، والسُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٧٠٤).

أي: قلنا لهم: كُلوا من طيِّبات ما رزقناكم، كهذا المنِّ والسَّلوى، وهما طيِّبانِ حسًّا ومعنًى؛ للذاذة طعمهما، وحِلِّيَّتهما شرعًا[١].

﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

أي: أنعمْنا عليهم هذِه النِّعم، فقابَلوا نِعمَنا بالجحود، بعدم الشُّكر، وارتكاب المعاصي، وما وضَعوا فِعلهم ذلك وعِصيانهم إيَّانا موضعَ مضرَّة علينا، ومنقصة لنا، ولكنَّهم وضَعوه من أنفسِهم موضعَ مضرَّة عليها ومنقصة لها، والمعنى: أنَّ هذا الظلمَ واقعٌ على أنفسهم؛ حيثُ عرَّضوها به لسَخَطِ الله عزَّ وجلَّ وعِقابه، فضررُ فِعلهم عائدٌ إليهم، والله سبحانه وتعالى لا تضرُّه معاصي خَلْقه، ولا تنفعُه طاعاتُهم[٢].

الفَوائِد التربويَّة:

١- نِسبة النِّعَم دائمًا إلى الله عزَّ وجلَّ؛ فهذه النِّعمة على بني إسرائيل لم تأتِ بكَسْبهم، ولا بكدِّهم، ولا بإرثٍ عن آبائهم، وإنَّما هي بنعمةِ الله عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾[٣].

٢- التفكُّر في سَعة حِلم الله عزَّ وجلَّ، وأنَّه مهما بارَز الإنسانُ ربَّه بالذُّنوب، فإنَّ حِلم الله تعالى قد يَشمله، فيُوفَّق للتوبة، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٤].

٣- أنَّ إنزالَ الله تعالى الكتُبَ للناس من نِعَمه وآلائه، بل هو من أكبرِ النِّعم؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٧١٠-٧١١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٧١١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٦٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٨٢).

لأنَّ الناس لا يمكن أن يستقلُّوا بمعرفة حقِّ الخالق، بل ولا حقِّ المخلوق؛ ولذلك نزلت الكتُبُ تِبيانًا للناس، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾(١).

٤- أنَّ الله تبارك وتعالى يُنزل الكتُب، ويجعلها فُرقانًا؛ لغايةٍ حميدةٍ حقًّا، وهي الهداية؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾(٢)، فمَن أراد الهداية، فلْيطلبها من الوحي الإلهيِّ(٣).

٥- أنَّه ينبغي للداعي إلى الله تعالى أن يستعملَ الأسلوبَ الذي يَجذِب إليه الناسَ، ويعطفهم عليه؛ لقوله تعالى حكايةً عن موسى: ﴿يَا قَوْمِ﴾؛ فإنَّ هذا لا شكَّ فيه من التودُّد، والتلطُّف، والتحبُّب ما هو ظاهر(٤).

٦- أنه يَنبغي للداعي إلى الله أن يبيِّن الأسبابَ فيما يحكُم به؛ لقوله: ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾(٥).

٧- أنَّه يَنبغي التعبيرُ بما يناسب المقام؛ لقوله: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ﴾؛ لأنَّ ذِكر (البارئ) هنا كإقامة الحُجَّة عليهم في أنَّ العِجلَ لا يكون إلهًا؛ فإنَّ الذي يستحقُّ أن يكون إلهًا هو البارئ، أي: الخالق سبحانه وتعالى(٦).

٨- أنَّ التوبة لازمةٌ على الفور؛ لقوله: ﴿فَتُوبُوا﴾؛ لأنَّ الفاء للترتيب، والتعقيب(٧).

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٨٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٨٨).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٨٩).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٩- أنَّ الأمَّة كنَفْس واحدة؛ وذلك لقوله: ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾[1].

١٠- إثبات تفاضُل الأعمال؛ لقوله: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾[2].

١١- في إثباتِ اسْمَي (التواب)، و(الرحيم) لله سبحانه أمَلٌ ورحمة؛ فينبغي للإنسان أن يتعرَّض لِمَا يقتضيه هذان الاسمانِ من أسماء الله، فيتعرَّض لتوبةِ الله، ورحمتِه[3].

١٢- أنَّ مَن سأل ما لا يمكن، فهو حريٌّ بالعقوبة؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾[4].

١٣- أنَّ ألم العقوبة، ووقعَها أشدُّ إذا كان الإنسانُ ينظُر إليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾[5].

الفوائد العلميَّة واللَّطائف:

١- في قوله تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ قال: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ بدون واو، وفي سورة إبراهيم قال سبحانه: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٦] فقال: ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ بزيادة الواو؛ وذلك لأنه أريد بالآية التي في سورة البقرة تبيين صفات العذاب وتفسيرها؛ لذا فسر سوء العذاب بأنه التذبيح والاستحياء؛ لأنَّه لم يرد الأمر إلا بتذكير جنس النعمة في قوله: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾، فسواء كان المراد من سوء العذاب هو الذبح أو غيره كان تذكير جنس

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٨٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٩٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٩٤).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

النعمة حاصلًا، وفي سورة إبراهيم دلَّ بسوء العذاب على أنواع غير التذبيح والاستحياء، وعطف التذبيح والاستحياء عليها؛ لأنه لما قال فيها: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ﴾ أي بأياديه ونِعَمِه عليهم ناسب العطف بالواو في قوله: ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾؛ ليدلَّ على تعدد النِّعم والأيادي[(١)].

٢- أنَّ الآل يَدخُل فيهم مَن ينتسبون إليهم؛ فقد قال تعالى: ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَونَ﴾ ويدخل فيهم فرعون؛ فالرجل حيث أضيف إلى آله دخل فيهم[(٢)].

٣- أنَّ هلاك عدوِّ الإنسان وهو يَنظُر إليه من نِعمة الله عليه، كما قال تعالى: ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾[(٣)].

٤- أنَّ الله تعالى سَخِر من فرعون، حيث أهلكه بجِنس ما كان يَفتخِر به، وأَوْرَث أرضَه موسى عليه السلام، فقد كان فرعون يقول: ﴿يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[(٤)].

٥- قوله جلَّ وعلا: ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ عبَّر بالليالي؛ لأنَّها قبل الأيَّام، والمقرَّر في فنِّ العربية أنَّ التاريخ بالليالي؛ لأنَّها قبل الأيام[(٥)].

٦- نِعمة الله تبارك وتعالى بما هيَّأه لعباده من الظلِّ؛ فقد جعَل الله تعالى الغمامَ ظلًّا على بني إسرائيل[(٦)].

٧- قوله جلَّ وعلا في هذه الآية: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ فيه الدَّليل الواضحُ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٢٥)، ((تفسير الرازي)) (٣/ ٥٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٧٩)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٧٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٨٠).

(٥) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٨٠-٨١).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٩٦).

أنَّ نفْي الفِعل لا يستلزم إمكانَه؛ لأنَّ الله نفى عنه أنَّهم ظلموه، ونفيه جلَّ وعلا عن نفْسه أنَّهم ظلموه، لا يدلُّ على أنه يُمكنهم أن يظلموه، بل نفْي الفِعل لا يدلُّ على إمكانه[١].

بلاغة الآيات:

١- في قوله: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العَالَمِينَ﴾ عطفُ الخاص على العام؛ لأنَّ قوله ﴿نِعْمَتِيَ﴾ عمَّ جميع النِّعم؛ لبيان الكمال، والتأكيد على خُصوصيَّة هذه النِّعمة، ومزيد فضلها، وتميُّزها على سائر النِّعم[٢].

٢- في قوله: ﴿واتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ﴾ تنكيرُ اليوم؛ للتهويل والتعظيم، أي: يومًا شديد الهول، عظيم الخطب، وتنكير النَّفس يُفيد العمومَ والإقناط الكُلِّيَّ[٣].

٣- قوله: ﴿ولا هُم يُنصَرون﴾ أتى بالجُملة المعطوفة الأخيرة اسميَّةً، مع أنَّ الجمل التي قبلها فعليَّة؛ للمبالغة، وللدَّلالة على الثَّبات والدَّيمومة، أي: إنهم غير منصورين دائمًا، ولا عبرةَ بما يصادفونه من نجاح مؤقَّت[٤].

٤- قوله: ﴿بَلاء﴾ و﴿عَظِيمٌ﴾ التنكير فيهما؛ للتفخيم والتهويل[٥].

٥- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ حذف مفعول الاتِّخاذ الثاني، وتقرير المعنى: اتخذتُم العِجل إلهًا، وهذا المفعول الثاني محذوف في جميع القرآن، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾ [البقرة: ٥٤] أي:

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٩٩).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٩٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٠٠).

إلهًا. وقولِه سبحانه: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا﴾ [الأعراف: ١٤٨]، أي: إلهًا، قال بعض العلماء: النُّكتة في حذفِه التنبيهُ على أنَّه لا يَنبغي لعاقل أن يتلفَّظ بأنَّ عِجلًا مُصطنعًا من حُليٍّ أنَّه إلهٌ[١].

٦- **قوله:** ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ فيه التفات[٢] من التكلُّم الذي يتطلَّبه سياقُ الكلام إلى الغَيبة؛ إذ كان مقتضى المقام أن يقال: (فوفقتكم فتبتُ عليكم)[٣]. ولم يقل: (فتابَ عليهم) مع أنَّ الضَّميرَ للقوم؛ لأن ذلك نِعمةٌ أُريد التذكيرُ بها للمخاطَبين لا لأسلافهم[٤].

٧- **قوله:** ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ... خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ فيه تَكرار للبارئ؛ للتوكيد، ولأنَّها جملة مستقلة؛ فناسَب الإظهار، وللتنبيه على أن هذا الفعل أفضل عند الذي أنشأكم، فكما رأى إنشاءكم، رأى توبتكم بالقتل، فينبغي التسليم له في كلِّ حال، وتلقِّي ما يرِدُ من قِبله بالقَبول والامتثال[٥].

٨- **قوله:** ﴿جَهْرَةً﴾ انتصب على أنَّه مصدر مؤكِّد لـ ﴿أرِنا﴾؛ للتأكيد على أنَّهم طلبوا الرؤية العينيَّة، ولإزالة احتمال أن تكون الرؤية منامًا، أو عِلمًا بالقلب[٦].

- وعَدَلَ عن أن يقول: (عِيانًا) إلى قوله: (جَهرةً)؛ لأنَّ جهرةً أفصح لفظًا؛ لخفَّته؛ فإنَّه غير مبدوء بحرف حَلق، ولسلامته من حرف العِلَّة، فحسُن وقعها

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٨٢).

(٢) هذا على أن قوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ خطاب من الله لهم. وأما على القول بأنه من قول موسى عليه السلام كأنه قال: فإن فعلتم فقد تاب عليكم، فلا التفات فيه.

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٤٠)، ((تفسير الرازي)) (٣/ ٥١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٠٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ١٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٠٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٣٣٨).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٤٠).

في الكلام، وخفَّت على السَّمع، وللقرآن السهم المعلَّى في ذلك، وهو في غاية الفصاحة(١).

٩- قوله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ فيه عدة أوجه بلاغيَّة:

- فقوله: **﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾**: فيه التفات؛ إذ انتقل من خِطاب بني إسرائيل إلى الحديث عنهم بضَمير الغَيبة؛ للإيذان باقتضاء جِنايات المخاطبَين للإعراض عنهم، وتَعداد قبائحهم عند غيرهم، ولقصد الاتِّعاظ بحالهم، وتعريضًا بأنَّهم متمادون على غيِّهم، وليسوا مستفيقين من ضلالهم(٢).

- والجمع بين صِيغتَي الماضي والمضارع **﴿ظَلَمُونَا﴾** و**﴿يَظْلِمُونَ﴾**؛ للدَّلالة على تماديهم في الظُّلم، واستمرارهم على الكُفر(٣).

- و**﴿ولكِنْ﴾** وقعت هنا أحسنَ موقع؛ لأنَّه تقدَّم قبلها نفيٌ، وجاء بعدها إيجابٌ؛ ولأنَّه لَمَّا تقرَّر أنه قد وقَع منهم ظلمٌ، ونُفي وصولُ ذلك الظلم إلى الله تعالى، بقِيت النفسُ متشوِّفةً ومتطلِّعة إلى ذِكر مَن وقَع به الظُّلم، فاستدرك بأنَّ ذلك الظُّلم الحاصل منهم إنَّما كان واقعًا بهم(٤).

- و**﴿أَنفُسَهُمْ﴾**: معمول مُقدَّم على الخبر؛ ليحصلَ بذلك توافُق رؤوس الآي والفواصل، وللاعتناء بالإخبار عمَّن حلَّ به الفعل(٥).

١٠- وفي هذه الآيات جاء ترتيب النِّعم متناسقًا، يأخذ بعضه بعُنق بعض، وهي أفعال يتلو بعضها بعضًا؛ فأوَّلها الإنجاءُ من سوء العذاب- ذبْح الأبناء،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٠٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (١/ ٣١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥١٢)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٩٣).
(٣) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٩٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٣٤٨).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٤٩).

واستحياء النِّساء- بإخراج موسى إيَّاهم من مصر، ثم فَرْق البَحْر بهم وإرائهم عِيانًا هذا الخارق العظيم، ثم وعْد اللهِ لموسى بمناجاته وذَهابه إلى ذلك، ثم إيتاء موسى التوراةَ، والعفوُ عنهم بعد اتِّخاذهم العجل، وقد ختَم كلَّ فصلٍ منها بمناسبه:

فجاءت هذه الجُمل في غايةِ الفَصاحة لفظًا، والبلاغة معنًى؛ إذ جمعت الألفاظ المختارة، والمعاني الكثيرة، متعلِّقًا أوائل أواخرها بأواخر أوائلها، مع لُطف الإخبار عن نفسه، فحيث ذكَر النِّعم صرَّح بأن ذلك من عنده، فقال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم﴾، وقال: ﴿وظَلَّلْنَا﴾ ﴿وَأَنْزَلْنَا﴾، وحيث ذكر النِّقم لم ينسبها إليه تعالى، وإن كانت منه حقيقةً، فقال: ﴿فَأَخَذَتْكُم الصَّاعِقَةُ﴾، وسرُّ ذلك: أنَّه موضِع تعداد للنِّعم، فناسب نِسبةَ ذلك إليه؛ ليُذكِّرهم آلاءَه[1].

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٥٠).

الآيات (٥٨-٦١)

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩) وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠) وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٦١) ﴾.

غريب الكلمات:

﴿حِطَّةٌ﴾: أي: حُطَّ عنَّا ذنوبَنا، وأصل الحطِّ: إنزال الشيء من علو[١].

﴿رِجْزًا﴾: عذابًا، وأصله: الاضطراب[٢].

﴿وَلَا تَعْثَوْا﴾: ولا تفسدوا، وأصل العيث: الفساد، والعيث والعثي متقاربانِ، إلَّا أنَّ العَيث أكثر ما يقال في الفساد الذي يُدرك حسًّا[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٦).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٦).

﴿بَقْلِهَا﴾: البقل قيل: هو النَّبات الذي لا ساقَ له، وقيل: ما لا ينبت أصلُه وفرعه في الشِّتاء، وقيل غير ذلك[(١)].

﴿قِثَّائِهَا﴾: القثَّاء: اسم جنس واحده قُثَّاءة- بضمِّ القاف، وكسرها- قيل: هو الخيار المعروف، وقيل غير ذلك[(٢)].

﴿فُومِهَا﴾: الفوم: قيل: هو الثوم؛ أُبدلت الثاء بالفاء، مثل: جدث وجدف للقبر. وقيل: هو الحنطة، والخبز جميعًا؛ من قولهم: فوِّموا، أي: اختبزوا- وهي لغة قديمة- ويقال: الفوم الحبوب[(٣)].

مشكل الإعراب:

قوله: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾: (حطة): مرفوعة على أنها خبر لمبتدأ محذوف، أي: سؤالنا أو رغبتنا حطة، والجملة في محل نصب مفعول به مقول القول. أو مرفوعة على الحِكاية، وهي وحدها المفعول به للقول، ومنع من ظهور علامة النصب اشتغالُ المحلِّ بحركة الحكاية. وعلى قراءة النصب: فـ(حطة) مصدر لفِعل محذوف، أي: حطّ عنا ذنوبنا حِطَّةً[(٤)].

المعنى الإجمالي:

يُذكِّر الله بني إسرائيل حين أمَرهم أن يدخلوا بيتَ المقدس، ويأكلوا منه رزقًا

---

(١) يُنظر: ((جمهرة اللغة)) لابن دريد (١/ ٤٥٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٠).

(٤) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٩٥)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٦٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١/ ٣٧٣)، ((إعراب القرآن الكريم)) لدعاس (١/ ٢٧).

واسعًا هنيئًا، وأنْ يخضعوا له سبحانه عند دخولِه بالسُّجود له، وطلَب المغفرة منه جلَّ وعلا، فإذا فعَلوا ذلك فقد وعدَهم الله بمغفرة ذُنوبهم، ويَزيد الله مِن فضلِه مَن أحسن منهم.

فغيَّر الظالمون منهم القولَ الذي أُمِروا بقوله، فأنزل الله على هؤلاء عذابًا من السَّماء؛ بسببِ عِصيانهم.

وذكَّرهم حين طلَب موسى من الله تعالى ماءً يَشرَب منه بنو إسرائيل، فأمَره الله أنْ يضرِبَ بعصاه الحجرَ، فخرجتْ من الحجر اثنتَا عَشرةَ عينًا من الماء، قد علِمتْ كلُّ قبيلة محلَّها الذي تشرَب منه، وأمَرهم أن يأكلوا ويَشرَبوا من رِزق الله، وألَّا يَسعوا في الأرض بالفساد.

ثمَّ ذكَّرهم الله تعالى حين أَخبروا موسى أنَّهم لن يصبِروا على طعام واحد، وهو المنُّ والسَّلوى، وطلَبوا منه أن يَدْعوَ لهم اللهَ؛ كي يخرجَ لهم بعضَ ما تُنبته الأرض من البَقل، والقِثَّاء، والفُوم، والعدَس، والبَصل، فاستنكر عليهم موسى استبدالَهم الطعامَ الدَّنيءَ بالأطعمةِ الهنيئة، وأمَرهم أن ينزلوا أيَّ مِصرٍ من الأمصار، فسيجِدوا ما طلبوا.

وأصبح الهوانُ والصَّغار مفروضًا عليهم، كما أنَّهم رجَعوا متحمِّلين غضَبَ الله، وهذا الذي جازاهم الله به هو بسببِ جُحودهم آياتِ الله، وتقتيلهم لأنبيائِه بغير حق، وذلِك الجزاء الذي عُوقِبوا به- أو ذلك الكُفر بآيات الله عزَّ وجلَّ والقتْل لأنبيائِه- إنَّما وقَع نتيجةَ عِصيانهم، وتجاوزِهم حدودَ الله تعالى.

تفسير الآيات:

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨)﴾.

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾.

أي: واذكُروا حين أمَرْنَا بني إسرائيل بالدُّخول لبيت المقدِس، وأن يأكُلوا منها من أيِّ مكان فيها رِزقًا واسعًا هنيئًا[1].

﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾.

أي: إنَّهم أُمروا أن يَخضعوا له سبحانه بالفِعل والقول عند دُخولهم أحدَ أبواب بيت المقدس، بأنْ يدخُلوا رُكَّعًا متواضعين، وأن يَطلُبوا من الله تعالى أن يضَعَ عنهم ذُنوبَهم وخطاياهم[2].

﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾.

أي: إذا فعلتُم يا بني إسرائيل، ما أمَرَكم الله تعالى، فسيستُرُ عليكم ذنوبَكم، ويتجاوز عنها، وسيَزيد سبحانه إيمانًا، أو حسناتٍ من فَضلِه- عاجلًا أو آجلًا- مَن أحْسَن في عبادة الله تعالى، ومَن أحسن للخَلْق بوجوه الإحسان المختلِفة[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٧١٢-٧١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١١٠-١١٢).

وممَّن قال من السَّلف أن القرية المذكورة هنا هي بيت المقدس: قَتادةُ، ورُوي عن الرَّبيع بن أنس، والسُّدِّي نحوُ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٧١٥-٧١٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٤٣)، ((جامع الرسائل)) لابن تَيميَّة (١/ ٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥١٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١١٢-١١٣).

وممَّن قال معنى ﴿سُجَّدًا﴾ أي: رُكَّعًا: ابن عبَّاس. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٧١٤).

وممَّن قال من السَّلف بأن معنى: ﴿حِطَّةٌ﴾: مغفرة، أي: استغفِروا، ابن عبَّاس، ورُوي عن عطاء، والحسَن، وقتادة، والرَّبيع بن أنس نحوُ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٧١٦)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٧٢٠-٧٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥١٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١١٤-١١٥).

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩)﴾.

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾.

أي: فغيَّر الظالمون منهم القولَ الذي أُمِروا أن يقولوه بقولٍ غيرِه، فقالوا بدَلَ حِطَّة: حَبَّة في شَعرة، وإذا بدَّلوا القول مع خِفَّته، فتبديلُهم للفِعل من باب أَوْلى وأحرى؛ ولهذا دخَلوا يَزحَفون على أدبارِهم[١].

عن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه: أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((قيل لبَني إسرائيلَ: ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾، فبدَّلوا، فدخلوا يَزحَفون على أَستاهِهم، وقالوا: حَبَّةٌ في شَعرةٍ))[٢].

﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

أي: أنزل الله تعالى على هؤلاء- الذين استبدلُوا بالقولِ الذي أُمِروا به قولًا غيرَه- عذابًا من السَّماء؛ بسبب خروجهم عن طاعةِ الله تعالى إلى معصيتِه[٣].

﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٧٢٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١١٥).
قال ابنُ أبي حاتم: (عن ابن عبَّاس: في قوله: (ادْخُلُوا البَابَ سُجَّدًا) رُكَّعًا من باب صغيرٍ يَدخُلون من قِبل أستاههم، وقالوا: حِنطة فهو قوله: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾، ورُوي عن عطاء، ومجاهد، وعكرمة، وقَتادة، والضحَّاك، والحسَن، والرَّبيع، ويحيى بن رافع نحوُ ذلك) ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١١٩).
(٢) رواه البخاري (٤٦٤١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٧٢٩-٧٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١١٨، ١١٩).
قال ابنُ أبي حاتم: (عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿رِجزًا﴾ قال: كلُّ شيء في كتاب الله من الرِّجز يعني به: العذاب، قال أبو محمَّد: ورُوي عن الحسَن، وأبي مالك، ومجاهد، والسُّدِّي، وقَتادة نحوُ ذلك)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١٢٠)، ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٧٣٠).

عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠)﴾.

﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾.

أي: واذكُروا حين طلَب منَّا موسى ماءً لبني إسرائيل يَشرَبون منه(١).

﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾.

أي: إنَّ الله تعالى قد استجاب لطلبِ موسى عليه السَّلام، فأمَره بأن يضرِبَ عصاه بحجرٍ، ففَعَل ذلك، فخَرجتْ من الحَجر اثنتَا عَشرةَ عينًا من المياه العَذْبة؛ تيسيرًا لهم، وإنعامًا من اللهِ تعالى عليهم(٢).

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾.

أي: إنَّ كلَّ قبيلةٍ من قبائل بني إسرائيل الاثنتي عَشرة، قد عرَفَتْ محلَّها الذي تَشرَبُ منه من هذه الأعين الخارجة من الحَجر، فلا يُزاحم بعضُهم بعضًا، بل يَشربونه متهنِّئين(٣).

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللهِ﴾.

أي: كُلُوا واشْربوا من هذا الرِّزقِ الإلهيِّ، الذي آتاكم مِن غيرِ كدٍّ ولا تعب. وهذا أَمْرَ إباحةٍ وإرشادٍ لهم مِن الله تعالى(٤).

﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٧٨-٢٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥-٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٨-٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥١٩).

أي: لا تَسْعَوْا في الأرضِ بالفَسادِ[١].

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٦١)﴾.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾.

أي: واذكُروا يا معشرَ بني إسرائيل حين أخبرتُم موسى عليه السَّلام بضجرِكم وكراهيتِكم للمَنِّ والسَّلوى، وأنْ لا طاقةَ لكم بحَبْس أنفسِكم على تناوُل هذا الطَّعام الذي رزَقَكم الله تعالى رِزقًا هنيئًا سهلًا بلا عناءٍ[٢].

﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾.

أي: ادعُ لأجْلِنا يا موسى، ربَّك؛ كي يُخرِجَ لنا بعض ما تنبته الأرضُ من البَقل والقِثَّاء والفُوم، ومن العَدَس والبَصَل[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٥٢)، ((تيسير الكريم الرحمن) (ص: ٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥١٩-٥٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٢١).

(٣) قال ابن جرير: (والبقل والقثاء والعدس والبصل، هو ما قد عرفه الناس بينهم من نبات الأرض وحبها) ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٥).

وذهب السعدي في ((تفسيره)) (ص: ٥٣)، وابن عثيمين في ((تفسيرالفاتحة والبقرة)) (١/ ٢١١) إلى أنَّ البقل هو النبات الذي لا ساق له. وقال الواحدي: (وهو كل نبات لا يبقى له ساق إذا رعته الماشية) ((التفسير الوسيط)) (١/ ١٤٦).

وقيل القثاء هو نوع من الخضروات. يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٤٦). قال =

﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾.

أي: إنَّ موسى عليه السَّلام استنكر عليهم ووبَّخهم بسؤالِهم له طلبَ تلك الأطعمة الدَّنيئة من البقول وغيرها، مع ما لديهم من الطعام الهَنيء، مستبدلين الوضيعَ من العيش بالرَّفيع منه! فقال لهم موسى: أتأخُذون الذي هو أخسُّ قِيمةً وقدرًا من العيش، بدلًا بالذي هو خيرٌ منه قيمةً وقدرًا[1]؟!

﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾.

أي: هذه الأطعمةُ التي طلبتُم ليستْ بأمرٍ عزيز، بل هي كثيرةٌ؛ ففي أيِّ بلد دخلتموه ستجدون هذا العيشَ الذي تطلُبون[2].

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ﴾.

= السعدي هو الخيار. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣)، وقال ابن عثيمين هو صغار البطيخ. يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢١١).

وممن ذهب إلى أن الفوم هو الحنطة: الواحدي وذكر إجماع أهل اللغة على ذلك. يُنظر: ((التفسير الوسيط)) (١/ ١٤٦). ونسبه ابن عطية إلى أكثر المفسرين. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٥٣).

وممَّن قال من السَّلف بأن الفوم: الحِنطة: ابن عبَّاس ومجاهد، والحسَن، وأبو مالك، وعِكرمة، وعطاء بن أبي رَباح. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٥)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١٢٣).

وممن ذهب إلى أن الفوم هو الثوم: السعدي في ((تفسيره)) (ص: ٥٣)، وابن عاشور في ((تفسيره)) (١/ ٥٢٢)، وابن عثيمين ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢١١).

وممَّن قال من السَّلف بأن الفوم: الثوم: ابن عبَّاس في رواية أخرى، وسعيد بن جبير والرَّبيع والضحاك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٨)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١٢٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٩-٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٨٠-٢٨١) ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٨١-٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢١٢).

قال ابنُ أبي حاتم: (عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ قال: مصرًا من الأمصار، ورُوي عن السُّدِّي، وقتادة، والرَّبيع بن أنس نحوُ ذلك) ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١٢٤). يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٢).

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا كان الذي جرَى منهم أكبرَ دليل على قِلَّة صبرهم، واحتقارهم لأوامرِ الله ونِعمه، جُوزُوا من جنس عملهم، فقال تعالى[1]:

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ﴾.

أي: أصبح الهوانُ والصَّغار مفروضًا عليهم، وأصبح أثرُ مسكنة الفقر والحاجة والحِرص -من المهانة والخضوع على قلوبهم، أو ظواهر أبدانهم- لازمًا لهم، كما أنَّه قد حلَّ عليهم غضبٌ من الله تعالى، ورجَعوا متحمِّلين سخطَ الله تعالى عليهم[2].

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾.

أي: هذا الذي جازيناهم من الذِّلَّة والمسكَنة، واستحقاقهم غضبَ الله عزَّ وجلَّ؛ بسبب جحودِهم آياتِ الله تعالى الكونيَّةَ والشرعيَّة، فاستكبروا عن اتِّباع الحقِّ، واعتدَوْا على أنبياء الله تعالى بالقَتْل بلا وجه حقٍّ يخوِّل تلك الأفعالَ الشَّنيعة[3].

﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾.

أي: ذلك الجزاء الذي جُوزوا به، مِن ضَرْب الذِّلة والمسكنة، وإحلال الغضبِ عليهم، أو ذلِك الكفر بآيات الله عزَّ وجلَّ، والقتْل لأنبيائه، إنَّما سببُه هو عصيانُهم لله تعالى، أي: خروجهم عن طاعته؛ إمَّا بارتكاب المحظور، وإمَّا بترْك المأمور، ومِن أسباب ذلك أيضًا استمرارُهم على تجاوُز حدود الله تعالى[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٦-٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٢٧-٥٢٨).

وممَّن قال من السَّلف بأن المسكنة هي الفاقة: أبو العالية، والسُّدِّي، والرَّبيع. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٧)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٨-٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣١-٣٢)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٤٩)، =

الفَوائد التربويَّة:

١- يَنبغي على مَن نصَرَه الله عزَّ وجلَّ، وفتَح له البلادَ، أن يدخُلَها على وجه الخضوع، والشُّكر لله سبحانه؛ لقوله تعالى: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾(١).

٢- أنَّ الجهادَ مع الخضوع لله عزَّ وجلَّ، والاستغفارَ سببٌ للمغفرة؛ لقوله تعالى: ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾، وسببٌ للاستزادة أيضًا من الفَضل؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾(٢).

٣- أن الإحسان سببٌ للزيادة، سواء كان إحسانًا في عِبادة الله، أو إحسانًا إلى عِباد الله، كما قال تعالى: ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾(٣).

٤- مشروعيَّة الاستسقاء عندَ الحاجة إلى الماء؛ لأنَّ موسى عليه السلام استسقى لقومِه، وشَرْع مَن قبلنا شرْعٌ لنا إنْ لم يرِدْ شرعُنا بخلافه(٤).

٥- أنَّ ما خلق الله تعالى من المأكول والمشروب للإنسان، فالأصلُ فيه الإباحة والحِلُّ، كما قال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللهِ﴾(٥).

٦- النِّعمة على الآباء، تلحق الأبناء، والذم الذي يوصف به الآباء يلحق الأبناء إذا كانوا على طريقتهم، فقولُه تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى...﴾ فيه الخطابُ لهم بأفعال غيرِهم، ممَّا يدلُّ على أنَّ الأُمَّة المجتمِعة على دِين تتكافَل وتتساعد على

= ((تفسير القرطبي)) (١/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٣٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٠٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٠٩).

مصالحها، حتى كأنَّ متقدِّمهم ومتأخِّرهم في وقت واحد، وكأنَّ الحادثَ من بعضهم حادِثٌ من الجميع(١).

٧- أنَّ مَن اختار الأدْنى على الأعلى، ففيه شَبهٌ من اليهود، ومن ذلك هؤلاء الذين يختارون الشيءَ المحرَّم على الشيءِ الحلال(٢).

٨- أنَّ اختيار الأفضل من المآكِل، والمشارب، لا ذَمَّ فيه إذا لم يصِل إلى حدِّ الإسراف(٣).

٩- أنَّ الذي يستبدل الأدنى بالذي هو خيرٌ، يستحقُّ التوبيخَ؛ لأنَّ موسى وبَّخهم، حيثُ قال: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾(٤).

١٠- أنَّ مِن علوِّ همَّة المرء أن ينظُر للأكملِ والأفضلِ في كلِّ الأمور(٥).

الفوائد العلميَّة واللَّطائف:

١- أنَّ السُّقيا كما تكون بالمطر النازِل من السَّماء، تكون بالنابع من الأرض، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾(٦).

٢- غَطرَسةُ بني إسرائيل، وجفاؤهم؛ لقولهم: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾؛ ولم يقولوا: (ادع لنا ربَّنا)، أو: (ادع لنا الله)؛ كأنَّ عندهم- والعياذ بالله- أَنَفةٌ، مع أنَّهم كانوا مؤمنين بموسى، ومع ذلك يقولون: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، كما قالوا: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُون﴾ [المائدة: ٢٤](٧).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢١٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢١٥).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢١٨).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢١٥).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٠٨).
(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢١٥).

٣- أنَّ بَني إسرائيل لا يقومون للمسلمين لو حاربوهم من قِبل الإسلام؛ لأنَّ ضرب الذلة عليهم وقع بسبب المَعصيةِ، فإذا حُورِبوا بالطَّاعة، فلا شكَّ أن الوبالَ سيكون عليهم(١).

٤- يتبين من قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ﴾، أنَّ اليهود قد ضُرِبت عليهم المسكنةُ، وهذا يَشمل فقرَ القلوب الذي هو شِدَّة الطَّمع، بحيث إنَّ اليهوديَّ لا يَشبع، ولا يتوقَّف عن طلب المال، ولو كان من أكثرِ الناس مالًا؛ ويَشمل أيضًا فقرَ المال وهو قِلَّتُه(٢).

٥- في قوله تعالى: ﴿وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ﴾ إثباتُ صِفة الغضَب لله عزَّ وجلَّ(٣).

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا﴾

- فيه وضْع الظاهر ﴿الَّذِين ظَلَمُوا﴾ موضعَ المضمر فلم يقل: (فأنزلنا عليهم)؛ زيادةً في تقبيح أمرهم، وتهويل ظُلمهم، والمبالغة في ذمِّهم وتقريعهم. وللتأكيد على أهميَّة ذِكره في السِّياق؛ لأنَّهم ظلموا في الوقت الذي أَنعم الله عليهم، وعصَوْا أمْرَ ربِّهم، وأيضًا ليبيِّن أنَّ هذا الرِّجزَ مُنزلٌ عليهم بسببِ ظُلمهم، والضَّمير لا يُعطي هذا(٤).

وعبَّر في سورة الأعراف بالمُضمَر ﴿عَلَيهِمْ﴾؛ لأنَّ آيات الأعراف سِيقت لمجرَّد العِبرة بقصَّة بني إسرائيل، وآيات البقرة سِيقت مساقَ التوبيخ، والقصد

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((الحجة في بيان المحجة)) لقوام السنة الأصبهاني (٢/ ٧٥٤)، ((حادي الأرواح)) (ص: ٩٠٤)، ((العقيدة الطحاوية)) (ص: ٣٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) مع الحاشية (١/ ١٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٣٦٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ١٠٩).

فيها بيان سببِ إنزال العَذاب عليهم مرَّتين(١).

- وتنكير ﴿رِجْزًا﴾؛ للتهويل والتَّفخيم(٢).

٢- قوله: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الأرض مُفْسِدِينَ﴾ قوله: ﴿مُفْسِدِينَ﴾ حالٌ مؤكدة؛ ليكسُوَ النهيَ عن الفساد قوةً، ويجعله بعيدًا من أن يُغفل عنه أو يُنسى(٣).

٣- قوله: ﴿بِغَيْرِ الحَقِّ﴾ تَقييدٌ؛ لزِيادة التَّشنيع بقُبْح عُدوانهم؛ فإنَّ قتل الأنبياء لا يكون بحقٍّ البتَّةَ(٤).

٤- قوله: ﴿بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾

- لم يَعطف الاعتداءَ على العِصيان؛ لئلَّا يفوت تناسبُ مقاطع الآي، وليدلَّ على أنَّ الاعتداء صارَ كالشيء الصادر منهم دائمًا(٥).

- وفيه: لَفٌّ ونشْر؛ حيث ذكر شيئين (يكفرون- ويقتلون)، وقابلهما بشيئين (عصوا- يعتدون)؛ وذلك من محاسن الكلام(٦).

- جوازُ إسناد الشيءِ إلى مكانه لا إلى الفاعل الأوَّل؛ لقولهم ﴿مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾؛ والذي يُنبت حقيقةً هو اللهُ سبحانه وتعالى(٧).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٣٧٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١/ ٣٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٣٨٢-٣٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٠٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٣٨٣).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٨٤).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢١٦).

الآيات (٦٢-٦٦)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

غريب الكلمات:

﴿وَالصَّابِئِينَ﴾: جمْع صابئ، وهو الخارج من دِينه إلى دينٍ آخَر، وأصله الخروج، يقال: صبأت النُّجُوم خرجت من مطالعها[1]. وهم فِرق؛ منها: الصابئة الحُنفاء[2].

﴿نَكَالًا﴾: أي: تنكيلًا وعقوبةً، وعِبرةً وعِظةً لمن وراءهم، وأصله: المنع والامتناع؛ وسمِّي النَّكال؛ لأنَّه فعل به ما يمنعه من المعاودة، ويمنع غيرَه من إتيان مِثل صنيعه[3].

﴿خَاسِئِينَ﴾: أي: باعِدين ومبعدين، وهو إبعاد بمكروهٍ، صاغرين ذَليلين،

---

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٩).

(٢) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ٢٥٠-٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢، ١٨٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٤).

أو مُنزجِرين، ومنه: خسَأ البَصرُ، أي: انقبَض عن مَهانةٍ[1].

المعنى الإجمالي:

يُخبِر تعالى أنَّ الذين آمَنوا من أمَّة محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، ومَن كان منهم على الدِّين الحقِّ في وقْته قَبلَ وقوع النَّسخ، أو حدوث التحريفِ، من اليهود، والنَّصارى، والصَّابئين- يخبر أنَّ الذين أحسنوا منهم، وأطاعوا، فلهم ثوابُهم عند ربهم، ولا خوفٌ عليهم فيما يستقبلونه، ولا هم يحزنون على ما يُخلِّفونه، وأمَّا بعد بعثةِ النبيِّ محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فلا يَدخُل في هذا الوعدِ بـهذا الأجْر إلَّا مَن آمن به، والْتزَم بشَرعِه.

ثم ذكَّر سبحانه وتعالى بني إسرائيل حين أَخَذ عليهم عهدًا مُؤكَّدًا، بالإيمانِ به وبرُسلِه، والالتزامِ بشَرْعِه، وأنَّه رفَع فوقهم الجبلَ لتخويفهم؛ كي يُقرُّوا بما عُوهدوا عليه، وأمَرَهم بأخْذ التوراة بهِمَّة وحزْم، وأن يذكروا ما فيها، بأنْ يتلوها ويَعمَلوا بما فيها؛ رجاءَ أن يكونوا من المتَّقين.

ثم أخبَر سبحانه وتعالى أنَّهم نقَضُوا العهدَ، وأعرضوا عنه، فلولا أنْ أكرمَهم الله تعالى، فتداركهم بالتوبةِ، لكانوا من الهالِكين في الدُّنيا والآخِرة.

وقد عَرفتم يا معشرَ اليهود، الذين تَعدَّوْا حدودَ الله منكم، وتجاوزوا ما أمرهم الله به مِن تَرْك صَيد البَحر يومَ السَّبت، فمَسخَهم الله في صور قِردَةٍ حَقيرينَ ذَليلينَ، فجَعَل الله هذه العقوبةَ رادعةً لِمَن حول الممسوخين، وتذكرةً للمتَّقين؛ ليعتبروا بها.

تفسير الآيات:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٨).

الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

في توسط هذه الآية بين آيات ذِكر بني إسرائيل بما أنعم الله عليهم وبما قابلوا به تلك النعم من الكفران وقلة الاكتراث، مناسبة بليغة؛ إذ بيَّن لهم في هذه الآية أنَّ باب الله مفتوح لهم، وأن اللجأ إليه أمر هيِّن عليهم، وذلك بأن يؤمنوا ويعملوا الصالحات، بعدما تقدم من حكاية سوء مقابلتهم لنعم الله تعالى، وما أصابهم من ضرْب الذلة والمسكنة ورجوعهم بغضب من الله تعالى عليهم، وما في هذا من إفزاع لهم[1] فقال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)﴾.

أي: إنَّ الله تعالى لَمَّا ذكَر قبائح بني إسرائيل وذمَّهم، بيَّن طائفةً لم يَلحقْها هذا الذمُّ، ولَمَّا كان ذِكرُ بني إسرائيل خاصَّةً يُوهِم اختصاصهم بهذا الفضل، ذكَر سبحانه حُكمًا عامًّا يشمل عددًا من أتباع الشَّرائع الأخرى.

وعنَى بالذين آمنوا: أُمَّة محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ لأنَّهم هم الذين يستحقُّون الوصفَ بالإيمان المطلَق؛ حيث آمنوا بجميع الكتُب، والرُّسل؛ ولكثرة إيمانهم، وشِدَّة إيقانهم. واليهود هم أتباعُ موسى عليه السَّلام قَبل نَسْخ دِينهم، وقبل تحريفه، والنصارى أتباعُ عيسى عليه السَّلام قَبل نسْخ دِينهم، وقبل تحريفه، وأمَّا الصابئون فهم فِرق؛ منها: الصَّابئة الحُنفاء، الذين بَقُوا على فِطرتهم بتوحيد الله عزَّ وجلَّ، وتحريم الظُّلم والفواحِش، وغير ذلك، من غير تقيُّد بمِلَّة ولا نِحلة، ودون أن يُحدِثوا كُفرًا.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٣١).

فمَن أحسن مِن هذه الأُمم السالِفة، وأطاع، فإنَّ لهم الثوابَ من عند الله عزَّ وجلَّ، ولهم السَّعادة الأبديَّة، فلا خوفَ عليهم فيما يستقبلونه، ولا هم يحزنون على ما يُخلِّفونه.

وهذا الحُكم بين هذه الطَّوائف من حيثُ هم؛ فإنَّ هذا إخبارٌ عنهم قَبل بعثةِ محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فأمَّا بعدَ بعثةِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فلا يُعدُّ مؤمنًا، ولا ينال هذا الأجْر مَن لم يؤمنْ برِسالة محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، ولم يعملْ بمقتضاها(١).

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣)﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾.

أي: واذكُروا حِين أخْذنا عليكم عهدًا مؤكَّدًا بالإيمان به وبرُسله، والالتزام بشَرْعه، ورَفعْنا فوقكم الجبلَ لتخويفكم؛ كي تُقرُّوا بما عُوهِدتم عليه، وتَعمَلوا به(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣٢-٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٨٤-٢٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٣١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٢١-٢٢٢).

وما ذكرناه في معنى (الصَّابئين) هو اختيار ابن تيمية في ((الجواب الصحيح)) (٣/ ١٢٣)، وابن القيم في ((إغاثة اللهفان)) (٢/ ٢٥٠-٢٥٢)، وابن كثير في ((تفسيره)) (١/ ٢٨٧)، وابن عثيمين في ((تفسيره - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٢٢).

قال ابن كثير: (وأظهر الأقوال، والله أعلم، قول مجاهد ومتابعيه، ووهب بن منبه: أنهم قوم ليسوا على دين اليهود ولا النصارى ولا المجوس ولا المشركين، وإنَّما هم قوم باقون على فِطرتهم ولا دِينَ مُقرَّر لهم يتبعونه ويَقتفونه؛ ولهذا كان المشركون يَنبِزون مَن أسلم بالصَّابئي، أي: أنَّه قد خرج عن سائرِ أديان أهلِ الأرض إذ ذاك) ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٨٧).

وممَّن ذهَب في تفسير الصَّابئة إلى نحو ما ذُكر: ابن زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٦-٤٨)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٤١-٥٤٢).

﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

أي: قُلنا لهم: تلقَّوُا التوراةَ التي أعطيناكم إيَّاها، بهمَّةٍ وحَزمٍ، وجدٍّ ونشاط، واذكُروا ما فيها بأنْ تتلوها، وتتعلَّموا ما فيها، وتتدبَّروها، وتعمَلوا بمقتضاها، من أجل أن تكونوا من المتَّقين[1].

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٤)﴾.

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾.

أي: بعد هذا المِيثاق المؤكَّد أعرضتُم عنه، ونقضتموه بترْك العمل به[2].

﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

أي: لولا أنْ أكرمكم الله تعالى، فتداركَكم بالتوبةِ وإرسالِ الرُّسل، وآخِرهم محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، لكُنتم من الهالِكين في الدُّنيا والآخِرة[3].

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥)﴾.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥١-٥٤)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١/ ٤٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٤٢).
وممَّن قال من السَّلف: إنَّ المقصود بقوله: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾: التوراة: الحسن، وأبو العالية، والرَّبيع بن أنس. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٤)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٥-٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٦، ٥٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١/ ٤٣٨، ٤٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٤٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٢٦).

أي: قد عرفتُم يا معشرَ اليهود، ما حلَّ بمَن جاوزوا منكم ما أُمِروا به مِن ترْك صيدِ البحر يومَ السَّبت، فاحتالوا على هذا الأمر، مُتعدِّين حدود الله عزَّ وجلَّ[1].

﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾.

أي: لَمَّا فَعلوا ذلك، مَسخَهم اللهُ تعالى، فصيَّرهم بقُدرته سبحانه في صورة القِرَدة، حَقيرينَ ذَليلين[2].

﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (٦٦)﴾.

أي: جعَلْنا هذه العقوبةَ رادعًا لِمَن حول أولئك الممسوخين قِردةً، وتذكرةً نافعةً للمتَّقين؛ لينزجِروا بها ويَعتبِروا[3].

الفَوائد التربويَّة:

١- إذا ذُكِر الثناءُ بالشرِّ على طائفة، وكان منهم أهلُ خير، فإنَّه ينبغي ذِكرُ أولئك الذين اتَّصفوا بالخير؛ حتى لا يكون قدحًا عامًّا[4].

٢- مِن ثمرات الإيمان بالله واليومِ الآخِر، حصولُ الأجْر، وانتفاء الخوف ممَّا يُستقبل، وانتفاء الحزن على ما مضَى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٥١-١٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٥٩-١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٤٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٢٨-٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٥-٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٨٨، ٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤).
وممَّن قال: إنَّهم مُسِخُوا على صورة القِردة: ابن عبَّاس، وقتادة. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٩، ٧٢، ٧٣)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٩١-٢٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٤٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٢٩-٢٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٢٤).

وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾(١).

٤- الأخذ بالكتاب المُنَزَّل يوجِب التقوى؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾(٢).

٥- الإنسان لا يستقلُّ بنفسه في التوفيق؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾(٣).

٦- تحريم الحِيَل، وأنَّ المتحيِّل على المحارم لا يخرُج عن العدوان؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾(٤).

٧- أنَّ العقوبات فيها تنكيلٌ حتى لغيرِ الواقِع في الذَّنب؛ لقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾، ومن ذلك الحدود الشرعيَّة نكالٌ للفاعل أن يعودَ مرَّةً أخرى إلى هذا الذَّنب، ولغيرِ الفاعل(٥).

الفوائد العلميَّة واللَّطائف:

١- عُتوُّ بني إسرائيل؛ حيثُ لم يؤمِنوا إلَّا حين رُفع فوقهم الطور، كأنَّه ظُلَّة، وظنُّوا أنَّه واقع بهم؛ فحينئذٍ آمنوا(٦).

٢- لُؤم بني إسرائيل؛ لأنَّهم بعد أن رجَع الجبلُ إلى مكانه تولَّوْا، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾، وهذا من اللؤم(٧).

٣- توبيخُ اليهود الموجودِين في عهد الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ على عدمِ

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٢٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٢٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٢٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٣٠).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٣٢).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٢٧).
(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٢٨).

الإيمان به؛ ووجه ذلك: أنَّهم علِموا ما حلَّ بأسلافِهم من النَّكال بسببِ المخالَفة، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ...﴾؛ فكان ينبغي أن يتعظوا بذلك، ويرتدعوا به عن مَعصيةِ الله تعالى ورسولِه عليه السلام(١).

بلاغة الآيات:

١ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

- هذه الآية تكررت أيضًا في سورة المائدة وسورة الحج مع اختلاف بتقديم الصُّنوف وتأخيرها، واختلاف في إعراب ﴿الصَّابِئِينَ﴾ حيث نُصِبت هنا وفي سورة الحجِّ أيضًا، بينما رُفعت في سورة المائدة؛ وهذا لفائدةٍ تقتضي ذلك؛ فقيل: لأنَّ النصارى مقدَّمون على الصَّابِئِينَ في الرتبة؛ لأنَّهم أهل كتاب، فقدَّمهم في البقرة. والصابئون مقدَّمون على النصارى في الزمان؛ لأنهم كانوا قبلَهم، فقدَّمهم في الحج. وراعى في المائدة المعنيين فقدَّمهم في اللفظ وأخَّرهم في التقدير؛ لأنَّ تقديره عند البصريِّين، وأكثر الكوفيين: التأخير على معنى والصابئون كذلك(٢).

- ومن بديع البلاغة: أنْ قرن مع اليهود في ذلك ذكر بقيةٍ من الأُمم؛ ليكون

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((غرائب التفسير وعجائب التأويل)) لتاج القراء الكرماني (١/ ١٤٥).

وقيل: آية البقرة والمائدة هي فيمَن آمن بمحمد صلَّى الله عليه وسلَّم، وأمَّا آية الحج فهي فيمن بقِي على دِينه ولم يؤمن بالنبي محمد صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ لذا شملت كلَّ مَن لم يؤمن بدين محمد عليه الصلاة والسلام، بما فيهم المجوس والذين أشركوا، و(الصَّابئين) تأخَّرت عن النصارى؛ لأنهم فِرقة قليلة، لا تمثِّل جمهرة كثيرة كالنصارى، أما الصابئون فهؤلاء لم يكونوا تابعين لدين، ولكنهم سلكوا طريقًا مخالفًا؛ فجاءت هذه الآية لتلفتنا أنَّ هذه التصفية تشمل الصابئين أيضًا، فقدَّمتها ورفعتها لتلفت إليها الآذان بقوة. ((تفسير الشعراوي)) (١/ ٣٦٩). وقيل: إنَّ كل آية من الآيات الثلاث تختصُّ بفترة زمنية؛ فآية البقرة تتحدَّث عن الفِرق الثَّلاث ومصيرها قبل بعثة النبي صلَّى الله عليه وسلَّم، أمَّا آية المائدة فإنها تخصُّ فترة ما بعد الإسلام منذ بعثة النبي صلَّى الله عليه وسلَّمَ وإلى قيام الساعة، وأمَّا آية الحج فإنَّها تختصُّ بيوم القيامة يوم الفصل بين الخلائق جميعًا.

ذلك تأنيسًا لوحشة اليهود من القوارع السَّابقة في الآيات الماضية، وإنصافًا للصالحين منهم، واعترافًا بفضلهم، وتبشيرًا لصالحي الأُمم من اليهود وغيرهم الذين مضَوْا؛ فقدْ وفَت الآية حقَّ الفريقين من الترغيب والبشارة، وراعت المناسبتين للآيات المتقدِّمة مناسبةَ اقتران الترغيب بالترهيب، ومناسبةَ ذِكْر الضدِّ بعد الكلام على ضدِّه[1].

- ومجيء (إنَّ) هنا لمجرد الاهتمام بالخبر، وتحقيقه لدفع توهُّم أنَّ ما سبق من المذمَّات شامل لجميع اليهود؛ فإنَّ كثيرًا من الناس يتوهم أن سلف الأمم التي ضلت كانوا مثلهم في الضلال[2].

- وابتُدئ بذكر المؤمنين للاهتمام بشأنهم؛ ليكونوا في مقدمة ذِكر الفاضلين، فلا يذكر أهل الخير إلَّا ويذكرون معهم[3].

- ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: التعبير في نفي الخوف بالخبر الاسمي؛ لإفادة نفْي جنس الخوف نفيًا قارًّا؛ لدلالة الجملة الاسميَّة على الدوام والثبات، والتعبير في نفي خوف [الحزن] بالخبر الفعلي وهو (يحزنون)؛ لإفادة تخصيصهم بنفي الحزن في الآخِرة بخلاف غير المؤمنين[4].

وفي ختْم هذه الآية بقوله: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ مناسبة ظاهرة؛ لأنَّ من استقرَّ أجره عند ربه لا يلحقه حزنٌ على ما مضَى، ولا خوف على ما يُستقبل[5].

٢- قوله: ﴿مِيثَاقَكُمْ﴾ جاء على صيغة الإفراد ولم يقل: (مواثيقكم)؛ للدَّلالة على أنَّ كل واحد منهم قد أَخَذ ذلك، ولبيان أنَّه كأن شيئًا واحدًا أُخذ من كل

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٣١)
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٥٣٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٥٤٠-٥٤١).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٤٠٦).

واحد منهم، كما أُخذ على غيره، فكان كله ميثاقًا واحدًا، ولو قيل: (مواثيقكم) لأشبه أن يكون هناك مواثيق أخذت عليهم لا ميثاق واحد[1].

٣- ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾ اللام في (لقد) لام توكيد، ويحتمل أن تكون جوابًا لقسم محذوف، ولكنه جيء على سبيل التوكيد باللام، و(قد) والقَسم المحذوف؛ لأنَّ مثل هذه القصة يمكن أن يُبهِتوا في إنكارها؛ وذلك لما نال في عقبى أولئك المعتدين من مسخهم قردة، فاحتيج في ذلك إلى توكيد، وأنهم علموا ذلك حقيقة[2].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣/ ٥٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٤٠٨)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٠١).

الآيات (٦٧-٧٤)

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿فَارِضٌ﴾: مُسنَّة، والفارض: المسنَّة من البقر، أو الهَرِمة، والفارض هُوَ الضَّخم من كل شَيْء، وأصل الفرض: التأثير في الشيء بقطع أو غيره(١).

﴿بِكْرٌ﴾: أي: صغيرة لم تلد، وأصله: أول الشيء وبدؤه؛ ولذا سُمِّيت التي لم تُفتضَّ بكرًا(٢).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٧٥، ٩٧٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٠).

﴿عَوَانٌ﴾: أي: نصف بَين الصَّغيرة والمُسِنَّة، والمتوسِّطة بين السِّنينِ[١].

﴿فَاقِعٌ﴾: أي: ناصع صاف؛ يقال: أصفر فاقع: إذا كان صادِقَ الصفرة، كقولهم: أسود حالك، وأحمر قان، وأخضر ناضِر؛ فهذه التوابع تدل على شِدَّة الوصف وخلوصه[٢].

﴿ذَلُولٌ﴾: التي قد أذلَّها العمل، وأصل الذل: الخضوع، والاستكانة، واللين. والذل: ضد العز، وخلاف الصُّعوبة. وقيل: بالضم ما كان عن قَهْر، وبالكسر: ما كان عن تصعُّب، وهو الذلول من الدَّواب[٣].

﴿تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾: أي تقلبها للزراعة، وأصل الإثارة: الاستخراج والقلقلة من مكانٍ إلى مكان[٤].

﴿مُسَلَّمَةٌ﴾: أي: مُخلَّصة، ومبرَّأة من العيوب، وأصْل السلم والسلامة: الصحة والعافية، والتعرِّي من الآفات الظاهرة والباطنة[٥].

﴿لَا شِيَةَ﴾: لا لون فيها سِوى لون جميع جِلدها، والشية: مأخوذة من وشيت الثوب: إذا جعلت فيه أثرًا يُخالف معظمَ لونه، أو نسج على لونين مُختَلفين[٦].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٩٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٦).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٤٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٦٢-٤٦٣).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨١).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨١).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٣).

﴿فَادَّارَأْتُمْ﴾: أي: تدافعتُم، واختلفتم، أو اختصمتم، وأصل الدَّرْء: دفْع الشيء[(١)].

مشكل الإعراب:

١- قوله ﴿لا فَارِضٌ﴾: لا: نافية، لا عمل لها. وفارضٌ: مرفوع، صفة لـ(بقرةٌ) و(لا) معترضة بين الصِّفة والموصوف. ويجوز أن يكون (فارض) خبرًا لمبتدأ محذوف، أي: لا هي فارض. ومثله ﴿وَلَا بِكْرٌ﴾ ومثله ﴿لَا ذَلُولٌ﴾[(٢)].

٢- قوله: ﴿عَوَانٌ﴾: مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أي: هي عوانٌ. ويجوز أن يكون صفة لـ(بقرة) والأول أحسن؛ لبُعد الموصوف[(٣)].

المعنى الإجمالي:

يُذكِّر اللهُ سبحانه بني إسرائيل بإخبار موسى لآبائهم بأمْر اللهِ تعالى لهم بذْبح بقرة؛ كي يضربوا القتيلَ بجزء منها، فيَحيَا ويُخبر بقاتله، فاستنكروا على موسى ذلك، وتَعنَّتوا كعادتِهم، واتَّهموه بأنَّه يسخَر منهم، فاستعاذ باللهِ أن يكون من السُّفهاءِ الذي يَسخَرون من الناس.

فقالوا لموسى- مشدِّدين على أنفسِهم ومُتعنِّتين-: اسأل ربَّك يَصِفْها لنا؛ لنعرفها، فذكَر لهم موسى بأنَّها بقرةٌ متوسِّطة السنِّ، ليست بالكبيرة الهَرِمة، ولا بالصَّغيرة، وأمرهم أنْ يقومُوا بفعل ما أُمِروا به، فطَلَبوا منه أن يسأل ربَّه أيضًا عن لون البقرة! فكان الجوابُ: أنَّها بقرة صفراءُ صافيةٌ، شديدةُ الصُّفرة، تُدخِل السرورَ على مَن نظر إليها.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٨).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٩٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٧٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١/ ٤١٩).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٩٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٧٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١/ ٤١٩).

فعادوا طالبِين من موسى مُجدَّدًا أن يسأل ربَّه أن يُبيِّن لهم مزيدًا من أوصافها؛ وحُجَّتهم أنَّ البقرة المطلوبة الْتبَستْ عليهم بين غيرها من البَقر، وأوْضَحوا بأنَّهم بإذن الله سيهتدون.

فقال موسى: إنَّ الله يقول بأنَّ هذه البقرة ليستْ مُذلَّلة بالعمل، لم تُعَدَّ لتقليب الأرض للحَرْث، أو سقي الزَّرع، وهي أيضًا سليمةٌ من جميع العيوب، ولا يُخالِط لونَ جلدِها الأصفر الفاقِع أيُّ لونٍ آخَر.

فقالوا حِينها: اتَّضح الحقُّ الآن، وجئتَ بالصِّفات التي تُميِّزها عن غيرها يا موسى، فوجدوها، وذبحوها، وقد قارَبوا ألَّا يفعلوا!

ثمَّ ذكَّرهم سبحانه حين قتَلوا نفْسًا، ثم تنازَعوا فيها؛ كلٌّ يَدفَع القتلَ عن نفسه، والله سبحانه مُظهِرٌ القاتلَ؛ ليُعلم ما كانوا يُخفونَه، ولينتفيَ النِّزاع بينهم.

فأمَرَهم الله جلَّ وعلا أن يضرِبوا القتيل ببعض البَقرة، ففعلوا، فحَيِيَ بإذن الله، وأخبرهم بقاتله، وكما أحيا الله هذا القتيلَ، كذلك يُحيي الموتى بعد مماتهم، فيبعثهم يومَ القيامة، ويُظهر الله تعالى آياتِه الواضحاتِ؛ لعلَّهم ينزجرون ويمتنعون عن عِصيانه.

ثمَّ غلُظت قلوبُهم، ولم يكن ينبغي لهم ذلك بعدَما عاينوا تِلك الحادثةَ الخارقة للعادة! فصارتْ قلوبهم في غِلظتها كالحجارة، أو أشدَّ صلابةً من الحجارة؛ فإنَّ الحجارة مع قسوتها أفضلُ من قلوب أولئك القوم؛ فإنَّ منها ما يتصدَّع فيخرج منه الماء، ومنها ما يسقُط من علوٍّ إلى سُفول من خشيةِ الله سبحانه، وما الله تبارك وتعالى بغافلٍ ولا ساهٍ عن أفعالهم، بل سيُجازيهم عليها أتمَّ الجزاء.

تفسير الآيات:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾.

أي: واذكروا يا بني إسرائيل، حين أخبَرَ موسى عليه السَّلام آباءَكم بأمْر الله تعالى لهم بذَبْح بقرة؛ كي يضربوا القتيل بجزء منها، فيَحيا القتيل، ويُخبرهم بقاتله، ولم يُحدِّد الله تعالى لهم بقرةً معيَّنة ولم يخبرهم بأوصاف محدَّدة، بل أي بقَرة ذبَحوها، فإنَّها تُفيد في تحقيق المطلوب(١).

﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾.

أي: إنَّهم استنكروا على موسى عليه السَّلام أمْره بذَبح بقرة، ورأوا أنَّ جوابه غيرُ محقِّق لمقصودهم، فظنوا بموسى عليه السَّلام أنَّه هازئٌ وساخرٌ بهم في ذلك(٢).

﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

أي: إنَّ موسى عليه السَّلام استعاذَ بربِّه عزَّ وجلَّ من أن يكونَ في عِداد السُّفهاء، الذين يَستهزِئون بالنَّاس(٣).

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨)﴾.

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾.

أي: يُخبِر سبحانه عن تعنُّت بني إسرائيل، وكثرةِ سؤالهم لموسى عليه السَّلام، وأنَّهم لَمَّا ضيَّقوا على أنفسهم ضُيِّق عليهم، ولو أنَّهم ذَبَحوا أيَّ بقرة لكفتْهم، لكنَّهم شدَّدوا، فشُدِّد عليهم، فقالوا: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾، أي: اسأل

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٢٠، ١٢١، ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٢٤).

لنا ربَّك ما هذه البقرة؟ صفْها لنا؛ لنعرفَها[1].

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾.

أي: قال لهم موسى عليه السَّلام: إن الله تعالى يقول: إنَّ البقرة التي سألتُم عنها ليستْ في سِنِّها بالكبيرة الهَرِمة، وليست بالصَّغيرة التي لم يَنكِحْها الفحلُ فتلِد، بل هي متوسِّطة في السِّنِّ بين الكبيرة جدًّا، والصغيرة جدًّا. أَمَا وقد أتاكم العلمُ، فاذبحوا البقرةَ التي أُمرتم بذَبْحها؛ لتصِلوا إلى قاتل قتيلكم[2].

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٦٩)﴾.

أي: طلَب بنو إسرائيل من موسى عليه السَّلام أن يَسألَ ربَّه عن لون البَقرة المطلوب ذبْحها، فجاءَهم الجوابُ بأنَّها بقرةٌ صفراءُ صافية، شديدةُ الصُّفرة، وتُدخِل السُّرورَ على مَن نظَر إليها؛ لشِدَّة حُسنها وجمال منظرها[3].

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠)﴾.

أي: طلَبوا من موسى عليه السَّلام- من تعنُّتهم- طلبًا ثالثًا بسؤال ربِّه؛ كي يبيِّن لهم المزيدَ من صفات البقرة المطلوبِ ذبحُها، مُتذرِّعين في طلبهم هذا بحُجَّة الْتِباس البقرة المطلوبة من بين غيرها من البَقر، فلم يَهتدوا- بزَعْمِهم- إلى ما يُريدون،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٨٢، ٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٨٣، ٨٦، ٨٧، ٩٠، ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٩٨-٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٢٥-١٢٨)

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٩١-٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٢٨-١٣٠).

وأخَذوا على أنفسهم أنَّهم سيهتدون؛ ولكنَّهم علَّقوا ذلك بمشيئة الله تعالى[(١)].

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١)﴾.

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا﴾.

أي: قال لهم موسى عليه السَّلام: إنَّ الله تعالى يقول: إنَّ البَقرة التي أمرتكم بذَبْحها ليستْ مُذلَّلة بالعمَل، فليست بالتي أُعِدَّت لتقليبِ الأرض للحَرْث، أو سَقي الزَّرع، كما أنَّها سليمةٌ من كلِّ عيب، ولا يخالط لونَ جلدها الأصفر الفاقِع أيُّ لون آخَر[(٢)].

﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٩٧-٩٨، ١٠٣-١٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٣١-١٣٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٠٥-١٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٠٠ (. ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٣٢-١٣٥).

وممَّن قال من السَّلف: إنَّ معنى ﴿لا ذَلُولٌ﴾، أي: لم يذلَّها العملُ: أبو العالية، وعطاء الخراساني، وقتادة، والسُّدِّي، والرَّبيع بن أنس، ومجاهد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٠٥)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١٤١).

وممَّن قال من السَّلف بنحو قولنا في ﴿لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾: السُّدِّي، وأبو العالية. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٠٥)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١٤٢).

وممَّن قال من السَّلف: إنَّ معنى ﴿مُسلَّمة﴾، أي: لا عيبَ فيها: ابن عبَّاس، وأبو العالية، والرَّبيع ابن أنس. ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٠٨)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١٤٢).

وممَّن قال من السَّلَف بمُجمَل ما ذُكر في قوله تعالى ﴿لا شِيةَ فيها﴾: مجاهد، والحَسَن، وأبو العالية، وقتادة، والرَّبيع بن أنس، وابن زيد، وأبو مُسلِم، وعطيَّة العوفي، ووهب بن منبِّه، والسُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١١٠)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١٤٢).

أي: قالوا قد اتَّضح للتوِّ الحقُّ في أمْر البقرة، وجئتَ لنا يا موسى بصِفاتها التي تُميِّزها عن غيرِها، فنستطيع معرفتَها، فوجدوها وذبَحوها، وقد أوشكوا على ترك ذبْحِها[١].

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢)﴾.

أي: واذكُروا يا بني إسرائيل، حين قتلتم نفسًا، فتنازعتُم واختلفتم فيها، كلٌّ يَدفَع قتْلَها عن نفْسه[٢].

﴿وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى مُظهِرٌ هذا القاتل؛ ليُعلَمَ[٣].

﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣)﴾.

﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١١١-١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥).

قال ابن كثير: (يعني: أنَّهم- مع هذا البيان وهذه الأسئلة والأجوبة، والإيضاح- ما ذَبحوها إلا بعد الجهد، وفي هذا ذمٌّ لهم، وذلك أنه لم يكُن غرضهم إلا التعنُّت؛ فلهذا ما كادوا يَذبحونها) ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٠١).

واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾.

فذهب ابن عاشور في ((تفسيره)) (١/ ٥٥٧)، إلى أنَّ المعنى: أنهم أوشكوا حينما أرادوا مباشرةَ ذبحِها على ألَّا يفعلوا، فذبحوها بعد جهْدٍ كالمكرهين. ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١١١-١١٤).

وذهب الشنقيطي في ((العذب النمير)) (١/ ١٤٠-١٤١)، وابن عثيمين في ((تفسير الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٣٩)، إلى أن المعنى: قاربوا ألا يذبحوها في زمن التعنت والأسئلة، فتعنتهم وكثرة أسئلتهم عنها دليلٌ على تباطؤهم عن الفعل منذ بداية الأمر، وعدم وجود رغبة في امتثال ما أمرَهم الله تعالى به.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١١٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٤١-١٤٤)، ((تفسير ابن عُثيمين – الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٢٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٤٤)، ((تفسير ابن عُثيمين – الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٣٩).

أي: أمَرَهم الله جلَّ ثناؤه أن يضربوا القتيلَ ببعض البقرة؛ ليحيا المضروب، فضَربوه، فحيِيَ بإذن الله عزَّ وجلَّ، وأخبرهم بقاتله(١).

﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى﴾.

أي: كما أحيا اللهُ تعالى هذا القتيلَ في الدُّنيا، فكذلك يُحيي الموتى بعد مَماتِهم، فيبعثهم يومَ القِيامة(٢).

﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

أي: يُظهر اللهُ تعالى لكم العلاماتِ الواضحةَ على كمال قُدرته في إحيائه الموتى، وبَعثِهم بعد موتهم؛ كي تنزجِروا عمَّا يضرُّكم، وتمتنعوا عن عِصيانه جلَّ وعلا(٣).

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤)﴾.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾

أي: جَفَت قلوبُكم وغلُظت، ولم يكن ينبغي أن تكون كذلك من بَعدِ الأمرِ الذي عاينتموه، وهو إحياءُ القتيل، الذي هو سببٌ عظيمٌ للِين القلوبِ ورِقَّتِها، وانقيادِها للحقِّ؛ فقلوبكم في غِلظتها وشدَّتِها كالحجارة، أو أشدُّ صلابةً من الحجارة(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٢٤-١٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٤٥، ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٢٨-١٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥). =

﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾.

أي: إنَّ الحجارةَ مع قسوتها أفضلُ من قلوبِ أولئك القومِ التي لا تَلين ولا تخشع؛ ذلك بأنَّ هناك أنواعًا من الحجارة تَسيل منها أنهارٌ من المياه، ومنها أنواعٌ تلين وتتصدَّع فيَخرُج منها الماء، ومنها ما يَتردَّى من علوٍّ إلى سُفول؛ من خَشيةِ الله تبارك وتعالى(١).

﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

أي: إنَّ الله سبحانه غيرُ غافلٍ عن أفعالهم الخبيثة، ولا ساهٍ عنها، بل هو حافظٌ لها، وسيُجازيهم على ذلك أتمَّ الجزاء(٢).

= واختلف المفسِّرون في معنى ﴿أو﴾ هاهنا، فذهب ابن جرير في ((تفسيره)) (٢/ ١٣١، ١٣٣)، إلى أنَّها على معناها الأصلي وهو الشكُّ، لكنه ليس شكًّا من الله تعالى بل على معنى أنَّ قلوبهم في قسوتها كالحجارة، أو أشدُّ من الحجارة قسوةً عندهم وعِندَ مَن عَرَف شأنهم.

قال ابن عطية: (وقالت فرقة: هي على بابها في الشكِّ، ومعناه: عندكم- أيُّها المخاطبون- وفي نظركم، أنْ لو شاهدتم قسوتَها لشككتُم أهي كالحِجارة أو أشدُّ من الحجارة) ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٦٦).

وقيل: ﴿أو﴾ للتنويع، أي:إنَّ قلوب بعضهم كالحجارة، وقلوب البعض الآخَر أشدُّ صلابةً من الحجارة، وهو رأي استحسنه ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٣٣)، واختاره الشنقيطي في ((العذب النمير)) (١/ ١٥٥).

وقيل: هي لتحقيق ما سبَق، أي: إنَّ قلوبهم إن لم تكُن أشدَّ من الحجارة قسوةً فهي مثلها، وهذا اختيارُ السعدي في ((تفسيره)) (ص: ٥٥).

وقيل: هي بمعنى: بل، وهذا اختيارُ الواحدي في ((التفسير الوسيط)) (١ / ١٥٨)، وابن عاشور في ((تفسيره)) (١/ ٥٦٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٣٣-١٣٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٥٩-١٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٣٨-١٣٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٦٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٤٧).

الفَوائِد التربويَّة:

١- أنَّه ينبغي للإنسان أن يمهِّدَ للأمر، أو الخبر الذي يعتزم قوله، بما يؤدِّي إلى قَبوله؛ لقوله: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾(١).

٢- أنَّ جميع الخَلْق محتاجون إلى الالتجاء إلى الله تعالى، والاعتصام به عزَّ وجلَّ؛ فإنَّ موسى صلَّى الله عليه وسلَّمَ كان من أُولي العزمِ من الرُّسُل؛ ومع ذلك فهو محتاجٌ إلى الالتجاء إلى ربِّه تبارك وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ﴾(٢).

٣- أنَّ الاستهزاءَ بالنَّاس من الجَهل، والحُمق، وقلة العقل؛ لقول موسى عليه الصَّلاة والسَّلام: ﴿أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ﴾(٣).

٤- أنَّ مَن شدَّد على نفْسه، شدَّد الله عليه، كما حصَل لبني إسرائيل؛ فإنَّهم لو امتثلوا أوَّلَ ما أُمِروا، فذبَحوا أيَّ بقرة، لكفاهم، ولكنَّهم شدَّدوا، وتعنَّتوا، فشدَّد الله عليهم(٤).

٥- أنَّه ينبغي الاعتناءُ بمعنى القِصَّة، وغرضِها، دون النظر المجرد إلى مَن وقعَتْ عليه؛ لقوله تعالى: ﴿بِبَعْضِهَا﴾ ولم يعينْ لهم ذلك(٥).

٦- أنَّ المُبهَم في أمور متعدِّدة أيسرُ على المكلَّف من المعيَّن؛ وذلك إذا كانوا قد أُمروا أن يَضرِبوه ببعضها فقط(٦).

٧- أنَّ بيانَ الأمورِ الخفيَّة التي يحصُل فيها الاختلاف، والنِّزاع، من نِعمة الله عزَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٤١).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٤١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٤٣).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٤٣).

وجلَّ، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾(١).

٨- أنَّ الله سبحانه وتعالى يُخرِج ما يكتمُه أهلُ الباطل، ويبيِّنه للناس؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾(٢)، فلْيحذرِ الإنسانُ من أن يكتُمَ شيئًا لا يرضاه الله عزَّ وجلَّ(٣).

الفوائد العلميَّة واللَّطائف:

١- تعنُّتُ بني إسرائيلَ، وسوءُ أدبِهم معَ أنبيائِهم؛ حيث قالوا لنبيِّهم عليه الصَّلاة والسَّلام: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾، وقالوا أيضًا: ﴿الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾؛ فكأنَّهم يقولون: الآن رَضِينا بوصف هذه البقرة، فقاموا بذبْحها بعد تعنُّتٍ منهم، وكل هذا يدلُّ على استهتارهم بأوامر الله عزَّ وجلَّ(٤).

٢- استكبار بني إسرائيل؛ حيث قالوا لموسى عليه الصَّلاة والسَّلام: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، فأمروه أمرًا، ثم أضافوا ربوبيَّة الله عزَّ وجلَّ إلى موسى، كأنَّهم متبرِّئون من ذلك، فلم يقولوا: «ادع ربَّنا»، أو «ادع الله»، وممَّا يدل على استكبارهم كونُهم طلبوا من موسى عليه الصَّلاة والسَّلام، أن يُبيِّن لهم ما هذه البقرة، مع أنَّ البقرة معروفة، وهي عند الإطلاق تَشملَ أيَّ واحدة(٥).

٣- أنَّ قول الرسول قولٌ لمرسِله إذا كان بأمْره؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾(٦).

٤- أنَّ هذه الآية من آيات الله عزَّ وجلَّ، وهي أن تكونَ البقرة التي تفارق الحياةَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٤١-٢٤٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٤٢).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٤٣).

سببًا لحياة هذا القتيل؛ إذ لا رابطةَ في المعقول بين أن تُذبَح البقرة، ويُضرَب القتيلُ ببعضها، فيحيا، فلو قِيل بضربِه بجزءٍ مِن بقرة حيةٍ لربما توهَّم متوهمٌ أنَّه استمدَّ الحياةَ مِن حياتها، ولكن أمرهم بضربِه بجزءٍ مِن بقرة ميتة، فعادت له الحياةُ[١].

٥- لؤم بني إسرائيل الذين جاءتهم هذه النِّعم، ومع ذلك فهُم لم يَلينوا للحقِّ، بل قسَت قلوبُهم على ظهور هذه النِّعم[٢]! كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾.

٦- أنَّ الجماداتِ تَعرِف اللهَ عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾[٣].

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ عبَّر عن لونها بالاسم ﴿صَفراء﴾ ولم يُعبِّر بالفعل (يصفر)؛ لأنَّ اللون من الأشياء الثابتة التي لا تتجدَّد، وأفاد ذِكْر اللَّون في ﴿فَاقِعٌ لَوْنُها﴾ التوكيدَ، وهو أبلغُ من قول: (صفراء فاقعة)؛ لأنَّ اللون اسم للهيئة، وهي الصُّفرة[٤].

٢- قوله: ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ جاء الوصف بالفِعل ﴿تَسُرُّ﴾؛ ليُشعرَ بالحدوث والتجدُّد. وتأخَّرَ هذا الوصفُ عن الوصف قبله ﴿صفراء﴾؛ لأنَّه ناشئ عنه، أو كالناشئ. وجاء بصِيغة الجمْع في ﴿النَّاظِرِينَ﴾، وأدخل الألف واللام التي تدلُّ على الاستغراق؛ ليوضِّح أن أعينَ الناس كلَّهم طامحة إليها، متلذِّذة فيها بالنظر، فليست ممَّا تُعجِب شخصًا دون شخص[٥].

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) الشنقيطي (١/ ١٤٧-١٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٥٠)، ((تفسير الرازي)) (٣/ ٥٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٤٠٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٤٠٨-٤٠٩).

٣- قوله: ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ توسَّط قولُه: ﴿إِنْ شَاءَ اللهُ﴾ بين اسم إنَّ وبين خبرِها؛ ليحصل توافُق رؤوس الآي، وللاهتمام بتعليق الهداية بمشيئة الله، وجاء خبر إنَّ ﴿لَمُهْتَدُونَ﴾ اسمًا؛ لأنَّه أدلُّ على الثبوت، وعلى حُصولِ الهداية لهم، وأُكِّد بحَرفَيِ التأكيد: إنَّ واللام[1].

٤- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾

- **قوله:** ﴿ثُمَّ قَسَتْ﴾ فيه مناسبة حسَنة، حيث كان حصولُ المعصية منهم- بعدَ رُؤية هذه الخارقة- مُستبعَدَ التصوُّر، فضلًا عن الوقوع[2].

قوله: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ﴾ فيه تشبيه مُرسَل مُجمَل[3] ذُكرت فيه أداة الشَّبه وحُذِف وجهُ الشبه؛ حيث شبَّه قلوبهم في نبوِّها عن الحقِّ، وتجافيها مع أحكامِه بالحجارة القاسية، ثم ترقَّى في التشبيه، فجَعل الحجارة أكثرَ لِينًا من قلوبهم. وهو

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٤١١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي)) (١/ ٤٧٨).

(٣) التشبيه: هو إلحاق شيء بذي وصف في وصفه. وقيل: أن تثبت للمشبه حُكمًا من أحكام المشبه به. وقد اتفق الأدباء على شرفه في أنواع البلاغة، وأنه إذا جاء في أعقاب المعاني أفادها كمالًا، وكساها حلة وجمالًا، وهو جار في كلام العرب بل هو أكثر كلامهم. وينقسم التشبيه عدة تقسيمات باعتبارات عِدَّة؛ فمنه: التشبيه المفرَد. ومنه: التشبيه المركَّب: هو الذي يكون وجه الشبه فيه منتزعًا من متعدِّد، أو من أمورٍ مجموعٍ بعضها إلى بعض، كقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥]؛ فالتشبيه مركَّب من أحوال الحمار. وخصَّ البيانيون لفظ «التمثيل» بالتشبيه المركَّب. ومنه: التشبيه البليغ: وهو ما كانت أداة التشبيه فيه محذوفة. وينقسم باعتبار آخر إلى: مؤكَّد: وهو ما حُذفت فيه الأداة نحو: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]، أي: مثل مرِّ السحاب. ومُرْسل: وهو ما لم تُحذف فيه الأداة. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٣٢ وما بعدها)، ((البرهان)) للزركشي، (٣/ ٤١٤، ٤٢٢)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ١٤٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٦٦)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ١٦١) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني.

أيضًا من باب تشبيهُ المعقولِ بالمحسوس؛ فالحجارة أمرٌ محسوس، وقسوة القلب أمرٌ معقول(١).

– ووجه تشبيه قلوبهم بأنَّها كالحجارة في القَسوة ولم يشبهها بالحديد، وهو أشد من الحجارة وأصلب؛ لأنَّ الحديدَ قابلٌ للين بالنار، وقد لان لداود عليه الصَّلاة والسلام، والحجارة ليست قابلةً للين، فلا تلين قط(٢).

– **قوله**: ﴿أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ عبَّر بالمصدر الصَّريح، ومصدر الفِعل (قسى)، مع أنَّه ممَّا يخرج منه أفعلُ التفضيل (أقسى)؛ لأنَّ هذا أدلُّ وأبين على فَرط القسوة؛ ولأنَّه قصَد وصف القَسوة بالشدَّة، لا قصدَ معنى الأقسى، كأنَّه قيل: اشتدَّت قسوة الحجارة، وقلوبهم أشدُّ قسوةً. وفي هذا التعبير أيضًا زيادةُ تقريع مناسِب لسِياق هذه القَصص(٣).

٥- وفي هذه الآيات المتقدِّمة فنُّ التكرير، وهو داخلٌ في باب الإطناب(٤)، كأنَّهم يُكرِّرون السؤالَ استكناهًا لحقيقة البقرة؛ لشدَّة تعنُّتهم(٥).

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ١٢٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٤٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (١/ ٩٥)، ((تفسير البغوي)) (١/ ١١٠)، ((تفسير الخازن)) (١/ ٥٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) مع الحاشية (١/ ١٥٥).
(٤) **الإطناب**: هو زيادة اللفظ على المعنى لفائدة، أو هو تأدية المعنى بعبارة زائدة عن متعارف أوساط البلغاء؛ لفائدة تقويته وتوكيده. وينقسم إلى: إطناب بالبسط، وإطناب بالزيادة. يُنظر: ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٢٠١)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٦٢).
(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ١٢٤).

الآيات (٧٥-٨٢)

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ
يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا
قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ
لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا
يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ
هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ
عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم
مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ
عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾
بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ
فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ
هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

غريب الكلمات:

﴿يُحَرِّفُونَهُ﴾: يَقلبونه ويُغيِّرونه، وأصل تحريف الشَّيء وانحرافه: إمالته، والعدول به عن الاستقامة[1].

﴿أُمِّيُّونَ﴾: جهلة غَفَلة، أو الذين لا يكتبون ولا يقرؤون من كتاب، وأصل (أم): الأصل والمرجع، فنُسِب الأُمِّي إلى ما عليه جِبلَّة الناس؛ لا يكتب ولا يقرأ على ما وُلِد عليه[2].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٨٨).

﴿أَمَانِيَّ﴾: جمْع أُمْنية، وهي تأتي بمعنى التِّلاوة المُجرَّدة عن المعرفة؛ تَجري عند صاحبها مجرَى أمنية متمنَّاة على التخمين. وتأتي الأماني بمعنى: الأكاذيب، ومَا يتمناه الْإِنْسَان ويشتهيه أَيضًا(١).

مشكل الإعراب:

قوله: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾: (إنْ): حرف نفي بمعنى (ما).

و(هم): في محل رفع مبتدأ.

و(يظنون) فعل وفاعل في محل رفع خبر.

و(إلَّا): أداة حصْر؛ لتحقيق النفي، والاستثناء مفرغ. وهكذا كل (إنْ) مكسورة مخفَّفة وبعدها (إلَّا)؛ فإنَّ (إنْ) بمعنى (ما)، نحو: ﴿إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ [الملك: ٢٠] وأمثالها(٢).

المعنى الإجمالي:

يحضُّ الله تعالى المؤمنين على قَطْع أملهم من إيمان اليهود؛ فإنَّ حالهم لا يَقتضي الطَّمع في إيمانهم؛ فإنَّهم يَسمعون كلامَ الله الذي هو التوراة، ثم يُبدِّلونه من بعد ما فَهِموه، وهم يعلمون أنَّهم كاذبون ومُفترون، وإذا قابلوا النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ وأصحابَه أظهروا الإيمانَ بألسنتهم فقط، وحين يَختَلُون بأصحابهم يُنكِر عليهم أصحابُهم إخبارَهم النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ وأصحابه بأنَّ ما في التوراة من صفات النبيِّ المنتظَر تنطبِق على محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وبما وقع لآبائهم من العقوبات؛ وذلك لئلَّا يكون هذا الاعترافُ حُجَّةً للمؤمنين عليهم يومَ القيامة

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧-٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٢ - ٨٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٠٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٨١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١/ ٤٤٨-٤٤٩)، ((إعراب القرآن الكريم)) لدعاس (١/ ٣٥).

أمام الله، حيث عرَفوا الحقَّ ولم يتَّبعوه، وقال لهم أصحابهم مُنكِرين عليهم: لو كان لديكم إدراكٌ لفَهِمتم هذا الأمر. فأنكر الله تعالى عليهم قولَهم هذا، وهم يعلمون أنَّ الله يعلم ما يُخفونه وما يُعلنونه.

ثم أخبَر الله سبحانه أنَّ من اليهود عوامَّ، ليس لهم حظٌّ من التوراة إلَّا تلاوةُ ألفاظها فحَسْبُ؛ فهم لا يفقهون معانيَها، وليس معهم إلَّا مجرَّدُ ظنون.

ثم توعَّد الله عزَّ وجلَّ بالعذاب والهلاك اليهودَ، الذين حرَّفوا التوراةَ ثم يدَّعون أنَّها من عند الله؛ لأجْل الحصول على مكاسبَ دُنيويَّة، فأخْبَر أنَّ هؤلاء لهم عذابٌ شديد؛ جزاءَ ما زوَّروه بأيديهم وعلى ما أَخذوه من الحرام.

ثم ذكَر الله تعالى تزكيةَ اليهود لأنفسهم بأنَّ النار لن تلاقيَ أجسامَهم إلَّا أيَّامًا قليلة، فأمر الله نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يسألَهم إنْ كان لديهم ميثاقٌ من الله على ما زَعموه؛ فإنْ كان لهم، فاللهُ لا ينقض ميثاقَه، أم أنَّهم يدَّعون على الله كذبًا؟!

فأخبَرهم الله جلَّ شأنُه أنَّ الأمر ليس كما ادَّعَوه؛ فالحُكم أنَّ مَن أشرك بالله، وأَحدقتْ به ذنوبُه، ومات عليها ولم يتُبْ منها، فهؤلاء هم الملازمون للنَّار، لا يخرجون منها أبدًا، وأنَّ مَن آمن بالله وملائكته وكتُبه ورُسله واليوم الآخِر، وعمِل صالحًا، فهؤلاء هم أهلُ الجنة المقيمون فيها، لا يخرجون منها أبدًا.

تفسير الآيات:

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا بيَّن سبحانه أنَّ قلوب اليهود صارت من كثرة المعاصي وتوالي التجرُّؤ على

بارئها محجوبةً بالرَّيْن، كثيفةَ الطَّبع، بحيث إنَّها أشدُّ قسوةً من الحجارة، وتسبَّب ذلك في بُعدهم عن الإيمان- لَمَّا بيَّن سبحانه ذلِك أَيْئَسَ عبادَه المؤمنين من استجابة اليهود إلى الدِّين الحقِّ[1]، فقال:

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾.

أي: أتُعلِّقون الطمعَ بما لا مطمعَ فيه، فترجون أن يؤمنوا لكم؟! أي: يُصدِّقون ويُقرُّون بقلوبهم وألسنتهم وجوارِحِهم؛ لأجْل دعوتكم وطلبِكم منهم الإيمانَ[2]؟!

﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ﴾.

أي: والحال أنَّ جماعةً منهم كانوا يَسمعون كلام الله يُتلَى في كتابه التوراة[3].

﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾.

أي: إنَّهم من بعد سماعِهم لكلام الله عزَّ وجلَّ، ومن بعد أن أدْركوه بعقولهم ففهِموه جيِّدًا، يقومون بتبديله، وتغييره، وصرْف معانيه إلى معانٍ أُخرى على غيرِ مُرادِ الله تعالى[4]!

﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

أي: والحال أنَّهم يعلمون أنَّهم حرَّفوه مُبطِلين، ومفترين على الله تعالى الكذبَ[5]!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١/ ٤٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٠٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١/ ٤٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٦٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٥٥-١٥٦).

(٣) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٦٧-١٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٦٧-٥٦٨)، ((العذب النَّمير)) للشنقيطي (١/ ١٥٦-١٥٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٥٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٠٧)، ((تفسير السعدي)) =

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦)﴾.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾.

أي: وإذا قابَل منافقو اليهود، المؤمنين -وهم النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ وأصحابُه- أظْهَروا لهم الإيمان بألسنتهم، بما ليس في قلوبِهم[١].

﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾.

أي: حين ينصرِفُ هؤلاء المنافقون من اليهود، خالين بأصحابِهم في موضعٍ ليس فيه أحدٌ سواهم[٢].

﴿قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ﴾.

أي: قال أصحابُهم اليهود الذين لم ينافقوا، مُنكِرين على مَن نافق منهم: أتُخبِرون النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ وأصحابَه، بما أعْلَمَنا الله تعالى به في التوراة وحكم به علينا؟! (وذلك كالإخبار بأنَّ محمَّدًا عليه الصَّلاة والسَّلام هو النبيُّ المنتظَر الذي تَنطبِق عليه الصِّفاتُ المذكورة لديْهم، والذي وجب عليْهم الإيمان به، وكقضائه وحكمه على أسلافهم بما وقع عليهم من العذاب)[٣].

﴿لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾.

= (ص: ٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٥٦، ١٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٤٤-١٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٤٩-١٥١)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٦٣).

أي: فيكون ذلك الإقرارُ حُجَّةً لهؤلاء المؤمنين علينا عند الله تعالى يوم القيامة، أنَّنا عَرَفْنا الحقَّ وترَكْنا العمل به[1]؟!

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣١].

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

أي: أليس لكم إدراكٌ بعقولكم؛ فتفهموا أنَّه لا ينبغي لكم إخبارُ أصحاب النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ بأنَّه النبيُّ المنتظَر، فيكون ذلك حُجَّةً لهم عليكم عند الله تعالى يوم القِيامة[2]؟!

﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧)﴾.

أي: أيقولون مِثل هذا ولا يعلمون أنَّ إسرارَهم وإعلانهم عند الله جلَّ وعلا سواءٌ؛ فالسِّرُّ عنده علانية؟! فالله تعالى يعلم ما يُسرُّه اليهود من الكفر والتكذيب، وما يُخفونه من التلاوم بينهم على إظهارِهم ما أظهروا للمؤمنين من الإقرار، كما يَعلم ما يُعلنونه للمؤمنين بقولهم لهم: آمنَّا[3].

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨)﴾.

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾.

أي: إنَّ من اليهود مَن لا يحسن القراءة والكتابة، وليسوا على عِلمٍ بالتوراة، وإنَّما لديهم مجرَّد أحاديث وأمنيات باطلة اختلقوها من تِلقاء أنفسهم، كقولهم: لن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٥٠-١٥١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٦٩). والسعدي، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٧١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٥١-١٥٢)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٦٣-١٦٤).

يدخُل الجنة إلَّا من كان هودًا أو نصارى، وكقولهم أيضًا: لن تمسَّنا النار إلا أيَّامًا معدودات، إلى غير ذلك من تخرُّصاتهم[١].

﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾.

أي: نفَى عنهم العِلمَ، وبيَّن أنَّهم ليس معهم إلَّا مجرَّد ظنون[٢].

كما قال تعالى: ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ [النساء: ١٥٧].

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩)﴾.

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾.

أي: هلاكٌ عظيم، وعذابٌ هائِل سيحُلُّ بدُعاة الضَّلال من اليهود، الذين يُحرِّفون التوراة، فيخطُّون بأيديهم أشياءَ باطلةً مُختلَقة، ثم يدَّعون زُورًا وبهتانًا أنَّها حقٌّ من عند الله تبارك وتعالى[٣].

---

(١) وهذا اختيار ابن جرير في ((تفسيره)) (٢/ ١٥٢-١٥٨)، والواحدي في ((التفسير الوسيط)) (١/ ١٦١-١٦٢)، وابن عاشور في ((تفسيره)) (١/ ٥٧٥)، والشنقيطي في ((العذب النمير)) (١/ ١٦٦-١٦٧).

وممَّن قال من السَّلف: إنَّ معنى أماني: مجرَّد أمنيات باطلة، أي: إنهم يَتمنَّون على الله ما ليس لهم: قتادة، وأبو العالية، والرَّبيع بن أنس. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٥٦)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١٥٢).

وقيل: المراد أنَّ في اليهود مَن هو بمنزلة الأُميِّين الذين لا يَعرفون القراءة والكتابة؛ إذ لا يَفقهون معانيَ التوراة، وإنَّما حظُّهم منها تلاوةُ ألفاظها فحسبُ. وهذا اختيار ابن تيمية ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٢٥/ ١٧٠) (١٧/ ٤٣٢-٤٤٣)، وابن القيم ((الصواعق المرسلة)) (٣/ ١٠٤٩)، والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ٥٦)، وابن عثيمين في ((تفسير الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (١٧-٤٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦). والشنقيطي ((العذب النمير)) (١/ ١٦٧).

(٣) وهذا اختيار ابن كثير في ((تفسيره)) (١/ ٣١١)، والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ٥٦)، والشنقيطي في ((العذب النمير)) (١/ ١٦٩-١٧٠). =

﴿لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

أي: إنَّهم إنَّما قاموا بذلك الافتراء والتزوير؛ لأجْل غايةٍ خسيسة، وهي الحصولُ على مكاسبَ دُنيويَّة[1].

﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾.

أي: لهم عذابٌ شديد، وهلاكٌ عظيم؛ جرَّاءَ ما كتبتْه أيديهم من الكذب والافتراء على الله عزَّ وجلَّ، ولهم العذابُ والهلاك أيضًا؛ جزاءً على أَخْذهم الحرامَ عوضًا على ما عملتْه أيديهم من التَّزوير والتحريف[2].

﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

بعدَ أنْ ذكَر الله تعالى تحريفَهم التوراةَ، بيَّن سبَب جُرأتهم وعدم اكتراثهم بما يرتكبونه من جرائمَ، وأنَّهم مع ذلك يزكُّون أنفسهم فجَمَعوا بين الإساءة والأَمْن[3]، قال تعالى:

﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾.

= وممَّن قال من السَّلف: إنَّ (ويل) كلمة تعني العذابَ: ابن عبَّاس رضي الله عنهما. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٦٣).

وقيل: ﴿ويل﴾: واد في جهنم.

قال الشنقيطي: (وقال بعض العلماء: (ويل): واد في جهنم تستعيذ جهنم من حره. ولو فرضنا صحة هذا القول لكان راجعًا إلى الأول) ((العذب النمير)) (١/ ١٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٦٩-١٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٦٩-١٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧).

أي: إنهم قالوا: لن تلاقي أجسادنا نار الآخِرة، إلَّا أيامًا قليلةً، ثم ننجُوا منها[١].

﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ﴾.

أي: قُلْ يا محمَّد، لأولئك اليهود الذين ادَّعوا لأنفسهم ما ادَّعوا: هل عندكم مِن الله تعالى ميثاقٌ يُثبت صحَّةَ دعواكم؛ فإنْ كان قد وقَع عهد، فلكم العُذر فيما قلتم؛ فإنَّ الله تعالى لا ينقُض ميثاقه، ولا يُخلِف وعده[٢]؟

﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

أي: أوْ هلْ تتقوَّلون على الله تعالى الباطِل، وتختلِقون الكذبَ جَراءةً عليه سبحانه[٣]؟

﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا قال اليهود: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾، كذَّبهم الله تعالى وأخبرَهم بالحُكم الذي لا حُكمَ غيره، لا أمانيهم ودعاويهم الباطِلة[٤]، فقال:

﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾.

أي: ليس الأمر كما تمنَّيتُم يا معشرَ اليهود، ولكن من أشرك بالله تعالى[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١/ ٤٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٧٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٨٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٧٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٧٨-١٧٩)، ((تفسير آيات أشكلت)) لابن تَيميَّة (١/ ٣٨٨)، =

كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣].

﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾.

أي: أحدقت ذنوبُه وخطاياه بقَلبِه من كلِّ جانب، فليس له منفذٌ للخروج منها، ومات عليها قَبلَ التوبة منها[١].

﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

أي: إنَّهم ملازِمون للنار على الدَّوام، لا يخرجون منها أبدًا[٢].

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨٢)﴾.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

أي: الذين صَدَّقوا وأقرُّوا بألسنتهم وقلوبهم، وصدَّقوا ذلك بجوارحهم، فعمِلوا الأعمالَ الصالحاتِ بإخلاصٍ لله تعالى، ومتابعةٍ للرسول صلَّى الله عليه وسلَّمَ[٣].

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

أي: هؤلاء هم أهلُ الجنة المقيمون فيها على الدَّوام، لا يخرجون منها أبدًا[٤].

= ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧).

وممَّن قال من السَّلف: إنَّ السيِّئة هنا معناها الشِّرك: ابن عبَّاس، وأبو وائل، ومجاهد، وقَتادة، وعطاء، والرَّبيع. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٧٩)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١٥٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٨٢)، ((تفسير آيات أشكلت)) لابن تَيميَّة (١/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣١٥-٣١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٨٢، ١٨٥)، ((تفسير آيات أشكلت)) لابن تَيميَّة (١/ ٣٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٨٦-١٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٨٧).

الفوائد التربويَّة:

١- تَسليةُ الله تعالى لرسوله صلَّى الله عليه وسلَّمَ بما يُذهب عنه الأسى، والحزن؛ حيث بيَّن له حال هؤلاء، وأنَّهم قومٌ عُتاةٌ لا مَطمعَ في إيمانهم، كما قال تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾(١).

٢- أنَّ مَن كان لا يؤمن بما هو أظهرُ، فإنَّه يبعُد أن يؤمن بما هو أخْفَى؛ لأنَّ مَن يَسمع كلام الله، ثم يُحرِّفه، أبْعَدُ قَبولًا للحقِّ ممَّن لم يسمعه، كما قال تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(٢).

٣- التَّحريف بعد عقْل المعنى أعظمُ، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾؛ وذلك لأنَّ الجاهل قد يُعذَر بجهله؛ لكن العالم الذي عقَل الشيء يكون عملُه أقبحَ؛ لأنَّه تجرَّأ على المعصية مع عِلمه بها(٣).

٤- أنَّ العِلم من الفتح؛ لقولهم: ﴿بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ﴾؛ ولا شكَّ أنَّ العِلم فتْحٌ يَفتح الله به على المرء من أنواع العلوم والمعارف ما يُنير به قلبَه(٤).

٥- في توبيخ الله تعالى لليهود بقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ دلالةٌ على أنه يَنبغي للإنسان أن يكون عاقلًا؛ فلا يخطو خُطوةً إلَّا وقد عرَف أين يضع قدمه، ولا يتكلَّم إلَّا وينظر ما سيترتَّب على كلامه، ولا يفعل شيئًا إلَّا وينظر ما سيؤول إليه فِعلُه(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٥٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٥٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٥٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٥٤).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٥٥).

٦- ذمُّ مَن لا يَعتني بمعرفة معاني كتاب الله عزَّ وجلَّ، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾[١].

٧- أنَّ الإيمان وحده لا يَكفي لدخول الجنة، بل لا بدَّ من العمل الصالح، كما أنَّ العَمل وحده لا يكفي، بل لا بدَّ أن يكون صادرًا عن إيمان؛ لقوله تعالى: ﴿آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ ولذلك لم ينفعِ المنافقين عَملُهم؛ لفقدهم الإيمانَ في قلوبهم[٢].

الفوائد العلميَّة واللَّطائف:

١- أنَّ من سجايا اليهود وطبائعهم الغَدرَ والخيانة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ...﴾ الآية؛ لأنَّ في هذا نوعًا من الغَدْر بالمؤمنين[٣].

٢- حُسن مجادلة القرآن؛ لأنَّه حصَر هذه الدعوى في واحدٍ من أمرين، وكلاهما منتفٍ: ﴿أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[٤].

٣- في قوله تعالى: ﴿أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ﴾: أنَّ الله سبحانه وتعالى لن يُخلِفَ وعده؛ وكونه لا يُخلف الوعد يتضمَّن صفتين عظيمتين، هما: الصِّدق، والقدرة؛ لأنَّ إخلاف الوعد إمَّا لكَذِب، وإمَّا لعجز؛ فكون الله جلَّ وعلا لا يُخلف الميعاد يقتضي كمالَ صِدقه، وكمال قُدرته سبحانه وتعالى[٥].

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ استفهام إنكاري للنَّفي، وفيه معنى التقرير لعدم

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٥٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٦٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٥٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٦٣).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٦٤).

إيمانهم، والتعجُّب كذلك، فكأنَّه قيل: فلا تَطمَعوا أن يؤمنوا لكم، أو فاعجبوا من طمَعِكم(١).

٢- قوله: ﴿عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فيه تَكرار أفعال متقارِبة في المعنى (عقل- علم)، وفائدته: التأكيد على شِدَّة قسوتهم، وعظمة جَراءتهم؛ إذ عقَلوا مرادَ الله فأوَّلوه تأويلًا فاسدًا، يعلمون أنَّه غيرُ مراد، أو علِموا أنَّ التأويل الفاسد يُكسبهم الوزرَ والعقوبة(٢).

٣- في قوله: ﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ ذِكر الأيدي تأكيدٌ، وهذا الموضع ممَّا يحسن فيه التأكيد، كما يُقال لمن يُنكر معرفة ما كتبَه: هذا ما كتبتَه بيمينك، والقصد منه: تحقيقُ وقوعِ الكتابة، وأنَّهم في ذلك عامِدون قاصِدون(٣).

٤- في قوله: ﴿فَوَيْلٌ... فَوَيْلٌ لَهُمْ... وَوَيْلٌ لَهُمْ﴾

- جاء التعبير بالجُملة الاسميَّة؛ دلالةً على الثبوت والدوام(٤).
- ونُكِّرَت كلمة (ويل) للتعظيم والتهويل(٥).
- وفائدة تَكرار ذِكر الويل في الكَسب؛ بيان أنَّ في أخذهم المالَ على ما كتبوه ذنبٌ آخَر؛ ففيه دفعٌ للإيهام، وإزالةٌ للشبهة، بأنَّ مجموع الكتابة والكسب يَقتضِي الوعيد العظيم دون كلِّ واحدٍ منهما(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٤٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٦٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣/ ٥٦١).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣/ ٥٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٧٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ١٣٤).
(٤) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١١١).
(٥) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٤/ ٢٣٠٩) في الكلام على قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١) في الكلام على قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾.
(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣/ ٥٦٥).

- وفيه من البلاغة: الجمع والتقسيم[(١)]؛ ففي قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ جمْعٌ، وفي قوله: ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ تقسيم[(٢)].

٥- قوله: ﴿ يَكْتُبُونَ... يَقُولُونَ... يَكْسِبُونَ﴾ فيه التعبير بالفِعل المضارع؛ لاستحضار الصُّورة، كأنَّها حاضرة للعِيان[(٣)].

٦- قوله: ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

- ﴿أَمْ﴾ هذه تُسمَّى أم المعادلة لهمزة الاستفهام، والاستفهام هنا على سبيل التقرير للعِلم بوقوع أحدهما، أو على التقرير والتقريع[(٤)].

٧- في قوله: ﴿سَيِّئَةً﴾ جاء التنكير للتعظيم؛ لأنَّ المقصودَ بها الشرك[(٥)].

٨- في قوله: ﴿فأولئك﴾، وقوله: ﴿أولئك﴾ كما ورد في هاتيْن الآيتيْن ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

ذِكر الفاء وحَذفها فيه معنًى لطيف؛ فقد يكون ورودها للدَّلالة على سببيَّة دخول النار بسُوء أفعالهم، وذلك عدلٌ منه سبحانه، وأمَّا دخول الجنَّة فهو بفَضل الله تعالى ورحمته؛ ولذا حُذِفَت الفاء[(٦)].

---

(١) الجمع والتقسيم: هو جمْع متعدِّد تحت حُكم، ثم تقسيمه، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ [فاطر: ٣٢]. يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣١٥)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٤٢٤).

(٢) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١١٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (١/ ٩٠)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١١٤-١١٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١١٦).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٨٣-٨٦)

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿أُسَارَى﴾: جمْع أَسْرى، وأَسْرى جمْعُ أسير؛ فأُسارَى جمْع الجمْع، وأصل الأسر: الحبس والإمساك، ومنه الشدُّ بالقيد، من قولهم: أسرت قَتَب البَعير، وسُمِّي الأسير بذلك، ثم قيل لكلِّ مأخوذٍ ومقيَّد- وإن لم يكن مشدودًا -: أسير[١].

﴿خِزْيٌ﴾: هوان، وهلاك، وأصل الخِزي: الإبعاد[٢].

مشكل الإعراب:

قَوْله: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ﴾: الفعل (تعبدون) مرفوع وعلامة رفْعه ثبوت

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٠٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٥).

النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة. ورفْعه إمَّا على تقدير (أنْ لَا تعبدوا)، ولَمَّا حُذِفت (أَنْ) ارتفع الفِعْل. أو تكون (لا) نافية لا عمَلَ لها، ويكون النَّفي مقصودًا منه النَّهي. وقيل غير ذلك[1].

المعنى الإجمالي:

يُذكِّرُ اللهُ سبحانه بني إسرائيل بالعهد المؤكَّد الذي أخَذه عليهم، وهو أن يعبدوه وحْدَه، وأن يُحسنوا إلى الوالدين، وإلى جميع مَن تربطهم بهم صِلةُ قرابة، وأن يُحسنوا كذلك إلى مَن فقَدوا آباءهم قبل أن يبلُغوا، وإلى الفقراء، وأن يُحسِنوا القول إلى كلِّ الناس، وأن يأتوا بالصَّلاة تامَّةَ الأركان والواجبات، ويُعطوا الزَّكاة المفروضة لمستحقِّيها، لكنَّهم نقَضوا هذا العهدَ الذي أخذ عليهم، وتولَّوا عنه بلا رَجعة، إلَّا عددًا قليلًا منهم قدْ أوفَوا بعهد الله تعالى.

ثمَّ ذكَّرهم الله أيضًا بعهدٍ آخَر قد أخَذَه عليهم من قبل، وهو أن لا يَقتُلَ بعضُهم بعضًا، ولا يخرج بعضُهم بعضًا من ديارهم بغير حقٍّ، وأنَّهم أقرُّوا بمعرفة هذا العهدِ وصحَّتِه، ولم يغبْ عنهم ولم يُنكروه، لكنَّهم نقضوه وفعَلوا ما نُهوا عنه، فقَتَل بعضُهم بعضًا، وأخرَج بعضُهم بعضًا من دِيارهم، وتعاونوا على أهل مِلَّتهم بالمعصية وتجاوُز حدود الله عزَّ وجلَّ.

وبالرُّغْم من هذا القَتل والإخراج المُحرَّميْنِ، إلَّا أنَّهم إذا أُسِرَ بعضهم يجيءُ الذين قاتلوهم من اليهود من الفريق الآخَر فيُخلِّصونهم من الأَسْر؛ يَمتثلون ما أُمروا به من افتداء الأسرى اليهود، مع أنَّهم مُحرَّم عليهم إخراجُهم، فأنكر الله تعالى عليهم ذلك؛ إذ كيف يمتثلون بعضًا ممَّا في التوراة، ويتركون بعضًا؟!

ثم أخْبَر تعالى أنَّه لا جزاءَ لِمَن يفعل فِعلهم القبيح إلَّا الذلُّ في الدُّنيا، وفي الآخِرة

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٠١)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٨٣-٨٤).

لهم من العذاب أشدُّه، والله لا يَخفَى عليه شيءٌ من أعمالهم.

ثم بيَّن أنَّ هؤلاء الصِّنف من اليهود قد استبدَلوا في الحقيقة ما في الدُّنيا من نعيم زائلٍ بنعيم الآخِرَة الدائم؛ وذلك بسبب كُفرهم وتركهم شرائعَ الله تعالى؛ فلن يُخفَّف عنهم ما يستحقُّونه من العذاب يومَ القِيامة، ولن يُنقِذَهم أحدٌ منه.

تفسير الآيات:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ (٨٣)﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ﴾.

أي: واذكُروا يا معشر اليهود، حين أخَذْنا عليكم عهدًا مؤكَّدًا بعبادة الله وحْدَه لا شريكَ له[1].

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ﴾.

أي: وممَّا أُخِذ على بني إسرائيل من العهود المؤكَّدة أن يُحسنوا إلى الوالدين، وهذا يشمل كلَّ أنواع الإحسان القوليَّة والفعليَّة، وممَّا أُخِذ عليهم أيضًا: العهد بالإحسان- بجميع طرقه- إلى أنواع القَرابات كافَّةً، وإلى اليتامى- واليتيم هو مَن فقَدَ أباه قبلَ البلوغ، ذكَرًا كان أم أُنثى- وإلى المساكين، وهم الفقراء[2].

كما قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ...﴾ الآية [النساء: ٣٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٩١-١٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٦٧).

﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾.

أي: ومما أمر الله تعالى به اليهود أن يحسنوا بالقول إلى النَّاس عمومًا، فيكلمونهم بكلام طيب لين، يدخل فيه الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والعفو والصفح، وغير ذلك[1].

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾.

أي: وممَّا أُمِر به اليهودُ أيضًا: إقامةُ الصَّلاة، وإيتاء الزكاة، أي: ائتوا بالصَّلاة تامَّةً بحقوقها الواجبة عليكم فيها، وأعطوا الزكاةَ مستحقِّيها بما فرَض الله تعالى عليكم في أموالِكم[2].

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾.

أي: خاطَب اللهُ تعالى اليهودَ الحاضرين في زمن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ بأنَّهم هم وآباؤهم قد تركوا ما أخذ الله تعالى عليهم من المواثيق التي ذُكرت في الآية، تركوها وراءَ ظهورهم، فنقضوها وأعْرَضوا عنها عن عمْد بعد العِلم بها، إعراضًا لا رجعةَ فيه إليها، عدا عددٍ قليل منهم قد عصمَهم الله تعالى ووفَّقهم، فوفوا بتلك العهود[3].

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٩٣-١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧-٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٨٣)، ((تفسير العثيمين-الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٦٨-٢٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ابن جرير، ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٩٩) ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٨٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٦٩).

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾.

أي: واذكروا حين أخَذْنا عليكم وعلى آبائكم من قبل، ألَّا يقتل بعضُكم بعضًا، ولا يُخرِج بعضُكم بعضًا من دِيارهم بغير حقٍّ[١].

﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾.

أي: بعد أخْذ هذا الميثاق عليكم، بقيتُم عليه، وقد أقررتُم بمعرفته وصحَّته، وشهدتُم عليه، فهو لديكم باقٍ، لم يغبْ عنكم، ولم تُنكِروه[٢].

﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥)﴾.

﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ﴾.

أي: إنَّهم من بعد ذلك الميثاقِ، والإقرارِ به، والشهادة عليه، نقَضوا الميثاقَ الذي أُخذ عليهم؛ إذ وقعوا في المخالفة بقَتْل بعضهم بعضًا، وإخراج بعضهم بعضًا من دِيارهم بغير حقٍّ[٣].

﴿تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٠٠-٢٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣١٨-٣١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٠٤-٢٠٥)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٨٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٠٥-٢٠٦، ٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٧٣-٢٧٤).

أي: تتعاونون على أهلِ ملَّتكم بمعصية الله تعالى، وتجاوز حدودِه[١].

﴿وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: (تفادوهم) قِراءتان:

١- (تُفَادُوهُمْ) على معنى أنَّ المفاداة من اثنين؛ لأنَّ الفداء: أن تأخذ ما عنده، وتُعطي ما عندك، فتَفعل به كما يُفعل بك[٢].

٢- (تَفْدُوهُمْ) أي: تشتروهم من العدوِّ وتُنقِذوهم[٣].

﴿وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾.

أي: إنَّه بعد أَسْر بعض اليهود من كِلا الفريقيْنِ المتحاربيْنِ يقوم الذين قاتلوهم من أهل مِلَّتهم، بتخليصهم من الأَسر، بعِوض أو بمبادلةٍ بين أسارى الفريقينِ؛ امتثالًا لما أُمِروا به في كتابِهم من افتداءِ الأَسرى منهم، مع أنَّه قد حُرِّم عليهم في كِتابهم أيضًا إخراجُهم من دِيارهم، ولم يجتنبوا هذا النهيَ[٤]!

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٠٦، ٢٠٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٦٨)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٧٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٧٤).

(٢) قرأ بها المدنيَّان، وعاصمٌ، والكسائيُّ، ويعقوبُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢١٨).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص:٨٤)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ١٦٤).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢١٨).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص:٨٤)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ١٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣١٨)، ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨).
وممَّن قال من السَّلف بنحو ما ذُكر في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ﴾: ابن عبَّاس، وأبو العالية. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١٦٥).

أي: أنْكَر الله تعالى عليهم ذلك؛ إذ كيف يمتثِلون شيئًا ممَّا أُمروا به في التوراة، وهو فِداء أسراهم من أيدي العدوِّ، بينما يتركون أشياءَ أخرى من نفْس التوراة، وهي ارتكابُ ما نُهوا عنه من قتْل، وإخراج بعضهم بعضًا، ومظاهرة بعضهم العدوَّ على بعض[١]؟!

﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

أي: ليس لِمَن وقَع في ذلك الانحراف الشَّنيع منكم معشرَ اليهود، سوى الذلِّ؛ عقابًا عاجلًا في الدنيا. وممَّا وقَع لهم من ذلك: تسليطُ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ عليهم، فقتَل منهم مَن قتَل، وسبَى مَن سبَى، وأجْلَى البقيةَ من دِيارهم[٢].

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾.

أي: ويوم تقوم السَّاعة، فيقوم النَّاسُ لربِّ العالمين، يُرَدُّ هؤلاء الذي فعَلوا ذلك منكم- أيُّها اليهود- أي: يرجعون من ذلِّ الدنيا إلى أعظم ما يكون من العُقوبات الأخرويَّة التي أعدَّها الله تعالى لأعدائه[٣].

﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

أي: يُهدِّدهم الله تعالى ويتوعَّدهم؛ فلكمالِ عِلمه ومراقبتِه لا يَخفى عليه شيءٌ، ولا يَنسى شيئًا سبحانه وتعالى، بل هو حافظٌ عليهم أعمالَهم، ومحصيها لهم؛ ليجازيَهم بها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢١٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ٢٢)، ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٣٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢١٥-٢١٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٧٠)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٩١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٨/ ٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢١٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٧٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢١٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٧٠)، ((تفسير =

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٨٦)﴾.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾.

أي: إنَّهم قد استبدلوا نَعيمَ الدُّنيا الفاني بنَعيمِ الآخِرة الباقي، وذلك ببذلهم الكفرَ بالله تعالى وترْكِ شرائعه، ثمنًا للاستحواذِ على ما يبتغون من حُطام الدُّنيا[1].

﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾.

أي: لأجْل إيثارهم الدُّنيا على الآخِرة، لن يُخفَّف عنهم من عذاب يوم القيامة شيءٌ، لا زَمنًا ولا شدَّةً[2].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ * قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: ٤٩-٥٠].

﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾.

أي: لا يَستنقِذهم أحدٌ من عذاب الله تعالى[3].

الفوائد التربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى

= ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٧٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٩٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٢١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٧٧).

وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ﴾ [البقرة: ٨٣]، إشارةٌ إلى أنَّ حقَّ ذي القُربى، كالتابع لحقِّ الوالدين؛ لأنَّ الإنسان إنما يتَّصل به أقرباؤه بواسطة اتِّصالهم بالوالدينِ، والاتِّصالُ بالوالدين مقدَّم على الاتِّصال بذي القربى؛ فلهذا أخَّر الله تعالى ذِكرَه عن الوالدينِ[1].

٢- أنَّ الأُمَّة كالنَّفْس الواحدة؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾[2].

٣- الإيمانُ يُحرِّم على أهله الدخولَ في حِلْفٍ يُناقض ميثاقَهم مع ربِّهم، ويناقض تكاليفَ شريعتهم، باسم المصلحة أو الوقاية، فلا مصلحةَ إلَّا في اتِّباع دِينهم، ولا وِقايةَ إلَّا بحِفظ عهدهم مع ربِّهم[3].

الفوائد العلميَّة واللَّطائف:

١- في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ﴾ [البقرة: ٨٣]: جاء الأمْر بالإحسان إلى اليتيم بعدَ الأمر بالإحسان إلى الأقارب؛ لأنَّه لصغره لا يُنتفع به، ولخلوِّه عمَّن يقوم بشؤونه، يَحتاجُ إلى مَن يَنفعه، والإنسان قلَّما يرغب في صُحبة مِثل هذا، ولَمَّا كان هذا التكليفُ شاقًّا على النفْس، كانت درجتُه عظيمةً في الدِّين.

وأمَّا المساكين فقد تأخَّرت درجتُهم عن اليتامى؛ لأنَّ المسكين قد يُنتفع به في الاستخدام، فكان المَيلُ إلى مُخالطته أكثرَ من الميل إلى مخالطةِ اليتامى، ولأنَّ المسكين يُمكنه الاشتغالُ بتعهُّد نفْسه ومصالح معيشته، وليس اليتيم كذلك[4].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣/ ٥٨٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٧٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير سيد قطب)) (١/ ٨٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣/ ٥٨٧-٥٨٨).

٢- إثبات أنَّ صفات الله تعالى ثبوتيَّة، ومنفيَّة، لكنَّ النفي المحضَ لا يُوجَد في صفات الله تعالى، وإنَّما جاء النفيُ الواقع في صفاته؛ لبيان كمال ضدِّ ذلك المنفيِّ، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥][1].

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ﴾ فيه قصرٌ بالنفي والاستثناء (لا... إلَّا)[2].

- والأسلوب إخباري في معْنى النهي، وهو أبلغُ من صريح النهي؛ لِمَا فيه من إيهام أنَّ المنهيَّ سارع إلى الانتهاء[3].

٢- في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ﴾ التفات؛ إذ خرَج من ضمير المتكلِّم في ﴿أَخَذْنَا﴾ إلى الاسم الغائب ﴿اللهَ﴾. ولو جرَى على نسَقٍ واحد لقال: (لا تعبدون إلَّا إيَّانا)، لكن في العدول إلى الاسم الظاهر من الفخامة، والدلالة على سائر الصفات، والتفرد بالتسمية به، ما ليس في المُضمَر، ولأنَّ ما جاء بعده من الأسماء، إنما هي أسماء ظاهرة، فناسَب مجاورة الظاهر الظاهر[4].

٣- قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٤٥٧)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ٩١)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٤٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٨٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ١٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٤٥٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ١٣٧).

- فيه التقديم بحسَب الأهمِّ؛ حيث قدَّم عِبادة الله تعالى، ثم قدَّم الأحوج إلى الإحسان ﴿بِالْوَالِدَيْنِ... ذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى... وَالْمَسَاكِينِ﴾. وقدَّم الأمور بحسب الأنفع فيها؛ فقدَّم الإحسان على القول الحسن[١].

- وقوله: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ فيه تأكيدٌ بوضع المصدر (حُسْنًا) موضِعَ الاسم (قولًا حَسَنًا)، وهذا إنَّما يُستعمل للمبالغة في تأكيد الوصف، فكأنَّه نفْس الحُسن، كرجل عدْل[٢]، أو على أنَّه مصدرٌ وَقَع صفةً لمحذوفٍ تقديرُه: وقولوا للناسِ قَوْلًا حُسْنًا، أي: ذا حُسْن[٣].

- وفي قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ التِفات من الغَيبة إلى الخِطاب، حيث انتقل مِن الحديث عن بني إسرائيل القُدامى إلى خِطاب الحاضرين منهم في زمَن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وحكمته: أنَّ الإقبالَ عليهم بالخِطاب أدْعى للقَبول، وأقرب للامتثال؛ إذ فيه الإقبال من الله على المخاطب بالخطاب[٤].

- وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾ عبَّر بالجملة الاسميَّة التي تدلُّ على الثبوت؛ للتأكيد على إعراضهم واستمرارهم فيه[٥].

٤- قوله: ﴿تَقْتُلُونَ﴾ وقوله: ﴿وَتُخْرِجُونَ﴾ حال، أو خبَر نُزِّل فيه الغائِبُ مَنزلةَ الحاضر؛ لأنَّ المرادَ بهم أسلافُهم، وعبَّر بالمضارع؛ لقصد الدَّلالة على التجدُّد والحدوث، وأنَّ ذلك من شأنهم[٦].

---

(١) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) مع الحاشية (١/ ١٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ٩١).

(٣) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١/ ٤٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٥٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٤٥٧).

(٥) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١١٨).

(٦) يُنظر: ((الدر المصون)) للسَّمين الحلبي (١/ ٤٧٦)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٢٠).

٥- في قوله: ﴿إِلَّا خِزْيٌ﴾ جاء تنكير الخزي؛ للتهويل والتعظيم[١].

٦- في قوله: ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ تقديمُ المسنَد إليه ﴿بِغَافِلٍ﴾؛ للتَّخصيص، وتأكيد الوعيد[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (١/ ٣٤٦)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٢١).

(٢) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٢١).

الآيات (٨٧-٩٠)

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿وَقَفَّيْنَا﴾: أتبَعنا وأردفنا على آثارهم، مأخوذ من القفا؛ يقال: قفوت الرجل: إذا سرت في أثره[١].

﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾: جبريل عليه السلام؛ سمي بذلك لأنه يأتي بما فيه حياة القلوب، أو لأنَّه ينزل بالقدس، أي: بما يُطهر به نفوسنا من القرآن والحِكمة[٢].

﴿غُلْفٌ﴾: جمْع أغلف، أي: كأنها في غِلاف لا تفهم، ولا تَعقل شيئًا مما يقال، وأصل الغلف: الغشاوة وغشيان شيءٍ لشيء[٣].

﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾: أي: يستنصرون باسم محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم وببعثته؛

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩).

(٢) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٥).

فالاستفتاح: الاستنصار، وطلب الفتح، أي: طلب الظفر(١).

﴿بَغْيًا﴾: أي: حسدًا، وأصل البغي: طلب الشيء، وجنس من الفساد، والظلم، والترفع والعلو، ومجاوزة المقدار(٢).

﴿فَبَاؤُوا﴾: رجعوا، وانصرفوا بذلك، واستوجبوه. ولا يُقال (باء) إلَّا بشر، ويقال: باء بكذا إذا أقرَّ به(٣).

المعنى الإجمالي:

يُخبِر الله سبحانه وتعالى عن إعطائِه التوراةَ لموسى عليه السَّلام، وإرسالِه الرُّسلَ إلى بني إسرائيل مِن بعدِ موسى عليه السَّلام، وأنَّه أعطى عيسى عليه السَّلام معجزاتٍ تُظهِر صِدقَه، وتُثبت نبوَّته، كما قوَّاه وأعانه بجبريل عليه السَّلام.

ثم أنكَر سبحانه على بني إسرائيل ما صَنعوه بمَن جاءهم من الرُّسل عليهم السَّلام، فكلَّما أتاهم رسولٌ من عند الله بأحكامٍ تُخالف أهواءَهم، كذَّبوا طائفةً منهم، وقتَلوا طائفةً أخرى.

ثم إنَّهم يدَّعون كذبًا واستكبارًا أنَّ سببَ عدَمِ إيمانهم هو أنَّ الله تعالى جعَل في قلوبهم أَغطيةً؛ فلا تتمكَّن من الفَهم، ولكن الأمْر ليس كما ادَّعَوا، بل الحقيقة أنَّ الله تعالى طرَدَهم من رحمتِه؛ مجازاةً لهم على جُحودهم بآياته، وتكذيبهم لرسلِه؛ فهم لا يُقِرُّون إلَّا بشيءٍ قليلٍ ممَّا يجب عليهم الإيمانُ به.

وحين جاءَ اليهودَ القرآنُ، وفيه تصديقٌ لِمَا عندهم من التوراة، وقد كانوا قبلَ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٦).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٢ - ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٠-٢٥٢).

مَبعث رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ، ومجيئه بالقرآنِ يَستنصِرون على مَن يقاتلهم من المشركين بمبعثِه صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وأنَّ اليهود سيكونون معه، وسيقتلون المشركين، فلمَّا أتاهم وعرَفوه، جَحَدوا به عمدًا؛ فاستحقُّوا الطردَ من رحمة الله عزَّ وجلَّ.

فما أقبحَ ما استبدلوا به أنفسَهم! وهو الكفرُ؛ إذ اختاروه وبذَلوا أنفسَهم للنَّار؛ وذلك حسدًا منهم لرسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ كان من غير بني إسرائيل. فاستوجبوا بذلك غضبًا من الله؛ بسبب جُحودِهم لرِسالته صلَّى الله عليه وسلَّمَ، إضافةً إلى ما تحملوه من غضَب الله أولًا؛ بسببِ ذنوبٍ مضَتْ منهم، ولكلِّ جاحد لنبوَّة محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ عذابٌ يُهان فيه ويُذَلُّ.

تفسير الآيات:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (٨٧)﴾.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾.

أي: أعطى الله تعالى موسى عليه السَّلام التوراة، ومِن بعدِه أرسل أنبياءَ إلى بني إسرائيل، فأتْبع بعضهم بعضًا على منهاج موسى وشريعتِه، بإقامة التوراة، والعملِ بما فيها إلى زمَن عيسى عليه السَّلام.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ الآية [المائدة: ٤٤][1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢١٩-٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨).

﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾.

أي: أخبر تعالى أنَّه أعطَى خاتمةَ أنبياء بني إسرائيل، عيسى عليه السَّلام، معجزاتٍ تُظهر صِدقَه، وتُثبت نبوَّتَه، كإحياء الموتى، وإبراء المَرضَى، وغير ذلك[١].

﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾.

أي: أيَّد الله تعالى عيسى عليه السَّلام بجبريل عليه السَّلام، يُقوِّيه ويُعينه[٢].

كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [المائدة: ١١٠].

﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾.

أي: يُنكِر اللهُ تعالى على بني إسرائيل تعامُلَهم الشَّنيع مع رُسله وأنبيائِه عليهم السَّلام، وأنَّهم كلَّما جاءَ نبيٌّ منهم؛ ليلزمَهم بأحكام تُخالِف أهواءهم، شقَّ ذلك عليهم، فتجبَّروا وبغوا عليهم، مقدِّمين هواهم على هُداهم، فكذَّبوا طائفةً منهم، وقتَلوا طائفةً آخرين[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٢١-٢٢٤). ونسَبَه ابنُ تَيميَّة لجمهور المفسِّرين، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (١٧/ ٢٨٤-٢٨٥)، ((الجواب الصحيح)) لابن تَيميَّة (٢/ ١٨١-١٨٥)، ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٢١).

وممَّن قال من السَّلف أن روح القدس هو جبريل عليه السلام: ابن مسعود، وابن عبَّاس، وقتادة، والسُّدِّي، والضحاك، والرَّبيع، وإسماعيل بن أبي خالد، وعطية العوفي، ومحمد بن كعب القرظي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٨٣).

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ (٨٨)﴾.

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾.

أي: إنَّهم يقولون كذبًا بأنَّ الله لم يَفتحْ لهم الطريق إلى معرفة ما جاءت به الرُّسُل والأنبياءُ عليهم السَّلام، بجعْل قلوبِهم داخلةً في غِلاف وأغطيةٍ فلا تَفهم؛ فكيف تقوم عليهم الحُجَّة[1]؟!

كما قال تعالى عن المشركين: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٥].

﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ﴾.

أي: ليس الأمرُ كما ادَّعى هؤلاء كذبًا بأنَّ الله تعالى خلَق قلوبَهم غلفًا لا تَعي، ثم أمرهم بالإيمان، وهم لا يفقهونه، كلَّا! بل حقيقة الأمر أنَّ الله تعالى قد طردَهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٣١).

وقال ابن القيم: (الصحيح: قول أكثر المفسرين: إن المعنى قلوبنا لا تفقهه، ولا تفهم ما تقول... هذا هو الصواب في معنى الآية؛ لتكرر نظائره في القرآن، كقولهم: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾) ((شفاء العليل)) (ص: ٩٣).

وقال السعدي: (اعتذروا عن الإيمان لِمَا دعوتهم إليه- يا أيُّها الرسول- بأنَّ قلوبهم غلف، أي: عليها غِلاف وأغطية؛ فلا تَفقَهُ ما تقول، يعني فيكون لهم- بزَعْمهم- عذرٌ لعدم العلم، وهذا كذب منهم) ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨).

وقال ابن عاشور: (والغُلْف بضم فسكون جمع أغلف، وهو الشديد الغلاف مشتق من غلفه: إذا جعل له غلافًا وهو الوعاء الحافظ للشيء والساتر له من وصول ما يكره له. وهذا كلام كانوا يقولونه للنبيء صلى الله عليه وسلم حين يدعوهم للإسلام قصدوا به التهكم، وقطع طمعه في إسلامهم وهو كقول المشركين: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾) ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٩٩).

وقال الشنقيطي: (فقول اليهود في هذه الآية: قلوبنا غلف كقول كفار مكة: قلوبنا في أكنة؛ لأن الغلف جمع أغلف، وهو الذي عليه غلاف، والأكنة جمع كنان، والغلاف والكنان كلاهما بمعنى الغطاء الساتر) ((أضواء البيان)) (٧/ ٧). ويُنظر: ((تفسير بن عثيمين-الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٨٤).

وممَّن ذهَب إلى ذلك من السَّلف: ابن عبَّاس-في رواية عنه-ومجاهد، وسعيد بن جُبَير، والسُّدِّي، وقَتادة-في رواية عنه-والأعمش، وابن زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن أبي حاتم)).

من رحمته؛ جزاءَ ما اختاروه لأنفسهم من الجحود بآيات الله تعالى وما جاءتْ به رُسلُه وأنبياؤه[١].

﴿فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ﴾.

أي: إنَّهم آمنوا بشيءٍ يسيرٍ مما وجب عليهم الإيمان به، لكنه إيمانٌ لا ينفعهم؛ لأنه مغمورٌ بما كفروا به[٢].

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩)﴾.

سبب النزول:

عن عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخٍ منهم قالوا: (فينا والله وفيهم- أي: الأنصار واليهود- نزلت هذه القصة قالوا: كنا علوناهم دهرًا في الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب، فكانوا يقولون: إن نبيًّا يُبعث الآن نتبعه، قد أظل زمانه، نقتلكم معه قتْلَ عاد وإرم. فلمّا بعث الله عزَّ وجلَّ رسوله من قريش واتبعناه كفروا به، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ الآية[٣].

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾.

أي: لَمَّا جاء اليهودَ القرآنُ الذي أنزله الله تعالى على محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٣٢)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٧/ ٢٦)، (١٦/ ١٢-١٣)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٢٤-٣٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٣٣-٢٣٥)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٧٧)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٢٣/ ٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٨٤).

(٣) أخرجه ابن إسحاق في ((سيرة ابن هشام)) (١/ ٥٣٩)، وحسَّنه الوادعي في ((صحيح أسباب النزول)) (٢٦).

والمشتمِل على تصديق ما معهم من التوراة[١].

﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

أي: قد كانوا من قَبلِ مجيء الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّمَ بالقرآن يستنصرون بمجيئِه على أعدائهم من المشركين إذا قاتَلوهم، ويتوعَّدونهم بقتْلهم معه[٢].

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾.

أي: لَمَّا أتاهم ما يعرفونه من الحقِّ وصِفةِ محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، تَعمَّدوا الجَحدَ به عليه الصَّلاة والسَّلام بعد قِيام الحُجَّة بنبوَّته عليهم[٣].

﴿فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

أي: بسبب ذلك الكُفر؛ طرَدَهم الله تعالى وأبعَدهم من رحمتِه، وهذا الحكم يعمُّ كلَّ كافر[٤].

﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاؤُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩٠)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩).
وممَّن قال من السَّلف بأنَّ الكتاب هو القرآن: قَتادة، والرَّبيع. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٣٦، ٢٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩).
وممَّن ذهب إلى نحو ما ذُكِر من السَّلف: ابن عبَّاس، وأبو العالية، وعلي الأزدي، وقَتادة، والسُّدِّي، وعطاء، مجاهد، وابن زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٤٣)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تَيميَّة (١/ ٨٦-٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٤٢-٢٤٣)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٩٠).

﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ﴾.

أي: بئس الشيءُ باعوا به أنفسَهم الكفرُ، يعني: أنَّهم اختاروا الكفرَ وأخذوه، وبذلوا أنفسهم للنَّار؛ لأنَّ اليهود علِموا صِدقَ محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وأنَّ مَن كذَّبه فالنار عاقبتُه، فاختاروا الكُفر وسلَّموا أنفسهم للنار(١).

﴿بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾.

أي: إنَّ الذي حمَلهم على اختيار الكفر، حسدُهم لمن شاء الله تعالى أن يَخصَّه بفضله العظيم مِن دون عبادِه، فحسَدوا محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ على أنَّه هو الرسولُ المنتظَر؛ لأنَّه كان من ولد إسماعيل، ولم يكُن من بني إسرائيل(٢).

﴿فَبَاؤُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾.

أي: رجَع اليهودُ مستوجبين ومستصحبين غضبًا آخَرَ من الله تعالى عليهم؛ بسبب جحودِهم رسالةَ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ حسدًا منهم، إضافةً إلى الغضب الأوَّل الذي اكتسبوه لذنوبٍ سلَفتْ منهم(٣).

﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٤٣-٢٤٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٤٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٧٣-١٧٤)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٠٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٩١).

وممَّن قال من السَّلف بأنَّ ﴿بغيًا﴾ هنا تعني (حسدًا): أبو العالية، والرَّبيع. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٥٠-٢٥١)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٧٩)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية))لابن تَيميَّة (٢/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٩٢).

وممَّن قال من السَّلف بأن ﴿باؤوا﴾ بمعنى استوجبوا: سعيد بن جُبير. يُنظر: ((تفسير ابن حاتم)) (١/ ١٧٣).

أي: وللجاحدين نبوَّةَ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ من الناس كلِّهم عذابٌ من الله يُهانون فيه ويُذلُّون(١).

الفوائد التربويَّة:

١- أنَّ المستكبِر يُعاقَب بنقيض حاله؛ لقوله تعالى: ﴿عَذَابٌ مُهِينٌ﴾؛ فعُوقِبوا بما يَليق بذنوبهم؛ وعلى هذا جرَتْ سُنَّة الله سبحانه وتعالى في خَلْقه(٢).

٢- أنَّ القلوب بِفِطرتها ليست غلفاءَ؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ﴾، وهذا الإضراب للإبطال، يعني: ليست القلوب غَلفاءَ لا تقبل الحقَّ، لكنْ هناك شيء آخَر هو الذي منَع من وصول الحقِّ؛ وهو لَعْنُ الله إيَّاهم؛ بسبب كُفرِهم(٣).

٣- أنَّ العلم من أعظمِ نِعم الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾(٤).

٤- أنَّ العقوبات تَتراكم بحسَبِ الذُّنوب؛ جزاءً وفاقًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَاؤُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾(٥).

الفوائد العلميَّة واللَّطائف:

١- أن مَن بعد موسى مِن الرُّسل مِن بني إسرائيل تبَعٌ له؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٥٤)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٩٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٨٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٩٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٩٦).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٨٥).

٢- أنَّ من جملة تسخير الملائكة للخلْق أنَّهم يُؤيِّدون مَن أمَرَهم الله تعالى بتأييده، كما قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾(١).

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى﴾ فيه تأكيدٌ بالقَسَم؛ والتَّصدير بالجملة القَسَميَّة؛ لإظهار كمالِ الاعتناءِ بموسى عليه السلام وإيتائِه الكِتاب وإرساله(٢).

٢- في قوله: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾

- تقديم المفعول (فريقًا) في الموضعيْن؛ ليدلَّ على التَّفصيل، وللاهتمامِ وتشويقِ السَّامعِ إلى ما فعَلوا بهم، وتوخِّيًا لرؤوس الآي(٣).

- بدأ بالتَّكذيب ﴿كَذَّبْتُمْ﴾ قبل القَتْل ﴿تَقْتُلُونَ﴾؛ لأنَّه أوَّل ما يفعلونه من الشر، ولأنَّه الأمر المُشترَك بين الفريقين: المُكذَّب والمقتول(٤).

- الإتيان بالمضارع في ﴿تَقْتُلُونَ﴾ في غاية الفصاحة؛ إذ هو لبيان فظاعة هذا الأمر، ولاستحضاره في النفوس وتصويره في القلوب، أو للإعلام بأنَّ الأمر مستمرٌّ؛ ففيه إشارةٌ لليهود الذين في زمَن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلم؛ لأنَّهم أرادوا قتْله عليه الصَّلاة والسَّلام، لولا أنَّ الله تعالى عَصمَه منهم(٥)، فقد قالت عائشة رضي الله عنها: ((كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في مرضه

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٢٦)، ((تفسير القاسمي)) (١/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٤٨٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٦٢)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ٩٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٤٨٣)، ((تفسير ابن عادل)) (٢/ ٢٦٨).

الذي مات فيه: يا عائشة ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلتُ بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم))(١).

- وفيه كذلك مراعاة لفواصِل الآيات(٢).

٣- في قوله: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ التفاتٌ من الخطاب الذي في ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ﴾ و﴿اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ و﴿كَذَّبْتُمْ﴾ و﴿تَقْتُلُونَ﴾ إلى الغَيْبة في قوله: ﴿وَقَالُوا﴾؛ إشعارًا بإبعادهم عن رُتبة الخِطاب؛ لِمَا فُصِّل من مخازيهم الموجبةِ للإعراض عنهم(٣).

٤- في قوله: ﴿فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ﴾ حُذفت صفة (قليلًا)؛ لدلالة الفعل عليها، والتقدير (فإيمانًا قليلًا). و﴿مَا﴾ صِلة؛ أُتِيَ بها للتأكيد والمبالَغة في التقليل(٤).

٥- في قوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ﴾ و﴿جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ تنكير (كتاب) و(رسول)؛ للتفخيم، وتعظيمًا لشأنه(٥).

٦- قوله: ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ فيه وضْعٌ للظاهر موضعَ المُضمَر -على اعتبار الألف واللام للعهد-؛ وذلك للتسجيل عليهم بالكُفر، وللدَّلالة على أنَّ اللَّعنة لحقتْهم بسبب كُفرهم، ولبيان أنَّ هذا الحُكم يعُمُّ كلَّ كافر(٦).

---

(١) أخرجه البزار (١١٥)، والحاكم (٤٣٩٣)، والبيهقي في ((السنن الكبرى)) (٢٠٢٠٩)، ورواه البخاري (٤٤٢٨) معلقًا بصيغة الجزم.

قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، وصححه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٧٩٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٤٨٣)، ((تفسير ابن عادل)) (٢/ ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٩٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٠٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٣٥)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٢٦).

(٦) يُنظر: ((الدر المصون)) للسَّمين الحلبي (١/ ٥٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٢٩)، ((دليل =

٧- **قوله:** ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ فيه وضْعٌ للظاهر موضعَ المضمر؛ إشعارًا بعِلَّة كون العذاب المهين لهم، وأنَّه هو الكفر، ولو قيل: (ولهم عذاب مهين)، لم يكُن في ذلك تنبيهٌ على العِلَّة. وأيضًا لبيان أنَّ هذا العذابَ يَشمل كلَّ كافر[1].

= البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٢٦).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٤٩٤)، ((الدر المصون)) للسَّمين الحلبي (١/ ٥١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٢٩)، ((تفسير القاسمي)) (١/ ٣٥١).

الآيات (٩١-٩٢)

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْ ۖ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿الطُّورَ﴾: الجبل الشاهق، أو اسم لكلِّ جبل، أو الجبل المنبت، أو اسمُ جبلٍ مخصوصٍ، وأصل طور: الامتدادُ في شيءٍ من مكان أو زمان(١).

المعنى الإجمالي:

يُخبر تعالى عن اليهود أنَّهم حين أُمِروا بالإيمان بالقرآن كان ردُّهم بأنَّ إيمانهم بالتوراة يَكفيهم، وجحَدوا بما جاء بعد التوراة من الكتُب التي أنزلها الله تعالى، مع أنَّ ما فيها حقٌّ موافِقٌ للذي عندهم في التوراة.

فأمَر الله عزَّ وجلَّ نبيَّه محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ أن يسألهم إنْ كانوا حقًّا مؤمنين بما في التوراة؛ فلِمَ يَقتُلون أنبياءَ الله الذين جاؤوا بتصديق ما فيها؟!

ثمَّ ذكَّرهم الله تعالى بما فعَلوه حين أتاهم موسى عليه السَّلام بالآيات الواضحات، الدَّالَّات على صِدق ما جاء به، لكنَّهم جعَلوا العِجل إلهًا يعبدونه

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢، ٢٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٠)، ((المفردات)) للراغب (٢/ ٣٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩١، ٣٩٢).

بعد أنْ فارقهم موسى لمناجاة ربِّه، مُتعدِّين بذلك حدودَ الله تعالى.

وذَكَّرهم سبحانه أيضًا بما أَخَذ عليهم من عهد الإيمان به وبرُسله، والالتزام بشَرْعه، وخوَّفهم بأنْ رفَعَ الجبل فوقهم، وقيل لهم: خذوا التوراة التي أعطيناكموها بحَزمٍ وجِدٍّ، واسمعوا كلامَ الله وانقادوا له، فأجاب اليهود بأنَّهم سمِعوا بآذانهم، وعصَوْا بأفعالهم، وقد خالَط حبُّ العجل قلوبَهم؛ بسبب كفرهم، فإنْ كانوا يدَّعون الإيمان ويفعلون كلَّ تلك القبائح، فبِئس ذلك الإيمان الذي ادَّعوْه!

تفسير الآيات:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩١)﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾.

أي: وإذا قيل لليهود الذين كانوا على عهد رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ: آمِنوا بالقرآن الذي أَنزلَه اللهُ تعالى، ردُّوا على ذلك بأنَّه يَكفيهم الإيمانُ بالتوراة(١).

﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾.

أي: إنَّ اليهود يَجحدون بما بعد التَّوراة من كتُب الله تعالى التي أنزلها إلى رُسلِه عليهم الصَّلاة والسَّلام، والحال أنَّ ما أنزله الله عزَّ وجلَّ هو الحقُّ الموافِق لِمَا عندهم من التوراة؛ فَلِمَ يؤمنون بما أُنزل عليهم، ويَكفُرون بنظيره؟! هل هذا إلَّا تعصُّب واتِّباع للهوى؟! فكُفرهم بالقرآن، كُفرٌ بما في أيديهم، ونقضٌ له(٢).

﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٥٤)، ((العقود)) لابن تَيميَّة (ص: ١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٥٥-٢٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩).

وممَّن قال من السَّلف: إنَّ ﴿مَا وَرَاءَهُ﴾، أي: ما بَعدَ التوراة من الكتُب: أبو قتادة، وأبو العالية، والرَّبيع، يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١٧٤).

أي: قلْ يا محمَّد، لهؤلاء اليهود المتناقضين: إنْ كنتم صادقين في دَعواكم الإيمانَ بالتوراة، فَلِمَ قَتلتُم- والمقصود أسلافُهم[1]- الأنبياءَ الذين جاؤوكم بتصديق التوراة والحُكم بها وعدَم نَسخِها، وأنتم تعلمون صِدقَهم، وقد حرَّم الله عليكم في التوراة قتْلَهم، بل أمرَكم فيها باتِّباعهم وطاعتهم؟! وهذا تكذيبٌ لهم في قولهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾[2].

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٩٢)﴾.

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا بيَّن الله تعالى كذِبَ اليهود في دعواهم الاكتفاء بالإيمان بالتوراة، مع كُفرهم بالقرآن، ذكر أنَّهم لم يَصْدُقوا حتى في دعواهم الإيمانَ بالتوراة؛ فقد قابَلوا دعوة موسى عليه السَّلام- الذي يزعمون أنَّهم لا يؤمنون إلَّا بما جاءهم به- قابلوا دعوتَه بالكُفر والعِصيان، فقال سبحانه[3]:

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾.

أي: قد جاءكم يا معشرَ اليهود، موسى عليه السَّلام، بالآيات الواضحاتِ، والأدلَّة القاطعة على صِدقه وصِحَّة رِسالته، كالعصا واليَد، وغيرهما من المُعجِزات المؤيِّدة له[4].

﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾.

---

(١) وهذا نظيرُ قول العَرَب بعضِها لبعضٍ: فَعَلْنا بكم يومَ كذا، كذا وكذا، وفعلتُم بنا يومَ كذا، كذا وكذا، يَعنُون بذلك: أنَّ أسلافَنا فعَلوا بأسلافِكم، وأنَّ أوائلَنا فَعَلوا بأوائلكم. ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٥٦-٢٥٧، ٢٦٠)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٥/ ١٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٢٩).

أي: إنَّكم يا مَعشرَ يهود، كفرتُم بما جاءكم به موسى عليه السَّلام من توحيدِ الله تعالى، فجعلتُم العِجل إلهًا تَعبُدونه، من بعد ذَهاب موسى إلى الطُّور لمناجاة ربِّه سبحانه، وأنتم بهذا قد تَعدَّيتم حدودَ الله عزَّ وجلَّ، وليس لكم أن تفعلوا ذلِك وأنتم تعلمون أنَّه لا معبودَ بحقٍّ سواه، وليس في التوراة- التي تَدَّعون تمسُّككم بها فحسبُ- أمرُكم بعبادة العِجل؛ فدعواكم أنَّكم مؤمنون بالتوراة، باطلةٌ[1].

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩٣)﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾.

أي: واذكُروا يا معشر اليهود، حين أَخذْنا عليكم عهدًا مؤكَّدًا بالإيمان بالله سبحانه وبرُسله، والالتزام بشرعِه، ورَفعْنا فوقكم الجبلَ لتخويفكم؛ كي تقرُّوا بما عُوهِدتم عليه، وتعملوا به[2].

﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا﴾.

أي: قلنا لهم تلقَّوُا التوراة التي أعطيناكم إيَّاها، بهمَّةٍ وحزمٍ، وجِدٍّ ونشاط، واسمعوا لكلام الله تعالى سماعَ قَبول واستجابة وانقياد[3].

﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٦١-٢٦٢)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٧٥)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٠٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٦-٤٨)، ((الروح)) لابن القيِّم (ص: ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٤١-٥٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٠٩-٦١٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٠٢).

أي: كان جوابهم على ما سبق أنْ قالوا: سمِعْنا بآذاننا قولَك، وعصينا بأفعالِنا ما أُمِرْنا به[١].

﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾

أي: خالَط حبُّ العِجل وعبادته شغافَ قلوبِهم، وتغلغل في أعماقها، كالماء الذي يَتغلغل في باطِن أعضاء الجسَد، وإنَّما وقع لهم ذلك؛ بسبب جُحودِهم الحقَّ[٢].

﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

أي: أنتم تدَّعون الإيمانَ، مع أنَّكم قتلتُم أنبياءَ الله، واتَّخذتم العِجل إلهًا من دون الله، ولم تَنقادوا لكلامِه؛ فما هذا الإيمان الذي تدَّعون؟! فإنْ كان هذا إيمانًا بزعمكم، فبِئس الإيمانُ الداعي صاحبَه إلى الطُّغيان، والكفرِ برُسل الله، وكثرةِ العصيان! فإنَّ الإيمان الصَّحيح يأمُر صاحبَه بكلِّ خير، وينهاه عن كلِّ شر؛ فتبيَّن بهذا كذبُهم، وتناقضُهم[٣].

الفوائد التربويَّة:

١- وجوب تلقِّي شريعة الله تعالى بقوَّة، دون كسَلٍ أو فُتور؛ لقوله تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٦٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٧٥-١٧٦)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٠٢-٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٦٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٧٦)، ((الرد على الأخنائي)) لابن تَيميَّة (١/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦١١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٠٣-٣٠٤).

وممَّن قال بهذا القول من السَّلف: قتادة، وأبو العالية، والرَّبيع بن أنس. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٦٦-٢٦٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٠٥).

٢- في قوله تعالى: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٣]، دلالةٌ على أنَّ الإيمان الصَّحيح يأمُر صاحبَه بالطاعات لا بالمعاصي[1].

٣- في قوله تعالى ذامًّا بني إسرائيل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: ٩١]، دلالةٌ على وجوب قَبول الحقِّ مِن كلِّ مَن جاء به[2].

٤- أنَّ الشرَّ لا يُسنده الله تعالى إلى نفْسه، وإنْ كان هو سبحانه الخالِقَ للخير والشرِّ، بل يَذكُره بصيغة المبنيِّ لِمَا لم يُسمَّ فاعله؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِم﴾[3].

الفوائد العلميَّة واللَّطائف:

١- ممَّا يُستفاد من قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: ٩١]، أن الله تعالى لَمَّا رفَع مقدار بني إسرائيل بالدُّعاء إلى الإيمان بما أُسنِد إلى هذا الاسم العظيم في قوله: ﴿أَنْزَلَ اللهُ﴾ قالوا تسفيلًا لأنفسهم: نؤمِن بما أُنزل عَلَينا، فأَسقطوا اسمَ مَن يُتشرَّف بذِكره، ويُتبرَّك باسمه، وخصُّوا بعضَ ما أنزله سبحانه[4].

٢- إفحام الخَصْم بإقامة الحُجَّة عليه مِن فِعله؛ ووجه ذلك: أنَّ الله تعالى أقام على اليهود الحُجَّةَ عليهم بفِعلهم؛ لأنَّهم قالوا: ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾، لكنَّهم قتَلوا أنبياء الله الذين جاؤوهم بالحقِّ من ربِّهم، فعُلم إذًا أنَّ قولهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ ليس بصحيح؛ لأنَّهم لو كانوا مؤمنين حقيقةً ما قتَلوا الأنبياء؛ ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[5]؟!

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٩٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٠٦).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢/ ٤٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٩٩).

٣- مِن دَلائل النبوَّة والمعجِزات العلميَّة، إشاراتُ القرآن إلى العِبارات التي نطَق بها موسى عليه السلام في بني إسرائيل، وكُتبت في التوراة؛ فإنَّ الأمر بالسَّماع تَكرَّر في مواضع مخاطبات موسى لملأ بني إسرائيل بقوله: اسمَعْ يا إسرائيل، وجاء في القرآن: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا﴾ [البقرة: ٩٣]، فهذا من نُكت اختيار هذا اللَّفْظ للدَّلالة على الامتثال دون غيرِه، وهذا مِثل التعبير بالعهد[١].

بلاغة الآيات:

١- في قوله: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

- الاستفهام للتبكيت والتوبيخ[٢].

- وجاء قوله: ﴿تَقْتُلُونَ﴾ بصيغة المضارع، مع أنَّ الكلام عن الماضي بدليل قوله: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾، ومعلومٌ أنَّه لا يجوز أن يُقال: أنا أضربك أمس؛ وهذا إنما حسُن في هذه الآية؛ لأنَّ ذلك جائز فيما كان بمنزلة الصِّفة اللازمة كقوله تعالى: ﴿واتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ﴾ [البقرة: ١٠٢] ولم يقل: ما تَلَت؛ لأنَّه أراد: مِن شأنها التِّلاوة، فأراد هنا: مِن شأنهم القَتْل، وللإعلام بأنَّ الأمر مستمرٌّ؛ ففيه إشارةٌ لليهود الذين في زمَن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلم؛ لأنَّهم أرادوا قتْله عليه الصَّلاة والسَّلام، لولا أنَّ الله تعالى عَصمَه منهم. وربَّما يكون خِطابًا لمن كانوا في عهد النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال لهم: لِمَ ترضَوْن بقتْل الأنبياء من قبلُ؟ لأنَّ الراضي بالقتل بمنزلة القاتل، فصحَّ أن يُقال للرَّاضين بالقتل ﴿لِمَ تَقْتُلُونَ﴾[٣].

- وفيه ما يُعرف بالاحتباك[٤]؛ حيث حُذِف الشرطُ الأوَّل، (والتقدير: إن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦١٠).

(٢) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣/ ٦٠٣-٦٠٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٤٩٣).

(٤) **الاحتِبَاك**: هو الحذفُ من الأوائل لدَلالة الأواخِر، والحذفُ من الأواخر لدَلالة الأوائل، إذا =

كنتم مؤمنين فلم تقتلون أنبياء الله؟)، والجوابُ الأخير، (والتقدير: إن كنتم مؤمنين فلم تقتلونهم؟)(١).

٢- قوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ فيه تأكيدٌ بالقَسَم؛ للاهتمام بالخبر، أو لتنزيلهم منزلة المنكرين؛ لعدم حِرصهم على موجب العلم(٢).

٣- قوله: ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ عبر بالجملة الاسميَّة للدَّلالة على استمرارهم في الظُّلم وثُبوتهم الأصلي عليه(٣).

٤- قوله: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ كرَّر رفْع الطور؛ لِمَا تعلَّق به من زيادة ليست مع الأوَّل وهي قولهم: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، مع ما فيه من التوكيد وإيجاب الحُجَّة على الخَصْم على عادة العرب، وتذكارهم بتعداد نِعم الله تعالى عليهم ونِقَمه منهم، ليزدجرَ الأخلاف بما حلَّ بالأسلاف(٤).

٥- في قوله: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾

- جاء التعبير بالفِعل المبنيِّ لِمَا لم يُسمَّ فاعله ﴿أُشْرِبُوا﴾؛ إشارةً إلى أنَّ حبَّهم للعجل بلَغ مبلغ الأمر الذي لا اختيار لهم فيه، كأنَّ غيرهم أشربهم إيَّاه(٥).

- وفيه: إيجاز بالحذف، والتقدير: (حب العجل) أو (حب عبادة العجل)،

= اجتمَع الحذفان معًا، وله في القرآن نظائرُ، وهو من إبداعاتِ القرآن وعناصر إعجازِه، وهو من ألطفِ الأنواع. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٤٩٣)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٣١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٥٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٠٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٤٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦١١).

وحسُن الحذف هنا، وأُسند الإشراب إلى ذات العِجل مبالغةً في حبِّهم له، أو لعبادته[١].

- وفيه: تشبيهٌ بليغ؛ حيث صوَّر قلوبهم لتمكُّن حبِّ العجل منها كأنها تَشرَب؛ وعبر بالشُّرب إشارةً إلى أنَّ تلك المحبة كانت مادَّةً لجميع ما صدَر عنهم من الأفعال، مثلما أنَّ الشُّرب مادةٌ لحياةِ ما تنبته الأرض[٢].

٦- في قوله: ﴿يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ﴾ جاءت إضافة الأمر إلى إيمانهم من باب التهكُّم؛ إذ الإيمان الحقيقي لا يأمر إلا بخير، وكذلك إضافة الإيمان إليهم؛ لأنَّهم ليسوا بمؤمنين حقيقةً؛ ولإظهار أنَّ الإيمان المذموم هو إيمانُهم، أي: الذي دخَلَه التحريف والاضطراب[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣/ ٦٠٤)، ((تفسير القاسمي)) (١/ ٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ١٤٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢/ ٥٦).

الآيات (٩٤-٩٦)

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

غريب الكلمات:

﴿يُعَمَّرُ﴾: يطول عُمره، والتعمير: إعطاء العُمر بالفِعل، وأصله: البقاء وامتداد الزمان[١].

﴿بِمُزَحْزِحِهِ﴾: أي: بمُبعِده؛ فأصل الزحزحة: الإبعاد[٢].

المعنى الإجمالي:

لَمَّا زعَم اليهود أنَّ النَّعيم سيكون لهم وحْدَهم، أمَر الله تعالى نبيَّه محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ أن يقولَ لهم: إنْ كان الأمر كما زعمتُم، فاجتمِعوا مع المسلمين، ثمَّ ادعُوا بالموت على أيِّ الفريقينِ منكما أكذبُ، لكنَّهم لن يفعلوا ذلك أبدًا؛ بسبب ما اكتسبوه من الكُفر والمعاصي، والله تعالى محيطٌ بهم وبكلِّ ظالم، وسيُجازيهم على أعمالِهم.

ثمَّ أخْبَر الله عزَّ وجلَّ نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ عن اليهود أنَّه سيجدهم من أكثر الناس حِرصًا على البَقاء على قَيد الحياة، حتى فاقوا المشركين الذين لا يُؤمنون بِبَعثٍ ولا نُشور! يودُّ الشخصُ منهم أن يمكثَ حيًّا ألفَ عام، مع أنَّ هذا

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٨٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٦).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٥).

المُكث- ولو طال- لن يُبعده عن عذاب الآخِرة، والله تعالى يرَى كلَّ ما يفعله هؤلاء اليهودُ، وسيجازيهم عليه.

تفسير الآيات:

﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٤)﴾.

أي: قلْ يا محمَّد، لهؤلاء اليهود: إنْ كان نعيم الآخرة مقصورًا عليكم وحدكم دون بقيَّة الناس- كما تزعمون- فهناك طريقةٌ تُظهِر المحقَّ في دعاويه من الكاذب المبطِل، وهي المباهلةُ، بأنْ تَدْعُوا بالموتِ على أيِّ الفريقينِ أكذبُ، وسيتبيَّن الأمر(١).

وقد أَرشد الله تعالى رسولَه عليه الصَّلاة والسَّلام، إلى مباهلة وفْد نجران من النَّصارى بعد قِيام الحُجَّة عليهم في المناظرة، وعُتوِّهم وعِنادهم، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١].

﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥)﴾.

﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾.

أخبَر تعالى عن عِلمه بعَجز اليهود عن تمنِّي ذلك مطلقًا؛ بسبب ما اكتسبوه من كُفرٍ ومعاصٍ، ومن ذلك تكذيبهم النبيَّ عليه الصَّلاة والسَّلام، وكتمانهم صفتَه

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيِّم (٢/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٣٣-٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩-٦٠).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى من السَّلف: ابن عبَّاس. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١٧٧).

الموجودة في توراتهم، فهم يعلمون أنَّ الموت طريقٌ إلى مجازاتهم على ما اكتَسبوه؛ ولذا فهم يكرهونه[١].

﴿وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾.

أي: توعَّد اللهُ تعالى اليهود وهدَّدهم- ويدخل في هذا كلُّ ظالمٍ سواهم- بأنَّه سبحانه ذو عِلم بالظالمين، ليس بغافل عنهم ولا ساهٍ، بل هو حافظٌ لأعمالهم، وسيجازيهم على ظُلمهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ للهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٦-٧].

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٩٦)﴾.

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾.

أي: مِن المؤكَّد يا محمَّد، أن تجِد هؤلاء اليهودَ أشدَّ الناس حرصًا على البقاء في الحياة الدُّنيا، وأشدَّهم كراهةً للموت؛ لعِلمهم بما لهم في الآخِرة من العذاب، وأن تجد حبَّهم للمُكث وطولِ العُمر في الدُّنيا فاق حتى أولئك المشركين الذين لا يُؤمنون بأحدٍ من الرُّسل والكتُب، ولا يُقرُّون بالبعث[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٧٢-٢٧٤)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٧٧)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦١٥-٦١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٧٤-٢٧٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٧٧)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٧٥-٢٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦١٧). =

﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾.

قيل: يودُّ أحدُ اليهود- وقيل: يودُّ أحدُ المشركين- مِن حِرصه على المُكث في هذه الحياة الفانية، أن يَطولَ عُمُرُهُ حتى يبلغَ أَلْفَ سَنةٍ[1].

﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾.

أي: وما طولُ البَقاء في الدُّنيا لأحدهم بمُبعِده من عذاب الآخِرة؛ لأنَّه مهما طال العمرُ فلا بدَّ له من فَناءٍ[2].

= وممَّن ذهب من السَّلف إلى أنَّ المقصود بهذه الآية هم اليهود: ابن عبَّاس، وأبو العالية، ومجاهد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٧٥).

وممَّن ذهب من السَّلف إلى نحوِ ما ذُكر في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾: ابن عبَّاس. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٧٧).

وقال ابن جرير: (وقيل: إن الذين أشركوا الذين أخبر الله تعالى ذكره أن اليهود أحرص منهم في هذه الآية على الحياة هم المجوس الذين لا يصدقون بالبعث) ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٧٦).

وقال ابن عطية: (وقيل إن الكلام تم في قوله ﴿حَيَاةٍ﴾، ثم استؤنف الإخبار عن طائفة من المشركين أنهم يَوَدُّ أَحَدُهُمْ وهي المجوس؛ لأن تشميتهم للعاطس لفظ بلغتهم معناه «عش ألف سنة» فكأن الكلام: ومن المشركين قوم يَوَدُّ أَحَدُهُمْ، وفي هذا القول تشبيه بني إسرائيل بهذه الفرقة من المشركين) ((تفسير ابن عطية)) (١ / ١٨٢).

وقال ابن عثيمين: (قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾، أي: الشرك الأكبر؛ واختلف المفسِّرون فيها؛ فمنهم مَن قال: هو مستأنف، والكلام منقطع عما قبله؛ والتقدير: ومِن الذين أشركوا مَن يودُّ أحدهم لو يُعمر ... ؛ وهذا وإنْ كان محتملًا لفظًا، لكنَّه في المعنى بعيدٌ جدًّا؛ ومنهم مَن قال: إنَّه معطوف على قوله تعالى: ﴿النَّاسِ﴾ يعني: ولتجدنَّهم أحرصَ الناس، وأحرصَ مِن الذين أشركوا؛ يعني: اليهود أحْرص من المشركين على الرغم من أنَّ اليهود أهل كتاب يؤمنون بالبعث، وبالجنة، وبالنار؛ والمشركون لا يؤمنون بذلك، والذي لا يؤمن بالبعث يصير أحرصَ الناس على حياة؛ لأنَّه يرى أنه إذا مات انتهى أمرُه، ولا يعود؛ فتجده يحرِصُ على هذه الحياة التي يرَى أنها هي رأسُ ماله؛ وهذا القولُ هو الصَّواب) ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٠٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٧٧-٢٧٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦١٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٠٩-٣١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٧٩-٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤١).

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

هذا توعُّدٌ لأولئك اليهود، وتهديدٌ لهم بالمجازاة على أعمالهم؛ فالله تعالى يرَى كلَّ ما يفعلونه، لا يخفى عليه شيءٌ من ذلك[١].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة: ٨].

الفوائد التربويَّة:

١- أنَّ طول العُمُر لا يُفيد المرءَ شيئًا إذا كان في معصية الله تعالى؛ لقوله: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾[٢].

٢- دِقَّة فَهم السَّلف حين كرِهوا أن يُدْعَى للإنسان بالبقاء على سبيل الإطلاق من غير تقييدٍ بطاعة؛ فإنَّ الإمامَ أحمد كرِه أن يقول للإنسان: (أطال اللهُ بقاءَك)؛ لأنَّ طول البقاء قد ينفع، وقد يضرُّ، والأفضل أن يُقال: (أطال اللهُ بقاءَك على طاعةِ الله)، أو نحو ذلك[٣].

الفوائد العلميَّة واللَّطائف:

١- إثبات عِلم الله تعالى للمستقبل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾؛ فوقَع الأمرُ كما أخبَر به[٤].

٢- جوازُ تخصيص العموم لغرَض؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ فخصَّ عِلمه بالظالمين؛ تهديدًا لهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣١٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣١١).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣١٢).

٣- أنَّ الناس يتفاوتون في الحِرص على الحَياة؛ لقوله تعالى: ﴿أَحْرَصَ﴾؛ و﴿أَحْرَص﴾ اسمُ تفضيل(١).

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾

- فيه تقديمُ الجار والمجرور ﴿لَكُمُ﴾؛ إشعارًا بالاختصاص والحصر، أو للاهتمام(٢).

- وفي قوله: ﴿مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾: تأكيدٌ لمعنى الاختصاص المستفاد من قوله: ﴿لَكُمْ﴾، ومِن قوله: ﴿خَالِصَةً﴾(٣).

٢- في قوله: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ جاء التعبير هنا بحرف النفي (لن)، بينما في سورة الجمعة جاء التعبير بحرف النفي (لا) في قوله: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ﴾؛ وهذا من المناسبات اللَّطيفة، ومن محاسِن المعاني؛ لأنَّهم هنا في سورة البَقرة ادَّعَوْا أنَّ الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس، وهناك في سورة الجمعة ادَّعَوْا أنَّهم أولياء لله تعالى من دون الناس، والدَّعوى الأولى أعظمُ من الثانية، فبيَّن سبحانه فسادَ قولهم بلفظ: (لن)؛ لأنَّه أقوى الألفاظ النافية، واكتفى في إبطال الثانية بلفظ (لا)؛ لأنَّه ليس في نهاية القوة في إفادة معنى النفي(٤).

٣- قوله: ﴿واللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ خبَر مستعمَل في التهديد؛ لأنَّ القَديرَ إذا علِم بظلم الظالم لم يتأخَّر عن معاقبته(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢/ ٥٨)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣/ ٦٠٨)، ((تفسير القاسمي)) (١/ ٣٥٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦١٦).

- وقوله: ﴿بِالظَّالِمِينَ﴾ فيه وضْع الظاهر موضعَ المُضمر؛ وذلك للتسجيل عليهم بالظُّلم، وقصدًا إلى تعميم الحُكم عليهم وعلى غيرِهم[1].

٤- في قوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ تخصيصٌ بعد تعميم- فخصَّص المشركين بالذكر عقب عموم الناس-؛ وذلك للتَّوبيخ العظيم لليهود؛ إذ هم أهل كتاب، ومع ذلك هم أحرصُ على طول البقاء في الدنيا ممَّن لا يُؤمن بكتابٍ ولا يُقِرُّ ببعث[2]!

- في قوله: ﴿عَلَى حَيَاةٍ﴾ قيل نُكِّرت (حياة)؛ للدَّلالة على أنَّها حياة مخصوصة، وهي الحياة المتطاولة - على حذف مضاف، أي: على طول حياة، أو على حذف صفة، أي على حياة طويلة[3]. أو للدَّلالة على كونهِم أحرصَ الناس على مُطلق حياة؛ لأنَّ من كان أحرص على مطلق حياة، وهو تحققها بأدنى زمان، فلأن يكون أحرص على حياة طويلة أولى، وعليه، فلا حاجة لتقدير محذوف[4]. وقيل فيه دَلالة على حِرصهم على أدْنى ما يَصدُق عليه أنَّه (حياة) ولو كانت تخلو من أي قيمة أو معنى[5].

(١) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٥٠٢-٥٠٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ١٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٥٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٥٠٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦١٧).

الآيات (٩٧-١٠٢)

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿نَّبَذَهُۥ﴾: تركه ولم يعمل به، أو طرَحه لقلَّة اعتداده به، وأصل النبذ: طَرْح الشيء وإلقاؤه[1].

﴿بِبَابِلَ﴾: اسم بلد، قيل: الكوفة، وقيل: بلد من سواد الكوفة، وقيل:

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٧).

نصيبين، وقيل غير ذلك[١]. وينسب إليها السحر والخمر[٢]. وتوجد حاليًّا محافظة بالعراق تسمى بابل.

﴿لَمَثُوبَةٌ﴾: أي: جزاء ثابت، أو ثواب، وهو عبارة عن المنفعة الخالِصة المقرونة بالتعظيم، والمثوبة مختصَّة بالخير، كما أن العقوبة مختصَّة بالشر[٣].

المعنى الإجمالي:

حين أعلن اليهودُ عداوتَهم لجبريلَ عليه السَّلام، وزعَموا أنَّ الذي منَعَهم من الإيمان بالنبيِّ محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم هو ولايتُه لجبريلَ عليه السَّلام- أَمَر الله سبحانه نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ أن يُخبرهم بأنَّ جبريل أنزل القرآن بأمْر الله، ولم يَنزل من تلقاء نفْسه، فعداوتهم له إنَّما هي عداوةٌ لله في الواقع، كما أنَّ القرآن الذي نزل به يُصدِّق ما سبقه من الكتُب السماويَّة، وهو دليلٌ على الحق، وفيه الإخبارُ بموعود الله للمؤمنين.

ثم أخبر تعالى أنَّ مَن عادَى اللهَ تعالى، أو ملَكًا من الملائكة، أو رسولًا من الرُّسُل فهو كافر، والله تعالى يُعادي كلَّ كافر.

ثم قال لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ: إنَّه قد أنزل إليه دلائلَ واضحةً على صِدق نبوَّته، وإنَّها- لشدَّة وضوحها- لا يَجحدها إلَّا مَن هو خارجٌ عن الإيمان.

ثمَّ أخبَر الله تعالى أنَّ نقض العهود هو عادةٌ لدى اليهود؛ فكلَّما التزموا بعهدٍ، قام بنقضه جماعةٌ منهم؛ ذلك لأنَّ أكثر اليهود غير مُقرِّين بالحقِّ، ولا يُطبِّقونه قولًا ولا عَملًا.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٨٧-١٩٠) ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((معجم البلدان)) لياقوت (١/ ٣٠٩-٣١١).

(٣) يُنظر: ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٧، ٨٨١).

ولَمَّا بُعث محمدٌ صلَّى الله عليه وسلَّمَ من عند الله، وقد وافقتْ صِفتُه ما هو موجودٌ عندهم في التوراة، ترك جماعةٌ من اليهود العملَ بالتوراة التي تحضُّ على الإيمان بمحمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، متجاهلين تعاليمَها، وكأنَّهم لا يعلمون ما تضمَّنتْه من صفاته، والحثِّ على متابعته.

واتَّبع هؤلاء اليهودُ ما اختلقتْه الشياطين في عهد نبيِّ الله سليمانَ عليه السَّلام من السِّحر، ونَسَبوه إليه، زاعمين أنَّه حصَل على مُلك عظيم بهذا السِّحر، واتَّبعوا أيضًا السِّحرَ المنزَّلَ على الملَكين: هاروت وماروت، في بابل بأرض العراق. ولا يقوم هذان المَلَكان بتعليم السحر لأحدٍ من الناس حتَّى يُقدِّما له النصيحةَ بأنَّهما مجرَّد ابتلاء لبني آدم، ويُحذِّراه من الإقدام على الكُفر بالله بتعلُّم السِّحر وممارسته. فمَن لم يَقبَل بنصحهما يتعلَّم السِّحرَ منهما، ويقدر من خلاله على التفريق بين الزَّوجين، ولكن لا يستطيع أن يضرَّ أحدًا إلَّا بمشيئة الله سبحانه، ويتعلَّم هؤلاء من المَلَكينِ ما هو ضررٌ عليهم ولا يعود عليهم بالنَّفع البتَّةَ، وقد علِم اليهودُ أنَّ مَن سلَك هذا الطريق، فليس له في الآخرةِ من نَصيب، ولبئسَ هذا العمل لو كانوا يعلمون مدَى ضررِه عليهم! ولو اختاروا طريقَ الإيمان والتقوى بدَلَ السِّحر، لأثابهم الله تعالى ثوابًا يكون خيرًا لهم من حظوظ الدُّنيا الفانية.

تفسير الآيات:

﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧)﴾.

سبب النزول:

عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، قال: ((أقبلتْ يهودُ إلى رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فقالوا: يا أبا القاسم، إنَّا نسألُك عن خمسة أشياء، فإن أنبأتَنا بهنَّ، عرَفْنا أنَّك نبيٌّ واتبعناك، فأخَذ عليهم ما أخَذ إسرائيلُ على بنيه؛ إذ قالوا: ﴿اللهُ عَلَى مَا

نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾، قال: هاتوا، قالوا: أخبِرْنا عن علامة النبيِّ، قال: تنام عيناه ولا ينام قلبُه، قالوا: أخبِرْنا كيف تؤنِّث المرأة وكيف تُذكِّر؟ قال: يَلتقي الماءانِ، فإذا علَا ماءُ الرجُل ماءَ المرأة أذْكَرت، وإذا علَا ماءُ المرأة ماءَ الرجُل آنثَتْ، قالوا: أخبِرْنا ما حرَّم إسرائيل على نفْسه؟ قال: كان يَشتكي عِرق النَّسا فلم يجِد شيئًا يلائمه إلَّا ألبانَ كذا وكذا، [قال عبد الله بن أحمد]: قال أبي: قال بعضُهم: يعني الإبل، قال: فحرَّم لحومها، قالوا: صدقتَ، قالوا: أخبِرْنا ما هذا الرَّعد؟ قال: ملَكٌ من ملائكة الله عزَّ وجلَّ موكَّل بالسَّحاب، بيده أو في يده مِخراق من نار، يزجُر به السحاب يسوقُه حيث أمر الله، قالوا: فما هذا الصوتُ الذي يُسمع؟ قال: صوته، قالوا: صدقتَ، إنَّما بقِيَتْ واحدةٌ، وهي التي نبايعك إنْ أخبرتَنا بها، فإنَّه ليس من نبيٍّ إلَّا له مَلَك يأتيه بالخبَر، فأخبِرْنا من صاحبك؟ قال: جبريلُ عليه السَّلام، قالوا: جبريل! ذاك الذي يَنزل بالحَرْب والقِتال والعذاب! عدوُّنا! لو قلت: ميكائيل، الذي يَنزل بالرحمةِ والنَّبات والقَطر، لكان! فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ إلى آخِر الآية))(١).

﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ﴾.

أي: قلْ يا محمَّد، لهؤلاء اليهود الذين زعَموا أنَّ الذي منعَهم من الإيمان برسالتك، أنَّ وليَّك جبريلُ عليه السَّلام، وأنَّه لو كان وليُّك أحدًا سواه من الملائكة لآمَنوا بك- قل لهم: مَن عادى جبريلَ عليه السَّلام، فليعلمْ أنه هو الذي نزَل بالقرآن على قلبِك، وجبريل لا يَنزل بالأمر من تِلقاء نفْسه، وإنَّما ينزل بأمْر الله

(١) أخرجه الترمذيُّ (٣١١٧) (جزءًا منه)، وأحمد (١/ ٢٧٤) (٢٤٨٣) واللفظ له.

قال الترمذي: حسنٌ غريب، وذكر ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (٨/ ١٦) أن له طرُقا يقوِّي بعضها بعضًا. وصحَّح إسنادَه أحمدُ شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٤/ ١٦١)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣١١٧).

وقد حَكى ابن جرير الإجماعَ على ذلك، فقال: (أجمع أهلُ العلم بالتأويل جميعًا على أنَّ هذه الآية نزلَتْ جوابًا لليهود من بني إسرائيل؛ إذ زعَموا أنَّ جبريل عدوٌّ لهم، وأنَّ ميكائيل وليٌّ لهم) ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٨٣).

تعالى، وهذا يَعني أنَّهم بقولهم ذلك يُعادُون الله تعالى في الحقيقة؛ أمَّا جبريل فهو رسولٌ محضٌ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٤].

﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: إنَّ القرآن نزَل والحال أنَّه متطابق مع الكتُب الإلهيَّة الأخرى التي سبقتْه كالتوراة، وموافِق لها، ومن ذلك ما فيها من الأمر باتِّباع محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وهو دَلالة على الحقِّ، وبُشرى من الله تعالى للمؤمنين خاصَّةً، وفيه أنواعٌ من البِشارات لهم، ومن ذلك ما أعْلمَهم الله تعالى فيه بما أعدَّ لهم في الآخِرة من النَّعيم المقيم(٢).

﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لله وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ الله عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (٩٨)﴾.

سبب النزول:

عن ابنِ أَبي لَيْلَى قال: ((إنَّ يهوديًّا لقِي عُمرَ فقال: إنَّ جبريل الذي يذكُر صاحبُكم عدُوٌّ لنا، فقال عمرُ: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لله وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهْ﴾ إلى ﴿لِلْكَافِرِين﴾ قال: فنزلتْ على لسان عُمرَ))(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٩٢، ٢٩٤، ٢٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٤١-٣٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٩٩-٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠).

(٣) أخرجه ابنُ أبي حاتم في ((تفسيره)) (١/ ١٨٢).

قال ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (٨/ ١٦): له طرُقٌ يقوِّي بعضها بعضًا.

﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لله وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ الله عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (٩٨)﴾.

أي: إنَّ مَن عادى الله تعالى، أو أحدًا ممَّن ذُكروا من الملائكة عمومًا، أو جِبريل وميكال خصوصًا، أو مِن بقيَّة رُسل الله الكِرام من البَشر كمحمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، مَن عاداهم أو أحدًا منهم فإنَّه كافر، والله تعالى يتَّخذه عدوًّا له؛ لأنَّه سبحانه يُعادي كلَّ كافر[١].

عن أبي هُرَيرةَ رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((إنَّ اللهَ قال: منَ عادَى لي وليًّا، فقد آذنتُه بالحَرب))[٢].

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (٩٩)﴾.

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾.

أي: قد أنزلنا إليك- يا محمَّد- فيما أُوحي إليك من القُرآن، آياتٍ هي دلائل واضحة، دالَّةٍ على صِدق نبوَّتك[٣].

﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾.

أي: هذه الآيات البيِّنات قد بلَغتْ من الوضوح والدَّلالة على الحقِّ، مَبلَغًا عظيمًا، ووصلتْ إلى حال لا يَجحدها ويمتنع من قَبولها إلَّا مَن خرَج عن دائرة الإيمان، والالتزام بشريعة الرَّحمن[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣٠١-٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٤٢-٣٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣١٥).

(٢) رواه البخاري (٦٥٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣٠٦) ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٢٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣١٩).

﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٠)﴾.

﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾.

هذا توبيخٌ وتعجُّبٌ من الله تعالى، مِن صنيع اليهود الذين لا يلتزمون بما عَهِد الله تعالى إليهم، وهو التمسُّك بأوامره سبحانه في التوراة، ومن ذلك الإيمانُ بمحمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ واتِّباعه؛ فكلَّما وعَدوا بالالتزام بعهدٍ من عهود التوراة، نقَضَه جماعةٌ منهم وطرَحوه، تاركين الوفاءَ به[١].

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

أي: إنَّ أكثرَ اليهود غير مصدِّقين بالحقِّ اعتقادًا وقولًا وعملًا، وعدَم إيمانهم هو الذي حمَلَهم على نبْذ العهود[٢].

لو صَدَق إيمانهم، لكانوا مِثل مَن قال الله فيهم: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٥٥-٥٦].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ١٣].

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١)﴾.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾.

أي: ولَمَّا أتى اليهودَ رسولٌ مرسَلٌ من قِبل الله عزَّ وجلَّ، وهو محمَّدٌ صلَّى الله

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣٠٨-٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣١٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٨١)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٢٥).

عليه وسلَّمَ، وقد جاءهم بصفته الموافقة لِمَا في التوراة من صِفاته وإثبات رِسالته، والتي يزعمون أنَّهم متمسِّكون وملتزمون بها فيها(١).

﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أي: ترَكَ طائفةٌ من اليهود أصحابِ التوراة، العملَ بالتوراة التي أنزلها الله تعالى عليهم، بالدُّخول في دِين محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، ترَكوا ذلك متجاهلين، وكأنَّهم لا يعلمون ما في التوراة من البشارة بمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وذِكر صِفاته، والأمر باتِّباعه(٢).

﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

مَن ترَكَ ما يَنفعُه مع إمكانيةِ الانتفاعِ به، فإنَّه يُبتَلى بالاشتغال بما يضرُّه، فكذلك هؤلاء اليهودُ؛ فلَمَّا ذكَر الله تعالى أنَّهم نبَذوا كتابَ الله، ذكَر اشتغالَهم بما يضرُّهم، فقال(٣):

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣١١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠).
وممَّن قال من السَّلف بأن المقصود بالرَّسول: محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ: السُّدِّي، يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣١١)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣١١)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠-٦١). ويُنظر: ((القواعد الحسان)) للسعدي (ص: ٩٦).

﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾.

أي: اتَّبع اليهود ما تختلقُه الشياطينُ وتتقوَّلُه، من السِّحر على عهد سليمان، وتَنسُبه إليه، حيث أخرجت الشياطين للناس السِّحر، وزعَموا كذبًا أنَّ سليمان عليه السَّلام كان يستعمله، وأنه حصَل له به المُلك العظيم(١).

﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾.

أي: إنَّ سليمانَ عليه السَّلام بريءٌ من تُهمة السِّحر التي أَلْصَقَها به اليهود، فلم يكُن كافرًا يمارس السِّحر، أو يُعلِّمه للآخرين؛ وذلك لأنَّ السِّحر كُفر، بل الذين كفروا بسبب السِّحر في الحقيقة هم الشياطين الذين يُعلِّمونه للناس؛ إضلالًا لهم(٢).

﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾.

أي: واتَّبع اليهود أيضًا السِّحرَ، الذي أُنزل على الملَكين: هاروت وماروت، في بابل من أرضِ العِراق(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣١٣-٣٢١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠-٦١).
وممَّن ذهب من السَّلف إلى نحو ما ذُكر في قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ﴾: ابن عبَّاس، وأبو العالية. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣٢٢-٣٢٣) ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٣٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٢٧).

(٣) وهذا اختيار ابن جرير في ((تفسيره)) (٢/ ٣٣٩)، والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ٦١)، وابن عثيمين في ((تفسير الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٢٨-٣٢٩). ويُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ١٥)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٢١-٢٢٢).
وممَّن ذهَب إلى هذا القول من السَّلف ابن عبَّاس، وعبد الله، وقتادة، والسُّدِّي، وابن زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١٨٨).
أمَّا بالنِّسبة لتفصيل قصَّة المَلَكين: هاروت وماروت، فقد قال ابنُ كثير: (وقد رُوي في قصة هاروت وماروت عن جماعةٍ من التابعين، كمجاهد والسُّدِّي، والحسن البصري، وقَتادة وأبي العالية والزهري، والرَّبيع بن أنس، ومقاتل بن حيَّان، وغيرهم، وقصَّها خَلْقٌ من المفسِّرين من =

﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾.

أي: وما يعلِّم هذانِ الملَكانِ السِّحرَ لأحدٍ من الناس، حتى يَنصحاه فيقولا له: إنَّما نحن هنا لتعليم السِّحر؛ اختبارًا وابتلاءً لبني آدم، فلا تَكفُرْ بالله؛ بسبب تعلُّم السِّحر وممارسته[1].

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾.

أي: فيتعلَّم الناسُ السِّحرَ من المَلَكينِ بما يَتصرَّفون به تصرُّفاتٍ مذمومةً، من أعظمِها التفريقُ بين الزَّوجين، مع ما بينهما من المودَّة والرَّحمة[2].

عن جابرِ بن عبد الله رضي الله عنهما، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((إنَّ إبليسَ يَضَعُ عرشَه على الماءِ ثمَّ يبعثُ سَراياهُ، فأدْناهم منهُ منزلةً أعظمُهم فِتنةً، يجيءُ أحدُهم فيقولُ: فعلتُ كذا وَكذا، فيقولُ: ما صنعتَ شيئًا! قال: ثمَّ يجيءُ أحدُهم، فيقولُ: ما ترَكتُه حتَّى فرَّقتُ بينَه وبينَ امرأتِه، قال: فيُدنيهِ منهُ، ويقولُ: نِعمَ أنتَ!))[3].

﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾.

= المتقدِّمين والمتأخِّرين، وحاصلها راجعٌ في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل؛ إذ ليس فيها حديثٌ مرفوع صحيح، متَّصل الإسناد إلى الصَّادق المصدوق المعصوم، الذي لا يَنطِق عن الهوى، وظاهرُ سياق القرآن إجمالُ القِصَّة من غير بسْط ولا إطناب فيها، فنحن نُؤمِن بما ورد في القرآن على ما أراده الله تعالى، والله أعلمُ بحقيقة الحال)) ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٦٠).
ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ٥٠)، ((البداية والنهاية)) لابن كثير (١/ ٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٣٩-٦٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣٥٥-٣٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣٥٧-٣٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٦٣-٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٣٥).

(٣) رواه مسلم (٢٨١٣).

أي: وما هؤلاء المتعلِّمون السِّحرَ من الملَكيْن، وفاعِلو تلك الأفعال القَبيحة، بضارِّين بذلِك أحدًا من الخَلْق، إلَّا بإذن الله تعالى الكوني، أي: بقُدرته ومشيئته سبحانه[1].

﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾.

أي: إنَّ السِّحرَ الذي يتعلَّمه هؤلاء المشتغِلون به ضررٌ محضٌ عليهم في الدنيا، ليس فيه نفْعٌ مطلقًا[2].

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾.

أي: قد علِم أولئك اليهودُ أنَّ مَن استبدل السِّحرَ بكتاب الله تعالى ومتابعةِ محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام، أنَّه ليس له في الآخِرة حظٌّ ولا نصيبٌ من الجنَّة[3].

﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

أي: ولبئس البديلُ السِّحرُ الذي تعلَّموه، بديلًا عن كِتاب الله تعالى، ومتابعة رُسله عليهم الصَّلاة والسَّلام، لو كانوا يَعلمون أنَّهم إنَّما باعُوا أنفسَهم، وحظَّهم من الآخِرة بما يَضرُّهم في الدُّنيا أيضًا، ولا ينفعهم[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣٦١-٣٦٢)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (١١/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٢٩).

(٢) يُنظر: رسالة (الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِن عِبادِهِ العُلَماءُ﴾) من ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٨٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٤٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٢٩).

وقيل: بل ينفعُهم، ولكن ما فيه من المضرَّة عليهم دِينيًّا وأُخرويًّا أكثرُ ممَّا فيه من الفائدة لهم في الدُّنيا. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣٦٢)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٨٦)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٨٨)، ((جامع الرسائل)) لابن تَيميَّة (٢/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣٦٢-٣٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٦٤)، رسالة (الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِن عِبادِهِ العُلَماءُ﴾) من ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٨٠٤-٨٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٤٧).

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣)﴾.

أي: إنَّهم لو اختاروا الإيمانَ والتقوى بدلَ السِّحرِ، لكان اللهُ يثيبُهم على ذلك ما هو خيرٌ لهم ممَّا طلبوه في الدُّنيا لو كانوا يَعلمون، فيَحصُل لهم في الدنيا من ثواب الإيمان والتقوى من الخير، الذي هو جَلْب المنفعة ودفْع المضرَّة، ما هو أعظمُ ممَّا يُحصِّلونه بالسِّحر من خير الدُّنيا، مع ما يُدَّخَرُ لهم من الثَّواب في الآخِرة[1].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠].

الفوائد التربويَّة:

١- أنَّ الله تعالى قد يُيسِّر أسباب المعصية؛ امتحانًا للناس؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾[2].

٢- أنَّه يجب على الإنسان أن يَبذُلَ نُصحَه للناس، وإنْ أوجب ذلك إعراضَهم عنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾[3].

٣- أنَّ الأسباب وإن عظُمت لا تأثيرَ لها إلَّا بإذن الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾، فينبغي اللجوءُ إلى الله دائمًا، سواء في جلْب المنافع، أو دفْع المضارِّ[4].

٤- في قوله تعالى: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣٧١)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٦٤)، (الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّما يَخشَى اللهَ من عبادِه العلماءُ﴾) من ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٨٠٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٣٤-٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٣٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٣٣).

كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾، دلالةٌ على أنَّ مَن ترَكَ ما ينفعه، ابتُلي بالاشتغال بما يضرُّه؛ فمَن ترَكَ عبادة الرحمن، ابتُلي بعبادة الأوثان، ومَن ترك محبَّة الله وخوفَه ورجاءَه، ابتُلي بمحبة غير الله وخوفِه ورجائِه، ومن لم يُنفق مالَه في طاعة الله، أنفقه في طاعة الشَّيطان، ومَن ترَكَ الذلَّ لربِّه، ابتُلي بالذلِّ للعبيد، ومَن ترَكَ الحقَّ، ابتُلي بالباطل[١].

الفوائد العلميَّة واللَّطائف:

١- أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قد وعَى القرآنَ وعيًا كاملًا، لا يتطرَّق إليه شكٌّ؛ لقوله تعالى: ﴿نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾؛ لأنَّ ما نفذ إلى القلب، حلَّ في القلب؛ وإذا حلَّ في القلب، فهو في حِرز مكين[٢].

٢- أنَّ نبْذَ مَن عِنده كتاب وعِلم أقبحُ ممَّن ليس عنده ذلك؛ كما نبذ في قوله تعالى: ﴿فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ﴾؛ لإظهار شدَّة القُبح من هؤلاء في نبْذِهم[٣].

٣- أنَّ هذا النَّبذ الذي كان منهم لا يُرجى بعدَه قَبول؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾؛ لأنَّ النبذ لو كان أمامهم ربَّما يتلقَّونه بعدُ؛ كذلك لو كان عن اليمين والشِّمال، لكن إذا كان وراءَ الظَّهر، فمعناه استبعادُ القَبول منهم[٤].

٤- إثبات الجَزاء، وأنَّه مِن جِنس العمل؛ فإنَّ الكافر لَمَّا لم يجعلْ لله نصيبًا في دُنياه، لم يجعل اللهُ له نصيبًا من نعيم الجَنَّة في أُخراه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠)، ويُنظر: ((القواعد الحسان)) للسعدي (ص: ٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٢٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٢٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٣٤).

٥- أنَّ صاحب العِلم الذي يَنتفِع بعِلمه هو الذي يَحذَر ما يضرُّه؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾، فلو كانوا ذَوي عِلم نافع، لَمَا اشتَرَوا هذا العِلم الذي يضرُّهم، ولا ينفعُهم(١).

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ﴾ فيه إضمار ما لم يَسبق ذِكرُه؛ لأنَّه كالمعلوم؛ للدلالة على فخامة شأن صاحبِه؛ حيث يُجعل لفَرط شهرته كأنَّه يدلُّ على نفسه، ويُكتفَى عن اسمه الصريح بذِكر شيء من صفاته، فالهاء في قوله: ﴿فَإِنَّهُ﴾ تعود على جبريل، والهاء الثانية في: ﴿نَزَّلَهُ﴾ تعود على القرآن(٢).

٢- قوله: ﴿وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

- فيه وضْع المصدر (هدى وبشرى) موضعَ اسم الفاعل (هاديًا ومبشِّرًا)، على سبيل المبالغة، كأنَّه لَمَّا حصل به الهُدى والبُشرى، جُعِل نفْسَ الهدى والبشرى. أو على حَذْفِ مضافٍ، أي: ذا هُدًى(٣).

- وقدَّم (الهدى) على (البشرى)؛ لوجود الهُدَى قبْل البُشْرى، ولسببيَّته فيها؛ لأنَّ البُشرى عبارة عن الخبر الدال على حُصولِ الخير العظيم، وهذا لا يحصُل إلَّا في حقِّ المؤمنين المهتدين(٤).

٣- في قوله: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ﴾ صُدِّر الكلام بذِكر الجليل سبحانه؛ تفخيمًا لشأنهم، وإيذانًا بأن عداوتهم عداوةٌ للهِ عزَّ وجلَّ. وقدم الملائكة على

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٧٠)، ((تفسير الرازي)) (٣/ ٦١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٥١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٥١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣/ ٦١٣).

الرسل، كما قدم الله على الجميع؛ لأنَّ عداوة الرسل بسبب نزول الوحي، ونزوله بتنزيل الملائكة، وتنزيلهم لها بأمر الله، فذكر الله تعالى ومن بعده على هذا الترتيب[١].

٤- قوله: ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ فيه عطف الخاص على العام، ويُسمَّى عند البعض (التجريد)[٢]، حيث أُفرد جبريل وميكال بالذِّكر بعد ذكر الملائكة مع أنَّهما من جُملتهم؛ تشريفًا لهما، ولبيان فَضلهما ورفعة شأنهما، كأنَّهما من جنس آخر، تنزيلًا للتغاير الوصفيِّ، منزلة التغاير الذاتي، أو للاعتناء بهم؛ لأنَّ الآية إنما نزلت بسببهما، ودفعًا لإشكال: أنَّ الموجبَ للكُفر عداوة جميع الملائكة، فنبَّه على أن معاداة الواحد والكل سواء في الكُفر[٣].

٥- قوله: ﴿فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾

- فيه وضع الظاهر موضعَ المضمر في موضعين: **الأول:** في قوله ﴿فَإِنَّ اللهَ﴾ ولم يقل: (فإنِّي)؛ لأجل حمل العباد على الامتثال لأمره بذكر ما هو أدعى لحصول خشيته ومهابته في نفوسهم. **والثاني:** في قوله: ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ ولم يقل: (لهم)؛ للدلالة على أنَّه تعالى عاداهم بسبب كفرهم، وللدَّلالةِ على أنَّ عداوة الملائكة والرُّسل كُفرٌ، وأن هذا الحكم يشمل كلَّ كافر[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٣٤)، ((تفسير القاسمي)) (١/ ٣٦٠).

(٢) **التجريد:** هو اعتقاد أنَّ في الشيء من نفسِه معنًى آخَرَ كأنه مباين، له فيخرج ذلك إلى ألفاظه بما اعتقد ذلك كقولهم: لئن لقيت زيدًا لتلقين معه الأسدَ؛ فظاهر هذا أنَّ فيه من نفسه أسدًا، وهو عينه هو الأسد، لا أنَّ هناك شيئًا منفصلًا. ويُطلق عند البعض على عطف الخاصِّ على العام؛ كأنَّ الخاص جُرِّد من العام، وأُفرد بالذِّكر تفضيلًا، كما في هذه الآية. وله إطلاقات أخرى في البديع والمعاني. يُنظر: ((البرهان)) للزركشي (٣/ ٤٤٨) ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٢٤٣ - ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٧٠)، ((تفسير الرازي)) (٣/ ٦١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٥١٦)، ((الدر المصون)) للسَّمين الحلبي (٢/ ٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (١/ ٩٦)، ((الدر المصون)) للسَّمين الحلبي (٢/ ٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٣٤).

٦- في قوله: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا للهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ فيه التِفات من الغَيبة إلى الخِطاب لرَسوله عليه الصلاة والسلام في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾؛ إشعارًا بالقرب، وتسليةً له بأنَّ عادةَ هؤلاء نكثُ عُهودهم؛ فلا تبالِ بمَن طريقتُه هذه، وأنَّهم سلَكوا هذه الطريقةَ معك[1].

٧- في قوله: ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾

- استفهام، غرضُه الإنكار، وإعظامُ ما يُقدِمون عليه، وهذا أبلغُ في النكير عليهم، والتبكيت لهم[2].

- وفي التعبير بقوله: ﴿أَوَكُلَّمَا﴾ دلالة على أنَّ ذلك كالعادة فيهم، وفيه تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم عند كُفرهم بما أنزل عليه من الآيات بأنَّ ذلك ليس ببدع منهم، بل هو سجيَّتهم وعادتهم وعادة سلفهم[3].

- وجاء تنكير (عهدًا)؛ للدَّلالة على التَّكثير، أو للجِنس[4].

٨- في قوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ نُكِّر الرسول للتفخيم، والجار بعده (من عند) متعلِّق بجاء، أو بمحذوف وقَع صِفة لرسول، لإفادة مزيد تعظيمه بتأكيد ما أفاده التنكيرُ من الفخامة[5].

٩- في قوله: ﴿مُصَدِّقٌ لِمَا﴾ أدخلت لام التقوية على مفعول مصدق (ما)؛ للدَّلالة على تقوية ذلك التصديق، أي: هو تصديق ثابت محقَّق لا يشوبه شيءٌ من التكذيب ولا التخطئة[6].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٥٣٨)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٤٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣/ ٦١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٣٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣/ ٦١٥).
(٤) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٤١).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٣٥)، ((تفسير القاسمي)) (١/ ٣٦٢).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٢٢).

١٠- قوله: ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ فيه تمثيلٌ للإعراض؛ لأنَّ مَن أعرض عن شيء تجاوزه، فخلَّفه وراء ظهره، وإضافة الوراء إلى الظهر؛ لتأكيد بُعْد المتروك بحيث لا يلقاه بعدَ ذلك، فجَعل للظهر، وراءَ وإن كان هو هنا بمعنى الوراء، فالإضافة كالبيانية[١].

١١- قوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ فيه تقديم نفي كفر سليمان على إثبات كفر الشياطين؛ لأنَّه الأهمُّ تعجيلًا لإثبات نزاهته وعِصمته عليه السَّلام[٢].

١٢- في قوله: ﴿مَا تَتْلُو﴾ ﴿يُعَلِّمُونَ﴾ و﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ﴾ و﴿يَقُولَا﴾ و﴿فَيَتَعَلَّمُونَ﴾ و﴿يُفَرِّقُونَ﴾ و﴿وَيَتَعَلَّمُونَ﴾ و﴿يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ جاء التعبير فيها بالمضارع مع أنَّه حِكاية للحال الماضية؛ لأنَّه أدْعى لاستحضار ذلك وتصويره في النَّفْس، وللدَّلالة على الاستمرار، وإشارة إلى كثرته وفشوِّه[٣].

١٣- قوله: ﴿حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾

- فيه إفرادُ الفتنة مع أنَّ قائل ذلك اثنان، فلم يقل (فتنتان)؛ لكونها مصدرًا، وحملُها عليهما من باب المبالغة كأنَّهما نفسُ الفتنة[٤].

- وفيه: القصرُ بـ(إنَّما)؛ لبيان أنه ليس لهما فيما يتعاطيَانِه شأنٌ سواها؛ لينصرِفَ النَّاسُ عن تعلُّم السحر[٥].

١٤- قوله: ﴿مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ فيه تأكيد ضَرَر السِّحر بعطف جُملة

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٢٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٣٠)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٤٤).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢/ ٧٢-٧٣)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٤٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٣٩).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

﴿وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ على جملة ﴿مَا يَضُرُّهُمْ﴾ عطف تأسيس لا توكيد[١].

١٥- في قوله: ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ تنكير الخلاق، مع تأكيد النَّفي بـ(مِن) الاستغراقيَّة؛ للدَّلالة على عِظم جُرم تَعاطي هذا السِّحر؛ فلذلك لم يكن لمتعاطيه أي حظٍّ من الخير في الآخرة[٢].

١٦- قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ... لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾

- فيه: تأكيد بالقَسَم؛ لتقرير المعنى المقصود من الآية، أو لتنزيلهم منزلةَ المنكرين؛ لعدم جريهم على مُقتضَى العِلم[٣].

- وفيه: تكرير (علموا) (يعلمون)، وفائدته: التَّسجيلُ عليهم بأنَّهم لا يَعلمون ما هو النَّفْع الحق[٤].

- وفيه: تنزيل العالم منزلةَ الجاهل؛ فصدر الآية يدلُّ على ثبوت العلم بعدم نفع اشتراء السِّحر، وآخر الآية يَنفي عنهم العلمَ[٥].

١٧- قوله: ﴿لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ﴾ فيه التعبير بالجملة الاسميَّة؛ للدَّلالة على ثبات المثوبة، والجزم بخيريتها، وحذف المُفضَّل عليه (السحر)؛ إجلالًا للمفضَّل (الإيمان والتقوى) من أن يُنسب إليه[٦].

(١) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٤٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٤٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ٩٨)، ((تفسير القاسمي)) (١/ ٣٦٨)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٤٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٥٠).
(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ١٥٩-١٦٠).
(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ٩٨).

الآيات (١٠٤-١١٣)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ
وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا
ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ
مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا
نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ
أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا
نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُۗ
وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ
مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ
عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّۖ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ
بِأَمْرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا
تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾
وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْۗ قُلْ
هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ
وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ
ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ
يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

غريب الكلمات:

﴿رَٰعِنَا﴾: من رعيتُ الرجل: إذا تأمَّلته، وتعرَّفْت أحواله. وكانت اليهود

تقوله للنبي صلَّى الله عليه وسلم، على سبيل التَّهكُّم والسبِّ، يقصدون به رميه بالرُّعُونَة من رعن، وأصلها هوج واضطراب(١).

﴿نَنْسَخْ﴾: ننقل ونزيل ونُبطل، وأصل النَّسخ: رفْع شيءٍ وإثباتُ غيرِه مكانَه، أو تحويلُ شيءٍ إلى شيء(٢).

﴿وَاصْفَحُوا﴾: الصَّفح: ترْك التثريب واللومِ، والإِعراضُ عن الذَّنب؛ لأنَّه إذا أعرض عنه فكأنَّه قد ولَّاه صَفْحتَه، أي: عُرْضَه، وأصل الصفح: عرض الشَّيء وجانبُه، فصفحة العنق جانبها(٣).

﴿بُرْهَانَكُمْ﴾: حُجَّتكم ودَلالتكم، وأصله: وضوح الشَّيء(٤).

المعنى الإجمالي:

نهى اللهُ المؤمنين أن يقولوا لنبيهم محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ كلمة (رَاعِنَا)، التي كانت اليهود تقولها، تقصِد بها السُّخريةَ من النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ ونسبته إلى الرعونة، وإنْ لم يكُن مرادُ المؤمنين كمراد اليهود، وأبدلَهم لفظةَ (انْظُرْنَا) التي لا تحتمل ما تحتمله كلمة (رَاعِنَا) من معنى سيِّئ، وأمَرَهم أن يستجيبوا لِمَا يأمرهم به، وأعْلَمهم أنَّ للكافرين عذابًا مُوجِعًا.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٠٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٩٢).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٦)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٦/ ٥٣٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٤٨).

ثم يُخبر سبحانَه عبادَه المؤمنين أنَّ الكافرين عمومًا سواء من الكتابيِّين أو المشركين، لا يُحبُّون أن يُنزِّل الله على عباده المؤمنين خيرًا، ومن ذلك القرآنُ الكريم، لكنَّ الله سبحانه يختصُّ برحمته- والتي منها النبوَّة والرِّسالة- مَنْ أراد مِن عبادِه، كما منَحَها نبيَّنا محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ.

ثم أخبر الله عزَّ وجلَّ أنَّ ما يرفعه من حكم آيةٍ، أو ما يزيله من الآيات فيُمْحى من قلب الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم، أو ما يؤخِّر نزوله منها، أنَّه في جميع هذه الحالات يأتِـي سبحانه ببديلٍ عنها يكون أفضلَ لعباده، أو مثلَه، وذلك من تمام قُدرته سبحانه، ومُلكِه النافذ على جميعِ خَلْقه؛ فهو يَحكُم في عبادِه بما يشاء، وليس لهم مَن يَجلِب لهم خيرًا، أو يَدفَع عنهم شرًّا أو ينصرهم دون الله.

ثم حذَّر سبحانه جميعَ الناس؛ مؤمنهم وكافِرهم من سؤال النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ تعنتًّا،كطلبهم رؤيةَ بعض الآيات، كما فعَل اليهودُ مع موسى عليه السَّلام؛ فإنَّ مَن يختار الكفرَ فقد انحرَفَ عن الطريق القويم.

ثم بيَّن الله سبحانه وتعالى أنَّ كثيرًا من اليهود والنَّصارى يتمنَّوْن أن يترُك المسلمون دِينهم؛ وذلك لحسدِهم المؤمنين على ما مَنَّ اللهُ به عليهم من الهِداية التي جاء بها محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وذلك بعد أن اتَّضح لأهل الكِتاب يقينًا أنَّ ما جاء به هو الحقُّ.

ثمَّ أمرَ اللهُ المؤمنين أن يُعرِضوا عنهم، ويَعْفوا ويَصفحوا حتى يأتيَ الله بحُكمه فيهم، وقد جاء أمرُ الله لاحقًا، بأنْ أمرَ المؤمنين بقِتالهم، إنْ لم يدفعوا الجزيةَ.

ثم حثَّ اللهُ المؤمنين على عِبادته، فأمَرهم أن يؤدُّوا الصَّلاة تامَّة بأركانها وواجباتها، ويؤتوا الزكاة المشروعة، ووعَدهم سبحانه بأنَّ كلَّ ما يفعلونه من خير

سيجدونه عند الله، فهو سبحانه لا يَخفَى عليه شيءٌ، فهو مطَّلع على جميعِ أفعالهم.

ثم أخبرَ سبحانه أنَّ اليهود يدَّعُون أنَّ الجنة لن يَدخُلَها إلَّا من كان يهوديًّا، وأنَّ النصارى يدَّعون أيضًا أنَّ الجنة لن يَدخُلَها إلَّا مَن كان نصرانيًّا، وأخْبَر جلَّ وعلا أنَّ تلك الادعاءاتِ إنَّما هي مجرَّد أمانيَّ كاذبةٍ، وأمَر الله نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ أن يَطلُب منهم الحُجَّة على ما يَدَّعون إنْ كانوا مُحقِّين.

بل إنَّ الأمر ليس كما يدَّعون ويتمنَّوْن، بل الحقيقة أنَّ مَن أخلصَ العمل لله تعالى وحده، سائرًا على نهجِ محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فله ثوابُه عند الله، ولا خوفٌ عليه ممَّا يستقبله من أمور الآخِرة، ولا يحزنُ على ما فاته في الدُّنيا.

ثم أخْبَر الله تعالى أنَّ اليهود والنَّصارى يدَّعي كلٌّ منهم أنَّ دِين الآخَر ليس فيه شيءٌ من الحقِّ، مع أنَّهم يتلون كُتُبهم، والتي تتضمَّن تكذيبهم فيما زعَموا، فالإنجيل يتضمَّن صِدق موسى وتقريرَ التوراة، والتوراةُ فيها التبشير بعيسى وصحَّة نبوَّته، وكذا قال بمِثل قولهم أُناسٌ من أهل الجَهل ليس لديهم عِلمُ مَن يتلون الكتاب.

ثم أخبر اللهُ تعالى أنَّه سيَقضي يوم القِيامة بين هؤلاء المختلِفين، والذين قال بعضُهم لبعض: لستُم على شيءٍ من الحقِّ، وسيَجزي اللهُ تعالى كلَّ مُبطِل على باطلِه.

تفسير الآيات:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤)﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾.

أي: نُهِي المسلمون عن قول هذه الكلِمة التي كانتِ اليهود تقولُها- وإنْ كانت من اليهودِ قبيحةً، ومِن المسلمين ليستْ كذلك- لما فيها من مُشابهةِ الكفَّار،

ولكونها وسيلة إلى بلوغ غرَضهم، فالمسلمون يَعنُون بها طلبَ المراعاة، واليهود يعنون بها الرُّعونةَ؛ سخريةً من النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ[١].

﴿وَقُولُوا انْظُرْنَا﴾.

أي: أمَر الله تعالى عبادَه المؤمنين بلفظةٍ لا تحتمِل إلَّا معنًى حسنًا، بديلًا عن قولهم: راعِنا، للنبي صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وهي: انظُرْنا، أي: انتظرنا وأمهِلْنا حتى نفهم عنك ونتعلم منك[٢].

﴿وَاسْمَعُوا﴾.

أي: أمَرَهم الله تعالى أن يَسمعوا لأوامره سَماعَ استجابةٍ وطاعةٍ[٣].

﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أي: أخبَر سبحانه عمَّن جحَد آياتِ الله تعالى من اليهود ومِن غيرهم، أنَّ لهم في الآخرة عذابًا مؤلِمًا موجِعًا[٤].

قال تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٨٩)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تَيميَّة (١/ ١٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٧٣)، ((تفسير السعدي))، (ص: ٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٧٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٣٨).

(٢) ممَّن قال بهذا المعنى: ابن جرير في ((تفسيره)) (٢/ ٣٨٥)، والواحدي في ((التفسير الوسيط)) (١/ ١٨٧)، وابن عثيمين في ((تفسير الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٣٨). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١).

وقيل: انظرنا من النَّظر، بمعنى التدبُّر والنظر في حالهم؛ ليحصُلَ الرِّفقُ والتيسير. وممَّن قال بهذا المعنى: ابن عطية في ((تفسيره)) (١/ ١٨٩)، والقرطبي في ((تفسيره)) (٢/ ٦٠)، وابن عاشور في ((تفسيره)) (١/ ٦٥١-٦٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣٨٥)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٣٨-٣٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣٨٥)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٨٩ - ١٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١).

وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٤٦].

﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥)﴾.

﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

أي: لا يحبُّ الكفَّارُ من أهل الكتاب، أو مِن المشركين أن يُنزِّل الله تعالى على المؤمنين أيَّ خيرٍ منه سبحانه، ومِن ذلك الوحيُ المنزَّل على محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ: القرآن الكريم(١).

﴿وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾

أي: إنْ كان الكفَّارُ لا يودُّون لأحدٍ من المؤمنين خيرًا ينزل عليه من الله تعالى، فاللهُ يُريد ذلك؛ فهو الذي يُؤثِر برحماته مَن شاء مِن عباده بعِلمه وحِكمته، ومن ذلك منْح النبوَّة والرِّسالة لمحمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ فهو رحمة له ولغيره، وهو سبحانه ذو العَطاء الواسِع الكثير(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣٨٦-٣٨٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٩٠)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (١٧/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٤٠-٣٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣٨٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٥٣-٦٥٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٤١).

وممَّن قال من السَّلف: إنَّ معنى ﴿بِرَحْمَتِهِ﴾ النبوَّة: مجاهد، والرَّبيع بن أنس. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١٩٩).

كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦)﴾.

﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا﴾.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

أ- في قوله تعالى: ﴿نَنْسَخْ﴾ قِراءتان

١- (نُنْسِخْ) من أنسختُ الكتاب إنساخًا، أي: وجدته منسوخًا[1].

٢- (نَنْسَخْ) من نَسَخَ، بمعنى أزال، وغيَّر[2].

ب- وفي قوله تعالى: ﴿نُنْسِهَا﴾ قِراءتان

١- (نَنْسَأْها) من التأخير؛ لأنَّ نَسَأَ أي أخَّر[3].

٢- (نُنْسِهَا) من النِّسيان[4].

---

(١) قرأ بها ابنُ عامرٍ من غير طريقِ الدَّاجونيِّ عن هِشامٍ. ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢١٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص:١٠٩)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٢٥٧).

(٢) قرأ بها الباقون، وكذا رواه الدَّاجُونيُّ عن أصحابه، عن هِشامٍ. ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢١٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص:١٠٩)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٢٥٧).

(٣) قرأ بها ابنُ كَثير، وأبو عَمرو. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٢٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الكشف)) لمكي (١/ ٢٥٨-٢٥٩).
وذهب ابنُ جرير إلى أنَّ قراءة ﴿نَنْسَأها﴾ أي نؤخِّرها، راجعةٌ إلى معنى قراءة ﴿نُنْسِها﴾ بمعنى التَّرْك عنده؛ لأنَّ كلَّ متروكٍ فهو مؤخَّرٌ، ما دام باقيًا على حال التَّرْك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣٩٧).

(٤) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٢٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الكشف)) لمكي (١/ ٢٥٨-٢٥٩).

﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾

أي: ما نرفع من حكم آيةٍ فنبدِّله ونغيِّره[١].

﴿أَوْ نُنْسِهَا﴾

أي: أو ما نُزِلْه من الآيات؛ فنَمْحُه من قلبِ الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم وأصحابه رضي الله عنهم[٢].

وعلى قراءة: ﴿أَوْ نَنْسأَهَا﴾ يكون المعنى: أو ما نؤخِّر نزوله منها[٣].

﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾.

أي نأتِ بخيرٍ من الذي نسخناه أو محوناه من قلب الرسول صلى الله عليه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣٨٨-٣٨٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٢٣)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (١٧/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٥٦-٦٦٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٤٦).

(٢) وهذا اختيار الواحدي في ((الوجيز)) (ص: ١٢٣)، وابن تيمية في ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (١٧/ ١٨٣-١٨٧)، والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ٦٢)، وابن عاشور في ((تفسيره)) (١/ ٦٥٦-٦٦٠)، وابن عثيمين في ((تفسير الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٤٦).
وممَّن قال بنحو ذلك من السَّلف: ابن عباس. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٢٠٠)، وقال بنحوه أيضًا: قتادة، والحسن، وعبيد بن عمير، والربيع. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣٩١، ٣٩٣).
وذهب ابن جرير إلى أن المراد بالنسيان هنا: الترك، فيكون المعنى: أو نترك نسخها. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣٩٧).

(٣) وهذا اختيار الواحدي في ((التفسير الوسيط)) (١/ ١٨٩)، وابن تيمية في ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (١٧/ ١٨٦-١٩٠)، واعتبر ابن عطية، وابن عثيمين أن تفسير النسأ هنا بتأخير النزول، معنىً محتملًا في الآية. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٤٦).
وممَّن قال من السلف أن النسأ بمعنى التأخير: عُمرُ بن الخطَّاب، وأبو العالية، وعَطاء، ومجاهد، وأبو نجيح، وعطيَّة، وعُبَيد بن عُمَير، يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣٩٥)، ((تفسر ابن أبي حاتم)) (١/ ٢٠١).

وسلم وأصحابه رضي الله عنهم أو بمثله في خيريَّته ووجوه نفْعه[١].

وعلى قراءة ﴿نَنسأها﴾ يكون المعنى: نأتِ بخيرٍ من الذي نسخناه أو أخَّرنا نزوله أو بمثله في خيريَّته ووجوه نفْعه[٢].

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى يَنْسَخُ ما يشاء، ويُثبت ما يشاء، ويَحكُم بما يشاء، فهو القويُّ والقادِر على ذلك، ولا يُعجزه شيءٌ أبدًا، والخطاب للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وأُمَّتُه تبعٌ له فيه[٣].

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٠٧)﴾.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

أي: ما دام أنَّ الله تعالى مالكٌ لجميع خلْقه، ومتصرِّف فيهم بما يَشاء؛ إذ له الخَلْق والأمر، فكذلك يحكُم في عباده بما يَشاء، فيُحلُّ ما يشاء، ويُحرِّم ما يشاء، ويُبيح ما يشاء، ويحظُر ما يشاء، وهو الذي يحكُم ما يريد ولا مُعقِّب لحُكمه[٤].

﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٠٢-٤٠٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٩٠)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (١٧/ ٥٣-٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٨٩-١٩٠)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (١٧/ ١٨٨-١٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٠٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٤٧-٣٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٠٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٥٢).

أي: ما لكم سوى الله عزَّ وجلَّ أيُّ أحدٍ يتولَّاكم، فيَجلِب لكم الخير، وليس لكم سوى الله تعالى أيُّ أحدٍ ينصرُكم، فيدفع عنكم الشرَّ[١].

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨)﴾.

سبب النزول:

عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، قال: ((قال رافعُ بن حُرَيملةَ ووهْبُ بن زيدٍ لرسولِ الله: يا محمَّد، ائتنا بكتاب تُنزله علينا من السَّماء نَقرؤه، أو فجِّر لنا أنهارًا، نَتَّبعْك ونُصدِّقك، فأنزل اللهُ في ذلك: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾))[٢].

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾.

نَهى الله تعالى في هذه الآيةِ الناسَ، مؤمنهم وكافرهم، عن سؤال رسولِهم محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ- الذي أُرسل للناس كافَّةً- أسئلةَ تعنُّتٍ أو اعتراض، أو اقتراحٍ للآيات، كما كان سلَفُ اليهود يَسألون موسى عليه السَّلام أسئلةً من هذا القَبيل[٣].

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللهُ عَنْهَا وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ * قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ [المائدة: ١٠١- ١٠٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٠٧-٤٠٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٥١).

(٢) أخرجه ابن إسحاق في ((سيرة ابن هشام)) (١/ ٥٤٧)، وابن جرير في ((تفسيره)) (٢/ ٤٩٠)، وابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (١/ ٢٠٢).
جوَّد إسناده ابن حجر في ((العجاب)) (١/ ٣٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤١٣-٤١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٨٠-٣٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٥٣-٣٥٤).

وقال سبحانه: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا * وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٨٩ - ٩٣].

﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا كانت المسائلُ المنهيُّ عنها مذمومةً؛ فبعضها كفر، وبعضها قد تصِل بصاحبها إلى الكُفر، حذَّر الله تعالى من ذلك فقال[١]:

﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

أي: مَن أخذ الكفر عِوضًا عن الإيمان، فقد حادَ عن وسَط الطريق، وانحرَف إلى جوانبه التي تُفضِي به إلى طُرق الهلاك[٢].

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩)﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤١٤-٤١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٨١-٣٨٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٥٤).

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾.

أي: إنَّ كثيرًا من اليهود والنَّصارى يتمنَّون بكلِّ قلوبهم أن يرتدَّ المؤمنون عن دِينهم، فيَكفروا[١].

وقد سعَوا في ذلك، وأعمَلوا المكايد، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢].

وقال سبحانه عن المنافقين: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء: ٨٩].

﴿حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾.

أي: إنَّ تلك الأمنيةَ الصادرة عن كثيرٍ من أهل الكتاب؛ سببُها الحسدُ المتمكِّن والمتأصِّل في نفوسهم، للمؤمنين على ما آتاهم اللهُ تعالى من فَضلِه، بالهداية إلى دِينه القويمِ، وهذا الحسَد إنَّما صدَر منهم بعدَ أن تبيَّن لهم الحقُّ المبين[٢].

﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾.

أي: اتركوا عِقابَ أهلِ الكِتاب على مساوئ كلامِهم، وغلِّ قلوبهم، ومكْر أعمالهم؛ واترْكُوا لَومَهم ومعاتبتهم، وأَعْرِضوا عن ذلك كلِّه، وكأنَّ شيئًا لم يكُن[٣].

قال تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤١٨-٤١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٦٩-٦٧٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٢٠-٤٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٧٠-٦٧١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٥٨).

أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦][(١)].

﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ﴾.

أي: حتى يُحدِث اللهُ تعالى لكم من أمْره فيكم ما يشاء، ويَقضي فيهم ما يُريد، بما يَشفِي غليلَكم، ويُذهِب غيظَ قلوبِكم[(٢)].

وقد أتَى هذا الأمرُ لاحقًا، بقتال الكفَّار مِن أهل الكِتاب، أو أخْذ الجِزيةِ منهم؛ ونُسِخ الأمرُ بالعفو والصَّفح بقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩][(٣)].

عن أُسامةَ بنِ زيد رضِي الله عنه: ((أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ ركِب على حِمارٍ، عليه قَطيفةٌ فَدَكِيَّةٌ[(٤)]، وأسامةُ وَراءَه، يعودُ سعدَ بنَ عُبادَةَ في بني حارثِ ابنِ الخَزرَجِ، قبلَ وَقعةِ بدرٍ، فسارَا حتى مرَّا بمجلسٍ فيه عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ ابنُ سَلولَ، وذلك قبلَ أن يُسلِمَ عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ، فإذا المجلسُ أخلاطٌ منَ المسلمينَ والمشركينَ؛ عبدَةِ الأوثانِ، واليهودِ، وفي المسلمينَ عبدُ اللهِ بنُ رَواحَةَ، فلمَّا غَشِيَتِ المجلسَ عَجاجَةُ الدابَّةِ، خمَّر ابنُ أُبَيٍّ أنفَه بِردائِه وقال: لا تُغَبِّروا[(٥)] علينا، فسلَّم

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (١٥/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٧١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢ / ٤٢٣-٤٢٤) ((الناسخ والمنسوخ)) لابن حزم (ص:٢١)، ((الصارم المسلول)) لابن تَيميَّة (ص: ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٥٨).

(٤) فَدَكِيَّة: نِسبة إلى فَدَك، وهي قرية قريبة من المدينة.

يُنظر: ((مشارق الأنوار)) للقاضي عياض (١/ ٢٩٠)، ((الأنساب)) للسمعاني (١٠/ ١٥٠).

(٥) عَجاجة الدَّابَّة: هي الْغُبَار. وقَوْله: (لا تُغبرِّوا عَلينا)، أَي: لا تثيروا الْغُبَار. يُنظر: ((عُمدة القاري)) للعيني (٢٢/ ٢١٧).

رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ عليهم، ثم وقَف، فنزَل فدَعاهم إلى اللهِ، وقرَأ عليهمُ القرآنَ، فقال له عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ ابنُ سَلولَ: أيُّها المرءُ، لا أحسَنَ مِمَّا تقولُ إنْ كان حقًّا، فلا تؤذِنا به في مجالِسِنا، فمَن جاءك فاقصُصْ عليه. قال عبدُ اللهِ بنُ رَواحَةَ: بَلى يا رسولَ اللهِ، فاغشَنا في مجالِسِنا؛ فإنَّا نُحِبُّ ذلك، فاستَبَّ المسلمونَ والمشرِكونَ واليهودُ حتى كادوا يتَثاوَرونَ، فلم يزَلْ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ يُخَفِّضُهم حتى سكَتوا، ثم ركِب رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ دابَّتَه، فسار حتى دخَل على سعدِ بنِ عُبادَةَ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((أيْ سعدُ، ألم تَسمَعْ ما قال أبو حُبابٍ- يريدُ عبدَ اللهِ بنَ أُبَيٍّ- قال كذا وكذا)). فقال سعدُ بنُ عُبادَةَ: أيْ رسولَ اللهِ، بأبي أنت، اعفُ عنه واصفَحْ، فوالذي أنزَل عليك الكتابَ، لقد جاء اللهُ بالحقِّ الذي أنزَل عليك، ولقدِ اصطَلَح أهلُ هذه البَحرَةِ على أن يُتَوِّجوه ويُعَصِّبوه بالعِصابَةِ، فلمَّا رَدَّ اللهُ ذلك بالحقِّ الذي أعطاك شرِق بذلك، فذلك فعَل به ما رأيتَ. فعَفا عنه رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وكان رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ وأصحابُه يَعفُونَ عنِ المشركينَ وأهلِ الكتابِ كما أمَرهمُ اللهُ، ويَصبِرونَ على الأَذى؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ الآية. وقال: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾، فكان رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ يتَأَوَّلُ في العفوِ عنهم ما أمَره اللهُ به، حتى أذِن له فيهم، فلمَّا غَزا رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ بدرًا، فقتَل اللهُ بها مَن قتَل من صَناديدِ الكفَّارِ وسادَةِ قريشٍ، فقفَل رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ وأصحابُه منصورينَ غانِمينَ، معَهم أُسارى من صَناديدِ الكفارِ، وسادَةِ قريشٍ، قال ابنُ أُبَيٍّ ابنُ سَلولَ ومَن معَه منَ المشركينَ عَبَدَةِ الأوثانِ: هذا أمرٌ قد تَوَجَّهَ، فبايَعوا رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ على الإسلامِ، فأسلَموا))(١).

(١) رواه البخاري (٦٢٠٧).

﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى يَفعَل ما يشاء، فهو القويُّ والقادِر على ذلك، ولا يُعجِزه شيءٌ أبدًا(١).

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٠)﴾.

أي: حثَّ الله تعالى عِباده المؤمنين على الاشتغال بما ينفعُهم أكثرَ، وهو أداءُ الصَّلاة بحدودها وفروضها تامَّةً كما أمَر الله عزَّ وجلَّ، وإيتاء الزَّكاة كما شُرعت، ووعدهم بأنَّهم مهما فعَلوا من خير، فلن يَضيعَ، بل هو محفوظٌ ومدَّخَرٌ لهم عند البصير العليم، الذي لا تَخفى عليه خافيةٌ من أعمالهم الظاهِرة والباطِنة(٢).

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [النساء: ٧٧].

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١١١)﴾.

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾.

أي: وقالت اليهودُ: لن يَدخُلَ الجنَّةَ إلَّا مَن كان يهوديًّا، وقالت النَّصارى: لن يَدخُل الجنَّةَ إلَّا مَن كان نصرانيًّا(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٢٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٢٥-٤٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٨٣-٣٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٢٨-٤٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢).

﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾.

أي: إنَّ تلك الدَّعاوى التي يُطلقها اليهودُ والنَّصارى، إنَّما هي مجرَّدُ أباطيل وأمانيِّ نفوسٍ كاذبة، يتمنَّونها على الله تعالى بغير حقٍّ(١).

كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣].

﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

أي: هذا أمرٌ من الله تعالى لرسوله محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ بدعاء أصحاب تلك الدَّعوى من اليهود والنَّصارى، إلى إحضار الحُجَّة على دَعواهم تلك، إنْ كانوا محقِّين فيما يزعمون(٢).

﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢)﴾.

﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾.

أي: ليس الأمرُ كما قال الزَّاعمون بأمانيِّهم: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾، ولكن مَن أخلص العملَ لله تعالى وحْدَه لا شريكَ له، وهو مع إخلاصه فيه مُتَّبِع لشريعة النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٢٩-٤٣١)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٩٢)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٦٦-٣٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٣١-٤٣٣)، ((الاستقامة)) لابن تَيميَّة (٢/ ٣٠٥-٣٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣).

وممَّن قال من السَّلف: إنَّ معنى ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ﴾، أي: أخلص لله: أبو العالية، والرَّبيع، وسعيد ابن جُبَير. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٢٠٨).

﴿فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

أي: إنَّ للمسلمِ وجهَه لله تعالى مُحسِنًا، ثوابَه على ذلك عند الله عزَّ وجلَّ، فهم أهل الجَنَّة وحْدهم، آمِنون؛ فلا خوفَ عليهم ممَّا يستقبلونه من أمور الآخِرة، وهم في سُرور دائم؛ فلا يَحزنون على ما فاتهم من أمور الدُّنيا، فحصَل لهم المرغوب، ونجَوْا من المرهوب(١).

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١١٣)﴾.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾.

أي: ضلَّل وكفَّر بعضُهم بعضًا، فادَّعى أهلُ كلِّ دِينٍ منهم، أنَّ دِين الآخَر باطل، ليس فيه شيءٌ من الحقِّ مطلقًا(٢).

﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾.

أي: والحال أنَّ هؤلاء المدَّعين من اليهود والنصارى، يَقرؤون كتُبَهم ويعلمون ما فيها من الحقِّ، فيقرأ اليهود التوراة، ويقرأ النَّصارى الإنجيل، وكِلا الكِتابينِ شاهدانِ عليهما؛ فهما يقولان بخِلاف ما يقولون؛ فالإنجيل يَتضمَّن صِدقَ موسى وتقريرَ التوراة، والتَّوراة تتضمَّن التبشيرَ بعيسى وصِحَّة نبوَّته، وكِلاهما يتضمَّنان

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٣٣-٤٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٦٩-٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٣٥-٤٣٦)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٩٨)، ((الجواب الصحيح)) لابن تَيميَّة (١/ ١١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣).

صِدقَ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ فكيف يدَّعي كلٌّ منهما أنه ليس في دِين الآخر شيءٌ من الحقِّ مطلقًا(١)؟!

﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾.

أي: أخبَرَ الله تعالى عن قوم نفَى عنهم العِلم بما كانت اليهودُ والنصارى به عالِمين، أنَّهم قالوا -بسبب جهلِهم- نظيرَ ما قاله اليهودُ والنَّصارى بعضُهم لبعض، من أنَّهم ليسوا على شيءٍ من الحقِّ، وهذا تعريضٌ من الله تعالى بهؤلاء اليهود والنَّصارى؛ زيادةً في التشنيع على ما قالوه لبعضهم، حيث اشتَركوا وهم أهلُ كتاب، مع أهلِ الجَهالة في المقالة نفْسها(٢).

﴿فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

أي: إنَّ الحَكَم العدل سبحانه وتعالى، يتوعَّد هؤلاءِ المختلِفين- القائِلِ بعضُهم لبعض: لستُم على شيء من الحقِّ- بأن يقضيَ ويَفصِل بينهم يومَ تقومُ الساعة، ويقومُ الناس من قُبورهم، وأنَّه سيَجزي كلَّ مبطل على باطله؛ فإنَّه لا نجاةَ لِمَن لم يؤمِن بجميع الأنبياء والمرسَلين عليهم الصَّلاة والسَّلام(٣).

الفوائد التربويَّة:

١- أنَّ الإيمان مقتضٍ للأخلاق الفاضِلة؛ لأنَّ مراعاة الأدب في اللَّفظ من الأخلاق الفاضِلة، وقد أمَرَ الله تعالى بها، مخاطبًا بذلك أهلَ الإيمان، فقال: ﴿يَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٣٩-٤٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٨٦-٣٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٧٨).

أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾[1].

٢- من الأدَب الحِرصُ على اختيار الألفاظ الحسَنة، ومِن ذلك تجنُّب الألفاظ التي تُوهِم سبًّا، وشتمًا؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا﴾[2].

٣- أنَّ خيرَ الله تعالى لا يَجلِبه ودُّ وادٍّ، ولا يردُّه كراهةُ كارهٍ؛ لقوله: ﴿وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾[3].

٤- يجب على المسلم الحذرُ من كلِّ تصرُّف يصدُر عن اليهود والنصارى، والمشركين عمومًا، مع اتِّخاذهم أعداءً؛ ولذا يحرُم على المسلمين أن يُوَلُّوا الكفَّارَ أيَّ قيادة؛ لأنَّهم ما داموا لا يودُّون للمسلمين الخيرَ، فلن يقودوهم له، مهما كان الأمرُ، كما قال تعالى: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٠٥][4].

٥- مراعاةُ الأحوال، حيثُ قال تعالى: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ﴾[5].

٦- في قوله تعالى: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ﴾ بِشارةٌ للمؤمنين بأنَّ الله سبحانه وتعالى سيغيِّر حالَهم المقتضية للعفو والصَّفح، إلى قوَّةٍ يَستطيعون بها جِهادَ العدوِّ[6].

٧- إقام الصلاة لا يعني مجرَّد أدائها، وإنما هو القيام بحقوقها الرُّوحيَّة في صورتها العَمليَّة، وذلك بالتوجُّه إلى الله سبحانه، ومناجاتِه، والانقطاعِ إليه عمَّا عداه، وإشعار القلْب بعظمته وكبريائه، فبهذا الشُّعور ينمو الإيمان، وتَقوى الثقةُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٣٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٤١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٤٢).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٦١).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٦٢).

بالله تعالى، وتتنزَّه النَّفسُ عن أن تأتيَ الفواحش والمُنكَرات، وتستنير البصيرةُ؛ فتكون أقوى نفاذًا في الحق، وأشدَّ بُعدًا عن الأهواء، فنفوس المصلِّين جديرة بالنَّصر؛ لِمَا تُعطيها الصَّلاة من القوَّة المعنويَّة، ومن الثِّقة بقُدرة الله عزَّ وجلَّ(١).

٨- أنَّ إقامة الصَّلاة، وإيتاء الزَّكاة من أسباب النَّصر؛ لأنَّ الله ذكَرها بعد قوله: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ﴾ [البقرة: ١٠٩]؛ وقد جاء ذلك صريحًا في قوله تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠-٤١](٢).

٩- أنَّ مَن اغترَّ بالأماني، وطمِع في المنازل العالية بدون عملٍ لها، ففيه شَبَهٌ من اليهود، والنَّصارى، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾(٣).

١٠- في قوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ...﴾ التحذير من التعصب في الدين والترامي بالكفر، وتفريق كلمة المسلمين، والله تعالى قد أمر بالجماعة والائتلاف، ونهى عن الفرقة والاختلاف، وقد امتاز أهل الحق، من هذه الأمة بالسنة والجماعة، عن أهل الباطل الذين يزعمون أنهم يتبعون الكتاب ويعرضون عن سنَّة رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وعما مضى عليه المسلمون(٤).

الفوائد العلميَّة واللَّطائف:

١- أنَّ أحكام الله سبحانه وتعالى تختلفُ في الخيريَّة من زمانٍ إلى زمان؛ فقد يكون الحُكم خيرًا للعباد في وقت، ويكون غيرُه خيرًا لهم في وقتٍ آخَر، كما قال سبحانه

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١/ ٣٤٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٦٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٦٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٢٦).

وتعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾[١].

٢- أنَّ القادر على تغيير الأمور الحِسيَّة قادرٌ على تغيير الأمور المعنويَّة كذلك؛ فكما أنَّ الله تعالى قادرٌ على تغيير الأمور الكونيَّة، فهو كذلك قادرٌ على تغيير الأمور الشرعيَّة؛ لقوله تعالى بعد ذِكر النَّسخ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٢].

٣- ذِكر ما يَطمئنُّ به الإنسان حين يُخشى أن يُقلِق الأمرُ فِكرَه ويَشغل قلبَه؛ لقوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾[٣].

٤- تأكيد ذمِّ الأسئلة المتعنِّتة؛ لقوله تعالى: ﴿رَسُولَكُمْ﴾؛ فكأنَّه يعني أنَّه لَمَّا كان رسولكم، فالذي ينبغي منكم تُجاهَه عدمُ إعْناته بالأسئلة[٤].

٥- عِلم اليهود والنصارى بأنَّ الإسلام مَنقبةٌ عظيمة لمتَّبعه؛ لقوله تعالى: ﴿حَسَدًا﴾؛ لأنَّ الإنسان لا يُحسد إلَّا على شيء يكون خيرًا، ومنقبةً عظيمة، ويدلُّ على ذلك، قوله تعالى: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٠٥][٥].

٦- بيان خُبث طويَّة هؤلاء الذين يودُّون وقوعَ المسلمين في الكُفر؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾، فليس هذا صادرًا من كتاب، ولا مِن إساءة المسلمين إليهم، ولكنَّه من عند أنفسهم؛ فهي أنفُسٌ خبيثة تودُّ الكفرَ للمسلمين حسدًا[٦].

٧- عدلُ الله عزَّ وجلَّ في مخاطبة عِبادِه، حيث قال سبحانه: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾؛ لأنَّ هذا من باب مراعاة الخَصم، وأنَّه إنْ كان لكم بيِّنة فهاتوها؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٤٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٥٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٥٥).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٦٠).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٦٠).

وهذا- لا شكَّ- من أبلغِ ما يكون من العدْل، وإلَّا فالحُكم لله العليِّ الكبير، وهؤلاء لا بُرهان لهم على ما ادَّعَوه بدليل أنَّهم لم يأتوا به(١).

٨- أنَّ أهلَ الجنة هم الذين جمَعوا بين وصفينِ؛ الأوَّل: الإخلاص لله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾؛ والثاني: اتِّباع شرْعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾(٢).

٩- عِظم الثواب؛ لإضافته إلى الله الوهَّاب، في قوله تعالى: ﴿عِنْدَ رَبِّهِ﴾(٣).

١٠- انتفاء الخوفِ والحزن لِمَن عبَدَ اللهَ عزَّ وجلَّ بهذين الوصفين؛ وهما الإخلاص والمتابعة، كما قال تبارك وتعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٤).

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾: فيه الافتتاح بحسن النِّداء، وإثبات وصْف الإيمان لهم؛ للإعانة على الاستجابة للأمر بعد النِّداء(٥).

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٦٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٧٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٧١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٥٦٦-٥٦٧)؛ فقد قال: (وقد تضمَّنت هذه الآيات الشريفة أشياء؛ منها: افتتاحها بحُسن النداء، وإثبات وصف الإيمان لهم، وتنبيههم على تعلم أدب من آداب الشريعة، بأنْ نُهوا عن قول لفظ؛ لإيهام ما إلى لفظ أنصَّ في المقصود، وأصرحَ في المطلوب. ثم ذكر ما للمخالف من العذاب الذي يذلُّه ويُهينه. ثم نبَّه على أنَّ هذا الذي أُمرتم به هو خير، وأنَّ الكفار لا يودُّون أن ينزل عليكم شيء من الخير. ثم ذكر أنَّ ذلك ليس راجعًا لشهواتهم، ولا لتمنيهم، بل ذلك أمر إلهي يختصُّ به من يشاء، وأنه تعالى هو صاحب الفضل الواسع. ولَمَّا كان صدر الآية فيه انتقال من لفظ إلى لفظ، وأن الثاني صار أنص في المقصود بين أن ما يفعله الله تعالى من النسخ، فإنما ذلك لحكمة منه، فيأتي بأفضل مما نسخ أو بما ماثله. وأن من كان قادرا على كل شيء، فله التصرف بما يريد من نَسْخ وغيره. ونبَّه المخاطَب على عِلمه بقُدرة الله تعالى، وبملكه الشامل لسائرِ المخلوقات، وإنما نحن ما لنا من دونه من مانعٍ يمنعنا منه).

٢- في قوله: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا﴾ بُدِئ بالنهي؛ لأنَّه أسهل؛ لأنَّه من باب التروك، ثم أُتي بالأمر بعده الذي هو أشقُّ؛ لحصول الاستئناسِ قبلُ بالنَّهي(١).

٣- قوله: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

- فيه: الإظهار في موضع الإضمار في قوله ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾؛ للدَّلالة على سبَب العذاب، وأنَّ سبَّ الرسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم كُفرٌ، ولبيان أنَّ هذا العذاب يعمُّ كلَّ كافر(٢).

- وفيه: تقديم الجار والمجرور ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾؛ للتَّخصيص أو التقوية(٣).

- وفيه جاء تنكير (عذاب) للتهويل والتخويف، وجاء وصفه بصيغة فعيل ﴿أَلِيمٌ﴾؛ للدَّلالة على شدَّته، والمبالغة في الوصف(٤).

٤- قوله: ﴿أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾

- فيه تقديم الجار والمجرور ﴿عَلَيْكُمْ﴾؛ للاختصاص، وتقوية المعنى، ولإظهار كامل العناية بشأن المُنزَل والمُنزَل عليه(٥).

٥- في قوله: ﴿وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾

- فيه تأكيدُ الخبر بالجملة الاسميَّة (وَاللهُ يَخْتَصُّ - وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ) التي تدلُّ على الثُّبوت، والتعبير بالمضارع (يختصُّ) لتحقيقِ الوُقوع واستمراره أيضًا(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٥٤٢).
(٢) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٤٨)
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٦)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٣٠).
(٥) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٥٠).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٧٥).

- وفيه: وضْع الظاهر ﴿وَاللهُ ذُو﴾ موضِعَ الضمير (وهو ذو)؛ للتعظيم، ولتحصل خشيةُ الله تعالى، وتقَع هيبتُه في نفوس عباده[1].

٦- في قوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ...﴾

- الاستفهام في الآيتَينِ دخَل على النَّفي؛ لذا فهو للتقرير[2].

- والخِطاب في (تعلم) ظاهره للواحِد - وهو النبي صلَّى الله عليه وسلَّم - والمراد إمَّا خطاب لغير معيَّن، بتَشبيه مَن ليس حاضرًا للخطاب (الغائب) منزلةَ المخاطَب، بحيث يصير مخاطبًا؛ لشهرة هذا الأمر، وليعمَّ كلَّ مخاطَب صالح له، فيشمل هذا الخطاب ابتداءً اليهودَ والمشركين، ومَن عسى أن يشتبه عليه الأمر، وتروج عليه الشبهة من ضعفاء المسلمين، وإمَّا المراد به ظاهِره وهو الواحِد، فيكون المخاطَبُ هو النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم، لكنَّ المقصودَ منه المسلمون، فينتقل من خِطاب النبيِّ إلى مخاطبة أمَّته على طريق الانتقال الكِنائيِّ، والمقصد من تلك الكِناية التعريضُ باليهود، وهذا أبلغُ وأوجزُ في لفظ الضَّمير من أن يُؤتَى بضمير الجماعة المخاطبين[3].

- وفيه التفاتان: **أحدُهما**: خروجٌ من خِطاب جماعةٍ في قوله: ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ إلى خطاب الواحد في قوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾، **والثاني**: خروجٌ من ضميرِ المتكلِّم المعظِّمِ نفسَه في قوله: ﴿مَا نَنْسَخْ... نُنْسِهَا نَأْتِ...﴾: إلى الغَيْبَةِ بالاسمِ الظاهر في قوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ...﴾ فلم يقل: (ألم تعلموا أننا)[4].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٥٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٦٤-٦٦٥).

(٤) يُنظر: ((الدر المصون)) للسَّمين الحلبي (٢/ ٦٢).

- وفيه وضْع الاسمِ الجليلِ في قوله تعالى: (أنَّ الله) موضعَ الضَّميرِ في (أنَّه)؛ لتربية المهابة[1].

٧- قوله: ﴿إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ خبر فيه من الوعيد والتهديد ما لا يَخفى[2]. مع ما فيه من تأكيد الخبر بإنَّ، واسميَّةِ الجملة، وتقديمِ ما حقُّه التأخيرُ ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[3].

٨- قوله: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ فيه لَفٌّ ونَشْر؛ إذ المعنى: وقالت اليهود: لن يَدخُل الجنة إلا مَن كان هودًا، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلَّا مَن كان نصارى، فلفَّ بين القولين[4].

٩- قوله: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ جمعَ الخبر (أمانيهم)، مع أن قولهم: (لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ) أمنية واحدة؛ لأنهم لشدة تمنيهم لهذه الأمنية، ومعاودتهم لها، وتأكدها في نفوسهم جُمِعت، ونظيره قولهم: معًا جياع، فجمَعوا الصفة ومؤدَّاها واحد؛ لأنَّ موصوفها واحد، وهذا من نفائس صناعة البيان[5]. وقيل: لأنَّ (تلك) كناية عن المقالةِ، والمقالةُ في الأصلِ مصدرٌ، والمصدرُ يقع بلفظِ الإفرادِ للمفردِ والمثنَّى والمجموعِ، فالمرادُ بـ(تلك) الجمعُ من حيث المعنى[6].

١٠- قوله: ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُه عِنْدَ رَبِّهِ﴾ في كلمة ﴿رَبِّهِ﴾ وضع اسم الربِّ مضافًا إلى ضمير (مَن أسلمَ) موضِعَ ضمير لفظ الجلالة

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١٠١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢/ ١١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٧٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنير)) (١/ ١٧٧)، ((تفسير القاسمي)) (١/ ٣٧٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ١٦٩).

(٦) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٧٠).

(الله)؛ لإظهار مزيد اللطف، وتقرير مضمون الجملة(١).

١١- قوله: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فيه التأكيد باسميَّة الجملة، وبذكر ضَمير الفَصل ﴿هُمْ﴾، وفيه اختصاصٌ وتقويةٌ للحُكم(٢).

١٢- قوله: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ خبرٌ مرادٌ به التوبيخ والوعيد، وناسب المجيء بالفاء ﴿فَاللَّهُ﴾؛ لأنَّ التوعُّد بالحكم بينهم يوم القيامة، وإظهار ما أكنته ضمائرهم من الهوى والحسد- متفرِّع عن هذه المقالات ومسبَّب عنها، والجملة تذييل(٣).

- وفيه: تقديم الظرف ﴿فِيهِ﴾ على متعلِّقه ﴿يَخْتَلِفُونَ﴾؛ للاهتمام به، ولمراعاة فواصل الآيات(٤).

---

(١) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٧٨).

والتذييل: هو تعقيب الجملة بجملة تشتمل على معناها؛ للتوكيد، أو بتعبير آخَر: هو أن يُؤتَى بعد تمام الكلام بكلامٍ مستقلٍّ في معنى الأوَّل؛ تحقيقًا لدلالة منطوق الأوَّل أو مفهومه؛ ليكون معه كالدليل؛ ليظهر المعنى عندَ مَن لا يفهم، ويَكمُل عند مَن فَهِمه، كقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا﴾ ثم قال عزَّ مِن قائل: ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ [سبأ: ٧١]. يُنظر: ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (٣/ ٥٠٢)، ((البرهان)) للزركشي (٣/ ٨٦ - ٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٧٨).

الآيات (١١٤-١١٩)

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿فَثَمَّ﴾: أي: هنالك(١).

﴿بَدِيعُ﴾: مُبدِع، ومبتدئ، وأصله: ابتداء الشيء وصُنعه لا عن مِثال سابق(٢).

﴿بَشِيرًا﴾: أي: مبشِّرًا، وأصل (بشر) يدلُّ على ظهور الشَّيء مع حُسن وجمال، ومنه البِشارة، ولا تكونُ البشارة عند إطلاق الكلام إلَّا بالخَير، وقد تُقيَّد وتُحمَل على الشرِّ(٣).

---

(١) يُنظر: ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٣٩).

﴿نَذِيرًا﴾: أي: مُنذِرًا، وأصل (نذر) يدلُّ على تخويف[1].

المعنى الإجمالي:

يُخبِر الله تعالى أنَّه لا أحدَ أشدُّ تعدِّيًا على حدوده ممَّن منَع ذِكرَه في بيوته، وبذَل جهدًا في إفسادها، وهؤلاء جعَل الله سبحانه وتعالى عقابَهم بأنْ حرَمَهم من دخولها، إلَّا على وجه الخوف من الله، أو من عِباده المؤمنين، ولهم مع ذلك ذلٌّ وعارٌ في الدنيا، وأمَّا في الآخِرة، فلهم عقوبةٌ عظيمة.

ثمَّ أخبَر سبحانه عن عظيم مُلكه، وأنَّ له مُلكَ الدنيا كلها مشرقها ومغربها ومُلك ما بينهما؛ فأينما حوَّل الإنسانُ وجهَه فهناك وجه الله.

ثم ذكَر سبحانه النَّصارى الذين يزعمون أنَّ المسيح ابن الله، تعالى الله عمَّا يقولون علوًّا كبيرًا، بل له جميعُ ما في السَّموات والأرض، وكلُّهم بلا استثناء عبيدٌ له، مدبَّرون منقادون؛ فكيف يكون له ولدٌ منهم؟! تنزَّهَ عن ذلك وتقدَّسَ.

ثم أخبر أنَّه هو سبحانه مَن أوجد السَّمواتِ والأرضَ على غير مثال سابقٍ؛ فالذي قدَرَ على إيجادهما من العدم مع عظمتِهما، قادرٌ على إيجادِ ما دونهما؛ فكيف يُخرِجون عيسى عن قُدرته وإبداعه، ويَجعلونه جزءًا منه سبحانه؟!

ومِن صِفاته جلَّ وعلا أنَّه إذا أراد شيئًا، فإنَّما يقول له: كن فيكون، فمَنْ يدبِّر الأشياءَ بكلمته جلَّ وعلا لا يحتاجُ إلى توليد الأشياءِ منه؛ فكيف يجعلون عيسى ولدًا له؟! وإنَّما عيسى عليه السَّلام من مخلوقاته التي خلقَها بكلمة «كن».

ثمَّ أخبر تعالى عن مشركِي العرب الأميِّين، الذين ليس لديهم ما لدى أهل الكِتاب من العِلم، أنَّهم قالوا: هلَّا يكلِّمنا الله، أو تأتينا معجزةٌ؟! وذلك ليصدِّقوا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٨٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٢).

بمحمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فشابهوا بهذا القول الأُممَ السابقةَ من اليهود والنصارى؛ فقد قالوا كقولهم، وذلك نتيجة تشابُه قلوب الكفَّار في ردِّهم الحقَّ وتعنُّتهم، ثم أخبر الله تعالى أنه قد أظْهَر العلاماتِ الدالَّةَ على صِدق رُسله- ومنهم محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ- بما لا يُحتاج معه إلى سؤال آخَر، لكن ذلك التبيِّن لا يستفيد منه إلَّا الذين يوقِنون.

ثمَّ خاطَب اللهُ عزَّ وجلَّ نبيَّه محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ، بأنَّه قد أرسله بالحقِّ، مبشرًا مَن أطاع بالفلاح والسَّعادة في الدَّارين، ومنذِرًا مَن عصى بالشقاء فيهما، وأعْلَمه أنَّه -بعدَ بيان ما أُمِر ببيانه من الحقِّ- ليس مؤاخذًا بمَنْ بقِي منهم على كُفره.

تفسير الآيات:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١٤)﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾.

أي: لا أحدَ من المانعين شيئًا، أشدُّ جَراءةً وتعدِّيًا على حدود الله عزَّ وجلَّ ممَّن منَعَ العبادة في بيوت الله تعالى، واجتهد وبذَل وُسعَه في إفسادها حسيًّا ومعنويًّا[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٤١، ٤٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥١٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٥-٦).

واختلف المفسِّرون فيمَن عنى الله تعالى بهذه الآية الكريمة، وذلك على أقوال؛ منها: أنَّ المعنيِّين بها، مشرِكو قريش الذين صدُّوا الرسول صلَّى الله عليه وسلَّمَ وصحابتَه رضي الله عنهم عن الدخول للمسجد الحرام، يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٧٨).

وممَّن قال من السَّلف بهذا القول: ابن عبَّاس -في رواية عنه- وابن زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٤٤)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٢١٠).

وقيل: المعنيُّون بها: النصارى؛ وذلك أنَّهم سعَوْا في خراب بيت المقدس، وأعانوا بُخْتُنَصَّر على =

﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾.

أي: قد منَع اللهُ تعالى أولئك الذين يسعَون في خراب بيوت الله تعالى حسيًّا ومعنويًّا، منْ أنْ يدخلوها إلَّا وقلوبهم وجِلة؛ خوفًا من عقوبة إلهيَّة تحلُّ بهم، أو خوفًا من المؤمنين أن يعاقبوهم تسليطًا من الله تعالى لهم(١).

﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

أي: لأولئك الذين تقدَّمت صِفتُهم في هذه الآية، ذلٌّ وعارٌ يحلُّ بهم في الدُّنيا، من قَتْلٍ، أو سَبيٍ، أو جزيةٍ، أو فضيحةٍ، أو غير ذلك، أمَّا في الآخرة فلهم عقوبةٌ عظيمة(٢).

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١١٥)﴾.

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾.

أي: إنَّ لله تبارك وتعالى مُلكَ الجِهة التي تطلُع منها الشَّمس، ومُلك الجِهة التي تَغيب منها، وله مُلك جميع ما بينهما من الجِهات والمخلوقات(٣).

﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾.

= ذلك، ومنَعوا مؤمني بني إسرائيل من الصَّلاة فيه بعد مُنصرَف بُختنصَّر عنهم إلى بلادِه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٤٤).

وممَّن ذهَب إلى هذا القول من السَّلف قتادة، والسُّدِّي، والحسن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٤٢). و((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٢١٠).

وقيل: الآية على عمومها شامِلة لجميع مَن اتَّصف بذلك. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٤٦)، ((شرح عمدة الفقه-كتاب الصلاة)) لابن تَيميَّة (ص: ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٨١).

(٢) قال بهذا المعنى: ابن جرير في ((تفسيره)) (٢/ ٤٤٧- ٤٤٨)، وابن كثير في ((تفسيره)) (١/ ٣٩٠)، وابن عثيمين في ((تفسير الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٥٥-٤٥٦)، ((مختصر الصواعق لابن القيم)) للبعلي (ص: ٤١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٢-١٣).

أي: إنَّكم حيثما كنتم وتوجَّهتم في صلاتكم نحو الجهة التي شرعها الله تعالى، فإنكم تتَّجهون إلى الله عزَّ وجلَّ في الحقيقة؛ لأنَّ المصلِّي إذا توجَّه إلى القبلة، فقد استقبل وجه الله سبحانه حقيقةً[1].

وقيل المعنى: إنَّكم مهما حوَّلتم وجوهَكم إلى ناحيةٍ ما، فهنالك وجهُ الله تعالى، وسواء كان ذلك لأجْل استقبال القِبلة في الصَّلاة أو لا، في الحضَر أو السَّفر، أو لغير ذلك من أحوال[2].

﴿إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: ختَم الله سبحانه هذه الآيةَ باسمين دالَّين على الإحاطة، فالله عزَّ وجلَّ واسعُ الرَّحمة والمغفرة والعِلم، واسع الجُود والعطاء، وغير ذلك من صِفاته الحُسنى، وهو ذو عِلمٍ محيطٍ بكلِّ شيء، لا يَغيب عن عِلمه شيء أبدًا[3].

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (١١٦)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٣-١٤).
ويُنظر: ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٦/ ١٦-١٧)، ((مختصر الصواعق لابن القيم)) للبعلي (ص: ٤١٦، ٤١٨، ٤١٩).

(٢) يُنظر: ((مختصر الصواعق لابن القيم)) للبعلي (ص: ٤١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٥٧، ٤٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٤).
قال ابن تيميَّة: (هذه الآية تدلُّ على جواز استقبال جميع الجِهات؛ نُسخ ذلك في حقِّ العالِم القادِر في صلاة الفرد، فيَبقى في حقِّ الجاهل بالقِبلة والعاجز عن استقبالها لخوفٍ ونحوه في حقِّ المتنفل في السَّفر لم يُنسخ؛ وهذا لأنَّ الأصل جواز استقبال الوجه إلى جميع الجِهات، لكن إذا لم يكُن بُدٌّ من الصَّلاة إلى واحدة منها، عيَّن الله سبحانه لنا استقبالَ أحبِّ الوجوه إليه، وأوْجب ذلك، فإذا تعذَّر ذلك بالجهل وبالعجز، سقَط هذا الوجوب حينئذٍ؛ لأنَّ الإيجاب حينئذ مُحالٌ) ((شرح عمدة الفقه-كتاب الصلاة)) (١/ ٥٤٣-٥٤٤).
ويُنظر: ((نواسخ القرآن)) لابن الجوزي (١/ ٢٠٨)، ((الناسخ والمنسوخ)) للنحاس (ص: ٧٨).

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾.

أي: قالت النصارى بزعمهم: المسيح ابن الله(١).

﴿سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

أي: يتنزَّه الله ويتعالى علوًّا كبيرًا عن أن يكون له ولد، وليس الأمر كما افتروا، فهو سبحانه مالك جميع ما في السموات وجميع ما في الأرض، وهو خالقهم ومصرفهم كيف شاء، هو الغني وهم الفقراء، والجميع عبيد له بلا استثناء، فكيف يكون له ولد منهم؟! والولد إنما يكون متولدًا من شيئين متناسبين، كما أن الولد بعض الوالد وشريكه، فلا يكون مخلوقًا ومملوكًا له؛ لأن المخلوق مملوك مربوب، والابن نظير الأب، فكيف يكون مخلوقه ومملوكه بعضه ونظيره؟ والله تبارك وتعالى ليس له نظير، ولا مشارك في عظمته وكبريائه، فكيف يكون له ولد(٢)؟!

﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾.

أي: إنَّ كلَّ أحد لا يخرُج عن مشيئته وقُدرته ومُلكه سبحانه، بل الجميع - حتى مَن ادُّعِيت بُنوَّتُه لله تعالى كعيسى عليه السَّلام - عبيدٌ مقهورون مُدبَّرون، وهم منقادون وخاضِعون للنواميس الإلهيَّة في أبدانهم وغيرها، طوعًا أو كرهًا(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٠١).
قال ابن كثير: (اشتملت هذه الآية الكريمة، والتي تليها على الرد على النصارى -عليهم لعائن الله- وكذا من أشبههم من اليهود ومن مشركي العرب، ممن جعل الملائكة بنات الله) ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٦١)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٦٣)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٨٥).
وممَّن ذهب من السَّلف إلى نحو هذا القول: ابن عبَّاس، قتادة، ومجاهد، والسُّدِّي، وعكرمة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٦٢).

كما قال تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [يونس: ٦٨-٦٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [النساء: ١٧١].

وقال سبحانه: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ١-٢].

﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (١١٧)﴾.

أي: إنَّ مَن أوجد هذه السَّمواتِ والأرضَ مِن العدم، وأحْسَن خلقهما على غيرِ مِثالٍ سابقٍ مع عِظمهما وآياتهما الباهِرة، فهو قادرٌ على خَلْق ما دونهما؛ فكيف يُخرجون عيسى عليه السَّلام عن قُدرته وإبداعه، ويجعلونه نظيرًا وشريكًا وجزءًا مِنه سُبحانه جلَّ شأنُه؟! فإنَّ مبدِع العالَم العُلويِّ والسُّفليِّ لا يُعجزه أن يخلُق عبدَه بقدرته، من غير أبٍ؛ فكيف يدَّعون أنَّه ولدُه[1]؟!

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا للهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ * بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠٠-١٠١].

﴿وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

أي: إنَّه سبحانه إذا أراد شيئًا، فحسبُه أن يقول له: كن، فيكون ذلك الشيء

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٦٥)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٣٢)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٩٩).

على وَفقِ ما يُريد الله تبارك وتعالى، ومن ذلك خَلْق المسيح عيسى عليه السَّلام، فقد خلَقَه بكلمة كن، وهذا منافٍ للتوليد؛ فمَن يدبِّر الأشياء بمجرَّد كلمته، ليس كمَن يحتاج إلى توليدِ الأشياء منه، فكيف يُوصَف بالتولُّد سبحانه، وهو في جميع ما يَقضيه إنَّما يقول له: كن، فيكون(١)؟!

كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ للهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [مريم: ٣٤-٣٥].

وقال سبحانه: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

وقال جلَّ وعلا: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨١-٨٢].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨)﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾.

أي: قال مُشرِكو العرب: هلَّا أَوحى الله عزَّ وجلَّ إلينا كما أَوحى إلى رُسله؟ أو يكلِّمنا بتصديق رسوله محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ؟ أو تأتينا معجزةٌ دالَّة على صِدق ما جاء به؟ وهذا الطَّلب قد صدَر منهم على سبيل التعنُّت والعِناد، وإلَّا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٧٣)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تَيميَّة (٧/ ٣٧٤)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيِّم (٤/ ١٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٩٩).

فقد جاءتْهم آيات كثيرة دالَّة على صِدق بِعثة النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، ومنها القرآن الكريم(١).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٠ - ٩٣].

﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾.

أي: قولهم ذلِك مطابقٌ لقول مَن قَبلهم من الأُمم السابقة من اليَهود والنصارى وغيرِهم(٢).

قال الله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣].

﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٨٩).

وممَّن قال من السَّلف بأنَّ المقصودَ بالذين لا يعلمون: مشركو العرب: أبو العالية، وقَتادة، والرَّبيع ابن أنس، والسُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٧٤)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٨٩).

أي: قلوبُ الكفَّار متشابهةٌ في ردِّ الحق، والعِناد والتعنُّت؛ ولذا جاءتْ أقوالهم متوافقةً، وإن اختلفت مذاهبُهم وأساليبهم في ذلك[1].

كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢-٥٣].

﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

أي: قد أَظهَرْنا ووضَّحنا العلاماتِ الدالَّاتِ على صِدق الرُّسل عليهم السَّلام- ومنهم محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ- بما لا يُحتاج معها إلى سؤالٍ آخَر، ولكنْ ذلك لِمَن كان اليقين من خِصالهم الدَّائمة؛ فهم يَتثبَّتون ويستوثقون، ويطلُبون معرفةَ حقائق الأشياء إلى درجة اليقين[2].

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١١٩)﴾.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾.

أي: يُخاطب الله تعالى نبيَّه محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ، مؤكِّدًا له بأنَّه قد أرسله بالحقِّ، فبِعثتُه حقٌّ، وما جاء به من عند الله عزَّ وجلَّ حقٌّ، وقد أرسله تعالى لعموم المكلَّفين من الإنس والجن، والحال أنَّه مبشِّر مَن أطاعه بنيل السَّعادة في الدنيا والآخِرة، ومحذِّر ومُخوِّف مَن عصاه بالشَّقاوة في الدُّنيا والآخِرة[3].

﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٩٠-٦٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٩١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٦-٢٧).

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: ﴿تُسْأَلُ﴾ قِراءتان:

١- (تَسْأَلْ) بفتح التاء، وجزْم اللام، على النهي عن السُّؤال عن ذلك أي: لا تَسألْ يا محمَّدُ، عنهم؛ فقد بَلَغوا غاية العذاب[1].

٢- (تُسْأَلُ) بضمِّ التاء والرَّفْع، أي: إنَّك لا تُسأل عن الكفَّار: ما لهم لم يُؤمِنوا؛ لأنَّ ذلك ليس إليك[2].

﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾.

أي: إنَّك لستَ مؤاخَذًا يا محمَّد، على بقاء الكفَّار -أصحاب النار الملازِمين لها- على كُفرهم؛ فلن تُسألَ عنهم بعد أنْ بلَّغتَهم بالحقِّ؛ فإنَّما عليك البلاغ فحسبُ، وحِسابهم على الله عزَّ وجلَّ. ولا تَسألْ يا محمَّد، عمَّ لأولئك من العذاب؛ فإنَّهم في حالٍ من الفظاعة والشَّناعة لا يتصوَّرها عقلُ إنسان؛ وذلك لشدَّةِ ما أُعِدَّ لهم من العذاب العظيم[3].

كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ للهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢٠-٢١].

الفوائد التربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾،

---

(١) قرَأَ بها نَافِعٌ وَيَعْقُوبُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٢١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الكشف)) لمكي (١/ ٢٦٢). ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٥٨٩).

(٢) قَرَأَ بها الْبَاقُونَ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٢١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الكشف)) لمكي (١/ ٢٦٢). ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٥٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٩٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٧-٢٨).

إشارةٌ إلى أنَّ ذِكر الله تعالى باللِّسان لا بدَّ أن يكون باسمِه، أمَّا ذِكرُه بالضمير المفرَد فبِدعة، وليس بذِكر، مِثل طريقة بعض الصوفيَّة، الذين يقولون: أفضل الذِّكر أن تقول: (هو، هو، هو)(١).

٢- تَسليةُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ لأنَّ الإنسان المصاب إذا رأى أنَّ غيره أُصيب، فإنَّه يتسلَّى بذلك، وتخفُّ عليه المصيبة؛ فالله تعالى يُسلِّي رسوله صلَّى الله عليه وسلَّمَ بأنَّ هذا القول الذي قِيل له قد قِيل لِمَن قبْله، كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾(٢).

الفوائد العلميَّة واللَّطائف:

١- في قوله سبحانه: ﴿مَسَاجِدَ اللهِ﴾ [البقرة: ١١٤]، دلالةٌ على شرَف المساجد؛ لإضافتِها إلى الله تعالى(٣).

٢- أنَّه لا يجوز أن يُوضَع في المساجد ما يكون سببًا للشرك؛ لأنَّ ﴿مَسَاجِدَ اللهِ﴾ معناها: موضع السُّجود له؛ فإذا وُضِع فيها ما يكون سببًا للشرك، فقد خرجَتْ عن موضوعها، مثل أن يُقبَر فيها الموتى، فهذا محرم؛ لأنَّه وسيلةٌ إلى الشِّرك(٤).

٣- وجوب تطهير المساجد؛ وذلك لإضافتِها إلى الله عزَّ وجلَّ، وهي إضافة تشريف وتعظيم؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾(٥).

٤- أنَّ الناس في المساجد سواءٌ؛ لأنَّ الله تعالى أضافَها إلى نفْسه: ﴿مَسَاجِدَ اللهِ﴾(٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لرشيد رضا (١/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٩).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٥- في قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾ إثبات صفة الوجه لله سبحانه وتعالى(١).

٦- أنَّه ليس بين أمْر الله تعالى بتكوين شيءٍ، وتكوُّنه تراخٍ، بل يكون على الفوريَّة؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَكُونُ﴾: بالفاء، والفاء تدلُّ على التَّرتيب، والتعقيب(٢).

٧- أنَّ المشركين يُقرُّون بأنَّ الله تعالى يتكلَّم بحرفٍ، وصوتٍ مسموعٍ؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ﴾(٣).

٨- أنَّ الأقوال تابعةٌ لِما في القلوب؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ فلتشابُهِ القلوبِ تَشابهت الأقوالُ(٤).

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ﴾ استفهامٌ يراد به النفي والإنكار والاستبعاد(٥).

٢- قوله: ﴿أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾

- فيه: بِناء الفِعل (يُذْكَر) للمفعول وحذْف الفاعِل؛ للاختصار؛ لأنَّ الذاكرين كثيرون جدًّا(٦).

- وتقديم الجار والمجرور (فيها) على نائب الفاعل (اسمُه)؛ لأنَّ مساجدَ الله

---

(١) يُنظر: ((كتاب التوحيد)) لابن خزيمة (١/ ٥٢)، ((كتاب التوحيد)) لابن منده (٣/ ٦٣)، ((أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة)) للالكائي (٣/ ٢١٤)، ((طبقات الحنابلة)) لابن أبي يعلى (١/ ٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٥٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٧٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٥٧٣).

مذكورةٌ في اللفظ قبل اسم الله؛ فناسب تقديم المجرور لذلك[١].

٣- قوله: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

- فيه تنكير (خِزي)؛ للتعظيم والتهويل، ويدلُّ على أنَّ الذمَّ واقعٌ في النِّهاية العظمى[٢].

وتنكير (عذاب)؛ للتعظيم والتهويل، ووصفه بصيغة فعيل (عظيم)؛ للمبالغة[٣].

- وفيه: تقديم الجار والمجرور في قوله: ﴿لَهُمْ... وَلَهُمْ...﴾ في الموضعيْن مع تَكراره؛ للتوكيد، وبيان شِدَّة العذاب[٤].

٤- في قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾

- التنصيصُ على ذِكْرِ (المَشْرِقِ والمَغْرِبِ) دونَ غيرِهما؛ لشرَفِهما حيث جُعِلا لله تعالى، أو يكون مِن حَذْفِ المعطوفِ للعِلم، أي: لله المشرقُ والمغربُ وما بينهما، كقوله: ﴿تَقِيكُم الحَرَّ﴾، أي: والبردَ[٥].

٥- قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ تعليل مقرِّر لمضمون ما قَبلَه، وفيه تأكيدٌ بإنَّ، واسميَّة الجملة[٦].

٦- قوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ في لفظ (اتخذ) تعريض[٧] بالاستهزاء بهم

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣/ ٥٩٣)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٦٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((الدر المصون)) للسَّمين الحلبي (٢/ ٨٠).

(٦) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٦٣).

(٧) التعريض: في اللغة ضدُّ التصريح. وفي اصطلاح البلاغيِّين: هو الدلالة على المعنى من طريق المفهوم، أي: تضمين الكلام ما يصلح للدلالة على مقصود المتكلم، ويصلح للدلالة على غير مقصوده؛ إلَّا أنَّ إشعاره بجانب المقصود أتمُّ وأرجح. وقد يُسمَّى تلويحًا؛ لأنه يلوح منه ما يريد. والفرق بين الكناية والتعريض: أن الكناية ذِكر الشيء بِذكر لوازمه، كقولك: فلان طويل =

بأنَّ كلامهم لا يلتئم؛ لأنَّهم أثبتوا ولدًا لله تعالى، ويقولون: اتَّخذه الله؛ والاتخاذ الاكتساب، وهو ينافي الولدية؛ إذ الولدية تأتي بدون صُنع، فإذا جاء الصنع جاءت العبودية لا محالة[١].

٧- في قوله: ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾

- جَمَعَ (قانِتون) حَمْلًا على المعنى لأنَّ (كُل) إذا قُطِعَتْ عن الإضافة جاز فيها مراعاةُ اللفظِ ومراعاةُ المعنى، وحَسُنَ الجمعُ هنا؛ لتواخِي رؤوسِ الآي ومراعاة فواصلِها[٢].

- وفيه: تأكيد الخبر باسميَّة الجملة، وتقديم ﴿له﴾ على ﴿قانتون﴾ فيه تأكيدٌ كذلك[٣].

٨- في قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ جاء تقديم الضمير في ﴿يُكَلِّمُنَا﴾ على الفاعل لفظ الجلالة ﴿اللهُ﴾؛ لبيان إمعانهم في المكابرة والعِناد، وعدم الطاعة والانقياد[٤].

٩- في قوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ جيء بالتأكيد (إِنَّا) وإنْ كان النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم لا يتردَّد في ذلك؛ لمزيد الاهتمام بهذا الخبر، وتنويهًا بشأن الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام[٥].

= النجاد، كثير الرماد، والتعريض: ذِكر كلام يحتمل مقصود المتكلم ويحتمل غير مقصوده، إلا أنَّ قرائن الأحوال تؤكد حمله على مقصوده. ((تفسير الرازي)) (٦/ ٤٦٩)، ((البرهان)) للزركشي (٢/ ٣١١)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ١٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٨٤).

(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسَّمين الحلبي (٢/ ٨٤).

(٣) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٦٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٦٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٩١).

الآيات (١٢٠-١٢٣)

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

غريب الكلمات:

﴿مِلَّتَهُمْ﴾: أي: دينهم، وطريقتهم، ثم نُقِلت على أصول الشرائع، مشتقَّة من أمللت (أي أمليت)؛ لأنَّها تُبنَى على مسموع ومتلوٍّ، فإذا أريد الدين باعتبار الدُّعاء إليه قيل: ملة، وإذا أريد باعتبار الطاعة والانقياد له قيل (دين)[1].

مشكل الإعراب:

قوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾:

(**الَّذِينَ**): مبتدأ أوَّل. و(**أُولَئِكَ**). مبتدأ ثانٍ، و(**يُؤْمِنُونَ بِهِ**): خبَرُ المبتدأ الثاني، وجُملة (**أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ**) خبَر للمبتدأ الأوَّل (**الَّذِينَ**). و(**يَتْلُونَه**): جملة في محل نصب حال من (**الكِتَاب**)، أو مِن الضَّمير المنصوب في (**آتَيْنَاهُمُ**). ولا يجوز أن تكون جملة (**يَتْلُونَه**) خبَرَ (**الَّذِينَ**)؛ لأنَّ هذا يُوجِب أن يكونَ كلُّ مَن أوتي الكتاب يتلوه حقَّ تلاوته، وليس هم كذلك، إلَّا إذا كان المقصود بـ(الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ) هم الأنبياء، فيجوز ذلك، وقيل غير ذلك[2].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٣ - ٧٧٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٤٣).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١١٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ١١١)، =

المعنى الإجمالي:

يُخبر اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ أنَّ أهلَ الكتاب من اليهود والنَّصارى لن يرضَوْا عنه حتى يَعتنِقَ دِينَهم؛ لأنَّهم يرَوْن أنَّهم على هُدًى، فأعْلَمه الله تعالى بما يردُّ به على هذا الزَّعم، وهو أنَّ الهُدى الحقيقيَّ هو هدى الله، الذي جاء به مِن عند الله عزَّ وجلَّ.

ثمَّ خاطَب اللهُ نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ- وأمَّتُه تبعٌ له- محذِّرًا من اتِّباع أهواء أهل الكِتاب، من بعد أنْ آتاه اللهُ من العِلم ما يدلُّه على الحقِّ، فإنَّه إنْ فعَل ذلك واتَّبع أهواءَهم، فلن يجدَ حِينها أيَّ أحدٍ يتولَّاه، فيَجلِب له خيرًا، أو أيَّ أحدٍ ينصُره، فيَدفع عنه شرًّا.

ثم أخْبَرَ تعالى أنَّ مَن اتَّبع كتابه حقَّ الاتِّباع مِن أهل الكِتاب- ومِن اتِّباعه أنَّه لا يُحرِّفه ولا يبدِّل شيئًا ممَّا فيه- فإنَّه يعدُّ مؤمنًا به حقَّ الإيمان، وسيؤدِّي به ذلك الاتِّباعُ إلى الإيمان بمحمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ فإنَّ في كتبهم تَصديقًا به، وذِكرًا لصفاته صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وأمَّا مَن يكفُر بكتابه منهم- ومِن كُفره به تحريفُه وتبديلُه، وجحْدُ ما ثبَت فيه من نبوَّة محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ- فأولئك هم الخاسِرون.

ثمَّ خاطَب الله تعالى بني إسرائيل وذكَّرهم بنِعمه التي أسْبَغها عليهم، ويعني بها النِّعمَ التي أنعم بها على آبائهم، وأنَّه فضَّلهم على سائرِ الأمم من أهل زَمانهم، ثم بعد أنْ ذكَّرهم بنِعمه وفَضْله عليهم، حذَّرهم وخوَّفهم بأن يتقوا عذاب يوم القيامة، الذي لا تَقضي فيه نفْسٌ عن نفس حقًّا وجَب عليها، ولا يُقبل منها فِداء، ولا تُفيدها شفاعةٌ إذا كانت كافِرة، ولا أحَد يُنقذهم من عذابِ الله تعالى.

= ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٩٤-٩٥).

تفسير الآيات:

﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٢٠)﴾.

﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾.

أي: ولن تَرضى عنك اليهودُ، حتى تترُكَ دِينَ الإسلام وتعتنقَ دِينَهم، ولن ترضَى عنك النَّصارى، حتى تترُكَ دِينَ الإسلام وتعتنقَ دِينهم[١].

﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى﴾.

أي: قل يا محمَّد- إجابةً لهم في عدَم اتِّباع ملَّتهم-: ليس الهُدى ما أنتم عليه كما تدَّعون، بل الذي أُرسلتُ به هو هُدَى الله الحقيقيُّ؛ فإنَّه الدِّينُ المستقيم، والصَّحيح، والكامِل[٢].

﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾.

أي: يُخاطِب اللهُ تعالى نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ- والأمَّة تبَعٌ له في ذلِك- محذِّرًا من اتِّباع أهواء اليهود والنَّصارى، خاصَّةً من بعد إكرام النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ وأمَّته بالوحي المُنزَّل عليه، وفيه العِلمُ بطريق الحقِّ، والعلمُ بطُرق الضَّلالة والكُفر[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٨٤)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (١٩/ ١٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥).

(٢) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٢٩)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٨٥)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٩٤-٦٩٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٠-٣١).

﴿مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

أي: إنِ اتبعتَ أهواءَهم يا محمَّد، فاعلمْ بأنَّه ليس لك حينذاك أيُّ أحدٍ يتولَّى أمرَك؛ فيجلِب لك خيرًا، أو أيُّ نصيرٍ ينصرُك من الله تعالى؛ فيَدفَع عنك شرًّا[1].

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٢١)﴾.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾.

هذا مدحٌ لمن أقام كتابَه من أهل الكتاب، فآمن به واتَّبَعه حقَّ الاتباع، ولم يجترئ على تحريفه، وإنكار ما يحمله من البشارة بمحمد صلَّى الله عليه وسلَّم، المذكور فيه بصفته ونعته، فآمن به واتبعه.

وهو مدحٌ لمؤمني أهل الكتاب، في مقابل ذمِّ أولئك الذين يحرِّفون الكلم عن مواضعه منهم[2].

قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [المائدة: ٦٨].

وقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٨٥)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٩٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣١).

(٢) حَكى الإجماعَ على أن ﴿يَتْلُونَهُ﴾ معناه: يتبعونه: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٩٢-٤٩٣).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٨٧، ٤٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٩٧).

وممَّن قال من السَّلف بأنَّ ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ معناه: يتَّبعونه حقَّ اتباعه: ابن عبَّاس، وعبدُ الله ابن مسعود، وقيس بن سعد، وعِكرمة، وعَطاء، ومجاهد، وأبو رَزِين، وإبراهيم النَّخَعي، والحسن). يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٨٩)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٢١٨).

عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا * يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا﴾ [القصص: ٥٢-٥٣].

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

أي: إنَّ مَن يكفُر من أهل الكتاب بكتابه الذي أُوتيه من عند الله عزَّ وجلَّ- ومِن ذلك تحريفُه وتبديلُه، وجَحْد نبوَّة محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ الثابتة فيه- فإنَّه قد بخَس نفْسَه حظوظَها من رحمة الله عزَّ وجلَّ(١).

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٢٢)﴾.

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾.

أي: يا بَنِي يعقوب كونوا مثلَ أبيكم في متابعة الحقِّ، واذكُروا نِعمه تعالى على آبائكم ذِكرًا يحملكم على شُكرها بالخضوع لله تعالى، وذلك بالدُّخول في دِينه، واتِّباع رسولِه الكريم صلَّى الله عليه وسلَّمَ، ومنها النِّعم المذكورة في هذه السُّورة الكريمة(٢).

﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

أي: واذكُروا تفضيلي لكم على سائرِ الأمم من أهل زَمانِكم، بإرسال الرُّسُل

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٩٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٢٨) (٢/ ٤٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٤-٥٥).

منكم، وإنزال الكتُب عليكم، وغير ذلك من النِّعم الخاصَّة[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠].

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (١٢٣)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا ذكَّرهم الله تعالى بنِعمه، عطَف على ذلك التحذيرَ من حلول نِقَمه بهم يومَ القِيامة[(٢)]، فقال:

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾.

أي: أمَرهم الله تعالى أن يعتقدوا ويَفعلوا ما يكونُ حاجزًا يَقِيهم من عذابِه سبحانه، في يوم القِيامةِ الذي لا تَقضِي فيه نفْسٌ عن نفْسٍ حقًّا وجَب عليها لغيرها، ولا يُغني فيه أحدٌ- كائنًا من كان- عن أيِّ أحدٍ شيئًا، ولو كان من عَشيرته الأقرَبين، أو كان الشيءُ قليلًا ويسيرًا جدًّا[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٢٩) (٢/ ٤٩٦-٤٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٥-٥٦).

قال ابنُ أبي حاتم: (عن أبي العالية: ﴿وأنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العَالَمِينَ﴾، قال: بما أُعطوا من المُلك والرُّسل والكتُب، على عالَمِ مَن كان في ذلك الزَّمان؛ فإنَّ لكلِّ زمان عالمًا. قال أبو محمد: ورُوي عن مجاهد، والرَّبيع بن أنس، وقتادة وإسماعيل بن أبي خالد نحو ذلك) ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ١٠٤). يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٥٦).

(٣) نقل ابن عطية الإجماع على أنَّ هذه الآية في الكافرين. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٣٩).

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٣١) (٢/ ٤٩٧)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٦٠).

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان: ٣٣].

﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾.

أي: لا يُقبَل منها فِداءٌ[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ﴾ [آل عمران: ٩١].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ٧٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ الآية [الحديد: ١٥].

﴿وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾.

أي: لا تنفعُ من أيِّ نفْسٍ شفاعةٌ لنفْسٍ أخرى إذا كانت كافرةً على الإطلاق.

كما قال تعالى: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨].

وقال سبحانه عن أهل النار: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠٠-١٠١].

أمَّا المؤمنة فتُقبل منها، إنْ كانت الشفاعةُ بإذن الله تعالى، مع رِضاه سبحانه عن المشفوعِ له[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٣٧، ٦٣٩) (٢/ ٤٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي(١/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٣٦،٦٣٧) (٢/ ٤٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٦٤).

كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦].

﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾.

أي: ليس لهم أحدٌ يُنقِذهم من عذابِ الله تعالى[(١)].

كما قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ١٠].

وقال سبحانه: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصافات: ٢٥-٢٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٨].

الفوائد التربويَّة:

١- أنَّ المرء إذا اتَّبع غير شريعة الله، فلا أحدَ يحفظه من الله؛ ولا أحدَ يَنصُره من دونه، حتى لو كثُر أعوانه وجُندُه، واشتدَّت قوته؛ لأنَّ النصر والولاية تكون باتِّباع هُدى الله عزَّ وجلَّ، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[(٢)].

٢- في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، دلالةٌ على أنَّه يجب تعلُّق القلب بالله تعالى وحْده؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٣٩، ٦٤٠) (٢/ ٤٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٦٩).
قال ابن كثير: (قد تقدَّم نظير هذه الآية في صدر السورة، وكُرِّرت هاهنا للتأكيد، والحثِّ على اتباع الرسول النبيِّ الأُميِّ الذي يجدون صفتَه في كتبهم، ونعْتَه واسمه وأمره وأمته) ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٠٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٩٧-٦٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٣).

خوفًا، ورجاءً؛ لأنَّ المرء متى ما علِم أنَّه ليس له وليٌّ ولا نصيرٌ من دون الله تعالى؛ فلا يتعلَّق إلَّا بالله تعالى وحده(١).

٣- أنَّ للإيمان علامةً، وعلامتُه العمل؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ بعدَ قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾(٢).

الفوائد العلميَّة واللَّطائف:

١- أنَّ الكُفر مِلَّة واحدة؛ لقوله تعالى: ﴿مِلَّتَهُمْ﴾، وهو باعتبار مضادَّة الإسلام مِلَّةٌ واحدة، أمَّا باعتبار أنواعه، فإنَّه مِلل(٣).

٢- في قوله: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ بيان حقيقة المعركة، وأنها معركة العقيدة، وليست معركة الأرض ولا الغلة، ولا المراكز العسكرية، ولا هذه الرايات المزيفة كلها، التي يزيفونها لغرض في نفوسهم؛ كي يخدعونا عن حقيقة المعركة(٤).

٣- أنَّ ما عَدا هُدى الله ضلال؛ قال الله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢]؛ فكلُّ ما لا يُوافق هُدى الله -كالبِدع- فإنَّه ضلال، وليس ثَمَّة واسطةٌ بين هدى الله، والضَّلال(٥).

٤- أنَّ ما عليه اليهود والنصارى ليس دِينًا، بل هو هوى؛ لقوله تعالى: ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾، ولم يقُل: مِلَّتهم كما في الأوَّل، ففي الأوَّل قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾؛ لأنَّهم يعتقدون أنهم على مِلَّة

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٢).
(٤) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ١٠٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٢).

ودِين، ولكن بيَّن الله تعالى أنَّ هذا ليس بدِين، ولا مِلَّة، بل هو هوى، وهم ليسوا على هدًى[١].

٥- أنَّ مَن اتَّبع الهوى بعد العِلم، فهو أشدُّ ضلالةً؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ... ﴾ الآية[٢].

٦- أنَّ الكافر بالقرآن مهما أصاب من الدُّنيا فهو خاسر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ﴾، فيكون خاسرًا، ولو نال من الدُّنيا ما نال من زِينتها وزخرفها[٣].

٧- علوُّ مرتبة مَن يتَّبعون الكتاب حقَّ الاتِّباع؛ للإشارة إليهم بلفظ البعيد: ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾[٤].

بلاغة الآيات:

١- في قوله: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾

- جاء النفي بلن؛ مبالغةً في التأييس[٥].

- ووُحِّدت لفظة المِلَّة (مِلَّتهم)، وإنْ كان لهم ملَّتان؛ لأنَّهما يجمعهما الكُفر، فهي واحدة بهذا الاعتبار، أو للإيجاز! فيكون من باب الجمْع في الضمير؛ لأنَّ النصارى لن ترضى حتى تتبع ملتهم، واليهود لن ترضى حتى تتبع ملتهم[٦].

- وإيراد (لا) النافية بين المعطوفَيْن؛ لتأكيد النفي[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٩٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٥٩٠).

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٥٢-١٥٣).

٢- في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى﴾

- الضمير (هو) ضمير فصل، والتعريف في (الهدى) تعريف الجِنس الدالُّ على الاستغراق؛ ففيه حصرٌ من طريقين: هما ضمير الفصل وتعريف الجنس، والجمع بينهما يفيد تحقيق معنى القصر وتأكيده؛ للعناية به، فأيُّهما اعتُبر طريق قصرٍ، كان الآخَر تأكيدًا للقَصر وللخبر أيضًا[1].

- وفيه: توكيد آخر بـ(إنَّ)؛ جاء اهتمامًا بتأكيد هذا الحكم، ولتحقيق الخبر، وإبطال تردُّد المتردِّد[2].

٣- قوله: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ... مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ اشتمل على كثيرٍ من المؤكِّدات؛ تحذيرًا من الطمع في استرضاء اليهود أو النصارى بشيء، فأكَّد ذلك التحذير بعدة مؤكِّدات، وهي[3]:

- القَسَم المدلول عليه باللام الموطِّئة للقسم في (وَلَئِن).

- الإجمال ثم التفصيل بذِكر اسم الموصول، وتبيينه بقوله ﴿مِنَ الْعِلْمِ﴾.

- جعْل (الذي جاء)، أي: (الذي أنزل إليه) هو العِلم كلُّه؛ لعدم الاعتداد بغيره لنُقصانه.

- اسمية جملة الجزاء ﴿ما لَكَ مِن اللهِ...﴾.

- تأكيد النفي بـ(مِن) في قوله ﴿مِن وَلِيٍّ﴾.

- تأكيد النفي بـ(لا) النافية بين المعطوفَيْن.

- تأكيد ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ بعطْف ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾، الذي هو آيِلٌ إلى معناه العام.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٩٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٥٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٩٥).

٤- في قوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ فَذْلَكةٌ لِمَا تقدَّم، وجوابٌ قاطعٌ لمعذرتهم المتقدِّمة، وهو من باب ردِّ العَجُز على الصدر؛ ولأحد هذين الوجهين جاء الفصل بيْن الجمل، ولم تُعطَف بالواو(١).

٥- في قوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ... وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾

- إعادةٌ للتحذير؛ مبالغةً في النصح، وللإيذان بأنَّ ذلك فذلكةُ القضية، والمقصودُ من القصة؛ وهو أنَّ نِعم الله عزَّ وجلَّ عليهم أعظمُ، وكفرَهم بها أشدُّ وأقبحُ(٢).

٦- قوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾ اختلف الترتيب بين العدل والشَّفاعة في آيتَي سورة البقرة، فهنالك قال: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: ٤٨]، فقدَّم لفظ الشفاعة، وأخَّر لفظ العدل، وهنا قال: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ١٢٣] ، فقدَّم العدل، وأخَّر الشفاعة، مسندًا إليه (تنفعها)، وفائدته نفي سآمة الإعادة بالتفنن في الخطاب، مع حصول التأكيد من التكرير، وأيضًا كل تعبير جاء أنسب لسياقه الوارد فيه لنكتةٍ لطيفة؛ أو أكثر(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٥٤)، ((تفسير القاسمي)) (١/ ٣٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٩٨).

الآيات (١٢٤-١٣٤)

﴿ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن
ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا
وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ
لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا
ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا
ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ
وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ
وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ
﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ
وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ
إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾
إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ
وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمۡ
كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ
قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ
لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ
عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿إِمَامٗا﴾: هو الذي يأتمُّ به الناس، فيتبعونه، ويأخذون عنه، من أَمَّ، وأصله: الأصل، والمرجع، والجماعة، والدِّين[1].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٨٦).

﴿مَثَابَةً﴾: أي: مرجعًا لهم، يرجعُون إليه في حجِّهم وعُمرتهم كلَّ عَام، وأصل الثوب: العَودُ والرجوع، وأصل المثابة: الموضِع الذي يُرجَع إليه مرَّةً بعدَ أخرى، ويُقال للمنزل: مثابة. وقيل: مَثابةً من الثواب، أي: يَحجُّون فيُثابون عليه[١].

﴿سَفِهَ﴾: أصل السفه: ضد الحلم. والسفه، خِفَّة في البدن، واستُعمل في خِفَّة النفس؛ لنقصان العقل[٢].

المعنى الإجمالي:

ذكَّرَ الله تعالى نبيَّه محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ بما ابتَلى به خليلَه إبراهيم عليه السَّلام، من تكاليفَ فرَضَها عليه، فقام بها حقَّ القيام، فأعْلَمه الله تعالى بأنَّه سيجعله قُدوةً يأتمُّ به الناس، فسأله إبراهيمُ أن يكون مَن بعده مِنَ الأئمَّة من ذُريَّته، فأجابه الله تعالى بأنَّ الإمامةَ في الدِّين لا تُعطى لظالِمٍ.

ثم ذَكَّر الله سبحانه نبيَّه محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ بما جعَل للبيت الحرام من مكانةٍ، وذلك بأن جعَلَه محلًّا يشتاق إليه الناسُ دائمًا، ولو زاروه مرَّاتٍ عديدةً؛ فإنَّهم يَرجعون إليه، وجعَله سبحانه مكانًا يأمَن فيه البشرُ على أنفسهم وأموالهم، بل أمانُه شمِل حتَّى الحيواناتِ والجمادات.

وأمَر الله تعالى باتِّخاذ مقاماتِ إبراهيمَ عليه السَّلام التي هي شعائرُ الحجِّ -كعَرفة، والمزدلفة- أماكنَ للعبادة.

ثم أخبَرَ الله تعالى أنَّه أوصى إبراهيمَ وإسماعيل وصيةً مؤكَّدةً، بالقيام بتطهير البيتِ طهارةً حِسيَّةً ومعنويَّة؛ من الشِّرك، والكفر، والأوثان، ومن الرِّجس،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥١٠).

والنَّجاسات، وهذا التطهير مِن أجْل مَن يطوفون بالكعبة، ومَن يُقيمون في البيت للعبادة، وللمُصلِّين فيه.

ثم أخبر تعالى عن مسألةِ إبراهيمَ رَبَّه أن يجعل مكَّةَ بلدًا يَحُلُّ فيها الأمنُ الدائم، ويَرزق اللهُ المؤمنين فيها مِن أنواع الثِّمار، فأعْلَمه تعالى أنَّ الرِّزق الدُّنيوي للجميع؛ المؤمِن والكافِر، وليس مقصورًا على عبادِه المؤمنين فحسبُ، لكن هذا الرِّزق الذي سيُرزَقه الكفرةُ، رِزقٌ قليلٌ من حيثُ زمنُه وكميَّتُه، مقارنةً بنعيم الآخِرة الموعودِ به أهلُ الإيمان، ثم سيُلجِئُ الله سبحانه مَن كفَر إلى عذاب النار، وساء مستقرُّه ومصيرُه.

ثم يُذكِّر سبحانه نبيَّه محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ برفْع إبراهيمَ وإسماعيلَ لأُسُسِ الكعبة، وإعلائها؛ لتصيرَ جدارًا، وهما يَدْعُوانِ ربَّهما أن يتقبَّل منهما هذا العمل؛ فهو السَّميع لدُعائهما، والعليم بعملهما ونيَّتهما، وكذلك دعَوَا ربَّهما أنْ يجعلهما خاضعَيْنِ له سبحانه دومًا، ومستسلمَينِ لأمره، وأنْ يُنشِئَ من سُلالتهم جماعةً منقادةً لأوامِره، مُستسلمةً له، وقد أجاب الله عزَّ وجلَّ تلك الدَّعوةَ في المسلمين من العرب.

ودَعوَا ربَّهما أيضًا أنْ يُبيِّن لهما مواضعَ عِبادةِ الحجِّ، ومشاعره، وأنْ يتوبَ عليهما؛ فإنَّه هو الموفِّق للتوبة، والمتقبِّل لها، وهو الرَّحيم الذي يخصُّ برحمته مَن يشاء من عباده.

ودَعوَا ربَّهما أن يُرسل رسولًا إلى ذُرِّيَّتهما من العرب، يقرأ عليهم القرآن، ويقوم بتعليمهم القرآن، والسُّنة، ويُطهِّرهم من أدران الشِّرك، وقد أجاب الله هذه الدعوةَ، فبَعَث محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ.

ثم أخبَر سبحانه أنَّه لا يَتركُ الحَنيفيَّةَ دِينَ الخليل إبراهيم راغبًا عنها؛ إلَّا مَن كانت له نفسٌ متَّصفة بالجَهل والطيش، وعدم الرشد؛ فقد اختار اللهُ إبراهيمَ

واجتباه في الدُّنيا، وهو في الآخِرة من المفلِحين السُّعداء؛ فقد أمره ربُّه حين اصطفاه أن ينقاد إليه، ويُوحِّده ويُخلصَ له الدِّين، فأجاب هذ الأمرَ فورًا، ووصَّى إبراهيمُ بَنِيه بالإسلامِ لربِّ العالمين، وكذلك فعَل حفيدُه يعقوبُ عليه السَّلام، فوصَّى به أبناءه، وأعْلَمهم أنَّ الله اختار لهم هذا الدِّينَ؛ فلْيلتزموا به في حياتهم، حتى يأتيَهم الموتُ وهم متمسِّكون به.

ثم توجَّه الخِطابُ من اللهِ جلَّ وعلا إلى اليهود والنَّصارى المكذِّبين بمحمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فسألهم: هل كانوا حاضِرين حين أوْشكَ يعقوبُ على الموت، حين سأل بَنِيه إلى مَن سيتوجَّهون بالعبادة مِن بعد موته؟ فأجابوه بأنَّهم سيعبدون الله وحْدَه، الذي هو معبودُ والِدهم يعقوب، ومعبودُ آبائه من قبله إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ولن يُشرِكوا في عبادته أحدًا، وهم له خاضعون مُستسلِمون.

ثم أخبَر الله تعالى اليهودَ والنصارى المكذِّبين بنبوَّة محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، أنَّ هؤلاء الآباءَ والأجدادَ الصالِحين قد مضَوْا لسبيلهم، ولن ينفعَكم الانتسابُ إليهم، ولن يعودَ عليكم من هُداهم وعمَلِهم الصالح شيءٌ؛ فإنَّما لكم ما عملتُم، ولن تُجازَوْا على ما عمِلوه.

تفسير الآيات:

﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤)﴾.

﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾.

أي: واذكُر يا محمَّد، ابتلاءَ الله تعالى لعبده وخليله إبراهيمَ عليه السَّلام بتكاليفَ فرَضها عليه ربُّه سبحانه، فأدَّاها إبراهيمُ عليه السَّلام على وجهٍ تامٍّ، موفِّيًا جميعَ ذلك[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٩٨، ٥٠٦-٥٠٩)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٠١-٧٠٣).

﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾.

أي: إنِّي مُصيِّرك يا إبراهيم، إمامًا يأتمُّ بك الناسُ، ويَقتدون بك(١).

﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾.

أي: لَمَّا جعَل الله تعالى إبراهيم إمامًا، سأل ربَّه عزَّ وجلَّ أن تكون الأئمَّةُ من بعده من ذُرِّيَّته(٢).

﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.

أي: أجاب الله تعالى عن سؤال خليله إبراهيمَ عليه السَّلام، بأنَّه لا يَمنح مرتبةَ الإمامة في الدِّين أحدًا من الظالمين من ذريَّته؛ لأنَّ الإمامة تُعطَى لأوليائه، وأهلِ طاعته، دون أعدائه(٣).

قال تعالى: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١١٣].

وقال سبحانه: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا * فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ﴾ [النساء: ٥٤-٥٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٦].

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٠٩-٥١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤١-٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥١١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٣-٤٤).

إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا كان من إمامة إبراهيمَ عليه السَّلام اتِّباع الناس له في حجِّ البيت، الذي شرَّفه الله سبحانه ببنائِه- قال سبحانه إثرَ ذلك ناعيًا على أهل الكتاب مخالفتَه وترْكَ دِينه، وموطِّئًا لأمر القِبلة[1]:

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾.

أي: واذكُر يا محمَّد، هذا الأمرَ؛ فقد جعل الله تعالى البيت الحرام محلًّا يَشتاقُ إليه الناسُ على الدوام، فيَرجعون إليه، ولو تردَّدوا إليه عِدَّةَ مرَّات، وهو معاذٌ لهم يأمنون فيه على أنفسهم وأموالهم، وحتى الحيوانات والجمادات تكون آمنةً فيه[2].

قال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥١٧-٥٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٤).

وممَّن قال في ﴿مثابةً﴾ مثلما ذُكِر: ابن عبَّاس، وأبو العالية، وسعيد بن جُبَير، وعطاء، ومجاهد، والحسن، وعطيَّة، والرَّبيع بن أنس، والسُّدِّي، والضحَّاك، وعَبْدَة بن أبي لُبابة، وابن زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥١٨)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٢٢٥)

وممَّن قال من السَّلف في قوله تعالى: ﴿أَمْنًا﴾ بنحو ما ذُكر: ابنُ عبَّاس، وأبو العالية، ومجاهد، وعطاء، والسُّدِّي، وقتادة، والرَّبيع بن أنس. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٢٢٥).

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا﴾ قراءتان:

١ - (اتَّخَذوا) بفتح الخاء، على الخبَر عمَّن كان قبلنا من المؤمنين، أنَّهم اتخَذوا من مقام إبراهيم مصلًّى[1].

٢- (اتَّخِذوا) بكسر الخاء، والمعنى: اتَّخِذوا- أيُّها الناس- من مقام إبراهيم مصلًّى تُصلُّون عنده[2].

﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾.

أي: اجعَلوا من مقامات إبراهيمَ عليه السَّلام، وهي شعائرُ الحجِّ، كعرفةَ ومزدلفةَ، ورمْي الجمرات، وغيرها- اجعلوها أماكنَ للعِبادة كالدُّعاء، وقد اتَّخذ الناسُ ذلك مقتدِين بإبراهيم عليه السَّلام، ويدخُل في ذلك، أداءُ ركعتَي الطَّواف خَلْفَ المقام المشهور بمقام إبراهيمَ عليه السَّلام[3].

قال عُمرُ بن الخطَّاب رضي الله عنه: ((وافقتُ ربي في ثَلاثٍ: فقلتُ: يا رسولَ الله، لو

---

(١) قرأ بها نافِعٌ وابنُ عامِرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٢٢).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٣٠)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٢٦٣).

(٢) قَرَأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٢٢).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٣٠)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((تلخيص كتاب الاستغاثة لابن تيمية)) لابن كثير (٢/ ٥٢٤) ((فتح الباري)) لابن رجب (٢/ ٢٩٩-٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٤-٤٥).

وممَّن قال من السَّلف بمُجمَل هذا القول: ابن عبَّاس -في رِواية عنه- ومجاهد، وعطاء. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٢٥)، ((تفسير ابن حاتم)) (١/ ٢٢٦).

ومِن المفسِّرين مَن ذهب إلى تخصيص المقام المذكور في الآية بالمعروف بمقام إبراهيمَ عليه السَّلام. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٢٨، ٥٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤١٦-٤١٧).

وممَّن ذهَب إلى هذا القول من السَّلف: ابن عبَّاس -في رواية أخرى عنه- وسعيد بن جُبَير، والسُّدِّي، وقتادة، والرَّبيع، وسفيان. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٢٧)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٢٢٦).

اتَّخذنا من مقامِ إبراهيمَ مُصلًّى، فأُنزِلتْ: ﴿واتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾...))[١].

وفي حديثِ جابرِ الطويل: (... حتى إذا أتَيْنا البيتَ معه، استلم الرُّكنَ فرمَل ثلاثًا ومشى أربعًا، ثم نفذ إلى مقامِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ. فقرأ: ﴿واتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾، فجعَل المقامَ بَينه وبين البيتِ- فكان أبي يقول: (ولا أعْلَمُه ذَكَرَه إلَّا عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ)- كان يقرأ في الرَّكعتَينِ: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾، و﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ﴾))[٢].

﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾.

أي: أوْحَيْنا إليهم بوصيةٍ مؤكَّدة، أمرناهما فيها بتطهير بيت الله تعالى من الشِّرك، والكُفر والأوثان، ومِن الرِّجس والنَّجاسات، وأنْ يَبْنِياه بِنيَّةٍ خالصةٍ لله عزَّ وجلَّ[٣].

﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.

أي: أمَر اللهُ عزَّ وجلَّ بتطهير البيت لأجْل مَن يطوفون بالكعبة، ومَن يُقيمون في البيت مجاورين للعِبادة- فيما يُعرف شرعًا بالاعتكاف- وللمُصلِّين فيه[٤].

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦)﴾.

---

(١) رواه البخاري (٤٠٢).

(٢) رواه مسلم (١٢١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٣٠-٥٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥-٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧١٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٣٤-٥٣٧)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧١٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٦).

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾.

أي: واذكُروا دعوة إبراهيم عليه السَّلام بحلول الأمْن الدَّائم للبلد الأمين: مكَّةَ[١].

عن جابرِ بنِ عبد الله رضي الله عنهما، أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((إنَّ إبراهيمَ حرَّمَ مكةَ[٢]، وإنِّي حَرَّمْتُ المدينةَ ما بيَن لابَتَيْها[٣]، لا يُقْطَعُ عِضاهُهَا[٤]، ولا يُصادُ صيدُها))[٥].

وعن عبدالله بن زيد رضي الله عنه أن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((إن إبراهيمَ حرَّم مكةَ ودعا لها، وحَرَّمت المدينةَ كما حرَّم إبراهيمُ مكةَ، ودعوت لها في مُدِّها وصاعِها مثلَ ما دعا إبراهيمُ عليه السَّلامُ لمكةَ))[٦].

﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

أي: سأل إبراهيمُ عليه السَّلام ربَّه سبحانه بأن يرزق مؤمني أهل مكة من أنواع الثمار المختلفة[٧].

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧١٣-٧١٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٥١-٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٤٢-٥٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٢٤-٤٢٥).

(٣) لابتيها: يعني: حَرَّتيها من جانبيها؛ لأنَّ المدينة بين حَرَّتين، والحَرَّة، وهي الأرض ذات الحِجارة السُّود. ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٨٤)، ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٥٦٠).

(٤) العِضَاه: كلُّ شَجَرٍ عَظِيمٍ له شَوْكٌ. ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٢٥٥).

(٥) رواه مسلم (١٣٦٢).

(٦) رواه البخاري (٢١٢٩).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٤٣-٥٤٤)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٢١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧١٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٥٢).

﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا خصَّ إبراهيم عليه السَّلام في دعائه بالرزق، المؤمنين، وكان رزق الله عزَّ وجلَّ شاملا للمؤمن والكافر[1]، قال تعالى:

﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا﴾.

أي: إنَّ الكافر ينال رزقه الدنيويَّ أيضًا لكنَّه قليلٌ زمنًا ووصفًا، بالنسبة لنعيم الآخرة الكامل، والدائم بلا انقطاعٍ ولا نهاية[2].

﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

أي: أُلجئه وأَدفعه وهو مُكرَه إلى النار، وساء المصيرُ عذابُ النار بعدَ الذي كانوا فيه من متاعِ الدُّنيا[3].

كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [محمد: ١٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٣-٢٤].

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٤٦-٥٤٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٥٢-٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٤٧-٥٤٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٢٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٥٤).

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾.

أي: واذكر رفْعَ إبراهيم لقواعد الكعبةِ، وإسماعيلُ يُعاونه بنقْل الحجارة، ورفعُ القواعِد يكون بإبرازها من الأرض وإعلائها؛ لتصير جِدرًا، فالبِناء إذا اتَّصل بعضُه ببعض، صار كالشيء الواحد، والجدار إذا اتَّصل بالأساس صار الأساسُ مرتفعًا[1].

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

أي: دعا كلٌّ من إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهما السَّلام ربَّهما سبحانه وتعالى، بأنْ يَتلقَّى بِناءَهما البيتَ بالقَبول والرِّضا عنه؛ فهو الذي يَسمع أقوالهما، ويَعلم أعمالَهما ونيَّاتِهما[2].

قال عبد الله بن عبَّاس رضي الله عنهما: ((... ثم جاء بعدَ ذلك، وإسماعيلُ يَبْرِي نَبْلًا لهُ تحتَ دَوْحَةٍ قريبًا من زمزمَ، فلمَّا رآهُ قام إليهِ، فصنَعَا كما يصنعُ الوالدُ بالولدِ، والولدُ بالوالِدِ، ثم قال: إنَّ اللهَ أمرني بأمْرٍ، قال: فاصنعْ ما أمَرَ ربُّكَ، قال: وتُعينني؟ قال: وأُعينُكَ، قال: فإنَّ اللهَ أمَرني أن أبنيَ هاهنا بيتًا، وأشار إلى أكَمَةٍ[3] مرتفعةٍ على ما حولها، قال: فعند ذلك رفعَا القواعدَ من البيتِ، فجعَل إسماعيلُ يأتي بالحجارةِ وإبراهيمُ يَبني، حتى إذا ارتفعَ البناءُ، جاء بهذا الحَجرِ، فوضعَهُ لهُ فقام عليهِ، وهو يَبني، وإسماعيلُ يُناوِلُه الحجارةَ، وهما يقولانِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا

(١) نقل ابنُ عطيَّة الإجماعَ على أنَّ المراد بالبيت هنا: الكعبة. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢١٠).
ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٤٨، ٥٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧١٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٥٦-٥٥٧، ٥٦٣-٥٦٤)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٥٧-٥٨).

(٣) الأَكَمة: تلٌّ، وقيل: شرفة كالرَّابية، وهو ما اجتمع من الحجارةِ في مكانٍ واحد، وربما غلُظ وربما لم يَغلُظ. ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٥٩)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ١٨).

إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، قال: فجعلَا يَبنيانِ حتى يدورَا حول البيتِ وهما يقولانِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾))[1].

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨)﴾.

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾.

أي: دعا كلٌّ من إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهما السَّلام بأن يجعلهما على الدَّوام، خاضعَينِ له سبحانه بطاعته، ومنقادَينِ لحُكمه، ومستسلمَينِ لأمْره[2].

﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾.

أي: دَعَوَا اللهَ ربَّهما أن يَجعلَ من بعض ذريَّتهم جماعةً مستسلمة لله تعالى، طائعةً لأمره، وخاضعةً لحُكمه جلَّ وعلا، وقد استُجيبت هذه الدعوةُ في المسلمين من العرَب[3].

(١) رواه البخاري (٣٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٦٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٢١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٢١١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٢٠-٧٢١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٦٢-٦٣).

وممَّن قال بأنَّ المقصود بالذريَّة هنا: العرب: السُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٦٥).

قال ابن كثير: (قال السدي: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ يعنيان العرب. قال ابن جرير: والصواب أنه يعم العرب وغيرهم؛ لأن من ذرية إبراهيم بني إسرائيل، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩].

قلت: وهذا الذي قاله ابن جرير لا ينفيه السدي؛ فإن تخصيصهم بذلك لا ينفي من عداهم، والسياق إنما هو في العرب؛ ولهذا قال بعده: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ الآية، والمراد بذلك محمد صلى الله عليه وسلم، وقد بعث فيهم كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢] ومع هذا لا ينفي رسالته إلى الأحمر والأسود، لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وغير ذلك من الأدلة القاطعة) ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٤٢).

﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾.

أي: بيِّن لنا مشاعرَ الحجِّ، ومواضعَ العبادة فيه، وعرِّفها لنا؛ فنراها(١).

﴿وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

أي: وفِّقنا للتوبة، فنرجع من معصيتك إلى طاعتك؛ فأنت وحْدَك سبحانك التوَّاب؛ بتوفيقِ عبدك للتوبة أولًا، وقَبولها منه ثانيًا، وأنت وحْدَك الرَّحِيم؛ فتختصُّ برحمتك عبادَك المؤمنين(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨].

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩)﴾.

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾.

أي: دعا كلٌّ من إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهما السَّلام ربَّهما، بأنْ يبعث رسولًا من ذُريتهما، أي: من العرَب.

وقد استجاب الله تعالى دُعاءَهما، فبعث محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ(٣).

كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٧٠-٥٧١)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٢١٢)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (١٧/ ٤٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٧١-٥٧٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٧٢)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢١٢)، ((الجواب الصحيح)) لابن تَيميَّة (٥/ ٢٢٤-٢٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٤٣-٤٤٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٤).

وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾.

أي: يقرأ عليهم كتابَك الذي تُوحيه إليه، ويُعلِّمهم معاني القرآن، ويُعلِّمهم السُّنة؛ فهي التي تبيِّن معاني القرآن وأحكامَه، وتُعين على فَهمِه[1].

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾.

أي: ويُطهِّرهم من الشِّرك بالله، ويُنمِّيهم ويُكثِّرهم بتوحيد الله تعالى وطاعته[2].

﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

أي: أنت وحْدَك العزيز الذي لا يُعجِزه شيءٌ أراده، فأعطِنا وذُرِّيَّتَنا ما طلبناه منك، وأنت وحْدَك الحكيم، الذي يَضعُ كلَّ شيءٍ في موضعه اللائِق به، فأعطِنا ما يَنفعُنا وينفع ذُريتَنا[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٧٥، ٥٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ١٣١)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (١/ ٦-٧) (١١/ ٥٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٤٤)، ((لطائف المعارف)) لابن رجب (٨٤-٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٢٣).

وممَّن قال بأنَّ المراد بالكتاب هنا القرآن: ابنُ زيد، والحسن، ويحيى بن أبي كَثير، ومقاتل بن حيَّان. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٧٥)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٢٣٦).

وممَّن قال من السَّلف بأنَّ المقصود بالحِكمة هنا السُّنة: قتادة، والحسن، ويحيى بن أبي كَثير، وأبو مالك، ومقاتل بن حيَّان. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٧٦)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٧٧)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢١٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ١٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٧٨)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦).

﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠)﴾.

﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾.

أي: لا أحدَ يعدِل عن الحنيفيَّة؛ دِينِ إبراهيم الخليل عليه السَّلام، إلَّا مَن كانت نفسُه سفيهةً، أي: جاهلة، طائشةً، غير راشدة[1].

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧-٦٨].

﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا﴾.

أي: يؤكِّد الله تعالى اختيارَه واجتباءَه لإبراهيمَ عليه السَّلام في الدُّنيا؛ فقد هداه ووفَّقه للإيمانِ والأعمالِ التي صار بها خليلَ الرحمن، وإمامَ الحنيفيَّة للناس[2].

قال سبحانه: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٣].

---

(١) قال بهذا المعنى: ابن جرير في ((تفسيره)) (٢/ ٥٧٨-٥٧٩)، وابن تيمية ((الجواب الصحيح)) (٣/ ٧٦)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (١٤/ ٤٤١-٤٤٢)، وابن عاشور في ((تفسيره)) (١/ ٧٢٤-٧٢٦).

وقيل المعنى: إلا من ظلم نفسه وامتهنها بجهله وسوء تدبيره بتركه الحق إلى الضلال. وقال بهذا المعنى: ابن كثير ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٤٥)، والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ٦٦)، وابن عثيمين في ((تفسير الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٨٠)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦-٦٧).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

أي: إنَّ إبراهيمَ عليه السَّلام من الفائزين السُّعداء في الدار الآخِرة، وفي الرَّفيق الأعلى مع إخوانه المرسَلين والأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام(١).

كما دعَا إبراهيمُ عليه السَّلام بذلك، فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [الشعراء: ٨٣].

﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١)﴾.

أي: أمَر الله تعالى خليلَه إبراهيمَ عليه السَّلام حين اصطفاه، بأن يُخلص دِينَه وتوحيدَه له سبحانه، وينقادَ إليه بكل ذلٍّ وخضوعٍ ومحبَّة، فأجاب إبراهيمُ إلى ذلك على الفور(٢).

﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٣٢)﴾.

﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾.

أي: عهِد إبراهيمُ عليه السَّلام بهذه الكلمة ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، والتي تمثِّل الملَّةَ الحنيفيَّة، عهِد بها إلى أبنائه، وكذلك فعَل حفيدُه يعقوب بن إسحاق، فعهِد بها إلى أبنائه(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٨٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ١٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٨١)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٢١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٤٦)، ((تفسير ابن عُثيمين – الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢١٣)، ((تفسير ابن كثير)) =

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٨].

﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

أي: إنَّ الله عزَّ وجلَّ قد اجتبَى لكم هذا الدِّين الذي تعرِفونه، فلا تُفرِّطوا فيه، ولا تُفارقوه في حياتِكم، بل الْزَموه وقُوموا به؛ ليرزقكم الله تعالى الوفاةَ عليه، فمَن عاش على شيءٍ مات عليه(١).

﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا قرَّر سبحانه لبني إسرائيل أنَّ أباهم يعقوبَ ممَّن أوصى بنيه بالإسلام، قال مبكِّتًا لهم(٢):

﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾.

أي: هل كنتم يا معشرَ اليهود، المكذِّبين بمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، شهودًا حاضرين حين أتتْ أباكم يعقوبَ عليه السَّلام مقدِّماتُ الموت(٣).

= (١/ ٤٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٢٧-٧٢٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٧٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٨٤-٥٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ١٣٦-١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٢٨-٧٢٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢/ ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٨٥-٥٨٦)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢١٣-٢١٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٣٠-٧٣١).

﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾.

أي: هل شهدتُم يعقوب، وهو يسأل أبناءَه مختبرًا لهم: أيَّ شيءٍ ستعبُدون من بعد وفاتي[١]؟

﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾.

أي: أجاب أبناءُ يعقوبَ عليه السَّلام أباهم بأنَّهم يعبُدون معبودَه ومعبودَ آبائه- وهم: جَدُّه إبراهيم، وعمُّه إسماعيل، وأبوه إسحاق- وهو الذي لا مَعبودَ بحقٍّ سواه، لا يُشرِكون به في عبادته أحدًا من دونه[٢].

﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

أي: مُستسلِمون ومنقادون لأمْره، خاضِعون لعبادتِه[٣].

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤)﴾.

أي: يا معشرَ اليهود والنَّصارى، دَعُوا ذِكر الآباء والأجداد، كإبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ، والمسلمين من أولادِهم؛ إذ لا يَنفعُكم الانتسابُ إليهم وإلى أعمالهم الصالِحة، فخيرُهم لا ينفعُكم إنْ كسبتم شرًّا؛ فإنَّهم جماعةٌ قد مضَتْ لسبيلها، وكلٌّ منكم له عملُه الذي يخصُّه، وتَبِعَتُه، من خيرٍ أو شر، ولا يَلحق الآخَر من ذلك شيءٌ، ولا السُّؤال عنه، فلا تُحاسَبون بأعمال سَلفِكم، وإنَّما تُحاسَبون بأعمالكم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ١٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٣٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٨٦-٥٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٣٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٧٧-٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٣٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) =

الفوائد التربويَّة:

١- يُستفاد من قوله سبحانه: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ أنَّ الإمامة لمن يستحقُّونها بالعمل، وبالصلاح والإيمان، وليستْ وراثةَ أصلاب وأنساب. ودعْوى القَرابة والدم والجِنس والقوم ما هي إلَّا دَعْوى جاهليَّة، تصطدم اصطدامًا أساسيًّا بالتصوُّر الإيماني الصَّحيح[١].

٢- أنَّه يَنبغي للإنسان أن يَدعوَ لذريَّته بالصَّلاح؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾[٢].

٣- في قول الله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾، دلالةٌ على أنَّ العدل بكلِّ معانيه، هو أساسُ استحقاق هذه الإمامةِ في أيَّة صورة من صُوَرها، ومَن ظَلَم- بأيِّ لون من الظُّلم- فقد جرَّد نفْسَه من حقِّ الإمامة بكلِّ معنًى من معانيها[٣].

٤- أهميَّة القَبول، وأنَّ المدار في الحقيقة عليه؛ وليس على مجرَّد العَمل، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾[٤].

٥- أنَّ الدَّعوةَ المستجابةَ تُستجاب، ولكنَّها تتحقَّق في أوانها الذي يُقدِّره الله بحِكمته. غير أن الناس يستعجلون! وغير الواصلين يملُّون ويقنطون؛ فقد كانت الاستجابة لدعوة إبراهيم وإسماعيل: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ ببعثة هذا الرسول الكريم بعد قرون وقرون[٥]!

= (١/ ٤٤٧-٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٣٥-٧٣٦).

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٣).

(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ١١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٥٩).

(٥) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ١١٥).

٦- شدَّة افتقار الإنسان إلى ربِّه؛ حيث كرَّر إبراهيمُ وإسماعيلُ عليهما السَّلام كلمة: ﴿رَبَّنَا﴾؛ وأنَّهما بحاجة إلى ربوبيَّة الله الخاصَّة، التي تقتضي عنايةً خاصَّة، وممَّا يفتقر إليه الإنسانُ دائمًا تثبيت الله، وإلَّا هلَك؛ لقوله تعالى: ﴿وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ﴾؛ فإنَّهما مسلمان بلا شكٍّ، ولكن لا يدوم هذا الإسلامُ إلَّا بتوفيق الله تعالى[1].

٧- أهميَّة الإخلاص؛ لقوله تعالى حِكايةً عن إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهما السَّلام: ﴿مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾: فقولهما: ﴿لَكَ﴾ يدلُّ على إخلاص الإسلام لله عزَّ وجلَّ[2].

٨- أنَّه يَنبغي التلطُّفُ في الخِطاب؛ لقول إبراهيمَ ويعقوبَ عليهما السَّلام لأبنائهما: ﴿يَا بَنِيَّ﴾؛ فإنَّ نداءهم بالبُنوَّة أدْعى لقَبولِ ما يُلقى إليهم[3].

٩- أنَّه يَنبغي للإنسان أن يتعاهَدَ نفسه دائمًا حتى لا يأتيَه الموتُ وهو غافل؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[4].

١٠- أنَّ الأعمال بالخواتيم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[5].

١١- في قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي ...﴾ دلالةٌ عظيمة، وإيحاءٌ قوي، عميق التأثير على أهميَّة العقيدة، فهذا ميِّت يحتضر؛ فما هي القضية التي تَشغل بالَه في ساعة الاحتضار؟ ما هو الشاغلُ الذي يُعنِّي خاطرَه وهو في سكرات الموت؟ ما هو الأمر الجَلَل الذي يريد أن يطمئنَّ عليه، ويستوثِقَ منه؟ ما هي التركةُ التي يُريد أن يُخلِّفها لأبنائه ويَحرِص على سلامة وصولها إليهم، فيُسلِّمها لهم في محضر يُسجِّل فيه كل

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٦٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٦٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٧٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

التفصيلات؟.. إنَّها العقيدة! هي التَّرِكة، وهي الذُّخر، وهي القضيةُ الكبرى، وهي الشُّغل الشاغل، وهي الأمْر الجَلَل، الذي لا تَشغل عنه سكراتُ الموت وصرعاتُه(١).

الفوائد العلميَّة واللَّطائف:

١- فضيلة إبراهيمَ صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّهُ﴾؛ حيث أضاف رُبوبيَّته إلى إبراهيم، وهي ربوبيَّة خاصَّة، ولقوله تعالى: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾؛ ولقوله سبحانه: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾(٢).

٢- أنَّ الله سبحانه وتعالى يُثيب العاملَ بأكثر من عمله؛ فإبراهيم صلَّى الله عليه وسلَّمَ لَمَّا أتمَّ الكلمات، جعَله الله تعالى إمامًا للناس، وأمَر الناس أن يتَّخذوا من مقامِه مصلًّى(٣).

٣- أدَبُ إبراهيم صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ حيث لم يُعمِّم في هذا الدعاء؛ ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ﴾؛ خوفًا من أن يقول الله له: (مَن آمَن فأرْزُقه)، كما قال تعالى حين سأله إبراهيمُ أن يجعل مِن ذُريَّته أئمَّة: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾، فتأدَّب في طلب الرِّزق: أن يكون للمؤمنين فقط من أهل هذا البَلد، لكن المسألة صارتْ بعكس الأُولى: ففي الأولى خصَّص الله دعاءَه، وهنا عمَّم(٤).

٤- التوسُّل إلى الله سبحانه وتعالى بأسمائِه وصِفاته المناسبة لِمَا يدعو به المرء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(٥).

٥- في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ١١٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين – الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٥).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٦٢).

الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، جاء الإتيان بصِفتي العِزة والحِكمة في الدعاء ببَعْثِ الرسول؛ لأنَّ ما يجيء به الرسولُ كلُّه حِكمة، وفيه العِزَّة[١].

٦- أنَّ الأصل في العبادات أنَّها توقيفيَّة، أي: إنَّ الإنسان لا يتعبَّد لله بشيءٍ إلَّا بما شرَع؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾[٢].

٧- أنَّ المخالفين للرُّسُل سفهاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾، وقوله في المنافقين: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ [البقرة: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ [البقرة: ١٤٢]؛ فإنَّهم وإن كانوا أذكياءَ، وعندهم علمٌ بالصناعة، والسِّياسة، إلَّا أنَّهم في الحقيقةِ سُفهاء؛ لأنَّ العاقلَ هو الذي يتَّبع ما جاءتْ به الرُّسُلُ فقط[٣].

٨- في قوله تعالى حِكايةً عن إبراهيمَ عليه السَّلام: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، مناسبةٌ بين ﴿أَسْلَمْتُ﴾ و﴿رَبِّ﴾، وكأنَّ ذِكر الربوبيَّة هنا عِلَّةٌ لقوله تعالى: ﴿أَسْلَمْتُ﴾؛ فإنَّ الربَّ هو وحده الذي يستحقُّ أن يُسْلَم له[٤].

٩- في قوله تعالى: ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ﴾، إشارةٌ إلى الوصية عند حضور الأجَل، ويُشترَط أن يكون الموصِي على وعيٍ بما يقول[٥].

١٠- جوازُ إطلاق اسم الأبِ على العمِّ تغليبًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ﴾، وإسماعيل هو عمٌّ يعقوب عليهما السلام[٦].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٦٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٦٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٧٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٧٣).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٧٩).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٧٩).

١١- بيانُ عدْل الله سبحانه وتعالى، وأنَّه لا يُؤاخِذ أحدًا بما لم يعملْه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[١].

بلاغة الآيات:

١- في قوله: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ﴾ قُدِّم المفعول (إبراهيم) للاهتمام بمَن وقع عليه الابتلاء، ولتشريف إبراهيمَ بإضافة اسم الربِّ إلى اسمه[٢].

٢- قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ في هذه الآية نوعٌ طريفٌ من أنواع الفصاحة يُقال له: المراجعة، وهو أن يحكي المتكلم مراجعة في القول جرَت بينه وبين محاور في الحديث، أو بين اثنين غيره، بأوْجَز عبارة، وأبلغ إشارة، وأرشق محاورة، مع عذوبة اللفظ وجزالته، وسهولة السَّبك، وقد جمعت هذه الآية- التي عِدة ألفاظها ثلاث عشرة لفظة- معانيَ الكلام، من الخبر والاستخبار، والأمر والنهي والوعد والوعيد[٣].

٣- في قوله: ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ﴾

- جمع الطائفين والعاكفين جمع سلامة؛ لأنه أقربُ إلى لفظ الفعل بمنزلة يطوفون، أي يُجدِّدون الطواف؛ للإشعار بعِلَّة من علل تطهير البيت، وهو قُرب هذين من البيت بخلاف الركوع والسجود، فإنَّه لا يلزم أن يكونَا في البيت ولا عنده؛ فلذلك لم يُجمعَا جمع سلامة[٤].

- وقدَّم الطائفين على العاكفين؛ لقُرب الطَّواف من البيت واختصاصه به، بخِلاف العكوف؛ فإنه يكون فيه وفي غيره[٥].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٠٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٦٠٠).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ١٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (١/ ٤١٦)، ((تفسير القاسمي)) (١/ ٣٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧١٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (١/ ٣٩٥).

٤- في قوله: ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾

- خصَّ الركوع والسجود بالذِّكر من جميع أحوال المصلي؛ لأنَّهما أقرب أحواله إلى الله[1].

- وقُدِّم الركوع على السجود؛ لتقدُّمه عليه في الزمان[2].

- وتَرْك حرف العطف بينهما؛ لتقاربهما ذاتًا وزمانًا؛ ولأنَّ المقصود بهما المصلُّون، والرُّكَّعُ والسُّجود، وإنِ اختلفت هيآتهما، فيقابلهما فِعلٌ واحد وهو الصَّلاة، فناسب أنْ لا يُعطف؛ لئلَّا يتوهم أنَّ كلَّ واحد منهما عبادة على حيالها، وليستَا مجتمعتينِ في عبادة واحدة، وليس كذلك، وهذا بخلاف الطَّائِفينَ والعاكفينَ فقد ناسَب معهما العطفُ؛ لفرط التبايُن بينهما[3].

- وجُمِعَا جمْعَ تكسير؛ لمقابلتهما ما قبلهما ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ﴾ من جَمْعي السَّلامة، فكان ذلك تنويعًا في الفصاحة، وخالف بين وزْنَي تكسيرهما؛ تنويعًا في الفصاحة أيضًا، وكان آخرهما ﴿السُّجود﴾ على فعول، لا على فُعَّل، لأجل كونها فاصلةً[4].

٥- قوله: ﴿بَلَدًا آمِنًا﴾ في هذه السورة قال: (بلدًا) على التنكير، وقال في سورة إبراهيم: (البلد)؛ وهذا إمَّا لأنَّ الدَّعوة الأولى وقعتْ ولم يكُن المكان قد جُعل بلدًا، والدعوة الثانية وقعتْ وقد جعل بلدًا، فكأنَّه قال: اجعل هذا المكان الذي صيَّرته بلدًا ذا أمْنٍ وسلامة، فيكون كل لفظ مناسبًا لمقامه[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٦١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٦١٢)، ((تفسير القاسمي)) (١/ ٣٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٦١٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٤/ ٤٩)، ((تفسير القاسمي)) (١/ ٣٩٦).

وإمَّا أن تكون الدعوتانِ وقعتَا بعدَما صار المكانُ بلدًا، إلَّا أنَّه تفنَّن في الموضعين، فحَذَف من كلٍّ ما أثبته في الآخَر احتباكًا، والأصْل: ربِّ اجعل هذا البلد بلدًا آمنًا، ويكون التنكيرُ للطلب مع المبالغة[١].

٦- في قوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ عبَّر بالمضارع في ﴿يَرْفَعُ﴾ مع أنه حكاية عن الماضي؛ لاستحضار الحالة[٢].

- وتأخير عطف ﴿وَإِسْمَاعِيلُ﴾ عن المفعول ﴿الْقَوَاعِدَ﴾؛ لعلَّه للإيذان بأنَّ الأصلَ في الرَّفْع هو إبراهيم، وإسماعيل تبعٌ له[٣].

٧- قوله: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

- في ندائهما بلفظ ﴿رَبَّنَا﴾ تلطف واستعطاف بذكر هذه الصفة الدالة على التربية والإصلاح بحال الداعي[٤].

- وفيه: تأكيدُ الجملة بـ(إنَّ)؛ لغرض كمالِ قوةِ يقينِهما بمضمونها، وقصرُ نعْتي السمع والعلم عليه تعالى؛ لإظهار اختصاصِ دُعائهما به تعالى، وانقطاعِ رجائهما عما سواه بالكلية[٥].

- وفيه: الإتيان بضمير الفصل (أنت)؛ لبيان كمال الوصفين له تعالى بتنزيل سمع غيره وعلم غيره منزلة العدَم، ويجوز أن يكون قصرًا حقيقيًّا باعتبار متعلَّق خاصٍّ، أي السميع العليم لدعائنا، لا يعلمه غيرك، وهذا قصرٌ حقيقيٌّ مقيَّد[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (١/ ٣٩٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧١٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٦٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٦١٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٦١).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧١٩)؛ قال ابن عاشور: (وهو نوعٌ مغايرٌ للقَصرُ الإضافي، لم ينبِّه عليه علماءُ المعاني).

٨- في قوله: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾

- تكرار النداء بقوله: ﴿رَبَّنَا﴾، وفائدته: إظهار الضراعة إلى الله تعالى، وإظهار أنَّ كلَّ دعوى من هاته الدعوات مقصودةٌ بالذات؛ ولذلك لم يُكرر النداء إلَّا عند الانتقال من دعوةٍ إلى أخرى[١].

- وقوله: ﴿لك﴾ يُفيد الحصر، أي نكون مسلمين لك لا لغيرك، وهذا يدلُّ على أنَّ كمال سعادة العبد في أنْ يكون مسلمًا لأحكام الله تعالى وقضائه وقدَره، وأنْ لا يكون ملتفتَ الخاطِر إلى شيءٍ سواه[٢].

٩- ﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ فيه التأكيد باللام في الجملة الأولى (ولقد)، وبـ(إنَّ) وباللام في الثانيَّة (وإنه - لَمِن)؛ وذلك لأجل الاهتمام بالخبر الأخير، ولأنَّ الإخبار عن حالة مغيبة في الآخرة، يحتاج إلى مزيد تأكيد، بخلاف حال الاصطفاء في الدُّنيا؛ فإنه يُشاهد ويُنقل جيلًا بعد جيل[٣].

١٠- قوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فيه التفاتٌ من التكلُّم إلى الغَيبة، ولو جرى على الكلام السابق، لكان: (إذ قلنا له أسلم)[٤]. والالتفاتُ مع التعرُّض لعنوان الربوبيَّةِ والإضافةِ إليه عليه السلام ﴿رَبُّه﴾؛ لإظهارِ مزيدِ اللُّطفِ به، والاعتناءِ بتربيته[٥].

١١- قوله: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ...﴾ فيه مؤكِّداتٌ عديدةٌ للدَّلالة على شِدَّة الاهتمام بهذا الأمر:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧١٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٤/ ٥٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٦٣٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٦٣).

– فالتعبير بالماضي ﴿وَصَّى﴾ لتحقيق الوقوع[١].

– ولفظ الوصية أوكد من الأمْر؛ ولذلك جاء هنا في هذا المقام الذي يكون احتياط الإنسان لدينه أشدَّ وأتمَّ؛ ترغيبًا في قَبول الدِّين[٢].

– وتخصيص بنيه بذلك؛ لأن اهتمامه بذلك كان أشدَّ من اهتمامه بغيره[٣].

– وتعميم الوصية لجميع بنيه؛ يدل أيضًا على شدة الاهتمام[٤].

– وإطلاق هذه الوصية غير مقيَّدةٍ بزمانٍ معيَّن ومكانٍ معيَّن[٥].

– والزَّجر البليغ عن أن يموتوا غير مسلمين؛ للدلالة أيضًا على شدَّة الاهتمام[٦].

١٢– في قوله: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾

– جاء إدخال حرف النَّهي على ما ليس بمنهيٍّ عنه؛ لنكتةٍ لطيفة، وهي: إظهار أنَّ موتهم على غير الإسلام موتٌ لا خير فيه، وأنه ليس بموت السُّعداء، وأن من حق هذا الموت أن لا يحُلَّ فيهم، وهذا نهيٌ عن تعاطي الأشياء التي تكون سببًا للموافاة على غير الإسلام، فتضمن هذا الكلام إيجازًا بليغًا، ووعظًا وتذكيرًا[٧].

– وفيه: توكيدٌ لمعنى النهي بنون التوكيد المشدَّدة في ﴿تَمُوتُنَّ﴾[٨].

١٣– قوله: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ ...﴾ الآية

– في الآية: نوعٌ من أنواع البلاغة يُسمَّى الاطِّراد[٩]، وهو أن يَطَّرِدَ للمتكلِّم

(١) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٨٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٤/ ٦٤)، ((تفسير القاسمي)) (١/ ٤٠٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (١/ ٤٠٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٤/ ٦٤).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٧) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٦٣٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ١٩٠).
(٨) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٨١).
(٩) **الاطراد**: هو الجَرْي على نسق واحد، واطراد الشيء: متابعة بعضه بعضًا، وهو في البلاغة: ذِكر =

أسماءُ الآباء مُرتَّبَةً على حُكم ترتيبها في الميلاد(١).

– وفيها: ما يسمى بـ(الاحتراس)(٢)؛ لأنَّه لو وقف عند ﴿آبَائِكَ﴾ لما اتَّضح صِحَّة المعنى؛ لأن مطلق الآباء يتناول من الأب الأدْنى إلى آدَم وفي آباء يعقوب عليه السلام مَن لا يجب اتباعُ ملته، فاحترس بذكر البدل عمَّا يرد على المُبدَل منه، لو وقْع الاختصار عليه(٣).

١٤ – قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾

– فيه: التعبير بالجملة الاسمية؛ للتأكيد، ولإفادة ثبات الوصف لهم ودوامه، بعد أن أُفيد بالجملة الفعليَّة المعطوف عليها، معنى التجدُّد والاستمرار(٤).

– وفيه: تقديمُ الجار والمجرور ﴿لَهُ﴾ على الخبَر ﴿مُسْلِمُونَ﴾؛ لتقوية المعنى وزيادة توكيده(٥)، ومراعاةً لفواصل الآيات.

= أسماء آباء الممدوح أو غيره مُرتَّبةً على حُكم ترتيبها في الولادة من غير تكلُّف. يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٢٩٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ١٩٢)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ١٤٣ – ١٤٤).

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ١٩٢).

(٢) الاحتراس: هو التحرُّز من الشيء والتحفُّظ منه، وهو نوعٌ من أنواع إطناب الزِّيادة، وهو أن يكون الكلام محتملًا لشيء بعيد، فيُؤتى بكلام يَدفع ذلك الاحتمال، أو الإتيان في كلام يُوهِم خلاف المقصود بما يَدْفَع ذلك الوهمَ، ويُسمِّيه البعض التَّكميل. يُنظر: ((البرهان)) للزركشي (٣/ ٦٤)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٢٥١)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٤٩).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحي لدين درويش (١/ ١٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٣٤).

(٥) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٨١).

الآيات (١٣٥-١٤١)

﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿حَنِيفًا﴾: أي: مائلًا عن الدِّين الباطل إلى الدِّين الحقِّ، أي: مسلمًا مستقيمًا، وأصل الحنف: الميل[1].

﴿الْأَسْبَاطِ﴾: هم ولد يعقوب عليه السلام، سُمُّوا بالأسباط؛ لأنَّه كان من كلِّ واحد منهم سِبط، والسِّبط بمنزلة القبيلة. والسِّبط في اللُّغة: الجماعة يَرجِعون إلى أبٍ واحد، وأصل السِّبط يدلُّ على امتدادِ شيءٍ[2].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٤)، ((تذكرة=

﴿شِقَاقٍ﴾: عَداوة ومباينة، ومخالفة، وأصل الشِّقاق: الانصِداع في الشيء[1].

﴿صِبْغَةَ اللهِ﴾: دِينه، وفِطرته لخلقه، وأصل الصِّبغة: تلوين الشيء بلونٍ ما[2].

مشكل الإعراب:

١- قوله: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾:

﴿مِلَّةَ﴾: منصوبة بفعل مُقدَّر، تقديره: نتبع أو اتَّبعوا، أو الزموا مِلةَ، أو على نزْع الخافض، والتقدير: نقْتدي -أو اقتدوا- بملَّةِ إبْراهيمَ، فلمَّا حُذِف حرْف الجرِّ انتصب.

﴿حنيفًا﴾: منصوب بفِعل محذوف أيضًا، تقديره: أعني. أو منصوب على الحال مِن ﴿مِلَّة﴾، وذُكِّر حنيفًا مع أنَّ ﴿مِلَّة﴾ مؤنَّث؛ لأنَّ صيغة (فَعيل) يستوي فيها المذكَّر والمؤنَّث، أو أنَّ الملَّة بمعنى الدِّين. وقيل: ﴿حنيفًا﴾ حالٌ من ﴿إبراهيم﴾[3].

٢- قوله: ﴿صِبغةَ اللهِ﴾: منصوبة على أنَّه مفعولٌ مطلَق نائِبٌ عن عامِله، أي: صبغنا صِبغةَ الله- كما انتصب (وعْدَ الله) بعد قوله: ﴿يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعْدَ اللهِ...﴾ [الروم: ٥ - ٦] بتقدير: وعَدَهم النَّصرَ- أو على أنَّ (صبغة) بدلٌ من قوله: ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾، أي: الملة التي جعَلها الله شعارَنا كالصِّبغةِ عند

= الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩٥).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٦).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١١٢)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ١٢٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ١٣٥-١٣٦).

اليهود والنصارى، أو منصوبًا وصفًا لمصدر محذوف دلَّ عليه فِعل ﴿آمنَّا بِاللهِ﴾، والتقدير: آمنَّا إيمانًا صِبغةَ الله. وقيل: منصوبة على الإغراء، أي: اتَّبعوا صِبغةَ الله. وقيل: صبغة منصوبة على التمييز، وهو من التمييز المنقول من المبتدأ[1].

المعنى الإجمالي:

يُخبِر الله تعالى عن قولِ اليهودِ لأهل الإيمان: اتَّبعوا اليهوديَّةَ، تهتدوا. وعن قول قال النَّصارى لهم: اتَّبعوا النصرانيَّة، تهتدوا. فأمَر الله تعالى نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ أن يقول لأصحاب المِلَّتينِ: إنَّ الهداية الحقيقيَّة ليستْ في دِياناتكم المحرَّفة، بل هي في اتِّباع دِين إبراهيمَ عليه السَّلام، الذي هو استقامةٌ على التوحيد، وميلانٌ عن الشِّرك.

ثمَّ أمَر الله سبحانه عبادَه المؤمنين أن يَصْدَعوا بإيمانهم به، وبما أنزله إليهم، وبالذي أُنزل على الرُّسُل الذين كانوا من قبلُ: إبراهيم، وإسماعيل وإسحاق، ويعقوب، وعلى الأنبياء من ذريَّة يعقوب، وأنْ يُؤمنوا بما آتاه اللهُ عزَّ وجلَّ موسى وعيسى من الكتُب المُنزلة إليهما، والمعجزاتِ المؤيِّدة لهما، وأن يؤمنوا بما أعطاه الله لبقيَّة الأنبياء والرُّسُل عليهم السَّلام، من دون أن يُفرِّقوا بين أحد منهم، ولْيُعلنوا خضوعَهم التامَّ له جلَّ وعلا، وإذعانَهم وانقيادهم له سبحانه.

فإنْ آمَن اليهودُ والنَّصارى إيمانًا مِثل إيمانكم من جميع الوجوه، فقدْ سلَكوا سبيلَ الرُّشد، والتوفيق، وحقَّقوا الهداية، وإنْ أعْرَضوا فلْتعلموا أنَّهم إنما يقصدون مُنازعتكم وعداوتَكم، لكن الله متكفِّلٌ بدفْع أذاهم عنكم، وسيَكفيكم أمرهم، فهو سبحانه يَسمعُ ما يقولون، ويَعلم ما يُخفون وما يُعلنون.

---

(١) يُنظر: ((الكتاب)) لسيبويه (١/ ٣٨٠ وما بعدها) (باب ما يكون المصدرُ فيه توكيدًا لنفسه نصبًا)؛ فقد فصَّل فيه القول، وهو المعوَّل عليه فيه. وينظر كذلك: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١١٢-١١٣)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٩٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٦٥٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ١٤٣) ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٤٢).

فاتَّبِعوا دِين الله والْزموه؛ فلا أحَدَ أحسنُ من الله تعالى دِينًا، وكونوا له خاضِعين متذلِّلين.

ثم أمَرَ الله سبحانه نبيَّه محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ أنْ يقولَ لأولئك اليهودِ والنَّصارى- الذين يُجادلونه والمؤمنين بغير حقٍّ- مُنكِرًا عليهم: أتُجادلوننا في الله بزَعْمِكم أنَّكم أَوْلى به منَّا؟! فكيف يكون ذلك وربُّ الجميع واحد، ولكلٍّ منَّا أعمالُه التي سيُجازَى عليها؟! فأنتم لستُم بأفضلَ منَّا، بل نحن أَوْلى بالله منكم؛ لأنَّنا لا نُشرِكُ به شيئًا، وأنتم تُشرِكون.

ثمَّ أنكر الله تعالى على اليهود والنصارى، ووبَّخَهم في زعمِهم أنَّ إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطَ كانوا على اليهوديَّة، أو النصرانيَّة، مع أنَّ هاتيْن الدِّيانتيْنِ قد حدَثَتا بعد هؤلاء الرُّسُل المذكورين، فأمَرَ الله نبيَّه أن يسألَهم: أهُمْ أعلمُ بما كان عليه هؤلاء الرُّسُلُ، أمِ اللهُ؟!

ولا أحدَ أشدُّ ظلمًا في كِتمان الشَّهادة؛ ممَّن يَكتُم ما أنزل الله في كُتبه، والله سبحانه وتعالى ليس بسَاهٍ عن هؤلاء اليهودِ والنَّصارى، بل هو على عِلمٍ بجميع أعمالِهم، ولا يَخفَى عليه منها شيء.

ثم أخْبَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ اليهودَ والنَّصارى المكذِّبين بنُبُوَّة محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ أنَّ هؤلاء الآباءَ والأجدادَ الصالحين، الذين تنتسبون إليهم، قد مضَوْا لسبيلهم، ولن ينفعَكم الانتسابُ إليهم، ولن يعودَ إليكم من صلاحِهم وعملِهم الصالح شيءٌ؛ فإنَّما لكم ما عملتُم، ولن تُحاسَبوا على ما عمِلوه.

تفسير الآيات:

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥)﴾.

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾.

أي: قالت اليهود للمؤمنين: كونوا هودًا، تَهتدوا، وقالت النَّصارى لهم: كونوا نصارى، تَهتدوا؛ فكلٌّ منهم حصَر الهدى في دِينه، بزعم أنَّ مُعتنقَه يصيب طريقَ الحقِّ(١).

﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

أي: يا محمَّد، قلْ لهؤلاء اليهود والنصارى: إنَّ الهداية ليستْ في دِينكم من اليهوديَّة، أو النصرانيَّة، وإنَّما الهداية الحقيقيَّة في اعتناق دِين إبراهيم عليه السَّلام، الذي حقيقتُه الاستقامةُ على طريق التوحيد، والميلُ عن طريق الشِّرك، أي: عِبادة الله وحده لا شريكَ له. وإبراهيمُ عليه السَّلام لم يكُن من عبَّاد الأصنام، ولم يكُن يهوديًّا ولا نصرانيًّا(٢).

كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٣٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٩٠-٥٩١، ٥٩٤-٥٩٥)، ((تفسير آيات أشكلت)) لابن تَيميَّة (١/ ٢٨١-٢٨٢، ٣٩٤- ٣٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧).
وممَّن ذهَب من السَّلف إلى نحو ما ذُكِر في معنى قوله تعالى: ﴿حَنِيفًا﴾: محمَّد بن كعب القُرَظي، وعيسى بن جارية، ومجاهد، وخُصَيف الجَزَريُّ، والسُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٩٤)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٢٤٢).

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦)﴾.

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾.

أي: أعْلِنوا- أيُّها المؤمنون- أنَّكم مُقِرُّون بقلوبكم وجوارحكم بالله تعالى، وبكلامه، الذي أنزله إليكم[١].

عن أبي هُريرَةَ رضي الله عنه، أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((كان أهلُ الكتابِ يَقرؤُون التوراةَ بالعِبرانيةِ، ويُفسِّرونها بالعَربيَّةِ لأهلِ الإسلامِ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: لا تُصدِّقوا أهلَ الكتابِ ولا تُكذِّبوهم، وقولوا: ﴿آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾))[٢].

وعن عبدِ الله بن عَبَّاس رضي الله عنهما، قال: ((كان رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ يقرأ في ركعَتيِ الفجرِ: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾، والتي في آل عمرانَ: ﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾))[٣].

﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾.

أي: صَدَّقْنا وأقرَرْنا بألسنتنا وقلوبِنا بما أنزله الله تعالى على رُسله عليهم الصَّلاة والسَّلام- من قبلِ أن يُبدَّل ويُحرَّف-: إبراهيمَ، وإسماعيلَ، وإسحاقَ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧-٦٨).

(٢) رواه البخاري (٤٤٥٨).

(٣) رواه مسلم (٧٢٧).

ويعقوب، وعلى الأنبياء من ذريَّة يعقوب، وبما أعطاه اللهُ تعالى لموسى من التوراة والمعجِزات، وما أعطاه لعيسى من الإنجيل والمعجِزات كذلك، وما أُعطيَه بقيَّةُ الأنبياء عليهم السَّلام[١].

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾.

أي: لا نُؤمِن ببعضٍ ونكفُر ببعض، بل نحن بالجميعِ مؤمنون[٢].

﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

أي: ونحن لله تعالى وحْدَه دون مَن سواه، مستسلِمون ظاهرًا وباطنًا، فله خاضِعون بالطَّاعة، ومذعِنون بالعبوديَّة[٣].

﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧)﴾.

﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾.

أي: فإنْ آمَن اليهودُ والنَّصارى إيمانًا مماثلًا من كلِّ الوجوه لإيمانكم- أيُّها المسلمون- ومِن ذلك الإيمانُ بجميعِ كتُب الله تعالى، وبجميع رُسله عليهم الصَّلاة والسَّلام- فقد رَشَدوا ووُفِّقوا للحقِّ والخير[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٩٦)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢١٥)، ((جامع المسائل)) لابن تَيميَّة (٣/ ٢٩٧-٢٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٣٢، ٧٣٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٨٧-٨٨).

وممَّن فسَّر الأسباط بمِثل ما ذُكر: أبو العالية، وقَتادة، والرَّبيع بن أنس، والسُّدِّي، ومحمَّد بن إسحاق. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٩٧)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٣٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٨٨-٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٩٩-٦٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ١٤٢)، ((تفسير =

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾.

أي: فإنْ أعرَض أولئك اليهودُ والنَّصارى عن الحقِّ بعد إقامة الحُجَّة عليهم، فلم يُؤمِنوا بمِثل إيمانكم، فاعلموا- أيُّها المؤمنون- أنَّهم يَقصِدون المخالفةَ والمنازعةَ والعداوةَ لكم[1].

﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

أي: فإنَّ الله تعالى سيَكفيك يا محمد أمْرَ أولئك اليهود والنصارى، الذين يقصدون عداوتَك؛ فإنَّ الله تعالى يَدفع أذاهم عنك وينصُرك عليهم؛ فهو سبحانه السميعُ لِمَا يقولون، والعالِم بما يُبطنون وما يُظهرون، من المكائدِ وأنواع الشُّرور[2].

﴿صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (١٣٨)﴾.

﴿صِبْغَةَ اللهِ﴾.

أي: اتَّبعوا الحَنيفيَّةَ مِلَّة إبراهيم عليه السَّلام، والْزَموا دِينَ الله تعالى الإسلام، وقوموا به خيرَ قِيام[3].

= السعدي)) (ص: ٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٤١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٩١-٩٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٠١-٦٠٢)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٢٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢١٦)، ((الجواب الصحيح)) لابن تَيميَّة (٥/ ٤٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٤١-٧٤٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٩٣-٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٠٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٢٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨-٦٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٩٦-٩٧).
وممَّن قال من السَّلف: إنَّ ﴿صِبْغَةَ اللهِ﴾ معناها دِين الله: ابن عبَّاس، وأبو العالية، ومجاهد، والحسن، وإبراهيم النَّخَعي، وعبدُ الله بن كثير، والضحَّاك، وقَتادة، وعِكرمة، وعطيَّة، والرَّبيع بن أنس، والسُّدِّي، وابن زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٠٤)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٢٤٥).

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً﴾.

أي: لا أَحَدَ أحسنُ من الله تعالى دِينًا[(١)].

﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾.

أي: ونحن له سبحانه دون مَن سواه، مخلِصون، خاضِعون، ومتذلِّلون، مع المحبَّةِ الواجِبة له سبحانه[(٢)].

﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (١٣٩)﴾.

﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾.

أي: قل يا محمَّد، لهؤلاء اليهودِ والنصارَى -الذين يُجادِلونكم بغير حقٍّ- مُنكرًا عليهم صنيعَهم هذا: هل تُجادِلوننا وتُخاصمونَنا في توحيدِ الله تعالى لإبطالِ دِين الإسلام، بزعْم أنَّكم أَوْلَى بالله منَّا؟! وكيف تدَّعون ذلك وربُّ الجميعِ واحد[(٣)]؟!

﴿وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾.

أي: وبالإضافةِ إلى أنَّ ربَّنا واحدٌ، ليس ربًّا لكم دُوننا، فلكلٍّ منا أعمالُه التي اكتسبها وسيُجازيه الله تعالى بها؛ فأنتم لستم بأفضلَ منَّا، بل نحن أَوْلى بالله منكم؛ لأنَّنا لا نُشرِك به شيئًا في عبادته، وأنتم تُشرِكون؛ فكيف تدَّعون زُورًا ما نحن أَوْلى به منكم[(٤)]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٤٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٠٧)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٠٧-٦٠٨)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢١٦)، ((تفسير =

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠)﴾.

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾.

أي: يُوبِّخ الله تعالى ويُنكِر على اليهود والنَّصارى الذين يحاجُّون في رُسل الله عزَّ وجلَّ بعد محاجَّتهم في دِين الله تعالى، فيَزعُمون أنَّ الرسل المذكورين كانوا على مِلَّتهم، إمَّا اليهوديَّة وإمَّا النصرانيَّة، زاعمين بذلك أنَّهم أَوْلى بأولئك الرُّسُل الكِرام من المسلمين، وهذا مِن سفَههم؛ فكيف يكون هؤلاء هودًا أو نصارى، واليهوديَّة والنصرانيَّة إنَّما حدَثتْ بعدَهم[1]؟!

﴿قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ﴾.

أي: قل لهم: يا محمَّد -إنِ ادَّعوا أنَّ إبراهيمَ، وإسماعيلَ، وإسحاقَ، ويعقوبَ، والأسباطَ كانوا هودًا أو نصارى-: هل أنتم أعلمُ بالدِّين الذي كانوا عليه، أم الله[2]؟!

كما قال الله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ

= السعدي)) (ص: ٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٠٨-٦١٠)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢١٦-٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٤٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٠٠-١٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩).

لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٥-٦٨].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ﴾.

أي: لا أحدَ أشدُّ ظلمًا في كتمان الشهادة، ممَّن كتَموا ما أنزله الله تعالى في كتُبه، من أنَّ إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطَ كانوا مُسلِمين، فكتموا ذلك ونَحَلوهم اليهوديَّةَ والنصرانيَّة[١]، وقيل: ما كتموه ممَّا جاء في كتُبهم من العِلم بصِفات رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ وإثبات نبوَّته[٢].

﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

أي: هذا تهديدٌ، ووعيدٌ شديدٌ لأولئك اليهود والنَّصارى، الذي يَكتُمون ما أُنزل إليهم من العِلم، بمجازاتِهم على ذلك؛ فاللهُ تعالى ليس بساهٍ عنهم، بل هو مُطَّلعٌ على أعمالِهم، وقد أحصاها صغيرَها وكبيرَها، لا تخفَى عليه منهم خافيةٌ[٣].

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤١)﴾.

أي: يا معشرَ اليهود والنَّصارى، دَعُوا ذِكر الآباء والأجداد، كإبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ، والمسلمين من أولادِهم؛ إذ لا يَنفعُكم الانتسابُ إليهم وإلى أعمالهم الصالحِة، فخيرُهم لا ينفعُكم إنْ كسبتم شرًّا؛ فإنَّهم جماعة قد مضَتْ لسبيلها، وكلٌّ منكم له عملُه الذي يخصُّه، وتَبِعَتُهُ، من خيرٍ أو شر، ولا يَلحق الآخَر من ذلك شيءٌ، ولا السُّؤال عنه، فلا تُحاسَبون بأعمال سَلفِكم، وإنَّما تُحاسَبون بأعمالكم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦١٠، ٦١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٤٧-٧٤٨).

(٢) وممَّن قال بهذا القول: الواحديُّ في ((الوجيز)) (ص: ١٣٤)، وابن عثيمين في ((تفسير الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٠١-١٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦١٣-٦١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٨٩) (٢/ ٦١٤-٦١٥)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢١٤)، =

الفوائد التربويَّة:

١- أنَّ أهلَ الباطل يَدْعون إلى ضلالِهم، ويدَّعون فيه الخير؛ لقوله تعالى حِكايةً عن بعضهم أنَّهم يقولون: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ وهذه دعوةٌ إلى ضلال، وقولهم: ﴿تَهْتَدُوا﴾ فيه ادِّعاء أنَّ ذلك خير.

فمَثلًا دعاة التبرُّج والسُّفور يقولون: اتركوا المرأةَ تتحرَّر، أعطوها الحُرية، اتركوها تبتهج في الحياة، لا تُقيِّدوها بالغطاءِ، وتركِ التبرُّج، ونحو ذلك، وكذا كلُّ داعٍ إلى ضلالةٍ يزيِّن هذه الضَّلالة بما يَغرُّ البليد[1].

٢- أنَّه ينبغي للمؤمن أن يَشعُرَ أنه وإخوانه كنفْسٍ واحدة؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾، فأتى بضمير الجمْع: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ... وَنَحْنُ...﴾[2].

٣- في قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ﴾ [البقرة: ١٣٧]، إشارةٌ إلى التوكُّل على الله عزَّ وجلَّ في الدَّعوة إليه، وفي سائرِ الأمور؛ لأنَّه إذا كان وحده سبحانه وتعالى هو الكافي، فيجب أن يكونَ التوكُّلُ والاعتمادُ عليه وحده؛ ولهذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، أي: كافيه[3].

٤- عِظَم ذَنب كتْمِ العِلم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ﴾؛ فإنَّ العالِم بشريعة الله عنده شهادةٌ من الله بهذه الشَّريعة، كما قال الله تعالى:

= ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٤٧-٤٤٨) (١/ ٤٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٣٥-٧٣٦).

قال السعدي: (تقدَّم تفسيرها، وكرَّرها؛ لقطع التعلُّق بالمخلوقين، وأنَّ المعوَّلَ عليه ما اتَّصف به الإنسان، لا عمل أسلافه وآبائه، فالنفع الحقيقي بالأعمال، لا بالانتساب المجرَّد للرجال) ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠).

ويُنظر ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٨٤ - ٨٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٩٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٩٥).

﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨]؛ فكلُّ إنسان يكتُم علمًا، فقد كتَم شهادةً عنده من الله[١].

الفوائد العلميَّة واللَّطائف:

١- أنَّ اليهوديَّة والنصرانيَّة المحرَّفتَينِ نوعٌ من الشِّرك؛ لأنَّ مجيءَ قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ في مقابل دَعوتهم إلى اليهوديَّة والنصرانيَّة، يدلُّ على أنَّهما نوعٌ من الشرك[٢].

٢- الإشارة إلى البَداءة بالأهمِّ وإن كان متأخِّرًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ مع أنَّ ما أُنزل إلينا متأخِّرٌ عمَّا سبق[٣].

٣- أنَّه لا حُجَّةَ لِمَن تولَّى عن شريعة النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ إلَّا الشِّقاق، والمجادلة بالباطل؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾[٤].

٤- وقوع الشِّقاق بين أهل الكِتاب والمسلمين؛ وعليه فلا يمكن أن يتَّفق المسلمون وأهلُ الكتاب؛ فتبطُل دعوة أهلِ الضَّلال الذين يَدْعون إلى توحيدِ الأديان؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾[٥].

٥- وجوبُ البَراءة من أعمال الكفَّار؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾[٦].

٦- ثبوت الصِّفات المنفيَّة؛ وهي ما نفاه اللهُ سبحانه وتعالى عن نفْسِه؛ لقولِه تعالى: ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ فإنَّ هذه صفةٌ منفيَّة، وليست ثبوتيَّة،

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٠٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٨٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٨٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٩٤).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٩٩).

والصِّفات المنفيَّة متضمِّنة لإثبات كمال ضدِّها؛ فلكمالِ مُراقبتِه، وعِلمه سبحانه وتعالى، فليس بغافلٍ عمَّا نعمل(١).

٧- الردُّ على الجَبريَّة الذين يزعُمون بأنَّ الإنسان مُجبَرٌ على عَمَله؛ حيث أضاف سبحانه العملَ إلى العامِل في قوله تعالى: ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾(٢).

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾

- فيه التِفاتٌ من الخطاب في قوله: ﴿وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ إلى الغَيبة في هذه الآية: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا...﴾؛ فائدته إبعادهم من مقام المخاطبةِ إعراضًا عنهم، وتعديدُ جناياتهم عند غيرهم(٣).

- و(أو) ليستْ للتخيير؛ فكل فريق يدعو إلى دِينه، ويزعم أنه الهدى؛ فهي تقسيم بعد الجمع؛ لأنَّ السامع يردُّ كلًّا إلى مَن قاله، وموزَّعة عليهما على وجه خاصٍّ يَقتضيه حالُها اقتضاءً مُغنيًا عن التصريح؛ ففيه لَفٌّ ونَشْر، مثل ما في قوله: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الجنةَ إلَّا من كان هُودًا أَوْ نصارى﴾؛ اعتمادًا على ظهور المرام(٤).

٢- قوله: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ فيه تعريضٌ بأهل الكتاب، وإيذانٌ ببُطلان دعواهم اتباعَه عليه السلام، مع إشراكهم بقولهم: عُزير ابن الله، والمسيح ابن الله، وهو احتراس؛ لئلَّا يغترَّ المشركون الذين يزعُمون أنَّهم على ملَّة إبراهيم عليه السلام(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٤/ ٧٠-٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٦٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٦٦)، ((تفسير القاسمي)) (١/ ٤٠٧).

٣- في قوله: ﴿قُلْ آمَنَّا﴾ وقوله: ﴿قُولُوا آمَنَّا﴾ مناسبة حسنة، حيث أفرد الضَّمير في الكلام الذي للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لمزيدِ الاختصاص بمباشرة الردِّ على اليهود والنصارى؛ لأنَّه مبعوث لإرشادِهم وزجرهم، وجمَع الضمير في الكلام الذي للأمَّة؛ لمزيدِ الاختصاص بمضمون المأمور به في سِياق التعليم(١).

٤- قوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ﴾ فيه تنزيل المفرد فيها منزلةَ الجمْع في تناوله الآحاد مطابقةً؛ لأنَّ لفظ ﴿أَحَدٍ﴾ في معنى الجماعة؛ ولذلك صحَّ دخول ﴿بَيْنَ﴾ عليه، ولأنَّ النكرة الواقعة في سِياق النفي تُفيد العموم لفظًا. ولأنَّ ﴿أَحَدٍ﴾ اسم موضوع لمن يصلُح أن يُخاطب ويستوي فيه المفردُ والمثنى والمجموعُ والمذكرُ والمؤنث- إذا كانت همزته أصليَّة، وعلى أنَّها مُبدَلة من الواو فهو بمعنى (واحد)، وعمومُه لوقوعه في حيِّز النفي(٢).

٥- قوله: ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾

- فيه تأكيد الجملة الواقعة شرطًا بـ(إنَّ)، وتأكُّد معنى الخبَر بحيث صار ظرفًا لهم، وهم مظروفون له؛ كأنَّ الشقاق مستولٍ عليهم من جميع جوانبهم، ومحيطٌ بهم إحاطةَ البيت بمَن فيه(٣).

- وقوله: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ﴾ عطف الجملة بالفاء مشعِرٌ بتعقُّب الكفاية عقيبَ شقاقهم، والمجيء بالسِّين يدلُّ على قُرب وقوع الكفاية؛ لأنَّها أقرب في التنفيس من (سوف)(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٣٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) مع الحاشية (١/ ١٩٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٦٥٣-٦٥٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ١٤٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٦٥٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ١٩٦).

٦- في قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً﴾

- الاستفهام هنا معناه النَّفي والإنكار، أي: ولا أحدَ أحسن من الله صبغةً[١].

- و﴿أَحْسَنُ﴾ هنا لا يُراد بها حقيقة التفضيل؛ إذ صِبغة غير الله منتفٍ عنها الحسن، أو يُراد بها التفضيل، باعتبار مَن يظن أنَّ في صِبغةِ غير الله حسنًا، وأنَّ التفضيل إنَّما يَجري بين الصِّبغتين، لا بين الصَّابغين[٢].

٧- قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾

- فيه تقديم الجار والمجرور ﴿لَهُ﴾ على عامله ﴿عابِدون﴾؛ للاهتمام، ورعايةِ الفواصل[٣].

- وفيه: إفادة قصر إضافي، وتعريض بالنَّصارى الذين اصطبغوا بالمعمودية، وعبدوا المسيح[٤].

- على تقدير الجملة اسميَّة؛ ففيه: إشْعارٌ بدَوام العبادةِ. وإذا قدِّرت الجملة فعليَّةً بتقدير فِعل الإغراء (الزموا) بتقدير القول، أي: (الزمَوا صِبغة الله، وقولوا: نحن له عابدون)؛ فقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً﴾ حينئذٍ يَجري مَجرَى التَّعليل للإغراء[٥].

٨- قوله: ﴿وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾

- فيه: تقديم الجار المجرور (لنا) و(لكم)؛ للاختصاص، أي: لنا أعمالنا لا أعمالكم[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٦٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٦٥٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ١٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٤٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٦٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٤٦).

- وعطف ﴿وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ فيه: احتراس؛ لدفع توهُّم أن يكون المسلمون مشاركين للمخاطبين في أعمالهم، مثل عطْف قوله تعالى: ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ على قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ [الكافرون: ٦][١].

- والتعبير بالجملة الاسميَّة ﴿ونَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ فيه: دَلالة على الدَّوام على الإخلاص، مع ما في تقديم الظرف (له) من الاختصاص وتقوية المعنى وتأكيده، ومراعاة فواصل الآيات[٢].

٩- في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ﴾ جاء الاستفهام للنفي والإنكار، والمعنى: لا أحدَ أظلمُ ممَّن كتَم...[٣].

- وفيه كنايةٌ عن عدَم اغترار المسلمين بقول اليهود والنصارى: إنَّ إبراهيم وأبناءه كانوا هودًا أو نصارى، وليس هذا احتجاجًا عليهم[٤].

١٠- قوله: ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ خبرٌ تضمَّن معنى التخويف والتهديد؛ لأنَّ القادر إذا لم يكن غافلًا، لم يكُن له مانع من العَمل بمقتضى عِلمه[٥].

١١- قوله: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

- فيه: حُسن الختام، مع حُسن التَّقْسيم والاتِّساق[٦].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ١٩٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٤/ ٧٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٥٧١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٤٨).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) قال أبو حيان: (ثم ختم ذلك بأنَّ تلك أمَّة قد خلَت منفردةً بعملها، كما أنتم كذلك، وأنكم غير مسؤولين عمَّا عملوه، وجاءتْ هذه الجمل -من ابتداء ذِكر إبراهيم إلى انتهاء الكلام فيه، على =

- وفيه: تَكرار هذه الجُملة، والتكرار إمَّا لاختِلاف السِّياق؛ لأنَّ ذلك ورد إثْرَ شيءٍ مخالِف لِمَا وردتِ الجُمل الأولى بإثْرِه، فالتَّكرار حَسَنٌ؛ لاختلاف الأقوال والسِّياق، وإمَّا أن يكون التَّكرار للمبالغة في الزَّجر عمَّا هُم عليه من الافتخار بالآباء والاتِّكال على أعمالهم[1]، أو يكون تكريرًا لنظيره الذي تقدَّم آنفًا؛ لزيادة رسوخ مدلوله في نفوس السَّامعين؛ اهتمامًا بما تضمَّنه؛ لكونه معنًى لم يَسبقْ سماعُه للمخاطبين؛ فلم يُقتنَع فيه بمرَّةٍ واحدة[2].

= اختلاف معانيه، وتعدد مبانيه-كأنَّها جملةٌ واحدة، في حُسن مساقها، ونظْم اتِّساقها، مرتقيةً في الفصاحةِ إلى ذروة الإحسان، مُفصِحَةً أنَّ بلاغتها خارجةٌ عن طبْع الإنسان، مذكِّرة قوله تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ﴾ [الإسراء: ٨٨]. ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٦٦٤-٦٦٥).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٦٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٤٨).

الآيات (١٤٢-١٥٠)

﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ
وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا
لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ
ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ
لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ
لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ
فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ
ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾
وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ
وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ
مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ
كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ
مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ
أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ
خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ
عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا
كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟
مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾.

غريب الكلمات:

﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾: أي: الجُهَّال، والسَّفه: الجهل، وخِفَّة العقل، والضَّعْف والحُمق(١).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥١).

﴿وَلَّاهُمْ﴾: صَرَفهم وحوَّلهم، وأصل الفِعل (ولي)، وإذا عُدِّي بـ(عن) اقتَضى معنى الإعراضِ والتركِ، وإذا عُدِّي بنَفْسه اقتَضَى معنى الولاية[(١)].

﴿وَسَطًا﴾: عدلًا خيارًا[(٢)].

﴿عَقِبَيْهِ﴾: مثنَّى العقب: وهو مؤخَّر الرِّجل، وجمْعه: أَعقاب؛ يقال: انقلَب على عَقِبيه، مثل: رجع على حافرته، وارتدَّ على أدباره[(٣)].

﴿تَقَلُّبَ﴾: التقلُّب: تحوُّل الشَّيءِ عن جِهته[(٤)].

﴿شَطْرَ﴾: نحوَ، أو جِهَة[(٥)].

﴿الْمُمْتَرِينَ﴾: المتردِّدين، من المِرية: وهي التردُّد في الأمْر، وهو أخصُّ من الشك[(٦)].

﴿مُوَلِّيهَا﴾: مستقبِلُها[(٧)].

﴿فلا تَخْشَوْهُمْ﴾: أي: فلا تخافوهم، والخَشْية: أكثر ما تكونُ عن عِلمٍ بما يُخشَى منه، وقيل: هي خوفٌ يشوبُه تعظيم[(٨)].

---

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٥١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (١/ ٢٢١).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٣).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٧).

(٧) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٧).

(٨) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٣)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٥٠٨).

مشكل الإعراب:

قوله: ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾:

﴿إنْ﴾: هي المخفَّفة من الثقيلة، واسمها (ضمير الشأن) محذوف.

﴿لكبيرةً﴾: اللَّام للفَرْق بين إن المخفَّفة من الثقيلة وإن النافية. وكبيرةً: خبر كان منصوب، واسم كان ضميرٌ مستترٌ تقديره (هي)، دلَّ عليه ما قبله من الكلام، والتقدير: وإنْ كانت التوليةُ، أو الصلاةُ، أو القِبلةُ(١).

المعنى الإجمالي:

أخبرَ اللهُ تعالى أنَّ الجاهلين من النَّاس من يهودٍ ومشركين ومنافقين- ممَّن لا يَعرِفون مصالح أنفسهم، بل يُضيعونها- سيتساءلون اعتراضًا- والرِّيبة تملأ قلوبَهم- عن السَّبب الذي صرَف المسلمين عن استقبال بيت المقدِس، فأمَر اللهُ نبيَّه محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ أن يُجيبهم بأنَّ مُلك المشرق والمغرب وما بينهما هو لله سبحانه وتعالى وحْدَه؛ فله أن يأمُرَ باستقبال أيِّ جِهة أراد؛ فإنَّه يُوفِّق مَن يشاء إلى سلوك الطَّريق القويم في امتثال الأمر بالتوجُّه للكعبة وفي كلِّ ما يأمر به سبحانه.

ومِثلُ هذا التوفيق الذي وفَّقه الله تعالى أمَّةَ محمد صلَّى الله عليه وسلَّمَ إلى أفضل قِبلة، اختيارُ الله سبحانه وتعالى لهم ليكونوا أعدلَ الأُمم وخيرَها؛ ليشهدوا على بقيَّة الأمم التي تقدَّمتهم أنَّ أنبياءهم ورسلَهم أدَّوْا إليهم رسالة ربِّهم جلَّ وعلا، ويكون الرسولُ محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّمَ شهيدًا على صِدق هذه الأمَّة فيما أخبَرت به من ذلك.

ثم خاطَب الله عزَّ وجلَّ نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ أنَّه إنَّما شرَع له استقبال بيت المقدس أولًا، ثمَّ نسخَه بالتوجُّه إلى الكعبة؛ امتحانًا؛ لكي يَعلمَ مَن يُطيع

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١١٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ١٢٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ١٥٦).

الرسولَ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، ممَّن يرتدُّ عن دِينه، وإنْ كان أمر تحويل القِبلة شاقًّا على النفوس وعظيمًا، إلَّا على مَن وفَّقه الله لطريق الهداية، ثم طمْأنَ الله سبحانه المؤمنين بأنَّه لا ينبغي له جلَّ وعلا أن يُضيع ثوابَ صلاتهم إلى بيت المقدِس، قبل تحويل القِبلة، بل هو محفوظٌ عنده عزَّ وجلَّ؛ فهو سبحانه عظيم الرحمة بالنَّاس.

ثم قال الله سبحانه لنبيِّه محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ: إنَّه رأى تلفُّتَه الكثيرَ ناحيةَ السَّماء وهو يقلِّبُ وجهَه في جِهاتها، يترقَّب وحيًا يُعلِمه بتحويل القِبلة، ثم أخبره تعالى أنَّه سيوجِّهه إلى قِبلةٍ يُحبها صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فأمرَهُ أن يتوجَّه في صلاته إلى جهة الكعبة، وفي أيِّ موضع كانوا، فعليهم أن يَستقبلوا الكعبةَ عند إرادة الصَّلاة، وقد علِم اليهود والنَّصارى مِن خلال كتُبهم أنَّ استقبال الكعبة مِن قِبل النبيِّ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ والمؤمنين حقٌّ مفروض من الله تعالى، والله سبحانه لا يَخفَى عليه أمرُ هؤلاء الذين يَعلمون الحقَّ ويُنكرونه ولا يَتَّبعونه.

ثم بيَّن الله سبحانه لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ مدى تعنُّتِ اليهود والنَّصارى وتمسُّكهم بالباطل؛ فلئن جاءهم بكلِّ برهان، وأقام عليهم الحُجج على أنَّ الحقَّ هو ما جاء به من تحوُّل القِبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، فإنَّهم لن يتَّبعوه فيما جاء به، ولا هو صلَّى الله عليه وسلَّمَ بمُتابِعهم على قِبلتهم؛ لتمسُّكه بشَرْع الله، ولا أحدَ منهم يهوديًّا كان أو نصرانيًّا بتابعٍ قِبلةَ الآخَر، ثم حذَّر اللهُ نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ- وأمَّته تبَع له- مِن اتِّباع أهواء أهل الكتاب بعد أن اتَّضح لهم الحقُّ، فإنَّه إنْ فعَل سيكون معدودًا مع الذين ظَلموا أنفسهم.

ثم أخبَر تعالى أنَّ أهل الكتاب من اليهود والنَّصارى يَعرِفون النبيَّ محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وأنَّه مُرسَلٌ من ربِّه، وأنَّ ما جاء به حقٌّ، ومنه التوجُّه إلى الكعبة، وذلك من خلال كتُبهم- معرفةً يقينيَّةً كما يَعرِفون أبناءَهم؛ فلا يشتبهون عليهم بغَيرِهم، ومع ذلك فإنَّ طائفةً منهم يُخفون الحقَّ عمدًا، والحالُ أنَّهم يُوقِنون بصحَّته!

ثمَّ أَعْلَمَ الله سبحانه نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ بأن يَعلم أنَّ الحقَّ هو ما جاءَه من ربِّه، ونهاه أنْ يَتسرَّب إلى قلبِه شكٌّ فيه.

ثم أخبَرَ تعالى أنَّ لكل أهل مِلَّةٍ قِبلةً يتوجَّهون إليها في صلواتهم، سواء كانت هذه القِبلة ممَّا شرَعه الله لهم، أو كانت ممَّا ابتدعوه من تِلقاء أنفسهم.

وأَمَر سبحانه المؤمنين أن يُبادروا ويُسارعوا إلى الطَّاعات، ومن ذلك استقبال القِبلة التي أمرَهم الله بالتوجُّه إليها، ولتَحْفيزِهم على المسارعةِ إلى الطاعات، وأخبَرَهم سبحانه بأنَّه أينما كان موتُهم فإنَّ الله عزَّ وجلَّ سيجمعهم يوم القِيامة، فهو سبحانه لا يُعجِزه شيء؛ لأنه القادر على كلِّ شيء.

ثم أمَر الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ أن يَجعل الكعبة قِبلتَه أينما كان؛ فإنَّ ذلك هو الحقُّ الذي ليس فيه أدْنى شكٍّ، والله سبحانه ليس بساهٍ عن عمل أيِّ أحد، بل مطَّلعٌ على أعمال الجَميع، وسيُجازي أصحابَها بحسَبها.

ثم أعاد سبحانه الأمرَ لنبيِّه عليه الصَّلاة والسلام بأن تكون وِجهتُه في صلاته هي الكعبةَ أينما كان، وكذلك المؤمنون مأمورون بأن يَستقبلوا الكعبةَ في أيِّ موضع كانوا، وذلك التحويل قد وقَع؛ كيلا يحتجَّ اليهودُ على النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ والمؤمنين بأنَّه ليس لهم عَيبُ دِينهم أو انتقاصُه، ما داموا قد وافقوهم في صلاتِهم نحو بيت المقدِس؛ فبهذا التحويلِ للقِبلة من بيت المقدس إلى الكعبة تُدحَضُ تلك الحُجَّة، ولكن تبقى حُجَّةٌ باطلةٌ لمشركي قريش بأنَّ المؤمنين ما داموا قد عادُوا إلى قِبلتهم، فلا بدَّ أن يتَّبعوا أيضًا دِينهم.

فنهى الله تعالى عباده المؤمنين عن أن تُساورَهم خشيةٌ من هؤلاء الظَّلمة، أو مِن حُجَجهم الداحضة، وأمرهم بأن يُفردوه جلَّ وعلا وحْدَه بالخشية، فإنَّه لا يستحقُّها أحدٌ سواه.

ثمَّ أخبَرَ سبحانه أنَّ مِن أسباب تحويل القبلة، إتمامَ شرائع الدِّين للمؤمنين، ورجاءَ أن يمتثلوا أوامرَ الله، ويسلِّموا بها؛ فينالوا هدايتَه سبحانه.

تفسير الآيات:

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٤٢)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا تكرَّر في الآيات السابقةِ التنويهُ بإبراهيم عليه السلام وملَّته، والكعبةِ، وأنَّ مَن يرغب عنها قد سفِه نفْسه، فكانت مثارًا لأنْ يقول المشركون: ما ولَّى محمدًا وأتْباعَه عن قبلتهم التي كانوا عليها بمكَّةَ- أي: استقبال الكعبة- مع أنه يقول: إنَّه على مِلَّة إبراهيم، ويأبى اتِّباع اليهوديَّة والنصرانيَّة؛ فكَيف ترك قِبلةَ إبراهيم واستقبلَ بيت المقدس؟! وقد علم اللهُ تعالى ذلك منهم فأنبأَ رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم بقولهم[1].

سبب النُّزول:

عن البَراء بن عازبٍ رضي الله عنه، قال: ((كان رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ صلَّى نحوَ بيت المقدِس سِتَّةَ عَشرَ، أو سبعةَ عَشرَ شهرًا، وكان رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ يحبُّ أن يُوَجَّه إلى الكعبة، فأنزل الله ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ فتوجَّه نحو الكعبة، وقال السفهاء من النَّاس- وهم اليهود -: ﴿مَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٥). قال ابن عاشور: (وأتى فيه بهذا الموقع العجيب وهو أنْ جعَلَه بعد الآيات المثيرة له وقَبل الآيات التي أُنزلت إليه في نَسْخ استقبال بيت المقدس والأمْر بالتوجُّه في الصلاة إلى جِهة الكعبة؛ لئلَّا يكونَ القرآن الذي فيه الأمرُ باستقبال الكعبة نازلًا بعد مقالة المشركين، فيَشمَخوا بأُنوفهم؛ يقولون: غيَّر محمَّدٌ قِبلتَه من أجْل اعتراضنا عليه، فكان لموضع هذه الآية هنا أفضلُ تمكُّن، وأوثقُ ربْط، وبهذا يَظهر وجهُ نزولها قبل آية النَّسْخ، وهي قوله: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٤٤] الآيات؛ لأنَّ مقالة المشركين أو توقعها حاصلٌ قبل نَسْخ استقبال بيت المقدس، وناشئٌ عن التنويه بمِلَّة إبراهيم والكعبة).

وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ للهِ المَشْرِقُ وَالمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، فصلَّى مع النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ رجلٌ، ثمَّ خرَج بعدما صلَّى، فمرَّ على قومٍ من الأنصار في صلاة العصر نحوَ بيت المقدس، فقال: هو يَشهدُ أنَّه صلَّى مع رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ وأنَّه توجَّه نحوَ الكعبة، فتَحرَّف القومُ حتى توجَّهوا نحوَ الكعبة))[١].

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾.

أي: سيتساءل الجُهَّال وخِفاف العقول من النَّاس- وهم اليهود، وأهل النِّفاق، والمشركون- سيتساءلون عن المسلمين مُعترِضين، بحيرةٍ وارتياب: أيُّ شيء صرَفَهم عن التوجُّه إلى بيت المقدِس في صلاتهم؛ فحوَّلوا وجوههم عنه[٢]؟!

﴿قُلْ للهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾.

أي: قلْ يا محمَّدُ، لهؤلاء المتسائلين: لله تعالى وحْده دون غيرِه مُلكُ المشرق والمغرب وما بينهما، فكلُّ الجِهات مخلوقةٌ ومملوكة له؛ فله أن يأمُرَ بالتوجُّه إلى أيِّ جِهةٍ شاء سبحانه[٣].

﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى يُرشد ويوفِّق بحِكمته مَن يشاء مِن خَلْقه إلى الطَّريق القويم، وقد هدى اللهُ تعالى المؤمنين إلى قِبلة إبراهيمَ عليه السَّلام التي ضلَّ عنها غيرُهم[٤].

---

(١) رواه البخاري (٣٩٩) واللفظ له، ومسلم (٥٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦١٥-٦١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٠٤-١٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٢٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٢٥-٦٢٦)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠).

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ (١٤٣)﴾.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾.

أي: مثل هذا الجَعْل الذي جعَلْنا لكم، وهو هدايتُكم إلى أفضلِ قِبلة، جعلناكم أيضًا خيرَ الأمم وأعدلَها، وسطًا بيْن الإفراط والتفريط، وبين الغلوِّ والجَفاء[1].

كما قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وعن معاويةَ بن حَيْدةَ القُشيريِّ رضي الله عنه، أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((أنتُم تُوفُون سَبعينَ أُمَّةً، أنتُم خيرُها وأكرمُها على الله))[2].

وعن أبي سَعيد الخُدريِّ رضي الله عنه، قال: قرأ رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قال: عدلًا))[3].

وعن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رضي الله عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((يجيء النبيُّ يومَ القيامة، ومعه الرَّجل، والنبيُّ ومعه الرَّجُلان، وأكثرُ مِن ذلك، فيُدعى قومُه، فيُقال لهم: هل بلَّغكم هذا؟ فيقولون: لا! فيُقال له: هل بلَّغتَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٢٦-٦٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢١٨-٢١٩)، ويُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيميَّة (٢/ ١٣٦)، (٥/ ٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٤-١٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٠٩).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٠٠١) بلفظ: ((تُتمُّون)) بدلاً من ((تُوفون))، وابن ماجه (٤٢٨٨) بلفظ: ((إنَّكم وفيتم)) بدلًا من ((أنت وفيتم))، وأحمد (٤/ ٤٤٧) (٢٠٠٢٩) واللفظ له.
حسَّنه الترمذي، وصحَّحه ابن العربي في ((عارضة الأحوذي)) (٦/ ١١٢)، وابن باز في ((مجموع فتاواه)) (٥/ ٥٩)، والوادعي في ((الصحيح المسند)) (١١٣٢)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٠٠١).

(٣) رواه البخاري (٧٣٤٩).

قومَك؟ فيقول: نعم، فيُقال له: مَن يَشهد لك؟ فيقول: محمَّد وأمَّته، فيُدْعَى وأُمَّته، فيُقال لهم: هل بلَّغ هذا قومَه؟ فيقولون: نعم، فيقال: وما عِلمُكم؟ فيقولون: جاءَنا نبيُّنا، فأخبَرنا: أنَّ الرُّسل قد بلَّغوا، فذلك قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] قال: يقول: عدلًا، ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]))(١).

﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾.

أي: جعَل الله تعالى هذه الأمَّةَ المحمديَّةَ خيرَ الأُمم وأعدَلَها؛ ليشهدوا على الأُمم الأخرى بأنَّ رُسلَهم وأنبياءَهم عليهم الصَّلاة والسلام قد بلَّغوهم رِسالة ربِّهم عزَّ وجلَّ(٢).

كما قال تعالى: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((يُدعَى نوحٌ يومَ القِيامة، فيقول: لبَّيْك وسَعديك يا ربِّ، فيقول: هل بلَّغتَ؟ فيقول: نعمْ، فيُقال لأمَّته: هل بلَّغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير! فيقول: مَن يشهد لك؟ فيقول: مُحمَّدٌ وأمَّتُه، فيَشهدون أنَّه قد بلَّغ، ويكون الرَّسولُ عليكم

(١) أخرجه ابنُ ماجه (٤٢٨٤)، وأحمد (٣/ ٥٨) (١١٥٧٥) واللفظ له، والنَّسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٠٠٧).
صحَّحه الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٤٢٨٤)، وصحَّح إسنادَه على شرْط الشيخينِ شعيبٌ الأرناؤوط في تحقيق ((مسند أحمد)) (٣/ ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٥٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ١٥٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين-الفاتحة-البقرة)) (٢/ ١٠٩).

شهيدًا؛ فذلك قولُه جلَّ ذِكرُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾، والوسط: العدْل))(١).

وعن أنسِ بن مالكٍ رضي الله عنه، قال: ((مَرُّوا بجَنازةٍ فأثنَوْا عليها خيرًا، فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: وَجَبَتْ، ثم مَرُّوا بأخرى فأثنَوا عليها شرًّا، فقال: وَجَبَتْ، فقال عُمَرُ بنُ الخطابِ رضي الله عنه: ما وَجَبَتْ؟ قال: هذا أثنَيتُم عليه خيرًا، فوَجَبَتْ له الجنةُ، وهذا أثنَيتُم عليه شرًّا، فوَجَبَتْ له النارُ؛ أنتم شُهَداءُ اللهِ في الأرضِ))(٢).

﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

قيل: أي: يَشهد محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّمَ على صِدق الأمَّة فيما أخبَرت به عن تبليغ رُسُل الله تعالى رِسالتَه إلى أُممهم، وقيل: يَشهد محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّمَ بأنَّه بلَّغ أمَّته رسالةَ ربِّه، وقيل: يشهد بأنَّهم آمنوا به وبما جاء به من عند الله عزَّ وجلَّ(٣).

﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾.

أي: إنَّا شرَعْنا لك يا محمَّد التوجُّه أولًا إلى بيت المقدِس، ثمَّ صرَفْنا هذه القِبلة

---

(١) رواه البخاري (٤٤٨٧).

قال ابن حجر: (قوله: «والوَسَط العَدْل» هو مرفوعٌ من نفْس الخبر، وليس بمُدرَج من قول بعض الرُّواة، كما وهِم فيه بعضُهم) ((فتح الباري)) (٨/ ١٧٢).

(٢) رواه البخاري (١٣٦٧) واللفظ له، ورواه مسلم (٩٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٣٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢١-٢٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠-٧١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١١٠).

قال ابنُ أبي حاتم: (عن ابن جُرَيج، قلتُ لعطاء: ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾؟ قال: يَشهد أنَّهم قد آمنوا بالحقِّ إذ جاءهم، وقبِلوه وصدَّقوا به. ورُوي عن أبي العالية، وعِكرمة، وقَتادة، والرَّبيع بن أنس نحوُ ذلك) ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٢٥٠).

عنك إلى الكَعبة؛ امتحانًا؛ لنعلم -عِلمًا تقوم به الحجة على العبد، ويترتَّب عليه الثوابُ والعِقاب- من سيطيعك فيستقبل معك حيثما توجَّهت، ممن يَرتدُّ عن دِينه[1].

﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ﴾.

أي: وإن كان الشَّأن أنَّ واقعة صرْفِنا لك يا محمَّد عن التوجه إلى بيت المقدس، وتوليتنا إيَّاك للكعبة، أمرٌ عظيمٌ، شاقٌّ، وثقيلٌ على النُّفوس، عدَا مَن أرشده الله تعالى للحقِّ، ووفَّقه للعمل به، فصَدَّق الرسولَ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وتأسَّى به في التحوُّل إلى الكعبة[2].

عن عبد الله بنِ عُمرَ رضي الله عنهما، قال: ((بَيْنا النَّاسُ بقُباءٍ في صلاةِ الصُّبح، إذ جاءهم آتٍ، فقال: إنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قد أُنزِلَ عليه الليلةَ قرآنٌ، وقد أُمِرَ أن يَستقبِلَ الكعبةَ، فاستقبِلوها، وكانتْ وجوهُهم إلى الشَّأمِ، فاستَداروا إلى الكَعبةِ))[3].

وعن أنسٍ رضي الله عنه: ((أنَّ رَسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ كان يُصلِّي نحو بيت المقدِس، فنزلت: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤]، فمرَّ رجلٌ من بني سَلِمة وهم ركوعٌ في صلاة الفجر، وقد صلَّوا ركعةً، فنادى: ألَا إنَّ القِبلة قد حُوِّلت،

---

(١) يُنظر: ((الرد على المنطقيين)) لابن تيميَّة (ص: ٤٦٦-٤٦٧)، ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (٧/ ٢٧٨-٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٥٧)، ((تفسير السعدي)) (١/ ٧١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١١٠-١١٢).
وممَّن قال من السَّلف: إنَّ المقصود بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ﴾ بيتُ المقدس: عطاء، وعطيَّة، والسُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٣٨)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٤٩-٦٥٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١١٢-١١٣).

(٣) رواه البخاري (٧٢٥١).

فمالوا كما هم نحوَ القِبلة))[1].

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾.

سبب النُّزول:

عن البَراء رضي الله عنه: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم صلَّى إلى بيت المقدِس ستَّةَ عشرَ شهرًا، أو سبعةَ عَشرَ شهرًا، وكان يُعجبه أن تكونَ قِبلتُه قِبَلَ البيت، وأنَّه صلَّى أوَّلَ صَلاةٍ صلَّاها صَلاةَ العَصرِ، وصلَّى معه قومٌ، فخرج رجلٌ ممَّن كان صلَّى معه فمرَّ على أهل المسجد وهم راكعون، قال: أشهدُ بالله لقدْ صليتُ مع النبيِّ صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّمَ قِبَل مكةَ، فداروا كما هم قِبَلَ البيت... [وفيه]: أنَّه ماتَ على القِبْلة قَبلَ أنْ تُحوَّلَ، رِجالٌ قُتِلوا، فلمْ نَدرِ ما نقول فيهم، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾))[2].

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى يقول عن نفسه بأنَّه لا ينبغي له أن يُضيع ثوابَ صلاتكم إلى بيت المقدس قَبل ذلك، بل هو محفوظٌ عنده سبحانه وتعالى[3].

﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى عظيم الرَّحمة بالنَّاس؛ ولذا لا يُمكن أن يُضيع أجرَ طاعة عمِلها عبادُه المؤمنون[4].

---

(١) رواه مسلم (٥٢٧).

(٢) رواه البخاري (٤٤٨٦) واللفظ له، ومسلم (٥٢٥).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (٣٥/ ٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ١٦٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٨٣).
وممَّن قال من السَّلف بأنَّ معنى (إيمانكم) صلاتكم: ابن عبَّاس، والبَراء، وقَتادة، والسُّدِّي، والرَّبيع، وداود بن أبي عاصم، وابن زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٥٤-٦٥٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١).

﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤)﴾.

سبب النُّزول:

عن البَراء بن عازبٍ رضي الله عنه، قال: ((كان رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ صلَّى نحوَ بيت المَقدِس سِتَّة عشرَ أو سَبعةَ عشرَ شهرًا، وكان رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ يحبُّ أن يُوجَّه إلى الكعبة، فأنزل الله ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ فتوجَّه نحو الكعبة، وقال السُّفهاء من النَّاس- وهم اليهود -: ﴿مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ للهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، فصلَّى مع النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ رجلٌ، ثم خرَج بعدما صلَّى، فمرَّ على قومٍ من الأنصار في صلاة العصر نحوَ بيت المقدس، فقال: هو يَشهدُ أنَّه صلَّى مع رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وأنَّه توجَّه نحوَ الكعبة، فتحرَّف القوم حتى توجَّهوا نحوَ الكعبة))[1].

﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾.

أي: يُؤكِّد الله تعالى لنبيِّه محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ رُؤيتَه له وهو يتلفَّت محوِّلًا وجهَه في جِهات السماء؛ متلهِّفًا لنزول الوحي بخبَر تحويل القِبلة إلى الكعبة[2].

﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾.

أي: فلنوجهنَّك يا محمَّد، إلى قِبلةٍ عظيمةٍ تطمئنُّ إليها، وتحبُّها، وتقبلها[3].

---

(١) رواه البخاري (٣٩٩) واللفظ له، ومسلم (٥٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٥٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٥٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٢٣). =

﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾.

أي: أقبِلْ ببدنِكَ، واصْرِفْ وجهَكَ لأجْل الصَّلاة، إلى جهةِ الكعبة من المسجد الحرام[1].

﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾.

أي: وفي أيِّ موضعٍ وَجِهةٍ كنتم- أيُّها المؤمنون- فعليكم أن تستقبلوا الكعبةَ وتتوجَّهوا ناحيتَها عند إرادة الصَّلاة[2].

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾.

أي: إنَّ اليهود والنَّصارى يَعلمون مِن كتُبهم أنَّ استقبال النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ والمؤمنين الكَعبةَ، أمرٌ حقٌّ، قد فرَضه الله سبحانه وتعالى[3].

﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

= قال ابن عاشور: (عبَّر بـ ﴿تَرْضَاهَا﴾؛ للدَّلالة على أنَّ مَيلَه إلى الكعبة ميلٌ لقصْد الخير بناءً على أنَّ الكعبة أجدرُ بيوت الله بأنْ يدلَّ على التوحيد- كما تقدَّم- فهو أجدرُ بالاستقبال من بيت المقدس، ولأنَّ في استقبالها إيماءً إلى استقلال هذا الدِّين عن دِين أهل الكتاب. ولما كان الرِّضا مشعرًا بالمحبَّة الناشئة عن تعقُّل، اختير في هذا المقام دون (تحبُّها) أو (تهواها) أو نحوهما؛ فإنَّ مقام النبيء صلَّى الله عليه وسلَّم يربو عن أن يتعلَّقَ مَيلُه بما ليس بمصلحة راجحة بعد انتهاء المصلحة العارضة لمشروعيَّة استقبال بيت المقدس، ألَا ترى أنه لما جاء في جانب قِبلتهم بعد أن نُسخت جاء بقوله: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ الآية؟) ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٧-٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٥٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٨-٢٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٦٠-٤٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٦٥-٦٦٦)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١-٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٢٤-١٢٥).

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ قراءتان:

١- ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بالخطاب(١).

٢- ﴿يَعْمَلُونَ﴾ بالغيبة(٢).

﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى ليس بساهٍ عمَّا يعمل هؤلاء الذين يَعلمون الحقَّ، ويُنكرونه ولا يَتَّبعونه؛ فما يَعملونه من سوءٍ محفوظٌ عند الله تعالى؛ ليعاقبَهم عليه، وبالضدِّ؛ يَحفَظ للمؤمنين امتثالَهم لأوامره، فيُجازيهم بذلك(٣).

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (١٤٥)﴾.

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾.

أي: والله لئن جِئتَ يا محمَّدُ، اليهودَ والنَّصارى بكلِّ برهان، وأقمتَ عليهم كلَّ حُجَّةٍ تُثبت أنَّ الحقَّ هو ما جِئتَهم به، من وجوب التحوُّل من قِبلة بيت

---

(١) قرأ بها ابن عامر وحمزة والكسائي. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٢٣)
وينظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١١٦-١١٧)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٢٦٨).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٢٣)
وينظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١١٦-١١٧)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٦٦)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٤-٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١).

المقدِس في الصَّلاة إلى التوجُّه شَطرَ المسجد الحرام، فلن يَتركوا أهواءَهم، ويتَّبعوك في ذلك[١].

﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾.

يُنزِّه الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ عن متابعة قِبلة اليهود أو النَّصارى، ويُخبر عن شدَّة متابعتِه لِمَا أمره الله تعالى به؛ فكما أنَّهم مستمسِكون بأهوائهم، فلا اليهوديُّ يتَّبع قِبلة النصرانيِّ، ولا النصرانيُّ يتَّبع قِبلة اليهوديِّ، فهو أيضًا مستمسِكٌ بأمر الله واتِّباع مرضاته، ولا يتَّبع أهواءهم في جميع أحواله، كما أنَّه لا يُمكنه إرضاؤهم بحالٍ؛ لأنَّ الاختلاف فيما بينهم، واقع؛ ولذا فليس بغريبٍ منهم أنْ لا يتَّبعوا كذلك قِبلةَ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ.

وفي هذا تَسليةٌ للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ والمؤمنين، وتثبيتٌ لهم على الحقِّ، وإنْ خالفهم مَن خالفَهم، وقطْعُ أطماع أهل الكتاب من متابعة النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ والمؤمنين لقِبلتهم[٢].

﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

حذَّر الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ- وأمَّته تبعٌ له في ذلك- مِن اتِّباع أهواء اليهود والنَّصارى، بالتوجُّه نحوَ قِبلتهم من بعد مجيء الحقِّ بالتوجُّه قِبل الكعبة؛ فإنَّه إنْ فعَل ذلك فهو معدودٌ مع الظَّالمين أنفسَهم بتَرْك الحقِّ، واتِّباع الباطل[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٦٦-٦٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٦٧-٦٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٦-٣٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٣٥-١٣٦).

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦)﴾.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾.

أي: إنَّ اليهود والنَّصارى يَعرِفون من توراتهم وإنجيلهم أنَّ محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم حقٌّ، وأنَّ ما جاء به- مِثل صِحَّة التوجُّه نحوَ الكعبة في الصَّلاة- حقٌّ؛ يعرفون ذلك عن يقين تامٍّ، يُماثل يقينَهم بأبنائهم؛ إذ لا يَشتبهون عليهم بغيرِهم(١).

﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

أي: ومع وضوح الحقِّ، وتيقُّن معرفتِه، إلَّا أنَّ طائفةً منهم يَكتُمون النَّاس عن عمْد، ما في كتُبهم من صِفة النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وما جاء به من التوجُّه نحو الكعبة وهو الحق(٢).

﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١٤٧)﴾.

أي: اعلمْ يا محمَّد، أنَّ الحقَّ وحده هو الذي جاءك من ربِّك، لا ما يقوله اليهود أو النَّصارى، أو غيرهم؛ فلا يحصُل لك أدنى تردُّدٍ وريبةٍ فيه(٣).

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعًا إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٤٨)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٤٠-١٤١).

قال ابن أبي حاتم: (عن السُّدِّي: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ يعرِفون الكعبةَ أنَّها هي قِبلة الأنبياء كما يعرفون أبناءهم. ورُوي عن قَتادة، والرَّبيع بن أنس، والضحَّاك نحوُ ذلك) ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٢٣١)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٤٣-١٤٤).

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في ﴿مُوَلِّيهَا﴾ قراءتان:

١- (مُوَلَّاهَا) بمعنى موجَّهٌ ومصروفٌ إليها[١].

٢- (مُوَلِّيهَا) بمعنى متوجِّهٌ إليها ومستقبلها[٢].

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾.

أي: إنَّ لكلِّ أهل مِلَّةٍ قِبلةً يستقبلونها في صلاتهم، سواء كانت ممَّا ابتدعوه من تِلقاء أنفسهم، أو كانت ممَّا شرَع الله تعالى لهم[٣].

﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾.

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا كانت توليتُهم وجوهَهم نحوَ القِبلة إنما هو لأجْل تزكيةِ النفس وخلاصِها، وكان ذلك لا يحصُل إلَّا بفعل الخير واجتنابِ الشرِّ؛ قال تعالى[٤]:

﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾.

أي: بادِروا وسارعوا باغتِنام الطاعات، ومن ذلك استقبال القِبلة التي أمَر الله تعالى بها[٥].

---

(١) قرأ بها ابن عامر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٤٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحُجَّة)) لابن خالويه (ص:٩٠).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٤٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحُجَّة)) لابن خالويه (ص:٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٧٤-٦٧٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٢-٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٤٦).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢/ ٢٢٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣)، ((الوجيز)) للواحدي =

﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعًا إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

مناسبة الآية لِمَا قَبلها:

لَمَّا أَمَر الله تعالى بالمسابقةِ إلى الخيرات، وكان أقوى ما يَحثُّ النفوسَ على المسارعةِ إلى الخير، ويُنشِّطها: ما رتَّب الله عليها مِن الثوابِ؛ قال[1]:

﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعًا إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: يحثُّ الله تعالى عبادَه على المسارعة إلى الأعمال الصَّالحات قبل المات، بإعلامهم أنَّ مرجعهم جميعًا إليه، وسيُحشَرون إليه من أي جِهة ماتوا فيها؛ فهو سبحانه القادِر الذي لا يُعجِزه ذلك، ولا أيُّ شيءٍ سواه[2].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨].

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٩)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا عَظُم في شأن القِبلة انتشارُ أقوال أهل الكتاب في تنويعِ شغبِهم وجدالِهم، وكانوا أهلَ عِلم وكتاب، وقد مرَّت لهم دهورٌ وهم موسومون بأنَّهم على صواب، فاشرأبَّ لذلك النِّفاق، ودارت رَحَى الباطِل والشِّقاق، كان الحال مقتضيًا لمزيد

= (ص: ١٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ١٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٨٠-٦٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٣-٤٤).

تأكيد لأمرها؛ تعظيمًا لشأنها، وتوهيةً لشُبه السُّفهاء فيها، فقال جلَّ وعلا[١]:

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾.

أي: ومِن أيِّ موضعٍ خرجتَ يا محمَّد، في سفرٍ كان أو غيره، فتوجَّهْ نحوَ الكعبة للصَّلاة[٢].

﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾.

أي: إنَّ توجُّهك نحو الكعبة يا محمَّد، حقٌّ ثابت لا شكَّ فيه[٣].

﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى ليس بساهٍ عن عمَل أحد، بل هو مطَّلعٌ على الأعمال جميعِها، وسيُجازي صاحب كلِّ عملٍ بحسب ما قدَّمه، إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشر[٤].

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٠)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا تَقرَّر بما تكرَّر أنَّ تحويل القبلة فرضٌ في حقِّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ حتمٌ لا فتورَ عنه، ولا رُخصة فيه؛ إلَّا ما استُثني، أدْخل معه أمَّته؛ ليَعُمَّهم الحُكم، ورَبَأ بالمؤمنين عن أن يكون لأحدٍ عليهم حُجَّة؛ فقال[٥]:

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٤)، ((تفسير ابن عُثيمين – الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٤٩-١٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٤-٤٦)، ((تفسير ابن عُثيمين – الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٤٩-١٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٥)، ((تفسير ابن عُثيمين – الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٥٠-١٥١).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢/ ٢٣٤).

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾.

أي: ومِن أيِّ موضعٍ خرجتَ يا محمَّد، في سفرٍ كان أو غيره، فتوجَّهْ نحوَ الكعبة للصَّلاة، وفي أيِّ موضعٍ وَجِهةٍ كنتم- أيُّها المؤمنون- فعليكم أيضًا أن تستقبلوا الكعبةَ وتتوجَّهوا ناحيتَها عند إرادة الصَّلاة(١).

﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾.

أي: حوَّلنا قِبلتكم إلى الكَعبة؛ كي لا يحتجَّ اليهودُ عليكم قائلين: إنكم ما دُمتم قد وافقتمونا في قِبلتنا نحو بيت المقدس، فلِمَ تَعيبون دِينَنا، ولِـمَ لا تتبعون ملَّتَنا؟ لكن ستبقى حُجَّة الظالمين- وهم مشركو قريش- الذين يحتجُّون عليكم بالباطل قائلين: إنكم ما دُمتم قد عُدتم إلى قِبلتنا، فلا بدَّ أن تتَّبعوا دِيننا(٢).

﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾.

أي: لا تخشَوا هؤلاء الظلمةَ المتعنتين، ولا حُجَجهم الباطلة، وأفرِدوا الخشية لي؛ فإنِّي وحْدي المستحقُّ لذلك(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٥٩، ٦٦٥، ٦٨٢)، ((تفسير السعدي)) (١/ ٧٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٢٣-١٢٤).

قال ابن القيِّم: (ذكر الأمر بذلك [أي: استقبال القبلة] في كلِّ موطنٍ؛ لاقتضاء السِّياق له، فتأمَّله. والله أعلم) ((بدائع الفوائد)) (٤/ ١٧٢-١٧٣).

ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٨٢-٦٨٥)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيميَّة (١/ ١٠٠-١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٩٠-٦٩١)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ١٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٥٦).

﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾.

أي: شرَعت لكم استقبال الكعبة؛ لأُكمل لكم شرائعَ ملَّتكم الحَنيفيَّة(١).

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

أي: ومن أسباب تحويل القبلة إلى الكعبة أنْ ترجُوا بامتثال أوامر الله تعالى نيلَ هُداه، فتَعلموا الحق وتعملوا به؛ ابتغاءَ رِضاه(٢).

الفوائد التربويَّة:

١- تسلية النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وأصحابه رضِي الله عنهم، حيث أخبر الله تعالى أنَّه لن يَعترِض عليه في أمر تحويل القبلة إلَّا سفيهٌ؛ لقوله سبحانه: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾(٣).

٢- في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاء...﴾، الإخبار بقولهم قبل وقوعه، وفائدته توطين النفس وإعداد ما يبكتهم، فإنَّ مفاجأة المكروه على النفس أشقُّ وأشدُّ، فالمرء يخبر بها يُتوقَّع حدوثُه؛ ليستعدَّ له(٤).

٣- أنَّ الله سبحانه يمتحِن العبادَ بالأحكام الشرعيَّة، إيجابًا، أو تحريمًا، أو غير ذلك؛ لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾؛ فليتنبَّه المرء لهذا(٥).

٤- اختار اللهُ تعالى الاتجاهَ- مُدَّةً- إلى المسجد الأقصى، قبل تحويلِ القِبلة إلى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٩١-٦٩٢)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٦٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٥٦-١٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٠٦)

(٤) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٢/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٠٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١١٧).

الكعبة؛ ليُخلِّصَ نفوسَ المسلمين من رواسبِ الجاهليَّة، ومن كلِّ ما كانت تتعلَّق به في الجاهليَّة- حيث كان العرب يُعظِّمون البيتَ الحرامَ في جاهليَّتهم- وليظهرَ مَنْ يتبع الرسولَ اتباعًا مجردًا من كلِّ إيحاء آخَر، اتباعَ الطاعة الواثقة الرَّاضية المستسلمة، ممَّن ينقلب على عقبيه؛ اعتزازًا بنَعْرة جاهليَّة تتعلَّق بالجنسِ والقوم والأرض والتاريخ، كما قال سبحانه ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾[1].

٥- الاختصاص والتميُّز ضروريَّان للجماعة المسلِمة: الاختصاص والتميُّز في التصوُّر والاعتقادِ، والاختصاص والتميُّز في القِبلة والعبادة، وهذه كتِلك؛ لا بدَّ من التميز فيها والاختصاص، وقد يكون الأمر واضحًا فيما يختصُّ بالتصور والاعتقاد، ولكنَّه قد لا يكون بهذه الدرجة من الوضوح فيما يختصُّ بالقِبلة وشعائر العبادة.. هنا تَعرِض التفاتةٌ إلى قيمة أشكال العبادة؛ لذا قال تعالى لنبيه: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾[2].

٦- أنَّ التقدُّمَ حقيقةً إنَّما يكون بتطبيق تعاليم الإسلام، وأنَّ الرجعيَّةَ حقيقةً إنَّما تكون بمخالفتها؛ لقوله تعالى: ﴿مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾؛ فإنَّ هذا حقيقة الرجوع على غير هدًى؛ لأنَّ الذي ينقلب على عقبيه كالأعمى لا يُبصِر ما وراءه[3].

٧- أنَّ امتثال بعض الأوامر الشرعيَّة، واجتناب بعض النواهي الشرعيَّة فيه مشقَّة على المكلَّفين، لكن بتمام الإيمان تزول هذه المشقَّة، وتكون سهلةً ويسيرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ﴾[4].

٨- مراعاة الشَّريعة اجتماعَ المسلمين على وِجهةٍ واحدة؛ لقوله تعالى: ﴿وَحَيْثُ

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٢٧)

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١١٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾؛ فالمسلمون في جميع أنحاء العالم يتَّجهون إلى قِبلة واحدة[١].

٩- وجوب الانقياد للحقِّ إذا ظهرت آياته؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾[٢].

١٠- في قوله تعالى: ﴿وَما أَنْتَ بِتابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ من عرف الله تعالى حقَّ معرفته، فمن المحال أن يرتدَّ، فإن قيل: فقد يوجد من يحصل له معرفة الله ثم يرتدُّ. قيل: إن الذي يقدَّر أنه معرفة، هو ظنٌّ متصوَّرٌ بصورة العلم، فأمَّا أن يحصل له العلم الحقيقيُّ ثم يعقبه الارتداد- فبعيد[٣].

١١- أنَّ الظلم، والعدل، وغير ذلك مقْرُونٌ بالأعمال لا بالأشخاص؛ فليس بيْن الله تعالى وبين أحدٍ من الخلق شيءٌ يُحابيه، ويُراعيه به؛ فكلُّ مَن خالفه فهو ظالم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾[٤].

١٢- بيان أنَّ العلم حقيقةً هو علمُ الشريعة؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾: فأتى بـــ(أل) المفيدة للكمال، ولا شكَّ أنَّ العلم الكامل الذي هو محلُّ الحمْد والثَّناء هو العِلم بالشَّريعة[٥].

١٣- دلَّ قولُه تعالى: ﴿من بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ على أنَّ توجُّه الوعيد على العلماء أشدُّ من توجُّهه على غيرهم[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين – الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٣٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٣٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير القاسمي))(٢/ ٣٠٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين – الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٣٩).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٣٩).
(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٤/ ١١٠).

١٤- تحذير الأمَّة من اتِّباع أهواء غير المؤمنين؛ لقوله تعالى ﴿إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فإذا كان الرسولُ صلَّى الله عليه وسلَّمَ يُوصَف بالظلم لو اتَّبع أهواءَهم، فمَن دُونه مِن باب أَوْلى[١].

١٥- أنَّ كلَّ شيء خالَف ما جاء عن الله تعالى، فهو باطل؛ لقوله تعالى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾[٢].

١٦- تَكرار الأمر الهام؛ لتثبيته والثبات عليه، ودفْع المعارضة فيه، وبيان أهميَّته؛ لأنَّه كلَّما كُرِّر كان مقتضاه أنَّ الأمر ثابتٌ مُحكَم يجب الثبوت عليه؛ وذلك لأنَّ الله تعالى كرَّر الأمر باستقبال القِبلة في عِدَّة آيات[٣].

١٧- دفْع ملامة اللائمين ما أمكَن؛ لقوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾[٤].

١٨- أنَّ الظالم لا يَدفع ملامتَه شيء، بمعنى: أنَّه سيلوم وإنْ لم يكُن ثمَّة محلٌّ للوم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾[٥].

الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف:

١- في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ﴾ إثبات عِلم الله تعالى بما سيكون، وتحقُّق وقوع ما أخبر به؛ لأنَّهم قالوا ما أخبر الله تعالى عنهم أنهم سيقولونه[٦].

٢- فضيلةُ هذه الأمَّة، حيث هداها اللهُ إلى استِقبال بيته الذي هو أوَّل بيتٍ وُضِع للنَّاس[٧].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٤٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٤٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٥١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٥٨).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٠٦، ١٥٨).
(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١١٤).

٣- فضْل هذه الأمَّة على جميع الأُمم؛ لقولِه تعالى: ﴿وَسَطًا﴾[(١)].

٤- عَدالة هذه الأمَّة؛ لقوله تعالى: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾؛ والشهيد قولُه مقبولٌ[(٢)].

٥- أنَّ هذه الأمَّة تشهد على الأُمم يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾[(٣)].

٦- في قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ دلالةٌ على أنَّ العمل من الإيمان، وهذا مذهب أهل السُّنة والجماعة؛ لأنَّ الله تعالى سمَّى الصَّلاة إيمانًا[(٤)].

٧- في قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾، إثبات عُلوِّ الله تعالى؛ لأنَّ الرسولَ صلَّى الله عليه وسلَّمَ كان يُقلِّب وجهَه في السَّماء؛ لأنَّ الوحي يأتيه من السَّماء[(٥)].

٨- أنَّ النَّظر إلى السَّماء ليس سوءَ أدَبٍ مع الله؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾، لكن لا يَنبغي للمصلِّي أن يرفع بصرَه إلى السَّماء؛ لورود الوعيد الشَّديد به[(٦)].

٩- أنَّ كثيرًا من طيِّبي القلوب يظنُّون أنَّ الذي يصدُّ اليهود والنصارى عن الإسلام أنَّهم لا يَعرفونه، أو لأنَّه لم يُقدَّم إليهم في صورة مقنِعة، وهذا وهمٌ؛ إنَّهم لا يُريدون الإسلام لأنَّهم يعرفونه! ويخشونه على مصالِحهم وعلى سلطانِهم، ومِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١١٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١١٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١١٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٢١) ويُنظر: ((شرح الطحاوية)) لابن أبي العز (ص: ٣٢٣)، ((معارج القبول)) لحكمي (٢/ ٦٠٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٢٦).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٢٥)

ثَمَّ يَكيدون له ذلك الكيدَ الناصب الذي لا يفتر، بشتَّى الطرق وشتَّى الوسائل مباشرة وغير مباشرة، يحاربونه وجهًا لوجه، ويحاربونه من وراء ستار، ويحاربونه بأنفسهم ويستهوون من أهله مَن يحاربه لهم تحتَ أيِّ ستار؛ يدلُّ على ذلك قوله: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾[١].

١٠- أنَّ الإنسان لا يُؤاخذ بالمخالفة إلَّا بعد قِيام الحُجة؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾[٢].

١١- التلطُّف في الخِطاب للرسول صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ لقوله تعالى: ﴿لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾؛ فلو قُلت لرجل: أنت ظالم، لكان أشدَّ وقعًا من قولك له: أنت من الظالمين[٣].

١٢- تقوية الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّمَ على ما هو عليه من الحقِّ- وإنْ كتَمه أهل الكتاب-؛ لقوله تعالى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾[٤].

١٣- عِناية الله سبحانه وتعالى بالرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّمَ بذِكره بالربوبيَّة الخاصَّة؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾[٥].

١٤- أنَّه قد يُنهَى عن الشيء مع استحالة وقوعه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾؛ فإنَّ النبي صلَّى الله عليه وسلَّمَ لا يمكن أن يكونَ من الممترين[٦].

١٥- عِناية الله سبحانه وتعالى بالرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّمَ بالتثبيت؛ لأنَّ قوله تعالى له: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ يَقتضي ثباته عليه؛ وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ يَقتضي استمرارَه على هذا الثَّبات، ولا شكَّ أنَّ في هذا من تأييد

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ١٣٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٣٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٣٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٤٤).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الرسول صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وتثبيتِه ما هو ظاهِر[١].

١٦- في قوله تعالى: ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ردٌّ على الجبريَّة بإضافة العَمل إلى الإنسان[٢].

١٧- أنَّ تنفيذ أوامر الله، وخشيته سببٌ للهداية بنوعيها: هداية الإرشاد؛ وهداية التوفيق؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[٣].

١٨- في قوله تعالى: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إثبات حِكمة الله سبحانه وتعالى[٤].

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾

- فيه الإخبارُ بالشَّيء قبل وقوعه، وفائدتُه: توطين النفس، وإعداد الجواب، وإظهار المعجزة؛ فإنَّ مفاجأة المكروه أشدُّ، والعلم به قبل وقوعه أبعد من الاضطراب إذا وقع لما يتقدَّمه من توطين النفس، وأنَّ الجواب العتيد قبل الحاجة إليه أقطع للخصم، وأردُّ لشغبِه[٥].

- وفي قوله: ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ وصفَهم بهذا مع كونه معلومًا، وفائدتُه: التنبيه على بلوغهم الحدَّ الأقصى من السَّفاهة بحيث لا يوجد في الناس سفهاء غير هؤلاء؛ فإذا قُسم نوعُ الإنسان أصنافًا، كان هؤلاء صنفَ السُّفهاء، فيُفهم أنه لا سفيهَ غيرهم على وجهِ المبالغة[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٤٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٥٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٤٥).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٥٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١١٠).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٧).

٢- قوله: ﴿مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ﴾ استفهامٌ على جِهة الاستهزاء والتعجُّب، وهو مُستعمَل في التعريض بالتخطئة، واضطراب العقل[١].

٣- في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾

- جيء مع الشَّهادة بحَرْف الاستعلاء (على)، ولم يقل (لهم)؛ لأنَّ الشَّهيد كالرقيب والمهيمِن على المشهود له، وقيل: لتكونوا شهداءَ على النَّاس في الدنيا فيما لا يصح إلا بشهادة العدول الأخيار[٢].

- وأُخِّرت صِلة الشَّهادة أولًا في قوله: ﴿شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾، وقُدِّمت آخرًا في قوله: ﴿عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾؛ لأنَّ الغرَض في الأوَّل إثباتُ شهادتهم على الأُمم، وفي الآخر اختصاصُهم بكون الرسول شهيدًا عليهم، فيكون من باب تقديم الأهمِّ؛ لأنَّ المنَّةَ عليهم في الجانبين: ففي الأوَّلِ بثبوت كونهم شهداءَ، وفي الثاني بثبوتِ كونهم مشهودًا لهم بالتزكية[٣].

أو مِن باب الاتِّساع في الكلام للفَصاحة، وللاهتمام بتشريف أمْر هذه الأمَّة، حتى أنَّها تَشهَد على الأمم والرسل، وهي لا يَشهَد عليها إلَّا رسولُها، ولأنَّ ﴿شَهِيدًا﴾ أشبهُ بالفواصل والمقاطع من قوله: ﴿عَلَيْكُمْ﴾، فكان قوله: ﴿شَهِيدًا﴾، تمامَ الجملة، ومقطعها دون عليكم، وهذا من بدائع فصاحة القرآن[٤].

٤- قوله: ﴿إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾

- فيه تذييلٌ، فائدته: التأكيدُ على عدَم إضاعة إيمانهم، وإظهار المِنَّة، والتعليم

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٤/ ٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٩٩-٢٠٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٩٩-٢٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢١).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ١٣-١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٢٠٣).

بأنَّ الحُكم المنسوخ إنما يُلغَى العملُ به في المستقبل لا في ما مضى[1].

– وذِكر اسم الجلالة من باب الإظهار في مقامِ الإضمار؛ للتَّعظيم[2].

– وتقديم ﴿بِالنَّاسِ﴾ على متعلَّقه وهو ﴿لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾؛ للتنبيه على عِنايته بهم إيقاظًا لهم ليشكروه، مع مراعاة الفواصل أيضًا[3].

٥- قوله: ﴿قَدْ نَرَى﴾ جيء بالمضارع مع (قد)- التي تكون للتكثير غالبًا إذا دخلت على المضارع؛ للدَّلالة على التجدُّد[4]، والقاعدة: أن (قد) إذا دخلت على المضارع المسنَد إلى اللهِ تعالى فهي للتحقيقِ دائمًا[5].

٦- في قوله: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا...﴾

– الفاء للتعقيب؛ لتأكيد الوعد بالصَّراحة بعد التمهيدِ بالكِناية في قوله: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾[6].

– وفيه إضمار قَسَم باللام الموطِّئة للقَسَم؛ للمبالغة في التأكيد على وقوعِه؛ لأنَّ القَسَم يُؤكِّد مضمون الجملة المُقسَم عليها[7].

– ومجيء الوعد قبل الأمْر؛ لفرح النفس بالإجابة، ثم بإنجاز الوعْد؛ فيتوالى السرورُ مرَّتين، ولأنَّ بلوغ المطلوب بعد الوعدِ به آنسُ في التوصُّل من مفاجأة وقوع المطلوب[8].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٥-٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٧).

(٥) يُنظر: ((قواعد التفسير)) لخالد السبت (١/ ٣٩٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٧).

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٢٣).

(٨) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- ونُكِّرت القِبلة؛ لأنَّه لم يَجرِ قبلها ما يَقتضي أن تكون معهودةً، فتُعرَّف بالألف واللام(١).

٧- قوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ خبرٌ مؤكَّدٌ بمؤكِّدين (إنَّ، واللام)؛ لينفي ما يتبادر من ظاهر حالهم إذ أنكروا استقبالَ الكعبة أنَّهم أنكروه لاعتقادهم بطلانَه، وأنَّ المسلمين يظنُّونهم معتقدين ذلك، وليظهر موقعُ قوله: ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ الذي هو تهديدٌ بالوعيد(٢).

٨- قوله: ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ خبرٌ متضمِّنٌ الوعيد، وفيه التِفاتٌ من الغيبة في قوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ﴾ إلى الخِطاب في قوله: ﴿تَعملون﴾؛ ووجهه: أنَّ في خِطابهم بأنَّ الله لا يغفل عن أعمالهم تحريكًا لهم بأنْ يعملوا بما علِموا من الحقِّ؛ لأنَّ المواجهة بالشيءِ تقتضي شدَّةَ الإنكار، وعِظَمَ الشَّيءِ الذَّي يُنْكَر(٣).

٩- في قوله: ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾

- أَفرد القِبلة في قوله: ﴿قِبْلَتَهُمْ﴾، وإن كانت مثنَّاة؛ إذ لليهود قبلة، وللنَّصارى قبلة مغايرة لتلك القِبلة؛ لأنَّ كلتا القبلتين باطلة مخالفة لقبلة الحقِّ، فكانتَا بحُكم الاتِّحاد في البُطلان قبلةً واحدة(٤)، وحسَّن ذلك المقابلةُ في اللفظ؛ لأنَّ قبْلَه ﴿ما تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾(٥).

- وفي هذه الجملة مبالغةٌ في النَّفي بعِدَّة مؤكِّدات، وهي: اسميَّة الجُملة،

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٢٥-٢٦).
(٤) وأيضًا لأنَّ (قبلة) هنا مفردٌ مضافٌ إلى الضمير (هم)، وذلك يفيد العموم.
(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢٠٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٦-٣٧).

وتكرُّر الاسم فيها مرَّتين، وتأكيد النفي بالباء في قوله: ﴿بتابع﴾[(١)].

١٠- قوله: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾

- فيه: لُطفٌ للسامعين، وزيادةُ تحذير، واستفظاعٌ لحال مَن يترك الدَّليل بعد إنارته ويتَّبع الهوى، وتهييجٌ وإلهابٌ للثَّباتِ على الحقِّ؛ إذ قوله: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ﴾ بعد الإفصاح عن حقيقة حاله المعلومة عنده في قوله: ﴿وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ كلامٌ وارد على سبيل الفَرْض والتقدير[(٢)].

وقيل: إنَّ ظاهر الخِطاب وإنْ كان مع الرسول إلا أنَّ المراد منه غيرُه، بغرضه ألَّا يميل إلى مخاطبتهم ومتابعتهم أحدٌ من الأمَّة، وإنها جاء الخطاب له على سبيل التعظيم لذلك الأمر، والتفخيم لشأنه، حتى يحصُل التباعد منه[(٣)].

وقيل: تعليق وقوع الشيء على شرط لا يقتضي إمكان ذلك الشرط، ويفهم من ذلك الاستحالة؛ لأنَّ المعلَّق على المستحيل مستحيلٌ. والمعنى: لا تُعَدُّ ظالمًا، ولا تكونه؛ لأنك لا تتَّبع أهواءهم[(٤)].

- وفيه: تأكيدُ التهديد، والمبالغة في هذا التحذير أيضًا، باشتمال مجموع الشَّرط والجزاء على عِدَّة مؤكِّدات، وهي: القَسَم المدلول عليه باللام، واللام الموطِّئة للقَسَم؛ لأنَّها تزيد القسم تأكيدًا، وحرف التوكيد في جملة الجزاء (إنَّ)، ولام الابتداء في خبرها، واسميَّة الجملة، وتركيبه من جُملةٍ فِعليَّة وجُملةٍ اسميَّة،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢٠٣)، ((تفسير القاسمي)) (١/ ٤٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٤/ ١١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٢٩).

وجَعْل حرف الشَّرْط الحرفَ الدالَّ على الشَّك، وهو (إنْ)، والإتيان بـ(إذن) الدالَّة على الجزائية؛ فإنَّها أكَّدْت ربْط الجزاء بالشرط، والإجمال ثم التفصيل في قوله: ﴿مَا جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ﴾؛ فإنَّه يدلُّ على الاهتمامِ، وجعْل ما نزل عليه هو نفْسُ العلم.

والتعريف في ﴿الظَّالِمِين﴾ للدَّلالة على أنَّ هذا الوصف لهم سجيَّة ثابتة، وصيغة الجمع في ﴿الظَّالِمِينَ﴾، ولم يقل: إنَّك ظالم؛ لأنَّ في الاندراج معهم إيهامًا بحصول أنواع الظلم، والتقييد بمجيء العلم؛ تعظيمًا للحق المعلوم، وتحريضًا على اقتفائه، وتحذيرًا عن متابعة الهوى، واستفظاعًا لصدور الذَّنب عن الأنبياء(١).

١١- قوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ﴾ فيه إضمارُ ما لم يَسبق له ذِكر (الرَّسول)(٢)؛ لأنَّ الكلام يدلُّ عليه ولا يلتبس على السَّامع، ومثل هذا الإضمار فيه تفخيمٌ وإشعارٌ بأنَّه لشُهرته وكونِه عَلَمًا معلومًا بغير إعلام(٣).

أو هو مِن من باب الالتِفات؛ لأنَّه قال تعالى: ﴿قدْ نرى تقلُّب وجهك... فَلَنُوَلِّيَنَّك... فولِّ وجْهَكَ﴾، ثم قال: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ...﴾، فهذه كلُّها ضمائرُ خِطاب لرسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، ثم التفَت عن ضمير الخِطاب إلى ضمير الغَيبة، وحِكمته والله أعلم: أنَّه سبحانه لَمَّا فرغ من الإقبال عليه بالخطاب، أقبل على الناس فقال: الذين آتيناهم الكتاب واخترناهم لتحمُّل العلم والوحي، يَعرِفون هذا الذي خاطبناه في الآي السَّابقة وأمرناه ونهيناه، لا يَشكُّون في معرفته...إلخ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٧).

(٢) هذا على القول بأنَّ الضَّمير في يعرفونه عائدٌ إلى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وأمَّا على الأقوال الأُخرى من أنَّه للعِلم، أو القرآن، أو تحويل القِبلة؛ فليس فيه هذا الوجه.

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢٠٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٣٢-٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٣٢-٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٩).

١٢- قوله: ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ ظاهر لفظ (الأبناء) الاختصاص بالذُّكور؛ فيكونُ ذَكَرهم هنا؛ لأنَّهم أشهرُ وأعرف، وهم لصُحبة الآباء- مباشرةً ومعاشرةً- ألزم، وبقلوبهم ألْصق، ويحتمل أن يُراد بالأبناء: الأولاد (الذُّكور والإناث)، فيكون ذِكرُهم هنا مَن باب التَّغليب[1].

١٣- قوله: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ فيه مبالغةٌ وتأكيدٌ بالنَّهي عن كونه منهم؛ لأنَّه أبلغ من النهي عن نفْس الفِعل. لأنَّ (لا تمترِ) نهيٌ عن الالتباس بالامتراء. وقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ نهيٌ عن الكون بهذه الصِّفة، والنَّهيُ عن الكون على صِفةٍ، أبلغُ من النَّهي عن تِلك الصِّفة[2].

١٤- قوله: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ وَ:﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ﴾ وَ: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ...﴾

فيه تَكريرٌ؛ لتأكيد أمْر القِبلة وتشديده؛ وفائدته: أنَّ النَّسخَ من مظانِّ الفِتنة والشبهة وتسويل الشَّيطان، والحاجة إلى التَّفصِلة بينه وبين البَداء[3]، فكرَّر عليهم؛

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢٠٤)، ((تفسير الرازي)) (٤/ ١١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٣٥).

(٣) البَداء: ظُهور الشَّيء بعد الخَفاء؛ تقول: بدا لي في الشيء، إذا ظهر لك فيه رأيٌ لم يكن ظاهرًا لك فتركته لأجْل ذلك.

والفرق بين النسخ والبداء: أن النسخ تحويل العباد من شيء قد كان حلالًا فيُحرم، أو كان حرامًا فيُحلل، أو كان مطلقًا فيُحظر، أو كان محظورًا فيطلق، أو كان مباحًا فيُمنَع، أو ممنوعًا فيُباح؛ إرادةَ الصلاح للعباد، وقد عَلِم الله جلَّ وعزَّ العاقبة في ذلك، وعلم وقت الأمر به أنَّه سينسخه إلى ذلك الوقت... وكان الأول المنسوخ حِكمة وصوابًا، ثم نسخ وأُزيل بحكمة وصواب. وأمَّا البداء فهو تركُ ما عُزم عليه، كقولك: امضِ إلى فلان اليومَ، ثم تقول: لا تمضِ إليه، فيبدو لك عن القولِ =

ليثبتوا ويعزموا ويجدُّوا، ولأنَّه نِيط بكلٍّ واحد ما لم يُنَطْ بالآخر فاختلفت فوائدها. وأيضًا لَمَّا عظُم في شأن القبلة انتشارُ أقوال السفهاء وتنوُّع شَغَبِهم وجدالهم، كان الحال مقتضيًا لمزيدِ تأكيدٍ لأمرها؛ تعظيمًا لشأنها، وتوهيةً لشبههم، فحصل من تكرير معظم الكلمات تأكيدٌ للحُكم؛ ليترتَّب عليه قوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾. وأيضًا كرَّر هذا الحكم؛ لتعدُّد عِلله، فإنَّه تعالى ذكر للتحويل ثلاث عِلل: تعظيم الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم بابتغاء مرضاته، وجرْي العادة الإلهية على أن يولي أهلَ كلِّ مِلَّة وصاحب دعوة وجهةً يستقبلها ويتميز بها، ودفْع حُجج المخالفين، وقَرَن بكلِّ علة معلولها، كما يَقرن المدلول بكلِّ واحد من دلائله تقريبًا وتقريرًا، مع أنَّ القبلة لها شأن، وقيل غير ذلك في فائدة التَّكرار، كما أنَّ بعض العلماء قد ذكر في هذه الآيات مخصصاتٍ تُخرجها بذلك عن التأكيد [1].

= الأوَّل، وهذا يلحق البشرَ؛ لنقصانهم. ولا يجوز البَداءُ على الله سبحانه وتعالى؛ فهو العليمُ بكلِّ شيء، وما يَنسخُه من الْأَحْكَام ويُثبته إِنَّمَا هُوَ على قدْر المصالح، لا أنَّه يبدو له من الأحوال ما لم يكُن باديًا. يُنظر: ((الناسخ والمنسوخ)) للنحاس (ص: ٦٢)، ((الفروق اللغوية)) للعسكري (ص: ٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢٠٦)، ((تفسير الرازي)) (٤/ ١١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٣٩-٤٠، ٥٩)، ((تفسير القاسمي)) (١/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٥).

الآيات (١٥١-١٥٧)

﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿يُزَكِّيكُمْ﴾: يطهِّركم، وأصل الزَّكاة: النَّماء والزِّيادة مع التَّطهيرِ[١].

﴿الْحِكْمَةَ﴾: إصابة الحقِّ بالعلم والعقل، وأصل (حَكَم): المنْع، وأوَّل ذلك الحكْم، وهو المنع من الظُّلم. والإحكام هو الفصل والتميز، والفرق والتحديد الذي به يتحقَّق الشيء ويحصُل إتقانه؛ ولهذا دخل فيه معنى المنْع كما دخَل في الحدِّ، فالمنع جزءُ معناه لا جميع معناه. والحِكمة اسمٌ للعَقل، وإنَّما سُمِّي حِكمة؛ لأنَّه يمنع صاحبه من الجهل، وقيل: المقصود بها هنا: السُّنة[٢].

﴿وَاشْكُرُوا لِي﴾: الشُّكر: ظهورُ أثَر نِعمة الله على لسانِ عبده: ثناءً واعترافًا،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦، ٣٤٧)، ((الإكليل في المتشابه والتأويل)) لابن تيمية (ص: ١١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٤).

وعلى قلبه: شهودًا ومحبَّةً، وعلى جوارحِه: انقيادًا وطاعةً، وأصلُه: الثناءُ على صانعِ المعروف، وهو ضدُّ الكُفر[١].

﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾: الكُفْر: السَّتر والتَّغطية، وهو ضدُّ الشُّكر، وكُفر النِّعمة: سترُها بترك أداء شُكرها، ونسيانُها[٢].

﴿صَلَوَاتٌ﴾: أي: ثناء، وأصل الصَّلَاة: الدُّعاء[٣].

مشكل الإعراب:

قوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ﴾:

﴿أَمْوَاتٌ﴾: خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: لا تقولوا: هم أمواتٌ.

﴿بَلْ﴾: حرف إضراب، وعطف.

﴿أَحْيَاءٌ﴾: أيضًا خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: بل هم أحياءٌ، وقد راعى لفظَ (مَنْ)- وهو الإفراد- مرةً فأفردَ في قولِه: ﴿يُقْتَلُ﴾، وراعى معناها مرةً أخرى- وهو العموم- فجمَع في قولِه: ﴿أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ﴾. وجملةُ (هم أموات) في محلِّ نصب بالقول ﴿وَلَا تَقُولُوا﴾؛ لأنَّها محكيَّة به، وجملة (بل هم أحياء) تحتمل أن تكون ابتدائيَّةً فلا يكون لها محلٌّ من الإعراب، وتحتمل: أن يكون محلها النَّصب بقولٍ محذوف أي: (بل قولوا هم أحياء)، ولا يجوز أن تنتصبَ بالقول الأوَّل ﴿وَلَا تَقُولُوا﴾؛ لفساد المعنى[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٠٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦١)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٢٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧١٤).

(٣) يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٢/ ١٦٥-١٦٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩١).

(٤) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١١٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ١٨٤)، ((إعراب القرآن الكريم)) لدعاس (١/ ٦٥).

المعنى الإجمالي:

حين أَخبَر تعالى أنَّ مِن أسباب تحويل القِبلة من بيت المقدِس إلى الكعبة إتمامَ نِعمته ببيان شرائع ملَّة إبراهيم عليه السَّلام، أخبر تعالى أيضًا أنَّ تلك النِّعمة هي مِثل إنعامه من قبلُ بإرسال محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ إلى العَربِ وهو منهم، يَعرِفون نَسبَهُ وأخلاقَهُ الفاضلة، فجاء إليهم ليقرأ عليهم القرآن، ويُطهِّرهم من أدران الشِّرك، وقذَر المعاصي، وسوء الأخلاق، ويوضِّح لهم معانيَ القرآن، ويَنشُر فيهم سُنَّته، ويُعلِّمهم أمورًا لم يكونوا يعلمونها من قبل، من الأخبار الماضية، أو الآتية، وكل ما لا تستقل بمعرفته العقول حيث لا سبيل إلى معرفته إلا من خلال الوحي، وأمر اللهُ عبادَه أنْ يذكروه عزَّ وجلَّ قولًا وعملًا، وسيكونُ جزاءُ ذلك أنْ يَذكُرهم سبحانه، وما أعظمَه من جزاء! كما أمرَهم جلَّ وعلا بشُكره على نِعمه، وعدم جُحودها.

ثم أمَر اللهُ عبادَهُ المؤمنين بالاستعانةِ في جميع أمورهم الدينيَّة والدنيويَّة بالصبر، وهو حبس النَّفْس وكفُّها عمَّا تكره، وأن يَستعينوا بالصَّلاة، مخبرًا سبحانه أنَّه مع الصَّابرين؛ معيَّةً خاصَّةً تَقتضي القُربَ منهم، ومحبَّتهم، ونَصْرهم وإعانتهم.

ونَهى سبحانه وتعالى عن القول الذي يُصاحبه اعتقادٌ بموتِ مَن يُقتلُ في سبيلِ الله عزَّ وجلَّ، وأخبر أنَّهم أحياءٌ عند الله تعالى، يتمتَّعون فيها بنعيم الجنَّة، وإنْ كان النَّاسُ لا يَشعُرون بهذا الأمر.

ثمَّ أخبَر الله تعالى عبادَهُ المؤمنين أنَّه سيبتليهم بقليل من الخوف، والجوع، وذَهابِ بعضٍ من أموالهم، وموتِ بعضٍ منهم، وحُصولِ نقصٍ من ثمراتهم، وأمَر الله تعالى نبيَّه محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّم، أن يبشر الصَّابرين على الابتلاء، الذين يقولون عن يقينٍ جازمٍ عندما تُصيبهم المصيبة: ﴿إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، أي: إنَّهم مملوكون لله، خاضِعون له، وسيَنتقلون إليه بعد موتهم، ومَصيرُهم بين

يديه يومَ القيامة؛ ليجازيَ كلَّ شخصٍ بما عمِل، فأولئك الصَّابرون لهم من اللهِ عزَّ وجلَّ الثناءُ والتنويه بشأنهم، وتتنزَّل عليهم من ربِّهم سُبحانه الرَّحماتُ، وهؤلاء هم الذين أَرشدهم الله عزَّ وجلَّ للحقِّ، ووفَّقهم للعمل به.

تفسير الآيات:

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١)﴾.

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ﴾.

أي: بيَّنَّا لكم شرائعَ ملَّة إبراهيم الحَنيفيَّة، فأمرْناكم باستقبال الكَعبة؛ نِعمةً من الله تعالى عليكم، مِثل ما أنعم عليكم أيضًا أوَّلَ مرَّة، بإرسال محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ منكم- أيُّها العربُ-؛ إذ يتحدَّث بلِسانكم، وتَعرِفون نَسبَه وخُلُقه؛ وذلك إجابةً لدعوة إبراهيمَ عليه السَّلام[1].

وكان إبراهيم عليه السلام قد دعا ربَّهُ قائلًا: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾.

أي: هذا الرَّسول الذي أنعمْنا عليكم بإرساله فيكم، أتَى ليقرأ عليكم القُرآن، ويُطهِّركم من دَنَس الشِّرك والكُفران، ورَذائل الأخلاق والعِصيان، ويبيِّن لكم السُّنَّة ومعاني كلامِ الرَّحمن[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٩٤)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ١٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٩٤-٦٩٥)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤).

﴿وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾.

أي: ويُنبِّئكم بأخبار مَن سلَف، وأخبار ما يأتي من الغُيوب(١).

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (١٥٢)﴾.

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾.

أي: عليكم بذِكري في مقابل تلك النعم التي تقدَّم ذكرها. وهذا الذِّكر المأمور به عامٌّ يَشمل ذِكر الله قولًا باللِّسان، وعملًا بالقلب وبالجوارح، ورتَّب الله عزَّ وجلَّ على هذا الذِّكر جزاءً عظيمًا، وهو أن يَذكُر هو سبحانَه مَن ذكَره(٢).

فعن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((يقول اللهُ تعالَى: أنا عندَ ظنِّ عَبْدي بي، وأنا معه إذا ذَكَرَني، فإنْ ذَكَرَني في نفسِه ذَكرتُه في نفْسي، وإنْ ذَكَرَني في ملأٍ ذَكرتُه في ملأٍ خيرٍ منهم))(٣).

وعن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((وما اجتَمعَ قومٌ في بيتٍ مِن بيوتِ اللهِ، يتْلون كتابَ اللهِ، ويَتدارسونه بينهم، إلَّا نَزلتْ عليهم السَّكينةُ، وغَشِيتْهم الرحمةُ، وحفَّتْهم الملائكةُ، وذَكَرَهم اللهُ فيمَن عِنده))(٤).

﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾.

أي: اشكُروني على ما مَنحتُكم من نِعم باللِّسانِ وبالقلب والجوارح، ولا تجحدوا إحساني إليكم. ومن أعظمِ ذلك: نِعمةُ الإسلام، وإرسالُ محمَّدٍ عليه الصَّلاة

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٩٥)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (١٣/ ١٣٤-١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٦٥)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٥٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٦٦، ١٦٨).

(٣) رواه البخاري (٧٤٠٥)، واللَّفْظ له، ومسلم (٢٦٧٥).

(٤) رواه مسلم (٢٦٩٩).

والسلام، والهدايةُ إلى الشَّرائع الصَّحيحة، ومنها استقبالُ الكعبة الشريفة(١).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣)﴾.

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا فرَغ تعالى من بيان الأمر بالشُّكر، شَرَعَ في بيان الصَّبر، والإرشادِ إلى الاستعانة بالصَّبر والصَّلاة؛ فإنَّ العبدَ إمَّا أن يكونَ في نِعمةٍ فيَشكرَ عليها، وإمَّا في نِقمةٍ فيَصبرَ عليها فقال تعالى(٢):

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾.

أي: يا مَعشرَ المؤمنين، عليكم بالْتزامِ الصَّبر وأداءِ الصَّلاة؛ فهُما عونٌ لكم على عظيمِ الأعمال. وذلك مِثل تحمُّل الطاعات كالقِتال في سبيل الله، وترْك المحظورات، وعلى ما يُصيب العبدَ من مصيبات(٣).

﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

أي: إنَّه سبحانه وتعالى مع الصَّابرين معيَّةً خاصَّةً تَقتضي قُربَه منهم، ومحبَّته لهم، ونصْرهم وتأييدَهم، وإعانتهم(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٩٦)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٢٦-٢٢٧)، ((مجموع رسائل ابن رجب)) ((١/ ٣٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٥١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٦٦).

(٢) يُنظر ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٩٧-٦٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٥١-٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٧٢).

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ (١٥٤)﴾.

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ﴾.

أي: ولا تقولوا: إنَّ مَن قُتل في سبيل الله عزَّ وجلَّ، فهو ميِّت(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩ - ١٧١].

﴿بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾.

أي: ليس الأمرُ كما ظننتم، فالحقُّ أنَّ الشُّهداءَ من بعد مقتلهم، وحتى قِيامِ السَّاعة، أحياءٌ عند الله تعالى، حياةً برزخيَّةً يتمتَّعون فيها في الجنَّة، ويُصاحبهم الفرحُ العظيم بما أعطاهم الله تعالى من فضْله، ولكن لا يَشعُر النَّاسُ بهذا الأمر في الدُّنيا؛ فليس لديهم أيُّ إدراكٍ لرؤية ذلك، أو الشُّعور به(٢).

عن مَسروق بن الأَجدع، قال: ((سألْنا عبدَ اللهِ (هو ابنُ مسعودٍ) عن هذه الآيةِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ قال: أمَا إنَّا سألْنا عن ذلك، فقال: أرواحُهم في جوفِ طيرٍ خُضرٍ، لها قناديلُ مُعلَّقةٌ بالعرشِ، تَسرحُ من الجنةِ حيث شاءت، ثمَّ تأوي إلى تِلك القَناديلِ، فاطَّلع إليهم ربُّهم اطِّلاعةً، فقال: هل تَشتهون شيئًا؟ قالوا: أيَّ شيءٍ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٩٨-٦٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٥٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٧٥-١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٩٩، ٧٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٥٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢١٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٧٦).

نَشتهي، ونحن نسرحُ من الجنةِ حيثُ شِئْنا؟! ففَعَل ذلك بهم ثلاثَ مراتٍ، فلمَّا رأَوا أنَّهم لن يُترَكوا من أن يَسألوا، قالوا: يا ربِّ، نُريد أن تردَّ أرواحَنا في أجسادِنا حتى نُقتَلَ في سبيلِك مرةً أخرى، فلمَّا رأى أنْ ليس لهم حاجةٌ تُرِكوا))[1].

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥)﴾.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾.

أي: ولَنَختبرنَّكم بشَيءٍ يَسيرٍ يقَع في قلوبِكم من الخوف، وفي أجسادِكم من الجُوع، ولَنَبتلينَّكم بذَهاب بعض أموالِكم، وموتِ بعضِكم، كأبنائِكم وأهلِيكم وأقارِبكم، وحُصولِ النَّقْص في ثِمارِكم[2].

﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾.

أي: أخبِر الصَّابرين يا محمَّد، خبرًا يَسرُّهم لم يسبقْ أنْ أخبَرهم به أحدٌ من قبلُ[3].

﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦)﴾.

بيَّن سبحانه هنا مَن الصَّابرون الذين أمَر نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ بِبشارتهم، فأخبَر أنَّهم الذين يقولون– عن اعتقاد ويقين –: إنَّهم عبيدٌ مملوكون لله الذي له مُطلَق التصرُّف فيهم بحِكمته ورحمته، وإنَّهم منتقِلون من هذه الدُّنيا الفانية وممَّا

---

(١) رواه مسلم (١٨٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٧٠٤-٧٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص:٧٦).

وممَّن قال من السَّلف: إنَّ المعنيَّ بهذه الآية المؤمنون: ابن عبَّاس، وسعيد بن جبير، وعطاء. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٧٠٤)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٧٠٥-٧٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٥٦)، ((تفسير ابن عُثيمين – الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٧٩).

فيها من مصائب، وصائِرون إليه وحْدَه يومَ المعاد، فيُجازي كلَّ عاملٍ بعمله[١].

عن أمِّ سَلمةَ رضي الله عنها، أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((ما من مُسلمٍ تُصيبُه مُصيبةٌ فيقولُ ما أمره اللهُ: إنَّا لله وإنَّا إليه راجِعون! اللَّهمَّ أْجُرْني في مُصيبتي وأَخْلِفْ لي خيرًا منها- إلَّا أخلف اللهُ له خيرًا منها. قالت: فلمَّا مات أبو سَلمةَ قلتُ: أيُّ المسلمين خيرٌ من أبي سلمةَ؟! أوَّلُ بيتٍ هاجر إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم! ثمَّ إنِّي قلتُها، فأخلف اللهُ لي رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ قالت: أرسل إليَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حَاطبَ بنَ أبي بَلْتَعةَ يَخطُبُني له، فقلتُ: إنَّ لي بنتًا وأنا غيورٌ، فقال: أمَّا ابنتُها فندعو اللهَ أن يُغنيَها عنها، وأَدْعو اللهَ أن يَذْهَبَ بالغيْرةِ))[٢].

﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)﴾.

أي: إنَّ هؤلاءِ الصَّابرين المبشَّرين الذين يقولون: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، لهم من الله تعالى ثناءٌ عليهم وتنويهٌ بشأنهم، وتتنزَّل عليهم منه سبحانه الرَّحمات، وهؤلاء هم الذين أرْشدَهم الله تعالى للحقِّ، ووفَّقهم للعمل به[٣].

الفوائد التربويَّة:

١- وجوبُ الشُّكر؛ لقوله تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا لِي﴾؛ و(الشُّكر) يكون بالقلب، وباللِّسان، وبالجوارح؛ ولا يكون إلَّا في مقابلة نِعمة[٤].

٢- تحريم كفر النعمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ ولهذا إذا أنعم الله على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٧٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٦٧-٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٧٩).

(٢) رواه مسلم (٩١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٧٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٨٢-١٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٦٩).

عبده نعمة، فإنه يحبُّ أن يرى أثر نعمته عليه(١).

٣- قرَنَ الله تعالى بين الصَّبر والصَّلاة في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾؛ لأنهما عونانِ على مصالحِ الدنيا والآخِرة، وذَكَر الصبر ثُم الصلاة؛ لأنَّها تُعين على الصَّبر(٢).

٤- أنَّ في جزاء الصَّبر المذكور تنشيطًا على الأعمال، والثَّبات عليها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾؛ فإذا آمَن الإنسانُ بأنَّ الله معه، ازداد نشاطًا، وثباتًا(٣).

٥- التَّنبيه على الإخلاص في القِتال؛ لقوله تعالى: ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾(٤).

٦- أنَّ ثوابَ الله سبحانه وتعالى للعامل أجَلُّ وأعلى؛ وذلك لأنَّ الشهيدَ عرَّض نفْسه للموت ابتغاءَ ثواب الله، فأثابَه الله تعالى بأنْ جعَله حيًّا بعد موته حياةً برزخيَّةً أكملَ من حياة الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩](٥).

٧- اشتملتِ الآيتان من قوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ....﴾ إلى ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ على توطين النُّفوس على المصائب قَبل وقوعها؛ لتخفَّ وتسهُل إذا وقعَتْ، وبيان ما تُقابَل به، وهو الصَّبر، وبيان ما يُعين على الصَّبر، وما للصَّابر من الأجْر(٦).

٨- في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ...﴾ و﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾: أنَّ للعبد من الصلوات والرحمة بقَدْر ما له من تحقيق الصَّبر، وهكذا كلُّ وصْف رُتِّب عليه خيرٌ وأجرٌ وثواب، وكلُّ وصفٍ نَهى الله عنه ورتَّب

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((عدَّة الصابرين)) لابن القيم (ص ٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٧٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٧٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٧٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦)

عليه وعلى الاتِّصافِ به عُقوبةً وشرًّا ونقصًا؛ لأنَّ الحُكم المعلَّق على وصْف يَزيد بزيادته، ويَنقُص بنُقصانه(١).

الفوائد العلميَّة واللَّطائف:

١- أنَّ كون الرَّسول صلى الله عليه وسلم مِنَّا يَقتضي أنْ تكون قريش أوَّل مَن يُصدِّق به؛ لأنَّهم يعرفونه، ويَعرِفون نَسبَه، ويَعرِفون أمانته؛ ولهذا وبَّخهم الله تعالى على الكُفر به، ووصْفِه بالضَّلال، والجُنون، فقال جلَّ وعلا: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ [النجم: ٢]، وقال جلَّ وعلا: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢](٢).

٢- أنَّ الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّمَ علَّم الأمَّة لفظَ القرآن، ومعناه؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ﴾؛ ولهذا كان الصَّحابةُ رضي الله عنهم إذا استشكلوا شيئًا من المعنى، سألوه، فعَلَّمهم، ولكن الغالب أنَّهم لا يَستشكلون؛ لأنَّه نزَل بلُغتهم، وفي عصرهم، يَعرِفون معناه، ومَغزاه، وأسبابه(٣).

بلاغة الآيات:

١- **قوله: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا﴾** فيه تنكيرُ (الرسول) للتعظيم؛ ولتجري عليه الصِّفات التي كلٌّ واحدةٍ منها نِعمةٌ خاصَّة(٤).

٢- **قوله: ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾** فيه تكرار الفعل (يعلم)؛ ليدلَّ على أنه جِنسٌ آخر(٥).

- وقدّم هنا ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ على ﴿وَيُعَلِّمُكُمْ﴾ عكس ما في الآية السابقة في

---

(١) يُنظر: ((القواعد الحسان)) للسعدي (ص: ١٣)، ((قواعد التفسير)) لخالد السبت (٢/ ٦٢٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٦٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٦٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١١٤).

حِكاية قول إبراهيم عليه السَّلام: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]؛ لأنَّ المقام هنا للامتنان على المسلمين؛ فقُدِّم فيها ما يُفيد معنى المنفعة الحاصلة من تلاوة الآيات عليهم، وهي منفعة تزكية نفوسهم؛ اهتمامًا بها، وبعثًا لها بالحِرص على تحصيل وسائلها، وتعجيلًا للبشارة بها، فأما في دعوة إبراهيم فقد رُتِّبت الجمل على حسب ترتيب حصولِ ما تضمَّنته في الخارج، مع ما في ذلك التخالف من التفنُّن(١).

٣- قوله: ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ فيه إيجازٌ بالحذْف؛ لأنَّه من كُفر النِّعمة، أي: ولا تكفروا نعمتي، ولو كان من الكفر الذي هو ضدُّ الإيمان، لكان: ولا تكفروا، أو ولا تكفروا بي، والنون نون الوِقاية، حُذفت ياء المتكلم بعدَها تخفيفًا؛ لتناسُب الفواصل(٢).

٤- قوله: ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ تذييلٌ في معنى التعليل، أي: اصبروا؛ ليكون الله معكم؛ لأنَّه مع الصابرين(٣).

٥- قوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ فيه إيجاز بالحذف؛ حيث حذف المبتدأ (هم)؛ لأهميَّة ذِكر الخبر؛ لأنَّهم ما كانوا يتصوَّرون أنَّهم أحياء(٤).

٦- قوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ﴾

- فيه: تقديمُ الوعدِ بالبَلاء قبل كَونِه؛ وإنما أَخبرَ به قبل الوقوعِ ليُوطِّنوا عليه نفوسَهم، ويزدادَ يقينُهم عند مشاهدتِهم له حسبما أَخبرَ به(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٩-٥٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٥٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٥٣).
(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٢١٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢٠٧)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١١٤)، ((تفسير أبي السعود)) =

- وجيء بكلمة ﴿شَيْءٍ﴾ مفردة، ولم يقل: (بأشياء)؛ لبيان أنَّ كلَّ بلاءٍ أصاب الإنسان- وإنْ جلَّ- ففوقه ما يقلُّ إليه، وليخفِّف عليهم، ويُريَهم أنَّ رحمته معهم في كلِّ حال لا تزايلهم، وليعلموا أنَّه شيءٌ يسير، له عاقبةٌ حميدةٌ. ولئلَّا يوهِم بأشياء من كل واحد، فيدل على ضروب الخوف والتقدير بشيءٍ مِن كذا، وشيء من كذا. أو قلَّله بالنِّسبة إلى ما يُصيب به معانديهم في الآخِرة[1].

٧- **قوله:** ﴿**قَالُوا إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**﴾ فيه التوكيد بـ(إنَّ)؛ لأنَّ المقام مقام اهتمام، ولأنه يُنزَّل المصاب فيه منزلةَ المنكر؛ لكونه مِلكًا لله تعالى وعبدًا له؛ إذ تُنسيه المصيبة ذلك، ويَحُول هولُها بينه وبين رُشده، واللام في ﴿لله﴾ للمِلك[2].

٨- **قول الله سبحانه:** ﴿**أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ**﴾

- قوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ...﴾ **الإشارة** بـ(أولئك) الذي فيه معنى البعد؛ للإيذان بعلوِّ رُتبتِهم، وفيه تنبيهٌ على أنَّ الحكم الذي يرد بعد اسم الإشارة مترتِّبٌ على تلك الأوصاف، وهذا بيانٌ لجزاء صبرهم[3].

- قوله: ﴿صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾: جاءت ﴿صَلَوَاتٌ﴾ بصيغة الجمع؛ تنبيهًا على كثرتها منه، وأنَّها حاصلةٌ في الدنيا توفيقًا وإرشادًا، وفي الآخرة ثوابًا ومغفرة، وإضافة اسم الرب إلى ضَميرهم ﴿رَبِّهِم﴾؛ لإظهارِ مزيدِ العناية بهم، وأنَّ عليهم رحمةً واسعة فائضةً من مالك أمورِهم، ومبلِّغِهم إلى كمالاتهم اللائقةِ بهم[4].

= (١/ ١٨٠)، ((تفسير القاسمي)) (١/ ٤٤١).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢٠٧)، ((تفسير الرازي)) (٤/ ١٢٩)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٨٠)، ((تفسير القاسمي)) (١/ ٤٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٥٤-٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٨٠)، ((تفسير القاسمي)) (١/ ٤٤٣).

- قوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾: فيه تكرار اسم الإشارة ﴿أُولَئِكَ﴾؛ لإظهارِ كمالِ العناية بهم(١).

- وأيضًا في قوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾: تأكيدٌ بقوله: ﴿هُمُ﴾ وبالألف واللام، كأنَّ الهداية انحصرت فيهم، وباسم الفاعل؛ ليدلَّ على الثبوت؛ لأنَّ الهداية ليستْ من الأفعال المتجدِّدة وقتًا بعد وقت، فيخبر عنها بالفعل، بل هي وصفٌ ثابت(٢).

- والجُملتان الثابتتان في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ تدلَّان على الاعتناء بأمر المخبَر عنه، وبُدئ بالجملة الأولى ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ﴾؛ لأنَّها أهمُّ في حصول الثواب المترتِّب على الوصف الذي قبله، وأُخِّرت جملة ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾؛ لأنَّها تنزَّلت ممَّا قبلها منزلةَ العِلَّة؛ لأنَّ ذلك القول المترتِّب عليه ذلك الجزاء الجزيل لا يصدُر إلَّا عمَّن سبقت هدايته(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٨١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٨١).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٥٩).

الآيات (١٥٨-١٦٣)

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ
أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ
أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِۙ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ
ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ
عَلَيْهِمْۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ
ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ
يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾.

غريب الكلمات:

﴿شَعَائِرِ﴾: جمْع شَعيرَة، وهي مَا جعَله الله تعالى عَلَمًا لطاعتِه[١].

﴿لا جُناحَ﴾: لَا بَأس، والجُناحَ: الإثم، وأصل الجنوح: المَيل والعدوان[٢].

﴿تَطَوَّعَ﴾: فَعَل خيرًا غيرَ واجب عليه[٣].

﴿يُنْظَرُونَ﴾: يُنتَظرون، ويُؤخَّرون[٤].

المعنى الإجمالي:

أخبَر الله تعالى أنَّ السَّعي بين الصَّفا والمروة من معالِمِ دِينه الظاهِرة، التي شُرِعت

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٨)، .

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٥٣، ٩٧٠).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٣٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧).

(٤) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١).

في الحجِّ، فمَن قصَدَ البيتَ ناويًا أداء النُّسك من حجٍّ أو عُمرةٍ، فلا يَتحرجنَّ من الطَّواف بينهما؛ لأجْل أنَّهم في الجاهليَّة يَعبُدون الأصنام عِندهما.

وتَرغيبًا في فِعل الطاعة والاستزادة منها أَخْبَرَ تعالى أنَّ مَن يأتي بالطاعات، سواء ما كان منها مَفروضًا أو مستحبًّا، ويَزداد منها؛ فإنَّ الله مُجازيه على عمَله خيرَ الجزاء، فهو سبحانه شاكرٌ لا يُضيع أجْرَ مَن أحسن عملًا، عليمٌ لا يَخفَى عليه ذاك الإحسانُ.

ثم ذكَر الله- في معرِض الذمِّ- عُلماءَ اليهود والنَّصارى الذين يُخفون عن النَّاس ما في التوراة والإنجيل من الأدلَّة الواضحة، التي تُثبِت نبوَّةَ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وتبيِّن وصْفَه، وهذا الذمُّ يعمُّ كلَّ مَن فعَل فِعلهم فأخفى الحقَّ الذي أنزله الله في القرآن الكريم من بعدِ أن بيَّنه سبحانه، هؤلاء جميعًا جزاؤهم الطردُ من رحمة الله تعالى، وأنْ تُلاحِقَهم اللَّعَناتُ من الملائكة والمؤمنين- وقيل: من جميع الخَلق- إلَّا مَن تراجع عن هذا الكِتمان للحق البيِّن، وعاد إلى ربِّه تائبًا مقرًّا بذنبه، وبيَّنَ ما كان أخْفاه من الحقِّ عن النَّاس- فأولئك يتوبُ الله عليهم كما أخبر، فهو سبحانه المتقبِّل لتوبة عِباده، بعد أن يُوفِّقهم لها، رحيمٌ بهم سبحانه وتعالى.

ثم أخبَر جلَّ وعلا أنَّ الذين جَحدوا دِين الله تعالى، فلم يَقبلوا به، ولم يَنقادوا إليه، ولم يتوبوا في حَياتهم، بل استمرُّوا على الكُفر حتى ماتوا عليه- أَخْبَرَ أنَّ أولئك سيطردهم اللهُ تعالى من رحمته طردًا دائمًا، وتُلاحقَهم اللَّعنة من الله والملائكة وجميعِ النَّاس، وسَيُخلَّدون في تلك اللَّعنة والتي ستُصاحبهم في دُنياهم وحتى يوم القِيامة؛ لتظلَّ معهم وتلازمهم في جهنَّم، حيث لا يُخفَّف عنهم عذابُها، ولا هم يُمهلون فيُؤخَّر عنهم العذاب.

ثم أَخْبَرَ تعالى أنَّ الإلهَ المستحِقَّ للعبادة واحدٌ، لا شريكَ له سبحانه، ولا معبودَ سواه، وهو الله سبحانه ذو الرَّحمات، التي أوْصَلها وعمَّ بها كلَّ البريَّات.

تفسير الآيات:

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (١٥٨)﴾.

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

قيل: لَمَّا بيَّن الله تعالى أنه إنما حوَّل القبلة إلى الكعبة، وكان في ذلك إحياءٌ لشرائع إبراهيم ودِينه، وكان السعيُ بين الصفا والمروة من شعائر إبراهيم على ما ذُكِر في قصة بناء الكعبة، وسعي هاجر بين الجبلين- فلما كان الأمر كذلك ذكَر الله تعالى هذا الحُكم.

وقيل: لأنَّه تعالى لَمَّا قال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ...﴾، إلى قوله: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾، قال: إنَّ الصَّفا والمروة من شعائر الله؛ وإنَّما جعلهما كذلك لأنَّهما من آثار هاجر وإسماعيل ممَّا جرى عليهما مِن البلوى[١].

سبب النُّزول:

عن عُروةَ بن الزُّبَير قال: ((سألتُ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها، فقلتُ لها: أرأيتِ قَوْلَ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾؛ فواللهِ ما على أَحَدٍ جُنَاحٌ أنْ لا يطوفَ بالصَّفا والمروةِ، قالت: بِئْسَ ما قلتَ يا ابنَ أختي! إنَّ هذهِ لو كانت كَمَا أَوَّلْتَهَا عليه، كانت: لا جُنَاحَ عليهِ أنْ لا يَتَطَوَّفَ بهما، ولكنَّها أُنْزِلَتْ في الأنصارِ، كانوا قبلَ أن يُسلِموا، يُهِلُّونَ لـمَناةَ الطَّاغية، التي كانوا يَعبُدونها عندَ المُشلَّلِ، فكان مَن أَهَلَّ يَتَحَرَّجُ أنْ يطوفَ بالصَّفا والمروةِ، فلمَّا أسلموا، سألوا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عن ذلكَ، قالوا: يا رَسولَ اللهِ، إنَّا كُنَّا نتحرَّجُ أن نطوفَ بينَ الصَّفا والمروةِ، فأنزَلَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ﴾ الآية، قالت عائشةُ رضيَ اللهُ عنها:

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٤/ ١٣٤).

وقد سَنَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الطَّوافَ بينهما، فليس لِأَحَدٍ أن يترُكَ الطوافَ بينهما، ثم أَخبَرْتُ أبا بكرِ بنَ عبدِ الرَّحمنِ فقال: إنَّ هذا لَعِلْمٌ ما كنتُ سمعتُهُ، ولقد سمعتُ رِجالًا من أهلِ العِلم يَذكرونَ: أنَّ النَّاسَ- إلَّا مَن ذَكرتْ عائشةُ- مِمَّن كان يُهِلُّ بمناةَ، كانوا يطوفونَ كلُّهم بالصَّفا والمروةِ، فلمَّا ذكرَ اللهُ تعالى الطَّوافَ بالبيتِ، ولم يذكُرِ الصَّفا والمروةَ في القرآنِ، قالوا: يا رسولَ اللهِ، كُنَّا نطوفُ بالصَّفا والمروةِ، وإنَّ اللهَ أنزَلَ الطوافَ بالبيتِ فلمْ يذكُرِ الصَّفا، فهل علينا من حَرَجٍ أن نطوفَ بالصَّفا والمروةِ، فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ﴾ الآيةُ. قال أبو بكرٍ: فأسمعُ هذهِ الآيةَ نزلتْ في الفَريقَيْنِ كِلَيهما، في الَّذين كانوا يَتحرَّجونَ أن يَطوفوا بالجاهليةِ بالصَّفا والمروةِ، والذينَ يَطوفونَ ثم تَحرَّجوا أن يَطوفوا بهما في الإسلامِ؛ من أَجْلِ أنَّ اللهَ تعالى أَمَرَ بالطَّوافِ بالبيتِ، ولم يذكُرِ الصَّفا، حتى ذَكرَ ذلكَ بعدَما ذكرَ الطَّوافَ بالبيتِ))[1].

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ﴾.

أي: إنَّ السَّعي بين الصَّفا والمروة من معالم الدِّين الظاهِرة، التي شرَعها الله تعالى لعباده في الحجِّ[2].

وفي حديث جابرٍ الطويلِ في صِفة حَجَّة النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، قال رضي الله عنه: ((ثمَّ خرَج من الباب إلى الصَّفا، فلمَّا دنا مِن الصَّفا قرأ: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ﴾ أبدأُ بما بدأَ اللهُ به، فبدأ بالصَّفا، فرقِيَ عليه))[3].

﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾.

---

(١) رواه البخاريُّ (١٦٤٣)، واللَّفظ له، وروى مسلمٌ بعضَه (١٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٧١١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٧١-٤٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦).

(٣) رواه مسلم (١٢١٨).

أي: مَن قصَد البيت الحرام لأداء مناسك الحجِّ، أو العمرة، فلا يَتحرَّجَنَّ من الطواف بين الصَّفا والمروة؛ لشُبهة أنَّه من أفعال الجاهليَّة وأنَّهم كانوا يُعظِّمونها، ويطوفون بينهما[1].

﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: مَن أتى بالطَّاعات المفروضة والمستحبَّة وازداد منها، فلْيعلمْ بأنَّ الله تعالى سيُجازيه بإحسانه؛ لأنَّ الله شاكِر لا يُضيع أجْرَ محسِن، عليمٌ لا يَخفى عنه إحسانُه[2].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩)﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ﴾.

أي: إنَّ عُلماءَ اليهود والنَّصارى الذين أخْفَوا عن النَّاس ما في التَّوراة والإنجيل، من دَلائل إثبات مَبعث النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ وبيان صِفاته، الذي بيَّنه الله تعالى فيهما بوضوحٍ تامٍّ.

وهذه الآية تعمُّ كلَّ مَن كتَم عن النَّاس ما أوْضحَه الله تعالى في القرآن من البيِّنات، وهي الأدلَّةُ والبَراهين الواضِحة التي تُظهر الحقَّ وتُثبِته، والهدى- وهو العلمُ النَّافع المرشِد لطريق الحقِّ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٧١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٢٩)، ((جامع المسائل)) لابن تيميَّة (١/ ٢٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦).

(٢) يُنظر: ((شرح عمدة الفقه-كتاب الطهارة والحج)) لابن تيميَّة (٣/ ٦٣٢-٦٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٦٤-٦٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٨٥-١٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٧٢٩-٧٣١)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٣١)، ((النبوات)) لابن تيميَّة (٢/ ٦٤٠-٦٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧). =

﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾.

أي: يطردُهم الله عزَّ وجلَّ من رحمته، ويطلُب اللاعنون من الله تعالى أن يلعنَهم، واللاعنون قيل: هم الملائكة والمؤمنون[١]، وقيل: هم جميعُ الخلائق، حتى البَهائم تلعنهم[٢].

عن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((مَن سُئِلَ عن علْمٍ علِمَهُ، ثُمَّ كتَمَه، أُلجِمَ يومَ القِيامَة بِلِجامٍ من نارٍ))[٣].

وعن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، قال: ((يقولون: إنَّ أبا هريرةَ يُكْثِرُ الحديثَ، واللهُ الموعدُ! ويقولون: ما لِلمُهاجرين والأنصارِ لا يُحَدِّثون مثلَ أحاديثِه؟! وإنَّ إخوتي مِن المهاجرين كان يَشْغَلُهم الصَّفْقُ بالأسواقِ، وإنَّ إخوتي مِن الأنصارِ كان يَشْغَلُهم عملُ أموالِهم، وكنتُ امرأً مسكينًا، أَلْزَمُ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ على مِلءِ بطني، فأَحْضُرُ حينَ يَغِيبون، وأَعِي حين يَنْسَوْن، وقال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ يومًا: لن يَبْسُطَ أحدٌ منكم ثوبَه، حتى أَقْضِيَ مقالتي هذه، ثم يَجْمَعَه

= وممَّن ذهب من السَّلف إلى أنَّ المقصود بالآيةِ أهل الكتاب: ابن عبَّاس، ومجاهد، وأبو العالية، وقَتادة، والسُّدِّي، والرَّبيع بن أنس. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٧٣٠)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٢٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٧٣٢-٧٣٧)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٣١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٦-٤٧).

وممَّن قال من السَّلف بأنَّ المقصود بـ﴿اللاعنون﴾ الملائكة والمؤمنون: أبو العالية، وقَتادة، والرَّبيع بن أنس. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٧٣٦)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٢٦٩).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (٢٨/ ١٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧).

(٣) أخرجه أبو داود (٣٦٥٨)، والترمذي (٢٦٤٩)، وابن ماجه (٢٦٦)، وأحمد (٧٥٦١).

حسَّنه الترمذيُّ، وقال ابن القطان في ((الوهم والإيهام)) (٥/ ٢١٨): رُواته كلُّهم ثِقات، وحسَّنه مِن هذا الوجه ابنُ كثير في ((طبقات الشافعية)) (١/ ٤٤١)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٣٦٥٨)، وحسَّنه الوادعي في ((الصحيح المسند)) (١٣٧٧)، وقال: رجاله رجال الصحيح.

إلى صَدرِه فينْسى من مقالتي شيئًا أبدًا، فبَسَطْتُ نَمِرَةً ليس عليَّ ثوبٌ غيرَها، حتى قضى النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ مقالتَه، ثم جَمَعْتُها إلى صدْري، فوالذي بعَثَه بالحقِّ، ما نَسِيتُ مِن مقالتِه تلك إلى يومي هذا، واللهِ لولا آيتانِ في كتابِ اللهِ، ما حدَّثْتُكم شيئًا أبدًا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ إلى قوله: ﴿الرَّحِيمُ﴾))(١).

وعن حِمران، قال: ((فلمَّا توضَّأ عثمانُ قال: واللهِ لأُحَدِّثَنَّكم حديثًا، واللهِ لولا آيةٌ في كتابِ اللهِ ما حَدَّثْتُكُموه! إني سمِعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يقولُ: لا يتوضأُ رجلٌ فيُحسِنُ وُضوءَه، ثم يُصلِّي الصَّلاةَ، إلا غُفِرَ له ما بينَه وبينَ الصَّلاةِ التي تَلِيها، قال عُروةُ: الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى﴾، إلى قوله: ﴿اللَّاعِنُونَ﴾))(٢).

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠)﴾.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا﴾.

أي: استثنى الله عزَّ وجلَّ منهم مَن رجَع عن كِتمانه، معترفًا لله تعالى بذنبه، مُصلحًا حالَ نفْسه، مبيِّنًا للنَّاس ما كتَمَه(٣).

﴿فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

أي: هؤلاء الذين فعَلوا هذا الذي وصفتُ منهم، هم الذين أَقبل توبتَهم؛ فأنا التوَّاب- أي: كثير التوب- الذي يوفِّق عباده للتوبة أولًا، ويَقبلها منهم ثانيًا، فضلًا

(١) رواه البخاري (٢٣٥٠).

(٢) رواه مسلم (٢٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٧٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٩٦).

منِّي ورحمة، فبِتَوبتي أغفِر لهم المعاصي والسيِّئات، وبِرَحمتي أُيسِّر لهم الطَّاعات والخيرات[1].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١)﴾.

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا لعَن الله الكاتمين؛ واستثنى منهم التائبين، ذكَر المُصرِّين، معبِّرًا عن كتمانهم بالكُفر؛ لتعمَّ العبارةُ كلَّ كُفر، فقال[2]:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾.

أي: إنَّ الكفار الذين ظلُّوا على كفرهم حتَّى مماتِهم، ولم يتوبوا[3].

﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى يطردُ أولئك الكفَّار من رحمته، وأمَّا الملائكة وجميع النَّاس فيَسألون الله عزَّ وجلَّ أن يُبعدَهم ويطردَهم من رحمته[4].

﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (١٦٢)﴾.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾.

أي: هم خالدون أبدًا في هذه اللَّعنة المستتبِعةِ للخلود الأبديِّ في نار جهنَّمَ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٧٣٨-٧٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٩٦-١٩٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢/ ٢٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٧٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٧٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٠٢).

التي لا يَنقُص فيها عذابُهم زمنًا ولا مِقدارًا؛ فهُم في عذابٍ دائمٍ وشديد(١).

كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: ٣٦].

﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾.

أي: لا يُمهلون فيُؤخَّر عنهم العذاب(٢).

﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (١٦٣)﴾.

أي: إنَّ معبودَكم واحدٌ، لا معبود بحقٍّ سواه، فهو المنفرِد في ذاته وأسمائِه وصِفاتِه وأفعالِه جلَّ وعلا، وهو الذي وسعتْ رحمتُه كلَّ شيء، ومن رحمته: أنْ أَوجَد عباده، وعرَّفهم على نفْسه بآياته وآلائِه(٣).

الفوائد التربويَّة:

١- دلَّ تقييدُ التطوُّع بالخير في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ على أنَّ مَن تطوَّع

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٧٣).

وممَّن قال بهذا القول من السلف: ابن مسعود ومقاتل. يُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (١/ ١٢٨).

وقيل الضمير يعود على اللعنة والمراد لازمها وأثرها وجزاؤها، وممن ذهب إلى هذا القول: ابن جرير في ((تفسيره)) (٢/ ٧٤٤)، والقرطبي في ((تفسيره)) (٢/ ١٩٠)، وابن عثيمين في ((تفسير الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٠٣-٢٠٤).

واختار ابن عاشور في ((تفسيره)) (٢/ ٧٣): أنَّ الضمير يعود على جهنم، وجوَّز القول السابق.

وقال السعدي: (﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: في اللعنة، أو في العذاب، وهما متلازمان) ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧).

وعن أبي العالية أنَّه قال في قوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾: (خالدين في جَهنَّمَ في اللَّعنة) ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٧٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٧٤٥-٧٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٠٧، ٢٠٩).

بالبِدع، التي لم يَشرَعْها الله ولا رسولُه، أنَّه لا يحصُل له إلَّا العناءُ، وليس في هذا التطوُّع خيرٌ له، بل قد يكون شرًّا له، إنْ كان متعمِّدًا، عالِمًا بعدم مشروعيَّة العمل[١].

٢- في قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾. فتحٌ لباب التوبة؛ فلا تيئس القلوبُ من رحمة الله، ولا تَقنَط من عفوه، فمَن شاء فليرجع إلى الحِمى الآمن، صادِق النيَّة، وآية صِدق التوبة الإصلاحُ في العمل، والتبينُ في القول، وإعلانُ الحقِّ والاعترافُ به، والعمل بمقتضاه، ثم ليَثِق برحمة الله وقَبوله للتوبة، وهو يقول: ﴿وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ وهو أصدقُ القائلين[٢].

٣- في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ التحذيرُ من الإصرار وترْك التوبة حتى تفلتَ الفرصة، وتنتهي المهلة؛ فأولئك ملاقون ما أوعدَ الله، ذلك أنَّهم أغلقوا على أنفسهم ذلك البابَ المفتوح، وتركوا الفرصةَ تفلت، والمهلة تَنقضي، وأصرُّوا على الكِتمان والكُفر والضلال[٣].

الفوائد العلميَّة واللَّطائف:

١- قُبْح هذا الكِتمان الذي سلَكه المذكورون في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾؛ لأنَّه كتمانٌ بعدَ بيان؛ فليس لهم أن يقولوا: (لم نتكلَّم؛ لأنَّ الأمر مشتبهٌ علينا)؛ فالإنسان الذي لا يَتكلَّم بالشيء لاشتباه الأمْر عليه قد يُعذر، لكن الذي لا يَتكلَّم مع أنَّ الله بيَّنه للناس يكون هذا أعظمَ قُبحًا-والعياذ بالله[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧).
(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ١٥٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٩١).

٢- في قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة: ١٦١]، جاء ذِكرُ لعنة الملائكة والنَّاس- مع أنَّ لعنة الله وحده كافيةٌ في خزيهم ونكالهم- قد يكون لبيان أنَّ جميع مَن يعلم حالهم من العوالمِ العلويَّة والسُّفليَّة يراهم محلًّا للعنة الله ومقْته، فلا يُرجى أن يَرأف بهم رائِف، ولا أن يَشفَع لهم شافِع(١).

٣- أنَّ الكافر يلعنه الكافِر؛ لقوله تعالى: ﴿وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾؛ وقد أخبَر الله تعالى عن أهل النَّار أنَّه كلَّما دخلتْ أُمَّة لعَنتْ أُختها، وقال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾ [البقرة: ١٦٦] إلخ؛ فالكافِر- والعياذ بالله- ملعونٌ حتَّى ممَّن شاركه في كُفره(٢).

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ﴾ فيه تأكيدُ الجملة بـ(إنَّ)؛ لأنَّ المخاطبَين متردِّدون في كونهما من شعائر الله، وهم أميلُ إلى اعتقاد أنَّ السَّعي بينهما من أحوال الجاهليَّة(٣).

٢- قوله: ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾

- تذييلٌ لِمَا أفادته الآية من الحثِّ على السَّعي بين الصفا والمروة، ومقصده: الإتيان بحُكمٍ كلِّيٍّ في أفعال الخيرات كلها من فرائض ونوافل، أو نوافل فقط، فليس المقصود من ﴿خَيْرًا﴾ خصوص السعي؛ لأنَّ ﴿خيرًا﴾ نكرة في سياق الشَّرط، فهي عامَّة؛ ولهذا عُطِفت الجملة بالواو دون الفاء؛ لئلَّا يكون الخيرُ قاصرًا على الطوافِ بين الصفا والمروة(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٢/ ٤٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٠٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٦٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٦٤).

- وخُتمت الآية بصِفتين مناسبتَين، ووقعتَا الموقع الحَسَن؛ لأنَّ التطوُّع بالخير يتضمَّن الفعل والقصد، فناسَب ذكر الشُّكر باعتبار الفعل، وذِكر العِلم باعتبار القَصد[1].

٣- قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ فيه التعبير بالفعل المضارع في ﴿يَكْتُمُونَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم في الحال كاتمون للبيِّنات والهدى، ولو وقَع بلفظ الماضي لتوهَّم السامعُ أن المعنيَّ به قومٌ مضَوْا، مع أنَّ المقصود إقامة الحُجَّة على الحاضرين[2].

٤- في قوله: ﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾

- اختير اسم الإشارة للبعيد (أُولَئِكَ)؛ ليكون أبعثَ للسامع على التأمُّل فيهم، والالتفات إليهم، أو تحقيرًا لهم؛ لبُعدهم عن رحمة الله تعالى[3].

- وإبراز الخبر في صورة جملتين مع تكرير الفِعل ﴿يَلْعَنُهُم﴾؛ للتوكيد والتعظيم، وأتى بالفِعل المضارع ﴿يَلْعَنُهُم﴾ المقتضي للتجدُّد؛ لتجدُّد مقتضيه، وهو قوله تعالى: ﴿يَكْتُمُونَ﴾[4].

- وفي قوله تعالى: ﴿يَلْعَنُهُمُ اللهُ﴾ التفات، وكان السِّياق يَقتضي بأن يقول: (نلعنهم)، ولكنَّه التفت إلى الغائب؛ للدَّلالة على إظهار السخط عليهم، وليكون الكلام أوغلَ في إنزال اللَّعْن عليهم، وإلحاق الطَّرد بهم، وإبراز اسم الجلالة بلفظ ﴿الله﴾ فيه مِن الفخامة ما لا يكون في الضَّمير[5].

٥- في قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ قُرنَتِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٦٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٦٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٦٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٢٢٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٧٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٢٢١).

الجملة ﴿فَأُولَئِكَ...﴾ بالفاء- التي تكون للتعقيب مع السُّرعة-؛ للدلالة على شيءٍ زائد على مفادِ الاستثناء، وهو أنَّ توبتهم يَعقبُها رِضَا الله عنهم[1].

٦- قوله: ﴿وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

- اعتراضٌ تذييليٌّ محقِّقٌ لمضمون ما قبْله[2].

- وفيه التفاتٌ من الغَيْبة إلى التَّكلُّم؛ وفي هذا الالتفات تلويحٌ ورمزٌ إلى اختلاف المبدأ في فِعْليهِ تعالى السَّابقِ واللَّاحِقِ[3].

- وجيء بالجُملة الاسميَّة؛ لدَّلالتها على الثَّبات والاستقرار؛ ليكونوا غيرَ آيِسِين من التوبة، بخِلاف قوله: ﴿يَلْعَنُهُمُ اللهُ﴾، فالمقصود التجدُّد[4].

٧- قوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ فيه ترتيبٌ بديع؛ حيث بدأ تعالى بنفسه، وناهيك بذلك طردًا وإبعادًا؛ ولأنَّ لعنةَ الله هي التي تجرُّ لعنة الملائكة والناس. ثم ثنَّى بالملائكة؛ لِمَا؟ في النفوس من عِظم شأنهم، وعلوِّ منزلتهم وطهارتهم. ثم ثلَّث بالناس؛ لأنَّهم من جِنسهم، فهو شاقٌّ عليهم[5].

٨- قوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ فيه إضمار النار قَبل الذِّكر؛ تفخيمًا لشأنها وتهويلًا، أو اكتفاء بدَلالة اللَّعن عليه[6].

٩- قوله: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ فيه توكيد لمعنى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٨٣)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٢٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٧٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٧٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢١٠)، ((تفسير الرازي)) (٤/ ١٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٨٣). وهذا بناءً على القول بأنَّ الضَّمير في (فيها) يعودُ على النَّار، وأمَّا على القول بعودِه على اللَّعنة، فليس فيه هذا الوجه.

الوحدانية، ونفْي الإلهيَّة عن غيره. بنفي كلِّ فردٍ من الآلهة، ثم حصْر ذلك المعنى فيه تبارك وتعالى، فدلَّ قوله: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ على نِسبة الواحديَّة إليه تعالى، ودلَّ قوله: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ على حصر الإلهية فيه من اللفظ الناصِّ على ذلك، وإن كانت الآية الأولى تستلزم ذلك؛ لدفع توهُّم وجود إلهٍ غيره، فأكَّده بقوله: ﴿لا إِلهَ إِلَّا هُوَ﴾، وحُقَّ لهذا المعنى أن يكون مؤكَّدًا، وتُكرَّر عليه الألفاظ؛ إذ هو مبدأ مقصود العِبادة ومُنتهاه(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٧٤)، ((تفسير القاسمي)) (١/ ٤٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٧٥).

الآيات (١٦٤-١٦٧)

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧)﴾.

غريب الكلمات:

﴿الْفُلْكِ﴾: السُّفن، وواحده وجمْعه بلفظٍ واحد، وأصل الفَلَك: الاستدارةُ في الشَّيء، ولعلَّ السُّفن سُمِّيت فُلكًا؛ لأنَّها تُدار في الماء[(١)].

﴿بَثَّ﴾: فرَّق ونشَر[(٢)].

﴿الْمُسَخَّرِ﴾: المُذلَّل، وَالمُيسَّر[(٣)].

﴿أَنْدَادًا﴾: أمثالًا، ونُظراء مُناوئين، وشركاء[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥)، ((لسان العرب)) لابن منظور (٣/ ٤٢٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٨)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٩/ ٢١٦).

﴿تَبَرَّأَ﴾: تَباعَد وفارَق، ولـ(بَرَأ) أصلانِ ترجع إليهما فروع معانيه؛ الأوَّل: التقصِّي ممَّا يُكره مجاورتُه، والتباعُدُ من الشيءِ ومزايلتُه، ومنه: البُرء والبَراء والتَّبرِّي والتبرُّؤ. الثاني: الخَلْقُ؛ يُقالُ: بَرَأَ اللهُ الخَلْقَ يَبرؤُهم بَرْءًا[١].

﴿الْأَسْبَابُ﴾: أي: الوصلاتُ، وأصل (سَبَب): الحَبْل يشدُّ بالشَّيْء فيجذب به، ثمَّ جُعِل كلُّ ما جرَّ شَيْئًا (سَببًا)، وسُمِّي كلُّ ما يُتوصَّل به إلى شيءٍ (سببًا)[٢].

﴿كَرَّةً﴾: رَجْعَة إلى الدُّنيا، والكَرُّ: الرُّجوع إلى الشَّيءِ بعدَ المرَّة الأولى، والعطف عليه بالذَّات أو بالفِعل[٣].

﴿حَسَرَاتٍ﴾: الحسراتُ جمْع حَسْرة، وهي أشدُّ النَّدامة على ما فاتَ ولا يُمكن ارتجاعُه؛ والغمُّ عليه، وأصل (حسر): كَشْف الشَّيْء؛ ومِنه الحَسرة، كأنَّه انحسرَ -انكشَف- عنه الجهلُ الذي حمَله على ما ارتكبَه، أو انحسَر قواه من فَرط غمٍّ، أو أدركه إعياءٌ مِن تدارُك ما فرط منه[٤].

المعنى الإجمالي:

عدَّد الله سبحانه وتعالى في مَطلع هذه الآيات بعضًا مِن نِعمه العظيمة، وآلائه الجَزيلة، مخبرًا أنَّ فيها أدلَّةً واضحة، وعلاماتٍ بيِّنة على وَحدانيته جلَّ وعلا، وعلى

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٢٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٠٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٩).

(٤) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٠).

كمال صِفاته، لكنَّ هذه الدلائلَ والعلامات يَعيها مَنْ مَنَّ الله عليه بعقلٍ يتدبَّر به، فيَفهَم مقصود الله عزَّ وجلَّ منها.

وتِلك النِّعم التي عدَّدها الله عزَّ وجلَّ هي إنشاؤه السَّمواتِ والأرضَ، وما أودَع فيها من العجائب، والتعاقُب الدَّائم لليل والنَّهار، بحيث لا يتَأخر أحدُهما عن الآخَر، واختلافهما ضِياءً وظُلمة، وحرًّا وبردًا، وطولًا وقِصرًا، والسُّفن التي تشقُّ البحرَ متنقلةً عبرَه من مكان لآخَر بما يعود نفعُه على النَّاس، والمطر الذي أنزله الله سبحانه وتعالى من السَّحاب، والذي بسببه أنبتت الأرض بعدَ أنْ كانت مجدبة، ونشْره سبحانه في أنحائها الدَّوابَّ بمختلف أنواعها وأشكالها، وتنويعه الرِّيح ركودًا وهبوبًا، وجعْلها تهبُّ من اتجاهات عِدَّة، واختلافها في الشِّدَّة والضَّعف، والنَّفع والضر، وتذليله سبحانه السَّحابَ بين السَّماء والأرض لمصالح خَلْقه.

ثم ذكَر سبحانه أنَّ صِنفًا من النَّاس جعَلوا من بعض خَلق الله نُظراءَ له، يُساوونهم به في المحبَّة، فيُحبُّون هؤلاء النظراءَ كما يحبُّون الله، وأخبر أنَّ الذين آمَنوا حقًّا أكثرُ حبًّا لله من محبَّة هؤلاء لله تعالى وللأنداد.

ثم خاطَب اللهُ تعالى نبيَّه محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه لو أبصرَ حال هؤلاء الذين اتَّخذوا الأندادَ مع اللهِ يُحبُّونهم كحُبِّه، وأبصروا هم أيضًا حالَهم تلك، حين يُعاينون عذابَ الله عزَّ وجلَّ يومَ القيامة، فيَتيقَّنون أنَّ القوةَ والقدرة كلَّها لله تعالى وحده، وأنَّ ما أعدَّه الله من العذاب لِمَن يستحقُّه ممَّن كفر به أو أشرك لشديدٌ.

ويتبرَّأ المتبوعون على الشِّركِ والكفرِ والضلالِ ممَّن اتَّبعهم حين يُعاينون عذابَ الله تعالى، ويتيقَّن الأتباعُ حين يُعاينون العذاب كذلك، أنَّهم سيُعذَّبون فيها لا محالةَ، وتنقطَّع كلُّ وسيلة تمسَّكوا بها من قبلُ للنجاة، ومنها جعْلهم للهِ نُظراءَ يُساوونه بهم في المحبَّة، ويسقط الجميعُ في النار.

ويَتمنَّى حينها الأتباعُ لو تَسنح لهم فرصةٌ أخرى للرُّجوع إلى الدُّنيا؛ ليتبرَّؤوا من هؤلاء المتَّبَعين الذين خذَلوهم وتبرؤوا منهم، بعدَ أنِ اتَّخذوهم أندادًا من دون الله، لكن الله أخبرَ أنَّه يُريهم أعمالهم الخبيثةَ كما أراهم العذابَ؛ ليتحسَّروا ويندموا، ويُعاتِبوا أنفسَهم: لِمَ فعَلوها، ولِمَ لمْ يَعملوا أحسنَ منها، لكن هذا التحسُّر والندم لا يُفيدهم شيئًا؛ فإنَّهم باقون في النار غير خارجين منها.

تفسير الآيات:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

وقَعتْ هذه الآية موقعَ الحُجَّة مِن الدَّعوى؛ فإنَّه لَمَّا ذكر تعالى أنَّه واحد، وأنَّه منفرد بالإلهيَّة، لم يَكتفِ بالإخبار حتى أورد دلائلَ الاعتبار، ثم مع كونها دلائلَ، هي نِعم كذلك من الله على عباده، فكانت أوضحَ لِمَن يتأمَّل، وأبهرَ لِمَن يَعقل؛ إذ التنبيه على ما فيه النَّفع باعثٌ على الفِكر، فقال تعالى[١]:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

أي: إنَّ في إنشاء السَّموات والأرض وابتداعهما، وما أودَع الله تعالى فيهما من العَجائب[٢].

﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾.

أي: تعاقبِها الدَّائم، بحيث يَجيء أحدُهما، ثم يذهب، ويخلُفه الآخَر مباشرةً دون

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٧٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨).

أن يتأخَّر عنه لحظة، وكذا اختلافهما في الضِّياء والظُّلمة، والحرِّ والبَرد، والطُّول والقِصَر(١).

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢].

﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾.

أي: السُّفن التي تَسير في البحر، فيَنتفع النَّاسُ بالتنقُّل عبْرَها من مكان لآخَر، ويجلْب البضائع، وصَيد الأسماك، وغير ذلك(٢).

﴿وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

أي: المطر الذي أنزله الله تعالى من السَّحاب، فأنبتتْ بسببه الأرضُ بعدَ أن كانت قاحلةً مُجدِبةً(٣).

﴿وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾.

أي: نشَر في أقطارِ الأرض جميعها، كلَّ ما يمشي على وجهِها من مختلف أنواعِ الحيوان(٤).

﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾.

أي: تَنويعِها في الركود والهُبوب، وفي الاتِّجاه، والشِّدَّة والنَّفع، فتهبُّ من عِدَّة

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٧٨-٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨-٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٨٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١١-١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢١٢-٢١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩).

اتجاهات، وتختلف شِدَّةً وضعفًا، ونفعًا للنَّاس، أو هلاكًا وضرًّا[١].

﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾.

أي: السَّحاب الواقِع في جوِّ السَّماء، المذلَّل بأمْر الله تعالى لمصالح الخَلْق[٢].

﴿لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

أي: في تِلك الأمور المذكورة، علاماتٌ ودَلالات واضحةٌ على وَحدانية الله تعالى، وعلى كمال صِفاته، وعظيم أفعاله، ولكن لِمَن لديه عقلٌ رشيد، يتدبَّر به، ويَفهم عن الله تعالى مقصودَه[٣].

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا للهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ للهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥)﴾.

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا بيَّن الله عزَّ وجلَّ وحدانيته وأدلَّتها القاطعة، وبراهينها السَّاطعة، الموصلة إلى عِلم اليقين، المزيلة لكل شكٍّ، ذكَر هنا أنَّه مع هذا البيانِ التامِّ يوجد من الناس مَن لا يؤمن بوحدانية الله تعالى، فقال[٤]:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٨٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢١٧-٢١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢١٨-٢١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩).

أي: إنَّ بعض النَّاس يجعَلون من بعض الخَلق نُظَراءَ لله سبحانه، بمساواتهم معه في المحبَّة، فيحبُّونهم كما يحبُّون الله تعالى[1].

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾.

أي: إنَّ المؤمنين أشدُّ حبًّا لله عزَّ وجلَّ من محبَّةِ أولئك لله تعالى ولأندادهم[2].

﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: ﴿يرى﴾ قراءتان:

١- (تَرَى) ومعناها: ولو ترَى يا محمَّد هؤلاء المشركين عند رُؤيتهم العذابَ[3].

٢- (يَرَى) ومعناها: ولو رأى الذين كانوا يُشركون في الدنيا عذابَ الآخرة[4].

﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾.

أي: لو عاينتَ يا محمَّدُ، حالَ هؤلاء الَّذين نَقَصوا اللهَ تعالى حقَّه، ونَقَصوا

---

(١) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيميَّة (٢/ ٢٥٥)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩-٨٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٢١-٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيميَّة (٢/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٧٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٢٣).

(٣) قرأ بها ابنُ عامر ونافع. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٤٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زَنْجلَة (ص: ١١٩، ١٢٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٢١٢).

(٤) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٤٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زَنْجلَة (ص: ١١٩، ١٢٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٢١٢).

أنفسهم حقَّها باتِّخاذهم أندادًا يُحبُّونهم كحبِّهم لله، وعاينوا هم أيضًا حالهم تلك، حين يرون عذابَ الله عزَّ وجلَّ يومَ القيامة فيَعلمون حينها يقينًا أنَّ القوة والقدرة كلَّها لله تعالى وحده، ويَعلمون شِدَّة عذابه لِمَن كفَر أو أشرك به، وأنه ليس للأنداد التي اتَّخذوها شيءٌ من تلك القدرة الإلهيَّة؛ فيتبيَّن لهم عندئذٍ عَجزُها وضعفُها، وأنَّها لا تدفع عنهم ضرًّا، ولا تجلب لهم نفعًا(١).

﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦)﴾.

﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾.

أي: أخبر اللهُ عزَّ وجلَّ أنَّ المتبوعين على الكفر والشرك والضلال، يتبرَّؤون حين يعاينون عذاب الآخرة ممَّن اتبعهم واتخذهم أندادًا يحبهم كحبه لله تعالى، ويتنصَّلون منهم ومن عبادتهم لهم(٢).

كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١-٨٢].

وقال تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٤-٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٩٦-٩٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٢٨-٢٢٩).

وممَّن ذهب إلى عموم المتَّبعين فيدخل فيهم الملائكة والأنبياء والصالحون وغيرهم: ابن عطية في ((تفسيره)) (١/ ٢٣٥-٢٣٦)، وابن كثير في ((تفسيره)) (١/ ٤٧٧).

وقال جلَّ وعلا: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣١-٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف: ٥٣].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤].

﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾.

أي: عايَن الأتباعُ عذابَ جهنَّم، وأيقَنوا أنهم وارِدوها، لكن لا حيلةَ لهم للفرار منها، وانقطعت كلُّ وسيلةٍ تشبَّثوا بها من قبلُ للنجاة؛ كاتخاذِهم أندادًا يساوونهم بالله تعالى في محبَّتِه، انقطعت بهم انقطاعًا شديدًا، فسقط الجميعُ- أتباعًا ومتبوعين- هالكينَ في النَّار[1].

كما قال تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف:٥٣].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٩-٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٩٧-٩٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٢٨-٢٢٩).

خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧)﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُوا مِنَّا﴾.

أي: تمنَّى أتباعُ الضَّلالة نادمينَ أنْ لو كانت لهم فرصةٌ أخرى للرُّجوع إلى الدُّنيا دارِ العمل؛ لِيتمكَّنوا فيها من التبرُّؤ ممن اتَّخذوهم أندادًا، ولِيُخلِصوا المحبَّةَ والعملَ لله تعالى وحده، ولِيَشْفوا غيظَ قلوبهم من مَتْبوعيهم الذين تبرَّؤوا منهم وخذَلوهم(١).

كما قال سبحانه: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ * وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ * فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ * قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ * تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ * فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ * فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٩١-١٠٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧-٢٨].

﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾.

أي: أخبَرَ الله تعالى عن شُعورِهم بالنَّدم الشَّديد حين انكشف لهم خُبثُ أعمالِهم،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٣١-٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٧٧-٤٧٨)، ((تفسير السَّعدي)) (ص: ٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٩٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٤٦).

وتفريطُهم في جَنْبِ الله تعالى، وقد تبيَّن لهم يقينًا أنَّ ما رأَوْه مِن عملِهم في الدنيا خيرًا قد تلاشى واضمحلَّ هباءً منثورًا، كسرابٍ من الأوهام تعلَّقوا به للنَّجاة، وحين أتَوْه لم يرَوْا من أعمالهم شيئًا، عدا أثرها مِن الحسَرات والعقوبات[1].

﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾.

أي: إنَّ هؤلاء الذين وصَف الله تعالى حالَهم، لا يَنفعُهم تحسُّرُهم وندمُهم؛ فهم باقون في النَّار، غيرُ خارجينَ منها إلى غيرِ حدٍّ ولا نهاية[2].

الفوائد التربويَّة:

١- كلَّما تدبَّر العاقلُ في هذه المخلوقات، وتغلغل فِكرُه في بدائع المبتَدَعات، وازداد تأمُّله للصَّنعة، وما أودع فيها مِن لطائف البِرِّ والحِكَم الباهرات- علِم بذلك أنَّها خُلِقت للحقِّ وبالحقِّ، وأنَّها صحائفُ آيات، وكتُب دلالات[3].

٢- لو ألْقى الإنسانُ عن عقله بَلادةَ الألفة والغَفلة، فاستقبل مشاهدَ الكون بحِسٍّ متجدِّد، وقلبٍ نوَّره الإيمان، لسار في هذا الكونِ كالرائدِ الذي يَهبِط إليه أوَّلَ مرَّة، تهزُّ كيانَه تلك الأعاجيبُ التي تتوالَى على الأبصار والقلوب[4].

الفوائد العِلميَّة واللَّطائف:

١- في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ﴾، دلالةٌ على أنَّ محبَّةَ الله سبحانه مِن العبادة؛ لأنَّ اللهَ جعَل مَن سوَّى غيرَه به فيها مشرِكًا متَّخذًا لله ندًّا؛ فالمحبَّةُ مِن العبادة، بل هي أساس العبادة؛ لأنَّ أساس

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٣٢-٣٥)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩).

(٤) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (ص: ٧٩).

العبادة مبنيٌّ على الحبِّ والتَّعظيم[1].

٢- أنه كلَّما ازداد إيمانُ العبد ازدادت محبَّتُه لله؛ وذلك لأن اللهَ سبحانه وتعالى رتَّب شدَّةَ المحبَّةِ على الإيمان فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾، وقد عُلِم أنَّ الحُكْم إذا عُلِّق على وصفٍ فإنَّه يقوى بقوةِ ذلك الوصف، وينقُصُ بنقصِه؛ فكلما ازداد الإنسانُ إيمانًا بالله عزَّ وجلَّ ازداد حبًّا له[2].

بلاغة الآيات:

١- في قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ... ﴾

- التأكيد بـ﴿إِنَّ﴾ هنا للاهتمام بالخبَر؛ للفت الأنظار إليه، ويُحتمل أنهم نُزِّلوا منزلةَ مَن يُنكر أن يكونَ في ذلك آياتٌ لقوم يعقلون؛ لأنَّهم لم يجروا على ما تدلُّ عليه تلك الآيات[3].

- وفي الآية: ترتيبٌ بديع في الذِّكر لهذه الدَّلائل والنِّعم؛ حيث بدأ أولًا بخلق السَّموات والأرض، ثم ثنَّى بذِكر ما نشأ عن العالَم العُلوي، ثم أتى ثالثًا بذِكْر ما نشأ عن العالم السُّفلي، ثم أتى بالمشترَك، ثم ختَم ذلك بما لا تتمُّ النِّعمة للإنسان إلَّا به[4].

٢- في قوله: ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ﴾ جعل الصِّفة موصولًا ﴿الَّتِي﴾ صِلتُه ﴿تَجْرِي﴾ بصيغة المضارع؛ للدَّلالة على تجدُّد ذلك الوصف لها في كلِّ وقت يُراد منها، وذكر مكان تلك الصِّفة ﴿فِي الْبَحْرِ﴾ على سبيل التوكيد؛ إذ مِن المعلوم أنَّها لا تجْري إلَّا في البحر[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٢٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٢٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٧٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٨٣-٨٤).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٧٩).

٣- في قوله: ﴿لَآيَاتٍ﴾ جاء التَّنكير للتفخيم كمًّا وكيفًا، أي: عظيمة كثيرة[١].

٤- قوله: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾

- فيه حذْف جواب (لو)؛ لقصْد التَّفخيمِ وتهويلِ الأمْر؛ لتذهبَ النفسُ في تصوير العذاب كلَّ مذهب ممكن، ولبيان أنَّه حصَل منهم إذ عاينوا العذابَ يوم القيامة ما لا يدخُل تحتَ الوصف من النَّدم والحسْرة، ووقوع العِلم بظلمهم وضَلالهم[٢].

٥- قوله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ﴾ جيء بالفِعل بعد ﴿إِذ﴾ هنا ماضيًا، مع أنَّه سيحصُل في الآخرة، وهو مستقبلٌ في المعنى؛ للتَّنبيه على تحقُّق وقوعه[٣].

٦- قوله: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ عدَل عن الجملة الفِعليَّة (وما يخرجون) إلى الجملة الاسميَّة؛ للمبالغة في الخلود، والإقناطِ من الخَلاص والرُّجوع إلى الدنيا، وللدَّلالة على أنَّ هذا الحُكم ثابتٌ، وأنه من صفاتهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (١/ ٤٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٩٠)، ((تفسير القاسمي)) (١/ ٤٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٩٤-٩٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١١٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٠٠).

الآيات (١٦٨-١٧٣)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾.

غريب الكلمات:

﴿الْفَحْشَاءِ﴾: ما عظُم قبْحه وفحُش، مِن الأفعال والأقوال[1].

﴿أَلْفَيْنَا﴾: وجْدنا[2].

﴿يَنْعِقُ﴾: يَصيح؛ يقال: نعَق بالغنمِ ينعِق بها إذا صاح بها، فلا تَدري ما يقول لها، إلَّا أنَّها تنزجر بالصَّوت عمَّا هي فيه[3].

﴿اضْطُرَّ﴾: أُلْجِئ، والاضْطِرَارُ: يُطلق على حمْل الإنسانِ على ما يَضُرُّهُ وما يكرهه، إمَّا بسببٍ خارجٍ؛ كمَن يُضرَب، أو يُهدَّد، حتى يفعلَ منقادًا، ويُؤْخَذ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٠).

قهرًا، وإمَّا بسببٍ داخل؛ كالقهر بقوَّةٍ يناله بدفعها الهلاك، كمَن اشتدَّ به الجوعُ فَاضْطُرَّ إلى أكْل ميتة(١).

﴿غير بَاغٍ﴾: غير طالبٍ ما ليس له طلبُه(٢).

﴿وَلَا عَادٍ﴾: وَلَا متجاوزٍ الحَدَّ(٣).

المعنى الإجمالي:

يأمُر اللهُ جميعَ البَشر المؤمنَ منهم والكافرَ أنْ يأكلوا مِن كلِّ ما في الأرض نباتًا كان أو حيوانًا إذا توفَّر فيه شرطانِ: أنْ يكونَ ممَّا أحلَّه اللهُ، وأنْ يكون طاهرًا لا ضررَ فيه.

ونهاهم أنْ يتَّبِعوا خُطُوات الشيطان؛ وذلك بطاعتِه في تحريمِ ما أحلَّ اللهُ، أو تحليلِ ما حرَّم من المآكل، فإنَّه عدوٌّ لهم، ظاهرُ العداوة، لا يمكن أنْ يريدَ لهم نفعًا، بل يأمُرُهم بكل سيِّئٍ من الأعمال، وبجميع القبائحِ التي بلَغت في القُبح منتهاها، وأن يفتَرُوا على الله الكذبَ؛ باختلاقِ أفعالٍ باطلة، ونِسبتها إلى الله عزَّ وجلَّ بلا علم؛ كتحريمِ الحلالِ، وتحليل الحرام من المأكولات.

ويُخبِر تعالى عن المشركين أنَّهم إذا أُمِروا بالالتزام بما جاء مِن عندِ الله، وأن يكونَ ما يحلُّونه ويحرِّمونه على وَفْقِ الشَّريعة المنزَّلة، كان جوابهم أنَّهم لن يتَّبِعوا إلا ما وجَدوا عليه أسلافَهم، بما فيه من تحليلٍ وتحريم مخالفٍ لِما أراد الله، فأنكَر اللهُ عليهم هذه التبعيَّةَ والتَّقليد الأعمى، فكيف يتَّبِعون آباءهم وهم على حالٍ لا

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٠).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٠).

تؤهِّلُهم لأنْ يُتَّبعوا؛ فهم لا عقلَ لهم يُرشِدهم إلى الحق، ولا يحمِلون العِلم النَّافع الذي يقوِّم عمَلَهم، ويُنير طريقهم.

ثم ضرَب الله مثلًا للكفَّار حين يدعوهم الداعي إلى الإيمان، ولا ينتفعون بما يَسمعونه منهم، فمَثَلهم كالبهائمِ التي يُصوِّت لها الراعي ويَصيح بها فتَسمع صوتَه ولا تَفهم ما يقول، فكذلك هؤلاء الكفَّار لَمَّا لم تُؤمن قلوبُهم أولَ مرة، تعطَّل انتفاعهم بحواسِّهم، فلا يسمعون الحقَّ سماعَ فَهم وقَبول، ولا يتكلَّمون به، ولا يُبصرون سبيله، فينتج عن ذلك أنَّهم لا يعقلون شيئًا من الحق.

ثم يأمر اللهُ تعالى المؤمنين أن يكونَ مأكولهم هو الطَّاهِرَ النافع من المطعومات، التي رزقهم إيَّاها، وأنْ يقوموا بشكره جلَّ وعلا بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم، فإنْ كانوا ملتزمين بالخضوعِ والطاعةِ لله عزَّ وجلَّ وحْدَه، فسيَمتثِلون هذين الأمرين.

وبَعدَ أنْ ذكَر اللهُ تعالى إباحةَ الأكْل الطيِّب لعباده، عدَّد لهم أجناس المحرَّمات؛ ليجتنبوها، فحرَّم تعالى لحومَ الأنعام التي ماتتْ حتفَ أنفها، ولم تُذكَّ ذكاةً شرعيَّة، والدَّمَ المسفوح، ولحم الخنزير، وما ذُبِحَ على غير اسم الله تعالى، كالذي يُذبَح للأوثان، ويُسمَّى عليه بغير اسمه سبحانه، مع الجهر بذلك، ويُستثنى من تحريم أكْلها مَن ألجأته ضرورةٌ إلى الأكل منها، غيرَ مُتجاوزٍ للقَدْر الذي يَدفَع به الضرورة، فمَن كانت هذه حالتَه، فلا إثمَ عليه لو تناول منها، والله عزَّ وجلَّ غفورٌ، حيث رفع الإثم عنه، رحيمٌ حين وسَّع لعباده وشرَع لهم هذا الاستثناء؛ حتى لا يقعوا في الحرَج.

تفسير الآيات:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٦٨)﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾.

يُخاطب اللهُ تعالى جميع النَّاس؛ مؤمنهم وكافرهم، آذِنًا لهم بأن يأكلوا مِن جميع ما في الأرض من نباتاتٍ وحيوانات، بشرْط أنْ يكونَ حلالًا، وطاهرًا غيرَ ضارٍّ(١).

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

أي: لا تسلكوا طريقَ الشَّيطان، ولا تَقتفوا أثرَه الذي أضلَّ فيه أتْباعه، وهو ما دعا إليه ممَّا هو خلاف طاعة الله عزَّ وجلَّ، ومن ذلك: تحريمُ ما أحلَّ اللهُ تعالى من المآكل، وتحليلُ ما حرَّم منها، والدَّعوة إلى تناوُل خبيثها، وترْك طيِّبها، لا تُطيعوا هذا العدوَّ الظاهر العدواة، الذي يُريد أنْ يقودَكم شيئًا فشيئًا إلى التَّهلُكة(٢).

كما قال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللهُ افْتِرَاءً عَلَى اللهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِين * وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الأنعام: ١٤٠-١٤٢].

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (١٦٩)﴾.

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ﴾.

أي: إنَّ الشيطانَ يأمُرُ بالأعمال السيِّئة الآثِمة التي تسُوءُ عاقبتُها، وتسُوء صاحبَها،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٣٧)، ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (٧/ ٤٥-٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٧٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٣٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٧٨).

كما يأمُرُ أيضًا بما هو أغلظ من ذلك مما يتناهى قُبحُه، ويتجاوزُ حدَّه كالزِّنا(١).

﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

أي: يأمُرُ الشَّيطانُ النَّاسَ أيضًا باختلاقِ أعمالٍ باطلة تُنسب مشروعيَّتُها إلى الله عزَّ وجلَّ، كذِبًا وافتراءً عليه جلَّ وعلا، وإلا فليس لهم مستنَدٌ مِن علمٍ صحيح يُثبتُ أمرَ اللهِ تعالى بها، ومن ذلك تحريمُ ما أحلَّ الله تعالى، أو تحليل ما حرَّمه مِن المأكولات(٢).

كما قال سبحانه: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٤-١١٦].

وقال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧-٢٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٣٩-٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٠٤-١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٤٠-٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٠٥).

يَعْلَمُونَ * قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢-٣٣].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٧٠)﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ﴾.

أي: إذا قيل للمشركين: التزِموا باتِّباع الوحيِ الإلهيِّ فحسبُ؛ فأحِلُّوا حلالَه، وحرِّموا حرامَه، دون التَّقوُّلِ على الله تعالى بلا عِلمٍ واتِّباعِ الأوهام[1].

﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾.

أي: أعرَضوا عن الوحي، وهو العلم النَّافع حقًّا، وأخَذوا بما وجَدوا عليه أسلافهم، فقلَّدوهم فيه، ومن ذلك تحريمُ ما أحلَّ اللهُ تعالى، وتحليلُ ما حرَّمه[2].

﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.

أي: أيتَّبعون آباءَهم حتى لو كانوا على هذه الحالِ التي لا يستحقُّون أنْ يُتَّبعوا فيها؛ إذ ليس لديهم عقلٌ سليم يُرشِدهم إلى اتِّباع الحقِّ، ويزجُرُهم عن اتِّباع الباطل، ولا يحمِلون عِلمًا نافعًا يعمَلون على وَفْقِه عملًا صالحًا؛ فكيف يتَّبعون هؤلاء ومِثْلُهم لا يصلُحُ أنْ يُقتدى بهم[3]؟!

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (١٩/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٤٣)، ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (١٩/ ٢٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٤٣-٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٠٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٤٢-٢٤٣).

كما قال سبحانه: ﴿مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣-١٠٤].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢٠-٢١].

وقال جلَّ وعلا: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ * فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ [الصافات: ٦٩-٧٠].

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٧١)﴾.

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾.

أي: شبَّه اللهُ تعالى الكفَّارَ عند دعوة الدَّاعي لهم إلى الإيمان -كالنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ- شبَّههم بالبهائمِ التي يصوِّت لها راعيها، فتسمَعُ الصَّوت ولا تفهَمُ المعنى، فكذلك حالُ الكفَّارِ الَّذين لا ينتفعون مِن تلك الدَّعوة بشيء، لكنَّهم يسمعون ما تُقام عليهم به الحجَّة[1].

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

أي: إنَّ قلوبهم لَمَّا لم تؤمن، تعطَّل انتفاعهم الحقيقي بحواسِّهم تبعًا لذلك، فلا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٠-٥١)، ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (٧/ ٢٧) (١٦/ ٨)، (٢٨/ ١٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١).

يسمعون الحق سماع فَهمٍ وقَبول، ولا ينطقون به، ولا يبصرون طريقه، فقلوبهم لا تعقل شيئًا من الحق[1].

كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

وقال جلَّ وعلا: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقال أيضًا: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وقال سبحانه: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يونس: ٤٢-٤٣].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢)﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٨٠)، ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٨٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١١٣)، ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٤٥).

أي: يأمُرُ اللهُ تعالى عبادَه المؤمنين بالأكل ممَّا أحلَّ اللهُ تعالى لهم؛ من أنواع المطعوماتِ الطَّاهرة النَّافعة، التي رزَقهم إيَّاها، كما أمَرهم أيضًا بالقيام بشُكره؛ بقلوبهم، وألسنتِهم، وجوارحهم[١].

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ٨٧-٨٨].

وعن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((أيها النَّاسُ، إنَّ اللهَ طيِّبٌ لا يقبلُ إلا طيِّبًا، وإنَّ اللهَ أمر المؤمنين بما أمَر به المرسلين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]، ثم ذكَر الرجلَ يُطيلُ السَّفرَ، أشعثَ أغبرَ، يمدُّ يدَيه إلى السَّماءِ، يا ربِّ، يا ربِّ، ومطعَمُه حرامٌ، ومشرَبُه حرامٌ، وملبَسُه حرامٌ، وغُذِيَ بالحرام، فأنَّى يُستجابُ لذلك؟!))[٢].

وعن أنسٍ رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إن اللهَ لَيَرضَى عن العبدِ أنْ يأكلَ الأكْلةَ فيحمَدَه عليها، أو يشرَبَ الشَّربةَ فيحمَدَه عليها))[٣].

﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

أي: إنْ كنتم تُطيعون الله تعالى حقًّا، وتخضَعون له ممتثلينَ لأوامرِه، ومجتنبين

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٢-٥٣)، ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (١٧/ ١٨٠)، (٢٢/ ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٨٠-٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١).

(٢) رواه مسلم (١٠١٥).

(٣) رواه مسلم (٢٧٣٤).

لنواهيه، فكُلوا ممَّا رزَقكم اللهُ تعالى، واشكروه على ما أنعَم به عليكم[1].

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٧٣)﴾.

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا قيَّد سبحانه وتعالى الإذنَ لعباده بالطيِّب من الرِّزق، افتقَر الأمرُ إلى بيان الخبيث منه ليُجتنَب، فبيَّن صريحًا ما حرَّم عليهم ممَّا كان المشركون يستحلُّونه ويحرِّمون غيرَه، وأفهَم حِلَّ ما عداه، وأنه كثيرٌ جدًّا؛ ليزدادَ المخاطَب شكرًا[2]، فقال:

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ﴾.

أي: قد حرَّم الله تعالى عليكم- أيُّها المؤمنون- الميتةَ التي ماتت حتْفَ أنفها دون ذكاةٍ شرعيَّة، والدَّم المسفوح، ولحم الخنزير- ويدخُل فيه شحمُه- وما ذُبح على غير اسم الله عزَّ وجلَّ، كالذي يُذبَح للأصنام، ويُسمَّى عليه بغير اسمه سبحانه، مع رفْع الصَّوت بذلك[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢/ ٣٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٣، ٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٨١-٤٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين-سورة الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥٥).

((تفسير السعدي)) (ص:٨١-٨٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢١٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٦١).

وقال القرطبي: (ذكَر الله سبحانه وتعالى الدَّم هاهنا مطلقًا، وقيَّده في الأنعام بقوله: ﴿مَسْفُوحًا﴾ وحمل العلماء هاهنا المطلَق على المقيَّد إجماعًا، فالدم هنا يُراد به المسفوح؛ لأنَّ ما خالط اللحمَ فغير محرَّم بإجماع، وكذلك الكبد والطِّحال مُجمَعٌ عليه، وفي دم الحوت المزايل له اختلافٌ) ((تفسير القرطبي)) (٢/ ٢٢٢).

وقال الواحدي: (معنى ﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ﴾ قال ابن عباس: ما ذبح للأصنام وذكر عليه غير اسم الله. وهذا قول جميع المفسِّرين) ((التفسير الوسيط)) (١/ ٢٥٧).

﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾.

أي: مَن ألجأتْه الضرورةُ إلى الأكْل من تلك المحرَّمات وهو غير مبتغٍ لتناولها مع قدرته على الحلال، أو مع عدم جوعه، وغير متجاوزٍ قدْرَ الضَّرورة، فلا يتناول منها إلَّا بمقدارِ ما يسدُّ جوعه، فمَن كانت حاله كذلك فليس عليه إثمٌ مِن تناولِ تلك المحرَّمات(١).

ثم ذكَر تعالى تعليلَ الحُكمِ بانتفاءِ الإثم، فقال(٢):

﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

أي: إنَّ الله سبحانه وتعالى يَغفِر ذنوبَ عباده، فيسترها ويتجاوز عن المؤاخذةِ بها، ومن ذلك أنَّه رفَع بمغفرته الإثمَ عنهم في تناوُل ما حرَّمه؛ تجاوزًا منه سبحانه، وهو الرَّحيم بعباده، ومن رحمته أنْ شرَع لهم ذلك توسعةً منه(٣).

الفوائد التربويَّة:

١ - أن مَن تعصَّب لمذهبٍ مع مخالفة الدليل ففيه شَبَهٌ من هؤلاء المذكورين في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾، والواجب أنَّ الإنسان إذا قيل له: (اتَّبِعْ ما أنزَل الله) أنْ يقولَ: (سمِعْنا وأطَعْنا)(٤).

٢- أن كلَّ مَن خالَف الحقَّ وما أنزَل اللهُ، فليس بعاقل، وليس عنده هدًى؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٨، ٦٢، ٦٣)، ((الاختيارات الفقهية)) لابن تيميَّة (ص: ٦١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٥١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٢١-١٢٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٥٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٣-٦٤)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٢٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ٢٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٢١-١٢٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٥٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٤٣).

لقوله تعالى: ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠][١].

٣- توجيه المرء إلى طلَب الرِّزق من الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾؛ فإذا كان هذا الرِّزق مِن الله سبحانه وتعالى فلنطلُبه منه، مع فِعل الأسباب التي أمَرنا بها[٢].

٤- أنَّ الشُّكر لله عزَّ وجلَّ من تحقيق العبادة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[٣].

٥- وجوب الإخلاص لله في العبادة؛ يُؤخَذ ذلك من اللام في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ﴾، ومِن تقديم المعمول (إيَّاه) في قوله تعالى: ﴿إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[٤].

الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف:

١- إثبات رحمةِ الله سبحانه وتعالى بعباده من وجهين: أولًا: من أمرِه إيَّاهم بالأكل من الطيِّباتِ؛ لأنَّ بذلك حِفظًا لصحَّتِهم، ثانيًا: من قوله تعالى: ﴿مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾؛ فإنَّ الرِّزقَ بلا شكٍّ من رحمة الله[٥].

٢- أنَّ التحريمَ والتحليل إلى الله تعالى؛ فهو حقٌّ خاصٌّ به وحده؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ﴾[٦].

٣- قوله تعالى: ﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ﴾ فيه أنَّ الشِّركَ- وإن كانت نجاستُه معنويَّة- قد يؤدِّي إلى خُبثِ الأعيان؛ إذ هذه البهيمة التي أُهلَّ لغير الله بها نجسةٌ خبيثة محرَّمة، والتي ذُكِر اسمُ الله عليها طيِّبةٌ حلال[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٤٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٤٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٤٩).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٥٤).
(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٥٥).

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ذكر (إنَّ) للاهتمام بالخبر؛ لأنَّ عداوةَ الشيطان معلومة لكل أحد، أو تُجعَل (إنَّ) للتأكيد بتنزيل غير المتردِّد في الحُكم منزلةَ المتردِّد أو المنكِر؛ لأنَّهم لاتباعهم الإشاراتِ الشيطانيَّةَ بمنزلة مَن يُنكر عداوته، وهي تُفيد معنى التعليل والربط في مِثل هذا، وتغني غناء الفاء، وهو شأنها بعد الأمر والنهي(١).

٢- في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ جاء بناء ﴿قِيلَ﴾ لِمَا لم يُسمَّ فاعله؛ لأنَّه أخصر؛ فلو ذُكِر الآمرون لطال الكلام؛ لأنَّ الآمِر بذلك هو الرَّسولُ عليه الصلاة والسلام ومَن يتبعه من المؤمنين(٢).

٣- في قوله: ﴿أَوَلَوْ كانَ آباؤُهُمْ﴾

- الهمزة للاستفهام المصحوب بالتوبيخ والإنكارِ والتقريع، والتعجُّب من حالهم؛ فهي بمعنى الردِّ لا بمعنى النَّفي، وإنَّما جُعلت همزة الاستفهام لذلك؛ لأنَّها تقتضي الإقرارَ بشيءٍ يكون الإقرارُ به فضيحةً، كما يقتضي الاستفهام الإخبارَ عن المستفهَم عنه(٣).

- وهذا التركيب من بديع التَّراكيب العربيَّة وأعلاها إيجازًا؛ فـ(لو) للشرط، وجوابها محذوف دلَّ عليه الكلامُ السَّابق، تقديره: لاتَّبعوهم، والمستفهَم عنه هو الارتباط الذي بيْن الشَّرْط وجوابه(٤).

٤- قوله: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ١٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢١٣)، ((تفسير الرازي)) (٥/ ١٨٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ١٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٠٦).

صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فيه من البلاغة: إيجاز بالحذف على طريقة (الاحتباك)، حيث حذف من الأوَّل ما أثبت نَظيره في الثاني، وحذف من الثاني ما أثبت نَظيره في الأول، والتقدير: ومثل الأنبياء والكفار كمثل الذي ينعِق **والذي** يُنعَق به؛ فحذف من الأوَّل الأنبياء؛ لدلالة الذي ينعق عليه، وحذف من الثاني الذي يُنعَق به؛ لدلالة الذين كفروا عليه(١).

٥- قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا للهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾

- فيه إيجازٌ بالحذف بليغ؛ حيث عدَل هاهنا عن ذِكر تعداد المباحات، فأجملها لكثرتها، بينما ذكر في الآية التي تليها تفاصيلَ المحرَّمات لقلَّتها، كما حُذف جواب ﴿إِنْ﴾ الشرطية، (فاشكروه)، وحذفه شائعٌ في كلام العرب؛ لدلالة السِّياق عليه(٢).

- وفي قوله: ﴿وَاشْكُرُوا للهِ﴾ التفات؛ إذ خرج من ضمير المتكلِّم في ﴿رَزَقْنَاكُمْ﴾ إلى اسم الغائب؛ لأنَّ هذا الاسم الظاهر متضمِّنٌ لجميع الأوصاف التي منها وصْفُ الإنعامِ والرزق، والشُّكرُ ليس على هذا الإذن الخاص، بل يُشكَر على سائر الإنعامات والامتنانات التي منها هذا الامتنان الخاص(٣).

- وفي قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾: قدم المفعولَ به ﴿إِيَّاه﴾ على الفعل والفاعل ﴿تَعبدُون﴾؛ لإفادة الاختصاص؛ لأنَّه سبحانه مختصٌّ وحده باستحقاق العبادة(٤).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢/ ٣٣٢)، ((تفسير القاسمي)) (١/ ٤٧١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٢٣٩-٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ١٠٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٢٤٢-٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ١٠٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٢٤٣).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٢٤٣).

الآيات (١٧٤ - ١٧٦)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿١٧٦﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿**شِقَاقٍ**﴾: أي: عداوةٍ واختلاف، ومباينةٍ ومباعدة، وأصل (شقَّ) يدُلُّ على انصداعٍ في الشَّيْءِ، ومنه الشِّقاقُ؛ لأنَّه يؤدِّي إلى انصِداع الجماعَة وتفرُّقِها(١).

المعنى الإجمالي:

أخبَر تعالى عن اليهود الذين يُخْفُونَ نبوَّةَ محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ التي قد ثبَتَت عندهم في التَّوراة، ويُخْفُونَ كذلك بعضًا من أحكام الله فيها، ويغيِّرونها؛ يبتغون نَيْلَ شيءٍ من الأموال والمناصب وغيرها من عَرَض الدُّنيا- أخبَر أنَّ جزاءَهم أنْ يأكلوا في بطونهم نارًا مقابلَ ما أكَلوه من الحرام عن طريق كِتمان العِلم الذي في كُتبِهم، ولا يكلِّمهم سبحانه وتعالى يوم القيامة كلامَ رضًا، ولا يُطهِّرهم من ذنوبهم، ولا يُثْني عليهم، ولهم فوق هذا كلِّه عذابٌ موجِع.

أولئك الكاتِمون للعِلم قد استبدلوا -بفِعلِهم هذا- بطريقِ الهداية طريقَ الغواية، واستبدلوا بنَيْلِ مغفرة الله تعالى استحقاقَ عذابِه، ثم تعجَّب سبحانه وتعالى مِن جُرأتِهم على هذا الفعل وهم يعلَمون أنَّ عاقبتَه النَّارُ، وكيف حبَسوا

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٤، ٣٧٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٠-١٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٦، ١٠١).

أنفسهم على ارتكابه وهو يوصلهم إلى العذابِ الشديد.

واستحقَّ أولئك العذابَ على ما كتَموه؛ لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أنزَل كتابه عليهم بالحقِّ، فيجبُ ألا يُكتَم، بل الواجب بيان ما فيه؛ لذلك كان الإخفاءُ مخالفًا لمراد الله من إنزال الكتاب.

ثم أخبَرَ تعالى أنَّ الَّذين آمنوا ببعض الكتاب وكفَروا ببعض، وكتَموا منه أشياءَ، وأظهَروا أشياء- لَفِي جانبٍ بعيدٍ عن الحقِّ.

تفسير الآيات:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٤)﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

أي: إنَّ اليهود الَّذين كتَموا أمر نبوَّةِ محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ الثابتةِ في توراتهم، وكتَموا بعض أحكام الله تعالى فيها، وبدَّلوها- كتحريمهم ما أحلَّ اللهُ عزَّ وجلَّ- يبتغون بهذا الكتمانِ نَيْلَ عَرَضٍ من حُطام الدُّنيا الفاني؛ من الأموال، والرِّئاسات، وغيرها(١).

﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾.

أي: إنَّ جزاءَهم في الآخرة مِن جِنس ما عمِلوه في الدُّنيا، فكما أكَلوا في بطونهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٢٢-١٢٣).
وممَّن قال من السَّلَف: إنَّ المقصود بهذه الآية هم اليهود: السُّدِّيُّ، وعِكرمة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٤).

ما حرَّم الله تعالى بما اكتَسَبوه من مالٍ حرامٍ؛ لكتمانِهم العِلمَ- فكذلك يُطعَمون يومَ القيامة نارًا في بطونهم؛ جزاءً وِفاقًا(١).

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أي: لا يُكلِّمهم الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة بكلامِ إكرامٍ ورضًا يسُرُّهم؛ لأنَّه غاضبٌ عليهم، ولا يطهِّرهم من ذنوبهم، ولا يثني عليهم خيرًا؛ لأنَّ قلوبَهم وأعمالَهم دَنِسة، لا تستحقُّ المدحَ والثناء، ولهم مع ذلك كلِّه عذابٌ موجِعٌ، فجمَع الله تعالى لهم بين الألَمِ النَّفسانيِّ والجُسماني(٢).

ولَمَّا ذكَر سبحانه وتعالى جزاءهم، أتبَعه بترجمةِ حالهم(٣)، فقال:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (١٧٥)﴾.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ﴾.

أي: إنَّ أولئك الَّذين وصَفهم الله تعالى بكتمانِ العلم، قد استبدلوا- بفِعلهم هذا- بطريقِ الهُدى الذي يقودُهم إلى رضوان الله عزَّ وجلَّ ونعيمِ الآخرة؛ استبدلوه به طُرُقَ الهَوَى التي أضلَّتهم عن الصِّراط المستقيم، وبفِعلهم هذا قد استبدَلوا أيضًا بنَيْلِ مغفرةِ الله تعالى استحقاقَ عذابِه(٤).

﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢/ ٢٣٤-٢٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٨٣-٤٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢/ ٣٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٨٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٦٥-٢٦٦).

أي: تعجَّب[١] اللهُ سبحانه وتعالى من أولئك القوم الَّذين كتموا وحيَ الله تعالى، كيف حبَسوا أنفسَهم ووطَّنوها على ارتكاب هذا العمل المودِي بهم إلى عذابٍ شديد، وكيف تجرَّؤوا على هذا الصَّنيع وهم يعلَمون سوء عاقبته[٢]؟!

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (١٧٦)﴾.

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا ذكَر جلَّ وعلا جزاءهم، ذكَر السَّبب الموجِبَ لهذا العقاب العظيم، فقال[٣]:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾.

أي: إنَّهم استحقُّوا العذابَ على كتمانهم؛ بسبب أنَّ الله عزَّ وجلَّ أنزل كتابَه عليهم بالحقِّ، فحقُّه ألَّا يُكتَم، بل يبيَّن ما يحويه، وكتمانُهم شيئًا من الكتاب كتمانٌ للحقِّ، وذلك مخالِفٌ لمراد الله تعالى؛ لأنَّ ما يُكتَم مِن الحق يخلُفُه الباطلُ، فحقَّ عليهم العذابُ[٤].

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾.

أي: إنَّ الَّذين آمنوا ببعض الكتاب وكفَروا ببعض؛ فكتَموا منه أشياءَ، وأظهَروا أشياءَ- قد فارَقوا الحقَّ، وجانَبوا طريقَ الصواب[٥].

---

(١) (ما) في هذه الآية تعجبية على قول جمهور المفسِّرين، ورجَّح ذلك ابن جرير في ((تفسيره)) (٣/ ٧٠)، ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٧١)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٤٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٦٦-٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢/ ٣٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٢٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٧١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢).

الفوائد التربويَّة:

١- وجوب نشْر العِلم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ...﴾، ويتأكَّدُ وجوب نشْره إذا دعتِ الحاجةُ إليه بالسؤالِ عنه؛ إما بلسان الحال، وإما بلسان المَقال[١].

٢- إقامة العَدل في الجَزاء؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾؛ فجعَل عقوبتَهم من النَّارِ بقَدْرِ ما أكَلوه من الحرام[٢].

٣- أنَّ الاختلافَ ليس رحمة، بل إنه شِقاقٌ وبلاءٌ، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾[٣].

الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف:

١- إطلاق المسبَّب على السبب؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾؛ فإنَّهم لا يأكلون النَّار، ولكن يأكلونَ المالَ، وهو سببٌ للنار[٤].

٢- في قوله تعالى: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ إثباتُ صفة التعجُّب لله تبارك وتعالى[٥].

٣- إثبات العِلل والأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ﴾، والباء للسببيَّة،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٧٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٦٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٧٠).

ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) تفسير قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢]، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٠٦، ٦٠٧)، ((إبطال التأويلات)) لأبي يعلى الفراء (ص: ٢٤٥)، ((الحجة)) لقوام السنة الأصبهاني (٢/ ٤٥٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ١٨١، ٦/ ١٢٣و١٢٤)، ((شرح الواسطية)) للهراس (ص: ٢٠٢).

وقد ذكَر بعض أهلُ العلم أنَّ في القرآن أكثرَ من مئة موضعٍ، كلُّها تُفيدُ إثبات العِلَّة؛ خلافًا للجَبْريَّة الَّذين يقولون: (إنَّ فِعْلَ الله عزَّ وجلَّ ليس لِحكمةٍ، بل لمجرَّد المشيئة)؛ تعالى اللهُ عمَّا يقولون علوًّا كبيرًا[١].

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾: فيه تأكيدُ الأكْل وتقريرُه ببيان مقرِّ المأكول؛ فإنَّ ﴿فِي بُطُونِهِمْ﴾ متعلِّق بـ ﴿يَأْكُلُونَ﴾، وذكَر بطونهم تنبيهًا على شَرَهِهم، وتَقبيحًا لتضييع أعظم النِّعم لأجْل المطعوم، وللتنبيه على مذهبهم، بأنَّهم باعوا آخرتَهم بحَظِّهم من المطعَم الذي لا خطرَ له[٢].

٢- في قوله: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾

- (ما) تعجبيَّة، أو استفهاميَّة صحِبَها معنى التعجُّب؛ فهو تعجُّبٌ من حالهم في الْتباسِهم بموجبات النارِ من غير مبالاةٍ منهم. أو: فأيُّ شيءٍ صبَّرهم[٣]؟!

- وفيه: تنزيلُ غيرِ الواقع منزلةَ الواقع؛ لشدَّة استحضار السامع إيَّاه بما وُصِف به من الصِّفات الماضية؛ إذ شأن التعجُّب أن يكون ناشئًا عن مشاهدة صبرهم على العذاب، وهذا الصَّبر غيرُ حاصلٍ في وقتِ نزول هذه الآية[٤].

٣- في قوله: ﴿ذَلِكَ بأنَّ اللهَ نزَّلَ الكتابَ بالحقِّ﴾ جِيء باسم الإشارة لرَبْط الكلام اللَّاحِق بالسَّابق، على طريقة العرب في أمثاله إذا طال الفصلُ بين الشيء وما ارتبَط به من حُكمٍ أو عِلَّةٍ، أو نحوهما[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٧٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ١٢١-١٢٢)، ((تفسير القاسمي)) (١/ ٤٧٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢١٦-٢١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ١٢٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٢٥).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٢٦).

٤- قوله: ﴿فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ فيه الإظهار في موضع الإضمار؛ حيث قال: ﴿فِي الكِتَابِ﴾، ولم يقل: (فيه)، وفائدته: أن يكون التذييلُ مستقلًّا بنفسه؛ لجريانه مجرَى المَثَل[1].

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٢٧)

الآيات (١٧٧ - ١٧٩)

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ (١٧٧) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَىۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨) وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩)﴾.

غريب الكلمات:

﴿الْبِرَّ﴾: التوسُّع في فِعل الخير، والاتِّساع فِي الْإِحْسَان، ومن أصوله: الصِّدْقُ[١].

﴿بِعَهْدِهِمْ﴾ ﴿عَاهَدُوا﴾: العَهد: حِفظُ الشيء ومراعاتُه، حالًا بعد حال، والمِيثاقُ، فَسمِّي الشيءُ الموثَّقُ الذي يلزم مراعاتُه عهدًا[٢].

﴿عُفِيَ﴾: تُرِك، والعَفْوُ: هو ترْكُ العقوبة، والتَّجافي عن الذَّنب؛ يُقال: عفوتُ عنه، أي: قصدتُ إزالة ذنبِه صارفًا عنه[٣].

﴿الْقِصَاصُ﴾: مُقابلةُ الفِعل بمثلِه، وتتبُّع الدَّم بالقَوَدِ (أي: قتْل القاتِل

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٦٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٩١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦٣).

(٣) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٢).

بالقتيل)، وأصل (قصَّ) يدلُّ على تتبُّع الشيءِ، ومن ذلك اشتقاق القِصاص في الجراح؛ لأنَّه يُفعل به مِثل فعله بالأوَّل، فكأنَّه اقتصَّ أثره(١).

﴿أُولِي الْأَلْبَابِ﴾: أصحابِ العقول الزَّكيَّة؛ واللُّبُّ: العقل الخالص من الشَّوائب؛ وسمِّي بذلك لكونه خالصَ ما في الإنسان من معانيه(٢).

مشكل الإعراب:

١- قوله: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا﴾:

البِرَّ: قُرِئ بالنَّصب والرَّفع؛ فعَلى قِراءة النصب، فـ﴿البرَّ﴾ خبَر ﴿ليس﴾مقدَّم، وقوله: ﴿أَن تُوَلُّوا﴾- وهو مصدر مُؤوَّل، أي: توليتُكم- في محلِّ رفْع اسم ﴿ليس﴾ مؤخَّر.

وأمَّا على قراءة رفع ﴿البر﴾، فلا تقديم ولا تأخير. فـ﴿البر﴾ اسم ﴿ليس﴾، و﴿أن تولوا﴾ خبرُها(٣).

٢- قوله: ﴿وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ﴾:

البِرَّ: إذا كان بمعنى البارِّ، فهو اسم لكنَّ- على قِراءة التَّشديد-، وخبرها ﴿مَن آمَن﴾.

وعلى قراءة تخفيف ﴿لكنْ﴾، فالبِرُّ مبتدأ مرفوع، و﴿مَن آمَن﴾ خبر، ولا إشكال في هذا الوجه.

وأمَّا إذا كان على معناه ﴿البِر﴾، فالتقدير: ولكنَّ البِرَّ بِرُّ مَن آمن، أو: ولكنَّ ذَا

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٣٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٢).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١١٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٢٤٤).

البِرَّ مَن آمن، ثم حُذِف المضاف، وأُعرِب المضافُ إليه إعرابَه[١].

٣- **قوله:** ﴿**وَالْمُوفُونَ**﴾: مرفوع، وفي رفْعه ثلاثةُ أوجه: إمَّا يكون عطفًا على الضمير في ﴿آمَنَ﴾، أي: من آمنوا هُم والموفون، أو على (مَن) في قوله: ﴿مَن آمن﴾، أو: يكون خبرًا لمبتدأ محذوف على إضمار (وهم) على المدح للمضمرين، والتقدير: وهم الموفون[٢].

٤- **قوله:** ﴿**وَالصَّابِرِينَ**﴾: مفعول به منصوب لِفِعلٍ محذوف، تقديره: أمدح، أو أخص، أو أعني. أو يكون معطوفًا على ﴿ذَوِي الْقُرْبَى﴾- ولا يتَّجه هذا الوجه إلَّا على القول برفْع ﴿وَالْمُوفُونَ﴾ على العطف على الضَّمير في ﴿آمَنَ﴾؛ ليكون داخلًا في صلة ﴿مَن﴾؛ لأنه لا يُفصل بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه[٣].

المعنى الإجمالي:

أخبَرَ الله عزَّ وجلَّ أنه ليس في التمسُّك بالتوجُّه إلى ناحية المشرق أو المغرب برٌّ ولا طاعة، إنْ لم يكن عن أمْرِ الله تعالى، ولكن الخير الحقيقي هو الإيمانُ الجازم بالله تعالى، واليومِ الآخِر، وملائكتِه، وجميعِ كتبه، وكل أنبيائه ورُسلِه، وأنْ يُعطيَ العبدُ المالَ وهو محبٌّ له وحريصٌ عليه، لقرابته، ولليتامى، وللذين لا يجِدون ما يَكفيهم، وللمسافر الذي يمرُّ به وليس معه نفقةٌ توصله لوطنه، وللمستجدي الذي يطلُبُ العطاء، ولأجل فكِّ الرِّقاب.

كذلك من البِرِّ: الإتيانُ بالصَّلاة تامَّة، وإعطاء الزَّكاة المفروضة لمن يستحقُّها،

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١١٧)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ١٤٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١١٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ١٤٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٢٥٠).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١١٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ١٤٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٢٥٨).

والالتزام بالعهود والوفاء بها، سواء تلك التي مع الله، أو مع الخَلْق.

ومن البِرِّ أيضًا: الصَّبرُ في حال الفقر، والمرض، وحين القتال، وهو أنْ يحبِس المرءُ نفسه عن الجزَع والسَّخَط والشَّكوى؛ فكلُّ مَن اتصف بتلك الصِّفاتِ السالفة الذِّكْر، المشتملة على عقائدَ وأعمالٍ وأخلاق- هم الصَّادقون في إيمانهم، وهم المتَّقون؛ بفِعْلهم المأمورَ، واجتنابهم المنهيَّ عنه.

ثم أعلَم اللهُ المؤمنين بما فرَضه عليهم من المساواة، واعتبارِ المماثَلة في القِصاص بين القتلى، فيُقتل الحرُّ بالحرِّ، والعبدُ بالعبد، والذَّكَر بالذَّكَر، والأُنثى بالأُنثى.

فإذا عفا أولياءُ المقتول عن الدَّم، سقَط القِصاص عن القاتل، ووجبتِ الدِّيَة، ففي هذه الحالة يجب على العافي ألَّا يُتبِع عفوَه المنَّ والأذى، ولا يكلِّفَ القاتلَ ما لم يوجبه الله تعالى، ولا ما فيه مشقَّة، ممَّا لا يدخُل تحت القُدرة، وعلى القاتل أنْ يُؤدِّيَ ما لزِمه إلى أولياء المقتول من غير مَطْلٍ ولا نَقْصٍ مما وجب عليه، ولا يسيء بقولٍ أو فعلٍ لِمَن عفا عنه.

وفي هذه الأحكام التي شرَعها الله عزَّ وجلَّ من إباحةِ العفو عن القاتل، وأخْذ الدِّيَة بدلًا عن القِصاص: تيسيرٌ وتخفيفٌ من الله تعالى لهذه الأمَّة، ورحمةٌ منه بعباده، لكن مَن يتعدَّى حدودَ الله بعد حدوث العفو- كأن يَقتُلَ الوليُّ القاتلَ بعد عفوِه عنه، أو يُكرِّر القاتلُ جنايتَه مرَّةً أخرى- فللمعتدي في هذا الحال عقابٌ موجِعٌ.

ثمَّ أخبَر الله تعالى عبادَه أنَّ لهم في تشريع القِصاص حياةً، وسيتَّضح لهم ذلك إنْ أعمَلوا عقولَهم وتدبَّروا الآثارَ المترتِّبة على هذا التشريع، فإنَّ مَن أراد القتلَ إذا استحضَر أنَّ وراءه قِصاصًا ينتظرُه، سيكفُّ عن القتلِ، وإذا رأى النَّاسُ القاتلَ مقتولًا قِصاصًا، انزَجروا عن تكرارِ هذا العمل.

تفسير الآيات:

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ

آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧)﴾.

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾.

أي: ليس الشَّأن في حصول الخير بلزوم التوجه في الصلاة نحو هذه الجهة أو تلك[1].

﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾.

أي: مَن اتَّصفَ بهذه الأمورِ الآتيةِ من الاعتقادات والأعمال والأخلاق، فقد أخَذَ بمجامعِ الخيرِ كلِّه، فأمَّا الاعتقادات فهي الإيمانُ بالله تعالى، ومن ذلك: الإيمانُ بوجوده وربوبيَّته، وأُلوهيَّته، وأسمائه وصفاتِه، والإيمانُ باليومِ الآخر، ومنه: الإيمانُ بالبَعث والحساب، والجنة والنار، وغير ذلك من أمور الآخرة، والإيمانُ بملائكة الرحمن، كالإيمان بوجودِهم وأعمالهم وصِفاتهم، والإيمانُ بالكتب، كالإيمانِ بأنَّ نزولها من عند الله عزَّ وجلَّ، والإيمانُ بأنبيائه عليهم السَّلام، ومن ذلك: الإيمان بأنَّ رسالتهم حقٌّ من عند الله تبارك وتعالى[2].

﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾.

أي: ومِن الأعمال الدَّاخلةِ في مسمَّى البِرِّ: أنْ يُعطيَ العبدُ المالَ وهو محبٌّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٧٤-٢٧٥)، ((شرح ثلاثة الأصول)) لابن عثيمين (ص: ٨٠-١٠٢).

له وراغبٌ فيه، فيدفعه صدقةً لأقاربِه، وللصِّغار الَّذين فقدوا آباءهم وهم دون البلوغ ولا كاسبَ لهم، وللمساكين الَّذين لا يجِدون ما يَكفيهم ويُغْنيهم، وللمسافر المجتاز يريد نفقةً تُوصلُه لموطنه، وللطَّالبين حاجةً ممَّا يعرِضُ لهم مِن سوء، ولعِتْق الرِّقاب ونحوها(١).

﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾.

أي: وأتَوْا بالصَّلاة تامَّةً ومستقيمة، وأعطَوُا الزَّكاة التي فرَضها اللهُ تعالى عليهم إلى مستحقِّيها، وأتمُّوا ما التزموا به من عهودٍ مع الله عزَّ وجلَّ ومع الخَلْق، فلم يَنقُضوها من بعدِ ميثاقها(٢).

﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾.

أي: الَّذين حبَسوا أنفسهم عن الجزَع والتسخُّطِ وعمَّا يكرَهُه الله عزَّ وجلَّ، في حال فقرِهم، ومرَضِهم، وفي وقت اشتداد القتال في حربِ الأعداء(٣).

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.

أي: إنَّ أولئك المتَّصِفين بما سبَق ذِكرُه من عقائدَ وأعمالٍ وأخلاق، هم الصَّادقون في إيمانهم؛ لأنَّ أعمالَهم قد صدَّقت إيمانَهم، وهم المتَّقون؛ لأنَّهم فعَلوا ما أُمروا به، واجتنَبوا ما نُهوا عنه(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٨٦-٤٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٧٦-٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٨٤-٨٥)،((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٧٨-٢٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٨٦، ٩٠، ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣-٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٩٢-٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٨٨-٤٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨)﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾.

أي: فُرِض عليكم- أيُّها المؤمنون- تحقيقُ المساواة واعتبارُ المماثَلة في القِصاص بين القتلى، فيُقتَل الحرُّ بالحرِّ، والعبدُ بالعبد، والذَّكَرُ بالذَّكَر، والأُنثى بالأُنثى، فلا تتعدوا بالقصاص إلى غير القاتل والجاني (كما لو قَتلت الأُنثى أُنثى أُخرى، فإنَّ الأنثى الجانية هي التي تُقتل، ولا يَحِلُّ أن يُقتل بهذه الأنثى المقتولة رجلٌ لم يقتلها، ومثل ذلك: الحرُّ بالحرِّ، والعبدُ بالعبد، والذَّكَرُ بالذَّكَر)(١).

﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٩٣-٩٥، ١٠١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٤٧)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٩٥-٢٩٦).

قال ابن جرير: (فإن قال قائل: فإنَّه تعالى ذكره قال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ [البقرة: ١٧٨] فما لنا أن نقتصَّ للحرِّ إلَّا من الحرِّ، ولا للأنثى إلا من الأنثى؟ قيل: بل لنا أن نقتصَّ للحرِّ من العبد وللأنثى من الذَّكر، بقول الله تعالى ذِكرُه: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا﴾ [الإسراء: ٣٣] وبالنقل المستفيض عن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم أنه قال: ((المسلمون تتكافأ دماؤهم)).) ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٩٤-٩٥).

وقال السعدي: (﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ﴾ يدخل بمنطوقها، الذكر بالذكر، ﴿وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ والأنثى بالذَّكر، والذَّكر بالأنثى، فيكون منطوقها مقدَّمًا على مفهوم قوله: «الأنثى بالأنثى» مع دلالة السُّنة، على أنَّ الذكر يُقتل بالأنثى، وخرج من عموم هذا: الأبوان وإنْ علَوا، فلا يُقتلان بالولد؛ لورود السُّنة بذلك) ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٩٩-٣٠١).

أي: إذا عفا أولياءُ المقتول فلم يُطالِبوا بدَمِه، سقَط القِصاصُ عن القاتل، ووجبت عليه الدِّيَةُ، والواجب على العافي عند قَبضِ الدِّيَة ألَّا يكلِّفَ القاتلَ ما لم يوجِبْه الله تعالى عليه، ولا يشُقَّ عليه بما لا طاقةَ له به، وعلى القاتل أداءُ ما لزِمه لأولياء المقتولِ من غيرِ مماطَلةٍ ولا إنقاصٍ للدِّيَة، ولا صدورِ إساءةٍ فِعليَّةٍ أو قوليَّةٍ منه لهم، فعلى أولياء المقتول حُسنُ الاقتضاء، وعلى القاتل حُسنُ القضاء(١).

﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾.

أي: إنَّ ما شرَعه اللهُ عزَّ وجلَّ من إباحةِ العفوِ عن القاتل وأخْذِ الدِّيَة عوضًا عن القِصاص- حُكْمٌ فيه تخفيفٌ من الله تعالى لهذه الأمَّة، ورحمةٌ منه بعباده(٢).

﴿فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أي: مَن تجاوَز ما حدَّه الله تعالى مِن الأحكام السَّابقة للقِصاص- كأنْ يَقتلَ وليُّ المقتولِ القاتلَ بعد العفوِ عنه، أو يعودَ القاتلُ إلى جِنايتِه مرة أخرى- فإنَّ له عقابًا موجعًا، قيل: هو قتلُه في الدنيا، وقيل: عقوبتُه في الآخرة(٣).

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩)﴾.

أي: إنَّ في مشروعيةِ القِصاص حياةً، لِمَن أعمَل عقلَه؛ ليتدبَّرَ ويفهمَ عن الله تعالى مرادَه من هذا الحُكم، فينزجِر ويجتنِب القتل؛ فإنَّ مَن أراد القتل إذا علِم أنَّه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٠٩-١١١)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٤٥-٢٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٩٦-٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١١١-١١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١١٤، ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤-٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٤٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٩٨).

وممَّن قال من السَّلَف: إنَّ معنى قوله تعالى: ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ القَتْل: الضَّحَّاك، وسعيد بن جُبَير، وعِكرمة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١١٧).

يُقتَل قِصاصًا بمن قتَله، كفَّ عن القتل؛ فكان في ذلك حياةٌ له ولِمَن أراد قَتْلَه، وإذا رُئي القاتلُ مقتولًا انزَجر بذلك غيرُه، كما أنَّه كان في أهل الجاهليَّةِ مَن إذا قُتل الرَّجلُ مِن قومهم قتَلوا به أكثرَ مِن واحد من عشيرةِ القاتل؛ فشرَع اللهُ تعالى القِصاص، فلا يُقتَلُ بالمقتولِ غيرُ قاتلِه، وفي ذلك حياةٌ لقومِه(١).

الفوائد التربويَّة:

١- في قوله: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾ الترتيب في الإنفاق، فأولى من يتفقده الإنسان بمعروفه أقاربه، ثمَّ اليتامى؛ لأن مواساتهم بعد الأقارب أولى، ثمَّ المساكين الذين لا مال لهم حاضرًا ولا غائبًا، ثمَّ ابن السبيل الذي قد يكون له مالٌ غائب، ثم السائلين الذين منهم صادقٌ وكاذب، ثم ذَكَرَ الرِّقاب الذين لهم أربابٌ يَعُولُونهم. فكلُّ واحدٍ ممن أُخِّر ذكره أقلُّ فقرًا ممن قُدِّم عليه(٢).

٢- في قوله تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ حثٌّ على الصَّبر، وفي هذا تربيةٌ للنفوس وإعدادٌ؛ كيلا تذهَبَ حسرةً مع كلِّ فاجعة، ولا تنهارَ جزَعًا أمام كلِّ شِدَّة(٣).

٣- ينبغي الصَّبرُ على جميع أنواع الضُّر، وقد استوعبتْ هذه الجملة ﴿وَالصَّابِرِينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٢٠، ١٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٤٧)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيِّم (٢/ ٩٦-٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٤٤-١٤٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣١-٣٢).
قال ابنُ أبي حاتم: (عن أبي العَالية: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ يقول: جعَل اللهُ القِصاصَ حياةً؛ يقول: كم مِن رجل يُريد أن يَقْتُلَ فيمنعه مخافةُ أن يُقْتَل. ورُوي عن الحسَن، وسعيد بن جُبَير، ومجاهد، والرَّبيع بن أنس، ومقاتل بن حَيَّان، وأبي مالك وقَتادة، نحوُ ذلك)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٢٩٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير الراغب)) (١/ ٣٧٩).
(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ١٦١).

﴿فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ جميعَ أنواع الضرِّ؛ لأنَّه إمَّا يحتاج إلى الصبر في شيءٍ يَعوزُ الإنسانَ أو يُريده فلا يناله، وهو البأساء، أو فيما نال جِسمَه من ألَمٍ وسقمٍ، وهو الضرَّاء، أو في مدافعةٍ مُؤذيةٍ له، وهو البأس(١).

الفوائد العلميَّة واللَّطائف:

١- أنَّ في نصْبِ ﴿الصَّابِرِينَ﴾- بتقدير: أخصُّ أو أمدَحُ- تنبيهًا على خَصيصيةِ الصَّابرين ومزيَّةِ صفتِهم الَّتي هي الصبرُ(٢).

٢- في قوله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ دَلالةٌ على أنَّ تنفيذَ القِصاص من مقتضى الإيمان؛ لأنَّ الخطابَ موجَّهٌ للمؤمنين(٣).

٣- أنَّ فاعلَ الكبيرة لا يخرُجُ مِن الإيمان بالكليَّة؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾؛ فجعَل اللهُ المقتولَ أخًا للقاتل، ولو خرَج من الإيمانِ لم يكُنْ أخًا له(٤).

٤- أنَّ كونَ القِصاص حياةً يحتاج إلى تأمُّل وعقلٍ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾(٥).

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ﴾ فيه إيجازٌ بحذف المضاف وإقامةِ المضاف إليه مقامَه؛ إذ التقدير: (ولكن البِرَّ بِرُّ مَن آمن)، أو يكون من باب المبالغة إذا جُعِل (البارّ) نفْس البِر(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الراغب)) (١/ ٣٧٩)، ((تفسير القاسمي)) (٣/ ٣٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٩٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٠٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٠٥).

(٦) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٢٥١).

٢- قوله: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى﴾

- قوله: ﴿عَلَى حُبِّهِ﴾ أي: مع حبِّ المال، ففيه تَتْميم[١] وتوكيدٌ واحتراس؛ للمبالغة، وللدَّلالة على عِظمِ الأجْر؛ فإنَّ بذْل الإنسان من الشَّيء الذي يحبُّه أبلغ، وأكثر أجرًا وأدْعى لزيادته[٢].

وقوله ﴿ذَوِي﴾ مفعولٌ أوَّل لـ(آتى) قُدِّم عليه مفعولُه الثاني (المال)؛ للاهتمام به، أو لأنَّ في الثاني معَ ما عُطف عليه طُولًا؛ ولو رُوعي الترتيبُ، لفات تجاوبُ الأطراف في الكلام، وهو الذي اقتضى تقديمَ الحال أيضًا والله أعلم. وقيل: هو المفعولُ الثاني[٣].

٤- في قوله: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ إيثارُ التعبير بصِيغة الفاعِل في ﴿وَالْمُوفُونَ﴾ وعدم التعبير بالفعل (وأوفوا)؛ للدَّلالة على وجوب استمرار الوفاءِ[٤].

٥- قوله: ﴿وَالصَّابِرِينَ﴾ نُصِب على الاختصاص والمدح، ولم يُعطَف على ما قبله ﴿وَالْمُوفُونَ﴾؛ إظهارًا لفضل الصَّبر في الشدائد، ومواطن القِتال على سائر الأعمال، وحسُن هنا التخالف في إعراب الصِّفات الكثيرة وعدم جعْلها كلِّها

---

(١) التَّتميم: هو أن يُؤتى في كلامٍ لا يُوهِم غيَر المراد بفضلةٍ تُفيد نكتةً. أو بعبارة أُخرى هو: الإتيانُ بكلمة أو كلامٍ متمِّم للمقصود، لرَفْع اللبس عنه، وتقريبه للفَهم، أو لزِيادةٍ حسنة، بحيث إذا طُرِح من الكلام نقَص معناه في ذاته، أو في صِفاته. يُنظر: ((تفسير أبي حيَّان)) (١/ ١٢٠)، (٢/ ٣٣٣)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٢٥٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (١/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيَّان)) (٢/ ٣٣٣)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٢٥٢)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (١/ ٢٤٠)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٩٣-١٩٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٩٤).

جاريةً على موصوفها؛ لأنَّ هذا موضع الإطناب في الوصف، والإبلاغ في القول، فإذا خُولف بإعراب الأوصاف كان المقصود أكمل؛ لأنَّ الكلام عند الاختلاف يَصير كأنَّه أنواع من الكلام، وضروب من البيان، ويُسمَّى ذلك قطعًا؛ لأنَّ تغييرَ المألوفِ يدلُّ على زيادة ترغيبٍ في استماع المذكورِ ومزيدِ اهتمامٍ بشأنه(١).

٦- وفي هذه الآية ترتيبٌ حسنٌ بديع:

- ففي قوله: ﴿آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ قدَّم الإيمان بالله واليوم الآخِر على الإيمان بالملائكة والكتُب والرسل؛ لأنَّ المكلَّف له مبدأ، ووسط، ومنتهًى، ومعرفة المبدأ والمنتهى هو المقصود بالذَّات، وهو المراد بالإيمان بالله واليوم الآخِر، وأمَّا معرفة مصالح الوسط فلا تتمُّ إلَّا بالرِّسالة، وهي لا تتمُّ إلَّا بأمورٍ ثلاثة: الملائكة الآتِين بالوحي، والمُوحَى به: وهو الكِتاب، والموحَى إليه: وهو الرَّسول(٢).

- وقوله: ﴿وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ فالمَلَك يوجد أولًا، ثم يحصُل بوساطة تبليغه نزولُ الكتب، ثم يصل ذلك الكتاب إلى الرَّسول، فقدَّم الملائكة والكتُب على الرُّسل، وإنْ كان الإيمانُ بوجود الملائكة وصِدق الكتُب لا يحصُل إلَّا بواسطة الرُّسل؛ لأنَّ ذلك رُوعي فيه الترتيبُ الوجوديُّ الخارجي، لا الترتيب الذِّهني(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ١٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٣٣).

- وقدَّم الإيمانَ على أفعال الجوارح، وهو: إيتاءُ المال والصَّلاة والزَّكاة؛ لأنَّ أعمال القلوب أشرفُ من أعمال الجوارح، ولأنَّ أعمال الجوارح النافِعة عند الله تعالى إنَّما تنشأ عن الإيمان[١].

- وفي قوله: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾ قدَّم مَن كان أَوْلى أن يتفقدَّه الإنسان بمعروفه وهم أقاربه، ثمَّ عقَّبه باليتامى؛ لأنَّ مواساتهم بعد الأقارب أوْلى، ثمَّ ذكَر المساكين الذين لا مالَ لهم يكفيهم حاضرًا ولا غائبًا، ثمّ ذكر ابنَ السبيل الذي قد يكون له مال غائب، ثم ذكر السائلين الذين منهم صادقٌ وكاذب، ثم ذَكَر الرِّقاب الذين لهم أربابٌ يَعولُونهم؛ فكلُّ واحد ممَّن أُخِّر ذِكرُه أقلُّ فقرًا ممَّن قُدِّم ذِكره، والله أعلم[٢].

٧- قوله: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾

- فيه تعدية الفعل﴿عُفِيَ﴾ باللام مع أنَّه يعدى بـ(عن)؛ لأنَّه يتعدَّى بـ(عن) إلى الجاني وإلى الذَّنب، فيقال: عفوت عن فلان وعن ذَنبه، وأمَّا إذا تعدَّى إلى الذَّنب والجاني معًا قيل: عفوت لفُلان عمَّا جنَى، فكأنه قيل: فمن عُفي له عَن جِنايته، فاستُغني عن ذِكر الجناية[٣].

- وتنكير ﴿شَيْءٌ﴾؛ للإشعار بأنَّه إذا عُفي له طرَفٌ من العفو وبعضٌ منه، بأنْ يُعفى عن بعض الدَّم، أو عفا عنه بعضُ الورثة، فقد تمَّ العفو وسقَط القصاص، ولم تجبْ إلَّا الدِّية[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ١٣٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (١/ ٤٨٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢٢١-٢٢٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٢٢).

- وفيه تسمية وليِّ الدم أخًا للقاتل؛ اعتبارًا بأُخوَّة الإسلام، أو استعطافًا له عليه، أو لكونه ملابسًا له مِن قِبَلِ أنَّه وليٌّ للدم، ومطالِبٌ به[1].

٨- التنكير في قوله: ﴿حَيَاةٌ﴾ يفيد التعظيم؛ فيدلُّ على أنَّ في القصاص حياةً متطاولةً[2].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ١٤٨-١٤٩).

(٢) يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ١٨٦).

الآيات (١٨٠ - ١٨٢)

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨٠) فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨١) فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨٢) ﴾.

غريب الكلمات:

﴿جَنَفًا﴾: ميلًا ظاهرًا، وعدولًا؛ يقال: جنَف، إذا عدَل وجار[1].

مشكل الإعراب:

قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ... الْوَصِيَّةُ﴾:

﴿الْوَصِيَّةُ﴾: مرفوعةٌ بالابتداء، والخبرُ محذوف، أي: فعليكم الوصيةُ. ونائب الفاعل لـ﴿كُتِبَ﴾ حينئذٍ محذوفٌ، تقديره (هو)، أي: الإيصاء، دلَّ عليه قوله: ﴿الْوَصِيَّةُ﴾. أو نائب الفاعل ﴿عَلَيْكُم﴾.

أو تكون ﴿الْوَصِيَّةُ﴾ نائبَ الفاعِل للفِعل ﴿كُتِبَ﴾، وجاز تذكيرُ الفِعل مع أنَّ لفظ الوصية مؤنَّث؛ لأنَّه أراد بالوصية الإيصاء، أو لكونِ القائمِ مقامَ الفاعل ﴿الْوَصِيَّةُ﴾ مؤنَّثًا مجازيًّا، وفُصل بينه وبين مرفوعه بفاصل؛ لأنَّ الكلام لَمَّا طال كان الفاصل بين المؤنَّث والفِعل كالعِوَض من تاء التأنيث، والعرب تقول: حضَر القاضيَ امرأةٌ، فيُذكِّرون؛ لأنَّ القاضي بين الفِعل وبين المرأة[2].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١١٩)، ((تفسير الرازي)) (٥/ ٢٣٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٢٥٨)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٤٦).

المعنى الإجمالي:

فرَض اللهُ على المؤمنينَ في هذه الآياتِ حين يشرف أحدُهم على الموت، وتأتيه أسبابُه إنْ كان لديه مال: أنْ يوصيَ ببعضِه إلى والديه وأقاربِه، مَن كان منهم غيرَ وارثٍ، مِن غير سرَفٍ ولا تقتير، مراعيًا فيه الأقربَ والأحوجَ، من غير ضررٍ بالوَرَثَة، هذا الأمرُ بالوصيَّة أمرٌ ثابتٌ ومؤكَّدٌ على مَن اتَّصَف بالتَّقوى.

فمَن غيَّر الوصيةَ بعد سماعِه لها من الموصي بالزِّيادةِ أو النقصان، أو غيرِ ذلك، فقد تحمَّل هو الإثمَ، وبرِئَت ذِمَّة الموصي، والله تعالى سميعٌ عليمٌ وسيُجازي كلًّا بما يستحقُّ.

ومَن خشِي أنْ يَميلَ الموصي في وصيَّتِه عن الحقِّ والعدلِ، سواء بالخطأ غيرِ المقصود، أو كان متعمِّدًا، فلا إثمَ عليه أنْ يقومَ بنصيحتِه وتوضيحِ التَّصرُّف الصَّحيح للموصي، أو يقومَ بتعديلها بما يوافقُ الشَّرعَ بعد موتِ الموصي، وبهذا يزولُ فسادُ الوصية، ويحلُّ ما قد يحصُلُ مِن شِقاقٍ بين الموصي والوَرَثَة، أو بين الوَرَثَة مع الموصَى لهم.

تفسير الآيات:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨٠)﴾.

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا كان في الخِطاب السَّابق ذِكْرُ القَتْلِ، والقِصاص الذي هو حالُ حضور الموتِ، انتظَم به ذِكرُ الوصيَّة؛ لأنَّه حالُ مَن حضَره الموتُ، فقال تعالى[1]:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٣/ ٣٣).

وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨٠)﴾.

أي: فُرِضَ عليكم- أيُّها المؤمنون- إذا أتَتْكم أسبابُ الموت ومقدِّماتُه، وكان لديكم مالٌ: أنْ تعهَدوا ببعضِ هذا المال إلى الوالديْنِ اللَّذيْن لا يرثان لمانع، وإلى الأقارب الذين لا يرثون، وذلك مِن غيرِ إسرافٍ ولا تقتير، ولا اقتصارٍ على الأبعدِ دون الأقرب، بل يُرتِّبون على القُربِ والحاجة، ودون إجحافٍ بالوَرَثةِ، فلا تُتجاوَزُ الوصيةُ لأولئك بأكثرَ من ثُلُث المال، وهذا أمرٌ ثابتٌ ومؤكَّدٌ على المتَّصفين بالتَّقوى(١).

عن أبي أمامةَ الباهليِّ رضي الله عنه، قال: ((سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم في خطبتِهِ عامَ حجةِ الوداعِ: إنَّ اللهَ تباركَ وتعالى، قد أعطَى كلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ، فلا وصيةَ لوارثٍ))(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٢٣، ١٢٤، ١٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥)، (٢/ ٣٠٥-٣٠٨).
وحَكَى الماورديُّ والقرطبيُّ: الإجماعَ على أنَّ الخير هنا بمعنى المال. يُنظر: ((النكت والعيون)) (١/ ٢٣١)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ٢٥٩).
وذهب إلى أنَّ الآيةَ غير منسوخة: ابن جرير في ((تفسيره)) (٣/ ١٢٤)، والنَّحَّاس في ((الناسخ والمنسوخ)) (ص: ٨٨)، والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ٨٥).
وذهب إلى ذلك أيضًا: الحسن البصري، وطاوس، وقَتادة، والعلاء بن زيد، ومُسلِم بن يَسار. يُنظر: ((الناسخ والمنسوخ)) لِهبة الله بن سلامة (ص: ٤١).
وممَّن قال بأنَّ الآية منسوخة بآية المواريث: الواحدي في ((التفسير الوسيط)) (١/ ٢٦٨-٢٦٩)، وابن كثير في ((تفسيره)) (١/ ٤٩٢)، وابن عاشور في ((تفسيره)) (٢/ ١٤٩). ورُوي ذلك عن ابن عمر، وأبي موسى الأشعري، وسعيد بن المسيَّب، والحسن، ومجاهد، وعطاء، وسعيد بن جُبير، ومحمد بن سيرين، وزيد بن أسلم، والربيع بن أنس، وقتادة، والسُّدِّي، ومقاتل بن حيَّان، وإبراهيم النَّخَعي، والضَّحَّاك، والزهري. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٢٩٩).
(٢) أخرجه أبو داود (٢٨٧٠)، والترمذي (٢١٢٠) واللفظ له، وابن ماجه (٢٧١٣)، وأحمد (٢٢٣٤٨) حسَّنه الإمام أحمد كما في ((بلوغ المرام)) لابن حجر (٢٨٦)، وقال الترمذيُّ: حسن صحيح. وحسَّنه ابن عبد البرِّ في ((التمهيد)) (٢٤/ ٤٣٩)، وقال ابن القطان في ((الوهم والإيهام)) (٤/ ١٨٩): فيه إسماعيلُ بن عيَّاش؛ مختلَف فيه، ويجب أن يُقال لحديثه: حسن. وصحَّحه الذهبي في ((تنقيح التحقيق)) (٢/ ١٥٧)، وحسَّنه ابن الملقن في ((البدر المنير)) (٧/ ٢٦٣)، وجوَّد إسنادَه ابن كثير في ((إرشاد الفقيه)) (٢/ ١٣٨)، وحسَّنه ابن حجر في ((موافقة الخبر الخبر)) =

وعن سعد بن أبي وقَّاصٍ رضي الله عنه، قال: ((تشكَّيتُ بمكةَ شكوى شديدةً، فجاءني النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يعودني، فقلتُ: يا نبيَّ اللهِ، إني أترك مالًا، وإني لم أترك إلا ابنةً واحدةً، فأوصي بثُلثَيْ مالي وأتركُ الثُّلثَ؟ فقال: لا. قلتُ: فأُوصي بالنِّصفِ وأترك النصفَ؟ قال: لا. قلتُ: فأوصي بالثلثِ وأترك لها الثُّلثين؟ قال: الثُّلثُ، والثُّلثُ كثيرٌ))[1].

﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨١)﴾.

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا ذكَر اللهُ سبحانه وتعالى أمرَ الوصيةِ ووجوبها، وعظَّم أمرها، أتبَعه بما يجري مجرى الوعيد في تغييرها، فقال تعالى[2]:

﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨١)﴾.

أي: فمَن غيَّر الوصية بعدَما سمعها من الموصي بأنْ زاد فيها أو أنقص أو غير ذلك، فقد تعلَّق الإثمُ به، أمَّا الموصي من غير جَنَفٍ ولا إثم فقد برِئَتْ ذمَّته، والله تعالى يسمع ويعلَمُ حالَ الاثنينِ، الموصي والمبدِّلِ وصيَّته، ويجازي كلًّا بما يستحقُّ[3].

= (٢/ ٣١٥)، وذكر الصنعانيُّ في ((سبل السلام)) (٣/ ١٦٦) أنَّ له طرقًا، وقال: ولا يخلو إسنادُ كلٍّ واحد منها عن مقال، لكن مجموعها ينهض على العملِ به. وقال الشوكاني في ((السيل الجرار)) (٤/ ٤٩٧): لا يوجد عِلَّة يُعلُّ بها. وقال الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٢٨٧٠): حسن صحيح. وحسَّن إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تحقيق ((مسند أحمد)) (٥/ ٢٦٧).

(١) رواه البخاري (٥٦٥٩) واللفظ له، ومسلم (١٦٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) للرازي (٥/ ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٣٩، ١٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٥٢).

﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨٢)﴾.

أي: فَمَنْ خاف أنْ يَحيد الموصي في وصيَّته عن الحقِّ، سواءٌ عن غير قصدٍ منه، أو متعمدًا؛ وذلك كأن يوصيَ لغير الورثة بأكثرَ من ثُلث ماله، فهذا لا إثمَ عليه إنْ نصَح الموصي في حياتِه بتبديل الوصيةِ، فبدَّلها، أو قام المصلحُ بتبديلها بعد موته، فعدَّلها على الوجهِ الشَّرعي، وبهذا يزول فسادُ الوصية، ويزول معه أيُّ شِقاقٍ وقَع بين الموصِي والورَثة، أو بين الوَرَثة والموصَى لهم[1].

الفوائد التربويَّة:

١- أهميَّة صِلة الرَّحِم؛ حيث أوجب الله الوصيةَ للوالدينِ والأقربين بعد الموت؛ لأنَّ صِلة الرَّحِم من أفضل الأعمال المقرِّبةِ إلى الله تعالى[2].

٢- أنَّ المتَّقين هم الَّذين يراعون فرائضَ الله؛ ولذلك وجَّه الخطابَ إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾[3].

٣- فضيلة القيام بالإصلاح؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾[4].

الفوائد العلميَّة واللَّطائف:

في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾، خَصَّ الوالديْنِ والأقربين بالوصية؛ قيل: لأنَّهم مظنَّة النِّسيان من الموصي؛ لأنَّهم كانوا يُورثون الأولاد أو يوصون لسادة القبيلة، وقدَّم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٤٧)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٩٥-٤٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥-٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٥٣-١٥٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣١٢-٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٠٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣١٤).

الوالدينِ للدلالة على أنَّهما أَوْلى وأحقُّ في البَدْءِ بالوصيَّةِ لهما[١].

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ﴾ فيه تقديمٌ وتأخير، حيث أخَّر (الوصية) الذي هو نائِب فاعل (كُتِب)؛ للتشوُّف إليه[٢]. وهذا بناءً على أنَّ (الوصية) نائب فاعل لـ(كتب)، وأمَّا على كون (الوصية) مرفوعة بالابتداء؛ فليس فيها تقديم ولا تأخير.

٢- قوله: ﴿لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ قدَّم الوالدين؛ للدَّلالة على أنَّهما أرجحُ في الابتداء بالوصية لهما[٣].

٣- قوله: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ فيه تأكيد للوجوب بقوله: ﴿حَقًّا﴾، وكذا قوله: ﴿عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾؛ فهو إلهاب وتهييج وتذكير بما أمامه من القدوم على مَن يسأله عن النَّقير والقِطمير[٤].

٤- قوله: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ فيه حصر، والضَّمير في قوله: ﴿إِثْمُهُ﴾ عائد إلى التبديل، أي: إنَّ إثم ذلك التبديل لا يعود إلَّا إلى المبدِّل[٥].

- وفيه: إقامة الظاهر مقامَ المضمر؛ لزيادة الاهتمام بشأنه، ولو جرَى على نسَق الكلام السابق لقال: (فإنَّما إثمُه عليه وعلى مَن يبدِّله)؛ وذلك للتَّشهير والمناداة

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٥/ ٢٣٢)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٢/ ١٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢٢٤)، ((تفسير الرازي)) (٥/ ٢٣٦٥-٢٣٦).

بفضائح المبدِّلين، وليشعر بعِلِّيَّة الإثم الحاصل، وهو التبديل[١].

٥- قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ في هاتين الصِّفتين: ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ تهديدٌ ووعيدٌ للمبدِّلين؛ إذ لا يَخفى عليه تعالى شيءٌ، فهو يُجازيهم على تبديلهم شرَّ الجزاء[٢]، مع ما فيه من تأكيدِ الخبر بـ﴿إِنَّ﴾ واسميَّة الجملة، وما في صِيغة (فَعيل) من المبالغة.

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ١٦٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٢٥٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ١٦٦).

الآيات (١٨٣ - ١٨٨)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن
قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ
عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ
فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾
شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ
ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ
عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ
ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ
تَشۡكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ
إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمۡ
لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ
كُنتُمۡ تَخۡتَانُونَ أَنفُسَكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ وَعَفَا عَنكُمۡۖ فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبۡتَغُواْ مَا
كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ
ٱلۡفَجۡرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ تِلۡكَ
حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾
وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ
أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿فِدۡيَةٞ﴾: عِوض؛ وأصل (فدي): جَعْلُ شَيْءٍ مكانَ شَيْءٍ حِمًى له[1].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩١).

﴿الْفُرْقَانِ﴾: المُخرِج من الشُّبهة، والمميِّز بيْن الحقِّ والباطل، وأصلُه من الفَرْق، وهو الانفصال، والتمييز والتزييل بين شيئين(١).

﴿الرَّفَثُ﴾: المقصود به هنا الجِماع، والرَّفث في الأصل: هو التصريحُ بِمَا يجب أَن يُكنى عَنهُ من ذِكر النِّكَاح، وكلِّ كلامٍ يُستحيا مِن إظهارِه والإفصاح عنه؛ فيشمل الجماعَ ومُقدِّماتِه، وما يتَّصل به من قولٍ وفِعل(٢).

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُم﴾: أي: بمنزلة اللِّباس، وهو كنايةٌ عن شِدَّة المخالطة التي تُوجِبُ قِلَّةَ الصبر عنهنَّ، أو لأنَّ كلًّا منهما يستُر حالَ صاحبِه، ويمنعُه من الفجور؛ فأصلُ اللِّباس: المخالطة والمداخلة، والسِّتر كذلك(٣).

﴿تَخْتَانُونَ﴾: تخونون بارتكابِ ما حُرِّم عليكم، وهو افتِعالٌ من الخِيانة، وهي مخالفة الحقِّ بنقض العهد في السِّرِّ(٤).

﴿عَاكِفُونَ﴾: مُقيمون، جمْع عاكِف؛ يقال: عكَف على كذا إذا أقام عليه(٥).

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٣).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٣٤)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢٣٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٢٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٠١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٣).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٣، ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٠٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٢).

﴿تُدْلُوا بها﴾: تُصانِعوا، وتدْفَعوا بها، وأصل (دلي) يدلُّ على مُقاربةِ الشَّيءِ ومُداناتِه بِسُهولةٍ ورِفقٍ[1].

مشكل الإعراب:

١- قوله: ﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ﴾:

﴿فِدْيةٌ﴾: مرفوعٌ بالابتداء، وخبرها محذوف، والتقدير: فعَليهِ فِديةٌ.

﴿طَعَامُ﴾: مرفوعٌ، بدلٌ مِن (فِديةٌ)، أو خبرٌ لمبتدأ محذوف، أي: (هي)- على قراءة تنوين (فديةٌ)، أو مجرور مضاف إليه لِفدية على قراءةِ ضم (فديةُ) من غير تنوين[2].

٢- قوله: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾:

﴿قَرِيبٌ﴾: خبرٌ أوَّل لـ(إنَّ).

وجملة ﴿أُجيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾: خبَر ثان لـ(إنَّ)، وليس صفةً له[3].

المعنى الإجمالي:

يُخبِر اللهُ تعالى عبادَه المؤمنين بفَرْض الصِّيام عليهم؛ من أجلِ تحقيقِ التَّقوى، وأنَّه قد فُرِض أيضًا على الأُمَم السابقةِ من قَبلهم.

ومِن تيسيره سبحانه على عبادِه أنْ فرَض الصيامَ أيَّامًا قليلة، وأنَّ مَن كان مريضًا، أو مسافرًا فأفطَر، فعليه قضاءُ ما أفطره، ثم خيَّر اللهُ تعالى مَن كان قادرًا

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٢١)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٢٢)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ١٥٣).

على الصِّيام، بَيْن الصِّيام والفِطر، فإنْ أفطَر، فعليه إطعامُ مِسكينٍ عن كلِّ يوم أفْطَره، فإنْ أطعَم أكثرَ من مسكين فهو أفضلُ، والصَّوم أفضلُ من جميعِ ذلك؛ فمَن علِم ما فيه مِن الخير، فإنَّه لن يتهاونَ فيه، ثمَّ نسَخ عزَّ وجلَّ هذا التَّخييرَ في حقِّ القادر، فأوجَب عليه الصَّومَ، وبقِي الفِطرُ والإطعام للعاجِز عن الصِّيام.

ومدَح اللهُ عزَّ وجلَّ شهرَ رمضان، مبيِّنًا إحدى أعظمِ فضائِله، وهي نزولُ القرآن فيه، ووصَفَه بأنَّه يُرشد النَّاس إلى كلِّ خير، وأنَّه مشتملٌ على الآياتِ الواضِحات، ومبيِّنٌ لطُرق الهداية، وفارقٌ بين الحقِّ والباطل، ثمَّ بيَّن جلَّ وعلا وجوبَ صيام هذا الشَّهر العظيم على مَن كان حاضرًا مُقيمًا، وأمَّا مَن كان مريضًا أو مسافرًا فأفطر، فعليه القضاءُ لإكمالِ عِدَّة ما أفطَر؛ وهذا تيسيرٌ منه سبحانه على عِباده، وهو يحبُّ منهم أنْ يُعظِّموه شاكرينَ له على ما هداهم إليه من نِعمة الصِّيام، وفضْلِه بتيسيرِ الأحكام.

ثمَّ خاطَب اللهُ تعالى نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم: إذا سألَك عِبادُ الله عن قُربه، فإنَّه قريبٌ، يستجيبُ دعاءَ مَن دَعاه، فعليهم أنْ يُطيعوه وينقادوا له، ويتيقَّنوا أنَّه يُثِيب مَن أطاع، ويُجيب مَن دعا؛ لعلَّهم يُوفَّقون بهذا إلى الحقِّ.

ثمَّ أخبَر تعالى أنَّه أباح لعباده مُجامَعةَ نسائهم في ليالي الصيام؛ فإنَّ كلًّا من الزَّوجين بمثابةِ اللِّباس للآخَر، وأخبَرهم أنَّه علِم أنَّهم كانوا يُراودون أنفسَهم على مباشرةِ نسائهم ليلًا، وعلى الأكْل بعد النوم، قبل أن يطلُعَ الفجر، بل إنَّ بعضهم قد فعَلَ ذلك، فأباحَ اللهُ لهم الأكْلَ والشُّرب والجِماعَ في ليالي الصوم رحمةً بهم، إلَّا أنَّه سبحانه قد تجاوَز عنهم ما فعَلوه من قبلُ، وتاب عليهم، فأباح لهم ما كان حرامًا من المواقَعة للنِّساء، فلهم الآن أنْ يجامِعوهنَّ، قاصدين بذلك ما قدَّره الله تعالى من الولَدِ، وليلةَ القَدْر التي ينبغي ألَّا تشغَلَهم متعةُ الجِماع عنها،

بل عليهم الحرصُ على طَلَبِها، ومِمَّا أباحه اللهُ لهم أيضًا أنْ يأكلوا ويَشرَبوا في جميع أوقات اللَّيل، حتى يتضحَ بياضُ النَّهارِ من سواد اللَّيل، فحِينَها يجبُ عليهم الإمساكُ عن الأكْل والشُّربِ والجِماع إلى أنْ غُروبِ الشَّمس، ثمَّ نهى الله عزَّ وجلَّ المؤمنين عن الجِماعِ وهم معتكِفون في المساجدِ، مبيِّنًا أنَّ الأمورَ التي يجبُ اجتنابُها مِن الأكْل والشُّربِ والجِماع في نهارِ رمضانَ، والجِماع حالَ الاعتكاف في المساجد- محرَّماتٌ يجب أنْ يَجتنبوها، وألَّا يَقرَبوها، وكما بيَّن اللهُ أحكامَ الصِّيام بيانًا تامًّا، يُبيِّن أيضًا باقيَ أحكام الشَّريعة الأخرى في كتابه، وعلى لسانِ رسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم؛ ليعلَم النَّاسُ كيف يُطيعون الله؛ فِعلًا للمأموراتِ، واجتنابًا للمنهيَّاتِ.

ثمَّ نهاهم اللهُ سبحانه وتعالى عن أكْلِ أموال بعضهم بعضًا بغير حقٍّ، ونهاهم عن الاحتيالِ بأنْ يتوصَّلوا بحُكْم الحاكم إلى أكلِ طائفةٍ من أموال النَّاس بالحرام، مع عِلمهم بأنَّ ما يقُومون به حرامٌ.

تفسير الآيات:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣)﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾.

أي: يُخبِر اللهُ تعالى المؤمنينَ به وبرسولِه مِن هذه الأمَّةِ بفَرْض عِبادةِ الصِّيام عليهم[(١)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ٢٧٢).

وعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه، قال: (إذا سمعتَ اللهَ يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فأرْعِها سمعك؛ فإنَّه خيرٌ يَأمُر به، أو شرٌّ يَنهى عنه) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ١٩٦)، وأبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (١/ ١٣٠)، وصحَّح إسنادَه أحمدُ شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٦١٩).

والصِّيام: هو التعبُّدُ لله تعالى بالإمساكِ عن الأكْلِ والشُّرب والجِماع من طلوع الفجر إلى غروب الشمس[1].

﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾.

أي: فُرِضَت عليكم عِبادةُ الصِّيام كما فُرِضت أيضًا على الأُممِ السَّابِقة[2].

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

أي: من أجل الوصولِ بِصِيامِكم إلى مَرتبةِ التَّقوى[3].

﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٩٧)، ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (٢٥/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦).

وقيل: التشبيه في أصل فرض الصَّوْم، لا في قدْره وكيفيَّته ووقته. وهذا اختيار ابن القيم في ((جلاء الأفهام)) (ص: ٢٨٤)، وابن عاشور في ((تفسيره)) (٢/ ١٥٦-١٥٧)، وابن عثيمين في ((تفسير الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣١٦-٣١٧).

وقيل: التشبيه إنما هو في الوقت، ففُرِض على هذه الأمة صوم شهر رمضان كما فرض صومه على الأمم السابقة، وهذا اختيار ابن جرير في ((تفسيره)) (٣/ ١٥٥).

وممَّن قال بهذا القول من السَّلف: الشعبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٥٣).

وقيل: التشبيه واقع على صفة الصوم الذي كان عليهم مِن مَنْعهم من الأكل والشرب والنِّكاح، فإذا حان الإفطارُ فلا يفعل هذه الأشياء مَن نام، كما كان الأمرُ من قبلُ لدى النصارى.

وممَّن قال بمثل هذا القول: ابن عمر، وابن عبَّاس، وأبو العالية، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، ومجاهد، وسعيد بن جُبير، ومقاتل بن حيَّان، والربيع بن أنس، وعطاء الخراساني، والسُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٥٤)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٣٠٥).

وقيل: التشبيه في فَرْض صيام ثلاثة أيَّام من كل شهر ويوم عاشوراء، كما كان الأمرُ من قبلُ لدى اليهود.

وممَّن قال بنحو هذا القول من السَّلف: ابن عبَّاس، والضَّحَّاك بن مُزاحِم، وقتادة، وعطاء. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٥٤)، و ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٣٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١/ ٢٢٦-٢٢٧)، ((تلخيص كتاب الاستغاثة في الرد على البكري)) لابن تيميَّة (١/ ٢٧٥).

وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤)﴾.

﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾.

أي: إنَّ هذا الصِّيامَ مفروضٌ عليكم في أيَّامٍ قليلةٍ، مَحصيَّة ساعاتُها(١)، وهي أيَّامُ شهرِ رَمضانَ(٢).

﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾.

أي: مَن كان مِن المؤمنين في حالِ مرضٍ أو سَفَر، فأفطَر، فعليه أنْ يَقضيَ صيامَ الأيَّام الَّتي أفطَرها في أيَّامٍ أخرى(٣).

﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ... وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

الناسخ والمنسوخ:

هذا الحُكمُ المذكور في الآية منسوخٌ؛ إذ لَمَّا فرَض الله تعالى الصَّومَ في صدْر

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٥٦-١٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٦١)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٢٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ٢٧٦).
وممَّن قال من السَّلف بأنَّ الأيَّام المعدودات هنا، هي شهرُ رمضان: ابنُ أبي لَيلَى، ومُقاتِل بن حيَّان. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٥٩)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٣٠٦).
وقيل: المرادُ بها: ثلاثةُ أيَّام من كلِّ شهر، ثم نُسِخَ فرْضُ صِيامها بصيام شهر رمضان. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٩٧).
وممَّن قال بهذا القول من السَّلف: ابن عبَّاس، وعطاء، وقَتادة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٥٧)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٦٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٥١)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ٢٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٩٨).

الإِسلام، كان المسلِمُ يُخيَّر بين الصَّوم وإطعامِ مسكينٍ عن كلِّ يوم أفْطَره، فإنِ اختار الصيامَ كان خيرًا له، ثمَّ نَسَخ اللهُ عزَّ وجلَّ هذا التخييرَ في حقِّ القادِر على الصيام بقوله: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾، فأوجب عليه الصومَ، وبقِي الفطرُ والإِطعامُ للعاجز عنه(١).

---

(١) قال ابنُ حَزم: (قوله تعالى: ﴿وعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَه فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسكِين﴾ هذه الآية نِصفها منسوخٌ، وناسخها قوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْه﴾ يعني: فمَن شهِد منكم الشهرَ حيًّا بالغًا، صحيحًا عاقلًا، فليصمْه) ((الناسخ والمنسوخ)) (ص: ٢٦).

وقال ابنُ تيميَّة: (إنَّ الصَّحابة والتَّابعين أخْبَروا أنَّ الله رخَّص في هذه الآية للعاجز عن الصَّوم أنْ يُفطِر ويُطعِم، وأنَّ حُكم الآية باقٍ في حقِّه، وهم أعلمُ بالتنزيل والتأويل، وأيضًا فإنَّ ذلك تبيَّن من وجهين:

أحدهما: أنَّ ابن عبَّاس وأصحابَه قرَؤوا (يُطَوَّقونه) و﴿يُطِيقُونَهُ﴾، وهي قراءة صحيحةٌ عنه، والقراءة إذا صحَّت عن الصَّحابة، كان أدْنَى أحوالها أن تَجري مجرَى خبَر الواحد في اتِّباعها، والعملِ بها؛ لأنَّ قارئها يُخبر أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قرأها كذلك، فإمَّا أن يكون حرفًا من الحروف السَّبعة التي نزَل القرآن بها، ويكون بعدَ النَّسخ يَقرأ الآية على حَرفين: (يُطَوَّقونه) و﴿يُطِيقُونَهُ﴾، أو يكون سمِعَها على جِهة التفسير وبيان الحُكم، فاعتقد أنَّها من التِّلاوة، وعلى التقديرين، فيجب العملُ بها، وإنْ لم يُقطع بأنَّها قرآن... ومعنى (يطوَّقونه)؛ أي: يُكلَّفونه، فلا يستطيعونه؛ فكلُّ مَن كُلِّف الصَّوم فلم يُطِقْه، فعليه فِديةٌ طعامُ مِسكين، وإنْ صام مع الجَهد والمشقَّة، فهو خيرٌ له، وهذا معنى كلام ابن عبَّاس في رِواية عطاء عنه.

الثاني: أنَّ العامة تقرأ: ﴿يُطِيقُونَهُ﴾، فكان في صَدر الإسلام لَمَّا فرَض الله الصومَ، خُيِّر الرَّجُل بين أن يَصومَ وبين أن يُطعِم مكانَ كل يومٍ مِسكينًا؛ فإنْ صام ولم يُطعم، كان خيرًا له، ثم نَسَخ الله هذا التخييرَ في حقِّ القادر بقوله: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾، فأوجب الصومَ، ومنَع من الفِطر والإطعام، وبقِي الفِطر والإطعام للعاجز عن الصَّوم... ويُبيِّن ذلك أنَّ الشيخ والعجوز إذا كانَا يُطيقانِ الصَّوم، فإنَّهما كانَا يكونانِ مخيَّرَيْن بين الصِّيام والإطعام، فإذا عجَزَا بعد ذلك عن الصَّوم، تعيَّن عليهما الإطعام، ثم نُسِخ ذلك التخيير، وبقِي هذا المعيَّن، وهذا ما تَقدَّم عن معاذ، وابن عبَّاس من رِواية سعيد بن جُبير وغيره من التابعين) ((شرح عمدة الفقه- كتاب الصيام)) (١/ ٢٦٢-٢٦٤).

وقال أيضًا: (قد ثبَت باتِّفاق أهل العلم-وهو في كتُب الحديث الصِّحاح، وغيرها، وكتُب التفسير والفقه -: أنَّ الله لَمَّا أوجب رمضانَ كان المقيم مخيَّرًا بين الصوم وبين أن يُطعِم كلَّ يوم مِسكينًا، فكان الواجبُ هو إطعام المسكين، ونَدَب سبحانه إلى إطعامِ أكثرَ مِن ذلك، فقال =

﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾.

أي: يجبُ على مَن استطاع الصِّيامَ ولم يصُمْ، أنْ يُقدِّمَ عن كلِّ يومٍ أفطَره طعامًا لمسكينٍ(١).

﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾.

أي: مَن أطعَم أكثرَ مِن مسكين، فذلك أفضلُ من إطعامِ مسكينٍ واحدٍ عن كلِّ يومٍ أفطَره(٢).

= تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾ ثمَّ قال: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾، فلمَّا كانوا مخيَّرين، كانوا على ثلاثِ دَرجاتٍ: أعلاها الصوم، ويليه أن يُطعِم في كلِّ يوم أكثرَ من مسكين، وأدناها أن يَقتصرَ على إطعام مسكين، ثمَّ إنَّ الله حتَم الصومَ بعد ذلك، وأسقطَ التخيير في الثَّلاثة) ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (٣١/ ٢٥٠).

وقال ابنُ كَثير: (روَى البخاريُّ عن سَلمةَ بن الأكوع، أنَّه قال: ((لمَّا نزلت: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ كان مَن أراد أن يُفطر يَفتدي، حتى نزلت الآيةُ التي بعدَها، فنَسختْها))... وقال البخاريُّ أيضًا: ... عن عطاءٍ سمِعَ ابنَ عبَّاس يقرأ: (وعلى الذين يُطوَّقونه فِديةٌ طعام مسكين)، قال ابن عبَّاس: ليستْ منسوخةً؛ هو للشَّيخ الكبير، والمرأة الكبيرة لا يستطيعانِ أن يصومَا، فيُطعِمانِ مكانَ كلِّ يوم مسكينًا))... فحاصل الأمر: أنَّ النسخ ثابتٌ في حقِّ الصَّحيح المقيم بإيجاب الصِّيام عليه، بقوله: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾، وأما الشيخ الفاني [الهَرِم] الذي لا يَستطيع الصيامَ، فله أن يُفطِر، ولا قضاءَ عليه؛ لأنه ليست له حالٌ يَصير إليها يتمكَّن فيها من القضاء) ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٩٩-٥٠٠).

وممَّن قال من السَّلف: إنَّ الآية منسوخةٌ: ابن عمر، ومعاذ بن جبل، وسَلَمة بن الأكوع، وعلقمة، وعِكرمة، والحسن البصري، والضَّحَّاك، وعَبيدة السَّلْماني، والشَّعبي، وعطاء الخُراساني، وزيد بن أَسْلَم، والزُّهري. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٦١)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٣٠٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٧٨، ١٧٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٦٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((شرح عمدة الفقه-كتاب الطهارة والحج)) لابن تيميَّة (١/ ٤٦٨)، ((شرح عمدة الفقه-كتاب الصيام)) لابن تيميَّة (١/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٦٨).

وعنِ ابن عبَّاس رضي الله عنهما: أنَّه قال: (﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ قال: زادَ مِسكينًا آخرَ) رواه النَّسائي (٤/ ١٩٠)، والطبراني (١١/ ١٦٨) (١١٣٨٨)، والدارقطني في ((السنن)) (٢/ ٢٠٥). =

﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾.

أي: صيامُ ما كُتِبَ لكم، خيرٌ لكم مِن أنْ تُفطِروا وتُطعِموا[1].

﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

أي: إذا عرَفتُم ما في الصَّومِ مِن الخيرِ لكم، فإنَّكم لن تتهاونوا في الصِّيام[2].

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥)﴾.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾.

أي: الأيَّامُ المعدودات هي شهرُ رمضانَ[3].

﴿الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾.

قيل: المعنى: أنَّ القرآنَ نزَل جُملةً واحدة- أي:كاملًا- مِن اللَّوحِ المحفوظ إلى

= وقال الدارقطنيُّ: إسنادُه صحيحٌ ثابت. وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن النَّسائي)) (٤/ ١٩٠).

وممَّن قال بهذا القول من السَّلف: عَطاء، وطاوس، وهو أحد قولَي مجاهِد، والحسنُ، والسُّدِّي، ومقاتِل بن حيَّان. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٨٣)، و((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٣٠٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٨٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٥٠)، ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (٣١/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٦٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٨٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٥٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٢٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ٢٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٦٨-١٦٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٣٢).

السَّماء الدُّنيا في ليلة القَدْر مِن شَهرِ رمضان[١]، وقيل: المعنى: أنَّ ابتداءَ نزولِ القُرآنِ على النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم كان في ليلةِ القَدْر من شهرِ رَمضانَ[٢].

﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾.

أي: إنَّ القرآنَ يُرشد النَّاسَ، ويدُلُّهم على طريقِ الحقِّ[٣].

﴿وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾.

أي: إنَّ القرآنَ مشتمِلٌ على آياتٍ واضحات، وهي دَلائلُ وبراهينُ جليَّةٌ، تبيِّن الحقَّ، وتُرشِد إليه، وتُثبِت صِدقَ ما في القرآن مِن أخبارٍ، وعَدْلَ ما فيه من أحكامٍ، وتَفصِل بين الحقِّ والباطل[٤].

﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾.

أي: فمَن كان حاضرًا مُقِيمًا في بلدِه، فقد وجَب عليه صيامُ ما حضَرَه من أيَّام الشَّهر[٥].

﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٠١).
وقد حَكَى القرطبيُّ في ((تفسيره)) (٢/ ٢٩٧-٢٩٨) الإجماعَ على ذلك.
وممَّن رُوي عنه هذا القول من السَّلف: ابن عبَّاس، وسعيد بن جُبير، يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٨٩)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٧٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٣٢-٣٣٣).
وممَّن رُوي عنه نحو هذا القول: ابن إسحاق. يُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (١/ ١٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٩٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٥٠)، ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٦٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٤/ ٢٧٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٣٤).

أي: إنَّ مَن كان في حالِ المَرَض أو السَّفر، فأفطَر، فعليه أنْ يقضيَ الصِّيامَ في أيَّامٍ أخرى، بعدَد الأيَّام الَّتي أفطَرها[1].

﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾.

أي: إنَّما رخَّص اللهُ تعالى في الإفطار لِمَن كان مريضًا، أو مسافرًا، وشرَعَ قضاءَ ما أفطَره؛ لأنَّه يحبُّ أنْ يُخفِّف عن المؤمنين، ويُسهِّل عليهم أحكامَه[2].

﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾.

أي: ويُريد اللهُ تعالى أنْ تُكمِلوا العِدَّة، والمعنى: يريدُ اللهُ شرعًا- أي: يُحِبُّ- أنْ تُكمِلوا عدَّةَ شهر رمضان بقضاءِ الأيَّام الَّتي أفطَرْتموها منه[3].

﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾.

أي: ويُريد اللهُ عزَّ وجلَّ أنْ تُكبِّروه، والمعنى: يُريد اللهُ شرعًا- أي: يُحِبُّ- أنْ تُعظِّموه بقول: اللهُ أكبَرُ، وذلك بعد انقضاءِ شهرِ رمضانَ؛ لِمَا أنعَم به عليكم من إرشادكم إلى هذا الشَّهرِ، وتشريع صومه وأحكامه، وتوفيقكم لتحقيق صيامه وإتمامِه[4].

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

أي: من أجْل أنْ تكونوا بتكبيرِكم اللهَ عزَّ وجلَّ، وبالقيام بغير ذلك من أنواع

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٠١، ٢٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن عُثيمين – الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٣٤-٣٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن عُثيمين – الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٧٦)، ((تفسير ابن عُثيمين – الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٢١)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ٣٠٦)، ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (٢٤/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٧٦)، ((تفسير ابن عُثيمين – الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٣٦).

شكره كأداء فرائضه وترك محارمه، مِن الشَّاكرين لنِعمة اللهِ تعالى عليكم بصِيام شهرِ رمضانَ، وتيسيرِه أحكامَه عليكم(١).

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦)﴾.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾.

أي: إذا سأَلك المؤمنون عن قُرْبي يا محمَّدُ، فأنا قريبٌ منهم، وأستجيبُ لدعاءِ مَن دعاني منهم، سواءٌ كان دعاءَ عبادةٍ فأُثيبهم عليها، أو دعاءَ مسألةٍ فأُعطيهم ما طلبوا(٢).

﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾.

أي: فلينقادوا لي، ممتثِلين أوامري، ومجتَنِبين نواهيَّ، وليؤمنوا بأنِّي أُثيبهم على انقيادِهم لي، وأُجيب دعاءَهم وتضرُّعَهم لي، من أجل إصابةَ الحقِّ بذلك، والتَّوفيقَ للعِلم النَّافع والعملِ الصالح(٣).

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١/ ٢٢٦-٢٢٧)، ((تلخيص كتاب الاستغاثة في الرد على البكري)) لابن تيميَّة (١/ ٢٧٥)، ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٢٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٧٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٢٢)، ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (١٥/ ١١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٢٥)، ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (١/ ١٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٤٣).

بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٨٧)﴾.

سبب النُّزول:

عن البَراء رضي الله عنه، قال: ((كان أصحابُ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم إذا كان الرجلُ صائمًا، فحضَر الإفطارُ، فنام قبل أنْ يُفطِر، لَم يأكُل ليلتَه ولا يومَه حتى يُمسِيَ، وإنَّ قيسَ بنَ صِرْمَةَ الأنصاريَّ كان صائمًا، فلمَّا حضَر الإفطارُ أتى امرأتَه فقال لها: أعندكِ طعامٌ؟ قالت: لا، ولكن أنطلِقُ فأطلُب لك، وكان يومَه يعملُ فغلبتْه عيناه، فقالت: خيبةٌ لكَ، فلمَّا انتصَف النَّهارُ، غُشِي عليه، فذُكِر ذلك للنبيِّ صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم، فنزَلَتْ هذه الآيةُ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾، ففرِحوا بها فرَحًا شديدًا، ونزلت: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾))[1].

وعن البَراءِ رضي الله عنه، قال: ((لَمَّا نزَل صومُ شهر رمضان، كانوا لا يقرَبون النِّساءَ رمضانَ كلَّه، فكان رجالٌ يخُونون أنفسَهم، فأنزَل اللهُ: ﴿عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾ الآية))[2].

وعن سَهْلِ بن سعدٍ رضي الله عنه، قال: ((أُنزِلت: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾، ولم ينزل: ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾، فكان رِجالٌ إذا أرادوا الصومَ ربَط أحدُهم في رِجْليه الخيطَ الأبيضَ والخيطَ الأسود، فلا يزال

(١) رواه البخاري (١٩١٥).

(٢) رواه البخاري (٤٥٠٨).

يأكل ويشرَبُ حتى يتبيَّنَ له رؤيتُها، فأنزَل الله بعدُ: ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾، فعلِموا أنَّه إنَّما يعني اللَّيلَ والنَّهارَ))[١].

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾.

أي: أُبيح لكم في ليالي الصِّيام الإفضاءُ إلى نسائِكم، أي: مجامعتُهنَّ[٢].

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾.

أي: إنَّ كلًّا مِن الزَّوجِ والزَّوجة بمثابةِ اللِّباس للآخَر، وذلك تعبيرٌ عن انضمامِهما متجرِّدَيْنِ، وشدةِ امتزاجِهما ببعضِهما حال الجِماع[٣].

﴿عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾.

أي: عَلِم اللهُ عزَّ وجلَّ أنَّكم كنتم- أيُّها المؤمنون- تخُونون أنفسَكم بمعصيةِ الله

---

(١) رواه البخاري (١٩١٧)، ومسلم (١٠٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٤٦).

وممَّن قال من السَّلَف: إنَّ الرَّفَث معناه الجِماع: ابن عبَّاس، وعطاء، ومجاهد، وسعيد بن جُبَير، وطاوس، والحسن، والضَّحَّاك، وإبراهيم النَّخَعي، وسالم بن عبد الله، والسُّدِّي، وعمرو بن دينار، وقتادة، والزُّهري، ومقاتل بن حَيَّان، وعطاء الخراساني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٣١٥).

(٣) وقيل المعنى: هُنَّ سكنٌ لهم، وأنتم سكنٌ لهنَّ. يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٢٨٦). ويُنظر لكلا المعنيَيْن: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٣١-٢٣٢)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥١٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٤٦).

قال ابنُ أبي حاتم: (عن الرَّبيع بن أنس ﴿هنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ قال: هنَّ لحافٌ لكم، وأنتم لحافٌ لهنَّ) ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٣١٦).

وقال ابن أبي حاتم أيضًا: (عن ابن عبَّاس ﴿هنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ قال: هنَّ سكنٌ لكم، وأنتم سكنٌ لهنَّ. ورُوي عن مجاهد، وسعيد بن جُبَير، وقَتادة، والسُّدِّي، ومقاتل بن حَيَّان، نحوُ ذلك) ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٣١٦).

سبحانه، فلا تَفُون بأمرِ الله تعالى لكم بالامتناعِ عن الجِماعِ لياليَ الصِّيام، إلَّا أنَّه قد تاب عليكم بأنْ أحلَّ لكم هذا الَّذي حرَّم عليكم من قبلُ، وتجاوَز عنكم ما سلَف من التخوُّنِ[1].

﴿فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ﴾.

أي: فالآنَ بعد هذه السَّعةِ بإباحة جِماعِ نسائكم، لكم أنْ تُجامِعوهنَّ، واطلُبوا بجِماعِهنَّ ما قدَّر اللهُ تعالى لكم مِن الولد[2]، وممَّا كتَب الله تعالى لكم أيضًا ليلة القَدْرِ، مِن ليالي شهرِ رمضانَ، فلا ينبغي لكم أنْ تشتغلوا بلذَّةِ الجِماعِ عنها، فتُفوِّتوا أجرها[3].

---

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٢٨٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٤٢، ٢٤٧، ٢٤٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٨٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٥٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٤٨).

والقول بأن المراد هو طلب الولد، قولُ جمهور المفسِّرين. يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٢٨٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٥٧).

وممَّن قال من السَّلَف: إنَّ المباشرةَ هنا الجِماع: ابن عبَّاس، ومجاهد، وعطاء، والضَّحَّاك، ومقاتل ابن حَيَّان، والسُّدِّي، والربيع بن أنس، وزيد بن أسلم) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٣١٧).

وممَّن قال من السَّلَف: إنَّ المقصودَ بقوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ﴾ هو طلبُ الولد: ابن عبَّاس -في أحَد قوليه- وأنس، وشُرَيح، والحسن، ومجاهد، وعطاء، والضَّحَّاك، وسعيد بن جُبَير، وعِكْرمة، والسُّدِّي، والربيع بن أنس، والحكم بن عُتَبة، وقتادة، وزيد بن أسلم، ومقاتل بن حَيَّان، وابن زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٣١٧).

(٣) وممَّن جَمع بين هذا القول وسابقه: ابن جرير في ((تفسيره)) (٣/ ٢٤٧)، وابن القيِّم في ((تحفة المودود)) (١/ ٨-١٠).

وقيل: المعنى: ابتغُوا الرخصةَ والتوسعةَ. واستحسنه ابنُ عطية في ((تفسيره)) (١/ ٢٥٧-٢٥٨).

وقيل: ما كتبه اللهُ: هو ما أباحه من مباشرةِ النِّساء في غير وقت الصيام. واختاره ابن عاشور في ((تفسيره)) (٢/ ١٨٣). وأجاز أيضًا أن يكونَ المرادُ بذلك طلبَ الولد.

وقيل غير ذلك. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢/ ٣١٨).

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾.

أي: أباح تعالى الأكلَ والشُّرب في أيِّ وقتٍ من الليل شاءه الصائمُ، حتى يظهَر ويتميَّز بياضُ النَّهار من سواد اللَّيل، وحينها يجبُ الإمساكُ عن الأكل والشُّربِ والجِماع إلى غروب الشمس(١).

عن عمرَ بنِ الخطَّابِ، رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((إذا أقبَل اللَّيلُ مِن هاهنا، وأدبَر النَّهار مِن هاهنا، وغربتِ الشَّمسُ، فقد أفطَر الصَّائمُ))(٢).

وعن عَديٍّ بن حاتمٍ رضي الله عنه، قال: ((لَمَّا نزلتْ: ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾. عَمَدْتُ إلى عِقَالٍ أسودَ وإلى عِقَالٍ أبيضَ، فجَعلتُهما تحتَ وِسَادتي، فجعلتُ أنظرُ في الليلِ فلا يَسْتَبِينُ لي، فغَدَوتُ على رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فذكرتُ لهُ ذلكَ، فقالَ: إنَّما ذاكَ سوادُ الليلِ وبياضُ النهارِ))(٣).

﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾.

نهى اللهُ تعالى المؤمنين عن الجِماعِ حالَ اعتكافهم للعبادة في بيوتِ اللهِ تبارك وتعالى(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٦٠-٢٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥١٢-٥١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧).

(٢) رواه البخاري (١٩٥٤) واللفظ له، ومسلم (١١٠٠).

(٣) رواه البخاري (١٩١٦) واللفظ له، ومسلم (١٠٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٦٨، ٢٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص:٨٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٤٩).

قال ابن أبي حاتم: (عن ابن عبَّاس، قوله: ﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾، هذا في الرجل يعتكفُ في المسجد في رمضانَ أو غيره، فحرَّم الله عليه أن ينكحَ النساء ليلًا ونهارًا، حتى يقضي اعتكافه) ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٣١٩).

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾.

أي: هذا الَّذي بيَّنه اللهُ تعالى مِن الأحكامِ في هذه الآيةِ- كتحريمِ الأكلِ، والشُّرب، والجِماعِ في نهار الصِّيام، وغير ذلك مِن محرَّمات- قد عرَّفها اللهُ تعالى لعباده، وبيَّنها، لتفصلها عن الحلالِ، وتتميَّزَ لهم، وعليهم أنْ يُبقُوا أنفسَهم بعيدةً عنها(١).

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

أي: كما بيَّن اللهُ تعالى لعباده أحكامَ الصِّيام أتمَّ تبيينٍ، فكذلك يُبيِّن أيضًا سائرَ الأحكام الأخرى في كتابِه أو على لسانِ رسولِه عليه الصَّلاة والسَّلامُ، ويوضِّحُها لهم أكملَ إيضاح؛ كي يقوموا بأحكامِه؛ فِعلًا لِما أمَر، واجتنابًا لِما نهى(٢).

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٨)﴾.

مُناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا حذَّر الله تعالى من الجُرأة على مخالفة حُكم الصِّيام غيرِ المأذون فيه في قوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾، وهو ضربٌ من الأكْل الحرام- عطَف عليه أكلًا آخَرَ مُحرَّمًا، وهو أكلُ المال بالباطل(٣). وأيضًا لَمَّا سبَق في آيات الصِّيام تحريمٌ لأشياءَ خاصَّة في زمانٍ خاصٍّ- ذكَر عَقِبَه ما تحريمُه عامٌّ في زمانه، وهو أكْل أموال النَّاس بالباطل(٤)، فقال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير العثيمين – الفاتحة والقرة)) (٢/ ٣٦٣).

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾.

أي: لا يأخُذْ بعضُكم أموالَ بعضٍ بغير الطُّرق الا اللهُ تعالى لذلك[1].

ثم أفرد الله تعالى بالذِّكر أحدَ أنواع أكْل أموال الناس بالباطل، فقال:

﴿وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾.

أي: لا تتوصَّلوا بحُكم الحاكم إلى أكلِ الأموال بغير حقٍّ؛ وذلك كأن يجحَدَ امرؤٌ الحقَّ الذي عليه، وليس عليه بيِّنة، ثمَّ يُخاصمه عند القاضي، فيطلُب القاضي من المدَّعِي بيِّنةً، فإن لم تكُنْ له بيِّنة طلَب من المدَّعَى عليه اليمينَ، فإذا حلَف بَرِئ، فتوصَّل إلى جَحدِ مالِ غيره بالمحاكمة، أو يتوصَّل إلى ذلك بِرِشْوة الحاكم بالمالِ؛ ليحكمَ له بتلك الأموالِ بغير حقٍّ[2].

﴿لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

أي: فتكونون بذلك آكِلينَ طائفةً مِن أموال النَّاس بالحرامِ، وأنتم تعلَمون أنَّكم واقِعونَ في الحرام[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٧٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٢٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٧٦، ٢٧٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٢٨٩)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٩٠، ١٩١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٦٤-٣٦٥).

قال ابن أبي حاتم: (عن ابن عبَّاس قوله: ﴿وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾ قال: هذا في الرجُل يكون عليه مالٌ وليس عليه فيه بيِّنة، فيجحد المالَ ويُخاصمهم إلى الحُكَّام، وهو يعرِف أنَّ الحقَّ عليه، وقد علِم أنَّه آثمٌ آكِلٌ حرامًا. ورُوي عن مجاهد، وسعيد بن جُبَير، والحسن، وقَتادة، ومقاتل بن حَيَّان، قالوا: لا تُخاصِم وأنت تَعلم أنَّك ظالم) ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٣٢١).

وقيل: إنَّ قوله: ﴿وَتُدْلُوا﴾ مرتبطٌ بالجملةِ السابقة: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾؛ فيكون النَّهيُ عن مجموع الأمرين، أي يكون أكلُ أموال النَّاس بالباطلِ خاصًّا في هذه الآيةِ، بأكلِها فقط عبر الحُكَّام، بالرِّشوةِ أو بغيرها، كما سبَق ذِكره. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٩٠، ١٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٧٦، ٢٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٢١)، ((تفسير =

الفوائد التربويَّة:

١- النَّظر في حِكمة الله سبحانه وتعالى في تنويعِ العبادات؛ فمِنها ما هو ماليٌّ محضٌ: كالزَّكاة، ومنها ما هو بدنيٌّ محضٌ؛ كالصَّلاة، ومنها ما هو مركَّبٌ منهما: بدَنيٌّ، وماليٌّ: كالحجِّ، ومنها ما هو مِن قَبيل التُّروك: كالصِّيام؛ وذلك ليتمَّ اختبارُ المكلَّف؛ لأنَّ مِن النَّاس مَن يَهُون عليه العملُ البدنيُّ دون الماليِّ، ومنهم مَن يكونُ بعكسِ ذلك، وهكذا[1].

٢- تَسليةُ المكلَّف لِمَن كلَّفه بعمل؛ ليهُون عليه القيامُ به، ومن ذلك: الإشارةُ إلى تكليفِ غيرِه به من قَبلُ؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾، ومن ذلك أيضًا: التعبيرُ بكلماتٍ يكونُ بها تهوينُ الأمرِ على المكلَّف؛ لقوله تعالى: ﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾[2].

٣- يَنبغي سلوكُ الأسبابِ الموصِّلة إلى تحقيقِ التَّقوى؛ لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أوجَب الصِّيامَ لهذه الغايةِ في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[3].

٤- النَّظَر في حِكمةِ الله سبحانه وتعالى في التدرُّج بالتَّشريع؛ حيث كان الصِّيامُ أوَّلَ الأمرِ على سبيلِ التَّخيير، فإمَّا أنْ يصومَ، وإمَّا أنْ يُطعِمَ كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ

= السعدي)) (ص: ٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٦٥-٣٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣١٨، ٣٢٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣١٨).

لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، ثمَّ تعيَّن الصِّيامُ على القادرِ بعد ذلك[١].

٥- أنَّ مِن شرط إجابةِ الدُّعاء أنْ يكونَ الدَّاعي صادقَ الدَّعوة في دعوةِ الله عزَّ وجلَّ؛ بحيث يكون مخلصًا مُشعِرًا نفسَه بالافتقار إلى ربِّه، ومشعِرًا نفسَه بكرَمِ الله وجُودِه؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا دَعَانِ﴾[٢].

٦- أنَّ الإنسانَ كما يخُون غيرَه قد يخُون نفسَه؛ وذلك إذا أوقَعها في معاصي اللهِ؛ فإن هذا خيانةٌ، وعلى هذا فنفسُ الإنسان أمانةٌ عنده؛ لقوله تعالى: ﴿عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧][٣].

٧- أنَّه ينبغي البُعدُ عن المحارمِ؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾[٤].

٨- أنَّ العِلم سببٌ للتَّقوى؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، ووجهُه: أنَّه ذكَره عقِبَ قولِه تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ﴾؛ فدلَّ هذا أنَّه كلَّما تبيَّنتِ الآياتُ حصَلت التَّقوى، ويؤيِّدُ ذلك قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، فكلَّما ازداد الإنسانُ عِلمًا بآياتِ الله، ازداد تُقًى؛ ولهذا يُقال: مَن كان باللهِ أعرَفَ كان منه أخوَفَ[٥].

٩- في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٧]، إشارةٌ إلى علوِّ مرتبةِ التَّقوى؛ لكونِ الآياتِ تبيَّنُ للناسِ مِن أجلِ الوصول إليها[٦].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٢٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٤٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٥٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٥٩).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٦١).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف:

١- مِن فوائِدِ التَّشبيه المذكور في قوله تعالى: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾: استكمالُ هذه الأمَّةِ للفضائلِ الَّتي سَبقَت إليها الأممُ السَّابقة، وليكون للمسلمين فيه أُسوةٌ، وليجتهدوا في أداءِ هذا الفرض بأكملَ ممَّا فعَله مَن سبقَهم(١).

٢- ثبوتُ تفاضُلِ الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾، وتفاضُلُ الأعمال يستلزم تفاضُلَ العامل(٢).

٣- في قوله تعالى: ﴿الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ إثباتُ صِفة العلوِّ لله تعالى؛ لأنَّه أَنزَل القرآن، والإنزالُ إنَّما يكون من عُلْوٍ(٣).

٤- أنَّ المشقَّةَ تَجلِب التَّيسيرَ؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾؛ لأنَّ المرَض والسَّفر مَظِنَّةُ المشقَّةِ(٤).

٥- في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ إثباتُ صِفة الإرادةِ لله تعالى، والمرادُ بها هنا: الإرادةُ الشَّرعيَّة، وهي بمعنى المحبَّة(٥).

٦- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي... إِذَا دَعَانِ﴾ تخلَّل الدُّعاء أحكامَ الصيام؛ إرشارةً إلى الاجتهاد في الدعاء عند إكمال العدَّة، بل وعند كلِّ فِطر(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٩٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣١٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٣٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٣٢)
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٢٤).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٣٥).
ويُنظر: ((رسالة لأهل الثغر)) لأبي الحسن الأشعري (ص: ٢١٤)، ((التدمرية)) لابن تيمية (ص: ٢٥)، ((دقائق التفسير)) لابن تيمية (٥/ ١٨٤-١٩٣)، ((القواعد المثلى)) لابن عثيمين (ص: ٣٩).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٧٩).

٧- قيل: إنما قال تعالى: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ ولم يقل: (فقل لهم إني قريب) إيجازًا لظهوره من قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾، وتنبيهًا على أنَّ السؤال مفروضٌ غير واقع منهم بالفعل، وفيه لطيفةٌ قرآنية، وهي إيهام أنَّ الله تعالى تولَّى جوابهم عن سؤالهم مباشرةً منه إليهم؛ إذ حذف في اللفظ ما يدلُّ على وساطة النبي صلَّى الله عليه وسلَّم؛ تنبيهًا على شدَّة قُرب العبد من ربِّه في مقام الدُّعاء، واحتيج للتأكيد بـ(إنَّ)؛ لأنَّ الخبر غريبٌ، وهو أن يكون تعالى قريبًا مع كونهم لا يرونه[1].

٨- قُيِّدَت هذه الآية بالمشيئة ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾، وأمَّا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ فأطلقت فيه إجابة الدعوة دون تقييدٍ بالمشيئة؛ قيل لأنَّ الآية التي قُيِّدت: جاءت في دعاء الكفار، وجاءت الآية الأخرى في دعاء المؤمنين فلم تُقيَّد بالمشيئة؛ لأنَّ دعاء المؤمن لا يُرَد إلا إذا كان بإثمٍ أو قطيعة، وما جرى مجرى ذلك[2].

٩- قيل: جاء قولُه تعالى: ﴿إِذَا دَعَانِ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿الدَّاعِ﴾ مع أن الدَّاعي لا يُوصَف بأنه داعٍ إلَّا إذا دعا؛ لأن المراد بقوله تعالى: ﴿إِذَا دَعَانِ﴾: إذا صدق في دعائه إيَّاي؛ بأنْ شعَر بأنَّه في حاجةٍ إلى الله تعالى، وأنَّ الله سبحانه قادرٌ على إجابته، وأخلص الدعاء لله عزَّ وجلَّ بحيث لا يتعلق قلبه بغيره[3].

١٠- أنَّ الزَّوجةَ سِترٌ للزَّوج، وهو سِترٌ لها، وأنَّ بينهما مِن القُربِ كما بين الثِّيابِ ولابِسِها، ومِن التَّحصينِ للفُروج ما هو ظاهرٌ؛ لقوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾[4].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٧٩).
(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٣٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٤٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٥١).

١١- أَنَّه ينبغي أنْ يكونَ الإنسان قاصدًا بوَطْئِه طلَبَ الولَدِ؛ لقوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ﴾(١).

١٢- جوازُ أَنْ يُصبِح الصائمُ جُنُبًا؛ لأنَّ اللهَ أباح الجِماعَ حتَّى يتبيَّنَ الفجرُ، ولازِمُ هذا أنَّه إذا أخَّر الجِماعَ لَم يغتسِلْ إلَّا بعد طلوعِ الفجرِ، وقد ثبَت عن الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ أنَّه كان يُصبِح جُنُبًا مِن جِماع أهلِه، ثم يصومُ(٢).

١٣- أنَّ بياضَ النَّهار وسوادَ الليل يتعاقبانِ، فلا يجتمعانِ؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾(٣).

١٤- أنَّ الاعتكافَ مشروعٌ في كلِّ مسجد؛ لعموم قوله تعالى: ﴿فِي الْمَسَاجِدِ﴾(٤).

١٥- استنبط بعضُ أهل العلم أنَّ الاعتكافَ يكون في رمضان في آخره؛ لأنَّ الله تعالى ذكَر حُكْمه عقِبَ آياتِ الصِّيام؛ وهذا هو الذي جاءت به السُّنَّة(٥).

١٦- جاء قولُه سبحانه وتعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فلا تقْرَبُوها﴾؛ عقب محرماتٍ، فناسب أن يُنهى عن قربانها، والنهي عن قِربان شيءٍ أبلغُ من النهيِ عن فعله، وجاء في موضعٍ آخر: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فلا تَعْتَدُوها﴾ عَقِبَ أوامر؛ فناسب أن يُنهى عن مجاوزتها(٦).

١٧- حِرص الشَّارِع على حِفظ الأموال؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٥١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٥٤). والحديث أخرجه البخاري (١٩٣١) واللفظ له، ومسلم (١١٠٩)، من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٥٤).
(٤) يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١/ ٦٢٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٥٩).
(٦) يُنظر: ((الدر المصون)) للحلبي (٢/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧).

بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾؛ فالأموالُ تقُوم بها أمورُ الدِّين، وأمورُ الدنيا؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ [النساء: ٥][(١)].

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فيه تكرارٌ للنِّداء؛ لإظهارِ مزيدِ الاعتناءِ، ولبيان حُكمٍ آخَر من الأحكام الشرعيَّة، بعدما سبَق تفصيلُه في الآيات الماضية عن القِصاص[(٢)].

٢- قوله: ﴿كُتِبَ﴾ مبنيٌّ للمفعول- وكذا أمثاله من المكتوبات- وحُذِف الفاعل للعِلم به؛ إذ هو: الله تعالى-؛ لأنَّها مشاقُّ صعبةٌ على المكلَّف، فناسَب أنْ لا تُنسب إلى الله تعالى، وإنْ كان الله تعالى هو الذي كتَبها، وحين يكون المكتوبُ للمكلَّف فيه راحةٌ واستبشار يُبنى الفعل للفاعِل، كما في قوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقوله: ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١]، وأمثالها، وهذا من لَطيف عِلم البيان[(٣)].

٣- قوله: ﴿عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ فيه تقديمٌ وتأخير، حيث قدَّم شِبه الجملة ﴿عَلَيْكُمُ﴾ على نائب الفاعل ﴿الصِّيَامُ﴾، والأصل تأخيرها عنه؛ لأنَّ البَداءةَ بذِكر المكتوب عليه آكَدُ مِن ذكر المكتوب؛ لتعلُّق الكَتْب بمَن يؤدِّي[(٤)].

٤- في قوله تعالى: ﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ عُبِّر عن رمضانَ بأيَّامٍ، وهي جمْع قِلَّة، ووُصفَت بمَعدوداتٍ، وهي جمْعُ قِلَّة أيضًا؛ تهوينًا لأمرِه على المكلَّفين، والمعدوداتُ كنايةٌ عن القلَّة؛ لأنَّ الشيءَ القليل يُعدُّ عدًّا؛ ولذلك يقولون: الكثيرُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٢٦٦).

لا يُعَدُّ، ولأجْل هذا اختير في وصفِ الجمْعِ مجيئُه بلَفْظ ﴿مَعْدُودَاتٍ﴾، وإنْ كان مجيئُه بلفظ (مَعْدودَة)- على طريقةِ الجمْع المُكسَّر الذي فيه هاءُ تأنيثٍ- أكثرَ[١]

٥- قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فيه حذْف معمول ﴿تَعْلَمُونَ﴾؛ إمَّا للاقتصار، أي: إنْ كنتم مِن ذوي العِلم والتَّمييز، وإمَّا للاختصار؛ للدَّلالة عليه، وفَهمه من السِّياق[٢].

٦- قوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ فيه حذْفٌ، ووضْعٌ للمُظهر المتأخِّر مكانَ المضمَر الأوَّل؛ إذ أصله: فمن شهد فيه فليصم فيه؛ فأضمر (فيه) الأولى، وهذا يُفيد التعظيم والمبالَغة في البيان[٣].

٧- وفي قوله: ﴿عَنِّي﴾ و: ﴿إِنِّي﴾ من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾: التفاتٌ من غَيْبَة إلى تَكَلُّمٍ؛ لأنَّ قبلَه، ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ﴾، والاسمُ الظاهرُ في ذلك كالضميرِ الغائبِ، وفيه ما لا يَخفْى من تشريفِه ورفعِ محلِّه[٤].

- وقوله ﴿فَإِنِّي﴾: فيه تقريبُ الجواب، وتنبيهٌ على شِدَّة قُرب العبد من ربِّه في مقام الدُّعاء، وإخباره سبحانه وتعالى بنفسه الشريفة دون واسطة؛ إشعارًا بفرط قُربه وحضوره مع كلِّ سائل فقال: ﴿فإنِّي﴾ دون (فقل إني)، فإنَّه لو أثبت (قل)، لأوهم بُعدًا وليس المقام كذلك، ولكان قوله: ﴿فَإِنِّي﴾، موهمًا فيحتاج إلى أن يقال: (إنَّ الله) أو نحوه، ومع ذلك فلا ينفكُّ عن إشكال؛ وإذا كان هذا التلطُّف بالسَّائلين؛ فما ظنُّك بالسالكين السائرين[٥]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٢٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٢٠٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٢٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٠٠).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٣/ ٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٧٩).

- واحتيج للتأكيد بـ(إنَّ)؛ لتأكيد كونه تعالى قريبًا منهم، مع كونهم لا يَرَوْنه[1].

٨- وردَ **قوله تعالى:** ﴿**وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ**﴾ بعد قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ من باب ذِكر الخاصِّ بعد العامِّ، وفائدته: بيان شدَّة شَناعة هذه الصورة، ولأنها جامعةٌ لمحرماتٍ كثيرة[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٧٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٨٧).

الآيات (١٨٩ - ١٩٥)

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَاۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾.

غريب الكلمات:

﴿مَوَاقِيتُ﴾: جمْع مِيقات، وهو مِفْعالٌ من الوقت، وهو الوقتُ المضروبُ للشيء، والوعدُ الذي جُعِل له وَقْتٌ، وقد يُقال المِيقَاتُ للمكان الذي يُجعَل وَقْتًا للشيء، كمِيقَاتِ الحجِّ[1].

﴿ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾: وجدتُموهم، وظفِرتم بهم، وأصل ثقِف: الحِذق في إدراك الشَّيء وفِعله، وإقامة عِوَج الشيء[2].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٤).

﴿التَّهْلُكَةِ﴾: الهَلاكُ، وهو مصير الشيء بحيث لا يُدرى أين هو[1].

المعنى الإجمالي:

سأَل النَّاسُ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ عن الحِكمة من تغيُّر أحوال القمَر صِغرًا وكِبرًا على مراحلَ، فأعلَمه الله سبحانه بالجواب الذي يردُّ به على تساؤلِهم، وهو أنَّ الحكمةَ من خَلْق ذلك أنْ يضبطَ به النَّاس شوؤنهم المؤقَّتة بأوقاتٍ؛ كصومِهم، وفِطرهم، وعدَّة نسائهم، وآجالِ ديونهم، وأوقات حَجِّهم، وغيرها.

ثم أخبَر سبحانه أنَّه ليس من الخير ما كان يفعلُه أهلُ الجاهليَّة من غير القُرَشيين، حيث يمتنعون حالَ إحرامِهم من دخول البيوت من قِبَل الأبواب، وإنَّما من الخَلْف، وأعلَمهم أنَّ البِرَّ والخيرَ في تقوى الله تعالى بامتثال أوامرِه، واجتناب مناهيه، وعليهم أنْ يدخلوا البيوتَ من أبوابها، وأن يلتزموا بالتَّقوى؛ بفعلهم المأمورَ، وتركِهم المنهيَّ عنه، رجاء أنْ يصِلوا بتقواهم تلك إلى الظَّفَر بما يطلُبون، والنَّجاةِ ممَّا يحذَرون.

ثمَّ أمَر الله المؤمنين بالقتال في سبيله، مَن يقاتِلُهم مِن مُقاتِلة الكفَّار، ولا يتجاوزوا ذلك إلى قَتْل النِّساء والأطْفال والشيوخ، وغيرهم ممَّن لم يشتركوا في قتالهم؛ فإنَّ ذلك تعدٍّ، والله تعالى لا يحبُّ المتجاوزين لحدودِ ما شرَع.

ثمَّ أمرَ اللهُ تعالى المؤمنين أنْ يقتلوا الكفَّار المقاتِلين لهم في أيِّ موضعٍ وجَدوهم، وأن يقوموا بإخراجِهم من الأماكن الَّتي أخرَجوا الَّذين آمَنوا منها من قبلُ؛ فإنَّ ما هم فيه من الشِّرك بالله تعالى أعظمُ من إزهاق أنفسِهم، كما أنَّ صدَّ المشركين للمؤمنين عن دِينهم؛ ليصيروا مِثلَهم، أشدُّ مِن أنْ يُقْتَلَ المؤمنون وهم مُتمسِّكون بدِينهم.

ونَهى الله المؤمنين عن ابتداءِ الكفَّار بقَتْلٍ وقِتالٍ في المسجد الحرام، لكن إذا

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٤).

ابتدأ الكفَّار فيه بذلك فليقتلهم المؤمنون؛ عُقوبةً لهم مثلما هي عُقوبة كلِّ كافرٍ مُعْتَدٍ، فإنْ تابوا وأسلموا وترَكوا القتالَ، فإنَّ الله يتجاوز عن سيئاتهم، ويرحمهم بتوفيقهم للخير.

ثمَّ كرَّر اللهُ الأمرَ بقتال المشركين؛ لئلَّا يكونَ ثَمَّ إشراكٌ باللهِ، وتكون الطَّاعةُ والعبادة لله وحده. فإنْ ترَكَ هؤلاء المشركون القتالَ، وتابوا إلى الله فقد وجَب الكفُّ عن قتالهم؛ لأنَّه لا يستحقُّ المعاقَبةَ إلا مَن وقع في الظُّلم بشِركٍ، أو كُفر، أو قَتْل، أو مقاتَلة، وهؤلاء بتوبتِهم قد تخلَّصوا من الظُّلم.

ثم بيَّنَ اللهُ لعباده المؤمنين أنهم إن قاتَلهم المشركون في أحَدِ الأشهر الحُرُم، فليقاتلوهم فيه، فكما انتهكوا للمؤمنين حرمةَ شهرِهم الحرام، فإنَّ للمؤمنين أن يَنتهكوا حُرمةَ شَهرِهم جزاءً عادلًا، ومَن تعدَّى على المؤمنين، فليردُّوا عليه عدوانَه بمِثله، وأمَرَهم بتقواه عزَّ وجلَّ؛ حتَّى لا يتجاوزوا الحدَّ الَّذي رخَّص لهم في المعاقَبة به، وهو العقوبة بالمِثل، وليتيقَّنوا أنَّ اللهَ مع مَن اتَّقاه؛ فامْتَثل المأمورَ وترَكَ المحظورَ.

ثمَّ أمرَ اللهُ المؤمنين بإنفاق المال في أوجهِ القُرَب، ومنها: الإنفاقُ في جهاد أعداء الدِّين؛ إعلاءً لكلمةِ الله تعالى، ونَهاهم عن الوقوعِ فيما يكون سببًا لهلاكهم وعذابهم؛ وذلك بتَرْك ما أمَر الله تعالى به، أو بفِعْل ما نهاهم عنه، ومِنه: بُخْلهم عن الإنفاقِ في سبيل الله، وأمَرهم سبحانه أنْ يتحلَّوا بالإحسانِ في جميع أحوالهم، في معاملتِهم لخالقِهم، وفي تعاملِهم مع المخلوقين مثلهم؛ وذلك لأنَّ الله تعالى يحبُّ مَن كان متَّصفًا بالإحسانِ.

تفسير الآيات:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٨٩)﴾.

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا أتمَّ الله سبحانه وتعالى البيانَ لِمَا أراده ممَّا شرَعه في شهر الصَّوم ليلًا ونهارًا، وبعض ما تبع ذلك، وكان كثيرٌ من الأحكام يدور على الهلال، لا سيَّما الحجُّ، وكانت الأهلَّة كالحُكَّام تُوجب أشياءَ وتَنفي غيرها؛ كالصِّيام والدُّيون والزَّكوات، قال سبحانه[1]:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾.

أي: يسألُك أصحابُك يا محمَّد عن القمرِ حين يبدو هلالًا في بدايات الشَّهر ونهاياته: ما حِكمةُ هذا التغيُّر، خلافًا للشمس الباقية على هَيئةٍ ثابتة؟ فلقَّنه الله تعالى الإجابةَ بأنَّها خُلِقت؛ ليعرفَ النَّاسُ بها أوقاتَ حَجِّهم، وشهر صومهم، ويوم فِطرهم، وعِدَد نِسائهم، وغير ذلك من أحكامهم[2].

﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾.

سبب النُّزول:

عن أبي إسحاقَ قال: سمعتُ البَراء رضي الله عنه يقول: ((نزلت هذه الآيةُ فينا، كانت الأنصارُ إذا حجُّوا فجاؤوا لم يدخلوا من قِبَل أبواب بيوتهم، ولكن مِن ظهورها، فجاء رجل من الأنصار فدخَل من قِبَل بابه، فكأنَّه عُيِّر بذلك فنزلت: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾))[3].

﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٣/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٩٥-١٩٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٦٩).

(٣) رواه البخاري (١٨٠٣)، ومسلم (٣٠٢٦).

أي: إنَّ هذا العملَ مع اعتقاده قُربةً، ليس مِن الخير في شيء، فنفَى الله تعالى مشروعيَّتَه؛ وذلك أنَّ أهلَ الجاهلية من سوى القُرشيِّين، كانوا إذا أحرَموا بحجٍّ أو عُمرة لم يدخلوا البيوتَ من أبوابها؛ تعبُّدًا لله عزَّ وجلَّ، فإذا احتاجوا منها شيئًا دخلوا من خلفِها، يظنُّون ذلك خيرًا يتقرَّبون به إلى الله عزَّ وجلَّ(١).

﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾.

أي: إنَّ البِرَّ الحقيقيَّ هو أنْ يتَّقيَ العبدُ ربَّه عزَّ وجلَّ؛ بامتثال أوامره، واجتنابِ نواهيه، لا التعبُّد بما لم يشرَعْه الله جل وعلا؛ ولذا أمَر بإتيان البيوتِ مِن أبوابها كما هو الأصلُ الَّذي جرَتْ به العادة؛ إذ لا دليلَ يمنَعُ مِن ذلك حال الإحرام(٢).

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

أي: افعَلوا ما أمَركم الله تعالى به، واجتنِبوا ما نهاكم عنه، ومن ذلك: تَرْكُ الابتداع، والالتزام بالاتباع، من أجل أنْ تظفَروا بما تطلُبون، وتنجُوا ممَّا تحذَرون(٣).

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠)﴾.

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٨٨-٢٨٩)، ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (١١/ ٦٣٢-٦٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٦٩-٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٨٨-٢٨٩)، ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (١١/ ٦٣٢-٦٣٣). (٢٠/ ٤٩٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٧٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٩٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٧٠-٣٧١).

أي: قاتِلوا- أيُّها المؤمنون-؛ لأجلِ الله تعالى وحْده، وإعلاءً لِدِينه، وبالطريقة الَّتي شرَعها سبحانه، من يُقاتِلونكم من الكفَّار دون مَن سواهم[1].

﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾.

أي: لا تتجاوَزوا ما حدَّه اللهُ تعالى لكم ممَّا شرَعه مِن أحكام القتال، ومن ذلك عدمُ قتلِ النِّساء والأطفال والشيوخ، وغيرهم ممَّن لم يُعاونوا بأيِّ وسيلةٍ على قتالِ المؤمنين؛ وذلك لأنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يحبُّ مَن تجاوَز حدودَ ما شرعه، فوقَع في المحرَّمات، سواءٌ في القتال أو غيره[2].

عن بُرَيدةَ بن الحُصَيب رضي الله عنه: ((أنَّ الرسولَ صلَّى الله عليه وسلَّمَ كان إذا أمَّرَ أميرًا على جيشٍ أو سَريَّةٍ، أوصاه في خاصَّتِه بتقوَى اللهِ، ومن معه من المسلمين خيرًا، ثم قال: اغْزُوا باسمِ اللهِ في سبيلِ الله، قاتِلوا مَن كفَر باللهِ، اغزوا، ولا تَغُلُّوا، ولا تغدِروا، ولا تُمَثِّلوا، ولا تقتُلوا وليدًا، وإذا لقِيتَ عدوَّك مِن المشركين فادعُهم إلى ثلاثِ خِصالٍ- أو خِلالٍ-، فأيَّتهنَّ ما أجابوك، فاقبَلْ منهم، وكُفَّ عنهم))[3].

﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١)﴾.

﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٩١-٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٢٣-٥٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٧٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٧٤).

(٣) رواه مسلم (١٧٣١).

أي: اقتُلوا الكفَّارَ الَّذين يُقاتِلون المؤمنين، في أيِّ مكانٍ ظَفِرْتم فيه بهم، وإن لم يكونوا في ساحةِ القتال(١).

﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾.

أي: أخرِجوا هؤلاء الَّذين يقاتلونكم مِن دياركم الَّتي أخرَجوكم منها من قبلُ(٢).

﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾.

أي: إنَّ ما هم عليه من الشِّرك بالله تعالى والكفر به، أمرٌ أعظمُ من إزهاق نفوسهم، كما أنَّ محاولاتهم لصدِّ المؤمنين عن دِينهم؛ ليصيروا مِثلهم من المشركين، أشدُّ مِن أنْ يُقتلوا وهم مستمسِكون بدِينهم؛ فالفتنة تتكرَّر أضرارُها، بينما يحدُث ألَمُ القتلِ مرَّةً واحدة، والقتل يقطَع عن الدُّنيا، لكن الفِتنة قد تقطَع عن نعيم الآخرة(٣).

﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ﴾، ﴿يُقَاتِلُوكُمْ﴾، ﴿قَاتَلُوكُمْ﴾ قراءتان لكلٍّ منها:

١- ﴿وَلَا تَقْتُلُوهُمْ﴾، ﴿يَقْتُلُوكُمْ﴾، ﴿قَتَلُوكُمْ﴾ أي وَلَا تَقْتُلُوهُمْ عِنْد

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٩٢-٢٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٠١-٢٠٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٩٣-٢٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٢٤-٥٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٧٧).

وممَّن قال من السَّلَف: إنَّ الفِتنة هاهنا تَعني الشِّرك: أبو العالية ومجاهد، وسعيد بن جُبَير، وعِكْرمة، والحسن، وأبو مالك، وقَتادة، والضَّحَّاك، والرَّبيع بن أنس. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٣٢٦).

الْمَسْجِد الْحَرَام حَتَّى يقتلُوا بَعْضكُم، فإنْ قتلوا بَعْضكُم فاقتلوهم[1].

٢- ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ﴾، ﴿يُقَاتِلُوكُمْ﴾، ﴿قَاتَلُوكُمْ﴾ أي لا تحاربوهم حَتَّى يحاربوكم فَإن حاربوكم فاقتلوهم، والمراد النهي عن قصدِهم بالقتال حتى يكون الابتداء منهم، والقِتَال من اثنين، والقَتْل من الواحد[2].

﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾.

أي: نهى اللهُ تعالى عِبادَه المؤمنين عن ابتداءِ الكفَّار بقتلٍ أو قتالٍ في المسجد الحرام حتى يكونوا هم الَّذين يبدَؤون بذلك، فإن قاتَلوكم أو قتَلوكم، فاقتُلوهم دَفْعًا لعُدوانهم عليكم[3].

﴿كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾.

أي: كما قرَّرنا القتل جزاءً على من قاتلكم أو قتلكم، فجزاء الكافرين (المعتدين) أيضًا القتلُ، وفي هذا تهديدٌ لهم[4].

---

(١) قرأ بها حمزة والكسائي. يُنظر: ((النَّشر)) لابن الجزري (ص: ١٥٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٩٤)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ١٩٥)، ((حجة القراءات)) لابن زَنْجلَة (ص: ١٢٧، ١٢٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٢٧٤).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النَّشر)) لابن الجزري (ص: ١٥٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٩٤)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ١٩٥)، ((حجة القراءات)) لابن زَنْجلَة (ص: ١٢٧، ١٢٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٩٥-٢٩٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٧٧).

﴿فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

أي: فإنْ تركوا القتال وأسلَموا، فإنَّ الله تعالى يتجاوَزُ عن كلِّ ما سلَف منهم من سيِّئات، وبرحمته يوفِّقُهم للخير الَّذي يُثيبهم عليه حسنات[1].

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ للهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣)﴾.

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ للهِ﴾.

أي: قاتِلوا المشركين الَّذين يقاتِلونكم حتى لا يكونَ ثَمَّ شِركٌ بالله تعالى، فتكون العبادة والطَّاعة لله عزَّ وجلَّ وحده دون غيره، فهذا هو المقصودُ مِن القتال[2].

عن أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه، قال: ((جاء رجلٌ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقال: الرجلُ يُقاتِلُ حَمِيَّةً، ويُقاتِلُ شَجاعةً، ويُقاتِلُ رِياءً، فأيُّ ذلك في سبيلِ اللهِ؟ قال: مَن قاتَل لتكونَ كلمةُ اللهِ هي العُليا، فهو في سبيلِ اللهِ))[3].

﴿فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾.

أي: فإنْ توقَّفوا عن قتالكم وأسلَموا، وأخلَصوا العبادةَ لله تعالى وحده، فقد تخلَّصوا من الظُّلم، فكُفُّوا عنهم؛ فإنَّه لا تحلُّ معاقَبة أحدٍ بقتاله أو قتله، إلَّا لِمَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٩٨-٢٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩)، ((تفسير ابن عُثيمين – الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٨١).

وممَّن قال من السَّلَف: إنَّ قوله تعالى: ﴿فَإِنِ انْتَهَوْا﴾ يعني: فإن تابوا: مجاهد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٩٩).

(٢) ذهَب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير في ((تفسيره)) (٣/ ٢٩٩-٣٠١)، وابنُ كثير في ((تفسيره)) (١/ ٥٢٥). والسعديُّ، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩).

وممَّن فسَّر الفِتنة بالشِّرك من السَّلَف: ابن عبَّاس، وقَتادة، ومجاهد، والسُّدِّي، والرَّبيع. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٩٩).

(٣) رواه البخاري (٧٤٥٨) واللفظ له، ومسلم (١٩٠٤).

وقَع منه من ظلمٍ بشِرك أو كُفر أو قَتْل أو مقاتَلة(١).

عن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((أُمرتُ أنْ أقاتِلَ النَّاسَ حتى يقولوا: لا إلهَ إلا اللهُ، فمن قال: لا إلهَ إلا اللهُ، فقدْ عصَم منِّي نفسَه ومالَه إلَّا بحقِّه، وحسابُه على اللهِ))(٢).

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٩٤)﴾.

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾.

أي: إنْ قاتَلوكم في أَحدِ الأشهر الحُرُم، فقاتِلوهم فيه، وقيل: المراد أنَّ الشهرَ الحرام الذي قضى فيه النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ والمسلمين معه العُمرةَ (وهو شهر ذي القَعدة) أيضًا، جاء في مُقابِل الشَّهر الحرام (شهر ذي القَعدة) الذي صدَّهم فيه المشرِكون عن العُمرة في العام الَّذي سبَق عمرةَ القضاء(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٢٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٨٢-٣٨٣).

قال ابنُ أبي حاتم: (عن أبي العالية قوله ﴿فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ يعني: على مَن أبَى أن يقول: لا إله إلا الله. ورُوي عن عِكرمة، وقَتادة، والرَّبيع بن أنس، نحوُ ذلك) ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٣٢٧).

وممَّن قال من السَّلف إنَّ المراد بالظالم: الظالم بالمقاتلة: مجاهد، والسُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٣٠٣).

(٢) رواه البخاري (٢٩٤٦)، ومسلم (٢١).

(٣) يُنظر للمعنى الأول: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٥٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٨٤).

ويُنظر للمعنى الثاني: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٠٩)، ((شرح عمدة الفقه- كتاب الطهارة والحج)) لابن تيميَّة (٣/ ٣٨٠).

وجعَل السعديُّ كِلا المعنيَيْن ممَّا تحتمله الآية. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩).

﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾.

أي: كما انتهكوا لكم حُرمةَ شهرِكم، فقد انتهكتم منهم حرمةَ شهرهم أيضًا، سواءً بسواءٍ، جزاءً عادلًا، وكذا كلُّ شيء يُحترم كالبلدِ الحرام، وغيره من جميع ما أمَر الشرعُ باحترامه، فمن تجرَّأ عليه وانتهك حُرمته، فإنَّه يُقتصُّ منه بمِثله(١).

﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾.

أي: هذا أمرٌ من الله تعالى بالعدلِ حتى في شأنِ المعاقَبة، فيُقتصُّ مِن المعتدي بمِثل عُدوانه، دون زيادة(٢).

﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾.

مناسبتها لِمَا قبلها:

لَمَّا كانت النفوسُ لا تقف في الغالب على حدِّها الذي رُخِّص لها في المعاقَبة؛ وذلك لرغبتِها في التَّشفِّي قال تعالى(٣):

﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾.

أي: أمَر تعالى بلزوم تقواه، بعدمِ تجاوزِ ما وجب لهم من القِصاص، ولْيعلَموا معتقدين جازمين بأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ مع عباده المتَّقين الَّذين يمتثلون أوامرَه، ويجتنبون نواهيَه، فيؤيِّدهم وينصُرهم ويوفِّقهم(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٣٠٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩-٩٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٣١٠-٣١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٨٥-٣٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٣١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٨٦).

﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٩٥)﴾.

سبب النُّزول:

عن حُذَيْفَة رضي الله عنه: ((﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾؛ قال: نَزَلَتْ في النَّفَقةِ))(١).

وعن أبي أيُّوبَ الأنصاريِّ رضي الله عنه، قال: ((كنَّا بمدينةِ الرُّوم، فأَخْرَجوا إلينا صَفًّا عظيمًا من الرُّومِ، فخرج إليهم من المسلمينَ مِثْلُهم أو أكثرُ، وعلى أهلِ مصرَ عُقْبَةُ بنُ عامرٍ، وعلى الجماعةِ فَضَالةُ بنُ عُبَيدٍ، فحمل رجلٌ من المسلمينَ على صَفِّ الرُّومِ، حتى دخل عليهم، فصاح النَّاسُ وقالوا: سبحانَ اللهِ! يُلْقِي بيَدَيْهِ إلى التهلُكةِ، فقام أبو أيوبَ الأنصاريُّ فقال: يا أَيُّها النَّاسُ، إنَّكم لَتُؤَوِّلُونَ هذه الآيةَ هذا التأويلَ، وإنما نَزَلَت هذه الآيةُ فينا مَعْشَرَ الأنصارِ، لَمَّا أَعَزَّ اللهُ الإسلامَ وكَثُرَ ناصِرُوه، فقال بعضُنا لبعضٍ سِرًّا دون رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنَّ أموالَنا قد ضاعَت، وإنَّ اللهَ قد أَعَزَّ الإسلامَ وكَثُرَ ناصِرُوه، فلو أَقَمْنا في أموالِنا فأَصْلَحْنا ما ضاع منها، فأنزل اللهُ تبارك وتعالى على نَبِيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَرُدُّ علينا ما قُلْنا: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، فكانت التَّهْلُكَةُ الإقامةَ على الأموالِ وإصلاحِها، وتَرْكَنا الغَزْوَ، فما زال أبو أيوبَ شاخصًا في سبيلِ اللهِ حتى دُفِنَ بأرضِ الرُّومِ))(٢).

ولا تعارضَ بين الرِّوايتينِ، بل إنَّ رِواية أبي أيُّوبَ رضي الله عنه هي مُبيِّنة

(١) رواه البخاري (٤٥١٦).

(٢) أخرَجه الترمذي (٢٩٧٢) واللفظ له، والنَّسائي في ((السنن الكبرى)) (٦/ ٢٩٩) (١١٠٢٩)، وابن حِبَّان (١١/ ٩) (٤٧١١).

قال الترمذيُّ: حسنٌ صحيحٌ غريب، وصحَّح إسناده الشوكاني في ((نيل الأوطار)) (٥/ ٣١٩)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٩٧٢).

ومفسِّرة للإجمالِ الوارد في رِواية حُذيفةَ بن اليمان رضي الله عنه السَّابقة[١].

﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾.

أي: أَنفِقوا قُربةً لله عزَّ وجلَّ في وجوه الطاعات- ومن ذلك: الإنفاق في جهاد أعداء الدِّين؛ لإعلاءِ كلمة الله تعالى- واجتَنِبوا إلْقاءَ أنفُسِكم فيما فيه هلاكُها وعذابُها، وذلك بتَرْك ما أمَر الله تعالى به، أو فِعْل ما نهى عنه، ومن ذلك: تَرْك الإنفاق في الجهاد؛ فليستِ التَّهلكةُ أن يُقتَل الرَّجُلُ في سبيل الله تعالى، ولكنَّ التَّهلكةَ في ترْك الإنفاق في سبيله سبحانه[٢].

﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

أي: أمَر اللهُ تعالى عبادَه بأن يُحسنوا في كل شيء؛ في معاملتِهم للخالق عزَّ وجلَّ بعبادته كأنَّهم يرَوْنه، وفي معاملتِهم للمخلوقين؛ بذلًا للمعروف، وكفًّا للأذى؛ وذلك لأنَّ الله تعالى يحبُّ المحسنين[٣].

عن شدَّاد بن أوسٍ رضي الله عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال: ((إنَّ اللهَ كتَب الإحسانَ على كلِّ شيءٍ، فإذا قتلتم فأحسِنُوا القِتْلَةَ، وإذا ذبحتم فأحسِنُوا الذَّبحَ، ولْيُحِدَّ أحدُكم شفرتَه، فلْيُرِحْ ذبيحتَه))[٤].

---

(١) ينظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٣٢٤-٣٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠).

وممَّن قال من السَّلَف: إنَّ معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾: إنَّه ترْك النَّفقة في سبيل الله: ابن عبَّاس، وعِكْرمة، والحسن، ومجاهد، وعَطاء، وسعيد بن جُبَير، وأبو صالح، والضَّحَّاك، والسُّدِّي، ومقاتل بن حَيَّان، وقَتادة. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٣٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٨٩).

(٤) رواه مسلم (١٩٥٥).

الفوائد التربويَّة:

١- أنَّ العاداتِ لا تجعَل غيرَ المشروع مشروعًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾، مع أنَّهم اعتادوه واعتقَدوه من البِرِّ، فمن اعتاد شيئًا يعتقده بِرًّا، فإنَّ عليه أنْ يعرِضَه على شريعة الله[1].

٢- أنَّه ينبغي للإنسان أنْ يأتيَ الأمور من أبوابها؛ ليحصلَ على مقصوده؛ لقوله تعالى: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾؛ فإن هذه الآيةَ كما تناوَلتِ البيوت الحسِّيَّة تناولت أيضًا الأمورَ المعنويَّة[2].

٣- أنَّ الله سبحانه وتعالى إذا نَهى عن شيءٍ فتَح لعباده مِن المأذون ما يقومُ مقامَه؛ فإنَّه لَمَّا نفى أنْ يكونَ إتيانُ البيوت من ظهورها من البِرِّ، بيَّن ما يقومُ مقامَه؛ فقال تعالى: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾[3].

٤- أنَّه ينبغي للمتكلِّم أنْ يذكُرَ للمخاطَب ما يهيِّجه على الامتثال؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾[4].

٥- حُسن تعليمِ الله عزَّ وجلَّ؛ حيث يقرنُ الحُكمَ بالحِكْمَة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[5].

٦- فضيلة التَّقوى؛ حيث ينال العبدُ بها مَعيَّةَ الله؛ وإذا كان الله معك فإنَّه ينصُرك، ويُؤيِّدك، ويثبِّتك، فهذا يدلُّ على فضيلة السَّبب الذي هو التقوى؛ لقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾، وقد أكَّد الله تعالى هذه المعيَّةَ للمتَّقين بقوله

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٧٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٧٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا﴾؛ فلم يقتصر على مجرَّدِ الإخبار بها، بل أمَرنا أنْ نعلَمَ بذلك[1].

٧- الإشارة إلى الإخلاص في العمل؛ لقوله تعالى: ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾، ويدخل في هذا: القصد، والتنفيذ؛ بأنْ يكون القصدُ لله، وأن يكون التنفيذُ على حسَب شريعةِ الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧][2].

٨- أن المعتديَ لا يُجازَى بأكثرَ مِن عدوانه؛ لقوله تعالى: ﴿بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾، فلا يقول الإنسان: أنا أريد أنْ أعتديَ بأكثرَ للتشفِّي، ومن ثَمَّ قال العلماء: إنه لا يُقتَصُّ مِن الجاني إلَّا بحضرة السلطان أو نائبِه؛ خوفًا من الاعتداء؛ لأنَّ الإنسانَ يريدُ أنْ يتشفَّى لنفسِه، فربما يعتدي بأكثرَ[3].

٩- في قوله: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ الأمر بالإنفاق في سائر وجوه القُربات والطاعات، ومن أهمها: صرف الأموال في قِتال الأعداء، وبذْلها فيما يقوى به المسلمون على عدوِّهم، وأنَّ الإمساكَ عن الإنفاق في سبيل الله تهلكةٌ للنفس بالشُّحِّ، وتهلكةٌ للجماعة بالعجز والضَّعف، وبخاصَّة في نظامٍ يقوم على التطوُّع، كما كان يقوم الإسلام[4].

١٠- في الأمرِ بالإحسان بعد ذِكْر الأمر بالاعتداء على المعتدي والإنفاق في سبيل الله والنهيِ عن الإلقاء باليدِ إلى التَّهلُكة: إشارةٌ إلى أنَّ كلَّ هذه الأحوال يلابِسُها الإحسان ويحفُّ بها؛ ففي الاعتداء مثلًا يكون الإحسانُ بالوقوف عند الحدود، والاقتصاد في الاعتداء، وفي الجهاد في سبيل الله يكون الإحسان بالرِّفق بالأسير والمغلوبِ، وبحِفْظ أموال المغلوبين وديارِهم من التَّخريبِ والتحريق، وغير

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٨٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٩٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٨٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٣/ ٤٧٩)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ١٩٢).

ذلك(١). وقوله: ﴿وَأَحْسِنُوا﴾ يشمَلُ جميعَ أنواع الإحسان؛ لأنَّه لم يقيِّدْه بشيء دون شيء، فيدخل فيه الإحسانُ بالمال، وبالجاه، وبالشَّفاعات، وغير ذلك(٢).

الفوائد العِلميَّة واللَّطائف:

١- حِرص الصَّحابة رضي الله عنهم على العلم؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ﴾(٣).

٢- بيان عِلم الله، وسَمْعه، ورحمته؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾؛ علِم اللهُ بسؤالهم، وسمِعه، ورحِمهم بالإجابة(٤).

٣- أنَّ الميقات المعتبرَ هو الذي وضَعه الله للناس- وهو الأهلَّة- فالأصل أنْ يكونَ هو الميقاتَ العالَمي؛ لقوله تعالى: ﴿مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾، وأمَّا التوقيتُ بالأشهر الإفرنجيَّة فلا أصلَ له(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٧١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قال ابن تيميَّة: (وقد بلغني أنَّ الشرائع قبلنا أيضًا إنما علَّقت الأحكام بالأهِلَّة، وإنما بدَّل مَن بدَّل من أتباعهم كما يفعله اليهود في اجتماع القُرصين، وفي جعْل بعض أعيادها بحساب السَّنة الشمسيَّة، وكما تفعله النصارى في صومها حيث تراعي الاجتماعَ القريب من أول السَّنة الشمسيَّة، وتجعل سائر أعيادها دائرة على السَّنة الشَّمسيَّة بحسب الحوادث التي كانت للمسيح، وكما يفعله الصابئة والمجوس وغيرهم من المشركين في اصطلاحات لهم، فإنَّ منهم من يَعتبر بالسَّنة الشمسية فقط، ولهم اصطلاحات في عدد شهورها؛ لأنَّها وإن كانت طبيعية فشهرُها عدَدي وضْعي، ومنهم مَن يَعتبر القمرية لكن يعتبر اجتماع القُرصين، وما جاءت به الشريعة هو أكملُ الأمور وأحسنُها، وأبينها وأصحُّها، وأبعدها من الاضطراب) ((مجموع الفتاوى)) (٢٥/ ١٣٥).

وقال ابن القيِّم: (... فالحِكمة البالغة التي في تقدير السِّنين والشهور بسَير القمر أظهرُ وأنفع وأصلح، وأقلُّ اختلافًا من تقديرها بسير الشمس) ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ١٦٥).

٤- في قوله: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ أنَّ الفتنة عن الدِّين اعتداءٌ على أقدس ما في الحياة الإنسانيَّة، ومِن ثَم فهي أشدُّ من القتل؛ أشدُّ من قتْل النفس وإزهاق الرُّوح وإعدام الحياة، ويَستوي أن تكونَ هذه الفتنةُ بالتهديد والأذى الفعلي، أو بإقامة أوضاعٍ فاسدةٍ من شأنها أن تُضلَّ الناس، وتُفسدهم، وتُبعدهم عن منهج الله، وتُزيِّن لهم الكفر به، أو الإعراضَ عنه(١).

٥- إثبات العَدْل لله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾، والجزاء من جِنس العمل(٢).

٦- أنَّ ما كان سببًا للضَّرر فإنَّه منهيٌّ عنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾(٣).

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾

- فيه اختصار بليغ؛ إذ نبَّه تعالى بقوله: ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ على جميع المنافِع التي تكون في اختلاف أحوال القمر؛ لأنَّ تعديد جميع هذه الأمور يَقضي إلى الإطناب، والاقتصار على البعض دون البعض ترجيحٌ من غير مرجِّح؛ فلم يبقَ إلَّا الاقتصار على كونه ميقاتًا، فكان هذا الاقتصار دليلًا على الفصاحة العظيمة لهذا الكلام البليغ(٤).

- وإفرادُ الحجِّ بالذِّكر لبيان أنَّ الحجَّ مقصورٌ على الأشهُر التي عيَّنها الله تعالى

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٨١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٥/ ٢٨٤-٢٨٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٢٣٦).

لفرضه، وأنَّه لا يجوز نقْل الحجِّ من تلك الأشهُر إلى أشهرٍ أخرى، كما كانتِ العربُ تَفعَل ذلك في النَّسيء(١).

٢- قوله: ﴿فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فيه إيجازٌ بديع؛ فقوله: ﴿فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ جواب الشرط، وكلُّ سامعٍ يعلم أنَّ وصْف الله تعالى بالمغفرة والرحمة لا يترتَّب على الانتهاءِ، فيَعلم أنَّه تنبيهٌ لحصول المغفرة والرحمة لهم إنِ انتهوا، وهذا من إيجاز الحذْف(٢).

٣- قوله: ﴿فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾

- وضع قوله: ﴿إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ موضعَ (على المنتهين)، أي: فلا تظلموا إلَّا الظالمين غيرَ المنتهين، فوضَع العِلَّة موضعَ الحُكم، وسمَّى جزاء الظالمين عدوانًا؛ للمشاكلة، والفاء الأُولى للتعقيب، والثانية للجزاء(٣).

- وفي قوله سبحانه ﴿فَلَا عُدْوَانَ﴾ نفيٌ عامٌّ يُراد به النَّهي، أي: فلا تعتدوا، وذلك على سبيل المبالغة؛ فالعدول عن النهي إلى النفي المحض العام، ألزمَ في المنع؛ إذ صار من الأشياء التي لا تقع أصلًا(٤).

٤- قوله: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ فيه الإخبار عن الحُرمات بلفظ ﴿قِصاص﴾، وهو من باب الإخبار بالمصدر للمبالغة(٥).

٥- قوله: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾

---

(١) يُنظر: ((فتح القدير)) للشوكاني (١/ ٢١٨)، ((تفسير المنار)) (٢/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢٣٦)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٢٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٢٤٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢١١).

تفريعٌ[1] عن قوله: ﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾، ونتيجةٌ له؛ ففيه من البلاغة: فَذْلكة التقرير، وسُمِّي جزاءُ الاعتداء اعتداءً؛ مشاكلةً[2].

٦- قوله: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ تذييلٌ للترغيب في الإحسان؛ لأنَّ محبة الله عبدَه غايةُ ما يطلبه الناس؛ إذ محبَّة اللهِ العبدَ سببُ الصلاحِ والخيرِ دُنيا وآخِرة، واللام للاستغراق العُرفي، والمراد المحسنون من المؤمنين[3].

---

(١) التفريع: هو إثبات حُكم لمتعلِّق أمرٍ، بعد إثباته لمتعلِّق له آخَر؛ فلا بدَّ إذًا من متعلقين، أي: شيئين منسوبين لأمرٍ واحد، كغلام محمد وأبيه بالنسبة إلى محمدٍ، ولا بدَّ من حُكمٍ واحدٍ يَثبُت لأحد المتعلقين، وهما الغلام والأب، بعد إثباته للآخر، كأن يُقال: غلام محمد فرِح ففرِح أبوه، فالفرح حكمٌ أثبت لمتعلقَيْ محمَّد، وهما غلامه وأبوه، وإثباته للثاني على وجهٍ يُشعر بتفريعه عن الأول. يُنظر: ((علوم البلاغة البيان، المعاني، البديع)) للمراغي (ص: ٣٤١-٣٤٢)، ((جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع)) للهاشمي (ص: ٣١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢١٦).

الآيات (١٩٦ - ٢٠٣)

﴿وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ
حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ
صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ
فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ
حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦) الْحَجُّ أَشْهُرٌ
مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا
تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي
الْأَلْبَابِ (١٩٧) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ
فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ
وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (١٩٨) ثُمَّ
أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
(١٩٩) فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُواْ اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ
أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي
الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي
الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللَّهُ
سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٠٢) ۞ وَاذْكُرُواْ اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ
فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ
إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٠٣)﴾.

غريب الكلمات:

﴿أُحْصِرْتُمْ﴾: مُنِعتُم، وأصل الحصْر: الجمْع والحبْس والمنع[1].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩١)، =

﴿اسْتَيْسَرَ﴾: تَيَسَّرَ، وَسَهُلَ[1].

﴿الْهَدْيِ﴾: مُختصٌّ - في هذا الموضِع - بما يُهْدَى إلى البيتِ من الأنعام؛ قربةً إلى الله، وواحدتُه: هديَّة، وهي: كلُّ ما يُهدَى إلى ذِي مَوَدَّةٍ[2].

﴿مَحِلَّهُ﴾: المَحِلُّ: الموضِع الذي يَحِلُّ فيه نَحْر الهدْي[3].

﴿أَذًى﴾: مَا يُكره ويُغتَمُّ به[4].

﴿نُسُكٍ﴾: جَمْع نسيكة، وهي الذَّبيحة التي تُوزَّع على فُقراء الحرم، وأصل (نسك): يدُلُّ على عبادةٍ وتقَرُّبٍ إلى اللهِ تعالى؛ ومنه قيل للعابد: ناسِك، واختصَّ بأعمال الحجِّ[5].

﴿جُنَاحَ﴾: إثْمَ، سمِّي بذلك لِمَيله عن طريق الحقِّ؛ فأصله: جَنَح، إذا مال وتعدَّى[6].

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٤، ١٢٢).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٩١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٣٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٤).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٤).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٨).

﴿أَفَضْتُمْ﴾: دَفعتُم بِكَثْرَة، وأصل الفيض: جَريانُ الشيء بسُهولة(١).

﴿خَلَاق﴾: نصيبٌ، وحظٌّ في الخير(٢).

مشكل الإعراب:

قوله: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾:

﴿فَمَا﴾: الفاء رابطةٌ لجواب الشرط، و(ما) موصولةٌ بمعنى الذي، وهي مبتدأ في محلِّ رفْع، والخبر محذوف، أي: فعليه ما استيسر، ويجوزُ أن تكون (ما) في موضِع نصب مفعول لِفِعلٍ محذوف، والتقدير: فلْيُهدِ ما استيسر(٣).

المعنى الإجمالي:

يأمر اللهُ تعالى مَنْ شرعوا في الحجِّ أو العمرة بإتمام ما شَرَعوا فيه منهما، بأركانه وواجباته، مُخلِصين لله تعالى في ذلك، فإنْ مُنعُوا من الوصول للبيت الحرام لمانعٍ من خوفٍ أو مرضٍ أو لسبب آخر، فلْيَذبحوا ما تيسَّرَ لهم من الإبل، أو البقر، أو الغنم، وأمرهم سبحانه ألَّا يحلُّوا من إحرامهم إذا أُحصروا إلَّا بعد أن يَبلُغَ الهديُ الذي أوجبه الله عليهم محلَّ نَحْره، وهو موضع الإحصار- فأمَّا غير المُحصَر فيذبحه في الحرم، وإنْ كان في حجٍّ فينحره في يوم النحر منه- ومَن احتاج إلى حلْق رأسه لمرض، أو كان في رأسه ما يُؤذيه كالقمل، فله أنْ يَحلقَه، فإنْ فعل فهو مخيَّرٌ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٧).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٢٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٣١٣)، ((إعراب القرآن الكريم)) لدعاس (١/ ٨٢).

بين أن يصومَ عِوضًا عن ذلك ثلاثةَ أيَّام، أو يُطعِمَ سِتَّةَ مساكين، لكلِّ مسكين نصفُ صاع، أو يذبح شاةً.

فإذا زال المانعُ، وقدَروا على الوصول إلى البيت الحرام، فمَنْ أتى بعمرةٍ ثمَّ حلَّ منها متمتِّعًا بذلك الحلِّ إلى أن يَشرَع في أعمال الحجِّ– وكذا مَن قرَن بين الحج والعمرة– فإنَّ عليه ذبحَ ما قدر على ذبْحِه من الإبل، أو البقر، أو الغنم، فمَن لم يجِد، فلْيصُمْ بدلًا من ذلك، عشرة أيام، ثلاثة منها في أثناء الحجِّ، وسبعة إذا عاد إلى أهلِه وموطنِه بعد فراغه من أداء نُسكه، وهذا الحُكم للمتمتِّع الذي ليس أهله من حاضري المسجد الحرام، ثم أمَر سبحانه وتعالى بتقواه، وذلك بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، ولْيعلمِ العبادُ أنَّ الله شديدُ العقوبة لمَنْ خالف ما أمرَ به، وارتكبَ ما نهى عنه سبحانه وتعالى.

ثمَّ يخبر عزَّ وجلَّ عن توقيت الحجِّ، وأنه واقعٌ في أشهرٍ معلومة هي شوال، وذو القعدة، وعشر من ذي الحجة، فمَن أحرم بالحجِّ في تلك الأشهر فعليه أن يجتنبَ جِماعَ النِّساء ومقدِّماته، ولا يتحدَّثَ بذلك في حضرتهنَّ، ويجتنبَ أيضًا جميعَ المعاصي والتي منها محظورات الإحرام، وسبابَ المسلم، ويدَعَ الجدالَ بالباطل، ومنه المجادلة في وقتِ الحجِّ وأحكامه، فقد بيَّنها تعالى أتمَّ بيان وأوضحَه، وعليه أن يدعَ المراءَ والمنازعة والمخاصمة. وأخبر سبحانه عبادَه أنَّ ما يعملونه من خيرٍ فإنَّه به عالمٌ وسيجزيهم عليه أفضلَ الجزاء، وأمَرَهم بالتزوُّد من الأقوات التي تُعينهم على الوصول إلى البيتِ الحرام، وأداء العبادة، وأعْلمهم أنَّ خيرَ الزاد هو ما أعانهم على الوصول إلى نعيمِ الآخرة، وهو التقوى بامتثال أوامرِه سبحانه وتعالى، واجتناب نواهيه، وأمَر بها أصحابَ العقول الذين يُدركون حقيقةَ التقوى وثمارها.

ثم شرَعَ سبحانه في بيان بعض أفعال الحجِّ، فأمر الحُجَّاجَ أن يذكروه سبحانه عند المزدلفة بعدَ أن يدفعوا إليها من عَرفات، وهذا الذِّكر الذي أمر الله به يدخُل

فيه الصلاةُ والدعاء عندها، ولْيذكروه سبحانه شُكرًا له على أنْ أرشدهم إلى طريق الهداية وإنْ كانوا من قبلِ أن يرشدهم إليها لفي زيغٍ وضلال، واذكروه كذلك وفقَ الصِّفة المشروعة التي هداكم إليها.

ثم أمَرَ الله عزَّ وجلَّ عبادَه من الحُمْس[1] وهم قريش الذين كانوا لا يُفيضون من عرفات، أمرهم بالإفاضة منها كما كانتِ العرب قاطبةً تُفيض منها، وأمرَ سبحانه الحجاجَ أيضًا أن يطلبوا منه التجاوزَ عن ذنوبهم، وسترها لأنه جلَّ وعلا غفَّار الذنوب، والرَّحيم بعباده المؤمنين.

ثم خاطَب اللهُ عباده الحجاج أنَّهم إن أتمُّوا مناسك حجهم، وتحللوا من إحرامهم فلْيكثروا من ذكره سبحانه وتعالى، ولْيكن ذكرهم له كذكرهم مآثر آبائهم، بل عليهم أن يذكروه بأشدَّ من ذلك.

ثمَّ أَرشدَ اللهُ عزَّ وجلَّ إلى دُعائه بعد الأمْر بالإكثار من ذكره؛ فإنَّ ذلك أَحْرى بالإجابة، وذمَّ سبحانه مَن لا يسأله إلَّا متاعَ الدُّنيا، وليس له في ثواب الآخرة أي نصيب، ومدَحَ المؤمنين الذين يسألون الله عزَّ وجلَّ من خيرَيِ الدنيا والآخرة، ويَطلُبون منه سبحانه أن يَصرِفَ عنهم عذابَ النار، فأصحابُ هذا القِسم لهم ثوابٌ عظيم على حَجِّهم الذي قاموا به، وسيُجيبهم الله إلى ما دَعوا به من خيرَيِ الدنيا والآخرة، والله سريعٌ في إحصاء أعمال عبادِه، سريعٌ في مجازاتهم.

ثم أمَرَ جلَّ وعلا عبادَه بالتكبير في أيَّام التشريق، ويشمل ذلك التكبيرَ عند ذبح الأضاحي، والتكبيرَ المطلَق في سائر الأوقات، والتكبيرَ المقيَّد بعدَ الصلوات المفروضة، والتكبيرَ عند رمي الجِمار، ثم يُخبر تعالى أنه لا حرَجَ على الحاجِّ في تعجُّله

(١) الحُمْس: هم قريش، ومَن ولدتْه قريش، وكنانة، وجديلة قيس؛ سُمُّوا حمسًا؛ لأنَّهم تحمَّسوا في دِينهم، أي: تشددوا، وقيل: سمُّوا حمسًا بالكعبة؛ لأنَّها حمساء حجرها أبيض يضرب إلى السَّواد. ((شرح مسلم)) للنووي (٨/ ١٩٧).

بخروجه من مِنًى قبل غروب شمس اليوم الثاني من أيَّام التشريق، أو تأخُّره ببقائه فيها إلى اليوم الثالث لرمْي الجمرات، ما دام أنَّه في كلا الأمرين ممتثلٌ ما أمر الله به، مجتنبٌ ما نهاه عنه، ثم أوصى اللهُ عبادَه بتقواهُ بإطاعةِ أوامرِهِ والانزجارِ عن نواهيه، وليتيقنوا أنَّهم سيُحشرون إليه سبحانه يوم القيامة.

تفسير الآيات:

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦)﴾.

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾.

أي: يا مَن شرَعتم في أعمال الحجِّ والعمرة، عليكم إتمامَهما بأركانِهما وواجباتِهما، بإخلاصٍ لله تبارك وتعالى(١).

﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾.

أي: فإنْ منَعكم وحبسكم خوفُ عدوٍّ، أو إصابةٌ بمرض، أو وقوع علَّةٍ أخرى،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٣٤١)، ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (٢٧/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٣٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٩٢).
قال ابنُ كثير: (اتَّفق العلماء على أنَّ الشروع في الحجِّ والعُمرة ملزمٌ، سواء قيل بوجوب العُمرة أو باستحبابها، كما هما قولانِ للعُلماء) ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٣٠).
وحكَى ابنُ تيميَّة وابنُ عاشور الاتِّفاقَ على أنَّ آية: ﴿وَأَتِمُّوا الحَجَّ وَالعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ نزلت عام الحُديبية سَنَة ست). ينظر: ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (١٧/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢١٦).

عن الوصول إلى البيت الحرام، فاذبحوا ما تيسَّر من بهيمة الأنعام، من الإبل أو البقر أو الغنم(١).

﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾.

أي: لا تَحِلُّوا من إحرامِكم إذا أُحصِرْتم عن حجٍّ أو عُمرة، حتى يبلغَ الهديُ- الذي أوجبتُه عليكم- محلَّ ذَبْحه، وهو موضع الإحصار(٢).

وحُكم الآية عامٌّ يَشمل غيرَ المُحصَر كذلك، فمحلُّ نَحْره في الحجِّ: في الحَرم يومَ النَّحر، وأمَّا في العُمرة ففي الحرم أيضًا(٣).

﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٣٤٧-٣٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٩٢-٣٩٨).
وممَّن قال من السَّلف بنحو ما ذُكر في معنى الإحصار: ابن عبَّاس -في رواية عنه- وابن مسعود، وابن الزُّبير، وعلقمة، وسعيد بن المسيَّب، وعروة بن الزبير، ومجاهد، وقتادة، والنَّخَعي، وعطاء، ومقاتل بن حيَّان. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٣٤٢)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٣٣٤).
وممن رُويَ عنه في قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ مثلما ذُكر: ابن عباس، وقتادة، والسُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٣٣٥).

(٢) وهو اختيارُ ابنِ جَرير في ((تفسيره)) (٣/ ٣٥٩-٣٧٥).
وقال البَغويُّ: (والهدايا كلُّها يَختصُّ ذَبحُها بالحَرَم، إلَّا هَدْي المُحصَر؛ فإنَّ محلَّ ذَبحِه حيث يُحصَر عند أكثرِ أهل العِلم) ((شرح السُّنة)) (٧/ ٢٨٥).
وقال الشُّنقيطيُّ: (وجمهورُ العلماء على أنَّه يَنحرُه في المحلِّ الذي حُصِر فيه، حِلًّا كان أو حَرَمًا) ((أضواء البيان)) للشِّنقيطي (١/ ٨٣). ويُنظر: ((مختصر فقه الحج)) إعداد القسم العلمي بالدُّرر السَّنية (ص: ٣٨٤).

(٣) وهذا اختيارُ ابن عَطيَّة في ((تفسيره)) (١/ ٢٦٧).
وقال ابنُ تَيميَّة: (الآية عامَّةٌ في هَدْي المُحصَر وغَيرِه؛ لعمومِ لفظِها وحُكمها) ((شرح عمدة الفقه - كتاب الطهارة والحج)) (٢/ ٣٣٢، ٣٧٣ - ٣٧٤).

سبب النُّزول:

عن عبد الرَّحمن بنِ أبي لَيلى أنَّ كعبَ بن عُجْرة حدَّثه قال: ((وقفتُ على رسول الله صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم بالحُديبيَة ورأسي يتهافت قملًا، فقال: يؤذيك هوامُّكَ، قلت: نَعم، قال: فاحلِقْ رأسَك، أو احلِقْ، قال: فيَّ نزلت هذه الآيةُ: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ﴾ إلى آخرِها، فقال النبيُّ صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم: صُمْ ثلاثةَ أيَّامٍ، أو تصدَّق بفَرَقٍ[1] بين سِتَّةٍ، أو انسُكْ ممَّا تيسرَّ))[2].

وعن عبد الله بن مَعقِل قال: ((قعدْتُ إلى كعبِ بنِ عُجْرَةَ في هذا المسجدِ- يعني مسجد الكوفة- فسألتُه عن فديةٍ من صيام، فقال: حُمِلْتُ إلى النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ والقَمْلُ يَتَناثَرُ على وجهي، فقال: ما كنتُ أرى أنَّ الجَهْدَ قد بلَغَ بك هذا، أمَا تَجِدُ شاةً؟ قلتُ: لا، قال: صُمْ ثلاثةَ أيَّامٍ، أو أَطْعِمْ ستَّةَ مساكينَ، لكلِّ مسكينٍ نصفُ صاعٍ مِن طعامٍ، واحلِقْ رأسَك، فنزلت فيَّ خاصَّةً، وهي لكم عامَّةً))[3].

﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾.

أي: إنَّ مَن مرض فاحتاج إلى حلق رأسه، أو كان برأسه أذًى كالقمل فحلَق رأسه، فعليه أن يقومَ- عِوضًا عن هذا الفعل- بصِيام ثلاثة أيَّام، أو إطعام سِتَّة مساكين لكلِّ مسكين نصف صاع، أو ذبح شاة، فهو مخيَّرٌ بين هذه الثلاثة[4].

---

(١) الفَرَق-بفتحتين -: مكيالٌ ضَخمٌ بالمدينة، واختُلف في مقداره؛ فقيل: يَسَع سِتَّة عشر رطلاً (اثنا عشر مدًّا، أو ثلاثة آصع). وقيل: خمسة أقساط، والقسط: نِصف صاع. فأمَّا الفرْق بالسكون فمِئة وعشرون رطلًا، وهو ما يُعادِل (١٠كغ) تقريبًا. ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٤٣٧)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٢٦/ ٢٨١)، ((الفقه الإسلامي وأدلته)) للزحيلي (١/ ٣٤١).

(٢) رواه البخاري (١٨١٥)، ومسلم (١٢٠١).

(٣) رواه البخاري (٤٥١٧)، ومسلم (١٢٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٣٧٧، ٣٨١، ٣٩١، ٣٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٩٣). =

﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾.

أي: إذا زالتِ الموانعُ وقدَرتُم على الوصولِ إلى البيت الحرام، فمَن أتى منكم بالعمرة متمتِّعًا بحِلِّه منها بما أحلَّه الله تعالى له من محظوراتِ الإحرامِ- إلى أنْ يَشْرَعَ في أعمال الحج- ومِثل ذلك مَن كان قارنًا بين الحجِّ والعُمرة- فعليه ذبحُ ما قدَر عليه من بهيمةِ الأنعام؛ من الإبل، أو البقر، أو الغَنم[1].

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾.

أي: إنْ لم يَجِد المتمتِّعُ هديًا أو لم يجِدْ ثَمنَه، فعليه أن يصوم عوضًا عن ذلك ثلاثةَ أيَّام في أثناءِ الحج، وسبعةً إذا فرَغ من أعمال الحجِّ ورجَع إلى أهلِه وموطنِه، ثمَّ أكَّد الله تعالى صيامَ هذه الأيام بذِكر كامِلِ عددِها[2].

= ونقَل إجماعَ العلماء على أنَّ المراد بالنسك في هذه الآية، الشاة: ابنُ عطية في ((تفسيره)) (١/ ٢٦٨).
وقال ابنُ عبد البر: (كلُّ مَن ذكر النسك في هذا الحديث مفسَّرًا فإنما ذكَره بشاة، وهو أمرٌ لا خلاف فيه بين العلماء)، ((التمهيد)) (٢/ ٢٣٧).
ونقَل إجماعَ العلماء على أنَّ الكفَّارة هنا على التخيير بين الصيام والإطعام والذبح: ابن جرير في ((تفسيره)) (٨/ ٧٠٤).
وقال ابن عبد البرِّ: (أجمَعوا أنَّ الفدية ما جاءت به السُّنة في كعب بن عجرة من التخيير في الصيام أو الصدقة أو النسك)، ((الاستذكار)) (٤/ ١٨٤).
والرَّاجح من أقوال أهل العلم أنَّ الصدقة توزَّع على مساكين الحرم.
ونقَل بعضُ أهل العِلم الإجماعَ على أنَّ الصوم يجوزُ أن يكون مفرَّقًا، وأن يكون متتابعًا، وأنَّ له أن يصوم في أيِّ مكانٍ شاءه. يُنظر: ((مختصر فقه الحج)) إعداد القِسم العِلمي بالدُّرر السَّنية (ص: ١٠٨-١٠٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٤١٩، ٤٣٣، ٤٣٤، ٤٣٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٩٤).
وممَّن قال من السلف في قوله تعالى: ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ مِثلما ذُكر: ابن عمر، وسعيد بن جُبير، =

﴿ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾.

أي: إنَّ وجوب الهدي وبدله من الصيام، إنَّما هو للمتمتِّع إنْ كان أهله من غيرِ حاضري المسجد الحرام، وقد قِيل بأنَّ حاضري المسجد الحرام هم مَن حوله ممَّن بينهم وبينه من المسافةِ ما لا تُقصر إليه الصلوات[1]، وقيل: هم أهلُ الحرم فقط[2].

﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

أي: امتثِلوا أوامرَ الله عزَّ وجلَّ، واجتنبوا نواهيَه، ومن ذلك: امتثالُ المأموراتِ، واجتنابُ المحظورات المذكورة في هذه الآية، واعتقِدوا جازمين بأنَّه سبحانه شديدُ العقوبةِ لِمَن خالَف أمْرَه، وارتكَب نَهْيَه[3].

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٧)﴾.

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾.

أي: إنَّ وقتَ الحجِّ واقعٌ في أشهُرٍ معلومات، وهي: شوَّال، وذو القَعدة، وعشرٌ من ذي الحجَّة[4].

= وأبو العالية، ومجاهد، وعطاء، وعكرمة، والحسن، والزهري، وقتادة، والربيع بن أنس. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٣٤٢).

(١) اختار هذا القول: ابن جرير في ((تفسيره)) (٣/ ٤٤١-٤٤٢)، والواحدي في ((التفسير الوسيط)) (١/ ٢٩٩-٣٠٠)، والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ٩١)، والشنقيطي في ((أضواء البيان)) (٥/ ١٢٤).

(٢) اختار هذا القول: ابن عثيمين في ((تفسير الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٩٤-٣٩٥، ٤١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٤٤٢-٤٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٤٤٣، ٤٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١)، ((أضواء =

﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ﴾ قراءتان:

١- ﴿فَلَا رَفَثٌ وَلَا فُسُوقٌ﴾ على أنَّ لا هنا ناهية، أي يحرم وقوع ذلك[1].

٢- ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ﴾ على أنَّ لا هنا نافية، تدلُّ على النفي العام لجميع الرَّفث وجميع الفسوق، وهذا النفي بمعنى النهي[2].

﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾.

أي: إنَّ مَن أحرَم بالحجِّ (ذلك لأن الشُّروعَ فيه يُصيِّره فرضًا ولو كان تطوُّعًا في حقِّه)، فعليه أنْ يجتنبَ جِماعَ النِّساء ومقدِّماته، ولا يتحدَّث بذلك في حَضرتِهنَّ، وعليه اجتنابُ جميع المعاصي، ومن ذلك: محظورات الإحرام، وسِباب المسلِم، ويجتنب الجدالَ بالباطل، ومن ذلك: المجادَلة في وقت الحجِّ وأحكامِه؛ فقد بيَّنها اللهُ عزَّ وجلَّ أتمَّ بيانٍ، وعليه أنْ يترُكَ المِراءَ والمنازَعة والمخاصَمة[3].

= البيان)) للشنقيطي (٤/ ٤٨١)، (٥/ ١٥٨).

وممَّن قال من السَّلَف بهذا القول: عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وابن الزبير، وابن عبَّاس، وابن عمر، وعطاء، وطاوس، ومجاهد، وإبراهيم، والحسن، والضحَّاك، والسُّدِّي، ومحمد بن سِيرين، والزُّهري، وقتادة، والربيع بن أنس، ومقاتل بن حَيَّان. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٤٤٤)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٣٤٤).

(١) قرَأ بها ابنُ كَثير وأبو عَمرٍو وأبو جعفر والبصريان. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢١١). ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٢٨-١٢٩)، ((الكشف)) لمكِّي (١/ ٢٨٥، ٢٨٦).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢١١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٢٨-١٢٩)، ((الكشف)) لمكِّي (١/ ٢٨٥، ٢٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٤٥٣-٤٨٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٠١)، ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (٢٦/ ١٠٧-١٠٨)، ((مختصر الفتاوى المصرية)) لابن تيميَّة =

عن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، قال: سَمعتُ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم يقولُ: ((مَن حجَّ لله، فلم يَرفُثْ ولم يَفسُقْ، رجَع كيومَ ولدَتْه أمُّه))(١).

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ﴾.

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا نهاهم اللهُ عزَّ وجلَّ عن فِعل الرَّذائل والمنكَرات، حثَّهم على فِعْل الفضائل والخيرات بقوله(٢):

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ﴾.

أي: كل ما يُقدِّمه العبادُ من الخيرِ من كثيرٍ أو قليل، فالله عزَّ وجلَّ عالمٌ به فيُحصيه لهم، ويَجزيهم عليه بالثَّوابِ الجزيل(٣).

= (ص: ٢٩٣-٢٩٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤١٣-٤١٤).

وممَّن قال من السَّلَف: إنَّ معنى ﴿فَرَضَ فِيهِنَّ﴾ أحْرم: ابن عبَّاس، وإبراهيم، وعَطاء، والحسن، وقَتادة يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٤٥٥).

قال ابن جرير: (وإنَّما قُلنا: إنَّ فَرْض الحجِّ الإحرامُ؛ لإجماعِ الجميع على ذلك) ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٤٥٦).

وممَّن قال في معنى الرَّفَث بنحو هذا المعنى: ابنُ عُمر، وعطاء. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٤٥٩).

وممَّن قال من السَّلَف: إنَّ الفسوق بمعنى المعاصي: عبد الله بن عمر، وابن عبَّاس، ومجاهد، وعَطاء بن يَسار، وعَطاء بن أبي رَباح، وعِكْرمة، ومحمَّد بن كَعْب، والزُّهري، وسعيد بن جُبَير، والرَّبيع بن أنس، وعَطاء الخُراساني، ومقاتل بن حَيَّان، وإبراهيم النَّخَعي، وقَتادة، وطاوس، ومكحول، والحسن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٤٧٠)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٣٤٦).

وممَّن قال من السَّلَف في معنى الجدال بنحو المعنى المذكور: ابن عبَّاس، وأبو العالية، وعطاء، ومجاهد، والضَّحَّاك، وعِكْرمة، وجابر بن زيد، وعَطاء الخُراساني، ومكحول، وعمرو بن دينار، والرَّبيع بن أنس، وقَتادة، والزُّهري، ومقاتل بن حَيَّان، والسُّدِّي، وابن الزُّبير، والحسن، وإبراهيم، وطاوس، ومحمَّد بن كعب. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١/ ٣٤٧).

(١) رواه البخاريُّ (١٥٢١) واللَّفظ له، ومسلم (١٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٤٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٠٢).

﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾.

سبب النُّزول:

عن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما، قال: ((كان أهلُ اليمن يحجُّون ولا يتزوَّدون، يقولون: نحن المتوكِّلون، فإذا قدِموا مكَّةَ سألوا النَّاس؛ فأنزَل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾))[1].

﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾.

أي: تزوَّدوا مِن أقواتكم بما يُعِينكم على الوصولِ للبيت الحرام، وأداءِ مناسِكِ الحجِّ؛ فإنَّ في التزوُّدِ استغناءً عن المخلوقين، وإعانةً للمحتاجين، ولَمَّا أمَرهم الله عزَّ وجلَّ بأخذِ الزَّاد الدُّنيويِّ غذاءً لأجسادهم، أرشَدهم إلى الزَّاد الأخرويِّ الموصل لدار النَّعيم الأبديِّ، غذاءً لقلوبهم، وهو استصحابُ التَّقوى؛ بامتثالِ أوامرِه، واجتنابِ نواهيه[2].

﴿وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾.

أي: واتَّقونِ يا أصحابَ العُقولِ الصَّحيحة والأفهام السَّليمة، التي تُدركون بها حقيقةَ التَّقوى وثَمرتَها، وتُميِّزون بها بين الحقِّ والباطل[3].

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (١٩٨)﴾.

---

(١) رواه البخاري (١٥٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤١٥).

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

سبب النُّزول:

عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما، قال: ((كانت عُكاظٌ ومَجَنَّةٌ وذو المجاز أسواقًا في الجاهليَّة، فلمَّا كان الإسلامُ تأثَّموا من التِّجارة؛ فأنزَل اللهُ تعالى: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِي مَوَاسِمِ الْحَجِّ» قرأ ابنُ عبَّاس هكذا))(١).

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

أي: إنَّه لا حرَجَ على المؤمنين في التكسُّب من التِّجارةِ في مواسم الحجِّ(٢).

﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾.

أي: إذا دفَعْتُم مِن عرفاتٍ إلى مزدلفة، فاذكروا اللهَ تعالى عند مزدَلِفة، ويدخُلُ في ذلك الصَّلاةُ والدُّعاء عندها(٣).

﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾.

أي: اذكُروا اللهَ عزَّ وجلَّ شُكرًا على هِدايتِه لكم، ومِن ذلك: الإرشادُ إلى مناسِكِ الحجِّ الصَّحيحةِ، واذكروه على الصِّفة الَّتي هداكم لها، أي: وَفْق ما شرَعه سبحانه، وقد كنتم مِن قبلِ هذا الهُدى في ضلالٍ عن الطَّريق المستقيم، كأداءِ مَناسِكِ الحجِّ في الجاهليَّة خلافًا لِما جاء به إبراهيمُ الخليلُ عليه الصَّلاة والسَّلام(٤).

---

(١) رواه البخاري (٢٠٥٠).

(٢) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٨٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٢٠-٤٢١).

ونقَى الخلافَ بين العلماء في أنَّ المراد بالفضل المذكور في الآية، رِبْح التجارة: القرطبي في ((تفسيره)) (١٢/ ٤١)، والشنقيطي في ((أضواء البيان)) (١/ ٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥١٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٢١-٤٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٢٣-٥٢٤)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٠٤)، ((تفسير =

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٩)﴾.

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾.

أي: أمر الله عزَّ وجلَّ عباده من الحُمْس، وهم قريش الذين كانوا لا يقفون بعرفات، بأن يُفيضوا منها كما كانتِ العربُ كلُّها تُفيض منها[1].

عن هشام بن عروة، عن أبيه، قال: ((كانت العربُ تطوف بالبيتِ عُراةً، إلَّا الحُمْسَ، والحُمْسُ قريشٌ وما ولَدَتْ، كانوا يطوفون عُراةً، إلَّا أنْ تعطيَهم الحُمْسُ ثيابًا، فيُعطي الرِّجالُ الرِّجالَ، والنِّساء النِّساء، وكانت الحُمْسُ لا يخرُجون من المزدَلِفة، وكان النَّاس كلُّهم يبلغون عرفاتٍ، قال هشام: فحدَّثني أبي، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: الحُمْسُ هم الَّذين أنزَل الله عزَّ وجلَّ فيهم: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾، قالت: كان النَّاسُ يُفيضون من عرفاتٍ، وكان الحُمْس يُفيضون من المزدلفة، يقولون: لا نُفيض إلَّا من الحرَم، فلمَّا نزلت: ﴿أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾، رجَعوا إلى عرفاتٍ))[2].

﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

أي: أمَر اللهُ تعالى حُجَّاج بيته أنْ يطلبوا المغفرةَ منه سبحانه، أي: سَتْرَ ذنوبهم،

= ابن كثير)) (١/ ٥٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٤١-٢٤٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٢٣-٤٢٤).

(١) واختار هذا المعنى ابنُ جرير في ((تفسيره)) (٣/ ٥٣٠-٥٣١). وابن كثير في ((تفسيره)) (١/ ٥٥٥)، والشنقيطي في ((أضواء البيان)) (١/ ٨٩-٩٠).

قال ابن جرير: (والذي نراه صوابًا من تأويلِ هذه الآيَة: أنَّه عَنَى بهذه الآية قُريشًا وَمَن كان مُتَحَمِّسًا معها من سائرِ العَرَبِ؛ لإجماعِ الحُجَّة من أهل التأويل على أنَّ ذلك تأويلُه). ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٣٠) يعني بقوله: (بإجماع الحُجَّة) الأكثر، وإلَّا فقد ذكر القول الآخَر بأنَّه إبراهيم عليه السلام، وأنَّ الإفاضة من مُزدلفة؛ لأنَّه ذكر الإفاضة الأولى من عَرفة إلى مزدلفةَ. وهذا اختيارُ السعدي في ((تفسيره)) (ص: ٩٢).

(٢) رواه البخاري (١٦٦٥)، ومسلم (١٢١٩).

والتجاوز عنها؛ فهو سبحانه وتعالى أهلٌ لأنْ يُطلَبَ منه ذلك؛ لأنَّه غفورٌ ورحيمٌ بعباده المؤمنين[١].

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (٢٠٠)﴾.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾.

أي: فإذا أتممتُم أداءَ مناسكِ الحجِّ، وتحلَّلتُم من النُّسك، فأَكْثِروا مِن ذِكْر الله عزَّ وجلَّ؛ شُكرًا له سُبحانه على إنعامِه بالتَّوفيق لأداء هذه العبادةِ العظيمة، وليكُن ذِكرُكم لله تعالى لا يقلُّ عن ذِكركم لآبائِكم، وذِكرِ مآثِرهم، بل عليكم أنْ تَذكروه بأشدَّ من ذلك[٢].

﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾.

مُناسبتُها لِمَا قبلها:

لَمَّا أمَر الله تعالى بذِكره، أرشدَ إلى دُعائه؛ فإنَّه مظنَّةُ الإجابة[٣]، فقال:

﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾.

أي: فمِن الناس مَن لا يَسأَلُ اللهَ تعالى إلَّا مصالحَ دُنياه، فيَسأله متاعَها وزِينتَها، ولا نَصيبَ له في ثواب الآخِرة؛ لرغبتِه عنها، وقُصورِ همَّته على الدُّنيا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٢٨-٤٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٤١، ٥٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٤٧-٢٤٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٣٢-٤٣٣).

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١)﴾.

أي: ومن النَّاس مؤمِنون يسألون اللهَ تعالى من خيرِي الدُّنيا والآخرة- سواءٌ في مناسِك الحجِّ، أو بعدَ أدائها، أو في غيرِ ذلك من الأوقات- وهذا شاملٌ للعِلم النَّافِع والعمَل الصالح، والرِّزق الحسَن، والعافية، وغير ذلك، وأما حسنةُ الآخرةِ الَّتي يطلُبونها فهي نعيمُ الجنَّة، كما أنَّهم يسألون ربَّهم عزَّ وجلَّ أنْ يصرِفَ عنهم عذابَ النَّار[1].

كما قال تعالى حكايةً عن موسى عليه السَّلام: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وعن أنسِ بن مالكٍ رضي الله عنه: ((أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عاد رجلًا من المسلمينِ قد خَفَتَ[2] فصار مِثلَ الفرْخِ، فقال له رسولُ اللهِ صلىَّ اللهُ عليهِ وسلَّمَ: هل كنتَ تدعو بشيءٍ أو تسأله إياه؟ قال: نعم، كنتُ أقولُ: اللهم ما كنتَ مُعاقِبي به في الآخرةِ، فعَجِّلْه لي في الدُّنيا، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: سبحان اللهِ! لا تُطيقُه- أو لا تستطيعُه- أفلا قلتَ: اللهمَّ آتِنا في الدُّنيا حسنةً، وفي الآخرةِ حسنةً، وقِنا عذابَ النارِ؟ قال: فدعا اللهَ له، فشفاه))[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٠٠).
قال ابنُ عَطيَّة: (اللَّفْظة تَقتضي هذا كلَّه وجميعَ محابِّ الدُّنيا، وحَسَنةُ الآخرةِ الجَنَّةُ، بإجماع) ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٧٧).
وممَّن قال من السَّلَف بأنَّ الحَسنة في الآخرة هي الجنة: الحسَن، ومجاهد، والسُّدِّي، ومقاتل بن حَيَّان، وإسماعيل بن أبي خالد. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٣٥٩).
(٢) قد خَفَتَ: أي: ضَعُفَ، ومنه خَفَتَ الصوتُ إذا ضَعُفَ وسَكَنَ، ومنه قيل للميت: قدْ خَفَتَ إذا انقطعَ كلامُه. ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٣)، ((لسان العرب)) لابن منظور (٢/ ٣١).
(٣) رواه مسلم (٢٦٨٨).

وسأل قَتادةُ أنسًا رضي الله عنه: ((أيُّ دعوةٍ كان يدعو بها النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أكثرُ؟ قال: كان أكثرُ دعوةٍ يدعو بها يقولُ: اللهمَّ آتِنا في الدُّنيا حسنةً، وفي الآخرةِ حسنةً، وقِنا عذابَ النارِ، قال: وكان أنسٌ إذا أراد أنْ يدعوَ بدعوةٍ، دعا بها، فإذا أراد أنْ يدعوَ بدعاءٍ، دعا بها فيهِ))(١).

وعن عبد الله بن السَّائبِ رضي الله عنه، قال: ((سمعتُ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ يقول ما بين الرُّكنين: ربَّنا آتِنا في الدُّنيا حسنةً، وفي الآخرةِ حسنةً، وقِنا عذابَ النَّارِ))(٢).

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٠٢)﴾.

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا﴾.

أي: إنَّ أُولئك الَّذين يقولون: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾- لهم ثوابٌ جَزيل على حَجِّهم الَّذي باشَروا معاناتَه بأنفسهم وأموالهم، وسيؤتيهم اللهُ تعالى حظًّا ممَّا سألوه من خيرَيِ الدنيا والآخرة، وذلك بحسَب أحوالهم، وما تقتضيه حِكمة الله عزَّ وجلَّ(٣).

﴿وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

أي: إنَّه سبحانه يُحصي أعمالَ العباد بسرعة، دون الحاجة إلى عقد أصابع، أو

(١) رواه البخاري (٦٣٨٩)، ومسلم (٢٦٩٠) واللفظ له.

(٢) رواه ابنُ أبي شَيبة (٣/ ٤٤٣)، وأبو داود (١٨٩٢)، والنَّسائي في ((السنن الكبرى)) (٢/ ٤٠٣، رقم ٣٩٣٤)، والحاكم (٢/ ٣٠٤)، والبيهقي (٥/ ٨٤) (٩٥٥٧).
والحديث قال عنه الحاكم: صحيحُ الإسناد ولم يُخرجاه. وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (١٨٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٤٧-٥٤٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٥٨)، ((تفسير القرطبي)) للقربي (٢/ ٤٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٤٨-٤٥٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٣٥-٤٣٦).

استخدام آلةٍ، وبلا حاجةٍ إلى فِكرٍ أو رَوِيَّة، كما يفعَلُ الخَلق، وهو سريع المحاسَبة للخَلْق يوم القيامة دون أنْ يظلِمَ أحَدًا شيئًا، ودون الحاجةِ إلى تذكُّرٍ أو تأمُّلٍ، كما أنَّه سبحانه سريعُ المجازاة لعباده(١).

﴿وَاذْكُرُوا اللهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٠٣)﴾.

﴿وَاذْكُرُوا اللهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾.

أي: أمَر اللهُ تعالى عبادَه- مِن حُجَّاج بيته وغيرِهم- بتكبيرِه في أيَّام منًى، وهي أيَّامُ التَّشريق الَّتي تشمَل ثلاثةَ أيَّام بعد يوم النَّحر، ويتعلَّقُ بذلك التكبيرُ عند ذَبْح الهدي والأضاحيِّ، والتكبير المطلَق في سائر الأحوال، والتكبير المقيَّد بعد الصلوات الخمسِ المفروضة، والتكبير عند رَمْيِ الجِمار(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٣٦).

وقيل: المراد: سريع مجيء يوم الحساب. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٧٧).

وممَّن قال بهذا القول من السَّلف: مقاتل. يُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (١/ ١٦٨).

قال ابن عثيمين: (والسرعة هنا قد تكون سرعةَ الزمن؛ بمعنى: أنَّ حساب الله قريب... وقد يكون المراد سرعةَ محاسبة الله للخلق- أي: إنَّ نفْس حسابه سريع- والثاني أبلغ؛ فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يحاسب الخلائق كلَّها في يومٍ واحد، ويُعطي كلَّ إنسان ما يستحقُّه من ذلك الحساب)) ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٣٦).

(٢) نقَل إجماعَ المفسِّرين على أنَّ المراد بالأيَّام المعدودات أيَّامُ مِنًى: الماورديُّ ((النكت والعيون)) (١/ ٢٦٣)، والقرطبي في ((تفسيره)) (٣/ ١).

ونقَل الإجماعَ على أنَّ المراد بالذِّكر في هذه الآية، التَّكبير، وعلى أنَّ الحاجَّ مخاطَب بهذه الآية: ابنُ العربي في ((أحكام القرآن)) (١/ ١٩٧، ١٩٩)، ونقَل الإجماعَ على الثاني القرطبيُّ في ((تفسيره)) (٣/ ٣).

وقال ابنُ العربي: (فأمَّا غير الحاجِّ؛ فهل يدخُل فيه أم لا؟... فنقول: أجمَع فقهاءُ الأمصار والمشاهير من الصَّحابة والتابعين رضِي الله عنهم، على أنَّ المراد به التَّكبير لكلِّ أحد، وخصوصًا في أوقات الصَّلوات؛ فيُكبِّر عند انقضاء كلِّ صلاة، كان المصلِّي في جماعةٍ، أو وحْده، يُكبِّر =

﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى﴾.

أي: إنَّه لا حرَج على الحاجِّ، سواءٌ خرَج من منًى قبل غروب شمس اليوم الثَّاني مِن أيَّام التَّشريق، أو بقِي فيها إلى اليومِ الثَّالث لرَمْيِ الجمَرات، فله أنْ يختارَ ما شاء، ما دام أنَّه ممتثلٌ ما أمَر اللهُ تعالى به، ومجتنبٌ ما نهى عنه، وخاصَّةً فيما يتعلَّقُ بالحجِّ من مأموراتٍ ومحظورات(١)، كما أنَّ كُلًّا من المتعجِّلين والمتأخِّرين إذا اتَّقَوُا اللهَ تعالى في حجِّهم فلم يرفُثوا أو يفسُقوا، خرَجوا من حَجِّهم بلا إثمٍ، طاهرينَ من الذُّنوب كيوم ولَدَتْهم أمَّهاتهم(٢).

﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

مناسبتها لِمَا قبلها:

لَمَّا ذكَر الله عزَّ وجلَّ تفرُّق النَّاس مِن الحجِّ إلى سائر البلدان بعد اجتماعهم في مشاعرِ الحج، ذكَّرهم باجتماعِهم عنده يومَ القيامة، فأمَرهم بما ينفَعُهم في ذلك اليوم فقال(٣):

﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

= تكبيرًا ظاهرًا في هذه الأيام) ((أحكام القرآن)) (١/ ١٩٩).

ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٤٩-٥٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٦١-٥٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣).

وممَّن فسَّر مِن السَّلَف الأيَّام المعدودة بمِثل ما ذُكر: ابنُ عبَّاس، وابنُ عُمر، وابن الزُّبير، وأبو موسى، ومجاهد، وعطاء، والحسن، وإبراهيم، والضَّحَّاك، وأبو مالك، وعِكْرِمة، وسعيد بن جُبَير، والسُّدِّي، والزُّهري، وقَتادة، والرَّبيع بن أنس، ومقاتل بن حَيَّان، وعطاء الخراساني، ويحيى بن أبي كثير. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٣٦١).

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٦٥-٥٦٩).

وهو قول كثيرٍ من السلف. يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٦٢).

أي: امتثِلوا أوامرَ الله عزَّ وجلَّ، واجتنبوا نواهيَه في الحجِّ وغيرِه، واعْلَموا أنَّكم تُجمَعون إلى الله تعالى يومَ القيامة، فتُجازَوْن بأعمالِكم؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشَرٌّ(١).

الفوائد التربويَّة:

١- وجوب الإخلاص لله؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ﴾: يعني أتموهما للهِ لا لغيره، لا تُراعوا في ذلك جاهًا، ولا رُتبةً، ولا ثناءً مِن النَّاس(٢).

٢- تيسير اللهِ على العباد؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾، والدِّينُ كلُّه مِن أوَّلِه إلى آخرِه مبنيٌّ على اليُسر(٣).

٣- أنَّ العِلمَ بشدَّةِ عقوبةِ الله من أهمِّ العلوم؛ ولهذا أمَر الله سبحانه وتعالى به بخصوصِه؛ لأنَّه يُورِث الخوفَ مِن الله، والهرَبَ مِن معصيَتِه، فقال سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾(٤).

٤- التقوى زادُ القلوب والأرواح، منه تقتات، وبه تتقوى وترفُّ وتُشرق، وعليه تستندُ في الوصول والنجاة؛ قال تعالى: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾(٥).

٥- أولو الألباب هم أوَّلُ مَن يُدرك التوجيهَ إلى التقوى، وخيرُ مَن ينتفع بهذا الزاد، فأصحاب العقولِ هم أهلُ التقوى؛ لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾، فكلَّما ضَعُفت التَّقوى، كان ذلك دليلًا على ضَعْفِ العَقل(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٩٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٠٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤١١).

(٥) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ١٩٧).

(٦) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤١٩-٤٢٠).

٦- تذكير الإنسان بحالِه قبل كماله؛ ليعرِفَ بذلك قدرَ نعمةِ الله عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾(١).

٧- بيَّن الله تعالى أولًا تفصيل مناسك الحج، ثم أمر بعدها بالذكر فقال: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ ثم بيَّن أنَّ الأَوْلى أن يترك ذِكر غيره، وأنْ يقتصرَ على ذِكره سبحانه، ثم بيَّن بعد ذلك كيفيةَ الدُّعاء، فقال: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ...﴾ وما أحسنَ هذا الترتيبَ! فإنَّه لا بدَّ من تقديم العبادة لكسْر النفس وإزالة ظُلُماتها، ثم بعد العبادة لا بدَّ من الاشتغال بذِكر الله تعالى؛ لتنويرِ القلب، وتجلي نور جلاله، ثم بعد ذلك الذِّكر يشتغل الرجل بالدعاء؛ فإنَّ الدعاء إنما يكمل إذا كان مسبوقًا بالذكر(٢).

٨- في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ إشارة إلى أنَّ الإسلام لا يُريد من المؤمنين أن يَدَعوا أمرَ الدنيا؛ فهم خُلِقوا للخلافة فيها، ولكنه يُريد منهم أن يتَّجهوا إلى الله في أمرها؛ وألَّا يضيقوا من آفاقهم، فيجعلوا من الدنيا سورًا يحصرُهم فيها، إنه يريد أن يُطلق الإنسان من أسوار هذه الأرض الصغيرة؛ فيعمل فيها وهو أكبرُ منها، ويزاول الخلافةَ وهو متَّصل بالأُفق الأعلى(٣).

٩- قرنُ المواعظ بالتخويف؛ لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾(٤).

الفوائد العلميَّة واللَّطائف:

١- لَمَّا كان لفظ القرآن في بيان الرُّخصة، جاء بالأسهل فالأسهل، فقال تعالى: ﴿فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٢٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٥/ ٣٣٥).
(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٢٠٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٤١).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٣٦).

٢- سَعةُ فضلِ الله عزَّ وجلَّ، وتيسيرُه في أحكامه، بوقوع الفِدْية على التَّخيير، وجَعْلِ الأكثرِ من صيام الفِدْيَة بعد رجوعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾، كما جعَل الإنسانَ مخيَّرًا بين أنْ يبقى ثلاثةَ أيَّام، أو يتعجَّل في يومين[1].

٣- البُعْد حالَ الإحرام عن كلِّ ما يشوِّش الفِكر، ويشغَلُ النَّفس؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾[2].

٤- أنَّه ينبغي للإنسان في حالِ بيعِه وشرائه أنْ يكونَ مترقِّبًا لفضلِ الله، لا معتمِدًا على قوَّتِه وكَسْبِه؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾[3].

٥- ظهور منَّةِ الله على عباده بما أباح لهم من المكاسبِ، وأنَّ ذلك مِن مقتضى ربوبيَّتِه سبحانه وتعالى؛ حيث قال تعالى: ﴿فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾[4].

٦- أنَّ الذِّكر المشروعَ ما وافَق الشَّرع؛ لقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾[5].

٧- قرنُ الحُكم بالعلَّة؛ لقوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، وقَرْنُ الحُكم بالعلَّةِ في مِثل هذا يُفيد الإقدامَ والنَّشاطَ على استغفارِ اللهِ عزَّ وجلَّ[6].

٨- في الأمر بالذِّكر عند انقضاء النُّسك في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾، إشارةٌ إلى أنَّ سائرِ العبادات تَنقضي ويُفرَغ منها، وذِكر الله عزَّ وجلَّ باقٍ لا يَنقضي ولا يُفرَغ منه، بل هو مستمرٌّ للمؤمنين في الدنيا والآخرة[7].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٠٦، ٤١٠، ٤٤٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤١٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٢٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٢٥).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٢٦).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٣١).
(٧) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٢٩٠).

٩- أنَّ الأجدادَ داخِلون في مسمَّى الآباء؛ لأنَّ العربَ كانوا يفتخِرون بأمجادِ آبائهم، وأجدادهم، وقبائلهم، كما قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾[١].

١٠- في قوله تعالى: ﴿وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ إثباتُ صِفة السُّرعة لله عزَّ وجلَّ[٢].

١١- أنَّ الأعمالَ الَّتي يُخيَّر فيها العبدُ إنَّما ينتفي الإثمُ عنها إذا فعَلها على سبيل التَّقوى لله عزَّ وجلَّ دون التهاونِ بأوامره؛ لقوله تعالى: ﴿لِمَنِ اتَّقَى﴾؛ فمَن فعَل ما يُخيَّر فيه على سبيل التَّقوى لله عزَّ وجلَّ والأخذ بتيسيره، فهذا لا إثمَ عليه، وأمَّا مَن فعَلها على سبيل التهاونِ، وعدمِ المبالاة، فإن عليه الإثمَ بتَرْك التَّقوى، وتهاونِه بأوامرِ الله تعالى[٣].

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾

- في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾؛ حُذف المفعول؛ لأجْل العموم؛ ليشمل مَن لم يجِد الهدي أو ثمنه؛ فاستُفيد زيادة المعنى، مع اختصار اللفظ[٤].

- قوله: ﴿عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾: فيه فذلكة الحِساب[٥]، أي: جِماعُه؛ فقوله:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٣٤).

(٢) يُنظر: ((كتاب التوحيد)) لابن منده (٢/ ١٣٧)، ((فتح القدير)) للشوكاني (سورة البقرة الآية: ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرآن الكريم. الفاتحة-البقرة)) لابن عثيمين (٢/ ٤٠٩).

(٥) الفَذْلكة: كلمةٌ منحوتةٌ كالبَسملة والحوقلة من قولهم: (فذْلَك كذا)، أي: ذَكَر مجُمَل ما فُصِّل أولًا وخلاصته. وقد يُراد بالفذلكة النتيجة لِمَا سبَق من الكلام، والتفريع عليه، ومنها فذلكة الحساب، أي: مجُمَل تفاصيله، وإنهاؤه، والفراغ منه، كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ بعد قوله: ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾. يُنظر: ((كُنَّاشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨-٦٣٩).

﴿عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ فَذْلَكةٌ لقوله: ﴿ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ... وَسَبْعَةٍ﴾، وفائدتها: أنَّ الواو قد تجيء بمعنى (أو) التي للتَّخيير، فيحتمل المعنى فِصيام ثلاثة أيام أو سَبعة؛ ففُذْلِكت نفيًا لتوهُّم التخيير، وأيضًا ففائدة الفَذْلكة في كلِّ حساب أن يُعلم العدد جملةً كما عُلِم تفصيلًا؛ ليُحاط به من جِهتين، فيتأكَّد العِلم؛ فإن أكثر العرب لم يُحسنوا الحساب، وفي أمثال العرب: عِلمان خيرٌ من عِلم، وليُعْلَم أنَّ المراد بالسبعة هو العددُ دون الكثرة؛ فإنَّه يطلق لهما. وكذلك ﴿كامِلَةٌ﴾ تأكيدٌ آخَر؛ فهي صِفة مؤكِّدة تُفيد المبالغة في محافظة العدد، أو مبيِّنة كمال العشرة؛ فإنَّه أوَّل عدد كامل؛ إذ به تنتهي الآحادُ وتتمُّ مراتبها، وفيه زيادة توصية بصيامها، وألَّا يُتهاون بها ولا ينقص من عددها[١].

- وقوله: ﴿فَصِيَامُ...﴾ خبرٌ معناه الأمر بالصيام، وإنَّما عدَل عن لفظ الأمْر إلى لفظ الخبَر؛ لأنَّ التكليف بالشيء إذا كان متأكِّدًا جدًّا، فالظاهر دخولُ المكلَّف به في الوجود؛ فلهذا السبب عبَّر بالإخبار عن الشيءِ بالوقوع الذي استقرَّ؛ لتأكُّد الأمر به، ومبالغة الشرع في إيجابه[٢].

- وفي قوله: ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ التفات، وحمْلٌ على معنى (مَن)، أمَّا الالتفات؛ فإنَّ قوله: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ﴾ ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ اسمٌ غائب؛ ولذلك استتر في الفِعلين ضميرُ الغائب، فلو جاء على هذا النَّظم لكان الكلام (إذا رجَع)، وأما الحمل على المعنى فإنَّه أتى بضمير الجمع ﴿رَجَعْتُمْ﴾، ولو راعى اللَّفْظ لأفرد فقال (رجع)[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢٤١-٢٤٢)، ((تفسير الرازي)) (٥/ ٣١١)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٢٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٢٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٥/ ٣١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٢٦٧). وقوله: (إذا رجَع). في المطبوع: (إذا رفَع). وهو تصحيفٌ.

٢- قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ إظهارُ الاسمِ الجليلِ ﴿الله﴾ في موضِع الإضمار، وتكريره؛ لتربية المهابةِ وإدخالِ الرَّوْعة، ولئلَّا يُفهِم الإضمارُ تقييدَ شديدِ عِقابه بخشية ممَّا مضى فقال: ﴿وَاعْلَمُوا﴾ تنبيهًا على أن الباعث على المخافة إنَّما هو العلم ﴿أَنَّ اللهَ﴾ أي: الذي لا يُداني عظمتَه شيءٌ ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾؛ هذا مع مناسبة هذا الخِتام لِمَا بعده من النهي عن الرَّفث وغيره[1].

٣- قوله: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ ﴿فِي الْحَجِّ﴾ فيه إظهارٌ في مقامِ الإضمارِ؛ لإظهارِ كمالِ الاعتناءِ بشأنه، والإشعارِ بعِلَّة الحُكم؛ فإنَّ زيارةَ البيت المعظَّم والتقرُّبَ بها إلى الله عزَّ وجلَّ من موجبات تَركِ الأمورِ المذكورة، وإيثارُ النَّفي على النَّهي للمُبالغة في النَّهي، حتى جُعلت كأنَّها قد نهي الحاج عنها فانتهى، فانتفت أجناسها، وللدَلالة على أنَّ ذلك حقيقٌ بألَّا يكون؛ فإنَّ ما كان مُنكرًا مستقبَحًا في نفسه، فهو في الحجِّ أقبحُ[2].

٤- قوله: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ عبَّر بـ﴿ثُم﴾ لتفاوت ما بين الإفاضتين (من عرفاتٍ، ومن المزدلفة)، وأنَّ إحداهما صوابٌ (التي من عَرَفات)، والثانية خَطأ (التي من مزدلِفة). ووقوع العطف بحَرْف المهلة ﴿ثُم﴾، الذي يستدعي التراخي مضافًا إلى التغاير، وليس بين الإضافة المطلَقة والمقيَّدة تراخٍ؛ لأنَّ التراخي كما يكون باعتبار الزَّمان، قد يكون باعتبار علوِّ المرتبة وبُعدها في العلوِّ بالنسبة إلى غيرها ويعرف بـ(التراخي الرتبي)[3]. وهذا بناءٌ على القول بأنَّ المقصود بالناسِ في الآية هم العرب، وأنَّ الإفاضةَ المقصودةَ هنا هي الإفاضةُ من عَرفات.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٣/ ١٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٢٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري-مع حاشية ابن المنير)) (١/ ٢٤٧).

الآيات (٢٠٤ - ٢٠٧)

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿أَلَدُّ الخِصَامِ﴾: أي: شديد الخُصومة، أو أشَدُّهم خصومةً؛ أصل اللَّدد: الشِدَّة؛ والأَلَدُّ: الخَصيم الشَّديد التَّأبِّي، والخِصام: جَمْع خَصم، أو مصدَر خاصَم[(١)].

﴿الحَرْثَ﴾: الزَّرع، والبساتين والمزارع، وأصْلُه: إلقاء البَذر في الأرض وتهيئتها للزَّرع، والكَسبُ والجَمْعُ[(٢)].

﴿النَّسْلَ﴾: الوَلد والنَّجْل، وهو في الأصل: الانفصالُ عن الشَّيءِ[(٣)].

﴿المِهَادُ﴾: الفِراش، والقَرار، وأصل مَهَد: من توطئة الشيء وتسهيله[(٤)].

﴿يَشْرِي﴾: يَبيع[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٣٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٥، ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٠، ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٩٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٥).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٠، ١١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٦).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٦).

المعنى الإجمالي:

يُخبِرُ تعالى أنَّ صِنفًا من النَّاس هم من المنافقين، يستحسنُ رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ فصاحتَهم، ويُعجِبه منطقُهم، لكنَّ حديثهم متعلِّق بالدنيا فقط، ولا يتطرَّق لأمور الآخِرة، أو يُعجِبه ظاهرُ حديثهم عن أمور الدِّين، لكنَّه حديثٌ لا ينفع أولئك المنافقين إلَّا في الدُّنيا فقط، ولا يكتفي الواحدُ منهم بحُسن كلامه، بل يُؤكِّده بأنَّ اللهَ يعلَمُ بأن ما في قلبه موافقٌ لِما تكلَّم به، وهو كاذبٌ في ذلك، شديدُ الخصومةِ والمجادلةِ بالباطل، فاجرٌ في خِصامِه، ناطقٌ بالزُّورِ في قوله، فإذا خرَج مِن عند النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ سار في الأرضِ مفسِدًا فيها بالكفر، والظُّلم، والمعاصي؛ كإخافةِ السَّبيل، وقَطْع الطُّرق، ويُتلِف الزروعَ والثمارَ ونسلَ الحيوانات، واللهُ سبحانه لا يحبُّ كلَّ ما كان فسادًا.

وإذا خُوِّف هذا المنافقُ وأُمِر بتقوى اللهِ عزَّ وجلَّ، ومنها تَرْكُ سعيه بالفساد، وإتلاف الزَّرع والحيوانات- استكبَر، وأخذَتْه الحميَّةُ بسبب وقوعه في الإثم، وحملَتْه الأَنَفةُ على ارتكابِ المزيدِ من السيِّئات، فكفى هذا المنافقَ عقوبةً نارُ جهنَّمَ، ولبئس الفراشُ والوِطاءُ جهنَّمُ.

وهناك صِنفٌ من النَّاس يبيعون أنفسَهم، ويبذُلون أرواحَهم من أجلِ أنْ ينالوا رضا الله عزَّ وجلَّ، والله ذو رأفةٍ بعبادِه، وخاصَّة مَن باعوا أنفسَهم له جلَّ وعلا، ومِن رأفته بهم توفيقُه لهم ورضاه عنهم.

تفسير الآيات:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤)﴾.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

أي: إنَّ بعضَ النَّاس، مِن المنافقين، مَن تستحسنُ يا محمَّد، مَنطقَه وظاهرَ قوله، فتُعجِبك فصاحتُه، لكنه يتحدَّث في شؤون الدُّنيا بعيدًا عمَّا يتعلَّقُ بأمور الآخرة، أو يُعجِبُك ظاهرُ حديثِه عن أمور الدِّين؛ كنُصرةِ الإسلام والمسلمين، وحبِّ الرَّسول عليه الصَّلاةُ والسلام، وغير ذلك، لكنه حديثٌ ينفَعُه في الدنيا فحسب، أما في الآخرة فلا ينتفع به البتَّةَ(١).

﴿وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾.

أي: ويُقرنُ حُسنَ كلامِه ويؤكِّد ظاهرَ حديثِه بأنْ يُخبِرَ أنَّ الله تعالى يعلَمُ بأنَّ ما في قلبه موافقٌ لِما نطَق به، وهو كاذبٌ في ذلك؛ فهو في الحقيقةِ يُبارِزُ اللهَ عزَّ وجلَّ بما ينطوي عليه قلبُه من الكفر(٢).

كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ * اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ * وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ١ - ٤].

﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾.

أي: يُشْهِد اللهَ تعالى على أنَّه محقٌّ في قولِه ذلك؛ لشِدَّة خصومتِه، وتجدُه- لاعتمادِه على فصاحتِه- مُجادِلًا بالباطل، وناطقًا بالزُّور مِن القول، كاذبًا في حديثِه، وفاجرًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٦٥-٢٦٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٤٢-٤٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٤٣).

في خِصامِه؛ فالمُنافِق أسوأُ المخاصِمينَ، وأعوجُهم، وأشدُّهم عداوةً[1].

عن عائشةَ رضي الله عنها، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إنَّ أبغضَ الرِّجالِ إلى اللهِ الألدُّ الخَصِمُ))[2].

وعن عبدِ الله بن عمرٍو رضي الله عنهما، أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((أربعُ خلالٍ مَن كُنَّ فيه كان مُنافِقًا خالصًا: مَن إذا حدَّث كذَب، وإذا وعَد أخلَفَ، وإذا عاهَد غدَرَ، وإذا خاصَمَ فجَر، ومَن كانت فيه خَصلةٌ منهنَّ كانت فيه خَصلةٌ منَ النِّفاقِ حتَّى يدَعَها))[3].

﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥)﴾.

﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾.

أي: كما أنَّ مقالَه مُعْوجٌّ، واعتقاده فاسدٌ، فأفعاله كذلك سيِّئةٌ وقبيحة، فإذا خرَج وانصرف عنك هذا الذي يُعجِبُك قولُه، سار في الأرض مجتهدًا في إفسادِها بالكفر، والظُّلم، وعمَل المعاصي؛ كقَطْع الطَّريق، وإخافة السَّبيل، وغير ذلك[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٧٨، ٥٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٤٣).

وقد تَعدَّدت الألفاظ التي وردَت عن السَّلف في معنى ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾، وكلُّها داخلة في المعاني التي ذُكرت، وممَّن ورد عنه من السَّلَف في ذلك: ابن عبَّاس، والحسن، ومحمَّد بن كَعْب، ومجاهد، وعطاء الخُراساني، وقَتادة، والسُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٧٨)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٣٦٥).

(٢) رواه البخاري (٣١٧٨)، ومسلم (٥٨).

(٣) رواه البخاري (٢٤٥٧) واللفظ له، ومسلم (٢٦٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٨٠-٥٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٦٨-٢٦٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٤٥).

﴿وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾.

أي: هِمَّتُه في إتلاف الحَرْث، وهو: محلُّ نَماء الزُّروع والثِّمار، وإتلاف النسل، وهو: نتاجُ الحيوانات؛ فهذانِ لا قِوام للنَّاس إلا بهما، وبإتلافِهما يختلُّ نظامُ الحياة، كما أنَّه إذا سعى في الأرض فسادًا بالكفرِ والظُّلم والمعاصي، منَع اللهُ تعالى القطرَ من السَّماءِ عقوبةً؛ فتَتْلَف الزُّروع، وتموت الحيوانات[1].

كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى لا يحبُّ تلك الأفعالَ، ولا مَن قام بها، وإنْ قال بلسانه قولًا يُعجِب النَّاسَ[2].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢٠٦)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٨٠-٥٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٦٨-٢٦٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٤٥).

وممَّن قال من السَّلَف في معنى لفظ الحَرْث بنحو ما ذُكر: ابن عبَّاس، وأبو العالية، ومجاهد، وعطاء، وعِكْرمة، والرَّبيع بن أنس، وقَتادة، ومَكحول، والسُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٣٦٧).

وممَّن قال من السَّلَف في معنى ﴿النَّسْلَ﴾ بنحو ما ذُكر: ابن عبَّاس، وعِكْرمة، وأبو العالية، ومكحول، والرَّبيع بن أنس. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٣٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٤٦).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾.

أي: إذا أُمِر هذا المنافقُ بتقوى الله عزَّ وجلَّ؛ بامتثالِ ما أمَر به، واجتنابِ ما نهى عنه، ومِن ذلك: تَرْكُ الإفساد في الأرض بالكفر والظُّلم والمعاصي، وإهلاكِ الزُّروع والحيوانات، إذا أُمر بذلك، استكبَر، وأخذَتْه حميَّةٌ بسبب وقوعِه في الآثام، وحملَتْه هذه الأَنَفةُ على ارتكاب المزيدِ من السَّيِّئاتِ[1].

﴿فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾.

أي: كفاه عقوبةً مِن غيِّه وضلالِه، صَلْيُه نارَ جهنَّمَ، ولبئس الفِراشُ والوِطاءُ جهنَّمُ، الَّتي وطَّأها لنفسِه بنِفاقِه وفُجوره[2].

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ (٢٠٧)﴾.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ﴾.

أي: إنَّ هناك صِنفًا من النَّاس يبيعون أنفسَهم، ويبذلونها ثمنًا لنيلِ مرضاةِ الله عزَّ وجلَّ[3].

﴿وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾.

أي: واللهُ ذو رحمةٍ عظيمة بعباده، ولعبوديَّتِهم له يرأَفُ بهم، وخاصةً مَن يبيعون

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٨٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣١١)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٧١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٨٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣١١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٨٩-٥٩٤)، ((منهاج السُّنة)) لابن تيميَّة (٧/ ١٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٤).

أنفسَهم له سبحانه، ومِن رأفته بهؤلاء أنْ يوفِّقَهم لذلك، ويرضى عنهم[١].

الفوائد التربويَّة:

١- الإشارة إلى ذمِّ الجدل والخِصام؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾؛ لأنَّ الخُصوماتِ في الغالب لا يكونُ فيها بركةٌ[٢].

٢- التَّحذير من ردِّ النَّاصحين؛ لأنَّ اللهَ تعالى جعَل هذا مِن أوصاف هؤلاء المنافِقين؛ فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾، فمَن ردَّ آمرًا بتقوى الله، ففيه شَبَه مِن المنافقين، والواجب على المرء إذا قيل له: (اتَّقِ الله) أنْ يقولَ: (سمِعْنا وأطَعْنا) تعظيمًا لتقوى اللهِ عزَّ وجلَّ[٣].

٣- الإشارة إلى إخلاص النِّيَّة؛ لقوله تعالى: ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ﴾[٤].

٤- الموفَّقون هم الَّذين باعوا أنفسَهم وأرخصوها وبذَلوها طلبًا لمرضاةِ الله، ورجاءً لثوابه، كما قال سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾[٥].

الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف:

١- أنَّ الأَنَفةَ قد تحمِلُ صاحبَها على الإثمِ؛ لقوله تعالى: ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٤٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٤٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٥٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٤٩).

وقال الحاكم: (هذه الآية تدلُّ على أنَّ من أكبر الذنوب عند الله أن يُقال للعبد: اتَّقِ الله! فيقول: عليك نفسك). يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٨٤).

٢- في قوله تعالى: ﴿وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ...﴾ إثبات عِلم الله عزَّ وجلَّ بما في الصُّدور؛ لأنَّ ما في القلبِ لا يعلَمُه إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ[1].

٣- في قوله تعالى:﴿وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ إثبات محبَّةِ اللهِ عزَّ وجلَّ للصَّلاح، فإنَّ نفيَه محبَّةَ الفسادِ دليلٌ على ثبوت أصلِ المحبة[2].

٤- في قوله تعالى: ﴿مَرْضَاتِ اللهِ﴾ إثبات الرِّضا لله؛ ورضَا اللهِ صفةٌ حقيقيَّةٌ لله عزَّ وجلَّ متعلِّقة بمشيئتِه[3].

بلاغة الآيات:

١- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ﴾ التعبير بالفعل المبني للمفعول (قِيلَ) فيه بلاغة تامَّةٌ في حذفِ الفاعل؛ ليشمَلَ كلَّ مَن يقول له ذلك؛ فيكون ردُّه لكراهةِ الحقِّ لا للقائل به[4].

٢- قوله: ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ فيه نوعٌ من البديع يُسمَّى التَّتميم، وهو إرداف الكلام بكلمة ترفع عنه اللَّبس، وتقربه للفَهم، كقوله تعالى: ﴿وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨]؛ وذلك أنَّ العِزَّة محمودةٌ ومذمومة، فالمحمودة طاعة الله، فلمَّا قال: ﴿بالإثمِ﴾، اتَّضح المعنى وتمَّ، وتبيَّن أنها العزةُ المذمومة المؤثِّم صاحبُها[5].

٣- قوله: ﴿وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ تذييل، أي: رؤوفٌ بالعباد الصالحين الذين منهم مَن يشري نفْسَه؛ ابتغاءَ مرضاة الله، ومناسبة هذا التَّذييل للجملة: أنَّ المخبَر

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٤٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٤٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٥٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٤٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٣٣٢- ٣٣٣).

عنهم قد بذلوا أنفسهم لله، وجَعَلوا أنفسهم عَبيدَه[1].

- وعدَل عن الإضمار ﴿بِهِم﴾ إلى الإظهارِ ﴿بِالعِبَادِ﴾؛ ليكونَ هذا التذييلُ بمنزلةِ المَثَل مستقلًّا بنفسه، وهو من لوازم التذييل، وليدلَّ على أن سبب الرأفة بهم أنَّهم جعَلوا أنفسهم عبادًا له[2].

٤- وفي هذه الآية، والتي قَبلها من عِلم البديع: حُسن التَّقسيم[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٧٣-٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٣٣٦-٣٣٧).

الآيات (٢٠٨ - ٢١٤)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ
الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٠٨) فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ
الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٠٩) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي
ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٢١٠) سَلْ بَنِي
إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ
شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢١١) زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا
وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢١٢) كَانَ
النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ
بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ
مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ
بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢١٣) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ
وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ
الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤) ﴾.

غريب الكلمات:

﴿السِّلْمِ﴾: أي: الإسلام. وأصلُ السِّلم: الصُّلح، والسِّلم ضِدُّ الحرْب، والتَّعرِّي من الآفات الظاهرة والباطنة، والاستسلام والانقياد(١).

﴿خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾: أي: سَبيلَه ومَسْلكَه، وآثارَه وعملَه، وخُطوات جمْع خُطْوَة، والخُطْوَة: ما بين القدمين(٢).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨١) و(ص: ٨١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢١، ٤٢٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٦، ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٣)، =

﴿زَلَلْتُمْ﴾: الزَّلَّةُ: استرسال الرِّجْلِ من غير قصْد، يقال: زَلَّتْ رِجله تَزِلُّ، والمَزِلَّةُ: المكان الزَّلق، وقيل للذَّنب من غير قصد: زَلَّةٌ؛ تشبيهًا بزلَّة الرِّجل[1].

﴿يَنْظُرُونَ﴾: ينتظرون[2].

﴿الْغَمَامِ﴾: جمع غمامة، وهو سحابٌ أبيضُ يُواري وجْهَ السماء، لكنَّه يُبقيها مستنيرة؛ سُمِّي بذلك لأنَّه يغمُّ السَّماء، أي يَسترُها ويُواريها، وأصل الغَمِّ: ستر الشيء[3].

﴿بَغْيًا﴾: طُغيانًا وتعديًا بالباطِل، وظلمًا وعدوانًا، وحسدًا، أو نتيجةً للحسد، وأصل البَغْي: طلَب الشيء، وجِنس من الفَساد، والظُّلم، والترفُّع والعلو، ومنه قيل للحَسد: بغي؛ لأنَّ الباغي طالبُ الظلم، والحاسد يظلم المحسودَ جَهدَه؛ طلبًا لإزالة نِعمة الله تعالى عنه[4].

المعنى الإجمالي:

يـأمُرُ اللهُ عبادَه المؤمنين بالعملِ بجميع شرائعِ الإسلامِ، محذِّرًا إيَّاهم مِن طاعة الشَّيطانِ، ومعلِّلًا ذلك بأنَّه عدوٌّ ظاهرٌ لهم؛ فلعداوتِه يُريد أنْ يقودَهم بطاعتِهم له إلى الهلاك، فإنْ وقَعوا في الزَّلل، وخالَفوا تعاليمَ الإسلامِ وشرائعه عامدين،

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥١، ١٠٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٨).

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩٢).

(٢) يُنظر: ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٥-١٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٧١)، ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (ص: ٢٧٥-٢٧٦).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥١-٢٥٢). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٢٨) و(٥/ ٢٨٣)، ((تفسير البغوي)) (١/ ١٤٢).

وضلُّوا عن الحقِّ المبين- فلْيعلَموا أنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يُعجِزه شيءٌ عن الانتقام منهم، ومجازاتهم؛ فإنَّه يقهَرُ مَن يشاء بقوَّتِه، ويعذِّب مَن أراد بمقتضى حِكمته.

ثم يُنكر سبحانه وتعالى على هؤلاء الذين زلُّوا بعد ما جاءتهم البينات، إعراضَهم عن الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم، فإنَّ فعلهم هذا يُعَدُّ وكأنَّه انتظارٌ منهم لموعد هلاكهم، وذلك حين إتيان الرَّبِّ عزَّ وجلَّ يوم القيامة وإتيان الملائكة، ليقضي سبحانه فيهم بعدله، فيجازيهم على كفرهم، فيهلكون.

ثم يأمُرُ اللهُ تعالى نبيَّه محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ أنْ يسأَل اليهودَ عمَّا أعطاهم سبحانه وتعالى مِن الحُجَجِ الواضحة، والبراهينِ والدَّلائلِ والمعجزات الَّتي تدلُّ على صِدْقِ ما جاءهم به الأنبياءُ والرُّسلُ عليهم السلام، لكنَّهم كفَروا وكذَّبوا، وأعرَضوا عن تلك الآيات، ثم توعَّد اللهُ مَن يختارُ الكفرَ عِوضًا عن نعمةِ الإسلام بعد أنْ بلَغَتْه- بالعقابِ الشَّديد.

ثم يُخبِرُ تعالى أنَّ الدُّنيا جُمِّلت في أعيُنِ الكفَّارِ وقلوبِهم، فرَضُوا بها، وآثَروها على نعيمِ الآخرة، ومع ذلك يستهزئون بالَّذين آمَنوا؛ لعزوفِهم عن الدُّنيا وزُخرفِها، وغفَل هؤلاء الكفَّارُ عن أنَّ المفاضلةَ الحقيقيَّةَ هي في الآخرة؛ حيثُ إنَّ الَّذين امتَثلوا أوامرَ الله واجتنبوا نهيَه هم أعلى منهم، وفوقهم؛ وذلك بدخولِهم الجنَّة، لهم فيها ما يشتَهون، والَّذين كفَروا تحتهم في النار في عذابٍ دائمٍ لا ينقطعُ عنهم، والله يُعطي المتَّقين من فضلِه في الجنَّةِ بلا إحصاءٍ ولا حَصْرٍ.

ثمَّ يُخبِرُ تعالى أنَّ النَّاس كانوا مجتمعينَ منذ عهدِ آدمَ عليه السلام على دينٍ واحدٍ، وهو الإسلامُ، واستمرُّوا على ذلك الحالِ لمدَّةِ عشرة قرونٍ متواصلة، ثم اختلفوا بعدها في دِينهم حتى عبَدوا الأصنام، فبعَث الله الأنبياءَ ينهَوْن عن الكفر، ويُبشِّرون بالنَّعيم لِمَن أطاعهم، ويُنذِرون بالنَّار مَن عَصاهم، وكان أوَّلَهم نوحٌ عليه السلام، وأنزَل اللهُ مع أنبيائه كتبًا مِن عنده تشتملُ على الأخبارِ الصَّادقة، والأوامر العادلة؛ لتَفْصِل بين النَّاس في كلِّ ما تنازَعوا فيه، وتُوضِّح لهم الحقَّ مِن الضَّلال، والصوابَ

مِن الخطأ؛ لتقومَ بذلك حُجَّةُ اللهِ على عِبادِه، ومع كونِ تلك الكُتُبِ قد أُنزلت ليتَّفق عليها الَّذين اختَلفوا في دِينهم، فإنَّهم خالَفوا مرادَ الله تعالى، فاختلَفوا فيها أيضًا بعد أنْ علِموا بالأدلَّة القطعيَّةِ أنَّ ما فيها هو الحقُّ، وكان الباعثُ لهم على هذا الاختلافِ، تعدِّيَ بعضِهم على بعض بالباطل، فتنازَعوا فيما بينهم، لكنَّ اللهَ أرشَد المؤمنين إلى الطَّريق المستقيم، ووفَّقهم إلى التمسُّكِ بالحقِّ القويم، الذي اشتملت عليه كتبُ الأنبياء، واللهُ تعالى يُرشِدُ للطَّريق الواضحِ البيِّن مَن يشاءُ مِن خَلْقِه.

ثمَّ يوجِّهُ اللهُ الخطابَ لعباده المؤمنين ألَّا يظنُّوا أنَّ الطَّريقَ إلى الجنَّة خالٍ من الصُّعوبات والعَقَبات فيه، بل هو طريقٌ وَعْرٌ وشائكٌ، محفوفٌ بالعوائقِ والمِحَن والبلايا، مثلما حصَل للأمم قبلهم؛ فقد اكتوَوْا بشدَّةِ الفقر والحاجة، وأصابتهم الأسقامُ والأوجاع، وخُوِّفُوا مِن قِبَل أعدائِهم بأنواع المخاوفِ، حتَّى بلَغ بهم الحال إلى أنْ يتساءَلَ الرُّسلُ والَّذين آمنوا معهم: متى سيأتي نصرُ اللهِ؟ ليرتاحوا من عناءِ ما يُكابِدونه، ومشقَّةِ ما يجدونه، فأكَّد اللهُ تعالى لعباده المؤمنين أنَّ نصرَه لا محالةَ آتٍ عن قريب.

تفسير الآيات:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٠٨)﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾.

أي: يا مَعشرَ المؤمنينَ اعْمَلوا بجميع شَرائعِ الإسلام[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٩٧-٦٠١)، ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (٧/ ٤١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٦٥-٥٦٦).

وممَّن قال من السَّلَف بنحو ما ذُكر في معنى ﴿السِّلْمِ﴾: ابن عبَّاس، وعِكْرمة، وهو أحد قولي مجاهد، والسُّدِّي، والضَّحَّاك، وطاوس، وابن زَيد، وأحدُ قولي قَتادة) ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٩٥)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٣٧٠).

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

مناسبتها لِمَا قبلها:

لَمَّا أمَرَ الله تعالى بالعملِ بجميع شرائعِ الإسلام، حذَّر سبحانه ممَّا يمنَعُ مِن الالتزام بذلك، فقال[1]:

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

أي: لا تُطِيعوا الشَّيطان؛ فتَسلُكوا طُرقَه، فيقودَكم شيئًا فشيئًا إلى التَّهلُكةِ؛ فهو لكم عَدوٌّ ظاهِرُ العَداوة[2].

﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٠٩)﴾.

أي: فإن أخطَأْتم وخالَفْتم شرائعَ الإسلام عن عمدٍ، وضلَلْتُم عن الحقِّ عن عِلمٍ، من بعدِ قيام الحُجَجِ والبراهين عليه، فاعلَموا أنَّ اللهَ تعالى لا يُعجِزُه شيءٌ عن الانتقام منكم؛ إذ يقهَر مَن يشاءُ بقوَّتِه، ويُعذِّبُ مَن يشاء بمقتضى حِكمته؛ فإنَّ مِن حِكمته معاقبةَ العُصاةِ بما يُناسب معصيتَهم له سبحانه[3].

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٢١٠)﴾.

أي: ما ينتظر هؤلاء الذين زلُّوا من بعد ما جاءتهم البينات، فكذَّبوا بمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم وما جاء به، إلَّا إتيان الرَّبِّ عزَّ وجلَّ يوم القيامة في ظُللٍ من الغمام، وإتيان الملائكة، فيقضي الله تعالى بين عباده، ويجازي كل عامل بعمله،

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٠٢-٦٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٤).

فجميع أمور الدنيا والآخرة تؤول إلى الله عزَّ وجلَّ وحده، وحيئذ يكونُ الأمرُ قد انتهى وحقَّ عليهم الهلاك[1]؟!

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا * الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٥-٢٦].

وقال سبحانه: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا * وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا * وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ [الفجر: ٢١ - ٢٣].

وعن عبدِ اللهِ بن مسعودٍ رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم، قال: ((يجمعُ اللهُ الأوَّلين والآخِرين لميقاتِ يومٍ معلومٍ أربعين سَنةً، شاخصةً أبصارُهم إلى السماءِ ينظرون إلى فصلِ القضاءِ، فينزلُ اللهُ من العرشِ إلى الكرسيِّ في ظُلَلٍ من الغمامِ))[2].

﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢١١)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٠٥-٦١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٨٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٥٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١١-١٤)، ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (ص: ٢٧٤-٢٧٦).

(٢) أخرجه ابنُ أبي الدنيا في ((صفة الجنة)) (٣١)، ومحمد بن نصر المروزي في ((تعظيم قدر الصلاة)) (٢٧٨)، والطبراني (٩/ ٤١٧) (٩٧٦٣)، والدارقطني في ((رؤية الله)) (١٦٣).
حسَّنه الذهبي في ((العرش)) (٧٦)، وابن القيم في ((حادي الأرواح)) (٢٦٢)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح الترغيب)) (٣٥٩١).

﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾.

أي: أمَر اللهُ تعالى محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يسأَلَ اليهودَ عمَّا أعطاهم اللهُ تعالى مِن قبلِ مجيئِه عليه الصَّلاة والسَّلام، من دلائلَ ومُعجزاتٍ، وحُجَجٍ واضحات، شاهَدوها على أيدي أنبيائِه ورُسلِه عليهم السَّلام، دالَّات على صِدقهم وصِدْقِ ما جاؤوهم به، ومن ذلك: الإيمانُ بمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، ووجوبُ متابعته على دِينه، لكنَّهم مع ذلك كلِّه أعرَضوا، وكفَروا، وكذَّبوا(١).

﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

أي: مَن يترُكْ نعمةَ الإسلام، فيمتنِعْ عن قَبولِها بالدُّخول فيه، والعملِ بجميع شرائعه، ويختار عِوضًا عن ذلك الكفرَ به- فإنَّ اللهَ تعالى سيُعاقبه عِقابًا شديدًا(٢).

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ [إبراهيم: ٢٨-٢٩].

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢١٢)﴾.

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى مَن يُبدِّل نعمةَ الله مِن بعد ما جاءته، ذكَر السببَ الَّذي لأجله كانتْ هذه طريقتَه، فقال(٣):

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦١٥-٦١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٦/ ٣٦٧).

أي: زُيِّنت الدُّنيا بزُخرفِها ومباهجِها للكفَّار، فتغلغل حبُّها في شغافِ قلوبهم، وقصَروا أنظارَهم عليها، وآثَروها على نعيمِ الآخرة، فعليها يتكالَبون، وفيها يطلُبونَ ما يشتهون، وهم مع ذلك بالمؤمنين يستهزئون، ومنهم يضحَكون؛ وذلك لزُهدِهم في الدُّنيا، وعزوفِهم عن مناصبِها، وتَرْكِهم المفاخرةَ بزينتِها، والاستزادةَ منها(١).

﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

أي: إنَّ الَّذين امتثلوا ما أمَر اللهُ تعالى به، واجتنبوا ما نهى عنه، هم الأَعْلَوْن في دار الخلودِ، وسيكونون فوقَ الَّذين كفروا يوم القيامة، بدخولِهم الجنَّةَ، يتمتَّعون فيها ويبتهِجون، ولهم فيها ما يشتهونَ(٢).

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين: ٢٩-٣٦].

وقال سبحانه: ﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٩].

﴿وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى يُعطي المتَّقين في الجنَّةِ مِن نِعَمه وعطاياه الَّتي لا تنتهي، مِن غير أنْ يخشى نفادَ خزائنه، أو وقوعَ نقصٍ من مُلكه، فلا يحتاج إلى حسابِ ما يُعطي،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦١٨-٦١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٩٠)، (٧/ ٤١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦١٨-٦١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٩٠)، (٧/ ٤١٣).

وإحصاءِ ما يُبقي، بل يُعطيهم ما يشتهون بلا حصرٍ ولا تَعداد؛ فرِزقُه واسعٌ لا نهايةَ له ولا نَفادَ(1).

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢١٣)﴾.

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى في الآية المتقدِّمة أنَّ سببَ إصرارِ هؤلاء الكفَّارِ على كُفرهم هو حبُّ الدُّنيا- بيَّن في هذه الآية أنَّ هذا المعنى غيرُ مختصٍّ بزمنِ نزول الآية، بل كان حاصلًا في الأزمنة المتقادمة؛ لأنَّ النَّاس كانوا أمَّةً واحدةً قائمةً على الحقِّ، ثم اختلَفوا، وما كان اختلافُهم إلا بسببِ البغيِ والتَّنازُعِ في طلبِ الدُّنيا، فقال سبحانه(2):

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾.

أي: إنَّ النَّاس كانوا مجتمعين منذ عهدِ آدمَ عليه السَّلام على دِينٍ واحد، هو دينُ الإسلام، وظلُّوا على ذلك مدَّةَ عشرةِ قرونٍ، فاختلَفوا في دِينهم حتى عبَدوا الأصنام، فبعَث الله النَّبيِّين ينهَوْن عن ذلك الكفرِ، مُبشِّرين مَن أطاعهم بالجنَّةِ، ومُنذِرين مَن عصاهم بالنَّارِ، وكان أوَّلهم نوحٌ عليه السَّلام(3).

---

(1) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٢-٢٣).

(2) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٦/ ٣٧٢).

(3) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٢٥-٦٢٧)، ((منهاج السنة)) لابن تيميَّة (٦/ ٣٠٨-٣٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٨٠-٨١). =

قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ١٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣].

وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧].

﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى أنزَل مع النَّبيِّين عليهم السَّلام كُتبًا مِن عنده، مشتملةً على الأخبارِ الصادقة، والأوامرِ العادلة؛ أنزَلها لتفصِلَ بين النَّاس في كلِّ ما اختلَفوا فيه، فيتبيَّن لهم الحقُّ مِن الضَّلال، والصَّواب مِن الخطأ، وتُقامُ بذلك حُجَّةُ اللهِ تعالى على عبادِه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤].

﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾.

مناسبتها لِمَا قبلها:

لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى إنزالَه الكتبَ على النَّبيِّين عليهم السَّلام، وكان هذا يقتضي اتِّفاقَ الَّذين اختلَفوا في دِينهم عليها، أخبَر تعالى أنَّهم خالَفوا مرادَ الله تعالى منها، فقال سبحانه[2]:

= وممَّن قال من السَّلَف بنحو ما ذُكر: ابن عبَّاس، وقَتادة، وابن جُرَيج. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٢١)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٣٧٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٢٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٨-٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٥-٩٦).

﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾:

أي: إنهم اختلَفوا في تلك الكتب المنزلة، وكان ينبغي أنْ يكونوا أَوْلى النَّاسِ بالاجتماع عليها، والتَّحاكُم إليها، وذلك مِن بعدِ ما علِموا بالأدلَّةِ القاطعات، والحُجَج الباهرات: أنَّ ما فيها هو الحقُّ، وإنَّما حمَلهم على ذلك تعدِّي بعضِهم على بعضٍ بالباطل، ووقوع النِّزاعاتِ والخصومات فيما بينهم[1].

كما قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الجاثية: ١٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ٩٣].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِين أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ٤].

﴿فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى أرشَد المؤمنين للحقِّ الَّذي جاءت به كتبُ أولئك الأنبياءِ عليهم السَّلام، واختلَف فيه غيرُهم، ووفَّقهم أيضًا إلى الانقيادِ إلى هذا الحقِّ، والتمسُّك به، بعِلمِه وإرادتِه وتيسيره، ويدخُلُ في هؤلاء المؤمنين أمَّةُ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم قطعًا، ويدخُلُ فيهم أيضًا كلُّ مَن آمَن مِن الأمم السَّابقة؛ كمَن آمَن مِن قوم نوحٍ عليه السلام[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٥-٩٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيميَّة (٢/ ٢٥٩-٢٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٧٠)، =

﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تبارك وتعالى يُرشِد لطريق الحقِّ الواضح الَّذي لا اعوجاجَ فيه، ويوفِّق للسَّيرِ عليه: مَن يشاء مِن خَلْقه، وهو سبحانه لا يشاءُ إلا ما تقتضيه حِكمتُه البالغة(١).

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤)﴾.

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى اختلافَ الأممِ السَّابقة على ما جاءهم به أنبياؤُهم من الحقِّ، وضلالَهم عنه، وذكَر أنَّه هدى المؤمنين إلى الصِّراط المستقيم، بيَّن اللهُ تعالى هنا أيضًا وَعْثاءَ هذا الطَّريق الَّذي هُدُوا إليه، وما يكتنفُه مِن عقباتٍ، عليهم تجاوزُها، فقال سبحانه(٢):

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾.

أي: أظننتم - أيُّها المؤمنون - أن تَصِلوا إلى الجنَّةِ دون أنْ تُصيبَكم في الطريق إليها شدائد؟ كلَّا، لا تظنُّوا ذلك، بل لا بدَّ أنْ تعترضَ طريقَكم هذا عوائقُ، وتُصيبَكم فيه مِحَنٌ وبلايا، تُبتلَوْن بها وتمحَّصُون، كما وقَع للَّذين مضَوْا من قبلكم(٣).

= ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٧٠-٥٧١)، ((تفسير ابن عثيمين -الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٠-٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣١٣-٣١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٣٥-٦٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣١٣-٣١٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٧-٣٩).

كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِين مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذين صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢-٣].

﴿مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ﴾.

أي: إنَّ مَن مَضى مِن مُؤمِني الأممِ السابقة قد أصابهم الفقرُ وشدَّةُ الحاجة، وأصابتهم الأمراضُ والأوجاعُ، وخُوِّفُوا ورُعِبُوا مِن قِبَل أعدائِهم بأنواع المخاوفِ، فأُصيبوا في أموالهم بالبأساءِ، وفي أبدانهم بالضَّرَّاء، وفي قلوبهم بالخوفِ، حتى وصَلَتْ بهم الحال إلى أنْ يتساءَلَ رسلُ اللهِ ومَن آمَن معهم: متى يأتي نصرُ الله تعالى؟ ليخرُجوا ممَّا هم فيه مِن ضيقٍ وكربٍ وشدَّة(١).

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * إِذْ جَاؤُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٩-١١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٣٦)، ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (١٠/ ٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٧١-٥٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٩-٤٠).

وممَّن قال من السَّلَف: إنَّ معنى البأساء الفقرُ: ابن مسعود، وابن عبَّاس، وأبو العالية، والحسن، ومُرَّة الهمذاني، وسعيد بن جُبَير، ومجاهد، والضَّحَّاك، وقَتادة، والرَّبيع بن أنس، والسُّدِّي، ومقاتل بن حَيَّان. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٣٨٠).

وممَّن قال: إنَّ معنى الضَّراء السُّقم: ابن عبَّاس. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٣٨٠).

وممَّن قال في معنى ﴿وَزُلْزِلُوا﴾ بنحو ما ذُكر: ابن عبَّاس. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٣٨٠).

وعن خبَّاب بن الأَرتِّ رضي الله عنه، قال: ((شكَونا إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لهُ في ظلِّ الكعبةِ، قلنا لهُ: ألا تستنصرُ لنا؟ ألا تدعو اللهَ لنا؟ قال: كان الرجلُ فيمَن قبلكم يُحْفَرُ لهُ في الأرضِ، فيُجْعَلُ فيهِ، فيُجاءُ بالمنشارِ فيُوضَعُ على رأسِهِ فيُشَقُّ باثنتيْنِ، وما يصدُّهُ ذلك عن دِينِهِ ويُمْشَطُ بأمشاطِ الحديدِ ما دونَ لَحمِهِ من عظمٍ أو عصبٍ، وما يصدُّهُ ذلك عن دِينِهِ، واللهِ لَيَتِمَّنَّ هذا الأمرُ، حتى يَسيرَ الراكبُ من صَنعاءَ إلى حضرموتٍ، لا يخافُ إلا اللهَ، أو الذئبَ على غنمِهِ، ولكنكم تستعجلونَ))[1].

﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

أي: أكَّد الله تعالى على أنَّ نصرَه قريب، وأنَّ فرجَه عاجلٌ، فمع العسر يأتي اليُسر، وكلَّما ضاق الأمر اتَّسع[2].

كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦].

وعن أبي رَزينٍ العُقيليِّ رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((ضحِكَ ربُّنا من قُنوطِ عبادهِ وقُربِ غِيَرِهِ))[3].

---

(١) رواه البخاري (٣٦١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٠).

(٣) أخرجه ابن ماجه (١٨١)، وأحمد (١٦٢٣٢).

قال أبو عُبيد القاسم بن سَلَّام لَمَّا سُئل عن هذا الحديث وبعضِ أحاديث الصِّفات الأخرى: (هذه الأحاديثُ حقٌّ لا شكَّ فيها، رواها الثقات بعضُهم عن بعض) ((التمهيد)) لابن عبدالبر (٧/ ١٥٠). وحسنه ابن تيمية في ((مجموع الفتاوى)) (٣/ ١٣٩)، والألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (١٨١).

وقوله: ((وقُرْب غِيَرِه)): الغِيَر: بمعنى تغيُّر الحال، وهو الاسم مِن قولكَ: غَيَّرت الشَّيءَ فتَغَيَّر، والمراد هنا: قُرْب تغيُّر الحال الذي هم عليه من القُنوط إلى خِلافه من الإغاثة. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٤٠١)، ((حاشية السِّندي على ابن ماجه)) (١/ ٧٧)، ((التنوير شرح الجامع الصغير)) للصنعاني (٧/ ٩٨).

الفوائد التربويَّة:

١- فضل الإيمان؛ لقولِه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ لأنَّ هذا النداء، نداء تشريف وتكريم[1].

٢- أنَّ الإيمان مقتضٍ لامتثال الأمر؛ لأنَّ الله صدَّر الأمر بهذا النداء؛ والحُكمُ لا يُقرَن بوصف إلَّا كان لهذا الوصف أثرٌ فيه[2].

٣- على المؤمنين أن يَستسلموا بكُليَّاتهم لله، في ذواتِ أنفسهم، وفي الصَّغير والكبير من أمرِهم؛ أن يَستسلموا الاستسلامَ الذي لا تَبقى بعده بقيَّةٌ ناشزة من تصوُّر أو شعور، ومن نيَّة أو عمل، ومِن رغبةٍ أو رهبة، لا تخضَع لله ولا تَرضى بحُكمه وقضائِه، استسلامَ الطاعة الواثقة المطمئنَّة الراضية؛ وذلك لقوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾[3].

٤- حقارة الدنيا؛ لوصفها بالدُّنيا، وهي من الدنوِّ زمنًا، ورتبةً: زمنًا؛ لأنَّها قبل الآخرة. ورُتبةً؛ لأنَّها قليلٌ بالنسبة للآخرة؛ ولهذا لا تجد في الدنيا حال سرور إلَّا مَشوبًا بتنغيصٍ قبله، وبعده؛ لكن هذا التنغيص بالنسبة للمؤمن خير؛ لأنَّ له فيه أجرًا[4].

٥- أنَّ العبرة بكمالِ النِّهاية؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[5].

٦- رحمة الله عزَّ وجلَّ بالمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾[6].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٢٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٥).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٥).

٧- أنَّه كلما قوِي إيمان العبد، كان أقربَ إلى إصابة الحقِّ؛ لقوله تعالى: ﴿فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا...﴾(١).

٨- أنَّ الإيمان ليس بالتمنِّي، ولا بالتحلِّي؛ بل لا بدَّ من نيَّة صالحة، وصبرٍ على ما ينالُه المؤمن من أذًى في الله عزَّ وجلَّ(٢).

٩- أنَّ الصَّبر على البلاء في ذاتِ الله عزَّ وجلَّ من أسباب دخول الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا...﴾ الآية(٣).

١٠- تبشير المؤمنين بالنصر؛ ليتقوَّوا على الاستمرار في الجهاد ترقبًا للنَّصر المبشَّرين به، كما قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾(٤).

١١- عناية الله عزَّ وجلَّ بهذه الأمَّة، حيث يسلِّيها بما وقع بغيرها؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ...﴾ إلخ(٥). فهذا هو الطريق كما يصفه الله... هذا هو الطريق: إيمان وجهاد، ومِحنة وابتلاء، وصبر وثبات، وتوجُّه إلى الله وحده، ثم يَجيء النصر، ثم يَجيء النعيم(٦).

١٢- لَمَّا كان الفرج عند الشدَّة، وكلَّما ضاق الأمر اتَّسع، قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾ فهكذا كلُّ مَن قام بالحقِّ، فإنَّه يُمتَحن(٧).

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٤١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٤٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٤٠).
(٦) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٢١٩).
(٧) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٦).

١٣- حِكمة الله عزَّ وجلَّ، حيث يبتلي المؤمنين بمثل هذه المصائب العظيمة؛ امتحانًا حتى يتبيَّن الصادق من غيره(١).

١٤- أنَّه ينبغي للإنسان ألَّا يسألَ النصر إلَّا من القادر عليه، وهو الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿مَتَى نَصْرُ اللهِ﴾(٢).

الفوائد العِلميَّة واللَّطائف:

١- وجوب تَطبيق الشَّرع جملةً وتفصيلًا؛ لقوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾(٣).

٢- قرن الحُكم بعلَّته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ ثم علَّل: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾(٤).

٣- الوعيد على مَن زلَّ بعد قيام الحجة عليه؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٥).

٤- أنَّه لا تقوم الحجَّة على الإنسان، ولا يستحق العقوبة إلَّا بعد قيام البيِّنة؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾(٦).

٥- في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ﴾ إثبات صفة الإتيان لله عزَّ وجلَّ(٧).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٤٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٩).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١٠).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١١).
(٧) يُنظر: ((رسالة لأهل الثغر)) لأبي الحسن الأشعري (ص: ٢٢٧)، ((شرح الواسطية)) للهراس (ص: ١١٢).

٦- أنَّ الكفَّار لا يزالون يُسلِّطون أنفسهم على المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ بالفعل المضارع الذي يفيد التجدُّد والاستمرار[١].

٧- تثبيت المؤمنين، وترسيخ أقدامِهم في إيمانهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني: اصبِروا؛ فإنَّ هذا دأبُهم وشأنهم أن يسخَروا منكم؛ فما دمتم تعرِفون أنَّ هذه عادة الكفَّار، فاصبروا؛ فإنَّ الإنسان إذا عرَف أنَّ هذا الشيء لا بدَّ منه فإنَّه يكون مستعدًّا، وقابلًا له، وغير متأثِّر به[٢].

٨- أنَّ مَن يُوصَف بالتبشير إنَّما هم الرُّسل، وأتباعهم؛ وأمَّا ما تسمَّى به دعاة النصرانيَّة بكونهم مبشِّرين، فهم بذلك كاذبون؛ إلَّا أن يُرادَ أنَّهم مبشِّرون بالعذاب الأليم، كما قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[٣].

٩- رحمة الله عزَّ وجلَّ بالعباد، حيث لم يكِلْهم إلى عقولهم؛ لأنَّهم لو وُكِلوا إلى عقولهم لفسدتِ السَّموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١]؛ فكلُّ إنسانٍ يقول: العقل عندي، والصَّواب معي، ولكنَّ الله تعالى بعث النبيِّين، وأنزل معهم الكتاب؛ ليَحكُمَ بين النَّاس فيما اختلفوا فيه[٤].

١٠- أنَّه يجب على المرء الذي هداه الله ألَّا يعجب بنفسه، وألَّا يظنَّ أنَّ ذلك مِن حولِه، وقوته؛ لقوله تعالى: ﴿فَهَدَى اللَّهُ﴾، ثم قال تعالى: ﴿بِإِذْنِهِ﴾ أي أمرِه الكوني القدري؛ ولولا ذلك لكانوا مثل هؤلاء الذين ردُّوا الحق بغيًا وعدوانًا[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٣).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٦).

١١- الإيماء إلى أنَّه يَنبغي للإنسان أن يَسأَلَ الهداية من الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[١].

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ خبرٌ فيه نهايةٌ في الوعيد؛ لأنَّه يجمع من ضروب الخوف ما لا يجمعه الوعيدُ بذِكر العقاب، كما لو قال الوالد لولده: إنْ عصيتني فأنت عارفٌ بي، فيكون هذا الكلامُ في الزَّجر أبلغَ من ذِكر الضرب وغيره[٢].

٢- قوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾

- ﴿هَلْ...﴾ استفهامٌ إنكاري في معنى النَّفي؛ ولذلك دخَلت (إلَّا)، وكون (هل) بمعنى النَّفي إذا جاء بعدها ﴿إلَّا﴾ كثيرُ الاستعمال في القرآن، وفي كلام العرَب[٣].

- وفيه: التِفات؛ حيث أعرَض تعالى عن خِطابهم ﴿زَللتُم﴾، وأخبَر عنهم إخبارَ الغائبين ﴿يَنظرون﴾؛ مسليًّا لرسوله عن تباطئهم في الدُّخول في الإسلام، وفيه تجديدٌ لنشاط السَّامع[٤].

٣- في قوله: ﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

إظهار اسم الجلالة مع أنَّ مقتضى الظاهر أن يُقال: (فإنَّه شديد العقاب)؛ لإدخال الرَّوع في ضمير السَّامع، وتربية المهابة، ولتكون هذه الجملة كالكلام الجامِع مستقلًّا بنفسه؛ لأنَّها بمنزلة المثل لأمرٍ قدْ علِمه الناس من قبلُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٥/ ٣٥٥)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٨٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٣٤٢)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٨٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٣٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٨٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٩٣).

٤- في قوله: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾

- جيء في فِعل التزيين بصيغة الماضي ﴿زُيِّنَ﴾، وفي فِعل السُّخرية بصِيغة المضارع ﴿يَسْخَرُونَ﴾ للدَّلالة على أنَّ معنى فِعل التزيين أمرٌ مستقرٌّ فيهم؛ لأنَّ الماضي يدلُّ على التحقُّق، وأنَّ معنى ﴿يَسْخَرُونَ﴾ متكرِّر متجدِّد منهم؛ لأنَّ المضارع يُفيد التجدد، ويعلم السامع أن ما هو محقَّق بين الفعلين هو أيضًا مستمرٌّ، وإنَّما اختُير لِفعل التزيين خصوص المضي، ولفعل السخرية خصوص المضارعة؛ إيثارًا لكلٍّ مِن الصِّفتين بالفِعل التي هي به أجدرُ؛ لأنَّ التزيينَ أسبقُ في الوجود، وهو منشأُ السخريَّة، والسخرية مترتِّبة على التزيين وتكرُّرها يَزيد في الذمِّ؛ إذ لا يليقُ بذي المروءة السُّخرية بغيره[1].

- وفيه وضْع الظاهر ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ موضعَ المضمر بِصفة أُخرى ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا﴾، ومثله في كتاب الله كثير، وذَكر صِفة الإيمان وصِفة التَّقوى؛ ليظهر به أنَّ السعادة الكبرى لا تحصُل إلَّا للمؤمن التقي، وليكون بعثًا للمؤمنين على التقوى[2].

- وفي هذه الآية مُفارقةٌ في الجُمل؛ فقدْ عبَّر عن زِينة الحياة الدنيا في نظر الذين كفروا وعن سُخريتهم من المؤمنين بالفِعليَّة إشارة الى الحدوث، وأنَّ ذلك أمر طارئ لا يلبث أن يزول بصوارف متعدِّدة، أمَّا استعلاء الذين اتقوا عليهم فهو أمرٌ ثابت الدَّيمومة لا يطرأ عليه أي تبديل؛ ولذلك عبَّر بالاسميَّة ﴿والَّذِينَ اتَّقَوْا﴾[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٩٦-٢٩٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المنير)) (١/ ٢٥٥)، ((تفسير الرازي)) (٦/ ٣٦٩).
(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٣١٢).

٥- قوله: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ خصَّ بالذِّكر ﴿الَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ تنبيهًا منه على شَناعة فِعلهم، وقَبيح ما فعلوه من الاختلاف، وأتى بلفظ: ﴿مِن﴾ الدالَّة على ابتداء الغاية، منبِّهًا على أنَّ اختلافهم متَّصل بأوَّل زمان مجيء البيِّنات، لم يقعْ منهم اتفاقٌ على شيء بعد المجيء، بل بنفس ما جاءتهم البيِّنات اختلفوا، لم يتخلَّلْ بينهما فترة[1].

٦- قوله: ﴿فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ فيه تقديم لفظ الاختلاف على لفظ الحقِّ؛ للاهتمام به؛ إذ العناية إنَّما هي بذِكر الاختلافِ[2].

٩- قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ ﴿أَمْ﴾منقطعة بمعنى (بل)، وهمزة الاستفهام فيها للتقرير والتوبيخ، وإنكار الحُسبان واستبعاده. وقال لهم على طريقة الالتِفات التي هي أبلغُ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾، أي: بل أحسِبتم...[3].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٣٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٣٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢٥٦)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١٣٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣١٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٣١٦).

الآيات (٢١٥ - ٢٢٠)

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢١٥) كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦) يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢١٨) ۞ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩) فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٠) ﴾.

غريب الكلمات:

﴿حَبِطَتْ﴾: أي: بطَلَت؛ فالحبط: البُطلان والألم، وأصلُه: أن تُكثِرَ الدابَّةُ أكلًا حتى ينتفخَ بطنُها(١).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٦).

﴿الْمَيْسِرِ﴾: القِمارُ، وأصله مِن يَسرت: إذا ضربت بالقِداح[1].

﴿الْعَفْوَ﴾: الفَضل، يعني: فضْل المال، يُقال: عفا الشَّيء: إذا كثُر[2].

﴿لأَعْنَتَكُمْ﴾: ضيَّق عليكم وشدَّد، أي: لأهلككم، وأصل العنَت: العَسْف، والحَمْل على المكروه[3].

مشكل الإعراب:

قوله: ﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾

﴿وَالْمَسْجِدِ﴾: المسجدِ: مجرور، وفي جرِّه أوجهٌ، أقربُها: أنَّه مجرورٌ عطفًا على ﴿سَبِيلِ اللهِ﴾، أي: وصدٌّ عن سَبيلِ اللهِ وعن المَسجِدِ. وعُطِف قوله: ﴿وَكُفْرٌ بِهِ﴾ على ﴿صَدٌّ﴾ قبل أن يَستوفي ﴿صَدٌّ﴾ ما تعلَّق به وهو ﴿والمَسجِدِ الحَرَامِ﴾؛ **وقيل**: هو معطوف على الضَّمير في ﴿به﴾ في قوله: ﴿وكُفْرٌ بِهِ﴾، أي: وكفرٌ به وكفرٌ بالمسجِد، وهو من باب عطف الاسم الظَّاهر على الضَّمير من غيرِ إعادة حرف الجرِّ، والرَّاجح جوازُه مطلقًا؛ لكثرةِ السماع الوارد به، وضَعْفِ دليل المانعين، واعتضادِه بالقياس. وقيل: هو معطوفٌ على ﴿الشَّهرِ الحَرَامِ﴾، أي: يسألونك عن الشهرِ الحرامِ وعن المسجدِ الحرام، ويكون سؤالهم عن شيئين، أحدهما: القتال في الشهر الحرام. والثاني: القتال في المسجد الحرام؛ لأنَّهم لم يسألوا عن ذات الشهر ولا عن ذات المسجد، إنما سألوا عن القِتال فيهما. **وقيل** غير ذلك[4].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٥٠).

(٤) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٢٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ١٧٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٣٩٣-٣٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٢٩).

المعنى الإجمالي:

يقول الله تعالى لنبيِّه عليه الصَّلاة والسَّلام: إنَّ أصحابَك يا محمَّد، يسألونك عن مقدارِ وجنسٍ وكيفيَّةِ ما يُخرِجونه نفقةً، وأمَره أن يُجيبَهم على هذا السُّؤال بأنَّ ما ينفقونه من الأموال لا يُشترط فيه شيءٌ معيَّن، ولا مقدارٌ محدَّد، بل يشمل أيَّ مالٍ، قليلًا كان أو كثيرًا، وأنَّ أولى مَن يُعطَى هذه النفقة هم الأقربُ رحمًا، وهم الوالدان ثم بقيَّة الأقارب، الأقرب فالأقرب، ومِن بَعدِ هؤلاء تُصرَف النفقة إلى أشدِّ النَّاس حاجةً؛ وهم الصِّغار الذي فقدوا آباءهم قبل بلوغِهم، وليس لهم مصدر كسْب، ثمَّ للمساكين الذين لا يجدون ما يسدُّ حاجتَهم، وللمسافر المجتاز الذي يحتاج إلى ما يوصله إلى مقصوده، ثم يُخبرهم تعالى أنَّ كلَّ ما يُقدِّمونه من معروفٍ وإحسانٍ فإنَّه ليس بخافٍ على الله سبحانه، بل هو مطَّلعٌ على تلك الأعمال، فيحصيها ويجازيهم عليها.

ثم يُعْلِم الله تعالى عباده المؤمنين بأنَّه فَرَض عليهم القتال مع أنَّه مكروهٌ لهم؛ لِمَا فيه من المشقَّة، والتعرُّض للقتل والإصابة بالجروح، وما يحدُث فيه من خوف، لكنَّ الحقيقة أنَّ ما فيه من المنافع أعظم ممَّا ينتج عنه من أضرار، ومن تلك المنافع العظيمة المرجوَّة منه النصر على الأعداء، وغُنْم البلدان والأموال، والإكرام بالشهادة لمن مات محتسبًا، وحصول الأجر العظيم للمقاتلين في سبيل الله. وأمَّا العزوف عن القتال وإن كان محبوبًا وتميل إليه النفوس، إلَّا أنَّ ما فيه من الشرور يفوقُ على مصلحة قعودهم، ومن تلك الشرور المترتِّبة على القعود تسلُّط أعدائهم عليهم، وفَوات الأجر العظيم، وهكذا الحال في جميع أعمال الخير وإن كرِهتها النفوسُ، وأفعال الشرِّ وإن مالت لها النفوس، والله سبحانه وتعالى أعلم بما ينفعكم، وما يضرُّكم، فالتزموا أمره، واتَّبعوا شرعه.

ثمَّ يقول الله تعالى لنبيِّه محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ: يسألك المؤمنون عن القتال في الأشهر الحرم، ولقَّنه تعالى جوابَ ذلك بأنَّ القتال فيها عظيم لحرمتها، لكن ما يقومُ به المشركون من ثَنْي النَّاس عن سلوك الطريق القويم، وكفرهم بالله تعالى، ومَنْعهم النَّاسَ من الوصولِ إلى بيت الله الحرام، وإخراج أهلِه المؤمنين منه أعظمُ جُرمًا عند الله؛ فكلٌّ من تلك الخِصال التي يفعلونها بها فِتنة، والفتنةُ أشدُّ من القتل الذي وقَع من المسلمين في شهرٍ حرام. ثم أعلمَ اللهُ عبادَه بمدى حِقدِ الكفَّار عليهم وعلى دِينهم، وأنهم سيظلُّون يقاتلونهم في سبيل تحقيق غاية لهم، وهي أن يُثنوا المؤمنين عن دِينهم؛ ليعودوا كفَّارًا مثلَهم إنْ قدَروا على ذلك، لكنَّهم لن يستطيعوا ذلك أبدًا. ثم أخبر تعالى أنَّ مَن يرجع من المؤمنين عن دِينه، ويعود للكُفر، مستمرًّا عليه حتى موته بدون توبة، فأولئك تَبطُل أعمالُهم وتتلاشى، ولا يبقى لهم عملٌ صالح يُؤجَرون عليه لا في الدُّنيا ولا في الآخرة، وهم من أهل النار الملازمين لها على الدَّوام.

وأمَّا الذين أقرُّوا بالحقِّ منقادينَ إليه، والذين فارقوا الأوطان؛ فرارًا من مخالطة أهل الشرك، ومحافظةً على دِينهم، والذين قاتلوا أعداءَ الله؛ نُصرةً للدِّين، وإعلاءً لكلمته سبحانه، فأولئك الذين طَمِعوا في رحمة الله ونَيْل كرامته، وسيُكرمون بما رجَوه؛ ذلك بأنَّ الله غفورٌ يستُرُ ذُنوبَهم ويتجاوز عنها، ورحيمٌ بتوفيقِهم لتلك الأعمال، وبمجازاتهم عليها بالفلاح في الدَّارينِ.

ثم يقول تعالى مخاطبًا نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ: إنَّ المؤمنين يسألونك يا محمَّد، عن حُكم كلِّ ما أَسْكَر من الشَّراب، وعن حُكم القِمار، وأمَره أنْ يُجيبَهم بأنَّ في شُرْب المسكِر، ولعب القِمار مفاسدَ كثيرة، وآثامًا كبيرة، منها ما يُحدِثانه من عداوة وبغضاء، وصدٌّ عن ذكر الله وعن الصَّلاةِ، وغير ذلك من المنكرات، وفيهما أيضًا منافعُ للناس كالذي تُحدِثه الخمرُ من الطرب والنَّشوة، أو القمارُ من المكاسِب

الماديَّة، لكن عند المقارنة بين المفاسد والمنافع نجد أنَّ المفاسد والآثام المترتِّبة عليهما أكثر من النفع المتحصِّل منهما.

ثمَّ خاطب الله تعالى نبيَّه عليه الصَّلاة والسلام مخبرًا إيَّاه أنَّ المؤمنين يسألونه عن ماهية ما يُنفِقونه من أموالِهم، وأمَره أن يُجيبَهم بأنَّ الفاضلَ عن الاحتياجات الضروريَّة هو المال الذي يُنفق منه صدقةً في سبيل الله تعالى، وأخبره أنهم يسألونه أيضًا عن كيفية التعامل مع اليتامى بعد أنْ شقَّ عليهم التحرُّزُ الشديدُ من أموالهم، فأمره الله سبحانه أن يجيبهم بأنَّ المقصود إصلاح أموالهم، بحفظها واستثمارها لهم، فإنْ فعلوا ذلك لله تعالى دون أن يأخذوا عليه أجرًا فذلك خيرٌ لهم وأعظم أجرًا، وإنْ أخذوا مقابل ما قاموا به شيئًا من أموالهم كأن خالطوهم في طعامٍ أو غيره من الأموال فذلك جائزٌ على وجهٍ لا يضرُّ باليتامى؛ لأنَّهم إخوانهم في الدِّين، والأخ من شأنه أن يخالط أخاه. ومع هذا الإذنِ بالمخالطة تبقى الرِّقابة الإلهيَّة تحذيرًا لمن قد تسوِّلُ له نفسه أكْل أموال اليتامى؛ فالله يعلم مَن نيَّته إفساد مال اليتيم، ومَن نيَّته إصلاحه، وسيُجازِي الله تعالى كلًّا بحسب قصده. وهذا التشريع والرخصة من الله عزَّ وجلَّ إنما هي توسعةٌ على عباده، وإزالة للمشقَّة، وإلَّا فإنَّ الله تعالى قادرٌ على أن يشقَّ عليهم، فيقعوا في الضِّيق والحرج؛ فإنَّه لعزَّتِه لا يُعجزُه شيء، ولحكمتِه سبحانه يضع كلَّ شيءٍ في موضِعه الذي يليق به.

تفسير الآيات:

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢١٥)﴾.

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾.

أي: يسألك أصحابُك يا محمَّد، عمَّا يُنفَق جنسًا ومقدارًا وكيفيَّةً، فأجابهم الله تعالى عن ذلك بأنَّ ما تنفقونه من الأموال لا يُشترط فيه شيء معيَّن، ولا مقدار محدَّد، بل يشمل أيَّ مال، وسواء كان قليلًا أم كثيرًا، وأنَّ أولى وأحقَّ مَن تُنفق عليه الأموال هم أقرب النَّاس رحمًا وهم الوالدان، ثم بقيَّة الأقارب، الأقرب فالأقرب، ثم تصرف إلى أشدِّ النَّاس حاجةً من بعدهم، وهم الصِّغار الذين فقدوا آباءهم قبل بلوغهم ولا كاسب لهم، ثم للمساكين الذين لا يجدون ما يكفيهم ويُغنيهم، وكذا للمسافرِ المجتاز الذي يحتاج نفقةً تُوصِله لموطنِه[1].

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾.

أي: إنَّ كل ما تُقدِّمونه من معروفٍ وبرٍّ وإحسان وطاعة وقربة لله تعالى، فإنَّه لا يخفَى عليه، بل مطَّلِع على أعمالكم، يُحصِيها لكم، ويُجازِيكم عليها[2].

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦)﴾.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾.

أي: فُرِض عليكم- أيُّها المؤمنون- قتال الأعداء من الكفَّار والمشركين، مع أنَّه مكروهٌ لكم، لا تحبُّونه؛ لِمَا فيه من شدَّة ومشقَّة بالغة، ولِمَا يحدُث فيه من التعرُّض للقتل والإصابة بالجراح ووقوع المخاوف[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٦)، ((تفسير ابن عُثيمين – الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٣-٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٦)، ((تفسير ابن عُثيمين – الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٤٣-٦٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٧٢-٥٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٦-٩٧).

﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾.

أي: إنَّه مع وقوعِ هذه الكراهيةِ في النفوسِ للقتال، إلَّا أنَّ الحقيقة بخلاف ذلك؛ إذ فيه من الخير والمنافع ما هو أكثرُ وأعظمُ ممَّا يقع فيه من أضرار، ومن ذلك ما يَحصُل بسببِه من النَّصرِ على الأعداء، والتمكُّن من البلدان والأموال، وما تقع فيه من الشَّهادة لمن مات منهم محتسبًا، وحصول الحسنات العظيمة لهم، وغير ذلك، فأمَّا ترك القتال الذي هو محبوبٌ للنفوس ففيه من الشرور ما يَزيدُ على مصلحة قعودِهم، ومنها تسلُّط الأعداء، وفوات الأجور العظيمة، وهكذا الأمرُ في جميع أفعال الخير وإنْ كرِهتها النفوس، وأفعال الشرِّ، وإن أحبَّتها النُّفوس(١).

﴿وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

أي: إنَّ الله عزَّ وجلَّ يعلم ما هو خيرٌ لكم ممَّا هو شرٌّ لكم، وأعلم منكم بما ينفعكم وما يضرُّكم، فاستجيبوا له في جميع الأحوال(٢).

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٤٦)، ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (٢٤/ ٢٧٨-٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٦-٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٧).

سبب النُّزول:

عن جُندُب بن عبد الله رضي الله عنه: ((أنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ بعث رهطًا، وبعَث عليهم عبدَ الله بن جحش، فلقُوا ابن الحضرمي فقتلوه، ولم يَدرُوا أنَّ ذلك اليوم من رجب، أو من جُمادى، فقال المشركون للمسلمين: قتلتُم في الشهر الحرام، فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾. الآية، فقال بعضهم: إنْ لم يكونوا أصابوا وزرًا فليس لهم أجْر، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾))[(١)].

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾.

أي: يسألك المؤمنون يا محمَّد، عن القِتال في شهرٍ حرام (الأشهر الحرم هي: ذو القعدة، وذو الحِجَّة، ومحرَّم، ورجب)[(٢)]، وقيل: السؤال وقع من المشركين للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ تعييرًا وتشنيعًا على المؤمنين الذين قتَلوا أحد المشركين في شهرٍ حرام، فأمره الله تعالى أن يُجيب عن ذلك بأنَّ القتال فيه عظيم؛ لعَظمة تلك الأشهر وحُرمتها[(٣)].

﴿وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾.

---

(١) أخرجه النَّسائي في ((السنن الكبرى)) (٥/ ٢٤٩) (٨٨٠٣)، وأبو يعلى (٣/ ١٠٢) (١٥٣٤)، والطبراني (٢/ ١٦٢) (١٦٧٠).
وثَّق رِجالَه الهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٦/ ٢٠١)، وحسَّن إسنادَه ابنُ حجر في ((العجاب)) (١/ ٥٣٨)، وصحَّح سندَه الشوكانيُّ في ((فتح القدير)) (١/ ٣٢٤)، وأحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٢٦١).

(٢) وهذا اختيار ابن جرير في ((تفسيره)) (٣/ ٦٤٧-٦٤٨)، وابن عثيمين في ((تفسير الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٥١، ٥٣).

(٣) وهذا اختيار الواحدي في ((التفسير الوسيط)) (١/ ٣٢١). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٢٥).

أي: ولكنْ ما يقومون به مِن مَنْع النَّاس من سُلوكِ طريق الحقِّ، أو من الاستمرار عليه لمن آمَن، وكفرهم بالله تعالى، ومنعِهم النَّاس عن الوصول إلى البيت الحرام لحجٍّ أو عمرة، وإخراج أهله المؤمنين منه، وهم عُمَّارُه والأحقُّ به من المشركين- أعظمُ إثمًا وجرمًا عند الله تعالى؛ فكلُّ واحدٍ منها فِتنة، والفِتنة أعظمُ وأشدُّ من القتل الذي وقع من المسلمين في شهرٍ حرام(١).

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾.

أي: سيظلُّ الكفَّار والمشركون على قتالكم، لا يَهدأ لهم بال، ولا يتوقَّفون عن قتال، لا لغرضٍ دنيويٍّ كالمال؛ بل لأجْل أن ترجِعوا عن دينكم فتُصبِحوا كفَّارًا مثلهم، هذا إن قدروا، لكنَّهم لن يقدروا، فهم عاجزون حقًّا عن ذلك(٢).

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

أي: كلُّ مَن يرجِعْ منكم عن دِين الإسلام، فيختار الكفر ويستمرُّ عليه، حتى مماته، ولم يتُب من كفره، فقد بطَلت أعمالُه واضمحلَّت، فلم يبقَ له عملٌ صالح يُؤجَر عليه في الدُّنيا والآخرة، وهو من أهل النَّار الملازمينَ لها على الدوام(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٤٩-٦٥٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٥١-٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٩١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٥٢-٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٦٥-٦٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٥٣).

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢١٨)﴾.

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

أعقَب اللهُ عزَّ وجلَّ الإنذارَ بالبشارة، ونزَّه المؤمنين من احتمال ارتدادِهم؛ فإنَّ المهاجرين لم يرتدَّ منهم أحدٌ[1].

سبب النُّزول:

عن جُندُبِ بن عبد الله رضِي الله عنه: ((أنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ بعث رهطًا، وبعَث عليهم عبدَ الله بن جحش، فلقُوا ابن الحضرمي فقتلوه، ولم يَدرُوا أنَّ ذلك اليوم من رجب، أو من جُمادى، فقال المشركون للمسلمين: قتلتُم في الشهر الحرام، فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾. الآية، فقال بعضُهم: إنْ لم يكونوا أصابوا وزرًا فليس لهم أجْر، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾))[2].

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢١٨)﴾.

أي: إنَّ الذين صدَّقوا وأقرُّوا بالحقِّ منقادينَ إليه، والذين انتَقلوا من موضعٍ إلى آخَرَ فرارًا من مخالطة المشركين ومساكنتِهم، وربَّما فارَقوا بذلك عشائرهم وأوطانهم؛ حفاظًا على دِينهم، والذين بذلوا جهدَهم في مقاتلة الأعداء نصرًا لدين الله تعالى، وإعلاءً لكلمته، فهؤلاء- ذَوُو الطبقة العالية الرفيعة- لائقون

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٣٧).
(٢) سبق تخريجه (ص: ٦١٨).

وجديرون حقًّا بأن يطمعوا في نَيل رحمة الله تعالى لهم، وأنْ يُدخِلَهم دار كرامته، وسيَحظَون بما أمَّلوا وطمِعوا فيه؛ ذلك أنَّ الله تعالى غفورٌ رحيم؛ فبمغفرته ستَر ذنوبهم وتجاوز عنها، وأذهب آثارها وعقوباتها في الدنيا والآخرة، وبرحمته وفَّقهم لتلك الأعمال الجليلة، ويمنحهم في الدَّارين الخيراتِ والمراتبَ النَّبيلة[(١)].

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩)﴾.

سبب النُّزول:

عن عُمر بن الخطَّاب رضي الله عنه، قال: ((لَمَّا نزل تحريم الخمر قال: اللهمَّ بيِّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا. فنزلت هذه الآية التي في سورة البقرة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ قال: فدُعي عمر فقُرئت عليه، فقال: اللهمَّ بيِّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا. فنزلت الآية التي في سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ فكان منادي رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ إذا أقام الصَّلاة نادى أن لا يقربنَّ الصَّلاة سكرانُ، فدُعِي عمر فقُرئت عليه، فقال: اللهمَّ بيِّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا، فنزلت الآية التي في المائدة، فدُعيَ عمر فقُرِئَت عليه، فلما بلغ: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ قال: فقال عمر: انتهينا، انتهينا))[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٦٦-٦٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٦٢-٦٥).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٦٧٠)، والترمذي (٣٠٤٩)، والنَّسائي (٥٥٤٠)، وأحمد (١/ ٥٣) (٣٧٨). صحَّحه عليُّ بنُ المَدينيِّ كما في ((شرح ثلاثيات المسند)) للسفاريني (١/ ٧٩٥)، وقال الترمذيُّ: رُوي عن إسرائيل مرسلًا، وهو أصحُّ. وصحَّح إسنادَه أحمدُ شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (١/ ١٨٥)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن النَّسائي)) (٥٥٤٠)، وقال الوادعي في ((أحاديث معلة)) (٣١٧): سندُه رجالُ الصحيح، ولكنَّه منقطع.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾.

أي: يسألك المؤمنون يا محمَّد، عن حُكم الخمر- وهي: كلُّ شرابٍ مسكِرٍ يُغطِّي عقل صاحبه- وعن حُكم القِمار[1].

﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾.

أي: قلْ لهم يا محمَّد، بأنَّ في شُرب المسكرات وتعاطِي القِمار إثمًا كبيرًا؛ إذ يُحدِثان عداوةً وبغضاءَ وصدًّا عن ذِكر الله تعالى وعن الصَّلاة، وغير ذلك من آثامٍ ومنكرات، هي أعظم ممَّا يتأتَّى منهما من منافع قد تحصُل في النفس والبدن والمال، كالذي تُحدِثه الخمر لشاربها من طربٍ ولذَّةٍ ونشوةٍ، وتشحيذٍ للذِّهن وغير ذلك، وما يأتي به القمار لصاحبه من مكاسبَ وأموال، ولذَّةٍ في اللعب والمغالبة، وقد ذكر الله تعالى آثامهما قبل منافعهما؛ ليقع في نفس المؤمن الاشمئزاز منهما أوَّلًا[2].

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١].

﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٦٩-٦٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٨).

وممَّن قال من السَّلَف بأنَّ الميسر هو القِمار: ابنُ عمر، وابن عبَّاس، وعبد الله بن مسعود، ومجاهد، وعَطاء، وطاوس، وسعيد بن جُبَير، والحسن، ومحمَّد بن سِيرين، وقَتادة، ومقاتل، والسُّدِّي، وعطاء الخُراساني، ومكحول، وعطاء بن مَيسَرة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٧٠)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٣٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٧٥-٦٧٩)، ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (٣٢/ ٢٣٠-٢٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٦٩-٧٠).

أي: يسألك المؤمنون يا محمَّد: أيَّ شيء يُنفقون من أموالهم، فيتصدَّقون به؟ فأجِبْهم بأنَّ مَن أراد منهم أن يُنفِق في سبيل الله تعالى، فليتصدَّق ممَّا زاد عن حاجاته الضروريَّة(١).

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ * فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ...﴾.

أي: كما فصَّل الله تعالى هذه الأحكامَ كحُكم الخمر وغيره، وأوضحها غايةَ الإيضاح، فكذلك يُوضِّح الله جلَّ وعلا لنا بمِثل ذلك البيان سائر آياته وأحكامه الشرعيَّة؛ كي نتفكَّر من خلالها فيما شرَعه الله تعالى من أحكام تتعلَّق بشؤون الدارينِ، ولأجْل أن يقودَنا ما جاء فيها من وعدٍ ووعيد وثوابٍ وعقاب، إلى التفكُّر في الدنيا وسرعة انقضائها، وفي إقبال الآخِرة وبقائها، فنزهَد في الأولى، ونُعمِّر الثانية؛ عملًا بطاعة الله تعالى، وتركًا لشهوات يسيرة فانية(٢).

﴿... وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٠)﴾.

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا ذكَر سبحانه وتعالى السؤالَ عن الخمر والميسر، وكان في تَرْكهما إصلاحُ أحوالهم وأنفسهم، أمَر بالنَّظر في حال اليتامى؛ إصلاحًا لغيرهم ممَّن هو عاجزٌ أن يصلح نفْسَه، فيكون قد جمَعوا بين النَّفع لأنفسهم ولغيرهم(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٨٦، ٦٩٠، ٦٩٢، ٦٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٥١-٣٥٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٣٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٩٦-٦٩٧)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٥٢-٣٥٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٤١٠).

سبب النُّزول:

عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، قال: ((لَمَّا نزلت: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ و﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى﴾ [النساء: ١٠] الآية انطلق مَن كان عنده يتيم فعَزل طعامَه من طعامه، وشرابَه من شرابه، فجعل يفضُل له الشيء من طعامه، فيحبس له حتى يأكلَه، أو يفسد، فاشتدَّ ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فأنزل الله ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾، فخلطوا طعامهم بطعامه، وشرابهم بشرابه))(١).

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾.

أي: يسألُك المؤمنون يا محمَّد، عمَّا اشتدَّ عليهم فعله مع اليتامى؛ إذ كانوا يعزلون لهم طعامَهم؛ خوفًا من تناوله معهم، فإذا فضَل منه شيءٌ حبسوه لهم حتى يأكلوه أو يتغيَّر، فأخبرَ الله تعالى نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم أن يُجيبهم بأنَّ المقصودَ إنَّما هو إصلاحُ أموال اليتامى، بحفظها، واستثمارها، والاتِّجار فيها لهم، فإنْ لم تأخذوا أجرًا على قيامكم بذلك فذلك خيرٌ لكم وأعظمُ أجرًا، وإن أصبتم من أموالهم شيئًا في مقابل قيامكم بشؤونهم، كأنْ خالطتموهم في طعامٍ أو غيره من الأموال فجائز- على وجهٍ لا يضرُّ باليتامى-؛ لأنَّهم إخوانكم في الدِّين، ومن شأن الأخ مخالطة أخيه(٢).

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾.

(١) أخرجه أبو داود (٢٨٧١) واللفظ له، وأحمد (١/ ٣٢٥) (٣٠٠٢)، والحاكم (٢/ ١١٣). احتجَّ به ابن حزم في ((المحلى)) (٨/ ٣٢٦)، وحسَّن إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٥/ ٥)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٢٨٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٧٠٤-٧٠٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٧٠-٧٢).

أي: إنَّ الله تعالى وإنْ أذِن للمؤمنين في مخالطة اليتامى على ما سبق ذِكرُه، إلَّا أنَّه خوَّفهم وحذَّرهم من أن تُسوِّل لهم أنفسُهم شيئًا من الخداع لأكل أموال اليتامى بالباطل، فالمعوَّل في ذلك على النيَّة، فمَن خلط مال اليتيم بماله يريد مصلحته، فالله يعلم نيَّته وسيُثيبه على ذلك، وإنْ حصَل أنْ دخل عليه شيءٌ من ماله من غير قصْدٍ، ولا طمعٍ، فلا حرج عليه؛ لأنَّ الله تعالى يعلم نيَّته، وأمَّا مَن قصد بتلك المخالطة التوصُّل بها إلى أكلِ ماله خديعةً، فالله عزَّ وجلَّ يعلم نيَّته، وسيعاقبه على ذلك[1].

﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

أي: إنَّ هذا الحُكم إنَّما شُرِع رخصةً من الله تعالى وتوسعةً على عباده؛ وإلَّا فإنَّ الله تعالى قادرٌ على أن يشُقَّ عليهم بنَهيِهم عن خلط أموالهم بأموال اليتامى؛ وأمْرِهم بتقدير طعامهم تقديرًا دقيقًا، بحيث لا يَزيد عن حاجتهم، ولا ينقص عنها، فيقعوا بذلك في ضيقٍ وحرجٍ؛ ويعاقبهم ربُّهم إنْ تركوا أمره، أو ارتكبوا نهيه؛ ذلك بأنَّ الله تعالى لا يعجزه شيء، وهو قاهرٌ لكلِّ شيء، وَفْق ما تقتضيه حِكمته؛ إذ يضَعُ كلَّ شيءٍ في موضعه اللائق به، فيعاقب مَن يستحقُّ ذلك لعناده، ويشرِّع ما فيه الخير والرحمة لعباده[2].

الفوائد التربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ...﴾ الإشارة إلى الاستسلام لأمْر الله؛ فكلُّ إنسان يستطيع حين يتأمَّل أن يجدَ في حياته مكروهاتٍ كثيرةً كان من ورائها الخيرُ العميم، ولذَّاتٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٧٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٧٠٨-٧١١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٧٢-٧٣).

كثيرةً كان من ورائها الشرُّ العظيم، إنَّ الإنسان لا يَعلم، والله وحده يعلم؛ فماذا على الإنسان لو يَستسلم[١]؟!

٢- أنَّه لا ينبغي للإنسان أن يكون جازمًا بقَبول عمله؛ بل يكون راجيًا؛ حَسن الظنِّ بالله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿أولئك يرجون رحمة الله﴾؛ لأنَّهم لا يغترون بأعمالهم؛ ولا يدلُّون بها على الله؛ وإنَّما يفعلونها وهم راجون رحمة الله تعالى[٢].

٣- أنَّ الدِّين الإسلامي جاء بتحصيل المصالح، ودرء المفاسد؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾[٣].

٤- المقارنة في الأمور بين مصالحها، ومفاسدها؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾[٤].

٥- مراعاة الإصلاح فيمَن ولاه الله تعالى على أحد؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾[٥].

٦- في قوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾ أنَّ التكافل الاجتماعي هو قاعدةُ المجتمع الإسلامي، والجماعة المسلمة مُكلَّفة أن تَرعَى مصالحَ الضعفاء فيها، واليتامى بفَقْدهم آباءهم وهم صغار ضعاف، أَوْلى برعايةِ الجماعة وحمايتها؛ رعايتِها لنفوسهم، وحمايتِها لأموالهم[٦].

٧- في قوله: ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ أنه ليس المعوَّل عليه هو ظاهرَ العمل وشكلَه، ولكن نيَّته وثمرتَه[٧].

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٢٢٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٦٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٧٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٧٤).
(٦) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٢٣٢).
(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف:

١- حِرصُ الصحابة رضي الله عنهم على السُّؤال عن العِلم؛ وقد وقع سؤالهم لرسول الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ في القرآن أكثرَ من اثنتي عشرة مرة[١].

٢- أنَّه لا حرَجَ على الإنسان إذا كرِه ما كُتِب عليه مِن حيثُ الطبيعةُ؛ أمَّا من حيث أمر الشارع به فالواجب هو الرِّضا، وانشراح الصدر به[٢].

٣- ضَعْف الإنسان، وأنَّ الأصل فيه عدم العلم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٣].

٤- أنَّ الرسول صلَّى الله عليه وسلَّمَ هو مرجِع الصَّحابة في العلم؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾[٤].

٥- أنَّ الأشهر قسمان: أشهر حُرم، وأشهر غير حرم، ويتفرَّع على هذه الفائدة: أنَّ الله يختصُّ من خلقه ما شاء؛ فهناك أماكن حرام، وأماكن غير حرام، وأزمنة حرام، وأزمنة غير حرام، وهناك رسل، وهناك مرسَل إليهم، وهناك صِدِّيقون، وهناك مَن دونهم، والله عزَّ وجلَّ كما يفاضل بين البشر، يفاضل بين الأزمنة والأمكنة[٥].

٦- تقديم ما يُفيد العِلِّيَّة؛ لقوله تعالى: ﴿عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٌ فِيهِ﴾؛ المسؤول عنه القتال في الشهر الحرام؛ لكنه قدَّم الشهر الحرام؛ لأنَّه العلة في تحريم القتال[٦].

٧- تفاوت الذُّنوب؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَكْبَرُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٥، ٧٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٥٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٥٣).
(٥) يُنظر: (((المصدر السابق)) (٣/ ٥٥).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٥٨).

عِنْدَ اللهِ﴾؛ وبتفاوت الذنوب يتفاوت الإيمان؛ لأنَّه كلما كان الذنب أعظم كان نقص الإيمان به أكبر[١].

٨- أنَّ من كان أقومَ بطاعة الله فهو أحقُّ النَّاس بالمسجد الحرام؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ﴾؛ فمع أنَّ المشركين ساكنون في مكَّة؛ لكنَّهم ليسوا أهلَه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤][٢].

٩- الحذر من الكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ﴾؛ وكلمة: ﴿لَا يَزَالُونَ﴾ تفيد الاستمرار، وأنه ليس في وقت دون وقت، وأنَّ محاولتهم ارتدادَ المسلمين عن دِينهم مستمرةٌ[٣].

١٠- إطلاق الأخ على مَن هو دونه؛ لأنَّ اليتيم دون مَن كان وليًّا عليه؛ وهذه الأخوة هي أخوَّة الدين[٤].

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿**وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ**﴾ فيه تقديم ما حقُّه التأخيرُ، حيث قدَّم قوله: ﴿وَكُفْرٌ بِهِ﴾ فجُعل معطوفًا على ﴿صَدٌّ﴾ قبل أن يَستوفي (صَد) ما تعلَّق به وهو (والمسجدِ الحرامِ)، ومُقتضى ظاهر ترتيب نظم الكلام أن يقال: (وصدٌّ عن سبيل الله وكُفر به وصدٌّ عن المسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله)؛ فجاء بهذا التَّرتيب؛ للاهتمام بتقديم ما هو أفظعُ من جَرائمهم؛ فإنَّ الكفر باللهِ أفظعُ من الصدِّ عن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٥٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٥٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٦٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٧٥).

المسجد الحرام، فكان ترتيب النَّظم على تقديم الأهم فالأهم؛ فإنَّ الصدَّ عن سبيل الإسلام يَجمع مظالمَ كثيرةً .

٢- قوله: ﴿حَتَّى يَرُدُّوكُم عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ فيه وقع الشَّرط ﴿إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ موقعَ الاحتراس ممَّا قد تُوهِمه الغايةُ في قوله: ﴿حَتَّى يَرُدُّوكُمْ﴾؛ ولهذا جاء الشَّرط بحرف (إنْ) المشعِر بأنَّ شرْطه مرجوٌّ عدمُ وقوعه؛ ففيه استبعادٌ لاستطاعتِهم، وتعريضٌ وإيذان بأنَّهم لا يستطيعون ردَّ المسلمين عن دِينهم، كقول الرجل لعدوِّه: إن ظفرتَ بي فلا تُبقِ عليَّ. وهو واثقٌ أنه لا يظفر به[٢].

٣- في قوله: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾

- عبَّر بصيغة المطاوعة في (يرتدد)؛ إشارةً إلى أنَّ رجوعِهم عن الإسلام- إن قُدِّر حصوله- لا يكون إلَّا عن محاولةٍ من المشركين؛ فإنَّ مَن ذاق حلاوة الإيمان لا يَسهُل عليه رجوعُه عنه، ومَن عرَف الحق لا يرجع عنه إلَّا بعَناء[٣].

- ولم يأت هنا مفعول ثان، حيث لم يقل: (من يرتد عن دِينه إلى دِين كذا)؛ لأنَّه لا اعتبار بالدِّين الذي ارتُدَّ إليه، وإنَّما نِيط الحكم بالارتداد عن الإسلام إلى أيِّ دِين[٤].

- وفيه وضْع الظاهر (عن دينه) وضع المضمر (عنه)، للإشعار بفداحة الموقِف، وفَظاعة الجُرم والهلاك[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٢٩). وهذا الوجه بناءً على أنَّ قوله تعالى: ﴿وَالْمَسْجِدِ الحَرَامِ﴾ معطوفٌ على ﴿وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾.

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢٥٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٣٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٣٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٢٩٢).

٤- قوله: ﴿وَهُوَ كَافِرٌ﴾ جملةٌ حاليةٌ من ضميرِ ﴿يَمُتْ﴾، وكأنها حالٌ مؤكِّدَةٌ؛ لأنَّها لو حُذِفَتْ لفُهِم معناها؛ لأنَّ ما قبلَها يُشْعِرُ بالتعقيبِ للارتداد، وجيء بالحالِ هنا جملةً؛ مبالغةً في التأكيدِ، مِن حيث تكرُّرُ الضميرِ بخلافِ ما لو جِيء بها اسمًا مفردًا[١].

٥- قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا... أُولَئِكَ﴾ فيه تكرار الموصول (الذين)؛ لتعظيم الهجرة والجهاد، كأنَّهما مستقلَّان في تحقيق الرجاء[٢]. أو: لَمَّا كان الإيمان هو الأصل أُفرد به موصول وحده، ولما كانت الهجرة والجهاد فرعينِ عنه أُفردا بموصول واحد؛ لأنَّهما من حيث الفرعية كالشيء الواحد[٣].

٦- قوله: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾

- جيء بـ(في) الدَّالة على الظرفية؛ لإفادة شدَّة تعلُّق الإثم والمنفعة بهما؛ لأنَّ الظرفية أشدُّ أنواع التعلُّق، وجُعلت الظرفية متعلِّقة بذات الخمر والميسر للمبالغة، والمراد في استعمالهما[٤].

- وفيه: تَنكير المسند (إثم)؛ وذلك للإيذان بفَداحته وخُطورته، ووصفُه بلفظة (كبير) بيان آخَر لفداحته وخطره[٥].

٧- قوله: ﴿وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ فيه التِفات من غَيبة إلى خِطاب؛ لأنَّ قبله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ﴾، فالواو ضميرٌ للغائب، وحِكمة هذا الالتفات ما في الإقبال بالخِطاب على المخاطَب؛ ليتهيَّأ لسماع ما يُلقى إليه وقَبوله، والتحرز فيه[٦].

---

(١) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٤٠٠-٤٠١).
(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٣٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٣٩٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٤٣-٣٤٤).
(٥) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٢٩٤).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٤١١).

٨- قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

- تذييل لِمَا اقتضاه شرْط (لو) من الإمكان وامتناع الوقوع، أي: إنَّ الله عزيز غالب قادر، فلو شاء لكلَّفكم العنَتَ، لكنَّه حكيم يضع الأشياء مواضعها؛ فلذا لم يُكلِّفكموه.

- وفيه تأكيد الخبر بإنَّ، واسمية الجملة، والتعبير بصِيغة فعيل (عزيز حكيم)؛ للمبالغة في الوصْف مبالغةً محمودة[1].

(١) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٢٩٥- ٢٩٦).

الآيات (٢٢١ - ٢٢٤)

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٢١) وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢) نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٢٢٣) وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٤)﴾.

غريب الكلمات:

﴿عُرْضَةً﴾: مانعًا(١).

﴿أَنْ تَبَرُّوا﴾: أي: ألَّا تبرُّوا، وأصل البِر: الصِّدقُ في المَحبَّة(٢).

المعنى الإجمالي:

يَنهَى الله سبحانه وتعالى المؤمنين عن نِكاح المشرِكات، إلَّا إذا دخلْنَ في دين الإسلام، ولَأَنْ يتزوج المؤمن بجارية مملوكة تؤمن بالله وتوحِّده، خيرٌ من تزوُّجه بامرأة حرَّة لكنَّها مشركةٌ، حتى ولو كان فيها ما يجعلهم يميلون إليها؛ من شدَّة حُسن، أو حسَب عظيم، أو نسَب شريف، أو مال كثير، ونهى الله أيضًا عباده

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٧٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣).

المؤمنين أن يُزوِّجوا نساءهم من رجال مشركين، إلَّا إذا دخلوا في دين الإسلام، ولَأَنْ يُزوِّجوهنَّ بعبيدٍ مماليكَ يؤمنون بالله خيرٌ من أن يزوجوهنَّ برجال أحرار لكنَّهم مُشرِكون حتى لو كان فيهم ما يعجبهم من حُسن، أو حسَب، أو نسب، أو مال؛ وذلك لأنَّ مَن كان يَدين بدِين الشِّرك يقود مَن يعاشره ويخالطه إلى حبِّ الدنيا، وإيثارها على الآخرة، وإلى العمل بما يُدخِل النارَ، والله سبحانه وتعالى يدعو إلى الجنَّة بما يُعلِّمه لعباده من شَرْعه من مأمورات ومنهيَّات، يقود العمل بمقتضاها لدخول الجنة، والنجاة من النار، كما يحثُّ على التوبة والاستغفار، ولزوم العمل الصالح الذي يكفِّر الآثام، فيتجاوز عنها سبحانه ويسترها. ويُظهِر اللهُ للناسِ براهينه وحُججه، ويوضِّح أحكامه وحِكمها؛ لعلَّهم بذلك أن يتذكروا ما نسُوه من الحق، فيعتبروا ويتَّعظوا.

ثم يُخاطِب الله عزَّ وجلَّ نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ مخبرًا إيَّاه أنَّ المؤمنين يسألونه عن حالهم مع زوجاتهم وقت محيضهنَّ، هل يجتنِبونهنَّ مطلقًا أم يجامعوهنَّ، فلقَّنه الله الإجابة التي يجيب بها عليهم، فأمره أن يقول لهم بأنَّ الحيض دمٌ قذر ونجس؛ فليتركوا مجامعة النساء في فروجِهنَّ عند مجيئه، وليستمرُّوا على ذلك حتى ينقطعَ الدم، ويغتسِلْن فإذا فعَلْنَ ذلك فحينئذٍ لهم أن يُجامعوهنَّ في المكان الذي أباح الله تعالى لهم وهو القُبُل. وتشريعُ هذا الأمر من الله عزَّ وجلَّ جاء لأنَّه يحبُّ عباده من الذين يُطهِّرون بواطنَهم بالمداومة على التوبة، ويُطهِّرون ظواهرهم بالماء من الأنجاس والأحداث.

ثم يُخبِر تعالى عباده بأنَّ نساءهم مُزدرَعٌ لأولادهم، يُلقي الرِّجالُ فيهنَّ النطفة فتنزرع في الرحم، وينمو ليكتمل بشرًا بإذن الله تعالى، فلهم أن يجامعوا نساءهم على أيِّ جِهةٍ وكيفيَّة، ما دام في موضِع الحرث وهو القُبُل، وأمرهم سبحانه أن يعدُّوا لأنفسهم الخيرات والحسنات التي تفيدهم في آخرتِهم، ويجعلوا بينهم وبين

غضب الله وعذابه ما يَقِيهم من ذلك بتجنُّب السيِّئات، وليتيقَّنوا أن مردَّهم إلى الله، ثم أمر نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ أن يُبشِّر المؤمنين بما سيجدونه عند الله من الأجر.

ثمَّ نَهى اللهُ عِبادَه أن يجعلوا الحَلِف به سبحانه مانعًا من القيام بفعل الخيرات، كالبرِّ بالوالدين والإحسان للقُربى، أو حاجزًا عن تحقيق التَّقوى بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، أو أن يقف ذلك الحَلِفُ بينهم وبين السَّعي للإصلاح بين النَّاس، كمَن يحلف أنْ لا يفعل شيئًا من ذلك، فإنْ طُلب منه احتجَّ عن الامتناع بيمينه، فنهى الله عن ذلك، فإذا حدَث أنْ حلَف أحدهم، فليس ذلك بمانعٍ له من فِعل الخير، بل عليه أن يَحنث ويكفِّر عن يمينه، ويفعل الخير الذي حلَف ألَّا يفعله. والله سميع لجميع الأصوات- التي منها أصواتُ الحالفين- عليمٌ بجميع المقاصد والنوايا- التي منها نيَّة الحالفين؛ هل يقصدون خيرًا أو شرًّا.

تفسير الآيات:

﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٢١)﴾.

﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾.

أي: حرَّم الله تعالى على المؤمنين أن يتزوَّجوا بالنِّساء المشركات إلَّا إذا آمنَّ ووحَّدْنَ الله تعالى بدخولهنَّ في الإسلام(١)، ولَأَنْ يتزوَّج المؤمن بأمَة مملوكة لكنَّها

(١) نساء أهل الكتاب غيرُ مرادات بحُكم هذه الآية، سواء قيل: إنهَّنَّ من المشركات فاستُثنين بآية سورة المائدة، أو قيل بأنَّهنَّ كافرات، لكن لسنَ بمشركات. ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٧١٤ - ٧١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٨٢).

مؤمنة، خيرٌ له من أن يتزوَّج امرأة حرَّة مشركة، وإن بلَغ الإعجاب بها مبلغًا؛ لشدَّة حُسنِها، أو عِظَم حسَبِها، أو شَرَفِ نَسبِها، أو كثرةِ مالها[١].

﴿وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾.

أي: حرَّم الله تعالى على المؤمنين أن يُزوِّجوا نساءَهم المؤمنات لرجالٍ مشركين، إلَّا إذا آمنوا ووحَّدوا الله تعالى بدخولهم في الإسلام، ولَأَنْ تزوجوهنَّ بعبدٍ مملوك لكنه مؤمنٌ بالله تعالى، خيرٌ من أن تزوجوهنَّ برجلٍ حرٍّ مشرك، ولو بلغ إعجابكم به ما بلغ لحُسنه، أو حسبه، أو نسبه، أو ماله[٢].

﴿أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾.

أي: إنَّما حرَّمتُ عليكم- أيُّها المؤمنون- تزوُّجَ المشركات وتزويجَ المشركين بالمؤمنات؛ لأنَّهم في حقيقة الأمر يقودونكم عبر معاشرتهم ومخالطتهم بسماع أقوالهم،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٧١٤-٧١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٦١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٧٦-٧٧).

واختار أنَّ الأمة هنا هي المرأة المملوكة: ابن جرير في ((تفسيره)) (٣/ ٧١٦)، والواحدي في ((التفسير الوسيط)) (١/ ٣٢٧)، وابن عطية في ((تفسيره)) (١/ ٢٩٧)، وابن عاشور في ((تفسيره)) (٢/ ٣٦١).

وقال ابنُ عطية: (وتحتمل الآية عندي أنْ يكون ذِكر العبد والأَمَة عبارةً عن جميع الناس؛ حُرِّهم ومملوكهم) ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٧١٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٨٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٧٧).

واختار أنَّ العبد هنا هو المملوك: ابن جرير في ((تفسيره)) (٣/ ٧١٨)، وابن عطية في ((تفسيره)) (١/ ٢٩٧)، وابن كثير في ((تفسيره)) (١/ ٥٨٤)، وابن عاشور في ((تفسيره)) (٢/ ٣٦٢-٣٦٣)، والشنقيطي في ((أضواء البيان)) (٣/ ٢٩).

وقال ابنُ عطيَّة: (وتحتمل الآية عندي أنْ يكون ذِكر العبد والأَمَة عبارةً عن جميع الناس؛ حُرِّهم ومملوكهم) ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٩٧).

ورؤية أفعالهم، ومعايشة أحوالهم إلى حبِّ الدُّنيا، وإيثارها على الآخرة، وإلى العمل بها يُدخِلكم النار؛ فلا تغترُّوا بهم، فيردوكم في التهلُكة، والشقاء الأبدي(١).

﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى يدعوكم بما يُعلِّمكم مِن شَرْعه من أوامرَ ونواهٍ للعمل بها؛ لتقودَكم لدخول الجنة، وتوجبَ لكم النَّجاةَ من النار بما يمحو من خَطاياكم، التي من آثارها دفْعُ العقوبات، وذلك بالحثِّ على التوبة والاستغفار، ولزومِ العمل الصَّالح الذي يُكفِّر الآثام، فيتجاوز عنها ربُّكم، ويسترها عليكم(٢).

﴿وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

أي: يوضِّح براهينه وحُججَه ويُظهِر أحكامه وحِكَمها؛ فيُوجِب لهم ذلك التذكُّر لِمَا نَسُوه من الحقِّ فيعتبروا ويتَّعظوا، ويميِّزوا بين الدعاء إلى النيران، والدعاء إلى الجنَّة ونَيْل الغفران(٣).

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢)﴾.

مناسبتها لِمَا قبلها:

هذه الآية عطفٌ على جملة: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢١]، بمناسبة أنَّ تحريم نكاح المشركات يؤذِن بالتنزُّه عن أحوال المشركين

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٧١٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٧٢٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٧٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٧٨).

وكان المشركون لا يقربون نساءهم إذا كنَّ حُيَّضًا، وكانوا يُفرِطون في الابتعاد منهنَّ مدَّة الحيض، فناسب تحديد ما يَكثُر وقوعه، وهو من الأحوال التي يُخالف فيها المشركون غيرَهم، ويتساءل المسلمون عن أحقِّ المناهج في شأنها[1].

سبب النُّزول:

عن أنسٍ رضي الله عنه: ((أنَّ اليهود كانوا إذا حاضت المرأةُ فيهم لم يواكلوها ولم يجامعوهنَّ في البيوت، فسأل أصحابُ النبيِّ صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم، فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ فقال رسولُ الله صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم: اصنَعوا كلَّ شيء إلَّا النِّكاح، فبلغ ذلك اليهودَ، فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدَع من أمرنا شيئًا إلَّا خالَفَنا فيه؟! فجاء أُسَيد بن حُضَير وعبَّاد بن بِشْر، فقالَا: يا رسول الله، إنَّ اليهود تقول كذا وكذا، فلا نجامعهنَّ؟ فتغيَّر وجهُ رسول الله صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم، حتى ظننَّا أنْ قد وجد عليهما فخرجَا فاستقبلهما هديَّةٌ من لبن إلى النبيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلَّم، فأرسل في آثارهما، فسقاهما، فعرَفَا أن لم يجِدْ عليهما))[2].

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾.

أي: يسألُك المؤمنون- يا محمَّد- عن شأنِهم مع زوجاتهم حال حيضهنَّ، هل يجتنبونهنَّ مطلقًا، كما يفعل اليهود، أو يجامعوهنَّ[3]؟

﴿قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾.

أي: أجابهم الله تعالى بأنَّ الحيض دمٌ قذر، ونجس، وإذا كان كذلك، فمن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٦٤).

(٢) رواه مسلِم (٣٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٧٢٠-٧٢١)، ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ٣٩١-٣٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٦٤).

الحِكمة أن يمنع عباده عنه؛ ولذا نهاهم سبحانه عن جِماع النِّساء في فروجهنَّ[١].

﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ﴾.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: ﴿يَطْهُرْنَ﴾ قراءتان:

١- ﴿يَطَّهَّرْنَ﴾ أي: حتى يَغتسِلْنَ بالماء بعد انقطاع الدم[٢].

٢- ﴿يَطْهُرْنَ﴾ أي: حتى ينقطعَ الدَّمُ عنهن[٣].

﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ﴾.

أي: لا تجامعوا نساءَكم حال حيضهنَّ إلى أنْ ينقطع دم الحيض ويغتسلن، فإذا فعلن ذلك، فحينها لكم أن تُجامعوهنَّ في الموضِع الذي أباحَ الله تعالى فيه ذلِك، وهو القُبُل[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٧٢٢-٧٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٨٥-٥٨٦)، ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ١٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٠).

وممَّن قال من السَّلَف: إنَّ ﴿أَذًى﴾ تعني: قذَرًا: السُّدِّي، وقَتادة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٧٢٣).

وممَّن قال من السَّلَف بنحو ما ذُكر في قوله تعالى: ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ عائشة، وأم سلمة، وابن عبَّاس، ومجاهد، ومقاتل بن حَيَّان، والحسن، وعِكْرمة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٧٢٥)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٤٠١).

(٢) قرأ بها حمزةُ، والكِسائيُّ، وأبو بكر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٥٦).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٣٤-١٣٥).

(٣) قرأ بها الباقون ﴿يَطْهُرْنَ﴾. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٥٦).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٣٤-١٣٥).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (٢١/ ٦٢٥-٦٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٩١-٩٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٨١-٨٢).

وممَّن قال من السَّلَف بنحو ما ذُكر في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾: ابن عبَّاس، ومجاهد، =

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾.

أي: يأمركم الله تعالى بذلك، ويحثُّكم عليه؛ لأنَّه يحبُّ مَن يُطهِّرون بواطنَهم بالمواظبة على كثرة التَّوبة من جميع الذنوب، وإن تكرَّر منهم غشيانها، ويحب مَن يُطهِّرون ظواهرهم بالماء من الأنجاس والأحداث[1].

﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٢٢٣)﴾.

سبب النُّزول:

عن ابن المُنكَدِر قال: سمعتُ جابر بن عبد الله قال: ((كانتِ اليهودُ تقول: إذا جامَعها من ورائِها جاءَ الولدُ أحولَ، فنزلت: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾)). وزاد في حديث النُّعمان عن الزهري: ((إنْ شاءَ مُجَبِّيَةً[2]، وإن شاء غير مُجبِّية، غير أنَّ ذلك في صِمامٍ واحد))[3].

وعن أبي النَّضر أنَّه قال لنافع مولى ابن عمر: ((قد أُكثر عليك القول: إنَّك تقول عن ابن عُمر: (إنَّه أفْتى بأنْ يؤتى النساء في أدبارهنَّ)! قال نافع: لقدْ كذبوا عليَّ! ولكن سأخبرك كيف كان الأمر: إنَّ ابن عُمر عرَض عليَّ المصحف يومًا وأنا عنده حتى بلغ: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾، قال نافع: هل تدري ما أمر هذه الآية؟ إنَّا كنَّا معشر قريش نُجَبِّي النِّساء، فلمَّا دخلنا المدينة ونكحنا نساء الأنصار أردْنا منهنَّ ما كنا نُريد من نسائنا، فإذا هنَّ قد كرهن ذلك وأعظمْنه، وكان نساء

= وعِكْرِمة، والحسن، ومقاتل بن حَيَّان، والليث بن سعد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٧٣٣)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٤٠٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٧٤٢، ٧٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٨٢).

(٢) مجبِّية: أي: مُنكَبَّة على وجْهها، تَشبيهًا بهيئة السُّجودِ. ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٢٣٨).

(٣) رواه مسلم (١٤٣٥).

الأنصار إنَّما يؤتَين على جنوبِهنَّ، فأنزل الله سبحانه: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾))[1].

﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾.

أي: إنَّ نساءكم مُزدرَعٌ لأولادكم، مثلما تكون الأرض حرثًا للزارع حيث يبثُّ فيها الحَب؛ فينمو ويخرج نباتًا، فكذلك النِّساء حرث يضع فيه الرجال الماء الدافق (المَنِيَّ)، فينزرع في الرَّحم حتى ينمو ويخرج بشرًا سويًّا بإذن الله تعالى. ولكم يا معاشرَ الرِّجال، أن تجامعوا نساءكم على أيِّ جهة، وبأي كيفيَّة شِئتم، شريطةَ أن يكون جماعهنَّ دومًا في موضع الحرث، وهو القُبُل[2].

﴿وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: أعدُّوا الخيراتِ والحسناتِ لأجْل نفع أنفسكم في الآخرة، واجعلوا بينكم وبين غضب الله تعالى وعذابه حاجزًا يَقِيكم ذلك بتجنُّب الشرور والسيِّئات، وكونوا على يقين تامٍّ من أنكم ستلاقون الله تعالى يوم القيامة، وأنه مُجازٍ كلًّا منكم بعمله، إنْ خيرًا فخير وإنْ شرًّا فشر، وبشِّر المؤمنين يا محمَّد بما يسرُّهم فالمؤمنون الذين يحبُّون لقاء الله تعالى، ويُعِدُّون للأمر عُدَّتَه، سيهنَؤون بلقائه سبحانه، وما يُقدِّموا لأنفسهم من خيرٍ سيجدونه عند الله عزَّ وجلَّ، ويُكرِمهم بدخول جنَّته[3].

---

(١) أخرجه النَّسائي في ((السنن الكبرى)) (٥/ ٣١٥) (٨٩٧٨)، والطحاوي في ((شرح معاني الآثار)) (٣/ ٤٢) (٤٠٦٧).
صحَّح إسنادَه ابنُ كثير في ((تفسير القرآن)) (١/ ٣٨٣)، والوادعيُّ في ((صحيح أسباب النزول)) (٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٧٤٥، ٧٥٩)، ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (٢٩/ ١٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٩٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٨٦-٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٧٦٢-٧٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٧٤-٣٧٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٨٧).

كما قال تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ [المزمل: ٢٠].

وعن عُبادة بن الصَّامت رضي الله عنه، أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((من أحبَّ لقاءَ اللهِ أحبَّ اللهُ لقاءَه، ومن كرِه لقاءَ اللهِ كرِه اللهُ لقاءَه. قالت عائشةُ أو بعضُ أزواجِه: إنَّا لنكرهُ الموتَ، قال: ليس ذاك، ولكنَّ المؤمنَ إذا حضره الموتُ بُشِّر برضوانِ اللهِ وكرامتِه، فليس شيءٌ أحبَّ إليه ممَّا أمامه، فأحبَّ لقاءَ اللهِ وأحبَّ اللهُ لقاءَه، وإنَّ الكافرَ إذا حُضِر بُشِّر بعذابِ اللهِ وعقوبتِه، فليس شيءٌ أكرهَ إليه ممَّا أمامه، فكرِه لقاءَ اللهِ وكرِه اللهُ لقاءَه))(١).

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٤)﴾.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾.

أي: لا تجعلوا الحلِفَ بالله تعالى حُجَّةً لكم تمنعُكم من القيام بفِعل الخيرات، كبرِّ الوالدين وذِي القربى، أو تمنعكم من تحقيقِ التَّقوى بامتثال ما أمر الله تعالى به واجتناب ما نهى عنه، أو تمنعكم من السَّعي في الإصلاح بين النَّاس بالمعروف، وذلك كأنْ يحلفَ امرؤٌ بالله تعالى على ألَّا يصل رحِمَه، فإذا طُلب منه أن يَفعل ما أمر الله تعالى به من صِلة الرَّحِم، قال: قد حلفتُ ألَّا أفعل ذلك، فيجعل الحلفَ بالله عزَّ وجلَّ حجَّة يتقوَّى بها على ترك الخيرات، فنهى الله تعالى عباده عن ذلك، فإذا حلف أحدُهم فليس له الامتناعُ من ذلك والتعلُّل باليمين، بل عليه أن يَحنثَ، ويكفِّر عن يمينه، ويأتي الذي هو خير(٢).

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ١١-١٣)، ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (٣٥/ ٢٧٧، ٣٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٢٥)، (٥/ ٤٨٧).

قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت -كما في حديث الإفك الطويل-: ((... فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ الآيات، فلمَّا أنزل الله هذا في براءتي، قال أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه، وكان يُنفِق على مِسْطَح بن أُثاثة؛ لقَرابتِه منه: والله لا أُنفق على مِسطحٍ شيئًا أبدًا، بعد ما قال لعائشة. فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ إلى قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. فقال أبو بكر: بلى والله، إنِّي لأحبُّ أن يغفر الله لي! فرجع إلى مسطحٍ الذي كان يُجْرِي عليه))[1].

وعن زَهْدَمٍ الجَرْميِّ، قال: ((كنَّا عندَ أبي موسى، وكان بينَنا وبين هذا الحَيِّ من جَرْمٍ إخاءٌ ومعروفٌ، قال: فقدَّمَ طعامَه، قال: وقَدَّمَ في طعامه لَحْمَ دَجاجٍ، قال: وفي القوم رجلٌ من بني تَيْمِ اللهِ، أحمرُ كأنَّه مَوْلًى، قال: فلمْ يَدْنُ، فقال له أبو موسى: ادْنُ؛ فإنِّي قد رأيتُ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يأكلُ منه، قال: إنِّي رأيتُهُ يأكلُ شيئًا قَذِرْتُه، فحَلَفْتُ أنْ لا أَطْعَمَه أبدًا، فقال: ادْنُ أُخبِرْكَ عن ذلك، أَتَيْنا رسولَ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم في رَهْطٍ من الأَشْعريِّينَ أَستحمِلُه، وهو يَقْسِمُ نَعَمًا من نَعَمِ الصدقة، قال أيُّوبُ: أَحسبُه قال: وهو غَضْبانُ، قال: واللهِ لا أَحْمِلُكم، وما عندي ما أَحمِلُكم عليه. قال: فانطلقْنا، فأُتِيَ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم بنَهْبِ إبلٍ، فقيل: أين هؤلاءِ الأشعَريُّونَ؟ فأَتَيْنا، فأَمَر لنا بخَمْسِ ذَوْدٍ غُرِّ الذُّرَى[2]، قال:

(١) رواه البخاري (٢٦٦١).
(٢) قوله: ((بخَمسِ ذَود غُرِّ الذُّرَى)): أي: بخمس إبل بيضِ الأَسْنِمَة سِمانِها، والذُّرَى: جمعُ ذِرْوَةٍ، وهي أعلى سَنام البَعير. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ١٥٩).

فانْدَفَعْنا، فقلتُ لأصحابي: أَتَيْنا رسولَ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم نَستَحمِلُه، فحلف أنْ لا يَحمِلَنا، ثم أرسل إلينا فحَمَلنا، نَسِيَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يَمِينَه، واللهِ لَئِنْ تَغَفَّلْنا رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَمِينَه لا نُفلحُ أبدًا، ارجِعوا بنا إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فلْنُذَكِّرْه يمينَه، فرجَعْنا فقلنا: يا رسولَ الله، أَتَيْناكَ نَستحمِلُكَ فحَلَفْتَ أنْ لا تَحمِلَنا، ثم حَمَلْتَنا، فظَنَنَّا، أو: فعَرَفْنا أنَّك نَسِيتَ يَمِينَك، قال: انطَلِقوا، فإنَّما حَمَلكم اللهُ، إنِّي واللهِ -إنْ شاء اللهُ- لا أَحْلِفُ على يَمينٍ، فأَرَى غيرَها خيرًا منها، إلَّا أَتَيْتُ الذي هو خيرٌ وتَحَلَّلْتُها))(١).

وعن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، قال: ((أعتَمَ رجلٌ عند النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ثم رجع إلى أهلِه فوجد الصِّبيةَ قد ناموا، فأتاه أهلُه بطعامِه، فحَلَف لا يأكلُ من أجلِ صِبيتِه، ثم بدَا له فأكل، فأتى رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فذكر ذلك له. فقال رسولُ اللهِ: مَن حلف على يمينٍ، فرأى غيرَها خيرًا منها، فلْيأتِها، وليكفِّرْ عن يمينِه))(٢).

﴿وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى يسمعُ جميع الأصوات ومن ذلك سماعه لأقوال الحالفين، وهو عزَّ وجلَّ عالِمٌ بجميع المقاصد والنيَّات، ومن ذلك علمُه بمقاصد الحالفين هل يقصدون خيرًا أم شرًّا، وفي ذلك تحذيرٌ للعباد من أن يُظهِروا بألسنتهم، أو يُضمِروا في أنفسهم ما فيه مخالفةٌ لأمر الله تعالى أو ارتكابٌ لنهيه؛ فإنَّ الله عزَّ وجلَّ مطلعٌ على ما ظهر وما بطن، لا يخفى عليه شيء سبحانه(٣).

---

(١) رواه البخاري (٦٧٢١) واللفظ له، ومسلم (١٦٤٩).

(٢) رواه مسلم (١٦٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ١٣-١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٠-١٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٧٩).

الفوائد التربويَّة:

١- أنَّه لا ينبغي أن يمتنعَ الإنسانُ من السؤال عمَّا يُستَحيَا منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾[(١)].

٢- تقديم عِلَّة الحُكم عليه حتى تتهيَّأ النفوس لقَبول الحُكم، والطمأنينة إليه؛ ويكون قَبوله فطريًّا؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾[(٢)].

٣- فضيلة التوبة، وأنَّها أمر مطلوب، وأنها من أسباب محبَّة الله للعبد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾[(٣)].

٤- فضيلة الإيمان؛ لأنَّ الله علَّق البشارة عليه؛ فقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[(٤)].

٥- الحثُّ على البرِّ، والتقوى، والإصلاح بين النَّاس؛ لأنَّه إذا كان الله تعالى قد نهانا أن نجعل اليمين مانعًا من فعل البرِّ؛ فكيف إذا لم تكُن هناك يمين[(٥)]؟!

٦- فضيلة الإصلاح بين النَّاس؛ لقوله تعالى: ﴿وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾؛ فنصَّ عليه مع أنَّه من البرِّ؛ والتنصيص على الشيء بعد التَّعميم يدلُّ على العناية والاهتمام به[(٦)].

الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف:

١- أنَّ الحُكم يدور مع عِلَّته وجودًا وعدمًا؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّى يُؤْمِنَّ﴾؛ فدلَّ ذلك على أنَّه متى زال الشرك حلَّ النكاح؛ ومتى وجد الشرك حرم النكاح[(٧)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٨٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٨٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٩٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٩١).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٧٩).

٢- أنَّ المؤمن خير من المشرك؛ ولو كان في المشرك من الأوصاف ما يُعجب؛ لقوله ﴿وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾؛ ومثله قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠]؛ فلا تغترَّ بالكثرة؛ ولا تغترَّ بالمهارة؛ ولا بالجودة؛ ولا بالفصاحة؛ ولا بغير ذلك؛ وارجع إلى الأوصاف الشرعيَّة المقصودة شرعًا(١).

٣- تفاضل النَّاس في أحوالهم، وأنهم ليسوا على حدٍّ سواء؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ﴾(٢).

٤- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ أنَّ محبَّة الله من صفاته الفعليَّة- لا الذاتيَّة-؛ لأنَّها عُلِّقت بالتوبة؛ والتوبة من فِعل العبد تتجدَّد؛ فكذلك محبَّة الله عزَّ وجلَّ تتعلَّق بأسبابها؛ وكلُّ صفةٍ من صفات الله تتعلَّق بأسبابها، فهي من الصِّفات الفعليَّة(٣).

٥- حُسن أسلوب القرآن؛ لأنَّه جمع في هذه الآية بين التطهُّر المعنوي الباطني، والتطهُّر الحسي الظاهري؛ لقوله تعالى: ﴿يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾، وهي طهارة باطنة، وقوله تعالى: ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾، وهي طهارة ظاهرة(٤).

٦- أنَّه ينبغي للإنسان أن يَسعَى لكثرة النَّسل؛ لقوله تعالى: ﴿حَرْثٌ لَكُمْ﴾(٥).

٧- أنَّه ينبغي للإنسان أن يحافظ على امرأته التي سُمِّيت حرثًا له، كما يحافظ على حرث أرضه(٦).

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٨٥).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٨٦).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٨٨).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٨٩).

٨- من المستحْسَنِ إذا أراد المرءُ إخبار غيره بأمر هامٍّ أن يُقدِّم بين يدي الخبر ما يَقتضي انتباهَه؛ لقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا﴾؛ وهذا ممَّا يزيد الإنسان انتباهًا وتحسُّبًا[(١)].

٩- في قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ﴾ تحذير غير المؤمنين من هذه الملاقاة؛ وذلك لقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ فدل ذلك على أنَّ غير المؤمنين لا بُشرى لهم[(٢)].

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ... وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ﴾

- فيه: تنكير (أَمَة) و(عَبْد) مع التَّصدير بلام الابتداء؛ للمبالغة في النَّهي والزَّجر، واللام تُشبه لامَ القَسَم في التوكيد[(٣)].

٢- **قوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾** فيه إيجاز بالحذف؛ إذ المراد من السُّؤال عن المحيض السُّؤال عن (قِرْبان النِّساء في المحيض)؛ بدَلالة الاقتضاء، وقدْ علِم السائلون ما سألوا عنه، والجواب أَدلُّ شيء عليه[(٤)].

٣- **قوله: ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾** فيه وضْع المظهَر (النِّساء) موضعَ المضمَر (هُنَّ)؛ للاهتمام، والعناية بترك المأمور به[(٥)].

٤- **قوله: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ﴾** فيه إبداعُ الإيجاز في الإطناب، حيث عبَّر بلفظ الإتيان (فأتوهنَّ) هنا عن الوطء؛ لبيان المراد بالقِربان المنهيِّ عنه، فقد عبَّر بالاعتزال، ثم قفَّى بالقِربان، ثم قفَّى بالإتيان، ومع كلِّ تعبير فائدةٌ جديدة، وحُكم جديد[(٦)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٨٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٦/ ٤١٢)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٢٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٦٥).

(٥) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٢٩٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٦٩).

٥- قوله: ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ...﴾ فيه: توكيد الخبر بـ(إنَّ)، واسميَّة الجملة. وفيه: وضع المُظهَر موضعَ المظهر، حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ﴾، ولم يقل: (إنَّه يحبُّ)؛ لتربية المهابَة(١).

٦- قوله: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ فيه كِنايات لطيفة، وتعريضات مستحسَنة في التعبير عن جِماع النِّساء بهذه الألفاظ؛ وهذه وأشباهها في كلام الله آدابٌ حَسنةٌ، على المؤمنين أن يتعلَّموها ويتأدَّبوا بها، ويتكلَّفوا مثلها في محاورتهم ومكاتبتهم(٢).

- وفيه: تشبيه بليغ في تشبيه النِّساء بالحرث، لِمَا يُلقَى في أرحامهن من النُّطَف التي منها النَّسل بالبذور(٣).

- وفيه: وضْع المُظهَر موضعَ المُضمر؛ للعناية به؛ حيث قال: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ﴾ ولم يقل: (فأتوه)(٤).

٧- قوله: ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه: تلوين الخِطاب؛ مرَّةً للمؤمنين، ومرةً لرسوله صلَّى الله عليه وسلَّم؛ مبالغةً في التشريف والتكريم(٥).

---

(١) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٢٩٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢٦٦)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ١٢٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢٦٦)، ((تفسير الرازي)) (٦/ ٤٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٤٢٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٣٣٣)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٣٠٠).
(٤) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٣٠٠).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٢٢٥ - ٢٣٢)

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ
حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَـٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَٱلْمُطَلَّقَـٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ
ثَلَـٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ
ٱلْـَٔاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَـٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ
وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ٱلطَّلَـٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ
تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَـٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ
أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ
حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا
تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن
يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ
أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ
وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ
عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟
أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن
يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ
بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾.

غريب الكلمات:

﴿بِاللَّغْوِ﴾: اللغو: هو ما يَجري في الكلامِ على غيرِ عَقْد ولا قصْد، ويُعبَّر باللَّغو أيضًا عن الباطِلِ من الكلام(١).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٩).

﴿يُؤْلُونَ﴾: يَحلِفون- من الأَلية، وهي اليَمين[١].

﴿تَرَبُّصُ﴾: التَّرَبُّص: الانتِظار والتَّمكُّث[٢].

﴿فَاؤُوا﴾: أي: رجَعوا إلى جِماعِ نِسائهم[٣].

﴿قُرُوءٍ﴾: جمع قُرء، وهو الطُّهر- عند أهل الحْجاز- والحَيْض- عند أهل العرَاق- وهو من الأضدادِ[٤].

﴿وَبُعُولَتُهُنَّ﴾: أزواجهنَّ، جمْع بَعْل، وبَعْل المَرْأةِ زَوجُها[٥].

﴿تَسْرِيحٌ﴾: التسريح: ما يدلُّ على الانطلاق؛ يقال: أمْر سريح، إذا لم يكُن فيه تعويقٌ ولا مطل[٦].

﴿افْتَدَتْ بِهِ﴾: بذَلتِ الشيءَ لزوجِها عن نفْسِها، وأصل (فدي): جَعْلُ شَيْءٍ مكانَ شَيْءٍ حِمًى له[٧].

﴿أَجَلَهُنَّ﴾: الأجَل: غايةُ الوقت، في الموتِ وغيرِه؛ ومنه: انقضاءُ العِدَّة[٨].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٦)، ((تذكرة الأريب))لابن الجوزي (ص: ٣٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٨).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٩).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٦٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٠).

(٦) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٦).

(٧) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩١).

(٨) يُنظر: ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١١).

﴿تَعْضُلُوهُنَّ﴾: العَضْل: الحبْس والمنع؛ يقال: عضَل الرجل أيِّمَه؛ إذا منعَها من التَّزويج[1].

المعنى الإجمالي:

نفى الله تعالى أن يُوقع عقوبةً على عبادِه- سواء كانت دنيويَّة أو أخرويَّة- بسبب ما يجري على ألسنتهم من الحلف على أمور معتادة، دون أن يقصدوا عقد اليمين عليها، ولا على ما يحلفون عليه جازمين بصدقه أو تحقُّق وقوعه، ثمَّ لا يكون الأمر موافقًا لما اعتقدوه، لكنَّ العقوبة على مَن قصد بقلبه الحلِف كاذبًا، وأمَّا مَن حلف ثم حنث في يمينه، فإنَّ عليه حينها أن يُكفِّر عن يمينه في الدُّنيا، وإلَّا فإنَّه معرَّض للعقوبة الأخروية. والله غفور؛ يستر على عباده ما وقع منهم من لغوٍ في أيمانهم، فلا يؤاخذهم بها، حليمٌ؛ فلا يعاجلهم بعقوبة بسبب تقصيرهم في التأدُّب معه بلغوهم في الأيمان، ولا يغضب عليهم لغفلتهم عنه في ذلك.

ثم بيَّن الله تعالى حُكم الإيلاء -وهو أن يحلِف الزوج على ألَّا يجامع زوجتَه- فإن أقصى مدة يحق له فيها الامتناع عن جماعها هي أربعة أشهر فإنْ رجع لجماعِها قبل انتهاء الأربعة الأشهر، أو فور انتهائها فإنَّ له ذلك، والله يغفر له إثمَ حرمان زوجته من الوطء تلك المدة، ورحيم به إذ أبقى له امرأته، ولم يفرض عليه كفارةً كسائر الأيمان. وإن قصد الطلاق عازمًا عليه فليبادرْ به فورًا، ولا يقصد الإضرار بها بتعليقها؛ فإنَّ الله سميع عليم، فيسمع طلاقها منه، ويعلم ما في قلبه من قصد، لا يخفى عليه شيء جلَّ وعلا.

ثم أَخبَر تعالى أنَّ على مَن طُلِّقت مِن النِّساء الحرائر المدخول بهنَّ إذا كنَّ ذوات حيض، ولسنَ بذات حمْل، ألَّا يسارعنَ إلى الزواج، بل ينتظرنَ مدة ثلاثة قروءٍ،

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٤٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٠).

والقرء (الطُّهر، أو الحيض)، ويحرم على المطلَّقات أن يخفين حيضهنَّ أو حملهنَّ؛ لِما يترتب على إخفائها من مفاسد كثيرة، فإنَّ هذا الكتمان لا يصدر إلَّا ممَّن لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، وأزواجُهنَّ أولى بإرجاعهنَّ إنْ قصدوا إحداثَ ألفةٍ ومودَّةٍ بينهم، ما دمنَ في عدتهنَّ؛ سواء في حال تربُّصِهن ثلاثة قروءٍ، أو في أيام الحمل إن كانت الزوجة حاملًا، وهذا في حق مَن كان طلاقها رجعيًّا.

ثم أَخبَرَ تعالى أنَّ للزوجات عمومًا- مطلَّقات وغير مطلَّقات- حقوقًا، وعلى أزواجهنَّ القيام بها، فعليهنَّ حقوقٌ تجاه أزواجهنَّ، وعلى كِلا الطرفين القيام بما عليه من الحقوق بما جرَت به العادة، من غير ظلم ولا مخالفة لأمْر الله تعالى، ولأزواجهنَّ عليهنَّ زيادة في الحقوق؛ لِمَا للرَّجُل من فضلٍ على المرأة. والله تعالى ذو الغلبة التامَّة والقهر، ومن تمام غلبته وقهره انتقامه ممَّن خالف العمل بما شرَعه من الأحكام السابقة، حكيمٌ فيما شرَع وقدَّر.

ثم أخبر تعالى أنَّ للطلاق الذي يحلُّ للزوج إرجاع زوجته بعده حدًّا معينًا، وهو مرتان، فإذا طلَّق الرجل امرأته فإنَّه يُخيَّر ما دامت في العدَّة بأن يردَّها لعصمته ويعاشرها بما جرت به عادة النَّاس بلا ظلمٍ لها، أو يتركها حتى تنقضي عدَّتها، ويُطلِق سراحها محسنًا إليها دون أن يضرَّ بها. وإن اختار الطلاق فلا يحلُّ له أن يأخذ ممَّا أعطاها شيئًا، سواء كان مهرًا أو غيره، إلا عند الخوف -سواء من الزوجين أو أوليائهما- من عدم قيام أحد الزوجين بما له من حقوق تجاه الآخر، فلها حينئذٍ أن تخالعه، بأن تطلب منه مفارقتها مقابل عِوَض تُقدِّمه له، ولا حرجَ عليهما في ذلك، لا في دفعها له، ولا في قَبوله وأَخْذه. وتلك الأحكام التي تقدَّمت هي من حدود الله، ومنهيٌّ عن تجاوز ما حدَّه الله تعالى، وقد عرَّفه وبيَّنه، ومَن تجاوزها فهو ظالمٌ حقيقةً، وذلكَ بفعله ما لا ينبغي له أن يفعله.

فإذا طلَّق الرجلُ زوجتَه الطلقةَ الثالثة فإنَّها تحرُمُ عليه، وليس بإمكانه إرجاعُها

إلا إذا تزوَّجت برجل آخر، ووقع بينهما جماع، فإذا طلقها الزوج الثاني وانقضت عدَّتها، فلا حرَجَ أن يُعِيدها الزَّوجُ الأوَّل إلى عِصمتِه بعقدِ نكاحٍ جديدٍ، بشَرْط أن يتيقَّنا أو يغلب على ظنِّهما أن تكون عشرتهما الجديدة بالمعروف، وأن يقوم كلٌّ منهما بما عليه من حقوقٍ تُجاه الآخَر. وما تقدَّم ذِكرُه من أحكام، من جملة شرائع الله تعالى التي يُوضِّحها لمن تحَلَّوا بالعلم؛ لأنَّهم هم الذين يفهمونه فهمًا صحيحًا فينتفعون، وينفعون به غيرهم.

وإذا طلقتم- أيُّها الرجالُ- نِساءَكم طلاقًا رجعيًّا، فأوشكتْ عِدَّتهنَّ على الانقضاء، فإمَّا أن تُرجعوهنَّ إلى عِصمة النِّكاح عازمين القيامَ بحقوقهنَّ، أو تتركوهنَّ بلا رجعة ولا إضرار بهنَّ، حتى تنتهي عدتهنَّ، وقد نَهَى الله تعالى عن الإضرار بالنِّساءِ بأن يراجعوهنَّ عند اقترابِ انتهاء العِدَّة؛ لئلَّا يتزوَّجنَ غيرهم، أو لإطالة مدَّة العدَّة، أو لابتغاء طلب الخُلْع حتى يفتدينَ أنفسهنَّ؛ فيتجاوز هؤلاء الرِّجال بفعلِهم هذا، الحلال إلى الحرام، ومَن يفعل ذلك فقد أساء إلى نفسه، فالضرر عائدٌ إليه، لكسبِه بسببِ ذلك الإثمَ، واستحقاقه لعقوبة الله.

ثمَّ نهى سبحانه عن اتِّخاذ ما أنزله في كتابه من الأحكام موضعًا للسُّخرية واللعب والاستهزاء، وأمَر عباده أن يذكروا نعمَهُ التي لا تُعدُّ ولا تُحصَى عليهم، ومنها ما أوحاه الله عزَّ وجلَّ إلى نبيِّه محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وهذا شامل لكتاب الله عزَّ وجلَّ، ولسنَّة نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ المشتملة على الحكمة، فيُذكِّرهم الله تعالى وينصحهم بما أنزله فيهما ترغيبًا أو ترهيبًا. وأمرهم جلَّ وعلا بتقواه بأن يفعلوا ما أمرهم به، ويجتنبوا ما نهاهم عنه، ولْيتيقنوا أنَّ الله محيط بكلِّ شيء علمًا، لا يخفى عليه شيء.

ثم نهى اللهُ تعالى أولياءَ النِّساء أن يُضيِّقوا عليهنَّ، بمنعهنَّ من الرجوع إلى أزواجهنَّ الذين طلقوهنَّ طلاقًا رجعيًّا، في حال ما إذا أراد الأزواج إرجاعهنَّ

ورضيت المرأة بذلك، ووقع التراضي على المعاشرة بينهما بالمعروف، وهذا النهي يُذكَّرُ ويُزجر به مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر. وامتثالُ حُكم الله في ردِّ الأولياءِ النِّساءَ إلى أزواجهنَّ وعدم عضلهنَّ هو أفضلُ عند الله، وأطهرُ لقلوبهم من الآثامِ والعَدَاوات والرِّيبة، كما أنَّه أطهرُ للأعراض، والله يعلمُ بما يَنفع عبادَه في الدنيا والآخرة، وأمَّا العباد فلا يعلمون أينَ يكون الخير، إلَّا ما علَّمهم الله تعالى؛ لذا يجب التسليمُ لشرعه سبحانه، وإنْ جاء على خلافِ أهوائهم.

تفسير الآيات:

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢٥)﴾.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾.

أي: لا يُعاقب اللهُ تعالى عِبادَه- فلا تلزمهم كفَّارة في الدُّنيا ولا عقوبة تحلُّ بهم في الآخرة- لِما يَجري على ألسنتهم من الحَلِف على أمورٍ معتادةٍ لديهم، دون قصدٍ منهم إلى عَقد اليمين عليها، وكذا ما يَحلِفون عليه جازمين بصِدقه أو تحقُّق وقوعه، ويكون الأمرُ في الحقيقة على خلاف ما اعتقدوه(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٣٣-٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٢٠-٤٢١).

وممَّن نصَّ من السَّلَف على المعنى الأوَّل في كلمة ﴿اللَّغْوِ﴾: عائشةُ -في أحد قوليها- وابنُ عمر، وابن عبَّاس - في أحد أقواله - والشَّعبي، وعِكْرمة - في أحد قوليه - وعَطاء، والقاسم بن محمَّد، وعُروة بن الزبير، وأبو قِلابة، والضَّحَّاك -في أحد قوليه - وأبو صالح، والزُّهري. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ١٤)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٤٠٨).

وممَّن نصَّ على المعنى الثاني: عائشة - في أحد قوليها - وأبو هريرة، وابن عبَّاس - في أحد أقواله - وسُليمان بن يَسار، وسعيد بن جُبَير، ومجاهد - في أحد قوليه - والحسن، وإبراهيم، وزُرارة بن أَوْفى، وأبو مالك، وعَطاء الخُراساني، وبَكْر بن عبد الله، وهو أحَد قولي عِكرمة، وحبيب بن أبي ثابت، والسُّدِّي، ومكحول، ومقاتل، وطاوس، وقَتادة، والرَّبيع بن أنس، ويَحيى بن سعيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ١٩)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٤٠٨).

﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾.

أي: إنَّ العقوبة تقعُ على مَن قصد بقلبِه تعمُّد الحلف بالله تعالى كاذبًا، وأما مَن حلف على شيءٍ ثم حنث في يمينه فعليه أن يُكفِّر عنها في الدنيا، فإن لم يفعل فهو مُعرَّضٌ كذلك للعقوبة في الآخرة[1].

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى يستُرُ على عِبادِه، ويتجاوزُ عنهم فيما لغَوا فيه من أَيْمان، فلا يُؤاخذهم بها في الدنيا بكفَّارةٍ، ولا في الآخرة بعقوبة، وكذا ما وجَبَ في الحِنث ببعضِ الأيمان من كفَّارة، جعَلَها الله تعالى مُغنِيةً عن عقوبة الآخرة. ولَمَّا كانت تلك الأيمانُ الواردةُ على سبيل اللَّغو من قبيل التقصيرِ في الأدبِ مع الله تعالى، جاءَ اقترانُ وصف الله عزَّ وجلَّ بمغفرة الذنوب مع وصفه بالحِلم؛ إذ لم يُعاجِلهم بعقوبة؛ جرَّاءَ تقصيرِهم في التأدُّب معه، أو يغضب لغفلتهم عنه في ذلك[2].

﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢٦)﴾.

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا بيَّن الله تعالى حُكم مُطلَق اليَمين في الآية السَّابقة ذكَر بعده الإيلاءَ؛ لأنَّه حَلِفٌ مقيَّدٌ، فقدَّم المطلَق وأعقبه بالمقيَّد[3]، فقال تعالى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤١-٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٩٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٩٣).
ونقَل ابنُ جرير الإجماعَ على أنَّ معنى قوله: ﴿بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾: ما تعمَّدت. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٨٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٣/ ٢٨٩).

﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾.

أي: إنَّ مَن حلف ألَّا يجامع زوجته أكثر مِن أربعة أشهرٍ، فإنَّ أقصى ما يُمكنه انتظارُه أربعة أشهر دونَ جِماعِها[1].

﴿فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

أي: إنْ رجع الزَّوج إلى زوجته فجامعها، فسواء وقع ذلك قبل انتهاء الأربعة أشهر أو فور انتهائها، فإنَّ له ذلك، ويغفر الله تعالى له حرمان امرأته من الوطء تلك المدَّة، فمغفرته سبحانه تُوجِب رفْعَ الإثم عنه، ورحمته عزَّ وجلَّ تُوجِب له بقاء امرأته، وأن تُفرَض عليه الكفَّارة، كما هي الحال في سائر الأيمان التي يُحنَث بها، والجزاءُ من جِنس العمل؛ فكما عاد إلى إرضاءِ زوجتِه، والإحسانِ إليها، عادَ اللهُ تعالى عليه بمغفرتِه ورحمتِه[2].

﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧)﴾.

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا كان الحالُ في مدَّة الإيلاء شبيهًا بحال الطَّلاق، وليسَا سواءً، قال سبحانه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٢، ٤٣، ٥١)، ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (٣٣/ ٥١-٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠١).

قال السعدي: (هذا من الأيمان الخاصَّة بالزوجة، في أمرٍ خاص وهو حلف الزوج على ترْك وطء زوجته مطلقًا، أو مقيدًا، بأقلَّ من أربعة أشهر أو أكثر. فمَن آلى من زوجته خاصَّة، فإنْ كان لدون أربعة أشهر، فهذا مثل سائر الأَيمان، إنْ حنَثَ كفَّر، وإن أتمَّ يمينه، فلا شيء عليه، وليس لزوجته عليه سبيل؛ لأنَّه ملكه أربعة أشهر. وإن كان أبدًا، أو مدةً تزيد على أربعة أشهر، ضُربت له مدة أربعة أشهرٍ من يمينه، إذا طلبت زوجته ذلك، لأنه حقٌّ لها، فإذا تمت أُمر بالفيئة وهو الوطء، فإن وطئ، فلا شيء عليه إلا كفارة اليمين، وإن امتنع، أُجبر على الطلاق، فإن امتنع، طلق عليه الحاكم ولكن الفيئة والرجوع إلى زوجته، أحبُّ إلى الله تعالى) ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥١، ٥٢، ٦٠، ٦٣)، ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (٣٣/ ٥١-٥٢)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ١٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠١).

مبيِّنًا أنَّ الطلاق لا يقعُ بمجرَّد مُضِيِّ الأربعة الأشهر، بل إمَّا أن يَفيء أو يُطلِّق، فإنْ أبى طلَّق عليه الحاكم، فقال سبحانه[1]:

﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧)﴾.

أي: خيَّر الله تعالى المُولِي من زوجته بين شيئَيْن: إمَّا أن يفيء إليها وإما أن يطلِّقها. ولَمَّا كان الرُّجوع إليها، أحبَّ إلى الله تعالى، بدأ به، فإذا قصد الزَّوج طلاقَها بعزمٍ تامٍّ، أي: بعد تأمُّلٍ فيه، واستقرار رأيه على مفارقة امرأته، فإنَّه يجب عليه أن يُطلِّقها مباشرةً، ولْيعلم أنَّ الله تعالى يسمع طلاقه حين يُطلِّق، وأنه مطَّلعٌ على ما في قلبه، فلْيحذر من المخادعة والتلاعب بأمر الله تعالى، بإرادة تعليقها والإضرار بها؛ فإنَّ الله تعالى لا يَخفى عليه شيءٌ، وسيُجازي عباده بأعمالهم، وليس منه مهربٌ جلَّ وعلا[2].

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٨)﴾.

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا ختَم الله تعالى آيتَي الإيلاء بالطَّلاق بيَّن عِدَّته، فقال تعالى[3]:

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾.

أي: إنَّ النِّساء الحرائر المدخول بهنَّ إذا كنَّ ذوات حيض وطهرٍ، ولسن

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٣/ ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٨٦-٨٧)، ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (٣٣/ ٥٢)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ١٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٩٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٣/ ٢٩٤).

بحوامل، وطلقهنَّ أزواجُهنَّ، فعليهنَّ ألَّا يعجلْنَ إلى الزواج، بل يحبسنَ أنفسهنَّ عنه مدَّة ثلاثة قروء. والقُرء قيل: هو الطُّهر، وقيل: هو الحيض(١).

﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

أي: الذي نُهيَت المرأةُ المطلَّقة عن كتمانِه مِن مُطلِّقها ممَّا خلَق الله في رحِمها: الحيض، والحمل؛ فكتمان ذلك، يقود إلى شرور كثيرة؛ فإنَّها إذا كتمت حملها، أدَّى ذلك إلى إلحاق الجنين بغير مَن هو له، رغبة فيه، أو استعجالًا لانقضاء العدَّة، فإذا ألحقته بغير أبيه، حصلَتْ مفاسدُ أخرى كقطْع الرَّحِم، والإرث، واحتجاب محارمِه عنه، وربَّما يتزوَّج ذواتِ محارمه، وغير ذلك من المفاسِد. وكتمانُ الحيض، يكون بإخبارِها كذبًا بوجوده، وهذا يؤدِّي إلى انقطاع حق الزَّوج عنها، وإباحتِها لغيره ويتفرَّعُ عن ذلك من الشُّرور مثلُ ما سبَق، أو يكون بإخبارِها كذبًا بعدم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٨٧، ١٠٠-١٠٤)، ((جامع المسائل)) لابن تيميَّة (١/ ٢٥٧)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٩٦-٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٨٩-٣٩٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٩٨-٩٩).

وممَّن قال من السَّلَف: إنَّ القرء هو الطُّهر: عائشة، وزيد بن ثابت، وابن عمر، وابن عبَّاس، وسالم ابن عبد الله، والقاسم بن محمد، وعروة بن الزُّبير، وسليمان بن يَسار، وأبو بكر بن عبد الرحمن، وعطاء بن أبي رَباح، وقَتادة، والزُّهري، وأَبَان بن عثمان. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٩٥)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٤١٤).

وممَّن قال من السَّلف: إنَّ القُرء هو الحيض: عمرُ بن الخطَّاب، وعثمان، وعليٌّ، وعبد الله بن مسعود، وابن عبَّاس في-رواية أخرى عنه-وأبو الدرداء، وعُبادة بن الصَّامت، وأبو موسى، وعمرو بن دينار عن أصحاب رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وسعيد بن جُبَير، ومجاهد، والحسن، وعِكْرمة، والشَّعبي، وقَتادة-في إحدى الرِّوايات-والرَّبيع بن أنس، ومقاتل بن حَيَّان، والسُّدِّي، وعطاء الخُراساني، والضَّحَّاك، وإبراهيم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٨٧)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٤١٥).

ولكن ينصُّ بعضهم على انتهاء المُدَّة بالحيض فحسبُ، وبعضهم يقول: بانقطاع الدَّم، وبعضهم يقول: حتى تغتسل.

وجود الحيض؛ كي تطول العِدَّة، فتأخذ منه نفقةً غير واجبة عليه، وقد يُراجعها مُطلِّقُها بعد انقضاء العِدَّة، فيكون ذلك زنًا؛ لأنَّها لا تحلُّ له في هذه الحال؛ فنهاهنَّ الله عزَّ وجلَّ عن كتمانِ الحيض والحمْل، فهذا فِعلُ مَن لا يؤمن بالله، ولا باليوم الآخِر، ولا من أخلاقه، وفي هذا تهديدٌ لهنَّ على قول خلاف الحقِّ، فمَن آمَنت بالله تعالى واليوم الآخِر، وعرَفت أنَّها مجزيَّةٌ عن أعمالها، لم يصدُر عنها شيءٌ من ذلك؛ لأنَّ الإيمان بهما يحمِل الإنسان على فعل المأمورات، واجتناب المحظورات[1].

﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾.

أي: إنَّ زوج المطلَّقة أحقُّ وأولى بإرجاعها إلى عصمتِه، ما دامتْ في عِدَّتها، أي: حال تربُّصها ثلاثة قروء، أو في أيَّام حملها إن كانت حاملًا، إذا قصد برجعتِها أن يُحدِث ائتلافًا والتئامًا بينه وبينها. (وهذا في المطلَّقة طلاقًا رجعيًّا، أمَّا البائن فلا رجعةَ له عليها)[2].

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾.

أي: إنَّ للزَّوجاتِ- سواء كنَّ مُمْسَكات أو مُطلَّقات- حقوقًا، وعلى أزواجهنَّ القيام بها تجاههنَّ، مثلما أنَّ عليهن تُجاه أزواجهن حقوقًا أيضًا، والقيام بها من قِبل الطرفين يكون بما جرت به العادة، من غير وقوع ظلمٍ، أو مخالفةٍ لأمر الله تعالى،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ١١٢-١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠١-١٠٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٩٩-١٠٠).
وممَّن قال من السَّلَف: إنَّ المنهيَّ عن كِتمانه هو الحَمْل والحيض: ابنُ عُمر، وابن عبَّاس، والشَّعبي، والحَكم بن عُتيبة، ومجاهد، والرَّبيع بن أنس، والضَّحَّاك، وابن زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ١٠٧)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٤١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ١١٥، ١١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ١٠٢-١٠٣).
وقال ابنُ عبدِ البَرِّ: (﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ يعني في عِدَّتهن، وهذا ما لا خِلافَ فيه بين العُلماء أنَّه عُني به العِدة) ((الاستذكار)) (٥/ ٥٢٠).

ولكنْ للرِّجال عليهن زيادة في الحقوق لِمَا للرجل من فضلٍ على المرأة؛ بسبب الإنفاق عليها وغير ذلك[١].

﴿وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

بعد أنْ بيَّن الله تعالى بعض أحكامه، بيَّن أنَّ له الغلبة التامَّة والقهر، ومن ذلك انتقامه ممَّن خالف العمل بتلك الأحكام، وهو سبحانه حكيمٌ فيما شرع وقدَّر، إذ يضع كلَّ شيءٍ في موضعه اللَّائق به[٢].

﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٢٩)﴾.

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى حقَّ الرجعة الذي يُمكن الزَّوجَ، ذكَر بعدَه غايةَ الطَّلاق الذي يملكُه الزوجُ من امرأته[٣]، فقال سبحانه:

﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾.

أي: إنَّ عدد الطَّلَقات التي يحلُّ للزَّوج بعدها رجعة زوجته، مرَّتان، فإذا طلق الرَّجُل زوجته، فإنَّه يُخيَّر بين أمرين ما دامت عدَّتها باقية، إما أن يردَّها إليه ويعاشرها بما جرت به عادة النَّاس من غير ظلمٍ لها، وإمَّا أن يتركها حتى تنقضي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ١٢٠-١٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٠٩-٦١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ١٠٣-١٠٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ١٢٤-١٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٠٠-١٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٠٣).

عدَّتها، ويُطلِق سراحها محسنًا إليها، دون أن يظلمها أو يضارَّ بها[(١)].

﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: ﴿يَخَافَا﴾ قراءتان:

١- ﴿يُخَافَا﴾ بالبناء للمفعول، وتعني: أنَّ الخوف صادرٌ من غيرهما[(٢)].

٢- ﴿يَخَافَا﴾ بالبناء للفاعل، وتعني: أنَّ الخوف صادرٌ من الزوجين[(٣)].

﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾.

أي: إنَّه لا يحِلُّ لكم- أيُّها الرِّجال- إذا أردتم طلاق زَوجاتكم أنْ تأخذوا ممَّا أعطيتموهنَّ شيئًا من المهر أو غيره، إلَّا في حالة واحدة وهي أن يَخشَى الزَّوجانِ، أو أولياؤهما كأقاربهما، من عدمِ قِيام كلِّ واحدٍ منهما بما له على الآخَر من حقوق، وذلك كأنْ تُبغِضَ الزوجةُ زوجَها، ولا تَقدِرَ على مُعاشرتِه؛ لسوء خُلُقه، أو لغير ذلك من أسباب، فتَخشى هي أو غيرها من عدم القيام بحقوق زوجها على الوجه المأمورِ به شرعًا، ويخشى الزَّوج أو غيره من عدم القيام بحقوق زوجته؛ بسبب نُفورِها منه، وبُغضها له، أو تَقصيرِها نتيجةَ ذلك في حقوقه- فلها حينئذٍ أن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ١٢٩-١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦١٠-٦١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ١٠٤-١٠٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٠٨).

(٢) قرأ بها أبو جعفر، ويعقوب، وحمزةُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٥٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٣٥).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٥٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٣٥).

تُخالعه، أي: تطلُب منه فراقَها مُقابلَ عِوَض تُقدِّمه له، ولا حرجَ عليها في دفْعه، ولا حرجَ عليه في قَبوله وأخْذه(١).

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

أي: إنَّ ما تقدَّم من الأحكام التي شرَعها الله تعالى لعباده، فعرَّفها لهم، وبيَّنها، قد أمرهم سبحانه بالوقوف عندها، وعدم تجاوزها إلى نواهيه، فإنَّ مَن تخطَّى أمره ووقع في نهيه، فإنَّه هو الظالِم حقيقةً؛ إذ فَعَل ما لا ينبغي له فعلُه، وتعامل مع أوامر الله عزَّ وجلَّ بما لا تستحقُّه(٢).

﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٢٣٠)﴾.

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا كانت الرَّجعةُ والخُلع لا يصحَّانِ إلَّا قبل الطَّلقة الثالثة، وأمَّا بعدها فلا يبقى شيءٌ من ذلك، ذكَر الله حُكم الرَّجعة، ثم أتْبعه بحُكم الخُلع، ثم ذكر بعد الكلِّ حُكمَ الطلقة الثالثة؛ لأنَّها كالخاتمة لهذا الأمر، فقال تعالى(٣):

﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ١٣٤-١٣٧، ١٤٦-١٤٧، ١٦٢-١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦١٢-٦١٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ١٤١-١٤٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٠٨-١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ١٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٦/ ٤٤٨).

أي: إذا طلَّق الرَّجُل امرأتَه الطلقة الثالثة، فإنَّها تَحرُم عليه، وليس في مقدوره إرجاعُها، إلَّا أنَّها لو تزوَّجت بآخر، بعقدِ نكاحٍ صحيح، وجامعها الزوج الثاني، وكان هذا الزواج واقعًا عن رغبةٍ حقيقية، لا بقصد تحليل المرأة إلى زوجها الأوَّل، فلو طلَّقها زوجُها الثاني وانقضَتْ عِدَّتها، فلا حرجَ حينئذٍ أن يُنشِئَا- الزَّوج الأوَّل والمرأة- عَقْدَ نِكاحٍ جديدًا بينهما، شريطةَ أن يُوقِنا أو يغلب على ظنِّهما أن يتعاشَرَا بالمعروف، وأن يقوم كلٌّ منهما بحقوق الآخَر كما ينبغي(١).

عن عائشة رضي الله عنها: ((أنَّ رِفاعَةَ القُرَظِيَّ طلَّق امرأتَه فبَتَّ طلاقَها، فتزوَّجَها بعدَه عبدُ الرحمنِ بنُ الزَّبِيرِ، فجاءتِ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقالتْ: يا رسولَ اللهِ، إنها كانتْ عِندَ رِفاعَةَ فطلَّقها آخرَ ثلاثَ تطليقاتٍ، فتزوَّجها بعدَه عبدُ الرحمنِ بنُ الزَّبِيرِ، وإنَّه واللهِ ما معَه يا رسولَ اللهِ إلَّا مثلُ هذه الهُدبَةِ(٢)، لِهُدبَةٍ أخذَتْها من جِلبابِها، قال: وأبو بكرٍ جالسٌ عِندَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وابنُ سعيدِ بنِ العاصِ جالسٌ ببابِ الحُجرةِ ليُؤذَنَ له، فطَفِقَ خالدٌ يُنادي أبا بكرٍ: يا

(١) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٢١-٦٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٣٣-١٣٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١١٦).

قال ابنُ عطيَّة: (قوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ الآية، المعنى: إنْ طلَّقها المتزوِّج الثاني فلا جُناحَ عليهما، أي: المرأة والزوج الأوَّل؛ قاله ابن عبَّاس، ولا خِلافَ فيه) ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٣٠٩).

وقال القرطبيُّ: (المراد بقوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ الطلقةَ الثالثة، ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾. وهذا مُجمَعٌ عليه لا خِلافَ فيه) ((تفسير القرطبي)) (٣/ ١٤٧).

قال ابنُ جرير: (فمعلوم أنَّ تأويل قوله: ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ [البقرة: ٢٣٠] نكاحًا صحيحًا، ثم يجامعها فيه، ثم يُطلِّقها. فإنْ قال: فإنَّ ذِكر الجِماع غيرُ موجود في كتاب الله تعالى ذكره، فما الدَّلالة على أنَّ معناه ما قلت؟ قيل: الدَّلالة على ذلك إجماع الأمَّة جميعًا على أنَّ ذلك معناه) ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ١٦٩).

(٢) الهُدْبة: طَرَف الثَّوب ممَّا يلي طُرَّتَه، وأرادتْ بقولها: ((ما معه مِثلُ هُدبة الثَّوب)) مَتاعَه - أي: ذَكَره- وأنَّه رخوٌ مثل طرَف الثَّوب، لا يُغني عنها شيئًا. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٢٤٩).

أبا بكرٍ، ألا تَزجُرُ هذه عمَّا تَجهَرُ به عِندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؟ وما يَزيدُ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على التبَسُّمِ، ثم قال: لعلكِ تُريدينَ أن تَرجِعي إلى رِفاعَةَ، لا، حتى تَذوقي عُسَيلَتَهُ ويَذوقَ عُسَيلَتَكِ))[1].

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

لَمَّا بيَّن الله عزَّ وجلَّ تلك الأحكام العظيمة، أشار إلى أنَّها من جُملة شرائعه التي يُوضِّحها توضيحًا كاملًا لمَن كان العلم سجيَّتَهم؛ إذ يملكون الاستعدادَ لفَهمه وقَبوله، فيفهمون الأحكام فهمًا صحيحًا يقودُهم للعمل بها كما ينبغي دون تحيُّل، فينتفعون بها وينفعون غيرهم[2].

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١)﴾.

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

جاءتْ هذه الآية عطفًا على قوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا...﴾ الآية، عطفَ حُكمٍ على حُكم؛ لقصدِ زيادة الوصاةِ بحُسن المعاملة في الاجتماع والفرقة، وما يتبع ذلك من تحذير، فقال تعالى[3]:

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٦٠٨٤) واللفظ له، ومسلم (١٤٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٢٠-٤٢١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٢١).

أي: إذا طلَّقتم- أيُّها الرِّجال- نِساءَكم، طلاقًا لكم عليهنَّ فيه رجعةٌ- وذلك في التطليقة الواحدة، والتطليقتين- فقاربْنَ انقضاء عدتهنَّ، وأشرفْنَ على بلوغ أجلهن، فإما أن ترجعوهنَّ إلى عصمة النكاح بإشهادٍ على الرَّجعة، والتزام بحُسن الصُّحبة، وطِيب العِشرة بما يتعارف عليه النَّاس، دون إخلالٍ بمأمور، أو وقوعٍ في محظور، أو اتركوهنَّ يَقضين تمام عدتهنَّ، ثم فارِقوهنَّ وأوفوهنَّ تمام حقوقهنَّ عليكم من مهرٍ ومتعةٍ ونفقةٍ، وغير ذلك، من غير مخاصمةٍ، ولا شقاقٍ، ولا إضرار(١).

﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾.

أي: لا يكُن إرجاعُكم لنسائكم مع قُرب انقضاء عِدَّتهن لأجْل المضارَّة بهنَّ؛ لئلَّا يتزوَّجْنَ بغيركم، أو لتطوِّلوا عليهنَّ مدَّة العِدَّة، أو لدفعها إلى ابتغاء طلب الخُلع منكم؛ كي تنالوا منهنَّ فدية في سبيل الخَلاص منكم، فكلُّ ذلك تجاوزٌ لما أمر الله تعالى به من إمساكهنَّ بمعروفٍ أو مفارقتهنَّ بإحسان، ومَن يَقُمْ بتلك الاعتداءات، فالضررُ عائدٌ عليه حقًّا، فبذلك يُكسب نفسه آثامًا، ويستحقُّ عقاب الله تعالى(٢).

﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللهِ هُزُوًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ١٧٨-١٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ١٤٩).
وقال القرطبيُّ: (قوله تعالى: ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ معنى ﴿بَلَغْنَ﴾ قارَبْن، بإجماعٍ من العلماء) ((تفسير القرطبي)) (٣/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ١٧٨-١٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ١٠٣، ١٤٩).
قال ابنُ أبي حاتم: (عن مجاهد يَعني قوله: ﴿ولا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا﴾ نَهى عن الضِّرار، والضرار في الطلاق: أن يُطلِّق الرجلُ المرأة، ويراجعها ثلاثَ مرَّات عند آخِر يوم يبقَى من الأجَل، حتى يفِي لها تسعةَ أشهر، يضارُّها. قال أبو محمَّد: ورُوي عن مسروق، وقَتادة، والحسن، ومقاتل بن حَيَّان، والرَّبيع بن أنس، والسُّدِّي، نحوُ ذلك. قال أبو محمَّد: ورُوي عن الضَّحَّاك، والرَّبيع بن أنس نحوُه، غير أنَّهما قالا: راجعَها؛ رجاءَ أن تختلعَ منه بمالها) ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٤٢٥).

أي: لا تَجعلوا ما أَنزل اللهُ تعالى لكم في كتابه، من تلك الأحكام العِظام، في موضع السُّخرية والاستهزاء واللَّعب بها، بحيث تتركون العمل بها تجرُّؤًا واستخفافًا؛ فالله تعالى لم يُنزلها عبثًا، بل أنزلها بالحقِّ والصِّدق؛ لأجْل العمل على وَفْقها[1].

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ﴾.

أي: اذكروا نِعَم الله تعالى التي لا تُعَدُّ ولا تُحصَى عليكم، ومن ذلك نِعمة الإسلام وما يَحويه من أحكامٍ عِظام، فيها ما يدعو الزَّوجين لتجديد الوئام، أو المفارقة الحَسَنة بعد تَعذُّر الالتئام، فاذكروه سبحانه باللِّسان حمدًا وشكرًا، وبالقلب اعترافًا وتفكُّرًا، وبالجوارح سعيًا وعملًا، ومن تلك النِّعم ما أنزله الله تعالى من الوحي إلى نبيِّه محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، وهذا يَشمل كتابَ الله عزَّ وجلَّ، وسُنَّةَ رسوله عليه الصَّلاة والسلام المشتملة على الحِكمة، ومن ذلك ما فيها من ترغيبٍ وترهيب، والله تعالى يُذكِّركم ويَنصحُكم بما أنزله، إمَّا ترغيبًا بما يُليِّن قلوبَكم للخير، وإمَّا ترهيبًا بما يحذِّركم ويزجركم عن الشرِّ[2].

﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

أي: اتَّقوا الله عزَّ وجلَّ في جميع أموركم، بفعل أوامره واجتناب نواهيه، فالتزموا بأحكامه، ولا تتجاوزوا حدوده، وليكن معلومًا لديكم علمًا يقينيًّا أنَّ الله تعالى محيطٌ بكل شيء علمًا، لا يخفى عليه شيءٌ مطلقًا، فيعلم ما تأتون وما تذرون، ويُجازيكم على ذلك بحسَبه، إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشر، ومن كمال

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ١٨٣-١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ١٨٥-١٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٢٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٢٤-١٢٥).

عِلمِه سبحانه أيضًا أنْ شرَع تلك الأحكامَ التي هي في غاية الإحكام، وصالحة في كلِّ زمان ومكان(١).

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢٣٢)﴾.

سبب النُّزول:

عن الحسن البصريِّ، أنَّه قال في قوله سبحانه: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾: حدَّثني مَعقِل بن يَسَار أنَّها نزلت فيه، قال: ((زوَّجت أختًا لي من رجل فطلَّقها، حتى إذا انقضت عِدَّتها جاء يَخطُبها، فقلت له: زوَّجتُك وفرشتُك وأكرمتُك، فطلقتَها، ثم جئتَ تخطبها، لا واللهِ لا تعود إليك أبدًا، وكان رجلًا لا بأس به، وكانت المرأة تُريد أن ترجع إليه، فأنزل الله هذه الآية: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ فقلت: الآن أفعل يا رسول الله، قال: فزوَّجها إيَّاه))(٢).

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

أي: وإذا طلَّق الرِّجال نساءَهم طلاقًا يمكن إرجاع الواحدة منهن فيه- وذلك في التطليقة الواحدة، والتطليقتين- فقاربْت عِدَّتُها على الانقضاء، وأراد الزوجُ إرجاعها، ورضيتْ هي بذلك، فحينئذٍ لا يجوزُ لوليِّها- ما دام قد وقَع بينهما التراضي على المعاشرة الحَسَنة، من غير وقوع منكرٍ شرعًا وعُرفًا- أن يُضيِّق عليها بمَنْعها من التزوُّج به؛ غضبًا ونفورًا منه؛ لتطليقِه لها(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ١٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٢٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٢٥).

(٢) رواه البخاري (٥١٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ١٩٣-١٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٣١)، ((تفسير السعدي)) =

﴿ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

أي: إنَّ نهي الأولياءِ عن عَضْلهنَّ في تلك الحال، إنَّما يُوجَّه إلى مَن يَلين قلبه بالذِّكرى، ويخاف منزجرًا عن الوقوع في الحرام، وهم الذين يؤمنون بالله تعالى وبالدار الآخرة؛ لأنَّ الإيمان بهما يُحقِّقُ خشية الله تعالى، وخوف الحساب والجزاء، فهؤلاء هم الذين ينتفعون حقًّا بتلك الموعظة(١).

﴿ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾.

أي: اتِّباعُكم- يا أولياءَ النِّساءِ- شَرْعَ الله عزَّ وجلَّ في رَدِّهنَّ إلى أزواجهنَّ، وتَرْك عضلهنَّ، خيرٌ لكم وأفضلُ عند الله تعالى، وأطيبُ لنفوسكم، وأطهرُ لقلوبكم من الذُّنوب، ومن العداوات، ومن حصول الرِّيبة، وأطهرُ لعِرْضكم كذلك؛ لأنَّه إذا كان بين الزَّوجين حبٌّ ومودَّة، فقد يَتجاوزانِ ذلك إلى الوقوع في الحرام، وقد يَرتاب فيهما وليُّها وهُما بَريئانِ من ذلك(٢).

﴿وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

أي: فلا تستغربوا أنْ أمركم الله عزَّ وجلَّ بخلاف ما جرت به عادتُكم من عضلهنَّ، بل امتثلوا أمْرَ مَن هو عالِمٌ بمصالحكم وما فيه خيركم ونقاؤكم وطُهركم في الدُّنيا والآخِرة، وذلك في كل ما يأمركم به وينهاكم عنه، أمَّا أنتم- أيُّها العبادُ- فلا تعلمون أين الخِيَرة فيما تأتون وتتركون، إلَّا ما علَّمكم الله تعالى(٣).

= (ص: ١٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٢٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٣٥-١٣٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ١٩٦-١٩٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٣٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ١٩٧-١٩٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٣-١٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٢٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ١٩٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٤٠)، ((تفسير =

الفوائد التربويَّة:

١- أنَّ للقلوب كسبًا، كما للجوارح؛ فأمَّا ما حدَّث به الإنسان نفسه دون اطمئنان إليه، فإنَّه لا يؤاخذ به؛ لأنَّه ليس بعمل، قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾[١].

٢- أنَّ رجوع الإنسان عمَّا هو عليه من المعصية سببٌ للمغفرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ فَاؤُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٢].

٣- أنَّه ينبغي تحذير المؤتَمَن- الذي لا يَعلم بأمانتِه إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ- من عذاب اليوم الآخِر، إنْ هو لم يقُمْ بواجب الأمانة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾[٣].

٤- يُستفاد من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ اعتبار المفاسد، وسلوك الأهون لدفع الأشدِّ؛ لأنَّ الأخذ من مال الزوجة محرَّم بلا شكٍّ؛ لكن إذا أريد به دفْع ما هو أعظم من تضييع حدود الله عزَّ وجلَّ، صار ذلك جائزًا[٤].

٥- الاكتفاء بالظنِّ في الأمور المستقبلة؛ لأنَّ طلب اليقين في المستقبل من باب التكليف بما لا يُطاق؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ﴾؛ وقد قال الله-

= ابن كثير)) (١/ ٦٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٢٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٣٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٩٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١٠٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١١٣).

تبارك وتعالى -: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فقال: ((قد فعلتُ)) كما في الحديث[١].

٦- أنَّه لا يَعرِف هذه الحدودَ، ويتبيَّنها إلَّا مَن كان من ذوي العِلم؛ فكلَّما كان أعلمَ كانت الحدود في حقِّه أبينَ وأظهر؛ فطالب العلم يتعلَّم من اللَّفظ مسائل أخرى؛ فالعلم يُغذِّي بعضه بعضًا؛ وطالب العلم رابحٌ بكلِّ حال؛ فهو ليس كطالب المال قد يشتري السِّلعة وهو يظنُّ الرِّبحَ، ثم يخسر؛ فطالب العلم إذا تعلَّم مسألة، فإنَّها مفتاح له لأبواب أخرى؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[٢].

٧- في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾: إغراء المخاطَب باجتناب ظلم غيره؛ لأنَّ الظالم قد يَظنُّ أنَّه منتصرٌ على المظلوم؛ فإذا علِم أنَّه ظالم لنفْسه تهيَّب ذلك، واستقام على العَدل[٣].

٨- في قوله: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ، وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا﴾ توجيهٌ إلى أنَّ المعروف والجميل والحُسنى يجب أن تسودَ جوَّ هذه الحياة، سواء اتَّصلت حبالُها أو انفصمت عُراها، ولا يجوزُ أن تكون نِيَّة الإيذاء والإعنات عُنصرًا من عناصرها، ولا يُحقِّق هذا المستوى الرفيعَ من السَّماحة في حالةِ الانفصال والطلاقِ التي تتأزَّمُ فيها النُّفوسُ، إلَّا عنصرٌ أعلى من ملابسات الحياة الأرضيَّة؛ عنصرٌ يرفع النفوسَ عن الإِحَن والضَّغائِن، ويُوسِّع من آفاق الحياة ويمدُّها وراء الحاضر الواقع الصغير، هو عنصرُ الإيمان بالله، والإيمان باليومِ الآخِر[٤].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١١٩).

والحديث أخرجه مسلم (١٢٦) من طريق ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١٢٩).

(٤) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٢٥٠).

٩- أنَّ الاتِّعاظ بأحكام الله تزكية للنفس؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ﴾؛ فهو ينمِّي النفس، وينمِّي الإيمان، وينمي الأخلاق، ويُنمِّي الآداب؛ فكلَّما كان الإنسان أشدَّ تطبيقًا لأحكام الله كان ذلك أزكى له[١].

١٠- أنَّ تطبيق الأحكام أطهرُ للإنسان، أي: أطهرُ للقلب؛ لأنَّ الأعمال الصالحة تُطهِّر القلب من أرجاسِ المعاصي؛ ولذلك تجد عند الإنسانِ المؤمنِ من الحيوية، والنشاط، والسرور، والفرح ما ليس عند غيرِه؛ قال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ﴾[٢].

الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف:

١- يُستفاد من قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾، عدمُ مؤاخذة العبدِ بما لم يَقصدْه في لفظه؛ وهذه الفائدة تُعَدُّ قاعدة عظيمة تترتَّب عليها مسائلُ كثيرة؛ منها: لو جرى لفظُ الطلاق على لِسانه بغير قصدٍ لم تطلق امرأته؛ ولو طلَّق في حال غضبٍ شديدٍ لم تطلق امرأته؛ ولو قال كفرًا في حال فرحٍ شديد لم يَكفُر[٣].

٢- أنَّ الطلاق بيَدِ الزوج؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾؛ والضمير يعود على (الذين يُؤْلُون من نِسائهم)[٤].

٣- أنَّ الطلاق لا يقع بمجرَّد تمام مدَّة الإيلاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾[٥]. وفي هذا إشارة إلى أنَّ الفَيْئة أحبُّ إلى الله تعالى من الطلاق[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٤١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٩٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٩٧).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٩٧-٩٨).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٩٨).

٤- قوَّة الداعي في المرأة للزواج؛ لقوله تعالى: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ﴾؛ فكأن النفس تحثُّها على أن تُنهِيَ عَلاقتها بالأول، وتتزوج؛ فقيل: (تربصي بنفسك) أي: انتظري[1].

٥- استعمال الاحتراز؛ فلا ينبغي الإطلاقُ في موضعٍ يخشى فيه من التعميم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾[2].

٦- أهميَّة النِّكاح، وبيان أنَّه راجع إلى الأسرة كلِّها؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ﴾، ولم يقل: فإنْ خافا[3].

٧- عناية الله سبحانه وتعالى بعباده في بيان ما يجب عليهم في عبادتهم، وفي معاملة بعضهم لبعض حتى لا تحصُل الفوضى المؤدِّية إلى النِّزاع[4].

٨- أنَّه إذا لزِم من فِعل المباح شيء محرَّم صار الشيء المباح حرامًا؛ لأنَّ رجوع الزوجة حلال في الأصل؛ فإذا لم يظنَّ الإنسان أنَّه يقوم بالحدود صار حرامًا؛ وهو في الأصل حلال، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ﴾[5].

٩- عناية الله عزَّ وجلَّ بعباده في أن يتعاملوا بينهم بالمعروف، سواء في حال الاتِّفاق، أو في حال الاختلاف؛ لأنَّ ذلك هو الذي يُقِيم وَحْدة الأمة؛ فإنَّ الأمَّة إذا لم تتعامل بالمعروف- بل بالمنكر، والإساءة- تفرَّقت، واختلفت؛ فالأمَّة الإسلاميَّة أمَّة واحدة، كما قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١٠١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١٠٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١١٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١١٩).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١٢٠).

أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣][(١)].

١٠- في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللهِ هُزُوًا﴾ دلالةٌ على أنَّ المعصية نوع من الاستهزاء بالله عزَّ وجلَّ- وإن كانت لا تُخرِج الإنسانَ من الإسلام[(٢)].

١١- أنَّ منَّةَ الله علينا بإنزال الكتاب والحِكمة أعظمُ من كلِّ مِنَّة؛ وذلك لتخصيصِها بعد تعميمِ النِّعم؛ لأنَّ التَّخصيص بعد التَّعميم يدلُّ على أهميتها، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ﴾[(٣)].

١٢- أنَّه لا بدَّ في النِّكاح من وليٍّ؛ فالمرأة لا تزوِّج نفسها؛ لأنَّه لو كانت تملك العقد لنفسها لما كان للعضل أي تأثير؛ ولما قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾[(٤)].

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾

- خبَرٌ في مَعْنَى الأمْر، وأصل الكلام: وليتربَّصِ المطلقات، وفائدة إخراج الأمْر في صورة الخبر التأكيدُ للأمر، والإشعار بأنَّه ممَّا يجب أن يُتلقَّى بالمسارعة إلى امتثاله، فكأنهنَّ امتثلن الأمر بالتربُّص، فهو يُخبِر عنه كأنَّما وُجِد؛ مثل قولهم في الدُّعاء: رحِمك اللهُ، أُخرج في صورة الخبر؛ ثِقةً بالاستجابة، كأنَّما وُجِدت الرحمة، فهو يُخبِرُ عنها[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٢٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١٣٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١٣٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١٣٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٢٥).

- وفيه تقديمُ الاسم (المُطلَّقات) على الفِعل (يَتربَّصْن)، وهذا يُفيد من التأكيد والقوة ما لا يُفيده العكس (يتربَّص المطلقات)[١].

٢- قوله: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرارًا لِتَعْتَدُوا﴾ هذا كالتوكيد لقوله تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾؛ فنَهاهم ألَّا يكون الإمساكُ ضرارًا[٢].

٣- قوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

- ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ﴾: فيه إبراز (الحدود) بالاسم الظَّاهر، لا بالضمير؛ للدَّلالة على تعظيم حدود الله تعالى[٣].

- وفي تكرار الإضافة في ﴿حُدُودُ اللهِ﴾ تخصيصٌ لها وتشريف، ويُحسِّن التَّكرارَ بالظاهر كونُ ذلك في جُملٍ مختلفة[٤].

- ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾: فيه حصْر الظلم في حدود الله تعالى، وتأكيدٌ بالإتيان به في الجملة الاسميَّة الخبريَّة؛ للدَّلالة على أنَّ التعدِّي لحدود الله ظلم عظيم[٥].

٤- قوله: ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ﴾ تخصيصٌ بعدَ تعميم؛ إذ هو معطوفٌ على ﴿نِعْمَةَ اللهِ﴾، وهو مِن النِّعمة، وهذا يُسمَّى التجريد[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٦/ ٤٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٢٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٤٨٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٧٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١١٤).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٤٩١).

٥- وقد تضمَّنت هذه الآية: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ...﴾ والتي تليها، أنواعًا من ضروب الفَصاحة والبَلاغة، من عِلم البيان[1]:

- منها: الطِّباق[2]: بين الطلاق والإمساك؛ فإنهَّما ضدان، والتسريح طباق ثانٍ؛ لأنَّه ضد الإمساك، وبين العِلم وعدَم العلم؛ لأنَّ عدم العلم هو الجهل.

- ومنها: المقابلة[3] في ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا﴾؛ قابَل المعروف بالضرار، والضرار منكَر؛ فهذه مقابلة معنويَّة.

- ومنها: التَّكرار في: ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ كرَّر اللفظ لتغيير المعنيين.

- ومنها: الالتِفات في قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾، ثم التَفت إلى الأولياء، فقال: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٤٩٥).

(٢) **الطِّباق**: هو الجمْع بين متضادين مع مراعاة التقابل، كالبياض والسواد، والليل والنهار، وهو قسمان: لفظي، ومعنوي؛ **فمِن الطِّباق اللفظي**: قوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ [التوبة: ٨٢]، طابَق بين الضَّحك والبكاء والقليل والكثير. **ومن الطِّباق المعنوي**: قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٥-١٦]؛ معناه: ربُّنا يعلم إنَّا لصادقون. ومنه **طباق ظاهر**: وهو ما كان وجه الضدية فيه واضحًا. **وطباق خفي**: وهو أن تكون الضِّديَّة في الصورة متوهَّمة، فتبدو المطابقة خفيَّةً لتعلق أحد الركنين بما يقابل الآخَر تعلُّقَ السببية أو اللزوم، كقوله تعالى: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ [نوح: ٢٥]؛ فإن إدخال النار يستلزم الإحراقَ المضادَّ للإغراق، ومنه: قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]؛ لأنَّ معنى القصاص القتل فصار القتْل سبب الحياة. وهذا من أملح الطِّباق وأخفاه. يُنظر: ((البرهان)) للزركشي (٣/ ٤٥٥-٤٥٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٥٦٧).

(٣) المقابلة: هي ذِكر الشيء مع ما يوازيه في بعض صفاته ويخالفه في بعضها، وهي قريبة من الطِّباق، والفرق بينهما من وجهين: الأول: أنَّ الطباق لا يكون إلا بين الضدين غالبًا، والمقابلة تكون لأكثر من ذلك غالبًا. والثاني: لا يكون الطباق إلَّا بالأضداد، والمقابلة بالأضداد وغيرها؛ ولهذا جعل بعض العلماء الطباقَ أحدَ أنواع المقابلة. وللمقابلة عدة أنواع وتقسيمات. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٣ وما بعدها)، ((البرهان)) للزركشي (٣/ ٤٥٨ وما بعدها).

الآيات (٢٣٣ - ٢٤٢)

﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى
ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ
بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ
مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا
سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ
يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ
أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ
أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟
قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟
أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ لَّا جُنَاحَ
عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ
قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن
قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ
يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ
بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ
وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ
كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ
أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ
عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾.

غريب الكلمات:

﴿حَوْلَيْنِ﴾: مثنَّى حَوْل، وهو العام، وأصله: تحرُّك في دَور، وقيل للعام: حولٌ؛ لأنَّه يَحولُ، أي: يدور[1].

﴿وُسْعَهَا﴾: أي: طاقتها، وقُدرتها[2].

﴿فِصَالًا﴾: فطامًا، وهو التَّفريق بين الصَّبيِّ والرَّضاع؛ يقال: فَصَلتُ الصبيَّ؛ إذا فطمته، ومنه قِيل لولد الناقة إذا قُطِع عن الرَّضاع: فصيل؛ لأنه فُصِل عن أمِّه. وأصل الفَصْل: التفريق، وإبانةُ أحدِ الشَّيئين من الآخَر حتى يكون بينهما فُرجة[3].

﴿عَرَّضْتُمْ﴾: التَّعْرِيضُ: الإيماءُ والتَّلويح، من غير كَشْفٍ ولا تصريح[4].

﴿أَكْنَنتُمْ﴾: سترتُم، وأَضْمَرتُم، مِن أكننتُ الشيء، أي: سترتُه وصُنته[5].

﴿تَعْزِمُوا﴾: أي: تُوَاقِعوا وتُمضوا، مِن العَزْم والعَزيمة: وهو عقْد القلْب على إمضاء الأمْر[6].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٧٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٢).

(٥) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٢).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٥).

﴿عُقْدَةَ﴾: اسم لِمَا يُعقد من نِكاح أو يمين أو غيرهما، وعقْدة كلِّ أمْر: إيجابه وتوثيقه. وأصلُه: الشَّدُّ، وشِدَّة الوثوق(١).

﴿قَانِتِينَ﴾: مُداومين على الطاعة، والقنوت: دوام الطَّاعة، ولزومها مع الخضوع؛ وأصل قنَت: يدلُّ على طاعةٍ وخيرٍ في دِين(٢).

﴿فَرِجَالًا﴾: أي: مُشَاةً؛ جمْع رَاجِل، اشتُقَّ من الرِّجْل للماشي برِجْله(٣).

مشكل الإعراب:

١ - قوله: ﴿لا تُضارَّ والدةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾:

﴿لا تُضارَّ﴾: على قراءة فتح الراء مع التَّشديد؛ فـ(لا) ناهية جازمة، و(تضار) مضارع مجزوم، وسُكِّنت الراء الأخيرة للجزم، وقبلها راء ساكنة مُدغمة فيها، فالْتقى ساكنان؛ فحُرِّكت الثانية بالفتح؛ لأجْل الألفِ قبلها. وعلى قراءة رفْع الراء مشدَّدة: فـ(لا) نافية لا عَملَ لها، و(تضارُّ) فعل مضارع مرفوع؛ لأنَّه لم يدخلْ عليه ناصب ولا جازم.

وأصل (تضارَّ): تضارر، ويحتمل في الرَّاء الأولى منه الفتح (تُضارَر) فيكون الفعل مبنيًّا للمفعول، وتكون (والدةٌ) مفعولًا لِمَا لم يُسمَّ فاعلُه، وحذف الفاعل للعلم به. ويحتمل أن تكون الراء مكسورة (تُضارِر) فيكون الفعل مبنيًّا للفاعل، وتكون (والدةٌ) حينئذٍ فاعلًا، والمفعول على هذا الاحتمال: محذوف، تقديره: لا

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٤)، ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٥ وما بعدها)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٠٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٤).

تُضارِر والدةٌ زوجَها بسبب ولدِها. ولا يُضارِر مولودٌ له زوجتَه بسببِ ولده(١).

٢- قوله: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ... مَتَاعًا﴾: متاعًا: منصوب على أنَّه اسم مصدر لِفِعلٍ محذوف دلَّ عليه ما قبله (متعوهن)، والتقدير: متعوهنَّ متاعًا. واسم المصدر (متاعًا) جرى مجرَى المصدر (تَمتيع).

ويجوزُ نصبُه على أنه حالٌ من الضَّمير المستكنِّ في (على الموسِع)، والتقدير: قدرُ الموسع يستقرُّ عليه في حالِ كونه متاعًا(٢).

٣- قوله: ﴿فَنِصفُ مَا فَرَضتُم﴾:

﴿فَنِصفُ﴾: الفاء رابطة لجواب الشَّرط. **ونِصف**: مرفوعةٌ مبتدأ، والخبرُ محذوف، والتقدير: فعليكم نصفُ ما فرضتم. أو خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: فالواجبُ نصفُ...إلخ. وقُرِئ بالنَّصب، على أنَّه مفعول به لِفِعل محذوف، أي: فأدُّوا نِصفَ ما فرضتُم(٣).

٤- قوله: ﴿غيرَ إخراجٍ﴾:

﴿غيرَ﴾: منصوب، على أنه نعت لـ﴿مَتَاعًا﴾ أو بدلٌ منه. أو منصوب على أنَّه حال من الزَّوجات، أو على أنَّه حال من الموصِين، والتقدير: غيرَ مخرجاتٍ، أو: غير مُخرِجين لهم. وقيل غير ذلك(٤).

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٣٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ١٨٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٤٦٧-٤٦٨).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٣٢)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ١٨٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٤٩٠).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٣٢)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ١٨٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٤٩١).

(٤) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٣٢)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ١٩٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٥٠٤).

المعنى الإجمالي:

يُرشِد الله تعالى الأُمَّهات إلى أن يقُمنَ بإرضاع أولادهنَّ عامين تامَّيْن، إن اتفَّق مطلوب الأب والأمِّ، أو رغب أحدهما في إكمال الرَّضاعة، وفي حال قيامهنَّ بذلك فعلى الأب أن يُقدِّم للأمِّ ما يقوتها من طعام، وما يكسوها من ملبسٍ، بما يتعارَف النَّاس عليه، ومن غير سرفٍ ولا إقتارٍ، فلا يُوجِب اللهُ على أحدٍ إلا ما أطاقه، وحرَّم اللهُ على الأمِّ أن ترفض إرضاعَ ولدها، أو تطلب أكثر من أُجرة مثلها إضرارًا بأبيه، وحرَّم كذلك على الأب أن يمنعها من إرضاع ولدها إضرارًا بها. وأوجب سبحانه على وارثِ الطفل الذي تُوُفِّي أبوه مثل ما على الأب من النَّفقة والكُسوة لوالدته وعدم الإضرار بها. وأباح الله للوالدين فطامَ المولود قبل انتهاء العامينِ إذا وقع ذلك عَقب تراضٍ منهما على فطامِه وتشاورٍ، بحثًا عن مصلحة المولود. كما أباح الله تعالى للآباء أن يبتَغوا لأولادِهم مُرضعات غير أُمَّهاتهم إن كان لا يقصد الإضرار بهنَّ، وإنما لوجود سببٍ يقتضي ذلك، فلا حرج حينئذٍ في هذا الأمر إذا دفَع الوالد أُجرةَ المرضعة، وأوفاها حقَّها تامًّا غيرَ مماطل فيه. ثم يأمر تعالى بتقواه؛ بامتِثال أمْرِه، واجتناب نهيه، وأن يتيقَّنوا أنَّه لا يَخفى عليه شيء سبحانه.

وإذا تُوُفِّي الزَّوجُ فقد أوجب الله سبحانه على زوجتِه أن تعتدَّ من بعدِه، وذلك بحبْسها نفسَها عن الزواج والطيب والزينة والخروج من البيت لغير ضرورة، لمدَّة أربعة أشهر وعشرة أيام- وهذا لغير الحامل فإن عدَّتها تنتهي بوضعها للحمل- فإذا انقضَت هذه المدَّة فلا حرج حينها على أولياء المعتدَّة فيما تفعله في نفسِها من زينة وطيب، ونكاح حلال ونحوه مما أباحه الله تعالى لها. والله تعالى عالمٌ بالسرائر؛ فالتزموا بأحكامه ولا تخالفوها؛ فإنَّه مجازيكم على ذلك.

ولوجوبِ حبْس المعتدَّات أنفسَهنَّ عن النكاح فترة العدَّة لا يجوز للرجال التَّصريح لهنَّ بالنكاح، لكن لا حرجَ من التَّلميح لهنَّ من غير تصريحٍ بالرغبة في

الزواج منهنَّ، كما أنَّه لا حرج أيضًا فيما انطوت عليه أنفسُ الرجالِ من العزم على نكاح المعتدَّات بعد انقضاءِ زمن عدَّتِهنَّ. فقد علِم الله أنَّهم سيذكرون لمن هنَّ في العدَّة رغبتهم في الزواج بهنَّ علانيةً، أو سيُضمِرون تلك الرغبة في أنفسهم، فرفَع الله الحرج عنهم في ذلك. ونهى الله عن إجراء عقد النكاح على المعتدَّات حتى تنتهي العدَّة، وحذَّر سبحانه مَن يخالفُ أمره مبيِّنًا أنَّه يعلم ما تُضمِره أنفسهم من الرغبة في نكاح المعتدَّات، فليحذروا إضمار نيَّةٍ مخالفة لأمره تعالى خوفًا من عقابه، ورغبةً في ثوابه. وليكونوا على يقين أيضًا من أن الله يستر ذنوبَ عباده ويتجاوز عنها، ولا يسارع بإيقاع العقوبات عليهم لذنوبهم مع قدرته على ذلك بل يمهلهم سبحانه، فلا ييئسوا ولا يقنَطوا في حال مخالفتهم لِمَا يُرضي ربَّهم، بل عليهم أن يطلبوا منه سبحانه المغفرة.

ولا حرجَ ولا إثمَ على الرجال في طلاق النِّساء بعد العقد عليهنَّ، وقبل جماعِهنَّ والحال أنهم لم يوجبوا لهنَّ مهرًا محدَّدًا، لكن على الأزواج أن يعطوهنَّ ما يتمتَّعن به من أموالهم بحسب قدرتهم، وعلى ما يتعارف عليه النَّاس، جاعلًا سبحانه هذا الأمر أكثر تأكيدًا على مَن تحلَّى بالإحسان إلى نفسه وإلى الآخرين.

كما أنَّه لا حرجَ على الرِّجال إنْ طلَّقوا النساء قبلَ جِماعنَّ وقد حدَّدوا لهنَّ مهرًا، وبذلك يكون للمُطلَّقات نِصفُ المهر المحدَّد، إلَّا إذا تنازلْنَ عنه لأزواجهنَّ، أو عفا الأزواج عن النصف الآخر لهن، وأعطوهنَّ المهر كاملًا. ورغَّب الله تعالى كِلا الزوجين في التنازل، مخبرًا أنَّ مَن عفا عن نصيبه كان هو الأقربَ للتقوى. كما نهى سبحانه وتعالى الزوجين عن الغفلةِ عن الفضلِ والإحسان، وذلك بإعطاء أحدهما للآخر زيادةً على الحقِّ الواجب له من المهر؛ فإنَّ الله مطَّلعٌ على كلِّ أعمال البَشر، فمَن عفا منهم، فله أجرُه، وسيجزيه الله سبحانه على إحسانه بفضلِه وكرمه.

ثم أمَر سبحانه بالحفاظ على الصَّلواتِ المكتوبة عمومًا بالمداومة على أدائها في

أوقاتها، والاهتمام بتأديتها بشروطها وأركانها، وخصَّ بمزيد تأكيدِ صلاة العصر. آمرًا سبحانه أن يُداوِموا في صلواتِهم على الخشوعِ والطُّمأنينة وترك الكلام في غير ما أمر الله تعالى به فيها من الذِّكر والقرآن.

واستثناءً من الأمر بالقيام بخشوعٍ وطُمأنينة وتركٍ للكلام، ذكر سبحانه حُكم الصَّلاة حال الخوف، ففي هذه الحال عليهم أداء الصَّلاة على أيِّ حالٍ كانوا، سواء ماشينَ على أقدامهم أو راكبينَ على دوابِّهم، مستقبلي القبلةِ أو غير مستقبليها. فإذا زال عنهم الخوف فلْيُقِيموا الصَّلاة على صفتِها التامَّة التي علَّمهم الله إيَّاها من قبلُ، فإن تعليمَه سبحانه لهم ما لم يكونوا يعرفونه من قبل نعمةٌ تستحقُّ أن يُقابِلوها بالشكر، ومنه ذكره سبحانه في الصَّلاة وغيرها.

ثم ذكَر الله تعالى أنَّ على الأزواج أن يُوصُوا قبل وفاتهم إلى ورثتِهم بأن تمكث الزَّوجات في بيوت أزواجهن المتوفَّين مدَّة عام كامل يُمتَّعن فيها بالنفقة والسكنى في منازلهم، دون أن يخرجهنَّ أحدٌ منها. ولا حرج على أولياء الميت إن خرجن وتركنَ الحداد على أزواجهنَّ بأن تجمَّلنَ وتطيَّبنَ ورغِبنَ في النكاح وغير ذلك ممَّا لا يخرج عن حدود الشَّرع والعُرْف. والله عزيزٌ؛ لا يمنعه شيء من انتقامه ممَّن خالف أمره وارتكب نهيه، وحكيم جلَّ وعلا؛ فكلُّ ما شرعه من أحكامٍ في غاية الإتقان.

وهذه الآية منسوخةٌ حُكمًا عند الجمهور بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾، وقيل: النفقة المذكورة هنا منسوخة بآية المواريث.

ثم أوجبَ الله تعالى على الأزواجِ أن يُعطوا مطلَّقاتهم ما يتمتَّعن به من كسوةٍ أو غيرها، بما يتعارَف عليه النَّاس وبما لا يخالف شرعَ الله عزَّ وجلَّ، وهذا أمرٌ ثابت على كل مَن طلَّق زوجته، وكما بيَّن الله ما سبق من الأحكام بوضوحٍ، يُبيِّن أيضًا باقي آياته وأحكامه بوضوح حتى يفهمها النَّاس ويعملوا بها.

تفسير الآيات:

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣)﴾.

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾.

أي: أَرْشَدَ اللهُ عزَّ وجلَّ الوالدات المطلَّقاتِ إلى أن يرضعنَ أولادهنَّ؛ ذكورًا كانوا أو إناثًا، مدَّة سنتيْنِ تامَّتيْن، إنْ كان كلٌّ من الأبِ والأم، أو أحدهما يَنشُد كمالَ الرَّضاعة[1].

﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

أي: على الوالدِ أن يدفعَ لأُمِّ أولاده ما يَقوتُها من الطَّعام، وما يكسوها من الملبسِ بما يجب لمثلِها على مِثله، ومن غير إسرافٍ أو إقتار، والله تعالى يعلم الغَنيَّ والفقير ومُتوسِّط الحال من خلقِه، ولا يُوجِب على الرِّجال من النفقة إلَّا ما أطاقوه ووجدوا إليه سبيلًا[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ١٩٩-٢٠١، ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٣٠-٤٣١)، ويُنظر: ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (٣٤/ ٦٣-٦٨).

وممن قال من بأنَّ المقصود بالوالدات هنا، المطلَّقات منهنَّ: مجاهد، والزهري، والربيع بن أنس، وسعيد بن جبير، والسدي، والضحاك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٤٢٨)، وهو قول جمهور السلف. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٣٠-٤٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٢١١-٢١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٣٤)، ((تفسير السعدي)) =

قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى * لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٦-٧].

﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا﴾.

القِراءات ذات الأثَر في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿لَا تُضَارَّ﴾ قراءتان:

١- ﴿لَا تُضَارُّ﴾ على أنَّها خبرٌ يُفيد النهيَ المتقرِّر، وهو أبلغُ من مجرَّد النهي[١].

٢- ﴿لَا تُضَارَّ﴾ أي على أنَّها نهي[٢].

﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا﴾.

أي: يحرُمُ على الأُمِّ الإضرار بالأب، كأنْ تأبى إرْضاعَ مولودها، أو تطلُبَ أكثرَ من أجْرِ مِثلِها، ولا يَحِلُّ للأب أيضًا الإضرارُ بالأُمِّ، كأنْ يَنزِعَ الولدَ من أمِّه، مع رغبتِها في إرضاعه[٣].

﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾.

= (ص: ١٠٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٤٤).

(١) قرأ بها ابنُ كثير، وأبو عمرو، ويعقوب. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٢٧).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٠٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٣٦)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٢٩٦).

(٢) قرأ بها الباقون ﴿لَا تُضَارَّ﴾. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٢٧).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٠٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٣٦)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٢٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٢١٥-٢٢١)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٤١-٣٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (٣/ ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٣٣).

أي: ويحرُمُ على الأب أيضًا الإضرارُ بالأُمِّ، كأنْ ينزِعَ الولدَ من أمِّه، مع رغبتها في إرضاعه، ولا يَحِلُّ للأمِّ أيضًا الإضرارُ بالأب، كأنْ تأبى إرْضاعَ مولودها، أو تطلُبَ أكثرَ من أجْرِ مِثلِها[1].

﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾.

أي: إنَّ على وارث الطِّفل الذي مات أبوه، مِثلَ ما على الأبِ من النَّفقة والكُسوة لوالدته، وعدم الإضرار بها[2].

﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾.

أي: إذا أراد والدُ المولودِ ووالدتُه فِطامَه عن الرَّضاعة، إذا رَأَيا ذلك قبل انقضاء نهايةِ عامَي الرَّضاعة وبعد وقوع تَراضٍ منهما وتشاورٍ ونظَر؛ هل في ذلك مصلحةٌ لمولودهما أم لا- فلا حرجَ حينئذٍ في ذلك ولا إثم[3].

﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

أي: إذا أردتم أن تطلُبوا لأولادكم مرضعاتٍ غيرَ أمهاتِهم، على غير قصْد الإضرار بهنَّ، وإنَّما لأسبابٍ تدعو لذلك، كأن تعترضَ الأمُّ على أجرة إرضاع ولدها، ويمتنع الرجلُ من دفْع ما تطلبه، فتمتنع من إرضاعه، فلا حرجَ حينئذٍ ولا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٢١٥-٢٢١)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٤١-٣٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (٣/ ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٣٣).
وقال الماورديُّ: (قال تعالى: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾ وهو الأب في قول جميعهم، لا يَنزِع الولدَ من أمِّه؛ إضرارًا بها) ((تفسير الماوردي)) (١/ ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٢٣٥-٢٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٤٥).

إثم على الوالدين في ذلك، إذا دفَع الوالد أجرةَ الرَّضاعة المتَّفَق عليها للمرضعةِ فأوفاها حقَّها من غير نقصٍ ولا مماطلة(١).

﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

أي: امتثِلوا ما أمَرَكم الله تعالى به، واجتنِبوا ما نهاكم عنه، ومن ذلك تلك الحقوق المذكورة في الآيات السَّابقة المتعلِّقة بالأزواج وأولادهم؛ وليكن معلومًا لديكم، علمًا يقينيًّا أنَّ الله تعالى لا يَخفى عليه شيء، فهو يراكم وينظُر ماذا تعملون، فيحفظ أعمالكم ويُجازيكم عليها؛ فلْيَحذَر العبدُ من أن يراه ربُّه ومولاه حيث نهاه، أو يفقده حيثُ أمره ووصَّاه(٢).

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤)﴾.

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا بيَّن الله تعالى عدَّة الطلاق وما اتَّصل بذلك من أحكام الإرضاع عقبَ الطَّلاق، أردفَ ذلك ببيان عدَّة الوفاة، فقال سبحانه(٣):

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾.

أي: إذا تُوفِّي الزَّوج، فيجبُ على زوجته أن تَعتدَّ من بعده، فتَمكُثَ حابسةً

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٢٤٠-٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٤٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ١٤٩-١٥٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٤١).

نفْسَها عن الزَّواج مُدَّةَ أربعة أشهر وعَشرةَ أيَّام(١).

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

أي: إذا انقضت مدَّة عدَّة المرأة المتوفَّى عنها زوجها، فلا حرج على أوليائها فيما تفعله في نفسها من تزيُّن وتطيُّب ونِكاح حلال، وغير ذلك ممَّا أباحه الله تعالى لها(٢).

﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

أي: إنَّ الله سبحانه وتعالى عالِمٌ ببواطنكم، ومطَّلعٌ على حقائق أعمالكم؛ فأقِيمُوا أحكامه ولا تخالفوها، فإنَّه مجازيكم عليها(٣).

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٣٥)﴾.

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا تضمَّنتِ الآياتُ السابقة أحكامَ عِدَّة الطلاق وعِدَّة الوفاة، وعُلِم من الآيات أنَّ التزوُّج في مدة الأجَل حرام، ولَمَّا كان التحدُّث في التزوُّج إنما يَقصد منه المتحدِّث حصولُ الزَّواج، وكان من عادتهم أن يتسابقوا إلى خِطبة المعتدة

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٢٤٧-٢٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٣٥-٦٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ١٥٠-١٥١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٥٣-١٥٥).

ويُخَصُّ من عموم حُكم هذه الآية: الحامل؛ فعِدَّتُها بوضع حملِها كما في قوله تعالى في سورة الطلاق: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ ولو كان وضعها قبل تمام الأربعة الأشهر وعشرة أيَّام.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٣٧-٦٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٥٥).

ومواعدتها؛ حرصًا على الاستئثار بها بعد انقضاء العدة، فبيَّنت الشريعة لهم تحريمَ ذلك، ورخَّصت في شيء منه؛ ولذلك قال تعالى(١):

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾.

أي: لا حرَج عليكم- أيُّها الرِّجالُ- أن تَذكُروا للنِّساء المعتدَّات من وفاة أزواجهنَّ في كلامِكم ما يُشير ويُلمِّح لهنَّ من غير تصريح إلى الرغبة في الزواج بهنَّ، ولا حرجَ عليكم كذلك فيما انطوت عليه قلوبُكم أثناءَ عدَّتهنَّ، من عزم نكاحهنَّ(٢).

﴿عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾.

أي: علِم الله أنَّكم ستذكرون للمعتدَّات رغبتكم في الزواج بهنَّ علانيةً بألسنتكم، أو تُضمِرون ذلك في أنفسكم؛ فأذِن لكم بذلك، ورفَع الحرج عنكم فيه، ونهى الله سبحانه عن التَّصريح لهنَّ بالرَّغبة في نِكاحهنَّ، ولكن أحلَّ لهم أن يُلمِّحوا إليهنَّ ويُشيروا فحسْبُ برغبتهم في نكاحهنَّ(٣).

﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾.

أي: لا تقوموا بإجراء عقد النِّكاح على المعتدَّات حتى تنتهي عِدَّتهنَّ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٢٦١-٢٧١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٧٤)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ١٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٥٩).

(٣) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٧٤)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٣١٦)، ((تفسير القرطبي)) (٣/ ١٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٥٣-٤٥٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٦٠، ١٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٦٠-١٦١).

=

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾.

أي: ليكن معلومًا لديكم أنَّ الله عزَّ وجلَّ يعلم ما في أنفسكم من هواهنَّ، والرغبة في نكاحهنَّ، وغير ذلك، فكونوا على حيطةٍ من أن تخالفوا أحكامه في ذلك؛ فإنَّه مطَّلعٌ على ما في نفوسكم فلا تُضمِروا فيها نيَّة مخالفة لأمره تعالى، خوفًا من عقابه ورجاءً لثوابه(١).

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

أي: وليكن معلومًا لديكم كذلك بأنَّكم إن أضمرتم في أنفسكم ما لا يرضاه سبحانه فلا تيئسوا ولا تقنطوا، فإنَّ لديكم طريقًا لتصحيح الأمر، وهو طلب المغفرة منه سبحانه، فهو الذي يستر ذنوبَ عباده ويتجاوز عنها، ولا يعاجل عبادَه بالعقوبات على ذُنوبهم مع قدرته على ذلك، بل يمهلهم جلَّ وعلا(٢).

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (٢٣٦)﴾.

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا جرَى الكلامُ في الآيات السَّابقةِ على الطلاقِ الذي تجِب فيه العِدَّة، وهو

= وقال القرطبيُّ: (حرَّم الله تعالى عقد النِّكاح في العِدَّة بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾، وهذا من المُحكَم المُجمَع على تأويله، أنَّ بلوغ أجَلِه انقضاءُ العِدَّة) ((تفسير القرطبي)) (٣/ ١٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٢٨٦)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ١٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٢٨٦)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ١٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٦٢).

طلاقُ المدخول بهنَّ، عرَّج هنا على الطَّلاق الواقِع قبل الدُّخول، فقال سبحانه(١):

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾.

أي: لا حرجَ عليكم في طلاقِكم النساءَ بعد العقدِ عليهنَّ، وقبل أن تُجامعوهنَّ، وقبل أن تُوجِبوا لهنَّ مهرًا محدَّدًا(٢).

﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾.

مناسبتها لِمَا قبلها:

لَمَّا كان في طلاقهنَّ قبل جِماعهنَّ، وقبلَ فرْض المهرِ لهنَّ، انكسارٌ لقلوبهنَّ، أمر الله تعالى أزواجهنَّ بتعويضهنَّ بشيءٍ يجبُر خواطرَهنَّ، فقال تعالى(٣):

﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾.

أي: أَعطوهنَّ- أيُّها الأزواجُ- ما يَتمتعْنَ به من أموالِكم، كلٌّ بحسَب قُدرته وأحوالِه غِنًى أو فقرًا، وبحسَب ما يتعارَف عليه الناس، من غيرِ أن تَظلموهنَّ، وجَعَل الله تعالى هذا الأمرَ أكثرَ تأكيدًا على المتَّصفين بالإحسان إلى أنفسهم وإلى الآخَرين(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٢٨٦-٢٨٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ١٥١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٦٧).
وممَّن قال من السَّلَف: إنَّ المسَّ هنا بمعنى الجِماع: ابن عبَّاس، وطاوس، والحسن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٤٢٢).
وممَّن قال: إنَّ ﴿فَرِيضَةً﴾ هنا تعني المَهرَ: ابن عبَّاس. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٤٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٢٨٩-٣٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٤١)، ((تفسير =

﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٧)﴾.

﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾.

أي: لا حرجَ ولا إثمَ عليكم- أيُّها النَّاس- إنْ طلَّقتُمُ النِّساء قَبلَ جماعِهنَّ وقَدْ قدَّرتُم لهنَّ مهرًا، ولهنَّ في هذه الحالِ نِصفُ هذا المهر[1].

﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾.

أي: للنِّساءِ نِصفُ المهر في تلك الحال، إلَّا إذا عفونَ عنه لأزواجِهنَّ، فيكون لهم المهر كاملًا، (وذلك إنْ كُنَّ ممن يصحُّ عفوهنَّ) أو أنْ يعفوَ أزواجُهنَّ عن نِصف المهرِ الآخَر لنِسائهم، فيكون لهنَّ المهرُ كاملًا، ورغَّب الله تعالى كلًّا من الأزواج والزَّوجات في العفو، بأنَّ مَن يعفو أقربُ للتقوى من الآخَر؛ لأنَّ مَن يعفو قد آثَر فِعل ما ندَبه الله تعالى إليه على هوى نَفْسِه، فهو لِمَا أوجبه الله عزَّ وجلَّ عليه أشدُّ امتثالًا، ولِمَا نهاه أشد تجنُّبًا، وذلك هو القُرب من التَّقوى التي تَعني فِعلَ المأمور، واجتنابَ المحظور[2].

= السعدي)) (ص: ١٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٦٢)، ((تفسير ابن عُثيمين – الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٦٧-١٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٣١١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٤٢-٦٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٥)، ((تفسير ابن عُثيمين – الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٧١).

وقال القرطبيُّ: (قوله تعالى: ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾، أي: فالواجب نصفُ ما فرضتم، أي: من المهر، فالنِّصف للزَّوج، والنِّصف للمرأة بإجماع) ((تفسير القرطبي)) (٣/ ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٣١١-٣١٢، ٣٣٢-٣٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٥)، ((تفسير ابن عُثيمين – الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٧٢).

واختار أنَّ المراد بالذي بيده عقدة النكاح: الزوج: ابن جرير في ((تفسيره)) (٤/ ٣٣٢)، =

﴿وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

أي: لا ينبغي أن يترك الزوجانِ الإحسانَ إلى بعضِهم البعض، بإعطاءِ أحدهما للآخَر زيادةً على الحقِّ الواجب له، وذلك بالعفوِ والتسامُحِ عن بقيَّة المهر، فإنَّ الله تعالى يرى كلَّ عمل يصدُر من الناس، فمَن عفا فله أجره، والله تعالى يحفظ عملَه، ويُجازيه على إحسانه بفضله(١).

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا للهِ قَانِتِينَ (٢٣٨)﴾.

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾.

أي: يأمر الله تعالى بتعاهُد الصَّلوات المفروضة عمومًا بالمحافظة على مواظبة أدائها في أوقاتها، وحِفظ حدودها، والعناية بأدائها بشروطها وأركانها، وخصَّ الله تعالى من بينها بمزيدِ تأكيد، صلاة العصر(٢).

= والواحدي ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٧٥)، والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ١٠٥)، وابن عثيمين في ((تفسير الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٧٢).

وممَّن قال في قوله تعالى: ﴿أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾: إنَّه الزَّوج: عليُّ بن أبي طالب، وابن عبَّاس-في إحدى الرِّوايات عنه-وجُبَير بن مُطعِم، وسعيد بن جُبَير، وسعيد بن المسيَّب، وشُرَيح، ومجاهد، والشَّعْبي، وعِكْرمة، ونافع، ومحمَّد بن سِيرين، والضَّحَّاك، ومحمَّد بن كَعب القُرظي، وجابر بن زيد، وأبو مِجلَز، والرَّبيع بن أنس، وإياس بن معاوية، ومكحول، ومقاتل بن حَيَّان، وسفيان. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٣٢٤)، و ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٤٤٥).

وممن قال أنه ولي المرأة: القرطبي في ((تفسيره)) (٣/ ٢٠٧)، وابن عاشور في ((تفسيره)) (٢/ ٤٦٣).

وممَّن قال بهذا القول من السلف: ابن عباس-في رواية أخرى-وعلقمة، والأسود بن يَزيد، والحسن، وعطاء، وطاوس، والزهري، وربيعة، وزيد بن أسلم، والشعبي-في رواية عنه-وأبو صالح، وابن زيد، وإبراهيم النخعي، والسُّدِّي، وغيرهم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٣١٧)، و ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٤٤٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٣٣٨-٣٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٤٤-٦٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٥-١٠٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٣٤٢، ٣٧٢، ٣٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٤٥، ٦٤٧، ٦٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٧٧-١٧٨). =

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: ((لَمَّا كان يومُ الأحزابِ، قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ملَأَ اللهُ بُيوتَهم وقُبورَهم نارًا، شغَلونا عنِ الصَّلاةِ الوُسطى حتى غابَتِ الشمسُ))(١).

وعن عبدِ اللهِ بن مسعود رضي الله عنه، قال: ((حَبَسَ المشركونَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عن صلاةِ العصرِ. حتى احمرَّتِ الشمسُ أوِ اصفرَّتْ. فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: شغلونا عن الصَّلاةِ الوُسطى صلاةِ العصرِ. ملأَ اللهُ أجوافَهم وقبورَهم نارًا أو قال حشا اللهُ أجوافَهم وقبورَهم نارًا))(٢).

وعن البَراءِ بنِ عازبٍ رضي الله عنه، قال: ((نزلت هذه الآيةُ: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ﴾. فقرأناها ما شاء اللهُ، ثمَّ نسَخَها اللهُ، فنزلت: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾، فقال رجلٌ كان جالسًا عند شقيقٍ له: هي إذنْ صلاةُ العصرِ. فقال البراءُ: قد أخبرتُك كيف نزلتْ، وكيف نَسخَها اللهُ، واللهُ أعلمُ))(٣).

﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾.

أي: أقيموا الصَّلاة، مواظبين على ذلك، ومداومين فيها على الخُشوع والطُّمأنينة والسُّكوت التامِّ عن سوى ما أمر الله تعالى به فيها من الذِّكر والقرآن(٤).

= وممَّن نصَّ على أنَّ الصلواتِ المقصودةَ هي المكتوباتُ: ابن عبَّاس، والضَّحَّاك. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٤٤٧).

وممَّن قال من السَّلَف: إنَّ المقصود بالصَّلاة الوُسطى صلاةُ العصر: عليُّ بن أبي طالب، وابن عبَّاس، وأبو هريرة، وابنُ عُمر، وأبو سعيد الخُدريُّ، وعائشةُ، وأبو أيُّوب، والحسن، وإبراهيم، وسعيد بن جُبَير، وزِرُّ بن حُبَيش، وقَتادة، والضَّحَّاك، ومجاهد، والحسن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٣٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٤٨).

(١) رواه البخاري (٢٩٣١).

(٢) رواه مسلم (٦٢٨).

(٣) رواه مسلم (٦٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٣٨٣-٣٨٤)، ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (٢/ ٥٤٧-٥٤٩)، =

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (٢٣٩)﴾.

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا أَمَرَ الله تعالى عبادَه بالمحافظة على الصَّلوات، والقيام بحدودِها، والمداومة عليها، ذَكَر الحال التي يَنشغلُ فيها المرءُ عن أدائها على الوجه الأكمل، وهي حال الخوف، ولكنَّها ليست عذرًا في تَرْك المحافظة على الصَّلوات، فقال سبحانه[1]:

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾.

= ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٥٤-٦٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٧٨-١٧٩).

وعن زَيد بن أَرقمَ رضي الله عنه، قال: ((كنَّا نَتكلَّم في الصَّلاة؛ يُكلِّم أحدُنا أخاه في حاجته، حتى نزلت هذه الآية: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا للهِ قَانِتِينَ﴾ فأُمِرْنا بالسُّكوت)) رواه البخاري (٤٥٣٤)، ومسلم (٥٣٩).

لكن قال ابنُ كثير معلِّقًا على هذا الأثر: (قد أَشكل هذا الحديثُ على جماعةٍ من العلماء، حيث ثبَت عندهم أنَّ تحريم الكلام في الصَّلاة كان بمكَّةَ، قبل الهجرة إلى المدينة، وبعد الهجرة إلى أرض الحَبَشة، كما دلَّ على ذلك حديثُ ابن مسعود الذي في الصَّحيح، قال: كنَّا نُسلِّم على النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قبل أن نُهاجر إلى الحبشة وهو في الصَّلاة، فيردُّ علينا، قال: فلمَّا قدِمنا سلمتُ عليه، فلم يردَّ عليَّ، فأخَذَني ما قَرُب وما بَعُد! فلمَّا سلَّم قال: ((إنِّي لم أردَّ عليك إلَّا أني كنتُ في الصَّلاة، وإنَّ الله يُحدِث من أمْره ما يشاء، وإنَّ ممَّا أحْدث ألَّا تكلَّموا في الصَّلاة)). وقد كان ابن مسعود ممَّن أسلم قديمًا، وهاجر إلى الحبشة، ثم قدِم منها إلى مكَّةَ مع مَن قدِم، فهاجر إلى المدينة، وهذه الآية: ﴿وَقُومُوا للهِ قَانِتِينَ﴾ مدنيَّة بلا خلاف، فقال قائلون: إنَّما أراد زيد بن أرقم بقوله: «كان الرجل يكلِّم أخاه في حاجته في الصَّلاة» الإخبار عن جنس الناس، واستدلَّ على تحريم ذلك بهذه الآية بحسَب ما فهِمه منها، والله أعلم.

وقال آخَرون: إنَّما أراد أنَّ ذلك قد وقع بالمدينة بعد الهجرة إليها، ويكون ذلك قد أُبيح مرَّتين، وحرِّم مرتين، كما اختار ذلك قومٌ من أصحابنا وغيرهم، والأوَّل أظهر. والله أيضًا أعلم) ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٥٥)، ويُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٦/ ٣٦٢-٣٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٦٩).

أي: إنْ خِفْتُم أن تُؤدُّوا صلاتكم على تِلك الصِّفةِ الكاملة، فصَلُّوها على أيِّ حالٍ كنتم، سواء ماشينَ على أقدامِكم أو راكبين على دوابِّكم- ويلزم من ذلك أن يكونوا مستقبلي القِبلة وغير مستقبليها- فإنَّ ذلك يجزيكم حينئذٍ عن القيام قانتينَ[١].

﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾.

أي: فإذا زال عنكم الخوف، فأقيموا صلاتكم على الصِّفة الكاملة كما علمكم الله من قبلُ، وتعليمُه إيَّاكم ما ينفعكم في دُنياكم وأُخراكم- ومن ذلك إقامة الصَّلاة بتمامها- نعمةٌ عظيمة تقتضي شُكرها بذكره سبحانه في الصَّلاة وغيرها[٢].

قال سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [النساء: ١٠٣].

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٤٠)﴾.

التاسخ والمنسوخ:

جمهور المفسِّرين على أنَّ هذه الآية منسوخةٌ حكمًا بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾، وقيل النفقة كذلك منسوخةٌ بآية المواريث[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٣٨٤-٣٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٥٥-٦٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٣٩٥-٣٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٧٩-١٨٠).

(٣) يُنظر: ((الناسخ والمنسوخ)) للنحاس (ص: ٢٣٩)، ((الناسخ والمنسوخ)) لابن حزم (ص: ٢٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٥٨-٦٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٦). =

فعن عبد الله بن الزُّبَير رضي الله عنهما، قال: ((قُلْتُ لعثمانَ بن عفَّان: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ قد نسختْها الآيةُ الأخرى، فلِمَ تَكْتُبُها؟ أَوْ تَدَعُها؟ قال: يا ابنَ أخي، لا أُغَيِّرُ شيئًا منه من مكانِه))[1].

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾.

أي: إنَّ الأزواج الذين يموتون ويتركون وراءهم زوجاتٍ، فعليهم أن يعهَدوا قبل وفاتهم لورثتهم بأن تمكث زوجاتهم في بيوتهم (أي بيوت الأزواج المتوفَّين) مدَّة عام كامل، يتمتَّعن فيه بالنفقة من أموالهم، والسُّكنى في منازلهم، دون أن يُخرِجَهنَّ أحدٌ منها[2].

﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ﴾.

أي: لا حرَج على أولياء الميِّت في خروجهنَّ وتركهنَّ الحدادَ على أزواجهنَّ بالتجمُّل والتطيُّب والتشوُّف للنكاح والتزوُّج، وغير ذلك ممَّا لا يخرج عن حدود الشَّرع والعُرف[3].

= قال ابن أبي حاتم أيضًا: (عن ابن عبَّاس، في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾، فكان الرَّجُل إذا مات وترك امرأته، اعتدَّت سَنةً في بيته، يُنفَق عليها من ماله، ثم أنزل الله بعدُ ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾، فهذه عِدَّة المتوفَّى عنها [زَوْجُها] إلَّا أن تكون حاملًا، فعِدَّتها أن تضع ما في بطنها، وقال: ﴿وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ﴾ [النساء: ١٢]، فبيَّن الله ميراثَ المرأة، وترك الوصية والنفقة-ورُوي عن مجاهد، والحسن وعِكْرمة، وقَتادة، والضَّحَّاك، والرَّبيع بن أنس، ومقاتل بن حَيَّان، قالوا: نسختْها ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾) ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٤٥٢).

(١) رواه البخاري (٤٥٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٣٩٧-٣٩٩، ٤٠٦-٤٠٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٧٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٠٨-٤٠٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٨٥).

﴿وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى لا يمنعُه شيءٌ من انتقامه ممَّن خالف أمْره وارتكب نهيه، ومن ذلك إخراج المتوفَّى عنها زوجُها من بيته قبل انقِضاء عام، وهي راغبةٌ في المُكْثِ فيه، كما أنَّ ما شرَعه من أحكام في غاية الإتقان، وهي أحكام صادرة عن عزَّته، وحِكمته، فجعل لكلِّ أمر حُكمَه اللائق به[1].

﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (٢٤١)﴾.

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا ذكَر سبحانه وتعالى متاعَ المتوفَّى عنهنَّ عقَّبه بذِكر متاعِ المطلَّقات؛ تأكيدًا للحُكم بالتكرير، وتعميمًا بعد تخصيصٍ بعض أفراده، فقال تعالى[2]:

﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (٢٤١)﴾.

أي: يجِب على الأزواج أن يُعطوا لمطلَّقاتهم ما يتمتَّعن به من كُسوة أو غيرها، بما يتعارف عليه النَّاس، من غير مخالفة لحدود الله تعالى، وهذا الأمر حقٌّ لهنَّ ثابتٌ ومؤكَّدٌ على كل مطلِّقٍ لزوجته؛ لأنَّ كلَّ أحدٍ يجبُ عليه أن يكون متَّقيًا لله تعالى بفعل ما أمر، واجتناب ما نهى[3].

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢٤٢)﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٣٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٣/ ٣٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٠٩، ٤١٢، ٤١٣)، ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (٣٢/ ٢٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ١٥١-١٥٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٨٩-١٩١).

وممَّن قال من السَّلَف: إنَّ لكلِّ مطلقةٍ متعةً: أبو العالية، وعطاء، والزُّهري. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٤٥٤).

أي: كما بيَّن الله عزَّ وجلَّ ما سبق من أحكام ووضَّحها غاية الإيضاح، يبيِّن لكم أيضًا سائر آياته وأحكامه بوضوحٍ تامٍّ حتى لا يبقى فيها خفاءٌ أو لبسٌ؛ لتفهموها وتعملوا بها[١].

الفوائد التربويَّة:

١- أنَّه يَنبغي استعطافُ المخاطَب بما يَقتضي عطفَه على الشَّيء؛ لقوله تعالى: ﴿يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ حيث أضاف الأولاد إلى المرضعاتِ[٢].

٢- أنَّ وساوس القلوب لا يُؤاخَذ بها؛ لأنَّها ليست من الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾[٣].

٣- مراعاة الأحوال في الأحكام؛ فيثبت في كل حال ما يناسبها؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ﴾[٤].

٤- أنَّ الأعمال تتفاضل؛ لقوله تعالى: ﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾[٥]، ويلزم منه أنَّ النَّاس يتفاضلون في الإيمان؛ لأنَّ تفاضل الأعمال يستلزم تفاضل العامل؛ والأعمال من الإيمان[٦].

٥- أنَّه ينبغي للإنسانِ ألَّا ينسى الفضلَ مع إخوانه في معاملته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤١٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١٥٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١٧٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١٧٦).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٦- سَعة رحمة الله عزَّ وجلَّ، وأن هذا الدين يسر؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾؛ لأنَّ هذا من التيسير على العباد[1].

٧- بيان نقْص الإنسان؛ لكون الأصل فيه الجَهل؛ حيث قال تعالى: ﴿كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾؛ فالأصل في الإنسان الجهل حتى يُعلِّمه الله عزَّ وجلَّ[2].

٨- أنَّه ينبغي تأكيدُ الحقوق التي قد يتهاون النَّاس بها؛ لقوله تعالى: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾[3].

٩- أنَّه ينبغي ذِكرُ الأوصاف التي تحمل الإنسان على الامتثال فعلًا للمأمور، وتركًا للمحظور؛ لقوله تعالى: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾؛ لأنَّ عدم القيام به مخالف للتقوى؛ والقيام به من التقوى[4].

الفوائد العِلميَّة واللَّطائف:

١- يُؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾، ومن قوله سبحانه: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥] أنَّ أقلَّ مدَّةٍ للحمل سِتَّة أشهر، وأنَّه يمكن وجود الولد بها[5].

٢- أنَّ الله عزَّ وجلَّ أرحمُ بخلقِه من الوالدة بولدها؛ لأنَّه أمرها أن ترضعَ مع أنَّ فطرتها، وما جُبِلت عليه تستلزم الإرضاعَ؛ وهذا لأنَّ رحمة الله أعظمُ من رحمة الأمِّ بولدها، ومثله قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ [النساء: ١١]؛ فلأنَّ الله أرحمُ بأولادنا منَّا، أوصانا فيهم[6].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٨٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١٨٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١٩١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٤).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٤٧).

٣- عناية الله عزَّ وجلَّ بالرُّضَّع؛ لأنَّه لم يُبِح فطامَهم قبل الحولينِ إلَّا بعد التراضي بين الوالدة، والمولود له، والتشاور؛ قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾(١).

٤- امتناع التكليف بما لا يُطاق؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ﴾؛ وهذه القاعدة دلَّ عليها القرآن في عدة مواضع؛ منها قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦](٢).

٥- في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ جاء في الأمن بـ(إذا)- التي تكون لِمَا يقَع غالبًا، وفي الخوف بـ(إنْ)- التي تكون لِمَا لا يقع غالبًا؛ بشارة للمسلمين بأنَّهم سيكون لهم النصر والأمن(٣).

٦- أنَّ المسؤولين عن النِّساء هم الرِّجال؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾(٤).

٧- الردُّ على المفوِّضة- أهل التجهيل؛ وعلى أهل التحريف- الذين يسمُّون أنفسهم بأهل التأويل؛ لقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾؛ لأنَّ أهل التفويض يقولون: إن الله لم يُبيِّن ما أراد في آيات الصفات، وأحاديثها؛ وأنها بمنزلة الحروف الهجائية التي لا يفهم معناها؛ وأهل التحريف يقولون: إنَّ الله لم يبيِّن المعنى المراد في آيات الصِّفات، وأحاديثها؛ وإنَّما وكَل ذلك إلى عقولنا؛ وإنَّما البيان بما ندركه نحن بعقولنا؛ فنقول: لو كان الأمر كما ذكرتم لكان الله سبحانه وتعالى يبيِّنه؛ فلما لم يبيِّن ما قلتم علم أنَّه ليس بمراد(٥).

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١٥١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١٧٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٧٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٨٨).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١٩٣).

٨- أنَّه لا يمكن أن يوجد في الشرع حكمٌ غير مبيَّن؛ لقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾[1].

٩- الثَّناء على العقل، حيث جعله الله غاية لأمر محمود- وهو تبيين الآيات؛ والمراد عقل الرشد السالم من الشبهات، والشهوات، أي: الإرادات السيِّئة؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[2].

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿والوالدات يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾

- خبَرَ في معنى الأمْر المؤكَّد؛ للمبالغة، و﴿كامِلَيْنِ﴾ توكيدٌ كقوله: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كامِلَةٌ﴾؛ وإنَّما ذكر الكمال؛ لرفْع التوهُّم من أنَّه على مِثل قولهم: أقام فلان بمكانِ كذا حَولَينِ، وإنَّما أقام حولًا وبعضَ الآخَر؛ وذلك لقطع التنازُعِ بين الزوجين إذا تنازعَا في مدَّة الرَّضاع[3].

- وفي قوله: ﴿أَوْلَادَهُنَّ﴾ تصريحٌ بالمفعول مع كونه معلومًا؛ إيماءً إلى أحقيَّة الوالدات بذلك، وإلى ترغيبهنَّ فيه؛ لأنَّ فيه تذكيرًا لهنَّ بداعي الحَنان والشَّفقة[4].

٢- في قوله: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ المولودُ له هو الوالد، وإنَّما عبَّر عنه بهذا ولم يعبِّر بلفظ الوالد، ولا بلفظ الأب؛ ليُعلم أنَّ الوالدات إنما وَلَدْنَ لهم؛ فالأولاد للآباء، يُنسَبون إليهم لا إلى الأُمَّهات؛ فكان عليهم أن يرزقوهنَّ ويكسوهنَّ إذا أرضعْنَ ولدهم، وللتنبيه على أنَّ الولدَ إنَّما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢٧٨)، ((تفسير الرازي)) (٦/ ٤٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٥١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٣٠).

يَلتحِقُ بالوالِدِ؛ لكونه مولودًا على فِراشه، ولِمَا في ذلك من إعلامِ الأب ما منَحَ الله له وأعطاه، إذ اللام في (له)، معناها شبه التمليك[١].

٣- في قوله: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ﴾ بناء الفِعل للمَفعولِ، وحذْف الفاعل؛ فيُفيد حذفُه عمومَ الفاعلين، كما يُفيد تنكيرُ ﴿نَفْس﴾ في سِياق النَّفْي عُمومَ المفعول الأوَّل لِفعل ﴿تُكَلَّفُ﴾: وهو الأنفس المكلَّفة[٢].

٤- قوله: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾

- في قوله: ﴿فَإِنْ أَرَادَا﴾ ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا﴾ الْتِفات؛ فإنَّه خروجٌ من ضمير الغَيبة إلى الخطاب؛ لهزِّهم إلى الامتثال بما أمروا به. وفيه تكوين في الضمائر؛ فإنَّ ﴿أَرَادَا﴾ ضميرُ تثنية، و ﴿أَرَدْتُمْ﴾ ضمير جمْع، والمرادُ بهما الآباءُ والأمهاتُ أيضًا، وكأنَّه رَجَعَ بهذا الضمير المجموع إلى الوالدات والمولودِ له، ولكنَّه غَلَّب المذكَّرَ وهو المولودُ له، وإنْ كان مفردًا لفظًا[٣].

- ﴿فِصَالًا﴾: التنكيرُ للإيذان بأنَّه فصالٌ غير معتاد[٤].

٥- وفي هذه الجُمل الماضية أنواعٌ من عِلم البيان[٥]:

- فمنه: **الفَصْل والوَصْل**[٦]: أمَّا **الفَصْل** - وهو عدَم العطف- بين قوله: ﴿لاَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢٧٩)، ((تفسير الرازي)) (٦/ ٤٦٠-٤٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٥٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٣٣-٤٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٥٠٨، ٥١٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٤٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٣١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٥٠٤-٥٠٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٤٧٠-٤٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٣٠)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ١٥٤- ١٥٥).

(٦) **الوَصْل**: من مباحث عِلم المعاني؛ ومعناه العطفُ. وهذا البحث خاصٌّ بعطف الجُمل بالواو =

تُكَلَّفُ نَفْسٌ﴾ وقولِه: ﴿لَا تُضَارَّ﴾؛ فلأن قوله: ﴿لا تضارَّ﴾ كالشَّرح للجملة قبلها؛ لأنَّه إذا لم تكلف النفس إلَّا طاقتها لم يقع ضرر، لا للوالدة ولا للمولود له. وكذلك أيضًا لم يعطف ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ﴾ على ما قبلها؛ لأنَّها مع ما بعدها تفسير لقوله ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾.

وأمَّا الوصلُ -وهو العطفُ- بين قوله: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ﴾ وقولِه: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ﴾؛ فلأنَّهما جملتان متغايرتان في كلٍّ منهما حُكمٌ ليس في الأخرى.

- والجملة الأولى ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ﴾: أبرزت في صورة المبتدأ والخبر، وجعل الخبر فعلًا؛ لأنَّ الإرضاع ممَّا يتجدَّد دائمًا.

- والجملة الثانية ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ..﴾: أبرزت أيضًا في صورة المبتدأ والخبر، وجعل الخبر جارًّا ومجرورًا بلفظ: ﴿عَلَى﴾ الدالة على الاستعلاء والوجوب، فأكَّد بذلك مضمونَ الجُملة؛ لأنَّ من عادة المرء منْعَ ما في يده من المال، وإهمالَ ما يجب عليه من الحقوق، فأكَّد ذلك.

- وقدَّم الخَبر على سبيل الاعتناء به، وجاء الرِّزق مقدَّمًا على الكُسوة؛ لأنَّه الأهمُّ في بقاء الحياة، والمتكرِّر في كلِّ يومٍ.

- والجملة الثالثة ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾: أبرزت في صُورة الفِعل ومرفوعه، وأتى بمرفوعه نكرةً؛ لأنَّه في سياق النفي، فيعم، ويتناول أولًا ما سِيق لأجله: وهو حُكم الوالدات في الإرضاع، وحكم المولود له في الرزق والكسوة اللَّذينِ للوالدات.

- والجملة الرابعة ﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا﴾: كالثالثة؛ لأنَّها في سياق النفي،

= فقط، وهو مقابل للفصل الذي هو عدم العَطْف، ولكلٍّ من الفصل والوصل مواضِعه الواجبة والجائزة. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٤٩ وما بعدها)، ((البلاغة الواضحة)) لعلي الجارم وأحمد أمين (ص: ٢٢٨). وقد سبَق تعريفُ الفصل (ص: ٧٢).

فتعمُّ أيضًا، وهي كالشرح للجملة قبلها؛ لأنَّ النَّفْس إذا لم تُكلف إلَّا طاقتها لا يقع ضررٌ لا للوالدة ولا للمولود له، ولَمَّا كان تكليف النفس فوق الطاقة، ومضارَّة أحد الزوجين الآخَر ممَّا يَتجدَّد كلَّ وقت، أتى بالجملتين فعليتين. ونبَّه على محلِّ الشفقة بقوله: ﴿بِوَلَدِهَا﴾، فأضاف الولد إليها، وبقوله: ﴿بِوَلَدِهِ﴾، فأضاف الولد إليه؛ وذلك لطلب الاستعطاف والإشفاق.

٦- قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيه إظهار في موضع الإضمار حيث كرَّر اسم اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لكونِه من جُملتين، فتكريره أفخمُ، وترديدُه في النُّفوس أعظمُ[١].

٧- قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ...﴾ جاءت الآية بصيغة الخبر الذي من شأنه أن يكون قد وُجِد وتمَّ؛ لتأكيد التربُّص؛ مُراعاةً لحقِّ الأزواج، وحِفظًا لقلوب الأقارب، واحتياطًا للنِّكاح[٢].

٨- قوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ﴾

- فائدة عطْف الإكنان على التعريض في نفْي الجناح: أنَّ المراد التنبيه على أن العزم أمرٌ لا يمكن دفعُه ولا النهيُ عنه، ولأنَّ تكلم العازم بما عزَم عليه جِبلَّةٌ في البشر، لضَّعْف الصبر على الكتمان- بيَّن الله موضعَ الرُّخصة أنَّه الرحمة بالناس، مع الإبقاء على احترام حالة العِدَّة، وبيان عِلة هذا الترخيص، وأنه يرجع إلى نفي الحرج[٣].

- وأخَّر الإكنانَ في الذِّكر؛ للتنبيه على أنَّه أفضلُ وأبقَى، على ما للعِدَّة من حُرمة،

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٤٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٣/ ٣٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٥٢-٤٥٣).

مع التنبيه على أنَّه نادرٌ وقوعه، وخُولِف مقتضى الظاهر، حيث عطَف ﴿أَكْنَنتُمْ﴾ على ﴿عَرَّضْتُمْ﴾ وليس العكس؛ ليعلم السامع أنَّ هذه المخالفةَ ترمي إلى غرَض، فحصَل بتأخير ذِكر ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ﴾ فائدةٌ أخرى، وهي التمهيدُ لقوله: ﴿عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾، وجاء النَّظمُ بَديعًا مُعجِزًا(١).

٩- قوله: ﴿وَلا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ فيه تأكيد بذِكر العزم؛ مبالغةً في النَّهي عن عُقدة النِّكاح في العِدَّة؛ لأنَّ العَزم على الفِعل يتقدَّمه، فإذا نهى عنه كان عن الفِعل أشد نهيًا(٢).

١٠- قوله: ﴿مِن قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ فيه كنايةٌ لطيفةٌ حسنة؛ حيث كنَّى تعالى بقوله: ﴿تَمَسُّوهُنَّ﴾ عن المجامعة، وفي هذا تأديبٌ للعِباد في اختيار أحسنِ الألفاظ فيما يَتخاطَبون به(٣).

١١- قوله: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوى وَلا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيه تأكيدُ النهي بالتعبير بالنِّسيان؛ إذ النِّسيان ليس في الوُسع حتى يُنهى عنه، فالمقصود منه التَّركُ(٤).

١٢- في قوله: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا للهِ قَانِتِينَ﴾

- النَّقل مِن صِيغة افعلوا (احْفَظُوا) إلى صِيغة فاعِلوا (حَافِظُوا) الدالَّة على غاية العزيمة؛ للمبالغة في رِعاية العمل علمًا وهيئةً، ووقتًا وإقامة، بجميع ما يحصُل به أصلُه، ويتمُّ به عمله(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٥٢-٤٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢٨٤)، ((تفسير الرازي)) (٦/ ٤٧٢-٤٧٣)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ١٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٥٤-٤٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٢/ ١٦١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٦٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٥٥٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٤٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٣/ ٣٥٩-٣٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٦٦).

- قوله: ﴿وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾: فيه ذِكر الخاص بعدَ العامِّ؛ للتَّنبيه على فَضْلِ الخاصِّ على غيره من أفراد العام، وللتأكيد على المحافظة عليه خصوصًا[1].

١٣- قوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾

- في الآية تفريع على قوله: ﴿وَقُومُوا للهِ قَانِتِينَ﴾؛ للتنبيه على أنَّ حالة الخوف لا تكون عذرًا في ترك المحافظة على الصلوات، ولكنَّها عذر في ترك القيام لله قانتين، فأفاد هذا التفريع غرضين: أحدهما بصريح لفظه، والآخر بلازم معناه[2].

- وفيه: إيراد الشرطيَّة الأولى بكلمة (إن) المفيدة لمشكوكية وقوع الخوف ونُدرته، وتصدير الشرطيَّة الثانية بكلمة (إذا) المنبئة عن تحقيق وقوع الأمْن وكثرته، مع الإيجاز في جواب الأُولى، والإطناب في جواب الثانية، وفيه مِن الجزالة ولُطف الاعتبار ما فيه؛ عِبرةً لأولي الأبصار[3].

١٤- قوله: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ﴾

- اللام في قوله: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ﴾ لام الاستحقاق، والتعريف في (المطلَّقات) يُفيد الاستغراق، ويجوز أن تكون اللامُ للعهد[4].

---

(١) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٤٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٣/ ٣٦٤).
فائدة في وجهُ ذِكر المحافظةِ على الصَّلاةِ فيما بين حُكْمَي الطَّلاقِ والعِدَّة: (أنَّ اللهَ تعالى لا يُخلي شيئًا يَذكرُه ممَّا تعلَّق بالأحكامِ الدُّنيويَّة إلَّا ويقرنُه بحُكمٍ أُخرويٍّ؛ لينبِّهَهم إلى مُراعاة الآخرةِ في جميعِ أحوالهم وأعمالهم، وأنَّها هي المقصودةُ بالقَصدِ الأوَّل، وسائر ما يُتحرَّى فلأجلها؛ ولأنَّه لَمَّا حثَّهم على العفوِ، ورغَّبهم في المحافظةِ على الفضلِ، عرَّفهم أنَّ السُّلوك إلى التَّخصيص بذلك هو المحافظةُ على الصَّلواتِ في كلِّ حالٍ؛ فإنَّ الصَّلاةَ هي الآمرةُ بالمعروفِ، والنَّاهيةُ عن المنكَر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾، ثمَّ صرَف الكلامَ إلى ذِكرِ ما كان بصَددِه، فتمَّمه). ((تفسير الراغب)) باختصار (١/ ٤٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٧٤). فعلى القول الأوَّل فالآية عامَّة للمُطلَّقات كلهنَّ، والمسألة فيها خلاف. ينظر ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٤١).

الآيات (٢٤٣ - ٢٥٢)

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ
ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا
يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾
مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ
وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ
إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ
إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَـٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَـٰتِلَ فِى سَبِيلِ
ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَـٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا
قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ
بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ
بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ
بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ
عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ
فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَـٰرُونَ
تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا
فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ
مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا
مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ
بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ
قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟
لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا

وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ
دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ
وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ
ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ
بِٱلْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿يَقْبِضُ﴾: يُضيِّق ويُمسِك، وقبْضُ اليَدِ على الشَّيءِ: جمعُها بعدَ تناوُله، وقَبضُها عنه: جمْعُها قبلَ تناوُله(١).

﴿الْمَلَأُ﴾: أشراف النَّاسِ ووجوههم(٢).

﴿بَسْطَةً﴾: أي: سَعَةً؛ يقال: بسطت الشيء إذا كان مجموعًا: ففتحتَه ووسعتَه، وأصل (بسط): امتداد الشَّيء وسَعَته(٣).

﴿التَّابُوتُ﴾: الصُّندوق والوِعاء، ومنه سُمِّي القَلب تابوت الحِكمة(٤).

﴿سَكِينَةٌ﴾: طُمأنينة، وزوالٌ للرُّعب، وأصْل سَكَن: خلاف الاضطِرابِ والحرَكَة(٥).

﴿فَصَلَ﴾: أي: خرَج(٦).

---

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٢).
(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤٦).
(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٣).
(٤) يُنظر: ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٣).
(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٢، ١٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٧).
(٦) يُنظر: ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦).

﴿بَرَزُوا﴾: خرَجوا إلى الفَضاء والمتَّسع من الأرض، أصله: ظهور الشيء وبُدوُّه، ومنه سُمِّي الفضاء؛ لأنَّه ظاهرٌ وبادٍ غير خفي[1].

﴿أَفْرِغْ﴾: اصْبُبْ علينا، كما يُفرَغ الدَّلوُ، أي: يُصبُّ ما فيه[2].

المعنى الإجمالي:

يُخبر تعالى عن قصَّة الذين فرُّوا مِن دِيارهم وهم جموعٌ مكوَّنةٌ من آلاف الأشخاص، وقد كان فرارُهم خوفًا من نزول الموت بهم، إما لوباءٍ حلَّ في موطنِهم، أو لعدوٍّ هاجَمَهم في أرضهم، فأَماتَهم الله عزَّ وجلَّ جميعًا؛ معاملةً لهم بنَقيض قصدِهم، ثم أحياهم بعدَ مُدَّة من الزَّمن تفضلًا منه سبحانه وتعالى عليهم؛ فالله جلَّ جلاله صاحب الإحسان والإنعام على النَّاس كافَّةً، لكنَّ أكثرهم لا يُقابِلون ذلك الفضلَ بما يستحقُّه من شُكرٍ.

ثم أمَر الله عباده المؤمنين بقتال أعداء الدِّين لإعلاء كلمته سبحانه، وأنْ يَعْلَموا أنَّ الله سميع لأقوالهم، عليم بأحوالهم، وذلك مدعاةٌ لهم لأن يحذَروا من مخالفة أمره.

ورغَّب سبحانه وتعالى بعدَها في الإنفاق من المال الحلال؛ احتسابًا للأجْر، وطلبًا لمرضاة الله تعالى في أوجه الخير كالجهاد ونحوه، فإنَّ الله يُثِيب فاعل ذلك على عمله، ويزيده مرَّةً بعد مرَّة زيادات كثيرة، وحتى لا يتوهَّم متوهِّم أنَّ الإنفاق مدعاةٌ إلى الافتقار أخبر الله سبحانه أنَّه هو مَن يُوسِّع رِزق مَن يشاء من عباده، ويقبض الرزق عمَّن يشاء، فلْيُنفِقوا ولا يتخوَّفوا؛ فإليه سبحانه الرجوع يوم القيامة فيجازيهم على أعمالهم.

ثم يُخبِر تعالى عن قصَّة مِن قَصص بني إسرائيل جرَت أحداثها من بعد وفاة

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٢).

موسى عليه السَّلام، حيث اجتمع أشرافُهم ووجهاؤهم طالبينَ من أحد أنبيائهم أن يُعيِّن لهم مَلِكًا يُوحِّد أمرهم، ويُقاتلون جميعًا تحت لوائه أعداءَ الله تعالى، فسألهم نبيُّهم عليه السلام هل يتوقَّعون إنْ فرَض اللهُ عليهم القتالَ أن يَفُوا بها وعَدوا من القيام بالجهاد. فأجابوا بأنَّه لا شيء يحولُ بينهم وبين الجهاد في سبيل الله، وخاصة بعد أنْ أُخرجوا من ديارهم، وسُبي أبناؤهم، فلمَّا فرَض الله عليهم القتالَ لمْ يفوا بالوعد! بل أدْبروا ناكلينَ عن الجهاد إلَّا عددًا قليلًا منهم، والله تعالى يعلم مَن ظلم منهم، وأخلف وعده، وسيجازيه على ظلمه.

ثمَّ أعلمهم نبيُّهم أنَّ الله قد أجابهم إلى ما طلَبوا، وعيَّن لهم طالوتَ مِلِكًا عليهم، وكان طالوت رجلًا من عامَّتهم، لا ينتمي إلى سِبط ملوكِ بني إسرائيل، فلم يُسلِّموا لما اختاره الله لهم! بل اعترضوا على ذلك فقالوا: كيف يكون ملِكًا علينا وهو دُوننا في الشَّرف، وهو مع ذلك ليس من أصحاب الأموال، كما هو حال الملوك؟! فأخبرهم نبيُّهم عليه السلام عند ذلك أنَّ الله هو الذي اختاره لهم، واختصَّه مِن بينهم، وأعطاه زيادةً في العِلم، وطولَ قامةٍ، وقوَّةً في الجسد، ثم إنَّ المُلك لله وحْده يؤتيه مَن يشاء، وهو سبحانه واسعُ الفضل والكرم، لا يخصُّ بكرمه شريفًا عن وضيع، أو غنيًّا عن فقير، عليمٌ بكلِّ شيء، ومن ذلك عِلمُه بمَن يصلُح للمُلك من غيره.

وقال لهم نبيُّهم أيضًا: إنَّ العلَامةَ الدالَّة على صحَّة تنصيبِ طالوت ملكًا عليهم هي أن يُردَّ إليهم التابوتُ الذي سُلِب منهم، فتطمئنَّ به قلوبهم، وحاويًا ما يُهدِّئ نفوسهم، وممَّا يحويه أشياء تبقَّت من تَرِكة موسى وهارون عليهما السلام، يحمل هذا التابوتَ إليهم الملائكةُ عليهم السَّلام، وإنَّ في هذا الأمر لعلامةً واضحة لكم على اختيار الله لطالوت؛ ليكونَ ملِكًا عليكم، إنْ كنتم مؤمنين بالله، ومصدِّقين لما أخبرتكم به.

فلمَّا أَذعنوا أخيرًا لِمُلْك طالوت عليهم بعد أنْ جاءهم التابوت، انضمُّوا إليه لقتال عدوِّهم، فلمَّا جاوَزوا موطنهم في طريقهم إلى ملاقاة العدوِّ، أعلمهم طالوت أنَّ الله مختبِرُهم بنَهَرٍ؛ ليُظهِر الكاذب من الصادق، ويتميَّز الصابر من الجازع، وأَعلن طالوتُ براءتَه مِن كلِّ مَن يَشربُ منه، وأنَّه لن يَصحبَه مع الجيش إلى القِتال، وأنَّ مَن لم يَطْعَمه- إلَّا أن يَغترِفَ بكفِّه غرفةً واحدة- فإنَّه منه، فشَرِب معظمُهم، ولم يُطعِ الأمر إلا قليلٌ منهم ممَّن وفقهم الله تعالى وثبَّتهم.

فلمَّا تعدَّى طالوت النهر ومَن آمن معه، ممَّن أطاعوه فلم يشربوا من النهر أو شربوا غرفة واحدة- قال بعضُهم لَمَّا رأَوا من كثرة أعدائهم مقارنة بعددهم القليل: لا قُدرةَ لنا هذا اليوم بقتال جالوت وجنودِه؛ لكثرة عددِهم وعَتادهم، فحينها قال لهم الموقِنون برُجوعهم إلى الله تعالى: ما أكثرَ ما تغلبُ الجماعةُ القليلة الجماعةَ الكثيرة! وذلك بمشيئة الله عزَّ وجلَّ؛ فلا تفيد الكثرةُ مَن خَذَله الله، ولا تضرُّ القِلَّةُ مَن وفَّقه الله، والله سبحانه مع الصَّابرين.

ولَمَّا ظهَر المؤمنون- طالوتُ وجُنوده- لجالوتَ وجُنودِه، دعا أهلُ الإيمان ربَّهم أن يُلهِمَهم الصَّبر، ويثبِّت أقدامَهم، وأنْ ينصرَهم على أهل الكفر، فاستجاب الله دُعاءَهم، وغلَب المؤمنون عدوَّهم، وسلَّط اللهُ داودَ عليه السلام على جالوت فقتله، وأعطا الله داودَ المُلكَ والنبوَّة وآتاه من العِلم ما يشاء سبحانه. ولولا أن الله يدفع بالمؤمنين المجاهدين في سبيله كيدَ الكفَّار والفجَّار لحلَّ بالأرض الفساد، ولكن الله ذو فضلٍ واسع على جميع خلقه.

تفسير الآيات:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٢٤٣)﴾.

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ ذَكَر هذه القصة؛ لأنَّها من عظيم آياته، وبدائِع قدرته، فقال جلَّ وعلا(١):

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾.

أي: ألم تعلمْ يا محمَّد، خبرَ تلك الجموع المؤلَّفة من آلاف الأشخاص، الذين فرُّوا من دُورِهم وموطنِهم ابتغاءَ السَّلامة من الموت، إما حذرًا من إصابتهم بوباءٍ وقع في بلادهم، أو خوفًا من مقاتلة عدوٍّ يدهمهم في أرضهم(٢).

﴿فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾.

أي: أمَر الله تعالى أمرًا كونيًّا بأنْ يموتوا، فماتوا، ثم أحياهم اللهُ تعالى بعدَ مُدَّة، فقاموا، فهؤلاء لَمَّا فروا- إمَّا من الوباء، أو مِن مقاتلةِ الأعداء؛ طلبًا لطولِ الحياةِ والبقاء- عُومِلوا بنقيض ما قَصدوا، وجاءهم الموت جميعًا فحُصِدوا، وفي هذا حثٌّ للمؤمنين على جِهاد الأعداء، بإعلامهم أنَّ إليه وحده الإماتةَ والإحياء، وأنَّ الفرار من القتال والبقاء في الدُّور للاختباء، ليس بمُنجٍ أحدًا من وقوع القَدَر والقضاء(٣).

﴿إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٥٥٩-٥٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٣/ ٣٨٥-٣٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤١٣، ٤٢٣، ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٩٤-١٩٥).

وممَّن قال من السَّلَف: إنَّ فرارهم كان من أجْل الطَّاعون: ابن عبَّاس -في رواية عنه. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٤٥٦).

وممَّن قال من السَّلَف: إنَّهم فرُّوا خوفًا من مقاتلة عدوٍّ: ابن عبَّاس -في رواية أخرى عنه- والضَّحَّاك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٢٤)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٤٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ١٥٢-١٥٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٩٥).

أي: إنَّ الله تعالى هو صاحبُ الإحسان والإنعام على عموم النَّاس، ومِن ذلك تفضُّلُه عليهم ببيان آياته، وطريق إحياء أرواحهم بنور الهدى، ومنها إحياء أبدانهم بإنقاذهم من الموت والهلاك، وكان الواجب على النَّاس تقديم الشكر لله تعالى في مقابل تلك النِّعم، إلَّا أنَّ الصفة السَّائدة لديهم هي القيام بجحودِها، بالكفر، أو العصيان، أو الغفلة والنِّسيان(١).

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٤٤)﴾.

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا بيَّن سبحانه وتعالى أنَّ الموت لا يصون منه فرارٌ، أمرَ بالجهاد(٢).

وأيضًا لَمَّا بيَّن تعالى بعض ما يتعلَّقُ بالنِّكاح من أحكام، ذكَر حُكم القِتال؛ لأنَّ النكاحَ تحصينٌ للدِّين، والقِتال تحصينٌ للدِّين والأرواح والأموال، فقال تعالى(٣):

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٤٤)﴾.

أي: كما أنَّ الحذر لا يُغني من القدْر، فكذلك الفرار من الجهاد وتجنُّبه لا يُقرِّب أجلًا، ولا يُباعِده، فقاتلوا- أيُّها المؤمنون- أعداءَ دِينكم؛ لإعلاء دين ربِّكم الذي هداكم له، واعلموا أنَّه لا يُفيدكم القعود عن القتال شيئًا، وإنْ ظننتم أنَّ في القعود بقاءَكم، فليس الأمر كذلك؛ فلا تجبُنوا عن لقائهم، وتقعُدوا عن حربِهم؛ فإن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٢٥-٤٢٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٩٥-١٩٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٣/ ٤٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٥٥٩-٥٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٣/ ٣٨٥-٣٨٦-٣٨٧-٣٨٨).

بيدي حياتكم وموتكم، فلا تخافوا الموت على أنفسكم، واشكروا الله تعالى بطاعة ربِّكم، واعلموا أنَّ الله عزَّ وجلَّ سميعٌ لأقوالكم؛ عليمٌ بأحوالكم؛ فاحذروا من المخالفة، وقوموا بما أوجب الله تعالى عليكم، فإنَّ الله سبحانه يُجازي كلًّا بعمله؛ إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشر(١).

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٨].

وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا * أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٧-٧٨].

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥)﴾.

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا حثَّ الله عزَّ وجلَّ على القتال، حثَّ على الإنفاق؛ فإنَّ القِتال يَستدعي أموالًا لتجهيزِ الجيش بالعددِ والعَتاد(٢)، فقال تعالى.

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/٤٢٦-٤٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/٦٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/١٩٨-١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/٤٨١).

القِراءات ذات الأثَر في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾ قراءتان:

١- ﴿فَيُضَعِّفه﴾، وتعني: المداومة وتكرير الفِعل، أي يستمر في المضاعفة مرَّةً بعد مرَّة[1].

٢- ﴿فَيُضَاعِفه﴾، وتعني: كثرة ما يُضاعف[2].

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾.

أي: هل ثمَّة أحدٌ يقتطع جزءًا من ماله الحلال، فينفقه احتسابًا للأجْر، وطلبًا لمرضاة الله تعالى، في أوجه الخيرِ كالجِهاد وغيره، طيِّبةً نفسُه بذلك، ودون أن يُتبع نفقتَه منًّا أو أذًى- فإنَّ الله تعالى لا يَقضيه مثله في الأجر وحسب؟ بل يَزيده الغنيُّ الكريم مرَّة بعد مرَّة، زياداتٍ كثيرة، قد تبلغ سبعمئة ضِعفٍ وتزيد[3].

كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦١-٢٦٢]..

وعن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، أنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((ينزلُ اللهُ في السَّماءِ الدنيا لِشطرِ الليلِ، أو لِثُلُثِ الليلِ الآخرِ، فيقولُ: مَن يدعوني فأَستجيبَ

---

(١) قرأ بها ابنُ كَثير، وابنُ عامرٍ، وأبو جعفرٍ، ويعقوبُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٥٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٩٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٣٩)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٠٠).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٥٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٩٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٣٩)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٢٨-٤٣١)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٦٢-٦٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ١٥٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٠١-٢٠٣).

له! أو يسألُني فأُعطِيَه! ثم يقولُ: مَن يُقرِضُ غيرَ عديمٍ ولا ظَلُومٍ؟))(١).

﴿وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

مناسبتها لِمَا قبلها:

لَمَّا كان الإنسانُ ربَّما يتوهَّم أنَّه إذا أنفق افتقر؛ دفَع سبحانه هذا الوهم بقوله(٢):

﴿وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

أي: يُضيِّق الله تعالى الرزق على مَن يشاء من عباده، ويُوسِّعه على مَن يشاء منهم، فالتصرُّف كلُّه بيديه، والأمور كلُّها راجعةٌ إليه؛ فالإمساكُ لا يبسط الرِّزق، والإنفاقُ لا يقبضه، فأنفِقوا- أيُّها العباد- ولا تُبالُوا؛ فالله هو الرزَّاق، وهو مع ذلك غير مضيِّع أعمالكم، بل تجدون ما قدَّمتموه مُوفَّرًا مُضاعَفًا، يوم ترجعون فيه إلى ربِّكم فيُجازيكم بأعمالِكم(٣).

كما أنَّ اللهَ تعالى هو الذي قبَض الرِّزق عمَّن حثَّ على مَعونتِه وإعطائه؛ ليبتليَه بالصبر، وهو الذي بَسط على آخَر؛ ليمتحنه بعمله فيما بسط عليه، ويجازي يوم القيامة كل واحد منهما على قدر طاعتهما له سبحانه فيما ابتلاهما به، من غنًى وفاقةٍ، وسَعَةٍ وضيقٍ(٤).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦)﴾.

---

(١) رواه مسلم (٧٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٣٢-٤٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٣٢-٤٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٠٢).

مناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا أمَرَ سبحانه المؤمنين بالقتالِ في سبيله، بعد قِصَّة الذين خرَجوا من دِيارهم وهم ألوفٌ حذرَ الموت، أردْف ذلك بأنَّ القتال كان مطلوبًا ومشروعًا في الأمم السابقة، فكانتِ النفسُ أميلَ لقَبوله من التكليف الذي يقَعُ على انفراد، وليعلمَ المؤمنون حالَ وعاقبةَ مَن الْتزمَ أمْرَ الله تعالى بالقتال في سبيله، ومَن خالفه، فقال عزَّ وجلَّ[1]:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾.

أي: ألَم تَنظُرْ يا محمَّد، إلى شأنَ أشراف بني إسرائيل ووجهائهم، من بعد وفاة موسى عليه السَّلام، حين طلبوا من أحد أنبيائهم أن يُعيِّن لهم مِلكًا يوحِّد أمْرهم على جهاد أعداء الله تعالى[2].

﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾.

أي: قال النبيُّ الذي سألوه أنْ يبعث لهم ملكًا؛ ليُجاهدوا معه في سبيل الله: لعلَّكم تَجبُنون عن القِتال إذا فُرِض عليكم[3]؟

﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾.

أي: قال الملأ من بني إسرائيل لنبيهم: وأيُّ شيء يمنعنا من الجهاد في سبيل الله

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٥٦٧-٥٦٩).
وقد اعتِيد في القرآن ذكر القصص العظام بعد بيان الأحكام؛ لتفيد الاعتبار للسَّامع، فيحمله ذلك على الخضوع والانقياد، وترك التمرُّد والعناد. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٦/ ٤٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٣٥، ٤٤٢)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٠٥-٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٤٢-٤٤٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٨٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٠٧-٢٠٨).

تعالى، وما الذي يبقى لنا إذا تركنا القتال، والحال أنَّنا مضطرُّون إليه؛ فالبلاد قد أُخذت، والأبناء قد سُبيَت، فما دام أنَّ الأمر قد بلغ هذا المبلغ فلا بدَّ حينئذٍ من إقامة الجهاد[1].

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾.

أي: لَمَّا فُرِض عليهم قتال عدوِّهم ما وَفوا بما وَعدوا، بل أَدبر أكثرُهم ناكلينَ عن القتال، وضيَّعوا فرْضَ الجهاد الذي طلبوه ابتداءً من عند أنفسِهم، فجبنوا، واستولى على أكثرهم الضَّعفُ والخور، وبقِي منهم عددٌ قليل قد عصمهم الله تعالى وثبَّتهم، فالتزموا أمر الله عزَّ وجلَّ، والله سبحانه يَعلم مَن ظَلَم نفْسه منهم ومِن غيرهم، ممَّن أخلف وعْدَه، ونكص عن أمر ربِّه، واللهُ تعالى مجازيه على ظُلمه[2].

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧)﴾.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾.

أي: أخبَرهم نبيُّهم بأنَّ الله تعالى قد أجابهم إلى ما سألوا مِن بعث الملِك لمصلحتهم، يُقاتِل ويقاتلون معه، فعيَّن لهم طالوت، وكان رجلًا من عامَّتهم، لا

---

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٨٦-٤٨٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٤٦-٤٤٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٨٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٠٨).

يَنتمي إلى السِّبط الذي فيه المُلْك، فكان الواجب عليهم قَبولَ مَن اختاره الله تعالى، والانقيادَ إليه، فأبوا إلَّا أن يعترِضوا، واستبعدوا مُلكه عليهم، فقالوا: كيف يكون ملكًا يسيطر علينا، وهو دُوننا في الشَّرف والنسب؟! فلماذا لم يأتِ الملِك منَّا، ونحن من سِبط الملوك فنحن أولى منه بذلك؟! ثمَّ هو مع هذا رجلٌ لا يمتلك الكثيرَ من الأموال كما هو شأن الملوك الآخرين(١)!

﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾.

أي: لَمَّا اعتقدوا رأيًا فاسدًا، وهو أنَّ الملْك يتطلَّب شرف النَّسَب، وكثرة المال، ولم يدركوا الصِّفات الأساسيَّة المقدَّمة على هذين، قال لهم نبيُّهم: إنَّ الله اختاره لكم، واختصَّه من بينكم، والله أعلم به منكم، ولستُ أنا مَن عيَّنه من تلقاءِ نفسي، بل الله تعالى هو الذي عيَّنه لي لَمَّا طلبتم ذلك، فلزِمكم الانقيادُ إليه، وهو مع هذا قد أعطاه الله تعالى زيادة في العلم، الذي يمنحه حنكةً وقدرةً على تدبير الأمور، وأعطاه طول القامة وقوة الجسد اللَّذيْنِ يمنحانِه هيبةً وشجاعة، فتوفَّرت لديه الأسباب الحقيقيَّة لاستحقاق الملْك دون غيره، فبهاتين القوَّتين: القوة المعنويَّة: قوة العلم والرأي، والقوة الحسيَّة: قوة الجسد، تتمُّ أمور الملك وسياسة الرعية، وتكثر أموال المملكة، ويحصُل النصر على الأعداء، بإذن الله تعالى(٢).

﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: إنَّ المُلك لله تعالى وحده، وبيده دون غيره، يُؤتيه مَن يشاءُ بحسَب ما تقتضيه حِكمتُه، فيخصه به، فلا تستنكروا يا معشرَ الملأِ من بني إسرائيل أن يبعث

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٤٧-٤٤٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٧-١٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٨٩-٤٩٢)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢١٢-٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٥٤-٤٥٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢١٣).

الله طالوت ملكًا عليكم، وإنْ لم يكُن من أهل بيت المُلْك؛ فإنَّ المُلْك ليس بميراث عن الآباء والأجداد، ولكنَّه بإيتاءِ الله وحده، فلا تتخيَّروا على الله تعالى، فهو الحاكم الذي ما شاء فعل، ولا يُسأل عمَّا يفعل وهم يُسألون.

والله تعالى ذو سَعةٍ في جميع صفاته؛ ومن ذلك أنَّه واسعٌ في عِلمه، وواسعٌ في فضله، وكرمه؛ ومِن سَعة فضله أنَّه لا يخصُّ بكرمه شريفًا عن وضيع، أو غنيًّا عن فقير، وأنَّه يُنعم بالمُلْك حتى على مَن لم يكُن من بيت مُلك، وهو سبحانه واسع العلم، عليم بكلِّ شيء؛ ومِن ذلك علمه بمن يصلح للملْك من غيره(١).

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٤٨)﴾.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾.

أي: إنَّ علامة صِحَّة تنصيبِ طالوت ملكًا عليكم، وإن كان من غير سبطِ ملوككم، هي أن يُردَّ إليكم الصُّندوق الذي سُلب منكم، فتطمئنَّ به قلوبكم ويحوي ما يُهدِّئ نفوسكم، وممَّا يحويه أشياء تبقَّت من تركةِ موسى وهارون عليهما السَّلام، قيل: منها بقيةٌ من آثار ألواح التوراة، تحوي العِلم والحِكمة، وميراث الأنبياء عليهم السلام، ويحمل هذا الصندوقَ إليهم ملائكةُ الربِّ عزَّ وجلَّ(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٥٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢١٣-٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٥٧-٤٥٩، ٤٦٦-٤٦٧، ٤٧٢-٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢١٧-٢١٨).

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

أي: إنَّ في رجوعِ التابوت إليكم كما وصفتُ لكم، علامةً على اختيار الله تعالى لطالوت ملكًا عليكم، وستؤمنون بأنَّها دلالة صحيحة لكم على هذا الأمر، إن كنتم مؤمنين بالله تعالى حقًّا، ومصدِّقيَّ فيما أخبرتكم به[1].

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩)﴾.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾.

أي: فلمَّا أتاهم التابوت كما أخبرهم نبيُّهم، فصدَّقوه وأذعَنوا لولاية طالوت، انضمُّوا إليه لقتال عدوِّهم، فلما سار طالوت بالجنود متجاوزًا موطنهم، وشاخصًا نحو موضع آخر، أخبرهم أن الله تعالى مختبرهم بماء نَهَرٍ؛ ليتميَّز منهم الكاذب من الصادق، والصابر من الجازع، ويترتَّب عليه مَن يصحب الجيش حيث وجهته، ومَن يفارقه؛ لكونه ليس أهلًا للجهاد في سبيل الله تعالى، فأخبرهم بأنَّ مَن شرب من هذا الماء فأنا منه بريء، وليس من أهل طاعتي وولايتي وهو بذلك عاصٍ، فلا يتبعنا لمعصيته وعدم ثباته، ومَن لم يذُقْ منه شيئًا سوى ما اغترفه بكفِّه مرَّةً واحدة، فليصحبنا، فإنَّه من أهل طاعتي وولايتي، فكانت نتيجة هذا الامتحان أنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٨٠-٤٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٦٧-٦٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٩٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢١٨).

شرِب منه معظمُهم، ونكصوا عن قتال عدوِّهم، ولم يبقَ مع طالوت سوى عددٍ قليل قدِ الْتَزموا ما أمَرَهم به(١)!

عن البَراء بن عازبٍ رضي الله عنه، قال: ((حدَّثني أصحابُ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ممَّن شهِد بدرًا: أنهم كانوا عِدَّةَ أصحابِ طالوتَ، الذين جازوا معه النهرَ، بضعةَ عشرَ وثلاثمئةٍ. قال البراءُ: لا واللهِ ما جاوز معه النهرَ إلَّا مؤمنٌ))(٢).

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾.

أي: فلمَّا تعدَّى طالوتُ النَّهرَ، ومَن معه مِن المؤمنين الذين أطاعوه، فلم يشرَبوا شيئًا من مائه، أو شربوا غرفةً واحدةً باليد، قال بعضهم لَمَّا شاهدوا قلَّتَهم وكثرةَ عدوِّهم: لا قدرةَ لنا في هذا اليوم بقتال جالوت وجنودِه؛ لكثرة عَددهم وعُددهم(٣).

﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

أي: قال الذين يعلمون يقينًا أنهم راجعون إلى الله تعالى وملاقوه، وهم أهل الإيمان الثابت واليقين الراسخ منهم، قالوا مُطَمْئِنِينَ مثبِّتِينَ لباقيهم الذين قالوا: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾: ما أكثرَ ما تغلبُ الجماعةُ القليلةُ الجماعةَ الكثيرة! وذلك بقدر الله تعالى وإرادته، فلا تُغنِي الكثرة مع خذلانِه، ولا تضرُّ القِلَّة مع توفيقِه، والله عزَّ وجلَّ مع الحابسين أنفسهم على رِضاه وطاعتِه، وتجنُّب

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٨١-٤٨٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٥٩-٣٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٢١).

(٢) رواه البخاري (٣٩٥٧).

(٣) نَسَب ابنُ عطية القولَ بأنَّ الذين تجاوزوا النهر مع طالوت هم مَن ذَكَرنا، إلى جمهورِ المفسِّرين. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٣٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٨).

معصيته، وتحمُّل أقداره، فيُعِينهم على الجهاد في سبيله وغير ذلك من طاعاته، ويؤيِّدهم وينصرهم، ويُظهِرهم على أعدائهم الصادِّين عن دينه(١).

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠)﴾.

لَمَّا ظهر حزبُ الإيمان- طالوتُ وجنودُه- لجالوتَ وجنودِه، قالوا: ربَّنا أنزِلْ علينا صبرًا، واملأْ به قلوبنا، وقوِّها على جهادهم؛ لتثبتَ أقدامنا فلا تتزلزل فنجبُنَ ونفرَّ، وانصرنا على هؤلاء القوم الذين كفروا بك(٢).

﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١)﴾.

﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾.

أي: فاستجاب لهم ربُّهم دعاءَهم، فغلَب طالوتُ وجنودُه عدوَّهم بقدَرِ الله تعالى وتوفيقه، وباشَر داودُ عليه السَّلام قتْلَ جالوت بنفْسه؛ لشجاعته وقوَّته وصبره، وأعطاه الله السلطان والنبوَّة، وعلَّمه ممَّا يشاؤه سبحانه، ومن ذلك تعليمه صَنعةَ الدروع، كما قال جلَّ وعلا: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾(٣) [الأنبياء: ٨٠].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٩٥-٤٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٩٧-٤٩٨، ٥١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٣٠). =

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

أي: لولا أنَّ الله تعالى يدفع بالمجاهدين في سبيله كيد الكفَّار والفجَّار، وإلا لفسَدت الأرض باستيلائهم عليها، وإقامتِهم شعائرَ الكفر ومظاهرَ الفِسق والفجور، ومنعهم من إظهار عِبادة الله تعالى وحده، فتحُلُّ بالأرض وأهلها العقوبات، ويَهلِك الحرثُ والنَّسل؛ فالله سبحانه صاحب الفضل الواسِع على جميع خلقه، ومِن ذلك أنْ شرَع لعباده الجهاد رحمةً بهم ولطفًا؛ إذ فيه سعادتهم، والمدافعة عنهم؛ لتمكينِهم من الأرض[1].

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

أي: هذه الآيات التي أنبأتُك بها يا محمَّد هي علاماتٌ على الله تعالى وتوحيده، وحُجج ودلائل على الهدى، تأتيك بالواقع الذي كان عليه الأمرُ، المطابق لِمَا بأيدي أهل الكتاب من الحقِّ الذي يعلمه علماءُ بني إسرائيل؛ فهي أخبارٌ صادقةٌ لا ريبَ فيها؛ ولذا أكَّد الله تعالى لرسوله عليه الصَّلاة والسَّلام رسالتَه، التي مِن

= وممَّن قال من السَّلَف: إنَّ معنى الحِكمة: النُّبوَّة: السُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥١٤).

(١) وهو اختيار الواحدي في ((الوجيز)) (ص: ١٨١)، وابن عطية في ((تفسيره)) (١/ ٣٣٧، ٣٣٨)، والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ١٠٩)، وابن عاشور في ((تفسيره)) (٢/ ٥٠٠-٥٠٣)، وابن عثيمين في ((تفسير الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٣٣). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٦٩).

وممَّن قال بهذا القول من السَّلف: عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٤٨١).

وقيل المراد: لولا دفعُ الله بالمؤمنين والأبرار عن الكافرين والفجار، لأُهلكوا بعقوبة منه سبحانه. وهذا اختيار ابن جرير. ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥١٤-٥١٥)، وقيل هو قول أكثر المفسرين. يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٣٣٨). ويُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ١٣٣).

وممن قال بهذا القول من السلف: ابن عباس، ومجاهد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥١٥)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٤٨٠).

جملة أدلَّتها ما قصَّه الله عليه من أخبار الأمم الماضين التي لم يَعلمْها، إلَّا بعد إخبار الله تعالى له بذلك، فدلَّ هذا على أنَّه رسول الله حقًّا، ونبيُّه صدقًا[1].

الفوائد التربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ...﴾ أنَّ الهلع لا يردُّ قضاء، وأنَّ الفزع لا يحفظ حياة، وأنَّ الحياة بيد الله هبة منه بلا جهدٍ من الأحياء. إذن فلا نامت أعين الجبناء[2]!

٢- الحثُّ على الإنفاق في سبيل الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾؛ فالاستفهام هنا للحثِّ، والتشويق[3].

٣- إذا كان الموت والحياة بيد الله، والحياة لا تذهب بالقتال إذا قَدَّر الله لها البقاءَ، فكذلك المال لا يذهب بالإنفاق، إنما هو قرضٌ حسنٌ لله، مضمونٌ عنده، يضاعفه أضعافًا كثيرة؛ يضاعفه في الدنيا مالًا وبركة وسعادة وراحة، ويضاعفه في الآخرة نعيمًا ومتاعًا، ورضى وقربى من الله تعالى، قال سبحانه: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾[4].

٤- إذا طلب الإنسان شيئًا من غيره فعليه أن يذكُرَ له ما يُشجِّعه على إجابة طلبه؛ لقولهم: ﴿نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾؛ فإن هذا يَبعثُ النبيَّ ويُشجِّعه على أن يبعث لهم الملك[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥١٨-٥١٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٠٢).

(٤) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٢٦٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٠٩).

وينبغي كذلك اختيار الألفاظ التي يكون بها إقناع المخاطَب، وتسليمه للأمر الواقع؛ لقول نبيهم: ﴿إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ﴾[1].

٥- أنَّ الإنسان قد يظنُّ أنَّه يستطيع الصبر على ترك المحظور، أو القيام بالمأمور؛ فإذا ابتلي نكص؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ مع أنهم كانوا متحمِّسين للقتال[2].

٦- أنَّ الإيمان مُوجِب للصبر، والتحمُّل؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[3].

٧- أنَّ الله عزَّ وجلَّ عند الابتلاء يرحَمُ الخلق بما يكون فيه بقاء حياتهم؛ لقوله تعالى هنا: ﴿إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾؛ لأنَّهم لا بدَّ أن يشربوا للنَّجاة من الموت[4].

٨- أنَّ مَن صدَق اللُّجوءَ إلى الله، وأحسن الظنَّ به، أجاب الله دعاءه[5] حيث قال المؤمنون: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾، فاستجاب الله تعالى دعاءهم فقال: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللهِ﴾.

٩- إسناد الفضل إلى أهله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ﴾[6].

١٠- أنَّ المجيبَ يختار ما يكون به الإقناع بادئًا بالأهمِّ فالأهم؛ لقول نبيِّهم في جوابه: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ...﴾ إلخ؛ فبدأ بذكر ما لا جدالَ فيه -وهو اصطفاء الله عليهم- ثم ذكر بقيَّة المؤهلات: وهي أنَّ الله زاده بَسطةً في العِلم، وتدبير الأمَّة، والحروب، وغير ذلك، وأنَّ الله زاده بَسطةً في الجسم: ويشمل

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢١٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢١٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٢٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٢٥).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٣١).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢١٤).

القوة، والطول... وأنَّ الله عزَّ وجلَّ هو الذي يُؤتِي مُلكَه مَن يشاء، وفعله هذا لا بدَّ وأن يكون مقرونًا بالحِكمة؛ فلولا أنَّ الحِكمةَ تَقتضي أن يكون طالوتُ هو الملِكَ ما أعطاه الله عزَّ وجلَّ المُلْك، وأنَّ الله واسعٌ عليم؛ فهو ذو الفضل الذي يَمدُّه إلى مَن يشاء من عباده؛ فله أن يتفضَّل على مَن يشاء، وأنَّ الله أعلمُ حيث يَجعل رِسالتَه، وأعلمُ أيضًا حيث يجعل ولايتَه(١).

١١- أنَّ مِن شأن الأمم الاختلافَ في اختيار الرئيس الذي يكون له المُلْك عليها، والاختلاف مدعاةٌ للتفرُّق، فيجب أن يكون هناك مرجِّح يقبله الجمهور من الأمَّة؛ لذلك لجأ الملأ من بني إسرائيل إلى نبيِّهم، وطلبوا منه أن يختار لهم رجلًا يكون ملِكًا عليهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا﴾، وقد جعل الإسلامُ المرجِّحَ لاختيار إمام المسلمين مبايعةَ أُولي الأمر لمن يختارونه من أنفسهم، وهم أهل الحَلِّ والعَقد والمكانة في الأمَّة، الذين هم عون السُّلطان، وقوَّته باحترام الأمَّة لهم، وثقتها بهم(٢).

١٢- أنَّ اجتماع أهل الكلمة والحَلِّ والعقد، وبحثهم في الطريق الذي تستقيم به أمورُهم وفَهمه، ثم العمل به، من أكبرِ الأسباب لارتقائهم وحصول مقصودهم، كما وقَع لأولئك الملأ من بني إسرائيل، حين راجعوا نبيَّهم عليه السلام في تعيين مَلِك تجتمع به كلمتهم ويلمُّ متفرِّقهم، وتحصل له الطاعة منهم(٣).

١٣- أنَّ الحقَّ كلَّما عُورِض وأُوردت عليه الشُّبه ازداد وضوحًا وتميَّز، وحصل به اليقين التامُّ كما جرى لهؤلاء؛ لَمَّا اعترضوا على استحقاق طالوت للمُلك أُجيبوا بأجوبةٍ حصَل بها الإقناع وزوال الشُّبه والريب(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢١٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٢/ ٣٩١).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

١٤- أنَّ العلم والرأي مع القوة؛ بهما كمالُ الولايات، وبفَقْدهما أو فَقْد أحدهما نُقصانُها وضررها؛ لقوله تعالى: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾[(١)].

١٥- أنَّ الاتِّكال على النفس سبب الفشل والخذلان، والاستعانة بالله والصبر والالتجاء إليه سبب النصر، فالأول كما في قولهم لنبيهم ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ فكأنَّ نتيجةَ ذلك أنَّه لَمَّا كتب عليهم القتال تولوا، والثاني في قوله: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللهِ﴾[(٢)].

١٦- أنَّ من حِكمة الله تعالى تمييزَ الخبيث من الطيِّب، والصادق من الكاذب، والصابر من السَّاخط، وأنه لم يكن ليذرَ العباد على ما هم عليه من الاختلاط وعدم التمييز[(٣)].

١٧- أنَّ الإنسان إذا ازداد إيمانًا ازداد فهمًا لكتاب الله سبحانه وتعالى، وسُنَّة رسوله صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ لأنَّ الشيء إذا عُلِّق على وصف، فإنَّه يزداد بزيادة ذلك الوصف، وينقص بنقصانه؛ فكلَّما تمَّ الإيمانُ كان انتفاعُ الإنسان بآيات الله أكثرَ، وفَهمُه لها أعظمَ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[(٤)].

١٨- أنَّ طاعة الجنود للقائد فيما يأمر به وينهَى عنه شرط في الظفر واستقامة الأمر[(٥)].

١٩- أنَّ الإيمان بالله تعالى، والتَّصديق بلقائه من أعظمِ أسباب الصَّبر والثبات

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٢٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٢/ ٣٩٣).

في مواقفِ الجِلاد؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللهِ...﴾ الآيةَ[١].

٢٠- أنَّ القليل من النَّاس هم الذين يصبرون عند البلوى؛ لقوله تعالى: ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾[٢].

٢١- القاعدة في حِسِّ الذين يُوقنون أنهم ملاقو الله: أن تكون الفئةُ المؤمنة قليلة، ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾؛ وذلك لأنَّها هي التي ترتقي الدرجَ الشاقَّ حتى تنتهي إلى مرتبة الاصطفاء والاختيار، ولكنَّها تكون الغالبة؛ لأنَّها تتَّصل بمصدرِ القُوى، ولأنَّها تمثِّل القوةَ الغالبة؛ قوَّة الله الغالِب على أمره، القاهر فوق عباده، مُحطِّم الجبَّارين، ومُخزي الظالمين، وقاهر المتكبِّرين[٣].

الفوائد العلميَّة واللَّطائف:

١- أنَّه لا فرارَ من قدَر الله؛ لقوله تعالى: ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا﴾[٤].

٢- في قوله تعالى: ﴿مُوتُوا﴾ إثبات أنَّ كلام الله سبحانه وتعالى بحروف مرتَّبة، وفيه ردٌّ على مَن قال: إنَّ كلام الله هو المعنى القائم بنفْسه[٥].

٣- أنَّه سبحانه وتعالى يَمدَح نفْسَه بما أنعم به على عباده؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾؛ فهو سبحانه وتعالى يحبُّ أن يُمدح، ويُحمَد؛ لأنَّ ذلك صِدقٌ، وحقٌّ؛ فإنَّه سبحانه وتعالى أحقُّ مَن يُثنَى عليه، وأحقُّ مَن يُحمَد؛ وهو سبحانه وتعالى يحبُّ الحقَّ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٢/ ٣٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٢٥).

(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٢٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٩٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١٩٧).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١٩٨).

٤- أنَّ الجزاء على العمل مضمونٌ كضمان القرض لمقرضه، قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾[(١)].

٥- أنَّ فضل الله وعطاءه واسع؛ وأنَّ جزاءه للمحسن جزاء فضل؛ لقوله تعالى: ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ مع أنَّ أصْلِ توفيقه للعمل الصَّالح فضلٌ منه[(٢)].

٦- في قوله تعالى: ﴿وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾ إثباتُ صِفة القَبْض والبَسْط لله عزَّ وجلَّ[(٣)].

٧- الإشارة إلى أنَّ الإنفاق ليس هو سببَ الإقتار والفقر؛ لأنَّ ذِكر هذه الجملة ﴿وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾ بعد الحثِّ على الإنفاق، يُشير إلى أنَّ الإنفاقَ لا يستلزمُ الإعدامَ، أو التضييق؛ لأنَّ الأمرَ بيد الله سبحانه وتعالى[(٤)].

٨- ترهيب المرء من المخالَفة، وترغيبه في طاعة الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؛ لأنَّ الإنسان إذا علم أنَّه راجع إلى ربه لا محالة فإنَّه لا بدَّ أن يكون فاعلًا لِمَا أُمِر به، تاركًا لما نُهي عنه؛ لأنَّه يخاف من هذا الرجوع[(٥)].

٩- من الفوائد الاجتماعيَّة: أنَّ الأُمم التي تفسد أخلاقها وتضعُف، قد تفكِّر في المدافعة عند الحاجة إليها، وتعزم على القيام بها إذا توفَّرت شرائطها، التي يتخيَّلونها، ثم إذا توفَّرت الشروط يضعُفون ويجبنون، ويزعمون أنَّها غير كافية؛ ليعذروا أنفسهم وما هم بمعذورين، والله عليم بالظالمين، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٠٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٠٣).
(٣) يُنظر: ((كتاب التوحيد)) لابن منده (٢/ ٩٣)، ((التدمرية)) لابن تيمية (ص: ٢٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٠٤).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٠٥).

سَبِيلِ اللهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾[١].

١٠- أنَّ مرتبة النبوَّة أعلى من مرتبة المُلْك؛ لقولهم: ﴿ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا﴾ يُخاطبون النبيَّ؛ فالنبيُّ له السُّلطة أن يبعث لهم ملِكًا يتولَّى أمورهم ويدبِّرهم[٢].

١١- أنَّ بعض الأسئلة تكون نَكبةً على السائل، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١][٣]، وذلك أنَّ بَني إسرائيلَ طلبوا مِن نبيِّهم أنْ يبعثَ لهم مَلِكًا يُقاتلون معه في سبيل الله تعالى، فلمَّا جاءَهم الملِكُ، وفُرِضَ عليهم القتالُ وقَعوا في الظُّلم بالنُّكوص والإعراض عنه.

١٢- أنَّ الله قد يُعطي المُلْكَ مَن لا يترقَّبه[٤]، وذلك أنَّ طالوت لم يكُن من سلالة ملوكهم، ولم يكن يتشوَّف إلى المُلك، فاختاره الله تعالى له لأهليَّته لذلك.

١٣- أنَّ تقديرَ الله عزَّ وجلَّ فوق كلِّ تصوُّر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾ مع أنَّهم قدَحوا فيه من وجهين: أنَّهم أحقُّ بالمُلك منه، وأنَّه لا يَملك أموالًا كثيرة؛ فبيَّن لهم نبيُّهم أنَّ الله اصطفاه عليهم بما تَقتضيه الحِكمة[٥].

١٤- أنَّ مُلك بني آدم ملكٌ لله؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ﴾؛ فهذا الملِك في مملكته هو في الحقيقة ما مَلَك إلَّا بإذن الله عزَّ وجلَّ؛ فالمُلْك لله

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٢/ ٣٧٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٠٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢١١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢١٤).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢١٦).

سبحانه وتعالى وحده، يُؤتيه من يشاء(١).

١٥- أنَّ مُلكنا لِمَا نملكه ليس ملكًا مطلقًا نتصرف فيه كما نشاء؛ بل هو مقيَّدٌ بما أَذِن الله به؛ ولهذا لا نتصرَّف فيما نملك إلَّا على حسَب ما شرَعه الله؛ فلو أراد الإنسان أن يتصرَّف في ملكه كما يشاء- يُتلِفه ويحرقه، ويعذِّبه إذا كان حيوانًا- فليس له ذلك؛ لأنَّ مُلْكَه تابعٌ لمُلْك الله سبحانه وتعالى، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ﴾(٢).

١٦- أنَّ من الحِكمة اختيارَ الجند؛ ليظهرَ مَن هو أهلٌ للقتال، ومَن ليس بأهلٍ له، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ﴾ [البقرة: ٢٤٩](٣).

١٧- أنَّه يجبُ على القائد أن يمنع مَن لا يصلُح للحرب، سواء كان مُخذِّلًا، أو مُرجِفًا، أو غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾(٤).

١٨- أنَّ الأنبياء عليهم الصَّلاة والسلام ليس عندهم من العلم إلَّا ما علَّمهم الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾؛ فالنبيُّ نفسه لا يعلم الغيب، ولا يعلم الشرع إلَّا ما آتاه الله سبحانه وتعالى؛ ومثل ذلك قول الله تعالى لنبيِّه محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ﴿وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣](٥).

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٢٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٢٢).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٣٢).

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى...﴾ استفهام غرضُه التقرير، والتَّعجيب من شأنهم(١).

٢- قوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ جملة استفهاميَّة متضمِّنة معنى الطَّلب، فهو استفهام مستعمَل في التحضيض والتهييج على الاتِّصاف بالخير(٢).

٣- وفي قوله: ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا﴾ جناس مغاير(٣)، وصِيغة المفاعلة في (فَيُضَاعِفَهُ)؛ للمبالغة(٤).

٤- قوله: ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾

- فيه إيجازٌ بالحذف، والتقدير: فماتوا ثم أحياهم، والعطف بـ(ثم) يدلُّ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢٩٠)، ((تفسير الرازي)) (٦/ ٤٩٦)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٥٦٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٥٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٣٧-٢٣٩)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٧٥-٤٧٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٣٦١-٣٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٥٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٨١).

(٣) الجناس (أو التجنيس): هو تشابه لفظين في النطق، واختلافهما في المعنى، وهو من المحاسن اللفظية، وفنٌّ بديعٌ في اختيار الألفاظ التي تُوهِمُ في البدْءِ التكرير، لكنَّها تُفاجِئ بالتأسيس واختلافِ المعنى. وينقسم الجناس إلى نوعين: لفظي-ومعنوي، وكل منهما يندرج تحته أنواع. ومن أنواع الجناس المعنوي: الجِناس المصحَّف، ويُسمَّى أيضًا جِناس الخط: وهو تشابُه اللفظين في الكتابة مع الاختلاف في نقط الحروف، مثل: جنة وحبة، و(يَسْقي) و(يَشفي). في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٧٩-٨٠]. كما ينقسم إلى: جناس (مماثل): وهو الجناس التامُّ، الذي يكون اللَّفظان المتشابهان فيه من نوع واحد من أنواع الكلام، كاسمين، أو فعلين. جناس مغاير «محرَّف»: وهو ما اختلف فيه اللَّفظان في هيئة الحروف، واتَّفقا في نوعها وعددها وترتيبها. وله فروعٌ أخرى. يُنظر: ((البرهان)) للزركشي (٣/ ٤٥٠-٤٥٢)، ((الإتقان)) للسيوطي (٥/ ١٧٥٧)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٨٥، ٤٨٨، ٤٩١، ٤٩٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٢٥ وما بعدها).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٥٦٧-٥٦٩).

تراخي الإحياء عن الإماتة(١).

- وفيه: طِباق بين الإماتة والإحياء(٢)، وهو يُبرز المعنى ويوضِّحه.

٥- قوله: ﴿إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فيه الإظهار ﴿أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ في موضِع الإضمار (أكثرهم)؛ ليكون أنصَّ على العموم، لئلَّا يدَّعي مدَّعٍ أنَّ المراد بالناس في الموضع الأوَّل أهلُ زمان ما، فيخصُّ الثاني أكثرهم، بل ليشملَ جميعَ النَّاس في أيِّ زمانٍ ومكانٍ كانوا(٣).

- وجملة ﴿إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ واقعة موقعَ التعليل لجملة ﴿ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾، والمقصود منها بَعْثُ خُلُقِ الاعتماد على الله في نفوس المسلمين في جميع أمورهم، وأنَّهم إنْ شَكروا اللهَ على ما آتاهم من النِّعم، زادهم من فضلِه، ويسَّر لهم ما هو صعب(٤).

٦- قوله: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ مدلول (عسى) الإنشاء؛ لأنَّها للترجِّي أو للإشفاق، ودخَلَتْ عليها (هل) التي تقتضي الاستفهامَ؛ لأنَّ الكلامَ محمولٌ على المعنى، أي: هل قارَبْتم ألَّا تقاتلوا، فأدخل (هل) مستفهِمًا عمَّا هو متوقَّعٌ عنده ومظنون(٥).

٧- قوله: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ﴾ استفهام، معناه الإنكار(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٥٦٣-٥٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٥٦٧-٥٦٩)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ١٧٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٣٦١-٣٦٢).
(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٣٦١-٣٦٢).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٣/ ٣٩٦)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ١٥٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٨٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢٩٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٥١٦)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ١٧٩-١٨٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٣٦٥).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٥٧١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٥١٧).

٨- قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ فيه بيان لِعِظَم إخلالهم بأوامِر الله تعالى، حيث عبَّر عنهم بـ(الملأ)، وهم الأشراف، والإخلالُ من الشريف أقبح، ومِن أولاد الصلحاء أشنع، فقال: ﴿مِن بَنِي إِسْرَائِيل﴾. وممَّن تقرَّر له الدِّين، واتَّضحت له المعجزات، واشتهرت عنده الأمور الإلهيات أفْحَش، فقال ﴿مِن بَعْدِ مُوسَى﴾ أي الذي جاءهم بالآيات[١].

٩- قوله: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ﴾

- فيه تفصيلٌ بعد إجمال، حيثُ شرَع في تفصيل ما جرى بينه عليه السَّلامُ وبينهم من الأقوال والأفعال بعدَ الإشارةِ الإجماليَّة إلى مصير حالِهم[٢].

- وتكرار الفعل في: ﴿وَقَال﴾؛ للدَّلالة على أنَّ كلامه هذا ليس من بقيَّة كلامه الأوَّل، بل هو حديثٌ آخَر متأخِّر عنه[٣].

١٠- قوله: ﴿إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ فيه تأكيد الخبر بـ(إنَّ)؛ للإيذان بأنَّ مِن شأنِ هذا الخبر أن يُتلقَّى بالاستغراب والشك، كما أنبأ عنه قولهم: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾[٤].

١١- قوله: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ فيه ترتيب بليغ؛ إذ سألوا أولًا إفراغ الصَّبر في قلوبهم الذي هو ملاكُ الأمر، ثم سألوا ثباتَ القلب والقدَمِ في مداحِض الحرب، ثم سألوا النصرَ على العدوِّ المترتِّب عليهما غالبًا، والتعبيرُ عن منحهم الصبر بالإفراغ؛ للكَثرة مع التَّعميم والإحاطة[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٣/ ٤٠٧-٤٠٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٤٠)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ١٧٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٨٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٩٩).

١٢- قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾

- فيه تأكيد بإنَّ واللَّام؛ للاهتمام بهذا الخبر. وعبَّر بقوله: ﴿مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ دون أن يقول: (وإنَّك لرسولُ الله)؛ للردِّ على المنكِرين بتذكيرهم أنَّه ما كان بِدعًا من الرُّسُل، وأنَّه أرسله كما أرسل مَن قَبْله[1].

(١) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

الآية (٢٥٣)

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾.

غريب الكلمات:

﴿الْبَيِّنَاتِ﴾: جَمْع بيِّنة، وهي: الدَّلالة الواضحة؛ يُقال: بانَ الشيءُ وأبان، إذا اتَّضح وانكَشَف[1].

﴿وَأَيَّدْنَاهُ﴾: قوَّيناه، والأَيْد والأَدُّ: القوَّة[2].

﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾: جِبريل، وأصْل القُدْس: الطَّهارة[3].

المعنى الإجمالي:

يُخبِر تعالى أنَّ الرُّسلَ الكِرام، ذَوي المراتب العالية، ليسوا كلُّهم على مَنزلةٍ واحدة في الفضائل؛ فقد جعَل اللهُ تعالى رُتَبَ بعضهم في الفضل مُتقدِّمةً على رُتب الآخرين؛ فمِنهم مَن اختصَّه الله عزَّ وجلَّ بكلامه، ومِنهم مَن رفَعه الله تعالى على غيرِه من الرُّسل درجاتٍ، كمحمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وهو أفضلُهم وأعلاهم درجةً، وأعطى اللهُ عيسى عليه السَّلام مِن البراهين القاطعة، والمعجزات

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٥).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٥).

الواضِحة، والإنجيلِ الذي أنزله عليه، ما يَدلُّ على صِدْق رِسالته، كما أنَّ الله تعالى قوَّاه وأعانه بجبريلَ عليه السَّلام.

ولو أراد الله تعالى لم يَتقاتَلِ الذين جاؤوا مِن بعدِ كلِّ رسول من الرُّسل عليهم السَّلام، مِن بعد أنْ أتاهم من آيات الله تعالى وبيِّناته ما يَدُلُّهم على الحقِّ، ويُبيِّن لهم طريقَه، ولكن ما أدَّى بهم إلى الاقتِتال فيما بينهم هو اختلافُهم في تلك البيِّنات التي جاءتهم؛ فمنهم مَن آمن، ومنهم مَن أعرض عنه وكَفَر، ولو أراد ربُّك أن يمنعَهم من الاقتتال بعِصمته وتوفيقه لَمَا اقتتَلوا ولا اختلَفوا، ولكنَّ إرادةَ الله هي النافذةُ، وهو يَفعل ما يشاء.

تفسير الآيات:

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

في مناسبة هذه الآية لما قَبْلها عدَّة أوجه:

- فمنها: أنَّ الله تعالى لَمَّا أنبأ باختبار الرُّسل: (إبراهيم، وموسى، وعيسى عليهم السَّلام)، وما عرَض لهم مع أقوامهم، وختَم ذلك بقوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾، جمَع ذلك كلَّه في قوله: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ﴾؛ لفتًا إلى العِبَر التي في قَصصِ هؤلاء الرُّسل عليهم السلام.

- ومنها: أنَّه لَمَّا أُفيض القولُ في القتال، وفي الحثِّ على الجهاد، والاعتبار بقتال الأُمم الماضية - عَقَّب ذلك بأنَّه لو شاء اللهُ ما اختلَف الناسُ في أمرِ الدِّين من بعد ما جاءتهم البيِّناتُ، ولكنَّهم أساؤوا الفَهْم، فجحَدوا البيِّنات،

فأفْضى بهم سوءُ فَهْمهم إلى اشتِطاط الخلاف بينهم، حتى أفضى إلى الاقتِتال[١].

- ومنها: أنَّه لَمَّا ذكَر اصطِفاءَه طالوتَ على بني إسرائيل، وتَفضيلَه لداودَ عليهم؛ بإيتائه الملك والحِكمة، وتعليمه، ثم خاطَب نبيَّه محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ بأنَّه من المرسَلين، وكان ظاهرُ اللَّفظ يَقتضي التسويةَ بين المرسَلين - بيَّن بأنَّ المرسَلين مُتفاضِلون أيضًا[٢].

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾.

أي: إنَّ عمومَ الرُّسلِ الكرام، عليهم الصَّلاةُ والسلامُ، ذَوي المراتِب العَليَّة، ليسوا على منزلةٍ واحدة في الفضائل، بل مايَزَ اللهُ تعالى بينهم؛ فهُم مراتبُ مُتفاوِتة: فمنهم مَن اختصَّه الله تعالى بتكليمه مباشرةً؛ كموسى عليه السَّلام، ومنهم مَن رفَعه الله تعالى على غيره من الرُّسل درجاتٍ؛ كمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وهو أفْضلُهم، وأعلاهم درجةً[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥].

﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾.

أي: أعْطى اللهُ تعالى عيسى عليه السَّلام- الذي هو ابنُ مريمَ عليها السَّلام- من الحُجَج القاطعة، والمعجِزات السَّاطعة، والإنجيل الذي أُنزِل إليه من ربِّه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٥٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥١٩-٥٢٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٣٦).

ما يدلُّ على صِدْق رِسالته، وصحَّةِ ما جاء به، وقد أيَّده الله تعالى بجبريلَ عليه السلام؛ يُقوِّيه ويُعينه(١).

﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾.

أي: ولو أراد اللهُ تعالى أنْ لا يَقتَتِلَ أولئك الذينَ أتَوا من بعد الرُّسل عليهم السَّلام، مِن بَعْد أنْ جاءهم مِن آيات الله تعالى ما يُوضِّح لهم الحقَّ، ويُرشِدهم إلى طريقِه- لو أراد الله تعالى أنْ لا يَقتتِلوا، ما اقتَتَلوا؛ فالأمرُ إليه وحْده جلَّ وعلا(٢).

﴿وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾.

أي: ولكن السَّببِ الذي أوجَب قتالَهم هو اختلافُهم في تلك البيِّنات الموجِبة لاجتماعهم على الإيمان بالله تعالى ورُسله عليهم السَّلام؛ فمنهم مَن أقرَّ بالحقِّ مُصدِّقًا به، ومُنقادًا إليه، ومنهم مَن جحَده، وأعرَض عنه مُتعمِّدًا ومُبتغيًا الكُفْرَ، بعدَ قيام الحُجَّة عليه(٣).

﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

أي: ولو أراد الله عزَّ وجلَّ أن يَحجُزَهم عن القِتالِ بعِصمته وتوفيقِه، لَما اقتَتَلوا ولا اختَلَفوا؛ فكلُّ ذلك صادرٌ عن قضاء الله وقَدَره؛ فإرادتُه غالبة، ومشيئته نافذة، وهو سبحانه يَفعل ما اقتضتْه حِكمتُه، فيُوفِّق مَن يشاء فضلًا، ويَخذُل مَن يشاء عدلًا(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٨-٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٢١-٥٢٢)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٣٧-٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٢٢-٥٢٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٣٧-٢٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٢٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٠٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٣٧-٢٣٨).

الفَوائِد التَّربويَّة:

١- أنَّ فضْلَ الله يُؤتيه مَن يشاء، حتى خواصَّ عباده يُفضِّل بعضَهم على بعض؛ لأنَّ الرُّسل هم أعلى أصناف بني آدَم، ومع ذلك يقَع التفاضلُ بينهم بتفضيل الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾(١).

٢- أنَّ الفضائل مَراتِبُ ودرجاتٌ؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾، وهذا يشمل الدَّرجاتِ الحسيَّة، والدَّرجاتِ المعنويَّة(٢).

٣- أنَّ البَشَر مهما بلَغوا من قوَّة، فهُم في حاجة إلى مَن يؤيِّدهم ويُقوِّيهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾(٣).

الفوائد العلمية واللَّطائف:

١- أنَّ كلام الله للإنسان يُعَدُّ رِفْعةً له؛ لأنَّ الله تعالى ساق قولَه: ﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ﴾ على سبيلِ الثَّناء والمدح(٤).

٢- الردُّ على النَّصارى في زعْمهم أنَّ عيسى إلهٌ؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾: أي: قوَّيناه، ولازِمُ ذلك أنَّه يحتاج إلى تقوية، والذي يَحتاج إلى تقوية لا يَصلُح أنْ يكون ربًّا وإلهًا(٥).

٣- قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾: إنَّما وصف عيسى بهذين- مع أنَّ سائر الرُّسل أُيِّدوا بالبيِّنات وبرُوح القُدُس-؛ للردِّ على اليهود الذين أنكَروا رسالتَه ومُعجِزاتِه، وللردِّ على النَّصارى الذين غلَوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٣٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٤١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٤٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٤٠).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٤٢).

فزَعموا أُلوهيَّتَه، ولأجْل هذا ذُكِر معه اسمُ أُمِّه- مهما ذُكِر-؛ للتَّنبيه على أنَّ ابن الإنسان لا يكون إلهًا[1].

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ﴾ الألف واللام في (الرُّسُل) للاستغراق، وجاءت الإشارة بـ(تلك) التي للبعيد؛ لبُعد ما بينهم وبيْن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ من الأزمان، أو قُرِن اسم الإشارة (تلك) بكاف البُعد؛ تنويهًا بمراتبهم، وللإيذانِ بعُلُوِّ طبقتِهم وبُعدِ منزلتهم[2].

٢- قوله: ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ فيه إبهامُ ذِكر نبيِّ الله محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، حيث عدَل عن التَّصريح بالاسم، أو بالوصف المشهور به؛ لتفخيمِ فضْله، وإعلاءِ قدْره، وللإشارة إلى أنَّه كأنَّه عَلَمٌ لا يَشتبِه، ومُتميِّز لا يَلتبِس، كما يُقال للرَّجل: مَن فعَل هذا؟ فيقول: أحدُكم أو بعضُكم، يريد به الذي تُعورِف واشتَهَر بنحوه من الأفعال، فيكون أفخمَ من التصريح به، وأنوهَ بصاحبه[3].

٣- قوله: ﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾

- فيه التفاتٌ في قوله: ﴿كَلَّمَ اللهُ﴾؛ إذ هو خروجٌ إلى ظاهرٍ غائب من ضمير مُتكلِّم؛ لِمَا في ذِكر هذا الاسم العظيم من التَّفخيم والتَّعظيم، ولزوال قَلَق تَكرار

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٢٨٢)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٤٥-٢٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٥-٦)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٣٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢٩٧-٢٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٦/ ٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٣٧٨-٣٧٩)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٣٣٦).

ضمير المتكلِّم؛ إذ كان يكون: ﴿فضَّلْنَا﴾، و(كلَّمْنا)، و(رفَعْنا)، و﴿آتَيْنا﴾[١].

- وفيه: تفصيلٌ بعدَ إجمال في قوله: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾[٢].

- وفيه: ذِكرٌ للخاصِّ بعد العامِّ، مع المناسبة الحسَنة في هذا الخاصِّ، حيث خَصَّ موسى وعيسى من بين الأنبياء بالذِّكر[٣] بعد قوله: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ﴾؛ وبَدَأ بوصف موسى؛ لأنَّ آياتِه أكثرُ، ولأنَّ أكثرَ السُّورة في بني إسرائيل، وأكثَر ذلك في أتْباعِ موسى عليه الصَّلاة والسَّلام، وثنَّى بعيسى عليه الصَّلاة والسَّلام؛ لأنَّه النَّاسخ لشريعته، وهو آخِر أنبيائهم.

- وفيه: إظهارُ الفضل لنبيِّنا صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ لأنَّه لا نِسبة لِمَا أُوْتِيَ أحدٌ من الأنبياء إلى ما أُوتِيَ، وإبهامه يَدُلُّ على ذلك، من حيث إنَّه إشارةٌ إلى أنَّ إبهامه في الظُّهور والجلاء كذِكْره؛ لأنَّ ما وُصِف به لا يَنصرِف إلَّا إليه[٤].

- وفيه: تكرار، وتفصيل لِمَا أُجمِل من التَّفضيل؛ لأنَّ المفهوم من قوله: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ هو المفهوم من قوله: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾، وفائدة هذا التَّكرير وهذا التَّفصيل: أنَّ التَّفضيل الأوَّل يدلُّ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦٠٠-٦٠١).

(٢) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٣٣٥).

(٣) وسببُ ذلك: أنَّ معجزاتِهما أظهرُ وأقوى من معجزات غيرهما، وأيضًا فأُمَّتهما موجودون حاضِرون في هذا الزمان، وأُمم سائر الأنبياء ليسوا موجودين؛ فتخصيصهما بالذِّكر تنبيهٌ على الطَّعن في أُمَّتهما، كأنه قيل: هذان الرسولان مع عُلوِّ درجتهما، وكثرة معجزاتهما، لم يحصُل الانقياد من أُمَّتهما، بل نازعوا وخالفوا، وعن الواجب عليهم في طاعتهما أَعرضوا. وخصَّ عيسى بإيتاء البيِّنات؛ للتنبيهِ على قُبح أفعال اليهود، حيث أنكروا نُبوَّةَ عيسى عليه السلام مع ما ظهَر على يديه من البينات اللَّائحة. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٦/ ٥٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢٩٨)، ((تفسير الرازي)) (٦/ ٥٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦٠٢-٦٠٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٣، ٥-٦)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ١٨٨).

إثبات مُجرَّد تفضيل البعض على البعض، وأمَّا التَّفضيل الثاني ففيه دَلالةٌ على درجات ذلك التَّفضيل؛ فحصَل بهذا التَّكرار فائدةٌ زائدة[1].

٤- قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ...﴾ ﴿وَلَوْ شاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ فيه تَكرار؛ لتأكيد الكلام، ولتكذيب مَن زعَم أنَّهم فعَلوا ذلك الاقتتالَ من عند أنفُسهم، ولم يَجرِ به قضاءٌ ولا قدَرٌ من الله تعالى. والاستدراك بـ(لَكِن)؛ للتَّنبيه على أنَّ اختلافهم ذلِك ليس مُوجِبًا لعدمِ مشيئته تعالى لعدم اقتتالِهم[2].

ووراء التأكيدِ سرٌّ أخصُّ منه، وهو: أنَّ العرب متى ثبَت أوَّلُ كلامهم على مَقصِد، ثمَّ اعترضها مَقصِد آخَر، وأرادتِ الرُّجوعَ إلى الأوَّل، قصدَتْ ذِكرَه إمَّا بتلك العبارة أو بقريب منها، وذلك عندهم طريقٌ من الفصاحة مسلوك، وفي كتاب الله تعالى مواضِعُ في هذا المعنى، وهنا لَمَّا صُدِّر الكلامُ بأنَّ اقتِتالهم كان على وَفْق المشيئة، ثم طال الكلامُ وأُريدَ بيان أنَّ مشيئة الله تعالى كما نَفَذتْ في هذا الأمر الخاصِّ- وهو اقتتال هؤلاء- فهي نافذةٌ في كلِّ فِعْل واقِع، فطَرأ ذِكْر تَعلُّق المشيئة بالاقتِتَال لإتيانِه بعدَ عُمومِ تَعلُّق المشيئة؛ لتَناسُب الكلام، وليُعرَف كلٌّ بشكله[3].

- وقد اشتملت هذه الآية الكريمة من أنواع البلاغةِ على:

التَّقسيم: في قوله: ﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ أي: منهم مَن كلَّمه بلا واسطة،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٦/ ٥٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢٩٨)، ((تفسير الرازي)) (٦/ ٥٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦٠٢-٦٠٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢٩٨) مع حاشيته ((الانتصاف)) لابن المنيِّر حيث أشار إلى هذا السِّرِّ، وأنَّه قاطعٌ لحُجج أهل الاعتزال؛ ولذلك جاوزها الزمخشريُّ. وينظر ((تفسير القاسمي)) (٢/ ١٨٨).

ومنهم مَن كلَّمه بواسطة، وهذا التقسيم اقتضاه المعنى، وفي: قوله: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾، وهذا التقسيم ملفوظٌ به.

الحذف: في قوله: ﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ﴾، أي: كفاحًا، وفي قوله: ﴿يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾؛ يعني: مِن هداية مَن شاء، وضلالة مَن شاء[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦٠٤).

الآيات (٢٥٤ - ٢٥٧)

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿خُلَّةٌ﴾: مودَّة، وصَداقة مُتناهِية في الإخلاص، وأصلُ الخَلِّ: تقارُب الفُروع، ومنه الخليلُ الذي يُخالُّك(١).

﴿الْقَيُّومُ﴾: القائمُ الحافِظ لكلِّ شيء، والمعطي له ما به قِوامُه، والذي لا يَزول، والقائم بأمْر الخَلْق، والعالِمُ بالأشياء، على وزن فَيْعُول، مِن قُمْتُ بالشَّيء: إذا وَلِيتُه(٢).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٣).

﴿سِنَةٌ﴾: النُّعاس من غير نوْم، وابتداؤه يكون في الرَّأس، والسِّنَة: الغفلة، والغفوة أيضًا[(١)].

﴿كُرْسِيُّهُ﴾: الكُرسيُّ جسمٌ عظيم، مخلوق بين يَدَي العَرْش، والعرش أعظمُ منه، والكرسيُّ موضِع القَدمينِ للباريء جلَّ وعزَّ[(٢)].

﴿يَؤُودُهُ﴾: يُثقِله، والوَأْد: الثِّقَل؛ يقال: آدَه الشيءُ يؤوده، وآدَه يَئيده، أي: أَثْقَله[(٣)].

﴿الرُّشْدُ﴾: الحقُّ، وهو خلاف الغَيِّ، يُستعمَل استعمالَ الهداية، واستقامة الطَّريق[(٤)].

﴿الْغَيِّ﴾: خِلاف الرُّشدِ، وهو الانهماكُ في الباطل، والضَّلالُ، والجهلُ بالأمر مِن اعتقادٍ فاسدٍ[(٥)].

﴿بِالطَّاغُوتِ﴾: الطاغوت: الشَّيطان، والأصنام، وكلُّ مُتعدٍّ، وكلُّ معبودٍ يُعبَد مِن دون الله ورضِي بذلك، وأصْل الطُّغيان: تَجاوُزُ الحدِّ[(٦)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٠٦)، ((العرش)) للذهبي (١/ ٣٥١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٩٨-٣٩٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٩٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٣).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٣).

﴿بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾: العُرْوة: ما يُتعلَّق به، والوُثقَى: المحكَمة[1].

﴿انْفِصَامَ﴾: انقطاع، وانكسار؛ مِن فَصمتُ القدحَ، أي: كسرتُه وقصمتُه[2].

﴿وَلِيُّ﴾: أصْل هذه المادَّة يدلُّ على القُرْب، سواء من حيثُ: المكان، أو النِّسبة، أو الدِّين، أو الصَّداقة، أو النُّصرة، أو الاعتقاد، وكلُّ مَن وَلِيَ أمْرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه[3].

المعنى الإجمالي:

يأمُر اللهُ تعالى عبادَه المؤمنين بالإنفاق ممَّا رزَقهم في وجوه الخير، قبل أنْ يأتي يوم القيامة، ذلك اليوم الذي لا تكون فيه تِجارةٌ، ولا يكون فيه صديقٌ حميم يَنصُر، وليس لهم من شافع يَشفَع لهم عند الله فتُفيدُهم شفاعتُه، إلَّا أنْ يشاء الله، وهؤلاء الكُفَّار المكذِّبون بالله تعالى وبرُسله، الجاحِدون للحقِّ هم الظالمون.

ثم يَصِف نفْسَه عزَّ وجلَّ بأنَّه الإله المعبود الذي لا معبودَ بحقٍّ غيرُه؛ فهو وحده المستحقُّ للعبادة، وله سبحانَه الحياةُ الكاملةُ التي لم يَسْبقها عَدَمٌ، ولا يَلحَقها زوالٌ، وهو القائم بنفْسه الذي لا يَحتاج لأحدٍ، والقائمُ بأمور خَلْقه من رزقٍ وغيره، فجميع الخَلْق مُفتَقِر إليه، ومِن كمال حياته وقَيوميَّته تعالى: أنَّه لا يَعتريه نُعاسٌ، ولا يَغلِبه نومٌ، يَملِك سبحانه جميعَ ما في الكون وحده، لا أحدَ يَشفَع عنده إلَّا بعد أن يأذَن سبحانه له، يعلم سبحانه جميعَ أمور العباد؛ ما مضَى منها وما سيأتي، وجميعُ من هم دونه عزَّ وجلَّ لا يَعلمون شيئًا إلَّا ما علَّمهم بمشيئته، ولِعَظمتِه جلَّ وعلا واتِّساع سُلطانه، أحاط وشَمِل كُرسيُّه- الذي هو

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٩٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٤).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩).

موضِع قدميه سبحانه- السَّمواتِ والأرضَ، على الرغم من اتِّساع السَّموات والأرض وعظمتهما، ولا يُثقِله ولا يَشقُّ عليه حِفْظ السَّموات والأرض، بل هو أمرٌ سَهْل ويسيرٌ عليه سبحانه، وهو ذو العُلوِّ المطلَق على جميع مخلوقاته، فهو عليٌّ بذاته، وبقهرِه وكمال صِفاتِه، كما أنَّه ذو العظمة المطلَقة في ذاته وصفاته وسُلطانه.

ثم يُخبِر تعالى أنْ لا إكراهَ في الدِّين، فلا ينبغي أن يُرْغَم أحدٌ على اعتِناق الدِّين الإسلامي؛ فإنَّ الدِّين واضح جَلِيٌّ قد تَميَّز من الضَّلال، وتبيَّنت أدلَّتُه، وظهرتْ حقائقُه. ويُخبِر بعدها تعالى أنَّ مَن يَكفُر بالطاغوت- وهو كلُّ ما تَجاوَز به العبدُ حدَّه من معبود، أو متبوع، أو مُطاع- ويُؤمِن بالله تعالى وحْدَه، فقد تمسَّك بالدِّين القويم، والله يَسمَع مَن يُعلِن كُفْرَه بالطاغوت وإيمانَه بالله، ومَن كان حالُه على عكس ذلك، ويَعلم ما يُخفيه صدْرُ كلٍّ منهما، وسيُجازي كلًّا بحسَبه.

ثم يُخبِر تعالى أنَّ مَن كان مؤمنًا به حقًّا، فإنَّه يتولَّاه على الدَّوام، فيكون عونًا له ونصيرًا، ومؤيِّدًا ومُوفِّقًا، ويَنتشِله من ظُلمات الضَّلال إلى نور الإيمان، وأمَّا الكُفَّار، فإنَّ مَن يتولَّاهم هو الطاغوت؛ فهو حليفُهم الذي يؤيِّدهم ويُعينهم، ويُغْويهم، ومن أعظم الطَّواغيت الشيطانُ الرَّجيم؛ فإنَّه يُسَلَّط عليهم عقوبةً لهم، فيُخرِجهم من النور إلى الظُّلمات، هؤلاء هم أهلُ النَّار الملازِمون لها بلا نهاية، وبئس المصيرُ النارُ.

تفسير الآيات:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٥٤)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا قدَّم الأمرَ بالقتال، وهو بذْلُ النَّفْس في سبيل الله، أَعقَبه بالأمر بالإنفاق، وهو بَذْل المال، وأيضًا فيه وجه آخَر، وهو أنَّه تعالى أمرَ بالقتال فيما سبَق بقوله:

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾، ثم أَعقَبه بقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، والمقصود منه: إنفاقُ المال في الجهاد، ثم إنَّه مرَّةً ثانية أكَّد الأمرَ بالقتال، وذكَر فيه قصَّة طالوتَ، ثمَّ أَعقَبه بالأمْر بالإنفاق في الجِهاد(١)، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾.

أي: يُنادي اللهُ تعالى عبادَه المؤمنين مُنبِّهًا، وحاثًّا لهم على أمرٍ مهمٍّ من مقتضيات إيمانهم، وهو الإنفاقُ في سبيله سبحانه، فأمَرهم الله تعالى أن يُخرِجوا ممَّا أعطاهم من الخير صدقةً؛ واجبة كانت أو مُستحبَّة، ويَشترَوا بها ما عند الله تعالى من نعيم الآخِرة، قبل مجيء اليوم الآخِر الذي يَنقطِع فيه العمل، ولا يَملِك الكُفَّارُ فيه شيئًا يُنفِقونه لله تعالى، ولا مالَ لديهم يَفتدون به من عذابه عزَّ وجلَّ، ليس هذا فحسبُ، بل لا صديقَ حميم يَنصرُهم في ذلك اليوم، ولا ثمَّ شافعٌ يَشْفع لهم عند الله تعالى، فيدفع عنهم ضرًّا، أو يَجلِب لهم خيرًا، فنَفَى الله سبحانه بذلك كلَّ الوسائل التي يُمكِن أن يَنتفِعوا بها في ذلك اليومِ العظيم(٢).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٩١].

وقال سبحانه: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

وقال عزَّ وجلَّ حكايةً عن أهل النَّار أنهم يقولون: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلَا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٦/ ٥٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٢٣-٥٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٤٧-٢٤٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٤٤-٢٤٦).

صَدِيقٍ حَمِيمٍ * فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٠ - ١٠٢].

﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

أي: إنَّ هؤلاء الكفَّار الذين كذَّبوا بالله تعالى ورُسله عليهم السَّلام، غيرَ مُقرِّين بهم ولا مُنقادِين إليهم، قدْ فعلوا بذلك ما ليس لهم فِعْلُه، ووضَعوا أنفسَهم في غير ما ينبغي أن يكونوا عليه، واختاروا لأنفسهم الكُفْرَ فخسِروها(١).

﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥)﴾.

فضْل آية الكُرْسي:

وردت عدَّة أحاديث في فضل آية الكرسي(٢) منها:

- عن أُبَيِّ بن كَعْب رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال له: ((يا أبا المنذِر، أتدري أيُّ آيةٍ من كتاب اللهِ معك أَعْظمُ؟. قال: قلتُ: اللهُ ورسولُه أعلمُ، قال: يا أبا المنذِرُ، أتدري أيُّ آيةٍ من كتاب الله معك أَعْظمُ؟. قال: قلتُ: ﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾. قال: فضرب في صدري، وقال: واللهِ، لِيَهْنِك العِلمُ(٣) أبا المنذِر))(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٢٥-٥٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٤٦-٢٤٧).

(٢) فُضِّلت آيةُ الكرسيِّ على غيرها، حتى ورد في فضلها ما ورد؛ لاشتمالها على توحيد الله، وتعظيمه وتمجيده، وصفاته العظمى، ولا مذكور أعظم من ربِّ العزة، فما كان ذكرًا له كان أفضل من سائر الأذكار. يُنظر: ((جامع مسائل ابن تيمية)) (٣/ ٢٨٨)، ((تفسير القاسمي)) (٣/ ٦٦٢).

(٣) ليهنك العلم: أي ليكن العلم هنيئًا لك. ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٧/ ١٩١).

(٤) رواه مسلم (٨١٠).

- وعن أبي هُرَيرَة رضِي الله عنه، قال: ((وكَّلَني رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ بحفظِ زكاةِ رمضانَ، فأتاني آتٍ، فجعَل يَحْثو من الطَّعامِ، فأخذْتُه وقلتُ: واللهِ لأرفعنَّكَ إلى رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، قال: إني مُحتاجٌ، وعليَّ عِيالٌ، ولي حاجةٌ شديدةٌ، قال: فخلَّيتُ عنه، فأصبَحْتُ، فقال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: يا أبا هُرَيرَةَ، ما فعَل أسيرُك البارِحَةَ؟، قال: قلتُ: يا رسولَ اللهِ، شَكَا حاجةً شديدةً وعِيالًا، فرحِمْتُه فخلَّيْتُ سبيلَه، قال: أَمَا إنَّه قد كذَبَك، وسيعودُ، فعرَفْتُ أنَّه سيعودُ؛ لقَولِ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: إنَّه سيعودُ، فرصَدْتُه، فجاء يحثو من الطَّعامِ فأخَذْتُه، فقلتُ: لأرفعَنَّك إلى رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، قال: دَعْني؛ فإنِّي مُحتاجٌ، وعليَّ عِيالٌ، لا أعودُ، فرحِمْتُه فخلَّيْتُ سبيلَه، فأصبَحْتُ، فقال لي رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: يا أبا هُرَيرَةَ، ما فعَل أسيرُك، قلتُ: يا رسولَ اللهِ، شَكا حاجةً شديدةً وعِيالًا، فرحِمْتُه فخلَّيْتُ سبيلَه، قال: أَمَا إنَّه كذَبَك، وسيعودُ، فرصَدْتُه الثالثةَ، فجاء يَحْثو من الطعامِ، فأخَذْتُه فقلتُ: لأرفعَنَّك إلى رسولِ اللهِ، وهذا آخِرُ ثلاثِ مراتٍ تزعُمُ لا تعودُ، ثم تعودُ، قال: دَعْني، أُعلِّمْك كلماتٍ ينفَعُك اللهُ بها، قلتُ: ما هو؟ قال: إذا أوَيْتَ إلى فِراشِك، فاقرأ آيةَ الكرسِيِّ: ﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، حتى تَختِمَ الآيَةَ؛ فإنَّك لن يزالَ عليك من اللهَ حافِظٌ، ولا يَقربَنَّك شيطانٌ حتى تُصبِحَ، فخلَّيْتُ سبيلَه فأصبَحْتُ، فقال لي رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ما فعَل أسيرُك البارِحَةَ؟، قلتُ: يا رسولَ اللهِ، زعَم أنه يُعَلِّمُني كلماتٍ، ينفَعُني اللهُ بها فخلَّيْتُ سبيلَه، قال: ما هي؟ قلتُ: قال لي: إذا أوَيْتَ إلى فِراشِكَ، فاقرَأْ آيةَ الكرسِيِّ من أوَّلِها حتى تَختِمَ: ﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، وقال لي: لن يَزالَ عليك من اللهِ حافِظٌ، ولا يقرَبُك شيطانٌ حتى تُصبِحَ- وكانوا أحرصَ شيءٍ على الخيرِ، فقال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: أمَا إنَّه

قد صدَقَك وهو كَذوبٌ، تعلَمُ من تُخاطِبُ منذُ ثلاثِ ليالٍ يا أبا هُرَيرَةَ؟ قال: لا، قال: ذاكَ شيطانٌ))[١].

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا ذكر اللهُ تعالى أنَّ الكافرين هم الظَّالمون، وكان رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ بُعِث إلى النَّاس كافَّةً، وكانوا على غير استقامة في شرائعهم وعقائدهم، سواء اليهود والنَّصارى الذين أحْدثوا بِدْعًا في أديانهم وعقائدهم، ونَسبوا اللهَ تعالى إلى ما لا يجوز عليه، أو العرب الذين كانوا قد اتَّخذوا من دون الله أصنامًا آلهةً، وأشركوا بالله، أتى بهذه الآية العظيمة الدَّالة على إفراد الله بالوحدانيَّة، المتضمِّنة صفاتِه العُلا، من: الحياة، وقَيوميَّته، ومُلْكه لما في السَّموات والأرض، وامتناع الشَّفاعة عنده إلَّا بإذنه، وسَعَة عِلْمه، وعدم إحاطة أحدٍ بشيء مِن عِلْمه إلَّا بإرادته، إلى غير ذلك ممَّا تضمَّنته الآية، نبَّههم بها على العقيدةِ الصَّحيحةِ التي هي مَحْض التَّوحيد، وعلى طَرْح ما سواها[٢].

﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: لا أحدَ معبودٌ بحقٍّ سوى الله تعالى؛ فهو وحده المستحِقُّ للعبادة حبًّا وتعظيمًا له تعالى؛ لكمال صفاته[٣].

كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٢٣١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٥٠-٢٥١).

أي: إنَّ الله تبارك وتعالى هو الذي له الحياة الكاملة، التي لم يَسبِقها عَدَمٌ، ولا يَلحَقها زَوال، المُستلزِمة لجميع صِفاتِ الكمال، وهو أيضًا القائم بنفسه؛ فلا يحتاج لأحد، القائمُ بأمور غيره من خَلْقه من الرِّزق وغيره؛ فكلُّ الموجودات إليه مُفتَقِرة، ولا قِوام لها بدونه، وهذه القَيُّوميَّة مُستلزِمةٌ لجميع أفعال الكمال[1].

كما قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ [الفرقان: ٥٨].

وقال سبحانه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم: ٢٥].

﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾.

أي: ومِن كمال حياته وقيُّوميَّته أنَّه لا يَعتريه سبحانه نُعاسٌ، ولا يَغلِبه نومٌ[2].

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

أي: إنَّه يَملِك وحده جميعَ ما في الكون بغير نِدٍّ ولا شريك، والجميعُ عبيده ومملوكون له؛ فلا تنبغي العبادةُ لغيره سبحانه[3].

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٢٧-٥٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٥١).

وممَّن قال مِن السَّلف في معنى ﴿القيوم﴾: إنَّه القائم بأمور غيره من خلقه، من الرزق وغيره: الربيع بن أنس، ومجاهد، وقتادة. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٤٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٣٠-٥٣٣)، ((الصفدية)) لابن تيمية (٢/ ٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٥٢).

وممَّن قال مِن السَّلف: إنَّ السِّنة تعني النُّعاس: ابن عبَّاس، وقتادة، والحسن، والضحَّاك، والسُّدِّي، والربيع، ويحيى بن رافع. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٣٤-٥٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٥٢).

أي: لا أحدَ يتجاسَر على القيام بالشَّفاعة عند الله تعالى إلَّا بعد إذنه جلَّ وعلا[1].

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى يعلم ما بين أيدي خلقه من الأمور الماضية، ويعلم أيضًا ما خلفهم من الأمور المستقبلة[2].

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾.

أي: إنَّ سائر من دونه سبحانه لا يعلمون من علم الله تعالى شيئًا البتَّةَ، فلا يعلمون ما بين أيديهم ولا ما خلفهم ولا غير ذلك، إلَّا ما علَّمهم الله تعالى بمشيئته[3].

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾.

أي: أحاطَ كرسيُّ المَلِك- تعالى وتقدَّس- بالسَّموات والأرض- على اتِّساعهما وعظمتهما- وشَمِلهما.

والكُرسيُّ: هو موضِع قَدَمَي الربِّ عزَّ وجلَّ[4].

فعن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما، قال: (الكرسيُّ موضعُ القدميْنِ، والعرشُ لا يَقْدِرُ أحدٌ قدْرَه)[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٥٢-٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٣٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٣٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٣٦)، ((الصفدية)) لابن تيمية (٢/ ٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٧٩- ٦٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٠).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٦/ ٥٨٤-٥٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٥٤-٢٥٥).
وممَّن قال مِن السَّلف: إنَّ الكرسيَّ هو موضع القدمين: أبو موسى، والسُّدِّي، ومسلم البطين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٣٨).

(٥) أخرجه عبد الرزَّاق في ((تفسيره)) (٣٠٣٠)، وابن خزيمة في ((التوحيد)) (١/ ٢٤٩)، وابن =

﴿وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾.

أي: لا يُثقِله ولا يَشقُّ عليه حِفْظ السَّموات والأرض، بل ذلك سَهْلٌ عليه ويسير[1].

﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾.

أي: إنَّه تَبارك وتقدَّس ذو العُلُوِّ المطلَق على كلِّ مخلوقاته، فهو عليٌّ بذاته فوق عرشه، عليٌّ على خَلْقه بقهره، وكمال صفاته، وهو ذو العَظمة المطلَقة في ذاته وصفاته وسُلطانه، وكلُّ ما سواه حقيرٌ بين يديه، صغيرٌ بالنِّسبة إليه، فلا شيءَ أعظم منه سبحانه وتعالى[2].

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦)﴾.

سبب النزول:

عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، قال: (كانت المرأةُ من نِساء الأنصار تكون مِقلاةً[3]، فتَجعَل على نَفْسها إنْ عاش لها ولدٌ أن تُهوِّدَه، فلمَّا أُجليتِ النَّضيرُ كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا نَدَع أبناءَنا؛ فأنزل الله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ........﴾ الآية)[4].

= أبي حاتم في ((تفسيره)) (٢٦٠١)، وأبو الشيخ في ((العظمة)) (٢/ ٥٨٢)، والحاكم (٣١١٦). وثَّق رواته الذهبي في ((العلو)) (٧٦)، وصحَّحه موقوفًا ابن كثير في ((تفسير القرآن)) (١/ ٤٥٧)، والألباني في ((شرح الطحاوية)) (٢٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٤٢، ٥٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٥٦).

(٣) مِقلاة: أي: قليلة الوَلَد. ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٤٠).

(٤) أخرجه الواحديُّ في ((أسباب النزول)) (ص: ٥٢). =

مُناسبة الآيةِ لِمَا قبلها:

لَمَّا اشتملتْ آيةُ الكُرسيِّ السَّابقة على دلائل الوَحدانيَّة، وعظمة الخالق، وتنزيهه عن شوائبِ ما كَفرتْ به الأمم، كان ذلك من شأنه أنْ يسوق ذوي العقول إلى قَبُول هذا الدِّين الواضِح العقيدة، المستقيم الشَّريعة، باختيارهم دون جَبْرٍ ولا إكراه، ومِن شأنه أن يَجعلَ دوامَهم على الشِّرك بمَحَلِّ السُّؤال: أيُترَكون عليه، أم يُكرَهون على الإسلام؟ فكانت الجملة استئنافًا بيانيًّا[1]، فقال تعالى:

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾.

أي: لا ينبغي أن تُرغِموا أحدًا على اعتناق الدِّين الإسلامي؛ إذ لا حاجةَ لذلك؛ فهو أمرٌ واضحٌ وجَلِيٌّ، قدْ تَميَّز من الضَّلال، وتبيَّنت أدلَّته، وظهرتْ حقائقه، فلا خفاءَ فيه ولا غموض، فمَن هداه الله تعالى له، وشرَح صدرَه، دخَل فيه على بيِّنة، ومَن أعمى الله قلبَه، فإنَّه لا يُفيده الدخولُ فيه مُكرَهًا عليه.

والمقصودُ: أنَّ دِين الإسلام من حيث هو، واضحةٌ فيه معالمُ الحقِّ، ويتمايَز بجلاء عمَّا سواه من الباطل، ممَّا يُوجِب اعتناقَه مِن قِبَل كلِّ مُنصِفٍ مُرادُه اقتفاءُ الحقِّ[2].

﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾.

أي: إنَّ مَن جحَد ربوبيَّة الطَّاغوت وأُلوهيَّته المزعومتين، فتبرَّأ منه ومن عبادته وطاعته- والطَّاغوت: هو كلُّ ما تَجاوَز به العبدُ حدَّه، من معبود، أو متبوع، أو

= صحَّحه ابن دقيق العيد في ((الاقتراح)) (٩٣)، وصحَّح إسنادَه ابن كثير في ((إرشاد الفقيه)) (٢/ ١٦٩) وقال: لكن رُوي عن سعيد بن جُبَير مرسلًا. وذكَر الشوكاني في ((نيل الأوطار)) (٨/ ٢١٧): أنه رُوي من طرق جميع رِجاله لا مطعنَ فيهم.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٥٣-٥٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٨٢-٦٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٦٤-٢٦٦).

مُطاع- وآمَن بالله تعالى وحده وجودًا ورُبوبيَّةً وأُلوهيَّةً، وبما له من أسماء حسنى، وصفات عُلا، فعبَده وقَبِل خبرَه، وأذْعن لطلبه واتَّقاه، ممتثِلًا أمره ومجتنبًا نهيه، فإنَّه قد تَمسَّك تمسُّكًا شديدًا بأقوى رِباط، وأَحْكمِ أمر، وهو دِينُ الله تعالى الحقُّ المبرَم، وهو أَوثَق ما يُتمسَّك به لطلب العِصمة والنَّجاة، فيبقى ثابتًا على الحقِّ، مستقيمًا عليه، دون أن يَخشى انقطاعًا وانفكاكًا بخِذلان الله تعالى له وإسلامه إلى التَّهلُكة(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ [الزمر: ١٧].

وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠].

وعن قَيس بن عبَّاد قال: ((كنتُ بالمدينةِ في ناسٍ فيهم بعضُ أصحابِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ فجاء رجلٌ في وجهِه أثرٌ من خشوعٍ، فقال بعضُ القومِ: هذا رجلٌ من أهلِ الجنةِ، هذا رجلٌ من أهلِ الجنةِ، فصلَّى ركعتينِ يتجوَّزُ فيهما، ثم خرَج فاتَّبَعْتُه، فدخل منزلَه، ودخلتُ، فتحدَّثنا، فلمَّا استأنس، قلتُ له: إنَّك لَمَّا دخلتَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٥٨-٥٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٨٣-٦٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٦٦-٢٦٧).

وممَّن قال في معنى العروة الوثقى بنحو ما ذُكر: مجاهد، والسُّدِّي، وسعيد بن جُبَير، والضحَّاك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٦٠).

قبلُ، قال رجلٌ: كذا وكذا، قال: سبحان اللهِ ما ينبغي لأحدٍ أن يقول ما لا يعلمُ، وسأُحدِّثك لِمَ ذاك، رأيتُ رؤيا على عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فقصصتُها عليه، رأيتُني في روضةٍ- ذكَر سَعَتَها وعُشْبَها وخُضرتَها- ووسَطِ الرَّوضةِ عمودٌ من حديدٍ، أسفلُه في الأرضِ، وأعلاهُ في السَّماءِ، في أعلاهُ عروةٌ، فقيل لي: ارْقَه، فقلتُ له: لا أستطيعُ، فجاءني مِنْصَفٌ- قال ابنُ عونٍ: والمِنْصَفُ: الخادمُ- فقَال بثيابي مِن خَلْفي- وصَفَ أنَّهُ رفعَه من خلفِه بيدِه- فرقِيتُ حتى كنتُ في أعلى العمودِ، فأخذتُ بالعروةِ، فقيل لي: استَمسِك، فلقد استيقظتُ وإنَّها لفي يدي، فقصصتُها على النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فقال: تلك الرَّوضةُ: الإسلامُ، وذلك العمودُ عمودُ الإسلامِ، وتلك العُروةُ عُروةُ الوُثقى، وأنتَ على الإسلامِ حتى تموتَ، قال: والرجلُ عبدُ اللهِ بنُ سلَام))(١).

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

مناسبتها لِمَا قبلها:

لَمَّا كان الكُفْر بالطَّاغوت، والإيمانُ بالله تعالى مُتعلِّقًا بالنُّطق باللِّسان، واعتقاد القلب، قال تعالى(٢):

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى يسمعُ كلَّ شيء، ومنه سَماعُه إعلان من أعلن الكفرَ بالطاغوتِ، والإيمانَ باللهِ، وإعلان من أعلن خلافَ ذلك، ويعلمُ أيضًا كلَّ شيء سبحانه، ومن ذلك علمه بما في صدور خلقه مِن الإيمانِ والكفرِ؛ فيُجازي كلَّ واحدٍ منهم بحسب ما يَنطِق به لسانه، وما تُضمِره نَفْسه؛ إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشر(٣).

---

(١) رواه البخاري (٣٨١٣)، ومسلم (٢٤٨٤) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٣٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٦٢)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١١).

﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥٧)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

أنَّ قوله تعالى: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا......﴾ الآية وقع موقِعَ التعليلِ لقوله: ﴿لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾؛ لأنَّ الذين كفروا بالطَّاغوت وآمَنوا بالله، قد تَولَّوُا اللهَ فصار وَلِيَّهم؛ فبذلك يَستمرُّ تَمسُّكهم بالعُروة الوُثقى، ويأمَنون انفصامَها، وبعكسهم الذين اختاروا الكُفْرَ على الإسلام، فإنَّ اختيارهم ذلك دلَّ على خَتْمٍ ضُرِبَ على قلوبهم، فلم يهتدوا، فهم يَزدادون في الضَّلال يومًا فيومًا[1]؛ لذا قال:

﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾.

أي: مَن آمَن بالله حقًّا، فإنَّه جلَّ وعلا يتولَّاه على الدوام، فيكون عونًا له ونصيرًا، ويؤيِّده ويوفِّقه، ويمكِّنه من التوغُّل شيئًا فشيئًا في طريق اليقين الأوحد، فيَخرُج من ظلمات الضَّلال، ويَخترِق حُجُبَ الشُّبهات والشَّهوات المظلِمة، فيَنكشِف له نورُ الإيمان واليقين، ويُؤتَى نَفاذَ البصيرةِ، ويتجدَّد له السموُّ في مقامات الإيمان، والصُّعود في درجات اليقين، فيُبصِر قلبُه حقائقَ الأمور أكثرَ فأكثر[2].

كما قال جلَّ وعلا: ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ * إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٥-١٩٦].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٣٠) وقال: (ولأجْل هذا الازدياد المتجدِّد في الأمرين وقع التعبير بالمضارع في: يُخرجهم، ويخرجونهم).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٣٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٥٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٧١).

وقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحديد: ٩].

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

أي: إنَّ الكفار يتولَّاهم الطاغوتُ؛ فهو حليفهم الذي يؤيِّدهم ويُعينهم، ويُغويهم بدعوى نَصْرهم، وطَلَب فلاحِهم، ومن أعظم الطَّواغيت الشَّيطان؛ فإنَّه يُسلَّط عليهم؛ عقوبةً لهم، فيُزعِجهم إلى الضَّلال إزعاجًا، فيُخرِجهم من الإيمان- إنْ كانوا مؤمنين من قبل- أو يُخرجهم من نور الفِطرة السَّليمة، أو يُزيِّن لهم مرَّة بعد مرَّة ما هم عليه من الكُفْر والشِّرك، فيَظلُّون باقين في تلك الحُجُبِ المظلِمة التي تزداد كثافةً، وتَحجُب عن أبصارِ قلوبهم رؤيةَ حقائقِ الإيمان وأدلَّته وطريقه، إلى أنْ يَحِينَ انتقالُهم إلى مُستقرِّهم الأخير، فيُلازِمون النَّارَ بلا نهاية، وبئس المصير[1].

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ * أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١-١٢٢].

وقال جل وعلا: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا * إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا * لَعَنَهُ اللهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا * وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٦٣، ٥٦٦، ٥٦٧)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيِّم (٢/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٣٠-٣١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٧٢-٢٧٤).

اللهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا * يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا * أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ [النساء: ١١٦-١٢١].

وقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ * أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٣٩-٤٠].

الفوائد التربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ دلالةٌ على أنَّ الإنفاق من مقتضى الإيمان، وأنَّ البُخْل نقْصٌ في الإيمان؛ ولهذا لا يكون المؤمن بخيلًا؛ المؤمن جَوَادٌ بعِلمه، جَوَاد بجاهه، جواد بماله، جواد ببَدَنه[1].

٢- في قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه لا مِنَّةَ للعبد على الله ممَّا أنفقه في سبيله؛ لأنَّ ما أنفقه من رِزْق الله له[2].

٣- التَّنبيه على أنَّ الإنسان لا يُحصِّل الرِّزقَ بمجرَّد كسْبه؛ الكسبُ سببٌ، لكنَّ المسبِّب هو الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾؛ فلا ينبغي أن يُعجَب الإنسانُ بنفسه حتى يجعل ما اكتسبه من رِزقٍ مِن كسْبه وعمَله، كما في قول القائل: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨][3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٤٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٤- تسلية الإنسان على المصائِب، ورِضاه بقضاء الله عزَّ وجلَّ وقَدَرِه؛ لأنَّه متى عَلِم أنَّ المُلْك لله وحده، رضِي بقضائه؛ كما في قوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[١].

٥- التَّحذير من الطُّغيان على الآخَرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾؛ ولهذا قال الله في سورة النِّساء: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤]؛ فإذا كنتَ مُتعاليًا في نفْسك فاذكُر عُلُوَّ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ وإذا كنتَ عظيمًا في نفْسك فاذكُر عظمةَ الله، وإذا كنتَ كبيرًا في نفْسك فاذكُر كبرياءَ الله[٢].

٦- أنَّه لا يَتِمُّ الإخلاص لله إلَّا بنفي جميع الشِّرك؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ﴾، فمَن آمَن بالله، ولم يَكفُرْ بالطاغوت، فليس بمؤمن[٣].

الفوائد العلمية واللَّطائف:

١- أنَّ الكافرين لا تَنفَعهم الشفاعةُ؛ لأنَّه تعالى أعقَب قولَه: ﴿وَلَا شَفَاعَةٌ﴾ بقوله تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، ويؤيِّد ذلك قولُه تعالى: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨][٤].

٢- قوله: ﴿لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾: انتفاءُ البيع والخُلَّة والشَّفاعة فيه كِنايةٌ عن تَعذُّر التَّدارك للفائت؛ لأنَّ المرء يُحصِّل ما يَعوزه بطُرُق، هي المعاوضَة المعبَّر عنها بالبيع، والارتفاق من الغير، وذلك بسببِ الخُلَّة، أو بسبب توسُّط الواسطة إلى مَن ليس بخليل، وهي الشَّفاعة[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٥٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٦٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٦٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٤٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٤).

٣- أنَّ الكُفْرَ أعظمُ الظُّلم؛ ووجه الدَّلالة منه: حَصْر الظُّلم في الكافرين؛ وطريق الحَصْر هنا ضمير الفصل: ﴿هُمْ﴾[١]، ودخول (أل) على الخبر ﴿الظالمون﴾، مما يشعر أنَّهم حصَّلوا الوصف الكامل من الظلم.

٤- قوله سبحانه: ﴿الحَيُّ القَيُّومُ﴾: اسمان كريمان يَدُلَّانِ على سائر الأسماء الحسنى دَلالةَ مطابقةٍ وتضمُّنٍ ولُزومٍ؛ فالحيُّ: مَن له الحياة الكاملة المُستلزمة لجميع صِفات الذَّات، كالسَّمع والبَصر والعِلم والقُدرة، ونحو ذلك، والقيُّوم: هو الذي قام بنَفْسِه وقام به غيرُه، وذلك مستلزمٌ لجميع الأفعال التي اتَّصف بها ربُّ العالَمين مِن فِعله ما يشاء، من الاستواءِ والنُّزول والكلام والقَول والخَلْق والرَّزْق والإماتة والإحياء، وسائرِ أنواع التَّدبير، كلُّ ذلك داخلٌ في قيوميَّة الباري عزَّ وجلَّ[٢].

٥- في قوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ لم ينفِ الله سبحانه ذكر النوم وحده؛ لئلَّا يُتوهَّم أنَّ السِّنَةَ يجوزُ أن تَطْرُقَه، فيُزيل تمكُّنها بنحو ما يَفعَلُ البَشرُ، من نحو مشيٍ، وضربٍ للوجه بماءٍ وغير ذلك، ولم يَذْكُر السِّنة وحدها؛ لأنَّ النوم ربما يهجم بقوة، دفعة واحدة، من غير تدرُّجِ فتورٍ[٣].

٦- قُدِّمَت السِّنة على النوم، قيل: مراعاةً للترتيب الوجودي، فلتقدُّمها على النوم في الخارج؛ قُدِّمَت عليه في اللفظ[٤]، وقيل: لأجل التعبير بالأخذ الذي معناه القهر والغلبة قُدِّمت السِّنة، كما لو قيل: فلانٌ لا يغلبه أميرٌ ولا سلطان[٥].

٧- احتجَّ بعضُ أهل العلم بقوله تعالى: ﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٦)، ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٠).

(٣) يُنظر: ((الفتح القدسي)) للبقاعي (ص: ٧٢).

(٤) يُنظر: ((روح المعاني)) للألوسي (٢/ ٩)

(٥) يُنظر: ((الفتح القدسي)) للبقاعي (ص: ٧٣).

على أنَّ أفعال العباد مخلوقةٌ لله تعالى؛ لأنَّ قوله سبحانه: ﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ يتناول كلَّ ما في السموات والأرض، وأفعالُ العِباد من جُملة ما في السَّموات والأرض، فوجب أن تكون مُنتسبةً إلى الله تعالى(١).

٨- أنَّ الحُكْم الشَّرعي بين النَّاس، والفصل بينهم، يجب أنْ يكون مُستنِدًا على حُكْم الله تعالى، وأنَّ اعتماد الإنسان على حُكْم المخلوقين، والقوانين الوضعيَّة نوعٌ من الإشراك بالله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ المُلْك لله عزَّ وجلَّ؛ كما في قوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾(٢).

٩- إثبات الإذن -وهو الأمْر-؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾، وذلك الإذن يتعلَّق بالشَّافع والمشفوع فيه، وبوقت الشَّفاعة؛ فليس يَشفعُ إلَّا مَن أذِن الله له في الشَّفاعة، وليس له أن يَشفَعَ إلَّا بعد أنْ يأذنَ الله له، وليس له أنْ يَشفعَ إلَّا فيمَن أذِن الله تعالى له أن يَشفعَ فيه؛ قال تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦]، وقال أيضًا: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقال: ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إلا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾(٣) [يونس: ٣].

١٠- في قوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ إثباتُ الشفاعة، والردُّ على الخوارج والمعتزلة؛ فهم ينكرون الشفاعة في أهل الكبائر؛ لأنَّ مذهبَهما أنَّ فاعل الكبيرة مُخلَّدٌ في النار لا تَنفع فيه شفاعةٌ(٤).

١١- في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: ردٌّ على القدرية

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٤/ ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((معارج القبول)) للحكمي (٢/ ٨٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٦٠).

الغلاة؛ فإثبات عموم العِلم يردُّ عليهم؛ لأنَّهم أنكروا عِلمَ الله تعالى بأفعال خَلْقه قَبلَ وقوعِها[1].

١٢- أنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يُحاط به عِلْمًا، كما لا يُحاط به سمعًا ولا بصرًا؛ قال تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾[2] [طه: ١١٠].

١٣- عظمة خالِق الكُرْسيِّ؛ لأنَّ عِظَم المخلوق يَدُلُّ على عظمة الخالق[3].

١٤- إثبات ما تتضمَّنه هذه الجُملة: ﴿وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾، وهي العِلْم، والقدرة، والحياة، والرحمة، والحِكمة، والقوَّة[4].

١٥- أنَّ السَّموات والأرضَ تحتاج إلى حِفْظ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾، ولولا حِفْظ الله لفَسَدتا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[5] [فاطر: ٤١].

١٦- في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ أي: السَّموات والأرض، لم يتعرَّض لذِكر ما فيهما؛ لأنَّ حفظهما مستتبعٌ لحفظه، وخصَّهما بالذِّكر دون الكرسيِّ؛ قيل: لأنَّ حِفظهما أمرٌ مشاهدٌ محسوس[6].

١٧- في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾ ردٌّ على الحُلوليَّة، وعلى المعطِّلة النُّفاة؛ فالحُلوليَّة قالوا: إنَّه ليس بعالٍ؛ بل هو في كلِّ مكان، والمعطِّلة النُّفاة قالوا: لا

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٦١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٦٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((روح المعاني)) للألوسي (٢ / ١٢)

يُوصَف بعُلوٍّ ولا سُفْل، ولا يمين ولا شِمال، ولا اتِّصال ولا انفِصال[١].

١٨- أفاد قوله تعالى: ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ﴾ أنَّه ليس هناك إلَّا رُشْدٌ أو غيٌّ؛ لأنَّه لو كان هناك ثالث لذُكِر؛ لأنَّ المقام مقام حَصْر، ويَدُلُّ على هذا قولُه تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤][٢].

١٩- أنَّ كلَّ ما عُبِد من دون الله فهو طاغوت؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ﴾، ووَجْه هذا: أنَّه سبحانه وتعالى جعل الكُفْر بالطَّاغوت قسيمًا للإيمان بالله، وقسيم الشَّيء غيرُ الشيء، بل هو مُنفصِل عنه[٣].

٢٠- أنَّه لا نَجاةَ إلَّا بالكُفْرِ بالطَّاغوت والإيمانِ بالله؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾[٤].

٢١- أنَّ الأعمالَ تتفاضَل؛ يؤخَذ ذلك مِن اسم التَّفضيل: ﴿الْوُثْقَى﴾[٥]؛ لأنَّ التَّفضيل يقتضي مُفضَّلًا، ومُفضَّلًا عليه؛ ولا شكَّ أنَّ الأعمال تتفاضل بنصِّ القرآن والسُّنة[٦].

٢٢- أنَّ الإيمان نُورٌ، نور واحد في طبيعته وحقيقته، وأنَّ الكُفْر ظُلُمات، ظلمات متعدِّدة مُتنوِّعة، ولكنَّها كلَّها ظُلُمات، وما مِن حقيقةٍ أصدقُ ولا أدقُّ من التَّعبير

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٦٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٦٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٦٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) الوُثْقى: فُعْلى للتفضيل؛ تأنيث (الأوثق)، كفُضْلى تأنيث (أفْضل). يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٥٩).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٦٨).

عن الإيمان بالنُّور، والتَّعبير عن الكُفْر بالظُّلمة، كما قال تعالى: ﴿يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾[١].

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿وَلَا شَفَاعَةٌ﴾ فيه إطلاقُ العامِّ وإرادة الخصوص به؛ إذ المعنى: ولا شفاعة للكُفَّار، أو: ولا شفاعة إلَّا بإذن الله، فعلى الخصوص بالكفَّار: لا شفاعةَ لهم ولا منهم، وعلى تأويلِ الإذن: لا شَفاعة للمؤمنين إلَّا بإذنه[٢].

٢- قوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥)﴾ فيه من أنواع الفصاحة وعِلْم البيان:

- حُسن الافتتاح؛ لأنَّها افتُتِحت بأجلِّ أسماء الله تعالى[٣]؛ فهذا الاسم الكريم إذا ورد على القلب أولًا استبشر به؛ كذلك للتبرك بتقديم ذكر اسم الله عز وجل، ولإظهار المنَّة على هؤلاء بأنَّ الله هو الذي امتنَّ عليهم أولًا، فأخرجهم من الظُّلمات إلى النُّور[٤].

- تأكيدُ الخبر باسميَّة الجُملة، ونَفْي الأُلوهيَّة عمَّن سوى الله تعالى بـ(لا، وإلَّا)[٥].

- ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾: فيه تَكرار حرْف النَّفي (لا)، وفائدته: بيان

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٢٩٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦٠٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٦٢٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٧٢).
(٥) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٣٣٨).

انتفائهما على كلِّ حال؛ إذ لو أُسقِطتْ (لا) وقيل: (لا تأخذه سِنَةٌ ونومٌ)، لاحتَمَل انتفاؤهما بقَيدِ الاجتماع(١).

- قوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: (ما): للعموم تَشمَل كلَّ موجود، واللام للمِلْك؛ أخبر تعالى أنَّ مظروفَ السَّموات والأرض مِلكٌ له تعالى، وكرَّر (ما)، للتَّوكيد(٢). وفيه توكيد الخبر باسميَّة الجملة، والصِّلة، وتقديم ما حقُّه التأخير (له)(٣). ويُفيد اختصاص الله تعالى بهذا المُلْك؛ لأنَّ الخبَر حقُّه التَّأخير؛ فإذا قُدِّم أفاد الحصرَ(٤).

- وقوله: ﴿يَعْلَمُ...﴾: تقرير وتكميل لِمَا تضمَّنه مجموع جُمْلتَي ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾، ولما تضمَّنته جملةُ ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾؛ فإنَّ جُمْلتَي ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ دلَّتا على عموم عِلْمه بما حدَث، ووُجِد من الأكوان، ولم تَدلَّا على عِلْمه بما سيكون، فأكَّد وكمَّل بقوله ﴿يَعْلَمُ...﴾ الآية، وهي أيضًا تعليلٌ لجُملة ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾، ولأجْل هذين المعنيين فُصِلتْ الجملةُ عمَّا قبلها، أي: لم تُعطَف عليها بالواو(٥).

- وفي هذه الآية العظيمة ترتَّبتِ الجُملُ من غير حرف عطفٍ؛ ففيها ما يُسمَّى بالفَصْل في عِلْم المعاني؛ وذلك لأنَّه ما منها جُملةٌ إلَّا وهي واردةٌ على سبيل البيان لِمَا ترتَّبت عليه، والبيان مُتَّحِد بالمُبين، فلو توسَّط بينهما عاطفٌ لكان كما تقول

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦١٠)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦١٠).

(٣) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٣٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٥٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢١).

العرب: بين العصا ولِحائها، فاتَّحد البيانُ بالمُبين في تصوير المُلْك الحقيقيِّ الذي لا يُنازَع فيه، بأرشقِ عبارةٍ، وأدقِّ وصْف[١].

- وقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ قيل: عُطِفت هذه الجملةُ على ما قبلها، وهو قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾؛ لمغايرتها لها؛ لأنَّ هذه تُشعر بأنَّه سبحانه يَعلمُ كلَّ شيءٍ، وتلك تُفيد أنه لا يَعلمُه غَيرُه، ومجموعهما دالٌّ على تفرُّده تعالى بكمال العِلم[٢].

- وتضمَّنت الآيةُ كذلك مِن الإيجاز ما لا مَطمحَ فيه لتقليد أو مُحاكاة؛ فقد اشتَملت آيةُ الكُرْسيِّ على ما لم تَشتمِل عليه آيةٌ مِن آياتِ الله سبحانه، وذلك أنَّها مُشْتَمِلة على سَبعة عشرَ موضِعًا فيها اسمُ الله تعالى ظاهرًا في بعضها، ومُستكِنًّا في بعضها الآخر، وقد أوصلها البعضُ إلى واحد وعشرين، وهذا مِن أدقِّ مباحث عِلم المعاني[٣].

٣- قوله: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ فيه مَعدولُ الخِطاب[٤]، أي: جاء الخطابُ بصِيغة الخبرِ، لكنَّ معناه الأمْر - إذا كان المعنى لا تُكرِهوا على الدِّين أحدًا[٥].

٤- قوله: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ قدَّم ذِكْرَ الكُفْر بالطاغوت

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٠١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٣٨٣).

(٢) يُنظر: ((روح المعاني)) للألوسي (٢ / ١٠)

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦٢٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٣٨٣).

(٤) **معدول الخطاب (أو تلوين الخطاب):** هو تغييرُ الأسلوب، وذلك قد يكون بالعدول عن صِيغة إلى صِيغةٍ أخرى، أو بالعدول عن خِطاب إلى خِطاب آخَر، كالخطاب بصيغة الخبر الذي معناه الأمْر، وكالخِطاب العامِّ المراد به المعنى الخاص، وعكسه، أو خِطاب الغَيبة إلى خِطاب المواجهة، والالتفاتُ مِن شُعَبِه. يُنظر: رسالة مستقلَّة بعنوان ((تلوين الخطاب)) لابن كمال باشا.

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦٢٠).

على الإيمان بالله؛ لإظهار الاهتمامِ بوجوب الكُفْر بالطاغوت[١]، ولأنَّه من باب التخلية قبلَ التحلية.

٥- ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فيه التصريحُ بلفظِ الجلالة (الله)؛ لإدْخال الرَّوعةِ وتربية المهابة، وفيه توكيدُ الخبرِ باسميَّة الجُمْلة، والتعبير بصيغة فعيل (سميع- عليم) للمُبالغةِ في الوَصْف[٢].

٦- في قوله: ﴿يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

جَمَع الظُّلماتِ وأفْرَد النورَ؛ لسرٍّ بلاغيٍّ عجيب، وهو الإشارة إلى وَحْدة الحقِّ، وتعدُّد أنواعِ الظُّلمات التي هي الضَّلالات، وما أكثرَها! ولأنَّ طريق الحقِّ واضِحةُ المعالم، لا لَبْس فيها، ولا تَشعُّب في مسالكها، أمَّا طريق الضلال؛ فهي مُلتَبِسةٌ على مَن يَسلُكها[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٣٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦١٧).

(٢) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٣٤١-٣٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٥٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٣٨٩).

الآيات (٢٥٨-٢٦٠)

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ
إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ
يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى
ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ
يُحْىِۦ هَـٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ
يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ
لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى
ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ
ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ
قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ
إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ
عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿فَبُهِتَ﴾: انقَطع، وذهبتْ حُجَّتُه، ودَهِش وتحيَّر(١).

﴿خَاوِيَةٌ﴾: خالية، وخراب؛ فأصْلُ الخَوَاء: الخلوُّ، والسُّقوط، والخلاء(٢).

﴿عُرُوشِهَا﴾: سُقُوفها، وأصْل العَرْش: الارتفاعُ في شيء مبني(٣).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٦٥)، ((المفردات)) للراغب (١ / ٣٠٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٦٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٤).

﴿أَنَّى﴾: حرْف للبحث عن الحال والمكان، بمعنى (كيف) و(أين)؛ لتضمُّنه معناهما[١].

﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾: لم يتغيَّر بمرِّ السِّنينَ عليه، مأخوذ من السَّنَةْ، وأصْله يتسنَّن، أُبدِلت النُّونُ هاءً[٢].

﴿نُنْشِزُهَا﴾: نُحْيِيها، ونرفعها إلى مواضِعها، ونُحرِّك بعضَها إلى بعض؛ فأصْل النَّشْزِ: الارتفاع والعُلُوُّ[٣].

﴿فَصُرْهُنَّ﴾: أمِلْهُنَّ إليك، واجْمَعهن، وضُمَّهنَ إليكَ، أو صِحْ بِهِنَّ، وصِرهنَّ- بكسر الصَّاد -: قطِّعهنَّ[٤].

﴿سَعْيًا﴾: السَّعي: المشي السَّريع دون العَدْو، وقيل: المعنى هنا: عَدوًا، ويُقال: مشيًا على أرجُلهنَّ؛ لأنَّه لا يُقال للطَّائر إذا طار: سعَى[٥].

مُشكل الإعراب:

قوله: ﴿يَأْتِينَك سعيًا﴾: سعيًا: مصدرٌ واقِع موقعَ الحال من ضَمير الطَّير، أي:

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٤١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٥).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١١).

يأتينك ساعيات، أو ذواتِ سعيٍ، وقيل: هو حالٌ من المخاطَب (إبراهيم عليه السلام) أي: يأتينك وأنتَ تَسعى سعيًا. وقيل غير ذلك[1].

المعنى الإجمالي:

يُخبِر الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ عن قصَّة الرَّجل الذي وهَبه اللهُ المُلكَ حين خاصَمَ نبيَّ الله إبراهيمَ عليه السَّلام، وناظَرَه في وجود الله ورُبوبيَّته وأُلوهيَّته، وما حمَله على ذلك وجرَّأه عليه إلَّا المُلْكُ الذي أعطاه اللهُ له، فاستَكبَرَ وطغى، وأَنكَر وجودَ الله جلَّ وعلا، فأخبره إبراهيمُ عليه السَّلامُ أنَّ الله يُحيي ويُميت، مُستدِلًّا بذلك عليه السَّلامُ على وجود الربِّ تعالى وربوبيَّته وأحقِّيَّته وحده بالعبادة، فردَّ عليه المَلِك- عنادًا- أنَّه أيضًا يَملِك أن يَفعَل هذا الفِعلَ؛ فالإحياء باستبقاء مَن أراد قتْله، أو الإماتة بقتْل مَن أراد إماتته فردَّ إبراهيم عليه السَّلام عليه أنَّ اللهَ يأتي بالشَّمس كلَّ يوم من جِهة المشرِق، فإنْ كان إلهًا حقًّا، يُحيي ويُميت، فليَجْعلها تَطلُع من جِهة المغرِب، فحينها عَلِمَ ذلك المُحاجِجُ أنه عجَز وانقَطَع عن الإدلاء بحُجَّة، فتحيَّر واندهَش، والله تعالى لا يُوفِّق مَن ظلَم نفسَه بإيثاره الكُفْرَ على الإيمان.

ثم ذكَر الله لنبيِّه محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قصَّة الرَّجلِ الذي مرَّ على قرية فارغة، قد مات أهلها جميعًا، وقد خَرِبتْ أَبنيتُها، فتساءل مُستَبعِدًا: كيف يُمكِن أنْ يُعيدَ اللهُ الحياةَ إلى ما كانت عليه سابقًا؟ فقبَض اللهُ رُوحَه مئةَ عام، ثم أحياه بَعدَها، وسألَه عن المدَّة التي لَبِثها في هذا المكان، فكان جوابه: أنَّه لَبِث إمَّا يومًا أو بعضَ يوم، وظنَّ أنَّه كان نائمًا فاستيقظ، فقال له جلَّ وعلا: بل مَكثتَ مئةَ عامٍ، فشَاهِدْ ما معك من طعامٍ وشراب لم يُغيِّره مرورُ كلِّ هذا الوقتِ، مع كَونهما

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٣٩)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٢١٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٥٧٨).

من أسرع الأشياء تغيُّرًا، وشَاهِدْ حمارَكَ وقد مات وبَلِيتْ عِظامُه، وليجعلك الله للناس حُجَّةً على قدْرته سبحانه، وشاهِدِ العِظامَ الباليةَ لحمارك؛ كيف يُحْييها الله، ويُغطِّيها باللحم، فلمَّا اتَّضَح له، أَمَره اللهُ أنْ يَتيقَّن أنَّ الله قادرٌ على كلِّ شيء، فأقرَّ حينها بيقينِه بذلك.

ثم ذكَر اللهُ لنبيِّه قصَّةَ إبراهيم عليه السَّلام، حين طلَب من ربِّه أن يجعلَه يُشاهِد بعينَيه كيفيَّةَ إحياءِ اللهِ للموتى، فقال له الله تعالى: أَوَلستَ مؤمنًا؟ فأجاب نبيُّ الله إبراهيم عليه السلام: بأنَّه مؤمن، ولا يَعْتريه أيُّ شكٍّ، ولكنْ أراد أنْ يَزداد طُمأنينةً، فأَمَره تعالى أنْ يأخذ أربعةً من الطُّيور، ويَذبحهنَّ ويُقطِّعهنَّ، ثم يُفرِّقهنَّ على رؤوس عِدَّة جبال، ثم يَدْعوهنَّ فيَجئنَ إليه مُسرِعات، ففعل ذلك فأقْبَلْنَ إليه طائرات، فأَمَره اللهُ تعالى أنْ يتيقَّن أنَّه تعالى عليمٌ حكيم.

تفسير الآيات:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨)﴾.

مناسبة الآية لِما قبلها:

لَمَّا ذكَر الله تعالى أنه يُخرِج الذين آمَنوا من الظُّلماتِ إلى النُّور، وأنَّ الطَّاغوت يُخرِجون الذين كفروا من النُّور إلى الظُّلمات، ساق ثلاثةَ شواهدَ على ذلك، هذا أوَّلُها وأجمعها؛ لأنه اشتَمَل على ضَلالِ الكافر، وهُدى المؤمن؛ فكان هذا في قوَّة المِثال[1]، فقال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٣١).

أي: ألم تَنظُر يا محمَّد، بقلبك مُتعجِّبًا من هذا المَلِك الذي خاصَم إبراهيمَ عليه الصَّلاة والسَّلام، وناظَرَه في وجود ربِّه ورُبوبيَّته وأُلوهيَّته؟ هل رأيتَ أحدًا مِثْله يُنكِر أن يكون ثَمَّ إلهٌ غيره؟ وما حمَله على هذا التجرُّؤ والتجاهل والمحاجَّة فيما لا يَقبَل الشكَّ، إلَّا طغيانُه وتجبُّره؛ بسبب تملُّكه على رعيَّته مُلْكًا لا يُنازِعه أحدٌ فيه لمدَّةٍ طويلة، فاستكبَر وبغى، فأنكَر وجودَ العليِّ الأعلى(١).

﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾.

أي: ألم ترَ- يا محمَّد- إلى ذلك المُحاجِج في أمرِ الربِّ عزَّ وجلَّ، حين أخبَره إبراهيمُ عليه الصَّلاة والسَّلام بدليلٍ يُثبِت وجودَ الربِّ ورُبوبيَّته وأحقِّيَّته وحده بالعبادة؛ فهو الخالق المالك المدبِّر، المُنفرِد بأنواع التصرُّف، وقد ذكَر إبراهيمُ منها على سبيل الخصوص: الإحياءَ والإماتةَ، وهي مِن أعظم أنواع التَّدابير التي لا يَقدِر عليها أحدٌ سوى الله تعالى، فيُحْيِي ما كان ميتًا ممَّا يَشاء مِن خَلْقه، ويُميتُ مَن أراد إماتتَه من الأحياء، فحدوثُ هذه الأشياء المشاهَدة بعد عَدَمِها، وعدمها بعد وجودها- دليلٌ قاطِع وواضحٌ على وجود الفاعل المختار؛ لأنَّها لم تَحدُث بنفسها، فلا بدَّ لها من مُوجِدٍ أَوجَدَها، وهو الربُّ الذي دعا إبراهيمُ إلى عبادته وحده لا شريكَ له، فحينها ردَّ عليه المَلِك مُستكبِرًا ومُوهِمًا بأنَّه يَملِك فِعْلَ ذلك أيضًا، غير مُنكِرٍ أنَّ الله تعالى يفعله؛ إذ لم يَقصُر الأمرَ على نفسه، التي ادَّعى لها هذا المقامَ عنادًا ولَجَاجًا بالباطل، مُدَّعيًا أنَّ استبقاءه مَن أراد قتْله، إحياءٌ منه له، وقتْلَه لآخَر إماتةٌ له(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٦٧-٥٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٧٧-٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٧٠)، ((مختصر الصواعق المرسلة)) لابن القيِّم (ص: ٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٧٩-٢٨٠). =

﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾.

أي: لَمَّا أصرَّ هذا الكافرُ على المُغالطةِ والمُكابَرة، ردَّ عليه إبراهيم عليه الصَّلاة والسَّلام من خلال ما زعَمه، بأنَّه إنْ كان حقًّا صادقًا في دعواه بأنَّه يَملِك القُدرةَ على الإحياء والإماتة؛ فإنَّه ينبغي أن يكون قادرًا كذلك على التصرُّف في الوجودِ كتسخير كواكبه، قائلًا: هذه الشَّمس الظَّاهرة للعِيان يُحرِّكها اللهُ الذي أَعبُده، فيأتي بها كلَّ يوم لتَطلُع من جِهة المَشرِق، فإن كنتَ إلهًا تُحيي وتُميت كما تَزعُم، فاجعلْها تَطلُع من جِهة المغرب[1].

﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾.

أي: لَمَّا عَلِم هذا المُحاجِجُ عجزَه وانقطاعَه عن الإدلاء بحُجَّة- إذ لا قِبَل له بإيراد شُبْهة تُشوِّش دليلَ إبراهيم عليه السَّلام، ولا عَرْضٍ قادحٍ يَقْدَح فيه- تَحيَّر واندهش، فأُخرِس مغلوبًا، وبَطَلت حُجَّته، وقامت عليه حُجَّة الحقِّ[2].

﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى لا يُوفِّق أهلَ الباطلِ الذين ظلموا أنفسَهم بإيثارهم الكُفْرَ على الإيمان، بل يُبقِيهم على كُفْرهم وضَلالهم، ولو كان قَصْدهم الهدايةَ إلى الحقِّ،

= وممَّن رُوي عنه من السَّلف في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ بمثل ما ذُكر: قتادة، ومجاهد، وعبد الرحمن بن زيد بن أَسلمَ، والربيع، والسُّدِّي، وابن جريج. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٧١) وعليه أكثر المفسِّرين. يُنظر: ((تفسير العثيمين-الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٨٦)، ((مختصر الصواعق المرسلة)) لابن القيِّم (ص: ٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١١).
ويُنظر أيضا: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٨٠، ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٧٠، ٥٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٨٦)، ((مختصر الصواعق المرسلة)) لابن القيِّم (ص: ٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٨٠).

لوفَّقهم ويسَّر لهم الوصولَ إليه، فحُجَجهم باطِلة، لا يُمكِن أنْ يُبطِلوا بها حُجَجَ أهلِ الحقِّ عند المحاجَّة والمُناظَرة(١).

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا قرَّر بالآية السابقة ثبوتَ انفرادِ الله بالإلهيَّة، وذلك أصل الإسلام، أَعْقَب بإثبات البعثِ، الذي إنكاره أصْلُ أهلِ الإشراك(٢) فقال تعالى:

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾.

أي: أَلَمْ تَنظُر أيضًا يا محمَّد، مُتعجِّبًا من هذا الرجل الذي مرَّ على قرية فارِغةٍ، قد فَنِي أهلُها فماتوا جميعًا، وقد سقطت سُقُوفُها، وخرَّت الجِدران عليها، فخَرِبتْ أبنيتُها، فأصبحت مُوحِشةً بلا أنيس، مُقْفِرةً بلا عمارة(٣).

﴿قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١١، ٩٥٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٧٧، ٥٨١-٥٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٨٧-٦٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٢، ٩٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٣٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٨٦-٢٨٩).

وممَّن قال مِن السَّلف: إنَّ معنى عروشها: سقوفها: الضحَّاك والسُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٥٠١).

أي: لَمَّا مرَّ هذا الرجُلُ بذلك الموضِع الخَرِب الذي كان عامرًا بالحياة، مأهولًا بالسُّكان، وقَف عليه مُتفكِّرًا فيما آل إليه حالُ هذا المكان، فتساءل مُستبعِدًا كيف يُمكِن عَوْد الحياة إلى ما كانت عليه سابقًا(١).

﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى أراد أن يُريَه قُدرتَه على ما استبْعَدَه، بضرْب المَثَل له في نَفْسه، فقبَض اللهُ سبحانه رُوحَه، وظلَّ مَيِّتًا لمدَّة مئة عام كاملة، ثم أحياه الله عزَّ وجلَّ، فسأله عن مدة مُكْثه في هذا المكان، فأجاب- شاكًّا- بأنَّ لُبْثه لن يعدو يومًا كاملًا أو جزءًا من يوم، ظنًّا منه أنَّه كان نائمًا فاستيقظ، قيل: لأنَّه مات في أوَّل النَّهار وبُعِث في آخره بعد مِئة عام، فظنَّ لما رأى آخِرَ النَّهار أنَّه بقيَّة يومه الذي كان فيه حيًّا، أو أنَّه آخِر النَّهار من اليوم التَّالي(٢).

﴿قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾.

أي: ليس الأمرُ كما ذكرتَ، فلمْ تَمكُث يومًا أو بعضَ يوم، وإنما مكثتَ مئة عام بتمامها، فلْتُشاهِد الآن خوارقَ العادتِ الدَّالَّة على قُدْرة الربِّ عزَّ وجلَّ، فانظُرْ أولًا إلى ما بحوزتك من طعامٍ وشراب، فإنه لم يتغيَّر مُطلَقًا بمرور كلِّ تلك السِّنين، خلافًا لما جرتْ به العادة، فإنَّ الطعامَ والشَّراب من أسرع الأشياء تغيُّرًا(٣).

﴿وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٣٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٨٦، ٥٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٣٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٨٩-٢٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٩٨، ٦٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٢، ٩٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٣٦-٣٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٩٠-٢٩١).

أي: انظُر بعينَي رأسِك إلى حمارك، وقد مات وتمزَّق لحمُه وجِلدُه، وتفرَّقت أوصالُه، وبَدَتْ عِظامُه النَّخِرة؛ فانظر كيف يُحيِيه اللهُ عزَّ وجلَّ[١]؟

﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾.

أي: أَمتْناك مِئةَ عامٍ، ثمَّ بعثناك لنُصيِّرك حُجَّةً ودليلًا وعلامةً مرئيَّةً على قدرة الله تعالى، القادر وحده على فِعْل ما يشاء مِن إحياء وإماتة، وعلى إثبات البعثِ من القبور يوم القيامة؛ مِصداقًا لما أَخبَرَتْ به رُسلُ الله عليهم السَّلام، وذلك لمن عرَفه مِن ولدِه وقومه ممن عَلِم موته، فرأوا ذاته وتحقَّقوا صفاتِه، ولعموم النَّاس كذلك[٢].

﴿وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾.

القِراءات ذات الأثَر في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿نُنْشِزُهَا﴾ قراءتان:

١- ﴿نُنْشِزُهَا﴾ من النَّشز، وهو: ما ارتفع مِن الأرضِ، والمعنى: نجعلُها بعدَ بِلاها وهمودِها ناشزةً، أي: نرفعُ بعضَها إلى بعضٍ[٣].

٢- ﴿نُنْشِرُهَا﴾ من الإنشارِ، وهو الإحياءُ، أي: نُحييها بعدَ موتِها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٢، ٩٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٣٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٦١٣-٦١٥)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٣٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٩١).

(٣) قرأ بها ابن عامر والكوفيُّون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٣١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٢٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٤٤).

(٤) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٣١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٢٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٤٤).

﴿وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾.

أي: انظُر عيانًا إلى تلك العِظام البالية المتفرِّقة لحمارك، وشاهِدْ كيف نُحْيِيها، وهي ترتفعُ من الأرض فتتَّصلُ ببعضها، فنردُّها إلى مواضعها من الجسد، ونَستُرُها باللَّحمِ بعد التئامها، فأحيا الله عزَّ وجلَّ الحِمارَ بالإعادة، من بعد تَحلُّل جَسدِه[1].

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَعْلَمُ﴾ قراءتان:

١- قراءة ﴿اعْلَمْ﴾ على معنى أنه أمرٌ من الله عزَّ وجلَّ له بالعلم[2].

٢- قراءة ﴿أَعْلَمُ﴾ على معنى أنَّ ذلك من مقالة الذي أحياه الله تعالى[3].

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: فلما اتَّضح له ما كان مُستبعِدًا وقوعه، وظهر له عيانًا، أمره الله سبحانه أن يُدرِك الآن إدراكًا جازمًا بأنَّ الذي فعَل تلك الأشياء العجيبة بقدرته، قادِر أيضًا على أيِّ شيء أراده، فلا يُعجِزه شيء أبدًا، فقال: أُوقِن مطمئنًّا الآن- أكثرَ من أيِّ وقت مضى- بقُدرةِ الله، التي ليستْ لها حدودٌ[4].

---

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٢، ٩٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٣٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٩١، ٢٩٢).

(٢) قرأ بها حمزة والكسائي. ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٣١، ٢٣٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٢٣، ٢٢٤).

(٣) قرأ بها الباقون. ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٣١، ٢٣٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٢٣، ٢٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٦٢٠، ٦٢٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٣٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٩٢). =

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

أنَّ في هذه الآية والتي قبلها دَلالةً على البَعْث المنسوب إلى الله تعالى، في قول إبراهيم للملك الذي خاصمه ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، لكنَّ المارَّ على القريةِ أراه اللهُ ذلك في نفْسِه وفي حماره، وإبراهيم أراه الله ذلك في غيره[1].

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾.

أي: واذْكُرْ يا محمَّد، حين طلَب إبراهيمُ عليه السَّلام من ربِّه أنْ يُشاهِد بعينيه كيفيَّةَ إحياء الموتى[2].

﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾.

أي: فقال الله تعالى لخليله عليه السَّلام: أَوَلستَ قد آمنتَ؟ يعني: أنَّه ما دُمتَ قد آمَنتَ فلِمَ تَطلُبُ هذه الرؤيةَ؟ فأجاب نبيُّ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ بأنَّه مؤمن، لا يَعْتري إيمانَه أدنى شكٍّ، ولكنَّه لفَرْط محبَّته للوصولِ إلى مرتبةِ المُعايَنة، رامَ الترقِّي

= وممَّن فسَّرها بناءً على قراءة الأمر (اعلمْ) من السَّلف: ابن عبَّاس، والربيع. ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٦٢٠)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٥٠٧).

وممَّن رُوي عنه من السَّلف معنى قراءة ﴿أَعْلَمُ﴾: الحسن، وقتادة، والسُّدِّي، والضحَّاك، وابن زيد. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٥٠٦).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٣/ ٢٩٧، ٢٩٨)، ونسَبَه للجمهور، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٢، ٩٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٣٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٩٩).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٦٢٤، ٦٣٠).

من درجة عِلْم اليقين إلى عَين اليقين، حتى يزدادَ إيمانًا، ويزدادَ قلبُه طُمأنينةً(١).

﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾.

أي: أجاب اللهُ تعالى طلبَه، فأَمَره أنْ يأخذ أربعةَ طيور، وأنْ يَذبَحهنَّ ويُقطِّعهنَّ؛

---

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٨٩)، ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ١١-١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٢، ٩٥٥، ٩٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٣٨، ٣٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٩٩-٣٠٠).

تنبيه:

قال القرطبيُّ: (وأمَّا قول النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((نحن أحقُّ بالشكِّ من إبراهيمَ)) فمعناه: أنَّه لو كان شاكًّا لكنَّا نحن أحقَّ به، ونحن لا نشكُّ؛ فإبراهيمُ عليه السلام أحْرى ألَّا يشك، فالحديث مبنيٌّ على نفي الشكِّ عن إبراهيم... وإحياء الموتى إنما يثبت بالسَّمع، وقد كان إبراهيم عليه السلام أعلمَ به، يدلُّك على ذلك قوله: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾؛ فالشكُّ يَبعُد على مَن تثبت قدمه في الإيمان فقط؛ فكيف بمرتبة النبوَّة والخُلَّة؟) ((تفسير القرطبي)) (٣/ ٢٩٨-٢٩٩).

وقال ابن القيم: (طلب إبراهيم أن يكون اليقين عيانًا، والمعلوم مشاهدًا، وهذا هو المعنى الذي عبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم بالشك في قوله: ((نحن أحقُّ بالشكِّ من إبراهيم)) حيث قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [البقرة: ٢٦٠]، وهو صلَّى الله عليه وسلَّم لم يَشكَّ ولا إبراهيم، حاشاهما من ذلك، وإنَّما عبَّر عن هذا المعنى بهذه العبارة. هذا أحد الأقوال في الحديث. وفيه قولٌ ثانٍ: أنه على وجه النفي، أي لم يشكَّ إبراهيم حيث قال ما قال، ولم نشكَّ نحن، وهذا القول صحيح أيضًا أي لو كان ما طلبه للشك لكنَّا نحن أحقَّ به منه، لكن لم يطلبْ ما طلَبَ شكًّا، وإنما طلب ما طلبه طُمأنينةً. فالمراتب ثلاث: عِلم يقين يحصُل عن الخبر، ثم تتجلَّى حقيقة المخبر عنه للقلب أو البصر، حتى يصيرَ العلم به عَينَ يقين، ثم يُباشره ويلابسه فيصير حقَّ يقين)، ((مدارج السالكين)) (١/ ٤٦٩).

وقال أيضًا: (ولَمَّا كان بين العلم والعِيان منزلةٌ أخرى، قال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: «نحن أحقُّ بالشكِّ من إبراهيم» إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [البقرة: ٢٦٠]، وإبراهيم لم يَشكَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، ورسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم لم يشكَّ، ولكنْ أَوْقَع اسم «الشك» على المرتبة العِلميَّة باعتبار التفاوت الذي بينها وبين مَرتبة العِيان في الخارج، وباعتبار هذه المرتبة سُمِّي العلم اليقيني- قبل مشاهدة معلومِه- ظنًّا؛ قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٦] وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وهذا الظنُّ عِلمٌ جازم، كما قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، لكن بَينَ الخبر والعِيان فرقٌ) ((مدارج السالكين)) (٣/ ٣٥٩).

ليكون ذلك بمرأى منه، وليَتِمَّ الأمرُ على يديه(١).

﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾.

أي: أَمَر اللهُ تعالى إبراهيمَ عليه السَّلام بتفريق أعضاء الطُّيور الأربعة التي قطَّعهنَّ، وقام بتَنْحِيتهنَّ عنه، بتَبدِيدهنَّ أجزاءً على رؤوس عدَّة جبالٍ؛ لتكون ظاهرةً للعِيان، وأَمَره أنْ يدعوهنَّ، ليُقبِلنَ عليه مُسرِعات، ففعل إبراهيمُ عليه السَّلام ذلك، وجئنَ طائراتٍ على أكمل ما يكون من الحياة(٢).

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥].

﴿وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

أي: اعْلَم يا إبراهيمُ، أنَّ الذي فعَل ذلك له كمالُ العِزَّة، فلا يَغلِبه شيءٌ، ولا يَستعصي عليه شيءٌ أراده، وأنَّ أفعاله وأقواله وأقداره وشرائعه كلَّها صادرةٌ عن كمال حِكْمته؛ فيَضَع كلَّ شيء في مُوضِعه الصَّحيح، ولا يَفعل - أبدًا - شيئًا عبثًا(٣).

الفوائد التربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ﴾ دلالةٌ على أنَّ النِّعم قد تكون سببًا للطُّغيان؛ لأنَّ هذا الرجُل ما طغى وأنكَر الخالقَ؛ إلَّا لأنَّ الله آتاه المُلك؛ ولهذا أحيانًا تكون الأمراضُ نعمةً من الله على العبد؛ والفقر

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٦٣٨، ٦٣٩، ٦٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٢، ٩٥٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٠٠-٣٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٦٤٨، ٦٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٢، ٩٥٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٠١-٣٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير بن جرير)) (٤/ ٦٤٩، ٦٥٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٢، ٩٥٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٠٢).

والمصائب تكون نعمةً على العبد؛ لأنَّ الإنسان إذا دام في نعمة، وفي رَغَدٍ، وفي عيشٍ هَنِيء، فإنَّه ربَّما يَطْغى، وينسى الله عزَّ وجلَّ(١).

٢- أنَّ اللهَ لا يمنع فضلَه عن أحدٍ إلَّا إذا كان هذا الممنوع هو السَّببَ؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾؛ فلظُلْمهم لم يَهدِهم اللهُ، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥](٢).

٣- أنَّه مع ظهور الحقِّ ظُهورًا بيِّنًا لا سبيلَ معه إلى سُوءِ فَهم، أو نُشوءِ جِدالٍ ومِراءٍ حوله، يكون التسليمُ والإيمان الفوريُّ هو النتيجةَ الطبيعيَّةَ لذلك، ولكنَّ قيامَ مانعِ الكِبر عن الرُّجوع إلى الحقِّ يُمسِك بالذي كفَرَ؛ ليظلَّ على كُفره، كما قال تعالى: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(٣).

٤- التَّحذير من الظُّلم؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾؛ ومن الظُّلم أنْ يَتبيَّن لكَ الحقُّ فتُجادِل لنُصْرة قولِكَ؛ لأنَّ العدل أنْ تَنصاعَ للحقِّ، وألَّا تُكابِر عند وضوحه؛ ولهذا ضَلَّ مَن ضلَّ مِنْ أهل الكلام؛ لأنَّه تَبيَّن لهم الحقُّ، ولكنْ جادَلوا؛ فبقُوا على ما هم عليه من ضَلالٍ(٤).

٥- في قوله تعالى: ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾: دلالةٌ على أنَّه كلَّما كان الإنسانُ أظلمَ كان عن الهِداية أبعدَ؛ لأنَّ الله عزَّ وجلَّ علَّق نَفْي الهدايةِ بالظُّلم؛ وتعليق الحُكْم بالظُّلم يدلُّ على عِلِّيَّته؛ وكلما قويتِ العِلَّةُ قوي الحُكْم المُعلَّق عليها(٥).

٦- أنَّ مَن أخَذ بالعدل كان حَرِيًّا بالهِداية؛ لمفهوم المُخالفة في قوله تعالى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٨١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٢٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٨٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[١].

٧- جوازُ امتِحان العبدِ في معلوماته؛ لقوله تعالى: ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾[٢].

٨- جواز إخبار الإنسان بما يَغلِب على ظنِّه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ مع أنَّه لَبِث مئةَ عام[٣].

٩- أنَّه ينبغي التَّفكُّر فيما خلَقه الله عزَّ وجلَّ، وأَحدَثه في الكون؛ لأنَّ ذلك يَزيد الإيمانَ، حيث إنَّ هذا الشيء آيةٌ مِن آياتِ الله؛ كما في قوله: ﴿فَانْظُرْ...﴾[٤].

١٠- أنَّه ينبغي النَّظر إلى الآيات على وَجْه الإجمالِ والتَّفصيل؛ لقوله تعالى: ﴿وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ﴾: مُطلَق، ثم قال تعالى: ﴿وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا...﴾ إلخ؛ فيقتضي أنْ نتأمَّل أوَّلًا في الكون من حيث العموم، ثُمَّ من حيث التفصيل؛ فإنَّ ذلك أيضًا يَزيدنا في الإيمان[٥].

١١- أنَّ الإنسان بالتَّدبُّر والتَّأمُّل والنَّظر يَتبيَّن له مِن آياتِ الله، ما لا يَتبيَّن لو غَفَل؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ إلخ[٦].

١٢- أنَّه يَلزَم من النَّظر في الآيات العلمُ واليقينُ؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٧].

الفوائد العلمية واللَّطائف:

١- أنَّ المحاجَّة لإبطال الباطل، ولإحقاق الحقِّ من مقامات الرُّسل؛ لقوله

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٨٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٩٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٩٥).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٩٦).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٩٧).

تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ...﴾[١].

٢- في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾، إشارةٌ إلى أنَّه يَنبغي للإنسان أن يتعلَّم طُرُقَ المناظَرة، والمحاجَّة؛ لأنَّها سُلَّم، ووسيلة لإحقاق الحقِّ، وإبطال البَاطل[٢].

٣- أنَّ مُلْك الإنسان ليس مُلْكًا ذاتيًّا من عند نفسه؛ ولكنَّه مُعطًى إيَّاه؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ﴾؛ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾[٣].

٤- إثبات الأفعالِ الاختياريَّة لله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾[٤].

٥- أنَّ الإنسانَ المُجادِل قد يُكابِر فيدَّعي ما يعلم يقينًا أنَّه لا يَملِكه؛ لقول الرجل الطاغية: ﴿قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾؛ ومعلوم أنَّ هذا إنَّما قاله في مضايقة المحاجَّة؛ والإنسان في مضايقة المحاجَّة ربَّما يَلتزِم أشياء هو نَفْسه لو رجَع إلى نفسه لعَلِم أنَّها غير صحيحة، لكن ضَيق المُناظَرة أَوجَب له أنْ يقول هذا؛ إنكارًا أو إثباتًا[٥].

٦- أنَّ الحقَّ لا تمكن المُجادَلة فيه؛ لقوله تعالى: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾[٦].

٧- الردُّ على القَدَريَّة؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾؛ لأنَّهم يقولون: إنَّ الإنسانَ حرٌّ: يَهتدي بنفسه، ويَضِلُّ بنفسه؛ وهذه الآيةُ واضحة في أنَّ الهداية بيد الله[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٨١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٨٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٨٣).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٨٥).
(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٨٥).

٨- الإشارة إلى أنَّه لا يَنبغي أنْ يَهتمَّ الإنسانُ بأعيان أصحاب القِصَّة؛ إذ لو كان هذا من الأمور المهمَّة، لكان الله يُبيِّن ذلك: يقول: فلان، ويُبيِّن القريةَ، فالعِبْرة بالمعاني والمقاصِد دون الأشخاص[1].

٩- إطلاق القرية على المساكن؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾، مع أنَّه يَحتمِل أنْ يُراد بهذه الآية المساكنُ والسَّاكن؛ لأنَّ كونها خاويةً على عروشها يَدلُّ على أنَّ أهلها أيضًا مفقودون، وأنَّهم هالِكون[2].

١٠- أنَّ الإنسانَ إذا استبَعَد وقوعَ الشَّيء- ولكنَّه لم يَشُكَّ في قدرة الله على هذا الذي استبعده- لا يَكفُر بهذا؛ لقول الرجل الذي مرَّ على القرية: ﴿أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[3].

١١- أنَّ الله قد يَمُنُّ على عبده بأنْ يُريه مِن آياتِه ما يَزداد به يقينُه؛ لقوله تعالى: ﴿فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ...﴾ إلخ[4].

١٢- أنَّ قُدرةَ الله فوق ما هو مُعتاد من طبيعة الأمور، حيث بقي هذا الطَّعام والشَّراب مئة سَنةٍ لم يتغيَّر[5].

١٣- أنَّ الله يُحدِث للعبدِ ما يكون عِبْرةً لغيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾، ومِثْل ذلك قوله تعالى عن مريمَ وابنها عيسى عليهما السَّلام: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[6].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٩٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٩٤).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٩٥).

١٤- أنَّ الله عزَّ وجلَّ جعَل اللَّحمَ على العِظام كالكُسْوة؛ بل هو كُسْوة في الواقع؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾، وقال تعالى: ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾؛ ولهذا تَجِد اللَّحمَ يَقِي العِظام من الكَسْر والضَّرر؛ لأنَّ الضَّرر في العِظام أشدُّ من الضَّرر في اللَّحم[١].

١٥- الردُّ على مُنكِري قيام الأفعال الاختياريَّة بالله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَاتَهُ اللهُ... ثُمَّ بَعَثَهُ﴾، وهذه أفعال مُتعلِّقة بمشيئته، واختياره: متى شاء فعَل، ومتى شاء لم يفعلْ[٢].

١٦- أنَّ كلام الله عزَّ وجلَّ بحروف، وأصوات مسموعة؛ لقوله تعالى: ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾، وقوله تعالى: ﴿بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ﴾؛ فإنَّ مَقولَ القول حروف بصوت سَمِعه المُخاطَب، وأجاب عليه بقوله: ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾؛ ولكنَّ الصَّوتَ المسموع من كلام الله عزَّ وجلَّ ليس كصوتِ المخلوقين؛ الحروف هي الحروفُ التي يُعبِّر بها النَّاسُ؛ لكن الصَّوتَ لا؛ لأنَّ الصَّوتَ صِفةُ الربِّ عزَّ وجلَّ؛ والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[٣].

١٧- في قوله: ﴿فَأَمَاتَهُ اللهُ مِئَةَ عَامٍ﴾ ثُبوتُ كَراماتِ الأولياء؛ وهي كلُّ أَمْرٍ خارِقٍ للعادة يُجريه الله عزَّ وجلَّ على يدِ أحدِ أوليائه؛ تكريمًا له، وشهادةً بصِدْق الشَّريعة التي كان عليها؛ ولهذا قيل: كل كرامة لِوليٍّ، فهي آية للنبيِّ الذي اتَّبَعه[٤].

١٨- أنَّ التَّوسُّل إلى الله برُبوبيَّته من آداب الدُّعاء التي يَتوسَّل بها الرُّسُلُ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّ﴾؛ لأنَّ إجابةَ الدعاء من مُقتضيات الرُّبوبيَّة[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٩٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((الموافقات)) للشاطبي (٤/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٠٢).

١٩- أنَّه لا حَرَج على الإنسان أنْ يَطلُب ما يزداد به يقينُه، لقوله تعالى: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾؛ لأنَّه إذا رأى بعينه ازداد يقينُه[(١)].

٢٠- إثبات الكلام لله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾، وقوله تعالى: ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً...﴾؛ والله سبحانه وتعالى يتكلَّم بما شاء، متى شاء، كيف شاء، بما شاء: مِن القولِ، متى شاء: في الزَّمن، كيف شاء: في الكيفيَّة[(٢)].

٢١- جوازُ الاقتِصار في الجواب على الحرف الدَّالِّ عليه؛ لقوله تعالى: ﴿بَلَى﴾؛ وعليه فلو قيل للرجل: أَلَمْ تُطلِّق زوجتَك؟ فقال: (بَلَى)، طلقتْ، ولو قيل للرجل عند عَقْد النِّكاح: أَقبِلتَ النِّكاحَ، وقال: (نعم)، انعقَد النِّكاحُ؛ لأنَّ حرف الجوابِ يُغني عن ذِكْر الجُمْلة[(٣)].

٢٢- امتِنان الله على العبدِ بما يَزداد به إيمانُه؛ لقوله تعالى: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ....﴾ إلى قوله تعالى: ﴿يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾[(٤)].

بلاغة الآيات:

١- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

- **في قوله ﴿أَلَمْ تَرَ﴾**: همزةُ الاستفهامِ لإنكارِ النَّفي، وتقريرِ المنفيِّ، أي: أَلَمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٠٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٠٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٠٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

تَنظُرْ، أو ألم يَنتهِ عِلمُك إلى هذا الطَّاغوت المارِدِ كيف تصدَّى لإضلال النَّاس وإخراجهم من النَّور إلى الظُّلمات؟[١]، وبلاغة القرآن الكريم في عَرْض الأمور العجيبة مَعرِض التَّقرير والاستفهام؛ لأنَّ (التقَّرير) يَحمِل المُخاطَبَ على الإقرار؛ و(الاستفهام) يُثير اهتمامَ الإنسان؛ فجمع بين الاستفهام والتَّقرير[٢].

- النُّكتةُ في الإظهار مقام الإضمار في قوله تعالى: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾؛ لأجل أنْ نقول: كلُّ مَن جادَل كما جادَل هذا الرَّجل فهو كافر، ففيها إثباتُ أنَّ مَن جَحَد الله فهو كافر[٣].

- **قوله: ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾** فيه إطناب بالتذييل؛ لتقرير مضمون ما قبله، أي: لا يَهدي الذين ظَلموا أنفسَهم بتعريضِها للعذابِ المُخلَّد؛ بسبب إعراضِهم عن قَبُول الهداية إلى مناهج الاستدلالِ، أو إلى سبيل النَّجاةِ أو إلى طريق الجنَّةِ يوم القيامة[٤]. وفيه توكيدُ الخبر باسميَّة الجملة، والنفي، وإظهارُ لفظة الجلالة (وَاللهُ)؛ لتربية المهابَة[٥].

٢- **قوله: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ﴾** فيه من بَلاغَة القرآن تنويعُ الأدلَّة، والبراهين على الأمور العظيمة؛ فهذه الآية وما قبلها وما بعدها، كلُّها في سِياق قُدرة الله عزَّ وجلَّ على إحياء الموتى[٦].

٣- **في قوله: ﴿أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾** أَوْجُه بلاغيَّة؛ منها:

- الاستفهام في ﴿أَنَّى﴾؛ للتَّعجُّب، والاستبعادِ، والاستِعظامِ[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٥١)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٨١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٥٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٩٢).

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٣٠٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش =

- وفيه تقديم المفعول (هذه) على الفاعل (اللهُ)؛ للاعتناء بها من حيثُ إنَّ الاستبعاد ناشئٌ مِن جِهتِها، لا مِن جِهة الفاعلِ[1].

- وفيه طِباق بين الإحياء والإماتة[2]، وهو يُبرز المعنى ويوضِّحه.

٤- قوله: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ عبَّر بصيغةِ المضارعِ (أَعلَمُ)؛ للدَّلالة على أنَّ عِلمَه بذلك مستمِرٌّ ومُتجدِّد؛ نظرًا إلى أنَّ أصْلَه لم يَتغيَّرْ ولم يتبدَّل، بل إنَّما تَبدَّل بالعِيان وصفُه، إشعارًا بأنَّه إنها قال ما قال بِناءً على الاستبعاد العادي، واستِعْظامًا للأمر[3].

٥- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى ... وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠)﴾

﴿رَبِّ﴾: كلمة استعطافٍ قُدِّمت بين يدي الدُّعاء مُبالغةً في استِدعاء الإجابةِ[4].

- ﴿أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾: فيه توكيدُ الخبرِ بأنَّ، واسميَّة الجملة، والتَّعبير بصِيغة فَعيل ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؛ للمُبالَغة في الوصف[5].

- وفي هذه الآية إيجازٌ بالحذْف، حيث حذَف تتمَّة القصَّة، وحَكَى سبحانه أوامرَه، ولم يَتعرَّض لامتثالِ إبراهيم عليه السَّلام لها؛ لأنَّ ذلك مُدرَكٌ بالبَداهة[6].

= (١/ ٣٩٨)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٣٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٥٦).

(٥) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٣٤٧-٣٤٨).

(٦) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٠٣)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٣٤٨).

الآيات (٢٦١-٢٦٥)

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ
سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١)
ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى
لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢) ۞ قَوْلٌ
مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣) يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ
وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ
فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ
ٱلْكَٰفِرِينَ (٢٦٤) وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا
مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن
لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥)﴾.

غريب الكلمات:

﴿أَذًى﴾: ما يُكره ويُغتمُّ به، ولا يُقَرُّ عليه(١).

﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾: سَترُ خَلَّة المسلم وفاقته، وترْك أذيَّته؛ فأصْل الغَفْر: السَّتر، والوقاية(٢).

﴿رِئَاءَ النَّاسِ﴾: مراءاةً للناس، أي: فِعل الشَّيء ليراه الناس، وأصْله من الرُّؤية(٣).

﴿صَفْوَانٍ﴾: كالصَّفا حَجَر أَمْلس، وهو اسمُ واحدٍ معناه جمعٌ، واحدتُه صَفوانة؛

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٩).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٥).

وأصل الصَّفاء: خُلُوص الشَّيء من الشَّوب، ومنه قيل: الصَّفا، للحجارة الصافية(١).

﴿وَابِلٌ﴾: المطر الثَّقيل، أو المطر الشَّديد(٢).

﴿صَلْدًا﴾: صلبًا يابسًا أملسَ، وهو الحجر الصُّلب الذي لا يُنبِت؛ فأصْل الصَّلد: الصَّلابة واليُبْس(٣).

﴿رَبْوَةٍ﴾: المكان المرتفِع من الأرض، وأصْل الرَّبو: العُلُوُّ والزِّيادة والنَّماء(٤).

﴿فَطَلٌّ﴾: الطَّلُّ: أضعفُ المَطر، وأصْل الطلِّ: غَضاضةُ الشَّيء، وحُسْنه ونَضْرته؛ سُمِّي أضعفُ المَطَر به؛ لأنَّه يُحسِّن الأرضَ(٥).

المعنى الإجمالي:

يَضرِب اللهُ المَثَلَ في مضاعفة الحسنات للمُنفِقين في أوجه الخير، بمن بذَر بَذْرةً في أرض طيِّبة، فأخرجتِ الحبَّةُ سَبْعَ سَنابلَ، في السُّنبلةِ الواحِدة مِئةُ حبَّة، فكان أنْ تَضاعفتِ الحبَّةُ إلى سَبْعمِئة حبَّة، والله يُضاعِف لمن يشاء؛ لأنَّه واسعُ الفَضْل، عليمٌ بمن يَستحِقُّ المضاعفة ممن لا يَستحِقُّها، ثم يُبيِّن الله تعالى أنَّ الذين يَبذُلون

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٧- ٤٨٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٥).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٢).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٠٦) و(٤/ ٤٢٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٦).

أموالَهم في أوجهِ الخيرِ ومرادهم رضا الله تعالى، ثم لا يُلحِقون ما بذَلوه منًّا على مَن أنفقوا عليهم ولا أذًى، فهؤلاء لهم أجرَهم عند الله، ولهم كذلك ألَّا يخافوا فيما يُستقبَل ولا يحزنون على ما مضى.

ثم يُخبِر تعالى أنَّ ردَّ السَّائل بالقول الحَسَن، والدعاء الطَّيِّب له، وغير ذلك من الأقوال التي تُدخِل السُّرورَ على قلبه، وكذلك سَتْر حالته بالمسامحة، والتَّغاضي عمَّا قد يَصدُر من السائل ممَّا لا ينبغي أنْ يَصدُر منه، أفضل مَن أنْ يُقدِّم له صدقةً مصحوبة بالأذِيَّة والإساءة، والله سبحانه غنيٌّ، وهو حليمٌ لا يُعاجِل بالعقوبة مع قُدْرته عليه.

ثم يَنهَى اللهُ تعالى عبادَه المؤمنين أن يُحبِطوا أجرَ ما بذلوه من صدقاتٍ إذا صدر منهم منٌّ أو أذًى نحو المتصدَّق عليه، فتُشْبِه حالُهم حينها حالَ المُنافِقِ الذي يُنفِق مالَه من أجْل أن يرى النَّاسُ صنيعَه؛ ليُثْنوا عليه بذلك، وهم لا يعرفون حقيقةَ الأمر، وهو أنَّه لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخِر، فلا يَطمَع في الحصول على ثوابٍ جزاءً لعَمَله، فقَلْب هذا المُنافقِ في صَلابته وقسوته، وعدم انتفاعه بما يُنفِقه- لعدم إيمانه، وانتفاء إخلاصه- يُشْبِه الحجرَ الأملس يَعْلوه ترابٌ، يَحسَب مَن رآه أنه صالحٌ للإنبات، فيُصيبه مطرٌ غزيرٌ فيذهب بما على الحجر من التراب، فيَتركه صُلبًا كما كان من قبلُ، لا أمل في إنباته، والله تعالى لا يُوفِّق الكافرين لقَبُول الحقِّ.

ثمَّ ضرَب الله سبحانه مثلًا لَمن يَبذُلون أموالَهم في وجوه البِرِّ والخير دون منٍّ أو أذًى، وإنَّما مقصودهم أنْ ينالوا مرضاةَ الله تعالى، وقد بذَلوا أموالَهم مِن تلقاء أنفسهم، ولم يَحمِلهم على ذلك أحدٌ، أو أنفقوا وهم مُوقِنون بوعد الله تعالى على إثابته للمُنفِقين، فمَثَل نفقةِ هؤلاء كبُستانٍ كثير الشَّجر والظِّلال، بمكانٍ مرتفع من الأرض، فكان أكثرَ خُصوبةً، وأفضل نِتاجًا، وسَقْيه إنما هو من السَّماء، فإمَّا أنْ يُصيبه مطرٌ غزيرٌ، فيتضاعَف ما يُنتِجه من ثمر، أو يُصيبه مطرٌ خفيف، فيكفيه

أيضًا ليؤتي ثمارَه مضاعفةً؛ بسبب كَرَم المَنْبتِ، وطيب المَغْرس، وكذا الحال مع نفقة المؤمن؛ فإنَّ الله يُضاعِفها قلَّتْ أو كَثرتْ، ما دام أنها بُذِلتِ ابتغاءَ رِضوان الله، والله تعالى يرى كلَّ ما يعمله النَّاسُ، لا يَخْفى عليه شيءٌ من أعمالهم.

تفسير الآيات:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا ذكَر قصَّة المارِّ على قرية وقصَّة إبراهيم، وكانا مِن أدلِّ دليل على البَعْث، ذكَر ما ينتفع به يوم البعث، وما يجد جدواه هنالك، وهو الإنفاق في سبيله، كما أَعقَب قصَّة الذين خرجوا مِن ديارهم وهم أُلُوفٌ حَذَرَ الموت بقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، وكما أَعقَب قَتْلَ داود عليه السَّلامُ جالوتَ، وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا﴾ بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾، فكذلك أَعقَب هنا ذِكْر الإحياء والإماتة بذِكْر النَّفقة في سبيله؛ لأنَّ ثمرة النفقة في سبيله إنما تَظهر حقيقةً يومَ البَعْث: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠]، واستدعاء النَّفقة في سبيل الله مُذكِّرٌ بالبَعْث؛ لأنَّه لو لم يعتقد وجوده، لَمَا كان يُنفَق في سبيل الله[١].

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ﴾.

أي: شبَّه الله سبحانه في هذا المَثَل المنفِقَ بالبَاذِر، والنَّفقةَ في سبيله بالبَذْرة؛ فإنَّ مَن يُنفِق في أوجه الخير والبِرِّ ابتغاءَ مَرْضات الله تعالى- ومن ذلك النَّفقة في الجهاد في سبيله- كالذي غيَّب في أرضٍ طيِّبة زكيَّة بَذرةً صالحةً للنُّمو، فأخرجتْ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦٥٢).

سَبْع سنابل، وقد اشتملت كلُّ واحدة منها على مِئة حَبَّة، فكانت النتيجة سبعَمِئة حبَّة، خرجت من حبَّة واحدة، فكذلك النَّفقة الطَّيِّبة يُنمِّيها الله عزَّ وجلَّ لبَاذِلها، ويُضاعِف له أجرَها سبعمِئة مرَّة(١).

عن عُقْبة بن عمرٍو رضي الله عنه، قال: (جاء رَجلٌ بناقةٍ مَخطُومة، فقال: هذه في سبيل اللهِ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((لك بها يومَ القيامةِ سَبعُمئةِ ناقةٍ، كلُّها مَخطومة(٢)))(٣).

وعن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((كلُّ عملِ ابنِ آدمَ يُضاعَفُ؛ الحسنةُ عشرُ أمثالها إلى سبعمئةِ ضِعفٍ، قال اللهُ عزَّ وجلَّ: إلَّا الصَّومَ؛ فإنَّهُ لي، وأنا أَجزي بهِ...)) الحديث(٤).

﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى يُضاعِف هذه المضاعفةَ إلى السَّبعمئة، أو إلى أكثرَ من ذلك، بحسَب مشيئته، وذلك وَفْق ما تَقتضيه حِكمتُه، فإنَّ المنفِقين يتفاوتون إيمانًا وإخلاصًا لله تعالى، وتتفاوت نفقاتُهم كذلك بحسَب حِلِّها ونَفْعها، وشدَّة الحاجة إليها(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٦٥١)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيِّم (ص: ٣٦٤)، ((تفسير ابن كثير (١/ ٦٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٢، ١١٣)، ((تفسير ابن عُثيمين – الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٠٨، ٣٠٩).

(٢) مخطومة: أي: فيها خِطام، وهو قريب من الزمام، وخِطام البعير أن يُؤخَذ حبل من ليف أو شَعر أو كَتَّان، فيُجعل في أحد طرفيه حلقةٌ ثم يشدُّ فيه الطَّرف الآخر حتى يصيرَ كالحلقة، ثم يُقاد البعير ثم يثنى على مخطمه. وأمَّا الذي يُجعل في الأنف دقيقًا، فهو الزمام. ينظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٣ / ٣٨)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢ / ١٢٠).

(٣) رواه مسلم (١٨٩٢).

(٤) رواه مسلم (١١٥١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٦٥٣، ٦٥٤)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيِّم (ص: ٣٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٣، ٩٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦٠٩)، ((تفسير ابن عُثيمين – الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٠٩).

عن ابن عبَّاس رضِي الله عنهما، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((إنَّ اللهَ كتب الحسناتِ والسيِّئاتِ، ثُمَّ بيَّنَ ذلِكَ، فمَنْ هَمَّ بحَسنةٍ فلمْ يَعملْها، كَتبَها اللهُ عندَهُ حسَنَةً كامِلَةً، وإنْ همَّ بِها فعَمِلَها كتبَها اللهُ عزَّ وجلَّ عندَه عشرَ حسنَاتٍ إلى سَبعِمِئَةِ ضعْفٍ إلى أضعافٍ كثيرَةٍ، وإنْ همَّ بسيِّئَةٍ فلمْ يَعملْها، كَتبَها اللهُ عندَهَ حسَنَةً كامِلَةً، وإنْ هَمَّ بِها فَعَمِلَها، كَتَبَها اللهُ سيئَةً واحِدَةً، وفِي روايَةٍ وزادَ: ومَحَاها اللهُ، ولَا يَهْلِكُ علَى اللهِ إلَّا هالِكٌ))[1].

﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى واسعُ الفضل والعطاء؛ ولذا يُضاعِف لمن يشاء هذه المضاعفة أو يَزيد عليها، فلا يَستبعِدنَّ أحدٌ ذلك الأجرَ الكريمَ، أو يتوهَّم أنَّ فيه مُبالَغةً؛ فإنَّ الله تعالى لا يَتعاظمه شيءٌ، ولا يَنقُصه العطاءُ مهما عَظُم، ولكن لا ينبغي أن يُظَنَّ أنَّ سَعَة عطائه سبحانه تقتضي حصولَ تلك الأجور لكلِّ مُنفِق؛ فإنَّه عليمٌ بمن هو أهلٌ لهذا الأجر، ومَن لا يَستحِقُّه، فإنَّ سَعَة كَرَمه تعالى لا تُناقِض حِكمتَه، بل يَضعُ فضلَه مواضعَه[2].

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا عَظَّم أمرَ الإنفاق في سبيل الله، ورتَّب عليه الثواب المضاعف، أَتْبعه ببيان الأمور التي يجب تحصيلُها حتى يبقَى ذلك الثوابُ، ومنها تَرْكُ المنِّ والأذى[3]، فقال:

---

(١) رواه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٦٥٤)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيِّم (ص: ٣٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٤٠).

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى﴾.

أي: إنَّ الذي يَبذُل أموالَه في أوجه الخير، ابتغاءَ مرضاة الله تعالى، ثم لا يَمتنُّ على مَن أَنفَق عليه، سواء بقلبه، أو بلسانه كأنْ يُخبِره بأنَّه تفضَّل عليه بمنحه شيئًا، وأنَّه مَدين له لِقاء معروفه، ولا يقول أو يفعل أيضًا مكروهًا للمُنفَق عليه يُنافي ما قدَّمه له من إحسان، فذلك محظورٌ لِمَا فيه من تَكبُّر المُنفِق واستعلائه، واستعباد المُنفَق عليه، وكسْر قلبِه وإذلاله، بل على المُعطي في سبيل الله تعالى أنْ يشهد دائمًا أنَّ المتفضِّل والمُنعِم حقيقةً هو الله تعالى وحده، وعليه أنْ يتفكَّر أيضًا في أنَّ أجْره على الله تعالى بأضعافِ ما أَعطى، فأيُّ حقٍّ بقي له على الآخذ المُحتاج حتى يَمتنَّ عليه، أو يؤذيه بصنائع معروفه[1]؟

عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((ثلاثةٌ لا يُكلِّمُهم اللهُ يومَ القِيامةِ: المَنَّان الذي لا يُعطي شيئًا إلَّا مِنَّةً، والمُنَفِّق سِلْعتَه بالحَلِف الفاجِر، والمُسبِل إزارَه)). وفي روايةٍ: ((ثلاثةٌ لا يُكلِّمُهم اللهُ، ولا يَنظُر إليهم، ولا يُزكِّيهم ولهم عذابٌ أليمٌ))[2].

﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

أي: إنَّ هؤلاء الذين يُنفِقون أموالَهم في سبيل الله تعالى بلا منٍّ ولا أذًى، يَستحِقُّون- وحْدَهم دون غيرهم من المنفقين- ثوابًا وجزاءً من الله تعالى وحده، قد تَكفَّل به الكريم مُقابِلَ صنيعهم هذا، فهو مُوفِّيه إيَّاهم لا محالة، ولهم مع ذلك أيضًا ألَّا يَخافوا من المستقبل ومِن ذلك، عدَم خوفهم عند مَقدَمهم على الله تعالى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٦٥٥)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيِّم (ص: ٣٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣١٣).

(٢) رواه مسلم (١٠٦).

حين فِراقِهم للدُّنيا، ولا في أهوال القيامة، فلا يَنالُهم فيها مكروهٌ، ولا يُصيبهم فيها عقابٌ، ولا يحزنون أيضًا على ما مضى، ومن ذلك ما يُخلِّفونه وراءهم في الدنيا من أموالٍ وبنينَ عَقِب موتهم؛ لأنَّهم قد صاروا إلى ما هو خيرٌ لهم من ذلك، فحصَلتْ لهم بذلك الخيراتُ، واندفعت عنهم الشرورُ والسيئات(١).

﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣)﴾.

﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾.

أي: إنَّ تقديم الإحسان للسَّائلِ حاجةً، عَبْر إسدائه قولًا معروفًا تَعرِفه القلوبُ ولا تُنكِره، بردِّه بالقول الجميل والدُّعاء الطَّيِّب له، وغير ذلك ممَّا يُدخِل السُّرورَ على قلبه، أو تقديم الإحسانِ إليه بسَتْر سوء حالته، أو بمسامحته وتَجاوُزِه عمَّا لا ينبغي أنْ يَصدُر من السائل من قول أو فِعْل، كما لو وجَد منه بعضَ الجَفوةِ أو الغِلْظة بسبب ردِّه، وعدم تلبية حاجته، فالقول المعروف والمغفرة أفضلُ مُطلَقًا من تقديم يدِ العون للمحتاج، بمساعدةٍ مصحوبة بأذِيَّته والإساءة إليه(٢).

﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾.

مناسبتها لِمَا قبلها:

لَمَّا تناولت الآياتُ قبلها الإنفاقَ والحثَّ عليه، وبيانَ ما يُجتنب فيه من المنِّ وإتْباعه بالأذى، ختَم الله تعالى هذه الآيةَ بقوله: ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾؛ لأنَّ الله غنيٌّ عن هذه الصَّدقات، فضلًا عن التي فيها منٌّ أو أذًى، ولكمال غِناه يَخلِف هذا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٦٥٧)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيِّم (ص: ٣٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣١٣-٣١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٦٥٧-٦٥٨)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيِّم (ص: ٣٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣١٦).

الإنفاق، وحليمٌ على مَن عصَى بالمنِّ بالصدقة؛ فهي من كبائر الذُّنوب[١]؛ لذا قال: ﴿وَاللهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى غنيٌّ عن خَلْقه، وعمَّا يتصدَّقون به؛ فلن يَنالَه شيءٌ من صدقاتِهم، وإنما نفْعُها عائدٌ عليهم؛ فكيف يمنُّ أحدٌ بصدقته، ويؤذِي بها عبادَ الله تعالى، مع غِنى الله تعالى عنها؟ وهو مع هذا حليمٌ سبحانه، لا يُعاجِلُ هذا المانَّ بالعقوبة مع قُدْرته على ذلك، بل يعفو عنه ويَصفَح، أو يُمهِله ليتوب إليه[٢].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا شرَط في الإنفاق أنْ لا يُتْبَع بمنٍّ ولا أذًى، لم يَكتفِ بذلك حتى جعَل المنَّ والأذى مُبطِلًا للصَّدقة، ونهى عن الإبطال بهما؛ ليُقوِّي اجتنابَ المؤمن لهما؛ ولذلك ناداهم بوصْف الإيمان، ولَمَّا جرى ذِكْر المنِّ والأذى مرَّتين، أعادهما هنا بالألف واللام[٣].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: الفاتحة-البقرة)) (٣/ ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٦٥٨)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيِّم (ص: ٣٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٣)، ((تفسير ابن عثيمين – الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣١٦، ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦٦٢).

أي: يُحذِّر اللهُ تعالى عبادَه المؤمنين، من حُبُوط أجرِ ما يَبذُلونه صدقةً في سبيله سبحانه، إنْ صدَر منهم منٌّ أو أذًى على آخِذ الصَّدقة، فيكون حالُهم حينئذٍ موافِقًا لحال المنافِق الذي يَبذُل مالَه لأجل الله تعالى في ظاهرِ الأمر، بينما ينوي في باطِنِه أن يُرِيَ النَّاسَ صَنيعَه؛ ليَحمَدوه ويُثْنوا به عليه، وهم لا يُدرِكون في واقع الأمر، حقيقةَ أنَّه لا يؤمن بالله تعالى ولا بالآخرة، فلا يَطمَع في نيل ما فيها من ثواب لِقاء ما يُقدِّمه في الدنيا من معروف(١).

﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا﴾.

أي: إنَّ قلب هذا المنافق الذي يُنفق مالَه رياءً، غيرَ مؤمن بالله ولا باليوم الآخِر، حالُه في صلابته وشِدَّته، وعدم الانتفاع به- لعدم إيمانه وإخلاصِه لله تعالى- تُشبِهُ حالَ حجر أملس، ونفقة هذا المنافق تُشبه ترابًا يعلو هذا الحجرَ، فهو مستندٌ إليه، يَظنُّ مَن يراه أنه أرضٌ طيِّبة صالحة للإنبات، مثلما يظنُّ مَن يشاهد ظاهرَ حال المنافق أنَّ صدقته مبنيَّة على أساس من الإيمان والإخلاص لله عزَّ وجلَّ، فتُثمر له حسناتٍ، وشبَّه الله تعالى تعرُّض التراب لمطرٍ غزيرٍ شديد الوقع، بالمانع الذي أبطل صدقتَه، وذهب بأثرها تمامًا. وكما أصبح الحجر في نهاية الأمر، صلبًا كما عُهِد من قبلُ، وخاليًا لا شيءَ عليه من ترابٍ، ولم يبقَ أملٌ في إنبات نبات، فكذلك صدقات هذا المنافِق تَذهب هباءً، لا تُثمر شيئًا من الحسنات وزيادة الإيمان؛ لأنَّه لا أصل لها تُؤسَّس عليه، ولا لها مقصدٌ طيِّب تنتهي إليه، فكل ما قدَّمه مضمحل.

فإذا كان يومُ القيامة، وجاء وقتُ حصاد الزَّرع وتلقِّي أجور العاملين، وظنُّوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٦٥٨-٦٥٩)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيِّم (ص: ٣٦٧-٣٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٣)، ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣١٨-٣٢٠).

أنهم سيَنتفعون بما قدَّموه، لم يجدوا شيئًا يحصدُونه، ولا أجرًا يتلقَّوْنه، فقد اضمحلَّ ما قدَّموه كلُّه؛ لأنَّه لم يكُن لله تعالى، فلا تكونوا- أيُّها المؤمنون- كهؤلاء المنافقين، فتُبطلوا أجورَ صدقاتكم بمنِّكم وأذاكم على مَن تصدَّقتم عليه[١].

﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

أي: إنَّ الله سبحانه وتعالى لا يُوفِّق الكفارَ لقَبُول الحقِّ وإصابته في نَفَقاتهم وغيرها؛ فلأنَّهم للباطل مُؤْثِرون، تَركَهم في ضلالتهم يَعمَهون، قد انصَرفوا عن طريق الحقِّ إلى طُرُق الغواية، فصرَف الله عزَّ وجلَّ قلوبَهم عن الهداية[٢].

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا ذكَر الله تعالى مَثَلَ المنفِق الذي يكون مانًّا ومؤذيًا؛ ذكَر مَثَلَ المُنفِق الذي لا يكون كذلك[٣]، فقال:

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾.

أي: ضرب الله تعالى مثلًا لِصنفٍ آخرَ من المنفِقين، وهم الذين يُنفِقون أموالَهم صدقةً في أوجه الخير والبِرِّ التي يُحبُّها الله تعالى، كالجهاد في سبيله؛ دون منٍّ أو

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٦٦٠-٦٦٣)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣٦٧-٣٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٣، ٩٥٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٢٠-٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٦٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٤٨).

أذًى، وإنَّما طلبًا لنيل رِضوان الله عزَّ وجلَّ، وقد أَقدَموا صادِقين على البذل من جِهة أنفسهم، لم يَحمِلهم أحدٌ على القيام بذلك، فأنفقوا بعزائمَ قويَّة، مُتحقِّقين ومُوقِنين بوعد الله تعالى على إثابته المنفقين، فلا يَتقاعَسون أو يتردَّدون في الإنفاق، ولا يَشُكُّون بوعْد الله سبحانه على الثَّواب[1].

﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾.

أي: إنَّ نفقة أولئك المنفقين المخلِصين الصادقين، المصدِّقين بوعد ربِّ العالمين، تُشْبِه بُستانًا غزيرَ الأشجار والظِّلال، تُغطِّي ما فيه من كَثْرتها، وهو على مكانٍ مُرتفِع من الأرض فكان خصيبًا جدًّا؛ لأنَّه لَمَّا ارتَفع عن مجرى المسايل والأودية كانتْ أرضه أغلظَ، فكان أحسنَ وأزكى ثمرًا وغرسًا وزرعًا، كما أنَّه بارتفاعه يكون مُعرَّضًا أكثرَ للأهوية والرياح، وبائنًا للشمس وقت طلوعها واستوائها وغروبها، فيكون أنضج ثمرًا وأطيبه وأحسنه وأكثره كذلك، وسَقْيه إنَّما يأتي من السَّماء، فإمَّا أنْ يتعرَّض لمطرٍ غزير، فيتضاعف إنتاجُ ثمرِه مرَّتين، الأصل ومثله معه، أو يُصيبه مطرٌ خفيف، كالرَّذاذ، فإنَّه يَكفيه ليُؤتي ثمارَه مضاعفةً؛ بسبب كَرَم مَنْبته وطِيب مَغرَسه، فهذه الجنَّة لا يُعدَم منها حصولُ الخير بحالٍ من الأحوال.

فكذلك المؤمن المنفِق يُضاعِفُ الله تعالى صدقتَه قلَّت أو كَثُرت، فلا تَبور أبدًا،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٦٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٣)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٢١).

قال ابن القيِّم: (هذا مَثَل الذي مصدر نفقته على الإخلاص والصدق؛ فإنَّ ابتغاءَ مرضاته سبحانه هو الإخلاص، والتثبيت من النفس هو الصِّدق في البذل، فإنَّ المنفق يعترضه عند إنفاقه آفتان، إنْ نجا منهما كان مَثَله ما ذكَره في هذه الآية: إحداهما: طلبُه بنفقته مَحمدةً أو ثناءً، أو غرضًا من أغراضه الدنيوية، وهذا حال أكثرُ المنفقين. والآفة الثانية: ضَعْف نفْسه بالبذل وتقاعُسها وتردُّدها؛ هل يفعل أم لا؟ فالآفة الأولى تزولُ بابتغاءِ مرضاة الله، والآفة الثانية تزولُ بالتثبيت؛ فإنَّ تثبيت النفس تَشجيعُها وتقويتها، والإقدام بها على البذل) ((طريق الهجرتين وباب السعادتين)) (ص: ٣٦٩).

فإذا كان قصدُه مرضاة الله عزَّ وجلَّ والتثبيت من نفسه، فهي زاكيةٌ عند الله تعالى، وناميةٌ في جميع الأحوال(١).

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

أي: إنَّ ما تَعمَلونه- أيُّها النَّاس- من الإنفاق وغيره، هو بمَرْأى مِن الله تعالى، لا يَخْفى عليه، فإنَّه يرى ويعلم مَن المُنفِق منكم بالمنِّ والأذى، ومَن المُنفِق ابتغاءَ مرضاة الله، وتثبيتًا من نفسه، فيُحصي عليكم ذلك وغيرَه من أعمالكم، حتى يُجازيكم عليها، إنْ خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر(٢).

الفوائد التربويَّة:

١- الإشارة إلى ضرورة الإخلاص لله في العمل؛ لقوله تعالى: ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾، وأن يَقصِدوا بعِمَلهم وجهَ الله عزَّ وجلَّ(٣).

٢- أنَّ ثوابَ الله، وفضْلَه أكثرُ من عَمَلِ العاملِ؛ لأنَّه لو عُومِل العاملُ بالعدل لكانت الحسنة بمِثْلها، لكنَّ الله يُعامِله بالفضل والزِّيادة، فتكون الحبَّة الواحدة سبعمئة حبَّة، بل أَزيدَ؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(٤)، ممَّا يَزيد رجاءَ العبدِ في ربِّه.

٣- الحثُّ والتَّرغيب في الإنفاق في سبيل الله؛ لقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ....﴾(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٦٧٢-٦٧٩)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيِّم (ص: ٣٦٩-٣٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٤)، ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٢٦-٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٦٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣١٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣١١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣١٢).

٤- أنَّ مَن أَتْبَع نفقتَه منًّا أو أذًى، فإنَّه لا أجْرَ له؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾؛ فإذا أَتْبَع منًّا، أو أذى بطَل أجرُه، كما هو صريحُ قولِه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾[1].

٥- لقَبُول الصَّدقة شروطٌ سابقة، ومُبطِلاتٌ لاحِقة؛ أمَّا الشُّروط السابقة: فالإخلاص لله تعالى، والمتابَعة، وأمَّا المبطِلات اللَّاحقة: فالمنُّ، والأذى[2].

٦- ما أراد الإسلام بالإنفاق مجرد سدِّ الخَلَّة، وملء البطن، وتلافي الحاجة، إنما أراده تهذيبًا وتزكية وتطهيرًا لنفس المعطي، واستجاشة لمشاعره الإنسانية، وارتباطه بأخيه الفقير في الله وفي الإنسانية، وتذكيرًا له بنعمة الله عليه وعهده معه في هذه النعمة أن ينفق منها ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ في غير منع ولا منٍّ، فالمنُّ عنصر كريه لئيم، يحيل الصدقة أذى للواهب وللآخذ سواء: أذًى للواهب بما يثير في نفسه من كبر وخيلاء؛ ورغبة في رؤية أخيه ذليلًا له كسيرًا لديه؛ وبما يملأ قلبه بالنفاق والرياء والبعد من الله، وأذًى للآخذ بما يثير في نفسه من انكسار وانهزام، ومن ردِّ فعل بالحقد والانتقام[3].

٧- في قوله تعالى: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ﴾، حثٌّ على المغفرة لمَن أساء إليكَ؛ إلا إذا كانت المغفرة تؤدي إلى مفسدةٍ معتبَرة أو كانت راجحةً على مصلحة؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾ [الشورى: ٤٠][4].

٨- أنَّ الأعمال الصَّالحة تَتفاضَل، ويَلزَم مِن تَفاضُلها تَفاضُلُ العامِلِ، وزيادة

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٣٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣١٧).

الإيمان، أو نُقْصانه؛ كما في قوله: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ...﴾[١].

٩- في قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾، دلالةٌ على أنَّ الواجب أن نَقصِد بأعمالنا أمرين: أولهما: ابتغاء رِضوانه لذاته تعبُّدًا له، وثانيهما: تزكية أنفسنا وتطهيرها من الشَّوائب التي تَعُوقها عن الكمال، كالبخل والمُبالَغة في حبِّ المال، على أنَّ هذا وسيلة لذاك، وفائدة كلٍّ من الأمرين عائدةٌ علينا، والله غنيٌّ عن العالَمين[٢].

١٠- أنَّ المنَّ والأذى بالصَّدقة مُنافٍ لكمال الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾، كأنَّه يقول: (إنَّ مقتضى إيمانِكم ألَّا تفعلوا ذلك؛ وإذا فعلتُموه صار مُنافيًا لهذا الوَصْف، ومنافيًا لكماله)[٣].

١١- أنَّ مَن راءى النَّاس بإنفاقه، ففي إيمانه بالله وباليوم الآخر نَقْص؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾[٤].

١٢- بيان ما للنيَّة من تأثير في قَبُول الأعمال واشتراط الإخلاص؛ لقوله تعالى: ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ﴾[٥].

١٣- بيان أنَّ تثبيتَ الإنسان لنفسه عند الصدقة ولعَمَلِه، واطمئنانه به من أسباب قَبُوله؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾؛ لأنَّ الإنسان الذي لا يعمل إلَّا كارهًا فيه خَصْلة من خِصال المنافقين؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾[٦][التوبة: ٥٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣١٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٥٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٢٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٢٨).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٢٩).

١٤- فضْلُ الإنفاق على وجه التثبيت من النَّفْس؛ لأنَّه يَندفِع بدافع نفسي؛ لا بتوصية من غيره، أو نصيحة؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾[١].

الفوائد العلمية واللَّطائف:

١- ضَرْب الأمثال؛ لأنَّ ذلك أقربُ إلى الفَهْم كما في قوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ...﴾، وقوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ...﴾[٢].

٢- الإشارةُ إلى اشتراط مُوافَقة العمل للشَّرع؛ لقوله تعالى: ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾؛ لأنَّ ﴿فِي﴾ للظَّرفيَّة، والسبيل: بمعنى الطريق، وطريق الله: شَرْعه؛ والمعنى: أنَّ هذا الإنفاق لا يَخرُج عن شريعةِ الله؛ والإنفاق الذي يكون مُوافِقًا للشَّرع هو ما ذَكَره بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾[٣] [الفرقان: ٦٧].

٣- إثبات المِلكيَّة للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْوَالَهُمْ﴾؛ فإنَّ الإضافة هنا تُفيد المَلكيَّة[٤].

٤- إثبات الصِّفات الفعليَّة- التي تتعلَّق بمشيئة الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿يُضَاعِفُ﴾؛ و(المُضَاعَفَةُ) فِعْل[٥].

٥- أنَّ الله له السُّلطانُ المطلَق في خَلْقه؛ ولا أحد يَعترِض عليه؛ لقوله تعالى: ﴿يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[٦].

٦- إنَّما كان المَنُّ بالصَّدقة مُفسِدًا لها؛ لأنَّ المِنَّةَ لله تعالى وحده، والإحسانُ

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٠٩، ٣٢٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣١٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣١١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣١٢).

كلُّه لله، فالعبد لا يَمُنُّ بنعمة الله وإحسانه وفضْله وهو ليس منه، وأيضًا فإنَّ المانَّ مستعبِدٌ لمن يمنُّ عليه، والذُّل والاستعباد لا ينبغي إلَّا لله عزَّ وجلَّ(١).

٧- قوله: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ﴾: خصَّ الصَّدقةَ بالنَّهي إذ كان المنُّ فيها أعظمَ وأشنعَ(٢).

٨- إثباتُ كون القياس دليلًا صحيحًا؛ وَجْه ذلك: التمثيل، والتَّشْبيه؛ فكل تمثيل في القرآن فإنَّه دليل على القياس؛ لأنَّ المقصود به نَقْل حُكْم هذا المُشبَّه به إلى المُشبَّه، وهذه قاعدة(٣).

٩- الإشارة إلى تَحسُّر الذين يُنفِقون أموالَهم رياءً عند احتياجهم إلى العمل، وعَجْزهم عنه؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا﴾؛ وعجز الإنسانِ عن الشيء بعد محاولة القُدْرة عليه- أشدُّ حسرةً من عَدَمه بالكليَّة(٤).

١٠- أنَّ المنافق كافِر؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾(٥).

١١- أنَّه لا إنفاقَ نافع إلَّا ما كان مملوكًا للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْوَالَهُمْ﴾؛ فلو أَنْفَق مالَ غيره لم يُقْبَل منه إلا أن يكون بإذن من الشَّارع، أو المالك(٦).

١٢- أنَّ الإنفاق لا يُفيد إلَّا إذا كان على وَفْق الشَّريعة؛ لقوله تعالى: ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ﴾(٧).

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦٦٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٢٣، ٣٢٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٢٤).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٢٧).
(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٢٨).

بلاغة الآيات:

١- قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

- في هذا التمثيل تصويرٌ للأضعاف كأنَّها حاضرةٌ بين يدَي الناظر(١).

- وفي الآية من محاسن البلاغة: الإيجازُ بالحَذْف على طريقة الاحتِباك، حيث حذَف من كلِّ جُملةٍ ما دلَّ عليه في الجملة الأخرى، والتَّقدير: مَثَل الذين يُنفِقون ونفقتهم كمَثَل حبَّة وزارِعها، فذِكْر المنفِق أولًا دليلٌ على حذْف الزارع ثانيًا، وذِكْر الحَبَّة ثانيًا دليلٌ على حذْف النَّفقة أولًا(٢).

- وهذا المثَل يتضمَّن التَّحريض على الإنفاق في سبيل الله، وشبَّه الإنفاق بالزَّرع؛ لأنَّ الزَّرع لا يَنقطِع(٣).

- وفيها حذفٌ إمَّا من جانب المشبَّه أو المشبَّه به؛ لتحصيل المناسَبة، أي: وتلك الحبَّة أُلقيتْ في الأرض، ثم أَنبتتْ سَبْعَ سنابل، ﴿فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ﴾، أي: أنبتتْ ساقًا انشعب سَبْعَ شُعَبٍ، خرج من كلِّ شُعْبة سُنبلةٌ فيها مئة حبَّة، فصارت الحبَّة سبعَمئة حبَّة بمضاعفة الله لها، وهذا المَثَل أبلغُ في النفوس من ذِكْر عدد السَّبعمئة؛ فإنَّ هذا فيه إشارة إلى أنَّ الأعمال الصَّالحة يُنمِّيها الله عزَّ وجلَّ لأصحابها كما يُنمِّي الزَّرعَ لَمن بَذَره في الأرض الطَّيِّبة(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣١٠-٣١١)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١٥٧-١٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣١٠- ٣١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٧٥-٧٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٥٧٨-٥٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦٥٤)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٠١-٢٠٢)

- وحذَف ذلك كلَّه إيجازًا؛ لظهور أنَّ الحبَّة لا تُنْبِت ذلك إلَّا كذلك، فهو مَن تشبيه المعقول بالمحسوس، والمشبَّه به هيئة معلومة، وجعَل أصلَ التمثيل في التضعيف حبَّة؛ لأنَّ تضعيفها مِن ذاتها لا بشيء يُزاد عليها، وحَسُن ذِكْر المضاعفة في حسنة الإنفاق في سبيل الله بأنْ يكونَ سبعمئة؛ لأنَّ المُضاعَفة تُنسَب إلى أصلٍ واحد[1].

٢- قوله: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

- **قوله: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾** جُمْلة مُستأنِفة؛ جيء بها لبيان كيفيَّة الإنفاق الذي بيَّن فضْلَه بالتَّمثيل المذكور[2]، وأعاد ﴿الَّذِينَ﴾؛ إظهارًا للاهتمام بهذه الصِّلة[3].

- **قوله: ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا﴾** عبَّر بـ﴿ثُمَّ﴾[4]؛ لإظهار التفاوت بين الإنفاق وبين ترْك المنِّ والأذى، ولإظهار عُلُوِّ رُتْبة المعطوف[5]. ويُحتَمل أنْ تكون ﴿ثُمَّ﴾ للدَّلالة على دوام الفِعل المعطوف بها، وإرخاء الطول في استصحابه[6].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٤١)

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٤٢).

(٤) (ثُمّ)-في الأصل -: تُشعِر بتراخي المعطوف بها عن المعطوف عليه في الزمان، وبُعْد ما بينهما، والزمخشريُّ يحملها على التفاوت في المراتِب والتباعُد بينهما، حيث لا يمكنه حملُها على التراخي في الزمان لسياق يأبى ذلك. كهذه الآية. والحاصل: أنَّها استعيرت من تباعُد الأزمنة لتباعُد المرتبة. ينظر ((تفسير الزمخشري - مع حاشية ابن المنير)) (١/ ٣٣٦)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٠٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣١١-٣١٢)، ((تفسير الرازي)) (٧/ ٤٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٥٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٥٨)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٠٣-٢٠٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٠٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٠٣-٢٠٤).

- ﴿مَنًّا وَلَا أَذًى﴾ إنَّما قدَّم المنَّ لكَثْرة وقوعه، وتوسيط كلمة ﴿لَا﴾؛ للدَّلالة على شُمول النَّفي؛ لإتْبَاع كلٍّ واحد منهما[١].

- في قوله: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أُخرج المبتدأ والخبر فيهما مَخرَج الشيء الثَّابت المُستَقِر الذي لا يكاد خبرُه يحتاج إلى تعليقِ استحقاقٍ بوقوعِ ما قبله، بخلاف ما إذا دخلتِ الفاءُ؛ فإنَّها مُشْعِرةٌ بترتُّب الخبر على المبتدأ، واستِحقاقه به[٢].

- وتَخْلية الخبر عن الفاء المفيدة لسببيَّة ما قبلها لِمَا بعدها؛ للإيذان بأنَّ ترتيب الأجرِ على ما ذُكِر من الإنفاق، وتَرْك إتباعِ الصَّدقة بالمنِّ والأذى - أَمرٌ بيِّنٌ لا يحتاج إلى التَّصريح بالسَّببيَّة[٣].

- في قوله: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا...﴾: تكرير ﴿لَا﴾ تنبيه على أنَّ انتفاءَ كلٍّ منهما شَرْطٌ لحصول الأجر ﴿لَهُمْ﴾، ولم يَقْرِنْه بالفاء؛ إعلامًا بأنَّه ابتداءُ عطاء مِن الله؛ تفخيمًا لمقداره وتعظيمًا لشأنه، حيث لم يجعله مسبَّبًا عن إنفاقهم[٤].

٣- قوله تعالى: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾

- تنكير ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ للتَّقليل، أي: أَقَلُّ قول معروف خيرٌ مِن صدقة يَتْبَعُها أذًى، والمراد به القولُ الحسن، وهو ضدُّ الأذى[٥].

- في قوله: ﴿يَتْبَعُهَا أَذًى﴾ لم يُعِد ذِكْرَ المنِّ فيقول: يَتْبَعُها منٌّ وأذى؛ لأنَّ الأذى يشمل المنَّ وغيره، وإنما ذُكِر بالتنصيص في قوله: ﴿لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٥٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦٥٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٥٨٢-٥٨٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٠٣-٢٠٤).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٧٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٤٧).

مَنًّا وَلَا أَذًى﴾؛ لكثرة وقوعه من المُتصدِّقين، وعُسْر تَحفُّظهم منه؛ ولذلك قُدِّم على الأذى(١).

٤- قول الله سبحانه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾

- قوله: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذى﴾ فيه تعريض بأنَّ الرياء والمنَّ والأذى على الإنفاق من صفات الكفَّار، ولا بُدَّ للمؤمن أنْ يتجنَّبها(٢).

- وفيه من بلاغة القرآن: النَّهي عن المنِّ، والأذى بالصَّدقة بهذه الصِّيغة التي تُوجِب النُّفور؛ وهي: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ﴾، فإنَّها أشدُّ وقعًا مِن (لا تَمُنُّوا، ولا تُؤذوا بالصَّدقة)(٣). ولأنَّه لَمَّا كانت النُّفوس مُولَعةً بذِكْر ما يَصدُر عنها من الإحسان للتمدُّح والفَخْر، وكان ذلك مطيَّة الرِّياء، وطريق المنِّ والإيذاء، لا سيما إذا آنس المتصدِّق تقصيرًا في شُكْره على صدقتِه أو احتقارًا لها، فإنَّه لا يكاد يَملِك حينئذ نفسَه ويَكُفُّها عن المنِّ أو الأذى-كان مِن الهُدى القويم ومقتضى البَلاغة أن يُؤتَى في النَّهي عن المنِّ والأذى والرِّياء بعبارات مختلفة؛ لأجل التأثير في التنفير عن ذلك، والحَمْل على تَرْكه(٤).

(١) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥٨٥)
(٢) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٠٤-٢٠٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٢١).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٥٤).

- قوله: ﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ مالَهُ رِئاءَ النَّاسِ﴾ الكاف في قوله: ﴿كَالَّذِي﴾ فيه قولان الأول: أنَّه مُتعلِّق بمحذوف، والتَّقدير: لا تُبْطِلوا صدقاتِكم بالمنِّ والأذى كإبطال الذي يُنفِق مالَه رئاء الناس، فبيَّن تعالى أنَّ المنَّ والأذى يُبطِلان الصَّدقة، كما أنَّ النِّفاق والرِّياء يُبطِلانها. والقول الثاني: أنْ يكون الكاف في محل النَّصب على الحال، أي: لا تُبطِلوا صدقاتِكم مماثِلين الذي يُنفِق مالَه رئاء الناس[١].

- قوله: ﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ مالَهُ رِئاءَ النَّاسِ﴾ الغرض مِن هذا التَّشبيه تَفظيعُ المشبَّه به[٢].

- قوله: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ فيه تشبيه تمثيليٌّ، فقد شبَّه إنفاقَ الأموال رئاء الناس بالتُّرابِ الذي يُوضَع على الصَّخر الأملس، يأتي عليه الوابلُ من المطر، فيَذْروه ويَذْهب به، ولا يترك له أثرًا. فأذهب عائدَ نفقته كما أذهب بَذْرَ الحارثِ على الصَّفوانِ وابلُ المطرِ، الذي شأنه أن يُصلِح البَذْرَ، هذا على القول بأنَّ الضمير في قوله: ﴿فَمَثَلُهُ﴾ عائد على ﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ﴾؛ لقُرْبه منه ولإفراده، فهو مثل، وتَشْبيه للمُنافِق يُري النَّاسَ أنَّ له أعمالًا كما يُرى التُّرابُ على هذا الصَّفوان، فإذا كان يوم القيامة اضمحلَّت وبطَلَتْ، كما أذهب الوابلُ ما كان على الصَّفوان من التراب.

ويحتمل أن يكون الضَّمير في: ﴿فَمَثَلُهُ﴾ عائدًا على المانِّ المؤذي، فيكون شُبِّه بشيئين: أحدهما: بالذي يُنفِق مالَه رئاء النَّاس، والثاني: بصَفوان عليه تُراب، ويكون قد عدَل من خِطاب إلى غَيبة، ومن جمْع إلى إفراد، فيكون فيه التفات[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٤٦-٤٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٤٨-٤٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٤٣-٤٤)، ((تفسير أبي حيان))، (٢/ ٦٦٣-٦٦٤)، ((الدر =

– في قوله: ﴿صَفْوَانٍ﴾ عبَّر بصيغة (فَعْلان) للمُبالغة في وصْف الحجارة المُلْس الصُّلبة، التي لا تَقبَل انصداعَها بالنَّبات[1].

– قوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ تذييل مُقرِّر ومؤكِّد لمضمون ما قبْلَه[2]، وهي خبرٌ فيه تعريضٌ بأنَّ الرِّئاء والمنَّ والأذى على الإنفاق من صِفات الكفَّار، ولا بدَّ للمؤمن أن يتجنَّب عنها[3].

٥- قوله: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ...﴾ خبرٌ مرادُه التَّحريضُ على تكرير الإنفاق[4].

– وفيه تَشْبيه تَمثيليٌّ، جاءت صُور التشبيه فيه مِن مُتعدِّد؛ فقد شبَّه إنفاقَ الأموالِ الخالصَ من الرِّياء في سبيل الله، وابتغاء مَرضاتِه، بالبُستانِ الوريف الظِّلال، فوق رَبوةٍ عالية، يَكْفيها القليلُ من المطر؛ لتَرْبوَ وتَهتزَّ، وتَمْرُع وتَخْصَب[5].

ووَجْه الشَّبه هو الهيئة الحاصِلة من مجموع أشياء تَكامَل بها تضعيفُ المنفعةِ، والهيئة المُشبَّهة هي النَّفقة التي حُفَّ بها طَلَبُ رِضا الله والتصديق بوعده، فضُوعِفت أضعافًا كثيرة، أو دونها في الكَثْرة، والهيئة المُشبَّهة بها هي هيأة الجنَّة الطَّيِّبة المكان التي جاءها المطر، فزكا ثَمرُها وتَزايد، فأكملتِ الثمرةَ، أو أصابها طَلٌّ فكانت دون ذلك، وقد حصل من تَمثيلِ حالِ الذين يُنفِقون أموالَهم في سبيل

= المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٥٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٨٠-٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٤٨-٤٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤١١).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٥١-٥٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦٧٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤١١).

الله بحَبَّة ثم بجنَّة، جِناسٌ مُصحَّف[1] بين (حبة وجنة)[2].

- تخصيص ﴿الْجَنَّة﴾ بأنَّها في رَبوة؛ لأنَّ أشجار الرُّبى تكون أحسن منظرًا، وأزكى ثمرًا، فكان لهذا القيد فائدتان: إحداهما: قوة وَجْه الشَّبَه كما أفاده قول ضِعْفين، والثانية: تَحسين المُشبَّه به، الراجع إلى تحسين المُشبَّه في تَخَيُّل السامع[3].

- وقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾ فيه من البلاغة وحُسْن التَّعليم: تبيينُ المعقول بالمحسوس؛ وهذا لأنَّه يُقرِّب المعقولَ إلى أذهان النَّاس[4].

- عطف قوله: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللهِ﴾ على قوله: ﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ مالَهُ رِئاءَ النَّاسِ﴾؛ لِزيادة بيان ما بين المرتبَتَين من البَون، وتأكيدًا للثَّناء على المنفقين بإخلاص، وتَفنُّنًا في التَّمثيل؛ فإنَّه قد مثَّله فيما سلف بحَبَّة أنبتت سبع سَنابل، ومثَّله فيما سلف تمثيلًا غير كثير التَّركيب؛ لتَحصُل السرعةُ بتخيُّل مضاعفة الثَّواب، فلمَّا مُثِّل حالَ المنفِق رئاءً بالتَّمثيل الذي مضى، أُعيد تمثيلُ حال المنفِق ابتغاء مرضاة الله بما هو أعجب في حُسْن التخيُّل؛ فإنَّ الأمثال تُبهِج السَّامع كلَّما كانت أكثرَ تركيبًا. وضُمِّنتِ الهيأة المشبَّه بها أحوالًا حَسَنة تُكسِبها حُسْنًا؛ ليَسْري ذلك التحسينُ إلى المُشبَّه، وهذا من جملة مقاصد التَّشبيه[5].

---

(١) الجناس المصحَّف مِن أنواع الجناس، ويسمى أيضًا جناس الخط: وهو تشابُه اللفظين في الكتابة مع الاختلاف في نقط الحروف، مثل: جنة وحبة، و(يَسْقي) و(يشفي) في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٧٩، ٨٠]. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٥/ ١٧٥٧)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٢٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٥٠).

- قوله: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ...﴾ فيه إيجاز بالحَذْف؛ إذ لا بدَّ من تقدير مُضاف هنا كما تَقدَّم: إمَّا مِن جانب المُشبَّه أو المُشبَّه به، أي: ومَثَل نفقةِ الذين إلخ، أو كمَثَل غارِس جَنَّة... إلخ؛ رعاية للتَّناسُب[1].

وفي التَّشبيه وجهان: أحدهما أنَّه مُركَّب، والتَّشبيه لحال النَّفقة بحال الجنَّة بالرَّبوة في كونها زاكية مُتكثِّرة المنافع عند الله كيفما كانت الحال[2]، والثاني: أنَّ تشبيهَ حالهم بحال الجنَّة على الرَّبوة في أنَّ نَفقتهم- كَثُرتْ أو قلَّت- زاكية زائدة في حُسْن حالهم[3].

كما أنَّ الجنَّة يُضعِّف أُكلَها قويُّ المطرِ وضعيفُه، وهذا أيضًا تشبيه مُركَّب، إلَّا أنَّه لُوحظ الشَّبه فيما بين المفردات، وحاصله: أنَّ حالهم في اتِّباع القِلَّة والكثرة: تضعيف الأجر، كحال الجنَّة في إنتاج الوابل والطَّلِّ: تضعيف ثِمارها[4].

- لَمَّا ضرب مَثَلَ مَن أنفق مالَه رئاء النَّاس وهو غير مؤمن، ذكَر ضدَّه بتمثيل محسوس للذِّهن ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ﴾، حتى يتصوَّر السامعُ تفاوتَ ما بين الضِّدين، وهذا مِن بديع أساليب فصاحة القرآن. ولَمَّا وصَف صاحبَ النَّفقة بوصفين، قابَل ذلك هنا بوصفين، فقوله: ﴿ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللهِ﴾ مُقَابِلٌ لقوله: رِئاء النَّاس[5] وقوله: ﴿وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ مُقابِل لقوله: ﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾؛ لأنَّ المُراد

(١) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٠٥-٢٠٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦٦٥-٦٦٦).

بالتَّثبيت تَوطين النَّفْس على المحافظة عليه وتَرْك ما يُفسِده، ولا يكون إلَّا عن يقين بالآخرة[١].

٦- **قوله:** ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ يحتمل أنْ يكون ممَّا لا يُزاد به شَفْع الواحد، بل يكون من التشبيه الذي يُقصَد به التَّكثير، وكأنَّه قيل: فآتت أُكلَها ضِعْفين، ضِعفًا بعد ضِعف، أي: أضعافًا كثيرة، وهذا أبلغُ في التَّشبيه للنَّفقة بالجنَّة؛ لأنَّ الحسنة لا يكون لها ثوابُ حسنتينِ، بل جاء: تُضاعَف أضعافًا كثيرة، وعَشْرَ أمثالِها، وسبعمئة وأزيد[٢].

٧- **قوله:** ﴿تَعْلَمُونَ﴾ فيه التفاتٌ من الغَيبة إلى الخِطاب الباعِث على فِعلِ الإنفاق الخالِص لوجه الله، والزَّاجِر عن الرِّياء والسُّمعة[٣].

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٦٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦٧١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٥٩٢)-وهذا على قراءة الجمهور بتاء الخطاب.

الآيات (٢٦٦- ٢٧٤)

﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ
إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ
تَتَفَكَّرُونَ (٢٦٦) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ
أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ
أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧) ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ
وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ
عَلِيمٌ (٢٦٨) يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا
كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ (٢٦٩) وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ
نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (٢٧٠)
إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ
لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٧١) ۞
لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ
فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ
يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٢٧٢) لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ
أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا
تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ (٢٧٣) ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ
وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا
هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٤) ﴾.

غريب الكلمات:

﴿أَيَوَدُّ﴾: أيحبُّ ويتمنَّى؛ فالودُّ: محبَّة الشَّيء، وتمنِّي كونَه[1].

﴿إِعْصَارٌ﴾: الإعصار هو: ريح شَديدة تَعصِف، تَرفَع تُرابًا إلى السَّماء، كأنَّه عمودُ نارٍ، أو هو الغُبار الذي يَسطَع مُستديرًا، أو رِيح عاصفة تنعكس من الأرض إلى السَّماء، ملتفَّة في الهواء، حاملة للتراب، مستديرة كالعمود[2].

﴿وَلَا تَيَمَّمُوا﴾: لا تَقصِدوا الرَّديء، ولا تَعمِدوا إليه[3].

﴿تُغْمِضُوا فِيهِ﴾: تترخَّصوا، وتتسامحوا، وأَصْل الغَمْض: النَّوم العَارِض، ثم استُعير للتَّغافُل والتَّساهُل[4].

﴿الْفَحْشَاءِ﴾: هي كلُّ شيء مُستقبَح ومُستشنَع، من قولٍ أو فِعلٍ[5].

﴿الْحِكْمَةَ﴾: العِلم والفِقه، وإصابة الحقِّ بالعِلم والعَقل، وأصل حَكم: المنع، وأوَّل ذلك الحَكْم، وهو المنع من الظُّلم، والإحكام هو الفصل والتمييز، والفرق والتحديد الذي به يتحقَّق الشيء ويحصُل إتقانُه؛ ولهذا دخل فيه معنى المنْع كما

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٩٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٦).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨).

دخَل في الحدِّ، فالمنعُ جزءُ معناه لا جميع معناه. والحِكمة اسمٌ للعَقل، وإنَّما سُمِّي حِكمة؛ لأنَّه يمنع صاحبه من الجَهل[(١)].

﴿الْأَلْبَابِ﴾: العقول الزكيَّة، مفردها لُبٌّ، وأصْل اللُّبِّ: الخُلُوص والجَوْدة، والشَّيء المُنتقَى[(٢)].

﴿نَذْرٍ﴾: إيجابُ المرءِ على نَفْسِه ما ليس بواجبٍ[(٣)].

﴿تُبْدُوا﴾: تُظهِروا، مِن بدَا بدوًّا وبداءً، أي: ظهَر ظُهُورًا بيِّنًا[(٤)].

﴿فَنِعِمَّا هِيَ﴾: فنِعمَ شيئًا أو فنِعم الشيءُ هي، وأصْل النِّعمة: التَّرفُّه، وطِيبُ العَيش، والصَّلاح[(٥)].

﴿يُوَفَّ إِلَيْكُم﴾: تُوفَّوْا أجْرَه، وأصْل التَّوفية: بلوغ التَّمام[(٦)].

﴿أُحْصِرُوا﴾: أي: مُنِعوا وحُبِسوا عن التَّصرُّف في مَعايِشِهم؛ خَوفَ العَدُوِّ، وأصْل الحَصْر: التَّضييق والمنْع[(٧)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨)، ((الإكليل في المتشابه والتأويل)) لابن تيمية (ص: ١١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٢).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٧)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٥/ ٣٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٢).

(٤) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١٢).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٩).

(٧) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (٣/ ٣٤٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٦).

﴿ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾: ذَهابًا فيها، أي: تِجارةً وغيرها كالسَّفر(١).

﴿التَّعَفُّفِ﴾: تَرْك السُّؤال، والكفُّ عمَّا لا ينبغي، والعِفَّة كذلك: حصولُ حالة للنَّفس تَمتنِع بها عن غَلبةِ الشَّهوة(٢).

﴿بِسِيمَاهُمْ﴾: بعلاماتهم وآثارهم؛ فأصْل الوَسْم: الأثَر والمَعلَم(٣).

﴿إِلْحَافًا﴾: إلحاحًا، وأصْله: الاشتمال والمُلازَمة(٤).

مُشكل الإعراب:

١- قوله ﴿فَنِعِمَّا هِيَ﴾: نِعِمَّا: مركَّبة من (نِعم) و(ما)؛ فأمَّا نِعم: ففعل ماضٍ جامد لا يتصرَّف، مبنيٌّ على الفتْح. وما: نكرة موصوفة بمعنى شيئًا، منصوبة على التمييز. والفاعل ضمير مستتِر في نِعْم، تقديرُه: هي، عائدٌ على الصَّدقات. وقيل: (ما) معرفة تامَّة، فاعل نعم، أي: نِعْم الشيءُ. وهي: ضمير مبنيٌّ في محل رفع مبتدأ، والجملة قبله (نعما) في محل رفْع خبر له، والتقدير: إن تبدوا الصدقات فهِيَ نِعم شيئًا، أو فهي نعم الشيءُ(٥).

٢- قوله: ﴿وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٩٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٣).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٦).

(٥) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٤١)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٢٢١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٦٠٨-٦٠٩).

ويُكفِّرُ: فعل مضارع، يجوز فيه الجزمُ والرَّفع؛ فمَن جزَمه عطفَه على موضِع الفاء في قوله: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾. ومَن رفَع فعلى القَطْع بتقدير مبتدأ؛ فمَن قرأ بالنون ورفع قدَّره: ونحن نُكفِّرُ، ومَن قرأ بالياء ورفع قدَّره: واللهُ يُكفِّرُ عنكم[1].

المعنى الإجمالي:

أيرغبُ أحدُكم- يا مَن تمُنُّون وتُراؤون- أن يَملِك بستانًا من أشجار النخيل والعِنَب، تجري فيه الأنهار، وقد احتوى أيضًا على جميع أصناف الثِّمار، وكَبِرت سنُّ صاحبه، فازداد حِرْصُه عليه؛ لضَعْفه عن التَّكسُّب، وكان له ذرية يَعولهم لا يستطيعون لضَعْفهم القيامَ بأمورهم، ومع تلك الحاجة الماسَّة إلى ذلك البُستان، حلَّت عليه كارثةٌ، فاجتاحته ريح قويَّة فيها نار، فأَحرقتْ ذلك البُستانَ، فإذا عايَن صاحبُها ما آل إليه بُستانُه، فكم سيكون في قلبه من الغمِّ والحَسرة، والألَمِ والحزنِ، فكذلك حالُ مَن أنفق لوجهِ اللهِ أولًا؛ حتى حقَّق الأجرَ العظيم، ثم أَفسَد ذلك بما يُبطِل أجرَه كالمنِّ والأذى، وفي الوقتِ الذي هو أَحْوجُ ما يكون إليها بعد موته يجِد تلك الأجورَ قد تلاشتْ، وبمِثْل هذا البيان يُوضِّح اللهُ الآياتِ؛ ليتفكَّر العبادُ ويتدبَّروا.

ثم يحُثُّ اللهُ عبادَه المؤمنين أنْ يُخرِجوا زَكواتِهم وصدقاتِهم من أجود أموالهم التي اكتسبوها بالحلال، وممَّا أخرج اللهُ لهم مِن الأرضِ من ثِمار وزُروع وركِاز ومَعادن، مُتْبِعًا ذلك الحثَّ بنهيهم عن أنْ يَقصِدوا الرَّديءَ من أموالهم ليتصدَّقوا به، ذلك الرَّديءُ من الأموال الذي لو كانوا هم في مقامِ آخِذ الصَّدقةِ، فلن يأخذوه إلَّا بإغماضِ بعضِ بَصَرهم عنه، وأمرهم أن يتيقَّنوا أنَّ اللهَ غنيٌّ حميد.

ثم يُخبِر تعالى عبادَه المؤمنين أنَّ الشيطان يُخوِّفهم الفقرَ إنْ هم تَصدَّقوا،

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٤١)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٢٢١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٦١٠).

ويأمرهم بالبخلِ وبجميعِ المعاصي والمُنكَرات، والله سبحانه يَعِدُكم- أيُّها المؤمنون- مغفرةً لما يَصدُر منكم، ويَعِدُكم أن يُخلِف عليكم ما تصدَّقتم به، ويَزيد في أجوركم وأرزاقكم، والله واسع عليم؛ يُعطي سبحانه الحِكمةَ مَن يشاء من عباده، ومَن يُكرِمه الله بالحِكمة، فقد أُعْطي خيرًا عظيمًا، ولا يتَّعِظ بمواعظِ الله تعالى- فيذكُر وعْدَه ووعيدَه، فيَمتثِل لِمَا أُمر به، ويَنتهي عمَّا نُهي عنه- إلَّا أصحابُ العقولِ الكاملة.

ثم يُخبِر الله تعالى عبادَه أنَّ أيَّ صَدقةٍ تصدَّقوا بها، أو أي نَذْر ألزَموا به أنفسَهم، فإنَّ ذلك تحت عِلْم الله، الذي لا يَخْفى عليه شيء، ويُجازيهم عليها، وليس لمَنْ لم يُنفِق ما وجَب عليه ولم يُوفِ بما نذَره أحدٌ يَنصُره من الله يوم القيامة.

ثم يُخاطِب عبادَه سبحانه بأنَّهم إنْ أَظهَروا الصَّدقاتِ، فأَعطَوها علانيةً فنِعْم الشيء هي، ما دام أنَّها لله، وقد حصَل المقصودُ منها، وإن أَخْفَوا الصَّدقات، وأَعْطَوها الفقراءَ سرًّا فهو أفضل من الإظهار، ويُكفِّر الله السيِّئاتِ بهذه الصَّدقات المُعلَنة منها والمخفيَّة، والله مُطَّلِعٌ على ما يعملون من أعمالٍ، فيُحصيها ويُجازيهم بها.

ثم يتوجَّه الخطابُ إلى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فيُخبِره تعالى أنَّه ليس عليه هداية الخَلْق هدايةَ التَّوفيق، ولكن عليه البلاغ والإرشاد؛ فالله هو الذي يَهدي مَن يشاء إلى دِينه. ثم يُخبِر تعالى أنَّ ما يتصدَّق به المُنفِقون من خير فنَفْعه الحقيقي عائدٌ عليهم، وأنَّ النَّفقة النَّافعة لصاحبها هي ما كانت خالصةً لله تعالى، وابتغى بها صاحبُها النظرَ إلى وَجْه الله الكريم، وأنَّ ما يتصدَّقون به من مالٍ يؤدَّى إليهم أجْرُه في الآخرة كاملًا، فلا يَضيعُ عند الله شيء.

ثم أَرْشد سبحانه إلى أنْ تُعطى تلك النَّفقات لمن لا يَملِكون شيئًا يَسُدُّ حاجتَهم، ممن حبَسوا أنفسَهم على الجهاد في سبيل الله، وحبَسهم أيضًا تَربُّص

أعدائهم بهم، فلا يستطيعون التصرُّف في أشغال الدُّنيا، ولا الضرب في الأرض طلبًا للرِّزق، يَظُنُّهم مَن يجهَل أمرَهم، أغنياءَ من شِدَّة تَرْكهم التَّعرض لسؤال الناس، وما يُميِّزهم هو آثار الحاجة التي تظهر عليهم، ويَلمَحها ذَوو الفِطنة من خلال ملامح وجوههم، أو نظراتهم، أو بعض عباراتهم، وهم لا يسألون النَّاس مطلقًا، لا مُلْحِفين مُلِحِّين في المسألة ولا غير مُلِحِّين. ثم أخبَر تعالى أنَّ ما يَبذُلونه من مال قليلًا أو كثيرًا، فإنَّ الله يَعلَمه، وسيُحصيه، وسيَجزيهم عليه أتمَّ الجزاء.

ثم وعَد الله الذين يَبذُلون أموالَهم صدقةً في أيِّ وقت كان، من ليل أو نهار، سواء في السِّرِّ أو العَلَن، بأنَّ لهم يومَ القيامة أجرًا عظيمًا، ولا يُصيبهم خوفٌ على ما يُستقبَل، ولا يحزنون على ما مضَى.

تفسير الآيات:

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢٦٦)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

هذا استئنافٌ بياني أثارَه ضربُ المَثَل العجيب للمُنفِق في سبيل الله بمَثَل حبَّة أنبتت سبع سنابل، ومَثَل جنَّة بربوة، إلى آخِر ما وصف من المَثلين، ولَمَّا أتْبع بها يُفيد أنَّ ذلك إنَّما هو للمُنفِقين في سبيل الله الذين لا يُتْبِعون ما أنفقوا منًّا ولا أذًى، ثم أَتْبع بالنهي عن أن يُتْبِعوا صدقاتِهم بالمنِّ والأذى، استشرفت نَفْس السامع لتلقِّي مَثَلٍ لهم يُوضِّح حالَهم الذميمة كما ضرَب المَثَل لمن كانوا بضدِّ حالهم في حالة محمودة[1] فقال:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٥٣).

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾.

أي: هل يرغب أحدٌ منكم في أن يمتلك بُستانًا ذا أشجارٍ كثيرة، تَستُر ما بداخله من كثرتها، ويحوي أفضلَ أنواعِ الأشجار، وأشرفَ أنواع الثمار، وأكثرها نفعًا، ممَّا لا يوجد عادةً مجتمعًا في موضعٍ واحدٍ، ألَا وهي أشجار النَّخيل والعِنَب، وتجري في أرض هذا البستان المدهش المياهُ العَذْبة المتفرِّقة في أنحائه، فتسقيه بلا تعبٍ ولا مؤونة، ليس هذا فحسبُ، بل يشتمل أيضًا على جميع أصناف الثِّمار الشهيَّة؛ فهو بُستانٌ ذو مشهدٍ عجيب، متكاملٌ من جميع نواحيه، ممَّا يُوجِب لصاحبه الفرح العظيم، والابتهاج الشديد به(١).

﴿وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾.

أي: كبِرتْ سنُّ صاحبِ الجنةِ، فغدا شديدَ التشبُّث بها؛ إذ لم يعُدْ قادرًا بعدُ على مباشرةِ التكسُّب، ومعاناة التجارة؛ للحصولِ على قُوته بنفسِه، وقد اشتدَّ حرصُه مع تقدُّمِه في العمرِ، وله عيالٌ يقومُ بحاجاتهم، لا سيَّما وأنهم عاجزون عن القيامِ بذلك بأنفسِهم؛ إمَّا لصغرهم، أو لغير ذلك من أسبابِ العجزِ، فهم كَلٌّ عليه، فكُلُّ هاتيك الشدائدِ مجتمعةً تدفعه نحوَ شدَّةِ التعلُّق بجنَّتِه، فهو أحوجُ ما يكونُ إليها في مِثل هذه الأحوالِ العصيبة، فبينما هو على ذلك إذ حلَّت الكارثةُ بها، حين اجتاحتها ريحٌ عاصفٌ تستديرُ في الأرضِ، ثم ترتفعُ في طبقاتِ الجوِّ كالعمود، وقد احتوت على نارٍ أحرقتْ تلك الجنةَ، فتلفتْ دفعةً واحدةً، فلا تسألْ بعدَها عن فظاعةِ حالِه وسوءِ ما حلَّ به مِن الهمومِ والغمومِ والأحزانِ، وقد أصبح صِفرَ اليدين بلا شيء يملكُه.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٦٧٩-٦٨٠)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيِّم (ص: ٣٧٠-٣٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٩٥-٦٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٤)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٣٠-٣٣١).

فكذلك مَن أنفق لوجهِ الله تعالى باديَ الأمرِ، فنفقتُه بمنزلةِ البذرِ للزُّروعِ والثِّمارِ، ولا يزال كذلك حتى يحقِّقَ مِن عملِه هذا حسناتٍ عظيمةً، بمثابة جنةٍ غنَّاء، في غايةِ الحسنِ والبهاءِ، لكنه أفسدَ نفقاتِه بما يُبطِلُ الأجرَ، كالمنِّ والأذَى، وذلك بمنزلةِ الإعصارِ الذي فيه نارٌ، فأحرق جنتَه، وهو أحوجُ ما يكون إليها، فكذلك إذا مات أصبح في حالٍ لا يقدرُ معها على العملِ الصالحِ، ولا له نصيرٌ أو شفيعٌ، فيجدُ أنَّ نفقاتِه التي يرجو نفعَها قد صارت هباءً منثورًا[١].

عن عُبَيد بن عُمَير قال: قال عمرُ رضي الله عنه يومًا لأصحاب النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: (فيمَ تَرون هذه الآية نزلتْ: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ﴾؟ قالوا: الله أعلم، فغضِب عمرُ، فقال: قولوا: نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عبَّاس: في نفْسي منها شيء يا أمير المؤمنين، قال عمر: يا أخي، قُلْ ولا تَحقِر نَفْسك، قال ابن عبَّاس: ضُربت مَثَلًا لعمل، قال عمر: أي عمل؟ قال ابن عبَّاس: لعملٍ. قال عمر: لرجل غني يَعمل بطاعة الله عزَّ وجلَّ، ثم بعث الله له الشيطان، فعمِل بالمعاصي حتى أغرق أعمالَه)[٢].

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

أي: كما بيَّن لكم ربُّكم جلَّ وعلا أمرَ النَّفقة في سبيله، كذلك يُبيِّن لكم الآياتِ التنزيليَّة والكونيَّة، فيعرِّفكم أحكامَها وحلالَها وحرامها، ويُوضِّح لكم حُججَها؛ لتتفكَّروا بعقولكم فتتدبَّروا وتعتبِروا وتَفهَموا الأمثالَ والمعاني، وتُنزِلوها على المراد منها؛ لتُطيعوا الله جلَّ وعلا، فلو تَصوَّر مَن له أدنى مُسْكة من عقل هذا المَثَل حقَّ تَصوُّره، وتأمَّلَه كما ينبغي، لم يُقدِم على ما فيه مضرَّته وندامته، ولَمَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٦٨٠-٦٨١، ٦٨٩-٦٩٣)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣٧٢-٣٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٤، ٩٥٦، ٩٥٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٣١-٣٣٢).

(٢) رواه البخاري (٤٥٣٨).

سوَّلت له نفْسه إحراقَ أعماله الصالحة، وإضاعة أجورها(١).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

بعد أنْ ذكَر الله عزَّ وجلَّ فضيلةَ الإنفاق في سبيله ابتغاءَ وَجْهه، وسوء العاقبة لمن منَّ بصَدقته، أو أنفق رياءً، حثَّ على الإنفاق؛ مُبيِّنًا ما يُنفَق منه(٢).

سبب النزول:

عن البَراء رضي الله عنه، أنَّه قال في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾: (نزلت فينا -معشر الأنصار- كنَّا أصحابَ نَخْل، فكان الرجلُ يأتي من نخله على قَدْر كَثْرته وقلَّته، وكان الرجلُ يأتي بالقِنْو(٣) والقِنْوين فيُعلِّقه في المسجد، وكان أهل الصُّفَّة ليس لهم طعامٌ، فكان أحدهم إذا جاء أتى القِنْو فضربه بعصاه، فيَسقُط البُسْر والتَّمر فيأكل، وكان ناسٌ ممَّن لا يَرغَب في الخير يأتي الرجل بالقِنْو فيه الشِّيص(٤) والحَشَف(٥) والقِنْو قد انكسر، فيُعلِّقه فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٦٩٣)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيِّم (ص: ٣٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٤-١١٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٣٨).

(٣) القِنْو: العِذْق (الشُّباطة) بما فيه منَ الرُّطَب. وهو من النَّخل كالعُنقود من العنب. ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ١١٦)، ((معجم اللغة العربية المعاصرة)) (٣/ ١٨٦٦).

(٤) الشِّيصُ: التَّمر الذي لا يَشتدُّ نَواه ويَقوَى، وقد لا يكونُ له نوَى أصلاً؛ وإنَّما يَتَشَيَّصُ إذَا لم تُلقح النَّخل. ((الصحاح)) للجوهري (٣/ ١٠٤٤)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٥١٨).

(٥) الحَشَف: أَردأُ التَّمر، واليَابِس الفاسِد مِنه. وقيلَ: الضَّعِيفُ الَّذي لا نَوَى له كالشِّيص. ((الصحاح)) للجوهري (٤/ ١٣٤٤)، ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٣٩١).

مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾، قال: لو أنَّ أحدكم أُهْدِي إليه مِثْل ما أَعْطى، لم يأخذْه إلَّا على إغماضٍ أو حياءٍ)، قال: فكنَّا بعد ذلك يأتي الرَّجل بصالح ما عنده))[1].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾.

أي: يَحُثُّ الله تعالى عبادَه المؤمنين على أن يُزَكُّوا ويتصدَّقوا من أجود أموالهم التي اكتسبوها حلالًا بالتِّجارة، وأمرهم أن يُنفِقوا من الثِّمار والزروع والرِّكاز والمعادن التي أخرجها لهم سبحانه من الأرض، فكما منَّ عليهم بتيسير الحصول على ذلك، فلْيُنفِقوا منه شكرًا له عزَّ وجلَّ[2].

﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾.

أي: لا تَقصِدوا الرَّديء من أموالكم فتتصدَّقوا منه، وتُمسِكوا الجيِّد لأنفسكم؛ فإنَّ هذا ليس من العدل في شيء، ولكن تصدَّقوا من الطيِّب الجيِّد، فإنَّكم لو كنتم مكانَ آخذ الصَّدقة والحالة هذه، فلستم بآخذيها إلَّا على وَجْه التَّسامح والتغاضي عن ذلك، فإنَّكم لكَراهتِكم إيَّاه تُغمِضون بَعضَ بَصَركم عنه؛ إذ لا يملأ أعينكم لرداءته، فالله عزَّ وجلَّ أحقُّ أن يُبذَل لأجلِه أطايبُ المال؛ فإنَّه سبحانه طيِّبٌ لا يَقْبل إلا طيِّبًا[3].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٨٧).
قال الترمذيُّ: حسنٌ غريبٌ صحيح. وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٩٨٧)، وقال الوادعيُّ في ((الصحيح المسند)) (١٤٦): حسنٌ غريب.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٦٩٤-٦٩٦)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيِّم (ص: ٣٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٥-٩٥٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٣٨-٣٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٦٩٨-٦٩٩، ٧٠٣-٧٠٩)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيِّم =

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

أي: اعلموا أيُّها النَّاس، أنَّ الله عزَّ وجلَّ غنيٌّ عنكم وعن أعمالكم، ومنها صدقاتكم، فلا حاجةَ له بها، وإنَّما أمركم بها؛ رحمةً منه لكم، فنفعها عائدٌ إليكم؛ إذ يُغْني بها فقيرَكم، ويُقوِّي بها ضعيفكم، ويُثيبكم عليها.

واعلموا أيضًا أنَّه سبحانه المحمودُ على جميع صِفاته وأفعاله وأقواله وشَرْعه وقَدَره، ومن ذلك غناه، فإنَّه يُحمَد عليه سبحانه، ومن ذلك أيضًا ما يأمركم به من الأوامر الحميدة، والأخلاق الجميلة، وهو عزَّ وجلَّ يَحمَد مَن يَستحِقُّ الحمد؛ فأثنى على أنبيائه، ورسله، والصالحين من عباده[1].

كما أنَّ غناه وحمْده يَأبيَان قَبُول الرَّديء، فإنَّ مَن يأخذه؛ إمَّا أنْ يَقبله لحاجته إليه، وإمَّا أنَّ نفسه لا تأباه؛ لعدم كمالها وشرفها، وأمَّا الغنيُّ عنه الكامل الأوصاف سبحانه، فإنَّه لا يَقْبله[2].

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦٨)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا رغَّب اللهُ في إنفاق أجودِ ما يَملِكه الإنسان، حذَّر بعد ذلك من وسوسة الشَّيطان[3] فقال:

= (ص: ٣٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٥، ٩٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٣٩-٣٤٠).

وممَّن قال مِن السَّلف في معنى: ﴿الخبيث﴾ بنحوِ ممَّا ذُكر: قتادة، والحسن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٧٠١).

(١) ينظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٧١١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٥-٩٥٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٤٠-٣٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٥٥).

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾.

أي: إنَّ الشيطان يخوِّفكم- أيُّها المؤمنون- بالافتقار إن تصدَّقتم، فإذا صوَّر لكم هذه الصورة أَمَركم بالبُخل الذي هو من أقبح الفواحش؛ لتُمسِكوا ما بأيديكم فلا تُنفِقوه في مرضاة الله تعالى، وتشمل الفحشاء أيضًا ما سوى البُخل، من قبائح المعاصي والمنكرات[1].

﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا﴾.

أي: إنَّ الله عزَّ وجلَّ يَعِدُكم- أيُّها المؤمنون- بأنْ يَستُرَ عليكم ما ارتكبْتُموه مِن فحشاء، ويتجاوزَ عن مؤاخذتِكم بها؛ لما تقدِّمونه مِن صدقاتٍ وغيرِها، وهذا في مقابلةِ أمرِ الشيطانِ لكم بالفحشاءِ، كما يعدُكم اللهُ تعالى بأن يعوِّضَكم عمَّا تصدقتم به، بمنحِكم المزيدَ مِن الأجورِ والأرزاقِ في الدنيا والآخرة، وذلك في مقابلةِ تخويفِ الشَّيطانِ لكم بالفقرِ[2].

﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى واسع الفضل، واسع الصِّفات، ومن ذلك سَعَةُ عِلْمه؛ فهو

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيِّم (ص: ٣٧٤-٣٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٥، ٩٥٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٤٦-٣٤٧).
قال ابن القيِّم: (هذا إجماع من المفسِّرين أنَّ الفحشاء هنا البخل) ((طريق الهجرتين)) (ص: ٣٧٥).
ممَّن قال من السَّلف: إنَّ (الفحشاء) المقصود بها البُخل: ابن عبَّاس في رواية عنه. ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٥٣٠).
وممَّن قال: إنَّ (الفحشاء) المقصود بها المعاصي: سعيد بن جُبَير، ومقاتل بن حيَّان، وابن المبارك. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٥٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٥)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٤٦-٣٤٧).

عليمٌ بمن يَستحِقُّ فضْله منكم، وعليم بنفقاتكم التي تُنفِقون، فيُحصيها لكم ويُجازيكم بها من سَعَة فضله[١].

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٦٩)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا أمَر تعالى بهذه الأوامر العظيمة المُشتمِلة على الأسرار والحِكَم، وكانت معرفة ذلك لا تَحصُل لكلِّ أحد، بل لمن منَّ عليه فآتاه الحكمة، ولَمَّا ذَكَر أحوال المنفقين للأموال، وأنَّ الله أعطاهم، ومنَّ عليهم بالأموال التي يُدرِكون بها النَّفقات في مسالك الخيرات، وينالون بها سَنِيَّ المقامات، ذكَر ما هو أفضلُ من ذلك، ولَمَّا كان بذْل النَّفقات المالية التي سبق ذِكْرها، وبذْل الحِكمة العلميَّة، من أفضل ما يتقرَّب به المتقرِّبون إلى الله تعالى، كما جاء عن عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((لا حسدَ إلَّا في اثنتين: رجلٌ آتاه اللهُ مالًا؛ فسلَّطَه على هَلَكَتِه في الحقِّ، ورجلٌ آتاه اللهُ الحِكمةَ؛ فهو يَقضي بها ويُعلِّمُها))[٢]- قال تعالى[٣]:

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾.

أي: يُعطي الوهَّابُ عزَّ وجلَّ مَن يشاء من عباده معرفةَ الحقِّ، ومعرفة المقصود منه، والعمل به، وبذلك يتمكَّن من الإصابة في القول والعمل، وتنزيل الأمور منازِلَها في نفْسه وفي غيره، ووضْعها في مواضِعها اللائقة بها؛ فإنَّ الإصابةَ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٨)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيِّم (ص: ٣٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٥، ٩٥٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٥٠).

(٢) رواه البخاري (٧٣) واللفظ له، ومسلم (٨١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٥، ٩٥٧).

الأمور إنَّما تكون بفَهْم القرآن والفقه في حقائق الإيمان وشرائع الإسلام، مع الخشية لله تعالى، والنُّبوة من الحكمة؛ لأنَّ الأنبياء مُسدَّدون، مُفهَّمون، ومُوفَّقون لإصابة الصَّواب[1].

﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

أي: إنَّ من يُعطَى تلك الحِكمة من العباد، فيخرج من ظُلْمة الجهل إلى نورِ الهُدى، ومن حُمْق السَّفه والانحراف في الأقوال والأفعال، إلى إصابة الصَّواب فيها، وحصول التَّوفيق والسَّداد، فقد مُنح خيرًا عظيمًا لا يُقدَّر؛ فإنَّ الحكمة أفضلُ الأُعطيات، وهي أجلُّ المنح والهِبات[2].

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

أي: لا يتَّعظ بما وعظ به الله تعالى في آياتِه المُنفِقين أموالَهم وغيرَهم، فيَذكُر وعدَه ووعيدَه، فيَنزجِر عمَّا زجره عنه ربُّه، ويُطيعه فيما أمره به سبحانه، إلَّا أصحابُ العقول الكاملة، الذين يَعقِلون بها عن الله عزَّ وجلَّ أمرَه ونهيه[3].

﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٢٧٠)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا بيَّن الله تعالى أنَّ الإنفاق يجب أن يكون من أجود المال، ثمَّ حثَّ أولًا: بقوله

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٨، ١٢)، ((مدارج السالكين)) لابن القيِّم (١/ ٢٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٥، ٩٥٧)، ((تفسير ابن عُثيمين – الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٨، ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٥، ٩٥٧)، ((تفسير ابن عُثيمين – الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٢–١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٥، ٩٥٧)، ((تفسير ابن عُثيمين – الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٥١).

﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ﴾، وثانيًا: بقوله: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾، حثَّ عليه ثالثًا[1] فقال:

﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ﴾.

أيْ: أَيَّ صدقة بذلتموها، أو أيَّ نَذْر نَذرتموه ممَّا أَلزَم المرءُ به نفسَه، فإنَّ الله تعالى لا يَخْفى عليه من ذلك شيء، فيعلم نيَّتكم بها، ويعلم ما قدَّمتم منها، فيُحصيه عليكم ويُجازيكم به، إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشر[2].

﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾.

أي: ليس لِمَن لم يُنفِق ما وجب عليه من النَّفقات ولم يوفِّ ما أَوجَبه على نفسه من المنذورات، أو كانت نفقتُه أو نَذْره في غير طاعة الله عزَّ وجلَّ، ما له أحد يَنْصُره من الله يوم القيامة؛ لأنَّه ظالم بوضْعه إنفاقَ ماله أو نَذْرَه في غير موضِعه الصَّحيح، وعلى غير الصِّفة المأمور بها شرعًا[3].

﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٧١)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا بيَّن الله تعالى أولًا أنَّ الإنفاق منه ما يَتْبَعه المنُّ والأذى، ومنه ما لا يكون كذلك، وذكر حُكْمَ كلِّ واحد من القِسْمين، ثم ذكر أنَّ الإنفاق قد يكون من جيِّد، أو من رَديء، وذكَر حُكْمَ كلِّ واحد من القسمين- ذكر في هذه الآية أنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٣، ١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٥، ٩٥٧، ٩٥٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٥٤، ٣٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٣، ١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٥، ١١٦، ٩٥٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٥٤، ٣٥٥).

الإنفاق قد يكون ظاهرًا، وقد يكون خفيًّا[(١)] فقال:

﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾.

أي: إنْ تُظهِروا الصَّدقاتِ فتُعطوها علانيةً، فنِعْم الشيءُ هي؛ لحصول المقصود بها، ما دام أنَّها لأجْل الله تعالى[(٢)].

﴿وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾.

أي: إنْ تَستروا صدقتكم غيرَ المفروضة عليكم، فتُعْطوها الفقراءَ في السرِّ، فإخفاؤكم إيَّاها أفضلُ لكم من إظهارها وإعلانها، ففي إخفائها: السَّترُ على الفقير، وحِفْظ ماء وجهه بعدم تَخجيله وفضيحته بين الناس، وهذا قدْرٌ زائدٌ عن الإحسان إليه بمجرَّد الصَّدقة، مع كونه أَدْعى إلى إخلاص صاحبها، وأَبْعدَ له عن الرِّياء.

وقيَّد تعالى الإخفاءَ بإيتاء الفقراء خاصَّة؛ لأنَّ من الصَّدقة ما لا يُمكِن إخفاؤه كتجهيز الجيش، أو يتَرتَّب على الإظهار مصلحةٌ راجحةٌ، كإظهار شعائر الدِّين، وحصول اقتداء النَّاس به[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٤)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيِّم (ص: ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٤-١٧)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيِّم (ص: ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٠١-٧٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٦، ٩٥٨).

قال ابنُ جرير: (الواجب من الفرائض قد أجمَع الجميع على أنَّ الفضل في إعلانه وإظهاره سِوى الزكاة، التي ذكرنا اختلافَ المختلفين فيها، مع إجماع جميعهم على أنَّها واجبة، فحُكمُها-في أنَّ الفضلَ في أدائها علانيةً-حُكمُ سائر الفرائض غيرها) ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٧).

وقال الواحديُّ: (جمهور المفسِّرين على أنَّ المراد بالصدقات في هذه الآية: التطوُّع، لا الفرض؛ لأنَّ الفرض إظهاره أفضلُ من كتمانه، والتطوُّع كتمانه أفضل) ((التفسير الوسيط)) (١/ ٣٨٥).

وقال ابن عطيَّة: (ذهب جمهور المفسِّرين إلى أنَّ هذه الآية هي في صدقة التطوع) ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٣٦٥).

وقال ابن العربي: (أمَّا صدقة الفرض، فلا خلافَ أنَّ إظهارها أفضل، كصلاة الفرض وسائر =

عن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((سبعةٌ يُظِلُّهُم اللهُ تعالى في ظِلِّه يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّه: إمامٌ عَدْلٌ، وشابٌّ نشأَ في عبادةِ الله، ورجلٌ قلبُه مُعَلَّقٌ في المساجدِ، ورجلانِ تَحابَّا في اللهِ؛ اجتَمَعا عليه، وتفرَّقا عليه، ورجلٌ دعَتْهُ امرأةٌ ذاتُ منصبٍ وجمالٍ، فقال: إنِّي أخافُ اللهَ، ورجلٌ تصدَّقَ بصدقة، فأخفاها حتى لا تعلمَ شمالُه ما تُنْفِقْ يمينُه، ورجلٌ ذَكَرَ اللهَ خاليًا ففاضتْ عَيناه))(١).

عن أنسٍ رضي الله عنه، قال: ((لَمَّا نزلت هذه الآية ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] أو ﴿الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، قال أبو طلحة- وكان له حائط- فقال: يا رسول الله، حائطي لله، ولو استطعتُ أنْ أُسِرَّه لم أُعْلِنه، فقال: اجعلْه في قرابتك أو أقربيك))(٢).

﴿وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: ﴿ويكفِّر﴾ قراءات:

١- قراءة (وَنُكَفِّرُ)، على معنى الإخبارِ مِن الله عزَّ وجلَّ عن نفسِه، على وجهِ التفخيمِ والتعظيمِ(٣).

= فرائض الشريعة؛ لأنَّ المرء يُحرِز بها إسلامَه، ويعصم مالَه، وليس في تفضيل صدقة العلانية على السرِّ، ولا في تفضيل صدقة السرِّ على العلانية حديثٌ صحيح يُعوَّل عليه، ولكنَّه الإجماع الثابت. فأمَّا صدقة النفل فالقرآن صرَّح بأنها في السرِّ أفضلُ منها في الجهر؛ بَيدَ أنَّ علماءنا قالوا: إنَّ هذا على الغالب مخرجه، والتحقيق فيه: أنَّ الحال في الصَّدقة تختلف بحال المعطي لها، والمُعطَى إيَّاها، والناسِ الشاهدين لها) ((تفسير القرطبي)) (١/ ٣١٥).

(١) رواه البخاري (١٤٢٣) واللفظ له، ومسلم (١٠٣١).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩٩٧)، وأحمد (١٣٧٩٣).

قال الترمذي: حسن صحيح. وقال ابن القطان في ((الوهم والإيهام)) (٥/ ٦٢٠): صحيح أو حسن. وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٩٩٧).

(٣) قرأ بها ابن كثير، وأبو عمرو، وأبو بكر عن عاصم، ويعقوب. ينظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٣٦).
=

٢- قراءة (وَيُكَفِّرُ) بإضمارِ ضميرٍ يعودُ على اللهِ تعالى في الفعلِ؛ لأنَّه هو المكفِّرُ حقيقةً. وهو الراجح بحمله على قراءة (وَنُكَفِّرُ)، وقيل: إنَّه يعودُ على صرفِ الصَّدقاتِ، أي: ويكفرُ صرفُ الصدقاتِ. وقيل: إنَّه يعودُ على الإخفاءِ المفهومِ من قوله: (وإن تخفوها)، ويجوزُ أن ينسب التَّكفيرِ للصرفِ والإخفاءِ؛ لأنَّهما سببٌ للتكفيرِ، وكما يجوزُ إسنادِ الفعلِ إلى فاعلِه، يجوزُ إسنادُه إلى سببِه[1].

٣- قراءة (وَنُكَفِّرْ) معطوفًا على جوابِ الشرطِ الثاني في قوله تعالى: (فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ)، إيذانًا بدخولِ التكفيرِ للسيئاتِ في الجزاءِ، إنْ أُخفِيت الصدقةُ[2].

﴿وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾.

أي: إنَّه لَمَّا امتدَح اللهُ تعالى الصدقةَ عَلَنًا كانت أو سرًّا، لا سيَّما إن كانت سرًّا؛ لأنَّها أفضل للمُتصدِّق، وتضمَّن ذلك حصولُ الثَّواب، بيَّن أنَّه يَسْتُرُ بها السيِّئاتِ جميعَها، أو بعضَها؛ دفعًا للعقاب[3].

= ويُنظر لمعنى هذه القِراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٣٠)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٤٧)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦٩٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٦١٣).

(١) قرأ بها ابن عامر، وحفص عن عاصم. ينظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٣٦).
ويُنظر لمعنى هذه القِراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٣٠)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٤٧)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦٩٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٦١٣).

(٢) قرأ بها نافع، وحمزة، والكسائي. ينظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٣٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٣٠)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٤٧)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦٩٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٦١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٥٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٥٧).
ذهب الواحديُّ إلى أنَّ ﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيُكَفِّر عَنكُم من سيِّئاتِكم﴾ صلة للكلام، أي: جميع سيئاتكم. يُنظر: ((التفسير الوسيط)) (١/ ٣٨٥). =

﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

أي: إنَّ الله عزَّ وجلَّ مُطَّلِعٌ على ما تعملون في صدقاتِكم، من إعلانٍ بها وإسرار، وعلى غير ذلك من أعمالكم، فيُحصيها لكم ويُجازي كلًّا بعمله، فهو سبحانه ذو علمٍ ببواطن الأمور وظواهِرها، لا يَخْفى عليه شيءٌ من أعمالكم ونيَّاتِكم[1].

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٢٧٢)﴾.

سبب النزول:

عن سعيد بن جُبير عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، قال: ((كانوا يَكْرَهون أن يَرضَخوا[2] لأنسابهم من المشركين، فسألوا فرُخِّص لهم، فنزلت هذه الآية ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُون﴾))[3].

وعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، قال: ((كان يأمرنا ألَّا نَتصدَّق إلَّا على أهلِ الإسلام، حتى نزلت هذه الآية، فأمَرَنا بالصَّدقة بعدها على كلِّ مَن سألك من كل دِين))[4].

= وذهب ابن عطيَّة إلى أنها للتبعيض. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٣٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٨، ١٩)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيِّم (ص: ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٦، ٩٥٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٥٨).

(٢) يَرضَخوا: أي: يعطوهم عطاءً غير كثير، والرَّضْخ: العطية القليلة. ومنه الرَّضخ من الغنائم؛ لأنه عطيةٌ دون السهم. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٢٢٨)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٧/ ٢٥٨).

(٣) أخرجه البزار (٥٠٤٢)، والطبراني (١٢/ ٥٤) (١٢٤٥٣)، والحاكم (٢/ ٣١٣).
صحَّح إسناده أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٣٢٧)، وصحَّحه الوادعي في ((الصحيح المسند)) (٦٣٠).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (٢/ ٥٣٧). =

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

أي: ليس عليك- يا محمَّد- هداية الخَلْق إلى الإسلام هدايةَ توفيقٍ، وإنَّما عليك البلاغ وهو هداية الإرشاد، فلا تَمتنِعْ من بذْل الصَّدقة للكفَّار والمشركين؛ كي يَدخلوا في الإسلام حاجةً منهم إليها، ولكنَّ الله تعالى هو الَّذي يَهدي وحده مَن يشاء من خلْقه إلى الإسلام فيُوفِّقهم له، فلا تمنعهم الصَّدقة ولو لم يهتدوا[(١)].

عن أسماءَ بنت أبي بكرٍ رضي الله عنهما، قالت: (قَدِمتْ أُمِّي وهي مُشرِكَةٌ، في عهدِ قُريشٍ ومُدَّتِهم إذ عاهَدوا النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، مع أبيها، فاستَفتَيتُ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ فقُلْتُ: إنَّ أُمِّي قَدِمَت وهي راغِبَةٌ؟ قال: نعم، صِلِي أُمَّكِ)[(٢)].

﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ﴾.

أي: إنَّ كلَّ ما تَبذُلونه صدقةً من الأموال- قليلةً أو كثيرةً- على أيِّ شخصٍ- مسلمًا كان أو كافرًا- فنفْعُه في الحقيقة عائدٌ إليكم، وليس لله تعالى حاجةٌ به، والنفقة النافعة لصاحبها والمعتدُّ بها، هي ما كانت خالصةً لله تعالى، وطلَب بها صاحبُها الفوزَ في الآخرة بالنظر إلى وجهه الكريم سبحانه، وتلك هي صدقات المؤمن؛ فإنَّ إيمانهم يُحتِّم عليهم الإخلاصَ لله عزَّ وجلَّ، وإذا تَصدَّق بهذه النيَّة فقد وقع أجرُه على الله تعالى، ولا عليه في نَفْس الأمْر لمن أصاب: ألِبَرٍّ أو فاجرٍ، فهو مُثابٌ في جميع الأحوال على قصْده[(٣)].

= قال ابن كثير في ((تفسير القرآن)) (٤/ ٢٧): غريب. وصحَّح إسناده أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٣٢٧)، وحسَّن إسنادَه الألباني في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٦/ ٦٢٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٦، ٩٥٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٦١-٣٦٢).

(٢) رواه البخاري (٥٩٧٩) واللفظ له، ومسلم (١٠٠٣).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٨٧-٣٨٨)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٣٦٧-٣٦٨)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيِّم (ص: ٣٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٦، ٩٥٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٦٢).

عن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((قال رجلٌ: لأتصدَّقنَّ الليلةَ بصدقةٍ، فخرج بصدقتِه فوضعها في يدِ زانيةٍ، فأصبحوا يتحدَّثون: تُصُدِّق الليلةَ على زانيةٍ، قال: اللهمَّ لك الحمد على زانيةٍ، لأتصدَّقنَّ بصدقةٍ. فخرج بصدقتِه فوضعها في يدِ غَنيٍّ، فأصبحوا يتحدَّثون: تُصُدِّق على غنيٍّ، قال: اللهمَّ لك الحمدُ على غنيٍّ، لأتصدقنَّ بصدقةٍ. فخرج بصدقتِه فوضعها في يد سارقٍ، فأصبحوا يتحدَّثون: تُصُدِّقَ على سارقٍ، فقال: اللهمَّ لك الحمد على زانيةٍ، وعلى غنيٍّ وعلى سارقٍ، فأُتِيَ فقيل له: أمَّا صدقتُك فقد قُبِلَتْ، أما الزَّانيةُ فلعلَّها تستَعِفُّ بها عن زِناها، ولعلَّ الغنيَّ يَعتَبِر فيُنفِق ممَّا أعطاه اللهُ، ولعلَّ السارقَ يَستعِفُّ بها عن سرقتِه))[1].

﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

أي: إنَّ أيَّ مالٍ تَتصدَّقون به، قليلًا كان أو كثيرًا؛ فإنَّ أجره يُؤدَّى إليكم في الآخرة كاملًا من غير نَقْص؛ فلا يَضيع عنده سبحانه مثقالُ ذرَّةٍ من ذلك[2].

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢٧٣)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا بيَّنَ الله تعالى في الآيةِ الأولى أنَّه يجوز صَرْفُ الصَّدقة إلى أيِّ فقير كان، بيَّن في هذه الآية مَن هو أشدُّ النَّاسِ استحقاقًا بصرف الصَّدقة إليه[3]، فقال:

---

(١) رواه مسلم (١٠٢٢).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٣٦٨)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيِّم (ص: ٣٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٦)، ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٦٧) ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ١٠٤)..

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾.

أي: اجعلوا صدقاتِكم للمُعْدَمين، الخاليةِ أيديهم من أيِّ شيء يقوم بمعيشتهم، لَمَن حبَسوا أنفسَهم على الجهادِ في سبيل الله تعالى، فحبَسهم ذلك بدوره- مع خوفهم مِن تَربُّص أعدائهم بهم- عن التَّصرُّف في أشغال الدنيا، فلا يستطيعون تقلُّبًا في الأرض، وسفرًا في البلاد؛ ابتغاءَ المعاش وطلب الرزق[(١)].

﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾.

أي: يَحسَبهم الجاهلُ بأمرهم وحالهم ممَّن لا فِطْنة لديه، أغنياء من شدَّة تَرْكهم التَّعرض لما في أيدي الناس، وكِتمانهم حاجتهم صبرًا منهم على البأساء والضَّراء، لكن بإمكان ذوي الألباب تمييزُهم بالتَّوسُّم والتَّفرُّس فيهم، وعلى رأسهم محمد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فيعلمون حقيقةَ حالهم من خلال علاماتهم، وآثار الحاجة البادية عليهم، من ملامِح وجوههم، أو نظراتهم، أو بعض عباراتهم، أو غير ذلك.

ونفَى اللهُ تعالى عنهم بالكلِّيَّة طلبَ حاجةٍ من الناس، وخاصَّةً الطلب المُصاحِب للشَّرَهِ والضَّراعة التي تكون في المُلحِّين، فهم بعيدون عن ذلك تمامًا؛ لأنهم يَستَمِدُّون العَونَ من الله تعالى وحده.

فهذا الصِّنف من الفقراء هو أَوْلى المستحِقِّين للصَّدقة؛ لدَفْع حاجتهم، وإعانتهم على مَقصِدهم، وشكرًا لهم على ما اتَّصفوا به من جميل الأخلاق، وقصْر أنظارِهم على الخلَّاق[(٢)].

عن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((ليس

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٢-٢٥)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيِّم (ص: ٣٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٦-٣٠)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيِّم (ص: ٣٧٧-٣٧٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٦٧-٣٦٩).

المِسكينُ الذي تَرُدُّه التمرةُ والتَّمرتان، ولا اللُّقمةُ ولا اللُّقمتان، إنَّما المِسكينُ الذي يَتَعَفَّفُ، واقرَؤوا إن شِئتُم- يعني قولَه: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾))[1].

﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾.

أي: إنَّ كلَّ ما تُنفِقونه من أيِّ خيرٍ كان قليلًا أو كثيرًا، فإنَّ الله تعالى يعلمه، ويُحصيه لكم، وسيَجزيكم عليه أتمَّ الجزاء[2].

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٤)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

قيل لَمَّا حضَّ سبحانه وتعالى على النَّفقة، وبيَّن أنَّ أكمل من تُصرَف إليه النفقة من هو، بيَّن في هذه الآية أنَّ أكمل وجوه الإنفاق كيف هو[3]، فقال:

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٤)﴾.

أي: إنَّ الإنفاق في أيِّ وقتٍ كان ليلًا أو نهارًا، وعلى أيِّ حالٍ وُجِد سرًّا أو علانيةً، فإنَّه سبب الجزاء على كلِّ حال؛ فليبادرْ إليه العبد- ولا يؤخِّره- في جميع الأوقات والأحوال، فإنَّ مَن يقوم بذلك، له يوم القيامة أجرٌ عظيمٌ، ولا يُصيبه خوفٌ على ما يُستقبَل، ولا يَعْتريه حزنٌ على ما مضَى، فيفوز بحصول المرغوب، والنَّجاة من المرهوب[4].

---

(١) رواه البخاري (٤٥٣٩) واللفظ له، ومسلم (١٠٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٧١).

(٤) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيِّم (ص: ٣٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٠٧-٧٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٦-٩٥٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٧٢).

الفوائد التربويَّة:

١- الحثُّ على التفكُّر فيما يُمكِن الوصول إليه بالتَّفكُّر فيه، كما في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

٢- أنَّ مِن مُقتضى الإيمان امتثالَ أمر الله، واجتنابَ نهيه؛ ووجْهه أنَّ الله تعالى قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا﴾؛ فلولا أنَّ للإيمان تأثيرًا، لكان تصدير الأمر بهذا الوصف لغوًا لا فائدة منه[2].

٣- فضيلةُ العقل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾؛ لأنَّ التَّذكُّر- بلا شكٍّ- يُحمَد عليه الإنسان؛ فإذا كان لا يقع إلَّا مِن صاحب العقل دلَّ ذلك على فضيلة العقل[3].

٤- أنَّه لا يتَّعِظ بالمواعظ الكونيَّة أو الشَّرعيَّة إلَّا أصحابُ العقول، الذين يتدبَّرون ما حصل من الآيات سابقًا ولاحقًا فيَعتبِرون بها، وأمَّا الغافل فلا تَنفْعه؛ قال تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[4].

٥- أنَّه ينبغي للإنسان إذا أَنفَق نفقةً أن يَحتسِب الأجرَ على الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ﴾؛ لأنَّ مَن أنفَق وهو يَشْعُر أنَّ الله يعلم هذا الإنفاقَ، فسوف يَحتسِب الأجرَ على الله[5].

٦- أنَّ إخفاءَ الصَّدقة أفضلُ من إبدائها؛ لأنَّه أقربُ إلى الإخلاص، وأَسْتر للمُتصدَّق عليه؛ لكن إذا كان في إبدائها مصلحةٌ تَرجُح على إخفائِها- مِثْل أن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٣٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٤١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٥٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٥٥).

يكون إبداؤها سببًا لاقتِداء النَّاس بعضهم ببعض، أو يكون في إبدائها دَفْع ملامة عن المُتصدِّق، أو غير ذلك من المصالِح- فإبداؤها أفضل[١].

٧- إنَّ شأن المؤمن أنه لا ينفق رياءً أو سمعةً؛ طلبًا للتعالي على الناس، أو إرضاءً لأحدٍ منهم، أو إرادةَ تكريمهم له، أو لنيل أيِّ غرضٍ دنيويٍّ آخر، وإنما ينفق ما ينفق خالصًا لله جلَّ وعلا، كما قال سبحانه: ﴿وَما تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ اللهِ﴾[٢].

٨- الإشارة إلى الفراسة، والفِطْنة؛ لقوله تعالى: ﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾؛ فإنَّ السِّيما هي العلامة التي لا يَطَّلِع عليها إلَّا ذوو الفراسةِ[٣].

٩- في قوله تعالى: ﴿الشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشاءِ وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا﴾ بيانُ أنَّ أمام الإنسان طريقين اثنين لا ثالث لهما: طريق الله، وطريق الشَّيطان؛ فإمَّا أنْ يَستمِع إلى وعْد الله، أو أن يَستمِع إلى وعْد الشَّيطان، ومَن لا يسير في طريق الله ويسمع وعْدَه، فهو سائر في طريق الشَّيطان ومُتَّبِع وعْده[٤].

١٠- في قوله تعالى: ﴿الشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشاءِ﴾ بيانُ عَداوةِ الشَّيطان للإنسان؛ لأنَّه في الواقع عدوٌّ له في الخبر، وعدوٌّ له في الطَّلب؛ في الخبر: يَعِدُه الفقر؛ وفي الطلب: يأمُره بالفحشاء؛ فهو عدوٌّ مخبرًا وطالبًا، والعياذ بالله[٥].

١١- أنَّ مَن أَمَر شخصًا بالإمساك عن الإنفاق المشروع، فهو شبيهٌ بالشَّيطان، وكذلك مَن أمَر غيره بالإسراف، فالظَّاهر أنَّه شيطان؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ [الإسراء: ٢٧][٦].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٣١٥)، ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٧٠).

(٤) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٣١٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٤٨).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

١٢- أنَّ هذه المغفرةَ التي يَعِدُنا الله بها مغفرةٌ عظيمة؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْهُ﴾؛ لأنَّ عِظَم العطاءِ مِن عِظَم المُعطي[1].

١٣- أنَّه ينبغي للمُنفِق أنْ يتفاءل بما وعَد الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا﴾؛ فإذا أَنْفَق الإنسانُ وهو يُحسِن الظنَّ بالله عزَّ وجلَّ أنَّ الله يَغْفِر له الذُّنوبَ، ويَزيده من فضله- كان هذا من خير ما تنطوي عليه السَّريرة[2].

١٤- أنَّ ما في الإنسان من العِلْم والرُّشد فهو فَضْل من الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾؛ فإذا مَنَّ الله سبحانه وتعالى على العبد بعِلم، ورُشْد، وقوَّة، وقُدرة، وسَمْع، وبصر فلا يترفَّع؛ لأنَّ هذه الصفات من الله عزَّ وجلَّ؛ ولو شاء الله لحَرَمه إيَّاها، أو لسَلبه إيَّاها بعد أن أعطاه إيَّاها؛ فقد يسلُب اللهُ العِلْمَ من الإنسان بعد أنْ أعطاه إيَّاه؛ وربما يَسلُب منه الحكمةَ؛ فتكون كلُّ تصرُّفاته طيشًا وضلالًا وهَدَرًا[3].

١٥- تحذيرُ العبد من المخالَفة؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾؛ فإنَّ إخبارَه إيَّانا بذلك يَستلزِم أن نخشَى من خِبرته عزَّ وجلَّ؛ فلا يَفقِدنا حيث أَمَرنا، ولا يرانا حيث نهانا[4].

١٦- أنَّ أَمْر القلوب وهُداها وضَلالَها ليس من شأن أحد من خَلْق الله- ولو كان رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ- إنَّه من أمر الله وحده، فهذه القلوب من صُنْعه، ولا يُحكِمها غيره، ولا يُصرِّفها سواه، ولا سلطانَ لأحد عليها إلَّا الله، وما على الرسول إلَّا البلاغ كما في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٤٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٥٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٥٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٦١).
(٥) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٣١٤).

١٧- في قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ إشارةٌ من خلال حال هؤلاء الفقراء الكرام إلى أنَّ إعطاء الصدقة لهم ينبغي أن يكون سرًّا وفي تلطُّف كي لا تجرح كرامتهم. وفي ختام الآية ما يوحي بإخفاء التصدُّق عليهم، وذلك في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾، فالله تعالى وحده هو الذي يعلم السِّرَّ، ولا يَضيع عِندَه الأجر[١].

الفوائد العلمية واللَّطائف:

١- بيانُ تثبيت المعاني المعقولة بالأمور المحسوسة؛ لأنَّه أَقْرب إلى الفَهْم؛ وَجْه ذلك أنَّ الله سبحانه ضرَب مَثَلًا للمانِّ بالصَّدقة بصاحب الجَنَّة، كما قال تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ﴾[٢].

٢- وجوب الزكاة في عُروض التِّجارة؛ لقوله تعالى: ﴿مَا كَسَبْتُمْ﴾؛ ولا شكَّ أن عُروض التِّجارة كَسْب؛ فإنَّها كَسْب بالمعاملة[٣].

٣- يُستفادُ من قوله: ﴿أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ أنَّ المال الحرام لا يُؤمَر بالإنفاق منه؛ لأنَّه خبيث؛ والله تعالى طيِّب لا يَقْبَل إلَّا طيِّبًا[٤].

٤- الردُّ على الجَبْرِيَّة؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾؛ ووَجْه الدَّلالة: أنَّه لو كان الإنسان مُجبَرًا على عملِه لم يَصِحَّ أنْ يُوجَّه إليه الأمر بالإنفاق؛ لأنَّه لا يَقدِر على زعْم هؤلاء الجبرية؛ ولأنَّ الله أضاف الكسبَ إلى المخاطَب في قوله تعالى: ﴿مَا كَسَبْتُمْ﴾؛ ولو كان مُجبَرًا عليه لم يَصِحَّ أن يكون مَن كَسْبه[٥].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣١٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٣٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٤١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٤٢).

٥- وجوب الزَّكاة في الخارج من الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾[١].

٦- في قوله تعالى: ﴿مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ أضاف سبحانه الكسبَ إليهم، وإنْ كان هو الخالقَ لأفعالهم؛ لأنَّه فِعْلُهم القائم بهم، وأَسْنَد الإخراج إليه؛ لأنَّه ليس فِعْلًا لهم، ولا هو مقدورًا لهم، فأضاف مقدورَهم إليهم، وأضاف مفعوله الذي لا قُدْرة عليه إليه، ففي ضِمْنه الردُّ على مَن سوَّى بين النَّوعين، وسلَب قدرةَ العبد وفِعْله وتأثيره عنه بالكُلِّيَّة[٢].

٧- قال تعالى: في قوله تعالى: ﴿مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾، خصَّ سبحانه هذين النَّوعين، وهما: الخارجُ من الأرض، والحاصلُ بكسب التجارة دون غيرهما من المواشي؛ إمَّا بحسَب الواقع؛ فإنَّهما كانَا أغلبَ أموالِ القوم إذ ذاك، فإنَّ المهاجرين كانوا أصحابَ تِجارة وكسْب، والأنصار كانوا أصحابَ حَرْث وزَرعٍ؛ فخصَّ هذين النَّوعين بالذِّكر لحاجتهم إلى بيان حُكْمهما، وعموم وجودهما، وإمَّا لأنَّهما أصولُ الأموال، وما عداهما فعنهما يكون، ومنهما ينشأ؛ فإنَّ الكسْب يدخل فيه التِّجاراتُ كلُّها، على اختلاف أصنافها وأنواعها من: الملابس، والمطاعم، والرقيق، والحيوانات، والآلات، والأمتعة، وسائر ما تتعلَّق به التِّجارة، والخارج من الأرض يتناول حبَّها وثمارَها، وركازها ومَعْدِنها، وهذان هما أصولُ الأموال وأغلبها على أهل الأرض؛ فكان ذِكْرهما أهمَّ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيِّم (ص: ٣٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٤٣).

(٣) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيِّم (ص: ٣٧٣).

٨- وجوب الزكاة في المعادن؛ لدخولها في عموم قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾(١).

٩- إثبات القياس؛ وذلك لقوله تعالى: ﴿وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾؛ يعني إذا كنتَ لا ترضاه لنَفْسك، فلا ترضاه لغيرك، أي: قِسْ هذا بهذا(٢).

١٠- إثبات إغواء الشَّياطين لبني آدم؛ لقوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾، وأنَّ للشَّيطان تأثيرًا على بني آدم إقدامًا، أو إحجامًا؛ أمَّا الإقدام: فيأمره بالزِّنا مثلًا، ويُزيِّن له حتى يُقدِم عليه، وأما الإحجام: فيأمره بالبُخل، ويَعِدُه الفقرَ لو أنْفق، وحينئذ يُحجِم عن الإنفاق(٣).

١١- من مباحث اللَّفظ في الآية: استعمالُ الوعد في الخير والشَّر، وهو شائع لغة، ثم جرى عُرْف النَّاس أن يَخُصُّوا الوعدَ بالخير، والإيعادَ بالشرِّ، فإذا ذكَروا الوعدَ مع الشرِّ أرادوا به التَّهكُّم، على أنَّ ما يَعِدُ به الشَّيطان من الفقر هو على تقدير الإنفاق، ويلزمه الوعد بالغنى مع البخل الذي يأمر به؛ كما في قوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾(٤).

١٢- إثبات الحكمة لله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ الحكمةَ كمالٌ؛ ومُعْطي الكمال أَوْلى به؛ فيُؤخذ من الآية إثباتُ الحِكمة لله بهذا الطَّريق كما في قوله: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٤٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٤٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٤٧، ٣٤٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٦٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٥٢).

١٣- في قوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾: أنَّ مَن دعا على أخيه وهو ظالم له، فإنَّ الله لا يُجيب دعاءه؛ لأنَّه لو أُجيب لكان نَصْرًا له، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[1] [الأنعام: ٢١].

١٤- قوله: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾، أي: فنِعْم شيء هي، وهذا مدْح لها موصوفة بكونها ظاهرةً بادية، فلا يَتوهَّم مُبديها بُطلانَ أثرِه وثوابِه، فيمنعه ذلك من إخراجها، وينتظر بها الإخفاء، فتفوت أو تَعترِضه الموانعُ، ويُحال بينه وبين قلبه، أو بينه وبين إخراجها، فلا يؤخِّر صدقتَه العلانيَّة بعد حضور وقتها إلى وقت السرِّ، وهذه كانت حالَ الصحابة[2].

١٥- في قوله: ﴿وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ﴾ أَطلَق لفْظَ (الفقراء)، ولم يَقُل: (فقراءكم)، فدلَّ ذلك على أنَّ الصَّدقة تُستَحَبُّ على كلِّ فقير- وإن كان كافرًا- فكما وسَعتْ رحمته الكافرَ فلم يَحرِمه لكُفْره من الرِّزق بسعيه، كذلك لم يُحرِّم عليه الصَّدقةَ عند عجزه عن الكسْب الذي يكفيه[3].

١٦- تَفاضُل الأعمال، أي: إنَّ بعض الأعمال أفضلُ من بعض؛ لقوله تعالى: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾[4].

١٧- في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾، دلالةٌ على أنَّ إخفاء الصَّدقة حين تكون تطوُّعًا أَوْلى وأحبُّ إلى الله، وأَجْدر أنْ تَبْرأ من شوائب التَّظاهر والرِّياء، فأمَّا حين تكون أداء للفريضة؛ فإنَّ إظهارَها فيه معنى الطَّاعة، وفُشُوُّ هذا المعنى وظهورُه خيرٌ[5].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٥٧).
(٢) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيِّم (ص: ٣٧٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٦٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٦٠).
(٥) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٣١٣).

١٨- أنَّ هداية الخَلْق لا تَلزَم الرُّسل، والمراد بذلك هداية التوفيق، أمَّا هداية الدَّلالة فهي لازِمة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾[١] [المائدة: ٦٧].

١٩- أنَّ الإنسانَ إذا بلَّغ شريعةَ الله بَرِئتْ ذِمَّتُه؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾؛ ولو كانت ذِمَّته لا تَبرأ لكان مُلزَمًا بأنْ يهتدوا[٢].

٢٠- أنَّ أعمالَ الإنسان لا تَنصرِف إلى غيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ﴾؛ وليس في الآية دليل على مَنْع أن يتصدَّق الإنسانُ بعمله على غيره؛ ولكنَّها تُبيِّن أنَّ ما عمِله الإنسان فهو حقٌّ له؛ ولهذا جاءت السُّنة صريحة بجواز الصَّدقة عن الميت[٣].

٢١- الإشارة إلى أنَّ الإنفاق من الحرام لا يُقبَل؛ وذلك لقوله تعالى: ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾؛ ووَجْهه: أنَّ الحرام ليس بخير؛ بل هو شر[٤].

٢٢- في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ﴾ إثبات وجه الله عزَّ وجلَّ؛ وهو وجه حقيقي لا يُماثِل أوجهَ المخلوقين على ما يليق بجلاله وعظمته سبحانه؛ وهو من الصِّفات الذاتيَّة الخبريَّة؛ التي لم يَزْل، ولا يزال مُتَّصِفًا بها[٥].

٢٣- أنَّ الإنفاق يكون سببًا لشَرْح الصَّدر، وطرْد الهمِّ، والغمِّ؛ لقوله تعالى: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]؛ وهذا أمْر مُجرَّب مُشاهَد أنَّ الإنسان إذا أنْفق يبتغي بها وجهَ الله انشرَح صدرُه، وسُرَّتْ نفْسُه، واطمأنَّ قلبه[٦].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٦٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٦٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٦٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٦٥).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٧٣).

٢٤- في تقديم اللَّيل على النَّهار، والسِّر على العلانية إيذانٌ بتفضيل صدقةِ السرِّ، وذلك في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾[1].

بلاغة الآيات:

١- ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ﴾ فيه عدد من أوجه البلاغة[2]:

- فيه مناسبةٌ حسَنة، حيث ضرب الله هذا مثلًا في مقابل مَثل النفقة لمرضاة الله والتَّصديق، وهو نفقة الرِّئاء، ووجه الشَّبه هو حصولُ خيبةٍ ويَأْسٍ في وقت تمام الرَّجاء وإشراف الإنتاج، فهذا مقابل قوله: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ﴾ [البقرة: ٢٦٥] الآية[3].

وجاز عطفُ الماضي على المستقبَل -حيث عطف ﴿وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ﴾ على ﴿أَيَوَدُّ﴾-؛ لأنَّ (الواو) للحال لا للعطف، ومعناه: أيودُّ أحدكم أن تكون له جَنَّةٌ حالَ ما أصابه الكِبَر، ثم إنَّها تُحرق، أو حُمل العطف على المعنى- لأنَّه يصح أن يقال: وددت أن يكون كذا، ووددت لو كان كذا- كأنَّه قيل: أيودُّ أحدُكم أن تكون له جنَّةٌ-إنْ كان له جَنَّة- وأصابه الكِبَر[4].

- **قوله: ﴿جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾** فيه ذكر الخاصِّ بعد العامِّ، حيث خصَّ جنَّة النخيل والأعناب بالذِّكر، مع أنَّهما من ضِمن الجنَّات؛ لأنَّ النخيل والأعناب أكرمُ الشَّجر، وأكثرها منافعَ، وجعل الجَنَّة منهما - وإن كانت محتويةً

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣١٣-٣١٤)، ((تفسير الرازي)) (٧/ ٥١)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١٥٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦٧٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٥٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٥٣-٥٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤١١-٤١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٥٣-٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٥١).

على سائر الأشجار - تغليبًا لهما على غيرهما، ثم أَرْدَفهما ذِكر كلِّ الثَّمرات[١].

- قوله: ﴿فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ﴾ الإتيان بفعل (أصاب) في هذه الآيات كلِّها: (فأصابه وابل - وأصابه الكبر - فأصابها إعصار)؛ لأنَّه أبلغ وأدلُّ على التأثير بوقوع الفعل على ذلك الشيء، ولو قيل: (وَبِلَ - وكَبِر - وأعصرت)، لم يكُن فيه ما في لفظ الإصابة من المبالَغة[٢].

٢- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾

- قوله: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ...﴾ في هذه الآية من أنواع البلاغة ما يُعرف بـ(التتميم)[٣]، وقد اندرَج التتميم في هذه الآية في صُور كالتالي:

أ- لَمَّا ذكَر سبحانه ﴿الجنة﴾ لم يكتفِ بذكرها مجرَّدةً من كلِّ قيد؛ لأنَّ الجنة في اللغة لفظ يصدُق على كلِّ شجرٍ متكاثِف ملتفٍّ، يَستر مَن يتفيَّأ بظلاله الوريفة، فتمَّم ذلك النقص بقوله: ﴿مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾، ثم تمَّم ذلك بذكر الأنهار الجارية؛ للدَّلالة على ديمومة الخصب؛ إذ لا فائدةَ منها إذا نضَبتْ فيها الأمواه، وكان مآلها إلى اليبس والذُّبول، ولدفْع الإيهام الذي يُخيِّل الى السَّامعين أنَّ هذه الجنة قد تكون مقتصرةً على هذين الضربين من الثمرات- وهما: النَّخيل والأعناب- تمَّم بقوله:

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣١٣-٣١٤)، ((تفسير الرازي)) (٧/ ٥١)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٥٩٨).

(٣) التتميم: هو الإتيان بكلمة أو كلام متمِّم للمقصود، أو لزيادةٍ حسنة، بحيث إذا طُرِح من الكلام نقص معناه في ذاته، أو في صِفاته، أو في صُوَره، مع بقاء الكلام سليمًا. ينظر: ((البحر المحيط في التفسير)) (١/ ١٢٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحي الدين درويش (١/ ٤٤).

﴿لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾؛ فالحسرة -إذن- على احتراقها أشدُّ، والأسف على فنائها أعمُّ.

ب- ووصف الحادِث المهلِك الذي أدَّى الى فناء الجنة بقوله: ﴿فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ﴾ يجتاح الأخضرَ واليابس، على أنَّ الإعصار مهما يبلغ تأثيره فإنَّه ربما كان مؤجَّلَ الإهلاك، فدفع هذا الإيهام بقوله: ﴿فِيهِ نَارٌ﴾ فأحرقها بعد أن أوْدَى بأشجارها، ولم يكتفِ بذكر النار؛ لأنَّها قد تأتي على شيء ممَّا تحرقه، ويبقَى بعد ذلك شيءٌ آخر منها، فدفَع هذا الإيهامَ مرةً أخرى بذِكر الاحتراق ﴿فَاحْتَرَقَتْ﴾[1].

- قوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ...﴾ في هذه الآية من طُرق البلاغةِ في الخِطاب: الإفضاء إلى المقصود، حيث أمَر بالصَّدقات بعد أنْ قدَّم بين يديه بمواعظَ وترغيبٍ وتحذير. وهذا من ارتكاب خلاف مقتضى الظاهر في ترتيب الجُمل، ونُكتة ذلك: أنَّه قد شاع بين النَّاس الترغيبُ في الصَّدقة، وتكرَّر ذلك في نزول القرآن، فصار غرضًا دينيًّا مشهورًا، وكان الاهتمامُ بإيضاحه، والترغيبُ في أحواله، والتنفير من نقائصه، أَجدرَ بالبيان[2].

- قوله: ﴿أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ... وَلَا تَيَمَّمُوا﴾ فيه تأكيدُ الأمر بالنهي بعده عن ضدِّه، وعبَّر بصيغة التفعُّل (تيمَّموا)، أي: لا تتكلَّفوا أن تقصدوا، وفيه مبالغة أيضًا[3].

- قوله: ﴿أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ فيه تخصيص المكتسَب دون الموروث؛ لأنَّ الإنسان بما يكتسبه أضنُّ به ممَّا يرثه؛ فالموروث معقولٌ من فحواه؛ إذ هو أَوْلى، وهو من محاسن البلاغة[4].

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٨٩-٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦٧٧).

- قوله: ﴿طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ فيه إيجاز بالحذف في ﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنَا﴾، والتقدير: من طيِّبات ما أخرجنا، وحُذِف لدلالة ما قبله وما بعده عليه. وكُرِّر حرف الجرِّ (مِن) على سبيل التوكيد، أو إشعارًا بتقدير عامل آخَر، حتى يكون الأمرُ مرَّتين[1].

- قوله: ﴿مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ فيه تقديم الجار والمجرور (منه) على الفعل (تنفقون)؛ للتخصيص، لتوبيخهم بما كانوا يتعاطونه من إنفاقِ الخبيث خاصَّةً، لا لتسويغ إنفاقه مع الطيِّب[2].

- قوله: ﴿إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ فيه تأكيد الشيء بما يُشبه ضِدَّه - على قول مَن جعَل النفي هنا بمعنى النهي، أي: لا تأخذوه إلَّا إذا تغاضيتم عن النهي وتجاهلتموه. والتعبير بالإغماض: للمبالغة في التغافُل عن المكروه الشَّديد[3].

- قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ تذييلٌ مقرِّر لمضمون ما قبله، وافتتحه بـ(اعلموا)؛ للاهتمامِ بالخبر، أو نُزِّل المخاطبون الذين نُهوا عن الإنفاق من الخبيث منزلةَ مَن لا يعلم أنَّ الله غني، فأَعطوا لوجهه ما يقبله المحتاج بكلِّ حال، ولم يَعلموا أنَّه يحمد من يُعطي لوجهه من طيِّب الكسب[4].

- قوله: ﴿حَمِيدٌ﴾ عبَّر بصيغة (فعيل)؛ للمبالغة، أي: شديد الحمد؛ لأنَّه يُثني على فاعلي الخيرات، ويجوز أن يكون المراد: أنَّه محمود، فيكون حميد بمعنى مفعول، أي: فتخلَّقوا بذلك؛ لأنَّ صفات الله تعالى كمالات[5].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٦٧٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٦٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٥٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٥٨).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٩١).

٣- قوله: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾ قدَّم هنا اسم ﴿الشَّيْطان﴾ مسندًا إليه؛ لأنَّ تقديمَه مؤذِنٌ بذمٍّ الحُكم الذي سِيق له الكلام، وشؤمه لتحذير المسلمين من هذا الحُكم، ولأنَّ في تقديم المسنَد إليه على الخبر الفعلي تقويَّ الحُكم وتحقيقَه[١].

٤- قوله: ﴿وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللهُ واسِعٌ عَلِيمٌ﴾ فيه توكيد الجملة الأولى بالجملة الثانية[٢].

- وعطفها على جملة ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾؛ لإظهار الفرق بين ما تدعو إليه وساوسُ الشيطان، وبيْن ما تدعو إليه أوامرُ الله تعالى، والوعد فيه حقيقةٌ لا محالة[٣].

٥- قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾

- قوله: ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فقد أوتي خيرًا كثيرًا﴾ الجملة اعتراض وتذييلٌ لِمَا تضمَّنتْه آياتُ الإنفاق من المواعظ والآداب وتلقين الأخلاق الكريمة؛ ممَّا يُكسب العاملين به رجاحةَ العقل، واستقامة العمل[٤].

- والتنكير في قوله: ﴿خَيْرًا كَثِيرًا﴾: للتعظيم، كأنَّه قال: فقد أُوتي أيَّ خير كثير[٥].

٦- قوله: ﴿وَما أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ﴾ تذييلٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٥٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦٨٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٦٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦٨٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٦٠٦).

للكلام السَّابق المسوق للأمْر بالإنفاق وصِفاته المقبولة، والتحذير من المثبِّطات عنه، والمقصود من هذا التذييل: التذكيرُ بأنَّ الله لا يَخفى عليه شيء من النَّفقات وصفاتها، وأدمج النَّذر مع الإنفاق فكان الكلام جديرًا بأن يكون تذييلًا[1].

- وقوله: ﴿فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ﴾ خبرٌ يُفيد- على اختصاره- الوعدَ العظيم للمطيعين، والوعيدَ الشَّديد للمتمرِّدين[2]. وتصدير الجملة بـ(إنَّ) لتأكيد مضمونها؛ إفادة لتحقيق الجزاء؛ فإنَّه تعالى يجازيكم عليه ألبتةَ، إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشر؛ فهو ترغيبٌ وترهيب، ووعْد ووعيد[3].

٧- قوله: ﴿وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ﴾

- فيه استعمال العامِّ المراد به الخاصُّ - على القول بأنَّهم هم المشرِكون. أو: هم المنفِقون بالمنِّ والأذى والرِّياء، والمبذِّرون في المعصية. أو: المنفِقو الحرام[4].

- وإيراد صِيغة الجمْع (أنصار) لمقابلة (الظالمين)، أي: وما لظالم من الظالمين نصيرٌ من الأنصار، والجملة استئنافٌ مقرِّر لِـمَا قبله من الوعيد، مفيدٌ لفظاعة حال مَن يَفعل ما يُفعَل مِن الظالمين[5].

٨- قوله تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

- قوله: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ...﴾ فيه نوعُ تفصيل لبعض ما أُجمل في الشرطيَّة، وبيان له؛ ولذلك ترك العطف بينهما بالواو[6]. والألف واللام في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٦٥-٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٦٥-٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦٨٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٦٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٦٣)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٠٩-٢١٠).

﴿الصَّدقات﴾ لتعريف الجنس، ومحمله على العموم، فيشمل كلَّ الصَّدقات؛ فرْضَها ونفْلَها، وهو المناسب لموقع هذه الآية عقبَ ذِكر أنواع النفقات[1].

- وقوله: ﴿فنِعِمَّا هِي﴾ (ما) في (نعما) نكرة غير موصولة ولا موصوفة، في تأويل الشيء، أي: نعم الشيءُ هو، وتمثيله بالنَّكرة أبينُ، والتقدير: نعم شيئًا هي إبداء الصدقات، فحذف المضاف لدلالة الكلام عليه[2]. وقوله: ﴿فنِعِماً هي﴾ فيه جمْع الأمداح المبهَمة؛ لأنَّ (نِعم) كلمة مبالغة تَجمع المدحَ كلَّه، و(ما) كلمة مُبهمَة تجمع الممدوح؛ فتطابقتَا في الإبهام؛ فإنَّ (نِعْم) و(بئس) للمبالغة، فالمراد بهما التناهي في المدح والذمِّ، ولاختصاصهما بهذا المعنى مُنِعتَا التصرُّف، واقتُصر بهما على المعنى؛ لأنَّ المدح والذمَّ إنما يكونانِ متعلِّقينِ بما ثبَت واستقرَّ، ولا يُمدح الإنسانُ بما لم يقعْ منه[3].

- كذلك قوله: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هي...﴾ استئناف بيانيٌّ ناشئ عن قوله: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ﴾؛ إذ أشْعَر تعميم ﴿مِن نَفَقةٍ﴾ بحال الصَّدقات الخفيَّة، فيتساءل السامع في نفسه: هل إبداء الصدقات يُعدُّ رياءً، وقد سمع قبل ذلك قوله: ﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ﴾؛ ولأنَّ قوله: ﴿فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ﴾ قد كان قولًا فصلًا في اعتبار نيَّات المتصدِّقين، وأحوال ما يُظهرونه منها، وما يُخفونه من صَدقاتهم، فهذا الاستئناف يدفَع توهمًا من شأنه تعطيلُ الصَّدقات والنفقات، وهو أن يُمسك المرءُ عنها إذا لم يجد بُدًّا من ظهورها، فيخشى أن يصيبه الرياء[4].

- قوله: ﴿مِن سيِّئاتكم﴾ دخول (مِن)؛ لإفادة التبعيض، أي: ونُكفِّر عنكم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٦٦-٦٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣١٦)، ((تفسير الرازي)) (٧/ ٦٢).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٩٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٦٦-٦٧).

بعض سيِّئاتكم؛ لأنَّ السيِّئاتِ كلَّها لا تُكفَّر بذلك، وإنما يُكفَّر بعضها، ثم أَبْهَم الكلامَ في ذلك البعض؛ لأنَّ بيانه كالإغواء بارتكابها إذا عُلِم أنها مكفَّرة، أو تكون (مِن) بمعنى مِن أَجْل، أي: ونكفِّر عنكم مِن أجْل ذنوبكم، كما تقول: ضربتُك من سوء خُلقك، أي: من أجْل ذلك[1].

- قوله: ﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ خبرٌ مرادٌ منه الترغيبُ في الإسرار[2].

- وفيه مناسبةٌ حسَنة في ختْم هذه الآية بهذه الصِّفة؛ لأنها تدلُّ على العلم بما لَطُف من الأشياء وخفي، فناسَب الإخفاء في قوله: ﴿وَإِنْ تُخْفُوهَا﴾ ختْمها بالصِّفة المتعلِّقة بما خفي (خبير)[3].

٩- قوله: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾

- قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ فيه الخِطاب بما ظاهره خاصٌّ -وفي ذلك تسلية له صلَّى الله عليه وسلَّمَ- والمراد منه العامُّ؛ فظاهر قوله ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ خطاب للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، ولكن المراد به هو وأمَّته، بدليل قوله: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ﴾، وهذا خطاب عام، ثم قال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾، وهو في الظاهر خاصٌّ، ثم قال بعده: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا من خَيرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ﴾، وهذا عامٌّ؛ فيُفهم من عموم ما قبل الآية وعمومِ ما بعدها عُمومُها أيضًا[4].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٦٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١٦٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦٩٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٦٦).

- قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ تقديم الخبَر المسنَد (عَلَيْكَ) على اسمِ (لَيْسَ) المسنَد إليه (هُداهم)؛ إمَّا لمجرَّد الاهتمام، بنفي كون هُداهم حقًّا على الرسول، تهوينًا للأمر عليه، وإمَّا أن يكون جرى على خِلاف مقتضى الظاهر، بتنزيلِ السَّامعين منزلةَ مَن يَعتقد أنَّ إيجاد الإيمان في الكفَّار يكون بتكوين الله، وبالإلجاء من المخلوق، فقصر هداهم على عدم الكون في إلجاء المخلوقين إيَّاهم، لا على عدم الكون في أنَّه على الله، فيلزم من ذلك أنَّه على الله، أي: مُفوَّض إليه(١).

- قوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾

- فيه مع قوله: ﴿هُداهم﴾ جناس مغاير؛ لأنَّ إحدى الكلمتين اسم، والأخرى فِعل(٢).

- وجِيء فيه بحرف الاستدراك (لكن)؛ لِمَا في الكلام المنفيِّ من توهُّم إمكان هديهم بالحِرص أو بالإلجاء، فمصبُّ الاستدراك هو الصِّلة (مَن يشاء)، أي: فلا فائدةَ في إلجاء مَن لم يشأ الله هدايته، والتقدير: ولكن هداهم بيدِ الله، وهو يَهدي من يشاء، فإذا شاء أن يَهديهم هداهم(٣).

- وفيه: تلوينُ الخطاب؛ إذ الجملة معترضة، جيء بها على تلوين الخِطاب وتوجيهه إلى رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ، مع الالتفات إلى الغَيبة فيما بين الخِطابات المتعلِّقة بالمكلَّفين؛ مبالغةً في حَمْلهم على الامتثال؛ فإنَّ الإخبار بعدم وجوب تدارُك أمرهم على النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ مؤذنٌ بوجوبه عليهم حسبما ينطق به ما بعدَه من الشرطيَّة. وعلى القول بأنَّ المعنى: ليس عليك

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٧١-٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٦٩٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٦١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٧٢).

هُدَى مَن خالفَك حتى تمنعَهم الصَّدقة؛ لأجْل دخولهم في الإسلام، فلا التفاتَ حينئذٍ في الكلام، وضمير الغَيبة للمعهودين من فقراء المشركين، بل فيه تلوين للخطاب فقط[١].

- قوله: ﴿وَما تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ اللهِ﴾ أسلوبٌ ظاهره الخبر، ولكن معناه النَّهي، أي: ولا تُنفقوا إلَّا ابتغاءَ وجه الله[٢].

- وتَكرار فِعل النَّفقة - ﴿وَمَا تُنْفِقُوا﴾، ﴿وَمَا تُنْفِقون﴾، ﴿وَمَا تُنْفِقُوا﴾ - ثلاثَ مرَّات في الآية؛ لمزيدِ الاهتمام بمدلولِه، وجِيء به مرَّتين بصِيغة الشَّرْط عندَ قصْد بيان الملازمة بين الإنفاق والثَّواب، وجِيء به مرةً في صِيغة النَّفي والاستثناء؛ لأنَّه قصد الخبر بمعنى الإنشاء، أي: النَّهي عن أن يُنفقوا إلَّا لابتغاء وجه الله[٣].

- ﴿وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾: تقديم (وَأَنْتُم) على الخبر الفِعلي (لا تُظْلَمون)؛ لمجرَّد التقوِّي، وزيادة في التنبيه على أنَّهم لا يُظلمون، وإنَّما يَظلمون أنفسهم[٤].

- وجعلت هذه الأحكام جملًا مستقلًّا بعضها عن بعض، ولم تُجعل جملةً واحدةً مقيَّدةً فائدتُها بقيود جميع الجُمل، وأُعيد لفظ الإنفاق في جميعها بصِيغ مختلفة؛ تكريرًا للاهتمام بشأنه؛ لتكون كلُّ جملة مستقلةً بمعناها، قصيرة الألفاظ كثيرة المعاني، فتجري مجرى الأمثال[٥].

١٠- قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٦٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٦٦-٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١٦١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٧٢-٧٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾

– قوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ فيه إيجازٌ بالحذف لفَهمِه من السِّياق؛ فالجارُّ (للفقراء) متعلِّق بمحذوف، والتقدير: اعجَبُوا للفقراء، أو اقصدوا الفقراءَ، واجعلوا ما تُنفقون للفقراء[1].

– وفيه كناية، حيث عبَّر بالضَّرب في الأرض عن التِّجارة؛ لأنَّ شأنَ التاجر أن يسافِر ليبتاع ويبيع، فهو يضرب الأرض برجليه أو دابَّته[2].

– قوله: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ فيه عِدَّة أوجه بلاغيَّة:

– فقوله: ﴿التَّعَفُّفِ﴾ التعبير بصيغة (التفعُّل) في (التعفُّف)؛ لإفادة الاجتهاد في العِفَّة والمبالغة فيها[3].

– وقوله: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُم﴾ الجملة بيانٌ لجملة ﴿يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ﴾، كأنَّه قيل: فبماذا تصِل إليهم صدقاتُ المسلمين إذا كان فقرُهم خفيًّا، وكيف يُطَّلع عليهم؟ فأُحيل ذلك على مظنَّة المتأمِّل[4].

– وقوله: ﴿بِسِيمَاهُم﴾ جاءَ التعبير بصيغة (فيعال)؛ للمبالغة من السِّمة والوسم، وهي العلامة الخفيَّة التي تتراءى للمستبصر[5].

– قوله: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ فيه من بديع البيان: ما يُسمَّى بـ(نفي

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣١٨)، ((تفسير الرازي)) (٧/ ٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٧٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ١٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٧٥).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ١٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٦٥).

الشيء بإيجابه)، وهو إثبات شيء في ظاهر الكلام، ثم نفْي ما هو مِن سببه؛ ففي هذه الآية: المنفيُّ في ظاهر الكلام هو الإلحاف في السُّؤال، لا نفْس السؤال مجازًا، والمنفيُّ في باطن الكلام حقيقةُ نفْس السؤال؛ إلحافًا كان أو غيرَ إلحاف(١)، وقد يَرِد نفيُ الشيءِ في القُرآن مُقيَّدًا، والمرادُ نفيُه مطلقًا؛ كما نفَى هنا عنهم السُّؤالَ بنفي صورةٍ مستكرَهة، وهي الإلحافُ في المسألة، والمقصود نفيُ السؤال مطلقًا(٢).

- قوله: ﴿وَما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ فيه إعادة التحريض على الإنفاق، حيث ذكر مرةً رابعة، وقوله: ﴿فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ كنايةٌ عن الجزاء عليه؛ لأنَّ العلم يُكنى به عن أثره كثيرًا، فلمَّا كان الإنفاق مرغَّبًا فيه من الله، وكان عِلم الله بذلك معروفًا للمسلمين، تعيَّن أن يكون الإخبارُ بأنه عليمٌ به، أنه عليم بامتثال المنفِق، أي: فهو لا يُضيِّع أجره؛ إذ لا يمنعه منه مانعٌ بعد كونه عليمًا به؛ لأنَّه قدير عليه، وقد حصَل بمجموع هذه المرَّات الأربع من التحريض ما أفاد شدَّةَ فضْل الإنفاق بأنَّه نفْع للمنفِق، وصِلة بينه وبين ربِّه، ونوال الجزاء من الله، وأنَّه ثابتٌ له في عِلم الله(٣).

١٠- قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

- قوله: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ فيه تقديم اللَّيل على النهار، والسِّرِّ على العلانية، ولعلَّه يدلُّ على تلك الأفضلية؛ فاللَّيل

---

(١) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٦٢٤)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٧٦-٧٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٢٥-٤٢٦).
(٢) يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (٢/ ٥٢٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٧٧).

مظنَّة صَدَقة السرِّ، فقُدِّم الوقت الذي كانت الصَّدقة فيه أفضلَ، والحال التي كانت فيها أفضل[١].

- قوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ..﴾ فيه إدخالُ الفاء في خبَر الموصول (الذين)؛ للتنبيه على تسبُّب استحقاق الأجْر على الإنفاق؛ لأنَّ المبتدأ لَمَّا كان مشتملًا على صلة مقصود منها التَّعميم، والتَّعليل، والإيماء إلى عِلَّة بناء الخبر على المبتدأ - وهي ينفقون - صحَّ إدخال الفاء في خبره، كما تدخُل في جواب الشَّرط؛ لأنَّ أصل الفاء الدَّلالةُ على التسبُّب[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٧٠١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ١٠٨)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٧٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٧٧).

الآيات (٢٧٥- ٢٨١)

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾.

غريب الكلمات:

﴿الرِّبَا﴾: أصْل الرِّبا الزِّيادة، وخُصَّ في الشَّرع بالزِّيادة على رأسِ المالِ دون وجْه حقٍّ(١).

﴿يَتَخَبَّطُهُ﴾: الخَبْط: الضَّرب على غيرِ استواءٍ(٢).

﴿الْمَسِّ﴾: الجُنون، ويُقال لكلِّ أذًى ينال الإنسان: مسٌّ(٣).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٦).

﴿مَوْعِظَةٌ﴾: الوعظ: تخويفٌ، أو زَجْرٌ مُقترِن بتخويف، وتذكيرٌ بالخيرِ وما يَرِقُّ له القلبُ(١).

﴿يَمْحَقُ﴾: أي: يُذهِب، ويَنقُص؛ وأصْل المحْق: النُّقصان وذَهاب البركة(٢).

﴿فَأْذَنُوا﴾: أي: أَيقِنوا، واعلَموا ذلك، واسْمَعوه، وأذِن: استَمَع، ويُستعمل ذلك في العِلْم الذي يُتوصَّل إليه بالسَّماع؛ إذ هو مبدأُ كثيرٍ من العِلم فِينا(٣).

﴿عُسْرَةٍ﴾: العُسر: نقيض اليُسْر، وأصْله: الصُّعوبة والشِّدة(٤).

﴿فَنَظِرَةٌ﴾: أي: انتظار، وإنظار، وأصْل (نظر): تأمُّل الشيء ومعاينتُه، ويقال: نظرتُه، أي: انتظرته(٥).

﴿مَيْسَرَةٍ﴾: الميسرة واليَسار عِبارة عن الغِنى، وأصْله اليُسرُ: ضدُّ العُسر(٦).

مشكل الإعراب:

قوله: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾:

كان: هنا تامَّة غيرُ ناسخةٍ بمعنى وقَع أو حدَث أو وُجِد؛ فلا تحتاج إلى اسمٍ أو خبَر، بل تكتفي بفاعِلها كسائرِ الأفعال. وذو: فاعِل كان، مرفوع وعلامة رفْعه

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٦).

(٣) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٦).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٦).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٧).

(٦) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٩١-٨٩٢).

الواو؛ لأنَّه من الأسماء الخمسة. وقيل: إنَّ (كان) ناقصة، وذو اسمها، وخبرها محذوف، والتقدير: وإنْ كان ذو عُسرةٍ لكُم عليه حقٌّ. أو: وإنْ كان ذو عُسرةٍ غريمًا، أو نحو ذلك[1].

المعنى الإجمالي:

يُخبِر تعالى عن آكِلي الرِّبا أنَّهم لا يَنهضون يومَ القيامة من قُبورهم للبَعْث إلَّا على هيئة مَن تسلَّط عليه الشيطان فأصابه بالجنون، وهذا الذي يُصيبهم بسبب أنَّهم قالوا: إنَّ البيعَ الذي أَحَلَّه الله مِثْل الرِّبا، كلاهما وسيلتان للتَّكسُّب، فلِمَ حُرِّم هذا وأبيح هذا؟ فكذَّبهم تعالى في زعْمهم هذا، بأنَّ الله أَحَلَّ الأرباحَ التي تَنتُج عن التِّجارة والشراء والبيع، وحرَّم الرِّبا، وليسا سواء؛ فمَن بلغه النَّهي عن الرِّبا، والتحذير من أكْله وتعاطيه، فانزَجَر فله ما أكَل منه وأخَذَ فيما مضى، وشأنه إلى الله تعالى في توفيقه أو خِذلانه فيما يستقبل، ومَن عاد لأكلِ الرِّبا بعد أنْ بلَغَه التحريمُ وأصرَّ على ذلك، فقد استوجب النارَ خالدًا فيها، ما لم يمنعه من الخلود فيها إيمانُه.

ثم أخبر تعالى أنَّه يَمْحَق الرِّبا ويَنزِع بركةَ مال المرابي، وبالمقابل يُنمِّي اللهُ أجرَ الصَّدقات للمُتصدِّق حتى تتضاعَف، والله تعالى لا يحبُّ من كفر بنعمه، واستحلَّ أكْلَ الرِّبا، وتمادَى في الإثم، باستمراره فيما نهاه عنه من أكْلِ الرِّبا.

ثمَّ وعَد الله الذين آمنوا وعمِلوا الصالحات، وأقاموا الصَّلاة كما ينبغي، وأدَّوا زكاةَ أموالهم لِمَن يَستحِقُّها، بأنَّ ثوابهم عنده تعالى، ولا خوف عليهم مما يَستقبِلون، ولا يحزنون على ما مضى.

ثم يَعِظ الله الذين آمنوا بأمرهم أن يتَّقوه، وأن يتركوا الرِّبا في معاملاتهم التي هي حاضرة وقتَ تلقِّيهم للإنذار، إنْ كانوا صادقين في إيمانهم، فإنْ لم يفعلوا

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٤٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٢٢٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٦٤٣).

فلْيُعلِموا أنفسَهم وغيرهم أنَّ الله يُوعِدهم بحربٍ منه ومن رسوله صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فإنْ تابوا وتركوا الرِّبا فلهم رؤوس أموالهم من الدُّيون التي لهم على النَّاس فقط، لا يَظلِمون النَّاس بأخْذ زيادة رِبويَّة، ولا يُظلَمون هم بإعطائهم رؤوسَ أموالهم ناقصةً؛ وأمَّا إنْ كان الذي عليه الدَّين مُعسِرًا لا يَجِد ما يُسدِّد به إليهم رؤوسَ الأموال التي هي دَينهم عليه، فعليهم أن يُمهِلوه حتى يتيسَّر له الوفاءُ، وأن يتصدَّقوا بإسقاط ما لهم على المَدَين المُعسِر من دَين أو بعضه؛ فهو خيرٌ لهم من إمهاله حتى يتيسَّر له القيامُ بردِّه لهم- إنْ كانوا يعلمون.

ثم يأمر اللهُ الناسَ أن يَحذَروا من يوم يَعودون فيه إلى الله بعد زَوال هذه الدُّنيا بما فيها، في ذلك اليوم الذي تستوفي فيه كلُّ نفْس جزاءَها بالعدل من ربِّها على كلِّ عملٍ صالح أو سيِّئ، لا يُنقَصُون شيئًا من ثواب الحسنات، ولا يُزاد عليهم شيءٌ من عقوبة السَّيِّئات.

تفسير الآيات:

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا ذكَر تعالى الأبرارَ المؤدِّين النَّفقات، المُخرِجين الزَّكوات، المتفضِّلين بالبرِّ والصِّلات، لذوي الحاجات والقَرابات، في جميع الأحوال- شرَع في ذكْر أَكَلَةِ الرِّبا وأموال الناس بالباطل وأنواع الشُّبهات[1]، فقال تعالى:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٠٨).

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾.

أي: إنَّ الذين يأخذون الرِّبا، فينتفعون به بأكلٍ، أو شربٍ، أو لِباسٍ، أو سكَنٍ، أو غير ذلك من وجوه الانتفاع، إنَّما يقومون في الآخرة من قُبورهم لبَعْثهم ونُشُورهم، كهيئةِ المصروعِ الذي أصابه الشيطانُ بالجنونِ، كما كانوا في الدُّنيا كالمجانين في طلَبِ هذا المكسَب الخبيث[1].

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾.

أي: هذا الذي يُصيبهم يومَ القيامة، من قُبْح حالهم، ووَحْشة قيامهم من قبورهم؛ من أجل أنهم كانوا في الدنيا يَكذِبون فيقولون اعتراضًا على أحكام الله تعالى في شَرْعه -: إنَّما البيعُ الذي أحلَّه الله لعباده مِثْلُ الرِّبا؛ فما الفرق بينهما وكلاهما وسيلتان للتَّكسُّب؛ فلِمَ حُرِّم هذا وأُبيح هذا؟ فكذَّبهم الله في قيلهم هذا؛ بأنَّ الله تعالى المُستحِقَّ للعبادة وحده هو الذي أحلَّ الأرباحَ في التجارة والشراء والبيع، وحرَّم أخْذ الزِّيادة بالباطل، وليسا سواءً، فالأمر أمره، والخَلْق خَلْقه، يَقضي فيهم ما يشاء، ويَستعبِدهم بما يُريد، وعليهم طاعته والتسليم لحُكْمه؛ فهو العالم بحقائق الأمور وما ينفع عباده، فيُبيحه لهم، وما يَضُرُّهم، فينهاهم عنه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٧-٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٧، ٩٥٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٧٤-٣٧٥).

قال ابن عطيَّة: (قال ابن عبَّاس رضي الله عنه، ومجاهد، وابن جُبَير، وقتادة، والربيع، والضحَّاك، والسُّدِّي، وابن زيد: معنى قوله: ﴿لا يَقُومُونَ﴾ من قبورهم في البَعث يوم القيامة، قال بعضهم: يُجعل معه شيطانٌ يخنقه، وقالوا كلهم: يُبعَث كالمجنون؛ عقوبةً له وتمقيتًا عند جَمْع المحشَر، ويقوِّي هذا التأويلَ المجمَعَ عليه في أنَّ في قراءة عبد الله بن مسعود: «لا يقومون يوم القيامة إلَّا كما يقوم») ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٣٧١-٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٢-٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٧٥).

﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

أي: مَن بلَغه النَّهي عن الرِّبا والتخويف من أكْله وتعاطيه عمومًا، فكَفَّ عنه وانزَجَر، فله ما أكَل منه وأخَذ فيما مضى قبل نزول تحريمه، وشأن آكِله إلى الله تعالى في توفيقه أو خِذلانه، وكذا عفوُه أو عُقوبته، فيما يَستقبِل من زمانه، فإنْ عَلِم مِن قلبه صحَّةَ توبتِه، غفَر له، وإلَّا عاقبه على ذلك.

ومَن عاد لأكلِ الرِّبا بعدَ بلوغِه تحريمُه مستحلًّا له، وعاد إلى القولِ بأنَّ البيعَ مثلُ الرِّبا، وأصرَّ على ذلك، فقد استوجب عقوبةَ اللهِ تعالى بملازمةِ نارِه خالدًا فيها[1].

﴿يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا زجَر الله تعالى عن الرِّبا ورغَّب في الصدقات، وكان الدَّاعي لبعض الناس إلى فِعل الرِّبا طلبَ الزيادة في الأموال، والصارف لبعض الناس عن الصَّدقة الاحترازَ عن نُقصان هذه الأموال؛ بَيَّن تعالى أنَّ الرِّبا في حقيقة الأمر نقصانٌ، وأنَّ الصدقةَ في حقيقة الأمر زيادةٌ[2]، فقال سبحانه:

﴿يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾.

أي: يُذهِب الله تعالى مكاسبَ الرِّبا بالكُليَّة من يد صاحبها، أو يَحرِمه بركتَها؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٠٩-٧١٠)، ((تفسير البغوي)) (١/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ١٣٧).

وإنْ حُمِلت الآية على المسلِم العاصي آكِل الرِّبا، فيكون المراد بالخلودِ: الخلود المؤقت وهو طولَ المكث في جهنَّمَ؛ لأنَّ الإيمانَ مانعٌ مِن الخلودِ الدائمِ فيها. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٣٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٧، ٩٥٨، ٩٥٩)، ((فتاوى نور على الدرب)) لابن باز (٢٧/ ١٤٢، ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٨٠).

فلا يَنتفِع بها، بل يُعذِّبه بها في الدنيا، ويُعاقِبه عليها يوم القيامة جزاءً مِن جِنْس ما عمِل، بينما يُنمِّي أجرَ الصَّدقات لصاحبها حتى تَتضاعَف(١).

كما قال تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩].

عن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((مَن تصدَّقَ بعِدْلِ تمرةٍ من كَسْبٍ طَيِّبٍ -ولا يَقبَلُ اللهُ إلَّا الطَّيِّبَ- وإنَّ اللهَ يَتقبَّلُها بيمينِه، ثم يُربِّيها لصاحبها، كما يُرَبِّي أحدُكم فَلُوَّه(٢)، حتى تكونَ مِثْلَ الجبلِ))(٣).

﴿وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى لا يحبُّ كلَّ من كان كثيرَ الكُفْران، مُصرًّا على الكُفْر بنِعَمه، مقيمًا على ذلك، مُستحِلًّا أكْلَ الرِّبا، متماديًا في الإثم فيما نهاه عنه من أكْله وتَعاطِيه، وغير ذلك من معاصيه، لا يَرْعوي عنه، ولا يتَّعِظ بموعظة ربِّه؛ ذلك أنَّ المرابي لا يَرضَى بما قسَم اللهُ تعالى له من الحلال، ولا يَكتفي بما شرَع له من التَّكسُّب المُباح، فهو يَسعى في أكْل أموال الناس بالباطل، بأنواع المكاسب الخبيثة، فهو جَحودٌ لما عليه من النِّعمة، ظَلومٌ آثمٌ بأكل أموال الناس بغير وجْه حقٍّ(٤).

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٥-٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧١٣-٧١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٧، ٩٥٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٧٨).

(٢) الفَلُوُّ- بوزنِ عَدُوّ، والفِلْو- وزان حِمْل- لُغة فيه: هو المُهْر يُفصَل عن أمِّه، والأُنثى فَلُوَّة. ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٤٨١).

(٣) رواه البخاري (١٤١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧١٥-٧١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٧، ٩٥٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٧٨-٣٧٩).

مُناسبة الآيةِ لِمَا قبلها:

لَمَّا ذكَر الله عزَّ وجلَّ أَكَلَةَ الرِّبا، وكان من المعلوم أنَّهم لو كانوا مؤمنين إيمانًا ينفعهم لم يَصدُرْ منهم ما صدَر، ذكَر هنا حالةَ المؤمنين وأجرَهم، فإنَّ أكبر الأسباب لاجتِناب ما حرَّم الله تعالى من المكاسب الرِّبويَّة تكميلُ الإيمان وحقوقه، خصوصًا إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة؛ فإنَّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكَر، والزكاة إحسانٌ إلى الخَلْق، وهذا يُنافي تعاطي الرِّبا، الذي هو ظلمٌ لهم[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَر حالَ آكِل الرِّبا، وحالَ مَن عاد بعدَ مجيء الموعظة، ذكَر ضدَّ هؤلاء؛ ليُبيِّن فَرْق ما بين الحالين، فعادة القرآن أنَّه مهما ذكر وعيدًا ذكَر بعده وعدًا[2]، فقال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧)﴾.

أي: إنَّ المؤمنين بما يجب الإيمان به، ومِن ذلك إيمانهم بما أُنزل إليهم من ربِّهم- والذي شَمِل تحريمَ الرِّبا- وعمِلوا الصَّالحات التي أمرهم الله عزَّ وجلَّ بها، وهي المبنيَّة على الإخلاص لله تعالى، والمتابَعة لرسوله صلَّى الله عليه وسلَّمَ- ومنها بذْل الصَّدقات في سبيله تعالى- وأدَّوُا الصَّلاةَ قويمةً بشروطها وأركانها، وواجباتها وسُنَنها، وأَعْطَوا الزَّكاة المفروضة عليهم في أموالهم لُمستحقِّيها، فأولئك لهم ثوابُهم عند الله جلَّ وعلا، ولا خوف عليهم ممَّا يَستقبِلون، ولا هم على ما مضى يَحزنون[3].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٨)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٧، ٩٥٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٧١١)، ((تفسير الرازي)) (٧/ ٨١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٨-٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٧، ٩٥٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٨٠-٣٨١).

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا بيَّن في الآية المتقدِّمة أنَّ مَن انتهى عن الرِّبا فله ما سَلَف، فقد كان يجوز أن يُظَنَّ أنه لا فرْق بين المقبوضِ منه والباقي في ذِمَّة القوم، وأنَّ الممنوع هو إنشاء عَقدٍ ربويٍّ بعد التحريم؛ لذا أزالَ تعالى هذا الاحتمالَ بأنْ أمَر بترك ما بقي من الرِّبا في العقود السابقة، قبل التَّحريم[١]، فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٨)﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنون، امتثِلوا ما أَمَركم الله تعالى به، وانتَهُوا عمَّا نهاكم عنه، فاتركوا ما لكم على الناس من الزِّيادة على رؤوس الأموال من المعاملات الحاضِرة التي بأيديكم، بعد هذا الإنذار الذي تلقَّيتُموه، إنْ كنتم صادقين حقًّا في إيمانكم[٢].

﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا كان مِن حقِّ مَن عَاندَ السَّيدَ الأخْذُ؛ سبَّب عن ذلك قوله[٣]:

﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: ﴿فَأْذَنُوا﴾ قراءتان[٤]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٨٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٧١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٧، ٩٥٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٨٢-٣٨٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ١٣٩).

(٤) قرأ حمزة وأبو بكر (فآذِنُوا). وقرأ الباقون (فَأْذَنُوا) بالقَصْر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٣٦).
=

١ – (فَآذِنُوا) من آذنتُه أُوذِنه، إذا أعلنتُه، كقولهم: أَعْلِمُوا مَنْ وراءَكم، فالمعنى: فأَعلِموا غيرَكم أنَّ كلَّ مَن لم يترك الرِّبا فهو حرب، وهذا أعمُّ؛ لأنَّهم إذا أعلَموا غيرَهم بالحرب من الله ورسوله، فقد علِموا هم ذلك.

٢ – (فَأْذَنُوا) على أنَّه أمرٌ للمُخاطَبين بترك الرِّبا، أُمِروا أن يَعْلموا ذلك هم أنفسهم، فالمعنى: فإن لم تتركوا الرِّبا، فأَيْقِنوا بحربٍ من الله ورسوله.

﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾.

أي: إنْ لم تتركوا ما بقي لكم على النَّاس من زيادةٍ على رأس المال، مُستَمرِّين على تَعاطي الرِّبا بعد إنذاركم، فأَعلِموا أنفسَكم وغيرَكم، مُستيقنين أنَّ الله تعالى يتوعَّدكم بحرب وقتْل مِنه ومن رسولِه عليه الصَّلاة والسَّلام[١].

﴿وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾.

أي: إن تُبْتُم فتركتُم أكْلَ الرِّبا، وأَنَبْتُم إلى الله عزَّ وجلَّ، فلكم رؤوس أموالكم من الدُّيون التي لكم على النَّاس دون الزِّيادة التي أحدثتموها على ذلك، فلا تَظْلِمُونَ الناسَ بأخْذ الزِّيادة، وَلا تُظْلَمُون بإعطائكم رؤوسَ أموالكم ناقصةً[٢].

﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠)﴾.

﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾.

= ويُنظر لمعنى القراءتين: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٣١-٢٣٢)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥١-٥٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٣٩٧-٣٩٨)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٣٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٧، ٩٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٣-٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٧، ٩٥٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٨٦، ٣٨٧).

أي: إنْ كان الذي عليه الدَّين مُعسِرًا لا يَجِد ما يَردُّ به حقَّكم- وهو رؤوس أموالكم التي أَسلفتُموه إيَّاها دون زيادة- فعليكم أن تُمهِلوه حتى يتيسَّر له الوفاءُ به[1].

﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

أي: إنَّ تصدُّقَكم على المدينِ المعسرِ بالتنازلِ والعفو عمَّا لكم عليه أو بإسقاط بعضه، خيرٌ لكم من إمهاله حتى يتيسَّر له القيام بردِّه لكم، فقوموا بذلك إذًا إن كنتم من ذوي العِلْم بفضل الصَّدقة، وما لصاحبها من ثوابٍ عظيم[2].

عن عبد الله بن أبي قَتادةَ: ((أنَّ أبا قَتادةَ رضي الله عنه، طلَب غريمًا لهُ، فتوارى عنهُ، ثم وجدَه، فقال: إنِّي مُعسِرٌ، فقال: آلله؟ قال: آلله، قال: فإنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ يقول: مَن سرَّهُ أن يُنجيَه اللهُ من كُرَبِ يومِ القيامةِ، فلينفِّسْ عن مُعسِرٍ، أو يَضعْ عنهُ))[3].

وعن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((مَن نفَّسَ عن مؤمنٍ كُربةً من كُرَبِ الدنيا، نفَّسَ اللهُ عنه كُرْبةً من كُرَبِ يومِ القيامةِ، ومَن يَسَّرَ على مُعسِرٍ، يسَّرَ اللهُ عليه في الدنيا والآخرةِ، ومَن سترَ مسلمًا، ستره اللهُ في الدنيا والآخرةِ، واللهُ في عونِ العبدِ ما كان العبدُ في عونِ أخيه))[4].

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٨١)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٦-٥٧، ٦٢-٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٧، ٩٥٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٣، ٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧١٧)، ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٩٠-٣٩١).

(٣) رواه مسلم (١٥٦٣).

(٤) رواه مسلم (٢٦٩٩).

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

أنَّ ممَّا يُهوِّن على العبدِ التزامَ الأمور الشرعيَّة، واجتنابَ المعاملات الرِّبوية، والإحسانَ إلى المُعسِرين، عِلْمُه بأنَّ له يومًا يَرجِع فيه إلى الله تعالى، ويُوفِّيه عملَه، ولا يظلمه مِثقالَ ذرَّة؛ ففي الآية ترغيبٌ في فِعْل ما أُمِر به أو نُدِب إليه ممَّا سبق؛ لأنَّ في تَرْك المنهيَّات سلامةً من آثامها، وفي فِعْل المطلوبات استكثارًا من ثوابها، والكلُّ يرجع إلى اتِّقاء ذلك اليوم الذي تُطلَب فيه السلامة وكثرة أسباب النجاح، وهو أيضًا صالح للتَّرهيب من ارتكاب ما نهي عنه ممَّا سبَق النَّهي عنه(١)؛ لذا قال تعالى:

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٨١)﴾.

أي: احذروا- أيُّها الناس- يومًا تزول فيه هذه الدنيا وما فيها من الأموال وغيرها، فترجعون إلى الله فتَلقَونه فيه، فاحذروا أن تَرِدوا عليه بسيِّئات تُهلِككم، وبلا حسنات تُنجيكم، فتَستحِقُّوا عقابَ الله تعالى، وهو يوم مُجازاة الأعمال، فتستوفي فيه كلُّ نَفْس جزاءها بالعدل من ربِّها، على ما قدَّمت واكتسَبتْ من سيِّئ وصالح، لا يُنقَصُون شيئًا من ثواب الحسنات، ولا يُزاد عليهم شيءٌ من عقوبة السيِّئات(٢).

الفوائد التربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: دلالةٌ على أنَّه لابد مع الإيمان من العمل الصالح، وأنَّ العمل لا يُفيد حتى يكون صالحًا؛ والصَّلاح أن ينبني العملُ على أمرين: الإخلاص لله عزَّ وجلَّ، وضده الشِّرك. والمتابعة، وضدها البِدْعة(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٧-٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٧)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٩٦-٣٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٨١).

٢- أنَّ أَخْذ الرِّبا يُنافي الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(١).

٣- رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده، حيث حرَّم عليهم ما يتضمَّن الظلم؛ وأكَّد هذا التَّحريم، وأنزل القرآن فيه بلفظ يَحمِل على تَرْك هذا المُحرَّم؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللهَ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾؛ والحُكْم: ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾(٢).

٤- في قوله: ﴿مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ رحمةُ الله سبحانه وتعالى بالعبادِ؛ حيث أَرسَل إليهم الرُّسلَ؛ لأنَّ العقول لا يُمكِن أن تَستقِلَّ بمعرفة ما يَنفَعها ويَضُرُّها على وجه التَّفصيل؛ لقُصُورها، إنَّما تَعرِفه على سبيل الجُمْلة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]؛ فمِن أجْلِ ذلك أَرسَل اللهُ الرُّسلَ؛ فكان في هذا رحمةٌ عظيمة للخَلْق(٣).

٥- مُراعاة العدلِ في معاملة النَّاس بعضهم مع بعض؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾(٤).

٦- فضيلة الإبراء من الدَّين، وأنَّه صَدقة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾؛ والإبْراءُ سُنَّة، والإنظار واجب، وهنا السُّنَّة أفضلُ من الواجب بنصِّ القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾(٥).

٧- فضيلة العِلم، وأنَّ العِلم يَهدي صاحبَه إلى الخير؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(٦).

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٨٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٨٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٨٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٩٢).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٩٣).

الفوائد العلمية واللَّطائف:

١ - ضرورة اعتقاد مَن يريد أن يكون مسلمًا، بأنَّ هناك استحالةً اعتقاديَّة في أن يُحرِّم اللهُ أمرًا لا تقوم الحياةُ البشريَّة ولا تتقدَّم بدونه كما أنَّ هناك استحالة اعتقاديَّة كذلك في أن يكون هناك أمرٌ خبيثٌ، ويكون في الوقت ذاته حتميًّا لقيام الحياة وتقدُّمها[1]، وقد اتَّفق الوصفان في تحريم الرِّبا؛ فلا ضرورة تحتِّمه، ولا مصلحةَ تفوت بفواته.

٢- أنَّ مَن تَعامَل بالرِّبا فإنه يُصاب بالنَّهْمة العظيمة في طلَبِه كما في قوله: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾[2].

٣- قوله: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾: التَّعبير عنه بالأكْل؛ لأنَّه مُعظَم ما قُصِد به، ولشيوعه في المطعومات، مع ما فيه من زيادة تَشنيعٍ لهم، وهو الزِّيادة في المقدار[3].

٤- أنَّ الشَّيطان يتخبَّط بني آدم فيَصرَعه؛ ولا عِبْرة بقول مَن أَنكَر ذلك كما في قوله ﴿يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾[4].

٥- مُبالَغة أهل الباطل في ترويج باطِلِهم؛ لأنَّهم جعَلوا المقيسَ هو المقيس عليه؛ لقولهم: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾؛ وكان مقتضى الحالِ أن يقولوا: إنَّما الرِّبا مِثْلُ البيعِ[5].

٦- أنَّ الحُكْم لله- تبارك وتعالى- وحده؛ فما أحلَّه فهو حلال؛ وما حرَّمه فهو حرام، سواء علِمْنا الحِكمةَ في ذلك، أم لم نعلم؛ لأنَّه تعالى ردَّ قولهم: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٣٢٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٧٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٦٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٧٦).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مِثْلُ الرِّبَا﴾ بقوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾؛ فكأنَّه قال: ليس الأمرُ إليكم؛ وإنَّما هو إلى الله(١).

٧- أنَّ بين الرِّبا والبيعِ فرقًا أوجب اختلافَهما في الحُكْم؛ فإنَّا نعلم أنَّ الله تعالى لا يُفرِّق بين شيئين في الحُكْم إلَّا وبينهما فرقٌ في العِلَّة، والسبب المقتضي لاختلافهما؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين: ٨]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾(٢) [المائدة: ٥٠].

٨- أنَّ ما أخَذه الإنسانُ من الرِّبا قبل العلم فهو حلالٌ له بشَرْط أنْ يتوب، وينتهي؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾(٣).

٩- أنَّه لو تاب من الرِّبا قبل أن يَقبِضه، فإنَّه يجب إسقاطُه؛ لقوله تعالى: ﴿فَانْتَهَى﴾؛ ومَن أخَذه بعد العِلم، فإنَّه لم يَنْتَهِ(٤).

١٠- التَّخويف من التَّفاؤل البعيد لِمَن تاب من الرِّبا؛ لأنَّه تعالى قال: ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ﴾؛ يعني أنَّ الإنسانَ يتفاءل، ويُؤمِّل؛ لأنَّ الأمر قد لا يكون على حَسَب تفاؤله(٥).

١١- رأفة الله تعالى بمَن شاء مِن عباده؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى﴾؛ وهذه رِبوبيَّة خاصَّة تَستلزِم توفيق العبدِ للتَّوبة، حتى ينتهي عمَّا حرَّم الله عليه(٦).

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٧٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٧٨).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

١٢- ولَمَّا كان التَّخويفُ من المُحسِن أردعَ؛ لأنَّ النَّفْس منه أَقْبَلُ قال: ﴿مِنْ رَبِّهِ﴾: أي: المُربِّي له، المُحسِن إليه بكلِّ ما هو فيه من الخير[1].

١٣- في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ الإشارةُ إلى عظمةِ هذا الثَّواب؛ لأنَّه أضافه إلى نَفْسه- تبارك وتعالى- والمضاف إلى العظيم يكون عظيمًا[2].

١٤- أنَّه إذا كان الشيءُ مهمًّا، فإنَّه ينبغي أن يُصدَّر بما يُفيد التَّنبيه من نداء، أو غيره كما في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا.....﴾[3].

١٥- قوله ﴿اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾: فيه مناسبةٌ حسنة، حيث أُمِروا بتقوى الله قبل الأمر بترْك الرِّبا؛ لأنَّ تقوى الله هي أصلُ الامتثال والاجتناب؛ ولأنَّ تَرْك الرِّبا من جُمْلتها[4].

١٦- وجوب ترْك الرِّبا (سواء سمِّي بهذا الاسم الصَّريح، أو سمِّي بغيره كـ«الفائدة»)- وإن كان قد تَمَّ العَقْد عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾؛ وهذا في عَقْدٍ استُوفي بعضه، وبقِي بعضه[5].

١٧- أنه لا يجوز إنفاذُ العقود المُحرَّمة في الإسلام- وإن عُقِدت في حال الشِّرك؛ لعموم قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾[6].

١٨- الردُّ على الجبريَّة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾؛ لأنَّ الجبريَّة يقولون: إنَّ الإنسان لا يستطيع الفِعلَ، ولا الترك؛ لأنه مُجبَر، وحقيقة قولهم تعطيل الأمر

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٧٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٨٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٨٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٩٣)
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٨٣، ٣٨٤).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٨٣).

والنَّهي؛ لأنَّ الإنسان لا يستطيع أن يفعلَ ما أُمِر به، ولا تَرْك ما نُهي عنه[1].

١٩- أنَّ المرابي إذا كان مُعلِنًا الحرب على الله ورسوله، فهو مُعلِن الحرب على أولياء الله ورسوله، وهم المؤمنون؛ وذلك بدَلالة الالتزام؛ لأنَّ كلَّ مؤمن يجب أن يَنتصِر لله، ورسوله؛ فالمؤمنون هم حِزب الله عزَّ وجلَّ ورسوله[2].

٢٠- أنَّه لا يجوزُ أَخْذ ما زاد على رأس المال من الرِّبا لأيِّ غرضٍ كان؛ سواء أخذه ليتصدَّق به، أو ليَصرِفه في وجوه البِرِّ تخلُّصًا منه، أو لغير ذلك؛ لأنَّ الله أمر بتَرْكه؛ ولو كان هنا طريقٌ يُمكِن صَرْفه فيه لبيَّنه الله عزَّ وجلَّ[3].

٢١- الإشارة إلى الحِكمةِ من تحريم الرِّبا، وهي ما فيه من الظُّلم؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾[4].

٢٢- حِكمة الله عزَّ وجلَّ بانقسام الناس إلى مُوسِر، ومُعسِر؛ المُوسِر في الآية: الدائن؛ والمُعسِر: المَدين؛ وحِكمة الله عزَّ وجلَّ هذه لا يُمكِن أن تستقيم أمورُ العباد إلَّا بها[5].

٢٣- أنَّ الحُكمَ يدور مع عِلَّته وجودًا وعَدَمًا؛ لأنَّه لَمَّا كان وجوب الإنظار مُعلَّلًا بالإعسار، صار مستمرًّا إلى أن تزول العِلَّة- وهي العُسْرة- حتى تجوز مطالبته[6].

٢٤- تَفاضُل الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾، وتَفاضُل

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٨٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٨٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٩١).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الأعمال يَستلزِم تَفاضُلَ العامل، وأنَّ العاملين بعضهم أفضل من بعض، وهذا أمرٌ معلوم بالضرورة الشَّرعيَّة والعقليَّة؛ أنَّ العمال يَختلِفون[١].

٢٥- الردُّ على الجبريَّة؛ لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾؛ لأنَّ توجيه الأمْر إلى العبد- إذا كان مجبرًا- من تكليفِ ما لا يُطاق[٢].

٢٦- في قوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾؛ أنَّ التَّقوى قد تُضاف لغير الله- لكن إذا لم تَكُن على وجه العبادة؛ فيُقال: اتَّقِ فلانًا، أو: اتَّقِ كذا؛ وهذا في القرآن والسُّنَّة كثير[٣]. حيث المراد بها المعنى اللُّغوي.

٢٧- أنَّ الصَّغير يُكتَب له الثَّواب؛ وذلك لعموم قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ﴾[٤].

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ فيه تشبيه تمثيلي، حيث شبَّه آكِلي الرِّبا عند خروجهم من أجداثهم بمَن أصابه مسٌّ فاختلَّ طبعُه، وانتكستْ حاله[٥].

- وقوله: ﴿مِنَ الْمَسِّ﴾ فيه تأكيدٌ؛ ليظهر المرادُ من تخبُّط الشَّيطان؛ فلا يظنُّ أنه تخبُّط مجازيٌّ بمعنى الوسوسة[٦].

٢- قوله: ﴿قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ فيه تشبيهٌ مقلوب، حيث شبّه البيع بالرِّبا؛ إشارةً إلى أنَّهم عكَسوا الكلام؛ للمبالغة، حتَّى جعلوا الرِّبا أصلًا، والبيع

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٩٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٩٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٩٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٩٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٧٠٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٣٠).
(٦) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢١٩).

فرعًا فشبَّهوه به، وهو في البلاغة مرتبةٌ عُليا، يُصبح المشبَّه به قائمًا بالمشبَّهِ وتابعًا له[١].

٣- قوله: ﴿يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ بيْن (الرِّبا) وبين (الصَّدقات) مناسبةٌ من جِهة التضاد؛ وذلك لأنَّ الصَّدقة عبارة عن تنقيص المال بسبب أمْر الله بذلك، والرِّبا عبارة عن طلب الزِّيادة على المال مع نهي الله عنه، فكانَا متضادَّين؛ فلمَّا حصَل بين هذين الحُكمين هذا النوع من المناسبة، لا جرمَ ذُكِر عقيب حُكم الصَّدقات حُكمُ الربا[٢].

- وفي ذِكر (المَحْق) و(الإرباء) بديعُ الطِّباق، وفي ذِكر (الرِّبا) و(يُربِي) بديعُ التَّجنيس المغاير[٣].

٤- قوله: ﴿وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ فيه تغليظُ أمر الرِّبا، وإيذان أنَّه من فِعل الكفَّار لا مِن فِعل أهل الإسلام، وأتى بصيغة المبالغة في الكافِر والآثم (كفَّار- أثيم)، وإنْ كان تعالى لا يحبُّ الكافر؛ تنبيهًا على عِظم أمْر الرِّبا، ومخالفة الله، وأنَّه لا يقول قولَهم ويُسوِّي بين البيع والرِّبا؛ ليستدلَّ به على أكْل الرِّبا، إلَّا مبالِغٌ في الكفر، مبالِغ في الإثم، ومع المبالغة والتوكيد في ﴿أثيم﴾ فقد أفاد ذِكره أيضًا زوالَ الاشتراك الذي في (كفَّار)؛ إذ يقع على الزرَّاع الذين يسترون الأرض[٤].

- ومفاد التركيب: أنَّ الله لا يحبُّ أحدًا من الكافرين الآثمين؛ لأنَّ كلمة (كل) من صيغ العموم؛ فهي موضوعةٌ لاستغراق أفراد ما تُضاف إليه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٢٠-٣٢١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٦٣٣)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٢٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٧٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٧٠٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٦٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٢١)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٩١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٩١).

٥- قوله: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ فيه ذِكر الخاصِّ بعد العامِّ؛ حيث خصَّص الصَّلاة والزكاة بالذِّكر مع اندراجهما في الصَّالحات؛ لبيان فضلهما، وعلوِّ منزلتهما على سائرِ الأعمال الصالحة، على طريقةِ ذِكر جبريل وميكال عقيبَ الملائكة عليهم السَّلام[1].

٦- قوله: ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ تنكير (حرب)؛ للتعظيم[2]. وفي العدول عن إضافة الحرب إلى الله ورسوله حيث لم يقل: (بحرب الله ورسوله)، وإضافة حرف الجر (مِن) سرٌّ بلاغي بديع، حيث أفاد أنَّه نوعٌ من الحرب عظيمٌ من عند الله ورسوله، وأيضًا أفاد أنَّ الحرب مِن الله لهم؛ فالله تعالى هو الذي يحاربهم، ولو قيل: (بحرب الله)، لاحتمل أن تكون الحربُ مضافةً للفاعِل، فيكون الله هو المحارِب لهم، واحتمل أن تكون مضافةً للمفعول، فيكونوا هم المحاربين لله؛ فكونُ الله تعالى محاربَهم أبلغُ وأزجرُ في الموعظة من كونهم محارِبين لله[3].

٧- قوله: ﴿تُرْجَعُونَ﴾ مَن قرأ بياء الغَيبة (يرجعون) فيكون في التفات؛ ووجهه: أنَّ الله تعالى كأنَّه رفَق بالمؤمنين عن أن يواجههم بذِكر الرَّجعة؛ إذ هي ممَّا تتفطَّر له القلوب، فقال لهم: ﴿وَاتَّقُوا﴾، ثم رجَع في ذِكر الرَّجعة إلى الغيبة رِفقًا بهم فقال: (يرجعون)[4].

٨- قوله: ﴿ثُمَّ توفَّى﴾ التعبير بأداة التراخي (ثم) فيه إشارة إلى طول وقوفهم ذلك الموقفَ في مقام الهيبة، وتمادِي حبسهم في مشهد الجلال والعَظمة[5].

---

(١) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٦٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٩٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٧١٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٦٤٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٧١٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٦٤٩).
(٥) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٤٥).

الآيات (٢٨٢-٢٨٣)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ (٢٨٢) ۞ وَإِن كُنتُمۡ عَلَىٰ سَفَرٖ وَلَمۡ تَجِدُواْ كَاتِبٗا فَرِهَٰنٞ مَّقۡبُوضَةٞۖ فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥۗ وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ (٢٨٣) ﴾.

غريب الكلمات:

﴿أَجَلٖ﴾: الأجل: غاية الوقتِ المحدَّدة، والمدَّة المضروبة للشيء، يقال: دَينه مؤجَّل، جُعل له أجل(١).

﴿وَلۡيُمۡلِلِ﴾: من أمللتُ الكتابَ، أي: أمليتُ على أحدٍ شَيْئًا يكتبُه(٢).

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥).

(٢) يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٥/ ٢٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٧)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (١/ ٢٥١)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ١٨٧).

﴿يَبْخَسْ﴾: أي: يَنقُص، وأصْل البَخْس: نَقْص الشيء على سبيل الظُّلم، والشيء الطَّفيف الناقص[1].

﴿وتَسْأَمُوا﴾: أي: تَمَلُّوا، وأصْل السَّآمة: الملالة ممَّا يَكْثُر لُبْثه[2].

﴿أَقْسَطُ﴾: أي أَعدْلُ وأصحُّ، والقِسْط: هو النَّصيب بالعدل كالنَّصَف والنَّصفة، والعدل، ويقال منه: أَقسط يُقسِط[3].

﴿وَأَدْنَى﴾: أي: أَقْرَب، والدُّنوُّ: القُرْب بالذَّات، أو بالحُكم، ويُستعمَل في المكان والزَّمان والمنزلة[4].

﴿تَرْتَابُوا﴾: تَشُكُّوا؛ فأصلُ الرَّيب: الشكُّ والخوف[5].

﴿تُدِيرُونَهَا بينكم﴾: أي: تَتبايعونها، أو تتداولونها وتتعاطونها من غير تأجيل، وأصْل الدَّوران: إحداقُ الشَّيء بالشَّيء مِن حَوالَيه[6].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٩)، (غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ١٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٧، ٢٦٥).

(٤) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٧).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٧).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٢).

﴿فَرِهَانٌ﴾: جمْع رهْن، وهو ما يُوضَع وثيقةً للدَّين[١]؛ فالرهن: توثقةُ الدَّينِ بعَينٍ يمكنُ استيفاءُ الدَّينِ أو بعضِه منها، أو مِن بعضِها[٢].

مشكل الإعراب:

١ - قوله: ﴿فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾:

فرَجُلٌ: مبتدأ. وامرأتانِ: معطوف عليه، والخبر محذوف، والتقدير: فرجلٌ وامرأتانِ يقومانِ مقامَ الرَّجُلين. وقيل: فرجُلٌ خبرٌ، والمبتدأ محذوف، والتقدير: فالشاهد رجلٌ وامرأتان. وقيل غير ذلك[٣].

٢- قوله: ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾:

لا يُضارَّ: على قِراءة فتح الرَّاء مع التشديد؛ فلا ناهية جازمة، و(يضارَّ) مضارع مجزوم. وعلى قراءة رَفْع الرَّاء مشدَّدة؛ فلا: نافية لا عملَ لها، ويضارُّ: فعل مضارع لم يدخلْ عليه ناصب ولا جازم فرُفع. ويحتمل في الرَّاء الأُولى منه أن تكونَ مكسورة (يُضارِر) فيكون الفعل مبنيًّا للفاعل، ويكون (كاتبٌ ولا شهيدٌ) فاعلين نُهيَا عن مضارَّة المكتوب له والمشهود له. ويحتمل أن تكون الراء بالفتح (يُضارَر) فيكون الفعل مبنيًّا للمفعول، ويكون (كاتبٌ ولا شَهيد) نائِب الفاعل، والتقدير- قبل البِناء للمفعول -: لا يُضارِرْ أحدٌ الكاتبَ ولا الشَّهيدَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٢٤-٤٢٦).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٤٤)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٢٢٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٦٥٦).

(٤) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٤٥-١٤٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٦٧٥-٦٧٦).

٣- قوله: ﴿فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ﴾

فرهانٌ: مبتدأ، ومقبوضةٌ: نعت، والخبر محذوف، والتقدير: فرهانٌ مقبوضةٌ تَكفي من ذلك. أو خبَرَ لمبتدأ محذوف، والتقدير: فالوثيقةُ- أو فالقائم مقامَ ذلك- رِهانٌ مقبوضةٌ. أو مرفوع بِفِعل محذوف، أي: فيَكفي عن ذلِك رهانٌ مقبوضةٌ[1].

المعنى الإجمالي:

يُرشِد اللهُ عبادَه المؤمنين أنَّهم إذا حصَل بينهم مداينةٌ إلى وقتٍ معلوم، فليُوثِّقوه بالكتابة، وليكن مَن يَكتُب بينهم عارفًا بالكتابة، معروفًا بالعدل والإنصاف، ولا يمتنع مَن يعرف الكتابةَ أن يكتُب بين النَّاس، كما تفضَّل الله عليه بتعليمه، فأمَر بالكتابة، وأنْ يكون من يُملي على الكاتب هو المَدِين، وليَحذَر من عقاب الله في أن يَنقُص صاحبَ الحقِّ شيئًا، وفي حالة كان المَدِين الذي عليه المال جاهلًا، أو لا يُحسِن التصرُّف، أو ضعيفًا لصِغَر أو جنون، أو ليس بمقدوره الإملاءُ لمانع- فلْيَقُم بالإملاء نيابةً عنه مَن يتوَّلى شؤونه، وليتحرَّ الوليُّ الصدقَ، والعدلَ في إملائه. كما أرشد الله عبادَه المؤمنين أن يُشهدوا شاهدين من الرجال المسلمين العدول، فإنْ لم يكونَا رجُلينِ، فليَشْهَد من الشُّهود المرضيِّين رجلٌ وامرأتان؛ كي تُذكِّر إحداهما الأخرى إنْ وقع منها نسيانٌ، وليس للشُّهداء أن يمتنعوا من تَحمُّل الشهادة أو أدائها إذا دُعُوا إلى ذلك. ويُرشِد الله عباده أيضًا ألا يَمَلُّوا من كتابة كلِّ الدُّيون قليلها وكثيرها إلى وقتها المسمَّى، فإنَّ تقييدَ الدَّين إلى وقته أعدلُ عند الله وأثبت لشهادة الشهود، فلا يقع بينهم خلافٌ؛ لاجتماعهم على ما هو مكتوب، كما أنَّ ذلك أقرب إلى عدم حصول الرِّيبة والتَّنازع، أمَّا إذا كان البائع والمشتري سيَقبِض كلٌّ منهما حقَّه على الفور، فلا حَرَج ولا إثم في تَرْك الكتابة حينها، لكن الإشهاد في حقِّهما مشروع.

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٤٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٢٣٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٦٧٨).

ونهى الله تعالى بعد ذلك أهلَ الحقوقِ من الإضرار بالكاتب والشَّاهد على أيِّ نحوٍ كان ذلك الإضرار، كما أنَّ النَّهي عن الإضرار موجَّهٌ إلى الكاتب والشَّاهد ألَّا يَضُرَّا أحدًا من أهل الحقوق بأيِّ شَكْلٍ؛ لأنَّ ذلك الإضرار خروجٌ عن طاعة الله إلى المعصية، ثم أمرهم الله بتقواه، وأخبَرهم أنه يُعلِّمهم، والله بكلِّ شيء عليم.

ثم يُرشِد اللهُ عبادَه أنَّهم إنْ كانوا على سفرٍ وتداينوا بدَين إلى وقت معلوم، ولم يجدوا مَن يَكتُب لهم توثيقَ الدَّين ووقتَه، فلْيَستبدِلوا بذلك التوثيقِ توثيقًا آخَر، وهو رِهانٌ يَقبِضها الدَّائن تكون عنده حتى يأتيه حقُّه، فإنِ استأمَن الدائنُ المدينَ ورَغِب في أن تكون المداينة بلا رَهْن، فعلى المَدين أن يَرُدَّ الدَّين كاملًا، وليحذر مِن الله أن يُعاقِبه إذا خالَف الأمرَ، وارتكب المنهيَّ عنه في ذلك.

ثم نهى سبحانه عن كِتمان الشَّهادة، وذلك بإنكارها بالكُلِّيَّة، أو بالزِّيادة والنُّقصان فيها، مبيِّنًا جلَّ وعلا أنَّ مَن يَكتُمها فإنَّه فاجرُ القلب، مُكتَسِب للإثم بكِتمانه، والله عليمٌ بكلِّ أعمالِ البشر، يُحصيها ويُجازيهم عليها.

تفسير الآيات:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا

يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا اهتمَّ القرآن بنظام أحوال المسلمين في أموالهم، فابتدأ بما به قِوام عامَّتهم من: مواساة الفقير، وإغاثة الملهوف، ووضَّح ذلك بما فيه عِبْرة للمُعتبِر، ثم عطَف عليه التحذير من الرِّبا الذي فيه استغلالٌ للمحتاجين، مع ما في تلك المعاملات من المفاسد- ثلَّث ببيان التَّوثقات الماليَّة من الإشهاد، وما يقوم مَقامَه، وهو الرَّهن والائتمان[1]، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنون، إذا داين بعضُكم بعضًا على أنْ يكون ردُّ الدَّين في وقت معلوم بينكم، فاكتبوه- للتوثُّق والحِفْظ-؛ لكَثْرة النِّسيان، ولوقوع المُغالَطات، وللاحتراز من الخونة الذين لا يَخْشَون الله تعالى، واكتبوه بواسطة كاتب عارِف بكتابة ما يَحصُل به التوثُّق، معروف بالعدل والإنصاف، لا يجورُ في كتابته على أحد، ولا يكتُب إلَّا ما اتَّفقوا عليه من غير زيادة ولا نُقصان، ولا يَميل مع أحدٍ منهم لقَرابة أو غيرها، ولا على أحد لعداوة ونحوها[2].

﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا﴾.

أي: لا ينبغي أن يمتنع مَن يعرف الكتابةَ إذا سُئل أن يكتبَ للنَّاس توثيقَ دُيونهم ووقتَ ردِّها، فكما علَّمه اللهُ ما لم يكن يعلم، فخصَّه بعِلم ذلك، وحرَمه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٩-٧٢، ٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٢٢-٧٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٨، ٩٥٩)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٠٣).

عددًا من خَلْقه، فليُحسِن إلى غيره بأن يُبادِر إلى كتابة ذلك بطريقةٍ مُستوفِية لِمَا ينبغي أنْ تكون عليه.

ولْيُمْللِ المدينُ على الكاتب ما في ذِمَّته من الدَّين، وليَحذَر عقابَ الله تعالى في أن يَنقُص صاحبَ الحقِّ شيئًا من مقداره أو كيفيَّته، أو نوعه أو أَجَله أو غير ذلك من توابِعه(١).

﴿فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾.

أي: إنْ كان المدينُ- الذي عليه المال- جاهلًا بالصَّواب من الخطأ في الَّذي عليه إملاؤه على الكاتب، أو كان لا يُحسِن التصرُّف، أو ضعيفًا لصِغَره أو جُنونه، أو لا يستطيع الإملالَ لِخَرَسه أو عيٍّ لسانه، أو غَيبتِه لسفرٍ أو غيره، فإنَّه ينوبُ عنه في ذلك مَن يتوَّلى شؤونه من أبٍ، أو جدٍّ، أو أخٍ، أو غيرهم، ويَلزَم الوليَّ الإملاءُ بالصِّدق المطابِق للواقع؛ فلا يَزيد، ولا يَنقُص، ولا يَجور على الدائن أو المدين(٢).

﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾.

أي: اطْلُبوا أيضًا- لتوثيق حقوقِكم- شهادةَ رَجلين عليها من المسلمين العدول الذين تَرضَونهم، فإنْ لم يكن الشَّاهدان رجُلين، فليشهد رجلٌ وامرأتان

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧٦، ٧٧، ٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٠٣-٤٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٨٢-٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٠٤-٤٠٥).

على ذلك؛ كي تُذكِّر إحدى المرأتين الأخرى، إنْ وقع لها نِسيانٌ[١].

﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾.

أي: ليس للشُّهداء أن يَمتنعوا من الإجابة إذا دُعُوا لتحمُّل الشَّهادة أو أدائها[٢].

﴿وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾.

أي: لا تَمَلُّوا- أيُّها الذين تُداينون النَّاس- من كتابة قليل الدَّين أو كثيره إلى أجَله المُسمَّى؛ فإنَّ كتابة ذلك أعدلُ عند الله، وأثبتُ لشهادة الشُّهود؛ فلا يقع بينهم اختلاف في ذلك لاجتماعهم على ما حواه الكتاب، وأَقْربُ إلى عدم وقوع الرِّيبة وحصول التَّنازُع، فلا تَشُكُّون فيما شَهِد به الشهود من الحقِّ والأَجَل.

ولا حَرَج ولا إثم على المُتبايعِينَ منكم في تَرْك كتابةِ ذلك؛ إذا كان كلٌّ من البائع والمشتري، يَقبِض حقَّه فورًا بلا تأخير، فيأخذ المشتري سِلعتَه، ويَقبِض البائعُ أجرَه قبل مُفارَقة بعضهما، فلا حاجةَ لهما حينئذٍ إلى الكتابة والتَّوثيق، لكن الإشهاد على حقِّهما مشروع[٣].

﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾.

نهى الله تعالى أهلَ الحقوقِ عَن إيقاع ضررٍ بأيِّ وَجْه من وجوه الضَّرر على كاتبٍ أو شاهِدٍ على حقوقهم، كما لا يَحِلُّ أيضًا لكاتبٍ أو شاهِدٍ أن يَضُرَّا أحدًا من

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٨٦-١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٨، ١١٩، ٩٦٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٠٥-٤٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٠٠-١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٦٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٠٢-١١١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٩، ٩٦٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٠٨-٤٠٩، ٤١٩).

أهل الحقوق بأيِّ ضررٍ كان؛ فإنَّ إحداثَ الضرر في ذلك يُعَدُّ خروجًا عن طاعة الله تعالى إلى معصيته[١].

﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

أي: خافوا اللهَ- أيُّها المتداينون- في الكتَّاب والشهود أن تُوقِعوا عليهم ضررًا ما، وراقِبوه في غير ذلك من حدوده فلا تُضيِّعوها، واتَّبِعوا أمرَه، واترُكوا نهيَه، والله تعالى يبيِّن لكم على الدوام أحكامَ شريعته فضلًا منه ونعمةً؛ فهو العالم بحقائق الأمور ومصالحها وعواقبها، وعِلْمه محيطٌ بجميع الكائنات، كما أنَّه لا يَخْفى عليه شيءٌ من أعمالكم، فيُحصيها عليكم ويُجازيكم بها[٢].

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣)﴾.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ﴾.

أي: إنْ كنتم مسافرين وتَداينتُم بدَين إلى أجل مسمًّى، ولم تَعثُروا على كاتب يكتُب لكم توثيقَ الدَّين وأجلَه، فليكُنْ بدلَ الكتابة رِهانٌ يَقبِضها صاحبُ الحقِّ، وتكون وثيقةً عنده حتى يأتيه حقُّه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١١٧-١٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٦٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٢٠)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٣٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١١٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٠٩-٤١٠)، ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٩، ١٢٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٢٤-٤٢٦).

﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ﴾.

أي: إنْ كان المَدينُ أمينًا عند صاحب الدَّين فوَثِق فيه، وأحبَّ أن يُعامِله من دون رَهْن، فعلى المَدين أن يردَّ إليه دَينَه كاملًا، غيرَ ظالمٍ له، ولا باخس حقَّه، وليَحذَر ربَّه سبحانه، من أن يُعاقِبه لمخالفته أَمْرَه، وارتكابه نَهْيَه في ذلك[1].

﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

أي: لا تُخْفوا- أيُّها الشُّهود- ما شهِدتم به؛ إمَّا بإنكاره بالكُليَّة، أو بالزِّيادة عليه والنُّقصان منه، ولكن أَجيبوا مَن شَهِدتم له إذا دعاكم لإقامة شهادتكم بالصِّدق؛ لإثبات حقِّه على غريمه، ومَن يَكتُم شهادتَه فإنَّه فاجرٌ قلبه، مُكتسِب بكِتمانه إيَّاها الإثمَ؛ لأنَّ الحقَّ مبنيٌّ عليها ولا يَثبُت بدونها، فكِتمانها من أعظم الذنوب، والله بما تعملون- في شهادتكم من القيام بها، أو كِتمانها عند حاجة مَن استشهَدكم إليها، وبغير ذلك من سرائر أعمالكم وعلانيتها- عليمٌ؛ يُحصي عليكم أعمالكم ليَجزيكم بها، إمَّا خيرًا، وإمَّا شرًّا على قدْر استحقاقكم[2].

الفوائد التربويَّة:

١- أنَّ التزامَ هذه الأحكام الواردة في آية الدَّين من مقتضى الإيمان؛ لأنَّه لا يوجَّه الخطابُ بوصْف إلَّا لِمَن كان هذا الوصف سببًا لقَبُوله ذلك الحُكْم؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ...﴾[3].

٢- أنَّ مُخالَفة هذه الأحكام نَقْصٌ في الإيمان كأنَّه قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٢٤-١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٠)، ((تفسير العثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٢٦، ١٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٢٦-٤٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤١٠).

لإيمانكم افْعَلوا كذا؛ فإنْ لم تفعلوا فإيمانكم ناقِصٌ؛ لأنَّ كلَّ مَن يدَّعي الإيمان، ثم يُخالِف ما يَقتضيه هذا الإيمانُ، فإنَّ دعواه ناقصةٌ؛ إمَّا نقصًا كليًّا، أو نقصًا جزئيًّا[١].

٣- وجوب تقوى الله عزَّ وجلَّ على مَن عليه الحقُّ، وأن يتحرَّى العدل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ﴾[٢].

٤- أنَّه ينبغي للإنسان أن يتجنَّب كلَّ ما يكون له فيه ارتيابٌ وشَكٌّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا﴾[٣].

الفوائد العلمية واللَّطائف:

١- العِناية بما ذُكِر من الأحكام في آية الدَّين؛ وذلك لتصدير الحُكْم بالنِّداء، ثم توجيه النِّداء إلى المؤمنين؛ لأنَّ هذا يدلُّ على العناية بهذه الأحكام، وأنَّها جديرة بالاهتمام بها[٤].

٢- بيان أنَّ الدِّينَ الإسلاميَّ كما يَعتني بالعبادات- التي هي معاملة الخالق- فإنَّه يَعتني بالمعاملات الدَّائرة بين المخلوقين، والردُّ على الذين يقولون: إنَّ الإسلام ما هو إلَّا أعمال خاصَّة بعبادة الله عزَّ وجلَّ، وبالأحوال الشَّخصية، كالمواريث، وما أَشْبهها[٥].

٣- أنَّه تَجوزُ جميعُ أنواع المُداينات من سَلَم[٦] وغيره؛ لأنَّ الله أخبر عن المُداينة التي عليها المؤمنون إخبارًا مقرِّرًا لها، ذاكرًا أحكامها، وذلك يدلُّ على الجواز[٧].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٤١٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٤١٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٤١٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) وهو تعجيلُ الثَّمن، وتأخير المُثمَن، كأنْ يشتري مِئة صاع من البرُّ إلى سَنة، ويُعطي الدراهم؛ فيُسمَّى هذا سَلَمًا؛ لأنَّ المشتري أسلمَ الثمن، وقدَّمه. ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤١٢).

(٧) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٨).

٤- وجوب كتابة الدَّين المؤجَّل؛ لقوله تعالى: ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾[١].

٥- حضور كلٍّ من الدائن والمَدين عند كتابة الدَّين؛ لقوله تعالى: ﴿بَيْنَكُمْ﴾؛ ولا تتحقَّق البينيَّةُ إلا بحضورهما[٢].

٦- يُشترط أن يكونَ الكاتب عارفًا بكتابة الوثائق وما يَلزَم فيها كلَّ واحد منهما، وما يَحصُل به التَّوثُّق؛ لأنَّه لا سبيلَ إلى العدل إلَّا بذلك، وهذا مأخوذٌ من قوله: ﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾[٣].

٧- أنَّه يجب على الكاتب أنْ يكتُبَ بالعدل، بحيث لا يُجحِف مع الدائن، ولا مع المدين؛ و(العدل) هو ما طَابَق الشَّرعَ؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥][٤].

٨- أنَّه لا يُشترَط تعيينُ كاتب للنَّاس بشخصِه، وأنَّ أيَّ كاتب يتَّصِف بإحسان الكتابة والعدل، فكتابتُه ماضيةٌ نافذة؛ لقوله تعالى: ﴿كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾؛ وهي نكرة لا تُفيدُ التعيينَ[٥].

٩- تذكير الكَتَبة بنِعمة الله، وأنَّ مِن شُكْر نِعمة الله عليهم أن يكتُبوا؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ﴾[٦].

١٠- أنَّ الإنسان لا يَستقِلُّ بالعِلم؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ﴾؛ حتى في الأمور الحِسيَّة التي تُدرَك عن طريق النَّظر، أو السَّمع، أو الشَّمِّ، لا يَستطيع الإنسان أن يَعلَمها إلَّا بتعليم الله عزَّ وجلَّ[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤١٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٤١٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤١٣).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٤١٤).
(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

١١- أنَّ الرُّجوع في مقدار الدَّين، أو نوعه، أو كيفيَّته؛ بل في كلِّ ما يتعلَّق به إلى المدَين الذي عليه الحقُّ- لا إلى الدَّائن؛ لقوله تعالى: ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾؛ لأنَّه لو أملى الذي له الحقُّ فربما يَزيد(١).

١٢- في قوله تعالى: ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ دلالةٌ على أنَّ إقرارَ الإنسان على نَفْسه مقبول؛ لأنَّ الله أَمَر مَن عليه الحقُّ أن يُمْلي على الكاتب، فإذا كتب إقرارَه بذلك، ثبَت مُوجبه ومضمونه، وهو ما أقرَّ به على نفْسِه، ولو ادَّعى بعد ذلك غَلَطًا أو سهوًا(٢).

١٣- أنَّه ينبغي في مقام التَّحذير أن يُذكَر كلُّ ما يكون به التَّحذير؛ لقوله تعالى: ﴿وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا﴾؛ ففي مقام الألوهيَّة يتَّخِذ التَّقوى عبادة؛ لأنَّ الألوهيَّة هي توحيد العبادة؛ وفي مقام الخوف من الانتقام يكون مشهدُه الرُّبوبيَّة؛ لأنَّ الربَّ عزَّ وجلَّ خالقٌ مالِك مُدبِّر(٣).

١٤- أنَّ أسباب القصور ثلاثة: السَّفَه؛ والضَّعف؛ وعدم الاستطاعة؛ فالسَّفَه: ألَّا يُحسِن التَّصرُّف، والضَّعيف: يَشمَل الصَّغير والمجنون؛ ومَن لا يستطيع: يشمل مَن لا يَقدِر على الإملال لخَرَس، أو عِيٍّ، أو نحو ذلك كما في قوله: ﴿فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ﴾(٤).

١٥- قَبُول قولِ الوليِّ فيما يُقِرُّ به على مولاه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ﴾(٥).

١٦- ثُبوتُ الوَلاية في الأموال؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ﴾(٦).

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤١٥).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٨).

١٧- أنَّ الحقَّ يكون على الصَّغير والسَّفيه، والمجنون والضَّعيف، لا على وَلِيِّهم، كما قال سبحانه: ﴿فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ﴾(١).

١٨- أنَّ إقرار الصَّغير والسَّفيه، والمجنون والمعتوه ونحوهم، وتصرُّفهم غير صحيح؛ لأنَّ الله جعَل الإملاءَ لوَلِيِّهم، ولم يجعلْ لهم منه شيئًا؛ لطفًا بهم ورحمة؛ خوفًا مِن إتْلافِ أموالهم، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ﴾(٢).

١٩- قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ...﴾ الآية، فيه مشروعيَّة تعلُّم الأمور التي يتوثَّق بها المتداينون، كلٌّ واحد من صاحبه؛ لأنَّ المقصودَ من ذلك هو التوثُّق والعدل، وما لا يتمُّ المشروع إلا به فهو مشروع(٣).

٢٠- أنَّ تَعلُّم الكتابةِ مشروع، بل هو فَرْض كفاية؛ لأنَّ الله أَمَر بكتابة الدُّيون وغيرها، ولا يَحصُل ذلك إلَّا بالتعلُّم(٤).

٢١- أنَّ شهادةَ الصِّبيان غير مقبولة؛ لمفهوم لَفْظ الرَّجُل في قوله: ﴿فَرَجُلٌ﴾(٥).

٢٢- أنَّ شهادة العبد البالِغ مقبولةٌ كشهادة الحُرِّ؛ لعموم قوله: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾، والعبد البالِغُ من رِجالنا(٦).

٢٣- أنَّ شهادة الكُفَّار- ذُكورًا كانوا أو إناثًا- غير مقبولة؛ لأنَّهم ليسوا منَّا،

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١١٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١١٩).

وقد قال الله تعالى: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾، ولأنَّ مَبنى الشَّهادة على العَدالة، والكفَّار غير عُدول[1].

٢٤- في قوله ﴿وَامْرَأَتَانِ﴾ فضيلة الرجُل على المرأة، وأنَّ الواحد في مقابلة المرأتين؛ لقوة حِفْظه، ونَقْص حِفْظها، لكن قِصَر حِفْظ المرأة وإدراكها عن حِفْظ الرَّجل، وهذا باعتبار الجنس؛ فلا يُرَدُّ على ذلك بنبوغ بعض النساء، وغفلة بعض الرِّجال[2].

٢٥- جوازُ شهادة الإنسان فيما نَسِيه إذا ذُكِّر به فذكَر؛ لقوله تعالى: ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾؛ فإن ذُكِّر ولم يَذكُر، لم يَشهَد[3].

٢٦- تسمية المدعوين شُهداءَ باعتبار الأوَّل القريب، وهو المُشارَفة، وكأنَّ في ذلك نُكْتةً عظيمة: وهي الإيماءُ إلى أنَّهم بمجرَّد دعوتهم إلى الإشهاد، قد تعيَّنت عليهم الإجابةُ، فصاروا شهداءَ[4].

٢٧- أنَّ ما ذُكِر من التوجيهات الإلهيَّة في آية الدَّين فيه ثلاثة فوائد: **الأولى**: أنَّه أَقْسَط عند الله، أي: أعدل عنده؛ لِمَا فيه من حِفْظ الحقِّ لمن هو له، أو عليه. **الثانية**: أنَّه أَقومُ للشَّهادة؛ لأنَّه إذا كُتِب لم يَحصُل النِّسيان. **الثالثة**: أنَّه أَقْربُ لعدم الارتياب[5].

٢٨- في قوله تعالى: ﴿إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ دلالةٌ على العمل بالكتابة، واعتمادها حُجَّة شرعيَّة إذا كانت من ثِقةٍ معروفٍ خطُّه[6].

٢٩- أنَّ الشَّهاداتِ تتفاوت؛ فمنها الأقوم، ومنها القيِّم، ومنها ما ليس بقيِّم؛

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤١٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١١٢)
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤١٧).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فالذي ليس بقيِّم هو الذي لم تَتِمَّ فيه شروط القَبول؛ والقيِّم هو الذي صار فيه أدنى الواجب؛ والأقوم ما كان أكملَ من ذلك؛ بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ﴾[1].

٣٠- أنَّ الأصل في التِّجارة الدَّوران؛ لقوله تعالى: ﴿تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾[2].

٣١- أنَّ الإشهاد ينبغي أن يكون حين التَّبايُع؛ بمعنى أنه لا يتقدَّم، ولا يتأخَّر؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾؛ لأنَّ العَقدَ لم يتمَّ إذا كان الإشهاد قَبْله؛ وإذا كان بعده فربَّما يكون المبيعُ قد تغيَّر[3].

٣٢- في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ دلالةٌ على أنَّ المضارَّة- سواء وقعتْ من الكاتب، أو الشَّاهد، أو عليهما- فُسُوقٌ؛ والفِسْق يترتَّب عليه زوالُ الولايات العامَّة والخاصَّة إلَّا ما استُثْنِي؛ والفاسق يُهجَر؛ إمَّا جوازًا، أو استحبابًا، أو وجوبًا- على حسَب الحال- إنْ كان في الهجرِ إصلاحٌ له[4].

٣٣- أنَّ الأصل في الإنسان الجهل؛ والعلم طارئ عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ﴾؛ قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨][5].

٣٤- عِناية الله عزَّ وجلَّ بحِفْظ أموال عباده؛ يعني أنَّه سبحانه وتعالى ذكَر حتى هذه الصُّورة: أنَّ الإنسان إذا دَاينَ غيرَه، ولم يجد كاتبًا، فإنَّه يَرتَهِن رَهْنًا؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤١٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٤١٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٤٢٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٤٢١).

حِفْظًا لماله، وخوفًا من النِّزاع والشِّقاق في المستقبل[١].

٣٥- أنَّ بعض العلماء استدلَّ بهذه الآية ﴿فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ على لُزومِ القَبْض في الرَّهن[٢].

٣٦- أنَّه إذا حصَل الائتمانُ من بعضنا لبعضٍ لم يجب رَهْنٌ، ولا إشهاد، ولا كتابة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ﴾[٣].

٣٧- أنَّه لو تلِفتِ العينُ بيَدِ الأمين، فإنَّه لا ضَمانَ عليه ما لم يتعدَّ، أو يُفرِّط؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ﴾[٤].

٣٨- الردُّ على غُلاة القَدَريَّة الذين يقولون: إنَّ الله لا يعلم بأفعال العباد إلَّا إذا وقعت؛ فإنَّ قوله تعالى: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ يتضمَّن ما قد عمِلْناه بالفعل، وما سنَعمَله[٥].

بلاغة الآيات:

١- في قوله: ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾ زاد قَيدَ ﴿بِدَيْنٍ﴾ مع أنَّه مفهوم من قوله: ﴿تَدَايَنتُم﴾؛ للتأكيد، وهو إمَّا يكون من باب الإطناب. وإمَّا يكون معادًا للضمير في قوله: ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾، ولولا ذِكرُه لقال: (فاكْتُبُوا الدَّينَ)، لم يكنِ النظمُ بذلك الحُسن، ولأنَّه أبينُ لتنويع الدَّينِ إلى مؤجَّل وحالٍّ، وليدلَّ على العموم، أي: أيَّ دَين، قليلًا كان أم كثيرًا[٦].

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٤٢٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٤٢٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٤٢٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٤٣٢).
(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٩٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٤٠-٤٤٢).

٢- قوله: ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ فيه التأكيد بـ(مسمًّى)، وليعلم أنَّ مِن حقِّ الأجَل أن يكون معلومًا بالتوقيتِ بالسَّنة والأشهر والأيَّام[1].

٣- قوله: ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾ تفريعٌ على قوله: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ﴾، وهو تصريحٌ بمقتضى النهي، وتكرير للأمْر في قوله: ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾؛ إذ يُفيد تأكيد الأمر وتأكيد النَّهي أيضًا، وأُعيد ليرتَّب عليه قوله: ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾؛ لبُعد الأمر الأول بما وليه[2].

وفيه تأكيدٌ أيضًا؛ حيث أمَر بالكتابة المُعلَّمة بعدَ النَّهي عن الإِباء عنها تأكيدًا[3].

٤- قوله: ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ و﴿وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ﴾ فيه تكرار للتأكيد؛ فإنَّه أمَر عند المداينة بالكتابة أولًا، ثم بالإشهاد ثانيًا، ثم أعاد ذلك مرة أخرى على سبيل التأكيد، فأمر بالكتابة[4].

- وجاء بصيغة النهي ﴿وَلَا يَأْبَ﴾؛ اهتمامًا بما يقع فيه التفريط؛ فإنَّ المتعاقدين يُظنُّ بهما إهمال الإشهاد، فأُمِرَا به، والشهود يُظنُّ بهم الامتناع فنُهوا عنه، وكلٌّ يستلزم ضدَّه[5].

٥- التنكير في قوله: ﴿كَاتِبٌ﴾ للعموم؛ إذ هي نكرة في سياق النَّهي، فتعمُّ[6].

٦- ﴿شَهِيدَيْنِ﴾: التعبير بلفظة (شهيد) التي على صِيغة فعيل؛ للمبالغة في المعنى في تحقُّق الوصف بالاستبصار والخبرة، وهو مَن كثُرت منه الشهادة، وفي

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٤٠-٤٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٢٥)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٩٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١١٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٧٢٤).

ذلك إشارة إلى العدالة؛ لأنَّه لا يتكرَّر ذلك من الشَّخص عند الحُكَّام إلَّا وهو مقبولٌ عندهم[١].

٧-قوله: ﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ﴾ ذكر قوله: ﴿كَاتِبٌ﴾ للتأكيد؛ إذ قد فُهِم من قوله: ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾[٢].

٨- قوله: ﴿وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ فيه من البَلاغة: تصوير المُجسَّد الحاكي[٣]؛ إذ لفظةُ (بخس)، في الأصل اللُّغوي للعين العوراء، يُقال: بخَسَتْ عينُه، أي: عَوِرت، ولا يَخفى ما في هذا التصويرِ مِن التأكيدِ في الدَّلالة والبيان على مجرَّد البيان القولي[٤].

- قوله: ﴿منه﴾ فيه إيجازٌ بديع؛ إذ الضمير عائدٌ إلى الحق، وهو حقٌّ لكِلا المتداينين، فإذا بَخَس منه شيئًا أضرَّ بأحدهما لا محالة[٥].

٩- قوله: ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ... فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ فيه تكرار لفظ (الحقُّ)؛ للتأكيد على الدُّعاء إلى اتِّباعه، وأتى بلفظة (على)؛ للإعلام أنَّ لصاحب الحقِّ مقالًا واستعلاء[٦].

١٠- قوله: ﴿أَنْ يُمِلَّ هُوَ﴾ فيه تأكيد بذِكر الضَّمير (هو) الذي هو تأكيدٌ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٧٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٧٤٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٦٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٠١).

(٣) المجسَّد الحاكي، أو البيان الحاكي للمعاني: هو التَّصوير بالحركة، أو تشبيه المحسوس بالمعقول، وهو آكدُ في الدَّلالة من البيان القولي الذي تتشكَّل دَلالاته ومعانيه عن طريق التعبير باللُّغة، بسبب ما توفر في ذلك البيان الحاكي من مشاهد متحرِّكة زائدة عن الدَّلالة باللُّغة، يصل بها إلى قِمَّة النفاذ والتأثير في النفس الإنسانية. يُنظر: بحث ((من بلاغة التصوير بالحركة في القرآن الكريم-دراسة في البيان الحاكي)) للدكتور يوسف بن عبد الله الأنصاري.

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٤٠-٤٤٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٠٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٧٤٧-٧٤٨).

للضمير المستتر في الفِعل، وفي هذا التوكيد من الفَصاحة ما لا يَخفَى، وفيه التنصيصُ على أنَّه غير مستطيع بنفسه(١).

– وتأكيد الضَّمير المستتر في فِعل (يملَّ) بالضمير البارز (هو) تمهيدٌ لقوله: ﴿فَلْيُمْلِلْ﴾؛ لئلَّا يتوهَّم الناس أنَّ عجزَه يُسقِط عنه واجبَ الإشهاد عليه بما يَستدينه(٢).

١١- قوله: ﴿وَلْيَتَّقِ اللهَ﴾ فيه التعبير بالاسم العظيم (الله)؛ ليكون أزجرَ للمأمور، ثم قال: ﴿رَبَّهُ﴾ تذكيرًا بأنَّه لإحسانه لا يأمر إلَّا بخير، وترجيةً للعوض في ذلك إذا أدَّى فيه الأمانة في الكمِّ والكيف من الأجَل وغيره؛ وأكَّد ذلك بقوله: ﴿وَلَا يَبْخَسْ﴾(٣).

١٢- قوله: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ فيه تكرار(٤). وإظهار (إحداهما) في مقام الإضمار، وفائدته: قصْد استقلال الجملة بمدلولها؛ كيلَا تحتاج إلى كلام آخَر فيه معاد الضمير لو أُضمر، وذلك يُرشِّح الجملة لأنْ تَجريَ مَجرى المَثَل(٥).

– وأيضًا قوله: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ تعليلٌ لاعتبار العدَد في النِّساء، والعلةُ في الحقيقة هي التذكيرُ، ولكنَّ الضلالَ لَمَّا كان سببًا له، نُزِّل منزلتَه.

– وفي قوله: ﴿إِحْدَاهُمَا﴾ ثانيةً: تأكيدٌ للإبهام، والمبالغة في الاحتراز عن

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٧٢٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٦٥٤)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٣٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٠٤).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ١٤٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٧٤٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١١٠-١١١).

توهُّم اختصاصِ الضَّلال بإحداهما بعينها والتذكير بالأخرى؛ إشارة إلى أنَّهما يتبادلانِ الخطأ والتذكير، والمعنى: أن تضلَّ واحدةٌ منهما؛ فتذكِّر كلُّ واحدة الأُخرى إذا نسيت[(١)].

١٣- قوله: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ﴾ فيه تشبيهٌ، أي: كتابة تُشابه الذي علَّمه الله أن يكتبها، والمراد بالمشابهة المطابقة لا المقاربة، أو تكون الكاف لمقابلة الشيء بمكافِئِه، والعوض بمعوضه، أي: يكتُب كتابةً تكافِئ تعليمَ الله إيَّاه الكتابة، فينفع الناس بها؛ شكرًا على تيسير الله له أسبابَ علمها، وينشأ عن هذا المعنى من التشبيه معنى التعليل، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧][(٢)].

١٤- قوله: ﴿وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ﴾ فيه النَّهي عن شيء، والمراد النَّهي عن أثرِه، وهو هنا تَرْك الكتابة؛ لأنَّ السَّآمة تَحصُل للنَّفس من غير اختيار، فلا يُنهى عنها في ذاتها، وقيل: السَّآمة هنا كِناية عن الكسلِ والتَّهاون[(٣)].

- قوله: ﴿صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا﴾: تقديم الصَّغير على الكبير هنا، مع أنَّ مقتضى الظَّاهر العكس؛ لأنَّه قَصَد هنا إلى التَّنصيص على العموم؛ لدَفْع ما يَطرأ من التوهُّمات في قلَّة الاعتناء بالصَّغير، وهو أكثر، أو اعتقاد عدَم وجوب كتابة الكبير لو اقتصَر في اللَّفظ على الصَّغير[(٤)].

١٥- في قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ تكرَّر لفظة الجلالة (الله) في الجُمَل الثلاث؛ لأنَّ الذِّكر أدخلُ في التعظيم من الكِناية؛

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١١٢)، ((زهرة التفاسير)) لأبي زهرة (٢/ ١٠٧٢).
(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٦٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٠٢-١٠٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١١٤)، ((قواعد التفسير)) للسبت (٢/ ٧٨٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١١٤).

لإدخال الرَّوْع في القلوب، وإحداث المهابة في النفوس، وترسيخ الحُكم في الأذهان، والإشعار بأنَّه تعالى مطَّلع على السرائر، لا تعزُبُ عنه همساتُ القلوب، وخَلجاتُ الضَّمائر[1].

– وفيه غاية المناسبة في ختْم آياتِ هذه المعاملات بصِفة العِلم بعد الأمْر بالتقوى؛ لِما يفعله المتعاملون من الحِيَل التي يجتلب كلٌّ منهم بها الحظَّ لنفسه، والترغيب في امتثال ما أمرهم به في هذه الجُمل بأنَّه من علمه وتعليمه، وهذا الخَتْم جامعٌ لبشرى التعليم، ونذارة التهديد[2].

١٦– **وفي هذه الآية:** إطنابٌ وبسط شديد، وتأكيداتٌ عديدة في حِفظ الأموال في المعاملات؛ حيث قال **أولًا:** ﴿إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾، ثم قال **ثانيًا:** ﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾، ثم قال **ثالثًا:** ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ﴾، فكان هذا كالتَّكرار لقوله: ﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾؛ لأنَّ العدل هو ما علَّمه الله، ثم قال **رابعًا:** ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾ وهذا إعادة الأمر الأوَّل، ثم قال **خامسًا:** ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾، وفي قوله: ﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ كفاية عن قوله: ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾؛ لأنَّ الكاتب بالعدل إنَّما يكتُب ما يُملَى عليه. وقال **سادسًا:** ﴿وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ﴾ وهذا تأكيد، ثم قال **سابعًا:** ﴿وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ فهذا كالمستفادِ من قوله: ﴿وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ﴾، ثم قال **ثامنًا:** ﴿وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ﴾، وهو أيضًا تأكيدٌ لِمَا مضى، ثم قال **تاسعًا:** ﴿ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٧٤٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ١٥٩-١٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١١٨-١١٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٤٠-٤٤٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ١٥٩-١٦٠).

﴿أَلَّا تَرْتَابُوا﴾، فذكَر هذه الفوائد الثلاث لتلك التأكيدات السالِفة، وكلُّ ذلك يدلُّ على أنَّه لَمَّا حثَّ على ما يَجري مجرى سبب تنقيص المال في الحُكمين الأولين، بالَغ في هذا الحُكم في الوصية بحِفظ المال الحلال، وصونه عن الهلاك والبوار؛ ليتمكَّن الإنسانُ بواسطته من الإنفاق في سبيل الله، والإعراض عن مساخطِ الله من الرِّبا وغيره، والمواظبة على تقوى الله؛ فهذا من وجوه محاسنِ النَّظم الشريف ولطائفِه[1].

١٧- وفي الآية: إيجاز بالحذف في مواضعَ عديدة؛ في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، حُذِف متعلق الإيمان. وفي قوله: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ﴾، أي: الكتابةَ والخط. وفي قوله: ﴿وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ﴾، أي: في إملائه. وفي قوله: ﴿سَفِيهًا﴾، أي: في الرأي، ﴿أَوْ ضَعِيفًا﴾، أي: في البينة. وفي قوله: ﴿مِن رِجَالِكُمْ﴾، أي: المعيَّنين للشهادة المرضيِّين، ﴿فَرَجُلٌ﴾، أي: مرضيٌّ، ﴿وامْرَأَتَانِ﴾ مرضيَّتان، ﴿مِن الشُّهَدَاءِ﴾ المرضيِّين... إلخ[2].

١٨- وفيها: تلوينُ الخِطاب بالالتفات في مواطِن أيضًا؛ في الانتقال من الحُضور إلى الغَيبة، في قوله: ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾، ﴿وَلْيَكْتُبْ﴾، ومن الغَيبة إلى الحضور في قوله: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ﴾، ﴿وَأَشْهِدُوا﴾. ثم انتقل إلى الغَيبة بقوله: ﴿وَلَا يُضَارَّ﴾، ثم إلى الحُضور بقوله: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾، ثم إلى الغَيبة بقوله: ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا﴾، ثم إلى الحضور بقوله: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[3].

١٩- قوله: ﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فيه جَمْع ما بين الاسم الجليل، والنَّعت الجميل؛ للمبالغة في التحذير[4]، وهو خبرَ، غرَضُه التهديد والتحذير من الإقدام على هذا الكِتمان؛ لأنَّ المكلَّف إذا علِم أنَّه لا يعزُب عن علم الله ضميرُ قلبه، كان

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٩٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٧٤٨-٧٤٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٧٤٧-٧٤٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٧٤٧-٧٤٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٦٦٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٣٤).

خائفًا حذرًا من مخالفة أمر الله تعالى؛ لأنَّ القادر لا يَحُول بينه وبين المؤاخذة إلَّا الجهلُ، فإذا كان عليمًا أقام قسطاسَ الجزاء(١).

٢٠- في قوله: ﴿وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ﴾ الجمع بين عنوان الألوهيَّة وصِفة الربوبيَّة، فيه تأكيد، وشدَّة تحذير من المخالفة. وذِكر اسم الجلالة فيه- مع إمكان الاستغناء بقوله: (وَلْيَتَّقِ رَبَّه)-؛ لإدخال الرَّوع في ضمير السَّامع، وتربية المهابة(٢).

٢١- قوله: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ...﴾ النهي عن كتمان الشهادة كلِّها بعمومه، والتعقيب به بعدَما سبَق من وصاية للشُّهداء، والأمر أن يكتب الشاهد بالعدل، والنهي عن الامتناع من الكتابة بين المتداينين- بمنزلة التذييل لأحكام الشَّهادة في الدَّين(٣).

٢٢- قوله: ﴿فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ فائدة ذِكر القلب- مع أنَّ جملة الجَسَد هي الآثمة لا القلب وحْده؛ لأنَّ كتمان الشهادة إثم مُقترَف بالقلب، فأُسند إليه؛ لأنَّ إسناد الفعل إلى الجارحة التي يُعمل بها أبلغُ، ويُقال عند التوكيد: هذا ممَّا أبصرتْه عيني، وممَّا سمعته أُذني(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٦٧)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٢٩-٣٣٠)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٢٦).

الآيات (٢٨٤-٢٨٦)

﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾.

غريب الكلمات:

﴿غُفْرَانَكَ﴾: أي: اغفِر مغفرتَك، أو نسألك مغفرتَك، والمغفرة: هي السَّتر لخَلَّة المسلم وفاقته، وترْك أذيَّته؛ وأصْل الغَفْر: السَّتر، والوقاية[1].

﴿أَخْطَأْنَا﴾: فاتَنا الصَّواب، وعدَلنا عنه، وسَهَوْنا، من غير تعمُّد -مِن أخْطأ-، وأمَّا إذا تعمَّد الذَّنب، وأثِم، فهو من خَطِئ لا مِن أخطأ. وقيل: هما بمعنًى واحد[2].

﴿إِصْرًا﴾: أي: ثقلًا، وأصْل الأصْر: عقْدُ الشَّيء، وحبْسُه بقهره، أو الحَبْس والعَطف[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٢، ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٧).

المعنى الإجمالي:

إنَّ لله وحْده جلَّ وعلا كلَّ ما في السَّموات والأرض، وهو مُطَّلِعٌ على كلِّ ما فيها، لا يَخْفى عليه شيء من أمور العباد، وسيُحاسِبهم على ما أظْهَروه وما أَسرُّوه في أنفسهم، فيَغفِر بعد المحاسبة لَمن يشاء، ويُعذِّب مَن يشاء، والله تعالى لا يُعجِزه شيء؛ فهو على كلِّ شيء قدير.

ثم يُخبِر تعالى أنَّ رسولَه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ آمَن بما أوحاه الله إليه من الكتاب والسُّنَّة، وكذلك فعَل المؤمنون، فكلٌّ من الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّمَ والمؤمنين قد آمن بالله وجميعِ ملائكته وكُتُبِه ورُسُله بلا تفريق بينهم، فلا يؤمنون ببعض ويَكْفرون ببعضٍ، وقال جميع المؤمنين: سَمِعنا قولَ ربِّنا، وقبِلناه، وعمِلنا بمقتضاه، ودَعَوا ربَّهم أن يغفر ذنوبهم، مُعترِفين ومُقرِّين بأنَّ إليه المعاد والمرجع.

ثم امتنَّ الله تعالى على عباده أنه لا يُحمِّل نفسًا فوق طاقتها، فلا يَفرِض عليها من العبادة إلَّا ما كان بمقدورها تحمُّله، ولكل نفْس ما عمِلت من خير، وعليها ما عمِلت من شرٍّ، ثم أمَرَ عباده أن يَدْعُوه بألَّا يُعاقِبهم عند النِّسيان، أو الخطأ، وألَّا يُحمِّلهم من الأعمال الشَّاقة والثَّقيلة عليهم كما كلَّف بها الأممَ الماضية، وألَّا يُكلِّفهم من الأعمال ما لا يُطِيقون القيام به، وأنْ يغفر لهم ويَرْحمهم، فهو وَليُّهم وأنْ ينصُرهم على مَن كفَر به عزَّ وجلَّ.

تفسير الآيات:

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤)﴾.

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

لما ضمَّن الله تعالى هذه السُّورة أكثرَ عِلم الأصول والفروع من: دلائل

التَّوحيد، والنُّبوة، والمعاد، والصَّلاة، والزَّكاة، والقِصاص، والصَّوم، والحجِّ، والجهاد، والحيض، والطَّلاق، والعِدَّة، والخُلْع، والإيلاء، والرَّضاعة، والرِّبا، والبيع، وكيفيَّة المُداينة، ناسَب تكليفه إيَّانا بهذه الشرائع أن يذكُر أنَّه تعالى مالكٌ لِمَا في السَّموات وما في الأرض؛ فهو يُلزِم مَن شاء من مملوكاته بما شاء من تعبُّداته وتكليفاته، ولَمَّا كان محل اعتقاد هذه التكاليف هو الأنفُس، وما تنطوي عليه من النيَّات، وثواب مُلتزِمها وعقاب تارِكها إنما يَظهَر في الدَّار الآخرة- نبَّه على صفة العلم التي بها تقَعُ المحاسبةُ في الدَّار الآخرة[1]، فقال:

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ﴾.

أي: إنَّ لله تعالى وحده ما في السَّموات والأرض وما بَينهما، خَلْقًا ومُلْكًا وتدبيرًا، وهو المُطَّلِع على مَنْ فيهما، لا يَخفى عليه شيء مُطلَقًا، وسيُطْلِعهم على وجه المحاسبة على إظهارِ ما انطوت عليه نفوسُهم، أو إضمارِه، ممَّا استقرَّ فيها وثبَت، من الكُفْر والنِّفاق، أو من الأوصاف السيِّئة التي تتَّصِف بها، أو من العزائم المصمِّمة على ارتكاب معصية[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٧٤٩). وذكَر أيضًا: أنَّه لَمَّا ذكر الله تعالى أنَّ مَن كتَم الشهادة فإنَّ قلبَه آثم، ذكر ما انطوى عليه الضمير، فكتَمَه أو أبداه؛ فإنَّ الله يحاسبه به، ففيه وعيدٌ وتهديدٌ لمن كتَم الشهادة، ولَمَّا علَّق الإثم بالقلب ذكَر هنا الأنفُس، فقال: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾.
وقال الرازي: (عبَّر [أي: في هذه الآية] عن كمال العلم المحيط بالكليَّات والجزئيات بقوله: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ﴾، وإذا حصَل كمال القدرة والعلم، فكان كلُّ مَن في السموات والأرض عبيدًا مربوبين، وُجدوا بتخليقه وتكوينه، كان ذلك غايةَ الوعد للمطيعين، ونهايةَ الوعيد للمذنبين؛ فلهذا السبب ختَم الله هذه السورةَ بهذه الآية). ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٠٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٢٧-١٢٨، ١٤٣-١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٠، ٩٦١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٣٣).
قال ابن جرير: (أَوْلى الأقوال التي ذكرناها بتأويل الآية قول مَن قال: إنَّها مُحكَمة وليست بمنسوخة) ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٤٣).
=

﴿فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: فيغفر بعد المحاسبة، لِمَن أتى بأسباب المغفرة فضلًا منه، ويُعاقِب مَن يكفُر به، أو يُصِرُّ على المعاصي، في باطنه أو ظاهره عدلًا منه، فالله تعالى لا يُعجِزه شيءٌ،

= وقال النَّحَّاس: (هذا لا يجوز أن يقَع فيه نسخٌ؛ لأنَّه خبر) ((الناسخ والمنسوخ)) (ص: ٦٦).

وقال ابن رجب: (لَمَّا نزل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾، شقَّ ذلك على المسلمين، وظنُّوا دخول هذه الخواطر فيه، فنزلت الآية التي بعدها، وفيها قوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾، فبيَّنت أنَّ ما لا طاقة لهم به، فهو غير مؤاخذ له، ولا مكلَّف به، وقد سمَّى ابن عبَّاس وغيره ذلك نسخًا، ومرادهم أنَّ هذه الآية أزالت الإيهامَ الواقع في النفوس من الآية الأولى، وبيَّنت أنَّ المراد بالآية الأولى: العزائم المصمَّم عليها، ومثل هذا البيان كان السَّلف يُسمُّونه نسخًا) ((جامع العلوم والحكم)) (٢/ ٣٢٤)، ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٣٨٩-٣٩٠).

وقال ابن عاشور: (أحسنُ كلام فيه ما يأتلِف مِن كلامَي المازريِّ وعِياض، في ((شرحيهما لصحيح مسلم))، وهو - مع زيادة بيان -: أنَّ ما يخطر في النفس إنْ كان مجرَّد خاطر وتَردُّد من غير عزم، فلا خلافَ في عدم المؤاخذة به؛ إذ لا طاقة للمكلَّف بصرفه عنه، وهو موردُ حديث التجاوز للأمَّة عمَّا حدَّثت به أنفُسَها، وإنْ كان قد جاش في النفس عزم، فإمَّا أن يكون من الخواطر التي تترتب عليها أفعال بدنيَّة أو لا، فإنْ كان من الخواطر التي لا تترتَّب عليها أفعال: مثل الإيمان، والكُفْر، والحسد، فلا خِلافَ في المؤاخذة به؛ لأنَّ ممَّا يدخل في طَوقِ المكلَّف أن يَصرِفه عن نفْسه، وإنْ كان من الخواطر التي تترتَّب عليها آثارٌ في الخارج، فإنْ حصَلت الآثار فقد خرَج من أحوال الخواطر إلى الأفعال، كمَن يَعزِم على السَّرقة فيَسرِق، وإنْ عزم عليه ورجَع عن فِعْله اختيارًا لغير مانع منَعه، فلا خلافَ في عدم المؤاخذة به وهو مورد حديث ((مَن همَّ بسيئةٍ فلم يعملها، كُتِبت له حَسَنةً))، وإنْ رجَع لمانعٍ قهَره على الرجوع ففي المؤاخذة به قولان، أي: إنَّ قوله تعالى: ﴿يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ﴾، محمولٌ على معنى يُجازيكم، وأنَّه مُجمَل تُبيِّنه موارد الثواب والعقاب في أدلَّة شرعيَّة كثيرة، وإنَّ مَن سمَّى ذلك نَسْخًا من السَّلف، فإنَّما جرَى على تسمية سبقت ضَبْط المصطلحات الأصوليَّة، فأطلق النَّسخ على معنى البيان، وذلك كثير في عبارات المتقدِّمين، وهذه الأحاديث وما دلَّت عليه دلائلُ قواعدِ الشريعة، هي البيانُ لِمَن يشاء في قوله تعالى: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٣٠، ١٣١).

وممَّن قال مِن السَّلف: إنَّ الآيةَ مُحكَمة، وليست منسوخة: ابن عبَّاس -في رواية عنه- والربيع، والحسن، والضحَّاك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٣٩)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٥٧٤).

ومن تَمام قُدْرته محاسبةُ الخلائق، وإيصالُ ما يَستحِقُّونه من الثواب والعقاب(١).

عن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((إنَّ الله تَجاوَز لأُمَّتي ما حدَّثتْ به أنفسَها، ما لم يتكلَّموا، أو يعملوا به))(٢).

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥)﴾.

فضْل خواتيم سورة البقرة:

عن عُقْبة بن عمرٍو رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((مَن قرَأ بالآيتَينِ مِن آخِرِ سورةِ البقرةِ في ليلةٍ كفَتاه(٣)))(٤).

وعَن عبدِ اللهِ بن مسعود رضي الله عنه، قال: (لمَّا أُسْرِيَ برسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ انتُهِيَ بِهِ إلى سِدرةِ المنتَهى، وَهيَ في السَّماءِ السَّادسةِ، إليها يَنتَهي ما يُعرَج بِهِ منَ الأرضِ، فيُقبَض منها، وإليها ينتَهي ما يُهبَطُ بِهِ مِن فوقِها فيُقبَضُ منها، قالَ: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ [النجم: ١٦]، قال: فَرَاشٌ من ذَهَبٍ، قالَ: فأُعْطيَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ ثلاثًا: أُعْطيَ الصَّلواتِ الخمسَ، وأُعْطيَ خواتيمَ سورةِ البقرةِ، وغُفِرَ لِمَن لم يُشرِك باللهِ من أمَّتِهِ شيئًا المُقْحِماتُ(٥)))(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٤٥-١٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٠، ٩٦١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٣٣).

(٢) رواه مسلم (١٢٧).

(٣) كَفَتاه: قيل: كَفَتاه مِن قيامِ تِلك الليلةِ. وقيل: كَفَتاه المكروهَ فيها. ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ١٥٢).

(٤) رواه البخاري (٥٠٠٨).

(٥) المقحِمات- بكسر الحاء-: هي الذنوب العِظام الكبائر التي تُهلِك أصحابها، وتُورِدهم النار، وتُقحمهم إيَّاها. ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ٣).

(٦) رواه مسلم (١٧٣).

وعن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما، قال: ((بينما جبريلُ قاعدٌ عند النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، سمِع نقيضًا من فوقِه، فرفع رأسَه، فقال: هذا بابٌ من السَّماءِ فُتِحَ اليومَ، لم يُفتَح قطُّ إلا اليومَ، فنزل منهُ مَلَكٌ، فقال: هذا مَلَكٌ نزل إلى الأرضِ، لم ينزل قطُّ إلا اليومَ، فسلَّم وقال: أبشِر بنورَينِ أُوتيتَهما لم يُؤتَهما نبيٌّ قبلك: فاتحةُ الكتابِ، وخواتيمُ سورةِ البقرةِ؛ لن تقرأَ بحرفٍ منهما إلَّا أُعطيتَه))[1].

وعن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: لَمَّا نَزلَت على رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ﴿للهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، قالَ: فاشتدَّ ذلك على أصحابِ رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فأتَوْا رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ ثمَّ برَكوا علَى الرُّكَبِ، فَقالوا: أيْ رسولَ اللهِ، كُلِّفنا منَ الأَعمالِ ما نُطيقُ؛ الصَّلاةَ والصِّيامَ، والجِهادَ والصَّدقةَ، وقد أُنزِلَت عليكَ هذه الآيةُ، ولا نُطيقها، قال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: أتُريدونَ أن تَقولوا كما قالَ أَهْلُ الكتابَينِ من قبلِكُم: سمِعنا وعصَينا؟ بل قولوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾، فلمَّا اقتَرأَها القومُ، ذلَّت بِها ألسنتُهُم، فأنزلَ اللهُ في إثرِها: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾، فَلمَّا فعَلوا ذلك نَسَخها اللهُ تعالى، وأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، قالَ: نعَم، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾، قالَ: نعَم، ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾، قالَ: نعم، ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾، قال: نعَم))[2].

(١) رواه مسلم (٨٠٦).
(٢) رواه مسلم (١٢٥).

عن النُّعمانِ بن بَشير رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((إنَّ اللهَ كتَبَ كتابًا قبل أن يَخْلُق السَّمواتِ والأرضَ بألْفَي عام أَنْزَلَ منه آيتينِ ختَم بهما سورةَ البقرةِ، ولا يُقرأانِ في دارٍ ثلاثَ ليالٍ فيَقْرَبُها شيطانٌ))(١).

مُناسبة الآية لِمَا قبلها:

أنَّه تعالى لَمَّا قال: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ﴾، بيَّن أنه لا يَخْفى عليه مِن سِرِّنا وجَهْرنا، وباطننا وظاهرنا شيءٌ البتَّة، ثم إنَّه تعالى ذكَر عقيبَ ذلك ما يَجْري مجرى المدحِ لنا والثَّناء علينا، فقال: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾؛ كأنَّه بفضْله يقول: عبدي، أنا وإن كنتُ أعلمُ جميعَ أحوالك، فلا أُظهر من أحوالك، ولا أذكُر منها إلَّا ما يكون مدحًا لك، وثناءً عليك، حتى تعلم أنِّي كما أنا الكامل في المُلْك والعِلْم والقُدرة، فأنا الكامل في الجُودِ والرَّحمة، وفي إظهار الحسنات، وفي السَّتر على السيِّئات.

وأيضًا لَمَّا بيَّن الله تعالى في الآية المتقدِّمة كمالَ المُلْك، وكمال العلم، وكمال القُدرة لله تعالى، وذلك يُوجِب كمال صِفات الرُّبوبيَّة أَتْبَع ذلك بأنْ بيَّن كون المؤمنين في نهاية الانقياد والطَّاعة والخضوع لله تعالى، وذلك هو كمالُ العبوديَّة، وإذا ظهَر لنا كمال الرُّبوبيَّة، وقد ظهر منَّا كمال العبوديَّة، فالمرجوُّ من عميم فضْله وإحسانه أنْ يُظهِر يومَ القيامة في حقِّنا كمالَ العناية والرَّحمة والإحسان(٢).

المناسبة بين فاتحةِ السُّورة وخاتمتِها:

أنَّ الله تعالى مدَحَ في أوَّل السُّورة المتقين، فقال: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٨٨٢)، وأحمد (١٨٤٣٨)، والدارمي (٣٣٨٧)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١٠٨٠٣).
حسَّنه الترمذي، وابن حجر في ((نتائج الأفكار)) (٣/ ٢٧٥)، وجوَّد سنده الشوكاني في ((فتح القدير)) (١/ ٤٦٣)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٨٨٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٠٥، ١٠٦).

وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾. وبيَّن في آخرِ السورةِ أنَّ الذين مدَحهم في أولِ السورةِ هم أمةُ محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾. وهذا هو المرادُ بقولِه في أولِ السورةِ: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ ثم قال هاهنا: ﴿وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾. وهو المرادُ بقولِه في أولِ السورةِ ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلواةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾، ثم قال هاهنا: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾. وهو المرادُ بقولِه في أولِ السورةِ ﴿وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ ثم حكَى عنهم هاهنا كيفيةَ تضرُّعِهم إلى ربِّهم في قولِهم: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ إلى آخِر السُّورة، وهو المرادُ بقولِه في أولِ السورةِ: ﴿أولَئِكَ عَلَى هُدًى مِن رَبِّهِمْ وَأولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. فانظرْ كيف حصَلتِ الموافقةُ بينَ أولِ السورةِ وآخرِها[1].

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾.

أي: آمَن رسولُ الله محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فأقرَّ وانقاد لِمَا أُوحي إليه من ربِّه من الكتاب والسُّنة، وكذلك آمن المؤمنون، وكلٌّ من الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام والمؤمنين جميعًا يؤمنون حقًّا بالله تعالى وبجميع ملائكته، وجميع كُتُبه، ويُعلِنون إيمانَهم بجميع رُسله عليهم الصَّلاة والسَّلام، دون أيِّ تفريق بين أحدٍ منهم، فلا يؤمنون ببعضٍ، ويَكْفُرون ببعض[2].

﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾.

أي: قال جميع المؤمنين: سَمِعنا قولَ ربِّنا، وأمْره ونهيه، وفَهِمنا ذلك، فقبِلْناه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٤٨-١٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٠، ٩٦١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٤١-٤٤٦).

وعمِلْنا بما أَمَر، واجتنبْنا ما عنه زجَر، وقالوا: نسألك يا ربَّنا أن تَستُر لنا على الدوام ذنوبَنا، وتتجاوز عن عِقابنا عليها، وأنت يا ربَّنا مَرجِعُنا في كلِّ أمورنا، وإليك مَعادُنا، ومَعاد كلِّ الخلائق فتَجزيهم بما عمِلوا من خيرٍ وشرٍّ(١).

﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦)﴾.

سبب النزول:

عن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، قال: ((لَمَّا نَزلَت علَى رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ﴿للهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، قالَ: فاشتدَّ ذلك على أصحابِ رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فأتَوا رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، ثمَّ برَكوا علَى الرُّكَبِ، فقالوا: أيْ رسولَ الله، كُلِّفنا منَ الأَعمالِ ما نُطيقُ: الصَّلاةَ والصِّيامَ، والجِهادَ والصَّدَقةَ، وقد أُنْزِلَت عليكَ هذه الآيةُ ولا نُطيقُها، قال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ: أتُريدونَ أنْ تَقولوا كما قال أَهْلُ الكتابَينِ من قبلِكُم: سمِعنا وعصَينا؟ بل قولوا: سَمِعنا وأطَعْنا، غُفرانَكَ ربَّنا وإليكَ المَصيرُ، فلمَّا اقترَأَها القومُ، ذلَّت بِها ألسنتُهُم، فأنزلَ اللهُ في إثرِها: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾، فلمَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٥١-١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٠، ٩٦١)، ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٤٦).

فعَلوا ذلك نسخَها اللهُ تعالى، وأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، قالَ: نعَم، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾، قالَ: نعَم، ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾، قالَ: نعم، ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾، قال: نعَم))[(١)].

وعنِ ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما، قال: ((لَمَّا نزلت هذِهِ الآيةُ: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ﴾، قال: دخلَ قلوبَهُم منها شيءٌ لم يدخُل قلوبَهُم من شيءٍ، فقال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: قولوا: سَمِعنا وأطَعْنا وسلَّمنا، قالَ: فألقى اللهُ الإيمانَ في قلوبِهِم، فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، قالَ: قَد فعلتُ، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾، قالَ: قد فَعلتُ، ﴿وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا﴾، قالَ: قد فَعلتُ))[(٢)].

﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾.

أي: لا يُحمِّل الله تعالى نفسًا فوقَ طاقتِها، فلا يتعبَّدها إلَّا بما يَسَعُها تَحمُّله، فلا يُضيِّق عليها، ولا يُجهِدها بما لا قِبل لها به، وهو وإنْ حاسَب وسأل، لكنَّه لا يُعذِّب بما لا يُمكِن للمرء دفْعُه؛ كوسوسة عَرَضتْ له، أو خَطْرة خطَرتْ بقلبه، ولكلِّ نَفْس ما عمِلتْ من خير، لا يَنقُص منها شيءٌ؛ وعليها ما عمِلتَ من شرٍّ، لا يُزاد عليها شيء[(٣)].

---

(١) تقدَّم تخريجه (ص: ٩١٢).

(٢) رواه مسلم (١٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٥٢-١٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٠)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٥١-٤٥٢).

قال ابن عطيَّة: (قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ يُريد من الحسَنات، ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ يريد =

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾.

أي: قولوا: يا ربَّنا، لا تُعاقِبْنا إنْ نسِينا القيامَ بفرضٍ، أو تَرْكَ مُحرَّم، ولا تُعاقِبنا يا ربَّنا، إنْ أخطأنا الصَّوابَ في العمل، جهلًا منَّا بوجْهه الشَّرعي، أو وقَعْنا في معصيتك جهلًا، عن غير قصْدٍ منَّا، بارتكاب نهيك[1].

﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾.

أي: قولوا: يا ربَّنا، لا تُحمِّلنا عهدًا على القيام بأعمالٍ شاقَّةٍ وثقيلةٍ علينا، فنعجِز عن القيام بها، فتَحِلَّ علينا العقوباتُ، كما وقَع لليهود والنصارى وغيرهم ممَّن كُلِّفوا أعمالًا، وأُخِذتْ عليهم العهودُ والمواثيقُ على القيامِ بها، فلم يفعلوا، فعُوقِبوا[2].

﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾.

أي: قولوا أيضًا: يا ربَّنا لا تُكلِّفنا من الأعمال ما لا نُطيق القيامَ به؛ لثِقَل حَمْله علينا، ولا تَبْتلِنا بما لا قِبَل لنا به[3].

﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾.

أي: يا ربَّنا، تجاوَز عمَّا بيننا وبينك من تقصيرٍ في أداء ما افترضتَه علينا، واسترُ علينا فيما بيننا وبين عبادِك، فلا تُظهِرهم على سيِّئاتنا، وتجاوَز عنها، وجُدْ علينا بالرحمة حتى لا نَقَع في ارتكابِ محظورٍ، أو تَهاوُنٍ في أداء مأمورٍ، ونجِّنا برحمتك من غضبِك وعقابِك[4].

= من السيِّئات؛ قاله السُّدِّيُّ وجماعةٌ من المفسِّرين، لا خلافَ في ذلك)) ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٣٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٥٥-١٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٠-١٢١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٥٨، ١٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٦١-١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٣٨)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٦٤-١٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٣٨)، ((تفسير =

﴿أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

أنت وليُّنا وناصِرُنا دون مَن عاداك وكَفَر بك؛ لأنَّا حِزبُك المؤمنون بك، والمُطيعون لك فيما أَمَرتنا ونَهيتنا؛ فبوَلايتِك الخاصَّة انصُرنا على الكافرين، الذين جَحدوا وحدانيتَكَ، وأَشرَكوا معك، وأَنكَروا رسالةَ نبيِّك، وعبدوا غيرَك، وأطاعوا الشَّيطانَ في معصيتِك، واجعل لنا العاقبةَ عليهم في الدُّنيا والآخرة(١).

الفوائِد التربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ﴾، تحذيرٌ للعبد مَن أنْ يُخفي في قلبه ما لا يَرضاه الله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ الإنسانَ إذا علِم بأنَّ الله عالمٌ بما يُبدي وبما يُخفي، فسوف يُراقِب اللهَ سبحانه وتعالى؛ خوفًا مِن أنْ يُحاسَب على ما أخفاه كما يُحاسَب على ما أبداه(٢).

٢- في الآية: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا...﴾ تصويرٌ لحالِ المؤمنين مع ربِّهم؛ وإدراكِهم لضَعْفهم وعَجزهم، وحاجتِهم إلى رحمتِه وعَفْوه، وإلى مَدَدِه وعَونِه؛ وإلْصاق ظُهورِهم إلى رُكنه، والْتِجائهم إلى كَنَفِه، وانتسابهم إليه وتجرُّدهم مِن كلِّ مَن عداه؛ واستعدادِهم للجهاد في سبيله، واستمدادِهم النَّصرَ منه(٣).

٣- في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ أنَّ المسلم حين ينتابُه الضَّعفُ البشريُّ الذي لا حيلةَ له فيه، يتوجَّه إلى ربِّه يَطلُب العفو والسَّماح، وليس

= السعدي)) (ص: ١٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٤١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٧٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢١)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٣٧).

(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٣٤٥).

هو التبجُّح إذن بالخَطيئة، أو الإعراض ابتداءً عن الأمر، أو التَّعالي عن الطاعة والتَّسليم، أو الزَّيغ عن عَمْدٍ وقَصْد[١].

٤- في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾، دلالةٌ على أنَّه ينبغي للإنسان أنْ يسأل اللهَ سبحانه وتعالى العافيةَ، فلا يُحمِّله ما لا طاقةَ له به؛ ففيه ردٌّ على الصُّوفية الذين قالوا: نحن لا نسأل الله تعالى أن يَقِيَنا ما يَشُقُّ علينا؛ لأنَّنا عبيدُه، وإذا حصل لنا ما يَشُقُّ، فإنَّنا نَصبِر عليه؛ لنكتسِب أجرًا[٢].

٥- أنَّه ينبغي للإنسان سؤالُ الله العفوَ؛ لأنَّ الإنسان لا يخلو من تقصيرٍ في المأمورات، فيسأل الله العفوَ عن تقصيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَاعْفُ عَنَّا﴾، وسؤالُ الله المغفرةَ من ذنوبه التي فعَلها؛ لقوله تعالى: ﴿واغْفِرْ لَنَا﴾؛ لأنَّ الإنسانَ إن لم يُغفَر له تراكمتْ عليه الذُّنوبُ، ورانت على قلبه، وربَّما تُوبِقه، وتُهلِكه[٣].

٦- التوسُّل إلى الله تعالى في الدُّعاء بما يَقتضي الإجابةَ؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا﴾ بعد أنْ ذكَر الدُّعاءَ في قوله تعالى: ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾[٤].

الفوائد العلمية واللَّطائف:

١- في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، إثبات صفاتِ الكَمال لله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّنا إذا تأمَّلنا في هذا المُلْك الواسع العظيم، وأنه يُدبَّر بانتظام لا مثيلَ له، علِمنا بأنَّ الذي يدبِّره كاملُ الصِّفات؛ فيُؤخَذ منه كل صِفة كمال لله، كالعِلم، والقُدرة، والسَّمع، والبصر، والكلام، والعزَّة، والحِكمة، وغير

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٦٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٤٦١).

ذلك من صِفاته عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه لا يُمكِن أن يقومَ بمُلْك هذه الأشياء العظيمة إلَّا من هو مُتَّصِفٌ بصفات الكمال[1].

٢- عمومُ عِلْم الله وسَعَته؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ﴾؛ ولا مُحاسبة إلَّا مِن بعد علمٍ[2].

٣- أنَّ الله سبحانه وتعالى لم يُصرِّح بالمعاقبة؛ ولا يَلزَم من المحاسبة المؤاخذةُ؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾[3].

٤- إثبات المشيئة لله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾؛ ومشيئته تعالى مقرونةٌ بالحِكمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠]، وكلُّ شيء أضافه الله إلى مشيئته فهو مقرونٌ بحِكمة؛ لا يَشاءُ شيئًا إلَّا لحِكْمة، أيًّا كان هذا الشَّيء[4].

٥- أنَّه بَعدَ المحاسبة إمَّا أنْ يَغفِر الله تعالى للإنسان، وإمَّا أن يُعذِّبه؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾، فإن كان كافرًا عُذِّب؛ وإنْ كان مُسلِمًا كان تحت المشيئة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨][5].

٦- أنَّ المؤمنين تَبَعٌ للرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ لقوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾؛ وَجْه التَّبَعيَّة أنه ذكَر ما آمَن به قبل أن يَذكُر التابعَ- يعني لم يقُل: (آمَن الرسولُ والمؤمنون بما أُنزِل إليه)، وهذا يدلُّ على أنَّهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٣٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٤٣٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٤٤٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أتباعٌ للرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّمَ، لا يَستقِلُّون بشريعةٍ دونه[١].

٧- أنَّه كلَّما كان الإنسان أقوى إيمانًا بالرسول صلَّى الله عليه وسلَّمَ كان أشدَّ اتِّباعًا له؛ وَجْهه: أنَّه تعالى قال: ﴿أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ يعني: والمؤمنون آمَنوا بما أُنزِل على محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ من ربِّه؛ وعليه فكلُّ من كان أقوى إيمانًا كان أشدَّ اتِّباعًا[٢].

٨- في قوله: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ ترتيبٌ في غاية الفصاحة؛ لأنَّ الإيمان بالله هو المرتبة الأولى، والإيمان بملائكته هي المرتبة الثانية؛ لأنَّهم كالوسائط بين الله وعباده، والإيمان بالكتُب- الذي هو الوحي الذي يتلقَّنه المَلَك من الله، يُوصِّله إلى البشر- هي المرتبة الثالثة، والإيمان بالرُّسُل الذين يَقتبِسون أنوارَ الوحي؛ فهم متأخِّرون في الدَّرجة عن الكُتُب، وهي المرتبة الرابعة[٣].

٩- قوله: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾: فيه مناسبةٌ حسنةٌ بتقديم ذكرِ السَّمعِ والطاعةِ على طَلَب الغُفران؛ لأنَّ تقديمَ الوسيلةِ على المسؤول أدْعى إلى الإجابة والقَبُول، والتَّعرُّضُ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ مع الإضافة إليهم (رَبَّنَا)؛ للمُبالغةِ في التضرُّع والجُؤار[٤].

١٠- أنَّ للإنسان طاقةً محدودة؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا وُسْعَهَا﴾؛ فالإنسان له طاقة محدودة في كل شيء: في العِلم، والفَهْم، والحِفْظ؛ فيُكلَّف بحسَب طاقته[٥].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٤٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٧٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٧٦)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٤١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٥٦).

١١- في قوله ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾: أنَّ للإنسان ما كسَب دون أن يَنقُص منه شيء، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾[١].

١٢- أنَّ الأعمال الصالحة كَسْب؛ وأنَّ الأعمال السيِّئة غُرْم؛ وذلك مأخوذ من قوله تعالى: ﴿لَهَا﴾، ومن قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا﴾؛ فإنَّ (على) ظاهرة في أنها غُرْم؛ واللام ظاهرة في أنَّها كَسْب[٢].

١٣- وفي الإتيان بـ﴿كَسَبَ﴾ في الخير الدَّال على أنَّ عمل الخير يَحصُل للإنسان بأدنى سعيٍ منه، بل بمُجرَّد نيَّة القلب، وأتى بـ﴿اكْتَسَبَ﴾ في عملِ الشرِّ؛ للدَّلالة على أنَّ عمل الشرِّ لا يُكتَب على الإنسان حتى يعملَه، ويَحصُل سعيُه[٣].

١٤- رحمة الله سبحانه وتعالى بالخَلْق، حيث علَّمهم دعاءً يدعونه به، واستجاب لهم إيَّاه في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[٤].

١٥- أنَّه ينبغي للإنسان أن يتوسَّل في الدُّعاء بالوصف المناسِب، مِثْل الرُّبوبيَّة- التي بها الخَلْق، والتدبير؛ ولهذا كان أكثرُ الأدعية في القرآن مصدَّرةً بوصف الرُّبوبيَّة، مِثْل: ﴿رَبَّنَا﴾، ومِثْل: ﴿رَبِّ﴾[٥].

١٦- أنَّ من كان قَبْلنا كانوا مُكلَّفين بأعظمَ ممَّا كُلِّفنا به؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾[٦].

١٧- ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا﴾، هذه الكلمة تَدلُّ على نهاية الخضوع والتذلُّل، والاعتراف بأنَّه سبحانه هو المتولِّي لكلِّ نِعْمة يَصِلون إليها، وهو المعطِي لكلِّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٥٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (١/ ١٢٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٤٥٦).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٤٥٧).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٤٥٩).

مَكرُمة يفوزون بها، فلا جَرَم أَظهروا عند الدعاءِ أنَّهم في كونهم مُتكلِّمين على فضْله وإحسانه بمنزلة الطِّفل الذي لا تَتِمُّ مصلحته إلَّا بتدبير قَيِّمِه، والعبد الذي لا يَنتظِم شَمْلُ مهمَّاته إلَّا بإصلاح مولاه، فهو سبحانه قَيُّوم السَّموات والأرض، والقائم بإصلاح مهمَّات الكل، وهو المتولِّي في الحقيقة للكلِّ(١).

بلاغة الآيات:

١- في قوله: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ...﴾ حُسنُ الختام، وحُسن المناسبة؛ لأنَّه سبحانه لَمَّا ذكر أنَّ مَن كتَم الشَّهادة فإنَّ قلبَه آثمٌ، ذكَر ما انطوى عليه الضَّمير، فكتَمَه أو أبداه؛ فإنَّ الله يحاسبه به، ففيه وعيدٌ وتهديد لِمَن كتم الشهادة(٢).

- وكذا ناسب ذِكر هذه الآية- بما اشتملتْ عليه من تهديد- خاتمةً لهذه السُّورة؛ فلَمَّا جمع في هذه السُّورة أشياءَ كثيرة من أمور التوحيد والنبوَّة والشرائع والتكاليف، كالصَّلاة والزكاة، والصوم والحج، والقصاص والجهاد... إلخ - ختَمها بخلاصة ذلك، وبالأصل الذي يَنبني عليه كلُّ تلك الأمور(٣).

- وهي تعليلٌ واستدلالٌ على مضمون جملة: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾؛ فإذا كان ذلك تعريضًا بالوعد والوعيد، فقد جاء هذا الكلام تصريحًا واستدلالًا عليه، التصريح في جملة ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾، والاستدلال في جملة ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، وهي اعتراضٌ بين الجملتين المتعاطفتين، أو علَّة لجملة ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ باعتبار إرادة الوعيد والوعد، فالمعنى: أنَّكم عبيدُه، فلا يفوته عملُكم، والجزاء عليه(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٢٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٠٢-١٠٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٧٤٩-٧٥٠).
(٣) يُنظر: ((المصدران السابقان)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٢٩).

٢- قوله: ﴿وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تذييلٌ مقرِّرٌ لمضمونِ ما قبله؛ فإنَّ كمالَ قُدرتِه تعالى على جميع الأشياء، مُوجِبٌ لقدرته سبحانه على ما ذُكر من المحاسبة، وما فُرِّع عليه من المغفرة والتعذيب(١).

٣- وقد تَضمَّنت هذه الآية من أنواع الفصاحة، وضروبِ البلاغة أشياء؛ منها:

- الطِّباق في قوله: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾، والتَّكرار في قوله: ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾، حيث كرَّر (ما) الموصولة؛ تنبيهًا وتوكيدًا(٢).

- توحيد الضمير في ﴿آمَنَ﴾ مع رجوعه إلى كلِّ المؤمنين؛ لأنَّ المرادَ بيانُ إيمانِ كلِّ فردٍ منهم من غير اعتبار الاجتماعِ، كما اعتُبر ذلك في قوله تعالى ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾، وتغييرُ سبْكِ النَّظم الكريمِ عمَّا قبلَه؛ لتأكيد الإشعارِ بما بين إيمانه صلَّى الله عليه وسلَّم المبنيِّ على المشاهدة والعِيان، وبين إيمانِهم الناشئ عن الحُجَّة والبرهانِ من التفاوت البيِّن، والاختلاف الجليِّ، كأنَّهما مختلفان من كلِّ وجهٍ، حتى في هيئة التركيب الدالِّ عليهما، وما فيه من تكرير الإسناد لِمَا في الحُكم بإيمان كلِّ واحدٍ منهم على الوجْه الآتي من نوعِ خفاءٍ مُحوِجٍ إلى التقوية والتأكيد، أي: كلٌّ واحد منهم آمن(٣).

٤- في قوله: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ...﴾ فَذْلكةٌ لجميع ذلك المذكور من قبلُ، وللتأكيد عليه، ولتعظيم نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ وأتْباعه؛ فإنَّه لَمَّا ذكر الله في هذه السُّورة أحكامًا كثيرة، وقصصًا، ختمَها بقوله: ﴿آمَنَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٣١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٧٦٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٧٤).

الرَّسُولُ...﴾، والجملة استئناف ابتدائي وُضِعت في هذا الموقِع لمناسبة ما تقدَّم، وهو انتقالٌ مؤذِن بانتهاء السُّورة؛ لأنَّه لَمَّا انتقل من أغراض متناسبة إلى غرَض آخَر: هو كالحاصل، والفذلكة، فقد أشْعَر بأنَّه استوفى تلك الأغراض(١).

٥- قوله: ﴿لا نُفرِّق﴾ يحتمل الالتفات: بأنْ يكون من مقول قول محذوف دلَّ عليه السِّياق وعُطف (وقالوا) عليه، أو النون فيه للجلالة، أي: آمَنوا في حال أنَّنا أمرناهم بذلك؛ لأنَّنا لا نُفرِّق، فالجملة معترِضة(٢).

٦- في قوله: ﴿وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ تذييلٌ لِمَا قبله، مقرِّر للحاجة إلى المغفرة؛ لأنَّ الرجوع يكون للحسابِ والجزاء(٣).

٧- قوله: ﴿لَا تُؤَاخِذْنَا﴾، ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا﴾، ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ جاءت هذه الأدعية بصِيغة الجمع وقتَ الدُّعاء؛ لبيان أنَّ قَبول الدعاء عند الاجتماع أكملُ؛ وذلك لأنَّ للهِمم تأثيراتٍ، فإذا اجتمعت الأرواح والدَّواعي على شيء واحد كان حصوله أكملَ، وهذه الأدعية كان المطلوبُ فيها التركَ، فجاءت مقرونةً بلفظ (ربنا). ولم يذكُر لفظ (ربَّنا) في الأدعية التالية لها (واعف - واغفر - وارحمنا - فانصرنا)؛ لأنَّ النِّداء إنما يُحتاج إليه عند البُعد، أمَّا عند القُرب فلا، وإنَّما حذف النِّداء؛ إشعارًا بأنَّ العبد إذا واظب على التضرُّع نال القربَ من الله تعالى، وهذا سرٌّ عظيم يُطَّلع منه على أسرار أُخَر(٤).

أو لم يُؤتَ مع هذه الدَّعوات بقوله: ﴿رَبَّنا﴾؛ لأنَّه تكرَّر ثلاثَ مرات، والعرب

(١) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٣١-١٣٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٣٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٧٦)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٤١).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٢٤).

تَكرَهُ تكرير اللَّفظ أكثرَ من ثلاث مرَّات إلَّا في مقام التهويل، أو لأنَّ تلك الدعوات المقترنة بقوله: ﴿رَبَّنَا﴾ فروعٌ لهذه الدعوات الثلاث، فإذا استُجيب تلك، حصَلت إجابة هذه بالأَولى؛ فلمَّا كان تعميمًا بعد تخصيص، كان كأنَّه دعاء واحد[١].

٨- **قوله: ﴿لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾** فيه التفات[٢]، بالعدول عن الخِطاب إلى الغَيبة بذِكر لفظ الجلالة (الله)؛ وفائدته: إظهار التملُّق بأنَّ له من صِفات العظمة ما يَقتضي العفوَ عن ضَعفهم[٣].

٩- **قوله: ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا﴾** جِيء فيه بالفاء للتفريع عن كونه مولًى؛ لأنَّ شأنَ المولى أن ينصُر مولاه، وفي التفريع بالفاء إيذانٌ بتأكيد طلبِ إجابة الدُّعاء بالنصر؛ لأنَّهم جعلوه مرتَّبًا على وصف محقَّق، وهو ولايةُ الله تعالى المؤمنين[٤].

١٠- **قوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾** بينهما مقابلة؛ فقد طابَق بين (لها) و(عليها)، وبين (كسبت) و(اكتسبت)؛ فالفعل الأوَّل يختصُّ بالخير، والفعل الثاني يختصُّ بالشرِّ؛ فإنَّ في الاكتساب اعتمالًا، والشرُّ تَتشهَّاه النفْس وتَجنح إليه بالطبع، بخلاف الخير[٥]. والمقابلة تُبرز المعنى وتُوضِّحه.

- **وأيضًا قوله: ﴿لَهَا ما كَسَبَتْ وَعَلَيْها مَا اكْتَسَبَتْ﴾** صيغة خبر، والمراد الترغيبُ في المحافظة على مواجب التكليف، والتحذيرُ عن الإخلال بها[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٤١).

(٢) على القول بأنَّ قوله: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللهُ﴾ من جملة دعاء المؤمنين. ويحتمل أن يكون ذلك من قول الله تعالى جزاءً لهم على قولهم: ﴿سَمِعْنا وَأَطَعْنا﴾؛ وعلى هذا فلا يكون فيه التفاتٌ.

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ١٧٦)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٤٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٣٢-٣٣٣)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ١٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٧٦٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٦٩٩-٧٠٠)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٤٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٥١).

(٦) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٤٢).

١٢- وفي الآية: حسنُ الختام لهذه السُّورة العظيمة، التي اشتملتْ على العديد من الأحكام، وانطوتْ على التَّشريع والبيان؛ فناسَب أن يتناول ختامها ما ذُكِر فيها[1].

تمَّ بحمدِ الله تعالى المجلَّدُ الأوَّل

ويَليه المجلَّدُ الثَّاني، وأوَّله: تفسير سُورة آل عمران

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٥١).

الفهرس

تقديم الشَّيخ الدكتور خالِد بن عُثمان السَّبت ٥
تقديم الشيخ الدكتور أحمد سعد الخَطيب ٨
مُقدِّمة التَّفسير ١٢
مزايا هذا التَّفسير ١٧
ضوابط العمل في هذا التفسير ١٨
الاستِعاذَة........ ٢٤
تَفسيرُ البَسْملةِ ٢٨
مِن فوائدِ البَسملةِ ولَطائِفِها ٢٩
هلِ البَسملةُ آيةٌ من سورةِ الفاتحةِ؟........ ٣١
تَفْسِيرُ سُورَةِ الفَاتِحَةِ ٣٣
أسماء السورة ٣٥
فضائلُ السُّورةِ وخصائصُها........ ٣٦
بيان المكي والمدني........ ٣٨
مقاصد السُّورة ٣٩
موضوعات السُّورة........ ٣٩
الآيات (١-٧) ٤١
المعنى الإجمالي ٤١
غريب الكلمات........ ٤١
مشكل الإعراب........ ٤١
تفسير الآيات........ ٤٢
الفوائد التربويَّة ٤٨
الفوائد العلميَّة واللَّطائف........ ٥٠
بلاغة الآيات ٥١

تَفْسِيرُ سُورَةِ البَقَرَةِ ٥٧
أسماء السُّورة ٥٩
فضائلُ السُّورة وخصائصُها ٥٩
بيان المَكِّي والمَدني ٦٠
موضوعات السُّورة ٦١
الآيات (١-٥) ٦٣
غريب الكلمات ٦٣
مشكل الإعراب ٦٤
المعنى الإجمالي ٦٤
تفسير الآيات ٦٤
الفَوائِد التربويَّة ٦٨
الفوائد العلميَّة واللَّطائف ٦٩
بلاغة الآيات ٧١
الآيات (٦-٧) ٧٥
غريب الكلمات ٧٥
مشكل الإعراب ٧٥
المعنى الإجمالي ٧٦
تفسير الآيات ٧٦
الفَوائِد التربويَّة ٧٧
الفوائد العلميَّة واللَّطائف ٧٧
بلاغة الآيات ٧٨
الآيات (٨-٢٠) ٨٠
غريب الكلمات ٨٠
المعنى الإجمالي ٨٢

تفسير الآيات ٨٥
الفَوائِد التربويَّة ٩٧
الفوائد العلميَّة واللَّطائف ٩٩
بلاغة الآيات ١٠٠
الآيات (٢١-٢٥) ١٠٥
غريب الكلمات ١٠٥
المعنى الإجمالي ١٠٥
تفسير الآيات ١٠٦
الفَوائِد التربويَّة ١١١
الفوائد العلميَّة واللَّطائف ١١٢
بلاغة الآيات ١١٤
الآيات (٢٦-٢٩) ١١٦
غريب الكلمات ١١٦
مشكل الإعراب ١١٦
المعنى الإجمالي ١١٧
تفسير الآيات ١١٧
الفَوائِد التَّربويَّة ١٢٣
الفوائد العلميَّة واللَّطائف ١٢٣
بلاغة الآيات ١٢٤
الآيات (٣٠-٣٣) ١٢٧
غريب الكلمات ١٢٧
مشكل الإعراب ١٢٨
المعنى الإجمالي ١٢٨
تفسير الآيات ١٢٩

الفَوائِد التربويَّة ١٣٢
الفوائد العلميَّة واللَّطائف ١٣٣
بلاغة الآيات ١٣٤
الآيات (٣٤-٣٩) ١٣٦
غريب الكلمات ١٣٦
مشكل الإعراب ١٣٧
المعنى الإجمالي ١٣٧
تفسير الآيات ١٣٨
الفَوائِد التربويَّة ١٤٤
الفوائد العلميَّة واللَّطائف ١٤٥
بلاغة الآيات ١٤٦
الآيات (٤٠-٤٦) ١٤٩
غريب الكلمات ١٤٩
المعنى الإجمالي ١٤٩
تفسير الآيات ١٥٠
الفَوائِد التربويَّة ١٥٥
الفوائد العلميَّة واللَّطائف ١٥٨
بلاغة الآيات ١٥٨
الآيات (٤٧-٥٧) ١٦١
غريب الكلمات ١٦١
مشكل الإعراب ١٦٣
المعنى الإجمالي ١٦٣
تفسير الآيات ١٦٤
الفَوائِد التربويَّة ١٧٤

الفوائد العلميَّة واللَّطائف ١٧٦
بلاغة الآيات ١٧٨
الآيات (٥٨-٦١) ١٨٢
غريب الكلمات ١٨٢
مشكل الإعراب ١٨٣
المعنى الإجمالي ١٨٣
تفسير الآيات ١٨٤
الفَوائِد التربويَّة ١٩١
الفوائد العلميَّة واللَّطائف ١٩٢
بلاغة الآيات ١٩٣
الآيات (٦٢-٦٦) ١٩٥
غريب الكلمات ١٩٥
المعنى الإجمالي ١٩٦
تفسير الآيات ١٩٦
الفَوائِد التربويَّة ٢٠٠
الفوائد العلميَّة واللَّطائف ٢٠١
بلاغة الآيات ٢٠٢
الآيات (٦٧-٧٤) ٢٠٥
غريب الكلمات ٢٠٥
مشكل الإعراب ٢٠٧
المعنى الإجمالي ٢٠٧
تفسير الآيات ٢٠٨
الفَوائِد التربويَّة ٢١٥
الفوائد العلميَّة واللَّطائف ٢١٦

بلاغة الآيات ٢١٧
الآيات (٧٥-٨٢) ٢٢٠
غريب الكلمات ٢٢٠
مشكل الإعراب ٢٢١
المعنى الإجمالي ٢٢١
تفسير الآيات ٢٢٢
الفوائد التربويَّة ٢٣٠
الفوائد العلميَّة واللَّطائف ٢٣١
بلاغة الآيات ٢٣١
الآيات (٨٣-٨٦) ٢٣٤
غريب الكلمات ٢٣٤
مشكل الإعراب ٢٣٤
المعنى الإجمالي ٢٣٥
تفسير الآيات ٢٣٦
الفوائد التربويَّة ٢٤١
الفوائد العلميَّة واللَّطائف ٢٤٢
بلاغة الآيات ٢٤٣
الآيات (٨٧-٩٠) ٢٤٦
غريب الكلمات ٢٤٦
المعنى الإجمالي ٢٤٧
تفسير الآيات ٢٤٨
الفوائد التربويَّة ٢٥٤
الفوائد العلميَّة واللَّطائف ٢٥٤
بلاغة الآيات ٢٥٥

الآيات (٩١-٩٣)	٢٥٨
غريب الكلمات	٢٥٨
المعنى الإجمالي	٢٥٨
تفسير الآيات	٢٥٩
الفوائد التربويَّة	٢٦٢
الفوائد العلميَّة واللَّطائف	٢٦٣
بلاغة الآيات	٢٦٤
الآيات (٩٤-٩٦)	٢٦٧
غريب الكلمات	٢٦٧
المعنى الإجمالي	٢٦٧
تفسير الآيات	٢٦٨
الفوائد التربويَّة	٢٧١
الفوائد العلميَّة واللَّطائف	٢٧١
بلاغة الآيات	٢٧٢
الآيات (٩٧-١٠٣)	٢٧٤
غريب الكلمات	٢٧٤
المعنى الإجمالي	٢٧٥
تفسير الآيات	٢٧٦
الفوائد التربويَّة	٢٨٥
الفوائد العلميَّة واللَّطائف	٢٨٦
بلاغة الآيات	٢٨٧
الآيات (١٠٤-١١٣)	٢٩٢
غريب الكلمات	٢٩٢
المعنى الإجمالي	٢٩٣

تفسير الآيات ٢٩٥
الفوائد التربويَّة ٣٠٩
الفوائد العلميَّة واللَّطائف ٣١١
بلاغة الآيات ٣١٣
الآيات (١١٤-١١٩) ٣١٨
غريب الكلمات ٣١٨
المعنى الإجمالي ٣١٩
تفسير الآيات ٣٢٠
الفوائد التربويَّة ٣٢٨
الفوائد العلميَّة واللَّطائف ٣٢٩
بلاغة الآيات ٣٣٠
الآيات (١٢٠-١٢٣) ٣٣٣
غريب الكلمات ٣٣٣
مشكل الإعراب: ٣٣٣
المعنى الإجمالي ٣٣٤
تفسير الآيات ٣٣٥
الفوائد التربويَّة ٣٤٠
الفوائد العلميَّة واللَّطائف ٣٤١
بلاغة الآيات ٣٤٢
الآيات (١٢٤-١٣٤) ٣٤٥
غريب الكلمات ٣٤٥
المعنى الإجمالي ٣٤٦
تفسير الآيات ٣٤٨
الفوائد التربويَّة ٣٦٣

الفوائد العلميَّة واللَّطائف ٣٦٥
بلاغة الآيات ٣٦٧
الآيات (١٣٥-١٤١) ٣٧٣
غريب الكلمات ٣٧٣
مشكل الإعراب ٣٧٤
المعنى الإجمالي ٣٧٥
تفسير الآيات ٣٧٦
الفوائد التربويَّة ٣٨٤
الفوائد العلميَّة واللَّطائف ٣٨٥
بلاغة الآيات ٣٨٦
الآيات (١٤٢-١٥٠) ٣٩١
مشكل الإعراب ٣٩٣
المعنى الإجمالي ٣٩٣
تفسير الآيات ٣٩٦
الفوائد التربويَّة ٤١٢
الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف ٤١٥
بلاغة الآيات ٤١٨
الآيات (١٥١-١٥٧) ٤٢٦
غريب الكلمات ٤٢٦
مشكل الإعراب ٤٢٧
المعنى الإجمالي ٤٢٨
تفسير الآيات ٤٢٩
الفوائد التربويَّة ٤٣٤
الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف ٤٣٦

بلاغة الآيات ٤٣٦
الآيات (١٥٨-١٦٣) ٤٤٠
غريب الكلمات ٤٤٠
المعنى الإجمالي ٤٤٠
تفسير الآيات ٤٤٢
الفوائد التربويَّة ٤٤٨
الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف ٤٤٩
بلاغة الآيات ٤٥٠
الآيات (١٦٤-١٦٧) ٤٥٤
غريب الكلمات ٤٥٤
المعنى الإجمالي ٤٥٥
تفسير الآيات ٤٥٧
الفوائد التربويَّة ٤٦٤
الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف ٤٦٤
بلاغة الآيات ٤٦٥
الآيات (١٦٨-١٧٣) ٤٦٧
غريب الكلمات ٤٦٧
المعنى الإجمالي ٤٦٨
تفسير الآيات ٤٦٩
الفوائد التربويَّة ٤٧٧
الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف ٤٧٨
بلاغة الآيات ٤٧٩
الآيات (١٧٤ - ١٧٦) ٤٨١
غريب الكلمات ٤٨١

المعنى الإجمالي ٤٨١
تفسير الآيات ٤٨٢
الفوائد التربويَّة ٤٨٥
الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف ٤٨٥
بلاغة الآيات ٤٨٦
الآيات (١٧٧ - ١٧٩) ٤٨٨
غريب الكلمات ٤٨٨
مشكل الإعراب ٤٨٩
المعنى الإجمالي ٤٩٠
تفسير الآيات ٤٩١
الفوائد التربويَّة ٤٩٦
الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف ٤٩٧
بلاغة الآيات ٤٩٧
الآيات (١٨٠ - ١٨٢) ٥٠٢
غريب الكلمات ٥٠٢
مشكل الإعراب ٥٠٢
المعنى الإجمالي ٥٠٣
تفسير الآيات ٥٠٣
الفوائد التربويَّة ٥٠٦
الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف ٥٠٦
بلاغة الآيات ٥٠٧
الآيات (١٨٣ - ١٨٨) ٥٠٩
غريب الكلمات ٥٠٩
مشكل الإعراب ٥١١

المعنى الإجمالي ٥١١
تفسير الآيات ٥١٣
الفوائد التربويَّة ٥٢٨
الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف ٥٣٠
بلاغة الآيات ٥٣٣
الآيات (١٨٩ - ١٩٥) ٥٣٦
غريب الكلمات ٥٣٦
المعنى الإجمالي ٥٣٧
تفسير الآيات ٥٣٨
الفوائد التربويَّة ٥٤٩
الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف ٥٥١
الآيات (١٩٦ - ٢٠٣) ٥٥٥
غريب الكلمات ٥٥٥
مشكل الإعراب ٥٥٧
المعنى الإجمالي ٥٥٧
تفسير الآيات ٥٦٠
الفوائد التربويَّة ٥٧٥
الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف ٥٧٦
بلاغة الآيات ٥٧٨
الآيات (٢٠٤ - ٢٠٧) ٥٨١
غريب الكلمات ٥٨١
المعنى الإجمالي ٥٨٢
تفسير الآيات ٥٨٢
الفوائد التربويَّة ٥٨٧

الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف ٥٨٧
بلاغة الآيات ٥٨٨
الآيات (٢٠٨ - ٢١٤) ٥٩٠
غريب الكلمات ٥٩٠
المعنى الإجمالي ٥٩١
تفسير الآيات ٥٩٣
الفوائد التربويَّة ٦٠٤
الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف ٦٠٦
بلاغة الآيات ٦٠٨
الآيات (٢١٥ - ٢٢٠) ٦١١
غريب الكلمات ٦١١
مشكل الإعراب ٦١٢
المعنى الإجمالي ٦١٣
تفسير الآيات ٦١٥
الفوائد التربويَّة ٦٢٥
الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف ٦٢٧
بلاغة الآيات ٦٢٨
الآيات (٢٢١ - ٢٢٤) ٦٣٢
غريب الكلمات ٦٣٢
المعنى الإجمالي ٦٣٢
تفسير الآيات ٦٣٤
الفوائد التربويَّة ٦٤٤
الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف ٦٤٤
بلاغة الآيات ٦٤٦

الآيات (٢٢٥ - ٢٣٢) ٦٤٨
غريب الكلمات ٦٤٨
المعنى الإجمالي ٦٥٠
تفسير الآيات ٦٥٣
الفوائد التربويَّة ٦٦٨
الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف ٦٧٠
بلاغة الآيات ٦٧٢
الآيات (٢٣٣ - ٢٤٢) ٦٧٥
غريب الكلمات ٦٧٦
مشكل الإعراب ٦٧٧
المعنى الإجمالي ٦٧٩
تفسير الآيات ٦٨٢
الفوائد التربويَّة ٦٩٧
الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف ٦٩٨
بلاغة الآيات ٧٠٠
الآيات (٢٤٣ - ٢٥٢) ٧٠٦
غريب الكلمات ٧٠٧
المعنى الإجمالي ٧٠٨
تفسير الآيات ٧١٠
الفوائد التربويَّة ٧٢٤
الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف ٧٢٨
بلاغة الآيات ٧٣٢
الآية (٢٥٣) ٧٣٦
غريب الكلمات ٧٣٦

المعنى الإجمالي ٧٣٦
تفسير الآيات ٧٣٧
الفَوائِد التَّربويَّة ٧٤٠
الفوائد العلمية واللَّطائف ٧٤٠
بلاغة الآيات ٧٤١
الآيات (٢٥٤ - ٢٥٧) ٧٤٥
غريب الكلمات ٧٤٥
المعنى الإجمالي ٧٤٧
تفسير الآيات ٧٤٨
فضْل آية الكُرْسي ٧٥٠
الفوائِد التربويَّة ٧٦١
الفوائد العلمية واللَّطائف ٧٦٢
بلاغة الآيات ٧٦٧
الآيات (٢٥٨-٢٦٠) ٧٧١
غريب الكلمات ٧٧١
مُشكِل الإعراب ٧٧٢
المعنى الإجمالي ٧٧٣
تفسير الآيات ٧٧٤
الفوائِد التربويَّة ٧٨٣
الفوائد العلمية واللَّطائف ٧٨٥
بلاغة الآيات ٧٨٩
الآيات (٢٦١- ٢٦٥) ٧٩٢
غريب الكلمات ٧٩٢
المعنى الإجمالي ٧٩٣

تفسير الآيات ٧٩٥
الفوائِد التربويَّة ٨٠٤
الفوائد العلمية واللَّطائف ٨٠٧
بلاغة الآيات ٨٠٩
الآيات (٢٦٦- ٢٧٤) ٨١٨
غريب الكلمات ٨١٩
مُشكِل الإعراب ٨٢١
المعنى الإجمالي ٨٢٢
تفسير الآيات ٨٢٤
الفوائِد التربويَّة ٨٤٢
الفوائد العلمية واللَّطائف ٨٤٥
بلاغة الآيات ٨٥٠
الآيات (٢٧٥- ٢٨١) ٨٦٣
غريب الكلمات ٨٦٣
مشكل الإعراب ٨٦٤
المعنى الإجمالي ٨٦٥
تفسير الآيات ٨٦٦
الفوائد التربويَّة ٨٧٤
الفوائد العلمية واللَّطائف ٨٧٦
بلاغة الآيات ٨٨٠
الآيات (٢٨٢- ٢٨٣) ٨٨٣
غريب الكلمات ٨٨٣
مشكل الإعراب ٨٨٥
المعنى الإجمالي ٨٨٦

تفسير الآيات ٨٨٧
الفوائِد التربويَّة ٨٩٢
الفوائد العلمية واللَّطائف ٨٩٣
بلاغة الآيات ٨٩٩
الآيات (٢٨٤-٢٨٦) ٩٠٧
غريب الكلمات ٩٠٧
المعنى الإجمالي ٩٠٨
تفسير الآيات ٩٠٨
فضْل خواتيم سورة البقرة ٩١١
الفوائِد التربويَّة ٩١٨
الفوائد العلمية واللَّطائف ٩١٩
بلاغة الآيات ٩٢٣

تم الصف والإخراج في
مؤسسة الدرر السنية
nashr@dorar.net
هاتف: ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
فاكس: ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨
جوال: ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

9 786038 154236

التفسير المحرر

للقرآن الكريم

سورة آل عمران

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر / طنطا

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الثاني

الدرر السنية
www.dorar.net

التفسير المحرر
للقرآن الكريم

٢

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر . ١٤٣٧هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
مؤسسة الدرر السنية للنشير – القسم العلمي
التفسير المحرر للقرآن الكريم (المجلد الثاني)/ مؤسسة الدرر السنية للنشر – القسم العلمي – الظهران، ١٤٣٧هـ
٧٦٨ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم
ردمك: ١-٢٨-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن – تفسير　　　أ- العنوان
ديوي ٢٢٧,٣　　　١٤٣٦/٨٣١٤

رقم الإيداع: ١٤٣٦/٨٣١٤
ردمك: ١-٢٨-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

جَمِيعُ الحُقُوقِ مَحْفُوظَةٌ

الطَّبْعَةُ الأُولَى
١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

مؤسسة الدرر السنية – المملكة العربية السعودية
ص. ب ٣٩٣٦٤ الظهران ٣١٩٤٢ – جوال: ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠
ت: ٠١٣٨٦٨٠١٢٣، /فاكس: ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨، – بريد إلكتروني nashr@dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسِيرُ
سُورَةِ آلِ عِمْرانَ

سُورَةُ آل عِمْرانَ

أسماءُ السُّورة:

١- سُمِّيتْ هذه السُّورةُ بسورة: آل عِمْرانَ[١]!

فعن النَّوَّاسِ بن سَمْعانَ رضِي اللهُ عنه، قال: سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقول: ((يُؤتَى بالقُرْآنِ يومَ القيامةِ وأهلِه الَّذين كانوا يَعمَلون به، تَقدُمُه سورةُ البقرة وآلِ عِمْرانَ))[٢].

٢- سُمِّيتْ هي والبقرةُ بالزَّهْرَاوَيْنِ[٣]!

فعن أبي أُمامةَ الباهليِّ رضِي اللهُ عنه، قال: سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقول: ((اقرَؤوا الزَّهْرَاوَيْنِ[٤]: البقرةَ وسورةَ آلِ عِمْرانَ...))[٥].

فضائلُ السُّورةِ وخَصائصُها:

١- سورةُ آل عِمْرانَ تُحاجُّ عن صاحبها يومَ القِيامة مع البقرةِ:

- فعن أبي أُمامةَ الباهليِّ رضِي اللهُ عنه، قال: سمعتُ رسول اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقول: ((اقْرَؤوا القُرْآنَ؛ فإنَّه يأتي يومَ القيامةِ شفيعًا لأصحابه،

---

(١) قال ابن عاشور: (ووجهُ تسميتها بسورة آل عمران أنَّها ذُكِرت فيها فضائلُ آل عمران) ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٤٣).

(٢) رواه مسلم (٨٠٥).

(٣) سُمِّيت سورة البقرة وآل عمران بالزهراوين؛ لأنَّهما النيِّرتان؛ وذلك إمَّا لهدايتهما قارئَهما بما يزهر له من أنوارهما، أي: من معانيهما. وإمَّا لِمَا يترتَّب على قراءتهما من النور التامِّ يوم القيامة، وقيل غير ذلك. يُنظر ((تفسير الخازن)) (١/ ٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٣).

(٤) الزَّهراوان: أي: المُنيرتان المُضيئتانِ، مُثنَّى زَهْراء، وهي البيضاءُ المُشرِقةُ الوَجهِ، المُستنيرةُ المُشربَةُ بحُمرةٍ. ((الصحاح)) للجوهري (٢/ ٦٧٤)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٣٢١)، ((تاج العروس)) للزبيدي (١١/ ٤٧٩- ٤٨٠).

(٥) رواه مسلم (٨٠٤).

اقرَؤوا الزَّهرَاوَينِ: البقرةَ وسورةَ آلِ عِمْرانَ؛ فإنَّهما تأتِيانِ يومَ القيامةِ كأنَّهما غَمَامتانِ[١]، أو كأنَّهما غَيَايَتانِ[٢] أو كأنَّهما فِرْقانِ[٣] من طيرٍ صوافَّ[٤] تُحاجَّانِ[٥] عن أصحابِهما...))[٦].

- عن النَّوَّاس بن سَمْعانَ رضِي اللهُ عنه، قال: سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقول: ((يُؤتَى بالقُرْآنِ يومَ القيامةِ وأهلِه الَّذين كانوا يعمَلون به، تقدُمُه سورةُ البقرةِ وآلُ عِمْرانَ، وضرب لهما رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ثلاثةَ أمثالٍ، ما نسيتُهنَّ بعدُ، قال: كأنَّهما غَمامَتانِ أو ظُلَّتانِ[٧] سَوْداوانِ، بينهما شَرْقٌ[٨]، أو كأنَّهما حِزْقانِ[٩] من طيرٍ صوافَّ، تُحاجَّانِ عن صاحبِهما))[١٠].

٢- تعظيمُ الصَّحابةِ رضِي اللهُ عنهم لقارِئ البقرةِ وآلِ عِمْرانَ:

فعن أنسٍ رضِي اللهُ عنه، قال: ((كان الرَّجُلُ إذا قرأ البقرةَ وآلَ عِمْرانَ، جَدَّ

(١) الغَمامة: السَّحابة. ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٣٨٩).

(٢) الغَيَايَة: كلُّ شيءٍ أظلَّ الإنسان فوقَ رأسه كالسَّحابة وغيرها. ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٤٠٣).

(٣) فِرقان: أي: قِطعتان، والفِرق: القِطعة من الشيء. ((كشف المشكل)) لابن الجوزي (٤/ ١٥٠)، ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٤٤٠).

(٤) صَواف: أي مُصطفَّة متضامَّة؛ لتظلِّل قارئها. ((كشف المشكل)) لابن الجوزي (٤/ ١٥٠).

(٥) تُحاجَّان: أي: السُّورتان تُجادلانِ عن صاحبِهما، فتدْفَعانِ عنهُ ما يَسُوؤُه، والمحاجَّة: المجادلةُ وإظهارُ الحُجَّة. يُنظر: ((شرح المشكاة)) للطيبي (٥/ ١٦٤١)، ((فيض القدير)) للمناوي (٢/ ٦٤)، ((تحفة الأحوذي)) للمباركفوري (٨/ ١٥٥).

(٦) تقدم تخريجه.

(٧) ظُلَّتان: أي: سَحابتان. ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٤/ ١٤٦١).

(٨) بينهما شَرْق: أي ضياء ونور. ((شرح النووي على مسلم)) (٦/ ٩١).

(٩) حِزْقان: أي: جَماعتانِ أو فِرقتانِ، مُثنَّى حِزْق، والحِزْق والحَزيقة: الجَماعةُ مِن كلِّ شَيءٍ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٤/ ١٤٥٩)، ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٣٧٨).

(١٠) تقدم تخريجه.

فينا- يعني: عظُمَ- وفي رواية: يُعَدُّ فينا عَظيمًا، وفي أخرى: عُدَّ فينا ذا شأنٍ))[1].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدنيِّ:

سورةُ آل عِمْرانَ سورةٌ مدنيَّةٌ، نزلَتْ بعد الهجرةِ، ونقَل الإجماعَ على ذلك عددٌ من المفسِّرين[2].

مقاصد السُّورة:

مِن أهمِّ المقاصد الَّتي تضمَّنَتْها سورةُ آل عِمْرانَ:

١- إثباتُ وَحْدانيَّةِ الله، وإقامة الأدلَّة والحُجَجِ عليها.

٢- بيانُ أهميَّةِ عقيدةِ الولاءِ والبَراء، والتَّحذيرُ من ولايةِ غيرِ المؤمنين، وتفصيلُ أحوالِ أهلِ الكتاب.

٣- الاهتمامُ بجوانب التَّربيةِ والإرشادِ والتَّوجيهِ للمؤمنين.

موضوعاتُ السُّورة:

مِن أبرزِ الموضوعاتِ الَّتي تناولَتْها سورةُ آلِ عِمْرانَ:

١- بيانُ وَحْدانيَّةِ اللهِ تبارَك وتعالَى المُطلَقةِ، وتقريرُ أنواعِ التَّوحيدِ الثَّلاثةِ:

---

(١) رواه أحمد (٣/ ١٢٠) (١٢٢٣٦)، وابن حبان (٣/ ١٩) (٧٤٤).
صحح إسناده ابن تيمية في ((الصارم المسلول)) (٢/ ٢٤١)، وقال ابن كثير في ((البداية والنهاية)) (٦/ ١٧٩): على شرط الشيخين. وأصله في الصحيحين كما قال ابن حجر في ((الكاف الشاف)) (١٣).

(٢) نقَل الإجماعَ على ذلك: القرطبيُّ، وابنُ تيمية، وابنُ كثير، ومجدُ الدِّين الفيروزابادي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((البداية والنهاية)) (٣/ ١٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١)، ((منهاج السنة النبوية)) (٦/ ٤٢٢)، ((البداية والنهاية)) (٣/ ١٠٤)، ((بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)) (١/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٤٦).
وقد نزَل صدْرُ سورة آل عِمْرانَ إلى ثلاثٍ وثمانينَ آيةً في وَفْدِ نَجْرانَ؛ ولهذا كان عامَّة السُّورة في شأن المسيح عليه السلام، وكان قُدومُهم سنةَ تِسعٍ من الهجرةِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥).

الألوهيَّةِ، والرُّبوبيَّةِ، والأسماءِ والصِّفاتِ.

٢- تقريرُ وَحْدةِ الجِهةِ الَّتي تنزَّلَتْ منها جميعُ الكُتُبِ والدِّياناتِ السَّماويَّةِ.

٣- بيانُ أقسامِ النَّاسِ مع مُحكَمِ القُرْآنِ ومُتشابِهِه.

٤- تحذيرُ أهلِ الكفرِ المناوئين للهِ ورسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فالسُّلطانُ والقوَّةُ والجاهُ والولَدُ لن يُغنيَ عنهم شيئًا من عذاب اللهِ وسَطوتِه، وبيان أنَّ نهايتَهم هي الخسرانُ المُبينُ في الدُّنيا والآخرةِ، وضرب لهم الأمثالَ بآلِ فرعونَ ومَن قبلَهم، وكيف كانت نهايتُهم.

٥- الإشارةُ إلى غزوةِ بَدْرٍ الكبرى، وذكرُ تفاصيلِ ما جرى في غزوةِ أُحُدٍ من أحداثٍ.

٦- الإشارةُ إلى أحبِّ الشَّهواتِ النَّفسيَّةِ للإنسانِ، وبيان أنَّ هناك ما هو خيرٌ منها، وهو ما أعَدَّه اللهُ للمتَّقين مِن نعيمٍ مقيمٍ في جنَّاتِ الخُلدِ.

٧- بيانُ أهميَّةِ دِينِ الإسلامِ، وأنَّه دينُ الله الَّذي لا يَقبَلُ غيرَه.

٨- تفصيلُ أحوالِ أهل الكتاب، وفَضْحُ ضلالاتِهم، وما وقَعوا فيه من اختلافٍ في أمرِ دِينهم، وما ارتكَبوه من جرائمَ وموبقاتٍ بتكذيبِهم بآياتِ اللهِ، وقتلِهم أنبياءَه والدُّعاةَ إليه، وامتناعِهم عن التَّحاكُمِ إلى كتابِه، وقِصَّتُهم مع عيسى عليه السَّلام، وكُفْرُهم به، ودعوةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى مُباهَلةِ كلِّ مَن جادَله منهم في شأنِ عيسى عليه السَّلام، وأمرُ اللهِ لرسولِه أنْ يدعوَهم إلى كلمةٍ سواءٍ، وهي كلمةُ التَّوحيد، ومجادلتُهم في إبراهيمَ عليه السَّلام، وبيانُ الحقِّ لهم في شأنِه، وذِكْرُ مجموعةٍ من صفاتهم الَّتي اتَّصفوا بها؛ كإرادتهم إضلالَ المسلمين، وكُفرِهم بآياتِ الله، ولَبْسِهم الحقَّ بالباطل، ولَيِّهم ألسنتَهم بالكتاب بما ليس منه إيهامًا للمؤمنين، وأمرُ اللهِ لنبيِّه بمجادلتِهم، وبيانُ الحقِّ

لهم في أكثرَ مِن موضعٍ من مواضعِ السُّورةِ، وتحذيرُ اللهِ لأوليائه المؤمنين من اتِّباعِهم وطاعتِهم، وإخبارُ اللهِ تبارَك وتعالَى أنَّ أهلَ الكتابِ ليسوا سواءً، وثناؤُه على طائفةٍ منهم، وهم الَّذين يتلُون آياتِ اللهِ آناءَ اللَّيل، ويُؤمنون باليومِ الآخِرِ، ويَأمُرون بالمعروفِ، ويَنهَوْن عن المنكَرِ، وغير ذلك ممَّا يتعلَّقُ بأهلِ الكتابِ.

٩- التنبيهُ على عقيدةِ الولاء والبَرَاءِ، والتَّأكيدُ عليها، والتَّحذيرُ مِن ولاية غيرِ المؤمنين، واتِّخاذِهم بِطانةً من دونِ المؤمنين.

١٠- بيانُ أنَّ محبةَ الله لها دلائلُ وعلاماتٌ وثمارٌ؛ فمِن دلائلِها: اتباعُ رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ومِن ثمارِها: محبَّتُه لِمَن أطاع رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ.

١١- ذِكرُ الأنبياء، وبيانُ علوِّ مراتبِهم، واصطفاءِ الله لهم، وبيان قصَّةِ مريمَ وابنِها عيسى عليهما السَّلام، وقصَّة زكريَّا وابنِه يحيى عليهما السَّلام.

١٢- ذِكرُ مجموعةٍ من الآدابِ التَّربويَّةِ للجماعةِ المسلِمةِ؛ كالوصيَّةِ بالتَّقوى، والاعتصامِ بحبلِ اللهِ، ونَبْذِ الفُرقةِ والاختلافِ، وأمرهم بالدَّعوةِ إلى الخيرِ، وامتنان الله عليهم بأنْ جعَلَهم خيرَ أمَّةٍ أُخرِجت للنَّاسِ، وحثهم على الإنفاقِ، وغيرها من الآدابِ العظيمةِ المنثورة في ثنايا السُّورةِ.

١٣- ذِكرُ بعض الأحكام الشَّرعيَّة؛ كالنَّهيِ عن أكلِ الرِّبا، والنَّهيِ عن الغُلولِ، وعقوبة مانع الزَّكاةِ.

الآيات (١ - ٤)

﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿الْقَيُّومُ﴾: القائمُ بنَفْسِه الذي لا يَزول، والحافِظُ لكلِّ الأشياءِ، والعالِم بها، المقيمُ غيرَه، والمعطي له ما به قِوامُه؛ فهو القائمُ على أمْر خَلْقه بآجالِهم وأرزاقِهم وأعمالِهم، يَكْلَؤُهم ويَرزُقُهم ويَحفَظُهم، و(قيوم) على وزن (فَيْعُول)، مِن قُمْتُ بالشَّيء: إذا وَلِيته[1].

﴿الْفُرْقَانَ﴾: الذي يَفرُق بَين الحقِّ والباطِل. وأصله من الفَرْق- وهو الانفصالُ والتَّمييزُ بين شَيئينِ- ومنه قيل للحُجَّة والقُرآنِ وغيرِه مِن الكتُب: فُرقانٌ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٢٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٣- ٤٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٢-٦٣٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص:٤٢، ٢٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٥).

قال ابن تيميَّة: (لفظ «الفرقان» يتناولُ ما يفرِّق بين الحقِّ والباطل، مثل الآيات التي بعث بها الأنبياء: كالحيَّة، واليد البيضاء، وانفلاق البحر. والقرآن فرقانٌ بين [كذا، ولعلَّ الصواب: فُرقانٌ مِن] هذا الوجهِ: من جِهة أنَّه آيةٌ عظيمة لنبوَّة محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ وعلم عظيم. وهو أيضًا فرقان باعتبار أنَّه فرق ببيانه بين الحقِّ والباطل كما قال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١]؛ ولهذا فسَّر جماعة الفرقان هنا به. ولفظ «الفرقان» أيضًا يتناول نصر الله لأنبيائه وعباده المؤمنين، وإهلاك أعدائهم؛ فإنَّه فرق به بين أوليائه وأعدائه، وهو أيضًا من الأعلام؛ قال تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: ٤١]) ((مجموع الفتاوى)) (٢٧/ ٢٧٧).

المَعنى الإجماليُّ:

افتَتَحَ اللهُ هذه السُّورةَ الكريمةَ بالحروف المقطَّعة؛ لبيانِ إعجاز القرآنِ؛ إذ يَعجِزُ الخَلْقُ عن معارضتِه بالإتيان بشيءٍ من مثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ من هذه الحروفِ العربيَّة التي يتحدَّثون بها! ثمَّ ثنَّى سبحانه بالإخبارِ بأُلوهيَّتِه، وأنَّه الإلهُ الَّذي لا معبودَ بحقٍّ إلَّا هو، الَّذي من صِفاته: أنَّه الحيُّ الَّذي له الحياةُ الكاملةُ المستلزِمةُ لجميع الصِّفات، والقيُّوم الَّذي قام بنفسِه؛ فاسْتغنَى عن جميعِ مَخلوقاتِه، وقام على غيرِه فافتقَرَت إليه جميعُ مخلوقاته، ومِن قيامه بعبادِه ورحمته بهم: أنَّه نزَّل على نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ القُرْآنَ مشتملًا على الحقِّ، ومُصدِّقًا للكتبِ السَّابقة، وأنزل التَّوراةَ على موسى، والإنجيلَ على عيسى، من قبلِ إنزال القُرْآنِ، أنزل هذه الكتبَ جميعًا من أجلِ هدايةِ النَّاس، وأنزَل فيها ما يُفرِّقُ بين الحقِّ والباطل، والهُدى والضَّلال؛ فلهذا توعَّد الَّذين كفَروا بآياته بالعذاب الشَّديد يوم القيامة؛ فهو سبحانه لا يُغالَب، ولا يُعجِزه شيءٌ، وهو ذو انتقام ممَّن عصاه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿الم (١)﴾.

هذه الحروفُ المقطَّعة التي افتُتِحَت بها هذه السُّورةُ وغيرُها، تأتي لبيانِ إعجازِ القرآنِ؛ حيث تُظهرُ عَجْزَ الخَلْقِ عن مُعارضتِه بمثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ من هذه الحروفِ العربيَّة التي يَتحدَّثون بها[١]!

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢)﴾.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾

أي: لا أحدَ معبودٌ بحقٍّ سِوى الله تعالى؛ فهو وحْدَه المستحِقُّ للعبادة حبًّا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عُثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٤).

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا قرَّر اللهُ سبحانه ما يتعلَّقُ بمعرفةِ الإله، وما يَتعلَّقُ بتقريرِ النُّبوَّةِ، أَتْبَعَ ذلك بالوعيدِ؛ زجرًا للمُعرِضين عن هذه الدَّلائلِ الباهِرة عليهما[1]، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

أي: إنَّ الذين كَفروا بأعلامِ الله، وأدلَّته على توحيدِه، فأنكَروها، وردُّوها بالباطلِ، لهم عذابٌ شديدٌ يوم القيامةِ[2].

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾.

أي: عزيزٌ في سُلطانِه، لا يَمنَعُه مانعٌ ممَّن أراد عذابَه منهم، ولا يحُولُ بينه وبينه حائلٌ، ولا يَستطيعُ أنْ يُعاندَه فيه أحدٌ، وأنَّه ذو انتقامٍ ممَّن جحَد حُجَجَه وأدلَّتَه، وخالَف رُسلَه[3].

الفَوائدُ التَّربويَّة:

يُؤخَذُ من قولِه تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ أنَّه كلَّما اهتدى الإنسانُ للفروقِ، كان أعظمَ اهتداءً بالكتُبِ المنزَّلةِ من الله؛ لأنَّ الكتُبَ كلَّها فُرقانٌ، فمَن يُفرِّقُ

= قلنا: هذا القول أَوْلى بالصَّواب؛ لأنَّ إخبارَ الله عن تنزيله القرآنَ- قبل إخباره عن تنزيله التوراة والإنجيل في هذه الآية- قد مضى بقوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [آل عمران: ٣]، ولا شكَّ أنَّ ذلك «الكتاب»، هو القرآنُ لا غيره، فلا وجهَ لتكريرِه مرَّةً أخرى؛ إذ لا فائدةَ في تكريره ليستْ في ذِكره إيَّاه وخبرِه عنه ابتداءً)) ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٨٣)، ويُنظر: ((تفسير الراغب)) (٢/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١١).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦).

(٣) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

مثلًا بين الشِّركِ الأصغرِ والأكبر، وبَين النِّفاقِ الاعتقاديِّ والعمليِّ، وبين الحلالِ والحرام- كان أشدَّ اهتداءً بالكتبِ ممَّن لا يُفرِّقُ[١].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- لَمَّا كان سببُ نزولِ صدْرِ هذه السُّورةِ هو قضيةَ مجادلةِ نصارى نَجْرانَ حينَ وفَدوا إلى المدينةِ، وبيانَ فضلِ الإسلامِ على النَّصرانيَّةِ- ناسَب أنْ تُفتتَحَ السُّورةُ بحروفِ التَّهجِّي، المرموزِ بها إلى تحدِّي المكذِّبين بهذا الكتابِ[٢].

٢- قولُ الله تبارَكَ وتعالَى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فيه ردٌّ على النَّصارى في قولِهم بأُلوهيَّةِ عيسى عليه السَّلامِ؛ فجاء البيانُ هنا أنَّ أحَدًا لا يستحقُّ العبادةَ سوى الله عزَّ وجلَّ[٣].

٣- الجمعُ بين الاسمينِ الكريمينِ ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ فيه استغراقٌ لجميعِ ما يوصَفُ اللهُ به بجميعِ الكمالات؛ ففي ﴿الْحَيُّ﴾ كمالُ الصِّفاتِ، وفي ﴿الْقَيُّومُ﴾ كمالُ الأفعالِ، وفيهما جميعًا كمالُ الذَّاتِ؛ فهو كاملُ الصِّفاتِ والأفعالِ والذَّاتِ[٤].

٤- القرآن نزلَ نُجومًا: شيئًا بعدَ شيءٍ؛ فلذلك قال: ﴿نَزَّلَ﴾ والتنزيلُ مَرَّةً بعدَ مرَّة، والتوراة والإنجيل نَزلَا دفعةً واحدة؛ فلذلك قال: ﴿أَنْزَلَ﴾[٥].

٥- في قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ إنْ قيل: كيف يكونُ القرآنُ مُصدِّقًا لِمَا بَينَ يَديهِ وهو ناسخٌ لعامَّة أحكامِه؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٤٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٣٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٥).

قيل: تَصديقُه إيَّاه تحقيقُه أنَّه مِن جِهة الله، ومطابقتُه إيَّاه في كونِه داعيًا إلى التَّوحيدِ وفِعلِ الخيرِ ونحوِ ذلك، وإلى أنواعِ العباداتِ دون قَدْرِها وهَيكلِها، وكيف إيقاعُها[١].

٦- في قولِه تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ جمَع التَّوارةَ والإنجيلَ في إنزالٍ واحِدٍ، واستجدَّ للقرآنِ إنزالًا؛ تَنبيهًا على علوِّ رُتبتِه عنهما[٢]، وهذا على القول بأنَّ معنى الفرقان: القرآن.

٧- ذَكَر في قوله: ﴿مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ﴾ هذا القيدَ ﴿مِنْ قَبْلُ﴾؛ لكي لا يتوهَّم أنَّ هُدَى التوراةِ والإنجيل مُستمرٌّ بعد نزول القرآن، وفيه إشارةٌ إلى أنَّها كالمقدِّماتِ لنزولِ القرآن، الذي هو تمامُ مرادِ الله مِن البَشر؛ ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلَامُ﴾[٣] [آل عمران: ١٩].

٨- إثباتُ الحِكمةِ للهِ تعالى في أحكامِه الشَّرعيَّة، كما تَثبتُ في أحكامِه الكونيَّةِ؛ لقولِه: ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾[٤].

٩- في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ بيانُ أنَّ جميعَ كتبِ الله تبارَك وتعالَى فُرقانٌ؛ لِما تضمَّنَتْه من تفريقٍ بين الحقِّ والباطل، والصِّدقِ والكذِبِ، والمؤمنِ والكافر، والضَّارِّ والنَّافع[٥].

١٠- في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ أنَّ الكتبَ السَّماويةَ لا تَجمعُ بين مُختلفينِ، ولا تُفرِّقُ بَين متماثلينِ أبدًا؛ فهي فُرقانٌ، والفُرقانُ هو الَّذي يُفرِّقُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الراغب)) (٢/ ٤٠٩).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢١٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٤٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٩).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢١).

بين شَيئين مختلفينِ، أمَّا شيئانِ لا يَختلفانِ فلا تَفريقَ بينهما، ويَتفرَّعُ على هذه الفائدةِ: إثباتُ القياسِ؛ لأنَّه جمْعٌ بين متماثلينِ، وعَدمُ الأخْذِ بالقياسِ تفريقٌ بين مُتماثلينِ(١).

١١- الدِّينُ الحَقُّ دينُ الإسلامِ؛ عبادةُ اللهِ وحْدَه لا شريكَ له، وتصديقُ رُسُلِه، كما يدلُّ عليه قولُنا: أشهدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه، وقد جَمَع اللهُ تعالى بين هذينِ الأصلينِ في غيرِ مَوضِعٍ؛ منها قولُه: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾. ثمَّ قال: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ فذَكَرَ التوحيدَ أوَّلًا، ثمَّ ذَكَرَ النُّبُوَّاتِ المتضمِّنَةِ إنزالَ الكتابِ(٢).

١٢- في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾، قال سبحانه: ﴿ذُو انْتِقَامٍ﴾ ولم يقُلْ: (ذو الانتقام)؛ لأنَّ الانتقامَ ليس من أوصافِ اللهِ المطلَقةِ، وليس من أسمائِه، وإنَّما يُوصَفُ اللهُ به مقيَّدًا؛ فيُقال: المنتقِمُ من المجرِمين؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢]، فقوله ﴿ذُو انْتِقَامٍ﴾ لا يُعطي معنى الانتقامِ المطلَقِ؛ لأنَّ (انتقام) نكِرة، فلا تُعطي المعنى على إطلاقِه، بل له انتقامٌ مقيَّدٌ بالمجرِمينَ ونحوِهم(٣).

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- **قوله تعالى: ﴿الم﴾** فيه مِن ضُروبِ الفصاحةِ: حُسنُ الإبهامِ في الافتتاح بـ(الم)؛ ليُنبِّهَ الفِكرَ إلى النَّظرِ فيما بعدَه من الكلامِ(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢١).
(٢) يُنظر: ((الإخنائيَّة)) لابن تيمية (ص: ٢١٢)
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٨).

٢- في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾:

- جِيءَ بالاسمِ العَلَم الجَليل (الله)؛ لتربيةِ المهابة عند سماعِه، ثمَّ أُرْدِفَ بجُملة ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، وهي جملةٌ معترِضةٌ أو حاليَّة؛ ردًّا على المشركين، وعلى النَّصارى خاصَّة(١).

- وأُتبِعَ بالوَصفينِ (الحي القيُّوم)؛ لنفي اللَّبْس عن مُسمَّى هذا الاسم، والإيماءِ إلى وجه انفرادِه بالإلهيَّة، وأنَّ غيرَه لا يَستأهلُها؛ لأنَّه غيرُ حيٍّ، أو غير قيُّوم(٢).

٣- قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾:

- قوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ خَبرٌ عن اسمِ الجلالةِ ﴿اللَّهُ﴾ في قوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، وهذا الخَبرُ مُستعمَلٌ هنا في الامتنانِ، أو هو تَعريضٌ ونِكايةٌ بأهل الكتابِ الذين أَنكروا ذلك، وجِيءَ بهذا الخبَر فِعلًا؛ لإفادةِ تقويةِ الخبرِ، أو للدَّلالةِ- مع ذلك- على الاختِصاصِ، أي: اللهُ لا غيرُه نَزَّل عليكَ الكِتابَ؛ إبطالًا لقولِ المشركين: إنَّ القُرْآنَ من كلامِ الشَّيطان، أو مِن طَرائقِ الكَهانة، أو يُعلِّمه بَشرٌ(٣).

- وقوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ فيه تقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيْكَ﴾؛ للحصرِ والاختِصاص؛ وكأنَّ مُوجِبَ ذلك ادِّعاءُ بعضِهم أنَّه يُوحَى إليه، وأنَّه يَقدِر على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٤٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الإتيانِ بمِثل هذا الوحي[١]، وللاعتناءِ بالمقدَّم والتشويق إلى المؤخَّر[٢].

- وعبَّر في قولِه تعالى: ﴿الْكِتَابَ﴾ عن (القُرْآنَ) باسمِ الجِنس؛ إيذانًا بكمالِ تَفوُّقه على بقيَّة الأفرادِ في حِيازةِ كمالاتِ الجِنس، كأنَّه هو الحقيقُ بأنْ يُطلَقَ عليه اسمُ الكتاب، دون ما عَداه كما يُلوِّحُ به التصريحُ باسْمي التَّوراةِ والإنجيل[٣].

- وذَكَر الـمُنزَّلَ على نَبيِّنا محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم بقوله: ﴿عَلَيْكَ﴾، ولم يأتِ في قوله: ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ بذِكرِ المنزَّلِ عليه التَّوراةُ، ولا المنزلِ عليه الإنجيل (مُوسى وعِيسى عليهما السَّلامُ)؛ تَخصيصًا له وتَشريفًا بالذِّكر لنبيِّه محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٤]، أو أنَّه لم يذكُرِ مُوسى وعِيسى عليهما السَّلامُ؛ لأنَّ الكَلامَ في الكِتابَينِ، لا فيمَن أنزِلَا عليه[٥].

- وأتى بلفظة: (عَلَى)؛ لِمَا فيها من الاستعلاء[٦].

- وجاء بكاف الخِطاب في ﴿عَلَيْكَ﴾؛ لِمَا في الخطاب من المؤانسة[٧].

- ﴿مُصَدِّقًا﴾ حالٌ مؤكِّدة، وفائدةُ تَقييدِ التَّنزيل بها: حثُّ أهلِ الكتابَينِ على الإيمان بالمُنزَّل، وتَنبيهُهم على وجوبِه؛ فإنَّ الإيمانَ بالمصدِّق مُوجِبٌ للإيمانِ بما يُصدِّقه حتمًا[٨].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٠٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٤)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٥٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٤)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٥٤).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٤).
(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٨) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٤).

- قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ﴾:

- ﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ﴾: فيه تَعيينٌ لِمَا بين يديه، وتَبيينٌ لِرفعةِ محلِّه، تأكيدًا لِمَا قبله، وتمهيدًا لِمَا بعده؛ إذ بذلك يترقَّى شأنُ ما يُصدِّقه رِفعةً ونباهةً، ويزداد في القلوب قَبولًا ومهابةً، ويتفاحَش حالُ مَن كفرَ بهما في الشَّناعة، واستتباعِ ما سيُذكَرُ من العذاب الشَّديد والانتقام(١).

- قوله تعالى: ﴿الإنجيلَ﴾: وُضِع على صِيغة (إفعيل)؛ لمزيدِ معنًى ما وُضعتْ له هذه الصِّيغة، وزيادتها مبالغةً في المعنى(٢)، هذا على القولِ بأنَّها عربيَّة، وفي ذلك خلافٌ.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ...﴾

فيه: التَّصريحُ بـ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ مع ظهورِ الأمر؛ للمبالغةِ في البيان(٣).

- وتقديم ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ على ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾؛ للاهتمام به(٤).

- وخصَّ الهدى بالتَّوراة والإنجيل في قوله: ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى للنَّاسِ﴾، وإنْ كان القُرْآن هدًى؛ لأنَّ المناظرةَ كانتْ مع النَّصارى، وهم لا يَهتدون بالقُرْآن، بل وُصِف بأنَّه حقٌّ في نفْسه، قَبِلوه أو لم يَقْبَلوه، وأمَّا التَّوراةُ والإنجيلُ فهم يَعتقدون صِحَّتهما؛ فلذلك اختصَّا في الذِّكر بالهُدَى(٥).

- وقوله تعالى: ﴿هُدًى للنَّاسِ﴾: فيه إقامةُ المصدرِ ﴿هُدًى﴾ مقامَ اسمِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٤)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٥٤).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٠٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٤٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٧).

الفاعل (هاديًا)؛ إمَّا على حذْفِ المضاف، أي: ذَوي هدى، أو عَلى المبالغةِ بأنْ جُعِلَ ما ذُكِر من كتُب هي نفْسَ الهُدى؛ لِمَا فيها من الإرشاد(١).

- وفيه مناسبةٌ حسنةٌ، حيث قال هنا عن التَّوراة والإنجيلِ: ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾، وقال عن القُرْآن: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾؛ لأنَّ قوله: ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾ خبرٌ مُجرَّد، بَينَما قوله: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ خبرٌ مقترِنٌ به الاستدعاءُ والصَّرفُ إلى الإيمانِ؛ وذلك لأنَّ الأوَّل ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾ هو الهُدَى الَّذي هو الدُّعاء، أو الهدى الَّذي هو في نَفْسِه مُعدٌّ أنْ يَهتديَ به النَّاس، والثاني ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ هو الهُدَى الَّذي هو إيجادُ الهدايةِ في القلْبِ؛ فحَسُن مع القُرآنِ وصْفُ الهُدَى بأنَّه للمتَّقين؛ ليَقعَ من السَّامعِ النَّشاطُ والبدارُ(٢).

- قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾، وقوله: ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ﴾، وقوله: ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾: فيه تكرار لِفعل الإنزال (نزَّل- وأَنْزَل- وأَنْزَل)؛ لاختلافِ الإنزال، وكيفيَّته، وزمانه بآيات الله(٣).

- فيه: تَرتيبٌ بديعٌ في التَّقديم والتأخير، حيث لم يَجِئِ الإخبارُ عن ذلك على حسَب الزَّمان؛ إذ التَّوراة أولًا، ثمَّ الزَّبور، ثمَّ الإنجيل، ثمَّ القُرْآن؛ فقدَّم القُرْآن ﴿الكِتَاب﴾ الذي هو القرآن؛ لشَرفِه، وعِظَم ثَوابِه، ونَسْخِه لِمَا تقدَّم من الكتُب، وبقائِه، واستمرار حُكمه إلى آخِر الزَّمان، وثنَّى بالتَّوراة؛ لِمَا فيها من الأحكامِ الكثيرة، والقَصص، وخفايا الاستنباط، ثمَّ ثلَّث بالإنجيلِ؛ لأنَّه كتابٌ فيه من المواعِظ والحِكم ما لا يُحصَى، ثمَّ تلاه بالزَّبور- عند القائِلِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٣٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٨-٤٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٠٦).

بأنَّ الفرقان هو الزَّبور-؛ لأنَّ فيه مواعظَ وحِكمًا لم تبلغ مبلغَ الإنجيل[١].

- وعندَ القائلِ بأنَّ ﴿الفُرْقَانَ﴾ هو القُرْآن؛ فيكون ذِكْر ﴿الفُرْقان﴾ فيه تَكرارٌ لذكر القُرْآن بما هو نعتٌ له ومدحٌ، من كونه فارقًا بين الحقِّ والباطل بعدَما ذَكَره باسمِ الجِنس ﴿الكِتَابَ﴾؛ تعظيمًا لشأنِه، وإظهارًا لفضله[٢].

- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فيه إظهارُ ما كان مِن حقِّه الإضمار ﴿الَّذِينَ﴾، وفائدته: إرادةُ تعليقِ الحُكمِ بالوَصف، وهو الكفرُ[٣].

- قوله تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾:

- فيه تَشبيهُ ما يَحصُل للنَّفس من ضِيق العذاب وألَمِه، بالمشدود المُوثَق المُضيَّق عليه[٤].

- وهو وعيدٌ جِيءَ به إثرَ تقريرِ أمْرِ التَّوحيدِ الذاتيِّ والوَصفيِّ، والإشارةِ إلى ما يَنطِقُ بذلك من الكتب الإلهيَّة، حملًا على القَبول والإذعان، وزَجْرًا عن الكفرِ والعِصيانِ[٥].

- وحسُن إطلاقُ العذابِ بَعدَ ذِكْر الفُرقان؛ ليشملَ الكونُ في الدُّنيا نُصرةً للمؤمنين، استجابةً لدُعائهم، وفي الآخرة تصديقًا لقولهم، وزيادةً في سُرورهم ونعيمهم، وتهديدًا لِمَن نَزَل كثير من هذه السُّورة بسببهم، وهم وفدُ نصارى نجران[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٣٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢٢-٢٣)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٥٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢١٦).

- قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾: الجملةُ اعتراضٌ تذييليٌّ، مقرِّرٌ للوعيد، ومؤكِّد له[١]؛ فهي خبرٌ فيه وعيد، جِيء به بعدَ تقرير التَّوحيد، والإشارةِ إلى ما هو العُمدة في إثبات النبوَّة؛ تعظيمًا للأمر، وزَجْرًا عن الإعراض عنه[٢].

- وتكرَّر اسمُه تعالى ﴿الله﴾ تفخيمًا؛ لأنَّ في ذِكرِ المُظهَرِ من التَّفخيمِ ما ليس في المُضمَر[٣].

- والوصف: بـ(ذو)، أبلغُ من الوصفِ بـ(صاحب)؛ ولذلك لم يَجِئْ في صِفات اللهِ (صاحِب)؛ لأنَّهم ذَكروا أنَّ (ذو) أبدًا لا تكونُ إلَّا مضافةً لاسمٍ؛ فمدلولُها أشرفُ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٥٤٦) (٣/ ٤٠).

الآيات (٥ - ٩)

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٨ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ۝٩ ﴾.

غريبُ الكَلماتِ:

﴿الْأَرْحَامِ﴾: جمْعُ رحِم، وهو بيتُ مَنبَت الولدِ، ووِعاؤه في البَطن، وأصلُه من الرِّقَّة والعَطْف والرَّأفة؛ سُمِّي به رحِمُ المرأة؛ لأنَّ منه يكونُ ما يُرحَم ويُرقُّ له من ولدٍ(١).

﴿مُحْكَمَاتٌ﴾: واضحاتٌ لا تَحتَمِلُ غيرَ وجهٍ واحدٍ منَ التَّأويل، بحيثُ يظهر المرادُ منها دون الاحتياجِ إلى غيرِها، وقيل غيرُ ذلك. والإحكامُ الإتقانُ، وسمِّيت (محكمات) مِن الإحكامِ، كأنَّه أحكَمها فمَنَع الخَلْق مِن التَّصرُّف فِيهَا؛ لظهورِها ووضوحِ معناهَا، وأصلُ (حكم) منع منعًا لإصلاح(٢).

﴿أُمُّ الْكِتَابِ﴾: أصلُ الكِتاب، ويُقال لأصلِ كلِّ شيء ومرجعِه: أمٌّ(٣).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٩٧- ٢٠١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥١). ويُنظر: ((تفسير السمعاني)) (١/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٨٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٩).

﴿مُتَشَابِهَاتٌ﴾: ما احْتَمَلَ منَ التَّأويلِ أَوْجُهًا، بحيث يُحتاج إلى غيرِها في فَهم المرادِ منها، وتُطلق على ما أَشكَل تَفسيرُه؛ لمشابهتِه بغيره، وقيل غيرُ ذلك[١].

﴿زَيْغٌ﴾: جَوْرٌ وميلٌ عن الحقِّ[٢].

﴿الفِتْنَةِ﴾: الشِّرْك والكُفر والشَّرُّ، والفِتنةُ في الأصل: الاختِبارُ والابتلاءُ والامتِحان، مأخوذةٌ من الفَتْن: وهو إدخالُ الذَّهبِ النَّارَ؛ لتظهَرَ جَودتُه من رداءتِه[٣].

﴿الرَّاسِخُونَ فِي العِلمِ﴾: الثَّابتون فيه، الذين أَتْقنوا عِلْمَهم ووَعَوْه، فحَفِظوه حفظًا لا يدخلُهم في معرفتهم وعِلمهم بما عَلِموه شكٌّ ولا لَبْسٌ، جمْع: راسخ، ورسوخُ الشَّيء في الشَّيء، هو ثبوتُه وولوجُه فيه، وأصلُ (رسخ) يدلُّ على الثباتِ[٤].

﴿يَذَّكَّرُ﴾: يَتذكَّرُ- قُلِبت التَّاء ذالًا، وأُدغِمَت في الذَّال الأخرى، فصارَتْ (يَذَّكَّرُ)- أي: يتَّعظ والذِّكْرُ: تارةً يُقال على استحضارِ الشَّيءِ، وتارةً على حُضورِه بالقلبِ أو بالقولِ، وتارةً على العَلاءِ والشَّرفِ[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٩٧ - ٢٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٦، ١٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢- ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩، ١٣٩-١٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٢٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٩).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٠).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾

﴿وَالرَّاسِخُونَ﴾: الواو استئنافيَّة، و﴿الرَّاسِخُونَ﴾ مرفوعٌ، مبتدأ، وخبرُه جملة: ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾؛ وهذا على قِراءة الوقفِ على اسمِ اللهِ تعالى. أو تكونُ الواوُ عاطفةً، و﴿الرَّاسِخُونَ﴾ مرفوعًا، عطفًا على (اللهِ) جَلَّ ذِكرُه، والتقدير: وما يَعلَمُ تفسيرَ المتشابهِ وبيانَه، ورَدَّه إلى المُحكَم، إلَّا اللهُ والرَّاسخونَ في العِلم؛ وهذا على قِراءة الوصلِ. وعلى هذا الوجهِ فجُملة ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ حالٌ، أي: يَعلمون تأويلَه حالَ كونِهم قائلين ذلك، أو تكون خبرَ مبتدأٍ محذوف، أي: هُم يقولون...(1).

المَعنَى الإجماليُّ:

تُرشد الآياتُ إلى كَمال عِلمِ الله تعالى؛ فهو سبحانه لا يغيبُ عن عِلمه شيءٌ في الأرض ولا في السَّموات؛ فهو الَّذي يجعلُكم صُوَرًا في أرحام أمَّهاتِكم على أيِّ كيفيَّةٍ شاء؛ لذا فهو المستحقُّ للإلهيَّةِ وحده لا شريكَ له، وهو العزيزُ في مُلكِه، لا يغلِبُه شيءٌ، ولا يمتنع منه شيءٌ، والحكيمُ في خَلْقِه وصُنعِه وتدبيره، هو الَّذي أنزَل عليك- يا محمَّدُ- القُرْآنَ، منه آياتٌ بيِّنات واضحاتُ الدَّلالة، لا التباسَ فيها، وهي أصلُ هذا الكتاب ومعظَمُه، ومن القُرْآن آياتٌ أُخَرُ يلتبس معناها، أو تشتبهُ دلالتُها على كثيرٍ من النَّاسِ أو بعضِهم، فأمَّا الَّذين في قلوبهم ميلٌ عن الحقِّ وضلالٌ، فيتعلَّقون بالمتشابهِ من الآيات، ويتركون المُحكَم؛ وذلك طلَبًا للَّبْسِ على المؤمنين وإضلالِهم، وطلبًا لتفسيره على ما يريدون؛ تحريفًا له وَفْقَ أهوائِهم، وما يعلَمُ تفسيرَ المتشابهِ إلَّا الله تعالى، والثَّابتون في

(1) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (1/ 149-150)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (1/ 239)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (3/ 29).

العِلمِ المتمكِّنون منه يعلَمون تفسيرها أيضًا، وإن لم يعلَموا حقائقَ الأمورِ وما تؤولُ إليه؛ لأنَّ اللهَ وحده هو الَّذي يعلَمُها، ويُعلِن الرَّاسخون في العلم إيمانَهم بالمتشابِهِ؛ فكلٌّ من المُحكَمِ والمتشابِهِ من عند الله تعالى، وما يتذكَّرُ ويتَّعظُ إلَّا أصحابُ العقول السَّليمة، ويَدعو الراسخون في العلمِ ربَّهم ألَّا يُميلَ قلوبهم عن الهُدى بعد الهداية، وأن يهَبَ لهم رحمةً عظيمة تَزيدُهم إيمانًا وثباتًا؛ فإنَّه واسعُ العطايا والهباتِ، كثيرُ الإحسان، ويقولون: يا ربَّنا، إنَّك تجمعُ النَّاسَ في يوم لا شكَّ فيه، وهو يوم القيامة، للفصلِ بينهم، ومجازاة كلِّ واحدٍ بعمَله، فاغفِرْ لنا يومئذٍ، واعفُ عنَّا، إنَّ اللهَ لا يُخلِفُ وعدَه.

تَفسيرُ الآيات:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٥)﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى لا يغيبُ عن عِلمِه شيءٌ في الأرض ولا في السَّموات؛ فهو سبحانه عالِمٌ بجميعِ الأشياء على التَّفصيلِ(١).

﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا قرَّر سبحانه إحاطةَ عِلمِه بالمعلومات كلِّها، جليِّها وخفِيِّها، ظاهِرها وباطِنِها، ذَكَر مِن جملةِ ذلك الأَجِنَّةَ في البطون، الَّتي لا يُدركُها بصرُ المخلوقين،

---

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤١٢)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٠٠)، ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦).

قال ابنُ عاشور: (وقوله: ﴿فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ قصَد منه عمومَ أمْكِنة الأشياء، فالمرادُ من الأرض الكُرة الأرضيَّة: بما فيها مِن بِحار، والمرادُ بالسَّماء جِنسُ السَّموات: وهي العوالمُ المتباعِدة عن الأرض)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٥١).

ولا يَنالُها عِلمُهم، وهو تعالى يدبِّرُها بألطفِ تدبير، ويقدِّرُها بكلِّ تقدير [(١)]، فقال:

﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾.

أي: هو الَّذي يَجعلُكم صُوَرًا في أرحام أمَّهاتِكم، على أيِّ كيفيَّةٍ شاء، فيجعَلُ هذا ذَكَرًا وهذا أُنثى، وهذا أسودَ وهذا أحمرَ، وهذا حَسَنًا وهذا قَبيحًا، وهذا طويلًا وهذا قصيرًا، إلى غير ذلك من الاختِلافاتِ [(٢)].

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحج: ٥].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤].

وشرَح النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ كيفيَّةَ التصويرِ في الحديثِ الذي رواه ابنُ مسعودٍ وغيرُه عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، أنَّه قال: ((إنَّ أحدَكُم يُجمَعُ خَلقُه في بَطنِ أمِّهِ أربعينَ يومًا، ثمَّ يَكونُ في ذلك عَلقةً مثلَ ذلِكَ، ثمَّ يَكونُ مُضغةً مثلَ ذلِكَ، ثمَّ يُرسَلُ الملَكُ فيَنفخُ فيهِ الرُّوحَ، ويُؤمرُ بأربعِ كلِماتٍ: بكَتبِ رزقِه وأجلِه وعملِه، وشقيٌّ أو سعيدٌ)) [(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/١٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/٤١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (١/٤٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/٢٥).

(٣) رواه مسلم (٢٦٤٣).

ودلَّت هذه الآيةُ على أنَّ عيسى ابنَ مريمَ عبدٌ مخلوق، كما خَلَق اللهُ سائرَ البشر؛ لأنَّ اللهَ تعالى صوَّره في الرَّحِم وخَلَقه كما يشاء؛ فكيف يكونُ إلَهًا كما زعمَتْه النَّصارى، وقد تَقلَّب في الأحشاءِ، وتنقَّل من حالٍ إلى حال؛ كما قال تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾[1] [الزمر: ٦]؛ لذا قال اللهُ تعالى بعد ذلِك مقررًا انفرادَه بالألوهيَّة:

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

أي: هو المستحقُّ للإلهيَّة وحْدَه لا شريكَ له، العزيزُ في مُلكِه، لا يَغلِبُه شيء، ولا يمتنعُ منه شيءٌ، وما شاء كان بلا ممانعٍ، والحكيمُ في خَلْقِه وصُنعِه وتدبيره[2].

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٧)﴾.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾.

أي: هو الَّذي أنزَل عليك- يا محمَّدُ- القُرْآنَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣١).
=

﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾.

أي: مِن القُرْآن آياتٌ بيِّناتٌ واضحاتُ الدَّلالة، لا التباسَ فيها على أحدٍ من النَّاسِ، ولا شُبهةَ، ولا إشكالَ(١).

﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾.

أي: وهذه الآياتُ المُحكَماتُ هي أصل هذا الكتابِ، ومُعظَمُه الَّذي يُرجَعُ إليه عند الاشتباهِ(٢).

﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾.

أي: ومِن القُرْآنِ آياتٌ أُخَرُ يَلتبسُ معناها، أو تشتبهُ دَلالتُها على كثيرٍ من النَّاسِ أو بعضهم(٣).

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾.

أي: فأمَّا الَّذين في قلوبِهم مَيْلٌ عن الحقِّ، وانحرافٌ عنه وضلال(٤)، فيَتعلَّقون بالمتشابِهِ من آياتِ القُرْآن، ويأخذون به، ويتركون المُحكَمَ(٥).

= قال ابن عطية: (الكتابُ في هذه الآيةِ القرآنُ بإجماعٍ مِن المتأولين) ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٠٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٨٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٢).

(٤) وقد قال بنحو هذا القول: ابن عبَّاس، وابن مسعود، ومجاهد، ومحمد بن جعفر بن الزُّبير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٠٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٢).

﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾.

أي: طلبًا للشُّبهاتِ، واللَّبْسِ على المؤمنين، وإضلالِهم؛ إيهامًا بأنَّهم يحتجُّون بالقُرْآن(١).

﴿وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾.

أي: وطلبًا لتفسيرِه على ما يُريدون؛ تحريفًا له وَفْقَ أهوائِهم الفاسدةِ؛ لاحتمالِ لفظِه لِما يصرِفونه إليه(٢).

عَن عَائِشَةَ رضِي الله عنها، قالت: تَلا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هذه الآيةَ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾، قالَتْ: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((فإذا رأيتِ الَّذين يتَّبِعون ما تَشابَه منه، فأُولئِكِ الَّذين سَمَّى اللهُ، فاحذَرُوهم))(٣).

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾.

أي: وما يعلَمُ عواقِبَ الأمورِ وما تؤولُ إليها، ولا حقائقَها، إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ وحده؛ وذلك كحقائقِ صفاتِ الله وكيفيَّتِها، وحقائق أوصاف ما يكونُ في اليومِ الآخِرِ، ونحو ذلك.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (/ ٢١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٨)، ((تفسير الشوكاني)) (١/ ٣٦١).
ومِمن قال بنحو هذا القول: مجاهد، ومحمد بن جعفر بن الزبير، ومحمد بن إسحاق. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢١٣)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٥٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٨)، ((تفسير الشوكاني)) (١/ ٣٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٤).

(٣) رواه البخاري (٤٥٤٧)، مسلم (٢٦٦٥).

أمَّا الرَّاسخون في العِلم، المتمكِّنون منه، المُتقِنون له، فيقولون: آمَنَّا وصدَّقْنا بالمتشابهِ من آيِ الكِتابِ، وأنَّه حقٌّ وإن لم نعلَمْ تأويلَه[١]، هذا على قراءة الوقفِ على اسمِ الله[٢].

أمَّا على قِراءة الوصلِ[٣] فيكون المعنى: وما يَعلَمُ تفسيرَ المتشابهِ، وبيانَه، ورَدَّه إلى المُحكَم، ودَفْعَ شُبَهِه، إلَّا اللهُ والرَّاسخون في العِلم، المتمكِّنون منه، المُتقِنون له أيضًا، يعلَمون ذلك، ويقولون: آمَنَّا وصدَّقْنا بالمتشابهِ من آيِ الكتابِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة آل عمران)) (١/ ٣٥).

(٢) رجَّح الوقفَ على اسم الله: ابنُ جرير في ((تفسيره)) (٥/ ٢١٧، ٢٢٠)، والواحديُّ في ((تفسيره)) (١/ ٤١٤)، وابنُ قدامة في ((روضة الناظر)) (١/ ٢١٦)، والشنقيطيُّ في ((تفسيره)) (١/ ١٨٩).

وممَّن قال بهذا القول من السَّلف: عائشة، وابن عبَّاس، وهشام بن عروة، وأبو نَهِيك الأسديُّ، وعمر بن عبد العزيز، ومالك، وأبو الشعثاء. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢١٨)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٥٩٩).

وقال أبو عمرو الدَّاني: (وهو قولُ أكثر أهل العلم من المفسِّرين والقرَّاء والنحويِّين)، ((المكتفَى في الوقف والابتدَا)) (ص: ٣٧).

وقال ابن تيمية: (وعليه أصحابُ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وجمهورُ التابعين، وجماهير الأمَّة)، ((مجموع الفتاوى)) (١٣/ ٢٧٥).

(٣) وممَّن قال بهذا القول من السَّلف: ابن عبَّاس، ومجاهد، والربيع، ومحمد بن جعفر بن الزبير، والضحَّاك. يُنظر ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٥٩٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين -سورة آل عمران)) (١/ ٣٥).

قال الراغب: (الوقفُ على قوله: ﴿وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾، ووصله بقوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ جائز، وأنَّ لكلٍّ واحد منهما وجهًا)، ((المفردات)) (ص ٤٤٥).

وقال ابن تيميَّة: (ولا منافاةَ بين القولينِ عند التَّحقيق)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٣/ ٥٥) وينظر ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة آل عمران)) (١/ ٣٥).

﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾.

أي: كلٌّ مِن المحكَمِ من الكتاب والمتشابِهِ منه، الجميعُ مِن عند ربِّنا، أوحاه إلى نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، يُصدِّقُ كلٌّ منهما الآخَرَ، ويشهَدُ له(١).

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

أي: وما يَتذكَّرُ ويتَّعِظُ ويفهَمُ ويَقبَلُ النُّصحَ إلَّا أصحابُ العقول السَّليمة(٢).

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٨)﴾.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾.

أي: ويقول الرَّاسخونَ في العِلم أيضًا: يا ربَّنا، لا تُمِلْ قلوبَنا عن الهُدى والحقِّ بعد إذ هديتَنا إليه، فوفَّقْتَنا للإيمانِ بمُحكَمِ كتابِك ومتشابِهه، فلا تَجْعَلْنا كالَّذين في قلوبهم زَيغٌ، ممَّن يتَّبِعُ ما تشابهَ من القُرْآن(٣).

عن عبدِ الله بن عمرٍو رضي الله عنهما، قال: قال رسول اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((إنَّ قلوبَ بَني آدمَ كلَّها بينَ إصبَعينِ من أصابعِ الرَّحمنِ كقَلبٍ واحِدٍ، يُصرِّفُه حيثُ يشاءُ، ثمَّ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: اللَّهمَّ مُصرِّفَ القلوبِ، صرِّفْ قلوبَنا على طاعتِكَ))(٤).

وعن أُمِّ سلَمةَ رضِي اللهُ عنها قالت: ((كانَ أَكْثرُ دعائِهِ: يا مُقلِّبَ القلوبِ، ثبِّت قلبي علَى دينِكَ، قالَت: فقُلتُ: يا رسولَ اللهِ، ما أَكْثرَ دُعاءَكَ: يا مقلِّبَ القلوبِ، ثبِّت قَلبي علَى دينِكَ! قال: يا أمَّ سلَمةَ، إنَّهُ لَيسَ آدميٌّ إلَّا وقلبُهُ بينَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٢).
(٤) رواه مسلم (٢٦٥٤)

أُصبُعَيْنِ من أصابعِ اللهِ، فمَنْ شاءَ أقامَ، ومن شاءَ أزاغَ)). فَتلا معاذٌ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾[1].

﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾.

أي: وأعطِنا يا ربَّنا- تفضُّلًا مِن عندك- رحمةً عظيمةً تَزيدُنا بها إيمانًا وثَباتًا ويقينًا وسَدادًا[2].

﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾.

أي: إنَّك أنت واسعُ العطايا والهِبَاتِ، كثيرُ الإحسان[3]، فإنَّنا إنَّما طلَبْنا منك هبةَ الرَّحمةِ؛ لأنَّك أنتَ الوهَّابُ[4].

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٩)﴾.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

أي: ويقول الرَّاسخون في العِلمِ أيضًا: يا ربَّنا، إنَّك تبعَثُ النَّاسَ، وتجمَعُهم في يومٍ لا شكَّ فيه، وهو يوم القيامة، وذلك للفصلِ بينهم، ومجازاةِ كلِّ واحد بعمَلِه، فاغفِرْ لنا يومئذٍ، واعفُ عنَّا[5].

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٢٢) واللفظ له، وأحمد (٢٦٧٢١)، وأبو يعلى (٦٩٨٦).
حسنه الترمذي، وصحح إسناده أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٣٥٥). وقواه بطرقه الألباني في ((السلسلة الصحيحة)) (٢٠٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٢-٥٣)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٥)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٢١). =

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ لا يُخلِفُ وعده؛ أنَّ مَن آمَن به واتَّبَع رسولَه، وعمِل صالحًا، أنَّه يغفِرُ له(١).

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ...﴾ حضٌّ على تربيةِ الإنسان لنفسِه على امتثالِ ما أمَره الله به، واجتنابِ ما نهاه عنه، وأنْ يتيقَّنَ أنَّ عمَلَه لا يَخفَى على الله، بل هو معلومٌ له(٢).

٢- في قوله سبحانه: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ دليلٌ على أنَّ مِن علامةِ الزَّيغِ اتِّباعَ المتشابِهِ من القُرْآنِ، سواءٌ تبِعه الإنسانُ بالنِّسبة لتصوُّرِه فيما بينه وبين نفسِه، بإيراد الآياتِ المتشابهاتِ عليها، أو كان يتَّبعُ ذلك بالنِّسبة لعَرْضِ القُرْآن على غيره(٣).

٣- في قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾- على قراءةِ الوقفِ- بيانُ أنَّ في القُرْآن ما لا يعلَمُ تأويلَه إلَّا اللهُ (وهي عواقبُ الأمورِ وما تؤولُ إليها حقائقُها)،

= قال ابن جرير: (وهذا من الكلام الذي استُغني بِذكر ما ذُكر منه عمَّا ترك ذِكرُه؛ وذلك أنَّ معنى الكلام: ربَّنا إنك جامع الناس ليوم القيامة، فاغفر لنا يومئذ، واعف عنَّا؛ فإنَّك لا تخلف وعدك أنَّ مَن آمن بك واتَّبع رسولك، وعمل بالذي أمرتَه به في كتابك، أنَّك غافره يومئذ. وإنما هذا من القوم مسألة ربهم أن يُثبِّتهم على ما هم عليه من حُسن بصيرتهم بالإيمان بالله ورسوله، وما جاءهم به من تنزيله، حتى يَقبضَهم على أحسن أعمالهم وإيمانهم، فإذا فعَل ذلك بهم، وجبَتْ لهم الجنة؛ لأنَّه قد وعد مَن فَعَل ذلك به من عباده أنه يُدخِلَه الجنة، فالآية وإنْ كانت قد خرَجت مخرجَ الخبر، فإنَّ تأويلها من القوم مسألةٌ ودعاءٌ ورغبة إلى ربهم)، ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٣٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٥).

وفيه امتحانٌ للعباد بتأدُّبِهم مع الله عزَّ وجلَّ، هل يحاولون الوصولَ إلى شيءٍ لا تدركُه عقولُهم، أو يقفون على حدودِ ما تُدركه عقولُهم[١].

٤- يؤخَذُ من قوله تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ أنَّ إنكارَ ما جاء عن اللهِ، والتبجُّحَ في ردِّه، لا يكون إلَّا من السَّطحيِّين الَّذين تخدَعُهم قشورُ العِلم، بخلاف الرَّاسخين فيه[٢].

٥- في قوله تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ فضيلةُ الرُّسوخ في العِلم، وضرورةُ الثَّبات فيه، والتعمُّقِ في أخذِه، والبعدِ عن السَّطحيَّةِ فيه[٣].

٦- الرُّسوخُ في العِلم قدرٌ زائدٌ على مجرَّد العِلم؛ فالرَّاسخُ في العِلم يقتضي أنْ يكون عالِمًا محقِّقًا، وعارفًا مدقِّقًا، قد رسخ قدمُه في أسرارِ الشَّريعةِ؛ عِلمًا وحالًا وعمَلًا[٤].

٧- ينبغي للإنسان أنْ يحرِصَ على أنْ يكون راسخًا في العِلم، لا مُجرَّدَ جامعٍ له؛ فالرُّسوخُ في العِلم يُولِّد عند الشَّخص ملَكةً يستطيعُ من خلالها تقريبَ العِلم بعضِه من بعض، وقياسَ بعضِه على بعض[٥].

٨- لا يَنتفعُ بهذا القُرْآن ولا يتذكَّرُ بآياته إلَّا مَن كان له عقلٌ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾، وكلَّما ازداد المرءُ عقلًا، ازداد تذكُّرًا بكلامِ الله، وكلَّما نقَص تذكُّرُه دلَّ ذلك على نقصٍ في عقلِه بناءً على قاعدة: الحكم المعلَّق على وصفٍ يَزيد بزيادته، ويَنقُص بنقصانه[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٩).
(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٣٧٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٨).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٩- في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ بيانُ أنَّ للقلبِ حالينِ: حالَ استقامةٍ، وحالَ زيغٍ، والإنسان مضطرٌّ إلى أنْ يسألَ اللهَ سبحانه وتعالى ألَّا يُزيغَ قلبَه، حتى يكونَ مستقيمًا؛ فهو لا يملِكُ قلبَه؛ لذا لا بدَّ أنْ يلجأَ إلى اللهِ بسؤالِه ألَّا يُزيغَ قلبه، ولا يغترَّ بنفسِه، ويتَّكِلَ على إيمانِه، فكم من مؤمنٍ زلَّ وارتكَس، والعياذُ بالله[١].

١٠- القلبُ عليه مدارُ العمَلِ؛ لذلك سلَّط اللهُ فِعْلَ الزَّيغ عليه فقال: ﴿لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾[٢].

١١- التَّخليَة تكونُ قبل التَّحليَة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾، ثمَّ قال: ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾[٣]، فقدَّم اللهُ تبارَك وتعالَى السُّؤال في تطهير القلبِ عمَّا لا يَنبغي، على طلبِ تَنويرِه بما ينبغي؛ لأنَّ إزالةَ المانع قبل إيجادِ المقتضِي عينُ الحكمة[٤].

١٢- في قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ بيانُ أنَّ القلبَ المؤمن يُشفِق من العودةِ إلى الضَّلال، كما يُشفق السَّائرُ في الدَّربِ المستقيم أنْ يعودَ إلى التخبُّطِ في المنعرَجاتِ المظلِمة؛ فهو يُدرك قِيمةَ الاهتداء بعد الضَّلال، والرُّؤيةِ الواضحة بعد الغَبَشِ، والاستقامةِ بعد الحَيْرة، والتَّحرُّرِ من العبوديَّةِ للعبيد بالعبوديَّةِ للهِ وحده[٥].

١٣- في قولِه تعالى عن أوليائِه: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٥٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٥)، وانظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٥٠).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٤٩).
(٥) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٣٧٠، ٣٧١).

لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ أنَّه إذا سَلِمَ العَبْدُ مِن فِتنةِ الشُّبُهاتِ والشَّهواتِ حصَل له أعظمُ غايتَينِ مطلوبتَينِ، بِهما سَعادتُه وفلاحُه وكمالُه؛ وهُما الهُدَى، والرَّحمةُ(١).

١٤- نبَّه تعالى بقوله: ﴿هَبْ لَنَا﴾ على أنَّ العبدَ يَنبغي ألَّا يلتفتَ إلى شيءٍ من عمَلِه، ولا أنْ يَطلُبَ العِوَضَ به، بل يَرجو رَجاءَ المفَاليسِ الطَّالبين للتفضُّلِ والهِبَة لا العِوَض(٢).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قوله: ﴿لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ خصَّ اللهُ تبارَكَ وتعالَى الأرضَ والسَّماء بالذِّكر؛ لكونِهما مَشهودَينِ لنا، أمَّا ما عدا ذلك فإنَّنا لا نعلَمُه إلَّا عن طريقِ الغيب(٣).

٢- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ صفةٌ سلبيَّةٌ، يرادُ بها بيانُ كمالِ العِلم؛ لأنَّ الصِّفاتِ المنفيَّةَ لا يرادُ بها مجرَّدُ النَّفي، وإنَّما يراد بها بيانُ كمال الضِّدِّ(٤).

٣- قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ...﴾ فيه ردٌّ على غلاةِ القدريَّةِ الَّذين يَزعُمون أنَّ اللهَ لا يعلَمُ بعمَلِ العبدِ إلَّا بعد وقوعِه(٥).

٤- إحاطةُ علمِ اللهِ بالكلِّيَّات والجزئيَّات؛ وذلك يؤخَذُ من قوله: ﴿شَيْءٌ﴾؛

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٦٨- ١٦٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير الراغب)) (٢/ ٤٣٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٦١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٣).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٤).

فهي نكِرةٌ في سياق النَّفي، فأفادت العمومَ(١).

٥- قوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ فيه ردٌّ أيضًا على أهلِ الطَّبيعة؛ إذ يجعلونها فاعلةً مستبدَّةً(٢).

٦- لَمَّا ذكَر أنَّ القُرْآنَ مُحكَمٌ ومتشابِهٌ، نظَر إليه جملةً- كما اقتضاه التَّعبيرُ بالكتابِ- فعبَّر عن ذلك بالإنزالِ دون التَّنزيل فقال: ﴿أَنْزَلَ عَلَيْكَ﴾(٣).

٧- قسَّم اللهُ الأدلَّةَ السَّمعية إلى قِسمين: مُحكَمٍ ومتشابِهٍ، وجعَل المحكَم أصلًا للمتشابِه، وأُمًّا له، وأمُّ الشَّيء مرجعُه وأصلُه، فما خالَف ظاهرَ المُحكَم، فهو متشابهٌ، يُرَدُّ إلى المحكَم؛ ولذا قدَّم وصف هذه المحكَمات بقوله: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾؛ ليتبادرَ إلى الذهن أوَّلَ ما يتبادر أنَّه يردُّ المتشابهات إلى المحكَماتِ؛ لأنها كالأمِّ لها؛ فالمحكَماتُ تُفهَم بذواتها، بينما المتشابهات لا تُفهَم إلَّا بالاستعانة بالمُحكَمات(٤).

٨- الاشتباه قد يكونُ اشتباهًا في المعنى، بحيث يكون المعنى غيرَ واضح، أو اشتباهًا في التعارضِ، بحيث يظنُّ الظانُّ أنَّ القُرْآن يعارضُ بعضُه بعضًا، وهذا لا يمكن أنْ يكون واقعًا في القرآن؛ لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قال: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، والقُرْآن يُصدِّقُ بعضُه بعضًا(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٤)، وينظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٠٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٤٢)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيِّم (٢/ ٧٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣١).

٩- التَّشابُه في التفسيرِ والمعنى أمرٌ نِسبيٌّ؛ فقد يتشابهُ عند هذا ما لا يتشابه عند غيرِه، ولكن ثَمَّ آياتٌ مُحكَماتٌ لا تشابُهَ فيها على أحدٍ، وتلك المتشابهات إذا عُرِف معناها صارَتْ غيرَ متشابهة(١).

١٠- في قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ ذكَر اللهُ أشدَّ الميْل، وهو مَيْلُ القلب، وفي إشعارِه ما يلحَقُ بزيغِ القلوبِ من سيِّئِ الأحوال في الأنفُس، وزلَلِ الأفعال في الأعمال، فأنبأَ عن الأشدِّ، وأبهم ما هو الأضعفُ(٢).

١١- يُؤخَذُ من قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ...﴾ الآيَةَ: أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى أنزَل المتشابِهَ؛ ليمتحِنَ قلوبَنا في التَّصديق به، للتمييزِ بين الثابت على الحقِّ والمتزلزل فيه، فإنَّه لو كان كلُّ ما ورَد في الكتاب معقولًا واضحًا، لَمَا كان في الإيمان شيءٌ من معنى الخضوعِ لأمرِ الله تعالى والتَّسليمِ لرُسلِه، ولكي يكونَ حافزًا لعقل المؤمنِ إلى النَّظر كيلا يضعُفَ فيموتَ، ولتعويد حَمَلةِ هذه الشَّريعةِ، وعلماءِ هذه الأمَّةِ بالتَّنقيبِ، والبحثِ، واستخراج المقاصدِ من عويصاتِ الأدلَّة، وليظهر فيها فضلُهم، ويزداد حِرصُهم على أن يجتهدوا في تَدبُّرها، وتحصيل العلوم المتوقِّف عليها استنباطُ المراد بها، فينالوا بها، وبإتعابِ القرائحِ في استخراجِ معانيها، والتوفيقِ بينها وبين المُحكَمات الدَّرجاتِ العُلى عند الله تعالى(٣).

١٢- قال تعالى: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾، ولم يجمَعْ فيقول: (هنَّ أمَّهاتُ الكتاب)، وقد قال: ﴿هُنَّ﴾؛ لأنَّه أراد: جميعُ الآياتِ المحكَماتِ أمُّ الكتاب، لا أنَّ كلَّ آيةٍ منهنَّ أمُّ الكتاب، ونظيرُ ذلك، قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ١٤٤).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٤٢).
(٣) يُنظر: ((السراج المنير)) للشربيني (١/ ٢٢٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ١٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٥٨).

آيَةً ﴾ [المؤمنون: ٥٠]، ولم يقُلْ: آيتينِ؛ لأنَّ معناه: وجعلنا جميعَهما آيةً؛ لأنَّ المعنى واحدٌ فيما جُعِلا فيه عبرةٌ للخَلْقِ[١].

١٣- مُقتضى الرُّبوبيَّة أنَّ اللهَ تعالى يُنزِّل على عبادِه كتابًا، لا يكونُ فيه اختلافٌ يوقِعُهم في الشَّكِّ والاشتباهِ؛ لقوله سبحانه: ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ أي: المحكَم والمتشابِهُ، وما كان من عندِ الرَّبِّ المعتني بعبادِه بربوبيَّتِه، فلن يكونَ فيه تعارُضٌ ولا تناقُضٌ، بل هو متَّفِق، يصدِّقُ بعضُه بعضًا، ويشهَدُ بعضُه لبعض، فإذا أشكَل مجمَلُ المتشابِهِ، فهو مردودٌ يقينًا إلى المحكَمِ[٢].

١٤- الدُّعاء غالبًا ما يُصَدَّر بالرَّبِّ؛ لأنَّ الدُّعاءَ يتطلَّبُ الإجابةَ، والإجابةُ من الأفعال، والأفعال علاقتُها بالرُّبوبيَّة أكثر من علاقتها بالألوهيَّة؛ فالربوبيةُ تَقتضي القيامَ بأمورِ العباد وإصلاحِها؛ فكان العبدُ مُتعلِّقًا بمَنْ شأنُه التربيةُ والرفقُ والإحسان[٣].

١٥- قولهم: ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ لا يُرادُ به الافتخارُ، بل يرادُ به التَّوسُّل بالنِّعَم السَّابقة إلى النِّعَم اللَّاحقة[٤].

١٦- طلبُهم الرَّحمةَ مِن عندِ الله بقولهم: ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ حتى لا يكونَ لأحدٍ عليهم منَّةٌ سواه، ولأنَّها متى ما كانت مِن عندِه كانت عظيمةً؛ فالعطاءُ على قدرِ المعطي[٥].

١٧- في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ إثباتُ اسمِ الله الوهَّاب، وما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٧١).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٨).
(٣) يُنظر: ((الموافقات)) للشاطبي (٤/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٢).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٥٣).

يتضمَّنُه من صفةِ الهِبَة، وهي صِفةٌ فعليَّةٌ لله تعالى(١).

١٨- في قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا﴾ دليلٌ على أنَّ الهُدى والضَّلال مِن اللهِ تعالى، وأنَّه متفضِّلٌ بما يُنعِم على عبادِه، لا يجبُ عليه شيءٌ ما(٢).

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ﴾ استئنافٌ يَتنزَّلُ منزلةَ البيان لوصْفِ الحيِّ؛ لأنَّ عموم العِلم يبيِّنُ كمالَ الحياة(٣)؛ فهذه الجملةُ كالدَّليل على كونه حيًّا(٤).

- عبَّر هنا بـ﴿لَا يَخفَى عَلَيهِ شَيءٌ﴾ ولم يقُل: هو عالمٌ بكلِّ شيء؛ لأنَّ ﴿لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ﴾ أبلغُ مِن قوله: (يعلم) في الأصل، وإنْ كان استعمالُ اللَّفظين فيه يُفيدان معنًى واحدًا(٥).

- وتَنكير ﴿شَيْء﴾؛ ليُفيد العموم والشُّمول، وجِيء بـ(شيء) هنا؛ لأنَّه من الأسماء العامَّة(٦).

- وتقديمُ ﴿الْأَرْض﴾ على ﴿السَّمَاءِ﴾؛ ترقِّيًا من الأدْنى إلى الأعلى، ولأنَّ المقصودَ بالذِّكر ما اقْتِرف في الأَرضِ؛ فكانت أَوْلى بالتَّقديم(٧)، أو ابتدأَ في

---

(١) يُنظر: ((اشتقاق الأسماء)) للزَّجَّاج (ص: ١٢٦)، ((صفات الله عزَّ وجلَّ الواردة في الكتاب والسُّنة)) لعلوي السَّقَّاف (ص: ٤١٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ١٩٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٥١).
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير الراغب)) (٢/ ٤١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٩).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٥١)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٣٨٣).
(٧) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٦).

الذِّكر بالأرض؛ ليتَسنَّى التدرُّجُ في العطفِ إلى الأبعدِ في الحُكم؛ لأنَّ الكثيرَ من أشياءِ الأرض يعلَمُها كثيرٌ من النَّاس، أمَّا أشياءُ السَّماء فلا يعلم أحدٌ بعضَها، فضلًا عن عِلم جميعِها(١).

٢- قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ استئنافٌ يُبيِّنُ شيئًا من معنى القيُّوميَّة؛ فهو كبَدَلِ البعضِ من الكلِّ، وخَصَّ بالذِّكرِ مِن بين شؤونِ القيُّومية تصويرَ البَشر؛ لأنَّه مِن أعجبِ مظاهرِ القدرةِ، ولأنَّ فيه تعريضًا بالرَّدِّ على النَّصارى في اعتقادِهم إلهيَّةَ عيسى عليه السَّلام(٢)؛ فهذه الجملةُ كالدَّليلِ على القيوميَّة، والاستدلالِ على أنَّه عالمٌ بإتقانِ فِعْلِه في خَلْقِ الجنينِ وتصويرِه(٣).

- قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: فيه تكرار قوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ الذي سبق في مَطلعِ السورة ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾؛ للتَّنبيهِ على استقرارِ ذلك في النُّفوس، وللردِّ على مَن زعم أنَّ معه إلهًا غيره(٤).

- وناسَب هنا مَجيءُ ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ بعدَ الوصفينِ السَّابقين من العِلم والقُدرة؛ إذ مَن هذان الوَصفانِ له هو المتَّصفُ بالإلهيَّة لا غيرُه، ثم أتى بوصْفِ العِزَّة الدالَّة على عدم النَّظير، والحِكمة الموجِبة لتصويرِ الأشياءِ على الإتقان التامِّ(٥).

- وقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: تذييلٌ لتقريرِ الأحكام المتقدِّمة(٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٥١)، ويُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٥١).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢١، ٤٠).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٥٣).

- وفي افتتاحِ السُّورةِ بهذه الآياتِ بَراعةُ استهلالٍ؛ لنزولها في مجادلةِ نَصارى نجران؛ ولذلك تَكرَّر في هذا الطالعِ قَصْرُ الإلهيَّة على اللهِ تعالى في قوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ﴾، وقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾[1].

٣- في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ تأكيدٌ لقوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ﴾[2]، وتمهيد لقوله: ﴿منه آياتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾[3].

- وفيه: تقديمُ الظَّرف ﴿عَلَيْكَ﴾ على المفعول ﴿الكِتَابَ﴾؛ للاعتناءِ بشأنِ بِشارتِه صلَّى الله عليه وسلَّم، بتشريفِ الإنزالِ عليه، وللتشويقِ إلى ما أُنزل؛ فإنَّ النفسَ عند تأخيرِ ما حقُّه التقديمُ- لا سيَّما بعدَ الإشعارِ برِفعةِ شأنِه أو بمنفعته- تبقَى مترقبةً لهُ، فيتمكَّنُ لديها عند وُرودِه عليها فضلُ تمكُّنٍ، وليتَّصل به تقسيمه إلى قسيمه، ولِمَا يُفِيدُهُ مِنَ الِاخْتِصَاصِ[4].

- قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ﴾: فيه من بدائع البلاغة: ذِكر فِعل ﴿أَنْزَلَ﴾ في صِيغة القصر- وهي قوله: ﴿هُوَ الَّذِي﴾- لأنَّ تعريفَ جزأَيِ الجملة بالضَّمير والموصولِ يُفيدُ القَصْر- مع أنَّ (الإنزال) مختصٌّ بالله تعالى ولو بدون صِيغة القَصر؛ إذ الإنزالُ يُرادِفُ الوحيَ، ولا يكونُ إلَّا من الله، بخِلافِ ما لو قال: هو الذي آتاك الكِتابَ[5]، فأفاد التَّأكيد.

٤- في قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ شبَّه القلبَ المائلَ عن القصْد بالشَّيء

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٥٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيَّان)) (٣/ ٤١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٥٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٧)، ((تفسير الشوكاني)) (١/ ٣٦٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٥٤).

الزائغ عن مكانه(١)، وجعَل قلوبهم مقرًّا للزيغ؛ مبالغةً في عُدولِهم عن سَنَنِ الرَّشاد، وإصرارِهم على الشرِّ والفَساد(٢).

٥- قوله تعالى: ﴿وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾، ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ﴾ فيه تكرارُ لَفْظِ التأويل؛ لاختلافِ التأويلينِ، أو للتَّفخيمِ لشأنِ التأويل(٣).

- وجاءَ قوله: ﴿ابْتِغَاءَ﴾ على صِيغة (افتعال)؛ لبيان التكلُّف في شدَّة الطلب(٤).

٦- قوله تعالى: ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ مُقرِّرٌ لِمَا قبلَه ومُؤكِّد له، وفيه: مزيدُ تأكيدٍ بذِكر ﴿عِنْدَ﴾، ولم يقل: (من ربِّنا)؛ لأنَّ الإيمانَ بالمتشابِهِ يُحتاجُ فيه إلى مزيدِ التأكيد(٥)، أو زِيدت كلمة ﴿عِنْدَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ ﴿مِنْ﴾ هنا للابتداءِ الحقيقيِّ دون المجازيِّ، أي: هو مُنزَّلٌ مِن وحْيِ اللهِ تعالى وكلامِه(٦).

- قوله: ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا﴾: هذا مِن المقول، ومفعول: (يقولون) قوله: ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾، وجُعلتْ كلُّ جملةٍ كأنَّها مستقلَّةٌ بالقول؛ ولذلك لم يُشترَكْ بينهما بحَرْف العَطف، أو جُعلَا ممتزجينِ في القولِ امتزاجَ الجُملة الواحدة(٧).

٧- قوله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ تذييلٌ سِيقَ مساقَ المدحِ للرَّاسخين، والثناءِ عليهم بجَودةِ الذِّهن، وصَحيحِ الفَهم، وحُسْن النَّظر(٨).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٠).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٤٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٨).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٦٩).
(٧) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٠).
(٨) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٦٩).

٨- **قوله تعالى:** ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ﴾ فيه تَكرارُ الدُّعاء بـ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ﴾؛ للتنبيهِ على مُلازمتِه، وللتحذيرِ من الغفْلة عنه؛ لِمَا فيه من إظهارِ الافتِقار(١).

٩- **قوله تعالى:** ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ التنكِيرُ في قوله: ﴿رَحْمَةً﴾؛ للتَّعظيمِ، أي: رحمةً عَظيمةً واسعةً(٢).

- وشبَّه المعقولَ من الرَّحمة بالمحسوس مِن الأجرام من العِوض والمعوَّض في الهِبة(٣).

- وفيه تأخيرُ المفعول الصَّريح ﴿رَحْمَةً﴾ عن الجارَّين ﴿مِنْ لَدُنْكَ﴾؛ للاعتناءِ بالمُقدَّم، والتشويقِ إلى المُؤخَّر؛ فإنَّ ما حقُّه التقديمُ إذا أُخِّر تَبقَى النفسُ مترقبةً لوروده، لا سيَّما عند الإشعارِ بكونه من المنافعِ(٤).

١٠- **قوله تعالى:** ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ الجملةُ هنا استئنافيَّةٌ لتَعليلِ السُّؤال والتَّوسُّل ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ﴾، أو لتعليلِ إعطاء المسؤول في قوله: ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾(٥).

- وقوله: ﴿الْوَهَّابُ﴾ صِيغةُ مبالغة، وأُطْلِقت ولم تُقيَّد، حيث لم يَقُل مثلًا: (وهَّاب الهداية)؛ ليتناولَ كلَّ موهوبٍ(٦).

- وفيه قَصْرٌ بتَوسيطِ ضَميرِ الفَصلِ ﴿أَنْتَ﴾؛ للمبالغة؛ لأجْلِ كمال الصِّفة فيه تعالى؛ لأنَّ هِباتِ الناس بالنسبة لِمَا أفاض الله من الخيراتِ شيءٌ لا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (١/ ٣٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٥١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة آل عمران)) (١/ ٥٤).

يُعبأ به، وفيه تأكيد بـ(إنَّ)، وبالجملة الاسميَّة، وبطريق القَصر(١)؛ فإنَّ ضميرَ الفصلِ يأتي لثَلاثِ فوائدَ: الأول: الفصلُ بين الصِّفة والخبر، والثانية: التوكيد، والثالثة: الحَصْر والقَصر(٢).

١١- قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ﴾ فيه إيجازٌ بحَذْفِ المضافِ إليه، وإقامةُ المضافِ مقامَه، والتقدير: يوم الحِسابِ أو يوم الجزاء؛ لكونِ المراد ظاهرًا، وللتهويلِ له، والتفظيعِ لِمَا يقَعُ فيه(٣).

- وفيه التفاتٌ(٤)؛ حيث قال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ﴾، ثم قال: ﴿إِنَّ اللهَ﴾؛ لإبراز كمالِ التَّعظيمِ، والإجلالِ الناشِئ من ذِكرِ اليومِ المَهيب الهائل، ولتنبيهِ المخاطَب بتغييرِ أسلوبِ الكلام؛ وأيضًا لأنَّ الكلام بصيغةِ الغائب أبلغُ في تعظيمِ الله تبارَك وتعالَى(٥).

١٢- في قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ تأكيدٌ لإظهارِ ما هم عليه من كَمالِ الطُّمأنينةِ، وقوَّة اليقينِ بأحوال الآخرة(٦).

١٣- قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ تعليلٌ لمضمون الجُملة المؤكدةِ، أو لانتفاءِ الرَّيب(٧).

- وفيه مناسبةٌ بليغة؛ ففي هذه الآية قال: ﴿إِنَّ اللهَ﴾، وفي آخِر السُّورة قال:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٧١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة آل عمران)) (١/ ٥٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٥١).
(٤) هذا على القول بأنَّه من تمام حِكاية قول الرَّاسخين في العِلم، وأمَّا على القول بأنَّ الكلام مستأنَفٌ من كلام الله، فلا التفاتَ حينئذ.
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٢).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩).
(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٧١).

﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾، والفرق: أنَّ هذه الآيةَ في مقامِ الهيبة، والإلهيَّة تَقتضي الحشرَ والنَّشرَ؛ ليَنتصف المظلومون من الظالِمين، فكان ذِكرُه باسمِه أَوْلى في هذا المقام، أمَّا قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ في آخِر السُّورة، فذاك المقامُ مقامُ طلَب العبدِ من ربِّه أن يُنعِمَ عليه بفضله، وأنْ يتجاوزَ عن سيِّئاته، فلم يكُن المقام مقامَ الهيبة؛ فناسَبَه ذِكرُ الضَّمير: ﴿إِنَّكَ﴾[1].

- و﴿الْمِيعَاد﴾: على صِيغة (مِفعال) من الوعد، وجِيء به هكذا؛ لإفادةِ معنى تكرُّره ودوامِه[2]. وأيضًا التعبيرُ بنفيِ الخُلْفِ بلفظة: ﴿الْمِيعَاد﴾- وهي صيغةٌ تُستعمَلُ كاسمِ زمانٍ واسمِ مكانٍ بحسَبِ سياقِها- أبلغُ؛ لأنَّ نَفْيَ الخُلف في زَمنِ الوعدِ ومكانِه، أبلغُ من نفيِ خلف الوعدِ ذاتِه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٥١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيتان: (١٠ - ١١)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿كَدَأْبِ﴾: الدَّأْب- بتسكينِ الهَمزة وفتَحِها-: العادةُ المستمرَّة، والشَّأن، أو الأشباه- بلُغة جُرهم-، وأصله: مِن الملازَمة والدَّوام(١).

﴿فِرْعَوْنَ﴾: لقبُ مَلِكِ مِصرَ وطاغيتِها في عَهدِ موسى عليه السَّلام، وقيل لكلِّ عاتٍ وطاغيةٍ: فِرْعون، واشتُقَّ منه: تَفرْعَن، أي: فعَل فِعْل فِرعونَ(٢).

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تبارَك وتعالَى أنَّ الَّذين كفَروا به وبآياتِه، وكذَّبوا الرُّسل وعادَوْهم، وتولَّوْا عن دِين الله، وأعرَضوا عنه، أنَّه لن تنفعَهم أموالُهم ولا أولادهم، ولن تكون سببًا في نجاتهم من عقوبةِ الله إذا حلَّتْ بهم، وأن مصيرَهم إلى النَّار؛ فهم وَقُودُها الَّذي تُسعَّر به، وهم الملازِمون لها دائمًا وأبدًا؛ فهذه هي سُنَّةُ اللهِ الَّتي لا تتغيَّر ولا تتبدَّل، فشأنُهم في ذلك كشأنِ فِرعون وآلِه، وكشأنِ الأُمَم المكذِّبة بآياتِ الله من قبلِهم؛ إذ كان مصيرَهم أنْ أهلَكهم اللهُ بسببِ ما اقترَفوه من ذنوب، عدلًا منه لا ظلمًا؛ فهو شديدُ الأخذِ، أليمُ العذابِ لِمَن جاء بأسبابِ العذاب.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٩).

(٢) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٢)، ((مختار الصحاح)) للرازي (١/ ٢٣٨).

تَفسيرُ الآيتين:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (١٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر الله تعالى يومَ القيامة، وتَحقَّق أنَّ يومَ الجمْعِ كائنٌ لا محالةَ، تحقَّق أنَّ مِن نتائجه تَحقيقًا لعزَّتِه سبحانه وتعالى: أنْ يحاسِبَ الَّذين كفروا، وأنْ يَنتقمَ منهم(١).

و أيضًا لَمَّا حَكَى اللهُ تعالى ما دعَا به المؤمنون: مِن دوامِ الهدايةِ، وسؤالِ الرَّحمة، والفوزِ يومَ القِيامة، ذَكَر حالَ الكافرين في ذلك اليومِ، على عادةِ القُرآن في إردافِ البشارة بالنذارة، وتعقيبِ دُعاءِ المؤمنين، بذِكر حالِ المشركين(٢)، فقال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾.

أي: إنَّ الَّذين كفَروا باللهِ وآياتِه، وكذَّبوا رُسلَه، وجحَدوا دينَه، لن تُنجيَهم أموالُهم ولا أولادُهم من عُقوبةِ اللهِ إذا حلَّتْ بهم(٣).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ١٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٥)، ((تفسير السعدي)) (١/ ١٢٣).
قال الشِّنقيطيُّ: (ولم يُبيِّن هنا؛ هل نفيه لذلك تكذيبٌ لدعواهم أنَّ أموالَهم وأولادَهم تَنفعُهم، وبيَّن في مواضعَ أُخر أنهم ادَّعَوْا ذلك ظنًّا منهم أنه ما أعطاهم الأموال والأولاد في الدنيا إلَّا لكرامتهم عليه واستحقاقهم لذلك، وأنَّ الآخرة كالدنيا يستحقون فيها ذلك أيضًا، فكذَّبهم في آيات كثيرة، فمن الآيات الدالة على أنهم ادعوا ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥] وقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧]، يعني في الآخرة كما أوتيته في الدُّنيا. وقوله: ﴿وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾ [فصلت: ٥٠]، أي: بدليل ما أعطاني في الدنيا، وقوله: ﴿وَلَئِنْ =

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨ -٨٩].

﴿وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾.

أي: وأولئك هم حطَبُ النَّارِ الَّذي توقَدُ به، الملازِمونَ لها دائمًا أبدًا.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[١].

ثمَّ ذكَرَ تعالى مثلًا لهؤلاء الكافرينَ الذين استغْنَوْا بما أُوتوا في الدُّنيا عن الحقِّ، فعارضُوه وناهضُوه حتَّى أَخَذهم[٢]، فقال:

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾.

أي: شأنُهم في ذلك كشأنِ فِرعون[٣] وآلِه، والأُمَم المكذِّبةِ بآياتِ الله مِن

= رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦]، قياسًا منه للآخرة على الدنيا، وردَّ الله عليهم هذه الدعوى في آيات كثيرة كقوله هنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ﴾ الآية [آل عمران: ١٠]، وقوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥- ٥٦]، وقوله: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى﴾ [سبأ: ٣٧]، وقوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وقوله: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣]، إلى غير ذلك من الآيات)، ((أضواء البيان)) (١/ ١٩٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ١٩٧)، ((تفسير السعدي)) (١/ ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ١٩١).

(٣) قال ابنُ كثير: (وقوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ قال الضحَّاك، عن ابن عبَّاس: كصنيع =

قبلِهم؛ كقوم نوحٍ، وقوم هودٍ، وأمثالِهم(١).

﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

أي: أهلَكهم اللهُ بسببِ ذُنوبهم، واللهُ شديدُ الأخذِ، أليمُ العذابِ(٢).

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ بيانُ أنَّه قد مضَتْ سنَّةُ اللهِ تبارَك وتعالَى بأن يكونَ العقابُ أثَرًا طبيعيًّا للذُّنوبِ والسَّيِّئاتِ، فوجَب الحذرُ منها(٣).

٢- تضمَّن قولُه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ...﴾ الآيةَ: تحذيرًا مِن الغرورِ؛ إذ إنَّ الجحودَ مِن النَّاس نتيجةٌ حتميَّةٌ لغرورِهم بأنفسِهم؛ حيث تُوهِمُهم الاستغناءَ عن الحقِّ(٤).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ...﴾ دليلٌ على

= آل فرعون. وكذا رُوي عن عِكرمة، ومجاهد، وأبي مالك، والضحَّاك، وغيرِ واحد، ومنهم مَن يقول: كسُنَّة آل فرعون، وكفِعل آل فرعون وكشَبَه آلِ فرعون، والألفاظ متقاربة) ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٦).

ويُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٦٠٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٣٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير) (٢/ ١٦)) ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ١٩٧). و((تفسير السعدي)) (١/ ١٢٣).

يقول ابنُ عاشور: (وقد ضرَب الله لهم هذا المَثَل عِبرةً وموعظة؛ لأنَّهم إذا استقرَوُا الأمم التي أصابها العذاب، وجدوا جميعهم قد تَماثَلوا في الكُفر: بالله، وبرسله، وبآياته، وكفى بهذا الاستقراء موعظةً لأمثال مشركي العرب)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (/ ٢٣٦، ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ١٩١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أنَّ الكفَّارَ لا تنفَعُهم أموالُهم ولا أولادُهم، لا في دُنياهم ولا أُخراهم، بخلافِ المؤمنين الَّذين ينتفعون بأموالِهم وأولادِهم، في حياتِهم وبعدَ موتهم[١].

٢- بيانُ قُدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وأنَّه لا ينفعُ منه مالٌ ولا بنونَ، وأمَّا مَن غيرُ الله فقد تُغنِي هذه الأشياءُ منه؛ ويؤخَذُ ذلك من قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾[٢].

٣- الكفرُ ملَّةٌ واحدةٌ، والكفَّار المتأخِّرون كالكفَّارِ السَّابقينَ؛ لأنَّ سنَّةَ اللهِ تعالى في الخَلْق واحدةٌ، فليس بينه وبين الخَلْق نسَبٌ يراعيه ويُحابي مَن يتَّصلُ به، وليس لأحدٍ على اللهِ، ولا له شفاعةٌ، إلَّا بالإيمانِ الصَّحيحِ؛ كما في قوله: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ...﴾[٣].

٤- في قوله: ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ ردٌّ على الجَبْريَّةِ الَّذين لا ينسُبون فِعْلَ العبدِ إليه؛ فاللهُ قد أضاف الذُّنوبَ إليهم، والفِعلُ لا يُنسَبُ إلَّا لِمَن قام به حقيقةً[٤].

٥- في قولِه تعالى: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ...﴾ بيانُ أنَّ سُنَّةَ اللهِ في المكذِّبين بآياتِه يُجريها حيث يَشاءُ، فلا أمانَ لمكذِّبٍ، ولا ضمانَ لجاحدٍ، وهو مَثَلٌ مضى في التَّاريخِ مَكرورًا، وقصَّه اللهُ في هذا الكتاب تفصيلًا[٥].

٦- كمالُ العذابِ هو أنْ يَزولَ عنه كلُّ ما كان منتفعًا به، ثمَّ يجتمع عليه جميعُ الأسبابِ المؤلِمة؛ فالأوَّلُ هو المرادُ بقوله تعالى: ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾؛ فإن المرءَ عند الشِّدَّة يفزَعُ إلى المالِ والولَدِ؛ لأنهما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٦٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٦٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٦٩)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٣٧١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٦١).
(٥) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٣٧٢).

أقربُ الأمورِ الَّتي يفزَعُ إليها في دفعِ النَّوائب، فبيَّن تعالى أنَّ صفةَ ذلك اليوم مخالِفةٌ لصفةِ الدُّنيا، وإذا تعذَّر عليه الانتفاعُ بالمالِ والولَدِ، وهما أقربُ الطُّرقِ، فما عداه بالتَّعذُّرِ أَوْلى، وأمَّا الثَّاني مِن أسباب كمال العذابِ، وهو اجتماعُ الأسباب المؤلِمة، فهو المرادُ بقوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾، وهذا هو النِّهايةُ في العذاب؛ فإنَّه لا عذابَ أعظمُ مِن أنْ تشتعلَ النَّارُ فيهم كاشتعالِها في الحطَبِ اليابس[1].

٧- خَصَّ اللهُ آلَ فِرْعون بالذِّكْرِ- من بين بقيَّةِ الأُمَم- في قوله: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾؛ لأنَّ هلاكَهم معلومٌ عند أهلِ الكتاب، بخلاف هلاكِ عادٍ وثمودَ؛ فهو عند العربِ أشهرُ، وقدَّمهم؛ لأنَّهم أكثرُ الأُممِ طغيانًا، وأعظمُهم تعنُّتًا على أنبيائِهم، فكانوا أشدَّ الناسِ عذابًا[2].

بَلاغةُ الآيتين:

١- قوله تعالى: ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا﴾:

- فيه تقديمُ ﴿أَمْوَالُهُمْ﴾ على ﴿أَوْلَادُهُمْ﴾ من باب تقديم الأنسب؛ لأنَّ بالأموالِ قوامَ ما بعدَها، وتمام لذَّاته[3]، وأيضًا لَمَّا كان المالُ في بابِ المدافعةِ والتقرُّبِ والفتنةِ أبلغَ مِن الأولاد، قُدِّم في هذه الآية[4].

- والتأكيدُ بإعادة النافي ﴿وَلَا﴾؛ ليفيدَ النَّفي عن كلِّ حالةٍ وعن المجموعِ؛ فيكونَ أصرحَ في المرام[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٥٢)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ١٩٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٥٣- ١٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٧٥).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٥٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٤).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٥٣).

- وفيه إيجازٌ بالحذفِ في قوله تعالى: ﴿مِنَ اللهِ شَيْئًا﴾؛ لدلالةِ الكلامِ عليه، والتقدير: (من عَذابِ الله)، فحُذف المضاف، أو تكون ﴿مِنْ﴾ بمعنى (عندَ)، أي: (لن تُغني عندَ اللهِ شيئًا)[١].

٢- في قوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾: جِيءِ بالإشارة (أُولئِك)؛ لاستحضارهم كأنَّهم بحيث يُشارُ إليهم، وللتنبيهِ على أنَّهم أحرياءُ بما سيأتي من الخبَر، وهو قوله: ﴿هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾[٢].

- وعُطفتْ هذه الجملةُ بالواو، ولم تُفصَل؛ لأنَّ المرادَ مِن التي قبلها الوعيدُ في الدنيا، وهذه في وعيدِ الآخِرة بقرينةِ قوله بعدها: ﴿سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾[٣] [آل عمران: ١٢].

- وفيه التأكيدُ بضَمير الفصل ﴿هُمْ﴾[٤].

٣- قوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾: تشبيهٌ، وقد صرَّح فيه بذِكر أداة التَّشبيه[٥]، وفي كيفيَّة التشبيهِ وجوه؛ منها: أنَّ جِدَّهم واجتهادَهم في تكذيبِهم بمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، وكُفرِهم بدِينه كدأبِ آل فِرعون مع موسى عليه السَّلام، ثم إنَّا أهلكْنا أولئك بذُنوبهم، فكذا نُهلِك هؤلاء، وقيل غير ذلك[٦].

- وهذا إخبارٌ غَرضُه التخويفُ لهم، والوعيدُ بعذاب الدنيا؛ لعِلمهم بما حلَّ بآل فرعون والذين من قَبل آل فِرعون من الأُمم الكافِرة[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٥٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٧٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١٧٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤١).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٣، ٤٠).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٧٥).
(٧) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٢٤١)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٨٨-٢٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٧٣).

٤- قوله تعالى: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾: بيانٌ وتفسيرٌ لدأبهم الذي فعَلوا، على طريقِ الاستئنافِ المبنيِّ على السؤالِ، كأنَّه قيل: كيف كان دأبُهم؟ فقيل: كذَّبوا بآياتنا[١].

- وفي قوله: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾، ثم قوله بعد ذلك: ﴿وَاللهُ شَدِيدُ العِقَابِ﴾: التفاتٌ؛ فالتكلُّم أولًا ﴿بِآيَاتِنَا﴾ للجَريِ على سَنَنِ الكبرياءِ، وإلى الغَيبة ثانيًا بإظهار الجلالة (الله)؛ لتربية المهابةِ وإدخالِ الرَّوعة[٢].

٥- قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾: التعبيرُ بالأخْذ فيه مبالغةٌ في شِدَّة عذابهم؛ كأنَّ مَن يُنزل به العقابَ يَصير كالمأخوذِ المأسورِ الذي لا يَقدِر على التخلُّص[٣].

- وإظهارُ الاسمِ الشَّريفِ ﴿اللهُ﴾ وعدمُ إضمارِه في قوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللهُ﴾؛ للتهويلِ، وللتنبيهِ على باهِر العظمة. وإظهارُه كذلك في قوله: ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾؛ للتنبيهِ على زِيادة العظمةِ في عذابِهم لمزيد اجترائهم[٤].

- ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾: إنْ أُريد بها تكذيبُهم بالآيات، فالباء للسببيَّة؛ جِيء بها تأكيدًا لِمَا تُفيده الفاءُ من سببيَّة ما قبلَها لِمَا بعدَها، وإنْ أُريد بها سائرُ ذنوبهم فالباء للملابسة؛ جِيء بها للدَّلالةِ على أنَّ لهم ذنوبًا أُخَر، أي: فأخَذَهم متلبِّسين بذُنوبهم غيرَ تائبين عنها[٥].

- ﴿واللهُ شَدِيدُ العِقَابِ﴾: تذييلٌ مقرِّر لمضمونِ ما قبله من الأخْذ، وتكملةٌ له، وفيه: تهويلٌ للمؤاخذةِ، وزيادةُ تخويفٍ للكَفرة[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٥٤).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٦٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١١).

(٦) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١١).

الآيتان: (١٢ - ١٣)

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ
١٢ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ
كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ١٣ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿تُحْشَرُونَ﴾: تُجمَعون؛ والحشرُ: الجمعُ مع سَوْق، والبعثُ والانبعاثُ، وكل جمعٍ حَشْرٌ، أو الجمعُ بكثرة[1].

﴿الْمِهَادُ﴾: الفِراشُ، أو المكانُ الممهَّد المُوطَّأ[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يُخبِرَ الكافرين بأنَّهم سيُغلَبون من قِبَلِ المؤمنين في حياتِهم الدُّنيا، وأنَّهم سيُجمَعون يومَ القيامة إلى نارِ جهنَّمَ؛ فهي الفِراشُ الَّذي فرَشوه لأنفسِهم، فبئس الفِراشُ.

ثم يقول تعالى: قد كان لكم علامةٌ ودلالةٌ واضحةٌ في أنَّ الغَلَبَةَ تكونُ للمؤمنين، وأنَّ النَّصرَ حليفُهم، وأنَّ اللهَ مُعزٌّ دِينَه، ومؤيِّدٌ رسولَه، هذه العلامةُ والدَّلالة متمثِّلةٌ في طائفتينِ تَقاتَلَتا، إحداهما مؤمنة تُقاتِلُ في سبيل الله، وهم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ومَن معه من المسلمين، والأخرى كافرة، وهم مُشرِكو قريشٍ، وذلك في يوم بدرٍ؛ حيث كان المسلمون يرَوْن الكافرين رؤيةً

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٧، ٣٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٦).

ظاهرةً بأنَّهم ضِعفُهم في العددِ، حتى يحصُلَ لهم التَّوكُّلُ على الله، ويلجؤوا إليه في طلبِ الإعانة، والله يُقوِّي بأسباب نصرِه مَن يشاءُ ممَّن تقتضي الحكمةُ نصرَه أو تأييدَه، وفي ذلك التَّأييدِ للفئةِ المسلمةِ- مع قلَّتِها- عبرةٌ وعِظَةٌ لِمن رُزِق بصيرةً نافذةً وعقلًا كاملًا يوصِلانِه إلى معرفةِ حِكَمِ اللهِ وأفعالِه.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٢)﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ قراءتان:

١- قراءة (سَيُغْلَبُونَ) على معنى أنَّ الكُفَّارَ غُيَّبٌ.

وقيل معناه: قلْ لليهود: سيُغلبُ مُشرِكو العربِ، ويُحشرون إلى جَهنَّمَ، فتكونُ المخاطبةُ لليهود، وتكونُ الغلبةُ واقعةً على مُشركي قريش، والتوجيهُ الأوَّل أرجحُ لصريحِ الخِطاب ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾[1].

٢- قِراءة ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ هي أمرٌ من الله لنبيِّه أنْ يُخاطِبَ الكفَّارَ بهذا، أي: قل لهم- يا محمَّدُ- مواجهًا بالخطاب: ستُغلبون وتُحشرون إلى جهنَّمَ[2].

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ﴾.

أي: قُلْ- يا محمَّدُ- للَّذين كفروا: ستُغلَبون من قِبَلِ المؤمنين في الدُّنيا.

(١) قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٨٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٣٨)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٣٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٤٣).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٨٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٣٨)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٣٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٤٣).

كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾، وكما قال: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾[١].

﴿وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿وَتُحْشَرُونَ﴾ قِراءتان:

١- قِراءة (وَيُحْشَرُونَ) بالياء، على لفظِ الغَيبة[٢].

٢- قِراءة ﴿وَتُحْشَرُونَ﴾ بالتَّاء بالخِطابِ[٣].

﴿وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ﴾.

أي: وتُجمَعون يَومَ القِيامةِ إلى النَّار[٤].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٧٢).

(٢) قرأ بها حمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٨٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٣٨)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٣٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٤٣).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٨٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٣٨)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٣٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٧٣).
ولَمَّا كان الأمرُ كما أخبَر به اللهُ تعالى مِن كونِهم غُلبوا في الدُّنيا، وشاهَد ذلك الناسُ؛ فهذا يُصدِّق الخبرَ الأخير أنَّهم يُحشرون إلى جهنَّم، وبئس المهاد. ((الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح)) لابن تيمية (١/ ٤١٠).

﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾:

أي: وبئس الفِراشُ جهنَّمُ الَّتي تُحشَرون إليها(١).

كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ [الأعراف: ٤١].

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ (١٣)﴾.

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾.

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾.

أي: قد كان لكم(٢) علامةٌ ودلالةٌ على أنَّ الغَلَبَةَ تكونُ للمؤمنين، وأنَّ اللهَ مُعزٌّ دِينَه، وناصرٌ رسولَه، ومُظهِرٌ كلمتَه(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٧٥).

والمخصوص بالذمِّ محذوف؛ لدلالةِ ما قبله عليه، التقدير: وبئس المهادُ جهنمُ، وكثيرًا ما يُحذف لفَهم المعنى. ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٤).

(٢) في المخاطَبين بهذا ثلاثةُ أقوال؛ أحدها: أنهم المؤمنون، رُوي عن ابن مسعود، والحسن. والثاني: الكفَّار، فيكون معطوفًا على الذي قبله، وهو يتخرَّج على قول ابن عبَّاس في الذي قبله. والثالث: أنَّهم اليهود، ذكره الفرَّاء، وابن الأنباري. يُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (١/ ٢٦٢)، واختارَ القول الثالث: أنَّهم اليهود: ابنُ جرير في ((تفسيره)) (٥/ ٢٤١)، وابنُ كثير في ((تفسيره)) (٢/ ١٧).

قال ابنُ عاشور: (والخِطاب في قوله: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ خِطابٌ للذين كفروا، كما هو الظَّاهر؛ لأنَّ المقام للمحاجَّة، فأعقب الإنذار والوعيد بإقامة الحُجَّة؛ فيكون من جملة المقول، ويجوز أن يكونَ الخطاب للمسلمين، فيكون استئنافًا ناشئًا عن قوله: ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾؛ إذ لعل كثرة المخاطبين من المشركين، أو اليهود، أو كليهما، يُثير تعجُّب السامعين من غلبهم، فذكَّرهم الله بما كان يوم بدر)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٤١)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧).

﴿فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾.

أي: في طائفتينِ لقِيَ بعضُهما بعضًا للقتالِ فيما بينهما[١]: طائفةٍ تُقاتِلُ في سبيلِ الله، وهم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ومَن معه من المسلِمين، وطائفةٍ كافرةٍ، وهم مُشرِكو قُريشٍ، وذلك يومَ بَدْرٍ[٢].

كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾.

أي: يرَى المسلِمون الكافرين[٣] مثلي عدد المسلمين، رؤيةً ظاهرةً لا لَبْسَ فيها؛ حيث تَلحقُهم أبصارُهم، وإنْ كانوا أكثرَ من ذلك في حقيقةِ الأمر[٤]؛

---

(١) لا خِلافَ بين المفسِّرين أنَّ الإشارةَ بهاتين الفِئتين هي إلى يوم بدر. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٢٥).

قال ابنُ عاشور: (والالتقاء: اللِّقاء، وصِيغة الافتعال فيه للمُبالغة، واللقاء مصادفةُ الشخص شخصًا في مكان واحد، ويُطلق اللِّقاءُ على البروزِ للقتال كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾ [الأنفال: ١٥]... وهذه الآية تحتمل المعنيين) ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٣).

(٣) وهذا اختيار ابن جرير في ((تفسيره)) (٥/ ٢٥١)، والواحدي في ((التفسير الوسيط)) (١/ ٤١٧)، والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ١٢٣)، وابن عثيمين في ((تفسير سورة آل عمران)) (١/ ٧٩).

وقيل: رأى الكفَّارُ المسلمينَ يومَ بدرٍ عندَ اللِّقاءِ والتَّلاحمِ مِثْلي عددِهم، فوقَع الرُّعبُ في قلوبِهم. وممن اختاره ابنُ عاشورٍ في ((تفسيره)) (٣/ ١٧٧)، والشنقيطيُّ في ((العذب النمير)) (٥/ ٧١).

(٤) قال ابن كثير: (ما الجمعُ بين هذه الآية وبين قوله تعالى في قصَّة بدر: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٤]؟ =

ليتوكَّلوا على اللهِ، ويَطلُبوا منه الإعانةَ(١).

﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

أي: واللهُ يُقوِّي بنَصرِه مَن يشاء ممَّن تَقتضي الحِكمةُ نَصْرَه أو تأييدَه(٢).

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾.

أي: إنَّ في تأييدِنا الفئةَ المسلِمةَ- مع قلَّتِها في العدَدِ- على الفئةِ الكافرة- مع كثرتها في العدَدِ- لَمُعتبَرًا ومتَّعظًا لِمَن له بصيرةٌ وفهمٌ يَهتدي به إلى حِكَمِ اللهِ وأفعالِه، وقَدَرِه الجاري بنصرِ عباده المؤمنين في هذه الحياة الدُّنيا، ويومَ يقومُ الأشهادُ(٣).

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- في قوله: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ...﴾ دليلٌ على أنَّه لو رجَع المسلِمون إلى دِينهم حقًّا في العقيدةِ والقولِ والعملِ والأخلاقِ والآداب، وجميعِ أمور

= والجواب: أنَّ هذا كان في حال، والآخَر كان في حال أخرى، فعندما عاين كلُّ الفريقين الآخَرَ رأى المسلمون المشركين مِثليهم، أي: أكثر منهم بالضِّعف؛ ليتوكَّلوا ويتوجَّهوا ويَطلُبوا الإعانةَ من ربهم عزَّ وجلَّ. ورأى المشركون المؤمنين كذلك؛ ليحصلَ لهم الرعبُ والخوفُ، والجزع والهلع، ثم لَمَّا حصَل التصافُّ والْتقى الفريقان قلَّل الله هؤلاء في أعين هؤلاء، وهؤلاء في أعين هؤلاء؛ ليُقْدِم كلٌّ منهما على الآخَر)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (/ ٢٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (١/ ٤٣٨).

قال الواحديُّ: (ترى الفئةُ المسلمة الفئةَ الكافرة، ﴿مِثْلَيْهِمْ﴾، وهم كانوا ثلاثةَ أمثالهم، ولكن الله أرَى المسلمين أنَّ المشركين لا يَزيدون عن مثليهم؛ وذلك أنَّ الله كان قد أعلمَ المسلمين أنَّ المئة منهم تغلب المِئتين من الكفَّار، فأراهم المشركين على قدْر ما أعلَمهم أنَّهم يَغلبونهم لتقوى قلوبُهم) ((التفسير الوسيط)) (١/ ٤١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (/ ٢٥٣، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٨٠-٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨).

الدِّين، لحصَلَتْ لهم الغَلَبَةُ على الكفَّار، ويَشهَدُ لهذا تاريخُ المسلِمينَ؛ حيث ملَكوا مشارِقَ الأرضِ ومغاربَها[١].

٢- يُؤخَذُ من قولِه: ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أنَّ القتالَ لا يكون سببًا للنصرِ إلَّا إذا كان في سبيلِ الله؛ إخلاصًا، وموافقةً للشَّرع، واجتنابًا للمحارِم، فإذا تمَّتْ هذه الأمورُ الثَّلاثةُ، فهذا هو الَّذي في سبيلِ الله[٢].

٣- إذا كان القتالُ في سبيلِ الله، توجَّهَتْ إليه النَّفسُ بكلِّ ما فيها من قوَّةٍ وشُعورٍ، وما تستطيعُه من تدبيرٍ واستعدادٍ، مع ثقةٍ قويَّةٍ بأن وراءَ قوتها معونةَ اللهِ وتأييدَه[٣].

٤- النَّصرُ ليس بكثرةِ العَدَدِ، ولا بقوَّة العُدَدِ، ولكنَّه من الله؛ لأنَّ اللهَ لَمَّا ضرَب هذا المَثَلَ قال: ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾[٤]؛ فالنَّاظرُ إلى مجرَّدِ الأسبابِ الظَّاهرة يجزم بأنَّ غلَبَةَ الفئةِ القليلة للفئة الكثيرة مِن المُحالات، ولكن وراءَ هذا السَّبب المُشاهَدِ بالأبصار، سببٌ أعظمُ منه، لا يُدرِكُه إلَّا أهلُ البصائر والإيمانِ والتَّوكُّلِ، وهو نصرُ اللهِ، وإعزازُه لعباده المؤمنين[٥].

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ فيه إرشادٌ إلى أنْ نَعتبرَ بأحوالِ المتقدِّمينَ علَيْنا مِن هذِه الأمَّةِ، كما نعتبِر أيضًا بأحوالِ مَن قَبلَها مِن الأُمَم؛ فاللهُ تعالى لَمَّا ذكَرَ قِصَّةَ فرعونَ، قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٧٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ١٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٨٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٣).

(٦) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٢٦).

٦- انتفاءُ العِبرةِ يدلُّ على ضَعْفِ البَصيرةِ أو عدَمِها بالكلِّيَّةِ، فإذا وجَد الإنسانُ من نفْسِه عدمَ اعتبارٍ واتِّعاظٍ بما يجري، فليعلَمْ أنَّه ضعيفُ البَصيرةِ؛ لقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾[1].

٧- وعْدُ اللهِ بهزيمة الكافرين المنحرِفين عن منهجِ الله، قائمٌ في كلِّ لحظةٍ، ووعْدُ الله بنصرِ الفئةِ المؤمنة- ولو قلَّ عددُها- قائمٌ كذلك في كلِّ لحظةٍ؛ كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ﴾[2].

٨- في قوله: ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ دليلٌ على أنَّ توقُّفَ النَّصرِ على تأييدِ اللهِ الَّذي يعطيه مَن يشاءُ، حقيقةٌ قائمةٌ لم تُنسَخْ، وسُنَّةٌ ماضيةٌ لم تتوقَّفْ، فعلى المؤمنين أنْ يطمئنُّوا لهذه الحقيقةِ، ويثِقوا في ذلك الوعدِ، ويَأْخُذوا للأمْرِ عُدَّتَه، ويَصبِروا حتى يأذَنَ اللهُ، وألَّا يَستعجلوا أو يَقنَطوا إذا طال عليهم الأمدُ المُغيَّبُ في عِلمِ اللهِ[3].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- من قولِ الله تعالى لرسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ﴿قُلْ﴾ يُعلَم أنَّه عبدٌ تُوجَّه إليه الأوامرُ؛ فهو عبدٌ لا يُعْبَد، ورسولٌ لا يُكَذَّب[4].

٢- ضَرْبُ الأمثالِ بالأمورِ الواقعةِ أبلغُ في التَّصديقِ والطُّمأنينةِ، فينبغي للواعظِ والدَّاعي إلى اللهِ عزَّ وجلَّ أنْ يضرِبَ المَثَلَ للمدعوِّين بالأمورِ الواقعة؛ لأنَّ ذلك أبلغُ، يؤخَذُ ذلك من قوله: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا﴾[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٨٤).
(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٣٧٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٧٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٧٤).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٨١).

٣- لا أُلفةَ بين المؤمنين والكافرين؛ لقوله: ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾، فمَن حاوَل أنْ يجمَعَ بين المؤمنين والكافرين، فقد حاوَل الجمعَ بين النَّارِ والماء[١].

٤- الرَّدُّ على الجَبْريَّةِ في قولِه: ﴿تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فأضاف الفِعلَ إليها[٢].

بَلاغَةُ الآيتين:

١- قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾:

- استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ للانتقال من النِّذارة إلى التهديد، ومِن ضَرب المَثل لهم بأحوالِ سَلفِهم في الكُفر إلى ضربِ المَثل لهم بسابقِ أحوالهم المؤذِنة بأنَّ أمرَهم صائرٌ إلى زوال، وأنَّ أمْر الإسلام ستندكُّ له صُمُّ الجبال[٣].

- وجِيء في هذا التهديدِ بأطنبِ عِبارةٍ وأبلغِها؛ لأنَّ المقام مقامُ إطناب؛ لمزيد الموعظةِ، والتذكير بوصْف يومٍ كان عليهم، وهم يَعلمون هذا اليومَ، وهو يومُ بدرٍ[٤].

- وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾: فيه العدولُ عن الضَّمير (لـهُم) إلى الاسم الظَّاهِر ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ لاستقلالِ هذه النِّذارة، وللإفصاحِ عن التَّشنيعِ بهم في هذا الإنذارِ؛ حتى يُعادَ استحضارُ وصْفِهم بالكفر بأصرحِ عبارة[٥]، وأيضًا لكون ما سيَذكره بَعدَه مُرتَّبًا على هذه الصِّفة.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٨٤)، فالجَبْريَّةُ يقولون: إنَّه لا يُضافُ الفِعلُ إلى الفاعل إلَّا على سبيل المجاز، كما نقول: أكلتِ النَّارُ الحطَبَ.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٧٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١٧٥) (٩/ ٣٤٢). =

٢- قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾:

- ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ فيه تأكيدٌ؛ لأنَّه جوابُ قسمٍ محذوفٍ، وهو من تمامِ القولِ المأمورِ به؛ جيءَ به لتقريرِ مَضمونِ ما قَبْله وتحقيقِه[١].

- وتقديمُ الظَّرْف ﴿لَكُمْ﴾ على فاعلِ كان ﴿آيَةٌ﴾؛ للاعتناءِ بما قُدِّم، والتشويقِ إلى ما أُخِّر- على القول بأنَّ ﴿كَانَ﴾ تامَّةً- وتركُ تأنيثِ الفعل فلم يقُلْ: (كانت)؛ لأنَّ ﴿آيَةٌ﴾ تأنيثُها غيرُ حقيقيٍّ، وقيل: ردَّها إلى البيان، أي: قد كانَ لكم بيانٌ، فذَهَب إلى المعنى وترَك اللَّفظَ، ويجوزُ أنْ تكونَ ﴿كَانَ﴾ ناقصةً، والظرفُ ﴿لَكُمْ﴾ خبرٌ، ولتوسُّطه بينَ ﴿كَانَ﴾ وبين اسمِها ﴿آيَةٌ﴾ تُرِك التأنيثُ[٢].

- وفيه من لطائفِ البَلاغة: الاحتباكُ، وذلِك في قوله تعالى: ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾؛ حيث حذَف مِن كلِّ جملةٍ من الجُملتين المتقابلتين شيئًا إيجازًا، وذكَر في الجملةِ الأخرى ما يدلُّ عليه، والتقدير: فِئَةٌ مؤمنةٌ تُقاتِلُ في سبيل الله، وفِئةٌ أُخرى كافرةٌ تُقاتِل في سبيلِ الشَّيطان[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾:

= وهذا الوجه بناءً على القولِ بأنَّ المراد بقوله: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هم المذكورون في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ...﴾، أمَّا على القول بأنَّ المراد بهم المشركون خاصَّةً، فليس فيه هذا الوجه.

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٦٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٦٦).

- فيه إيثارُ صِيغة الجمعِ في قوله تعالى: ﴿يَرَوْنَهُمْ﴾؛ للدَّلالة على شُمول الرؤيةِ لكلٍّ واحدٍ من آحاد الفئة.

- وفيه تأكيدٌ بالمصدر المؤكَّد ﴿رَأْيَ﴾، وهو نص في أنَّ الرؤية بَصَريَّةٌ[1]، والقاعدةُ أنَّ التأكيدَ بالمصدر يَنفي احتمالَ المجاز[2].

- وقوله: ﴿رَأْيَ العَيْنِ﴾ فيه احتراسٌ؛ لئلَّا يُعتقد أنَّه من رُؤيةِ القَلْبِ[3].

٤- قوله: ﴿لَعِبْرَةً﴾: التنكيرُ للتَّعظيم، أي: عِبْرة عظيمة، وموعِظة جسيمة[4].

---

(١) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٥٣).
(٢) ينظر ((قواعد التفسير)) لخالد السبت (١/ ٤٥٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٤).
(٤) يُنظر: ((فتح البيان في مقاصد القرآن)) لصديق حسن خان (٢/ ١٩٦).

الآيات: (١٤ - ١٧)

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿الْقَنَاطِيرِ﴾: جمْع قِنطار، وقد اختُلِف في حدِّه على أقوالٍ، وجملةُ القولِ: أنَّه عددٌ كثيرٌ مِن المال(١).

﴿الْمُقَنْطَرَةِ﴾: المضاعَفة، أو المضعَّفة، أو المكمَّلة(٢).

﴿الْمُسَوَّمَةِ﴾: أي: الرَّاعيةِ- مِن السَّوم وهو الرَّعي- أو المعلَّمة بالعَلاماتِ الحِسان- من السِّمة والتَّسويم، أو المطَهَّمة، أي: الـمُحسَّنة، أو المرسَلة وعليها رُكبانُها، أو المعلَّمة في الحَرْبِ بالعَلامةِ، وأصلُ (سوم): طلب الشَّيء(٣).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٦٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣).

﴿الْمَآبِ﴾: المرجِع، مِن آبَ يَؤُوب أَوْبًا، إذا رجَع(١).

﴿الْقَانِتِينَ﴾: الخاضِعين، الـمُداومين على طاعةِ الله، والقُنوت: دوامُ الطَّاعة ولزومُها مع الخضوع؛ وأصل (قنت): يدلُّ على طاعةٍ وخيرٍ في دِين، ثم سُمِّي كلُّ استقامةٍ في طريقِ الدِّينِ قنوتًا(٢).

﴿بِالأَسْحَارِ﴾: جمْع سَحَر، وهو آخِرُ اللَّيلِ ومُقدِّمةُ الصُّبح(٣).

المَعنَى الإجماليُّ:

بعدَ أنْ بيَّن تبارَك وتعالَى عقوبةَ الكافرين، وأنَّهم لن تُغنيَهم أموالُهم ولا أولادُهم مِن عذابِ اللهِ وغضَبِه، حذَّر أهلَ الإيمان من أنْ تُلهيَهم زينةُ الدُّنيا وشهواتُها عن الآخرةِ، فذكَر أنَّه زُيِّن للنَّاسِ محبَّةُ عددٍ مِن المشتهَياتِ؛ كالنِّساءِ، والبنينَ، وأنواعِ الأموال، وكلُّ هذه المُشْتَهيات ممَّا يُستمتَعُ به في الدُّنيا مِن زينتِها المنتهيَةِ بالزَّوالِ، وعند الله سبحانه حُسْنُ المرجِعِ والثَّوابِ.

ثمَّ أمَر الله نبيَّه أنْ يخبِرَ المؤمنين أنَّ هناك خيرًا من هذه الشَّهواتِ الدُّنيويَّة الزَّائلة، وهي الجنَّاتُ والنَّعيم المُقيم، وما فيها من المنازل الرَّفيعةِ، والأنهار الجارية، والأزواج المُطهَّرة، وأنَّ هذا النَّعيم دائمٌ ليس بمنقطعٍ؛ فهم خالدون فيها خلودًا أبديًّا، مع أكبرِ نعيمٍ وأعظَمِه، وهو الرِّضا من الله تعالى؛ فاللهُ تبارَك وتعالَى بصيرٌ بعَبادِه كلِّهم، فيُجازي كلَّ واحدٍ بما يستحقُّ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٢، ٤٧٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٤ - ٦٨٥)، ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٥ وما بعدها)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤١١)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٣/ ٢٠٠).

ثم بيَّن اللهُ تبارَك وتعالَى أحوالَ المتَّقين الَّذين يستحقُّون هذا النَّعيم، وعدَّد أوصافَهم، فذكَر أنهم هم الَّذين يتوسَّلون إلى اللهِ تبارَك وتعالَى بإيمانِهم به وبكتابِه وبرسولِه أنْ يَمُنَّ عليهم بمغفرةِ الذُّنوبِ، والوقايةِ من عذاب النَّارِ، ثمَّ ذكَر من صفاتهم الصَّبرَ، والصِّدقَ، والقنوت، والإنفاق، والاستغفار في أوقات السَّحَرِ؛ حيث وقتُ النُّزول الإلهيِّ، في ثُلُث اللَّيل الآخِرِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى في الآياتِ السَّابقة عاقبةَ الكافرين، وأنَّهم لم تُغنِ عنهم أموالُهم ولا أولادُهم، وعَظ وحذَّر مِن أنْ تُلهيَ زينةُ الدُّنيا وشهواتُها عن الآخرةِ[1]، فقال:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾.

أي: زيَّنَ اللهُ[2] تعالى للنَّاسِ محبَّةَ المشتهَيات؛ من النِّساءِ، والذُّكورِ من

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٧٨).

(٢) وعليه عامَّة المفسِّرين. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (١/ ٣٠٠). وقد أخرج البخاري معلقًا مجزومًا به قبل حديث (٦٤٤١): أنَّ عُمر رضي الله عنه قال: (اللَّهمَّ إنَّا لا نَستطيع إلَّا أنْ نفرح بما زَيَّنْته لنا، اللَّهُمَّ إنِّي أسألُك أنْ أُنفِقَه في حَقِّه). وينظر ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٥٤).
ومعنى تزيينِ الله، أي: بالإيجادِ، والتهيئةِ للانتفاعِ، وإنشاءِ الجبلَّة على الميلِ إلى هذه الأشياء. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٢٨).
والله تعالى يُزيِّنها ابتلاءً واختبارًا؛ لأنَّه لولا تزيين هذه الأشياء في قلوب الناس ما عُرِفَ =

الأولاد، والمال الكثير المتضاعف[١]؛ من الذَّهب والفضَّةِ والخيل الرَّاعية[٢]، والإبل والبقَر والغَنَم، والأرض المتَّخذة للزِّراعة[٣].

﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

أي: جميعُ ما ذُكِر من النِّساء والبنين، والقناطير المقنطَرة مِن الذَّهب والفضَّة،

= المؤمن حقًّا، فإنَّ قَوِيَّ الإيمان لا يقدِّمها على محبة الله عزَّ وجلَّ، ففي حديث السبعة الذين يظلُّهم الله في ظله يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه: ((ورجلٌ دعتْه امرأةٌ ذات مَنْصب وجمال، فقال: إنِّي أخاف الله)). يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٨٥).

(١) وممَّن قال بهذا القول من السَّلف: الرَّبيع بن أنس، وقَتادة، والضحَّاك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٥٩).

وقد اختلف المفسِّرون في مقدار القِنطار على أقوال، وذكر بعضُ أهلِ العِلْم بكلامِ العربِ أنَّ العرب لا تحدُّ القنطار بمقدارٍ معلوم، فالصوابُ أن يُقال: هو المالُ الكثيرُ من غيرِ تحديدٍ لمقداره. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٩).

(٢) وممَّن فسَّر المسوَّمة بالرَّاعية: ابن عبَّاس، وسعيد بن جُبَير، وعبد الله بن عبد الرحمن بن أَبْزَى، والسُّدِّي والربيع بن أنس، وأبو سنان، والحسن، ومجاهد، وعكرمة، وغيرهم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٦١)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٦١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢١).

وقيل: معنى المسوَّمة: المُعلَّمةُ بالشِّيَات، الحِسانُ، ورجَّحه ابن جرير، واستبعَد قولَ مَن قال: إنَّها تعني: المعدَّة في سبيل الله. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٦٥).

وقال القرطبي بعد أن ذكر الأقوال فيها: (كلُّ ما ذُكِر يحتمله اللفظ، فتكون راعيةً معدَّة حسانًا معلَّمة؛ لتُعرَف من غيرها) ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٩)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٨٤- ٨٩).

قال ابن القيِّم: (أخبَر سبحانه أنَّ هذا الذي زَيَّن به الدنيا من ملاذِّها وشهواتها، وما هو غايةُ أماني طُلَّابها ومُؤثِريها على الآخِرة، وهو سَبعةُ أشياء: النساء اللاتي هنَّ أعظمُ زِينتها وشهواتها وأعظمُها فِتنةً، والبنين الذين بهم كمالُ الرجل وفخرُه وكرمُه وعِزُّه، والذهب والفضة، اللَّذين هما مادَّة الشهوات على اختلافِ أجناسِها وأنواعها، والخيل المسوَّمة التي هي عزُّ أصحابها وفخرُهم وحُصونُهم وآلة قَهرِهم لأعدائهم في طلبِهم وهربهم، والأنعام التي منها رَكوبُهم وطعامهم ولباسهم وأثاثهم وأمتعتهم، وغير ذلك من مصالحهم، والحَرْث الذي هو مادَّة قوتِهم وقُوت أنعامهم ودوابِّهم وفاكهتهم وأدويتهم، وغير ذلك) ((عدة الصابرين)) (ص ١٦٧).

والخيلِ المسوَّمة، والأنعام والحَرْث، ممَّا يُستمتَعُ به في الدُّنيا، وهو مع قلَّتِه إلى زوالٍ[1].

﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾.

أي: والله عنده حُسنُ المرجعِ[2] إلى جنَّات تجري من تحتها الأنهارُ، وإلى أزواجٍ مُطهَّرةٍ، ورضوانٍ من الله، وذلك للَّذين اتَّقَوا ربَّهم[3].

﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى متاعَ الدُّنيا، شوَّق عبادَه إلى متاعِ الآخرةِ[4] فقال:

﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ﴾.

أي: قُلْ- يا محمَّدُ- للنَّاس: أأُخبِرُكم وأُعلِمُكم بخيرٍ وأفضلَ ممَّا زُيِّن لكم في هذه الحياةِ الدُّنيا[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٦٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٩٠).

(٢) فإنْ قيل: كيف يكون: ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ وعنده يومئذٍ عذابٌ أليمٌ، وعقاب شديد؟ فالجواب: أنَّ ذلك لفئةٍ خاصَّةٍ من الناس، وهم المتَّقون، فيكون المعنى: والله عنده حُسنُ المآب للذين اتقوا ربَّهم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢).

(٤) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيِّم (ص: ١٦٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٦٨، تفسير ابن كثير٢/ ٢٢)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٩٥).

قال ابنُ جرير: (اختلف أهلُ العربية في الموضع الذي تَناهَى إليه الاستفهامُ من هذا الكلام... وأَوْلى هذه الأقوال عندي بالصَّواب: قول مَن جعَل الاستفهام متناهيًا عند قوله: ﴿بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ﴾، والخبر بعده مبتدأ عمَّن له الجنات بقوله: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ﴾ فيكون =

﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾.

أي: للَّذين خافوا اللهَ فأطاعوه؛ بأداء فرائضِه، واجتنابِ معاصيه: عند ربِّهم جنَّاتٌ كثيرةٌ ومتنوِّعة، تجري من تحتِ أشجارِها وقصورِها، ومن أرجائِها أنهارُ العسَلِ واللَّبَنِ والخمرِ والماءِ، وغير ذلك، ماكثين فيها أبدَ الآبادِ، لا يذوقون فيها الموتَ[1].

﴿وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾.

أي: ولهم أزواجٌ من نِساء الجنَّةِ، اللَّواتي طهُرْنَ مِن كلِّ أذًى؛ مِن الحَيضِ، والمنِيِّ، والبولِ، والنِّفاس، ومن مساوئِ الأخلاق، وآفاتِ القلبِ واللِّسانِ والجوارحِ، وغير ذلك من كلِّ عيبٍ ظاهرٍ وباطنٍ ممَّا يعتري نساءَ أهلِ الدُّنيا[2].

﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ﴾.

أي: ولهم رضًا مِن الله تعالى يُحِلُّه عليهم[3].

وفي الحديثِ عن أبي سعيدٍ الخدريِّ رضِي اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم قال: ((إنَّ اللهَ تبارَك وتعالَى يقولُ لأهلِ الجنَّةِ: يا أهلَ الجنَّةِ، فيقولون: لبَّيْكَ ربَّنا وسعدَيْكَ، فيقولُ: هل رضِيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نَرضَى

= مخرج ذلك مخرج الخبر، وهو إبانة عن معنى الخير الذي قال: أنبئكم به؟ فلا يكون بالكلام حينئذٍ حاجةٌ إلى ضمير)، ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٧٠)، وينظر ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٠١). ويُنظر:((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٠٢).

وقد أعطيتَنا ما لم تُعطِ أحدًا مِن خَلقِك؟! فيقولُ: أنا أُعطيكم أفضلَ من ذلك، قالوا: يا ربِّ، وأيُّ شيءٍ أفضلُ من ذلك؟ فيقولُ: أُحِلُّ عليكم رِضواني، فلا أسخَطُ عليكم بعده أبدًا))[1].

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾.

أي: واللهُ بصيرٌ بكلِّ العباد- مؤمنِهم وكافرِهم، بَرِّهم وفاجرِهم، مُتَّقيهم وعاصيهم- بَصرَ نظَرٍ؛ فلا يغيبُ عن نظَره شيءٌ، وبصَرَ عِلمٍ؛ فلا يعزُبُ عن عِلمه شيءٌ[2]، وإذا كان كذلك جازاهم بما يستحقُّون[3].

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قبلَها:

لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى نعيمَ الآخرة، وأنَّه بصيرٌ بمَن يستحقُّ ما أعدَّ مِن الفوز العظيمِ، والنَّعيم المُقيم، ذكَر مَن يستحقُّ هذا النَّعيمَ، ومَن هم أهله الَّذين هم أَولى به، وما استحقُّوا ذلك به من الأوصاف، تفضُّلًا منه عليهم بها، وبإيجابِ ذلك على نفسِه؛ حثًّا لهم على التَّخلُّقِ بتلك الأوصافِ[4]، ففسَّر أحوالَ المتَّقين الموعودين بالجنَّاتِ[5] فقال:

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾.

أي: هم الَّذين يقولونَ: يا ربَّنا، إنَّنا آمنَّا بك، وبكتابِك وبرسولِك؛ فبسببِ

---

(١) رواه البخاري (٦٥٤٩)، ومسلم (٢٨٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٠٣).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٢٠).

(٤) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيِّم (ص: ١٦٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٧٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤١١).

إيمانِنا، استُرْ ذنوبَنا، ولا تُعاقِبْنا عليها[1].

﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.

أي: ادفَعْ عنَّا عذابَ النَّار، ولا تُعذِّبْنا بها[2].

﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (١٧)﴾.

﴿الصَّابِرِينَ﴾.

أي: على القيامِ بالطَّاعات، وتَرْكِ المحرَّمات، وعلى أقدارِ الله المؤلِمَة[3].

﴿وَالصَّادِقِينَ﴾.

أي: في أقوالِهم وأفعالِهم[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٧٢).

قال ابنُ عثيمين: (والمراد: قِنا العذابَ عند استحقاقنا له، وقِنا العذابَ حتى لا نعملَ العمل الذي يُوصلنا إلى العذاب. ثم هؤلاء إذا هم عمِلوا عمَلَ أهل النار، فالله تعالى يَقيهم ذلك بأمور مُتعدِّدة. وقد ذكر العلماءُ أسباب مغفرة الذنب، فبلغت نحو عشرة أسبابٍ؛ منها: أن يُوفَّق الإنسان للتوبة، فإن تاب الإنسان من الذنب، وقاه اللهُ تعالى عقابَ ذلك الذنب كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]. ومنها الأعمال الصالحة، والصَّدقة، ودُعاء المؤمنين، ومشيئة الله عزَّ وجلَّ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] وغير ذلك)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤١١)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١١٢).

﴿وَالْقَانِتِينَ﴾.

أي: والمطيعين، الذين يُداومون على الطَّاعةِ، مع مُصاحَبةِ الخشوعِ والخُضوعِ للهِ تعالى[1].

﴿وَالْمُنْفِقِينَ﴾.

أي: مِن أموالِهم في جميعِ ما أُمِروا به من الطَّاعاتِ؛ كأداءِ الزَّكاةِ والصَّدقات، وصلةِ الأرحام والقَرابات، ومواساةِ ذوي الحاجاتِ، وغيرِ ذلك مِن الوجوه الَّتي أذِنَ اللهُ لهم بالإنفاقِ فيها[2].

﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾.

أي: السَّائلين المغفرةَ في آخِرِ اللَّيل[3]؛ فهو وقتُ نُزولِ اللهِ عزَّ وجلَّ إلى سماءِ الدُّنيا؛ ففي الحديثِ عن أبي هُرَيرَةَ رضِي اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليهِ وسلَّم: ((يَنْزِلُ ربُّنا تباركَ وتعالى كلَّ ليلةٍ إلى السَّماءِ الدُّنيا، حينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيلِ الآخِرُ، يقولُ: من يَدعوني فأَستجيبَ له، من يَسْأَلُني فأُعْطِيَه، مَن يستغفرُني فأَغْفِرَ له؟))[4].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- التَّزهيدُ في الدُّنيا الفانيةِ الذَّاهبةِ، وفي التَّعلُّقِ بهذه الأشياءِ المذكورةِ في قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ...﴾ والترغيبُ في الباقِي الدَّائمِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١١٥).

(٤) رواه البخاري ١١٤٥ ومسلم ٧٥٨.

والإزراءُ بمَن آثَرَ هذا المزيَّنَ واتَّبَعَه؛ وذلك لقولِه سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، وكلُّ ما كان للدُّنيا فلا ينبغي للإنسانِ أنْ يُتبِعَه نفسَه؛ لأنَّه زائلٌ، إلَّا شيئًا يستعينُ به على طاعةِ اللهِ(١).

٢- في قوله تعالى: ﴿مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ إشارةٌ إلى أنَّ هذه المتعةَ غايتُها الزَّوالُ، فإمَّا أنْ تزولَ عنها، وإمَّا أنْ تزولَ عنك، ولو اجتمَعَتْ كلُّها للمرءِ فما هي إلَّا متاعُ الحياة الدُّنيا، يتمتَّعُ بها الإنسانُ ثمَّ يُفارِقُها أو تُفارِقُه هي(٢).

٣- يُستفادُ مِن قوله: ﴿الدُّنْيَا﴾ أنَّ اللهَ قد أَدْنَى مرتبةَ هذه الأشياءِ؛ ليتنبَّهَ الإنسانُ أنَّها متاعُ الحياة الدُّنيا، فينظُرَ إليها نظرةَ جِدٍّ لا نظرةَ شَهوة، فإذا كان ذلك ينفَعُه في الآخِرةِ، فالنَّظرُ إليه طيِّبٌ ونافعٌ، ويكونُ مِن حَسَنة الدُّنيا والآخرة، أمَّا إذا نظَرَ إليه مجرَّدَ نظَرِ الشَّهوةِ، فإنَّه يُخشى عليه أنْ يُغلِّبَ جانبَ الشَّهوةِ على جانبِ الحقِّ(٣).

٤- في قوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ...﴾ الآيةَ: تسليةٌ للفقراءِ الَّذين لا قُدرةَ لهم على هذه الشَّهواتِ، الَّتي يقدِرُ عليها الأغنياءُ، وتحذيرٌ للمغترِّين بها(٤).

٥- حُسن أسلوبِ التَّعليم والدَّعوة، وأنَّه يَنبغي للإنسانِ في مقامِ الدَّعوة أنْ يأتيَ بالألفاظِ الَّتي تُوجِبُ الانتباهَ والتَّشويقَ؛ كما في قوله: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَٰلِكُمْ﴾(٥).

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٢٠١)، ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص:١٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٩٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٠٤).

٦- يُستفاد من قوله: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ التَّحذيرُ مِن مُخالفةِ أمرِه؛ لأنَّه متى علِم الإنسانُ أنَّ اللهَ بصيرٌ به، فسوف يردَعُ نفسَه عن مخالفة ربِّه؛ لأنَّه إذا خالَف ربَّه فاللهُ بصيرٌ به، وسوف يُجازيه بحسَب مخالَفتِه[1].

٧- ختَم اللهُ الآيةَ بقوله: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾؛ لبيانِ أنَّه ليس كلُّ مَن ادَّعى التَّقوى يكون متَّقيًا، وإنَّما المتَّقي هو مَن يعلَمُ اللهُ منه التَّقوى، وفي ذلك تنبيهٌ وإيقاظٌ للنَّاس لمحاسبةِ نفوسِهم[2].

٨- يدلُّ قولُه تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا...﴾ أنَّ مِن صفاتِ المتَّقين إعلانَهم الإيمانَ باللهِ، واعترافَهم بالعبوديَّة، وعدمَ إعجابِهم بأنفسِهم، واعترافَهم بتقصيرِهم في طلَبِ المغفرةِ من اللهِ[3].

٩- قوله تعالى: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ﴾ في كلِّ صفةٍ من صفاتِ المتَّقين المذكورة تتحقَّقُ سِمةٌ ذاتُ أهميةٍ في الحياة:

- فبالصَّبر يترفَّعُ المؤمنُ على الألَم، ويستعلي على الشَّكوى، وبه يثبُتُ على تكاليفِ الدَّعوة، وأداءِ تكاليف الحقِّ، وبه يُسلِمُ للهِ، ويستسلمُ لِما يُريدُ به من الأمرِ.

- وبالصِّدق يعتزُّ المؤمنُ بالحقِّ، ويترفَّعُ عن الضَّعف؛ فالكذبُ ضَعْفٌ عن كلمةِ الحقِّ؛ اتِّقاءً لضررٍ، أو اجتلابًا لمنفعةٍ.

- وبالقُنوت للهِ يؤدِّي المؤمنُ حقوقَ الألوهيَّة، ويقومُ بواجب العبوديَّة، ويحقِّقُ كرامةَ النَّفسِ بقنوتِه للهِ وحده.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٠٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٠٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١١٦).

- وبالإنفاقِ يتحرَّرُ المؤمنُ من استذلالِ المالِ، ويُعتِقُ نفسَه من رِبقةِ الشُّحِّ، ويُعلِي حقيقةَ الأُخوَّةِ الإنسانيَّة على شهوةِ اللَّذَّةِ الشَّخصيَّة(١).

١٠- في قوله: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ﴾ قُدِّم ذِكْرُ الصَّبر على ما بعده؛ لأنَّه كالشَّرط لها، وبدونه لا يتمُّ صِدقٌ، ولا قنوتٌ، ولا إنفاقٌ، ولا استغفارٌ في الأسحار(٢).

١١- قولُه تعالى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ فيه مشروعيَّةُ ختْمِ الأعمالِ الصَّالحاتِ بالاستغفارِ؛ فإنَّهم قاموا باللَّيلِ وختَموه بالاستغفارِ، وختَم اللهُ تعالى سورةَ المزَّمِّل- وهي سورةُ قيامِ اللَّيلِ- بقولِه تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المزمل: ٢٠]، وكان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا انصرَفَ من صلاتِه استغفَرَ ثلاثًا(٣)، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ إلى قوله: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(٤) [البقرة: ١٩٨-١٩٩].

١٢- خُصِّص وقتَ السَّحَر بالذِّكر في قوله: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾؛ لأنَّ العبادةَ فيه أشدُّ إخلاصًا، وأشقُّ على أهلِ البدايةِ؛ لطِيبِ النَّومِ في ذلك الوقتِ، وأروحُ لأهلِ النِّهايةِ؛ لصفاء النَّفسِ، وفراغِ القلبِ من الشَّواغلِ، ولدَلالتِه على اهتمامِ صاحبِه بأمرِ آخرتِه(٥).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ يدلُّ على أمورٍ ثلاثةٍ مُرتَّبةٍ، أوَّلُها:

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٠٧).

(٣) رواه مسلم (٥٩١).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٩٨) (١١/ ٢٥٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٨٥).

أنَّ المرء يشتهي أنواعَ المشتَهَيات، وثانيها: أنَّه يُحبُّ شهوتَه لها، وثالثها: أنَّه يعتقدُ أنَّ تلك المحبَّةَ حَسَنةٌ وفضيلةٌ، ولَمَّا اجتمعت الدَّرجاتُ الثَّلاثةُ بلغتِ الغايةَ القُصوى في الشِّدَّةِ والقوَّة، ولا يكاد ينحَلُّ ذلك إلَّا بتوفيقٍ عظيمٍ مِن الله تعالى[1].

٢- قوَّة التَّعبير القُرْآني، وأنَّه أعلى أنواعِ الكلام في الكمالِ؛ إذ سلَّط الحبَّ على الشَّهواتِ، لا على ذاتِ الأشياء؛ لأنَّ هذه الأشياءَ حبُّها قد يكون محمودًا[2].

٣- خصَّ اللهُ حُبَّ الذَّكَرِ بالذِّكْرِ دون الأُنثى في قوله: ﴿وَالْبَنِينَ﴾؛ لأنَّ التَّمتُّعَ بهم ظاهرٌ من حيث السُّرورُ والتَّكثُّرُ بهم، إلى غير ذلك[3].

٤- التَّعبيرُ بـ﴿الْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ﴾ يُشعِر بأنَّ الكثرةَ هي مَظِنَّةُ الافتتانِ؛ لاشتغالِ القلبِ بالتَّمتُّعِ بها، واستغراقِ الوقت في تدبيرِها، حتى لا يكاد يَبقَى في قلبِ صاحبِها حاجةٌ إلى طلَبِ الحقِّ، ونُصرتِه في الدُّنيا، والاستعدادِ لِما أعدَّه الله للمتَّقين في الأُخرى[4].

٥- في قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ...﴾ قدَّم ما تعلُّقُ الشَّهوةِ به أقوى، وهو النِّساءُ، الَّتي فِتنتُهنَّ أعظمُ فِتَنِ الدُّنيا، ثمَّ ذكَر البنين المتولِّدين منهنَّ، وكلاهما مقصودٌ له لذاته، ثمَّ ذكر شهوةَ الأموال؛ لأنَّها تُقصَد لغيرها؛ فشهوتها شهوةُ الوسائل، وقدَّم أشرفَ أنواعها، وهو الذَّهب، ثمَّ الفضَّة بعده، ثمَّ ذكر الشَّهوةَ المتعلِّقةَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٨٧).

بالحيوان، الَّذي لا يُعاشَر عِشْرةَ النِّساءِ والأولاد؛ فالشَّهوةُ المتعلِّقةُ به دونَ الشَّهوةِ المتعلِّقة بها، وقدَّم أشرفَ هذا النَّوع، وهو الخيلُ؛ فإنَّها حصونُ القوم، ومعاقِلُهم، وعِزُّهم، وشرفُهم، ثمَّ ذكَر الأنعامَ وقدَّمها على الحرثِ؛ لأنَّ الجَمَالَ بها والانتفاعَ أظهرُ وأكثرُ مِن الحرثِ، وأيضًا فصاحبُها أعزُّ مِن صاحبِ الحرثِ وأشرفُ، وهذا هو الواقعُ؛ فإن صاحب الحرث لا بدَّ له من نوعِ مذلَّةٍ، فجعَل الحرثَ في آخر المراتبِ؛ وَضْعًا له في موضعِه(١).

٦- قوله: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾: العِنديَّةُ هنا: تُفيدُ فضلًا عظيمًا؛ لأنَّها هي القُربُ مِن الله عزَّ وجلَّ؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]؛ فثواب المتَّقين عند اللهِ، والعِنديَّة تُفيد القُرْب، ولا أقربَ مِن شيءٍ يكونُ سقفُه عرشَ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ كالفِرْدَوسِ الأعلى؛ ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾(٢) [القمر: ٥٤-٥٥].

٧- إضافةُ لفظ (رب) إلى ضَميرِ المتَّقين في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ إشعارٌ بفضلِهم، وعنايةِ مَن ربَّاهم بهم، واهتمامِه بشأنهم(٣).

٨- في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ﴾، قد أُلغِي ما يُقابل شهواتِ الدُّنيا في ذِكرِ نعيمِ الآخرةِ؛ لأنَّ لذَّةَ البنين، ولذَّة المالِ هنالك مفقودةٌ؛ للاستغناءِ عنها، وكذلك لذَّةُ الخيلِ والأنعامِ، فبقِي ما يُقابل النِّساءَ والحَرْثَ، وهو الجنَّاتُ

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيِّم ١/ ٨٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٠٤).

والأزواجُ؛ لأنَّ بهما تمامَ النَّعيم والتَّأنُّس- وقيل: نصَّ على أزواج مطهَّرة؛ ليُعرف الفرقُ بين نساءِ الدُّنيا ونساءِ الآخرة- وزِيدَ عليهما رِضوانُ الله، الَّذي حُرِمَه مَن جعَل حظَّه لذَّاتِ الدُّنيا، وأعرَض عن الآخرةِ[1].

٩- عطف ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ﴾ على ما أعدَّ للَّذين اتَّقَوا عند اللهِ؛ لأنَّ رِضوانَه أعظمُ من ذلك النَّعيمِ الماديِّ؛ لأنَّ رضوانَ اللهِ تقريبٌ رُوحانيٌّ؛ قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾[2] [التوبة: ٧٢].

١٠- في قوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾: جوازُ التَّوسُّلِ بالإيمانِ؛ فالفاء هنا للسببيَّةِ، تدلُّ على أنَّ ما بعدَها مُسبَّبٌ عمَّا قبلها[3]، أي: بسببِ إيمانِنا فاغفِرْ لنا؛ لأنَّ الإيمانَ لا شكَّ أنَّه وسيلةٌ للمغفرةِ، وكلَّما قوِيَ الإيمانُ، قوِيَتْ أسبابُ المغفرة، وهذا من بابِ التَّوسُّلِ بالطَّاعةِ لقَبولِ الدُّعاء؛ فهم توسَّلوا إلى اللهِ برُبوبيَّتِه، للإخبارِ بحالِهم في الإيمانِ به، كأنَّهم يقولونَ: ربَّنا آمَنَّا، ولكنَّنا لم نصِلْ إلى الإيمانِ إلَّا برُبوبيَّتِك لنا، تلك الرُّبوبيَّة الخاصَّة المقتضيَة للعنايةِ التَّامَّةِ[4].

١١- في قوله: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ حصرٌ لمقاماتِ السَّالك على أحسنِ ترتيبٍ؛ فإنَّ معاملتَه مع اللهِ تعالى إمَّا توسُّل، وإمَّا طلَبٌ، والتَّوسُّل إمَّا بالنَّفس، وهو منعُها عن الرَّذائلِ، وحبسُها على الفضائل، والصَّبرُ يَشمَلُهما، وإمَّا بالبدنِ، وهو إمَّا قوليٌّ، وهو الصِّدقُ، وإمَّا فِعْليٌّ، وهو القُنوتُ الَّذي هو ملازمةُ الطَّاعة، وإمَّا بالمالِ وهو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٨٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٨/ ٥٠٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٨٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١١٦).
(٤) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٠٨).

الإِنفاقُ في سُبلِ الخيرِ، وأمَّا الطَّلب فبالاستغفارِ؛ لأنَّ المغفرةَ أعظمُ المطالبِ، بل الجامعُ لها(١).

١٢- ختَم اللهُ هذه الأعمالَ العظيمة بذِكْرِ الاستغفارِ في الأسحارِ؛ لِمَا في الاستغفارِ من اعترافٍ بالعجزِ عن القيامِ بالواجب، وذلك هو العُمدةُ في الخَلاصِ(٢).

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ...﴾ الآية استئنافٌ، وفيه مبالغةٌ، حيث عبَّر عن الأعيانِ التي ذَكَرها بالشَّهوات؛ تَخسيسًا لها، ومبالغةً في كونها مشتهاةً، مَحروصًا على الاستمتاعِ بها؛ فقال: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾، ثم جاء بالتفسير، ليقرِّرَ أوَّلًا في النفوس أنَّ المزيَّن لهم حبُّه ما هو إلَّا شهواتٌ لا غيرُ، ثم يُفسِّره بهذه الأجناس، فيكون أقوى لتخسيسها، وأدلَّ على ذمِّ مَن يَستعظمُها ويَتهالَك عليها، ويُرجِّح طلبَها على طلبِ ما عند اللَّه(٣).

٢- قوله تعالى: ﴿وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ﴾: ﴿الْمُقَنْطَرَةِ﴾ مَبنيَّةٌ على وزن (مُفَنْعلة) أو (مُفَعْلَلة) من القِنطار، وهو للتأكيد، حيث اشتقُّوا منها وصفًا للتوكيد؛ فأُريد بها هنا المضاعفةُ المتكاثِرة؛ لأنَّ اشتقاقَ الوَصْف من اسمِ الشَّيءِ الموصوف إذا اشتهَر صاحبُ الاسم بصفةٍ، يُؤذِن ذلك الاشتقاقُ بمبالغةٍ في الحاصلِ به(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٤٢)، ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٦١-٦٢)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٤٣)، ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٦٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٨٢).

٣- قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ بالبعيدِ إلى جميعِ ما تَقدَّم ذِكرُه من الشَّهوات المفسَّر بهذه الأعيان؛ تأكيدًا لتخسيسِه البعيدِ من إخلادِ ذوي الهِممِ إليه؛ ليقطعَهم عن الدَّار الباقية، فأعاد اسمَ الإشارةِ على مُفرَدٍ مُذكَّر، على تقديرِ: ذلِكَ المذكور، فطَوى ذِكرَ هذه السَّبعةِ كلِّها، وكنَّى عنها بالمذكور؛ وذلك لاحتقارِها بالنِّسبة لنعيمِ الآخرة[1]. وقيل: أفرَد كافَ الخِطاب في قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ لأنَّ الخطاب للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أو لغير مُعيَّن، على أنَّ علامةَ المخاطَب الواحد هي الغالبُ في الاقترانِ بأسماء الإشارةِ لإرادة البُعْد، والبُعْد هنا بمعنى الرِّفعةِ والنَّفاسة[2].

٤- قوله: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَٰلِكُمْ﴾ جمَعَ ضميرَ المخاطَب فقال: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ ولم يقُل: (ذلك)؛ لأنَّ المخاطَبَ جميعُ النَّاس، وعظَّمه بأداةِ البُعد وميم الجمْع؛ لعَظمتِه عِندَهم، والزِّيادة في تَعظيم ما يُرشِدُ إليه، والمشار إليه ما سبَق مِن متاع الحياة الدُّنيا بأنواعِها السَّبعةِ، وأُشير إليها بلفظِ المفرَدِ المذكَّر مِن أجلِ طَيِّ ذِكره بشيءٍ واحد، كأنَّه قال: بخيرٍ مِن ذلكم المذكورِ، حتى لا يُشارَ إلى التفصيلِ فيه؛ لأنَّ الدُّنيا كلَّها في الواقعِ ينبغي أنْ يَزهَدَ فيها الإنسانُ، ولا يَحتسبَها شيئًا[3].

٥- قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ خبرٌ فيه تحريضٌ على استبدالِ ما عند الله من اللَّذاتِ الحقيقيَّة الأبديَّة، بالشَّهواتِ الفانية[4].

- وفيه تكريرُ الإسنادِ بجَعْلِ الجلالة ﴿واللهُ﴾ مبتدأً، وإسنادِ الجملة الظرفيَّة إليه؛ زيادةً في التأكيدِ والتفخيمِ، ولمزيدِ الاعتناءِ بالترغيبِ فيما عندَ اللهِ عزَّ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٨٩-٩٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٨٣).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٩٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٨).

وجلَّ من النَّعيم المقيم، وللتزهيدِ في مَلاذِّ الدُّنيا وطيِّباتها الفانية(١).

– وفي الآية من البَلاغة: مُراعاةُ النَّظير، حيث جمَع بين كلِّ أمْر وما يُناسِبُه، مع إلْغاء ذِكرِ التضادِّ، فجمَع سبحانه مُعظَمَ وسائلِ النَّعيم الآيِلَةِ بالمرءِ إلى الانهماكِ في الفِتنة، والانسياقِ مع دواعي النُّفوس الجَموح، وقد زُيِّنتْ للناس واستهوتْهم بالتعاجيبِ والمفاتِن؛ ابتلاءً لهم(٢).

– وفيها مناسبةٌ حسنةٌ؛ حيث بدَأ بتقديمِ النِّساءِ على البنينِ؛ للإشعارِ بعَراقتهنَّ في معنى الشَّهوة؛ إذ يَحصُل منهنَّ أتمُّ اللذَّات، وثَنَّى بالبَنين؛ للتكثُّرِ بهم، وأمَلِ قيامِهم مقامَهم من بعدهم، والتفاخُر والزِّينة(٣).

٦- **قوله تعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ﴾** افتتَح الاستئنافَ بكلمة ﴿قُلْ﴾ للاهتمامِ بالمقولِ، وهمزةُ الاستفهام في ﴿أَؤُنَبِّئُكُمْ﴾؛ للتقريرِ والعرضِ؛ تشويقًا من نفوسِ المخاطَبين إلى تَلقِّي ما سيُقصُّ عليهم، أي: أأُخبرُكم بما هو خيرٌ ممَّا فُصِّل من تلك المستلذَّاتِ المزيَّنة لكم(٤).

– وإبهامُ الخيرِ وتَنكيره في قوله: ﴿بِخَيْرٍ﴾؛ لتفخيمِ شأنِه والتشويقِ إليه(٥).

– وقال: ﴿أَؤُنَبِّئُكُمْ﴾ ولم يقُلْ: (أأُخبركم)؛ لأنَّ النبأَ إنَّما يُقالُ في الأمور المهمَّة؛ كقوله: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ [النبأ: ١- ٢]؛ ولهذا قيل للنَّبيِّ: (نبيٌّ)، ولم يُقَل: (مخبِر)؛ فهذا أمرٌ مُهِمٌّ يحتاجُ إلى الإنباء عنه(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٦٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٤)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٩٥).

- وفيه: تفصيلٌ بعدَ إجمال؛ مبالغةً في الترغيبِ، وللتسليةِ عن زخارفِ الدُّنيا، وتقويةً لنفوس تاركها[١].

- وفيه: التفاتٌ مِنَ الغَيبة ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ...﴾ إلى الخِطاب ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ﴾؛ للتشريفِ[٢].

٧- **قوله: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عند رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ﴾** فيه تقديمُ الخبر ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ على المُبتدأ ﴿جَنَّاتٌ﴾ لإفادةِ الحَصر؛ إذ تقديمُ ما حقُّه التأخيرُ يُفيدُ الحصرَ[٣].

٨- **قوله تعالى: ﴿ورِضْوَانٌ﴾** (رِضوان) اسمُ مبالغةٍ في مَعنَى الرِّضا، والزِّيادةُ في المبنى؛ لبيانِ المبالَغةِ في المعنى، فكأنَّه قال: ورضوانٌ عظيمٌ من الله، لا يَشُوبُه ولا يعقُبُه سخطٌ[٤].

وأظهَر اسمَ الجلالة في قوله: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ﴾، دون أنْ يقولَ: (ورضوان منه)، أي: من ربِّهم؛ لِمَا في اسمِ الجلالةِ مِن الإيماءِ إلى عظَمةِ ذلك الرِّضوانِ[٥].

٩- **قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا﴾** فيه تأكيدُ الجُملةِ بـ(إنَّ)؛ لإظهارِ أنَّ إيمانهم ناشئٌ مِن وُفورِ الرَّغبة، وكمالِ النَّشاط[٦].

- وإظهارُ اسمِ الجلالة في قوله: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾؛ لقصدِ استقلالِ الجُملةِ لتكونَ كالمَثَلِ[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٥)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٠٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٨٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٦).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٨٤).

- وفيه بيانُ الوعد، أي: إنَّه عليمٌ بالذين اتَّقوا، ومراتبِ تقواهم؛ فهو يُجازيهم[١].

- وفيه مع الوعيدِ، تهديدٌ شديدٌ لِمَن تولَّى عن الإسلام، ووعْدٌ بالخيرِ لِمَن أسلم؛ إذ معناه: إنَّ الله مُطَّلعٌ على أحوالِ عَبيدِه، فيُجازيهم بما تَقتضي حِكمتُه[٢].

١٠ - **قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا﴾** فيه إسقاطُ أداة النِّداء في ﴿رَبَّنَا﴾؛ إشعارًا بما لهم من القُرب؛ لأنَّهم في حَضرةِ المراقبةِ[٣].

وفيه التأكيدُ بقوله: ﴿إِنَّنَا﴾ بإثباتِ النونِ؛ للمبالغةِ في التأكيدِ[٤].

١١ - **قوله تعالى: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾** فيه تفخيمٌ للموصوفِ بدخولِ الواو على الصِّفاتِ، مع أنَّ الموصوفَ واحد؛ لأنَّه إيذانٌ بأنَّ كلَّ صفةٍ مستقلَّةٌ بمدح الموصوف؛ فتوسيطُ الواوِ بينها؛ للدَّلالةِ على استقلالِ كلِّ واحدٍ منها، وكمالِهم فيها، أو لتغايُر الموصوفين بها[٥].

قولُه: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ﴾ أكملُ من قوله: (الَّذين يَصبِرون ويصدُقون)؛ لأنَّ قوله: ﴿الصَّابِرِينَ﴾ يدلُّ على أنَّ هذا المعنى عادتُهم وخُلُقُهم، وأنَّهم لا يَنفكُّون عنها[٦]؛ فالاسمُ يدلُّ على الثُّبوتِ، والفِعلُ يدلُّ على التجدُّدِ والحدوثِ[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٨٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٩)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢٠٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٧٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٦٧).

(٧) يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٢/ ٣٧٦).

الآية: (١٨)

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾: أي: يَلِي العَدْلَ بينَ خَلقِه، ويُراعيه ويَحفظُه؛ يُقال: قامَ بهذا الأمْر، أي: أجْراه على الاستقامةِ في جميعِ الأمور. والقِسْطُ العَدْلُ، مِن أقْسَط فهو مُقْسِط[١].

مُشكِلُ الإعراب:

قوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾

﴿قَائِمًا﴾: منصوبٌ على الحالِ، وهي حالٌ مؤكِّدة مِن الضمير ﴿هُوَ﴾ والعاملُ في الحالِ معنى الجُملة، أي: لا إلهَ إلَّا هو قائمًا بالقِسط، كما يُقال: لا إلهَ إلَّا هو وحْدَه، وقيل: هي حالٌ من اسمِ الجلالةِ ﴿اللهُ﴾ والعاملُ في الحالِ ﴿شَهِدَ﴾، أي: شهِد اللهُ قائمًا بالقسط، وكِلا المعنيين صحيحٌ؛ فعلى الوجه الأوَّل يُعتَبر القِسط في الإلهيَّة؛ فيكون المعنى: «لا إله إلا هو قائمًا بالقسط»، أي: هو وحْدَه الإله قائمًا بالقِسط، كما يُقال: أشهد أنْ لا إلهَ إلَّا الله إلهًا واحدًا أحدًا صمدًا، وهذا الوجهُ أرجحُ؛ فإنَّه يتضمَّن أنَّ الملائكةَ وأُولي العِلمِ يَشهدون له مع أنَّه لا إلهَ إلَّا هو، وأنَّه قائمٌ بالقسط، والوجهُ الآخَرُ لا يدلُّ على هذا. وفائدةُ الفصْل بين صاحِبِ الحالِ وبينها بالمعطوفِ- حيث جاء مُتوسِّطًا بين صاحبِ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٧٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٠، ٦٩٠).

الحال وبينها-: أنَّه لو قال: (شهد الله أنَّه لا إله إلَّا هو قائمًا بالقسط والملائكة وأولو العلم)؛ لأَوْهمَ عطْفَ الملائكةِ وأُولي العِلم على الضَّميرِ في قوله: ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾، وليس المعنى على ذلِك قطعًا، وإنَّما المعنى على خِلافِه، وهو أنَّ قيامَه بالقسطِ مُختصٌّ به، كما أنَّه مختصٌّ بالإلهيَّة؛ فهو وحْدَه الإلهُ المعبودُ المستحقُّ العبادة، وهو وحْدَه المُجازِي المثيبُ المعاقِبُ بالعدْل. وقيل غيرُ ذلك في توجيهِ نَصْب ﴿قَائِمًا﴾[1].

المَعنَى الإجماليُّ:

بعد أنْ ذكَر اللهُ ثناءَه على المؤمنين، أتْبَعَ ذلك ببيانِ علاماتِ الإيمان الواضحة، ودلائلِه النَّاصعة، وجاء ليُقرِّر التَّوحيدَ بأعظمِ الطَّرائقِ الموجِبة له، وهي شَهادتُه سبحانه؛ فشهِد أنَّه لا معبودَ بحقٍّ إلَّا هو، وأتْبَع شَهادتَه بذِكْرِ شَهادةِ ملائكتِه وأُولي العِلم مِن عباده؛ فهو قائمٌ بالعدلِ في جميعِ الأحوال، متَّصِفٌ بالقِسط في كلِّ الأفعال.

ثمَّ أكَّدَ سبحانه وتعالى تفرُّدَه باستحقاقِ العبادة، وتوحُّدَه بالألوهيَّةِ، وبيَّنَ أنَّه عزيزٌ قويٌّ مَتِينٌ، لا يُغلَبُ، ولا يعجِزُ عن شيءٍ أراده، وأنَّه حكيمٌ في كلِّ أقوالِه وأفعالِه.

تَفسيرُ الآية:

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)﴾.

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٥٢)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٢٤٧)، و(٣/ ٢٤٠- ٢٤٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ١٧٥)، ((مدارج السالكين)) لابن القيِّم (٣/ ٤٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٧٥- ٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٤).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا مدَح اللهُ عزَّ وجَلَّ المؤمنين وأثْنى عليهم بقولِه: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا﴾ [آل عمران: ١٦]، أردَفه بأنْ بيَّنَ أنَّ دلائلَ الإيمانِ ظاهرةٌ جليَّةٌ(١)، فقال:

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: عَلِمَ اللهُ تعالى أنَّه لا معبودَ حقٌّ إلَّا هو، وتكلَّمَ بذلك، وأخبر به خلْقَه، وأمَرَهم وألْزَمهم به(٢).

﴿وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾.

أي: وشهِدَتِ الملائكةُ أيضًا بذلك وأصحابُ العِلم(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١١٨).

عبارات السَّلف في ﴿شَهِدَ﴾ تدور على الحُكم والقضاء، والإعلام والبيان، والإخبار، قال مجاهد: (حَكَم، وقضى، وقال الزجَّاج: بيَّن، وقالت طائفة: أعْلَم وأخبر، وهذه الأقوال كلها حقٌّ لا تَنافي بينها؛ فإنَّ الشهادةَ تتضمَّن كلامَ الشاهد وخبره، وقوله، وتتضمَّن إعلامَه، وإخبارَه وبيانه، فلها أربعُ مراتب، فأوَّل مراتبها: عِلم ومعرفة واعتقاد لصحَّة المشهود به وثبوته، وثانيها: تَكلُّمه بذلك ونُطقه به، وإنْ لم يُعلم به غيرَه، بل يتكلَّم به مع نفْسه ويذكرها، وينطق بها أو يكتبها، وثالثها: أنْ يُعلم غيرَه بما شهِد به ويُخبره به ويُبيِّنه له، ورابعها: أنْ يُلزمَه بمضمونها ويأمرَه به؛ فشهادةُ الله سبحانه لنفْسِه بالوحدانيَّة والقيام بالقِسط: تَضمَّنتْ هذه المراتبَ الأربعة: عِلم الله سبحانه بذلك، وتكلُّمه به، وإعلامَه، وإخبارَه لخلقه به، وأمْرَهم وإلزامَهم به، يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيِّم (٣/ ٤٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٧٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٤).

فإن قيل: ما المرادُ بأُولي العِلم الذين عظَّمهم الله تعالى هذا التعظيم؛ حيث جمَعَهم معه ومع الملائكة في الشَّهادة على وحدانيَّته؟ أُجيب: بأنَّ المرادَ بهم أنهم الذين يُثبتون وحدانيته بالحُجج الساطعة، والبراهين القاطعة، من الأنبياء والمؤمنين. ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢٠٣)، وينظر ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١١٩).

﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾.

أي: حالَ كونِه قائمًا بالعَدْلِ، وهو في جميعِ الأحوال كذلك، لم يزَلْ متَّصِفًا بالقِسطِ في أفعالِه وتدبيرِه بين عِبادِه؛ فهو على صراطٍ مستقيمٍ فيما أمَرَ به ونهى عنه، وفيما خلَقَه وقدَّرَه[1]، ثم أعاد تقريرَ توحيدِه، فقال تعالى:

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: لا يستحقُّ العبادةَ غيرُه سبحانه، فهو الإلهُ الحقُّ المعبودُ[2].

﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

أي: القويُّ المتينُ، الَّذي لا يُغلَبُ، ولا يَمتنعُ عليه شيءٌ أراده، ولا يَنتصِرُ منه أحدٌ، أو يَنالُ منه، الحَكيمُ في أقوالِه وأفعالِه، وشَرْعِه وقَدَرِه، والحَكيمُ يتضمَّنُ حُكْمَه وعِلْمَه وحِكمتَه فيما يقولُه ويفعلُه، فإذا أمَرَ بأمرٍ كان حَسَنًا، وإذا أخبَرَ بخبَرٍ كان صِدقًا، وإذا أرادَ خَلْقَ شيءٍ كان صوابًا؛ فهو حكيمٌ في إراداتِه وأفعالِه وأقوالِه[3].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- شَهادةُ اللهِ لنفسِه بانفرادِه بالألوهيَّةِ قد تكونُ قوليَّةً، كما في قوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، وقد تكون فعليَّةً فيما يُظهِرُه اللهُ مِن آياته؛ فكلُّ الكائناتِ تشهَدُ لله عزَّ وجلَّ بالوحدانيَّةِ بلسانِ الحالِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ١٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١١٨).

٢- الشَّهادة لا تكونُ إلَّا عن عِلمٍ يقينيٍّ يكونُ بمنزلة المشاهَدة البصريَّةِ، وفي ذلك دليلٌ على أنَّ مَن لم يصِلْ في علمِ التَّوحيد إلى هذه الحالةِ، فليس مِن أُولي العِلم[1].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فيه أنَّه لا يُشترَطُ في الشَّهادةِ لفظُ (أَشْهَد)؛ فمُجرَّد إخبارِه عن نفسِه إقرارٌ[2].

٤- في قوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾: جعَل اللهُ الملائكةَ في المرتبةِ الأُولى في الشَّهادةِ بالتَّوحيدِ بعدَه سبحانه؛ لبيان فضيلتِهم، ولأنَّهم الملأُ الأعلى، وعِلمُهم كلُّه ضروريٌّ، بخلاف البشَر؛ فإنَّ عِلمَهم ضروريٌّ واكتسابيٌّ[3].

٥- تأكيدُ الشَّيء المهمِّ، وإن كان المخبِرُ به من أهل الصِّدق؛ حيث صدَّر اللهُ تعالى وحدانيَّتَه بالشَّهادةِ، وبيَّن أنَّ هذه الشَّهادةَ ليست له وحده، بل له، وللملائكةِ، ولأُولي العِلم[4].

٦- في قوله: ﴿وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ دليلٌ على شرَفِ العِلم وأهله من وجوهٍ، منها:

- تخصيصُ اللهِ لهم بالشَّهادةِ على أعظمِ مشهودٍ عليه.

- قرَنَ اللهُ شَهادتَهم بشَهادتِه وشَهادةِ ملائكتِه.

- أضافَهم اللهُ إلى العِلم؛ فهم القائمونَ به، المتَّصفون بصِفَتِه.

- جعَلهم اللهُ شُهداءَ وحُجَّةً على النَّاس، وألزَم النَّاسَ العملَ بما شهِدوا به، فكانوا هم السَّببَ في ذلك، فيكونُ كلُّ مَن عمِل بذلك نالهم مِن أجْرِه.

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٥).
(٢) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن قيم (٣/ ٤٣١-٤٣٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٢٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٢٢).

- أنَّ إشهادَه لهم يتضمَّنُ تزكيتَهم وتعديلَهم[١].

٧- لم يَذكُرِ اللهُ سبحانه شهادةَ رُسلِه مع الملائكة، فيقول: شهِدَ اللهُ أنَّه لا إلهَ إلَّا هو والملائكةُ والرُّسل، وهم أعظمُ شهادةً مِن أُولي العِلم؛ لعِدَّة فوائد:

منها: أنَّ أُولي العِلم أعمُّ من الرُّسل والأنبياء، فيَدخُلون هم وأتباعُهم.

ومنها: أنَّ في ذِكر أُولي العلم في هذه الشهادة، وتعليقِها بهم: ما يدلُّ على أنَّها من مُوجِبات العِلم ومُقتضياتِه، وأنَّ مَن كان من أُولي العِلم فإنَّه يَشهدُ بهذه الشَّهادة... ففي هذا بيانُ أنَّ مَن لم يَشهَدْ له الله سبحانه بهذه الشَّهادة فهو من أعظمِ الجُهَّال، وإنْ عَلِم من أمور الدنيا ما لم يَعلَمْه غيرُه؛ فهو من أُولي الجَهل، لا مِن أُولي العِلم، وإنْ وسَّع القولَ وأكْثَر الجِدال.

ومنها: الشَّهادة من الله سبحانه لأهل هذه الشهادة أنهم أولو العلم[٢].

٨- قوله تعالى: ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ «القِسْط»: هو العَدْلُ، فشهِد الله سبحانه: أنَّه قائمٌ بالعدلِ في توحيده، وبالوحدانيَّةِ في عَدْله، والتَّوحيد والعَدْل هما جِماعُ صفات الكمال؛ فإنَّ التَّوحيد يتضمَّنُ تفرُّدَه سبحانه بالكمالِ والجلالِ والمجد والتَّعظيم، الَّذي لا ينبغي لأحدٍ سواه، والعدل يتضمَّنُ وقوعَ أفعاله كلِّها على السَّداد والصَّواب، وموافقة الحِكمة[٣].

٩- ختَم بقوله: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾؛ ليكونَ دليلًا على قِسطِه؛ إذ لا يَصِحُّ أبدًا لذي العزَّةِ الكاملة والحِكمة الشَّاملة أنْ يتصرَّفَ بجَوْرٍ، وليكونَ دليلًا على وحدانيَّته؛ لأنَّه لا يصحُّ التفرُّدُ بدون الوصفينِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيِّم (١/ ٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٤).
(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٤٣٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٤٢٣).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٩٢).

١٠- تَضمَّنَتْ هذه الآيةُ وهذه الشَّهادةُ: الدَّلالةَ على وَحدانيَّتِه المنافيةِ للشِّركِ، وعلى عَدْلِه المنافي للظُّلم، وعِزَّتِه المنافيةِ للعجز، وحِكمتِه المنافية للجهلِ والعيبِ؛ ففيها الشَّهادةُ له بالتَّوحيد، والعَدْل، والقُدرة والعِلم والحِكمة؛ ولهذا كانتْ أعظمَ شَهادةٍ[1].

بَلاغَةُ الآيَة:

١- ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

- قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ... لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فيه تَكرار؛ للتأكيدِ، ومزيدِ الاعتناءِ بمعرفةِ أدلَّة التوحيد، والحُكمِ به بعدَ إقامة الحُجَّة، وليبنيَ عليه قوله: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فيُعلم أنَّه الموصوفُ بهما، ولئلَّا يَسبِقَ بذِكْرِ العزيزِ الحكيمِ إلى قلْبِ السَّامع تمثيلٌ؛ إذ قد يُوصَفُ بهما المخلوقُ، أو يكون التَّكرارُ من باب تَكرارِ ما صُدِّر الكلامُ به إذا طال عَهدُه[2].

- والآية استئنافٌ، وتمهيدٌ لقولِه بعدها: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]؛ ذلك أنَّ أساسَ الإسلامِ هو توحيدُ الله، وإعلانُ هذا التوحيدِ، وتَخليصُه من شوائبِ الإشراكِ[3].

- وفيه: تعريضٌ بالمشركين وبالنَّصارى واليهود، وإنْ تفاوتوا في مراتبِ الإشراكِ[4].

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيِّم (٣/ ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٤٥- ٣٤٦)، ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٧٠-١٧١)، ((تفسير الراغب)) (٢/ ٤٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٧)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٩٥-٢٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٨٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- في قولِه: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ أنَّ قولَه: ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، مفعولُ ﴿شَهِدَ﴾، وفصَلَ بين المعطوفِ عليه ﴿اللهُ﴾ والمعطوفِ ﴿وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾؛ ليدُلَّ على الاعتناءِ بذِكْر المفعولِ، وليدلَّ على تَفاوُتِ درجةِ المتعاطفَينِ، بحيث لا يُعطفانِ مُتجاورينِ[1].

- وفي الآية ردُّ العَجُزِ على الصَّدر؛ فقد ردَّ ﴿الْعَزِيزُ﴾ إلى تفرُّده بالوحدانيَّة التي تَقتضي العِزَّة، وردَّ ﴿الْحَكِيمُ﴾ إلى العدلِ الذي هو القِسطُ؛ فالحكمةُ تلائمُ القيامَ بالقسطِ، فأتى بهما (العزيز الحكيم)؛ لتقريرِ الأمرين (الوحدانية والقيام بالقسط) على ترتيبِ ذكرِهما، وأكَّد ما افتُتحت به السُّورةُ من قوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٨٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٧٤).

الآيتان (١٩ - ٢٠)

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ ﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿الدِّينَ﴾: ما يَدين به المرءُ، والطَّاعةُ، والعادةُ، وأصله: الانقيادُ والذُّلُّ[١].

﴿الْأُمِّيِّينَ﴾: أي: العرَب، جمْع أُمِّيٍّ، وهو الَّذي لا يَكتُب ولا يَقرأ؛ نِسبةً إلى الأُمِّ؛ لأنَّ الكِتابَ كان في الرِّجال دونَ النِّساء، فنُسِبَ مَن لا يكتُب ولا يَخطُّ من الرِّجال إلى أُمِّه في جَهلِه بالكتابةِ دونَ أبيه، أو مَنْسُوبٌ إلى الأُمَّة الأُمِّيَّة، الَّتي هِي على أَصْلِ وِلاداتِ أُمَّهاتها، لم تتعلَّم الكتابةَ ولا قِراءتَها، والأُمِّيَّة: الغَفلةُ والجَهالةُ وقِلَّةُ المعرِفة، وأصْل (أمم): الأَصْلُ والمرجِع[٢].

﴿تَوَلَّوْا﴾: أعرَضوا؛ فالفِعل (ولي)، إذا عُدِّي بـ(عن) لفظًا أو تقديرًا - كما هنا - اقتَضى معنى الإعراضِ والتَّرْكِ، وإذا عُدِّي بنَفْسه اقتَضَى معنى الوِلاية والقُرْب[٣].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ اللهُ تعالى في هذه الآياتِ طبيعةَ الدِّين الَّذي يجب أنْ يُدانَ ويُتعبَّدَ له به،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٥٣- ١٥٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٨، ٣٧٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧ ٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٩).

(٣) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٥١).

وهو دِينُ الإسلامِ؛ فهو الدِّينُ الَّذي لا يَقبَلُ غيرَه، ولا يَرتضي سِواه.

ثم بَيَّن سبحانه وتعالى أنَّ اختلافَ الَّذينَ أُوتُوا الكِتابَ إنَّما حصَل بعد إقامةِ الحُجَّةِ عليهم من إرسال الرُّسلِ، وإنزالِ الكتُب، وكان الحاملُ لهم على الاختلافِ والتَّفرُّقِ هو ما جرى فيهم مِن بَغيٍ ومجاوزةٍ للحدِّ في العُدوان والظُّلم.

ثمَّ عقَّب اللهُ تبارَك وتعالَى بذِكْر جزاءِ مَن يَكفُرُ بآياتِ الله، وأنَّه سيُحاسبُه على أفعالِه الَّتي أحصاها عليه؛ فهو سريعُ الحسابِ والإحصاءِ.

ثمَّ وجَّه اللهُ خِطابَه لرسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّهم إنْ جادَلوك- يا محمَّدُ- بالباطل، وخاصَموك فيما جاءَك من الحقِّ- فأَخبِرْهم أنَّك أخلَصْتَ العملَ لله وحده، وأفرَدْتَ العبادةَ له، أنت ومَن اتَّبَعك على دِينِك، وأمَرَه أنْ يقولَ للَّذين أُوتوا الكتابَ والأُمِّيِّينَ ممَّن لا كتابَ له مِن المُشركينَ: هل أَسلمتم للهِ وأفرَدْتُموه بالتَّوحيد؟! فإنْ أسلَموا بمِثْل إسلامِكم، واتَّبَعوا دِينكم، وانقادوا لله، وأذعَنوا له- فقد أصابوا الهُدى، ووُفِّقوا لسبيل الحقِّ، وإنْ أعرَضوا عمَّا تَدْعوهم إليه، فليس عليك إلَّا البلاغُ، واللهُ بصيرٌ بجميعِ العباد، عالِمٌ بمَن يَهتدي منهم، ومَن يَضِلُّ عن سواء السَّبيلِ، وإليه مرجعُهم، وعليه حِسابُهم.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا قرَّر اللهُ عزَّ وجلَّ أنَّه الإلهُ الحقُّ المعبود، بيَّن العبادةَ والدِّينَ الَّذي يتعيَّنُ أنْ يُعبَدَ به ويُدانَ له، وهو الإسلامُ[1]، فقال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٤) ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٨٦).

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ﴾.

أي: إنَّ الدِّينَ المقبولَ عند اللهِ، الَّذي لا دِينَ سواه، هو الإسلام[١]؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

والإسلامُ هو الانقيادُ لله وحده، ظاهرًا وباطنًا، بما شرَعه على ألْسنةِ رُسله، إلى أنْ خُتِموا بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فجميعُ الطُّرقِ مسدودةٌ إلَّا مِن جِهته[٢].

﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾.

أي: اختلَف الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ بعدَما قامتْ عليهم الحُجَّة؛ بإرسالِ الرُّسلِ إليهم، وإنزال الكتُب عليهم، وعِلمِهم بالحقِّ، وحَمَلَهم على ذلك مجاوزتُهم

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيِّم (٣/ ٤٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٦٤).
وحمَل بعضُ المفسِّرين الإسلام هنا على معناه الخاصِّ، وهو التعبُّد لله بشرعِ محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ. وممَّن اختار ذلك: ابن عاشور في ((تفسيره)) (٣/ ١٨٩)، وابن عثيمين في ((تفسير ابن عثيمين - سورة آل عمران)) (١/ ١٢٣).

(٢) قال ابنُ تيميَّة: (الإسلامُ هو الاستسلامُ لله وحدَه، فهو يَجمعُ معنيين: الانقياد والاستسلام، والثاني: إخلاص ذلك لله، كما قال تعالى: ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾ أي خالصًا له، ليس لأحدٍ فيه شيء. وإنَّه يُستعمل لازمًا ومتعديًا، فالأول كقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]، وقوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٦]، وقوله: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ﴾ [آل عمران: ٨٣- ٨٥]، وهو هذا الإسلام الذي هو الاستسلام لربِّ العالمين.
وقد يُستعمل متعديًا في مثل قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥]، وفي قوله: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١١٢]، فهنا لَمَّا كان مُقيَّدًا بإسلام الوجه قرَن به الإحسان؛ لأنَّ إسلامَ الوجه له هو يتضمَّن إخلاصَ القصد له، فلا بدَّ مع ذلك من الإحسان؛ ليكون عملُه صالحًا خالصًا لله)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٦/ ٢٢٠).

الحدَّ بالعدوانِ والظُّلم، وبالتَّفريط وتضييعِ الحقِّ[١].

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

أي: ومَن يكفرْ بحُجَجِ اللهِ وما أنزَل في كتابِه، فإنَّ اللهَ سيُجازيه ويُحاسبه على ذلك؛ فإنَّه يُحصي أعمالَ العبادِ بسرعةٍ، دون الحاجةِ إلى عَقدِ أصابعَ، أو استخدامِ أداةٍ، وبلا حاجةٍ إلى فِكرٍ أو رَوِيَّة، كما يَفعَلُ الخَلقُ، وهو سريعُ المحاسَبة للخَلْقِ يومَ القيامة دون أنْ يَظلِمَ أحدًا شيئًا، ودون الحاجةِ إلى تذكُّرٍ أو تأمُّلٍ، فيُحاسبُهم على كثرتِهم في وقتٍ وجيزٍ جدًّا، وهو سَريعُ المجازاةِ لعباده، كما أنَّ حسابَه قريبٌ؛ لسرعةِ انقضاءِ هذه الحياةِ الدُّنيا[٢].

﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٢٠)﴾.

﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾.

أي: فإنْ جادَلوك وخاصَموك بالباطل، فقُلْ - يا محمَّدُ -: أخلصتُ عملي وعبادتي للهِ وحْدَه لا شريكَ له، أنا ومَن على دِيني، فلا نُوجِّهُ وُجوهَنا إلى غيره[٣].

﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ﴾.

أي: وقلْ - يا محمَّدُ - للَّذين أوتوا الكِتابَ مِن اليهودِ والنَّصارى[٤] والأُمِّيِّين الَّذين لا كتابَ لهم مِن مُشرِكي العربِ: أأفرَدْتُم التَّوحيدَ لله وأخلَصْتم له

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤١٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ٤٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٥/ ١٧٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٠٢).

(٤) قال ابن عطية: (والذين أُوتُوا الْكِتابَ في هذا الموضع يَجمع اليهود والنصارى باتفاق) ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤١٤).

العبادةَ؟ والمعنى: أسلِموا للهِ تعالى، ووحِّدوه، وأخلِصوا له(١).

﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾.

أي: فإنِ انقادُوا واستسلَموا للهِ ظاهرًا وباطنًا، فقدِ اهتدَوْا هدايةَ توفيقٍ، وأصابوا سبيلَ الحقِّ(٢).

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾.

أي: وإنْ أدبَروا مُعرِضين عمَّا تَدْعوهم إليه من الإسلام، وإخلاصِ التَّوحيد للهِ، ولم يَنقادوا بظَواهِرِهم ولا ببَواطِنِهم، فليس عليك إلَّا تبليغُ رسالةِ ربِّك، وبه وقَعَ أجرُك على ربِّك، وقامتْ عليهم الحُجَّة(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٨٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٢٣)، و((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٠٥).

فإن قال قائل: وكيف قيل: ﴿فإنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ [آل عمران: ٢٠] عقيب الاستفهام؟ وهل يجوز على هذا في الكلام أن يُقال لرجل: هل تقوم؟ فإنْ تقُم أكرمْك؟ قيل: ذلك جائزٌ إذا كان الكلام مرادًا به الأمر، وإنْ خرج مخرج الاستفهام، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١]، يعني: انتهُوا، وكما قال جلَّ ثناؤه مخبرًا عن الحواريِّين أنهم قالوا لعيسى: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ [المائدة: ١١٢]، وإنما هو مسألةٌ، كما يقول الرجُل: هل أنت كافٍ عنا؟ بمعنى: اكففْ عنَّا. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٨٧).

وأمَّا المعنى الآخَر فهو أنَّ المراد أنَّه يُنادي عليهم بالبلاهة، يعني: أأسلمتُم بعد هذا البيان وهذا الوضوح، أم أنَّكم بُلهاءُ لم تَفقهوا حتى الآن، ولم تُسلموا مع ظهور المعنى ووضوحِه؛ تبكيتًا لهم وتصغيرًا لشأنهم في الإنصافِ وقَبول الحقِّ. يُنظر: ((فتح القدير)) للشوكاني (١/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٣٣).

وقال ابنُ عطيَّة: (قال الزجاج: ﴿أَأَسْلَمْتُمْ﴾ تهديد، وهذا حسنٌ؛ لأنَّ المعنى أأسلمتُم أم لا؟) ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٨٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٣٤).

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾.

أي: مطَّلِع على جميعِ الخَلْق أتمَّ الاطِّلاعِ، ويعلمُ أحوالهم؛ مَن يُطِيع منهم، ومَن يُعرِض، ويتولَّى جزاءَهم(١).

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- على المسلمِ ألَّا يَنظُرَ إلى الآية الَّتي ذَكرتِ الخلافَ الَّذي وقع للَّذين أوتوا الكتابَ كحدَثٍ تاريخيٍّ، بل يتلوها متذكِّرًا أنَّها أُنزلتْ تحذيرًا للمسلمين من الخلافِ في الدِّين، والتَّفرُّقِ إلى شِيَعٍ اتِّباعًا لسَنَنِ مَن قبْلَهم(٢).

٢- في قوله ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه عند مخالفةِ الإنسان غيرَه يَنبغي ألَّا يتطاولَ عليه، وألَّا يكون مقصِدُه بسَوْق الأدلَّةِ والحُجَج المؤيِّدةِ لقولِه، البَغيَ على غيره(٣).

٣- يُستفادُ من قوله: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ أنَّه إذا عَلِم الإنسانُ أنَّ مَن يُحاجُّه إنَّما يَقصِدُ نصْرَ قولِه ولو كان باطلًا، فله الإعراضُ عنه؛ لأنَّه ليس أهلًا للمحاجَّةِ أو الخُصومةِ(٤).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ الآيةَ: تلميحٌ إلى أنَّ هذا الاختلافَ والبغيَ كفرٌ؛ لِمَا أفْضَى إليه مِن نقْضِ قواعدِ أديانِهم، ونُكرانِ دِين الإسلام؛ ولذلك ذيَّله بقوله: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٣٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢١٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٢٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٣٦)، ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٧٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٩٩).

٢- في قوله: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ التعبيرُ عنهم بقوله: ﴿أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ زيادةُ تَقبيحٍ لهم؛ فإنَّ الاختلافَ بعدَ إتيانِ الكتابِ أقبحُ، وقوله: ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ زيادةٌ أخرى؛ فإنَّ الاختلافَ بعد العِلم أزيدُ في القَباحةِ، وقوله: ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ زيادةٌ ثالثة؛ لأنَّه في حيِّز الحَصْر، فيكون أزيدَ في القُبح[١].

٣- الوجهُ أشرفُ الأعضاءِ، ومَجمَعُ الحواسِّ، وبه يكونُ الانقيادُ وعَدَمُه؛ لهذا كان أقربُ ما يكونُ العبدُ من ربِّه في حالِ سُجُودِه؛ لوَضعِه أشرفَ أعضائِه على مَوطِئِ الأقدامِ، وأيضًا فيه معنى التوجُّهِ والقَصدِ؛ لذا ذَكَرَه اللهُ تعالى في قوله: ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾[٢].

٤- في قوله تعالى: ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ دليلٌ على أنَّه ليس قولُ أحدٍ من أهل العِلم حُجَّةً على الآخَر؛ فهم كلُّهم تابِعون لا متبوعون[٣].

٥- في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ بيانُ أنَّ الهُدى له صورةٌ واحدة، هي صورةُ الإسلام بحقيقتِه تلك وطبيعتِه، وليس هنالك صورةٌ أخرى، ولا تَصوُّرٌ آخرُ، إنَّما هو الضَّلالُ والجاهليَّةُ[٤].

٦- في إسنادِ الأفعالِ إلى فاعليها ردٌّ على الجَبْريَّة، فإنَّ اللهَ تبارَك وتعالَى قال: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾، وقال: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾، وقال: ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾، وكلُّ ذلك يُفيد أنَّ للإنسانِ إرادةً وفعلًا اختياريًّا[٥].

---

(١) يُنظر: ((فتح البيان)) لصديق حسن خان (٢/ ٢٠٦).
(٢) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٣٦).
(٣) يُنظر: ((فتح البيان)) لصديق حسن خان (٢/ ٢٠٦).
(٤) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٣٨١).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٣٠).

بَلاغَةُ الآيتين:

١- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾: عبَّر بـ﴿إِنَّ﴾ بالكسرِ؛ لأنَّ الكلامَ الذي قبلَه قد تمَّ؛ فالجملةُ مُستأنَفة مُقرِّرةٌ مؤكِّدةٌ لمضمونِ ما قَبلَها ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ...﴾، وهذا أبلغُ في التقريرِ، وأدخَلُ في المدحِ والثناءِ ،وفائدة التوكيد: بيانُ الدِّين المَرْضيِّ لله تعالى، وأنَّه ليس سوى الإسلامِ الذي هو التَّوحيدُ، والتدرُّعُ بالشريعةِ الشَّريفةِ التي جاءَ بها محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم[1].

- وفيه حَصْرٌ بتعريفِ جُزئَي الجملة (الدِّين- الإسلام)، وفيه أيضًا توكيدُ الكلام بـ(إنَّ)، تحقيقًا لِمَا تضمَّنه من حَصْر حقيقة الدِّين عند الله في الإسلام: أي الدِّين الكامل[2].

٢- قوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا...﴾: فيه وصلٌ- أي: عطفٌ بالواو- وهو مناسبٌ؛ لكونِ الكلامِ المتقدِّم مُشتملًا على تعريضٍ باليهود والنصارى، الذين كذَّبوا بالقرآن، وإبطالٍ لقولِ وفْد نجران، فناسَب أنْ يُنوَّه بعدَ ذلك بالإسلامِ الذي جاءَ به القرآن؛ ولذلك جاءَ العطفُ على قولِه: ﴿إِنَّ الدِّينَ...﴾[3].

- وحُذِفَ متعلِّقُ الاختلاف في قوله: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾؛ ليَشملَ كلَّ اختلافٍ منهم: مِن مخالفةِ بعضِهم بعضًا في الدِّين الواحِدِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٩)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٤٤٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٨)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٨٨، ١٩٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١٨٨).

ومخالفةِ أهل كلِّ دِينٍ لأهلِ الدِّين الآخَر، ومخالفةِ جميعِهم للمسلمين في صحَّة الدِّين. وحُذِفَ متعلِّقُ العِلمِ في قوله: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ لذلك[1].

٣- قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعدِ مَا جَاءَهُمُ العِلمُ﴾: فيه إطلاقُ اسمِ السَّببِ على المسبَّب، حيث عبَّر بالعِلم عن التوراةِ والإنجيل، أو النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم- على الخِلاف[2].

٤- قوله تعالى: ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾: فيه إيماءٌ إلى أنَّ البغيَ دائرٌ شائعٌ فيهم، وكلُّ فِرقةٍ منهم تُجاذِب طرَفًا منه[3]؛ فـ﴿بَيْنَهُمْ﴾ حال لبغيًا، أي: بغيًا مُتفشِّيًا بينهم، بأنْ بغَى كلُّ فريقٍ على الآخَر[4].

٥- قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ﴾: خبرٌ؛ غرضُه الوعيدُ الشَّديد، والتهديدُ لِمَن كفَر منهم بأنَّه سيصيرُ إلى اللهِ سريعًا فيَجزيه على كُفره؛ وأيضًا ﴿سَرِيعُ الْحِسابِ﴾ أي: سريعُ الإحصاءِ مع كثرةِ الأعمال، وهو سريعُ المحاسَبة للخَلْق يومَ القيامة، على كثرتِهم، وهو سبحانه سريعُ المجازاة لعبادِه[5]، مع ما فيه مِن تأكيدِ الخبر بـ(إنَّ) واسميَّة الجملة.

- قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ فيه إظهارٌ في مقامِ الإضمارِ، حيثُ لمْ يَقُلْ: (فإنَّه)؛ للتهويلِ عليهم، والتَّهديدِ لهم[6].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٩٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٩٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٨٥)، ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٢٧).
(٦) يُنظر: ((فتح القدير)) للشوكاني (١/ ٣٧٤).

٦- قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾:

- في قوله تعالى: ﴿أَأَسْلَمْتُمْ﴾ الاستفهامُ في معرِض التَّقرير، أو التوبيخ والتقريعِ، وفيه: الإشارةُ إلى كونِ المخاطَب بليدًا قليلَ الفَهم[١]. أو الاستفهام للتحضيضِ والاستبطاءِ، وجِيء بصِيغة الماضي، ولم يقُل: (أتُسلِمون) على خِلافِ مُقتضَى الظاهر؛ للتنبيهِ على أنه يرجو تحقُّقَ إسلامِهم، حتى يكونَ كالحاصِلِ في الماضي، أو يكون المقصودُ مِن الاستفهام الأمْرَ؛ فهو بمنزلتِه في طَلَبِ الفعلِ والاستدعاءِ إليه، إلَّا أنَّ فيه معنًى زائدًا، وهو التَّعبيرُ بكونِ المخاطَبِ مُعانِدًا بعيدًا عن الإنصاف[٢].

- قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فقَدِ اهْتَدَوْا﴾: عبَّر بصيغةِ الماضي المصحوبِ بـ(قَد) الدالَّة على التحقيقِ؛ مُبالغةً في الإخبارِ بوقوع الهُدى[٣]، وللتنبيهِ على أنَّه يرجو تحقُّقَ إسلامهم، حتى يكونَ كالحاصلِ في الماضي[٤].

- قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾: في صيغة (افتَعلوا) تلويحٌ بأنَّ الأنفُسَ مائلةٌ إلى الضلال، زائغةٌ عن طريقِ الكمال؛ فلا يَهمَّنك أمرُهم؛ ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾، وفي بِنية التفعُّل إيماءٌ إلى أنَّ طُرُقَ الهدى بعد البيانِ تأخُذ محاسنُها بمجامعِ القلوب، وأنَّ الصادفَ عنها بعدَ ذلك قد قهَر ظاهرَ عقلِه، وقويمَ فِطرتِه الأُولى برَجاسةِ نفْسه، واعوجاجِ طَبْعِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٧٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٨٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٠٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٩٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٠٢).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٩٧).

- قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾: فيه قصرٌ بـ(إنَّما)، وهو مِن القصر الإضافيِّ، والتقديرُ فيه: فإنَّما عليك البلاغُ فقط، أمَّا الهدايةُ فليستْ عليك، وإنَّما هي علينا نحن[1].

- في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾: تذييلٌ فيه وعدٌ ووعيد[2].

(١) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٣٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٩).

الآيتان (٢١ - ٢٢)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿حَبِطَتْ﴾: بطَلَتْ، وأصلُ الحبْط: هو أنْ تُكثِر الدَّابَّةُ أكلًا حتَّى ينتفخَ بطنُها[1].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تبارَكَ وتعالَى عن هؤلاء الَّذين كفَروا بآياتِه، ولم يَكتفُوا بذلك، بل أَمعَنوا في طُغيانهم، وازدادوا في ضَلالِهم، فقتَلوا أنبياءَ الله ورُسلَه بغير جُرمٍ ولا جَريرةٍ، وقتَلوا كذلك مَن يدعو إلى العدلِ، ويأمُرُ بالمعروف، ويَنهى عن المنكر مِن عبادِ الله؛ هؤلاء الذين هذه صِفتُهم أخبِرْهم يا محمدُ وأعلِمْهم بما ينتظرُهم من عذابٍ أليم، وعقابٍ موجِعٍ، جزاءً على كُفرِهم وسيِّئِ أعمالِهم.

وأخبَر سبحانه وتعالى أنَّ أعمالَ هؤلاء باطلةٌ، لا يَنتفعون بها ولا بآثارِها، لا في دُنياهم ولا في أُخراهم ، ولن يَجِدوا نَصيرًا يَنصرُهم، ولا مُنقِذًا من عذابِ الله إذا حلَّ بهم.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١)﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٦).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾.

أي: إنَّ الَّذين يَكفُرون بآياتِ الله؛ فيُكذِّبون بها استكبارًا وعِنادًا[١].

﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ﴾ قِراءتان:

١- قراءة (وَيُقَاتِلُونَ) من القِتال، أي: يُحارِبون الذين يُخالفونهم في كُفرِهم، فالمقاتلةُ مِن اثنين[٢].

٢- قِراءة ﴿وَيَقْتُلُونَ﴾ من القتْل؛ فالقتْلُ مِن جانبٍ واحد[٣].

﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾.

أي: ويَقتُلون أنبياءَ الله المرسَلين إليهم، بغيرِ سببٍ، ولا جريمةٍ منهم[٤]!

﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾.

أي: ويَقتُلون الَّذين يَأمرون بالعَدلِ مِن النَّاس من غيرِ الأنبياء[٥]، وهو الأمرُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير))، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٣٩).

(٢) قرأ بها حمزة. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٨٧).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٤٦)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٥٨)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٣٨-٣٣٩).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٨٧).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٤٦)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٥٨)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٣٨-٣٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٦).
وقيل: قوله: ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ يَشمل الأنبياءَ وغيرَ الأنبياء، =

بالمعروفِ والنَّهيُ عن المنكَر، وقتلُهم لهم هو غايةُ الكِبْر[(١)]، كما قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((الكِبْرُ بَطَرُ الحقِّ[(٢)]، وغَمْطُ النَّاس[(٣)]))[(٤)].

﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

أي: فأخبِرْهم أنَّ لهم عذابًا مؤلِمًا موجِعًا، بالغًا في الشِّدَّةِ[(٥)].

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٢)﴾.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾.

أي: الَّذين ذكَرْناهم هم الَّذين بطَلَتْ أعمالُهم في الدُّنيا، فلا يَنتفعون بآثارِها الطَّيِّبةِ في الدُّنيا، ولا يَنالون بها مَحْمدةً ولا ثناءً مِن النَّاس، مع بقاء الذَّمِّ واللَّعنة عليهم، وأمَّا في الآخرةِ، فلا يَنتفعون بثوابِ أعمالِهم، مع ما أعدَّ لهم فيها من العقابِ[(٦)].

﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾.

أي: وما لهؤلاءِ القومِ مِن ناصرٍ ينصُرُهم مِن الله، ويُنقِذهم من العذابِ إذا هو انتقَم منهم[(٧)].

= وعطفُه على النبيِّين من باب عطف العامِّ على الخاصِّ، وخُصَّ الأنبياءُ بالذِّكر؛ لأنَّ قتْلَهم أعظمُ مِن قتْل غيرهم. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٦).

(٢) بطر الحق: هو دفعه وإنكاره ترفعًا وتجبرًا. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ٩٠).

(٣) غمط الناس: احتقارُهم وازدراؤُهم. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ٩٠)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ٤٩٠).

(٤) رواه مسلم (٩١) من حديث عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٣٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٤٢).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٦).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١ - جمَع اللهُ لِمَن يَكفُرون بآياته، ويقتُلون أنبياءَه ومَن يأمُرُ بالقِسط مِن عبادِه، ثلاثةَ أنواعٍ من الوعيد؛ الأوَّل: اجتماع أسبابِ الآلامِ والمكروهاتِ في حقِّهم؛ كما في قوله: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، والثَّاني: زوال أسبابِ المنافعِ عنهم بالكليَّة؛ كما في قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾، والثَّالث: لُزُوم ذلك في حقِّهم على وجهٍ لا يكونُ لهم ناصرٌ ولا دافعٌ؛ كما في قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾(١).

٢ - لَمَّا تقدَّم ذِكْرُ معصيتِهم بثلاثةِ أوصافٍ، ناسَب أنْ يكونَ جزاؤُهم بثلاثة؛ ليُقابَلَ كلُّ وصفٍ بمُناسِبِه، ولَمَّا كان الكفرُ بآيات الله أعظمَ، كان التَّبشيرُ بالعذابِ الأليم أعظمَ، وقابَل قتلَ الأنبياءِ بحُبوطِ العملِ في الدُّنيا والآخرة؛ ففي الدُّنيا بالقتْلِ والسَّبيِ، وأَخْذِ المال والاسترقاقِ، وفي الآخِرةِ بالعقابِ الدَّائم، وقابَل قتْلَ الآمِرين بالقسط بانتفاءِ النَّاصرين عنهم إذا حلَّ بهم العذابُ، كما لم يكُنْ للآمِرين بالقِسْطِ مَن ينصُرُهم حين حَلَّ بهم قتلُ المعتدين، كذلك المُعتَدُون لا ناصرَ لهم إذا حلَّ بهم العذابُ(٢).

٣- في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ...﴾، توبيخٌ للمعاصِرين لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بمساوِئِ أسلافِهم، وببقائِهم أنفسِهم على فِعلِ ما أمكنَهم من تلك المساوئ؛ لأنَّهم كانوا حريصين على قتْلِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ(٣).

٤ - دلَّ قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ على أنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٧٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤١٤).

الأمرَ بالمعروفِ، والنَّهي عن المنكَرِ، كان واجبًا في الأُممِ المتقدِّمةِ[١].

٥- دلَّ قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ على أنَّ القائمَ بالأمرِ بالمعروفِ تَلي منزلتُه في العِظَمِ منزلةَ الأنبياء[٢].

بَلاغَةُ الآيتين:

١- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

- قوله تعالى: ﴿يَكفُرونَ﴾ ﴿يَقْتُلُونَ﴾ ﴿يَأْمُرُونَ﴾: جِيءَ في هذه الصِّلاتِ بالأفعالِ المضارِعة؛ على حِكايةِ الحالِ الماضية؛ استفظاعًا للقتْلِ، واستحضارًا لِتلك الحالِ الشَّنيعة للتعجُّبِ منها، وليس المرادُ إفادةَ التجدُّد؛ لأنَّ ذلك وإنْ تأتَّى في قوله: ﴿يَكْفُرونَ﴾، لا يَتأتَّى في قوله: ﴿وَيَقْتُلُونَ﴾؛ لأنَّهم قتَلوا الأنبياءَ والذين يأمرون بالقِسطِ في زمنٍ مضَى، والمرادُ مِن أصحابِ هذه الصِّلات يَهودُ العصرِ النَّبويِّ؛ لأنَّهم الَّذين توعَّدهم بعذابٍ أليم، وإنَّما حَمَلَ هؤلاء تَبِعَةَ أسلافِهم؛ لأنَّهم مُعتقِدون سَدادَ ما فعَلَه أسلافُهم[٣].

وقيل: أُريدُ بالمضارِعِ الحالُ والمستقبَلُ على حَقيقتِه؛ لأنَّ اليهودَ يَرومُونَ قتْلَ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم؛ ولذلك سَحروه وسمُّوه[٤]، وفي ذلك

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٦٢-٦٦٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٤٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٠٦).

(٤) ينظر في سحر النبي صلى الله عليه وسلم ما رواه البخاري في((صحيحه)) (٥٧٦٦)، ومسلم (٢١٨٩) من حديث عائشة رضي الله عنها. ويُنظر في سَمِّ اليهودِ للنبي صلَّى الله عليه وسلَّم =

تنبيهٌ على أنَّ عادتَهم قتْلُ أنبيائهم؛ لأنَّ هذا النبيَّ المكتوبَ عندَهم في التوراة والإنجيل- وقد أُمِروا بالإيمانِ به والنصرِ له- يَرُومونَ قتْلَه؛ فكيف مَن لم يكُن فيه تقدُّم عهدٍ من الله؟! فقتلُه عندَهم أَوْلى[1].

- قوله سبحانه: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾: فيه تنكيرُ ﴿حَقٍّ﴾؛ لتأكيدِ العموم، أي: لم يكُن هناك حقٌّ لا هذا الذي يَعرِفه المسلمون ولا غيرُه ألبتةَ، ولا صغيرٌ ولا كبيرٌ في نفْس الأمر، ولا في اعتقادِهم[2].

- وقوله: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ وصفٌ كاشفٌ مُبيِّن للواقِع وليس وصفًا مُقيدًا؛ فلا يُرادُ به إخراجُ ما خالَف هذه الصِّفة، وإنَّما يُرادُ بها بيانُ الواقِع؛ إذ لا يكونُ قتلُ النَّبيِّين إلَّا بغير حقٍّ، فهذا القتلُ كان عدوانًا وظلمًا، فقوله: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ ليس له مفهومٌ؛ لظهورِ عدمِ إرادة التَّقييدِ والاحتراز، والمقصودُ من هذه الحال زيادةُ تشويهِ فِعلهم، وتشنيعُ هذه الحالة الَّتي لا شُبهةَ لصاحبِها، بل صاحبُها أعظمُ النَّاس جُرمًا، وأشدُّهم إساءةً[3].

- وفيه: إشارةٌ إلى أنَّ قتْلَهم للأنبياء كان بغيرِ حقٍّ في اعتقادِهم أيضًا؛ فهو أبلغُ في التَّشنيعِ عليه[4].

- وفي قوله: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ مناسبةٌ حسنةٌ لسِياق الآية، حيث جاءَ هنا مُنكَّرًا، وفي البقرة ﴿بِغَيْرِ الحَقِّ﴾ [البقرة: ٦١] مُعرَّفًا؛ لأنَّ الجملةَ هنا أُخرجتْ

= ما رواه البخاري (٤٤٢٨) معلَّقًا من حديث عائشة رضي الله عنها، وقد ذكَر ابن حجر مَن وصَلَه في ((تغليق التعليق)) (٤/ ١٦٢).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المنير)) (١/ ٦٦٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٤٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣/ ٥٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٠٦)، ((القواعد الحسان لتفسير القرآن)) للسعدي (ص: ٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٣٠٠).

مخرجَ الشرط، وهو عامٌّ لا يَتخصَّص؛ فلذلك ناسَب أن تُنكَّر في سياقِ النَّفي ليعمَّ، وأمَّا في البقرةِ فجاءتِ الآيةُ في ناسٍ معهودِين مُشخصِين بأعيانهم، وكان الحقُّ الذي يُقتلُ به الإنسان معروفًا عندهم، فلم يُقصَدْ هذا العمومُ الذي هنا، فجِيء في كلِّ مكانٍ بما يُناسِبُه(١).

وقيل: لأنَّ المقصودَ في سُورةِ آل عِمران هُمُ الَّذين عاصروا النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن بني إسرائيل، وشاهدوه، وعاينوا البراهين، وتأكَّدوا أنَّ محمدًا صلى الله عليه وسلَّم هو مَن أخبر به موسى وغيرُه من الأنبياءِ، وتعدَّدت وكثرت الأدلَّة في ذلك، ومع هذا استمرُّوا في التَّمادي في الكُفرِ والعِناد، وبالمتمادِين منهم على الكُفرِ والضَّلال(٢)؛ فناسَب أنْ يُقال: إنَّهم ارْتَكبوا كُفرَهم بغيرِ شُبهةٍ ولا سَببٍ يُمكِنُ التعلُّقُ به؛ فجاء قوله: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، فكأنَّه مرادفُ ما لو قيل: بغيرِ سببٍ ولا شبهة، وذلك أبلغُ في ذَمِّهم. وأمَّا ما جاء في البقرة فإنما كان في سَلفِهم ممَّن لم يشاهِدِ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فهؤلاء وإنْ وقَع التَّصريح بكُفرِهم لِمَا ارْتكَبوه، لكن ورد أنَّ بعضَ هذه المرتكبات عفَا اللهُ عنهم فيها، كما أنَّه لا شكَّ من كون بعضهم سلِم ممَّا وقَع فيه الأكثرُ مِن الكُفرِ كما في قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٦٢]؛ فحالُهم ليسَ كحالِ مَن عاصَر النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم وعانَدَ؛ لذلك ناسَبَ التعبير في البقرة بقوله: ﴿بغير الحقِّ﴾؛ إذ ليس المعرَّف في قوة المنكَّر المرادف لقولك بغير سبب، وقيل غير ذلك(٣).

---

(١) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٩٩).

(٢) والكلام هنا على موضعي آل عمران؛ الآية التي هُنا، والآية الأخرى هي قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ١١٢].

(٣) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٤١- ٤٣)، ((درة التنزيل)) للإسكافي =

- ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾.

- (مِن) في قوله: ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ إمَّا بيانٌ، وإمَّا للتبعيضِ أي: كلِّهم أو بعضِهم، سواءٌ أكانوا أنبياءَ أمْ لا، وكِلاهما معلومٌ أنَّهم مِن الناس؛ فقوله: ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ جارٍ مجرَى التأكيدِ. ويجوزُ أنْ يكونَ المرادُ بهذا القَيدِ زيادةَ تَوبيخِهم بأنَّهم يَقتُلون جِنسَهم، الذي مِن حقِّهم أنْ يألفوه ويَسعَوا في بقائِه، وهذا تحقيقٌ لأنَّ قتْلَهم لمجرَّد العُدوان[١].

- قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ﴾: لَمَّا كان ذلك مُومِئًا إلى وجهِ بناء الخبر: وهو أنَّهم إنَّما قتَلوهم؛ لأنَّهم يَأمُرون بالقسطِ، أي: بالحقِّ، فقدِ اكتُفي بها في الدَّلالةِ على الشَّناعة، فلم تحتجْ إلى زيادةِ التشنيع[٢].

- وإنَّما كُرِّر الفعل ﴿وَيَقْتُلُونَ﴾؛ لاختلافِ مُتعلَّقه، أو كُرِّر تأكيدًا، وقيل: المرادُ بأحد القتلينِ تفويتُ الرُّوح، وبالآخَرِ الإهانةُ؛ فلذلك ذُكِر كلٌّ واحدٍ على حِدَته، ولولا ذلك لكان التركيبُ (ويقتلون النبيِّين والذين يأمرون)[٣]، أو لعلَّ تكريرَ الفعل؛ للإشعارِ بما بين القتلينِ من التفاوت، أو باختلافِها في الوقت[٤].

- قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ﴾: زاد الفاء في خَبَرِ (إنَّ) إيذانًا بأنَّ الموصولَ (الذين)- الذي هو اسمُها- ضُمِّنَ معْنَى الشَّرْط أو الجزاءِ، كأنَّه قيل: الَّذين

= (١/ ٤٦-٢٤٨)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٧٤-٧٥)، ((فتح الرحمن)) لزكريا الأنصاري (١/ ٢٩- ٣٠).

(١) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٩).

يَكفُرون فبَشِّرْهم، بمعنى: مَنْ يَكفُرْ فبَشِّرْهم؛ إشارةً إلى أنَّ المقصودِين ليسوا قومًا معيَّنين، بلْ كلُّ مَن يتَّصف بالصِّلة، فجزاؤه أنْ يَعلمَ أنَّ له عذابًا أليمًا، ودخولُ الفاءِ على جوابِ الشَّرط زاد المعنى تأكيدًا[1].

٢- قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾:

- قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ﴾: جِيءَ باسمِ الإشارة ﴿أُولَئِكَ﴾؛ لأنَّهم تميَّزوا بهذه الأفعالِ التي دلَّت عليها صِلاتُ الموصولِ أكملَ تمييزٍ، وللتنبيهِ على أنَّهم أحقَّاءُ بما سيُخبر به عنهم بعدَ اسمِ الإشارة[2].

- وفي التعبيرِ باسمِ الإشارةِ ﴿أُولَئِكَ﴾ أيضًا دلالةٌ على بُعدِ المشارِ إليهم في الضَّلال والفسادِ[3].

- والإخبارُ بالموصول ﴿الَّذِينَ﴾ أبلغُ من الخبَر بالفِعل؛ لأنَّ فيه نوعَ انحصارٍ[4].

- في قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ جِيء بـ: (مِن) الدَّالَّة على تنصيصِ العموم؛ لئلَّا يترُكَ لهم مدخَلًا إلى التَّأويل، يعني: ما لهم أحدٌ يَنصُرُهم، لا على سبيل الاجتماعِ، ولا على سبيل الانفراد؛ لأنَّ (مِن) الزائدة إذا دخَلَت على النَّكرةِ تجعَلُ النَّفيَ نصًّا في العموم؛ كـ (لا) النَّافيةِ للجنس[5]. ومجيء الجمعِ ﴿نَاصِرِينَ﴾ هنا أحسنُ من مجيء الإفراد؛ لأنَّه رأسُ آية، ولأنَّه بإزاء

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٤٨)، ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٧٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٤٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٤٢).

مَن للمؤمنين مِن الشُّفعاءِ، الَّذين هم الملائكةُ والأنبياء وصالِحُو المؤمنين، أي: ليس لهم كأمثالِ هؤلاء، والمعنى: أنَّه بانتفاءِ النَّاصرين انتفاءُ ما يَترتَّبُ على النَّصر من المنافع والفوائد، وإذا انتفتْ مِن جمْعٍ، فانتفاؤُها من واحدٍ أَوْلى، وإذا كان جَمعٌ لا يَنصُرُ، فأَحْرَى ألَّا يَنصُرَ واحدٌ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٧).

الآيات (٢٣ - ٢٥)

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٥)﴾.

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبِر اللهُ تبارَكَ وتعالَى عمَّن آتاهم نَصيبًا من الكتاب، وحظًّا من العِلم، وهم اليهود، بأنَّهم حين يُدْعَون إلى التَّحاكُم إلى ذلك الكتاب، الَّذي يُصدِّقون به، ويُؤمنون بحُكمه، وتَطمئنُّ قلوبُهم لِما فيه- يتولَّى فريق منهم، ويُعرِض عن كتابِ الله، ويُدبِر عمَّا فيه، والسَّببُ وراء ذلك الإعراضِ والتَّولِّي والتَّجرُّؤِ على مَعصيةِ الله هو أنَّهم قالوا: لن نُعذَّب في النَّارِ إلَّا أيَّامًا معدودة، وأوقاتًا محدودة، ثمَّ يُخرجنا اللهُ تبارَكَ وتعالَى منها، فكان هذا الافتراءُ والكذبُ المحضُ الَّذي جاؤوا به من عندِ أنفسهم هو الَّذي غرَّهم في دِينِهم، وأعْمَى قلوبَهم، وأضلَّهم عن سواء الصِّراطِ.

ثمَّ هدَّدهم اللهُ تبارَكَ وتعالَى وتَوعَّدهم بيومِ الجمْع؛ إذ كيف يكونُ حالُهم يوم يجمعُ الله الأوَّلين والآخرين، ويُوفيِّهم جزاءَهم على ما صنَعوا واقترفوا، في ذلك اليوم الَّذي تُوفَّى فيه كلُّ نفسٍ ما عمِلت من خير أو شرٍّ، وتُجزَى على جميعِ أفعالها وأقوالها دون نقصٍ ولا زيادة، ولا يظلِمُ ربُّك أحدًا؟!

تَفسيرُ الآيات:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا نبَّه اللهُ تعالى على عِنادِ القومِ بقوله: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ٢٠]، بَيَّن في هذه الآيةِ غايةَ عنادِهم، وهو أنَّهم يُدْعَون إلى الكتابِ الَّذي يزعُمونَ أنَّهم يؤمنون به، وهو التَّوراةُ، ثمَّ إنَّهم يتمرَّدون، ويتولَّوْن، وذلك يدُلُّ على غايةِ عنادهم(١).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾.

أي: ألم ترَ- يا محمَّدُ- إلى اليهودِ الَّذين أُعطُوا حظًّا من العِلم بالتَّوراة(٢).

﴿يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾.

أي: يُدْعَون إلى التَّوراةِ لتحكُمَ بينهم(٣)؛ فهم يُقرُّون ويُصدِّقون بها(٤).

﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾.

أي: يَستدبرُ فريقٌ(٥) منهم عن كتابِ الله مُعرِضًا عنه مُنصرِفًا(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٩٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٠٩).

(٣) يحتمل أنْ يكون المرادُ: يَحكُم بينهم في بعض ما تنازعوا فيه هم ورسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ، ويحتمل أنْ يكون تنازُعهم الذي دُعوا إلى حُكم التوراة فيه، هو أمْر نُبوَّة محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، ويحتمل أنْ يكون المراد إبراهيم خليل الرحمن ودِينه، ويحتمل أنْ يكون ذلك ما دُعوا إليه من أمر الإسلام، والإقرار به، ويحتمل أنْ يكون ذلك التنازُع في حدٍّ؛ فإنَّ كلَّ ذلك ممَّا قد نازعوا فيه رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فدَعاهم فيه إلى حُكم التوراة. وأيًّا ما كان فإنَّ المعنى الذي دُعِي إليه حمَلَةُ التوراة هو ممَّا قد وجَب عليهم في دِينهم الإجابةُ إليه، فامتنعوا منه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٩٥).

(٥) خصَّ الله تعالى بالتولي فريقًا دون الكلِّ؛ لأنَّ منهم مَن لم يتولَّ كابن سَلاَم وغيره. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤١٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٩٦).

عن عبدِ اللهِ بن عمرُ رضِي اللهُ عنهما أنَّ اليهودَ جاؤوا إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فذكَروا له أنَّ رجلًا منهم وامرأةً زَنَيا، فقال لهم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((ما تجِدون في التَّوراةِ في شأنِ الرَّجْمِ؟، فقالوا: نفضَحُهم ويُجْلَدُون، فقال عبدُ اللهِ بنُ سَلَامٍ: كذَبْتُم، إنَّ فيها الرَّجْمَ، فأتَوْا بالتَّوراةِ فنشَروها، فوضَعَ أحدُهم يدَه على آيةِ الرَّجْمِ، فقرأَ ما قبلَها وما بعدَها، فقال له عبدُ اللهِ بنُ سَلَامٍ: ارفعْ يدَكَ، فرَفَعَ يدَه، فإذا فيها آيةُ الرَّجْمِ، فقالوا: صدَقَ[1] يا محمدُ؛ فيها آيةُ الرَّجْمِ، فأمَرَ بهما رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فرُجِمَا))[2].

وذكَر الله تعالى سبب إعراضِهم فقال:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤)﴾.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾.

أي: ذلك التَّولِّي والإعراضُ بسبب قولِهم: لن نُعذَّبَ في النَّار إلَّا أيَّامًا قلائلَ، ثمَّ يُخرِجنا منها ربُّنا[3].

= يجوزُ أنْ يَعني بالتولِّي تولِّي فريقٍ من الذين أُوتوا نصيبًا من الكتاب، وبالإعراض جماعتهم، ويجوز أن يكون التولي والإعراضُ جميعًا للفريق، فيكون معنى التولي عنه ترْكَ موالاته، والإعراضُ يكون بالبدن؛ وذلك لئلَّا يحتجَّ عليهم إذا حَضروا فيلزمهم حُجَّة. ((تفسير الراغب)) (٢/ ٤٨٤)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٢٤) وقيل: تولوا بأبدانهم، وأعرضوا بقلوبهم. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٦).

وقيل: معناه يتولَّى عن الداعي ويعرض عمَّا دُعِيَ إليه. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (١/ ٣٨٣).

(١) أي: صدَقَ عبدُ الله بنُ سَلَامٍ.

(٢) رواه البخاري (٣٦٣٥) ومسلم (١٦٩٩).

وبعضُهم جعَل هذه القصَّةَ سببًا لنزول الآيةِ. يُنظر: ((تفسير الراغب)) (٢/ ٤٨١)، ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٧٨)، ((العجاب في بيان الأسباب)) لابن حجر (٢/ ٦٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٤٧).

عن أبي هُرَيرَةَ رضِي اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لليهود: ((مَن أهلُ النَّارِ؟ فقالوا: نكونُ فيها يسيرًا، ثمَّ تَخْلُفُونا فيها، فقال لهم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: اخسَؤوا فيها، واللهِ لا نَخْلُفُكم فيها أبدًا))[1].

﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

أي: ثبَّتَهم على دِينِهم الباطل ما خدَعوا به أنفسَهم مِن زعمِهم أنَّ النَّارَ لن تمسَّهم إلَّا أيَّامًا معدوداتٍ، وادِّعائِهم أنَّهم أبناءُ الله وأحبَّاؤُه، إلى غيرِ ذلك، وهم الَّذين افترَوْا هذا مِن تلقاءِ أنفسِهم واختلَقوه[2].

ثمَّ قال الله تعالى مُتهدِّدًا لهم ومتوعِّدًا:

﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٥)﴾.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

أي: فكيفَ يكونُ حالُهم مع ما صنَعوا إذا جمَعَهم اللهُ للفصلِ[3] بينهم، ولحسابِهم في يومٍ لا شكَّ في مجيئِه ووقوعِه، وهو يومُ القيامة؟! وما أعظَمَ ما يلقَوْنَ من عقوبةٍ[4]!

---

(١) رواه البخاري (٣١٦٩).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٤٨).

(٣) اللَّام في قوله: ﴿لِيَوْمٍ﴾ قيل: بمعنى (في)؛ قاله الكسائي، وقيل: المعنى (لحساب يوم)؛ قاله البصريُّون، وقيل: (لِمَا يَحدُث في يوم)، أو (لِمَا يكون في يوم)؛ قاله ابن جرير. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٩٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٦).

وقوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ إمَّا أنَّه خبر بمعنى النهي؛ والمعنى: لا تَرتابوا فيه، أو أنَّه خبرٌ على حقيقته. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٥١).

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾.

أي: وأَعْطَى اللهُ كلَّ نفسٍ جزاءَ ما عمِلَتْ من الخيرِ أو الشَّرِّ كاملًا وافيًا[١].

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

أي: لا يُنقَصُ أحدٌ من حَسناتِه، ولا يُزاد في سيِّئاتِه، أو يُعاقَبُ بغير جُرمِه[٢].

كما قال تعالى: ﴿ولاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[الكهف: ٤٩]، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢].

وفي الحديثِ القُدسيِّ الذي راوه أبو ذرٍّ الغفاريُّ رضِي اللهُ عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، فيما روَى عن اللهِ تبارَك وتعالَى أنَّهُ قال: ((يا عِبادي، إنِّي حرَّمْتُ الظُّلمَ على نفْسِي...))[٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾ دليلٌ على أنَّ الإنسانَ قد يُعطى عِلمًا، إلَّا أنَّه لا يوفَّق للعمل به[٤].

٢- في قوله: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ تحذيرٌ مِن التَّولِّي والإعراضِ عند الدَّعوةِ إلى التَّحاكُمِ إلى كتاب الله، بل الواجبُ على كلِّ أحدٍ إذا دُعِيَ إلى ذلك أنْ يسمَعَ ويُطيعَ وينقادَ، فلا يمكن أنْ يحتويَ قلبُ امرئٍ على

---

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٩٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٥٢).

(٣) رواه مسلم (٢٥٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٤٥).

الخوف من الآخرةِ والحياءِ من الله، ثمَّ يُعرِض عن الاحتكامِ إلى كتابِ الله، وتحكيمِه في كلِّ شأنٍ من شؤون الحياةِ[١].

٣- يُؤخَذُ من قوله تعالى: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ بُطلانُ الأمانيِّ، وأنَّ النَّفْس قد تُمنِّي الإنسانَ ما لا يكون؛ لذا يجبُ على الإنسان الحَذرُ من الاتِّكالِ على الأمانيِّ؛ فإنَّ هذا الخُلُقَ سِمةٌ من سِمات اليهود والنَّصارى[٢].

٤- لا يَجتمع في قلبٍ واحد جِدِّيَّةُ الاعتقادِ بلِقاء الله وحقيقتِه مع التَّميُّع في تصوُّر جزائِه وعَدْله؛ وذلك يُؤخَذُ من قوله تعالى: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾[٣].

٥- في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾، دلالةٌ على أنَّ اعتقادَ النَّجاةِ مِن عذابِ الله تعالى على كلِّ حال يحملُ المرءَ على الجُرأة على الإعراض عن الحقِّ، كما أنَّ هذا الاعتقادَ مُؤذِنٌ بسَفالة الهمَّة الدِّينيَّة، فلا تحصُلُ المنافسةُ في تزكية النَّفْس[٤].

٦- في قوله تعالى: ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ بيانُ أنَّ الاغترار بالعمل قصورٌ في النَّظر؛ لأنَّه ليس الشَّأنُ هو القيامَ بالعمل، بل الشَّأنُ كلُّ الشَّأن أنْ يُقبَلَ منه العمل، فكم مِن عاملٍ ليس له مِن عملِه إلَّا التَّعبُ؛ لوجود مُبطِلٍ سابقٍ أو لاحقٍ[٥].

٧- من قوله تعالى: ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ يتَّضح أنَّ المخالفةَ

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٣٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٤٨).
(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٣٨٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢١١).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٥٠).

إذا لم تكُن عن غرورٍ، فالإقلاعُ عنها مَرجوٌّ، أمَّا المغرورُ فلا يُترقَّبُ منه إقلاع[١].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- في قوله: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ بيانُ أنَّ الحُكم في كتاب الله يَشمَلُ كلَّ شيءٍ مِن عباداتٍ ومعاملات وأخلاق؛ لأنَّه لم يخصِّص منها شيءٌ، وفي هذا ردٌّ على مَن يزعم أنَّ الشَّرعَ إنَّما جاء في تنظيمِ العبادات فقط، أمَّا المعاملاتُ فهي إلى الخَلْق[٢].

٢- عبَّر بالقولِ عن مُعتقَدِهم فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾ ولم يقُل: (اعتقدوا)؛ قيل: للدَّلالة على أنَّ هذا الاعتقادَ لا دليلَ عليه، وأنَّه قولٌ مفترًى مدلَّسٌ، وهذا المعتقدُ هو عقيدةُ اليهود[٣].

٣- في قوله: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ دليلٌ على أنَّهم يؤمنون بالبعث، إلَّا أنَّه لا فائدةَ في الإيمانِ المجرَّد بوجودِ الله أو اليومِ الآخِر ما لم يَتْبَعْه قَبولٌ وإذعان؛ فمجرَّدُ التَّصديقِ لا يُعدُّ إيمانًا[٤].

بَلاغَةُ الآيات:

١- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾:

- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ﴾: الاستفهامُ للتقرير لِمَا سبقَ من أنَّ اختلافَهم في الإسلام؛ ليكونَ التقريرُ على نفْيِه محرِّضًا للمخاطَب على الاعترافِ به بناءً على أنَّه لا يَرضَى أنْ يكون ممَّن يَجهلُه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٤٩).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٣٠٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٠٨).

- وفيه إظهارُ ما حقُّه الإضمار - حيث قال: ﴿إِلَى الَّذِينَ﴾، وكان الموضِعُ أن يُقال: (إليهم)-؛ للدَّلالةِ على أنَّ ضلالهم على عِلمٍ، وأنَّ الذي أُوتوه منه قراءتُهم له بألسنتِهم، وادِّعاءُ الإيمانِ به[1].

- وفي قوله: ﴿الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾: عرَّف المتحدَّث عنهم بطريق الموصوليَّةِ ﴿الَّذِينَ﴾ دون لقَبِهم (اليهود)؛ لأنَّ في الصِّلةِ ما يَزيد التَّعجُّبَ من حالهم؛ لأنَّ كونَهم على عِلمٍ من الكتاب قليلٍ أو كثيرٍ مِن شأنِه أنْ يَصُدَّهم عمَّا أُخْبر به عنهم، على ما في هذه الصِّلة أيضًا من توهينِ عِلمِهم المزعومِ[2].

- وتنكيرُ ﴿نَصِيبًا﴾ للتَّعظيم، وقيل: بل لبيان النوعيَّة، وليس للتعظيمِ؛ لأنَّ المقامَ مقامُ تهاونٍ بهم، وقد يكونُ التنوينُ للتَّقليل[3].

٢- قوله تعالى: ﴿يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾:

- قوله تعالى: ﴿يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ﴾: فيه إظهارُ الاسم الشَّريف (الله)، وإضافةُ الكتابِ إليه، ولم يقُل: (كتابهم)؛ احترازًا عمَّا غيَّروا وبدَّلوا؛ ولأنَّهم إنَّما دُعوا إلى كتاب اللهِ الذي أنزل على موسى عليه الصَّلاة والسَّلام، لا إلى ما عساه أنْ يكونَ بأيديهم ممَّا غيروا. وفيه أيضًا إشارةٌ إلى عظيمِ اجترائهم بتولِّيهم عمَّن له الإحاطةُ الكاملة[4].

- في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾: العطف بـ(ثمَّ)- التي تجعلُ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٣٠٢-٣٠٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٠٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٠٩).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٣٠٣).

الجملةَ المعطوفةَ في حُكمِ المفرد- فيه دلالةٌ على أنَّ تولِّيهم مستمرٌّ في أزمان كثيرة تبعُد عن زمان الدعوة. ودخول (ثم) هنا للدَّلالة على التراخِي الرُّتبي لا التراخِي الزَّمني؛ لأنَّهم قد يتوَّلون إثرَ الدعوة، ولكن أُريد التعجُّب من حالهم؛ كيف يتولَّون بعد أنْ أُوتوا الكتاب ونَقَلوه؟! فإذا دُعوا إلى كِتابهم تولَّوْا! والإتيان بالمضارِع في قوله: ﴿يَتَوَلَّى﴾؛ للدَّلالة على التجدُّد[1].

- وجملة: ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ حال مؤكِّدة لجملة: ﴿يَتولَّى فَرِيقٌ﴾؛ إذ التولِّي هو الإعراض، ولَمَّا كانتْ حالًا لم تكُن فيها دلالةٌ على الدوام والثبات، فكانتْ دالَّةً على تجدُّد الإعراض منهم المفادِ أيضًا من المضارع في قوله: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾[2].

٣- قوله تعالى: ﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ جِيء فيه بجمْع القِلَّة (أيَّام)؛ لمناسبته للمقام، من حيثُ تَناهِي اجترائِهم على العظائم؛ لاستهانتِهم بالعذابِ لاستقصارِهم لمدَّته، وأُكِّدتْ إرادتُهم لحقيقة القِلَّة بجمْع آخَر للقِلَّة ﴿مَعْدُودَاتٍ﴾[3].

- وخصَّ الجمع بهذا الموضع ﴿مَعْدُودَاتٍ﴾؛ لأنَّه مكانُ تشنيعٍ عليهم بما فعَلوا وقالوا، فأتَى بلفظ الجمْع؛ مبالغةً في زَجْرهم، وزجْرِ مَن يعملُ بعمَلِهم[4].

٤- في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ﴾ استفهامٌ غرضُه التهويلُ، والاستعظامُ والاستفظاعُ لِمَا أعدَّ الله لهم في يومٍ عصيبٍ تتقلَّب فيه القلوبُ والأبصار[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢١٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٣٠٥).

(٤) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٩٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٤٩)، ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٨٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٣٨٧).

- وهو تفريعٌ عن قوله: ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ﴾، أي: إذا كان ذلك غرورًا؛ فكيف حالُهم أو جزاؤهم إذا جمعناهم[١]؟!

- وفيه إيجازٌ بالحذفِ، والتقديرُ: فكيف صُورتُهم وحالهم إذا جمعناهم؟! وهذا الحذفُ يوجبُ مَزيدَ البلاغة؛ لِمَا فيه من تحريكِ النَّفسِ على استحضارِ كلِّ نوعٍ مِن أنواعِ العذابِ[٢].

- وقال تعالى: ﴿لِيَوْمٍ﴾ ولم يقل: (في يوم)؛ لأنَّ المرادَ: لِجزاء يوم، أو لحساب يوم، فحُذف المضافُ ودلَّت اللامُ عليه[٣].

٥- **قوله تعالى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾** عبَّر بصيغة الماضي ﴿وُفِّيَتْ﴾؛ ليفيدَ أنَّ الجزاء أمرٌ متحقِّق لا بدَّ منه، والبناء للمَفعول؛ للدلالةِ على سهولةِ تلك التوفيةِ عليه سبحانه، وإنْ كانت كثيرةً تفوقُ الحصْرَ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٨٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٣٠٦-٣٠٧).

الآيتان (٢٦ - ٢٧)

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿تُولِجُ﴾: تُدخِل هذا في هذا، إمَّا بالتَّعقيبِ، أو الزِّيادة والنَّقص؛ فما زاد في واحدٍ نقَصَ من الآخَرِ مِثلُه[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾

﴿اللَّهُمَّ﴾: مُنادى مُفرَد عَلَم، ومعناها: يا أللهُ، وهي مِن الأسماءِ التي لَزِمَت النِّداء، وحُذِفَ حرفُ النِّداء (يا)، وعُوِّضَ عنه هذه الميمُ المشدَّدة[2]، وهذا خاصٌّ بهذا الاسمِ الشَّريف؛ فلا يجوزُ تعويضُ الميمِ من حرفِ النِّداء في غيره[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٣).

(٢) قال ابن عاشور: (ولَمَّا كثُر حذف حرف النِّداء معه قال النحاة: إنَّ الميم عوض من حرف النداء؛ يريدون أنَّ لحاق الميم باسم الله في هذه الكلمة لَمَّا لم يقعْ إلَّا عند إرادة الدعاء صار غنيًّا عن جلب حرف النداء اختصارًا، وليس المراد أنَّ الميم تُفيد النداء. والظاهر: أنَّ الميم علامة تنوين في اللُّغة المنقول منها كلمة (اللهم) من عبرانية أو قحطانية، وأن أصلها (لا هم) مرادف (إله)، ويدلُّ على هذا أنَّ العرب نطقوا به هكذا في غير النِّداء، وأنهم نطَقوا به كذلك مع النِّداء، وأنهم يقولون: يا أللهُ كثيرًا) ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢١٢) باختصار.

(٣) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٢٥٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٩٧).

﴿مَالِكَ﴾: منصوبٌ على أنَّه مُنادى مُضاف، وحُذفتْ أداة النِّداء، والتقديرُ: يا مالكَ الملكِ. وقيل: هو بدَلٌ من (اللهمَّ)، أو عطفُ بيان. وقيل: نعتٌ له(١).

المعنَى الإجماليُّ:

أمَر اللهُ سُبحانَه وتَعالَى رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يَدْعوَه معظِّمًا له، مُوكِلًا الأمرَ إليه، قائلًا: يا أللهُ، يا مَن لكَ جميعُ المُلك، وجميعُ الأمْر في الدُّنيا والآخِرة، تُصرِّف جميعَ الممالك وتُدبِّرُها، فتُعطي المُلْك من تشاءُ من عِبادك، وتَنزِعه ممَّن تشاء، وتُعِزُّ مَن تشاءُ منهم، وتُذِلُّ مَن تشاء؛ فأنت الخيرُ كلُّه بيديك، لا يُشارِكك فيه أحدٌ، وأنت قادرٌ على كلِّ شيءٍ، فلا شيءَ يمتنع عليك، ولا يحُول بينك وبين ما تُريد حائلٌ، تُدخِل اللَّيل في النَّهار، وتُدخِل النَّهار في اللَّيل، وتُخرِج المخلوقَ الحيَّ من المخلوقِ الميِّتِ، والمخلوقَ الميِّتَ من المخلوقِ الحيِّ، وتهَبُ مَن تشاء ما تشاء مِن الرِّزقِ الواسعِ الكثيرِ بلا حِسابٍ.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أخبَر تعالى أنَّ الكفَّارَ سيُغلَبون، وأنَّه ليس لهم من ناصرين، كان حالُهم مقتضيًا لأنْ يقولوا: كيف نُغلَبُ مع قوَّتنا وكثرتِنا، وقلَّة أعدائِنا وضَعْفِهم؟ فقال الله تعالى(٢):

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٥٤)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٢٥٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٣٠٨).

أي: قُلْ- يا محمَّدُ-: يا أللهُ[1]، يا مَن لك الملكُ كلُّه؛ مُلكُ الدُّنيا والآخِرة، فتملِك جميعَ الممالكِ وتُصرِّفها وتُدبِّرها[2].

ثُمَّ فصَّل في بعضِ وجوه تصاريفِه وتدابيرِه في مُلكِه فقال:

﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾.

أي: تُعطي المُلكَ مَن تشاءُ أنْ تُعطيَه[3].

﴿وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾.

أي: وتَنزِعُ الملكَ ممَّن تشاءُ أنْ تنزعَه منه؛ فتُزيلُ عنه وصْفَ المُلكِ[4].

﴿وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ﴾.

أي: وتُعزُّ مَن تشاء أنْ تُعزَّه بطاعتِك، أو بإعطائِه المُلكَ، وبَسْطِ القدرةِ له، أو نَصْرِه، وغير ذلك[5].

---

(١) (لا خِلاف أنَّ لفظة (اللهمَّ) معناها يا ألله. وقيل: زِيدت الميم للتعظيم والتفخيم. وهذا القولُ صحيح، ولكن يحتاج إلى تتمَّة، وقائله لحَظَ معنًى صحيحًا لا بدَّ من بيانه، وهو أنَّ الميم تدلُّ على الجمْع وتَقتضيه، ومَخرجُها يَقتضي ذلك. وإذا عُلِم هذا من شأن الميم، فهُم ألْحقوها في آخِر هذا الاسم الذي يُسأل اللهُ سبحانه به في كلِّ حاجة وكلِّ حال؛ إيذانًا بجميعِ أسمائه وصفاتِه؛ فالسائلُ إذا قال: اللهمَّ إني أسألك، كأنه قال: أدعو اللهَ الذي له الأسماء الحسنى والصِّفات العلى بأسمائِه وصفاته، فأتَى بالميمِ المؤذِنةِ بالجمع في آخِرِ هذا الاسم؛ إيذانًا بسؤاله تعالى بأسمائه كلِّها. وهذا القول الذي اخترناه جاءَ عن غيرِ واحدٍ مِن السلف؛ قال الحسن البصري: (اللهمَّ) مَجمَعُ الدعاء، وقال أبو رجاء العطاردي: إنَّ الميم في قوله: (اللهم) فيها تِسعةٌ وتسعون اسمًا من أسماء الله تعالى. وقال النضرُ بن شُمَيل: مَن قال اللهمَّ، فقد دعا الله بجميعِ أسمائه) ((جلاء الأفهام)) لابن القيِّم (ص: ١٤٣) بتصرف.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٥٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- =

﴿وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾.

أي: وتذلُّ مَن تشاءُ أنْ تذلَّه بمعصيتِك، أو بسَلْبِ مُلكِه، وتسليطِ أعدائِه عليه، أو هزيمتِه، وغير ذلك[١].

﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾.

أي: الخيرُ كلُّه بيديك، ليس لأحدٍ معك منه شيءٌ[٢].

وفي حديثِ عليِّ بن أبي طالبٍ، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان يُثْني على ربِّه في دُعاءِ الاستفتاحِ فيقول: ((لبَّيْكَ وسَعْدَيْك، والخيرُ في يَديك، والشَّرُّ ليس إليك))[٣].

﴿إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: إنَّ الله قديرٌ على كلِّ شيءٍ، على ما شاءَه وما لم يَشَأْه؛ فلا يمتنعُ عليه أمرٌ من الأمور[٤].

= سورة آل عمران)) (١/ ١٥٧).

والإعزازُ سواء قِيل بالطاعة، أو الملك، أو النصر، أو غير ذلك يَنبغي حملُه على التمثيل، وكذلك الإذلال بضد ما ذكَرْنا؛ لأنَّه لا مُخصِّص في الآية، فالذي يقعُ به العزُّ والذلُّ مسكوتٌ عنه. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٨٦)، ((روح المعاني)) للألوسي (٢/ ١١٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيِّم (ص: ١٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٥٨).

فهذه التصرُّفات كلُّها بيده وكلها خير؛ فسَلْبُه الملك عمَّن يشاء، وإذلاله مَن يشاء خيرٌ، وإنْ كان شرًّا بالنسبة إلى المسلوب الذليل؛ فإنَّ هذا التصرف دائر بين العدل والفضل، والحِكمة والمصلحة لا تخرج عن ذلك، وهذا كلُّه خيرٌ يُحمَد عليه الربُّ، ويُثنَى عليه به، كما يُحمد ويُثنى عليه بتنزيهه عن الشرِّ، وأنَّه ليس إليه. يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيِّم (ص: ١٧٩).

(٣) رواه مسلم (٧٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٥٩).

﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧)﴾.

﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾.

أي: تُدخِلُ اللَّيلَ في النَّهار، وتُدخِل النَّهارَ في اللَّيل، فتجعلُ ما نَقَصْتَ من ساعاتِ اللَّيلِ زيادةً في ساعاتِ النَّهار، وما نَقصْتَ من ساعاتِ النَّهار زيادةً في ساعات اللَّيل[1].

﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾.

أي: وتُخرجُ الإنسانَ الحيَّ والأنعامَ والبهائمَ الأحياءَ من النُّطَف الميتةِ، وتُخرج الزَّرعَ من الحَبَّةِ، والنَّخلةَ من النَّواة، والدَّجاجةَ مِن البيضةِ، والمؤمنَ من الكافِر، إلى غيرِ ذلك[2].

﴿وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾.

أي: وتُخرجُ النُّطفةَ الميِّتة من الإنسانِ الحيِّ والأنعامِ والبهائمِ الأحياءِ، وتُخرجُ الحَبَّةَ من الزَّرع، والنَّواةَ من النَّخلةِ، والبيضةَ من الدَّجاجةِ، والكافرَ من المؤمِن، إلى غيرِ ذلك[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٠٤)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٢٧) وعزاه لجميع المفسِّرين، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٠)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤١٧) وقال: (وتحتمل ألفاظُ الآية أن يَدخُل فيها تعاقبُ الليل والنهار، كأنَّ زوالَ أحدهما ولوجٌ في الآخر).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٦٤).

لكن يرَى ابنُ جرير: أنَّ تأويلَ مَن تأوَّله بمعنى الحبَّة من السُّنبلة، والسُّنبلة من الحبَّة، والبيضة من الدجاجة، والدجاجة من البيضة، والمؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، وإنْ كان له =

﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

أي: وتُعطي مَن تشاءُ من الخَلْقِ الرِّزقَ الواسعَ، دون تَقتيرٍ أو تضييقٍ أو مُحاسَبةٍ[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ...﴾ الآية: تَعليمٌ من الله تعالى لنبيِّه محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يفوِّضَ الأمرَ إليه، والخِطاب الموجَّهُ له موجَّهٌ لأمَّته، إمَّا عن طريق التَّأسِّي، وإمَّا لأنَّ الخِطاب للإمام خِطابٌ له ولِمَن اتَّبعه، ما لم يدلَّ الدَّليلُ على أنَّه خاصٌّ به[٢].

٢- في قوله تعالى: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ تقديمُ الإيتاءِ على النَّزع إشارةٌ إلى أنَّ الداعي يَنبغي أن يبدأ بالترغيبِ، و﴿وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ فيه إشارةٌ إلى إنَّ الدعاء باللِّين إنْ لم يُجدِ ثُنِّي بالترهيب[٣].

٣- من قوله تعالى: ﴿وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ يُؤخَذ أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى تامُّ الملك والسُّلطان؛ لكونه يُذِلُّ مَن يشاء، ولو بلَغ ما بلغ من العِزَّة البشريَّة؛ فإنَّ يدَ الله فوقَه مهما بلَغ الإنسانُ مِن العزِّ؛ فالله قادرٌ على إذلاله[٤].

٤- أنَّ الله سبحانه وتعالى بيده الخيرُ، فإذا كان كذلك فإنَّه لا يُطلَب الخيرُ إلَّا منه؛ لأنَّه لا أحدَ بيده الخيرُ إلَّا هو؛ قال الله تعالى: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾[٥].

= وجهٌ مفهوم، لكنَّه ليس هو الأغلبَ الظاهر في استعمالِ الناس في الكلام. ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣١٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٦٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٣١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٦١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٥- في قوله تعالى: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ بيانُ ضَعْفِ الإنسان وحاجتِه؛ فإيلاجُ اللَّيل في النَّهار والعكس، وما يَنتجُ عنه من تقلُّبٍ في الفصول، يُعرِّفُ الإنسانَ بمدَى ضَعْفِه، وافتقارِه إلى ربِّه، فإنْ جاءَ البردُ احتاج إليه، وإنْ جاء الحرُّ احتاج إليه[1].

٦- في قوله: ﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ﴾ أنَّ الرِّزقَ بيد الله؛ وعليه فإنَّه يَنبغي للعاقل فضلًا عن المؤمن، ألَّا يَطلُبَ الرِّزق مِن أيدي النَّاس، وإنَّما يَطلُبه من الله عزَّ وجلَّ[2].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قوله: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ تعريضٌ بأهلِ الكتاب، بأنَّ إعراضَهم إنَّما هو حسَدٌ على زوالِ النُّبوَّة وانقراضِ المُلكِ منهم، مع الإيماءِ إلى أنَّ الشَّريعةَ الإسلاميَّة مُقارِنةٌ للسُّلطان والمُلك[3].

٢- في قوله: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ تسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في مقامِ بَيانِ عِنادِ المنكِرين، ومكابَرة الجاحدين، وتذكيرِه بقُدرتِه تعالى على نَصرِه وإعلاءِ كَلمةِ دِينه[4].

٣- في قوله تبارَك وتعالَى: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه لا تلازُمَ بين العزِّ والمُلك؛ فقد يكون الملِكُ ذليلًا إذا ضَعُف استقلالُه بسوءِ السِّياسةِ وفسادِ التدبير، حتَّى صارتِ الدُّولُ الأخرى تَفْتاتُ عليه[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٦٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٦٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢١٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٢٢).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٢٣).

٤- في قوله تبارَك وتعالَى: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ أنَّ الثناءَ ممَّا يُتوسَّل به إلى الله، وهو في الآية يتضمَّنُ ما تدلُّ عليه هذه الجملةُ، فإذا أثنيتَ على الله بأنَّه يُعِزُّ مَن يشاء، فأنت تسألُه العزَّة[1].

٥- في قوله تعالى: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ تنزيهُ اللهِ عن نِسبة الشَّرِّ إليه، بل كلُّ ما نُسِب إليه فهو خيرٌ، والشَّرُّ إنَّما صار شرًّا؛ لانقطاع نسبتِه وإضافتِه إليه، فلو أُضيف إليه لم يكن شرًّا، وهو سبحانه خالقُ الخيرِ والشَّرِّ؛ فالشَّرُّ في بعض مخلوقاتِه لا في خَلقِه وفِعلِه؛ فخَلْقُه وفعلُه وقضاؤُه وقدَرُه خيرٌ كلُّه[2].

بَلاغَةُ الآيتين:

١- قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾:

- ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ﴾: بيانٌ لبعضِ وجوهِ التَّصرُّفِ الذي تَستدعيه مالكيَّةُ المُلك، وفيه تحقيقُ اختصاصِ وجوه التصرُّف هذه باللهِ تعالى حقيقةً، وكونِ مالكيَّة غيرِه بطريقِ المجاز؛ لأنَّ لفظةَ ﴿تُؤْتِي﴾ تُفْهِم مجرَّدَ الإعطاءِ، بخِلاف لفظةِ (تُملِّك) التي تُؤذِن بثُبوتِ المالكيَّةِ حقيقةً؛ فإنَّ المُلك حقيقةً هو لله وحْدَه. وفي التَّعبير بالإيتاءِ أيضًا؛ دَلالةٌ على أنَّ المُلك نِيلَ مِن اللهِ تعالى من غيرِ قوَّةٍ وغَلبةٍ، ولا مطاولةٍ فيه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيِّم (ص: ١٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٥٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٣١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢١)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٣٠٢).

- قوله: ﴿بِيَدِكَ الخَيْرُ﴾: فيه تقديمٌ وتأخيرٌ؛ لإفادةِ الحَصر، كأنَّه قال: بيَدِك الخيرُ لا بيدِ غيرِك[١].

- وتعريفُ (الخير)؛ للتعميم[٢].

- قوله تعالى: ﴿مَالِكَ الْمُلْكِ﴾، ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ﴾، ﴿وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ﴾: فيه تكرار (المُلك) في جُمَل عديدة؛ للتَّفخيم والتَّعظيم- إنْ كان المرادُ واحدًا- وإنِ اختلَف المرادُ، كان مِن تَكرار اللَّفْظ فقط[٣].

- قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: هذا كالتأكيدِ لِمَا تقدَّم، من كونِه مالكًا لإيتاءِ المُلك ونَزْعِه، والإعزازِ والإذلال[٤]، مع ما فيه مِن التأكيد بـ(إنَّ)، واسميَّة الجملة، وتقديم الجارِّ والمجرور ﴿عَلَى كُلِّ﴾[٥].

٢- قوله تعالى: ﴿وَتُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾، وقوله: ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾: فيهما وفي متعلَّقيهما (الليل والنهار- والحي والميِّت) تَكرارٌ أيضًا، وردُّ الأعجازِ على الصُّدور، والصُّدورِ على الأعجازِ، مِثل قولهم: (عاداتُ السَّاداتِ ساداتُ العاداتِ)، وهو مِن مَحاسِن البديعِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ١٩٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢١).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٩٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ١٩٠).
(٥) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٤١٠- ٤١١).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٩١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ١٠٦).

الآية: (٢٨)

﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةًۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾.

المَعنَى الإجماليُّ:

يَنهى اللهُ تبارَك وتعالَى المؤمنين عن اتِّخاذ أهلِ الكُفر أولياءَ يحبُّونهم ويَنصرونهم، ويَتركون موالاةَ أهلِ الإيمان، وتوعَّد الله تبارَك وتعالَى مَن يفعل ذلك أنَّه ليس مِن الله في شيءٍ، وأنَّه بريءٌ منه، ثمَّ استَثْنَى اللهُ تبارَك وتعالَى من ذلك مُداراةَ الكفَّار مداراةً ظاهرةً، وإظهارَ موالاتهم باللِّسانِ مع إضمارِ البُغض والكُره، في حالة الخوفِ من شُرورِهم، ثمَّ حذَّر الله المؤمنين من نفسِه، وأنذَرهم من التعرُّض لِما يُسخِطه؛ من ارتكابِ الموبقات، والاجتراءِ على الذُّنوب والسَّيِّئات، والإقدامِ على موالاة أعدائِه، وبيَّن لهم أنَّه إليه مَرجعُ العِباد بعد موتِهم، فيُحاسبهم على أعمالهم.

تَفسيرُ الآية:

﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٢٨)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى أنَّه مالكُ المُلك، وأنَّ بيده مجامعَ الخير، والسُّلطانَ المطلقَ في تصريف الكون، يُعطي مَن يشاء، ويَمنعُ مَن يشاء، ويُعزُّ مَن يشاء، ويُذلُّ مَن يشاء، فإذا كانت العزَّةُ والقوَّة له- عزَّ شأنُه- فمِن الجهلِ والغرورِ

الاعتزازُ بأحدٍ من دونه، أو اللُّجوءُ إلى غيرِ بابِه، أو موالاةُ أعدائه(١).

﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: لا تتَّخِذوا- أيُّها المؤمنون- الكفَّارَ أنصارًا وأعوانًا، تحبُّونهم وتظاهرونهم وتوالونهم متجاوزين المؤمنين إليهم(٢).

كما قال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١].

وقال سبحانه: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصارى أَوْلِياءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤٤].

ثمَّ توعَّد اللهُ تعالى مَن يفعل ذلك فقال:

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾.

أي: ومَن يفعلْ ذلك المذكورَ، فيتَّخِذهم أولياءَ من دون المؤمنين، فقد بَرِئ مِن اللهِ، وبرِئ اللهُ منه(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ١٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٣٢٢-٣٢٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٠)، ((تفسير الشوكاني)) (١/ ٣٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٧).

قال ابنُ تيميَّة في سبب نزولِ هذه الآية: (قد اتَّفق المفسِّرون على أنَّها نزلتْ بسبب أنَّ بعض المسلمين أراد إظهارَ مودَّة الكفَّارِ فنُهوا عن ذلك) ((منهاج السنة النبوية)) (٦/ ٢٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٧٣).

ثمَّ استثنَى اللهُ تعالى، فقال:

﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾.

أي: إلَّا أنْ تَخافوا على أنفسِكم مِن شرِّهم، فلَكُم أنْ تتَّقوهم بمداراتِهم، وإظهارِ الوَلايةِ لهم بألْسنتِكم، مع إضمارِ العَداوةِ والبُغضِ لهم، وعدمِ مُشايعتِهم على كُفرِهم، أو إعانتِهم على المسلمين(١).

ثمَّ هدَّد وتوعَّد مَن فعَل ما نَهى عنه، فقال:

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾.

أي: ويُخوِّفُكم اللهُ من نفسِه، فلا تَتعرَّضوا لسَخطِه وعذابِه بركوبِ مَعاصيه، أو موالاةِ أعدائِه(٢).

﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾.

أي: إليه المرجعُ بعدَ الموت، فيُجازي كلَّ عاملٍ بعمله؛ فإيَّاكم أنْ تفعلوا مِن الأعمالِ ما تَستحقُّون به العقوبةَ، واعمَلوا ما به يَحصُل الأجرُ والمثوبةُ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٢٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤١٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٧٣).

وقال ابن القيِّم: (معلومٌ أنَّ التُّقاة ليست بموالاة، ولكن لَمَّا نهاهم عن موالاة الكفار، اقتضى ذلك معاداتهم، والبراءةَ منهم، ومُجاهرتَهم بالعدوان في كلِّ حال، إلَّا إذا خافوا من شرِّهم فأباح لهم التقيةَ، وليستِ التقيةُ موالاةً لهم)، ((بدائع الفوائد)) (٣/ ٦٩).

ثم إنَّ جواز ذلك مشروطٌ بتسلُّط الكفَّار على المسلمين، وحالِ الخوف على النَّفس؛ لضَعْفِ المسلمين وقوَّة الكفار. ينظر ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٧).

الفَوائدُ التَّربويَّة:

المداراةُ فيما لا يَهدِم حقًّا، ولا يَبني باطلًا، كِياسةٌ مُستحبَّة، يَقتضيها أدبُ المجالسة ما لم تَنتهِ إلى حدِّ النِّفاق؛ وذلك لقولِه تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾[١].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- في قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ...﴾ علَّق اللهُ حُكم (الموالاة) بالمؤمنين؛ لأنَّ مُقتضى الإيمانِ الحقيقيِّ أنَّ يتَّخذَ الإنسانُ الكافرين أعداءً، ولأنَّ اتِّخاذهم أولياءَ يُنافي أصلَ الإيمان أو كمالَه[٢].

٢- في قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ...﴾ دلالةٌ على أنَّه لا يجوزُ أنْ يولَّى كافرٌ ولايةً من ولاياتِ المسلمين، ولا يُستعانُ به على الأمورِ الَّتي هي مَصالحُ لعمومِ المسلمين[٣].

٣- قوله: ﴿مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لا مفهومَ له؛ لأنَّه ذُكِرَ لموافقتِه للواقع؛ لورودِه في قومٍ بأعيانهم والَوُا الكافرينَ دونَ المؤمنين، وليسَ المرادُ إخراجَ المفهومِ عن حُكم المنطوقِ؛ فمِن مَوانعِ اعتبارِ مفهومِ المخالفةِ كونُ المنطوقِ نازلًا على حادثةٍ واقعة. ومعلومٌ أنَّ اتِّخاذَ المؤمنين الكافرين أولياءَ، ممنوعٌ على كلِّ حالٍ. وفيه أيضًا إشارةٌ إلى أنَّ الحقيقَ بالموالاةِ هم المؤمنون، وفي موالاتهم مندوحةٌ عن موالاة الكفَّار[٤].

٤- في قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ ذكَر اللهُ في تَحذيره النَّفْس؛ قيل:

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٣١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٧٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٢/ ١١٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٦٤).

لِيُعلَمَ أنَّ الوعيدَ صادرٌ منه، وهو القادرُ على إنفاذِه؛ إذ لا يُعجِزُه شيء[(١)]. وقيل: جَعَل التَّحذيرَ هنا من نَفْسِ الله- أي ذاتِه- ليكونَ أعمَّ في الأحوال؛ لأنَّه لو قيل: يُحذِّرُكم اللهُ غَضَبَه، لتُوهِّم أنَّ للهِ رِضًا لا يَضرُّ معه تعمُّدُ مخالفةِ أوامرِه، والعرب إذا أرادتْ تعميمَ أحوالِ الذَّات علَّقت الحُكم بالذَّات. ونظيرُ ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ﴾- إلى قوله- ﴿لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[(٢)] [الفتح: ٢٥].

٥- في قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ إثباتُ النَّفْسِ لله تعالى، ونَفْسُه هي ذاتُه عَزَّ وجَلَّ[(٣)].

بَلاغَةُ الآيةِ:

١- قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾: فيه تكرارُ لفظ ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ وإظهارُه في موطنِ الإضمار- حيث قال: ﴿مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ولم يقُل: (من دونهم)-؛ للتأكيدِ[(٤)].

- قوله: ﴿مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾: (مِن) لتأكيد الظرفيَّة، والمعنى: مُباعِدين المؤمنين[(٥)].

٢- قوله: ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾: تنكيرُ ﴿شَيْءٍ﴾ وتنوينُه؛ للتحقيرِ، أي: ليس في شيءٍ يَصحُّ أن يُطلق عليه اسمُ الولاية أو الدِّين؛ لأنَّ موالاة المتضادَّين ممَّا لا يكادُ يقعُ[(٦)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٢١).

(٣) يُنظر: ((صفات الله عزَّ وجلَّ)) للسقاف (ص: ٣٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢١٦).

(٦) يُنظر: ((روح المعاني)) للألوسي (٢/ ١١٧).

٣- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾: التعبيرُ عن صَنيعهم بـ(يفعل)؛ للاختصارِ، أو لإيهامِ الاستهجانِ بذِكرِه[١].

٤- قوله سبحانه: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا﴾: فيه التفاتٌ من الغَيبةِ إلى الخِطاب، ولو جرَى على سَنن الكلامِ لقال: (إلَّا أنْ يتقوا)، وفي الالتفاتِ هنا سِرٌّ بديع؛ ذلك أنَّ موالاةَ الكفَّار لَمَّا كانتْ مُستقبحةً، لم يواجِهِ اللهُ عبادَه بخِطاب النهي، بل جاءَ به في كلامٍ أَسْندَ الفِعلَ المنهيَّ عنه لغَيب، ولَمَّا كانتِ المجاملةُ في الظاهرِ والمحاسَنةُ جائزةً لعُذرٍ، وهو اتِّقاءُ شرِّهم، حسُن الإقبالُ إليهم وخِطابُهم برفْعِ الحرَج عنهم في ذلك[٢].

٥- قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾: فيه تهديدٌ عظيم، مُشعِرٌ بتناهي النَّهي في القُبح؛ حيثُ جَعَل التحذيرَ هنا مِن نفْس اللهِ سبحانه؛ ليكونَ أعمَّ في الأحوال، وذِكْرُ النَّفْس للإيذانِ بأنَّ له عقابًا هائلًا لا يُؤبَه دونه بما يُحذَرُ من الكَفرةِ[٣].

٦- قوله: ﴿وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ﴾: تذييلٌ مقرِّر لمضمونِ ما قبله، ومُحقِّق لوقوعِه حتمًا[٤].

- وتقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿وَإِلَى اللهِ﴾؛ للاهتمامِ والاختصاصِ، وفيه تعريضٌ بالوعيد؛ أكَّد به صريحَ التهديدِ الذي قَبْلَه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ١٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٨٩-٤٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٩٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٣)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٢٢).

- وفيه التأكيدُ باسميَّة الجملة، وقُدِّم فيها الخبر أيضًا لفائدةِ الحصر؛ يعني: (إلى الله لا إلى غيره المصيرُ)، وإيثارُ حرف الجرِّ (إلى)؛ للدَّلالة على انتهاءِ المصير إليه سبحانه وليس لغيرِه شيءٌ منه. ووضْعُ المُظهَر (الله) موضعَ المُضمر (إليه)؛ لكمالِ العنايةِ بتمييزه وتخصُّصه[1].

٧- وقوله: ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللهِ﴾، ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾، ﴿وَإِلَى اللهِ﴾:

فيه مِن أنواعِ البلاغةِ:

- تَكرارُ التَّحذير؛ لاقتضاءِ المقامِ ذلك؛ فجُملة ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللهِ﴾ تحذير، وجملة ﴿ويُحَذِّرُكُم...﴾ تصريحٌ بالتحذير كذلك، وقوله: ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ تحذيرٌ آخرُ.

- وإظهارُ لفظِ الجلالةِ (الله) وعدمُ إضمارِه- حيث لم يقُل: (ويحذركم نفسه) (وإليه المصير)-؛ لإدخالِ المهابةِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٧٣)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٤١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٧٥).

الآيتان: (٢٩ - ٣٠)

﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٩) يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠) ﴾.

غريبُ الكَلماتِ:

﴿رَؤُوفٌ﴾: شديدُ الرَّحمة، وأصل (رَأَف): الرِّقَّة والرَّحمة(١).

المَعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ تعالَى رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يقول مُحذِّرًا المؤمنين مِن اتِّخاذِ الكافرين أولياءَ: إنَّكم لو أخفيتُم ما في صُدورِكم، وسترتُم ما في ضَمائرِكم؛ من خيرٍ أو شرٍّ، أو عداوة أو ولاية، أو أبديتُم ذلك بأقوالِكم أو أفعالِكم، فإنَّ الله يعلمُه، فيُجازيكم على جميعِ ذلك؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، أو شرًّا فشرٌّ؛ فهو الَّذي أحاط علمُه بما في السَّموات وما في الأرض، فلا يَخفَى عليه شيءٌ ولا يَغيبُ عنه، وهو ذو القُدرةِ النَّافذةِ على كلِّ شيءٍ، فلا يُعجِزه شيءٌ في السَّمواتِ ولا في الأرض.

ثمَّ ذكَر موعدَ هذه المجازاة، وهو يومُ القيامةِ، يومَ تجِدُ كلُّ نفسٍ ما عمِلَتْه من الخيرِ قليلِه وكثيرِه حاضرًا بتمامِه من غيرِ نقصٍ، موفَّرًا من غيرِ تغييرٍ ولا تبديل، أمَّا ما عمِلَتْه من سوءٍ وشرٍّ، فإنَّها تَتمنَّى لو أنَّ بينَها وبينَ ما عمِلته مِن السُّوء مسافةً بعيدة، ثمَّ يؤكِّد اللهُ تهديدَه ووعيدَه بتحذيرِ عبادِه مِن نفْسِه، وتخويفِهم من عِقابه، مُبيِّنًا أنَّه إنَّما حَذَّرهم لشدَّة رحمتِه بهم، ورأفتِه عليهم.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧١).

تَفسيرُ الآيتين:

﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا نهى اللهُ تعالى المؤمنين عن اتِّخاذ الكافِرين أولياءَ ظاهرًا وباطنًا، واستَثْنى منه التَّقيَّةَ في الظَّاهر، أتْبَع ذلك بالوعيدِ على أنْ يَصيرَ الباطنُ موافقًا للظَّاهر في وقت التَّقيَّة؛ وذلك لأنَّ مَن أَقْدَم عند التَّقيَّةِ على إظهارِ الموالاة، فقد يصيرُ إقدامُه على ذلك الفعلِ بحسَب الظَّاهر سببًا لحصولِ تلك الموالاةِ في الباطن؛ فلا جَرَم بَيَّن تعالى أنَّه عالمٌ بالبواطن كعِلْمِه بالظَّواهر، فيعلم العبدُ أنَّه لا بدَّ أنْ يجازيَه على كلِّ ما عزَم عليه في قلبه[١]؛ لذا قال:

﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾.

أي: قلْ- يا محمَّدُ-: إنْ تُخفوا ما في قلوبِكم وضمائرِكم- من الخيرِ أو الشَّرِّ، أو الولايةِ أو العَداوةِ وغير ذلك- أو تُظهروه، فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يَعلمُه ويُجازيكم عليه[٢].

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

أي: وقُلْ لهم أيضًا: إنَّ الله يَعلمُ جميعَ ما في السَّموات، وجميعَ ما في الأرض، لا يغيبُ عنه شيءٌ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ١٩٤)

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٢٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٧٨).

﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: واللهُ قادرٌ على كلِّ شيء؛ فقُدرتُه نافذة، ولا يُعجِزه شيءٌ في الأرض ولا في السَّماء، ولكمالِ عِلمه وكمالِ قُدرته إذا أراد معاجلةَ أحدٍ بعقوبة، فلن يُفلِتَ من عِقابه، فاحذَروا(١).

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أخبَرَ الله تعالى عن عِلمه وقُدرته، وفي ضِمنه الإخبارُ بما هو لازمُ ذلك من المجازاةِ على الأعمال، أخبَر عن مَحلِّ ذلك، وهو يومُ القيامة، الَّذي تُوفَّى فيه كلُّ نُفْسٍ ما كسبتْ(٢)؛ فلهذا قال:

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا﴾.

يومَ تجِد كلُّ نفْسٍ الَّذي عمِلَتْه من خيرٍ - سواء كان قليلًا أو كثيرًا - قد أُحضِر كاملًا موفَّرًا(٣).

كما قال الله تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾.

أي: والَّذي عمِلَتْه كلُّ نفْس من سوء - قلَّ أو كثُر - تُحبُّ وتتمنَّى لو أنَّ بينها

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة آل عمران)) (١/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨).

وبينه مسافةً بعيدةً، أو زمانًا طويلًا متأخِّرًا[١].

ثمَّ قال تعالى مؤكِّدًا ومهدِّدًا ومتوعِّدًا:

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾.

أي: ويُخوِّفُكم الله مِن نفْسِه[٢].

﴿وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾.

أي: واللهُ رحيمٌ بخَلْقه أشدَّ الرَّحمةِ وأرقَّها؛ لذا حذَّرهم[٣].

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- في قوله: ﴿يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ إرشادٌ إلى تطهيرِ القلوب، واستحضارِ عِلمِ الله كلَّ وقت، فيستحي العبدُ من ربِّه أنْ يرى قلبَه محلًّا لكلِّ فِكرٍ رديءٍ، بل يَشغَلُ أفكارَه فيما يُقرِّبُ إلى الله[٤].

٢- يُؤخَذُ من قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾، أنَّه متى آمَن الإنسانُ بصِفة العِلمِ أوْجَب له ذلك أمرين:

الأوَّل: الهروبُ مِن معصيةِ الله، فلا يَجِده اللهُ عزَّ وجلَّ حيث نهاه.

الثَّاني: الرَّغبةُ في طاعةِ الله، فلا يَفقِده حيثُ أمَرَه؛ لأنَّه يؤمنُ بأنَّ الله تعالى يَعلَمُه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣١)، ((مفردات القرآن)) للراغب (ص: ٨٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٨٤).

(٢) تقدمت هذه الجملة في تفسير الآية (٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٨١).

٣- ختَم الله الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ إشارةً إلى أنَّه قد وسِع كلَّ شيءٍ علمًا وقُدرةً، وأنَّه قادرٌ على الانتقامِ منكم فيما إذا أخفيتُم ما لا يَرضاه، ولكنَّه لحِكمته قد يُؤخِّرُ الانتقام[١].

٤- في قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ إرشادٌ للإنسانِ إلى أنْ يَتعلَّق بربِّه؛ لأنَّه متى علِم أنَّ اللهَ على كلِّ شيء قديرٌ، فإنَّه لن يمنَعَه مانعٌ من أنْ يلتجئَ إليه سبحانه وتعالى بسؤال ما يُريد[٢].

٥- في قوله: ﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ...﴾ الآية، إمعانٌ في التَّحذيرِ والتَّهديد، واستجاشةِ الخشية، واتِّقاءِ التَّعرُّض للنِّقمةِ الَّتي يُساندُها العِلمُ والقدرة، فلا مَلجأَ منها ولا نُصرة[٣].

٦- قوله: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا...﴾ فيه التَّحذيرُ والتَّذكيرُ لهذا اليومِ العظيمِ الَّذي يجِد فيه الإنسانُ ما عمِل من خيرٍ أو سُوء[٤].

٧- في قوله تبارَك وتعالَى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا...﴾ كمالُ قُدرة الله عزَّ وجلَّ بإحضارِ ما عمِلَه الإنسانُ من قليلٍ وكثيرٍ؛ لقوله: ﴿مَا﴾ وهي موصولة تُفيد العُمومَ[٥].

٨- في قوله: ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ...﴾ تنبيهٌ للعبد؛ ليحذَرَ من أعمال السُّوءِ الَّتي لا بدَّ أنْ يحزَنَ عليها أشدَّ الحزن[٦].

٩- في قوله: ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ بيانٌ لكراهةِ المسيءِ لِمَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٧٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٨١).
(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٣٨٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٨٦).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨).

عمِله في ذلك اليوم، وأنَّه يحبُّ أنْ يكونَ بينه وبينه كما بين المشرقِ والمغرب(١).

١٠- ترْكُ كلِّ شهوةٍ ولذَّة- وإنْ عسُر تركُها على النَّفس في هذه الدَّار- أيسرُ مِن معاناةِ تلك الشَّدائِد، واحتمالِ تلك الفضائِح(٢) لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ...﴾.

١١- أعاد تعالى التَّحذيرَ من نفْسه؛ رأفةً بالعبادِ ورحمةً؛ لئلَّا يطُولَ عليهم الأمدُ فتقسوَ قلوبُهم، وليجمعَ لهم بين التَّرغيب الموجِب للرَّجاء والعملِ الصالح، والتَّرهيبِ الموجِبِ للخوف وترْكِ الذُّنوب(٣).

١٢- لَمَّا قال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ وهو للوعيدِ أتْبعه بقوله: ﴿وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ وهو للوعدِ؛ ليعلَمَ العبدُ أنَّ وعْدَه ورحمتَه، غالبٌ على وعيدِه وسخَطه(٤).

١٣- أنَّه يَنبغي للإنسان أنْ يعرفَ قدْرَ نفْسِه بالنِّسبة إلى ربِّه، وأنَّه عبدٌ، والعبد يجبُ أنْ يكونَ منقادًا لأمر الربِّ، وأنْ يكونَ ذليلًا له شرعًا، كما أنَّه ذليل له قدَرًا(٥).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- لَمَّا كان الخِطابُ للمؤمنين سَمَّى الموعظة تحذيرًا في قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ١٩٦-١٩٧)، قال ابن عطية: (وقوله: ﴿وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ يحتمل أن يكون إشارةً إلى التحذير؛ لأنَّ تحذيرَه وتنبيهَه على النجاة رأفةٌ منه بعباده، ويحتمل أنْ يكونَ ابتداءَ إعلام بهذه الصفة، فمُقتضى ذلك التأنيس؛ لئلَّا يُفرط الوعيد على نفْس مؤمن، وتَجيء الآية على نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٥]) ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٨٨).

اللَّهُ نَفْسَهُ﴾؛ لأنَّ المحذَّر لا يكونُ متلبسًا بالوقوع في الخطرِ؛ فإنَّ التَّحذير تبعيدٌ من الوقوع، وليس انتشالًا بعد الوقوع[1].

٢- ختَم اللهُ الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ مع أنَّ المقامَ مقامُ تحذيرٍ، والتَّحذيرُ يَقتضي الوعيد؛ وذلك لأنَّ إخبارَ الإنسان بحقيقة الحال من الرَّأفة به، ومن رأفته عزَّ وجلَّ بالعباد أنْ حذَّرهم نفسَه، وأخبرَهم بأنَّ الأمر عظيمٌ[2].

٣- التَّعريفُ في العباد في قوله: ﴿رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ للاستغراق؛ لأنَّ رأفةَ الله شاملةٌ لكلِّ النَّاس، مسلمِهم وكافرِهم، ولك أنْ تجعل (أل) عوضًا عن المضافِ إليه، أي: بعبادِه، فيكون بِشارةً للمؤمنين[3].

٤- جملة: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ معطوفةٌ على جملةِ الشَّرط؛ فهي معمولةٌ لفعل ﴿قُلْ﴾، وليستْ معطوفةً على جوابِ الشَّرْط؛ لأنَّ عِلمَ الله بما في السَّموات وما في الأرض ثابتٌ مطلَقًا، غيرُ مُعلَّق على إخفاءِ ما في نُفوسِهم وإبدائِه[4].

٥- في قوله: ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ قيل: جمَع السَّموات، وأفرد الأرض لوجهين؛ أحدهما: لفظيٌّ، والآخر: معنويٌّ: أمَّا اللَّفظي: فإنَّ جمْعَ الأرضِ جمْعَ تَكسير (آرُض كأفلُس، أو آراض كأجمال، أو أُرُوض كفُلُوس) مستثقلٌ وينبو عنه السَّمع؛ إذ ليس فيه مِن الفصاحة والحُسن والعذوبة ما في لفظ (السَّموات)؛ ولهذا تفادَوا مِن جمْعِه إذا أرادُوه بثلاثةِ ألفاظٍ تدلُّ على التعدُّد، كما في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾، وجَمْع (الْأَرْض)

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٢٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٨٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٢٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٢٢).

جمع مذكر سالِمًا (أرَضُون) ثقيلٌ، وهو مخالفٌ للقياس، ورُبَّ مفردٍ لم يقعْ في القرآن جمعُه؛ لثقلِه وخِفَّةِ المفردِ، وجمْعٍ لم يقعْ مفردُه كـ(الألباب). أمَّا الفرق المعنوي: الأرضُ فأكثرُ ما تجيءُ مقصودًا بها معنى التَّحت والسُّفل دون أن يُقصَد ذواتُها وأعدادها. وأيضًا لأنَّ الأرضَ لا نِسبةَ لها إلى السَّموات وسَعتها، بل هي بالنسبةِ إليها كحصاةٍ في صَحراءَ؛ فالأرضُ وإنْ تعدَّدت وتكبَّرت فهي بالنسبةِ إلى السماءِ كالواحدِ القليلِ، فاختير لها اسمُ الجنس، فإنْ قصَد المخبِرُ إلى جزءٍ من هذه الأرض الموطوءة وعيَّن قطعةً محدودة منها خرجتْ عن معنى السُّفل الذي هو في مقابلةِ العلوِّ، فجاز أن تُثنَّى إذا ضُمَّ إليها جزءٌ آخَرُ، وإذا كان المقصودُ بالسماءِ ذواتِها لا مجرَّد العلوِّ والفوقِ عبَّر عنها بلفظ الجمْع، وأمَّا إذا أُريد الوصفُ الشاملُ للسَّموات، وهو معنى العلوِّ والفوق، أفْردوا ذلك بحسَب ما يتَّصل به من الكلام والسِّياق؛ كقوله: ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ [الملك: ١٦ - ١٧]؛ حيث أَفْرَدَ السماءَ هنا لَمَّا لم يُرِدْ سَماءً معيَّنةً مخصوصةً، فحيث أُريدَ العددُ أُتِي بصيغة الجمْعِ الدالَّةِ على سَعةِ العظمةِ والكثرةِ، وجُمعت جمعَ السَّلامة؛ لأنَّ العددَ قليلٌ، وجمعُ السلامة بالقليلِ أَوْلى؛ لقُربِه من التثنيةِ القريبة من الواحِد. وحيثُ أُريد الجهةُ أُتِي بصِيغة الإفرادِ، فجرَى اللفظُ مجرى المَصْدَر الموصوفِ به؛ كقولك: قَوْلٌ عَدْلٌ وزورٌ[1] وقيل غير ذلك[2].

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) (١/ ١١٣-١١٥)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٤/ ٦-٩)، ((الإتقان)) للسيوطي (٢/ ٣٥٥- ٣٥٦)، ((تفسير الألوسي)) (١/ ٤٢٩) و(٦/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((التفسير البسيط)) للواحدي (٣/ ٤٥٣)، ((درج الدرر في تفسير الآي والسور)) للجرجاني (١/ ٣٢٨)، ((غرائب التفسير)) للكرماني (١/ ٣٥٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٥٣)، ((تفسير ابن عادل)) (٣/ ١١٨)، ((حاشيه الشهاب علي تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣- ٤) و(٥/ ٧٢)، ((تفسير الألوسي)) (٤/ ٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٢٦).

بَلاغَةُ الآيتين:

١- في قوله تعالى: ﴿إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾: عبَّر بالصُّدور، ولم يقُل: (ما في قلوبكم)؛ لأنَّ القلبَ في الصَّدر، فجازَ إقامةُ الصَّدرِ مقام القلْب، وفي هذا تفنُّن في اختلافِ التعبيرِ، بناءً على أنَّ المرادَ بالجميعِ واحد(١)، أو عبر بذلك جريًا على مَعروف اللُّغة مِن إضافة الخواطرِ النَّفسيَّة إلى الصَّدرِ والقلبِ؛ لأنَّ الانفعالاتِ النَّفسانيَّةَ وتردُّدات التَّفكُّر - كلُّها يُشعَرُ لها بحَركاتٍ في الصُّدور(٢).

٢- قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾:

- هذا مِن باب ذِكْر العامِّ وهو قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ...﴾ بعد الخاصِّ، وهو ﴿مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾؛ تأكيدًا له وتقريرًا(٣).

- وقدَّم هنا الإخفاءَ على الإبداءِ، وجَعَل محلَّهما الصُّدور، وجعَل جوابَ الشرط العِلم، بخِلافِ ما في البقرة في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]؛ فإنَّه قدَّم فيها الإبداءَ على الإخفاءِ، وجعَل مَحلَّهما النَّفس، وجَعَل جواب الشَّرْط المحاسَبة، وكلُّ ذلك تفنُّنٌ في البلاغةِ، وتنوُّعٌ في الفصاحة(٤).

- وفيه مناسبةٌ حَسنةٌ لكلِّ سِياقٍ؛ حيثُ قال في هذه الآيةِ: ﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾، قدَّم عِلْمَه بما خَفِي، وأخَّر عِلمَه بما

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٩٥)، ((تفسير الألوسي)) (٢/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ١١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٠٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ١١٤)، ((تفسير الألوسي)) (٢/ ٣١٠).

بَدَا، وعكَس في آيةِ البقرة حيثُ أخَّر الإخفاءَ وقدَّم الإبداءَ في قولِه: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]؛ ومناسبة ذلك: أنَّه قدَّم عِلمَه تعالى بما يُخفونه على ما يُبدونه في آية آل عمران إيذانًا باقتِضاحِهم، ووُقوعِ ما يَحذَرونه مِن أَوَّلِ الأمرِ، وأيضًا للمبالغةِ في بيانِ شُمولِ عِلمِ الله تعالى المحيطِ بجميعِ المعلومات، كأنَّ عِلمَه بما يُخفونَه أقدمُ مِنه بما يُبدونه، مع كونِهما في الحقيقةِ سواءٌ في عِلمِه تعالى، ويجوز أن يكونَ تقديمُ عِلمِه بما يُخفونَه بناءً على أنَّ مرتبةَ الإخفاءِ والسرِّ مُتقدِّمةٌ على مرتبةِ الإبداءِ والعَلن؛ فما مِن شيءٍ يُعلَنُ ويُبدَا إلَّا وهو مضمرٌ في القلبِ يتعلَّق به الإسرارُ غالبًا؛ فتعلُّقُ عِلمِه تعالى به في حالتِه الأولى وهو في السرِّ مُتقدِّمٌ على تَعلُّقِه لحالتِه الثانية المعلَنِ فيها. وأمَّا في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] فقدَّم الإبداءَ؛ لأنَّ الكلامَ عن المحاسبةِ، والأصل أنَّ المحاسبةَ تَتعلَّقُ بالأمورِ الباديةِ دون الخافيةِ[١].

وقيل: إنَّ وجْهَ ذلك: أنَّ إبداءَ الشَّيءِ وإخفاءَ خِلافِه في المعتقَدات صِفةُ المنافقينَ، وبها امتازُوا عن غيرِهم من الكفرةِ، وقدْ أَعلمَ سبحانه أنَّ المنافقين هُم الذين يتَّخذون الكافرينَ أولياءَ مِن دون المؤمنين، وتوعَّدهم على ذلِك بأليمِ العذابِ؛ قال تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٣٨، ١٣٩]، فحذَّر المؤمنين مِن ذلِك في غير آية؛ فلمَّا تقرَّر هذا النهي وتكرَّر، وقد تقدَّم في آية آل عمران قولُه ناهيًا وزاجرًا: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وحذَّر تعالى مِن ذلك أشدَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١١٨- ١١٩).

التحذيرِ إلَّا عند التقيَّة، فلمَّا نهاهم عن فِعلِ المنافقين كان آكَدَ شيءٍ وأهمَّه إعلامُهم بأنَّه سبحانه يَعلمُ ما يُخفون كعِلْمِه ما يُبدون؛ لبناءِ المنافقين كُفرَهم على ما جَهِلوه مِن عِلمِه سبحانه بخفيَّاتِ ضَمائرِهم وإلحادِهم في ذلك؛ جهلًا بما يجبُ للهِ سبحانه، وتكذيبًا لرسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فهذا وجهُ تقديمِ الإخفاءِ في آيةِ آل عمران. أمَّا آية البقرة، فلم يَجرِ فيها ذِكرُ النِّفاق ولا صِفةَ أهْلِه، وإنَّما الخطابُ فيها وفي آية الدَّينِ قَبْلَها وفيما أُعقِبت به بعدُ للمُؤمنين، فيما يَخصُّهم مِن الأحكامِ؛ فورَد فيها قولُه تعالى: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] مُقدَّمًا فيها بادِي أعمالِهم بناءً على سلامةِ بواطِنِهم وتنزُّهِهم عن صِفةِ المنافقين، والخِطابُ للمؤمنين، وهذا جارٍ مُطَّرد فيما يُلحَقُ بهذا الضرب، كما اطَّرد البدءُ بالإخفاءِ على الإعلانِ حيثُ يَتقدَّم ذِكرُ أهلِ الكُفرِ أو يَنتظم الكلامُ بذِكرهم، كقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام: ٣] بعدَ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، وكقولِه تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [التغابن: ٤] بعدَ قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، وغيرِها؛ فاطَّرد ذلك في الطرفينِ على رَعْي الإيمانِ والنِّفاقِ، وجاءَ كلٌّ على ما يُناسِبُ، واللهُ أعلمُ[١].

- وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: هو خبرٌ مقصودٌ به غايةُ التَّحذير؛ لأنَّه إذا كان لا يَخفى عليه شيءٌ فيهما؛ فكيف يخفَى عليه الضَّمير[٢]؟!

٣- قوله تعالى: ﴿واللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ إتمامٌ للتحذير؛ وذلك لأنَّ العالِم

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٧٢- ٧٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٩٥).

بكلِّ المعلوماتِ عالمٌ بما في القلب، وعالمٌ بمقاديرِ استحقاقِه من الثَّوابِ والعقابِ، ثم لَمَّا بيَّن أنَّه قادرٌ على جميعِ المقدورات، فكان لا مَحالةَ قادرًا على إيصالِ حقِّ كلِّ أحد إليه؛ فيكون في هذا تمامُ الوعدِ والوعيدِ، والترغيبِ والترهيبِ(١).

- وإظهارُ الاسمِ الجليلِ ﴿الله﴾ في موضِعِ الإضمار؛ حيث لم يقُلْ: (وهو على كلِّ شيء قديرٌ)؛ لتربية المهابةِ، وللتَّهويل(٢)، ولتكونَ الجملةُ مستقلَّةً، فتجري مجرَى المَثَل(٣).

٤- ﴿يَعْلَمْهُ اللهُ﴾، ﴿واللهُ عَلَى...﴾ فيها تكرارٌ للفظ الجلالةِ، وإظهارُه في موضعِ الإضمارِ حيثُ لم يقُل: (وهو على..)؛ لإدخال المهابةِ أيضًا(٤).

٥- **قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا...﴾**

- فيه تقديمُ الظَّرف ﴿يَوْمَ﴾ على عاملِه ﴿تَوَدُّ﴾؛ لأنَّ اسمَ الزَّمان هنا هو الأهمُّ في الغرَض المسوقِ له الكلامُ، وهو ظرفٌ لشيءٍ من علائقِه، فجِيءَ به منصوبًا على الظرفيَّة، وجُعِل معنى بعضِ ما يَحصُل منه مَصُوغًا في صِيغة فِعلٍ عاملٍ في ذلِك الظَّرْف(٥).

- وهذه الآيةُ من بابِ التَّرغيبِ والتَّرهيبِ، ومن تمامِ الكلامِ الذي تَقدَّم، وخُصَّ هذا اليومُ بالذِّكر، وإنْ كان غيرُه من الأيَّام بمنزلتِه في قُدرةِ اللهِ تعالى؛ تَفضيلًا له لعِظَمِ شأنِه(٦).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٩٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٢٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٠٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٢٣).
(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٩٥).

- قوله تعالى: ﴿مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾: عبر بقوله: ﴿مُحْضَرًا﴾ لأنَّ فيه من التهويلِ ما ليس في حاضرًا[1].

٦- قوله عزَّ وجلَّ: ﴿مَا عَمِلَتْ﴾، ﴿وَمَا عَمِلَتْ﴾: فيه تكرار[2]؛ للتأكيد.

٧- قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾:

قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾ تقدَّم في آية (٢٨) وأعادَه هنا؛ لإفادةِ ما يُفيدُه قوله عزَّ وجلَّ: ﴿واللهُ رَؤُوفٌ بِالعِبَادِ﴾ مِن أنَّ تحذيرَه تعالى من رأفتِه بهم ورحمتِه الواسعةِ، أو أنَّ رأفتَه بهم لا تَمنعُ تحقيقَ ما حذَّرهموه من عِقابِه، وأنَّ تحذيرَه ليس مبنيًّا على تناسي صِفةِ الرَّأفة، بل هو مُتحقِّقٌ مع تحقُّقها أيضًا[3]، فقوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُم اللهُ نَفْسَهُ﴾ في الموضعين يَتعلَّق بما ذُكِر قَبلَه؛ فلا تَكرارَ حِينئذٍ؛ فالأوَّل تحذيرٌ من موالاةِ الكافرين، والثاني تحذيرٌ من أن يَجِدوا يومَ القيامة ما عمِلوا من سوءٍ محضرًا؛ لأنَّه ذكَره بعدَ أنْ ذكَر الجزاءَ الَّذي يكونُ يومَ القِيامةِ[4].

- وتكريرُ الاسمِ الجليلِ ﴿الله﴾؛ لتربيةِ المهابةِ[5].

٨- قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالعِبَادِ﴾ هذه الجملة أبلغُ في الوصْف من جملة التخويفِ ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾؛ لأنَّ جملةَ التَّخويفِ جُعِلَ فيها التَّحذيرُ مِن نفْسِ اللهِ، أي: ذاتِه؛ ليكونَ أعمَّ في الأحوالِ؛ لأنَّه لو قيل: يُحذِّركم اللهُ غضَبَه لتُوهِّم أنَّ للهِ رِضًا لا يضرُّ معه تَعمُّدُ مُخالفةِ أوامرِه. ولم يَتكرَّر في

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٠٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٧٩)، ((قواعد التفسير)) لخالد السبت (٢/ ٧٠٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٤).

جملة ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ اسمُ الله، وجاءَ المحذَّرُ مَخصوصًا بالمخاطَب فقط ﴿وَيُحَذِّرُكُم﴾. وأمَّا جملةُ ﴿وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالعِبَادِ﴾ فجاءتْ اسميَّةً، فتكرَّر فيها اسمُ اللهِ؛ إذِ الوصفُ ﴿رَؤُوفٌ﴾ مُحتمِلٌ ضميرَه تعالى (هو)، وجاءَ المحكومُ به ﴿رَؤوفٌ﴾ على وَزنِ (فَعُول) المقتضِي للمبالغةِ والتكثير، وجاءَ بأخصِّ ألْفاظِ الرحْمة، وهو ﴿رَؤُوف﴾، وجاءَ مُتعلَّقُه عامًّا؛ ليَشْمَلَ المخاطَبَ وغيرَه، وبلفظ ﴿العِبَاد﴾؛ ليدلَّ على الإحسانِ التامِّ؛ لأنَّ المالِكَ مُحسِنٌ لعبدِه، وناظِرٌ له أحسنَ نظَر؛ إذ هو مَلِكُه[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٠٢)، ((تفسير ابن عاشور))(٣/ ٢٢١).

الآيتان (٣١ - ٣٢)

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

المَعنَى الإجماليُّ:

يأمُر اللهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يقولَ لمدَّعي محبَّة الله تبارَك وتعالَى: إنَّ آيةَ صِدقِكم وعلامةَ محبَّتكم لله تبارَك وتعالَى هي اتِّباعي، فإنْ كنتُم صادِقين في دعواكم، فيَلزمكم تَصديقي فيما أَتيتُ به من خَبرٍ، وطاعتي فيما أمرتُكم به، واجتنابُ ما نهيتُكم عنه، والاقتداءُ بي؛ فإنَّ بين محبَّةِ الله واتباعي تَلازمًا؛ فهُمَا لا ينفكَّان، فإذا فعلتُم ذلك كان هذا دليلًا قاطعًا على محبَّتكم لله، وحينَها سيكونُ جزاؤُكم جزاءَ المِثل؛ إذ ستنالون محبَّةَ الله لكم، ومغفرتَه لذُنوبِكم؛ فإنَّه غفورٌ لذنوبِ عبادِه، رحيمٌ بهم.

ثمَّ يأمُر الله تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يَأمرَهم بطاعةِ الله وطاعةِ رسوله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فإنْ أعرَضوا وتولَّوا عمَّا أُمِروا به من الطَّاعة، واستنكفوا عن الامتثال لأمْر اللهِ وأمْر رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فقد كفروا، وارْتَكبوا ما يُعرِّضهم لسَخَطِ الله وبُغضِه، فإنَّه سبحانه لا يُحبُّ الكافرين، بل يُبغِضُهم.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا نهى الله سبحانه وتعالى عن مُوالاةِ الكفَّارِ ظاهرًا وباطنًا، وكان الإنسانُ ربَّما والَى الكافرَ وهو يدَّعي محبَّةَ الله سبحانه وتعالى، وختَم برأفتِه سبحانه وتعالى بعبادِه، وكانت الرَّأفةُ قد تكونُ عن المحبَّة الموجبة للقُرب، فكان

الإخبارُ بها ربَّما دعا إلى الاتِّكال، ووقَع لأجْلِه الاشتباهُ في الحِزبَينِ، جعَل لذلك سبحانه وتعالى علامةً(١)، فقال:

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾.

أي: قل- يا محمَّدُ- لِمَن يدَّعون محبَّةَ الله: إنْ كنتُم تحبُّون الله كما ادَّعيتم، فاتَّبِعوني بتصديق خبَري، وطاعةِ أمْري، والاقتداءِ بي(٢).

﴿يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾.

أي: إنَّكم إنِ اتَّبعتموني يُحبَّكم الله، ويَغفِرْ لكم جميعَ ذُنوبِكم، فَمَن كَانَ محبًّا لله لزِم أنْ يتَّبع الرَّسُول، ومَن اتَّبع الرَّسولَ فقد فعَل ما يُحبُّه الله، فيُحِبه الله(٣).

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

أي: واللهُ غفورٌ لذنوبِ عِبادِه؛ يستُرها عليهم، ويتجاوزُ عنها، رحيمٌ بهم؛ يَعطِفُ عليهم، ويُحسِن إليهم(٤).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٣٣٢).

قال ابن عاشور: (الآية انتقالٌ إلى الترغيبِ بعدَ الترهيب، والمناسبة: أنَّ الترهيب المتقدِّم خُتم بقوله: ﴿وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالعِبَادِ﴾، والرأفة تستلزم محبَّةَ المرؤوفِ به الرؤوفَ، فجعْلُ محبَّة الله فِعلًا للشرط في مقام تعليق الأمر باتِّباع الرسول عليه مبنيٌّ على كون الرأفة تستلزم المحبَّة، أو هو مبنيٌّ على أنَّ محبة الله أمر مقطوعٌ به من جانب المخاطبين، فالتعليق عليه تعليق شرط محقَّق، ثم رُتِّب على الجزاء مشروطٌ آخر وهو قوله: ﴿يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾؛ لكونه أيضًا مقطوعَ الرغبة من المخاطبين؛ لأنَّ الخِطاب للمؤمنين، والمؤمن غايةُ قصده تحصيلُ رِضا الله عنه ومحبته إياه)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٢٤- ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((العبودية)) لابن تيمية (ص: ٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ١٨٧)، ((العبودية)) لابن تيمية (ص: ٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٩٢).

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢)﴾.

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾.

أي: قُلْ- يا محمَّدُ-: أطيعوا اللهَ والرَّسول محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ وذلك بامتثالِ الأمْر، واجتنابِ النَّهي[1].

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾.

أي: فإنْ أعرَضوا عن الطَّاعة، ولم يَنقادوا، فهذا كُفرٌ منهم، والله عزَّ وجلَّ لا يحبُّ الكافرين، بل يُبغِضهم. ولا يغفِرُ لهم[2].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- قوله: ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ أي: على ما أنا عليه مِن الشَّريعة؛ عقيدةً وقولًا، وفعلًا وتركًا، فمَن اتَّبَع الرَّسول صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بهذه الأربعة، صدَقَ في اتِّباعه، ومَن خالَف فهو غيرُ صادق[3].

٢- حبُّ الله ليس دعوى باللِّسان، ولا هُيامًا بالوِجدانِ، إلَّا أنْ يُصاحبَه الاتِّباعُ لرسول اللهِ، والسَّيرُ على هداه، وتحقيقُ منهجه في الحياة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[4]، فمن كَانَ محبًّا للهِ لَزِمَ أَن يتَّبِعَ الرَّسُولَ فيصدِّقَه فِيمَا أخبَرَ، ويُطيعَه فِيمَا أَمَرَ، ويتأسَّى بِهِ فِيمَا فعل؛ ومَن فَعَلَ هَذَا فقد فعل مَا يُحِبُّهُ الله، فيُحِبُّه الله، فالرَّسُولُ لا يَأْمرُ إلَّا

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨، ٩٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٩٠).

(٤) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٣٨٧).

بما يُحِبُّ الله، ولا ينْهَى إلَّا عَمَّا يُبغِضُه اللهُ، ولا يفعلُ إلَّا ما يُحِبُّه الله، ولا يخبِرُ إلَّا بما يحبُّ اللهُ التَّصْدِيقَ به[١].

٣- قوله: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ...﴾ الآيَةَ: حُجَّةٌ على أهلِ الدَّعوى في كلِّ زمانٍ ومكان، فهذه محبَّةٌ امتحَنَ اللهُ بها أهلَ دَعْوَى محبَّةِ اللهِ، فَإِنَّ هَذا البابَ يكثرُ فِيهِ الدَّعاوَى والاشتباهُ؛ إذ ما قيمةُ الدَّعوى يُكذِّبها العملُ؟! وكيف يجتمعُ الحبُّ مع الجهلِ بالمحبوبِ، وعدمِ العنايةِ بأمره ونهيه[٢]؟!

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- جمَعَت هذه الآيةُ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ...﴾ وجوبَ محبَّة الله، وعلاماتِها، ونتيجتَها وثمراتِها[٣].

٢- بهذه الآية: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ يُوزَنُ جميعُ الخَلْق؛ فعلى حسَب حَظِّهم من اتِّباع الرَّسولِ يكونُ إيمانُهم وحبُّهم لله[٤].

٣- في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ جوازُ مخاطبةِ المدَّعي بالتحدِّي[٥].

٤- مُوافقةُ المحبوبِ من موجِباتِ المحبَّةِ وثَمَراتِها، وليستْ نفسَ المحبَّةِ، بل المحبَّةُ تستدعي الموافقةَ، وكلَّما كانت المحبَّةُ أقوى كانت الموافقةُ أتمَّ، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾[٦].

---

(١) يُنظر: ((العبودية)) لابن تيمية (ص: ٩٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٣٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٩٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٩٣).
(٦) يُنظر: ((طريق الهجرتين وباب السعادتين)) لابن القيم (ص: ٣٠٢).

٥- يَنبغي للإنسان أنْ يُجيبَ غيرَه بما هو أكثرُ من سؤاله، إذا دعتْ إليه الحاجة؛ لأنَّه لم يقُلْ: فاتَّبعوني تحبُّوا الله، بل قال: ﴿يُحْبِبْكُمُ﴾، ولا أحدَ يحبُّه اللهُ إلَّا وهو يحبُّ اللهَ[١].

٦- كمالُ إحسانِ الله سبحانه وتعالى لجزائِه على العمل أكثرَ منه؛ لأنَّ الَّذي يتَّبع الرَّسول يحصل له محبَّةُ الله ومغفرةُ الذُّنوب، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[٢].

٧- الجمعُ بين الغفور والرَّحيم لفائدةٍ عظيمة؛ قيل: هي الجمعُ بين الوقايةِ والعنايةِ؛ بين الوقايةِ مِن شرِّ الذُّنوب بالمغفرة، والعنايةِ بالتَّيسير لليُسرى وتجنيبِ العُسرى بالرَّحمة[٣].

٨- في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ أتى بالواو الدَّالَّة على التَّشريكِ؛ لأنَّ طاعةَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فيما يأمُرُ به مِن الشَّريعةِ من طاعةِ الله[٤].

٩- في قوله: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ ردٌّ على مَن قال: إنَّ السُّنَّة لا يُعمَل بها إلَّا ما وافَق القُرْآن؛ وذلك لأنَّنا لو قلنا: إنَّ الرَّسول صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لا يُطاعُ إلَّا فيما أمَر اللهُ به، لَمْ يكُنْ للأمر بطاعتِه فائدةٌ؛ لأنَّ كلَّ مَن أمر بما أمَر اللهُ به، فإنَّه مطاعٌ، لا لأمْره، ولكن لأمْر الله؛ فَطاعةُ أمرِ الرَّسول طاعةٌ مُستقلَّة[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٩٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٩٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٩٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٩٨).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٠١).

بَلاغَةُ الآيتين:

١- قوله تعالى: ﴿وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: تذييلٌ مُقرِّرٌ لِمَا قبلَهُ، مع زيادة وعْد الرحمةِ، ووضعُ الاسمِ الجليلِ (الله) موضعَ الضَّمير (هو)؛ للإشعارِ باستتباعِ وصْف الأُلوهيَّة للمغفرةِ والرَّحمة(١).

٢- قوله تعالى: ﴿تُحِبُّونَ اللهَ﴾، وقوله: ﴿يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾، وقوله: ﴿وَاللهُ غَفُورٌ﴾، وقوله: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللهَ﴾، ﴿فَإِنَّ اللهَ﴾: فيها تَكرارُ الاسمِ الجليل (الله)(٢).

٣- قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ﴾: فيه إيثارُ الإظهارِ لكلمة ﴿وَالرَّسُول﴾ على إضمارِها بطريق الالتفاتِ من الخِطاب إلى الغَيبة؛ لتعيينِ حَيثيَّة الإطاعة، والإشعارِ بعلَّتها؛ فإنَّ الإطاعةَ المأمورَ بها إطاعتُه عليه الصَّلاة والسَّلام من حيثُ إنَّه رسولُ الله، لا مِن حيثُ ذاتُه، ولا ريبَ في أنَّ عنوانَ الرِّسالة من مُوجباتِ الإطاعةِ ودواعيها(٣).

٤- قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الكَافِرِينَ﴾

- فيه إظهارُ الاسم الجليل (الله)- حيث لم يُضمرْ فيقول: (فإنَّه)-؛ للتعظيمِ وتربيةِ المهابةِ؛ لأنَّ العربَ إذا عَظَّمتِ الشَّيء أعادتْ ذِكرَه(٤)، ولتَعميمِ الحُكمِ لكلِّ الكفرة، والإشعارِ بعِلَّتِه(٥).

- وفيه: إيثارُ إظهارِ لفظة ﴿الْكَافِرِينَ﴾ على الإضمارِ- حيث لم يقل: (لا

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٦٢).

(٥) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٤٢٢).

يحبُّهم)-؛ لتعميمِ الحُكمِ لكلِّ الكفَرَة، وللإشعارِ بعلَّته؛ فإنَّ سخطَه تعالى عليهم بسببِ كُفرهم، والإيذانِ بأنَّ التولِّي عن الطاعةِ كفرٌ، وبأنَّ محبَّته عزَّ وجلَّ مخصوصةٌ بالمؤمنين(١)، وفيه أيضًا فائدةٌ لفظية وهي مُراعاةُ الفواصِل(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٠٠).

الآيات (٣٣ - ٣٧)

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾
ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ
لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ
رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا
مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ
حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ
عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ
بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿مُحَرَّرًا﴾: عتيقًا لله، مُخلَصًا للعبادة، وأصلُ الحريَّة: خلافُ العبوديَّة، والبَراءةُ من العيبِ والنَّقص(١).

﴿الرَّجِيمِ﴾: المطرودِ عن الخَيرات، وأصل الرَّجم: الرَّميُ بالحجارة، ومنه: رَجمتُ فلانًا بالكلام، إذا شَتمْتَه(٢).

﴿كَفَّلَهَا﴾: ضَمَّها إليه، وأصل الكفالة: تَضمُّن الشَّيءِ للشَّيء(٣).

﴿الْمِحْرَابَ﴾: الموضِعُ العالي الشَّريف، والغُرفة، والمسجدُ، وسيِّدُ المجالس، ومُقدَّمُها وأشرفُها، وصدْرُ المجلس(٤).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧١٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٥)، =

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾

﴿ذُرِّيَّةً﴾: مَنصوبةٌ، وفي نصبِها وجهان: الأوَّل: النَّصْبُ على البَدليَّة، والمبدَل منه على هذا الوجه: آدَمُ عليه السَّلام ومَن عُطِف عليه، أو نوحٌ عليه السَّلام ومَن عُطِف عليه، أو الآلانِ فقط (آلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ). الثاني: النَّصبُ على الحاليَّة منهم، وتقديرُه: اصطفاهم حالَ كونِهم مُتناسِبين بعضهم من بعضٍ[1].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبر اللهُ تبارَك وتعالَى أنَّه اجتبَى مِن خَلْقِه، واختار من عِبادِه أفرادًا وأُسرًا، امتنَّ عليهم بفضلِه، وأخلَصهم لعبادتِه، فاجتبى آدَمَ ونوحًا عليهما السَّلام فردَينِ، واختارَ إبراهيم وعِمْران وذُرِّيَّتَهما أُسرتين، فكان هؤلاء هم صفوةَ خَلْقه من العالَمين، وخِيرةَ عباده في الأوَّلين والآخِرين، وجعَلَ الصَّلاحَ والتَّوفيق مُتسلسلًا في ذرِّيَّاتهم؛ فالله تعالى على عِلم تامٍّ بمن يَستحقُّ الاصطفاءَ والاختيارَ من عبادِه؛ فهو السَّميع العليم.

ثمَّ ذكر اللهُ تبارَك وتعالَى نبأ امرأة عِمْران، حيث نذرتْ ما في بطنِها لله متفرِّغًا لعبادته، وخدمةِ بيتِ المقدس، ودَعَتِ الله أنْ يَتقبَّل منها؛ فهو السَّميعُ العليم، فلمَّا ولَدت إذَا بالمولود أُنثى، فاعتذرتْ إلى ربِّها من ذلك؛ لأنَّها كانتْ ترجو أنْ يكونَ مولودها ذكَرًا؛ لأنَّه أقدرُ على الخدمةِ وملازمةِ مكانِ العبادةِ من الأنثى.

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢١).

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٥٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٢٥٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ١٢٩). وينظر كذلك: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٦٤).

ثمَّ أخبرتْ أنَّها سمَّت مولودتَها مريم، وأنَّها تطلُب من الله أنْ يُعِيذَها هي وذرِّيَّتَها من الشَّيطان الرَّجيم، فاستجاب اللهُ دعوتها، وقبِل نذرَها قَبولًا حسَنًا، فأنشأ مريمَ تنشئةً حسنة، وجعل زكريَّا كافلًا لها، وقائمًا على شؤونها، فكان كلَّما دخَلَ عليها المحرابَ وجَدَ عندها طعامًا وغذاءً، فيتعجَّب من ذلك؛ إذ كيفَ يأتيها هذا الرِّزقُ وهيَ منقطعةٌ لعبادة الله، حابسةٌ نفسَها على طاعته؟! فيسألها عن ذلك، فتُجيبه أنَّه من عندِ اللهِ، الَّذي يَتفضَّلُ على مَن يَشاء مِن عبادِه بالأرزاقِ والعطايا، ممَّا لا حَصرَ له ولا إحصاءَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّن سبحانه وتعالى أنَّ محبَّته منُوطة باتِّباع الرَّسول، فمَن اتَّبعه كان صادِقًا في دعْوى حبِّه لله، وجَديرًا بأنْ يكونَ محبوبًا منه- جلَّ علاه- أتْبع ذلك ذِكرَ مَن أحبَّهم واصطفاهم، وجَعَل منهم الرُّسلَ الَّذين يُبيِّنون طريقَ محبَّتِه، وهي الإيمانُ به مع طاعته[1]، فقال:

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ اختار واجتبى آدمَ عليه السَّلام، فخلَقه بيدِه، ونفَخ فيه من رُوحِه، وأَسجدَ له ملائكتَه، وعلَّمه أسماءَ كلِّ شيء، إلى غيرِ ذلك، واختار نوحًا عليه السَّلام، فكان أوَّلَ رسولٍ بعثَه، وجعَل ذُرِّيَّته هم الباقين، واختار إبراهيمَ عليه السَّلام- خليلَ الله- وقومَه[2]، ومنهم الأنبياء الَّذين مِن بعده؛ فهم مِن ذرِّيَّته،

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) (٣/ ٢٣٧).

(٢) الآل هنا في قوله: ﴿آلَ إِبْرَاهِيمَ﴾ مُتعيِّن للحمْل على رَهْط الرَّجُل وقرابتِه. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٣١).

ومنهم محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، واختار عِمْرانَ والدَ مريم، وزوجتَه أُمَّ مريم، ومريمَ وابنها عيسى عليه السَّلام؛ اختارَهم وفضَّلهم على العالَمين(١).

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد: ٢٦]، وقال: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾(٢) [النساء: ٥٤].

﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤)﴾.

﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾.

أي: نَسْلًا بعضُه من بعض، في وراثةِ الاصطفاءِ والإيمانِ، والطَّاعةِ والموالاةِ في الدِّين، والتَّناصُر على الحقِّ(٣).

كما قال تعالى لَمَّا ذكَر جملةً من الأنبياء الدَّاخلين في ضِمن هذه البيوتِ الكبار: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(٤).

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: واللهُ يعلَمُ من يستحقُّ الاصطفاءَ فيَصطفيه؛ فهو يسمَعُ أقوالهم، ويَعلَم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨).

ومعنى قوله: ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، أي: على عالَمي زَمانهم، في قول أهل التفسير. وقيل: ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾: على جميعِ الخَلق كلِّهم؛ وذلك أنَّ هؤلاء رسلٌ وأنبياء؛ فهُم صَفوةُ الخلق. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٦٣).

(٢) هذا المدحُ لهذا المعدن الشريف؛ لِمَا فيهم من الإيمان والعمل الصالح. يُنظر: ((منهاج السنة)) لابن تيمية (٨/ ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٢٩)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٢٣)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٣٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨).

أحوالَهم، وما في ضَمائرِهم؛ فلذا فضَّلهم واختارَهم(١).

وهذا كقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقوله: ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ﴾(٢) [الدخان: ٣٢].

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥)﴾.

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾.

أي: واذكُرْ إذ قالت امرأةُ عِمْران: يا ربِّ، إنِّي أوجبتُ على نفْسي أنْ أجعلَ ما في بطني مفرَّغًا لعبادتك، حبيسًا على خِدمةِ بيتِ المقدس(٣).

﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّي﴾.

أي: فتقبَّلْ منِّي يا ربِّ، ما نذرتُ لك(٤).

﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

أي: إنَّك أنت السَّميعُ لقولي ودُعائي، المستجيبُ له، العليمُ بنيَّتي وقَصْدي(٥).

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦)﴾.

---

(١) نظم الدرر للبقاعي (٤/ ٣٤٨- ٣٤٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيِّم (ص: ٣٣).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢١٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢١٤).

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾.

أي: فلمَّا ولَدَتِ امرأةُ عِمْران إذا بالمولودِ أُنثى، فاعتذرتْ قائلةً: يا ربِّ، إنِّي ولَدْتُها أنثى(١).

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿وَضَعَتْ﴾ قراءتان:

١- (وَضَعْتُ) وتَعني أنَّه من قولِ أمِّ مريمَ وفِعلها(٢).

٢- ﴿وَضَعَتْ﴾ وتَعني الإخبارَ مِن الله عزَّ وجلَّ عن فِعلها(٣).

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾.

أي: واللهُ أعلمُ مِن كلِّ أحدٍ بما وضعَتْه(٤).

﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾.

أي: وليس الذَّكَرُ كالأنثى في القوَّة والجَلَدِ على خِدمةِ بيت المقدس، بالإضافةِ إلى ما يَعتري الأُنثى من الحيضِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٣٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨).

(٢) قرأ بها ابن عامر ويعقوب وأبو بكر. ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٨٧).
ويُنظر: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٥١)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٣٨-٣٣٩).

(٣) قرأ بها الباقون. ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٨٧).
ويُنظر: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٥١)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٣٨-٣٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢١٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٣٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٣١)، ((تفسير =

﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾.

أي: وإنِّي جعلتُ اسمَها مريمَ، فأطلقتُ عليها هذا الاسمَ يومَ ولادتِها[1].

﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾.

أي: وإنِّي أُجيرُها وأولادَها- أي: عيسى عليه السَّلام- بكَ وحْدَك، من الشَّيطانِ المبعَدِ المطرودِ[2].

وقد استجابَ اللهُ تعالى لها؛ فعن أبي هُرَيرَةَ، رضِي اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((ما من مولودٍ يُولَدُ إلَّا مسَّه الشَّيطانُ حين يُولد، فيستهلُّ صارخًا من مسِّه إيَّاه، إلَّا مريمَ وابْنَها))، ثمَّ يقول أبو هُرَيرَةَ: اقرؤوا إنْ شئتم: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾[3] [آل عمران: ٣٦].

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)﴾.

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾.

أي: قَبِل اللهُ مريمَ قَبولًا حسَنًا[4]، ورضِي نَذْرَ أمِّها وإنْ كان أنثى، فيسَّرها

= ابن كثير)) (٢/ ٣٣)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٢/ ٥٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢١٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٣١)، ((تفسير الخازن)) (١/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢١٨).

قال ابنُ عثيمينَ: (قالت: ﴿وَذُرِّيَّتَهَا﴾ بناءً على الأصلِ والغالبِ؛ أنَّ الأُنثى تتزوَّج ويكونُ لها ذريةٌ، ولكنَّ الله عزَّ وجلَّ أراد لهذه المرأةِ شيئًا آخَرَ).

(٣) رواه البخاري (٣٤٣١) واللفظ له، ومسلم (٢٣٦٦).

(٤) وعُرف هذا القَبول بوحيٍ مِن الله إلى زكريَّا عليه السلام بأنَّه تَقبَّلها؛ ولذلك جعَلوها كما =

لليُسرى، وسلَكَ بها طريقَ السُّعداء[١].

﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾.

أي: أنشأَها نشأةً حسنةً في بَدَنِها، وخِلْقتِها، ودِينها، وأخلاقِها[٢].

﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله: ﴿وَكَفَّلَهَا﴾ قراءتان[٣]:

١- ﴿وَكَفَّلَهَا﴾ أي: ضَمَّها اللهُ تعالى إلى زكريَّا[٤].

٢- (وَكَفَلَهَا) أي: ضَمَّها زكريَّا إليه[٥].

﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾.

أي: جعَل اللهُ تعالى نَبيَّه زكريَّا عليه السَّلام كافلًا وضامنًا لها[٦]؛ وذلك بعدَ

= نذَرَتْ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٣٥).

(١) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٢/ ٥٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٦٩)، ((تفسير صديق حسن خان)) (٢/ ٢٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٢١).

(٣) قال السَّمين الحلبي: (لا مخالفةَ بين القِراءتين؛ لأنَّ الله لَمَّا كَفَّلها إيَّاه كَفَلَها) ((الدر المصون)) (٣/ ١٤٢).

(٤) قرأ بها الكوفيون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٨٧).
ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٤٥)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٤٦)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٤١).

(٥) قرأ بها الباقون. ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٨٧).
ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٤٥)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٤٦)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٤١).

(٦) كان زكريَّا عليه السلام زوجَ خالتها، على ما ذَكره ابنُ إسحاقَ، وابنُ جرير، وغيرهما، وقيل: =

أنْ وقَع الخلافُ فيمَن يَكفُل مريم، فاقْتَرعوا، فكانتْ من نصيبِ زكريَّا عليه السَّلام؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾(1) [آل عمران: ٤٤].

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾.

أي: كلَّما دخَلَ عليها زكريَّا عليه السَّلام مكانَ عِبادتها، وجَد عندها طعامًا تتغذَّى به، بلا كَسبٍ ولا تعبٍ؛ فهي منقطعةٌ للعبادة(2)، فيتعجَّبُ ويسألُها عن ذلك؛ كما قال تعالى:

﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا﴾.

أي: قال زكريَّا لمريم: يا مريمُ، مِن أينَ لك هذا الرِّزق(3)؟!

= زوج أختها، كما ورد في الصَّحيح: (فإذا بيحيى وعيسى، وهما ابنا الخالة)، وقد يُطلَق على ما ذكَره ابنُ إسحاق ذلك أيضًا توسعًا، فعلى هذا كانتْ في حضانةِ خالتِها. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٥٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٣٧).
ذهَب غيرُ واحدٍ من أهل العلم أنَّ معنى ﴿أَنَّى﴾: مِن أين، ومنهم أبو عُبيدة وابنُ عطية وغيرهم. لكن قال النحَّاس: وهذا فيه تساهُلٌ؛ لأنَّ (أين) سؤال عن المواضع، و﴿أَنَّى﴾ سؤال عن المذاهب والجهات. والمعنى: من أيِّ المذاهب، ومن أيِّ الجهات لك هذا. ينظر ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٧٢). وقال أبو حيَّان: (﴿أَنَّى﴾، سؤال عن الكيفية، وعن المكانِ وعن الزَّمان، والأظهرُ أنَّه سؤالٌ عن الجهة، فكأنَّه قال: من أيِّ جهة لك هذا الرزق؟ ولذلك قال أبو عُبَيدة: معناه من أين؟ ولا يَبعُد أنْ يكون سؤالًا عن الكيفية، أي: كيف تهيَّأ وصولُ هذا الرزق إليك؟) ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٦٣).

﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾.

أي: إنَّ هذا الرِّزق مِن عندِ الله؛ فهو الَّذي ساقه إليَّ ورَزَقَنيه[١].

﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يُعطي الرِّزقَ مَن يشاء من غيرِ إحصاءٍ ولا حصرٍ، ولا عددٍ يُحاسِب عليه[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- قوله: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّه اصطفاهم على تمامِ العِلم بهم؛ ترغيبًا في أحوالهم والاقتداءِ بأفعالهم وأقوالِهم[٣].

٢- الحثُّ على طردِ الإعجاب بالنَّفس، وتَرْك الإِدْلالِ على اللهِ بالأعمالِ، وهذا مستفادٌ من قولِ امرأة عِمْران: ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّي﴾[٤].

٣- التَّعبير عن الخُلوصِ المطلَق بأنَّه تحرُّر كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾، تعبيرٌ موحٍ، فما يَتحرَّر حقًّا إلَّا مَن يَخلُص للهِ كلُّه، ويفرُّ إلى الله بجُملته، وما عداه عُبوديَّةٌ، وإنْ تراءتْ في صورة الحرِّيَّة[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٢٧)، ((تفسير الماوردي)) (١/ ٣٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٣٧)، وينظر أيضًا: ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٣) فقد ذكَر في تفسيرِ قوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ثمانيةَ أوجه. وقد ذهَب بعضُ أهل العلم إلى أنَّ هذه الجملة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ من قول الله تعالى بعدَ انتهاء كلام مريم، وذهَب آخرون إلى أنَّها من قول مريم. ينظر ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير الماوردي)) (١/ ٣٨٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٣٤٨-٣٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٢٧).

(٥) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٣٩٢).

٤- الدُّعاءُ الخاشعُ من امرأة عِمْران يَنمُّ عن ذلك الإسلامِ الخالصِ لله، والتَّوجُّهِ إليه كلِّيَّة، والتَّحرُّرِ من كلِّ قيد، والتَّجرُّدِ إلَّا مِن ابتغاء قَبوله ورِضاه، كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(١) [آل عمران: ٣٥].

٥- كلمة ﴿وَضَعَتْهَا﴾ تُشعِر أنَّ الأمَّ تَتكلَّف الحملَ، وإذا قدَّرنا أنَّ هذا الطِّفلَ الَّذي في بطنِها سيبقَى تِسعةَ شُهور، وهي حاملةٌ له في بطنِها، في أرقِّ ما يكونُ من البدن، قائمةً وقاعدةً، ومستيقظةً ونائمةً، فماذا نَتصوَّر من التَّعب؟! لذا فحقُّ الأمِّ على الأولادِ عظيمٌ(٢).

٦- اعتذارُ الإنسان عند ربِّه إذا وقَع الأمرُ خلافَ ما أراد(٣)؛ كما في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾.

٧- لا يَستوي الذُّكورُ والإناث، لا في الطَّبيعة، ولا في الأخلاقِ، ولا في المعاملةِ، بل ولا في الأحكامِ في بعضِ الأحيان(٤)؛ كما في قولِه تعالى: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾.

٨- بقَدْرِ صلاحِ المربِّي يَكتسبُ مَن يُربِّيه مِن خُلقه وصلاحِه، وفي كفالةِ زكريَّا لمريم فضيلةٌ تَزيدُ من فضائِلها؛ قال تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾(٥).

٩- أعظمُ الشُّكر لرزقِ الله سبحانه وتعالى معرفةُ العبد بأنَّه مِن الله تعالى،

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٣٩٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٢٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨)، و((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٢٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٢٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٣٥) ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٣١).

إنَّما يَشكُر رِزقَ الله مَن أخَذه مِن اللهِ سبحانه وتعالى كما قال تعالى: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾(١).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- جاء ذكرُ آل إبراهيمَ في قوله: ﴿وَآلَ إِبْرَاهِيمَ﴾؛ قيل لترغيبِ المعترفين باصطفائِهم في الإيمانِ بنُبوَّة النبيِّ صلَّى الله عليهِ وسلم، واستمالتِهم نحوَ الاعترافِ باصطفائِه بواسطةِ كونِه من زُمرتهم(٢).

٢- يُؤخذُ من قول أُمِّ مريم: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي﴾ جوازُ النَّذرِ في الأمرِ المجهولِ(٣).

٣- لَمَّا كان حُسنُ إجابةِ المهتوفِ به الملتجأِ إليه على حسَب إحاطة سَمعِه وعِلمه، علَّلت سؤالَها في التقبُّل بأنْ قصَرَتِ السَّمع والعِلم عليه سبحانه، فقالت: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ﴾ أي: وحدَك ﴿السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(٤).

٤- في قولها: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ جوازُ تَسميةِ الأطفالِ يومَ الولادةِ، وقبلَ اليومِ السَّابع(٥).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٢٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٣٥١).

(٥) يُنظر: ((المحرر الوجيز)) لابن عطية (١/ ٤٢٥)،

قال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((وُلِد لي الليلةَ ولدٌ سميتُه باسمِ أبي إبراهيم)). البخاري (١٣٠٣)، ومسلم (٢٣١٥) واللفظ له. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، أنَّه ذهب بأخيه، حين ولدتْه أمُّه، إلى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فحنَّكه وسمَّاه عبد الله. البخاري (٥٤٨٠)، ومسلم (٢١٤٤). وقال رجل: يا رسول الله، وُلِد لي ولد، فما أُسمِّيه؟ قال: ((اسم ولدك عبد الرحمن)) البخاري (٦١٨٦). وينظر ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤).

٥- في قولِه تَعالى: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ دلالةٌ على أنَّ للأمِّ تَسميةَ الولدِ إذا لم يَكْرَهِ الأبُ(١).

٦- مشروعيَّةُ إعاذةِ الإنسانِ أبناءَه بالله عزَّ وجلَّ من الشَّيطان الرَّجيم، ومِن شرِّ الخَلْق؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾(٢).

٧- في قوله تعالى: ﴿وَذُرِّيَّتَهَا﴾ بيانُ جوازِ الدُّعاء للمعدوم، فذُرِّيَّتُها لم تأتِ بعدُ(٣).

٨- عبَّر عن التَّربيةِ بالإنباتِ في قوله: ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾؛ قيل: لبيانِ أنَّ التَّربيةَ فِطريَّةٌ لا شائبةَ فيها(٤).

٩- تطوُّر الإنسانِ في حياتِه بأمرِ الله، وما الغذاءُ والعنايةُ بالطفل إلَّا سببٌ، والله تعالى هو المسبِّبُ، وهو المكوِّنُ للإنسان، والمُنبت له(٥)، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾.

١٠- كلمة ﴿كُلَّمَا﴾ تُفيد التَّكرار، وفي ذلك بيانٌ لحُسن كفَالةِ زكريَّا لها، وأنَّه كان يتفقَّدها عند تقديرِ حاجتِها إلى الطَّعام(٦).

١١- في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٩).
وهذا على القولِ بأنَّ عمرانَ كان حيًّا وقتَ ولادتِها، وإلا فقد استدلَّ بعضُ أهل العلم بانفرادِ امرأة عمرانَ بالتسميةِ على كونِ عمرانَ كان متوفيًا. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ١١٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٣٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٤٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٣١).
(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٣٥٨- ٣٥٩).

رِزْقًا...﴾ دليلٌ على إثباتِ كراماتِ الأولياءِ الخارقةِ للعادة[١].

١٢- في قوله تعالى: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ بيانُ أنَّ الأشياءَ تُضافُ إلى اللهِ وإنْ كان لها سببٌ[٢].

١٣- في قولِ الله تعالى: ﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، لَمَّا كان الرزقُ لم يأتِ به بشرٌ، ولم يُسْعَ فيه السَّعيُ المعتادُ، قالت: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾[٣].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾:

- ذِكرُ آلِ عمرانَ مع اندراجِهم في آل إبراهيمَ من باب ذِكرِ الخاصِّ بعد العامِّ؛ لإظهارِ مزيدِ الاعتناءِ بتحقيقِ أمْرِ عيسى عليه الصَّلاة والسَّلام؛ لكمال رُسوخِ الخِلافِ في شأنِه؛ فإنَّ نِسبةَ الاصطفاءِ إلى الأبِ الأقربِ أدلُّ على تحقُّقه في الآل، وأمَّا اصطفاءُ نفْسه عليه الصَّلاة والسَّلام، فمفهومٌ من اصطفائِهم بطريقِ الأَولويَّة، وعدمُ التَّصريح به؛ للإيذانِ بالغِنَى عنه لكمالِ شُهرةِ أمرِه في الخُلَّة، وكونه إمامَ الأنبياء، قُدوةَ الرُّسُلُ عليهم الصَّلاة والسَّلام[٤].

٢- قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ فيه إجمالٌ لـ(بعض) هنا؛ لأنَّ المقصودَ بيانُ شدَّة الاتِّصال بين هذه الذريَّة؛ فـ(مِن) للاتِّصال لا للتبعيض، أي:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٤/ ٦٨-٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٦).

بين هذه الذُّرية اتصالُ القَرابة؛ فكلٌّ بعضٍ فيها هو متَّصل بالبعض الآخَر[١].

– وفيها: براعةُ التخلُّص[٢]؛ إذ انتقل من تمهيداتِ سببِ السُّورة إلى واسطةٍ بين التَّمهيد والمقصِد؛ فهذا تخلُّصٌ لمحاجَّة وفْد نجران؛ فإنَّه سبحانه وتَعالى وطَّأ بهذه الآية إلى سِياق خبَر ميلادِ المسيح عليه السَّلام، فقد خلُص إلى ذِكر امرأة عمران؛ ليسوقَ قِصَّة حمْلها بمريم، وكفالة زكريَّا لها، وذِكْر ولدِه يحيى، وقصَّة حمْلِ مريم بالمسيح، وما تَخلَّل ذلك مِن آياتٍ باهرات، وعِبَرٍ بالغات، وهذا من محاسنِ البَلاغة[٣].

٣- **قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾** فيه مناسبةٌ بديعة؛ إذ التعرُّض لوَصفِ الرُّبوبيةِ المنبئةِ عن إفاضةِ ما فيه صلاحُ المربوبِ، مع الإضافةِ إلى ضميرِها، أنسب لإجابة الدُّعاء. وتأكيدُ الجملة بـ(إنَّ)؛ لإبرازِ وفورِ الرَّغبة في مضمونها، وتقديمُ الجارِّ والمجرور لكمالِ الاعتناءِ به[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٣١).

(٢) براعة التخلُّص: تعني امتزاجَ آخِر ما يُقدَّم من البَسط في الكلام بأوَّل ما يُستهلُّ به كلام آخَر، ينتقل المتكلِّم انتقالًا رشيقًا دقيقَ المعنى بحيث لا يشعُر السامع بالانتقال من المعنى الأوَّل إلَّا وقد وقع في الثاني؛ لشدَّة الممازجة والالتئام، كأنَّهما أُفرغَا في قالب واحد، أو توطئة بفصل لفصل يُريد أن يأتي به بعده، وإمَّا بنكتة تشير الى معنى الفصل المستقبل. ويُسمَّى معرفة الفصل من الوصل. وهو من أوجُهِ الإعجاز في القرآن، ويَخفى على غير الحذَّاق من ذوي النَّقد. وهو مبثوثٌ في الكتاب العزيز من أوَّله إلى آخره؛ فقد يُوقَف من الكتاب العزيز على مواضعَ تُظنُّ في الظاهر فُصولًا متنافرة، فإذا أُنعم فيها النَّظرُ خصوصًا مع الدُّربة بهذه الصناعة، ظهَر الجمعُ بينهما، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ١-٢]...). يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٤٣٣ وما بعدها)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٤/ ٤٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٢٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٩٥-٤٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٧).

٤- قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ تعليلٌ؛ لاستدعاءِ القَبول لا من حيثُ إنَّ كونَه تعالى سميعًا لدعائها، عليمًا بما في ضميرِها مصحِّحٌ للتقبُّل في الجملة، بل من حيثُ إنَّ عِلمَه تعالى بصحَّة نيَّتها وإخلاصِها مستدعٍ لذلك تفضُّلًا وإحسانًا[1].

- وفيه تأكيدُ الجملة بـ(إن) و(أنت)؛ لعرضِ قُوَّةِ يَقينها بمضمونها[2].

- وفيه قَصرُ صِفتَي السَّمعِ والعلم عليه تعالى؛ لعرْض اختصاصِ دُعائِها به تعالى، وانقطاعِ حَبل رَجائها عمَّا عداه بالكليَّة؛ مُبالغةً في الضَّراعة والابتهال[3].

٥- قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ هو تعليلٌ لِمَا قَبلَه، وتحريكٌ لسلسلةِ الإجابة[4].

٦- قولها: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾ خبرٌ لا يُقصد به الإخبارُ والإعلام، بل التَّحسُّر والتَّحزُّن والاعتذار؛ فهو بمعنى الإنشاءِ[5].

٧- قوله تعالى: ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ خبرٌ فيه تعظيمٌ لموضوعها، ومرادٌ منه لازم الفائدة، والقَصدُ منه إفادتُها دون التَّصريح بما سيكون من شأنِ المولودِ الذي لم تَأبَهْ له باديَ الأمر، وأنَّ الله أعلمُ بالشيءِ الذي وضعتْ، وما علَق من عظائم الأمور، وأنْ يَجعلَه وولدَه آيةً للعالمين، وهي جاهلةٌ بمآلِ أمْرِ هذه المولودة، لا تَعلم منه شيئًا؛ فلذلك تحسَّرتْ[6].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣١).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٠٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٣٨).
(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٥٦)، ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٠٤)، ((الدر المصون)) =

- وعلى قِراءة ضمِّ التاء في (وضعتُ)، وأنَّه من كلامِ أمِّ مريمَ يكون فيه التفاتٌ من الخِطابِ إلى الغَيبة؛ إظهارًا لغاية الإجلال؛ إذ لو جرَتْ على مقتضَى قولها: (رب) لقالت: (وأنت أعلم)(١).

- وفيه مِن تمامِ البلاغة: الاحترازُ عن كلِّ موهِمٍ لأمرِ خطأ، سواءٌ كان في المقال أو في الفِعل، ويُستفاد ذلك من قوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتُ﴾ على قِراءة الضَّمِّ؛ فقد يتوهَّم السَّامع من قولها: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى﴾ أنَّها أضافتْ إلى اللهِ عِلمًا لم يكُن حاصلًا له(٢).

٨- **قوله:** ﴿**وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى**﴾ بدأتْ بذِكْر الأهمِّ في نفْسِها، وإلَّا فسياقُ قصَّتِها يَقتضي أنْ تقولَ: وليستِ الأنثى كالذَّكر، فتَضعُ حرْفَ النَّفي مع الشَّيءِ الَّذي عندها، وانتفَتْ عنه صِفاتُ الكمالِ للغرضِ المراد(٣).

٩- **قوله سبحانه:** ﴿**وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ...**﴾ فيه إطنابٌ، والغرضُ مِن التصريحِ بالتسميَّة التقرُّبُ إلى الله، والازدلافُ إليه بخِدمة بيت المقدس أولًا، ورجاء عِصمتها ثانيًا - فإنَّ مريم في لُغتهم تَعني (العابدة) - وإظهارًا لعزمِها على الوفاءِ بوعْدِها ثالثًا(٤).

١٠- **قوله تعالى:** ﴿**وإِنِّي سَمَّيْتُهَا**﴾ ﴿**وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ**﴾ فيه التأكيدُ بقوله: (وإني) وتكرار هذه اللفظة للتأكيد؛ لأنَّ حالَ كراهيتها يُؤذِن بأنها ستُعرِض عنها

= للسمين الحلبي (٣/ ١٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٨)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٣١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٩٩).

(١) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ١٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة آل عمران)) (١/ ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((المحرر الوجيز)) لابن عطية (١/ ٤٢٥).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٩٩).

فلا تشتغل بها، وكأنها أكَّدت هذا الخبر؛ إظهارًا للرِّضا بما قدَّر الله تعالى؛ ولذلك انتقلتْ إلى الدعاءِ لها الدالِّ على الرِّضا والمحبَّة، وأُكِّدت جملةُ أُعيذها مع أنَّها مستعملةٌ في إنشاء الدُّعاء[1].

١١- **قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ...﴾ إلى قوله: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾** تكرَّرت (إنَّ) أربع مرات، وفي الثلاث الأولى كان خبرُها فعلًا ماضيًا (وضعتها- سَمَّيْتُها- نَذَرْتُ)، وفي المرة الرابعة جاءَ الخبرُ بالمضارع، (أُعيذها)، لنُكتة بلاغيَّة، وهي ديمومةُ الاستعاذةِ وتجدُّدها دون انقطاعٍ، بخِلافِ الأخبار السابقة فإنَّها تحقَّقتْ وانقطعت[2].

١٢- **قوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾**:

- قوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا﴾ جاءتِ الإجابةُ بصِيغة التفعُّل مطابقةً لقولها في الدعاء: ﴿فتقبَّلْ﴾؛ للإشعارِ بالتدرُّج والتطوُّر والتكثُّر، كأنه يُشعِر بأنَّها مزيدٌ لها في كلِّ طور تتطوَّر إليه، ولم تكن إجابته (فقبِلها)، فيكون إعطاء واحدًا منقطعًا عن التواصُل والتتابع؛ فلا تزال بركة تحريرها متجدِّدًا لها في نفسها[3].

- وقوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا﴾: تفريعٌ على الدُّعاء، مؤذِنٌ بسرعة الإجابة[4].

- قال سبحانه وتعالى: ﴿بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ لم يقُل: (فتقبَّلها ربُّها بتقبُّل)؛ لأنَّ ما كان من بابِ التفعُّل فإنَّه يدلُّ على شدَّةِ اعتناءِ ذلك الفاعلِ بإظهارِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٩٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٣٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٣٥).

ذلك الفِعل، كالتصبُّر والتجلُّد ونحوهما؛ فإنَّهما يُفيدانِ الجدَّ في إظهارِ الصَّبر والجلادة، فكذا هاهنا التقبُّل يُفيد المبالغةَ في إظهارِ القَبول، والعناية العظيمة في تربيتِها. فيكون جمَع بين الأمرين: التقبُّل الذي هو الترقِّي في القَبول، والقَبول الذي يَقتضي الرِّضا والإثابة[١].

- والباء في ﴿بِقَبُولٍ﴾ للتأكيدِ، وأصلُ نظْم الكلام: فتَقبَّلها قَبُولًا حَسنًا، فأُدخِلت الباءُ على المفعول المطلَق؛ ليصيرَ كالآلة للتقبُّل، فكأنَّه شيءٌ ثانٍ، وهذا إظهارٌ للعناية بها في هذا القَبول[٢].

١٣- **قوله عزَّ وجلَّ: ﴿رِزْقًا﴾** جاء بالتنكير؛ لإفادةِ الشُّيوعِ والكثرة، وأنَّه ليس من جِنسٍ واحد، بل من أجناسٍ كثيرة[٣].

١٤- **قوله: ﴿إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ...﴾** تعليلٌ لكونِه من عند الله[٤]، مع ما فيه من تأكيدِ الخبر بـ(إنَّ) واسميَّة الجُملةِ.

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢٠٥)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٣١٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٣٥).
(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٥٠٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٣٠)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٣١٣).

الآيات: (٣٨ - ٤١)

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿حَصُورًا﴾: أي: لا يَأتِي النساءَ؛ لعفَّتِه واجتهادِه في إزالةِ الشَّهوةِ، كأنَّه محصورٌ عنهنَّ، أي: محبوسٌ عنهنَّ، وأصلُ الحَصْر: الجَمْعُ والحبْسُ والمنعُ(١).

﴿عَاقِرٌ﴾: عقيمٌ، وهي الَّتي لا تَلِد، وأصل العقر: الجرح(٢).

﴿رَمْزًا﴾: وحيًا وإيماءً، أو إشارةً، أو تحريك الشَّفتينِ باللَّفظ من غيرِ إبانةٍ بصوتٍ، وقد يكونُ إشارةً بالعينِ والحاجبَينِ(٣).

﴿بِالْعَشِيِّ﴾: آخِر النَّهار، أو مِن زوالِ الشَّمسِ إلى الصَّباح، وقيل: إلى أنْ تَغيبَ الشَّمس(٤).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٥، ٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٧).

﴿وَالْإِبْكَارِ﴾: أوَّل النَّهار، أو مِن مَطلعِ الفجرِ إلى وقتِ الضُّحى(١).

المعنى الإجماليُّ:

حينما رأى زكريَّا عليه السَّلام ما امتنَّ الله به على مريمَ من كرامات، طَمِع في فضْل الله، وتاقتْ نفسُه للولد، فدعا ربه قائلًا: ربِّ، أعطِني مِن عِندك، وهَبْ لي من فَضْلك، ذرِّيَّةً صالحةً طيِّبة؛ إنَّك سميعٌ لدُعائي، مجيبٌ له.

فاستجاب الله له دُعاءَه، فجاءتْه الملائكةُ تبشِّره بمولودٍ يُولد له اسمُه يَحيى، وله صفاتٌ عظيمةٌ، وخصالٌ جليلة؛ فهو مصدِّقٌ بعيسى عليه السَّلام، وسيِّدٌ على قومه، يسُودُهم بما أنعم الله به عليه من خِصالٍ حميدةٍ، وخُلقٍ فاضل، وعِلمٍ ودِين، وهو منقطعٌ للعبادة بكلِّيَّته، مبالغٌ في منْعِ نفْسِه عن التمتُّع بما أحلَّ الله، ممَّا تشتهيه النفوسُ عادةً، حتى الزَّواجِ بالنِّساء، وبشَّرته الملائكةُ أيضًا بأنَّه يكون نبيًّا من الصَّالحين.

وهنا يتعجَّب زكريَّا عليه السَّلام من قُدرةِ اللهِ الكاملة، فيتساءَلُ عن كيفيَّةِ حُصولِ هذا مع كِبَر سنِّه، وكون امرأتِه عاقرًا لا تلِدُ! فيأتيه الجوابُ: إنَّ الله يفعلُ ما يشاء.

ويَطلُب زكريَّا عليه السَّلام من الله آيةً وعلامةً دالَّةً على وجودِ هذا الولد، تحصُل له بها الطُّمأنينةُ، فيُخبره الله تبارَك وتعالَى أنَّ علامة ذلك انحباسُ لِسانِه عن كلام النَّاس، لا عن مَرضٍ ولا آفةٍ، ويتعامَلُ معهم عن طريقِ الإشارة والرَّمز، مدَّةَ ثلاثةِ أيَّام بلياليها، ويأمره أنْ يُكثِرَ من ذِكر ربِّه، وتعظيمِه وتنزيهِه في آخِرِ النَّهارِ وأوَّله.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٠).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ(٣٨)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا رأى زكريَّا عليه السَّلام ما منَّ الله سبحانه به على مريمَ، وما أكرمَها به من رِزقه الهَنِيء الَّذي أتاها بغيرِ سعيٍ منها ولا كسبٍ، طمعتْ نفسُه في الولدِ مع كونه شيخًا كبيرًا قد وهَن عَظمُه، واشتعلَ رأسه شيبًا، وكانتِ امرأتُه مع ذلك كبيرةً وعاقرًا[١]؛ قال تعالى:

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾.

أي: في ذلك المكانِ الَّذي وجَدَ فيه زكريَّا ذلك الرِّزقَ عند مريم، سأل ربَّه وناداه نداءً خفيًّا[٢].

﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾.

أي: قال: يا ربِّ، أَعطِني من عندك ولدًا[٣] صالحًا مباركًا[٤].

﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾.

أي: ذو سَمعٍ لدعاءِ مَن دعاك، ومجيبٌ له[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٣٢).

(٣) الذُّريَّة جمْع، وهي في هذا الموضِع للواحد؛ لأنَّ الله عزَّ وجلَّ قال في موضعٍ آخَر مخبرًا عن دعاء زكريَّا: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٥] ولم يقل: (أولياء)، فدلَّ على أنه سأل واحدًا، وإنما أنَّث ﴿طَيِّبَةً﴾ لتأنيث الذريَّة. ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٦٢)، ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٣٣).

قال الله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٢- ٦].

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (٣٩)﴾.

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾.

أي: فاستجاب اللهُ دُعاءَه، وأرسل إليه جماعةً من الملائكة[١]، تُبشِّره بذلك، فنادتْه حالَ قيامِه مُصليًا في مكان عبادتِه[٢].

﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى﴾.

أي: إنَّ الله يبشِّرُك يا زكريَّا بمولودٍ مِن صُلبك اسمُه يحيى[٣].

---

(١) واختار ذلك ابن جرير في ((تفسيره)) (٥/ ٣٦٥)، والقرطبي في ((تفسيره)) (٤/ ٧٤).
وممَّن قال من السلف بهذا القول: قتادة، والربيع بن أنس، وعكرمة، ومجاهد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٦٥).
ونَسَب ابنُ عطية إلى جمهور المفسرين القولَ بأنَّ المراد بالملائكة هاهنا: جبريلُ عليه السلام. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٢٨).
وممَّن قال بهذا القول: مقاتل، والسُّدِّي. يُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (١/ ٢٧٨).
وذهَب ابنُ عاشور وابنُ عثيمين إلى أنَّه يجوز أن يكون الذي ناداه جماعةٌ من الملائكة. ويجوز أن يكون الذي ناداه مَلَكًا واحدًا وهو جبريلُ عليه السلام. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٣٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٦٥، ٣٦٦)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧).
قيل: إنَّ مُقتضى قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ﴾، والتفريع عليه بقوله: ﴿فَنَادَتْهُ﴾: أنَّ المحرابَ محرابُ مريم، فالله أعلم. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٣٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٣٩).

﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾.

أي: مُصدِّقًا بعيسى عليه السَّلام(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ...﴾ [النساء: ١٧١]، وقال: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾(٢) [آل عمران: ٤٥].

﴿وَسَيِّدًا﴾.

أي: يسُودُ قومَه، ويَفُوقهم بخِصالِه الجَميلةِ، وعِلمه ودِينه(٣).

﴿وَحَصُورًا﴾.

أي: ممتنِعًا من قُربِ النِّساء(٤)، وعن كلِّ ما تَشتهيه النفوسُ عادةً ممَّا أحلَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٣٤).

وهذا القول هو قولُ أكثر المفسِّرين، يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٧٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٨٣).

وممَّن قال بهذا القول من السَّلف: ابن عبَّاس، ومجاهد، وعكرمة والحسن وقتادة والسُّدِّي والرَّقَاشي، وجابر بن زيد، والربيع بن أنس، والضحَّاك. ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٧٠)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٦٤٢).

قال ابن أبي حاتم: (عن ابن عبَّاس يعني في قوله: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾، قال: عيسى بن مريم صلَّى الله عليه وسلَّمَ كلمةٌ من الله، يعني تكوَّن بكلمةٍ من الله)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٦٤٢).

(٢) قيل لعيسى عليه السلام: (كلمة)؛ لأنَّ الله أَوْجَده بكلمةٍ هي قوله (كن) فكان. يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٧٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٣٥).

(٤) قال ابنُ عطية: (أجمَع مَن يُعتدُّ بقوله من المفسِّرين على أنَّ هذه الصفة ليحيى عليه السلام إنَّما هي الامتناع من وطء النساء، إلَّا ما حكَى مكي من قول من قال: إنَّه الحصور عن الذنوب، =

الله؛ لانقطاعِه لعبادةِ الله[١].

﴿وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

أي: نبيًّا كائنًا من جملة الصَّالحين، وهذه بِشارةٌ ثانيةٌ بنبوَّةِ يحيى عليه السَّلام، وهي أعْلى مِن البِشارةِ الأُولى بولادتِه[٢].

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (٤٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لمَّا سمِع زكريَّا عليه السَّلام البِشارةَ بوجود الولد، أخَذ يتعجَّبُ من كمال قدرةِ الله[٣].

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾.

أي: قال زكريَّا: يا ربِّ، كيف يكون لي غلامٌ[٤]؟

﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾.

أي: وقد كبِرْتُ، وبلغتُ سنًّا مَن بلغها لم يولد له[٥].

= أي: لا يأتيها)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٣٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٧٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٨٤).

أمَّا قول مَن قال: إنَّ الحصور فعول بمعنى مفعول، وأنَّه محصور عن النساء؛ لأنَّه عِنين لا يقدر على إتيانهن، فليس بصحيح؛ لأنَّ العُنَّة عيب ونقص في الرجال، وليست مِن فِعله حتى يُثنَى عليه بها؛ ولأنَّ (فعولًا) في اللغة من صِيغ الفاعلين. ويُنظر: ((تفسير القرطبي))، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٣١)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٤٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٨١).

﴿وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾.

أي: وامرأتي لا تلِدُ[1].

﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾.

أي: مِثْلَ ذلك الفعلِ، وهو إيجادُ الولدِ مِن الشَّيخ الكبير والمرأة العاقر، يفعل اللَّه ما يشاء مِن الأفعال العجيبة[2].

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (٤١)﴾.

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً﴾.

أي: قال زكريَّا: يا ربِّ، اجعَلْ لي علامة تدلُّ على وجود الولَد منِّي[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٨١)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٤٥).

وفي معنى هذا الاستفهامِ وجهان: أحدهما أنَّه سأل: هل يكون له الولدُ وهو وامرأتُه على حاليهما، أو يُردَّانِ إلى حال مَن يلد؟ والثاني سأل: هل يُرزق الولد من امرأته العاقِر، أو من غيرها؟ يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٧٩).

وقال السعديُّ في تفسيرِ قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾: (فهذانِ مانعان، فمن أيِّ طريق- يا رب- يحصل لي ذلك، مع ما ينافي ذلك؟!) ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٦٦).

وقال أيضًا في تفسير سورة مريم: (فحينئذٍ لَمَّا جاءته البشارةُ بهذا المولود الذي طلبه استغرب وتعجَّب، وقال: ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ والحالُ أنَّ المانعَ من وجودِ الولد، موجودٌ بي وبزوجتي؟ وكأنَّه وقتَ دُعائِه لم يستحضر هذا المانع لقوَّة الواردِ في قلبِه، وشِدَّة الحرصِ العظيمِ على الولد، وفي هذه الحالِ- حين قُبِلَتْ دعوتُه- تعجَّب من ذلك) ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٠).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٣٤)، ((تفسير الشوكاني)) (١/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٤٦).

﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾.

أي: قال: العلامةُ الَّتي تدلُّك، أنَّك ينحبِسُ لسانُك، فلا تستطيع النُّطقَ أو مخاطَبةَ النَّاس إلَّا إشارةً[1]، مدَّةَ ثلاثة أيَّامٍ بلياليها، مع كونك سويًّا صحيحًا[2].

﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا﴾.

أي: وأكثِرْ من ذِكر ربِّك؛ فإنك لا تُمنَعُ ذِكرَه[3].

﴿وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾.

أي: وعظِّم ربَّك بعبادته، منزِّهًا له عمَّا لا يليق به آخرَ النَّهار وأوَّله[4].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- يُؤخذ من قوله: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ أنَّ الخَلْقَ كلَّهم- بما في ذلك الأنبياء- مفتقِرون إلى الله، لا يَستغنُون عن دُعائِه[5].

٢- في قوله: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ...﴾ بيان أنَّ الحكمةَ ضالَّةُ المؤمن، وأهل النُّفوس الزَّكيَّة يَعتبرون بما يرَوْن ويسمَعون[6].

---

(١) وممَّن قال بهذا القول من السَّلف: ابن عبَّاس، وابن إسحاق، ابن زيد، وعبد الله بن كثير، وسعيد بن جُبَير، وأبو عبد الرحمن السلمي والحسن، والضحَّاك، ومحمد بن كعب، وقتادة، والسُّدِّي، والربيع بن أنس، وزيد بن أسلم. ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٨٩)، و((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٦٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٩٠)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٩١)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٤٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٣٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٣٨).

٣- على الإنسانِ ألَّا يسألَ مُطلَقَ الذُّرِّيَّة؛ لأنَّ الذُّرِّيَّة قد يكون منها نَكَدٌ وفتنةٌ، بل عليه أنْ يسألَ اللهَ الذُّرِّيَّةَ الطَّيِّبة؛ فزكريَّا عليه السلامُ حين سأل ربَّه الوَلَدَ تحرَّزَ فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾، وقال: ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾[مريم : ٦]، والوَلَدُ إذا كان بهذه الصِّفةِ نَفَعَ أبويه في الدُّنيا والآخرةِ، وخَرَجَ من حدِّ العداوةِ والفتنةِ إلى حَدِّ الـمَسَرَّةِ والنِّعمَةِ[1].

٤- يُستفادُ من قوله تعالى: ﴿هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ أنَّه يَنبغي للإنسان أنْ يفعلَ مِن الأسبابِ ما يجعل ذُرِّيَّته طيِّبةً، ومن ذلك الدُّعاء[2].

٥- التَّوسُّل إلى الله تعالى بأسمائِه المناسِبةِ للحاجةِ؛ وذلك مِن قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾[3].

٦- على الإنسانِ أنْ يبحثَ عمَّا يَزيدُ به الإيمان؛ لأنَّه مطلوبٌ منه أنْ يقوِّيَ إيمانه بكلِّ وسيلة، وذلك من قوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾[4].

٧- يَنبغي للإنسان إذا انقطَعَ عن النَّاس أنْ يَشغَلَ وقتَه بذِكر الله عزَّ وجلَّ؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا﴾[5].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- في قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ إثباتٌ للقياس؛ لأنَّه لَمَّا رأى أنَّ الله يَرزُقَ هذه المرأةَ بدون سببٍ معلوم، علِم أنَّ الَّذي يسُوقُ لها الرِّزق- وهي امرأةٌ منقطعةٌ عن التَّكسُّب في محرابها- قادرٌ أنْ يرزُقَه[6].

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٣٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٣٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٥٣).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٣٧).

٢- في قوله ﴿مِنْ لَدُنْكَ﴾: أُضيفتِ العِنديَّة إلى الله عزَّ وجلَّ؛ ليكون أبلغَ وأعظمَ؛ لأنَّ هديَّةَ الكريم أكرمُ(١).

٣- يُؤخذُ من قوله: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾ جوازُ تكليمِ المصلِّي، إلَّا أنَّ المكلَّمَ في صَلاتِه لا يُخاطِب الآخَرَ، وإنَّما يُجيبه إشارةً(٢).

٤- مشروعيَّةُ تبشيرِ الإنسانِ بما يَسُرُّه، ومن ذلك استحبابُ بشارةِ مَن وُلِد له ولدٌ وتَهنِئَتُه؛ وذلك لقول اللهِ تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا﴾(٣).

٥- قوله: ﴿وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ عاقرٌ: خبَر لامرأتي، وإنَّما جاء بصِيغة المذكَّر، وحقُّه التأنيثُ؛ لأنَّ (عاقر) مشتقٌّ من العقر، وهو مَن لا يُولَد له؛ رجلًا كان أو امرأةً. وقيل: جاء ذلك على النَّسَب، أي: وامرأتي ذات عَقرٍ، وهي بمعنى مفعول، أي: معقورة؛ ولذلك لم تُلحَقْ تاءَ التَّأنيثِ(٤).

٦- بيانُ أنَّ الممكِناتِ داخلةٌ تحت قدرةِ الله تعالى، وإن عزَّ وقوعُها في العادة(٥).

٧- لا حرَجَ أنْ يطلُبَ الإنسانُ ما تطمئنُّ به نفْسُه؛ فزكريَّا عليه الصلاة والسَّلام لم يَشُكَّ في خبَرِ الله، لكن أراد أنْ يَتقدَّم إليه الفرحُ والاستبشار بقوَّة

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٤٢).

(٣) يُنظر: ((تحفة المودود)) لابن القيم (ص:٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٤٢).

(٤) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٥٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٢٥٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ١٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٤١، ٢٤٢).

البراهين، وكلَّما ازدادتُ البراهين ازدادت قوَّة اليقين[١] كما في قوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾.

٨- جوازُ وصفِ الإنسانِ بما يكرهُ إذا كان المرادُ مجرَّدَ البيان لا القدحِ والعيبِ، كما في قوله: ﴿وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾[٢].

٩- في قوله ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ بيانُ أنَّ الله كما يمنعُ نفوذَ الأسباب مع وجودِها، فإنَّه يُوجِدها بدون أسبابها؛ ليدلَّ ذلك أنَّ الأسبابَ كلَّها مندرجةٌ في قضائِه وقدَره[٣].

١٠- في قوله: ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾ دليلٌ على أنَّ الإشارةَ تقومُ مقامَ العبارة[٤].

١١- قوله تعالى: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الآية فيها دليلٌ على جوازِ إطلاق السَّيِّدِ على مَن ساد من النَّاس، وقد جاء في الصَّحيحينِ وغيرهما من حديثِ أبي بكرةَ، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال في الحسَنِ بن علي رضِي اللهُ عنهما: ((إنَّ ابْنِي هذا سيِّدٌ...))[٥] الحديث[٦].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿دَعَا رَبَّهُ﴾، و﴿قَالَ رَبِّ﴾ فيه تكرارُ لاسمِ الربِّ الجليل[٧]، وهو مِن الإظهارِ في موضِع الإضمارِ، وفائدتُه: بيانُ شدَّة تعلُّق زكريا عليه السلام بالله تعالى، ولمناسبةِ ما في الربوبيَّةِ من معاني الإحسانِ المناسبة لمِثل حالتِه.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٥١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٥٣).
(٥) رواه البخاري (٢٧٠٤).
(٦) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٧٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٨٤).
(٧) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٤٢).

٢- **قوله عزَّ وجلَّ:** ﴿**فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ**﴾ عبَّر بالفاء التي للتعقيب في ﴿فَنَادَتْهُ﴾؛ للدلالةِ على السُّرعة في استجابة دَعوتِه[1].

- وعبَّر بالجمع ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾، وإنْ كان المنادِي له واحدًا (جبريل)؛ تعظيمًا له، ولأنَّه عظيمٌ في الملائكة، فأسند النِّداء إلى الكلِّ مع كونِه صادرًا عنه خاصَّةً، وهو من بلاغةِ التعبير، وهذا على القولِ بأنَّ المرادَ بالملائكةِ جبريل[2]؛ فيكون مِن قَبيلِ العامِّ المرادِ به الخُصوص.

٣- **قوله تعالى:** ﴿**أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ**﴾ في تَكرار اسمِ الله تعالى[3]، وإظهاره في موضِع الإضمارِ؛ لتربيةِ المهابة.

٤- **قوله عزَّ وجلَّ:** ﴿**قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ...**﴾ فيه إطنابٌ، وإعادةٌ للكلام؛ وذلك أنَّه ربَّما أعاد السؤالَ ليُعيد ذلك الجواب، فحينئذٍ يلتذُّ بسَماعِ تلك الإجابة مرةً أخرى[4].

- قوله تعالى: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾: استفهامٌ غرضُه الاستبعادُ من حيثُ العادة، أو الاستعظامُ، أو التعجُّبُ قُصِد منه تعرُّفُ إمكان الولد؛ لأنَّه لَمَّا سأل الولدَ فقد تهيَّأ لحصول ذلك، أو يكون استفهامًا حقيقيًّا عن كيفية حُدوثِه[5].

- في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾: عبَّر بهذا التعبير ﴿بَلَغَنِيَ الكِبَرُ﴾، ولم يقل: (قدْ كبرت)؛ لإظهارِ تمكُّن الكِبرِ منه كأنَّه يَتطلَّبه، حتى بلغه[6].

---

(١) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ١٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢١٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٤١).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٤٢).

- وقوله سبحانه: ﴿وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾: فيه تأكيدٌ لحالِ الاستبعاد، حيثُ ذكَر زكريًّا عليه السَّلام كِبَرَ نفْسِه، مع كونِ زوجتِه عاقرًا(١).

- وقدَّم زكريًّا عليه السَّلام في هذه السُّورةِ حالَ نفْسِه، وأخَّر حالَ امرأتِه، وفي سورة مريمَ عكَس فقال: ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨]، فقدَّم هنا ذِكر ﴿الكِبَرَ﴾ على ذِكرِ المرأة، وعكَس في (مريم)؛ لأن الذَّكَر مقدَّمٌ على الأُنثى، فقدَّم كِبَره هنا، ومناسبة ذلك: أنَّ صدْر الآيات في مريم مطابقٌ لهذا التركيب؛ لأنَّه قدَّم وهَنَ عظْمه، واشتعالَ شَيْبه، وخِيفةَ مواليه مِن ورائِه، وقال: ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾، فلمَّا أعاد ذِكرَهما في استفهامٍ آخَر ذكَر الكِبَر؛ ليوافقَ ﴿عتيًّا﴾ رُؤوسَ الآي، وهو بابٌ مقصودٌ في الفصاحةِ يترجَّح إذا لم يُخِلَّ بالمعنى، والعطفُ هنا بالواو، فليسَ التقديمُ والتأخيرُ مُشعِرًا بتقدُّم زمانٍ، وإنَّما هذا من بابِ تقديمِ المناسِب في فَصاحة الكلام، فاستدعتْ مقاطعُ آياتِ سورة مريم وفواصلُها- ﴿... زَكَرِيَّا﴾ ﴿خَفِيًّا﴾ ﴿حَيًّا﴾ ﴿نَبِيًّا﴾- ما يَجري على حُكمها ويُناسبها؛ فاقتضتْ مناسبةُ آي هذه السورة وُرودَ قِصَّة زكريَّا عليه السَّلام على ما تقدَّم(٢).

٥- **في قوله تعالى: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾** عبَّر عن المولودِ والطِّفل بالغلام- والغلامُ هو الشابُّ الفتيُّ السِّنِّ من الناس، وهو الذي طرَّ شاربُه-؛ على سبيلِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((البُرهان في توجيه متشابه القرآن)) للكرماني (ص: ٨٩)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٨٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٣٦- ١٣٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ١٥٩)، ((فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن)) لزكريا الأنصاري (١/ ٨٥).

التفاؤل بما يؤولُ إليه[١].

٦- **قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا﴾** أي: في أيَّام الحُبسة، وهو مؤكِّدٌ لِمَا قبله، مُبيِّن للغرضِ منه، وتقييدُ الأمرِ بالكثرةِ يدلُّ على أنَّه لا يُفيد التَّكْرار[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٠٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ١٦٠)، وفيهما أنه يُطلق (الغلام) أيضًا على الكهْل باعتبار ما كان عليه.

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٦).

الآيات (٤٢ - ٤٤)

﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿اقْنُتِي﴾: دَاوِمِي على الطَّاعةِ، والقُنُوتُ: دوامُ الطَّاعة ولزُومُها مع الخُضوع، وأصل (قنت): يدلُّ على طاعةٍ وخيرٍ في دِين، ثم سُمِّي كلُّ استقامةٍ في طريقِ الدِّينِ قنوتًا(١).

المَعنى الإجماليُّ:

يَقصُّ الله تبارَكَ وتعالَى على نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ما كان من شأنِ مريم عليها السَّلام؛ إذ نادتْها الملائكةُ فقالت لها: يا مريمُ، إنَّ الله اجتباكِ واختاركِ وطهَّركِ في الخُلق والدِّين، وفضَّلكِ على نِساء العالَمين، يا مريم، إنَّ هذا الاصطفاءَ والتَّطهيرَ نعمةٌ كبيرةٌ من الله تستحقُّ منكِ الشُّكر، فلتكنْ عبادتُكِ خالصةً لله وحده، وداوِمي عليها، وصلِّي مع المصلِّين العابدين الخاشعين.

ثمَّ قال الله تبارَكَ وتعالَى لرسوله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: إنَّ كلَّ ما تقدَّم ذِكرُه من أَنباءٍ وقَصصٍ هي أخبارٌ خَفيَّة غَيبيَّة، لم تكُن تعلمها أنتَ ولا قومُك، ونحن قَصَصْناها عليك؛ لتكونَ شاهدًا وبرهانًا على صِدْق ما جئتَ به، ولم تكن- يا محمَّدُ- حاضرًا حين اجتمع زكريَّا وقومه واقترَعوا في شأنِ مريم؛ لينظروا أيُّهم

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٢، ٤٧٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٧) (٥/ ٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٤- ٦٨٥)، ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٥ وما بعدها)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٠٢).

يكفُلُها ويُضمُّها إليه، واختصَموا في أمرها، وإنَّما جاءَك خبرُ هذا بالوحي، وإلَّا لَمَا علمت به، ولا وصَلك نبؤُه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢)﴾.

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ﴾.

أي: واذكُرْ إذ قالتِ الملائكة: يا مريمُ[١].

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ﴾.

أي: إنَّ اللهَ اختارَكِ وطهَّركِ في خُلُقِكِ ودِينكِ[٢].

﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾.

أي: اختارَكِ على نِساءِ العالَمين[٣] وفضَّلكِ عليهنَّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٥٤).
والمراد بالملائكة في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ﴾: الجِنس؛ إذ ليس المرادُ كلَّ الملائكة، بل المراد إما جماعةٌ من الملائكةِ أو واحدٌ منهم، وهو في الغالبِ جبريلُ، وتقدَّم ذكرُ الخلافِ في ذلك.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٥٥).
وممَّن قال بهذا القول من السَّلف الصالح: مجاهد. ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٦٤٧).

(٣) وهذا الاصطفاء إمَّا على عالَمي زمانها- وعزاه الواحديُّ للأكثر، واختاره ابن جرير- أو مطلقًا، ومشاركة أفراد من النساء في ذلك كخديجة وعائشة وفاطمة، لا يُنافي الاصطفاء المذكور، وقيل: إنْ جعلْنا ﴿الْعالَمِينَ﴾ عامًّا فيمَن تقدَّم وتأخَّر جعلنا الاصطفاء مخصوصًا في أمر عيسى عليه السلام، وأنَّها اصطُفِيت لتلدَ من غير فحلٍ، وإنْ جعلنا الاصطفاء عامًّا جعلنا قوله تعالى: ﴿الْعالَمِينَ﴾ مخصوصًا في عالم ذلك الزمان. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٩٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٠).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا كان في هذا الاصطفاءِ والتَّطهير لمريمَ من النِّعمة العظيمة، والمِنحةِ الجَسيمةِ، ما يُوجِبُ لها القيامَ بشُكرها، قالت لها الملائكةُ[١]:

﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣)﴾.

﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾.

أي: قالت الملائكةُ أيضًا: يا مريمُ، أخلِصي الطَّاعة لربِّكِ وحده، وداومِي على عبادتِه[٢].

﴿وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾.

أي: وصَلِّي، وكوني مع الخاشعين العابدين المصلِّين[٣].

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤)﴾.

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾.

أي: هذه الأخبارُ الَّتي تَقدَّم ذِكرُها عن امرأةِ عِمْران وابنتِها مريم وزكريَّا وابنه

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٩٧)، ((أعلام الموقعين)) لابن القيِّم (٢/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٥٧).
وممَّن قال بنحو ذلك من السلف: سعيد بن جُبَير، والحسن، وقتادة والسُّدِّي. ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٩٩، ٤٠٠)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٦٤٨)، ((الدر المنثور في التفسير بالمأثور)) للسيوطي (٢/ ١٩٥).
قال أبو حيان: (لا خلافَ بينَ المفسِّرين أنَّ المناديَ لها بذلك الملائكةُ الذين تقدَّم ذكرُهم) ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٠٠)، ((تفسير الراغب)) (٢/ ٥٥٦)، ((التفسير القيم لابن القيِّم)) لمحمد أويس الندوي (ص: ٢١٦)، ((تفسر السعدي)) (ص: ٩٦٦).

يحيى عليهما السَّلام من أخبارِ القوم الخفيَّة، الَّتي غابتْ عنكَ وعن قومِك فلم تَطَّلعوا عليها، نقصُّها عليك ونخبرُك بها؛ دليلًا على نُبوَّتِك، وتحقيقًا لِصِدْقِك[١].

﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾.

أي: وما كنتُ- يا محمَّدُ- عند زكريَّا وقومِه حين اقترَعوا في شأنِ مريمَ بإلقاء أقلامِهم[٢]؛ ليَنظروا أيُّهم يَكفُلُها، ويَضمُّها إليه[٣].

﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾.

أي: وما كُنتَ عندَهم حالَ اختصامِهم أيُّهم أحقُّ بها، فلولا أنَّ الله أَوحى إليك ذلك لَمَا كان لك علمٌ به[٤].

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- كلَّما مَنَّ اللهُ سبحانه وتعالى على إنسانٍ بشيءٍ مِن نِعَمه كان مُطالَبًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٠٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٦١).

(٢) ظاهر القرآن: أنَّ المرادَ بالأقلامِ الأقلامُ حقيقةً التي يُكتب بها، وقيل: هي التي كانوا يَكتُبون بها التوراةَ كانوا يَقترِعون بها في المشكلات. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٦٢).

قال ابنُ جرير: (في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ﴾ [آل عمران: ٤٤] دلالةٌ على محذوف من الكلام، وهو: لينظروا أيُّهم يكفُلُ، وليتبيَّنوا ذلك ويَعلموه).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٠٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٦٣).

الظاهر أنَّ الاختصام كان قَبل إلقاء الأقلام، لكن أُخِّر في الذكر؛ قيل: لمناسبة رؤوس الآيات ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾، أو لأنَّ الله سبحانه وتعالى ذكر النتيجة قبل المقدمة وقبل السبب؛ لأنها هي الغاية، فإنَّ إلقاء الأقلام والسهام، هو غاية الاختصام. ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٦٣).

بالعبادة أكثرَ؛ شُكرًا على ما أنعم اللهُ عليه به[١]؛ كما قال تعالى: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي..﴾ بعدَ إخبارِها بالاصطفاءِ والتَّطهير.

٢- يُؤخذُ من قوله تعالى: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ...﴾ أنَّ مَن اعتقد أنَّه مكرَّمٌ اجتهدَ في المحافظةِ على كرامتِه، وتَباعَد أشدَّ التَّباعُدِ عن كلِّ ما ينقص منها[٢].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- في أمر الله نبيَّه أنْ يَذكرَ قصَّة مريم لهذه الأمَّة تعظيمٌ لشأنها[٣].

٢- في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ﴾، ذَكَرَ اللهُ الاصطفاء مرَّتين؛ فالأوَّل يَرجِع إلى الصِّفات الحميدة، والأفعال السَّديدة؛ فهو اصطفاء ذاتيٌّ، وهو جَعلُها منزَّهةً زكيَّة، والثَّاني: يرجع إلى تفضيلها على سائر نساءِ العالَمين، سواءٌ على عالَمِي زمانها، أو مطلقًا، وإن شارَكها أفرادٌ من النِّساء في ذلك؛ فلذلك لم يُعَدِّ الأوَّلَ إلى متعلَّق، وعدَّى الثَّاني[٤].

٣- الإشارةُ إلى الطُّهر في قوله: ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ إشارةٌ ذات مغزًى؛ وذلك لِما لابَس مولدَ عيسى عليه السَّلام من شُبهاتٍ لم يَتورَّعِ اليهودُ أنْ يُلصقوها بمريم الطَّاهرة[٥].

٤- الرُّبوبيَّة في قوله: ﴿لِرَبِّكِ﴾ ربوبيَّة خاصَّة، تختصُّ بمن خصَّها اللهُ به،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٠). وقيل: كرَّر الاصطفاء؛ لأنَّ معنى الأول الاصطفاء لعبادته، ومعنى الثاني لولادة عيسى. ينظر: ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٨٢).

(٥) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٣٩٥)، و((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٥٩).

وتُفيد تربيةً واعتناءً واختصاصًا أكثرَ من الرُّبوبيَّة العامَّة(١).

٥- في النَّصِّ على السُّجودِ والرُّكوع رغمَ دُخولِهما تحت القنوت: بيانٌ لفضيلتِهما، ولدلالتِهما على غاية الخضوعِ لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣](٢).

٦- قدَّم السُّجود على الرُّكوع في قوله: ﴿وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾؛ لعدة أوجه:

- منها: أنَّه أبلغُ في القنوت(٣).

- ومنها: أنه لَمَّا قدَّم الإخلاص الَّذي هو روحُ العبادة في قوله: ﴿اقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾، أتبَعَه السُّجود الَّذي هو أشرفُها(٤).

- ومنها: أنَّ المقامَ هنا مقامُ شُكر، والسُّجود أدخلُ في الشُّكر، ولأنَّ السُّجود مختصٌّ بنوعٍ من الرُّتبة والفضيلة، وهي كونُ العبد فيه أقرَبَ ما يكون من ربِّه، فقدَّمَه لِفَضْلِه(٥).

٧- في قوله: ﴿وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾، ولم يقل: مع الرَّاكعات؛ قيل إشارةً إلى أنَّ الكمالَ في الرِّجال، وكثرة العمل في الرِّجال أظهرُ منها في النِّساء، وأنَّ العُبَّاد من الرِّجالِ أكثرُ من العُبَّاد من النِّساء، أو لأنَّ قوله: ﴿الرَّاكِعِينَ﴾ أعمُّ إذ يشمل الرجال والنساء على سبيل التغليب(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٥٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٦١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٦١).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٣٧٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢١٨) ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٤٤)، وينظر أيضًا: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٦٤).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٦١).

٨- في قوله: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾ إيماءٌ إلى خلوِّ كتبِهم عن بعض ذلك، وإلَّا لقال: وما كنتَ تتْلو كُتُبَهم[١].

٩- مِن طُرُق الأحكام: الحُكمُ بالقُرعةِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾؛ فنبيُّ اللهِ زكريَّا استعْمَل القُرعةَ، وقدِ احتجَّ الأئمَّةُ الأربعةُ بشَرْعِ مَن قَبْلَنا إنْ صحَّ ذلك عنهم[٢].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ فيه تكريرُ التَّذكيرِ في قولِه: ﴿وَإِذْ﴾[٣]؛ للإشعارِ بمزيدِ الاعتناءِ بما يُحكَى مِن أحكامِ الاصطفاءِ، والتَّنبيهِ على استقلالِها وانفرادِها عن الأحكامِ السَّابقة؛ فإنَّها من أحكامِ التربيةِ الجُسمانيَّة اللائقةِ بحال صِغَر مريمَ، وهذا من بابِ التربيةِ الرُّوحانيَّة بالتكاليف الشرعيةِ المتعلِّقة بحال كِبَرها[٤].

- وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وطَهَّرَكَ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾: فيه تأكيدُ الجُملةِ بـ(إنَّ)، وكَرَّر الاصطفاءَ رفعًا من شَأنِها، أو كرَّره للتَّوكيدِ، أو ليُبيِّن مَنِ اصْطفَاها عليهنَّ، أو كرَّر الاصطفاءَ؛ لأنَّ كِلَا الاصطفائَين يَختلِفُ معناهما[٥]، أو كرَّرَ مناقِبَ مَريمَ عليها السَّلام في قولِه: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وطَهَّرَكَ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾؛ لأنَّ أوْصافَ الكمالِ كلَّما كُرِّرتْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((الطرق الحكمية)) لابن القيم (ص:٢٤٥).

(٣) لأنَّ ﴿إِذْ﴾ منصوبٌ بفِعلٍ مَحذوفٍ معطوفٍ على الفِعلِ المحذوفِ السَّابِق عطفَ القِصَّةِ على القِصَّة، أو معطوفٌ على الظَّرْف السَّابق ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ﴾، أي: واذْكُر أيضًا من شواهِدِ اصطفائِهم وقتَ قَولِ الملائكةِ عليهم الصَّلاة والسَّلام: ﴿يَا مَرْيَمُ...﴾. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٣٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٤- ٣٥).

(٥) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ١٦٩-١٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٤٤).

ظهَر مِن كَمالِ المَوصوفِ ما لم يكُن مَعلومًا من قَبلُ[١].

٢- قوله: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ واسْجُدِي﴾ فيه تكريرُ النِّداءِ؛ للإيذانِ بأنَّ المقصودَ بكلِّ نداءٍ هو ما يرِدُ بعدَه؛ فالنِّداءُ الأوَّل تذكيرٌ بالنِّعمة، وكان ذِكرُه بمنزلةِ التَّمهيدِ للنِّداء الثاني، الذي هو للتَّكليفِ؛ ترغيبًا في العَملِ بموجبِه[٢]. أو أعادَ النِّداء في قولِ الملائكةِ: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي..﴾؛ لقَصدِ الإعجابِ بحالها؛ لأنَّ النِّداءَ الأوَّل كفَى في تحصيلِ المقصودِ من إقبالها لسَماعِ كلامِ الملائكة، فكان النِّداءُ الثَّاني لمجرَّد التَّنبيهِ الَّذي يُنتقل منه إلى لازِمه، وهو التَّنويهُ بهذه الحالةِ، والإعجاب بها[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ نَفَى فيه مُشاهدتَه صلَّى الله عليه وسلَّم لذلِك بقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾، وانتفاءُ هذه المشاهدةِ معلومٌ بغير شُبهة، وترَك نفْيَ استماعِ الأنباء من حُفَّاظِها، وهو موهوم؛ وفائدته: أنَّه كان معلومًا عند المنكِرين للوحيِ علمًا يقينيًّا أنه ليس من أهل السَّماع والقِراءة، وكانوا منكرين للوحي، فلم يَبقَ إلَّا المشاهدةُ، وهي في غايةُ الاستبعادِ والاستحالةِ، فنُفِيتْ على سبيلِ التَّهكُّمِ بالمنكرينَ للوحي مع عِلْمِهم بأنَّه لا سماعَ له ولا قِراءة؛ فأفادَ التقريرَ والتحقيقَ لكونِ تلك الأنباءِ وحيًا من اللهِ تَعالَى[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٦٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٣٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٥٠٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٤٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٦٢)، ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢١٩)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٣١٨).

الآيات (٤٥ - ٥١)

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿يَمْسَسْنِي﴾: المسُّ: الجماع[1].

﴿وَجِيهًا﴾: صاحبُ جاهٍ ومنزلةٍ[2].

﴿الْمَهْدِ﴾: مَضْجَعُ الصَّبِيِّ فِي رَضَاعِهِ، وهو ما يُهيَّأ للصَّبي، وأصلُه: التَّوطئةُ للشَّيء وتسهيلُه[3].

---

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٠).

﴿كَهْلًا﴾: الكهل: الَّذي انتَهى شبابُه، ومَن وَخَطَه- أي: خالَطَه- الشَّيبُ[(١)].

﴿الْأَكْمَهَ﴾: الَّذي يُولد أعْمَى، أو هو الَّذي يُولَد مطموسَ العينِ، أو الأعمى مطلَقًا[(٢)].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِر الله نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بمجيء الملائكةِ إلى مريم تَحمِل لها البُشرى بغلامٍ يوجِده الله بكلمةٍ منه، اسمُه المسيحُ عيسى ابنُ مريم، نسبةً إلى أمِّه؛ لأنَّه لا أبَ له، والَّذي سيكون من صِفاته أنَّه ذو وجاهةٍ عالية، ومنزلةٍ رفيعة عند الله في الدُّنيا والآخِرة، ومن المقرَّبين إليه، وأنَّ مِن معجزاته تكليمَ النَّاس في حال طُفولتِه؛ تَبرئةً لأمِّه، ودَعوةً إلى عِبادةِ الله وحْده لا شريكَ له، ويُكلِّمهم في حال كُهولتِه تَكليمَ المرسلين بما يوحيه اللهُ إليه، وأنَّه من الصَّالحين.

ثمَّ يذكُرُ اللهُ تعالى جوابَ مريم: يا ربِّ، كيف يكون منِّي ولد وأنا لم يمسَسْني بشر؟! فأخبَرها سبحانه أنَّ هذا الفِعلَ المستغرَب والخارِقَ للعادة هو مِن فِعل مَن بيده الأمرُ؛ فهو يَخلُق ما يشاءُ، كيفما يُريد، وإذا أراد شيئًا، فإنَّما يقولُ له: كن، فيكون الأمرُ كما أراد سبحانه.

ثمَّ يَذكرُ اللهُ تعالى ما امتنَّ به على عبدِه ورسولِه عيسى عليه السَّلام مِن المِنَن العظيمة؛ مِن تعليمِ الكتابِ والحِكمة، والتَّوراة والإنجيل، وأنَّه سيُرسله إلى بني إسرائيل ليقول لهم: إنِّي قد جِئتُكم بآيةٍ من ربِّكم، وهي أنِّي أُصوِّرُ من

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٤).

الطِّين على شكل الطَّير، ثمَّ أنفخُ فيه، فيكون طيرًا تدِبُّ فيه الرُّوح، بإذن الله سبحانه وتعالى، وأنِّي أَشفي مَن وُلِد أعمى، وَمن به برَصٌ، وأُحيي الموتى بإذن الله، وأُخبركم بما تأكلون من طعام وما تدَّخرونه في بيوتكم، دون أنْ أراها أو يُطلِعني عليها أحدٌ، وفي هذا كلِّه آيةٌ لكم تدلُّكم على صِدق ما جئتكم به، إنْ كنتم مؤمنين، وأنِّي قد أتيتُكم مقرِّرًا ومثبِتًا لِمَا أُنزل قبلي من التَّوراة، ولأُحِلَّ لكم بعضَ الَّذي حُرِّم عليكم، وجئتُكم بآيةٍ تدلُّ على صِدق ما أقولُه لكم؛ فاتَّقوا اللهَ وأطيعوني فيما دعوتُكم إليه، إنَّ اللهَ ربِّي وربُّكم؛ لذا توجَّهوا إليه بالعبادةِ وحْدَه؛ فهذا هو الطَّريقُ المستقيم الَّذي يُوصلكم إلى الله ورِضوانِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥)﴾.

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾.

أي: واذكُرْ[١] إذ قالتِ الملائكةُ: يا مريمُ، إنَّ الله يُبشِّرُك بولد[٢] يكونُ وجودُه بكلمةٍ صادرةٍ من الله، وهي قوله: (كُنْ) فيكون[٣].

---

(١) ينظر ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٦٤).
وقال ابنُ جرير: (يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ﴾ [آل عمران: ٤٥]، ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾، وما كنتَ لديهم أيضًا ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ﴾). ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٠٦) وردَّه ابن عطية.

(٢) اختار ابن جرير: أنَّ قوله: ﴿بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾. يعني: برسالة من الله، وخبر من عنده، وهو من قول القائل: ألقى فلان إليَّ كلمة سرَّني بها، بمعنى: أخبرني خبرًا فرحت به، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ [النساء: ١٧١]، يعني: بشرى الله مريم بعيسى ألقاها إليها. وما اختاره خلافُ رأي الجمهور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٦٤).
=

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ﴾ [آل عمران: ٥٩].

﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾.

أي: يَشتهرُ بأنَّ اسمَه المسيحُ[١] عيسى ابنُ مريم، نِسبةً لأُمِّه؛ لأنَّه لا أبَ له، فنفَى الله بذلك عنه ما أضافَ إليه النَّصارى، مِن إضافتِهم بنوَّتَه إليه عزَّ وجلَّ[٢].

﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾.

أي: حالَ كونه ذا وجاهةٍ ومنزلةٍ عالية ومكانةٍ عند الله: في الدُّنيا؛ لكونِه أحدَ المرسَلين مِن أُولي العزم الَّذين نَشَر الله ذِكرَهم، وفي الآخرة؛ لِمَا له من الشَّفاعة عند الله، والدَّرجات العُليا في الجنة[٣].

﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾.

أي: من المقرَّبين إلى الله عزَّ وجلَّ في الدُّنيا والآخِرة[٤].

﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦)﴾.

﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾.

أي: ويُكلِّمُ النَّاس طفلًا في الفِراش؛ آيةً من الله، وتبرئةً لأمِّه، ويكلِّمهم أيضًا

= وممَّن قال بهذا القول قتادة. ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٠٧)

(١) سُمِّي عيسى عليه السَّلام بالمسيح؛ قال بعضُ السَّلف: لكثرةِ سِياحته. وقيل: لأنَّه كان إذا مَسَحَ أحدًا مِن ذوي العاهاتِ بَرَأ بإذن الله تعالى، وقيل: غير ذلك، حتى بلغَ بها بعضُهم خمسين قولًا. ينظر ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٤/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٦٩).

بالغًا كبيرًا حال كهولتِه، تكليمَ المرسَلين، بعد أنْ يوحيَ اللهُ إليه[1].

كما قال الله تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٢٩-٣٣].

﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

أي: وهو مِنَ الصَّالحين في قولِه وعمَلِه[2].

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٧)﴾.

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾.

أي: قالت مريمُ: يا ربِّ، كيف يوجَدُ هذا الولد منِّي، ولم يُجامِعْني بَشرٌ لا بنِكاحٍ ولا بزنًا[3]؟!

﴿قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾.

أي: قال: مِثْلَ ذلك الخَلْقِ- وهو إيجادُ الولد بدون مسيسٍ- يَخلُقُ الله ما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤١٢)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٦٩).

وممَّن قال بنحو هذا القول: محمَّد بن جعفر بن الزُّبير، وقتادة، والربيع، والحسن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٩٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٨٧).

يشاء، ويصنَعُ ما يُريد، فلا يُعجِزه شيءٌ[(١)].

﴿إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

أي: إذا أراد إيجادَ شيء، فإنَّما يقولُ له: كُنْ، فيوجَدُ كما شاء عَقِيبَ الأمر، فلا يتأخَّرُ شيئًا[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (٤٨)﴾.

أي: ويُعلِّمُ الله عزَّ وجلَّ عيسى عليه السَّلام الكتابةَ[(٣)]، ويُعلِّمُه السُّنَّة الَّتي يُوحيها إليه في غير كِتابٍ من الشَّرائع ونحوها، ويُعلِّمه التَّوراةَ الَّتي أنزلها على موسى عليه السَّلام، والإنجيل الَّذي يُنزِّله عليه[(٤)].

﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِ

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٤٨)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤١٥)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤١٥)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢١٧-٢١٨).
وذهَب السعديُّ إلى أنَّه يحتمل أن يكون المرادُ بالكتاب هنا: جِنس الكتب، ويحتمل أن يكون معناه الكتابةَ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣١).
وذهَب ابنُ عثيمين إلى حمْل الآية على كلا المعنيين. فعلَّمه الكتابةَ فكتَب، وعلَّمه الكتب السابقة. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤١٦)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٣٨)، ((هداية الحيارى)) لابن القيِّم (١/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٧٧).

الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٤٩)﴾.

﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

أي: ويَجعلُه رسولًا يُرسلُه إلى بَنِي إسرائيلَ[١].

قائلًا لهم:

﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

أي[٢]: أنِّي[٣] قد جئتُكم بعلامةٍ من ربِّكم، تحقِّقُ قولي، وتصدِّقُ خبَري في كوني مُرسَلًا مِن الله إليكم[٤].

ثم بَيَّن هذه الآيةَ الَّتي جاءَ بها قائلًا:

﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٩٣).

(٢) من قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ...﴾ إلى قوله ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ خِطاب لمريم، ومن قوله: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ...﴾ إلى قوله: ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾ يحتمل أنْ يكونَ خِطابًا لمريم على معنى: يكون من قولِه لبني إسرائيل، كيت وكيت، ويكون في آخِر الكلامِ متروكٌ يدلُّ عليه الظاهِر، تقديرُه: فجاء عيسى بني إسرائيل رسولًا، فقال لهم ما تقدَّم ذِكرُه ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ...﴾، ويحتمل أن يكون المتروك مقدرًا في صدْر الكلام بعد قوله: ﴿إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ فيكون تقديره، فجاء عيسى كما بشَّر الله رسولًا إلى بني إسرائيل بأنِّي قد جئتُكم، ويكون قوله: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ...﴾ ليس بخِطاب لمريمَ، والأوَّل أظهرُ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٣٨).

(٣) فتْح الهمزة في قوله: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ﴾ لتقديرِ باء الجرِّ، بعد قوله: ﴿وَرَسُولًا﴾، أي: رسولًا بهذا المقال؛ لِمَا تضمَّنه وصفُ ﴿رَسُولًا﴾ من كونِه مبعوثًا بكلام. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤١٨).

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

أ- في قوله تعالى: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ﴾ قراءتان:

١- (إنِّي) بالكَسرِ، وذلك على إضمارِ القولِ، أي: فقلت: إنِّي أَخلُق. أو أنَّه على الاستئناف. أو على التفسير، فَسَّر بهذه الجملةِ قولَه: ﴿بِآيَةٍ﴾ كأنَّ قائِلًا قال: وما الآيةُ؟ فقال هذا الكلامَ[1].

٢- ﴿أَنِّي﴾ بالفتحِ على أنَّهَا بدلٌ من قَوْله ﴿بِآيَةٍ﴾ فالمعنى: بأَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ. وقيل: إنها بدل من قوله: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ﴾. وقيل: إنها خَبرُ مبتدأٍ مُضمَرٍ، تقديرُه: هي أنِّي أَخلُق. وقيل غير ذلك[2].

ب- وفي قوله تعالى: ﴿كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ثلاثُ قراءات:

١- (... كَهَيْئَةِ الطَّائِرِ... فَيَكُونُ طَائِرًا)، أي: إنَّه كان يَخلُق واحدًا ثمَّ واحدًا[3].

٢- (... كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ... فَيَكُونُ طَائِرًا) أي: تُقدِّر هيئةً كهيئةِ الطَّير، فتكونُ الهيئةُ طائرًا، أي: كلُّ هَيئةٍ تُقدِّرها تكونُ واحدًا مِن الطَّير[4].

---

(١) قَرَأَ بها المدَنِيَّانِ نافع وأبو جعفر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٥٦)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٦٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ١٩١).

(٢) قَرَأَ بها البَاقُونَ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٥٦)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٦٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ١٩١).

(٣) قرأ بها أبو جعفر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٨٧).
ويُنظر لمعنى القراءتين: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٥٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٦٤).

(٤) قرأ بها نافع ويعقوب. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٨٧).
ويُنظر لمعنى القراءتين: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٠٢).

٣- ﴿... كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ... فَيَكُونُ طَيْرًا﴾، أي: إنَّ الله تعالى أذِن له أن يَخلُقَ طيرًا كثيرةً، ولم يكُن يَخلُقُ واحدًا فقط[1].

﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

أي: أُصوِّرُ لكم من الطِّين شيئًا مقدَّرًا على شكلِ الطَّير، فأنفُخُ فيه فيكون طيرًا له رُوح، يَطيرُ بعِلم الله وتمكينِه لي[2].

﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

أي: وأَشفي مَن يُولد أعْمَى[3]، ومَن به داءُ البرصِ الَّذي يُصيب الجِلدَ، وأُحيي الموتى بإذنِ الله[4].

﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾.

أي: وأُخبِرُكم بما تأكلونَه، وما تدَّخِرونه في بُيوتِكم فلا تأكلونه، دون أنْ أُعاينَ ذلك، أو يَأتِيَني أحدٌ بخبَرِه[5].

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٨٧).
ويُنظر لمعنى القراءتين: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٥٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣١).

(٣) وممَّن قال بهذا القول: ابن عبَّاس، والحسن، والضحَّاك، والسُّدِّي، وقتادة. ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٢١)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٦٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٥١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٥٢).
قال ابنُ جرير: (فإنْ قال قائلٌ: وما كان في قوله لهم: ﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩] مِن الحُجَّة له على صِدقِه، وقد رأينا المتنجِّمةَ والمتكهِّنةَ تُخبر بذلك كثيرًا فتصيب؟
=

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

أي: إنَّ في إبراءِ الأكْمَهِ والأبرصِ، وإحياءِ الموتى، وغيرِ ذلك ممَّا سبق ذِكره، لآيةً تدلُّ على صِدقي، وتَهديكم، وتَنفعُكم، إنْ كنتم مؤمنين، وإلَّا فليستْ هاديةً ولا نافعةً لكم[1].

﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠)﴾.

﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾.

أي: وجئتُكم مُقرِرًا ومخبِرًا بصِدْق ما قبلي من التَّوراةِ الَّتي أُنزِلَت على موسى عليه السَّلام[2].

﴿وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾.

أي: وجئتُكم أيضًا لأحلَّ لكم بعضَ الَّذي حُرِّم عليكم[3].

﴿وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

أي: وجئتُكم بحجَّةٍ ودلالةٍ على صِدقي فيما أقولُ لكم[4].

= قيل: إنَّ المتنجِّم والمتكهِّن معلومٌ منهما عند مَن يُخبره بذلك أنهما يُنبئان به عن استخراج له ببعض الأسباب المؤدِّية إلى عِلمه، ولم يكُن ذلك كذلك مِن عيسى صلواتُ الله عليه ومِن سائرِ أنبياء الله ورسله، وإنَّما كان عيسى يُخبر به عن غيرِ استخراجٍ ولا طلبٍ لمعرفته باحتيالٍ، ولكن ابتداءً بإعلام الله إيَّاه من غير أصلٍ تقدَّم ذلك؛ احتذاه أو بَنَى عليه أو فزِع إليه، كما يَفزع المتنجِّمُ إلى حِسابِه، والمتكهِّن إلى رِئيه، فذلك هو الفصلُ بين عِلم الأنبياء بالغيوبِ وإخبارهم عنها، وبين عِلم سائرِ المتكذِّبة على اللهِ، أو المدَّعية عِلمَ ذلك)) ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣١).

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

أي: فاتَّقوا الله بفِعلِ ما أمَر به، واجتنابِ ما نهى عنه، وأطيعوني فيما دعوتُكم إليه[1].

﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٥١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أمَرَهم بتقوى الله ذَكَر ما هو كالسَّببِ في ذلك[2]، فقال:

﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾.

أي: إنَّ اللهَ ربِّي وربُّكم، وخالقُنا، ومالكُنا ورازقُنا؛ لذا فاعبُدوه وحده؛ فاستدلَّ بتوحيدِ الرُّبوبيَّة على توحيدِ الألوهيَّة؛ لأنَّه يستلزمُه[3].

كما قال تعالى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧].

﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾.

أي: ما سبَق ذِكرُه- من تقوى الله، وطاعة رسولِه، وتحقيق- العبادة له- طريقٌ مستقيمٌ لا اعوجاجَ فيه، مُوصلٌ إلى اللهِ وإلى جنَّتِه[4].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- يُؤخذُ من قوله تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ أنَّ علامةَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة آل عمران)) (١/ ٢٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٩٨).

الصَّادق أنْ يكونَ خبرُه من جِنسِ خبر الصَّادقين، يُخبِر بالصِّدق، ويأمُرُ بالعدلِ، من غير تخالُفٍ ولا تناقُضٍ[١].

٢- في قوله: ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ بيانُ أنَّه لا رتبةَ أعظمُ من كون المرء صالحًا؛ لكونه في جميعِ الأفعال والتُّروك مواظِبًا على النَّهج الأصلح، والطَّريق الأكمل، ومعلوم أنَّ ذلك يتناولُ جميع المقاماتِ في الدُّنيا والدِّين، في أفعال القلوب، وفي أفعال الجوارح[٢].

٣- الإيمانُ يَحمِلُ صاحبَه على قَبول الآياتِ الَّتي جاءت بها الرُّسلُ[٣]؛ كما في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

٤- في قول الله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ دليلٌ على أنَّ مِن لوازم تقوى الله: طاعةَ رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٤].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- مِن حِكمةِ اللهِ أنْ تَدرَّج بأخبارِ العبادِ من الغريبِ إلى ما هو أغربُ منه؛ فذكَر وجودَ يَحيى بن زكريَّا بين أبوين أحدُهما كبيرٌ، والآخَر عاقرٌ، ثمَّ ذكَر أغربَ من ذلك وأعجبَ، وهو وجودُ عيسى عليه السَّلام من أمٍّ بلا أبٍ[٥].

٢- (مِن) في قوله: ﴿بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾ ليستْ للتَّبعيض، بل لابتداءِ الغاية؛ وذلك لعدمِ وجودِ واسطةِ الأبِ في حقِّ عيسى عليه السَّلام، فصارَ تأثيرُ كلمة الله تعالى في تكوينِه وتخليقِه أكملَ وأظهرَ، فكان كونُه كلمةَ الله مبدأً لظهوره ولحدوثه أكملَ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣١).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٢٥- ٢٢٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٩١).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٣١).
(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣١).
(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٤٦).

٣- في قول اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾ (كِلمة) نكرةٌ في سياقِ الإثباتِ، وهي مُطْلَقةٌ ليس فيها عمومٌ على سبيلِ الجمعِ، وذلك يقتضي أنَّه كلمةٌ مِن كلماتِ اللهِ، ليس هو كلامَه كلَّه كما يقولُ النَّصارى؛ فالمسيحُ ليس هو مجموعَ الكَلِماتِ، بل خُلِقَ بكلمةٍ منها(١).

٤- بيَّنَ اللهُ تعالى مُرادَه بقوله: ﴿بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾ وأنَّه قال لعيسى عليه السَّلامُ: (كُنْ فيكون) في ثلاثِ آياتٍ؛ في قوله: ﴿كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧] وقوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] وقوله: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾(٢) [مريم: ٣٤، ٣٥].

٥- في قوله تعالى: ﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ عبَّر عن العَلَم واللَّقب والوَصف بالاسم؛ لأنَّ لثلاثتِها أثرًا في تمييزِ المسمَّى(٣).

٦- قدَّم اللَّقبَ في قوله تعالى: ﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ على الاسمِ؛ لأنَّ المسيحَ لقَبٌ يُفيدُ كونَه شريفًا رفيعَ الدَّرجة؛ كالصِّدِّيقِ والفاروق؛ فذكَره الله أولًا؛ ليُفيدَ علوَّ درجتِه، ثمَّ ذكَره باسمه الخاصِّ(٤).

٧- الضَّميرَ في قوله: ﴿اسْمُهُ﴾ عائدٌ إلى الكلمةِ، وهي مُؤنَّثة، ومع ذلك فقد ذكَّر الضَّمير؛ لأنَّ المسمَّى بها مُذكَّر(٥).

---

(١) يُنظر: ((الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)) لابن تيمية (٣/ ٢٤٦، ٣٠٢) (٤/ ٦٣)، ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)) لابن تيمية (٤/ ٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٢٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٨- جاء قوله: ﴿ابْنُ مَرْيَمَ﴾ مع كون الخِطاب لها؛ قيل: إعلامًا لها بأنَّه يُنسَب إليها؛ لأنَّه مُحدَثٌ بغير الأب، فكان ذلك سببًا لزيادة فضلِه، وعلوِّ درجتِه ودرجتها، وتشريفِها، وتبرئتِها ممَّا رماها به اليهود(١).

٩- خَصَّ تكليمَه بحالَيِ المهدِ والكهولة، مع أنَّه يتكلَّمُ فيما بين ذلك؛ لأنَّ لهما مزيدَ اختصاصٍ بتشريف الله إيَّاه، فأمَّا تكليمُه النَّاس في المهد، فلأنَّه خارقُ عادةٍ؛ إرهاصًا لنبوءتِه، وأمَّا تكليمُهم كهلًا، فمرادٌ به دعوتُه النَّاسَ إلى الشَّريعةِ(٢).

١٠- في قوله: ﴿كَهْلًا﴾ ردٌّ على النَّصارى الَّذين يدَّعون أنَّ عيسى إلهٌ؛ إذ لو كان إلهًا لَمَا كان متقلِّبًا في الأحوال من الصِّبا إلى الكهولة، فالتَّغيُّر على الإله تعالى محالٌ(٣).

١١- عبَّر عن تكوينِ الله لعيسى بفعل ﴿يَخْلُقُ﴾؛ لأنَّه إيجاد كائن من غير الأسبابِ المعتادةِ لإيجاد مِثله، فكان للفعل ﴿يَخْلُقُ﴾ هنا موقعٌ متعيِّن؛ فهو يدلُّ على الإبداع(٤).

١٢- تضمَّن قوله: ﴿يَخْلُقُ﴾ في قوله: ﴿كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ الرَّدَّ على شُبَه النَّصارى الَّذين يقولون: إنَّ عيسى هو الله، وإنَّه ثالثُ ثلاثةٍ؛ لأنَّ في قوله ﴿يَخْلُقُ﴾ التَّصريحَ بأنَّه مخلوق، فكان هذا قطعًا لدابر قولهم فيه(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٢٣)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢١٥، ٣٧٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٤٩)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٨١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٨١)، وينظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤).

١٣- المرادُ بالآية في قوله: ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ﴾ الجنس لا الفرد؛ لأنَّه تعالى عدَّد هاهنا أنواعًا من الآيات، وهي: إحياءُ الموتى، وإبراءُ الأَكْمَهِ والأبرص، والإخبارُ عن المغيَّبات[١].

١٤- أنَّ ما فُعِل بأمْر الله، فهو حلالٌ مُباحٌ، وإنْ كان نظيرُه بدون أمرٍ حرامًا؛ كما في قوله: ﴿أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ ثمَّ قال: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[٢].

١٥- الإذن في قوله: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ إذنٌ كونيٌّ وشرعيٌّ؛ لأنَّ كونه يُصوِّر مضاهيًا لخَلْق الله يحتاج إلى إذنٍ شرعيٍّ؛ لحرمة التَّصويرِ، وكذلك يحتاج إلى إذنٍ كونيٍّ؛ لأنَّ خَلْق هذا الطيرِ حتَّى يطير يكونُ بإذن اللهِ الكونيِّ، فيطير بإذن الله إذنًا كونيًّا[٣].

١٦- في ذِكر هذه المعجزات تعريضٌ بالنَّصارى، الَّذين جعَلوا منها دليلًا على ألوهيَّة عيسى؛ لعدمِ دُخولِها تحت مقدرةِ البشر، وهذا دليلٌ سُفسطائي، أشار اللهُ إلى كشفِه بقوله: ﴿بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، وقوله: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ مرَّتين[٤].

١٧- جوازُ النَّسخ في الشَّرائع؛ لقوله: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾[٥]، ففيه دلالةٌ على أنَّ عيسى عليه السَّلام نسَخَ بعضَ شريعة التَّوراة، وأنَّ أكثرَ أحكام التَّوراة لم يَنسَخْها الإنجيلُ[٦].

١٨- بيانُ أنَّ طبيعةَ الدِّين تتضمَّنُ تنظيمًا لحياة النَّاس بالتَّشريع دون اقتصارٍ على الجانب التَّهذيبيِّ الأخلاقيِّ وحْدَه، ولا على المشاعرِ الوجدانيَّة وحدها،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٢٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٨٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٨٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٥٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٩٩).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣١).

ولا على العباداتِ والشَّعائر وحْدَها كذلك؛ لذا قال: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾(١).

١٩- في التَّعقيبِ بقوله: ﴿وَلأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ..﴾ بعد قوله: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ تنبيهٌ على أنَّ النَّسخَ لا ينافي التَّصديقَ؛ لأنَّ النَّسخ إعلامٌ بتغيُّر الحُكم(٢).

٢٠- في قوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ جوازُ نِسبة الحُكم إلى مَن بلَّغه وأبانه وأظهره؛ إذ إنَّ الأصلَ في التَّحليل والتَّحريم أنَّه من عندِ الله عزَّ وجلَّ(٣).

٢١- نُصَّ على الطَّاعة في قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ مع أنَّها من التَّقوى؛ وذلك لأنَّ المرادَ هو تقوى خاصَّةٌ فيما جاء به عيسى عليه السلام، كما أنَّ التَّقوى سبيلٌ إلى الاستجابةِ والطَّاعةِ والقَبولِ والانقياد(٤).

٢٢- يُؤخذُ من قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أنَّ الطَّاعة أمرٌ مشترَك بين الرُّسل وبين اللهِ عزَّ وجلَّ، وأمَّا التَّقوى فهي خاصَّةٌ بالله(٥).

٢٣- التَّقوى واجبةٌ في كلِّ شريعة، ولكن المتقَى به قد يختلف باختلاف الشَّرائع(٦).

٢٤- قوله تعالى: ﴿إن الله رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ فيه ردٌّ على النَّصارى الَّذين يؤلِّهون عيسى عليه السَّلام(٧).

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٠٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٥٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٠٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٩٣).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٠٠).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٧) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٩٤).

٢٥- قوله تعالى: ﴿رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ بدأ بنفسِه؛ ليكون أوَّلَ مُذعِنٍ ومنقادٍ لهذا الرَّبِّ عزَّ وجلَّ[1].

٢٦- مَن أقرَّ بربوبيَّةِ الله، لزِمَه أنْ يُقِرَّ بعبوديَّته؛ ولهذا قال: ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾، فأتى بالفاء الدَّالَّة على السَّببيَّة، أي: فبسببِ اختصاصِه بالرُّبوبيَّة يجبُ أنْ تخصُّوه بالعبادةِ[2].

٢٧- في قوله تعالى: ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ لَمَّا كان قوله: ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ قد لا يُلازم الوجاهةَ بعد الموت، قال: ﴿وَالْآخِرَةِ﴾، ولَمَّا كانتِ الوجاهةُ ثَمَّ مختلفةً، ذكَر أعلاها عاطفًا بالواو، إشارةً إلى تمكُّنِه في الصِّفات فقال: ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ أي: عند الله[3].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا﴾ فيه تعظيمٌ لقدْر عيسى عليه السَّلام، وبيانٌ لفَضلِه على يَحيى عليهما السَّلام؛ إذ لَمَّا وصفَه بهذا الوصفِ الشريف ﴿الْمَسِيحُ﴾ ذكَر اسْمَه فقال: ﴿عِيسَى﴾، وفي تَفخيمِ هذا الذِّكر بجَعْلِه نفْسَ الكَلمة وبإبهامِه أولًا ثمَّ تفسيرِه، والتعبيرِ بصِيغة المبالغةِ ﴿وَجِيهًا﴾ للمبالغةِ في وجاهته؛ إذ أصلُ معناه: الوجهُ، وهو الملاحَظُ المحترَمُ بعلوٍّ ظاهر فيه، ثم قال: ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾، أي: عند الله- وفي كلِّ ذلك تعظيمٌ لقدْر عيسى عليه السَّلام وبيانٌ لفَضلِه، ولم يَجعلْ ليحيى عليه السلام في البشارةِ به مِثلَ هذا الذِّكر[4].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٩٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٠١)، ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٢).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٣٩٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٣٩٧-٣٩٨).

٢- قوله تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ فيه إيثارُ التعبير بصيغة المضارع؛ لدلالته على التجدُّد وقتًا فوقتًا. وفيه تطمينٌ لخاطرها بما يخالف العادة، حيث بَشَّر اللهُ مريمَ بأنَّ هذا يَتكلَّم طِفلًا، ويَعيش ويتكلَّم في حال كُهولته. أو بمعنى يُكلِّم الناس كلامَ الأنبياء من غير تفاوتٍ بين الحالتين: حالة الطفولة وحالة الكُهولة؛ فيكون غايةً في الإعجاز[1].

٣- قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾:

- النِّداءُ للتحسُّر (رَبِّ) وليس للخِطاب؛ لأنَّ الذي كَلَّمها هو الـمَلَكُ، وهي قد توجَّهتْ إلى الله[2].

- والاستفهامُ للإنكارِ والتعجُّب، أو للاستبعادِ العادي، أو استفهامٌ عن أنَّه يكون بتزوُّج أو غيره[3]؛ ولذلك أُجيب بجوابينِ؛ أحدهما: ﴿كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾؛ لرَفْع إنكارها، والثاني: ﴿إِذَا قَضَى أَمْرًا...﴾ لرفع تعجُّبها[4].

- وقال هنا: ﴿وَلَد﴾ كما في قول مريم: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾ ولم يقُل: (غلام) كما في قِصَّة زكريا وقوله: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ لاستبعادِ مريمَ لمطلق الحَبَل، لا بقَيدِ كونِه ذَكَرًا، كما في قِصَّة زكريا عليه السلام؛ لذا قالت ﴿وَلَدٌ﴾، وقالت: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾؛ لفَهمها ذلك من نِسبته إليها فقط، والوَلدُ يُطلق على الذَّكر والأنثى، بخلافِ زكريَّا عليه السلام الذي بُشِّر بيحيى عليه السلام[5].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٦٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ١٧٨، ١٨١)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٣١٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤٨).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤٠٠)

٤- قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ...﴾ جوابُ استفهامِها، ولم تُعطفْ هذه الجملةُ على التي قبلها؛ لأنَّها جاءتْ على طريقة المحاورات. وتقديمُ اسمِ الجلالة على الفِعل؛ لإفادةِ تقوِّي الحُكم، وتحقيقِ الخبَرِ[١].

- وصرَّح هاهنا بقوله: ﴿يَخْلُقُ﴾ ولم يقل: (يَفْعَلُ) كما في قِصَّة زكريا؛ لأنَّ أمْر زكريَّا داخلٌ في الإمكانِ العاديِّ الذي يُتعارَف وإنْ قلَّ، وفي قِصَّة مريم قال: ﴿يَخْلُقُ﴾؛ لأنَّه لا يُتعارَف وجودُ ولدٍ من غيرِ والدٍ، فهو إيجادٌ واختراعٌ من غيرِ سببٍ عاديٍّ؛ فلذلك جاءَ بلفظ: ﴿يَخْلُقُ﴾ الدالِّ على هذا المعنى[٢]، فالخَلْقُ المنبِئُ عن الإحداثِ للمُكوَّن أنسبُ بهذا المقام؛ لئلَّا يبقى لمبطِلٍ شُبهةٌ. وأكَّد ذلك بقوله: ﴿إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، أي: من غير تأخُّر، ولا حاجةٍ إلى سبَب[٣].

٥- قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ فيه كنايةٌ حسَنة، حيث كنى بالمسِّ عن الوطء، كما كنَّى عنه: بالحَرْث، واللِّباس، والمباشَرة[٤].

٦- قوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَى أَمْرًا﴾ فيه التعبيرُ عن الجَمْع بالمفرد؛ وسرُّ ذلك- والله أعلم- بيانُ سهولةِ قَضاءِ كلِّ الأمورِ وتكوينها عليه سبحانه، كأنَّ الأمورَ كلَّها عنده كأمرٍ واحد، كما قال تعالى: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨][٥].

٧- قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ﴾ فيه التفاتٌ- على قِراءة (نُعلِّمه) بنون العظمة-

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٥٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٣١٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٧٠).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والالتفاتُ من ضميرِ الغَيبة إلى ضميرِ المتكلِّم المعظِّمِ نفْسَه؛ إيذانًا بالفخامةِ والتَّعظيم(١).

٨- **قوله تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ... وَمُصَدِّقًا ...﴾** فيه إيجازٌ بالحذف؛ فقوله: ومصدِّقًا معطوفٌ عليه، والتقديرُ: (وأبعثُه رسولًا إلى بني إسرائيلَ قائلًا: إنِّي قد جئتكم بآيةٍ، وإنِّي بُعثتُ مصدِّقًا لمَا بينَ يديَّ مِن التَّوراة)؛ وإنما حسُن حذفُ هذه الألفاظ؛ لدلالةِ الكلام عليها(٢).

- وتخصيصُ بني إسرائيل في قوله: ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾؛ لخصوصِ بَعثتِه إليهم، أو للردِّ على مَن زعَم أنَّه مبعوثٌ إلى غيرِهم(٣).

٩- **قوله تعالى: ﴿وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾** فيه تكرارُ قوله: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾؛ دفعًا لتوهُّم الألوهيَّة؛ فإنَّ الإحياء ليس من جِنس الأفعال البشريَّة(٤).

١٠- **قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ﴾، وقوله: ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ﴾، وقوله: ﴿وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾** فيه تكرارُ ذِكر الآيَةِ وإعادتها؛ للتأكيد؛ لأنَّ إخراجَ الإنسانِ عن المألوفِ المعتادِ من قديم الزَّمان عسِرٌ، فأعاد ذِكر المعجزات؛ ليصيرَ كلامُه ناجعًا في قلوبهم، ومؤثِّرًا في طباعهم، وفي هذا التَّكرارِ بيانُ أنَّ الأمورَ المهمَّة- خاصَّةً الخارجةَ عن المألوف المعتادِ- ينبغي تَكرارُها، من أَجْل أنْ يَتبيَّن للمُخاطَبِ أهميَّتُها عند المتكلِّم، وأنَّه ذو عنايةٍ بها، ومن أَجْل أنْ ترسخَ في الذِّهن، وتؤثِّرَ في القلوب(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٧١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٩٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢٣٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٨)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٣٢٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٩١).

١١- **قوله تعالى:** ﴿أَخْلُقُ﴾ ﴿فَأَنْفُخُ﴾ ﴿وَأُبْرِئُ﴾ ﴿وَأُحيِي﴾ ﴿وَأُنَبِّئُكُمْ﴾ أتى بهذه الخوارقِ بلفظِ المضارعِ؛ دلالةً على تجدُّد ذلك كلَّ وقتٍ طُلِب منه، وقَيَّد قوله: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ﴾ بقوله: ﴿بِإِذْنِ اللهِ﴾؛ لأنَّه خارقٌ عظيم، فأتى به دفعًا لتوهُّم الإلهيَّة، ثمَّ قيَّدَ الخارقَ الثَّالثَ ﴿وَأُحْيِ الْمَوْتَى﴾ بقوله: ﴿بِإِذْنِ اللهِ﴾؛ لأنَّه خارقٌ عظيم أيضًا؛ فذَكَر عيسى عليه السَّلام قَيدَ الإذنِ مِن اللهِ ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ في هذَينِ الموضَعينِ؛ لإزالةِ الشُّبهةِ، وتحقيقًا للتَّوحيد، ولرفْعِ توهُّمِ استقلالِه بالفِعلِ في كلِّ آيةٍ أتى بها عِندَ مَن اعتقدَ فيه الإلهيَّة[١].

- ولم يأتِ بهذا القَيدِ ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فيما عُطِف عليه في قوله: ﴿وَأُبْرِئُ﴾، وقوله: ﴿وَأُنَبِّئُكُمْ﴾؛ للتَّنبيهِ على عِظَم ما قبْلَه ﴿أَخْلُقُ﴾ ﴿وَأُحيِي﴾، ودفعًا لوَهمِ مَن يَتوهَّمُ فيه الإلهيَّةَ. وقيل: حُذِفَ القيدُ مِن المعطوفينِ هنا؛ اكتفاءً به في الأوَّل[٢].

١٢- **قوله تعالى:** ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أمرٌ مرادُه التخويفُ لهم؛ لأنَّ طاعة الرسول مِنْ لوازمِ تقوى الله تعالى، فبيَّن أنَّه إذا لزِمَكم أنْ تتَّقوا الله، لزِمَكم أن تُطيعوني فيما آمُرُكم به عن ربِّي[٣].

١٣- **في قوله تعالى:** ﴿وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ تأكيدٌ لقوله الأوَّل: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، وعطف بالواو؛ لأنَّه أُريد أن يكونَ من جملة الأخبار المتقدِّمة، ويحصُل التأكيدُ بمجرَّد تقدُّم مضمونه، فتكون لهذه الجملةِ اعتباران يَجعلانِها بمنزلة جُملتين، وليُبنى عليه التفريعُ بقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٢٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ١٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٨٢).

(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٥٣).

١٤- **قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾** فيه تكرار (رَبِّي وَرَبُّكُمْ)، وهو أبلغُ في الْتزام العبوديَّة من قوله: (ربُّنا)، وأدلُّ على التبرِّي من الربوبيَّة. ومقصودُه إظهارُ الخضوعِ، والاعتراف بالعبوديَّة؛ لكيلا يتقوَّلوا عليه الباطل، فيقولوا: إنَّه إلهٌ، وابنُ إله؛ لأنَّ إقرارَه لله بالعبوديَّة يَمنعُ ما تدَّعيه جُهَّالُ النَّصارى عليه[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٧٠).

الآيات (٥٢ - ٥٨)

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿أَحَسَّ﴾: عَلِم ووجَد، أو رأى وسمِع، والإحساس: العِلم بإحدى الحواسِّ(١).

﴿الْحَوَارِيُّونَ﴾: جمْع حوارِيٍّ، وهمْ أصفياءُ عِيسى عليه السَّلام وشِيعتُه وناصِرُوه، وخُلاصةُ أصحابِه، وشاعَ استعماله في الَّذين خَلَصوا وأَخْلصُوا في التَّصْدِيق بالأنبياءِ ونُصرتِهم؛ قيل: سمُّوا بذلك؛ لأنَّهم كانوا يُحوِّرون الثِّياب، أي: يُبيِّضونها، واشتقاقُهُ من حُرْتُ الثوبَ، أي: أَخْلَصْتُ بياضَه بالغَسْل، ومنه يُقال للدَّقيق الأبيضِ النَّقيِّ: حُوَّارى. وقيل: اشتقاقُه مِن حارَ يحورُ: إذا رجَع، فكأنَّهم الرَّاجعونَ إلى الله، وقيل: هو مُشتَقٌّ مِن نقاء القَلْبِ وخُلوصِه وصِدْقه(٢).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٥)، =

﴿وَمَكَرُوا﴾: المكر: صرْفُ الغيرِ عمَّا يَقصِده بحيلةٍ، وأصل المكر: الاحتيالُ والخِداع(١).

مُشكِلُ الإعراب:

قوله: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ﴾

﴿إِلَى اللهِ﴾: الجارُّ والمجرورُ في مَوضِعِ الحالِ، وتَتعلَّق ﴿إِلَى﴾ بمحذوفٍ، والتقدير: مَن أنصاري مُضافِينَ إلى اللهِ، أو إلى أَنصارِ الله. وقيل: إنَّ ﴿إِلَى﴾ بمعنى اللام، أي: مَنْ أنصاري للهِ، كقوله: ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ [يونس: ٣٥] أي: للحقِّ. وقيل: إنَّ ﴿إِلَى﴾ بمَعْنى (مَعَ)، أي: مَن أنصاري مع اللهِ، وقيل غير ذلك(٢).

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ الله تبارَك وتعالَى أنَّ عيسى عليه السَّلام لَمَّا وجَدَ من بني إسرائيل إعراضًا عن دعوتِه، وعلِم بكُفرهم بنبوَّته، استنصرَ أصحابَه قائلًا: مَن يُعاونني ويَنهضُ معي بالدَّعوة إلى الله ونُصرةِ دِينه، فأجابه صفوةُ أصحابه بأنَّهم أنصارُ دِين الله تبارَك وتعالَى، وأعْلَنوا إيمانهم، وأَشهَدوا عيسى عليه السَّلام على إسلامِهم، ودعَوْا ربَّهم متوسِّلين بإيمانهم بما أنزل، واتِّباعهم لعيسى عليه السَّلام، أنْ يَكتُبَهم مع مَن شهِد له بالوحدانية، ولرُسلِه بالصِّدق، واتَّبَعوا أوامرَه، واجتنَبوا نواهيَه.

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١١٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٢٦٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢٠٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٤).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٢).

(٢) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٢٦٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢٠٧-٢٠٨).

ثمَّ يُخبر تبارَك وتعالَى عن مَكرِ مَن كَفَر بعيسى عليه السَّلام مِن بني إسرائيل وتَمالُئِهم على قَتْله، ومَكْرِه بهم مُقابلةً لمكرهم؛ حيث ألْقى شَبَهَ عيسى عليه السَّلام على رجلٍ آخَرَ، فقتلوه ظانِّين أنَّه هو، فكان مكرُ الله أقوى من مَكرِهم وأشدَّ، ثمَّ يذكر قوله لعيسى، أنَّه متوفِّيه وفاةَ نوم، ورافعُه إليه برُوحه وبدنِه، ومُخرِجه من بين الَّذين كفروا، ومُنجِّيه منهم، وأنَّه سيجعل الَّذين اتَّبعوه فوقَ الَّذين كفروا بالحُجَّة والبرهان، وبالعزَّة والغَلَبةِ إلى يومِ القيامة، وأنَّ إليه المصيرَ والمرجعَ فيَقضي بينهم؛ فالَّذين كفروا يُعذِّبهم عذابًا أليمًا في الدُّنيا والآخرة، أمَّا عذابُ الدُّنيا فما أَقدَرَه عليهم من قتْلٍ وسَبْيٍ وذِلَّة، وضِيقٍ وضنكٍ وغيره! وأمَّا عذابُ الآخرة فبِنَارِ جهنَّم، وليس لهم مَن يَنصرُهم، أو يمنع عنهم العذابَ الأليم.

وأمَّا أهلُ الإيمانِ والعملِ الصالح فأولئك يُوفِّيهم أجْرَهم دون نقْصٍ: في الدُّنيا بالنَّصرِ والتَّمكين، وفي الآخِرَة بالجنَّة والرِّضوان من الله تبارك تعالى، واللهُ لا يحبُّ الظَّالمين؛ فكيف يظلِمُ خَلْقَه؟!

ثمَّ يقول اللهُ لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: إنَّ هذه الأنباء والقصصَ الَّتي أخبر الله بها عن عيسى عليه السَّلام وأمِّه مريم نتلوها عليك- يا محمَّدُ- وهي من العلامات والبراهين الدَّالَّة على صِدقِك ونبوَّتك، ومن القُرْآن المُحكَم المتقَن.

تَفسيرُ الآيات:

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢)﴾.

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾.

أي: فلمَّا وجَد عيسى عليه السَّلام من بني إسرائيل- الَّذين أُرسِل إليهم- التَّكذيبَ به، ورأى الإعراضَ عنه، والجَحْد لنبوَّته، والصَّدَّ عن دعوتِه، قال: مَن

أعواني في الدَّعوة إلى اللهِ، ونُصرةِ دِينه، ومَن يُضيفُ نُصرتَه ويَضمُّها إلى نُصرةِ الله لي[١]؟

﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾.

أي: قال الأنصارُ مِن أصحابِ عيسى عليه السَّلام: نحن أنصارُ دِين الله[٢].

﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

أي: آمنَّا بالله، واشهَدْ- يا عيسى- بأنَّنا مسلِمون[٣].

﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٥٣)﴾.

﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ﴾.

أي: قال الحواريُّون أيضًا: يا ربَّنا، آمنَّا بالإنجيل الَّذي أنزلتَ على عيسى عليه السَّلام[٤].

﴿وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾.

أي: واتَّبعنا رسولَك عيسى عليه السَّلام[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٥٥).
قبل هذه الآيةِ محذوفٌ به يتمُّ اتِّساق الآيات، تقديره: فجاء عيسى عليه السلام كما بَشَّر الله به، فقال جميعَ ما ذُكر لبني إسرائيل، ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ...﴾. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٤٤)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٤٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٤٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٤٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٩٨).

﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾.

أي: أَثبِتْ أسماءَنا مع أسماء الَّذين شهِدوا لك بالوَحْدانيَّة، ولرُسلِك بالصِّدق، ولدِينك بأنَّه الحقُّ، واتَّبَعوا أمرَك ونهيَك- ومنهم أُمَّةُ محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ- فاجعَلْنا في عِدادِهم ومعهم؛ لنفوزَ بمِثْلِ ما فازوا به(١).

﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤)﴾.

﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾.

أي: ومكَر الَّذين كفَروا من بني إسرائيل بعيسى عليه السَّلام، فحاوَلوا قَتْلَه مُتحيِّلين على ذلك، ومَكَر اللهُ بهم؛ فألْقى شَبَهَ عيسى عليه السَّلام على رَجُلٍ آخرَ، فأَخَذوه وقتَلوه، ظنًّا منهم أنَّه عيسى عليه السَّلام(٢).

وبيَّن اللهُ تعالى مكرَهم في قوله: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١٥٧]، وبيَّن مكرَه بهم في قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧]، وقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ الآيةَ (٣)[النساء: ١٥٧-١٥٨].

﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾.

أي: أقواهم في المكرِ بمن يستحقُّ المكرَ، وأعلمُ بالأسبابِ الَّتي تُحيطُ بأعدائِه، وأشدُّ بطشًا، وأنفَذُ إرادةً(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٤٥)، ((التفسير الوسيط)) الواحدي (١/ ٤٤١) ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٢، ٩٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٤٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٤٣) وعزاه لجمهور المفسرين، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين-=

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٥)﴾.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾.

أي: واذكُرْ[1] إذ قال اللهُ لعيسى عليه السَّلام: يا عيسى، إنِّي مُتوفِّيك وفاةَ نومٍ[2].

= سورة آل عمران)) (١/ ٣١٧).

قال ابنُ عاشور: (ويجوز أن يكون معنى ﴿خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾: أنَّ الإملاءَ والاستدراج، الذي يُقدِّره للفجَّار والجبابرة والمنافقين... هو خيرٌ محضٌ لا يترتَّب عليه إلَّا الصَّلاح العام، وإنْ كان يؤذي شخصًا أو أشخاصًا، فهو من هذه الجهة مجرَّدٌ عمَّا في المكر من القُبح؛ ولذلك كانتْ أفعالُه تعالى منزهةً عن الوصف بالقُبح أو الشناعة؛ لأنَّها لا تقارنها الأحوالُ التي بها تقبح بعضُ أفعال العباد من دلالةٍ على سفاهة رأي، أو سوء طويَّة، أو جُبنٍ، أو ضَعْف، أو طَمَع، أو نحو ذلك، أي: فإنْ كان في المكر قُبح، فمكرُ الله خيرٌ محض، ولك على هذا الوجهِ أن تجعل ﴿خَيْرُ﴾ بمعنى التفضيل وبدونه) ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٥٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٥٧)، ويُحتمل أن تكون (إذ) متعلِّقة بالمكر يَعني: ومَكَرَ الله حين قال لعيسى... واختاره ابن جرير في ((تفسيره)) (٥/ ٤٤٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧)، ((تفسير سورة آل عمران)) لابن عثيمين (١/ ٣٣٩).

والقول بأنَّ المراد بالوفاة هنا: النوم، هو اختيارُ الأكثر كما ذكَر ابن كثير.

وممَّن قال بهذا القول من السلف: الربيع. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٤٨).

وقيل: المراد قَبْضُه مِن الأرض حيًّا برُوحه وجسدِه دونَ نومٍ أو موتٍ. وهذا اختيارُ ابن جرير في ((تفسيره)) (٥/ ٤٥٠)، والواحدي في ((الوجيز)) (ص: ٢١٣)، والقرطبي في ((تفسيره)) (٤/ ١٠٠).

وممَّن قال بنحو هذا القولِ من السَّلف: الحسن، ومطر الورَّاق، وابن جريج، ومحمد بن جعفر ابن الزبير، وابن زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٤٨).

وقيل: هذا مِن المقدَّم الذي معناه التَّأخيرُ، والمؤخَّر الذي معناه التقديمُ، والمعنَى: إذ قال اللهُ: يا عيسى إنِّي رافعُك إليَّ ومطهِّرك مِن الذين كفَروا، ومُتوفِّيك بعدَ إنْزالي إيَّاك إلى الدُّنيا. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٥٠).

وقيل غير ذلك. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٣٢-١٣٦).

كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، وقوله: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾.

أي: ورافعُك برُوحِك وبَدَنِك إلى السَّماء(١).

كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٧-١٥٩].

وعن أبي هُرَيرةَ رضي اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم: ((والَّذي نَفْسِي بِيَدِه، لَيُوشِكَنَّ أنْ يَنزِلَ فيكم ابنُ مَرْيَمَ صَلَّى الله عليه وسَلَّم حَكَمًا مُقْسِطًا، فيَكْسِرُ الصَّليبَ، ويَقْتُلُ الخِنزيرَ، ويَضَعُ الجِزْيَةَ، ويَفِيضُ المالُ حتَّى لا يَقْبَلَه أحدٌ))(٢).

﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

أي: مخلِّصُك ممَّن كفرَ بك، ومُخرِجك من بينهم، برفعي إيَّاك إلى السَّماء(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: ١١٠].

﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٢٢). ويُنظر: ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٤/ ٣٢٣).

(٢) رواه البخاري (٢٢٢٢) ومسلم (١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٥٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٢٣).

أي: وجاعلٌ أتباعَك يا عيسى فوق الَّذين كفروا، بالحُجَّةِ والبُرهان، وبالعزَّة والغَلَبة[١].

﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

أي: ثمَّ يومَ القيامة إليَّ مصيرُكم- أيُّها المختلِفون في عيسى عليه السَّلام جميعًا- فأَقضِي بينكم فيما كُنتُم تَختلفونَ فيه مِن أمْرِه عليه السَّلام[٢].

ثمَّ بيَّن الله تعالى حُكمَه فيهم، وما يَفعلُه بهم فقال:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٥٦)﴾.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾.

أي: فأمَّا الَّذين كفروا، فإنِّي أُعذِّبهم عذابًا شديدًا قويًّا في الدُّنيا؛ بالقتلِ والسَّبيِ والذِّلَّة والمسكنةِ، وأَخْذِ الأموال، وما يَحصُل لقلوبهم من الضِّيقِ والضَّنك،

---

(١) قيل: المراد بالأتباع أمة محمد صلى الله عليه وسلم. وهو اختيار ابن جرير في ((تفسيره)) (٥/ ٤٥٣)، والواحدي في ((الوجيز)) (ص: ٢١٣).
وقيل: المرادُ بهم النَّصارى المنتسبون لعيسى عليه السلام إلى أن بَعث الله نبينا محمدًا صلَّى اللهِ عليه وسلم فكان المسلمون هم المتَّبعين لعيسى حقيقةً، فأيَّدهم الله ونصرهم على اليهودِ والنَّصارى وسائرِ الكفَّار. وهذا اختيار السعدي في ((تفسيره)) (ص: ١٣٢)، وابن عاشور في ((تفسيره)) (٣/ ٢٦٠).
وقال ابن عطية: (قال جمهورُ المفسِّرين بعمومِ اللفظ في المتبعين، فيدخلُ في ذلك أُمةُ محمَّد؛ لأنَّها متبعةٌ لعيسى، نصَّ على ذلك قتادة وغيره، وكذلك قالوا بعمومِ اللفظِ في الكافرين، فمقتضِى الآيةِ إعلامُ عيسى عليه السَّلامُ أنَّ أهلَ الإيمان به كما يجبُ هم فوقَ الذين كفروا بالحجَّة والبُرهان وبالعزَّةِ والغلبةِ، ويظهرُ مِن قولِ ابن جُريج وغيرِه أنَّ المرادَ المتبعون له في وقتِ استنصارِه، وهم الحواريون جعلَهم الله فوقَ الكافرين؛ لأنه شَرفهم وأبقَى لهم في الصالحين ذكرًا، فهم فوقهم بالحجَّة والبرهانِ) ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٤٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٥٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٦٠).

والقلَقِ والحسرة، وغير ذلك، وفي الآخرةِ بنارِ جهنَّم[١].

﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾.

أي: وليس لهم أحدٌ يَدفَعُ عنهم العذابَ، ولا يمنَعُ عنهم أليمَ العِقاب، لا من الأهلِ، أو الشُّفعاء، أو الأصدقاء، أو غيرِهم[٢].

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٥٧)﴾.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾.

أي: وأمَّا الَّذين آمنوا وعمِلوا الصَّالحات، فيُتِمُّ لهم جزاءَهم من الثَّواب، دون نَقصٍ أو بَخْسٍ في الدُّنيا والآخرة، في الدُّنيا بالنَّصر والظَّفَر، والإعزاز، والحياة الطَّيِّبة، وحُسن الذِّكر، وغير ذلك، وفي الآخِرة بالجنَّةِ والنَّعيمِ المقيم[٣].

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾.

أي: واللهُ لا يحبُّ مَن ظلَم غيرَه حقًّا له، أو وضَع شيئًا في غير موضعِه، بل يُبغِضهم ويُحِلُّ عليهم غضَبَه وعقابه، فنَفَى اللهُ بذلك عن نفْسِه أنْ يَظلِمَ أحَدًا مِن خلقِه؛ لأنَّه إذا كان لا يحبُّ الظَّالِمين، فكيف يظلِمُ خَلْقَه[٤]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٥٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٢).

﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (٥٨)﴾.

أي: هذه الأنباءُ الَّتي أخبَر اللهُ بها عن عيسى عليه السَّلام وأمِّه مريمَ، وما قصَّه اللهُ من قَصصٍ نقرؤُها عليك- يا محمَّدُ- على لسان جِبريل عليه السَّلام، هذه الأنباءُ والأخبارُ من العلاماتِ والحُجَج الدَّالَّة على صِدقِك ونبوَّتِك، وهي أيضًا من القُرْآن ذي الحِكمةِ؛ فهو مُحكَم مُتقَنٌ وحاكمٌ[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- الإعلامُ بأنَّ الآياتِ الكونيَّة وإنْ كثُرت وعظُمت ليست مُفضِيَةً إلى الإيمان حتمًا، وإنَّما يكونُ الإيمان باستعداد المدعُوِّ إليه، وحُسن بيان الدَّاعي بعد توفيقِ الله تعالى وهدايتِه؛ كما في قوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾[2].

٢- طلبُ النَّصر لإظهارِ الدَّعوة لله، موقفٌ من مواقفِ الرُّسل، وسُنَّةُ اللهِ في أنبيائهِ وأوليائه؛ كما في قولِه: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾[3].

٣- مِن قوله: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ يُؤخذُ أنَّه ينبغي على الدَّاعيَة إذا اشتبه الأمرُ أنْ يَطلُبَ المخلِصين، وأنْ ينتدبَ الصَّفوةَ من القوم[4].

٤- لا بدَّ لحصول النَّصرِ مِن تحصيلِ سببِه، كما هي سُنَّة الله[5]؛ كما في قول عيسى عليه السلام: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٥٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٩٧)، و((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٠٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٥٥).

٥- لا بدَّ لكلِّ صاحبِ عقيدة ودعوةٍ مِن أنصارٍ ينهَضون معه، ويحمِلون دعوتَه، ويُحامون دونها، ويُبلِّغونها إلى مَن يَليهم، ويقومون بعده عليها(١).

٦- النَّصر لا يستلزم القتالَ؛ فالعملُ بالدِّين، والدَّعوةُ إليه نصرٌ له(٢).

٧- في قولِ الحواريِّين: ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ بيانُ أنَّهم انخلَعوا وانفصَلوا من التَّقاليد السَّابقة، وأخَذوا بالتَّعليم الجديد، وسيَبذُلون مُنتهَى الاستطاعةِ في تأييده؛ فالنَّصر للهِ لا يكونُ إلَّا بذلك(٣).

٨- يُؤخذُ من قوله تعالى: ﴿وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أنَّ إشهادَ الإنسانِ على نفسِه بالإيمان أو بالإسلام أو ما أَشْبَه ذلك لا يُعَدُّ مِن الرِّياء، لا سيَّما في الأتْباع؛ لأنَّ في ذلك فائدةً، وهي تقويةُ المتبوع(٤).

٩- في توجُّههم لعقدِ البَيعةِ مع الله مباشرةً لَفْتَةٌ قيِّمة، وهي أنَّ عهدَ المؤمن هو ابتداءً مع ربِّه، ومتى قام الرَّسولُ بإبلاغه، فقد انتهتْ مَهمَّةُ الرَّسول من ناحيةِ الاعتقاد، وانعقدتِ البَيْعةُ مع الله(٥).

١٠- في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ﴾ بيانُ أنَّه يجبُ أنْ يكونَ الإيمانُ شاملًا لكلِّ ما أنزَل الله(٦).

١١- على المرءِ أنْ يُعلِنَ اتِّباعه للرَّسولِ بين أئمَّة الكفر؛ كيلَا يداهنَ في دِين

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٠١- ٤٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٥٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٠٨).

(٥) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٠٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣١٢).

الله؛ فالمداهنة في دِين الله والتَّقيَّةُ نِفاق في الواقع[١]؛ كما في قوله: ﴿وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾.

١٢- في ذِكر الاتِّباع بعد الإيمان في قوله تعالى حِكايةً عن الحواريِّين: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾، بيانُ أنَّ العِلم الصَّحيح يستلزِم العملَ، والعِلم الَّذي لا أثرَ له في العمل يُشبِهُ أنْ يكونَ مجمَلًا وناقصًا لا يقينًا وإيمانًا، وكثيرًا ما يظنُّ الإنسانُ أنَّه عالمٌ بشيء، حتَّى إذا حاول العملَ به لم يُحسِنْه، فيتبيَّن له أنَّه كان مخطئًا في دعوى العِلم، فالعِلم بالشَّيء يظلُّ مجمَلًا مبهَمًا في النَّفس حتَّى يعمل به صاحبُه، فيكون بالعمل تفصيليًّا، فذِكر الحواريِّين الاتِّباعَ بعد الإيمان يفيد أنَّ إيمانهم كان في مرتبةِ اليقين التَّفصيليِّ، الحاكم على النَّفس، المصرِّف لها في العمل[٢].

١٣- يُؤخذُ من قوله تعالى: ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ الحرصُ على صُحبةِ الأخيار[٣].

١٤- في قوله تعالى: ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ بيانُ أنَّ المسلمَ المؤمن بدِين الله لا بدَّ أنْ يؤدِّيَ شَهادةً لهذا الدِّين تؤيِّد حقَّه في البقاء، وتؤيِّد الخيرَ الَّذي يحملُه هذا الدِّين للبشر.. وهو لا يُؤدِّيها حتَّى يَجعلَ من نفْسه صورةً حيَّةً لهذا الدِّين، ويَجعل منه قاعدةَ حياتِه، ونظامَ مجتمعِه، وشريعةَ نفسِه وقومِه[٤].

١٥- المكرُ في مقامِ المكرِ مَدْحٌ، وصفةُ كمالٍ، وهو حَسَنٌ إذا كان على وجهِ المقابلةِ لا على وجهِ الظُّلم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٥٨، ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣١٥).

(٤) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٠٢).

الْمَاكِرِينَ﴾، والمكرُ في غيرِ موضعِه صفةُ نقْصٍ؛ لأنَّ المكرَ في غيرِ مَوضعِه خيانةٌ، والخيانةُ صفَةُ ذمٍّ(١).

١٦- يَنبغي أنْ يُذكِّر الإنسانُ النَّاسَ بأحوال الأنبياء السابقين؛ لِما في ذلك من محبَّتِهم، والثَّناءِ عليهم، ومعرفةِ أحوالهم، وإبقاءِ ذِكراهم، وغير ذلك مِن المصالحِ العظيمة؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى﴾ أي: واذكُرْ إذ قال الله(٢).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ فيه تنبيهٌ أنَّه ظَهَر منهم الكُفْرُ ظهورًا بان للحِسِّ، فضلًا عن التَّفهُّم(٣).

٢- قال: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾، ولم يقل: مَن أنصاري في الله؛ ليكون النَّصرُ مَبنيًّا على الإخلاص؛ لأنَّ (إلى) للغايةِ، فيُريد أنْ يكونَ نصرًا موصلًا إلى اللهِ عزَّ وجلَّ(٤).

٣- لَمَّا كان المقصودُ ثباتَ الأنصار معه إلى أنْ يتمَّ أمرُه، عبَّر عن ذلك بصلةٍ دلَّت على تضمينِ هذه الكلمةِ كلمةً توافقُ الصِّلة فقال: ﴿إِلَى﴾ أي: سائرينَ أو واصلين معي بنَصرِهم إلى ﴿اللَّهِ﴾ أي: الملِكِ الأعظمِ(٥).

٤- قوله: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا﴾ فيه التَّوسُّلُ إلى الله تعالى بربوبيَّتِه؛ لأنَّ الرُّبوبيَّة تدورُ على ثلاثةِ أشياء، وهي: الخَلْق، والمُلْك، والتَّدبير، وإجابة الدُّعاءِ تدخل في

---

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٣/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٣٣٧).

(٣) يُنظر: ((بصائر ذوي التميز)) للفيروز آبادي (٢/ ١٥٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٠٣).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤١٧).

هذه الثَّلاثة؛ فلذلك كان كثيرًا ما يتوسَّل الدعاةُ إلى الله بالربوبيَّة(١).

٥- حُسن الاحتراز في قول الحواريِّين: ﴿بِمَا أَنْزَلْتَ﴾، ولم يُطلقوا الإيمانَ مَثَلًا بالتَّوراة؛ لأنَّ التَّوراة الَّتي بأيدي اليهود محرَّفةٌ مبدَّلة(٢)

٦- في قوله: ﴿آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾ قوله: ﴿بِمَا أَنْزَلْتَ﴾ عامٌّ، وهو دليلٌ على وجوب الإيمانِ بكلِّ ما أنزل اللهُ مِن كتاب، وأمَّا الاتِّباع فيكونُ للرَّسول الخاصِّ الَّذي أُرسِل إليك؛ لقوله: ﴿وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾ وهو خاصٌّ(٣).

٧- أنَّه إذا كان هناك وَصفانِ، وكان أحدُ الوصفينِ أخصَّ من الآخرِ بالعمل أو بالحال الَّتي أنت فيها؛ فإنَّ الأَولى أنْ تأخذَ بالأخصِّ؛ لقوله: ﴿الرَّسُولَ﴾؛ لأنَّ الرَّسول مرسَلٌ إلينا، ولم يقولوا: (واتَّبَعْنا النَّبيَّ)(٤).

٨- في قوله: ﴿وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ دليلٌ على أنَّ الإسلامَ دِينُ اللهِ على لسان كلِّ نبيٍّ، وإنِ اختلفوا في بعض صُوَرِه وأشكاله، وأحكامه وأعماله(٥)؛ فهو دِينُ الله الَّذي ابتعَث به عيسى عليه السَّلام والأنبياءَ قبله، لا النَّصرانيَّة، ولا اليهوديَّة(٦).

٩- في قوله تعالى: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ دليلٌ على عُلوِّ الله تعالى حقيقةً(٧)، وعلى أنَّ اللهَ تعالى ليس في خَلقِه، ولا خَلْقُه فيه، جلَّ وعزَّ، وتعالى عمَّا يقولُ الظَّالِمونَ علوًّا كبيرًا(٨).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣١٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣١٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٥٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٤٤).

(٧) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٢).

(٨) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ٢٢٦).

١٠- في قوله تعالى: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ دلالة على أنَّ عيسى عليه السَّلام في السَّماء حيٌّ[١].

١١- ذَوو الهِمَم العالية يشتدُّ اهتمامُهم بما يكون عليه خلائفُهم بعدهم من الأحوال؛ لذا بشَّر اللهُ تعالى عيسى عليه السلام في ذلك بما يسُرُّه، فقال: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ...﴾[٢].

١٢- في قوله: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ بِشارةٌ بأنَّ المسلمين لا يَزالون فوق النَّصارى إلى يوم القِيامة، ولكن هذا مقيَّدٌ باتِّباع شَرْع الله تعالى؛ فبَقدْرِ اتِّباعهم تكون الفوقيَّة؛ فإنَّ المسلمين هم أتْباعُ المُرسَلين في الحقيقة، وأتْباع جميعِ الأنبياء، لا أعداؤُهم، وأعداؤُهم هم عُبَّادُ الصَّليب[٣].

١٣- في قوله: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ منَّةُ الله سبحانه وتعالى على عِبادِه؛ حيث جعَل هذا الجزاءَ كالأجور اللازِم وفاؤُها[٤].

١٤- أشار في قوله: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾ بأداة البُعد؛ تنبيهًا على عُلوِّ منزلتِه، ورفيعِ قدْرِه[٥].

١٥- في وصْفِ القُرْآن بالحَكيم دليلٌ على أنَّه لا يوجَدُ حُكمٌ دلَّ عليه القُرْآنُ إلَّا وهو في موضعِه اللَّائق به؛ إذ إنَّ الحكيمَ هو الَّذي يضعُ الشَّيءَ في مواضعِه[٦].

---

(١) قال ابنُ عطية: (أجمعت الأمَّة على ما تَضمَّنه الحديث المتواتِر من أنَّ عيسى عليه السلام في السماء حيٌّ، وأنه ينزل في آخِر الزمان فيَقتُل الخِنزير، ويَكسِر الصَّليبَ، ويقتُل الدجَّال)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٤٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤٢١).

(٣) يُنظر: ((هداية الحيارى)) لابن القيِّم (١/ ٣٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٤٧).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤٢٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٥٠).

١٦- في قوله: ﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾ فضيلةُ الرَّسول عليه الصلاة والسَّلام، فخصَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالتِّلاوة عليه؛ لأنَّه أشرفُ مَن يتلقَّى القُرْآن، وأقومُ النَّاس عملًا به، فكأنَّه هو المخصوصُ بالتِّلاوة عليه ﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾(١).

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- **قوله تعالى:** ﴿إِلَى اللهِ﴾ فيه إيجازٌ بالحذفِ، والتقدير: (مَن أنصاري حال التِجائي إلى الله)، أو (مَن أنصاري إلى أنْ أُبيِّن أمر الله) (سائرينَ أو واصلين معي بنَصرِهم إلى اللَّهِ) وقيل غير ذلك (٢).

٢- **في قوله تعالى:** ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ﴾ نداءٌ غرضُه التضرُّع إلى الله عزَّ وجلَّ، والعرْضُ لحالهم عليه تعالى بَعدَ عرضِها على الرَّسول؛ مبالغةً في إظهار أمرِهم(٣).

٣- **قوله تعالى:** ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ فيه تأكيدُ الأمْر بعدَ إشهادِهم عيسى عليه السَّلام على إسلامِ أنفسِهم، حيث قالوا: ﴿وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، فأَشْهَدوا اللهَ تعالى على ذلك أيضًا تأكيدًا للأمْر، وتقويةً له، وأيضًا طَلبوا من الله مِثلَ ثواب كلِّ مؤمِن شهِد لله بالتوحيدِ، ولأنبيائه بالنُّبوَّة(٤).

٤- **في قوله سبحانه:** ﴿واللهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ﴾ إظهارُ الجلالةِ (الله) في موقعِ الإضمار؛ لتربيةِ المهابة، ولأنَّ المقامَ لزيادةِ العظَمة، ولئلَّا يُفهَم الإضمارُ خصوصًا من جهةٍ ما، والجملةُ تذييلٌ مقرِّرٌ لمضمونِ ما قبله(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٥٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢٣٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤١٧)..
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٤٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢٣٥).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٤٣).

٥- في قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ (ثمَّ) للتراخي الرُّتبي؛ لأنَّ الجزاءَ الحاصلَ عند مرجِع الناس إلى الله يومِ القِيامة- مع ما يُقارنه من الحُكم بين الفريقينِ فيما اختلفوا فيه- أعظمُ درجةً، وأهمُّ من جَعْل متَّبعي عيسى فوقَ الذين كفروا في الدُّنيا. وعلى حمْل الخِطاب في هذه الآية للنبيِّ محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم والمسلمين، لا لعيسى عليه السَّلام ومَن معه، فتكون (ثمَّ) للانتقال من غرَض إلى غرَض؛ زيادةً على التراخِي الرُّتبي، والتَّراخي الزَّمني[1].

- وفيه تقديمُ الجارِّ والمجرورِ؛ للقصرِ المفيدِ لتأكيدِ الوعدِ والوعيد[2].

- وعلى القولِ بأنَّ الضَّمير في ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ لعيسى عليه الصَّلاة والسَّلام وغيرِه من المتَّبعين له والكافرين به، يكونُ فيه تَغليبُ المخاطَب على الغائِبِ في ضِمنِ الالتفاتِ؛ فلو جاء النَّظمُ على السِّياق من غير التفات لكان: (ثم إليَّ مرجعهم فأحكُم بينهم فيما كانوا)، ولكنَّه التفتَ إلى الخِطاب؛ لأنَّه أبلغُ في البشارة، وأزجرُ في النَّذارة[3].

٦- قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ...﴾ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا...﴾ فيه تفصيلٌ لِمَا أُجمِل في قوله: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾[4]. ففيه تفسيرٌ للحُكم الواقعِ بين الفريقين، وتفصيلٌ لكيفيته. والبدايةُ ببيانِ حالِ الكفرة؛ لأنَّ مساقَ الكلامِ لتهديدهم وزجرِهم عمَّا هُم عليهِ من الكُفر والعِناد[5].

٧- قوله تعالى: ﴿وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ تذييلٌ للتفصيل كلِّه؛ فهو تذييلٌ ثانٍ لجملة ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ بصريحِ معناها، أي: أعذِّبهم؛ لأنَّهم ظالمون،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٦٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٤٤).
(٣) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٤٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٦٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٤٤).

والله لا يحب الظالمين، وتذييل لجملة ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا...﴾، بكناية معناها؛ لأنَّ انتفاءَ محبَّة الله الظالمين يستلزمُ أنَّه يحبُّ الذين آمنوا وعمِلوا الصالحات؛ فلذلك يُعطيهم ثوابهم وافيًا[1].

٨- **في قوله:** ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ﴾ **وقوله:** ﴿فَيُوَفِّيهِمْ﴾ تنوُّعٌ في الأسلوب، وهو الانتقالُ من ضميرِ التَّكلُّم إلى ضميرِ الغَيْبة، وفي تغييرِ الأسلوب فائدتانِ: لفظيَّةٌ، وهي الالتفاتُ الَّذي يوجب الانتباهَ، ومعنويَّةٌ، وهي إظهارُ السُّلطة والعَظَمة والعزَّة في باب التَّعذيب، وإظهارُ الفضل والإحسان للعامِلين في باب المَثُوبة[2].

- وعلى قِراءة (فنُوفِّيهم) بالمتكلم وحْدَه المعظِّمِ نفْسَه، يكون ذلك اعتناءً بالمؤمنين، ورفعًا من شأنِهم؛ لَمَّا كانوا مُعظَّمين عنده[3].

٩- **في قوله تعالى:** ﴿ذَلِكَ﴾ الإشارة بـ(ذلك) إلى ما سلَف من نبأ عيسى عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، وما فيه من معنى البُعد؛ للدَّلالة على عِظَم شأنِ المُشارِ إليهِ، ورِفعة قدْره، وبُعْد منزلتِه في الشَّرف، وعلى كونِه في ظهور الأمرِ ونباهةِ الشأن بمنزلةِ المشاهَد المعايَن[4].

١٠- **قوله تعالى:** ﴿نَتْلُوهُ﴾ يحتمل أنْ يكونَ فيه التفاتٌ من غَيبة إلى تكلُّم؛ لأنَّه قد تقدَّمه اسمٌ ظاهر، وهو قوله: ﴿وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾. ويحتمل أن يكون- ﴿وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ جِيء بها اعتراضًا بين أبعاضِ هذه القِصَّة، فلا يكون فيه التفاتٌ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٤٨). ويُنظر أيضًا: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢١٦).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٤٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٩١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢١٨).

الآيات (٥٩ - ٦٣)

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ ﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿الْمُمْتَرِين﴾: أي الشَّاكِّين، والـمِرْية: التَّردُّد في الأمر، وهي أخصُّ من الشَّكِّ(١).

﴿نَبْتَهِلْ﴾: أي: نتداعَ باللَّعْن، أو نلتعِن؛ يقال: عليه بهلةُ الله، وبَهلْتُه، أي: لعنتُه، وأصل (البَهْل): كونُ الشيءِ غيرَ مراعًى، والبَهْل والابتهال في الدُّعاء: الاسترسالُ فيه والتَّضرُّع(٢).

﴿الْقَصَصُ﴾: الأخبارُ المتتبَّعة، والأثَرُ، وأصْل القصِّ: تتبُّعُ الأثَرِ أو الشَّيء(٣).

مُشكِلُ الإعراب:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾

﴿كَمَثَلِ﴾: الكافُ حرْف تَشبيه. و(مَثَلِ) مجرورة، وهي هنا بمعنى الحالِ والشأن، أي: إنَّ شأنَ عيسى وحالَه الغريبة كشأنِ آدَم، وقيل: إنَّ المَثَل بمعنى

---

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٧، ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣١١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٥).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٥).

الصِّفة؛ وقول: صِفةُ عيسى كصِفةِ آدَم كلامٌ مُطَّرد. وقيل غير ذلك.

﴿خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ﴾: جملةٌ مفسرةٌ لوجهِ التَّشبيه بين المَثَلين، لا محلَّ لها من الإعراب؛ فهي خبرٌ مستأنَفٌ على جِهةِ التَّفسير لحالِ آدَمَ عليه السَّلام، كقولِك: كمَثَلِ زيد- تريد أنَّك تُشْبهه في فِعْلٍ ثم تخبرُ بقصَّة زيد، فتقول:- فعَل كذا وكذا. وقيل غير ذلك.

﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾: ﴿فَيَكُونُ﴾ مرفوعٌ على الاستئنافِ، أي: فهو يكون، ويجوزُ أَنْ يكونَ ﴿فَيَكُونُ﴾ على بابِه مِنْ كونِه مستقبلًا، والمعنى: فيكونُ كما يأمرُ الله، فيكونُ حكايةً للحالِ التي يكونُ عليها آدم، ويجوز أن يكون ﴿فَيَكُونُ﴾ بمعنى (فكان)؛ لأنَّ الخبرَ عن أمر آدمَ تناهَى عند قوله: ﴿كُنْ﴾، وكلمة ﴿فَيَكُونُ﴾ خبرٌ لمبتدأ، أي: واعلم- يا محمَّد- أن ما قال له ربُّك: كُنْ، فهو كائنٌ[1].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُقيم اللهُ تعالى الحُجَّةَ على النَّصارى الَّذي عبَدوا عيسى عليه السَّلام بدَعْوى أنَّه لا أبَ له، فيُشبِّهُ خَلْقَ عيسى عليه السَّلام حينَ خلَقه من غير أبٍ بخَلْق آدمَ حين خلَقه من ترابٍ بلا أبٍ ولا أمٍّ، ثمَّ قال له: كُنْ، فكان، فخَلْقُ عيسى بلا أبٍ ليس بأعجبَ مِن خَلْق آدمَ.

ثمَّ يقول اللهُ لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: إنَّ هذا القولَ الَّذي أخبرتُك به، وقَصصتُه عليك، من أمرِ عيسى- هو الحقُّ مِن عند ربِّك، فلا تكُنْ من الشَّاكِّين، فمَن جادَلك وخاصمَك في عيسى بعدَ ما جاءَك من العِلم والبيان في شأنه، فقُلْ للَّذين يُحاجُّونك: هلمُّوا ندعُ أبناءَنا وأبناءَكم، وزوجاتِنا وزوجاتِكم، وإيَّانا وإيَّاكم، ثمَّ نلتعِنْ فنَجعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الكاذِبِينَ منَّا ومنكم.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٦٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢١٨- ٢٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٦٤).

ثمَّ قال الله تعالى لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: إنَّ هذا الَّذي قصَصْناه عليك- يا محمَّدُ- في شأنِ عيسى وخبرِه هو الحقُّ البيِّن، وكلُّ ما خالَفه وناقضه فباطلٌ، ولا معبود يستحقُّ العبادةَ بحقٍّ إلَّا اللهُ العزيزُ الحكيم.

فإن أعرَض هؤلاء، وتولَّوا عن الحقِّ، ومالوا إلى الباطِلِ، فهم المفسِدون، واللهُ عليمٌ بهم، وسيُجازيهم على ذلك.

تَفسيرُ الآيات:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٥٩)﴾.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾.

أي: إنَّ شَبَهَ عيسى في خَلْق اللهِ له من غيرِ أبٍ كشَبَهِ آدمَ[1].

﴿خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

أي: خلَق آدمَ من ترابٍ بلا أبٍ ولا أمٍّ، ثمَّ قال له: كُنْ، فكان، فليس خَلْقُ اللهِ عيسى بلا أبٍ بأعجَبَ مِن خَلْق آدمَ؛ فكيف يَستنكِرُ وجودَ عيسى من غيرِ أبٍ، مَن يُقرُّ بوجود آدمَ من غير أبٍ[2]؟!

﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠)﴾.

﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾.

أي: هذا القولُ الَّذي أنبأتُك به مِن خبرِ عيسى هو الحقُّ مِن عند ربِّك[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٥٩)، ويُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٩)، ويُنظر: ((أعلام الموقعين)) لابن القيِّم (١/ ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٥٣).

﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾.

أي: فلا تكُنْ من الشَّاكِّين في شيءٍ ممَّا أخبرك به ربُّك[١].

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٦١)﴾.

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ﴾.

أي: فمَن جادَلك- يا محمَّدُ- في المسيحِ عيسى ابنِ مريم[٢].

﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾.

أي: مِن بعدِ ما جاءَك من العِلم الَّذي قد بيَّنْتُه لك أنَّ عيسى عليه السَّلام عبدُ اللهِ ورسولُه[٣].

﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾.

أي: فقُلْ لهم: هلمُّوا وأقبِلوا، ولندعُ أبناءَنا وأبناءَكم، وزوجاتِنا وزوجاتِكم، وإيَّانا وإيَّاكم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٦٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٣).
قال ابن عثيمين: (والمراد بالمحاجَّة في عيسى ليس في ذاته؛ لأنَّ عيسى معلوم أنه بشَر، لكن في شأنه وقضيته)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٥٥).
وجائزٌ أنْ تكون لفظة ﴿فِيهِ﴾ في قوله: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ﴾ عائدةً على الحقِّ الذي قال تعالى ذِكرُه: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٦٥)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٦٥).
قال ابن عاشور: (والنساء: الأزواج لا محالةَ، وهو إطلاقٌ معروفٌ عند العربِ إذا أُضيف =

عن سعدِ بنِ أبي وقَّاص قال: ((لما نزلتْ هذه الآيةُ: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦١] دعا رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم عليًّا وفاطمةَ وحسنًا وحُسينًا، فقال: اللهمَّ هؤلاء أهلي))(١).

﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾.

أي: ثمَّ نلتعِنْ، فنَجعَلْ لَعْنَةَ اللهِ وعقوبتَه على الكاذِبينَ منَّا ومنكم(٢).

عن حذيفةَ قال: ((جاء العاقبُ والسَّيدُ صاحبا نَجْران إلى رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلم يريدان أن يلاعناه، قال: فقال أحدُهما لصاحبِه: لا تفعلْ، فوالله لئنْ كان نبيًّا فلاعنَّا لا نُفْلح نحن، ولا عقِبُنا مِن بعدِنا. قالا: إنَّا نُعطيكَ ما سألْتَنا، وابعثْ معنا رجلًا أمينًا، ولا تبعثْ معنا إلَّا أمينًا. فقال: لأبعثنَّ معكم رجلًا أمينًا حقَّ أمينٍ. فاستشرفَ له أصحابُ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال: قمْ يا أبا عبيدةَ بنَ الجرَّاح. فلمَّا قام قال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم : هذا أمينُ هذه الأُمَّةِ))(٣).

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٢)﴾.

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾.

= لفظ النساء إلى واحدٍ أو جماعة دون ما إذا ورد غيرَ مضاف، قال تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾... والأنفسُ أنفسُ المتكلِّمين وأنفس المخاطبين، أي: وإيَّانا وإيَّاكم)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٦٦).

(١) رواه مسلم (٢٤٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٣).

قال ابنُ تيمية: (من المتواتر أنَّ نصارى نجران قدِموا على النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، ودعاهم إلى المباهلة المذكورة في سورة آل عمران، فأقرُّوا بالجزية ولم يُباهلوه، وصدْرُ آل عمران نزَل بسببِ ما جرَى؛ ولهذا عامَّتُها في أمْر المسيح)، ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ٣٧٧).

(٣) رواه البخاري (٤٣٨٠) ومسلم (٢٤٢٠).

أي: إنَّ هذا الَّذي قصَصْناه عليك من أمرِ عيسى عليه السَّلام، وأنَّه عبدٌ لله ورسوله، هو القَصَصُ الحقُّ، والصِّدْقُ، وما خالَفه فهو باطلٌ[(١)].

﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾.

أي: وما من معبود بحقٍّ إلَّا اللهُ؛ فهو الَّذي لا تنبغي العبادةُ إلَّا له[(٢)].

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

أي: وإنَّ اللهَ هو الَّذي لا يُغلَب؛ فهو الَّذي قهَر كلَّ شيءٍ وخضع له، ذو الحكمةِ فهو الحاكمُ، ولا حاكمَ غيره، والمُحكِم أي المُتقِنُ لِما حكَم به[(٣)].

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (٦٣)﴾.

أي: فإنْ أعرَضوا عن الإقرار بالتَّوحيد، وأنَّ عيسى عبدُ الله ورسولُه، وعدَلوا عن الحقِّ إلى الباطل، فهُمُ المفسِدون، واللهُ عليمٌ بهم، ويُجازيهم على ذلك شرَّ الجزاء، ويُعاقبُهم أشدَّ العُقوبة[(٤)].

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- كلُّ مَن تولَّى عن دِين الله فهو مُفسدٌ، ولو زعَم أنَّه مصلِحٌ؛ كما في قوله:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٦٠).

قال ابن عثيمين: (﴿الْقَصَصُ﴾... يحتملُ أن يكونَ مصدرًا بمعنى الفعلِ، ويحتملُ أن يكونَ مصدرًا بمعنى اسمِ المفعولِ أي: إنَّ هذا لهو المقصوصُ الحقُّ، وسواء قُلنا بهذا أو بهذا فالمؤدَّى واحدٌ).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٣).

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾[(١)].

٢- واجبُنا نحوَ أحكام الله الكونيَّة والشَّرعيَّة التَّسليم والرِّضا والقناعة، وألَّا نطلُبَ سواها؛ لأنَّنا نعلَمُ أنَّها مبنيَّةٌ على الحِكمة[(٢)]؛ وذلك يؤخذُ من قوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- إقامةُ الحُجَّة بمِثل ما يَحتجُّ به الخَصم؛ لأنَّه أقام الحُجَّة على النَّصارى بمِثْل ما احتَجُّوا به؛ كما في قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾[(٣)].

٢- قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾، إنْ قال قائلٌ: كيف شُبِّه عيسى بآدم وقدْ وُجِد هو مِن غيرِ أبٍ، ووُجِد آدَمُ من غير أبٍ وأمٍّ؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: أنَّ التَّشبيهَ إنَّما هو في الحالةِ الخارجةِ عن المألوف؛ فقد شُبِّه به لأنَّه وُجِد وجودًا خارجًا عن العادة المستمرَّة، وهما في ذلك نظيران.

الثاني: أنَّ المماثلةَ هي مشاركةٌ في بعض الأوصافِ؛ فعيسى عليه السَّلام مَثيلُ آدَمَ عليه السَّلام في إحْدى الطَّرفين؛ فلا يمنعُ اختصاصُ آدم عليه السَّلام دونه بالطَّرَفِ الآخَرِ من تشبيهه به.

الثالث: أنَّ الوجودَ من غير أب وأمٍّ أغربُ وأخرقُ للعادة من الوجودِ بغير أبٍ، فشُبِّه الغريبُ بالأغربِ؛ ليكونَ أقطعَ للخَصمِ، وأحسمَ لمادَّة شُبهتِه، إذا نظَر فيما هو أغربُ ممَّا استغربَه[(٤)]؛ ففي قولِه تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٦٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٦٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٨٥)، ((تفسير الشربيني)) =

كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ...﴾ ردٌّ على مَن يدَّعي أُلوهيَّة عيسى عليه السَّلام، فإذا كانوا يقولون: عيسى ابنُ الله- تعالى اللهُ عن ذلك-؛ لأنَّه وُلِد بلا أبٍ، فأَوْلى منه بذلك آدَمُ عليه السَّلام؛ لأنَّه خُلِق بلا أبٍ ولا أمٍّ؛ فإذا لم يكُن آدمُ إلهًا أو ابنَ إلهٍ، فعيسى ليسَ كذلك مِن باب أَوْلى[1].

٣- في قوله: ﴿كَمَثَلِ آدَمَ﴾ إثباتُ القياسِ، وكلُّ مَثَل مضروبٍ في القُرْآن، فإنَّه دليلٌ على ثبوت القياس؛ لأنَّه إلحاقُ الـمُورَدِ بالمضروبِ[2].

٤- قال تعالى: ﴿خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾، المقولِ له: ﴿كُن﴾ هو آدَمُ عليه السَّلام؛ وإنَّما قال: ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ بعدَ أنْ ذكَر أنَّه ﴿خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ﴾- وإنْ كان الترتيبُ الزمنيُّ يَقتضي أن يقول له: ﴿كُن﴾ قبل أنْ يَخلقه لا بعده-؛ لأنَّه خلقَه قالبًا مِن ترابٍ، ثم قال له: كُنْ بَشَرًا. وقيل: الآية ليس فيها ترتيبٌ زمنيٌّ لهذه الأفعال، وإنَّما أخبرَنا اللهُ تعالى أولًا أنَّه خَلَقَ آدمَ مِن غيرِ ذَكَرٍ ولا أُنثى، ثم ابتدأَ خبرًا آخَرَ، أرادَ أنْ يُخبِرَنا به فقال: إنِّي مُخبِرُكم أيضًا بعد خَبَرِي الأوَّل أنِّي قلتُ له: ﴿كُن﴾ فكان، فجاءَ بـ﴿ثُمَّ﴾ لمعنى الخبرِ الذي تقدَّم، والخبرِ الذي تأخَّر في الذِّكر؛ لأنَّ الخَلْقَ تقدَّم على قولِه: ﴿كُن﴾[3].

= (١/ ٢٢١)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٦٤).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٥٢).

والعربُ تضربُ الأمثالَ لبيان ما خَفِي معناه ودقَّ إيضاحُه؛ فلمَّا خفِي سرُّ ولادة عيسى من غير أب- لأنَّه خالف المعروف- ضرَب الله المَثَل بآدَمَ- الذي استقرَّ في الأذهان، وعُلِم أنه أُوجِد من غيرِ أب ولا أم- كذلك خَلْقُ عيسى بلا أبٍ. ولا بدَّ من مشاركة معنويَّة بين مَن ضُرِب به المَثَل وبين من ضُرِبَ له المَثَل، من وجهٍ واحدٍ أو من وجوهٍ، ولا يُشترطُ الاشتراكُ في سائرِ الصِّفات. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢٢٠- ٢٢١).

٥- في إضافةِ الرُّبوبيَّة إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في قوله: ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ فضيلةٌ له؛ لأنَّ الرُّبوبيَّة هذه خاصَّةٌ، والرُّبوبيَّة الخاصَّةُ تُفيد معنًى أخصَّ من الرُّبوبيَّة العامَّة(١).

٦- في قوله: ﴿فَلاَ تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ نهيُه عن الامتراء- وجلَّ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يكون ممتريًا- من باب التَّهييج لزيادة الثَّباتِ والطُّمأنينة(٢).

٧- في قوله: ﴿فَلاَ تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ قاعدةٌ شريفة، وهي أنَّ ما قامت الأدلَّةُ على أنَّه حقٌّ، وجزَم به العبدُ من مسائلِ العقائد وغيرها، وجَب الجزمُ بأنَّ كلَّ ما عارَضه باطلٌ، وكلَّ شُبهة تُورَدُ عليه فاسدة، سواءٌ قدَر العبدُ على حلِّها أو لا؛ لأنَّ ما خالَف الحقَّ فهو باطلٌ(٣).

٨- جواز المخاطبة بالتَّعريض؛ لأنَّ قوله: ﴿فَلاَ تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾، لا يعني أنَّ الرَّسول يمكن أنْ يكونَ منهم، بل هو تعريضٌ بهؤلاء، وأنَّهم ذَوو خُلُق سيِّئ(٤).

٩- قوله: ﴿مِنْ بَعْدِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾، يدلُّ على أنَّ هناك مهلةً بين العِلم الَّذي جاءه وبين المُحاجَّة الَّتي وقَعَت، بخلاف لو قال: (فمن حاجك فيه بعدما جاءك)، فإنَّها تفيد البَعديَّة، لكن لا تدلُّ على التَّراخي والمباعدة، ومعلوم أنَّ الإنسانَ كلَّما تمعَّن في النَّظر فيما علِم، ازداد به عِلمًا ويقينًا(٥).

١٠- في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾، جواز

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٥٤).
(٢) يُنظر: ((الكشاف)) للزمخشري (١/ ٣٦٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٥٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٥٥).

طلَب المباهلةِ عند عنادِ الخَصْم؛ وذلك مقيَّد بأنْ تكونَ بعِلم يقينيٍّ، أمَّا إذا كان الإنسان شاكًّا فلا يجوزُ له(١).

١١- في قوله سبحانه: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾، جمَعَ في الملاعنةِ الأبناءَ والنِّساء؛ لأنَّه لَمَّا ظهَرَتْ مُكابرتُهم في الحقِّ وحبُّ الدُّنيا، عُلِم أنَّ مَن هذه صفتُه يكونُ أهلُه ونساؤُه أحبَّ إليه من الحقِّ(٢).

١٢- في قوله: ﴿فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ جوازُ الدُّعاء باللَّعن على مَن خالَف الحقَّ، لكن بالوصفِ لا بالشَّخص؛ لأنَّ الكاذبين وصفٌ(٣).

١٣- من شروط المباهَلة أنْ تكونَ في أمرٍ مهمٍّ، أمَّا الأمور الَّتي ليست مهمَّةً، فلا ينبغي للإنسان أنْ يُعرِّض نفسَه للخطَر، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ الآية(٤).

١٤- في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ إبطالٌ لإلهيَّة المسيح على حسَب اعتقادِ المخاطَبين من النَّصارى؛ فإنَّهم زعَموا أنَّ اليهودَ قتَلَتْه؛ وذلك ذِلَّةٌ وعجزٌ لا يَلتئمان مع الإلهيَّة، فكيف يكون إلهًا وهو غيرُ عزيزٍ، وهو محكومٌ عليه؟ وهو أيضًا إبطالٌ لإلهيَّته على اعتقادِنا؛ لأنَّه كان محتاجًا لإنقاذِه من أيدي الظَّالمين(٥).

١٥- يُؤخذُ من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أنَّ كلَّ عزيزٍ إذا اقترَن في عزَّتِه الحكمةُ والحُكم، كملَتْ عِزَّتُه(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٥٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٦٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٥٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٥٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٦٧).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٦١).

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ مَن جَعَل ﴿مَثَلَ﴾ هنا مرادفًا لـ(مِثْل)، كالشَّبَهِ وَالشِّبْهِ، جعَل الجمْعَ بين أداتي تَشبيهٍ على طريقِ التَّأكيد للشبه، والتَّنبيه على عِظَم خطَرِه وقَدْره(١).

٢- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾:

- (ثُمَّ) للتراخي الرُّتبي؛ فإنَّ تكوينَه بأمْر (كن) أرفعُ رتبةً مِن (خلْقِه من تراب)، وهو أسبقُ في الوجودِ والتكوين المشارِ إليه بـ﴿كُنْ﴾: هو تكوينُه على الصِّفة المقصودة؛ ولذلك لم يقُل: (كوَّنه من تراب)، ولم يقل: (قال له كن من تراب، ثم أحياه)، بل قال: ﴿خَلَقَه﴾ ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ﴾(٢).

- وعبَّر بقوله: ﴿فَيَكُونُ﴾ مع كونِه أمرًا قد مضَى، ولم يقل: (فكان)؛ لأنَّ معنى ﴿فَيَكُونُ﴾ فكان، أي: فهو كائنٌ؛ فاسْتُغنى بدَلالةِ الكلام على المعنى وقيل: ﴿فَيَكُونُ﴾، فعطف بالمستقبلِ على الماضي على ذلك المعنى(٣). وقيل: عبَّر بالمضارِع عن الماضي لاستحضارِ صورة تكوُّنه، ولا يُحمل المضارعُ في مِثل هذا إلَّا على هذا المعنى، مِثل قوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾(٤) [فاطر: ٩].

- والإشارةُ بصيغةِ الافتعالِ ﴿الْمُمْتَرِينَ﴾ إلى أنَّه لا يَشكُّ فيه بعدَ هذا إلَّا مَن أمعن الفِكرَ في شُبه يُثيرها، وأوهامٍ يُزاولها(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٨٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٦٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٦٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢٢٠- ٢٢١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٦٤).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤٢٨).

٣- قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ أتى بـ﴿ثُمَّ﴾ هنا تنبيهًا لهم على خِطابهم في مباهلتِه، كأنَّه يقول لهم: لا تَعْجَلوا وتأنَّوْا؛ لعلَّه أنْ يَظهرَ لكم الحقُّ؛ فلذلك أتى بحرف التَّراخي، وللإشارة أيضًا إلى خَطرِ الأمْرِ، وأنَّه ممَّا يَنبغي الاهتمامُ به، والتَّروِّي له، وإمعانُ النَّظرِ فيه؛ لوخامةِ العاقبةِ، وسُوءِ المُنقلَبِ للكاذبِ[(١)].

٤- قوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ فيه التنبيهُ بـ(ها) والإشارة (ذا) في قوله ﴿هَذَا﴾، والجمعُ بين حرفي التأكيد (إنَّ واللام)، والفَصْل في قوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾[(٢)]؛ فأُكِّد الخبرُ بثلاثة مؤكِّدات؛ لأنَّ المقامَ يَقتضي هذا، فمِن بلاغة الكلام أن يكون مطابقًا للواقع، أو موافقًا لمقتضى الحال[(٣)].

٥- قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللهُ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾:

- قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللهُ﴾: فيه تأكيدُ النَّفي؛ بـ(ما) و(إلَّا)، وذلك أقوى صِيَغ الحَصْر؛ للمبالغةِ في أنَّه لا إلهَ إلَّا اللهُ الواحدُ الحقُّ سبحانه وتعالى[(٤)].

- وصرَّح فيه بـ(مِن) الاستغراقيَّة؛ تأكيدًا للردِّ على النَّصارى في تثليثهم. ودخولها- (مِن)- بعد حرْف النَّفي؛ للتَّنصيصِ على قَصْد نفيِ الجِنس؛ لتدلَّ الجملةُ على التوحيد، ونفْي الشريكِ بالصَّراحة، ودَلالة المطابقة، وأنْ ليس المرادُ نفيَ الوحدة عن غيرِ الله، فيُوهِم أنَّه قد يكونُ إلَاهانِ أو أكثر في شقٍّ آخَر، وإنْ كان هذا يؤول إلى نفْي الشريك، لكن بدلالة الالتزام[(٥)].

- وفي قوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ﴾: تَكرارُ اسم الله تعالى[(٦)]،

---

(١) يُنظر: ((الدر المصون)) (٣/ ٢٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢٥٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٦٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٠٤).

وإظهارُه في موضِع الإضمار- حيث لم يقُلْ: (وإنه)-؛ لتربيةِ المهابةِ، ولتأكيدِ معنى الألوهيَّة(١).

- وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾: فيه- مع التأكيد بـ(إنَّ)، واسميَّة الجملة- إشارةٌ إلى الجواب عن شُبهات النَّصارى(٢).

- والضميرُ في قولِه: ﴿لَهُوَ القَصَصُ﴾ ضميرُ فصلٍ، ودخلتْ عليه لامُ الابتداءِ؛ لزيادةِ التقويةِ التي أفادَها ضميرُ الفصلِ؛ لأنَّ اللام وحْدَها مفيدةٌ تقويةَ الخبرِ، وضميرَ الفصلِ يُفيد القصرَ، أي: هذا القَصصُ لا ما تَقصُّه كتُبُ النصارى وعقائدُهم(٣).

٦- **في قوله تعالى:** ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ في الكلامِ التفاتٌ؛ إذ فيه انتقالٌ من خِطابٍ إلى غَيبة- هذا على القولِ بأنَّ الفِعل (تَوَلَّوا) ماضيًا، وأمَّا على القول بأنَّه مضارعٌ أصله (تَتولَّوا) وأُدغمتْ إحْدى التاءين في الأخرى، فليس فيه التِفاتٌ(٤).

٧- **في قوله:** ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ وضعُ الظَّاهر موضعَ المُضمَر؛ ليدلَّ على أنَّ التَّولِّيَ عن الحُجَج والإعراض عن التَّوحيد إفسادٌ للدِّين والاعتقاد، المؤدِّي إلى فساد النَّفس، بل وإلى فسادِ العالَم(٥)، ومن فوائده أيضًا: انطباقُ الوصْفِ في هذا المظهَر على مَن يعودُ عليه، ومنها العموم؛ لأنَّه لو جاء الضَّميرُ هنا حسَب السِّياق، فإنَّ اللهَ عليمٌ بهم، لاختصَّ العِلم بهم وحدهم، لكن إذا قال: ﴿بِالْمُفْسِدِينَ﴾ صارَ عامًّا فيهم وفي غيرِهم(٦).

---

(١) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٤٦٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢٥١).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٦٧).
(٤) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢٣٠- ٢٣١).
(٥) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢٢٣).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٦٧).

الآيات (٦٤ - ٦٨)

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿سَوَاءٍ﴾: أي: عدْل، ونَصَفة، وسواءُ كلِّ شيءٍ: وَسَطُه. وأصله: الاستقامةُ والاعتدالُ(١).

﴿حَنِيفًا﴾: أي: مُستقيمًا، أو مائلًا إلى الدِّين المُستقيم، والحَنَفُ: مَيلٌ عن الضَّلال إلى الاستقامة، وأصْله: ميلٌ في إبهامَي القَدمين، كلٌّ واحدةٍ على صاحبتِها، والأحنف: مَن في رِجْلِه مَيلٌ؛ قيل: سُمِّي بذلك على التَّفاؤل(٢).

مُشكِلُ الإعراب:

قوله: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ...﴾

﴿هَا﴾: للتَّنبيهِ. و﴿أَنْتُمْ﴾: في محلِّ رفْع مبتدأ. و﴿هَؤُلَاءِ﴾: في محلِّ رفْع

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٩١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٦).

خبَر، وعلى هذا فجملةُ ﴿حَاجَجْتُمْ﴾ في محلِّ نصْب حال، والعاملُ في الحالِ اسمُ الإشارةِ؛ لِمَا فيه مِن معنى الفِعْل. وقيل: إنَّ ﴿هَؤُلَاءِ﴾ خبرٌ لكِن على تقديرِ حذْفِ مضافٍ، تقديرُه: ها أنتم مِثْلُ هؤلاءِ، وجملة ﴿حَاجَجْتُمْ﴾ في محلِّ نصْب حال أيضًا، لكن العامِل في الحالِ معنى التشبيه، المستفادِ مِن (مِثْل) المحذوفةِ، ويلزَمُ منه الإشارةُ إلى غائبين؛ لأنَّ المرادَ بهم أسلافُهم على هذا، وقد يُقال: إنه نَزَّل الغائِبَ مَنْزِلَةَ الحاضرِ. وقيل: إنَّ جملة ﴿حَاجَجْتُمْ﴾ مستأنفةٌ مبيِّنةٌ للجملةِ قبلها، أي: أنتم هؤلاء الأشخاص الحمقى، وبيانُ حماقتِكم وقلةِ عقولكم أنَّكم جادلتم فيما لكم به عِلم بما نَطَقَ به التوراة والإنجيل، فلِمَ تُحاجون فيما ليس لكم به علم؟! وقيل: إنَّه منادَى حُذِف منه حرْف النِّداء، والتقديرُ: يا هؤلاءِ[1]، وخبرُ ﴿أَنْتُمْ﴾ حينئذٍ جملةُ ﴿حَاجَجْتُمْ﴾. وقيل غيرُ ذلك في توجيهِ هذه الآية الكريمة[2].

المَعنَى الإجماليُّ:

يأمُر اللهُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يدعوَ أهلَ الكتابِ إلى كَلمةِ عدل، يستوي فيها الجميعُ، ويَجتمعون عليها، وهي كلمةُ التَّوحيد، وإفرادِ الله بالعبوديَّة، وعدمِ الإشراكِ معه غيرَه، وعدمِ اتِّخاذ أربابٍ يُعبَدون من دون الله، أو يُطاعون في تحليل ما حرَّم اللهُ، أو تحريم ما أحلَّ اللهُ؛ فإنْ أعرضوا فأَشْهِدوهم- أيُّها المؤمنون- أنَّكم مُسلِمون، مستمرُّون على هذا الدِّين الَّذي شرَعه الله وارتضاه لكم.

---

(١) وهذا الوجهُ فيه الفصْل بالنِّداء بينَ المبتدأِ وخبرِه، وهذا لا يُجيزه جمهورُ البصريين. يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١/ ٤٧٦).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٠٢ - ١٠٣، ٢٠٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٨٦، ٢٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١٠٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١/ ٤٧٤ - ٤٧٨) و(٣/ ٢٤٠ - ٢٤٢).

ثمَّ يُوجِّه اللهُ خِطابَه لأهل الكتاب من اليهود والنَّصارى، حيث يقول لهم: يا أهلَ الكتاب، من اليهود والنَّصارى، لِمَ تُخاصِمون في إبراهيم عليه السَّلام، ويدَّعي كلُّ فريقٍ منكم أنَّه كان يَدينُ بدِينه، وفي حقيقةِ الأمْر أنَّ التَّوراة والإنجيل ما أُنزلت إلَّا بعد موتِه بزمنٍ، أفلا تعقلون أنَّ ما تقولونه باطلٌ؟!

فها أنتم خاصمتُم فيما تَعلمونه مِن أمْرِ دِينكم، وما جاء ذِكْره في كُتبكم؛ فلماذا الجدالُ والمُماراة فيما لم يَصِلْكم عِلمُه من شأنِ إبراهيمَ الخليلِ ودِينه الَّذي كان عليه؟! واللهُ قد أحاطَ عِلمُه بكلِّ شيءٍ ممَّا خَفِيَ عنكم علمُه، أمَّا أنتم فلا تعلمون ما يَعلمُه الله.

ثم يُبيِّن الله لهم الحقيقةَ الواضحةَ من أمْر إبراهيم، حيثُ نفَى الله عنه أن يكونَ يهوديًّا أو نَصرانيًّا، بل أَثبتَ أنَّه كان حنيفًا مستقيمًا، مُتَّبِعًا لأمْر الله، مُخلِصًا له، كما أنَّه لم يكُن من المشركين، الذين يَعكُفون على عبادةِ الأصنام وغيرِها.

ثمَّ يذكُر اللهُ بعد ذلك الطائفةَ الَّتي هي أحقُّ النَّاس بإبراهيم ووَلايتِه ونُصرتِه، فبيَّن أنَّهم مَن اتَّبع دِينَه، وسلَك طريقَه، ومنهم محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والَّذين آمنوا به مِن أصحابِه ومَنْ بعدَهم، فهؤلاءِ أحقُّ بولايتِه، واللهُ يتولَّى المؤمنين، ويُؤيِّدهم وينصُرهم على مَن عاداهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا نَكَصَ أهلُ الكتاب عن المباهلة بعد أنْ أَوْرَدَ عليهم أنواعَ الحُجج فانقطعوا،

فلم تبقَ لهم شُبهةٌ، وقَبِلوا الصَّغارَ والجزية، وكان صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حريصًا على هداية الخَلق- أمَره الله تعالى أن يقومَ بتكرير دَعوتهم، وإرشادِهم بطريقٍ أخفَّ ممَّا مضى، بأنْ يُؤْنِسَهم فيما يدعوهم إليه بالمؤاساةِ، فيدعو دُعاءً يشملُ المحاجِّين من النَّصارى وغيرِهم- ممَّن له كتابٌ من اليهود وغيرهم- إلى الكلمةِ الَّتي قامت البراهين على حقيَّتها، ونهضت الدَّلائل على صِدقها، على وجهٍ يتضمَّن نفْيَ ما قد يُتَخَيَّلُ من إرادة التفضُّل عليهم والاختصاصِ بأمرٍ دونهم؛ وذلك أنَّه بدأ بمباشرةِ ما دعاهم إليه، ورَضِيَ لهم ما رَضِيَ لنفْسه، وما اجتمعتْ عليه الكتُبُ، واتَّفقت عليه الرُّسلُ، فقال تعالى[(١)]:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾.

أي: قل- يا محمَّدُ- لأهل الكِتابِ من اليهود والنَّصارى: يا أهلَ الكتاب، هَلُمُّوا وأَقْبِلُوا إلى كلمةِ عدْل نستوي- نحن وأنتم- فيها[(٢)].

ثمَّ فسَّر هذه الكلمةَ بقوله:

﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ﴾.

أي: نوحِّد الله، ونُفرِده بالعبادة[(٣)].

﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾.

أي: لا نُشرِكُ بالله شيئًا؛ لا نبيًّا، ولا مَلَكًا، ولا وَلِيًّا، ولا صنمًا، ولا وَثَنًا، ولا

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤٤٦- ٤٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٧٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٥).

ومِمَّن قال بأنَّ ﴿كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾ تعني: كلمة عدل من السَّلف: ابنُ عبَّاس، وقتادةُ، والرَّبيع. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٧٨)، ((الدر المنثور في التفسير بالمأثور)) للسيوطي (٢/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٦٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٣).

حيوانًا، ولا جمادًا، ولا غير ذلك(١).

فهذه دعوةُ الرُّسل- كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال أيضًا: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.

أي: ولا يُنْزِلُ بعضُنا بعضًا منزلةَ الرُّبوبيَّة؛ فيُعبد، أو يُسجَد له، أو يُطاع في تحليل ما حرَّم الله، أو تحليل ما أحلَّ الله(٢).

كما قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [التوبة: ٣١].

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

أي: فإنْ أعْرَضوا عن إجابة ما دُعُوا إليه فقولوا- أيُّها المؤمنون- لهؤلاء المعرِضين: اشهدوا أنَّنا مُستمرُّون على الإسلام، منقادون لشريعتِه، مقرُّون بتوحيد الله، مُخلِصون في عبادتِه(٣).

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٥)﴾.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٦)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٧٤، ٤٨٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١٠٧).

أي: يا أهلَ الكتاب، من اليَهود والنَّصارى، لِمَ تجادلون وتخاصمون في إبراهيمَ خليلِ الرَّحمن، ويدَّعي كلُّ فريقٍ منكم أنَّه كان منهم، ويَدِينُ دِينهم(١).

كما قال تعالى مُبيِّنًا وَجْهَ مُحاجَّتِهم في إبراهيم: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ﴾، وكما قال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾.

ثمَّ يُقِيمُ الحُجَّة الداحِضة لدعواهم، والدَّليل المبطِل لقولهم، فيقول:

﴿وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ﴾.

أي: كيف تَدَّعُونَ- أيُّها اليهود- أنَّه كان يهوديًّا، وأيُّها النَّصارى- أنَّه كان نصرانيًّا، وما أُنْزِلَت التَّوراة ولا الإنجيل إلَّا بعد موته بزمن. واليهوديَّةُ ما حَدَثَتْ إلَّا بعد نزول التَّوراة، ولا حدَثت النصرانيَّة إلَّا بعد نزول الإنجيل(٢)؟!

ولَمَّا كان الدَّليل عقليًّا، قال الله مُوَبِّخًا لهم(٣):

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

أي: أفلا تَعقِلون بُطْلانَ قولكم؟! فلو عَقَلتم ما تقولون، لم تقولوا ذلك(٤).

﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٦٦)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٨٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٧٨). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٨٣).

﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾.

أي: ها أنتُم- يا هؤلاء- جادلتُم وخاصَمتُم فيما لكم به عِلمٌ من أمْر دِينكم ممَّا وجدتموه في كُتُبكم[١].

﴿فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾.

أي: فلِمَ تُجادلون وتُخاصِمون في الَّذي لا عِلمَ لكم به من أمْر إبراهيم، وما كان عليه مِن الدِّين[٢]؟!

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

أي: واللهُ يعلمُ ما غاب عنكم، ولم يَأتِكم عِلمُه عن طريقِ رُسله من أمْر إبراهيم عليه السَّلام وغيره من الأمور، وأنتُم لا تعلمونَ ما يَعلمُه اللهُ مِن هذا وغيرِه[٣].

كما قال تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ﴾.

ثم يُقرِّر الله تعالى ما كان عليه إبراهيمُ عليه السَّلام من الدِّين، فيقول:

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧)﴾.

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾.

أي: لم يكُن إبراهيمُ عليه السَّلام يَهوديًّا على ملَّة اليهود، ولا نصرانيًّا على ملَّة النَّصارى[٤].

---

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٨٢). يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٨٥).

﴿وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾.

أي: ولكن كان إبراهيمُ عليه السَّلام مستقيمًا، مُتَّبِعًا لأمْر الله، مُخْلِصًا له، قد خشَع لله قلبُه، وانقادتْ له جوارحُه، والتزم بأحكامِه[1].

﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

أي: لم يكُن إبراهيمُ عليه السَّلام من المشركين، الَّذين يَعبُدون غيرَ الله من الأصنام وغيرها[2].

﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨)﴾.

﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾.

أي: إنَّ أحقَّ النَّاسِ بإبراهيمَ وولايتِه ونُصرتِه، وأقربَهم إليه، هم الَّذين اتَّبعوه على دِينِه وملَّته، وسلكوا طريقَه[3].

﴿وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾.

أي: ومحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، والَّذين آمنوا به مِن أصحابِه؛ ومَنْ بعدَهم[4].

﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: والله ناصرُ المؤمنين، ومُعِينُهم، ومؤيِّدهم[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٨٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية ٢٨/ ٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٨٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٤).

(٥) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٨)، ((تفسير =

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- يُؤخَذ من قوله: ﴿اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أنَّه ينبغي للمسلم أن يَعتزَّ بدِينه، وأن يُعلنه ويُشْهِرَه، خِلافًا لضعفاء الشَّخصية، الَّذين يتستَّرون بدِينهم مخافةَ أن يُعَيِّرهم النَّاسُ به[١].

٢- في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾، عُلِّقَت الولايةُ بالإيمان، والحُكم المُعَلَّقُ بوصف يَزدادُ قوَّةً بقوَّة هذا الوصف فيه، وعليه فكلَّما كان الإنسانُ أقوى وأكمل إيمانًا، كانت ولايةُ الله له أتمَّ وأخصَّ وأكملَ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- إذا صدَّر اللهُ تعالى الشَّيء بـ﴿قُلْ﴾ الموَجَّه للرسول صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فإنَّه يَقتضي زيادةَ العناية به؛ لأنَّه أُمِرَ بأنْ يُبلِّغَ هذا الشيءَ بخصوصِه[٣].

٢- الكلمة تُطْلَقُ على الجملة المفيدة كما في قوله: ﴿إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾، ثمَّ قال: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا...﴾[٤].

٣- في قوله: ﴿سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ تنزُّل مع الخَصْم لإلزامه بالحقِّ، فمعلومٌ أنَّ الحقَّ مع الرَّسول صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، لكن من أجل إلزام الخَصْم وإقامة الحجة عليه تنزَّل معه[٥].

٤- يُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا

= السعدي)) (ص: ١٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٧٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٩٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٦٩).

وَبَيْنَكُمْ﴾ أنَّه يجبُ العدلُ في المناظرة حتَّى مع العدوِّ الكافر، وإذا كان هذا واجبًا في مناظرةِ المسلمين مع الكفَّار، فهو في مناظرةِ المسلمين بعضِهم مع بعضٍ أوجبُ وأوكَدُ[١].

٥- في قوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ذَكَر ثلاثةَ أشياء: أولها: ألَّا نعبُد إلَّا الله. وثانيها: ألَّا نُشركَ به شيئًا. وثالثها: ألَّا يتَّخِذ بعضُنا بعضًا أربابًا من دون اللهِ، وإنَّما ذَكَر هذه الثلاثة؛ لأنَّ النَّصارى جمَعوا بين هذه الثلاثة[٢].

٦- في قوله: ﴿بَعْضُنَا بَعْضًا﴾ بيانُ أنَّ البعضيَّة تُنافي الإلهيَّة؛ إذ هي تماثُلٌ في البشريَّة، وما كان مِثلَك استحال أن يكون إلهًا[٣].

٧- في قوله: ﴿أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ﴾ دليلٌ على بُطلان القول بالاستحسانِ المجرَّد الَّذي لا يَستنِد إلى دليلٍ شرعيٍّ، وبُطلانِ القولِ بوجوب قَبُول قولِ الإمام دون إبانةِ مُستنَدٍ شرعي، كما ذهَب إليه الرَّوافض[٤].

٨- لَمَّا كان التَّوجُّهُ إلى غيرِ الله خِلافَ ما تدْعو إليه الفِطرة الأولى، عبَّر بصيغة الافتعال فقال: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا﴾[٥].

٩- في قوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أنَّ الحكم بين النَّاس والعبادة مُقترِنان؛ لأنَّ الله قَرَنَ بينهما،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٥٢)، ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١٠٦).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤٤٧).

ولأنَّك لن تعبُدَ الله إلَّا بشريعتِه، إذنْ يلزم أنْ يكون المشرِّعُ هو المعبودَ، ولا ينبغي لأحد أن يُشَرِّعَ من دونه(١).

١٠- الإشهادُ في قوله: ﴿اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ للتَّسجيل عليهم؛ لئلَّا يُظهروا إعراضَ المسلمينَ عن الاسترسالِ في مُحاجَّتهم في صورةِ العجزِ والتَّسليم بأحقيَّة ما عليه أهلُ الكتاب(٢).

١١- إشهادُ الخَصم على الحال الَّتي يكون عليها خَصمُه؛ لِمَا في ذلك من الغضاضةِ عليه، وكسْر جَبروته، وعدمِ انقيادِه للحقِّ، كما في قوله: ﴿اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(٣).

١٢- قَوْلُهُ: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ يتضمَّن الإسلامَ والإيمانَ العمليَّ، الذي هو تجريدُ القَصْدِ بالحُبِّ والخَوفِ والرَّجاءِ، والتوكُّلِ والإنابةِ، والاستعانةِ والاستغاثةِ، والعبوديَّةِ بالقَلْبِ واللِّسانِ والجوارحِ لله وحْدَه(٤).

١٣- الحثُّ على تعلُّم عِلم التاريخ، وأنَّه طريق لردِّ كثير من الأقوال الباطلة والدَّعاوى الَّتي تخالف ما عُلِمَ من التاريخ، كما جاءت الإشارة في قوله: ﴿وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاة وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ﴾(٥).

١٤- في قوله: ﴿لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٧٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٦٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٧٥).
(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٣٦٨)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٤٠٢- ٤٠٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٤).

مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ بيانٌ للاحتجاج بالعقل؛ وإشادةٌ به، وأنَّه لا ينبغي إهمالُ العقل في الاستدلال، وأنَّه لا يَحْمِلُ صاحبَه إلَّا على السَّداد والصَّواب، لكن لا ينبغي الاعتمادُ عليه بالكلِّيَّة، وتركُ النَّصِّ[1].

١٥- الهدفُ من ادِّعاءات أهل الكتاب احتكارُ عهدِ الله مع إبراهيم عليه السَّلام أنْ يَجعَلَ في بيته النُّبوَّةَ، واحتكارُ الهداية والفَضل، وتكذيبُ دعوى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه على دِين إبراهيم، وأنَّ المسلمين هم ورثةُ الحنيفيَّة الأولى، وتشكيكُ المسلمين في هذه الحقيقة، أو بثُّ الرِّيبةِ في نفوسِ بعضِهم على الأقلِّ[2].

١٦- في قوله: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ...﴾: تنزُّلٌ مع الخصم، يعني: لو فرضْنا أنَّ المحاجَّة قُبِلَتْ منكم فيما لكم به علمٌ، فإنَّها لا تُقْبَلُ منكم فيما ليس لكم به علمٌ[3].

١٧- إقرارُ الإنسان على المحاجَّة بالعِلم، ولكن بشَرْط أنْ يكون قصْدُه حسنًا، بحيث يُريدُ من المجادلةِ الوصولَ إلى الحقِّ، فيُثبت الحقَّ، ويُبطِل الباطلَ[4].

١٨- قوله تعالى: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ فيه النَّهيُ عن الجَدَل بغيرِ عِلمٍ[5].

١٩- في الآية دليلٌ على أنَّ الأولويات تختلف، أي: إنَّ النَّاس يتفاضلون بالأولويَّة والولاية؛ لقوله: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ﴾، و﴿أَوْلَى﴾ اسم تفضيل يدلُّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٧٨، ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٨٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٨٤).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ٣٠٩).

على المفضَّل والمفضَّل عليه، ولا شكَّ أنَّ الولاية درجات[١].

٢٠- عطف ﴿النَّبِيُّ﴾ على الَّذين اتَّبعوا إبراهيم؛ للاهتمامِ به وتعظيمِه[٢].

٢١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ولم يَقُل: (وَلِيُّهم)؛ تنبيهًا أنَّ مُوالاةَ اللهِ تعالى تُستَحَقُّ بالإيمانِ، وأنَّها ليست بمقصورةٍ على من تقدَّمَ ذِكْرُهم، بل ذلك لكُلِّ مؤمنٍ في كلِّ وقتٍ[٣].

بَلاغَةُ الآيات:

١- قوله تعالى: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الأفعالُ الدَّاخلُ عليها أداةُ النَّفي (أَلَّا نَعْبُدَ - وَلَا نُشْرِكَ - وَلَا يَتَّخِذَ...) مُتقارِبةٌ في المعنى، يُؤكِّد بعضُها بعضًا؛ إذ اختصاصُ الله بالعبادة يتضمَّن نفْيَ الاشتراك، ونفْيَ اتخاذِ الأربابِ من دون الله، ولكن الموضِع مَوضِعُ تأكيدٍ وإسهابٍ ونشْرِ كلام[٤].

- وقوله: ﴿أَلَّا نَعبُدَ إلَّا اللهَ﴾ ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾: فيه تَكرار اسم الله تعالى[٥]، وإظهاره في موضِع الإضمار؛ لتربية المهابة، ولتأكيد معنى الألوهيَّة.

٢- قوله: ﴿اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ عبَّر عن العِلم بالشَّهادة؛ وذلك على سبيلِ المبالغة، إذ خرَج ذلك من حيِّز المعقول إلى حَيِّز المشهود، وهو المحضَر في الحسِّ[٦].

٣- قوله سبحانه: ﴿لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾، ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ..﴾، ﴿إِنَّ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٣٩٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٧٧).
(٣) ((تفسير الراغب الأصفهاني)) (٢/ ٦٢٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٩٦).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٠٤).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١٩٦).

﴿أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ﴾: فيه تكرارٌ[١]؛ حيث تكرَّر اسم الخليل إبراهيم عليه السَّلام ثلاثَ مرَّات في ثلاث آيات؛ للتشريفِ وللتنويهِ بشأنِه، ولإظهارِ علوِّ مقامِه.

٤- قوله تعالى: ﴿فَلِمَ تُحَاجُّونَ﴾ استفهامٌ مقصودٌ منه التنبيهُ على الغَلَط[٢].

٥- قوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾:

- فيه مناسبةٌ حسَنةٌ، حيثُ بدأ بالنَّفي قبلَ الإثبات؛ للإشارة إلى (التخلية قبل التحلية)، وهو ترتيبٌ موافِقٌ للطبيعة؛ لأنَّك تُخْلِي الشيءَ ممَّا يَشِينُه أوَّلًا، ثمَّ تضيفُ ما يكون به الكمالُ ثانيًا[٣].

- وبدأ بنَفْي اليهوديَّة قبل النصرانيَّة في قوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾؛ لأنَّ شريعةَ اليهود أقدمُ من شريعة النَّصارى، وكرَّر ﴿لَا﴾، لتأكيدِ النَّفي عن كلِّ واحدٍ من الدِّينَيْنِ[٤].

- ووقعتْ ﴿لَكِنْ﴾ في قوله: ﴿وَلَكِنْ كَانَ حنيفًا مسلمًا﴾ في أحسنِ موقعِها؛ إذ هي واقعةٌ بين النَّقيضينِ بالنِّسبة إلى اعتقادِ الحقِّ والباطل[٥]، وأفادَ الاستدراكُ بعدَ نفْي الضِّدِّ حَصْرًا لحالِ إبراهيمَ فيما يوافق أصولَ الإسلام؛ ولذلك بيَّن ﴿حنيفًا﴾ بقوله: ﴿مُسْلِمًا﴾؛ لأنَّهم يَعرِفون معنى الحنيفيَّة ولا يُؤمنون بالإسلام؛ فأَعْلَمَهم أنَّ الإسلامَ هو الحنيفيَّة[٦].

٦- قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾ فيه استدراكٌ بعد نفْي الضدِّ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٠٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٧٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٨٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٠١).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٧٥).

حصرًا لحال إبراهيمَ فيما يُوافِق أصولَ الإسلام؛ ولذلك بيَّن ﴿حَنِيفًا﴾ بقوله: ﴿مُسْلِمًا﴾؛ لأنَّهم يَعرِفون معنى الحنيفيَّة، ولا يُؤمنون بالإسلامِ، فأعْلَمَهم أنَّ الإسلام هو الحنيفيَّة[١].

- وفيه: قصْرٌ إضافيٌّ بالنسبةِ لليهوديَّة والنصرانيَّة، حيث كان العربُ يَزعُمون أنَّهم على ملَّةِ إبراهيم، لكنَّهم مشركون[٢].

٧- **قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾** فيه تعريضٌ بأنَّهم مشركون بقولهم: ﴿عزيرٌ ابنُ اللهِ﴾، و﴿المَسِيحُ ابنُ اللهِ﴾، وردٌّ لادِّعاء المشركين أنَّهم على ملَّةِ إبراهيمَ عليه الصَّلاة والسَّلام. وخصَّ بالنَّفْي مَن عُرفوا بالشِّركِ مع الصلاحِ لكلِّ مَن داخَلَه شِرْكٌ من غيرهم، كمَن أشركَ بعُزيرٍ والمسيحِ عليهما الصَّلاة والسَّلام، فقال: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٣].

٨- **قوله: ﴿وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾** تذييلٌ، أي: هؤلاء هم أَوْلى الناس بإبراهيم، والله وليُّ إبراهيم، والذين اتَّبعوه، وهذا النبيُّ والذين آمنوا؛ لأنَّ التذييلَ يشمل المذيَّل قطعًا، ثم يشمل غيرَه تكميلًا، كالعامِّ على سببٍ خاصٍّ[٤].

- وفي قوله: ﴿واللهُ وَلِيُّ المُؤْمِنِينَ﴾ بعد قوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا﴾: تعريضٌ بأنَّ الذين لم يكُن إبراهيمُ منهم ليسوا بمؤمنين[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٧٥- ٢٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤٥٣).
(٢) يُنظر: ((المصدران السابقان)).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٤٨)، ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢٥٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٢٢)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٣٣٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٧٨).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٦٩ - ٧١)

﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٦٩) يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٧٠) يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٧١) ﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿تَلْبِسُونَ﴾: تَخلِطون، وأصل اللَّبس: المُخالَطةُ والمداخلة[1].

المَعنى الإجماليُّ

يُحذِّر اللهُ تعالى عبادَه من مَكْر طائفةٍ خبيثةٍ من اليهود والنَّصارى، أُمنيتُها وغايتُها إضلالُ المسلمين، وإخراجُهم من النورِ إلى الظُّلمات؛ حَسدًا من عند أنفسِهم، إلَّا أنَّ مَكْرَهم هذا لا يَحيقُ إلَّا بهم، وإضلالهم للمسلمين يَرتدُّ عليهم، فيكون جُهدُهم الَّذي يبذلونه في الإضلالِ سببًا في زيادةِ ضلالهم؛ فهُم بهذا السعيِ لا يُضِلُّون إلَّا أنفسَهم، وهم لا يَدْرُون.

ثم يقول الله تبارَك وتعالَى- مُنكِرًا على أهل الكتاب ما يفعلونه-: يا أهلَ الكتاب، ما الَّذي يَحمِلكم على الكُفْرِ بالقرآن، وأنتم تشهدون بصحَّته، وتُوقِنون بصدقه، وأنَّه منزَّلٌ من ربِّكم بالحقِّ؟! يا أهلَ الكتاب، لِمَ تَخْلِطون الحقَّ بالباطل حتَّى يلتبِسَ بعضُه ببعض، وتكتمونَ الحقَّ وتُخفونه، وأنتم تعلمونَ أنَّكم تَلبسونَ الحقَّ بالباطلِ، وتكتمون الحقَّ؟!

تَفسيرُ الآيات:

﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٦٩)﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٣٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٧).

يقول اللهُ تعالى محذِّرًا من مَكْرِ هذه الطَّائفة مِن أهل الكتابِ:

﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾.

أي: تمنَّتْ جماعةٌ من أهل التَّوراةِ مِن اليهودِ، وأهلِ الإنجيل مِن النَّصارى- أنْ يُخرجوكم من الهُدى إلى الضَّلال، ومِن الإسلامِ إلى الكفرِ[1].

كما في قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ١٠٩].

﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾.

أي: هم بذلك لا يُضِلُّون إلَّا أنفسَهم؛ لأنَّهم ابتعدوا عن الإسلامِ، وانْشَغلوا بمحاولةِ إضلالِ المؤمنينَ عن طلبِ الهِداية[2].

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

أي: وما يَدْرُون، ولا يَعلمون أنَّهم لا يُضِلُّون إلَّا أنفسَهم، وأنَّهم لا يَصِلون إلى إضلالِ المؤمنين[3].

---

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٩٨).

ومِن المعلوم أنَّ مَن ودَّ شيئًا سعَى بجهدِه لتحصيلِ مرادِه، فهذه الطائفة تَسعى وتبذُل جهدَها في ردِّ المؤمنين وإدخال الشُّبه عليهم بكلِّ طريقٍ يقدرون عليه. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٤).

وقوله: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ تحتمل ﴿مِنْ﴾ أن تكون للتبعيض، وتكون الطائفة الرؤساء والأحبار الذين يسكُن الناس إلى قولهم، ويحتمل أنْ تكون لبيان الجِنس، وتكون الطائفةُ جميعَ أهل الكتاب. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٨٩، ٤٩١)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١١٠).

ثم قال تعالى مُنْكِرًا عليهم:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٧٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ختَم الكلامَ في أهل الكتاب بنَفْي شُعورِهم، بَيَّنَ تعالى في مَعرِضِ التبكيتِ أنَّ نفيهم عنه إنَّما هو لأنَّهم معانِدون، لا يَعملون بعِلمهم، بل يعَملون بخِلافه، فقال مستأنِفًا بما يدلُّ على غايةِ التبكيتِ المُؤْذِنة بشديد الغضب[١]:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾.

أي: يا أهلَ الكتاب، ما الَّذي دعاكم إلى الكُفر بالقرآن[٢]؟!

﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾.

أي: وأنتُم تَشهدون بصحَّةِ القرآن، وتعلمون صِدقَه، وأنَّه حقٌّ من عند ربِّكم[٣].

فهم يَعلمون نعْتَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الَّذي جاء في كتبهم، وأنَّ ما جاء به حقٌّ، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤٥٥- ٤٥٦).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٥٢)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيِّم (١/ ٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٤).

وقال ابنُ عثيمين: (آياتُ الله تشمل: التوراة والإنجيل والقرآن). ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٠٣).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤٩)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيِّم (١/ ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٩).

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٧١)﴾.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾.

أي: يا أهلَ الكتاب، لِمَ تَخلِطون الحقَّ بالباطلِ حتَّى يلتبسَ أحدُهما بالآخَر[(١)].

ثم ذكَر لازِمَ لَبْسِ الحقِّ بالباطِل، وهو كتمانُ الحقِّ[(٢)]، فقال:

﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾.

أي: وتُخْفون الحقَّ، ومن ذلك كتمانُهم صفةَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الموجودةَ في كتُبهم، ونبوَّتَه[(٣)].

﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

أي: وأنتُم تعلمون أنَّكم تَلْبِسون الحقَّ بالباطل، وأنَّ الَّذي تكتُمونَه من الحقِّ حقٌّ[(٤)].

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أنَّ الإنسانَ في غَمْرَة الغَلَبَة، أو حبِّ الغَلَبَة، وسَكْرَة حبِّ الظُّهور يَنْسَى، ولا يشعر بضلاله وغوايته[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٥٣)، ((مختصر الصواعق المرسلة لابن القيِّم)) (ص: ١٣٤).

(٢) وإنَّما كان اللبسُ مستلزمًا للكِتمان؛ لأنَّ مَن لبس الحقَّ بالباطل، كما فعله أهل الكتاب- حيث ابتدعوا دينًا لم يَشرَعه الله، فأمروا بما لم يأمر به، ونهوا عمَّا لم ينه عنه، وأخبروا بخلاف ما أخبر به- فلا بدَّ له أن يكتم من الحقِّ المنزل ما يناقض بِدعتَه؛ إذ الحقُّ المنزل الذي فيه خبر، بخِلاف ما أخبر به إنْ لم يكتُمْه، لم يتمَّ مقصوده، وكذلك الذي فيه إباحةٌ لِمَا نُهي عنه، أو إسقاط لما أُمر به. يُنظر: ((درء التعارض)) لابن تيمية (١/ ٢٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٠٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٠٠).

٢- في قوله: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ دليلٌ على أنَّ المعتدي يُجازَى بمثل عُدوانه، ويُبتلَى بمثل ما ابْتُلِيَ غيره به[1].

٣- في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ دليلٌ على أنَّ الإنسان قد يَعْمَى عن الباطل مع ممارستِه له[2].

٤- في قوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أيضًا مبالغةٌ في ذمِّهم، حيث فقَدوا المنفعةَ بحواسِّهم[3].

٥- يجب الحذرُ من أهلِ الباطل إذا لَبَسوا باطلَهم بالحقِّ، وألَّا نغترَّ بهم إذا زخرفوا القول[4].

٦- في قوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ توبيخٌ لكل مَن لَبَسَ الحقَّ بالباطل، وكتَم الحقَّ، وسلَك هذا المسلك؛ لأنَّ تخصيصَ التوبيخِ لأهل الكتاب ليس تَخصيصًا للشخصِ والعين، بل بالجِنس والنوعِ والوصفِ؛ فمَن كان على شاكلتِهم، فإنَّه يَستحقُّ هذا التوبيخ[5].

٧- في قوله: ﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ دليلٌ على وجوبِ بيان الحقِّ على من عَلِمَه، أمَّا مَن لم يَعلم، فعُذره ظاهر[6].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قوله: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ تعزيةُ المسلمين بما يُريده بهم هؤلاء

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٠١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٠٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٠٥).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٠٦).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

من الإضلالِ، فكأنَّ الله قال: لا تخافوا منهم؛ فإنَّ الإضلالَ إنَّما يعود عليهم[١].

٢- لانهماكِ أهلِ الكتاب في إضلالِ المسلمين لم يَشعُروا بأنَّه كان صارفًا لهم عن معرفة الحقِّ والهدى؛ لأنَّ المنهمكَ في الشَّيء لا يكادُ يَفطن لعواقبِه وآثاره، يُؤخَذ ذلك من قوله: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[٢]

٣- قال تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ ولم يقُل: (وأنتم تعلمون)؛ لأنَّ الشهادةَ أقوى؛ لكونِها تَقتضي أنْ يكونَ العالِم كالمشاهِد للشيءِ بحسِّه، والمشاهدة بالحسِّ أقوى من المشاهدة بالذِّهن، أو مِن العِلم بالذِّهن[٣].

٤- السَّاعي في إخفاء الحقِّ لا سبيلَ له إلى ذلك إلَّا من أحد وجهين: إمَّا بإلقاء شُبهةٍ تدلُّ على الباطل، وإمَّا بإخفاءِ الدَّليل الَّذي يدلُّ على الحقِّ، فقوله: ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ إشارةٌ إلى المقام الأوَّل، وقوله: ﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ إشارة إلى المقام الثَّاني[٤].

٥- خُتِمَت الآيةُ الأولى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ بقوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾، والثانية: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ خُتِمَتْ بقوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ قيل لأنَّ المنكَرَ عليهم في الآية الأولى هو الكفرُ بآيات الله، وهي أخصُّ مِن الحقِّ؛ لأنَّ آياتِ الله بعضُ الحقِّ، والشهادة أخصُّ من العِلم، فناسَب الأخصُّ الأخصَّ، وذَكَرَ ﴿تَعْلَمُونَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٠١).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٧٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٠٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٥٦/ ٢٥٧).

مع الحقِّ؛ لأنَّ الحقَّ أعمُّ من الآيات وغيرها، والعِلم أعمُّ من الشهادة، فناسب الأعمُّ الأعمَّ[1].

٦- تلبيسُ الحقِّ بالباطل هو سببُ مَنْشَأ ضلالِ مَنْ ضَلَّ من الأُمم قَبلنا، وهو منشأ البِدع كلِّها؛ فإنَّ البدعَ لو كانت باطلًا محضًا لَما قُبِلَتْ، ولَبادَرَ كلُّ أحد إلى ردِّها وإنكارها، ولو كانتْ حقًّا محضًا لم تكن بدعةً، وكانت مُوافِقةً للسُّنة، ولكنها تشتمل على الحقِّ والباطل، ويَلتبس فيها الحقُّ والباطل، كما قال اللهُ تعالى: ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[2].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- **قوله تعالى: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ...﴾** استئنافٌ، و(مِن) هاهنا للتبعيض- على أحدِ الوجهين كما سبَق-، وإنَّما ذَكر بعضَهم ولم يعمَّهم؛ لأنَّ مِنهم مَن آمَن[3].

٢- **قوله: ﴿يَا أَهْلَ الكِتَابِ﴾** المقصودُ مِن إعادةِ نِدائهم بهذا، هو التوبيخُ، وتسجيلُ باطلهم عليهم[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٠٩- ٢١٠).
(٢) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (٢/ ٣١٧)، ((مختصر الصواعق المرسلة لابن القيِّم)) للبعلي (ص: ١٣٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٧٨)، ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢٥٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٧٩).

الآيات (٧٢ - ٧٤)

﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿وَجْهَ النَّهَارِ﴾: أي: صدْرَ النَّهار، أو أوَّله؛ فالوجه أوَّل ما يُسْتَقْبَلُ من الشيء[1].

مُشكلُ الإعراب:

قوله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾

﴿أَنْ يُؤْتَى﴾: (أنْ) والفِعل في تأويل مصدر (إيتاء)، متعلِّق بقوله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا﴾ على حذْفِ حرفِ الجرِّ، والأصل: (ولا تؤمنوا بأنْ يُؤتى أحدٌ مثلَ ما أوتيتم إلَّا لِمَن تبع دِينكم)، فيكون في موضِع جَرٍّ أو نصْبٍ على الخلافِ في موضِع (أن) إذا حُذِف حرفُ الجرِّ، ويكون قوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ﴾ جملةً اعتراضيَّة، أي: ولا تُظهِروا إيمانَكم بأنْ يُؤتَى أحدٌ مثلَ ما أُوتيتُم إلَّا لأهل دِينكم دونَ غيرهم. وقوله: ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ﴾: عطفٌ على ﴿أَنْ يُؤْتَى﴾. والضَّميرُ في ﴿يُحَاجُّوكُمْ﴾ عائدٌ على ﴿أَحَدٌ﴾؛ لأنَّه في معنى الجميع، أي: ولا تُؤمنوا لغيرِ أتْباعِكم؛ فإنَّ المسلمين يُحاجُّوكم عندَ ربِّكم بالحقِّ، ويُغالِبونكم

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٥- ٨٥٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٥).

عندَ الله. وعلى هذا يكونُ قولُه: ﴿إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ﴾ مُستثنًى من شيءٍ محذوف، تقديرُه: ولا تُؤمِنوا بأنْ يُؤتَى أحدٌ مِثلَ ما أوتيتُم لأحدٍ مِن الناسِ إلَّا لأشياعِكم دون غيرِهم.

أو يكون قوله: ﴿أَنْ يُؤْتَى﴾ منصوبًا بفِعلٍ مُقدَّر يدلُّ عليه ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ كأنَّه قيل: قل إنَّ الهُدَى هُدَى الله، فلا تُنكروا أنْ يُؤتَى أحدٌ مِثلَ ما أوتيتُم، فـ(لا تُنكروا) ناصبٌ لـ(أن) وما في حَيِّزِها، وجازَ حذفُ العامل (فلا تُنكِروا)؛ لوجودِ ما يدلُّ عليه.

أو يكون ﴿هُدَى اللهِ﴾ بدلًا مِن ﴿الْهُدَى﴾ الذي هو اسمُ إنَّ، ويكونُ خبر إنَّ: ﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ﴾، والتقدير: قل: إنَّ هدى الله أنْ يُؤتَى أحدٌ، أي: إنَّ هدى الله إيتاءُ أحدٍ مثلَ ما أوتيتُم، وتكون ﴿أَوْ﴾ بمعنى (حتى)، والمعنى: حتَّى يُحاجُّوكم عند ربِّكم فيَغلبوكم، ويَدْحَضوا حُجَّتكم عند الله، ولا يكون ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ﴾ معطوفًا على ﴿أَنْ يُؤْتَى﴾ وداخلًا في حيِّز (أن). وفي هذه الآيةِ أقوالٌ أخرى كثيرةٌ(١).

المَعنَى الإجماليُّ

يُخبر الله تعالى عن طائفةٍ خبيثةٍ أرادتِ المكيدةَ للمسلمين، بالتلبيسِ على الضُّعفاء أمرَ دِينهم، فتشاوروا بينهم أنْ يُظهروا الإيمانَ بما جاء به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أوَّل النهار، فإذا جاء آخِرُ النهار كفَروا به؛ ليقول الضعفاءُ من النَّاس: لو كان هذا الدِّين حقًّا، ما ارتدَّ عنه مَنْ آمَن به من أهل الكتاب؛ يُريدون بذلك أنْ يَرجِعَ المسلمون عن دِينهم ويَتركوه.

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٢٧٠- ٢٧١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢٥٢- ٢٥٦).

كما أخْبَرَ الله تبارَك وتعالَى عنهم بأنَّهم تواصَوْا فيما بينهم بألَّا يؤمنوا إلَّا لِمَن كان على دِينِهم ومِلَّتهم، ثمَّ أَمَرَ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأن يردَّ عليهم، فقال له: قل لهم- يا محمَّدُ-: إنَّ الهُدَى والتوفيقَ مِن الله؛ فهو المتكفِّلُ بهدايةِ المؤمنين إلى الإيمانِ بما أنزلَه على نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ.

ثم عادَ السِّياقُ إلى كَلامِ اليَهودِ بَعضِهم لبعضٍ، ووصاياهم فيما بَينَهم؛ إذ قالوا: ولا تَطْمئنُّوا إلا لمن تبع دينكم، ولا تُظهروا سرَّكم وما عندَكم للمُسلمينَ، كراهةَ أن يُؤتَى أحدٌ مثلَ ما أُوتِيتُم مِن العلمِ- لأنَّكم إذا أظهرتُم ما عندَكم مِن العلمِ للمسلمينَ، فإنَّهم يتعلمونه مِنكم، ويحصلُ لهم مِن العلمِ ما حصَل لكم، فيَصيرون مثلَكم- أو يتَّخِذوه حُجَّةً عليكم عندَ الله تعالى، ويَشهَدوا أنَّه قد تبيَّن لكم الهُدَى فلم تتَّبِعوه، فقال اللهُ لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: قلْ لهم- يا محمَّد-: إنَّ التَّوفيقَ والهِدايةَ والإحسانَ يُعطيها اللهُ مَن أراد مِن عِبادِه؛ فهو واسعُ الفضلِ، كثيرُ الإحسان، عليمٌ بمَن هو أهلٌ للإحسانِ؛ فيَهَبه له، ومَن لا يَستحقُّه فيَحْرِمه منه، وهو يَختصُّ برحمتِه مَن يشاءُ مِن عِبادِه؛ فهو صاحبُ الفضلِ الواسعِ الكثيرِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢)﴾.

﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ﴾.

أي: وقالت طائفةٌ من أهل الكتاب من اليهود: أظهِروا الإيمانَ بما جاءَ به محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وادْخُلوا في دِينه أوَّل النهار[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٩٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤٩)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٢/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٩). =

﴿وَاكْفُرُوا آخِرَهُ﴾.

أي: إذا كان آخِرُ النهارِ اكفُروا بدِينهم[1].

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

أي: لعلَّهم يَرجعون عن دِينهم ويَتركونه؛ لأنَّه يُقال: لو كان هذا الدِّين صحيحًا ما خرَج منه مَنْ آمَن به مِن أهلِ الكِتاب[2].

﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣)﴾.

﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾.

أي: وقالتْ هذه الطَّائفة أيضًا: لا تثِقوا، ولا تَطْمئنُّوا إلا لمن تبع دينكم، واكتمُوا أمرَكم، ولا تُظهروا سرَّكم وما عندَكم للمُسلمينَ[3].

فأمَر الله نبيَّه أنْ يردَّ عليهم بهذه الجملةِ الاعتراضيَّة:

﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ﴾.

أي: قل- يا محمَّدُ-: إنَّ التوفيقَ توفيقُ الله، والبيانَ بيانُه؛ فهو الَّذي يَهدي

= وممَّن قال بهذا القول وبنحوه: ابن عبَّاس وقتادة، وأبو مالك، والسُّدِّي، والربيع بن أنس. ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٩٥)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٦٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٩) ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٥).

وقيل المعنى: ولا تُصدِّقوا إلَّا من تَبعَ دِينكم، فكان يهوديًّا. وهذا اختيار ابن جرير في ((تفسيره)) (٥/ ٥٠٠)، والواحدي في ((التفسير الوسيط)) (١/ ٤٥٠).

المؤمنين إلى الإيمانِ بما نزَّله على نبيِّه محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وإنْ فعلتُم ما فعلتُم، فلن يَنفعَكم ذلك شيئًا[1].

ثم عادَ السِّياقُ إلى كلامِ اليهودِ بعضِهم لبعض[2]:

﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿أَنْ يُؤْتَى﴾ قِراءتان[3]:

١- (ءانْ يُؤْتَى) بالمدِّ في (ءَان)، وهو استفهامٌ معناه الإنكار؛ وذلك أنَّ أحبارَ اليهود قالوا لِذَوِيهم: أَيُؤتَى أحَدٌ مثلَ مَا أوتيتُم؟ أي: لا يُؤتى أحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ[4].

٢- ﴿أَنْ يُؤْتَى﴾ من غير مدٍّ في (أنْ)، وهي المصدريَّة، والمعنى: ولا تُؤمنوا إلَّا لِمَن تبع دِينكم ولا تُؤمنوا أنْ يُؤتَى أحدٌ مثلَ ما أوتيتم[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٠٨).

(٢) وهذا اختيارُ ابن جريرٍ في ((تفسيره)) (٥/ ٥٠٤)، والواحديِّ في ((تفسيره)) (١/ ٤٥٠) وابنِ كثير في ((تفسيره)) ٢/ ٦٠ والسعديِّ في ((تفسيره)) (ص: ١٣٤) وغيرهم.
وهو قولُ مجاهد والأخفش. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٠١)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (١/ ٢٩٤).
وقيل: بل إنَّ كلامَ اليهود تامٌّ عندَ قوله: ﴿لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾، والباقي مِن قول الله تعالى، لا يَعترِضه شيءٌ من قولِهم، وهو قولُ الحسن، وسعيدِ بن جُبير. يُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (١/ ٢٩٤).

(٣) قرأ ابن كثير (ءانْ) بالمد، وقرأ الباقون (أَنْ) من غير مد. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٩١).
ويُنظر لمعنى القراءتين: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٥٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص:١٦٦)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٤٧).

(٤) قرأ بها ابن كثير. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٩١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٥٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص:١٦٦)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٤٧).

(٥) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٩١). =

﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾.

أي: كراهةَ أن يُؤتَى أحدٌ مثلَ ما أُوتيتُم مِن العلمِ؛ لأنَّكم إذا أظهرتُم ما عندَكم مِن العلمِ للمسلمينَ، فإنَّهم يتعلمونه مِنكم، ويحصلُ لهم مِن العلمِ ما حصَل لكم، فيَصيرون مثلَكم، ويُساوُونكم فيه[1].

﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾.

أي: أو يتَّخذوه حجةً عليكم عندَ اللهِ تعالى، ويشهدوا أنَّ الحُجة قد قامتْ عليكم، وتبيَّن لكم الهدَى فلم تتَّبِعوه[2].

= ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٥٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص:١٦٦)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٩) ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٥).
وقيل المعنى: ولا تُصدِّقوا أن يُؤتَى أحدٌ من البشرِ مِثلَ الَّذي أوتيتُم يا بني إسرائيل. وهذا اختيار ابن جرير في ((تفسيره)) (٥/ ٥٠٠)، والواحدي في ((التفسير الوسيط)) (١/ ٤٥٠).
وفي الآية أوجهٌ أُخرى:
منها: أنَّ قولَ اليهود انتهى عند قوله: ﴿إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾، وما بَعدَه مِن قولِ الله تعالى كما تقدَّمت الإشارةُ إليه.
ويكون المعنى على ذلك: قل يا محمَّد، إنَّ الهدى هدى الله ﴿أَنْ يُؤْتَى﴾ أنْ بمعنى: الجَحْد، أي: ما يُؤتَى أحدٌ مثلَ ما أُوتيتُم، يا أمَّة محمد صلَّى الله عليه وسلَّم، وهذا معنى قولِ سعيد بن جُبَير والحسن والكلبي ومقاتل. ((تفسير البغوي)) (١/ ٤٥٧).
أو يكون المعنى: كراهةَ أن يُؤتى أحدٌ مِثلَ ما أوتيتُم وقلتُم ما قلتُم، ودبَّرتم ما دبَّرتم من الخداع، فموضع ﴿أَنْ يُؤْتَى﴾ مفعولٌ من أجله، أو منصوب بفِعل مضمر، تقديره: فلا تُنكروا أن يُؤتى أحدٌ مثلَ ما أوتيتُم من الكتاب والنبوة. واستظهر أبو حيَّان هذا المعنى وقال: (ويؤيِّد هذا المعنى قوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ...﴾ إلى آخره، ويؤيِّد هذا المعنى أيضًا قراءةُ ابن كثير (ءانْ يُؤتَى) على الاستفهام الذي معناه الإنكار عليهم والتقرير والتوبيخ. والاستفهامُ الذي معناه الإنكار هو مُثبَت من حيث المعنى، أي: أَلِمُخافةِ أن يؤتى أحدٌ مثل ما أوتيتم؟ أو يحاجوكم عند ربكم قلتُم ذلك وفعلتموه؟ ويكون: ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ﴾، معطوفًا على: ﴿يُؤْتَى﴾، و﴿أَوْ﴾: للتنويع) ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢١٢).
وفي الآية أوجهٌ أخرى يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٥٤)، ((زاد المسير)) (١/ ٢٩٤).
وهذه الآية أشكلُ ما في السُّورة، كما قال غيرُ واحدٍ كالقرطبيِّ في ((تفسيره)) (٤/ ١١٢).

(٢) واختاره ابن كثير في ((تفسيره)) (٢/ ٥٩)، والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ١٣٥). وقيل =

﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

أي: قلْ لهم- يا محمَّدُ-: إنَّ التوفيقَ للإيمانِ، والهدايةَ للإسلامِ، والإحسانِ بشتَّى أنواع الإحسانِ، يُعطيه اللهُ مَن أراد مِن عِبادِه[1]، وقد آتى اللهُ هذه الأمَّةَ ما يَربو بكثيرٍ على الفضائلِ الَّتي آتاها بني إسرائيل[2].

﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: واللهُ ذو سَعةٍ بفضلِه على مَن يشاءُ، ذو عِلمٍ بمَن يَستحقُّ الفضلَ، وهو له أهلٌ؛ فهو يُؤتي فضلَه عن عِلم وحِكمة سبحانه وتعالى[3].

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

أي: يَخُصُّ بالنُّبوَّةِ والإسلامِ والقرآنِ مَن يشاء، ممَّن هو أهل لذلك[4]، وقد خَصَّ هذه الأمَّةَ ونبيَّها بما لا يُحَدُّ ولا يُوصَفُ من الفضل[5].

= المعنى: أي: ولا تُصدِّقوا أنَّ أحدًا يجادلكم عند ربِّكم؛ لأنَّكم أصحُّ منهم دِينًا، وأكرمُ على الله منهم. وهذا اختيار ابن جرير في ((تفسيره)) (٥/ ٥٠٠)، والواحدي في ((التفسير الوسيط)) (١/ ٤٥٠).

وقيل: ويجوزُ أنْ تكون ﴿أَوْ﴾ بمعنى حتَّى فيكون معنى ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ﴾ أي: حتى يُحَاجُّوكم عند ربكم، على طريق التبعيد، كما يُقال: لا تلقاه أو تقوم الساعة. وتعلُّق به أو يعطيك حقَّك، أي: حتى يعطيَك حقَّك، وهذا قول الكسائي والفرَّاء. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (١/ ٤٠٢) ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢٢٥).

وقيل: معنى ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ﴾ أي: ما يُؤتى ﴿أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ يا أمَّة محمد إلَّا أنْ يجادلكم اليهودُ بالباطل فيقولوا: نحن أفضلُ منكم، وقوله تعالى: ﴿عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾، أي: عند فِعل ربكم بكم ذلك، وهذا معنى قول سعيد بن جبير والكلبيِّ ومقاتل والحسن. ينظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٠٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٠).

﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

أي: واللهُ صاحِبُ الإحسانِ الواسعِ الكثير، الَّذي يَتفضَّلُ به على مَن أحبَّ مِن خلْقه[1].

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١ - التحذيرُ مِن أعداءِ الإسلامِ وعُملائهم ممَّن يحملون أسماءَ المسلمين، الذين يُوجِّهون لخَلخلةِ العقيدةِ في النُّفوس بشتَّى الأساليبِ، في صورةِ بحثٍ وعلمٍ وأدبٍ وفنٍّ وصحافةٍ، ويعملون على تَوهينِ قواعِدِها مِن الأساسِ، والتهوينِ مِن شأنِ العقيدةِ والشريعةِ سواء، وتأويلِها وتحميلِها ما لا تطيقُ، والدقِّ المتَّصل على «رجعيَّتها»! والدعوةِ للتفلُّت منها، وإبعادِها عن مجالِ الحياةِ! وابتداعِ تصوُّراتٍ ومُثُلٍ وقواعدَ للشُّعور والسُّلوك تناقضُ وتحطِّم تصوُّرات العقيدةِ ومُثُلها، وتزيينِ تلك التصوُّرات المبتدَعة بقدرِ تشويهِ التَّصورات والمثل الإيمانيةِ، وإطلاقِ الشَّهوات مِن عِقالها! ويشوهون التاريخَ كلَّه، ويُحرِّفونه كما يُحرِّفون النُّصوص! وهم بهذه الأسماءِ المسلمةِ يُعلنون الإسلامَ وجهَ النَّهار، وبهذه المحاولاتِ المجرمةِ يكفرون آخرَه، ويؤدُّون بذلك دورَ أهلِ الكتابِ القديمِ، لا يتغيَّر إلا الشَّكل والإطارُ في ذلك الدورِ القديم[2].

٢- قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ﴾ يدلُّ على أنَّ من طَلَب الهُدى والرُّشْد من غير الكتابِ والسُّنَّة ضلَّ، لأنَّ الهدى محصورٌ في هُدى اللهِ الذي أرسَلَ به رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٠٧)، ((تفسير الراغب)) (٢/ ٦٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤١٠).

(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤١٥).

(٣) ((فتح الرحيم الملك العلام)) للسعدي (ص: ١٧١).

٣- يُستفادُ من قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ﴾: أنَّ المسلمَ يَرُدُّ كيدَ أهل الباطل بإعلانه أنَّ الهدى هُدى الله، وأنَّهم مهما حاولوا أنْ يَصُدُّوه عن دِينه، وقد أرادَ اللهُ هدايتَه؛ فإنَّ ذلك لا يَضُرُّه[1].

٤- يَنبغي للإنسان أن يُعلِّقَ الرجاء بالله؛ خوفًا وطمعًا؛ لقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ﴾[2].

٥- يَحصُل من مجموعِ قوله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ...﴾، والآية الَّتي تَليها: أنَّه لا نِهايةَ لمراتب إعزازِ الله وإكرامِه لعِبادِه، وأنَّ قصْرَ إنعامِه وإكرامِه على مراتبَ معيَّنة وعلى أشخاصٍ معيَّنين جَهلٌ بكمالِ اللهِ في القُدرة والحِكمة[3].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- الفائدةُ في إخبارِ الله تعالى عن تواطئهم على إظهارِ الإيمانِ أوَّلَ النَّهار والكفرِ آخرَه كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ...﴾ من وجوهٍ:

الأولُ: أنَّ هذه الحيلةَ كانت مَخفيَّةً فيما بينهم، وما أَطْلعوا عليها أحدًا مِن الأجانب، فلمَّا أَخبر الرسولُ عنها كان ذلك إخبارًا عن الغيبِ، فيكون معجزًا.

الثاني: أنَّه تعالى لَمَّا أطْلَع المؤمنين على تواطئِهم على هذه الحيلةِ لم يَحصُلْ لهذه الحيلةِ أثرٌ في قلوبِ المؤمنين، ولولا هذا الإعلانُ لكان ربَّما أثَّرت هذه الحيلةُ في قلبِ بعضِ مَن كان في إيمانِه ضعفٌ.

الثالث: أنَّ القومَ لَمَّا افتَضحوا في هذه الحيلةِ صارَ ذلك رادعًا لهم عن الإقدامِ على أمثالِها مِن الحيلِ والتَّلبيس[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤١١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٦٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ٢٥٨).

٢- في قوله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ تعدَّى الإيمانُ باللام؛ لبيان أنَّ التَّصديقَ مضمَّنٌ معنى الثِّقة والرُّكون، فيكون تصديقًا خاصًّا تضمَّن معنًى زائدًا، وفي هذا بيانُ أنَّ اليهود حصَروا الثِّقة بأنفسهم؛ لزَعمِهم أنَّ النبوَّة لا تكون إلَّا فيهم[1].

٣- وفائِدةُ الاعتراضِ في أثناءِ كلامِهم بقولِه: ﴿قل إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ﴾ المـُبادرةُ بما يُفِيدُ ضلالَهم؛ لأنَّ اللَّه حرَمهم التَّوفيقَ[2] وأيضا فيه الإشارةُ إلى أنَّ كيدَهم غيرُ ضارٍّ لِمَن لَطَفَ اللهُ تعالى به بالدُّخولِ في الإسلام، أو زيادة التصلُّب فيه. ويُفيد أيضًا أنَّ الهُدى هداه؛ فهو الذي يتولَّى ظُهورَه ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾[3].

٤- في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ الفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ...﴾ الآية: زيادةُ تذكيرٍ لهم، وإبطالٌ لإحالتهم أنْ يكون محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ رسولًا من الله، وتذكيرٌ لهم على طرْح الحسَد على نِعم الله تعالى[4].

٥- لا اعتراضَ على الله في كونِه يَختصُّ برحمته شخصًا، ويمنع رحمته آخرَ؛ لأنَّ الأمرَ إليه، وهو فضلٌ؛ إنْ شاء أعطاه، وإنْ شاء منَعَه، كما قال تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[5] [آل عمران: ٧٤].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- **قوله تعالى:** ﴿وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ﴾ فيه اختصاصٌ لذِكر وجْه النَّهار؛

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٧٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٨٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٢/ ١٩٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٨٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٢١).

لأنَّه وقتُ اجتماعِهم بالمؤمنين يُراؤونهم، وآخِره؛ لأنَّه وقتُ خَلوتِهم بأمثالهم من الكفَّار[١].

٢- قوله تبارَكَ وتعالَى: ﴿آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ﴾، وقوله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ فيه لفٌّ ونشر معكوس؛ فقوله: ﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ إبطالٌ لقولهم: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾، أي: قلتُم ذلك حسدًا من أن يُؤتَى أحدٌ مِثل ما أوتيتُم، وقوله: ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ﴾ ردٌّ لقولهم: ﴿آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ﴾ على طريقة التهكُّم، أي: مرادكم التنصُّل من أنْ يُحاجُّوكم، فجمعتُم بين الإيمان بما آمَن به المسلمون، حتى إذا كان لهم الفوزُ يومَ القيامة لا يُحاجُّونكم عند الله بأنَّكم كافِرون، وإذا كان الفوزُ لكم، كنتم قد أخذتُم بالحزم؛ إذ لم تُبطلوا دِينَ اليهوديَّة[٢].

٣- قوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللهِ﴾ كلامٌ معترض، أُمِر النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يقولَه لهم؛ كنايةً عن استبعادِ حُصول اهتدائِهم، وأنَّ الله لم يَهدِهم؛ لأنَّ هُدى غيره- أي: محاولته هدى الناس- لا يَحصُل منه المطلوبُ إذا لم يُقدِّره الله، فالقصر حقيقيٌّ؛ لأنَّ ما لم يُقدِّره الله، فهو صورةُ الهدى، وليس بهُدى، وهو مقابل قولهم: ﴿آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ﴾، و﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾؛ إذ أرادوا صورةَ الإيمان، وما هو بإيمان، وفي هذا الجوابِ إظهارُ الاستغناءِ عن متابعتِهم[٣].

٤- قوله تعالى: ﴿أَحَدٌ﴾ اسمٌ نكرةٌ غلَب استعمالها في سِياق النَّفي، أو

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢١٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٨١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٧٩- ٢٨٠).

الإنكار؛ فيُفيد العمومَ، وندَر وقوعُه في حيِّز الإيجاب[١].

٥- قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾:

- قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾: تذييلٌ لِمَا قبله، مقرِّرٌ لمضمونه، وفيه تأكيدُ الكلامِ بـ﴿إِنَّ﴾؛ لتنزيلهم منزلةَ مَن يُنكر أنَّ الفضل بيد الله، ومن يَحْسَبُ أنَّ الفضل تَبَعٌ لشهواتهم[٢].

- قوله تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾: فيه تأكيدٌ لتعظيمِ ما لَديه؛ دفعًا لتوهُّم مَن يَظنُّ أنَّ اختصاص البعض لضِيق الرحمة عن العموم. وكرَّر الاسم العظيم (الله)؛ تعظيمًا لِمَا ذُكِر من النِّعم، ومُشيرًا بذلك كلِّه إلى التمكُّنِ من الإعطاء، وغزارةِ فضلِه[٣].

- قوله تعالى: ﴿وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ كالتأكيدِ لِمَا تَقدَّم ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾، وبينهما فرقٌ؛ فإنَّ هذه الرَّحمةَ ربَّما بلغَتْ في الشَّرفِ وعلوِّ الرُّتبة إلى ألَّا تكون من جِنس ما آتاهم، بل تكونُ أعْلى وأجلَّ مِن أن تُقاس إلى ما آتاهم[٤].

- قوله تعالى: ﴿وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾: فيه تأكيدٌ للمَعنى السَّابق أيضًا؛ لأنَّ كونه واسعًا يدلُّ على كمال القُدرة، وكونه عليمًا على كمال العِلم، فيَصحُّ منه لمكان القُدرة أنْ يتفضَّل على أيِّ عبدٍ شاء بأيِّ تفضُّل شاء، ويَصحُّ منه- لمكان كمال العلم- أنْ لا يكون شيءٌ من أفعاله إلَّا على وجه الحِكمة والصَّواب[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٨٢- ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٦٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٦٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢٦٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٨٣).

الآيتان (٧٥ - ٧٦)

﴿ ۞ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧٦) ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿بِقِنْطَارٍ﴾: القنطارُ؛ اختُلِف في حدِّه على أقوال، وجملةُ القول: أنَّه عددٌ كثير من المال[1].

﴿الْأُمِّيِّينَ﴾: أي: العرَب، والأُميُّون جمْع أُميٍّ، وهُم الَّذين لا يَكتُبون ولا يَقرؤون؛ نِسبةً إلى الأُمِّ؛ لأنَّ الكتابَ كان في الرِّجال دونَ النِّساء، فنُسب مَن لا يكتُب ولا يخطُّ من الرِّجال إلى أمِّه في جَهلِه بالكتابةِ دون أبيه، أو مَنْسُوبٌ إلى الأُمَّة الأُميَّة، الَّتي هِي على أصْلِ وِلاداتِ أُمَّهاتها، لم تتعلَّم الكتابةَ ولا قِراءتَها، والأُميَّة: الغَفلةُ والجَهالة وقِلَّة المعرِفة، وأصْل (أمّ): الأصْل والمرجِع[2].

المَعنَى الإجماليُّ

يُخبر اللهُ تعالى عن معاملات أهل الكتاب الدُّنيويَّة، وأنَّ منهم الأمينَ، الَّذي لو أَمِنْتَه على المالِ الكثير أدَّاهُ إليك دون نقْص، ومنهم الخائِن، الَّذي لو أَمِنْتَهُ على دينار لم يُؤَدِّه إليك، إلَّا ما دُمتَ قائمًا عليه بالمطالبة والاقتضاء.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٥٣- ١٥٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٨، ٣٧٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨ ٦٧٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٩).

ثم يُبيِّن الله تبارَك وتعالَى السَّبب الَّذي دعاهم إلى الخيانةِ، واستحلالِ أموال النَّاس، وهو أنَّهم يَزعُمون أنَّه ليس عليهم إثمٌ ولا حرَجٌ في عدم أداء أموال العربِ إليهم؛ فجَمعوا بين جريمتَينِ، وهما: أكْل الحرام، وادِّعاء حِلِّه، وهذا هو الكذبُ الَّذي قالوه على الله مع عِلمهم أنَّهم كاذبون في ذلك.

ثم أَبطَل اللهُ دعواهم تلك، وبيَّن لهم أنَّه ليس الأمر كما يقول هؤلاء الكاذبون، ولكن مَن أَوْفى من أهل الكتاب بعهدِ الله الَّذي عاهَدَهم عليه من الإيمان بمحمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وتصديقِه فيما جاء به، واتَّقى الله؛ فاجتنبَ ما نهاه عنه، وأطاعه فيما أمره به- فإنَّ الله يحبُّ الَّذين يتَّقونه.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

تعلُّقُ هذه الآيةِ ومناسبتُها لِمَا قَبلَها من وجهين:

الأوَّل: أنَّه تعالى حَكَى عنهم في الآية المتقدِّمة أنَّهم ادَّعوْا أنَّهم أُوتوا من المناصِب الدِّينيَّة، ما لم يُؤتَ أحدٌ غيرهم مثله، ثمَّ إنَّه تعالى بيَّن أنَّ الخيانة مُسْتقبَحَةٌ عند جميعِ أرباب الأديان، وهم مُصِرُّون عليها؛ فدلَّ هذا على كذبِهم.

والثاني: أنَّه تعالى لَمَّا حكَى عنهم في الآية المتقدِّمة قبائحَ أحوالهم فيما يتعلَّق بالأديان، وهو أنَّهم قالوا: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾، حكَى في هذه الآيةِ بعضَ قبائحِ أحوالهم فيما يَتعلَّقُ بمعاملةِ النَّاس، وهو إصرارُهم على

الخِيانةِ والظُّلم، وأخْذِ أموال النَّاس في القليل والكثير[١]، فقال تعالى:

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾.

أي: ومِن أهل الكتاب الَّذي إنْ تَأْمَنْه- يا محمَّدُ- على المال الكثير يُؤَدِّه إليك، ويَرُدَّهُ دون نُقصانٍ أو تغيير، ولا يَخُنْكَ فيه، وما دونه يُؤدِّيه من باب أَولى[٢].

ومن الأخبارِ الواردةِ في ذلك: ما رواه أبو هُرَيرَةَ رضِي اللهُ عنه، عن رسول اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أنَّه ((ذكَر رجُلًا من بني إسرائيل سأَلَ بعضَ بني إسرائيل أن يُسْلِفه ألْفَ دينار، فقال: ائْتِني بالشُّهداءِ أُشْهِدهم، فقال: كفَى بالله شهيدًا! قال: ائتِني بالكفيلِ، قال: كفَى بالله كفيلًا! قال: صَدَقْتَ، فدَفَعها إليه إلى أَجَلٍ مسمًّى، فخرج في البحر فقضى حاجتَه، ثمَّ الْتَمَس مركبًا يَركبُها يَقْدَمُ عليه للأجَلِ الَّذي أَجَّلَهُ، فلم يجِد مركبًا، فأخَذ خشبةً فنقَرَها فأدْخل فيها ألفَ دِينار، وصحيفةً منه إلى صاحبِه، ثمَّ زَجَّجَ موضعها[٣]، ثمَّ أتى بها إلى البحر، فقال: اللهمَّ إنَّك تعلمُ أنِّي اسْتَسْلَفْتُ فلانًا ألف دينار، فسألني كفيلًا، فقلت: كفَى بالله كفيلًا، فرَضِيَ بك، وسألني شهيدًا، فقلت: كفَى بالله شهيدًا، فرَضِيَ بك، وإنِّي جَهِدْتُ أنْ أجِد مركبًا أبعث إليه الَّذي له، فلم أقدِر، وإني اسْتَوْدَعْتُكها. فرمَى بها في البحر حتَّى وَلَجَتْ فيه، ثمَّ انصرفَ وهو في ذلك يلتمسُ مركبًا يخرج إلى بلدِه، فخرج الرَّجُلُ الَّذي كان أسلفَه يَنظُر لعلَّ مركبًا يَجِيئُهُ بماله، فإذا بالخشبةِ الَّتي فيها المال، فأخَذَها لأهله حَطبًا، فلمَّا كَسَرَها وجدَ المال والصَّحيفة، ثمَّ قَدِم الَّذي كان تَسَلَّفَ منه، فأتاه بألفِ دِينار، وقال: واللهِ ما زِلتُ جاهدًا في

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٢٣). وقَصَرَ ابنُ جرير وابنُ كثير أهلَ الكتابِ على اليهود.

(٣) زَجَّجَ مَوْضِعَهَا: أَيْ سَوَّى مَوْضع النَّقْر، وأصلحَه. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٢٩٦).

طلبِ مركبٍ لآتيَك بمالك، فما وجدتُ مركبًا قبل الَّذي أَتَيْتُ فيه، قال: هل كنتَ بعثتَ إليَّ بشيء؟ قال: ألم أُخبِرْك أنِّي لم أجِدْ مركبًا قبل هذا؟ قال: فإنَّ اللهَ قد أدَّى عنك الَّذي بَعثتَ في الخَشبةِ! فانْصَرِفْ بألف دِينار راشدًا))(١).

ثم ذكَر الله تعالى قِسمًا ثانيًا منهم، وهو الخائنُ الَّذي لا يُؤْتَمَنُ، فقال:

﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾.

أي: ومِن أهلِ الكتاب الَّذي إنْ تَأْمَنْهُ على دِينار يَخُنْكَ فيه، فلا يُؤَدِّه إليك إلَّا ما دُمتَ عليه قائمًا؛ بالمطالبةِ، والاقتضاءِ، والملازمة، والإلحاح في استخلاصِ حقِّك، وهو تاركٌ أداءَ ما فوقَه مِن بابِ أَوْلى(٢).

ثم بَيَّن اللهُ عزَّ وجلَّ سببَ استحلالهم أموالَ المسلمين، وخيانتِهم، فقال تعالى:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾.

أي: ذلك الجُحودُ للحقِّ، واستحلالُ الخيانة؛ بسببِ أنَّهم قالوا: لا حرجَ علينا ولا إثمَ فيما أَخَذْنا من أموالِ العرب، وأَكَلْنا منها؛ فإنَّ الله أحلَّها لنا؛ لأنَّهم على غير الحقِّ(٣).

﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

أي: ويقولون الكذبَ على اللهِ بادِّعائهم أنَّه أَحَلَّ لهم خيانتَهم، وترْكَ قضائِهم، وليس ذلك عن جَهْلٍ، بل مع عِلمهم بأنَّهم يكذبون، فجَمعوا بيْن أكْل

---

(١) رواه البخاري مُعلَّقًا (٢٢٩١)، وقد وصَله في (٢٤٠٤) مختصرًا.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥١٠)، ((أحكام أهل الذمَّة)) لابن القيِّم (١/ ٤٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٢٥).

الحرام، والكذب على الله بادِّعاء حِلِّه(١).

﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧٦)﴾.

﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى﴾.

أي: ليس الأمْر كما يقولُ هؤلاء الكاذِبون على اللهِ مِن اليهود، من أنَّه ليس عليهم في أموال الأمِّيِّين حَرَجٌ ولا إثمٌ، ولكنَّ الَّذي أوْفَى بعهد الله منكم يا أهلَ الكتاب، الَّذي عاهدَكم عليه من الإيمانِ بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وصدَّق بما جاء به من الله، وأدَّى الأمانة إلى مَن ائتمنَه عليها، إلى غير ذلك، واتَّقى ما نهاه اللهُ عنه من الكُفرِ به، وسائرِ معاصيه الَّتي حرَّمها عليه، وأطاعه واتَّبَعَ شريعتَه(٢).

﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

أي: فإنَّ الله يحبُّ الَّذين يَتَّقونه، فيخافون عقابَه، ويَحذَرون عذابه، باجتنابِ ما نهاهم عنه وحرَّمه عليهم، وطاعتِه فيما أمرَهم به(٣).

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- مَن أَوْفى بعهدِه الَّذي عاهد به الله أو النَّاس، واتَّقى الإخلافَ والغَدْر والاعتداء، فإنَّ الله يُحِبُّه، فيعامله بأنْ يَجعلَه محلَّ عنايته ورحمته في الدُّنيا والآخرة، كما قال سبحانه: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾(٤).

٢- ورودُ الجواب في قوله: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى﴾ بهذه العبارة يُفيد

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥١٤)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٨١).

قاعدةً عامَّة من قواعد الدِّين؛ وهي أنَّ الوفاءَ بالعهود واتِّقاءَ الإخلاف والابتعادَ عن سائرِ المعاصي والخطايا، هو الَّذي يُقرِّب العبدَ من ربِّه، ويجعله أهلًا لمحبَّته، لا كونه مِن شعب كذا[1].

٣- نظريَّةُ الإسلامِ الأخلاقيَّة، بصفةٍ عامَّةٍ، سواء كانت في الوفاءِ بالعهد وفيما سواه من الأخلاق، هي التَّعاملُ أولًا مع الله، بحيث يُلْحَظُ فيه جَنابُ الله، ويُتَجَنَّبُ به سخطُه، ويُطْلَبُ به رِضاه[2].

٤- العهد في قوله: ﴿مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ﴾ يَشمَل العهدَ الَّذي بين العبد وربِّه، وهو جميعُ ما أوْجَبَه اللهُ على العبدِ من حقِّه، ويَشمل العهدَ الَّذي بينه وبين العِباد[3].

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ فيه أنَّ الوَفاءَ بالعهودِ من التَّقوى التي يحبُّها اللهُ؛ فهو من جملةِ المأمورِ به، فإنَّ الواجِبَ إمَّا بالشَّرْعِ أو بالشَّرْطِ، وكلُّ ذلك فِعْلٌ مأمورٌ به، كما قال تعالى: ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ وقال: ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[4].

٦- في قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾: حَثٌّ على تقوى الله؛ لأنَّ كل إنسان يحبُّ أن يُحِبَّه الله؛ فإذا أردتَ ذلك فما عليك إلَّا أنَّ تقومَ بتقوى الله؛ لأنَّ محبَّة الله متعلِّقةٌ بالعامل، ومتعلِّقة بالعمل، ومتعلِّقة بالزمن، ومتعلِّقة بالمكان[5].

٧- التَّقوى في قوله: ﴿وَاتَّقَى﴾ ترجع في هذا الموضعِ إلى اتِّقاء المعاصي

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٨١).
(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤١٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٥).
(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ١٣٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٣٥).

الَّتي بين العبد وربِّه، وبينه وبين الخَلق، فمَن كان كذلك، فإنَّه مِن المتَّقين الَّذين يحبُّهم الله تعالى[١].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- قول الله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ يُبيِّن أنَّ المشرِكينَ وأهلَ الكِتابِ فيهم المؤتَمَنُ؛ فلهذا جازَ ائتمانُ أحدِهم على المالِ، وجازَ أنْ يَستَطِبَّ المسلمُ الكافرَ إذا كان ثِقةً؛ إذ ذلِك مِن قَبولِ خَبرِهم فيما يَعْلَمونَه مِن أمْرِ الدُّنيا، وائتمانٌ لهم على ذلِك، وهو جائزٌ إذا لم يكُنْ فيه مفسَدةٌ راجحةٌ[٢].

٢- استنبطَ بعضُ أهلِ العِلم من قوله: ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ جوازَ السجن؛ لأنَّ الَّذي يقومُ عليه غريمُه، فهو يَمنعُه مِن تَصرُّفاته في غيرِ القَضاء، ولا فَرْقَ بين المنع من التصرُّفات وبين السجن[٣].

٣- جوازُ الاقتصارِ على المثال؛ ليُقاس عليه ما يُشْبِهُه؛ لأنَّ الله ذكَر الدِّينار والقِنطار على سبيل التمثيل[٤].

٤- في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾: دليلٌ على أنَّ مَن افترى على الله الكذبَ وهو يَعلم، أشدُّ إثمًا وعدوانًا ممَّن لا يعلم، وإنْ كان كلٌّ منهما على خطأ[٥].

٥- في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، إشارة إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٥).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ١١٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٢٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٣٢).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٣٣).

أنَّ الجهل المركَّب أقبحُ من الجهلِ البسيط؛ لأنَّ الَّذي يكذب وهو يعلم، أقبحُ مِن الَّذي يَكذِب ولا يَعلم[1].

بَلاغَةُ الآيتين:

١- قول الله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾:

- قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ جاء قبل قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ...﴾ إنصافًا لحقِّ هذا الفَريق، ونعيًا عليهم لظُلمهم. وتقديم المسنَد في الموضعين (ومِن أهل الكتاب- ومنهم)؛ للتعجُّب من مضمونِ صِلة المسنَد إليهما؛ ففي الأول: للتعجُّب من قوَّة الأمانة، مع إمكانِ الخيانةِ، ووجودِ العُذرِ له في عادةِ أهل دِينه، وفي الثاني: للتعجُّب من أن يكونَ الخونُ خُلقًا لمتَّبِعِ كتابٍ من كتُب الله، ثم يزيد التعجُّب عند قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾، فيكسب المسنَد إليهما زيادةَ عجَب حال[2].

- عدَّى ﴿تَأْمَنْهُ﴾ بالباءِ مع أنَّ مثله يتعدَّى بـ(على)؛ لتضمينِه معنى تُعامِلْه بقنطارٍ؛ ليشملَ الأمانةَ بالوديعة، والأمانةَ بالمعاملةِ على الاستيمانِ[3].

- قوله: ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قائِمًا﴾: فيه مبالغةٌ في مطالبتِه بالتقاضي، والترافُع، وإقامةِ البيِّنة[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٣٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٨٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٨٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٢٤).

٢- في قوله تعالى: ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾: الاستفهامُ إنكاريٌّ[١]، وفيه طِباق معنوي؛ لأنَّ الشهادة إقرارٌ وإظهار، والكفر سَتْر[٢]، وفيه: التفاتٌ مِنَ الغيبةِ إلى خِطاب اليهود[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٧٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢١٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٧٩).

الآيات (٧٧ - ٨٠)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿خَلَاق﴾: نصيبٌ، وحظٌّ من الخير، والخَلاقُ: ما اكتسَبَه الإنسانُ من الفضيلةِ بخُلُقه(١).

﴿يَلْوُونَ﴾: أي: يَقلِبون ألْسنتَهم بالتحريف والزِّيادة، وأصل اللَّيِّ: فَتْلُ الحبل، وإمالةُ الشَّيء كذلك(٢).

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبِر اللهُ تبارَك وتعالَى عن عِقاب الَّذين يَستبدلون بعهدِه الَّذي عاهدهم عليه؛ مِن اتِّباع أمْر الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والإيمان به، ويَأخذون بالأيمانِ الكاذبة عوضًا قليلًا خسيسًا من متاع الدُّنيا الزَّائل، فينكثون العهدَ مع

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٥).

الله، ويَحلفون كذبًا وزورًا؛ من أجْل ذلك- يُخبر تعالى أنَّهم لا نصيبَ لهم من الخير يوم القِيامة، ولا يُكلِّمهم، كما أنَّه لا ينظُر إليهم، ولا يمتنُّ عليهم بتطهيرهم من الذُّنوب والأدناس، بل يُجازيهم بعذابٍ أليم موجِع.

ثمَّ يُخبِر الله تبارَك وتعالَى عبادَه المؤمنين أنَّ هناك جماعةً من أهل الكتاب يَعطفون ألسنتَهم، ويُميلونها بالكتاب، فيُحرِّفون لفظَه، ويَعبثون بمعناه، والغايةُ من ذلك هي إضلالُ عبادِه المؤمنين، والتلبيسُ عليهم؛ ليظنُّوا أنَّ ما يقرؤونه من الكتاب، وهو ليس منه، ويقولون عنه: إنَّه ممَّا أنزلَه اللهُ على أنبيائه، وهو ليس كذلك، وإنَّما هو ممَّا ابتدعوه وأحْدثوه من عند أنفسِهم، فهم بهذا يتقوَّلون على الله الكذبَ عمدًا، ويُلحِقون بكتابِه ما ليس منه، وهم يَعلمون في قَرارةِ أنفسِهم أنَّهم كاذِبون مفترون.

ثم يُبيِّن اللهُ سبحانه وتعالى أنَّ مِن الممتنِع، بل مِن أمحلِ المحال، أنْ يُعطي اللهُ بشرًا الكتاب، ويُعلِّمه الحِكمةَ، ويمتنَّ عليه بالنُّبوَّة، ثمَّ هو يدعو النَّاس إلى عبادة نفْسِه، فيقول لهم: اعبدوني من دون الله. بل إذا امتنَّ الله عليه بذلك، فإنَّه يأمرُهم ويقول لهم: كونوا علماءَ، عاملين بالعِلم، مخلِصين لله، عابِدين له، مُعلِّمين للنَّاس ومُربِّين؛ بسببِ تعليمِكم الكتابَ لغيركم، وبسببِ مداومتِكم على قراءتِه وحِفظِه. كما أنَّه يستحيلُ أنْ يأمرَكم باتخاذ الملائكة والنَّبيِّين أربابًا تعبُدونهم من دون الله؛ إذ كيف يأمرُكم بالكفر بالله بعد انقيادِكم له بالطاعة، واستسلامِكم له بالعبوديَّة؟!

تَفسيرُ الآيات:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

في تعلُّق هذه الآيةِ ومناسبتها لِمَا قبلها وجوهٌ:

الأول: أنَّه تعالى لَمَّا وصَف اليهودَ بالخيانة في أموال النَّاس- ومِن المعلوم أنَّ الخيانةَ في أموال النَّاس لا تَتمشَّى إلَّا بالأَيمان الكاذبة- لا جَرَمَ ذكَر عقيبَ تلك الآيةِ هذه الآيةَ المشتملةَ على وعيدِ مَن يُقْدِمُ على الأيمانِ الكاذبة.

الثاني: أنَّه تعالى لَمَّا حكَى عنهم أنَّهم يقولون على الله الكذبَ وهم يعلمون- ولا شكَّ في أنَّ عهدَ الله على كل مُكَلَّفٍ أنْ لا يَكْذِبَ على الله، ولا يخونَ في دِينه- لا جَرَمَ ذكَرَ هذا الوعيد عقيبَ ذلك.

الثالث: أنَّه تعالى ذكَر في الآيةِ السابقةِ خيانتَهم في أموال النَّاس، ثمَّ ذكَر في هذه الآية خيانتَهم في عهْدِ الله، وخيانتَهم في تعظيمِ أسمائِه حين يَحلِفون بها كذبًا[1].

الرابع: أنَّ في خيانةِ الأمانة إبطالًا للعهد وللحِلفِ الَّذي بَينهم وبين المسلمين وقُريش[2].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧)﴾.

سببُ النُّزول:

قال عبدُ اللهِ بن مسعود رضِي اللهُ عنه: مَن حلَف على يمينٍ يستَحِقُّ بها مالًا، وهو فيها فاجِرٌ، لقِي اللهَ وهو عليه غضبانُ. فأنزَل اللهُ تصديقَ ذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا- فقرَأ إلى- عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. ثمَّ إنَّ الأشعَثَ بنَ قيسٍ خرَج إلينا فقال: ما يُحَدِّثُكم أبو عبدِ الرحمنِ؟ قال: فحدَّثْناه،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٨٩).

قال: فقال: صدَق، لِفِيَّ واللهِ أُنزِلَتْ، كانتْ بيني وبين رجلٍ خُصومةٌ في بئرٍ، فاختصمْنا إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((شاهِداك أو يمينُه)). قلتُ: إنَّه إذنْ يحلِفُ ولا يُبالي، فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((مَن حلَف على يمينٍ يَستحِقُّ بها مالًا، هو فيها فاجِرٌ، لقِي اللهَ وهو عليه غضبانُ)). فأنزَل اللهُ تصديقَ ذلك، ثمَّ اقترأ هذه الآيةَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ فقرَأ إلى ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(١).

وورَدَ أيضًا عن عبدِ اللهِ بن أبي أَوْفَى رضِي اللهُ عنهما، أنَّ رجلًا أقامَ سِلْعةً، وهوَ في السُّوقِ، فحلَفَ باللهِ لقدْ أُعْطِيَ بهَا ما لم يُعْطَ؛ ليوقِعَ فيها رجلًا من المسلمين، فنزلتْ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾(٢).

ولا تعارُضَ بينهما؛ لاحتمالِ نُزولها في كلٍّ مِن القصَّتين إنْ تقارب الزمانُ، أو تكون نازلةً مرَّتيْن(٣).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

أي: إنَّ الَّذين يَستبدِلون بما عَهِدَ الله إليهم من الإيمانِ بمحمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأداءِ الأمانة، ويَستبدلون بالحلفِ باللهِ كذبًا- استحلالًا لِمَا حرَّم الله

---

(١) رواه البخاري (٢٥١٥، ٢٥١٦) واللفظ له، ومسلم (١٣٨)

وفي روايةٍ: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلم: ((مَن حَلَفَ على يمينٍ، وهوَ فاجِرٌ، ليقْتَطِعَ بها مالَ امرئٍ مسلم، لَقِيَ اللهَ وهو عليه غضبانُ)). قال: فقال الأشْعَثُ بنُ قيسٍ: فيَّ واللهِ كان ذلكَ، كان بيني وبينَ رجلٍ من اليهودِ أرض، فَجَحَدَنِي، فقَدَّمْتُه إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، فقال لي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: (أَلَكَ بَيِّنَةٌ)، قال: لا، قال: فقال لليَهودِيِّ: (احْلِف)، قال: قلتُ: يا رسولَ اللهِ إذَنْ يَحْلِفُ ويَذْهَبُ بمَالِي، قالَ: فَأَنْزَلَ اللهُ تعَالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ إلى آخِرِ الآيةِ. رواه البخاري (٢٤١٦، ٢٤١٧)، واللفظ له، ومسلم (١٣٨).

(٢) رواه البخاري (٢٠٨٨).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٥/ ٢٨٧).

عليهم من أموال النَّاس- يَستبدلون بذلك ويأخذونَ به عِوَضًا قليلًا، وبدلًا يسيرًا خسيسًا من حُطام الدُّنيا، فينكُثون عهدَ الله، ويَحلِفون كذبًا من أجْل ذلك[1].

﴿أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾.

أي: الَّذين يَفعلون ذلك لا حظَّ لهم مِن الخيرِ يومَ القيامة، ولا نصيبَ لهم منه[2].

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾.

أي: لا يُكلِّمهم اللهُ يومَ القِيامة تَكليمَ رضًا، أو كلامًا يَسُرُّهم، ولكنَّه يُكلِّمهم تكليمَ إهانةٍ وغضبٍ وسَخَطٍ[3].

﴿وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

أي: ولا يَنظُر إليهم نظرَ رحمةٍ وعطفٍ، ولا نَظرًا يَسُرُّهم[4].

﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾.

أي: ولا يُطَهِّرهم من ذُنوبهم وكُفرهم؛ ممَّا تلوَّثوا به في الدُّنيا[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥١٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٥).

قال الرازي: (قوله: ﴿لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ فالمعنى لا نصيبَ لهم في خيرِ الآخرةِ ونعيمِها، واعلمْ أنَّ هذا العمومَ مشروطٌ بإجماعِ الأُمَّةِ بعدمِ التوبةِ، فإنَّه إن تابَ عنها سقَط الوعيدُ بالإجماعِ) ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٢)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٤١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٤٢).

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أي: ولهم عذابٌ مُؤلِمٌ موجِعٌ[(١)].

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨)﴾.

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ﴾.

أي: وإنَّ من أهل الكتابِ جماعةً يَعطِفون ويُمِيلون ألسنتَهم بالكتاب؛ إمَّا بتحريفِ لفظِه، وإمَّا بتحريفِ معناه؛ بتفسيرِه على غيرِ مرادِ الله[(٢)].

﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾.

أي: يَلْوُون ألسنَتَهم بالكتاب؛ لتظنُّوا أنَّ ما يُحَرِّفونه بكلامِهم من كتابِ الله المنزَّل[(٣)].

﴿وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾.

أي: وما ذلك الَّذي لَوَوْا به ألسنتَهم من كتابِ الله[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٤٢).

قال الواحديُّ: (وأكثر المفسِّرين على أنَّ الآية نزلت في اليهود وكِتمانهم أمرَ محمد، صلَّى الله عليه وسلَّم، وإيمانهم الذي بدَّلوه من صفة محمَّد عليه السلام، هو الحقُّ في التَّوراة)، ((الوجيز)) (١/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٢١).

﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾.

أي: ويقولون عمَّا لَوَوْا به ألْسنتَهم من التحريفِ والكذبِ والباطلِ: هو ممَّا أنزلَه اللهُ على أنبيائِه[1].

﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾.

أي: وما ذلك- الَّذي لَوَوْا به ألسنتَهم فأحْدَثوه- ممَّا أنزلَه اللهُ إلى أحدٍ من أنبيائه، ولكنَّه ممَّا أحْدَثوه من قِبَل أنفسِهم[2].

﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

أي: ويتعمَّدون قولَ الكذبِ على الله، والإلحاقَ بكتابِ الله ما ليس منه، وهم يَعلمون مِن أنفسِهم أنَّهم قد كذَبوا وافترَوْا في ذلك[3].

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩)﴾.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾.

أي: ما يَنبغي لأحدٍ من النَّاس[4].

﴿أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٢١)، ((تفسر ابن عطية)) (١/ ٤٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٦).

أي: يُنَزِّل اللهُ عليه كتابَه، ويُعلِّمه الحِكمةَ، ويُعطيه النُّبوَّةَ(١).

﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.

أي: ثمَّ يدْعو إلى عِبادةِ نفْسه، ويقول للنَّاس: اعبدوني من دونِ الله(٢).

﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾.

أي: ولكن إذا آتاه اللهُ ذلك، فإنَّه يقولُ للنَّاس: كونوا عُلماءَ حُكماءَ حُلماءَ، مخلِصين للربِّ، مُتعبِّدين له، مُعَلِّمين للنَّاس، تُربُّونهم بصِغار العِلم قبلَ كِباره(٣).

﴿بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿تُعَلِّمُونَ﴾ قراءتان:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٢٤)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٥٣).

قال ابنُ جرير- بعد أنْ ذكر اختلاف المفسِّرين في معنى كلمة ﴿رَبَّانِيِّينَ﴾ قال: (وأَوْلى الأقوال عندي بالصواب في الربانيِّين: أنَّهم جمْع ربانيٍّ، وأنَّ الربانيَّ المنسوب إلى الرَّبَّان: الذي يرُبُّ الناس، وهو الذي يُصلِح أمورَهم ويرُبُّها، ويقوم بها... فإذا كان الأمرُ في ذلك على ما وصفنا... وكان العالمُ بالفقه والحِكمة من المصلِحين، يَرُبُّ أمورَ الناس بتعليمه إياهم الخير، ودُعائهم إلى ما فيه مصلحتهم، وكان كذلك الحكيمُ التقيُّ لله، والوليُّ الذي يلي أمورَ الناس على المنهاج الذي وَلِيَه المقسِطون من المصلحين أمورَ الخلق بالقيام فيهم، بما فيه صلاح عاجلهم وآجلهم، وعائدة النفع عليهم في دِينهم ودُنياهم؛ كانوا جميعًا مستحقِّين أنهم ممَّن دخل في قوله عز وجل: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾... والرباني: الجامع إلى العِلم والفقهِ البصرَ بالسياسة والتدبير والقيام بأمور الرعيَّة، وما يُصلحهم في دُنياهم ودِينهم) ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٢٩-٥٣١).

١- ﴿تُعَلِّمُونَ﴾ من التعليمِ، وكلُّ مُعلِّمٍ عالمٌ بما يُعلِّم، وليس كلُّ عالمٍ بشيءٍ معلِّمًا، فهذا أبلغُ وأمدح[1].

٢- (تَعْلَمُونَ) والمعنى: بعِلْمكم الكتابَ[2].

﴿بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ﴾.

أي: بسببِ تَعليمِكم الكتابَ لغيرِكم، الْمُتَضَمِّن لعِلمِكم[3].

﴿وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾.

أي: بسببِ مُداومتِكم على قِراءتِه، وحِفظِ ألفاظِه[4].

﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (٨٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا نفَى اللهُ تعالى أنْ يكون مَن آتاه الله النُّبوَّةَ مِن البشر داعيًا إلى نفْسه، وأثبت أنَّه يكون-ولا بدَّ- داعيًا إلى الله سبحانه وتعالى؛ أثبت أنَّ ذلك لا بدَّ أن يكون على وجهِ الإخلاص؛ لأنَّ بعضَ الشَّياطين يُحْكِمُ مكره بإبعاد التُّهمة

---

(١) قرأ بها ابن عامر والكوفيون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٩١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١١٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص:١٦٧)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٥١).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٩١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١١٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص:١٦٧)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٥٤).

(٤) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٥٥).

عن نفسه بالدُّعاء إلى غيرِه على وجهِ الشِّرْك، لا سيَّما إنْ كان ذلك الغيرُ ربانيًّا كعيسى عليه الصَّلاة والسَّلام[1]، فقال تعالى:

﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾.

أي: وما كان له أيضًا أن يأمرَكم أن تتَّخذوا الملائكة ولا النَّبيِّين أربابًا تُعبَد من دون الله، فما يَنبغي له أنْ يأمرَكم بعبادةِ أحدٍ من الخَلقِ؛ لا نبيٍّ مرسَل، ولا مَلَكٍ مقرَّبٍ[2].

﴿أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

أي: فلا يُمكن أنْ يأمرَكم بالكفر بعد إذ أنتم مُنقادُون بالطاعةِ، مُتذلِّلون بالعبوديَّة لله، قد تقرَّر إسلامُكم وثَبَتَ[3].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ....﴾ الآية أنَّ مَن بَلَغَ مِن رِقَّة الدِّيانة إلى حدٍّ أنْ يَشتريَ بعهد الله وأَيْمانه ثمنًا قليلًا، فقد بلَغ الغايةَ القُصوى في الجُرْأة على الله؛ فكيف يُرْجَى له صلاح بعد ذلك[4]؟!

٢- العمومُ في قوله: ﴿لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ عمومٌ مشروطٌ بعدم التوبة، وذلك بإجماع الأمَّة؛ فإنَّه إنْ تاب عنها، سقَط الوعيدُ بالإجماع[5].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤٦٨-٤٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٩٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٦٦).

٣- العُهودُ إذا نُكِثَتْ اختلَّ أمر الدِّين، وفسَدت مصالح الدُّنيا؛ لأجْل هذا كان الوعيدُ على نَكْث العهد- ولو كان لأجل المنفعة- أشدَّ ما نطق به الكتاب وأغلظَه، كما في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾(١).

٤- منَ أَلْزم النَّاس أو أراد منهم أن يتَّبعوا قولَه مهما كان، فإنَّه قد جعَلهم عِبادًا له؛ لأنَّ طاعة الشَّخص من العبادة، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾(٢).

٥- الإشارةُ إلى أنَّه يَنبغي للإنسان أن يكون مُعلِّمًا ربانيًّا؛ لقوله: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾، ومَن كان معلمًا لا ربانيًّا فعِلمه قاصر جدًّا؛ لأنَّ فائدة العِلم وثمرته هي العملُ والتأدُّب بآداب العِلم(٣).

٦- المعلِّمُ ليس هو الَّذي يملأ أذهانَ النَّاس عِلمًا فحسبُ، ولكن الَّذي يملأ أفكارَهم أو أذهانَهم علمًا، وأخلاقَهم تربيةً(٤).

٧- في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾، دلالةٌ على أنَّ العِلم والتعليم والدِّراسة توجب كونَ الإنسان ربانيًّا، فمَن اشتغل بالتعلُّم والتعليم لا لهذا المقصود، ضاعَ سعيُه، وخاب عملُه، وكان مَثَله مثلَ مَن غرس شجرةً حَسناءَ مونِقة بمنظرِها، ولا منفعةَ بثمرِها(٥).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا...﴾: هدَّد اللهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٥٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٥٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٧٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٨٦).

الَّذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلًا، ومنهم العلماءُ الَّذين يكتمون ما أنزل الله مداهنةً أو مراعاةً، أو من أجْل مال[١].

٢- أضاف العهدَ إلى الله في قوله: ﴿بِعَهْدِ اللَّهِ﴾؛ لأنَّه تعالى عَهِدَ إلى النَّاس في كتُبه المنزَّلةِ أنْ يلتزموا الصِّدقَ والوفاءَ بما يتعاهدون ويتعاقدون عليه، وأنْ يُؤدُّوا الأماناتِ إلى أهلها، وأنْ يَعبُدوه ولا يُشركوا به شيئًا ويتَّقوه في جميعِ الأمور، فعهدُ الله يشمل كلَّ ذلك[٢].

٣- يدخُل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ كلُّ مَنْ أخذ شيئًا من الدُّنيا في مقابلةِ ما ترَكه من حقِّ الله أو حقِّ عباده، ومَن حلَف على يمين يَقتطع بها مالًا معصومًا[٣]، ويَدخُل فيه أيضًا جميعُ ما أمر الله به، ويدخُل فيه ما نصَب عليه الأدلَّة، ويدخُل فيه المواثيقُ المأخوذةُ من جِهة الرَّسول، ويدخل فيه ما يُلزِم الرَّجُلُ نفْسَه؛ لأنَّ كلَّ ذلك من عهد الله الَّذي يَلْزَم الوفاء به[٤].

٤- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: أنه لَمَّا كان الناكثُ للعهد لا ينكُث إلَّا لمنفعةٍ يجعلها بدلًا منه، عبَّر عن ذلك بالشِّراء، الَّذي هو معاوضة ومبادلة، وسَمَّى العوضَ ثمنًا قليلًا[٥].

٥- قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يُؤخذ منه أنَّ اليمينَ الغَموس وعدمَ القيام بعهدِ الله من كَبائر الذُّنوب، وهو أمرٌ زائدٌ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٤٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٨١).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٦٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٨١).

كونه محرَّمًا؛ لأنَّ الكبيرة أعظمُ من مُطلقِ التَّحريم؛ لأنَّ فيها وعيدًا، وكلُّ ذنب رُتِّب عليه وعيدٌ فهو من كبائرِ الذُّنوب[1].

٦- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا...﴾ أنَّ حُكم الحاكمِ لا يُحِلُّ المالَ في الباطِن بقضاء الظَّاهر، إذا عَلِم المحكوم له بُطلانَه[2].

٧- إذا كان مَن اشترى بعهد الله ثمنًا قليلًا أو بيمينه ﴿لَا خَلَاقَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ﴾، فإنَّ مَنْ وفَّى بعهد الله، وحلَف على صِدق، فإنَّه لا يُحْرَمُ النصيب في الآخرة[3].

٨- قول الله تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فيه إثباتُ تكليمِه سبحانه وتعالى لأهلِ الجَنَّة، وخِطابِه لهم، ومُحاضرتِه إيَّاهم؛ فلو كان لا يُكلِّم عِبادَه المؤمنِينَ لكانوا في ذلك هُم وأعداؤُه سواءً، ولم يكُن في تخصيصِ أعدائِه بأنَّه لا يُكلِّمُهم فائدةٌ[4].

٩- المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ النَّظر الخاصُّ، أمَّا النَّظر العام، فإنَّ الله تعالى لا يُحجَب عن بصره شيءٌ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١٢٠).

ويدل على ذلك ما جاء عن أُم سَلمةَ زَوجِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إنَّما أنا بشرٌ وأنتم تختصِمون إليَّ، ولعلَّ بعضكم أن يكون ألحنَ بحُجَّتِهِ من بعض، فأَقضِيَ له على نحو ما أسمعُ منه؛ فمَن قضيتُ له بشيءٍ من حَقِّ أخيه، فلا يأخُذَنَّه؛ فإنَّما أقطعُ له قِطْعَةً من النار)). رواه البخاري (٢٦٨٠)، ومسلم (١٧١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٤٤).

(٤) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٤٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٤٦).

١٠- في مجيء الوعيد عقب الصِّلة، وهي ﴿يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ..﴾ الآية، إيذانٌ بأنَّ مَن شابههم في هذه الصِّفات، فهو لاحقٌ بهم(١).

١١- لَمَّا نسَب اللهُ فريقًا من أهل الكتاب إلى الكذِب عمومًا في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾، نبَّه إلى نوع خاصٍّ منه، هو أكذبُ الكذب، فقال: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ﴾(٢).

١٢- لَمَّا كان كلامُ الله سبحانه وتعالى لا يَلتبِس بغيره إلَّا على ضعيفِ العقل، ناقص الفِطرة، عبَّر بالحسبان؛ تنفيرًا عن السَّماع منهم، وتنبيهًا على بُعد ما يَسمَعُه الإنسان من غيره، فقال: ﴿لِتَحْسَبُوهُ﴾(٣).

١٣- لَمَّا كان الكذبُ قد يُطلَق على ما لم يُتعمَّد، بل وقع خطأً، احترز عنه بقوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: إنَّه كذِب، لا يَشكُّون فيه(٤).

١٤- يُستفادُ مِن قوله تعالى: ﴿يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ...﴾ أنَّه لا تُقبَلُ التَّرجمةُ إلَّا مِن ثقةٍ(٥).

١٥- الأنبياء أكملُ الخَلْق على الإطلاق، فأوامرُهم تكون مناسبةً لأحوالهم، فلا يأمرون إلَّا بمعالي الأمور، وهم أعظمُ النَّاس نهيًا عن الأمورِ القبيحةِ، كما في قوله: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ...﴾(٦).

١٦- مادة (درس) تستلزمُ التمكُّنَ من المفعول؛ فلذلك صار درْس الكتابَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٩٠).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤٦٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٤٦٦).
(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ١١٢)
(٦) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٦).

بمعنى فَهْمه وإتقانه؛ ولذلك عطف في هذه الآية ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ على ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ﴾[١].

١٧- خصَّ الملائكةَ والنبيِّين بالذِّكر في قوله: ﴿الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ﴾؛ لأنَّ الَّذين وُصِفوا من أهل الكتابِ بعبادةِ غير الله لم يَحكِ عنهم إلَّا عبادةَ الملائكة، وعبادة المسيحِ وعُزَيْر[٢].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾:

- قوله تعالى: ﴿يَلْوُونَ﴾، ﴿وَيَقُولُونَ﴾ مرَّتين: جِيء بالمضارعِ في هذه الأفعالِ؛ للدَّلالةِ على تجدُّد ذلك منهم، وأنَّه دأْبهم[٣].

- والضميرُ في قولِه تعالى: ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾: يرجِع إلى ما دلَّ عليه ﴿يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ﴾ وهو الكتابُ المُحرَّف، وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ تأكيدٌ لقولهم: ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾، وزيادةُ تشنيعٍ عليهم، وتسجيلٌ بالكذبِ، وفيه دلالةٌ على أنَّهم لا يُعرِّضون ولا يُورِّون، وإنَّما يُصرِّحون بأنَّه في التوراةِ هكذا، وقد أنزلَه اللهُ تعالى على موسى كذلك؛ لفَرطِ جراءتِهم على اللَّه، وقساوةِ قلوبهم، ويَئسِهم من الآخرة[٤].

- قوله تعالى: ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٧٧)، ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢٦٨- ٢٦٩).

عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾: فيه تكريرُ ﴿الْكِتَاب﴾ في الآية مرَّتين، وتكريرُ اسمِ الجَلالةِ أيضًا؛ لقَصدِ الاهتمامِ بالاسمينِ، وذلك يَجرُّ إلى الاهتمامِ بالخبَر المتعلِّق بهما، والمتعلِّقَينِ به، ويُقصَدُ بالتكريرِ أيضًا التَّفخيمُ[(١)].

- وفيه إظهارُ لفظ ﴿الكِتَابِ﴾، وإظهارُ الاسمِ الجليلِ ﴿اللَّه﴾، في مَحلِّ الإضمارِ- حيثُ قال: ﴿وَمَا هُوَ مِنَ الكِتَابِ﴾ ولم يقُل: (وما هو منه)، وقال: ﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ ولم يقُل: (وما هو من عنده)-؛ لتهويلِ ما أَقْدَموا عليه مِن القولِ[(٢)].

- وقوله: ﴿وَما هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾: ردٌّ عليهم في إخبارِهم بالكذب، وتأكيدٌ لقوله: ﴿وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ حيث نَفَى أولًا نفيًا أخصَّ؛ إذ التعليل كان لأخصَّ، ونَفَى هنا نفيًا أعمَّ؛ لأنَّ الدَّعوى منهم كانت الأعمَّ؛ لأنَّ كونَه من عند الله أعمُّ مِن أن يكون في التوراة أو غيرها[(٣)]؛ وذلك لأنَّه ليس كلُّ ما لم يكُن في الكتابِ لم يكُن من عند الله؛ فإنَّ الحُكمَ الشرعيَّ قد ثبَت تارةً بالكتابِ وتارةً بالسُّنةِ، والكلُّ من عند اللهِ، وكذا ما يَرجِع إليهما مِن الإجماعِ والقِياس الصَّحيح[(٤)].

٢- **قوله عزَّ وجلَّ: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾** فيه إيجازٌ بالحذف، ومبالغةٌ في نفْي استحقاق أيِّ أحدٍ لذلك القول؛ إذ اللام فيه للاستحقاقِ، وأصل هذا التركيب في الكلام: (ما كان فلان فاعلًا كذا)، فلمَّا أُريدتِ المبالغةُ في النَّفي، عدَل

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٥٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٢٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٢٤-٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٢٨)، ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢٦٨- ٢٦٩).

عن نفْي الفِعل إلى نفْي المصدَر الدالِّ على الجِنس، وجعَل نفْي الجنس عن الشَّخْص بواسطة نفْي الاستحقاق(١).

٣- **في قوله:** ﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ﴾ أتى بلفظ: ﴿ثُمَّ﴾ الَّتي هي للمُهلة تعظيمًا لهذا القول، وإذا انتفَى هذا القول بعد المهلة كان انتفاؤه بدونها أَوْلى وأحْرى، أي: إنَّ هذا الإيتاءَ العظيم لا يُجامع هذا القول، وإنْ كان بعد مهلةٍ مِن هذا الإنعام العظيم(٢).

٤- قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾:

- جِيء بخبرِ كان مضارعًا في قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الكتاب وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾؛ لإفادةِ الاستمرارِ التجدُّدي(٣).

- وتكريرُ ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾؛ للإيذانِ باستقلالِ كلٍّ من استمرارِ التعليمِ، واستمرارِ القراءةِ بالفضل، وتحصيلِ الربَّانية(٤).

- وتقديمُ التعليمِ على الدِّراسة؛ لزيادة شرفِه عليها، أو لأنَّ الخطابَ الأولَ لرؤسائهم، والثاني لِمَن دُونهم(٥).

٥- قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾:

- قوله: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ﴾: فيه زيادةُ حرف النَّفي ﴿وَلَا﴾ لتأكيدِ معنى النَّفي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٣٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٥٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٢- ٥٣).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٣).

في قوله: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾، وليستْ معمولة لـ(أنْ)؛ لاقتضاءِ ذلك أنْ يصير المعنى: لا يَنبغي لبشرٍ أُوتي الكتاب ألَّا يأمرَكم، وهو غيرُ صحيحٍ قطعًا[١]، أو تكون ﴿لَا﴾ لتأسيسِ النَّفْي على معنى أنَّه ليس له أنْ يأمُرَ بعبادتِه، ولا يأمُرَ باتِّخاذ أكفائِه أربابًا، بل يَنهَى عنه[٢].

- في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ تعميمٌ بعد تخصيص، والمعنى: لا يأمُركم بعبادةِ نفْسِه، ولا بعبادةِ أحدٍ من الخَلق من الملائكة والنَّبيِّين وغيرهم[٣].

- قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾: كلامٌ مستأنَف لخِطاب المؤمنين عن طريقِ التعجُّب من حالِ غيرِهم، والهمزة فيه للاستفهامِ الإنكاريِّ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٩٦- ٢٩٧).
(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٥٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢٧٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٥٤٨).

الآيتان (٨١ - ٨٢)

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ (٨١) فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ (٨٢) ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَأَقْرَرْتُمْ﴾: أَأَثْبَتُّم واعترفتُم، والإقرارُ ضدُّ الجحود، وأصلُ الإقرار: إثباتُ الشَّيء، أو التمكُّن، وقرَّ في مكانه: إذا ثبَت ثبوتًا جامدًا(١).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ... لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ﴾

﴿لَمَا آتَيْتُكُمْ﴾: قُرئت ﴿لَمَا﴾ بفتْحِ اللام وتَخفيفِ الميمِ، و(مَا) شرطيَّة، ودخَلت عليها لامُ التَّحقيقِ أو التَّوطِئة كما تدخُل على (إن) الشرطية، إذا كان في جَوابِها القَسمُ، كقوله: ﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [الإسراء: ٨٦]، فتقديرُ ﴿لَمَا آتَيْتُكُمْ﴾: لَمهمَا آتَيْتُكُمْ، أي: أيَّ كتابٍ آتَيْتُكم لتُؤمنُنَّ به. وموضِعُ (ما) الإعرابيُّ النَّصبُ على المفعولِ به بالفِعلِ الذي بَعدَها، وهو ﴿آتَيْتُكُمْ﴾، وهذا الفِعلُ مُستقبَلٌ معنًى؛ لكونِه في حَيِّز الشَّرْط، ومَحلُّه الجزمُ في جوابِ الشرط. وجوابُ الشَّرْط مَحذوفٌ؛ لدَلالةِ جوابِ القَسمِ في قوله: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ﴾ عليه، كما سيأتي.

وقيل: إنَّ (مَا) موصولةٌ بمعنى الَّذي، وهي في مَحلِّ رفْع مُبتدأ، واللامُ هي

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٧).

لامُ الابتداء، وقعت جوابًا للقَسمِ المدلولِ عليه مِن معناه ﴿أَخَذَ مِيثَاقَ﴾؛ لأنَّه يكون بالأيمانِ والعهود، وجملة ﴿آتَيْتُكُمْ﴾ صِلة (مَا)، والعائدُ محذوفٌ تقديره: آتيتكموه.

﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ﴾: جوابٌ لقوله: ﴿أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾، وجوابُ الشَّرطِ مَحذوفٌ سَدَّ جَوابُ القَسمِ مَسَدَّه، والضميرُ في ﴿بِهِ﴾ عائدٌ على اسمِ الشَّرْط- على الوجه الأوَّل في (ما) أنَّها شرطيَّة.

وأمَّا على الوجهِ الآخَر أنَّ (ما) موصولةٌ؛ فقوله: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ﴾: جوابُ قَسَمٍ مقدَّر، وهذا القَسَمُ المقدَّر وجوابُه خبرٌ للمبتدأ (ما) في ﴿لَمَا آتَيْتُكُمْ﴾، والهاءُ في ﴿بِهِ﴾ تَعودُ على المبتدأ، ولا تعودُ على ﴿رَسُول﴾؛ لئلَّا يلزمَ خُلوُّ الجملة الواقعة خبرًا من رابطٍ يربطها بالمبتدأ. وفيه أقوالٌ وتفصيلات أخرى.

- وقُرِئت (لِمَا) بكسرِ اللام والتَّخفيف، وعليه؛ فاللامُ للتعليل، وهي حرف جرٍّ، و(مَا) حينئذ: مَصدريَّة، والجارُّ والمجرور متعلِّق بـ﴿لَتُؤْمِنُنَّ﴾، أو بـ﴿أَخَذَ﴾. والتقدير: لأجْل إيتائي إيَّاكم بعضَ الكتاب والحِكمة، ثم لمجيءِ رسولٍ مصدِّقٍ لتؤمننَّ به. أو يكونُ التقديرُ: لأجْلِ إيتائي إيَّاكم كيتَ وكيتَ أخذتُ عليكم الميثاقَ. وفي الكلامِ حذفُ مضافٍ، تقديره: لِرعايةِ ما آتيتُكم. أو تكون (ما) موصولةً بمعنى الذي، ويكونُ عائدُها محذوفًا. وقيل غير ذلك[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تبارَك وتعالَى لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: واذكُرْ- يا محمَّدُ- حينما

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (١/ ٢٢٥)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٦٦)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٦٥- ١٦٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١٢٥)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٢٧٥)، ((تفسير أبي حيَّان)) (٣/ ٢٣٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢٨٤- ٢٩٠)، ((إعراب القرآن الكريم)) لدعاس (١/ ١٤٦).

عَهد الله إلى جميعِ الأنبياء، وأخَذ منهم الميثاقَ المؤكَّد، فقال لهم: بسببِ ما امتنَّ به عليهم من إعطائِهم الكتابَ والحِكمة، ثمَّ جاءَهم وجاء مَن يَتْبعهم من الأمم رسولٌ، يُقِرُّ بما جاؤوا به ويُصدِّقه- وهو الرَّسول محمَّد صلَّى الله عيه وسلَّم- فيجب عليهم الإيمانُ به وتصديقُه، ونُصرته. ثمَّ قال لهم مؤكِّدًا عليهم ومقرِّرًا لهم: أأقررتُم بهذا الميثاقِ والتزمتُم به، وأخذتُم عهدي ومِيثاقي الشَّديدَ عليه؟ فقال الأنبياءُ جميعُهم: أَقرَرْنا وقَبِلنا. فقال لهم تبارَك وتعالَى: فاشْهدوا على أنفسِكم وعلى أَتْباعِكم من الأمم بذلك، وسأكونُ أنا من الشاهِدين عليكم وعلى أُممكم؛ فمَن أَعرَض وتولَّى بعد ذلك عمَّا عاهَد عليه، فأولئك هم الفاسِقون، الخارِجون من دِين اللهِ، والمستكبِرون عن طاعتِه والتِزام أمْره.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٨١)﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾.

أي: واذْكُر- يا محمَّدُ[١]- حينَ أخَذَ اللهُ ميثاقَ جميعِ النَّبيِّين وعَهْدَهم المؤكَّدَ[٢].

﴿لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾.

---

(١) وقدَّره ابن جرير: واذْكُروا يا أهلَ الكتاب. ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٦١).

قال ابن عطيَّة: (ويحتمل أن يكون ﴿أَخَذَ﴾ هذا الميثاق حين أخرج بني آدمَ مِن ظهْر آدم نسمًا، ويحتمل أن يكون هذا الأخْذ على كلِّ نبيٍّ في زمنه، ووقت بَعْثه، ثم جمع اللَّفظ في حكايةِ الحال في هذه الآية) ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٦٣).

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

أ- في قوله تعالى ﴿لَمَا﴾ قِراءتان:

١ - (لِمَا) والمعنى: وإذ أخَذ الله ميثاقَ النبيِّين لِلَّذي آتيتُكم، واللَّام متعلِّقة بـ (أخْذ الميثاق)، فالمعنى أخَذَ الميثاقَ لإيتائِه الكِتابَ والحِكمة[1].

٢ - ﴿لَمَا﴾ والمعنى: مهما آتيتُكم من كتابٍ وحكمةٍ، بمعنى الشَّرطِ والجزاءِ[2].

ب- في قوله تعالى: ﴿آتَيْتُكُمْ﴾ قراءتان:

١ - (آتَيْناكُمْ) بلفظ الجمْع، على معنى التعظيمِ لله تبارَك وتعالَى[3].

٢ - ﴿آتَيْتُكُمْ﴾ على معنى إخبارِ المتكلِّم بفِعله عن نَفْسِه[4].

﴿لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾.

أي: لَمَهْمَا أعطيتُكم- أيُّها النَّبيُّون- من كتابٍ وحِكمةٍ[5].

﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ﴾.

---

(١) قرأ بها حمزة. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٩١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص:١٦٨)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٥١).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٩١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص:١٦٨)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٥١)، وينظر أيضًا: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٥٨).

(٣) قرأ بها نافع. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٩١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١١٢)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٥١).

(٤) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٩١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١١٢)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٥١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١٢٥)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٣/ ٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٧).

أي: ثمَّ جاءَكم- أيُّها النَّبيُّون- وجاء أُممَكم وأتْباعَكم رسولٌ يُصدِّق ما معكم من الكتُب(١)، وهو محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم(٢).

﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾.

أي: فعليكم أن تؤمنوا به وتصدِّقوه، وتنصروه على أعدائه، وتُعِينوه على نشْر

---

(١) وثَمَّةَ معنًى ثانٍ، وهو: أنه يقَعُ مصداقًا لِمَا سبَقه من الكتاب؛ لأنَّ الكتُب أخبرت به، فإذا جاء مطابقًا لما أخبرت به صار مصدقًا لها. فيكون على هذا الوجه شهادة لهذا الكتاب بأنَّه حق، ويكون مع الوجه الأول شهادة بأنَّ الكتُب السابقة حقٌّ؛ لأنَّ الله تعالى يقول في النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] فإذا جاء على الوصف الذي جاءتْ به التوراةُ والإنجيل وقع مصداقًا؛ لأنَّها أخبرت بشيءٍ، فجاء هذا الشيءُ فيكون مصدقًا. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٦٢).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١٢٥)، ((الزهد والورع والعبادة)) لابن تيمية (ص: ١٥٧)، ((هداية الحيارى)) لابن القيِّم (١/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٦٢).

ذهَب عليٌّ وابن عبَّاس رضي الله عنهم إلى أنَّ هذا الميثاق المأخوذ إنَّما هو على الإيمان بمحمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم، بينما ذَهَب طاوس والحسنُ البصريُّ إلى أنَّ المراد: أنَّ الله أخَذَ الميثاق على النبيِّين أنْ يُصدِّق بعضهم بعضًا. قال ابنُ كثير: (وهذا لا يُضادُّ ما قاله عليٌّ وابن عبَّاس ولا يَنفيه، بل يستلزمه ويَقتضيه). يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٧).

وقال ابن تيمية: (وقوله: ﴿رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ﴾ متناول لمحمَّد بالاتِّفاق... وهل يدخل في ذلك غيرُه مِن الرسل؟ فيه قولان: قيل: إنَّ الله أخذ ميثاق الأوَّل من الأنبياء أن يُصدِّق الثاني وينصره، وأمره أن يأخذ الميثاق على قومه بذلك، وقيل: بل هذا الرسول هو محمَّد خاصَّةً، وهذا قول الجمهور، وهو الصواب؛ لأنَّ الأنبياء قبله إنما كانتْ دعوتهم خاصَّةً لم يكونوا مبعوثين إلى كلِّ أحد، فإذا لم يدخل في دعوته جميعُ أهل زمنهم ومَن بعدهم؛ كيف يدخل فيها مَن أدركهم من الأنبياء قبلهم؟! والله تعالى قد بعث في كلِّ قوم نبيًّا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، وكذلك قوله: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾، والنصرة مع الإيمان به هو الجهادُ، ونوح وهود ونحوهم من الرُّسل لم يُؤمَروا بجهاد، ولكن موسى وبنو إسرائيل أُمِروا بالجهاد)، ((الرد على المنطقيين)) (ص: ٤٥٣).

رسالته[١]، ولا يَحمِلَنَّكم ما آتيتكم من كتاب وحِكمة على أن تَتركوا متابعتَه، أو تستغنوا بما آتيتكم عمَّا جاء به[٢].

وفي الحديث عن جابر بن عبد الله رضِي اللهُ عنهما، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ قالَ: ((لَو كَانَ أخِي موسى حيًّا، ما وَسِعَه إلَّا اتِّباعي))[٣].

﴿قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي﴾.

أي: اعترفتُم والتزمتُم بذلك الميثاقِ، وأخذتُم عهدي الثَّقيل، ومِيثاقي الشَّديد المؤكَّد، ووصيَّتي بالإيمانِ بهذا الرَّسول ونُصرته، وقَبِلتُم ذلك ورضيتُموه[٤]؟

﴿قَالُوا أَقْرَرْنَا﴾.

أي: قالوا: اعترَفنا وقَبِلنا، والتَزمنا بأنْ نؤمِنَ به ونَنصُره[٥].

﴿قَالَ فَاشْهَدُوا﴾.

أي: قال اللهُ تعالى للأنبياءِ: فاشهَدوا على أنفسِكم، وعلى أتْباعِكم من الأُممِ بذلك[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٤٤)، ((الزُّهد والورع والعبادة)) لابن تيمية (ص: ١٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٦٣).

(٢) يُنظر: ((دقائق التفسير)) لابن تيمية (١/ ٣٣٥).

(٣) رواه أحمد (١٥١٩٥)، وابن أبي شيبة في ((المصنف)) (٢٦٩٤٩)، وابن عبد البر في ((جامع بيان العلم وفضله)) (١٤٩٧).

صححه ابن الجوزي في ((الموضوعات)) (١/ ٣٢٢)، وحسنه الألباني في ((إرواء الغليل)) (١٥٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٤٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٦٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٦٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٤٦)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٦).

﴿وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾.

أي: وأنا معكم مِن الشَّاهدين عليكم وعلى أُممكم، وكفَى بالله شهيدًا[1].

﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٨٢)﴾.

﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ﴾.

أي: فمَن تولَّى وأَعْرَض بعد ذلك عن هذا العهدِ والميثاق، بالإيمانِ بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ واتِّباعِه ونُصْرتِه مِن أُممِ هؤلاءِ الأنبياء[2].

﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

أي: فأولئك هم الخارِجونَ مِن دِين الله، والمُعرِضون عن طاعتِه[3].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- في أخْذ اللهِ على النَّبيِّين الميثاقَ بالتكليفِ دليلٌ على أنَّهم مَرْبُوبُون، مُتعبَّدون لله عزَّ وجلَّ، كما أنَّ غيرهم كذلك[4].

٢- في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ...﴾: فضيلةُ نبيِّنا محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وعلوُّ مرتبتِه، وجلالةُ قدْره، وأنَّه أفضلُ الأنبياء؛ لكونِ اللهِ أَخَذ على جميعِ الأنبياء الميثاقَ والعهدَ أن يُؤمنوا به ويَنصُروه، وقوَّى هذا العهدِ بهذه التقريرات والإشهادات المختومةِ بقوله: ﴿وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾، ممَّا يَزيد فَضيلةً لرسول اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٤٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٧٠،١٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٧٠).

(٥) يُنظر: ((دقائق التفسير)) لابن تيمية (١/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٦)، ((تفسير =

٣- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ...﴾ خبرٌ، مقصودٌ منه أمرُ الذين كانوا في زمان الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم أن يُؤمنوا به، فإذا دلَّت هذه الآيةُ على أنَّ الله تعالى أوجبَ على جميع الأنبياء أن يُؤمنوا بمحمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم، لو كانوا في الأحياء، وأنَّهم لو تركوا ذلك لصاروا من زُمرة الفاسقين، فلأنْ يكونَ الإيمان بمحمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم واجبًا على أُممهم- لو كان ذلك- أَوْلى؛ فكان صَرْفُ هذا الميثاق إلى الأنبياء أقوى في تحصيلِ المطلوب من هذا الوجْه[1].

٤- يجوزُ، بل يُشْرَع في الأمور المهمَّة، أنْ يُقرِّر مَن أُخِذ عليه العهد؛ حتَّى يُقرَّ ويعترف، زيادةً على العقد الأوَّل الَّذي جرَى بينه وبين معاهِده، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾[2].

٥- في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَاشْهَدُوا﴾ دليلٌ على جواز إشهادِ الإنسان على نفْسِه[3].

٦- لا طَريقَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ لأحدٍ مِن الخَلْقِ إلَّا بمُتابعةِ محمَّدٍ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم باطنًا وظاهرًا، حتى لو أدرَكَه موسى وعيسى وغيرُهما من الأنبياءِ لوَجَبَ عليهم اتِّباعُه؛ يُبيِّنُ ذلك قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ

= ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٧١، ٤٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢٧٣- ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٧٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ...﴾[1].

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ فيه ردٌّ على مَن قال بحياةِ الخَضِر، وأنَّه باقٍ إلى الآن؛ إذ لو كان الخَضِرُ حيًّا لوجَبَ عليه أن يأتيَ إلى النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم فيُؤمِنَ به، ويُجاهِدَ معه؛ لأنَّ اللهَ أخَذَ الميثاقَ على الأنبياءِ وأتْباعِهم بذلك[2].

٨- في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ﴾ دليلٌ على أنَّ مَن تولَّى قبل قيام الحُجَّة عليه، لم يُحْكَم عليه بالفِسق، ويتفرَّعُ على هذا فائدةٌ مهمَّةٌ، وهي: أنَّ الشرائع لا تَلْزَمُ قبل العِلم[3].

بَلاغَةُ الآيتين:

١- في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ...﴾:

- قوله تعالى: ﴿آتَيْتُكُمْ﴾ أو ﴿آتَيْنَاكُمْ﴾ فيه: التفاتان؛ أحدهما: الخروجُ من الغَيبة إلى التكلُّم في قوله: ﴿آتَيْنَا﴾ أو ﴿آتَيْتُ﴾؛ لأنَّ قبله ذِكرُ الجلالة المعظَّمة في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ﴾. والثاني: الخروجُ من الغَيبة إلى الخِطاب في قولِه: ﴿آتَيْنَاكُمْ﴾؛ لأنَّه قدْ تقدَّمه اسم ظاهرٌ، وهو ﴿النَّبِيِّينَ﴾؛ إذ لو جرَى على مقتضى تقدُّمِ الجلالة والنبيِّين لكان التركيب: (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لَمَا آتاهم من كتاب... كذا). وقيل: مِثل هذا لا يُسمَّى التفاتًا،

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٧٤).

وإنَّما يُسمَّى حِكايةَ الحال، ونظيره قول: حلَف زيدٌ ليفعلن ولأفعلن؛ فالغَيبةُ مراعاةً لتقدُّم الاسم الظاهر، والتكلُّمُ حِكايةً لكلام الحالِف، والآية الكريمة من هذا(١).

- في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ...﴾: إيجازٌ بالحذف؛ إذ ذكَر ﴿النَّبِيِّينَ﴾ على سبيلِ المغايبة، ثم قال: ﴿آتَيْتُكُمْ﴾، وهو مخاطبةُ إضمارٍ، والتقدير: وإذ أخذ الله ميثاقَ النبيين، فقال مخاطبًا لهم: ﴿لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾. وقيل: تقدير الآية: وإذ أخذ الله ميثاقَ النبيِّين لتُبلغنَّ الناس ما آتيتُكم من كتابٍ وحِكمة، إلَّا أنه حذف (لتبلغن)؛ لدلالةِ الكلامِ عليه؛ لأنَّ لامَ القسمِ إنما تقَعُ على الفِعل؛ فلمَّا دلَّت هذه اللام على هذا الفِعل، حذفَه اختصارًا(٢).

٢- قوله تعالى: ﴿فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾:

- فيه إدخالُ (مع) على المخاطبين؛ لأنَّهم المباشِرون للشَّهادة حقيقةً. وكونُ الله تعالى معهم من الشاهِدين فيه توكيدٌ عظيمٌ للمشهودِ عليه، وتحذيرٌ شديدٌ لِمَن يُخالف مقتضَى هذه الشَّهادة(٣).

- وفيه فائدةٌ أخرى- مع التأكيدِ، وتقوية الإلزام- وهي: أنَّه تعالى وإنْ أَشهَد غيرَه، فليس مُحتاجًا إلى ذلك الإشهاد؛ لأنَّه تعالى لا يَخفى عليه خافيةٌ، لكن لضرب من المصلحة؛ لأنَّه سبحانه وتعالى يعلم السِّرَّ وأخفى، ثم

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٤٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢٩٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢٧٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٥٤).

إنَّه تعالى ضمَّ إليه تأكيدًا آخر، فقال: ﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾[1].

٣- قوله: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أسلوبُ حَصْرٌ، ووَجْهُ هذا الحَصْرِ أنَّه للمُبالغةِ؛ لأنَّ فِسقَهم في هذه الحالةِ أشدُّ فِسقًا، فجُعِل غيرُه من الفِسقِ كالعدمِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢٧٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٣٠٠).

الآيات (٨٣ - ٨٥)

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

المعنى الإجماليُّ:

في هذه الآياتِ يُنكِر اللهُ تعالى على مَن ابتغى دِينًا غير دِينه الَّذي أرسل به رسوله محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال: أَيطلُبون دِينًا غيرَ دِين الله، وشريعةً غير شريعته، وله استسلمَ جميعُ مَن في السَّموات والأرض، وانقادوا له طائعين وكارِهين، وهُم بعدَ مماتِهم راجعون إليه، فيُوفيهم أعمالَهم، ويَجزيهم على أفعالِهم؟!

ثمَّ يُوجِّه الله خِطابَه إلى رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ آمِرًا له أنْ يقولَ لهم إذا أرادوا دِينًا غير دِين الله: آمنَّا باللهِ، وما أَنزله علينا من كِتابٍ وسُنَّة، وبما أنزله على أنبيائِه إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ، وعلى أنبياء بُطُون بني إسرائيل المتشعِّبة من الأولاد الاثني عشرَ ليعقوب، وآمنَّا أيضًا بالتَّوراة والإنجيل والآيات الَّتي أيَّد الله بها موسى وعيسى عليهما السَّلام، وآمنَّا بما أُعْطِيَ جميعُ الأنبياءِ من ربِّهم؛ نؤمِن بهم جميعًا ولا نُفَرِّقُ بينهم في الإيمان، ونحنُ مُسلِمونَ لله، خاضِعون منقادون له في الظَّاهر والباطن.

ثم يُخبِر الله تبارَك وتعالَى أنَّ مَن يَبتغي غيرَ الإسلام دينًا؛ ليَدِينَ به، فلنْ يَقبلَه اللهُ منه، بل سيكونُ مَردودًا عليه، وستكونُ عاقبتُه في الآخِرة هي الخسرانَ.

تَفسيرُ الآيات:

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى في الآيةِ الأُولى أنَّ الإيمانَ بمحمَّدٍ عليه الصَّلاة والسَّلام، شرعٌ شرَعه الله، وأَوجبَه على جميع مَن مضى من الأنبياء والأُمم، لَزِمَ أنَّ كلَّ مَن كَرِهَ ذلك، فإنَّه يكون طالبًا دِينًا غير دِين الله[1]؛ فلهذا قال بعده:

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾.

أي: أَيطلُبون دِينًا غيرَ دِين الله، وشريعةً غير شريعته[2]؟

﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾.

أي: وله استسلمَ وانقادَ، وخضَع وذلَّ مَن في السَّموات والأرض طائعين: كالملائكةِ والأنبياء والمؤمنين، ومُكرَهين: كالكفَّار؛ فهم تحتَ قَهْرِ الله وسُلطانِه العظيم، مستسلِمون لقضائِه وقدَره[3].

كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥]، وقال أيضًا: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٦٧).
قال ابن تيمية: (وعامَّة السَّلف على أنَّ المراد بالاستسلام استسلامُهم له بالخضوع والذلِّ، لا مُجرَّد تصريف الربِّ لهم) ((مجموع الفتاوى)) (١٤/ ٢٩).

اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ * وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨-٤٩].

ثم يقولُ تعالى محذِّرًا لهم أن يَلقَى الإنسانُ ربَّه على غير ملَّة الإسلام[١]:

﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾.

أي: وإليه يَصيرون بعدَ مماتِهم، فيجازي كلًّا بعمله: المحسِنَ بإحسانِه، والمسِيءَ بإساءته[٢].

﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر الله تعالى في الآية المتقدِّمة أنَّه إنَّما أخذَ الميثاقَ على الأنبياء في الإيمان بالرَّسول الَّذي يأتي مصدِّقًا لِمَا معهم، بَيَّن في هذه الآية أنَّ مِن صِفة محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كونَه مصدِّقًا لِمَا معهم[٣]، فقال:

﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾.

أي: فإنِ ابتغَوْا غير دِين الله، فقل لهم- يا محمَّدُ-: آمنَّا بالله[٤]، والخِطاب للنبيِّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٥٣)

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٥٤)، وقال: (فإنِ ابتغَوا غَيرَ دِين الله يا محمَّد، فقل لهم: آمنَّا بالله، فترَكَ ذِكر قوله: (فإنْ قالوا: نعم)، وذكر قوله: (فإنِ ابْتغَوْا غيرَ دِين الله)؛ لدلالةِ ما ظهَر من الكلامِ عليه).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وأمَّته، كما قال تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُم﴾(١) [البقرة: ١٣٦].

﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾.

أي: وآمنَّا بما أُنزِل علينا مِن وحْي اللهِ من القرآنِ، ومن سُنَّة نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ(٢).

فالسُّنَّة منزَّلة(٣)، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [النِّساء: ١١٣].

﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾.

أي: وقلْ: وآمنَّا أيضًا بما أُنزل الله على إبراهيمَ، وعلى ابنيْه إسماعيلَ وإسحاقَ، وعلى ابن إسحاقَ يعقوبَ، وعلى أنبياءِ بُطون بني إسرائيل المتشعِّبة من الأولاد الاثني عَشرَ ليعقوب، وهو إسرائيلُ(٤).

وقد بيَّن اللهُ تعالى في سورة الأعلى أنَّ المنزَّل على إبراهيم عليه السَّلام إنَّما هو صُحف، وأنَّ مِن جملة ما في تلك الصُّحف: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾، وذلك في قوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾(٥) [الأعلى: ١٦-١٩].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٥٤)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٨٣).

(٥) هذا على القول بأنَّ الضميرَ في ﴿هَذَا﴾ يعود على قوله سبحانه: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٥).

﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾.

أي: وقل: آمنَّا أيضًا بالتَّوراة الَّتي أعطاها اللهُ موسى عليه السَّلام، والإنجيل الَّذي أعطاه الله عيسى عليه السَّلام، وما أيَّدهما الله به من الآيات، وبما أُعطِي جميع الأنبياء من ربِّهم[١].

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾.

أي: لا نُفرِّق بين أحدٍ منهم وآخَرَ في الإيمان؛ فنؤمِن ببعضٍ ونكفُر ببعض، لكن نؤمِن بهم جميعًا، وهذا تعريضٌ باليهود والنَّصارى[٢].

﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

أي: ونحن للهِ مستسلِمون ظاهرًا وباطنًا، منقادُون بالطاعة، مُتذلِّلون بالعبوديَّة، لا نَدين بغير دِين الإسلام[٣].

وقد جاءَ التصريحُ في القرآن بأنَّهم امتثلوا الأمْر في قوله سبحانه: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وجاء ذِكرُ جَزائِهم على ذلك في قولِه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾[٤] [النساء: ١٥٢].

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٩٣).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٥).

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾.

أي: ومَن يَطلُبْ دينًا غير الإسلام ليَدِينَ به، فلن يُقبَلَ منه ذلك الدِّينُ، وهو مردودٌ عليه[1].

﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

أي: خسِرَ ثوابَ الله ونعيمَه، وصار إلى عذابِه، وبخَس نفْسَه حظَّها من رحمة الله؛ لأنَّه يَعملُ عملًا لن يُقبَل منه[2].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- وجوب الإقرار بالإيمان باللِّسان، كما هو واجب بالقلب؛ لأنَّ قوله: ﴿قُلْ﴾ يعني: باللِّسان المعبِّر عمَّا في القلب[3].

٢- في تقديم قوله: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ﴾، وجعْل ما بعده معطوفًا عليه، دليلٌ على أنَّ الإيمان بالله هو أصل كلِّ شيء، ومقدَّم على كلِّ شيء[4].

---

(١) قيل بأنَّ الإسلام هاهنا الاستسلامُ لله تعالى، وتفويضُ الأمر إليه، وذلك أمرٌ مرادٌ من النَّاس في كلِّ زمان، ومِن كلِّ أمَّة، وفي كلِّ شريعة، وهذا اختيارُ ابن عطية في ((تفسيره)) (١/ ٤٦٧)، وابن تيمية في ((الجواب الصحيح)) (٢/ ١٣١)، وفي ((اقتضاء الصراط المستقيم)) (٢/ ٣٧٠)، والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ١٣٧).

وقيل: المرادُ بالإسلام شريعةُ محمَّد عليه الصلاة والسلام. وهذا اختيار الشنقيطي في ((أضواء البيان)) (١/ ٤٤-٤٥)، وابن عثيمين في ((تفسير سورة آل عمران)) (١/ ٤٩٧).

قال الراغب: (وهذا الوجهُ داخلٌ في الأول، فمعلومٌ أنَّ مِن الاستسلام الانقيادَ لأوامر مَن صحَّتْ نبوَّتُه وظهَرَ صِدْقُه) ((تفسير الراغب)) (٢/ ٦٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٥٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٩٤)، ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٨١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٩٣).

٣- في قوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾: بيانُ أنَّه ليس في الدِّينِ الإسلاميِّ عصبيَّة(١).

٤- فائدةُ الاختصاص في قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ أنَّه لا يَنبغي أن نستسلم لأحدٍ استسلامًا يُخالفُ الاستسلامَ لله عزَّ وجلَّ(٢).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- مَن ابتغى غيرَ دِين الله، كمَنْ آثَرَ النُّظُمَ والقوانينَ المخالفةَ لشرعِ الله تعالى، فإنَّه مستحقٌّ لهذا التوبيخِ العظيم، كما في قوله: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾(٣).

٢- عبَّر بالطَّلبِ في قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾- لأنَّ معنى ﴿تَبْغُونَ﴾: تَطلُبونَ، وهو هنا بمعنى: تَدينون؛ لأنهم مُتلبِّسون بدِينٍ غيرِ دِين الله لا طالِبُوه-؛ إشعارًا بأنَّهم في كلِّ الوقتِ باحثون عن الدِّين ومُستخرِجوه ومُبتغوه(٤).

٣- تشريفُ هذا الدِّين الَّذي شرَعه الله؛ لأنَّ اللهَ أضافَه إلى نفْسه، فقال: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾(٥).

٤- في قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾، إقامةُ الحُجَّة على أنَّه لا يَليق بالإنسان أن يَبغيَ دِينًا غير دِين الله، وهو مربوبٌ مملوكٌ لله تعالى(٦).

٥- لَمَّا جاء الجمْع في قوله: ﴿وَالنَّبِيُّونَ﴾ دون التخصيص، جاء بالإيتاء

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٩٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٩٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٧٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٤٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٧٦)، ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٣٠١).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٧٦).

دون الإنزال، من أجْل أن يشمل الآيات الَّتي قد يكون أُعطيها بعض النبيِّين[١].

٦- في قوله تعالى: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ ..﴾ الآية، ترتيبٌ بديعٌ حسنٌ؛ حيث قدَّم الإيمانَ بالله على الإيمانِ بالأنبياء؛ لأنَّه أصلُ الإيمان بالنبوةِ، وفي المرتبةِ الثانية ذكر الإيمانَ بما أنزل عليه؛ لأنَّ كتبَ سائرِ الأنبياء حرَّفوها وبدَّلوها، فلا سبيلَ إلى معرفةِ أحوالها إلا بما أُنزل اللهُ على محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، فكان ما أنزل على محمدٍ كالأصلِ لما أنزل على سائرِ الأنبياء؛ فلهذا قدَّمه عليه، وفي المرتبةِ الثالثةِ ذكر بعضَ الأنبياءِ، وهم الأنبياءُ الذين يعترف أهلُ الكتابِ بوجودهم، ويختلفون في نبوَّتهم[٢].

٧- لَمَّا قال الله في آخر الآية المتقدمة ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ أتْبعه بأن بيَّن في هذه الآية أنَّ الدين ليس إلَّا الإسلام، وأنَّ كلَّ دين سوى الإسلام فإنَّه غير مقبول عند الله[٣].

٨- قال تعالى: ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ ولم يقل: (فلن يَقبل الله منه)؛ ليعُمَّ الرَّفض والرَّد من الله عزَّ وجلَّ، ومن الرَّسول، ومن المسلمين؛ ولهذا لا يجوز للمسلمين أنْ يُقِرُّوا أحدًا على دِينٍ خِلاف شريعة الرَّسول صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٤].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- في قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ﴾ الاستفهام للتوبيخ والتَّحذير، واستنكارًا أن يفعلوا ذلك[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢٨١)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٩٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٣٠٠)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٤٨٤).

- وفيه تقريرٌ أنَّهم يفعلونه، وموضِع الهمزة هو لفظةُ (يَبْغُونَ)؛ تقديره: (أَيبغون غير دين الله)، وقدَّم المفعولَ الذي هو (غَيرَ) على فِعله ﴿يَبْغُونَ﴾؛ لأنَّه أهمُّ، من حيثُ إنَّ الإنكارَ الذي هو معنى الهمزة متوجِّهٌ إلى المعبود الباطل، وأمَّا الفاء فلعطفِ جُملةٍ على جملة(١).

- قوله تعالى: ﴿يَبْغُونَ﴾: فيه التفاتٌ من الخِطاب إلى الغَيبة(٢)؛ إعراضًا عن مخاطبتِهم إلى مخاطبةِ المسلمين بالتعجُّبِ من أهلِ الكتاب(٣).

- وكله تفريعٌ؛ ذَكَر أحوالَ خلَف أولئك الأُمم؛ كيف اتَّبعوا غيرَ ما أُخذ عليهم العهد به؛ والاستفهام حينئذٍ للتعجُّب(٤).

٢- **قوله تعالى:** ﴿**لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ**﴾ هذا خبرٌ فيه تعريضٌ باليهود والنَّصارى؛ لتفريقِهم بين الأنبياءِ، وحُذِف المعطوفُ، وتقديره: لا نُفرِّق بين أحدٍ وآخَر(٥).

٣- **قوله تعالى:** ﴿**وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ**﴾ خبرٌ متضمِّن لمعنى التهديدِ العظيم، والوعيدِ الشديد- على اعتبار الجملة مستأنفة- ويجوز أنْ تكون الجملةُ معطوفةً على الجملةِ مِن قوله: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ﴾ فتكون حالًا أيضًا، ويكون المعنى أنَّه نعَى عليهم ابتغاءَ غير دِين مَن أسلم له جميعُ مَن في السَّموات والأرض طائعين ومُكرَهين، ومَن مرجعُهم إليه(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٧٩).

(٢) الالتفاتُ على قِراءة ﴿يَبْغُونَ﴾ بالياء- وهي قراءةُ أبي عمرو، وحفص، ويعقوب. وأمَّا على قراءة الجمهور ﴿تَبغونَ﴾ بتاء الخِطاب؛ فهو خطابٌ لأهل الكتاب جارٍ على طريقةِ الخِطاب في قوله آنفًا: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ﴾، فليس فيه التفات.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٣٠٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٠٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٤٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢٩٧).

٤- قوله تعالى: ﴿وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ فيه إيجازٌ لمناسبةٍ بديعة، حيث جاءَ التعبيرُ هنا بغير إعادة (وما)، كما في قوله في سورة البقرة: ﴿وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ﴾ [الآية: ١٣٦]؛ لأنَّ التي في البقرة لفظُ الخطابِ فيها عامٌّ، ومِن حُكمِ خطابِ العامِّ البَسطُ دون الإيجاز، بخِلافِ الخِطاب هنا؛ فإنَّه خاصٌّ؛ فلذلك اكتفَى فيه بالإيجازِ دون الإطناب(١).

٥- قوله تعالى: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾:

- الآية جملة اعتراض واستئناف؛ لتلقين النَّبيِّ عليه السَّلام والمسلمين كلامًا جامعًا لمعنى الإسلام؛ ليدوموا عليه، ويُعلن به للأمم، نشأ عن قوله: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ﴾(٢).

- وفيه مناسبةٌ حسنةٌ؛ حيث عدَّى ﴿أُنْزِلَ﴾ في هذه الآية بحرفِ الاستعلاء (على)، وفي سورةِ البقرة عدَّى الفِعل بحرف الانتهاء (إلى)؛ وذلك لوجودِ المعنيين جميعًا؛ لأنَّ الوحيَ يَنزل من فوقُ، ويَنتهي إلى الرُّسُلِ، فجاءَ تارةً بأحدِ المعنيين، وأخرى بالآخَر؛ تفنُّنًا في الفصاحة(٣).

وقيل: لأنَّ الأولى (في البقرة) خِطابٌ للمسلمين، والثانية (التي هنا في آل عمران) خِطابٌ للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، و(إلى) يُنتهَى بها من كلِّ جهة، و(على) لا يُنتهى بها إلَّا من جهةٍ واحدة، وهي العلوُّ، والقرآن يأتي المسلمين من كلِّ جِهة يأتي مبلِّغُه إيَّاهم منها، وإنما أُتي النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم من جِهة العلوِّ خاصَّةً، فناسَب قوله: ﴿عَلَيْنَا﴾؛ ولهذا أكثَر ما جاء في جِهة النبيِّ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٤٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢٩٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٣٠٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٨١)، ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢٨١).

صلَّى الله عليه وسلَّم بـ (على)، وأكثر ما جاء في جِهة الأمَّة بـ (إلى)[١].

- قوله تعالى: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾: وحَّد الضَّميرَ في ﴿قُلْ﴾ وجمَع في ﴿آمَنَّا﴾؛ لوجوه[٢]:

منها: أنَّه تعالى حين خاطبَه، إنَّما خاطبه بلفظِ الوحدان، وعلَّمه أنَّه حين يُخاطبُ القومَ يخاطبُهم بلفظِ الجمْع على وجهِ التعظيم والتفخيم.

ومنها: أنَّه خاطبه أولًا بخِطاب الوحدان؛ ليدلَّ هذا الكلامُ على أنَّه لا مُبلِّغَ لهذا التكليفِ من الله إلى الخَلق إلَّا هو، ثم قال: آمنَّا؛ تنبيهًا على أنَّه حين يقولُ هذا القولَ فإنَّ أصحابه يُوافقونه عليه.

ومنها: أنَّ الجمعَ في قوله: ﴿آمَنَّا﴾ بعدَ الإفراد في ﴿قُلْ﴾؛ لكونِ الأمرِ عامًّا، والإفراد لتشريفِه عليه الصَّلاة والسلام، والإيذانِ بأنَّه أصلٌ في ذلك، أو الأمْر خاصٌّ بالإخبارِ عن نفْسه الزكيَّة خاصَّة.

والجمْع لإظهارِ جلالةِ قدْره ورِفعة محلِّه بأمره بأنْ يَتكلَّم عن نفْسه على دَيدنِ الملوك.

٦- **قوله تعالى:** ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى﴾ فيه إيثارُ الإيتاءِ على الإنزالِ الخاصِّ بالكتابِ، وتخصيصُهما بالذِّكر مع دُخولِهما فيما سبَق؛ لأنَّ الكلامَ مع اليهود والنصارى[٣].

٧- **قوله:** ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ فيه تقديمُ المُتعلِّق على المتعلَّق؛ لإفادة الحَصْر، أي: ونحن له لا لغيرِه مُسلِمون[٤].

---

(١) يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٣٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢٨١)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٩٣).

٨- **في قوله تعالى:** ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ أتى بالفاء الرابطة؛ إعلامًا بأنَّ ما بعدها مسبَّبٌ عمَّا قبلها، ومربوطٌ به فقال: ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾. وأشْعرَ ترتيبُ هذا على السَّبب بأنَّه يُرجى زوالُ السَّبب؛ لأنَّه ممَّا عرَض للعبد، كما جرَى في الرِّدَّة في خِلافة الصِّدِّيق رضي الله تعالى عنه؛ فإنَّه رجَع إلى الإسلامِ أكثرُ المرتدِّين، وحسُنَ إسلامُهم[1].

٩- **قوله تعالى:** ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الجملة حاليةٌ مفيدةٌ لتأكيدِ الإنكار[2].

١٠- **في قوله تعالى:** ﴿الْإِسْلَامِ﴾ كرَّر الإسلامَ في هذا السِّياق كثيرًا؛ لكونه في حيِّز الميثاقِ المأخوذِ بمتابعةِ الرَّسول المصدِّق؛ حثًّا على تمامِ الانقيادِ له[3].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٨٢-٣٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤٧٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٥٤).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤٧٥).

الآيات (٨٦ - ٨٩)

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٨) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٨٩)﴾.

المَعنى الإجماليُّ

يُخبِر الله تبارَك وتعالَى أنَّه لا يَهدي قومًا ارتدُّوا على أعقابِهم، وكفَروا بعدَ إيمانِهم، وشهِدوا أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حقٌّ، وجاءتهم البيِّناتُ القاطعاتُ، والبراهين الشاهدةُ على صِدقِه؛ فكيف يَستحقُّ هؤلاء الهداية؟! فالله عزَّ وجلَّ لا يَهدي إلى الحقِّ الَّذين ظلموا أنفسَهم، بترْكهم الحقَّ بعدَ معرفتهم له، واتِّباعهم الباطلَ مع وضوح بُطلانه.

ثمَّ أخبر الله تعالى عن عُقوبةِ هؤلاء الظَّالمين في الدُّنيا والآخرة، وهي الطَّرد والإبعاد من رحمتِه، وأنَّ خلْقَه جميعًا من الملائكةِ والنَّاس يَلعنونهم، وأنَّهم خالدون في هذه اللَّعنةِ والعقوبة، لا يُخفَّف عنهم من العذاب شيئًا، ولا هم يُمْهَلون أو يُؤَخَّرون.

ثم استثنى اللهُ تعالى مَن تابَ ورجَع إلى الله، وعمِل الصالحات، فهو يَغفر ذَنبَه، ويستُر عيبَه، ويَتجاوز عن خطاياه، وذلك من لُطفه سبحانه وبرِّه، ورأفته ورحمته بخَلقه.

تَفسيرُ الآيات:

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ

الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا عظَّم اللهُ تعالى أمْر الإسلام والإيمان بقوله: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، أكَّد ذلك التعظيم بأنْ بيَّن وعيدَ مَن ترك الإسلام، فقال: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾[1].

سبب النُّزولِ:

عن ابن عبَّاس رضِي اللهُ عنهما، قال: كانَ رجلٌ منَ الأنصارِ أسلمَ، ثمَّ ارتدَّ ولحِقَ بالشِّرْكِ ثمَّ تندَّمَ، فأرسلَ إلى قومِه: سلوا لي رسولَ اللَّهِ، صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، هل لي من توبةٍ؟ فجاءَ قومُه إلى رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ، فقالوا: إنَّ فلانًا قد ندِمَ، وإنَّهُ أمرنا أنَّ نسألَكَ: هل لَهُ من توبةٍ؟ فنزلَت: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ إلى قولِهِ: ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فأرسلَ إليهِ فأسلمَ[2].

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾.

أي: لا يَهدي اللهُ قومًا ارتدُّوا بعدَ أنْ آمنوا؛ فكيف يستحقُّون الهدايةَ، وقد اختاروا الكُفر والضَّلال، بعدَ أن عَرَفوا الحقَّ، ودخلوا في الإيمان[3]؟!

﴿وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٨٣).

(٢) رواه النسائي (٤٠٦٨) واللفظ له، وأحمد (٢٢١٨)، وابن حبان (٤٤٧٧)، والحاكم (٨٠٩٢). صححه ابن دقيق العيد في ((الاقتراح)) (١٠٥)، وصحح إسناده أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٤/ ٤٨)، والألباني في ((صحيح سنن النسائي)) (٤٠٦٨)، وصححه الوادعي في ((الصحيح المسند)) (٥٨٥) وقال: رجاله رجال الصحيح.

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٦٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٠٢).

أي: وبعدَ أنْ أقرُّوا أنَّ محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ رسولُ الله إلى النَّاس حقًّا، صادقٌ فيما أخبر، عادلٌ فيما حَكم[1].

﴿وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾.

أي: وجاءتْهم الحُجج من عند الله، وقامتْ عليهم الدلائلُ والبراهين الَّتي تُبيِّن صِدْقَ ما جاء به الرَّسول صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[2].

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

أي: واللهُ عزَّ وجلَّ لا يُوفِّق للحقِّ الَّذين ظلموا أنفسَهم؛ فتركوا الحقَّ بعدما عرَفوه، واتَّبعوا الباطل مع عِلمهم ببُطلانِه[3].

ثم أخبَر عن عقوبةِ هؤلاءِ المعانِدين الظالمين الدُّنيويَّة والأخرويَّة، فقال:

﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧)﴾.

أي: هؤلاء الَّذين كفَروا بعد إيمانِهم، وشهِدوا أنَّ الرَّسول حقٌّ، وجاءَهم البيِّنات- ثوابهم[4] ومكافأتُهم طَرْدُ الله لهم، وإبعادُهم من رحمتِه، ولعْنُ خلْقِه لهم؛ من الملائكةِ والنَّاس جميعًا[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٠٤).

قال الواحديُّ: (وقوله: ﴿وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ يجوز أن يُريد ما بيَّن لهم في التوراة والإنجيل، وهو قول ابن عبَّاس. ويجوز أن يُريد: ما أتَى به النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الكتاب والآيات والمعجزات) ((التفسير الوسيط)) (١/ ٤٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٠٥).

(٤) والثَّواب: ما يَرجِع إلى الإنسانِ من جزاءِ أعماله، والثَّواب يُقال في الخير والشر، لكن الأكثر المتعارَف في الخير. يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٠٥).

﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٨)﴾.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾.

أي: ماكثِينَ في عُقوبةِ الله ولعنتِه[1].

﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾.

أي: لا يُنْقَصون من العذابِ شيئًا، ولا تُهَوَّن عليهم العقوبة[2].

﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾.

أي: ولا هم يُمْهَلون، ولا يُؤَخَّرون، ولا يؤجَّلون[3].

ثم استثنى - جلَّ ثناؤه - الَّذين تابوا من هؤلاء الَّذين كفروا بعد إيمانهم، فقال:

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٨٩)﴾.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾.

أي: إلَّا الَّذين رجَعوا إلى الله، وراجَعوا الإيمانَ بالله ورسولِه من بعد كُفرِهم وارتدادِهم، وأصْلَحوا ما أَفْسَدوا، وعمِلوا الصَّالحات[4].

﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

أي: فإنَّ اللهَ يَستُر عليهم الذُّنوب، ويتجاوزُ عنها، ويترُكُ العقوبةَ عليها،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٦١)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥١٤).

ويتعطَّف عليهم بالرَّحمة، الَّتي تَقتضي الإحسانَ والإنعام[١].

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾، إشارةٌ إلى أنَّ الجزاء من جِنس العمل، فإنَّ هؤلاء لَمَّا ارتكبوا ثلاثَ جرائم، أو ثلاثةَ أمورٍ في كُفرهم، كان عليهم لعنةُ الله والملائكةِ والنَّاس، ثلاثٌ بثلاثٍ[٢].

٢- زلَّة العالم أقبحُ من زلَّة الجاهل؛ يُستفادُ ذلك من قوله: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾[٣].

٣- في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: دليلٌ على أنَّ التَّوبة تَجُبُّ ما قبلها[٤]، أي: تقْطَعُ وتَمْحو ما كانَ قَبْلَها مِنَ الكُفرِ والمعاصي والذُّنوب.

٤- في قوله تعالى: ﴿وَأَصْلَحُوا﴾: دليلٌ على أنَّ التوبة وحدها لا تكفي؛ إذ لا بدَّ معها من الإصلاح، وهذا واجبٌ في كلِّ مَن يتعدَّى جُرْمُه إلى غيره، أنْ يقومَ بإصلاحِ ما ترتَّب على هذا الجرم[٥].

٥- يَتبيَّن من قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ أنَّ التَّوبة الَّتي لا تأثيرَ لها على سلوكِ الإنسانِ وحالِه وأعمالِه، لا شأنَ لها ولا قيمةَ في نظرِ الدِّين؛ ولذلك جرى القرآنُ على عطفِ العملِ الصَّالح عليها عند ذِكرِها، أو وصْفِها بالنَّصوح[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥١٥).
قال ابن عاشور: (﴿فإنَّ الله غفورٌ رحيمٌ﴾ عِلَّة لكلامٍ محذوف، تقديره: اللهُ يغفر لهم؛ لأنَّه غفورٌ رحيم) ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٣٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥١٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥١٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٣٠١).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- يُستفادُ مِن قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾: أنَّ مَن ضلَّ عن بصيرةٍ، فإنَّه يَبعُد أن يُهْدَى، ومَن فسَقَ عن بصيرةٍ فإنَّه يبعُد أنَّ يكونَ من العدول(١).

٢- الجاهِلُ إذا عُرِّفَ وعُلِّم، فهو قريبٌ إلى الانقيادِ والاتِّباع، وأمَّا المعانِدُ فلا دواءَ فيه؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(٢).

٣- في قوله: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا﴾: استعظَم اللهُ كُفرَ القوم؛ لأنَّه حصل بعد خِصالٍ ثلاث؛ وهي: الإيمان، والشَّهادة بكون الرَّسول حقًّا، وبعدَ مجيءِ البيِّنات؛ فيكون الكفرُ بعدَ هذه الأشياء أقبحَ؛ لأنَّ مثلَ هذا الكفرِ يكون كالمعاندةِ والجحود(٣).

٤- شأنُه سبحانه في كلِّ مَن أنعَم عليه بنِعمةٍ فكفرَها أنَّه يَسلبُه إيَّاها بعدَ أنْ كانتْ نصيبَه وحظَّه؛ قال تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ وكما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(٤).

٥- لَمَّا كان المقيمُ في الشدَّة قد تَنقُص شدَّتُه إذا طالتْ، نفَى ذلك بقوله: ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥١٦).

(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٨٤).

(٤) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٨٠)

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤٧٧).

٦- قول الله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، استدلَّ به من قال بقَبولِ توبَةِ المرتَدِّ في الجملةِ؛ فاللهُ تعالى أخْبَر أنَّه غفورٌ رحيمٌ لِمَن تابَ بعدَ الرِّدَّة، وذلك يَقتَضي مَغفرتَه له في الدُّنيا والآخرة، ومَن هذه حالُه لم يُعاقَبْ بالقتْلِ[1].

٧- في الجمْعِ بين الغفور والرَّحيم زيادةُ معنى على ما يَتضمَّنه الاسمان، وهو أنَّ الله تعالى قد جمَع بين المغفرة الَّتي بها زوالُ المكروه، وآثار الذنب، والرَّحمة الَّتي بها حُصولُ المطلوبِ، وهو النِّعمةُ والإحسان، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[2].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ هذا استئنافٌ ابتدائيٌّ يُناسب ما سبَقه من التنويهِ بشَرف الإسلام، و﴿كَيْفَ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ، معناه النَّفي، والمقصودُ استبعاد لأنْ يُرشدَهم الله للصَّواب ويوفِّقهم؛ فإنَّ الحائد عن الحقِّ بعدَما وضَح له، منهمكٌ في الضَّلال، بعيد عن الرَّشاد، وإنكارُ أنْ تحصُل لهم هدايةٌ خاصَّة، وهي إمَّا الهدايةُ الناشئةُ عن عِنايةِ الله بالعبدِ ولُطفه به، وإسنادُها إلى الله ظاهر، وإمَّا الهدايةُ الناشئة عن إعمالِ الأدلَّة والاستنتاجِ منها، وإسنادُها إلى الله؛ لأنَّه موجِدُ الأسباب ومُسبَّباتِها[3].

(١) يُنظر: ((الصارم المسلول على شاتم الرسول)) لابن تيمية (ص:٣١٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥١٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٨٣، ٢٨٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٣٠٠)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٣٠٣).

وفيه: تأكيدٌ للتعظيم السابق ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ﴾، حيث بيَّن وعيدَ مَن ترَكَ الإسلام، وأكَّده هنا بقوله: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾(١).

٢- قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ فيه تعميمٌ للحُكم بعد ذِكر بعض أفراده؛ فإنَّه قال في أوَّل الآية: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا...﴾ وقال في آخرها: ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾؛ فقوله: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ﴾ مختصٌّ بالمرتدِّين، ثم إنَّه تعالى عمَّم ذلك الحُكم في المرتدِّ، وفي الكافر الأصلي، فقال: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾؛ وسمَّى الكافر ظالِمًا؛ لأنَّ الشِّرك ظُلمٌ عظيم(٢).

٣- في قوله: ﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ...﴾ أتى باسم الإشارةِ ﴿أُولَئِكَ﴾ على وجهِ البُعد؛ إشارةً إلى انحطاطِ مرتبتهم(٣).

٤- قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أشارَ اللهُ تعالى إلى ما سبَقَ من الكُفر بقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾، وهي إشارةُ البعيد؛ وذلك لانحطاطِ مَرتبتِه(٤).

٥- قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فيه تعليلٌ لِمَا دلَّ عليه الاستثناءُ(٥)، مع ما فيه من تأكيد الخبر بـ(إنَّ) واسميَّة الجملة، والمبالغة في صِيغةِ فعول وفعيل ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٨٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ٢٨٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٠٥).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٥١٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٥٦).

الآيتان (٩٠ - ٩١)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ ﴾.

المَعنَى الإجماليُّ

يَتوعَّد اللهُ تبارَك وتعالَى الَّذين كفروا وارتدُّوا بعد إيمانهم، ثمَّ ازدادوا كُفرًا، واستمرُّوا عليه إلى أنْ جاءَهم الموت، بأنَّه لن يَقبلَ لهم توبةً؛ فهُم الَّذين خرَجوا عن المنهج الحقِّ إلى طريق الغيِّ والضَّلال في أقوالهم وأفعالهم.

ثم يُخبر تعالى بأنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وهم متلبِّسون بالكفرِ غيرَ تائبين منه، فإنَّه لن يَقبل من أحدٍ منهم شيئًا عمِله، ولو أنفق تقرُّبًا إليه مِلءَ الأرض ذهبًا، أو افتدَى نفْسَه به، فإنَّه لن يقبلَ منه، بل أُولَئِكَ لَهُمْ عند الله في الآخرة عَذَابٌ موجِعٌ مؤلم، ولن يَجِدوا ناصرًا ينصرُهم ويُنقذهم من عذابِ الله.

تَفسيرُ الآيتَين:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (٩٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا رغَّبَ في التوبة في قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، رهَّب من التواني عنها[١]، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ...﴾.

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤٧٨).

سببُ النُّزول:

عَنِ ابنِ عباسٍ أنَّ قومًا أَسلَموا ثمَّ ارتدُّوا ثمَّ أَسلَموا ثمَّ ارتدُّوا، فأرْسلوا إلى قومِهم يَسألونَ لهم، فذَكروا ذلك لرسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فنزلَتْ هذه الآيةُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾[1].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾.

أي: إنَّ الَّذين كفروا وارتدُّوا بعدَ إيمانهم[2].

﴿ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾.

أي: ثمَّ أقاموا على كُفرِهم واستمرُّوا عليه إلى الممات، وتمادَوْا في ضلالهم، وأخَّروا التوبةَ إلى حُضور الموت- فلن يَقبلَ اللهُ لهم توبةً[3].

كما قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾ [النساء: ١٨].

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾.

أي: وهؤلاء الَّذين كفروا بعدَ إيمانهم، ثمَّ ازدادوا كُفرًا، هم الَّذين ضلُّوا

(١) رواه البزار كما في ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧٢). وجود إسناده ابن كثير.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٢٠).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٢٠)، وعزاه ابن تيميَّة للأكثرين في ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٢٩).

وقال بعضُ العلماء: معنى ﴿لن تُقبل توبتهم﴾: لن يُوفَّقوا للتوبة، حتى تُقبل منهم، ويَشهد له قولُه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٣٧]، فعدم غفرانه لهم؛ لعدم هدايتهم السبيل الذي يغفر لصاحبه، ونظيرها قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا * إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾ [النساء: ١٦٨-١٦٩]. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٠٢).

سبيل الحقِّ، وأخطؤوا الطَّريق القويم في الأقوال والأفعال(١).

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٩١)﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾.

أي: إنَّ الَّذين كفَروا، وماتوا على الكُفر(٢).

﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ﴾.

أي: مَن مات على الكُفرِ، فلن يَقبَل اللهُ منه شيئًا مِن عَمِله، ولو كان أنفقَ مِلْءَ الأرض ذهبًا تقرُّبًا إلى الله، وكذلك لو افتَدَى نفْسَه من الله بمِلْءِ الأرض ذهبًا ما قَبِل الله منه(٣).

عن عائشةَ رضِي اللهُ عنها، قالت: قُلتُ: يا رسولَ اللهِ، ابنُ جُدْعَانَ كان في الجاهِليَّة يَصِلُ الرَّحِمَ، ويُطعِمُ المِسكينَ؛ فهَلْ ذاكَ نافِعُه؟ قال: ((لا يَنْفَعُه؛ إنَّه لَمْ يَقُلْ يومًا: رَبِّ اغفِرْ لي خَطيئَتي يومَ الدِّين))(٤).

وعن أنسِ بن مالك رضِي اللهُ عنه، عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((يقولُ الله تعالى لأهونِ أهلِ النَّارِ عذابًا يومَ القيامةِ: لو أنَّ لك ما في الأرضِ من شيءٍ أكُنتَ تفتدي به؟ فيقولُ: نعمْ. فيقولُ: أردتُ منكَ أهونَ من هذا، وأنتَ في صُلبِ آدمَ: ألَّا تُشرِكَ بي شيئًا، فأَبَيْتَ إلَّا أنْ تُشرِكَ بي))(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧٢).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧٢).

(٤) رواه مسلم (٢١٤).

(٥) رواه البخاري (٦٥٥٧)، ومسلم (٢٨٠٥).

وصرَّح في مواضعَ أُخَرَ بأنَّه لو زِيد بمثلِه لا يُقبَل منه أيضًا فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٣٦]، وبيَّن في مواضع أُخَر، أنَّه لا يُقبل فداءٌ في ذلك اليوم منهم بتاتًا كقوله: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾(١) [الحديد: ١٥].

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أي: هؤلاء الَّذين كفروا، وماتوا وهم كُفَّار، لهم عند اللهِ في الآخِرة عذابٌ موجِعٌ مؤلِم(٢).

﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾.

أي: وليس لهم أحدٌ ينصُرهم ويَستنقذُهم من عذابِ الله، أو يُجيرُهم من أليمِ عِقابِه(٣).

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا﴾: دليلٌ على أنَّ ازدياد الكُفرِ عبارةٌ عمَّا يُنمِّيه ويقوِّيه من الأعمال الَّتي يقاوم بها الإيمان، فالكفرُ يَزداد قوَّةً واستقرارًا وتمكنًا بالعمل بمقتضاه، كما أنَّ الإيمانَ كذلك(٤).

٢- يُؤخذ من قوله تعالى: ﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ أنَّ قَبولَ التوبة المستلزِم لمغفرة الذَّنب ليس من قَبيل العطاء الجُزاف، وإنَّما يكون بموافقةِ سُنن الله في الفِطرة الإنسانيَّة السليمة، فمقتضاها أنْ يُحدِث لها العِلمُ بقُبح الذنبِ وسوءِ

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٠٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٢٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٣٠١).

عاقبتِه أَلَمًا يَحمِلُها على ترْكه ومَحْو أثره، بعمل صالح يُحْدِثَ فيها أثرًا مضادًّا لذلك الأثر(١).

٣- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾: دليلٌ على أنَّ السيِّئات يُنتِج بعضها بعضًا، وخصوصًا لِمَن أَقدم على الكُفر العظيم، وترَكَ الصِّراط المستقيم، وقد قامتْ عليه الحُجَّة، ووضَّح اللهُ له الآياتِ والبراهين(٢).

٤- دلَّ قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ...﴾ على أنَّ الأمر يسيرٌ على المؤمن؛ لأنَّه يَفتدي من عذاب الله بما هو أقلُّ مِن مِلْء الأرض ذهبًا، وهو الإيمانُ والعملُ الصالح، وأداءُ ما يجِب عليه من الحقوق الماليَّة(٣).

٥- مَن لم ترتَقِ رُوحُه في الدُّنيا إلى درجةِ الإيمان الصَّحيح؛ فإنَّها لا ترتقي في الآخرة من الهاويةِ إلى درجةٍ من الدَّرجات العُلا في الجنَّة، ولو افتدَى بمِلْءِ الأرضِ ذهبًا في الآخرة، على فرْض أنْ يملكَه، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ﴾(٤).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- أنَّ المرتدَّ إذا بقي على رِدَّته، فإنَّه لا تُقبَل توبتُه عند الموت؛ لقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾، وهذا لا يكون إلَّا بالردَّة(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٣٠٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٢١).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٣٠٣- ٣٠٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٢١).

٢- أنَّه كلَّما تمادَى الإنسان في الكفر ولم يتُبْ، فإنَّه يزداد؛ لأنَّ كلَّ وقت يمرُّ عليه يزداد وزرًا إلى وزره، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا﴾[1].

بَلاغَةُ الآيتين:

١- في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا﴾: عبَّر عن ذلك بأداة التراخي (ثمَّ)؛ إشارةً إلى تمادِيهم على ذلك، وعدَم مبادرتِهم بالتوبةِ[2].

٢- في قوله تعالى: ﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ لم تَدخُل الفاءُ في: ﴿لَنْ تُقْبَلَ﴾، ودخلتِ الفاءُ في قوله: ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ﴾؛ وذلِك أنَّ تَرْكَ الفاءِ مُؤذِنٌ بأنَّ الكلامَ مبتدأٌ وخبرٌ، ولا دَليلَ فيه على التَّسبيبِ، وأمَّا الفاء فمؤذِنةٌ بالاستحقاقِ بالوصفِ السَّابق، ومُؤذنةٌ بأنَّ الكلامَ بُني على الشَّرطِ والجزاءِ، وأنَّ سببَ امتناعِ قَبول الفِديةِ هو الموتُ على الكُفر، وفي الآيةِ بعدَها قال: ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾، وهنا لم يُصرِّح بهذا القيدِ، ولأنَّه لَمَّا كانوا لا يتوبون إلَّا عندَ إشرافِهم على الهلاك، كنَّى عن عَدمِ توبتِهم بعَدمِ قَبولِها؛ تغليظًا في شأنهم، وإبرازًا لحالهم في صورة حالِ الآيسين من الرَّحمة، أو لأنَّ توبتَهم لا تكونُ إلَّا نفاقًا؛ لارتدادِهم وازديادِهم كفرًا؛ ولذلك لم تدخُلْ فيه الفاءُ[3].

٣- قوله تعالى: ﴿وَلَوِ افْتَدَى بِهِ﴾: في فائدةِ ذِكر الواوِ في قوله: ﴿وَلَوِ﴾ وجوه[4]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٢١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٨٢-٣٨٤)، ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٤٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٣٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٨٧)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٣٥٢).

منها: أنَّها للعطف، والتقدير: لو تقرَّب إلى الله بمِلْءِ الأرض ذهبًا، لم ينفعْه ذلك مع كُفره، ولو افتدَى من العذاب بمِلْء الأرض ذهبًا لم يُقبل منه، وهذا أوْكَدُ في التَّغليظ؛ لأنَّه تصريحٌ بنفي القَبول من جميع الوجوه.

ومنها: أنَّ الواو دخلتْ لبيان التفصيل بعدَ الإجمال الذي في قوله: ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا﴾؛ لاحتمالِه لوجوهٍ كثيرة، فنصَّ على نفي القَبول بجهة الفِدية.

ومنها: أنَّها مبالغةٌ في إظهارِ غضَب الربِّ سبحانه عليهم؛ حيث حَكَم تعالى بأنَّه لا يُقبل منهم ملءُ الأرض ذهبًا، ولو كان واقعًا على سبيل الفداء؛ تنبيهًا على أنَّه لَمَّا لم يكن مقبولًا بهذا الطريق، فبأنْ لا يكونَ مقبولًا منه بسائرِ الطُّرق أَوْلى.

٤- **في قوله تعالى: ﴿مِلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا﴾**: فيه إيجازٌ بالحذف؛ إذ مِن المعلوم أنَّ الكافرَ لا يملك يومَ القيامة نقيرًا ولا قِطميرًا، وحتى لو مَلَكَهما فلا يَنفعانِ أَلْبَتَّةَ في الدار الآخِرة، فالتقدير: أنَّهم إذا ماتوا على الكُفر، فلو أنَّهم كانوا قدْ أنفقوا في الدُّنيا ملءَ الأرض ذهبًا، لن يَقبل اللهُ تعالى ذلك منهم؛ لأنَّ الطاعةَ مع الكفرِ لا تكون مقبولةً. أو يكون الكلامُ وقَع على سبيلِ الفرْض والتقدير؛ فالذهبُ كنايةٌ عن أعزِّ الأشياء، والتقدير: لو أنَّ الكافرَ يومَ القِيامة قدَرَ على أعزِّ الأشياء، ثُمَّ قدَر على بذْله في غايةِ الكثرة، لعجَز أن يتوسَّل بذلك إلى تخليصِ نفْسِه من عذابِ الله(١).

٥- **قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾**: فيه مبالغةٌ في التحذير، وتأكيدٌ على عدمِ العفوِ عنهم، وإقناطٌ؛ لأنَّ مَن لا يُقبل منه الفداء، ربَّما يُعفَى عنه تكرمًا(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٨٧- ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٢٨).

٦- قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي﴾ وقوله: ﴿لَا يَهْدِي﴾: فيه تكرار[١]؛ للتأكيد. أو يكون قوله: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ﴾ مختصًّا بالمرتدِّين، ثمَّ إنَّه تعالى عمَّم ذلك الحُكمَ في المرتدِّ، وفي الكافر الأصليِّ، فقال: ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[٢]، وعلى هذا؛ ففيه ذِكرُ حُكمٍ عامٍّ بعد حُكمٍ خاصٍّ؛ وهو مفيدٌ للتأكيد أيضًا.

٧- قوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾: فيه تأكيدٌ بضميرِ الفَصْل ﴿هُمْ﴾[٣].

٨- قوله تعالى: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: فيه تنكيرُ ﴿عَذَابٌ﴾؛ للتهويلِ. وفيه زيادةُ مبالغةٍ بوصْفِه بـ﴿أَلِيم﴾ مع العُدولِ من مُفعِل (مؤلم) إلى فَعيل ﴿أَلِيم﴾[٤].

٩- قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ﴾: الإشارة بـ﴿أُولَئِكَ﴾ وما فيه مِن معنى البُعد؛ للتنبيهِ على أنَّهم أحرياءُ بما يرِدُ بعدَ اسمِ الإشارةِ من الحُكم عليهم[٥].

١٠- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾: فيه توكيدٌ لفظيٌّ بالمرادف، وليُبنى عليه التفريعُ بقوله: ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ...﴾[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٥٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٨٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٥٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٣٠٤).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٠٥).

الآية (٩٢)

﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ٩٢﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿البِرَّ﴾: التوسُّع في فِعل الخير، والاتِّساع فِي الإحْسَان، ويطلق البِرُّ على الدِّين والطاعَة، وأصلُ (البِر): الصِّدقُ في المحبَّة[1].

المَعنَى الإجماليُّ

يَحثُّ الله تبارَكَ وتعالَى عبادَه المؤمنين على الإنفاق والبَذل، فيقول لهم: لن تُدركوا البرَّ- وهو الخيرُ الكثير من الله- ولن تَبلغوه، حتَّى تنفقوا وتتصدَّقوا من نفائس أموالكم الَّتي تحبُّها قلوبُكم، وتتعلَّق بها نفوسُكم، ومهما تُنفقوا من شيءٍ مِن أموالِكم، فإنَّ الله يَعْلمُه، فيَجزي صاحبَه عليه في الآخِرة الجزاءَ الأَوْفى.

تَفسيرُ الآية:

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٩٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ سُبحانَه في الآيةِ السابقةِ أنَّ الَّذين كفروا لن يُقبل من أحدِهم أعظمُ ما يُنفقه لتخليصِ نفْسِه في الآخِرة ممَّا يَلحَقه من الشدائد، حضَّ المؤمنين على الإنفاق، وبيَّن أنَّ الأحبَّ منه أجدرُ بالقَبول؛ وأنَّه يَبلُغ بصاحبه إلى مرتبة البرِّ[2]، فقال:

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٧٧- ١٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٣١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٥).

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾.

أي: لنْ تُدركوا الخيرَ الكثيرَ من اللهِ بتفضُّله عليكم، بإدخالِكم الجَنَّةَ، وصَرْفِ العذاب عنكم- الَّذي يُطلَب بطاعة الله وعبادته- حتَّى تُنفقوا وتتصدَّقوا من أموالِكم الَّتي تحبُّها قلوبُكم(١).

﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾.

أي: ومهما تُنفقوا من شيءٍ من أموالِكم، فإنَّ الله ذُو عِلم به، ويُجازي صاحبَه عليه جزاءَه في الآخِرة، ويُثيبه على ما أنفَقَ(٢).

عن أنسِ بن مالكٍ رضِي اللهُ عنه، قال: كان أبو طلحةَ أكثرَ أنصاريٍّ بالمدينة مالًا، وكان أحبَّ أموالِه إليه بَيْرَحاءُ- وكانتْ مستقبلةَ المسجِد، وكان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يدخُلها، ويَشرَب من ماءٍ فيها طيِّب- قال أنس: فلمَّا نزلت: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا ممَّا تُحِبُّونَ﴾، قال أبو طلحة: يا رسولَ اللهِ، إنَّ الله يقول: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا ممَّا تُحِبُّونَ﴾، وإنَّ أحبَّ أموالي إليَّ بَيرَحاءُ، وإنَّها صدقةٌ لله، أرجو بِرَّها وذُخرَها عند الله تعالى؛ فضعْها يا رسول اللهِ حيث أراك الله تعالى، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((بَخٍ، ذاك مالٌ رابحٌ، ذاك مالٌ رابحٌ، وقد سمعتُ، وأنا أرَى أن تجعلَها في الأقربِينَ))، فقال أبو طلحة: أفعلُ يا رسول اللهِ، فقَسَمها أبو طلحة في أقاربِه وبَنِي عمِّه(٣).

وعنِ ابنِ عُمَرَ رضِي اللهُ عنهما، قال: أصابَ عُمَرُ أرضًا بخَيبرَ، فأتَى النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَستأمِرُه فيها، فقالَ: يا رَسولَ اللهِ، إنِّي أَصبْتُ أرضًا بخَيبرَ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٨).

(٣) رواه البخاريُّ (٢٧٦٩)، ومسلم (٩٩٨) باختلافٍ يسير، وأحمد (١٢٤٦١) واللَّفظ له.

لم أُصِبْ مالًا قَطُّ هو أَنْفَسَ عندي منه؛ فما تَأْمُرُني به؟ قالَ: ((إنْ شِئْتَ حَبَسْتَ أَصْلَها، وتَصَدَّقْتَ بها، قال: فَتَصَدَّقَ بها عُمَرُ؛ أَنَّهُ لا يُباعُ أَصْلُها، ولا يُبْتاعُ، ولا يُورَثُ، ولا يُوهَبُ، قال: فَتَصَدَّقَ عُمَرُ في الفُقراءِ، وفي القُرْبَى، وفي الرِّقابِ، وفي سَبيلِ اللهِ، وابنِ السَّبيلِ، والضَّيْفِ...)) الحديث(١).

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- تحريضُ المؤمنين على نَيْل البِرِّ بتقديم محبَّة الله تعالى على محبَّة الأموال، فبالنُّزول عمَّا يحبُّون، وببذل الطَّيِّب من المال، سخيَّةً به نفوسُهم، تحصُل تزكيةُ النَّفْس من بقيَّة ما فيها من الشُّحِّ، والتَّحرُّر من استرقاقِ المال، ومن حبِّ الذَّات(٢).

٢- الشيء الَّذي تتعلَّق به النَّفسُ كثيرًا هو الَّذي تَشُحُّ النفس في إنفاقه؛ لذا كان إنفاقُه علامةً على قوَّة الإيمان؛ لأنَّه لا يُدفع القويُّ إلَّا بما هو أقوى منه، كما قال تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾(٣).

٣- في الإنفاقُ من المال المحبوبِ صلاحٌ عظيمٌ للأُمَّة؛ إذ تجود أغنياؤها على فُقرائِها بما تَطمَح إليه نفوسُهم من نفائسِ الأموال، فتشتدُّ بذلك أواصرُ الأُخوَّة، ويَهنأ عيشُ الجميع(٤).

٤- مَا كان أحبَّ إلى المرءِ إذا تَقرَّبَ به إلى اللهِ تعالى كان أَفضلَ له مِن غيرِه؛ قال اللهُ تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾(٥).

---

(١) رواه البخاري (٢٧٣٧)، ومسلم (١٦٣٢) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٦)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٢٤-٤٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٦).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣١/ ٢٥١).

٥- تحرِّي الإخلاصِ في النَّفقة؛ فالله لا يَخفَى عليه شيءٌ من مقاصد المنفِقين، ولا يَعْزُب عنه شيءٌ منه، حتَّى يُجازي صاحبَه عليه جزاءَه في الآخِرة، قال تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾(١).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، إشارةٌ إلى أنَّ افتتاح الكلام ببيان بعض وسائل البرِّ- إيذانٌ بأنَّ شرائع الإسلام تدور على محور البِرِّ، وأنَّه معنًى عظيمٌ لا يَخرِم حقيقتَه إلَّا ما يُفضي إلى نقْض أصلٍ من أصول الاستقامة(٢).

٢- المقصودُ من قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ أمران: أولهما التحريضُ على الإنفاقِ، والتنويهُ بأنَّه من البرِّ، وثانيهما: التنويهُ بالبرِّ الَّذي الإنفاقُ خَصلةٌ من خِصاله(٣).

٣- في قوله: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ إثباتُ الأسباب، حيث إنَّ الله أثبتَ للبرِّ سببًا، وهو الإنفاق ممَّا نحبُّ(٤).

٤- كلمة (منِ) في قوله: ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ للتبعيض؛ فمِن فضْل الله تعالى علينا أنِ اكتفى منَّا في نَيل البرِّ بأن نُنفق ممَّا نحبُّ، ولم يَشترطْ علينا أن ننفق جميعَ ما نحبُّ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٧٤)، ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٢٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٩٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٣٠٦).

٥- قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ يُوهِم أنَّ إنفاقَ غير هذا المقيَّد غيرُ نافع، فأَتْبَعه بقوله: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ﴾؛ ليُفيد تعميمَ أنواع الإنفاق، فلا يضيِّق عليكم، بل يُثيبكم عليه[١].

٦- يُؤخَذ من قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾: إثباتُ الجزاء، وأنَّ كلَّ إنسان سيُجازى بعمله؛ إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشرٌّ؛ لأنَّ المراد من إثبات العِلم إثباتُ ما يترتَّب عليه[٢].

بَلاغَةُ الآيةِ:

١- قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾: فيه- مع التأكيدِ بـ(إنَّ)، واسميَّة الجملة- كنايةٌ لطيفة، وتعريضٌ حسَنٌ؛ فهو خبرٌ مرادٌ به الوعدُ والتبشيرُ بعِظَم الجزاء، والترغيبُ في إنفاق الجيِّد، والتحذيرُ عن إنفاق الرَّديء. والتقدير: وما تُنفقوا من شيءٍ فإنَّ الله به يُجازيكم، قلَّ أم كثُر؛ لأنَّه عليمٌ به لا يَخفَى عليه شيءٌ منه، فجَعَل كونه عالِمًا بذلك الإنفاقِ كنايةً عن إعطاء الثواب، والتعريضُ في مِثل هذا الموضع أبلغُ من التصريح[٣].

- وهو تعليلٌ لجوابِ الشَّرطِ واقعٌ موقِعَه، أي: فمُجازيكم بحَسَبه، جيدًا كان أو رديئًا؛ فإنَّه تعالى عليمٌ بكلِّ شيءٍ تُنفِقونه علمًا كاملًا، بحيثُ لا يَخفَى عليه شيءٌ من ذاته وصِفاته[٤].

- في قوله: ﴿بِهِ عَلِيمٌ﴾ قدَّم الجارَّ والمجرور على مُتعلِّقه؛ لفائدتين:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧-٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٥٨).

الأولى لفظيَّة، وهي: مراعاةُ فواصلِ الآيات، والثانية معنويَّة، وهي: بيانُ الاعتناءِ بهذا المقدَّمِ حتَّى كأنَّ الله تعالى حصَرَ عِلمَه به[1].

٢- قوله: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾: تذييلٌ، قُصِد به تعميمُ أنواعِ الإنفاق، وتبيينُ أنَّ الله تعالى لا يَخفى عليه شيءٌ من مقاصِد المنفِقين، وقد يكونُ الشيءُ القليل نفيسًا بحسَب حال صاحِبه[2].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٢٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧).

الآيتان (٩٣ - ٩٤)

﴿ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۗ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿حِلًّا﴾: أي: حلالًا، و﴿حِلًّا﴾ في الأصْل مصدرٌ لحَلَّ يَحِلُّ، ويُطلق على الأشخاصِ مبالغةً؛ ولذلك يَستوي فيه الواحدُ والمثنَّى والمجموع، والمذكَّرُ والمؤنَّث. وأصلُ الحَلِّ: فتْحُ الشَّيءِ، ومنه الحلالُ: ضدُّ الحرام، كأنَّه مِن حللتُ الشَّيءَ، إذا أبحتَه وأوسعتَه لأمرٍ فيه(١).

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبِر تعالى أنَّه في الزَّمنِ السَّابق لنُزول التَّوراة على موسى، كانتْ كلُّ أنواع الأطعمة حلالًا لبَني إسرائيل، إلَّا نوعًا واحدًا حرَّمه يعقوبُ على نَفْسه، ولم يُحرِّمه عليه اللهُ تبارَكَ وتعالَى، واقتَدَى به بنوه تقليدًا له، وهذا النَّوع هو لحومُ الإبل وألبانُها، وبعد نُزول التَّوراة حرَّم الله عليهم فيها ما شاء، وأَحلَّ لهم ما شاءَ وَفقَ حِكمتِه، فكان هذا نَسْخًا لِمَا سبَق مِن حِلِّه جميعَ الأطعمةِ ما عدا لحومَ الإبل وألبانها، ثم أمَرَ اللهُ نبيَّه أن يَطلُب مِن اليهود أنْ يأتوا بالتَّوراة ويقرؤوها، إنْ كانوا مُحِقِّين في دعواهم، وبعد أنْ أقام عليهم الله تعالى الحُجَّةَ، أَخبَرهم أنَّ مَن تَقوَّل على الله الكَذِبَ بعد ذلك، فأولئك هم الظَّالِمون.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٣١١).

تُنَزَّلَ التَّوراة قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوراة فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٣)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أخبر اللهُ تعالى أنَّه لا يَنال المرءُ البرَّ إلا بالإنفاق ممَّا يحبُّ في قوله: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾- فالمشروعُ في الإسلام هو الإنفاقُ في طاعةِ الله مما يُحِبُّه العبدُ ويَشتهيه؛ كما قال سبحانه: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾ [الإنسان: ٨]- ذكَر سبحانه عقبَ ذلك أنَّ يعقوبَ عليه السَّلام، قد حرَّم أحبَّ الأشياءِ إليه وترَكها لله تعالى- وكان هذا سائغًا في شَريعتهم- بجامعِ أنَّ كلًّا منهما فيه تركُ ما يحبُّه الإنسانُ وما يُؤثِرُه على سبيلِ التقرُّب به للهِ سبحانَه وتعالى[1]، فقال تعالى:

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوراة﴾.

أي: إنَّ كلَّ أنواعِ الأطعمة كان أكْلُها حلالًا لذُريَّة يعقوب عليه السَّلام، قبل نزولِ التَّوراة على موسى عليه السَّلام، عدا نوعًا واحدًا حرَّمه أبوهم يعقوبُ على نَفْسه، من غير أن يُحرِّمه اللهُ عزَّ وجلَّ عليه، وهو لحومُ الإبل وألبانها، واتَّبعه اليهودُ على ذلك، فلمَّا نزلت التَّوراة بعدُ، حرَّم الله تعالى عليهم فيها ما شاء، وأحلَّ لهم فيها ما شاء وَفقِ حِكمته، فكان هذا نَسْخًا لِمَا سبَق مِن حِلِّه جميعَ الأطعمة لهم، سوى لحوم الإبل وألبانها[2].

عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، قال: ((حضَرتْ عِصابةٌ من اليهود رسولَ الله

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٧٧، ٥٨١، ٥٨٦)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٨، ٩٧٠).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقالوا: يا أبا القاسم، حدِّثنا عن خِلالٍ نسأَلُك عنها، لا يَعلمُهنَّ إلا نبيٌّ، فكان فيما سألوه: أيُّ الطَّعامِ حرَّم إسرائيلُ على نَفْسه قبل أن تُنزَّل التَّوراة؟ قال: فأَنْشُدكم بالله الذي أَنزَل التَّوراةَ على موسى، هل تعلمون أنَّ إسرائيل (يعقوب عليه السَّلام) مَرِض مرضًا شديدًا فطال سَقَمُه، فنذَر لله نَذْرًا، لئن شفاه اللهُ مِن سَقَمه، ليُحرِّمنَّ أَحبَّ الشَّراب إليه، وأَحبَّ الطَّعام إليه، فكان أحبَّ الطَّعام إليه لُحمانُ الإبل، وأحبَّ الشراب إليه ألبانُها؟ فقالوا: اللهمَّ نَعَم!))(١).

وعن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما، أنَّه قال أيضًا: ((أَقْبَلت يهودُ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقالوا: يا أبا القاسم، أَخبِرنا عن الرَّعد ما هو؟ قال: مَلَكٌ من الملائكة مُوكَّلٌ بالسَّحاب، معه مَخاريقُ(٢) مِن نار يَسوق بها السَّحابَ حيث شاء الله، فقالوا: فما هذا الصَّوتُ الذي نَسمع؟ قال: زَجْرُه بالسَّحاب إذا زَجَره، حتى يَنتهيَ إلى حيثُ أُمِر، قالوا: صدقتَ، فأَخبِرنا عمَّا حرَّم إسرائيلُ على نَفْسه؟ قال: اشتكى عِرْق النَّسا(٣)، فلم يَجِد شيئًا يُلائمه إلاَّ لحومَ الإبل وألبانها؛ فلذلك حرَّمها، قالوا: صَدقتَ))(٤).

(١) رواه أحمد (٢٤٧١)، والطبري في ((التفسير)) (٧٤٢٠)، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (١٢/ ٢٤٦) (١٣٠١٢).
حسَّن إسنادَه البوصيريُّ في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٧/ ٣٣)، وصحَّح إسنادَه ابنُ حجر في ((العجاب)) (٢/ ٧١٦)، وأحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ١٤٠).
(٢) مخاريق: جَمْعُ مِخْراقٍ، وهو في الأصلِ ثوبٌ يُلَفّ ويَضْرِب بِهِ الصِّبيانُ بَعضُهم بَعْضًا، أراد أنَّه آلَةٌ تَزْجُر بها الملائكةُ السَّحاب وتَسُوقه. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٢٦).
(٣) عرق النَّسا: وجعٌ يبتدئُ مِن مفصِل الوَرِك، وينزلُ مِن خلف على الفخذِ، وربَّما على الكعبِ. قيل: وسمي بذلك؛ لأنَّ ألمَه يُنسي ما سواه. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٥١)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ٦٦).
(٤) رواه الترمذي (٣١١٧)، وأحمد (٢٤٨٣) والنسائي في ((السنن الكبرى)) (٩٠٧٢)
قال الترمذي: حسن غريب. ووثق رجاله الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٨/ ٢٤٤)، وذكر =

﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوراة فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

أي: قُلْ لهم- يا محمَّدُ-: جِيئوا بالتَّوراة فاقرؤوها علينا بأنفسكم؛ حتى لا تتَّهِمونا بأنَّا حذَفْنا أو أَضفْنا شيئًا، فاقرؤوها، إنْ كنتم مُحِقِّين في دعواكم(١).

وهذا خبرٌ من الله عزَّ وجلَّ عن كَذِبهم؛ لأنَّهم لا يأتون أبدًا بما يَشهَد على صحَّة دَعواهم، فأعلَم الله بكَذِبهم نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وجعَل إعلامَه ذلك حُجَّةً عليهم؛ لأنَّ محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أُمِّيٌّ ومِن غير مِلَّتِهم، فكيف عَلِم بذلك لولا أنَّ الله تعالى هو الذي أَعلَمه إيَّاه بوحيٍ مِن عنده؟! فهذا مِن أعظم الحُجَج عليهم بأنَّه رسول الله تعالى إليهم صِدقًا، وأنَّ النَّسخ واقعٌ حقًّا(٢).

﴿فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩٤)﴾.

أي: فمَن تقوَّل على الله تعالى الكَذِبَ؛ بادِّعاء أنَّ ما حرَّمه إسرائيلُ على نفْسِه كان مُحرَّمًا عليهم كذلك، فهؤلاءِ هم الكافِرونَ القائِلونَ على الله تعالى

= ابن حجر في ((فتح الباري)) (٨/ ١٦) أن له طرقا يقوي بعضها بعضا. وصحح إسناده أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٤/ ١٦١)، وصححه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣١١٧).

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٨، ٩٧٠).

قيل المراد: إنْ كنتم محقِّين في دعواكم أنَّ الله أنزل تحريمَ لحوم الإبل وألبانها في التوراة. وهذا اختيارُ ابن جرير في ((تفسيره)) (٥/ ٥٨٧).

وقيل المراد: إنْ كنتم محقِّين في دعواكم أنَّ الله تعالى لم يُحرِّم عليكم في التوراة إلَّا ما كان مُحرَّمًا على إسرائيل فحسبُ، وهذا اختيارُ الشنقيطي في ((أضواء البيان)) (١/ ٣٧١).

وقيل غير ذلك. يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٦٤)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٨).

الباطلَ، والظالِمونَ أنفسَهم بالعُدُول عن الحقِّ بعدَما تَبيَّن(١).

الفَوائد التربويَّة:

الحضُّ على اتِّباع الحقِّ متى ظهَر؛ لأنَّه متى ظهَر الحقُّ فحاد الإنسانُ عنه صار أشدَّ ظلمًا؛ وأيُّ ظُلْمٍ أعظمُ مِن ظُلْم مَن يُدْعى إلى تحكيم كتاب الله تعالى فيَمتنِع من ذلك؛ عِنادًا وتكبُّرًا؟! قال تعالى: ﴿فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾(٢).

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- قوله سبحانه: ﴿فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ﴾؛ أَمْرٌ لهم بإحضارِ كتابهم الذي فيه شَريعتهم؛ ففيه إقامةُ الحُجَّة على الخَصْم بما يَعتقِد صحَّته، ويؤمن به، فهذا أعظمُ محاجَّة؛ لأنَّه تتبيَّنُ به الحُجَّة على وجْهٍ لا مفرَّ له منه، إذ لم يبقَ لهم ما يستطيعون أن يَدَّعوه شُبْهةً لهم(٣).

٢- قال: ﴿فَاتْلُوهَا﴾ ولم يَقُل: (نَتْلُوها)؛ دفعًا للتُّهمة بأنَّهم حَذَفوا شيئًا، أو أضافوا شيئًا، فلْيتلُوها هم بأنفسهم؛ حتى يَتبيَّن لهم الحقُّ(٤).

٣- في قوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوراة﴾ الردُّ على اليهودِ في إنكارِهم وجودَ النَّسخ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٨٧، ٥٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧٦، ٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٨، ٩٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٣٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٥٣٧).

بَلاغَةُ الآيتين:

١- قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: هذه الشَّرطيَّة تُفيد كمالَ التَّحدِّي وتَمامَه؛ فقد خرَج الكلامُ على سبيل الاستهزاء بهم، إذ جُعِل هذا الوصفَ ممَّا يُمكِن أنْ يتَّصِفوا به، وهم قد عُلِم كَذِبُهم، كقولك: إنْ كنتَ شُجاعًا فالْقَني، ومعلومٌ عندك أنَّه ليس بشُجاع[1].

٢- قوله: ﴿فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ قوله: ﴿الكَذِبَ﴾، فيه تأكيدٌ للافتراء؛ لأنَّ اسمَ الافتراءِ بمعنى الكَذِب والاختِلاق؛ فكان في إردافِه بقوله: ﴿الكَذِبَ﴾ تأكيدٌ للافتراء[2].

- والإشارة بقولِه: ﴿فَأُولَئِكَ﴾ وما فيه من مَعنى البُعدِ؛ للإيذانِ ببُعد مَنزِلتهم في الضَّلالِ والطُّغيان[3].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٣٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٥٩).

الآيات (٩٥ - ٩٧)

﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿وُضِعَ﴾: بُني[١].

﴿بِبَكَّةَ﴾: يعَني: مَكَّة، فَأُبدلت ميمُها باءً، قالوا: والعربُ تُعاقِبُ بين الباء والميم في مواضع، فتقول: لازم ولازِب. أو أنه اسم لبَطْن مكَّة، أو مكان البَيت، وقيل: أصْل بكَك: الجمعُ بين التَّراحم والمُغالَبة، والبَكُّ: دقُّ العُنق؛ سُمِّيت مكَّة: بكَّة؛ لأنَّ الناس يَبُكُّ- أي: يَدْفَع- بعضُهم بعضًا في الطَّوافِ بالازدِحام، ويُقال: لأنَّها تَبُكُّ (تَدُقُّ) أعناقَ الجبابرةِ إذا ألْحَدوا فيها بظُلمٍ[٢].

مُشكِلُ الإعراب:

١- قوله: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾

﴿مَقَامُ﴾: مرفوعٌ، على أنَّه بدلٌ من ﴿آيَاتٌ﴾، أو على أنَّه خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ، والتقديرُ: هي مقامُ إبراهيم. و﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ جُملةٌ مُستأنفةٌ، وهي معطوفة على ﴿مَقَامُ﴾ من حيثُ المعنى؛ لأن قوله: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ دلَّ على أمْن داخلِه، فكأنه قيل: فيه آياتٌ بيِّناتٌ: مقامُ إبراهيمَ، وأمْنُ داخلِه.

---

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٤).

(٢) يُنظر: ((العين)) للخليل (٥/ ٢٨٥)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٣/ ١٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٨٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٦).

وعلى هذين الوَجهينِ يكونُ فيه إبدالُ المفرد ﴿مَقَامُ﴾ من الجمع ﴿آيَاتٌ﴾، والإخبارُ عن الجَمْعِ بالمفرد؛ وجازَ ذلك على القولِ بأنَّ أقلَّ الجَمْعِ اثنان، فعبَّر عن الجمْع ﴿آيَاتٌ﴾ بالمقامِ وبأمْنِ الدَّاخل، أو لأنَّ ﴿مَقَام﴾ وإنْ كانَ مفردًا لفظًا إلَّا أنَّه يَشتمِلُ على آياتٍ كثيرة. وقيل غير ذلك. أو يكون ﴿مَقَامُ﴾ مرفوعًا على أنَّه مبتدأ، والخبر محذوف، أي: مِنها مقامُ إبراهيم، أو خبرًا لمبتدأٍ محذوفٍ، لكن التقدير: أحدُها مقامُ إبراهيم، وعلى هذينِ الوجهينِ فلا إشْكالَ في كونِ ﴿مَقَامُ﴾ مفردًا و﴿آيَاتٌ﴾ جمعًا[1].

٢- قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾

﴿مَنِ اسْتَطَاعَ﴾: ﴿مَن﴾ موصولةٌ بمعنى الذي، وهي في مَوضِعِ جرٍّ، على أنَّها بدلٌ مِن النَّاس- بدَلُ بعضٍ مِن كُلٍّ[2]، أو بدلُ كلٍّ مِن كل-. وقيل: ﴿مَن﴾ في موضِع رفْعٍ خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، والتقديرُ: هم مَنِ استطاع، و﴿اسْتَطَاعَ﴾ على هذين الوَجهينِ صِلةُ ﴿مَن﴾ لا محلَّ له من الإعرابِ، وقيل: ﴿مَنْ﴾ شَرْطٌ في موضِع رفْعٍ بالابتداءِ، و﴿اسْتَطَاعَ﴾ في موضِع جزمٍ بـ﴿مَنْ﴾ والجواب محذوفٌ، تقديرُه: فعليه الحجُّ، ودلَّ على ذلك قولُه: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾، وقيل غير ذلك[3].

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٦٩)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤١٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٢٨١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٣١٧- ٣٢١).

(٢) وبدلُ البعضِ وبدلُ الاشتمالِ لا بدَّ في كلٍّ منهما مِنْ ضميرٍ يعودُ على المُبدَل منه نحو: أَكَلْتُ الرغيفَ ثُلثَه، وسُلِب زيدٌ ثوبُه، وهنا ليس ضَميرٌ، فقيل: هو محذوفٌ تقديرُه: مَنْ استطاع منهم. ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٦٩)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٢٨١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٣٢١- ٣٢٣).

المَعنَى الإجماليُّ:

يأمُر اللهُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يقولَ لليهود: إنَّ كلَّ ما أَخبَرَ الله تعالى به، وكلَّ ما شرَعه فهو صِدْق، فعليهم أنْ يتَّبِعوا مِلَّة إبراهيم الخليل عليه السَّلام؛ فقد كان مُوحِّدًا، يميل عن الشِّرك، ولم يكُن محسوبًا في عِدادِ المشركين.

ثم يُخبِر تعالى أنَّ أَوَّلَ بيتٍ وُضِع لجميع النَّاس مِن أجْل عِبادة الله فيه، هو البيتُ الحرام، الواقعُ في مكَّة المُكرَّمة، وهو مَوضِعٌ مُبارَك، فيه برَكاتٌ كثيرةٌ من المنافع الدِّينيَّة والدُّنيويَّة: كالأجورِ المضاعَفة، والأرزاقِ الوفيرة، وهو مَنارٌ يَهتدي به جميعُ العالَمين.

في هذا البيتِ أدِلَّةٌ واضِحةٌ على توحيدِ الله سبحانه وحِكْمتِه وعظمتِه وقُدْرتِه، وغير ذلك من صِفاتِه الحُسنى، وعلاماتٌ على شرفِه، ومن تلك العلامات: المواضِعُ التي قام فيها الخليلُ إبراهيمُ عليه السَّلام لأداءِ مناسكِ الحَجِّ، ومنها أيضًا: أنَّ مَن دخَله كان آمنًا مِن كلِّ سوء، وقد فرَض اللهُ قصْدَ البيتِ الحرام؛ لأداءِ شعائر الحَجِّ، على مَن قَدَر من أهل التَّكليفِ، ومَن جحَد فريضةَ الحجِّ فإنَّ الله غنيٌّ عنه وعن حَجِّه، وعن سائرِ خَلْقه.

تَفسيرُ الآيات:

﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٩٥)﴾.

أي: قُلْ- يا محمَّدُ- لأولئك اليهود: إنَّ كلَّ ما أَخبَرَ الله تعالى به وكلَّ ما شرَعه فهو صِدْق، ومِن ذلك: إخبارُه بأنَّه لم يُحرِّم على اليهود شيئًا من الأطعمةِ قبل نُزول التَّوراة، إلَّا ما حرَّمه يعقوبُ عليه السَّلام على نَفْسِه، فجاء ما في التَّوراة مُوافِقًا لِمَا أَخبَرَ الله سبحانه عنه؛ فهُم كَذَبوا، وصدَق اللهُ عزَّ وجلَّ، وممَّا بيَّنه الله تعالى في كتابه الصَّادق مِلَّةَ إبراهيمَ الخليل عليه السَّلام، فإنْ كُنتم صادقينَ في

مَحبَّتِكم واعتزازِكم بالانتسابِ إليه، فاتَّبِعوه على توحيدِه اللهَ سبحانه، ومَيلانِه عن الشِّرك، وما كان إبراهيمُ مِثْلَكم- مَعشَر اليهودِ- في عِدادِ المحسوبين من المشرِكين بالله جلَّ وعلا[1].

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (٩٦)﴾.

مُناسبةُ الآية لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أمَرهم الله تعالى باتِّباع مِلَّةِ إبراهيمَ في التَّوحيد، وتَرْكِ الشِّرك، أمَرهم باتِّباعه بتعظيمِ البيتِ الحرام بالحجِّ وغيره؛ فحجُّ البيتِ من أعظمِ شعائر مِلَّة إبراهيمَ، ومِن خصوصيَّات دِينه، وأيضًا فإنَّ اليهود حين حُوِّلت القِبْلةُ إلى الكعبة طعَنوا في نُبوَّة رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وقالوا: بيتُ المقدِس أفضلُ وأحقُّ بالاستقبال؛ لأنَّه وُضِع قَبْل الكعبة، وهو أرضُ المحشر، وقِبْلةُ جميعِ الأنبياء، فأكْذَبهم الله في ذلك[2] بقوله:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (٩٦)﴾.

أي: إنَّ أوَّل بيتٍ وُضِع لجميعِ النَّاس لعبادةِ الله تعالى، فيَطوفون به، ويُصَلُّون إليه، ويَعتكِفون عنده- البيتُ الحرام الواقع في مكَّة، والذي يَزدحِم النَّاس حولَه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٨٨، ٥٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٨، ٩٧٠، ٩٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٤٢-٥٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٨).

وهو الكعبةُ التي بناها إبراهيمُ الخليلُ عليه السَّلام، الذي يَزعُم كلٌّ مِن طائفتي النَّصارى واليهود أنَّهم على مِلَّته، ومع ذلك لا يَحُجُّون إلى البيتِ الذي بناه، ونادى النَّاس إلى حَجِّه! وهو مَوضِع مُبارَكٌ؛ فيه بركاتٌ كثيرةٌ من المنافعِ الدِّينيَّة والدُّنيويَّة: كالأجورِ المضاعفة، والأرزاقِ الوفيرة، وهو مَنارٌ يُهتدى به، وتَحصُل فيه أنواعُ الهدايات لجميعِ العالَمين، ومِن ذلك: أنَّه قِبْلةٌ يَستقبِلها المسلمون في صَلواتهم، ويَقصِدونه في حَجِّهم وعُمراتِهم[1].

عن أبي ذَرٍّ رَضِي اللهُ عنه قال: ((قلتُ: يا رسولَ اللهِ، أيُّ مسجدٍ وُضِع في الأرضِ أوَّلُ؟ قال: المسجدُ الحرامُ، قال: قلتُ: ثم أيٌّ؟ قال: المسجدُ الأقصى، قلتُ: كم كان بينهما؟ قال: أربعونَ سنةً، ثم أينَما أدرَكَتكَ الصَّلاةُ بعدُ فصلِّهِ، فإنَّ الفضلَ فيه))[2].

وعن عليٍّ رضِي اللهُ عنه، قال: (كانتِ البُيوتُ قَبلَهُ، ولكنَّهُ كان أوَّلَ بيتٍ وُضِعَ لعبادَةِ اللَّهِ)[3].

﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧)﴾.

﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾.

أي: في هذا البيتِ أدِلَّةٌ واضحةٌ على توحيدِه سبحانه، ورحْمتِه وحِكمتِه وعظَمتِه وقُدْرتِه، وغير ذلك من صِفاته الحُسنى، وفيه علاماتٌ ظاهرةٌ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٩٣، ٥٩٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧٧، ٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٨، ٩٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٢، ١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٤٦-٥٤٨).

(٢) رواه البخاري واللفظ له (٣٣٦٦)، ومسلم (٥٢٠).

(٣) رواه ابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (٣٨٢٧). صحح إسناده ابن حجر في ((فتح الباري)) (٦/ ٤٧٠)، وقال أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٣٩٢): فيه مجالد بن سعيد، وهو حسن الحديث.

شرَفِ هذا البيت وعظيمِ فضْله، وأنَّه من بِناء إبراهيم عليه الصَّلاة والسَّلام، ومن تلك العلامات، المواضِع التي قام فيها الخليلُ عليه السَّلام لأداءِ مناسكِ الحجِّ: كعَرَفة، ومُزْدَلِفة ومِنًى، ومن مَقاماته: الحَجرُ الذي قام عليه لاستِكمالِ بِناء الكعبة لَمَّا ارْتفَع بُنيانُها(١).

﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾.

أي: إنَّ مِن الآيات البيِّنات الدالَّةِ على شرفِ البيتِ الحرام وفضْلِه، وغير ذلك: أنَّ مَن يدخُل الحرمَ يكون بمعزلٍ عن أنْ ينالَه أحدٌ من الناس بسوءٍ على وجهِ العموم، وهذا امتنانٌ مِن الله تعالى بما تقرَّر في ماضي العصور، وبما هو متقرِّرٌ شرعًا(٢).

قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

وقال سبحانه: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٣-٤].

عن ابنِ عبَّاس رضي الله عنهما، قال: قال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يوم افْتَتَح مكةَ: ((لا هِجرةَ، ولكنْ جهادٌ ونيَّةٌ، وإذا استُنفِرتُم(٣) فانفِروا، فإنَّ هذا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٩٨، ٦٠٠، ٦٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٨، ١٣٩، ٩٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٤٨-٥٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٠٦-٦٠٨)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٩، ٩٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٥٠-٥٥١).

وممَّن قال من السلف في معنى ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ بنحو ما ذكَرْنا: ابن عبَّاس، ومجاهد، وسعيد بن جبير. انظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٣/ ٧١١).

(٣) استُنفِرتُم: أي: إذا طُلِبَ منكم النُّصرةُ، فأجيبوا وانفروا خارجينَ إلى الإعانةِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٩٢)، ((لسان العرب)) لابن منظور (٥/ ٢٢٥).

بلدٌ حَرَّمَه اللهُ يومَ خَلَق السمواتِ والأرضَ، وهو حرامٌ بحُرمةِ اللهِ إلى يومِ القيامةِ، وإنَّه لم يَحِلَّ القتالُ فيه لأحدٍ قَبْلي، ولم يَحِلَّ لي إلا ساعةً من نهارٍ، فهو حرامٌ بحُرمةِ اللهِ إلى يومِ القيامةِ، لا يُعْضَدُ[١] شَوْكُه، ولا يُنَفَّرُ صَيدُه، ولا يلْتَقَطُ لُقطته إلا مَن عرَّفها، ولا يُخْتَلى خَلَاها[٢]، قال العباسُ: يا رسولَ اللهِ، إلا الإذْخِرَ؛ فإنَّه لقَيْنِهم[٣] وبيُوتِهم، قال: قال: إلا الإذْخِرَ))[٤].

﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾.

أي: إنَّ شعيرةَ حَجِّ بيتِ الله تعالى الحرام فرْضٌ واجبٌ لله عزَّ وجلَّ، على مَن قَدَر مِن أهلِ التَّكليفِ على القصدِ إليه، وذلك بتَوفُّر القُدرةِ الماليَّة والبدنيَّة وغيرِهما ممَّا يُحقِّق الاستطاعةَ[٥].

﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾.

أي: ومَن جحَد فرض الحجِّ فأنكر وجوبه وكفر به، فإنَّ الله غنيٌّ عنه، وعن حَجِّه، وعن سائرِ خَلْقه[٦].

---

(١) يُعْضَد أيْ: يُقْطع. ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٢٥١).

(٢) لا يُختلى خَلاها: أي: لا يُقطع نباتُها الرَّطب. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٧٥).

(٣) لِقَينهم: جمْع قَيْن، وهو الحدَّاد والصائغ. ومعناه: يحتاج إليه القَينُ في وقود النَّار. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٩/ ١٢٧)، ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ١٣٥).

(٤) رواه البخاري له (١٨٣٤)، ومسلم (٣١٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٠٩، ٦١٦، ٦١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٧١)، ((تفسير ابن عثيمين-سورة آل عمران)) (١/ ٥٥١-٥٥٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦١٨، ٦٢٤)، ((شرح عمدة الفقه- كتاب الطهارة والحج)) لابن تيمية (٢/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٥٤-٥٥٥).

وممن قال بهذا القولِ مِن السَّلف ابنُ عبَّاس، والضَّحَّاك، وعطاء، وعمران القطان، والحسن، ومجاهدٌ، وعِكرمةُ، ومُقاتل. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦١٨)، و((زاد المسير)) لابن الجوزي (١/ ٣٠٩).

وفي الآيةِ أوجهٌ أُخرى ذكَرها ابنُ الجوزيِّ في ((زاد المسير)) الموضع السابق، والشنقيطيُّ =

الفَوائِد التربويَّة:

١- يجبُ على الإنسانِ أنْ يَتَّبعَ الحقَّ أينما كان، سواء كان مِن الرَّسول الذي أُرسِل إليه مُباشرةً، أو مِن الرُّسل السَّابقين؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾(١).

٢- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ تعظيمُ بيتِ الله الحرامِ؛ فهو أوَّلُ البُيُوت التي وضَعها الله في الأرض لعِبادتِه، وإقامةِ ذِكْره، وفيه من أنواعِ البركات، والهِدايات، وتنوُّع المصالحِ والمنافعِ للعالَمين شيءٌ كثير، وفضْلٌ غزير، وفيه علاماتٌ بيِّنة تُذكِّر بمقاماتِ إبراهيمَ الخليل، وتَنقُّلاتِه في الحَجِّ، وليس هذا لمكانٍ آخَرَ في الأرض؛ فلذا يَنبغي تعظيمُه ومراعاةُ حُرمتِه(٢).

٣- في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ الحَضُّ على فريضةِ الحَجِّ(٣)، فينبغي على كلِّ مسلمٍ ومسلمةٍ ممَّن يستطيعُ مئونةَ الحجِّ إذا كان مُكلَّفًا أن يبادرَ بذلك، وألَّا يُؤخِّرَه(٤).

٤- الافتقارُ إلى الله، فإذا كان الله غنيًّا عن العالَمين، لَزِم أنْ يكون العالَمون مُفتَقِرين إليه، وليس بهم غِنًى عن الله، وهو كذلك؛ فإنَّ الخَلْق مُفتَقِرون إلى الله تعالى غايةَ الافتقار؛ قال تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾(٥).

= في ((أضواء البيان)) (١/ ٢٠٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٨)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران))(١/ ٥٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٥٩).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ابن باز)) (١٦/ ٣٤٧-٣٤٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٦١).

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائف:

١- قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ فيه أنَّ تَقدُّمَ المكان في العبادةِ له أثرٌ في تفضيلِه[1].

٢- قوله تعالى: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ فيه أنَّ الآياتِ كما تكون شرعيَّةً، تكون كذلك حِسيَّةً كونيَّة، كما في هذه الآيات التي ذُكِرت للبيت العتيق[2].

٣- افتتَح اللهُ تعالى إيجابَ الحجِّ بِذِكر محاسنِ البيتِ، وعظَّم شأنَه بما يَدْعو النفوسَ إلى قصْدِه وحَجِّه، وإنْ لم يُطلبْ ذلك منها؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾[3].

٤- قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾، تَضمَّن ثلاثةَ أمورٍ مُرتَّبة بحسَب الوقائع: أحدها: الموجِبُ لهذا الفرض وهو اللهُ سبحانه فبدأ بِذِكْره، والثاني: مُؤدِّي الواجِبِ وهو المفترَض عليه وهم النَّاس، والثالث: النِّسْبة والحقُّ المتعلِّق به إيجابًا وبهم وجوبًا وأداء، وهو الحجُّ[4].

٥- أنَّ اللهَ تعالى إذا ذكَر ما يُوجِبه ويُحرِّمه يَذكُرُه بلفْظِ الأمْرِ والنَّهي، وهو الأكثرُ، وبلفْظِ الإيجابِ والكتابةِ والتَّحريمِ، أمَّا في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ فعبَّر عن وجوبِ الحجِّ بعِبارتينِ؛ إحداهما: لامُ المِلْك في قوله ﴿وَلِلَّهِ﴾، وثانيتهما: كلمةُ ﴿عَلَى﴾، وهذا من أَوْكَد ألفاظِ الوجوبِ عند العَرَب، كما قال بعضُ العلماء، فذكَرَ اللهُ سبحانه الحَجَّ بأبلغِ ألفاظِ الوجوبِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٥٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٥٥٧).
(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٤٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٨).

تأكيدًا لحقِّه، وتعظيمًا لحُرْمَتِه، وتقويةً لفَرْضِه(١).

٦- في قوله تعالى: ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ نكَّر السبيلَ في سِياق الشَّرط إيذانًا بأنَّه يجب الحجُّ على أيِّ سبيلٍ تيسَّرت، من قُوتٍ أو مالٍ، فعلَّق الوجوبَ بحصول ما يُسمَّى سبيلًا(٢).

٧- قوله تعالى: ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ بيانُ رحمةِ الله تعالى، حيثُ لم يَفرِض على عبادِه ما كان شاقًّا عليهم ولا يَستطيعونه(٣).

٨- وقوله: ﴿غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾: خبرٌ فيه رمزٌ إلى نزْعِه وَلايةَ الحرمِ من أيدي كفَّار مكَّة؛ لأنَّه لَمَّا فرَض الحجَّ وهم يَصُدُّون عنه، وأَعلَمنا أنَّه غنيٌّ عن النَّاس، فهو لا يُعجِزه مَن يَصُدُّ النَّاسَ عن مُرادِه تعالى(٤).

---

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (١/ ٣٧٤)، ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٨).
قال ابنُ القَيِّم في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾: (وفي الحَجِّ أتى بهذا النَّظْم الدالِّ على تأكُّدِ الوجوبِ من عَشرةِ أوجُهٍ؛ أحدُها: أنَّه قدَّمَ اسمَه تعالى وأدخَلَ عليه لامَ الاستحقاقِ والاختصاصِ، ثم ذكَرَ مَن أوجَبَه عليهم بصيغةِ العمومِ الدَّاخِلِ عليها حرفُ (على) ثُمَّ أبدَلَ منه أهْلَ الاستطاعةِ، ثم نكَّرَ السَّبيلَ في سياقِ الشَّرْطِ إيذانًا بأنَّه يجِبُ الحَجُّ على أيِّ سبيلٍ تيسَّرَت مِن قُوتٍ أو مالٍ، فعلَّقَ الوُجوبَ بِحُصولِ ما يُسَمَّى سبيلًا، ثمَّ أتبَعَ ذلك بأعظَمِ التهديدِ بالكُفْرِ، فقال: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾؛ أي: بِعَدَمِ التزامِ هذا الواجِبِ وتركِه، ثم عَظَّمَ الشَّأنَ وأكَّدَ الوعيدَ بإخبارِه باستغنائِه عنه، واللهُ تعالى هو الغنيُّ الحميدُ، ولا حاجةَ به إلى حَجِّ أحدٍ، وإنَّما في ذِكْرِ استغنائِه عنه هنا من الإعلامِ بِمَقْتِه له وسَخَطِه عليه وإعراضِه بوَجْهِه عنه ما هو مِنْ أعظَمِ التهديدِ وأبلَغِه، ثم أكَّدَ ذلك بذِكْرِ اسْمِ العالَمينَ عمومًا، ولم يَقُلْ: فإنَّ اللهَ غنيٌّ عنه؛ لأنَّه إذا كان غنيًّا عن العالَمين كُلِّهم فلَهُ الغِنَى الكامِلُ التامُّ مِن كُلِّ وَجهٍ عَن كُلِّ أحَدٍ بكُلِّ اعتبارٍ، وكان أدلَّ على عِظَمِ مَقْتِه لتارِكِ حَقِّه الذي أوجَبَه عليه، ثم أكَّدَ هذا المعنى بأداةِ (إنَّ) الدَّالَّةِ على التوكيدِ؛ فهذه عشرةُ أوجُهٍ تقتضي تأكيدَ هذا الغَرَضِ العظيمِ). ((بدائعُ الفوائِدِ)) (٢/ ٤٥).
(٢) يُنظر: ((بدائعُ الفوائِدِ)) لابن القيم (٢/ ٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (/ ٥٥٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٥).

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿قُلْ صَدَقَ اللهُ﴾:

- خبَرٌ فيه تعريضٌ بكَذِبهم، أي: ثَبَت أنَّ اللهَ صادقٌ فيما أَنزل، وأنتم الكاذِبون[(١)]؛ لأنَّ صِدْق أحدِ الخبرين المتنافِيين يَستلزِم كَذِبَ الآخَر، فهو مُستعمَلٌ في معناه الأصليِّ والكِنائيِّ[(٢)].

- ولم يَذكُر الخبرَ الذي حَكَم عليه بالصِّدق، فيكون ذلك عامًّا شاملًا، أي: صدَق اللهُ في كلِّ شيء[(٣)].

٢- قوله: ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾: الفاء في ﴿فاتَّبِعُوا﴾ للتَّفريع، وهي تفريعٌ على صِدق اللهِ؛ لأنَّ اتِّباع الصادِق فيما أمَر به مَنْجاةٌ من الخَطَر[(٤)].

٣- قوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾: خبرٌ مُتضمِّن للتَّعريض بإشراك اليهودِ، والتَّصريحُ بأنَّ إبراهيمَ عليه السَّلام ليس بَينَه وبَينَهم علاقةٌ دِينيَّةٌ قطْعًا، وهكذا أهلُ الشِّرْكِ في مَكَّةَ، والغرَضُ: بيانُ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على دِين إبراهيمَ عليه السَّلام في الأصولِ؛ لأنَّه لا يَدعو إلَّا إلى التَّوحيدِ، والبراءةِ عن كلِّ معبودٍ سواه سبحانه وتعالى، والجُمْلةُ تذييلٌ لِما قبلَها[(٥)].

٤- قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾: كلامٌ واقع مَوقِعَ التَّعليل للأمر في قوله: ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾؛ لأنَّ هذا البيتَ المُنوَّهَ بشأنِه كان مَقامًا لإبراهيمَ، ففضائلُ هذا البيت تُحقِّق فَضيلةَ شرْع بانِيهِ في مُتعارَف النَّاس،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١١).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٥٩).

وقد آذَنَ بكونِ الكلامِ تعليلًا مَوقِعُ (إنَّ) في أوَّله؛ فإنَّ التأكيد بـ(إنَّ) هنا لمجرَّدِ الاهتمام، وليس لردِّ إنكارِ مُنكَر، أو شكِّ شاكٍّ، ومِن خصائصِ (إنَّ) إذا وردتْ في الكلام لمجرَّد الاهتمامِ: أن تُغني غَناءَ فاء التَّفريعِ، وتُفيد التَّعليلَ والرَّبطَ[1].

- قوله: ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾: عدَل عن تعريفِ البيتِ باسمِه العَلَم بالغَلَبة (الكعبة)، إلى تعريفِه بالمَوصوليَّة بأنَّه (الذي ببكَّة)؛ دفعًا لتوهُّم غيرِه؛ لأنَّ هذه الصِّلةَ صارتْ أشهرَ في تعيُّنه عند السَّامعين؛ إذ ليس في مكَّةَ يومئذٍ بيتٌ للعبادةِ غيرُه، بخلافِ اسمِ الكعبة: فقد أُطلِق اسمُ الكعبةِ على القُلَّيس الذي بناه مَلِكُ الحبشة في صنعاء لِدِين النَّصرانيَّة، ولقَّبوه (الكعبة اليَمانِيَة)[2].

- وقوله: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ...﴾ استئنافُ ثَناءٍ على هذا البيتِ بما حُفَّ به من المناقِب والمزايا، وغيَّر الأسلوبَ للاهتمام[3].

٥- **قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾**: ذكَر النَّاس، ثُمَّ أَبدَل عنه ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾، وفيه ضَرْبان من التَّأكيد؛ لأنَّ الإبدال تثنيةٌ للمُراد وتَكْرير، وذلك يَدلُّ على شِدَّة العِناية؛ ولأنَّه أَجمَلَ أولًا وفصَّل ثانيًا، وذلك يدلُّ على شِدَّة الاهتمام[4].

- قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ في تقديمِ المجرور الأوَّل ﴿وَلِلَّهِ﴾: أنَّ الاسمَ المجرورَ من حيثُ كان اسمًا لله سبحانه، وجَب الاهتمامُ بتقديمِه؛ تعظيمًا لحُرْمةِ هذا الواجبِ الذي أوجبَه، وتخويفًا مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٩٠)، ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٠٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٣٠).

تضييعه؛ إذ ليس ما أوجبه اللهُ سبحانه بمَنزِلةِ ما يُوجِبه غيرُه(١).

٦- **قوله:** ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾: جُملةٌ معطوفةٌ مقابلة لقوله: ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾، وقيل: هي جملةٌ مستقلَّة، كالتَّذييل، بُيِّن بها عدمُ اكتراثِ الله بمَن كفَر به، وفي ذِكْرِ استغنائِه عنه مِن الإعلامِ بمَقْته وسَخَطه عليه وإعراضِه بوجْهِه عنه ما هو أعظمُ التَّهديد وأبْلَغه(٢).

- وجاءَ التَّعبير بقوله: ﴿عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ ولم يَقُل: (عنه)؛ مُبالغةً في التَّعميم، وللدَّلالةِ على الاستِغناء عنه بالبُرهان، والإشعار بعِظَم السَّخَط؛ لأنَّ المستغني عن كلِّ العالَمِين أَوْلَى أنْ يكونَ مستغنيًا عن ذلِك الإنسانِ الواحدِ وعن طاعتِه؛ فكانَ ذلك أدلَّ على السَّخَط(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٩١)، ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٠٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٣٠).

الآيتان (٩٨ - ٩٩)

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ (٩٨) قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩) ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿تَبْغُونَهَا﴾: تَطلُبونها(١).

﴿عِوَجًا﴾: أي: زيغًا وتحريفًا، واعوجاجًا في الدِّين؛ فالعِوَج- بالكَسر- يُقال فيما كانَ في أرضٍ أو دِينٍ أو مَعاشٍ، والعَوَج- بالفتْح- يُقال فيما يَنتَصِب كالحائطِ والعُود. ومنهم مَن خَصَّ المكسورَ بالمعاني، والمفتوحَ بالأعيانِ، وأصْل (عوج): الميل في الشَّيء(٢).

المَعنى الإجماليُّ:

يأمُر الله نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يَسألَ اليهودَ والنَّصارى مُوبِّخًا لهم: ما الذي يَحمِلهم على إنكارِ حُجَج الله التي أتت بها كُتبُهم، والتي فيها إثبات نُبوَّته صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وصِدْق ما جاء به، والله تعالى لا يَخْفى عليه شيءٌ من أعمالِهم.

ويأمُره أيضًا أنْ يقول لهم مُوبِّخًا لهم: لمَ يُضِلُّون المؤمنين عن سبيل الله؛ يُريدون بذلك الانحرافَ والميلَ بهذا السَّبيلِ عن استقامتِه، وهم يَعلمون الحقَّ،

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٧٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٩٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٠٣)، ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٤٣٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٩٩).

ويَعرِفون سوءَ ما يَقومون به، وليس الله بغافلٍ عمَّا يقومون به؟!

تَفسيرُ الآيتين:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ (٩٨)﴾.

أي: قُلْ- يا محمَّدُ- لأصحابِ التَّوراة والإنجيل مُوبِّخًا لهم: يا معشرَ اليهود والنَّصارى، ما الذي يَحمِلكم على جحْد حُجَج الله تعالى التي جاءت بها كُتُبكم، والتي تُثْبِت نبوَّتي وصِدْقَ ما جئتُ به من الله تعالى؛ فلمَ تَجْحَدون ذلك وأنتُم على عِلْم بالحقِّ، والله تعالى شهيدٌ على كُفْركم؟! فإنَّه سبحانه لا يَخفى عليه شيءٌ، وسيُجازيكم على كُفْركم بما تَستحِقُّون(١).

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩)﴾.

مُناسبةُ الآية لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أمَر الله تعالى نبيَّه محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بتوبيخِ أهلِ الكتابِ على كُفْرهم القاصِر عليهم، أمَرَه أيضًا بتوبيخِهم على عُدوانهم على الغيرِ، بصدِّهم عن الإيمان(٢)، فقال تعالى:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾.

أي: قُلْ- يا محمَّدُ- لأهل الكتاب مُوبِّخًا: يا معشرَ اليهود والنَّصارى لِمَ تُضِلُّون عِبادَ الله المؤمنين عن طريقِ الله الذي جئتُ به من عندِ الله، والمُوصِل

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٢٤-٦٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤١، ٩٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٦١-٥٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٦٤).

إلى الله، تُريدون انحرافَ هذا الطريق عن استقامتِه؛ ليَزيغَ بالمؤمنين مِن الهدى إلى الضَّلال، والحال أنَّكم تعلمون الحقَّ؛ مِصداقًا لِما تَجِدونه في كُتُبِكم كصِفة محمد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَعلَمون سوءَ ما تَصْنعون[١]؟!

﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

أي: وليس الله عزَّ وجلَّ بغافلٍ- أيُّها اليهود والنَّصارى- عن ضلالِكم وإضلالكِم، بل يُحصي أعمالَكم، وعليها يُجازيكم[٢].

الفَوائِد التربويَّة:

١- في قوله: ﴿قُلْ: يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ، وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلى ما تَعْمَلُونَ﴾ مجابهةُ أهلِ الكتابِ بحقيقةِ موقفِهم، ووَصْفهم بصِفتِهم التي يُدارُونها بمظهرِ الإيمان والتديُّن، بينما هم في حقيقتِهم كُفَّارٌ؛ فهم يَكفُرون بآياتِ الله القرآنيَّة، ومن يَكفُرْ بشيءٍ من كتاب الله فقد كفَر بالكتاب كلِّه، ولو أنَّهم آمنوا بالنصيبِ الذي معهم لآمَنوا بكلِّ رسولٍ جاءَ من عند اللهِ بعد رسولِهم؛ فحقيقةُ الدِّينِ واحدةٌ مَن عرَفَها عرَفَ أنَّ كلَّ ما يَجيء به الرُّسُلُ مِن بعدُ حقٌّ، وأَوْجَب على نفسه الإسلامَ للهِ على أيديهم، وهي حقيقةٌ من شأنها أن تَهُزَّهم وأنْ تُخوِّفَهم عاقبةَ ما هم فيه، ثمَّ إنَّ المخدوعين مِنَ الجماعةِ المسلمةِ بكونِ هؤلاء الناسِ أهلَ كتابٍ يَسقطُ هذا الخِداعُ عنهم، وهم يَرَوْن اللهَ- سبحانه- يُعلنُ حقيقةَ أهلِ الكتابِ هؤلاءِ، ويَدْمَغُهم بالكفرِ الكاملِ الصَّريح؛ فلا تَبْقَى بعد هذا رِيبةٌ لمُستريبٍ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٢٥-٦٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤١، ٩٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤١، ٩٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٦٤).

(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٣٦).

٢- في قولِه تعالى: ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلى ما تَعْمَلُونَ﴾، وقوله: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ تهديدٌ بما يَخلَعُ القلوبَ، حين يحسُّ إنسانٌ أنَّ اللهَ يَشهَد عَملَه، وأنَّه ليس بغافلٍ عنه، بينما عملُه هو الكفرُ والخداعُ والإفسادُ والتَّضليلُ! ويُسجِّلُ اللهُ تعالى عليهم مَعرفةَ أهل الكتاب بالحقِّ الذي يَكفُرون به، ويَصدُّون الناسَ عنه: ﴿وَأَنْتُمْ شُهَداءُ﴾، ممَّا يَجزِم بأنَّهم كانوا على يقينٍ مِن صِدق ما يُكذِّبون به، ومِن صلاحِ ما يَصدُّون الناسَ عنه، وهو أمرٌ بشعٌ مُستنكَرٌ، لا يستحقُّ فاعلُه ثقةً ولا صُحبةً، ولا يستأهلُ إلَّا الاحتقارَ والتَّنديد(١)!

٣- في قولِ الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلى مَا تَعْمَلُونَ﴾ إثباتُ شهادةِ الله على كلِّ ما يعملُ بنو آدمَ؛ لأنَّ (ما) اسمٌ موصولٌ يُفيد العُمومَ(٢).

٤- في قوله: ﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَها عِوَجًا...﴾ أنَّ سبيلَ الله هو الطريقُ المستقيم، وما عداه عوجٌ غيرُ مستقيم، وحين يُصدُّ الناسُ عن سبيلِ الله، وحين يُصدُّ المؤمنونَ عن منهجِ الله، فإنَّ الأمورَ كلَّها تَفقِدُ استقامتَها، والموازينَ كلَّها تَفقِدُ سلامتَها، ولا يكونُ في الأرضِ إلَّا العوجُ الذي لا يَستقيمُ، إنَّه الفسادُ؛ فسادُ الفطرةِ بانحرافها، وفسادُ الحياة باعوجاجِها! فإمَّا أنْ يستقيمَ الناسُ على منهجِ الله، فهي الاستقامةُ والصَّلاح والخير، وإمَّا أنْ يَنحرِفوا عنه إلى أيَّة وجهةٍ، فهو العوجُ والفسادُ والشرُّ، وليس هنالك إلَّا هاتان الحالتان، تتعاوران حياةَ بني الإنسان(٣).

٥- في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾، الحثُّ على الاستقامة بلُزوم الشَّرع، وتَرْك العِوَج والزَّيغ عن

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٣٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٦٣).
(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٣٧).

شريعةِ اللهِ تعالى في الأوامرِ بالتَّفريط، والتَّهاون، أو بالغُلُوِّ والإفراط، وفي النَّواهي بانتهاكِها، والتَّهاون بها، وكلُّ إنسانٍ عاقلٍ فإنَّه يَسعى إلى الوصولِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه غايةُ المطالِب، ولا وصولَ إلى الله إلَّا بسلوك شَرْعه وسبيله الذي يُوصِل إليه[1].

٦- في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ...﴾؛ الحَذرُ من التَّثبيطِ عن فِعْل الخير، أو التَّرغيب في فِعْل الشَّرِّ؛ لأنَّ مَن صَدَّ عن سبيلِ الله من المسلمين يكونُ فيه شَبَهٌ من اليهود والنَّصارى؛ فهذا سبيلُهم[2].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ افتتَح بفِعْل (قُلْ)؛ اهتمامًا بالمقُول[3].

٢- قول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾ يُستفاد منه أنَّ اللهَ تعالى لا يُحاسِب العبدَ على ما حدَّث به نَفْسَه؛ فالوَساوس التي تكون في الصَّدر لا يُؤاخَذ عليها الإنسانُ إلَّا إذا ترتَّب عليها عملٌ، أو ركَن إليها واعتَقدها، وجعَلَها من أعمالِ القلب، فحينئذٍ يُحاسَب عليها، وكذلك إذا نطَق بها لسانُه، أو عمِل بمقتضاها بجوارحه، فحينئذٍ يُحاسَب عليها[4].

٣- قوله تعالى: ﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ﴾؛ إنَّما ذكَر مَنْ آمن مع أنهم يَصُدُّون مَنْ لم يؤمن أيضًا حتى لا يَدخُل في الإيمان؛ وذلك لأنَّ صدَّ مَن آمن أشدُّ عُدوانًا مِن صدِّ مَن لم يؤمن؛ فالبقاءُ على الكُفْر أهونُ من الرِّدة؛ لأنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٦٨).
(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٦٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٦٤).

هذا مَنْع، والأوَّل رَفْع، ورَفْع الخيرِ أشدُّ عقوبةً مِن مَنْعه(١).

٤- ختَم اللهُ تعالى الآيةَ الأولى بقوله: ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ﴾، والآية الثانية بقوله ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ وذلك لأنَّهم كانوا يُظهِرون الكُفْرَ بنُبوَّة محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وما كانوا يُظهِرون إلقاءَ الشُّبهِ في قلوب المسلمين، بل كانوا يَحتالون في ذلك بضُروب من المكايد والحيل الخفيَّة، التي لا تَروُج إلا على الغافل، فلا جَرَم قال فيما أظهَروه ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ﴾، وفيما أضمَروه ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾(٢).

٥- قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾؛ أحالَهم في هذا الكلامِ على ما في ضمائرِهم ممَّا لا يَعلَمه إلَّا اللهُ؛ لأنَّ ذلك هو المقصودُ مَن وخْزِ قلوبهم، وانثنائِهم باللائمةِ على أنفسهم(٣).

٦- قوله الله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ يتضمَّن نَفْي الغَفْلةِ عن الله، وكذلك ثبوتَ كمال المراقبة؛ لأنَّ مَن كان كامِل المراقبة، فإنَّه ليس عنده غَفْلة(٤).

بَلاغَةُ الآيتين:

١- قوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ فيه تخصيصُ أهلِ الكتاب بالخِطاب؛ للدَّلالةِ على أنَّ كُفْرهم أَقْبح؛ لأنَّ معرفتَهم بالآيات أقوى، ولأنَّ كونهم أهلَ كتابٍ يُوجِب الإيمانَ بما يُصدِّق ما معهم، وهم- وإنْ زعَموا أنهم مؤمنون بالتَّوراة والإنجيل- فهم كافرون بهما(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٠٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٦٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٦٢).

- وكرَّرها في الآيتين؛ لأنَّ المقصودَ التوبيخُ على أَلْطف الوجوه، وتكريرُ هذا الخطابِ اللَّطيف أقربُ إلى التلطُّف في صَرْفهم عن طريقتِهم في الضَّلال والإضلال، وأدلُّ على النُّصح لهم في الدِّين والإشفاق[1].

٢- قوله: ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾: استفهامٌ للتَّوبيخ والإنكار لأنْ يكونَ لكُفْرهم بها سببٌ من الأسباب، وتحقيقٌ لِما يوجِبُ الاجتنابَ عنه بالكُلِّيَّة[2].

٣- قوله: ﴿وَاللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾ الجملة حالٌ مِن فاعِل ﴿تَكفُرون﴾ وهي مفيدةٌ لتشديد التَّوبيخِ، وتأكيدِ الإنكار[3].

- وإظهارُ لفْظ الجلالةِ (والله) في موقعِ الإضمار- حيث لم يَقُل: (وهو)-؛ لتربية المهابة، وتهويلِ الخَطْبِ[4].

- وصيغةُ المبالغةِ في ﴿شهيدٌ﴾؛ للتَّشديدِ في الوعيد[5].

٤- قوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ﴾: أمرٌ بتوبيخهم بالإضلال إثْر توبيخِهم بالضَّلال، والتَّكريرُ للمُبالَغة في حَمْله عليه السَّلام على تقريعهم وتَوبيخِهم، وتَرْكُ عطفِه على الأمر السَّابقِ؛ حيث لم يَقُل: (وقل يا أهل..)؛ للإيذان باستقلالهم، كما أنَّ قطْعَ- أي: عدم عطف- قوله تعالى: ﴿لِمَ تَصُدُّونَ﴾ عن قوله تعالى: ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ﴾ فيه إشعارٌ بأنَّ كلَّ واحدٍ مِن كُفْرهم وصدِّهم شناعةٌ على حيالها، مُستقِلةٌ في استتباع اللائمةِ والتَّقريعِ، وتكريرُ الخطابِ بعُنوان

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٦٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أهليَّةِ الكتابِ ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾؛ لتَّأكيد الاستقلالِ، وتشديدِ التَّشنيع، فإنَّ ذلك العُنوانَ كما يَستدعي الإيمانَ بما هو مُصدِّقٌ لِمَا معهم، يَستدِعي ترغيبَ النَّاسِ فيه، فصدُّهم عنه في أقصى مراتبِ القَباحةِ[1].

٥- قوله: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾: اعتراضٌ تذييليٌّ، فيه تهديدٌ ووعيدٌ شديد، وتذكيرٌ؛ لأنَّهم يعلمون أنَّ الله يعلم ما تُخفي الصُّدور، وهو بمعنى قوله في موعظتهم السابقة: ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾، إلا أنَّ هذا أغلظُ في التَّوبيخ؛ لِما فيه من إبطال اعتقاد غفْلته سبحانه؛ لأنَّ حالهم كانت بمَنزِلة حالِ مَن يَعتقِد ذلك[2].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٧).

الآيتان (١٠٠ - ١٠١)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ ١٠٠ وَكَيۡفَ تَكۡفُرُونَ وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٠١ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ﴾: أي: يَمتنِعْ بالله، وأصْل العِصمة: الإمساكُ، والمُلازَمةُ والمنعُ، ومنه يُقال: عصَمَه الطَّعامُ، أي: منَعه من الجوعِ[1].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُحذِّر الله تعالى المؤمنينَ مِن طاعةِ طائفةٍ مِنَ الذين أُوتوا الكتابَ، الذين يَحْسُدُون المؤمنينَ على ما آتاهم اللهُ مِن فَضْلِه، مبيِّنًا أنَّهم إن أطاعوهم أخْرَجوهم من الإيمانِ إلى الكُفْرِ، ثُمَّ بَيَّن تعالى أنَّ الكُفْر بعيدٌ منهم؛ فمِن أين يتطرَّقُ إليهم الكُفر، والحالُ أنَّ آياتِ الله تَنْزِل على رسولِه ويتلوها عليهم، وبَيْنَ أَظْهُرِهم رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، يُبيِّنُ لهم ما أُنْزِلَ إليهم ويُثبِّتُهم، ثم أرشد اللهُ المؤمنينَ إلى الوسيلةِ التي متى تَمَسَّكوا بها عَصَموا أنفُسَهم مِن مَكْر اليهود وغَيرِهم، وهي الاعتصامُ بالله والتوكُّل عليه؛ فهي العُمدة في الهداية، والوسيلةُ إلى الرَّشاد، وطريقُ السَّداد، فمن يلتجِئْ إلى اللهِ في كلِّ أحوالِه، ويتَوكَّلْ عليه حَقَّ التوكُّلِ، ويتمَسَّكْ بدينه، فقد هُدِيَ إلى الطريقِ الذي لا انحرافَ فيه ولا اعوجاجَ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٧).

تَفسيرُ الآيتين:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّ الله تعالى لَمَّا وبَّخ أهلَ الكتاب على كُفْرهم، وصدِّهم عن سبيل الله- وهو الإسلام- وتَمَّ إيذانُه بالسَّخَط على أعدائِه، وأَبلَغَ في إنذارهم عظيمَ انتقامِه إنْ داموا على إضلالهم، وذلك إثْرَ إقامة الحُجَج عليهم، وإزالة شُبُهاتهم- ناسَب أنْ يُخاطِب المؤمنين مُحذِّرًا إيَّاهم من الاغترارِ بالمُضلِّين، ومُبيِّنًا لهم أنَّ مَن كان هذا شأنَهم في الكُفْر، لا ينبغي أن يُطاعوا، ولا أن يُسمَع لهم قولٌ، فإنَّهم دُعاة الفِتْنة ورؤَّاد الكُفْر(١)، قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠)﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنون، إذا أَطعْتم تلك الفئةَ من أهلِ التَّوراة والإنجيل، الحريصةَ على ردِّكم إلى الكُفْر، التي تَسعى جاهدةً بكلِّ ما تَستطيع، وتبذُل محاولاتٍ مُضنِيةً في سبيل ذلك، فقَبِلتم منهم ما يأمرونكم به؛ فإنَّكم ستُحقِّقون لهم ما يَبْتغون بإخراجِكم من الإيمانِ إلى الكفر(٢).

قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٠٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٨١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٣١-٦٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤١، ٩٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٧٠-٥٧٢).

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٠١)﴾.

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾.

أي: كيف تَرتدُّون عن إيمانكم- أيُّها المؤمنون- ومعكم ما يُثبِّتكم عليه، ويمنعكم من الارتداد عنه، وهو القرآنُ الذي تُقرأُ عليكم آياتُه، ورسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الذي بين أَظْهُركم؛ إذ يُبلِّغه ويُبيِّنه لكم؛ فإنَّ الإيمانَ إذا تَغلْغل في شَغافِ القلب لا يَخرُج منه بإذن الله تعالى[1].

﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

أي: إنَّ مَن يتعلَّق بأسباب الله، مُتمسِّكًا بدِينِه، مُتوكِّلًا عليه، فقد وُفِّق لطريقٍ واضحٍ غير مُعوجٍّ، فيستقيمُ به حتى يُوصِلَه إلى رِضوان الله، وإلى النَّجاة من عذابِه، والفوزِ بجنَّته سبحانه[2].

الفَوائدُ التربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ الحذرُ من طاعةِ أهل الكتاب، والتَّلقِّي عنهم، واقتباسِ مناهجِهم وأوضاعِهم؛ فهم يُحاوِلون غايةَ المحاولة أنْ يردُّوا المؤمنين عن إيمانهم إلى الكُفْر؛ وذلك لِمَا انطوتْ عليه نفوسُهم من غِلٍّ وغِشٍّ وحسَدٍ وبُغْض للمؤمنين، فالمؤمنون إنْ لانُوا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٣٣-٦٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤١، ٩٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٧٣-٥٧٥).
قال أبو حيان: (الرَّسول هنا: محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم بلا خلافٍ) ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٣٤-٦٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤١، ٩٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٦).

وقَبِلوا منهم قولَهم أدَّى ذلك حالًا بعد حال إلى أنْ يعودوا كُفَّارًا(١).

٢- معرفةُ فضْلِ الصحابة بالمَنْقبة العظيمة، والمِنَّة الجليلة، وهي وجودُ هذا الرسول العظيم عليه الصَّلاة والسَّلام بينهم، ومشاهدةُ أنواره؛ فكان وجودُه عِصْمةً من ضلالهم، تلك المَزِيَّة التي فاز بها الصَّحابةُ المخاطَبون بهذه الآية ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾(٢).

٣- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، فيه أنَّ الاعتصامَ بالله تعبُّدًا واستعانةً، والامتناعَ بقوَّته ورحْمته عن كلِّ شرٍّ، والاستعانةَ به على كلِّ خيرٍ هو العمدةُ في الهداية، والعُدَّةُ في مُباعدةِ الغَواية، والوسيلةُ إلى الرَّشاد، وطريق السَّداد، ومُوصِل لصاحبه إلى غاية المرغوب(٣).

٤- أنَّ التَّمسُّك بكتابِ الله تعالى وسُنَّة رسوله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، والإقبال عليهما أعظمُ مانعٍ يَمْنع من الكُفْر، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(٤).

٥- قوله: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ فإذا كان رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قد اسْتوفَى أجَلَه، واختار الرَّفيقَ الأعلى، فإنَّ آياتِ الله باقيةٌ، وهُدَى رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ باقٍ، ونحن اليومَ مُخاطَبون بهذا القرآنِ كما خُوطِب به الأوَّلون، وطريقُ العصمة بيِّن، ولواءُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٠٩)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص:١٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٨٤).

العصمة مرفوعٌ: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، فالاعتصامِ بالله يَعصِم، واللهُ سبحانه هو الحيُّ القيوم(١).

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- النِّداء في قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، مُوجَّه للمؤمنين من بابِ الإغراء؛ لقَبُولِ ما يأتي تصديقًا به إنْ كان خبرًا، وامتثالًا له إنْ كان طلبًا (أمرًا ونهيًا)؛ لأنَّ وصْفَهم بالإيمان يَقتضي أنْ يقوموا بمقتضى هذا الخِطاب الموجَّه لهم(٢).

٢- قولُ الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ فيه تَفضُّلُ الله على المؤمنين بأنْ خاطَبهم بغير واسطة؛ فلم يأتِ بلفظ (قُلْ)؛ ليكون ذلك خِطابًا منه تعالى لهم وتأنيسًا لهم، بخلافِ خِطابه لأهلِ الكِتاب؛ إذ قال: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾(٣).

٣- في قولِ الله تعالى: ﴿إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾؛ أَطلَق الطواعيةَ لتَدلَّ على عمومِ البَدل، أي: إن يَصدُر منكم طواعيةٌ ما في أيِّ شيءٍ كان ممَّا يُحاوِلونه من إضلالِكم(٤).

٤- في قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾؛ أَبرَز نهيَه عن موافِقتهم وطواعيتِهم في صورةٍ شَرْطيَّة؛ لأنَّه لم تَقَع طاعتُهم لهم(٥).

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٣٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٧٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٨١).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بَلاغَةُ الآيتين:

١- قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ صُدِّر هذا الحُكمُ بالنِّداء، وتصديرُ الحُكْم بالنِّداءِ يتضمَّن تنبيهَ المُخاطَب، والتَّنبيهُ لا يكون إلَّا لأمرٍ مُهمٍّ تَجِب العنايةُ به(١).

٢- قوله: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾: استفهامُ إنكارٍ وتعجُّب؛ لكُفْرهم في حالٍ اجتمَعت لهم الأسبابُ الدَّاعية إلى الإيمان الصَّارِفة عن الكُفْر(٢).

٣- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾:

- فيه تلوينٌ للخطاب، وتوجيهٌ له إلى المؤمنين؛ تحذيرًا لهم عن طاعة أهلِ الكتابِ، والافتتانِ بفِتْنتهم، إثْرَ توبيخِهم بالإغواء والإضلالِ؛ ردْعًا لهم عن ذلك، وتعليقُ الردِّ بطاعة فريقٍ منهم؛ للمُبالَغة في التَّحذير عن طاعتِهم، وإيجابِ الاجتنابِ عن مصاحبتهم بالكُلِّيَّة؛ فإنَّه في قوَّةِ أنْ يُقال: لا تُطيعوا فريقًا... إلخ(٣).

- وقوله: ﴿بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾: فيه تأكيدٌ لِما أفادَه قوله: ﴿يَرُدُّوكُمْ﴾، والقصدُ من التَّصريحِ به توضيحُ فواتِ نِعمةٍ عظيمةٍ كانوا فيها لو يَكفُرون(٤).

٤- قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ جاء جوابُ الشَّرط ﴿هُدِيَ﴾ بصيغة الماضي، و﴿قَدْ﴾ المحقِّقة؛ إشارةً إلى أنَّ مَن يلتجِئ إلى الله تعالى ويَعتصِم بحبْله، فقدْ تَحقَّقت هِدايتُه، وثَبَتت استقامتُه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٩٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٨).

سابقًا وواقعًا، سابقًا في اللَّوح المحفوظ، وفي الكتابةِ حينما تُنفَخ فيه الرُّوح في بطن أُمِّه، وواقعًا؛ لأنَّه اعتَصَم بالله[1].

- وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾: فيه حذْف الفاعلِ؛ ليشملَ كلَّ الهُداة؛ وذلك لتعدُّد طُرُق الهِداية، فأعْلى الهُداة الله عزَّ وجلَّ، ثمَّ الرَّسولُ عليه الصَّلاة والسَّلام، ثمَّ وَرَثةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهم العلماءُ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٧٥).

الآيات (١٠٢ - ١٠٩)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢
وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ
أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ
فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٠٣ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ
يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ
١٠٤ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ
عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٥ يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ
أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ١٠٦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ
وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١٠٧ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۗ
وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٨ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ
ٱلۡأُمُورُ ١٠٩﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿فَأَلَّفَ﴾: جمَع، وأوقَع الأُلْفة، والإلفُ: اجتماعٌ مع التِئام، وأصلُه: انضمامُ الشَّيءِ إلى الشَّيء[1].

﴿شَفَا حُفْرَةٍ﴾: أي: حَرْفِ حُفرة؛ فشفَا الشيءِ: حرْفُه، ومنه: أَشْفَى على كذا: إذا أشْرَف عليه[2].

المَعنَى الإجماليُّ:

يأمُر الله عبادَه المؤمنين بتقواه قَدْر الاستطاعةِ، وأنْ يُداوِموا على التَّمسُّك

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٧).

بهذا الدِّين إلى أنْ يأتيَهم الموتُ وهم على ذلك.

كما يأمُرُهم سبحانه بالاجتماعِ والأُلْفة على كلمةِ الحقِّ، وألَّا يفعلوا ما يَدْعوهم إلى الفُرْقة.

وأمَرهم أيضًا أن يَذْكروا ما أَنعَم به عليهم من الاجتماعِ على دِين الإسلام، حتى صاروا بهذه النِّعمة إخوانًا، وقد كانوا مِن قَبْلِ اعتناقهم له أعداءً مُتقاتِلين، وذكَّرهم الله سبحانه أيضًا أنَّهم كانوا على وَشْكِ أنْ يقعوا في النَّار فأنقَذهم منها، كذلك يُوضِّح اللهُ لهم آياتِه؛ لأجْل أنْ تَحصُل لهم الدَّلالةُ على طريقِ الحقِّ والتَّوفيق لسُلوكه.

ثم يأمُر اللهُ عِبادَه المؤمنين أنْ يكون منهم جماعةٌ تقوم بالدَّعوة إلى دِين الله، ويأمرون الناسَ بما أمَرهم به الشَّرع، ويَنْهَوْنهم عن فِعْل ما نهاهم عنه الشَّرع، وأولئك هم المفلِحون.

ونهاهم أنْ يَتفرَّقوا في دِينهم كتَفرُّق الذين من قَبْلهم: كاليهود، والنَّصارى، الذين اختَلَفوا في دِينهم بعد أنْ جاءتهم البيِّناتُ التي تمنعهم مِن التفرُّق، وأولئك لهم عذابٌ من عند الله عظيم، وذلك في يوم تكونُ فيه وُجوه أهلِ السَّعادة بيضاءَ، بينما تَسْودُّ وجوه أهلِ الشَّقاوة. فأمَّا أصحابُ الوجوه المُسودَّة، فيُقال لهم توبيخًا: أَكفَرتم بعد إيمانكم؟! فذوقوا عذابَ الله بسبب كُفْركم، وأمَّا مَن ابيضَّت وجوههم، فهُم في رحمة الله، بما أَعدَّه الله في جنَّاته مِن أنواع النَّعيم، ماكِثين فيه أبدًا.

ثُمَّ خاطَب الله نبيَّه محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ تلك الآياتِ التي تقدَّمت نقرؤها عليك بالحقِّ، والله تعالى لا يَظلِم أحدًا مِن خلْقه مُطلَقًا، وله وحده جميعُ ما في السَّموات والأرض، وإليه تُرجَع جميع الأمور.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا حذَّر الله تعالى المُخاطَبِين من الانخداع لوَساوس بعض أهل الكتاب، حرَّضهم على تَمامِ التَّقوى؛ لأنَّ في ذلك زيادةَ صلاحٍ لهم، ورُسوخًا لإيمانِهم[1]، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنون ابذُلوا كلَّ جَهْدكم وطاقتكم؛ لتَمتَثِلوا أوامرَ الله عزَّ وجلَّ وتَجتنِبوا نواهيَه، ولتُحقِّقوا تقوى الله تعالى الاتِّقاءَ الحقَّ الواجبَ الثابتَ بقَدْرِ ما تستطيعون[2].

كما قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

أي: داوِموا في حياتِكم على التَّمسُّك بدِين الإسلام، وحافِظوا عليه حتى يأتيَكم الموتُ وأنتم على ذلك[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤١، ١٤٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٨٨).
قال ابن أبي حاتم: (عن عبد الله: ﴿اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ قال: أنْ يُطاع فلا يُعصى، وأنْ يُذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكفر... ورُوي عن مُرَّة الهَمْداني، والربيع بن خُثَيم، وعمرو ابن ميمون، والحسن، وطاوس، وقتادة، وإبراهيم النَّخَعي وأبي سِنَان، والسُّدِّي نحو ذلك) ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٣/ ٧٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٢٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٨٩).

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أمَر الله تعالى عبادَه المؤمنين بالتَّقوى، أمَرَهم بما يُعِينهم عليها، وهو الاجتماعُ والاعتصامُ بدِين الله[1]، فقال تعالى:

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾.

أي: تَمسَّكُوا بدِينه، وعهْدِه إليكم بالأُلفةِ والاجتماعِ على كلمةِ الحقِّ، ولا تَرتكِبوا ما يُفرِّق جمْعَكم عن هذا الدِّين والعَهْد[2].

قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وقال جلَّ وعلا: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وعن أبي هُرَيرَةَ رضِي اللهُ عنه أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((إنَّ اللهَ يرضَى لكم ثلاثًا، ويَكرهُ لكُم ثلاثًا، فيَرضَى لكُم: أنْ تَعبدوهُ، ولا تُشرِكوا به شيئًا، وأنْ تَعتصِموا بحبلِ اللهِ جميعًا ولا تَفرَّقوا، ويَكرهُ لكم: قيلَ وقالَ، وكثرةَ السُّؤالِ، وإضاعةَ المالِ))[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٤٣، ٦٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٨٩، ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٩٤- ٥٩٥).

(٣) رواه مسلم (١٧١٥).

عن زَيدِ بن أَرْقَمَ رضِي اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((ألَا وإنِّي تَارِكٌ فيكم ثَقَلَين: أحدُهما كتابُ اللهِ عزَّ وجلَّ، هو حبلُ اللهِ، مَن اتَّبعه كان على الهُدى، ومَن ترَكَهُ كان على ضلالةٍ..)) الحديث[1].

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾.

أي: اذكُروا بقلوبِكم وألْسنتِكم - أيُّها المؤمنون - ما أَنعَم الله تعالى به عليكم من الأُلْفةِ والاجتماعِ على دِين الإسلام، فقد كنتُم من قبلِ اعتناقِكم الإسلامَ أعداءً مُتفرِّقين، يُقاتِل بعضُكم بعضًا، في غيرِ طاعةِ الله تعالى، فجَمع الله عزَّ وجلَّ بالإسلامِ قلوبَكم، فجعَل بعضَكم لبعضٍ إخوانًا مُتحابِّين، بلا ضغائنَ ولا أحقادٍ بينكم[2].

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٢-٦٣].

عن عبدِ الله بن زيد رضِي اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا أفاءَ اللهُ على رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يومَ حُنينٍ، قَسَمَ في النَّاسِ في المؤلَّفةِ قلوبُهم، ولم يُعطِ الأنصارَ شيئًا، فكأنَّهم وجَدوا[3] إذ لم يُصِبْهم ما أصابَ النَّاسَ، فخطَبهم فقال: يا معشرَ الأنصارِ، ألمْ أجِدْكم ضُلَّالًا فهداكم اللهُ بي، وكنتم مُتفرِّقين فألَّفكم اللهُ بي،

---

(١) رواه مسلم (٢٤٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٤٩-٦٥١، ٦٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٩٥).

(٣) وَجَدوا: أي: غضِبوا. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ١٥٥).

وكنتم عالةً[1] فأغْناكم اللهُ بي؟! كلَّما قال شيئًا، قالوا: اللهُ ورسولُه أَمَنُّ ...)) الحديث[2].

وفي روايةٍ أخرى قال عليه الصَّلاة والسَّلام: ((يا معشرَ الأنصارِ، ألمْ أَجِدْكم ضُلَّالًا فهداكم اللهُ بي، وعالةً فأغناكم اللهُ بي، ومُتفرِّقينَ فجمَعكم اللهُ بي؟!))[3].

﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾.

أي: كنتُم- أيُّها المؤمنون- قبلَ اجتماع قلوبِكم على الإسلام، على وَشْكِ الوقوع في النَّار، إذ لم يَبقَ بينكم وبينها إلَّا أنْ تموتوا على كُفْركم، فأَنقَذَكم اللهُ تعالى منها بِهدايتِكم إلى الإسلام[4].

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

أي: بمِثْل هذا الوضوحِ الذي بيَّن الله تعالى به ما تَقدَّم من الآيات الدَّالَّات على الحقِّ القويم، يُبيِّن أيضًا بوضوحِ بقيَّة الآيات الأخرى؛ لأجْل أن تَحصُل لكم بها الدَّلالةُ على طريق الحقِّ، وتُوفَّقوا لسُلوكه[5].

﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

في الآياتِ المتقدِّمةِ عاب اللهُ تعالى أهلَ الكتاب على شيئينِ أحدهما: أنَّه

---

(١) عَالة: جمْع عائِل، وهو الفقيرُ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٣٢٣).

(٢) رواه البخاري (٤٣٣٠).

(٣) رواه مسلم (١٠٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٥٧-٦٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٩٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٢، ٩٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٩٩- ٦٠٠).

عابَهم على الكُفْر، فقال: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ﴾، ثُمَّ بعد ذلك عابَهم على سَعْيهم في إلْقاء الغيرِ في الكُفْر، فقال: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾، فلمَّا انتقَل منه إلى مخاطبة المؤمنين، أمَرَهم أوَّلًا بالتَّقوى والإيمان، فقال: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾، ثم أمَرهم بالسَّعي في إلْقاء الغيرِ في الإيمان والطَّاعة[١]، فقال:

﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤)﴾.

أي: لتوجدْ منكم- أيُّها المؤمنون- فِرْقةٌ مُتصدِّيةٌ للقيام بشأنِ الدَّعوة إلى دِين الله تعالى وبيانِ شرائعِه، وقائمةٌ بواجب أمْر النَّاس بامتِثال ما أمرهم به الشَّرع، ونَهْيِهم عن ارتكابِ ما نهاهم عنه الشَّرع؛ فإنَّ المتَّصِفين بهذه الصِّفات هم الفائزون في الدَّارينِ بما يَرْغَبون، والنَّاجون فيهما ممَّا يَرهَبون[٢].

عن حُذيفةَ بن اليَمان رضِي اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((والذي نَفْسي بيدِه لتَأمرُنَّ بالمعروفِ، ولتَنهوُنَّ عن المُنكرِ، أو ليُوشِكَنَّ اللهُ أن يَبعثَ عليكمْ عقابًا منهُ فتدعونهُ فلا يَستجيبُ لكمْ))[٣].

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٦٠-٦٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٩١، ٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٢، ٩٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥-٨).

(٣) رواه الترمذي (٢١٦٩)، وأحمد (٢٣٣٤٩)، والبيهقي في ((السنن الكبرى)) (٢٠١٩٩).
حسَّنه الترمذيُّ، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٧١٥)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢١٦٩).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

مُناسبةُ قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا ...﴾ بعدَ قوله: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ...﴾ أنَّ الأمَّةَ إذا تَركتِ الدَّعوةَ إلى الخيرِ والأمرَ بالمعروفِ والنهيَ عن المنكر فلا بدَّ أنْ تتفرَّق؛ لأنَّه لا يكونُ لهم في هذه الحالِ كلمةٌ جامعةٌ؛ إذ كلُّ واحدٍ يُريد أنْ يعملَ على هواه، فالنُّفوسُ لها نزعاتٌ متباينةٌ(١).

وأيضًا لَمَّا أمَرَ تعالى بالأمرِ بالمعروف والنَّهي عن المُنكَر، وذلك ممَّا لا يَتِمُّ إلَّا إذا كان الآمرُ بالمعروف قادرًا على تنفيذ هذا التَّكليف، ولا تَحصُل هذه القُدْرةُ إلَّا إذا حصلتِ الأُلْفةُ والمحبَّةُ بين أهل الحقِّ والدِّين، لا جَرَم حذَّرهم اللهُ تعالى من الفُرْقة والاختلاف؛ لكي لا يصيرَ ذلك سببًا لعَجْزهم عن القيامِ بهذا التَّكليف(٢)، فقال:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾.

أي: لا تكونوا- يا معشرَ المؤمنين- مُتفرِّقين في دِينكم، كما تَفرَّق الذين مِن قبلكم، كاليهودِ والنَّصارى الذين اختَلَفوا في دِينهم، فأصبحوا أحزابًا مختلفةً، وذلك مِن بعد ما جاءتْهم دلائلُ الحقِّ الواضحات، وعلِموا الحقَّ المبين، فوقَعوا في مُخالفته عامدين، وعلى اللهِ تعالى مُتجرِّئين(٣).

﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

أي: لهؤلاء عذابٌ من عند الله عظيمٌ؛ فلا تكونوا مِثْلهم؛ فيكونَ لكم من عِقابِ الله مِثْلُ الذي لهم(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٨-١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٩١)، ((تفسير السعدي)) =

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى العذابَ العظيمَ الذي سيقَع على مَن تفرَّقوا في دِينهم شيعًا بعد مجيءِ الحقِّ وظهورِه لهم، بيَّن هنا موعدَ مجيء ذلك العذاب[1]، فقال:

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾.

أي: إنَّ أولئك لهم عذابٌ عظيمٌ في اليومِ الذي تكونُ فيه وجوهُ أهل السعادةِ بيضاءَ، وهم الذين اعتَصَموا بحبلِ الله جميعًا، وائتلَفوا بينهم، وتكونُ فيه وجوهُ أهلِ الشَّقاوة سوداءَ، وهم الذين تَفرَّقوا بعدَ ظهورِ البيِّنات لهم[2].

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾.

أي: إنَّ الَّذين اسودَّت وجوهُهم، يُقال لهم توبيخًا وتقريعًا: أكفرتُم بعد توحيدِ الله تعالى وعهْدِه الذي أخَذه عليكم بألَّا تُشرِكوا به شيئًا[3]؟!

﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

أي: فذوقوا إذَنْ عذابَ الله تعالى؛ بسببِ كُفْركم هذا[4].

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧)﴾.

أي: أمَّا أولئك الذين قد ابيضَّتْ وجوهُهم فهُمْ يتقلَّبون في رحمةِ الله تعالى

= (ص: ١٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٩-١٠).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٢-١٤٣، ٩٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٥-٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٦٤-٦٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٧-٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٩-٣٠).

بما أعدَّ لهم في جنَّته من أنواعِ النعيم، ماكثين فيه أبدًا بغير نهاية[١].

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ (١٠٨)﴾.

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾.

أي: تلك الآياتُ التي تقدَّمت، ومنها ما ذكره الله تعالى من ثوابِ المؤمنين وعذابِ الكافرين، نقرؤها عليك- يا محمَّدُ- بالصِّدق المُطابِقِ للواقع؛ صِدقًا في أخبارها، وعدْلًا في أحكامها[٢].

﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى لا يَظلمُ أحدًا مُطلقًا؛ لأنَّه غيرُ مريدٍ للظُّلم سبحانه، ومِن ذلك أنَّه لا ينقص أحدًا شيئًا من الحَسنات، ولا يَزيدُ على أحدٍ شيئًا من السَّيِّئات[٣].

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (١٠٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى أنَّه غيرُ مُريدٍ للظُّلم، بيَّن هنا أنَّه لا يَحتاجُ إلى ظُلْم أحدٍ مِن خلْقه[٤]؛ لأنَّه إذا كان له ما في السَّموات وما في الأرض، فهو يُريد صلاحَ حالهم، ولا حاجةَ له بإضرارهم إلَّا للجزاءِ على أفعالهم؛ فلا يريد ظُلمَهم[٥]، لذا قال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٦٤-٦٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٦٧-٦٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣، ٩٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٩٢-٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣، ٩٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٩٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٤٧).

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى هو وحْده المالكُ لِجميع مَا في السَّموات وما في الأرض، والخالقُ الرازقُ المدبِّر(١).

﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

أي: هو الذي يتصرَّفُ في شؤون عبيدِه، والحاكمُ عليهم في الدُّنيا والآخرة، ومن ذلك رجوعُ النَّاس إليه يومَ القيامة؛ ليُجازيَهم بأعمالهم؛ إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشرٌّ(٢).

الفَوائِد التربويَّة:

١- قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾، توجيه النِّداء إلى المؤمنين يُشير إلى أنَّ التَّقوى من مقتضيات الإيمان؛ لأنَّه إذا نُودي الإنسانُ بوصْف، فإنَّه يزدادُ وصْفُه هذا بحسب زِيادتِه فيما وُجِّه إليه(٣).

٢- قول الله تعالى: ﴿وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ فيه أنَّ على العبادِ البقاءَ على الإسلام والتَّمسُّكَ به، والمحافظةَ عليه في حال الصِّحَّة والسَّلامة حتى يُوافيَهم الموتُ وهم عليه؛ فالمَدار على الخاتِمة(٤)؛ فالموتُ غيبٌ لا يَدري إنسانٌ متى يُدرِكه، فمَن أراد ألَّا يموتَ إلَّا مسلمًا فسبيلُه أنْ يكون منذ اللحظةِ مسلمًا، وأنْ يكون في كلِّ لحظة مسلمًا(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٦٩-٦٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣، ٩٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣، ٩٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٩١).

(٥) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٤٢).

٣- وجوبُ الاجتماعِ على شَرْعِ الله تعالى؛ فقد وضَعَ الله تعالى لنا بفضله ورحْمته قاعدةً نَرجِع إليها عند تَفرُّقِ الأهواءِ واختلافِ الآراء، وهي الاعتصامُ بحبله، بالتَّحاكمِ إلى شرْعِه؛ قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾(١).

٤- تذكير العبادِ نعمةَ الله تعالى في الأمور الدِّينيَّة والدُّنيويَّة، بقلوبِهم وألْسنتهم؛ ليَزدادوا شكرًا له ومحبَّة، وليَزيدَهم من فضْله وإحسانه، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ...﴾(٢)، والتَّذكير بنِعْمة الله تعالى طريقٌ من طُرُق مواعظ الرُّسل(٣).

٥- في قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا...﴾ الحرصُ على الاجتماع والحَذَر من التَّفرُّق؛ فالاجتِماعُ والائتلافُ مِن أعظمِ الأمورِ التي أوْجبَها اللهُ ورسولُه صلَّى الله عليه وسلَّم، فمِن أكبر نِعَم الله على الأُمَّة أنْ يؤلِّف بين قلوبِها بالاجتماعِ وعدم الفُرْقة؛ فاجتماعُ الأُمَّة الإسلاميَّة عِصمةٌ لها، وفي التَّفرُّقِ زوالُ الوَحْدة التي هي مَعقِدُ العزَّة والقوَّة(٤).

٦- في قوله: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ... فأصبحتم بنعمته إخوانا﴾ ركيزتانِ تقوم عليهما الجماعةُ المسلمةُ، وتؤدِّي بهما دورَها الشاقَّ العظيم: ركيزةُ الإيمان والتقوى أولًا؛ التقوى التي تبلغُ أنْ تُوفي بحقِّ الله الجليل، التقوى الدائمةُ اليقِظة التي لا تَغفُل ولا تَفتُر لحظةً من لحظاتِ العُمر

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٦٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:١٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٣٢-٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣١٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ٣٥٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ١٧-١٨، ٢٢)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٦٠٣).

حتى يبلغَ الكتابُ أجَلَه. وأمَّا الركيزةُ الثانية فهي ركيزةُ الأُخوَّة: الأُخوة في اللهِ، على منهجِ الله؛ لتحقيقِ منهج الله[١].

٧- الدَّعوةُ إلى سَبيلِ الله تعالى وإرشادُ الخَلْقِ إلى دِينه وظيفةٌ ضروريَّة لإقامةِ منهجِ الله في الأرض، ولتغليبِ الحقِّ على الباطل، والمعروفِ على المُنكَر، والخيرِ على الشرِّ؛ فلا بدَّ من جماعةٍ تدعو إلى الخير، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المُنكَر، وإنْ كان ذلك واجبًا على كلِّ فردٍ من الأُمَّة بحسَبه، وهؤلاء هم المفلحون الرَّابحون إذا خسِر النَّاسُ؛ قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ...﴾[٢].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- في قول الله تعالى: ﴿وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ قوله: ﴿وَلاَ تَمُوتُنَّ﴾ والموت لا يُنهى عنه؛ لأنَّه غيرُ داخلٍ تحتَ قُدرة المكلَّف، فيتعيَّن حمْلُه على السببِ الذي يَقتضي حصولَ الموت على الإسلام، وهو تقديمُ الإسلامِ قبلَ ذلك، والثباتُ عليه، فيأتي الموت حينئذٍ والعبدُ على الإسلام، والقاعدةُ في مِثل هذا تقول: إذا كان مُتعلَّقُ الخطابِ مقدورًا حُمِلَ عليه، وإنْ كان غيرَ مقدورٍ عليه صُرِفَ الخطابُ إلى ثمرتِه أو سببِه، وهنا حُمِل على السَّبب[٣].

٢- قول الله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾، في الآية دليلٌ على أنَّ الأمْرَ بالشَّيء يَستلزِمُ النَّهيَ عن ضدِّه[٤].

٣- قول الله تعالى: ﴿بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ ولم يَقُل (بينكم)؛ لأنَّ الائتلافَ في

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص:١٤٢)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٠).

(٣) يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (٢/ ٧٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٣٢)، ((قواعد التفسير)) للسبت (٢/ ٤٨٢).

القلوب، وهذا هو الذي عليه المدارُ؛ فكم مِن أُمَّةٍ ائتلفتْ بأجسامها وقلوبها مُتفرِّقةٌ! كما قال الله تعالى عن اليهود: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾(١) [الحشر: ١٤].

٤- في قول الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ الردُّ على أهلِ البِدع الذين حرَّفوا نُصوصَ الكتاب والسُّنَّة إلى معانٍ لا يدلُّ عليها ظاهرُها، دونَ بيانٍ مِن الله ورسولِه، فتصيرُ هذه النُّصوصُ مبهمةً، وبناءً على طريقِتهم هذه لا يكونُ القرآنُ هدًى ولا بيانًا للنَّاس، وهو خلافُ ما تدلُّ عليه هذه الآيةُ(٢).

٥- في قول الله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إثبات العِللِ في أفعال الله سبحانه وتعالى؛ لأنَّ (لعلَّ) للتَّعليل(٣).

٦- قول الله تعالى: ﴿يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ لا إلى أنفسِهم؛ ففيه ملاحظةُ الإخلاص؛ لأنَّ بعضَ النَّاس يدعو إلى نَفْسه لا إلى الخيرِ(٤).

٧- قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾، فيه أنَّ الاختلافَ المنهيَّ عنه هو ما كان ناشئًا عن التَّفرُّق لا كلُّ اختلافٍ(٥).

٨- في قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ قُدِّم الافتراقُ على الاختلاف؛ للإيذانِ بأنَّ الاختلافَ عِلَّةُ التَّفرُّق، وهذا من المفادات الحاصلةِ من ترتيب الكلامِ، وذِكْر الأشياء مع مُقارناتها(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٩٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٦٠٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٦٠٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ٤٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٤٣).

٩- قول الله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ يُفيد أنَّ الإنسان لا يُؤاخَذ على تَرْك الحقِّ، أو اتِّباع الباطل إلَّا إذا بُيِّن له ذلك حتى يَتبيَّن، أو صار بحيث تَبيَّن له لو نظَر فيه، والجهلُ ليس بعُذْر بعدَ البيان(١).

١٠- قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا﴾ فيه تمثيلُ حال التَّفرُّق في أبشعِ صُورِه المعروفةِ لديهم من مطالعة أحوالِ اليهود، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ تَرْك الأمْر بالمعروف والنَّهي عن المُنكَر يُفضي إلى التَّفرُّق والاختلاف؛ إذ تَكثُر النَّزَعات والنَّزَغات، وتَنشقُّ الأُمَّة بذلك انشقاقًا شديدًا(٢).

١١- قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾، فيه أنَّ المكلَّف إمَّا مؤمن وإمَّا كافر، وأنَّه ليس هاهنا مَنزِلةٌ بين المنزِلتين كما يذهب إليه المُعتزِلة، فإنَّ الله تعالى قسَّم أهلَ القيامة إلى قِسْمين: منهم مَن يَبيضُّ وجهُه وهم المؤمنون، ومنهم مَن يسودُّ وجهُه وهم الكافرون، ولم يذكر ثالثًا، فلو كان هاهنا قِسْمٌ ثالث لذكَره الله تعالى(٣).

١٢- في قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ إشعار بأنَّ جانب الرَّحمة أغلب وذلك من وجوه:

الأول: أنَّه لم يَنصَّ تعالى على خُلُود أهل النَّار في هذه الآية، مع أنَّه نصَّ على خُلُود أهل الجنَّة؛ وذلك إشعارًا بأنَّ جانب الرَّحمة أغلب.

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ٤١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٤٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣١٨).

الثاني: أنَّه لَمَّا ذكَر العذابَ لم يُضِفْه إلى نَفْسه، وذكَر الرحمة مُضافةً إلى نَفْسه.

الثالث: أنَّه لَمَّا ذكَر العذابَ علَّله بفِعْلهم، ولَمَّا ذكَّر الثوابَ علَّله برحمتِه[1].

١٣- لو لم يقُلِ الله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ لكان الوعيدُ مختصًّا بمَن كفَر بعد إيمانِه، فلمَّا ذكَر هذا ثبَتَ الوعيدُ لِمَن كفَر بعد إيمانه، ولِمَن كان كافرًا أصليًّا[2].

١٤- قول الله تعالى: ﴿فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ﴾؛ (في) للظَّرفية، فرحمةُ الله هنا ليستِ الرَّحمة المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾؛ لأنَّ هذه صِفة الله، أمَّا في قوله تعالى ﴿فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ فهي مخلوقُ الله، والمُراد بها: الجنَّة، فالرَّحمةُ تُطلَق على غير صِفة الله، بل على مخلوقاتِه، ويَمتنِع أنْ يكون المراد بها الصِّفة؛ لأنَّ الصِّفة لا تكون ظرفًا للبشر، وإذا امتنع أنْ تكون ظرفًا للبشر امتنع أنْ يُراد بالرحمة هنا الرَّحمة التي هي صفةٌ لله تعالى، بل هي الرَّحمةُ المخلوقة لله، وأُطلِق عليها اسمُ الرَّحمة؛ لأنها كانت برحمة الله يَرحَم الله بها مَن يشاء من عباده[3].

١٥- قول الله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾؛ فيه أنَّ مَن كان وكيلًا عن الغير، فله حُكْمُ ذلك الذي وكَّله؛ لأنَّ الله أضاف التِّلاوة إليه مع أنَّ التَّالي رسوله، فدلَّ هذا على أنَّ حُكْم ما نفَّذه الرَّسول بما أُرسِل به حُكْم ما قاله المُرسِل[4].

١٦- قول الله تعالى: ﴿آيَاتُ اللَّهِ﴾؛ فيه أنَّ القرآنَ كلامُ الله تعالى؛ لأنَّ الله

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٩٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٩٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٢).

تعالى أضافه إلى نَفْسه، وما أُضيفَ إلى الله، ولم يكُن عينًا قائمةً بنَفْسها، فهو من صفاتِه[١].

١٧- قولُ الله تعالى: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ يُفيد أنَّ مَن حاوَل أن يُشرِّع للخَلْق شيئًا سِوى ما شَرَعه الله، فقد جعَل نَفْسَه شريكًا مع الله، ووجْه ذلك: أنَّ الله حصَر مَرجِع الأمور إليه[٢].

بَلاغَةُ الآيات:

١- قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾:

- فيه تكريرُ الخِطابِ بعُنوان الإيمانِ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وهو تشريفٌ إثرَ تَشريفٍ[٣].

- وتصديرُ الآية بالنِّداءِ يُشعِر بالعِناية، والاهتمام بالتَّقوى[٤].

- وقوله: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾: فيه النَّهيُ عن شيءٍ وإرادةُ النَّهيِ عن لازِمه؛ إذ النَّهيُ عن الموتِ على حالةٍ في الدِّين إلَّا على حالة الإسلام، مقصودٌ منه النَّهيُ عن مُفارَقة الدِّين؛ بالإسلام مدَّةَ الحياة؛ لأنَّ ساعة الموت أمرٌ غير معلوم؛ فالنَّهيُ عن الموت على غير الإسلام، يَستلزِمُ النَّهيَ عن مُفارَقة الإسلام في سائرِ أحيان الحياة، ولو كان المرادُ به معناه الأصلي، لكان ترخيصًا في مُفارَقة الإسلام إلَّا عندَ حضورِ الموت، وهو معنى فاسدٌ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٦٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٩٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٣٠-٣١).

- ومجيءُ جملة ﴿إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ اسميَّةً أبلغُ؛ لتكرُّر الضَّمير، وللمُواجهة فيها بالخِطاب(١).

٢- **قوله: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾** فيه تمثيلٌ لهيئة اجتماعِهم، والتفافِهم على دِين الله ووصاياه وعهوده بهيئةِ استمساكِ جماعةٍ بحبل أُلقي إليهم من مُنقِذٍ لهم؛ مِن غرَقٍ أو سقوطٍ، فشبَّه الوثوقَ بالله، والاعتمادَ على حمايتِه، بحالِ مَن يُمسِك بحبلٍ وثيقٍ، وقد تدلَّى من مكانٍ عالٍ، فهو آمنٌ مِن انقطاعِه وانبتاتِه(٢).

- قوله: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ تأكيدٌ لمضمون (اعتصموا جميعًا) ... وقد يكون قوله: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ أمرًا ثانيًا؛ للدَّلالة على طلبِ الاتحاد في الدِّين، وقد يُؤكَّد الشيءُ بنفْيِ ضِدِّه، كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾(٣) [الأنعام: ١٤٠].

٣- **قوله: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾:**

- فيه تصويرٌ لحَالِهم التي كانوا عليها؛ ليَحصُل من استفظاعها انكشافُ فائدةِ الحالة التي أُمِروا بأنْ يكونوا عليها، وهي الاعتصامُ جميعًا بجامعةِ الإسلام الذي كان سببَ نَجاتهم من تلك الحالة، وفي ضِمنِ ذلك تذكيرٌ بنِعمة الله تعالى، الذي اختارَ لهم هذا الدِّين، وفي ذلك تحريضٌ على إجابةِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٣١)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٣٠- ٣٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٣٢).

أَمْره تعالى إيَّاهم بالاتِّفاق(١).

- وقوله: ﴿شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ﴾:

- فيه تمثيلُ حياتِهم التي يُتوقَّع بعدَها الوقوعُ في النَّار بالقعودِ على حرْفها، مُشرفِين على الوقوع فيها؛ إذ لو ماتوا على ما كانوا عليه مِن الكُفْر، لوقعوا في النَّار(٢).

- وفيه تنبيهٌ على تَحقير مُدَّة الحياة؛ فإنَّه ليس بين الحياةِ وبين الموتِ المُستلِزم للوقوعِ في الحُفْرة إلَّا ما بين طرف الشَّيء وبين ذلك الشيء(٣).

- وقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾: إشارةٌ إلى مصدرِ الفعل الذي بعده (يُبيِّن)، أي: مِثْل ذلك التَّبيينِ الواضحِ، وما فيه من معنى البُعد؛ للإيذانِ بعُلُوِّ درجة المُشارِ إليه، وبُعدِ منزلتِه في الفضل، وكمالِ تميُّزه به عمَّا عداه، وانتظامِه بسببه في سَلكِ الأمورِ المُشاهَدة، والكافُ لتأكيدِ ما أفادَه اسمُ الإشارةِ من الفخامة(٤).

٤- قوله: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾:

- صيغة ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ﴾ صِيغةُ وجوب، وهو لتأكيدِ ما كانوا يَفعلونه ووجوبِه؛ لأنَّ ذلك كان حاصلًا بينهم من قبلُ، كما يدلُّ عليه قوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وفيه زيادةُ الأمرِ بالدَّعوة إلى الخير، وقد كان الوجوب مُقرَّرًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٣٢-٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٩٥-٣٩٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٦٧).

من قَبلُ بآيات أُخرى، أو بأوامر نبويَّة؛ فالأمرُ لتأكيدِ الوجوبِ أيضًا؛ للدَّلالة على الدَّوام والثَّبات عليه(١).

- وفيه عطْف الخاصِّ على العامِّ، حيث عطَف الأمرَ بالمعروف والنَّهيَ عن المُنكَر على الدَّعوةِ إلى الخيرِ، مع اندراجِهما فيها؛ لمزيدِ العِناية بهما، ولإظهارِ فضْلِهما على سائرِ الخيراتِ(٢).

- وفيه: حذْفُ المفعولِ الصريحِ من الأفعال الثلاثة (يَدْعُون- ويأمرون- ويَنْهون)؛ للإيذانِ بظهوره، أي: يدْعون الناسَ ويأمُرونهم وينهَوْنهم، أو لقصْد إيجاد نفْسِ الفِعْل كما في قولك: فلانٌ يُعطِي ويَمنعُ، أيْ: يفعلون الدعاءَ إلى الخير والأمرَ بالمعروف والنَّهي عن المُنكَر، أو لقَصْد التَّعميم، أي يَدْعون كلَّ أحد(٣).

- قوله: ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾: التَّعريف في (الخير- والمعروف- والمُنكَر)- للاستغراق، وهو يُفيد العمومَ في المعاملات بحسب ما يَنتهي إليه العِلْم والمقدِرة، فيُشْبِه الاستغراقَ العُرْفيَّ(٤).

- وقوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾: الإشارة بـ﴿أُولَئِكَ﴾ وما فيه مِن معنى البُعد؛ للإشعارِ بعلوِّ طبقتِهم، وبُعدِ منزلتِهم في الفضلِ، والإفرادُ في كاف الخطابِ؛ لأنَّ المخاطَب كلُّ مَن يَصلُح للخطاب، أو لأنَّ التعيينَ غيرُ مقصودٍ، أي: أولئك الموصوفون بتلك الصِّفاتِ الكاملة(٥).

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٤-١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٦٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٤-١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٦٧- ٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٤٠-٤١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٦٨).

٥- قوله: ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فيه تأكيدٌ ومبالغةٌ في وعيد المُتفرِّقين، وتشديد في تهديدِ المُتشبِّهين بهم[١]؛ حيث جاءَ التَّعبيرُ بالجملةِ الاسميَّة التي تُفيد تأكيدَ الخبر، وتعريفَ المُسنَد إليه باسم الإشارة ﴿أُولَئِكَ﴾ لتعيُّنه، وبُعد مَنزلته في الشرِّ والفساد[٢]، مع ما في تنكيرِ ﴿عَذَاب﴾ من التَّهويل، والتَّأكيد بوصْفِه بصيغةِ المبالغة فعيل ﴿عَظِيم﴾.

٦- قوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾:

- في تعريفِ هذا اليومِ بحُصولِ بياضِ وجوهٍ وسوادِ وجوهٍ فيه: تهويلٌ لأمْره، وتشويقٌ لِمَا يرِدُ بعدَه من تفصيلِ أصحابِ الوجوهِ المبيضَّة، والوجوه المُسودَّة؛ ترهيبًا لفريق، وترغيبًا لفريق آخر[٣].

- وقوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ فيه تفصيلٌ لأحوالِ الفَريقينِ بعدَ الإشارةِ إليها إجمالًا، وتقديمُ بيانِ هؤلاء؛ لأنَّ المَقام مقامُ التَّحذيرِ عن التَّشبُّه بهم، مع ما فيه من الجمع بين الإجمال والتَّفصيلِ، والإفضاءِ إلى ختْم الكلامِ بحُسن حال المؤمنين، كما بُدِئ بذلك عند الإجمالِ[٤].

- وقول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ...﴾ يُسمِّي علماءُ البلاغةِ هذا النَّوعَ من السِّياق لفًّا ونَشرًا غير مُرتَّب؛ إذ جُعِل النَّشرُ في الآية على غيرِ ترتيبِ اللَّفِّ: فذكَر في اللَّفِّ الابيضاضَ قبل الاسوداد، وذكَر في النَّشرِ حُكْمَ مَن اسودَّت وجوهُهم قبل حُكْم مَن ابيضَّت وجوهُهم، فجعل

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٦٨).
(٢) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٥٠٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٤٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٦٩).

مَطلَع الكلام ومَقطَعه حليةَ المؤمنين وثوابهم، وأَدمَج ذِكْر الآخرين في الأثناء، ونُكْتةُ ذلك: بيان أنَّ المقصودَ من الخَلْقِ الرحمةُ دون العذاب، والتنبيهُ على أنَّ إرادةِ الرَّحمة أكثرُ من إرادةِ الغضبِ(١).

- وقدَّم عندَ وصْف اليومِ ذِكْرَ البياض، الذي هو شعارُ أهل النَّعيم؛ تشريفًا لذلِك اليوم بأنَّه يومُ ظهورِ رحمةِ الله ونِعْمته، ولأنَّ رحمةَ الله سبقَتْ غضبَه، ولأنَّ في ذِكر سِمَة أهلِ النَّعيم عقِب وعيدِ بالعذاب، حسرةً عليهم؛ إذ يَعلم السامعُ أنَّ لهم عذابًا عظيمًا في يومٍ فيه نعيمٌ عظيمٌ، ثم قدَّم في التَّفصيلِ ذِكرَ سِمَة أهل العذاب؛ تَعجيلًا بمساءتِهم(٢).

- وفيه: تلوينُ الخِطاب، وهو أحدُ أنواعِ الالتفات؛ لأنَّ قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ﴾ غَيبة، و﴿أَكَفَرْتُمْ﴾ مُواجَهة(٣).

- قوله: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾: جاءَ على صِيغة الأمْرِ، والغرَضُ منه الإهانةُ لهم(٤).

- قوله: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾: فيه الجمعُ بين صِيغتي الماضي ﴿كُنْتُمْ﴾ والمستقبل ﴿تَكْفُرُونَ﴾؛ للدَّلالة على استمرارِ كُفرِهم، أو على مُضيِّه في الدُّنيا(٥).

٧- قوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ فيه تفاوتٌ بديعٌ بين التَّقسيمين؛ حيث جمَع لِمَن اسودَّت وجوهُهم بين التَّعنيفِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣١٩)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢٣٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٣٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٦٩).

بالقولِ والعذاب، وهنا جعَلَ من ابيضت وجوههم مُستقرِّين في الرَّحمة، فالرَّحمة ظرْفٌ لهم، وهي شاملتُهم، ولَمَّا أخْبَر تعالى أنَّهم مُستقِرُّون في رحمة الله، بيَّن أنَّ ذلك الاستقرارَ هو على سبيلِ الخُلُود لا زوالَ منه ولا انتقال، وأشار بلفظ (الرَّحمة) إلى سابق عِنايتِه بهم، وأنَّ العبدَ وإنْ كَثُرت طاعته لا يدخُل الجنَّة إلَّا برحمة الله تعالى[1].

- وقوله: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾: استئنافٌ وقع جوابًا عن سؤالٍ نشأ مِن السِّياق، كأنَّه قيل: كيف يكونون فيها؟ فقيل: هُمْ فِيهَا خالدون، لا يَظعَنون عنها ولا يَموتون، وتقديمُ الظرفِ (فيها)؛ للمُحافظة على رؤوس الآي[2].

٨- قوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾:

- قوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ إشارةٌ إلى الآيات المُشتمِلةِ على تنعيمِ الأبرارِ، وتعذيبِ الكفَّارِ، ومعنى البُعدِ في ﴿تِلْكَ﴾؛ للإيذان بعُلُوِّ شأنِها، وسُموِّ مكانِها في الشَّرف[3].

- وقوله: ﴿نَتْلُوهَا﴾: فيه التفاتٌ من الغَيبة إلى التَّكلُّم[4]، والتَّعبير بنون العظمةِ في ﴿نَتْلُوهَا﴾- مع كون التِّلاوةِ على لِسانِ جبريلَ عليهِ السَّلام-[5]؛ لإبرازِ كمالِ العناية بالتِّلاوة[6].

- قوله: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾: تذييلٌ مقرِّرٌ لمضمونِ ما قبله على

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٦٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٦٩- ٧٠).

(٥) هذا على قِراءة مَن قرأ ﴿نَتْلُوهَا﴾ بنون العظمة، وأمَّا على قراءة (يَتلوها) بالياء، فليس فيها هذانِ الوجهان.

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٦٩- ٧٠).

أبلغِ وجهٍ وآكَدِه؛ فإنَّ تَنكيرَ الظُّلمِ، وتوجيهَ النفيِ إلى إرادتِه بصِيغةِ المضارعِ دونَ نفْسِه، حيث قال: ﴿وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا﴾ ولم يقل: (والله لا يظلم)، وتَعليقَ الحكمِ بآحادِ الجَمْعِ المعرَّف (للعالمين)، والالْتِفاتَ إلى الاسم الجليل (الله)، حيث لم يَقُل: (وما نُريد)؛ إشعارًا بعِلَّة الحُكم- كلُّ ذلك بيانٌ لكمالِ نزاهتِه عزَّ وجلَّ عن الظُّلمِ بما لا مزيدَ عليهِ، أي: ما يُريد فردًا من أفراد الظُّلم لفردٍ من أفراد العالَمين، في وقتٍ من الأوقاتِ، فضلًا عن أنْ يَظلِمَهم؛ فإنَّ المضارعَ كما يُفيد الاستمرارَ في الإثبات يُفيده في النَّفي بحسبِ المقامِ، كما أنَّ الجملةَ الاسميَّة تدلُّ بمعونةِ المقامِ على دوامِ الثُّبوتِ، وعند دخولِ حرفِ النَّفي تدلُّ على دوامِ الانتفاءِ لا على انتفاءِ الدَّوام[1].

- وفي سِياق هذه الجُملةِ نوعُ إيماءٍ إلى التَّعريض بأنَّ الكفَرَةَ هم الظالِمون؛ حيث ظلموا أنفسَهم بتعريضِها للعذابِ الخالد، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[2] [يونس: ٤٤].

- قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ فيه تقديمُ الخبرِ؛ لإفادةِ الحَصْرِ والتَّخصيص، فالآية تُفيدُ انفرادَ مُلْك الله تعالى بذلك، أي: إنَّ الله وحده هو المالكُ لها، لا غيره[3].

- وأتى بـ (ما) التي لغيرِ العاقل؛ لأنَّهم الأكثرُ فغُلِّبوا، ومِن وجهٍ آخر أنَّه إذا أُريدت الصِّفة، فإنَّه يُعبَّر بـ (ما) بدَلَ (مَن) ولو في العاقل، مِثْل قوله تعالى: ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ ولم يَقُل: (مَن طاب)؛ لأنَّه لم يَقصِد عينَ الشَّخص العاقل، بل قصَد الوصفَ والجِنسَ والكمَّ، أي: انكحوا ما

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٧٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٥).

طابَ مِن جميلٍ وقبيحٍ وواحدٍ ومُتعدِّدٍ من النِّساء(١).

– وتكريرُ اسم الجلالة (الله) ثلاثَ مرَّات في الجُمَل الثلاث: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ بدون إضمار؛ للقصدِ إلى أنْ تكون كلُّ جُملة مُستقِلَّةَ الدَّلالة بنَفْسها، غير مُتوقِّفة على غيرها، حتى تَصلُح لأنْ يُتَمثَّل بها، وتَستحضِرها النُّفوسُ، وتَحْفظها الأسماع(٢).

– قول الله تعالى: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾؛ الأمور: جمع أمر، وهو مُحلًّى (بأل) فيُفيد العُمُوم، ففيه بيانُ سَعةِ الله تعالى، حيث كانت جميعُ الأمور الدَّقيقة والجليلة تُرجَع إليه(٣).

– وفيه تقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿وَإِلَى اللهِ﴾ على المُتعلِّق ﴿تُرْجَعُ﴾؛ لإفادةِ الحَصْر(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٤٧- ٤٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٩).

الآيات: (١١٠ - ١١٢)

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠) لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (١١١) ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (١١٢) ﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ﴾: يُقال: ولَّاهُ دُبُرَه: إذا انهزَم، والتَّولِّي: الإعراضُ بعدَ الإقبال، وأصْل الدُّبر: آخِرُ الشيءِ وخلْفُه، ضد القُبُل(١).

﴿ الذِّلَّةُ ﴾: الصَّغَار، وأَصْل الذُّلِّ: الخُضُوع، والاستكانة، واللِّين، وهو ضِدُّ العِزِّ(٢).

﴿ ثُقِفُوا ﴾: أُدرِكوا وأُخِذوا، أو وُجِدوا وظُفِر بهم، وأصلُ الثَّقَف: الحِذْقُ في إدراك الشَّيء وفِعله(٣).

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٣٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٨).

(٣) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ١٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٦).

﴿الْمَسْكَنَةُ﴾: فَقْرُ النَّفْس، من السُّكون والاستكانة، وأصله: الخُضُوع والتَّذلُّل[1].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخاطِب اللهُ أُمَّةَ الإسلام بأنَّهم خيرُ أُمَّة أَخرَجها للنَّاس، وتلك الخيريَّة حازُوها؛ لكونِهم يأمرون بالمعروف ويَنْهون عن المُنكَر، ويُؤمِنون بالله عزَّ وجلَّ.

ولو أنَّ اليهود والنَّصارى آمنوا برسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وبما جاء به مِن عند ربِّه تعالى، لكان إيمانُهم خيرًا لهم، لكنَّ مَن آمن منهم قِلَّة، والأكثر استمرُّوا على ما هُمْ عليه، ثمَّ يُخبِر الله أُمَّةَ محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ أهلَ الكتاب مهما بلغتْ عداوتُهم لهم، فلن يَضرُّوهم إلَّا أذًى باللِّسان، وإنْ حصَل بينهم وبين المؤمنين قتالٌ يَلوذون بالفِرار، ثم لا يُنصَرون، قد ألْزَمهم الله بالذِّلَّة والصَّغار في أيِّ مكان وُجِدوا فيه، فلا يَستقِرُّون ولا يَطمئنُّون إلَّا بذِمَّة مِن الله، أو بعَهْد من النَّاس، قد استحقُّوا غضَبَ الله، وظهرتْ عليهم آثار الفاقةُ وذُلُّ الحاجة؛ والسببُ كُفْرهم بآيات الله، وقتْلهم الأنبياء ظُلْمًا، وما حمَلهم على الكُفْرِ والقتلِ هو عِصيانُهم لله، وتجاوزهم حدودَ ما شرَعه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا كانتِ الآيةُ السَّابقة وهي قوله: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٠٥).

﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ أمرًا منه تعالى لهذه الأُمَّة، والأمرُ قد يَمتثِله المأمورُ ويقوم به، وقد لا يقوم به؛ أَخبَر في هذه الآية أنَّ هذه الأُمَّة المحمديَّة قد قامتْ بما أمَرها الله بالقيام به، وامتَثلتْ أمرَ ربِّها، واستحقَّتِ الفضلَ على سائر الأمم(١)، فقال تعالى:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

أي: أنتم - يا أُمَّة الإسلام - قد جُعِلتم خيرَ الأمم وأَكرمَها على الله تعالى؛ لأسبابٍ أَنعَم الله بها عليكم، فتميَّزتُم وفُقْتُم مَن سبَقكم، وكنتم أنفع النَّاس للنَّاس(٢).

﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.

أي: حُزْتم خيريَّتكم بأمركم النَّاسَ بكلِّ ما يأمر به الشَّرعُ، ونهيِكم لهم عن كلِّ ما ينهى عنه الشَّرعُ، ولأنَّكم تُقِرُّون بالله تعالى وجودًا ورُبوبيَّة وأُلوهيَّة وبما له من أسماء وصفات، وتُتْبِعون ذلك بالانقياد لِما أمَر واجتناب ما نهى سبحانه(٣).

فجمَعوا بين تكميلِ الخَلْق، والسَّعيِ في منافعِهم بحسَب الإمكان، وبين تكميلِ النَّفْس بالإيمانِ بالله تعالى، والقيامِ بحقوق الإيمان(٤).

عن مُعاويةَ بن حَيْدَةَ رضِي اللهُ عنه، أنَّهُ سمِعَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٩٣-٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣-٩٧٢).

وكان هنا تامَّة، وذهَب إلى ذلك جمْعٌ من المفسِّرين. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ١٩٤)، وقيل: (كان) هنا ليستْ دالَّةً على زمان، وإنَّما هي مُبيِّنةٌ لاتِّصافِ المبتدأ بالخبر، وتَحقُّق وجودِه فيه. ينظر ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٧٦-٦٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣-٩٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- آل عمران)) (٢/ ٤٨-٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٧٢).

يقولُ في قولِهِ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾: ((إنَّكم تُتِمُّون سبعينَ أمَّةً، أنتم خيرُها وأكرمُها علَى اللَّهِ))(١).

وعن أَبي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّه قال عن قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾: (خيرَ النَّاس للنَّاس، تأتون بِهم في السَّلاسِلِ في أعناقِهم، حتى يَدخُلوا في الإسلام)(٢).

﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

مناسبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا مدَح الله تعالى هذه الأُمَّةَ على تلك الصِّفات التي نالوا بها الخيريَّة من الإيمان بالله تعالى والأمرِ بالمعروف والنَّهي عن المُنكَر، شرَع في تأنيبِ أهلِ الكتاب، الذين ذمَّهم في آيةٍ أخرى بقوله سبحانه: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾(٣) [المائدة: ٧٩].

﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾.

أي: ولو آمَن أهلُ التَّوراة والإنجيلِ من اليهود والنَّصارى بمحمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وما جاءَهم به من عند اللهِ عزَّ وجلَّ، لاهتَدَوْا، وكان ذلك خيرًا لهم عندَ الله تعالى في دُنياهم، وآخرتهم(٤).

---

(١) رواه الترمذي (٣٠٠١)، وابن ماجة (٤٢٨٨)، وأحمد (٢٠٠١٥)، وعبد بن حميد (٤٠٩)، والطبري في ((التفسير)) (٧٦٢٢) بألفاظ متقاربة.
حسَّنه الترمذيُّ، وصحَّحه ابن العربي في ((عارضة الأحوذي)) (٦/ ١١٢)، وجوَّده ابن تيمية في ((الجواب الصحيح)) (٢/ ٢٣٢)، وقال ابن حجر في ((فتح الباري)) (٨/ ٧٣): حسن صحيح وله شاهد مرسل رجاله ثقات. وحسَّنه الألبانيُّ في ((صحيح الجامع)) (٢٣٠١)، وصحَّحه الوادعيُّ في ((الصحيح المسند)) (١١٣٢).

(٢) رواه البخاري (٤٥٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٧٧-٦٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣-٩٧٢).

﴿مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

أي: ولكنْ لم يُؤمِنْ منهم إلَّا القليلُ، وأمَّا أكثرُهم فخارجون عن طاعةِ ربِّهم، وخارجون عن دِينِهم، الذي فيه الأمرُ باتِّباع محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وبيانُ صفاته[1].

﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١١١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

هذا استئنافٌ نشأ عن قولِه: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾؛ لأنَّ الإخبارَ عن أكثرِهم بأنَّهم غير مؤمنين يُؤذِن بمُعاداتِهم للمؤمنين، وذلك مِن شأنه أنْ يُوقِع في نُفُوس المسلمين خَشيةً من بأسِهم[2]، فقال تعالى:

﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾.

أي: لن يَضُرَّكم- يا أُمَّة محمَّد- هؤلاء الفاسقون من اليهود والنَّصارى، في دِينِكم ولا في أبدانِكم، وإنَّما غايةُ ما تَلْقَون منهم أَذيَّةَ اللسان، كإسماعِكم كُفْرَهم، ودُعائِهم إيَّاكم إلى الضَّلالة، ولا يَضرُّونكم بذلك[3].

﴿وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾.

أي: قد ردَّ الله تعالى كيدَهم في نُحُورهم؛ فإنَّهم لو قاتَلوكم لَلَاذُوا بالفِرار، ثم تستمرُّ هزيمتُهم، ويدومُ ذُلُّهم[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣-٩٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٧٨-٦٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣، ٩٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣، ٩٧٢).

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (١١٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّن الله تعالى أنَّه لا ينالُ المؤمنين ضررٌ من أهل الكتاب، وأنَّهم لو قاتَلوا المؤمنين لولَّوُا الأدبارَ فِرارًا، فلمَّا أَخبَر عنهم سبحانه وتعالى بهذا الذُّلِّ أَتْبَعه الإخبارَ بأنَّه في كلِّ زمان وكلِّ مكان مُعاملةً منه لهم بضدِّ ما أرادوا، فعوَّضهم عن الحِرصِ على الرِّئاسة إلزامَهم الذِّلَّةَ، وعن الإخلادِ إلى المال ضرْبَ المسكنة عليهم[(١)]، فقال:

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ﴾.

أي: أُلزِم اليهودُ الذِّلَّةَ والصَّغار، فجُعِل ذلك أمرًا محتومًا عليهم، لا يُفارِقهم حيثما وُجِدوا وأينما كانوا، لكنَّهم يَأمَنون على أموالِهم وأنفسِهم وذَراريهم بعهدٍ مِن الله تعالى، وعهدٍ من النَّاس[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٨١-٦٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣، ٩٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٦٢- ٦٥).

قيل: المرادُ بقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ﴾ أي: بذِمَّة من الله، وهو عقدُ الذمَّة لهم، وضرْب الجزية عليهم، وإلزامهم أحكام المِلَّة. وهذا اختيارُ ابن كثير في ((تفسيره)) (٢/ ١٠٤)، والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ٩٧٢)، وابن عاشور في ((تفسيره)) (٤/ ٥٦).

وقيل: المرادُ بقوله سبحانه: ﴿وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ﴾ أي: أمان منهم ولهم، كما في المُهادَن والمُعاهَد والأسير إذا أمَّنه واحدٌ من المسلمين. وهذا اختيار ابن كثير في ((تفسيره)) (٢/ ١٠٤).

وقيل المراد: إذا كانوا تحتَ ولاية غيرِهم ونظارتهم أو إذا استنصروا بقبائلَ أو دولٍ أُولي بأس شديد. وهذا اختيارُ السعدي في ((تفسيره)) (ص: ٩٧٢)، وابن عاشور في ((تفسيره)) (٤/ ٥٦)، واختار ابنُ عثيمين أنَّ ظاهر اللفظ العمومُ فيشمل كِلَا القولين. يُنظر: ((تفسير ابن =

﴿وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾.

أي: قد انصرَفوا مُستحقِّين غضبَ الله عليهم(١).

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾.

أي: كما أُلزِموا قَدَرًا وشرعًا بالذُّلِّ في بَواطِنِهم، عُوقِبوا كذلك ببُدوِّ أَثَرِ الحاجةِ وذُلِّ الفاقةِ على ظَواهِرِهم(٢).

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾.

أي: وقعتْ عليهم هذه العقوباتُ المذكورة؛ بسببِ كُفْرهم الدَّائم بدلائل الحقِّ بغيًا وعِنادًا، وقتْلِهم المستمرِّ لأنبيائه عليهم السَّلام ظلمًا واعتداء(٣).

﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾.

أي: إنَّما حمَلهم على هذا الكُفرِ والقتلِ أنَّهم مُقيمون على معصيةِ الله عزَّ وجلَّ، ومُستمِرُّون في الاعتداء على حدود شَرْع الله تعالى، فهذا الذي أوصَلهم إلى التجرُّؤ على الكفرِ بالله سبحانه، وقتْلِ أنبيائه عليهم السَّلام(٤).

الفَوائِد التربويَّة:

١- يَنبغي أن تُدركَ الأمَّةُ المسلمةُ أنَّها خَيرُ أُمَّةٍ أُخرِجَت للنَّاسِ؛ لتعرفَ

= عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٦٤-٦٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣، ٩٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣، ٩٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٦٧).

وممَّن فسَّر من السلف ﴿الْمَسْكَنَة﴾ بالفاقة: أبو العالية، والسُّدِّي، والربيع. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٧٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٨٧-٦٨٨))، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣، ٩٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٨٨))، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣، ٩٧٢).

حقيقتَها وقيمتَها، وتعرفَ أنَّها أُخرجتْ لتكونَ طليعةً، ولتكون لها القيادةُ، بما أنَّها هي خيرُ أمَّة، واللهُ يُريد أن تكونَ القيادةُ للخيرِ لا للشرِّ في هذه الأرض، ومِن ثَمَّ لا يَنبغي للأُمَّةِ المسلمةِ أنْ تَتلقَّى من غيرِها مِن أُمم الجاهليَّة، إنَّما يَنبغي دائمًا أنْ تُعطي هذه الأُممَ ممَّا لديها، وأنْ يكونَ لديها دائمًا ما تُعطيه من الاعتقادِ الصَّحيح، والتصوُّرِ الصَّحيح، والنظامِ الصحيح، والخُلُق الصحيح، والمعرفةِ الصَّحيحة، والعِلم الصَّحيح(١).

٢- في قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ فيه فضيلةُ الأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر، وأنَّهما أساسُ خيريةِ الأمَّة وأفضليتها على غيرِها، ومناطُ رِفعتها، وأنَّ خيريَّةَ الأُمَّةِ وفضْلها على غيرِها، تكون بالقيامِ بالأمر بالمعروف والنَّهيِ عن المُنكَر، المُتضمِّن لدعوة الخَلْقِ إلى الله، وجهادِهم على ذلك، ولا توجد الأُمَّةُ وجودًا حقيقيًّا إلا بتوافُر هذه السِّمة، فكلَّما وُجِدتْ هذه الفريضةُ في الأُمَّة وُجِدَ الخيرُ فيها، وكلَّما ضَعُفت فيها ضَعُف الخيرُ(٢).

٣- في قوله تعالى: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾، العنايةُ بتحقيقِ الإيمان؛ لأنَّه هو الذي يضع الميزانَ الصَّحيح للقِيَم، والتَّعريفَ الصَّحيح للمعروف والمُنكَر، والتَّصوُّرَ الثَّابت للخير وللشرِّ، والفضيلة والرَّذيلة، ثمَّ لا بدَّ من الإيمان أيضًا؛ ليَملِكَ الدُّعاةُ إلى الخير، الآمِرون بالمعروف، النَّاهون عن المنكَر، أنْ يَمضوا في هذا الطَّريقِ الشاقِّ، ويَحتمِلوا تكاليفَه(٣).

٤- قوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ ... ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١٧٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ٥٥)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٣).

(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٤٧-٤٤٨).

اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ فيه الحَذَرُ من الكفر بآياتِ الله؛ والمعصية والاعتداء؛ لأنَّها سببٌ للعقوبات، فقد جعَل الله تعالى على اليهودِ الذِّلَّةَ والغضبَ والمسكنةَ لازِمًا لهم؛ بسبب هذه الأفعال(١).

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- ذِكْر الحُكم مقرونًا بالوصف المناسِبِ له يدلُّ على كونِ ذلك الحُكم مُعلَّلًا بذلك الوصف، يَقْوَى بقوَّته ويَضعُف بضَعْفه، وفي قول الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ حكَمَ تعالى بثُبوت وصْف الخيريَّة لهذه الأُمَّة، ثم ذكَر عُقَيبه هذه الطاعات: الأمر بالمعروف والنَّهي عن المُنكَر، والإيمان؛ فوجَب كونُ تلك الخيريَّة مُعلَّلةً بهذه العبادات(٢).

٢- تفضيلُ الله لهذه الأمةِ بالأمرِ بالمعروفِ، والنَّهي عن المنكرِ في قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ فيه ضمانٌ من الله تعالى بأنَّ هذه الشَّعيرةَ لا تَنقطِعُ من المسلمين إنْ شاء اللهُ تعالى(٣).

٣- قول الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ فيه دليلٌ على حُجِيَّة الإجماع وعِصْمة الأُمَّة من الخطأ؛ فإنَّ (الألف واللام) في لفْظ (بالمعروف) ولفظ (المُنكَر) يُفيدان الاستغراقَ، وهذا يَقتضي كونَهم آمِرين بكلِّ معروف، وناهين عن كلِّ مُنكَر، ومتى كانوا كذلك كان إجماعُهم حقًّا وصِدقًا لا مَحالة(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٢٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٥٢).

٤- في قول الله تعالى: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ قدَّم تعالى الأمرَ بالمعروف والنَّهي عن المنكرِ على الإيمانِ باللهِ لعِدَّة أسباب؛ منها:

- التنويهُ بفضيلةِ الأمْر بالمعروفِ والنَّهي عن المنكر(١).

- ولَمَّا كان الكلامُ في خيريَّة هذه الأُمَّة على جميعِ الأمم مُؤمِنهم وكافِرهم قدَّم الوصفَ المُتَّفَق على حُسْنه عندَ المؤمنين والكافرين(٢).

- ولأنَّ الأمرَ بالمعروف والنَّهي عن المُنكَر سِياجُ الإيمان وحِفاظُه، فكان تقديمُه في الذِّكر مُوافِقًا لمعهودٍ عندَ الناس في جَعْل سياجِ كلِّ شيء مُقدَّمًا عليه(٣).

- وأيضًا تعريضًا بأهل الكتاب الذين كانوا يَدَّعون الإيمان، ولا يَقدِرون على ادِّعاءِ القيام بالأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكَر(٤).

- ولأنَّه هو الوصْفُ المؤثِّر في حصولِ هذه الخيريَّة لهذه الأُمَّة؛ إذ الإيمان قدَرٌ مُشترَك بين كلِّ الأمم المحِقَّة، والمؤثِّر في حصول هذه الزِّيادة هو كون هذه الأمَّة أقوى حالًا في الأمر بالمعروف والنَّهي عن المُنكَر من سائر الأمم، وأمَّا الإيمانُ بالله فهو شرطٌ لتأثيرِ هذا المؤثِّر في هذا الحُكم؛ لأنَّه ما لم يوجدِ الإيمان لم يَصِرْ شيءٌ من الطَّاعات مؤثِّرًا في صِفة الخيريَّة(٥)،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ٥٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٠٢)، ((تفسر المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٠٢).

وللدَّلالة على أنَّهم أمَروا بالمعروف ونَهوا عن المنكر إيمانًا بالله، وتصديقًا به، وإظهارًا لدِينه[١].

٥- قول الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ فيه أنَّ العامِلين يَتفاضلون[٢].

٦- قول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ فيه جوازُ تَعدُّد العِلل لمعْلولٍ واحد[٣].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ استئنافٌ مُبيِّن لكونِهم خيرَ أُمَّة[٤]، وتعليل لأمْرهم بالدَّعوة إلى الخير[٥].

- وعبَّر بصِيغة الاستقبال (تأمرون- وتَنْهون)؛ للدَّلالة على الاستمرارِ، والخِطابُ وإنْ كان خاصًّا بمَن شاهَد الوحيَ من المؤمنين، لكنَّ حُكمَه عامٌّ للكلِّ[٦].

- والمراد بـ﴿أُمَّةٍ﴾: عمومُ الأُمم كلِّها- على ما هو المعروفُ في إضافة أفعل التَّفضيل إلى النَّكرةِ أنْ تكون للجِنس، فتُفيد الاستغراق[٧].

- وفيه إيجازٌ؛ حيث اكتفَى بذِكر الإيمان بالله، ولم يذكُر الإيمانَ بالنُّبوَّة مع أنَّه لا بدَّ منه؛ لأنَّ الإيمانَ بالله يَستلزِم الإيمانَ بالنُّبوَّة؛ لأنَّ الإيمانَ بالله لا

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٧١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٤٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٧١).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٥٠).

يَحصُل إلا إذا حصَل الإيمان بكونه صادقًا، والإيمان بكونه صادقًا لا يَحصُل إلَّا إذا كان الذي أَظهَر المعجِزَ على وَفْق دعواه صادقًا، وكان الاقتصارُ على ذِكْر الإيمان بالله تنبيهًا على هذه الدَّقيقة(١).

٢- قوله: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ فيه تعريضٌ بأهلِ الكتابِ من اليهودِ وغيرِهم أنَّهم مُتوقِّفونَ في اتِّباع الإسلام، مع إمكانِ تحصيلِهم على هذا الفضلِ(٢).

٣- قوله: ﴿مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

- الألف واللَّام في ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ وفي ﴿الفَاسِقُونَ﴾ للدلالة على المبالَغةِ والكمالِ في الوصفينِ، وذلك ظاهرٌ؛ لأنَّ مَن آمَن بكتابه وبالقرآن فهو كاملٌ في إيمانه، ومَن كذَّب بكتابه؛ إذ لم يتَّبِع ما تَضمَّنه من الإيمانِ برسول الله، وكذَّب بالقرآنِ، فهو أيضًا كامِلٌ في فِسْقه، مُتمرِّد في كُفْره(٣).

- قول الله تعالى: ﴿مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾، لم يَقُل: (منهم مؤمنون)، فـ(أل) للعَهْد الذِّهنيِّ، فالمقصود الإيمان المعهود عندكم- أيُّها المسلمون- وهو الإيمانُ برسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ(٤).

٤- قوله: ﴿وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ﴾ فيه مُبالَغةٌ في عدمِ مكافحةِ الكُفَّارِ للمؤمنين إذا أرادوا قِتالَهم، وأنَّهم ليسوا ممَّن يَغلِب ويَقتُل وهو مُقبِلٌ على محاربِه غيرُ مُدبِرٍ عنه، وهذه الجملة جاءتْ كالمؤكِّدة للجملةِ قَبلها ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾؛ إذ تضمَّنت الإخبارَ أنَّهم لا تكونُ لهم غَلَبةٌ ولا قَهْر، ولا دولةٌ على المؤمنين؛ لأنَّ حصولَ ذلك إنَّما يكون سَببَه صِدْقُ القتال والثَّبات

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٠٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٥٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٠٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٤).

فيه، أو النَّصرُ المستمدُّ من الله، وكِلاهما ليس لهم[١].

- وأتى بلفظِ (الأدبار) لا بلفظِ الظُّهور؛ لِمَا في ذِكر الأدبارِ من الإهانة دون ما في الظُّهور، ولأنَّ ذلك أبلغُ في الانهزامِ والهَرَب[٢].

٥- **قوله: ﴿ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾** فيه من وجوهِ البلاغةِ ما يأتي:

- في قوله تعالى ﴿ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾ عدولٌ عن جَعْلِه معطوفًا على جُملةِ جوابِ الشرط ﴿يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ﴾ إلى الاستئنافِ والإخْبارِ ابتداءً؛ كأنَّه قيل: ثُمَّ أُخبِرُكم أنَّهم لا يُنصَرونَ؛ إشارةً إلى أنَّ الخِذْلانَ ديدنُهم وهِجِّيراهُم؛ لأنَّ المقصودَ أنَّهم مع تولِّيهم الآنَ لا يُنصرونَ مُطلقًا قاتلوكم أو لم يقاتلوكم، وفيه تثبيتٌ للمؤمنينَ على أتمِّ وَجْهٍ، ولو عُطِفَ على الجواب﴿يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ﴾ لكان مقيَّدًا بمقاتَلَتِهم، ولفظة ﴿ثُمَّ﴾ دلَّت على التَّراخي والمُهْلَةِ الملائمَةِ لِمَا قُصِدَ مِنَ الاستقبالِ، إشارةً إلى أنَّ هؤلاء اليهودَ قومٌ لا يُنصَرون ألبتَّةَ، مهما واتتْهم الإمكاناتُ، ومهما أُغدِقت عليهم المساعدات، و مجيء حرْف العَطفِ (ثمَّ)؛ لأنَّ الكلامَ لو عُطِف بالواوِ مثلًا لظَنَّ قِصارُ النَّظر أنَّ المسلمين إنَّما وُعِدوا بالنَّصر في تلك الحالة ليس غيرُ، فدفَع هذا الظنَّ بكلمة (ثمَّ) التي تَقطَع هذا الشكَّ باليقين، مؤكِّدًا أنَّ النتيجة الحتميَّة هي النَّصر المؤزَّر للمؤمنين؛ فقطع على هؤلاء الظَّانِّين الطريقَ لالتِماس المعاذير للتَّخلُّف عن الجهاد[٣]، أو تكون (ثم) هنا ليستْ للمُهْلة في الزَّمان، وإنَّما

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٠٣-٣٠٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٧٢)، ((تفسير الألوسي)) (٢/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٥٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٢٣)، ((خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية)) لعبد العظيم المطعني (١/ ٣٢٠).

هي للتَّراخي في الإخبار، فالإخبارُ بتولِّيهم في القتال، وخِذلانهم، والظَّفَر بهم أَبْهجُ وأَسَرُّ للنَّفْس، ثُمَّ أَخبَر بعد ذلك بانتفاء النَّصرِ عنهم مُطلَقًا(١).

٦- قوله: ﴿وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ التَّنكيرُ في (بغضب)؛ للتَّفخيم والتهويل، و(مِن) في قوله: ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ مُتعلِّقةٌ بمحذوف وقَع صفةً لغضب مُؤكِّدةٌ؛ لِما أفاده التَّنكيرُ من الفخامة والهول، أي كائن من الله عزَّ وجلَّ(٢)، فتأكَّد التَّفخيم بالوصف في قوله تعالى (مِنَ اللَّهِ)(٣).

٧- قول الله تعالى: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ لبيانِ الواقِع، والدَّلالةِ على أنَّ هذا القتْلَ كان عُدوانًا وظلمًا، فقوله: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ ليس قيدًا، ولكنَّه كشفٌ وإيضاحٌ؛ لأنَّه لو كان قيدًا للزمِ من ذلك أنْ ينقسِمَ قتْلُ الأنبياءِ إلى قِسمين: قسم بحقٍّ، وقِسم بغير حقٍّ، وهذا لا يكون؛ لأنَّ قتْلَ الأنبياءِ كلَّه يكونُ بغيرِ حقٍّ؛ والمقصود بقوله: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ شِدَّةَ التوبيخِ لهؤلاء، وأنَّهم يَقْتُلون أشرفَ الخلقِ بغيرِ حقٍّ، وللدَّلالة أيضًا على أنَّه لم يكُن حقًّا بحسَبِ اعتقادِهم أيضًا(٤).

٨- قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ﴾ مع قوله: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾: فيه نشْرٌ ولفٌّ؛ فكُفْرهم بالآيات سببُه العِصيان، وقتْلهم الأنبياء سببُه الاعتداءُ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٧٢).

(٣) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٥١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٣٩- ١٤٠)، (٢/ ٦٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٥٧).

الآيات: (١١٣ - ١١٥)

﴿ ۞ لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿آنَاءَ اللَّيْلِ﴾: ساعاته، وآناء جمْعٌ، مُفْرده: إِنْيٌ وإِنًى وأَنًا، وأصْله: ساعة من الزَّمان[1].

﴿فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾: أي: فلن يُحرَموه، ولن يَضيعَ ولن يَنقُص ثوابُه ألبتَّةَ، وأصْل الكُفر: السَّتر والتَّغطية[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِر تعالى أنَّ أهلَ الكتاب ليسوا جميعُهم سواءً؛ فكما أنَّ فيهم طائفةً مذمومة، فهناك طائفةٌ هداهم اللهُ فأسْلَموا، فهم مُستمسِكون بالحقِّ، يَقرؤون كتابَ الله في صلواتهم التي يؤدُّونها في ساعاتِ الليل، ويؤمنون بالله تعالى، وباليوم الآخر وما يتعلَّق به، كما يأمرون غيرهم بالمعروف ويَنْهونهم عن المُنْكر، ويُبادِرون إلى فِعْل الخيرات، وهؤلاء الذين يَفعلون هذا الفعلَ هم مِن الصَّالحين، وما يقومون به من عملٍ من أعمال الخير، فلن يَذهب سُدًى، والله سبحانه عالِم بأهل التَّقوى ومُطَّلِع عليهم، وسيَجزيهم على تقواهم.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٤١) (٥/ ٢٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٣، ٢٦٧).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قبلَها:

لَمَّا بيَّن تعالى الفِرْقةَ الفاسقةَ من أهل الكتاب، وبيَّن أفعالَهم وعقوباتِهم، بيَّن هاهنا الأُمَّةَ المستقيمة، وبيَّن أفعالَها وثوابَها[1]، فقال:

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾.

أي: ليس جميعُ أهلِ الكتاب على حدٍّ سواء، فلا يَستوي مَن تقدَّم ذمُّهم من أهلِ الكتاب، وهؤلاء الذين أَسْلَموا منهم، فإنَّ منهم جماعةً ثابتة على الحقِّ، مُتمسِّكة به، مستقيمةً على هَدْي القرآن والسُّنَّة[2].

﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾.

أي: يَقرؤون كتابَ الله تعالى في صلاتِهم في ساعات اللَّيل[3].

﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر الله تعالى من صِفات تلك الأُمَّة، تَهجُّدها وقيامها، ذكَر ما أَثمَر لهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣-١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٨٩-٦٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٥٧-٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٩٥-٦٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٥٨).

هذا التَّهجُّدُ، وهو الإيمان[١]، فقال:

﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾.

أي: يُؤمنون بالله تعالى، وبكلِّ ما يتعلَّق باليوم الآخِر من بعدِ الموت: كالبعث، والحشر، والجزاء على أعمالِهم، ودخولِ الجنَّة أو النَّار وغير ذلك، ولا يَكْتفون بتطهيرِ قلوبِهم وصلاح أنفسهم، بل يَسْعون أيضًا في إصلاحِ الآخَرين، فيأمرونهم بكلِّ ما أمَر به الشَّرع من مُعتقَدات وأعمال، ويَنْهَوْنهم عن كلِّ ما نهى عنه الشَّرعُ مِن مُعتقَداتٍ وأعمال، ويَبتدِرون فِعْلَ الخيرات، ويَنتهِزون الفرصَ إليها؛ خَشيةَ الفَواتِ بحلول وقتِ الممات[٢].

﴿وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

أي: إنَّ هؤلاءِ الذين قاموا بهذه الأعمالِ الجليلةِ ممَّن أَسلَم من أهل الكتاب هم في الحقيقةِ من عِداد الصَّالحين[٣].

﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥)﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾ قراءتان:

١- ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾ بياءِ الغَيبة، على أنَّ المرادَ الطَّائفةُ المؤمنةُ من أهل الكتابِ التي تقدَّم ذِكْرُها[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٤، ٩٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٧٧، ٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٨٠).

(٤) قرأ بها حمزة والكسائي وخلف وحفص. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤١). =

٢- (وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ تُكْفَرُوهُ) بتاءِ الخطابِ على أنَّ الخطابِ لأُمَّة محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ(١).

﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾.

أي: إنَّ كلَّ ما يَعمَله مَن أَسلَم مِن أهل الكتاب، مِن خير (قليلًا كان أو كثيرًا) فلن يُجحَد ويَذهَب سُدًى بلا ثوابٍ ولا مُجازاة، بل سيُشكَرون على ما فَعلوا، ويُجزَون عليه أوفرَ الجزاء(٢).

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾.

أي: إنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يَخْفى عليه كلُّ مَن قصَد تقواه، وأراد رِضاه، بامتثالِ أوامرِه واجتنابِ نواهيه، وسيُثيبُهم، ولن يُضيعَ أجرَهم(٣).

الفَوائِد التَّربويَّة:

١- بيانُ عدْلِ الله تعالى، وأنَّه يُعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، فلَمَّا ذمَّ أهلَ الكتاب في الآيات السَّابقة، فقد يتوجَّه الفَهْمُ إلى أنَّ جميعَ أهل الكتاب على هذا الوصفِ مِن أنهم يَكْفُرون بآياتِ الله، ويَقتُلون الأنبياءَ بغير حقٍّ، ويَعْصون الله

= ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١١٣)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٦٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٧٠-١٧١).

(١) قرأ بها الباقون ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ تُكْفَرُوهُ﴾. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤١). ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١١٣)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٦٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٧٠-١٧١).

(٢) ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٥٩).

وقيل المراد: من كان على استقامة من أهل الكتاب قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٨٩-٧٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣، ٩٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٥٧-٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٧٢، ٩٧٣).

ويَعتَدون على حقِّه وحقِّ عباده؛ فقال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ أي: منهم مَن ليس كذلك[١]، فينبغي العدلُ والإنصافُ حتى مع المخالِفين.

٢- قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ فيه أنَّه ينبغي أن يكون اعتناءُ قارئِ القرآنِ بقراءةِ اللَّيلِ أكثرَ، وإنَّما رَجَحَت صلاةُ اللَّيلِ وقراءتُه؛ لكَونِها أجمَعَ للقَلْبِ، وأبعَدَ عن الشَّاغلاتِ والـمُلْهياتِ، والتصرُّفِ في الحاجات، وأصونَ عن الرِّياءِ وغَيْرِه مِنَ الْمُحْبِطات[٢].

٣- قول الله تعالى ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ يدلُّ على أهميَّة الأمرِ بالمعروف والنَّهي عن المنكَر؛ وذلك لأنَّه بعد تكميلِ المؤمنين أنفسَهم بالإيمانِ ولَوازِمه، يَسْعَون في تكميلِ غيرِهم من النَّاقِصين، وذلك بأمرهم بكلِّ خيرٍ، ونهيهم عن كلِّ شرٍّ، فهذا هو الغاية القُصوى في الكمال[٣].

٤- قول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ فيه الحثُّ على التَّقوى، فالأعمالُ ثوابُها تَبَعٌ لِمَا يقوم بقلْب صاحبها من الإيمان والتَّقوى، ولا يفوز عند الله تعالى إلا أهل التَّقوى[٤].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾، جاء ذِكْرُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٨١).
(٢) يُنظر: ((التبيان في آداب حملة القرآن)) للنووي (ص: ٦٣، ٦٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٣٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٨٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٨٥).

الإيمان بالله واليوم الآخِر بعد ذِكْر تِلاوة الآيات؛ لأنَّه لا يُمكِن الإيمان بالشَّيء إلا بعد العِلم به، فهم إذا تَلَوا آياتِ الله، علِموا باليوم الآخر، ثم آمنوا به[1].

٢- في قول الله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ خصَّ ذِكْر الإيمان بالله تعالى؛ لأنَّه يَستلزِمُ الإيمان بجميعِ أنبيائه ورُسله[2].

- وخصَّ الإيمان باليومِ الآخِر؛ لأنَّ الإيمانَ الحقيقيَّ باليوم الآخِر يَستلزِمُ الحذرُ من المعاصي، فيحثُّ المؤمنَ به على فِعلِ ما يُقرِّبه إلى الله، ويُثاب عليه في ذلك اليوم، وترْكِ كُلِّ ما يُعاقَب عليه في ذلك اليوم[3].

٣- قول الله تعالى: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾ يدلُّ على أنَّه مَن فعَل خيرًا أُعطي عليه أجرَه كاملًا بلا نَقْص؛ لأنَّ المرادَ بالنَّفي هنا تمامُ الإثبات[4].

٤- قول الله تعالى: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ لَمَّا أخْبَر تعالى عن عدمِ الحِرمان والجزاء، أقام ما يَجري مجرَى الدَّليل عليه، وهو أنَّ عدمَ إيصال الثَّواب والجزاء إمَّا أنْ يكون للسَّهوِ والنِّسيان، وذلك مُحالٌ في حقِّه؛ لأنَّه عليمٌ بكلِّ المعلومات، وإمَّا أنْ يكون للعجزِ والبخل والحاجة، وذلك مُحالٌ؛ لأنَّه إلهُ جميع المُحدَثات؛ فاسمُ الله تعالى يدلُّ على عدم العجز والبُخْل والحاجة، وقوله: ﴿عَلِيمٌ﴾ يدلُّ على عدم الجهل، وإذا انتفتْ هذه الصِّفات امتنَع المنعُ من الجزاء[5].

٥- قول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ خَصَّ اللهُ تعالى المتَّقِين بالذِّكر

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٨٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٣٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٨٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٣٥).

مع أنَّه تعالى عالم بكلِّ النَّاس؛ بِشارةً للمُتَّقين بجزيل الثَّواب، ودَلالةً على أنَّه لا يفوز عنده إلا أهل التَّقوى(١).

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ استئنافٌ قُصِد به إنصافُ طائفةٍ من أهل الكتاب، بعد الحُكم على مُعظمهم بصِيغة تَعُمُّهم؛ تأكيدًا لِمَا أفاده قوله: ﴿مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، فالضميرُ في قوله: ﴿لَيْسُوا﴾ لأهل الكتاب المُتحدَّث عنهم آنفًا، وهم اليهود، وهذه الجملةُ تتنزَّل من التي بعدها مَنزِلة التَّمهيد(٢).

٢- قوله: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ استئنافٌ مُبيِّنٌ لكيفيَّة عدمِ تَساويهم، ومُزيلٌ لِمَا فيه من الإبهامِ في قوله: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾، ووضَع ﴿أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ مَوضعَ الضَّميرِ العائدِ إليهم حيث لم يَقُل (منهم أُمَّةٌ قائمة)، فأَظهَر في مَوضِع الإضمار، وقال: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾؛ لتحقيقِ ما به الاشتراكُ بين الفريقين، والإيذانِ بأنَّ تلك الأُمَّةَ ممَّن أوتي نصيبًا وافرًا من الكتاب لا مِن أرذالهم؛ اهتمامًا بِتلك الأُمَّة(٣)، وليكون هذا الثَّناءُ شاملاً لصالحي اليهود، وصالحي النَّصارى، فلا يختصُّ بصالحي اليهود(٤).

- وجاءَ باسم الفاعلِ ﴿قَائِمَةٌ﴾؛ ليدلَّ على أنَّ الاستقامةَ وصْفٌ ثابتٌ لِتلك الأُمَّة لا يتغيَّر(٥).

٣- قوله: ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٣٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٥٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٧٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٥٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣١٢).

- التَّصريحُ بتِلاوتِهم آياتِ الله في الصَّلاة، مع أنَّها مُشتمِلةٌ عليها قطعًا؛ لزيادة تحقيقِ المُخالفةِ، وتوضيحِ عدمِ المُساواةِ بينهم وبين الذين وُصِفوا آنفًا بالكفرِ بها، وهو السِّرُّ في تقديم هذا النَّعْتِ على نعت الإيمانِ(١).

- وتخصيصُ السُّجودِ في قوله: ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ بالذِّكرِ من بين سائرِ أركانِ الصَّلاةِ؛ لكونِه أدلَّ على كمالِ الخضوعِ(٢).

- وجملةُ ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ حالٌ، أي: يتهجَّدون في الليل بتِلاوة كتابِهم- أي: القرآن بعد أنْ صاروا مُسلمين- فقُيِّدتْ تلاوتُهم الكتابَ بحالةِ سجودهم، وهذا الأسلوب أبلغُ وأبْينُ مِن أنْ يُقال: يتهجَّدون؛ لأنَّه يدلُّ على صورة فِعْلهم(٣).

- والتَّعبير بالجُملةِ الاسميَّة؛ للدَّلالةِ على الاستمرار، وتكريرُ الإسنادِ بتكرُّر الضَّمير، وهو (هم)؛ لتقوية الحُكْمِ وتأكيدِه(٤).

- وصِيغةُ المضارع (يَتْلُونَ- يَسْجُدُونَ)؛ للدَّلالة على التَّجدُّد(٥).

٤- **قال تعالى: ﴿وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾** لم يَقُل: (إِلَى الْخَيْرَاتِ) مع أنَّ الفعل (سَارَعَ) يَتعدَّى بـ(إلى)؛ إيذانًا بأنَّهم يُسارعون في أعمالِ الخيرِ، وهم داخلونَ فيها، لا أنَّهم خارجونَ عنها، أو مُنتهون إليها(٦).

٥- **قوله: ﴿وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾** الإشارةُ بـ﴿أُولَئِكَ﴾ وما فيه من معنى

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٥٨).
(٢) يُنظر: ((المصدران السابقان)).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٥٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٧٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٧٣).
(٦) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٢/ ٢٥٠)، ((تفسير المنار)) (٦/ ٣٢١) ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٧٩).

البُعْد؛ للإيذان بعُلُوِّ دَرجتِهم، وسُموِّ طبقتِهم في الفضلِ، وإيثارُه على الضَّميرِ؛ حيث لم يَقُل: (وهم من الصَّالحين)؛ للإشعارِ بعِلَّة الحُكم والمدح، أي: أولئك المنعوتون بتلك الصِّفاتِ الفاضِلة بسببِ اتِّصافِهم بها[(١)].

٦- قوله: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾ على قراءة ﴿تَفْعَلُوا.. تُكْفَرُوهُ﴾- بالتَّاء- يكون فيه التِفاتٌ من الغَيبة إلى الخِطاب[(٢)].

- قوله: ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ نكرةٌ في سياق الشَّرط يُفيد العُمُوم؛ ففيه ثُبُوت الثَّواب على عملِ الخير قليلًا كان أم كثيرًا[(٣)].

٧- قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ تذييلٌ مُقرِّرٌ لمضمونِ ما قَبلَه؛ فإنَّ عِلمَه تعالى بأحوالهم يَستدعي تَوْفيةَ أُجورِهم لا محالةَ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٥٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٥٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٨٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٧٤).

الآيتان: (١١٦ - ١١٧)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿صِرٌّ﴾: أي: بَرْدٌ شديد، وأصْل الصِّرِّ: الشَّدُّ؛ وأطلِقَ على البردِ الشَّديد؛ لِمَا في البُرودةِ من التَّعقُّد. أو الصرُّ: هو صَوتُ الرِّيحِ الشَّديدة، أو: صوتُ لهبِ النَّارِ التي كانتْ في تِلك الرِّيح، وأصلُه مِن الصَّرير الذي هوَ الصَّوتُ، من قولهم: صرَّ الشَّيءُ، ومنه: الرِّيح الصَّرصر(١).

﴿حَرْثَ﴾: أي: زَرْع، والحَرْث: إلقاءُ البَذْر في الأرض وتهيُّؤها للزَّرع، ويُسمَّى المحروث حَرْثًا، وأصْل الحَرْث: الجَمْع والكَسْب(٢).

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبِر تعالى أنَّ الكُفَّارَ لا يُنجِّيهم ما معهم من أموالٍ وأولادٍ من عذابِ الله تعالى، بل هم أصحابُ النَّار المُلازِمون لها أبدًا، وأنَّ ما يُنفِقه هؤلاء الكُفَّار في الدُّنيا من أموال، مَثَلُه كمَثَل مَن زرَعَ زرعًا يَرجو منفعتَه، لكن أصابتْه رِيحٌ عاصِفٌ شديدةُ البرودة، فأهلكتْ ذلك الزَّرعَ، فلم يَستفِدْ منه شيئًا، ولم يَظلِم اللهُ هؤلاء

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٣، ٢٨٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٨٠- ٥٨١)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٩٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٤، ١٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٦).

الكُفَّارَ بإحباطه لأعمالهم، لكن هم مَن ظلموا أنفسهم بكُفْرهم وحِرْصِهم على إطفاءِ نورِ الله.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا وصَف الله تعالى مَن آمَن مِن الكفَّارِ بما تقدَّم من الصِّفات الحسنة، أَتْبَعه تعالى بوعيدِ الكفَّار، فذكَر شيئًا من أحوالِ المؤمنين، ثم ذكر شيئًا من أحوال الكافرين؛ ليتَّضِح الفَرقُ بينهما(١).

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾.

أي: إنَّه لا يَرُدُّ بأسَ الله عن الكفَّار شيءٌ؛ فلا تدفعُ عنهم أموالُهم ولا أولادُهم- التي حسبوها نافعةً لهم في الشَّدائد والمكاره- لا تدفعُ عنهم شيئًا من عذابِ الله تعالى في الدُّنيا والآخرة، ولا تكون سببًا في رَحْمتهم(٢).

﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

أي: سيَظَلُّون مُلازِمين لنار جَهنَّمَ ماكِثين فيها بلا نهايةٍ(٣).

﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٣٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧٠٢-٧٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٤، ٩٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٤).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّن الله تعالى أنَّ أموالَ الكفَّار لا تُغْني عنهم شيئًا، ثم إنَّهم ربَّما أنفَقوا أموالهم في وجوه الخيرات، فيَخطُر ببالِ الإنسان أنهم يَنتفِعون بذلك، فأزال اللهُ تعالى بهذه الآية تلك الشُّبْهَةَ، وبيَّن أنَّهم لا يَنتفِعون بتلك الإنفاقات، وإنْ كانوا قد قصَدوا بها وجهَ الله [١]، فقال:

﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾.

أي: إنَّ ما يُنفِقه الكفَّارُ من صَدَقاتٍ، وما يُنفِقونه من أموالٍ للصدِّ عن سبيل الله تعالى، نفقاتٌ باطِلة، وثوابها الذي يَرْجونه مُضمَحِلٌّ عند الله عزَّ وجلَّ، وشَبَّه الله تعالى ذلك بهُبوب ريحٍ عاصفٍ شديدةِ البرودةِ، قويَّة الصَّوت، قد سُلِّطتْ على زرعِ أُناسٍ استَحقُّوا أنْ يُعذِّبَهم الله تعالى بها، فدمَّرت زرعَهم وأصبح يابسًا، بعد أن أمَّلوا حصادَه، ورَجوا الاستفادةَ من خيراتِه[٢].

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

أي: إنَّ ما فعَله الله تعالى بهؤلاء الكفَّار، من إحباطِ ثواب أعمالِهم، إنَّما وضَعَه في مَوضِعه، وفعَل بهم ما هم أهلُه، وهم الذين نقَصُوا أنفسَهم في الحقيقةِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧٠٣-٧٠٥)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٥-١٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٤، ٩٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٨٧-٨٩).

ووضَعوها في غيرِ موضِعها الذي يَليق بها(١).

الفَوائِدُ التربويَّة:

١- معرفةُ تمام قُدْرة الله وسُلْطته على العباد؛ حيث إنَّ الكفار العُتاةَ لا يستطيعون أنْ يدفعوا شيئًا بأموالهم وأولادهم ممَّا قضاه الله عزَّ وجلَّ، يُبيِّن ذلك قولُه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾(٢).

٢- الحَذَرُ من الاغترارِ بالنِّعم، فالمغرورُ إنَّما يَصُدُّه عن اتِّباع الحقِّ، أو النَّظر في دليلِه الاستغناءُ بما هو فيه من النِّعم، وأعظمُها الأموالُ والأولاد، فالذي يرَى نَفْسه مُستغنيًا بمِثْل ذلك قلَّما يُوجِّه نظرَه إلى طلبِ الحقِّ، أو يُصْغي إلى الدَّاعي إليه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا...﴾(٣).

٣- نَفْسُ الإنسانِ عنده أمانةٌ يَلحَقها ظُلْمُه وغشمُه، ويلحقها برُّه وإحسانُه؛ فيجب أن يرعى هذه الأمانةَ حقَّها؛ يُبيِّن ذلك قولُه تعالى: ﴿وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(٤).

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ خَصَّ اللهُ تعالى الأموالَ والأولاد بالذِّكر؛ لأنَّهما من أشد الأشياء نفعًا للإنسان، فالمالُ يدفعُ به المرءُ عن نَفْسِه في فِداءٍ أو نحوه، والولدُ يَنصُر أباه ويُدافِع عنه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٤، ٩٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٨٩-٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٩٤).

فإذا لم يُغنِ عنه ولدُه لصُلْبه، ومالُه الذي هو نافِذُ الأمر فيه؛ فغير ذلك أبعدُ مِن أن يُغني عنه مِن الله شيئًا[١].

٢- قول الله تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ﴾ فيه إثباتُ القياس؛ ووجْه ذلك: أنَّ المَثَل إلحاقٌ للأصل بالفرع، وإلحاقٌ للمُشبَّه بالمُشبَّه به، وهذا هو أصلُ القياس- إلحاق فرعٍ بأصلٍ في حُكمٍ لِعَلَّةٍ جامعة- فكلُّ مِثالٍ ضربَه الله في القرآن ففيه دليلٌ على القياس؛ إذ إنَّه إلحاق المُشبَّه بالمُشبَّه به[٢].

٣- في قولِه: ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ تنبيهٌ على أنَّ سَبَبَ إصابةِ هذه الرِّيحِ لحَرْثِهم هو ظُلْمُهم؛ فهو الذي سَلَّطَها عليهم حتى أهلكَتْ زَرْعَهم وأيبَسَتْه، فظُلْمُهم هو الرِّيحُ التي أهلكَتْ أعمالَهم ونفقاتِهم وأتْلَفَتْها[٣].

بَلاغَةُ الآيتين:

١- قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ للانتقالِ إلى ذِكر وعيدِ المشركين بمناسبةِ ذِكر وعْدِ الذين آمَنوا مِن أهل الكتاب[٤].

- وإنَّما عطَف الأولادَ هنا؛ لأنَّ الغَنَاء في مُتعارَف النَّاس يكون بالمال والولد[٥].

- وكرَّر حرْفَ النَّفي مع المعطوف في قوله: ﴿وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾؛ لتأكيدِ عدم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧٠٣)، ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٦٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٩٢).
(٣) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٤٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٦٠).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

غَناءِ أولادِهم عنهم؛ لدفع توهُّم ما هو مُتعارَف من أنَّ الأولاد لا يَقعُدون عن الذَّبِّ عن آبائهم[١].

- وتنكيرُ قوله: ﴿شَيْئًا﴾؛ للتَّقليل[٢]، وهي نكِرة في سياق النَّفي، والنَّكرة في سياق النَّفي تُفيد العمومَ، فالمعنى: أيُّ شيء كان سواءً كان هذا الشَّيء شديدًا أو ضعيفًا[٣].

- وفيه تحقيقُ مضمون الجملة بـ: التَّأكيدِ بـ(إنَّ)، ومَوقِع اسم الإشارة، وضمير الفصل (هُمْ)، ووصْف (خَالِدُونَ)، وجُملة (وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ) عطْف على جملة (لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ)، وجيء بالجملةِ معطوفةً، على خلافِ الغالبِ في أمثالها أنْ يكون بدون عطفٍ؛ لقصْدِ أن تكون الجملةُ مُنصبًّا عليها التَّأكيدُ بحرف (إنَّ)[٤]، ووقوعها جملةً اسميَّة؛ للدَّلالةِ على الدَّوام والثُّبوت[٥].

٢- **قوله: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ﴾** استئنافٌ بيانيٌّ، وفي الآية: تشبيهٌ تَمثيليٌّ، حيث شبَّه سبحانه ما أنفَقوه في عدمِ جدواه، وقِلَّة غَنائه بالحَرْث الذي عصفَتْ به الرِّيحُ الصِّرُّ، والتَّقدير: مَثَل ما يُنفِقون في هذه الحياةِ الدنيا كمَثَل حَرْثِ قومٍ ظلَموا أنفسَهم فأصابتْه ريحٌ فيها صِرٌّ؛ جاء النَّظم هكذا؛ لفائدةٍ جليلة، وهي تقديمُ ما هو أهمُّ؛ لأنَّ الرِّيحَ التي هي مِثْل العذاب ذِكْرها في سياقِ الوعيدِ والتَّهديدِ أهمُّ مِن ذِكْر الحَرْث، فقُدِّمت عِنايةً بِذِكْرها[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٦٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٩١).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٠٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٣٤)، ((تفسير أبي =

- وفي قوله: ﴿فِيهَا صِرٌّ﴾ ما يُعرَف بالتَّتْميم؛ إذ أفادَتِ المبالغةَ، كما أفادتِ التَّجسيدَ والتَّشخيص، كما تقول: بَرْدٌ بارِد، وليلةٌ ليلاء، ويوم أيوم، ثم قُيِّد الصِّرَّ بالظَّرفيَّة (فيها)؛ لأنَّ الرِّيح مُطلَقة ثم قيَّدها بالظَّرفيَّة، وكلُّ مُقيَّد ظَرْف لمُطلَقه؛ لأنَّ المُطلَق بعض المُقيَّد، فحصل التَّجسيد والتَّشخيص[١].

وأيضًا كأنَّ جِنْسَ الصِّرِّ مَظروفٌ في الرِّيح، وهي تَحمِله إلى الحَرْث، فيُفيد شِدَّةَ بَرْد هذه الرِّيح[٢].

٣- قوله: ﴿وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ فيه تقديمُ المفعول ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ على الفِعل وفاعِله ﴿يَظْلِمُونَ﴾، وفائدة التَّقديم: الحصرُ، فالمعنى: أنَّهم ما ظلَموا اللهَ عزَّ وجلَّ، والله- أيضًا- ما ظلَمهم، ولكنَّهم ظلموا أنفسَهم دون غيرِها، ودون أن يَظلِمَهم أحدٌ[٣].

= السعود)) (٢/ ٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٦١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٣٣-٣٤).

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٣٣-٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٩٠).

الآيات (١١٨ - ١٢٠)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿بِطَانَةً﴾: أي: دُخلاءَ، وبِطانةُ الرَّجُل: أهلُ سِرِّه، الذين يُبطِنون أمْرَه، مِمَّن يسكُن إليهم، ويَثِق بمودَّتهم(١).

﴿من دُونِكُمْ﴾: أي: مِن غيرِ المسلمين، وأصْل الدُّون: المُداناة والمُقاربة(٢).

﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾: لا يُقصِّرون في فَسادِ دِينكم؛ يُقال: ألوتُ في الشَّيء آلو: إذا قصَّرتُ فيه(٣).

و﴿خَبَالًا﴾: أي: فَسادًا أو شرًّا، وأصْل: الخَبْل: فسادُ الأعضاء، والجُنُون(٤).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٩،٤٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٠، ١٣١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٧).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٩، ١٨٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني =

﴿ودُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾: أي: ودُّوا عنتَكم، والمُعانتة: مُعانَدة فيها خوفٌ وهلاك، وأصْل العَنَت: المشقَّة(١).

﴿خَلَوْا﴾: أي: انفَردوا؛ يُقال: خلا إليه: انتهى إليه في خَلوةٍ، والخَلاءُ من الشَّيء: الفراغ منه(٢).

﴿تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ﴾: أي: تَنلْكُم وتُصبْكم نِعمة، وأصْل المسِّ: جسُّ الشيء باليدِ، والحسَنة: النِّعمة(٣).

المَعنَى الإجماليُّ:

يَنهى الله عبادَه المؤمنين عن اتِّخاذ أشخاصٍ مُقرَّبين من غير المؤمنين، يُطلِعونهم على أسرارِهم، فإنَّ هؤلاء الكفرةَ والمنافقين لا يؤمَن جانبُهم، لا تَسْنَح لهم فرصةٌ للإضرار بالمؤمنين إلَّا استغلُّوها، بل يَسْعَون في الإضرارِ بهم بكلِّ طاقتهم، فهم يتمنَّون حصول كلِّ ما فيه مشقَّةٌ على المؤمنين، ومِن شدَّة ما يُضمرونَه من أحقادٍ تُجاهم لم يستطيعوا كِتمانَها، فظهرتْ كراهيتُهم للمؤمنين على فلتاتِ ألْسنتهم، وما بقِي حبيسَ صدورِهم من البغضاء أعظمُ وأكبرُ ممَّا ظهَر، قد وضَّح اللهُ الآياتِ للمؤمنين، وسيُفيدهم ذلك التَّوضيح إنْ عقَلوه وفَهِموه.

ثم يُبيِّن الله بعضًا ممَّا يُوجِب الحذرَ من الكفَّار والمنافقين، فهم من شدَّة

= (ص: ٢٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٦).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٨٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٩).

(٢) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٧١) (٢/ ٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٧).

ما في صدورِهم على المؤمنين من الحِقد، لا يُبادِلونهم المشاعر، فالمؤمنون يُحبُّونهم ويَودُّونهم، وهؤلاء الكفَّار يُبغِضونهم، كما أنَّ المؤمنين آمنوا بجميعِ الكتُبِ المنزَّلة من عند اللهِ، بينما هم لا يؤمنون بما أنزَله الله إلى محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وقد حرَّفوا ما أُنزِل إليهم؛ فالأَوْلى بمَن هذا صنيعُه أنْ يُعادَى ويُبغَض، بل إنَّهم إذا قابَلوا المؤمنين أَظهَروا الإيمانَ بألْسنتِهم، وإذا انفرَدَ بعضُهم ببعضٍ عضُّوا أطرافَ أصابِعهم من شِدَّة الغيظِ على المؤمنين. ثم أمَر الله نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أن يقول لهم: ﴿مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ إنَّ الله مُطَّلِعٌ على ما تُكِنُّه الصُّدرور، لا يَخفى عليه شيءٌ.

هؤلاء المذكورون من المنافقين والكفَّار إنْ حصَلَ للمؤمنين ما يَسُرُّ ساءَهم ذلك وأَحزَنهم، وإنْ أصاب المؤمنين سوءٌ فرِحوا بذلك، ثمَّ أرشَدَ الله المؤمنين لِمَا يُعِينهم على تحمُّل ذلك، وهو الصَّبرُ والتَّقوى؛ فإنَّهم إنْ فعَلوا ذلك فإنه لن يَلحَقهم من ضررِ هؤلاء وكيدِهم شيءٌ، واللهُ مُحيطٌ بجميع ما يفعله هؤلاءِ المنافقون والكفَّارُ، وسيُجازيهم عليه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا شرَح الله تعالى أحوالَ المؤمنين والكافرين، شرَع في تحذيرِ المؤمنين عن مُخالَطة الكافرين[١]، فقال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٦٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنون، لا تَجعلوا مِن خاصَّةِ أصدقائكم والمقرَّبين منكم أُناسًا من غير المؤمنين، كفَّارًا أو منافقين؛ تُطْلِعُونَهم على أسرارِكم، أو تَجعلون لهم مناصبَ ونفوذًا؛ فإنَّ الكافرَ لا يُؤمَن جانبُه؛ لما تنطوي عليه نَفْسُه من الغِشِّ والخداع، وإذاعة أسرار المؤمنين إلى الأعداء، ولا يترك مجالًا يُمكِن أنْ يُفسِد أحوالَكم فيه إلَّا سعَى إليه بكلِّ طاقته، ولا يُقصِّر في إلحاقِ أنواع الضَّررِ بكم[1].

عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رضِي اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((ما بعَث اللهُ مِن نبيٍّ، ولا استَخلَف من خليفةٍ، إلَّا كانتْ له بِطانتان: بِطانةٌ تأمرُه بالمعروفِ وتَحضُّه عليه، وبِطانةٌ تأمرُه بالشرِّ وتحضُّه عليه، فالمعصومُ مَن عصَم اللهُ تعالى))[2].

﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾.

أي: يُحِبُّون ويتمنَّون بكلِّ قلوبِهم وقوعَ الضِّيقِ، وحصولَ المشقَّة عليكم في دِينكم وأموالِكم وأبدانِكم، وكلِّ ما يسوؤكم[3].

﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾.

أي: ظهرتْ على فَلَتات ألْسنتهم البغضاءُ لكم، فلم يَستطيعوا كِتمانَها[4].

﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧٠٧-٧٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٦-١٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٤، ٩٧٣).

(٢) رواه البخاري (٧١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧١٢-٧١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٩٨).

أي: إنَّ ما انطوت عليه صدورُهم من الكراهيةِ للإسلامِ وأهلِه أشدُّ وأعظمُ ممَّا بَان على ألْسنتِهم(١).

﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

أي: قد أَظهَرْنا لكم بوضوح- أيُّها المؤمنون- آياتِ الله تعالى، ومنها العلاماتُ والبراهين التي تُظهِر لكم أمْرَ هؤلاء الذين حذَّرناكم من اتِّخاذهم بِطانة، تُفسِد عليكم مصالحَكم الدِّينيَّة والدُّنيويَّة، فتتمكَّنوا من خلالها من التَّفْرِقة بين الصَّديق والعَدوِّ إنْ كنتم تَعقِلون عن الله آياتِه؛ فإنَّ ذلك لا يَخفى على لبيبٍ عاقل(٢).

﴿هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩)﴾.

﴿هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾.

أي: ها أنتم- أيُّها المؤمنون- تُحِبُّون هؤلاء الذين نَهيتُكم عن اتخاذِهم بِطانةً، فتودُّونهم وتُريدون لهم الخيرَ، وهم لا يُحِبُّونكم، بل يُبغِضونكم ويُريدون لكم السوءَ والضَّررَ؛ فكيف تُحِبُّونهم(٣)؟!

﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٩٨-٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧١٥، ٧١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٤، ٩٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٠٠).

أي: إنَّكم تؤمنون بجميعِ الكُتُب التي أَنزَلها الله تعالى، وتَعلَمون أنَّ هؤلاء القومَ لا يؤمنون بما أُنزِل إليكم، وقد حرَّفوا وبدَّلوا ما أُنزِل إليهم، فالأَوْلى بكم إذنْ أن تُعادوهم وتُبغِضوهم[١].

﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾.

أي: إنَّ هؤلاء الذين نهاكم اللهُ أن تتَّخِذوهم بِطانةً، إذا لَقُوكم أَعلَنوا لكم بألْسنتهم إيمانَهم نِفاقًا منهم[٢].

﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾.

أي: إذا صاروا في خَلاءٍ مع أضرابِهم من حيث لا تَرونهم، عَضُّوا أطرافَ أصابعهم من شِدَّة الحَنَق والغيظ على ما يَرون مِن ائتلافكم، واجتماعِ كلمتِكم على الحقِّ[٣].

﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾.

أي: قل- يا محمَّدُ- لهؤلاء: لتَهلِكوا بغيظِكم الذي بكم على المؤمنين؛ ذلك أنَّ الله تعالى مُتِمٌّ نِعمتِه على عبادِه، وستَرَوْن من عِزِّ الإسلام وذُلِّ الكُفر ما يسوؤكم، وتموتون بغيظكم، فلا تَضُرُّون بذلك إلَّا أنفسَكم[٤].

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧١٦، ٧١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٤، ١٤٥، ٩٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٥، ٩٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧١٨، ٧١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٥، ٩٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٠١-١٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٥، ٩٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٠٢).

أي: إنَّ الله سبحانه لا يَخفى عليه ما تَنطوي عليه صدورُ هؤلاء من الغِلِّ والبغضاء لعبادِه المؤمنين، ويعلمُ أيضًا ما تحويه صدورُ جميعِ خَلْقه، فيحفظُ عليهم ذلك؛ ليُجازيَ كلًّا منهم بما يُكِنُّه قلبُه من خيرٍ أو شرٍّ[1].

﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر الله تعالى شِدَّةَ عداوة أهل الكتاب للمؤمنين، ذكَر هاهنا أحوالًا دالَّةً على ذلك، تكشِف عمَّا في صدورهم[2]، فقال:

﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾.

أي: إنْ تنالوا- أيُّها المؤمنون- سرورًا بظهوركم على عدوِّكم والنصر عليهم، أو بكَثْرة أنصارِكم، أو بحصولِ العافية لكم، وغير ذلك من أنواع الخيرِ، يَغُمُّهم ذلك ويُحزِنهم[3].

﴿وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾.

أي: وإنْ يَنَلْكم- أيُّها المؤمنون- ما يسوؤكم؛ كانتصارِ عدوِّكم عليكم، أو حدوثِ اختلاف بينكم، أو وقوع جَدْبٍ في أرضكم، وغير ذلك من أنواع الضُّرِّ، فإنَّهم يُسَرُّون بذلك[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٨-١٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٤٠) ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧٢١، ٧٢٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٢٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٨، ١٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٥، ٩٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧٢٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٢٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٥، ٩٧٣).

﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّن تعالى شدَّةَ عداوةِ الكفَّار والمنافقين، وشرَح ما هم عليه من الصِّفات الخبيثة، وجَّه عِبادَه إلى ما يُعينهم على تحمُّل ذلك، ودفْعِ ضرره عنهم[1]، فقال:

﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾.

أي: إن تَصبِروا- أيُّها المؤمنون- على كلِّ ما وجَب عليكم الصَّبرُ عليه، ومن ذلك: أقدارُه سبحانه، وتمتثلوا ما أمَرَكم الله تعالى به، وتَجتنبوا ما نهاكم عنه؛ فإنَّ استعمالَ هذا الصَّبرِ ولُزومَ هذه التَّقوى يدفعُ عنكم بإذنه كلَّ كيدٍ للأعداء، وكلَّ ضررٍ أرادوا إلحاقَه بكم، فتَسلَموا من أذاهم[2].

قال تعالى عن إنجائه يوسف من كيدِ إخوته وغيرهم: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ * قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٨٩-٩٠].

﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى محيطٌ بجميعِ ما يقوم به هؤلاء الكفَّار من كيدٍ وضُرٍّ بأهل طاعته، لا يَغيب عنه شيءٌ من ذلك، فهو سبحانه يُحصيه عليهم، ويُجازيهم به[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧٢٣، ٧٢٤)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٢/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٥، ٩٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧٢٤، ٧٢٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٥، ٩٧٣).

الفَوائِدُ التربويَّة:

١- في قوله: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطانَةً مِنْ دُونِكُم...﴾ بيانٌ لحالِ مَن حول الجماعة المسلِمة من أعداء، يَتظاهرون للمسلمين- في ساعة قوَّة المسلمين وغلبتهم- بالمودَّة، فتُكذِّبهم كلُّ خالجةٍ وكلُّ جارحة، وينخدعُ المسلمون بهم فيَمنحونهم الودَّ والثقةَ، وهم لا يُريدون للمسلمين إلَّا الاضطرابَ والخبالَ، ولا يُقصِّرون في إعناتِ المسلمين، ونثْر الشوكِ في طَريقِهم، والكيدِ لهم والدَّسِّ، ما واتتْهم الفرصةُ في ليلٍ أو نهار؛ هذا التحذيرُ يُبصِّر الجماعةَ المسلمةَ بحقيقةِ الأمرِ، ويُوعِّيها لكيدِ أعدائها الطبيعيِّين، الذين لا يُخلصون لها أبدًا، ولا تغسل أحقادَهم مودَّةٌ من المسلمين وصُحبة. ولم يجِئْ هذا التحذيرُ ليكون مقصورًا على فترة تاريخيَّة مُعيَّنة، فهو حقيقةٌ دائمة، تُواجِه واقعًا دائمًا، كما نرى مصداقَ هذا فيما بين أيدينا من حاضرٍ مكشوفٍ مشهود[(١)].

٢- أنَّ تَجنُّب البِطانة السَّيئة من مقتضيات الإيمان؛ لأنَّ الخطاب وُجِّه إلى المؤمنين، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ﴾[(٢)].

٣- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ﴾ الآية، فيه دلالةٌ على أنَّه ليس كلُّ أحد يُجعل بِطانةً، فإذا ابتُلِي المرءُ بمُخالَطة العدوِّ فينبغي أنْ تكون مُخالَطتُه له في الظاهر، ولا يُطْلِعه على شيءٍ مِن باطنه، ولو تَملَّق له وأقسَم أنَّه من أوليائِه[(٣)].

٤- في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ﴾ بيانُ

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٥٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١١٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٤).

عِناية الله تعالى بعبادِه المؤمنين؛ حيث حذَّرهم من أمورٍ قد تَخفى عليهم كاتِّخاذ البِطانات السَّيئة(١).

٥- في قوله تعالى: ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ أنَّ أعداءَنا يودُّون لنا ما يَشُقُّ علينا؛ في الدُّنيا أو الدِّين، فيودُّون ما يُدمِّر جيوشَنا، ويودُّون ما يُدمِّر اقتصادَنا، ويودُّون ما يدمِّر معارفَنا، ويودُّون ما يُدمِّر دِينَنا، وهذا الأخيرُ هو الأهمُّ لديهم(٢).

٦- إعمالُ الفِكْرِ والاستدلال، واستعمالُ العقل في تأمُّل الآيات، هو سبيلُ العِلْم والفِطْنة، يُبيِّن ذلك قولُ الله تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾(٣).

٧- كلَّما كان الإنسان أقوى عقلًا كان أَفْهَمَ لآيات الله؛ فقد قال تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾(٤).

٨- التَّحذيرُ ممَّن يُبدِي أنَّه ناصحٌ لك وقلْبُه كارهٌ لك؛ لأنَّ المقصودَ من قوله: ﴿هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ...﴾ التَّحذيرُ من هؤلاء، فلا تَغترَّ بمَن ظاهِر حالِه النُّصحُ، بل قِسِ الأمور بالأفعال؛ لأنَّ الأفعالَ هي التي تُبيِّن حقيقةَ الأمر، فكم من إنسانٍ يقول لك قولًا وهو على خلافِ ما يقول لك، فالعِبرةُ بالأفعال لا بالأقوال(٥).

٩- أنَّه ينبغي للمسلمِ أنْ يكون قويًّا صارمًا أمام أعدائه؛ لقوله: ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١١٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٦٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١١٧).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١١٨).

١٠- في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ...﴾، التَّحذير من تولية اليهود والنَّصارى لأمورِ المسلمين القياديَّة؛ كأنْ يجعلوهم مُدراء أو وزراء أو ما أَشْبه ذلك؛ لأنَّهم لا يألُونَنا خبالًا، ويُسَرُّون بما يَسوؤنا، ويُساؤون بما يَسُرُّنا، فكيف نتَّخِذهم بِطانةً نُولِّيهم أمورَنا القياديَّة من: إدارة أو رئاسة أو غيرها[1]؟

١١- أنَّ أعداءَنا لا يألون جَهْدًا في الكيدِ لنا، وعلاجُ هذا بالصَّبر والتَّقوى ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾، بالصَّبرِ على كلِّ ما يجبُ الصَّبرُ عليه من أوامِرَ فنقوم بها، أو نَواهٍ فنتركها، أو سياساتٍ فنتَّبعها، فمَن صبَر واتَّقى كان في حِفْظِ اللهِ عن الآفاتِ والمخافات، فلا يَضُرُّه كيدُ الكافرين، ولا حِيَلُ المُحتالِين[2].

١٢- أنَّ الصَّبر والتَّقوى يَدفعانِ الأعداءَ؛ لقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ﴾ وما فعلوه عَلنًا إنْ صبَرنا واتَّقينا لا يَضُرُّنا من باب أَوْلى؛ لأنَّ الكيدَ الذي يكون بالمكرِ والخديعةِ إذا كان لا يَضُرُّنا مع الصَّبر والتَّقوى، فما كان ظاهرًا بيِّنًا فهو من باب أَوْلى[3].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- توجيهُ الخِطاب إلى المؤمنين في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ له ثلاثُ فوائد:

الأولى: الإغراءُ على الامتِثال كأنَّه يقول: إنْ كنتَ مؤمنًا فافْعَل كذا وكذا، إنْ كنتَ مؤمنًا فلا تفعل كذا وكذا، إنْ كنتَ مؤمنًا فصَدِّق بالخبرِ، ففيه توجيهٌ للمؤمنين وإغراءٌ بالامتثال.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٢٣)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢٤٢) ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٢٠).

الثَّانية: أنَّ امتثالَه من مقتضياتِ الإيمان؛ لأنَّه لا يُخاطَب الشَّخصُ بوصفٍ ثم يُوجَّه إليه حُكْمٌ مُتعلِّقٌ بهذا الوصف إلَّا كان ذلك دليلًا على أنَّ امتثالَ هذا الحُكم من مُقتضيات الإيمان؛ لأنَّه لا يَصِحُّ أنْ تُوجَّه لكافرٍ كلمةٌ تتعلَّق بالمؤمن.

الثَّالثة: أنَّ الإخلالَ به نَقْصٌ في الإيمان(١).

٢- في قولِ الله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾، نهيٌ عن اتِّخاذ بِطانةٍ كافرة، ثم نبَّه على أشياءَ مِّما هم عليه من ابتغاء الغوائلِ للمؤمنين، ومحبَّة مشقَّتهم، وظهور بُغْضهم، والتَّقييد بالوصف أو بالحالِ يُؤذِن بجوازِ الاتِّخاذ عند انتفائهما(٢).

٣- في قول الله تعالى: ﴿مِنْ دُونِكُمْ﴾؛ إشارةٌ إلى أنَّهم يَهضِمون أنفسَهم، ويُنزِلونها عن عَلَيِّ دَرجتِها بموادَّتِهم(٣).

٤- قول الله تعالى: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ فيه ذِكْر الأفواهِ دون الألْسنة؛ إشعارًا بأنَّ ما تلفَّظوا به يملأ أفواهَهم، كما يُقال: كلمة تملأ الفمَ إذا تَشدَّق بها(٤).

٥- قال الله تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ولم يَقُل: (إنْ كنتم تعلمون أو تفقهون)؛ لأنَّ العقلَ أعمُّ من العِلْم والفقه، وهذه الآياتُ آياتُ فراسةٍ وتَوسُّم؛ لذا قال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾(٥).

٦- في قوله تعالى: ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٩٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣١٧).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣١٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٦٥).

بِهَا﴾ أنَّ العدوَّ إذا أصابتْ عَدوَّه حسنةٌ ساءتْه، وإذا أصابتْه سيئةُ فرِح بها، وقد جعل الفقهاء رحِمهم الله هذا ضابطًا في العَداوة، حينما تكلَّموا في باب الشَّهادات على أنَّ العدوَّ لا تُقبَل شهادتَه على عدوِّه، قالوا في ضابط العدوِّ: هو مَن سرَّتْه مساءتُك وساءَه مَسرَّتُك[1].

٧- قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾، لم يَقُل: (إنَّ الله محيط بما يعملون)؛ لأنَّه ليس المقصودُ هاهنا بيانَ كَوْنه تعالى عالِمًا، وإنَّما بيان أنَّ جميعَ أعمالهم معلومةٌ لله تعالى، ومُجازيهم عليها[2].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾:

- في تصديرِ الخِطابِ بالنِّداءِ في قولِه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ دلالةٌ على أهمِّيَّة ما يأتي بَعْدَه والتَّنبُّه له[3].

- وقوله: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ﴾، و﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾، وكذلك ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ﴾: جُمَل مُستأنَفةٌ على وجهِ التَّعليل للنَّهي عن اتِّخاذهم بِطانةً للتَّنبيه، وهو أَبلغُ وأَحسنُ من تقديرِ هذه الجُملِ صِفةً للبِطانة[4]؛ فهي مُبيِّنةٌ لحالِهم، داعيةٌ إلى الاجتناب عنهم، ومؤكِّدةٌ للنَّهي أيضًا، ومُوجِبةٌ لزِيادةِ الاجتنابِ عن المنهيِّ عنه[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٩٥- ٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٠٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٣٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٧٦).

- قوله: ﴿إِنْ كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فيه حَذْف الجوابِ؛ لدَلالة المذكور عليه، والتَّقدير: إنْ كنتم تَعقِلون ما بُيِّن لكم من الآيات فعملتُم به، أو: إنْ كنتُم عقلاءَ، وقد عَلِمَ تعالى أنَّهم عقلاءُ، لكن علَّقَه على هذا الشرطِ على سَبيلِ الهزِّ للنُّفوسِ، كقولك: إنْ كنتَ رجُلًا، فافعلْ كذا. وقيل: إنْ كُنتُم تعقلونَ فلا تُصافوهم، بل عامِلُوهم معاملةَ الأعداءِ(١).

٢- قوله: ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ فيه خروجُ الأمْرِ عن معناه الحقيقيِّ إلى معنى التَّوبيخِ والتَّقريع، كقوله: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠]، وليس هو بأمرٍ جازِم؛ لأنَّه لو كان أمرًا لَمَاتوا من فَورِهم، وليس بدعاءٍ؛ لأنَّه لو أمَرَه بالدعاء لَمَاتوا جميعُهم على هذه الصِّفة؛ فإنَّ دعوتَه لا تُردُّ، وقد آمَن منهم بعد هذه الآيةِ كثيرٌ، وليس بخبرٍ؛ لأنَّه لو كان خبرًا، لوقَع على حُكمِ ما أَخبَر به، فلم يؤمن أحدٌ بعدُ(٢).

٣- قوله: ﴿هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ استئنافٌ ابتدائي، قُصِد منه المقابلةُ بين خُلُقِ الفريقين؛ فالمؤمنون يُحِبُّون أهلَ الكتاب، وأهلُ الكتاب يُبغِضونهم، وكلُّ إناء بما فيه يَرشَح(٣).

- وفيه تعجُّبٌ من مجموع الحالين؛ فالعجبُ مِن محبَّة المؤمنين إيَّاهم في حال بُغْضهم المؤمنين، ولا يُذكَر بعد اسمِ الإشارة جملةٌ في هذا التَّركيبِ إلَّا والقصد التَّعجُّب من مضمونِ تلك الجملة(٤).

٤- قوله تعالى: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيَّان)) (٣/ ٣١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٦٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قوله: ﴿بِالْكِتَابِ﴾: فيه تعريفُ (الكتاب) للجِنْس؛ تعظيمًا وتكريمًا، وأُكِّد بصيغةِ المفرد (كله) مُراعاة للفظِه(١).

- قول الله تعالى: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ في الآية إضمارٌ، والتَّقدير: وتؤمنون بالكتاب كلِّه وهم لا يؤمنون به، وحَسُن الحذفُ؛ لأنَّ الضِّدَّين يُعلمانِ معًا، فكان ذِكْرُ أحدهما مُغنيًا عن ذِكْر الآخَر(٢).

٥- قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ تذييلٌ لقوله: ﴿عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾، وما بينها كالاعتراض، أي: إنَّ الله مُطَّلِع عليهم، وهو مُطلِعك على دخائِلهم(٣).

٦- قوله: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ ذِكرُ المسِّ مع الحَسنةِ، والإصابةِ مع السيِّئة؛ للإيذانِ بأنَّ مدارَ مَساءتِهم أدْنى مراتبِ إصابةِ الحَسنةِ، ومناطَ فرحِهم تمامُ إصابةِ السَّيِّئةِ(٤)؛ لأنَّ الشَّيءَ المصِيب لشيءٍ هو مُتمكِّنٌ منه، أو فيه، فدلَّ هذا النَّوعُ البليغُ على شِدَّة العداوةِ؛ إذ هو حِقْدٌ لا يَذهَبُ عند نُزولِ الشَّدائد، بل يَفرحون بنُزولِ الشَّدائدِ بالمؤمنين، وهكذا هي عداوةُ الحسدِ في الأغلبِ، ولا سيَّما في مِثلِ هذا الأمرِ الجسيمِ الذي هو مِلاكُ الدُّنيا والآخِرة(٥).

- وفي قوله: ﴿حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ و﴿سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ قابَل الحسنةَ بالسيِّئةِ، والمساءةَ بالفرحِ، وهي مقابلةٌ بديعةٌ(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٦٦)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٥٢٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٤٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٦٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٧٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٢٢).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٢٢).

- و﴿حَسَنَةٌ﴾، ﴿سَيِّئَةٌ﴾ نَكِرتانِ في سِياقِ الشرطِ؛ تفيدان العمومَ، أي: أيُّ حَسنةٍ دُنيويَّة أو دِينيَّة أو ماليَّة أو بدنيَّة؛ فأيُّ حسنةٍ تُصيبُ المؤمنينَ فإنَّها تَسوءُهم؛ لأنَّهم أعداءٌ، وكذلك السيِّئة؛ أيُّ سَيِّئةٍ تُصيبُ المؤمنينَ؛ فيما يَسوءُهم في البدنِ أو الأهلِ أو المالِ أو الدِّين، يَفْرَحون بها(١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٠٣)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٢٢).

الآيات (١٢١ - ١٢٩)

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ ﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿غَدَوْتَ﴾: أي ذهبتَ أوَّلَ النَّهار؛ يُقال: غدا يَغْدو، والغَدْوة والغَداة تكون من أوَّلِ النَّهار[1].

﴿تُبَوِّئُ﴾: تتَّخِذ لهم، وتُوطِّن، وأصْل البَواء: مساواةُ الأجزاءِ في المكانِ، وتَساوي الشَّيئَين[2].

﴿مَقَاعِدَ﴾: أي: مُعسكرًا، ومَصافَّ للقِتال، وأصْل المَقعَد: مكان القُعُود[3].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢١).

﴿تَفْشَلَا﴾: أي: تجبُنا وتضعُفا[١].

﴿أَذِلَّةٌ﴾: قليلون مَقهورون، وأصل الذُّلِّ: الخضوعُ، والاستكانةُ، واللِّين، والذُّلُّ: ضدُّ العزِّ، وخِلافُ الصُّعوبة[٢].

﴿مِنْ فَوْرِهِمْ﴾: أي: مِن وجْهِهم أو مِن ساعتِهم، أو مِن غضَبِهم، ، يُقال: فار فائرُه، إذا غضِب، وأصْل الفَوْر: ابتداءُ الأمْر، يُؤخَذ فيه ويُوصَل بآخَرَ؛ يُقال: فَعلَه مِن فَوْره، أي: في بَدْءِ أمْره، قبل أن يَسكُن[٣].

﴿مُسَوِّمِينَ﴾: أي: مُعلِّمين لأنفسِهم أو لخيولِهم بعَلامةِ الحَرب، مأخوذٌ من السَّومة والسِّيماء: وهي العلامة التي تُعلِّم الفارسَ نفْسَه[٤].

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا﴾: أي: ليَقتُل فِرْقةً منهم، أو يُهلِك جماعةً منهم، وأصْل القطع: الفَصْل، وإبانةُ شيءٍ من شيء، وطرَف الشَّيء: جانِبُه، وأصْله: حدُّ الشيءِ وحَرْفه[٥].

﴿يَكْبِتَهُمْ﴾: يَصرَعهم لوجوهِهم ويُهلِكهم، والكَبْت: الإهلاكُ، والردُّ بعُنفٍ وتذليل[٦].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٩، ١١٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٨).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) (٥/ ١٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٠).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٥)، =

﴿فَيَنْقَلِبُوا﴾: فيَنهزِموا مُنقطِعي الآمال، والانقلابُ: الانصرافُ، ورجوعُ القَهْقَرى، وقلبُ الشيءِ: تصريفُه وصرْفُه عن وجْهٍ إلى وجه(١).

المَعنى الإجماليُّ:

يُذكِّر الله نبيَّه محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بخروجه من بيته للقاءِ الكفَّار يوم أُحدٍ، حين كان يُرتِّب المؤمنين للقتال، كلٌّ في مَقعَده اللائق به، والله سبحانه مُطَّلعٌ على كلِّ شيءٍ، فهو سبحانه السميعُ العليمُ.

ويذكِّره أيضًا حين همَّت طائفتانِ من المؤمنين- وهما بنو سَلِمَةَ وبنو حارثة- بالفشلِ، فثبَّتهما الله تعالى، مُنبِّهًا أنه عليه وحْدَه فليتوكَّل المؤمنون.

ويَمتنُّ الله على عِبادِه بنَصْرِه لهم يومَ بدرٍ وهم ضعفاءُ، فينبغي أنْ يتَّقوه؛ لعلهم يَشكُرونه تعالى لِمَا امتنَّ به عليهم، ثم يُذكِّر الله نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حين قال عليه الصَّلاة والسَّلام لأصحابه مُبشِّرًا لهم، ألَن يَكفِيَكم إمدادُ الله لكم بثلاثة آلاف من الملائكة، يُنزِلهم سبحانه وتعالى من السَّماء؛ ليُشارِكوكم القتالَ يوم بدرٍ، بلى، هو كافٍ لكم، ولكم أيضًا أنْ يُمِدَّكم الله بخمسةِ آلافٍ من الملائكة الذين عليهم علامةُ الشُّجعان في حالِ صَبْرِكم وتقواكم، ومجيءِ المشركين من الجِهة التي جاؤوكم منها مُسرِعين إليكم.

ويُخبِرهم سبحانه أنَّ إعلامَ الله لهم بأنَّه سيُمِدُّهم بالملائكة هو بُشرى لهم؛ ولتَسكُنَ قلوبهم به، وما النَّصر إلَّا من عند الله العزيز الحكيم، يَنصُرهم سبحانه من أجْل أن يُهلِك بعضَ الكفَّار، أو يُخزي بعضَهم، ويُذِلَّهم، فيعودوا

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٨).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٣).

إلى بلادِهم خائبين لم ينالوا خيرًا، أو أنَّه سبحانه يَهديهم للإسلام، أو يُعذِّبهم بسبب ظُلْمهم، فأمرُهم كلُّه راجعٌ إلى الله سبحانه، ليس للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ من الأمر شيءٌ.

ثم يُقرِّر تعالى أنَّ له وحْده كلَّ ما في السَّموات والأرض، يتجاوزُ عن عقوبةِ مَن يشاء مِن عباده، ويُعاقِب مَن يُشاءُ، والله هو الغفورُ الرَّحيم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّن الله تعالى أنَّ سلاحَ الصبر والتقوى يأمنُ بإذنِه المؤمنون من غوائلِ المتربِّصين، ويحصُل به النصرُ على الكافرين، ذكَر هنا مثالًا يَمنعُ تحقُّقَ ذلك الأمْر، إذا تخلَّفتْ بعضُ أسباب النصر تلك[١].

وأيضًا لما حذَّر الله تعالى عِبادَه من اتِّخاذ الأعداءِ بطانةً ذِكر هذه الغزوةِ؛ ليُظهر شيئًا من كيدِ الأعداءِ الذين حذَّر من اتِّخاذهم بطانةً[٢].

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾.

أي: واذكُر- يا محمَّدُ- حين خرجتَ مِن بيتك مُغادِرًا المدينةَ، للقاءِ المشركين في غزوة أُحُد، وأخذتَ تُنزِل المؤمنين في مَواضِع القتالِ التي يَثبُت فيها الجيشُ، ولا يَنتقِل عنها؛ لأنَّها لائقةٌ بتحرُّكاته، كلٌّ في الموضِع الذي يَصلُح له مَيمنةً أو مَيسرةً وغير ذلك[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥-١١)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٨٥)، ((تفسير =

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ سميعٌ لِمَا تتشاورُ فيه أنت ومَن معك حول مَوضِع لقاءِ العَدوِّ، عليمٌ بأصلحِ تلك الآراء لكم، وبما تُخفيه صدورُ المُشيرين من المؤمنين والمنافقين من نيَّات، كما أنَّه سبحانه يسمعُ ويعلمُ غيرَ ذلك من أمورِكم وأمورِ سائر خَلْقه، فيُحصي على عبادِه ما يقولون ويعملون، وبحسَب ذلك يُجازون[1].

﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢)﴾.

﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾.

أي: واذكرْ إذْ حدَّث بنو سَلِمةَ وبنو حارثة أنفسَهم بالفِرار، والانصرافِ عن القتال مع رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يومَ أُحُد؛ خوفًا وضَعْفًا من لِقاء العدوِّ، لا شكًّا منهم في الإسلام ولا نفاقًا[2].

﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾.

أي: عصَمهم اللهُ ممَّا همُّوا به، فثبَّتهم برعايته الخاصَّة، وأيَّدهم ووفَّقهم

= ابن كثير)) (٢/ ١٠٩-١١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٥، ٩٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٠-٧١).

وممَّن قال من السلف: إنَّ الآية متعلقةٌ بيوم أُحد: ابن عباس، وقتادة، والربيع، والسُّدِّي، وابن إسحاق. انظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦)، و((تفسير ابن أبي حاتم)) (٣/ ٧٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١١-١٢)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٥، ٩٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٢، ١٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١١١).

قال ابنُ جرير: (ولا خلافَ بين أهل التأويل أنَّه عنَى بالطائفتين بني سلمة وبني حارثة، ولا خلافَ بين أهل السِّيَر والمعرفة بمغازي رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّ الذي ذكَر الله من أمرهما إنما كان يومَ أُحُدٍ دون يوم الأحزاب) ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٧).

لِيَمضوا مع رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لقتالِ الأعداء(١).

عن جابرِ بن عبدِ الله رضِي اللهُ عنهما، قال: ((فينا نَزَلَتْ: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللهُ وَلِيُّهُمَا﴾، قال: نحن طائفتان: بنو حارِثةَ وبنو سَلِمَةَ، وما نُحِبُّ- وقال سُفيانُ مرةً: وما يَسُرُّني- أنَّها لم تَنزِلْ؛ لقولِ اللهِ: ﴿وَاللهُ وَلِيُّهُمَا﴾))(٢).

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

أي: وعلى اللهِ تعالى وحْده اعتَمِدوا بصِدقٍ- أيُّها المؤمنون- في كلِّ شؤونكم؛ جلبًا للخيرات، أو دفعًا للكريهات(٣).

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّن الله تعالى أنَّ سلاح الصَّبر والتَّقوى يأمَن بإذنه المؤمنون من غوائل المُتربِّصين، ويحصُل به النَّصر على الكافرين، ذكَر هنا مثالًا تحقَّقت فيه للمؤمنين أسبابُ النَّصر هذه، فنصرهم الله تعالى بفضلِه(٤).

كما أنَّه لَمَّا ذكَر حالَهم في غزوة أُحُد، وما جرَى عليهم من المصيبة، أدخَل فيها تذكيرَهم بنَصْره، ونِعمتِه عليهم يوم بَدْر؛ ليكونوا شاكرين لربِّهم، وليُخفِّف هذا هذا(٥) فقال تعالى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٥، ١٤٦، ٩٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١١١-١١٢).

(٢) رواه البخاري (٤٥٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٦، ٩٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١١٢-١١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٧٣).

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾.

أي: ولقد أَظهَركم اللهُ على عدوِّكم، فغلَبتموهم في الغزوة التي دارتْ في محلَّة بَدْر، والحال أنَّكم يومئذٍ ضعفاءُ، فقليلٌ عَددُكم وعُددُكم، وكنتم في غير مَنَعَةٍ من النَّاس، وهم كانوا أكثرَ منكم عَددًا وعُددًا، فإنْ تَصبِروا لأمْر الله وتتَّقوه سبحانه يَنصرْكم كما نصرَكم في ذلك اليوم[1].

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

أي: لأنَّ الله تعالى جعَل لكم الغَلَبة يومَ بدر، فاتَّقوه بامتِثال أوامِره، واجتنابِ نواهيه؛ لتكونوا بذلك من الشَّاكرين له على ما منَّ به عليكم من النَّصرِ على الأعداء، وجَعْلِكم مِن بعد الهوانِ أعزَّاء[2].

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ (١٢٤)﴾.

أي: اذكُر- يا محمَّدُ- حين قلتَ للمؤمنين من أصحابك مُبشِّرًا لهم: ألَا يكون كافيًا إمدادُ الله تعالى لكم بثلاثة آلاف من الملائكة، يُنزِلهم سبحانه من السماء؛ ليُقاتِلوا معكم المشركين يوم بَدْر[3]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٦، ١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١١، ١١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٦، ٩٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (ص: ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٦، ٩٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٢٦).

نسب ابن عاشور لجمهور المفسِّرين أنَّ نزول الملائكة المذكور في هذه الآية كان في غزوة بدر.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٠، ٢٨، ٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١٢)، ((تفسير =

﴿بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥)﴾.

﴿بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا﴾.

أي: هذا الإمدادُ يَسُدُّ حاجتكم، ولكن إنِ استعملتُم الصَّبر في كلِّ ما وجب فيه الصَّبر، ولَزِمتُم التَّقوى بامتِثال أوامرِ الله تعالى واجتناب نواهيه، وخرج المشركون عليكم مباشرةً من حيث خرَجوا، مُسرِعين إليكم، في حدَّةٍ وحرارةٍ لقتالكم[١].

﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ قِراءتان:

١- ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ -بكَسرِ الواو على أنَّها اسمُ فاعل- أي: سوَّم الملائكةُ أنفسَهم، أو سوَّموا خُيولَهم[٢].

٢- (مُسَوَّمِينَ) -بفَتحِ الواو على أنَّها اسمُ مفعول- أي: إنَّ الملائكةَ قد سُوِّموا[٣].

= السعدي)) (ص: ١٤٦، ٩٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٢، ٧٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٠٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٣٢-١٣٣).

وقيل: المراد بقوله تعالى: ﴿ويأتوكم﴾ أي يأتي المدد لنصرة إخوانهم المشركين يوم بدر. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٥).

(٢) قرأ بها ابنُ كثير، والبصريَّانِ، وعاصم. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٩٤).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١١٣)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٧٣)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٥٥-٣٥٦).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٩٤). =

﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾.

أي: إنَّ ربَّكم الذي له بكم عِناية خاصَّة، يُزوِّدكم بأكثر ممَّا وعدكم من قَبْل بزيادة ألفين من الملائكة، يأتونكم وعليهم أو على خيولهم علامة الشُّجعان الأبطال، دَلالة على أنَّهم لا يَكترِثون بأنْ يَعرِفهم عدوُّهم من شدَّة شجاعتهم(١).

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦)﴾.

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ﴾.

أي: وما أَخبَركم اللهُ سبحانه بنبأِ إمدادِكم بالملائكةِ إلَّا لإدخالِ السُّرور عليكم(٢).

﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ﴾.

أي: جعَل اللهُ تعالى هذا المددَ لكم؛ لحصولِ الطُّمأنينة أيضًا في قلوبِكم، فتَسكُن، ولا يُصيبها الهَلَعُ والانزعاجُ من تفوُّق عدوِّكم عليكم في العَدد والعُدد(٣).

﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾.

أي: لا يتحقَّق لكم الظَّفَرُ بعدوِّكم إلَّا بعَونِ الله وحده، لا من قِبَل المددِ الذي يأتيكم من الملائكة، فعلى الله فتوكَّلوا، وبه فاستَعينوا، لا على ما أُوتِيتم

= ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١١٣)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٧٣)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٥٥-٣٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٦).

ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٣٣، ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (ص: ٤٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١٤)، ((العذب النمير)) (٤/ ٥٤١).

من أسباب؛ فإنَّه الذي ذَلَّ له كلُّ الخلائق، فهم تحتَ تدبيره وقَهْره، وهو الغالبُ على أمْره، وهو الذي يَضَع الأشياء مَواضِعها، فيتصرَّف في عبادِه بحِكمتِه، ومن ذلك أنَّه يَنصُر أولياءَه كما في بَدْر، أو يُقدِّر هزيمتَهم، كما وقَع في أحدٍ[1].

قال تعالى بعدَ أمْرِه المؤمنين بالقتال: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤].

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ (١٢٧)﴾.

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

أي: مِن أسبابِ نَصْر الله تعالى لعباده إهلاكُ بعض الكفَّار، كاستئصالِ صناديدِهم، وأسْر بعضِهم، وقتْل آخرين، كما وقَع يومَ بَدْر، أو الاستيلاءِ على أراضيهم وأموالِهم، وغير ذلك[2].

﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾.

أو يُخْزي بعضَهم، ويُصيبهم بالغمِّ والحَزَن، بسببِ رُجوعهم مُحمَّلين بالخيبةِ والفشل الذَّريع؛ إذ لم ينالوا ما أمَّلوا من الانتصارِ عليكم- أيُّها المؤمنون[3].

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨)﴾.

سببُ النُّزول:

عن أنسِ بن مالكٍ رضِي اللهُ عنه، ((أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٨، ٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٠، ٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٨، ٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٩).

كُسِرَتْ رَباعيَتُه[١] يومَ أُحُدٍ، وشُجَّ[٢] في رأسِه، فجَعل يَسلُتُ[٣] الدمَ عنه، ويقول: كيف يُفلِحُ قومٌ شجُّوا نبيَّهم وشجُّوا رَبَاعِيَتَه وهو يَدعوهم إلى اللهِ؟! فأنزل اللهُ تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾))[٤].

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨)﴾.

أي: إنَّ شأنَ أولئك الكفَّار راجعٌ إلى اللهِ تعالى لا إليكَ- يا محمَّدُ-؛ فاترُك أمرَهم للهِ عزَّ وجلَّ، وامضِ أنتَ لشأنِكَ في تبليغِ رِسالةِ ربِّك، فإمَّا أنْ يُوفِّقهم الله تعالى للدُّخول في دِينه، فيُسلِموا محضَ فضلٍ منه جلَّ وعلا، أو يُعذِّبهم في الدُّنيا أو الآخِرة عدْلًا منه سبحانه؛ بسببِ وضْعهم أنفسَهم في غيرِ ما خُلِقُوا لأجله، باعتناقِهم الكفرَ، وارتكابِهم المعاصي[٥].

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢٩)﴾.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

أي: إنَّ جميعَ المخلوقات مُلْكٌ لله تعالى وحده، يحكُم فيهم بما شاءَ،

---

(١) الرَّبَاعيَة- بوزن الثمانية-: هي السِّنُّ التي بين الثنية والناب. ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ١١٧)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٢١٧).

(٢) شُجَّ في رأسه: أي ضرب بشيء فجرح رأسه وكسر أو شق، فالشج أن يعلو رأس الشيء فيضربه بشيء فيجرحه فيه ويشقه، ولا يكون الشج إلا في الرأس- في الأصل- ثم استعمل في غيره من الأعضاء. ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٤٤٥)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٦/ ٥٤).

(٣) يَسلُت: أي يميط عنه الدَّم، ويَمسحُه لِينْظُفَ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٣٨٧)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٤/ ٥٦٤- ٥٦٥).

(٤) رواه مسلم (١٧٩١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٢-٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٩-٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٤٦-١٤٨).

ويتصرَّف فيهم بما أَحبَّ سبحانه(١).

﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾.

أي: ما دامَ أنَّ له مُلْكَ كلِّ شيءٍ سبحانه، فعباده دائرون بين مَغفرتِه وتعذيبه، فيَتجاوَز عن عقوبةِ مَن يشاء بحِكمته، فضلًا منه سبحانه، ويُعاقِب مَن يشاء بحِكمته، عدْلًا منه سبحانه(٢).

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

أي: هو الذي يَستُر ذُنوبَ عباده، ويتجاوَز عن المؤاخذة بها، وهو الرَّحيم الذي رحْمته غلبتْ غضبه، ومِن رحمته سَعةُ إحسانِه إلى عباده(٣).

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- التَّوفيقُ والعِصمةُ من الله تعالى، ولولا توفيقُه سبحانه وتسديدُه لَمَا تَخلَّص أحدٌ عن ظُلماتِ المعاصي، يُبيِّن ذلك قولُه تعالى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾(٤).

٢- أنَّه يَنبغي للقائد أنْ يُبوِّئ أمكنةَ المُقاتِلين، ويُعرِّف كلَّ واحد منهم مكانَه وعملَه؛ حتى لا يَحصُل ازدواجٌ يَضُرُّ بالجيش، كلُّ واحد يُرتِّبه على حسَب ما يَليق به، ويقول: اجلِس مكانَك، وهذا عملُك واستمرَّ عليه؛ لأنَّ في النِّظام- ولا سيَّما في مِثْل هذه المواقف- فائدةً كبيرة(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٥٠-١٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٢١).

٣- وجُوب التَّوكُّل على الله، وأنَّه مِن مُقتضى الإيمان؛ لقوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾(١)، وأنَّه ينبغي التوكُّل على الله- ولا سيما- في هذه المواطِن التي يَشتدُّ فيها الأمرُ على المسلم، بل على المؤمن ألَّا يَنظُر إلى الأمورِ نظرًا ماديًّا؛ لأنَّ وراء الأمور الماديَّة ما هو أعظَم منها، وهي قُدْرة الله سبحانه وتعالى التي تَقضي على كلِّ هذه الأمور(٢).

٤- يَنبغي أنْ يَدفَع الإنسانُ ما يعْرِضُ له من مكروهٍ وآفةٍ بالتَّوكُّل على الله تعالى، وأنْ يَصرِف الجَزْع عن نَفْسه بذلك التَّوكُّل، قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾(٣).

٥- أنَّه إذا قوِي الإيمانُ قوِي التَّوكُّل على الله؛ لقوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ بِناءً على قاعدة معروفة، وهي: أنَّ ما عُلِّق على وصْفٍ يقوى بقوَّته، ويَضْعُف بضَعفه(٤).

٦- يَذكُرُ اللهُ الأسبابَ ويأمُر بألَّا يُعتمَدَ عليها، ولا يُرْجَى إلَّا اللهُ تعالى؛ يُبيِّنُ ذلك قولُه تعالى لَمَّا أنزلَ الملائكةَ: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾(٥).

٧- في قوله: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ أنَّ الإنسان بغير نَصْر الله لا يستطيعُ أن يَنتصِر، وإن عَظُمت الأسباب من كثرة عَدد وقوة عُدَد؛ لأنَّه إذا كان جندُ الله الذين هم أعظَمُ جندٍ كانوا على وجْهِ الأرض، وهم رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ومن معه، لم يَنتصِروا بأنفسهم، وإنَّما انتصروا بنصر

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٢٢).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٢٥٨).

الله؛ فمَن سواهم مِن باب أَوْلى، ويتفرَّع على هذه الفائدة: أنَّنا لا نُعلِّق النَّصر إلَّا بالله سبحانه وتعالى، لا نُعلِّق النَّصرَ بقوَّتنا(١).

٨- أنَّه كلَّما كان الإنسان أذلَّ لله كان أقربَ إلى نصْر الله، وكلَّما كان الإنسان مُستغنيًا عن الله كان أبعدَ عن النَّصر؛ لقوله: ﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾، والإنسان إذا رأى مِن نَفْسه العِزَّة وعلا وشمخ فإنَّه يُخذَل، قال الله تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾(٢) [العلق: ٦-٧].

٩- أنَّ مَنْ مَنَّ الله عليه بنعمةٍ كان ذلك مُوجِبًا لتقوى الله، فالنَّصر سببٌ للتَّقوى والذُّلِّ لله والخضوعِ له والانطراحِ بين يديه، كما فعَل النَّبيُّ عليه السَّلام حين فتَح مكة دخل مُطأطِئ الرَّأس يتْلو كتابَ الله عزَّ وجلَّ، خِلافًا لِمَا يفعله بعضُ النَّاس إذا انتصر جعَل هذا النَّصر سببًا للأَشَر والبَطَر والملاهي والأغاني، وغير ذلك من المعاصي، بل قد يكون بعد النَّصر أكثرَ منه فُسُوقًا ممَّا قبل الحرب، وهذا خلافُ ما أمر الله به؛ لأنَّه قال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فأمر بالتَّقوى بعد النَّصر؛ لئلا يَشمَخَ الإنسان بأَنْفه، ويتطاوَل على ربِّه بانتصاره، فيعود إلى ما كان عليه من الفَرَح والبَطَر والأَشَر(٣).

١٠- أنَّ تقوى الله تعالى من الشُّكر لله؛ لقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وهذا أمْرٌ لا شكَّ فيه أنَّ التَّقوى من الشُّكر، بل هي الشُّكر حقيقةً؛ لأنَّ التَّقوى اتِّخاذ وقاية من عذاب الله بِفِعْل أوامره واجتناب نواهيه، والشُّكر هو القيام بطاعة المُنعِم بالقلب واللِّسان والجوارح(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

١١- أفاد قوله تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾ ما كان عليه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في معاملة أصحابه؛ من إدخالِ الأمَلِ في قلوبهم عند اشتدادِ الأزمات، وهذا أدْعى للنَّشاط وطرْحِ الهمِّ والغمِّ، أمَّا بعض النَّاس فيكون على العكس تَجِده يُدخِلُ على النَّاس التَّشاؤمَ والمروِّعاتِ والمُخيفاتِ، وهذا لا شكَّ أنَّه خلافُ السِّياسة الشَّرعيَّة، بل وخلافُ العقل(١).

١٢- أنَّ الصَّبرَ والتَّقوى سببانِ للنَّصر؛ لقوله: ﴿إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾ أي: تَصبِروا على الأوامر، وتتَّقوا المحارم(٢).

١٣- في قوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ما يُفيد أنَّ البابَ مفتوحٌ أمامَ العباد؛ لينالوا مغفرتَه ورحْمتَه، بالعودة إليه، وردِّ الأمر كلِّه له، وأداء الواجب المفروض، وترْكِ ما وراء ذلك لحِكْمتِه وقَدَره ومشيئته المُطلَقة من وراء الوسائل والأسباب(٣).

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائف:

١- حُسْنُ تدبيرِ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في الحرب؛ لقوله: ﴿تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾(٤).

٢- في كلمة ﴿طَائِفَتَانِ﴾ في قول الله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾: إشارة لطيفة إلى الكِناية عمَّن يَقَع منه ما لا يُناسِب والسَّتْر عليه، إذ لم يُعيِّن الطائفتين بأنفسهما، ولا صرَّح بمَن هما منه من القبائل؛ سَترًا عليهما(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٣٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٣٦).
(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٧٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٢١).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٢٩).

٣- أنَّ الدِّعايةَ- ولو كانتْ باطلةً- ربما تؤثِّر حتى على المؤمن؛ قال تعالى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾(١).

٤- أنَّ الله سبحانه وتعالى يَلطُف بالمؤمن حتى يُثبِّته على الحقِّ؛ لقوله: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾(٢).

٥- قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾، فيه تنبيهٌ على الوصفِ الذي يَقتضي التَّوكُّلَ، وهو الإيمان، فهو مِن دواعي التَّوكل ومُوجِباتِه(٣).

٦- في قول الله تعالى: ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾ قدَّم لهم الوعدَ بنُزول الملائكة؛ لتَقْوَى قلوبُهم؛ ويَعزِموا على الثَّبات، ويَثِقوا بنصر الله(٤).

٧- أنَّ مَوطِن الملائكة هو السماء، هذا هو الأصلُ؛ لقوله ﴿مُنْزَلِينَ﴾؛ لأنَّ النُّزول إنَّما يكون مِن أعلى إلى أسْفَل، فإذا كان هؤلاءِ الملائكةُ مُنزَلين دلَّ على أنَّ مكانهم في السَّماء، هذا هو الأصلُ، لكن ينزلون إلى الأرضِ كثيرًا حسَب أمْر الله تعالى(٥).

٨- في قول الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ﴾؛ صرَّح أنَّ البُشرى لهم في قوله: ﴿لَكُمْ﴾ مع ظهورِ ذلك؛ للدَّلالةِ على تكرِمةِ الله تعالى إيَّاهم بأنْ بشَّرهم بُشرى لأجْلهم، كما صرَّح بذلك في قوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾(٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٢٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٢٤/ ٧٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٢٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٣٦).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٨).

٩- إثباتُ الحِكمة لله عزَّ وجلَّ في أفعاله وتشريعاته؛ وذلك لأنَّ اللام للتَّعليل، والتَّعليلُ هو الحكمة، قال تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[١].

١٠- في قوله تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾، أنَّ الله سبحانه وتعالى يُسلِّط المؤمنين على الكفَّار؛ ليَقطَع طرفًا من الذين كفروا، وليس كلَّ الذين كفَروا؛ لأنَّ مِن حِكمة الله أنْ يبقى الإيمانُ والكفر متصارعَينِ دائمًا؛ حتى يَتبيَّن المؤمنُ الخالصُ من غيره[٢].

١١- في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لا يَملِك شيئًا من الأمر الكونيِّ، وفي هذه الجملةِ ردٌّ على الذين يتعلَّقون بالرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام في الدُّعاء، والاستعانةِ به، والاستغاثةِ به حتى بعدَ موته[٣].

١٢- في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾، دلالةٌ على أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُكلَّف، يأمُره الله سبحانه وتعالى وينهاه؛ وعليه فيكونُ في هذا إبطال لدَعْوى مَن يقولون: إنَّ الإنسان إذا وصَلَ إلى حالة مُعيَّنة من العبوديَّة سقطتْ عنه التَّكاليف؛ فيُقال لهم: إذا كان النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام- وهو أشرفُ الخَلْق- لا يَصِل إلى هذه المرتبةِ؛ فما بالك بمن دونه[٤]؟!

١٣- أنَّ الله سبحانه قد يُعذِّب الكافرين عذابًا ليس للمسلمين فيه يدٌ، بل هو مِن عند الله وحْده؛ لقوله: ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٤٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٤٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٤٨).

١٤- أنَّ الله سبحانه وتعالى لا يُعذِّب إلَّا بذنب؛ لقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾، والظالم مُستحِقٌّ لأنْ يُنكِّل اللهُ به؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى لا يُحِب الظلم(١).

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾:

- قوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ﴾: فيه تخصيصُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالخِطاب خاصَّة، مع عمومِ الخطابِ فيما قبله وما بعدَه، له وللمؤمنين؛ لاختصاصِ مضمونِ الكلامِ هنا به صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ(٢).

- قوله: ﴿مِنْ أَهْلِكَ﴾: فيه إطلاقُ العامِّ المرادِ به الخاصُّ؛ إذ المرادُ بـ﴿أَهْلِكَ﴾: بيتُ عائشة رضي الله عنها- على قول الجمهور(٣).

- قوله: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: الجملةُ اعتراضٌ؛ للإيذانِ بأنَّه قد صدَر عنهم هناك من الأقوالِ والأفعالِ ما لا يَنبغي صدورُه عنهم(٤).

٢- قوله: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾:

- جملةُ ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ اعتراضٌ، ويجوزُ أنْ تكونَ حالًا من فاعل ﴿همَّتْ﴾ أو من ضميرِه في ﴿تَفْشَلَا﴾، وهي مفيدةٌ لاستبعادِ فشلِهما، أو همِّهما بِهِ مع كونِهما في ولاية الله تعالى(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٤٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٤٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٧٩).

- وقوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾: فيه إظهارُ الاسمِ الجليلِ؛ للتَّبرُّك والتَّعليل؛ فإنَّ الأُلوهيَّة من مُوجِبات التَّوكُّلِ عليه تعالى، واللامُ في ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ للجِنْس؛ فيدخلُ فيه الطائفتان دخولًا أوليًّا[1].

- وقُدِّم المجرورُ - وهو لفظُ الجلالة ﴿اللهِ﴾- للاعتناءِ بمن يُتوكَّل عليه[2].

٣- قوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ جملةٌ مُستأنَفةٌ؛ سِيقتْ لإيجاب الصبرِ والتَّقوى، بتذكير ما ترتَّب عليهما من النَّصر إثرَ تذكيرِ ما ترتَب على عدمهما من الضَّرر[3].

- قوله: ﴿وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ فيه تعريضٌ بأنَّ انهزام يوم أُحُد لا يَفِلُّ حِدَّة المسلمين؛ لأنَّهم صاروا أعزَّةً، والحرب سِجالٌ[4]، و(الأذِلَّة) جمع قِلَّة، وإنما ذُكِر جمعُ القِلَّة؛ ليَدلَّ على أنَّهم مع ذُلِّهم كانوا قليلين[5]..

٤- قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فيه الاقتصارُ على الأمر بالتَّقوى مع كونه مشفوعًا بالصَّبر فيما سبَق وما لحِق؛ للإشعارِ بأصالتِه، وكونِ الصَّبرِ من مباديه اللازمةِ له؛ ولذلك قُدِّم عليه في الذِّكر، وفي ترتيبِ الأمرِ بالتَّقوى على الإخبار بالنَّصر إيذانٌ بأنَّ نصرَهم المذكورَ كان بسبب تقواهم؛ أي: إذا كان الأمرُ كذلك، فاتَّقوا الله كما اتَّقيتم يومئذ[6].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢٤/ ٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٣٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢٤/ ٧٩).

٥- قوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، ثم قال بعده: ﴿إِذْ تَقُولُ﴾: فيه تلوينٌ للخِطاب بتَخصيصِه رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لتشريفِه، والإيذانِ بأنَّ وقوعَ النَّصرِ كان ببِشارتِه عليه السَّلام(١).

- و﴿إِذْ﴾ ظرفٌ لـ﴿نَصَرَكُمْ﴾ قُدِّم عليه الأمر بالتَّقوى؛ لإظهارِ كمالِ العِنايةِ به، والمرادُ به الوقتُ الممتدُّ الذي وقع فيه ما ذكَر بعده(٢).

- وصيغةُ المضارعِ ﴿تَقُولُ﴾؛ لحكايةِ الحالِ الماضيةِ؛ لاستحضارِ صورتِها أي: نصَركم وقتَ قولِك(٣).

٦- قوله: ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾:

- الاستفهامُ في قوله: ﴿أَلَنْ﴾ تقريريٌّ؛ لإثباتِ أنَّ ذلك العددَ كافٍ(٤).

- وجيءَ في النَّفي بحرف (لَنْ) الذي يُفيد تأكيدَ النَّفي؛ للإشعارِ بأنَّهم كانوا يوم بدر لقِلَّتهم، وضَعْفهم، مع كثرةِ عَدوِّهم، وشَوْكته، كالآيِسين من كفايةِ هذا المدد من الملائكة، فأوقَع الاستفهامَ التَّقريريَّ على ذلك؛ ليكون تَلْقِينًا لمَن يُخالِج نَفْسه اليأسُ من كفاية ذلك العدد من الملائكة، بأنْ يُصرِّح بما في نفْسه، والمقصود من ذلك لازمُه، وهذا إثباتُ أنَّ ذلك العدد كافٍ(٥).

- وقوله: ﴿يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ﴾ في إسنادِ الإمدادِ إلى لفظة ﴿رَبُّكُمْ﴾ دون غيرِه من أسماءِ اللهِ: إشعارٌ بحُسْنِ النَّظر لهم، واللُّطف بهم(٦).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٧٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٧٩- ٨٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٨٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٣).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٣٤).

- قوله: ﴿مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾: فيه وصْف الملائكة بـ﴿مُنْزَلِينَ﴾؛ للدَّلالة على أنهم يَنزِلون إلى الأرض في مَوقِع القتال؛ عِنايةً بالمسلمين[١].

٧- **قوله: ﴿بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ...﴾:**

- ﴿بَلَى﴾ إبطالٌ للنَّفي، وإثباتٌ لكون ذلك العدد كافيًا[٢].

- قوله: ﴿مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا﴾: لفظ ﴿فَوْرِهِمْ﴾ فيه تأكيدٌ لسرعةِ إتيانِهم، وإمدادِهم، بزيادةِ تعيينِه وتقريبِه، مع تحقُّق الإمدادِ لا محالةَ، سواءٌ أَسرعوا أو أبطؤوا؛ لتحقيقِ سُرعةِ الإمدادِ لا لتحقيقِ أصلِه، أو لبيانِ تحقُّقِه على أيِّ حالٍ فُرِض، على أبلغِ وجهٍ وآكَدِه بتعليقه بأبعدِ التقاديرِ؛ ليُعلم تحقُّقُه على سائرِها بالطَّريق الأَوْلى؛ فإنَّ هجومَ الأعداءِ وإتيانَهم بسرعةٍ من مظانِّ عدمِ لُحوقِ المددِ عادةً، فعُلِّق به تحققُ الإمدادِ إيذانًا بأنَّه حيثُ تحقَّقَ مع ما ينافيه عادةً، فلأَنْ يتحقَّقَ بدونه أولى وأحرى[٣].

- وإضافةُ الفَورِ إلى ضميرِ الآتين في قوله تعالى: ﴿وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ﴾؛ لإفادةِ شدَّة اختصاصِ الفَوْر بهم، أي: شدَّة اتِّصافِهم به حتى صارَ يُعرَف بأنَّه فَوْرهم[٤].

- والإشارةُ بقوله: ﴿هَذَا﴾ إلى الفور؛ تنزيلًا له منزلةَ المُشاهَد القريب[٥].

٨- **قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾:**

- فيه إظهارُ اسمِ الجلالةِ (الله) في مَقامِ الإضمار؛ للتَّنويهِ بهذه العِناية مِنَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

اللهِ بهم[١].

- وقد وردتْ في سورةِ الأنفال آيةٌ أُخرى مشابهةٌ لهذه الآيةِ التي في آل عمران، وهي قولُه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٠]، لكن جاءَ التعبيرانِ فيهما بعضُ الاختلاف؛ ففي هذه الآية قال ﴿بُشْرَى لَكُمْ﴾، بينما في آيةِ الأنفالِ لم يذكُر الجارَّ والمجرور ﴿لَكُمْ﴾، وفي هذه الآية قال: ﴿قُلُوبُكُمْ بِهِ﴾ فأخَّر الجارَّ والمجرور ﴿بِهِ﴾، بينما قدَّمه في الأنفال فقال: ﴿بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾، وفي هذه الآية قال: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾، وقال في سورةِ الأنفال: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، ومن الحِكَم في هذا التغايُرِ ما يأتي[٢]:

أ- أمَّا التَّصريح بالجارِّ والمجرورِ في قوله: ﴿بُشْرَى لَكُمْ﴾ فقدْ جاءَ على الأصل، بينما في آية الأنفال لم يُظهِرِ الجارُّ والمجرورُ؛ لأنَّه قد تقدَّم (لَكُمْ) في قولِه تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧]، وقوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩]؛ فأغْنَى عن إعادتِها بلفظها ومعناها، فالتصريحُ بها هنا يُعلَم منه أنَّ جَعْل البشرى لهم، بينما لم يتقدَّم في سورة آل عمران ما يقومُ مقامَ الأُولى؛ لهذا جاءَ بها على الأصلِ.

ولأنَّه لَمَّا تقدَّم في آية آل عمران قوله تعالى: ﴿وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ﴾ والإخبارُ عن عدوِّهم، فاختلَط ذكرُ الطائفتينِ، وضَمَّهما كلامٌ واحدٌ، فجُرِّدت البشارةُ لِمَن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للخطيب الإسكافي (١/ ٣٨٩- ٣٩٥)، ((البرهان في توجيه متشابه القرآن)) للكرماني (ص: ٩٢)، ((ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٨٩- ٩٠).

هُدي منهما، وأنَّها لأولياءِ الله المؤمنين، فجيء بضمير خِطابهم ﴿لَكُمْ﴾ متَّصلًا بلام الجرِّ المقتضيةِ الاستحقاقَ، فقيل: ﴿بُشْرَى لَكُمْ﴾، أمَّا آيةُ الأنفال فلم يتقدَّمْ فيها ذِكرٌ لغيرِ المؤمنين؛ فلم يُحتَجْ إلى ذِكْر ضميرِ الخِطاب ﴿لَكُمْ﴾.

ب- وأمَّا تأخيرُ ﴿بِهِ﴾ بعدَ قوله: ﴿قُلُوبُكُمْ﴾ هنا في آل عمران، وتقديمُها في آية الأنفال؛ فلأنَّه لَمَّا أخَّر الجارَّ والمجرورَ في الكلامِ الأوَّل، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ..﴾، وعطَف الكلامَ الثاني عليه، وقد وقَع فيه جارٌّ ومجرور وجَب تأخيرُهما في اختيار الكلام؛ ليكونَ الثاني كالأوَّل في تقديمِ ما الكلامُ أحوجُ إليه، وتأخيرُ ما قد يُستغنَى عنه، وأمَّا تقديم (به) في آيةِ الأنفال؛ فلأنَّ الأصلَ في كلِّ خبرٍ يُصدَّر بفِعل أنْ يكون الفاعلُ بَعدَه، ثمَّ المفعولُ والجارُّ المجرور، وقد يُقدَّم المفعولُ على الفاعلِ إذا كان اللبسُ واقعًا فيه، وأُريد إزالتُه عنه، ومثله الجارُّ والمجرور، وفي هذا الموضِع لم يعرِضْ في اللَّفظ ما يُوجِب إجراءَ الكلامِ على الأصْل كما كان في سورة آل عمران؛ فإنَّ المعتمدَ بتحقيقه عند المخاطبَين إنَّما هو الإمدادُ بالملائكةِ، وهو الذي أخْبَر الله تعالى عنه أنَّه لم يجعلْه إلَّا بشرى، فوَجَب أنْ يُقدَّم الإمداد، وهو الضَّميرُ بعد الباءِ في قوله تعالى: ﴿بِهِ﴾ على الفاعِل ﴿قُلُوبُكُمْ﴾، فقال تعالى: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾.

وقد يُقال: قَدَّم ﴿قُلُوبُكُمْ﴾ هُنا وأخَّر ﴿بِهِ﴾؛ ازدواجًا بَين المخاطبَين، فقال: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبكُمْ بِهِ﴾، وقدَّم ﴿بِهِ﴾ في الأنفال؛ ازدواجًا بَين الغائبين، فقال: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبكُمْ﴾.

ج- أمَّا قوله في آية آل عمران: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾، وقال في سورة الأنفال: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؛ فذلك لأنَّ آيةَ الأنفال تقدَّم فيها أوعادٌ جليلةٌ كقولِه تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ

إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧]، ثمَّ قال: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال: ٧]، ثمَّ قال: ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٨]؛ فهذه أوعادٌ عليَّةٌ لم يتقدَّم إفصاحٌ بمِثلها في آية آل عمران فناسَبَها تأكيدُ الوصفين العظيمَينِ من قُدرته سبحانه على كلِّ شيءٍ وحِكمته في أفعالِه، فقال: ﴿إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، ولَمَّا لم يقعْ في آيةِ آل عمران إفصاحٌ بما في آية الأنفال وردتِ الصفتانِ تابعتَينِ دون تأكيدٍ، وجاء كلٌّ على ما يُناسِب.

وقد يُقال: إنَّه قال في الأنفال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فجاءَ وصفُ اللهِ تعالى بالعِزَّة والحِكمة بلفظِ خبرٍ ثانٍ مستأنَف، وذلك على الأصلِ الواجبِ في توفيةِ كلِّ معنًى حقَّه من البيان؛ لأنَّ القصدَ في الآية إعلامُ المخاطَبين أنَّ النَّصرَ ليس من قِبَل الملائكة، ولا مِن جِهة العدَدِ والعُدَّة وفضْل القوَّة، ولكنَّه من القادِر الذي لا يُغلَب ولا يُمنَع عمَّا يُريد فِعلَه، والحكيمِ الذي يَضعُ النصرَ موضعَه، ففَصَل ذلك في خَبرينِ. وحذف ﴿إِنَّ اللهَ﴾ هاهنا في سورة آل عمران؛ لأنَّ الذي في الأنفال قِصَّةُ بدر؛ وهي سابقةٌ على ما في هذه السُّورة؛ فإنَّها في قصَّة أُحُد، فأَخْبَر هناك في الأنفال أنَّ الله عزيز حكيم، فاستقرَّ الخبرُ. وجعَله في هذه السُّورةِ صِفةً؛ لأنَّ الخبَر قد سَبَق.

٩- **قوله: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾** تذييلٌ، أي: كلُّ نَصْر هو من الله لا من الملائكة، وذَكَر وصفَي ﴿الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ هنا؛ لأنَّهما أَوْلى بالذِّكر في هذا المقام؛ لأنَّ العزيزَ يَنصُر مَن يُريد نصره، والحكيم يعلم مَن يَستحِقُّ نصرَه وكيف يُعطاه[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٨).

١٠- قوله: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا﴾ تنكيرُ (طرفًا) للتفخيم[١].

- وفيه تشبيه مَن قُتِل منهم وتَفرَّق بالشَّيء المقتَطَع الذي تَفرَّقت أجزاؤه، وانخرم نظامُه[٢].

١١- قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ اعتراضٌ وُسِّط بين المعطوف عليه المتعلِّقِ بالعاجل، والمعطوفِ المتعلِّقِ بالآجل؛ لتحقيق أنْ لا تأثير للمنصورين إثْرَ بيانِ أن لا تأثيرَ للنَّاصرين، وفي تخصيص النَّفيِ برسول صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: تلوين الخطاب؛ للدَّلالة على الانتفاءِ من غيره بالطَّريق الأولى، وإنما خُصَّ الاعتراضُ بموقعه؛ لأنَّ ما قبله من القطع والكبْتِ من مظانٍّ أن يكونَ فيه لرسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ولسائر مُباشري القتالِ مدخَلٌ في الجملة[٣].

١٢- قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ تعليلٌ لقوله تعالى: ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾، مُبيِّنٌ لكون ذلك من جِهَتهم، وجزاءٌ لظُلْمهم[٤].

١٣- قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ كلامٌ مستأنفٌ سيق لبيان اختصاصِ ملكوتِ كلِّ الكائناتِ به عزَّ وجلَّ إثْرَ بيانِ اختصاصِ طرَفٍ من ذلك به سبحانه؛ تقريرًا لما سبق وتكملةً له، وتقديمُ الجارِّ (ولله) للقَصْر، وانفراد الله بذلك، وكلمةُ (مَا) من صيغ العُمُوم شاملةٌ للعقلاء أيضًا تغليبًا، أي: له مَا فِيهِمَا مِنَ الموجوداتِ خَلْقًا ومُلكًا، لا مدخَلَ فيه لأحد أصلًا؛ فله الأمرُ كلُّه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٨- ٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٨٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٨٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

١٤- قوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ تذييلٌ مُقرِّرٌ لمضمونِ قولِه تعالى: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ مع زيادة فيه، وفي تخصيصِ التَّذييلِ به دون قرينةٍ اعتناءٌ بشأن المغفرةِ والرَّحمة[١].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٨٣).

الآيات (١٣٠ - ١٣٢)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٣٠ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ١٣١ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٣٢ ﴾.

المَعنَى الإجماليُّ:

يَنهى اللهُ عبادَه المؤمنين عن أخْذ الرِّبا أضعافًا مُضاعَفة، كما كانوا يَفعلونه في الجاهليَّة، ويأمُرهم بتقواه سبحانه؛ ليُفلحوا، فينجوا من عذابِه ويُدركوا ثوابَه، ويأمُرُهم أيضًا سبحانه بأنْ يَجعلوا بينهم وبَين النَّار التي هُيِّئت للذين كفروا ما يَقيهم منها، وأنْ يُطيعوا اللهَ ورسولَه، بامتثالِ الأمْر واجتناب النَّهي؛ لعلَّهم إذا فَعلوا ذلك أن يُرحَموا في الدُّنيا والآخِرة.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

وجْهُ الاتِّصالِ بين هذه الآياتِ وما قَبْلَها: أنَّ ما قَبْلَها في بيانِ أنَّ الله نصَرَ المؤمنين وهم أذلَّةٌ، وأنَّهم إنما نُصِروا بتقوى اللهِ وامتثالِ الأمْرِ والنهي؛ ولذلك خُذِلوا في أُحُدٍ عند المخالفةِ، والطَّمعِ في الغنيمةِ، فحثَّهم اللهُ تعالى في هذه الآيةِ على بَذْلِ المالِ في سبيلِ اللهِ، كالدِّفاعِ عن المِلَّةِ والأُمَّة، والتنفيرِ عن الطَّمع فيه، وشرُّه أكْلُ الرِّبا أضعافًا مُضاعفةً؛ لذا ذُكِر في أوَّلِ الكلامِ في هذه الغزوةِ شيءٌ يتعلَّقُ بالمالِ وإنفاقِه، وفي آخِرِها شيءٌ يَتعلَّقُ بذلك[1].

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) (٤/ ١٠١).

وأيضًا فإنَّه لَمَّا تقدَّم وعْدُ الله تعالى للمؤمنين، بأنَّهم إنْ صبَروا واتَّقوا، نَصَرهم على أعدائِهم، فكأنَّ النُّفوسَ اشتاقتْ إلى معرفةِ خِصال التَّقوى التي يَحصُل بها النَّصرُ والفلاحُ والسَّعادة، فذكَر اللهُ في هذه الآياتِ أهمَّ خِصال التَّقوى، التي إذا قام العبدُ بها، فقيامُه بغيرها من باب أَوْلى وأَحْرى، فنهاهم أولًا عن أكْل الرِّبا أضعافًا مُضاعَفة، ثم توالتْ بعد ذلك الأوامرُ الأخرى التي مَن امتَثلها، فإنَّه يُحقِّق التَّقوى(١).

وأيضًا ناسَب اعتراضَ هذه الجملةِ هنا أنَّه تعالى وعَدَ المؤمنين بالنَّصرِ والإمدادِ مَقرونًا بالصَّبرِ والتقوى، فبدأ بالأهمِّ منها، وهو: ما كانوا يَتعاطَوْنه من أكْلِ الأموالِ بالباطلِ، وأمَر بالتَّقوى، ثمَّ بالطاعة(٢).

وأيضًا لَمَّا نَهَى اللهُ تعالَى المؤمنين عن اتِّخاذِ بِطانةٍ من غيرِهم، واستطرَدَ لذِكْر قِصَّة أُحُد، وكان الكفَّارُ أكثرُ معاملاتِهم بالرِّبا مع أمثالهم ومع المؤمنين، وهذه المعاملةُ مُؤدِّيةٌ إلى مُخالطةِ الكفَّار؛ نُهوا عن هذه المعاملةِ التي هي الرِّبا قطعًا؛ لِمُخالطةِ الكفَّارِ ومَودَّتِهم، واتِّخاذ أخلَّاء منهم، لا سيَّما والمؤمنون في أوَّل حالِ الإسلامِ ذوو إعسارٍ، والكفَّار من اليهودِ وغيرهم ذوو يسارٍ، وكان أيضًا أكْلُ الحرامِ له مَدخلٌ عظيمٌ في عدم قَبول الأعمالِ الصَّالحة والأدعية، فناسَب ذِكْرَ هذه الآية هنا(٣).

وأيضًا لَمَّا قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ وبيَّن أنَّ ما فيهما من الموجودات مِلكٌ له، ولا يجوزُ أنْ يُتصرَّفَ في شيءٍ منها إلَّا بإذنه على الوجهِ الذي شرَعه، وآكِلُ الرِّبا مُتصرِّفٌ في مالِه بغير الوجهِ الذي أمَر؛ نبَّه تعالى

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٤٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٣٩).

على ذلِك، ونهى عمَّا كانوا في الإسلامِ مُستمرِّين عليه من حُكم الجاهليَّة(١)، فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنون، لا تتعاملوا بالرِّبا بعدَ إسلامِكم كما كُنْتم تتعاطَوْنه في جاهليَّتكم؛ فإنَّهم كانوا إذا حلَّ الدَّينُ على المُعسِرِ ولم يتمكَّن مِن سداده في وقتِه، قالوا له: إمَّا أن تَقضِيَ، وإمَّا أنْ تُرْبيَ، أي: إما أنْ تَقضيَنا ما عليك من الدَّين، أو نَزيدك في المدَّة، وتَزيدنا على القَدْر المطلوب، فربَّما تَضاعَف القليلُ بهذِه الطَّريقة حتى يُصبِح كثيرًا جدًّا(٢).

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

أي: امتَثِلوا- أيُّها المؤمنون- ما أمَركم الله تعالى به، واجتَنِبوا ما نهاكم عنه، ومن ذلك أكْل الرِّبا؛ كي تَظفَروا بما تَطلُبون، وتَنجوا في الدُّنيا والآخرة ممَّا منه تَحْذرون(٣).

﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١)﴾.

أي: وامتثِلوا أوامرَ الله تعالى، واجتَنِبوا نواهيَه، ومنها: ترْك أكلِ الرِّبا؛ فإنَّه وقايةٌ لكم من النَّار، التي هُيِّئَت مُسْبقًا لكلِّ مَن كفَر بالله العظيم(٤).

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٥٤-١٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٥٨-١٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٦١-١٦٢).

أي: واعمَلوا- أيُّها المؤمنون- بما أمَركم اللهُ تعالى به ورسولُه، وانتَهُوا عمَّا نَهاكم الله ورسولُه عنه من أكلِ الرِّبا وغيرِه من المُحرَّمات؛ لتُرحَموا في الدُّنيا والآخِرة[1].

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- في توجيهِ الخِطابِ للمؤمنين في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا﴾ دَلالةٌ على أنَّ اجتناب الرِّبا من مقتضيات الإيمان، وأنَّ كلَّ مؤمنٍ صادقِ الإيمان، فلا بدَّ أنْ يَتجنَّب أكْلَ الرِّبا [2].

٢- تقْوى الله هي الحامِلةُ على مُخالَفة ما تعوَّده المرءُ ممَّا نهى الشَّرعُ عنه، وهي سببٌ لرجاء الفلاح والفوز؛ يُبيِّن ذلك قولُه تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[3].

٣- تعليقُ رجاء المؤمنِ لرحمة الله تعالى بتوفُّره على طاعتِه وطاعةِ رسوله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[4].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- في قوله تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا﴾، يُقاسُ على الأكلِ بقيَّةُ الإتلافات بالشُّرب واللِّباس، وبِناءِ المساكن وما أشبَهها، لكنْ قيل: إنَّه عبَّر بالأكْل؛ لأنَّه أخصُّ وجوه الانتفاع[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٦٣-١٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٤٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٤١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٥٩).

٢- في قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾، قوله: (أَضْعَافًا) هو جَمْع ضِعْف، وهو جمعُ قِلَّة، ولَمَّا كان جَمْعَ قِلَّة، والمقصودُ الكثرة، أَتْبعه بما يدلُّ على ذلك، وهو الوصف بقوله: ﴿مُضَاعَفَةً﴾[1].

٣- قول الله تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾، قوله: (أَضْعَافًا مُضاعَفَةً)، ليس هذا الحالُ - أي هذا القيد بالوصْف ﴿مُضَاعَفَةً﴾- هو مَصبَّ النَّهيِ عن أكْلِ الرِّبا؛ حتى يَتوهَّم مُتوهِّم أنَّه إنْ كان دون الضِّعفِ لم يكن حرامًا، فالحال واردةٌ لحكاية الواقع؛ فلا تُفيد مفهومًا؛ لأنَّ شرطَ استفادة المفهوم من القيود ألَّا يكون القيدُ الملفوظُ به جرى لحكاية الواقع، فلا يَقتصِر التحريمُ بهذه الآية على الرِّبا البالغ أضعافًا كثيرة[2].

٤- في قول الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ قوله: ﴿أُعِدَّتْ﴾ إخبارٌ عن الماضي، فلا بدَّ أن يكون قد دخَل ذلك الشيءُ في الوجود، فالنَّار مخلوقةٌ الآن[3].

٥- أنَّ أهلَ النَّار هم الكافرون؛ لقوله سبحانه: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾، أمَّا الفُسَّاق الذين يُعذَّبون بالنَّار على قدْرِ أعمالهم، ثم يُخرَجون منها؛ فإنَّ النَّار لم تُعَدَّ لهم[4].

٦- جوازُ اقترانِ اسم الرَّسول باسمِ الله في الأمْر الذي يكون مُشتركًا بينهما؛ لقوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾، أمَّا الأمرُ الذي لا يكون مُشتركًا بينهما، وهو

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٤٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٨٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٦٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٦٣).

الأمر الكونيُّ القَدَريُّ، فهذا لا يُذكَر فيه الرَّسولُ مع الله إلَّا بحرفٍ يدلُّ على التَّرتيب ((ما شاء اللهُ، ثمَّ شِئت))، وبهذا نَعرِف الفرقَ بين إسنادِ الشَّيء الشَّرعيِّ إلى اللهِ ورسولِه، وبين إسناد الكونيِّ إلى اللهِ ورسولِه[١].

بَلاغةُ الآياتِ:

١ - قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾:

- في تصديرِ الخِطاب في شأنِه بالنِّداء تعظيمٌ لشأنِ الرِّبا، وبيانُ خَطرِه[٢].

- وسمَّى أخْذَ الرِّبَا أكلًا في قوله: ﴿لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا﴾؛ لأنَّه يؤولُ إليه؛ فهذا مِن بابِ تسميةِ الشَّيء بما يؤول إليه[٣].

- وتَضمَّن النَّهيُ عن الرِّبا التَّوبيخَ بما كانوا عليه في الجاهليَّة من تضعيفِه؛ إذ كان الرَّجُل منهم إذا بلَغ الدَّين مَحلَّه يقول: إما أنْ تَقْضي حقِّي أو تُربي وأزيدَ في الأَجلِ، فاستَغرَق بالشَّيء الطَّفيف مال المديون[٤]؛ فأكْل الرِّبا مَنهيٌّ عنه قليلًا وكثيرًا، لكنَّها نزلتْ على سببٍ، وهو فِعْلهم ذلك؛ ولأنَّه مقامُ تشنيعٍ عليهم، وهو بالكثيرِ أليقُ[٥].

٢ - قوله: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ فيه تنفيرٌ من النَّار وما يُوقِع فيها، بأنَّها معدودةٌ للكافرين، وتحذيرٌ المسلمين من مشاركتِهم؛ إذ المسلمون لا يَرْضَون بمشاركةِ الكافرين؛ لأنَّ الإسلامَ الحقَّ يُوجِب كراهيةَ ما ينشأ عن الكُفْر،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة آل عمران)) (٢/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤١٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٣٨)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٤١٠).

(٥) يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٠١).

وذاك تعريضٌ واضح في الوعيد على أخْذ الرِّبا، ومقابل هذا التَّنفير التَّرغيب الآتي في قوله: ﴿... وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣][1].

- وبِناءُ فِعل ﴿أُعِدَّتْ﴾ للمَفعولِ؛ لزيادةِ التَّرهيبِ، والمُبالَغةِ في الإنذار[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٨٨).

(٢) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٥٤٢).

الآيات (١٣٣ - ١٣٦)

﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦ ﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿السَّرَّاءِ﴾: السُّرور والفرَح، ولذَّة في القلبِ عند حصولِ نفْعٍ أو توقُّعه، أو عند رؤيةِ أمْرٍ يُعجِب(١).

﴿الضَّرَّاءِ﴾: سُوء الحالِ، والفقر والقَحْط، والضرُّ: خِلافُ النَّفْع(٢).

﴿الْكَاظِمِينَ الغَيْظَ﴾: أي: الحابِسين، أو الممسكِين عن إمضائِه مع قُدرتِهم على مَن أغضبهم؛ يُقال: كظَمْتُ القِرْبَةَ، إذا سَددتَ رأسَها(٣).

المَعنى الإجماليُّ:

يأمُر الله سبحانه عبادَه المؤمنين بالمُبادَرةِ والمسابقةِ للحُصولِ على مغفرةِ الله سبحانه وتعالى، ومن أجْل دخولِ الجنَّة التي يَبلُغ عرضُها مِثلَ عَرْض السَّموات والأرض لعِظَمها، أُعِدَّت هذه الجنَّة للمُتَّقين، الذين يَبذُلون أموالَهم صدقةً، سواء

---

(١) يُنظر: ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨١، ١٢٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٠٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٣، ٥٠٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٢، ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٨٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٩).

في حال رَخائِهم وسُرورِهم، أو في حال الضِّيق والضُّرِّ، والذين يَملِكون أنفسَهم حين يَغضَبون، ويَكتُمون الغيظَ الذي في قُلوبِهم، ويَعْفُونَ عن النَّاس حين يَتلقَّوْن الإساءة، وهذه الصِّفات من الإحسان، واللهُ يحبُّ المُتَّصِفين بها.

ومن صِفاتهم أيضًا: أنَّهم إذا ارتكَبوا فاحشةً من الفواحش، أو وقَعوا في معصيةٍ من المعاصي، ذَكَروا اللهَ، فطَلبوا منه مغفرةً لذُنوبهم؛ فإنَّه لا يغفرُ الذُّنوبَ أحدٌ إلَّا اللهُ سبحانه وتعالى، ولم يَستمِرُّوا مُصِرِّين على ذلك الذَّنب، وهم يعلمون أنَّهم عَصَوُا اللهَ، وأنَّهم بذلك مُعرَّضون للعقاب لو أصرُّوا، ويعلمون أيضًا أنَّ التَّوبةَ واجبةٌ إلى الله، وأنَّه يَقبَل توبةَ عبادِه. هؤلاء المذكورة أوصافُهم لهم مَغفرةٌ من الله، وسيَدْخلون جنَّاتٍ تجري من تحتها الأنهارُ، ستكون منازلهم أبدًا، ونِعْم أجْرُ العاملين.

تَفسيرُ الآيات:

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣)﴾.

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

أي: وليُسابِقْ بعضُكم بعضًا بالمُبادَرة إلى فِعل الخيرات؛ لنيلِ مغفرةِ الله تعالى؛ بسَتْرِ الذُّنوب والتَّجاوزِ عنها (١).

﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أمَر الله تعالى عِبادَه بالبِدارِ والمسابقةِ إلى مَغفرةِ الله، التي بها زوالُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٦٥-١٦٦).

المكروه، أمَرَهم عَقِبَ ذلك بالبِدارِ والمسابقة إلى ما يُحقِّق لهم حُصولَ المطلوب؛ فإنَّ الإنسان لا تَتِمُّ سعادتُه إلَّا بهذين الأمرين: زوال ما يَكْره، وحُصول ما يَأمُل[1]؛ لذا قال:

﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾.

أي: وليُسابِقْ بعضُكم بعضًا بالمبادرةِ إلى ما يُحقِّق- بإذن الله تعالى- دُخولَكم الجنَّةَ، التي يَبلُغ عَرضُها مِثْلَ عَرْضِ السَّمواتِ والأرض[2].

قال تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

أي: إنَّ الجَنَّة قد هُيِّئَت مُسبقًا للذين اتَّقوا الله تعالى؛ بامتثالِ أوامره، واجتناب نواهيه؛ فهُم أهلُها وساكِنُوها[3].

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٢-٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٦٧-١٦٩).
والعَرْض في كلامِ العرب يُطلَق على ما يُقابلُ الطُّول، ويُطلَق على الاتِّساعِ، وقد نَزل القرآنُ بلُغةِ العربِ وعلى معهودِهم في الخِطاب، وقال بعضُ المفسِّرين: إنَّ عرضَها كطولِها؛ لأنَّها قُبَّة تحت العرش، والشيء المقبَّب والمستدير عَرضُه كطوله. والله أعلم بالغيب. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٦٩)، ((قواعد التفسير)) لخالد السبت (١/ ٢١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٦٩-١٧٠).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّن تعالى أنَّ أهلَ الجنَّة هم المتَّقون، أَعقَب ذلك بذِكْر قيام هؤلاء المتَّقِين بأعمالٍ جليلة، أهَّلتْهم لنَيل هذا الفضل العظيم[1].

وأيضًا لما نهى الله عبادَه عن أكْلِ الرِّبا، ابتدأ في صِفات المتَّقِين بضدِّ ذلك، وهو الإنفاقُ في سبيل الله عزَّ وجلَّ[2]، كما جمَع بينهما في آياتٍ أخرى كقوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦]، فقال تعالى:

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾.

أي: إنَّ من صِفات المتَّقِين أنَّهم يَتصدَّقون باستمرارٍ، وفي جميع الأحوال، سواء كانوا في حال سُرورٍ- بتوفُّر المال، ورَغَد العيش؛ فلا يُلْهيهم ذلك عن مساعدة الآخرين- أو أصابَهم الضرُّ وضيقُ العيش؛ لِقِلَّة ذاتِ اليد، فلا يَصرِفهم ذلك أيضًا عن مواصلةِ العطاء[3].

فأصبحَ الإنفاقُ سَجِيَّةً دائمةً لهم، لا يَشغَلهم عنه أيُّ حالٍ أصابهم، ولا يَنشأ ذلك إلَّا عن نَفْس طاهرة[4].

﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾.

أي: إنَّ مِن صِفات المتَّقين المُتأصِّلة فيهم، والمستمرَّة معهم: أنَّهم يَمتلِكون السَّيطرةَ التَّامَّةَ على غضبِهم مهما بلغت شِدَّتُه، حتى لو كاد أنْ يخرج منهم من شدَّةِ امتلاءِ نُفُوسهم، وغليانِ قلوبِهم به؛ فإنَّهم يَملِكون أيضًا كتْمَه وحبْسَه[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٥٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٠-٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٩٢، ٤٩٣)، =

وهذا يدلُّ على عزيمةٍ راسخةٍ في النَّفْس، وقهْرِ قوَّة إرادتِهم للغضبِ وشهوةِ الانتقام، وهذا من أكبرِ قُوى الأخلاقِ الفاضلة(١).

عن أبي هُرَيرَةَ رضِي اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((ليس الشَّديدُ بالصُّرَعَة، إنَّما الشَّديدُ الذي يَملِك نَفْسَه عند الغضبِ))(٢).

﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾.

أي: ومِن صِفاتهم أيضًا صَفْحُهم، وتَجاوُزهم عن مؤاخذة مَن أساء إليهم- ما لم يتعلَّق بحقٍّ من حقوقِ الله تعالى- مع قُدْرتهم على الانتقامِ منه، فلا تَبقَى بذلك في نُفوسِهم مَوْجِدةٌ على أحد(٣).

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

أي: إنَّ جميعَ ما سبَق ذِكْرُه من صفاتٍ للمتَّقين، فهو داخلٌ في عُمُوم الإحسان، الذي هو سببٌ لنيل محبَّة الله تعالى لِمَن تَحلَّى بها، وصارتْ له طبْعًا وسَجِيَّة(٤).

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥)﴾.

= ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٥٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١٩، ١٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩١).

(٢) رواه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٥١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٧٣-١٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٥١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٧٥-١٧٦).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر الله تعالى بعضَ صِفات المتَّقين المتعلِّقة بمعاملة الخَلْق، أَعقَب ذلك بذِكر قِيامهم بحقِّ الخالق سبحانه(١).

وأيضًا فإنَّ الله تعالى لَمَّا وصَف الجنَّة بأنَّها مُعَدَّة للمتَّقين، بيَّن أنَّ المتَّقين قِسمان: أحدهما: الذين أَقبَلوا على الطَّاعات والعبادات، وهم الذين وصَفَهم الله بالإنفاقِ في السَّرَّاء والضَّرَّاء، وكَظْمِ الغيظ، والعفوِ عن النَّاس- فذكَر المتَّقين حالَ كمالِهم. وثانيهما: الذين أَذنَبوا ثم تابوا، فذكَرهم حالَ تَدارُكِهم نَقائصَهم، فالمُذنِب إذا تاب صار حالُه كحال مَن لم يُذنِب قطُّ في استحقاقِ المنزلةِ والكرامةِ عند الله(٢).

وأيضًا فإنَّه تعالى لَمَّا ندَب في الآية الأولى إلى الإحسانِ إلى الغيرِ، ندَبَ في هذه الآيةِ إلى الإحسانِ إلى النَّفْس؛ فإنَّ المذنِب العاصي إذا تاب كانتْ تلك التَّوبةُ إحسانًا منه إلى نَفْسه(٣)؛ فقال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾.

أي: إنَّ من صِفات المتَّقِين أنَّهم إذا ارتكبوا فَعْلةً قبيحةً، قد تَجاوَزت الحدَّ في الفساد، أو فعلوا بأنفسِهم غيرَ الذي كان ينبغي لهم أنْ يفعلوا بها، من رُكوبِهم عُمومَ معصيةِ الله سبحانه، كبيرةً كانتْ أو صغيرةً(٤).

﴿ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٤/ ٣٨٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٦٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٠-٦٢)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٧/ ٧٩)، (١١/ ٦٩٢)، (١٥/ ٤٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٢).

أي: إنَّهم إنْ وقعوا في ذَنبٍ، ذكَروا رحمتَه سبحانه ونِعَمَه عليهم، وما أَعدَّ للطائعين من ثواب، وذكروا عَظمتَه، وبطْشَه وعقابَه، وغير ذلك، فأَوجَب لهم هذا الحياءَ من الله تعالى والخوفَ منه، ففرُّوا إليه في الحال نادِمين، وطالبين منه السَّترَ وعدمَ المؤاخذة على ذُنوبهم(١).

عن عليٍّ رضِي اللهُ عنه، قال: ((كنتُ إذا سمعتُ من رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ شيئًا، نَفَعني الله بما شاءَ أن يَنْفَعني منه، وحدَّثَني أبو بكرٍ - وصدَقَ أبو بكرٍ - قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ما مَن مُسلمٍ يُذنِب ذنبًا، ثم يَتوضَّأ فيُصلِّي رَكعتينِ، ثمَّ يَستغفرُ اللهَ تعالى لذلكَ الذَّنبِ، إلَّا وغُفِر له، وقرأ هاتين الآيتين: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]، ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ الآية [آل عمران: ١٣٥])) (٢).

﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾.

أي: لا يَغفر ذُنوبَ العبادِ أحدٌ غيرُ الله تعالى(٣).

﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٢٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٥١٠)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ٤١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٢، ٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة آل عمران)) (٢/ ١٨٣-١٨٤).

(٢) رواه أبو داود (١٥٢١)، والترمذي (٤٠٦)، وابن ماجه (١٣٩٥)، وأحمد (٤٧)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١٠٢٥٠).

قال ابن عدي في ((الكامل)) (٢/ ١٤٢): أرجو أن يكون صحيحًا، وقال ابن تيمية في ((الاستقامة)) (٢/ ١٨٤) : محفوظ في السنن. وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في ((مسند أحمد)) (١/ ٤٢)، وصحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح أبي داود)) (١٥٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٢، ٦٥)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٥١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٣).

أي: إنَّهم يُقلِعون عن الذَّنبِ ولا يُقيمون عليه- وإنْ تكرَّر منهم مرَّةً بعد مرَّة- وهم يَعلَمون أنَّ ما ارْتكبوه معصيةٌ، وأنَّهم مُعرَّضون للعُقوبة إنْ أصرُّوا عليها، ويعلمون وجوبَ التَّوبة منها إلى الله عزَّ وجلَّ، وأنَّه يَقبَلُ التَّوبةَ مِن عبادِه(١).

﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أَتَمَّ اللهُ تعالى وصْفَ السَّابقين، وهم المتَّقون، واللَّاحِقين، وهم التَّائبون- أَخبَر بجزائهم(٢)؛ فقال:

﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾.

أي: إنَّ أولئك المتَّقين الَّذين ذكَر الله تعالى بعضَ أوصافِهم، لهم أجرٌ كريمٌ مُقابِلَ ما قدَّموه من أعمالٍ صالحةٍ، وهو أوَّلًا مغفرةُ الله تعالى لهم بسَتْر ذنوبهم، والتَّجاوز عن المُعاقَبة بها، فيَنجُون بذلك ممَّا كانوا يَحذَرون(٣).

﴿وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾.

أي: ويُثابَون ثانيًا بدخولِ الجنَّات التي تَجري من تحتِ أشجارِها وقصورِها الأنهارُ المتنوِّعة، فيَمكُثون فيها بلا نهايةٍ، وبذلك يَفوزُون بما كانوا يأمُلون(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٥-٦٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٩٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٢٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٥١٠، ٥١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٥، ١٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٣، ٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٨٦-١٨٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٩١-١٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٩-٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) =

﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾.

أي: ونِعَم جزاءُ العاملين لله تعالى مغفرتُهُ، والخُلودُ في دار كرامتِه[1].

الفوائد التربويَّة:

١- الحثُّ على المسارَعة في أسبابِ المغفرةِ وأسبابِ دخول الجنَّة، بأداء الواجبات، والتَّوبةِ عن جميعِ المَحظورات؛ يُبيِّن ذلك قولُه تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾[2].

٢- أنَّ التَّخليةَ قبل التَّحلية؛ لأنَّه قال: ﴿إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾، فبالمغفرة الزحزحةُ عن النَّار التي أَوجَبتْها الذُّنوبُ، ثم يكون دخول الجنَّة، ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾[3].

٣- مُلازَمة السَّخاء وإنفاق المال- الذي هو عزيزٌ على النَّفْس- في العُسْر واليُسْر، والأحوال كلِّها، مِن أشرف الطَّاعات المُوجِبة للجنَّة؛ يُبيِّن ذلك قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾[4].

٤- في قوله تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ الثَّناءُ على مَن أَنفَق في السَّرَّاء والضَّرَّاء؛ وذلك لأنَّ الإنفاقَ في السَّراء ليس بغريب؛ فكلُّ إنسانٍ يَهُون عليه أن يُنفِق إذا

= (ص: ١٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٩٣-١٩٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٩٤-١٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٦٦)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢٤٦).

كان في سرَّاء، لكن الإنفاقَ في الضَّرَّاء هو الذي يَدلُّ على أنَّ الإنسان يُنفِق طلبًا للأجْر، لا زُهْدًا في المال[١].

٥- كَظْمُ الغيظِ وإخفاؤه- بالصَّبر عن إمضائِه مع القُدرة، فلا يَظهَر له أثرٌ- من الأخلاقِ الفاضلة، ومِن أعظمِ العبادة؛ قال تعالى ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾[٢].

٦- الحثُّ على العفوِ عن النَّاس فيما أساؤوا؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾[٣]، لكنَّه مُقيَّدٌ بما إذا كان أَصلَح [٤].

٧- الحثُّ على الإحسانِ إلى الغير، بإيصال النَّفع إليه، أو بدَفْع الضَّرر عنه؛ يُبيِّن ذلك قولُه تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾؛ فإنَّ كلَّ إنسانٍ يعلم أنَّ الله يُحِب الإحسانَ، سوف يُحسِن، ويتقدَّم إلى الإحسان ويَحرِص عليه؛ لأنَّ محبَّة الله للعبد هي غايةُ ما يُريد[٥].

٨- الحثُّ على الاستغفارِ، والإتيانِ بالتَّوبةِ على الوجه الصَّحيح، بالنَّدمِ على فِعْل ما مضَى من الذَّنب، مع العَزْمِ على تَرْك مِثْله في المستقبل؛ فالله تعالى موصوفٌ بسَعة الرَّحمة، وقُرْبِ المغفرة، فلا مَفْزَعَ للمُذنِبين إلَّا فضلُه وكرمُه، والذُّنوب وإنْ جلَّتْ فإنَّ عفوَه أجلُّ، وكرمَه أَعظمُ؛ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا﴾[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٧٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٤٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٧٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٨٠).
(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٢-٩٣).

٩- قوله: ﴿إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ﴾ فيه سرعةُ انتباه هؤلاء المذكورين في الآيات عندَ فِعْل الذُّنوب؛ فيُبادِرون بالتَّوبة، والمبادرة بالتَّوبة من صفات المتَّقين، وهي واجِبة؛ لأنَّ التَّوبة إذا نزَل الأجلُ لا تُقبَل، والإنسانُ لا يَدري متى يَنزِل أجلُه؛ وعلى هذا فيجب أنْ يتوبَ الإنسانُ من ذُنوبه فورًا ودونَ تأخير(١).

١٠- أنَّه لا أحدَ يَستطيعُ أنْ يَغفِر الذُّنوبَ إلَّا الله؛ لقوله: ﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾، ويَتفرَّع عليها ألَّا يُعتمَدَ على أحدٍ في مغفرة الذُّنوب أو طلَبِ المغفرة، وإنَّما يكونُ الاتِّجاهُ إلى الله عزَّ وجلَّ(٢).

١١- أنَّ الرَّجل إذا أذنَب فاستغفَر، ثم أذنَب فاستغفر، ثم أذنب فاستغفر، فإنَّه يُغفَر له، وإنْ تكرَّر الذَّنبُ منه؛ لأنَّ الله قال: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، ولم يَقُل: (ولم يُعيدوا ما فَعلوا)(٣).

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- قول الله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا﴾ استدلَّ به كثيرٌ من الأُصوليِّين على أنَّ ظاهرَ الأمر يُوجِب الفَورَ، ويَمنَع من التَّراخي(٤).

٢- في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾، إنَّما فصَل بينهما؛ لأنَّ الغُفران معناه إزالةُ العِقاب، والجنَّة معناها إيصالُ الثَّواب؛ فجمَع بينهما للإشعارِ بأنَّه لا بدَّ للمُكلَّف من تحصيلِ الأمرين(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٨٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٩٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٦٥).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٣- هذه الآياتُ الكريمات: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ...﴾ الآيات، من أَدِلَّة أهل السُّنة والجماعة، على أنَّ الأعمالَ تَدخُل في الإيمان، خِلافًا للمُرجئة، ووجْه الدَّلالة إنَّما يَتِمُّ بذِكْر الآيةِ التي في سورة الحديد، التي هي نظيرُ هذه الآيات، وهي قوله تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [الحديد: ٢١]، فلم يَذكُر فيها إلَّا لفْظَ الإيمان به وبرُسله، وهنا قال: ﴿أُعِدَّت للمُتَّقين﴾، ثم وصَف المتَّقِين بهذه الأعمال الماليَّة والبَدنيَّة؛ فدلَّ على أنَّ هؤلاء المتَّقِين الموصوفين بهذه الصِّفات هم أولئك المؤمنون(١).

٤- في قول الله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾، دليلٌ على أنَّ الجنَّة مخلوقةٌ الآن(٢).

٥- بدأ وصفُ المتَّقِين بالإنفاقِ لوجهين: (أحدهما): مُقابلتُه بالرِّبا الذي نُهي عنه في الآية السَّابقة؛ فإنَّ الرِّبا هو استغلالُ الغَنيِّ حاجةَ المـعوِز، وأكْلُ مالِه بلا مُقابِل، والصَّدقة إعانةٌ له، وإطعامُه ما لا يَستحِقُّه؛ فهي ضدُّ الرِّبا، ولم يَرِد في القرآن ذِكرُ الرِّبا إلَّا وقُبِّح ومُدِحتْ معه الزَّكاةُ والصَّدقة. (ثانيهما): أنَّ الإنفاقَ في السَّرَّاء والضَّرَّاء أدلُّ على التَّقوى، وأشقُّ على النُّفوس، وأنفعُ للبشرِ من سائر الصِّفات والأعمال(٣).

٦- في قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾، قوله: ﴿فَاحِشَةً﴾، أي: من السَّيِّئات الكِبار، ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾، أي: بأيِّ نوعٍ كان من الذُّنوب؛ لتَصير الفاحشةُ موعودًا بغُفرانها بالخُصوص وبالعُموم(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٦٦)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢٤٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) (٤/ ١٠٩).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٧٣).

٧- في قوله تعالى: ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾، قيل: وجْه كونِ الإنسان ظالِمًا لنَفْسه، أنَّ نَفْسك عندك أمانةٌ، فإذا فرَّطتَ في هذه الأمانةِ، بأنْ أَقحَمتَ نَفْسَك فيما حرَّم اللهُ عليكَ، أو تأخَّرتَ عمَّا أَوجَب اللهُ عليك، فقدْ ظَلَمتَ نَفْسَك[١].

٨- أنَّ المتَّقِي لا يكونُ معصومًا من فِعْل الفاحشة، أو ظُلْم النَّفْس؛ لأنَّ الله لم يَقُل: (وهم لا يفعلون الفواحشَ أو لا يظلمون أنفسَهم)، بل قال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾، ففِعْلُ الفاحشة لا يَخدِش التَّقوى إذا استَغفَر الإنسانُ وتاب[٢].

٩- التَّعبير عن (المغفرة والجنَّاتِ) بالأجْر في قوله: ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ فيه إشعارٌ بأنَّهما يُستحقَّان بمقابلة العملِ، وإنْ كان بطريق التفضُّل؛ لمزيدِ التَّرغيبِ في الطَّاعات، والزَّجرِ عن المعاصي[٣].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾:

- ﴿وَسَارِعُوا...﴾ فيه الوَصْلُ- أي: العطفُ بالواو- بين هذه الجُملةِ، وجُملةِ الأمر بالطَّاعة: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾؛ لكون الأمرِ بالمُسارَعة إلى المغفرة والجنَّة يؤولُ إلى الأمر بالأعمال الصَّالحة، ومَن قرأ (سَارِعُوا) بغير واو، فتتنزَّل جملة (سَارِعُوا) مَنزِلةَ البيان، أو بدلَ الاشتمال، لجملة ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾؛ لأنَّ طاعةَ الله والرَّسول مُسارَعةٌ إلى المغفرة

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٨٧).

والجنَّة؛ فلذلك فُصِلتْ ولم تُعطَف، وعلى هذا يجوزُ الفصلُ والوصلُ في بعض الجُمَل باعتبارين[١].

- وجِيء بصيغة المُفاعَلة مُجرَّدةً عن معنى حُصولِ الفِعلِ من جانبينِ في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا﴾؛ لقصد المُبالَغة في طلبِ الإسراعِ، والعربُ تأتي بما يدلُّ في الوضع على تكرُّر الفعل، وهم يُريدون التَّأكيدَ والمُبالَغةَ دون التَّكرير[٢].

- وتنكيرُ ﴿مَغْفِرَةٍ﴾، وإضافتُها إلى ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ في قوله: ﴿مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾؛ لقَصْدِ الدَّلالةِ على التَّكثيرِ والتَّعظيم[٣].

- وقوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾: استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ ذِكْر الجنَّة عَقِب ذِكْر النَّار- الموصوفة بأنَّها ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾- يُثير في نُفوس السَّامعين أنْ يتعرَّفوا مَن الذين أُعِدَّت لهم[٤].

٢- قوله: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ فيه التَّعبيرُ بالعامِّ الذي يُراد به الخاصُّ؛ إذ المعنى: والعَافِين عمَّن ظلَّمهم أو أساء إليهم[٥].

٣- قوله: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ الألف واللامُ في ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ إمَّا للجِنْس، وهم داخِلون فيه (وصْف التَّقوى) دخولًا أوَّليًّا، فيتناول كلَّ مُحسِن، ويدخل تحتَه هؤلاء المذكورون في الآية، وإمَّا للعهد؛ عبَّر عنهم (أي: الْمُتَّقِينَ) بالمُحسِنينَ؛ إيذانًا بأنَّ النُّعوتَ المعدودةَ هي من باب الإحسانِ، الذي هو الإتيانُ بالأعمال على الوجه اللائقِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٨٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٨٨، ٨٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٨٩)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٥٦٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٥٦).
(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٨٦).

- وجملةُ ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾: تذييلٌ مُقرِّرٌ لمضمونِ ما قبلَها[١]، وهي أيضًا اعتراضٌ بين قوله: ﴿... أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ﴾، وبين قوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً...﴾، وهذا الاعتراضُ مشيرٌ إلى ما بينهما من التَّفاوت؛ فإنَّ درجةَ الأوَّلين من التَّقوى أعْلَى مِن درجةِ هؤلاء، وحظَّهم أَوْفى من حظِّهم، أو على نَفْس المتَّقِين، فيكونُ التفاوتُ أكثرَ وأظهرَ[٢].

٤- قوله: **﴿فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾** فيه مِن حُسْن البلاغة: ترتيبٌ بديعٌ؛ حيث رُتِّبتْ هذه الأركانُ في الآيةِ بحسَب شِدَّة تَعلُّقها بالمقصود؛ لأنَّ ذِكْر الله يحصُلُ بعد الذَّنب، فيبعثُ على التَّوبة؛ ولذلك رُتِّبَ الاستغفارُ عليه بالفاء، وأمَّا العِلْمُ بأنَّه ذَنبٌ، فهو حاصلٌ من قبلِ حُصولِ المعصية، ولولا حُصولُه لَمَا كانت الفَعْلةُ معصيةً؛ فلذلك جِيءَ به بعدَ الذِّكر ونَفي الإصرار[٣].

- قوله: ﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ جُمْلة مُعترِضة بين جملة ﴿فَاسْتَغْفَرُوا﴾ وجملة ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا﴾: وفيها ارتفاقٌ بالنَّفس، وداعيةٌ إلى رَجاءِ اللهِ وسَعَةِ عَفْوِه، ودلالةٌ على اختصاصِه بغُفْران الذَّنب[٤]، ولتقريرِ الاستغفارِ والحثِّ عليه، والإشعارِ بالوعد بالقَبول[٥].

- والاستفهامُ إنكاريٌّ مُستَعمَلٌ في معنى النَّفي، بقرينةِ الاستثناء منه، والمقصودُ تسديدُ مُبادَرتهم إلى استغفارِ الله عَقِب الذَّنب، والتَّعريضُ بالمشرِكين الذين اتَّخذوا أصنامَهم شفعاءَ لهم عند الله، وبالنَّصارى في

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٨٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٨٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٤٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٨٦- ٨٧).

زعْمهم أنَّ عيسى رفَع الخطايا عن بني آدم ببَليَّة صَلْبِه[١].

٥- قوله: ﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ...﴾ جِيءَ باسم الإشارة ﴿أُولَئِكَ﴾؛ لإفادةِ أنَّ المشارَ إليهم صاروا جَديرينَ بالحُكْم الواردِ بعدَ اسمِ الإشارة؛ لأجْل تلك الأوصاف التي استَوجَبوا الإشارةَ لأجْلها[٢]، إضافةً إلى ما فيه مِن معنى البُعْد؛ إشارةً إلى عُلُوِّ مَرتَبتِهم، وسُمُوِّ درجتِهم.

٦- قوله: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ﴾، ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ﴾، ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ﴾، ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ﴾، ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ﴾ كلُّ هذا تَكرارٌ للفظِ الجلالة (الله)[٣]، وفيه من تربيةِ المهابةِ والجلالِ وغيرِه ما لا يَخْفى.

٧- قوله: ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ تذييلٌ؛ لإنشاءِ مدْحِ الجزاء، مُختَصٌّ بالتَّائبين، وهو مِن عطفِ الإنشاءِ على الإخبار، وهو كثيرٌ في فصيح الكلام، وسُمِّي الجزاء أجرًا؛ لأنَّه كان عن وعدٍ للعاملِ بما عمِل[٤].

- والتَّعريفُ في ﴿الْعَامِلِينَ﴾ للعَهدِ، أي: ونِعْم أجرُ العاملين هذا الجزاءُ، وهذا تفضيلٌ له، وللعمل المُجازَى عليه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٥٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٥).
(٥) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

الآيات (١٣٧- ١٤١)

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿خَلَتْ﴾: مَضَتْ وذَهبَتْ، مِن خلا الزَّمان: إذا مضى وذهَب [١].

﴿سُنَنٌ﴾: أي: سِيرٌ وأمثالٌ، وطرائِقُ ومناهجُ، جمْع سُنَّةٍ، وهي الطَّريقةُ المسلوكة، والمنهاجُ المتَّبع. وقيل: معْنى ﴿سُنَنٌ﴾ أُمم، جمْع سُنَّة، وهي الأُمَّة، وأصلُ (سنن): جريانُ الشَّيءِ واطِّرادُه في سُهولةٍ [٢].

﴿عَاقِبَةُ﴾: عاقبةُ أمر كذا، أي: آخرُه وما يصيرُ إليه منتهاه، وما يؤدِّي إليه السَّببُ المتقدِّمُ، والعاقبةُ تختصُّ بالثوابِ إذا أُطلقت، وقد تُستعملُ في العقوبةِ إذا أُضيفتْ، وأصل (عقب): تأخيرُ شيءٍ وإتيانُه بعدَ غيره [٣].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٧٠، ٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩٧-٤٩٨)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٣١/ ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٩).

﴿وَلَا تَهِنُوا﴾: أي: لا تَضعُفوا، وأصل الوَهْن: الضَّعْفُ من حيثُ الخَلْقُ، أو الخُلق[١].

﴿قَرْحٌ﴾: الجِراحُ، أو الأثَر من الجِراحةِ من خارج، وأصل القَرْح: ألَمٌ بجراح، أو ما أشبهها[٢].

﴿نُدَاوِلُهَا﴾: أي: نَجعلُها للمؤمنين مرَّةً، وللكافرين مرَّةً، والدُّولة: اسمُ الشَّيءِ الذي يُتداولُ بعينه، والأصلُ: تحوُّل شيءٍ من مكانٍ إلى مكان[٣].

﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾: أي: ليُطهِّر، ويَختبر، ويُنقِّي، والتمحيصُ: الابتلاءُ والاختبارُ، وأصلُ المحْص: تَخليصُ الشَّيءِ، وتنقيتُه ممَّا فيه من عَيب[٤].

﴿وَيَمْحَقَ﴾: يُهلك، ويَنقص، وأصل المَحْق: النُّقصانُ، أو نقصانُ الشيءِ قليلًا قليلًا[٥].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخاطب اللهُ المسلمين مسلِّيًا لهم بعدَ الذي أصابهم في أُحُدٍ من هزيمة، مبيِّنًا سبحانه أنَّه قد مضَتْ مِن قبلهم سُنَنٌ إلهيَّة على الخَلق؛ فسِيروا - أيُّها المسلمون -

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٢، ١٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٤٠).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٧).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٠).

(٥) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٠).

في الأرض؛ لتنظروا من الآثارِ التي تُبيِّن كيف كانت نهاية الكافرين.

ثم يُخبر تعالى أنَّ هذا القرآنَ الكريم بيانٌ للناس كافَّةً؛ يوضِّح لهم الحقَّ من الباطل، وهو مرشِدٌ للمتَّقين إلى الطَّريق القويم، وزاجرٌ لهم عن سُبُلِ الضَّلالة والفساد.

ثم أمَر الله المسلمين ألَّا يَضعُفوا ولا يَحزنوا بسبب تلك الهزيمة التي لحقتهم؛ فإنَّهم هم الأعْلَوْن دائمًا، ما داموا مُتمسِّكين بإيمانهم، فإنْ يكُن قد نالهم جراحٌ وقتْل يوم أُحد، فقد أصاب أعداءَهم من الجراح والقَتْل نحوٌ من ذلك في أُحدٍ وبَدرٍ؛ فقد تساوَوْا، فلا ينبغي أنْ يستمرُّوا على حُزنهم، وهذه سُنَّة الله؛ أنْ يَجعل الأيَّامَ دُوَلًا بين الناس جميعًا؛ مؤمنِهم وكافرهم، فتارةً نصر، وتارةً هزيمة. ومن الحِكَم التي أرادها اللهُ تعالى من ذلك التداوُلِ بين الناس: ظهورُ صادِقي الإيمان من غيرهم، واتِّخاذُ اللهِ من المؤمنين شُهداءَ يُقتَلون في سبيلِه، والله سبحانه لا يحبُّ الظالمين، وحتى يُنقِّي اللهُ المؤمنين من ذُنوبهم بما يُصيبهم من قتْلٍ وجراح، ويُهلِك الكافرين.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

بعدَما سبَق الحديثُ عن غزوة أُحُد، وما أصابَ المسلمين فيها، خاطبَهم الله تعالى بهذه الآية؛ تَعزيةً وتسليةً لهم[١]، فقال تعالى:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٦).

﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾.

أي: قد مضَى على مَن كان قبلكم من الأُمم طرائقُ إلهيَّةٌ جاريةٌ باعتيادٍ على الخَلق، ومِن ذلك: أنْ يكون النصرُ والهزيمة سِجالًا ومداولةً بين المؤمنين والكافرين، ومِن تِلك السُّنن: إمهالُ الكفَّارِ واستدراجُهم حتى يَحين موعدُ إهلاكِهم، وإنجاءُ المؤمنين مِن بعدِ ابتلائِهم؛ فتلك أمثلةٌ صالحةٌ للعِظةِ والاعتبار(١).

﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾.

أي: فسِيروا على أقدامِكم وبقُلوبِكم، ناظرين ومُتفكِّرين فيما بقِي للأُممِ الكافرةِ السَّابقة من آثارٍ أرضيَّة، تقِف شاهدةً على جريان سُنَّة اللهِ تعالى في الكافرين بعد إمهالِهم واستدراجِهم، حيث كانت نهايتُهم بإهلاكِهم، وتَدميرِهم بأنواعِ العقوبات؛ جرَّاءَ تكذيبهم بآيات الله تعالى ورسلِه عليهم السَّلام(٢).

﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٨)﴾.

﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾.

أي: إنَّ هذا القُرآنَ العظيم- ومن ذلك: الآيات التي تَقدَّم ذِكرُها- يُبيِّن لعمومِ الناس الأمورَ بوضوحٍ تامٍّ، فيُعرَف به الحقُّ من الباطل، وتنكشفُ به الحقائق، فيتميَّز مِن خلاله أهلُ السَّعادة من أهل الشَّقاوة(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٧٠، ٧٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٥-٩٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٩٨-١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٧١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٢٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٩٩-٢٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٧٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٢٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٧، ٩٨)، ((تفسير =

﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

أي: إنَّ القرآن يُرشِد أهلَ التَّقوى- الذين دأَبوا على امتثال أوامر الله تعالى، واجتناب نواهيه- إلى طريق الحقِّ والرَّشاد، ويَزجُرهم عن سلوك طُرُقِ الغَيِّ والفساد[1].

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّ قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾، وقوله: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾، كالمقدِّمة لقوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾؛ كأنَّه قال: إذا بحثتُم عن أحوالِ القرونِ الماضية، علمتُم أنَّ أهلَ الباطلِ وإنِ اتَّفقت لهم الصولةُ، فإنَّ مآلَ أمْرِهم إلى الضَّعفِ والفتور، وصارتْ دولةُ أهل الحقِّ عاليةً؛ وصولةُ أهل الباطل مُندرِسةً؛ فلا ينبغي أنْ تصيرَ صولةُ الكفَّار عليكم يومَ أُحُد سببًا لضعْف قلوبِكم، ولجُبنكم وعجزِكم، بل يجبُ أنْ تَقْوَى قلوبُكم؛ فإنَّ الاستعلاءَ سيحصُل لكم، والقوَّةُ والدولةُ راجعةٌ إليكم[2]؛ فقال تعالى:

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩)﴾.

أي: ولا تَضعُفوا ولا تَتثبَّطوا- أيُّها المؤمنون- عن جِهاد عدوِّكم، ولا يُصيبنَّكم الحزنُ؛ بسببِ الهزيمةِ التي تَعرَّضتم لها من قِبَل عدوِّكم يومَ أُحُد، وما نالكم فيه من قتْلٍ وجراح؛ فأنتُم الأعلى دائمًا في جميعِ الأحوالِ حتى لو كنتُم مغلوبينَ، ما

= ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٠٦-٢٠٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٧٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٧١).

دُمتُم باقين على إيمانكم؛ فإنَّ هذا الوهنَ والحزنَ غيرُ لائقٍ بالمؤمنين(١).

قال تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠)﴾.

﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾.

أي: إنْ كنتُم قد أصابتْكم جراحٌ، وقُتِلَ منكم جماعةٌ في غزوة أُحُد، فقد أصابَ أعداءَكم قَريبٌ من ذلك، مِن قتْلٍ وجراحٍ في أُحُد أو بَدْر، فتساويتُم أنتُم وإيَّاهم في ذلك؛ فلا تبتئِسوا(٢).

﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى يَجعل الأيَّام دُوَلًا بين الناس؛ مؤمنِهم وكافرِهم، فيُصرِّفُها كيف يشاء؛ فمرَّةً يُديل المؤمنينَ على الأعداءِ، فتكونُ لهم الغَلَبةُ، ومرةً يُديل الأعداءَ على المؤمنين، فتكونُ الغلبةُ لهم؛ ففي بدرٍ كان النصرُ للمُؤمنين، وفي أُحُدٍ كان النصرُ للمُشرِكين(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٧٦-٧٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٦ - ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٩-١٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٨، ٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٠٩-٢١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٧٩-٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٠٧، ٢٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢١٩-٢٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) =

﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ﴾.

مُناسَبتها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا سلَّى اللهُ تعالى عِبادَه المؤمنين عن الهزيمةِ التي وقَعتْ لهم يوم أُحُد، وأنَّ الأيَّامَ دُولٌ بين الناس، شرَع سبحانه في بيان الحِكَم العظيمةِ المترتِّبةِ على ذلك[1]، فقال:

﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى يُصرِّف الأيَّام بين الناس نصرًا وهزيمة؛ ليظهرَ بذلك صادقُ الإيمانِ من غيرِه، كما عَلِمه الله تعالى بسَابِق عِلْمه في الأزلِ؛ فإنَّ المؤمنين لو كانوا دائمًا مَنصورِينَ، فإنَّ الجميعَ سيُظهرون لهم الموالاةَ، ولن يَتميَّز أعداؤُهم من أوليائِهم حقيقةً[2].

﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ﴾.

أي: ومِن أسبابِ إدالةِ اللهِ تعالى الأيَّامَ بين الناس؛ بتمكينِه للكفَّار أحيانًا على بعض المؤمنين: إكرامُ عِبادِه المؤمنين بالشَّهادةِ بالقتْلِ في سبيلِه، كما وقَع

= (ص: ١٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٢٠-٢٢١).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٨٥-٨٧)، ((شرح العقيدة الأصفهانية)) لابن تيمية (ص: ٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٢١-٢٢٣).

والعِلم في هذه الآية؛ في قولِه سبحانه وتعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ عِلمُ وجود، وعلمٌ يترتَّب عليه الجزاء؛ لأنَّ الله تعالى قد علِم الذين آمنوا قبل أنْ يؤمنوا، فإنَّ عِلْم الله بالأشياء عِلمٌ أزليٌّ قديم، فهو سبحانه وتعالى يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٢٢)، ((قواعد التفسير)) للسبت (٢/ ٧٥٥).

يوم أُحُد، ولولا ذلك لَمَا نالوا تلك الحُظوةَ الرَّفيعة، وذلك المقامَ السَّامي[1].

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى لا يحبُّ الكافِرين والمنافِقين، الذين وَضَعوا- بالكفر- أنفسَهم في غيرِ ما خُلِقتْ لأجْله، فبَخَسوها حقَّها؛ ولذا أَقعدَ المنافقين يومَ أُحُدٍ عن القتال مع المؤمنين؛ لأنَّه يُبغضُهم، كما أنَّ الله تعالى يُديلُ الكافِرين على المؤمنين أحيانًا، لا لأنَّه يُحبُّهم، بل لِمَا سبَق ذِكرُه من أسباب، وإذا أدالَ المؤمنين عليهم فلأَجْل محبَّتِه سبحانه لهم[2].

﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١)﴾.

﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

أي: ومِن حِكَم الإدالةِ على المؤمنين تَنقيتُهم من الذُّنوب، سواءٌ بما حصَل لهم مِن قتْل، أو بما أصابَهم من جِراح، ومِن ذلك أنَّهم إنِ انتصروا دائمًا، حصَلَ لنفوسِهم طغيانٌ وضَعْفُ إيمان، يُوجِب لهم العقوبةَ والهوان[3].

﴿وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾.

أي: يُهلِكُهم ويُفنيهم؛ فإنَّهم إنِ انتَصروا طَغَوْا وبغَوْا وبطَروا؛ فيكون ذلك سببًا في استئصالِهم بعقوبةٍ تُدمِّرهم[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٨٧)، ((شرح العقيدة الأصفهانية)) لابن تيمية (ص: ٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٢٣-٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((شرح العقيدة الأصفهانية)) لابن تيمية (ص: ٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٢٧-٢٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) =

الفوائد التربويَّة:

١- الحثُّ على الاعتبارِ بأحوال الأُمم الماضية، وتأمُّلِ عاقبة المكذِّبين للرُّسل، وتعرُّفِ ما حلَّ بهم، فذلك هو الذي يُوصل إلى معرفةِ تِلك السُّنن والاعتبارِ بها؛ قال تعالى ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[(١)].

٢- إثباتُ القياس؛ لأنَّ المقصود بقوله: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ النَّظرُ والاعتبار، وأنْ يُقاسَ ما حضَرَ على ما مضَى وسلَف[(٢)].

٣- في قوله: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾، إشارةٌ إلى أنَّ ما جرَى للمكذِّبين بالأمس، سيَجري مثلُه للمكذِّبين اليومَ وغدًا؛ ذلك كي تَطمئنَّ قلوبُ الجماعةِ المسلمةِ إلى العاقبةِ مِن جهةٍ، وكي تَحذرَ الانزلاقَ مع المكذِّبين من جِهةٍ أخرى، وقد كان هنالك ما يَدعو إلى الطُّمأنينةِ، وما يَدعو إلى التَّحذير[(٣)].

٤- أنَّ القرآنَ الكريمَ صالحٌ لهدايةِ المؤمِن والكافِر؛ لقوله: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾، فهو يَشمَل المؤمنَ والكافر[(٤)].

٥- تسليةُ هذه الأمَّة من وجهٍ، وتحذيرُها من وجهٍ آخَرَ؛ تسليتُها بأنَّ الله سبحانه وتعالى قد عاقَبَ مَن قَبلَها، فعقوبتُه لها في غزوة أُحُد من سُنَن الله عزَّ

= (ص: ١٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٧٠)، ((تفسير المنار)) (٤/ ١١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٠٨).

وجلَّ؛ لأنَّه لا شكَّ أنَّ ما حصَلَ في أُحُدٍ عقوبةٌ؛ ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾. وفيها أيضًا تحذيرٌ من جِهةٍ أخرى مِن عقوبةٍ أشدَّ؛ لأنَّ الأُممَ السابقة أُهلكوا ودُمِّروا عن آخِرهم(١).

٦- أنَّ القرآنَ الكريم لا يَنتفعُ به إلَّا المتقون؛ لقوله: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾، ففيه فضيلةُ التَّقوى، وأنَّها سببٌ للاهتداءِ والاتعاظ(٢)، فالكلمةُ الهاديَةُ لا يستَشْرِفُها إلا القلبُ المؤمِنُ المفتوحُ للهدى، والعِظَةُ البالغةُ لا ينتفِعُ بها إلا القَلبُ التقيُّ الذي يخفُقُ لها ويتحَرَّكُ بها(٣).

٧- أنَّ مَن لم يتَّعظ بالقرآن، فليتَّهِمْ نفْسَه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾(٤).

٨- في قوله تعالى: ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾، دلالةٌ على أنَّ الإنسانَ كلَّما ازداد تقوى، ازداد هدًى وموعظةً؛ لأنَّ الحُكمَ المعلَّق بوصف يَقوَى بقوَّته، ويَضعُف بضَعْفِه(٥).

٩- أنَّ صِحَّة الإيمان تُوجِب قوَّةَ القلب والثقةَ بالله تعالى، وقِلَّةَ المبالاةِ بأعدائه؛ يُبيِّن ذلك قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(٦).

١٠- في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾: أنَّه يَنبغي للإنسانِ أن يكون قويَّ العزيمة، ولا يَضعُف ولا يَجبُن، وكم من إنسانٍ ضعُف وجبُن ففاتَه خيرٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٠٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٠٨، ٢٠٩).
(٣) ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٨٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٠٨).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٠٩).
(٦) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢٤٩).

كثيرًا ولو أقدم لحصَل على خيرٍ كثير؛ لأنَّ المستقبَل لا تُدرى ما النتيجة فيه(١).

١١- الحزنُ مِن عوارضِ الطَّريقِ إلى اللهِ تعالى، وليس مِن مقاماتِ الإيمانِ، ولا مِن مَنازِلِ السَّائِرين؛ ولهذا لم يأمرِ اللهُ به في موضعٍ قطُّ، ولا أثْنَى عليه، ولا رتَّب عليه جزاءً ولا ثوابًا، بل نهَى عنه؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(٢).

١٢- في قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: أنَّه كلَّما ازداد إيمانُ الأمَّة ازدادتْ عُلُوًّا، وأنَّ للعبدِ مِن العلوِّ بحسبِ ما معَه مِن الإيمانِ؛ لأنَّ الله تعالى رتَّب العلوَّ على الإيمان، والمرتَّبُ على شيءٍ يَزيد بزِيادته، ويَنقُص بنَقْصِه(٣).

١٣- في هذه الآياتِ تسليةٌ من الله للمؤمنين عمَّا حصَل لهم من الهزيمةِ في أُحُد، فبيَّن لهم سبحانه الحِكَمَ العظيمة المترتِّبة على ما أصابَهم في تِلك الهزيمة؛ ومنها:

- أنَّ هذه الدارَ يُعطِي اللهُ منها المؤمنَ والكافر، والبرَّ والفاجر، فيداولُ اللهُ الأيَّامَ بين الناس؛ يومًا لهذه الطائفة، ويومًا للطائفة الأخرى؛ لأنَّ هذه الدارَ الدنيا منقضيةٌ فانية، وهذا بخِلاف الدَّار الآخرة؛ فإنَّها خالصةٌ للذين آمنوا، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾.

- ومنها: أنَّ اللهَ تعالى يَبتلي عِبادَه بالهزيمةِ والابتلاء؛ ليَتبيَّن المؤمنُ من المنافق؛ لأنَّه لو استمرَّ النصرُ للمؤمنين في جميع الوقائع، لدخَلَ في الإسلامِ مَن لا يُريده، فإذا حصَل في بعضِ الوقائعِ بعضُ أنواع الابتلاء، تبيَّن المؤمنُ حقيقةً، الذي يَرغبُ في الإسلامِ في الضرَّاء والسَّرَّاء، واليُسر

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢١٨).

والعُسر، ممَّن ليس كذلك؛ قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

- ومنها: اتِّخاذُ الشُّهداء؛ قال تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ﴾؛ لأنَّ الشهادةَ عند الله من أرفعِ المنازل، ولا سَبيلَ لنَيلِها إلَّا بما يَحصُل من وجودِ أسبابها، فهذا من رحمتِه بعباده المؤمنين، أنْ قيَّض لهم من الأسبابِ ما تَكرهه النفوسُ؛ ليُنيلَهم ما يُحبُّون من المنازِلِ العالية، والنعيم المقيم.

- ومنها: تمحيصُ المؤمنين من ذُنوبِهم وعُيوبِهم؛ قال تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، ويُمحِّص اللهُ أيضًا المؤمنين من غيرِهم من المنافقين، فيَتخلَّصوا منهم، ويَعرِفوا المؤمنَ من المنافق.

- ومنها: أنَّ الله سبحانه يُقدِّر ذلك؛ ليمحقَ الكافرين كما قال تعالى: ﴿وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾، أي: ليكون سببًا لمحْقِهم واستئصالِهم بالعقوبة؛ فإنَّهم إذا انتصروا بَغَوا وازدادوا طُغيانًا إلى طُغيانهم، يَستحقُّون به المعاجلةَ بالعقوبةِ؛ رحمةً بعبادِه المؤمنين[(١)].

١٤- قوله تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ...﴾: يَتبيَّن منه أنَّ الله سبحانه وتعالى قد يمتحنُ العبدَ؛ ليعلمَ إيمانَه من عدمِه، يمتحنُه بأنواعٍ من الامتحانات: تارةً بالمصائِب، وتارةً بالمعايب، فهنا ابتلاءٌ بالمصائِب، وإذا يَسَّر اللهُ للإنسانِ أسبابَ المعصية، فهذا ابتلاءٌ بتيسير المعايب[(٢)].

١٥- الشِّدَّةُ بعد الرَّخاء، والرَّخاء بعدَ الشِّدَّة، هما اللذانِ يَكشفانِ عن معادن النفوس، وطبائِع القلوب، ودَرجةِ الغَبَش فيها والصَّفاء، ودرجة الهَلَع

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٢٥).

فيها والصَّبر، ودرجة الثقة فيها باللهِ أو القنوط، ودرجة الاستسلامِ فيها لقدَر الله أو البَرَم[١] به والجُموح، عندئذ يَتميَّزُ الصفُّ ويتكشَّف؛ قال تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[٢].

١٦- مداولةُ الأيَّام، وتعاقُب الشِّدَّة والرَّخاء، محكٌّ لا يُخطِئ، وميزانٌ لا يَظلم، والرخاء في هذا كالشِّدة، وكم مِن نفوسٍ تصبر للشِّدَّة وتتماسَك، ولكنَّها تتراخى بالرَّخاء وتنحلُّ! والنفسُ المؤمنةُ هي التي تصبر للضَّرَّاء، ولا تَستخفُّها السَّرَّاء، وتتَّجه إلى اللهِ في الحالين، وتوقِن أنَّ ما أصابَها من الخيرِ والشرِّ فبإذنِ الله؛ قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾[٣].

١٧- قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ يُثير في نفْس المؤمن بُغضَ الظُّلم وبُغضَ الظالمين، وهذه الإثارةُ في مَعرِض الحديثِ عن الجهادِ والاستشهادِ لها مُناسبتُها الحاضرة؛ فالمؤمن إنَّما يَبذُل نفْسَه في مكافحةِ ما يَكرهه اللهُ ومَن يَكرهه، وهذا هو مقامُ الاستشهاد، وفي هذا تكونُ الشهادةُ، ومِن هؤلاء يتَّخِذُ اللهُ الشُّهداءَ[٤].

١٨- قوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ جملةٌ معترِضة مسوقةٌ لبيانِ أنَّ الشهداءَ يكونون ممَّن خَلَصوا لله، وأخْلصوا في إيمانهم وأعمالهم؛ فلم يَظلِموا أنفسِهم بمخالفةِ الأمْرِ أو النهي، ولا بالخروجِ عن سُنن اللهِ في الخَلْق، وأنَّه تعالى لا يَصطفي للشهادةِ الظالمين ما داموا على ظُلمهم، وفي ذلك بِشارةٌ

---

(١) البَـرَمُ: مصدر قولك: بَرِمَ به، إذا سَئِمه. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٥/ ١٨٦٩).
(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٨١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٨٢).

للمتَّقين، وإنذارٌ للمقصِّرين؛ فالناسُ قَبل الابتلاءِ بالمِحن والفتنِ يكونون سواءً؛ فإذا ابتُلوا تَبيَّن المخلِصُ والصادقُ، والظالمُ والمنافِق (١).

١٩- الظَّالم لا تدومُ له سُلطةٌ، ولا تثبُتُ له دولة، فإذا أصابَ غِرَّةً من أهل الحقِّ والعدل، فكانتْ له دولةٌ في حربٍ أو حُكم، فإنَّما تكونُ دولتُه سريعةَ الزوال، قريبةَ الانحلال والاضمحلال(٢).

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- في قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾، أنَّ القرآن يَربط ماضي البشريةِ بحاضرِها، وحاضرَها بماضيها، فيُشيرُ من خلال ذلك كلِّه إلى مستقبلها(٣).

٢- في قوله: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾، أنَّ المصارعةَ بين الحقِّ والباطلِ قد وقعتْ في الأُمم الماضية، وكان أهلُ الحقِّ يَغلِبون أهلَ الباطل، ويُنصَرون عليهم بالصَّبر والتقوى(٤).

٣- قوله تعالى: ﴿فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا﴾، فيه أنَّ السَّير في الأرض لغيرِ غرَضٍ مشروعٍ مذمومٌ؛ لأنَّ السَّيرَ في الأرضِ من غيرِ غَرضٍ مشروعٍ فيه إتعابٌ للنَّفس، وتعريضُها للهلاك، وإضاعةُ المال، وإضاعةُ الوقت(٥).

٤- أنَّ القرآنَ بيانٌ للناسِ في كلِّ شيء، فهو عامٌّ من حيثُ التَّبيينُ، وعامٌّ من

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) (٤/ ١٢٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٧٩).
(٤) انظر: ((تفسير المنار)) (٤/ ١١٧).
(٥) يُنظر: ((الزهد والورع والعبادة)) لابن تيمية (ص: ٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٠٢).

حيثُ المبيَّنُ له؛ يُؤخَذ العمومُ للمُبيَّن له من قوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾، والتبيينُ مِن كونِه حَذَف المتعلِّقَ، وحذف المتعلَّق يدلُّ على العمومِ ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾ لكلِّ شيءٍ، ويُؤيِّده قولُه تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾[1] [النحل: ٨٩].

٥- أنَّ هذه الأمَّةَ هي العُليا، بشَرْط أنْ تؤمن؛ لقوله: ﴿وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[2].

٦- في قوله: ﴿وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾ التلميحُ بالتوبيخِ إذا حصَل الوهنُ أو الحزن لا سيَّما إذا قلنا: إنَّ الواوَ هنا واو الحال؛ يعني: كيف يَليقُ بكم أن تَهِنوا وتحزنوا وأنتم الأعلون؟! لأنَّ الأعلى لا يَليق به أن يهِن أو يَحزَن[3].

٧- بيانُ رأفةِ الله سبحانه وتعالى برسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وأصحابِه بهذه التسليةِ العظيمة؛ ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾[4].

٨- إنْ قِيل: ما وجهُ الجمعِ بينَ الإفرادِ في قولِه: ﴿قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾، وبينَ التثنيةِ في قولِه: ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا﴾[آل عمران: ١٦٥]، فالجواب، والله تعالى أعلم: أنَّ المرادَ بالتثنيةِ قتلُ سبعينَ، وأسرُ سبعين يومَ بدرٍ في مقابلةِ سبعينَ يومَ أُحُد، كما عليه جمهورُ العلماءِ. والمرادُ بإفرادِ المثلِ: تشبيهُ القرحِ بالقرحِ في مُطلقِ النِّكاية والألمِ[5].

٩- أنَّ الله سبحانه وتعالى جعَل هذه الدنيا دولًا تتقلَّب؛ لئلَّا يركنَ الإنسان

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٠٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢١٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٢٤).
(٥) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٠٩).

إليها؛ لأنَّ الدنيا لو كانتْ دائمًا راحةً ونعمة، لركَن الإنسانُ إليها، ونسي الآخرة، ولو كانت دائمًا محنةً ونقمةً، لكانتْ عذابًا مستمرًّا، ولكن الله جَعَلها دولًا يُدال فيها الناسُ بعضُهم على بعض، وتتداول الأحداثُ على الإنسانِ ما بَين خيرٍ وشرٍّ؛ قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾[1].

١٠- أنَّ عِلمَ الله سبحانه وتعالى بالأشياءِ على قِسمين: عِلمٍ بأنَّها ستوجد، وهذا أزليٌّ، وعِلمٍ بأنَّها وُجِدت، وهذا يكونُ عند الوجودِ؛ وهو علمٌ يترتَّب عليه الجزاء ولهذا قال: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ فإنَّ عِلْم الله بالأشياء عِلمٌ أزليٌّ قديم، يعلم سبحانه وتعالى ما كان، وما يكون، والقاعدة أنه: متى عَلَّق الله عِلمَه بالأمور بعد وجودِها، كان المرادُ بذلك: العلمُ الذي يترتَّب عليه الجزاء[2].

١١- أنَّ اللهَ تعالى قد يُقدِّر المكروهَ للنَّفْس؛ لحِكَمٍ بالغةٍ كثيرة؛ لقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ﴾[3].

١٢- فضيلةُ الشَّهادة، تُؤخذُ من قوله: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ﴾، فكأنَّه سبحانه اصطَفى هؤلاء الشُّهداءَ، واتَّخذَهم لنفسِه[4].

١٣- قول الله تعالى: ﴿وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾: يُستفادُ من هذا أنَّ النعمةَ قد تكون سببًا للنِّقمة؛ فإنَّ انتصارَ الكفَّار يُوجِب فرَحَهم وبطرَهم، حتى إذا بطَروا مُحِقوا[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٢٥)، ((قواعد التفسير)) للسبت (٢/ ٧٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٢٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٢٩).

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ جِيء بـ﴿قَدْ﴾ الدالَّة على تأكيدِ الخبرِ؛ تنزيلًا لهم منزلةَ مَن يُنكر ذلك؛ لِمَا ظهَر عليهم من انكسارِ الخواطرِ من جرَّاءِ الهزيمةِ الحاصلةِ لهم من المشركين، مع أنَّهم يُقاتلون لنصرِ دِين الله(١).

٢- قوله: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ تخصيصُ البيانِ للنَّاسِ مع شُمولِه للمتَّقين أيضًا؛ لأنَّ المرادَ به مجردُ البيانِ العاري عن الهُدى والعظةِ، والاقتصارُ على الهُدى والموعِظة في جانبِ المتَّقين مع ترتُّبهما على البيانِ؛ لأنَّهما المقصِدُ الأصليُّ، ويجوز أن يكونَ تعريفُ الناسِ للجِنس، أي: هذا بيانٌ للنَّاس كافةً، وهُدًى وموعظةٌ للمتَّقين منهم خاصَّة؛ لأنَّه لا يَحصُل إلَّا لهم(٢).

٣- قوله تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾ فيه التعبيرُ عمَّا أصاب المسلمين بصِيغة المضارع في ﴿يَمْسَسْكُمْ﴾؛ لقُربِه من زمَنِ الحال، والتعبيرُ عمَّا أصاب المشركين بصيغةِ الماضي؛ لبُعدِه؛ لأنَّه حصَل يومَ بدر(٣).

٤- قول الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾:

- التعبيرُ بأداة البُعد ﴿تِلْكَ﴾ فيه تنبيهٌ على تعظيمِ الأيَّام(٤).

- وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللهُ﴾ فيه التفاتٌ مِن ﴿نُدَاوِلُهَا﴾ إلى الغَيبة بإسنادِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٧١)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٠٠).

إلى اسمِ الذاتِ المستجمِعِ للصِّفات ﴿الله﴾؛ للتعظيم، ولتربية المهابةِ، والإشعارِ بأنَّ صدورَ كلِّ واحدٍ ممَّا ذُكِر بصدد التعليلِ من أفعالِه تعالى باعتبارِ منشأٍ معيَّنٍ من صفاته تعالى، مغايرٌ لمنشأِ الآخَر[١].

٥- قوله: ﴿وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ اعتراضٌ مقرِّرٌ لمضمونِ ما قبله، ونفيُ المحبَّةِ في إيقاعِه على الظَّالِمين تَعريضٌ بمحبَّته تعالى لمقابِليهم من المؤمنين[٢].

٦- قوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الكَافِرِينَ﴾:

- تكريرُ اللامِ في ﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾؛ للتَّذكيرِ بالتعليلِ السَّابق (ولِيَعلمَ)؛ لوقوعِ الفصلِ بينهما بالاعتراضِ بجملة ﴿وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾. وإظهارُ الاسمِ الجليلِ (الله) في موقعِ الإضمار؛ لإبرازِ مزيدِ الاعتناءِ بشأن التَّمحيصِ، وهذه الأمورُ عِللٌ للمداولة المعهودةِ باعتبار كونِها على المؤمنين، وقُدِّمت في الذِّكر؛ لأنَّها المحتاجةُ إلى البيان، ولعلَّ تأخيرَ العِلَّةِ الأَخيرةِ عن الاعتِراض؛ لئلَّا يُتوَهَّمَ اندراجُ المذنبين في الظَّالمين[٣].

- ولفظة ﴿الْكَافِرِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَمْحَقَ الكَافِرِينَ﴾ عامٌّ، أُريد به الخصوصُ؛ فالمرادُ بالكافرين هنا طائفةٌ مخصوصة، وهم الذين حارَبوا رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّه تعالى لم يَمْحَقْ كلَّ كافر، بل كثيرٌ منهم باقٍ على كُفرِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٥٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٤٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٧٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٥٦).

- وقابَل في قوله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ تمحيصَ المؤمنِ بمحْقِ الكافِرِ؛ لأنَّ التمحيصَ إهلاكُ الذُّنوب، والمحقَ إهلاكُ النُّفوس، وهي مقابلةٌ لطيفةٌ في المعنى[1].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٥٦).

الآيات (١٤٢ - ١٤٥)

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾: أي: كفرتم، والانقلابُ: الانصرافُ؛ يُقال لِمَن كان على شيءٍ ثم رجَع عنه: قد انقلَبَ على عقِبه، ومنه قيل للكافرِ بعد إسلامه: مُرتدٌّ، وأصلُ (قلب): صَرْفُ الشَّيء عن وجهٍ إلى وجهٍ، أو ردُّه من جِهةٍ إلى جِهة[1].

و﴿أَعْقَابِكُمْ﴾: جمْعُ عقِب، وهو: مُؤخَّر الرِّجْل، ويُقال: رجَع على عَقِبه: إذا انثنى راجعًا، وأصلُ العقب: يدلُّ على تأخيرِ شيءٍ، وإتيانِه بعد غيرِه[2].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُنكر اللهُ تعالى على المؤمنينَ أن يَظنُّوا أنَّهم سيَدخلون الجَنَّة بمجرَّدِ إيمانهم، بل لا بدَّ أن يُبتلَوا؛ حتى يَعلمَ الله المجاهدين حقًّا في سبيلِه، ويعلمَ الصابرين.

ثم يُذكِّرهم تعالى أنَّهم كانوا يَتمنَّون مواجهةَ أعدائهم، ويَطمعون في بلوغِ مرتبةِ الشهادةِ بالموتِ في سبيلِ الله، وهاهم رأَوا بأعينهم يومَ أُحُد ما كانوا

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٥).

تمنَّوه، فلِمَ لمْ يَثبُتوا ويَصبِروا حتى ينالوا ما كانوا يَطمعون إليه.

ثم يُخبرهم اللهُ تعالى أنَّ محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ غيرُ مخلَّد في الدُّنيا، فإنَّما هو رسولٌ كباقي رُسل الله الذين من قبلِه؛ قد انقضتْ آجالهم في الدُّنيا بالموت أو القتْل؛ فهل إذا انقضَى أجلُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يكون هذا مبرِّرًا ليرتدُّوا عن دِينهم؟! ومَن يَرتدِدْ عن دِينه فلن يضرَّ اللهَ بردَّته عن الدِّين شيئًا، وسيُثيب الله الشَّاكرين.

ثم يُبيِّن الله أنَّه ما كان لنَفْسٍ أن تموتَ إلَّا بإذن الله، وذلك إذا جاء أجلُها الذي كتَبه الله لها، ثم أَخبر تعالى أنه يُؤتي الناسَ من ثواب الدُّنيا والآخرة ما عَلَقتْ به إرادتُهم؛ فمَن يُردْ ثوابَ الدنيا بعملِه، يُؤتِه منها، ومَن يُرِدْ به ثوابَ الآخِرة، يُؤتِه منها، وسيُثيب الله تعالى الشَّاكرين.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أرشدَ الله تعالى المؤمنين في الآياتِ السَّابقة إلى أنَّه لا يَنبغي لهم أن يَضعُفوا أو يَحزنوا، وبَيَّن لهم حِكمةَ ما أصابهم يومَ أُحد، وأنَّه منطبِقٌ على سُنَّته في مداولة الأيَّام بين الناس، وفي تمحيصِ أهل الحقِّ بالشَّدائد، وفي ذلك من الهِداية والإرشادِ والتَّسلية ما يُربِّي المؤمنَ على الصِّفات التي يَنالُ بها الغَلبةَ والسِّيادةَ بالحقِّ، وهذه مِن سعادةِ الدُّنيا- بيَّن لهم في هذه الآيةِ أنَّ سعادةَ الآخِرة لا تُنالُ أيضًا إلَّا بالجهادِ والصَّبر[1]، فقال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) (٤/ ١٢٧).

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢)﴾.

أي: لا تظنُّوا- يا معشرَ المؤمنين- أنْ تنالوا شَرَفَ دخولِ الجنَّة قبلَ أن تُبتَلَوْا، ويرَى اللهُ تعالى- واقعًا ظاهرًا- المجاهدين منكم في سبيلِه، ويرَى كذلك الصَّابرين على الجهادِ، وعلى ما يَنالهم من مَصائبَ وآلامٍ، كما وقَع يوم أُحُد[1].

﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (١٤٣)﴾.

﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ﴾.

أي: قدْ كنتُم- يا مَعشرَ المؤمنين- قبلَ مجيء غزوةِ أُحُدٍ تَتحرَّقون شوقًا لمناجزةِ الأعداء، وتَطمَعون في الموتِ؛ لنَيلِ الشَّهادة في سَبيلِ الله تعالى، كما وقَع لإخوانِكم يومَ بدر[2].

﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾.

أي: ها قدْ حصَل لكم ما تمنَّيتموه من لِقاءِ الأعداءِ، وشاهدتُم بأمِّ أعينِكم يومَ أُحُد الموتَ وأسبابَه وشِدَّته، ومَن يموتُ مِن الناس، أبصرتُم ذلك عِيانًا، فلِمَ لمْ تَثبُتوا وتَصبروا؛ حتى تنالوا ما أردتموه من قبلُ[3]؟!

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٩١)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٩٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٣٣-٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٩٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٣٤-٢٣٥).

أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤)﴾.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾.

أي: إنَّ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ غيرُ مخلَّدٍ في الدُّنيا، بل له أُسوةٌ في إخوانِه المرسَلين في انقضاءِ أجلِه الدُّنيوي بالموتِ أو القتْل، كما وقَعَ لهم من قبلُ[١].

﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾.

أي: هلْ يَعني انقضاءُ أجَل نبيِّكم محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم بالموت أو القَتْل، أنْ يكونَ مبرِّرًا لكم لترتدُّوا عن دِينكم، فترجعوا من بعد نبيِّكم كفَّارًا[٢]؟!

﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾.

أي: إنَّ كلَّ مَن يَرتدُّ عن دِين الله تعالى، فإنَّما يضرُّ نفسَه في الحقيقةِ، ولن يُصيبَ اللهَ سبحانه شيءٌ من ضررِ ذلك؛ فإنَّ الله عزَّ وجلَّ غنيٌّ عنه وعن إيمانه، فلن يُوهِن ارتدادُه سُلطانَه، ولن يَنقصَ ذلك شيئًا من مُلكِه، ولن يَنال اللهَ سبحانه وتعالى بأيِّ سوء[٣].

﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى سيُثيب مَن قاموا بشُكر نِعَمه بقلوبِهم وألْسِنتِهم وجوارِحِهم، كالذين ثَبتوا على إيمانِهم، واتَّبعوا محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في حياتِه وبعد مماتِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٩٦، ٩٧)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (١٨/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٨)، ((تفسير السعدي)) =

عن عائشةَ رضي الله عنها: ((أنَّ أبا بكرٍ رضي الله عنه أقبلَ على فَرَسٍ مِن مَسْكِنِه بالسُّنُحِ[١]، حتى نزلَ فدخلَ المسجدَ، فلم يُكلِّمِ الناسَ حتى دخلَ على عائشةَ، فتيَمَّمَ[٢] رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وهو مغشيٌّ بثوبِ حِبَرَةٍ[٣]، فكشفَ عن وجهِه، ثم أكبَّ عليه فقبَّلَه وبكى، ثم قال: بأبي أنت وأمِّي! واللهِ لا يَجمَعُ اللهُ عليك مَوْتَتَيْنِ، أمَّا الموتةُ التي كُتِبَتْ عليك فقد مِتَّها. قال الزهريُّ: حدَّثني أبو سَلَمَةَ، عن عبدِ اللهِ بنِ عباسٍ: أنَّ أبا بكرٍ خرجَ وعمرُ بنُ الخَطَّابِ يُكلِّمُ الناسَ، فقال: اجلسْ يا عُمرُ، فأبَى عمرُ أن يَجلِسَ، فأقبلَ الناسُ إليه وتَركوا عمرَ، فقال أبو بكرٍ: أمَّا بعدُ، فمَن كان منكم يَعبُدُ محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فإنَّ محمدًا قد ماتَ، ومَن كان منكم يَعبُدُ اللهَ، فإنَّ اللهَ حيٌّ لا يموتُ؛ قال اللهُ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ...﴾ إلى قوله: ﴿الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤ - ١٤٥]. وقال: واللهِ لكأنَّ الناسَ لم يَعلَموا أنَّ اللهَ أنزلَ هذه الآيةَ حتَّى تلاها أبو بكرٍ، فتلقَّاها منه الناسُ كلُّهم، فما أسمعُ بَشرًا مِن الناسِ إلَّا يَتلوها، فأخبرني سعيدُ بنُ المُسَيَّبِ: أنَّ عمرَ قال: واللهِ ما هو إلَّا أنْ سمعتُ أبا بكرٍ تلاها فعَقِرْتُ[٤]، حتى ما تُقِلُّني[٥] رجلايَ، وحتى أَهْوَيتُ إلى الأرضِ حينَ

= (ص: ١٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٤٠-٢٤١).

(١) السُّنُح- بضمِّ السِّين والنونِ، وقيل: بسُكون النون-: موضِعٌ بعوالي المدينة، فيه منازلُ بني الحارث بن الخزرج. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٤٠٧).

(٢) فتيمَّم: أي: توخَّاه وقصَدَه دون مَن سواه. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٥/ ٢٠٦٤).

(٣) الحِبَرة- على وزن عِنَبَة-: ثوب يمانيٌّ من قُطن أو كَتَّان، مُخطَّط، يقال: بُردٌ حِبَرةٌ- على الوصف-، وبُردُ حِبَرةٍ- على الإضافة. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ١١٨).

(٤) فَعَقِرتُ: أي: أسلمتني قوائمي من الخوف، أو دُهشت ولم أستطِع أنْ أتقدَّمَ أو أتأخَّرَ من فجأة الرَّوع؛ مأخوذٌ من العَقَر- بفتحتين. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٢٧٣)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٥٩).

(٥) مَا تُقِلُّني- بِضَم أوله، وَكسر الْقَاف، وَتَشْدِيد اللاَّم-: أي ما تحمِلني، وَمِنْه قَوْله تَعَالَى: ﴿حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ [الأعراف: ٥٧]. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (١٨/ ٧٢).

سمعتُه تلاها، علمت أن النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قد مات))[(١)].

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥)﴾.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾.

أي: ولا يَنبغي أن تموتَ نفْسُ أيِّ أحدٍ مِن خَلْق الله تعالى، سواء كان محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أو غيره، إلَّا إذا أذِن الله جلَّ جلاله، وذلك حين يَبلُغ الوقتَ المحدَّد الذي كتَبه اللهُ تعالى لموته، فيَستوفي بذلك المدَّةَ المضروبةَ لحياته الدنيا؛ فأمَّا قبلَ ذلك فلنْ يموتَ أحدٌ لا بكيدِ كائدٍ، ولا بحِيلة محتالٍ، ولو اجتمعتْ حوله جميعُ أسبابِ الموت، فالجُبن لا يَزيد في العُمر، والشجاعةُ والإقدامُ لا تَنقص منه، وفي هذا تقويةٌ للنفوسِ على الجِهاد في سبيلِ الله عزَّ وجلَّ[(٢)].

قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١].

﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾.

أي: إنَّ مَن قصَد بأعمالِه وسَعيهِ طلبَ الدنيا فحسبُ، فسيُؤتيه اللهُ تعالى مُبتغاه منها، إنْ شاء، وليس له في الآخِرة من ثوابٍ على تلك الأعمالِ[(٣)].

---

(١) رواه البخاري (٤٤٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٠٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٥٠٠)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٥١٧، ٥١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٠٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٥٠٠)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٥١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٤٨-٢٤٩، ٢٥٣-٢٥٤).

قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨].

وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

وقال عز وجل: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ [البقرة: ٢٠٠].

﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾.

أي: وأمَّا مَن قصَد بأعمالِه وسَعيِه طلبَ ثوابها الأُخروي، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يُعطيه- بإذنه- ما ابْتغَى(١).

ولا يَمنع هذا مِن نَيلِ نَصيبِه الدُّنيويِّ الذي قَسَمه اللهُ تعالى له(٢).

كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤].

وقال أيضًا: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ [الشورى: ٢٠].

﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/١٠٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٥٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٥١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٤٩).

أي: إنَّ الله تعالى سيُثيب كلَّ شاكرٍ؛ فضلًا منه سبحانه[١].

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩].

الفوائد التربويَّة:

١- حبُّ الله وحبُّ الآخرة لا يتمُّ بالدَّعْوَى؛ فليس كلُّ مَن أقرَّ بدِين الله كان صادقًا، ولكن الفَصل فيه: تسليطُ المكروهات والمحبوبات؛ فإنْ بقِي الحبُّ عند تسليطِ أسباب البلاء ظهَر أنَّ ذلك الحبَّ كان حقيقيًّا؛ يُبيِّن ذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾، فالصَّبرُ والثباتُ عند جلائلِ المصائبِ أعظمُ دليلٍ على الوثوقِ باللهِ ووعدِه، الذي هو صريحُ الإيمان[٢].

٢- بيانُ أنَّ التمنِّي رأسُ مال المفاليس؛ فالتمنِّي دون فِعلِ السببِ خُسرانٌ، وذلك رأسُ مالِ المفلسِ الذي لنْ يُحصِّل له شيئًا، والجنة لا تُدرك بالتمنِّي؛ لقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾[٣].

٣- في قوله ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ دليلٌ على أنَّ الجَنَّةَ أعلى المطالِب، وأفضلُ ما به يتنافسُ المتنافسون، وكلَّما عظُم المطلوب، عظُمت وسيلتُه والعملُ الموصل إليه؛ فلا يُوصلُ إلى الراحةِ إلَّا بترْك الراحة، ولا يُدركُ النَّعيم إلَّا بتركِ النَّعيم، ولكنْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٧٥-٣٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٣٢).

مكارهُ الدنيا التي تُصيب العبدَ في سبيل الله عند توطينِ النَّفسِ لها، وتمرينِها عليها، ومعرفةِ ما تؤول إليه، تنقلبُ عند أربابِ البصائرِ مِنحًا يُسَرُّون بها، ولا يُبالون بها، وذلك فضلُ الله يُؤتِيه مَن يشاء[١].

٤- في قوله: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾: أنَّه لا يَكفي أنْ يُجاهد المؤمنون، إنما هو الصَّبرُ على تكاليفِ هذه الدَّعوة أيضًا؛ التكاليف المستمرَّة المتنوِّعة، التي لا تقِف عند الجِهادِ في الميدان، فربَّما كان الجهادُ في الميدان أخفَّ تكاليفِ هذه الدعوةِ التي يُطلب لها الصبر، ويُختبرُ بها الإيمانُ، إنما هنالك المعاناةُ اليوميَّة التي لا تَنتهي: معاناةُ الاستقامةِ على أُفق الإيمان، والاستقرارِ على مُقتضياتِه في الشعُّور والسلوك، والصَّبرِ في أثناء ذلك على الضَّعفِ الإنساني؛ في النَّفس، وفي الغير، ممَّن يتعامَلُ معهم المؤمنُ في حياتِه اليوميَّة. والصَّبرِ على الفتراتِ التي يَستعلي فيها الباطلُ ويَنتفِش، ويبدو كالمنتصِر! والصَّبرِ على طولِ الطريق، وبُعدِ الشُّقَّة، وكثرةِ العقبات. والصبرِ على وسوسة الرَّاحة، وهفوةِ النفس لها في زحْمةِ الجهدِ والكربِ والنِّضال. والصبرِ على أشياءَ كثيرةٍ ليس الجهادُ في الميدان إلَّا واحدًا منها، في الطريقِ المحفوفِ بالمكاره؛ طريقِ الجنة التي لا تُنال بالأماني، وبكلماتِ اللِّسان[٢].

٥- أنَّ الجهاد سببٌ لدخول الجنة؛ لقوله: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾، وهذا يدُلُّ على عِظَمَ مرتبتهِ في دينِ الله، ولا فَرْقَ بين الجِهادِ بالسِّلاح والجِهادِ بالعِلم؛ فكلاهما جهادٌ، بل قد تَحتاج الأمَّةُ الإسلاميَّة إلى جهادِ العلم أكثرَ ممَّا تحتاج إلى جهادِ السِّلاح، وقد يكونُ بالعكس، وقد يتساويان. ولكن لا بدَّ من وجودِهما في الأمَّة الإسلاميَّة[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٣٣).

٦- أنَّ الصَّبرَ سببٌ لدخول الجنَّة؛ لقوله: ﴿وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾، وأنَّ الجزاءَ يكون على قدْر العمل، فإذا كان ثوابُ الصبر الجنةَ، دلَّ على عِظَم مرتبتِهِ في دِين الله عزَّ وجلَّ(١).

٧- يجبُ على المرءِ ألَّا يطلُبَ أمرًا حتى يُفكِّر في عواقبِه، ويَسبُرَ مقدارَ تحمُّله لمصائبه، وأنَّه لا يَنبغي للإنسان أن يتمنَّى المكروه؛ لأنَّه إذا تمنَّاه ووقَع، ربَّما ينكِص، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾(٢).

٨- قوله: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾: أفاد أنَّه لا بأسَ أن يُوبِّخ الإنسانُ مَن تحدَّى، واتَّخذ لنفسِه مكانًا عاليًا إذا وجَده قد تخاذَلَ في هذا المكان(٣).

٩- قوله: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ﴾: هذه الآية تُنبِّه كلَّ مؤمنٍ إلى الحذرِ من الغرورِ بحديثِ النَّفس والتمنِّي والتشهِّي، وتَهديه إلى امتحانِ نفْسِه بالعملِ الشاق، وعدمِ الثِّقةِ بما دون الجِهادِ والصَّبر على المكارهِ في سَبيل الحقِّ؛ حتى يأمنَ الدعوَى الخادعةَ، بَلْهَ الدعوى الباطِلة، وإنَّما الخادعة أنْ تدَّعي ما تتوهَّم أنَّك صادقٌ فيه مع الغفلةِ أو الجهلِ بعجزك عنه، والباطلةُ لا تَخفى عليك، وإنَّما تظنُّ أنَّها تَخفى على سواك(٤).

١٠- ليسَ كلُّ مَن عزَم على شيءٍ عزمًا جازمًا قبلَ القُدرةِ عليه وعدمِ الصَّوارفِ عن الفِعل، تَبقَى تلك الإرادةُ عند القُدرةِ المقارنةِ للصوارفِ؛ يُبيِّن ذلك قولُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٣٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٣٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٣٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) (٤/ ١٣٠).

اللهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾(١).

١١- قوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ..﴾: فيه عدمُ الاعتمادِ في اتِّباعِ الحقِّ ولزومِه والثباتِ عليه على وُجودِ المعلِّم، بحيث يُترَك الحقُّ بعد ذَهاب المعلِّم أو موته(٢).

١٢- في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾: أنَّ لكلِّ نفْس كتابًا مؤجَّلًا إلى أجلٍ مرسوم، ولن تموتَ نفْسٌ حتى تستوفيَ هذا الأجلَ المرسوم؛ فالخوفُ والهلع، والحِرصُ والتخلُّف، لا تُطيل أجلًا، ومَن أحجمَ عن الجهاد، ذمَّه اللهُ تعالى ولم ينفعْه الإحجامُ، والشجاعةُ والثباتُ والإقدامُ والوفاءُ لا تُقصِّر عُمرًا، ومَن أقدمَ على الجهاد، شَكَر اللهُ تعالى له ذلك، ولم يَضرَّه الإقدامُ(٣).

١٣- المؤثِّر في جلْبِ الثواب والعقاب: هو القصدُ لا ظواهرُ الأعمال؛ يُبيِّن ذلك قولُه تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾(٤)؛ وشتَّان بين حياةٍ وحياةٍ! وشتَّان بين اهتمامٍ واهتمامٍ! مع اتِّحادِ النتيجةِ بالقياسِ إلى العُمر والأجل، والذي يَعيش لهذه الأرضِ وحْدَها، ويُريد ثوابَ الدنيا وحْدَها، إنَّما يَحيا حياةَ الدِّيدان والدوابِّ والأنعام، ثم يموتُ في موعدِه المضروبِ بأجَلِه المكتوب، والذي يَتطلَّعُ إلى الأفق الآخَر، إنما يَحيا حياةَ الإنسان الذي كرَّمه اللهُ واستخلَفَه وأفْرَده بهذا المكانِ، ثمَّ يموتُ في موعدِه المضروب بأجَلِه المكتوب(٥).

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٧٣٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ١٣٣).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٨٤). ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٨٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٧٩).
(٥) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٨٧).

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ... وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾، في هذه الآيةِ أعظمُ دليلٍ على فَضيلةِ الصِّدِّيقِ الأكبر أبي بكر، وأصحابِه الذين قاتَلوا المرتدِّين بعدَ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّهم هم ساداتُ الشَّاكرين[١].

٢- الاستدلالُ بِذِكر النَّظائِرِ؛ ليقتنعَ الإنسانُ بما سمِع؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾[٢].

٣- إثباتُ أنَّ محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ خاتمُ الرُّسل؛ لقوله: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ و(أل) هنا للعموم، ولم يقُل: (قد خلتْ من قبله رسل)، بل قال: ﴿الرُّسُل﴾، وإذا كان الرسلُ كلُّهم قد خَلَوْا من قبله، لزِمَ مِن ذلك أنْ يكونَ هو آخِرَهم[٣].

٤- الردُّ على مَن توهَّم أو زعَمَ أنَّ الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم حيٌّ في قبره؛ لقوله: ﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ﴾[٤].

٥- قال تعالى: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ ولم يَذكُرْ جزاءَهم؛ ليدلَّ ذلك على كثرتِه وعَظمتِه، وليعلمَ أنَّ الجزاءَ على قدْرِ الشُّكر؛ قِلَّةً وكثرةً وحسنًا[٥].

٦- جوازُ الإطلاقِ في الكلامِ إذا جاء مفسَّرًا في موضِع آخَر؛ لقوله: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾؛ فإنَّ هذه الآيةَ مجملَةٌ لم يُبيِّن الله تعالى كيف يكون هذا الجزاء، ولكنَّه قد بُيِّن في نصوص أخرى، كقوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٤٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٤٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥١).

أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، والشَّريعة يُفسِّر بعضُها بعضًا، ويُقيِّد بعضُها بعضًا، ويُخصِّص بعضُها بعضًا، وهذا يَجعل النَّفْسَ تتطلَّع إلى بيانِ هذا المجمَل، فتَحرِص وتَبحث، وتَقرِن بين الأدلَّة، فيكون المسلمُ ملمًّا بجميع النصوص[١].

٧- إثباتُ أنَّ كلَّ شيء- حتى الموت- مخلوقٌ لله في قوله: ﴿إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، وما كان صادرًا عن إذنٍ فهو مخلوقٌ، ويدلُّ لهذا قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾[٢] [الملك: ٢].

٨- أنَّه لا يُمكن أن يَتقدَّم الإنسانُ أو يتأخَّر عن الأجَل الذي قدَّره اللهُ له؛ لقوله: ﴿كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾، ويُؤيِّد هذا آياتٌ؛ منها قوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩]، ومنها: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾[٣] [المنافقون: ١١].

٩- أنَّ الناسَ لهم مشاربُ، ولكلِّ واحدٍ مسلكٌ؛ لقوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ﴾[٤].

١٠- أنَّ الإخبارَ عن الشَّيء، أو عن وقوعِ الشَّيء لا يدلُّ على حِلِّه؛ فقوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ لا يدلُّ على حِلِّ إرادةِ الإنسانِ الدُّنيا بعمله، إنَّما هو خبرٌ عن أمْرٍ وقَع، والحِلُّ والحُرمة يُؤخذانِ من دليلٍ آخَر من الشرع[٥].

١١- الردُّ على الجَبريَّة؛ لقوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ﴾ حيث أثبتَ للإنسان إرادةً،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٥٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٥٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والجبريَّة يقولون: إنَّ الإنسانَ ليس له إرادةٌ، وإنَّه يفعل بدون اختيارٍ ولا إرادة، ولكنْ كلُّ النُّصوصِ السَّمعيَّة والعقليَّة تردُّ على قولهم(١).

١٢- إيثارُ إرادةِ الآخِرة على الدُّنيا؛ لقوله: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾؛ فإنَّ هذا يدلُّ على أنَّ مَن أراد الآخرة، فإنَّه من الشاكرين الذين يَجزيهم اللهُ عزَّ وجلَّ(٢).

١٣- إثباتُ الجزاءِ على العمل، وهو دائرٌ بين أمرين، بين عدْلٍ وفَضْل، ويمتنع الأمرُ الثالث، وهو الظُّلمُ بالنِّسبة للهِ عزَّ وجلَّ، ولكنْ لكمال عدْله سبحانه وتعالى قال: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾(٣).

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ الهمزةُ فيه للإنكارِ، والاستفهامُ المقدَّر بعدَ ﴿أَمْ﴾ مُستعمَلٌ في التَّغليطِ والنهيِ؛ ولذلك جاء بـ﴿أَمْ﴾؛ للدَّلالةِ على التغليط، أي: لا تَحْسَبوا أنْ تَدخُلوا الجَنَّةَ دون أنْ تُجاهِدوا وتَصبِروا على عواقِب الجهاد(٤)، فصِيغةُ السُّؤالِ الاستنكاريَّة يُقصَد بها التَّنبيهُ بشِدَّة إلى خطإِ هذا التصوُّر؛ تصوُّر أنَّه يَكفي الإنسانَ أن يقولَها كلمةً باللِّسان(٥).

٢- قوله: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ فيه تَكرارُ الفِعل (يعلم)؛ إمَّا لاختلافِ المتعلَّق، وإمَّا للتَّنبيهِ على فَضْل الصَّابِر(٦).

٣- قوله: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٥٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٥٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٠٦).
(٥) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٨٣).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٨١).

تَنظُرُونَ﴾ أي: تتمنَّوْن الحربَ ومناجزةَ الأعداء يوم أُحد؛ فإنَّها من مبادِئ الموتِ، أو تتمنَّون الموتَ بالشَّهادة في سبيل الله، وهو خبرٌ فيه توبيخٌ لهم على تمنِّيهم الحربَ، وعلى ما تَسبَّبوا له مِن خروجِ رسولِ اللَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بإلحاحِهم عليه، ثمَّ انهزامِهم عنه وقِلَّة ثباتِهم عندَه، كأنَّه قيل: إنْ كُنتُمْ صادقينَ في تمنِّيكم ذلك، فقدْ رأيتُموه معاينينَ له، حِين قُتِلَ بين أيديكم مَنْ قُتل مِن إخوانِكم وأقاربِكم، وشارفتُم أن تُقتلوا، فلِمَ فعلتُم ما فعلتُم. وليس التوبيخُ على تمنِّي الشَّهادةِ بناءً على تضمُّنها لغلَبَةِ الكفَّارِ؛ لأنَّ مَطلبَ مَن يتمنَّاها نيلُ كرامةِ الشُّهداءِ، من غير أنْ يخطُرَ بباله شيءٌ غيرُ ذلك، فلا يستحِقُّ العتابَ من تلك الجِهة(١).

٤- قوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ فيه قصرٌ، والقصرُ قلبيٌّ(٢)؛ فإنَّهم لَمَّا انْقَلبوا على أعقابِهم، فكأنَّهم اعتَقدوا أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلام رسولٌ لا كسائرِ الرُّسلِ في أنَّه يخلو كما خَلَوا، ويجب التمسُّكُ بدِينه بعده، كما يجب التمسُّكُ بدِينهم بعدَهم، فردَّ عليهم بأنَّه ليس إلَّا رَسولًا كسائرِ الرُّسلِ، فسَيخْلُو كما خلَوْا، ويجبُ التمسُّكُ بدِينه كما يجبُ التمسُّكُ بدِينهم(٣).

٥- قول الله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ فيه ذِكر ﴿الرُّسُل﴾ بالتَّعريفِ الدالِّ على العُموم، ويُؤخذُ منه التَّفخيمُ للرُّسل، والتنويهُ بهم على مُقتضَى حالِهم مِن اللهِ تعالى(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٠٧-١١٠).

(٢) القصر القلبي: هو ردُّ المخاطَب إلى إثباتِ ما ينفيه، ونفيِ ما يثبتُه من الحُكم. يُنظر: ((حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٤٢).

٦- قوله: ﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ همزةُ الاستفهام في ﴿أَفَإِنْ﴾ للإنكار، والفاءُ للسببيَّة، وهذا يؤكِّدُ ما اقتضتْه جملةُ القصر، من التعريضِ بالإنكارِ عليهم في اعتقادِهم خلافَ مضمونِ جُملة القصر؛ فقد حصَل الإنكارُ عليهم مرَّتين: إحداهما بالتعريضِ المستفادِ من جُملة القصر، والأُخرى بالتَّصريحِ الواقِع في هذه الجُملة[1].

- وقوله: ﴿مَاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ فيه: تَكرار؛ وقد سوَّغه كونُ العُرفِ في الموتِ خِلافَ العُرْف في القَتْل، وإنْ كان كلاهما واحدًا من حيثُ مفارقةُ الرُّوحِ الجسدَ[2].

٧- قوله: ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا﴾ خبرٌ، الغرضُ منه تأكيدُ الوعيد؛ لأنَّ كلَّ عاقلٍ يعلمُ أنَّ الله تعالى لا يَضرُّه كفرُ الكافرين، بل المرادُ أنَّه لا يضرُّ إلَّا نفسَه[3].

- وقوله تعالى: ﴿فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا﴾، أي: شيئًا من الضَّرر، لا قليلًا ولا كثيرًا؛ أفادَ ذلك التَّنكيرُ في ﴿شَيْئًا﴾ حيثُ وقَع في سِياقِ النَّفي[4].

٨- قوله: ﴿وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾ فيه مناسبةٌ حسنةٌ بإتْباعِ الوعيدِ بالوَعْد[5].

- وفيه: إظهارُ الاسمِ الجليلِ (الله) في موقِعِ الإضمار؛ لإبرازِ مزيدِ الاعتناءِ بشأن جزائِهم[6].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١١٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٨١).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٧٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١١٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٧٧).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩٤).

٩- قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ خبرٌ فيه تحريضٌ وتشجيعٌ على القتال[١].

- وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ...﴾ جِيءَ الحُكمُ بصِيغة الجُحود (ما كان)؛ للمبالغةِ في انتفاءِ أنْ يكونَ موتٌ قَبْل الأجَلِ[٢].

- وقوله: ﴿مُؤَجَّلًا﴾: يُؤكِّد معنى ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾؛ لأنَّ قوله: ﴿بِإِذْنِ اللهِ﴾ يُفيد أنَّ له وقتًا قد يكون قريبًا، وقد يكون بعيدًا[٣].

١٠- قوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ﴾:

- قوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾: خبرٌ فيه تعريضٌ بالذين شَغلتْهم الغنائمُ يومَ أُحُدٍ[٤].

- وقوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ﴾ فيه تكرار[٥]، وهو يُفيدُ التأكيدَ على المعنى.

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٨١).

الآيات (١٤٦ - ١٤٨)

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿وَكَأَيِّنْ﴾: لفظةٌ مركَّبةٌ من كافِ التَّشبيهِ و(أيٍّ)، حدَث فيها بَعدَ هذا التركيبِ معنى التَّكثيرِ(١).

﴿رِبِّيُّونَ﴾: أي: جماعاتٌ كثيرة، والواحدُ منها رِبِّيٌّ، ويُقال: الأُلوف، وأصلُه من الرِّبَّة، وهي: الجماعةُ، كأنَّ الرِّبِّيَّ نُسِب إليها(٢).

﴿وما اسْتَكَانُوا﴾: أي: ما خشَعوا وما ذَلُّوا، وما خَضعوا للعدوِّ، ومنه أُخذ المستكين، وأصلُ الاستكانة: إظهارُ الضَّعْف(٣).

﴿وَإِسْرَافَنَا﴾: وإفراطَنا، والسَّرَف: تجاوزُ الحدِّ في كلِّ فِعلٍ يَفعلُه الإنسانُ، وأصلُه: تعدِّي الحدِّ، والإغفالُ للشَّيءِ أيضًا(٤).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٨٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/١١٦-١١٧).

(٢) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ١٠٤)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣، ٢٩٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٥).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣١).

كلمة ﴿كَأَيِّنْ﴾ مركَّبةٌ من كافِ التَّشبيه و(أيٍّ)(١)، وأمَّا موقعُها الإعرابيُّ: فهو الرَّفْعُ بالابتداءِ، والخبرُ جملة ﴿قَاتَلَ﴾، والتقديرُ: كثيرٌ من الأنبياءِ قاتَلَ. وعلى هذا يكون ﴿مَعَهُ رِبِّيُّونَ﴾ جملةً في محلِّ نصْب على الحالِ مِنَ الضمير في ﴿قَاتَلَ﴾، ويجوزُ أن يكونَ ﴿مَعَهُ﴾ وحْدَه هو الحال، و﴿رِبِّيُّونَ﴾ فاعلًا بهذا الظرف الذي وقع حالًا- وعَمِلَ الظرفُ هنا لاعتمادِه على صاحِب الحالِ الذي هو الضَّميرُ في ﴿قَاتَلَ﴾- والتقديرُ: استقرَّ معه رِبيُّون، ولا يحتاج هنا إلى واو الحال؛ لأنَّ الضميرَ الذي في (معه) هو الرَّابط. أو يكون ﴿قَاتَلَ﴾: جملةً في محلِّ جرٍّ، صفة لـ﴿نَبِيٍّ﴾، و﴿مَعَهُ رِبِّيُّونَ﴾ هو الخبر، وفيه الوجهان المتقدِّمان في جعْله حالًا، يعني: أن يكون ﴿مَعَهُ﴾ خبرًا مُقدَّمًا و﴿رِبِّيُّونَ﴾ مبتدأً مؤخَّرًا، والجملة خبر ﴿كَأَيِّنْ﴾، أو يكون ﴿مَعَهُ﴾ وحْده هو الخبرُ، و﴿رِبِّيُّونَ﴾ فاعلٌ به ؛ لاعتمادِ الظَّرْف ﴿مَعَهُ﴾ على صاحِب خبر. ويجوزُ أن يكونَ ﴿رِبِّيُّونَ﴾ فاعِلَ ﴿قَاتَلَ﴾، وتكونَ الجملةُ الفِعليَّة ﴿قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ خبرًا لـ﴿كَأَيِّنْ﴾. وقيل غير ذلك(٢).

المعنى الإجماليُّ:

يُخبر اللهُ تعالى أنَّه: كمْ مِن نبيٍّ من الأنبياءِ قاتَل وشارَكه في ذلك من أتْباعه الكثيرُ، فأصابهم ما أصابَهم في سبيلِ الله، لكنَّ ذلك لم يكُن حاملًا لهم على مفارقةِ دِينهم، أو ترْك الجِهادِ في سَبيل الله؛ فما ضعُفتْ أبدانُهم ولا قلوبُهم ولا

(١) و(أيٍّ) منوَّنة، وحقُّها أن يُوقفَ عليها بغير نون؛ لأنَّ التنوين يُحذف وقفًا، ولكن ثبَت في المصاحف نونٌ بعد الياء؛ لأنَّها كلمةٌ نُقلت عن أصلِها، فالوقفُ عليها بالنون اتِّباعًا للمصحف، وقيل غير ذلك في بِنيتها الصرفيَّة، وفي لُغاتها. وقيل: إن ﴿كَأَيِّن﴾ كلمة بسيطة غير مركَّبة وأنَّ آخرها نون هي مِن نفس الكلمة لا تنوين، وهذا أسهلُ. يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٤٢٦).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٧٥ - ١٧٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٢٩٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٤٢١ - ٤٢٦).

هِمَمُهم، ولا لانَتْ عزائمُهم، ولم يَذلُّوا لعدوِّهم، واللهُ تعالى يحبُّ الصَّابرين؛ كهؤلاءِ ومَن على شاكِلتِهم.

ولم يكُن لهم مِن قَولٍ يقولونه بعدَ ما حصَل لهم إلَّا أنَّهم طلَبوا المغفرةَ مِن الله لذُنوبِهم، ولتجاوُزِهم ما حدَّه الله تعالى في جميعِ أُمورِهم، وأنْ يُثبِّتَ الله أقدامَهم، وينصرَهم على أعدائِه وأعدائِهم من الكافرين، فأعطاهم اللهُ ثوابَ الدُّنيا مِن نصْرٍ وغنيمةٍ وغيرها، وحُسنَ ثوابِ الآخِرة من رِضَا الله، والخلودِ في جنَّته، واللهُ تعالى يُحبُّ المحسنين.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّه لَمَّا كان من المؤمنين ما كان يومَ أُحُد، وعتَبَ عليهم اللهُ ما وقَع منهم، أخبرَهم أنَّ طريقةَ أتْباعِ الأنبياء المتقدِّمين: الصَّبرُ على الجِهاد، وترْكُ الفرار؛ فكيف يليقُ بكم هذا الفرارُ والانهزام[1]؟!

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿قَاتَلَ﴾ قِراءتان:

١- قِراءة (قُتِلَ) على البِناء للمَفعول[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٨٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٦٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٨٥).

(٢) قرأ بها نافع وابن كثير والبصريَّان. يُنظر: ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٥٩)، ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٩٤).

٢- قِراءة ﴿قَاتَلَ﴾ على البِناءِ للفاعِلِ [(١)].

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾.

أي: كَثيرون هم الأنبياءُ الذين قاتَلَ جموعٌ كثيرةٌ من أتْباعهم، وقُتِلَ كثيرٌ منهم، فلم يحملْ ذلك بقيَّتهم على التزعزع عن دينهم، أو على أن يتركوا جهاد عدوهم [(٢)].

﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

أي: إنَّ أبدانَهم لم تضعُفْ، وهمَّتهم لم تتثبَّط، ولم يَجبُنوا عن جِهادِ العدوِّ؛ بسببِ ما نالهم من جِراحٍ، وغيرِ ذلك مِن أذًى في سبيلِ الله عزَّ وجلَّ [(٣)].

﴿وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾.

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٥٩)، ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٧٥)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (١/ ٥٨-٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥١).

وقيل: يحتمل على قراءة (قاتل) أن يكون القتالُ واقعًا من النبيِّ، وأنَّ له أتباعًا كثيرين يقاتلون معه، فلم يقعْ منهم وهنٌ ولا ضعفٌ.

وعلى قراءة ﴿قُتِلَ﴾ قيل: يحتمل أن يكونَ القتلُ واقعًا على النبيِّ، ولم يكن ذلك سببًا لتراجعِهِ ووهنِهم.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١١٠، ١١١، ١١٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٥٠٠- ٥٠١)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٥٢٠- ٥٢١)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٢٢٩-٢٣٠)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (١/ ٥٨ -٦٠)، ((الحسنة والسيئة)) لابن تيمية (ص: ١٢٣-١٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٣٠- ١٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١١٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة آل عمران)) (٢/ ٢٥٦-٢٦٠).

وممَّن قال من السَّلف في معنى ﴿ربيُّون﴾ بنحو ما ذُكر: ابن عبَّاس، وابن مسعود، وعطاء، ومجاهد، وسعيد بن جُبَير، وهو أحد قولي الحسَن، وعِكرمة، والسُّدِّي، وعطاء الخراساني، وقتادة، والربيع. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١١١)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٣/ ٧٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٦٠).

أي: إنَّ قلوبهم لم تضعُف، وعَزائمَهم لم تَلِنْ، وقُواهم لم تَخِرْ؛ بسببِ ما أصابهم، ولم يَذِلُّوا لعدوِّهم(١).

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾.

أي: واللهُ تعالى يحبُّ هؤلاءِ وأمثالَهم؛ من الصَّابرين على طاعتِه وجِهادِ أعدائه، ويُحبُّ مَن صبَرَ عن معصيتِه، وعلى أقدارِه سبحانه(٢).

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٦١).

فائدةٌ في الفَرْق بَينَ الضَّعف والوهن: أنَّ الضَّعفُ خِلافُ القوَّة، ويكون الضَّعفُ-بفتح الضاد وضمها- في الجَسدِ والرأي والعَقل. والوهن: هو أنْ يفعلَ الإنسان فِعلَ الضعيف؛ يقال: وهن في الأمرِ إذا أخذ فيه أخْذ الضعيف، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ [آل عمران: ١٣٩]، أي: لا تَفْعلوا أفعالَ الضُّعفاء؛ ويدلُّ على صحة هذا: أنه لا يُقال: خلَقَه الله واهنًا كما يُقال خلقَه الله ضعيفًا. وقد يُستعمل الضعفُ مكانَ الوهن، كقوله: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ [آل عمران: ١٤٦]، أي: لم يَفعلوا فِعلَ الضَّعيف. ويجوزُ أن يُقال: إنَّ الوهنَ هو انكسارُ الجَسدِ بالخوفِ ونحوه، والضَّعْف نُقصانُ القوَّة.

وقيل: إنَّ الوهن الضَّعفُ في العَملِ والأمر، وكذلك في العَظم ونحوه؛ يقال: وَهَن العَظمُ، ورجُل واهِنٌ في الأمر والعمل، وموهونٌ في العَظْم والبدن.

يُنظر: ((معجم الفروق اللغوية)) للعسكري (ص: ٣٣٠- ٣٣١)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١/ ٣٠٦) و(٦/ ٢٣٤)، ((المحكم والمحيط الأعظم)) لابن سِيده (١/ ٤١١) و(٤/ ٤٢٩).

وقيل: هُما متقارِبان تقاربًا قريبًا من الترادُف؛ فالوهنُ: قِلَّةُ القُدرةِ على العملِ وعلى النُّهوضِ في الأمْر، والضَّعفُ: ضِدُّ القوَّة في البَدن؛ فالوهنُ أقربُ إلى خَورِ العزيمة ودَبيبِ اليأس في النفوس والفِكر، والضَّعفُ أقربُ إلى الاستسلامِ والفشلِ في المقاومة. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١١٨- ١١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٦١).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّ الله تعالى لَمَّا ذَكَر ما كان عليه الرِّبِّيُّون من الجَلَد والصبر، وعدمِ الوهنِ والاستكانةِ للعدوِّ، وذلك كلُّه من الأفعالِ النفسانيَّة التي يَظهر أثرُها في الجوارح، ذكَر ما كانوا عليه من الإنابةِ والاستغفارِ، والالْتجاءِ إلى الله تعالى بالدُّعاء[1]، فقال:

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾.

أي: ولم يكُن لدَى الربِّيِّين من قولٍ يَنطِقون به، سوى طلبِ المغفرةِ من الله تعالى بسَتْر ذنوبِهم، وسَتْر إفراطِهم في جميعِ شؤونهم، بتجاوُزهم ما حَدَّه اللهُ تعالى فيها، وطلبِهم التجاوزَ عن المؤاخذةِ بذلك[2].

﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾.

أي: ومِن جملةِ دُعائهم: طلبُهم مِن اللهِ تعالى الثباتَ في وجوهِ الأعداءِ لِقتالهم[3].

﴿وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

أي: ومِن جملةِ ما سألوه ربَّهم سبحانه: أنْ يمنحَهم الفوزَ على الكفَّار[4].

﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّ الله تعالى لَمَّا أتمَّ الثناءَ على فِعل الرِّبِّيِّين في الصَّبر، وطريقتِهم في الدُّعاء،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١١٩، ١٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٦٤-٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٦٦-٢٦٧).

ذكَر ما سبَّبه لهم ذلك من الجَزاء في الدُّنيا والآخِرة(١)، فقال:

﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى قد منَحهم بفضله جزاءً في الدنيا، كالنَّصرِ على الأعداءِ، والظَّفر بالغنائمِ، وغيرِ ذلك، وضمَّ لهم مع أجْر الدنيا جزاءَ الآخرة الحَسَن، من الفوز بِرضوانِ الله تعالى، والخلودِ في دار السَّعادة الأبديَّة(٢).

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى جازاهم بالإحسان الدُّنيويِّ والأخرويِّ؛ لإحسانِهم العملَ؛ فإنَّ الله تعالى يحبُّ كلَّ محسِنٍ في عِبادتِه سبحانه، وفي تعامُلِه مع مخلوقاتِه(٣).

الفوائدُ التربويَّةُ:

١- التأسِّي بمَن مضَى من صالِحِي الأُمم السَّابقة؛ يُبيِّن ذلك قولُه تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ..﴾(٤).

٢- أنَّ مِن طُرُقِ التَّشجيعِ على الشَّيءِ والإغراءِ به، أنْ يُذكَر للإنسانِ سَلفٌ يَقتدي به، ويَتشجَّع للحاقِ به؛ لقوله: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾(٥).

٣- الإشارةُ إلى انحطاطِ مرتبةِ الذين يَذِلُّون لأعداءِ الله؛ يُؤخَذ من قوله:

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٦٨-٢٦٩).

قال الماورديُّ: (﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ الجنةُ، في قول الجميع) ((تفسير الماوردي)) (١/ ٤٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٦٩-٢٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٦٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٦٢).

﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾؛ وذلك أنَّ الإنسانَ المؤمِن يجبُ أن يكونَ أشمَّ؛ كالطَّودِ العظيمِ بالنِّسبةِ لأعداء الله، حتى إنَّه يجوزُ للإنسانِ الخُيلاءُ، وجرُّ الثوبِ في مقابلةِ الأعداءِ[١].

٤- مَن صبَر على تحمُّل الشَّدائد في طريق الله، ولم يُظهِرِ الجزعَ والعجزَ والهلعَ، فإنَّ الله يحبُّه؛ يُبيِّن ذلك قولُه تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾[٢].

٥- مَن عَوَّلَ في تحصيلِ مَهمَّاته على نفْسه ذَلَّ، ومَن اعتَصَم بالله بالدعاء، والتضرُّع بطلبِ الإمدادِ والإعانةِ منه تعالى، فازَ بالمطلوب؛ يُبيِّن ذلك قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[٣].

٦- تقديمُ التوبةِ والاستغفارِ في الدُّعاء عند النوائب والمِحَن؛ سواءٌ كان في الجهاد، أو غيرِه، فما نزَل من بلاءِ الدُّنيا إنَّما هو بذنوبٍ من البَشر؛ يُبيِّن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[٤].

٧- أنَّ الإنسانَ مُفتقرٌ إلى مغفرةِ الله؛ لقوله: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾، ولو كان غنيًّا عنها ما سألها، ولكنَّه مفتقرٌ إليها غايةَ الافتقار[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٦٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٨١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٨١)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٧٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٦٧).

٨- في قولهم: ﴿وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾، أنَّ الإنسانَ لا يَخلو من الإسرافِ على نفْسه: إمَّا في غُلو، وإمَّا في تقصيرٍ؛ وجه ذلك: أنَّ سؤالهم اللهَ أنْ يغفرَ لهم الإسرافَ يدلُّ على وجودِ هذا الشَّيء، وإذا تأمَّل الإنسانُ نفْسَه، وجَد أنَّه لن يَخلوَ من الإسرافِ[1].

٩- أنَّ الإنسانَ مُفتقرٌ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ في تثبيتِ القدَم؛ لقوله: ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾، وهذا يتأكَّدُ في ثلاثةِ مواطنَ: عند مواجهةِ الأعداء، وعندَ الشُّبهاتِ، وعندَ الشَّهوات[2].

١٠- الإشارةُ إلى خِفَّة شأنِ الدُّنيا بالنِّسبة للآخِرة؛ لقولِ الله تعالى: ﴿ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ﴾، فكأنَّ الدنيا ليستْ بشيءٍ حتى يكونَ فيها حُسْن؛ ففيه إشارةٌ إلى أنَّ العاقلَ يَنبغي له أن يَعتني بثوابِ الآخِرة الذي هو حسنٌ[3].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- قوله: ﴿واللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ له وقعُه وله إيحاؤُه؛ فهو الحبُّ الذي يُعالج الجِراح، ويَمسحُ على القرحِ، ويُعوِّض ويَربو عن الضرِّ والقُرحِ، والكِفاحِ المريرِ[4].

٢- أنَّ هؤلاءِ الرِّبِّيِّين الذين قاتلوا مع النبيِّ كمُلت منهم الأفعال والأقوال؛ من الأفعال قولُه تعالى: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾، ومن الأقوال: أنَّهم لَجَؤوا إلى الله عزَّ وجلَّ بسؤال المغفرةِ؛ مغفرةِ الذنوبِ والإسرافِ في الأمْر؛ لأنَّهم يَعلمون أنَّ ما أصابَهم إنَّما هو بسببِ الذُّنوب[5].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٦٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٧٣).
(٤) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٨٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٦٧).

٣- أنَّه يَنبغي على الإنسانِ أنْ يَدعوَ الله تعالى بهذا الدُّعاء، لا سيَّما عندَ ملاقاة الكفَّار؛ حتى ينتصرَ عليهم: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[1].

٤- في قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾، إنَّما قدَّموا قولهم: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾؛ لأنَّه تعالى لَمَّا ضمِن النُّصرةَ للمؤمنين، فإذا لم تَحصُل النصرةُ وظهَرتْ أماراتُ استيلاءِ العدوِّ، دلَّ ذلك ظاهرًا على صدورِ ذنبٍ وتقصيرٍ من المؤمنين؛ فلهذا المعنى يجبُ عليهم تقديمُ التوبةِ والاستغفارِ على طلبِ النُّصرة[2].

وقيل: قدَّموا طلبَهم الاستغفارَ على طلبِ تثبيتِ الأقدام والنُّصرة؛ ليكونَ طلبُهم ذلك إلى الله عن زكاةٍ وطهارةٍ، فيكون طلبُهم التثبيتَ بتقديمِ الاستغفارِ حريًّا بالإجابة[3].

٥- في قول الله تعالى حكايةً عن المؤمنين: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾، بدؤوا بالتوبةِ عن كلِّ المعاصي، وهو المرادُ بقوله: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾، فدخَل فيه كلُّ الذنوب، سواء كانتْ من الصَّغائر أو من الكبائر، ثم إنَّهم خَصُّوا الذنوبَ العظيمةَ الكبيرة منها بالذِّكرِ بعد ذلك؛ لعِظَمها وعِظَم عِقابها، وهو المرادُ من قوله: ﴿وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾؛ لأنَّ الإسرافَ في كلِّ شيء هو الإفراطُ فيه[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٦٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٨١).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٧٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٢٠).

٦- في قول الله تعالى: ﴿فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ﴾، قدَّم ثوابَ الدنيا؛ ليكونَ ذلك إعلامًا بتعجيلِ إجابةِ دَعوتِهم لحصولِ خيرَيِ الدُّنيا والآخِرة؛ ولأنَّ ذلك في الزَّمانِ مُتقدِّمٌ على ثوابِ الآخِرة[1].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ خبرٌ عن السَّابقين، فيه تعريضٌ بالمخاطَبين، بما أصابَهم من الوهنِ والانكسارِ عندَ الإرجافِ بقتْلِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وبضَعْفِهم عند ذلك عن مجاهدةِ المشركين، واستكانتِهم لهم[2].

- قوله: ﴿فَمَا وَهَنُوا﴾، ﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾، ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾: فيه جمْع بين الوهن والضَّعف، وهما مُتقاربان تقاربًا قريبًا من التَّرادُف؛ للتأكيدِ، وأمَّا الاستكانةُ؛ فهي الخضوعُ والمذلَّة للعدوِّ. ومن اللَّطائف: ترتيبُ هذه الثلاثةِ في الذِّكر على حسَب ترتيبِها في الحُصولِ؛ فإنَّه إذا خارتِ العزيمةُ، فَشِلت الأعضاءُ، وجاء الاستسلامُ، فتبعتْه المذلَّةُ والخضوعُ للعدوِّ[3].

- وفي الآية: تعريضٌ بتَشبيهِ حالِ أصحابِ أُحُدٍ بحالِ أصحابِ الأنبياءِ السَّالفين؛ لأنَّ محلَّ المَثلِ ليس هو خُصوصَ الانهزامِ في الحرْب، بل ذلك هو المُمثَّل، وأمَّا التَّشبيه؛ فهو بصبرِ الأتْباعِ عند حلولِ المصائِب، أو موتِ المتبوع[4].

٢- قوله: ﴿وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ تذييلٌ مقرِّر لِمَا قبلَه، وإظهارُ الاسمِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٢١).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٢٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١١٨- ١١٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ١١٦).

الجليل (الله) في موضِعِ الإضمار؛ للثَّناءِ على الصَّابرين بحُسنِ الصَّبرِ، والإشعارِ بعِلَّة الحُكم[١].

- وفيه: توكيدُ الخبرِ باسميَّة الجملة[٢].

٣- قوله: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا﴾ فيه تقديمُ خبر (كان) على اسمِها؛ لأنَّه خبرٌ عن مبتدأ محصورٌ؛ إذ المقصودُ حصْرُ أقوالِهم حينئذٍ في مقالة: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾، فالقصرُ حقيقيٌّ؛ لأنَّه قصرٌ لقولهم الصادِر منهم، حين حصولِ ما أصابهم في سبيل الله[٣].

٤- قوله: ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ فيه تخصيصُ ثوابِ الآخِرة بالحُسن؛ للدَّلالة على فضلِه وتقدُّمه، وأنَّه هو المعتدُّ به عنده[٤]؛ وذلك لأنَّ ثوابَ الآخِرة كلَّه في غايةِ الحُسن، فما خصَّه اللهُ بأنَّه حَسنٌ من هذا الجِنس، فانظر كيف يكونُ حُسنُه؟! ولم يَصِفْ ثوابَ الدنيا بذلك؛ لقلَّتِها وامتزاجِها بالمضارِّ، وكونِها منقطعةً زائلة[٥].

٥- قوله: ﴿واللهِ يُحِبُّ المحْسِنينَ﴾ أي: يحبُّ كلَّ محسن، وهو تذييلٌ، وموقِعُ التذييلِ يدلُّ على أنَّ المتحدَّث عنهم هم مِن الذين أحْسنوا؛ فاللامُ للجِنس المفيدِ معنى الاستغراق[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩٦)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٥٥٦).

(٢) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٥٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٢٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٨٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٢١).

الآيات (١٤٩ - ١٥٥)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى
أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٤٩) بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ
(١٥٠) سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ
يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١)
وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا
فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ
مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ
عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢)
۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ
فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ
وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣) ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ
بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ
يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ
الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ
شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى
مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤) إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ
الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥)﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿الرُّعْبَ﴾: أي: الجزَعَ والهلَع والخوف، وقيل: الرُّعب هو الخوفُ الذي

يملأُ الصَّدرَ والقلبَ، وقيل: إنَّه أشدُّ الخوفِ، وأصلُ الرُّعب: يدلُّ على الخوفِ، والملءِ، والقَطع(١).

﴿سُلْطَانًا﴾: أي: حُجَّة، وأصْلُ السُّلطان: القوَّة والقَهر، من التَّسلُّط؛ ولذلك سُمِّي السُّلطانُ سُلطانًا(٢).

﴿وَمَأْوَاهُمُ﴾: مرجعُهم الذي يَعُودون إليه، والمَأْوى: مَكَانُ كلِّ شَيْءٍ ومرجعُه الَّذي يعودُ إليه ليلًا أو نهارًا؛ يُقال: أَوَى إلى كذا، أي: انضمَّ إليه، وأصْله: التَّجمُّع(٣).

﴿مَثْوَى﴾: أي: مَنزِل، يُقال: ثَوَى يَثْوِي ثَوَاءً، والثَّوَاء: الإقامةُ مع الاستقرارِ، وأصلُ (ثوي) يدلُّ على الإقامة(٤).

﴿تَحُسُّونَهُمْ﴾: أي: تَستأصِلونهم قتلًا، أو تقتلونهم، وأصْل حَسَس: غلبةُ الشَّيء بقتْل أو غيره، وحِكايةُ صوت عند توجُّعٍ وشَبَهِه(٥).

﴿فَشِلْتُمْ﴾: أي جَبُنتُم، والفَشل: ضَعْفٌ مع جُبن(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٦)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٢/ ٥٠٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٧، ٤٢٠، ٧٢٤).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٣).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٩٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٥).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٨).

(٦) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٠٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٩).

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾: أي: تُبعِدون في الهزيمةِ، والصُّعود: الذَّهابُ في المكانِ العالي، وأصْل الصُّعود: ارتفاعٌ ومشقَّة[١].

﴿وَلَا تَلْوُونَ﴾: تُمعِنون في الهزيمةِ، ولا يقِفُ أحدٌ لآخَر، واللَّيُّ: فَتْل الحبلِ، وأصْله: إمالة للشَّيء[٢].

﴿فِي أُخْرَاكُمْ﴾: أي: في آخِركم، أو مِن خَلْفِكم، وأصل (أخر): خِلافُ التَّقدُّمِ[٣].

﴿يَغْشَى﴾: يُغطِّي ويَستُر، من غَشِي الشَّيءَ، أي: غطَّاه وسَتَره[٤].

﴿لَبَرَزَ﴾: لظَهَر من الصَّفِّ للمُبارَزة للقتال، والبَرازُ المتَّسَعُ من الأرض، أو الفضاءُ، وأصْله: ظهورُ الشَّيء وبُدوُّه[٥].

﴿مَضَاجِعِهِمْ﴾: جمْعُ مَضْجَع، وهو موضِعُ الضُّجوع، وأصلُ (ضجع): اللُّصوقُ بالأرضِ على جَنْبٍ[٦].

﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾: أي: ليُطهِّر، ويَختبِر، ويُنقِّي، والتَّمحيص: الابتلاءُ والاختبار، وأصْل المَحْصِ: تَخليصُ الشَّيءِ، وتنقيتُه ممَّا فيه من عَيبٍ[٧].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٤٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٧٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٥)، ((المفردات)) للراغب للراغب (ص: ٦٠٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٦).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٨).

(٦) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٩٠)، ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٣٥٨).

(٧) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٠٠)، =

﴿اسْتَزَلَّهُمُ﴾: طلَبَ زَلَلَهم، والزَّلَّة: الخطأُ، والذَّنب من غيرِ قصدٍ وأصل الزَّلل: استرسالُ الرِّجْلِ من غيرِ قصْدٍ[1].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُحذِّرُ الله تعالى عبادَه المؤمنين من طاعةِ الكفَّار؛ وذلك أنَّ طاعتَهم تؤدِّي بهم إلى ردِّهم إلى الكُفْر، فيَهلِكوا في الدُّنيا والآخِرة؛ فالله سبحانه هو مَن يتولَّى عبادَه، ويَنصُرهم وهو خيرُ مَن نَصرَ.

ثم يُخبِر تعالى أنَّه سيُدخِل الرُّعبَ في قلوب الكفَّار؛ بسبب إشراكِهم بالله بلا حُجَّة ولا دليل، وسيكون مصيرُهم في الآخرة النَّارَ، وبئس المقامُ للظالِمين.

ثم يُذكِّر اللهُ سبحانه عِبادَه المؤمنين بإنجازه لِمَا وعدَهم به من النَّصر يوم أُحُد، بنصرِهم على عدوِّهم في بدايةِ المعركة؛ حيث أَعمَلوا فيهم القتلَ، حتى حان من المسلمين الضَّعفُ والجُبنُ عن القِتال، وحدَث الخلافُ بين رُماتهم، وعَصَوْا أمْرَ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، حينها حلَّت بالمسلمين الهزيمةُ بعدَ أنْ كانوا رَأوا ما يُفرِحهم من هزيمةِ العدوِّ؛ فبعض المؤمنين ابتَغَوا الدُّنيا، فذَهبوا لجَمْعِ الغنائم، وتركوا أماكنَهم التي أُمِروا بمُلازَمتها، وبعضُهم كانوا يَرغَبون في أجْرِ الآخِرة، فلزِموا أماكنَهم، فصرَف اللهُ بعدَها وجوهَ المؤمنين عن الكفَّار، فكانتْ للكفَّار الغَلَبةُ، وهذا ابتلاءٌ من الله لعباده؛ ليتميَّزَ الطائعُ من العاصي، ولقد تَجاوُز اللهُ عنهم، فهو سبحانه ذو فضلٍ على المؤمنين.

ثم يُذكِّرهم سبحانه بلحظاتِ فِرارِهم، حيث كانوا جادِّين في الفِرار؛ لا أحدَ

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٠).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨١).

منهم يَلتفِت إلى غيرِه، ورسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَدْعوهم إلى الثَّبات والتَّوقُّف عن الفِرار، وقدْ خلَّفوه عليه الصَّلاة والسلام وراءَ ظُهُورهم، فلم يَستجيبوا، فجازاهم اللهُ بغمٍّ، وهو ما انتشرَ مِن خبرِ مَقتَلِ نبيِّ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، الذي كان أعظمَ مِن بقيَّة الغُمومِ التي حلَّتْ بهم من فواتِ النَّصر والغنيمة، وإصابتِهم بالقتْلِ والجراح، فخفَّفتْ شِدَّةُ ذلك الغمِّ ما سبقَه من غُموم.

ثمَّ أَنزَل اللهُ على المؤمنين- من بعد الغُمُوم التي أصابتْهم- الأمانَ والطُّمأنينةَ في القلب؛ وذلك بأنْ غَشَّى المؤمنين من الخارجين مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ النُّعَاسَ، وهناك طائفةٌ أخرى ممَّن شارك في هذه الغزوة مِن شِدَّة اضطرابِهم وقلَقِهم على حياتِهم، لم يُغشِّهم النُّعاسَ، وهم من المنافقين، الذين يظنُّون بالله ظنًّا كاذبًا؛ بأنَّه عزَّ وجلَّ لا ينصُر عبادَه، وظنُّهم هذا كظنِّ أهلِ الجهلِ بالله، يقولون: إنَّهم لم يَجِدوا بُدًّا من الخروج، فالقرارُ ليس بأيديهم، فأمَر الله نبيَّه محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يقول لهم: إنَّ جميعَ الأمورِ لله تعالى وَحْده، ثم أعاد سبحانه الحديثَ عن صِفةِ هؤلاء المنافقين، فأخْبَر أنَّهم يُسِرُّون في أنفسِهم ما لا يُظهِرونه لنبيِّ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وذلك قولهم فيما بَينهم: إنَّه لو كان لهم نَصيبٌ من الاختيارِ في شأنِ الخروجِ للقِتال، لَمَا اختاروا الخروجَ من المدينة، ولَمَا حصَل ما حصَل في صُفوفِهم من المَقْتَلة.

فأمَر اللهُ نبيَّه محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يُخبِرَهم بأنَّهم لو كانوا في بُيُوتهم، لخرَج الذين كتَب اللهُ عليهم القتلَ إلى الأماكنِ التي فيها مَصارِعُهم، وقد كان تقديرُ خروجِهم من اللهِ؛ ليَميزَ اللهُ تعالى ما في قُلوبِهم من خَبيثٍ وطيِّب، واللهُ عليمٌ بما تَحويه صدورُ العبادِ.

ثم أَخبَر تعالى أنَّ فِرار المُنهزِمين يوم المعركة إنَّما كان نتيجةَ إيقاع الشَّيطان

لهم في تلك الزَّلَّة، وما كان تَسلُّطُه عليهم إلَّا بسببِ بعضِ ذُنوبهم، مُخبِرًا سبحانه أنَّه عفَا عنهم، والله غفورٌ حليمٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٤٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّه لَمَّا أمَر اللهُ تعالى بطاعتِه المُوجِبةِ للنَّصر والأجْر، وختَم بمحبَّته للمُحسِنين، حذَّر من طاعةِ الكافرين المقتضيةِ للخِذلان؛ رَغبةً في موالاتِهم ومُناصَرتهم[1]، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٤٩)﴾.

أي: احْذَروا- يا عبادَ الله المؤمنين- من طاعةِ الكفَّار فيما يأمرونكم به، وفيما يَنْهونكم عنه، فإنَّ طاعتَهم تَحمِلُكم على الارتدادِ عن الإيمانِ إلى الكفرِ، الذي عاقبتُه الهلاكُ في الدُّنيا والآخرة[2].

﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّه لَمَّا كان التَّقديرُ في الآية السَّابقة: فلا تُطيعوهم؛ إنَّهم ليسوا صالحين للولايةِ مُطلَقًا ما دُمْتم مؤمنين، عطَفَ عليه قوله: ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾ مخبرًا بأنَّه

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٢٤، ١٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥١).

ناصِرُهم، وأنَّ نَصْره لا يُساويه نصرُ أحدٍ سواه[1]، فقال:

﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾.

أي: فلا تُطيعوهم خوفًا منهم، أو طلبًا لنُصْرتهم، واستَغْنُوا عن موالاتهم؛ فهم لن يَنصُروكم، بل عليكم أنْ تُطيعوا اللهَ الَّذي يتولَّاكم بتوفيقِه وتأييده ونَصْره؛ فهو خيرُ مَن يَجلِب لكم النَّصرَ[2].

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى أبان أنَّه مَوْلى المؤمنين، وأنَّه خيرُ النَّاصرين، وأنَّ مَن نصَره، سبَّب له جميعَ أسبابِ النَّصر، وأزال عنه كلَّ أسباب الخِذلان، فمنَع غيره- كائنًا من كان- من إذلاله، فذكَر هاهنا مِثالًا على وَلايتِه ونُصْرتِه للمؤمنين، وقرَّر ذلك بقوله مُحقِّقًا للوعدِ[3]:

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى بشَّرَ ووعَد عبادَه المؤمنين بأمْرٍ محتومٍ وقوعُه، وقريبٍ حُصولُه، وهو إدخالُ الخوفِ والفزعِ الشَّديد في قلوب الكفَّار[4].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٢٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٢٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٨٣-١٨٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٩١) ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥١، ١٥٢).

عن جابر بن عبد الله رضِي الله عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((أُعطيتُ خمسًا، لم يُعطَهنَّ أحدٌ منَ الأنبياءِ قَبلي: نُصِرتُ بالرُّعبِ مَسيرةَ شهرٍ..))(١).

﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾.

أي: إنَّ سببَ قذْفِ الرُّعب في قلوب الكفَّار، هو وقوعُهم في الشِّرك، الذي لا حُجَّةَ ولا دَليلَ على صحَّتِه(٢).

﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾.

أي: إنَّ النَّار ستكون المصيرَ الأخرويَّ لأولئك المشركين(٣).

﴿وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾.

أي: وساءتِ النَّارُ مَقامًا لكلِّ ظالم(٤).

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢)﴾.

---

(١) رواه البخاري (٤٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥١، ١٥٢).

وقال الواحديُّ: (قوله: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾، أي: حُجَّة وبرهانًا في قول جميع المفسِّرين، يعني الأوثانَ التي عبدوها مع الله) ((التفسير الوسيط)) (١/ ٥٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٩٧).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّه لَمَّا وعَد اللهُ تعالى المؤمنين في الآية المُتقدِّمة إلقاءَ الرُّعبِ في قلوب الذين كفروا، أكَّدَ ذلك بأنْ ذكَّرهم ما أنجزهم من الوعدِ بالنَّصرِ في واقعةِ أُحُد؛ فإنَّه لَمَّا وعدَهم بالنُّصرةِ، بشرْط أنْ يتَّقُوا ويَصبِروا؛ فحينَ أتَوْا بذلك الشَّرطِ لا جَرَمَ وفَّى اللهُ تعالى بالمشروطِ، وأعطاهم النُّصرةَ، فلمَّا تَركوا الشَّرطَ لا جرَمَ فاتَهم المشروطُ[1]، فقال:

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ﴾.

أي: واللهُ عزَّ وجلَّ قد أنجَز لكم ما وعَدَكم به يومَ أُحدٍ- أيُّها المؤمنون- وهو نصْركم على عَدوِّكم، وكان ذلك في بدايةِ المعركة حين طفِقتُم تَستأصِلونهم بقتْلهم قتلًا ذريعًا، وذلك قد وقَع عن أمرِ اللهِ تعالى شرعًا وقدَرًا[2].

﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾.

أي: لَمَّا استولَى عليكم الضَّعفُ والخَوَرُ، وجَبُنتم عن القِتال، ووقَع الخلافُ بين رُماتكم؛ هل يَلزَمون ثُغُورَهم- كما عهِد إليهم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ- أم يتحرَّكون لجمْعِ الغنائم، وعصَى بعضُكم في النِّهاية أمْرَ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، مِن بعدِ أنْ أظهَر الله تعالى لكم ما تُحِبُّونه من انهزام الكفَّار، وتوليتِهم الأدبار، فلمَّا وقع ذلك كلُّه، حلَّت بكم الهزيمةُ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٢٨-١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٠٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٠٤-٣٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٣٦)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٧/ ٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٨٤، ٨٥).

عن البَرَاءِ بن عازبٍ رضِي اللهُ عنه، قال: ((لَقِينا المشركين يومئذٍ، وأجلَسَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ جيشًا مِن الرُّماةِ، وأمَّرَ عليهم عبدَ الله، وقال: لا تَبرَحوا[١]، إنْ رأيتمونا ظَهَرْنا عليهم فلا تَبرَحوا، وإنْ رأيتموهم ظَهَروا علينا فلا تُعينونا، فلمَّا لَقِيناهم هرَبوا حتى رأيتُ النِّساءَ يَشتَدِدْنَ في الجبلِ، رفعْنَ عن سُوقِهنَّ، قد بدَتْ خَلاخلُهنَّ، فأخذوا يقولون: الغنيمةَ الغنيمةَ، فقال عبدُ اللهِ: عهِد إليَّ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ألَّا تَبرَحوا! فأَبَوا، فلمَّا أَبَوْا صُرِفت وجوهُهم، فأُصِيبَ سبعون قتيلًا، وأَشْرَفَ أبو سفيان، فقال: أفي القومِ محمدٌ؟ فقال: لا تُجيبوه، فقال: أفي القومِ ابنُ أبي قُحافَةَ؟ قال: لا تُجيبوه، فقال: أفي القوم ابنُ الخطابِ؟ فقال: إنَّ هؤلاء قُتِلوا، فلو كانوا أحياءً لأجابوا، فلم يَملِكْ عمرُ نفسَه، فقال: كذبتَ يا عدوَّ اللهِ، أبقى اللهُ عليك ما يُخْزِيك، قال أبو سفيان: اعْلُ هُبَلُ! فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أجيبوه، قالوا: ما نقولُ؟ قال: قولوا: اللهُ أعلى وأجلُّ، قال أبو سفيانَ: لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم! قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أجيبوه، قالوا: ما نقولُ؟ قال: قولوا: اللهُ مولانا، ولا مولى لكم، قال أبو سفيان: يومٌ بيومِ بدرٍ، والحربُ سِجَالٌ[٢]، وتجدون مُثْلَةً[٣]، لم آمُرْ بها ولم تَسؤْني))[٤].

---

(١) لا تَبرَحوا: أي: لا تَترُكوا أماكِنَكم وتزولوا عنها؛ يُقال: بَرِحَ مكانَه، أي: زال عنه وصارَ في البَراحِ أي: المتَّسع من الأرضِ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (١/ ٣٥٥)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٤٢).

(٢) سِجَالٌ: أي مَرَّة لنا ومَرَّة علينا. وأصْلُه أنَّ المُسْتَقين بالسَّجْلِ يَكُونُ لكُلٍّ واحِدٍ مِنهم سَجْلٌ. ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٣٤٤).

(٣) المُثْلَة: من مَثَلْتُ بالقَتيل، إذا جَدَعْت أنْفَه، أو أُذُنَه، أو مَذاكِيرَه، أَوْ شَيْئًا مِنْ أطرافِه، كما فعلوا بحمزة رضي الله عنه، ومَثَّل، بالتَّشْديدِ؛ للمبالَغة. ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ٢٩٤)، ((عمدة القاري)) للعيني (١٧/ ١٤٣).

(٤) رواه البخاري (٤٠٤٣).

﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾.

أي: إنَّ بعضًا منكم- أيُّها المؤمنون- قد ابتَغَوا الدُّنيا، وهم الرُّماةُ الذين تَركوا أماكنَهم، وأخَذوا في جمْعِ الغنائمِ والحُطامِ الفاني يَومَ أُحُد، والبعضَ الآخَرَ كانوا يَرغبونَ في أجْرِ الآخرةِ الباقي، وهم الرُّماةُ الذين لزِموا مَقاعدَهم التي أَقعَدَهم فيها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[(١)].

﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾.

أي: بعدَ أنِ انصرفَ بعضُ الرُّماة من المؤمنين من أماكنهم، مُنصرِفين بذلك عن طاعةِ رسوله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وانصرَفتْ قلوبُهم للدُّنيا، ردَّ الله وجوهَكم عن الكفَّار، فصارتِ الدَّائرة عليكم؛ امتحانًا مِن الله تعالى لكم، ليَتميَّز الطَّائعُ من العاصي، والصَّابرُ على البلاء من الجازع[(٢)].

﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾.

أي: إنَّ الله عزَّ وجلَّ قد تَجاوَز عن عقوبة استئصالِكم جميعًا أيُّها الرُّماة، لمعصيتكم الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، واستبدَل بها عقوبةً أخفَّ وطأة عليكم، وهي إلحاقُ الهزيمة بكم، وقَتْل بعضكم[(٣)].

﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٣٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٥٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٣٠٨-٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٤٢)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٥٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٥٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٢٣٧).

أي: واللهُ تعالى صاحِبُ الفضلِ على جميعِ المؤمنين؛ لأجْلِ ما معهم من إيمانٍ، ومن ذلك: العَفوُ عمَّا يَقَعُ منهم من عِصيان[1].

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣)﴾.

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ﴾.

أي: اذكُروا- أيُّها المؤمنون- حين كنتُم تَجِدُّون في الفِرارِ، والإبعادِ في الأرض، ولا أحدَ منكم يَلتفِتُ إلى غيره أو يَنظُر إليه؛ إذ لم يكُن لديكم مِن همٍّ سِوى النَّجاةِ من الأعداء[2].

﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾.

أي: إنَّ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قد خلَّفتموه وراءَ ظُهورِكم ممَّا يلي جِهةَ العدوِّ، وهو يدعوكم- أيُّها المؤمنون- إلى التَّوقُّفِ عن الفِرار، والثَّبات، فلم تَلتفِتوا إليه[3].

﴿فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ﴾.

أي: بسببِ ما قُمْتم به من الفِرار وعدمِ الاستجابةِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يوم أُحُد، جازاكم اللهُ تعالى بغمٍّ نبأِ مَقتَل النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهو

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣١٦-٣١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣١٧).

أعظمُ من بقيَّةِ الغُموم التي نالتْكم، كفواتِ النَّصرِ والغنائم، وإصابتِكم بالقَتْل والجراح[١].

﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى قد أصابَكم بغمٍّ سماعِكم إشاعةَ مَقتَل محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهو أشدُّ من الغُمُوم الأخرى؛ لئلَّا يُصيبَكم الحَزنُ على ما ذَهَب عنكم من النَّصر والغنائم، ولا على ما نالكم من جراحٍ، وما أصابَ إخوانَكم مِن قتْل، فيُنسيكم سماعُ مقتلِ النَّبيِّ ذلك كلَّه، أو يُخفِّف من وطْأَتِه عليكم[٢].

﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

أي: واللهُ تعالى هو وحْدَه العالمُ ببواطنِ ما تَعملونه من خيرٍ أو شرٍّ- أيُّها المؤمنون- ومِن ذلك: ما قُمتُم به في غزوةِ أُحُد، كما أنَّ ما ترتَّبَ عليها من ابتلاءاتٍ ومِحَنٍ وأسرار، إنَّما هو صادرٌ عن كمال عِلْمه ببواطنِ الأمور[٣].

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٤٩-١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٢١-٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٥١-١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٢١-٣٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٢١-٣٢٢).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّ الله تعالى لَمَّا وعَد بنصرِ المؤمنين على الكافرين، وهذا النَّصرُ لا بدَّ وأنْ يكون مسبوقًا بإزالةِ الخوف عن المؤمنين- بيَّن في هذه الآية أنَّه تعالى أزالَ الخوفَ عنهم؛ ليصيرَ ذلك كالدَّلالةِ على أنَّه تعالى يُنجِز وعْدَه بنصْرِ المؤمنين[1] فقال تعالى:

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى قدْ أَنزَل عليكم- أيُّها المؤمنون- بعدَ كلِّ تلك الغُمومِ التي أصابتْكم يومَ أُحُد، أنزل عليكم ما به حُلولُ الأمان، وحصولُ الاطمئنانِ في قلوبكم[2].

﴿نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ﴾.

أي: إنَّ الأمانَ الذي نزَل بقلوبهم مصدره النُّعاس الذي غشي أهلَ الإيمان من بين مَن خرج مع رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لأُحد[3].

عن أنسِ بن مالكٍ، أنَّ أبا طلحةَ رضِي الله عنهما قال: ((رَفعتُ رأسي يومَ أُحدٍ فجعلتُ أَنظُر، وما منهُم يَومئذٍ أحدٌ إلَّا يَميدُ تحتَ حَجفتِهِ[4] منَ النُّعاسِ، فذلِكَ قَولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا﴾))[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٢٦-٣٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٢٧).

(٤) الحَجَفَة: التُّرسُ؛ يُقال للتُّرس- إذا كان من جُلودٍ ليسَ فيه خشَبٌ، ولا عَقَبٌ وهو العَصَبُ الذي تُعمَلُ منه الأوتارُ-: حَجَفةٌ ودَرَقةٌ. ((الصحاح)) للجوهري (٤/ ١٣٤١)، (١/ ١٨٥)، ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٣٤٥).

(٥) رواه النسائي في ((السنن الكبرى)) (١١١٣٤)، و الترمذي (٣٠٠٧)، وقال: هذا حديث =

﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾.

أي: إنَّ ثمَّة جماعةً أخرى مِن بين مَن خرجَ لأُحد، لم يَغْشَهم النعاسُ مِن شِدَّة قلقِهم واضطرابِهم على حياتِهم، وهم المنافِقون الذين لا همَّ لديهم غيرُ أنفسِهم التي يَحذرون من قتْلِها(١).

﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾.

أي: يظنُّ أفرادُ هذه المجموعةِ ظنونًا كاذبةً، كما هو دَيدنُ أهلِ الجهلِ بالله تعالى، وذلك حين رأوا هجمةَ المشركين على المسلمين، وإعمالَ القتْل فيهم؛ إذ ظنُّوا أنَّ دِينَ الله تعالى مُضمحِلٌّ، وأتباعَه مَهزومون(٢).

قال تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢].

﴿يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾.

أي: قال هؤلاء الحريصونَ على سلامةِ أنفسِهم مُستنكِرين، بأنَّهم لم يكونوا يَملِكون شيئًا من قرارِ خُروجِهم للقِتال(٣).

﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾.

= حسن صحيح، وصحح إسناده الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٠٠٧) وقال الوادعي في ((الصحيح المسند)) (٣٦٦): صحيح على شرط مسلم.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٦٥-١٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٣٤-١٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٢٨-٣٣٠).

أي: قل- يا محمَّدُ- لهؤلاء المنافقين: إنَّ جميعَ الأمور، مُبتدَأها ومنتهاها لله تعالى وحده لا شريكَ له، فهو الذي يُصرِّفها كيف شاء، ويُدبِّرها كيفما أراد، فجميعُ الأمورِ بقضائِه وقدَره، ومِن ذلك خُروجُكم للقتال، وما يقَعُ فيه من نصْرٍ أو هزيمة، كما أنَّ العاقبةَ في النهاية لِدين اللهِ تعالى وأوليائِه، وإنْ وقَع عليهم ما وقَع(١).

﴿يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾.

أي: يُضمِر أولئك المنافقون في نفوسِهم ما لا يُظهرونه لك- يا محمَّدُ(٢).

﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾.

أي: إنَّ الذي كانوا يُخفونه عنك- يا محمَّدُ- هو قولهم فيما بينهم مُتحسِّرين ونادِمين: لو كان لنا في شَأنِ الخروجِ لهذا القِتال نَصيبٌ من الرأي والاختيارِ في ذلك، لَمَا اتَّخذنا قرارًا بالخروجِ مِن المدينة مُطلقًا، ولَمَا وقعتْ في صُفوفنا مَقتلةٌ(٣).

﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾.

أي: قل- يا محمَّدُ- لأولئك المنافقين- ردًّا على قولِهم الذي أسرُّوه وأَطْلَعَك اللهُ تعالى عليه-: إنَّما وقَع ما وقَع بقدَر الله تعالى وحْدَه، وهو حُكمٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٣٠).

قال أبو حيان: (الخطابُ بقولِه: ﴿قُلْ﴾، متوجهٌ إلى الرسولِ بلا خلافٍ) ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٣٠-٣٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٣١-٣٣٢).

ماضٍ لا بدَّ أن ينفُذ، فحتى لو كنتُم في بيوتِكم التي ليستْ بمظنَّةٍ لوقوعِ القتْل فيها، فسيخرُج منها مَن كتَب اللهُ تعالى عليه ذلك، ويأتي الموضعَ الذي يَلقَى فيه مصرعَه[1].

﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾.

أي: إنَّ الله عزَّ وجلَّ قد قدَّر عليكم الخروجَ والقتل؛ ليختبرَ قلوبَكم[2].

﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾.

أي: وليَميزَ الله تعالى ما في قلوبِكم من خَبيثٍ وطيِّب، ويُظهرَ أمْرَ المؤمِن والمنافِقِ للنَّاس؛ في أقوالهم وأفعالهم[3].

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

أي: واللهُ تعالى ذو عِلمٍ بكلِّ ما تُكنُّه صُدورُ عِبادِه، لا يَخفى عليه شيءٌ من ذلك، ومُجازٍ كلًّا منهم بحسبه. لكنَّ حِكمتَه اقتضتْ أنْ يُقدِّر من الأسبابِ ما تَتبيَّن به مُخبَّآتُ الصُّدور[4].

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٣٢-٣٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٤٦).

ويُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٥٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٣).

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾.

أي: إنَّ الذين ولَّوا منكم المشركين أَدْبارَهم، وانْهَزموا عنهم يومَ تَلاقَى جمْعُ المسلمين والمشركين بأُحُد، إنَّما أَوْقَعَهم الشيطانُ في تلك الزَّلَّة، وما تَسلَّط عليهم إلَّا بسببِ بعضِ ذُنوبهم[1].

﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى قد تجاوزَ عن معاقبةِ أولئك الذين تَولَّوا، فلم يُؤاخِذْهم على فِرارهم[2].

عن عثمانَ بن مَوهَبٍ، قال: ((جاء رجلٌ حجَّ البيتَ، فرأى قومًا جلوسًا، فقال: مَن هؤلاء القعودُ؟ قالوا: هؤلاء قريشٌ، قال: مَن الشَّيخُ؟ قالوا: ابنُ عمرَ، فأتاه فقال:... أَتَعْلَمُ أنَّ عُثمانَ بنَ عفَّانَ فرَّ يومَ أُحُدٍ؟ قال: نعَمْ... أمَّا فِرارُه يومَ أُحُدٍ فأَشهدُ أنَّ اللهَ عفا عنه وغفَر له...))[3].

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى هو الذي يَستُر ذُنوبَ عِبادِه، ويتجاوزُ عن المؤاخذةِ بها، وهو الذي يُمهِلُ عِبادَه؛ ليتوبوا، فلا يُعاجِلهم بالعقوبةِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٧١-١٧٢)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٣٥/ ٣٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٤٠-٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٣).

(٣) رواه البخاري (٤٠٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٤٢).

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فضيلةُ الإيمان، حيثُ يُوجَّه الخطابُ إلى الناس بوصْفِ الإيمان في مقامِ الإرشادِ والتنبيه؛ لأنَّ الإيمانَ مُقتضٍ للامتثال[1].

٢- تحذيرُ المؤمنين من الانقيادِ للعدوِّ، والتذلُّلِ له، وإظهارِ الحاجة إليه، وأنْ يُخامرَهم خاطرُ الدُّخول في صُلح المشركين وأمانهم؛ فإذا مالوا إليهم اسْتدرَجوهم رويدًا رويدًا، بإظهارِ عدمِ كراهية دِينهم المخالِف لهم، حتى يردُّوهم عن دِينهم؛ قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾[2].

٣- التحذيرُ من الشِّرك؛ فهو جالبٌ للشرِّ في الدُّنيا والآخِرة، فالمُشركونَ في الدُّنيا مَرعُوبونَ، وفي الآخرة مُعذَّبونَ؛ وذلك بسببِ إشْراكهم؛ قال الله تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾، فالمُشْرِك يخاف المخلوقينَ ويرجوهم فيحْصُلُ له رعْبٌ، وأما المؤمن الخالِصُ من الشِّرْكِ فيحصُلُ له الأمْنُ؛ كما قال تعالى: ﴿الَّذِيْنَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيْمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُوْنَ﴾[3] [الأنعام: ٨٢].

٤- أنَّ النِّزاعَ والمعصيةَ سببانِ لفوات النَّصر؛ لأنَّ المسلمين في أوَّل الأمر انْتَصروا وقتَلوا المشركين، لكن لَمَّا حدَث هذا المانعُ، امتنع أو انتفَى النصرُ؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٢٢) ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٨٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٢٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٧٨).

فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ...﴾(١).

٥- الحثُّ على اجتماعِ الكلمة؛ وجهُه: أنَّ النزاعَ سببٌ للخِذلان، فيكون الاتِّفاق سببًا للنَّصر، وهو كذلك؛ فاجتماعُ الناسِ على كَلمةٍ واحدةٍ لا شكَّ أنَّه سببٌ للنصر؛ ولهذا يَنبغي لطلبةِ العِلمِ وللعلماء ألَّا يُظهروا خِلافَهم ونزاعَهم أمامَ العامَّة؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ ....﴾(٢).

٦- أنه ينبغي للقائدِ أنْ يكونَ ذا شجاعةٍ في قيادتِه، بحيثُ يثبُت ويدعو إلى الثَّبات؛ لقولِه تعالى: ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾؛ لأنَّه لو لم يثبُت وهرَب معهم، لم يكُن صالحًا للقيادة(٣).

٧- التربيةُ العظيمةُ للعِباد، وهي ألَّا يَحزنوا على ما فاتهم، فإذا فاتك ما تظنُّه خيرًا لنفسك، فقل: قَدَّرَ الله وما شاء فَعَل، وكذلك إذا أصابَك ما تَكرَهُ، فقل: قدَّر اللهُ وما شاء فَعَل، واعلمْ أنَّ الحزن لا يَردُّ الغائب أبدًا، وإنَّما يَزيد الإنسان بلاءً، والله عزَّ وجلَّ يحبُّ من عِباده ألَّا يحزنوا؛ لأنَّه دفعَ الغمَّ بالغمِّ من أجْل ألَّا يحزنوا؛ وذلك لأنَّ الحُزن يُحدِث للإنسان انقباضًا، ربَّما يَمنعُه عن كثيرٍ من المصالح؛ قال تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾(٤).

٨- أفاد قولُ الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، وجوبَ الحذرِ مِن مخالفةِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ ووجهُه: أنَّه إذا كان خبيرًا بعَمَلِنا، فإنَّ ذلك يُوجِب لنا ألَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣١٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٢٤).

(٤) يُنظر: ((أمراض القلوب وشفاؤها)) (ص: ٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٢٥).

نخالِفَه؛ لأنَّنا إنْ خالفْناه عَلِمَ، وإذا عَلِمَ فسوف يُحاسبنا[١].

٩- في قوله تعالى: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾، أنَّ هذه العقيدةَ الإسلاميَّة تُعلِّم أصحابَها- فيما تُعلِّم- أنْ ليس لهم في أنفسِهم شيءٌ؛ فهم كلُّهم لله، وأنَّهم حين يَخرُجون للجهادِ في سبيله يَخرجون له، ويُقاتلون له، وأنَّهم يُسلِمون أنفسَهم لقدَرِه، فيَتلقَّون ما يأتيهم به هذا القدرُ في رِضًا وفي تَسليم، كائنًا هذا القدَرُ ما يكون[٢].

١٠- أنَّ الإنسانَ الذي لا يكونُ له همٌّ إلَّا نفسُه في هذه المواطن قد يُبتلى- والعياذ بالله- بهذه البلوى العظيمة، وهي أنْ يظنَّ باللهِ غير الحقِّ؛ كما قال تعالى: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾[٣].

١١- أنَّ العِبرةَ والمدارَ على القلوبِ التي في الصُّدور؛ لقوله: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾، وقال: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ وكأنَّ هذا- والله أعلم- فيه إشارةٌ إلى أنَّ سببَ الجُبن والنِّزاع والمعصية سوءُ النيَّةِ من بعضِ مَنْ كان فيهم، ويُمكن أن نجعلَ قوله: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ جملةٌ استئنافيَّة تعليليَّة لِمَا حَصَل، ولا شكَّ أنَّ المدارَ كلَّه على ما في القلبِ، وأنَّه متى كان القلبُ صالحًا، صَلَح العملُ، ومتى كان فاسدًا، فسَد العملُ[٤].

١٢- الحَذرُ لا يَدفعُ القدَر، والتدبيرُ لا يُقاوِم التقديرَ؛ يُبيِّن ذلك قولُه تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾، فالذين

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٣٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣١٤).

قدَّر الله تعالى عليهم القتْلَ لا بدَّ وأن يُقتلوا على جميعِ التقديرات[1].

١٣- ليس كالمحنةِ محكٌّ يَكشفُ ما في الصُّدور، ويَصهَر ما في القلوبِ؛ فيَنفي عنها الزَّيفَ والرِّياء، ويَكشفها على حقيقتِها بلا طِلاءٍ؛ فهو الابتلاءُ والاختبارُ لِمَا في الصُّدور؛ ليظهرَ على حقيقتِه، وهو التطهيرُ والتصفيةُ للقلوب، فلا يَبقى فيها دَخَلٌ ولا زَيف، قال تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾[2].

١٤- الذَّنبُ يجرُّ إلى الذنب؛ يبيِّن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾، فقد أزلَّهم الشيطان بشُؤمِ بعضِ ما سبَق لهم مِن الذُّنوب، وأوقعَهم في الهزيمةِ[3].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- إثباتُ الأفعالِ الاختياريَّة لله؛ لقوله: ﴿سَنُلْقِي﴾[4].

٢- مِن كمالِ الله عزَّ وجلَّ تجدُّدُ أفعالِه التي تكون تابعةً لإرادتِه وحِكمتِه؛ لأنَّ إلقاءَ الرُّعب في قلوبِ هؤلاءِ حادثٌ؛ ﴿سَنُلْقِي﴾، أي: في المستقبَل[5].

٣- إثباتُ الأسبابِ؛ لقوله: ﴿بِمَا أَشْرَكُوا﴾؛ لأنَّ الباءَ للسببيَّةِ، وهو الحقُّ[6].

٤- في قول الله تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾، دلالةٌ على أنَّ الرُّعبَ إذا كان يُلقَى في قلوبِ الذين

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٩٧).
(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٩٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٩٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٩٧).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٩٩).

كفروا؛ لإشراكِهم، فإنَّ الأمْنَ يُلقَى في قلوبِ الذين آمَنوا؛ لتوحيدِهم[١].

٥- أنَّه لا دليلَ لأحدٍ يحتجُّ به على اعتناقِ الشِّركِ؛ لقوله تعالى: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾[٢].

٦- شِدَّةُ عزيمةِ الصحابةِ رضي الله عنهم في طَلَبِ العدوِّ؛ لأنَّه قال: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾، والحسُّ: القتل، أو أشدُّه، كأنَّه يُسمعُ له صوتٌ عند القتْل، وهكذا يَنبغي للمسلمين أنْ يأتوا أعداءَهم الحربيِّين على شِدَّة وغِلظة، كما قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾ [النساء: ١٠٤]، يعني: لا تَضعُفوا في طلبِهم[٣].

٧- المعصيةُ بعدَ النِّعمة أشدُّ من المعصيةِ قبل النِّعمة؛ لقوله: ﴿وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾، وإلَّا لكان يقول: ﴿وَعَصَيْتُمْ﴾ فقط، لكن كون المعصيةِ تقعُ بعدَ أنْ أراهم اللهُ ما يُحبُّون؛ هذه أعظمُ ممَّا إذا لم يكُن الله قد أراهم ما يحبُّون[٤].

٨- في قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ...﴾، جاءتِ المخاطَبةُ بجمْع ضميرِ المؤمنين في هذه الآيات، وإنْ كان لم يصْدرْ ما يُعاتبُ عليه مِن جميعِهم؛ وذلك على طريقةِ العربِ في نِسبةِ ما يَقع من بعضِهم للجميع على سبيلِ التجوُّز، وفي ذلك إبقاءٌ على مَن فعَل، وسَتْرٌ؛ إذ لم يُعيِّن، وزجرٌ لِمَن لم يَفعلْ أن يفعلَ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٠٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٠٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣١٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣١٣). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٨٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٧٨).

٩- أنَّه قد يكونُ في خيرِ القرون مَن يُعاب عليه الفِعل؛ لقوله: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾، ولكنَّ الصحابة رضي الله عنهم بخاصَّة، لهم مِن الفضائل والسَّوابق والصُّحبة ما يُكفِّر ما حصَل منهم مِن الآفات وغيرِها(١).

١٠- في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾، وقوله: ﴿لِكَيْلَا﴾، وقوله: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ﴾ إثباتُ الحِكمة في أفعال الله؛ فإنَّ اللام هنا للتعليل، فيكون في هذا ردٌّ على الجهميَّةِ ونحوهم ممَّن يُنكرون حِكمةَ الله عزَّ وجلَّ، ويقولون: إنَّ اللهَ يفعل لا لحِكمةٍ، ولكن لمجرَّد مشيئة، ونحن نُؤمِنُ بأنَّ الله سبحانه وتعالى لا يَفعل شيئًا، ولا يَشرَع شيئًا إلَّا لحِكمة، لكن من الحِكَمِ ما هو معلومٌ للبشر، وما هو مجهولٌ لا تَبلغُه العقولُ(٢).

١١- في تَعقيبِ الملامِ من الله تعالى للذين انهزموا في المعركةِ بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ تسكينٌ لخواطِرهم؛ فما حصَلَ من المؤمنين- من التنازُع، والفشل، والمعصية، وإرادة الدنيا- كلُّه مَحاهُ اللهُ عزَّ وجلَّ، وفي ذلك تلطُّفٌ معهم على عادةِ القرآن في تقريعِ المؤمنين، وأعظمُ مِن ذلك تقديمُ العفوِ على الملامِ في ملامِ الرَّسولِ عليه السَّلام في قوله تعالى: ﴿عَفَا اللهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣]، فتِلك رُتبةٌ أشرفُ من رُتبةِ تعقيبِ الملام بذِكر العفو(٣).

١٢- وفي تعقيبِ الملامِ أيضًا دلالةٌ على صِدقِ إيمانهم؛ إذ عجَّلَ لهم الإعلامَ بالعفو؛ لكيلَا تطيرَ نفوسُهم رهبةً وخوفًا من غضَبِ الله تعالى(٤).

١٣- خصَّ سبحانه العملَ في قوله: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، وإنْ كان

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣١٥، ٣٢٤، ٣٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٣٠).

تعالى خبيرًا بجميعِ الأحوال مِن الأعمالِ والأقوالِ والنيَّات؛ تنبيهًا على أعمالهم من توليةِ الأدبار، والمبالغةِ في الفِرار، وهي أعمالٌ تُخشَى عاقبتُها وعِقابُها[1].

١٤- الردُّ على الجبريَّة مِن قوله: ﴿تَعْمَلُونَ﴾؛ ووجهُ ذلك: أنَّه أضاف العملَ إليهم، والجبريَّةُ يقولون: إنَّ الإنسانَ لا يَعمل، لا يَفعلُ شيئًا باختيارِه وكذلك قوله: ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾، وقوله: ﴿تَوَلَّوْا مِنْكُمْ﴾ فيه ردٌّ عليهم[2].

١٥- الردُّ على غُلاة القدريَّة من قوله: ﴿خَبِيرٌ﴾؛ لأنَّ غلاة القدرية يُنكِرون عِلمَ الله بِفعل العبدِ، ويقولون: إنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يعلمُ أفعالَ العبد، لكن إذا فعَلَها علِمَ بها، تعالى الله عمَّا يقولون[3].

١٦- أنَّه لا يَظنُّ أحدٌ بالله ظنًّا غير الحقِّ إلَّا وهو جاهلٌ؛ لقوله تعالى: ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾، فكلُّ مَن ظنَّ بالله غيرِ الحقِّ، فإنَّه بلا شكٍّ جاهلٌ، لم يَقدُرِ اللهَ حقَّ قدْره[4].

١٧- إثباتُ أنَّ للشيطان تأثيرًا على العبدِ، حتى في عَملِه الصَّالح، وحتى في الجِهاد؛ لقوله: ﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ﴾[5].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ للانتقالِ مِن التوبيخِ واللَّومِ والعِتابِ إلى التحذيرِ؛ ليُتوسَّلَ منه إلى معاودةِ التَّسليةِ على ما حَصَل من الهزيمة[6].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٨٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٢٥، ٣٤٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٢٥).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٣٧).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٤٤).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٢١).

- وتصديرُ الخِطابِ بالنِّداء والتنبيهِ ﴿يَا أَيُّهَا﴾؛ لإظهارِ الاعتناءِ بما في حَيِّزه، ووصْفُهم بالإيمان؛ لتذكيرِ حالِهم، وتثبيتِهم عليها؛ بإظهارِ مُباينتِها لحالِ أعدائِهم، كما أنَّ وصْفَ المنافقين بالكُفر في قوله تعالى: ﴿إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لذلك؛ قَصْدًا إلى مزيدِ التنفيرِ عنهم، والتَّحذيرِ عن طاعتِهم(١).

٢- قوله تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾:

- في قوله: ﴿سَنُلْقِي﴾ التفاتٌ- على قِراءة مَن قرأ (وسَيجزي) بالياء-(٢)، حيث التفتَ من الغَيبة إلى التكلُّمِ؛ للاهتمامِ بما يُلقيه تعالى في قلوبِهم.

٣- وقوله: ﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ أي: ما لا سُلطانَ له، ففيه التَّعبيرُ عن نفْي تنزيلِ السُّلطان، والمرادُ نفيُ وجودِه، فلمْ يَعْنِ أنَّ هناك حُجَّةً إلَّا أنَّها لم تَنزِلْ عليهم؛ لأنَّ الشِّركَ لا يستقيمُ أنْ يقومَ عليه حُجَّةٌ، وإنَّما المرادُ نفيُ الحُجةِ ونزولِها جميعًا؛ لأنَّه لو كان لنزَل، أي: لأَوْحى الله به إلى الناس؛ لأنَّ الله لم يَكتمِ الناسَ الإرشادَ إلى ما يجبُ عليهم من اعتِقادِ على ألْسِنة الرُّسُل، فالتنزيلُ إمَّا بمعنى الوحي، وإمَّا بمعنى نصْب الأدلَّة عليهم(٣).

- وقوله: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ وصفٌ كاشف؛ لأنَّ الإشراكَ لا يُمكن أنْ يكونَ قد نزَلَ بسلطانٍ، ولا يوجدُ ما يُسمِّيه أحدٌ شريكًا إلَّا وهو ممَّا لم يُنزل

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٢٥- ٤٢٦)، ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٢٦).

به الله سُلطانًا، بل ولا حُجَّة به في الواقِع ولا بُرهان(١)، وذلك يُفيد التوكيدَ.

٤- قوله: ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ فيه وضْعُ الظاهرِ ﴿الظَّالِمِينَ﴾ موضِعَ المُضمَر- حيث لم يقل: (مثواهم)-؛ للتغليظِ، والإشعارِ بأنَّهم في إشراكِهم ظالِمُون، واضِعُون للشيءِ في غيرِ موضعِه(٢)، وللتَّعميمِ وتعليق الحُكم بالوصف(٣).

- والمخصوصُ بالذمِّ محذوفٌ؛ للدَّلالة عليه، أي: بِئسَ مثوى الظالِمين النارُ، وفي جَعْلها مثواهم بعدَ جَعْلِها مأواهم نوعُ رَمزٍ إلى خلودِهم فيها؛ فإنَّ المثْوى مكانُ الإقامةِ المنبئةِ عن المُكث، وأمَّا المأوى، فهو المكانُ الذي يَأوي إليه الإنسانُ(٤).

٥- قول الله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾ عدَلَ عن ذِكرِ الغنيمةِ باسمِها إلى الموصول ﴿مَا﴾؛ تنبيهًا على أنَّهم عَجِلوا في طلبِ المالِ المحبوبِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٩١)، عند الحديثِ عن آية الأعراف: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].
وقال ابنُ عاشور في تفسيرِه لآية الأعراف: (فعرَّف الشركاءَ المزعومين تعريفًا لطريقِ الرَّسم بأنَّ خاصَّتهم: أنْ لا سلطانَ على شِركتهم لله في الإلهية؛ فكلُّ صنم من أصنامهم واضحةٌ فيه هذه الخاصَّة، فإنَّ الموصولَ وصِلتَه من طرق التعريف، وليس ذلك كالوصفِ، وليس للموصولِ وصِلتِه مفهومُ مخالفةٍ، ولا الموصولات معدودة في صِيغ المفاهيم، فلا يتَّجِه ما أوردَه الفخرُ مِن أن يقول قائلٌ: هذا يُوهم أنَّ مِن بين الشرك ما أنزل الله به سلطانًا واحتياجه إلى دفْع هذا الإيهام، ولا ما قَفاه عليه صاحبُ «الانتصاف» من تنظيرِ نفْي السلطانِ في هذه الآيةِ بنحو قولِ امرئ القيس:
عَلى لاحِبٍ لا يُهتدَى بمَنارِه.
ولا يَتَّجِه ما نحاهُ صاحبُ «الكشاف» من إجراءِ هذه الصِّلة على طريقةِ التهكُّم). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٠١- ١٠٢)
(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩٨).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٩٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٢٩).

٦- قوله: ﴿مِنكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ فيه تفصيلٌ للإجمالِ الذي في قولِه: ﴿وتَنَازَعْتُمْ﴾، وتبيينٌ لـ﴿وَعَصَيْتُمْ﴾، وتخصيصٌ له بأنَّ العاصين بعضُ المخاطَبين المتنازِعين؛ إذِ الَّذين أرادوا الآخِرةَ ليسوا بعاصين؛ ولذلك أُخِّرتْ هذه الجملةُ إلى بعدِ الفِعلين، وكان مُقتضى الظاهرِ أنْ يُعقِّب بها قوله: ﴿وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ﴾، وفي هذا الموضعِ للجملةِ ما أغْنى عن ذِكر ثلاثِ جُمَل، وهذا مِن أبدعِ وجوهِ الإعجاز، والقرينةُ واضحةٌ[1].

٧- قوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ﴾، و﴿مِنكُمْ مَنْ يُرِيدُ...﴾ فيه حُسْنُ تقسيمٍ[2].

٨- قوله: ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ تذييلٌ؛ لتأكيدِ ما اقتضاه قولُه: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾[3].

- وتنكيرُ ﴿فَضْلٍ﴾؛ للتفخيم[4].

- والإظهارُ ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ في موقعِ الإضمارِ (عليهم)؛ للتَّشريفِ، والإشعارِ بعلَّة الحُكم، وتعليق الحُكم بالوصف[5].

٩- قوله: ﴿وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ﴾ فيه إيجازٌ بالحَذْف؛ إذ المعنى: ولا يَلوي أحدٌ على أحدٍ، فأوجزَ بالحذف، والمرادُ: على أحدٍ منكم[6].

١٠- قوله: ﴿غَمًّا بِغَمٍّ﴾ فيه تنكيرُ (غَمّ)؛ للتكثير[7].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩٩).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٣١).

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٠٠).

١١- قوله: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا﴾ فيه التصريحُ بتأخُّر الإنزالِ عنه بقوله ﴿مِنْ بَعْدِ﴾، مع دَلالة ﴿ثُمَّ﴾ عليه وعلى تَراخِيه عنه؛ لزِيادةِ البيانِ، والتذكيرِ بعِظَم النِّعمةِ[1].

- وقوله: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ يدلُّ على تجلُّل النُّعاسِ واستعلائِه وغلبتِه عليهم[2].

- وقوله: ﴿أَمَنَةً نُعَاسًا﴾: في إبدال ﴿نُعَاسًا﴾ من ﴿أَمَنَةً﴾ إيجازٌ كثيرٌ، يدلُّ على أنَّ الأمنَ والهدوءَ استوليَا عليهم بمجرَّدِ مُخالطةِ النُّعاس، وإنَّما ينعَسُ مَن أمِن، وزايلَه الخوف، والخائِف لا يَنامُ، بل يرَى أعداءَه في كلِّ مكان[3].

- وتقديمُ الظَّرفينِ ﴿مِنْ بَعْدِ﴾ على المفعولِ الصَّريح ﴿أَمَنَةً﴾؛ للاعتناءِ بشأنِ المقدَّمِ، والتشويقِ إلى المؤخَّر[4].

- وتَخصيصُ الخوفِ من بين فُنونِ الغمِّ بالإزالة؛ لأنَّه المهمُّ عندَهم حينئذٍ؛ لأنَّ المشركين لَمَّا انصرَفوا كانوا يَتوعَّدون المسلمين بالرُّجوع، فلم يأمنوا رجْعَتَهم إليهم، وكانوا تحتَ الأسلحةِ متأهِّبين للقِتال، فأنزلَ اللهُ تعالى عليهم الأَمنةَ فأخذَهم النُّعاسُ[5].

١٢- قوله: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ نشأ عن قوله: ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾، وفيه تعريضٌ بأنَّهم لم يُزيلوا بعضَ أوصاف الجاهليَّة، ولم يُخلصوا الدِّينَ لله[6].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٠٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٩٧).
(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٧٩- ٨٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٠١).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٣٥).

- وقوله: ﴿غَيْرَ الحَقِّ﴾: تأكيدٌ لـ﴿يَظُنُّونَ﴾، مثل قولك: هذا القولُ غيرُ ما تقول، وهذا القولُ لا قولك[١].

١٣- قوله: ﴿يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ﴿هَلْ﴾ للاستفهامِ الإنكاريِّ بمعنى النَّفي، بقرينةِ زيادة ﴿مِن﴾ قبل النَّكرة، وهي مِن خَصائصِ النَّفي، وهو تبرئةٌ لأنفسِهم من أنْ يكونوا سببًا في مقابلةِ العدوِّ، حتى نَشأَ عنه ما نَشأ، وتَعريضٌ بأنَّ الخروجَ للقتالِ يومَ أُحُدٍ خَطأٌ وغُرور[٢].

١٤- قوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ فيه تأكيدُ الخبر بـ(إنَّ)، واسميَّة الجملة.

- و﴿كُلَّهُ﴾- على قِراءة النَّصب- تأكيدٌ لاسم (إنَّ)[٣]، فلمَّا أُكِّد في كلامِهم بزيادة (مِن) في قوله: ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾، جاءَ الكلام مؤكَّدًا بـ(إنَّ)، وبُولغ في توكيدِ العمومِ بقولِه: ﴿كُلَّهُ لِلَّهِ﴾، فكان الجوابُ أبلغَ[٤].

١٥- قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ خبرٌ فيه وعدٌ ووعيد، وتنبيهٌ على أنَّه غنيٌّ عن الابتلاء، وإنما فعَل ذلك؛ لتَمرينِ المؤمنين، وإظهارِ حالِ المنافقين[٥].

١٦- قوله: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ﴾ فيه مِن البلاغة: المخالفةُ في جواب ﴿لَوْ﴾؛ فقد جاءَ مرَّةً بغيرِ لام ﴿مَا قُتِلْنَا﴾، وجاء مرة مقترنًا بها ﴿لَبَرَزَ﴾، وفي هذا سرٌّ عجيبٌ، والقاعدةُ المعروفةُ هي أنَّ جوابَ (لو) إذا كان منفيًّا بـ(ما)، فالأكثرُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٩٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٤٤).

عدمُ اللام، وفي الإيجابِ بالعكس؛ لأنَّ الإيجابَ أحوجُ إلى التَّثبيتِ والترسيخ[1].

١٧- **أفاد قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾** أنَّه يَنبغي التأكيدُ من أجْل زيادةِ طُمأنينةِ المخاطَب؛ لأنَّه أكَّد هذه الجملةَ الخبريَّةَ التي تُفيد العفوَ عنهم؛ أكَّدها بقَسَم، ولام، وقدْ؛ من أجْل أنْ تَزدادَ طُمأنينتُهم في هذا العفو[2].

١٨- **قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾** الجملةُ تعليلٌ لِمَا قَبْلَها على سبيلِ التَّحقيق، وفي إظهارِ لفظ الجَلالةِ (الله) في موضِع الإضمارِ تربيةٌ للمهابةِ، وتأكيدٌ للتَّعليل[3].

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٧٩-٨٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٤٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٠٣).

الآيات (١٥٦ - ١٥٨)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿غُزًّى﴾: جمْع غازٍ، مِن: غَزا يَغْزو غَزْوًا، والغزوُ: الخروجُ إلى مُحاربةِ العَدوِّ، وأصلُ (غزو): طلبُ شيءٍ[١].

المعنى الإجماليُّ:

يَنهى اللهُ عِبادَه المؤمنين عن أنْ يُشابهوا الَّذين كفَروا في قولِهم النَّاشئِ عن الاعتراضِ على قَضاءِ اللهِ وأقدارِه، حين قالوا عن إخوانِهم من الكَفَرة الَّذين ماتوا أو قُتِلوا- وهم بَعيدونَ عن أوطانِهم لغرَض التِّجارة أو القِتال- قالوا: لو كانوا مُقيمينَ معنا في أوطاننا، لَمَا أصابَهم ما أصابهم؛ ليجعلَ اللهُ هذا الاعتقادَ والقولَ منهم حسرةً وندامةً في قلوبهم، واللهُ وحده مَن بيدِه إحياءُ الخَلْق وإماتتُهم، وكلُّ ذلك بمشيئته، لا تموتُ نفسٌ إلَّا حين تستوفي أجَلَها، وهو سبحانه بما يعمَلُ خَلقُه بصيرٌ.

ثمَّ يُخاطِب اللهُ تعالى عبادَه بأنَّ مَن يُقتَل في سبيل الله أو يموت، فما سينالُه

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٧٤).

من مغفرةِ الله ورحمتِه هو خيرٌ من البقاءِ في هذه الدُّنيا، وأفضل ممَّا يجمعه أهلُها منها، ثمَّ يُذكِّرهم أنَّهم إنْ ماتوا أو قُتلوا فإنَّ المصيرَ والمرجِع إليه جلَّ وعلا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّن الله سبحانه وتعالى للمؤمنين أنَّ هزيمةَ مَن تولَّى منهم يوم أُحُدٍ كانت بوَسواسٍ من الشيطان استزلَّهم فزَلُّوا، أراد أنْ يُحذِّرهم من مثلِ تلك الوسوسةِ الَّتي أفسدَ الشَّيطانُ بها قلوبَ الكافرين[(١)]، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنون، لا تَصيروا مثلَ الكفَّار الَّذين قالوا قولًا منكَرًا، ناشئًا عن اعتقادٍ فاسدٍ؛ بالاعتراضِ على قضاءِ الله عزَّ وجلَّ وقدَرِه، وهو قولُهم عن إخوانهم من أهلِ الكفرِ، الَّذين خرَجوا من بلادهم سَفرًا لأجل التِّجارة، وطلب المعيشة، أو خرَجوا غُزاةً للقتال، فماتوا في سَفَرهم، أو قُتلوا في غزوهم: لو أقاموا معنا في بِلادِنا، ولم يَخرُجوا كما فعَلْنا نحن، لَمَا ماتوا في سفَرِهم، ولَمَا قُتِلوا في غَزوِهم[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٧٥-١٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٣).

﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى يَجعلُ هذا القولَ وهذا الاعتقادَ ندامةً في قلوبهم وهمًّا، فتزداد مصيبتُهم بذلك(١).

﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾.

أي: واللهُ تعالى هو وحْدَه الَّذي يملِكُ الإحياءَ والإماتة، فلن يموتَ أحدٌ أو يُقتَلَ إلَّا بمشيئتِه سبحانه، وذلك بعدَ استكمالِ أجَلِه الَّذي قدَّره الله عزَّ وجلَّ له(٢).

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ قراءتان:

١- (يَعْمَلُونَ) على أنَّها خِطابٌ للكافرين(٣).

٢- ﴿تَعْمَلُونَ﴾ على أنَّها خِطابٌ للمؤمنين(٤).

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

أي: واللهُ عزَّ وجلَّ يرى كلَّ ما يَعمَلُه العبادُ، مؤمنُهم وكافرُهم، من خيرٍ أو شرٍّ، قليلٍ أو كثيرٍ، وهو حافظٌ له، وسيُجازيهم عليه(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٨٠-١٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٤).

(٣) قرأ بها ابن كثير وحمزة والكسائي. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٧٧)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٦١).

(٤) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٧٧)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٤).

﴿وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا نهى اللهُ تعالى المؤمنين عن أنْ يكونوا كالَّذين كفروا، وقالوا ما قالوا في شأنِ مَن مات في سفَرٍ أو غزوٍ- بيَّن لهم ثمرةَ فواتِ أنفسِهم في الجهادِ بالموتِ أو القتْلِ؛ ليكونَ ذلك موجِبًا لتسليمِ الأمرِ للخالِق، وعدمِ التَّخاذُل عن الغزوِ(١)، فقال تعالى:

﴿وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

أي: إنَّكم إذا قُتِلتم في سبيلِ الله تعالى، أو أصابَكم الموتُ في سبيله أيضًا، فهذا أمرٌ حسَنٌ يَنبغي أنْ تطمَعوا فيه، وتتنافسوا عليه؛ لأنَّه موصلٌ إلى نيلِ مغفرةِ الله تعالى لذُنوبكم، وشمولِ رحمتِه عليكم، وذلك أفضلُ لكم من البقاءِ في هذه الدَّارِ، وجمْعِ حُطامِها الفاني، كما يفعلُ أهلُ الدُّنيا(٢).

قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

وقال سبحانه: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

﴿وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (١٥٨)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا رغَّب اللهُ تعالى المجاهِدِينَ في الآيةِ الأُولى بمغفرتِه ورحمتِه، زادَ في إعلاءِ الدَّرجاتِ، فرغَّبهم هاهنا بالحشرِ إليه(٣)، فقال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٠٤).

﴿وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾.

أي: وإنْ أصابَكم الموتُ أو القتْلُ- أيُّها المؤمنون- فإنَّ مَصيرَكم في النهاية هو العودةُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، فيُجازيكم بما صنعتُم، فآثِروا ما يُقرِّبكم من اللهِ تعالى، وكونوا مُطمئنِّين ومستبشرين للقائِه سبحانه(١).

الفَوائِد التربويَّة:

١- عِلمُ الله لا يَتغيَّرُ، وحُكمُه لا ينقلِبُ، وقضاؤُه لا يتبدَّلُ، فلا تأثيرَ لشيءٍ آخرَ في الحياةِ والموت: مَن قُدِّر له البقاءُ لم يُقتَل في الجهاد، ومَن قُدِّر له الموتُ لم يَبقَ، وإنْ لم يجاهد؛ يُبيِّنُ ذلك قولُه تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾(٢).

٢- إثباتُ عمومِ عِلمِ الله عزَّ وجلَّ بكلِّ ما نعمل؛ لقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أو (بِمَا يَعْمَلُونَ)، ويَترتَّبُ على هذه الفائدةِ فائدةٌ مسلكيَّةٌ ينتفعُ بها الإنسانُ في سلوكِه وعملِه، وهي أنَّه إذا آمَن بأنَّ اللهَ بَصيرٌ بما يعمل لزِم من ذلك أنْ يستقيمَ على أمْرِه(٣).

٣- إنَّ مصيرَ العالَمين كلِّهم إلى اللهِ تعالى؛ فالموافاةُ على الشَّهادةِ أمثلُ بالمرء؛ ليُحرِزَ ثوابها، ويجِدَه وقتَ الحشر، ذلك خيرٌ له من أنْ يموتَ مِن غيرِ ما فائدةٍ؛ يبيِّنُ ذلك قولُه تعالى: ﴿وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾، فالنهايةُ واحدةٌ: موتٌ أو قتْلٌ في الموعدِ المحتوم، والأَجَلِ المقسوم، ورجعةٌ إلى الله وحشرٌ في يومِ الجَمْعِ والحشر، ومغفرةٌ من الله ورحمةٌ، أو غضبٌ من الله وعذاب؛ فأحْمَقُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٨٣-١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٦٠-٣٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٩٩،٤٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٥٥).

الحمقَى مَن يختار لنفسِه المصيرَ البائس، وهو ميِّتٌ على كلِّ حال[١]!

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- في قول الله تعالى: ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى﴾ ذكَرَ الغزوَ بعدَ الضَّربِ في الأرض، وهو داخلٌ فيه؛ قيل: لأنَّ الضَّربَ في الأرض يُراد به الإبعادُ في السَّفر، لا ما يَقرُب منه، وفي الغزو لا فَرقَ بين بعيدِه وقريبِه، فبينهما عمومٌ وخصوص؛ فتغايرَا، فصحَّ إفرادُه. وقِيل: قدَّم الضَّربَ في الأرض على الغزو؛ لكَثرتِه[٢].

٢- في قولِ الله تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ قدَّم الموتَ على القتْل؛ قيل: لِمُناسبةِ ما قَبلَه من قوله: ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى﴾[٣]، أو باعتبارِ أنَّ الموتَ حتْفَ الأنفِ هو الغالبُ، وليس القتْل[٤].

٣- الرَّدُّ على القدريَّة؛ لقوله: ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ يعني: أنَّ اللهَ قدَّر أنْ يقولوا هذا القولَ؛ ليجعلَه حَسرةً في قلوبهم[٥].

٤- قول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ علَّق ما قال الكافرون بالبصرِ لا بالسَّمعِ، وإنْ كان الصادرُ منهم قولًا مسموعًا لا فِعلًا مرئيًّا، لَمَّا كان ذلك القولُ من الكافِرِ قصدًا منهم إلى عَملٍ يُحاولونه، فخَصَّ البصرَ بذلك[٦].

٥- في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ الرَّدُّ على الجبريَّة، حيث

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٠٠، ٤٠٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٠٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٠٦)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٠٦، ٤٠٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٥٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير الراغب)) (٣/ ٩٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٠٤).

أضافَ العملَ إليهم، والجبريَّةُ لا يُضيفون العملَ إلى الإنسان(١).

٦- قول الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ﴾ قدَّم القتلَ على الموت؛ لأنَّه محلُّ تحريضٍ على الجهاد، فقدَّم الأهمَّ والأشرفَ(٢).

٧- الجَمْع بين المغفرة والرَّحمة؛ ليكملَ للإنسانِ سعادتُه؛ إذ بالمغفرةِ زوالُ المكروه، وبالرَّحمةِ حصولُ المطلوب، قال تعالى: ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾(٣).

٨- جوازُ إيقاع التَّفضيلِ بين شيئينِ بينهما بُعدٌ تامٌّ، كما قال تعالى: ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾(٤).

٩- قول الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ قدَّم الموتَ هنا على القتْل؛ قيل: لأنَّها آيةُ وعْظٍ بالآخِرة والحشرِ، وتزهيدٍ في الدُّنيا والحياة، والموتُ فيها مُطلَق لم يقيَّدْ بشيءٍ فقُدِّم لعمومِه، أو لأنَّه أغلبُ في النَّاس من القتْل(٥).

١٠- في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ زيادةُ تسليةٍ للمؤمنين؛ لأنَّ المؤمنَ إذا عَلِم أنَّ مرجعَه إلى الله، فإنَّه سوف يَطمئنُّ ويستبشرُ وينشرِحُ صدرُه بذلك(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٥٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٠٧)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢٥٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٦٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٠٦)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢٥٩).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٦١).

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾:

- في الآية: حِكايةُ الحالِ الماضيةِ؛ لاستحضارِ الصُّورةِ في الذِّهن، وتجسيدِ المعنى المراد، والتَّشخيصِ لِمَا يُراد عَرْضُه؛ فـ: ﴿إِذَا﴾ ظرفٌ للمستقبل، وقد جاء متعلقًا بـ﴿قَالُوا﴾، وهي فِعل ماضٍ، وكان ظاهرُ الكلام يَقضي باستعمال (إذ) المفيدةِ للمُضيِّ، ولكنَّه عدَل عنها إلى ﴿إِذَا﴾؛ لحكايةِ الحالِ الماضية، وفائدتُها استمرارُ الزَّمان المنتظِم للحالِ الَّذي يَدورُ عليه الحديثُ إلى وقتِ التَّكلُّم[1].

- وقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: خبرٌ متضمِّنٌ للتَّحذيرِ لهم مِن أن يُضمروا العَوْدَ إلى ما نُهوا عنه[2].

- وفيه: إظهارُ الاسمِ الجليلِ (الله) في موقعِ الإضمارِ؛ لتربيةِ المهابةِ، وإلقاءِ الرَّوْعةِ، والمبالغةِ في التَّهديد، والتَّشديدِ في الوعيد[3].

٢- قوله: ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ فيه تأكيدُ الخبرِ باسميَّةِ الجملة، واللام[4].

- ووردتْ ﴿لَمَغْفِرَةٌ﴾ ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ نكرتين، إشارةً إلى أنَّ أيسرَ جزءٍ من

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٠١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٨٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٤٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٠٤)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٥٦٧).
(٤) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٥٦٨).

المغفرة والرَّحمة خيرٌ من الدُّنيا، وأنَّه كافٍ في فوزِ المؤمن(١).

٣- **قوله:** ﴿وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ فيه توكيدُ الخبرِ باسميَّةِ الجملة، واللام في ﴿لَإِلَى﴾(٢).

- وعبَّر بقوله تعالى: ﴿لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ ولم يقُلْ: (تحشرون إلى الله)، فقدَّم ما حقُّه التَّأخير؛ ليُفيد الحَصرَ، فمعناه: إلى اللهِ يُحشَر العالَمون لا إلى غيرِه، وهذا يدلُّ على أنَّه لا حَاكمَ في ذلك اليومِ، ولا ضارَّ ولا نافعَ إلَّا هو سبحانه وتعالى(٣).

- وقوله: ﴿تُحْشَرُونَ﴾ بُني لِمَا لم يُسمَّ فاعلُه، مع أنَّ فاعلَ ذلك الحَشرِ هو اللهُ تعالى، وإنَّما لم يقَعِ التَّصريحُ به؛ لأنَّه تعالى هو العظيمُ الكبير، وترك التَّصريح في مِثل هذا الموضعِ أدلُّ على العظَمةِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٠٥)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٥٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١٠٥).

الآيات (١٥٩ - ١٦١)

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩) إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ (١٦٠) وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦١) ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿فَظًّا﴾: كَريهَ الخُلُق، وجافِيَ الفِعل، من الفظِّ، وهو ماءُ الكَرِش، وأصل الفظاظة: الجَفوة، والكراهةُ والتَّكرُّه[١].

﴿لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾: أي: لتَفرَّقوا عنك، ولم يَسكُنوا إليك، والفضُّ: كسْرُ الشَّيءِ، والتَّفريقُ بين بعضِه وبعضِه، وأصلُه: التَّفريقُ والتَّجزئة[٢].

﴿عَزَمْتَ﴾: أي: عَقَدْتَ قلبَك على إمضاءِ الأمورِ، وصَحَّحتَ رأيَك فيها، وأصلُ العزم: القطعُ[٣].

﴿يَخْذُلْكُمْ﴾: أي: يَترُكْ نُصرتَكم ومعونتَكم، وأصل (خذل): ترْكُ الشَّيءِ

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦١- ٦٦٢).

والقعودُ عنه، ومنه الخِذلانُ، وهو تركُ المَعُونة[1].

﴿يَغُلَّ﴾: أي: يَخون في الغنائم، أو يُنسَب إلى الخيانة- على قراءة (يُغَلَّ)-، والغُلول في الغنائم، إخفاءُ الشَّيء، وعدمُ ردِّه إلى القَسم؛ كأنَّ صاحبَه قد غلَّه بين ثِيابِه، وأصل الغُلول: تخلُّل شيءٍ، وثباتُ شيء، كالشَّيء يُغرَزُ[2].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبِرُ الله نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه بسبب رحمةِ الله تعالى كان لَيِّنًا مع أصحابه، خافضًا لهم جناحَه، لذا اجتمعوا عليه، وامتثلوا أمرَه، ولو كان سيِّئَ الخُلُق ذا قلبٍ قاسٍ لتَركوه ونفَروا منه، وأمَره تعالى بأنْ يَعفوَ عن أخطائِهم وتقصيرِهم، وأنْ يَستغفرَ لهم اللهَ، وأنْ يَستشيرَهم في الأمورِ الَّتي تحتاجُ إلى مشورةٍ، فإذا ترجَّح له أمرٌ بعد الاستشارةِ، فليَمضِ فيه متوكِّلًا على الله، والله سبحانه يحبُّ مَن يتوكَّل عليه.

ثمَّ يخبِرُهم تعالى أنَّه حِين يُقدِّرُ للمؤمنين النَّصرَ فلنْ يَستطيعَ أحدٌ أنْ يَهزِمَهم، وإنْ تخلَّى اللهُ عنهم فلا يُمكن لأحدٍ أنْ يَنصُرَهم أبدًا، وعلى اللهِ وحْدَهَ فليكُنِ اعتمادُ كلِّ مؤمن.

ثمَّ يُخبِرُ تعالى أنَّه ليس من صِفاتِ الأنبياءِ الغُلولُ- وهو: كتمانُ الغنيمةِ - ولا الخيانةُ عمومًا، فقد صان اللهُ أنبياءَه عن كلِّ ما يُدَنِّسهم، ولا يَنبغي أن يُتَّهموا بذلِك، أو يَخُونَهم أحدٌ، ثمَّ يذكرُ وعيدَ من غلَّ بأنَّه يأتي بما غلَّه يحملُه يومَ القيامةِ على ظهره، ثمَّ تُجزَى كلُّ نفسٍ بما عمِلَتْ، لا يُظلَمُ أحدٌ شيئًا.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٢).

تَفسيرُ الآيات:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا وَعَظَ اللهُ تعالى الصَّحابةَ رضي الله تعالى عنهم، أَتْبَعَه تحبيبَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فيما فعل بهم من الرِّفق واللِّين، مع وجودِ سببِ الغضبِ الموجِبِ للعُنف والسَّطوة؛ من اعتراضٍ على ما أشار به، ثمَّ مخالفتِهم لأمْره في حِفظِ المركزِ والصَّبرِ والتقوى، ثمَّ خِذلانِهم له وتقديمِ أنفسِهم على نفسِه الشَّريفةِ، ثمَّ عدم العطفِ عليه وهو يَدْعوهم إليه، ويأمُرُ بإقبالِهم عليه، ثمَّ اتِّهامِ مَن اتَّهمه، إلى غيرِ ذلك من الأمورِ الَّتي تُوجِبُ لرؤساءِ الجيوشِ وقادةِ الجنودِ اتِّهامَ أَتْباعِهم، وسوءَ الظَّنِّ بهم، الموجِبَ للغضبِ والإيقاعِ ببعضِهم؛ ليكونَ ذلك زاجرًا لهم عن العَودِ إلى مثلِه[1]، فقال تعالى:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾.

أي: بسببِ رحمةِ اللهِ تعالى لكَ ولأصحابِكَ- يا محمَّدُ- أَلَانَ قَلبَك لهم، فكنتَ سهلًا ورقيقًا في تعاملِك معهم[2].

قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٦١-٣٦٣).

﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾.

أي: لو كنتَ- يا محمَّدُ- جافيًا سيِّئَ الخُلُق، قاسيَ القلبِ مع أتْباعِك، لنفَروا منك وفارَقوك[1].

عن عَطاءِ بنِ يَسارٍ، قال: لقِيتُ عبدَ اللهِ بن عمرِو بنِ العَاصِ رضِيَ اللهُ عنهمَا: قلتُ: أخبِرني عن صفةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في التَّوراةِ، قالَ: ((أَجَلْ، واللهِ إنَّهُ لموصوفٌ في التَّوراةِ ببعضِ صِفَتِهِ في القرآنِ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾، وحِرْزًا للأُمِّيِّينَ[2]، أنتَ عَبْدِي ورَسُولِي، سَمَّيْتُكَ المُتوكِّلَ، ليسَ بِفَظٍّ ولا غَليظٍ، ولا سَخَّابٍ[3] في الأسواقِ، ولا يَدْفَعُ بالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، ولكنْ يَعفُو ويغْفِرُ، ولنْ يَقْبِضَه اللهُ حتَّى يُقِيمَ به المِلَّةَ العَوجاءَ، بأنْ يقولوا: لا إلهَ إلَّا اللهُ، ويفْتَحُ بها أعيُنًا عُمْيًا، وآذانًا صُمًّا، وقُلوبًا غُلْفًا))[4].

﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾.

أي: فتَجاوَزْ عن أصحابِك- يا محمَّدُ- فيما أخطَؤوا أو قَصَّروا فيه من حقِّك، واطلبِ المغفرةَ لهم من اللهِ تعالى فيما أَخطؤوا أو قَصَّروا فيه من حقِّ الله عزَّ وجلَّ، واطلبْ رأيَهم فيما حزَبَك من الأمور العامَّةِ والمشتبِهة؛ وذلك تطييبًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٨٦-١٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٦٣-٣٦٤).

(٢) حرزًا: أي: حافظًا، والأميُّون: جمع أُمِّي، وهو الذي لا يكتُب، والمراد بهم هنا: العرب؛ وسمُّوا بذلك؛ لأنَّ الكتابة كانت عندهم قليلة. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٦٨)، ((عمدة القاري)) للعيني (١١/ ٢٤٣).

(٣) سخَّاب- على وزن: فعَّال- مِن السَّخَب: وهو الصَّخبُ والصِّياح. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٣٤٩)، ((عمدة القاري)) للعيني (١١/ ٢٤٣).

(٤) رواه البخاري (٢١٢٥).

لقلوبهم؛ ليكونوا لك أطوعَ، وفيما يُقدِمون عليه أنشَطَ، وليقتدوا بكَ في ذلك مِن بعدِك(١).

وقد أثنى اللهُ تعالى على المؤمنين بذلك فقال: ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ * وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُم...﴾الآيات [الشورى: ٣٦- ٤٣].

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

أي: إذا صحَّ عزْمُك على أمرٍ من الأمورِ، بعدَ استطلاعِ آراءِ أصحابِك فيه، فامْضِ فيه معتمِدًا على حولِ الله تعالى وقوَّتِه، واثقًا به فحسبُ؛ فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يحبُّ اللَّاجئين إليه، والمعتمِدين في جميعِ أمورِهم عليه(٢).

﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠)﴾.

﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾.

أي: إذا قدَّر الله تعالى بأنْ يَكونَ النصرُ حليفكم- أيُّها المؤمنون- فإنَّه لن يَغلِبَكم أحدٌ مُطلَقًا، مهما بلغ قوَّةً وكثرة(٣).

﴿وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٨٨-١٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٦٤-٣٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٦٦-٣٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٧٧-٣٧٨).

أي: وإذا ترَكَكم اللهُ تعالى، وخلَّى بينكم وبين عَدوِّكم، ووكَلَكم إلى أنفسِكم، فلا يُمكن لأيِّ أحدٍ مطلقًا أن يَنصُرَكم من بعدِ خِذلانِ اللهِ تعالى لكم[1].

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

أي: وعلى اللهِ تعالى وحْدَه، لا على أيِّ أحدٍ غيرِه، فاعتمِدوا- أيُّها المؤمنونَ- في جلْبِ الخيرِ ودَفْعِ الضُّرِّ، ومِن ذلك النَّصرُ على الأعداءِ، ودفعُ شرِّهم[2].

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

مناسبةُ هذه الآيةِ لِمَا قَبْلَها من عدَّة وجوه:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا حثَّ على الجهادِ أتْبَعَه بِذِكرِ أحكامِ الجهاد، ومِن جملتها: المنعُ من الغُلولِ[3].

وأيضًا لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ النَّصرَ والخِذلانَ بيده وحْدَه، وذلك يستلزمُ التَّحريضَ على طلَبِ مَرْضاتِه؛ ليكونَ لطيفًا بمَن يُرضُونه، ولَمَّا كان الغُلولُ مِن أعظمِ مُوجباتِ الخِذلانِ، أو أعْظَمَها، والنَّزاهةُ عنه مِن أعظمِ مُوجباتِ النَّصرِ- كان أنسبَ الأشياءِ لتعقيبِ هذه الآيةِ[4].

وكذلك لَمَّا أمَرَهم اللهُ تعالى بالتوكُّلِ في الآيةِ السَّابقة، حثَّهم على ألَّا يأتوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٩٢-١٩٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٥١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٧٨-٣٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤١٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٥٤).

بِما يَقدَحُ في التوكُّل؛ كالغُلولِ وما يُدانِيه[١].

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿يَغُلَّ﴾ قِراءتان:

١- ﴿يَغُلَّ﴾ أي: ما كان لنبيٍّ أنْ يخُونَ في غنيمةٍ أو غيرِها[٢].

٢- (يُغَلَّ)، قِيل معناها: ما كان لنبيٍّ أن يُغِلَّه أحدٌ، أي: يَخُونَه، وقيل: ما كان لنبيٍّ أنْ يُتَّهم بالغُلولِ فيُخوَّن[٣].

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾.

أي: وليس الغُلولُ- وهو كِتمانُ الغنيمة- ولا غيرُ ذلك من أوجهِ الخِيانة، من صِفاتِ الأنبياء؛ فذلك محالٌ وممتنعٌ على مَن اختارهم الله تعالى لمقام النُّبوَّة، ولا يَنبغي شرعًا لأحدٍ أن يخُونَهم، أو ينسُبَ إليهم هذه الصِّفةَ الشَّنيعةَ[٤].

﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

أي: ومَن يخُنْ مِن غنائمِ المسلمين شيئًا، فإنَّه يَجيءُ معه يومَ القيامةِ بنَفْسِ الشَّيءِ الَّذي أخَذه على سَبيلِ الخِيانةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١١١).

(٢) قرأ بها ابنُ كثير، وأبو عمرو، وعاصم. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٩٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص:١٨٠).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٩٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٩٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص:١٨٠-١٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٠٠-٢٠١)، ((منهاج السنة)) لابن تيمية (٢/ ٤٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٨٤-٣٨٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٥١)، ((تفسير السعدي)) =

عن مُعاذِ بن جبلٍ رضِي اللهُ عنه، قال: ((بعَثَني رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فلمَّا سِرتُ أرسَل في أثَري، فرَددْتُ، فقال: أتدْرِي لمَ بَعثتُ إليك؟ لا تُصيبَنَّ شيئًا بغيرِ إذني؛ فإنَّه غُلولٌ، ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾؛ لهذا دعَوْتُك فامضِ لعملِك))[1].

وعن أبي حُميدٍ السَّاعديِّ رضِي اللهُ عنه، قال: ((اسْتَعْمَل رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ رجلًا من الأزدِ على صدقاتِ بني سُلَيم، يُدعى ابنَ الأُتبِيَّةِ، فلمَّا جاءَ حاسبَه، قال: هذا مالُكم، وهذا هديَّةٌ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: فهلَّا جلَستَ في بيتِ أبيك وأمِّك حتَّى تَأتيَك هديَّتُك إنْ كنتَ صادقًا؟! ثمَّ خطبنا، فحمِدَ اللهَ وأثْنى عليه، ثمَّ قال: أمَّا بعدُ، فإنِّي أستعملُ الرجلَ منكم على العَملِ ممَّا ولَّاني اللهُ، فيأتي فيقول: هذا مالُكم وهذا هديَّةٌ أُهدِيتْ لي، أفَلا جلَسَ في بيت أبيه وأمِّه حتَّى تأتيَه هديَّتُه إنْ كان صادقًا؟! واللهِ لا يَأخذُ أحدٌ منكم منها شيئًا بغير حقِّه، إلَّا لقِيَ اللهَ تعالى يَحملُه يومَ القيامةِ، فلَأعرفنَّ أحدًا منكم لقِيَ اللهَ يَحمِل بعيرًا له رُغاءٌ[2]، أو بقرةٌ لها خُوارٌ[3]، أو شاةٌ تَيْعِرُ[4]،

= (ص: ١٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٨٦-٣٨٧).

قال القرطبي: (قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١]، أي: يأتي به حاملًا له على ظهرِه ورقبتِه، مُعذَّبًا بحملِه وثقلِه، ومرعوبًا بصوتِه، وموبَّخًا بإظهارِ خيانتِه على رؤوس الأشهادِ،... وهذه الفضيحةُ التي يُوقِعُها اللهُ تعالى بالغالِّ نظير الفضيحةِ التي تُوقَع بالغادر، في أن يُنصَب له لواءٌ عندَ اسْتِه بقدرِ غَدرتِه). ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٢٥٦).

(١) رواه البخاري (٢٠٠).

(٢) الرُّغَاء: صوتُ البَعير. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٢٤٠)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٢/ ٢١٦).

(٣) الخُوَارُ: صَوْتُ البَقر. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٨٧).

(٤) تَيعِرُ: أي: تَصِيحُ، واليُعارُ صَوْتُ الشَّاةِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٢٩٧)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٢/ ٢١٩).

ثمَّ رفع يدَيه حتَّى رُئِيَ بياضُ إِبْطَيه، ثمَّ قال: اللهمَّ هل بلَّغْتُ؟، بصُرَ عيني، وسمِع أُذني))[١].

وعن أبي هُرَيرَةَ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((غزا نبيٌّ من الأنبياءِ فقال لقومِهِ: لا يَتْبَعْنِي رجلٌ ملَكَ بُضعَ امرأةٍ[٢]، وهو يُريدُ أن يَبنيَ بها، ولَمَّا يَبْنِ، ولا آخَرُ قد بنَى بُنيانًا، ولَمَّا يرفَعْ سقفَها، ولا آخرُ قد اشترَى غنَمًا أو خَلِفاتٍ[٣]، وهو منتظرٌ ولادَها، قال: فغزَا، فأَدْنَى للقريةِ حينَ صلاةِ العصرِ، أو قريبًا من ذلكَ، فقال للشَّمسِ: أنتِ مأمورةٌ وأنا مأمورٌ، اللهمَّ احبِسْها عليَّ شيئًا، فحُبِستْ عليهِ حتَّى فتَحَ اللهُ عليهِ، قال: فجمَعُوا ما غنِموا، فأقبلتِ النَّارُ لتأكلَه، فأبتْ أنْ تَطْعَمَهُ، فقال: فيكُم غُلولٌ، فليُبايِعْنِي من كلِّ قبيلةٍ رجلٌ، فبايَعوهُ، فلصِقَتْ يدُ رجلٍ بيدِهِ، فقال: فيكُم الغُلولُ، فلتُبايِعْنِي قبيلتُكَ، فبايَعَتْه، قال: فلصِقَتْ بيدِ رَجُلينِ أو ثلاثةٍ، فقال: فيكُم الغُلولُ، أنتُم غلَلْتُم، قال: فأَخْرجوا له مِثْلَ رأسِ بقرةٍ من ذَهبٍ، قال: فوضَعُوهُ في المالِ وهو بالصَّعيدِ[٤]، فأقبلتِ النَّارُ فأكلَتْهُ، فلم تحِلَّ الغنائمُ لأحدٍ مِن قبلِنا؛ ذلكَ بأنَّ اللهَ تباركَ وتعالى رأى ضَعْفَنا وعَجزَنا، فطَيَّبها لنا))[٥].

وعن عُمرَ بنِ الخطَّابِ رضِيَ اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا كان يومُ خيبرَ أقبَل نفَرٌ مِن صحابةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقالوا: فلانٌ شهيدٌ. فلانٌ شهيد، حتَّى مرُّوا

---

(١) رواه البخاري (٦٩٧٩)، ومسلم واللفظ له (١٨٣٢).

(٢) بضع امرأة: البُضْع يطلَق على عَقْدِ النِّكاحِ والجِماعِ معًا، وعلى الفَرْج. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ١٣٣)، ((عمدة القاري)) للعيني (١٥/ ٤٣).

(٣) الخَلِفاتُ: جمع خَلِفَة، وهي الحامل من النُّوق. وقيل الخَلِفات: الحواملُ من الإبلِ إلى أنْ يَمضِيَ عليها نِصْفُ أمَدِها. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٦٨)، ((شرح النووي على مسلم)) (٦/ ٨٩).

(٤) بالصَّعيدِ أي: بوَجْه الأرضِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٢/ ٥٣).

(٥) رواه مسلم (١٧٤٧).

على رجلٍ فقالوا: فلانٌ شهيدٌ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: كلَّا، إنِّي رأيتُه في النَّارِ، في بُردَةٍ غلَّها، أو عَباءةٍ، ثمَّ قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: يا ابنَ الخطَّابِ، اذهَبْ فنادِ في النَّاسِ: إنَّه لا يدخُلُ الجنَّةَ إلَّا المؤمنونَ، قال: فخرَجتُ فنادَيتُ: ألَا إنَّه لا يَدخُلُ الجنَّةَ إلَّا المؤمِنونَ)) (١).

وعن أبي هُرَيرَةَ رضِي اللهُ عنه، قال: ((خرَجْنا معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يومَ خَيبرَ، فلم نَغنَمْ ذهبًا ولا فِضَّةً، إلَّا الأموالَ والثِّيابَ والمَتاعَ، فأهدَى رجلٌ من بني الضَّبيبِ، يُقالُ له: رِفاعَةُ بنُ زيدٍ، لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ غلامًا، يُقالُ له: مِدعَمٌ، فوَجَّه رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى وادي القُرَى، حتَّى إذا كان بوادي القُرَى، بينما مِدعَمٌ يَحُطُّ رَحلًا لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذا سهمٌ عائِرٌ (٢) فقتَلَه، فقال النَّاسُ: هَنيئًا له الجنَّةُ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: كلَّا، والَّذي نفْسي بيدِه، إنَّ الشَّملةَ الَّتي أخَذها يومَ خَيبرَ من المغانمِ، لم تُصِبْها المَقاسِمُ، لَتشتَعِلُ عليه نارًا، فلمَّا سَمِعَ ذلك النَّاسُ جاء رجلٌ بشِراكٍ (٣)، أو شِراكَينِ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال: شِراكٌ من نارٍ، أو: شِراكانِ من نارٍ)) (٤).

﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى عُقوبةَ الغالِّ، وأنَّه يأتي يومَ القيامةِ بما غَلَّه، ولَمَّا أرادَ أنْ

---

(١) رواه مسلم (١١٤).

(٢) سهم عائر: أي: لا يُدرَى مَن رماه. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٢/ ٧٦٠)، ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٣٢٨).

(٣) الشِّرَاكُ: أحد سُيور النَّعْلِ، التي تكون على ظهر القدَم. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٤٦٧- ٤٦٨)، ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ١٢٩).

(٤) رواه البخاري (٦٧٠٧)، ومسلم (١١٥).

يذكُرَ توفيتَه وجزاءَه، وكان الاقتصارُ على الغالِّ يُوهِم -بالمفهومِ- أنَّ غيرَه من أنواعِ العاملين قد لا يُوفَّوْن- ناسَب أن يأتيَ بلفظٍ عامٍّ جامعٍ له ولغيرِه[1]، فقال:

﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

أي: إنَّ كلَّ نفسٍ تُعطَى يومَ القيامةِ جزاءَ ما عمِلَتْ، كاملًا غيرَ منقوص، فلا يُنقَصُ من حَسناتِهم، ولا يُزادُ في سيِّئاتهم[2].

الفَوائدُ التربويَّة:

١- الحثُّ على حُسنِ الخُلق واللِّين؛ فثمرة اللِّين هي المحبَّة والاجتماع، وخلافُه من الجَفوةِ والخشونةِ مُؤدٍّ إلى التَّفرُّق؛ قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[3].

٢- ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ الأخلاقُ الحسنة من الرَّئيس في الدِّين، تجذِبُ النَّاسَ إلى دِين الله، وتُرغِّبُهم فيه، مع ما لصاحبِه من المدحِ والثَّواب الخاصِّ، والأخلاقُ السَّيِّئةُ من الرَّئيسِ في الدِّين تُنفِّر النَّاسَ عن الدِّين، وتُبغِّضُهم إليه، مع ما لصاحبِها من الذَّمِّ والعِقابِ الخاصِّ؛ فهذا الرَّسولُ المعصومُ يقولُ اللهُ له ما يقولُ؛ فكيف بغيره[4]؟!

٣- يجبُ أنْ يكونَ الاعتمادُ على إعانةِ اللهِ وتَسديدِه وعِصمتِه، وألَّا يكونَ للعبدِ اعتمادٌ على شيءٍ إلَّا على الله تعالى في جَميعِ الأمورِ؛ يُبيِّنُ ذلك قولُه تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾[5].

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٨٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٠٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١٠٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٥١).

٤- ليس التوكُّلُ إهمالَ التَّدبيرِ بالكلِّيَّة، بل بمراعاةِ الأسبابِ الظَّاهرةِ- كالمشاورة- مع تفويضِ الأمرِ إلى الله تعالى، فلا يُعوِّل بقلبِه عليها، بل يُعوِّلُ على عصمةِ الله تعالى؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾(١).

٥- ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ الآيةُ صريحةٌ في وجوبِ إمضاءِ العزيمةِ المستكمِلةِ لشُروطِها- وأهمُّها في الأمورِ العامَّةِ حربيَّةً كانتْ أو سياسيَّةً أو إداريَّةً: المشاورةُ- وذلك أنَّ نقضَ العزيمةِ ضعفٌ في النَّفسِ، وزلزالٌ في الأخلاقِ، لا يُوثَقُ بمنِ اعتاده في قولٍ ولا عمَلٍ، فإذا كان ناقضُ العزيمةِ رئيسَ حكومةٍ أو قائدَ جيشٍ، كان ظهورُ نقضِ العزيمةِ منه ناقضًا للثِّقةِ بحكومتِه وبجيشِه، ولا سيَّما إذا كان بعد الشُّروعِ في العملِ(٢).

٦- في قوله: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أنَّ العزمَ على الفِعلِ وإنْ كان يكونُ بعد الفكرِ، وإحكامِ الرَّأيِ والمشاورةِ، وأخْذِ الأُهْبةِ، فذلك كلُّه لا يَكفي للنَّجاحِ إلَّا بمعونةِ اللهِ وتوفيقِه؛ لأنَّ الموانعَ الخارجيَّةَ له والعوائقَ دونه لا يُحيطُ بها إلَّا الله- تعالى-، فلا بدَّ للمؤمنِ من الاتِّكالِ عليه، والاعتمادِ على حَولِه وقوَّته، مع فعلِ الأسبابِ(٣).

٧- أنَّه يَنبغي على الإنسانِ إذا عزَم على الأمرِ ألَّا يتردَّدَ؛ لأنَّ التَّردُّدَ يُحيِّرُ الإنسانَ ويوقِعُه في القلقِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤١٠)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ١٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٧٣).

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- أنَّ التَّفريطَ في حقِّ النَّبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام ذنبٌ عظيمٌ؛ لأنَّ الله لَمَّا أمر نبيَّه بالعفوِ عن حقِّه الخاصِّ قال: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾، وهو كذلك؛ فإنَّ الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام ليس كغيره؛ لأنَّ له حقَّ الإسلام وحقَّ الرِّسالة، ولأنَّه أعظمُ النَّاس حقوقًا علينا؛ فالاعتداءُ في حقِّه أشدُّ من غيره، بل يُكسِبُ الإثمَ[1].

٢- في قولِ الله سبحانه: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ أنَّ المشاورةَ من العباداتِ المتقرَّبِ بها إلى الله[2].

٣- للشُّورى المأمورِ بها في قوله تعالى ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ حِكَمٌ وفوائدُ تترتَّبُ عليها، مِن هذه الحِكَم:

- ألَّا يَستبدَّ الرَّئيسُ أو وليُّ الأمرِ برأيه.

- كما أنَّ فيها تعويدَ أفرادِ الأمَّةِ على النَّظرِ في شؤونهم؛ حتَّى يتمرَّنوا ويُمارِسوا هذا الأمْرَ.

- التَّواضُع ممَّن شاور، فلا شكَّ أنَّه إذا شاوَرَ فهو متواضِعٌ.

- تنشيطُ الأمَّة، حيثُ ترى أنَّه يُرجَعُ إليها في الرَّأي، فتنشطُ وتَعملُ ما فيه الخيرُ العامُّ، بخِلافِ ما إذا استبدَّ وليُّ الأمر في رأيه، فإنَّه وإنْ كان صوابًا ربَّما تشمئزُّ النُّفوس منه.

- أنَّه إذا اجتمعتِ الآراءُ مع حُسنِ النِّيَّةِ، فإنَّ الغالبَ أنَّ اللهَ يُوفِّقُهم للصَّوابِ.

- أنَّ الإنسانَ ربَّما يرَى في هذا الأمرِ مصلحةً، ويفُوته ما يَترتَّبُ عليه من مفسدةٍ، لا سيَّما إذا كان له هوًى؛ فإنَّ الهوى كما قيل: يُعمِي ويُصِمُّ، أحيانًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٤).

يكونُ للإنسان هوًى فيرى المصلحةَ، ولا يَرى المفسدةَ في الشَّيء، فإذا حصَل التَّشاورُ تبيَّنتِ المصالحُ من المفاسدِ.

- أنَّ الأمَّةَ إذا اجتمعَتْ على رأيها لم يكُنْ للنَّاسِ اعتراضٌ، ومعلومٌ أنَّ الَّذي يُشاوَر هم أهلُ الأمانةِ، وأهلُ الحَلِّ والعَقدِ والمعرفة(١).

٤- أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَعتريه ما يَعتري البشرَ من التَّردُّدِ في الأمور، ووجهُ الدَّلالةِ: أولًا في قوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ﴾، وثانيًا في قوله: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾؛ فإنَّ العزيمةَ قد يسبِقُها تردُّدٌ، كما هو الواقع(٢).

٥- ليسَ في الوجودِ سَببٌ يستقلُّ بحُكمٍ، بل كلُّ سببٍ فهو مُفتقِرٌ إلى أمورٍ أُخرى تُضَمُّ إليه، وله موانعُ وعوائقُ تَمْنَعُ مُوجِبَه، وما ثَمَّ سببٌ مستقلٌّ بالإحداثِ إلَّا مَشيئةُ اللهِ وحْدَه؛ فمَا شاء كان، وما لم يَشأْ لم يكُنْ، وما شاءَ خَلَقَه بالأسبابِ التي يُحدِثُها ويَصرِفُ عنه الموانعَ؛ فلا يجوزُ التوكُّل إلَّا عليه؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾(٣).

٦- في قولِ الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾، أنَّ التَّوكُّل من مقتضياتِ الإيمانِ؛ لأنَّه علَّق الحُكمَ على وصفٍ، وهو الإيمانُ، فدلَّ ذلك على أنَّه كلَّما قوِيَ الإيمانُ قوِيَ التَّوكُّلُ على اللهِ، وكلَّما ضعُف الإيمانُ ضعُف التَّوكُّل على اللهِ(٤).

٧- الخيانةُ مع كلِّ أحدٍ مُحرَّمةٌ، وتخصيصُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بهذه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٧١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٧٣).
(٣) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٥/ ٣٦٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٨٢).

الحُرمةِ في قوله تعالى في قِراءة: (وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يُغَلَّ) يُستفادُ منه فوائدُ؛ منها: أنَّ المجنيَّ عليه كلَّما كان أشرَفَ وأعظَمَ درجةً كانت الخيانةُ في حقِّه أفحشَ، والرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أفضلُ البشرِ، فكانتِ الخيانةُ في حقِّه أفحشَ، ومنها: أنَّ الوحيَ كان يأتيه حالًا فحالًا، فمَن خانه فربَّما نزَل الوحيُ فيه، فيحصُلُ له مع عذابِ الآخرةِ فضيحةُ الدُّنيا، ومنها: أنَّ المسلِمين كانوا في غايةِ الفقرِ في ذلك الوقتِ، فكانتْ تلك الخيانةُ هناك أفحشَ [1].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ الفاء للتَّفريعِ على ما اشتمَلَ عليه الكلامُ السَّابقُ الَّذي حُكِي فيه مخالفةُ طوائفَ لأمْر الرَّسولِ من مؤمنين ومُنافِقين، وما حُكِي مِن عفوِ اللهِ عنهم فيما صنَعوا[2].

- وتقديمُ المجرورِ ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ﴾ مفيدٌ للحصرِ الإضافيِّ، أي: برحمةٍ مِن الله، لا بغَيرِ ذلك من أحوالهم، وهذا القصرُ يُفيدُ التَّعريضَ بأنَّ أحوالَهم كانتْ مستوجِبةً الغِلَظَ عليهم، ولكنَّ اللهَ تعالى ألَانَ خُلُقَ رسولِه، رحمةً بهم؛ لحكمةٍ علِمها اللهُ في سياسةِ هذه الأمَّةِ[3].

- وزِيدَتْ ﴿مَا﴾ بعدَ باءِ الجرِّ؛ لتأكيدِ الجملةِ بما فيه من القَصرِ، فتعيَّن بزيادتها كونُ التَّقديمِ للحصرِ، لا لمجرَّدِ الاهتمامِ[4].

- وقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أُسْنِدت الرَّحمةُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٤٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٣١)، ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٠٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٤٤).

المتفضِّلُ بها، ولأنَّ إسنادَها إليه يُفيدُ عظَمتَها، وأنَّها رحمةٌ عظيمةٌ(١).

- ودلَّ فِعلُ المُضيِّ في قوله: ﴿لِنْتَ﴾ على أنَّ ذلك وصفٌ تَقرَّر وعُرِف مِن خُلقِه، وأنَّ فِطرتَه على ذلك برَحمةٍ مِن اللهِ؛ إذ خلَقَه كذلك(٢).

٢- قوله: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ فيه تمثيلٌ؛ حيث شُبِّهت هيئةُ النُّفورِ منه، وكراهيةُ الدُّخولِ في دِينه بالانفضاضِ مِن حولِه، أي: الفِرار عنه مُتفرِّقين، وهو يُؤذِنُ بأنَّهم حولَه متَّبِعون له(٣).

٣- قوله تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ (الفاء) فيه تدُلُّ على التَّعقيبِ المباشِر؛ فهذا يدُلُّ على أنَّه تعالى أوجَب على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أن يَعفوَ عنهم في الحال(٤).

٤- قوله: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ الجملةُ تعليلٌ للتَّوكُّلِ عليه تعالى(٥)، وهو مِن حُسنِ التَّعليل، كما فيها تأكيدُ الخبرِ بـ(إنَّ)، واسميَّةِ الجملة(٦).

- وفيه: وضعُ الاسمِ الظَّاهرِ ﴿إِنَّ اللهَ﴾ موضِعَ الضَّمير (إنَّه)؛ لتربيةِ المَهابةِ(٧).

٥- في قوله: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠)﴾:

- جَعَل الجوابَ بقوله: ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ دون أن يقول: (لا تُغلبوا)؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٦٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٤٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ١٤٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٠٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٠٥).
(٦) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٥٧٠).
(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

للتَّنصيصِ على التَّعميمِ في الجواب؛ لأنَّ عمومَ ترتُّبِ الجزاءِ على الشَّرطِ أغلبيٌّ، وقد يكون جزئيًّا، أي: لا تُغلَبوا مِن بعضِ المغالبين، فأُريد بإفادةِ التَّعميمِ دفعُ التَّوهُّمِ[1].

- قوله: ﴿وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُم مِنْ بَعْدِهِ﴾: خبرٌ فيه ترغيبٌ في الطَّاعةِ، وفيما يَستحقُّون به النَّصرَ مِن الله تعالى والتَّأييدَ، وتحذيرٌ من المعصية، وممَّا يستوجِبون به العقوبةَ بالخِذلانِ[2].

- قوله: ﴿فَمَن ذَا الذي يَنصُرُكُم مِنْ بَعْدِهِ﴾: الاستفهامُ إنكاريٌّ، مفيدٌ لانتفاءِ النَّاصرِ ذاتًا وصِفةً بطريق المبالَغةِ[3].

- وفيه تلطُّفٌ بالمؤمنين حتَّى لا يُصرَّحَ لهم بأنَّه لا ناصرَ لهم، بل أبرَز ذلك في صورةِ الاستفهامِ، الَّذي يقتضي السُّؤالَ عن النَّاصرِ، وإن كان المعنى على نفْيِ الناصرِ، لكن فرقٌ بين الصَّريحِ والمُتضمَّنِ، فلم يُجرِ المؤمنين في ذلك مجرى الكفَّارِ، الَّذي نصَّ عليه بالصَّريحِ أنَّه لا ناصرَ لهم؛ كقولِه: ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾[4] [محمد: ١٣].

- قوله: ﴿وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾: فيه تقديمُ الجارِّ والمجرورِ على الفعلِ؛ لإفادةِ قصرِه عليه تعالى، والفاءُ لترتيبِه، أو ترتيبِ الأمرِ به[5].

- والمرادُ بالمؤمنين إمَّا الجنسُ، والمُخاطَبون داخِلونَ فيه دُخولًا أوَّليًّا، وإمَّا هم خاصَّةً بطريق الالتفاتِ، وعلى كِلا الوجهين فيه تَشريفٌ لهم بعنوانِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٥٣- ١٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤١١).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٠٦).

الإيمانِ اشتراكًا أو استقلالًا، وتعليلٌ لتحتُّمِ التَّوكُّلِ عليه تعالى؛ فإنَّ وصفَ الإيمانِ ممَّا يوجِبه قطعًا(١).

٦- قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾ فيه المبالغةُ في النَّهيِ حيث عبَّر بـ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾، وهي صيغةُ جُحودٍ تُفيد مبالَغةَ النَّفيِ؛ لأنَّ الغُلولَ أَولى بأن يُبالَغَ فيه(٢).

٧- قوله: ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فيه تعميمُ الحُكمِ؛ ليكونَ كالبرهانِ على المقصودِ، وللمبالغةِ فيه؛ فإنَّه إذا كان كلُّ كاسبٍ مَجزيًّا بعملِه، فالغَالُّ مع عِظَمِ جُرمِه بذلك أَولى(٣).

- وجِيءَ بأداةِ التَّراخي ﴿ثُمَّ﴾؛ للدَّلالةِ على طولِ مُهلةِ التَّفضيحِ، فزادَ ذلك في تَعظيمِ يومِ القيامة، وتعظيمِ الجزاءِ فيه(٤).

- وبُني الفِعلُ ﴿تُوَفَّى﴾ لِمَا لم يُسمَّ فاعلُه؛ إظهارًا لعظَمتِه تعالى، على طريقِ كلامِ القادِرين(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٥٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٩٣-٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٤٦).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٥٦).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١١٣).

الآيات (١٦٢ - ١٦٨)

﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُۚ وَبِئْسَ
ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ
عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولٗا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ
وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾
أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٞ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْۗ
إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْۖ
قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِۚ
يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ
لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿بَاءَ بِسَخَطٍ﴾: رجَع، وانْصَرَف بذلك، ولا يُقال (باء) إلَّا بِشَرٍّ، وأصلُه الرجوعُ، يقالُ: باء بكذا، أي رجَع به، وباء إلى المَبَاءَة- وهي المنزلُ- أي رجَع. ومنه قولُهم: باء بذنبه، كأنَّه عاد إلى مباءته محتملًا لذنبه(١).

﴿مَنَّ﴾: أي: أنْعَم وصنَع الصُّنع الجَميل، والمنَّة: النِّعمة الثَّقيلة، وأصل مَنَّ: اصطناعُ الخيرِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١/ ٤٣٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٠- ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٢).

﴿يُزَكِّيهِمْ﴾: يُطهِّرُهم من الكُفرِ والمَعاصِي والرَّذائل، وأصل الزَّكاة: النَّماءُ والزِّيادةُ، والطَّهارةُ(١).

﴿أَنَّى﴾: هي كلمةٌ للبَحثِ عن الحالِ والمكان، بمعنى: كيفَ وأينَ؛ لتضمُّنها مَعناهما، وهي هنا بمَعْنى: كيفَ(٢).

﴿تَعَالَوْا﴾: أي: هلُمُّوا، و(تَعالَ)، أصلُه أنْ يُدعَى الإنسانُ إلى مَكانٍ مرتفعٍ، ثمَّ جُعل للدُّعاءِ إلى كلِّ مكان، وأصله مِن العلوِّ، وهو ارتفاعُ المنزلةِ، فكأنَّه دعا إلى ما فيه رِفعةٌ(٣).

﴿فَادْرَؤُوا﴾: أي: فادْفَعوا، ودَرَأْتُ عنه: دفعت عن جانبِه، ودارأْتُه: دافَعْته والدَّرْءُ: الميلُ إلى أحدِ الجانبينِ وأصلُه: دفعُ الشيءِ(٤).

المَعنَى الإجماليُّ:

لا يَستوي مَن كان مبتغاه رِضا اللهِ تعالى، ويَسعى لذلك، ومَن هو واقعٌ في معاصي الله، راجعٌ بسَخَطِه وغَضَبِه، ومَصيرُه جهنَّمُ، وبئس المصيرُ، وكِلا الفريقين مراتبُ متفاوتةٌ، فمَنِ ابتغَوْا رضوانَ الله درجاتٌ مختلفةٌ في العُلوِّ، ومَن باؤوا بسَخَطِ الله درَكاتٌ متفاوتةٌ في السُّفولِ، واللهُ مطَّلعٌ على كلِّ ما يعملُه عبادُه، وسيُجازيهم عليه.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨).

(٢) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٨٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٢-٣١٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٦-٢٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٤).

ثمَّ أخبرَ تعالى أنَّه أنعَمَ على أهل الإيمانِ بإرسال محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إليهم من جنسِهم البَشريِّ، يَقرأ عليهم القُرآنَ، ويُطهِّرُهم من الشِّركِ والمعاصي والأخلاقِ الرَّذيلةِ، ويُعلِّمُهم معانيَ القرآنِ، والسُّنَّة النَّبويَّة، وقد كانوا من قَبلِ أن يَأتيَهم في ضَلالٍ واضحٍ.

ثمَّ يقولُ اللهُ تعالى للمُؤمنين: أحِينَ أَصابَتْكم المصيبةُ يومَ أُحُدٍ بقَتْلِ سبعين منكم، وأنتُم قد أوقعتُم بعَدوِّكم ضِعفَيْها بقتلِ سبعينَ منهم، وأَسْرِ سبعينَ، أعندَ ذلك تَتساءَلون: مِن أين أصابَنا ما أصابَنا، وكيف وقَعَتْ علينا هذه المصيبةُ، فأمَرَ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يقولَ لهم: إنَّ ما حَلَّ بكم سببُه من أنفسِكم، حين حصَل مِن بعضِكم التَّنازُعُ فيما بينهم، وعصَوْا أمرَ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، واللهُ تعالى على كلِّ شيءٍ قادرٌ.

ثمَّ يُخبِرُ اللهُ تعالى المؤمنين أنَّ ما أصابَهم يومَ أُحُدٍ يوم الْتَقى جَمْعُ المسلمين بجَمْعِ المشركين، إنما هو بقَضاءِ الله وقدَرِه، وليَمِيزَ سبحانه المؤمنين، ويمِيزَ أيضًا المنافقين الَّذين هم في صُفوفِ المسلمين، وقد اتَّضَح أمرُهم حين دُعوا للقتالِ في سبيلِ الله، أو من أَجْلِ الدَّفع عن البلاد ومَن فيها، فما كان منهم إلَّا أنِ اعتذروا بعُذرٍ قبيحٍ؛ حيث قالوا: إنَّهم لو يعلَمون أنَّه ستكونُ مواجهةٌ بين المسلِمين والمشركين لخرجوا مع المسلِمين، لكنَّهم لا يرَوْن أنَّ هذا سيحصُلُ، فأخبر تعالى أنَّ المنافقين كانوا في تلك الحالِ أقرَبَ إلى الكفرِ منهم إلى الإيمانِ، يُضمِرون في أنفسِهم خلافَ ما يُظهِرونه، واللهُ سبحانه مطَّلِعٌ على كلِّ ما يُخفونه.

هؤلاءِ المنافقون الَّذين تخلَّفوا عن الجِهادِ مع المسلمين قالوا: لو أنَّ قرابتَنا الَّذين قُتِلوا في المعركةِ أَخَذوا بمشورتِنا؛ بترْكِ الخروج للقتال لم يُقتَلوا، فأمَر الله نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يقولَ لهم: فادْفَعوا الموتَ عن أنفسِكم

إنْ كنتُم صادقين في أنَّهم لو أطاعوكم ما كانوا قُتِلوا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا قال: ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ أَتْبَعَه بتفصيلِ هذه الجملة، وبيَّن جزاءَ المُطيعين ما هو، وجزاءَ المُسيئين ما هو[١].

وأيضًا لَمَّا أخبَر اللهُ تعالى أنَّه لا يقعُ يومَ القيامة ظُلمٌ أصلًا، تسبَّبَ عنه الإنكارُ على مَن حدَّثَته نفسُه بالأمانيِّ الكاذبة، فظنَّ غيرَ ذلك من استواءِ حالِ المُحسِنِ وغيرِه، أو فعَل فعلًا وقال قولًا يؤدِّي إلى ذلك؛ كالمُنافِقين وكالمُقبِلين على الغنيمةِ[٢]، فقال تعالى:

﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦٢)﴾.

أي: هل مَن ترَك الغُلولَ، وانتهى عن غيرِه مِن المعاصي، وعَمِل بطاعةِ الله تعالى، قاصدًا بذلك نَيْلَ رضا الله سبحانه، هل هو كالَّذي رجَع متحمِّلًا غضَبَ اللهِ عزَّ وجلَّ عليه بوقوعِه في العِصيانِ، أو بترْكِ طاعةِ الرَّحمن، فاستحقَّ بذلك الإقامةَ في جَهنَّمَ، وما أسوأَه مِن مصيرٍ يُرجَع إليه[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١١٣-١١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٩٣-٣٩٤).

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٤].

وقال سبحانه: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ [المائدة: ٨٠].

﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٦٣)﴾.

﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾.

أي: إنَّ للمتَّبعين رِضوانَ اللهِ تعالى مراتبَ متفاوتةً في العلوِّ، كما أنَّ لِمَن باؤوا بسَخَطِ اللهِ سبحانه دَركاتٍ متفاوتةً في السُّفولِ[(١)].

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

أي: واللهُ تعالى مطَّلعٌ على كلِّ ما يعمَلُه عبادُه؛ من طاعةٍ أو معصيةٍ، لا يَخفَى عليه شيءٌ من ذلك، وهو حافِظٌ لأعمالهم، وسيُجازي كلًّا منهم بحسَبِها[(٢)].

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١٦٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا فصَّل اللهُ تعالى أحوالَ النَّاسِ بدأ بالمؤمنين، فذكر ما امتَنَّ عليهم به[(٣)]، فقال:

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٩٨-٣٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤١٥).

أي: إنَّ اللهَ تعالى قد أنعَمَ على عِبادِهِ المؤمنين؛ بأنْ أرسَلَ إليهم محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ من جِنسِهم البشريِّ، فيَألَفونَه ويَفهمون خِطابَه، ويَتمكَّنون من مجالستِه والتَّحدُّثِ إليه[1].

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤-٩٥].

﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ﴾.

أي: يقرَأُ عليهم القُرآنَ، ويأمُرُهم بكُلِّ خيرٍ، ويَنهاهم عن كلِّ شرٍّ، حتَّى تطهُرَ نفوسُهم من دَنَسِ الشِّركِ والمعاصي، ورذائلِ الأخلاقِ[2].

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾.

أي: ويُعلِّمهم معانيَ القرآنِ الكريم، والسُّنَّة النَّبويَّة[3].

﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

أي: إنَّ المؤمنين كانوا قَبل بِعثةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إليهم مُنغمِسينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير آيات أشكلت)) لابن تيمية (١/ ٢٢٦-٢٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٠٤-٤٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢١٢)، ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٦٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٠٥-٤٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢١٢)، ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٦٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٥٨).

في جاهليَّةٍ جَهلاءَ، وحيرةٍ عَمياءَ، وانحرافٍ واضحٍ عن طريق الهُدى[(١)].

﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥)﴾.

﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا﴾.

أي: أحِينَ حلَّت بكم مُصيبةُ غزوةِ أُحُدٍ بقتلِ سبعينَ رجلًا منكم، مع أنَّكم نِلتُم قبلها في بَدْرٍ ضِعْفَيْ ما نالوا منكم عددًا، بقَتلِ سبعينَ، وأَسْرِ سَبعينَ آخَرين، أحينَها تقولون: مِن أين جرَى علينا هذا الأمرُ، وكيفَ حلَّتْ بنا هذه الكارثةُ[(٢)]؟!

﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾.

أي: قُلْ- يا محمَّدُ- للمؤمنين: هذه المصيبةُ الَّتي وقعتْ عليكم في أُحُدٍ إنَّما كنتُم أنتم أنفسُكم السببَ فيها، وذلك حينَ تنازَع بعضُكم فيما بينهم، وعصَوْا أمرَ رسولِهم عليه الصَّلاة والسَّلام[(٣)].

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ سبحانه وتعالى قادرٌ على جميع الأشياء، ومِن ذلك: إيقاعُ العقوبةِ بكم أيُّها المؤمنون، كما حدَث في غزوةِ أُحُدٍ، ومِن ذلك أيضًا: قدرتُه على نصرِكم، فلا تظنُّوا بالله تعالى غيرَ الحقِّ، وإنَّما قدَّر ما قدَّر عليكم في أُحُدٍ مِن الهزيمةِ والإصابةِ بالقَتْلِ والجِراحِ لحِكمتِه سبحانه[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٠٨-٤٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢١٤-٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤١٣-٤١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤١٤).

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّه لَمَّا كانتْ نسبةُ المصيبةِ إليهم في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ ربَّما أوهَمَتْ أنَّ بعضَ الأفعالِ خارجٌ عن مُرادِه تعالى(١)- قال تعالى:

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

أي: إنَّ الَّذي وقَع عليكم- أيُّها المؤمنون- من القَتْلِ والجِراحِ والهزيمةِ يومَ الْتَقيتُم أنتم والمشرِكون بأُحُدٍ، إنَّما وقَع بقَضاءِ الله تعالى وقدَرِه(٢).

﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: إنَّ ما أصابَكم يومَ أُحُدٍ كان لأجلِ تَمييزِ المؤمنين الَّذين صبَروا وثبَتوا مِن غيرهم(٣).

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧)﴾.

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١١٨).

وقيل: (عطف على قولِه: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وهو كلامٌ واردٌ على معنى التَّسليمِ، أي: هَبُوا أنَّ هذه مصيبةٌ، ولم يكُنْ عنها عِوَضٌ، فهي بقدرِ الله، فالواجبُ التَّسليمُ، ثم رجع إلى ذِكر بعضِ ما في ذلك مِن الحكمةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٦).

أي: إنَّ ما أصابكم يومَ أُحُدٍ- أيُّها المؤمنون- كان أيضًا لأجْلِ تمييزِ المُنافِقين المندَسِّين بين المسلِمين، الَّذين لَمَّا دُعوا للقِتالِ في سبيلِ الله عزَّ وجلَّ يومَ أُحُدٍ، أو لأَجْلِ دفْعِ العَدوِّ عن البلادِ والعبادِ، امتنَعوا عن المشاركةِ مُتعلِّلين بعُذرٍ قبيحٍ، وقائلين بكَذِبٍ صريحٍ: لو نعلَمُ أنَّكم تُقاتِلون لَسِرْنا معكم، ولكن لا نَرى أنَّه سيكونُ بينكم وبينَ المشركين قتالٌ(١).

﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾.

أي: إنَّ أولئك المنافِقين كانوا في تِلك الحالِ الَّتي امتنَعوا فيها عن مشاركةِ المسلِمين في قِتالِ المشركين، كانوا أقرَبَ إلى الكفرِ من الإيمانِ(٢).

﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

أي: مِن صِفاتِهم أنَّهم يقولون خلافَ ما يُضمِرون في أنفسِهم(٣)، ومن ذلك قولُهم: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧]؛ فإنَّهم قد علِموا وقوعَ القتالِ(٤).

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾.

أي: واللهُ تعالى أعلمُ مِن غيرِه بما يكتُمُه هؤلاء المنافِقون، وهو مطَّلعٌ عليه، ومُظهِرُه للمؤمنين، وسيُجازيهم به(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٢٠-٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٥٩-١٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٦).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٧/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٢٢-٤٢٣).

﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨)﴾.

﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾.

أي: إنَّ أولئك المنافقين الَّذين قعَدوا عن الجِهادِ مع المسلِمين، قالوا: لو سمِع مَن قُتِل مِن قَراباتِنا بأُحُدٍ مشورتَنا بتَركِ الخروج للقتال- لَمَا قُتلوا هنالك؛ اعتراضًا منهم على قضاءِ اللهِ تعالى وقدَرِه، وطعنًا منهم في طاعةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الَّذي أمَر بالخروجِ[1].

﴿قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

أي: قُلْ- يا محمَّدُ- للقائلين بتلك المقالةِ مِن المُنافِقين: امنَعوا وقوعَ الموتِ عليكم بالقعودِ عن القتالِ، إنْ كنتم صادقين في قولِكم بأنَّ المرءَ يَسلَمُ مِن القتلِ بالقُعود عنه[2].

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- لا يَستوي مَن كان قَصْدُه رِضوانَ ربِّه، والعملَ على ما يُرضيه، ومَن ليس كذلك، ممَّن هو مُكِبٌّ على المعاصي، مُسخِطٌ لربِّه؛ هذان لا يَستويانِ في حُكمِ اللهِ، وحِكمة الله، وفي فِطَرِ عبادِ الله: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ [السجدة: ١٨]؛ ولهذا قال هنا: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾[3].

٢- اللُّجوءُ إلى الله تعالى بطلبِ التَّثبيتِ منه على الإيمان؛ لأنَّه إذا كان هو المانَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٥٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٢٥-٢٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٦٠-١٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٥).

به، فهو الَّذي يملِكُ ثُبوتَه وزوالَه؛ فارجِعْ إليه، ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾(١).

٣- الخِذلانُ والانهزامُ إنَّما يَحصُلُ بشُؤمِ المعصية؛ كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾(٢).

٤- مِن المستحسَنِ أن يُذَكَّر الإنسانُ بما يُهوِّنُ المصيبةَ عليه؛ لقوله: ﴿أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا﴾(٣).

٥- أنَّه يَنبغي لِمَن أجابَ غيرَه أنْ يُجيبَه بما يمنَعُ احتجاجَه؛ لقوله: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: أنتم السَّبب(٤).

٦- تَسليةُ المؤمنِ بقضاءِ الله وقدرِه؛ لقوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾؛ لأنَّ المؤمِنَ إذا علِم أنَّه مِن عندِ الله رضِيَ وسلَّم(٥).

٧- أنَّ اللهَ تعالى قد يُقدِّرُ على عبدِه المؤمنِ ما يَكرَهُه لحِكَمٍ عظيمة؛ لقوله: ﴿فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾(٦).

٨- أنَّه يَنبغي للإنسانِ أن يَحترسَ في الحُكمِ، وألَّا يُطلِقَه؛ لقوله: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ﴾، فربَّما يُغيِّرُ اللهُ تعالى حالَ قومٍ، فيكون الإيمانُ إليهم أقربَ، فيَنبغي التقييدُ عند الحُكْم على شخصٍ(٧).

٩- في قوله: ﴿قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ﴾ أنَّ الموتَ يُصيبُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤١٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٦١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤١٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٢٣).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٢٤).
(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٢٨).

المجاهِدَ والقاعِد، والشُّجاعَ والجَبان، ولا يَردُّه حِرصٌ ولا حَذرٌ، ولا يُؤجِّله جُبنٌ ولا قُعود، والواقعُ هو البرهانُ الذي لا يَقبل المِراءَ، وهذا الواقعُ هو الذي يَجبَهُهم به القرآنُ الكريم، فيردُّ كَيدَهم اللَّئيم، ويقرُّ الحقَّ في نِصابِه، ويُثبِّتُ قلوبَ المسلمين، ويَسكُب عليها الطُّمأنينةَ والرَّاحةَ واليقين[1].

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- تَتضاعفُ المِنَّةُ بأن يكونَ هذا الرَّسولُ من أنفُسِهم، كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ فلم يقُلْ: (منهم)؛ لأنَّ الصِّلةَ بين المؤمنين والرَّسولِ هي صلةُ النَّفسِ بالنَّفس، لا صلة الفرد بالجنس[2].

٢- في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾، لم يُعيِّنِ اللهُ تعالى السَّببَ ما هو؛ لُطفًا بالمؤمنين في خطابِه تعالى لهم[3].

٣- أنَّ الإنسانَ تتغيَّرُ أحوالُه، فيكون في حالٍ أقربَ إلى الإيمانِ من الكفرِ، وفي حالٍ أخرى بالعكس؛ لقوله: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾، واستدَلَّ بعضُ العُلماءِ بهذه الآيةِ على زِيادةِ الإيمانِ ونُقصانِه[4].

٤- التَّنديدُ بهؤلاء الَّذين جمَعوا بين قُبحِ الفعل وقُبحِ القول، يُؤخَذُ مِن قوله: ﴿قَالُوا﴾، ﴿وَقَعَدُوا﴾ قُبْحُ الفِعلِ من كونهم قعَدوا، وقُبحُ القولِ مِن قولِهم: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾[5].

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٥١٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٥٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٢٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٣٠).

٥- أنَّه لا يُمكِنُ درءُ الموتِ؛ لأنَّ ما وقَع التَّحدِّي به فإنَّه لا يمكِنُ وقوعُه؛ إذ لو أمكَن وقوعُه لم يكُنْ للتَّحدِّي به فائدة؛ قال تعالى: ﴿قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ﴾[1].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ﴾:

- قوله: ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ﴾: همزةُ الاستفهامِ للإنكارِ؛ فالاستفهامُ إنكاريٌّ معناه النَّفي، أي: ليسَ مَن اتَّبع رِضا الله؛ فامتثَل أوامرَه، واجتنبَ مناهيَه، كمَن عصاه فباءَ بسَخَطِه[2].

- وقوله: ﴿مِنَ اللَّهِ﴾: فيه إظهارُ الاسمِ الجليلِ في موضع الإضمارِ؛ لإدخال الرَّوْعةِ، وتربيةِ المهابةِ[3].

- وقوله: ﴿كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ﴾: فيه تمثيلٌ لحالِ صاحبِ المعاصي بالَّذي خرَج يَطلُبُ ما يَنفَعُه فرجَع بما يضُرُّه، أو رجَع بالخَيبةِ[4].

٢- قوله: ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ، والمخصوصُ بالذَّمِّ محذوفٌ للدَّلالةِ عليه، أي: وبئس المصيرُ جهنَّمُ[5].

٣- قوله: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ فيها تَشبيهٌ بليغٌ؛ حيث جعَلَهم الدَّرجاتِ نفسَها؛ للمبالَغةِ في إظهارِ التَّفاوُتِ لِمَا بينهم في الثَّوابِ والعقاب[6]، وتقدير

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٣٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤١٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤١٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٠٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٥٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٠٧).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٠٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٩٤).

الكلام: لهم درجاتٌ عند الله، إلَّا أنَّه حسُنَ هذا الحَذفُ؛ لأنَّ اختلافَ أعمالِهم قد صَيَّرهم بمنزلةِ الأشياءِ المختلفةِ في ذواتِها[١].

٤- قوله: ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ خُصَّ العملُ دون القولِ؛ لأنَّ العملَ يَشملُ عملَ القَلْبِ واللِّسانِ والجوارِحِ، والتُّروكَ[٢].

٥- **قوله:** ﴿**لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ**﴾ فيه تأكيدٌ باللام الَّتي هي جوابٌ لقسَمٍ محذوفٍ، و(قَدْ) الَّتي تُفيد التَّحقيقَ، والكلامُ مُستأنَفٌ مسُوقٌ لتأكيد نزاهةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وبيانِ خَطأِ الَّذين نَسَبوا إليه الغُلولَ[٣].

٦- **قوله تعالى:** ﴿**أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾:

- قوله: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ﴾: استفهامٌ يُرادُ به الإنكارُ؛ لإفادة التَّقريرِ والتَّقريع[٤].

- قوله: ﴿قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا﴾: الاستفهامُ للتَّقريعِ والتقريرِ، وتذكيرُ اسمِ الإشارةِ (هذا) في ﴿أَنَّى هَذَا﴾ مع كونِه إشارةً إلى المصيبة، ليس لكونِها عِبارةً عن القتلِ ونحوِه، بل لأنَّ إشارتَهم ليستْ إلَّا إلى ما شاهَدوه في المعركةِ من حيثُ هو هو، مِن غيرِ أنْ يَخطُرَ ببالِهم تسميتُه باسمٍ ما، فَضلًا عن تسميتِه باسمِ المصيبةِ، وإنَّما هي عند الحِكايةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشعراوي)) (٣/ ١٨٤٩).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٣٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٣٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٠٨-١٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٦١).

- قوله: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾: إجابةٌ فيها إنكارٌ وتقريعٌ، وتبكيتٌ لهم(١).

- قوله: ﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: الجُملةُ تذييلٌ مقرِّرٌ لمضمونِ ما قبلَها، داخلٌ تحت الأمرِ للرسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم(٢).

- وفيها: توكيدُ الخبرِ بـ﴿إِنَّ﴾ واسميَّةِ الجملةِ، وتقديم ما حقُّه التَّأخيرُ ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٣).

٧- **قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾** فيه: تكرار فِعل (يَعْلَم)(٤)، وهو يُفيدُ التَّأكيدَ.

- ولفظة ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ في قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فيها دَلالةٌ على كونهم مُستقرِّين على إيمانِهم، متثبِّتين فيه؛ فالاسمُ ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ يدُلُّ على تأكيدِ المعنى، وأمَّا لفظ ﴿نَافَقُوا﴾ في قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ فيدُلُّ على كونِهم إنَّما شرَعوا في الأعمالِ اللَّائقةِ بالنِّفاقِ في ذلك الوقتِ(٥).

٨- **قوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾** ذِكرُ الأفواهِ مع القلوبِ تصويرٌ لِنفاقهم، وأنَّ إيمانَهم موجودٌ في أفواهِهم، مَعدومٌ في قلوبِهم(٦).

٩- **قوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾** عبَّر بصيغةِ التَّفضيلِ ﴿أَعْلَمُ﴾؛ لأنَّ بعضَ ما يكتُمونه مِن أحكامِ النِّفاقِ وذمِّ المؤمنين، وتَخطئةِ آرائِهم، والشَّماتةِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٠٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٥٧٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٣٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٢٢).
(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٦٣).

بهم وغيرِ ذلك، يعلَمُه المؤمنون على وجْهِ الإجمالِ[١].

١٠- قوله: ﴿قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أمرٌ غرَضُه الاستهزاءُ بهم، أي: إنْ كنتُم رِجالًا دفَّاعين لأسبابِ الموت، فادرَؤوا جميعَ أسبابِه حتَّى لا تموتوا[٢].

- وفيه مِن البيانِ: ما يُعرَفُ بـ(الاحتِجاج النَّظَريِّ)[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٣٢).

وقال أبو حيَّان: (هذا النَّوعُ عند علماءِ البيانِ يُسمَّى: الاحتجاجَ النَّظريَّ، وهو: أن يذكُرَ المُتكلِّمُ معنًى يستدلُّ عليه بضروبٍ من المعقولِ، نحو: ﴿وَلَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]... وبعضُهم يُسمِّيه: المذهبَ الكلاميَّ). ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٩٥- ٣٩٦).

الآيات (١٦٩ - ١٧١)

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾: يفرَحون، أو يَنالون البُشرى، والاستبشارُ: السُّرورُ بالبِشارة، وأصلُ الاستبشارِ: ظُهورُ الشَّيءِ مع حُسْنٍ وجمالٍ(١).

المَعنَى الإجماليُّ:

يَنهى اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يظُنَّ أنَّ مَن قُتِل مِن أصحابِه يوم أُحُدٍ، وهم كُثُرٌ، ميِّتون لا يَشعُرون، بل هم أحياءٌ حياةً خاصَّةً عند الله عزَّ وجلَّ، قَريبون منه، يَتنعَّمون في دارِ كرامتِه مِن رِزقِه الواسعِ، مَسرورين بما أعطاهم اللهُ تعالى ممَّا تفضَّلَ به عليهم من النَّعيمِ العظيمِ، فَرِحين بإخوانِهم الَّذين ما زالوا أحياءً يُقاتِلون في سبيل الله؛ بأنَّهم إذا استُشهِدوا سيَلحَقون بهم دون أن يُصيبَهم خوفٌ ولا حُزْنٌ، فَرِحين أيضًا بما أكرَمهم اللهُ تعالى به من النَّعيمِ، والفضلِ العَميمِ، واللهُ لا يُضِيعُ أجرَ المؤمنين.

تَفسيرُ الآيات:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩)﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٢).

سببُ النُّزول:

عن ابنِ عَبَّاسٍ رضِي الله عنهما، قال: قَالَ رَسُولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((لَمَّا أُصيبَ إخوانُكم بِأُحُدٍ، جَعَل اللهُ أرواحَهم في أجوافِ طيرٍ خُضرٍ، تَرِدُ أنهارَ الجنَّة، وتأكُلُ مِن ثمارِها، وتَأوي إلى قَناديلَ مِن ذهبٍ معلَّقةٍ في ظلِّ العرشِ، فلمَّا وجَدوا طِيبَ مأكلِهم ومَشرَبِهم ومَقيلِهم[١]، قالوا: مَن يُبلِّغُ إخوانَنا عنَّا أنَّا في الجنَّةِ نُرزَقُ؛ لئلَّا يَزهَدوا في الجِهَاد، ولا يَنكُلوا[٢] في الحربِ؟ فقال اللهُ عزَّ وجلَّ: أنا أُبلِّغُهم عنكم، فأنزَلَ اللهُ تعالى: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾))[٣].

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿قُتِلُوا﴾ قِراءتان:

١- (قُتِّلُوا)- بالتَّشديد- وتعني التَّكثيرَ، أي: قُتِل كثيرٌ منهم[٤].

---

(١) مقيلهم: أي مأواهم ومستقرهم. يُنظر: ((عون المعبود)) للعظيم آبادي (٧/ ١٤٠).

(٢) ولا يَنكُلوا: أي: لا يَجبُنُوا ولا يَضعُفوا،ولا يَمتنِعوا عن الإقدامِ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٥/ ١٨٣٥)، ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ١١٦).

(٣) رواه أبو داود (٢٥٢٠)، وأحمد (٢٣٨٨)، و أصلُه في مسلم (١٨٨٧).من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنه
حسَّنه ابنُ القطَّان في ((الوهم والإيهام)) (٤/ ٣٣٨)، وصحَّحه ابن الملقِّن في ((شرح البخاري)) (١٧/ ٤٠٣)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٤/ ١٢٣)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٢٥٢٠).

(٤) قرأ بها ابنُ عامر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤٣).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٨٠)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٦٤).

٢- ﴿قُتِلُوا﴾- بالتَّخفيف- وتحتمِلُ التَّقليلَ والتَّكثيرَ، أي: تَعني قُتِل قليلٌ منهم، أو قُتِل كثيرون(١).

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾.

أي: لا تظُنَّنَّ- يا محمَّدُ- أنَّ الشُّهداءَ الَّذين قُتِلوا في جِهادِ أعداء الدِّين- كأصحابِك الَّذين قُتِلوا في أُحُدٍ- أمواتًا لا يَشعرون بشيءٍ، ولا يتمتَّعون ويتنعَّمون(٢).

﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾.

أي: هُمْ على خِلافِ ذلك؛ فهم أحياءٌ حياةً خاصَّةً عند الله عزَّ وجلَّ في دارِ كرامتِه، وبالقُربِ منه سبحانه، مُتنعِّمين في رِزقِ الله تعالى الواسِعِ(٣).

عن مَسروقِ بنِ الأجدَعِ قال: ((سَألْنا عبدَ اللهِ (هو ابنُ مسعودٍ) عن هذه الآيةِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ قال: أمَا إنَّا سألْنا عن ذلك، فقال: أرواحُهم في جَوفِ طيرٍ خُضْرٍ، لها قناديلُ مُعلَّقةٌ بالعرشِ، تَسرَحُ من الجنَّةِ حيث شاءَتْ، ثمَّ تَأوي إلى تلك القناديلِ، فاطَّلَع إليهم ربُّهم اطِّلاعةً، فقال: هل تشتَهون شيئًا؟ قالوا: أيَّ شيءٍ نَشتهي ونحن نَسرَحُ من الجنَّةِ حيثُ شِئْنا؟ ففعَل ذلك بهم ثلاثَ مراتٍ، فلمَّا رأَوْا أنَّهم لن يُترَكوا مِن أن يُسأَلوا، قالوا: يا ربِّ، نُريدُ أن ترُدَّ أرواحَنا في أجسادِنا حتَّى نُقتَلَ في سَبيلِك مرةً أخرى، فلمَّا رأى أنْ ليسَ لهم حاجةٌ تُرِكوا))(٤).

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤٣).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٨٠)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٢٧-٢٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٣٦-٤٣٧).

(٤) رواه مسلم (١٨٨٧).

﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠)﴾.

﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

أي: إنَّ هؤلاءِ الشُّهداءَ الَّذين قُتِلوا في سَبيلِ الله تعالى، وهم أحياءٌ عنده، مَسرورون بما منَحهم اللهُ تعالى إيَّاه، مِن النَّعيمِ المبهِجِ، والمُتعةِ العظيمةِ، جُودًا وكرَمًا منه سبحانه[1].

﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

أي: إنَّ هؤلاء الشُّهداءَ مَسرورون أيضًا بإخوانِهم الَّذين ما زالوا أحياءً في عالَم الدُّنيا يُجاهِدون في سبيلِ الله تعالى؛ فإنَّهم إذا استُشهِدوا لحِقوا بهم، دون أن يُصيبَهم خوفٌ من أيِّ أمرٍ مستقبلٍ، أو حُزنٍ على أيِّ أمرٍ قد مضى، بل هم آمِنون دائمًا، وفَرِحونَ أبدًا[2].

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١)﴾.

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾.

أي: إنَّ الشُّهداءَ يَفرَحون بما حَباهم اللهُ تعالى مِن النَّعيمِ العَظيم، وبما أَسبَغَ عليهم مِن جزيلِ ثوابِه الكريم، وزِيادةِ إحسانِه العميم[3].

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ﴾ قِراءتان:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٣٧-٤٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٣٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٢٤٣)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٥٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٦٧).

١- (وَإِنَّ) بكسرِ الهمزةِ، فتكون الجملةُ مُستأنَفةً(١).

٢- ﴿وَأَنَّ﴾ بفتحِ الهمزة على أنَّ قولَه: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ معطوفٌ على قولِه: ﴿بِنِعْمَةٍ﴾(٢)، وهذا يَعني أنَّ الشُّهداءَ يستبشرون أيضًا بأنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أجرَ المؤمنين(٣).

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد حَفِظ لأولئك الشُّهداءِ ما قدَّموه مِن الإيمانِ والأعمالِ الصَّالحةِ، وأعطاهم على ذلك أُجورَهم مِن فَضلِه سبحانه، وهكذا كلُّ مؤمنٍ؛ فإنَّ اللهَ تعالى يُثيبُه على ما قدَّم(٤).

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- دُخولُ الجنَّةِ فَضلٌ مِن الله تعالى على أهلِها، لا بَعملِ أحدٍ، نستفيدُ ذلك من قوله تعالى: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾، ولو شاءَ تعالى لَحاسَبَهم على سبيل العَدلِ، ولو فعَلَ ذلك لم يكُنْ لهم شيءٌ؛ لأنَّ أعمالَهم مِن نِعَمِه تعالى عليهم(٥).

---

(١) قرأ بها الكِسَائِيُّ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٨٠، ٢٨١)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٨١).

(٢) ((الدر المصون في علوم الكتاب المكنون)) للسمين الحلبي (٣/ ٤٨٧).
وفيه أنَّها قُرئت بالفتحِ عطفاً على قولِه: ﴿بِنِعْمَةٍ﴾ لأنَّها بتأويلِ مصدرٍ أي: يستبشرون بنعمةٍ من الله وفضلٍ منه، وعدمِ إضاعةِ اللهِ أجرَ المؤمنين.

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٨٠، ٢٨١)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٥٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٣٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١٢١، ١٢٣).

٢- في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾، الحثُّ على فرَحِ الإنسانِ بصَلاحِ أحوالِ إخوانِه في اللهِ(١).

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- في قوله تعالى ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ الآيات، إثباتُ نعيمِ البرزخِ(٢).

٢- أنَّه يصحُّ نفيُ الشَّيءِ باعتبارٍ، لا نفيًا مطلقًا؛ لقوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾؛ فإنَّ نفيَ كونِهم أمواتًا هنا يُرادُ به الموتُ الَّذي حصَل فيه العدَمُ بلا فائدةٍ، وبدون ثوابٍ(٣).

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ فيه فضلُ الشَّهداءِ؛ فهُم عندَ ربِّهم يُرزَقونَ، وحياتُهم أكملُ مِن حياتِهم في هذه الدُّنيا، وأتمُّ وأطيبُ، وإنْ كانتْ أجسادُهم متلاشِيَةً، ولحومُهم متمزِّقةً، وأوصالُهم مُتفرِّقةً، وعِظامُهم نَخِرةً(٤).

٤- أنَّ هؤلاءِ الشُّهداءَ لهم شعورٌ؛ لقوله: ﴿فَرِحِينَ﴾؛ لأنَّ الفرَحَ مِن الشُّعورِ النَّفسيِّ(٥).

٥- في قولِه تعالى: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾؛ عقَّبَ هذا الجزاءَ والحُكمَ لذلك الوصفِ والعملِ بحَرْفِ الفاء، وهي تُفيد السببَ، فدلَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٤٠).

(٤) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٢٦٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٤٣).

ذلك على أنَّ ذلك التوكُّلَ هو سببُ هذا الانقلابِ بنعمةٍ مِن اللهِ وفضلٍ، وأنَّ هذا الجزاءَ جَزاءٌ على ذلك العملِ(١).

٦- إسنادُ النِّعمةِ إلى مُسْدِيها، وهو اللهُ جلَّ جلالُه؛ فهم لا يرَوْن لأنفسِهم فضلًا، بل يرَوْن المِنَّةَ والفضلَ لله عليهم؛ ولهذا قال: ﴿بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾(٢).

٧- عِظَمُ النِّعمةِ الَّتي يُعطَوْنَها، ووجهُه أنَّ اللهَ أضافها إليه، وإضافةُ العطاءِ إلى اللهِ يدُلُّ على عظَمتِه. قال تعالى: ﴿بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾(٣).

٨- إثباتُ عدلِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ وذلك بعدمِ إضاعتِه أجرَ المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٤).

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾:

- قوله: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾: في التَّعرُّضِ لعنوان الرُّبوبيَّةِ المنبئةِ عن التَّربيةِ، والتَّبليغِ إلى الكمال، مع الإضافةِ إلى ضميرِهم: مزيدُ تكرمةٍ لهم(٥).

- قول الله تعالى: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ قَدَّم صِفةَ الظَّرفِ ﴿رَبِّهِمْ﴾ على صِفةِ الجملة ﴿يُرْزَقُونَ﴾؛ لأنَّ المعنى في الوصف بالزُّلفى عند اللهِ والقُربِ منه أشرفُ من الوصفِ بالرِّزقِ(٦).

(١) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٩٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٤٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١١١).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٢٩).

- قوله: ﴿يُرْزَقُونَ﴾: فيه تأكيدٌ لكونِهم أحياءً، ووصفٌ لحالهم الَّتي هم عليها من التَّنعُّم برزقِ الله[١].

٢- قول الله تعالى: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ...﴾ التعبيرُ بصِيغةِ المضارعِ؛ لإفادةِ التجدُّد؛ للدَّلالة على تَجدُّد الاستبشارِ حينًا بعد حِينٍ[٢].

٣- قوله: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ كُرِّر الفِعلُ ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾؛ للتَّأكيدِ، ولبيانِ أنَّ الاستبشارَ المذكورَ ليس بمجرَّدِ عدمِ الخوفِ والحزنِ، بل به وبما يُقارِنُه من نعمةٍ عظيمةٍ، لا يُقادَرُ قَدْرُها، وهي ثوابُ أعمالِهم[٣].

وقيل: ليس هناك تَكرارٌ؛ لأنَّ الاستبشارَ هو الفرحُ التَّامُّ، فلعلَّ المرادَ حُصولُ الفرَحِ بما حصَل في الحالِ، وحُصولُ الاستبشار بما عرَفوا أنَّ النِّعمةَ العظيمةَ تحصُلُ لهم في الآخرةِ[٤].

- قول الله تعالى: ﴿بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ فيه جاء التعبيرُ بالتَّنكيرِ، دَلالةً على بعضٍ غيرِ مُعيَّنٍ، وإشارةً إلى إبهام المرادِ؛ تعظيمًا لأمرِه، وتنبيهًا على صعوبةِ إدراكِه، كما جاء في الحديثِ أنَّ فيها: ((ما لا عينٌ رأَتْ، ولا أُذُنٌ سمِعَتْ، ولا خطَرَ على قلبِ بشَرٍ))[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٣٩ - ٤٤٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٣٩ - ٤٤٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٣٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٣٤).

والحديث رواه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٤- قوله: ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فيه تأكيدٌ(١)، وقدَّم الضَّمير (هم) إشارةً إلى اختصاصِهم بانتفاءِ الحُزن، وأنَّ غيرَهم يحزنُ(٢)، والمرادُ بيانُ دوامِ انتفاءِ الخوفِ والحَزَنِ، لا بيان انتفاءِ دوامِهما، كما يُوهِمه كونُ الخَبرِ في الجملةِ الثَّانيةِ مُضارعًا؛ فإنَّ النَّفيَ وإن دخَل على نفس المضارعِ يُفيدُ الدَّوامَ والاستمرارَ بحسَب المقامِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٣٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١/ ٢٤١).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١١٢).

الآيات (١٧٢ - ١٧٦)

﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ ﴾.

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ الَّذين امتثلوا أمْرَ الله وأمرَ رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بعد غزوةِ أُحُدٍ مباشرةً؛ بأنْ بادَروا بالاستعدادِ للقِتال مرةً أخرى، على ما بهم مِن آلامٍ جسديَّةٍ نتيجةَ الجِراح، وآلامٍ نفسيَّةٍ بسببِ ما وقَع من قتْلٍ وهزيمة، للذين أحسنوا مِن هؤلاء عند الله أجرٌ عظيم. هؤلاء لم يُرْهِبْهم تَخويفُ بعضِ النَّاس لهم بأنَّ كفَّارَ قُريشٍ استعدُّوا للكرَّة عليهم، وأنَّهم لا يَستطيعون مواجهتَهم، وما زادهم ذلك التخويفُ إلَّا إيمانًا ويقينًا، وقالوا: حسبُنا اللهُ ونِعمُ الوكيلُ، فرجَعوا من مَنطقةِ (حَمْراء الأسد)، وكانوا خرَجوا إليها لمدافَعةِ المشركين، رجَعوا بنعمةٍ مِن الله وفضلٍ، لم ينَلْهم أيُّ أذًى مِن أعدائِهم، واتَّبَعوا ما يُرضِي اللهَ تعالى باستجابتِهم لله ولرسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، واللهُ ذو الفَضلِ العظيمِ.

ثمَّ يُخبِرُهم تعالى أنَّ ذلك المخوِّفَ لكم هو الشَّيطانُ، يُريد أنْ يزرَعَ في قلوبكم الخوفَ من أوليائِه، الَّذين هم المشركونَ، ثمَّ نهاهم سبحانه عن الخَوفِ من المشركين، وأمَرهم بالخوفِ مِن اللهِ وحْده، إنْ كانوا مُؤمنينَ.

ثمَّ يَنهَى اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن الحزنِ بسبب الَّذين يسارعون في الكُفرِ ويتوغلون فيه؛ فهؤلاءِ لن يضُرُّوا اللهَ شيئًا بكفرِهم، وإنَّما يُرِيدُ اللهُ بمسارعتِهم في الكُفرِ ألَّا يجعَلَ لهم أيَّ حظٍّ من نعيمِ الآخِرة، ولهم العذابُ العظيم.

تَفسيرُ الآيات:

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذمَّ المنافقين برُجوعِهم من غيرِ أنْ يُصيبَهم قرحٌ، ومدَحَ أحوالَ الشُّهداءِ- ترغيبًا في الشَّهادة- وأحوالَ مَن كان على مِثل حالِهم- ترغيبًا في النَّسج على منوالهم- وختَم بتعليق السَّعادةِ بوصف الإيمان، أخَذ يَذكُرُ ما أثمَر لهم إيمانُهم؛ من المبادَرةِ إلى الإجابةِ إلى ما يَهديهم إليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، إشارةً إلى أنَّه لم يَحمِلْ على التَّخلُّفِ عن أمْرِه مِن غيرِ عُذرٍ إلَّا صريحُ النِّفاقِ(١).

سببُ النُّزول:

عن ابنِ عبَّاسٍ رضِي اللهُ عنهما، قال: ((لَمَّا انصَرَفَ المشرِكون عن أُحُدٍ وبلَغوا الرَّوحاءَ(٢)، قالوا: لا محمَّدًا قتلتموه، ولا الكواعبَ أردَفْتُم(٣)، وبِئسَ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١٢٣).

(٢) الرَّوحاءُ: مَوضِعٌ بينَ مكَّة والمدينة، يَبعُد ما بين ثلاثينَ وأربعينَ مِيلاً من المدينة. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٧/ ٢٧٦٤).

(٣) المراد: ما أتيتُم بأسيراتٍ من نِساء المسلمين.

والكواعِبُ جمْع كاعِب، أي: نَاهِد، وهي المرأةُ حِين يَبْدُو ثَديُها للنُّهودِ. وأردفتُم، أي: أركبتُم خلْفكم. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٤/ ١٣٦٣)، ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ١٧٩)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٧٩).

ما صنعتُم، ارجِعوا، فبلَغ ذلك رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فندَب النَّاسَ فانتدبوا[١] حتَّى بلَغوا حمراءَ الأسدِ وبئرَ أبي عِنَبَةَ، فأنزَل اللهُ تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ [آل عمران: ١٧٢]...))[٢].

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾.

أي: الَّذين أَجابوا أمْرَ اللهِ تعالى ورَسولِه عليه الصَّلاة والسَّلام بالنُّهوضِ مجدَّدًا؛ لردِّ هجومٍ مُتوقَّعٍ من المشركين عقبَ غزوةِ أُحُدٍ مباشرةً، على الرَّغم ممَّا ألمَّ بهم من جِراحٍ وآلامٍ جَسديَّةٍ، وأُخرى نَفسيَّةٍ بسببِ القتْلِ والهزيمةِ الَّتي لحِقَتْهم في أُحُدٍ[٣].

عن عائشةَ رضِي اللهُ عنها، أنَّها قالتْ لِعُروَةَ عن قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾: ((يا ابنَ أُختي، كانَ أبواكَ منهُم: الزُّبَيْرُ وأبو بكرٍ، لَمَّا أصاب رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ما أصابَ يومَ أُحُدٍ، وانصَرَفَ عنه المشرِكونَ، خافَ أن يَرْجِعوا، قال: (مَن يَذهَبُ في إثْرِهِم[٤])، فانتدَبَ مِنهُم سَبْعونَ رَجلاً، قال: كان فيهم أبو بكرٍ والزُّبَيْرُ))[٥].

---

(١) فانتدبوا: انتَدب: أي: أجابَ؛ يُقال: ندَبَه لأمرٍ فانتدبَ له، أي: بَعَثَه لأمرٍ ودعاه له فأجابَ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (١/ ٢٢٣)، ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٣٤).

(٢) رواه النسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٠٨٣)، والطبراني (١١/ ٢٤٧) (١١٦٣٢)، والمقدسي في ((الأحاديث المختارة)) (٢١٠).

قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٦/ ١٢٤): رجاله رجال الصحيح غير محمَّد بن منصور الجواز وهو ثقة. وصحَّح إسنادَه الشوكانيُّ كما في ((تفسير الشوكاني)) (١/ ٥٩٧)، وصحَّحه الوادعيُّ في ((صحيح أسباب النزول)) (٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٣٩-٢٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٤٦).

(٤) يَذهَبُ في إثْرِهِم: أي: يتَّبِعهم. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (١٧/ ١٦٢).

(٥) رواه البخاري (٤٠٧٧) واللفظ له، ومسلم (٢٤١٨) مختصرًا.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

أي: إنَّ الَّذين أَحسَنوا منهم في أعمالِهم، وامتثَلوا ما أمَر اللهُ تعالى به، واجتنَبوا ما نهى عنه، لهم ثوابٌ جَزيلٌ، وأجرٌ واسع من اللهِ تبارَك وتعالَى(١).

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣)﴾.

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾.

أي: خوَّفهم وحَذَّرهم بعضُ النَّاسِ من أنَّ كفَّارَ قُريشٍ قد أعدُّوا العُدَّةَ للكَرَّةِ عليهم، وأنَّه لا قِبَلَ لهم الآن بقتالِهم(٢).

﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾.

أي: لم يَجبُنوا ولم يَتزَعْزَعوا، بل منَحهم ذلك التَّخويفُ زيادةً في الطُّمأنينةِ، وقوَّةً في الإيمانِ واليقين، مُعلِنين بأنَّهم وكَلوا أمرَهم إلى اللهِ تعالى وحْدَه؛ ليكفيَهم شرَّ أعدائِهم؛ فهو سبحانه نِعْمَ مَن يُوثَق به في تفويضِ الأمورِ(٣).

عن ابنِ عباسٍ رضِي اللهُ عنهما، قال: ((حسبُنا اللهُ ونِعْمَ الوكيلُ، قالها إبراهيمُ عليه السَّلام حينَ أُلْقِيَ في النَّارِ، وقالها محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حينَ قالوا: إنَّ النَّاسَ قد جمَعوا لكم فاخشَوْهم، فزادَهم إيمانًا، وقالوا: حسبُنا اللهُ ونِعْمَ الوكيلُ))(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٤٦-٤٤٧).

قال محمد رشيد رضا: (وأما النَّاس الذين جمعوا الجموعَ لقتالِ المسلمين فهم أبو سفيان وأعوانُه قولًا واحدًا) ((تفسير المنار)) (٤/ ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٤٥، ٢٥٢، ٢٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٤٦-٤٤٧).

(٤) رواه البخاري (٤٥٦٣).

وعن ابنِ عباسٍ رضِي اللهُ عنهما أيضًا، قال: ((كان آخرَ قولِ إبراهيمَ حينَ أُلقِيَ في النَّارِ: حسْبي اللهُ ونِعْمَ الوكيلُ))[١].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رضِي اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((كيف أنعَمُ وقد الْتقمَ صاحبُ القرنِ القرنَ، وحنَى جبهتَه، وأصْغَى سمعَه، ينتظرُ أن يُؤمرَ أن ينفُخَ فينفُخَ، قال المسلمون: فكيف نقولُ يا رسولَ اللهِ؟ قال: قولوا: حسبُنا اللهُ ونِعْمَ الوكيلُ، توكَّلْنا على اللهِ ربِّنا، وربَّما قال سفيانُ: على اللهِ توكَّلْنا))[٢].

﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى أنَّهم توكَّلوا عليه، كفاهم سُبحانه ما أهَمَّهم، وردَّ عنهم بأسَ مَن أرادَ كيدَهم[٣].

سببُ النُّزول:

عن ابنِ عبَّاسٍ رضِي اللهُ عنهما، قال: ((... وقد كانَ أبو سُفيانَ قال للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: مَوعدُك مَوسِمُ بَدْرٍ حيث قتلتُم أصحابَنا، فأمَّا الجبانُ فرجَع، وأمَّا الشُّجاعُ فأخَذ أُهْبةَ القِتالِ والتِّجارةِ، فلم يَجِدوا به أحدًا، وتسوَّقوا[٤]، فأنزَل اللهُ تعالى: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ

(١) رواه البخاري (٤٥٦٤).

(٢) رواه الترمذي (٣٢٤٣)، وأحمد (١١٠٣٩).
حسَّنه الترمذيُّ، وصحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح الترمذي)) (٣٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧١).

(٤) تَسوَّقوا: أي: باعوا واشتروا. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٤/ ١٤٩٩).

سُوءٌ﴾ [آل عمران: ١٧٤])[(١)].

﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾.

أي: انصرَفَ الصَّحابةُ الَّذين استجابوا للهِ تعالى ورسولِه تأهُّبًا لردعِ المشركين، انصرَفوا مِن مَنطقةِ حمراءِ الأسدِ دون أن يَلقَوْا بها عَدوًّا، راجعين بأَجْرِ الجهادِ في سبيله، وبالأرباحِ الَّتي نالوها من الاتِّجارِ هناك[(٢)].

﴿لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾.

أي: لم ينَلْهم أيُّ أذًى أو مَكروهٍ مِن عدوِّهم[(٣)].

﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾.

أي: رجَعوا أيضًا برِضَا اللهِ تعالى عنهم؛ فقدْ أرْضَوُا اللهَ تعالى باستجابتِهم لِمَا أمَرهم به، وانقيادِهم لرسولِه عليه الصَّلاة والسَّلام فيما دعاهم إليه مِن اتِّباعِ أثر العدوِّ[(٤)].

﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى صاحبُ الفضلِ الكبيرِ والإحسانِ العميمِ على عِبادِه، في الدُّنيا والآخِرَة، ومِن ذلك تَفضُّلُه على هؤلاءِ الصَّحابةِ الكرامِ بالعودةِ مِن غَزوِهم هذا سالِمين مِن العدوِّ، راجِعين برِضا اللهِ تعالى عنهم، وبما نالوه من

---

(١) تقدَّم تخريجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال: ((لما انصرف المشركون...)) الحديث.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٥٠-٤٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٥١).

الأُجورِ الأُخرويَّة، والمكاسِبِ الدُّنيويَّة(١).

﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٥)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا جزَى اللهُ تعالى الَّذين استجابوا بالسَّلامةِ والغَنيمة، ورغَّبهم فيما لديه لتولِّيهم إيَّاه، أَتْبَعَ ذلك بما يَزيدُهم بصيرةً؛ من أنَّ المخوِّفَ لهم مَن كَيدُه ضعيفٌ، وأمْرُه هيِّنٌ خفيفٌ، واهٍ سَخيفٌ، وهو الشَّيطان، وساق ذلك مَساقَ التَّعليل لِمَا قبْلَه، مِن حيازتِهم للفضلِ، وبُعدِهم عن السُّوءِ بأنَّ وليَّهم اللهُ، وعدوَّهم الشَّيطانُ، فقال التفاتًا إليهم بزيادةٍ في تنشيطِهم، أو تشجيعِهم وتثبيتِهم(٢):

﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾.

أي: إنَّما المخوِّفُ لكم في الحقيقةِ هو الشَّيطانُ، وقد أرادَ أنْ يُوقِعَ في قلوبِكم الخوفَ مِن أنصارِه حِزبِ المشركين؛ لترهَبوهم(٣).

﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

أي: فلا تَخافوا مِن المشركين أولياءِ الشَّيطان، وخافوا مِن اللهِ تعالى وحْدَه إنْ كُنتم مؤمنين حقًّا؛ فهو الَّذي يَنصُر أولياءَه، ويملأ قلوبَهم أمنًا، ويَكفيهم شرَّ أعدائِهم(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٥١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٥٥-٢٥٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٥٢٣)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (١/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٥٧)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٨/ ١٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٧).

﴿وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٧٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا مدَح اللهُ تعالى سبحانه وتعالى المسارِعين في طاعتِه وطاعةِ رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وختَم ذلك بالنَّهيِ عن الخوفِ من أولياءِ الشَّيطانِ، أعْقَبه بذَمِّ المسارِعين في الكُفرِ، والنَّهيِ عن الحُزنِ مِن أجلِهم(١)، فقال:

﴿وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾.

أي: ولا يُحْزِنْك- يا محمَّدُ- هؤلاءِ الَّذين يُبادِرون بأقوالِهم وأفعالِهم مُتعجِّلين الوقوعَ في الكفرِ، أو التَّوغُّلَ فيه(٢).

﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾.

أي: إنَّ هؤلاءِ لن يُلحِقوا باللهِ؛ بمسارعتِهم في الكفرِ، أيَّ نوعٍ من أنواعِ الأذى، صغيرًا كان أو كبيرًا(٣).

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ﴾.

أي: يُريدُ اللهُ تعالى بمسارعتِهم في الكُفرِ أنْ يَخذُلَهم، فلا يكونَ لهم أيُّ نصيبٍ مِن نعيمِ الآخرةِ، قليلًا كان أو كثيرًا(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١٣٢-١٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٧-١٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٦١).

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

أي: إنَّهم مع حِرمانِهم من نعيمِ الآخرة، لهم عقوبةٌ كبيرةٌ عند الله تعالى[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- لا تتمُّ استجابةُ العبد لله إلَّا باستجابته للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، بتلقِّي الرِّسالة منه، والنَّصيحة له؛ نَستفيدُ ذلك من قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾[٢].

٢- المصائِبُ محكٌّ لمعرفةِ الرِّجال، فلولا فَضلُ الصَّحابة ومَيزتُهم عن الخَلْق ما خرَجوا بعد أنْ أصابَهم القَرحُ؛ قال تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾[٣].

٣- على المؤمنِ كلَّما ألَمَّت به المصائبُ أن يلجأَ إلى ربِّه، ويَزدادَ إيمانًا به؛ لقوله: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾[٤]، فالَّذي يكفي المؤمنين شرَّ النَّاس هو اللهُ تعالى؛ فالواجبُ على المؤمنين المبالَغةُ في التَّوكُّلِ عليه، وربطُ أمورِهم به تعالى[٥].

٤- الإيمانُ يَزيدُ بالطَّاعاتِ، وينقُصُ بالمعصيةِ؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾[٦].

٥- العاقبةُ- كما هو المنتظَرُ مِن وعدِ اللهِ- للمتوكِّلين عليه، المكتفين

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٦١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٣٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٤٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٤٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٣٩، ٤٣٧).
(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٣٧).

به، المتجرِّدين له: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾[١].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ فيه أنَّ الإيمانَ يزيدُ[٢].

٢- أنَّ الحسْبَ هو اللهُ وحده، ولا أحَدَ معه؛ لقوله تعالى: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾، ولم يقولوا: حسبُنا اللهُ ورسولُه، بل قالوا: حسبُنا اللهُ وحده؛ فالله وحده هو الحسْبُ، كما أنَّه وحده المتوكَّلُ عليه[٣].

٣- إثباتُ اسم ﴿الْوَكِيلُ﴾ للهِ تعالى؛ لأنَّ تقديرَ الآية: ونِعْمَ الوكيلُ هو، وقد ذكَر اللهُ تعالى في آيةٍ أخرى أنَّه على كلِّ شيء وكيلٌ؛ فـ: (الوكيلُ) مِن أسماء الله تعالى، ومعناه المتكفِّلُ بشؤونِ عباده، وليس معناه القائمَ بالأمرِ نيابةً عنهم[٤].

٤- إثباتُ الرِّضا لله؛ لقوله: ﴿رِضْوَانَ اللَّهِ﴾، والرِّضا: صفةٌ من صفاتِ الله الفِعليَّةِ[٥].

٥- في قولِه تعالى: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ أنَّ الإنسانَ إذا عَمِل العملَ وسعَى فيه ولم يُكمِلْه، كُتِب له أجرٌ كاملٌ[٦].

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٥٢٠).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٥٦٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٥٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٥٣).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٥٢).

٦- مفهومُ قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ﴾ أنَّ الكافرَ قد يكونُ له حظٌّ في الدُّنيا، وكُفرُه لا يمنَعُه مِن الحظِّ في الدُّنيا(١).

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (مِن) في قوله: ﴿مِنْهُمْ﴾ للبَيانِ وليست للتَّبعيض، والمقصودُ مِن ذِكرِ الوصفينِ المدحُ والتَّعليل لا التقييد؛ لأنَّ المستجيبينَ كلَّهم مُحسِنون مُتَّقون(٢)، وعبَّر بـ(مِن) الَّتي تصلُحُ للبيانِ والبعضِ؛ ليدومَ رغَبُهم ورهَبُهم(٣).

٢- قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾:

- جِيء في قولِه تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ بإعادةِ الموصولِ (الَّذين) دون أن تُعطَفَ الصِّلةُ على الصِّلةِ الأولى في قولِه تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾؛ اهتمامًا بشأنِ الصِّلة الثَّانية حتَّى لا تكونَ كجُزءِ صِلةٍ(٤).

- وفي قولِه: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ التعبيرُ بلفظِ العمومِ معَ إرادةِ الخُصوصِ حيثُ عبَّر بـ﴿النَّاس﴾ والمرادُ بعضُ النَّاسِ، وليس كلَّهم، وهذا أسلوبٌ لُغَويٌّ لا يخرُجُ عن قواعدِ اللُّغة العربيَّة، والمرادُ بعضٌ من النَّاس(٥).

٣- قوله: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ فيه لفٌّ ونَشرٌ مرتَّبٌ، مع طَيِّ ذِكرِ الملفوفِ والمنشورِ، وهما (السَّلامة بالأجسامِ) الَّتي تعودُ إلى قوله: ﴿بِنِعْمَةٍ﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١١٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٦٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٤٩).

و(الرِّبح بالتِّجارة) الَّذي يعودُ إلى قولِه: ﴿وَفَضْلٍ﴾[١].

– في قوله: ﴿فَانْقَلَبُوا﴾ إيجازٌ؛ فإنَّه يدُلُّ على أنَّهم خرَجوا للقاءِ العدوِّ، وأنَّهم لم يلقَوْا كيدًا، فلم يلبثوا أنِ انقلَبوا إلى أهليهم، ومِثلُ هذا الحذفِ، الَّذي يدُلُّ عليه المذكورُ بمجرَّدِ ذِكرِه، كثيرٌ في القرآنِ[٢].

– قوله: ﴿مِنَ اللَّهِ﴾: وقَع صفةً لـ﴿نِعْمَةٍ﴾؛ تأكيدًا لفخامتِها الذَّاتيَّةِ الَّتي يُفيدها التَّنكيرُ بالفَخامةِ الإضافيَّةِ، أي: نِعمة كائِنة مِن الله تعالى[٣].

٤- قوله: ﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ خبرٌ فيه تحسيرٌ للمتخلِّفِ وتخطئةُ رأيِه حيثُ حَرَمَ نفْسَه ما فازوا به[٤].

– وكرَّر الاسمَ العظيمَ (الله)؛ لبيانِ عِظَمِ الأمرِ[٥].

٥- قوله: ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ فيه تضمينُ الفِعل ﴿يُسَارِعُونَ﴾ معنى الفِعل (يقعون)؛ حيث عُدِّي بـ(في)؛ إشارةً إلى استقرارِهم في الكفرِ، ودوامِ ملابَستهم له في مبدأِ المسارَعةِ ومُنتهاها، وأنَّهم يَعجَلون إلى إظهارِه وتأييدِه، والعملِ به عند سُنوحِ الفُرص، ويَحرِصون على إلقائِه في نفوسِ النَّاس، فعبَّر عن هذا المعنى بقوله: ﴿يُسَارِعُونَ﴾، ولو عُدِّي بـ(إلى) لفُهِم منه أنَّهم لم يَكفُروا عند المسارَعة[٦]، وأمَّا إيثارُ كلمة (إلى) في قولِه تعالى:

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١١٣)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٥٨٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ٢٠٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١١٤).
(٤) ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٤٩).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١٣١).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٧٢- ١٧٣).

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ [آل عمران: ١٣٣]؛ فلأنَّ المغفرةَ والجنَّةَ مُنتهَى المسارعةِ[١].

٦- قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ تعليلٌ للنَّهي، وتكميلٌ للتَّسلية، بتحقيق نفْيِ ضررِهم أبدًا، أي: لن يضُرُّوا بذلك أولياءَ اللهِ ألبتَّةَ، وتعليقُ نفيِ الضَّررِ به تعالى؛ لتشريفِهم، والإيذانِ بأنَّ مضارَّتَهم بمنزلةِ مضارَّتِه سبحانه، وفيه مزيدُ مبالَغةٍ في التَّسليةِ[٢].

- وفيه: تعريضٌ ظاهرٌ باقتصارِ الضَّررِ عليهم، كأنَّه قيل: وإنَّما يضُرُّون أنفسَهم[٣].

- وتَنكيرُ قوله: ﴿شيئًا﴾ مع تنوينِه- الَّذي يَزيد النَّكرةَ شياعًا وتنكيرًا، وقلَّةً وحقارةً-؛ لتأكيدِ ما هم عليه من القلَّةِ والحقارةِ، وضآلةِ الشَّأنِ[٤].

- وموقع (إنَّ) في مِثل هذا المقامِ لإفادةِ التَّعليلِ؛ فإنها تُغني غَناءَ فاء التَّسبُّب[٥].

٧- قوله: ﴿يريدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ﴾ استئنافٌ مبيِّن لسرِّ ابتلائِهم بما هم فيه مِن الانهماكِ في الكفرِ[٦].

- وعبَّر بصِيغة الاستقبالِ ﴿يُرِيدُ﴾؛ للدَّلالةِ على دَوامِ الإرادةِ واستمرارِها[٧].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١١٥-١١٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١١٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١١٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١١٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٧٣).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١١٦).
(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٧٧ - ١٨٠)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلمات:

﴿نُمْلِي﴾: أَيْ: نُطيلُ لهم المدَّة، وأَمْلَى مأخوذٌ مِن أملَلَ، وأصل الإملاء: الزَّمنُ الطويل، وامتدادٌ في شيءٍ؛ زمانٍ أو غيرِه[١].

﴿يَجْتَبِي﴾: يختارُ، وأصلُ الاجتباءِ: جمْعُ الشَّيءِ والتجمُّع؛ يُقال: جبيتُ الماءَ في الحوضِ: جمعتُه[٢].

﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾: أَيْ: يَلزمُ أعناقَهم إثمُه، أو يلزمون أعمالَهم مثلَما يلزمُ الطوقُ العنقَ، وأصلُ الطوق: ما يُجعل في العُنقِ، وكلُّ ما استدارَ بشيءٍ فهو طوقٌ[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤٦، ٣٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٣٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٣).

مُشكِلُ الإعراب:

١- قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ﴾

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾: (يَحسَب) فِعلٌ مضارعٌ يتعدَّى لمفعولَين، مبنيٌّ على الفتْح لاتِّصالِه بنونِ التوكيدِ الثَّقيلةِ، وهو في مَحلِّ جزم بـ(لا) الناهية. وقدْ قُرِئ بياءِ الغَيبة، وبتاءِ الخِطاب؛ فعَلَى قِراءة الياء يكون ﴿الَّذِينَ﴾: في محلِّ رفْعِ فاعِل (يحسبن). و﴿أَنَّمَا نُمْلِي﴾: (ما) في ﴿أَنَّمَا﴾ موصولةٌ بمعنى الذي، وهي في محلِّ نصب، اسم (أنَّ)، ويجوز أنْ تكون (ما) مصدريَّة، والمصدرُ المؤوَّل (ما نملي)- أي: (إملاءنا)- هو اسم أنَّ. و(أنَّ) ومَا اتصلتْ به في محلِّ نصب، سادٌّ مَسدَّ مَفعولَيْ (يحسب)، أو سادٌّ مسدَّ أحدهما، والمفعول الآخَر محذوف، تقديرُه: نافعًا. وعلى قِراءة (وَلَا تَحَسَبَنَّ) بالتاء؛ فالفاعلُ ضميرٌ مستترٌ وجوبًا تقديرُه (أنت)، عائدٌ إلى النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، و﴿الَّذِينَ﴾: مفعولٌ أوَّل لـ(تحسبن)، و﴿أَنَّمَا نُمْلِي﴾: في مَحلِّ نصْبِ مفعولٍ ثانٍ، على تَقديرِ حذْفِ مضافٍ، أي: (ولا تحسبن شأنَ الذين كَفروا...)، وفي الآية توجيهاتٌ أخرى[1].

٢- قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ﴾:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾: قُرِئ بياءِ الغَيبة، وبتاءِ الخِطاب؛ فعَلى قِراءة الياء يكون ﴿الَّذِينَ﴾: في مَحلِّ رفْعِ فاعِل (يحسبن)، و﴿يَبْخَلُونَ﴾ صِلة له. ويكون ﴿خَيْرًا﴾: مفعولًا ثانيًا، والمفعول الأوَّل محذوفًا تقديرُه: البُخلَ؛ لدلالةِ ما قبله عليه ﴿يَبْخَلُونَ﴾، والتقدير: ولا يَحسبنَّ الذين يَبخلون بما آتاهم اللهُ مِن فَضلِه البُخْلَ خيرًا لهم. وقوله: ﴿هُوَ﴾ ضميرُ فصلٍ، لا محلَّ له مِن الإعراب. وأمَّا على

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٧٩- ١٨٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣١٢- ٣١٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٤٩٦)، ((إعراب القرآن الكريم)) لدعاس (١/ ١٧٤).

قِراءة (تَحسبَنَّ) بالتاء؛ فالفاعلُ هو المخاطَب، وهو النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم، و﴿الَّذِينَ﴾: مفعولٌ أوَّلُ على تَقديرِ حذْفِ مضافٍ، وإقامةِ (الَّذين) مقامَه؛ ليصدقَ الخبرُ على المبتدأ، و﴿خَيْرًا﴾: مَفعولٌ ثانٍ، والتقدير: ولا تَحسبنَّ- يا محمَّدُ- بُخْلَ الذين يَبخلون خَيْرًا لهم. وفي الآيةِ تخريجاتٌ أخرى(١).

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبِر تعالى عن الَّذين استبْدَلوا الكُفرَ بالإيمانِ أنَّهم لن يَضرُّوا بذلك اللهَ شيئًا، ولهم عذابٌ أليمٌ.

يقول الله تعالى: لا تظنَّ يا محمد، ولا يظنَّ الكفارُ كذلك أنَّ عدمِ مُعاجَلة الله لأهل الكفرِ بالعقوبةِ، وترْكهم يتمتَّعون في الدُّنيا-هو كرامة لهُم وخيْر، بلْ إنَّ ذلك مِنْ أجْلِ أنْ يَتحمَّلوا مَزيدًا من الإثمِ ولهُم عذابٌ مُهين.

ثمَّ يخبر الله تعالى أنَّه ليس من حِكمتِه أن يُبقِيَ المؤمنين على الحالِ التي هم عليها مِن اختلاطِ المؤمنين بالمنافقين دون أنْ يَتمايزَا، بلْ لا بدَّ من الابتلاءات التي تُمحِّص وتُميِّز كُلًّا منهما عن الآخر.

كما أنَّه ليس من حِكمتِه أنْ يُطلِعَ أحدًا منهم على ضَمائرِ قلوبِ العِباد؛ كيْ يُظهِرَ له المؤمنَ من المنافقِ، وإنَّما يُهيِّئُ اللهُ تعالى مِن المِحَن والابتلاءات ما مِن خِلالِه يتمايَز العِباد، ولكِنَّ اللهَ يختارُ بعضًا مِن رُسُله عليهم الصَّلاة والسَّلام؛ لِيُطلعَهم على بعضِ الغَيْبيَّات بحِكمتِه وإذْنه، ثمَّ يأمر الله تعالى المؤمنين أن يُحقِّقوا الإيمانَ بِه تعالى وبجميع رُسُله، ووعدَهم بأنَّهم إنْ قاموا بذلك واتَّقَوْا أنَّ لهم أجرًا عظيمًا.

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٨٠ - ١٨١)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣١٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٥١٠).

ثُمَّ يُخاطِب اللهُ نبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أَنْ لا يظنَّ أَنَّ الذين يَبخلون بأموالهم التي رزَقَهم اللهُ تعالى إيَّاها؛ فضْلًا مِنه- أَنَّ بُخلَهم خَيْرٌ لهم من العَطاء، ولا ينبغي أن يظنَّ هؤلاء الذين يَبخلون بالأموال: أَنَّ بُخْلَهم خيْرٌ لهم من العطاء، بل هو شَرٌّ لهم؛ فإنَّ اللهَ تعالى توعَّدَ الباخِلين: أنَّه سَيجعل المال الذي بخِلوا بإخراجِ حقِّ الله تعالى فيه طَوْقًا يُحيطُ بأعناقِهم، ويُعذَّبون به يومَ القيامة، ولله تعالى ميراثُ السَّموات والأرض؛ فتُردُّ إليه كلُّ أملاك الخَلْق بعد فنائِهم، واللهُ خبيرٌ ومُطَّلِعٌ على جميعِ أعمال العبادِ، وسيجازيهم عليها.

تَفسيرُ الآيات:

﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٧)﴾.

أَيْ: إنَّ هؤلاءِ الذين استبدَلوا الإيمانَ بالكفرِ، لا يُصيبون اللهَ تعالى بأيِّ ضرَرٍ كان، وإنَّما يَضرُّون في الحقيقةِ أنفُسَهم؛ فبذلك يَستحِقُّون عُقوبةَ اللهِ تعالى المؤلِمةَ(١).

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٧٨)﴾.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ قِراءتان:

١- (وَلَا تَحْسَبَنَّ) على معنى أنَّ الخِطاب للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٥٨-٢٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٣)، ((تفسير السَّعدِيّ)) (ص: ١٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٦٤-٤٦٦).

(٢) قرأ بها حمزةُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٠٠). =

٢- ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ على أنَّها نهيٌ للذين كفروا[١].

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ﴾.

أَيْ: ولا تظنَّ- يا مُحمَّدُ- ولا يظنَّ الكفَّارُ كذلك، أنَّ إطالتَنا لهم في أعمارهم، وترْكَهم يَتمتَّعون في دُنياهم، وعدَمَ مُعاجَلَتِهم بالعقوبة- أنَّه خيْرٌ وكرامةٌ مِن الله تعالى لهم، ودليلٌ على مَحبَّتِه لهم، ورِضاهُ عنهم، كما يبدو في الظَّاهر[٢].

﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾.

أَيْ: حقيقةُ الأمْرِ أنَّ ذلك شرٌّ عليهم، وإنَّما منحَهم الله تعالى إطالةَ العُمْرِ، وسَعَةَ الرِّزْق، وحُصولَ النَّصْر وغيْرَ ذلك؛ مِن أَجْل أن يكتسبوا المزيدَ مِن الآثام؛ فتكثُرَ سيِّئاتُهم[٣].

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾.

أَيْ: ولهؤلاء الكفَّار المستكبِرين عُقوبَةٌ تُذِلُّهم وتُهينُهم[٤].

﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ المؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا

= ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١١٧)، ((حُجَّة القراءات)) لابن زنجلة (ص:١٨٢).

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٠٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١١٧)، ((حُجَّة القراءات)) لابن زنجلة (ص:١٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٥٩-٢٦٠)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٥٤٦)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تَيمية (٢/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٥٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٦٨).

بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى عُقوبةَ المنافقين الأُخْرَوِيَّةَ، أَتْبَعَها بوعيدِه للمنافقين بالعقوبةِ الدُّنيويَّةِ؛ التي هي الفضيحةُ والخِزْي بالتمييزِ بينهما؛ لِيُظهرَ المؤمِنَ من المنافِق[1].

وأيْضًا لَمَّا أخبرَ اللهُ تعالى عن الأحوالِ التي وقعتْ يومَ أُحُدٍ من القتْل والهزيمة، والتي أظهرتِ المؤمِنَ مِن المنافِق؛ لأنَّ المنافقين خافوا ورجَعوا وشَمَتوا بكثرة القتْلى، ثمَّ ثبَّطوا وزهَّدوا المؤمنين عن العَوْد إلى الجِهاد- أعقبَ سبحانه وتعالى ذلك ببيانِ أنَّه لا يجوزُ في حِكمتِه أنْ يَذَرَكم على ما أنتُم عليه من اختلاطِ المنافقين بكم، وإظْهارِهم أنَّهم من أهْل الإيمان؛ فكان إلقاءُ هذه الحوادثِ والوقائع؛ حتَّى يَحصُلَ هذا الامتياز[2]؛ فقال تعالى:

﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾.

أيْ: إنَّه من الممْتَنِع على حِكْمة اللهِ عزَّ وجلَّ أن يدَعَ عبادَه المؤمنين على ذات الحال التي هُم عليها؛ من اختلاطِهم بالمنافِقين تحتَ مُسمًّى (الإسلام) الذي يَجمعهم، من دونِ أنْ يُعرف هذا مِن هذا، بلْ لا بُدَّ أنْ يَجعلَ كلَّ واحدٍ منهما مُتميِّزًا عن الآخر، مُنفصِلًا عنه بِلا لَبْسٍ بينهما؛ ولذا يَعقِد الله تعالى أسبابًا مِن المِحَن يُظهِر فيها وليَّه، ويُفضَحُ فيها عدُوُّه، كما فعل بهم يوم أُحُدٍ[3].

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٦٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٧٠-٤٧١).

ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ * لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦-٣٧].

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾.

أَيْ: مِن الممتَنِع على حِكمَة الله تعالى أيضًا أنْ يُطلِعَكم على ضَمائرِ قلوبِ عِبادِه؛ كَيْ يُظهرَ لكم المؤمِنَ من المنافِق، ولكِنَّه يَعقِد الأسبابَ التي تكشِف لكم هذا الأمْرَ، وتَظهرُ بها طَوايا النَّاس(١).

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

أَيْ: لكنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يختارُ بعضَ رُسُله عليهم الصَّلاة والسَّلام؛ لِيُطلِعَهم على بعض الغيبيَّات بحِكمتِه وإذْنِه سُبحانَه، ومِن ذلك: إطْلاعُهُ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على عددٍ من المنافِقين(٢).

قال سُبحانَه: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ [الجن: ٢٥-٢٧].

﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾.

أَيْ: حَقِّقُوا إيمانَكم باللهِ تعالى وجميعِ رُسُله عليهم السَّلامُ بالتَّصديق التَّامِّ، والانقيادِ والاستسلامِ؛ فهذا هو المطلوبُ منكم(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٦٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٢٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٧٢-٤٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٧٣-٤٧٤).

﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

أَيْ: إنَّكم إذا حقَّقْتم المطلوبَ منكم بالإيمانِ بالله تعالى ورُسُلِه، وامتثَلتُم ما أمَرَكم الله تعالى ورسولُه به، واجتنَبْتُم ما نهاكم اللهُ تعالى ورسولُه عنه، إنْ قُمْتُم بذلك؛ فقد استحقَقْتُم نَيْلَ ثَوابٍ مِن الله تعالى كبيرٍ[1].

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا حرَّض الله المؤمنين على بَذْل الأرواحِ في الجِهادِ في الآيات السَّابقة، أَرْدَفه بالتحريضِ على بَذْلِ الأموالِ في الجِهادِ وغيرِه، وبيَّن الوعيدَ الشديد لِمَن يَبخلُ[2]، فقال:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ قراءتان:

١- قراءة (وَلَا تَحْسَبَنَّ) على الخِطاب للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أَيْ: لا تحسَب- يا مُحمَّدُ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٧٤-٤٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٤٢)، ((تفسير أبي حيَّان)) (٣/ ٤٥١)، ((نظْم الدُّرَر)) للبقاعي (٥/ ١٣٧).

(٣) قرأ بها حمزةُ. يُنظر: ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٦٦-٣٦٧)، ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٠٠).

٢- قراءة ﴿ولا يَحْسَبَنَّ﴾ بإضافةِ الفِعل إلى ما بَعدَه، أَيْ: لا يَحسبنَّ الذين يبخلون(١).

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ﴾.

أَيْ: لا تظنَّنَّ- يا مُحمَّدُ- ولا يظنَّنَّ هؤلاء الذين يشِحُّون بأموالهم التي رزَقهم الله تعالى؛ كرَمًا منه عن أداء حقِّه فيها، أَنَّ بُخلَهم هذا خيْرٌ لهم من العطاء الذي يُنقص المال، كما يبدو في الظاهر(٢).

﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ﴾.

أَيْ: ليس الأمرُ كما يَظنُّون؛ فامتناعُهم عن أداءِ حَقِّ الله تعالى فيما رزَقَهم من أموالٍ بُخْلًا منهم، هو في حقيقةِ الأمْرِ شرٌّ من هذا النقْصِ الذي يَبدو لهم، ومضرَّةٌ عليهم في دِينهم ودُنياهم(٣).

﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

أَيْ: سيَجعل اللهُ تعالى المالَ الذي بَخِل به مَن منَعَ حقَّ اللهِ تعالى فيه، سيجعلُه طَوْقًا يُحيطُ بعُنُقِ صاحبه، ويُعذَّب به يوم القيامة(٤).

عَن أبي هُرَيرَةَ رَضِي الله عنه، أَنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((مَن

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٦٦-٣٦٧)، ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٦٨-٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٨٠-٤٨١).

وقِيل: يدخُل في الآية أيضًا من بَخِل بجاهِه، أو بعِلْمِه: كأهل الكتاب الذين بَخِلوا ببيان ما في أيْديهم من الكُتُب المُنزَّلة، ومن ذلك: صِفَةُ مُحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٧١، ٢٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٤-١٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٨٢-٤٨٤).

آتاه الله مالًا فَلم يُؤَدِّ زَكاتَه، مُثِّل له مالُه شُجاعًا أقْرَعَ[١]، لَه زَبِيبَتَانِ[٢] يُطَوَّقُهُ يَوْمَ القِيامَةِ، يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ- يَعْنِي بِشِدْقَيْهِ- يَقُولُ: أَنَا مَالُكَ أَنَا كَنْزُكَ)) ثمَّ تلا هذه الآية: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ...﴾ إلى آخرِ الآية[٣].

وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤-٣٥].

﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

أَيْ: إنَّ كلَّ أملاكِ الخَلْقِ مرَدُّها بعدَ فنائِهم إلى اللهِ تعالى وحْدَه؛ فهو المالكُ ذو المَلَكوت، والحيُّ الباقي الَّذي لا يموتُ؛ فأنفِقوا في حياتِكم مِمَّا جعلكم اللهُ عزَّ وجلَّ مُستَخلَفين فيه، وقدِّموا فيها من أموالِكم ما يَنفعُكُم يومَ تأتون إلى الله سُبحانَه، وليس معكم شيءٌ مِمَّا كنتُم تملكون؛ فلا مَعنى للبُخْل بشيءٍ زائلٍ عنكم، ومُنتقِلٍ إلى غيرِكِم[٤].

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

(١) شُجَاعًا أَقْرَعَ: الشُّجَاعُ بالضَّمِّ والكسْرِ: الحيةُ الذَّكَرُ. وَقِيلَ الْحَيَّةُ مُطْلَقًا. والأَقْرَع: الذي لا شَعْر على رَأْسِه، يُريد حَيةً قَدْ تَمَعَّطَ جلْد رأسِه؛ لِكثرة سَمِّه وطول عُمْره. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٤٤٧) (٤/ ٤٥)، ((شرح النووي على مسلم)) (٧/ ٧٠).

(٢) الزَّبِيبَتَانِ: مثنَّى زبيبَة، قيل: هي نُكْتَةٌ سوداءُ فوقَ عَيْنِ الحَية، وقيل: هُما نُقْطَتان بجانبي فمِها، وقيل: هُما الزَّبَدَتان اللَّتان في جانبي شِدْقي الحيَّة من السُّم. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٢٩٢)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٢٦).

(٣) رواه البخاريُّ (٤٥٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٨-١٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٨٤-٤٨٥).

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ قِراءتان:

١- (يَعْمَلُونَ) على الغَيْبة؛ جرْيًا على ﴿يَبْخَلُونَ﴾ و﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾[1].

٢- ﴿تَعْمَلُونَ﴾ على الالْتفاتِ للمُخاطَب؛ فيكون ذلك خِطابًا للباخِلين[2].

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

أَيْ: واللهُ عزَّ وجلَّ مُطَّلِعٌ على خفايا أعمال الخلْق، ومُطَّلِعٌ على نيَّاتهم وضمائرهم، وسيجازيهم على أعمالهم ونيَّاتهم بحسَبها، ومن ذلك: هؤلاء الذين يبخلون بما آتاهم الله تعالى من فَضْلِه؛ فإنَّ الله سبحانَه مُطَّلِعٌ على ما يُخفونَ ويَكنِزون، ويعلمُ إنْ كانوا قد أدَّوا حقَّ الله تعالى فيه أمْ لا، وإنْ خَفِيَ ذلك على غيرِه[3].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- نِعَمُ الدُّنيا ليستْ دليلًا على رِضا الله تعالى؛ فتِلك النِّعَم قد تكون نِقَمًا وآفاتٍ في الحقيقةِ؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ فهذا البقاءُ، وهذا

---

(١) قرأ بها ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤٥).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٨٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٥٣).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤٥).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٨٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٨٥).

الإمهالُ صار وسيلةً إلى الخِزْيِ في الدُّنيا، والعقابِ الدائمِ يومَ القيامة؛ فلم يكُنْ نعمةً حقيقة(١).

٢- في قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ أنَّه يجبُ على الإنسانِ أنْ يَعتبِر في عُمْره؛ هل أمضاه في طاعةِ الله تعالى، أو أمضاهُ في معصيتِه، فمُجَرَّد طولِ العُمُر ليس خيرًا للإنسانِ إلَّا إذا أحسَنَ عَمَلَه؛ لأنَّه أحيانًا يكونُ طولُ العُمُر شرًّا للإنسانِ وضررًا عليه، فهؤلاءِ الكفَّارُ يُمْلي اللهُ لهم؛ أي: يُمِدُّهم بالرِّزقِ والعافِيَةِ وطولِ العُمُر والبنينَ والزَّوجاتِ، لا لخَيرٍ لهم، ولكنَّه شَرٌّ لهم، والعياذُ بالله؛ لأنَّهم سوف يزدادونَ بذلك إثمًا(٢).

٣- التمايُزُ لا يكون إلَّا بالشَّدائد؛ أمَّا الرَّخاء واليُسْر، وتكليف ما لا مشقَّةَ فيه، فيَقدِر عليه المنافِقون، ويَشتركون فيه مع المُخلِصين الصادقين؛ قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾(٣).

٤- البُخل بشيءٍ من الخيراتِ والمنافعِ مذمومٌ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾(٤).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- البُخلُ قد يكون من الكَبائِر الموجِبَةِ للنَّارِ؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٤٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٦٩)، ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٢/ ١٠٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ٢٠٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٤٣).

يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[1].

٢- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ بيانُ شِدَّة رغبةِ الكفَّار في الكُفر؛ لأنَّهم اشترَوا الكفرَ اشتراءً، والمشترِي طالِبٌ للسِّلعة؛ فهم يأخذون الكفرَ عن رغبةٍ[2].

٣- في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾، إشارةٌ إلى أنَّ الإنسان قد يَغترُّ بظاهر الحالِ، ويقول: إنَّ الله لم يُنعمْ عليَّ نعمةً إلَّا لأنَّني أهلٌ لها، كما قال قارون: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾[3] [القصص: ٧٨].

٤- في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ بيانُ مِنَّةِ الله على عبادِه؛ حيثُ جعَل إثابتَهم على العملِ بمنزلةِ الأَجْر المتقرَّر لهم: كالذي استأجَرَ أُجراءَ، وأعطاهم أجْرَهم فَرضًا، إلَّا أنَّه تعالى هو الذي فرَضَ ذلك على نفْسِه[4].

٥- الإشارةُ إلى اسم اللهِ (الآخِر)، فإنَّ اللهَ هو الأوَّل والآخِر، وذلك مِن قوله: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، فإذا ثبَتَ إرْثُه لهما لزِم مِنْه أنْ يكون هو الآخِر عزَّ وجلَّ[5].

بَلاغَةُ الآيات:

١- قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٣٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٦٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٦٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٨٠).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٨٧).

- قوله: ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾: تكريرٌ لجملة: ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ قُصِد به- مع التأكيد- إفادةُ هذا الخبرِ استقلالًا؛ للاهتمامِ به بعدَ أنْ ذُكِرَ على وجهِ التعليل؛ لتسليةِ الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم[1].

- وفيه: تعريضٌ ظاهرٌ باقتصارِ الضَّررِ عليهم، كأنَّه قيل: وإنَّما يَضُرُّون أنفسَهم[2].

- وقوله: ﴿وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: جملةٌ مُبتدَأةٌ مُبيِّنة لكمالِ فظاعةِ عذابهم؛ بذِكر غايةِ إيلامِه، بعدَ ذِكْر نهايةِ عِظَمِه[3].

- والتعبيرُ بصِيغة (فَعِيل) في قوله: ﴿أَلِيمٌ﴾؛ للمُبالَغة في وصْف العَذاب[4]، مع ما في التنكيرِ من التَّهويل.

- وفي الآية: الفَصلُ-أي: عدَم العطف- بين جملةِ: ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ وسابقتِها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا...﴾؛ لوقوعِ هذه بيانًا للسابِقة، بينما وصَل-أي: عطَفَ- بين جملة: ﴿وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وسابقتِها؛ لوقوعِ هذه ابتدائيَّة مبيِّنة لفظاعةِ عذابِ الكفَّار[5].

٢- قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ﴾:

- قوله: ﴿أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ﴾: استئنافٌ واقِعٌ مَوقِعَ التَّعْليل؛ للنهْي عن حُسبان الإملاءِ خيرًا، أَيْ: ليس هو بخير؛ لأنَّهم يَزدادون في تلك المدَّة إثْمًا[6]، ومُبيِّنٌ كذلك لحِكمة الإملاءِ[7].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٧٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١١٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١١٧).
(٤) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٥٨٨).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٨٧).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١١٨).
(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وفيه حَصْرٌ، أَيْ: ما نُملي لهم إلَّا لِيزدادوا إِثْمًا، أَيْ: فيكونَ أَخْذُهم به أشدَّ؛ فهو قصْرُ قلْبٍ[1].

- وقوله ﴿خَيْرٌ﴾ وإنْ كانَ بِصيغة المُبالغةِ والتَّفضيلِ، إلَّا أنَّه لنفْي الخيريَّة، لا لنفْي كونِه خيرًا مِن شيءٍ آخَرَ؛ لأنَّ بناءَ المبالغةِ لا يَجوز ذِكْرُه إلَّا عندَ ذِكْر الرَّاجح والمرجوح، فلمَّا لم يَذكُرِ اللهُ هاهنا إلَّا أحدَ الأمرين، دلَّ على أنَّه لنفْي الخيريَّة، لا لنفْي كونِه خيرًا مِن شيءٍ آخَرَ[2].

٣- قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾:

- قولُ الله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ اللَّام في قوله: ﴿لِيَذَرَ﴾ هي المُسمَّاة (لام الجحود)، وعلى القولِ بأنَّ خبرَ كان محذوفٌ، وأنَّ انتصابَ الفِعلِ بعدَ هذِه اللامِ بـ(أنْ) المضمرَة وجوبًا[3]؛ فاللَّام تتعلَّقُ بالخبرِ المقدَّر لـ﴿كَانَ﴾، والتقديرُ: ما كان اللهُ مُريدًا أو مُتصدِّيًا لأنْ يَذَرَ المؤمنين، أي: ما كان مُريدًا لتَرْكِ المؤمنين، وفي توجيهِ النَّفيِ إلى إرادةِ الفِعلِ تأكيدٌ ومبالغةٌ، ليستْ في تَوجيهِ النَّفي إلى المفعولِ نفْسِه؛ فاللام مُقوِّيَةٌ لطَلَبِ ذلكَ المَحذُوفِ (مريدًا) لِمَا بَعدَها (أنْ يَذَرَ). وعلى القول بأنَّ خَبَرَ كان هو الفِعلُ (يَذَر)، وأنَّ اللَّام تَعمَلُ بنَفسِها النَّصبَ في المضارِعِ[4]؛ فاللَّام زائدةٌ لتأكِيدِ النَّفْيِ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٤٠).

(٣) وهذا مذهبُ البصريِّين.

(٤) وهذا مذهبُ الكوفيِّين.

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١١٨- ١١٩).

- وفيه إظهارُ ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ في موضِعِ الإضمارِ، حيث قال ﴿لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: الثابتين في وصْفِ الإيمان، ولم يقُل: (ليذركم)؛ لإظهارِ شرَفِ الوصْفِ بالإيمانِ، تعظيمًا لأهلِه(١).

- وقوله: ﴿حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ فيه مبالغةٌ في النَّفي؛ حيثُ وقعت (حتَّى) بعدَ (مَا كَانَ)، وهو استعمالٌ خاصٌّ يُسمَّى: (نفْي الجحود)، وتُفيد (حتَّى) فيه تنهِيةَ الاستحالة؛ لأنَّ الجُحودَ أخصُّ من النفْي، فيكونُ حصولُه كالمستحيل؛ فإذا غيَّاه المتكلِّم بغايَةٍ، كانت تلك الغايةُ غايةً للاستحالة المستفادةِ من الجحود، وليست غايةً للنفي؛ حتَّى يكون مفهومها أنَّه بعدَ حصولِ الغاية يثْبُت ما كان منفيًّا(٢).

- قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ تمهيدٌ لبيانِ الميْزِ الموعود، على طريقِ تجريدِ الخِطابِ للمُخلِصين؛ تَشريفًا لهم(٣).

- قوله: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ...﴾ ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي...﴾ فيه إظهارُ الاسمِ الجليل (الله) في الموضِعَينِ؛ لتربية المَهابَة(٤).

٤- قوله سبحانه: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾:

- قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ فيه إيرادُ ما بخِلوا به بعنوانِ إيتاءِ الله تعالى إيَّاهم مِن فضلِه؛ للمُبالغةِ في بيانِ

(١) يُنظر: ((نظْم الدُّرر)) للبقاعي (٥/ ١٣٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٧٨- ١٧٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١١٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

سُوءِ صَنيعِهم؛ فإنَّ ذلك حقُّه أنْ يكونَ من مُوجِباتِ بَذْلِه في سبيلِه، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[1].

- قوله: ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ﴾ فيه تأكيدٌ لنفْيِ كونه خيرًا، وإفادةُ نفْيِ توهُّمِ الواسطةِ بين الخيرِ والشرِّ[2].

- قوله: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تذْييلٌ لموعظةِ الباخِلين وغيرِهم، بأنَّ المالَ مالُ الله، وما مِن بخيلٍ إلَّا سيذهب ويترُك مالَه، والمتصرِّفُ في ذلك كلِّه هو الله؛ إذْ هو يرِث السَّمواتِ والأرضَ؛ فالآيةُ موعظةٌ، ووعيدٌ ووعْد؛ لأنَّ المقصودَ لازمٌ[3].

- قوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فيه إظهارُ الاسمِ الجليل (الله) في مَوضعِ الإضمار[4]؛ لتربيةِ المَهابة.

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنة؛ حيثُ ختَم بهذه الصِّفة، ومعناها التهديدُ والوعيدُ على قَبيحِ مُرتكَبِهم من البُخل[5].

- وفيه: التفاتٌ[6]؛ حيثُ التفتَ من الغَيْبة إلى خِطابِ الباخِلين[7]، وهو أزجرُ في التهديدِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٨٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ١٨٢- ١٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٢٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٥٣).

(٦) هذا على قِراءة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بتاءِ الخِطاب، وأمَّا على قِراءة (يعملون) بياء الغَيبة؛ جريًا على ﴿يَبْخَلُونَ﴾ و﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾؛ فليس فيه التفاتٌ.

(٧) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٥٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١١٩).

الآيات (١٨١ - ١٨٤)

﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ سَنَكۡتُبُ مَا
قَالُواْ وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ
بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ
ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ
قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ
صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ جَآءُو بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ
وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿بِقُرْبَانٍ﴾: القُربان: ما يُتقرَّبُ به إلى الله عزَّ وجلَّ مِن ذبْح أو غيرِه، وأصل القُرب: خلافُ البعد(١).

﴿وَالزُّبُرِ﴾: الكتُب، جمْع زَبور، وهو: كلُّ كتابٍ ذي حِكمةٍ، مأخوذٌ من الزَّبْر، وهو الكتابةُ والقِراءة، وقيل: مِن زبَرَه، إذا دفَعه(٢).

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبر تعالى أنَّه قد سمِع قولَ اليهودِ الذين تجرَّؤوا على اللهِ، وقالوا: إنَّه فقيرٌ- تعالى اللهُ عن ذلك- وهم أغنياءُ، ثُمَّ أخبرَ سبحانَه أنَّه سيَكتُب ما قالوا، وسيَكتُب أيضًا رِضاهم واستحلالَهم لِمَا قام به أسلافُهم من قتْلِ الأنبياء بدون أيِّ عُذرٍ يُبيح لهم ذلك، وأخبر أنَّه سيقولُ لهم تعالى: ذُوقوا العذابَ المحرِقَ الذي استحقَقتُموه بما اقترَفتم، واللهُ تعالى لا يَظلِمُ أحدًا من العبادِ شيئًا.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (١/ ٤٩٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٣).

هؤلاءِ اليهود الَّذين ادَّعَوْا كَذِبًا: أنَّ اللهَ تعالى أوْصَى إليهم بوصيةٍ، وهي ألَّا يُؤمنوا لأيِّ رسولٍ حتَّى يأتيَهم بشَيءٍ يتقرَّب به إلى الله، ولا بُدَّ أنْ تأكلَه النار، فأمَرَ اللهُ نبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يردَّ على زَعْمهم هذا: بأنَّه قد جاءَ أسلافَهم من اليهودِ المتقدِّمين رُسُلٌ مِن الله، معهم الكثيرُ من المعجِزاتِ وبالذي طَلَبوه من القُربانِ الذي تأكلُه النَّار، فلِمَ قاموا بقتْلهم إنْ كانوا صادِقين في أنَّ اللهَ عهِدَ إليهم بالإيمانِ بِمَن جاءَ بذلك؟!

ثمَّ سلَّى الله نبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: بألَّا يتأثَّر حُزْنًا ووهنًا إنْ كذَّبَه هؤلاء اليهودُ؛ فإنَّه قد كُذِّب رسُلٌ جاؤوا مِن قبلِه، أتَوا معهم بالمعجزات الباهِرة، وبالكتُب المنزَّلة من الله عزَّ وجلَّ.

تَفسيرُ الآيات:

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى المكلَّفين في الآياتِ السَّابقة ببَذْلِ النفْسِ وبذْلِ المالِ في سبيلِ الله، شرَعَ بعدَ ذلك في حِكايةِ شُبُهاتِ القومِ في الطَّعْن في نُبُوَّة النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ومنها: أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أمَر بإنفاق الأموالِ في سبيلِه قالوا: إنَّه لو طَلَب الإنفاقَ في تحصيلِ مَطلوبِه لكان فقيرًا عاجِزًا(١)، فردَّ اللهُ تعالى عليهم في هذِه الآيةِ.

سببُ النُّزول:

عن ابن عبَّاس رضِي اللهُ عنهما قال: ((قال أبو بكرٍ رضِي اللهُ عنه لفِنْحَاص-

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٤٦).

وكانَ مِن علماءِ اليهودِ وأحبارِهم-: اتقِّ اللهَ وأَسْلِم، فواللهِ إنَّك لَتعلمُ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن عندِ الله، جاءَكم بالحقِّ من عندِه، تَجدونَه مكتوبًا عندَكم في التوراة والإنجيل، فقال فِنْحَاصُ: يا أبا بكر! واللهِ ما بنا إلى اللهِ عزَّ وجلَّ مِن فَقْرٍ، وإنَّه إلينا لَيفتقِر، وما نتضرَّع إليه كما يَتضرَّع إلينا، وإنَّا عنه لَأغنياءُ، ولو كان عنَّا غنيًّا لَمَا استقرَضَنا أموالَنا كما يزعُم صاحِبُكم؛ يَنهاكم عن الرِّبا ويُعطِيناه، ولو كان عنَّا غنيًّا ما أعطانا الرِّبا، فغضِب أبو بكْرٍ فضَربَ وجهَ فِنحَاص، فأخبر فِنْحاصُ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لأبي بكْر: ما حملَك على ما صنعتَ؟ فأخبرَه، فجَحَد ذلك فِنْحَاص، وقال: ما قلتُ ذلك، فأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١] الآية))(١).

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾.

أَيْ: لقد سمِع اللهُ جلَّ جلالُه قولَ اليهودِ الذين قالوا في الله عزَّ وجلَّ مقالةً شنيعةً؛ بإضافةِ النقْصِ إليه سبحانَه فقالوا: إنَّ الله فقيرٌ إلينا؛ لأنَّه طلَب منَّا أنْ نُقرِضَه مِن أموالِنا! ثُمَّ جعَلوا أنفسَهم أكملَ مِن الله تعالى؛ فقالوا: ونحن أغنياءُ عنه(٢)!

﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾.

أَيْ: سنكتُبُ ما قالوه في ربِّهم؛ مِن الإفْك والفِريَة عليه، ورِضاهم، واستحلالِهم لِمَا قام به أسلافُهم مِن أفعالٍ فظيعةٍ؛ بقتْلهم الأنبياءَ دون حُجَّةٍ أو عُذْرٍ يُسوِّغ لهم

---

(١) رواه الطبريُّ في ((تفسيره)) (٧/ ٤٤١)، والطحاويُّ في ((شرح مُشكِل الآثار)) (١٨٣٠)، وابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (٤٥٨٩).
حسَّن إسنادَه ابن حجَرٍ في ((فتح الباري)) (٨/ ٧٩)، وقال أحمدُ شاكر في ((عمْدة التفسير)) (١/ ٤٤٤): إسناده جيِّد أو صحيح.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٨١-٢٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٨٨-٤٩١).

فِعْلَ ذلك؛ فسنكتُب ذلك ونحفظُه عليهم؛ لنجازيَهم به[١].

﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

أَيْ: ويقولُ اللهُ تعالى يومَ القيامةِ إهانةً وإذلالًا لأصحابِ تِلك المقالةِ الشَّنيعةِ في حقِّه سبحانَه: ذوقوا عذابَ النَّار المحرِقة[٢].

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (١٨٢)﴾.

أَيْ: يُقال لهم: إنَّما استحقَقْتُم هذا العذابَ المخزِي؛ بسببِ ما اكتسبتموه في حياتِكم من آثامٍ؛ ولأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ حكَمٌ عدْلٌ مع كلِّ أحَدٍ، لا يُجازي كلَّ نفسٍ إلَّا بما كسَبتْ، دون أن يَنقُصَ من حسناتها شيئًا، أو يَزيد على سيِّئاتها شيئًا[٣].

فما قدَّمتْ أيديهم أوجَبَ لهم حُصولَ العذاب، وعدْلُ اللهِ أوجَبَ كوْنَ هذا العذابِ في مِقدارِه المشاهَد من الشِّدَّة؛ حتَّى لا يظنُّوا أنَّ في شدَّته إفراطًا عليهم في التَّعذيب[٤].

ثمَّ ذكر شُبْهةً أخرى لهم، فقال:

﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٨٣)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٨١-٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٩١-٤٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٨٣-٢٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٩٧-٤٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٨٥).

﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾.

أَيْ: هؤلاءِ اليهودَ الَّذين ادَّعَوْا كَذِبًا وافتراءً على اللهِ تعالى، بأنَّه أَوْصاهم بوصيَّةٍ مُؤكَّدَةٍ في كُتُبهم، وعلى ألْسِنة رُسُله تَقضي بألَّا يَنقادوا مؤمِنينَ ومُذعنين لكلِّ مَن يقولُ: إنَّه مُرسَلٌ مِن عند الله تعالى حتَّى يُثبِتَ صِدْقَ رِسالتِه بأمرٍ واحدٍ، وهو: أنْ يَجيءَ بشيءٍ ممَّا يُتقرَّب به إلى اللهِ تعالى من الصَّدقات، فإنْ أكلَتْه النارُ كان ذلك دَلالةً على قَبولِ اللهِ تعالى منه ذلك، وصِحَّة رسالتِه من ربِّه(١).

﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾.

أَيْ: قُل- يا مُحمَّدُ- لهؤلاء اليهود؛ ردًّا على ما زَعموه مِن افتراءٍ: قد أتَى أسلافكم- يا مَعشَرَ اليهود- رُسُلٌ مِن اللهِ تعالى مِن قَبْل بَعْثتي، كانوا مُزوَّدين بالحُجَج، ومُدَعَّمين بالمعجِزات التي تُثبِت صِدْقَ رسالتِهم، وأتَوهم أيضًا بالذي ادَّعيتم من تقديمِهم قرابينَ تَأكُلُها النار، فوقعَتْ على أيديهم هذه المعجِزةُ التي تمسَّكتم بها(٢).

﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

أَيْ: ما دام أنَّه سبَق وأنْ جاءَتكم الرُّسُلُ بالذي زَعَمتُم أنَّه حُجَّةٌ لتصديقِهم، فلِمَ قام آباؤكم إذنْ بقتْلِهم، إنْ كنتُم مُحقِّين في دَعْواكم الإيمانَ برسولٍ يأتي بقُربان تأكلُه النار؟! فتبيَّن بهذا كَذِبُهم، وعِنادُهم وتناقضُهم، وظهَر أنَّه ليس امتناعُهم مِن اتِّباع مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لعدمِ ظُهورِ هذه المعجِزة(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٨٥-٢٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٧)، ((تفسير =

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاؤُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ المنِيرِ (١٨٤)﴾.

أَيْ: فإنْ كَذَّبَكَ- يا مُحمَّدُ- هؤلاء اليهودُ، فلا يُوهِنك ولا يَحزُنك ذلك، ولك أُسْوَة بمَن قبلَك؛ فأنتَ لستَ بأوَّلِ مَن يُكذَّب، بل كُذِّب عددٌ من الرُّسُل عليهم السَّلام مع أنَّهم أتَوا أقوامَهم بالحُجَج القاطِعة، والمعجِزات الباهِرة السَّاطعة، وبالكُتُب المنزَّلةَ مِن الله تعالى، المشتمِلةِ على المَواعِظ والزَواجِر، المضيئةِ لطريق الحقِّ؛ بذكْرِ الأحكامِ العادِلة، والأخبارِ الصَّادِقة[١].

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- تَذكُّر أنَّ الله تعالى يَكتُب على العبادِ أعمالَهم، على وجهٍ لا يَزولُ ولا يُنسى ولا يتغيَّر؛ ليَقرؤوا ذلك في صحائفِ أعمالِهم يومَ القيامة، وليُجازوا عليه، كما في قوله تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾[٢].

٢- الرِّضا بعِصيان العاصِين، وتصويبُ أعمالِهم يُعدُّ مُشاركةً لهم في ذلك، قال تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ وإنَّما قتَلَهم أسلافُهم، والمتأخِّرون راضون بأفعالِ أولئك المتقدِّمين ومُصوِّبون لهم في كلِّ ما فَعلُوه[٣].

٣- الحذرُ من المعاصي؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ذَلِكَ

= السعدي)) (ص: ١٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٨٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٨٦-٢٨٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٥٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٠٧-٥٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٤٧)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٥٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١٤٣).

بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ فذلك العقابُ حاصِلٌ بسببِ المعاصي، مِن الافتراءِ وقَتْلِ الأنبياء، وغير ذلك(١).

٤- في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ تسليةُ الرسولِ عليه الصَّلاة والسَّلام، ويتفرَّع عليها أنْ يَتسلَّى الإنسان في كلِّ ما أصاب غيرَه(٢)؛ فالرُّسُل أُوذوا بالتكذيب، والإنسانُ يَكادُ يتقطَّع إذا أَخبرَ بشيءٍ صِدْقٍ، ثمَّ قيل له: كذَبتَ، فكيف وهُم مِن عند الله عزَّ وجلَّ مُؤيَّدون بآياتِه(٣)؟!

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- قوله: ﴿وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ هذا قيْدٌ كاشِفٌ، وليس احترازِيًّا؛ فقتْلهم للأنبياءِ لا يمكن أنْ يكونَ بحقٍّ أبدًا، وإنَّما جِيءَ به مبالَغةً في التشنيعِ عليهم؛ فإنَّهم يَقتُلونهم بغيرِ سببِ حقٍّ يَدْعو لذلك(٤).

٢- في قول الله تعالى: ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ عبَّر عَن مُباشَرة العذاب بـ﴿ذُوقُوا﴾؛ لأنَّ الذَّوْقَ مِن أبْلغِ أنواع المباشَرة، وحاسَّتُها مُتميِّزة جدًّا(٥).

٣- في قوله: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أنَّ هؤلاء سوف يَذوقون العذابَ بالألم البدَنيِّ والألم النفْسيِّ؛ ففي ﴿الحَرِيقِ﴾: ألَمٌ بَدنِيٌّ، وفي قوله: ﴿ذُوقُوا﴾: ألَمٌ نفسِيٌّ؛ لأنَّ هذا توبيخٌ وإهانة(٦).

٤- في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيَّان)) (٣/ ٤٥٦)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٠٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥١٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٩٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيَّان)) (٣/ ٤٥٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٩٦).

أفادت باءُ السببيَّةِ في قوله: ﴿بِمَا﴾ ترتيبَ العقابِ على سَبَبِه، والقرآنُ مملوءٌ من ترتيبِ الأحكامِ الكونيَّةِ والشَّرعيَّةِ والثَّوابِ والعقابِ على الأسبابِ بِطُرُقٍ متنوِّعةٍ، فيأتي بباءِ السَّببيَّة تارةً، وباللَّامِ تارةً، وبأنْ تارةً، وبِكَيْ تارةً، ويَذْكُر الوصْفَ المقتضِيَ تارةً، ويذكُرُ صريحَ التَّعليلِ تارةً؛ كقوله: ذلك بأنَّهم فعلوا كذا، وقالوا كذا، ويذكُرُ الجزاءَ تارةً[1].

٥- جاءَ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾.. التعبيرُ بالعبيد؛ إبرازًا لحقيقةِ وضْعِهم- وهم عبيدٌ من العبيد- بالقياس إلى اللهِ تعالى، وهو ما يَزيد في شَناعةِ جُرمهم، وفَظاعةِ سُوءِ أدبِهم مع اللهِ تعالى في قولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾، وفي قتْلهم الأنبياء[2].

٦- أنَّه يَنبغي عند المُخاصمةِ إفحامُ الخَصْم بما يدَّعيه؛ ليكونَ ذلك أبلغَ في دحْضِ حُجَّته، وهذا يُؤخذُ من قوله سبحانه: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾؛ لأنَّه إذا خُوصِم بما يقوله لم يبْقَ له حُجَّة[3].

٧- في قول الله تعالى: ﴿فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أنَّ تسليَةَ الإنسانِ بمَن قارَبه في الزمانِ أشدُّ تسليةً، وأقوى تثبيتًا[4].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ جاءَ التعبير أوَّلًا بقوله: ﴿لَقَدْ سَمِعَ﴾ بصيغة الماضي، ثمَّ قال: ﴿سَنَكْتُبُ﴾، ولَمْ يَقُل: (كُتب أو كتَبْنا)؛ لأنَّ السَّماعَ أوَّلًا

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٤٦١).

(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٥٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٠٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١٤٤).

مُؤكَّد بالقَسَم، ثمَّ قال: ﴿سَنَكْتُبُ﴾ على جِهة الوعيد، والسِّين فيه للتأكيد، بمعنى: لَن يفوتَنا أبدًا إثباتُه وتدوينه، كما لنْ يَفوتَنا قتْلُهم الأنبياء؛ لِكونِه في غايةِ العِظَم والهوْل، وجَعَل قتْلهم الأنبياءِ قرينةً له؛ إيذانًا بأنَّهما في العِظَم أخوانِ، وبأنَّ هذا ليس بأوَّل ما ركِبوه من العظائم، وأنَّهم أُصَلاءُ في الكُفْر، ولهم فيه سوابقُ، وأنَّ مَن قتَل الأنبياءَ لَمْ يُستَبعدْ منه الاجتراءُ على مِثلِ هذا القول(١).

٢- قوله: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ الأمْرُ هنا للتوبيخِ والإهانةِ والإذلال، وإلَّا فإنَّهم سيَذوقون عذابَ الحريقِ، قيل لهم ذلك أم لمْ يُقل؛ فهو حقٌّ(٢).

٣- قوله: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُم﴾ فيه إشارةٌ للعذاب المشاهَد يومئذٍ، وفيه تهويلٌ للعذاب، والباء للسببيَّة؛ للدَّلالةِ على أنَّ هذا العذابَ لعِظَم هوله ممَّا يُتساءَل عن سببه(٣).

- وفيه نِسبةُ ما قدَّموه مِن المعاصي القوليَّة والفعليَّة والاعتقاديَّة إلى الأيدي على سبيلِ التغليب؛ لأنَّ الأيدي تُزاوِل أكثرَ الأعمال؛ فكأنَّ كلَّ عمل واقعٌ بها(٤)، ولِيفيد أنَّ ما عُذِّبوا عليه هو مِن عَمَلِهم حقيقةً لا مجازًا؛ فإنَّ نسبةَ الفِعلِ إلى يدِ الفاعلِ تُفيدُ مِن إلصاقِه به ما لا تُفيده نِسبتُه إلى ضميرِه(٥).

- وفيه جوازُ إطلاقِ البَعضِ على الكلِّ إذا وُجدت قرينةٌ تدلُّ عليه؛ لِقوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾؛ فاليدُ بعضٌ من الإنسان، لكن (القرينة) تدلُّ على أنَّ المرادَ الكلُّ، يعني: (بِمَا قدَّمتُم)(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٤٦-٤٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٢١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٩٣، ٤٩٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٨٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٤٨)، ((تفسير أبي حيَّان)) (٣/ ٤٥٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ٢١٨).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٠٠).

٤- قوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ الجملةُ اعتراضٌ تذييليٌّ، مُقرِّر لمضمونِ ما قَبْلَها، والتعبيرُ عن ذلك بنَفْيِ الظُّلم؛ لِبيانِ كمالِ نزاهتِه تعالى عَن ذلك بتصويرِه بصورةِ ما يَستحيلُ صُدورُه عنه سبحانه من الظُّلْم، كما يُعبَّر عن ترْكِ الإثابةِ على الأعمالِ بإضاعتِها[١]، وحتَّى يَطمئنَّ الإنسانُ أنَّه لنْ يُجازَى إلَّا بعملِه: إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشر[٢].

- والتعبيرُ بصيغةِ المبالَغة ﴿ظَلَّام﴾؛ لِتأكيدِ هذا المعنى بإبرازِ ما ذُكِر من التعذيب بغيرِ ذنبٍ في صُورة المبالَغةِ في الظُّلم. وقيلَ: هي لِرعايةِ جَمعيَّةِ العبيدِ من قولِهم: فلانٌ ظالمٌ لعبدِهِ، وظلَّام لعبيدِه، على أنَّها للمبالغة كمًّا لا كَيفًا؛ فجاء لفْظ (ظلَّام) بصيغةِ المبالَغةِ المقتضِيةِ للتكثير؛ لأنَّه لَمَّا قُوبِل بالعبيد- وهم كثيرون- ناسَبَ أنْ يُقابِل الكثيرَ بالكثير؛ ولأنَّه إذا نُفِي الظُّلْمُ الكثيرُ يُنفَى القليل؛ لأنَّ الذي يَظلمُ إنَّما يَظْلمُ لانتفاعِه بالظُّلم، فإذا ترَك كثيرَه مع زيادةِ نفْعِه فيمَن يجوزُ عليه النفْعُ والضرُّ- كان لقليلِه مع قلَّةِ نفْعِه أتْرَكَ[٣].

٥- قوله: ﴿فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ تعليلٌ لجواب الشرط، أَيْ: فتَسلَّ؛ فقد كُذِّب رسلٌ من قبلك[٤].

- وتنكير ﴿رُسُل﴾؛ لكثرتِهم وشَياعِهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيَّان)) (٣/ ٤٥٦-٤٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٢٢)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٢٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيَّان)) (٣/ ٤٥٩).

الآيتان (١٨٥ - ١٨٦)

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًاۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ ﴾.

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبر تَعالى أنَّ كلَّ نفسٍ لا بُدَّ أنْ يكونَ مصيرُها الموت، وأنَّه لا يُجزَى أحدٌ كامِلَ جزائِه على ما عمِلَ مِن خيرٍ أو شرٍّ إلَّا يومَ القيامة؛ فمَن جُنِّب النَّارَ، وأُدخِلَ الجنَّةَ فقد أفلَحَ، وما الحياةُ الدنيا إلَّا متعةٌ زائلةٌ تَغرُّ صاحبَها وتَخدعُه.

ثمَّ يُخبر اللهُ المؤمنين أنَّهم سيُخْتَبرون في أموالهم، وفي أنفسِهم، وأنَّهم سيَسمعون أذًى كثيرًا مِن أعدائِهم مِن أهلِ الكتابِ والمشركين، كالطعنِ في دينكِم، والاستهزاءِ بشريعتكم فإنْ يَصبروا على ما يُصيبهم مِن ذلك ويتَّقوا، فإنَّ ذلك من الأمورِ التي يُعزَم عليها، وتَحتاج إلى هِمَّةٍ عاليةٍ لِتحقيقِها.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (١٨٥)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى أولئك المفترِين عليه من اليهود المكذِّبين برسولِه، الذين وصَف صِفتَهم، وأخْبَرَ عَن جراءتِهم على ربِّهم، ذَكر أنَّ مصيرَهم ومصيرَ غيرِهم

إليه؛ لأنَّه قد حتَّم الموتَ على جميعِهم، وفي هذا تَسليةٌ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ(١)، قال تعالى:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾.

أَيْ: كلُّ نفسٍ لا بُدَّ أنْ يُدركَها الموتُ، فتَنتقلَ بذلك مِن عالَم الفناءِ إلى عالمِ البَقاء(٢).

قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ * كُلُّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٨٨).

قال ابنُ عاشور: (هذه الآيَةُ مرتبطةٌ بأصل الغرضِ المَسُوق له الكلامُ، وهو تسْليَةُ المؤمنين على ما أصابهم يومَ أُحُدٍ، وتَفنيدُ المنافقين في مَزاعِمِهم أنَّ النَّاسَ لو استشاروهم في القِتال لأشاروا بما فيه سلامتُهم فلا يَهْلِكوا، فبَعد أنْ بَيَّن لهم ما يَدْفعُ توَهمَهم أنَّ الانهزامَ كان خِذلانًا مِن اللَّه وتعَجُّبَهم منه كيف يَلحقُ قومًا خرجُوا لنصرِ الدِّينِ، وأنْ لا سَبَبَ للهزيمة بقوله: ﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ [آل عمرَان: ١٥٥] ثُمَّ بَيَّن لهم أنَّ في تلك الرَّزِيَّةِ فَوائِدَ بقول اللَّه تعالى: ﴿لِكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ [آل عمرَان: ١٥٣] وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمرَان: ١٦٦]، ثمَّ أمرهم بالتَّسليم للَّه في كلِّ حالٍ، فقال: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمرَان: ١٦٦] وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ [آل عمرَان: ١٥٦] الآيةَ. وبَيَّن لهم أنَّ قَتْلَى المؤمنين الَّذين حَزِنوا لهم إنَّما هم أحياءٌ، وأنَّ المؤمنين الَّذين لم يَلحَقُوا بهم لا يُضَيِّعُ اللَّه أجرَهم ولا فَضْل ثَباتِهم، وبيَّن لهم أنَّ سلامَةَ الكفَّارِ لا ينبغي أنْ تُحزِن المؤمنين ولا أنْ تَسُرَّ الكافرين، وأبطَلَ في خِلالِ ذلك مَقالَ المنافقين بقوله: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمرَان: ١٥٤] وبِقَوْله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا﴾ إلى قوله: ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمرَان: ١٦٨] خَتَم ذلك كلَّه بما هو جامعٌ للغرضَيْن في قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لأنَّ المُصيبَةَ والحزنَ إنَّما نشَآ على موت مَن استُشْهد مِن خِيرَةِ المؤمنين، يعني أنَّ الموتَ لمَّا كان غاية كلِّ حيٍّ فلو لم يموتوا اليوم لماتوا بعد ذلك، فلا تأسَفوا على مَوت قَتْلاكم في سبيلِ اللَّه، ولا يفتِنْكم المنافقون بذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥١١).

نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤-٣٥].

﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

أَيْ: لا يُؤدَّى إليكم كامِلُ الجزاءِ على أعمالِكم- خيرِها وشرِّها- إلَّا في يومِ القيامة(١).

﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾.

أَيْ: فمَن نُحِّي عن النارِ وجُنِّبها، وأُدخِلَ الجنَّة، فقد نجَا وظَفِرَ بعظيمِ كرامةِ الله تعالى(٢).

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾.

أَيْ: ليستْ هذه الحياةُ الدُّنيا بما فيها مِن لذَّاتٍ وشهواتٍ إلَّا مُجرَّد مُتْعَةٍ زائلةٍ تخدع صاحبَها؛ فلا يَنبغي لعاقلٍ أنْ يَركنَ إليها(٣).

قال تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [القصص: ٦٠].

عن أبي هُرَيرَةَ رضِي اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((إنَّ مَوْضِعَ سَوْطٍ في الجنةِ خيرٌ من الدُّنيا وما فيها، اقرؤوا إنْ شِئْتُم ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾))(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥١١-٥١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٩-١٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٨٨-٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٨-١٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥١٢-٥١٣).

(٤) رواه الترمذيُّ (٣٠١٣) واللفظ له، والدارمي (٢٨٢٠)، والنسائي في ((السُّنن الكبرى)) (١١٠٨٥)، وابن حبَّان (٧٤١٧).

=

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٨٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا سلَّى الرسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾، زادَ في تسليَتِه بهذه الآية؛ فبيَّنَ أنَّ الكفَّار بعدَ أنْ آذَوُا الرَّسولَ والمسلمين يومَ أُحُد، فسيُؤذونهم أيضًا في المستقبَل بكلِّ طريقٍ يُمكِنهم: مِن الإيذاءِ بالنَّفس والإيذاءِ بالمالِ، والغرضُ مِن هذا الإعلامِ أنْ يُوطِّنوا أنفُسَهم على الصَّبْر وترْك الجزَع[1]؛ لذا قال تعالى:

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾.

أَيْ: لَتُختَبَرُنَّ في أموالِكم بوقوعِ المصائِب فيها: كتَلَفِها، أو حُصولِ النقْص مِنْها، ولَتُمتحَنُنَّ أيضًا في أنفُسِكم: كأمرِكم بالجهادِ في سبيلِ الله، وما يَحصُل فيه مِن خوْفٍ وجِراحٍ وأسْرٍ وقتْلٍ، أو بإصابتِكم بمرَضٍ في أبدانِكم، أو موْتِ أحدِ أبنائِكم[2].

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة: ١٥٥].

= قال الترمذيُّ: حسنٌ صحيح، وحسَّنه الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٠١٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٥٣).

قال ابن عاشور عن هذه الآية: (استئنافٌ؛ لإيقاظ المؤمنين إلى ما يَعترض أهل الحق وأنصار الرسل من البلوى، وتنبيهٌ لهم على أنَّهم إنْ كانوا مِمَّن تُوهِنهم الهزيمةُ، فليسوا أحرياءَ بنصْر الحقِّ) ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥١٦-٥١٧).

﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾.

أَيْ: إنَّ أعداءَكم مِن المشركين وأهْل الكتاب لا بدَّ أنْ يؤذوكم أذًى كثيرًا بألْسنتِهم، ومن ذلك تَكَرُّرُ طعْنِهم في دِينِكم، والنُّطْق بمعتقداتِهم الباطِلة(١).

﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.

أَيْ: إذا تسلَّحتُم- أيُّها المؤمنون- بسِلاح الصَّبرِ على ما يُصيبكم مِن بلاءٍ في أموالِكم وأنفسِكم، وعلى ما تَسمعونه مِن أذًى في دِينِكم مِن المشركين وأهْل الكِتاب، واستعملتُم التَّقوى بفِعْلِ أوامرِ اللهِ تعالى واجتنابِ نواهِيه- فإنَّ ذلك الصَّبرَ والتقوى مِن الأمورِ التي تَحتاج إلى هِمَّة عالية، ويَنبغي العزمُ والتصميمُ عليها(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥١٧-٥١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥١٨-٥٢١).

والجمهورُ على أنَّ الآيةَ مُحْكَمة. يُنظر: ((نواسخ القرآن)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٤).

وقال ابنُ تيميَّة: (إنَّ الأمر بالصَّبر على أذاهم وبتقوى اللهِ لا يَمنعُ قتالَهم عندَ المُكْنة، وإقامة حدِّ الله عليهم عند القُدْرة؛ فإنَّه لا خِلافَ بين المسلمين أنَّا إذا سمِعنا مُشْرِكًا أو كتابيًّا يُؤذي اللهَ ورسولَه، فَلا عَهْدَ بيننا وبينه، وجَبَ علينا أنْ نُقاتِلَه ونجاهِدَه إذا أمكن ذلك... وذلك: أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم لَمَّا قَدِم المدينةَ كان بها يهودٌ كثير ومشركون، وكان أهْلُ الأرض إذْ ذاك صِنفَين: مُشرِكًا أو صاحِبَ كتاب، فهادَن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم مَن بها من اليهود وغيرِهم، وأمرَهم الله إذْ ذاك بالعفْو والصفْح، كما في قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾؛ فأمرَه الله بالعفو والصفح عنهم إلى أنْ يُظهِر الله دينَه، ويُعِزَّ جُنْدَه، فكان أوَّلَ العزِّ وقعَةُ بدْرٍ؛ فإنَّها أذلَّت رِقابَ أكثرِ الكفَّار الذين بالمدينة، وأرهبَت سائرَ الكفَّار). ((الصارم المسلول)) (ص:٢١٦-٢١٧).

قال الزركشيُّ: (وبهذا التحقيقِ تَبيَّن ضعفُ ما لهَجَ به كثيرٌ من المفسِّرين في الآياتِ الآمِرَة بالتخفيفِ أنَّها منسوخةٌ بآية السيف، وليستْ كذلك، بل هي مِن المُنسأ، بمعنى: أنَّ كلَّ أمرٍ ورَدَ =

قال تعالى: ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

عنْ أسامةَ بن زَيْدٍ رضِي اللهُ عنهما: ((أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ركِبَ على حِمارٍ، على قَطِيفةٍ فَدَكِيَّةٍ(١)، وأَرْدَفَ أسامةَ بنَ زيدٍ وراءَه، يعودُ سعدَ ابنَ عبادةَ في بني الحارثِ ابنِ الخَزْرَجِ، قبْلَ وقعةِ بَدْر، قال: حتَّى مرَّ بمجلسٍ فيه عبدُ اللهِ بنُ أُبيٍّ ابنُ سَلولَ، وذلك قبلَ أن يُسْلِمَ عبدُ اللهِ بنُ أُبيٍّ، فإذا في المجلسِ أخلاطٌ مِن المسلمين والمشركين عَبَدةِ الأوثانِ، واليهودِ والمسلمين، وفي المجلسِ عبدُ اللهِ بنُ رَواحَةَ، فلَمَّا غَشِيَتِ المجلسَ عَجاجَةُ الدَّابَّةِ(٢)، خمَّرَ(٣) عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ أنفَه بردائِه، ثمَّ قال: لا تُغَبِّروا علينا، فسَلَّم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عليهم ثمَّ وقَفَ، فنزَلَ فدَعاهم إلى اللهِ، وقرَأَ عليهم القرآنَ، فقال عبدُ اللهِ بنِ أبيٍّ ابنُ سَلولَ: أيُّها المرءُ، إنَّه لا أحسنَ ممَّا تقولُ، إنْ كان حقًّا، فلا تُؤْذِنا به في مجالسِنَا، ارجِعْ إلى رَحْلِك، فمَن جاءَكَ فاقصُصْ عليه. فقال عبدُ اللهِ ابنُ رَواحَةَ: بلى يا رسولَ اللهِ، فاغْشَنا به في مجالسِنَا؛ فإنَّا نُحِبُّ ذلك. فاستَبَّ المسلمون والمشركون واليهودُ حتَّى كادوا يَتثاورون(٤)، فلَمْ يَزَلِ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُخفِّضُهم حتَّى سَكَنوا، ثمَّ ركِبَ النبيُّ صلَّى اللهُ

= يجب امتثالُه في وقتٍ ما لعِلَّة تُوجِبُ ذلك الحُكم، ثم يَنتقل بانتقالِ تلك العِلَّة إلى حُكمٍ آخَر، وليس بنسخٍ إنَّما النسخُ الإزالةُ حتى لا يجوز امتثالُه أبدًا) ((البرهان في علوم القرآن)) (٢/ ٤٢).

(١) قَطِيفة فَدَكيَّة: القطيفة دِثارٌ مُخمل، أو كِساءٌ غَلِيظ، وجمعها: قطائف. وفدكيَّة نِسبة إلى فَدَك، وهي بلدةٌ أو قرية بالحِجاز. يُنظر: ((معجم البلدان)) لياقوت (٤/ ٢٣٨)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٢/ ١٥٧)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٢٣١).

(٢) أيْ: غُبارُها الذي تثيره. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٢٣٢).

(٣) خَمَّرَ: أَي: غَطَّى. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٢٣٢).

(٤) يَتَثَاوَرُونَ: أَي: يَتواثَبون، أي: قاموا بسرعة وانزعاج، وقاربوا أن يثِبَ بعضُهم على بعض فيقتَتِلوا. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٢٣٢).

عليه وسلَّمَ دابَّتَه، فسارَ حتَّى دخَلَ على سَعْدِ بنِ عُبادةَ، فقال له النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: يا سعدُ، أَلَمْ تَسْمَعْ ما قال أبو حُبَابٍ - يُريدُ عبدَ اللهِ بنَ أُبيٍّ - قال: كذا وكذا؟! قال سعدُ بنُ عُبادةَ: يا رسولَ اللهِ، اعفُ عنه، واصفَحْ عنه، فوالذي أنزَلَ عليك الكتابَ، لقد جاءَ اللهُ بالحقِّ الذي أنزَلَ عليك، ولقدِ اصطَلَحَ أهلُ هذه البُحَيْرَةِ[1] على أنْ يُتَوِّجُوه فيُعَصِّبُوه بالعِصابةِ[2]، فلمَّا أَبَى اللهُ ذلك بالحقِّ الذي أعْطاك اللهُ شرِقَ[3] بذلك؛ فَذلِك فَعَلَ به ما رأيتَ، فعَفَا عنه رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وكان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وأصحابُه يَعْفُون عن المشركينِ وأهلِ الكتابِ كما أمرَهم اللهُ، ويَصْبِرون على الأذى، قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ الآيةُ، وقال اللهُ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ إلى آخِرِ الآيةِ، وكان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَتَأَوَّلُ[4] العفْوَ ما أمَرَه اللهُ به، حتَّى أَذِنَ اللهُ فيهم، فلمَّا غزَا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بدْرًا، فقَتَلَ اللهُ به صَناديدَ[5] كفَّارِ قُرَيشٍ، قال ابنُ أُبيٍّ ابنُ سَلولَ وَمن

---

(١) البُحَيْرة- بضمِّ الباء مصغَّرة، ويروى بفَتْحها مُكبَّرة-: أصلُها القريةُ، والمقصودُ بها هنا: مدينةُ النبي صلَّى الله عليه وسلَّم. يُنظر: ((إكمال المعلم)) للقاضي عياض (٦/ ١٧٣)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٢/ ١٥٨).

(٢) العصابة: العمامة، ويُعصِّبوه بالعصابة، أي: يُرئِّسوه ويُسوِّدوه، وكانوا يُسمُّون السيِّد المطاع مُعصَّبا؛ لأنَّه يُعصَّب بالتَّاج، أو يعصَّب به أمور الناس، ولما يعصب برأسه من الأمور، أو لأنَّهم يُعصبون رؤوسهم بعصابةٍ لا تنبغي لغيرهم فيمتازون بها. يُنظر: ((المعلم بفوائد مسلم)) للمازري (٣/ ٤٠)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٢٣٢).

(٣) شَرِقَ: أي: غُصَّ، وهو كناية عن الحسَد، كأنَّه شيء لم يقدِرْ على إساغته وابتلاعه، فغُصَّ به. يقال: غص بالطعام وشرق بالماء، إذا اعترض شيءٌ من ذلك في الحَلْق فمنعه الإساغة. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٤٦٦)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٢٣٢).

(٤) يتأوَّل العَفوَ: التأويل تفسيرُ ما يؤولُ إليه الشَّيء، ويَعني هنا: يأخُذ العفوَ مِن قولِ اللهِ تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ [المائدة: ١٣]، ويمتثِلُ به. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (٢٢/ ٢١٧)، ((نخب الأفكار)) للعيني (١٤/ ٢٦٠)، ((شرح القسطلاني)) (٩/ ١١٩).

(٥) صَنَادِيد: جمع صنديد، وَهُوَ السَّيِّد الكَبِير فِي القَوم. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (١٨/ ١٥٧).

مَعَه مِن المشركين وعَبدةِ الأوثانِ: هذا أمرٌ قد تُوجِّهَ، فبايَعوا الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على الإسلامِ فأَسْلَمُوا))[1].

الفوائدُ التَّربويَّة:

١- قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ المقصودُ من هذه الآيةِ: تأكيدُ تسليةِ الرَّسولِ عليه الصَّلاة والسَّلام، والمبالغةُ في إزالةِ الحزْنِ مِن قلْبه، وذلك من وَجهينِ: أحدهما: أنَّ عاقِبةَ الكلِّ الموتُ، وهذه الغمومُ والأحزانُ تَذهبُ وتزولُ، ولا يَبقى شيءٌ منها، والحزنُ متى كان كذلك لمْ يَلتفتِ العاقلُ إليه. والثاني: أنَّ بعدَ هذه الدارِ دارًا يَتميَّز فيها المحسِنُ عن المسيءِ، ويَتوفَّر على عملِ كلِّ واحدٍ ما يليقُ به من الجزاء، وكلُّ واحدٍ من هذينِ الوجهين في غايةِ القوَّةِ في إزالةِ الحُزْنِ والغَمِّ عن قلوبِ العُقلاء[2].

٢- في قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ حثُّ الإنسانِ على المبادرةِ للعملِ الصَّالح؛ لأنَّه إذا كان ميِّتًا ولا مَحالَةَ، وهو لا يَدري متى يموت، فعليه أنْ يُبادرَ، ولا سِيَّما في قضاءِ الواجباتِ، والتخلِّي عن المظالم والسيِّئات[3].

٣- قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ فيه التزْهيدُ في الدُّنيا بفنائِها وعدمِ بَقائِها، وأنَّها متاعُ الغُرور، تَفتِنُ بزُخْرُفِها، وتَخدَع بغُرورِها، وتَغرُّ بمَحاسِنها، ثمَّ هي مُنتقِلةٌ، ومُنتقَلٌ عنها إلى دارِ القرارِ، التي تُوفَّى فيها النُّفوسُ ما عمِلَت في هذه الدَّارِ، مِن خيرٍ وشرٍّ[4].

٤- الدُّنيا متاعُ الغُرور، ويَظْهرُ فسادُها لمن اشْتَراها مِن وجوه: أوَّلُها: أنَّه لو

(١) رواه البخاري (٤٥٦٦) واللفظ له، ومسلم (١٧٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٩).

حصَل للإنسانِ جَميعُ مُراداتِه، لَكان غمُّه وهمُّه أزيدَ مِن سُرورِه؛ لِأجْل قِصَرِ وقْتِه، وقلَّة الوثوقِ به، وعدَمِ عِلْمِه بأنَّه: هَلْ يَنتَفِعُ به أمْ لا؟ وثانيها: أنَّ الإنسانَ كُلَّما كان وِجدانُه بمُرادات الدنيا أكثرَ، كان حرصُه في طلَبِها أكثرَ، وكُلَّما كان الحِرْصُ أكثرَ، كان تألُّم القلْبِ بسببِ ذلك الحِرْصِ أشدَّ؛ فإنَّ الإنسانَ يَتوهَّم أنَّه إذا فازَ بمَقصودِه سَكنَتْ نفسُه، وليس كذلك، بلْ يَزدادُ طلَبُه وحِرْصُه ورغبَتُه. وثالثها: أنَّ الإنسانَ بِقدْرِ ما يجدُ من الدُّنيا يَبقى محرومًا عَن الآخِرةِ التي هي أعظَمُ السَّعاداتِ والخيرات، ومتَى عَرَفْتَ هذه الوجوهَ الثلاثةَ عَلِمْتَ أنَّ الدنيا متاعُ الغُرور، كما قال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[1].

٥- في قوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ أنَّه يَنبغي للإنسانِ أنْ يَتفطَّن لِمَا فيه مِن خير وشرٍّ؛ لِيعلمَ أنَّه ابتلاءٌ مِن الله؛ ففي الخيرِ يُبتلى؛ لِيشكر، وفي ضِدِّه يُبتلى؛ لِيصبر[2].

٦- التوجيهُ القرآني في قوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ...﴾ يَبقى رصيدًا للأمَّةِ المسلمة يَجلو لأبصارِها طبيعةَ هذه الدَّعوة، وطبيعةَ طريقِها، وطبيعةَ أعدائِها الرَّاصدين لها في الطَّريق، ويَبثُّ في قلبِها الطُّمأنينةَ لكلِّ ما تَلْقاه مِن وعدِ الله ذاك؛ فتعرِف حينَ تَتناوشُها الذِّئابُ بالأذى، وحين تَعْوِي حولَها بالدِّعاية، وحين يُصيبها الابتلاءُ والفِتنةُ أنَّها سائرةٌ في الطَّريق، وأنَّها ترَى معالمَ الطَّريق! ومِن ثَمَّ تَستبشرُ بالابتلاءِ والأذى والفِتنةِ، والادِّعاءِ الباطلِ عليها، وإسماعِها ما يُكرَه وما يُؤذِي؛ لأنَّها تَستيقنُ منه أنَّها ماضيةٌ في الطريقِ التي وصفَها اللهُ لها مِن قبلُ، وتَستيقنُ أنَّ الصَّبرَ والتقوى هما زادُ الطريق[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٢٢).

(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٥٤٠).

٧- قوله تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ في إخْبارِه لعباده المؤمنين بذلك عدَّةُ فوائد: منها: أنَّ حِكمتَه تعالى تقتضِي حضولَ ذلك؛ لِيتميَّزَ المؤمِنُ الصادِق مِن غيره، ومنها: أنَّه تعالى يُقدِّر عليهم هذه الأمور؛ لِما يُريده بهم من الخير؛ لِيُعليَ دَرجاتِهم، ويُكفِّرَ مِن سيِّئاتهم، وليزدادَ بذلك إيمانُهم، ويُتِمَّ به إيقانَهم؛ فإنَّه إذا أخبرَهم بذلك، ووقَع كما أخبر، ﴿قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾، ومنها: أنَّه أخبرَهم بذلك؛ لِتتوطَّنَ نفوسُهم على وقوعِ ذلك، والصَّبرِ عليه إذا وقَعَ؛ لأنَّهم قد استعدُّوا لوقوعِه؛ فيهونُ عليهم حِمْلُه، وتخِفُّ عليهم مُؤنتُه، ويَلجؤون إلى الصَّبرِ والتقوى[1].

٨- التنبيهُ على فضيلةِ العزْمِ في الأمورِ؛ لِقوله: ﴿فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾، وكلَّما كان الإنسانُ عازِمًا في أمورِه، كان ذلك أنجحَ له وأحسَنَ[2].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ يدلُّ على أنَّ المقتولَ يُسمَّى بالميِّت[3].

٢- في قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بَيَّن تعالى أنَّ تمامَ الأجْرِ والثواب لا يصِلُ إلى المكلَّف إلَّا يومَ القيامة؛ لأنَّ كلَّ مَنفَعةٍ تصلُ إلى المكلَّف في الدُّنيا فهي مُكدَّرةٌ بالغُمومِ والهُموم، وبخوفِ الانقطاعِ والزَّوال، والأجرُ التامُّ والثواب الكامِل إنَّما يصلُ إلى المكلَّفِ يومَ القيامة؛ فهناك يَحصُلُ السُّرورُ بلا غمٍّ، والأمْنُ بلا خوْفٍ، واللذَّةُ بلا ألَمٍ، والسَّعادة بلا خَوفِ الانقطاعِ،

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٢٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٥٢).

وكذا القولُ في جانبِ العِقاب؛ فإنَّه لا يَحصُل في الدُّنيا ألَمٌ خالِصٌ عن شَوائبِ اللذَّة، بل يمتزِجُ به راحاتٌ وتخفيفات، وإنَّما الألمُ التامُّ الخالِصُ الباقي هو الذي يكون يومَ القيامةِ، نعوذُ بالله مِنْه[١].

٣- في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ إشارةٌ لطيفةٌ إلى نعيمِ البَرْزَخِ وعذابِه، وأنَّ العامِلين يُجزَون فيه بعضَ الجزاء ممَّا عمِلوه، ويُقدَّم لهم أنموذجٌ ممَّا أسلَفوه، يُفهم هذا مِن قوله: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أَيْ: تَوفِيَة الأعمالِ التامَّة، إنَّما يكونُ يومَ القيامَة، وأمَّا ما دون ذلك فيكونُ في البَرْزَخ، بل قد يكونُ قبل ذلك في الدُّنيا، كقوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾[٢] [السجدة: ٢١].

٤- إنَّما جمَعَ بين ﴿زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ﴾ و﴿أُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾؛ مع أنَّ في الثاني غُنْيةً عن الأوَّل؛ قيل: ليُعلِّق الفوزَ- وهو نيلُ الحظِّ مِن الخيرِ، والنجاةُ من الشرِّ- على التنحيةِ من النارِ ودُخولِ الجنة[٣]. وقيل: للدَّلالةِ على أنَّ دُخولَ الجنَّةِ يَشتملُ على نِعمتَينِ عظيمتينِ: النَّجاةِ مِن النار، ونعيمِ الجنَّة[٤].

٥- لفظ ﴿زُحْزِحَ﴾ بذاتِه يُصوِّر معناه، ويَرسِم هيئتَه، ويُلقي ظلَّه! وكأنَّما للنَّار جاذبيَّةٌ تشدُّ إليها مَن يَقترب منها، ويَدخُل في مجالها! فهو في حاجةٍ إلى مَن يُزحزِحه قليلًا قليلًا؛ لِيُخلِّصَه مِن جاذبيَّتها المنهومَة! فمَن أَمْكَن أنْ يُزحزَحَ عن مجالِها، ويُستنقذَ مِنها، ويدخلَ الجنَّةَ- فقد فاز؛ صورةٌ قويَّة، بل مَشهدٌ حيٌّ؛ فيه حركةٌ وشدٌّ وجذْبٌ[٥]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٦٠- ٤٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٨٨).

(٥) يُنظر: ((في ظِلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٥٣٩).

٦- قال تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ... أَذًى﴾ ولم يقُلْ ضررًا؛ لأنَّ هذا الذي يَسمُعه المؤمنون يُؤذيهم، ولكِن لا يَضرُّهم[1].

٧- الصَّبرُ عبارةٌ عن احتمالِ المكروه، والتقوى عبارةٌ عن الاحترازِ عمَّا لا ينبغي، وفِعلِ ما يَنبغي فِعلُه؛ فقَدَّم ذِكرَ الصَّبر ثمَّ ذَكَر عَقِبَه التقوى في قولِ الله تبارَك وتعالَى: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾؛ لأنَّ الإنسانَ إنَّما يُقدِمُ على الصَّبر؛ لأنَّه يُريدُ الاتِّقاءَ عمَّا لا يَنبغي. وفيه وجهٌ آخر: وهو أنَّ مُقابَلةَ الإساءةِ بالإساءةِ تُفضِي إلى ازديادِ الإساءة، فأَمرَ بالصَّبْر؛ تقليلًا لمضارِّ الدُّنيا، وأمَر بالتقوى؛ تقليلًا لمضارِّ الآخِرة، فكانتِ الآيةُ على هذا التأويلِ جامعةً لآداب الدُّنيا والآخِرة[2].

بَلاغَةُ الآيات:

١- قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ خبرٌ فيه وعْدٌ للمُصدِّق، ووعيدٌ للمُكذِّب[3].

- وقوله: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ فيه: تشبيهٌ بَليغٌ؛ فقد شبَّه الدنيا بالمتاعِ الذي يُدلِّس به بائعُه على طالِبه؛ حتَّى يَنخدعَ ويَشتريَه، وخرَجَ هذا التَّشبيهُ مَخرجَ الإنكارِ على مَن جَعَل دَيْدَنَه الاغترارَ بالدُّنيا، وهي في الواقعِ لا نَفْعَ فيها، ولا طائِل تحتَها[4].

- وفيه: تأكيدُ الخبرِ باسميَّة الجُملة، والقصْر بـ(مَا) و(إلَّا)[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٢٣).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٢٥)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٥٩٦).

(٥) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٥٩٦).

٢- قوله: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ أَذًى كَثِيرًا﴾ أكَّد الفِعلين (لتبلونَّ- ولتسمعنَّ) بلامِ القَسم، وبنونِ التوكيدِ الشَّديدة؛ لإفادةِ تحقيقِ الابتلاءِ؛ إذْ نونُ التوكيدِ الشديدةُ أقْوَى في الدَّلالةِ على التوكيدِ مِن الخفيفةِ[1].

- وفيه: تقديمُ الأموالِ؛ لِكثرة وقوعِ الهلَكةِ فيها[2].

- وقوله: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، أي: من قبلُ إيتائِكم القرآنَ، وهم اليهودُ والنَّصارى؛ عبَّر عنهم بذلِك للإشعارِ بمدار الشِّقاقِ، والإيذانِ بأنَّ بعضَ ما يَسمَعونه منهم مُستنِدٌ على زعْمِهم إلى الكتابِ، والتصريحُ بالقَبْليَّة في قوله: ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ﴾؛ لِتأكيدِ الإشعارِ وتقويَةِ المدارِ؛ فإنَّ قِدَمَ نُزولِ كتابِهم ممَّا يُؤيِّد تمسُّكَهم به[3].

٣- قوله: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ﴾ اسمُ الإشارةِ ﴿ذَلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الصَّبر والتَّقوى، وما فيه مِن معنى البُعد؛ لِلإيذانِ بعُلُوِّ درجتِهما، وبُعدِ مَنزلَتِهما[4].

وتوحيدُ حَرْفِ الخِطاب؛ إمَّا باعتبارِ كلِّ واحدٍ من المخاطَبين، وإمَّا لأنَّ المرادَ بالخِطاب مُجرَّدُ التنبيهِ مِن غيرِ مُلاحَظةِ خُصوصِيَّةِ أحوالِ المخاطَبين[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٨٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٢٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٢٣- ١٢٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٢٤).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيتان (١٨٧ - ١٨٨)

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾.

غَريبُ الكَلمات:

﴿بِمَفَازَةٍ﴾: أَيْ: بمَنجاةٍ، أو بمَوضِعِ الفوْز، ومِنْه يُقال: فازَ فُلانٌ، أَيْ: نجا، والفوز: الظَّفَرُ بالخيرِ مع حُصولِ السَّلامة، وأصلُه: النَّجاة[١].

مُشكِلُ الإعراب:

قوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾

قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾: وكذلك قوله: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ﴾: قُرِئ بتاءِ الخِطاب فيهما، وبياءِ الغَيبةِ فيهما، وبياءِ الغَيبةِ في الأوَّلِ وتاءِ الخِطابِ في الثَّاني، ولكلِّ قِراءةٍ توجيهُها الإعرابيُّ:

فعَلى قِراءة ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ و﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ﴾ بالتاء؛ فالفِعلانِ مضافانِ إلى المخاطَب، وهو النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وهو الفاعِلُ. و﴿الَّذِينَ يَفْرَحُونَ﴾ مفعولٌ أوَّلُ لـ﴿تَحْسَبَنَّ﴾، وحُذِف المفعولُ الثَّاني؛ لدَلالةِ ما بعدَه عليه- وهو ﴿بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾، الذي هو المفعولُ الثاني لـ﴿تَحْسَبَنَّهُمْ﴾، وقيل: إنَّ ﴿بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾ هو المفعولُ الثاني لـ﴿تَحْسَبَنَّ﴾ الأوَّلِ على تَقديرِ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٧)، ((مقاييس اللُّغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٧، ٦٦١)، ((التِّبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٤).

التَّقديمِ، فيكونُ المفعولُ الثاني لـ(تَحْسَب) الثاني محذوفًا؛ لدَلالةِ الأوَّلِ عليه تقديرُه: لا تَحسبَنَّ- يا محمَّدُ- الذين يَفرحون بما أَتَوْا بمفازةٍ من العذاب، فلا تَحسبنَّهم بمفازةٍ من العذابِ، ثم حُذِف الثاني. و﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ﴾: تأكيدٌ لـ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ بالتاءِ أيضًا، أو بَدلٌ جاءَ مشوبًا بمعنى التأكيدِ؛ لاتِّفاقِ الفاعلين والمفعولين، والفاءُ صِلةٌ لا تمنَعُ من البَدلِ.

وعلى قِراءة (لَا يَحْسَبَنَّ) و(فَلَا يَحْسَبَنَّهُمْ) بالياء؛ فـ﴿الَّذِينَ﴾ فاعلٌ، ومَفْعولَا (لَا يَحْسَبَن) محذوفانِ؛ اكتفاءً بمفعولي (فَلَا يَحْسَبَنَّهُمْ)؛ لأنَّ الفاعلَ فيهما واحدٌ، فالفِعلُ الثاني تكريرٌ للأوَّل؛ (فَلَا يَحْسَبَنَّهُمْ): تأكيدٌ لـ(لَا يَحْسَبَن)، أو بدلٌ جاءَ مشوبًا بمعنى التأكيد، ولَمَّا تعدَّى (فَلَا يَحْسَبَنَّهُمْ) إلى مَفعولَينِ استُغني بذلك عن تَعدِّي (لَا يَحْسَبَن)؛ لأنَّ الثاني بدلٌ منه، فاستُغني بتعدِّيه عن تَعدِّي الأوَّل، والتقدير: لا يَحسبَنَّ الفارِحونَ أنفسَهم فائزين؛ فلا يَحسبنَّهم فائِزين.

وأمَّا على قِراءة الأوَّل (لَا يَحْسَبَنَّ) بالياء، والثاني (فَلَا تَحْسَبَنَّ) بالتاء؛ فالإعرابُ كما مرَّ في كلِّ فِعلٍ بحسَبِه، إلَّا أنَّه لا يَحْسُن في الثاني التأكيدُ أو البَدلُ؛ لاختلافِ فاعليهما، ولكن يكونُ مفعولَا الأوَّل حُذِفَا؛ لدلالةِ مفعولَيِ الثاني عليهما، وفي الآيةِ توجيهاتٌ أخرى(١).

المَعنى الإجماليُّ:

يُذكِّر الله نبيَّه محمَّدًا صلَّى عليه وسلَّم؛ حين أخذ سبحانَه عهْدًا مُؤكَّدًا مِن أهْل الكتاب: بأنْ يقوموا بتبيين ما في كُتُبهم للنَّاس، ولا يُخفون شيئًا ممَّا فيها؛ فنَقَضوا ذلك العهد، ولم يعملوا به، ومن ذلك أنْ كتموا صِفَة مُحمَّد صلَّى اللهُ

(١) يُنظر في إعرابِ هذه الآية وتوجيهها: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٨٢- ١٨٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣١٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٥٢٥- ٥٣٠).

عليه وسلَّمَ الَّتِي في كتُبهم، مُستبدِلين مُقابِلَ ذلك الكتمانِ ما حصلوا عليه من مَكاسِبَ دُنيويَّة حقيرة؛ فبِئس ما صَنَعوا.

ويُخاطِب اللهُ نبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أنْ لا يَظُنَّ الذين يَفرحون بما فَعَلوه من أعمالٍ، ويُحبُّون أنْ يُثنِي عليهم الناسُ بما لم يَعملوه- أنَّهم سيَنجُون من عذابِ الله، بل لهم عذابٌ أليمٌ!

تَفسيرُ الآيتين:

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ (١٨٧)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا حكَى اللهُ تعالى عنِ اليَهودِ شُبَهًا طاعِنةً في نُبوَّة مُحمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلام، وأجاب عنه، أتْبَعه بهذه الآيةِ، وذلك؛ لأنَّه تعالى أوجَبَ في التوراةِ والإنجيلِ على أُمَّة موسى وعيسى عليهما السَّلام أنْ يَشرحوا ما في هذين الكِتابَيْن من الدَّلائلِ الدَّالَّةِ على صِحَّة دِينِه، وصِدْقِ نُبوَّته ورِسالَتِه، والمراد منه التعجُّب مِن حالهم، كأنَّه قِيل: كيفَ يَليقُ بكم إيرادُ الطَّعْنِ في نُبوَّته ودِينه مع أنَّ كُتبَكم ناطِقةٌ ودالَّةٌ على أنَّه يجبُ عليكم ذِكْرُ الدَّلائل الدَّالَّة على صِدْق نبوَّته ودِينه[١].

وأيضًا فإنَّه تعالى لَمَّا أوجبَ في الآيةِ المتقدِّمةِ على مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ احتمالَ الأذى مِن أهْلِ الكتاب، وكان مِن جُملة إيذائِهم للرَّسول صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أنَّهم كانوا يَكتُمون ما في التوراةِ والإنجيلِ مِن الدَّلائل الدَّالَّة على نُبوَّته؛ فكانوا يُحرِّفونها، ويَذكُرون لها تأويلاتٍ فاسِدةً؛ فبَيَّن أنَّ هذا مِن تِلك الجُملةِ الَّتِي يجب فيها الصَّبرُ[٢]، فقال:

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٥٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾.

أَيْ: واذْكُر- يا مُحمَّدُ- حين عَهِد اللهُ عزَّ وجلَّ إلى اليهودِ وغيرِهم مِن أهل الكتاب عَهْدًا مؤكَّدًا: بأنْ يُبيِّنوا ما في كتُبهم للنَّاس، ولا يُخفونه أبدًا، ومن ذلك صِفةُ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وإثباتُ رِسالتِه(١).

عنْ أبي هُرَيرَةَ رضِي اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((من سُئِلَ عن علْمٍ علِمَهُ، ثُمَّ كتَمَهُ، أُلْجِمَ يومَ القيامَةِ بلِجامٍ من نارٍ))(٢).

﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾.

أَيْ: فكانتِ النتيجةُ أنَّهم نقَضوا هذا العهْدَ، وترَكوا العملَ به، ككِتمانِهم صِفةَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن الناس(٣).

﴿وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

أَيْ: أرادُوا مُقابِلَ نقْضِهم عَهدَ الله تعالى؛ بكِتمانهم ما في كتُبهم- الحصولَ على حُظوظٍ دُنيويَّةٍ خسيسةٍ مِن مَناصِبَ أو أموالٍ، أو غيرِ ذلك(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٢٤-٥٢٥).

(٢) رواه الترمذيُّ (٢٦٤٩) واللفظ له، وأبو داود (٣٦٥٨)، وابن ماجه (٢٦٦)، وأحمد في ((مسنده)) (٨٥١٤).

حسنه الترمذي، وقال ابن القطان في ((بيان الوهم والإيهام)) (٥/ ٢١٨): رواته كلهم ثقات. وصحح إسناده أحمد شاكر في ((مسند أحمد)) (١٥/ ١٩٤)، وصححه الألباني في ((صحيح ابن ماجة)) (٢١٥)، وقال الوادعي في ((الصحيح المسند)) (١٣٧٧): حسن رجاله رجال الصحيح.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٩٤، ٢٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٢٥).

﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾.

أَيْ: فبِئستِ الصفقةُ صَفقتُهم، وما أخْسرَها مِن تجارةٍ! لأنَّهم اختاروا الدَّنيءَ الخَسيسَ، وتركوا العاليَ النَّفيس(١).

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨٨)﴾.

سببُ النُّزول:

عن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رضِي اللهُ عنه: ((أنَّ رجالًا مِن المنافقين على عَهْدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، كان إذا خرَجَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى الغَزْوِ تَخَلَّفُوا عنه، وفَرِحُوا بمقعدِهم خِلافَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فإذا قَدِمَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ اعتَذَرُوا إليه وحَلَفُوا، وأَحَبُّوا أنْ يُحْمَدوا بما لم يَفْعَلوا، فنزَلَتْ: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ الآيةُ))(٢).

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لما قال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾، بَيَّن تعالى هنا أنَّ مِن جُملةِ أنواعِ هذا الأذَى أنَّهم يَفرحون بما أَتَوْا به من أنواعِ الخُبْث، والتلبيسِ على ضَعَفةِ المسلمين، ويُحبُّون أنْ يُحمَدوا بأنَّهم أهْلُ البِرِّ والتقوى والصِّدْق والدِّيانة وغير ذلك، ولا شكَّ أنَّ الإنسانَ يَتأذَّى بمشاهدةِ مِثل هذه الأحوالِ؛ فأمَرَ اللهُ تعالى نَبيَّه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٩٤، ٢٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٢٦-٥٢٧).

(٢) رواه البخاريُّ (٤٥٦٧)، ومُسلِم (٢٧٧٧).

عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالمصابرةِ عليها وبيَّن ما لهم مِن الوعيدِ[١]، فقال تعالى:

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ﴾ قِراءتان:

١- قراءة ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ بالخِطابِ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وجَعْله الفاعِل، و﴿الَّذِينَ يَفْرَحُونَ﴾ مفعولًا[٢].

٢- قراءة (لَا يَحْسَبَنَّ) بجَعْل الفاعل: ﴿الَّذِينَ يَفْرَحُونَ﴾[٣].

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا﴾.

أَيْ: لا تظُنَّنَّ يا مُحمَّدُ، ولا يَظُنَّنَّ الَّذين يَفرحون بما فعَلوه من أقوالٍ وأفعالٍ باطِلة: ككِتْمان العِلم مَن سألهم عنه، كاليهود، والتخلُّف عن الغزْو في سبيل الله تعالى، كالمنافقين، وكأعمال المتزيِّنين للنَّاس، المُرائين لهم بما لم يَشرَعْه الله ورسولُه[٤].

عن ثابتِ بنِ الضحَّاك رضِي اللهُ عنه: أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((ومَن ادَّعى دعوى كاذبةً؛ لِيتكثَّرَ بها لم يَزِدْه اللهُ إلا قِلَّةً))[٥].

﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٥٦).

(٢) قرأ بها الكوفيُّون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٠٤).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٦٧).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٠٤).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٢٩).

(٥) رواه مُسلِم (١١٠).

أَيْ: وهم مع ذلك يُحبُّون أنْ يُثني الناسُ عليهم بالخَيرِ، على طاعاتٍ للهِ تعالى لم يَقوموا بها[1].

فجمَعوا بذلك بين فِعْلِ الشَّرِّ والفرَحِ بذلك، ومحبَّةِ حمْدِ النَّاسِ لهم على الخيرِ الذي لم يَفعلوه[2].

عن عَلْقمةَ بنِ وقَّاصٍ ((أنَّ مَرْوانَ، قال: اذْهَبْ يا رافعُ- لبوَّابِه- إلى ابنِ عَبَّاسٍ فقُلْ: لَئِنْ كان كلُّ امْرِئٍ منَّا فَرِحَ بِما أَتَى، وأَحبَّ أنْ يُحْمَدَ بما لم يَفْعَلْ مُعَذَّبًا، لَنُعَذَّبَنَّ أجمعونَ! فقال ابنُ عَبَّاسٍ: ما لكُم ولهذه الآيةِ؟ إنَّما أُنزِلَتْ هذه الآيةُ في أهلِ الكِتابِ، ثُمَّ تَلا ابنُ عبَّاسٍ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧] هذه الآيةَ، وتَلا ابنُ عَبَّاسٍ: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ [آل عمران: ١٨٨]، وقال ابنُ عَبَّاسٍ: سألَهُم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن شَيءٍ فكَتَموه إيَّاه، وأَخْبَروه بغَيرِه، فخَرَجوا قدْ أَرَوْه أنْ قدْ أَخْبَروه بما سَأَلَهُمْ عنه، واسْتَحْمَدوا بذلكَ إليه، وفَرِحوا بِما أَتَوْا مِنْ كِتْمانِهِم إيَّاه ما سَأَلَهُمْ عنه))[3].

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾ قِراءتان:

١- قراءة (يَحْسَبُنَّهُمْ) بجَعْلِ الفِعلِ للذين يَفرَحون بما أَتوا، ويُحبُّون أنْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٢٩-٥٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٠).

(٣) رواه البُخارِي (٤٥٦٨)، ومُسلِم (٢٧٧٨) واللفظ له.

يُحمدوا بما لم يَفعلوا، أَيْ: فلا يَحْسَبون أنفسَهم بمفازةٍ من العذابِ[١].

٢- قِراءة ﴿تَحْسَبَنَّهُمْ﴾ بجَعْل الفِعل خِطابًا للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٢].

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾.

أَيْ: فلا تَظُنَّهم- يا مُحمَّدُ- ولا يظُنَّ أولئك القومُ أنفسَهم أنَّهم في سَلامةٍ ونجاةٍ من عذابِ الله تعالى[٣].

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أَيْ: إنَّهم قد استحقُّوا عذابًا مُؤلِمًا، سيَصيرون إليه[٤].

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- في قولِه تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ وجوبُ بيانِ العِلمِ على أهلِ العِلم، ولمْ يَذكرِ اللهُ عزَّ وجلَّ الوسيلةَ التي يَحصُل بها البيان؛ فتكونُ على هذا مُطلَقَةً، راجعةً إلى ما تَقتضيه الحالُ، قد يكون البيانُ بالقولِ، وقد يكونُ بالكتابةِ، وقد يكونُ في المجالسِ العامَّة، وقد يكونُ في المجالسِ الخاصَّة، على حسْبِ الحال؛ لأنَّ اللهَ أطلقَ البيانَ، ولم يُفصِّل ولم يُعيِّن[٥].

---

(١) قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٠٥).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجَّة القراءات)) لابن زنجلة (ص:١٨٧)، ((الكشْف)) لمكي (١/ ٣٧١).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٠٥).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجَّة القراءات)) لابن زنجلة (ص:١٨٧)، ((الكشْف)) لمكي (١/ ٣٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٣١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٢٧).

٢- يَنبغي قَرْنُ النَّفي بالإثباتِ في الأمور المهِمَّة؛ لِيتحقَّقَ الكمالُ؛ لقوله تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ﴾، ووجْه ذلك: أنَّ البيانَ عدمُ الكتمان، لكن لَمَّا قال: ﴿وَلاَ تَكْتُمُونَهُ﴾ أكَّد البيانَ بأنْ يكونَ كامِلًا، ليسَ فيه أيُّ نوعِ كِتمانٍ[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- قال تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ﴾ وقال بعده: ﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ مع أنَّ البيان ضدُّ الكتمان؛ وذلك لأنَّ المعنى: لَتبيِّنُنَّه بيانًا لا كِتمانَ فيه بأيِّ وجهٍ من الوجوه[2]، أو يكون المرادُ مِن البيان ذِكْرَ تلك الآيات الدَّالَّة على نُبوَّة محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ من التوراة والإنجيل، والمرادُ مِن النهي عن الكِتمان أنْ لا يُلقُوا فيها التأويلاتِ الفاسِدةَ، والشُّبهات المعطلة[3].

٢- الذمُّ القبيح لأهْلِ الكتابِ اليهود والنصارى؛ لِقوله تعالى: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾؛ وذلك أنَّه يُلاحَظ شدَّةُ القذْفِ في قوله: ﴿نَبَذُوه﴾، ثمَّ شِدَّةُ الاستكبار في قوله: ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾[4].

٣- دلَّ مفهومُ قوله تعالى: ﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ على أنَّ مَن أحبَّ أنْ يُحمَدَ، ويُثنى عليه بما فعَلَه من الخيرِ، واتِّباع الحقِّ، إذا لَمْ يكُن قصدُه بذلك الرِّياءَ والسُّمْعَةَ- أنَّه غيرُ مذمومٍ، بل هذا من الأمورِ التي جازَى بها اللهُ تعالى خَواصَّ خَلْقِه، وسألوها مِنه، كما قال إبراهيمُ عليه السَّلام: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾، وقال: ﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾، وقد قال عِبَاد الرَّحْمن: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٢٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٢٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦١).

بَلاغَةُ الآيتين:

١ - قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ كلامٌ مُستأنَف سِيقَ؛ لِبيان بعض أذياتهم، وهو كِتمانُهم ما في كِتابِهم من شواهدِ نُبوَّتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وغيرِها(١).

- وفيه: التفاتٌ؛ فقَد انتقلَ من الغَيْبةِ في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ...﴾ إلى الخِطابِ في قوله: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ﴾، ثمَّ عاد إلى الغَيْبةِ في قولِه تعالى: ﴿فَنَبَذُوهُ﴾، والفائدةُ مِن ذلك: زيادةُ التَّسجيلِ المباشِرِ عليهم(٢).

- وفيه تأكيدُ إيجابِ بيانِ الكتابِ، واجتنابِ كِتمانه؛ حيثُ قال: ﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾، ولم يقل: (ولا تكتموه)، ولَم يُؤكِّد بالنون؛ لكونِه مَنفيًّا؛ أو لأنَّه اكتفَى بالتأكيدِ بالنونِ في الأوَّل؛ ولأنَّ هذا الفِعلَ نفسَه تأكيدٌ له(٣).

- قوله: ﴿فَنَبَذُوهُ﴾ فيه: العطْف بالفاءِ الدَّالَّةِ على التعقيبِ؛ للإشارةِ إلى مُسارَعتِهم إلى ذلك، ويجوزُ أنْ تكونَ الفاءُ مُستعمَلةً في لازِم التعقيب، وهو شِدَّةُ المسارَعَة لذلك عند اقتضاءِ الحال إيَّاه، والاهتمامُ به، وصرْفُ الفكرة فيه(٤).

- قوله: ﴿وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ فيه نهايةُ الجَزالة، والدَّلالةُ على كمالِ فَظاعة حالِهم وغاية قُبْحها، بإيثارِهم الدنيءَ الحقيرَ على الشَّريفِ الخَطير، وتَعكيسِهم بجعلهم المقصِدَ الأصليَّ وسيلةً، والوسيلةَ مَقصِدًا؛ حيثُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٢٨)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٦٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٩١ - ١٩٢).

صوَّر هذه المعاملةَ بعقْدِ المعاوَضَة، لا سيَّما بالاشتراءِ المؤذِن بالرَّغبةِ في المأخوذ، والإعراضِ عن المعطَى، والتعبيرِ عن المُشترَى الذي هو العُمْدةُ في العَقْد، والمقصودُ بالمعامَلة بالثَّمنِ الذي شأْنُه أنْ يكونَ وسيلةً إليه، وجعْلِ الكتابِ الذي حقُّه أنْ يَتنافسَ فيه المتنافِسون مَصحوبًا بالباءِ الدَّاخِلة على الآلاتِ والوسائلِ[1].

٢- قوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾، ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ﴾ فيه تَكرار الفعل (حسب)، وهو يُفيد التَّأكيد[2].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٢٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٢٦).

الآيات (١٨٩ - ١٩٥)

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ
يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن
تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا
يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا
سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ
مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ
وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ
تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿أَخْزَيْتَهُ﴾: أي: أهْلكتَه وأبعدتَه، وقيل: أَخزى فلانًا، أي: ألْزمَه الحُجَّةَ وأذلَّه معها، وخزِيَ الرَّجُلُ: لَحِقَه انكسارٌ، والخزاية: النَّكالُ والفضيحةُ، وأصل الإخزاء: الإبعادُ(١).

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قوله: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾

﴿عَلَى رُسُلِكَ﴾: الجارُّ والمجرور متعلِّق بـ﴿وَعَدْتَنَا﴾، بتقديرِ مُضافٍ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٧٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٥، ٤٣٢).

محذوف، والتَّقدير: ما وَعَدْتنا على تَصديقِ رُسلِك مِن الثَّوابِ، أو على أَلْسنةِ رُسلِك، ويجوزُ أنْ يتعلَّق بـ﴿آتِنَا﴾، وقيل غير ذلك[1].

٢- قوله: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ﴾

﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ﴾: (أنَّ) المفتوحةُ وما بعدَها مَصدرٌ مؤوَّل، وهو في مَحلِّ نصْبٍ على نزْعِ الخافِض، أو في محلِّ جرٍّ بحَرْف الجرِّ؛ إذ التقدير: (بأنِّي لا أُضيع)، والجارُّ والمجرور متعلِّقان بـ﴿اسْتَجَابَ﴾. وقُرِئ (إنِّي) بالكسر على تَقديرِ: فقَال: إنِّي لا أُضيع، أو على الحِكايةِ بـ﴿اسْتَجَابَ﴾؛ لأنَّ فيه معنى القول، وعليه فـ(إنَّ) وما بعدَها في محلِّ نصْب؛ لأنَّها جملةُ مقول القول[2].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبر تعالى أنَّه وحَدَه مَن يَملِكُ السَّمواتِ والأرضَ وما فيهما، وهو ذو القُدرةِ التامَّةِ على كلِّ شيء.

ويُخبر أيضًا سبحانه أنَّ في خلقِ السَّموات والأرض من عدمٍ، وصُنعِهما المتقنِ وما فيهما، وتعاقُبِ الليل والنهار، لَدلائلَ واضحةً لذوي العقولِ السَّليمةِ، تدلُّهم على الخالقِ سبحانه وعلى صِفاتِه، هؤلاء هم الذين يَذكُرون الله تعالى دائمًا، وعلى مُختلفِ حالاتِهم؛ قِيامًا وقُعودًا ومُضطجِعين، وتَجُولُ أفكارُهم في خلْقِ السَّمواتِ والأرض، يقولون وهم يتفكَّرون فيها مُخاطِبين الله تعالى: إنَّك يا ربَّنا، لم تَخلقْ هذا الخلقَ عبثًا؛ فأنتَ منزَّهٌ عن العَبثِ واللَّهو، فجنِّبْنا عذابَ النارِ، تِلك النارُ التي مَن أدخلتَه فيها فقدْ أهنتَه، وما للظالمين مِن أنصار، ربَّنا إنَّنا سَمِعنا نبيَّك مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَدْعو إلى الإيمانِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٥٥)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٢٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٥٣٧ - ٥٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٨٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٥٣٨)، ((إعراب القرآن الكريم)) لدعاس (١/ ١٨٠).

بك، فاستجَبْنا له، فتجاوزْ عن ما اقترَفْناه مِن ذنوبٍ، واستُرْها بسَتْرِك، وامْحُها بإيمانِنا بك واتِّباعنا لنبيِّك، واجعَلْنا حينَ تتوفَّانا مِن الصَّالحين، ربَّنا وآتِنا جميعَ ما وعدتَنا به على ألْسِنةِ رُسلِك، ولا تَفضَحْنا بذُنوبِنا أمامَ الخَلْقِ يومَ القيامة؛ إنَّك لا تخلفُ وعدَك.

فأَخبرَ اللهُ تعالى أنَّه استجابَ لهم تلك الدَّعواتِ؛ فهو سبحانه لا يَضيعُ عَملٌ عنده، أيُّ عَملٍ، ومِن أيِّ عاملٍ، سواء كان ذكرًا أو أنثى؛ فلا فَرْقَ بينهم في ذلك، فالذين ترَكوا أوطانَهم- لكونها دارَ كُفرٍ- إلى دارِ الإيمان، أو طَرَدَهم أهلُ الشِّركِ مِن دِيارهم، وأُوذوا في سبيل الله، وقاتلوا في سبيلِ الله وقُتلوا، سَيمْحُو اللهُ عنهم خَطاياهم، وسيُدخلهم جنَّاتٍ تَجري من تحتِها الأنهارُ؛ جزاءً من عند الله على ما بذَلوا وقدَّموا، واللهُ تعالى عنده حُسنُ الثَّواب.

تَفسيرُ الآيات:

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٨٩)﴾.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

أي: واللهُ تعالى هو وَحْدَه المالكُ لكلِّ شيءٍ؛ فيَملِكُ السَّمواتِ والأرضَ، وجميعَ ما من أصنافِ الخَلْق(١).

﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: واللهُ عزَّ وجلَّ له كمالُ القُدرةِ على كلِّ شيءٍ، فلا يمتنعُ عليه أحدٌ، ولا يُعجِزُه شيءٌ سبحانه(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦١).

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا كان المقصودُ من هذا الكتابِ الكريمِ جَذْبَ القلوبِ والأرواحِ عن الاشتغالِ بالخَلقِ إلى الاستغراقِ في مَعرفةِ الحقِّ، والإيمانِ بهِ وتوحيدِهِ وطاعتِهِ، فلمَّا طال الكلامُ في تقريرِ الأحكامِ، والجوابِ عن شُبهاتِ المبطِلين، عادَ إلى إنارةِ القلوبِ بذِكرِ ما يدلُّ على التوحيدِ والإلهيَّة والكبرياءِ والجلالِ، فذَكَر هذه الآيةَ[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى أنَّه مالكُ السَّمواتِ والأرضِ، وذكَر قُدرتَه، ذكَر أنَّ في خَلقِهما دَلالاتٍ واضحةً لذَوي العقولِ[2]، فقال:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

أي: إنَّ في إيجاد هذه السَّموات والأرضِ من العدمِ، وابتداعِهما على غيرِ مثالٍ سبَق[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٣٦-٥٣٨).

وفي خلقِ السَّموات والأرضِ آياتٌ مِن عدةِ أوجهٍ:

الوجهُ الأوَّل: مِن جهة الكِبَر والسَّعة.

الوجه الثاني: ما فيهما من الحُسن والبهاءِ والجَمال، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ [الملك: ٥].

الوجه الثالث: في خَلق السَّموات من جهةِ إتقانِها وعدمِ تخلخلها، قال الله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٣ - ٤].

الوجه الرابع: في خلقِ السَّموات والأرضِ مما أودع الله فيهما مِن الموادِّ المتعددةِ، المختلفةِ الأنواعِ والأشكالِ والمنافعِ، كما قال الله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ﴾ =

﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾.

أي: وفي تعاقُبِ اللَّيلِ والنَّهارِ على العبادِ، وتفاوتهما طولًا وقِصَرًا، وغير ذلك(١).

﴿لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾.

أي: إنَّ في خَلْق تِلكِ المخلوقاتِ العجيبةِ، وما تَحويه من الأشياءِ المبهرةِ العظيمة، لعلاماتٍ لأصحابِ العقولِ السَّليمةِ، التي تُدرِكُ حَقائقَ الأشياء، فتدلُّهم على أنَّ خالقَ ذلك هو الربُّ المعبودُ وحْدَه سبحانه، كما تدلُّهم على صِفاتِ الله تبارَك وتعالَى(٢).

عن ابن عبَّاس رضِي اللهُ عنهما، قال: ((بِتُّ في بيتِ مَيمونَةَ ليلةً، والنبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عِندَها؛ لأنظُرَ كيفَ صلاةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالليلِ، فتحدَّث رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ معَ أهلِه ساعةً ثم رقَد، فلمَّا كان ثُلُثُ اللَّيلِ الآخِرُ، أو بعضُه، قعَد فنظَر إلى السَّماءِ، فقرأ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، ثمَّ قام فتوضَّأ واستَنَّ(٣)،

= [الرعد: ٤] يعني متجاورات بعضها إلى جوار بعض ولكن بينهما من الاختلاف ما لا يعلمه إلا الله.

فيهما أيضًا ما فيهما مِن المنافعِ العظيمةِ للخلقِ؛ فالشمسُ فيها خيرٌ عظيمٌ، والقمرُ كذلك، والأشجارُ وغيرُها كلُّها فيها خيراتٌ عظيمةٌ من آيات الله عزَّ وجل. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة آل عمران)) (٢/ ٥٣٧)

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٣٩-٥٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٢٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٤٠).

(٣) استنَّ أي: استاك، والاستنانُ الاستياكُ، وهو دلكُ الأسنانِ بالعُودِ ونحوِه. يُنظر: ((فتح الباري)) (١/ ١٣٤).

ثم صلَّى إحْدَى عشْرةَ ركعةً، ثم أذَّن بلالٌ بالصَّلاةِ، فصلَّى ركعتَينِ، ثمَّ خرَجَ فصلَّى للناسِ الصُّبحَ))[١].

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ سبحانه وتعالى في الآيةِ السَّابقةِ دَلائلَ الإلهيَّةِ والقُدرةِ والحِكمةِ، وهو ما يتَّصلُ بتَقريرِ الرُّبوبيَّة، ذكَرَ بعدَها ما يتَّصل بالعبوديَّة[٢].

وأيضًا لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى أنَّ الذين يَنتفعونَ بتلك الآياتِ هم أُولو الألبابِ، شرَعَ في وصْفِهم[٣]، فقال:

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾.

أي: إنَّ أُولي الألبابِ هم الذين يُديمون ذِكرَ اللهِ تعالى بقلوبِهم وألْسنتِهم، وفي جميعِ أحوالِهم، في حالِ وُقوفِهم، وحالِ جُلوسِهم، وحالِ اضطجاعِهم[٤].

﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا وصَفَهم بالذِّكر، وثبَت أنَّ الذِّكرَ لا يَكمُلُ إلَّا مع الفِكر، لا جرمَ قال بَعْدَه[٥]:

﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٧٤٥٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٥٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦١).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٦٠).

أي: إنَّ مِن صِفاتِهم أيضًا أنهم يُعمِلون عُقولَهم في خَلْقِ اللهِ تعالى للسَّمواتِ والأرض؛ ليَستدلُّوا بذلك على المقصودِ منها، ويَفهموا ما فيها من الحِكمِ الدالَّةِ على صِفاتِ الخالقِ جلَّ وعلا(١).

﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾.

أي: إنَّهم حين يَتفكَّرون في خَلْقِ السَّمواتِ والأرض، يقولون: إنَّك يا ربَّنا، لم تَخلقْ هذا الخَلْقَ عبثًا ولا لهوًا؛ فأنتَ مُنزَّهٌ عن ذلك، ولكنَّك خلقتَه لحِكمةٍ ولأمرٍ عظيمٍ، من تكليفٍ وبعْثٍ، وحسابٍ وجزاءٍ، فتجزي كلَّ أحدٍ بما عمِله من خيرٍ أو شرٍّ(٢).

كما قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥].

﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.

أي: يا مَن خلقتَ الخَلْقَ بالحقِّ والعدل، وأنتَ منزَّهٌ عن النقائصِ والعيوب، أَجِرْنا من عذابِ النار، بأنْ تُوفِّقَنا للأعمالِ الصالحات، وتُجنِّبَنا بفضلِك الذُّنوبَ والسيِّئات(٣).

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (١٩٢)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٤١-٥٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣١٠-٣١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦١).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا سألوا ربَّهم أن يَقِيَهم عذابَ النار، أتْبعوا ذلك بما يدلُّ على عِظَمِ ذلك العقابِ وشِدَّته، وهو الخزيُ؛ ليكونَ موقعُ السؤال أعظمَ؛ لأنَّ مَن سأل ربَّه أنْ يَفعلَ شيئًا، أو ألَّا يَفعلَه، إذا شرَح عِظمَ ذلك المطلوبِ وقوَّتَه، كانت داعيتُه في ذلك الدعاءِ أكْمَلَ، وإخلاصُه في طلبه أشدَّ، والدُّعاءُ لا يتَّصلُ بالإجابةِ إلَّا إذا كان مقرونًا بالإخلاصِ؛ فهذا تعليمٌ من اللهِ لعبادِه في كيفيَّة إيرادِ الدُّعاء[1].

وأيضًا لَمَّا دَعَوْا أنْ يَقيَهم اللهُ من النار، بيَّنوا سببَ دُعائِهم، وأنَّ سببَ ذلك هو أنَّ النارَ دارُ الخِزي[2]؛ لذا قالوا:

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾.

أي: إنَّ مَن أدخلتَه النارَ يا رَبَّنا، فقدْ أَهنتَه وفَضحْتَه[3].

﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾.

أي: إنَّهم إنما دخلوا النارَ بظُلمِهم، وليس للظالمِ يَومَ القيامةِ أحدٌ يُنقذُه من عذابِ اللهِ تعالى[4].

﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (١٩٣)﴾.

﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٥٠-٥٥١).

أي: إنَّهم قالوا: يا ربَّنا، إنَّنا قد سمِعْنا داعيًا يَدْعو إلى الإيمانِ، وهو محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[١].

﴿أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾.

أي: يقولُ للنَّاسِ: آمِنوا بربِّكم، فبَادَرْنا إلى الاستجابةِ له، فأَقرَرْنا بالحقِّ وقبِلْناه، مُنقادِين إليه، ومُذعِنين له[٢].

﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾.

أي: بإيمانِنا واتِّباعِنا نبيَّك، استُرْ علينا ذُنوبَنا، وتجاوزْ عن مُؤاخذتِنا بها[٣].

﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾.

أي: بإيمانِنا واتِّباعِنا نبيَّك، امحُ عنَّا خَطايانا؛ فالحسناتُ يُذهِبْنَ السيِّئاتِ[٤].

﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾.

أي: واجعلْنا إذا قَبضتَ أرواحَنا إليك في عِدادِ الصَّالحين[٥].

﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٥٣-٥٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣١٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٥٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦١). ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٥٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٥٦).

﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾.

أي: وأعطِنا- يا ربَّنا- ما وعَدتَنا به على ألْسنةِ رُسلِك عليهم السَّلامُ، من النَّصرِ على الأعداء[1]، ومِن الثوابِ على الأعمالِ الصَّالحة[2].

﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

أي: ولا تَفْضَحْنا بذُنوبِنا على رُؤوسِ الخلائقِ، ولا تُذِلَّنا يومَ القيامةِ[3].

﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾.

أي: فإنَّا قد علِمْنا بأنَّك لا تُخلفُ وعدَك لعبادِك[4].

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (١٩٥)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا حَكَى اللهُ تعالى عنهم مواظبتَهم على الذِّكر، وهو قوله: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا﴾، وعلى التفكُّرِ، وهو قوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ثم حكَى عنهم أنَّهم أثْنَوا على اللهِ تعالى، وهو قولُهم: ﴿رَبَّنَا مَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣١٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٢٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٥٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٦٥).

خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾، ثمَّ حَكَى عنهم أنَّهم بعدَ الثناءِ اشتَغلوا بالدُّعاء وهو مِن قولِهم: ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾: إلى قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾- بيَّن في هذه الآيةِ أنَّه استجابَ دُعاءَهم[1]، فقال:

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾.

أي: فأجابَ اللهُ تعالى أولئك الدَّاعين، بأنَّ عمَلَ كلِّ عاملٍ منهم محفوظٌ لديهِ؛ قلَّ أو كثُر، وسواء كان صادرًا مِن ذَكَرٍ أو أُنثى؛ فلا فَرْقَ بينهم في الثَّوابِ وإجابةِ الدعوات، مِثلما أنَّه لا فَرْقَ بينهم في اتِّباع مِلَّةِ الإسلام[2].

﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا﴾ قِراءات:

١- قِراءة (وَقُتِلُوا وَقَاتَلُوا) قيل: على معنى أنَّ بعضَهم يُقتَل، فيَقْتُل الباقون مَن بقِي مِن عَدوِّهم، وهذا أبلغُ في مَدحِهم؛ لأنَّهم يُقاتِلون بعد أن يُقتَل منهم، فلم يَهِنوا بعدَ قتْلِ أصحابِهم[3].

٢- قراءة ﴿وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا﴾ قيل: على معنى أنَّهم قاتلوا أحياءً ثم قُتِلوا؛ لأنَّ القتْلَ لا يكونُ إلَّا بعدَ قِتال[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣١٩، ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٩٠، ١٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٦٩).

(٣) قرأ بها حمزة والكسائي. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٠٥).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص:١٨٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٥٤٢-٥٤٣).

(٤) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٠٥).

=

٣- قراءة (وَقَاتَلُوا وَقُتِّلُوا) بتشديدِ التاء، على معنى التَّكثير[1].

﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا﴾.

أي: فالذين غادَروا قومَهم من أهلِ الكُفر، واسْتَوْطَنوا دارَ الإيمانِ مع إخوانِهم في الله، وطرَدَهم المشركونَ، أو ضايقوهم بالأذَى حتى ألجؤوهم إلى الخروجِ من بين أَظهرِهم، ووقَعَ عليهم الأذى بسببِ إيمانِهم باللهِ تعالى وطاعتِهم له سبحانه، وقاتَلوا في سبيلِ اللهِ تعالى لإعلاءِ كَلمتِه، وقُتِّلوا تَقتيلًا كثيرًا، مِثل أصحابِ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ورضِي اللهُ عنهم[2].

﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾.

أي: إنَّ أولئك المؤمنين والمؤمنات؛ بسببِ ما حصَل لهم مِن تلك الأشياءِ مِن هِجرةٍ وجِهادٍ وغيرِ ذلك[3]، يمحو اللهُ تعالى عنهم خَطاياهم[4].

﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾.

أي: ولأُسكِننَّهم جنَّاتٍ تَجري في خلالِها أنواعٌ من الأنهار؛ جزاءً عظيمًا لهم على ما قدَّموا، وأبْلَوْا في سبيلِ العظيمِ الكريمِ[5].

﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾.

= ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٨٧).

(١) قرأ بها ابن كثير وابن عامر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤٣).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٥٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٦٩-٥٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٧١-٥٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٢٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سوؤة آل عمران)) (٢/ ٥٧٣-٥٧٤).

أي: واللهُ عزَّ وجلَّ عنده الجزاءُ الحسن لِمَن عمِلَ صالحًا، ممَّا لا عَينٌ رأتْ، ولا أُذنٌ سمِعَتْ، ولا خَطَر على قلبِ بشَرٍ[1].

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- الحثُّ على التأمُّل في خَلْقِ السَّمواتِ والأرض؛ لأنَّ اللهَ ذَكَر أنَّ فيهما آياتٍ، والآياتُ هي: العلاماتُ، وكلَّما ازدادتِ الآياتُ وضوحًا ازدادَ الإيمانُ قُوَّةً، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ...﴾[2].

٢- إدامةُ ذِكرِ الله تعالى على كلِّ حال، فالمرادُ بقوله تعالى: ﴿قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ عُمومُ الأحوال، على أنَّ هذه الأحوالَ هي مُتعارَفُ أحوالِ البَشرِ في السَّلامة، أي: أحوال الشُّغل، والرَّاحة، وقَصْد النَّوم[3].

٣- أصنافُ العُبوديَّة ثلاثةُ أقسام: التَّصديقُ والإذعانُ بالقلب، والإقرارُ باللِّسان، والعملُ بالجوارحِ؛ فقوله تعالى: ﴿يَذْكُرُونَ اللهَ﴾ إشارةٌ إلى عُبوديَّةِ اللِّسان، وقوله: ﴿قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ إشارةٌ إلى عُبوديَّةِ الجوارحِ والأعضاء، وقوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إشارةٌ إلى عُبوديَّة القلبِ والفِكرِ والرُّوح، والإنسانُ ليس إلَّا هذا المجموع، فإذا كان اللِّسان مستغرقًا في الذِّكرِ، والأركانُ في الشُّكر، والجَنانُ في الفِكر، كان هذا العبدُ مُستغرقًا بجميعِ أجزائِه في العبوديَّة[4].

٤- أنَّ ذِكرَ اللهِ تعالى لا يَكفي وَحْدَه في الاهتداءِ إلى الآيات، ولكن يُشترَط

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٥٩).

معه التفكُّرُ في تِلك الآيات؛ فلا بدَّ من الجمْعِ بَينَ الذِّكر والفِكْر، كما قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾(١).

٥- في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارَ﴾ تعليمُ العبادِ كيفيَّةَ الدُّعاءِ وآدابَه، وذلك أنَّ من أراد الدُّعاءَ فلْيُقَدِّمِ الثَّناءَ، ثم يَذْكُر بعده الدُّعاءَ، كهذه الآيةِ(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه لا يجوزُ للإنسانِ أنْ يَتصرَّفَ في مُلكِه إلَّا على حسَبِ إذْنِ الشَّارع؛ لأنَّ كونَ المُلكِ للهِ يدلُّ على أنَّ تصرُّفَنا فيه إنما يكونُ بطريق الوكالةِ، والوكيلُ يَتقيَّد بما أُذِن له فيه(٣).

٢- أنَّه كلَّما كان الإنسانُ أعقلَ، كان باللهِ وآياتِه أعلمَ؛ لقوله: ﴿لَآيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ﴾ والحُكمُ المعلَّقُ على وصْفٍ يَثبُت لثبوتِه، ويُعدَم لعدمِه، فإذا كان أصحابُ العقولِ هم الذين يَنتفعون بهذه المخلوقاتِ، ويَستدلُّون بها على الخالقِ عزَّ وجلَّ، وعلى ما له مِن صِفاتِ الكمال؛ فإنَّ مَن عقْلُه عَقلٌ بهيميٌّ لا يَنتفع بهذه الآيات؛ لأنَّه ليس من ذوي الألباب(٤).

٣- أنَّ ذِكرَ الله عزَّ وجلَّ من لوازمِ العقلِ ومُقتضياتِه؛ لقوله: ﴿لِأُولِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ﴾(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٦/ ١١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٣٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٤٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٤٦).

٤- جوازُ ذِكرِ الله تعالى للجُنُب؛ لدُخولِه في عموم قولِه: ﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾[١].

٥- قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾: تخصيصُ الأحوالِ المذكورةِ بالذِّكر ليس لتخصيصِ الذِّكرِ بها، بل لأنَّها الأحوالُ المعهودةُ التي لا يَخلو عنها الإنسانُ غالبًا[٢].

٦- في قوله تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أنَّه إذا أثْنى على المتفكِّرين في الخَلْق، فالمُتفكِّرون في الشَّرْعِ مِن باب أوْلى؛ لأنَّ الشرعَ ليس أمرًا مَحسوسًا، فالتفكُّر فيه أبلغُ في الإيمانِ من التفكُّرِ في الخَلق؛ الخلق أمرٌ محسوس، كلُّ إنسان يُدركه، لكنَّ حِكَم الشَّرائعِ وأسرارَها ليس كلُّ أحدٍ يُدركُها[٣].

٧- أنَّ صفوةَ الخَلقِ مُحتاجون إلى الدُّعاءِ للوقايةِ مِن النار؛ لقولهم: ﴿سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[٤].

٨- إثباتُ التوسُّل في الدُّعاءِ بصِفاتِ اللهِ؛ يُؤخذ ذلِك مِن قوله: ﴿فَقِنَا﴾؛ لأنَّهم بَنَوْا ﴿فَقِنَا﴾ على قولهم: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ يعني: أنَّنا نتوسَّلُ إلى الله عزَّ وجلَّ بتنزُّهه عن النقصِ أنْ يَقيَنا عذابَ النار؛ لأنَّنا مؤمنون؛ لقوله: ﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، ويُقرُّون بأنها خُلقتْ بالحقِّ وللحقِّ، ويُنزِّهون اللهَ عزَّ وجلَّ عن كلِّ نقْصٍ وعيبٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٤٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٤٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٩- التوسُّلُ إلى الله تعالى بالربوبيَّة حالَ الدُّعاءِ، بتعبيرِهم في دُعائِهم باسمِ الربوبيَّة، أو وصْف الربوبيَّة دون اسمِ الجلالة؛ في قولهم: ﴿رَبَّنَا﴾، لأنَّ الربوبيَّةَ بها الخَلْقُ والمُلك والتَّدبير، والقيامُ بأمورِ العِباد وإصلاحُها، ولِمَا في الربوبيَّة من الدَّلالةِ على الشَّفقةِ بالمربوب، ومَحبَّة الخيرِ له، ومِن الاعترافِ بأنَّهم عبيدُه، فكان العبدُ مُتعلِّقًا بمَن شأنُه التربيةُ والرِّفقُ والإحسانُ، ولتتأتَّى الإضافةُ المفيدةُ التشريفَ والقُرب(١).

١٠- تكرَّر لفظ ﴿رَبَّنَا﴾ خمسَ مرَّات؛ كل ذلك على سَبيلِ الاستعطاف، وتَطلُّبِ رحمةِ الله تعالى بِندائِه بهذا الاسمِ الشريفِ الدالِّ على التربيةِ والمُلكِ والإصلاح، وفيه أيضًا دَلالةٌ على الإلحاحِ في المسألة، واعتمادِ كثرةِ الطَّلب مِن الله تعالى(٢)، وتَكرارُ الدُّعاءِ من أسبابِ الإجابة(٣).

١١- في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾ بيان أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بذَلَ الجهدَ في دعوةِ الخَلْق إلى الحقِّ؛ لأنَّ النداءَ يكون برفْعِ الصوت، فكأنَّ الرَّسولَ عليه الصَّلاة والسَّلام يدعو الناسَ بأعْلَى صوتِه يُناديهم للإيمانِ(٤).

١٢- أنَّ الكلمات قد يُستغنى بمُجملها عن تفصيلها؛ لقوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا﴾ أي: بكلِّ شيءٍ يجب الإيمان به، فكلُّ ما أخبر اللهُ به، وصَدَّقْنا به، وأَقْرَرْنا به، فهو داخلٌ في الإيمانِ باللهِ عزَّ وجلَّ(٥).

---

(١) يُنظر: ((الموافقات)) للشاطبي (٤/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٤٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٧٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٧٥).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٥٧).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

١٣- الإشارةُ إلى بيانِ عِلَّة الإيمان؛ لقوله: ﴿أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾؛ فالربُّ أهلٌ لأنْ يُؤمِنَ به الإنسانُ؛ لأنَّه ربٌّ خالقٌ، مالكٌ، مُدبِّر؛ فهو جديرٌ بأنْ يُؤمِن به العبدُ[١].

١٤- جوازُ التوسُّل في الدعاءِ بالأعمالِ الصالحة؛ لقولهم: ﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ عطفًا على قولهم: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا﴾، والتوسُّلُ بالأعمالِ الصَّالحة ممَّا ثبَت بالسُّنة أيضًا[٢].

١٥- أنَّه يَنبغي للدَّاعي أنْ يُكثِرَ مِن الثناءِ على اللهِ تعالى بأسمائِه وصِفاتِه؛ لأنَّ هذا مِن وسائلِ إجابةِ الدُّعاءِ، كما قال تعالى حاكيًا عن الدَّاعينَ الذين أَثْنَى عليهم: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ....﴾[٣].

١٦- يَتبادر سؤالٌ عندَ قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ...﴾، وهو أنَّ الخُلفَ في وعْدِ اللهِ محالٌ؛ فكيفَ طلبوا بالدُّعاءِ ما عَلِموا أنَّه لا محالةَ واقعٌ؟ والجوابُ عنه من وجوه:

الأوَّل: أنَّه ليس المقصودُ من الدَّعاء طلبَ الفِعل، بل المقصودُ منه إظهارُ الخضوعِ والذلَّة والعُبوديَّة، وكَمالِ الضَّراعة والابتهال، وقد أُمِرْنا بالدُّعاءِ في أشياءَ نعلمُ قطعًا أنَّها تُوجدُ لا محالةَ، كقوله: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ [الأنبياء: ١١٢]، وقوله: ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ [غافر: ٧].

الثاني: أنَّ وعْدَ اللهِ لا يتناول آحادَ الأمَّةِ بأعيانهم، بل إنَّما يتناولهم بحسَبِ أوصافهم؛ فإنَّه تعالى وعَدَ المتَّقين بالثواب، ووعَد الفُسَّاقَ بالعقاب، فقوله:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٥٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٥٨).

وينظر ما رواه البخاري (٢٢١٥) ومسلم (٢٧٤٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما في قصة الثلاثة الذين سدَّت الصخرةُ عليهم الغارَ.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٦٦).

﴿وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا﴾ معناه: وفِّقْنا للأعمالِ التي بها نَصيرُ أهلًا لوعدِك، واعْصِمْنا من الأعمالِ التي نَصيرُ بها أهلًا للعقابِ والخزي، وعلى هذا التقديرِ يكونُ المقصودُ مِن هذه الآيةِ طلَبَ التوفيقِ للطَّاعة، والعِصمةِ عن المعصيةِ، فهذه الدعواتُ ليستْ لخوفِهم من إخلافِ الميعاد، بل لخوفِهم مِن أنْ لا يكونوا مِن جملةِ الموعودِين بسببِ تغيُّرِ الحالِ، وسوءِ الخاتمةِ والمآل؛ فمَرجعُها إلى الدُّعاءِ بالتثبيت.

الثالث: أنَّ اللهَ تعالى وعَدَ المؤمنين بأنْ يَنصُرَهم في الدُّنيا، ويَقهرَ عدوَّهم؛ فهم طلبوا تَعجيلَ ذلك(١).

١٧- قوله تعالى: ﴿مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾ بيان لـ﴿عَامِلٍ﴾، قيل: وجهُ الحاجةِ إلى هذا البيانِ هنا: دفْعُ توهُّمِ أنَّ النساءِ لا حَظَّ لهنَّ في تحقيقِ الوعد، الذي وعَد اللهُ على ألْسنةِ رُسلِه(٢).

١٨- قولُ الله تعالى: ﴿ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فيه الإشارةُ إلى عِظَمِ هذا الثوابِ بقَوْله: ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فاللهُ تعالى أضافَه إليه ونَسَبه إليه؛ ليدُلَّ على أنَّه عظيمٌ؛ لأنَّ العظيمَ الكريمَ لا يُعْطي إلا جزيلًا كثيرًا؛ فالعَطيَّةُ تَعظُمُ بحسَبِ مُعْطيها، والهِبَةُ تَعظُم بحسَبِ واهبِها(٣).

بَلاغَةُ الآيات:

١- قوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تذييلٌ بوعيدٍ يدلُّ على أنَّ اللهَ تعالى لا يَخفى عليه ما يَكتمُون مِن أخلاقِهم وطِباعِهم(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٢-١٣٣)..
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٠٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٧٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٩٥).

- وفيه تقديمٌ للخبر ﴿لِلَّهِ﴾، وأفادَ هذا التقديمُ أنَّ مُلكَ السَّمواتِ والأرضِ خاصٌّ باللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه إذا قُدِّم ما حقُّه التأخيرُ، كان ذلك دليلًا على الحَصْر[١].

٢- **قوله:** ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تقريرٌ لاختصاصِ مُلكِ العالَمِ به سبحانَه وتعالى؛ فإنَّ كونَه تعالى قادرًا على الكلِّ بحيثُ لا يشِذُّ من ملكوتِه شيءٌ من الأشياء، يَستدعي كونَ ما سواه كائنًا ما كان مَقدورًا له، ومِن ضَرورتِه اختصاصُ القُدرةِ به تعالى، واستحالةُ أنْ يشاركَه شيءٌ مِن الأشياءِ في القُدرةِ على شيءٍ مِن الأشياءِ، فضلًا عن المشاركةِ في مُلكِ السَّمواتِ والأرض[٢].

- وفيه تقريرٌ لِمَا مرَّ مِن ثُبوتِ العذابِ الأليمِ لهم، وعَدمِ نجاتِهم منه[٣].

- وفيه إظهارُ الاسمِ الجليلِ (وَاللَّهُ) في مَوقعِ الإضمارِ (وهو)؛ لتربيةِ المهابةِ، والإشعارِ بمناطِ الحُكم؛ فإنَّ شمولَ القُدرةِ لجَميعِ الأشياءِ من أحكامِ الأُلوهيَّة، مع ما فيه مِن الإشعارِ باستقلالِ كلٍّ من الجُملَتين بالتقرير[٤].

٣- **قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾:**

- قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَات وَالْأَرْضِ﴾: جملةٌ مُستأنفةٌ سِيقتْ لتقريرِ ما سبَق مِن اختصاصِه تعالى بالسُّلطانِ القاهرِ، والقُدرةِ التامَّةِ، وصُدِّرتْ بكلمة التأكيدِ ﴿إِنَّ﴾ اعتناءً بتحقيق مضمونِها، أي: في إنشائِها على ما هي عليه في ذواتِها وصِفاتِها، من الأمورِ التي يَحارُ في فَهمِ أجلاها العقولُ[٥]،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٣٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٢٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وأفاد حرفُ ﴿إِنَّ﴾ أيضًا الاهتمامَ بالخبر[١].

- قوله: ﴿لَآيَاتٍ﴾: التنكيرُ فيه للتفخيمِ كمًّا وكيفًا، أي: لآياتٍ كثيرةً عظيمة[٢].

- قوله: ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾: فيه اختصاصٌ[٣]، أفادَ أنَّ أصحابَ العقولِ السليمةِ هم أَوْلى النَّاسِ وأحقُّهم بهذا الوَصْفِ.

٤- قوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فيه إيجازٌ، حيثُ انطوى تَحتَ هذا الإيجازِ في ﴿خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ كلُّ مَا تمخَّض عنه العِلمُ من رَوائعِ المُكتَشفات، وبَدائعِ المُستنبَطات[٤].

٥- قوله: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾ (هذا) كِنايةٌ عن المخلوق، يعني: ما خَلقتَ هذا المخلوقَ العجيبَ باطلًا، والتعبيرُ بـ﴿هَذَا﴾ ضربٌ من التَّعظيم، كقوله: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[٥][الإسراء: ٩].

- وقوله: ﴿سُبْحَانَكَ﴾: اعتراضٌ، فيه تأكيدٌ لمضمونِ ما قَبْلَه، وتمهيدٌ لِمَا بعدَه[٦].

٦- قوله: ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ جِيء بفاءِ التعقيب؛ لترتيبِ الدُّعاءِ على ما ذُكِر، وللاستعدادِ لقَبول الدُّعاءِ؛ فالفاءُ لترتيبِ المدعوِّ (الوقايَة) على ذلك، كأنَّه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٨٧).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٣٢)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٦٠٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٥٤)، ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣١).

قيل: وإذ قدْ عرَفْنا سِرَّك(١)، وأَطَعْنا أَمْرَك، ونزَّهناك عمَّا لا يَنبغي؛ فقِنا عَذابَ النارِ الذي هو جزاءُ الذين لا يَعرِفون ذلك(٢).

٧- قوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾:

- فيه مبالغةٌ في استدعاءِ الوقايةِ، وبيانٌ لسببِه(٣).

- وتصديرُ الجملةِ بالنِّداء ﴿رَبَّنَا﴾؛ للمبالغةِ في التضرُّع(٤).

- وتأكيدُها بـ(إنَّ)؛ لإظهارِ كمالِ اليقينِ بمضمونها، والإيذانِ بشدَّةِ الخوفِ(٥).

- وإظهارُ ﴿النَّارَ﴾ في موضِع الإضمارِ؛ لتهويلِ أمرِها(٦).

- وذِكرُ الإدخالِ ﴿تُدْخِلِ﴾ في مَوردِ العذابِ؛ لتعيينِ كيفيتِه، وتَبيينِ غايةِ فَظاعتِه(٧).

- وفي قوله: ﴿أَخْزَيْتَهُ﴾: تهويلُ المستعاذِ منه؛ تَنبيهًا على شِدَّة خوفِهم، وطلبِهم الوقايةَ منه، وفيه إشعارٌ بأنَّ العذابَ النَّفسي أفظعُ مِن العذابِ البدنيِّ(٨).

٨- قوله: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ تذييلٌ؛ لإظهارِ نهايةِ فظاعةِ حالِهم،

---

(١) قال أبو السعود: (فإنَّ مَعرفةَ سرِّ خلْقِ العالمِ، وما فيه من الحِكمةِ البالغةِ والغايةِ الحميدةِ، والقيامَ بما تقتضيه مِن الأعمالِ الصالحةِ، وتَنزيهَ الصانعِ تعالى عن العَبَثِ مِن دَواعي الاستعاذةِ ممَّا يَحيق بالمُخلِّين بذلك، مِن وجهين؛ أحدُهما: الوقوفُ على تحقُّق العذابِ، فالفاءُ لترتيبِ الدُّعاءِ عَلَى ما ذُكِر، والثَّاني الاستعدادُ لقَبول الدعاءِ...). ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٩٨).

(٤) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٥) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٦) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٧) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٨) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٥٤).

بيانِ خُلودِ عَذابِهم بفُقدانِ مَن ينصُرهم، ويقومُ بتخليصِهم، وغَرضُه تأكيدُ استدعاءِ الوقايةِ(١).

- وفيه: وضْع الظاهر ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ موضعَ المضمَر - فقد كان مُقتضَى الظاهر أنْ يُقال: (وما لهم) أو (وما له)؛ مُراعاةً لمعنى ﴿مَنْ﴾ (العموم)، أو مُراعاةً للفظِها (الإفراد)- وفائدة هذا الإظهارِ: الإشعارُ بتخصيصِ الخِزي بهم، والإشعارُ بتعليلِ دُخولِهم النارَ بظُلْمِهم، ووضعِهم الأشياءَ في غيرِ مواضعِها(٢).

٩- قوله: ﴿رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾ فيه: تصديرُ مُقدِّمةِ الدُّعاءِ بالنِّداء ﴿رَبَّنا﴾؛ لإظهارِ كمالِ الضَّراعةِ والابتهال(٣).

- وفيه: إيجازٌ، حيث أَوقعَ الفِعلَ على المُسمَع، وحَذَف المسموعَ؛ لدلالةِ وصْفِه عليه، وهو يُفيد مبالغةً ليستْ في إيقاعِه على نفْس المسموعِ(٤).

- وفيه إطنابٌ بالتَّكرار، وهو الجَمْع بين ﴿مُنَادِيًا﴾ و﴿يُنَادِي﴾؛ وذلك أنَّه ذَكَر النِّداءَ في الأوَّلِ مُطلقًا، ثمَّ ذَكَره في الثَّاني مُقيَّدًا بالإيمان؛ وفائدتُه تفخيمُ شأنِ المُنادِي وتعظيمُه؛ لأنَّه لا مُنادِي أعظمُ من منادٍ ينادي للإيمان؛ وذلك لأنَّ المنادِي إذا أُطلق ذهَب الوهمُ إلى منادٍ للحرب، أو لإغاثة المكروبِ، أو الكفايةِ لبعضِ النوازل، فإذا قلت: يُنادي للإيمان، فقد رفعتَ من شأنِ المنادِي وفخَّمته(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٣٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣١-١٣٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٥٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٥٥)، ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٦٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٥٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٣٨).

١٠- قوله: ﴿فَآمَنَّا﴾ فاء التعقيب؛ للدَّلالةِ على المبادرةِ، والسَّبقِ إلى الإيمان، وذلك دليلُ سلامةِ فِطرتِهم مِن الخطأِ والمكابرة، وقد توسَّموا أنْ تكونَ مبادرتُهم لإجابةِ دعوةِ الإسلامِ مشكورةً عندَ الله تعالى[1].

١١- قوله: ﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ فيه تكرارٌ؛ للتأكيد، حيث طلَبوا من اللهِ تعالى في هذا الدُّعاءِ غُفرانَ الذُّنوب، وتكفيرَ السيِّئات- على القولِ بأنَّ المرادَ بهما شيءٌ واحد-؛ وإنَّما أُعيدَ ذلك للتأكيدِ؛ لأنَّ الإلحاحَ في الدُّعاءِ والمبالغةَ فيه مندوبٌ[2].

- والفاء في قوله: ﴿فَاغْفِرْ لَنَا﴾ لترتيبِ المغفرةِ، أو الدُّعاءِ بها على الإيمانِ به تعالى، والإقرارِ برُبوبيَّته؛ فإنَّ ذلك مِن دواعي المغفرةِ والدُّعاءِ بها[3].

١٢- في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ... إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ ما يُسمَّى بـ(الإسجال)؛ فقد سجَّل المولى سبحانَه على ألْسنةِ عِبادِه تحقيقَ موعودِه على لِسانِ رسولِه، وبتأمُّل قوله: ﴿مَا وَعَدْتَنَا﴾ يتَّضح أنَّ هذا الوَعدَ قد أصبح مُبرَمًا، لا انفكاكَ لإبرامِه[4].

- وتكريرُ ﴿رَبَّنَا﴾؛ للمبالغةِ في الابتهالِ، والدَّلالة على استقلالِ المطالِب وعُلوِّ شأنها، والإعلامِ بما يُوجِب حُسنَ الإجابة وحُسنَ الإثابةِ، من احتمالِ المشاقِّ في دِينِ اللهِ، والصبرِ على صُعوبة تكاليفِه[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٢).

(٤) يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٤/ ٦٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٤٢)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٦٠٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٥٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٢).

- قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾: تعليلٌ لتحقيقِ ما طلَبوا من الدُّعاء[1].

١٣- قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾:

- صِيغةُ الماضي في قوله: ﴿فَاسْتَجَابَ﴾ هاهنا للإيذانِ بتحقُّقِ الاستجابةِ وتقرُّرِها[2].

- قوله: ﴿فَاسْتَجَابَ﴾ بمعنى أجاب؛ فالسِّينُ والتاءُ للتأكيدِ، و(استجاب) أخصُّ مِن (أجاب)؛ لأنَّ (استجاب) يُقال لِمَن قبِل ما دُعي إليه، و(أجاب) أعمُّ، فيُقال لِمَن أجاب بالقَبول وبالردِّ[3].

- قوله: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ﴾ فيه التفاتٌ إلى التكلُّم والخِطاب؛ لإظهارِ كمالِ الاعتناءِ بشأنِ الاستجابةِ، وتَشريفِ الدَّاعين بشَرفِ الخِطاب، والمرادُ تأكيدُها ببيانِ سببِها، والإشعارُ بأنَّ مَدارَها أعمالُهم التي قدَّموها على الدُّعاء، لا مُجرَّد الدُّعاء، وتَعميمُ الوعدِ لسائرِ العاملين- وإنْ لم يَبلُغوا درجةَ أُولي الألباب-؛ لتأكيدِ استجابةِ الدَّعواتِ المذكورة[4].

- والتعبيرُ عن تَرْكِ الإثابةِ بالإضاعةِ ﴿لَا أُضِيعُ﴾؛ لبيانِ كَمالِ نزاهتِه تعالى عن ذلِك بتصويرِه بصورةِ ما يَستحيلُ صدورُه عنه من القَبائح، وإبرازِ الإثابةِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٢-١٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٣).

في مَعرِض الأمورِ الواجبةِ عليه(١).

- قوله: ﴿مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾ جملةٌ معترِضة بيَّن بها شركةَ النِّساءِ مع الرِّجالِ فيما وعَد للعمَّال(٢).

- وفيه بيان للتساوي في الأخبارِ المتعلِّقة بضمائرِ المخاطبين، أي: أنتُم في عِنايتي بأعمالِكم سواءٌ، وهو قضاءٌ لحقِّ ما لهم مِن الأعمال الصَّالحةِ المتساوين فيها؛ ليكونَ تمهيدًا لبساطِ تمييزِ المهاجِرين بفَضلِ الهجرةِ الآتي في قوله: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا...﴾ الآيات(٣).

- و﴿مِن﴾ بَيانيَّة، وقيل: إنَّها مؤكِّدة للنَّفي، بمعنى: عَمَل عاملٍ مِنكم ذِكرٍ أو أُنثى(٤).

- قوله: ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾: جملة مُعترِضة مُبيِّنة لسببِ انتظامِ النِّساءِ في سلكِ الرِّجالِ في الوعد؛ فإنَّ كونَ كلٍّ منهما من الآخَر - لتشعُّبهما من أصلٍ واحد، أو لفَرطِ الاتِّصال بينهما، أو لاتِّفاقهما في الدِّين والعمل - ممَّا يَستدعي الشركةَ والاتحاد(٥).

- قوله: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾: فيه نوعُ تَفصيلٍ لِمَا أُجمل في العملِ، وتَعدادٌ لبعضِ أحاسِن أفرادِه، على وجهِ المدح والتَّعظيم(٦)، وهو تَفريعٌ عن قوله: ﴿لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ﴾، وهو مِن ذِكرِ الخاصِّ بعدَ العامِّ؛ للاهتمامِ بذلك الخاصِّ(٧).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٣-١٣٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٥٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٠٣-٢٠٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٦٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٤).
(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٤).
(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٠٤).

الآيات (١٩٦ - ٢٠٠)

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧) لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ (١٩٨) وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿مَتَاعٌ﴾: مَنفعةٌ، وكلُّ ما حَصَل التمتُّع والانتفاعُ به على وجهٍ ما، والمتاعُ والمتعة: ما يُنتفعُ به انتفاعًا قليلًا غيرَ باقٍ، بل يَنقضي عن قَريبٍ، وأصل (متع): يدلُّ على مَنفعةٍ وامتدادِ مُدَّةٍ في خيرٍ(١).

﴿الْمِهَادُ﴾: الفِراشُ والقرارُ، والمهدُ: ما يُهيَّأ للصَّبي، وأصلُ المهاد: المكانُ الممهَّد الموطَّأ(٢).

﴿نُزُلًا﴾: أي: ثوابًا ورزقًا، والنُّزل: ما يُعدُّ للنازلِ من الزَّاد، أو ما يُهيأ للضَّيف(٣).

﴿وَرَابِطُوا﴾: اثبتُوا وداوِموا، وأصلُ المرابطة والرِّباط: ربْطُ كلِّ فريق لخيولهم في الثَّغر، كل يُعِدُّ لصاحبِه؛ فسُمِّي المقامُ بالثغور رباطًا، ومنه: مُلازمةُ ثَغرِ العَدُوِّ،

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٠٩).

كأنَّهم قدْ رُبِطُوا هناك فثَبَتوا به ولازَمُوه، وربْطُ الفرس: شدُّه بالمكانِ للحِفْظ، ومنه: رِباط الخيل، وسُمِّي المكانُ الذي يُخصُّ بإقامةِ حِفظِه فيه: رباطًا، وأصل الرَّبط: الشدُّ والثبات[1].

المعنى الإجماليُّ:

يَنهى اللهُ تعالى نبيَّه محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يَنخدعَ بما عليه الكافرون مِن تقلُّبٍ في البلادِ بأنواعِ التِّجاراتِ والمكاسِب، والغلبةِ في بعضِ الأوقات؛ فإنَّ ذلك مُتعةٌ قليلةٌ، فانيةٌ زائلة، ثم يكونُ مصيرُهم جهنَّمَ، وبئسَ المقرُّ.

أمَّا المتَّقون لربِّهم، فإنَّ لهم جَناتٍ تجري من تحتِها الأنهارُ، هي دارُهم التي يَمكُثون فيها على الدَّوام، أعدَّها اللهُ لهم مَنزلَ ضِيافةٍ، وما عندَ الله تعالى خيرٌ مِن متاعِ الدُّنيا لِمَن أطاع وأَحْسنَ العملَ.

ثم يُخبر تعالى أنَّ مِن أهل الكتاب طائفةً يُؤمنون بالله تعالى، ويُوحِّدونه، ويُؤمنون بما أُنزِلَ على مَحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وما أَنزَلَ الله إليهم مِن كتُب، خاضِعين لله، لا يُحرِّفون ما في كُتبهم، ولا يَكتمونه، ولا يُبدِّلونه مُقابلَ متاعٍ دُنيويٍّ زائل؛ فهؤلاء لهم عند الله ثوابٌ عظيمٌ، واللهُ سريعُ الحسابِ.

ثم يأمُر الله عِبادَه المؤمنين بالصَّبر، ومغالبةِ أعداءِ الدِّين بالصَّبر، حتى يَنتصروا عليهم، وأنْ يَلزموا الإقامةَ في الأماكنِ التي يُخشَى من وصولِ العدوِّ من خلالِها، وأنْ يَمنعوه من الوصولِ إلى مُبتغاه، وأنْ يتَّقوا اللهَ؛ وذلك مِن أجْل أنْ يفوزوا بمطلوبِهم، ويَنجُوا ممَّا يَرهبونَه.

تَفسيرُ الآيات:

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦)﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٤).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا وعَد اللهُ تعالى المؤمنين بالثَّوابِ العظيم، وكانوا في الدُّنيا في نهاية الفقرِ والشِّدَّة، والكفَّارُ كانوا في النِّعم، ذكَر اللهُ تعالى في هذه الآيةِ ما يُسلِّيهم، ويُصبِّرهم على تلك الشِّدَّة(١)، فقال:

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦)﴾.

أي: لا تَنخدِعْ- يا محمَّد- بظاهرِ ما عليه الكفَّارُ من تردُّدٍ على البلاد، وتنقُّلٍ فيها بأنواعِ التِّجاراتِ والمكاسبِ، بِما يجعلُهم في بَحبوحةٍ في العيش، وترَفٍ في الحياةِ، وعِزٍّ وغلبةٍ في بعضِ الأوقات(٢).

قال تعالى: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ [غافر: ٤].

﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧)﴾.

﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾.

أي: إنَّ هذا الذي عليه الكفَّارُ إنما هو لذائذُ فانيةٌ؛ فزمنُها محدودٌ، وتَنتهي بانقضاءِ أعمارِهم، وهي مُتعةٌ قليلةٌ كمًّا وكيفًا(٣).

﴿ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾.

أي: إنَّهم مُنتقِلون بعدَ مماتِهم وذَهابِ مُتعِهم، إلى الإقامةِ في نارِ جَهنَّم(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٨٠-٥٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٨٢-٥٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٨٣).

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤].

﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾.

أي: وبئس الفراشُ والمقرُّ هي، أي: جهنَّم[1].

﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ (١٩٨)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر الله سبحانه وتعالى الوعيدَ للذين كَفروا، أتْبعَه بالوعدِ بالنُّزُل للذين آمنوا[2]، فقال:

﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾

أي: أمَّا الذين امتَثلوا ما أمَر الله تعالى به، واجتَنبوا ما نهى عنه، فإنَّهم يُمتَّعون في الدارِ الآخِرةِ في جَنَّاتٍ تَجري من تحتها أنواعٌ من الأنهار، وهم ماكثونَ في هذا النَّعيمِ على الدَّوام[3].

﴿نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى قدْ أعدَّ لهم تلك الجنَّاتِ مَنزلَ ضِيافةٍ دائمًا، مِن كرامةِ اللهِ تعالى لهم[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٨٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٧٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٢٥-٣٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٨٧-٥٨٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٩٠).

﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾.

أي: وما عندَ اللهِ تعالى من النَّعيمِ والكرامةِ خيرٌ للطَّائعين- الذين أحْسَنوا العملَ- من متاعِ الدُّنيا القليلِ الزَّائل[1].

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى حالَ المؤمنين- وكان قدْ ذكَر حالَ الكفَّارِ مِن قبلُ بأنَّ مَصيرَهم إلى النَّار- بَيَّن في هذِه الآيةِ أنَّ مَن آمَنَ منهم كان داخلًا في صِفة الذين اتَّقوا[2].

وأيضًا لَمَّا حكَى اللهُ تعالى بعضَ مخالفاتِ أهلِ الكتابِ، مِن نبْذِ الميثاق، وتَحريفِ الكتابِ وغيرِ ذلك، سِيقتْ هذه الآيةُ؛ لبيانِ أنَّ أهلَ الكتابِ ليس كلُّهم كمَن حُكيتْ مخالفاتُهم، بل منهم مَن له مَناقبُ جليلةٌ، مثل: عبد الله بن سَلَام وأصحابه[3].

سببُ النُّزول:

عن أنسٍ رضِي اللهُ عنه، قال: لَمَّا جاء نعْيُ النَّجاشيِّ، قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((صلُّوا عليه، قالوا: يا رسولَ اللهِ، نُصلِّي على عَبدٍ حَبشيٍّ؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٦).

فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ﴾ الآية))(١).

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾.

أي: وإنَّ طائفةً من أهلِ الكتابِ مِن اليهودِ والنَّصارى يُؤمنون باللهِ تعالى حقَّ الإيمان، ويقرُّون بوحدانيَّته(٢).

﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾.

أي: إنَّهم يُؤمنون أيضًا بالقرآن، الذي أُنزل على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ(٣).

﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾.

أي: ويُؤمنون أيضًا بالكتُب السابقةِ، التي أَنزلها اللهُ تعالى إليهم، كالتَّوراة(٤).

﴿خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾.

أي: والحالُ أنَّهم خاضِعون للهِ تعالى، مُستكينين له ومُتذلِّلين(٥).

﴿لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

---

(١) رواه النسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٠٨٨)، والبزار (٦٥٥٦)، وابن المنذر في ((تفسيره)) (١٢٨٧)، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٥١٤٧).
وثَّق رجالَ الطبرانيِّ الهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٣/ ٤١)، وصحَّح إسنادَه الألباني في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٣٠٤٤)، وقال الوادعيُّ في ((الصحيح المسند من أسباب النزول)) (٧٠): الحديث بمجموع طُرقه يَرتقي إلى الحُجيَّة.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٩٣-٥٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٩٣).

(٤) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٩٥).

أي: لا يُحرِّفون ما في كُتُبِهم، ولا يُبدِّلونه، ولا يَكتمون ما فيها من العِلم- ومِن ذلك البشارةُ بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وبيانُ صِفتِه للناس-؛ ليَحْصُلوا في مُقابلِ ذلك على متاعٍ دُنيويٍّ زائلٍ، مِن منصبٍ، أو جاهٍ، أو مالٍ، وغير ذلك[1].

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾.

أي: إنَّ لأولئك القومِ المؤمنين ثوابًا عظيمًا عندَ الله سبحانه[2].

﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

أي: إنَّ حسابَ اللهِ عزَّ وجلَّ قريبٌ؛ لسُرعةِ انقضاء الدُّنيا، كما أنَّه سبحانه يُحاسبُ الخلائقَ يومَ القيامة على أعمالِهم في مُدَّةٍ وجيزة جدًّا[3].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنون، اصبِروا على جميعِ ما أمَرَكم اللهُ تعالى بالصَّبرِ عليه، كالصَّبرِ على طاعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، والصَّبرِ عن مَعصيتِه، والصَّبرِ على أقدارِه سبحانه[4].

﴿وَصَابِرُوا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٩٣، ١٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٩٥-٥٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٩٥-٥٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٦٠٠-٦٠١).

أي: وغالِبوا بالصبرِ أَعداءَ الدِّين، حتى تَنتصِروا عليهم؛ فلا يكونوا أصْبرَ منكم(١).

﴿وَرَابِطُوا﴾.

أي: والْزَموا الإقامةَ في الثُّغورِ؛ لِمَنْع العدوِّ من الوصولِ إليها، والنفوذِ منها إلى مُبتغاه(٢).

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

أي: واستعمِلوا تَقوى اللهِ عزَّ وجلَّ بامتثالِ أوامِره واجتنابِ نواهيه، ومِن ذلك: الأوامرُ السَّابقة، مِن الصَّبرِ والمصابرةِ والمرابطةِ في سبيلِه؛ وذلك مِن أجْل تحقيقِ الفوزِ بالمطلوب، والنَّجاةِ من المرهوبِ في الدُّنيا والآخِرة(٣).

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- نَهْي المسلمِ عن الاغترارِ بما أُوتي الكفَّار من النِّعمِ والرَّفاهية؛ لقوله: ﴿لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلاَدِ﴾؛ لأنَّ ما يُعطيه اللهُ العبدَ من الرَّخاء وسَعة الرِّزق والانطلاقِ في الأرض، ليس دليلًا على رِضاه عن العبدِ، وإنما المقياسُ لرِضا اللهِ عن العبدِ هو اتِّباعُ العبدِ لشرْعِ اللهِ تعالى(٤).

٢- أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد يَستدرجُ المرءَ بإغداقِ النِّعم عليه؛ فِتنةً له، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]؛ ووجه ذلك أنَّ اللهَ مَكَّن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٣٦-٣٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٦٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٣٧)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٥٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٠٨-٢٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٢-١٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٣٧-٣٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٦٠٣-٦٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٨٤).

هؤلاءِ الكفَّارَ من التقلُّبِ في البلادِ كما يَشاؤون؛ فتنةً لهم؛ ليستمرُّوا على ما هم عليه، فيكونَ ذلك شرًّا لهم- والعياذ بالله- كما قال تعالى: ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨](١).

٣- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ فيه: أنَّ الإنسانَ وإنْ تكلَّفَ الصَّبرَ والمصابرةَ، إلَّا أنَّ فيه أخلاقًا ذميمةً تَحمِل على أضدادِها، وهي الشهوةُ والغضبُ والحِرصُ، والإنسانُ ما لم يكُن مُشتغلًا طولَ عُمرِه بمجاهدتِها وقَهرِها، لا يُمكنه الإتيانُ بالصبرِ والمصابرةِ؛ فلهذا قال: ﴿وَرَابِطُوا﴾، ولَمَّا كانتْ هذه المجاهدةُ فِعلًا من الأفعال، ولا بدَّ للإنسانِ في كلِّ فِعلٍ يفعله من داعيةٍ وغرَض- وجَب أنْ يكون للإنسانِ في هذه المجاهدةِ غرضٌ وباعثٌ، وذلك هو تقوى اللهِ؛ لنَيل الفلاحِ والنَّجاح؛ فلهذا قال: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(٢).

٤- قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فيه: أنَّه لا سبيلَ إلى الفلاحِ بدون الصَّبرِ والمصابرةِ والمرابطةِ؛ فلم يُفلحْ مَن أفلحَ إلَّا بها، ولم يَفُتْ أحدًا الفلاحُ إلَّا بالإخلالِ بها أو ببَعضِها(٣).

٥- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فيه علَّم اللهُ تعالى عبادَه كيفيَّةَ حَرْبِ الشَّيطانِ وجهادِه، فجمعها لهم في أربعِ كلماتٍ في هذه الآيةِ، ولا يتمُّ أمرُ هذا الجهادِ إلا بهذه الأمورِ الأربعةِ، فلا يتمُّ له الصَّبرُ إلَّا بمصابرةِ العدُوِّ، وهي مُنازَلَتُه، فإذا صابَرَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٨٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٧٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٣).

عدوَّه احتاجَ إلى أمرٍ آخَرَ، وهو المرابَطَةُ، وهي لزومُ ثَغْرِ القلب وحراسَتُه؛ لئلَّا يدخُلَ منه العدوُّ، ولزومُ ثَغْرِ العَينِ والأُذُن واللِّسان والبَطْن واليَد والرِّجْل، فهذه الثُّغورُ منها يدخلُ العَدُوُّ، فيجوس خلالَ الدِّيارِ، ويُفسِدُ ما قَدَرَ عليه، فالمرابطةُ لُزومُ هذه الثُّغورِ، ولا يُخْلي مكانَها، فيصادف العدوُّ الثغرَ خاليًا، فيدْخُل منه. وجِماعُ هذه الثَّلاثةِ وعمودُها الذي تقوم به هو تقوى الله، فلا ينفَعُ الصَّبْرُ ولا المصابَرَةُ ولا المرابطَةُ إلَّا بالتَّقوى، ولا تقومُ التَّقوى إلَّا على ساقِ الصَّبرِ[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾، إنْ قيل: كيف جازَ أنْ يَغترَّ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بذلك حتى يُنهى عنه وعن الاغترارِ به؟ فالجوابُ: إما أنَّ مُقدَّمَ القومِ يُخاطَبُ بشيءٍ، فيقوم خِطابُه مقامَ خِطابهم جميعًا، فكأنَّه قيل: لا يَغُرَّنَّكم. أو أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان غيرَ مغرورٍ بحالهم، فأكَّد عليه ما كان، وثبَت على الْتزامِه، كقوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤] أو يكون الخطابُ لكلِّ أحدٍ[2].

٢- الإشارةُ إلى أنَّ هذا النَّعيمَ الذي يُدركه الكفَّارُ في الدنيا سوف يُنسى بهذا المأوى السيِّئ؛ فإذا كان المأوى هو النارَ، نسُوا كلَّ شيء؛ ﴿ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾[3].

٣- قال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ هذه الآيةُ المقصودُ منها التسليةُ عمَّا يحصُلُ للَّذين كفروا مِن متاعِ الدُّنيا، وتنعُّمِهم فيها، وتقلُّبِهم في البلادِ بأنواعِ التِّجاراتِ والمكاسِبِ

(١) يُنظر: ((الداء والدواء)) لابن القيم (١/ ٢٢٨- ٢٢٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٤٥٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٨٦).

واللَّذَّات، وأنواعِ العِزِّ، والغَلَبَة في بعضِ الأوقات؛ فإنَّ هذا كلَّه ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ ليس له ثبوتٌ ولا بقاءٌ، بل يتمتَّعونَ به قليلًا ويُعَذَّبون عليه طويلًا(١).

٤- قوله تعالى: ﴿نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فيه عِظَمُ هذا الجزاءِ والثوابِ الذي يَحصُل لهم؛ لأنَّه نُزلٌ من عند أكرمِ الأَكْرَمِينَ، وهو الله عزَّ وجلَّ(٢).

٥- مرجِعُ الدِّينِ كُلِّه إلى قواعِدَ ثلاثٍ؛ وهي: فِعْلُ المأمور، وتَرْكُ المحظور، والصَّبْرُ على المقدور؛ وقد ذكر تعالى هذه الأصولَ الثَّلاثةَ في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ فكلُّ موضعٍ قُرِنَ فيه التَّقوى بالصَّبرِ اشتملَ على هذه الأمورِ الثَّلاثةِ؛ فإنَّ حقيقةَ التَّقوى فِعْلُ المأمورِ وتَرْك المحظورِ(٣).

٦- في قولِه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أمَرَهم بالصَّبر وهو حالُ الصَّابِرِ في نفْسِه، والمصابرةِ وهي حالُه في الصَّبر مع خَصْمِه- فهي مقاومةُ الخَصْمِ في مَيدانِ الصَّبرِ؛ فإنَّها مُفاعَلَةٌ تَستدعِي وقوعَها بين اثنينِ، كالمُشاتَمةِ والمُضاربةِ-، والمرابطةِ وهي الثباتُ واللُّزومُ والإقامةُ على الصَّبر والمصابرةِ؛ فقدْ يَصبِرُ العبدُ ولا يُصابِر، وقد يُصابِر ولا يُرابِط، وقد يَصبِر ويُصابِر ويُرابِطُ مِن غيرِ تعبُّدٍ بالتَّقوى؛ فأَخْبَرَ سبحانه أنَّ مِلاكَ ذلك كلِّه التَّقوى، وأنَّ الفَلاحَ موقوفٌ عليها، فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(٤).

٧- ختَم سبحانه السُّورةَ بهذه الوصيةِ للمؤمنين بقولِه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٩١).
(٣) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ٢٨، ٣١)
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص:٢١).

آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ قيل: لأنَّها هي التي تَتحقَّق بها استجابةُ ذلك الدُّعاءِ، وإيفاءُ الوعدِ بالنَّصرِ في الدنيا، وحُسنُ الجزاءِ في الآخِرة(١).

بَلاغَةُ الآيات:

١- ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ إيرادُ التقوى في حيِّز الصِّلة ﴿الَّذِينَ﴾؛ للإشعارِ بكونِ الخِصال المذكورةِ من بابِ التقوى(٢).

٢- قوله: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ الجملةُ تذييلٌ لِمَا قبلَها(٣).

- والتعبيرُ عن المتقين بـ(الأبرار)؛ للإشعارِ بأنَّ الصِّفاتِ المعدودةَ من أعمالِ البِرِّ، كما أنَّها من قَبيلِ التقوى(٤).

٣- قوله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارةٌ إليهم مِن حيثُ اتِّصافُهم بما عُدَّ من صِفاتِهم الحميدةِ، وما فيه من مَعنى البُعد؛ للدَّلالةِ على عُلوِّ رُتبتهم، وبُعدِ مَنزلتِهم في الشَّرفِ والفضيلةِ(٥).

٤- قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾:

- قوله: ﴿وصَابَرِوا﴾: عبَّر بصِيغة المفاعَلة، مع أنَّ (المصابرة) بابٌ من الصَّبر الذي ذُكرَ قبلَه في قوله: ﴿اصْبِرُوا﴾؛ تَخصيصًا لشدَّتِه وصُعوبتِه(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٥)

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٠٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٦٠).

٥- وفي الآيةِ من البَلاغة: حُسنُ الختامِ، وحُسنُ البيانِ؛ حيث جاءَ ختامُ سورةِ آلِ عمران حَسنًا جدًّا، فكما جاءَ خِتامُ سورةُ البقرةِ مُشتملًا على الدُّعاءِ، جاءَ ختامُ سورة آلِ عمران مشتملًا على عَددٍ من الوصايا النافعةِ، كالدُّعاءِ وطَلبِ التَّقوى التي هي ملاكُ الأمْر وزِمامُه، وهذا هو حُسنُ الختامِ؛ ليَبقَى راسخًا في الأسماعِ، وهذا هو حُسنُ البيان[1]؛ فإنَّه لَمَّا ذكَر في هذه السُّورةِ أنواعًا كثيرةً مِن عُلوم الأصولِ- فيما يَتعلَّقُ بتقريرِ التوحيدِ والعدلِ والنبوَّة والمعاد- والفروع- فيما يتعلَّقُ بالتكاليفِ والأحكامِ نحوَ الحجِّ والجهادِ وغيرهما- ختَم هذه السُّورةَ بهذه الآيةِ المشتملةِ على جَميعِ الآدابِ؛ وذلك لأنَّ أحوالَ الإنسانِ قِسمان: منها ما يَتعلَّق به وحْدَه، ومنها ما يكونُ مُشتركًا بينَه وبينَ غيرِه، أمَّا القِسمُ الأوَّل فلا بدَّ فيه مِن الصَّبر، وأمَّا القِسم الثاني فلا بدَّ فيه مِن المصابَرة[2].

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٤٦)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٦١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٧٣).

الفهرس

* * *

الفهرس

تَفْسِيرُ سُورَةِ آلِ عِمْرانَ...... ٥
أسماءُ السُّورة ٧
فضائلُ السُّورةِ وخَصائِصُها. ٧
مقاصد السُّورةِ ٩
موضوعاتُ السُّورةِ........ ٩
الآيات (١ - ٤)........... ١٢
غريبُ الكَلِماتِ ١٢
المَعنَى الإجماليُّ.......... ١٣
تَفسيرُ الآياتِ.......... ١٣
الفَوائِدُ التَّربويَّة ١٦
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف... ١٧
بَلاغَةُ الآياتِ.......... ١٩
الآيات (٥ - ٩)........... ٢٦
غريبُ الكَلِماتِ ٢٦
مُشكِلُ الإعرابِ.......... ٢٨
المَعنَى الإجماليُّ.......... ٢٨
تَفسيرُ الآياتِ.......... ٢٩
الفَوائِدُ التَّربويَّة ٣٧
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف .. ٤٠
بَلاغَةُ الآياتِ ٤٤
الآيتان (١٠ - ١١)......... ٥١
المَعنَى الإجماليُّ........... ٥١
تَفسيرُ الآيتين.............. ٥٢
الفَوائِدُ التَّربويَّة ٥٤
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف... ٥٤
بَلاغَةُ الآيتين ٥٦
الآيتان (١٢ - ١٣) ٥٩
غريبُ الكَلِماتِ ٥٩
المَعنَى الإجماليُّ........... ٥٩
تَفسيرُ الآيتين.............. ٦٠
الفَوائِدُ التَّربويَّة ٦٤
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف... ٦٦
بَلاغَةُ الآيتين ٦٧
الآيات (١٤ - ١٧) ٧٠
غريبُ الكَلِماتِ ٧٠
المَعنَى الإجماليُّ........... ٧١
تَفسيرُ الآياتِ.............. ٧٢

الفَوائِدُ التَّربويَّة ٧٨
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف... ٨١
بَلاغَةُ الآياتِ ٨٥
الآية (١٨) ٩٠
غريبُ الكَلِماتِ ٩٠
مُشكِلُ الإعرابِ ٩٠
المَعنَى الإجماليُّ.......... ٩١
تَفسيرُ الآية ٩١
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف... ٩٣
بَلاغَةُ الآية ٩٦
الآيتان (١٩ - ٢٠)......... ٩٨
غريبُ الكَلِماتِ ٩٨
المَعنَى الإجماليُّ ٩٨
تَفسيرُ الآيتين............... ٩٩
الفَوائِدُ التَّربويَّة ١٠٣
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف... ١٠٣
بَلاغَةُ الآيتين ١٠٥
الآيتان (٢١ - ٢٢)......... ١٠٩
غريبُ الكَلِماتِ ١٠٩
المَعنَى الإجماليُّ ١٠٩
تَفسيرُ الآيتين.............. ١٠٩
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف .. ١١٢
بَلاغَةُ الآيتين ١١٣
الآيات (٢٣ - ٢٥) ١١٩
المَعنَى الإجماليُّ ١١٩
تَفسيرُ الآياتِ.............. ١١٩
الفَوائِدُ التَّربويَّة ١٢٣
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف... ١٢٥
بَلاغَةُ الآياتِ ١٢٥
الآيتان (٢٦ - ٢٧)......... ١٢٩
غريبُ الكَلِماتِ ١٢٩
مُشكِلُ الإعرابِ ١٢٩
المَعنَى الإجماليُّ ١٣٠
تَفسيرُ الآيتين.............. ١٣٠
الفَوائِدُ التَّربويَّة ١٣٤
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف... ١٣٥
بَلاغَةُ الآيتين ١٣٦
الآية (٢٨) ١٣٨

المَعنَى الإجماليُّ ١٣٨
تَفسيرُ الآية ١٣٨
الفَوائِدُ التَّربويَّة ١٤١
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف ... ١٤١
بَلاغَةُ الآية ١٤٢
الآيتان (٢٩ - ٣٠) ١٤٥
غريبُ الكَلِماتِ ١٤٥
المَعنَى الإجماليُّ ١٤٥
تَفسيرُ الآيتين ١٤٦
الفَوائِدُ التَّربويَّة ١٤٨
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف .. ١٥٠
بَلاغَةُ الآيتين ١٥٣
الآيتان (٣١ - ٣٢) ١٥٩
المَعنَى الإجماليُّ ١٥٩
تَفسيرُ الآيتين ١٥٩
الفَوائِدُ التَّربويَّة ١٦١
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف ... ١٦٢
بَلاغَةُ الآيتين ١٦٤
الآيات (٣٣ - ٣٧) ١٦٦
غريبُ الكَلِماتِ ١٦٦
مُشكِلُ الإعرابِ ١٦٧
المَعنَى الإجماليُّ ١٦٧
تَفسيرُ الآياتِ ١٦٨
الفَوائِدُ التَّربويَّة ١٧٥
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف ... ١٧٧
بَلاغَةُ الآياتِ ١٧٩
الآيات (٣٨ - ٤١) ١٨٥
غريبُ الكَلِماتِ ١٨٥
المَعنَى الإجماليُّ ١٨٦
تَفسيرُ الآياتِ ١٨٧
الفَوائِدُ التَّربويَّة ١٩٢
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف ... ١٩٣
بَلاغَةُ الآياتِ ١٩٥
الآيات (٤٢ - ٤٤) ١٩٩
غريبُ الكَلِماتِ ١٩٩
المَعنَى الإجماليُّ ١٩٩
تَفسيرُ الآياتِ ٢٠٠
الفَوائِدُ التَّربويَّة ٢٠٢

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف... ٢٠٣
بَلاغَةُ الآياتِ ٢٠٥
الآيات (٤٥ – ٥١) ٢٠٧
غريبُ الكَلِماتِ ٢٠٧
المَعنَى الإجماليُّ............ ٢٠٨
تَفسيرُ الآياتِ............... ٢٠٩
الفَوائِدُ التَّربويَّة ٢١٧
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف... ٢١٨
بَلاغَةُ الآياتِ ٢٢٣
الآيات (٥٢ – ٥٨) ٢٢٩
غريبُ الكَلِماتِ ٢٢٩
مُشكِلُ الإعرابِ ٢٣٠
المَعنَى الإجماليُّ............ ٢٣٠
تَفسيرُ الآياتِ............... ٢٣١
الفَوائِدُ التَّربويَّة ٢٣٨
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف... ٢٤١
بَلاغَةُ الآياتِ ٢٤٤
الآيات (٥٩ – ٦٣) ٢٤٧
غريبُ الكَلِماتِ ٢٤٧
مُشكِلُ الإعرابِ ٢٤٧
المَعنَى الإجماليُّ............ ٢٤٨
تَفسيرُ الآياتِ............... ٢٤٩
الفَوائِدُ التَّربويَّة ٢٥٢
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف... ٢٥٣
بَلاغَةُ الآياتِ ٢٥٧
الآيات (٦٤ – ٦٨) ٢٦٠
غريبُ الكَلِماتِ ٢٦٠
مُشكِلُ الإعرابِ ٢٦٠
المَعنَى الإجماليُّ............ ٢٦١
تَفسيرُ الآياتِ............... ٢٦٢
الفَوائِدُ التَّربويَّة ٢٦٨
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف... ٢٦٨
بَلاغَةُ الآياتِ ٢٧٢
الآيات (٦٩ – ٧١) ٢٧٥
غريبُ الكَلِماتِ ٢٧٥
المَعنَى الإجماليُّ ٢٧٥

تَفسيرُ الآياتِ	٢٧٥	بَلاغَةُ الآيتين	٣٠١
الفَوائِدُ التَّربويَّة	٢٧٨	الآيات (٧٧ – ٨٠)	٣٠٣
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف	٢٧٩	غريبُ الكَلِماتِ	٣٠٣
بَلاغَةُ الآياتِ	٢٨١	المَعنَى الإجماليُّ	٣٠٣
الآيات (٧٢ – ٧٤)	٢٨٢	تَفسيرُ الآياتِ	٣٠٤
غريبُ الكَلِماتِ	٢٨٢	الفَوائِدُ التَّربويَّة	٣١٢
مُشكِلُ الإعرابِ	٢٨٢	الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف	٣١٣
المَعنَى الإجماليُّ	٢٨٣	بَلاغَةُ الآياتِ	٣١٧
تَفسيرُ الآياتِ	٢٨٤	الآيتان (٨١ – ٨٢)	٣٢١
الفَوائِدُ التَّربويَّة	٢٨٩	غريبُ الكَلِماتِ	٣٢١
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف	٢٩٠	مُشكِلُ الإعرابِ	٣٢١
بَلاغَةُ الآياتِ	٢٩١	المَعنَى الإجماليُّ	٣٢٢
الآيتان (٧٥ – ٧٦)	٢٩٤	تَفسيرُ الآيتين	٣٢٣
غريبُ الكَلِماتِ	٢٩٤	الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف	٣٢٧
المَعنَى الإجماليُّ	٢٩٤	بَلاغَةُ الآيتين	٣٢٩
تَفسيرُ الآيتين	٢٩٥	الآيات (٨٣ – ٨٥)	٣٣٢
الفَوائِدُ التَّربويَّة	٢٩٨	المَعنَى الإجماليُّ	٣٣٢
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف	٣٠٠	تَفسيرُ الآياتِ	٣٣٣

الفَوائِدُ التَّربويَّة ٣٣٧
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف ... ٣٣٨
بَلاغَةُ الآياتِ ٣٣٩
الآيات (٨٦ - ٨٩) ٣٤٤
المَعنَى الإجماليُّ ٣٤٤
تَفسيرُ الآياتِ ٣٤٤
الفَوائِدُ التَّربويَّة ٣٤٨
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف ... ٣٤٩
بَلاغَةُ الآياتِ ٣٥٠
الآيتان (٩٠ - ٩١) ٣٥٢
المَعنَى الإجماليُّ ٣٥٢
تَفسيرُ الآيتَينِ ٣٥٢
الفَوائِدُ التَّربويَّة ٣٥٥
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف ... ٣٥٦
بَلاغَةُ الآيتين ٣٥٧
الآية (٩٢) ٣٦٠
غريبُ الكَلِمات ٣٦٠
المَعنَى الإجماليُّ ٣٦٠
تَفسيرُ الآية ٣٦٠
الفَوائِدُ التَّربويَّة ٣٦٢
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف ... ٣٦٣
بَلاغَةُ الآية ٣٦٤
الآيتان (٩٣ - ٩٤) ٣٦٦
غريبُ الكَلِمات ٣٦٦
المَعنَى الإجماليُّ ٣٦٦
تَفسيرُ الآيتين ٣٦٦
الفَوائِد التربويَّة ٣٧٠
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف ... ٣٧٠
بَلاغَةُ الآيتين ٣٧١
الآيات (٩٥ - ٩٧) ٣٧٢
غريبُ الكَلِمات ٣٧٢
مُشكِلُ الإعرابِ ٣٧٢
المَعنَى الإجماليُّ ٣٧٤
تَفسيرُ الآياتِ ٣٧٤
الفَوائِد التربويَّة ٣٧٩
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف ... ٣٨٠

بَلاغَةُ الآياتِ	٣٨٢	تَفسيرُ الآياتِ	٤٠٢
الآيتان (٩٨ – ٩٩)	٣٨٥	الفَوائِد التربويَّة	٤١٠
غريبُ الكَلِمات	٣٨٥	الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف	٤١٢
المَعنَى الإجماليُّ	٣٨٥	بَلاغَةُ الآياتِ	٤١٦
تَفسيرُ الآيتين	٣٨٦	الآيات (١١٠ – ١١٢)	٤٢٥
الفَوائِد التربويَّة	٣٨٧	غريبُ الكَلِمات	٤٢٥
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف	٣٨٩	المَعنَى الإجماليُّ	٤٢٦
بَلاغَةُ الآيتين	٣٩٠	تَفسيرُ الآياتِ	٤٢٦
الآيتان (١٠٠ – ١٠١)	٣٩٣	الفَوائِد التربويَّة	٤٣١
غريبُ الكَلِمات	٣٩٣	الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف	٤٣٣
المَعنَى الإجماليُّ	٣٩٣	بَلاغَةُ الآياتِ	٤٣٥
تَفسيرُ الآيتين	٣٩٤	الآيات (١١٣ – ١١٥)	٤٣٩
الفَوائِدُ التربويَّة	٣٩٥	غريبُ الكَلِمات	٤٣٩
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف	٣٩٧	المَعنَى الإجماليُّ	٤٣٩
بَلاغَةُ الآيتين	٣٩٨	تَفسيرُ الآياتِ	٤٤٠
الآيات (١٠٢ – ١٠٩)	٤٠٠	الفَوائِد التَّربويَّة	٤٤٢
غريبُ الكَلِمات	٤٠٠	الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف	٤٤٣
المَعنَى الإجماليُّ	٤٠٠	بَلاغَةُ الآياتِ	٤٤٥

الآيتان (١١٦ - ١١٧) ٤٤٨
غريبُ الكَلِمات ٤٤٨
المَعنَى الإجماليُّ ٤٤٨
تَفسيرُ الآياتِ ٤٤٩
الفَوائِدُ التربويَّة ٤٥١
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف... ٤٥١
بَلاغَةُ الآياتِ ٤٥٢
الآيات (١١٨ - ١٢٠) ٤٥٥
غريبُ الكَلِمات ٤٥٥
المَعنَى الإجماليُّ ٤٥٦
تَفسيرُ الآياتِ ٤٥٧
الفَوائِدُ التربويَّة ٤٦٣
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف... ٤٦٥
بَلاغَةُ الآياتِ ٤٦٧
الآيات (١٢١ - ١٢٩) ٤٧١
غريبُ الكَلِمات ٤٧١
المَعنَى الإجماليُّ ٤٧٣
تَفسيرُ الآياتِ ٤٧٤
الفَوائِدُ التَّربويَّة ٤٨٢
الفوائِدُ العلميَّةُ واللَّطائف... ٤٨٥
بَلاغَةُ الآياتِ ٤٨٨
الآيات (١٣٠ - ١٣٢) ٤٩٧
المَعنَى الإجماليُّ ٤٩٧
تَفسيرُ الآياتِ ٤٩٧
الفَوائِدُ التَّربويَّة ٥٠٠
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف... ٥٠٠
بَلاغَةُ الآياتِ ٥٠٢
الآيات (١٣٣ - ١٣٦) ٥٠٤
غريبُ الكَلِمات ٥٠٤
المَعنَى الإجماليُّ ٥٠٤
تَفسيرُ الآياتِ ٥٠٥
الفوائد التربويَّة ٥١٢
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف... ٥١٤
بَلاغَةُ الآياتِ ٥١٦
الآيات (١٣٧ - ١٤١) ٥٢٠
غريبُ الكَلِمات ٥٢٠

المَعنَى الإجماليُّ	٥٢١	الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف...	٥٦٤
تَفسيرُ الآياتِ	٥٢٢	بَلاغَةُ الآياتِ	٥٦٦
الفوائد التربويَّة	٥٢٨	الآيات (١٤٩ - ١٥٥)	٥٦٨
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف...	٥٣٣	غريبُ الكَلِمات	٥٦٨
بَلاغَةُ الآياتِ	٥٣٦	المَعنَى الإجماليُّ	٥٧١
الآيات (١٤٢ - ١٤٥)	٥٣٩	تَفسيرُ الآياتِ	٥٧٣
غريبُ الكَلِمات	٥٣٩	الفَوائِدُ التَّربويَّة	٥٨٦
المَعنَى الإجماليُّ	٥٣٩	الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف...	٥٨٩
تَفسيرُ الآياتِ	٥٤٠	بَلاغَةُ الآياتِ	٥٩٢
الفوائد التربويَّة	٥٤٦	الآيات (١٥٦ - ١٥٨)	٥٩٩
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف...	٥٥٠	غريبُ الكَلِمات	٥٩٩
بَلاغَةُ الآياتِ	٥٥٢	المَعنَى الإجماليُّ	٥٩٩
الآيات (١٤٦ - ١٤٨)	٥٥٦	تَفسيرُ الآياتِ	٦٠٠
غريبُ الكَلِمات	٥٥٦	الفَوائِد التربويَّة	٦٠٣
مُشكِلُ الإعرابِ	٥٥٦	الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف...	٦٠٤
المَعنَى الإجماليُّ	٥٥٧	بَلاغَةُ الآياتِ	٦٠٦
تَفسيرُ الآياتِ	٥٥٨	الآيات (١٥٩ - ١٦١)	٦٠٨
الفوائِدُ التربويَّةُ	٥٦٢	غريبُ الكَلِمات	٦٠٨

المَعنَى الإجماليُّ........... ٦٠٩
تَفسيرُ الآياتِ.............. ٦١٠
الفَوائِدُ التربويَّة.............. ٦١٨
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف... ٦٢٠
بَلاغَةُ الآياتِ................ ٦٢٢
الآيات (١٦٢ - ١٦٨)..... ٦٢٦
غريبُ الكَلِمات............ ٦٢٦
المَعنَى الإجماليُّ........... ٦٢٧
تَفسيرُ الآياتِ.............. ٦٢٩
الفَوائِدُ التَّربويَّة.............. ٦٣٥
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف... ٦٣٧
بَلاغَةُ الآياتِ................ ٦٣٨
الآيات (١٦٩ - ١٧١)..... ٦٤٢
غريبُ الكَلِمات............ ٦٤٢
المَعنَى الإجماليُّ........... ٦٤٢
تَفسيرُ الآياتِ.............. ٦٤٢
الفَوائِدُ التَّربويَّة.............. ٦٤٦
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف... ٦٤٧
بَلاغَةُ الآياتِ................ ٦٤٨
الآيات (١٧٢ - ١٧٦)..... ٦٥١
المَعنَى الإجماليُّ........... ٦٥١
تَفسيرُ الآيات.............. ٦٥٢
الفَوائِدُ التَّربويَّة.............. ٦٥٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف... ٦٦٠
بَلاغَةُ الآياتِ................ ٦٦١
الآيات (١٧٧ - ١٨٠)..... ٦٦٤
غَريبُ الكَلِمات............ ٦٦٤
مُشكِلُ الإعرابِ.............. ٦٦٥
المَعنَى الإجماليُّ........... ٦٦٦
تَفسيرُ الآيات.............. ٦٦٧
الفَوائِدُ التَّربويَّة.............. ٦٧٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف.. ٦٧٥
بَلاغَةُ الآيات................ ٦٧٦
الآيات (١٨١ - ١٨٤)..... ٦٨١
غَريبُ الكَلِمات............ ٦٨١
المَعنَى الإجماليُّ........... ٦٨١

تَفسيرُ الآيات............... ٦٨٢
الفَوائِدُ التَّربويَّة ٦٨٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف... ٦٨٧
بَلاغَةُ الآيات ٦٨٨
الآيتان (١٨٥ - ١٨٦) ٦٩١
المَعنَى الإجماليُّ........... ٦٩١
تَفسيرُ الآيات.............. ٦٩١
الفَوائِدُ التَّربويَّة............. ٦٩٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف... ٧٠٠
بَلاغَةُ الآيات ٧٠٢
الآيتان (١٨٧ - ١٨٨) ٧٠٤
غَريبُ الكَلِمات ٧٠٤
مُشكِلُ الإعرابِ ٧٠٤
المَعنَى الإجماليُّ........... ٧٠٥
تَفسيرُ الآيات............... ٧٠٦
الفَوائِدُ التَّربويَّة ٧١١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف... ٧١٢
بَلاغَةُ الآيات............... ٧١٣
الآيات (١٨٩ - ١٩٥) ٧١٥
غَريبُ الكَلِمات ٧١٥
مُشكِلُ الإعرابِ ٧١٥
المَعنَى الإجماليُّ........... ٧١٦
تَفسيرُ الآيات............... ٧١٧
الفَوائِدُ التَّربويَّة ٧٢٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف... ٧٢٨
بَلاغَةُ الآيات ٧٣٢
الآيات (١٩٦ - ٢٠٠) ٧٤٠
غَريبُ الكَلِمات ٧٤٠
المَعنَى الإجماليُّ........... ٧٤١
تَفسيرُ الآيات.............. ٧٤١
الفَوائِدُ التَّربويَّة ٧٤٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف... ٧٤٩
بَلاغَةُ الآيات ٧٥١
الفهرس..................... ٧٥٣

التفسير المحرر

للقرآن الكريم

سورة النساء

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت — أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب — أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر سابقا

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الثالث

الدرر السنية

www.dorar.net

التفسير المحرر

للقرآن الكريم

٣

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٣٦هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية
التفسير المحرر للقرآن الكريم (سورة النساء) المجلد الثالث/ القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية – الظهران، ١٤٣٦هـ
ص، ١٧ سم × ٢٤ سم
ردمك: ٤-٣٠-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨
١- القرآن – سورة النساء – تفسير أ- العنوان
ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٣٦/٨٥٢١

رقم الإيداع: ١٤٣٦/٨٥٢١
ردمك: ٤-٣٠-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

الدرر السنية
www.dorar.net

مؤسسة الدرر السنية – المملكة العربية السعودية
ص. ب ٣٩٣٦٤ الظهران ٣١٩٤٢ – جوال: ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠
ت: ٠١٣٨٦٨٠١٢٣/ فاكس: ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨ – بريد إلكتروني nashr@dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسِيرُ
سُورَةِ النِّساءِ

سُورةُ النِّساءِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيتْ هذه السُّورةُ بسُورةِ النِّساء[١].

فعن مَعْدَانَ بن أبي طَلحةَ اليَعمُريِّ، قال: ((إنَّ عمرَ بنَ الخطَّابِ رضِي اللهُ عنه خطَب يومَ جمعةٍ، فذكَر نبيَّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وذكَر أبا بكرٍ، ثم قال: إنِّي لا أَدعُ بعدي شيئًا أهمَّ من الكَلالةِ، ما راجعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في شيءٍ ما راجعتُه في الكَلالةِ، وما أَغلظَ لي في شيءٍ ما أغلظَ لي فيهِ! حتى طعَنَ بإصبَعِه في صَدْري، وقال: يا عُمرُ، ألَا تكفيك آيةُ الصَّيفِ التي في آخرِ سورةِ النساءِ؟! وإني إنْ أعِشْ أقضِ فيها بقضيةٍ، يَقضي بها مَن يقرأُ القرآنَ ومَن لا يقرأُ القرآنَ))[٢].

فضائلُ السُّورة وخَصائصُها:

١- عن عبدِ الله بن مَسعودٍ رضِي اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ- وهو على المنبر-: ((اقرأْ عليَّ القرآنَ، فقلت: يا رسولَ الله، أقرأُ عليك وعليك أُنْزِل؟! قال: إنِّي أَشتهي أن أسمعَه من غيري، قال: فقرأتُ عليه سورةَ النِّساء حتى بلغتُ ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا * يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤١-٤٢]، رفعتُ رأسي، أو غمزني رجلٌ إلى

---

(١) قال ابنُ عاشور: (ووجه تَسميتِها بإضافة إلى النِّساء أنَّها افتُتحت بأحكام صِلة الرَّحِم، ثم بأحكام تخصُّ النساء، وأنَّ فيها أحكامًا كثيرة من أحكام النِّساء: الأزواج، والبنات، وخُتِمت بأحكام تخصُّ النساء) ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢١١). وأيضًا لتكرر اسم النساء فيها مفردًا ومضافًا مرات عديدة، ومعلوم أن تكرار الاسم من دواعي التسمية به. ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٨)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (١/ ١٩٧، ١٩٨).

(٢) رواه مسلم (١٦١٧).

جنبي- وفي رواية: بيده- فرفعتُ رأسي، فنظرْتُ إليه فرأيتُ عينيهِ تسيلُ))(١).

٢- عن عائشةَ رضِيَ اللهُ عنها، عن رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، قال: ((مَن أخَذ السَّبْعَ الأُوَلَ من القرآن، فهو حَبرٌ))(٢).

٣- عن واثلةَ بن الأسقعِ رضِي الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((أُعطِيت مكانَ التوراة السَّبْعَ الطِّوالَ... الحديث))(٣).

٤- عن عبدِ اللهِ بن مَسعودٍ رضِي اللهُ عنه، قال: (إنَّ في النِّساء لخمسَ آياتٍ، ما يسرُّني بهنَّ الدُّنيا وما فيها، وقد علِمتُ أنَّ العلماء إذا مرُّوا بها يعرفونها: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا

---

(١) رواه البخاري (٥٠٥٥)، ومسلم (٨٠٠) واللفظ له.

(٢) رواه أحمد (٦/ ٨٢) (٢٤٥٧٥)، والبزار كما في ((مجمع الزوائد)) للهيثمي (٧/ ١٦٥)، والطحاوي في ((شرح مشكل الآثار)) (٣/ ٤٠٧) (١٣٧٧)، وابن الضريس في ((فضائل القرآن)) (٧٢)، ورواه سعيد بن منصور في ((التفسير)) (٦٩)، والحاكم (١/ ٧٥٢) بلفظ: (فهو خير).

قال ابن الجوزي في ((العلل المتناهية)) (١/ ١١١): لا يصح، وقال ابن كثير في ((تفسير القرآن)) (١/ ٥٥): غريب، وقال الهيثمي: رجال البزَّار رجالُ الصحيح غير حبيب بن هند الأسلمي، وهو ثقة، ورواه بإسنادٍ آخَرَ رجالُه رجالُ الصحيح. وحسَّنه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٥٩٧٩).

(٣) رواه أحمد (٤/ ١٠٧) (١٧٠٢٣)، والطبراني (٢٢/ ٧٥) (١٨٦)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٢/ ٤٨٧) (٢٤٨٤).

قال البغويُّ في ((تفسيره)) (١/ ٦١)، وابن كثير في ((تفسير القرآن)) (١/ ٥٥): غريب، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٧/ ٤٩): فيه عمرانُ القَطَّان، وبقيَّةُ رجاله ثقات. وصحَّحه الألبانيُّ بمجموع طرقه في ((السلسلة الصحيحة)) (١٤٨٠).

أَنْفُسَهُمْ جَاؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤]، وقوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾[1] [النساء: ١١٠]).

٥- عن حُذيفةَ بن اليمانِ رضي الله عنه، قال: ((صلَّيتُ مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ذاتَ ليلةٍ، فافتتَحَ البقرةَ، فقلتُ: يركع عند المئةِ، ثم مضى، فقلتُ: يصلي بها في ركعةٍ، فمضى، فقلتُ: يركع بها، ثم افتتح النساءَ فقرأها، ثم افتتح آلَ عمرانَ فقرأها، يقرأ مُترسِّلًا))[2].

بيانُ المَكِّي والمَدنيِّ:

سورةُ النِّساء مدنيَّةٌ؛ حُكي في ذلِك الإجماعُ[3].

ويدلُّ على ذلك ما جاء عن عائشةَ رضِي اللهُ عنها، أنها قالت: (وما نزلتْ سورةُ البقرةِ والنساء إلَّا وأنا عنده)[4].

ولا خِلافَ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إنَّما بَنَى بها بالمدينة[5].

مقاصدُ السُّورة:

مِن أبرزِ المقاصدِ التي تَضمَّنتها سورةُ النِّساء:

١- الاهتمامُ بالعقيدة وتوحيدِ الله سبحانه وتعالى وقضايا الإيمان، والردُّ

---

(١) رواه سعيد بن منصور في ((سننه)) (٤/ ١٢٩٧)، والطبراني (٩/ ٢٥٠) (٩٠٦٩)، والحاكم (٣١٩٤).

قال الهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٧/ ١٤): رجاله رجال الصحيح.

(٢) رواه مسلم (٧٧٢).

(٣) قال الفيروزابادي: (هذه السُّورة مدنيَّة بإجماع القُرَّاءِ) ((بصائر ذوي التمييز)) (١/ ١٦٩).

وقال البقاعي: (سورة النساء مدنيَّة إجماعًا؛ كذا قال بعضهم) ((مصاعد النظر)) (٢/ ٨٦).

(٤) رواه البخاري (٤٩٩٣).

(٥) يُنظر: ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ٨٧).

على العقائد الباطلة، وإيضاح الحُجَّة على صِحَّة نبوَّة محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، والتحذير من المنافقين.

٢- العناية بالأُسرة، وتنظيم العلاقة بين الزوجينِ، وحقوق الأرحام، وبيان نظام الإِرْث، وتقسيم التَّرِكات.

٣- الاهتمام بأُسُس بناء الدولة الإسلاميَّة، ومقوِّماتها، والجهاد في سبيل الله.

٤- الاهتمامُ بحِفظ الدِّماء وأحكامها، وحِفظ الأموال، ورعاية حقوق اليتامى.

موضوعاتُ السُّورة:

أبرزُ الموضوعاتِ التي تناولتْها سورةُ النساء:

١- الحديث عن المرأة، ففصَّلت الكثيرَ من أحكامها، وأوضحتْ كثيرًا من حقوقِها، وأطالتِ السورةُ الكلامَ في هذا الجانب.

٢- تنظيم الكثيرِ من العَلاقات القائمةِ بين الرجُل والمرأة؛ ومنها: موضوع القِوامة، وإباحة النِّكاح والتعدُّد فيه للرجل، وحق المرأة في الكرامة الإنسانية والمهر والميراث، وحُرمة عَضْل النساء، وأحكام الرَّضَاع،كما حثَّتْ على الفضيلة، وزجرت عن إتيان الفاحشة، وتطرَّقت أيضًا إلى العَلاقة مع مِلْك اليمينِ، إلى غير ذلك.

٣- الحديثُ عن حقوقِ الأيتام، وكيفيةُ التعامُل مع أموالِهم.

٤- فيما يتعلَّق بالأموالِ، تناولت السورة موضوعَ تحريمِ أكْل أموالِ النَّاسِ بالباطل، والتحذير مِن فِعل ذلك، والحثَّ على الإنفاق في سبيل الله، وتوعُّد الذين يبخلون ويأمرون الناسَ بالبُخل.

٥- تطرَّقت السورةُ إلى بيان الكثير من الأحكام الفقهيَّةِ مع بيان يُسْرِ الشَّريعةِ، وإرادة الله التخفيفَ عن عباده، ومراعاة ضَعْفهم، ومن هذه الأحكام: أحكامُ المواريث، وحُرمة صلاة السَّكران في حالة سُكرِه، ووجوب الاغتسال من الجَنابة لمن أراد الصَّلاة، ومشروعية التيمُّم وأحكامه، كما أَوضحتِ السورةُ بعضًا من أحكام الجناياتِ، والدِّيَات، مع بيان عِظَم حرمة دماء المؤمِن، وجزاء مَن يقتل مؤمنًا متعمِّدًا، وغير ذلك من الأحكام الفقهيَّة.

٦- تحدَّثت السورةُ عن أهلِ الكتابِ، وبيَّنت بعضَ ما هُمْ عليه من الضَّلال، وما حلَّ عليهم من الغضب واللَّعن، وذَكَرت بعضَ تعنُّتِهم، ونَقْضهم للعهود، وكُفْرهم بالآيات، ومعاملتهم السيِّئة لأنبياء الله، التي وصلت إلى قتْل بعضِهم، ثم تناولَتْ دعوتَهم إلى الدِّين الحقِّ، ونهيَهم عن الغلوِّ في الدِّين، ومن ذلك غلوُّهم في المسيح عيسى ابن مريمَ، وقولهم بالتثليث.

٧- تَطرَّقتْ السورة إلى قضيةِ الحُكم في الإسلام، وإلى ما يَنبغي أنْ يقومَ عليه الحُكمُ في الدَّولة الإسلاميَّة، وهو العدلُ، ووجوبُ الطاعةِ لله والرسولِ وأُولي الأمر، وأنْ يكونَ المرجعُ في التنازع هو شَرْعَ الله، حتى جعلَتِ الإيمانَ مربوطًا بتحكيمِ الشَّرع، والرِّضا والتسليم له.

٨- الحديثُ عن المنافقين، وفضْحُهم، وبيانُ الكثير من أعمالهم، وتصرُّفاتهم، ودَسائسهم، وعقوبتهم، ومكانهم في الآخرة، وأنَّهم في الدَّرْك الأسفل من النار.

٩- ومِن المواضيع التي تحدَّثت عنها السورةُ: الأمْرُ بالقتال في سبيل الله؛ لإعلاء كلمته، ولنُصرة المستضعَفين من المؤمنينَ، موضِّحةً الأجرَ العظيمَ لِمَن يُقاتِل في سبيل الله، والفضل الجزيل للمجاهدين على القاعدين، ومبيِّنةً بعضَ الأحكام التي يحتاج لها المقاتلُ في سبيل الله؛ كالتعامُل مَع مَن يُلقِي السلام، وأحكام صلاة الخوف، والقَصْر للصَّلاة.

١٠- الحضُّ على عمَل الخير، والتخلُّقِ بالأخلاق الفاضلة؛ ومنها: العدل، وأداء الشَّهادة لله كما هي، ولو كانت على النَّفْسِ، أو الوالدينِ أو الأقربين، وتركُ اتِّباع الهوى، ومنها: أداءُ الأمانات، والحثُّ على الإحسانِ للخَلْق، ومراعاة الأقرَبينَ من الوالدينِ والأقاربِ والجيرانِ، وكذلك مراعاةُ المحتاجين من الفُقَراء والمساكينِ والضعفاءِ، والإحسانِ إليهم.

١١- بيانُ العداوة الأزليَّة بين الشيطانِ وبينَ بني آدمَ، وكيف أنَّ الشيطانَ توعَّد بإضلالِ جزءٍ من العِبادِ.

١٢- الحثُّ على الإيمانِ بالله ورُسله وكُتُبِه واليومِ الآخِر، وتوحيد العبادة، وبيانُ خطورةِ الشِّركِ، والنَّهْي عن اتِّخاذِ الكافرينَ أولياءَ من دون المؤمنينَ، والأمرُ بتقوى الله عزَّ وجلَّ، والاعتصام به، والتمسُّك بدِينه.

١٣- ذكرُ بعضِ أنبياءِ الله تعالى، وطرفٍ من خبرِ موسَى وعيسَى عليهما السَّلام.

الآية (١)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿وَبَثَّ﴾: أي: ونشَر، وأصلُ البثِّ: التفريقُ، وكذلك إثارةُ الشَّيءِ وإظهارُه[١].

﴿تَسَاءَلُونَ﴾: تطلُبون حقوقكم، والسُّؤال يأتي بمعنى الطَّلب والالتماسِ، ويأتي بمعنى الاستفسارِ؛ يُقال: سأل يسألُ سؤالًا ومسألةً[٢].

﴿وَالْأَرْحَامَ﴾: أي: القَرابَاتِ، واحِدَتُها رحِم، والرَّحِمُ: عَلاقة القرابَةِ، وأصل (رحم): الرِّقَّةُ والعطفُ والرَّأفة، ثم سُمِّيت رحِمُ الأنثى رَحِمًا مِن هذا؛ لأنَّ منها يكونُ ما يُرحَم ويُرقُّ له من ولدٍ[٣].

﴿رَقِيبًا﴾: أي: حافظًا، عالِمًا، مُطَّلعًا، وأصل رقب: يدلُّ على انتصابٍ لمراعاةِ شيءٍ[٤].

مُشكل الإعراب:

قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ﴾:

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص:١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٧٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٠١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٥).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٢٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٤).

﴿وَالأَرْحَامَ﴾ قُرِئ بالنَّصب، والجرِّ؛ فعلى قِراءة النَّصب، فهو عَطفٌ على اسمِ الله تعالى، أي: واتَّقوا الأرحامَ أن تَقطَعوها، ويجوزُ أنْ يكونَ عطفُه على موضِع ﴿بِهِ﴾ كما في: مررتُ بزيد وعمرًا، بعطف (عمرًا) على موضع بزيد؛ لأنَّه مفعولٌ به في موضِع نصْب، وإنَّما ضعُف الفِعلُ عن التعديةِ بنفْسه، فتعدَّى بحَرْف جَرٍّ.

وعلى قِراء الجرِّ، فهو معطوفٌ على الهاء في ﴿بِهِ﴾، من بابِ العَطفِ على الضَّميرِ المجرورِ من غيرِ إعادة الجارِّ(١).

المَعنَى الإجماليّ:

يُخاطِبُ الله تعالى جميعَ البَشَر آمرًا إيَّاهم بتقواه؛ فهو الذي أَوجدَهم جميعًا من نفْسٍ واحدة، من أبيهم آدَمَ عليه السَّلام، ومِن آدَمَ أوجد الله سبحانه حوَّاءَ، ونشَر منهما بشرًا كثيرًا من الرِّجال والنِّساء، وأمَرَهم سبحانه أيضًا أن يتَّقوه؛ فإنَّه سبحانه مَن يتساءلون به بينهم لعَظَمَتِه، وأمرهم أن يتَّقوا الأرحامَ فلا يَقْطَعوها؛ فإنَّهم يتساءلون بها أيضًا لِعِظَمِها، فلْيؤدُّوا حقَّها، إنَّ الله سبحانه مطَّلعٌ على جميع أعمالِهم، مراقِبٌ وحافظٌ لها.

تَفسيرُ الآية:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)﴾.

---

(١) ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٨٧-١٨٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٢٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٣٩٤)، (٣/ ٥٥٤).

والوجه المذكور في قِراءة الجرِّ، وإنْ كان لا يُجيزه البصريُّون، إلَّا أنَّه ينبغي أن يجوز مطلقًا؛ لكثرة السماع الوارد به، واعتضادِه بالقياس، وضَعْفِ دليل المانعين. يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٣٩٤).

مُناسَبةُ افتتاحِ السُّورةِ بالأمْرِ بالتقوى:

لقدِ اشتملتْ سورةُ النِّساء على أنواعٍ كثيرة من التكاليفِ؛ وذلك لأنَّه تعالى أمَرَ النَّاسَ في أوَّل هذه السورة بالتعطُّفِ على الأولاد والنِّساءِ والأيتام، والرأفة بهم، وإيصالِ حقوقِهم إليهم، وحِفْظ أموالِهم عليهم، وبهذا المعنى خُتِمت السورةُ، وهو قوله: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ [النساء: ١٧٦]، وذَكَرَ في أثناء هذه السُّورة أنواعًا أُخَر من التكاليف، وهي الأمْرُ بالطهارة والصَّلاة، وقِتال المشركين، ولَمَّا كانت هذه التكاليفُ شاقَّةً على النفوس؛ لِثِقَلِها على الطِّباع، لا جرمَ افتتَح السورةَ بالعِلَّة التي لأجلها يجب حمْلُ هذه التكاليفِ الشاقَّة، وهي تقوى الربِّ الذي خلَقَنا، والإلهِ الذي أَوْجَدَنا؛ فلهذا قال[1]:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾.

أي: يا أيها الناس[2] حققوا تقوى الله عزَّ وجلَّ، بامتثالِ أوامره، واجتنابِ نواهيه؛ وذلك لأنَّه ربُّكم، أي: خالِقُكم ومالِكُكم ومُدبِّركم[3].

﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾.

مناسبتها لما قبلها:

لَمَّا أمَرَ اللهِ عزَّ وجلَّ بتقواه، وذكَر السبَّبَ الدَّاعيَ لهذه التَّقْوى، ذكَر سببًا آخَرَ موجِبًا لها[4]، فقال:

﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٧٥).

(٢) قال الألوسي: (لفظ النَّاس يشملُ الذُّكور والإناث بلا نزاع) ((تفسير الألوسي)) (٢/ ٣٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١١-١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٣).

أي: الذي أوجدَكم جميعًا- أيُّها الناس- من نَفْسٍ واحدةٍ، وهي آدَمُ عليه السَّلام(١).

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [الأنعام: ٩٨].

﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾.

أي: وأوجَدَ مِن آدَمَ عليه السَّلامُ امرأتَه حوَّاءَ عليها السَّلام(٢).

كما قال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

وعن أبي هُريرةَ رَضِي اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((استوصُوا بالنِّساءِ؛ فإنَّ المرأةَ خُلقتْ من ضِلَعٍ(٣)، وإنَّ أعوجَ شيءٍ في الضِّلَعِ أعلاه، فإنْ ذهبتَ تقيمُه كَسَرْتَه، وإنْ تركتَه لم يزلْ أعوجَ، فاستوصُوا بالنِّساءِ))(٤).

﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٣٩-٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٠٤).
قال الرازي: (أجمع المسلمون على أنَّ المراد بالنَّفس الواحدة هاهنا هو آدمُ عليه السَّلام) ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٠٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٨٩).
وممَّن قال من السَّلف: إنَّ المقصود من قوله: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ حواءُ: مجاهد، والسُّدِّي، وقتادة، ومقاتل. ينظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٣/ ٨٥٣).

(٣) الضِّلَع: مفرد أضلُع وأضلاع وضلوع، وهي عِظامُ الجَنبين. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٣٦٣).

(٤) رواه البخاري (٣٣٣١) واللفظ له، ومسلم (١٤٦٨).
وقال النوويُّ: (وفيه دليل لِمَا يقوله الفقهاء- أو بعضهم- أنَّ حواء خُلقت من ضِلع آدَم؛ قال الله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١]، وبيَّن النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّها خُلِقت من ضِلَع). ((شرح النووي على مسلم)) (١٠/ ٥٧).

أي: ونشَر من آدَمَ وحواءَ عليهما السَّلام في أقطارِ الأرض أعدادًا كثيرةً من الرِّجال والنِّساء، فجميعُهم بنو أبٍ واحدٍ، وأمٍّ واحدةٍ[١].

كما قال سبحانه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠].

ثم ذكَر داعيًا آخرَ من دواعي تقواه جلَّ وعلا[٢]، فقال:

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾.

أي: امتثِلوا ما أمَرَكم الله تعالى به، واجتنِبوا ما نهاكم عنه؛ فإنَّ تساؤُلَكم به، وتعظيمَكم له سبحانه، من الموجِبِ الدَّاعي لتَقْواه؛ حتى إنَّكُم إذا أرَدْتُم قضاءَ حاجاتِكم، توسَّلْتُم بها بالسُّؤالِ بالله، فيقول مَن يريد ذلك لغيرِه: أسألُك باللهِ أن تفعلَ كذا؛ لعِلمه بما قام في قلب الغيرِ من تَعظيمِ الله الذي يَمنعه أنْ يردَّ مَن سأله بالله؛ فكما عَظَّمتُم الله تعالى بذلك، فلْتعظِّموه أيضًا بتقواه سبحانه[٣].

﴿وَالْأَرْحَامَ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

أنَّ في إخبارِ الله سبحانه بأنَّه خَلَقَ النَّاسَ من نفسٍ واحدةٍ، وأنَّه بثَّهم في أقطارِ الأرض، مع رُجوعِهم إلى أصلٍ واحدٍ- عَطفًا لقلوبِ بعضِهم على بعضٍ، وترقيقَ بعضِهم على بعض. وقَرَن سبحانه الأمْرَ بتقواه بالأمر ببرِّ الأرحامِ والنهي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٣٩، ٣٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٣-١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٣).

وقيل المراد بـ ﴿تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾: تتعاهدون به وتتعاقدون؛ لأنَّ كلَّ واحد من المتعاقدين في النِّكاح وغيره، يسأل الآخَرَ تسليمَ مطلوبه. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٢/ ١١٣).

عن قطيعَتِها؛ ليؤكِّدَ هذا الحَقَّ، وأنَّه كما يلزم القيامُ بحقِّ الله تعالى، كذلك يجب القيامُ بحقوق الخَلْق، والأقربين منهم خاصَّة، بل القيامُ بحقوقِهم هو مِن حقِّ اللهِ عزَّ وجلَّ الذي أمرَ به[1].

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾ قراءتان:

١- ﴿وَالْأَرْحَامِ﴾ على أنَّها معطوفةٌ على الهاءِ في (به)، أي: تساءلونَ باللهِ، وتَسَاءلون بالأرحامِ، أي: تتوسَّلونَ بها[2].

٢- ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾ على أنَّها معطوفة على لفظ الجلالةِ، أي: واتَّقوا الأرحامَ أن تَقْطَعوها[3].

﴿وَالْأَرْحَامَ﴾.

أي: واحْذَروا من أنْ تَقطعوا أرحامَكم، وتُفَرِّطوا في أداءِ حقِّهم[4]، وكما تتوصَّلونَ بهذه الصِّلة فيما بينكم لعِظَمِها من أجْل قضاءِ حاجةٍ، أو نَيْل مأرب،

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٣)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٠٦-٢٠٧).

(٢) قرأ بها حمزة. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤٧).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حُجَّة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٨٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٥٥٤).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤٧).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حُجَّة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٨٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٥٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٣٩، ٣٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٥).
وممَّن قال بنحو هذا القول من السَّلف: ابن عبَّاس، والضَّحَّاك، ومقاتل بن حيَّان، وعِكرمة، والسُّدِّي، ومجاهد- في رواية عنه- والرَّبيع، وابن زيد. ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٣/ ٨٥٤).

فآتوها حقَّها[١].

عن جَرير بن عبد الله رضِي اللهُ عنه، قال: ((كنَّا عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في صَدرِ النهارِ، قال: فجاءَه قومٌ حُفاةٌ عُراةٌ مُجتابي النِّمارِ أو العَباءِ[٢]، مُتقلِّدي السيوفِ، عامَّتُهم من مُضَرَ، بل كلُّهم من مُضَرَ، فتمعَّر[٣] وجهُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لِمَا رأى بهم من الفاقةِ، فدخَل ثم خرج، فأمَر بلالًا فأذَّن وأقام، فصلَّى ثم خطَب فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾. والآيَةَ التي في الحشرِ: ﴿اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ﴾؛ تصدَّقَ رجلٌ من دينارِه، من درهمِه، من ثوبِه، من صاعِ بُرِّه، من صاعِ تَمْرِه حتى قال: ولو بشِقِّ تمرةٍ، قال: فجاءَ رجلٌ من الأنصارِ بصُرَّةٍ كادت كَفُّه تَعجِزُ عنها، بل قد عجَزتْ، قال: ثم تتابَعَ الناسُ، حتى رأيتُ كَومَين من طعامٍ وثيابٍ، حتى رأيتُ وجهَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يتهلَّلُ كأنَّه مَذْهَبةٌ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: مَن سنَّ في الإسلامِ سُنَّةً حسنةً، فله أجرُها، وأجرُ مَن عَمِل بها بعدَه، من غير أنْ يَنقُصَ من أجورِهم شيءٌ، ومن سنَّ في الإسلامِ سُنَّةً سيئةً، كان عليه وِزرُها

---

(١) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (٢/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٥، ١٩).

وممَّن قال من السَّلَف بنحو هذا القول: مجاهد- في رواية عنه- وإبراهيم، والحسَن- في رواية عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٣/ ٨٥٣).

(٢) النِّمار- بكسر النون-: جمْع نَمِرة بفتحها، وهي ثياب صوف فيها تنميرٌ؛ كأنَّها أُخذت من لَونِ النَّمر؛ لِمَا فيها من السَّوادِ والبياض. والعَباء- بالمدِّ وبفتح العين-: جمْع عَباءة وعباية- لُغتان. وقوله: مجتابي النِّمار، أي: خرَقوها وقوَّروا وسَطَها. ينظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٧/ ١٠٢)، ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ١١٨).

(٣) فتمعَّرَ: أي: تغيَّر، وأصله قِلَّةُ النَّضارة، وعدَم إشراق اللون. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ٣٤٢).

ووِزرُ مَن عمِل بها من بعده، من غير أن يَنقُصَ من أوزارِهم شيءٌ))(١).

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى مراقِبٌ لجميع أعمالِكم، وحافِظٌ لها، ومِن جُملةِ ذلك ما أمَرَكم به مَن تقوى ربِّكم، ورِعايةِ حُرمة أرحامِكم(٢).

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- حقُّ الربِّ سبحانه مُقدَّمٌ على حقِّ القَرابةِ والرَّحِم؛ يُبيِّن ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾؛ فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قدَّم ذِكْرَه هنا على ذِكْرِ غَيرِه من الخَلْقِ، فقد خلق العبدَ وخَلَقَ أبَوَيْه وخَلَقَه من أبَوَيْه، فالسبب الذي بينه وبين اللهِ هو الخلقيُّ التَّامُّ؛ بخلاف سبَبِ الأَبَوَينِ؛ فإنَّ أصل مادَّتِه منهما، وله مادَّةٌ من غيرهما؛ ثمَّ إنَّهما لم يصوِّراه في الأرحامِ. واللهُ سبحانه هو خالِقُه وبارِئُه ومُصَوِّرُه ورازِقُه وناصِرُه وهاديه(٣).

٢- في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾، أنَّ الناس إذا عرَفوا كونَ الكلِّ من شَخْصٍ واحد، ترَكوا المفاخَرةَ والتكبُّر، وأظهروا التواضُعَ وحُسنَ الخُلق(٤). ولو تذكَّر الناسُ هذه الحقيقةَ، لتضاءلتْ في حسِّهم كلُّ الفروقِ الطارئة التي نشأت في حياتِهم متأخِّرةً، ففرَّقَتْ بين أبناء النَّفْس الواحدة، ومزَّقَتْ وشائجَ الرَّحِم الواحدة، وكلُّها ملابساتٌ

---

(١) رواه مسلم (١٠١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٦).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٢/ ١٣-١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٧٧).

طارئة ما كان يجوز أن تَطغى على مودَّة الرَّحِم وحقِّها في الرعاية، وصِلةِ النَّفس وحقِّها في المودَّة(١).

٣- في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾، تَقْوى الأرحام: تعبيرٌ عجيب، يُلْقِي ظلالَه الشعوريَّةَ في النَّفْس! اتَّقوا الأرحامَ، أرْهِفوا مشاعِرَكم للإحساسِ بوشائِجِها، والإحساسِ بحقِّها، وتوقِّي هَضْمِها وظُلْمِها، والتحرُّجِ مِن خَدْشِها ومسِّها، توقَّوْا أن تُؤذُوها، وأن تَجْرَحوها، وأن تُغْضِبوها، أرْهِفوا حساسيتكم بها، وتوقيرَكم لها، وحنينَكم إلى نَداها وظلِّها(٢).

٤- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ التحذيرُ من مخالفة الله عزَّ وجلَّ، ومَن آمَن بأنَّ الله رقيبٌ عليه، فسيحذرُ من مخالفة الله عزَّ وجلَّ، ويوجِبُ له ذلك مراقبتَه، وشِدَّة الحياءِ منه، بلزوم تقواه(٣).

٥- في قوله: ﴿وخلق مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ تنبيهٌ على مراعاةِ حقِّ الأزواجِ والزَّوجات والقيامِ به؛ لكَوْنِ الزوجاتِ مخلوقاتٍ من الأزواجِ؛ فبينهم وبينهنَّ أقربُ نسَبٍ، وأشدُّ اتصالٍ، وأقربُ علاقة(٤).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- لَمَّا كان الغالبُ على سُورةِ النِّساءِ مُخاطبةَ النَّاسِ في الصِّلاتِ التي بينهم بالنَّسَبِ والعَقْدِ وأحكامِ ذلك؛ افتتَحها اللهُ تعالى بقولِه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾؛ لعُمومِ أحكامِها(٥).

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٥٧٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٥٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٣).

(٥) ((المسائل والأجوبة)) لابن تيمية (ص: ٢٠٣).

٢- جعَل اللهُ تعالى قولَه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ مَطْلعًا لسورتينِ في القرآن: إحداهما: هذه السُّورة، وهي السُّورة الرَّابعة مِن النِّصف الأوَّلِ من القرآن. والثانية: سُورةُ الحج، وهي أيضًا السورة الرَّابعة من النِّصف الثاني من القرآن، ثم إنَّه تعالى علَّل الأمرَ بالتقوى في هذه السُّورة بما يدلُّ على معرفةِ المبدأ، وهو أنَّه تعالى خلَقَ الخَلْقَ مِن نفْسٍ واحدة، وهذا يدلُّ على كمالِ قُدرةِ الخالق، وكمالِ عِلْمه، وكمالِ حِكمتِه وجلالِه، وعلَّل الأمرَ بالتَّقوى في سورة الحجِّ بما يدلُّ على كمالِ معرفةِ المَعادِ، وهو قوله: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١]، فجعَلَ صدْرَ هاتين السورتين دلالةً على معرفة المبدأِ ومَعْرِفة المعاد(١).

٣- في قوله تعالى: ﴿مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ دليلٌ على المعادِ؛ لأنَّه تعالى لَمَّا كان قادرًا على أنْ يُخرِجَ من صُلْب شخص واحد أشخاصًا مختلفين، وأنْ يَخلُقَ من قَطرة من النُّطفة شَخصًا عجيبَ التركيبِ، لطيفَ الصُّورة؛ فكيف يُستبعَد إحياءُ الأمواتِ وبعثُهم ونشورُهم؟! فتكون الآية دالَّةً على المعادِ من هذا الوجه(٢).

٤- في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ...﴾، في الآية تلويحٌ للمشركينَ بأحقيَّة اتِّباعِهم دعوةَ الإسلامِ؛ لأنَّ الناس أبناءُ أبٍ واحدٍ، وهذا الدِّين يدعو النَّاسَ كلَّهم إلى متابعته، ولم يَخصَّ أمَّةً من الأُمم أو نسبًا من الأنسابِ؛ فهو جديرٌ بأن يكون دينَ جميعِ البشر، بخلاف بقيَّة الشرائعِ، فهي مصرِّحة باختصاصِها بأُمَمٍ معيَّنة(٣).

٥- المَدْحُ والذَّمُّ والثوابُ والعِقابُ إنَّما يترتَّبُ على الإيمانِ والعمل

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٧٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٤٧٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢١٥).

الصَّالِحِ، أو على ضِدِّ ذلك من الكُفر والفُسوق والعصيان؛ فقد قال اللهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾؛ حيث ذَكَرَ اشتراكَ جميعِ النَّاسِ في الأصل، وأمَرَهم بتقوى اللهِ تعالى(١).

٦- في قوله: ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾ تعريضٌ للمشركين بأنَّ أَوْلَى الناسِ بأن يتَّبِعوه هو محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّه مِن ذوي رَحِمِهم(٢).

٧- في قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ ردٌّ على الفِكرة المُلْحِدة أنَّ الناس تطوَّروا من القُرُود إلى البشريَّة؛ فالنَّفْسُ هي آدَمَ، الذي نحن مِن نَسْلِه(٣).

٨- التَّذكيرُ بنِعمة الله عزَّ وجلَّ بما خَلَق لنا من الأزواجِ؛ لقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، و(مِن) هنا للتبعيض، ويجوز أن تكونَ بيانيَّةً للجِنس؛ أي: مِن جِنسِها، وهذا من النِّعم الكبيرة، فلو كانت أزواجُنا من غَير جِنْسِنا، فلا يمكن أن نركَنَ إليها أبدًا؛ بل تنفِرُ منها نفورًا شديدًا؛ لأنَّه لا يركَنُ الإنسانُ إلَّا إلى مَن كان مِن جِنْسِه(٤).

٩- في قولِه تعالى: ﴿رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ خصَّ رجالًا بذكرِ الوصفِ بالكثرةِ دونَ النِّساء، قيل: حذَف وصفَ الثَّاني؛ لدلالةِ وصفِ الأوَّل عليه، والتقديرُ: ونساءً كثيرةً، ولأنَّ الفعل (بَثَّ) يقتضي الكثرةَ والانتشارَ، وقيل: لا يقدَّر الوصفُ، وإن كان المعنى فيه صحيحًا؛ لأنَّه نبَّه بخصوصيةِ الرِّجال بوصفِ الكثرةِ على أنَّ اللائقَ بحالِهم الاشتهارُ والخروجُ والبُروز، واللائق بحالِ النِّساء

(١) ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٢/ ٤٤٦)، ((المسائل والأجوبة)) لابن تيمية (ص: ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الخمولُ والاختفاءُ، وقيل: لأنَّ كثرة الرِّجالِ أهمُّ من كثرةِ النِّساء؛ فالكثرةُ في الرِّجال عزٌّ وفخرٌ يفتخرُ النَّاس به، بخلافِ النِّساء، فإنَّ الكثرةَ منهنَّ عالةٌ وتعبٌ وعناءٌ، وقيل غير ذلك(١).

١٠- ذُكِرَ (الربُّ) أولًا في قوله ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ وهو الاسمُ الذي يدلُّ على الإحسانِ والتربيةِ، وذُكِرَ ثانيًا (الله) في قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾ وهو الذي يدلُّ على القَهْر والهَيْبة؛ لأنَّه بنى الأَمْر بالتقوى أولًا على التَّرغيب، وثانيًا على التَّرهيب. كقوله: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦]، ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠]، كأنَّه قال: إنَّه ربُّك أحْسنَ إليك، فاتَّقِ مخالفتَه وغَضَبَه وعقابَه؛ فإن لم تتَّقِه لذلك، فاتَّقِه؛ لأنَّه شديدُ العقابِ(٢).

١١- في قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ تأمَّلْ كيف افتتَح هذه السُّورةَ بالأَمْرِ بالتقوى، وصِلَةَ الأرحامِ والأزواجِ عمومًا، ثم بعد ذلك فَصَّلَ هذه الأمورَ أتمَّ تفصيلٍ، من أوَّلِ السورة إلى آخِرِها؛ فكأنَّها مبنيَّةٌ على هذه الأمورِ المذكورةِ، مفصِّلَةً لِمَا أُجْمِلَ منها، موضِّحَةً لِمَا أُبْهِمَ(٣).

بَلاغَةُ الآيةِ:

١- قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ...﴾ الآية، فيه بَراعةُ الاستهلالِ؛ فقد استهلَّ السورةَ بالإشارةِ إلى بَدء الخَلْق والتكوينِ، وألْمَع إلى دَورِ المرأةِ المهمِّ، وأوْصى بصِلةِ الرَّحِم(٤)؛ حيث تَضمنَّت هذه الآيةُ المفتَتَحُ بها الأغراض الأصلية

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٧٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٩٦)

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٣).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٤٨).

التي اشتملت عليها السورة، وما أكثرُ السُّورةِ في أحكامِه؛ من نِكاحِ النِّساءِ ومحرَّماتِه، والمواريثِ المتعلِّقةِ بالأرحام، وأنَّ ابتداءَ هذا الأمر كان بخَلْق آدَمَ، ثم خَلَق زوجَه منه، ثم بَثَّ منهما رِجالًا ونساءً في غاية الكثرة؛ فالآية تمهيدٌ لِمَا سيُبَيَّن في هذِه السُّورةِ من الأحكامِ المرتَّبةِ على النَّسَبِ والقرابة، فكانتْ بمنزلةِ الدِّيباجةِ[1].

٢- قوله: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾: عبَّر بـ﴿رَبَّكُم﴾، دون الاسم العَلَم (الله)؛ لأنَّ في معنى الربِّ ما يَبعث العبادَ على الحِرص في الإيمانِ بوحدانيَّتِه؛ إذ الربُّ هو المالك الذي يرُبُّ مملوكَه، أي: يُدبِّر شؤونَه، مع الإضافةِ إلى ضميرِ المخاطَبين؛ لتأييدِ الأمر، وتأكيدِ إيجاب الامتثالِ به على طريقةِ الترغيبِ[2].

٣- قوله: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾: إعادة الفِعل (خَلَق)- مع جوازِ عطفِ مفعولِه على مفعولِ الفِعل-؛ لإظهارِ ما بين الخَلقينِ من التفاوُتِ؛ فإنَّ الأوَّل بطريقِ التفريعِ من الأَصْل، والثاني بطريقِ الإنشاءِ من المادَّة؛ فإنَّه تعالى خلَقَ حواءَ مِن ضِلَع آدَمَ عليه السلام، وتأخيرُ ذِكْر خَلْقِها عن ذِكرِ خَلْقِهم؛ لأنَّ تذكيرَ خَلقِهم أدخلُ في تحقيقِ ما هو المقصودُ من حمْلِهم على الامتثالِ بالأمْر بالتقوى من تذكيرِ خَلْقِها[3].

- وتقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿مِنْهَا﴾؛ للاعتناءِ ببيانِ مبدئيَّةِ آدَمَ عليه السَّلام لها، مع ما فيه من التشويقِ إلى المؤخَّر، وإيرادُ حواء بعنوان الزوجيَّة تمهيدٌ لِمَا بعده من التناسُل[4].

---

(١) ينظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٣٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢١٤- ٢١٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢١٤- ٢١٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٤- قوله: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾

- وإيثارُ (رجالًا- ونساءً) على (ذكورًا- وإناثًا)؛ لتأكيدِ الكثرةِ، والمبالغةِ فيها بترشيح كلِّ فرد من الأفراد المبثوثة لمبدئيَّة غيره[1].

- وترتيب الأمْر بالتقوى على هذه القِصَّة؛ للدَّلالة على القُدرة القاهرةِ التي من حقِّها أنْ تُخشى، والنِّعمةِ الباهرةِ التي تُوجِب طاعةَ مُولِيها[2].

٥- قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾: فيه تكريرٌ للأمْر بالتقوى، وتذكيرٌ لبعضٍ آخَرَ من مُوجِبات الامتثالِ به؛ فإنَّ سؤالَ بعضِهم بعضًا باللهِ تعالى بأن يقولوا: أَسألُك بالله، وأَنْشُدُك اللهَ، على سبيلِ الاستعطاف، يَقتضي الاتِّقاءَ من مخالفةِ أوامرِه ونواهيه[3].

- وتعليقُ الاتِّقاءِ بالاسمِ الجليل (الله)؛ لمزيدِ التأكيدِ والمبالغة في الحَمْلِ على الامتثالِ بتربيةِ المهابة، وإدخالِ الرَّوعة؛ لوقوعِ التساؤُلِ به لا بغيرِه من أسمائِه تعالى وصِفاته[4].

- وفي قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ قرَنَ اللهُ سُبحانَه الأرحامَ باسْمِه الكَريمِ؛ إيذانًا بأنَّ صِلةَ الأرحامِ مِن اللهِ بمكانٍ عظيمٍ[5].

٦- قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾: خبرٌ جارٍ مجرَى التَّعليلِ للأمْرِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١٧٦).

ووُجوبِ الامتثالِ به(١)، مع ما فيه من التوكيدِ بـ(إنَّ)، واسميَّة الجملة.

- وإظهارُ الاسمِ الجليلِ ﴿اللهَ﴾؛ لتَأكيدِه، وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَيْكُمْ﴾؛ لرِعايةِ الفَواصِل(٢).

- والتعبيرُ بصِيغة فَعيل في قوله: ﴿رَقِيبًا﴾؛ للمُبالغةِ(٣).

(١) ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٥٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٩).
(٣) ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٥٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٩).

الآيات (٢ - ٦)

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلمات:

﴿حُوبًا﴾: أي: إثمًا؛ يقال: فلانٌ يَتحَوَّبُ من كذا، أي: يتأثَّم، والتَّحوُّبُ التوجُّع، والحَوْبَة الحاجةُ أو المسكَنة، وأصْلُ (حوب): الإثمُ أو الحاجةُ والمسكنةُ، وقيل: مأخوذ من قولهم: حَوْبُ؛ لزَجْرِ الإبل[1].

﴿تعُولُوا﴾: أي: تَجُوروا وتَميلوا، والعولُ: الميلُ إلى الجورِ في الحكمِ، ويُطلقُ كذلك على ما يُهلِك، وما يُثقِل، وأصْلُه: تركُ النَّصَفة بأخْذ الزِّيادة[2].

﴿مَثْنَى وثُلَاثَ ورُبَاعَ﴾: أي: اثنتينِ اثنتين، وثلاثًا ثلاثًا، وأربعًا أربعًا، وهذه

---

(١) ينظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٥).

(٢) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٩)، ((مجمل اللغة)) لابن فارس (ص: ٦٣٧) ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٨).

الألفاظُ لا تنصرفُ للعدلِ والوصفِ(١).

﴿صَدُقَاتِهِنَّ﴾: أي: مُهورَهنَّ، واحدتُها صَدُقة، وأصل (صدق): القوَّة في الشَّيء قولًا كان أو غيره(٢).

﴿نِحْلَةً﴾: أي: هِبة، أو فريضةً عن طِيب نفْس من غيرِ مُطالَبة، وأصل النِّحلة: العَطيَّةُ على سبيل التبرُّع، وهي أخصُّ من الهِبة(٣).

﴿فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾: الهَنِيء: كلُّ ما لا يَلحَق فيه مَشقَّةٌ، ولا يُعقِب وخامةً؛ يُقال: هَنِئ الطَّعام، فهو هَنِيء، وأصل (هنأ): إصابةُ خيرٍ من غير مشقَّة، وقيل: إنَّ الهَنيءَ مُشتقٌّ مِن هَنَأت البعيرَ بالقَطِرانِ: إذا جَرِبَ فعُولِج بِه؛ فإنَّه شفاءٌ من الجَرَبِ. و﴿مَرِيئًا﴾: أي: بلا داءٍ، والمريءُ: المحمودُ العاقبة؛ يُقال: أَمْرَأ الطَّعام، إذا انهضَمَ وحُمِدتْ عاقبتُه. فيكون المَعْنَى: فكُلوه دَواءً شافيًا؛ يُقالُ منه: هَنَأَني الطَّعامُ ومَرَأني: أي صارَ لي دواءً وعلاجًا شافيًا(٤).

﴿قِيَامًا﴾: أي: قِوامًا، وهو ما يقومُ به أمْرُكم، وأصل (قوم): مراعاةُ الشَّيء والحِفظُ له، والانتصابُ والعزم(٥).

---

(١) ينظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٧٥، ١٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٥).

(٢) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص:١١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٣٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٦).

(٣) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص:١١٩، ١٢٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٠٢، ٤٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٤).

(٤) ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٦، ٨٤٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (١/ ١٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (١/ ٩٦٣).

(٥) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٥)، =

﴿آنَسْتُمْ﴾: أي: وجدتُم وعلِمتُم، وتبيَّنتُم وعَرَفتُم، وأصل الإيناس: الرُّؤية والعِلمُ، والإحساسُ بالشَّيء، وكذلك: ظُهورُ الشَّيء، وكلُّ شيءٍ خالَفَ طريقةَ التوحُّش[1].

﴿رُشْدًا﴾: عقلًا، أو إصلاحًا، أو خيرًا، والرُّشد يُطلق كذلك على الدِّين والهِداية، وهو خلافُ الغيِّ، وأصل (رشد): استقامةُ الطَّريق[2].

﴿وَبِدَارًا﴾: مُبادَرة، أو مسارَعة؛ يُقال: بدرتُ إليه وبادرتُ، ويُعبَّر عن الخطأِ الذي يقَعُ عن حِدَّةٍ؛ يُقال: كانتْ من فلان بوادرُ في هذا الأمرِ، وأصل (بدر): الإسراعُ إلى الشَّيء[3].

﴿فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾: أي: ليترك، ولا يأكُلْ مِن مال اليتيم، والعِفَّة: الامتناعُ عن مقاربةِ المحرَّم، وهي أيضًا: حُصولُ حالةٍ للنَّفس تمتنعُ بها عن غلَبةِ الشَّهوة،، والاستعفافُ: طلبُ العِفَّة، وأصلُ (عفف): الاقتصارُ على تناوُلِ الشَّيءِ القليل[4].

مُشكِلُ الإعراب:

١- قوله: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا﴾

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٦).

(١) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص:١٢٠، ٢٧٧، ٣٠٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٢).

(٢) ينظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٩٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٣).

(٣) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص:١٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٦).

(٤) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص:١٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٦).

﴿نِحْلَةً﴾: منصوبةٌ على المصدرِ، والعاملُ فيها الفعلُ قَبْلَها؛ لأنَّ ﴿آتُوهُنَّ﴾ بمَعْنى انحِلوهُنَّ، وذلِك نحو: قَعَدْتُ جُلوسًا. ويجوز أن تكون ﴿نِحْلَةً﴾ مَصدرًا واقعًا موقعَ الحالِ مِن واو الجماعةِ في قوله: ﴿وَآتُوا﴾، أي: وآتوهنَّ ناحِلينَ، أو مِن ﴿النِّسَاءَ﴾ أي: مَنحولاتٍ. وقيل غير ذلك(١).

﴿نَفْسًا﴾: منصوبٌ على التَّميز، وهو هنا منقولٌ من الفاعِل؛ إذ الأصلُ: فإنْ طابتْ أنفسُهن، وجِيء بالتَّميز هنا مُفردًا، وإنْ كان قبْله ﴿طِبْنَ﴾ وهو جمْعٌ -حيث لم يقُل (أنفسًا)-؛ لعدمِ اللَّبْس؛ إذ مِن المعلومِ أنَّ الكلَّ لَسْنَ مُشتركاتٍ في نفْسٍ واحدة، فالمعنى مفهوم، وحسُن المجيءُ بالتَّمييزِ مُفردًا؛ لأنَّ ﴿نَفْسًا﴾ هنا في مَعْنى الجِنس، فتَعُمُّ المفردَ والجَمْعَ(٢).

٢- قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا﴾

﴿أَنْ يَكْبَرُوا﴾: مصدرٌ مؤوَّل بالصَّريح، أي: (كِبَرَهم)، وإعرابُه فيه وجهان؛ الأوَّل: أنَّه مفعولٌ بالمَصْدَر ﴿بِدَارًا﴾، أي: وبِدارًا كِبَرَهم، كقوله: ﴿أَوْ إِطْعَامٌ... يَتِيمًا﴾ [البلد: ١٤-١٥]. والثاني: أنَّه مفعولٌ من أجْلِه على حذْفِ مضافٍ، أي: مَخافةَ أنْ يَكبَروا، وعلى هذا فمفعول ﴿بِدَارًا﴾، محذوفٌ(٣).

المَعنَى الإجمالي:

يأمُر اللهُ سبحانه وتعالى الأوصياءَ بإعطاء اليتامَى أموالهم، مُتْبِعًا ذلك الأمرَ بنهْيِهم عن استبدالِ الخبيثِ من المال بالطيِّب منه، وذلك حين يأخذونَ من مال

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٨٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٢٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٥٧١).
(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٩٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٢٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٥٧٣).
(٣) ينظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٩٢)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٣٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٥٨٥- ٥٨٦).

الأيتامِ، ويتركونَ ما أحلَّه الله لهم مِن غَيره، أو أن يجعلوا رَديءَ المالِ لهم بدلَ الجيِّد، كما نهاهم عن ضمِّ أموالِ الأيتامِ إلى أموالهم بقَصْدِ أكلِها بالباطل؛ فإنَّه إثمٌ عظيم.

ثم يُرشِد اللهُ سبحانه وتعالى مَن يخافون ألَّا يعدِلوا- في حال تزوَّجوا بنساءٍ يتامى ممَّن تحت ولايتهم- أو أنْ يُقصِّروا في حقوقهن، يوصيهم أن يَدَعُوهنَّ ويتزوَّجوا غيرهنَّ ممَّن ترتضي نفوسهم، اثنتين أو ثلاثًا أو أربعًا، فإنْ خافوا ألَّا يُقيموا العدلَ في حالة عدَّدوا النساء، فليقتصروا على الزواج بزوجةٍ واحدة، أو الاكتفاء بما يملكون من الجواري؛ فإنَّ ذلك أقربُ إلى ألَّا يَظلموا.

ثم يأمُر الله تعالى مَن أراد الزواجَ بإعطاء النِّساءِ المرادِ الزواجُ منهن مهورَهنَّ عطيَّةً واجبةً، طيِّبة بها نفوسُهم، فإنْ طابت نفوسُ النِّساء عن بعضِ المهر أو كلِّه، فوهبْنَه لأزواجهنَّ، فلا حرَجَ عليهم من أخْذه.

ثم يَنهى اللهُ الناسَ أن يُعطوا أموالَهم التي يقوم بها عيشُهم، مَن لا يُحسِن التصرُّفَ فيها، كذلك نهاهم أن يُعطوا مَن لا يحسنون التصرُّفَ في أموالِهم التي يملكونها، إنْ كانوا أوصياءَ عليهم، ولكن عليهم أن يُنفِقوا عليهم منها فيما يحتاجونه في حياتِهم؛ من طعام وشراب، وملبس ومسكن، وأن يقولوا لهم قولًا طيِّبًا تطيبُ به نفوسُهم.

ثم يأمُر تعالى الأوصياءَ أن يختبِروا الأيتامَ في دِينهم، وعقولِهم وتصرُّفِهم، قبل بلوغهم، فإذا ما بلغوا الحُلُمَ، ورأَوْا فيهم حُسْنَ التصرُّف، والقُدرة على إصلاح المالِ، فلْيعُطوهم أموالَهم، ونهاهم سبحانه عن أنْ يأخذوا مِن أموالِ اليَتامى شيئًا مِن غيرِ حاجةٍ، أو أنْ يُبادِروا بأكْلِها في حال صِغَرهم؛ قبل أنْ يَكبَروا فيَأخُذوا أموالَهم ويمنعوهم منها، وأمَرَ الله تعالى مَن كان غنيًّا أن يتركَ للأيتام

أموالَهم، ويكتفيَ بما رزقه الله، ومَن كان منهم ذَا حاجةٍ فليأخُذْ ما تعارَفَ عليه النَّاسُ أنه يسدُّ حاجةَ أمثالِه من الفقراء، وأرشدَهم اللهُ أن يُشهِدوا على الأيتامِ حين يُسلِّمونَهم أموالَهم، وكفَى باللهِ شهيدًا ومُحاسِبًا، ورقيبًا عليهم.

تَفسيرُ الآيات:

﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا (٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

مناسبةُ عطفِ الأمْر على ما قَبلَه: أنَّه مِن فروعِ تقوى اللهِ في حقوقِ الأرحام؛ لأنَّ المتصرِّفين في أموال اليتامى في غالبِ الأحوالِ هم أهلُ قَرابتهم[١].

وأيضًا لَمَّا افتتَح السُّورةَ بذِكر ما يدلُّ على أنه يجبُ على العبدِ أن يكون منقادًا لتكاليفِ الله سبحانه، محترزًا عن مساخِطِه، شرَعَ بعد ذلك في شَرْح أقسامِ التكاليفِ، فبدأ بما يتعلَّق بأموال اليتامى[٢]؛ لأنَّهم صاروا بحيث لا كافِلَ لهم، ففارق حالُهم حالَ مَن له رحِمٌ ماسَّة[٣].

﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ﴾.

أي: أعطُوا- يا مَعشرَ أوصياءِ اليتامى- أموالَهم إليهم كاملةً، إذا بلغوا الحُلُمَ ورَشَدُوا[٤].

كما قال تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢١٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٨٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٠٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٢٠).

فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: ٦].

﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾.

أي: لا تأخذوا مالَ اليتيمِ بغيرِ حقٍّ، وتَتركُوا ما أحلَّ اللهُ تعالى لكُم مِن غيرِ ذلك، ومِن استبدالِ الخبيثِ بالطيِّبِ أنْ يأخُذَ الوليُّ مِن مالِ اليتيمِ النَّفيسَ، ويجعل بدلَه من مالِه الخسيسَ[1].

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾.

أي: لا تضُمُّوا أموالَ اليتامَى إلى أموالِكم؛ بقصد أن تأكلوا أموالَهم بالباطلِ[2].

﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾.

أي: إنَّ ضمَّ أموالِ اليتامى إلى أموالكم بقَصْد أكلِها بالباطل، إثمٌ عظيم[3].

كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا (٣)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٠-٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٢٠).

سببُ النُّزولِ:

عن عائشةَ رضِي اللهُ عنها، أنَّ رجلًا كانت له يتيمةٌ فنكَحَها، وكان له عَذْق[1]، وكان يُمسكها عليه، ولم يكُن لها من نفْسِه شيءٌ، فنزلت فيه ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾- أحسَبه قال: كانتْ شريكتَه في ذلِك العَذْق وفي مالِه[2].

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾.

أي: وإنْ خِفتُم ألَّا تعدلوا في يتامى النِّساء اللاتي تحتَ ولايتِكم؛ بعدمِ إعطائِهنَّ مهورَ مثلِهنَّ، أو عدمِ القيامِ بحقوقهنَّ[3].

عن عائشةَ رضِي اللهُ عنها في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا...﴾ الآية. قالت: أُنزلتْ هذه في الرَّجُل يكونُ له اليتيمةُ، وهو وليُّها ووارِثُها، ولها مالٌ، وليس لها أحدٌ يُخاصِمُ دونها، فلا يَنكحُها حبًّا لمالها، ويَضْرِبها ويُسيءُ صُحبتَها، فقال الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ يقول: ما أحللتُ لكم، ودَعْ هذه التي تضرُّ بها[4].

﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾.

---

(١) العَذْق- هُنا بفَتْح العين المُهمَلة-: وهو النَّخلة بكَمالِها. وأمَّا العِذْق- بكسر العين المهملة- فهو الغُصنُ (العُرجُون بما فيه من الشَّماريخ) من النَّخلة، وليس مرادًا هنا. ينظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٧/ ٣٣) و(١٨/ ١٥٧)، ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ١٩٩).

(٢) رواه البخاري (٤٥٧٣) واللفظ له، ومسلم (٣٠١٨) بنحوه.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٦).

قال القرطبيُّ: (اتَّفق كلُّ مَن يعاني العلوم على أن قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾ ليس له مفهوم؛ إذ قد أجمع المسلمون على أنَّ من لم يخَف القسط في اليتامى له أن ينكِحَ أكثرَ من واحدة: اثنتين أو ثلاثًا أو أربعًا كمَن خاف. فدلَّ على أنَّ الآية نزلت جوابًا لمن خاف ذلك، وأنَّ حُكمها أعمُّ من ذلك) ((تفسير القرطبي)) (٥/ ١٣).

(٤) رواه البخاري (٤٥٧٣) بنحوه، ومسلم (٣٠١٨) واللفظ له.

أي: فإنْ خَشِيتُم عدَم إقامة العدل معهنَّ، فانكحوا غيرهنَّ ممَّن تطيبُ بهنَّ نفوسكم(١).

﴿مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾.

أي: مُباحٌ لكم أن تتزوَّجوا باثنتين من النِّساء، أو بثلاث، أو بأربعٍ(٢).

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾.

أي: فإنْ خَشِيتُم عدمَ إقامَةِ العَدلِ بتَعدادِ النِّساء، فلْتَقْتَصروا على التزوُّج بواحدةٍ فحسبُ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٧-٢٨).
قال الجصاص: (قوله تعالى: ﴿فانكحوا ما طاب لكم﴾ لا خلافَ أنَّ المراد به العَقْد) ((أحكام القرآن)) (٢/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٨-٢٩).
وكلُّ واحد من هذه الأعدادِ يدلُّ على المكرَّر من نوعِه، وعلَّة التكرار هنا (أنَّ الخطاب لجماعةٍ؛ فيجوز لكلِّ واحد منهم أن ينكحَ ما أراد من تِلك الأعداد، فتكرَّرت الأعدادُ بتكرار الناس، والمعنى: انكِحوا اثنتينِ أو ثلاثًا أو أربعًا). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ١٧٨).
قال القرطبيُّ: (اعلم أنَّ هذا العدد مثنى وثلاث ورباع لا يدلُّ على إباحة تسع، كما قال من بعُد فَهمُه للكتاب والسُّنة، وأعرض عمَّا كان عليه سلفُ هذه الأمَّة، وزعم أنَّ الواو جامعة، وعضَّد ذلك بأنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم نكَح تِسعًا، وجمع بينهن في عِصمته. والذي صار إلى هذه الجهالة، وقال هذه المقالة الرافضةُ وبعضُ أهل الظاهر، فجعلوا مثنى مثل اثنين، وكذلك ثلاث ورباع. وذهب بعضُ أهل الظاهر أيضًا إلى أقبح منها، فقالوا بإباحة الجمْع بين ثمان عشرة، تمسُّكًا منه بأنَّ العدل في تِلك الصِّيغ يُفيد التَّكرار، والواو للجمع، فجعل مثنى بمعنى اثنين اثنين، وكذلك ثلاث ورُباع. وهذا كلُّه جهل باللِّسان والسُّنَّة، ومخالفة لإجماع الأمَّة؛ إذ لم يُسمعْ عن أحد من الصَّحابة ولا التابعين أنَّه جمَع في عِصمته أكثرَ من أربع) ((تفسير القرطبي)) (٥/ ١٧).
وقال محمد رشيد رضا: (آية: ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع﴾ لم تُنسَخ بالإجماع، فإذًا يلزمُ العملُ بمدلولها ما دام الكتاب) ((تفسير المنار)) (٤/ ٣٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٤)، ((تفسير ابن =

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾.

أي: أو اقتصِروا على الجواري السَّراري؛ فإنَّه لا يجب عليكم القَسْمُ بينهنَّ[1].

﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾.

أي: الاقتصارُ على واحدةٍ، أو ملكِ اليمينِ، أقربُ إلى تحقيقِ العَدلِ، والبُعدِ عن الجَور والظُّلْم[2].

﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا (٤)﴾.

= عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٠).

شرَع الله تعالى تعدُّدَ النساء للقادرِ العادلِ لمصالح جَمَّة:

- منها: أنَّ في ذلك وسيلةً إلى تكثير عدد الأمَّة بازدياد المواليد فيها.

- ومنها: أنَّ ذلك يُعين على كفالة النِّساءِ اللائي هنَّ أكثرُ من الرِّجال في كلِّ أمَّة؛ وذلك لأنَّ الأنوثةَ في المواليد أكثرُ من الذكورة، ولأنَّ الرِّجال يَعرِض لهم من أسباب الهلاك في الحروب والشَّدائد ما لا يعرِض للنِّساء، ولأنَّ النساء أطولُ أعمارًا من الرِّجال غالبًا.

- ومنها: أنَّ الشريعة قد حرَّمت الزِّنا، وضيَّقت في تحريمه؛ لِمَا يجرُّ إليه من الفساد في الأخلاق والأنساب ونِظام العائلات، فناسَب أن تُوسَّع على الناس في تعدُّدِ النساء لِمَن كان من الرِّجال ميَّالًا للتعدُّد، مجبولًا عليه.

- ومنها: قصدُ الابتعاد عن الطَّلاق إلَّا لضَرورة. ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٢٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٧٥)، ((تحفة المودود)) لابن القيم (ص: ١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٤).

قال الواحديُّ: (ومعنى ﴿تَعُولُوا﴾: تَميلُوا وتَجورُوا، عن جميعِ المفسِّرين) ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٩).

وما حكاه الواحدي إجماعًا هو في الواقعِ قولُ الجمهور؛ لأنَّ الخلافَ في ذلك واقعٌ بين السَّلف. يُنظر: ((الإجماع في التفسير)) للخضيري (ص: ٢٥٣-٢٥٤).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا كان هناك جانبانِ مُستضعَفانِ في الجاهليَّة: اليتيمُ، والمرأة، وحقَّانِ مغبونًا فيهما أصحابُهما: مالُ الأيتام، ومالُ النِّساء؛ فلذلك حرَسَهما القرآنُ أشدَّ الحراسةِ، فابتدأ بالوصايةِ بحقِّ مالِ اليتيم، وثنَّى بالوصاية بحقِّ المرأةِ في مال ينجرُّ إليها لا محالةَ، وكان توسُّطُ حُكم النِّكاح بين الوصايتين أحسنَ مناسبةٍ تهيِّئ لعطف هذا الكلام[1].

﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾.

أي: وأعطُوا من أَرَدْتم الزواجَ بهنَّ من النساء مهورَهنَّ، عطيةً واجبةً، طيبةً بها نفوسُكم[2].

﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا﴾.

أي: فإنْ وهَب لكم نساؤُكم- أيُّها الأزواج- مُهورَهنَّ أو بعضًا منها، عن رِضًا وطيبِ نفْس منهنَّ بذلك[3].

﴿فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾.

أي: فخذوه حلالًا طيِّبًا لكم، لا حرجَ عليكم في ذلك، ولا تَبِعة[4].

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٥).

وقيل: الخطابُ لأولياءِ المرأة أيضًا. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٥).

(٤) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٤).

وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٥)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

عُطِفتْ هذه الآيةُ على قوله: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَى﴾، ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ﴾؛ لبيانِ الحالِ التي يُمنَع فيها السَّفيهُ من مالِه، والحال التي يُؤتَى فيها مالَه، كأنَّه تعالى يقول: إنِّي وإنْ كنتُ أمرتُكم بإيتاءِ اليتامى أموالَهم، وبدَفْع صدقاتِ النِّساء إليهنَّ، فإنَّما قلت ذلك إذا كانوا عاقِلين بالِغين، متمكِّنين من حِفظِ أموالهم، فأمَّا إذا كانوا غيرَ بالغين، أو غير عقلاء، أو إنْ كانوا بالغين عقلاءَ إلَّا أنهم كانوا سفهاءَ مُسرِفين، فلا تدفعوا إليهم أموالهم، وأمسكوها لأجْلهم إلى أن يزولَ عنهم السَّفَهُ[1].

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾.

أي: لا تُعطوا- أيُّها الناس- أموالكم التي جعَلَها الله لكم قِيامًا- يقوم بها عيشُكم، وتحقيق مصالحكم- لا تعطوها لِمَن لا يُحسِن التصرُّفَ في المال، والقيام عليه وحِفظه؛ إمَّا لعدم عقْله كالمجنون، أو لعدم رُشده كالصَّغير، أو لغير ذلك من أسباب، حتَّى لو كان هذا المالُ مالَهم على الحقيقةِ، وأنتُم عليه أوصياءُ، فلا تُعطوهم إيَّاه طالَما كانوا سفهاءَ لا يُحسنون التصرُّفَ فيه؛ كي لا يَهلِك، وليكُنْ حرصُكم على أموالهم كحِرصِكم على أموالِكم[2].

﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ﴾.

أي: ولكنْ أنفِقوا من تلك الأموالِ على طعامِهم وشَرابِهم ومَلابِسهم، وما يتعلَّق بضروراتِ عَيشِهم؛ كمَسكنِهم، وليتكم تتَّجِرون لهم في مالِهم؛ كي ينموَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٩٤-٣٩٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٨-٣٩).

ويكونَ الإنفاقُ عليهم من الرِّبح، لا مِن أصلِ المالِ(١).

﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾.

أي: وقولوا لهم قولًا طيِّبًا، كأنْ تَعِدُوهم إنْ طلبوا أموالَهم، بأنَّها ستُدفَع إليهم بعدَ رُشدهم(٢)، أو حينَ إعطائِكم لهم رزقًا أو كسوةً ونحو ذلك، قولوا لهم قولاً هيِّنًا وليِّنًا، بغير منٍّ ولا أذًى(٣).

﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (٦)﴾.

﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى﴾.

أي: واختبِروا عقولَ الأيتامِ ممَّن تحت ولايتِكم، وذلك قُبيلَ وصولِهم سِنَّ البلوغ، واختبِروا أفهامَهم، وصلاحَ دِينهم، وقُدرتَهم على إصلاحِ أموالهم(٤).

﴿حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا﴾

أي: اختبِروهم إلى أن يَصِلوا سِنَّ البلوغِ، فإذا بلغوا الحُلُمَ، وأدركتم منهم حُسنَ تصرُّفٍ، وقدرةً على إصلاح الأموال(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٩-٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٤-١٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٠٤-٤٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٢-٤٣). =

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

﴿فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾.

أي: فأعطوهم في هذه الحالِ أموالَهم كاملةً، ولا تَحبِسوها عنهم[١].

﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا﴾.

أي: ولا تَأْخُذوا من أموالِ اليَتامى شيئًا من غيرِ حاجةٍ، فتتجاوزوا في ذلك إلى غيرِ ما أباحَه اللهُ تعالى لكم مِن أموالِهم[٢].

﴿وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا﴾.

أي: لا تأكلوها في حالِ صغرِهم استعجالًا منكم قبل بلوغِهم، وإيناسِ الرُّشدِ منهم، فيأخذوها منكم، ويمنعوكم منها[٣].

﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾.

أي: ومَن كان مِن أولياء اليتامى في غنيةٍ عن أموالِهم، لا يحتاجُ إليها، فليكفَّ عن أكلِها- الذي أُبيح له منها- وليستعففْ بمالِه[٤].

= قال الماوردي: (﴿حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ يعني الحُلُم في قول الجميع) ((تفسير الماوردي)) (١/ ٤٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٣-٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٣-٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٤)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (٥/ ٤١).

﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

أي: ومَن كان ذا حاجةٍ من أولياء اليَتامى، أخَذَ من أموالهم بحسَب ما جرَى العُرْف على أنَّه يَسدُّ حاجتَه، ويَكفي مِثلَه من الفُقراء[1].

عن عبد الله بن عمرٍو رضِي اللهُ عنهما ((أنَّ رجلًا أتى النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال: إنِّي فقيرٌ ليس لي شيءٌ، ولي يتيمٌ؟ قال: فقال: كُلْ من مالِ يتيمِك غيرَ

---

(١) وهذا اختيارُ ابن عاشور في ((تفسيره)) (٤/ ٢٤٥)، وابن عثيمين في ((تفسير سورة النساء)) (١/ ٤٤).

قال ابنُ عاشور: (وهو تخصيصٌ لعموم النَّهي عن أكْل أموال اليتامى في الآيتين السابقتين؛ للترخيصِ في ضَربٍ من ضروب الأكل، وهو أنْ يأكل الوصيُّ الفقيرُ من مال محجوره بالمعروف، وهو راجعٌ إلى إنفاق بعض مال اليتيم في مصلحتِه؛ لأنه إذا لم يُعطَ وصيُّه الفقير بالمعروف ألْهاه التدبيرُ لقُوتِه عن تدبيرِ مال محجوره، وفي لفظ ﴿الْمَعْرُوفِ﴾، حوالةٌ على ما يناسب حالَ الوصي ويتيمه بحسَب الأزمان والأماكن) ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٤٥).

وقال ابنُ عثيمين: (قوله: ﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾، أي: فليأكلْ أكلًا بالمعروف، أي: بما جرَى به العُرف، فلا يأكُل أكْلَ الأغنياء، وإنما يأكُل أكْلَ مثله) ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٤).

وقال أيضًا: (وظاهرُ الآيةِ أنه يأكل بالمعروف ولو زادَ على قدْر الأجرة...؛ لأنَّ الوليَّ محبوسٌ على التصرُّف لليتيم؛ فلا بدَّ له مِن مَأكلٍ ومَشربٍ، فليأكل بالمعروف، وأيضًا فإنَّ هذا الوليَّ ليس كالأجير الأجنبي في مراعاة مال اليتيم؛ فلا ينبغي أن نلحقَه بالأجيرِ الأجنبي، لكن المعروف عند الفقهاء أنه يأخُذُ الأقلَّ من أجرته أو كفايته) ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٦).

واختار ابنُ جرير أنَّ المعنى: أكْل مال اليتيم عندَ الضرورةِ والحاجة إليه على وجهِ الاستقراض منه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٢٦).

ولكن قال القرطبيُّ: (رُوي عن إبراهيمَ وعطاءٍ والحسنِ البصري والنخعي وقتادةَ: لا قضاءَ على الوصيِّ الفقير فيما يأكل بالمعروف؛ لأنَّ ذلك حقُّ النظر، وعليه الفقهاء؛ قال الحسن: هو طُعمةٌ من الله له؛ وذلك أنه يأكل ما يسدُّ جوعته، ويَكتسي ما يسترُ عورته، ولا يلبس الرفيعَ مِن الكتَّان ولا الحُلل، والدليل على صِحَّة هذا القول إجماعُ الأمَّة على أنَّ الإمام الناظر للمسلمين لا يجبُ عليه غرمُ ما أكل بالمعروف؛ لأنَّ الله تعالى قد فرَض سهمَه في مال الله؛ فلا حُجَّة لهم في قول عمر: فإذا أيسرتُ قضيتُ- أنْ لو صحَّ) ((تفسير القرطبي)) (٥/ ٤٢).

مُسرفٍ، ولا مبادرٍ، ولا مُتأثِّل[١]))[٢].

وعن عُروةَ بن الزُّبَيرِ رضِي اللهُ عنه، أنَّه سمِع عائشة رضِي اللهُ عنها تقول: ((﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أُنزِلَت في والي اليتيم الذي يُقيم عليه، ويُصلح في مالِه إنْ كان فقيرًا، أكَل منه بالمعروف))[٣].

﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ﴾.

أي: فإذا سلَّمتُم- يا معشرَ أولياءِ اليتامى- أموالَهم إليهم، فأشْهِدوا عليهم بقبضها كاملةً منكم؛ لئلَّا يقعَ منهم لاحقًا إنكارٌ لِمَا تَسلَّموه[٤].

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾.

أي: وكفَى باللهِ محاسبًا وشهيدًا ورقيبًا على والي اليتيمِ في حالِ نظرِه لليتيمِ، وحالِ دفعِه الأموالَ إليه[٥].

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- عِظَم أمرِ اليَتامَى؛ يُبيِّنه قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾[٦].

---

(١) غير متأثِّل: أي: غير جامع؛ يقال: مال مُؤثَّل، ومجد مؤثَّل، أي: مجموع ذو أصل، وأثَلَةُ الشيء أصلُه. ينظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١١/ ٨٦)، ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٢٣).

(٢) رواه أبو داود (٢٨٧٢)، والنسائي (٣٦٦٨)، وابن ماجه (٢٧١٨)، وأحمد (٧٠٢٢).
قال ابن حجر في ((العجاب)) (٢/ ٨٣٣): رجاله إلى عمرٍو بن شعيب رجالُ الصَّحيح. وصحَّح إسنادَه أحمدُ شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (١١/ ١٩٢)، وقال الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٢٨٧٢): حسن صحيح.

(٣) رواه البخاري (٢٢١٢) واللفظ له، ومسلم (٣٠١٩) بنحوه.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٢٨-٤٢٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٢٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢١٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٤-٤٥).

(٦) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٤/ ١٠٨).

٢- أنَّ هذه الأرضَ لا تصلُح بالتشريعات فحسبُ، ما لم تكُن هناك رقابةٌ من التقوى؛ لتنفيذِ تلك التشريعات، فحين يهمُّ الفرد بانتهاكٍ ما، يشعر أنَّه يخون الله، ويَعصي أمره؛ لأنَّ اللهَ مطَّلع على نيَّته هذه وعلى فِعله، وعندئذ تتزلزل أقدامُه، وترتجف مفاصِلُه، وتجيش تقواه، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾[1].

٣- يجبُ على الإنسانِ الاحتياطُ إذا خاف الوقوعَ في المحرَّم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ يعني: ولا تُعرِّضوا أنفسكم للجَور؛ فالعافيةَ من خيرِ ما أُعطِيَ العبدُ[2].

٤- في قولِه تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾؛ أنَّه سُبحانَه دلَّهم على ما يتخلَّصونَ به مِن ظُلْم اليَتامى، وهو نكاحُ ما طابَ لهم من النِّساءِ البَوالِغ، وأباح لهم منه، ثم دَلَّهُم على ما يتخلَّصونَ به من الجَوْر والظُّلْم في عَدَمِ التَّسويَة بينهُنَّ، فقال: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾، ثُمَّ أخبر سبحانه أنَّ الواحدةَ ومِلْكَ اليمينِ أدنى إلى عَدَمِ المَيل والجَوْر، فقال: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾[3]؛ فالله عزَّ وجلَّ إذا سدَّ بابَ حرامٍ، فتَح أبواب الحلال، وهذا من طريقة القرآن والسُّنة[4].

٥- تحريمُ الوسائلِ المؤدِّية إلى المحرَّم؛ لقوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾، فأوجب الاقتصارَ على الواحدة إذا خافَ الإنسانُ عدمَ العدل، وهذه قاعدةٌ عظيمةٌ في أصول الفقه: (أنَّ للوسائِل أحكامَ المقاصِدِ)؛ فما لا يتمُّ الواجب إلَّا به، فهو واجبٌ، وما لا يتمُّ المندوبُ إلا به، فهو مندوبٌ، وما

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٥٧٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣١).
(٣) ((تحفة المودود)) لابن القيم (ص: ١٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٢).

يحصُل به المحرَّم، فهو حرام(١).

٦- يتبيَّن من قوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾ و﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾، و﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾، أن العدل أجدرُ بأن يُراعَى في المحضنِ الذي يضمُّ الأُسْرة، وهي اللَّبِنةُ الأولى للمجتمع، ونقطةُ الانطلاقِ إلى الحياةِ العامَّة، فإنْ لم يقُمْ هذا البناءُ على العدلِ والوُدِّ والسلام، فربَّما لا عدلَ ولا ودَّ في المجتمع كلِّه، ولا سلامَ(٢)!

٧- مَن ولَّاه الله على أحدٍ فعليه ألَّا يُغلِظَ له القولَ، بل يقول له القولَ المعروفَ؛ حتى يجمعَ بين الإحسانِ القوليِّ والفِعليِّ؛ قال تعالى: ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾(٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قدَّم الله تعالى ذِكر الأمْر بالتقوى، وكون الخَلْق بأسْرِهم مخلوقين من نفْس واحدة، وذَكر عَقيبه الأمرَ بالإحسان إلى اليَتامى والنساءِ والضُّعفاءِ؛ قيل: ليَصيرَ ذلك سببًا لزيادة شفقةِ الخَلقِ بعضِهم على بعضٍ(٤).

٢- أنَّ اليتيمَ يملك، وملكُه تامٌّ؛ لقولِه تعالى: ﴿أَمْوَالَهُمْ﴾، ويتفرَّع على هذه الفائدة: أنَّ الزكاة واجبةٌ عليه؛ لأنَّ الزكاة تبَع للمِلْك؛ قال الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ [التوبة: ١٠٣]، فإذا ثبتَتِ الملكيَّةُ ثبَت وجوبُ الزكاة، والزكاة ليستْ تكليفًا محضًا، بل هي تكليفٌ لحقِّ الغير، وهم الفقراء، فهي شبيهةٌ بالدَّين؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٢).
(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٥٨٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٧٦).

ولهذا وجبتْ في أموالِ اليتامى والمجَانينِ، وإنْ كانوا غيرَ مكلَّفينَ(١).

٣- أنَّ اليتيمَ تَجِب النفقةُ في مالِه على مَن تجِبُ عليه نفقتُه، فالنفقةُ واجبةٌ على كلِّ غنيٍّ لكلِّ فقيرٍ، والبلوغ ليس بشَرْط؛ لأنَّ الله تعالى أثبت الماليَّةَ لليتامى في قوله: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ﴾، وإذا ثبتت المالية؛ ترتَّب عليها ما يترتَّب على ذوي الأموال(٢).

٤- ليس قيد ﴿إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ محطَّ النهيِ، بل النهيُ واقعٌ على أكْلِ أموالهم مطلقًا، سواءٌ كان للآكِلِ مالٌ يَضمُّ إليه مالَ يتيمِه أم لم يكُنْ، ولكن لَمَّا كان الغالبُ وجودَ أموالٍ للأوصياءِ، وأنَّهم يريدون مِن أكْلِ أموالِ اليتامى التكثُّرَ، ذكَر هذا القيد؛ رعيًا للغالبِ(٣)، ولأنَّ بعضَ الأولياءِ يتستَّرُ، فيُدخِلُ مالَ اليتيمِ في مالِه، ولا يَعلمُ به أحدٌ(٤).

٥- في قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أنَّ اليَمينَ أفضلُ من اليَسارِ؛ لأنَّه أضافَ المِلْكَ إليها، ولا شكَّ أنَّ اليمينَ أفضلُ من اليَسار؛ ولهذا تُعدُّ اليمينُ للإكرامِ، واليَسارُ للإهانةِ؛ فالشيءُ الطيِّب يُتناوَلُ باليمينِ، والشيءُ الخبيثُ يُزال باليَسارِ(٥).

٦- تفاضُل الأعمال؛ فبعضُها أعلى من بعضٍ في الحُسْن، وأَدْنى من بعضٍ في السُّوء؛ لقوله: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾؛ لأنَّ الأدْنى اسمُ تفضيلٍ؛ فلا بدَّ أن يكونَ هناك فاضلٌ ومفضولٌ(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٤).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٧- أنَّه لا يجوزُ للوليِّ أن يأخذ شيئًا من صَدَاق النِّساء؛ لأنَّه أضاف الصَّدَاقَ إليهن؛ فهو مِلْكُهن، ولأنَّا أُمِرْنا بإيتائهنَّ صداقَهنَّ قال تعالى: ﴿وَءَاتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ﴾[(١)].

٨- في قوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ أنَّه يجِبُ إعطاؤهن الصَّداقَ على وَجْه النِّحلة؛ أي: العطيَّة التامَّة، فلا يكون فيه مِنَّةٌ في المستقبلِ[(٢)].

٩- العقودُ تصحُّ بكلِّ ما دلَّ على مَقْصودِها مِن قولٍ أو فِعلٍ؛ يدلُّ على ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَءَاتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾، فلم يشترطْ لفظًا مُعَيَّنًا، ولا فِعلًا معيَّنًا يدلُّ على التَّراضي وعلى طِيبِ النَّفْسِ[(٣)].

١٠- قولُه تعالى ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّ حِفْظَ العِلْمِ مِمَّن يُفْسِدُه ويضرُّه أولى، وليس الظُّلْمُ في إعطاءِ غَيْرِ المستحِقِّ بأقلَّ مِن الظُّلْم في مَنْعِ المستحِقِّ[(٤)].

١١- في إضافتِه تعالى الأموالَ إلى الأولياءِ في قولِه سبحانه: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾، إشارةٌ إلى أنَّه يجبُ عليهم أنْ يَعمَلوا في أموالِ السُّفهاءِ ما يَفعلونَه في أموالهم؛ من الحِفْظ والتصرُّف، وعدم التعريضِ للأخطارِ[(٥)].

١٢- في التعبير بـ(فيها) دون (منها) في قوله: ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ﴾ تنبيهٌ إلى ما يَنبغي من الاتِّجارِ في مالِ اليتيم؛ قصدًا إلى إنمائِه؛ كي لا يَنفدَ بالإنفاقِ والزَّكاة[(٦)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٩/ ١٣-١٥).

(٤) يُنظر: ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (١/ ٥٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٤).

(٦) ينظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٩٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥١٧- ٥١٨).

١٣- في إضافةِ الأموالِ إلى ضَمير المخاطَبينَ بـ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾- في أوَّل السورة- إشارةٌ بديعةٌ إلى أنَّ المالَ الرائج بين الناس هو حقٌّ لمالكيه المختصِّين به في ظاهرِ الأمْرِ، ولكنَّه عند التأمُّل تَلُوح فيه حقوقُ الأمَّة جمعاءَ؛ لأنَّ في حصوله منفعةً للأمَّة كلِّها؛ لأنَّ ما في أيدي بعضِ أفرادِها من الثروةِ يعودُ إلى الجميع بالصَّالحة، فمِن تلك الأموالِ يُنفِق أربابُها، ويستأجِرون ويشترون، ويَتصدَّقون، ثم تُورَثُ عنهم إذا ماتوا، فينتقل المالُ بذلك مِن يدٍ إلى غيرها، فينتفع العاجزُ والعاملُ والتاجِر، والفقيرُ وذُو الكَفافِ، ومتى قلَّتِ الأموالُ من أيدي الناس، تقارَبوا في الحاجةِ والخَصاصة، فأصبحوا في ضَنْكٍ وبؤس، واحتاجوا إلى قبيلةٍ أو أمَّةٍ أخرى، وذلك من أسبابِ ابتزازِ عِزِّهم، وامتلاكِ بلادِهم، وتصييرِ منافِعِهم لخِدمة غيرهم؛ فلأجْل هاتِه الحِكمة أضافَ اللهُ تعالى الأموالَ إلى جميعِ المخاطبين[1].

١٤- في قوله تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى﴾ العملُ بالتَّجرِبة؛ لأنَّ الابتلاء يعني: الاختبارَ عِدَّةَ تجارِب[2].

١٥- الصَّغيرُ المميِّزُ يصِحُّ لَقْطُه مع إذْنِ وَلِيِّه، كما يصِحُّ إحرامُه بالحَجِّ بإذْنِ الوَلِيِّ، وكما يصِحُّ تصرُّفُه في البيع وغيرِه بإذْنِ وَلِيِّه عند أكثرِ العُلماءِ، كما دل على ذلك قولُه تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ الآية، فأمَرَ بالابتلاءِ قَبْلَ البُلوغ؛ وذلك قد لا يأتي إلَّا بالبيعِ[3].

١٦- قَوْلُه تَعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ استدَلَّ به مَن يرى جوازَ الاستئجارِ على تعليمِ القُرآنِ والحديثِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٣٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٥).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٢/ ٤٨).

والفِقْه والإمامَةِ والأذانِ، وغيرها ممَّا يختصُّ أن يكون فاعِلُها مِن أهْلِ القُرَب، مع الحاجَةِ؛ دون الغِنَى(١).

١٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ إنَّما قال: ﴿حَسِيبًا﴾ ولم يَقُلْ: (شهيدًا) مع مناسبته؛ تهديدًا للأوصياءِ لِئَلَّا يكتموا شيئًا من مالِ اليتامى، فإذا عَلِموا أنَّ اللهَ يُحاسِبُهم على النَّقير والقِطْمير، ويعاقِبُهم عليه، انزَجَروا عن الكتمانِ. والله تعالى أعلم(٢).

بَلاغَةُ الآيات:

١- قوله: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ﴾: هذا شروعٌ في تَفصيلِ مواردِ الاتِّقاءِ ومظانِّه بتكليفِ ما يُقابلها أمرًا ونهيًا؛ وتقديمُ ما يَتعلَّق باليتامى؛ لإظهارِ كمال العنايةِ بأمرهم، ولملابستِهم بالأرحام؛ إذ الخطابُ للأولياءِ والأوصياء، وقلَّما تُفوَّضُ الوصايةُ إلى الأجانب(٣)، وعبَّر بالإيتاء؛ للإيذان بأنَّه ينبغي أن يكونَ مرادُهم بذلك إيصالَها إليهم، لا مجرَّدَ تَرْكِ التعرُّضِ لها(٤).

- وقوله: ﴿الْيَتَامَى﴾: فيه تسميةُ الشيء باسم ما كان عليه، حيث سمَّاهم يتامى بعدَ البُلوغِ(٥).

٢- قوله: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾: فيه تكرارٌ؛ حيث نهى عن أخْذ مال اليتيمِ على الوجه المخصوصِ بعدَ النهيِ الضِّمنيِّ عن أخْذه على الإطلاق(٦)، وفي هذا تأكيدٌ على النهيِ.

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٠/ ٢٠٥- ٢٠٦).
(٢) يُنظر: ((البحر المديد)) لابن عجيبة (١/ ٤٦٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٩-١٤٠)، ((تفسير القاسمي)) (٣/ ٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٩-١٤٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٣٢).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٤٠).

٣- قوله: ﴿وَلا تَأْكُلُوا أَمْوالَهُمْ إِلى أَمْوالِكُمْ﴾: عبَّر عن أَخْذِ أموالِ اليتامى بقوله: ﴿وَلا تَأْكُلُوا﴾ من بابِ إطلاقِ اسمِ المسبَّبِ على السَّببِ وشِبهه؛ لأنَّ الأخْذ سببٌ للأكْلِ[(١)].

- ونهَى عن أكْلِ مالِ اليَتامَى مع أموال المنهِيِّين عنها، فقال: ﴿وَلا تَأْكُلُوا أَمْوالَهُمْ إِلى أَمْوالِكُمْ﴾، مع أنَّه حرَّم عليهم أكْلَ مالِ اليتامَى وحْدَه ومع أموالِهم؛ لأنَّهم إذا كانوا مُستغنِينَ عن أموالِ اليَتامَى بما رزَقهم اللَّهُ من مالٍ حلالٍ، وهم على ذلِك يَطمَعون فيها- كان القبحُ أبلغَ، والذمُّ أحقَّ؛ ولأنَّهم كانوا يَفْعلون كذلك، فنَعَى عليهم فِعلَهم وسمَّعَ بهم؛ ليكونَ أزْجَرَ لهم[(٢)].

- وفيه مِن أسرارِ البلاغة:

تَخصيصُ الأعْلَى بالنَّهيِ دُونَ الأَدْنى؛ إذ إنَّ أعْلى دَرجاتِ أكْلِ مالِ اليَتيمِ في النَّهيِ أنْ يَأكلَه وهو غنيٌّ عنه، وأدْناها أنْ يأكلَه وهو فقيرٌ إليه- مع أنَّ أهل البيان يقولون: المنهيُّ متى كان درجاتٍ فطَريقُ البَلاغةِ النهيُ عن أدْناها تنبيهًا على الأعْلى- فكان المتبادر أنْ يَنهَى عن أكْل مالِ اليتيمِ مَن هو فقيرٌ إليه؛ حتى يَلزمَ نهيُ الغنيِّ عنه من طريق الأَوْلى، وفائدةُ تخصيصُ الصُّورة العُليا بالنهي في هذه الآية: أنَّ أبلغَ الكلام ما تعدَّدتْ وجوه إفادتِه، والنهي عن الأدْنى وإنْ أفاد النَّهيَ عن الأعْلى إلَّا أنَّ للنَّهي عن الأعْلى أيضًا فائدةً أخرى جليلةً لا تُؤخَذ من النهي عن الأدْنى؛ وذلك أنَّ المنهيَّ كلَّما كان أقبحَ كانتِ النفسُ عنه أنفرَ، والدَّاعية إليه أبْعَد، ولا شكَّ أنَّ المستقرَّ في النُّفوسِ أنَّ أكْلَ مالِ اليتيمِ مع الغِنى عنه أقبحُ صُورِ الأكْل؛ فخُصِّص بالنهي تشنيعًا على مَن يقَعُ فيه، حتى إذا استحكَم نفورُه مِن أكْل مالِه على هذه الصورة الشَّنعاء، دعاه ذلك إلى الإحجامِ عن أكْل ماله

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٦٣).

مطلقًا؛ ففيه تدريبٌ للمخاطَب على النُّفورِ مِن المحارِم، ولا تكادُ هذه الفائدةُ تحصُل لو خُصِّص النَّهيُ بأكْلِه مع الفقر؛ إذ ليستِ الطِّباعُ في هذه الصُّورة مُعِينةً على الاجتنابِ كإعانتها عليه في الصُّورة الأولى.

ويُحقِّق مراعاةَ هذا المعنى تخصيصُه الأكْلَ، مع أنَّ تناوُلَ مالِ اليتيم على أيِّ وجهٍ كان، منهيٌّ عنه، كان ذلك بالادِّخار، أو بالْتباس، أو ببذله في لذَّة النكاح مثلًا، أو غير ذلك، إلَّا أنَّ حِكمة تخصيص النَّهي بالأكل: أنَّ العرب كانت تتذمَّم بالإكثار من الأكْل، وتَعُدُّ البِطنةَ من البهيميَّة، وتعيب على مَن اتَّخذها ديدنَه، ولا كذلك سائرُ الملاذِّ؛ فإنهم ربَّما يتفاخرون بالإكثار من النِّكاح، ويَعدُّونه من زينةِ الدُّنيا، فلمَّا كان الأكلُ عندهم أقبحَ الملاذِّ خُصَّ النهي به، حتى إذا نفرتِ النَّفسُ منه بمقتضَى طبعِها المألوفِ جرَّها ذلك إلى النُّفور مِن صرفِ مالِ اليتيمِ في سائرِ الملاذِّ أو غيرِها، أكلًا أو غيره[1].

٤- قوله: ﴿كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾: في وصْف الحوب بالكبير مبالغةٌ في بيان عِظَم ذَنْب الأكْل المذكور، كأنَّه قيل: من كِبار الذُّنوبِ العظيمة لا مِن صِغارها[2].

٥- قوله: ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾: عبَّر عن النِّساءِ بـ﴿مَا﴾ التي لغيرِ العاقلِ غالبًا، ولم يقُل: (مَن طاب) كما هو المتبادَر في استعمالِ (مَن)؛ فإنَّها للعاقِل و(ما) لغيرِ العاقل تَغليبًا، والسرُّ في هذا: أنَّ (ما) تأتي لصِفاتِ مَن يَعقِلُ، وقدْ وصفَ الله النِّساءَ بالطيب، فصَحَّ استعمالُ (ما) هنا؛ فعبَّر عن النِّساءِ بـ﴿مَا﴾ ذَهابًا إلى الصِّفةِ، وقيل: لأنَّ الإناثَ مِن العُقلاءِ يَجرينَ مجرَى غيرِ العقلاءِ؛ لنُقصانِ عقْلِهنَّ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المنير)) (١/ ٤٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٥٩). وينظر أيضًا: =

٦- قوله: ﴿أَلَّا تُقْسِطُوا﴾، وقوله: ﴿أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ تكرارٌ في المعنى[1]، وهو يُفيد تأكيدَ الأمْرِ بالعدل.

٧- قوله: ﴿مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ جاءَ العطفُ بالواو دون (أو)؛ لأنَّ الواو تدلُّ على تجويزِ الجَمْعِ بين أنواعِ القِسمةِ، بخِلافِ (أو)؛ إذ لو قيل: (مثْنى أو ثُلاث أو رُباع) لعُلِمَ أنَّه ليس لهم أنْ يَجمَعوا بينها، فيَجْعَلوا بعضَ القسمِ على تَثنيةٍ، وبعضَه على تثليثٍ، وبعضَه على تربيعٍ، أي: لا يجوزُ ذلك إلَّا على أَحدِ هذه الأقسامِ، ولا يجوزُ لهم أنْ يَجمَعوا بين هذِه الأقسامِ، بمعنى: أنَّ بَعضَهم يأتي بالتثنيةِ، والبعضَ الآخَرَ بالتثليثِ والفريقَ الثالث بالتربيع، فلمَّا ذَكَره بحرْف (الواو) أفادَ ذلك أنَّه يجوزُ لكلِّ طائفةٍ أنْ يَختاروا قِسمًا من هذه الأقسام؛ فدلَّت الواو على إطلاقِ أنْ يأخذَ الناكِحون مَن أرادوا نِكاحَها من النساء على طريق الجمْع، إنْ شاؤوا مختلفين في تلك الأعداد، وإنْ شاؤوا متَّفِقين فيها، محظورًا عليهم ما وراء ذلك، ومثاله: قول الرجل للجماعةِ: اقتَسِموا هذا المالَ- وهو ألف- دِرهمين درهمين، وثلاثةً ثلاثة، وأربعةً أربعة، فيجوز لبعضهم أنْ يأخذ درهمين درهمين، ولبعضٍ آخَرينَ أن يأخذوا ثلاثةً ثلاثة، ولطائفةٍ ثالثة أن يأخذوا أربعةً أربعةً[2].

- وجاء بصيغة التكرير في ﴿مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾- التي تَعني اثنتين اثنتين،

= ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٨٦)، ((البرهان)) للزركشي (٤/ ٣٩٩- ٤٠٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٥٤-١٥٥).
وهذا على القول المشهورِ بأنَّ (ما) تُغلَّب أو تختصُّ بغير العقلاء، و(مَن) تختصُّ بالعقلاء وربَّما استُعمل كلٌّ منهما في الآخر. وأمَّا على القول بأنَّ (ما) من صِيَغ العموم تقعُ على العاقل وغيره وعلى المجموعِ؛ فليس فيه هذا الوجهُ. ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٨٥)؛ حيث رجح أنها للعموم وضعف القول المشهور.

(١) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٦٨)، ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٨٨).

وثلاثًا ثلاثًا، وأربعًا أربعًا-؛ لأنَّ الخِطابَ للجميع فوجَب التكريرُ؛ ليصيبَ كلَّ ناكحٍ يُريد الجمعَ ما أراد من العدد الذى أُطلِق له، كما يُقال للجماعة: اقتَسِموا هذا المال- وهو ألف درهم-: درهمين درهمين، وثلاثة ثلاثة، وأربعة أربعة، ولو أُفْرِد لم يكُن له معنًى(١).

٨- قوله: ﴿فَكُلُوهُ﴾: فيه تخصيص الأكْل بالذِّكر؛ لأنَّه معظمُ وجوه التصرُّفات الماليَّة(٢).

٩- قوله: ﴿هَنِيئًا مَرِيئًا﴾: صِفتان أُقيمتا مقامَ المَصْدَرينِ؛ كأنَّه قيل: هنأ ومرأ، وهذه عبارة عن التَّحليل والمبالغة في الإباحة، وإزالة التبعيَّة(٣).

- وإتْباعُ ﴿هَنِيئًا﴾ بـ﴿مَرِيئًا﴾ ووَصْفه به؛ فيه تأكيدٌ(٤).

١٠- قوله: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾: فيه إضافةُ أموال مَن لا رُشدَ لهم إلى الأولياء- على القولِ بأنَّ هذا النَّهيَ للأولياءِ عن أن يُؤتوا الذين لا رُشدَ لهم أموالهم فيُضيِّعوها-؛ تنزيلًا لاختصاصِها بأصحابِها منزلةَ اختصاصِها بالأولياء، فكأنَّ أموالَهم عينُ أموالِهم؛ لِمَا بينهم وبينهم من الاتِّحاد الجنسي والنِّسبي؛ مبالغةً في حمْلِهم على المحافظةِ عليها(٥).

- وقيل: أُضيفتِ الأموالُ للأولياء؛ لأنَّها في تصرُّفِ الأولياء، وتحتَ ولايتهم، وهو الملائمُ للآيات المتقدِّمة والمتأخِّرة(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٦٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٤٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٧١)- ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٤٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٣٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٤٤).
(٦) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٦٠).

١١- قوله: ﴿فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾: فيه تقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿مِّنْهُمْ﴾ على المفعول ﴿رُشْدًا﴾؛ للاهتمام بالمقدَّم، والتشويق إلى المؤخَّر(١).

- وتنكير ﴿رُشْدًا﴾ وتنوينه؛ لأنَّ معناه نوعٌ من الرشد، ولا يُنتظَر به تمامُ الرُّشد(٢).

١٢- قوله: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾: (استعفَّ) أبلغُ من (عفَّ)، كأنَّه يَطلُب زيادةَ العِفَّة من نفْسِه(٣)؛ ففي هذه الآية نوعٌ طريفٌ من أنواعِ البيانِ يُطلَقُ عليه اسمُ (قوَّة اللَّفظ لقوَّة المعنى)؛ وذلك في قوله ﴿فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾؛ فإنَّ (استعفَّ) أبلغُ من (عفَّ)، كأنَّه يَطلُب زيادةَ العِفَّة من نفْسِه؛ هضمًا لها، وحملًا على النَّزاهة، فالألفاظُ دالَّةٌ على المعاني، فإذا زِيدَ في الألفاظِ أوجبتِ الزِّيادةُ زيادةً في المعاني، وهذا النوعُ لا يُستعمل إلَّا في المبالغة(٤).

- ولفظ (الاستعفاف) و(الأكْل بالمعروف) مُشعِرٌ بأنَّ الوليَّ له حقٌّ في مال الصَّبيِّ(٥).

١٣- وقوله: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾: فيه تَكرارٌ لقوله: ﴿فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٧٦)، ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٤٦).

لكن قال ابنُ المنير- تعقيبًا على قول الزمخشريِّ: إنَّ (استعفَّ) أبلغُ من (عفَّ)، كأنَّه يَطلُب زيادةَ العِفَّة من نفْسِه-: (في هذا إشارةٌ إلى أنَّه من استفعَل بمعنى الطلب، وليس كذلك؛ فإنَّ استفعل الطلبيَّة متعدية وهذه قاصرة. والظاهر أنه ممَّا جاء فيه فَعَل واستفعل بمعنًى، والله أعلم). ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المنير)) (١/ ٤٧٦).

(٤) ينظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٦١-١٦٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٦١).

أَمْوَالَهُمْ﴾(١). وهو يُفيدُ تأكيدَ الأمْر.

- وتقديم الجارِّ والمجرور ﴿إِلَيْهِمْ﴾ على المفعول الصَّريح ﴿أَمْوَالَهُمْ﴾؛ للاهتمامِ به(٢).

١٤- قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا﴾: الجملة تأكيدٌ للأمر بالدَّفع، وتقريرٌ لها، وتمهيدٌ لِمَا بعدَها(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٣٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٤٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٧ - ١٠)

﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿سَدِيدًا﴾: أي: قاصدًا إلى الحَقِّ، مِن السَّداد، وهو: الصَّوابُ والقصدُ في القول، وأصله: الاستقامة[١].

﴿سَعِيرًا﴾: أي: نارًا تَتسعَّر، أي: تشتعِل وتتَّقِد وترتفع، والسَّعير اسمٌ من أسماءِ جهنَّمَ[٢].

المَعنَى الإجمالي:

يُخبر اللهُ تعالى أنَّ للرِّجالِ والنِّساءِ نصيبًا من التَّرِكة التي يُخلِّفها المورِّثُ، من الوالدين أو الأقربينَ، سواء كان الإرثُ قليلًا أو كثيرًا، نَصيبًا واجبًا معيَّنَ المقدار.

ثم أمر تعالى المؤمنين إذا حضَرَ وقتَ تقسيمِ التركةِ الأقاربُ غيرُ الوارثينَ،

---

(١) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص:١٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥١٩).

(٢) ينظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢١).

والأيتامُ وذوو الحاجة، أن يُعْطوهم منها، وأن يقولوا لهم قولًا حسَنًا جميلًا؛ تطييبًا لنفوسِهم.

ثم يأمُر اللهُ تعالى الأوصياءَ أن يخشَوْه ويتَّقُوه في أمْر اليتامى، فيفعلوا بهم مِثل ما يحبُّون أن يُفعَل بذريَّتهم الضِّعافِ بعدَ وفاتهم، وقِيل غير ذلك.

ثم يُخبر الله تعالى متوعِّدًا الذين يأكلونَ أموالَ الأيتام بغير حقٍّ، أنَّهم إنما يأكلونَ في بطونهم نارًا يوم القيامة، وسيكون مصيرُهم نارًا مشتعلةً شديدة الحرِّ.

تَفسيرُ الآيات:

﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (٧)﴾.

﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾.

أي: إنَّ الذكورَ والإناث يستوونَ في أصْل الوراثةِ في حُكم الله تعالى؛ فكلٌّ ينالُ من الإرث قِسطًا وحِصَّةً، مما خلَّفَه الميِّت، وإن تفاوتوا بحَسَب ما فرَض الله تعالى لكلٍّ منهم، بما يُدلي به إلى الميِّت من قرابةٍ، أو زوجيَّةٍ، أو وَلاء[1].

﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّن الله تعالى أنَّ للرِّجال وللنساءِ نصيبًا من التَّركة، وربما يُتوهَّم أنَّ النساءَ والولدانَ ليس لهم نصيبٌ إلَّا من المالِ الكثير، أزالَ ذلك بقولِه[2]:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٥).

﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾.

أي: للذُّكورِ والإناثِ نصيبٌ من الإرث، سواء كان قليلًا أو كثيرًا[١].

﴿نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ الله تعالى أنَّ لكلٍّ من الذكور والإناث نصيبًا في قليلِ الإرثِ وكثيره، بيَّن هنا أنَّ ذلك النَّصيب ليس راجعًا إلى العُرْف والعادة، وليس لهم أن يَتصرَّفوا فيه كما يَشاؤونَ[٢]؛ لذا قال:

﴿نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾.

أي: ذلك النَّصيب لكلٍّ منهم، حصَّةٌ واجبةٌ، معيَّنةُ المقدار[٣].

﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٨)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر الله تعالى في الآيةِ الأُولى أنَّ النساءَ كالرِّجال في أنَّ لهنَّ حظًّا من الميراث، وعَلِم تعالى أنَّ في الأقاربِ مَن يرث ومَن لا يرث، وأنَّ الذين لا يرِثون إذا حضروا وقتَ القِسمة، فإنْ تُرِكوا مَحرومينَ بالكليَّة ثقُل ذلك عليهم؛ فلا جرمَ أَمَر الله تعالى- على سبيل النَّدبِ- أنْ يُدفَعَ إليهم شيءٌ عند القِسمة؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٠-٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٥٠).

حتى يحصُل الأدبُ الجميل، وحُسن العِشرة[١]، فقال تعالى:

﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ﴾.

أي: وإذا حضَر توزيعَ الميراثِ الأقاربُ غيرُ الوارثين، والأيتامُ، والمحتاجون[٢].

﴿فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾.

أي: فأعطوهم شيئًا ممَّا تيسَّر من هذه التَّركة؛ برًّا بهم، وإحسانًا إليهم، وجبرًا لخواطرهم بما لا يضُرُّكم؛ فإنَّ نفوسَهم متشوِّفةٌ إليه[٣].

﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أمَرَ الله تعالى بالإحسانِ إليهم بالفِعل، أمَرَ بعد ذلك بالإحسانِ إليهم بالقولِ[٤]، فقال سبحانه:

﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾.

أي: فلْتقولوا لهم قولًا حسنًا جميلًا، تَطِيبُ به نفوسُهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٥٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٥/ ٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٤).

قال القرطبيُّ: (قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ قال سعيد بن جُبير: يقال لهم خُذوا، بورِكَ لكم. وقيل: قولوا مع الرِّزق: وددتُ أنْ لو كان أكثرَ من هذا. وقيل: لا حاجةَ مع الرِّزق إلى عُذر، نعمْ إنْ لم يصرف إليهم شيءٌ، فلا أقلَّ مِن قولٍ جميل، ونوع اعتذارٍ) ((تفسير القرطبي)) (٥/ ٥٠).

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أعادَ الله تعالى الوصيةَ باليتامى مرةً بعدَ أخرى، وختَم بالأمرِ بإلانةِ القول، وكان للتصويرِ في التأثيرِ في النَّفس ما ليس لغيرِه؛ أعادَ الوصيةَ بهم؛ لضعْفِهم، مصوِّرًا لحالِهم[1]، فقال:

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٩)﴾.

قيل: المعنى: مَن سمِع مُحتضَرًا، قد ظلَم في وصيَّته أو أضرَّ بسببها بوَرَثَته، فعليه أن يتَّقيَ اللهَ تعالى، ويأمرَه بالعدلِ فيها، ويُسدِّدَه للصَّوابِ، كما يحبُّ أن يُصنَعَ بورثتِه إذا خَشِي عليهم الضَّيْعةَ[2].

وقيل: المراد: أنَّ على أولياء اليتامى معاملتَهم في مصالحهم الدِّينيَّة والدنيويَّة، بما يحبُّون أن يُعامَل به ذُرِّيَّتُهم الضِّعافُ من بعدِهم، فلْيتَّقُوا الله تعالى في وِلايتِهم لهم، فكما تحبُّ أن تُعامَل ذرِّيتُك من بعدك، فعامِل الناسَ في ذرِّياتِهم إذا وَلِيتَهُم[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٥/ ٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٤).
وممَّن قال من السَّلف بهذا القول: ابن عبَّاس، وقتادة، والسُّدِّي، وسعيد بن جُبَير، والضَّحَّاك، ومجاهد. ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٤٦). و((تفسير ابن أبي حاتم)) (٣/ ٨٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٥٢).
وممَّن قال بهذا القول من السَّلف: ابن عبَّاس- في رواية عنه. ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٥١).

عن سعد بن أبي وقَّاصٍ رضِي اللهُ عنه، قال: ((تشكَّيتُ بمكةَ شكوى شديدةً، فجاءني النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يعودني، فقلتُ: يا نبيَّ اللهِ، إني أترُك مالًا، وإني لم أترُكْ إلَّا ابنةً واحدةً، فأُوصِي بثُلثَي مالي، وأترك الثُلثَ؟ فقال: لا، قلتُ: فأُوصِي بالنِّصفِ، وأترك النصفَ؟ قال: لا، قلتُ: فأُوصِي بالثُّلثِ، وأترُك لها الثُّلثينِ؟ قال: الثُّلث، والثلثُ كثيرٌ))(١).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (١٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا طالَ التحذيرُ والزَّجرُ والتهويلُ في شأنِ اليتامى، وكان ذلك ربَّما أوجب النفرةَ من مخالطتهم رأسًا، فتضيع مصالحُهم؛ وصَل بذلك ما بَيَّن أنَّ ذلك خاصٌّ بالظَّالم في سياقٍ موجبٍ لزِيادة التحذيرِ، متوعِّدًا على ذلك بأشدِّ العذابِ(٢)، فقال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾.

أي: إنَّ الذين يأكلون أموالَ اليتامى في الدُّنيا بغير حقٍّ، سيُعاقَبون على ذلك بأنْ تتأجَّجَ في بطونهم نارٌ يومَ القيامةِ(٣).

﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر الله تعالى عِقابَهم بالنارِ في أجوافِهم، ذكَر بعدَها عِقابَهم بالنارِ في

---

(١) رواه البخاري (٥٦٥٩) واللفظ له، ومسلم (١٦٢٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٢٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٥-١٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٥-١٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٦٢).

ظاهرِ أجسادِهم[١]، فقال:

﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾.

أي: وسيُحرَقون بنارٍ مشتعلة، متوقِّدة، شديدٍ حرُّها[٢].

عن أبي هُريرةَ رضِي اللهُ عنه، أنَّ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((اجتَنِبوا السبعَ الموبقاتِ، قالوا: يا رسولَ اللهِ، وما هنَّ؟ قال: الشِّركُ باللهِ، والسحرُ، وقتلُ النَّفْسِ التي حرَّم اللهُ إلَّا بالحقِّ، وأكْلُ الرِّبا، وأكْلُ مالِ اليتيمِ، والتولِّي يومَ الزحفِ، وقذفُ المحصناتِ المؤمناتِ الغافلاتِ))[٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- ما جاءَ به الإسلامُ من الآداب العالية، والأخلاق الفاضلة؛ حيث أمَرنا بأن نُعطيَ هؤلاء الذين حضَروا القِسمة؛ لأنَّ قلوبهم تتعلَّق بالمال، وتتشوَّفُ للنَّوال؛ فلهذا أمَرَ الشرعُ بإعطائهم؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾[٤]، يؤخَذُ من المعنى أنَّ كلَّ من له تطلُّعٌ وتشوُّفٌ إلى ما حَضَرَ بين يَدَي الإنسان، ينبغي له أن يُعْطِيَه منه ما تيسَّرَ[٥].

٢- أنَّه يَنبغي لمن أعطى أحدًا شيئًا أن يقول له قولًا معروفًا يُطيِّب قلْبَه، ويُبعِدُه من المنِّ بالعطاء؛ لأنَّ المنَّ بالصَّدقة من كبائر الذنوب، وهو مُبطِلٌ للأجْر؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾[٦] [البقرة: ٢٦٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٦٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٥٥-٤٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٦).
(٣) رواه البخاري (٦٨٥٧) واللفظ له، مسلم (٨٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٥).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٦).

٣- قوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ أمرٌ للأوصياء بأنْ يَخشَوُا اللهَ تعالى ويتَّقوه في أمْر اليتامى، فيفعلوا بهم ما يُحبُّون أن يُفعَل بذَراريِّهم الضِّعافِ بعدَ وفاتهم[1]، وفي ترتيب الأمْرِ على هذا: إشارةٌ إلى أنَّ المقصودَ منه، والعِلَّة فيه: أنْ يُحبَّ لأولادِ غيرِه ما يحبُّ لأولاده، وتهديدٌ للمُخالِف بحال أولاده[2]، فيجبُ على المرء أن يُعامِلَ الناس بما يحبُّ أن يعاملوه به؛ لأنَّه إذا كان يَكره لنفْسه أن يَعتديَ أحدٌ على أولاده بعد موته، فكذلك لا يَعتدي هو على أولادِ النَّاسِ، فإذا أراد أنْ يَجنيَ على غيرِه فليتذكَّرْ نفْسَه، فمثلًا إن كان يَهُمُّ بأنْ يَزنيَ بامرأة، فليتذكَّر هلْ يَرضَى أنْ يَزنيَ أحدٌ بإحْدى محارمِه؟! فإذا كان لا يَرضَى؛ فلماذا يرضَى أنْ يَزنيَ بمحارمِ الناس[3]؟!

٤- في قوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ ما يبعثُ الناسَ كلَّهم على أنْ يَغضَبوا للحقِّ مِن الظُّلم، وأنْ يأخُذوا على أَيدي أَولياءِ السُّوءِ، وأنْ يَحرُسوا أموالَ اليَتامى، ويُبلِّغوا حقوقَ الضُّعفاءِ إليهم؛ لأنَّهم إنْ أضاعوا ذلك يُوشِكْ أنْ يَلحَقَ أبناءَهم وأموالَهم مِثلُ ذلك، وأنْ يأكُلَ قويُّهم ضعيفَهم؛ فإنَّ اعتيادَ السُّوءِ يُنسي الناسَ شَناعتَه، ويَكسِبُ النُّفوسَ ضراوةً على عَملِه[4].

الفَوائِدُ العِلميَّة واللَّطائف:

١- تقديمُ الرِّجالِ على النِّساءِ حتَّى في الأمْر الذي يَشترِكون في الاستحقاقِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٦٠- ٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٥٣).

فيه، ووجهُ الدَّلالة: قوله: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾ ﴿وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ﴾، وهذا هو المشروعُ والمعقولُ والفِطري، وقد عَكَس ذلك مَن عكَس اللهُ قلوبَهم مِن الكفرةِ والمبهورين بهم؛ حيث قدَّموا النِّساءَ على الرِّجال، وهذا خطأٌ عظيم؛ لأنَّ الرِّجالَ مُقدَّمون على النِّساء، وهم قوَّامونَ عليهنَّ(١).

٢- أنَّ الأوامرَ قد تكون مُوكَلةً إلى المأمور غيرَ مقدَّرة؛ لقوله: ﴿فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾، ولم يقل: الثُّلث، ولا الرُّبع، ولا العشر، بل جَعَل هذا مطلقًا؛ فهو يرجع إلى كرَم المعطي من وجهٍ، وإلى كثرة المال من وجهٍ آخَرَ(٢).

٣- في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ﴾ قدَّمَ أُولي القُربى على اليتامى والمساكين؛ لأنَّ الإحسانَ إلى القَرابةِ أفضلُ من الإحسانِ إلى اليتيمِ والمسكينِ؛ ولهذا لَمَّا أخبرتْ ميمونةُ بنتُ الحارثِ رضِي اللهُ عنها رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّها أعتقتْ جاريةً لها، قال لها رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((لو أَعطيتِها أخوالَكِ، كان أَعظمَ لأجْرِكِ))(٣)؛ فدلَّ هذا على أنَّ إعطاء ذَوِي الأرحامِ أفضلُ من إعطاءِ البَعيدِ(٤).

٤- أنَّ الجزاء مِن جِنس العمل؛ لأنَّه قابَل أكْلهم بالنار التي يُعذَّبون بها، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٥٥).

(٣) رواه البخاري (٢٥٩٢)، ومسلم (٩٩٩) واللفظ له.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٦٣).

بَلاغَةُ الآيات:

١- قوله تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ﴾.

- قوله: ﴿وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾: فيه إيرادُ حُكمِ النساءِ على الاستقلال دون أن يُقال: (للرِّجال والنِّساء... إلخ)؛ للاعتناء بأمرهنَّ، والإيذان بأصالتهنَّ في استحقاق الإرث، والإشارة من أوَّل الأمْر إلى تفاوت ما بين نصِيبَي الفريقينِ، والمبالغة في إبطال حُكم الجاهليَّة؛ فإنَّهم لم يكونوا يورِّثون النساء والأطفال(١).

- قوله: ﴿وَالْأَقْرَبُونَ﴾: فيه إطلاقُ الكلِّ على البعض؛ إذ المراد بـ﴿الْأَقْرَبُونَ﴾ أربابُ الفرائض، وليس كلَّ الأقارب(٢).

- قوله: ﴿مَفْرُوضًا﴾: فيه إيجاز بالحذْف، فالفارض هو الله، لكن حُذِف، وبُني الوصفُ للمفعول؛ للعِلم به، فهو كقوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، والذي خلَقَه هو اللهُ عزَّ وجلَّ(٣).

٢- في قوله تعالى: ﴿فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾: قال: ﴿مِنْهُ﴾ ولم يقل: (فيه)؛ لأنَّ هؤلاء يُعطون من رأس المال، ومِن أصله، وأمَّا أموال اليتامى فقال الله تعالى: ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾، فقال: ﴿فِيهَا﴾ ولم يقُل: (منها)؛ لأنَّهم يُرزقون بعدَ الاتِّجار بها، فيُعطَون من الرِّبح، وهو إشارةٌ إلى أنه ينبغي لِوليِّ اليتيم أن يتَّجِرَ في ماله حتى يحصُلَ على ما يَرزقُه فيه، أمَّا هنا فقال: ﴿فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾ أي: من

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٤٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٣٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٢).

هذا المال الذي يُقسَم أمامَهم[1].

٣- قوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾:

- فيه إيجازٌ بالحَذْف؛ حيثُ حُذِفَ مفعولُ ﴿وَلْيَخْشَ﴾؛ لتذهبَ نفْسُ السَّامعِ في تقديرِه كلَّ مذهبٍ مُحتمَل؛ فينظر كلُّ سامعٍ بحسَبِ الأهمِّ عنده ممَّا يَخشاهُ أنْ يُصيبَ ذرِّيَّتَه[2].

- وفيه أيضًا حذْفُ مفعول ﴿خَافُوا﴾؛ لِتذهبَ النَّفسُ في تقديره كلَّ مذهب، ولِتَفْتَنَّ في تصوير الخوف من المصير المحتوم الذي يَؤُول إليه أمرُ الضِّعاف في هذه الحياة، ويُمكن تقديرُه بمثل الضياع والتشرُّد في مسارب الحياةِ، ومسالِكِها المتشعِّبة، من دون كافلٍ يَكفُلهم، أو مُدبِّرٍ يُدبِّر شؤونَهم[3].

- وقوله: ﴿فَلْيَتَّقُوا اللهَ وليَقُولُوا قَولًا سَدِيدًا﴾: أمَرَهم بالتقوى التي هي غايةُ الخشيةِ بعدَما أمرهم بها؛ مراعاةً للمبدأِ والمنتهى؛ إذ لا يَنفع الأوَّلُ دون الثاني، ثم أمَرَهم أن يقولوا لليتامى مثلَ ما يقولون لأولادهم بالشَّفَقة وحُسْنِ الأدب[4].

- قوله: ﴿وَلْيَخْشَ﴾، ﴿وَخَافُوا﴾ فيه تَكرارٌ من جِهةِ المعنى- على قولِ مَن جعَلَهما مُترادِفَينِ[5].

٤- قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٦٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٣٢).

نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾: استئنافٌ جِيءَ به لتقريرِ مضمونِ ما فُصِّل من الأوامِر والنواهي[١].

- وقوله: ﴿ يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ فيه من أنواعِ البلاغة ما يلي:

- التَّعريض؛ حيث عرَّض بذِكر البُطون لخِسَّتهم وسُقوطِ هِمَمِهم، والعربُ تذمُّ بذلك[٢].

- تأكيدُ الحقيقةِ بما يَرفع احتمالَ المجازِ، وذلك بقولِه: ﴿فِي بُطُونِهِمْ﴾[٣].

- الاختِصاص؛ حيثُ خصَّ البُطونَ بالذِّكْر دون غيرِها؛ لأنَّها محلٌّ للمأكولاتِ[٤]، وذِكْر البُطون- مع أنَّه معلوم أنَّ الأكْلَ لا يكونُ إلاَّ في البُطون-؛ للتأكيدِ والمبالغةِ، ولتَجسيدِ بشَاعةِ الجُرم المقترَفِ بأكْل مالِ اليتيمِ؛ حتى يَتأكَّدَ عِند السَّامِع بشاعةُ هذا الجُرمِ بمزيدِ تصويرٍ[٥].

- تأكيدُ هذا التشنيعِ على الظالمِ لليَتيمِ في مالِه بتَخصيصِ ذِكْر الأكْلِ؛ لأنَّه أبشعُ الأحوالِ التي يُتناوَلُ مالُ اليتيمِ فيها[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٣٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٣٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المنير)) (١/ ٤٧٩)، ((تفسير الرازي))، (٩/ ٥٠٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٦٨).

(٦) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

الآيات (١١-١٤)

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١﴾ ۞وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿١٢﴾ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلمات:

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ﴾: الوصيةُ: التقدُّمُ إلى الغيرِ بما يَعملُ به مقترنًا بوعْظ، والوصيةُ مِن الله هي الأمرُ المؤكَّد، والتوصية تُعرِب عن تأكيدِ الأمرِ، والاعتناءِ بشأنِ المأمورِ به، وأصل (وصي): يدلُّ على وصْلِ شيءٍ بشيءٍ؛ يقال: وطِئْنا

أرضًا واصية، أي: إنَّ نَبْتَها متَّصِلٌ قد امتلأت منه، ومنه الوصية، كأنَّه كلامٌ يُوصَى؛ أي: يُوصَل[١].

﴿حَظُّ﴾: أي: نصيبٌ مقدَّر، وأصل (حظظ): النَّصيب والجَدُّ[٢].

﴿كَلَالَةً﴾: الكَلالة: الذي يموتُ ولا ولدَ له ولا والدَ، مصْدَر مِن: تكلَّله النَّسب، أي: أحاطَ به؛ فالابنُ والأبُ طرفانِ للرَّجُل، فإذا ماتَ ولم يُخلِّفْهما، فقد ماتَ عن ذَهاب طَرَفيهِ، فسُمِّي مَن ذَهَبَ طَرفاه كَلالةً[٣].

مُشكِلُ الإعراب:

١- قوله تعالى: ﴿فَرِيضَةً مِنَ اللهِ﴾

﴿فَرِيضَةً﴾: منصوبةٌ على أنَّها مصدرٌ مؤكِّد لمضمونِ الجُملةِ السَّابقة مِن الوصيَّة؛ لأنَّ معنى ﴿يُوصِيكُمُ اللهُ﴾ فرَض اللهُ عليكم، فصار المعنى: (يُوصِيكُم اللهُ وصيةَ فَرْضٍ)، أو منصوبةٌ بِفِعلٍ محذوفٍ مِن لفْظِها على أنَّها مَصدرٌ له، أي: فرَض اللهُ ذلِك فريضةً. وقيل: إنَّها حالٌ؛ لأنَّها ليستْ مصدرًا[٤].

٢- قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً﴾

﴿كَانَ﴾: يجوزُ هنا أنْ تكونَ ناقصةً، ويكونُ ﴿رَجُلٌ﴾ مرفوعًا على أنه اسْمُها، و﴿يُورَثُ﴾ خبرها في مَحلِّ نصْب، ويجوزُ جعْلُ ﴿كَانَ﴾ تامَّةً-

---

(١) ينظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٨٨) ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٢).

(٢) ينظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٦).

(٣) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص:١٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٢١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٦- ١٣٧).

(٤) ينظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٩٢)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٣٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٦٠٦).

فيُكْتَفى بالمرفوعِ، أي: وإنْ وُجِد أو وَقَع رجلٌ- وَ﴿رَجُلٌ﴾ فاعِلَها، وجملة ﴿يُوْرَثُ﴾ في محلِّ رفعٍ صِفَةٌ لـ﴿رَجُلٌ﴾.

﴿كَلالَةً﴾ منصوبةٌ على الحالِ من الضَّميرِ المُسْتَترِ في ﴿يُوْرَثُ﴾، على نيَّةِ حَذْفِ مضافٍ: والتقدير: يُورَثُ ذا كَلالةٍ، والكلالةُ على هذا: اسمٌ للمَيِّتِ الذي لم يَتْرُكْ ولدًا ولا والدًا. وفي إعرابِ ﴿كَلَالَةً﴾ توجيهاتٌ إعرابيَّة أخرى بِحَسَب تفسيرها ومعانيها المختلِفة(١).

٣- قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ﴾

﴿وَصِيَّةً مِنَ اللهِ﴾: ﴿وَصِيَّةً﴾: منصوبةٌ على أنَّها مصدرٌ مؤكِّد لِفعلٍ محذوفٍ؛ أي: وصَّى أو يُوصيكم اللهُ بذلك وصيةً، ودلَّ على المحذوفِ قولُه: ﴿غَيْرَ مُضَارٍّ﴾، وعلى هذا الوجه فمفعولُ ﴿مُضَارٍّ﴾ محذوفٌ، والتقدير: غيرَ مضارٍّ ورثَتَه بوصيةٍ. وقيل: إنَّ ﴿وَصِيَّةً﴾ منصوبةٌ باسمِ الفاعلِ ﴿مُضَارٍّ﴾ على أنَّه مفعولُه، وجُعلتِ المُضارَّةُ الواقعةُ بالورثةِ كأنَّها واقعةٌ بنفس الوصية؛ مبالغةً في ذلك، ويؤيِّد هذا التخريجَ قِراءةُ الحَسَن: (غَيْرَ مُضارِّ وَصِيَّةٍ) بإضافةِ اسمِ الفاعِلِ إليها، وأصله: غيرَ مضارٍّ في وصيةٍ من اللهِ، فاتُّسِعَ في هذا إلى أنْ عُدِّيَ بنفسِه من غيرِ واسطة؛ لِقَصْد المبالَغة. وقيل غيرُ ذلك(٢).

المَعنَى الإجمالي:

يَعهَد اللهُ إليكم في شأنِ ميراثِ أولادِكم من بعدِ موتِكم أن يكون نصيبُ الذَّكر منهم في الميراث مِثلَ نصيب الأُنثيين، فإنْ كانتِ البناتُ زائداتٍ على

(١) ينظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٩٢)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٣٥-٣٣٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٦٠٦-٦١٠).

(٢) ينظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٩٢)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٣٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٦١٣).

اثنتينِ، وليس معهنَّ ذكَرٌ، فلهنَّ ثُلثَا ما ترَكَ المتوفَّى، وإنْ كانَتْ واحدةً فقط فلها النِّصفُ، ولوالدَيِ الميِّت السُّدسُ من التَّرِكَة إذا كان له ولدٌ، سواء مِن الذُّكور أو الإناثِ، واحدًا أو جماعةً، فإنْ لم يترك الميِّتُ ولدًا، وكان أبوه وأمُّه وارثَيْه، فلأمِّه الثُّلثُ، ولأبيه ما تبقَّى من مالِ التَّرِكة. وإنْ كان مع الأبوينِ الوارثينِ إخوةٌ للميِّت- أشِقَّاءُ، أو لأبٍ، أو لِأُمٍّ- فتستحقُّ الأمُّ في هذه الحال السُّدسَ من التَّرِكة، وما بقِي فللأب. هذه الفرائِض التي ذكَرها الله سبحانه وتعالى تُعطَى لأهلها مِن بعد أن تُنَفَّذ وصيةُ الميِّت، وتُقضى دُيونُه؛ إنَّكم لا تدرون أَيُّ الأولادِ أو الوالِدين أنفعُ لكم، وأقربُ لحصولِ مقاصدِكم الدِّينيَّة والدنيويَّة، فلو رُدَّ تقديرُ الإرثِ إلى عقولِكم واختيارِكم، لحَصَل من الضَّرر ما اللهُ به عليمٌ؛ فهذا التقسيمُ المذكورُ فرَضَه اللهُ سبحانه على عِباده؛ فهو سبحانه العليمُ الحكيم.

ثم بيَّن اللهُ ميراثَ الزوجينِ؛ فأخبر أنَّ للأزواج النِّصفَ من تركة زوجاتِهم، إذا لم يكُن لهنَّ ولدٌ، سواءٌ من الذكور أو الإناث، واحدًا كان أو أكثر، وفي حالة وجودِ الولد فإنَّ الأزواجَ يستحقُّون الرُّبُعَ من تِركة الزوجاتِ، من بعد استخراج الوصية التي أَوصينَ بها، وقضاءِ الدُّيون التي عليهنَّ، وللزَّوجاتِ الرُّبُعُ من تِركة أزواجهنَّ إنْ لم يكُن لأزواجِهنَّ ولدٌ، فإنْ كان هناك ولد، فلهن الثُّمُنُ من التِركة، من بعد الوصِيَّة وقضاء الدَّين، ثم أوضح الله تعالى حُكمَ مَن تُوفِّيَ بدون أن يترُكَ ولدًا ولا والدًا، وكان له أخٌ أو أخت من جِهة أمِّه؛ فإنَّ لكلٍّ من الأخ أو الأخت في هذه الحال سُدسَ التركة، فإنْ كانوا أكثرَ من واحدٍ فإنَّ نصيبَهم الثُّلُثُ من التركة، يقتسمونه بينهم بالتَّساوي ذُكورًا وإناثًا، وذلك بعد إخراج الوصيَّة وقضاءِ دُيون المتوفَّى، على ألَّا تكون تلك الوصيةُ مقصودًا بها الإضرارُ بالوَرَثَة، هذه الأحكامُ التي ذُكرت هي عَهدٌ مِن الله، يجب التزامُه، فالله سبحانه وتعالى عليمٌ حليم.

ثم يُخبِر تعالى أنَّ ما شرَعه من الفرائض والمقادير هي حدودُه، التي يجب ألَّا يتجاوزَها العبادُ، ويُبيِّنُ جزاءَ مَن يطيعُ الله ورسوله أنَّ له جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ، ماكثِينَ فيها على الدوامِ، وهذا هو الفلاحُ والرِّبحُ العظيم. وأمَّا مَن يَعصي اللهَ ورسوله، ويتجاوز حدودَ الله، فإنَّ الله سيُدْخِلُه نارًا يَمكُثُ فيها على الدَّوام، وله عذابٌ مُخْزٍ.

تَفسيرُ الآيات:

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّن الله تعالى الحُكْمَ في مال الأيتامِ، وما على الأولياء فيه، بيَّن كيف يَمْلِك هذا اليتيمُ المالَ بالإرث، ولم يكُن ذلك إلَّا ببيان جملة أحكام الميراث[١].

وأيضًا لَمَّا أثبتَ اللهُ تعالى حُكمَ الميراثِ بالإجمالِ في قوله: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ [النساء: ٧]، وأبهَمَ المقدارَ ومَن يرِثُ- ذكر عَقيب ذلك المجمَل، هذا المفصَّل، فبيَّن المقاديرَ، ومَن يَرِثُ من الأقربينَ[٢].

سببُ النُّزولِ:

عن جابرٍ رضِي الله تعالى عنه، قال: ((عادَني النبيُّ صلَّى الله عليه وعلى آله

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٥٠٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٥٠٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٥٥).

وسلَّم، وأبو بكر في بني سَلِمة ماشِيَينِ، فوجدني النبيُّ صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم لا أعقِلُ، فدعا بماءٍ فتوضَّأ منه، ثم رشَّ عليَّ فأفقْتُ، فقلْتُ: ما تأمُرني أن أصنعَ في مالي يا رسولَ الله؟ فنزَلَت ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ﴾))[1].

وعن جابرٍ أيضًا رضِي اللهُ عنه، قال: ((جاءتِ امرأةُ سعدِ بنِ الرَّبيعِ إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بابنتَيها مِن سعدٍ، فقالت: يا رسولَ الله، هاتانِ ابنتَا سعدِ بنِ الرَّبيع، قُتِل أبوهُما معك في أُحدٍ شهيدًا، وإنَّ عمَّهما أخَذَ مالَهما، فلم يَدَعْ لهما مالًا، ولا يُنْكَحَان إلَّا ولهما مالٌ، قال: فقال: يَقضِي اللهُ في ذلك، قال: فنزلتْ آيةُ الميراثِ، فأرسلَ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى عَمِّهما، فقال: أعطِ ابنتَي سعدٍ الثُّلُثَينِ، وأُمَّهما الثُّمُنَ، وما بقِي فهو لك[2]))[3].

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾.

أي: يَعهَدُ إليكم ربُّكم، ويأمرُكم أمرًا مؤكَّدًا في شأنِ ميراثِ أولادِكم بالتَّسْويةِ بينهم، ذُكورًا وإناثًا في أصْلِ الاستحقاقِ من الميراثِ[4].

﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٤٥٧٧) واللفظ له، ومسلم (١٦١٦).

(٢) قال ابنُ كثير: (الظاهر أنَّ حديث جابر الأوَّل إنما نزل بسببه الآيةُ الأخيرة من هذه السورة... فإنَّه إنما كان له إذ ذاك أخواتٌ، ولم يكن له بنات، وإنما كان يُورث كلالة، ولكن ذكرنا الحديث هاهنا تبعًا للبخاري، رحمه الله، فإنَّه ذكره هاهنا. والحديث الثاني عن جابر أشبهُ بنزول هذه الآية، والله أعلم). ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٥).

(٣) رواه أبو داود (٢٨٩٢)، والترمذيُّ (٢٠٩٢)، وابن ماجه (٢٧٢٠)، وأحمد (١٤٨٤٠) واللفظ له. قال أبو داود: هذا أصح. وصححه الترمذيُّ، واحتجَّ به ابن حزم في ((المحلى)) (٩/ ٢٥٥)، وحسَّنه ابن عبد البر في ((الاستذكار)) (٤/ ١٣٠)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٠٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٥٦-٤٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٦٤).

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى بالتَّسويةِ بين الأولاد- من الذُّكور والإناثِ في أصلِ الميراثِ- فاوَتَ بين الصِّنفَيْن، وذَكر كيفيَّةَ إرْثِهم(١)، فقال:

﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾.

أي: إذا اجتَمَع في أولادِ الميِّتِ ذكورٌ وإناثٌ، فللذكرِ ضِعفُ ما تُعطَى الأنثى، (وذلك إنْ لم يكُن معهم صاحبُ فرضٍ، أو ما أبقتِ الفروضُ يَقتسمونَه كذلك)(٢).

﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى حالةَ اجتماعِ الذُّكور والإناث، أتْبعَ ذلك بذِكر حالةِ انفرادِ الإناثِ(٣)، فقال:

﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾.

أي: فإنْ كان بناتُ الميِّت أكثرَ في العدد من اثنتين- مهما بلغ عددُهن- فإنهنَّ يستحققْنَ ثُلُثي التركة(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٦٤).
وناسَب أن يُعطى الذَّكرُ ضِعْفي ما تأخذه الأنثى لاحتياج الرجُل إلى مُؤنةِ النفقة والكُلْفة، ومعاناة التِّجارة والتكسُّب، وتجشُّم المشقَّة؛ فالرجُلُ باذلٌ، والمرأة آخِذةٌ، فهو مأمورٌ بالنفقة عليها، ويبذلُ لها المهر، وترثه إذا ماتَ، وليس من العدلِ التَّسويةُ بينهما. يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٥٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٦٥).

ولَمَّا بيَّن اللهُ تعالى ميراثَ البناتِ حالَ اجتماعِهنَّ، ذكَر ميراثَ البنتِ الواحدة، فقال:

﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾.

أي: وإنْ خلَّف الميِّتُ بنتًا واحدةً، فإنَّ لها نصفَ التَّرِكة(١).

ولَمَّا ذكَر اللهُ تعالى مِيراثَ الأولاد، انتقَلَ إلى ذِكر ميراث الأبوين، فقال:

﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾.

أي: ولكلٍّ من والد الميِّت ووالدته السُّدسَ من التركة، إنْ كان للميِّت ولدٌ، ذكرًا كان أو أنثى، واحدًا أو جماعةً(٢).

﴿فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾.

أي: فإن لم يكن للميِّت ولدٌ، ذكرًا كان أو أنثى، وله أبٌ وأمٌّ، فإنَّ لأمِّه ثُلُثَ التَّركة، وللأبِ ما بَقِيَ منها(٣).

= قال الواحديُّ: (أجمعتِ الأمَّةُ على أنَّ للبنتين الثلثين، إلَّا ما رُوي عن ابن عبَّاس) ((التفسير الوسيط)) (٢/ ١٩).

وقال ابنُ عطيَّة: (قوله: ﴿فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾ معناه: اثنتين فما فوقهما، تَقتضي ذلك قوَّةُ الكلام، وأمَّا الوقوف مع اللفظ فيسقط معه النصُّ على الاثنتين، ويثبت الثُّلثان لهما بالإجماع الذي مرَّت عليه الأمصارُ والأعصار، ولم يُحفظْ فيه خلافٌ، إلَّا ما رُوي عن عبد الله بن عباس: أنَّه يرى لهما النِّصفَ) ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٦١-٤٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٦٧-٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٦٢-٤٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٦٨-٧٠).

قال الشنقيطي: (قوله تعالى: ﴿فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث﴾، أي: ولأبيه الثلثان الباقيان إجماعًا) ((أضواء البيان)) (٢/ ٥٦). =

عن عبدِ الله بن عبَّاس رَضِي اللهُ عنهما، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((أَلْحِقُوا الفرائضَ بأهلِها، فما بَقِيَ فهو لأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ))(١).

﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾.

أي: إذا وَرِث الميِّتَ أبواه، وكان له إخوةٌ، سواء كانوا أشقَّاءَ، أو لأبٍ، أو لأمٍّ، وسواء كانوا اثنين أو أكثر، فإنَّ للأمِّ سدسَ التركة، وللأبِ ما بقِي منها(٢).

عن عبد الله بن عبَّاس رَضِي اللهُ عنهما، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((أَلْحِقُوا الفرائضَ بأهلِها، فما بَقِيَ فهو لأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ))(٣).

﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾.

أي: هذه المواريثُ التي ذَكَرها الله تعالى، إنَّما تُستَحقُّ لأهْلِها ممَّا تبقَّى من تركة الميِّت، بعد تنفيذ وصيَّتِه المشروعةِ الثابتة عنه (على ألَّا تتجاوزَ الوصيةُ ثُلُثَ مال الميِّت- إلَّا إذا أجاز الوَرَثةُ تلك الزِّيادةَ- ولا تكون لوارثٍ، ولا تكون لشيءٍ محرَّم)، وقضاء دُيونه(٤).

= وإنَّما كان حظُّ الوالدين من الإرث أقلَّ مِن حظ الأولاد مع عِظَم حقِّهما على الولد؛ لأنَّهما يكونان في الغالب أقلَّ حاجةً من الأولاد، إمَّا لكبرهما، وقِلَّة ما بقِي من عمرهما، وإمَّا لاستقلالهما، وتمولهما، وإما لوجود مَن تجبُ عليه نفقتهما من أولادهما الأحياء، وأمَّا الأولاد فإمَّا أن يكونوا صغارًا لا يَقدِرون على الكسب، وإمَّا أن يكونوا على كِبرهم محتاجين إلى نفقةِ الزواج، وتربيةِ الأطفال؛ فلهذا وذاك كان حظُّهم من الإرث أكثرَ من حظِّ الوالدين. ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ٣٤٠).

(١) رواه البخاري (٦٧٣٥)، ومسلم (١٦١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٦٣-٤٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٧-٢٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٧٠-٧١).
قال الواحديُّ: (أجمعتِ الأُمَّةُ على أنَّ الأخوين يَحجُبان الأمَّ مِن الثُّلث إلى السُّدس، والأخ الواحد لا يَحجُب) ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٢٠).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٨)، ((تفسير السعدي)) =

عن سعد بن أبي وقَّاصٍ رضِي اللهُ عنه، قال: ((تشكَّيتُ بمكَّةَ شكوى شديدةً، فجاءني النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يعودُني، فقلتُ: يا نبيَّ اللهِ، إنِّي أترُكُ مالًا، وإني لم أترُكْ إلا ابنةً واحدةً، فأُوصي بثُلُثَي مالي، وأتركُ الثُلثَ؟ فقال: لا. قلتُ: فأُوصي بالنِّصفِ، وأتركُ النصفَ؟ قال: لا، قلتُ: فأُوصي بالثُّلُثِ، وأتركُ لها الثُلثين؟ قال: الثلثُ، والثلثُ كثيرٌ))(١).

وعن أبي أُمامةَ الباهليِّ رضِي اللهُ عنه، قال: ((سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في خُطبتِهِ عامَ حجَّةِ الوداعِ: إنَّ اللهَ تباركَ وتعالى، قد أعطَى كلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ، فلا وصِيَّةَ لوارثٍ))(٢).

﴿آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا قسَّم سبحانه الميراثَ على ما اقتضتْه حِكمتُه؛ قطَعَ خطَّ الاعتراضِ على هذه القِسمة بقوله(٣):

﴿آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾.

= (ص: ١٦٧-١٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٧٣-٧٨).

وحكى ابن جرير الإجماع على أنَّ قضاء الدَّيْن مقدَّمٌ على الوصية. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٦٩).

(١) رواه البخاري (٥٦٥٩) واللفظ له، ومسلم (١٦٢٨).

(٢) رواه أبو داود (٢٨٧٠)، والترمذيُّ (٢١٢٠) واللفظ له، وابن ماجه (٢٧١٣)، وأحمد (٢٢٣٤٨).

حسَّنه الإمام أحمد كما في ((بلوغ المرام)) لابن حجر (٢٨٦)، وقال الترمذيُّ: حسن صحيح، وحسَّنه ابن عبد البر في ((التمهيد)) (٢٤/ ٤٣٩)، وابن الملقن في ((البدر المنير)) (٧/ ٢٦٣)، وابن حجر في ((موافقة الخبر الخبر)) (٢/ ٣١٥)، وصحَّحه الذهبي في ((تنقيح التحقيق)) (٢/ ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٧٨).

أي: إنَّما فرَضَ اللهُ تعالى للآباء والأبناء نَصيبَهم من الميراث، كلٌّ بحسَبه؛ لأنَّ الإنسان قد يأتيه مِن أبيه النفعُ- دُنيويًّا كان أو أخرويًّا أو هما معًا- ما لا يأتيه من ابنِه، وقد يكون الأمرُ بالعكس؛ فلا ينبغي أن يُمنَع أحدٌ حقَّه من الإرث؛ فإنَّه لو رُدَّ تقديرُ الإرث إلى عقول الناس واختيارِهم لحَصَل مِنَ الضَّررِ ما اللهُ به عليمٌ؛ لنقصِ العُقولِ، وعَدمِ مَعرفتِها بما هو اللائقُ الأحسن في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، فلا يدرون أَيُّ الأولادِ أو الوالِدين أنفعُ لهم، وأقربُ لحصول مقاصِدِهم الدِّينيَّة والدنيويَّة[1].

﴿فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ﴾.

أي: هذا التقسيم المقدَّر للميراث، فرْضٌ من الله تعالى وحده، قد حَكم به على عِبادِه[2].

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

أي: إنَّ الله تعالى عالمٌ بكلِّ شيء، ومن ذلك عِلمُه بمَن يستحقُّ الأخذَ من الميراث، ومقدارِ ما يستحقُّه كلُّ أحد، وهو الحكيمُ الحاكم على عِبادِه، الذي يَضعُ الأشياءَ في مواضعها اللائقة بها، ومِن ذلك: وضْعُه حقَّ الميراث في أهلِه المستحقِّين له، وتقديرُه ما يستحقُّه كلُّ أحدٍ منهم على أحسنِ تقديرٍ[3].

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٧٩).

يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (١٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى ميراثَ الفُروعِ من الأصول، وميراثَ الأصولِ من الفُروع، أخَذ في ذِكْر ميراث المتَّصلين بالسَّببِ لا بالنَّسَب، وهو للزوجيَّة هنا[1]، فقال:

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾.

أي: ولكم- أيُّها الأزواجُ- نصفُ تِركة زوجاتكم بعد وفاتهنَّ، إذا مِتْنَ عن غيرِ ولدٍ، ذكَرًا كان أو أُنثى، واحدًا أو أكثر[2].

﴿فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ﴾.

أي: فإنْ كان لزوجاتكم ولدٌ، من ذَكَر أو أنثى، واحد أو أكثر، فلكم- أيُّها الأزواج- رُبُع تِركة زوجاتكم[3].

﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾.

أي: ذلك الفَرْض لكم- أيُّها الأزواج- تستحقُّونه ممَّا تبقَّى من تِركة

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٩٥).

قال ابنُ عطيَّة: (الولد هاهنا بنو الصُّلب، وبنو ذكورهم وإن سَفُلوا، ذُكرانًا وإناثًا، واحدًا فما زاد، هذا بإجماعٍ من العلماء) ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٩٥-٩٦).

أزواجِكم، بعد تنفيذ وصيتهنَّ المشروعة الثابِتَةِ عنهنَّ، وقضاءِ ديونهنَّ[١].

﴿وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ﴾.

أي: ولأزواجِكم- أيُّها الأزواجُ- رُبُعُ ما تركتم بعدَ وفاتِكم، إنْ لم يكُن لكم ولدٌ[٢].

﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ﴾.

أي: فإنْ كان لكم- أيُّها الأزواج- ولدٌ، وأصابَكم الموتُ، فإنَّ لزوجاتِكم ثُمُنَ ما تركتُم[٣].

﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾.

أي: إنَّما تستحقُّ زوجاتُكم ذلك النَّصيبَ ممَّا تبقَّى من تِركتكم، بعد تنفيذ وصيَّتكم المشروعة الثابتة عنكم، وقضاء دُيونكم[٤].

﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٩٦-٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٩٧).

اتَّفقتِ الأمَّة على أنَّ الرجُلَ إذا كانتْ له زوجاتٌ: أنهنَّ يَشترِكْنَ في الرُّبُع أو في الثُّمُن من غير زيادة لهنَّ؛ لأنَّ تعدُّد الزوجاتِ بيد صاحبِ المال، فكان تعدُّدهنَّ وسيلةً لإدخال المضرَّة على الورثةِ الآخَرين، بخِلاف تعدُّدِ البنات والأخوات، فإنَّه لا خيارَ فيه لربِّ المال. ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٩٧).

أي: إنْ كان المتوفَّى، رجلًا كان أو امرأةً، قد تُوفِّيَ عن غير ولدٍ ولا والدٍ، وله من جهة الأمِّ أخٌ أو أختٌ، فإنَّ لكلِّ واحدٍ منهما- أي الأخ أو الأخت- سُدُسَ التَّركةِ(١).

عن عبدِ اللهِ بن عبَّاسٍ رضِي اللهُ عنهما، قال: ((كنتُ آخرَ النَّاسِ عَهْدًا بعُمرَ، فسَمِعْتُه يقولُ: القَولُ ما قلتُ، قلتُ: وما قلتَ؟ قالَ: الكلالةُ من لا ولدَ لَهُ ولا والِدَ))(٢).

﴿فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾.

أي: فإنْ كان الإخوةُ والأخواتُ من جِهة أُمِّ الميِّت الموروثِ كلالةً- رجلًا كان الميِّت أو امرأةً- أكثرَ من واحد(٣)، فلهم جميعًا ثُلُثُ التركة، يقتسمونها ذُكورًا وإناثًا بينهم بالتَّساوي(٤).

﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٧٤-٤٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٩٨-٩٩).
قال الواحديُّ: (قوله: ﴿وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ﴾ [النساء: ١٢] يعني: من الأمِّ، بإجماع المفسِّرين) ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٢٤).

(٢) رواه عبد الرزاق في ((المصنف)) (١٩١٨٨)، وابن أبي حاتم في التفسير (٤٩٣٣) واللفظ له.
صححه ابن كثير في ((تفسير القرآن))(٢/ ٢٠١)، وصحح إسناده أحمد شاكر في ((عمدة التفسير))(١/ ٤٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (٢/ ٢١٧-٢١٨).
قال البغوي: (فيه إجماع أنَّ أولاد الأمِّ إذا كانوا اثنين فصاعدًا يشتركون في الثُّلث ذكرُهم وأُنثاهم)) ((تفسير البغوي)) (١/ ٥٨٢).
وقال ابن العربي: (اتَّفق العلماء على أنَّ التَّشريك بقتضي التَّسوية بين الذَّكر والأنثى) ((أحكام القرآن)) (١/ ٤٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٨٤-٤٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٩٩).

أي: هذا الذي فرَضَه الله تعالى لأخي الميِّتِ الموروث كلالةً وأختِه، أو لإخوته وأخواته، إنَّما يستحقُّونه مِن بعدِ تنفيذِ وصيَّته المشروعةِ الثابتةِ عنه، وقضاءِ دُيونِه(١).

﴿غَيْرَ مُضَارٍّ﴾.

أي: غير مقصودٍ بها الإضرارُ بالوَرَثة، بأيِّ وجهٍ من الوجوه، كأنْ يَحرِمَ بعضَ الورثة حقَّهم، أو يَنقُصه، أو يزيدَ عليه(٢).

﴿وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ﴾.

أي: هذا الذي ذَكَره الله تعالى من أحكامٍ فيما يجب من ميراثِ مَن مات منكم، عهدٌ مؤكَّدٌ من الله تعالى إليكم، وجَب عليكم أن تَلتزِموا به(٣).

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾.

أي: واللهُ تعالى ذو عِلمٍ بكلِّ شيء، ولا يَخفى عليه شيءٌ سبحانه، ومن ذلك: عِلمُه بمصالحِ خَلْقِه ومضارِّهم، وعِلمُه بمَن يستحقُّ أن يُعطى من الميراث، ومن يُحرَم، وعِلمُه بقدْر ما يستحقُّه كلُّ واحدٍ منهم، وهو سبحانه الحليمُ الذي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٩٩-١٠٠).

قال الرازيُّ: (واعلمْ أنَّ الضرار في الوصية يقع على وجوه: أحدها: أن يُوصِي بأكثرَ من الثلث. وثانيها: أن يُقِرَّ بكلِّ ماله أو ببعضه لأجنبي. وثالثها: أن يُقِرَّ على نفسه بدَين لا حقيقة له؛ دفعًا للميراث عن الورثة. ورابعها: أن يقرَّ بأنَّ الدَّين الذي كان له على غيره قد استوفاه ووصل إليه. وخامسها: أن يبيع شيئًا بثمن بخس، أو يشتري شيئًا بثمن غالٍ، كلُّ ذلك لغرضِ أنْ لا يصلَ المالُ إلى الورثةِ. وسادسُها: أن يوصي بالثُّلُث لا لوجهِ الله، لكن لغرضِ تنقيصِ حقوقِ الورثةِ، فهذا هو وجهُ الإضرارِ في الوصيةِ) ((تفسير الرازي)) (٩/ ٥٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٨٧-٤٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٠٠).

لا يُعاجِل مَن عصاه بالعُقوبةِ(١).

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى سِهامَ المواريث، وقد كانوا في الجاهليَّةِ يَمنعون النِّساءَ والأطفالَ من الميراثِ، ذَكَر الوعدَ والوعيدَ ترغيبًا في الطَّاعةِ، وترهيبًا عن المعصيةِ؛ لئلَّا يُغترَّ بوصْف الحَليم، فقال- مُعظِّمًا للأمْر بأداة البُعدِ ﴿تِلْكَ﴾، ومشيرًا إلى جميعِ ما تقدَّم مِن أمْرِ المواريث وغيرها(٢)-:

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾.

أي: تِلك الفرائضُ والمقاديرُ التي جعَلها الله تعالى للوَرَثةِ، هي حدودُ اللهِ تعالى التي شرَعَها لعباده؛ فيجبُ الوقوفُ معها، وعدمُ تجاوُزِها(٣).

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾.

أي: ومَن يتَّبعْ أمْرَ اللهِ تعالى وأمْرَ رسولِه عليه الصَّلاة والسَّلام، ويجتَنِبْ نَهْيَهما، ومِن ذلك ما يَتعلَّق بأحكامِ المواريث، فإنَّ الله تعالى يُدخِلُه جنَّاتٍ تجري من تحت أشجارِها وغُروسِها أنهارٌ متعدِّدةٌ، وهم في هذا النعيمِ ماكثونَ على الدَّوامِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٥٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٢١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٨٩-٤٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٠٨-١٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٣٢)، ((تفسير السعدي)) =

﴿وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

أي: إنَّ إدخالَ اللهِ تعالى لِمَن أطاعه وأطاعَ رسولَه جِنانَه التي وصَف شيئًا منها، لهُوَ ربحٌ كبير، وفلاحٌ منقطعُ النظير[1].

﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٤)﴾.

﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا﴾.

أي: إنَّ مَن يُخالفُ أمْرَ الله تعالى وأمر رسوله عليه الصَّلاة والسَّلام، فيَترُكِ المأموراتِ، ويرتكِبِ المنهيَّاتِ، ويَتجاوزْ حدودَ ما شرَعه الله سبحانه، تغييرًا لما حكَم اللهُ به، ومضادةً للهِ في حُكمه، أو شكًّا فيما فرَض الله على عبادِه، ومِن ذلك ما يَتعلَّق بأحكامِ المواريثِ؛ فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يُدخِلُه نارَ جهنَّمَ، ماكثًا فيها[2].

= (ص: ١٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٠٩-١١٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١١٨-١١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١١٣-١١٤).

والعصيانُ إن أُريد به الكفرُ فالخلودُ على بابِه، وإن أُريد به الكبائرُ، وتجاوزُ أوامرِ اللهِ تعالى، فيكون المرادُ بالخلودِ طُولَ الْمُدَّةِ. ينظر: ((تفسير القرطبي)) (٥/ ٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٦٨).

قال السعديُّ: (يَدخُل في اسم المعصية الكُفر فما دونه من المعاصي؛ فلا يكون فيها شُبهة للخوارج القائلين بكُفر أهل المعاصي؛ فإنَّ الله تعالى رتَّب دخول الجنة على طاعتِه وطاعةِ رسوله. ورتَّب دخول النار على معصيته ومعصية رسوله، فمَن أطاعه طاعةً تامَّةً، دخل الجنة بلا عذاب. ومَن عصى الله ورسوله معصيةً تامَّةً- يَدخُل فيها الشرك فما دونه- دخل النار وخُلِّد فيها، ومَن اجتمع فيه معصية وطاعة، كان فيه من موجب الثواب والعقاب بحسَب ما فيه من الطاعة والمعصية. وقد دلَّت النصوص المتواترة على أنَّ الموحِّدين الذين معهم طاعةُ التوحيد، غيرُ مخلَّدين في النَّار، فما معهم من التوحيد مانعٌ لهم من الخلودِ فيها) ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧١).

﴿وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

أي: وله عذابٌ مُذِلٌّ يُخزيه(١).

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾، يتبيَّنُ لنا قصورُ عِلم الإنسانِ؛ فأقربُ الناسِ إلى الإنسانِ آباؤه وأبناؤه، فإذا كان لا يَدري أيُّهم أقربُ نفعًا؛ فما بالُك بالبعيدِ؟! وهذا لا شكَّ يعود إلى قُصور عِلم الإنسان، وقد قال الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، فالرُّوح التي هي بين جَنبَيك لا تَعرِفُها؛ لأنَّك لم تُؤتَ من العِلم إلَّا القليلَ(٢).

٢- أنَّه إذا كان الحديثُ عن النِّساء والرِّجال؛ فإنَّ الحكمةَ أن يُقدَّم الحديثُ عن الرِّجالِ؛ لأنَّه سبحانه بدأ بميراثِ الأزواجِ قبل ميراثِ الزَّوْجات، وهذا هو الموافِقُ للفِطرة، خلافًا لِمَن حرف اللهُ فطرتَه، وغيَّرَ سليقتَه، فصار يُقَدِّم النِّساءَ على الرجال في الذِّكْر، قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ﴾(٣).

٣- طاعةُ اللهِ ورسولِه قُطبُ السَّعادةِ التي عليه تَدورُ، ومُستَقَرُّ النَّجاةِ الذي عنه لا تَحورُ؛ يُبيِّن ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٨٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٠٤).

تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾(١).

٤- في ختمِ آياتِ المواريثِ بقولِه: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا...﴾ إشارةٌ إلى عِظَمِ أمرِ الميراثِ، ولزومِ الاحتياطِ والتحرِّي، وعدمِ الظلمِ فيه(٢).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- أنَّ الله أرحمُ بالإنسان من والِدِيْه؛ لقوله: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾؛ فالذي يوصيكَ بالشيءِ هو أرحمُ به منك، وأشدُّ عنايةً به منك(٣).

٢- قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ فيه اهتمامٌ بأحكامِ المواريثِ وما يَتعلَّق بها؛ لذا صدَّر تَشريعها بقوله: ﴿يُوصِيكُم﴾؛ لِمَا في الوصيَّةِ من التأكيدِ والحِرص على اتِّباعها؛ لأنَّ الوصايةَ هي الأمرُ بما فيه نفْعُ المأمور؛ لذا عدَل من صيغةِ (يأمُرُكم) إلى ﴿يُوصِيكُمُ﴾(٤).

٣- بدأ الله تعالى بذِكر ميراثِ الأولاد، وإنما فعل ذلك؛ لأنَّ تعلُّقَ الإنسانِ بولده أشدُّ التعلُّقات، وهم أقربُ النَّاسِ إليه، فقال: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾(٥)، أو لأنَّ الأولاد بَضْعٌ من أبيهم أو أمِّهم؛ فلذلك قدَّم ذِكرَهم على الأبوينِ(٦).

٤- قوله تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ جعَلَ حظَّ الأنثيينِ هو المقدارَ الذي يقدَّر به حَظُّ الذَّكر، ولم يكُن قد تقدَّمَ تعيينُ حظٍّ للأنثيينِ حتى يُقدَّر به، فعُلِمَ أنَّ المرادَ تضعيفُ حظِّ الذَّكرِ من الأولادِ على حظِّ الأنثى منهم، وأوثِرَ هذا

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٤) (٣٥/ ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٢/ ٤٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٥٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٥٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٥٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٨٥).

التعبيرُ لنُكتةٍ لطيفةٍ، وهي الإيماءُ إلى أنَّ حظَّ الأُنثى صارَ في اعتبارِ الشَّرْعِ أهمَّ من حظِّ الذَّكرِ؛ إذ كانت مهضومةَ الجانب عند أهل الجاهليَّة، فصار الإسلامُ يُنادي بحظِّها في أوَّل ما يَقرَع الأسماعَ[1].

٥- في قوله: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ دليلٌ على أنَّ المالَ كلَّه للذَّكرِ إذا لم يكُن معه أنثى؛ لأنَّه جعَل للذَّكر مثلَ ما للأنثيين، وقد جعَل للأنثى النِّصفَ إذا لم يكن معها ذكَرٌ بقوله: ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ فدلَّ على أنَّ للذَّكَرِ حالةَ الانفرادِ مِثْلَيْ ذلك، وَمِثْلَا النِّصفِ هو الكلُّ[2].

٦- في قوله: ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾ أنَّ الإرثَ شاملٌ لجميع التركةِ من عَقارٍ، ومنقولٍ، وحيوانٍ، ومنافعَ، وحقوقٍ؛ فكلُّ ما ترك فهو داخلٌ في الإرث؛ ولهذا يجب التنبُّه لِمَن كان له وَرَثةٌ في غير البيت الذي هو فيه، فإنَّ من الناس مَن إذا مات ميِّتُهم، وورِثَه آخرونَ خارجَ البيت، يتمتَّع بما في البيتِ مِن طعامٍ وغيره، ويَسكُن أيضًا، وهذا لا يجوزُ إلَّا بعدَ إذن بقيَّة الورثة، وإلَّا فإنَّه يُخصَم مِن ميراثِه، وكذلك تُضرَبُ أُجرةٌ على هؤلاء الذين في البيت مِن حينِ موتِ الرَّجُل[3].

٧- قال تعالى: ﴿وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾ أي: ممَّا ورِثه الأبوانِ، ولم يقلْ: (فلأُمِّه الثلثُ ممَّا ترَك) كما قال في السُّدس، فالمعنى أنَّه إذا لم يكنْ له ولدٌ، وكان لأبويه مِن مالِه ميراثٌ، فللأُمِّ ثلثُ ذلك الميراثِ الذي يختصُّ به الأبوان، ويبقَى الباقي للأبِ، ولهذا السرُّ- والله أعلمُ- حيث ذكَر اللهُ الفروضَ المقدَّرةَ لأهلِها، قال فيها: ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾، أو ما يدلُّ على ذلك، كقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾، ليبينَ أنَّ ذا الفرضِ حقُّه ذلك الجزءُ المفروضُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٨٥).

المقدَّر له مِن جميعِ المالِ بعدَ الوصايا والدُّيون، وحيث ذكَر ميراثَ العصباتِ، أو ما يقتسمُه الذُّكورِ والإناثُ على وجهِ التعصيبِ، كالأولادِ والإخوةِ، لم يقيِّدْه بشيءٍ مِن ذلك؛ ليبيِّنَ أنَّ المالَ المقتسمَ بالتعصيبِ ليس هو المالَ كلَّه، بل تارةً يكونُ جميعَ المالِ، وتارةً يكونُ هو الفاضلَ عن الفروضِ المفروضةِ المقدَّرةِ، وهنا لمَّا ذكر ميراثَ الأبوين مِن ولدِهما الذي لا ولدَ له، ولم يكنِ اقتسامُهما للميراثِ بالفرضِ المحضِ، كما في ميراثِهما مع الولدِ، ولا كان بالتعصيبِ المحضِ الذي يعصبُ فيه الذكرُ والأُنثى، ويأخذُ مثلَيْ ما تأخذُه الأُنثى، بل كانت الأمُّ تأخذُ ما تأخذُه بالفرضِ، والأبُ يأخذُ ما يأخذُه بالتعصيبِ، قال: ﴿وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾ يعني أنَّ القدرَ الذي يستحقُّه الأبوانِ مِن ميراثِه تأخذُ الأمُّ ثلثَه فرضًا، والباقي يأخذُه الأبُ بالتعصيبِ[1].

٨- وصْف الوصيَّة بأنَّها ﴿يُوصَىٰ بِهَآ﴾ لتأكيدِ أمرِها، والتَّحقُّقِ من نسبتها إلى الميِّت؛ لأنَّ الحقوقَ يجب التثبُّت فيها[2]؛ ولئلاَّ يُتوهَّمَ أنَّ المراد الوصيَّةُ التي كانت مفروضةً قبل شَرْع الفرائض، وهي التي في قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾[3] [البقرة: ١٨٠].

٩- من الفوائد اللُّغَوِيَّة: أنَّ (كان) في قوله: ﴿كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ قد تُسْلَبُ دَلالتَها على الزَّمان؛ لأنَّها لو دلَّت على الزَّمانِ في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، لكان الربُّ عزَّ وجلَّ الآن ليس عليمًا ولا حكيمًا، لكنَّها أحيانًا تُسلَب دَلالتَها على الزَّمان، ويكون مدلولُها مجرَّدَ الحدَثِ، أو مجرَّدَ الوَصْفِ إذا كان صِفةً[4].

---

(١) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٤٢٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ٣٤٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٦١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٩١).

١٠- أُعْقِبَتْ فريضةُ الأزواج بِذِكْرِ ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾؛ لئلَّا يَتوهَّمَ متوهِّمٌ أنَّهنَّ ممنوعاتٌ من الإيصاءِ ومِن التَّداينِ، كما كان الحال في زمان الجاهليَّة، وأمَّا ذِكْرُ تلك الجملةِ عَقِبَ ذِكر ميراثِ النِّساء من رجالهنَّ فجريًا على الأسلوبِ المتَّبَعِ في هذه الآيات، وهو أن يعقبَ كلَّ صِنفٍ من الفرائضِ بالتنبيه على أنَّه لا يُستَحَقُّ إلَّا بعد إخراجِ الوصيَّة، وقضاءِ الدَّيْن[1].

١١- أَوْردَ اللهُ تعالى أقسامَ الوَرَثَة في هذه الآياتِ على أَحسنِ التَّرتيباتِ؛ وذلك لأنَّ الوارثَ إمَّا أنْ يكونَ متَّصلًا بالميِّت بغيرِ واسطةٍ أو بواسطةٍ، فإنِ اتَّصلَ به بغيرِ واسطةٍ فسببُ الاتِّصال إمَّا أن يكونَ هو النَّسبَ أو الزوجيَّةَ، فحصَل هاهنا أقسامٌ ثلاثةٌ؛ أشرفُها وأعلاها الاتِّصال الحاصلُ ابتداءً من جِهة النَّسب، وذلك هو قرابةُ الولاد، ويَدخُل فيها الأولادُ والوالدان؛ فاللهُ تعالى قدَّم حُكْمَ هذا القسم. **وثانيها**: الاتِّصالُ الحاصلُ ابتداءً من جِهة الزوجيَّة، وهذا القسمُ متأخِّر في الشَّرفِ عن القِسم الأوَّل؛ لأنَّ الأوَّل ذاتيٌّ، وهذا الثَّاني عَرَضيٌّ، والذاتيُّ أشرفُ من العَرَضيِّ. **وثالثها**: الاتِّصالُ الحاصلُ بواسطة الغير، وهو المسمَّى بالكلالة، وهذا القسمُ مُتأخِّرٌ عن القِسمينِ الأوَّلَينِ لوجوه؛ **أحدها**: أنَّ الأولادَ والوالدينِ والأزواجَ والزوجاتِ لا يَعْرِض لهم السُّقوطُ بالكليَّة، وأمَّا الكَلالةُ فقد يَعرِض لهم السُّقوطُ بالكليَّة. **وثانيها**: أنَّ القِسمَينِ الأوَّلينِ يُنسَبُ كلُّ واحدٍ منهما إلى الميِّت بغير واسطةٍ، والكلالةُ تُنسَب إلى الميِّت بواسطةٍ، والثَّابتُ ابتداءً أشرفُ مِن الثَّابتِ بواسطةٍ. **وثالثها**: أنَّ مخالطةَ الإنسانِ بالوالدين والأولاد والزَّوج والزَّوجة أكثرُ وأتمُّ من مخالطتِه بالكلالة، وكثرةُ المخالطةِ مَظِنَّةُ الأُلفة والشَّفقة، وذلك يُوجِبُ شدَّةَ الاهتمام بأحوالهم؛ فلهذه الأسبابِ الثلاثةِ وأشباهِها أخَّرَ الله تعالى ذِكْرَ مواريثِ الكلالةِ عن ذِكر القِسمَينِ الأوَّلين؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٦٣).

فما أحسنَ هذا الترتيبَ! وما أشدَّ انطباقَهُ على قوانينِ المعقولاتِ[(١)]!

١٢- في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾، ناسَبَ الخَتْمُ بالعذابِ المهين؛ لأنَّ العاصيَ المتعدِّيَ للحدود بَرَزَ في صورةِ مَنِ اغترَّ وتجاسرَ على معصيةِ الله، وقد تقلُّ المبالاةُ بالشَّدائد ما لم يَنضمَّ إليها الهوانُ؛ ولهذا قالوا: (المنيَّة ولا الدَّنِيَّة)[(٢)].

بَلاغَةُ الآيات:

١- **قوله: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ...﴾** الآية: فيه تفصيلٌ بعدَ الإجمالِ الذي في قوله: ﴿**يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ**﴾، وتَخصيصُ الذَّكَرِ بالتَّنصيصِ على حَظِّه والابتداءِ به؛ لإظهارِ مزيَّتِه على الأُنثى؛ لأنَّ القصدَ إلى بيانِ فضْلِه، والتَّنبيهِ على أنَّ التَّضعيفَ كافٍ للتَّفضيلِ، فلا يُحْرَمْنَ بالكليَّةِ وقد اشتركَا في الجِهة، والمعنى: للذَّكَرِ منهم، فحُذِفَ للعِلم به[(٣)].

- وإيثار اسمَيْ (الذَّكر) و(الأُنثى) على ما ذُكر أوَّلًا من (الرِّجال) و(النِّساء)؛ للتَّنصيصِ على استواءِ الكِبارِ والصِّغارِ من الفريقينِ في الاستحقاقِ، من غَيرِ دخْلٍ للبلوغِ والكِبَرِ في ذلك أصلًا، كما هو زَعْمُ أهلِ الجاهليَّة؛ حيث كانوا لا يُورِّثون الأطفالَ كالنِّساءِ[(٤)].

- وقال: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ دون أن يقولَ: (للأنثى نِصفُ الذَّكَر)؛ لأنَّ الحظَّ والنَّصيب فضلٌ وزيادة، والنِّصف نقص؛ فلهذا قال: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٥٢٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٥١) ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٣٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٦٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٤٩)- ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٨١).

حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ﴾، فهو أحسنُ تعبيرًا ممَّا لو قال: (للأُنثى نِصفُ ما للذَّكَر)[١].

٢- قوله: ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ وقوله: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ﴾: ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾: أي: ممَّا تَرَكَ الميِّتُ الموروثُ؛ ففيه إعادةُ الضَّمير إلى غيرِ مذكورٍ قَبْلَه، وهو الضَّميرُ المستكِنُّ في الفِعل (تَرَكَ)، أي: ترك هو؛ لقوَّةِ الدَّلالةِ على ذلك؛ لأنَّ الآيةَ لَمَّا كانتْ في الميراثِ، عُلِم أنَّ التارِكَ هو الميِّتُ الموروثُ[٢].

٣- قوله: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾: فيه تكرار للوَصيَّةِ والإيصاء[٣]، وهو يُفيد التَّأكيدَ.

- وتقديمُ الوصيَّة على الدَّين مع أنَّها متأخِّرَة في الحُكم؛ لأنَّه لَمَّا كانت الوصيَّةُ مُشْبِهَةً للميراث في كونها مأخوذةً من غير عِوَضٍ، كان إخراجها مما يشقُّ على الوَرَثة ويتعاظَمُهم، ولا تطيبُ أنفُسُهم بها، فكان أداؤها مَظِنَّةً للتفريطِ، بخلاف الدَّيْنِ فإنَّ نفوسَهم مطمئنَّةٌ إلى أدائه؛ فلذلك قُدِّمَت على الدَّيْن بعثًا على وجوبِها، والمسارعةِ إلى إخراجِها مع الدَّيْن؛ ولذلك جِيءَ بكلمة (أو) للتَّسويةِ بينهما في الوجوب. وقيل: قُدِّمتِ الوصيةُ أيضًا؛ إذ هي حظُّ مساكينَ وضِعافٍ، وأُخِّر الدَّينُ إذ هو حظُّ غريمٍ يطلُبُه بقوَّة، وهو صاحبُ حقٍّ له فيه، ثم أكَّد ذلك ورغَّبَ فيه بقوله: ﴿آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾، وهي جملةٌ اعتراضيَّةٌ مؤكِّدة لوجوبِ تنفيذ الوصيَّة[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٦٤)

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٨١)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٨٣-٤٨٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٥٠) ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ١٧).

٤- في الآية: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ...﴾ قدَّم ذِكْر ميراث سببِ الزوجيَّة على ذِكْر الكلالةِ وإنْ كان بالنسب؛ لتواشُجِ ما بين الزوجين واتصالهما، واستغناءِ كلٍّ منهما بعِشْرَةِ صاحبه دون عِشْرَةِ الكَلَالة(١).

٥- قوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾ ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: فيه تَكرارٌ لاسم الجلالة(٢)، وإظهارُ الاسم الجليل في موضعِ الإضمار؛ لتربيةِ المهابة، وإدخالِ الرَّوعةِ، والمبالغةِ في التهديدِ، والتشديدِ في الوعيد(٣).

٦- قوله: ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾، وقوله: ﴿يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا﴾: فيه مناسبةٌ حسنةٌ، حيثُ جمَع ﴿خَالِدِينَ﴾ في الطَّائعين، وأفرَد ﴿خَالِدًا﴾ في العاصين؛ قِيل: لأنَّ أهلَ الطاعةِ أهلُ الشَّفاعة، وإذا شفَع في غيرِه دَخَلَها؛ فلمَّا كانوا يَدْخُلون هم والمشفُوعُ لهم ناسَبَ ذلِك الجمْعُ، والعاصِي لا يَدخُل النارَ به غيرُه، فبَقِي وحيدًا؛ فناسَبَ ذلِك الإفرادُ(٤).

وقيل: في هذِه الآية نوعٌ طريفٌ من أنواع البَلاغة يُطلَق عليه اسم (جمْع المختلفة والمؤتَلِفَة)(٥)؛ فقد جمَعَ ضميرَ الخالدينَ في الجنة؛ لأنَّ كلَّ مَن دخل

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٤٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٥٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٥٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٥١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٦١٦).
(٥) جمْع المختلفة والمؤتلفة: هو عبارةٌ عن إرادة المتكلِّم التسويةَ بين ممدوحين، فيأتي بمعانٍ مؤتلفة في مدحهما، ثم يُريد بعد ذلك ترجيحَ أحدهما على الآخَر بما لا ينقُص من الآخر، فيأتي لأجْل ذلك الترجيح بمعانٍ تخالف معاني التسويةِ بحسَب تفاوت درَجاتهم، كقوله تعالى: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٨- ٧٩]، فسوَّى بينهما في الحُكم والعلم، وزاد فَضْل سليمان عليه السَّلام بالفَهْم.
ينظر: ((تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر)) لابن أبي الإصبع (١/ ٦٦)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (ص: ٤٢٣).

الجنَّة كان خالدًا فيها أبدًا، أمَّا أهلُ النار فعبَّر بالمفرَد (خالدًا)؛ إذ بينهم الخالِدون وغيرُ الخالِدين من عُصاةِ المؤمنين؛ فساغَ الجمعُ هناك، ولم يَسُغْ هنا(١).

وقيل: لَعلَّ إيثارَ الإفراد في ﴿خَالِدًا فِيهَا﴾- نظرًا إلى ظاهِر اللفظ- واختيارَ الجمْع في ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾- نظرًا إلى المعنى-؛ للإيذان بأنَّ الخلودَ في دار الثَّوابِ بصفة الاجتماعِ أجلَبُ للأنسِ، ولأنَّ منادمةَ الإخوانِ مِن أعلَى نعيمِ الجنانِ، كما أنَّ الخلودَ في دار العذابِ بصفةِ الانفرادِ أشدُّ في استجلابِ الوَحْشةِ، وهذا الانفرادُ نوعٌ مِن أنواعِ العذابِ والهَوان(٢).

٧- **قوله:** ﴿لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا﴾ فيه تفصيلٌ بعد إجمال؛ للتَّأكيد(٣).

٨- **قوله:** ﴿وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ﴾: تنكيرُ لفظ ﴿وَصِيَّةً﴾ وتنوينُه؛ للتفخيم، و﴿مِن﴾ متعلِّقة بمحذوف وقَع صفةً له مؤكِّدَةً لفخامته الذاتيَّة بالفخامة الإضافيَّة، أي: يوصيكم بذلك وصيَّةً كائنةً من الله(٤).

٩- **قوله:** ﴿وَلَهُ﴾، أي: للرجل، ففيه تأكيدٌ للإيذان المذكور؛ حيث لم يَتعرَّضْ للأنثى بعدَ جريانِ ذِكْرها أيضًا، وقيل: الضَّميرُ لكلٍّ منهما(٥).

١٠- **قوله:** ﴿وَذَلِكَ﴾: إشارةٌ إلى ما مرَّ من دخولِ الجنَّات الموصوفة بما ذُكر على وجهِ الخُلود، وما فيه من معنى البُعد؛ للإيذان بكمالِ علوِّ درجتِه(٦).

---

(١) يُنظر: ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٤/ ٤٦٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٢١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٥٤)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٤/ ٤٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١١٨-١١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٥٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٥٢).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٥٤).

الآيات (١٥ - ١٨)

﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ۝١٥ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ۝١٦ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ۝١٧ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ۝١٨﴾.

غَريبُ الكَلمات:

﴿الْفَاحِشَةَ﴾: أي: الزِّنا، وأصل الفُحْشِ: كلُّ شيءٍ مستقبَح ومستشنَع؛ من قولٍ، أو فِعْل[1].

﴿سَبِيلًا﴾: فعلًا وطريقًا، والسَّبيل: الطَّريقُ الذي فيه سُهولة، وأصل (سبل): يدُلُّ على إرْسالِ شيءٍ من عُلُوٍّ إلى سُفْلٍ، وعلى امتدادِ شيءٍ[2].

﴿فَآذُوهُمَا﴾: الأذى هنا السَّبُّ والشَّتم، وقد ورَد في القرآن على أحدَ عشَرَ وجْهًا، وأصلُ الأذى: كل ما يُكرَه، ويُغْتَمُّ به[3].

---

(١) ينظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٠).

(٢) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص:١٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٥).

(٣) ينظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٤)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٢/ ٧٢، ٧٣).

﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾: أي: لا تُعَيِّروهما بالفاحشةِ، والإعراضُ أن تُوَلِّيَ الشيءَ عُرْضَك؛ أي: جانبَك، ولا تُقْبِلَ عليه(١).

﴿بِجَهَالَةٍ﴾: الجهالةُ: هي فِعلُ الشيءِ بخلافِ ما حقُّه أن يُفعَلَ، وأصل جَهِلَ: خِلافُ العِلم، والخِفَّةُ، وخلافُ الطُّمأنينةِ(٢).

مُشكِلُ الإعراب:

قوله: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا﴾، ومثله قوله: ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا﴾:

﴿اللَّاتِي﴾: اسمٌ موصول مبنيٌّ في محلِّ رفْعٍ بالابتداء، وخبره جملةُ ﴿فَاسْتَشْهِدُوا﴾، وجاز دخولُ الفاءِ زائدةً في الخبَرِ؛ لأنَّ المبتدأ أشْبَهَ الشَّرطَ في كونه موصولًا عامًّا، صِلتُه فعلٌ مستقبَلٌ، والخبر مستحقٌّ بالصِّلة. وقيل: الخبر محذوف، والتَّقدير: (فيما يُتلى عليكم حُكمُ اللَّاتي)، فـ(فيما يُتلَى) هو الخبر، و(حُكمُ) هو المبتدأ، و(اللاتي): مضافٌ إليه، فحُذف الخبرُ والمضافُ إلى المبتدأ؛ للدَّلالةِ عليهما، وأُقيمَ المضافُ إليه مقامَه، ويكون قوله ﴿فَاسْتَشْهِدُوا﴾ دالًّا على ذلك الحُكم المحذوف؛ لأنَّه بيانٌ له. ومثله إعراب ﴿واللَّذَانِ يَأْتِيَانِها...﴾، إلَّا أنَّ ﴿اللَّذَانِ﴾: معرَبٌ وليس مبنيًّا؛ لأنَّه مُلحَقٌ بالمثنَّى، فهو مرفوعٌ وعلامةُ رفْعِه الألفُ. وقيل: يجوزُ أن يكون موقعهما الإعرابيُّ النَّصبَ بفِعل مقدَّر؛ لدلالةِ السِّياقِ عليه لا على جِهة الاشتغال، والتقدير: اقصِدوا أو تَعمَّدوا اللاتي يأتِينَ، وقيل: يجوزُ النصبُ على الاشتغالِ كذلك، وفيه بحثٌ وتوجيهٌ طويل؛ يُراجَعُ في مَظانِّه(٣).

---

(١) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص:١٢٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩١).

(٢) ينظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٩).

(٣) ينظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٩٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري =

المَعنَى الإجمالي:

يَأمرُ اللهُ تعالى عِبادَه- وذلك قبل تشريعِ حدِّ الزِّنا- بحَبْسِ مَن يَقعْنَ في الزِّنا من نِسائِهم في البيوت، وألَّا يَسمحوا لهنَّ بالخروجِ حتى يأتيَهنَّ الموتُ، أو يجعلَ الله لهنَّ مخرجًا، سواءٌ كُنَّ متزوجاتٍ أو غيرَ متزوِّجاتٍ، بعد أن يَشهدَ عليهنَّ أربعةٌ من الرِّجال المسلمينَ العُدول بوقوعهنَّ في الزِّنا.

كما أمَرَ اللهُ المؤمنين بإيذاءِ مَن زَنَى مَن الرِّجال والنِّساء إيذاءً قوليًّا بالتعييرِ والتوبيخِ وغيرِ ذلك مِن أنواع الإيذاء، فإنْ تابَا من هذا الجُرْمِ العظيمِ، وأصلحَا فَلْيَكُفَّ المؤمنون عن أذيَّتِهما، إنَّ الله كان توَّابًا رحيمًا، وهذه الأحكامُ السَّابقةُ جميعُها منسوخةٌ.

ثم بيَّنَ تعالى أنَّه يَقبَلُ التَّوبةَ ممَّن يقَعُ منهم الذنبُ عن سفَهٍ منهم، ثم يتوبونَ قبل معايَنتِهم للموت، فهؤلاء يَقبلُ اللهُ توبتَهم، وكان الله عليمًا حكيمًا. وأمَّا الذين يَقعون في المحرَّمات، ثم إذا عاينوا الموتَ بادروا حينَها بالتَّوبةِ، فإنَّ اللهَ لا يَقبَلُ توبتَهم تلك، تمامًا كما أنَّه سبحانه لا يَقبَلُ توبةَ مَن مات وهو كافرٌ؛ فكلاهما ميؤوسٌ من قَبولِ توبَتِه، وهؤلاء قد أعدَّ الله لهم عذابًا مؤلِمًا.

تَفسيرُ الآيات:

﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا (١٥) وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا (١٦)﴾.

= (١/ ٣٣٨- ٣٣٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٦١٧- ٦١٩).

النَّاسِخُ والمَنسُوخ:

هاتانِ الآيتانِ الكريمتانِ، منسوختانِ بالاتِّفاق(١)، والنَّاسخُ لهما قولُه تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢].

وعن عُبادةَ بنِ الصَّامِتِ رضِي اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((خُذوا عنِّي، خُذوا عنِّي؛ قد جَعَل اللهُ لهنَّ سبيلًا؛ البِكْرُ بالبِكْر: جَلْدُ مئةٍ، ونَفْيُ سَنَةٍ، والثَّيِّبُ بالثَّيِّبِ: جَلْدُ مئةٍ، والرَّجْمُ))(٢).

وعليه؛ يكونُ حُكمُ الجَلْدِ لغيرِ المحصَنين ثابتًا بالقرآنِ، وحُكمُ الرجمِ للمُحصَنين ثابتًا بالسُّنَّة، وكان في آيةٍ مِن القرآنِ، ثم نُسختْ تلاوتُها، وبقِي حكمُها.

﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا

---

(١) قال ابنُ الجوزي: (لا يَختلف العلماء في نَسْخ هذين الحُكمين عن الزانيين ، أعني: الحبس والأذى، وإنما اختلفوا بماذا نُسِخَا، فقال قومٌ: نسخ بقوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢]... وقال قومٌ: نُسخ هذان الحكمان بحديث عُبادة بن الصَّامت عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنه قال: «خُذوا عني، خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلًا: الثيِّب بالثيب جَلْدُ مئةٍ، ورجْم بالحجارةِ، والبِكْر بالبِكر جَلْد مئة، ونَفْيُ سَنَة») ((نواسخ القرآن)) (٢/ ٣٥٤، ٣٥٦).

وقال ابنُ كثير: (كان الحُكم في ابتداء الإسلام أنَّ المرأة إذا زنت، فثبَت زناها بالبيِّنة العادلة، حُبِسَت في بيتٍ، فلا تُمكَّن من الخروج منه إلى أن تموت؛ ولهذا قال: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ﴾ يعني: الزنا ﴿مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾، فالسبيل الذي جعله الله هو الناسخ لذلك. قال ابن عبَّاس: كان الحُكم كذلك، حتى أنزل الله سورة النور، فنسخها بالجَلْد، أو الرجم. وكذا رُوي عن عِكرمة، وسعيد بن جُبَير، والحسن، وعطاء الخُراساني، وأبي صالح، وقَتادة، وزيد بن أسلم، والضَّحَّاك: أنَّها منسوخة، وهو أمرٌ متَّفق عليه) ((تفسير القرآن العظيم)) (٢/ ٢٣٣).

وقال ابنُ تيميَّة: (... مثل قوله تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾، وقال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((قدْ جعَلَ الله لهنَّ سبيلًا)) فبعض الناس يُسمِّي ذلك نسخًا، وبعضُهم لا يُسمِّيه نسخًا، والخلافُ لفظي) ((الصارم المسلول)) (ص: ٢٣٩).

(٢) رواه مسلم (١٦٩٠).

فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا (١٥)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر سُبحانَه في هذه السُّورةِ الإحسانَ إلى النِّساء، وإيصالَ صَدُقَاتِهِنَّ إليهنَّ، وميراثهنَّ مع الرِّجال، ذكَر التَّغليظَ عليهنَّ فيما يأتينَ به من الفاحشة؛ لئلَّا يَتوهمْنَ أنَّه يَسوغُ لهنَّ تركُ التعفُّفِ(١)، فقال:

﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ﴾.

أي: إذا وقَع نساؤكم في الزِّنا(٢)- متزوِّجاتٍ كنَّ أو غيرَ متزوِّجات- فاطلبوا لإثبات وقوعِهنَّ في الزِّنا أربعةَ رجالٍ من المسلمين العُدُولِ(٣).

﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ﴾.

أي: فإنْ شهِدَ أربعةٌ من المسلمين العدولِ على وقوعِهنَّ في الزِّنا، فاحبِسُوهنَّ في البيوتِ؛ عقابًا لهنَّ، لا يُمَكَّنَّ من الخروجِ منها إلى أن يَـمُتْنَ(٤).

﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (١/ ٥٠٣).

(٢) قال السمعاني: (أجمعُوا على أنَّ المرَاد به [أي بالفاحشة] الزِّنَا) ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٢٣-١٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٢٤-١٢٥).

قال ابنُ عثيمين: (وقوله: ﴿حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ﴾ يتوفَّاهن: أي: يَقبضهن؛ يُقال: توفيتُ حقِّي من فلان، أي: قبضتُه، وقوله: ﴿الْمَوْتُ﴾ أي: مَلَكُ الموت، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ﴾ [السجدة: ١١]، ولكن قد يُعبَّر عن ذلك بالموت توسعًا) ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٢٥).

أي: أو يُصَيِّرَ اللهُ تعالى لهنَّ طريقًا ومَخْرَجًا للخلاصِ من هذا الإمساكِ[١]؛ بتشريعِ حُكمٍ لهنَّ، وقد كان؛ فقد جعَل الله لهنَّ سبيلًا، فعن عُبادَةَ بنِ الصَّامتِ رضِي اللهُ عنه أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((خُذُوا عنِّي، خُذُوا عنِّي؛ قد جعَل اللهُ لهنَّ سبيلًا؛ البِكر بالبِكرِ: جَلْدُ مِئةٍ، ونَفْيُ سَنَةٍ، والثَّيِّبُ بالثَّيِّبِ: جَلْدُ مئةٍ، والرَّجْمُ))[٢].

﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا (١٦)﴾.

﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا﴾.

أي: إنَّ الرجُلَ والمرأة إذا زَنَيا، فآذوهما بالتَّوبيخ، والتَّعيير، وغيرِ ذلك من أنواعِ الإيذاءِ[٣].

﴿فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾.

أي: فإنْ رجعَا عن الوقوعِ في الزِّنا، ونَدِمَا عليه، وعزمَا على ألَّا يَعودَا إلى اقترافِ ذلك، وأصلحَا دِينَهُما بالعملِ بما يُرضِي الله تعالى، فكُفُّوا عن أذيَّتِهما[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٢٥).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٩٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧١).

قال ابنُ جرير- بعدَ أنْ ذكَر الخِلاف في تفسير قوله: ﴿واللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا﴾- قال: (وأَوْلى هذه الأقوال بالصواب في تأويل قوله: ﴿واللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ﴾: قولُ مَن قال: عُني به البِكرانِ غيرُ المحصنَين إذا زَنَيا، وكان أحدهما رجلًا والآخر امرأة). وينظر: ((الوجيز)) للواحدي (١/ ٢٥٦).

قال ابن الجوزي: (لا يختلف العلماء في نسْخ هذيْن الحكمين عن الزانيين، أعني: الحبس والأذى)) ((نواسخ القرآن) (٢/ ٣٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٠٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧١).

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾.

أي: إنَّ الله تعالى يُوفِّقُ عبادَه للتوبة، ويَقبَلُها منهم، وهو ذو الرَّحمةِ العظيمةِ بعِبادِه، ومِن رحمتِه أنْ هيَّأهُم للتَّوبة، وقَبِلَها منهم[١].

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧)﴾.

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾.

أي: إنَّما يَقبلُ الله تعالى التَّوبة مِمَّن عَمِل عملًا سيِّئًا، صدر عن سَفَهٍ منه، وعملُه السُّوءَ هو الجهالةُ التي جهِلها، فكلُّ عاصٍ لله عزَّ وجلَّ، فهو جاهلٌ، وإنْ كان عالِمًا بالتَّحريم[٢].

﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى يَقبَلُ توبةَ العبد إذا تاب حالَ حياتِه، قبل مُعايَنَةِ الموتِ[٣].

عن ابنِ عُمَرَ رضِي اللهُ عنهما، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((إنَّ اللهَ يقبلُ توبةَ العبدِ ما لم يُغَرْغِرْ[٤]))[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٣١-١٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٠٦-٥١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٣٧).
قال عبدالرزاق: (أنا معمر، عن قتادة، في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ [النساء: ١٧] قال: اجتمع أصحاب الرَّسول فرأوا أنَّ كلَّ شيءٍ عُصِيَ به اللهُ تعالى فهو جهالة، عمدًا كان، أو غير ذلك) ((تفسير عبد الرزاق)) (١/ ٤٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧١-١٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٣٧).

(٤) ما لم يُغَرْغِرْ: أي: ما لم تبلُغْ رُوحُه حُلقومَه، فيكون بمنزلة الشَّيءِ الذي يَتغَرْغَر به المريضُ. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٣٦٠).

(٥) رواه الترمذيُّ (٣٥٣٧)، وابن ماجة (٤٢٥٣)، وأحمد (٦١٦٠).

=

﴿فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾.

أي: فإنَّ هؤلاء الذين يعملون السُّوءَ بجهالةٍ، ثمَّ يتوبونَ من قريبٍ، يَرزُقُهم اللهُ تعالى- دون مَن لم يَتُبْ- إنابةً إلى طاعتِه، ويَتقبَّلُ منهم أَوْبَتَهُم إليه(١).

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

أي: إنَّ الله تعالى ذو عِلمٍ بكلِّ شيءٍ، ومِن ذلك: عِلمُه بمَن تاب إليه مِن عبادِه، وهو الحكيمُ الذي من حِكمتِه توبتُه على مَن تابَ مِن عِبادِه(٢).

﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٨)﴾

﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾.

أي: إنَّ مَن يرتكبون المحرَّمات لا يقبلُ الله عزَّ وجلَّ توبتهم، إذا تابوا حين يأتيهم الموتُ(٣)، ساعة الاحتضار، وبلوغِ الرُّوحِ الحُلْقومَ(٤).

= قال الترمذيُّ: حسن غريب. وقال ابن القطان في ((الوهم والإيهام)) (٥/ ٤١٢): محتمَل أن يُقال فيه: صحيح. وصحَّح إسناده أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٩/ ١٨)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٥٣٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥١٥-٥١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٣٨-١٣٩).

(٣) فهذه التوبة هي توبةُ المضطرِّ، لجَّت به الغواية، وأحاطت به الخطيئة، توبة الذي يتوب؛ لأنَّه لم يعُدْ لديه متَّسع لارتكاب الذنوب، ولا فسحة لمفارقة الخطيئة، وهذه لا يَقبلها الله؛ لأنَّها لا تُنشِئ صلاحًا في القلب، ولا صلاحًا في الحياة، ولا تدلُّ على تبدُّلٍ في الطبع، ولا تغيُّر في الاتجاه. والتوبة إنما تُقبل؛ لأنَّها الباب المفتوح الذي يَلِجُه الشاردون إلى الحمى الآمن، فيستردون أنفسهم من تِيه الضلال، وتستردهم البشرية من القطيع الضالِّ تحت راية الشيطان؛ ليعملوا عملًا صالحًا- إن قدَّر الله لهم امتداد العمر بعد المتاب- أو ليعلنوا- على الأقل- انتصار الهداية على الغواية، إن كان الأجل المحدود ينتظرهم، من حيث لا يشعرون أنه لهم بالوصيد. يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٦٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٣٨)، ((تفسير السعدي)) =

عن ابن عُمَرَ رضِي اللهُ عنهما، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((إنَّ اللهَ يقبلُ توبةَ العبدِ ما لم يُغَرْغِرْ))[١].

﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾.

أي: ولا يَقبَلُ اللهُ تعالى أيضًا توبةَ مَن ماتوا على الكفر[٢].

﴿أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

أي: إنَّ الكفَّارَ الذين ماتوا على كُفرِهم أعدَّ الله تعالى لهم عذابًا مُوجِعًا شديدًا[٣].

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- أنَّ حبْسَ المرأةِ في بيتِها من أسبابِ دَرْءِ الفِتنة؛ لقوله: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾؛ لأنَّ هذا نوعٌ من العقوبة من وَجْهٍ، وكفٌّ لأسباب الفِتنة من وجهٍ آخرَ[٤]، قال الله

= (ص: ١٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٤١-١٤٢).

يُشترط لصِحَّة التوبة أن تكون في الزمن الذي تُقبل فيه التوبة، وذلك قبل حضور الموت، وهو شَرْط من خمسة شروط للتوبة، هي:

- الشَّرْط الأوَّل: الإخلاص لله عزَّ وجلَّ، بأنْ لا يكون الحامل له على التوبة إلَّا محبة الله والقُرب منه، والخوف من عذابه.
- الشَّرط الثَّاني: النَّدم على ما فعل من الذنب.
- الشَّرط الثَّالث: الإقلاع عن الذنب.
- الشَّرط الرَّابع: أن يعزمَ على أنْ لا يعود في المستقبل إلى ما تاب منه.
- الشَّرط الخامس: أن تكون التوبةُ في وقت تُقبَل من التائب، فإنْ كانت في وقت لا تقبل منه - كما لو حضَر الأجَل، أو طلعت الشمس من مغربها؛ فإنَّ التوبة لا تُقبل. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٤٣).

(١) تقدم تخريجه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٢٧).

تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾.

٢- الإشارة إلى أنَّ البيت خيرٌ للمرأة؛ لقوله: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ﴾، وكما قال النبي صلَّى الله عليه وسلَّم: ((بيوتُهنَّ خيرٌ لهنَّ)) (١).

٣- في قوله: ﴿فَإِنْ تابا وَأَصْلَحا فَأَعْرِضُوا عَنْهُما إِنَّ اللَّهَ كانَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾: أنَّه ينبغي للعباد أنْ يكونوا فيما بينهم متسامحينَ رُحماءَ أمامَ الذَّنبِ الذي سلَف، وأعْقَبه التوبةُ والإصلاحُ، إنَّه ليس تسامحًا في الجريمةِ، وليس رحمةً بالفاحشينَ؛ فهنا لا تسامُحَ ولا رحمةَ، ولكنْ سماحةٌ ورحمةٌ بالتائبين المتطهِّرين المصلِحين، وقَبولُهم في المجتمع، وعدَم تذكيرِهم وتعييرِهم بما كان منهم من ذنبٍ تابوا عنه، وتطهَّروا منه، وأصْلَحوا حالهم بعدَه، فينبغي- حينئذٍ- مساعدتُهم على استئنافِ حياةٍ طيِّبةٍ نظيفةٍ كريمة، ونِسيانُ جريمتِهم؛ حتى لا تُثيرَ في نفوسهم التأذِّيَ كلَّما واجهوا المجتمعَ بها؛ ممَّا قد يحمِل بعضَهم على الانتكاسِ والارتكاسِ، واللَّجاجِ في الخطيئة، وخَسارةِ أنفسِهم في الدُّنيا والآخرة، والإفسادِ في الأرض، وتلويثِ المجتمع، والنِّقمةِ عليه في ذات الأوان(٢).

٤- يُؤخَذُ من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾، أنَّ كلَّ عاملِ سُوءٍ فإنَّما يعمَلُه بجهالةٍ وسَفَه، والسَّفَهُ ضدُّ الرُّشدِ، فمن عَمِلَ سيِّئًا فقدْ فُقِدَ منه الرُّشد(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٢٧).
والحديث رواه أبو داود (٥٦٧)، وأحمد (٥٤٦٨) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما. صححه النووي في ((المجموع)) (٤/ ١٩٧)، وابن دقيق العيد في ((الاقتراح)) (٩١)، وذكر الشوكاني في ((نيل الأوطار)) (٣/ ١٦٠) أنه روي نحوه بإسناد حسن وله شاهد، وصححه أحمد شاكر في تحقيق ((المحلى)) (٤/ ١٩٨)، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٥٦٧).
(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٦٠٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٣٩).

٥- أَصْلُ ما يُوقِعُ النَّاسَ في السَّيِّئاتِ الجَهلُ، وعَدَمُ العِلمِ بكَوْنِها تضرُّهم ضررًا راجحًا، أو ظنٌّ أنَّها تَنفعُهم نَفعًا راجحًا؛ فإنَّ مَن عَمِل بخِلافِ الحقِّ فهو جاهلٌ وإنْ علِمَ أنَّه مخالفٌ للحقِّ؛ كما قال سُبحانَه: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ [النساء: ١٧]؛ فالعِلمُ الحقيقيُّ الرَّاسخُ في القلبِ يَمتنعُ أنْ يَصدُرَ معه ما يُخالفُه من قولٍ أو فِعلٍ؛ فمتَى صدَرَ خلافُه فلا بدَّ مِن غَفْلةِ القلبِ عنه، أو ضَعْفِه في القَلبِ بمقاومةِ ما يُعارِضُه، وتلك أحوالٌ تُناقِضُ حقيقةَ العِلمِ؛ فيصير جهلًا بهذا الاعتبارِ[1].

٦- وجوبُ المبادرة بالتَّوبة؛ لأنَّ الله علَّق قَبُولَها على أمَدٍ لا يُعلَم، فإذا كان كذلك وجَبَ المبادرةُ بها، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[2].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قوله تعالى: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ﴾، إشارةٌ إلى أنَّ الرجل أقوى في الشَّهادة من المرأةِ وأثبتُ؛ وذلك لأنَّ الله تعالى لم يعتبِرْ في الزِّنا إلَّا شهادةَ الرِّجالِ[3].

٢- أنَّ الحدَّ يُدْرَأُ بالشُّبْهَة؛ وذلك لأنَّ اشتراطَ أربعةِ رجالٍ من أجْلِ إثباتِ الشهادة، وشهادةُ النِّساءِ الأربعِ فيها شُبهةٌ؛ لأنَّهنَّ لم يَضْبطْنَ، كما قال تعالى: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾[4] [البقرة: ٢٨٢].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٢٩٠-٢٩١)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٢٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٣- سَمَّى اللهُ تعالى الزِّنا فاحشةً في قوله تعالى: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ﴾ دون الكُفر وقتْلِ النَّفْسِ، مع أنَّهما أكثرُ قبحًا من الزنا؛ قيل: لأنَّ القُوى المدبِّرة لبَدَن الإنسان ثلاثة: القوَّة الناطقة، والقوَّة الغضبيَّة، والقوَّة الشهوانيَّة؛ ففسادُ القوَّة الناطقة هو الكفرُ والبِدعة وما يشبههما، وفسادُ القوَّة الغضبيَّة هو القتلُ والغضَبُ وما يُشبههما، وفساد القوَّة الشهوانيَّة هو الزِّنا واللواط والسحاقُ وما أشبهها، وأخسُّ هذه القوى الثَّلاثة: القوَّة الشَّهوانيَّة؛ فلا جَرَمَ كان فسادها أخسَّ أنواعِ الفساد، فلهذا السَّبب خُصَّ هذا العملُ بالفاحشة، والله أعلمُ بمراده[1].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ قد يُستدلُّ به على أنَّ المُذْنِبَ إذا لم يُعرَفْ فيه حُكمٌ للشَّرْعِ، فإنَّه يُمسَكُ ويُحبسُ، حتى يُعرَفَ فيه الحُكمُ الشرعيُّ، فيُنفَّذَ فيه[2].

٥- إثبات الجَعْل لله عزَّ وجلَّ؛ لقوله: ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾، والجَعْل نوعان: جعْل شرعيٌّ، وجعل كونيٌّ قدَرِيٌّ، ومن أمثلة الجعل الشرعيِّ: قوله تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧]. وأمثلة الجعل الكونيِّ كثيرة في القرآن؛ كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا *﴾ [النبأ: ٩ - ١١][3].

٦- في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ...﴾ أنَّ لله تعالى أن يوجِبَ على نفسه ما شاء، وليس للعباد أن يوجبوا عليه شيئًا؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وله أن يُحَرِّم على نفسه ما شاء، قال الله

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٥٢٨).

(٢) ((المستدرك على مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٥/ ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٢٨).

تعالى في الحديث القُدُسيِّ: ((يا عبادي، إني حرَّمتُ الظُّلْمَ على نفسي))[١]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢]، فهذا إلزامٌ وفَرْضٌ، ومنه هذه الآية: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ﴾[٢].

٧- قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ هنا قال: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ﴾، ولم يَقُلْ: على الله؛ لأنَّ هذه التوبة منتفيةٌ شرعًا، فهي ليست حقيقيَّة[٣].

بَلاغةُ الآيات:

١- قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾: الجملة تعليلٌ للأمر بالإعراضِ عنهما، وفيها مبالغةٌ في قَبولِ التَّوبة[٤]؛ حيث عبَّر بصِيَغ المبالغة فعَّال ﴿توَّابًا﴾، وفعيل ﴿رَحِيمًا﴾، مع ما فيها مِن التأكيدِ بـ(إنَّ) واسميَّة الجملة.

٢- قوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

- قوله: ﴿فَأُولَئِكَ﴾: إشارة إلى المذكورينَ من حيثُ اتصافُهم بما ذُكِرَ، وما فيه من معنى البُعد باعتبارِ كونهم بانقضاءِ ذِكرهم في حُكم البعيدِ[٥].

- قوله: ﴿فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾: فيه تكرير الإسناد ﴿يَتُوبُ اللَّهُ﴾؛ لتقويةِ الحُكم، وهذا وعدٌ بقبول توبتهم إِثْرَ بيان أنَّ التوبة لهم، والفاءُ في ﴿فَأُولَئِكَ﴾ للدَّلالةِ على سببيَّتها للقَبول[٦].

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٣٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٤١).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٥١).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾: الجملة اعتراضيَّة، مقرِّرة لمضمون ما قبلها، وإظهار الاسم الجليل ﴿الله﴾ في موضِع الإضمار؛ للإشعارِ بعلَّة الحُكم؛ فإنَّ الألوهيَّة منشأٌ لاتِّصافِه تعالى بصفاتِ الكمال، مع ما في ﴿عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ من المبالغة في الاتِّصاف بالعِلم والحكمة[1].

٣- قوله: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ﴾: نفيُ التوبة؛ للمبالغةِ في عدم الاعتدادِ بها في تلك الحالة، وكأنَّه قال: وتوبةُ هؤلاء وعدمُ توبة هؤلاء سواءٌ[2].

- وأيضًا في قوله: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ...﴾: تصريحٌ بما فُهِمَ من قَصْرِ القَبول على توبة مَن تاب من قريب، وزِيادةُ تعيينٍ له ببيان أنَّ توبة مَنْ عداهم بمنزلة العَدَم، وجمع ﴿السَّيِّئَات﴾ باعتبار تكرُّرِ وقوعها في الزَّمان المديد؛ لأنَّ المرادَ جميعُ أنواعها، وما مرَّ من السوء نوعٌ منها[3].

٤- قوله: ﴿حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾: ذكر (الآن) لمزيد تعيين الوقت، وإيثار (قال) على (تاب)؛ لإسقاط ذلك عن درجة الاعتبارِ، والتحاشي عن تسميته توبةً[4].

٥- قوله: ﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾: عطف على قوله: ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ...﴾، وهم الذين يُسوِّفون، وذَكَرَ هؤلاء الكفَّارَ مع أنَّه لا توبةَ لهم رأسًا؛ مبالغةً في بيانِ عدمِ قُبول توبةِ المُسوِّفين، وإيذانًا بأنَّ وجودَها كعدمها، بل في ذِكرِ حرْف النَّفي (لا) في المعطوف ﴿وَلَا الَّذِينَ...﴾ إشعارٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٥٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٦٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٥٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

خفيٌّ بكَوْنِ حال المسوِّفين في عدم استتباع الجدوى أقوى مِن حال الذين يموتون على الكُفر[١].

٦- **قوله: ﴿أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾**: تأكيدٌ لعدمِ قَبول توبتِهم، وبيانُ أنَّ العذاب أعدَّه لهم مَن لا يُعجزه عذابُهم متى شاء[٢].

- قوله: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ إشارة إلى الفريقين، وما فيه من معنى البُعد؛ للإيذانِ بترامي حالِهم في الفظاعة، وبُعْدِ منزلتهم في السُّوء[٣].

- قوله: ﴿أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾: تكريرُ الإسنادِ لتقويةِ الحُكمِ، وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ على المفعولِ الصَّريحِ؛ لإظهارِ الاعتناءِ بكونِ العذابِ مُعَدًّا لهم، وتنكيرُ ﴿عَذَابًا﴾ ووصْفُه بـ﴿أَلِيمًا﴾؛ للتفخيمِ الذاتيِّ والوصفيِّ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٥٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٦٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٥٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٩ - ٢٢)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًاۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا (١٩) وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٖ مَّكَانَ زَوْجٖ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔاۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (٢٠) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٖ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا (٢١) وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا (٢٢) ﴾.

غَريبُ الكَلمات:

﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾: أي: ولا تَمنعوهنَّ من التَّزوُّج، أو لا تَحبِسوهنَّ وتقهروهنَّ، وأصل (عضل): المنْعُ والشِّدَّة، والالتواء في الأمْر؛ من عضَلتِ المرأةُ إذا علَق ولدُها في بطنِها، وعَسُر خروجُه[1].

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ﴾: صاحِبوهنَّ وخالِطوهنَّ، وأصل (عشر): يدلُّ على مُداخلةٍ ومخالطةٍ[2].

﴿بُهْتَانًا﴾: أي: ظلمًا، والبُهتان أيضًا الكذبُ، وكلُّ فِعل مستبشَع يُتعاطى

(١) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص:٨٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٤٥- ٣٤٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٥).

(٢) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص:١٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٧).

باليَد والرِّجْل، مِنْ تناوُلِ ما لا يجوز، والمشيُ إلى ما يقبُح[١].

﴿أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾: يعني الجِماع؛ يُقال: أفضى إلى امرأتِه: انتهى إليها، ولم يكنْ بينهما حاجزٌ، والإفضاءُ الخَلوة، وأصله يدلُّ على انفساحٍ في شيءٍ واتِّساع[٢].

﴿وَمَقْتًا﴾: بُغضًا، والْمَقْتُ: البُغضُ الشَّديدُ لِمَن تراه تعاطَى القبيحَ، وأصل (مقت): شناءةٌ وقُبحٌ[٣].

مُشكِلُ الإعراب:

قوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾.

﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾: فيه وجهان: أحدُهما: أن (لا) نافية، والفِعل منصوبٌ عطفًا على ﴿تَرِثُوا﴾؛ أي: لا يَحِلُّ لكم أنْ تَرِثوا النِّساءَ، ولا أنْ تَعْضُلوهُنَّ. والثاني: أنَّ (لا) نَّاهِيَة، والفِعل مَجزومٌ بها؛ فهو مستأنَفٌ، أو من قَبيلِ عَطْفِ الإنشاءِ على الخَبرِ، حيث عُطِفت جملةُ النَّهْيِ على الجملةِ الخبريَّةِ[٤].

المَعنَى الإجماليّ:

يُخاطِبُ اللهُ تعالى المؤمنين مُبَيِّنًا أنَّه محرَّمٌ عليهم أنْ يأخذوا نِساءَ موتاهم بطريقِ الإرثِ، والحالُ أنهنَّ- بلا ريبٍ- مُكرَهاتٌ على ذلك، كما ينهاهم

---

(١) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص:١٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٨).

(٢) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص:١٢٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٦).

(٤) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٤٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٦٢٨-٦٣٠).

عن قَهْرِ النِّساءِ، والتضييقِ عليهنَّ من أجل أن يفتدينَ أنفُسَهنَّ منهم بمقابِلٍ؛ فيفارقوهنَّ، إلَّا إذا وقعْنَ في الزنا أو النُّشوز، فيحلُّ حينئذٍ معاملَتُهنَّ تلك المعاملةَ حتى يفتدينَ أنفُسَهنَّ. كما أمر الله تعالى عباده بحُسْنِ صحبة النِّساء بالمعروف، وألَّا يتعجَّلوا في مفارقتِهنَّ إنْ كَرِهُوهنَّ؛ فعسى اللهُ أنْ يَجعلَ في إمساكهنَّ مع ذلك خيرًا كثيرًا في الدُّنيا والآخِرة.

وإذا أراد الأزواجُ فِراقَ أزواجهنَّ، والتزوُّجَ بغيرهنَّ، فلا يحلُّ للزوجِ أن يأخُذَ مِن مهرِ زوجتِه التي يُريد طلاقَها شيئًا، ولو أمْهَرَها مهرًا كثيرًا؛ فإنَّ أخْذَهُ هنا بهتانٌ وظُلْم وإثمٌ ظاهر، ولا يوجد ما يُبرِّر أخْذَ شيءٍ من ذلك، وقد حصَل بينهم علاقةُ استمتاعٍ وجِماع، وأخَذَ الزوجاتُ منهم عهدًا شديدًا مؤكَّدًا، وهو عقدُ النِّكاحِ.

ثم نَهى اللهُ عِبادَه أن يتزوَّجوا زوجاتِ آبائهم مِن بَعْدِهم، إلَّا ما قدْ وقَعَ في أيَّامِ جاهليَّتِهم؛ فإنَّه معفوٌّ عنه، وذلك أنَّ هذا الفعلَ في غايةِ القُبْح، وهو أمرٌ مبغوضٌ من الله ومن النَّاس، وساء هذا الأمرُ طريقًا لِمَن سَلَكَه!

تَفسيرُ الآيات:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا (١٩)﴾.

سببُ النُّزولِ:

عن ابن عبَّاس رضِي اللهُ عنهما قال: ((﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ قال: كانوا إذا مات الرَّجُلُ كان أولياؤه أحقَّ بامرأته، إن شاء بعضهم تزوَّجها، وإن شاؤوا

زوَّجوها، وإنْ شاؤوا لم يُزَوِّجوها، فهم أحقُّ بها مِن أهلِها، فنزلتْ هذه الآيةُ في ذلك))[١].

وعن أبي أُمامةَ بنِ سَهلِ بن حُنيفٍ، قال: ((لَمَّا تُوُفِّي أبو قَيسِ بنُ الأسلتِ، أراد ابنُه أنْ يتزوَّج امرأتَه، وكان لهم ذلك في الجاهليَّة، فأنزل اللهُ تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾))[٢].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾.

أي: يحرُمُ عليكم- أيُّها المؤمنون- أنْ تَستحوِذوا على زَوجاتِ مَن ماتَ مِن آبائكم وأقاربكم، وكأنَّهنَّ مِن جملةِ تركتِهم، وذلك كأنْ تتزوجوهنَّ، أو تُزوِّجوهنَّ لغيركم، أو تمنعوهنَّ من الزَّواج، والحال أنهنَّ كارهاتٌ لذلك، مُكرَهاتٌ عليه[٣].

﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾.

أي: يحرُم عليكم- أيُّها الأزواج- أن تُضيِّقوا على أزواجكم في العِشْرة، وتقهروهنَّ؛ لتُلجِئوهنَّ إلى افتداء أنفسهنَّ منكم؛ بترك مهورهنَّ أو بعضٍ منها، أو بتنازلهنَّ عن أيِّ حقٍّ آخرَ من حقوقهنَّ؛ لتفارقوهنَّ[٤].

﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٤٥٧٩).

(٢) رواه النسائي في ((السنن الكبرى)) (٦/ ٣٢١) (١١٠٩٥)، والطبري في ((تفسيره)) (٨/ ١٠٥)، وابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (٥٠٣٠).
حسَّن إسنادَه ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (٨/ ٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٢١-٥٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٥١-١٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٣٠-٥٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٥٢).

أي: يحلُّ لكم- أيُّها الأزواج- عَضْلُ زوجاتكم، والضِّرارُ بهنَّ بالعدل، إذا وقَعْنَ في الزِّنا أو النُّشوز، حتى يَفتدينَ أنفُسَهنَّ منكم؛ بالتنازُلِ عن بعضِ حُقوقهنَّ- كالمهرِ أو بعضِه- من أجْلِ أنْ تفارقوهنَّ(١).

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

أي: صاحِبوا- أيُّها الأزواج- زوجاتِكم كما أمرَكم الله تعالى، وذلك بالخُلق الحسَن؛ كالقول الطيِّب، وكفِّ الأذى، وبذْلِ الإحسان، وحُسن الهيئة، وغير ذلك، وصاحبوهنَّ بأداء حقوقهنَّ من النَّفقةِ والكُسوة، وغير ذلك ممَّا أمَرَ الله تعالى به، وبما يَتعارَفُ عليه النَّاس، ولا يُنكِرُه الشَّرعُ(٢).

عن عائشةَ رضِي اللهُ عنها، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأهلِهِ، وأنا خَيْرُكُمْ لأهلِي))(٣).

﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

أي: عاشِروا- أيُّها الأزواج- زوجاتِكم بالمعروف، وإنْ كرهتموهنَّ؛ فعسى أن يكونَ صَبْرُكم مع إمساكِكم لهنَّ وكراهيتِهنَّ، فيه خيرٌ كثيرٌ لكم في الدُّنيا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٣٢-٥٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٥٢-١٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٥٣-١٥٤).

(٣) رواه الترمذي (٣٨٩٥) واللفظ له، والدارمي (٢٢٦٠).

قال الترمذي: حسن غريب صحيح، وصحح إسناده ابن جرير الطبري في ((مسند عمر)) (١/ ٤٠٨)، ورواه ابن حبان في ((صحيحه)) (٤١٧٧)، وصححه الشوكاني في ((فتح القدير)) (١/ ٦٣٥)، وصحح إسناده أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٤٧٧)، وصححه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٨٩٥)، وصححه على شرط الشيخين الوادعي في ((الصحيح المسند)) (١٦١٦).

والحديث روي من طرق عن عبد الله بن عباس وعلي بن أبي طالب وأبي هريرة ومعاوية بن أبي سفيان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم.

والآخِرة؛ كأولادٍ تُرْزَقُونَهُمْ منهنَّ، أو تزولُ كراهتكم لهنَّ، وتَخْلُفُها محبتُهنَّ، وغير ذلك(١).

عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((لا يَفْرَكْ مؤمنٌ مؤمنةً(٢)؛ إنْ كَرِهَ منها خُلُقًا رضِيَ منها آخرَ، أو قال: غيرَهُ))(٣).

﴿وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (٢٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى كراهيةَ الزَّوجِ لزوجِه في قوله: ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ ولا جَرَمَ أنَّ الكراهيةَ تَعقُبها إرادةُ استبدالِ المكروهِ بضدِّه؛ فلذلك عطَفَ الشَّرْط في قوله: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمُ...﴾ على الذي قبله استطرادًا واستيفاءً للأحكام(٤).

وأيضًا لَمَّا نهى عن العَضْل تسبُّبًا إلى إذهاب بعض ما أُعْطِيَتْهُ المرأةُ- أَتْبَعَهُ التصريحَ بالنَّهي عن أخْذ شيءٍ منه في غيرِ الحالة التي أُذِنَ فيها في المضارَّة، وهي الفاحشة(٥)، فقال:

﴿وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ﴾

أي: وإذا أراد أحدُكم- أيُّها الأزواج- أنْ يُطلِّقَ زوجته، ويتزوَّج بأخرى(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٥٤).

(٢) لا يَفْرَكْ مُؤمنٌ مُؤمنةً: أي لا يُبغضها، لأنه إن وجد فيها خلقًا يكره، وجد فيها خلقًا مرضيًّا كأنَّه حَثَّ على حُسْنِ العِشرةِ والصُّحْبة. ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٤٤١)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٠/ ٥٨)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٠/ ٤٧٤).

(٣) رواه مسلم (١٤٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٨٨).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٢٢٦)، ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٥٨).

﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾.

أي: والحال أنَّكم قد أمهرتموهنَّ مهرًا كبيرًا، فإنَّه لا يحلُّ أخْذُ شيءٍ منه عَنوةً؛ لأنَّه حقُّها، والنهي عن ذلك بالأَوْلى لو كان المهر قليلًا[١].

﴿أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾.

أي: أتأخذون ما آتيتموهنَّ من المهور ظلمًا بغير حقٍّ، وإثمًا ظاهرًا، قد أبان أمْرَ آخِذِه أنَّه بأخْذه إيَّاه ظالمٌ لِمَن أخَذَه منه[٢]؟

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (٢١)﴾.

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾.

أي: على أيِّ وجهٍ تأخذون من نسائكم ما أعطيتُموهنَّ من مهور؟ والحال أنَّه قد حصلت بينكم عَلاقةُ استمتاعٍ وجماعٍ[٣].

﴿وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾.

أي: وقد أخذ نساؤكم منكم- أيُّها الأزواج- عهدًا شديدًا مؤكَّدًا، وذلك بعقد النكاح، والقيام بحقوقهنَّ، ومن ذلك: إمساكُهنَّ بمعروفٍ، أو تسريحهنَّ بإحسانٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٥٨-١٥٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٦٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٤٠-٥٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٦٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٤٢-٥٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٦٠-١٦١).

﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا (٢٢)﴾.

سببُ النُّزولِ:

عن ابن عباس رضِي اللهُ عنهما قال: ((كان أهل الجاهلية يُحَرِّمون ما يَحْرُم إلَّا امرأةَ الأب، والجمعَ بينَ الأختين، قال: فأنزل الله ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾))(١).

﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾.

أي: لا تَتزوَّجوا- أيُّها المؤمنون- زوجاتِ آبائِكم مِن بَعدِهم، إلَّا ما وقَع منكم من ذلك في جاهليَّتِكم، أو قبل تحريمِه؛ فإنَّه معفوٌّ عنه(٢).

---

(١) رواه ابن جرير في ((تفسيره)) (٨/ ١٣٢)، وابن المنذر في ((تفسيره)) (١٥٢٣).
صحَّح إسنادَه أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٤٧٩)، وقال الوادعي في ((صحيح أسباب النزول)) (٧٥): رجالُه رجال الصحيح إلَّا محمد بن عبد الله المخرميَّ، وهو ثقة.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٤٨-٥٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٦٥-١٦٧، ١٧٠).
قال الرازي: (أجمعوا [أي المفسِّرون] على أنَّ سبب نزول هذه الآية هو أنَّهم كانوا يتزوَّجون بأزواج آبائهم، وأجمع المسلمون على أنَّ سبب نزول الآية لا بدَّ وأن يكون داخلًا تحت الآية، بل اختلفوا في أنَّ غيره هل يدخل تحت الآية أم لا؟ وأما كون سبب النزول داخلًا فيها فذاك مجمعٌ عليه بين الأمَّة، فإذا ثبت بإجماع المفسِّرين، أنَّ سبب نزول هذه الآية هو العقد لا الوطء، وثبت بإجماع المسلمين أنَّ سبب النزول لا بدَّ وأن يكون مرادًا، ثبت بالإجماع أنَّ النَّهي عن العقد مرادٌ من هذه الآية) ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٨).
وقال أبو السعود: (اسمُ الآباءِ ينتظِمُ الأجدادَ مجازًا فتثبُت حرمةُ ما نكحوها نصًّا وإجماعًا) ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٥٩).
ومن حِكمة تحريم نكاح ما نكَح الأباء من النساء ثلاثةُ اعتباراتٍ: الأول: أنَّ امرأة الأبِ في مكانِ الأمِّ. والثاني: ألا يخلفَ الابنُ أباه، فيُصبح في خياله ندًّا له، وكثيرًا ما يكره الزوجُ زوجَ امرأته الأوَّل فِطرةً وطبعًا، فيكره أباه ويمقته! والثالث: ألَّا تكون هناك شبهةُ الإرثِ لزوجةِ الأبِ. الأمر الذي كان سائدًا في الجاهلية، وهو معنًى كريهٌ يهبطُ بإنسانية المرأةِ والرجلِ سواء، =

﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا﴾.

أي: إنَّ تزوُّجَكم بزوجاتِ آبائِكم لَهُوَ فِعلٌ في غايةِ البَشاعة والقُبح، وهو أمرٌ يُبغِضُه اللهُ تعالى، ويُبغضه الناسُ، وقد يُبغض الابنُ أباه بسببه؛ فإنَّ من تزوَّج بامرأةٍ قد يُبغض مَن كان زوجَها قبلَه[1].

﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾.

أي: وبِئْسَ هذا الأمرُ طريقًا لِمَن سلكه[2].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ حثٌّ للأزواج أن يُمسِكوا زوجاتِهم مع الكراهية لهنَّ؛ فإنَّ في ذلك خيرًا كثيرًا؛ من ذلك امتثالُ أمرِ الله، وقَبولُ وصيَّته التي فيها سعادةُ الدنيا والآخرة، ومنها أنَّ إجبارَه نفسَه- مع عدم محبَّته لها- فيه مجاهدةُ النفس، والتخلُّق بالأخلاقِ الجميلة، وربَّما تزول الكراهيةُ وتخلُفُها المحبَّة، كما هو الواقع، وربما رُزِقَ منها ولدًا صالحًا، نفَعَ والديه في الدنيا والآخرة، وهذا كلُّه مع الإمكان في الإمساك، وعَدَمِ وقوع المحذور[3].

٢- أنَّ الإسلامَ الذي ينظُر إلى البيتِ بوصفه سكنًا، وأمنًا، وسلامًا، ويَنظُر

= وهما من نفْسٍ واحدةٍ، ومهانةٌ أحدِهما مهانةٌ للآخرِ بلا مراءٍ، لهذه الاعتباراتِ الظاهرةِ- ولغيرِها ممَّا يكونُ لم يتبيَّن لنا- جعل هذا العمل شنيعًا غاية الشناعة، جعله فاحشة، وجعله مقتًا: أي بُغضًا وكراهية، وجعله سبيلًا سيِّئًا. ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٦٠٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٦٧-١٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٢).

إلى العَلاقةِ بين الزوجينِ بوصفِها مودَّةً ورحمةً وأُنسًا، ويُقيم هذه الآصرةَ على الاختيار المطلَق؛ كي تقومَ على التجاوب والتعاطُف والتحابِّ؛ هو الإسلامُ ذاتُه الذي يقول للأزواج: ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾؛ كي يستأنِيَ بعُقدةِ الزوجيَّة، فلا تُفصمَ لأوَّل خاطر، وكي يستمسكَ بعُقدةِ الزوجيَّة فلا تنفكَّ لأوَّل نزوةٍ، وكي يحفظَ لهذه المؤسَّسة الإنسانيَّة الكبرى جِديَّتها، فلا يَجعلَها عُرضةً لنزوة العاطفة المتقلِّبة، وحماقةِ الميل الطائرِ هنا وهناك(١).

٣- قد تكونُ المصيبةُ للإنسانِ دواءً نافعًا ساقَه إليه الطبيبُ العليمُ بمصلحتِه، الرحيمُ به، وفي عُقبَى هذا الدَّواءِ مِن الشِّفاءِ والعافيةِ والصِّحَّةِ وزوالِ الألَم ما لم يَحصُل بدونِه؛ فإذا طالَعَتْ نفْسُه كراهةَ هذا الدَّواءِ ومَرارتَه؛ فلينظُرْ إلى عاقِبَتِه وحُسْنِ تأثيرِه؛ كما قال اللهُ تعالى: ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾(٢).

٤- لَا يَنْبَغِي أَن يَجْعَل العبدُ المعيارَ على مَا يضُرُّه وينفَعُه، مَيْلَه وحُبَّه ونفرتَه وبُغْضَه، بل المعيار على ذلك ما اختارَه الله له بأَمْرِه وَنَهْيِه، فأنفَعُ الأَشْيَاء له على الإطْلاق طَاعَةُ ربِّه بِظَاهِرِهِ وباطِنِه، وأضَرُّ الْأَشْيَاء عليه على الإطلاقِ مَعْصِيَتُه بظاهِرِهِ وباطِنِه، فَإِذا قَامَ بِطَاعَتِهِ وعبوديَّتِه مخْلِصًا لَهُ؛ فكلُّ ما يجري عليه ممَّا يكرَهُه يكون خيرًا له، وإذا تخلَّى عن طاعَتِه وعبودِيَّتِه، فكلُّ ما هو فيه مَن محبوبٍ هو شَرٌّ له؛ فمن صَحَّتْ له معرفَةُ رَبِّه والفِقْهُ في أسمائِه وصفاتِه، عَلِمَ يقينًا أنَّ المكروهاتِ التي تصيبُه والمحَنُ التي تنزِلُ به؛ فيها ضروبٌ من المصالِح والمنافِعِ التي لا يُحْصيها عِلْمُه ولا فِكْرَتُه، بل مصلحةُ العبد فيما

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٦٠٦).
(٢) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٧٦- ٢٧٧).

يكرَهُ أعظَمُ منها فيما يحِبُّ، فعامَّةُ مصالِحِ النُّفوسِ في مكروهاتها، كما أنَّ عامَّةَ مَضارِّها وأسبابَ هَلَكَتِها في محبوباتِها، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩] فالعبدُ قد يكرَه الْمَرْأَةَ لِوَصْفٍ من أوصافِها، وَله فِي إِمْسَاكِها خيرٌ كثيرٌ لَا يعرِفُهُ(١).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- تحريمُ الحِيَل وبُطلانُها؛ فالمقاصدُ والنيَّاتُ معتبَرةٌ في التصرُّفِ والعاداتِ؛ يدلُّ على ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾؛ فبيَّن تعالى أنَّه إذا عضَلَها لتفتَدِيَ نفسَها منه، وهو ظالِمٌ لها بذلك، لم يحِلَّ له أخْذُ ما بذلَتْه له ولا يَملِكُه بذلك(٢).

٢- قال أهلُ العِلم: (عسى) من الله واجبةٌ، فإذا قال الله: (عسى) فهي واجبة، والأمرُ واجبٌ ويقع، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ [النساء: ٩٩]؛ وذلك لأنَّ الرجاءَ في حقه عزَّ وجلَّ غيرُ واردٍ؛ إذ إنَّه هو المتصرِّف المدبِّر، والرجاءُ إنَّما يكون مِمَّن لا يملِكُ الشيء فيرجوه من غيره، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ وعدًا من الله أنَّ من صَبَرَ ابتغاءَ وجه الله على ما يكرهه، واحتسابًا لثواب الله، بأن يجعَلَ الله فيه خيرًا كثيرًا، فإنَّه يتحقَّق له هذا الوعدُ، فإنْ تخلَّفَ هذا الوعدُ فلوجودِ مانعٍ، وإلَّا فإنَّ وعْدَ الله حقٌّ(٣).

٣- في قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا...﴾ الإرشاد إلى إعماقِ النَّظر وتغلغُلِ الرأي في عواقِبِ الأشياء،

---

(١) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٩١)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ١٩٩).
(٢) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٣٧٧-٣٧٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٥٧).

وعدم الاغترارِ بالبوارقِ الظَّاهرة، ولا بميلِ الشَّهوات إلى ما في الأفعال مِن ملائم، حتى يَسبُرَه بمِسْبَارِ الرأي، فيتحقَّق سلامةَ حُسْنِ الظاهرِ من سُوء خفايا الباطِن[1].

٤- وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا﴾ دَلالةٌ على عدم تحريمِ كثْرَةِ المهرِ، مع أنَّ الأفضلَ واللائق الاقتداءُ بالنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في تخفيفِ المَهْر؛ ووجْهُ الدَّلالة أنَّ الله أخبَرَ عن أمْرٍ يقع منهم، ولم يُنْكِرْه عليهم، فدلَّ على عدم تحريمِه[2].

٥- الإشارةُ إلى سترِ ما بين الزوجين؛ لقوله: ﴿وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾، وهذا الإفضاءُ معروفٌ أنَّه إفضاء سِرِّيٌّ؛ ولهذا فإنَّ الذي يُفشِي السرَّ فيما كان بينه وبين زوجته مِنْ شَرِّ الناسِ منزلةً عند الله يومَ القيامة[3].

٦- في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾، كنَّى الله تعالى عن الجِماعِ بالإفضاءِ، وهو الوصولُ إلى الشَّيءِ من غير واسطةٍ؛ تعليمًا لعباده؛ لأنَّه مِمَّا يُسْتَحْيَا منه[4].

٧- غِلَظُ عقد النِّكاح، وأنَّه عقدٌ يجب أن يُهتمَّ به؛ لقوله: ﴿وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾، ويدلُّ على هذا قولُه تعالى في الطلاق: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ [الطلاق: ١]، أي: اضبطوها بالحِسابِ، فالآيةُ الكريمةُ تُفيد خطرَ عقْدِ النِّكاح وأهميَّتَه، وأنَّه يجب أن يُعتنَى به، ويُحتفَظ به وبشروطِه وكلِّ ما يلزم فيه؛ حتى لا يقعَ الإشكالُ بين الرجل وزوجته، وتحصُلَ أمورٌ لا تُحمَد عُقباها[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢٩١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٦٥).

٨- أنَّ نكاحَ المحارم أشدُّ من الزِّنا؛ لقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾، وفي الزِّنا قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، ولم يَقُل: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾؛ ولهذا ذهب كثيرٌ من العلماء إلى أنَّ من زَنَى بامرأةٍ من محارمِه أو تزوَّجها، فإنَّه يُرجَم ولو كان غير مُحصَنٍ؛ لأنَّ نكاحَ ذواتِ المحارمِ أعظمُ من الزِّنا وأشدُّ[1].

٩- الفاحشةُ تتناولُ الفعلَ القبيحَ، وتتناولُ إظهارَ الفعلِ وأعضاءه، وتتناولُ أيضًا ما فحُش وإن كان بعقدِ نكاحٍ، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ فالفاحِشَةُ تتناوَلُ العقودَ الفاحِشَة، كما تتناوَلُ المباشَرَة بالفاحِشَة؛ فالنهي في الآية يتناول العَقْدَ والوَطْءَ[2].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله: **﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾**: (لا) في قوله: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ لتأكيد النَّفي، يعني: لا يحلُّ لكم أن ترِثوا النِّساءَ ولا أنْ تعضلوهنَّ، أي: ولا تمنعوهنَّ من التَّزويج، أو: ولا أن تُضيِّقوا عليهنَّ[3].

٢- قوله: **﴿لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾**: عبَّر بالذَّهابِ به لا بالأخْذِ ولا بالإذهاب؛ للمبالغةِ في تقبيحِه ببيانِ تضمُّنه لأمرينِ، كلٌّ منهما محظورٌ شنيع، (الأخْذ والإذهاب) منهنَّ؛ لأنَّه عبارةٌ عن الذَّهاب مستصحبًا به[4].

٣- قوله: **﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾**: علَّة للجزاءِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٧١).

(٢) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٨٢).

(٣) ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٩٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٥٨).

أُقيمتْ مقامَه؛ للإيذان بقوَّة استلزامها إيَّاه، كأنَّه قيل: (فإنْ كرهتموهنَّ، فاصبروا عليهنَّ مع الكراهة؛ فلعلَّ لكم فيما تكرهونه خيرًا كثيرًا ليس فيما تحبُّونه)[1].

- وذِكْر الفِعل الأوَّل ﴿تَكْرَهُوا﴾ مع إمكان الاستغناءِ عنه، وانحصار العِلِّيَّة في الثاني ﴿وَيَجْعَلَ...﴾ للتوسُّلِ إلى تعميمِ مفعوله؛ ليُفيدَ أنَّ ترتيبَ الخيرِ الكثيرِ مِن الله تعالى ليس مَخصوصًا بمكروهٍ دونَ مكروه، بل هو سُنَّة إلهيَّة جاريَةٌ على الإطلاقِ حَسَبَ اقتضاء الحِكمة، وفيه من المبالغةِ في الحَمْلِ على ترْك المفارقةِ، وتعميمِ الإرشادِ ما لا يَخفَى[2].

- وتنكير ﴿خَيْرًا﴾ وتنوينه؛ لتفخيمِه الذاتي، ووصْفُهُ بالكثرةِ بقوله: ﴿كَثِيرًا﴾؛ لبيان فخامتِه الوصفيَّة[3].

٤- **قوله: ﴿أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾**: استئنافٌ مَسُوق لتقريرِ النهيِ، والتنفيرِ عن المنهيِّ[4]، والاستفهامُ إنكارٌ وتوبيخ، أي: تأخذونه باهِتِين وآثِمِين[5].

٥- **قوله: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ﴾**: استفهامُ إنكارٍ لأخْذِه إثْرَ الإنكارِ الوارد في قوله تعالى: ﴿أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا﴾، وتنفيرٌ عنه بعد تنفيرٍ، على سبيلِ التعجُّب، أي: بأيِّ وجهٍ تَسْتَحِلُّون المهر، وَقَدْ أَفْضى بَعْضُكُمْ إِلى بَعْضٍ[6]؟!

- وفيه مبالغةٌ؛ حيثُ وجَّه الإنكارَ إلى كيفيَّة الأخْذِ؛ إيذانًا بأنَّه ممَّا لا سبيلَ له إلى التحقُّق والوقوعِ أصلًا؛ لأنَّ ما يَدخُلُ تحتَ الوجود لا بدَّ أن يكونَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٥٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٦٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٥٩)، ((تفسير القاسمي)) (٣/ ٥٧).

على حالٍ من الأحوال، فإذا لم يكُنْ لشيءٍ حالٌ أصلًا، لم يكُنْ له حظٌّ من الوجودِ قطعًا[١].

٦- قوله: ﴿وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾: في قوله: ﴿أَفْضَى﴾ كنايةٌ حسنة[٢]؛ لأنَّ الإفضاءَ إلى الشيءِ عبارةٌ عن المباشَرة له، وعُني بالإفضاءِ في هذا الموضِع الجماعُ[٣].

٧- قوله: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾: خُصَّ هذا النِّكاحُ بالنَّهي، ولم يُنْظَمْ في سلكِ نكاحِ المحرَّماتِ الآتيةِ بَعدَه؛ مُبالغةً في الزَّجرِ عنه؛ حيثُ كانوا مُصِرِّين على تعاطِيه مع الاستِهانةِ بذلك، فأفْرَدَه وقدَّمَه؛ تَعظيمًا لحُرمةِ أزواجِ الآباءِ[٤].

٨- قوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا﴾: تعليلٌ للنهي، وبيانٌ لكون المنهيِّ عنه في غاية القُبح مبغوضًا أشدَّ البُغضِ، وأنَّه لم يَزَلْ في حُكمِ الله تعالى وعِلمه موصوفًا بذلك، ما رُخِّص فيه لأُمَّةٍ من الأمم؛ فلا يُلائِم أن يُوسَّط بينهما ما يُهَوِّن أمْرَه مِن ترْك المؤاخذةِ على ما سَلَف منه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٥٩).

(٢) وحمله على الكِناية أبلغُ وأقربُ في هذا المقام؛ لوجوه؛ منها: أنه تعالى ذكر ذلك في معرض التعجب، فقال: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾، والتعجب إنما يتمُّ إذا كان هذا الإفضاء سببًا قويًّا في حصول الألفة والمحبَّة، وهو الجماع، لا مجرد الخلوة؛ فوجب حملُ الإفضاء عليه. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٥)، ((تفسير القاسمي)) (٣/ ٥٩).

(٣) ((تفسير القاسمي)) (٣/ ٥٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٥٩)، وينظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٢٢٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٦٠).

الآية (٢٣)

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٢٣) ﴾.

غَريبُ الكَلمات:

﴿وَرَبَائِبُكُمُ﴾: أي: بناتُ نِسائِكم من غيرِكم، والرَّبائب جمْع: رَبيبةٍ، وهي مأخوذةٌ من التربية، وهو إنشاءُ الشيءِ حالًا فحالًا إلى حدِّ التَّمام[١].

﴿فِي حُجُورِكُمْ﴾: أي: فِي ضَمانِكم وتَربيتكم، والحُجور جمْع حِجر، وحِجْرُ القميص: اسمٌ لِمَا يُجعل فيه الشيءُ فيُمنَع؛ يُقال: فلان في حَجْرِ فلان، أي: في منعٍ منه عن التصرُّف في ماله، وكثيرٍ من أحواله، وأصل الحَجْر: المنعُ، والإحاطة على الشَّيءِ[٢].

﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ﴾: أي: أزواجِ البنين، جمْع حَليلة؛ وسُمِّيت الزوجةُ حليلةً، والزَّوجُ حليلًا؛ لنُزولِهما معًا؛ فتَحُلُّ معه ويَحُلُّ معها، أو لحَلِّ كلٍّ واحدٍ

(١) ينظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٣٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٥).

(٢) ينظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٣٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢١).

منهما إزارَه للآخَر، وإمَّا لكونِها حَلالًا له، وأصل (حلَّ): فتْحُ الشَّيء[1].

﴿أَصْلَابِكُمْ﴾: أي: ظُهورِكم، جمْع صُلب؛ وسُمِّي الظَّهرُ صلبًا باعتبارِ الصَّلابة والشدَّة، وأصل (صلب): الشِّدَّة والقوَّة، وكلُّ شيءٍ من الظَّهر فيه فَقَارٌ، فهو صلبٌ[2].

المَعنَى الإجمالي:

يُخبرُ تعالى أنَّه حرَّم على المؤمنين التزوُّجَ بأمَّهاتِهم، وبناتِهم، وأخواتِهم، وعمَّاتِهم، وخالاتِهم، وبناتِ إخوانهم، وبناتِ أَخواتِهم، كما أنَّه حرَّمَ عليهم الزَّواجَ من أمَّهاتهم اللاتي قُمْنَ بإرضاعهم، وأخواتهم من الرَّضاعة، كما حرَّمَ أيضًا التزوُّجَ بأمِّ الزوجة مُطْلَقًا، سواء حصَل الدخولُ بالبنتِ أمْ لم يَحصُل، وحَرَّم كذلك الزواجَ ببنات الزوجات إذا تزوَّجوا أُمَّهاتِهن، وبَنَوْا بهنَّ، فإذا لم يكونوا بَنَوْا بأمهاتهنَّ فيجوزُ نكاحُ بِنتِ الزوجةِ بعدَ فِراق أمِّها، وحرَّم نِكاحَ زوجات الأبناء الذين ولدوهم، سواءٌ دخل الابنُ بزوجته أم لم يدخُلْ، كما أنَّه حرَّمَ الجمْعَ بين الأختين إلَّا ما وقَع في الجاهليَّة، أو حصَل قبلَ تحريمه، فإنَّه لا إثمَ عليهم فيه؛ إنَّ الله كان غفورًا رحيمًا.

تَفسيرُ الآية:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ

(١) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص:١٢٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٧).

(٢) ينظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٤).

فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٢٣)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر الله تعالى تحريمَ نِكاحِ ما نَكَحَ الآباءُ في الآيةِ السَّابقةِ تخلَّص إلى ذِكرِ باقي المحرَّمات في النِّكاح[1].

وأيضًا لَمَّا ابتدأ بتعظيمِ الآباءِ واحترامِهم في أنْ يَنكِحَ الأبناءُ أزواجَهم على العمومِ، ثنَّى بخصوص الأمِّ بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾[2]

سببُ النُّزولِ:

عن ابنِ عبَّاسٍ رضِي اللهُ عنهما، قال: ((كان أهلُ الجاهليَّةِ يُحَرِّمون ما يَحْرُم إلَّا امرأةَ الأبِ والجمعَ بين الأختين، قال: فأنزل اللهُ: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾))[3].

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ﴾.

أي: حرَّم اللهُ عزَّ وجلَّ عليكم- أيُّها المؤمنون- التزوُّجَ بأمهاتِكم، وبناتِكم، وأخواتِكم، وعمَّاتِكم، وخالاتِكم، وبناتِ إخوانِكم، وبناتِ أخواتكم؛ فهؤلاء محرَّماتٌ على الرجُلِ من جِهة النَّسب[4].

﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي(٥/ ٢٢٨).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٥٣- ٥٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٧٢-١٧٤).

أي: وحرَّم اللهُ تعالى أيضًا عليكم أيضًا- معشرَ الرِّجال- نِكاح أمَّهاتِكم، وأخواتِكم من جِهةِ الرَّضاعة[١].

عن عبدِ اللهِ بن عَبَّاسٍ رضِي اللهُ عنهما، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قالَ في بنتِ حمزةَ: ((لا تَحِلُّ لِي، يَحْرُمُ من الرَّضَاعِ ما يَحْرُمُ من النَّسَبِ، هيَ بِنتُ أخِي من الرَّضَاعَةِ))[٢].

وعن عائشةَ رضِي اللهُ عنها، أنَّ عمَّها من الرَّضاعةِ، يُسمَّى أفلحَ، استأذنَ عليها فحَجَبَتْهُ، فأخبرتْ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال لها: ((لا تَحْتَجِبي منهُ؛ فإنَّهُ يَحْرُمُ من الرَّضاعةِ ما يَحْرُمُ من النَّسَب))[٣].

﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾.

أي: وحرَّم عليكم أيضًا نكاحَ أمِّ الزوجة مطلقًا، سواءٌ دخَلْتم بابنتِها أو لم تَدْخلوا[٤].

﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾.

أي: وحرَّمَ عليكم أيضًا نِكاح بناتِ زوجاتِكم اللاتي جامعتموهنَّ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٧٤-١٧٥).

قال ابنُ جرير: (فكلُّ هؤلاء اللواتي سمَّاهنَّ الله تعالى، وبيَّن تحريمهنَّ في هذه الآية، محرَّماتٌ، غير جائزٍ نِكاحُهنَّ لمن حرَّم الله ذلك عليه من الرجال، بإجماع جميع الأمَّة، لا اختلاف بينهم في ذلك، إلَّا في أمهات نِسائنا اللواتي لم يَدخُلْ بهن أزواجُهن) ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٥٥).

(٢) رواه البخاري (٢٦٤٥) واللفظ له، ومسلم (١٤٤٧).

(٣) رواه مسلم (١٤٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٥٥-٥٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٩٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٥٨-٥٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٧٥-١٧٧).

عن أمِّ حبيبةَ- رملةَ بنتِ أبي سُفيانَ- رضِي اللهُ عنهما، قالت: ((دخَلَ عليَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقلتُ لهُ: هل لك في أُختي بنتِ أبي سفيانَ؟ فقال: أفعلُ ماذا؟ قلتُ: تنكِحُها، قال: أوَ تُحِبِّينَ ذلك؟ قلتُ: لستُ لك بِمُخْلِيةٍ[1]، وأَحَبُّ مَن شَرِكَني في الخيرِ أُختي، قال: فإنَّها لا تحلُّ لي! قلتُ: فإنِّي أُخْبِرْتُ أنَّك تخطبُ دُرَّةَ بنتَ أبي سلمةَ، قال: بنتَ أمِّ سلمةَ؟ قلتُ: نعمْ، قال: لو أنَّها لم تكُنْ رَبيبتي في حِجري، ما حلَّتْ لي؛ إنَّها ابنةُ أخي مِن الرَّضاعةِ، أَرضعَتْني وأباها ثُويبةُ، فلا تَعرِضْنَ عليَّ بناتِكُنَّ ولا أخواتِكنَّ))[2].

﴿فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾.

أي: فإنْ لم تكونوا دخلتُم بزوجاتِكم؛ فلم تُجامِعوهنَّ حتى طلَّقتموهنَّ، فلا حرجَ عليكم في نِكاح بناتِهنَّ[3].

﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾.

أي: وحرَّم عليكم أيضًا نِكاحَ زوجات أبنائِكم، سواءٌ دخلوا بهنَّ أو لم يَدخُلوا، والمرادُ بأبنائكم: الذين ولدتموهم، دونَ أبنائِكم من جِهة الرَّضاعة، ودونَ الأدعياءِ الذين تبنَّيتموهم في الجاهليَّة[4].

---

(١) ولَسْتُ لك بمُخْلِيَةٍ: أي: لستُ بمنفردةٍ بك، ولا خالية مِن ضرَّةٍ، وليس مِن قولهم: امرأةٌ مُخلية، إذا خَلَتْ من الزوج. ينظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٠/ ٢٥)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٧٤).

(٢) رواه البخاري (٥١٠١، ٥٣٧٢)، ومسلم (١٤٤٩) واللفظ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٦٠-٥٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٧٧-١٧٩).

قال الجصاص: (قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ قد تناول عندَ الجميع تحريمَ حليلةِ ولدِ الولدِ على الجدِّ، وهذا يدلُّ على أنَّ ولد الولد يُطلَق عليه أنَّه من صُلْب الجدِّ؛ لأنَّ إطلاقَ الآيةِ قد اقتضاه عند الجميعِ) ((أحكام القرآن)) (٢/ ١٦٣).

﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾.

أي: وحرَّم عليكم أيضًا الجمْعَ بين الأختين بنكاحٍ، إلَّا ما وقَعَ منكم في جاهليَّتكم، أو قبل تحريمه، فإنَّه لا إثمَ عليكم فيه[1].

وفي حديث أمِّ حَبيبةَ رضِي اللهُ عنهما، عندما عرضت على النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم الزواجَ من أختِها، فقال صلى الله عليه وسلم: ((فإنَّها لا تحلُّ لي!)). ثم قال: ((فلا تَعْرِضْنَ عليَّ بناتِكُنَّ ولا أخواتِكنَّ))[2].

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

أي: إنَّ الله تعالى غفورٌ، يَستُرُ ذنوبَ عِبادِه، ويَتجاوزُ عنها، ومِن ذلك: عدمُ مؤاخذتِهم على ما وقَع منهم؛ مِن الزواجِ بِمَن حرَّمهنَّ الله تعالى قبلَ نزولِ التحريمِ، وهو الرحيمُ بهم، ومن رحمتِه مغفرتُه لذنوبِهم[3].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ...﴾ الآية، يتناوَلُ ما يَسَمَّى بنتًا حتى يَحْرُم عليه بنت بِنْتِه وبِنْتُ ابنِه؛ بخلاف قولِه سبحانه في الفرائِضِ: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ فإنَّ هذا إنما يتناوَلُ وَلَدَه ووَلَدَ ابنِه، لا يتناوَلُ ولَدَ بِنْتِه؛ ولهذا لَمَّا كان لفْظُ الابْنِ والبِنْت يتناول ما يُسَمَّى بذلك مُطْلَقًا؛ قال

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٧٩-١٨٠).

قال ابنُ كثير: (قد أجْمَع العلماءُ من الصَّحابة والتابعين والأئمَّة قديمًا وحديثًا على أنه يحرُم الجمعُ بينَ الأُختين في النِّكاح، ومَن أسلمَ وتحته أُختان خُيِّرَ؛ فيُمسك إحداهما، ويُطلِّق الأخرى لا محالةَ) ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٥٣).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٣٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٨٠-١٨١).

الله تعالى: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ ليُحْرِزَ عن الابنِ المُتَبَنَّى -كزيد- الذي كان يُدْعَى: زيدَ بْنَ مُحمَّد؛ فإنَّ هذا كانوا يسمُّونه «ابنًا» فلو أُطْلِقَ اللَّفْظُ لظُنَّ أنَّه داخِلٌ فيه؛ فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ ليُخْرِجَ ذلك(١).

٢- قولُ الله تعالى: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ﴾ يدلُّ على أنَّ لَفْظَ (أُمَّهات) عندَ الإطلاقِ إنَّما يُرادُ به الأمُّ مِن النَّسَبِ(٢)، فلا يَدخُل فيها الأمُّ مِن الرَّضاعة، ووجهُ ذلك: أنَّه لو كانتِ الأمُّ من الرَّضاع تَدخُل في الأمِّ عندَ الإطلاق، لَمَا احْتِيجَ إلى قوله: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ﴾؛ لأنَّها تدخُل في قولِه: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾، ويتفرَّع عن هذه الفائدةِ: أنَّ أمَّ الزوجةِ من الرَّضاعِ لا تَدخُل في قولِه: ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾؛ لأنَّه عندَ الإطلاقِ لا تدخُلُ فيها الأمُّ من الرَّضاع(٣).

٣- أنَّ لبنَ الفحل مُحَرِّمٌ؛ أي: إنَّ الأختَ من الأبِ من الرَّضاعة حرامٌ؛ لعمومِ قوله سبحانه: ﴿وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ﴾، وهذا- والله أعلم- من فائدةِ ذِكرِ الأخواتِ دون البناتِ من الرَّضاعة؛ فإنَّ البناتِ مِن الرضاعة لم يُذْكَرْن، وكذلك العمَّات لم يُذْكَرْن؛ لأنَّ الأخوات تُغنِي عن العمَّات؛ لأنَّهنَّ حَواشٍ، وهنَّ أقربُ الحواشي إلى الإنسان؛ فيُستفَاد من هذه الآية أنَّ الأخواتِ من الأب، أو الأخواتِ من الأمِّ، أو الأخواتِ من أمٍّ وأب من الرَّضاع؛ كلُّهُن حرامٌ(٤).

٤- أنَّ أمَّ الزوجة حرامٌ بدون شرْط؛ لقوله: ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾، فبمجرَّد العقدِ على المرأةِ عقدًا صحيحًا تَحْرُم أمُّها، وكذلك جدَّاتها وإنْ عَلَوْنَ(٥).

(١) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٢/ ١٤٠).
(٢) ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٥٠٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٨٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٩٣).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٥- جمهورُ الأئمَّة على أنَّ الرَّبيبةَ حرامٌ سواء كانت في حِجْرِ الرَّجُل أو لم تكُن في حِجره، قالوا: وهذا الخطابُ خرَج مخرجَ الغالب؛ فلا مفهومَ له(١)، وفائدة التقييد في قوله: ﴿اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾ التنبيهُ على الحِكمة في تحريمِ الرَّبيبة، وأنَّها كانت بمنزلةِ البنت، فَمِنَ المستقبَح إباحتُها، والدلالة على جوازِ الخَلوة بالربيبة وأنَّها بمنزلةِ مَن هي في حجرِه من بناته ونحوهنَّ(٢).

٦- تحريمُ حلائل الأبناء من زوجاتٍ أو مملوكاتٍ؛ لقوله: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ﴾، لكنَّ المملوكة لا تكون حليلةً إلَّا بالوطء؛ ولذلك فلو أنَّ شخصًا اشترى أَمَةً ولم يَطأْها، ثمَّ ملَكها أبوه، فإنَّها تحلُّ لأبيه، لكنْ لو عقَدَ على امرأةٍ ولم يطأْها، ثم طلَّقها، فلا تحلُّ لأبيه؛ لأنَّ المملوكةَ لا تكون حليلةً إلَّا بالوطء، وأمَّا الزوجة فتكون حليلةً بمجرَّد العقد الصحيح(٣).

٧- أنَّ حليلةَ ابنِ الرَّضَاع لا تَحْرُم؛ لقوله: ﴿الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾(٤).

بَلاغَةُ الآية:

١- قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ...﴾ الآية: فيها من البلاغة: حُسْن النَّسَق(٥) في ترتيب الجُمل، وعطْف بعضها على بعضٍ كما يَنبغي؛ حيث

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (١/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٩٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) حُسن النَّسق: هو مِن محاسن الكلام، وهو إتيانُ الكلماتِ مِن النَّثر والأبيات مِن الشِّعر متتالياتٍ، متلاحماتٍ تلاحمًا سليمًا مُستحسَنًا، لا مَعيبًا مُستهجنًا، والمستحسَنُ من ذلك أن يكونَ كلُّ بيت إذا أُفرد قام بنفسِه، واستقلَّ معناه بلفظِه، وإنْ رَدِفه مجاورُه صار بمنزلةِ البيت الواحد، بحيث يَعتقدُ السَّامع أنهما إذا انفصلَا تجزَّأ حُسنُهما، ونقَص كمالهما، وتَقسَّم معناهما، وهما ليسَا كذلك، بل حالهما في كمال الحُسن وتمام المعنى مع الانفرادِ والافتراق كحالهما مع الالتئام والاجتماع. ينظر: ((تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر)) لابن أبي الأصبع، (١/ ٨٩)- ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٩٢).

قدَّم تَحريمَ الأمهات، وعَطَفَ عليه باقيَ الآية[١].

٢- قوله: ﴿مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾: فيه كنايةٌ في قوله: ﴿دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾؛ إذ هي كنايةٌ عن الجماع، أو الخَلوة[٢].

٣- قوله سبحانه: ﴿اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾، وقوله: ﴿الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾: فيهما احتراسٌ؛ حيث احترَزَ في الأوَّل من اللَّاتي لم يُدْخَل بهنَّ[٣]، واحترز في الثَّاني عن المتبَنَّيْنَ، لا عن أبناءِ الولدِ[٤].

٤- قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾: تعليلٌ لِمَا أفاده الاستثناءُ في قوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾، فيتحتَّمُ أنْ يكونَ الاستثناءُ منقطعًا، أي: لكنْ ما قد مضَى لا تُؤاخَذُون به[٥]، مع ما فيه مِن تأكيدِ الخَبَر بـ(إنَّ) واسميَّةِ الجملةِ.

---

(١) ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٦٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٩٢).

(٣) ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٦٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٦٢).

الآيتان (٢٤ - ٢٥)

﴿ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿وَالمُحْصَنَاتُ﴾: هنَّ ذواتُ الأزواجِ، والمحصَنات أيضًا: الحرائرُ، وإن لم يكُنَّ مزوَّجاتٍ، والعفائف، وأصلُ (حصن): الحِفظ، والحِياطة، والحِرز[1].

﴿غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾: أي: غيرَ زُناة، أو غيرَ مجاهرين بالزِّنا، والسِّفاحُ: الزِّنا، وأصلُه مِن سَفَحْتُ القِربةَ: إذا صببْتَها؛ فسُمِّي الزِّنا سِفاحًا؛ لأنَّ الرَّجل يصُبُّ النُّطفةَ، وتصُبُّ المرأةُ النُّطفة، والمسافِحُ: الَّذي يصبُّ ماءَه حيث اتَّفق، وأصْل سفَح: يدلُّ على إراقةِ شيءٍ[2].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٣، ١٢٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٧).

﴿طَوْلًا﴾: أي: فضلًا وسَعةً، وأصل (طول) يدلُّ على فضلٍ، وامتدادٍ في الشَّيء(١).

﴿أَخْدَانٍ﴾: أي: زوانٍ سرًّا، أو أصدقاء، أو أخلَّاء في السِّرِّ، جمْعُ خِدن، أي: مصاحب، وأكثرُ استعمالِه فيمَن يُصاحبُ بشهوة؛ يُقال: خِدْن المرأة وخَدِينها، ويُطلق كذلك على الحبيبِ والرَّفيق، وأصل (خدن): المصاحَبة(٢).

﴿الْعَنَتَ﴾: الفجور؛ يُقال: عَنَتَ فلان يَعْنَتُ عَنَتًا: إذا وقَع في أمرٍ يَخاف منه التَّلفَ، ويُطلَق العَنَت على: الضَّرَر والفساد، وأصْل (عنت): يَدُلُّ على مَشَقَّةٍ وما أَشْبَه ذلك(٣).

مُشكِلُ الإعراب:

١- قَوْله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾

﴿كِتابَ﴾: منصوبٌ على أنَّه مصدرٌ مؤكِّد لمضمون الجُملة المتقدِّمة قبلَه، وهي قوله: ﴿حُرِّمَتْ﴾، ونصبُه بفعل مُقدَّر، أي: كتَب الله ذلك عليكم كتابًا، وقيل: تَقديرُه: الْزموا كتابَ الله. ويكون قولُه: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ اسمَ فِعل للإغراءِ، حُذِف مفعولُه؛ للدَّلالة عليه، أي: (عليكم ذلك)؛ فيكون أكثرَ تأكيدًا.

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٣٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٥، ٤٣٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٨٩).

وقيل: إنَّ ﴿كِتَابَ﴾ منصوبٌ على الإغراء بـ﴿عَلَيْكُمْ﴾، والتقدير: عليكم كِتابَ الله، أي: الْزموه، كقوله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وقيل غير ذلك(١).

﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ﴾: ﴿أَنْ تَبْتَغُوا﴾ مصدر مؤوَّلٌ وهو بدلُ اشتمال مِن ﴿مَا﴾؛ فيكون في مَحلِّ رفْعٍ على قِراءة ﴿أُحِلَّ﴾ بالبناء للمَفعول؛ لأنَّ ﴿مَا﴾ حينئذٍ في موضِعِ رفعٍ نائب الفاعِل، والتقدير: أُحِلَّ لكم ابتغاؤُهنَّ بأموالِكم. وعلى قِراءة (أَحَلَّ) بالبناء للفاعِل يكون ﴿أَنْ تَبْتَغُوا﴾ في مَحلِّ نصبٍ؛ لأنَّ ﴿مَا﴾ حينئذٍ في موضِع نصْب مفعول به، والتقدير: أَحَلَّ لكم ابتغاءَهنَّ بأموالِكم. وقيل غير ذلك(٢).

﴿فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾.

﴿فَرِيضَةً﴾: منصوبةٌ على أنَّها حالٌ من ﴿أُجُورَهُنَّ﴾، أي: مفروضةً، أو على أنَّها مصدر مُؤكِّد، أي: فرَض اللهُ ذلِك فريضةً، أو مَنصوبةٌ على أنَّها مصدرٌ غير الصَّدر، أي: مصدرٌ مِن مَعنى الفِعْلِ الأوَّلِ ﴿فَآتُوهُنَّ﴾ وليس مَصدرًا من لَفظِه؛ لأنَّه في معناه؛ إذ الإيتاءُ مَفروضٌ، فكأنَّه قيل: فآتوهنَّ أُجورَهنَّ إيتاءً مفروضًا(٣).

٢- قولُه: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٩٤)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٤٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٦٤٨-٦٤٩).

(٢) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٤٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٦٥٠- ٦٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٨).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٩٥)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٤٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٦٥٣).

مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ﴾.

﴿طَوْلًا﴾: مفعولٌ به لـ﴿يَسْتَطِعْ﴾.

﴿أَنْ يَنْكِحَ﴾: مصدَرٌ مؤوَّلٌ، أي: نِكاح، وفي مَوْضِعِه الإعرابيِّ ثلاثةُ أوجُه؛ أحدُها: أنَّه في محلِّ نصبٍ، مفعولٌ به لـلمصدرِ المنوَّنِ ﴿طَوْلًا﴾، والتقديرُ: ومَن لم يَستَطِعْ أنْ ينالَ نِكاحَ المحصناتِ...إلخ. والثاني: أنَّه بدلُ كُلٍّ من كلٍّ مِن ﴿طَوْلًا﴾؛ لأنَّ الطَّوْلَ هو القدرةُ أو الفَضْلُ، والنكاحُ قُدرةٌ وفَضْلٌ. الثالث: أنَّه في محلِّ نصبٍ أو جرٍّ على حَذْفِ حَرفِ الجرِّ (إلى) أو (اللام)، والتقديرُ: طَوْلًا إلى أنْ ينكحَ، أو: طولًا لأنْ يَنكِحَ. وقيل غير ذلك[1].

﴿فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾: الفاءُ رابطَةٌ في جوابِ (مَن) الشَّرطيَّة في قوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ﴾، و﴿مِنْ﴾ تَبعيضيَّةٌ، و﴿مَا﴾ موصولةٌ، والجارُّ والمجرورُ (مِن ما) مُتعلِّقٌ بفِعلٍ مقدَّرٍ حُذفَ مفعولُه، والتقديرُ: فلْيَنكِحِ امرأةً أو أَمَةً مِنَ النَّوْعِ الذي مَلَكَتْه أيمانُكم، وهو في الحقيقةِ مُتَعَلِّقٌ بمحذوفٍ وَقَعَ صفةً لذلك المفعولِ المحذوفِ؛ أي: فلْيَنكِحِ امرأةً كائنةً مِن ذلك النَّوعِ، والجملةُ كلُّها في مَحلِّ جزمٍ، جوابُ الشَّرْطِ. وقيل غيرُ ذلك[2].

﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ جملةٌ مِن مبتدأٍ وخبرٍ، وهي مُستأنَفةٌ لا محلَّ لها مِن الإعرابِ[3].

---

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٤٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٦٥٣-٦٥٥).

(٢) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٤٨-٣٤٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٦٥٥-٦٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٥٤١، ٦٥٦).

﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ﴾:

﴿ذَٰلِكَ﴾: مُبْتَدأ، وَمَا بعدَه ﴿لِمَن...﴾ جارٌّ ومجرور في محلِّ رفْع خَبر (ذلك)، أي: الرُّخصَة في نِكاحِ الإماءِ لِمَن خشِي العَنَت، أي: جائزٌ للخائِف مِنَ الزِّنا. و﴿مِنكم﴾: جارٌّ ومجرورٌ في محلِّ نصْب، حالٌ من الضَّمير في (خشي)، أي: في حالِ كونِه مِنكم[1].

المَعْنى الإجماليُّ:

يُخبِر تعالى أنَّه ممَّا يحرُمُ على الرِّجال نِكاحُهنَّ من النِّساء: المتزوِّجاتُ منهنَّ في حالة بقائهنَّ في ذمَّةِ أزواجهنَّ، إلَّا ما ملكوهنَّ بالسَّبيِ في قتال الكفَّار، فإنَّه يحِلُّ لهم وطؤُهنَّ، حتَّى وإن كنَّ متزوِّجاتٍ، لكن بعد استبرائِهنَّ، ثمَّ يخبِرُ تعالى أنَّ ما سبق تحريمُه في هذه الآيات هو فرضٌ فرَضَه فلْيلزموه، مبيِّنًا تعالى أنَّه أحلَّ لهم نكاحَ ما عدا المذكوراتِ في الآياتِ إذا طلَبوهنَّ بأموالهم؛ إمَّا بالزَّواجِ بمهرٍ معلومٍ، قاصدين العفافَ لهم ولأزواجِهم، وإمَّا بشراء السَّراريِّ، غيرَ مُريدينَ الوقوعَ في الزِّنا، فمن نكَحوهنَّ فجامَعوهنَّ فليُعطوهنَّ مهورَهنَّ مقابلَ ذلك الاستمتاعِ؛ وذلك فرضٌ فرَضه اللهُ تعالى، لا حرجَ على كلا الزَّوجينِ فيما تراضيَا به بعد فرضِ المهرِ؛ من الزِّيادةِ عليه، أو النُّقصانِ، أو الإعفاءِ منه، أو التَّأخيرِ له؛ إنَّ اللهَ كان عليمًا حكيمًا.

ومَن لم يكُنْ بمقدوره زواجُ الحرائرِ المؤمناتِ، فليتزوَّجْ من الإماءِ المؤمناتِ المملوكاتِ للمؤمنينَ، واللهُ تعالى يعلَمُ حقيقةَ إيمانِ مَن آمن منكم، جميعُكم من ذرِّيَّةِ آدمَ، وكلُّكم سواسِيَةٌ في البشريَّة، فلا تأنَفوا مِن تزوُّجِ الإماء عند الضَّرورةِ، فتَزوَّجوهنَّ برضا مَن يملِكونهنَّ، وأعطوهنَّ مهورَهنَّ بما شرَعه

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٩٥)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٥٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٦٥٨-٦٥٩).

اللهُ دون بخسٍ منه، أو مماطلةٍ في دَفْعِه، على أن يكُنَّ عفيفاتٍ عن الزِّنا، غيرَ واقعاتٍ فيه علانيةً؛ لا يمتنِعْنَ ممن أراد منهنَّ الفاحشةَ، كذلك غيرَ زوانٍ في السِّرِّ والخفيةِ باتِّخاذِهن أصدقاءَ وأخلَّاءَ يَزْنُونَ بهنَّ في الخفاء، فإذا أُحصِنَ الإماءُ بالزَّواج، ثمَّ وقَعْنَ في الزِّنا، فيجب عليهنَّ مِن الحدِّ نصفُ ما على الحرائرِ اللَّاتي يزنينَ قبل الإحصان بالزَّواج، فيُجلَدْنَ خمسينَ جلدة، وتلك الرُّخصةُ بنكاحِ الإماءِ المؤمناتِ عند عدمِ القدرةِ على مهورِ الحرائرِ إنَّما هي لمن شقَّ عليه الصَّبرُ عن الجِماعِ، وخاف الوقوعَ في الزِّنا، ثمَّ يُرشِد اللهُ تعالى إلى أنَّ الصَّبرَ خيرٌ لهم من نكاحِ الإماء، واللهُ غفورٌ رحيم.

تفسيرُ الآيتين:

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٢٤)﴾.

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾.

سَببُ النُّزول:

عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رضِي اللهُ عنه: ((أنَّ رسولَ اللهُ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّمَ يومَ حُنَينٍ بعَثَ جيشًا إلى أوطاس، فلَقُوا عدوًّا، فقاتَلوهم، فظهَروا عليهم، وأصابوا لهم سبايا، فكأنَّ ناسًا من أصحابِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّمَ تحرَّجوا من غِشيانِهنَّ من أجلِ أزواجِهنَّ من المشركينَ، فأنزَل اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾، أي: فهنَّ لكم حلالٌ إذا انقضَتْ عدَّتُهنَّ))[1].

---

(١) رواه مسلم (١٤٥٦).

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾.

أي: وحُرِّمَ عليكم أيضًا- معشرَ الرِّجال- نكاحُ ذواتِ الأزواجِ، أي: ما دُمْنَ في ذمَّةِ أزواجِهنَّ(١).

﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾.

أي: ما عدا مَن ملكتموهنَّ بالسَّبيِ في قتال الكفَّارِ، فإذا سبَيْتم الكافرةَ ذاتَ الزَّوجِ، حلَّ لكم وَطْؤُها، لكن بعد أنْ تُستَبْرأَ(٢)، وعلى ألاَّ تكونَ مِن النِّساء المحرَّماتِ السَّابقِ ذِكرُهنَّ(٣).

﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾.

أي: هذا التَّحريمُ فَرضٌ قد فرَضه اللهُ تعالى عليكم، فالزَموه، ولا تَخرُجوا عن حدودِه(٤).

﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ﴾.

أي: أباح اللهُ تعالى لكم- أيُّها الرِّجال- نكاحَ ما عدا مَن حرَّمهنَّ عليكم من النِّساء، سواءٌ كان بعقدٍ أو مِلكِ يمينٍ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٩٧- ١٩٨).

(٢) الاستبراء: طلبُ براءة رَحِم المرأةِ من الحَمْل، وتبيُّن هل هي حاملٌ أو لا. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ١١١)، ((المصباح المنير)) للفيومي (ص: ٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٩٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٩٩-٢٠٢). =

﴿أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾

أي: حلالٌ عليكم- أيُّها الرِّجالُ- أن تطلُبوا بأموالِكم نكاحَ مَن سِوى المحرَّماتِ من النِّساء- إمَّا نكاحًا بصداقٍ معلومٍ، أو تسرِّيًا بشراءِ السَّراريِّ- والحال أنَّكم تريدون إعفافَ أنفسِكم وزوجاتِكم عن الحرامِ، غيرَ قاصدينَ الوقوعَ في الزِّنا(١).

﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾

أي: فمَن نكحتموهنَّ نكاحًا شرعيًّا دائمًا، فاستمتعتم بجِماعهنَّ، فآتوهنَّ مهورهنَّ في مقابلِ تلك المتعةِ، وذلك فرضٌ فرَضه اللهُ تعالى عليكم(٢).

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾

أي: ولا حرَجَ عليكم- أيُّها الأزواجُ والزَّوجاتُ- فيما تراضَيْتم به، من زيادةٍ على المهر، أو نقصٍ، أو إعفاءٍ منه، أو تأخيرٍ له، من بعدِ فرضِ الصَّداقِ(٣).

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى ذو علمٍ بكلِّ شيءٍ، ومِن ذلك علمُه بما يُصلِحُكم- أيُّها

= قال ابن عثيمين: (هنا أربعُ مُحرَّمات: العَمَّة من الرَّضاع، والخالة مِن الرَّضاع، والجمْعُ بين المرأة وعمَّتها، والجمْعُ بين المرأة وخالتها، وكل ذلك ممَّا جاءت به السُّنة، فيكون مُخصِّصًا لعموم قوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ﴾) ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٠٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٨٣-٥٨٤)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٠٢-٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٨٤، ٥٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٤). وذكَر السعديُّ معنًى آخَرَ لـ﴿فَرِيضَةً﴾، وهو: مُقدَّرة قد قدَّرتموها؛ فوجبتْ عليكم.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٠٤).

النَّاس- في مَناكِحِكم، وهو سبحانه الَّذي يضعُ كلَّ شيءٍ في موضعِه اللَّائقِ به، بلا خلَلٍ ولا زلَلٍ، ومِن ذلك: هذه الأحكامُ الَّتي شرَعها ممَّا يتعلَّقُ بأمورِ النِّكاح(١).

﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٥)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ سبحانه وتعالى مَن يحلُّ ومَن لا يحلُّ، بيَّن فيمن يحلُّ أنَّه متى يحلُّ، وعلى أيِّ وجهٍ يحلُّ، فعطف اللهُ تعالى قوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا﴾ [النساء: ٢٥] على قوله: ﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٤] تخصيصًا لعمومه بغيرِ الإماء، وتقييدًا لإطلاقِه باستطاعةِ الطَّولِ(٢).

﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾.

أي: ومَن لم يكُنْ لَدَيهِ منكم- معشرَ الرِّجال- سَعةٌ وقدرةٌ على تقديمِ مهرٍ كافٍ لنكاحِ الحرائرِ المؤمناتِ(٣).

﴿فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٠٤-٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٩٤-٥٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢١٦).

أي: فليتزوَّجْ مِن الإماءِ المؤمناتِ اللَّاتي يملِكُهنَّ المؤمنون(١).

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ﴾

أي: إنَّ اللهَ تعالى أعلمُ بإيمانِ مَن آمَن منكم، فيعلَمُ ما إذا كان أولئك الإماءُ اللَّاتي تريدون نكاحَهنَّ مؤمناتٍ حقًّا أم لا، وأمَّا أنتم فليس لكم إلَّا الظَّاهرُ، فكِلُوا سرائرَهنَّ إلى الله عزَّ وجلَّ(٢).

﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾.

أي: إنَّ الجميعَ متساوونَ في البشريَّةِ، وكلُّهم بنو آدمَ؛ فالحرائرُ والإماءُ من هذه الجهة سواءٌ، فلا تأنَفوا من تزوُّجِ الإماءِ عند الضَّرورةِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٩٥-٦٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢١٦-٢١٧).

قال ابنُ عثيمين: (قوله: ﴿فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي: فانكحوا مما ملكتْ أيمانُكم، والخطابُ هنا للجميع باعتبارِ المجموعِ، لا باعتبارِ كلِّ فردٍ، وإنَّما قلنا ذلك؛ لأنَّ المالكَ لا يصحُّ أن ينكحَ مملوكتَه، وإنَّما يتسرَّاها؛ لأنَّ الله جعَل مِلكَ اليمينِ معادلًا للزوجيةِ، فقال: ﴿إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٠١-٦٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢١٧-٢١٨).

قال ابنُ عطيَّةَ: (قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ﴾ معناه: أنَّ الله عليمٌ ببواطن الأمور ولكم ظواهرُها، فإذا كانت الفتاةُ ظاهرها الإيمان فنكاحُها صحيحٌ، وعِلمُ باطِنِها إلى الله، وإنما هذا لئلا يستريبَ متحيرٌ بإيمانِ بعضِ الإماءِ، كالقريبةِ عهد بالسباء، أو كالخرساء وما أشبهه. وفي اللفظ أيضا تنبيهٌ على أنَّه ربما كان إيمانُ أمةٍ أفضلَ مِن إيمانِ بعضٍ من الحرائر، أي: فلا تعجبوا بمعنى الحرية) ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٨).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢١٧-٢١٨).

قال ابنُ عطيَّةَ: (قوله: ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ قالت طائفةٌ: هو رفْعٌ على الابتداءِ والخبر، والمقصدُ بهذا الكلامِ، أي: إنَّكم- أيُّها الناسُ- سواءٌ؛ بنو الحرائرِ وبنو الإماءِ، أكرمُكم عندَ اللهِ أتقاكُم؛ فهَذِه توطئةٌ لنفوسِ العربِ التي كانتْ تستهجنُ ولدَ الأَمَةِ، فلمَّا جاء الشرعُ بجوازِ نِكاحِها، أُعْلِموا مع ذلك أنَّ ذلك التهجينَ لا مَعْنَى له. وقال الطبريُّ: هو رفْعٌ بفِعلٍ، تقديره: =

﴿فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾.

أي: فتزوَّجوهنَّ بسماحِ ورضَا أسيادِهنَّ(١).

﴿وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

أي: وأعطوهنَّ مهورَهنَّ بما شرَعه اللهُ تعالى، دون أن تبخَسوهنَّ شيئًا مِن مهورِهنَّ، أو تُماطِلوا في دَفعِه إليهنَّ(٢).

﴿مُحْصَنَاتٍ﴾.

أي: فانكِحوهنَّ، والحالُ أنَّهنَّ عفيفاتٌ عن الزِّنا؛ فهذا شرطٌ من شروط نِكاحِهنَّ(٣).

﴿غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ﴾.

أي: غيرَ الزَّانياتِ علانيةً، اللَّاتي لا يمتنِعْنَ مِن أحَدٍ أرادهنَّ بالفاحشةِ(٤).

﴿وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾.

أي: ولا تنكِحوا أيضًا الزَّوانيَ المتستِّراتِ، اللَّاتي يتَّخِذْنَ أخلَّاءَ وأصدقاءَ؛

= فلينكحْ ممَّا مَلَكَتْ أيمانُكم بعضُكم مِن بعضٍ. فعلى هذا في الكلامِ تقديمٌ وتأخيرٌ، وهذا قولٌ ضعيفٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦٠-٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢١٨-٢١٩).

قال النَّحاسُ في تفسير قولِه تعالى: ﴿وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾: (فهذا بإجماعِ المهرُ). ((معاني القرآن)) (٢/ ٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٠٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٤).

لاقترافِ الزِّنا معهم خفيةً[١].

﴿فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ﴾.

القِرَاءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أُحْصِنَّ﴾ قراءتان:

١- قِراءة (أَحْصَنَّ)- بفَتحِ الألِفِ والصَّادِ على البِناءِ للفاعِلِ- على مَعنى: أنَّ الإماءَ إذا أسلَمْنَ أحصَنَّ فُروجَهنَّ بالإسلام، أي: أعْفَفْنَها، وقيل: أحصَنَّ أنفُسَهنَّ بالتزويجِ، بإسنادِ الفِعْلِ إليهنَّ[٢].

٢- قِراءة (أُحْصِنَّ) على صِيغةِ ما لم يُسَمَّ فاعلُه -والفاعِلُ هو الأزواجُ- على جَعْلِ الإماءِ مَفْعولاتٍ بإحْصانِ أزواجِهنَّ إيَّاهنَّ، وقيل: إنَّه بمعنى أسلَمْنَ فأَحصَنَّ أنفُسَهنَّ بالإسلامِ[٣].

﴿فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ﴾.

أي: فإن أُحصِنَ الإماءُ بالزواجِ، ثمَّ وقَعْنَ في الزِّنا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٠٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٤).

(٢) قرأ بها حمزةُ والكسائيُّ وخلَف وأبو بكرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢١٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٩٨)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٨٥).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢١٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٩٨)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٠١).

(٤) واختار أنَّ الإحصانَ هنا: الزواجُ: ابنُ كثيرٍ في ((تفسيره)) (٢/ ٢٦٢)، وابنُ عاشور في ((تفسيره)) (٥/ ١٦)، وابنُ عثيمين في ((تفسير سورة النساء)) (١/ ٢٢٠-٢٢١).
وقيل: المرادُ: الإحصانُ بالإسلامِ أو بالنكاحِ، وهو اختيارُ ابنِ جريرٍ في ((تفسيره)) (٦/ ٦١٢)، والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ١٧٤).

﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾.

أي: فعليهنَّ من الحدِّ نصفُ ما على الحرائرِ، اللَّاتي زَنَيْنَ قبل الإحصان بالزَّواجِ، فيكون على الإماءِ خمسونَ جَلدةً[1].

﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ﴾.

أي: ذلك الَّذي أباحَه اللهُ تعالى لكم- مَعشرَ الرِّجال- مِن نِكاحِ الإماءِ المؤمناتِ العفيفاتِ، إنَّما أباحه جلَّ وعلا لِمَن شقَّ عليه منكم الصَّبرُ عن الجِماعِ؛ فخاف الوقوعَ في الزِّنا[2].

﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾.

أي: وصبرُكم- أيُّها الرِّجالُ- عن نِكاحِ الإماء، إلى أن يتيسَّرَ لكم نكاحُ الحُرَّةِ، أفضلُ لكم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦١٢-٦١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦٢، ٢٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٢١).
قال ابن عطيَّة: (الرجم لا يتنصَّف، فلم يردْ في الآية بإجماع) ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦١٤، ٦١٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨).
قال ابنُ جرير: (وقدْ عمَّ اللهُ بقوله: ﴿لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ﴾ جميعَ معاني العَنَتِ، ويجمعُ جميعَ ذلك الزِّنا؛ لأنَّه يُوجِبُ العقوبةَ على صاحبِه في الدنيا بما يُعنِتُ بَدَنَه، ويكتسبُ به إثمًا ومَضرَّةً في دِينه ودُنياه، وقدِ اتَّفق أهلُ التأويلِ- الذي هم أهلُه- على أنَّ ذلك معناه). ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦١٦).
وقال الرازيُّ: (ولم يَختلفوا في أنَّ ذلك راجعٌ إلى نكاحِ الإماءِ). ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦١٦-٦١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٢٥).
قال ابنُ عاشور- مُعلِّلًا الأمْرَ بالصبرِ-: (لئلَّا يُوقِعَ أبناءَه في ذُلِّ العبوديةِ المكروهةِ للشارعِ لولا الضرورةُ، ولئلَّا يُوقِعَ نفْسَه في مَذلَّةِ تصرُّفِ الناس في زوجِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨).

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى غفورٌ لِمن تزوَّج الإماءَ؛ إذ تجاوَزَ عن الإثمِ، فأباح نكاحَهنَّ بشروطِه رفعًا للحَرَجِ، وهو الرَّحيمُ، الَّذي وسِعَتْ رحمتُه كلَّ شيءٍ، ومن ذلك تشريعُه لنكاحِ الإماءِ، فلم يُضيِّقْ على عبادِه، بل وسَّع عليهم غايةَ السَّعةِ(١).

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- ينبغي للمتكلِّمِ أن يخاطِبَ المخاطَبَ بما يهوِّنُ عليه الحُكمَ، ويكون سببًا لقبولِه، وهو ما يُمكنُ أن نُعبِّرَ عنه بتخفيفِ الأمر على المحكوم عليه؛ لقوله: ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾؛ وذلك أنَّ العربَ كانوا يأنَفون أنَفةً كبيرة بالنسبةِ للأرقَّاء، ويرَوْن أنَّ مَن نكح رقيقةً فقد أتى شيئًا فاحشًا عظيمًا، ويقولون: الرَّقيقةُ مملوكةٌ، والبعيرُ مملوكٌ؛ ولهذا أرشَد الله إلى هذا الأمر بقوله: ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾؛ لتهوينِ الأمرِ على النَّاس(٢).

٢- في قوله تعالى: ﴿فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ مِنْ فَتَياتِكُمُ الْمُؤْمِناتِ﴾ أنَّ الإسلامَ لا يُفرِّقُ بين الأحرار وغيرِ الأحرارِ تفرقةً عنصريَّةً تتناول الأصلَ الإنسانيَّ- كما كانت الاعتقاداتُ والاعتباراتُ السائدةُ في الأرض كلِّها يومذاك- إنَّما يُذكِّرُ بالأصلِ الواحِدِ، ويجعَلُ الآصِرةَ الإيمانيَّة هي محورَ الارتباطِ(٣).

٣- قوله تعالى: ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾: الحكمةُ في ذِكرِ هذه الكلمة أنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦١٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٦٢٨).

العربَ كانوا يفتخرون بالأنسابِ، فأعلَمَ في ذِكر هذه الكلمةِ أنَّ اللهَ لا ينظُرُ ولا يلتفِتُ إليه[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- إثبات الرِّقِّ؛ لقوله: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾، وهذا أمرٌ مجمَعٌ عليه بين المسلمين، ولا يمكن لأحدٍ الإنكارُ؛ لأنَّه في القرآن، وفي السُّنَّةِ، وبإجماعِ المسلمينَ، ولكنْ لا يجوز أن يُسْتَرَقَّ الإنسانُ لأيِّ سببٍ، بل لا بدَّ من سببٍ شرعيٍّ[2].

٢- صِحَّةُ إطلاقِ البعض على الكلِّ؛ لقوله: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾؛ لأنَّ (أيمان) جمعُ (يمين) وهي اليدُ، والمِلك في الحقيقة مِلكٌ للإنسان كلِّه، لكن عبَّر باليمينِ؛ لأنَّ الغالبَ أنَّ الأخذَ والإعطاءَ يكونُ بها[3].

٣- كتابُ الله سبحانه ينقسِمُ إلى قسمين: كتابٍ شرعيٍّ؛ كما في قوله تعالى في هذا الموضع: ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، وكما في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]، وكتابٍ كَوْنيٍّ؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ [النبأ: ٢٩]، أي: الكتاب القدريَّ، وكما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[4] [الأنبياء: ١٠٥].

٤- أنَّ المحلَّلاتِ من النِّساء أكثرُ من المحرَّماتِ، ويُؤخَذُ من قوله: ﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ﴾، ووجهُ ذلك: أنَّه حصَر المحرَّماتِ، وعمَّمَ في المُحلَّلاتِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٠٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٠٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

لذا فمَن ادَّعى تحريمَ امرأةٍ فعليه الدَّليلُ، فلو خطَب إنسانٌ امرأةً، فقال له بعضُ النَّاس: إنَّ هذه المرأةَ مِن المحرَّماتِ عليك، فلا بدَّ أن يُقيمَ دليلًا على ذلك؛ لأنَّ المحرَّماتِ محصوراتٌ، والمحلَّلاتِ الأمرُ فيهنَّ مُطلَقٌ[(١)].

٥- وجوبُ بذلِ المالِ في النِّكاح؛ لقوله: ﴿أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ﴾ وقوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا﴾[(٢)].

٦- تحريمُ المتعة؛ لقوله تعالى: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾، وصاحبُ المتعةِ لا يريد الإحصانَ، بل إنَّه يريد السِّفاح؛ لأنَّ مَن أراد الإحصانَ فإنَّ الإحصانَ لا يحصُلُ إلَّا بالملازمةِ، وزواجُ المتعة إنَّما هو للسِّفاحِ فقط، أي: لسَفْحِ هذا الماءِ الَّذي ضيقَ عليه؛ ولذلك فلا يثبُتُ به شيءٌ من أحكام النِّكاحِ؛ فليس فيه طلاقٌ، ولا نسَبٌ، ولا عِدَّة، ولا إحصانٌ، فكلُّ أحكام النِّكاح لا تترتَّبُ عليه، حتَّى عند القائلين بجوازه، فدلَّ هذا على أنَّه سِفاحٌ[(٣)].

٧- في قوله: ﴿فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ تسميةُ المهرِ أجرًا، ووجهه: أنَّه عِوَضٌ في مقابلِ منفعةٍ، لا في مقابل عَينٍ، فلو كان في مقابل عينٍ لسُمِّي بيعًا، لكنَّه في مقابلِ المنفعة، وهو استمتاعُ الزَّوج بالزَّوجة، فصار مِثلَ الإجارة[(٤)].

٨- في قوله: ﴿فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أنَّ المهرَ لازمٌ كلزومِ الأُجرة على المستأجِر، ولكن إذا سمَح مَن له الحقُّ فإنَّه يسقُطُ؛ لقوله تعالى: ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾[(٥)] [البقرة: ٢٣٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٠٦، ٢٠٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٠٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٠٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢١٤).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢١٤).

٩- وجوبُ إيتاءِ النِّساءِ مهورَهنَّ؛ لقوله: ﴿فَرِيضَةً﴾ أي: مفروضًا عليكم أن تؤتوهنَّ أجورَهنَّ[١].

١٠- أنَّه إذا تراضى الزَّوجُ والزَّوجة على زيادةٍ أو نَقْصٍ أو إسقاطٍ، فلا حرجَ؛ لقوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾، ونأخُذُ مِن ذلك قاعدةً مهمَّةً، وهي: (أنَّ ما أوجَبه اللهُ عزَّ وجلَّ لحقِّ الإنسانِ، وأسقَط هذا الإنسانُ- صاحبُ الحقِّ - حقَّه، فلا إثْمَ على مَن لم يقُمْ به)[٢].

١١- الحثُّ على تزوُّج الحرائرِ المؤمناتِ، ووجهُ ذلك: أنَّ اللهَ لم يرخِّصْ في العدولِ عن نكاحِهنَّ إلَّا لحاجةٍ وعُذرٍ؛ لقوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ ...﴾[٣].

١٢- يستفاد من قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ نقْصُ مرتبةِ الرِّقِّ عن مرتبة الحرِّيَّة، وهو كذلك؛ فإنَّ الرَّقيقَ مملوكٌ يُباعُ ويُشتَرى، ولا يملِكُ نفسَه، حتَّى إنَّه إذا قُتِل فإنَّ دِيَتَه قيمَتُه، وليس دِيَةَ حُرٍّ[٤].

١٣- مِلْكُ الإنسان لِما يملِكُ مِن آدميٍّ أو بهيمةٍ أو عقَارٍ أو غيره ليس مِلكًا تامًّا؛ ولذلك لا يتصرَّفُ الإنسانُ فيما يملِكُ كما يُحبُّ، بل تَصرُّفُه مقيَّدٌ بالشَّرعِ، ولكنَّ العُلماء رحمهم الله جعَلوا مَن مَلَكَ التَّصرُّفَ الَّذي جُعِل له على وجهٍ كاملٍ- جَعَلوه مالكًا، ومَن مَلَكَه على وجهٍ مُقيَّدٍ جَعَلوه مُستأجِرًا مثلًا أو مُستعيرًا، أو ما أشبَهَ ذلك[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢١٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٢٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٢٩).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٣٠).

١٤- أنَّه لا يحِلُّ لِمَن لا يَجِدُ طَوْلَ الحُرَّةِ المؤمنةِ أنْ يَتزوَّجَ أمَةً كتابيَّةً، ويُؤخَذُ من قولِه: ﴿فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾، أي: فلا يحِلُّ أن يتزوَّجَ أمَةً كتابيَّة، وإذا لم يعجِزْ عن طَوْلِ الحُرَّة المؤمنةِ، فلا يتزوَّجُ أمَةً كتابيَّةً من بابِ أَوْلى(١).

١٥- أمَر الله تعالى بنكاح الإماءِ عند العجزِ عن الحرائرِ، وكانوا في الجاهليَّةِ لا يرضَوْنَ بنكاحِ الأمَة وجعْلِها حَليلةً، ولكن يقضُون منهنَّ شهواتِهم بالبِغاءِ، فأراد الله إكرامَ الإماءِ المؤمناتِ، جزاءً على إيمانهنَّ، وإشعارًا بأنَّ وَحدةَ الإيمانَ قرَّبتِ الأحرارَ من العبيدِ، فلمَّا شرَعَ ذلك كلَّه ذيَّله بقوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ﴾، أي: بقوَّتِه، فلمَّا كان الإيمانُ هو الَّذي رفَع المؤمنينَ عند الله درجاتٍ، كان إيمانُ الإماءِ مقنِعًا للأحرارِ بتركِ الاستنكافِ عن تزوُّجِهنَّ؛ ولأنَّه رُبَّ أمَةٍ يكونُ إيمانُها خيرًا من إيمانِ رجلٍ حرٍّ(٢).

١٦- تحريم اتِّخاذِ الأخدان من الرِّجال؛ لقوله: ﴿وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾، وحتَّى لو لم يحصُلِ الزِّنا؛ فإنَّ اتخاذَ الأخدان- يعني: الأصحاب والأصدقاء- سببٌ للزِّنا؛ ولهذا نُهِيَ عن الخَلوة بالمرأة خوفًا من ذلك، ونُهِيَ أن تخضَعَ بالقولِ خوفًا من ذلك(٣).

١٧- أنَّه لا يجوز للحرِّ المُسلمِ نكاحُ أمَةٍ إلَّا بأربعةِ شروطٍ ذكَرها الله: إيمانهن- فلا يجوز التَّزوُّجُ بالأمَةِ الكتابيَّة، سواءٌ كان الزَّوجُ حرًّا أو عبدًا- والعفَّة ظاهرًا وباطنًا، وعدم استطاعة طَوْلِ الحُرَّة، وخوفُ العَنَتِ، فإذا تمَّتْ هذه الشُّروطُ جاز له نكاحُهنَّ(٤).

١٨- الرُّجوعُ إلى العُرف، وتؤخَذُ من قوله: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾، وهذه قاعدةٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٢٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٣٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٤).

للشَّيء الَّذي لم يحدِّدْه الشَّرع؛ أن نرجعَ فيه إلى العُرفِ(١).

١٩- أنَّه لا حدَّ على الأمَةِ إلَّا بعد الإحصانِ؛ لقوله: ﴿فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ﴾، أي: فإن زنَتْ قبل الإحصانِ فلا حدَّ عليها، وإنَّما تُجلَدُ جَلدَ تعزيرٍ(٢).

٢٠- أنَّه لا رجْمَ على الأمَة إذا زنَتْ، ولو بعد أن تتزوَّجَ، وجهُ ذلك: أنَّ الرَّجمَ لا يتنصَّفُ، والله عزَّ وجلَّ قال: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾؛ ولهذا اشترط العلماءُ للرَّجمِ أن تكونَ الزَّانيةُ حُرَّةً(٣).

٢١- حُسْنُ التَّرتيبِ في سياق القرآن؛ لأنَّ اللهَ سبحانه ذكَر مسألة الزِّنا بين الشُّروطِ في نكاح الأمَةِ، للإشارةِ إلى أنَّ عند الأمَة مِن دنوِّ المنزلةِ ما لا يمنَعُها من الزِّنا، فهذا من حكمةِ النَّهيِ عن نكاحِ الإماءِ إلَّا بالشُّروطِ(٤).

٢٢- الصَّبر عن نكاحِ الإماء أفضلُ؛ وهذا إذا أمكَن الصَّبرُ، فإن لم يمكِنِ الصَّبرُ عن المحرَّمِ إلَّا بنكاحِهنَّ وجَب ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(٥).

٢٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾ بعدَ إباحتِه نِكاحَ الإماءِ عند عدمِ الطَّوْلِ وخشية العَنَت؛ يدلُّ على أنَّه يمكن الصَّبرُ مع خشيةِ العَنَتِ، وأنَّه ليس إباحةُ نكاحِ الإماءِ كإباحةِ الميتةِ عندَ المَخْمَصةِ؛ فإنَّ الأخيرَ لا يُمكنُ الصبرُ عنه(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٣٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٣٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٤).

(٦) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٥٧٣).

٢٤- الآية دالَّةٌ على التَّحذيرِ من نكاحِ الإماءِ، وأنَّه لا يجوزُ الإقدامُ عليه إلَّا عند الضَّرورةِ، وذلك لهذه الأسبابِ:

السَّبب الأوَّل: أنَّ الولدَ يتبَعُ الأمَّ في الرِّقِّ والحرِّيَّة، فإذا كانت الأمُّ رقيقةً عُلِّقَ الولدُ رقيقًا، وذلك يوجِبُ النَّقصَ في حقِّ ذلك الإنسانِ، وفي حقِّ ولدِه، **والثَّاني:** أنَّ الأمَةَ قد تكون تعوَّدت الخروجَ والبُروزَ والمخالطةَ بالرِّجال، وصارت في غايةِ الوقاحةِ، وربَّما تعوَّدت الفجورَ، وكلُّ ذلك ضررٌ على الأزواجِ، **الثَّالث:** أنَّ حقَّ المولى عليها أعظمُ مِن حقِّ الزَّوجِ، فمِثلُ هذه الزَّوجة لا تخلُصُ للزَّوجِ كخُلوصِ الحُرَّة، فربَّما احتاج الزَّوجُ إليها جدًّا، ولا يجِدُ إليها سبيلًا؛ لأنَّ السَّيِّدَ يمنَعُها ويحبِسُها، **الرَّابع:** أنَّ المولى قد يبيعُها من إنسانٍ آخرَ، فعلى قولِ مَن يقولُ: بيعُ الأمَةِ طلاقُها، تصير مطلَّقةً، شاء الزَّوجُ أم أبى، وعلى قول مَن لا يرى ذلك فقد يسافِرُ المولى الثَّاني بها وبولدِها، وذلك مِن أعظمِ المضارِّ، **الخامس:** أنَّ مهرَها مِلكٌ لمولاها، فهي لا تقدِرُ على هِبةِ مهرِها من زوجِها، ولا على إبرائِه عنه، بخلاف الحُرَّةِ؛ فلهذه الوجوهِ ما أذِن اللهُ في نكاح الأمَةِ إلَّا على سبيل الرُّخصةِ، واللهُ أعلم[١].

٢٥- أنَّ المباحَ قد يكون مستويَ الطَّرفينِ، كما هو الأصل، وقد يكون مرجوحًا، كما هنا؛ لأنَّ اللهَ تعالى أحلَّ لنا نكاحَ الإماء بالشَّرطينِ، لكن قال: ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾[٢].

٢٦- أنَّ الأمر بالشَّيء قد يُستفادُ من الثَّناءِ على فاعله؛ لقوله: ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾، فكأنَّه قال: اصبِروا، لكنَّه جعله على وجهِ التَّرغيبِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٢٧- صيَّر الفقهاء هذه الآية ﴿ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ أصلًا في نُقصانِ حُكمِ العبدِ عن حُكمِ الحُرِّ في غير الحدِّ، وإن كان في الأمورِ ما لا يجبُ ذلك فيه[1].

بَلاغةُ الآيتين:

١- قوله: ﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ﴾: عطفٌ على قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ...﴾ إلخ، وتوسيطُ قوله تعالى: ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بينهما؛ للمبالغةِ في الحَمْلِ على المحافظةِ على المحرَّماتِ المذكورةِ[2].

- وعلى قِراءة (وأَحَلَّ لَكَمْ) بالبِناءِ للفاعل؛ فالضَّميرُ المستتِرُ عائدٌ إلى اسمِ الجلَالةِ من قوله: ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، فيكون فيه إسنادُ التَّحليلِ إلى اللهِ تعالى إظهارًا للمنَّةِ؛ ولذلك خالَف طريقةَ إسنادِ التَّحريم إلى المجهولِ في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾؛ لأنَّ التَّحريم مشقَّةٌ؛ فليس المقامُ فيه مقامَ منَّةٍ[3].

- قوله: ﴿مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ﴾: إشارة إلى ما ذُكِرَ من المحرَّماتِ المعدودة، وفيه إيثارُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارة ﴿ذَلِكُمْ﴾ على التَّعبيرِ بالضَّميرِ؛ حيث لم يقُل (مَا وَرَاءَهُ)، واسمُ الإشارةِ يدلُّ على ذاتِ المشارِ إليه ووَصْفِه، والضَّميرُ يدلُّ على الذَّات فقط؛ فلعَلَّ في هذا تَذكيرًا بما في كلِّ واحدةٍ مِنَ النِّساءِ المحرَّمات مِنَ الصِّفة التي عليها يَدورُ حُكمُ الحُرمةِ؛ فيُفهَم مشاركةُ مَن في مَعناهنَّ لهنَّ فيها بطَريقِ الدَّلالةِ؛ كحُرمةِ الجمْع بينَ المرأةِ وعمَّتِها، وبَينَها

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٥٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٦٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٧).

وبين خالتِها؛ فإنَّها ليستْ بطريقِ العِبارة، بل بطريقِ الدَّلالةِ(١).

٢- قوله: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾: فيه طباقٌ؛ إذ المُحْصَن الَّذي يمنَعُ فَرْجَه، والمسافِحُ الَّذي يبذُله(٢)، وهو يُبرِز المعنى ويوضِّحه، مع ما فيه مِن التَّأكيدِ.

٣- قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ في قوله: ﴿مِنَ النِّسَاءِ﴾ احتراسٌ؛ إذ المُحصَنات قد يُراد بها الأنفُس المحصَناتُ، فيدخُل تحتَها الرِّجالُ، فاحترز عن ذلِك بقوله: ﴿مِنَ النِّسَاءِ﴾(٣).

- وفيه: إطلاقُ المُحصناتِ على النِّساء اللَّاتي يتزوَّجُهنَّ الرِّجال، باعتبار المآلِ الَّذي يُصار إليه، أي: اللَّائي يَصِرْن مُحْصَناتٍ بذلك النِّكاح(٤).

- وفيه وصفُ المُحَصنات بالمؤمناتِ؛ جريًا على الغالِبِ(٥).

٤- قوله: ﴿فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ الإضافة في قولِه: ﴿أَيْمَانُكُمْ﴾ وقوله: ﴿مِنْ فَتَيَاتِكُمْ﴾ للتَّقريبِ، وإزالةِ ما بقِيَ في نفوسِ العربِ من احتقارِ العبيدِ والإماءِ، والتَّرفُّعِ عن نكاحِهم وإنكاحِهم، وكذلك وصْفُ المؤمناتِ(٦).

- وقوله: ﴿الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾، و﴿مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ فيه تَكرارُ لَفْظِ (المؤمنات)(٧)؛ للتَّأكيدِ على وصْفِ الإيمانِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٦٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٠٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٣).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٤).
(٧) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٠٦).

٥- قوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ﴾: جملةٌ مُعترِضة جيءَ بها؛ لتأنيسِهم بنِكاحِ الإماء، واستنزالِهم مِن رُتبةِ الاستنكافِ منه، ببيان أنَّ مناطَ التَّفاضُل، ومدارَ التفاخرِ هو الإيمانُ دون الأحسابِ والأنسابِ[1].

٦- قوله: ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾: تذييلٌ ثانٍ، أكَّد به المعنى الثَّانيَ المراد من قوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ﴾[2].

٧- قوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: جاءتْ خاتمةً للآية، وهذا كالمؤكِّد لِمَا ذكَره مِن أنَّ الْأَوْلى تركُ هذا النِّكاح، يعني: أنَّه وإنْ حصَلَ ما يَقتضي المنعَ مِن هذا الكلام، فإنَّه تعالى أباحه لكم؛ لاحتياجِكم إليه، فكان ذلك من بابِ المغفرةِ والرَّحمةِ[3].

- وفيه مبالغةٌ في وصفِ المغفرةِ والرَّحمة[4]، مع ما في الجملة الاسميَّة من التَّأكيدِ، والدَّلالةِ على الثُّبوت والدَّوام.

(١) ينظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٦٨).

الآيات (٢٦ - ٢٨)

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾.

غريبُ الكَلماتِ:

﴿سُنَنَ﴾: أي: طَرائِقَ ومَناهِجَ، جمْع سُنَّةٍ، وهي الطَّريقةُ المسلوكةُ، والمنهاج المُتَّبع[١].

﴿تَمِيلُوا مَيْلًا﴾: أي: تَجورُوا جَورًا، وتَنحرِفوا انحرافًا، والمَيل: العدولُ عن الوسَط إلى أحدِ الجانبَيْن، وأصلُه: الانحرافُ في الشَّيء إلى جانبٍ منه[٢].

المَعْنى الإجماليُّ:

يخبرُ الله تعالى عبادَه أنَّه يُريد بما يأتي به من أحكامٍ وتشريعاتٍ أن يُبيِّنَ لهم ما يحِلُّ لهم، وما يَحْرُمُ عليهم، كما يُريد أن يُرشِدَهم عزَّ وجلَّ إلى طرائق مَن كان قبلَهم؛ مِن الأنبياءِ، وأتباعِهم، ويريد أنَّ يوفِّقَهم سبحانه وتعالى للتَّوبة ويتقبَّلَها منهم، والله عليمٌ حكيم.

وبمقابل إرادةِ الله للتَّوبةِ على عباده، يريد منهم الَّذين يطلُبونَ لذَّاتِ الدُّنيا، وشهواتِ أنفسهم- مِن الكفرةِ وأهلِ الفِسق- أن يميلوا ميلًا شديدًا من الحقِّ إلى الباطلِ، وعمَّا أحَلَّه اللهُ إلى ما حرَّمه.

---

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩٧-٤٩٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٣).

واللهُ سبحانه وتعالى يريد التَّيسيرَ على العبادِ فيما يشرَعُه مِن أوامرَ ونواهٍ؛ لعِلْمِه عزَّ وجلَّ بأنَّ الإنسانَ خُلِق ضعيفًا.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذكَر الله عزَّ وجلَّ المحَرَّماتِ من النساء، أخبر أنَّ في ذلك بيانًا وهدًى، حتَّى لا تكونَ شريعةُ هذه الأُمَّةِ دون شرائعِ الأُمَمِ الَّتي قبلها، بل تفُوقُها في انتظامِ أحوالها[١]، فقال تعالى:

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾.

أي: يُريد اللهُ تعالى أن يبيِّنَ لكم ما أحَلَّ لكم، وما حرَّم عليكم، ممَّا تقدَّمَ ذِكرُه في هذه السُّورة وغيرِها[٢].

﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾.

أي: ويريدُ الله تعالى أن يُرشدَكم إلى سُبل مَن قَبلكم مِن الَّذين أنعَم اللهُ عليهم من النَّبيِّين وأتباعِهم، ويوفِّقكم لتسلكوا طرائقَهم الحميدةَ، وتتَّبِعوا شرائعَه الَّتي يُحبُّها ويرضاها سبحانه[٣].

﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٣٧-٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٣٨-٢٣٩).

أي: ويريد اللهُ عزَّ وجلَّ أن يوفِّقَكم للتَّوْبةِ إليه، ويقبَلَها منكم، فيرجعَ بكم إلى طاعتِه، مما كنتُم عليه مِن معصيتِه؛ ليتجاوزَ لكم بتوبتِكم عما سلَف منكم قبلَ الإنابةِ والتوبةِ(١).

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى ذو علمٍ بكلِّ شيءٍ، ومِن ذلك عِلمُه بما يُصْلِح عبادَه في دِينهم ودنياهم، ومن ذلك هذه الأحكامُ والحدودُ الَّتي علَّمهم إيَّاها.

وهو ذو الحِكمة، الَّذي مِن حكمتِه هذه الأحكامُ الَّتي شرَعها لعباده، ومن حكمته أنَّه يتوب على مَن اقتضَتْ حكمتُه ورحمتُه التَّوبةَ عليه، ويخذُلُ مَن اقتضَتْ حكمتُه وعدلُه أنَّه لا يصلُحُ للتَّوبة(٢).

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا (٢٧)﴾.

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾.

أي: واللهُ عزَّ وجلَّ يريد أن يوفِّقَكم للتَّوْبةِ إليه، ويقبَلَها منكم(٣).

﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾.

أي: ويريد الَّذين يطلُبون لذَّاتِ الدُّنيا، وشهواتِ أنفسِهم فيها؛ مِن أهل الكفرِ والفسوقِ والعصيانِ، أن تَميلوا ميلًا شديدًا من الحقِّ إلى الباطلِ، وممَّا أحلَّ اللهُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٣٩).

تعالى لكم إلى ما حرَّم عليكم، فتكونوا أمثالَهم[1].

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا (٢٨)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أعقَب الاعتذارَ الَّذي تقدَّم بقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ بالتَّذكير بأنَّ اللهَ لا يزال مراعيًا رِفقَه بهذه الأمَّة، وإرادتَه بها اليُسرَ دون العُسرِ، إشارةً إلى أنَّ هذا الدِّين بيَّن حِفظَ المصالح ودَرْءَ المفاسد، في أيسرِ كيفيَّةٍ وأرفَقِها، فربَّما ألغت الشَّريعةُ بعضَ المفاسِدِ إذا كان في الحَملِ على تركِها مشقَّةٌ، أو تعطيلُ مصلحةٍ، كما ألغت مفاسدَ نكاحِ الإماء نظرًا للمشقَّةِ على غيرِ ذي الطَّول[2].

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾.

أي: يريد اللهُ عزَّ وجلَّ أن ييسِّرَ عليكم في أوامرِه ونواهيه، ومن ذلك إباحتُه نكاحَ الإماءِ بشروطٍ[3].

﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾.

أي: خفَّف اللهُ تعالى عنكم؛ لعِلْمِه بضَعف الإنسانِ في نفسِه، وبَدَنه، وضَعْف عَزمه، وهِمَّته، وصَبْره[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٢١-٦٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٤٧).

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- مراقبة اللهِ في السِّرِّ والعلانية، وتؤخذ مِن ثبوت صفةِ العِلم؛ لأنَّك متى علمتَ أنَّ اللهَ عالمٌ بك، فإنَّ ذلك يُوجِبُ لك مراقبةَ اللهِ سبحانه؛ فلا يَفقِدُك حيث أمَرك، ولا يَجِدُك حيث نهاك، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[(١)].

٢- في قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ إثباتُ اسمِ الله (الحكيم) وصِفةِ الحكمةِ له مما يجعلُ الإنسان مقتنعًا بأنَّ ما يُجريه اللهُ عزَّ وجلَّ من الأحكام مقرونٌ بالحِكْمة، سواءٌ كان هذا في الأحكامِ الكونيَّةِ، أو في الأحكام الشَّرعيةِ، حتَّى المصائبُ الَّتي تنالُ العبادَ لا شكَّ أنَّ لها حِكمةً ينبغي أن يقتنعَ الإنسانُ بوجودِها، ولا يَعترِضَ على اللهِ تعالى بها[(٢)].

٣- الحَذَرُ من الَّذين يتَّبِعون الشَّهوات؛ لأنَّهم يريدون منَّا أن نَميل ميلًا عظيمًا، والشَّهواتُ قد تكونُ شهوةَ بطنٍ وفَرْجٍ، وقد تكون شهوةَ فِكرٍ وقَلْب، وكِلا الأمرين مرادٌ هنا، قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾[(٣)].

٤- الحَذَر مِن أهل البِدَع؛ لأنَّ أهلَ البِدَع ينقسمون إلى قِسْمين: قسمٍ عندهم شبهاتٌ، وقسمٍ عندهم شهواتٌ؛ فالجاهلُ منهم عنده شبهاتٌ حتَّى يلتبسَ عليه الحقُّ بالباطِلِ، والعالِم منهم عنده شهواتٌ؛ فهو يريد ما لا يريدُ اللهُ ورسولُه، ففي الآية التَّحذيرُ من هؤلاء وهؤلاء[(٤)].

٥- في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ﴾ إشارةٌ إلى انحطاط مرتبةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٤٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الَّذين يتَّبِعون الشَّهواتِ؛ حيث جعَلهم اللهُ أتباعًا تقُودُهم الشَّهواتُ، ومن الذُّلِّ أن يكونَ الإنسانُ تابعًا للشَّهوات؛ لأنَّ العزَّة أن يكونَ الإنسانُ متبوعًا، فإذا كان تابعًا فمعناه أنَّ شهواتِه ملَكَتْه حتَّى صار تابعًا، وكأنَّه مجبَرٌ على ذلك[1].

٦- أنَّ إرادةَ المتَّبِعين للشَّهواتِ بنا لا تقتصِرُ على أدنى مَيْلٍ، وتؤخَذُ من قوله: ﴿أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾، فإذا كان كذلك فإنَّنا إذا مِلْنا قليلًا تابَعوا حتَّى نميلَ ميلًا عظيمًا، نسأل اللهَ السَّلامةَ[2]!

٧- أنَّ الإنسانَ ينبغي له إذا شمَخَتْ به نفسُه، وعلا أنفُه أن يذكُرَ حقيقةَ نفسِه، وهي الضَّعفُ، حتَّى لا يطغَى؛ لقوله: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾[3].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- سَعةُ رحمةِ الله عزَّ وجلَّ بعباده؛ حيث أراد أن يبيِّنَ لهم؛ لأنَّ مِن لُطفِه وكرَمِه ألَّا يدَعَ النَّاسَ على جهلِهم؛ قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾[4].

٢- أنَّه ليس في الشَّرع شيءٌ مجهولٌ لكلِّ أحدٍ؛ لقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾؛ فالشَّرعُ لا يُمكِنُ أن يكونَ خفيًّا على كلِّ أحدٍ، لكنَّه يخفى على الإنسانِ لأسباب: إمَّا قلَّة العِلم، وإمَّا قصورُ الفَهم، وإمَّا التَّقصيرُ في الطَّلب، وإمَّا سوءُ القصد، فهذه أربعةُ أسبابٍ لخفاءِ الحُكم الشَّرعيِّ على الإنسانِ[5].

٣- كمالُ هذه الأمَّةِ وشريعتِها؛ لقوله: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٤٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٤٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فما من خيرٍ كانت عليه الأُمَمُ إلَّا ولهذه الأمَّةِ منه نصيبٌ(١).

٤- تكرَّر ذِكْرُ التوبة في قول الله تعالى: ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ قيل: لأنَّ الشَّهوةَ لَمَّا كانت في هذا البابِ غالبةً فلا بدَّ أن تُوجِبَ ما يُوجِبُ التَّوبةَ، فكرَّر سبحانه وتعالى ذِكْرَ التوبةِ مرَّتين(٢).

٥- في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾أنَّ اليُسرَ أحبُّ إلى اللهِ من العُسرِ؛ لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] ففيه الحثُّ على اتِّباعِ رُخَصِ اللهِ؛ لأنَّ الرُّخَصَ من التَّيسيرِ(٣).

٦- أنَّه إذا تعارَضَتِ الأدلَّةُ عند المستدِلِّ بين التَّيسيرِ والتَّعسيرِ، فالْأَوْلى أن يؤخَذَ بالتَّيسيرِ؛ لأنَّ هذا هو مرادُ اللهِ عزَّ وجلَّ، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾(٤).

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ وقولُه: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ وقولُه: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ له مناسبةٌ حَسَنةٌ؛ فإنَّه لَمَّا كان العبدُ له في هذا البابِ ثلاثةُ أحوالٍ: حالةُ جَهْلٍ بما يَحِلُّ له ويَحرُمُ عليه، وحالةُ تقصيرٍ وتفريطٍ، وحالةُ ضَعْفٍ وقِلَّةِ صَبْرٍ- قابَل سبحانه جهْلَ عبدِه بالبيانِ والهُدى، وتقصيرَه وتفريطَه بالتَّوبةِ، وضَعْفَه وقِلَّةَ صَبْرِه بالتَّخفيفِ، والله أعلم(٥).

٨- الإشارةُ إلى العلَّة بإرادةِ التَّخفيفِ على العبادِ، وهي قوله: ﴿وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٤٣).
(٢) ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٢٠٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٤٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٢٠٣).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٤٩).

٩- أنَّ ما كان مكروهًا للعبدِ، فإنَّ الله يُعبَّرُ عنه بالبناءِ للمفعولِ: ﴿وَخُلِقَ الإِنْسَانُ﴾ ولم يقُلْ: خلَق اللهُ، مع أنَّ ذِكرَ اللهِ واردٌ في الجملة الَّتي قبلها، ويؤيِّد هذا قولُ الجِنِّ: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠]، ويؤيِّده أيضًا ما في سورة الفاتحة: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فأضاف النِّعمةَ إلى اللهِ، وقال في الغضَب: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، ولم يقُلِ: الَّذين غضِبْتَ عليهم، مع أنَّ أوَّلَ مَن غضِب عليهم هو اللهُ عزَّ وجلَّ[1].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾: تذييلٌ قُصِد منه استئناسُ المؤمنين، واستنزالُ نفوسِهم إلى امتثالِ الأحكامِ المتقدِّمة من أوَّلِ السُّورةِ إلى هنا؛ فإنَّها أحكامٌ جَمَّةٌ، وأوامرُ ونواهٍ تُفضي إلى خَلْعِ عوائِدَ أَلِفُوها، وصَرْفِهم عن شَهواتٍ استباحُوها، كما أشارَ إليه قولُه بعدَ هذا: ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾[2].

- وهو استئنافٌ مسُوقٌ لتقريرِ ما سبَق من الأحكام، وبيان كونها جاريةً على مناهجِ المهتدينَ من الأنبياءِ والصَّالحين[3].

- وعبَّر بصيغةِ المضارعِ هنا ﴿يُرِيدُ﴾؛ للدَّلالةِ على تجدُّدِ البيانِ واستمرارِه؛ فإنَّ هذه التَّشريعاتِ دائمةٌ مستمرَّةٌ، فيكون بيانًا للمخاطَبينَ، ولِمَن جاء بعدَهم، وللدَّلالةِ على أنَّ الله يُبقي بعدها بيانًا متعاقبًا[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٤٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨-١٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٦٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨-١٩).

- وزِيدت اللَّامُ في قوله: ﴿لِيُبَيِّنَ﴾؛ للتَّأكيدِ على إرادةِ التَّبيينِ، وكذلك لتأكيدِ معنى الاستقبالِ اللَّازمِ للإرادة[١].

٢- قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾: فيه مبالغةٌ في الوصْفِ بالعِلم بالأشياء، الَّتي مِن جملتِها ما شرَع لكم من الأحكامِ، كما فيه مبالغةٌ في وصْفِه بمراعاةِ الحِكمةِ والمصلحة في جميعِ أفعالِه سبحانه[٢]، مع ما في جمْعِ الوصفينِ من الكَمالِ والمبالغةِ كذلك.

٣- قوله: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾: جملةٌ مسُوقةٌ لبيانِ كمالِ منفعةِ ما أراده اللهُ تعالى، وكمالِ مَضرَّةِ ما يريد الفجرةُ، لا لبيانِ إراداتِه تعالى لتوبتِه عليهم؛ حتَّى يكونَ مِن بابِ التَّكريرِ للتقريرِ؛ ولذلك غيَّر الأسلوبَ إلى الجملةِ الاسميَّة؛ للدَّلالةِ على دوامِ الإرادةِ[٣].

- وقد كرَّر قوله: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ بعدَ قولِه تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾؛ للتَّأكيدِ والمبالغةِ[٤]، وما في ذلك من سرور المؤمنين، وزيادة نشاطِهم في التَّعرُّضِ لتوبة الله عزَّ وجلَّ، وأيضًا توطئةً وتمهيدًا لقوله: ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ...﴾، والمعنى أنَّ اللهَ له هذه الإرادةُ، وللَّذين يتَّبِعون الشَّهواتِ تلك الإرادةُ[٥]. وقيل: كَرَّر قوله: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾؛ ليُرتِّبَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٦٨- ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٠).

(٤) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النِّساء)) (١/ ٢٤٥).

عليه قولَه: ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾؛ فليس بتأكيدٍ لفظيٍّ، وهذا كما يُعادُ اللَّفظُ في الجزاءِ والصِّفةِ ونَحوِها، كقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾[1] [القصص: ٦٣].

- وفي قولِه تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ تقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿وَاللَّهُ﴾ على الخَبرِ الفِعليِّ ﴿يُرِيدُ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّخصيصِ الإضافيِّ، أي: اللهُ وحْدَه هو الذي يُريد أنْ يَتوبَ عليكم، وأمَّا الذين يَتَّبِعون الشهواتِ فيُريدون انصرافَكم عن الحقِّ، ومَيْلَكم عنه إلى المعاصِي؛ ففي التعرُّضِ لإرادةِ الذين يتَّبعون الشَّهواتِ تنبيهُ المسلِمينَ إلى دَخائلِ أعدائِهم؛ ليَعْلَموا الفَرْقَ بَينَ مُرادِ اللهِ تعالى مِن الخَلْقِ، ومُرادِ أعوانِ الشياطينِ، وهم الذين يَتَّبِعون الشَّهواتِ[2].

٤- قوله: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾: الجملةُ اعتراضٌ تذييليٌّ مسُوقٌ لتقريرِ ما قبله من التَّخفيفِ بالرُّخصةِ في نكاحِ الإماء، وليس لضعفِ البِنية مدخلٌ في ذلك، وإنَّما الَّذي يتعلَّقُ به التَّخفيفُ في العبادات الشَّاقَّة[3]، ففيه إظهارٌ لمزيَّةِ هذا الدِّينِ، وأنَّه أليقُ الأديانِ بالنَّاسِ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ؛ ولذلك فما مضى من الأديانِ كان مُراعًى فيه حالٌ دون حالٍ[4]، وحُذِفَ الفاعلُ للعلم به؛ فإنَّ الخالقَ هو الله عزَّ وجلَّ، وذلك معلومٌ بالضَّرورةِ[5].

- وقوله: ﴿ضَعِيفًا﴾ فيه التَّعبيرُ باسمِ ما يؤولُ إليه، أو باسْمِ أصلِه[6].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٠- ٢١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٢١).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٦٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٤٩).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٠٧).

الآيات (٢٩ - ٣١)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٢٩) وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا (٣١) ﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿نُصْلِيهِ نَارًا﴾: نُدخِله فيها، ونَشويه بها؛ يقال: صَلَى النارَ، أي: دخَل فيها، وأصلُ (الصَّلَى): الإيقادُ بالنَّار [١].

﴿نُكَفِّرْ﴾: أي: نَغْفِر، ونَمحُ، ونستُر، وأصْل الكَفْر في اللُّغة: سَتْر الشَّيءِ وتَغطيتُه [٢].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَوْله: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً﴾.

﴿تِجَارَةً﴾: قُرِئت بالنَّصب، وبالرَّفْع؛ فعلى قِراءة النَّصبِ يكون قوله: ﴿تِجَارَةً﴾ خبرَ ﴿تَكُونَ﴾، ويكون اسم ﴿تَكُونَ﴾ مُضمرًا فيها، تَقْديره: إِلَّا أنْ تكون الأموالُ أموالَ تِجَارةٍ، ثمَّ حذف المُضَاف، وَأقَام الْمُضَاف إليه مقَامه، وَقيل: تَقْديره إِلَّا أنْ تكون التِّجَارَةُ تِجَارَةً، وَالتَّقْدِير الأوَّل أحسن؛ لتقدُّم ذِكرِ الْأَمْوَال. وأمَّا على قِراءة الرفع، فيكون قوله: ﴿تِجَارَة﴾ فاعلًا، بجَعْل

---

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧١٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢٢).

﴿تكُون﴾ تَامَّة بِمَعْنى يَقَع، ومثلُ قولِه: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً﴾ قَولُه: ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً﴾ فِي النَّصب والرفع. والاستثناءُ هنا منقطِعٌ لوجهينِ؛ أحدُهما: أنَّ التِّجارةَ لم تندَرِجْ في الأموالِ المأكولةِ بالباطلِ حتى يُستثنَى عنها، والثاني: أنَّ المُسْتَثنى كَوْنٌ، والكونُ ليس مالًا من الأموالِ(١).

المَعْنى الإجماليُّ:

ينهى اللهُ المؤمنين أن يأخذ بعضُهم أموالَ بعضٍ بغيرِ حقٍّ، لكنْ إن كان ما يأخُذُه بعضُهم من بعضٍ عن طريقِ التِّجارةِ المبنيَّة على رضا المتبايِعَيْن، فذلك حلالٌ لهم، كما ينهاهم سبحانه عن أن يقتُلَ أحدُهم نفسَه، أو يقتُل أخاه في الدِّين، إنَّه سبحانه كان بهم رحيمًا.

ثمَّ توعَّد سبحانه مَن يأخُذ أموالَ النَّاس بالباطلِ، ويقتُلُ الأنفُسَ الَّتي حرَّمها الله تعالى بغير حقٍّ، متجاوزًا حدودَ الله عن قصدٍ وعلمٍ بكونه محرَّمًا، بأنه سيُحرِقه سبحانه بنارٍ يُدْخِله فيها، وكان ذلك أمرًا سهلًا على الله.

ثمَّ يخاطِبُ اللهُ عباده: أنَّهم إن يبتعدوا عن الوقوع في كبائر السَّيِّئاتِ الَّتي نهى عنها، فإنَّ الله سيتجاوزُ عمَّا يصدُرُ منهم من صغائرِها، ويُدخِلُهم الجنَّةَ دارَ كرامَتِه.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٢٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن الله تعالى كيفيَّةَ التَّصرُّف في النُّفوسِ بالنِّكاحِ، بيَّن كيفيَّةَ التَّصرُّفِ في

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٩٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٥١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٦٦٣-٦٦٤).

الأموالِ المُوصِلَةِ إلى النّكاح، وإلى مِلْكِ اليمينِ، وأنَّ المهورَ والأثمانَ المبذولةَ في ذلك لا تكونُ ممَّا مُلِكَت بالباطِلِ(١).

وأيضًا لَمَّا كانَ غالبُ ما مضى من السُّورة في معاملةِ اليتامى والأقارب والنِّساء، وسائر النَّاس، من أحكامٍ في المواريثِ والنِّكاحِ، وما يُفرَض للنساء وما يجب مِن إيتائِهنَّ أجورَهنَّ، ومن أوامرَ بإيتاءِ ذي الحقِّ في المال حقَّه إلى غير ذلك، وكان مدارُ الكلامِ في تلك المعاملات على المال، وبعد ذِكرِ تلك الأنواعِ من الحقوقِ الماليَّةِ ذكَرَ قاعدةً عامَّةً للتَّعاملِ الماليِّ، وتشريعًا عامًّا في الأموال والأنفُسِ(٢) فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنونَ، لا يأخُذْ بعضُكم أموالَ بعضٍ بغيرِ حقٍّ، من وسائلِ الكَسْبِ المحرَّمةِ؛ كالرِّبا والقِمارِ، وغيرِ ذلك من الأمور الَّتي نهاكم اللهُ عزَّ وجلَّ عنها(٣).

﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾.

أي: لكنْ إن كان هذا المالُ الَّذي يأخذُه بعضُكم من بعضٍ، إنَّما يؤخَذُ بسببِ تجارةٍ صادرةٍ عن رضًا بين المتبايِعَيْنِ منكم، فذلك حلالٌ لكم(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٠٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٢٥٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٢٦، ٦٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٣٦، ٦٣٧) واقتصر في معنى الآية على النهي على أن يقتلَ بعضُ المسلمين بعضًا. ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦٨-٢٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٥١-٢٥٣). =

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾.

مناسبتها لما قبلها:

أنَّ المال لَمَّا كان عديلَ الرُّوح، ونهى عن إتلافِه بالباطلِ، نهى عن إتلافِ النَّفسِ؛ لكونِ أكثرِ إتلافِهم لهما بالغارات لنَهْبِ الأموالِ، وما كان بسببها أو تسبيبها، على أنَّ مَن أُكِل مالُه ثارت نفسُه، فأدَّى ذلك إلى الفِتَن الَّتي ربَّما كان آخرَها القتلُ، فكان النَّهيُ عن ذلك أنسبَ شيءٍ لِما بُنِيَتْ عليه السُّورةُ من التَّعاطُفِ والتَّواصلِ(١).

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾.

أي: لا يقتُلْ أحدُكم نفسَه الَّتي بين جنبيه، ولا يُلقِ بنفسه إلى التَّهلُكة، بفعلِ ما يُفضي إلى التَّلَف، ولا يقتُلْ أيضًا أخاه في الدِّين، (فمن قتَل غيرَه من إخوانِه في الدِّين، فكأنَّما قتَل نفسَه؛ لأنَّهم أهلُ دِينٍ واحدٍ)(٢).

كما قال تعالى: ﴿لاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ [الإسراء: ٣٣].

وعن ثابت بن الضَّحَّاكِ رضِي اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((... ومَن قَتَلَ نفسَهُ بشيءٍ في الدُّنيا، عُذِّبَ بِه يومَ القيامةِ))(٣).

وعن أبي هريرة رضِي اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((مَنْ

= قال ابن كثير: (ومن تمام التَّراضي، إثبات خيار المجلس، كما ثبت في الصحيحين [خ: ٢٠٧٩، م: ١٥٣٢]، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «البيِّعان بالخيار ما لم يتفرَّقا» وفي لفظ البخاري [٢١١٢]: «إذا تبايع الرجلان فكل واحد منهما بالخيار ما لم يتفرقا»). ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦٩).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٣٧)، ((تفسير السعدي)) (١/ ١٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٥٣-٢٥٤).

(٣) رواه البخاري (٦٠٤٧) واللفظ له، ومسلم (١١٠).

قتَلَ نفسَهُ بحديدَةٍ، فحديدتُهُ في يدِهِ يتوَجَّأُ[١] بها في بطنِهِ في نارِ جهنَّمَ، خالدًا مُخَلَّدًا فيها أبدًا، ومَنْ شرِبَ سمًّا فقتَلَ نَفْسَهُ، فهو يتحسَّاهُ[٢] في نارِ جهنَّمَ، خالدًا مُخَلَّدًا فيها أبدًا، وَمَنْ تَرَدَّى مِنْ جبَلٍ فقتَلَ نفسَهُ، فهو يتردَّى في نارِ جهنَّمَ، خالدًا مُخَلَّدًا فيها أبدًا))[٣].

وعن جُندُبِ بنِ عبد الله رضِي اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((كان فيمن كان قبلكم رجلٌ به جرحٌ، فجَزِع، فأخَذ سِكِّينًا فحزَّ[٤] بها يدَه، فما رقأ الدَّمُ[٥] حتَّى مات، قال اللهُ تعالى: بادَرني عبدي بنفسِه[٦]، حرَّمتُ عليه الجنَّةَ))[٧].

وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه، عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((اجتنِبُوا السَّبعَ الموبِقاتِ. قالوا: وما هنَّ؟ قال: الشِّركُ بالله، والسِّحر، وقتلُ النَّفس التي حرَّم الله إلا بالحقِّ)).

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى ذو رحمةٍ بكم أيُّها العبادُ، ومن رحمتِه سبحانه بِكُم: أنْ نهاكم عن قتلِ نفوسِكم، وعن إتيانِ ما فيه هلاكُها، ومن رحمتِه أيضًا: أنْ حرَّم دماءَ بعضِكم على بعضٍ إلَّا بحقِّها، وحظَرَ أَخْذَ أموالِ بعضِكم من بعضٍ بالباطل، إلَّا عن تجارةٍ برضًا وطِيبِ نفسٍ، ولولا ذلك لهلَكْتم، ولأهلَك بعضُكم بعضًا،

(١) يتوجَّأ: يَطْعُنُ. ينظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ١٢١)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ٢٤٨).

(٢) يتحسَّاه: يَشْرَبُه في تمهُّلٍ، ويتجَرَّعُه. ينظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ١٢١).

(٣) رواه مسلم (١٠٩).

(٤) فحزَّ بها يدَه: الحزُّ: هو القطعُ بغيرِ إبانةٍ. ينظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٤٩٩).

(٥) فما رَقَأَ الدم: أي: لم ينقَطِعْ. ينظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٥٠٠).

(٦) بادَرني عبدي بنفْسِه: هو كنايةٌ عن استعجالِ المذكورِ الموتَ. ينظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٥٠٠).

(٧) رواه البخاري (٣٤٦٣) واللفظ له، ومسلم (١١٣).

قتلًا وسلبًا وغصبًا[١].

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠)﴾.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا﴾.

أي: إنَّ مَن يأكُل أموالَ النَّاس بالباطل، ويقتُل النُّفوسَ الَّتي حرَّم اللهُ تعالى قتلها بغير حقٍّ، متجاوزًا بذلك حدودَ الله تعالى إلى ما حرَّمه، ومتجاسرًا على انتهاكِ ذلك، عن قصدٍ وعلمٍ بتحريمِه، لا عن جهلٍ أو نسيانٍ[٢].

﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾.

أي: فسوف ندخِلُه نارًا عظيمةً تُحرِقه[٣].

﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾.

أي: إنَّ إدخالَه النَّارَ وإحراقَه بها، أمرٌ سهلٌ على الله تعالى، لا يمتنعُ عليه[٤].

﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا (٣١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى الوعيدَ على فِعلِ بعضِ الكبائر، ذكَر الوعدَ على اجتنابِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٥٩١-٢٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٤٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٦٠).

الكبائرِ؛ تبشيرًا للمُجتنب، كأنَّ قائلًا قال عن الوعيدِ المذكور: هذا للفاعل، فما للمُجتنِبِ؟ فقال على وجهٍ عامٍّ[1]:

﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾.

أي: إذا ابتعدْتُم عن كبائرِ السَّيِّئاتِ الَّتي نُهِيتم عنها[2].

﴿نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾.

أي: فإنَّ اللهَ تعالى يتجاوَزُ لكم عن صغائرِ الذُّنوبِ[3].

﴿وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾.

أي: ونُدخِلْكم الجنَّةَ[4].

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ أضاف الأموالَ إلى الجميعِ، فلم يقُلْ: لا يأكُلْ بعضُكم مالَ بعضٍ؛ للتَّنبيهِ على تكافُلِ الأمَّةِ في حقوقِها ومصالحِها، كأنَّه يقولُ: إنَّ مالَ كلِّ واحد منكم هو مالُ أمَّتِكم، فإذا استباح أحدُكم أن يأكُلَ مالَ الآخَرِ بالباطل، كان كأنَّه أباح لغيرِه أكلَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٢٦١)..

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٦١- ٢٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٦٢).

قال ابنُ عثيمين: (نُدخلكم في مكانِ دخولٍ كريمٍ، بناءً على أنَّ مدخلَ هنا اسمُ مكانٍ، ويجوزُ أن يكونَ مصدرًا ميميًّا، أي: ندخلكم إدخالًا كريمًا، ويجوزُ أن يرادَ بها هذا وهذا، أي: أنَّ الكريمَ وصفٌ للإدخالِ ولمكانِ الدخولِ).

مالِه، وهَضْمَ حقوقِه؛ لأنَّ المرءَ يُدانُ كما يَدِينُ[١].

٢- يُستفادُ أيضًا من إضافةِ الأموالِ للجميع في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ أنَّ صاحبَ المالِ الحائزَ له يجبُ عليه بذلُه- أو البذلُ منه- للمحتاجِ، فكما لا يجوزُ للمحتاج أن يأخُذَ شيئًا من مالِ غيرِه بالباطل- كالسَّرقةِ والغَصْبِ- لا يجوزُ لصاحبِ المال أن يبخَلَ عليه بما يحتاجُ إليه[٢].

٣- أنَّ مِن مقتضى الإيمانِ تجنُّبَ أكلِ المالِ بالباطل؛ لأنَّه وجَّه الخطابَ إلى المؤمنين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾[٣].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قوله تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ تحريمُ التَّعامُلِ المحرَّمِ، ولو كان برِضًا من الطَّرفينِ؛ لأنَّ التَّعامُلَ المحرَّمَ أكلٌ للمالِ بالباطل، وعلى هذا فلو تراضى الطَّرفانِ على تعامُلٍ رِبويٍّ فإنَّ ذلك محرَّمٌ[٤].

٢- الأصلُ في العقودِ هو التَّراضي المذكورُ في قَوْلِه سبحانه: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾[٥].

٣- يؤخَذُ من قوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ أنَّه تنعقِدُ العقودُ بما دلَّ عليها من قولٍ أو فِعلٍ؛ لأنَّ اللهَ شرَط الرِّضا، فبأيِّ طريقٍ حصَل الرِّضا انعقَد به العقدُ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٣٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٥٥).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٤/ ٥).
(٦) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٦).

٤- في قوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً﴾: خصَّ التِّجارة بالذِّكرِ؛ لأنَّ أسبابَ الرِّزق أكثرُها متعلِّقٌ بها[١].

٥- ذهب جمهورُ الفقهاء إلى عدم جوازِ التَّسعيرِ في الأحوال العاديَّة التي لا يظهَرُ فيها ظُلمُ التجَّار ولا غَلاءٌ في الأسعار، مستدِلِّينَ بقول الله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ ووجه الدَّلالة في الآيةِ الكريمة أنَّ النَّاسَ مُسَلَّطون على أموالِهم، والتَّسعيرُ حَجْرٌ عليهم، والإمامُ مأمورٌ برعاية مصلحة المسلمينَ، وليس نظَرُه في مصلحةِ رُخْصِ الثَّمْن أَوْلى مِن نَظَرِه في مصلحة البائِعِ بتوفير الثَّمَن، وإذا تقابل الأمران وَجَب تمكينُ الفريقين من الاجتهادِ لأنفُسِهم، وإلزامُ صاحِبِ السِّلعةِ أن يبيعَ بما لا يرضى به مُنافٍ لقَوْلِ الله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾[٢].

٦- أنَّ الله عزَّ وجلَّ أرحمُ بالإنسانِ من نفسِه؛ لأنَّه نهاه أن يقتُلَ نفسَه، فصار أرحَمَ به مِن نفسِه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾[٣].

٧- أنَّ فِعلَ المنهيَّاتِ المذكورةِ في الآية من كبائر الذُّنوب؛ لأنَّه تُوُعِّدَ عليه بالنَّارِ، فقال: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ وكلُّ ذنْبٍ تُوُعِّدَ عليه بالنَّارِ فهو من كبائرِ الذُّنوب[٤].

٨- دلَّتْ إضافةُ ﴿كَبَائِرَ﴾ إلى ﴿مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ على أنَّ المنهيَّاتِ قسمانِ: كبائر، ودونها، وهي الَّتي تُسمَّى الصَّغائر، وصفًا بطريقِ المقابلةِ، وقد سُمِّيت هنا سيِّئات[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٧٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦١٠).

(٢) ((الحسبة)) لابن تيمية (ص: ١١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٥٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٦٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٦).

٩- قوله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ فيه تفاضُلُ النَّاسِ في الإيمانِ، وجهُه: أنَّ الإيمانَ يزدادُ بزيادة العملِ كَمِّيَّةً أو كيفيَّةً أو نوعًا، وهنا قسَّم اللهُ المعاصيَ إلى قسمينِ، وكلَّما كان الإنسانُ في معصيةٍ أشدَّ، كان إيمانُه أنقَصَ وأقلَّ، فيؤخَذُ منه أنَّ الإيمانَ يزيدُ وينقُصُ، وهذا هو الَّذي عليه جمهورُ أهلِ السُّنَّة، بدليلِ الكتاب والسُّنَّةِ والواقع[1].

١٠- أنَّ الصَّغائرَ تقعُ مُكفَّرةً باجتنابِ الكبائرِ؛ لقوله: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾، أي: فإن لم يَجتنِبِ الكبائرَ أُخِذَ بالصَّغائرِ، لكنَّ الكبائرَ والصَّغائرَ تحت المشيئةِ ما لم تكُنْ كفرًا[2].

١١- سَعةُ فَضلِ الله سبحانه؛ وذلك بتكفير السَّيِّئاتِ باجتنابِ كبائرِ الذُّنوب، وإلَّا لو جازى النَّاسَ بالعدل لعاقَبهم على الصَّغائر وعلى الكبائرِ، كلٌّ منها بحسَبِه؛ فالكبائرُ عقوبتُها شديدةٌ، والصَّغائرُ دون ذلك، ولكن مِن فَضْله عزَّ وجلَّ جعَل الصَّغائرَ مُكفَّرةً باجتنابِ الكبائرِ[3].

١٢- قولُ الله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ فيه إشارةٌ بألطفِ دَلالةٍ وأدقِّها وأحسنِها إلى أنَّه مَن اجتنبَ الشِّركَ جميعَه كُفِّرتْ عنه كبائِرُه، وأنَّ نِسبةَ الكبائرِ إلى الشِّركِ كنِسبةِ الصَّغائرِ إلى الكبائرِ، فإذا وقعتِ الصَّغائرُ مُكفَّرةً باجتنابِ الكبائرِ، فالكبائرُ تقَعُ مكفَّرةً بإذن الله تعالى باجتنابِ الشِّركِ[4].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾: فيه تصديرُ الخِطاب بالنِّداءِ والتَّنبيهِ بـ﴿يَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٥).

(٤) ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٧٣).

أَيُّهَا﴾؛ لإظهارِ كمال العناية بمَضمونِه(١)، مع ما في وصْفِ الإيمانِ من التَّرغيبِ في الامتثالِ اللَّائقِ بأهلِ هذا الوَصْفِ.

٢- قوله: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾: خصَّ الأكلَ ها هنا بالذِّكرِ، وإنْ كانت سائرُ التَّصرُّفاتِ الواقعةِ على الوجه الباطل محرَّمةً؛ لأنَّ المقصودَ الأعظمَ من الأموال: الأكلُ؛ إذ إنَّ الأكلَ يعبَّرُ عنه في الانتفاعِ بالشَّيءِ انتفاعًا تامًّا، لا يعود معه إلى الغير؛ فأكلُ الأموالِ هو الاستيلاءُ عليها بنيَّةِ عدمِ إرجاعها لأربابها، وغالب هذا المعنى أن يكونَ استيلاءَ ظُلمٍ، وقد يُطلقُ على الانتفاعِ المأذون فيه؛ ولذلك غلَب تقييدُ المنهيِّ عنه من ذلك بقيدِ: «بالباطل» ونحوِه(٢).

٣- قوله: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ... وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾: فيه تقديمُ النَّهيِ عن أكلِ الأموالِ على النَّهيِ عن قتلِ الأنفُس، مع أنَّ الثَّانيَ أخطرُ، إمَّا لأنَّ مناسبةَ ما قبله أفضَتْ إلى النَّهيِ عن أكلِ الأموالِ، فاستحقَّ التَّقديمَ لذلك، وإمَّا لأنَّ المخاطَبين كانوا قريبي عهدٍ بالجاهليَّةِ، وكان أكلُ الأموالِ أسهلَ عليهم، وهم أشدُّ استخفافًا به منهم بقتلِ الأنفُس؛ لأنَّه كان يقعُ في مواقعِ الضَّعف، حيث لا يدفَعُ صاحبُه عن نفسه؛ كاليتيمِ والمرأةِ والزَّوجة؛ فآكِلُ أموالِ هؤلاء في مأمنٍ من التَّبعاتِ، بخلاف قَتْلِ النَّفس؛ فإنَّ تبعاتِه لا يسلَمُ منها أحدٌ، وإن بلَغ من الشَّجاعةِ والعزَّة في قومه كلَّ مبلغٍ(٣).- أو لأنَّه أكثرُ وقوعًا، وأفشى في النَّاس من القتلِ، لا سيَّما إن كان المرادُ ظاهرَ الآية، مِن أنَّه نهى أن يقتُلَ الإنسانُ نفسَه، فإنَّ هذه الحالةَ نادرةٌ(٤). ويُمكن أنْ يكونَ ذلِكَ من بابِ التدرُّجِ مِن الأدْنى إلى الأعْلى- كما هو الغالِبُ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٧٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٣)
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٤)
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦١٢).

- والتَّعبير عنهم بالأنفُسِ؛ للمبالَغةِ في الزَّجرِ عن قتلِهم؛ بتصويرِه بصورةِ ما لا يكادُ يفعَلُه(١).

٤- **قوله:** ﴿**إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا**﴾: تعليلٌ للنَّهيِ بطريق الاستئنافِ، أي: مبالِغًا في الرَّحمة والرَّأفةِ؛ ولذلك نهاكم عمَّا نهى؛ فإنَّ ذلك رحمةٌ عظيمةٌ لكم بالزَّجرِ عن المعاصي، وللَّذين هم في مَعرِضِ التعرُّضِ لهم بحفظِ أموالِهم وأنفسِهم(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيتان (٣٢ - ٣٣)

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٣٢) وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٣٣)﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿مَوَالِيَ﴾: أولياء، وهم الورَثة، أو العَصَبة، ويُطلَق المولى على ابنِ العَمِّ والحليف وغير ذلك، وأصل (وَلِي): قُرْب[١].

﴿عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾: الأيمانُ: جمعُ يمين، وهو الحَلِف، وعقدُ اليمين: توثيقُها باللَّفظ مع العزمِ عليها، وأصل (عقد): يدلُّ على شدٍّ، وشدَّةِ وُثوقٍ[٢].

المَعْنى الإجماليُّ:

يَنهى اللهُ عباده عن تمنِّي ما فضَّلَ به بعضَهم على بعضٍ، مخبرًا أنَّ لكلٍّ من الرِّجالِ والنِّساء جزاءً على ما عمِلوه، إن كان خيرًا فخير، وإن كان شرًّا فشرٌّ، ثمَّ أرشَدهم إلى ما هو خيرٌ لهم، فأمَرهم أن يسألوا اللهَ من فضلِه ليُعطيَهم، فهو سبحانه بكلِّ شيءٍ عليم.

ثمَّ أخبر تعالى أنَّه قد جعل لكلِّ إنسان عَصَبةً يرِثونه بعد موته، فيقتسمون

(١) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عُبيدة (١/ ١٢٤)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٥).

(٢) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٤١)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٨٦).

ما حصَل هو عليه وراثةً من أبيه وأمِّه وأقاربه، والَّذين بينكم وبينهم ولاءُ حِلْفٍ معقودٌ بالأيمانِ المؤكَّدة، فأعطوهم نصيبَهم من الميراثِ، وهذا الحكم قد نُسِخَ. ثم أخبر الله تعالى أنه مُطَّلِعٌ ورقيبٌ على كلِّ شيءٍ.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٣٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا نهاهم الله تعالى في الآيةِ المتقدِّمةِ عن أكْلِ الأموال بالباطل، وعن قتلِ النَّفسِ، نهاهم عن تمنِّي ما فضَّل اللهُ به بعضَهم على بعضٍ؛ فإن التَّمنِّيَ يحبِّبُ للمتمنِّي الشَّيءَ الَّذي تمنَّاه، فإذا أحبَّه أتبَعَه نفسَه، فرَامَ تحصيلَه، وافتَتَن به ووقَع في الحسدِ، وإذا وقَع في الحسدِ وقَع لا محالةَ في أخذِ الأموالِ بالباطلِ، وفي قتْل النُّفوس، فلم يكتفِ بالنَّهيِ عن تحصيلِ المالِ بالباطلِ وقتلِ الأنفُس، حتَّى نهى عن السَّببِ المحرِّضِ على ذلك.

وأيضًا فإنَّ أخذَ المالِ بالباطل، وقَتْلَ النَّفس، من أعمالِ الجوارحِ، فأمَر أوَّلًا بتركِهما؛ ليصيرَ الظَّاهرُ طاهرًا عن الأفعالِ القبيحة، ثمَّ أمَر بَعْده بتركِ التَّعرُّضِ لنفوس النَّاسِ وأموالِهم بالقلبِ على سبيل الحسدِ؛ ليصير الباطنُ طاهرًا عن الأخلاقِ الذَّميمةِ، وليوافِقَ العملُ القلبيُّ العملَ الخارجيَّ، فيستويَ الباطنُ والظَّاهرُ في الامتناعِ عن الأفعالِ القبيحةِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٨).

سَببُ النُّزول:

عن ابن عبَّاسٍ رضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((أتت امرأةٌ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم فقالت: يا نبيَّ اللهِ، لِلذَّكَرِ مِثلُ حظِّ الأُنثيَيْنِ، وشَهادةُ امرأتينِ برجُلٍ، أفنحن في العملِ هكذا؟ إن عمِلَتِ المرأةُ حسنةً كُتِبَت لها نصفَ حسنةٍ! فأنزَل اللهُ: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا...﴾ الآية))[1].

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾

أي: لا تطمَعوا في أمرٍ قد فضَّل اللهُ تعالى به بعضَكم على بعضٍ؛ كالجهادِ والعِلم، والمال، والولد، وغيرِ ذلك من أمور الدِّين أو الدُّنيا[2].

﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ﴾

أي: كلٌّ له جزاءٌ على عمله بحسَبِه، إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشرٌّ[3].

﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (٥٢٢٣)، والضياء في ((الأحاديث المختارة)) (١١٥). وصحَّح إسناده أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٤٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٧١).

قال ابنُ كثير: (ولا يَرِدُ على هذا ما ثبَتَ في الصحيح: ((لا حسدَ إلا في اثنتين: رجل آتاه اللهُ مالًا فسلَّطه على هلكتِه في الحقِّ، فيقول رجلٌ: لو أنَّ لي مثل ما لفلانٍ لعملتُ مثلَه. فهما في الأجرِ سواءٌ))؛ فإنَّ هذا شيءٌ غيرُ ما نهت الآية عنه؛ وذلك أنَّ الحديث حضَّ على تمنِّي مثلِ نعمةِ هذا، والآية نهت عن تمنِّي عينِ نعمةِ هذا) ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٨٧).

وقال ابنُ رجب في معنى الآيةِ: (فُسِّر ذلك بالحسد، وهو تمني الرجلِ نفسَ ما أُعطي أخوه مِن أهلٍ ومالٍ، وأن ينتقلَ ذلك إليه، وفسِّر بتمنِّي ما هو ممتنعٌ شرعًا أو قدرًا، كتمني النساء أن يكنَّ رجالًا، أو يكونَ لهنَّ مثل ما للرجالِ من الفضائل الدينية، كالجهادِ، والدنيوية، كالميراثِ والعقلِ والشهادةِ، ونحو ذلك. وقيل: إنَّ الآية تشملُ ذلك كلَّه) ((جامع العلوم والحكم)) (١/ ٣٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٨٧).

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا نهاهم اللهُ تعالى عن تمنِّي ما فضَّل به بعضَهم على بعض؛ لأنَّه أمرٌ محتوم، والتَّمنِّي فيه لا يُجدي شيئًا، أرشَدهم إلى ما يُصلحُهم، فقال[1]:

﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

أي: ولكنِ اسألوا الله تعالى من فضله ليُعطيَكم؛ فإنَّه الكريمُ الوهَّاب جلَّ جلالُه[2].

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى ذو علمٍ بكلِّ شيء، ومن ذلك علمُهُ بمن يستحقُّ أن يعطيَه من فضلِه، وبمن يستحقُّ الحِرمان؛ وذلك كقَصرِه القتالَ في سبيله على الرجال؛ لعِلمِه بأنَّهم أقدَرُ عليه وأصلَحُ له[3].

﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٣٣)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لما قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾، عطَف

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (١/ ٢٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٧٢- ٢٧٣).

قال ابن عثيمين: (فمثلًا: إذا رأيت شخصًا قد فضلك في المالِ فلا تتمنَّ هذا المالَ الذي أعطاه الله هذا الرجلَ، ولكنِ اسأل الله من فضله، وإذا وجدت رجلًا فضلك في العلمِ فلا تتمنَّ هذا العلمَ الذي أعطاه الله غيرَك، ولكنِ اسألِ اللهَ مِن فضلِه ودعْ علمَه ومالَه يبقَى له) ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٨٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٨١).

عليها هذه الجملةَ باعتبارِ كونِه جامعًا لمعنى النَّهي عن الطَّمعِ في مال صاحب المال، قُصِد منها استكمالُ تبيينِ مَن لهم حقٌّ في المال(١).

﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾.

أي: قد جعَل اللهُ تعالى لكلِّ واحدٍ منكم أيُّها النَّاسُ عَصَبةً، كإخوتِه وبني عمِّه، يرِثونه ممَّا ورِثه هو مِن أبيه وأمِّه، وسائرِ قَرابتِه(٢).

﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾.

النَّاسخ والمَنسوخ:

قيل: هذه الآية منسوخةٌ بقوله تعالى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥]، وهذا قولُ جمهورِ العلماء(٣)، وقيل: هي مُحكَمةٌ(٤).

﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾.

قيل: المعنى: وأمَّا الَّذين بينكم وبينهم ولاءُ حِلفٍ معقودٌ بالأيمانِ المؤكَّدة، فأعطوهم نصيبَهم من الميراثِ(٥).

وقيل: المرادُ: أعطوهم نصيبَهم من النُّصرةِ والمناصَحةِ، ونحوِ ذلك(٦).

عن ابنِ عباسٍ رضِي اللهُ عنهما، قال: ((﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾ قال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((نواسخ القرآن)) لابن الجوزي (٢/ ٣٦٩).

(٤) وممن ذَهب إلى أنَّها محكمةٌ: ابنُ جريرٍ في ((تفسيره)) (٦/ ٦٧٣، ٦٨٦).

(٥) وهذا اختيارُ الواحديِّ في ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٤٤)، وابُن كثيرٍ في ((تفسيره)) (٢/ ٢٨٨، ٢٩٢)، وابنُ عثيمينَ في ((تفسير سورة النساء)) (١/ ٢٨٢).

(٦) وهذا اختيارُ ابنِ جريرٍ في ((تفسيره)) (٦/ ٦٧٣، ٦٨٦)، والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ١٧٦).

وَرَثَةً، ﴿وَالَّذِينَ عَاقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾: كانَ المُهاجِرونَ لَمَّا قَدِموا المدينةَ يَرِثُ المُهاجِرَ الأنصارِيُّ دون ذوي رحِمِه، للأخوَّةِ الَّتي آخَى النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بينهم، فلمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾ نُسِخَتْ، ثمَّ قال: ﴿وَالَّذِينَ عَاقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾: من النَّصرِ والرِّفادَةِ[1] والنَّصيحةِ، وقد ذهَب المِيراثُ، ويوصِي له))[2].

وعن جُبَير بن مُطعِمٍ رضِي اللهُ عنه، أنَّه قال: ((لا حِلفَ[3] في الإسلامِ، وأيُّما حِلفٍ كانَ في الجاهليَّةِ، لم يزِدْه الإسلامُ إلَّا شِدَّةً))[4].

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ رقيبٌ، شاهدٌ لا يغيبُ عنه شيءٌ، ومطَّلعٌ على كلِّ شيء؛ وذلك بعِلمِه لجميعِ الأمور، وبصَرِه لحركاتِ عبادِه، وسمعِه لجميع أصواتِهم، ومن ذلك: اطِّلاعُه عليكم- أيُّها المؤمنون- في مسألةِ إيتاء الموالي بالحِلفِ نصيبَهم، فيعلَم هل تؤتونهم ذلك أو لا؛ ولذا فاحذَروا من مخالفةِ أمرِه جلَّ وعلا[5].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- نهيُ الإنسانِ أن يَتمنَّى ما فضَّل اللهُ به غيرَه عليه؛ لقوله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا﴾، وهذا النَّهي للتَّحريمِ؛ لأنَّ هذا النَّوعِ مِن التَّمنِّي هو الحسَدُ بعينه؛ لأنَّه قال: ﴿مَا

(١) الرِّفادة- بكَسْرِ الرَّاء- هي الإعانةُ والإعطاء، ورِفادة قُرَيش: تعاونُها على ضِيافةِ الحاجِّ. ينظر: ((مطالع الأنوار)) لابن قرقول (٣/ ١٧٣)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٢٤٢)، ((عمدة القاري)) للعيني (١٨/ ١٧٠).

(٢) رواه البخاري (٤٥٨٠).

(٣) الحِلْفُ: هو المعاقدةُ والمعاهدةُ على التَّعاضُدِ والتَّساعُدِ والاتِّفاق. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٤٢٤).

(٤) رواه مسلم (٢٥٣٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٨٣)، وينظر أيضًا: ((شأن الدعاء)) للخطابي (ص: ٧٥).

فَضَّلَ اللَّهُ﴾[١]، وقد كان أوَّلُ جُرمٍ حصَل في الأرض نشأ عن الحسدِ، ولقد كثُر ما انتُهِبَتْ أموالٌ، وقُتِلت نفوسٌ؛ للرَّغبةِ في بسطةِ رزقٍ، أو فتنةِ نساء، أو نَوالِ مُلك، والتَّاريخُ طافحٌ بحوادثَ من هذا القَبيلِ[٢].

٢- قوله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ...﴾ عامٌّ في النَّهيِ عن تمنِّي ما فضَّل اللهُ بعضَ المؤمنين على بعضٍ من أيِّ أنواعِ التَّفضيلِ؛ في الوظيفةِ والمكانة، وفي الاستعداداتِ والمواهبِ، وفي المال والمتاعِ، وفي كلِّ ما تتفاوَتُ فيه الأنصبةُ في هذه الحياة[٣]، لكن يجوزُ أن يتمنَّى الإنسانُ مِثلَ ما فضَّل اللهُ به غيرَه عليه، وجْهُه قوله: ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾، فنحن لا نقول لك: لا تتمَنَّ أن يعطيَك اللهُ مثلما أعطى فلانًا، بل نقول: لا بأس، ولكن لا تتمَنَّ ما أعطاه اللهُ فلانًا، وبينهما فرق[٤].

٣- إذا مَنَعَ اللهُ عبادَه المؤمنين شيئًا تتعلَّقُ به إرادتُهم، فتح لهم بابًا أنفعَ لهم منه، وأسهَلَ وأَوْلَى، وهذا من لُطْفِه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ فنهاهم عن تمنِّي ما ليس بنافعٍ، وفتَحَ لهم أبوابَ الفَضْلِ والإحسان، وأمَرَهم أن يسألوه بلسانِ الحالِ[٥].

٤- سَعةُ فضلِ الله عزَّ وجلَّ وكرمِه؛ لقوله: ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾؛ فهو سبحانه لم يأمُرْنا بالسُّؤالِ إلَّا ليُعطيَنا؛ لأنَّه لو أمَرنا بالسُّؤالِ مِن غير أن يُعطيَنا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٨).

(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٦٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٧٤).

(٥) يُنظر: ((القواعد الحسان لتفسير القرآن)) للسعدي (ص: ١٢٤).

لكان هذا عبثًا لا فائدةَ منه، ولكنَّه عزَّ وجلَّ كريمٌ، هو الَّذي يتعرَّضُ لعبادِه ويقول: اسألوني[١].

٥- التسليمُ بما حكَمَ اللهُ به شرعًا أو قدَرًا؛ وذلك لأنَّ العبدَ إذا علم أنَّه صادرٌ عن عِلمِ الله سلَّمت، وقال: لولا أنَّ المصلحةَ في وجود هذا الشَّيء ما فعَله اللهُ؛ لأنَّ اللهَ سبحانه لا يفعَلُ إلَّا عن علمٍ، فيَزيدُه هذا تسليمًا بما قضاه اللهُ شرعًا أو قدَرًا، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾[٢].

٦- يُستفاد من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾وجوبُ مراقبةِ الله؛ لأنَّ العاقلَ إذا علِم أنَّ الله سبحانه عليمٌ به، فسوف يراقبُ ربَّه بلسانِه وجَنانِه وأركانه؛ بلسانِه: بألَّا يقولَ ما حرَّم اللهُ، وجَنانِه: بألَّا يعتقدَ شيئًا حرَّمه اللهُ، أو يقولَ شيئًا حرَّمه اللهُ بالقلب؛ لأنَّ قولَ القلب هو حركتُه وعملُه، وأركانه: جوارحه بألَّا يعملَ ما حرَّمه الله[٣].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- حِكمةُ الله سبحانه في العطاءِ والمنعِ؛ حيث يفضِّلُ بعضًا على بعض، ولا شكَّ أنَّ هذا صادرٌ عن حِكمة، وليس مجرَّدَ اختيارٍ، خلافًا لِمَن أنكَر حكمةَ الله، وقال: إنَّ فِعلَه لمجرَّدِ الاختيار، بل هو لاختيارٍ صادرٍ عن حكمةٍ، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾[٤].

٢- فضَّلَ اللهُ تعالى الذَّكَر على الأنثى في الميراثِ والدِّيَة والشَّهادة والعقيقةِ وغيرِ ذلك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٧٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٧٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٧٤).

لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ فكان من تفضيله الذَّكَرَ على الأنثى أن خُصَّ الذَّكرُ بجوازِ نكاحِ أكثَرَ من واحدةٍ، والله أعلم[١].

٣- إذا كان اللهُ تعالى في قوله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ نهى عن مجرَّد التمنِّي، فكيفَ بمَن يُنكر الفوارقَ الشرعيَّة بينَ الرَّجل والمرأةِ، ويُنادي بإلغائِها، ويطالبُ بالمساواةِ، ويدعو إليها باسمِ المساواةِ بينَ الرَّجل والمرأةِ؟ فهذه بلا شكٍّ نظريةٌ إلحاديةٌ؛ لما فيها مِن منازعةٍ لإرادةِ اللهِ الكونيَّة القدريَّة في الفوارقِ الخَلقيةِ والمعنويَّة بينهما، ومنابذةٍ للإسلامِ في نصوصِه الشرعيَّة القاطعةِ بالفرقِ بينَ الذَّكر والأُنثى في أحكامٍ كثيرةٍ. ولو حصَلت المساواةُ في جميعِ الأحكامِ مع الاختلافِ في الخِلقةِ والكِفايةِ؛ لكان هذا انعكاسًا في الفطرةِ، ولكان هذا هو عينَ الظلمِ للفاضلِ والمفضولِ، بل ظلمٌ لحياةِ المجتمعِ الإنسانيِّ، لما يلحقُه مِن حرمانِ ثمرةِ قُدراتِ الفاضلِ، والإثقالِ على المفضولِ فوقَ قدرتِه، وحاشا أن يقعَ مثقالُ خردلةٍ مِن ذلك في شريعةِ أحكمِ الحاكمين[٢].

٤- المنهجُ الإسلاميُّ يتبعُ الفطرةَ في تقسيمِ الوظائفِ، وتقسيمِ الأنصِبَة بين الرِّجال والنِّساء، فالرجلُ والمرأةُ أُودعَ كلٌّ منهما خصائصَه المميِّزةَ؛ وأُنيط بكلٍّ منهما وظائفُ معيَّنة، لا لحسابه الخاصِّ، ولا لحساب جنسٍ منهما بذاتِه، ولكن لحساب هذه الحياةِ الإنسانيَّةِ الَّتي تقومُ، وتنتظمُ، وتستوفي خصائصَها، وتحقِّقُ غايتَها- من الخلافةِ في الأرضِ، وعبادةِ الله بهذه الخلافة- عن طريقِ هذا التَّنوُّعِ بين الجِنسينِ، والتَّنوُّعِ في الخصائصِ، والتَّنوُّعِ في الوظائف، وعن طريق تنوُّعِ

(١) ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ٤١).
(٢) ينظر: ((حراسة الفضيلة)) لبكر أبو زيد (ص: ٢١).

الخصائصِ وتنوُّعِ الوظائف ينشأُ تنوُّعُ التَّكاليف، وتنوُّعُ الأنصِبة، وتنوُّعُ المراكزِ، لحسابِ تلك الشَّركةِ الكبرى، والمؤسَّسة العُظمى.. المسمَّاةِ بالحياةِ(١).

٥- إثباتُ أنَّ الأحكامَ تدورُ مع عِلَلِها؛ لقوله: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ﴾؛ فنصيبُ الرِّجال يليقُ بهم، ونصيبُ النِّساء يليقُ بهنَّ(٢).

٦- أنَّ إثباتَ الإرثِ يكونُ بالنَّسَبِ والسَّببِ: بالنَّسَبِ؛ لقوله: ﴿مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾، وبالسَّبب؛ لقوله: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾، فإنَّ هذا سببُه فعلُ الإنسان؛ كالزَّوجيةِ؛ فإنَّها سببٌ، وليست بنسَبٍ، والإرث بالعِتق سببٌ، وليس بنسَبٍ(٣).

٧- قوله: ﴿وَالْأَقْرَبُونَ﴾ هذه كلمةٌ واسعة، ولم يقُلِ: القَرابات، بل قال: ﴿وَالْأَقْرَبُونَ﴾؛ لأنَّ الميراثَ يكونُ للأقربِ فالأقرب، حتَّى ذوو الفروضِ يُفضَّل الأقربُ على الأبعد؛ فالبِنتُ مع بنتِ الابنِ لها النِّصفُ، ولبنتِ الابنِ السُّدسُ، والبنتان يُسقطانِ بناتِ الابنِ، والأختُ الشَّقيقةُ مع الأختِ لأبٍ لها النِّصفُ، والأختان الشَّقيقتانِ تُسقطانِ الأخواتِ لأبٍ، وهلُمَّ جرًّا؛ ولهذا قال: ﴿وَالْأَقْرَبُونَ﴾ أي: الأقربُ فالأقربُ(٤).

٨- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ إثبات اسم الشَّهيد لله(٥).

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٦٤٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٧٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٨٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٨٢).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٨٧).

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ﴾: إن أُريدَ بذِكر الرِّجال والنِّساء هنا قصْدُ تعميمِ النَّاسِ، مثلما يذكر: المشرِق والمغرِب، والبَر والبحر، فالنَّهيُ عن تَمنِّي ما فَضَّل اللهُ به الرِّجالَ على النِّساءِ على عُمومِه، وتكونُ جملةُ ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ مسُوقةً مَساقَ التَّعليلِ للنَّهيِ عن التَّمنِّي؛ قطعًا لعُذرِ المتمنِّين، وتَأنيسًا بالنَّهيِ؛ ولذلك فُصِلت- أي: لم تُعطَفْ بالواوِ على الَّتي قبلها. وإن أُريدَ بالرِّجال والنِّساء كلٌّ مِن النَّوعينِ بخُصوصِه، بمعنى: أنَّ الرِّجال يَختصُّون بما اكتَسبوه، والنِّساء يَختصِصْن بما اكتَسَبْنَ من الأموالِ، فالنَّهيُ المتقدِّمُ مُتعلِّقٌ بالتَّمنِّي الَّذي يُفْضي إلى أكْلِ أموال اليتامَى والنِّساءِ، أي: ليس للأولياءِ أكْلُ أموالِ مواليهم وولاياهم؛ إذ لكلٍّ مِن هؤلاءِ ما اكتَسَب، وتكونُ هذه الجملةُ عِلَّةً لجملةٍ محذوفةٍ دلَّت هي عليها، تَقديرُها: ولا تتمنَّوْا فتأكُلوا أموالَ مواليكم[1].

- وعبَّر بالاكتِسابِ في قوله: ﴿مِمَّا اكْتَسَبُوا﴾ وقوله: ﴿مِمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ تأكيدًا لاستحقاق كلٍّ منهما لنصيبِه، وتقويةً لاختصاصِه به، بحيث لا يَتخطَّاه إلى غيرِه؛ فإنَّ ذلك ممَّا يوجِبُ الانتهاءَ عن التَّمنِّي المذكورِ[2].

٢- قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾: تذييلٌ مناسبٌ لهذا التَّكليفِ؛ لأنَّه متعلِّق بعملِ النَّفس، لا يراقبُ فيه إلَّا ربَّه[3]، مع ما اشتملَتْ عليه من التَّأكيد

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٣١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٧٢)، ((تفسير الألوسي)) (٢/ ١٩٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٣٢).

بـ: (إنَّ) واسميَّة الجملة، وتقديمِ الجارِّ والمجرورِ (بِكُلِّ شَيْءٍ) على خبر كان (عَلِيمًا).

٣- قوله: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾: ﴿وَلِكُلٍّ﴾ مفعولٌ ثانٍ لـ ﴿جَعَلْنَا﴾، قُدِّم عليه؛ لتأكيد الشُّمولِ، ودفعِ توهُّمِ تعلُّقِ الجَعْلِ بالبعضِ دون البَعض[1].

٤- قوله: ﴿فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ...﴾: جملة مبيِّنةٌ للجملة قبلها، ومؤكِّدةٌ لها[2].

٥- قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾: خبرٌ فيه تهديدٌ على منْعِ نصيبهم[3]، مع ما فيه مِن التَّأكيد بـ(إنَّ) واسميَّة الجملة، وتقديم الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ على خبَر كان ﴿شَهِيدًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٧٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٧٢).

الآيتان (٣٤ - ٣٥)

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿قَوَّامُونَ﴾: جمْع قوَّام، وهو مِن القِيامِ على الشَّيءِ، أي: مُراعاته وحِفْظه، وحِياطته بالاجتهادِ، والقِيامِ بمصالحِه، والرَّجُل قيِّم على المرأةِ، أي: هو رئيسُها وكبيرُها، والحاكِمُ عليها، ومؤدِّبها إذا اعوجَّتْ، وأصلُ (قوم): يدلُّ على انتِصابٍ أو عَزْمٍ[1].

﴿قَانِتَاتٌ﴾: خاضِعاتٌ، مُداوماتٌ على طاعةِ الله، والقُنوت: دوامُ الطَّاعة، ولزومُها مع الخُضوع؛ وأصل (قنت): يدلُّ على طاعةٍ وخيرٍ في دِين، ثم سُمِّي كلُّ استقامةٍ في طريقِ الدِّينِ قنوتًا[2].

﴿حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ﴾: أي: لا يفعَلْنَ في غَيبة الزَّوجِ ما يَكرَهُه الزَّوج، أو

---

(١) يُنظر: ((تفسير الطبري)) (٦/ ٦٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩٢)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٤/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٢، ٤٧٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٤- ٦٨٥)، ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٥ وما بعدها)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٠٢).

يحفَظْنَ عهدَ الأزواج عند غَيبتِهن، وأصل (حفظ): مراعاةُ الشَّيء[١].

﴿نُشُوزَهُنَّ﴾: أي: مَعصيتَهنَّ، وتعاليَهنَّ عمَّا أوجَب اللهُ عليهنَّ من طاعةِ الأزواج، وبُغْضَهنَّ لهم؛ فنُشُوزُ المرأة: بُغْضُها لزَوْجها، ورفْعُ نفْسِها عن طاعتِه، ورفْعُ عَيْنِها عنه إلى غيرِه؛ وأصل النُّشوز: الارتفاع، والنَّشز: المرتفِعُ من الأرْض، ومِنه قيل للمَرأةِ المرتفعةِ على زَوْجِها، التاركةِ لأمْره، المُعْرِضةِ عنه، المبغِضة له: ناشِز[٢].

﴿فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾: أي: فلا تَطلُبوا طريقًا إلى أذاهُنَّ؛ مِن بغيتُ الضالَّةَ: إذا التمستَها، والبَغيُ يُطلَقُ على: طَلَبِ الشَّيء، والظُّلم، والتَّرفُّع والعلوِّ، ومُجاوَزةِ المقدار[٣].

﴿شِقَاقَ﴾: أي: تباعُد، أو خلاف، أو فِراق، والشِّقاق: المخالَفة، وأصل (شقق): انصداعٌ في الشَّيء[٤].

﴿حَكَمًا﴾: أي: ثِقةً يُولَّى أمْرَ الحُكمِ بينهما، ويُوكَّلُ بالنَّظرِ في أمْرِهما، والحَكَمُ: هو المتخصِّصُ بالحُكم. والحُكْم بالشَّيء: القضاءُ بأنَّه كذا، أو ليس بكذا، سواءٌ ألزمتَ ذلك غيرَكَ، أو لم تُلْزِمْه، وأصل (حَكَم): المنْع، والإحكامُ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٥، ٦١٧).

(٢) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٢، ٨٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٨، ١٦٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الطبري)) (٦/ ٧١٣)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤١، ٥٤٣).

هو الفصلُ والتمييز، والفرقُ والتحديدُ الذي به يتحقَّق الشيءُ ويَحصُل إتقانُه؛ ولهذا دخَل فيه معنى المنْعِ كما دخَل في الحدِّ، فالمنع جزءُ معناه لا جميع معناه. والحِكمة اسمٌ للعَقل، وإنَّما سُمِّي حِكمة؛ لأنَّه يمنع صاحبه من الجَهل[1].

مُشكِل الإعراب:

قوله: ﴿حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللهُ﴾:

قُرِئ برفْعِ لفْظِ الجلالةِ على أنَّه فاعِلٌ، وقُرِئ بنَصبِه على أنَّه مفعولٌ به؛ فعلى قِراءة الرَّفع يكونُ في ﴿مَا﴾ ثلاثةُ أوجه، أحدها: أنَّها مصدريَّة، والمعنى: حافِظاتٌ للغَيْبِ بحِفْظِ اللهِ إيَّاهنَّ. والثاني: أنْ تكون ﴿مَا﴾ موصولةً بمعنى الذي، والعائِد محذوف، والتَّقدير: بالَّذي حَفِظَه اللهُ لهنَّ مِن مُهورِ أزواجهنَّ والنَّفقة عليهنَّ. والثالث: أن تكونَ ﴿مَا﴾ نكرةً موصوفة، والعائد محذوف أيضًا كما في الموصولةِ التي بمعنى الَّذي، أي: بشَيءٍ حَفِظَه اللهُ تعالى لهنَّ.

وعلى قِراءة النَّصب (بِمَا حَفِظَ اللَّهَ): فلفظُ الجلالةِ مَفعولٌ به على تَقديرِ حَذْفِ مُضافٍ، وفي ﴿مَا﴾ أوجهٌ؛ أحدُها: أنَّها موصولةٌ بمعنى الَّذي، والثاني: أنَّ ﴿مَا﴾ نَكِرةٌ موصوفةٌ، والفاعِلُ على هَذينِ الوَجهينِ ضَميرٌ مُستتِرٌ في ﴿حَفِظَ﴾ يعودُ على ﴿مَا﴾، والتقديرُ على الأوَّل: حِافظاتٌ للغَيبِ بالْأَمْرِ الَّذي حَفِظَ حقَّ اللَّهِ وأمانةَ اللَّهِ، وهو التعفُّفُ والتحصُّنُ والشَّفقةُ على الرِّجالِ والنَّصيحةُ لهم، أو بالَّذي حَفِظَ دِينَ اللهِ مِن البِرِّ والطَّاعةِ. والتقديرُ على الثاني: بشَيءٍ حَفِظَ دِينَ اللهِ. وقِيل غيرُ ذلك[2].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٨)، ((تفسير الطبري)) (٦/ ٧١٩، ٧٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦، ٣٤٧)، ((الإكليل في المتشابه والتأويل)) لابن تيمية (ص: ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٩٧)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٠٦)، ((التبيان =

المَعْنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ للرِّجالِ القِوامةَ على النِّساء، يُلزِمونهنَّ بحقوقِ اللهِ، ويحجُزونهنَّ عن الشَّرِّ والفسادِ، ويُؤدِّبونهنَّ، وتلك القِوامةُ سببُها ما فضَّل اللهُ به الرِّجالَ من خصائصَ على النِّساءِ، وكذلك بإنفاقِ الرِّجالِ أموالَهم على نسائهم، فالنِّساءُ اللَّاتي استقام دِينُهنَّ مطيعاتٌ للهِ سبحانه، ولأزواجِهنَّ، وهنَّ أيضًا حافظاتٌ لأنفسهنَّ عند غيابِ أزواجِهنَّ عنهنَّ في فروجهنَّ وأموالِهم وغيرها، وذلك بحفظِ الله وتوفيقِه لهنَّ، ثمَّ يخاطبُ اللهُ الأزواجَ أنَّ النِّساءَ اللَّاتي يخافون ترفُّعَهنَّ عن طاعتِهم، بُغضًا وإعراضًا عنهم، فلْيُذكِّروهنَّ بالله، ويخوِّفوهنَّ وعيدَه لمن عصَتْ زوجَها، ويرغِّبوهنَّ في الطَّاعة بذِكر ما لهنَّ عند الله من ثوابٍ على ذلك، فإن لم يُفِدِ الوعظُ فلا يُجامعوهنَّ، فإن لم يتحصَّلْ مِن الهجرِ المطلوبُ فليضرِبوهنَّ ضربًا غيرَ مبرِّح؛ تأديبًا لهنَّ، فإن أطَعْنَهم فليتركوا عتابَهنَّ على ما كان، ولْيَدَعوا تتبُّعَ كلِّ عثرةٍ تحصُلُ منهنَّ وإن كانت لا تضرُّ، وليس لهم ضربُهنَّ بعد ذلك، وختَمَ الآيةَ ببيان أنَّه سبحانه هو العليُّ الكبير؛ تهديدًا للرِّجال إذا بَغَوْا على النِّساءِ من غير سببٍ.

ثمَّ يخاطبُ اللهُ الحكَّامَ: أنَّهم إنْ خافوا من بلوغ الخلافِ بين الزَّوجين إلى مرحلةِ التباعد بينهما ووقوعِ العداوة، فليُرسلوا إلى الزوجين حَكَمًا من أقارب الزَّوج، وآخرَ من أقارب الزَّوجة، إن يُرِدْ هذانِ الحكَمانِ الإصلاحَ بين الزَّوجين فسيوفِّقُهما اللهُ لِما قصداه، كما سيوفِّقُ سبحانه وتعالى الزَّوجينِ ليعودا إلى الاستقرارِ، وحُسنِ المعاشَرة.

تفسيرُ الآيتين:

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا

= في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٥٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٦٧٠-٦٧١).

مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا (٣٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا نهى اللهُ تعالى كلًّا من الرِّجال والنِّساء عن تمنِّي ما فضَّل به بعضَهم على بعض، وأرشَدهم إلى الاعتماد في أمر الرِّزق على كَسبِهم، إلى غير ذلك، ولَمَّا كان من جملةِ أسباب هذا البيانِ ذِكرُ تفضيل الرِّجال على النِّساء في الميراثِ والجهاد، كان لسائلٍ هنا أن يسألَ عن سبب هذا الاختصاص، وكان جوابُ سؤالِه قولَه تعالى[1]:

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾.

أي: الرِّجالُ هم القائمون على نسائهم؛ فهم رؤساؤُهنَّ، والحاكمون عليهنَّ، بإلزامهنَّ بحقوقِ الله تعالى وأداء فرائضه، وتأديبِهنَّ، وكفِّهنَّ عن الشُّرور والمفاسد[2].

ثمَّ ذكر اللهُ تعالى السَّبب الموجِبَ لقيام الرِّجال على النِّساء، فقال:

﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾.

أي: بسببِ تفضيلِ الرِّجال على النِّساء؛ فقد جعَل اللهُ تعالى للرِّجال خصائصَ تفُوقُ ما لدَى النِّساء؛ كقوة البَدنِ، والعقل، وغيرهما[3].

---

(١) ينظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- =
سورة النساء)) (١/ ٢٨٩).

﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾.

أي: ومن أسبابِ جَعلِ القِوامةِ للرِّجال على النِّساء، إنفاقُ الرِّجال أموالَهم على نسائِهم، ومِن ذلك: إعطاؤُهنَّ مهورَهنَّ(١).

﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ﴾.

أي: إنَّ النِّساءَ المستقيماتِ الدِّينِ، مطيعاتٌ لله تعالى، ولأزواجِهنَّ(٢).

﴿حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾.

أي: ومن صِفاتهنَّ أيضًا: أنهنَّ حافظاتٌ لأنفسِهنَّ عند غَيبة أزواجِهنَّ عنهنَّ في فروجهنَّ وأموالهم، وغير ذلك، وذلك بحفظِ الله تعالى لهنَّ، وتوفيقِه لهنَّ، لا من أنفسِهنَّ؛ فإنَّ النَّفسَ أمَّارةٌ بالسُّوء(٣).

﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾.

أي: إنَّ الزَّوجاتِ اللَّاتي تتخوَّفون- يا مَعشرَ الأزواج- من استعلائِهنَّ عليكم، بمخالفتِهنَّ لأوامركم، وتركِهنَّ طاعتكم؛ بُغضًا منهنَّ لكم، وإعراضًا عنكم، فإذا تخوَّفتم من حدوثِ ذلك لظهور أماراته(٤).

= وهذا التفضيلُ باعتبار الجنس؛ لأنَّه يوجد من النِّساء من هي أفضلُ من كثيرٍ من الرِّجال، فقوله سبحانه: ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ من حيث الجُمْلة، لا باعْتبارِ كلِّ فرْد. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٨٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٨٧، ٦٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٨٩، ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٩٠، ٦٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٩٢، ٦٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٩٠، ٢٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٩١).

﴿فَعِظُوهُنَّ﴾.

أي: فذكِّروهنَّ باللهِ عزَّ وجلَّ، وخوِّفوهنَّ وعيدَه وعقابَه على معصيةِ أزواجِهنَّ، ورغِّبوهنَّ في طاعتهم؛ بذِكرِ ما لهنَّ في ذلك من ثوابٍ عند اللهِ تعالى[1].

﴿وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾.

أي: فإنْ لم يُجْدِ الوعظُ معهنَّ، فلا تُجامِعوهنَّ، فيضاجعُها الزوجُ، ويُولِّيها ظهرَه[2]، وقيل: لا يضاجعُها؛ فيكونُ في فراشٍ، وهي في فراشٍ[3].

﴿وَاضْرِبُوهُنَّ﴾.

أي: فإنْ لم يُجْدِ معهنَّ الهِجرانُ في المضاجعِ، فاضرِبوهنَّ ضربًا غيرَ مبرِّح؛ لتأديبِهنَّ[4].

عن جابرٍ رضي الله عنه، أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((ولكم عليهنَّ أن لا يُوطئْن فُرشَكم أحدًا تكرهونه، فإنْ فعلْن ذلك فاضربوهنَّ ضربًا غيرَ مبرِّحٍ))[5].

﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾.

أي: فإنْ حصَل المقصودُ بواحدٍ من هذه الأمور، وأطَعْنكم، فقد حصَل لكم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٥/ ١٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (١/ ٢٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٧١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٩٢، ٢٩٣).

(٥) رواه مسلم (١٢١٨).

ما تحبُّون؛ فاترُكوا معاتبَتَهنَّ على الأمور الماضية، والتَّنقيبَ عن العيوب الَّتي يضرُّ ذِكرُها، فلا سبيلَ لكم عليهنَّ بعد ذلك، وليس لكم ضربُهنَّ[1].

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لما مكَّن الله تعالى الرجلَ مِن ضربِ المرأةِ إذا انَشَزت، وذلك في المرحلةِ الثالثةِ، فربَّما يتعالى عليها ويتكبَّر - أعْلَمه اللهُ أنَّه فوقَه مَن هو أعلى وأكبرُ وهو اللهُ فلا ينبغي للرجلِ أن يتعالى عليها ولا أن يتكبرَ، فقال عزَّ وجلَّ[2]:

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى ذو العُلوِّ المطلَقِ بذاته وصِفاتِه سبحانه، فلا تتعالَوْا على نسائِكم- أيُّها الأزواج-؛ فإنَّ علوَّكم هذا يوجَدُ فوقه ما هو أعلى منه، وهو علوُّ اللهِ عزَّ وجلَّ بذاتِه وصفاتِه، وهو الكبيرُ بذاته وصفاتِه سبحانه، فلا أكبرَ منه ولا أجلَّ ولا أعظمَ، فلا تتكبَّروا عليهنَّ؛ لأنَّ فوقكم مَن هو أكبرُ، وهو الله جلَّ وعلا[3].

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا (٣٥)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذكَر سبحانه وتعالى ما يفعلُه الزوجُ عندَ نشوزِ امرأتِه مِن وعظٍ ثم هجرٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٧١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٧١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٩٣).

ثم ضربٍ، بيَّن أنَّه لم يبقَ بعد الضَّربِ إلَّا المحاكمةُ إلى مَن يُنصِفُ المظلومَ من الظَّالم(١).

وأيضًا لما ذكَر تعالى الحالَ الأوَّل، وهو إذا كان النُّفور والنُّشوزُ مِن الزوجةِ، ذكَر الحالَ الثانيَ، وهو إذا كان النفورُ مِن الزَّوْجينِ(٢)، فقال تعالى:

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾.

أي: وإن خِفتم- أيُّها الحكَّامُ- أنْ يَصلَ النُّفورُ والخلافُ الواقع بين الزَّوجينِ إلى حدِّ التَّباعُدِ عن بعضِهما، ووقوعِ العداوةِ بينهما(٣).

﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾.

أي: فلتُرسلوا- أيُّها الحكَّامُ- إلى الزوجينِ حَكَمينِ؛ رجلًا من أقارب الزَّوج، وآخَرَ من أقارب الزَّوجة(٤).

﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾.

أي: إن قصَد الحَكَمانِ الإصلاحَ بين الزَّوجين، يوفِّقِ اللهُ تعالى بين الحكَمينِ، بأن يصادفا الحقَّ، فتلتقيَ أقوالهما دون حدوثِ نزاعٍ بينهما، ويوفِّق اللهُ تعالى أيضًا بين الزَّوجين، فييسِّر رجوعَهما إلى المعاشَرة الحسَنة بينهما(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٧٣).

(٢) ينظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩٦).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٤٤-٤٥).
قال القرطبي: (الجمهور من العلماء على أنَّ المخاطب بقوله: ﴿وإن خفتم﴾ الحكام والأمراء) ((تفسير القرطبي)) (٥/ ١٧٥).

(٤) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٤٥-٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٩٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٧٢٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٧)، ((تفسير =

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ذو علمٍ بجميع الظَّواهرِ والبواطن، ومن ذلك: عِلمُه بنيَّةِ الحكَمَينِ، هل يقصدانِ الإصلاح أو لا، ومن ذلك أيضًا: شَرْعُهُ لهذه الأحكامِ العظيمة، والشَّرائع المُحْكَمة[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- قوله تعالى: ﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾، فليس الأمرُ أمرَ رضاءِ الزَّوج عن أن تُبيحَ زوجتُه من نفسها- في غَيبتِه أو في حضوره- ما لا يغضَبُ هو له، أو ما يُمليه عليه وعليها المجتمعُ، إذا انحرَف المجتمعُ عن منهجِ الله! إنَّ هنالك حُكمًا واحدًا في حدودِ هذا الحفظِ، فعليها أنْ تحفظ نفسها ﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾.. والتَّعبيرُ القرآنيُّ لا يقولُ هذا بصِيغة الأمر، بل بما هو أعمقُ وأشدُّ توكيدًا من الأمر، إنَّه يقول: إنَّ هذا الحفظَ بما حَفِظَ الله، هو مِن طبيعةِ الصَّالحاتِ، ومِن مُقتضى صلاحِهنَّ[2]!

٢- التَّدرُّج في التَّأديب: ﴿فَعِظُوهُنَّ.. وَاهْجُرُوهُنَّ.. وَاضْرِبُوهُنَّ﴾، فابتدأ اللهُ تعالى بالوعظ، الذي هو تليينُ القلبِ بالشَّرعِ، ثمَّ ترقَّى منه إلى الهِجرانِ في المضاجعِ، ثمَّ ترقَّى منه إلى الضَّرب، وذلك تنبيهٌ يجري مجرى التَّصريحِ في أنَّه متى حصَل الغرضُ بالطَّريق الأخفِّ وجَب الاكتفاءُ به، ولم يجُزِ الإقدامُ على الطَّريق الأشقِّ، فإذا أمكن التَّأديبُ بالخطابِ الدِّينيِّ الشَّرعيِّ، فإنَّه لا يرجعُ إلى

= القرطبي)) (٥/ ١٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٩٤-٢٩٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٧٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٦٥٢).

التَّأديبِ بالفعل المحسوس(١).

٣- الإشارة إلى أنَّ اللهَ يزَعُ بالسُّلطانِ ما لا يزَعُ بالقرآنِ؛ حيث إنَّه ربَّما لا يُفيد الوعظُ، فينتقل إلى الهجرِ في المضاجع، أو الضَّرب؛ لأنَّه قد يكون أكثرَ نتيجةً(٢).

٤- يؤخَذ من قولِه تعالى: ﴿وَاضْرِبُوهُنَّ﴾ بُطلانُ قولِ بعضِ علماء التَّربية المعاصرين الَّذين يقولون: إنَّه لا تحصُلُ التَّربيةُ بالضَّرب، وإنَّما الضَّربُ يقسِّي القلبَ(٣).

٥- في قوله: ﴿فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ التغاضي عما مضَى، وتركُ الماضي وعدمُ البحثِ فيه أو إثارته؛ لأنَّه ربما يؤدِّي إلى استمرارِ النُّشوز، فالآية تشملُ الماضي، كما تشمل أيضًا المستقبلَ(٤).

٦- الإشارة إلى أنَّ الَّذي له العلوُّ المطلَقُ هو اللهُ، فلا تتعالَ على غيرِك، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾(٥).

٧- قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ ذِكرُ هاتين الصِّفتينِ (العلوُّ والكبرياءُ لله تعالى) في هذا الموضع في غايةِ الحُسنِ، وبيانُه من وجوه:

الأوَّل: أنَّ المقصودَ منه تهديدُ الأزواج على ظُلم النساءِ، والمعنى أنهنَّ إن ضعُفنَ عن دفعِ ظُلمكم، وعجَزْنَ عن الانتصافِ منكم، فاللهُ سبحانه عليٌّ قاهرٌ كبيرٌ قادرٌ، ينتصفُ لهنَّ منكم، ويستوفي حقَّهنَّ منكم، فلا ينبغي أن تغترُّوا بكونِكم أعلى يدًا منهنَّ، وأكبرُ درجةً منهنَّ.

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٩٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٩٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٩٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٩٣، ٣٠٠).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٠٠).

الثَّاني: لا تبغوا عليهنَّ إذا أطَعْنَكم لعلوِّ أيديكم؛ فإنَّ اللهَ أعلى منكم، وأكبرُ من كلِّ شيء، وهو متعالٍ عن أن يكلِّفَ إلَّا بالحقِّ.

الثَّالث: أنَّه تعالى مع علوِّه وكبريائه لا يكلِّفُكم إلَّا ما تُطيقون، فكذلك لا تكلِّفوهنَّ محبَّتكم؛ فإنَّهنَّ لا يقدِرْنَ على ذلك.

الرابع: أنَّه مع علوِّه وكبريائه لا يؤاخذ العاصيَ إذا تاب، بل يغفِرُ له، فإذا تابت المرأةُ عن نشوزِها، فأنتم أَولى بأن تقبَلوا توبتَها وتتركوا معاقبتَها.

الخامس: أنَّه تعالى مع علوِّه وكبريائِه اكتفى من العبدِ بالظَّواهرِ، ولم يهتِكِ السَّرائرَ، فأنتم أَولى أن تكتفوا بظاهرِ حال المرأة، وألَّا تقَعوا في التَّفتيش عمَّا في قلبِها وضميرها من الحبِّ والبُغض[1].

٨- الإشارةُ إلى حُسن النِّيَّة في الإصلاح؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾، وأنَّه يجبُ على الإنسان المحكَّمِ أن يكونَ رائدُه الإصلاحَ لا غيرُ، لا إرضاءَ فلان ولا فلان[2].

٩- أنَّ النِّيَّةَ الطَّيِّبةَ سببٌ لصلاح العملِ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾[3].

١٠- أنَّ الجزاءَ من جِنس العملِ؛ لأنَّهما لَمَّا أرادا الإصلاحَ أثابهما الله عزَّ وجلَّ بالتَّوفيقِ؛ لقوله: ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٠٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٠٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- فضلُ الرِّجالِ على النِّساء؛ لأنَّ اللهَ جعَل الرِّجال قوَّامينَ على النِّساء، قال تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾(١).

٢- بيانُ أنَّ أحكامَ اللهِ عزَّ وجلَّ الكونيَّةَ والشَّرعيَّةَ معلَّلةٌ بعِلَلٍ، فيلزم من كونِ أفعالِ أو أحكام الله الشَّرعيةِ معلَّلةً بعِلَل: إثباتُ الحكمةِ، وأنَّ الله تعالى حكيمٌ؛ قال تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ...﴾(٢).

٣- يُؤخذُ من قوله: ﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ أنَّ للمُنفِقِ على المُنفَقِ عليه فضلًا(٣).

٤- كراهةُ سؤالِ النَّاسِ؛ لقوله: ﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾، فكونُ المنفِق له فضلٌ على المُنفَقِ عليه، فيكون سؤالُك إيَّاه ذلًّا؛ لأنَّك إذا سألتَه فقد أثبتَّ له فضلًا عليك(٤).

٥- أنَّه لا ولايةَ للنِّساءِ على الرِّجال، لا في قضاءٍ، ولا إمارة، ولا أيِّ شيء؛ لقوله: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾، فمن جعَل للمرأة الولايةَ فقد خالَف سُنَّةَ الله(٥).

٦- أنَّ للزَّوجِ السُّلطةَ على زوجته، وتُؤخذ من قوله: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ﴾(٦).

٧- تحريم نُشوزِ المرأةِ على زوجِها؛ حيث قوبِلَ هذا النُّشوزُ بالموعظة، ثمَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٩٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٩٨).

الهجر، ثمَّ الضَّرب[١].

٨- أنَّ للهِ الكبرياءَ الَّذي هو الكِبْرُ المعنويُّ؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الجاثية: ٣٧]، وقال سبحانه: ﴿الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣]، وكذلك أنَّ كلَّ شيءٍ بالنِّسبة إلى ذاتِه ليس بشيءٍ، وهذا المرادُ بالكبير في قوله: ﴿عَلِيًّا كَبِيرًا﴾[٢].

٩- أنَّ المبعوثَينِ حكَمانِ، وليسا وكيلَيْنِ، كما قاله بعضُ العلماء، لقوله تعالى: ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا﴾، والحَكَمُ مستقِلٌّ[٣].

١٠- أنَّه لا بدَّ أن يكونَ عند الحَكمينِ عِلمٌ بالشَّرع؛ لأنَّ الحَكَمَ لا يمكِنُ أن يحكُمَ إلَّا بعد العِلمِ، ولا بدَّ أن يكونَ لديهما أمانةٌ وثقةٌ دينيَّةٌ؛ لأنَّ غيرَ الثِّقةِ لا يؤمَنُ، وقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦]، والحاكم مخبِرٌ وملزِمٌ وفاصل؛ فهو مخبِرٌ عن حُكمِ الله، مُلزِم بما يحكُمُ به، فاصلٌ بين الخَصمينِ، فلا بدَّ أن يكونَ عَدْلًا في دِينِه[٤].

١١- جوازُ حُكم القريب لقريبِه أو عليه؛ لقوله تعالى: ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾[٥].

١٢- أنَّ للحَكَمينِ التَّفريقَ والتَّوفيقَ بين الزَّوجين اللَّذينِ خِيفَ الشِّقاقُ بينهما، سواءٌ بعِوَضٍ أو بدون عِوَضٍ، وأنَّ حُكمَهما مُلزِمٌ؛ لأنَّ الله سمَّاهما حَكَمينِ، والحَكَم قولُه لازمٌ وحُكمُه فصْلٌ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٠١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٠٢).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٠٣).

١٣- قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا..﴾ هذه الآيةُ أصلٌ في جوازِ التَّحكيمِ في سائر الحقوق(١).

١٤- الإشارةُ إلى أنَّه ينبغي أن يكونَ الحاكمُ عالِمًا بأحوالِ مَن يحكُمُ فيهم؛ لقوله: ﴿مِنْ أَهْلِهِ﴾.. ﴿مِنْ أَهْلِهَا﴾؛ لأنَّ الَّذي مِن أهلِه وأهلِها أقربُ إلى العِلم بحالهما من الرَّجلِ الأجنبيِّ، وعلى هذا فلا ينبغي أن يُولَّى قاضٍ على قومٍ لا يعرِفُ طبائعَهم، ولا يعرِفُ لسانَهم، ولا يعرف أحوالَهم؛ فإنَّ هذا يحصل به شيءٌ كثيرٌ من الغلَطِ(٢).

١٥- إثبات صفتيِ العِلمِ والخبرة، من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾، والخبرة أخصُّ من العِلم؛ لأنَّها علمٌ ببواطنِ الأمور، ولا يُستفاد من قوله: ﴿كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ أنَّه الآن ليس كذلك، بل كان ولا زال، والمراد بها تحقيقُ الصِّفة؛ فهي مسلوبةُ الزَّمانِ(٣).

بَلاغةُ الآيتين:

١- قوله: ﴿**الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ**﴾: كلامٌ مستأنَفٌ مسُوقٌ لبيانِ سببِ استحقاقِ الرِّجالِ الزِّيادةَ في الميراثِ تفصيلًا، إثرَ بيانِ تفاوتِ استحقاقهم إجمالًا، وإيرادُ الجملة اسميَّةً والخبرِ ﴿قَوَّامُونَ﴾ على صِيغة المبالغة (فعَّالون)؛ للإيذانِ بعَراقتِهم في الاتِّصافِ بما أُسند إليهم، ورسوخِهم فيه، أي: شأنهم القيامُ عليهنَّ بالأمرِ والنَّهيِ قيامَ الولاةِ على الرَّعيَّة(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٤٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٠١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٠٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٧٣).

٢- قوله: ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ...﴾: وضْع (البعض) موضِعَ الضَّميرينِ- حيث لم يقُلْ: (فضَّلهم الله عليهنَّ)-؛ للإشعارِ بغاية ظهور الأمْر، وعدَم الحاجة إلى التَّصريحِ بالمفضَّلِ والمفضَّلِ عليه أصلًا؛ ولِمِثل ذلك لم يصرِّحْ بما به التَّفضيلُ؛ من صفات كمال الرِّجال، الَّتي هي كمالُ العقل، وحُسن التَّدبير، ورزَانةُ الرَّأي، ومزيدُ القوَّةِ في الأعمال والطَّاعاتِ[1].

- وقوله: ﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا﴾ فيه حذْف المفعولِ؛ ليدلَّ على عُمومِ النَّفقةِ[2].

- وفيه مِن بديعِ الإعجازِ: صَوغُ قولِه: ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ في قالَبٍ صالحٍ للمَصدريَّةِ وللمَوصوليَّة؛ فالمصدريَّةُ مُشعِرةٌ بأنَّ القِوامةَ سَببُها تَفضيلٌ مِن اللهِ، وإنفاقٌ، والموصوليَّةُ مُشعِرةٌ بأنَّ سببَها ما يَعلَمه النَّاسُ مِن فَضلِ الرِّجالِ ومِن إنفاقِهم؛ ليَصلُحَ الخِطابُ للفريقين: عالِمِهم وجاهلِهم[3].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٧٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (١/ ١٧٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٣٩).

الآيات (٣٦ - ٤٢)

﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ
وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ
بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا
فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ
مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ
يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ وَمَن يَكُنِ
ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ
مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ
حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٤٠﴾ فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ
أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ﴿٤١﴾ يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا ﴿٤٢﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾: أي: الَّذي ليس بينَه وبين جارِه قَرابةٌ، أو مَن يقرُبُ مسكنُه مِن الجارِ، أو الغريبُ، وأصْل الجِوار: الميل؛ وسُمِّي الجار جارًا لميلِه إلى جاره، والجنابة: البُعد؛ يُقال: رجلٌ جُنُب، أي: غريبٌ(١).

﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ﴾: أي: الصَّاحِبِ إلى الجَنْبِ، القَريبِ مِنْه، ويَدخُل فيه الرَّفيقُ في السَّفرِ وغَيرِه، والمرأةُ، والملازِمُ للمَرءِ رجاءَ نفْعِه؛ لأنَّ كلَّهم بجَنبِ الذي هو مَعَه، وقريبٌ منه، وأصْل (صحب) يدلُّ على مُقارنةِ شيءٍ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٦، ٢١١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٥).

ومُقارِبته، وأصل (جنب) يدلُّ على النَّاحيةِ [١].

﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾: المنقطِع الضَّعيف ببلدٍ يُريد بلدًا آخَرَ، أو المسافِر البعيد عن منزِله، والسَّبيل: الطَّريق الَّذي فيه سهولة [٢].

﴿مُخْتَالًا﴾: ذا خيلاءَ، أو مُتكبِّرًا يأنَفُ ويَستنكِفُ عن قَراباتِه وجِيرانه وأصحابِه لفقرِهم، والمختالُ البَطِرُ في مِشيتِه [٣].

﴿فَخُورًا﴾: الَّذي يُعدِّد مناقبَه كِبرًا وتطاولًا، والفَخرُ: المباهاةُ في الأشياءِ الخارجة عن الإنسانِ؛ كالمالِ والجاهِ، وأصل (فخر) يدلُّ على عِظَم وقِدَم [٤].

﴿وَأَعْتَدْنَا﴾: من العَتادِ، وقيل: أصله: أَعدَدْنا، فأبدلَ من إحدى الدَّالين تاء، والعتاد: ادِّخارُ الشَّيءِ قبل الحاجة إليه؛ كالإعداد، والعَتيد: الشَّيء المُعَدُّ، وأصل (عتد) يدلُّ على حُضور وقُرب، ويدلُّ على تهيئة الشَّيء [٥].

﴿رِئَاءَ﴾: أي: مراءاةً، وأصل الرِّياء: فِعلُ شيءٍ ليراه النَّاس [٦].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٧)، ((تفسير الطبري)) (٧/ ١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٣) و (٣/ ٣٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٣، ٣٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦، ١٤١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٩، ١٨٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٤).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٤٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٠٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٥).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٩).

(٥) يُنظر: ((العين)) للخليل (٢/ ٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٥، ٥٥٠).

(٦) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٥).

﴿قَرِينًا﴾: أي: مَقرونًا به لا يُفارقُه، أو مقارنًا لاصقًا، مِن: قرنت الشَّيء بالشَّيء، ويُطلق القرين كذلك على: المصاحِب، وأصل (قرن): جمعُ شيءٍ إلى شيءٍ[١].

﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾: أي: زِنَةَ نَملةٍ صَغيرة؛ يُقال: هذا على مثقالِ هذا، أي: على وزنِ هذا. وأصل الثِّقَل: ضدُّ الخفَّة، والذَّرَّة هي أصغرُ النَّملِ، وتُطلَق كذلك على ما لا وزنَ له، وما يَرفَعُه الرِّيح من التُّرابِ، وأجزاء الهواء في الكُوَّةِ[٢].

﴿لَدُنْهُ﴾: أي: عِنده، أو لديه، لكن (لَدُن) أخصُّ من (عند)[٣].

﴿بِشَهِيدٍ﴾: أي: شاهِد، أو مُشاهِد للشَّيء، والشَّهادة: قولٌ صادرٌ عن عِلم حصَل بمشاهدةٍ بصيرةٍ أو بصَر، وأصل (شهد): حضور، وعِلم، وإعلام[٤].

﴿لو تُسَوَّى بِهِمُ﴾: أي لو يُدخَلون فيها حتى تعلُوَهم، أو يكونون ترابًا، فيستوون معها حتَّى يَصيروا وهي شيئًا واحدًا، أو يَهلِكون فيها، وأصل (سوي): استقامةٌ واعتدالٌ بين شيئين[٥].

المَعْنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ تعالى عبادَه بعِبادته وَحْدَه، غيرَ مشركين فيها معه غيرَه، كما أمرهم

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٩)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٣٥/ ٥٤١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٨٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٩)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٢٨/ ١٥٧).

(٣) ينظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٣٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٥- ٤٦٧).

(٥) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عُبيدة (١/ ١٢٨)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٤)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٣٨/ ٣٣٣).

بالإحسانِ إلى الوالدَين، وإلى الأقارب، وأن يُحسنوا إلى اليتامى، وذَوِي الحاجاتِ الَّذين لا يجدون كفايتَهم، وإلى الجار الَّذي تربطهم به القرابة، والجار الَّذي لا قرابةَ بينهم وبينه، وأمرهم كذلك بالإحسان في صحبةِ كلِّ مصاحبٍ ومرافقٍ لهم؛ كرفيق السفر، وكالزَّوجة، وكذلك أن يُحْسِنوا إلى المسافرِ الَّذي يمرُّ بهم مجتازًا، وأن يُحسنوا إلى مَن يملِكونه مِن بَشَرٍ رقيقٍ، فإنَّ الله تعالى لا يحبُّ مَن كان معجَبًا بنفسه، متكبِّرًا على الخَلْق، هؤلاء هم الَّذين يُمسِكون أموالَهم عن الإنفاقِ فيما أمَرَ الله تعالى، بل ويأمرون غيرَهم بالإمساكِ أيضًا، ويُخفون ما أنعَم اللهُ به عليهم، وأعدَّ اللهُ لهؤلاء الكافرين الَّذين ذكَر صفاتِهم عقابًا مُخزيًا ومُذِلًّا.

وممَّا يتَّصفون به كذلك: أنَّهم يُنفِقون أموالَهم ليراهم النَّاسُ ويُثنوا عليهم، ولا يؤمِنون بالله ولا باليومِ الآخِرِ، سوَّل لهم الشَّيطانُ تلك الأفعالَ، ومَن يكُنْ للشَّيطانِ مُصاحِبًا، فيُطِعْه فيما يُمليه عليه، فبئس الصَّاحبُ هو.

وأيُّ حرجٍ سيُصيبُ هؤلاء لو أنَّهم آمنوا باللهِ وباليوم الآخِرِ، وأنفَقوا ممَّا تفضَّل اللهُ به عليهم، وكان اللهُ بهم عليمًا.

ثمَّ يُبيِّنُ تعالى أنَّه لا يظلِمُ أحدًا مِن خَلْقِه شيئًا ولو قلَّ، وإن توجد حسنة فإنَّه تعالى يضاعفُها لفاعلها، ويُعطي مِن عنده ثوابًا عظيمًا.

فكيف تكونُ الحالُ يوم القيامة إذا جاء اللهُ بشهيد مِن كلِّ أمَّةٍ، وهم الأنبياءُ، يشهَدون على أُمَمِهم، وإذا جاء اللهُ بمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم شهيدًا على هذه الأمَّة، ذلك اليوم يتمنَّى مَن كفَر بالله وعصَى رسولَه لو ابتلعَتْهم الأرضُ فلا يُحاسَبون، وفي ذلك اليومِ يعترفون بكلِّ ما فعَلوه، ولا يُخفونَ عن اللهِ شيئًا.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا (٣٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أرشَد اللهُ سبحانه وتعالى كلَّ واحدٍ من الزَّوجين إلى المعامَلةِ الحسَنة مع الآخَرِ، وإلى إزالة الخصومة، أرشَد في هذه الآيةِ إلى سائرِ الأخلاق الحسَنة، فأمره بالإحسانِ إلى الوالدَيْنِ، وإلى مَن عطَفَه على الوالدَيْنِ ممَّن ذُكر في الآية، فجاءت حثًّا على الإحسانِ، واستطرادًا لمكارمِ الأخلاق، وأنَّ المؤمنَ لا يكتفي مِن التَّكاليفِ الإحسانيَّة بما يتعلَّق بزوجتِه فقط، بل عليه غيرُها من برِّ الوالدَيْنِ وغيرِهم، وافتتح التَّوصُّلَ إلى ذلك بالأمرِ بإفرادِ الله تعالى بالعبادةِ؛ إذ هي مبدأُ الخيرِ الَّذي تترتَّبُ الأعمالُ الصَّالحةُ عليه[1] فقال:

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾.

أي: وتذلَّلوا لله تعالى، واخضَعوا له بطاعتِه سبحانه، وأخلِصوا العبادةَ له وحْدَه، دون أنْ تُساووا بينه وبين غيرِه فيما له من حقوقٍ على عباده[2].

قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لمعاذٍ: ((أتَدْري ما حقُّ اللهِ على العِباد؟ قال: اللهُ ورسولُه أعلمُ، قال: أنْ يَعبُدوه ولا يُشرِكوا به شيئًا، ثمَّ قال: أتَدْري ما حقُّ العِبادِ على الله إذا فَعَلوا ذلك؟ ألَّا يُعذِّبَهم))[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٧٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩٧-٢٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٠٤).

(٣) رواه البخاري (٦٢٦٧)، ومسلم (٣٠).

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾.

مناسبتها لما قبلها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى بعبادته، والقيام بحقِّه، أمَرَ بالقيام بحقوقِ العبادِ الأقربَ فالأقربَ[(١)]، فقال:

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾.

أي: وأحسِنوا إلى الوالدَيْنِ، بالقولِ الكريمِ، والخطاب اللَّطيفِ، وطاعةِ أمرِهما، واجتنابِ نهيهما، وبغيرِ ذلك من أنواع البِرِّ[(٢)].

﴿وَبِذِي الْقُرْبَى﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

نصَّ على الوالدَيْنِ أوَّلًا، وثنَّى بالقَرابة؛ وذلك لأنَّه لا قرابةَ إلَّا بواسطة الوالدَيْنِ[(٣)]، فقال سبحانه:

﴿وَبِذِي الْقُرْبَى﴾.

أي: وأحسِنوا إلى أقارِبكم[(٤)].

﴿وَالْيَتَامَى﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٠٤-٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥-٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٨).

أي: وأحسِنوا إلى اليتامى (وهم الَّذين فقَدوا آباءَهم ممن دون سنِّ البلوغ)(١).

﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾.

أي: وأحسِنوا كذلك إلى ذَوي الحاجاتِ، الَّذين لا يَجِدون ما يقومُ بكِفايتِهم(٢).

﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى﴾.

أي: وأحسِنوا إلى جارِكم الَّذي بينكم وبينه قَرابةٌ(٣).

﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾.

أي: وأحسِنوا كذلك إلى جارِكم الَّذي ليس بينكم وبينه قرابةٌ(٤).

عن عبدِ الله بن عمرَ رضِي اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((ما زالَ جِبريلُ يوصيني بالجَارِ، حتَّى ظنَنتُ أنَّهُ سيورِّثُه))(٥).

﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ﴾.

أي: وأحسِنوا صُحبةَ مَن يصحَبُكم ويُرافِقُكم؛ كالرَّفيقِ في السَّفرِ، وكالزَّوجة(٦).

﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥-٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٠-١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٠٦).

(٥) رواه البخاري (٦٠١٥)، ومسلم (٢٦٢٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٦-١٧)، ((تفسير السعدي)) (١/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٠٧).

أي: وأحسِنوا إلى المسافرِ، الَّذي يمرُّ عليكم مجتازًا[١].

﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾.

أي: وأحسِنوا إلى ما تملِكون مِن البشر (وهم الرَّقيق)[٢].

عن خَيْثَمَةَ قال: ((كنَّا جلوسًا مع عَبدِ اللهِ بنِ عمرٍو، إذ جاءَه قَهْرَمانٌ له[٣]، فدخَل. فقال: أعطيتَ الرَّقيقَ قُوتَهم؟ قال: لا. قال: فانطلِقْ فأعطِهم، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: كفَى بالمرءِ إثمًا أن يَحبِسَ عمَّن يملِكُ قُوتَه))[٤].

وعن أبي هريرةَ رضِي اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((للمَملوكِ طعامُه وكسْوَتُه، ولا يُكَلَّفُ من العَملِ إلَّا ما يُطيقُ))[٥].

وعن أبي هريرةَ رضِي اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((إذا أتَى أحدَكم خادِمُه بطَعامِه، فإنْ لم يُجلِسْه معَه، فليُناوِلْه لُقمةً أو لُقمتينِ، أو أُكْلةً أو أُكْلتَينِ؛ فإنَّه ولِيَ علاجَه[٦]))[٧].

وعن أبي ذَرٍّ رضِي اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٨-١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٠٧-٣٠٨).

(٣) القَهْرَمان: لفظٌ فارسيٌّ معرَّبٌ، وهو الخَازنُ القائِمُ بحَوائجِ الإنسانِ وأُمورِه، والوكيلُ، والحافِظُ لِمَا تحتَ يدِه، وقِيل: هو مِن أُمناءِ المَلِكِ وخَاصَّتِه. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ١٢٩)، ((شرح النووي على مسلم)) (٧/ ٨٢)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٣٣/ ٣٢٢).

(٤) رواه مسلم (٩٩٦).

(٥) رواه مسلم (١٦٦٢).

(٦) قوله: ((وَلِيَ عِلاجَه)) أي: تَولَّى عَمَلَ الطَّعامِ، وقاسَى كُلْفَةَ اتِّخاذِه، وتحمَّلَ مشقَّةَ حَرِّه ودُخَانِه عند الطَّبْخِ. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (١٣/ ١١٤)، ((حاشية السِّندي على البخاري)) (٢/ ٣٩).

(٧) رواه البخاري (٢٥٥٧).

((إخوانُكم خَوَلُكم، جعلَهم اللهُ تحتَ أيديكم، فمَن كان أخوه تحتَ يدِه، فلْيُطعِمْه ممَّا يأكُلُ، وليُلْبِسه ممَّا يَلبَسُ، ولا تُكلِّفوهم ما يَغلِبُهم، فإنْ كلَّفتُموهم فأعينُوهم))(١).

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى بالإحسانِ للأصنافِ المذكورةِ وإكرامِهم، كان في العادةِ أنْ ينشأَ عمَّن اتَّصَف بمكارمِ الأخلاقِ أنْ يَجدَ في نفسِه زهوًا وخُيلاءَ، وافتخارًا بما صدَر منه من الإحسانِ، وكثيرًا ما افتخَرتِ العربُ بذلك، وتعاظَمَتْ في نثرِها ونَظْمِها به، فأراد تعالى أن ينبِّهَ على التَّحلِّي بصفةِ التَّواضُعِ، وألَّا يتكبَّرَ على مَن أحسَنَ إليه، وألَّا يفخَرَ عليه؛ كما قال تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٤]، فنفى تعالى محبَّتَه عن المتحلِّي بهذينِ الوصفَينِ(٢).

وأيضًا لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى الأمرَ بعبادتِه، والإحسان إلى عبادِه، ذكَر موانعَ هذا الإحسانِ الغالبةَ على البشَرِ(٣)، فقال جلَّ وعلا:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾.

أي: إنَّ الله تعالى لا يحبُّ مَن كان ذا خُيَلاءَ، معجَبًا بنفسِه متكبِّرًا على الخَلْق، فلا يقوم بما أوجَبه اللهُ تعالى عليه من حقوقٍ، فَخُور بقولِه، فيُثني على نفسِه، ويمدَحُها على وجهِ الفخرِ والبطَرِ على عباد اللهِ تعالى بما أعطاه من النِّعم(٤).

---

(١) رواه البخاري (٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٠٧).

عن عبد الله بن عمر رضِي اللهُ عنهما، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((من جرَّ ثوبَه خُيَلاءَ، لم ينظرِ اللهُ إليه يومَ القيامةِ))[١].

و أيضًا عن عبد الله بن عمرَ رضي الله عنهما، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((بينما رَجُلٌ يَجرُّ إزارَه من الخُيلاءِ خُسِفَ به، فهو يتجَلْجَلُ[٢] في الأرضِ إلى يومِ القيامةِ))[٣].

وعن عِياضٍ رضِي اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((وإنَّ اللهَ أَوْحى إليَّ أنْ تواضَعوا؛ حتى لا يَفخرَ أحدٌ على أحدٍ، ولا يَبغيَ أحدٌ على أحدٍ))[٤].

وعن أبي مالكٍ الأشعريِّ رضِي اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((أربعٌ في أمَّتي مِن أمرِ الجاهليَّةِ، لا يَتركونهنَّ- وذَكَر منها-: الفَخْر في الأحسابِ))[٥].

﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (٣٧)﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى ذمَّ المُختالِ الفَخور، شرَع في بيان صِفاتِه، فقال جلَّ وعلا[٦]:

﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٣٦٦٥) واللفظ له، ومسلم (٢٠٨٥).

(٢) يَتجَلْجَل: أي: يَغُوصُ في الأرضِ حينَ يُخسَفُ به، أوْ يتحرَّكُ ويَنزِلُ مُضطَرِبًا. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٢٨٤)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٤/ ٦٤).

(٣) رواه البخاري (٣٤٨٥).

(٤) رواه مسلم (٢٨٦٥).

(٥) رواه مسلم (٩٣٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣١٦).

أي: إنَّ اللهَ تعالى لا يحبُّ المختالَ الفخورَ الَّذي يُمسِك مالَه عن الإنفاق فيما أمَره الله تعالى به؛ كالإحسانِ إلى الوالدَيْنِ، والأقاربِ واليتامى والمساكين، والجارِ ذي القربى، والجارِ الجُنُب، والصَّاحبِ بالجَنْبِ، وابنِ السَّبيل، وما ملكتِ الأيمانُ، ولا يدفعون حقَّ الله فيها، ويأمُرون النَّاسَ بالبخلِ أيضًا بأقوالِهم وأفعالِهم، ومِن البُخلِ كذلك: البُخلُ بالعِلم(١).

عن جابرِ بن عبد الله رضِي اللهُ عنهما، قال: ((قال لي رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لو قدْ جاء مالُ البحرينِ، لقدْ أعطيتُك هكذا وهكذا- ثلاثًا- فلم يَقدَمْ مالُ البحرينِ حتَّى قُبِض رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلمَّا قدِم على أبي بكرٍ، أمَر مناديًا فنادَى: مَن كان له عِندَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم دَيْنٌ أو عِدَةٌ فليأتِني، قال جابرٌ: فجئتُ أبا بكرٍ فأخبرتُه أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: لو جاءَ مالُ البحرينِ أعطيتُك هكذا وهكذا- ثلاثًا- قال: فأعطاني، قال جابرٌ: فلقيتُ أبا بكرٍ بعدَ ذلك فسألتُه فلم يُعطِني، ثمَّ أتيتُه فلم يُعطِني، ثمَّ أتيتُه الثَّالثةَ فلم يُعطِني، فقُلْتُ له: قد أتيتُك فلم تُعطِني، ثمَّ أتيتُك فلم تُعطِني، ثمَّ أتيتُك فلم تُعطِني، فإمَّا أن تُعطيَني، وإمَّا أن تبخَلَ عنِّي، فقال: أقُلْتَ: تبخَلُ عني؟ وأيُّ داءٍ أَدْوَأُ من البُخلِ؟! قالها ثلاثًا، ما منعتُك من مرَّةٍ إلَّا وأنا أُريد أنْ أعطيَك! وعن عمرو، عن محمَّد بن علي: سمعتُ جابرَ بن عبد الله يقول: جئتُه، فقال لي أبو بكر: عُدَّها، فعدَدْتُها، فوجدتُها خَمسَ مئةٍ، فقال: خُذْ مِثلَها مرَّتينِ))(٢).

﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

أي: إنَّ البَخيلَ بالمالِ يُخفِي عن النَّاسِ ما لَدَيه من أموالٍ، فلا يُظهِر أثَرَ نِعمةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢١، ٢٢، ٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣١٦-٣١٨).

(٢) رواه البخاري (٤٣٨٣).

الله تعالى عليه، ولا تَبِينُ في أكلِه ولا في ملبَسِه، ولا في غيرِهما؛ لأجل ألَّا يطلُبَ أحدٌ مالًا منهم، ولا يَلومهم أحدٌ إذا بَخِلوا، ويُخفي كذلك ما لَدَيه من عِلم، فلا يُظهِرُه للنَّاس ليَسترشِدوا به، ومِن ذلك: إخفاءُ اليهودِ لصفةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وأمْرِ بَعثتِه(١).

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾.

أي: إنَّ هؤلاء الكفَّارَ الَّذين يبخَلون، ويأمُرون النَّاسَ بالبُخل، ويكتمون ما آتاهم اللهُ تعالى من فضلِه، قد هيَّأ اللهُ عزَّ وجلَّ لهم ولكلِّ كافرٍ عقابًا مُذلًّا مخزيًا، جزاءً على كفرِهم، واستكبارِهم على أداء حقوقِ الله تعالى وحقوقِ عباده(٢).

﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا (٣٨)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذمَّ سبحانه وتعالى المُقْتِرين، أتبَعَه ذمَّ المسرِفين المبذِّرين، فقال(٣):

﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ﴾.

أي: ومِن صفاتِهم أيضًا: أنَّهم يبذُلون أموالَهم من أجلِ أن يراهم النَّاسُ فيُثنوا عليهم، ويمدحوهم بالكرمِ والعطاءِ، لا يُريدون بذلك وجهَ الله تعالى(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣١٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٢٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٢١).

﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

أي: إنَّهم لا يُؤمِنون باللهِ تعالى؛ فيتقرَّبوا إليه، ولا يؤمِنون باليومِ الآخِرِ؛ فيرجوا ثوابَه(١).

﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾.

أي: إنَّما حمَلهم على صَنيعِهم القبيحِ هذا، وعدُولِهم عن فِعلِ الطَّاعة على وجهِها: الشَّيطانُ؛ فإنَّه سوَّل لهم وأمْلَى لهم، وقارنَهم فحَسَّن لهم القبائحَ، فمن يكُنِ الشَّيطانُ له خليلًا وصاحبًا يعمَلُ بطاعتِه ويتَّبعُ أمرَه فبئس الصَّاحبُ هو؛ لأنَّه يريدُ إهلاكَ مَن قارَنه، ويَسعى فيه أشدَّ السَّعي؛ إذ يأمُرُه بالمنكَرِ، ويَنهاه عن المعروفِ(٢).

﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا (٣٩)﴾.

﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾.

أي: وأيُّ شيءٍ على هؤلاء الذين ينفقونَ أموالَهم رئاءَ النَّاس، ولا يؤمنونَ باللهِ ولا باليومِ الآخر، وأي حرجٍ ومشقَّةٍ تلحَقُهم لو سلَكوا الطَّريقَ الحميدةَ، فآمنوا باللهِ تعالى، وأخلصوا له، وآمنوا باليومِ الآخِرِ، وأيقنوا أنَّ اللهَ يجازيهم بأعمالِهم، وأنفَقوا ممَّا أعطاهم اللهُ تعالى فيما يحبُّه ويرضاه(٣)؟!

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٢١-٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٢٢-٣٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٢٦-٣٢٧).

أي: إنَّ اللهَ تعالى عليمٌ بنيَّاتهم وأحوالِهم وأعمالِهم، وهو حافظٌ لها، ومجازيهم عليها[١]، وعليمٌ بمن يستحقُّ التَّوفيقَ منهم، فيوفِّقُه ويُلهمُه رُشدَه، ويُقيِّضه لعملٍ صالحٍ يرضى به عنه، وبمن يستحقُّ الخِذلانَ والطَّردَ عن جَنابِه الأعظمِ[٢]، وهو عليمٌ أيضًا بما هم عليه مِن كُفرٍ، ولو آمنوا لعلِم الله سبحانه أيضًا إيمانَهم، وأثابهم عليه[٣].

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (٤٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا قال الله تعالى: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ فكأنَّه قال: فإنَّ اللهَ لا يظلمُ مَن هذه حالُه مثقالَ ذرَّةٍ، وإن تك حسنةً يضاعِفْها، فرغَّبَ بذلك في الإيمانِ والطَّاعةِ[٤].

وأيضًا لَمَّا أمر اللهُ تعالى بعبادته تعالى، وبالإحسانِ للوالدَيْنِ ومَن ذُكِر معهم، ثمَّ أعقَب ذلك بذمِّ البُخلِ والأوصاف المذكورةِ معه، ثمَّ وبَّخ مَن لم يؤمِنْ، ولم يُنفِقْ في طاعةِ الله، كان هذا كلُّه توطئةً لِذكرِ الجزاءِ على الحسَناتِ والسَّيِّئاتِ، فأخبَر تعالى بصفةِ عدلِه، وأنَّه عزَّ وجلَّ لا يظلِمُ أدنى شيء وبيَّن أنَّه لا يظلِمُ أحَدًا من العاملين بتلك الوصايا، قليلًا أو كثيرًا، بل يُوفِّيه حقَّه بالقِسطاسِ المستقيمِ[٥]، فقال:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٨٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٤٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٨٥).

أي: إنَّ اللهَ تعالى لا يبخَسُ أحَدًا مِن خَلْقِه حقَّه، ولو قدْرَ وزنِ ذرَّةٍ منه، فلا ينقصُ من حسناتِ عبدِه، ولا يَزيدُ في سيِّئاتِه(١).

قال تعالى حكايةً عن لقمانَ: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦].

وقال سبحانه: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٦ - ٨].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رضِي اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((لا يَدخلُ النَّارَ أحدٌ في قلبِه مثقالُ حبَّةِ خردلٍ من إيمانٍ))(٢).

﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾.

أي: وإن توجَدْ حسنةٌ، فإنَّ اللهَ تعالى يضاعِفُها إلى عَشْرِ أمثالِها، إلى سَبعِمائةِ ضِعفٍ، إلى أضعافٍ كثيرة(٣).

﴿وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى يُعطيه مِن عندِه أيضًا ثوابًا عظيمًا لا يتصوَّرُه إنسانٌ (قيل: هو الجنَّة)(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٢٩-٣٣٠).

(٢) رواه مسلم (٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٣٠).

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا (٤١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن الله تعالى أنَّ في الآخرةِ لا يجري على أحدٍ ظُلمٌ، وأنَّه تعالى يجازي المحسِنَ على إحسانِه، ويَزيدُه على قدرِ حقِّه- بيَّن تعالى في هذه الآية أنَّ ذلك يجري بشَهادةِ الرُّسلِ الَّذين جعَلهم اللهُ الحُجَّةَ على الخَلْقِ؛ لتكونَ الحُجَّةُ على المسيءِ أبلَغَ، والتَّبكيتُ له أعظَمَ، وحسرتُه أشدَّ، ويكونَ سرورُ مَن قَبِلَ ذلك مِن الرَّسول، وأظهَر الطَّاعةَ أعظَمَ، ويكونَ هذا وعيدًا للكفَّارِ الَّذين قال اللهُ فيهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠]، ووعدًا للمُطِيعين الَّذين قال اللهُ فيهم: ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾[1] [النساء: ٤٠].

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾.

أي: فكيف تكون الحالُ يوم القيامة حين يأتي اللهُ تعالى مِن كلِّ أمَّةٍ بشَهيدٍ، وهم الأنبياءُ عليهم السَّلامُ، فيشهَدون على أُمَمِهم بأعمالِها، وتصديقِ رسلِها، أو تكذيبِهم، وتبليغِهم رسالةَ ربِّهم عزَّ وجلَّ[2]؟

﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾.

أي: وكيف تكون الحالُ أيضًا إذا شهِد محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم على أمَّتِه بأنَّه بلَّغ رسالةَ ربِّه سبحانه[3]؟

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رضِي اللهُ عنه، ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٧-٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٣٥-٣٣٦).

له: اقْرَأْ عَلَيَّ، قلتُ: يا رسولَ اللهِ، أقرَأُ عليكَ وعليكَ أُنزِلَ؟! قال: نعمْ، فقرأتُ سورةَ النِّساءِ، حتَّى أتيتُ إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، قال: حسْبُكَ الآن، فالتفتُّ إليهِ فإذا عيناه تذْرِفان[١]))[٢].

﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا (٤٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

الآيةُ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ السَّامعَ يتساءلُ عن الحالةِ المبهَمة المدلولة لقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ [النساء: ٤١] ويتطلَّبُ بيانَها، فجاءت هذه الجملةُ مبيِّنةً لبعضِ تلك الحالةِ العجيبة، وهي حالُ الَّذين كفَروا حين يرَوْن بوارقَ الشَّرِّ: مِن شهادةِ شُهداءِ الأممِ على مؤمنِهم وكافرِهم، ويوقِنون بأنَّ المشهودَ عليهم بالكفرِ مأخوذون إلى العذابِ، فينالُهم مِن الخوفِ ما يوَدُّون منه لو تُسوَّى بهم الأرضُ[٣]، قال الله تعالى:

﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ﴾.

أي: حينها يتمنَّى مَن كفَر باللهِ تعالى، وعصى رسولَه فلم يمتثِلْ أمرَه، ولم يجتنِبْ نهيَه، أنْ لو تبتلِعُهم الأرضُ، فيُدفَنونَ فيها ولا يَظْهَرون، ويكونون ترابًا منها، فلا يُحاسَبون[٤].

---

(١) تَذْرِفان: ذَرَفَتِ العينُ تَذْرِف: إذا جرى دَمعُها. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ١٥٩).

(٢) رواه البخاري (٥٠٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٠-٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٣٧-٣٣٨).

﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾.

أي: إنَّهم يَعترفون بما فعَلوه، ويُقرُّون بما عمِلوه، وتَشهَدُ عليهم جوارحُهم بما كانوا يعمَلون(١).

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ تحريمُ الإساءةِ إلى الوالدَيْنِ؛ لأنَّ الأمرَ بالشَّيء نهيٌ عن ضدِّه(٢).

٢- أنَّ مَن لم يُحسِنْ إلى والدَيْه ولم يُسِئْ لهما فهو مُقصِّرٌ؛ لأنَّ اللهَ أمَر بالإحسان، وخلافُ الإحسانِ شيئانِ: إساءةٌ، وعدمُ إساءةٍ وإحسانٍ، وهذا خلافُ ما أمَرنا اللهُ به؛ قال تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾(٣).

٣- في الأمرِ بالإحسانِ إلى الأقاربِ في قوله: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى﴾ تنبيهٌ على أنَّ مِن سَفالةِ الأخلاقِ أن يستخفَّ أحدٌ بالقريبِ؛ لأنَّه قريبُه، وآمِنٌ من غوائلِه، ويصرِفَ بِرَّه ووُدَّه إلى الأباعدِ؛ ليستكفيَ شرَّهم، أو ليُذكَرَ في القبائل بالذِّكرِ الحسَنِ(٤).

٤- في قوله تعالى: ﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ ذمُّ مَن يكتُمُ ما آتاه اللهُ من فضلِه، والكتمانُ نوعانِ: كتمانٌ فِعليٌّ، وكتمانٌ قوليٌّ: فالكتمانُ الفِعليُّ: ألَّا يُرَى أثَرُ نعمةِ اللهِ على العبد، فيُعطيه اللهُ المالَ فيخرُجُ إلى النَّاسِ بلباس الفقراءِ، وبمركوبِ الفقراء، لا تعفُّفًا ولكن بُخلًا، والكتمانُ القوليُّ: أن يتحدَّثَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٠٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٥٠).

عند النَّاس؛ فيقول: أنا ليس عندي مالٌ، أنا متوسِّطُ الحالِ، أو يزيد ويقول: أنا فقيرٌ، أو ما أشبَهَ ذلك[١].

٥- أنَّ مَن عدَل عن المشروعِ ابتُلِي بالممنوع؛ وذلك أنَّ الَّذين يبخَلون بما آتاهم اللهُ مِن فضلِه ابتُلوا بإنفاقِ المالِ على وجهٍ لا خيرَ فيه، على أنَّهم يبذلونه رئاءَ النَّاس، وهذا وجهٌ لا خيرَ فيه، بل إذا وقَع تعبُّدًا كان شرًّا، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ﴾[٢].

٦- وفي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ تنبيهٌ إلى تأثيرِ قُرَناءِ المرءِ في سِيرتِه، وما ينبغي من اختيارِ القَرين الصَّالح على قرين السُّوءِ[٣].

٧- في قول الله تعالى: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ..﴾ الآية: أنَّ الإنسانَ يجبُ أن يوازِنَ في الأمورِ بين النَّافعِ والضَّارِّ، فينظُرَ ماذا يترتَّبُ على إيمانِه أو على كُفرِه، حتَّى يختارَ خيرَ الطَّريقينِ[٤].

٨- أنَّ المُنفِقَ لا يُنفِقُ من كِيسِه، لكنَّه مُنفِقٌ ممَّا رزَقه اللهُ؛ فالفضلُ كلُّ الفضلِ لله عزَّ وجلَّ؛ قال تعالى: ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾[٥].

٩- في قوله تعالى: ﴿مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ بيانُ منَّةِ الله سبحانه على عبادِه بما أعطاهم، وأنَّ العطاءَ عطاؤُه، ويتفرَّعُ على هذه الفائدة: أن تعتمدَ على اللهِ في حصول الرِّزق، ولا يعني هذا ألَّا نفعَلَ الأسبابَ الَّتي نصِلُ بها إلى الرِّزق، بل لا بدَّ أن نفعلَ الأسبابَ، لكن مع الاعتمادِ على اللهِ عزَّ وجلَّ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٢٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

١٠- إثباتُ العِلمِ للهِ تعالى بأحوالِ عبادِه؛ لقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾، ويتفرَّعُ على هذه الفائدةِ: الرَّغبةُ والرَّهبةُ؛ وذلك لأنَّ العبدَ إذا علم أنَّ اللهَ عليمٌ به، خاف من مخالفتِه، ورجا في موافقتِه؛ إذ لا يضيعُ شيءٌ على اللهِ عزَّ وجلَّ، والإيمانُ بعِلمِ اللهِ عزَّ وجلَّ يكسِبُ العبدَ مراقبةَ اللهِ سبحانه تمامًا؛ لأنَّ أيَّ شيءٍ يفعله فهو عليمٌ به، فهذا يحمِلُه على الرَّجاءِ في فعل ما يحبُّه اللهُ، وعلى الخوفِ مِن فعل ما يكرَهُه اللهُ عزَّ وجلَّ[1].

١١- قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ فيه إرشادٌ إلى أنْ يَشهدَ العبدُ حِكْمَةَ اللهِ سبحانَه في الوَعدِ والوعيدِ؛ فيَشهدَ عدْلَه تعالى في وَعيدِه، وإحسانَه في وعْدِه، وكلٌّ قائمٌ بحِكْمتِه[2].

١٢- أنَّ الحسنةَ تجذِبُ الحسنةَ، وتُؤخَذ من قوله: ﴿وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾؛ لأنَّ هذا الأجرَ قد يكونُ سببُه زيادةَ الحسناتِ بسببِ الحسنةِ الأُولى، فمِن نعمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ أنَّ الإنسانَ إذا عمِل العملَ الصَّالحَ وُفِّقَ لعمَلٍ آخَرَ[3].

١٣- وجوبُ العمل بما في السُّنَّةِ، وإن لم يكُنْ ذلك في القرآنِ، وتؤخذ من قوله: ﴿وَعَصَوُا الرَّسُولَ﴾، فالأوامر الصادرةُ من الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم يجب العملُ بها، وإن لم تكُنْ في القرآنِ[4].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- أنَّ الإثباتَ المحضَ لا يدلُّ على التَّوحيدِ، ويُؤخَذُ ذلك مِن أنَّه لَمَّا أمَر

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٢٩).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٤٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٣٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٣٩).

بالعبادة قال: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا﴾؛ وذلك أنَّ الإنسانَ قد يَعبُدُ اللهَ لكن يعبُدُ غيرَه، فإذا عبَد مع اللهِ غيرَه فإنَّه لم يُخلِصِ العبادةَ لله، والمطلوبُ: إخلاصُ العبادةِ له(١).

٢- وجوبُ الإحسانِ إلى الوالدينِ؛ لقوله: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، ولكنَّ التَّعبيرَ القرآنيَّ يقول: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ ولم يقُلْ: وإلى الوالدين؛ لأنَّ المطلوبَ مباشَرةُ الإنسانِ بالإحسانِ إلى والدَيْه، لا إيصال الإحسانِ فقط، ولو قال: (إلى الوالدينِ إحسانًا) كان المطلوبُ إيصالَ الإحسانِ فقط(٢).

٣- أنَّ أعظمَ حقوقِ البَشر حقُّ الوالدينِ؛ لأنَّ اللهَ جعَله في المرتبةِ الثَّانية بعد حقِّه، ولا يرِدُ على هذا حقُّ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لأنَّ حقَّ الرَّسولِ داخلٌ في حقِّ اللهِ، ووجهُه: أنَّ العبادةَ لا تتمُّ إلَّا بالإخلاصِ لله، والمتابعةِ لرسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وإذا تحقَّقَت متابعةُ الرَّسول فقد أدَّيْت حقَّه(٣).

٤- أنَّ الوالدينِ من الأقاربِ أيضًا، إلَّا أنَّ قَرابةَ الوِلادِ لَمَّا كانت مخصوصةً بكونِها أقربَ القراباتِ، وكانت مخصوصةً بخواصَّ لا تحصُلُ في غيرِها، لا جرمَ ميَّزها اللهُ تعالى في الذِّكرِ عن سائر الأنواعِ، فذكَر في هذه الآيةِ قَرابةَ الوِلادِ، ثمَّ أتبعَها بقرابةِ الرَّحِمِ(٤).

٥- في قوله: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى﴾ أنَّ الأقربَ فالأقربَ أَولى بالإحسان، ويؤخَذُ مِن أنَّ اللهَ قدَّم الوالدينِ، وهما أقربُ القَرابات، فقياسًا على ذلك نقول: مَن كان أقربَ مِن بقيَّةِ القَرابات فهو أحقُّ، هذا وجهٌ، والوجه الثَّاني: أنَّ المعلَّقَ على وصفٍ يقوَى بقوَّةِ ذلك الوصفِ، ويضعُفُ بضَعفِ ذلك

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٧٦).

الوصفِ، والحُكمُ هنا معلَّقٌ على القَرابة؛ فكلُّ مَن كان أقربَ كان حقُّه أوكدَ، فصارتِ الدَّلالةُ على أنَّنا نقدِّمُ الأقربَ فالأقربَ من وجهين: الوجهُ الأوَّلُ: قياسيٌّ، والثَّاني: معنويٌّ[١].

٦- الأمرُ بالإحسانِ إلى المساكين؛ لقوله: ﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾، ومَن كان منهم أشدَّ مَسكنةً كانت الوصيةُ به أوكَدَ؛ لأنَّه عُلِّق على وصفٍ[٢].

٧- قدَّم اللهُ اليتيمَ على المسكينِ في قوله: ﴿وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ﴾؛ لأنَّ المسكينَ لكِبَرِه يمكِنُه أن يعرِضَ حالَ نفسِه على الغير، فيجلِب به نفعًا، أو يدفَع به ضررًا، وأمَّا اليتيمُ فلا قُدرةَ له عليه[٣].

٨- إثباتُ المحبَّةِ للهِ، وتؤخذ من قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾، فهذا وإن كان نفيًا إلَّا أنَّه لو كانت المحبةُ منتفيةً عن اللهِ مطلقًا ولا تجوزُ عليه، لم يكُنْ لنفيِها فائدةٌ هنا، وعلى هذا فإنَّها تدلُّ على إثباتِ المحبَّةِ لله، ومذهبُ السَّلفِ وأهلِ السُّنَّةِ إثباتُ المحبَّةِ لله حقيقةً، وأنَّه جلَّ وعلا يُحِبُّ، وأنَّ محبَّتَه تتعلَّقُ بالأعمالِ، وتتعلَّقُ بالأشخاصِ، وتتعلَّقُ بالأزمنةِ، وتتعلَّقُ بالأمكنةِ[٤].

٩- عنايةُ اللهِ سبحانه بعِبادِه؛ يُستفادُ ذلك من وجوهٍ في هذه الآية: أوَّلًا: مِن جِهة القيامِ بحقِّ الوالدينِ والقَرابات، وثانيًا: من جِهة جَبْرِ النَّقصِ الَّذي يحصلُ على بعضِ النَّاس، مثل: المساكينِ واليتامى، وثالثًا: أنَّ حُسنَ الجوارِ سببٌ للالتحامِ وللالتئامِ بين النَّاس وعدم الكراهيةِ والبَغضاءِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣١٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣١٢).

١٠- أنَّ اللهَ تعالى أرحمُ بالإنسانِ مِن أولاده، ويؤخَذُ مِن قوله: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾؛ حيث أمَرَ الولدَ أن يُحسِنَ إلى والِدِه، وهذا يدلُّ على أنَّ اللهَ أرحمُ بالإنسانِ من أولادِه، كما أنَّ قولَ الله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ [النِّساء: ١١] يدلُّ على أنَّ اللهَ أرحمُ بالإنسانِ من والديه، وهذا هو الواقعُ[١].

١١- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾، إنَّما خصَّ اللهُ تعالى هذينِ الوصفينِ بالذَّمِّ في هذا الموضعِ؛ لأنَّ مَن اتَّصَف بهاتينِ الصِّفتينِ حمَلتاه على الإخلالِ بمَن ذُكِر في الآيةِ ممَّن يكونُ لهم حاجةٌ إليه، فالمختالُ هو المتكبِّر، وكلُّ مَن كان متكبِّرًا فإنَّه قلَّما يقومُ برعايةِ الحقوقِ، ثمَّ أضاف إليه ذمَّ الفَخورِ؛ لئلَّا يُقدِمَ على رعايةِ هذه الحقوقِ لأجل الرِّياءِ والسُّمعةِ، بل لمحضِ أمرِ اللهِ تعالى، فالفخر هو عدُّ المناقبِ على سبيلِ التَّطاولِ بها، والتَّعاظمِ على النَّاس[٢].

١٢- في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أنَّه تعالى ذكَر في هذه الآيةِ مِن الأحوالِ المذمومة ثلاثًا: أوَّلها: كون الإنسانِ بخيلًا، وهو المراد بقوله: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾، وثانيها: كونهم آمِرين لغيرِهم بالبُخلِ، وهذا هو النِّهايةُ في حبِّ البُخلِ، وهو المراد بقوله: ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾، وثالثها: قوله: ﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ فيُوهِمون الفقرَ مع الغنى، والإعسارَ مع اليَسارِ، والعَجْزَ مع الإمكانِ، ثمَّ إنَّ هذا الكتمانَ قد يقعُ على وجهٍ يُوجِبُ الكفرَ، مثل: أن يُظهِرَ الشِّكايةَ عن اللهِ تعالى، ولا يرضى بالقضاءِ والقدَرِ، وهذا ينتهي إلى حدِّ الكفرِ؛ فلذلك قال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣١٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٣٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٧٩).

١٣- قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ قد تُؤُوِّلَت في البُخلِ بالمال والمَنْع، والبُخْلِ بالعلم ونحوِه، وهي تعمُّ البخل بكل ما ينفَعُ في الدِّين والدنيا؛ من علمٍ ومالٍ وغيرِ ذلك؛ كما تأوَّلوا قولَه: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ النفقَة من المالِ، والنَّفقَة من العِلْم[1].

١٤- لم يَجِئْ إعدادُ العذابِ المُهينِ في القرآنِ إلَّا في حَقِّ الكُفَّارِ؛ كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾[2].

١٥- من كانت الشَّياطينُ لهم أولياءَ فإنَّما تَؤُزُّهم إلى المعاصي أزًّا، وتُزْعِجُهم إليها إزعاجًا لا يستقِرُّون معه، ويُزَيِّنون لهم القبائِحَ ويُخَفِّفُونها على قلوبهم، ويُحَلُّونها في نُفوسِهم، ويُثَقِّلون عليهم الطَّاعاتِ، ويُثَبِّطونهم عنها، ويُقَبِّحونها في أعيُنِهم، ويُلْقونَ على ألْسِنَتِهم أنواعَ القبيح من الكلامِ وما لا يُفيدُ، ويُزَيِّنونه في أسماعِ مَن يَسْمَعُه منهم؛ يبيتون معهم حيثُ باتوا ويَقِيلونَ معهم حيث قالوا، ويُشارِكونَهم في أموالِهم وأولادِهم ونسائِهم، يأكلون معهم، ويشربون معهم، ويُجامعونَ معهم، وينامون معهم؛ قال تعالى ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾[3].

١٦- انتفاءُ الظُّلم عن اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾، وهذا النَّفيُ يتضمَّنُ إثباتَ كمالِ العدل، وليس المرادُ به مجرَّدَ انتفاءِ الظُّلم؛ لأنَّ مجرَّدَ انتفاء الظُّلمِ لا يدلُّ على كمالٍ، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (١٤/ ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٥٢).

(٣) يُنظر: ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٢٦١- ٢٦٢).

الْأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠]، أي: الوصفُ الأعلى[١].

١٧- أنَّ ما ذُكِر على سبيل المبالغةِ لا مفهومَ له؛ لقوله: ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ فلا يُفهَمُ مِن قوله: ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ أنَّه يظلِمُ دون ذلك، بل لا يظلِمُ مِثقالَ ذرَّةٍ ولا دونها، لكنَّ عادةَ العربِ ضربُ المثَلِ في الشَّيء الحقيرِ بمِثقالِ الذَّرَّة[٢].

١٨- أنَّ رحمةَ اللهِ تعالى سبقَتْ غضَبَه؛ لأنَّ الحسناتِ تُضاعَفُ، والسَّيِّئاتِ لا تُزادُ؛ فقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾، فيه نفيُ زيادةِ السَّيِّئاتِ، وقوله: ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾ فيه تضعيفُ الحسناتِ، وهو سبحانه يَجزي على الحسنةِ ثوابًا أكثرَ من المقابَلة، فليست الحسنةُ بعَشْرِ أمثالِها إلى سَبعِ مِئةِ ضِعفٍ فقط، بل هناك شيءٌ فوق هذا، وهو قوله: ﴿وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[٣].

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسانًا وَبِذِي الْقُرْبى﴾ فيه مناسبةٌ حسنةٌ، حيثُ عبَّر هنا بقوله: ﴿وَبِذِي الْقُرْبى﴾ بزيادة الباء، وفي سورة البقرة عبَّر بـ﴿وَذِي الْقُرْبَى﴾ بغيرِ الباء في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى﴾ [البقرة: ٨٣]، وإعادةُ الباءِ تدلُّ على التَّوكيدِ والمبالغةِ؛ فبُولِغ في آيةِ النساءِ؛ لأنَّها في حقِّ هذه الأمَّة، ولم يُبالغْ في آية سورةِ البقرة؛ لأنَّها في حقِّ بني إسرائيل، والاعتناءُ بهذه الأمَّةِ أكثرُ مِن الاعتناء بغيرها؛ إذ هي خيرُ أمَّة أُخرجت للنَّاس[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٣٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٣٣، ٣٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٣١).

وقيل: أُعيدتِ الباءُ في سُورة النِّساء دون سورةِ البقرة؛ نظرًا للسِّياق؛ ففي سورة النساء، كان =

وقيل: فائدةُ إعادةِ حرفِ الجرِّ ﴿وَبِذِي الْقُرْبَى﴾ الإشارةُ إلى أنَّ الإحسانَ إلى القَرابةِ مُستقلٌّ، بمعنى أنَّه لو فُرِض أنَّ الرَّجُلَ ليس له والِدانِ، فحقُّ القرابةِ ثابتٌ، وليس مبنيًّا على حقِّ الوالدينِ، وتابعًا له؛ لأنَّ الوالدينِ قد يَكونانِ ميِّتينِ؛ فحقُّ القَرابةِ باقٍ(١).

وقيل: إنَّ إعادةَ الجارِّ لإفادة التَّنويع(٢).

٢- **قوله:** ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾، فيه التَّعبيرُ بالبَعضِ عن الكلِّ؛ حيثُ قال: ﴿مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ ومعلومٌ أنَّ المرادَ ما ملَكْتُم(٣).

٣- ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾: فيه وَضْعُ الظَّاهر ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ موضِعَ المُضمَرِ (لهم)؛ للإشعارِ بأنَّ مَن هذا شأنُه فهو كافرٌ لنِعمةِ الله، ومَن كان كافرًا لنعمةِ الله، فله عذابٌ يُهينُه، كما أهان النِّعمةَ بالبُخلِ والإخفاءِ(٤).

- والجملةُ اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّر لِما قبلها(٥).

٤- **قوله:** ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ

= الكلامُ عن القَراباتِ من أوَّلِ السُّورةِ إلى آخِرها، وليس فقط في هذه الآيةِ؛ ففي الآيةِ الأولى من مطلع السُّورة قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾، ثم بعدَها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾؛ إذنْ ذِكر (الباء) مع ذِي القُربى في هذه الآيةِ مِن سورة النِّساء كان لمراعاةِ التَّفصيلِ والتوكيدِ، أمَّا في آية سورة البقرة فليس السياقُ في القَرابات؛ فحُذِفت (الباء) في (ذي القربى)؛ مراعاةً للإيجاز. يُنظر: ((لمسات بيانية)) لفاضل السامرائي (ص: ٢٤١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (١/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٧٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٢١٦)، ((الجدول في إعراب القرآن الكريم)) لصافي (٥/ ٣٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٧٦).

الْآخِرِ﴾: فيه تقديمُ إنفاقِهم رِئاءَ النَّاسِ على عدمِ إيمانِهم باللهِ واليومِ الآخِرِ، مع كونِ المؤخَّرِ أقبَحَ من المقدَّمِ؛ لرعايةِ المناسبةِ بين إنفاقِهم ذلك وبين ما قبله مِن بُخلِهم وأمرِهم للنَّاس به[1].

٥- قوله: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا...﴾ الآية: استفهامٌ غرَضُه التَّوبيخُ لهم على الجهلِ بمكان المنفعةِ، والاعتقادِ في الشَّيء على خلافِ ما هو عليه، والتَّحريضُ على الفكرِ لطلبِ الجواب؛ لعلَّه يؤدِّي بهم إلى العِلم بما فيه من الفوائدِ الجليلةِ، والعوائدِ الجميلة[2].

- وفيه تنبيهٌ على أنَّ المدعوَّ إلى أمرٍ لا ضررَ فيه ينبغي أن يُجيبَ إليه احتياطًا؛ فكيف إذا تضمَّن المنافعَ[3]؟!

- وتقديمُ الإيمانِ باللهِ واليومِ الآخِرِ على الإنفاقِ؛ لأهميَّة الإيمانِ في نفسِه، ولعدمِ الاعتدادِ بالإنفاقِ بدونه[4].

٦- قوله: ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: فيه تكرير ﴿لَا﴾ النَّافية، وكذلك تكريرُ الباء؛ للإشعارِ بأنَّ كلًّا منهما منتفٍ على حِدَتِه[5].

٧- قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا...﴾: فيه مبالغةٌ بذِكْر المثقالِ[6]، مع تأكيدِ الخبَرِ بـ: (إنَّ) واسميَّةِ الجملةِ.

- وفيه: التَّجوُّزُ بإطلاقِ الشَّيءِ على ما يُقارِبُه في المعنى؛ فقد أُطلِقَ الظُّلمُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٧٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٧٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٧٧).
(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٢١٧).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٧٧).

على انتقاصِ الأجرِ من حيث إنَّ نقصَه عن الموعودِ به قريبٌ في المعنى من الظُّلم[١].

- وقوله: ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ فيه: التَّنبيهُ بما هو أدْنَى على ما هو أعْلَى[٢].

- وفيه: إبهامٌ؛ إذ لم يُبيِّنْ فيه المضاعَفةَ في الأجرِ[٣].

٨- قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ...﴾: الاستفهامُ فيه يدلُّ على التَّفخيمِ والتَّعظيمِ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٦٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٣٦).

الآية (٤٣)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿جُنُبًا﴾: أي: إنْ أصابتكم الجَنابةُ، وسُمِّيتِ الجَنابةُ بذلك؛ لكونِها سببًا لتجنُّبِ الصَّلاة في حُكم الشَّرع، ولفظ جُنُب اسْمٌ خَرَجَ مَخْرجَ الفِعلِ، فيسْتَوي للواحِدِ والاثْنَيْنِ والجمِيع والمؤنَّثِ، فيُقَال: هذا جُنُبٌ، وهذانِ جُنُبٌ وهؤلاء جُنُبٌ، فهُو على تأْويلِ ذَوِي جُنُبٍ، وأصل (جنب): يدلُّ على الناحيةِ، والبُعد[1].

﴿عَابِرِي سَبِيلٍ﴾: أي: مُجتازين في المساجِدِ، أو مُجتازين غيرَ مُقِيمين، ولا مُطمئنِّين، أو المسافرين، وأصل (عبر): تجاوزٌ من حالٍ إلى حال[2].

﴿الْغَائِطِ﴾: الحدَث، وأصلُ الغائطِ: المطمئِنُّ مِن الأرض، وكانوا إذا أرادوا قَضاءَ الحاجة أتَوْا غائطًا من الأرضِ ففعَلوا ذلك فيه؛ فكُني عن الحدَثِ بالغائطِ، وأصل (غوط): اطمئنانٌ وغَوْر[3].

﴿لَامَسْتُمُ﴾: كِنَايَة عَن النِّكَاح والجِماع، وقيل: ملامسة من غير جماع،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٦)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٢/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٩).

وأصْل (لمس): يدلُّ على تطلُّب شيءٍ، ومسيسِه أيضًا[1].

﴿صَعِيدًا﴾: أي ترابًا، والصَّعيدُ: الغبار الَّذي يصعَدُ، ويُطلَقُ أيضًا على وجهِ الأرض[2].

المَعْنى الإجماليُّ:

يَنهَى اللهُ تعالى عبادَه المؤمنين عن إتيانِ المساجد، وعن أداء الصَّلاة وهم في حالِ سُكرٍ، حتَّى يحصُلَ لهم الصَّحوُ الكاملُ، كذلك ينهاهم عن إتيانِ المساجد، وعن أداء الصَّلاة وهم على جنابةٍ، حتَّى يغتسِلوا، إلَّا مَن كان مجتازًا عبْرَ المسجد فقط دون مُكثٍ، فله إتيانُه، ثمَّ يبيِّنُ اللهُ لعباده أنَّ لهم أن يتيمَّموا بدلَ الطَّهارةِ بالماء؛ وذلك بأن يقصِدوا التُّرابَ الطَّاهر النَّظيف، ويمسَحوا وجوهَهم وأكُفَّهم منه، في حالِ كانوا مَرْضَى يَتعذَّرُ استعمالُهم للماء، أو فقَدوا الماءَ وهم مسافرون، أو فقَدوه بعد أن أحدَثوا حَدَثًا أصغرَ ببولٍ أو غائطٍ، أو عقِبَ ملامستِهم للنِّساءِ، إنَّ اللهَ كان عفوًّا غفورًا.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ الله تعالى بعبادتِه وحدَه لا شريكَ له، وأمَرَ ببرِّ الوالدينِ ومكارمِ الأخلاق، وذمَّ البُخلَ، واستطرَد منه إلى شيءٍ مِن أحوال القيامة، وكان قد

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٩).

وقَع مِن بعضِ المسلِمين تخليطٌ في الصَّلاة الَّتي هي رأسُ العبادةِ بسبب شُربِ الخمر- ناسَب أن تُخَلَّص الصَّلاةُ من شوائبِ الكدَرِ الَّتي يوقِعُها على غيرِ وجهِها، فأمَر تعالى بإتيانِها على وجهِها دون ما يُفسِدها؛ ليجمَعَ لهم بين إخلاصِ عبادةِ الحقِّ، ومكارمِ الأخلاق الَّتي بينهم وبين الخَلْق(١).

وأيضًا لَمَّا وصَف الوقوفَ بين يديه في يومِ العرضِ والأهوال، وتضمَّن وصفُه أنَّه لا ينجو فيه إلَّا مَن كان طاهرَ القلبِ والجوارحِ بالإيمانِ به والطَّاعةِ لرسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وصَف الوقوفَ بين يديه في الدُّنيا في مقامِ الأُنسِ، وحضرةِ القُدسِ المُنَجِّي من هولِ الوقوفِ في ذلك اليوم، وأمَر بالطَّهارةِ فيه عن الخبائثِ(٢).

وأيضًا لَمَّا أمَر اللهُ تعالى في الآياتِ السَّابقة بعبادتِه، وتَرْكِ الشِّركِ به، وبالإحسانِ للوالدَيْنِ وغيرهم، وتوعَّد الَّذين لا يقُومون بهذه الأوامر والنَّواهي- وقد عرَفْنا مِن سُوَرٍ أخرى أنَّ اللهَ تعالى يأمُرُ بالاستعانةِ بالصَّلاة على القيامِ بأمورِ الدِّين وتكاليفِه- ناسَب ذِكْر الصَّلاةِ هاهنا عقِبَ تلك الأوامرِ والنَّواهي الجامعة(٣).

النَّاسخ والمَنسوخ:

المَنسوخ:

قول الله تعالى: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾(٤) [النساء: ٤٣].

النَّاسخ:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٤٨).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٢٨٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٩٢).
(٤) قال النحاس: (أكثرُ العلماء على أنَّها منسوخة) ((الناسخ والمنسوخ)) (ص: ٣٣٦).

رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠](1).

الدَّليل:

عن عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رضي الله عنه، قال: (لَمَّا نزَل تحريمُ الخَمرِ، قال عمرُ: اللَّهمَّ بيِّنْ لنا في الخمرِ بيانًا شفاءً، فنزلت الآيةُ الَّتي في البقرة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ...﴾ الآية [البقرة: ٢١٩] ، قال: فدُعِي عمرُ فقُرِئت عليه، قال: اللَّهمَّ بيِّنْ لنا في الخمرِ بيانًا شفاءً، فنزلت الآيةُ الَّتي في النِّساءِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ [النساء: ٤٣]، فكان مُنادِي رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم إذا أقيمت الصَّلاةُ ينادي: ألَا لا يقرَبَنَّ الصَّلاةَ سَكرانُ، فدُعِي عُمرُ فقُرِئت عليه، فقال: اللَّهمَّ بيِّنْ لنا في الخمرِ بيانًا شفاءً، فنزلت هذه الآيةُ ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١]، قال عُمرُ: انتَهَيْنا)(2).

سَببُ النُّزول:

عن عليِّ بن أبي طالبٍ رضِي اللهُ عنه، قال: ((صنَع لنا عبدُ الرَّحمنِ بنُ عوف رضِي اللهُ عنه طعامًا، فدعانا وسقانا من الخمرِ، فأخذتِ الخمرُ منَّا، وحضرتِ الصَّلاةُ فقدَّموني، فقرأتُ: (قل يا أيُّها الكافرون لا أعبُدُ ما تعبدون ونحن نعبُدُ ما تعبدون)، فأنزَل اللهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]))(3).

---

(١) يُنظر: ((الناسخ والمنسوخ)) للزهري (ص: ٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٩).

(٢) رواه أبو داود (٣٦٧٠)، والترمذي (٣٠٤٩)، والنسائي (٥٥٤٠)، وأحمد (٣٧٨).
صحَّحه عليُّ بن المديني كما في ((شرح ثلاثيات المسند)) للسفاريني (١/ ٧٥٩)، وقال الترمذيُّ: رُوي عن إسرائيل مرسلًا وهو أصحُّ. وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (١/ ١٨٥)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٣٦٧٠)، وقال الوادعيُّ في ((أحاديث مُعلَّة)) (٣١٧): سنده رجال الصَّحيح، ولكنَّه منقطع.

(٣) رواه الترمذي (٣٠٢٦) واللفظ له، والبزار في ((البحر الزخار)) (٥٩٨)، وابن أبي حاتم في ((التفسير)) (٥٣٥٢). =

وفي لفظٍ آخرَ: عن عليٍّ بن أبي طالبٍ، رضِي اللهُ عنه: ((أنَّ رجلًا من الأنصارِ دعاه وعبدَ الرَّحمنِ بنَ عوف، فسقاهما قبل أن تحرَّمَ الخمرُ، فأمَّهم عليٌّ في المغربِ فقرأ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ﴾، فخلَّط فيها، فنزلَتْ: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]))[١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنون لا تقرَبوا المساجدَ، ولا تصلُّوا وأنتم في حالِ سُكرٍ، لا تدرون معه ما تقولون في الصَّلاة، إلى أن يحصُلَ لكم الصَّحوُ التَّامُّ[٢].

﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾.

أي: ولا تُصلُّوا أيضًا، ولا تقرَبوا المساجدَ، والحالُ أنَّكم على جَنابةٍ، إلَّا لأجلِ الاجتيازِ عبْرَها فقط، دون مُكثٍ فيها، إلى أن تغتسِلوا[٣].

= قال الترمذيُّ: حسنٌ صحيحٌ غريب. وقال الشوكاني في ((نيل الأوطار)) (٩/ ٥٣): في إسنادِه عطاء بن السَّائب، لا يُعرَف إلَّا من حديثه، وقد قال يحيى بن معين: لا يُحتجُّ بحديثِه، وفرَّق مرةً بين حديثه القديم وحديثه الحديث، ووافقه على التفرقة الإمام أحمدُ. وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٠٢٦).

(١) رواه أبو داود (٣٦٧١) واللفظ له ، والترمذي (٣٠٢٦)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٠٤١)، والبيهقي في ((السنن الكبرى)) (١٨٢٨).
قال الترمذيُّ: حسنٌ صحيحٌ غريب، وقال الطحاوي في ((شرح مشكل الآثار)) (١٢/ ٢٣٧): إن كان منقطعًا في رواية الفريابي عن سفيان؛ فإن غيره من رواة سفيان قد رفعه، ووثَّق رجالَ إسناده البوصيري في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٦/ ١٩٤)، وصححه الألباني في ((صحيح الترمذي)) (٣٠٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٠٨-٣١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٤٢-٣٤٥).
قال الرازي: (جميع المفسِّرين اتَّفقوا على أنَّ هذه الآية إنَّما نزلت في شُربِ الخمرِ) ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٨-٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٠٨، ٣١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٤٥).

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى﴾.

أي: وإنْ كنتم ذوي مَرَضٍ، بحيث يتعذَّرُ معه استعمالُ الماءِ[(١)].

﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾.

أي: إنْ كنتُم مُسافِرين[(٢)].

﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾.

أي: إنْ أحدَثَ أحدُكم حَدَثًا أصغرَ ببولٍ أو غائطٍ[(٣)].

﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾.

قيل: المرادُ الجِماعُ، وقيل المراد: كلُّ لَمسٍ باليدِ أو بغيرِها[(٤)].

﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾.

سَببُ النُّزول:

عن عائشةَ رضِي اللهُ عنها، زَوجِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، قالت: ((خرَجْنا مع رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم في بعضِ أسفارِه حتَّى إذا كنَّا بالبَيداءِ، أو بذاتِ الجيشِ انقطَع عِقدٌ لي، فأقام رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٩، ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٤٦).

قال الكيا الهراسي: (قوله: ﴿إِنْ كُنتُمْ مَرْضَى﴾ يمنعُ مِن التوضُّؤ، وأن يكونَ مِن إمساسِ الماءِ خطرُ الهلاكِ أو فسادُ عضوٍ، وليس المرادُ به مطلقُ المرضِ إجماعًا) ((أحكام القرآن)) (٢/ ٤٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٣-٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٤٧).

التماسِه، وأقام النَّاسُ معه، وليسوا على ماءٍ، فأتى النَّاسُ إلى أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ رضِي اللهُ عنه، فقالوا: ألَا ترى ما صنَعَتْ عائشة؟! أقامَتْ برسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم والنَّاسِ، وليسوا على ماءٍ، وليس معهم ماءٌ، فجاء أبو بكرٍ، ورسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم واضعٌ رأسَه على فَخِذي قدْ نام، فقال: حبَسْتِ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم والنَّاسَ، وليسوا على ماءٍ، وليس معهم ماءٌ! فقالت عائشةُ: فعاتَبني أبو بكرٍ، وقال ما شاءَ اللهُ أن يقولَ، وجعَل يَطعُنُني بيدِه في خاصرتي، فلا يمنَعُني من التَّحرُّكِ إلَّا مكانُ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم على فخِذي، فقام رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم حين أصبَح على غيرِ ماءٍ، فأنزَل اللهُ آيةَ التَّيمُّمِ، فتيمَّموا، فقال أُسَيدُ بن الحُضَيرِ: ما هي بأوَّلِ بركتِكم يا آلَ أبي بكرٍ، قالت: فبعَثْنا البعيرَ الَّذي كنتُ عليه، فأصَبْنا العِقدَ تحتَه))[1].

﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾.

أي: إنْ حصَلَتْ إحدى الحالاتِ السَّابقِ ذِكرُها- كالسَّفرِ- ففقدتُم الماءَ، فعليكم بقَصْدِ وجهِ الأرضِ الطَّاهرِ النَّظيفِ[2].

﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾.

أي: فامسَحوا مِن هذا الصَّعيدِ الطيِّبِ الوجهَ والكفَّينِ[3].

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى يَعفو عن ذُنوبِ عِبادِه، وتَقصيرِهم في طاعتِه، ويَستُرُ عليهم، ويَتجاوَزُ عن المؤاخَذةِ بها سبحانه وتعالى، ومِن عَفوِه عنهم وغَفرِه لهم: أنْ شَرَعَ التَّيمُّمَ، وأباح لهم فِعلَ الصَّلاة به إذا فقَدوا الماءَ، أو تعذَّر عليهم

(١) رواه البخاري (٣٣٤) واللفظ له، ومسلم (٣٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٨٠، ٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٤٨-٣٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣١٩-٣٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٤٩).

استعمالُه؛ توسعةً عليهم، ورُخصةً لهم[١].

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- أهميةُ الصَّلاةِ، والعنايةُ بها؛ وجهُ ذلك: أنَّ اللهَ تعالى صدَّر الحُكمَ المتعلِّقَ بالصَّلاةِ بالنِّداءِ لاسترعاءِ الانتباهِ، وممَّا يدلُّ على العنايةِ بها أنَّ اللهَ صدَّر الخطابَ بذلك بوصفِ الإيمانِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، فدلَّ هذا على أهميَّةِ الصَّلاةِ، وعلى العنايةِ بها[٢].

٢- الحثُّ على حُضورِ القلبِ في الصَّلاة؛ لقوله: ﴿حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾، والقلبُ إذا غاب، فإنَّ الإنسانَ لا يعلَمُ ما يقولُ، وإنَّما يقولُ على سبيلِ العادة فقط، وإلَّا لو أنَّه رجَع إلى نفسِه لتَبيَّن له أنَّه لا يَدري ما يقولُ، أي: لا يَدري معنى ما يقولُ، وإنْ كان قد يَدري أنَّه لفظٌ[٣].

٣- في قوله تعالى: ﴿حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه يَنبغي لِمَن أراد الصَّلاةَ أنْ يَقطَعَ عنه كلَّ شاغلٍ يَشغَلُ فِكرَه؛ كمُدافَعةِ الأخبثَيْنِ، والتَّوْقِ لطعامٍ، ونحوِه[٤].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- أنَّه لا حُكمَ لقولِ السَّكرانِ؛ لقوله: ﴿حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾، فإنَّه يدُلُّ على أنَّ السَّكرانَ لا يعلَمُ ما يقولُ، وإذا كان لا يعلَمُ ما يقولُ صار قولُه لغوًا لا عبرةَ به[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٥٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٥٠).

٢- يؤخَذُ مِن المعنى في قوله تعالى: ﴿حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ منعُ الدُّخولِ في الصَّلاةِ في حالِ النُّعاسِ المُفرِطِ، الَّذي لا يشعُرُ صاحبُه بما يقولُ ويفعَلُ[1].

٣- أنَّ الإنسانَ إذا غضِب غضبًا شديدًا حتَّى صار لا يعلَمُ ما يقولُ، فإنَّه لا عبرةَ بقولِه، حتَّى لو كان كفرًا، وحمَلَه على ذلك شدَّةُ الغضبِ، فإنَّه لا عبرةَ بقولِه؛ لقوله: ﴿حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾؛ فدلَّ ذلك على أنَّ جهْلَ الإنسانِ بما يقولُ له أثرٌ في تغيُّرِ الحُكم، وكذلك لو طلَّق في شدَّةِ الغضبِ وهو لا يعلَمُ ما يقول[2].

٤- قوله تعالى: ﴿حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ اكتفى بقولِه: ﴿تَقُولُونَ﴾ عن (تفعلون)؛ لظهورِ أنَّ ذلك الحدَّ من السُّكرِ قد يُفضي إلى اختلالِ أعمال الصَّلاةِ؛ إذ العملُ يُسرِعُ إليه الاختلالُ باختلالِ العقلِ قبل اختلالِ القولِ[3].

٥- تحريمُ مُكثِ الجُنُبِ في المسجدِ؛ لقوله: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾[4].

٦- يُستفادُ من قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ أنَّ العُبورَ ليس كالمُكثِ، وعليه: فإنَّ الإنسانَ لو مرَّ عابرًا بالمسجدِ، فإنَّه لا يَلْزَمُه أن يُصلِّيَ تحيَّةَ المسجدِ؛ لأنَّه عابر، بخِلاف ما إذا مكَث وجَلَس، فإنَّه لا يَجلِسُ حتَّى يُصليَ ركعتينِ[5].

٧- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾، استُدِلَّ به على أنَّه لا يجِبُ على الجُنُبِ إلَّا الاغتسالُ ولا يجِبُ عليه الوُضوءُ، وأنَّه إذا

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٥٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٦١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٥٢).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

اغتَسلَ جازَ له أنْ يَقرَبَ الصَّلاةَ، وأنَّ المغتسِلَ من الجنابةِ ليس عليه نِيَّةُ رفْعِ الحَدَثِ الأَصْغَرِ[(١)].

٨- الإشارةُ إلى القاعدةِ المعروفة المتَّفقِ عليها، وهي: أنَّ المشقَّةَ تجلِبُ التَّيسيرَ، ووجهُه: أنَّ اللهَ تعالى أجاز للمريضِ أن يتيمَّمَ، فقال: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا﴾[(٢)].

٩- أنَّ المسافرَ إذا لم يجِد الماءَ فإنَّه يتيمَّمُ، ولا يَنتظرُ حتَّى يجدَ الماءَ في البلد؛ لقوله: ﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا﴾[(٣)].

١٠- أنَّ السَّفرَ ليس له حدٌّ معيَّنٌ، ووجهُه: الإطلاقُ في قوله: ﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ ولم يقُلْ مسافةَ كذا، بل حدُّ السَّفرِ أنْ يَقعَ عليه اسمُ السَّفرِ؛ فإذا وقَع عليه اسمُ السَّفر ثبتَتْ له أحكامُ السَّفر، ولم يحدِّدِ اللهُ ولا رسولُه السَّفرَ بمسافة معيَّنةٍ[(٤)].

١١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ استُدِلَّ به على أنَّه لا يجِبُ على المتوضِّئِ أنْ يَتوضَّأ مرَّةً ثانيةً؛ إذ لو كانَ الوضوءُ واجبًا على مَن جاءَ مِن الغائِطِ ومَن لم يَجِئْ، لكانَ ذِكرُ المجيءِ مِن الغَائطِ عبثًا[(٥)].

١٢- أنَّ مجامَعةَ النِّساء حدَثٌ؛ لقوله: ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾، وهو حدَثٌ أكبرُ، كما دلَّت على ذلك آيةُ المائدة، وعلى هذا فيجبُ على الإنسان إذا جامَع

---

(١) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢١/ ٣٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٥٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٥٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٥٤).

(٥) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢١/ ٣٧٤).

المرأةَ أن يغتسلَ، سواءٌ أنزَل أم لم يُنزِلْ[١].

١٣- قولُ الله تعالى: ﴿... أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ استُدِلَّ به عَلَى أنَّ المسافِرَ يُجامِعُ أهْلَه وإنْ لم يَجِدِ الماءَ، ولا يُكْرَهُ له ذلِك[٢].

١٤- أنَّه يُشترَطُ في جواز التَّيمُّمِ عدَمُ الماء، أو التَّضرُّرُ باستعماله، وعدمُ الماء مأخوذٌ من قوله: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾، والتَّضرُّر باستعماله من قوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى﴾[٣].

١٥- جواز التَّيمُّمِ على وجهِ الأرض كلِّه؛ من رملٍ، أو حصًى، أو ترابٍ، أو سَبخةٍ، أو جِصٍّ، أو غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا﴾ ولم يقيِّدْ[٤].

١٦- أنَّه لا بدَّ مع المسحِ من القَصد؛ لقوله: ﴿فَتَيَمَّمُوا﴾ ﴿فَامْسَحُوا﴾[٥].

١٧- الحِكمة في التَّشريعِ، ووجه ذلك: أنَّ اللهَ فرَّق بين طهارةِ الماءِ وطهارة التَّيمُّم؛ فطهارةُ الماءِ من الجنابةِ لا بدَّ أن تعُمَّ جميعَ البدنِ، ومِن الحدَثِ الأصغرِ لا بدَّ أن تعُمَّ الأعضاءَ الأربعةَ: الوجهَ، واليدينِ، والرَّأسَ، والرِّجلينِ، أمَّا طهارةُ التَّيمُّمِ فإنَّها لا تكونُ إلَّا في عُضوينِ فقط، وهما: الوجهُ، واليدانِ، ولا فرق فيها بين الطَّهارتينِ الكبرى والصُّغرى، والحكمةُ من ذلك: أنَّ الطَّهارةَ بالماء فيها تطهيرٌ حسِّيٌّ واضحٌ، وطهارة التَّيمُّمِ فيها تطهير معنويٌّ، وهو كمالُ التَّعبُّدِ والتَّذلُّلِ لله عزَّ وجلَّ، بحيث إنَّ الإنسانَ يمسَحُ بالتُّرابِ وجهَه وكفَّيْهِ، وهذا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٥٦).
(٢) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢١/ ٤٠٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٥٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٥٨).

دليلٌ على كمال التَّعبُّدِ(١).

١٨- وجوب التَّرتيبِ بين مسْح الوجهِ في التَّيمُّمِ ومسح اليدينِ، بحيث يقدَّمُ الوجهُ؛ لقوله تعالى: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾(٢).

١٩- أنَّه لا يُشرعُ في التَّيمُّمِ مسْحُ الذِّراعِ؛ لقوله: ﴿بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ وأطلَق، واليدُ عند الإطلاق هي الكفُّ؛ ودليلُ ذلك قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]، وقد أجمَع العلماءُ على أنَّ السَّارقَ لا تُقطَعُ يدُه إلَّا مِن مَفصِلِ الكفِّ، ولا تُقطَعُ من المِرفَقِ، وهنا أطلَق اللهُ تعالى اليدَ، كما أطلقها في القطعِ في السَّرقةِ، وإذا أُطلِقت فالمرادُ الكفُّ(٣).

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾: فيه تصديرُ الكلامِ بحَرْفي النِّداءِ والتَّنبيهِ (يا أيُّها)؛ للمبالغةِ في حمْلِهم على العملِ بموجِبِ النَّهي عن قُربان المساجد حالَ السُّكرِ أو الجَنابةِ(٤).

٢- قوله: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ﴾: فيه إطلاقُ لفظِ الصَّلاةِ على المسجِد، من بابِ حذْفِ المضاف، أي: لا تَقرَبوا موضِعَ الصَّلاةِ؛ فقدْ أراد بالصَّلاةِ مواضعَها، وهي المساجدُ(٥).

- وعبَّر بالقُربِ عن التَّلبُّس بالفعلِ، وإنَّما اخْتِير هذا الفِعلُ ﴿لَا تَقْرَبُوا﴾ دون (لا تُصلُّوا) ونحوه؛ للإشارةِ إلى أنَّ تلك حالةٌ منافيَةٌ للصَّلاة، وصاحبُها

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٥٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٥٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٧٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٧٥).

جديرٌ بالابتعادِ عن أفضلِ عملٍ في الإسلام[١].

٣- قوله: ﴿وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ولا جُنُبًا﴾: جملةُ ﴿وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ حاليَّة، وهي جُملةٌ اسميَّةٌ؛ فالتَّعبيرُ بها أبلغُ لتكرارِ الضَّمير؛ فالتَّقييدُ بها أبلغُ في الانتفاءِ مِنها من التَّقييدِ بالمفرَدِ الَّذي هو: ﴿وَلَا جُنُبًا﴾[٢].

٤- قوله: ﴿إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾: فيه تقديمُ المستثنَى ﴿عَابِرِي﴾ قبلَ تمامِ الكلامِ المقصودِ قصرُه بقوله: ﴿حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾؛ للاهتمامِ به[٣].

٥- قوله: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾: فيه تسميةُ الشَّيءِ باسمِ مكانِه؛ إذ ﴿الغَائِط﴾: هو المكانُ المطمئنُّ من الأرضِ، وكان الرَّجلُ إذا أراد قضاءَ الحاجةِ طلَب غائطًا من الأرض يحجُبُه عن أعيُنِ النَّاس، ثمَّ سُمِّي الحَدَثُ نفسُه بهذا الاسمِ[٤]، ومجيئُه من الغائط كنايةٌ عن الحدَثِ بالغائطِ[٥]، ففيه التَّجوُّز بإطلاقِ المحَلِّ على الحالِّ فيه[٦].

- وفي قوله: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ﴾: إسنادُ المجيءِ منه إلى واحدٍ من المخاطَبين دونهم كلِّهم؛ حيث لم يقُلْ: (أو جئتم) ونحوه؛ للتَّفادي عن التَّصريحِ بنسبتِهم إلى ما يُستحيا منه، أو يُستهجَنُ التَّصريحُ به[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٦٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٥٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٦٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٨٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٥٣).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٦٦٥).
(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٧٩)، ((الجدول في إعراب القرآن الكريم)) لصافي (٥/ ٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٦٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٢٢١-٢٢٤).

- وفيه التفاتٌ من الخِطابِ إلى الغَيبةِ؛ لأنَّه كِنايةٌ عمَّا يُستحيَا مِن ذِكرِه، فلمْ يُخاطِبْهم به[١].

٦- في قوله: ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾: إيثارُ الكِنايةِ فيما عُطف عليه على التَّصريحِ بالجِماعِ[٢].

٧- قوله: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾: فيه تغليبُ الخِطابِ؛ إذ قدِ اجتمَع خِطابٌ وغَيبةٌ؛ فالخِطاب في: ﴿كُنْتُمْ مَرْضَى﴾، ﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾، ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾، والغَيبةُ في: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ﴾؛ لأنَّه لَمَّا كنى عن الحاجةِ بالغائط، كرِه إسناد ذلك إلى المخاطَبين، فنزَع به إلى لفظِ الغائبِ بقولِه: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ﴾، ولَمَّا كان المرضُ والسَّفرُ ولمسُ النِّساءِ لا يفحُشُ الخِطابُ بها جاءتْ على سَبيل الخِطابِ[٣].

٨- قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾: تعليلٌ للتَّرخيصِ والتَّيسيرِ، وتقريرٌ لهما؛ فإنَّ مَنْ عادتُه المستمرَّةُ أنْ يعفوَ عن الخاطئين، ويغفرَ للمُذنبين، لا بدَّ أن يكونَ مُيسِّرًا لا مُعسِّرًا، وقيل: هو كنايةٌ عنهما؛ فإنَّ التَّرفيهَ والمسامحةَ مِن روادفِ العفوِ، وتوابعِ الغُفرانِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٢٢١- ٢٢٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٧٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٧٩)، ((الجدول في إعراب القرآن الكريم)) لصافي (٥/ ٤٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٥٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥١٥)، ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٩١)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٧١).

الآيات (٤٤ - ٤٦)

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ (٤٤) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا (٤٥) مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (٤٦)﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾: أي: لا سمعتَ، أو مَدعوًّا عليك بصمَمٍ أو موت، أو غيرَ مُجابٍ إلى ما تدعو إليه أو كلامٍ ترْضاه[1].

﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾: تحريفًا بالكذب، واستهزاءً ومحاكاة؛ يقال: لَوَى لسانَه بكذا: كناية[2] عن الكذب، وتخرُّصِ الحديث، وأصلُه: إمالةٌ للشَّيء[3].

﴿وَأَقْوَمَ﴾: أي: أخلصَ، وأَسَدَّ، والقيامُ للشيءِ هو المراعاةُ للشيء، والحفظُ له وأصل (قوم): الانتصاب أو العَزم[4].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٣).

(٢) قال ابن عاشور: (اللَّيُّ أصله الانعطافُ والانثناءُ، وهو يَحتمِل الحقيقةَ في كلتا الكلمتين: اللَّيُّ، والألسنةُ، أي: إنَّهم يَثنون ألسنتَهم؛ ليكونَ الكلامُ مشبِهًا لُغتين؛ بأن يُشبِعوا حركاتٍ، أو يقصُروا مُشبَعاتٍ، أو يفخِّموا مرقَّقًا، أو يرقِّقوا مفخَّمًا، ليعطيَ اللَّفظُ في السَّمعِ صورةً تُشبِهُ صورةَ كلمةٍ أخرى، فإنَّه قد تخرُجُ كلمةٌ مِن زِنَةٍ إلى زِنَةٍ، ومن لُغةٍ إلى لُغةٍ بمثلِ هذا، ويُحتمَل أن يكون المرادُ: أنَّهم يأتون في كلامِهم بما هو غيرُ مُتمحِّضٍ لمعنى الخير). ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٧٦).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠١).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٦٠).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا﴾

﴿كَفَى﴾: فِعلٌ ماض، والبَاء في ﴿بِاللهِ﴾ صِلة، ولفظُ الجلالة (الله) مجرورٌ لفظًا، وهو فاعلٌ مرفوع محلًّا بـ(كفَى) والتقديرُ: وكفَى اللهُ...، وإنَّما زِيدت الباءُ مع الفاعِل؛ ليؤدِّيَ الكلامُ معنى الأمر؛ إذ التقدير: اكتَفُوا باللَّهِ؛ فدلَّت الباءُ على هذا المعنى، وقيل غير ذلك. و﴿وَلِيًّا﴾: مَنْصُوبٌ على التَّمْيِيزِ. وقيل: على الحَال. ومِثلُه في الإعرابِ قولُه تعالى: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾[1].

المَعْنى الإجماليُّ:

يخاطِبُ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم قائلًا له: ألم تعلَمْ- يا محمَّدُ- بأنَّ الَّذين آتاهم اللهُ حظًّا من الكتاب من اليهود والنَّصارى يختارون الضَّلالةَ عِوضًا عن الهدى، ويُريدون مع ضلالتِهم أن تضلُّوا أنتم معهم، فتتركوا سبيلَ الهدايةِ.

واللهُ تعالى- أيُّها المؤمنون- أعلمُ مِنكم بأعدائِكم، وهو حسبُكم سبحانه، يتولَّاكم بحِفظِه ورعايتِه، كفى به نصيرًا يدافعُ عنكم، وينصُرُكم على عدوِّكم.

ثمَّ يُخبِرُ تعالى أنَّ مِن اليهود مَن يُبدِّلُ ما في التَّوراةِ لفظًا أو معنًى، أو يُبدِّلهما معًا، ويقولون لمحمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم: سمِعْنا قولَك، وعصَيْنا أوامرَك، ويُسيئون أدبَهم معه صلَّى الله عليه وسلَّم فيقولون له: اسمَعْ منَّا، لا سمِعْتَ؛ استهتارًا منهم واستهزاءً، ويقولون له: راعِنَا، يُظهرون أنَّهم يريدون: أرْعِنا سمعَك، وإنَّما يَعنُون بذلك حقيقةَ الدُّعاءَ على رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم أن يصابَ بالرُّعونةِ؛ وذلك تحريفًا منهم وطعنًا في الدِّين بالقَدْحِ في النَّبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام.

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٩٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٣٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٥٨٦).

ثمَّ يخبر تعالى أنَّ هؤلاء اليهودَ لو كانوا قالوا: سمِعْنا وأطَعْنا، واسمَعْ منا قولَنا، وانتظِرْنا لنفهمَ عنك قولَك، لكان قولُهم ذلك خيرًا لهم وأصوبَ، ولكنْ أخزاهم اللهُ، وطرَدَهم من رحمتِه، فلا يُؤمِنون إلَّا إيمانًا قليلًا لا يُفيدُهم.

تفسيرُ الآيات:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ (٤٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذكَر مِن أوَّلِ هذه السُّورة إلى هذا الموضعِ أنواعًا كثيرةً من التَّكاليفِ والأحكامِ الشَّرعيَّة، انتقَل إلى ذِكْر أحوال أعداءِ الدِّين، وأقاصيص المتقدِّمين؛ فالانتقالُ من نوعٍ من العلوم إلى نوعٍ آخر، يُنشِّطُ الخاطرَ، ويدفَع ما يُكدِّره، ويقوِّي القريحةَ(١).

وأيضًا هو استئنافُ كلامٍ راجعٌ إلى الآياتِ الَّتي سبقت من قوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦] فإنَّه بعد نِذارةِ المشركين وجَّه الإنذارَ لأهلِ الكتاب، ووقعَتْ آياتُ تحريمِ الخمر وقتَ الصَّلاة، وآياتُ مشروعيَّةِ الطَّهارة لها فيما بينهما، وفيه مناسبةٌ للأمرِ بتركِ الخمر في أوقات الصَّلواتِ، والأمر بالطَّهارة؛ لأنَّ ذلك من الهُدى الَّذي لم يسبِقْ لليهود نظيرُه؛ فهم يحسُدون المسلِمين عليه؛ لأنَّهم حُرِموا مِن مِثلِه، وفرَّطوا في هدًى عظيمٍ، وأرادوا إضلالَ المسلمين عداءً منهم(٢)، قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٧١) وينظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٢٨٨).

أي: ألَمْ تعلَمْ- يا محمَّدُ- بأنَّ الَّذين أُعطوا حظًّا من التَّوراةِ من اليهود[1].

﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ﴾.

أي: إنَّهم يَختارون الضَّلالةَ عِوَضًا عن الهُدَى، بالإقامةِ على تكذيبِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، وتركِهم الإيمان؛ ليَشتروا بذلك ثمنًا قليلًا من حُطام الدُّنيا الفاني[2].

وهذا باعتبارِ ما يَختارونه لأنفسِهم، ولكنَّ شرَّهم ليس قاصرًا؛ ولذلك قال[3]:

﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾.

أي: وهم يودُّون أيضًا- أيُّها المؤمنون- أنْ تَنحرِفوا معهم عن طَريقِ الإيمان، واتِّباعِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، فتكفروا كما كَفروا، وتَتركوا ما أنتُم عليه من الهُدى والعِلم النَّافعِ[4].

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا (٤٥)﴾.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾.

أي: واللهُ تعالى أعلمُ بعَداوةِ أولئك منكم، وما هم مُنطَوون عليه من الغِشِّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٩٨)، ((الوجيز)) للواحدي (١/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٧٢).
ومن المفسرين من ذهب إلى أن المرادَ من قوله: ﴿الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾ اليهود والنصارى. ينظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٦١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (١/ ٣٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٩٩-١٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٦١-٣٦٢).

والكيدِ والحسَدِ لكم[١].

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا﴾.

أي: وحَسْبُكم اللهُ تعالى؛ يتولَّاكم بالحفظِ والرِّعاية، ويُيسِّر لكم ما فيه الفلاحُ والسَّعادةُ[٢].

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾.

أي: وحَسْبُكم اللهُ تعالى نصيرًا؛ يُدافِعُ عنكم، وينصُرُكم على أعدائِكم، ويُبيِّن لكم ما ينبغي أنْ تحذَروه منهم[٣].

﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (٤٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا حَكَى اللهُ تعالى عنهم أنَّهم يَشترون الضَّلالة، شرَح كيفيَّةَ تلك الضَّلالةِ، فقال[٤]:

﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٩٢).

أي: إنَّ مِن اليهود مَن يُبدِّلُ ما جاء في التَّوراةِ؛ إمَّا بتغيير اللَّفظِ، أو المعنى، أو هما جميعًا[١].

﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾.

أي: ويقولُ أولئك القومُ: سمِعْنا- يا محمَّد- قولَك، وعصَيْنا أمرَك، فتولَّوْا عن كتابِ اللهِ تعالى بعدما عقَلوه، وهذا أبلغُ في كُفرِهم وعِنادِهم[٢].

﴿وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾.

أي: ويقولون لمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم: اسمَعْ منَّا ما نقولُ، أصمَّك اللهُ فلا سمِعْتَ، يُسيئون الأدبَ مع النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ استهزاءً منهم واستهتارًا به[٣].

﴿وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾.

أي: إنَّهم يُوهِمون أنَّهم بقولهم للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: «راعنا»: يعنُون: أرْعِنا سمعَك، وإنَّما قصدُهم الدُّعاءُ عليه صلَّى الله عليه وسلَّم بأن يُصابَ بالرُّعونةِ؛ وذلك تحريفٌ منهم لهذه اللَّفظةِ عن معناها، أرادوا بذلك الطَّعنَ في الدِّينِ بعيبِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، والقدحِ فيه[٤].

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٠١-١٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٦٥-٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٠٤-١٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٦٩-٣٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٠٦-١٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٧٠-٣٧١).

أي: ولو أنَّ هؤلاءِ اليهودَ قالوا لمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم: سمِعْنا قولَك، وأطَعْنا أمرَك، واسمَعْ منَّا ما نقول، وانتظِرْنا لنفهمَ عنك ما تقولُ، لو أنَّهم قالوا ذلك، لكان أصوبَ وأعدَلَ في القولِ، وفي غيرِه من أمورِ دينِهم ودنياهم(١).

﴿وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾.

أي: ولكنَّ اللهَ تعالى قد أخزَى أولئك اليَهودَ، فأقصاهم وأبعَدَهم وطرَدَهم من رحمتِه؛ وذلك بسبب كُفرِهم(٢).

﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

أي: فلا يُؤمنون إلَّا إيمانًا قليلًا لا ينفَعُهم(٣).

الفوائد التَّربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا...﴾ الآية: أنَّ مِن النَّاس مَن يؤتى الكتابَ، ويُرزَقُ العِلمَ، ولكنَّه لا ينتفعُ به، مِثل هؤلاء الَّذين أوتوا نصيبًا من الكتاب، ومع ذلك لم ينتفعوا به، واشتَرَوُا الضَّلالةَ بالهدى، فمن لم ينتفِعْ بعِلمِه فهو شَبيهٌ بهؤلاء المذكورين ولهذا قال سفيانُ بنُ عُيَينةَ رحمه الله: (من فسَد من علمائِنا ففيه شَبَهٌ مِن اليهودِ، ومَن فسَد مِن عُبَّادِنا ففيه شَبَهٌ من النَّصارى)(٤).

٢- التَّحذيرُ مِن هؤلاء اليهود أو النَّصارى أو غيرهم؛ لأنَّه إذا حذَّرَنا اللهُ ممَّن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٧١-٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٧٢-٣٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٦٢).

أُوتوا نصيبًا من الكتاب، فتحذيرُنا ممَّن هم عُمْيٌ صُمٌّ بُكْمٌ، مِن باب أَولى[١].

٣- في قوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾ تسليةُ المؤمنين، وتقويةُ عزائمهم؛ لكونِ اللهِ أعلمَ بأعدائنا، وأنَّه ناصرٌ لنا، ووليٌّ لنا[٢]، وفيه إشارةٌ إلى التحذيرِ منهم، وتوبيخٌ على الركونِ إليهم، والمعنى: أنَّه تعالى قد أخبَر بعَداوتهم للمُؤمنين، فيجبُ حَذَرُهم؛ كما قال تعالى: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾[٣].

٤- أنَّ الإنسانَ يُحاسَبُ على ما أراد؛ لقوله: ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾، أي: على ما في قلوبِهم؛ قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾، أمَّا في باب الحكومة والخصومة مع الناس فيُحاسب على الظاهرِ[٤].

٥- أنَّ المنكَرَ إذا أنكَره المُنكِرُ فإنَّ الأولى أن يُرشِدَ إلى البَدَل الذي لا محذورَ فيه؛ لقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ بدل ﴿وَعَصَيْنَا﴾، ﴿وَاسْمَعْ﴾ دون ﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾، ﴿وَانْظُرْنَا﴾ بدل ﴿رَاعِنَا﴾؛ كما قال تعالى في خطابِ المؤمنين بهذا: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا﴾[٥] [البقرة: ١٠٤].

٦- أنَّ مَن لُعِن وطُرِد عن رحمةِ الله فإنَّه ينقلِبُ عليه الحقُّ باطلًا والباطلُ حقًّا؛ ولهذا لم يَسلُكوا الأحسنَ والخيرَ فيما قالوا؛ لأنَّ اللهَ لعَنهم، ويتفرَّعُ على هذه القاعدةِ: أنَّ العاقلَ لا يتعرَّضُ لِما فيه لعنةُ اللهِ؛ لأنَّ الإنسانَ إذا تعرَّض لِما فيه لعنةُ اللهِ لُعِن وطُرِد وخُذِل[٦].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٦٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٦٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٧٤).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٧٥).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٧٧).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- الحذَرُ من هؤلاءِ الَّذين ذُكِروا في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا...﴾ الآية؛ فإنَّهم لا يُريدون لنا الخيرَ إطلاقًا؛ لقوله: ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾(١).

٢- الثَّناء على المسلمين بكونِهم على السَّبيل؛ لقوله: ﴿أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾، ولولا أنَّهم على السَّبيلِ ما حاوَلوا أن يُضلُّوهم(٢).

٣- أنَّه لا بدَّ للمُسلِمين من عدوٍّ، بل مِن أعداءٍ، وكلُّ مَن كان غيرَ مُسلِمٍ، فإنَّه عدوٌّ للمسلمين، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾(٣).

٤- أنَّ المحرِّفينَ للكلِمِ عن مواضعِه يُشبِهون اليهودَ في طريق استعمالِ الوحيِ(٤).

٥- شدَّةُ عنادِ اليهودِ الَّذين يُحرِّفون الكلِمَ عن مواضعِه؛ لقوله: ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، فإنَّهم لو قالوا: لم نسمَعْ، أو قالوا: سمِعْنا ولم نفهَمْ، لربَّما قال قائلٌ: إنَّ هذا عُذرٌ، لكن قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، فلم يمنَعْهم شيءٌ عن الطَّاعةِ إلَّا مجرَّدُ عصيانٍ(٥).

٦- شدَّةُ حقدِ اليهودِ على رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم؛ حيث كانوا يُجيبون بهذه الكلمةِ السَّيِّئة: ﴿وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٦٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٧٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٧٤).

٧- تَعالِي هؤلاء اليهودِ، حتَّى عند الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لقولهم: ﴿اسمَعْ﴾؛ لأنَّ كلمةَ (اسمَعْ) إنَّما تكونُ في الغالبِ في المخاطَباتِ من الأعْلى إلى الأدْنى[١].

٨- أنَّ الطَّعنَ في الدِّين يكونُ بالصَّريح، ويكون باللَّازم؛ فالصَّريحُ أن يقولَ: هذا الدِّينُ يوجِبُ لأهلِه التَّأخُّرَ والتَّقهقرَ والتَّزمُّتَ، وما أشبهَ ذلك؛ هذا صريحٌ. الثَّاني: ألَّا يكونَ صريحًا، لكن مِن لازم القول، فهنا إذا نظرتَ إلى كلامِهم لم تشعُرْ بالطَّعنِ على وجهٍ صريحٍ، ولكن من لازمِ القولِ[٢].

٩- قوله تعالى: ﴿وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾ فيه أنَّ الطَّعنَ في الدِّين من خصالِ اليهودِ؛ فمَن طعَنَ في الدِّين فهو مُشبِهٌ لليهودِ، والعياذُ بالله[٣].

١٠- أنَّ الكفرَ سببٌ للَّعنِ؛ لقوله: ﴿وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾[٤].

١١- الرَّدُّ على الجَبريَّةِ والقدَريَّةِ؛ فالجبريَّةُ يقولون: إنَّ الإنسانَ مجبَرٌ على عملِه، والقدَريَّةُ يقولون: الإنسانُ مستقِلٌّ بعمَلِه، وليس للهِ فيه تدبيرٌ، والآيةُ ترُدُّ عليهم جميعًا، أمَّا على الجهميَّةِ الَّذين هم الجَبريَّةُ، فلقوله: ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾، فأضاف العملَ إليهم، وهم يقولون: لا يُضافُ العملُ إلى العامل إلَّا على سبيل المجاز، وإلا فالحقيقة أنَّه ليس فعلَه؛ لأنَّه ليس باختيارِه، أمَّا على القدَريَّةِ: فلإثبات الأسبابِ في قوله: ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾، وهم يقولون: إنَّ فعلَ الإنسان مستقلٌّ، ليس لله فيه تدخُّلٌ إطلاقًا، فأنت تفعَلُ وتترُكُ، وتقومُ وتقعدُ، وتذهَبُ وتجيءُ، وليس لله تعالى فيه أيُّ تعلُّقٍ، وأهلُ السُّنَّة والجماعة يقولون: عمَلُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٧٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٧٧).

الإنسان باختيارِه ولا شكَّ، ولكن الَّذي جعَله باختياره هو اللهُ، فيكون ناتجًا عن مشيئةِ الله وخَلْقِ اللهِ، وخالقُ السَّببِ التَّامِّ خالقٌ للمسبَّبِ[1].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾: في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ استفهام المرادُ به التَّعجُّبُ[2].

- والتَّعبيرُ بالاشتراء ﴿يَشْتَرُونَ﴾- الَّذي هو عبارةٌ عن استبدالِ السِّلعة بالثَّمنِ، أي: أخْذِها بدلًا منه أخذًا ناشئًا عن الرَّغبةِ فيها، والإعراض عنه-؛ للإيذانِ بكمالِ رغبتِهم في الضَّلالة الَّتي حقُّها أن يُعرَضَ عنها كلَّ الإعراضِ، وإعراضُهم عن الهداية الَّتي يتنافَس فيها المتنافِسون[3].

- وفيه من التَّسجيلِ على نهاية سَخافةِ عقولهم، وغاية رَكاكةِ آرائِهم ما لا يَخفَى؛ حيث صُوِّرت حالُهم بصورةِ ما لا يَكاد يتعاطاه أحدٌ ممَّن له أدْنى تمييزٍ[4].

- وعبَّر بصيغةِ المضارع في ﴿يَشْتَرُونَ﴾، و﴿وَيُرِيدُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على الاستمرار التَّجدُّديِّ[5].

٢- قوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾ جملةٌ معترِضةٌ؛ لتقريرِ إرادتِهم المذكورةِ[6].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٦٥، ٦٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٨١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٨٢).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وفيها تَعريضٌ؛ فإنَّ إرادتَهم الضَّلالةَ للمؤمنينَ عن عَداوةٍ وحسَدٍ[١].

- وفيه تهديدٌ للمُشركين وتحذيرٌ لهم[٢]؛ إذ اللهُ يَعلمُهم ويعلمُ ما يَفعلون.

٣- **قوله: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾**: تذييلٌ؛ لتطمئنَّ نفوسُ المؤمنين بنصرِ الله؛ لأنَّ الإخبارَ عن اليهودِ بأنَّهم يُريدونَ ضلالَ المسلمين، وأنَّهم أعداءٌ للمسلمين، مِن شأنِه أن يُلقيَ الرَّوعَ في قلوب المسلمين؛ إذ كان اليهودُ المحاورون للمسلمين ذَوي عَدَدٍ وعُدَدٍ، وبيدِهم الأموالُ، فكان قولُه: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا﴾ مناسبًا لقوله: ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾، أي: إذا كانوا مُضمِرين لكم السُّوءَ، فاللهُ وليُّكم؛ يَهديكم ويتولَّى أمورَكم، شأنُ الوليِّ مع مولاه، وكان قوله: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ مناسبًا لقوله: ﴿بِأَعْدَائِكُمْ﴾، أي: فاللهُ ينصُرُكم[٣].

- وفعل (كَفَى) مُستعمَلٌ في تقويةِ اتِّصافِ فاعلِه بوصفٍ يدلُّ عليه التَّميزُ المذكورُ بعده، أي: إنَّ فاعل (كَفَى) أجدرُ مَن يتَّصفُ بذلك الوصفِ، ولأجل الدَّلالة على هذا غلَب في الكلامِ إدخالُ باءٍ على فاعلِ فِعل (كفى)، وهي باءٌ زائدةٌ؛ لتوكيدِ الكِفاية، بحيث يحصُلُ إبهامٌ يشوِّقُ السَّامعَ إلى معرفةِ تفصيله، فيأتون باسمٍ يميِّزُ نوعَ تلك النِّسبة؛ ليتمكَّنَ المعنى في ذهنِ السَّامع[٤].

- وتكرير الفِعل ﴿وَكَفَى﴾ في الجملتين، مع إظهارِ الجلالة (الله) في مقامِ الإضمار، لا سيَّما في الثَّاني؛ لتقويةِ استقلالها المناسبِ للاعتراض، وتأكيد

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٧٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٧٣).

كفايتِه عزَّ وجلَّ في كلٍّ من الولاية والنُّصرة(١).

٤- قوله: ﴿وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾: فيه الإبهام، أو الكلام الموجَّه، أو المحتمِل للضِّدَّيْنِ؛ فهو ذو وجهين: وجه يحتمل الذَّمَّ: أي استمِعْ منَّا مدعوًّا عليك بلا سمِعْتَ، أي: أصابَك اللهُ بالصَّمَمِ والموت، ولعلَّه هو المراد هنا؛ لِما انطوَوْا عليه من خِسَّةٍ، ووجه يحتمل المدحَ، أي: اسمَعْ غيرَ مُسمَعٍ مكروهًا(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٢٢٧).

الآيتان (٤٧ - ٤٨)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿نَطْمِسَ وُجُوهًا﴾: أي: نمحوَ تخطيطَ صُوَرِها، أو نمحوَ ما فيها من عينٍ وأنفٍ وحاجبٍ وفمٍ، والطَّمس: إزالة الأثر، وأصل (طمس): يدلُّ على محوِ الشَّيء ومسحِه[1].

﴿فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا﴾: نجعَل وجوهَهم من قِبل أَقفيتهم، أو نجعَل أبصارَهم من ورائهم، أو نجعَل الوجه قَفًا، والقفَا وَجْهًا، وأصل الردِّ: صرفُ الشيء بذاتِه، أو بحالةٍ من أحواله؛ يقال: رَدَّه عن وجهه: صرفَه. وأصْل الدُّبر: آخِرُ الشيء وخلفُه، ضد القُبل[2].

﴿افْتَرَى﴾: كَذَب واختَلَق، وافترى فلانٌ على فلان: إذا قذَفه بما ليس فيه، أو قذَف أبوَيْهِ، والافتراء الاختلاقُ، وهو ما عظُم مِن الكذب، وكذلك استُعمِل في القُرآن في الكَذِب والشِّركِ والظُّلم، وأصل (فرى): قطعُ الشيءِ، والفَرْي هو: قطْعُ الجِلد للخرزِ والإصلاح والإفراءُ للإفسادِ والافتراءُ فيهما، وفي الفساد أكثرُ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٨- ٣٤٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١، ١٢٨، ٢٨٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٢، ٤٦٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٦)، ((المفردات)) للراغب =

المَعْنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ أهلَ الكتابِ من اليهود والنَّصارى بالإيمان بالقُرآنِ المنزَّلِ على محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فإنَّ فيه تصديقًا وشَهادةً على ما معهم من الكتب، أمَرهم سبحانه أن يؤمنوا قبل أن يطمِسَ وجوهَهم، فيحوِّلَها إلى جهةِ ظهورهم، أو يطرُدَهم من رحمتِه سبحانه، ويُنكِّل بهم، كما فعَل بأصحاب السَّبتِ الَّذين احتالوا على الاصطياد فيه بعد أن نُهُوا عن ذلك، فمسَخهم اللهُ تعالى قِردةً، وكان أمرُ الله حاصلًا لا مردَّ له.

ثمَّ يُخبِرُ تعالى أنَّه لا يغفِرُ لأيِّ أحدٍ أشرَكَ معه غيرَه، ويغفِرُ ما دون الشِّركِ من الذُّنوبِ، سواءٌ الكبائرُ والصَّغائرُ، لمن يشاءُ مِن عبادِه، ومَن يُشرِكْ بالله تعالى فقد اختَلَق إثمًا عظيمًا.

تفسيرُ الآيتين:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٤٧)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا حَكَى اللهُ تعالى عن اليهودِ أنواعَ مَكرِهم وإيذائِهم، ورجَّاهم سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا...﴾ الآية- أمَرهم بالإيمانِ، وقرَن بهذا الأمرِ الوعيدَ الشَّديدَ على التَّركِ؛ ليكونَ أدعى لهم إلى الإيمانِ والتَّصديقِ به[1] فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾.

= (ص: ٦٣٤ - ٦٣٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٦٧).

أي: يا أيُّها اليهود والنَّصارى الَّذين أُنزِل إليهم التَّوراةُ والإنجيلُ فأُعطُوا العِلمَ، آمِنوا بما أنزَلْنا إلى محمَّدٍ من الفُرقان، مصدقًا للَّذي معكم من التَّوراةِ والإنجيلِ؛ فإنَّ القرآنَ شاهدٌ بما جاءت به تلك الكتبُ، وإنَّه حقٌّ، كما أنَّه مهيمِنٌ على غيرِه من الكتب السَّابقةِ الَّتي قد صدَّقها، فإنَّها قد أخبَرَتْ به(١).

﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا﴾.

أي: آمِنوا قبل أن نَطمِسَ وجوهَكم، فنحوِّلَها إلى جهةِ الأدبارِ، أي: من قِبَل ظهورِكم.

والمراد بطَمْس الوجوهِ والرَّدِّ على الأدبارِ: قيل: ألَّا يبقى للوجوهِ سمعٌ ولا بصَر ولا أثَر، ونرُدُّها مع ذلك إلى ناحيةِ الأدبارِ، وقيل المراد: نطمِس أبصارَها ونمحو آثارَها، ونجعَل أبصارَها في أقفائِهم، فيمشون القَهْقرى، وقيل غير ذلك(٢).

﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾.

أي: أو نطرُدَهم من رحمتِنا، ونوقِعَ بهم من النَّكالِ مثلما وقَع لأصحابِ السَّبتِ الَّذين اعتدَوْا في سَبتِهم بالحيلةِ على الاصطيادِ فيه، فمُسِخُوا قردةً ذليلةً(٣).

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَواْ مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾[النساء: ١٥٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٨٠-٣٨٠).

قال أبو حيان: (و﴿بما نزَّلْنا﴾ هو القرآن بلا خلاف) ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١١٥-١١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٨١-٣٨٢).

وقال تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * وَإِذَ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ * فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [الأعراف: ١٦٣- ١٦٦].

﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾.

أي: إنَّه تعالى إذا أمَر بأمرٍ، فإنَّه واقعٌ لا محالةَ؛ فأمرُهُ عزَّ وجلَّ لا يُخالَف ولا يُمانَع[1].

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا (٤٨)﴾.

مناسبة الآية لما قبلها:

لَمَّا رجَّاهم سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا...﴾ الآية، خاطَب مَن يُرجَى إيمانُه منهم بالأمرِ بالإيمان، وقرَن بالوعيدِ البالغِ على تركِه، ثمَّ أزال خوفَهم من سوءِ الكبائرِ السَّابقةِ معلِّلًا لتحقيقِ وعيدهم، مُعلِمًا بوقوعهم في الشِّركِ[2]، فقال:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٢٠-١٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٢٩٧).

أي: إنَّ اللهَ تعالى لا يغفِرُ لأيِّ أحدٍ من المخلوقين يَلقَى اللهَ سبحانه وقدْ جعَل معه شريكًا في ربوبيَّتِه أو ألوهيَّتِه أو أسمائِه وصفاتِه[1].

﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

أي: ويغفِرُ اللهُ تعالى ما دون ذلك الشِّركِ من الذُّنوبِ- صغائرِها وكبائرِها- للَّذي يشاءُ مِن عبادِه مِن أهل الذُّنوبِ والآثام، إذا اقتضَتْ حكمتُه أن يغفِرَ له[2].

عن أبي ذرٍّ رضِي اللهُ عنه، أنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ:... ومن لَقِيَني بقُرابِ الأرضِ خطيئةً لا يشركُ بي شيئًا، لقِيتُهُ بمثلِها مغفرةً))[3].

﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾.

أي: إنَّ مَن يقع في الإشراكِ باللهِ العظيمِ، فقد اختَلَق وِزْرًا عظيمًا، وجُرمًا كبيرًا[4].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وعن عبدِ الله بنِ مَسعودٍ رضِي اللهُ عنه، قال: ((سألتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: أيُّ الذَّنبِ أعظمُ عِندَ اللهِ؟ قال: أنْ تجعَلَ للهِ نِدًّا وهو خلَقَك، قلتُ: إنَّ ذلك لَعظيمٌ...))[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٨٧-٣٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٨٨-٣٨٩).

(٣) رواه مسلم (٢٦٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٨٩).

(٥) رواه البخاري (٤٤٧٧) واللفظ له، ومسلم (٨٦).

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا...﴾، أقبَل سبحانه على خِطابِ أهل الكتاب، وكذلك شأنُ القُرآن؛ لا يُفوِّتُ فرصةً تعِنُّ مِن فُرَصِ الموعظة والهُدى إلَّا اغتنَمَها، وكذلك شأن النَّاصحين من الحُكماءِ والخُطباء أن يتوسَّموا أحوالَ تأثُّر نفوسِ المخاطَبين ومظانَّ ارعوائِها عن الباطلِ، وتبصُّرِها في الحق، فيُنجِدوها حينئذٍ بقوارعِ الموعظةِ والإرشادِ[1].

٢- أنَّ ما دون الشِّركِ تحتَ المشيئةِ؛ لقوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، وليس مجزومًا بمغفرتِه، ولا مجزومًا بالمؤاخَذةِ عليه، وإنَّما هو تحت المشيئةِ، ويتفرَّعُ على هذه الفائدةِ: ردُّ كلامِ المسوِّفينِ الَّذين يفعَلون ما يفعَلون من المعاصي ثمَّ يقولون: إنَّ الله يغفِرُ ما دون الشِّركِ لمن يشاء، فنقول لهم: ما الَّذي أدراكَ أن تكونَ أنت ممَّن شاء اللهُ أن يغفِرَ لك؟ فلو فرَضْنا أنَّ عملَكَ المعصيةَ يمكِنُ أن يُغفَرَ، لكنَّه ليس بمتيقَّنٍ؛ فالمعصيةُ مفسَدةٌ ظاهرةٌ حاصلةٌ، ومغفرتها مصلحةٌ؛ لكنَّها تحت المشيئةِ؛ فقد تحصُلُ، وقد لا تحصُلُ[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- إثبات علوِّ اللهِ، ووجهُه قولُه: ﴿نَزَّلْنَا﴾؛ لأنَّ النُّزولَ إنَّما يكون من الأعلى، وعلوُّ اللهِ عزَّ وجلَّ ينقسِمُ إلى قسمين: قسمٍ حِسيٍّ، وقسمٍ معنويٍّ؛ فالقسمُ المعنويُّ: متَّفقٌ عليه بين أهل الملَّة، حتَّى أهلُ التَّعطيلِ يدَّعون أنَّهم يُعطِّلون تنزيهًا للهِ عن النَّقص؛ فالعلوُّ المعنويُّ لا أحدَ يُنكِرُه من أهلِ الملَّةِ؛ فكلُّ أهلِ القِبلة يُقرُّون به، والعلوُّ الحسيُّ الذَّاتيُّ: هو الَّذي أنكَره طوائفُ مِن أهل البدعِ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٧٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٩١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٨٤).

٢- في قوله تعالى: ﴿آمِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾ أنَّ القرآنَ الكريمَ مصدِّقٌ للكتُبِ السَّابقة، يشهَدُ لها بالصِّدقِ، ومصدِّقٌ لها؛ حيث جاء مطابقًا لِما أخبَرَت به؛ فهو لا يتنافى معها ولا يتنافَرُ معها، لكنَّ الشَّرائعَ تختلفُ باختلاف الأممِ، حتَّى باختلاف الأحوال، كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، لكنَّ أصولَ المِلَلِ ثابتةٌ واحدة، وهذا الكتابُ العزيز مُصدِّقٌ لِما بين يديه، مُهيمِنٌ على ما سبَق، وإذا كان كذلك لزِم أن يكونَ ناسخًا لِما سبق(١).

٣- أنَّ الإحالةَ على المعلومِ تصِحُّ ولو بلفظِ الإبهام، وتؤخَذُ من قوله: ﴿كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾؛ لأنَّه إذا قال قائل: ما هي اللَّعنةُ الَّتي حلَّتْ بأصحابِ السَّبتِ؟ ومَن هم أصحابُ السَّبتِ؟ فنقول: ذُكِروا هنا على سبيلِ الإجمال؛ لأنَّ أمرَهم معلومٌ(٢).

٤- إثباتُ الأفعالِ الاختياريَّةِ لله عزَّ وجلَّ، وكثيرٌ من المعطِّلة الأشاعرةِ والمعتزلة ونحوِهم يُنكِرون أنْ يقومَ باللهِ فِعلٌ متعلِّق بإرادته؛ لأنَّهم يقولون: إنَّ الأفعالَ المتعلِّقة بالإرادة حادثةٌ، والحادثُ لا يقومُ إلَّا بحادثٍ، ولا شكَّ أنَّ هذا كذِبٌ في التَّصوُّرِ؛ لأنَّ الشَّيء الحادثَ يمكِنُ أن يقومَ بالأزلِ، كما أنَّ الشَّيءَ الحادث الَّذي حَدَثَ اليومَ يمكن أن يقومَ بمخلوقٍ خُلِقَ قبْلَ خمسين سنةً، فلا يلزمُ مِن حدوثِ الفعلِ أن يكونَ الفاعلُ حادثًا(٣).

٥- التَّوحيدُ هو أصلُ الدِّينِ ورأسُه الذي لا يَقبلُ اللهُ عملًا إلَّا به، ويغفرُ لصاحبِه، ولا يَغفِرُ لِمَن تركَه؛ يُبيِّن ذلك قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٨٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٨٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٩١).

يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾[1].

٦- قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ..﴾ في هذه الآيةِ دليلٌ على أنَّ اليهوديَّ يسمَّى مشركًا في عُرفِ الشَّرع، وإلَّا كان مُغايرًا للمُشركِ، فوجَب أنْ يكونَ مغفورًا له؛ ولأنَّ اتصالَ هذه الآيةِ بما قبلها إنَّما كان لأنَّها تتضمَّنُ تهديدَ اليهود؛ فاليهوديَّةُ داخلةٌ تحت اسم الشِّركِ[2].

٧- قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ فيه ردٌّ على مَن قال: إنَّ الكبائرَ لا تُغفر، وهم المعتزلةُ، وعلى مَن قال: إنَّ أصحابَ الكبائرِ مِن المسلمين لا يُعذَّبون، وهم المرجئةُ؛ لقوله: ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾[3].

٨- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ نعمةٌ عظيمةٌ من وجهين؛ أحدهما: أنَّها تقتضي أنَّ كلَّ ميِّتٍ على ذنْبٍ دون الشِّرْكِ لا يُقطَع عليه بالعذاب، وإن مات مصرًّا. والثاني: أنَّ تعليقَه بالمشيئةِ فيه نفْعٌ للمسلمينَ، وهو أن يكونوا على خَوفٍ وطَمَعٍ[4].

٩- في قَوْلِ الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾. قُيِّدَتِ المغفرةُ بما دون الشِّرْك، وعُلِّقَت على المشيئةِ، بينما أُطْلِقَت وعُمِّمَتْ في قَوْلِه تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، فدلَّ هذا التقييدُ والتَّعليقُ على أنَّ هذا في حَقِّ غيرِ التائبِ؛ ولهذا استدَلَّ أَهْلُ

---

(١) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ٤٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٧٢).

(٣) ينظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٩٣).

(٤) ((زاد المسير)) لابن الجوزي (١/ ٤١٧).

السنَّة بهذه الآية على جوازِ المغفِرَة لأهلِ الكبائِرِ في الجملةِ؛ خلافًا لمن أوْجَبَ نفوذَ الوَعيدِ بهم من الخوارِجِ والمعتَزِلَة، وإن كان المخالِفونَ لهم قد أسْرَفَ فريقٌ منهم من المُرْجِئَة حتى توقَّفوا في لُحوقِ الوعيدِ بأحَدٍ مِن أهْلِ القِبلةِ، كما يُذْكَرُ عن غُلاتِهم أنَّهم نَفَوْه مطلقًا، ودينُ الله عزَّ وجلَّ وَسَطٌ بين الغالي فيه، والجافي عنه[1].

بَلاغةُ الآيتين:

١- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ اختلفتِ الصِّلةُ فيه عنِ الصِّلة في قولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: ٢٣]؛ لأنَّ ﴿الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِن الكِتَابِ﴾ جاءَ في مقامِ التَّعجبِ والتَّوبيخ، فناسبَتْه صِلةٌ مؤذِنةٌ بتهوينِ شأنِ عِلمهم بما أوتوه مِن الكِتاب، و﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ جاءَ في مقامِ التَّرغيبِ، فناسبَتْه صِلةٌ تؤذِنُ بأنَّهم شُرِّفوا بإيتاءِ التَّوراة؛ لتُثير هِممَهم للاتِّسامِ بمِيسَمِ الرَّاسخين في جرَيانِ أعمالهم على وَفْقِ ما يُناسِبُ ذلك، وليس بين الصِّلتينِ اختلافٌ في الواقعِ؛ لأنَّهم أوتوا الكتابَ كلَّه حقيقةً، باعتبار كونِه بين أيديهم، وأُوتوا نصيبًا منه باعتبارِ جرَيانِ أعمالهم على خلافِ ما جاء به كتابُهم؛ فالَّذي لم يَعمَلوا به منه كأنَّهم لم يؤتَوْه[2].

- وجِيء بالصِّلتينِ في قوله: ﴿بِمَا نَزَّلْنَا﴾ وقوله: ﴿لِمَا مَعَكُمْ﴾ دون الاسمينِ العَلَمين، وهما: القرآنُ والتَّوراة؛ لِما في قوله: ﴿بِمَا نَزَّلْنَا﴾ مِن التَّذكيرِ بعِظَم شأنِ القرآنِ أنَّه منزَّلٌ بإنزالِ اللهِ، ولِما في قوله: ﴿لِمَا مَعَكُمْ﴾ من التَّعريضِ بهم في أنَّ التَّوراةَ كتابٌ مستصحَبٌ عندهم لا يعلَمون منه حقَّ عِلمِه، ولا يعمَلون بما فيه[3].

---

(١) ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (١/ ١١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٧٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٢- قوله: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا﴾: خبرٌ فيه تهديدٌ أو وعيدٌ، وهذا تهديدٌ بأن يحُلَّ بهم أمرٌ عظيمٌ(١).

- وفيه تحاشِي التَّعبيرِ بالمواجهةِ عند المؤاخذة، فهنا قال: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا﴾ ولم يقُلْ: (وجوهكم)، وكان مقتضى السِّياقِ أن يقول: (مِن قبْلِ أنَّ نطمِسَ وجوهَكم)؛ لأنَّهم هم المهدَّدون، لكن أتى بها على صيغةِ النَّكرةِ؛ تحاشيًا للمواجهةِ بالمؤاخَذةِ(٢).

- وفي تنكير ﴿وُجُوهًا﴾- المفيدِ للتَّكثيرِ- تهويلٌ للخَطْبِ العظيمِ، الَّذي يُثير الخوفَ، وفي إبهامِها لُطفٌ بالمخاطَبين، وحُسنُ استدعاءٍ لهم إلى الإيمانِ(٣).

وقد يقال: إنَّ المرادَ بالتَّنكيرِ هنا التَّعظيمُ، أي: وجوهًا معظَّمةً عندكم فتُطمَس، وهي وجوهُ زعمائِهم الَّذين صدُّوهم عن سبيلِ الله عزَّ وجلَّ(٤).

٣- قوله: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا﴾: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ﴾ يَرجِع إلى ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ على طَريقةِ الالتفاتِ- على أحدِ وجوهِ التَّأويل(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٨٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٢٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٨٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥١٩).

وقال ابنُ جرير: (يعني بقولِه جلَّ ثناؤُه: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ﴾، أو نَلْعنكم فنُخزيكم ونجعلَكم قردةً... قيل: ذلك على وجه الخِطاب في قوله: ﴿آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾، كما قال: ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا﴾ [سورة يونس: ٢٢]، وقد يُحتمل أن يكونَ معناه: مِن قبلِ أن نطمسَ وجوهًا فنردَّها على أدبارِها، أو نلعنَ أصحابَ الوجوهِ، فجَعل الهاءَ والميم في قولِه: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ﴾، مِن ذِكر أصحاب الوجوه، إذ كانَ في الكلامِ دلالةٌ على ذلك) ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١١٩).

٤- قوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾: الجملةُ اعتراضٌ تذييليٌّ، مقرِّر لِما سبق[١].

- ووَضْع الاسمِ الجليلِ موضعَ الضَّمير بطريقِ الالتفاتِ؛ لتربيةِ المَهابةِ، وتعليلِ الحُكم، وتقويةِ ما في الاعتراضِ من الاستقلالِ[٢].

٥- قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾: كلامٌ مستأنَفٌ مسُوقٌ لتقريرِ ما قبْلَه مِن الوعيدِ، وتأكيدِ وجوبِ الامتثالِ بالأمر بالإيمان، ببيانِ استحالةِ المغفرةِ بدونِه[٣].

- وجيء في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ بحرف ﴿إِنَّ﴾ لتوكيد الخبرِ؛ لقصدِ دفْع احتمال المجازِ، أو للمبالغةِ في الوعيد، وهو إمَّا تمهيدٌ لِما بعده؛ لتشنيعِ جُرم الشِّرك بالله؛ ليكون تمهيدًا لتشنيعِ حال الَّذين فضَّلوا الشِّركَ على الإيمان، وإظهارًا لمقدارِ التَّعجبِ مِن شأنهم الآتي في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ [النِّساء: ٥١]، أي: فكيف ترضَوْن بحالِ مَن لا يَرضَى اللهُ عنه، والمغفرةُ على هذا الوجهِ يصحُّ حملُها على معنى التَّجاوز الدُّنيويِّ، وعلى معنى التَّجاوز في الآخرةِ على وجهِ الإجمالِ[٤].

- وقوله: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾: فيه إظهارُ الاسمِ الجليل في موضعِ الإضمار؛ لزيادة تقبيحِ الإشراك، وتفظيعِ حالِ مَن يتَّصفُ به[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٨٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٨١).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٨٧).

الآيات (٤٩ - ٥٧)

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ﴾: أي: يَمدحُونها ويُثنون عليها، مِن التَّزكية، وأصلُ الزَّكاة: النَّماءُ والزِّيادة[١].

﴿فَتِيلًا﴾: الفَتيل: المفتولُ، وهو: الخيطُ في بطن النَّواة، وسُمِّي ما يكونُ في شَقِّ النَّواة فتيلًا؛ لكونِه على هيئته، وقيل: الفتيل: ما يُفتَلُ بالإصبع مِن الوسَخِ الَّذي يخرُجُ منه، ويُضرَبُ به المثلُ في الشيءِ الحقيرِ وأصل (فتل): يدلُّ على ليِّ شيء[٢].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي(٨/ ٥٤٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٠)، =

﴿بِالْجِبْتِ﴾: الجِبْت لفظٌ يُستعمل في كُلِّ باطل، ومن ذلك: كلُّ معبودٍ سوى اللهِ جلَّ اسمُه، من صُورةٍ أو شيطان، ويُطلق أيضًا على السَّاحر، والكاهن، والشَّيطان، والكافِرِ المعانِد الَّذي لا خيرَ فيه(١).

﴿وَالطَّاغُوتِ﴾: الطَّاغُوتُ هو كُلُّ ذِي طُغْيَانٍ عَلَى اللَّهِ، فكلُّ مَعْبُودٍ مِن دُونِ اللَّهِ إذا لم يَكُنْ كارِهًا لذلك: طاغوتٌ: إنسانًا كان ذلك المعبودُ، أو شَيْطانًا، أو وَثنًا، أو صَنَمًا كَائِنًا ما كان من شيءٍ، والمُطاعُ في معصيةِ اللَّهِ طاغوتٌ، وكذلك السَّاحِرُ والكاهِنُ، واشتقاقُه من الطُّغْيان: وهو الظُّلْم والبغْيُ، يقال طَغَا فُلانٌ يَطْغَى: إذا عَدا قَدْرَه فتجاوَز حَدَّه(٢).

﴿نَقِيرًا﴾: النَّقير: النَّقرة الَّتي في ظَهرِ النَّواة، ويُضرَبُ به المَثَلُ في الشَّيء الطَّفِيف، والنَّقر: قرعُ الشَّيء المفضِي إلى النَّقب(٣).

﴿صَدَّ عَنْهُ﴾: أي: أعرَض وانصرَف عنه، والصَّدُّ قد يكونُ انصرافًا عن الشَّيء وامتناعًا؛ إذا كان لازمًا غيرُ مُتعدٍّ، وقد يكونُ صرفًا ومنعًا؛ إذا كان مُتعدِّيًا بمعنى صَدَّ غيرَه. وأصل (صد): إعراضٌ وعدولٌ(٤).

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٨، ٧٠١).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٨، ١٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٢)، ((تفسير الراغب)) (٣/ ١٢٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٥٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٢٠٠) ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٠).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٧).

﴿نَضِجَتْ﴾: انشوتْ فاحترَقَتْ؛ يُقال: نَضِج اللَّحم: إذا أَدرَك شَيَّه، وأصل (نضج): بلوغ النِّهايةِ في طبخ الشَّيء[1].

﴿ظِلًّا ظَلِيلًا﴾: قيل: هو الظِلُّ الدَّائم الَّذي لا تنسَخُه الشَّمس، وقيل: الَّذي لا بَرْدَ فيه ولا حرَّ ولا ريحَ ولا سَمومَ، وأصل (ظلل): يدلُّ على سَتْر شيءٍ لشيء[2].

المَعْنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ لنبيِّه محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم: ألَا تتعجَّبُ- يا محمَّدُ- من الَّذين يُثنون على أنفسِهم من اليهود والنَّصارى وغيرهم، ويُبرِّئونها من الذُّنوب والعُيوب، مع أنَّ الأمرَ ليس كما زعَموا، بلِ اللهُ وحده هو الَّذي يُثني على مَن يشاءُ مِن عباده ممَّن هو أهلٌ لذلك، ولا يظلِمُ اللهُ عزَّ وجلَّ أحدًا من الخَلْقِ شيئًا مهمَا قلَّ، انظُرْ كيف يفتري هؤلاء المُثْنون على أنفسِهم الكذبَ، ويَختلِقونه على اللهِ، وكفى بهذا الصَّنيعِ منهم إثمًا ظاهرًا، وذنبًا واضحًا.

ثمَّ قال اللهُ تعالى أيضًا لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم: ألَا تعجَبُ مِن حالِ اليهود الَّذين آتاهم اللهُ نصيبًا مِن التَّوراةِ، ومع ذلك يؤمِنون بالجِبْتِ، وهو كلُّ ما لا فائدةَ فيه في الدِّين؛ كالسِّحرِ ونحوه، ويؤمنون كذلك بالطَّاغوت، وهو كلُّ ما تجاوَز به العبدُ حدَّه؛ من معبودٍ أو متبوعٍ أو مُطاع، ويقول هؤلاء اليهودِ للكفَّارِ: إنَّهم أقومُ وأعدلُ طريقًا من المؤمنين، أولئك اليهودُ قد طرَدهم اللهُ مِن رحمتِه، ومَن يَطرُدِ اللهُ مِن رحمتِه فلن تجِدَ له- يا محمَّدُ- أحدًا ينصُرُه ويتولَّاه.

فهل لهؤلاء اليهودِ نصيبٌ مِن المُلك حتَّى يفضِّلوا مَن شاؤوا بمجرَّدِ أهوائِهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الطبري)) (٧/ ١٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٠).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٦١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٣٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٩٦).

بل ليس لهم أيُّ نصيبٍ مِن المُلْك، فلو كان لهم لَمَا أعطَوْا أحدًا من النَّاس شيئًا أبدًا مهمَا قلَّ، أم أنَّ الدَّافعَ لهم حسَدُهم للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وأصحابِه على ما رزَقه اللهُ مِنَ النُّبوَّةِ؛ لكونِه مِن العربِ، وليس من بني إسرائيلَ، فلماذا يحسُدونهم، وليس هذا أوَّلَ فضلٍ يتفضَّلُ اللهُ به على عبادِه؟ فقد تفضَّل اللهُ على أسلافِهم من ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ فأعطاهم النُّبوَّةَ، وأنزَل عليهم الكتبَ، والحكمةَ، وآتاهم مُلكًا واسعًا كبيرًا؛ فمِن أهلِ الكتاب مَن آمَن بمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم وبما أُنزِل إليه مِن قرآنٍ، ومنهم مَن لم يؤمِنْ بذلك، وصدَّ النَّاسَ عن الإيمانِ به، وحسْبُ هؤلاء الكفرةِ جهنَّمُ تُوقَدُ عليهم، ويُحرَقون فيها.

ثمَّ يُخبِرُ تعالى أنَّ الكافرينَ بآياتِ الله سوف يُدخِلُهم اللهُ تعالى نارًا تُحرِقُهم، كلَّما احترَقَتْ جلودُهم بتلك النَّارِ، أبدَلَهم اللهُ تعالى جلودًا غيرَها ليذوقوا ألَمَ العذابِ، إنَّ اللهَ كان عزيزًا حكيمًا.

وأمَّا مَن آمَن وعمِل صالحًا، فسيُدخلُهم اللهُ تعالى جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ، ماكثين فيها على الدَّوامِ، لا انقطاعَ لتنعُّمِهم فيها، لهم فيها زوجاتٌ مطهَّراتٌ طهارةً حِسِّيَّةً من الأدناس، ومعنويَّةً من الأخلاقِ الرَّذيلةِ، والصِّفات النَّاقصة، ويُدخِلُهم اللهُ تعالى ظلًّا ممتدًّا طيِّبًا.

تفسيرُ الآيات:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٤٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا هدَّد اللهُ سبحانه وتعالى اليهودَ بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ فعند هذا قالوا: لسنا من المشركين، بل نحن خواصُّ اللهِ تعالى؛ كما حكى تعالى

عنهم أنَّهم قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨]، وحكى عنهم أنَّهم قالوا: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]، وحكى أيضًا أنَّهم قالوا: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة: ١١١]، وبعضُهم كانوا يقولون: إنَّ آباءَنا كانوا أنبياءَ فيشفَعون لنا. وبالجملةِ فالقومُ كانوا قد بالَغوا في تزكيةِ أنفسِهم، فذكَر تعالى في هذه الآيةِ أنَّه لا عبرةَ بتزكيةِ الإنسان نفسَه، وإنَّما العبرةُ بتزكيةِ اللهِ له[1]، فقال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ﴾

أي: ألَا تتعجَّبُ- يا محمَّدُ- مِن حالِ هؤلاء اليهود والنَّصارى- ومَن نحا نحوَهم- في تزكيةِ أنفسهم؛ فيبرئونها من الذُّنوبِ والعيوب، ويزعمون لها من الخصائص والمُمَيِّزات ما ليس لها، افتراءً وكذبًا، ومن ذلك قولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾، وقولهم: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾[2].

﴿بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾.

أي: ليس الأمرُ كما تزعمون، وإنَّما المرجعُ في ذلك إلى اللهِ عزَّ وجلَّ وحدَه؛ لأنَّه العالمُ بحقائقِ الأمورِ؛ فهو الَّذي يُزكِّي ويُثني على مَن يشاءُ مِن عبادِه ممَّن هو أهلٌ لذلك[3].

قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٢٤، ١٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٩١-٣٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٢٨-١٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٩٣-٣٩٤).
قال ابن عطية: (هذا لفظٌ عامٌّ في ظاهره، ولم يختلف أحدٌ من المتأولين في أنَّ المراد اليهود) ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٦٥).

﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾.

أي: لا يظلِمُ اللهُ عزَّ وجلَّ هؤلاء الَّذين أخبَر عنهم أنَّهم يُزكُّون أنفسَهم، ولا غيرَهم مِن خَلقِه شيئًا، فلا يترُكُ لأحدٍ مِن الأجر شيئًا، حتَّى ما يوازنُ مقدارَ الخيطِ الَّذي في شَقِّ النَّواةِ وبطنِها(١).

﴿انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا (٥٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أخبَر تعالى أنَّ التَّزكيةَ إنَّما هي إليه بما له مِن العظَمةِ والعِلمِ الشَّاملِ، وكان ذلك أمرًا لا نزاعَ فيه، وشهِد عليهم بالضَّلالِ- زاد في توبيخهم فقال معجِّبًا لرسولِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم من وقَاحتِهم واجترائِهم على مَن يعلَم كذبَهم، ويقدِرُ على معالجتِهم بالعذاب، مبيِّنًا أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الحضرةِ بعد بيانِ بُعدهم(٢)، قال:

﴿انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾.

أي: انظُرْ- يا محمَّدُ- كيف يفتري هؤلاء الَّذين يزكُّون أنفسَهم- مِن أهلِ الكتاب وغيرِهم- الكذِبَ والزُّورَ؛ مِن القولِ بتزكيتِهم أنفسَهم، فيختلِقون ذلك على الله جلَّ وعلا(٣).

﴿وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا﴾.

أي: وحسبُهم بهذا الصَّنيعِ ذنبًا ظاهرًا، وافتراءً واضحًا يبيِّنُ كذبَهم لسامعيه،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٢٩، ١٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٩٤-٣٩٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣٣-٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٠٢-٤٠٣).

ويوضِّحُ لهم أنَّهم أَفَكَةٌ فَجَرَةٌ، ويكون موجبًا لاستحقاقِهم العقوبةَ البليغةَ، والعذابَ الأليم[١].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١)﴾.

سَببُ النُّزول:

عن ابنِ عبَّاسٍ رضِي اللهُ عنهما، قال: ((لَمَّا قدِم كعبُ بن الأشرفِ مكَّةَ، قالت له قريش: أنت خيرُ أهلِ المدينة وسيِّدُهم، قال: نعم، قالوا: ألا ترى إلى هذا ا المُنبَترِ[٢] من قومِه، يزعُمُ أنَّه خيرٌ منَّا، ونحن أهلُ الحجيجِ وأهلُ السِّدانةِ[٣]؟ قال: أنتم خيرٌ منه، فنزلت: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾، ونزلت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ...﴾ إلى قوله: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾))[٤].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾.

أي: ألَا تعجَبُ- يا محمَّدُ- مِن حال هؤلاء اليهود الَّذين آتاهم اللهُ تعالى حظًّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٣٣-١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٠٣-٤٠٤).

(٢) المُنبَتِر: هو الذي لا وَلَدَ له. يُنظَر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٩٣).

(٣) السِّدانة: الخِدْمَة، وسِدانةُ الكَعبةِ: خِدْمَتُها وتَوَلِّي أَمْرِها، وفَتْحِ بابِها وإغلاقِه. يُنظَر: ((غريب الحديث)) لابن الجوزي (١/ ٤٧٢)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٣٥٥).

(٤) رواه النسائي في ((السنن الكبرى)) (٦/ ٥٢٤) (١١٧٠٧) واللفظ له، والطبري في ((تفسيره)) (٨/ ٤٦٦)، وابن المنذر في ((تفسيره)) (١٨٨٢)، وابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (٥٤٤٠)، وابن حبان (٦٥٧٢).

صحح إسناده ابن كثير في ((تفسير القرآن)) (٨/ ٥٢٥)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح الموارد)) (١٤٤٨)، وقال الوادعي في ((صحيح أسباب النزول)) (٧٧): الراجح إرسالُه.

من التَّوراة، وقامتْ عليهم الحُجَّةُ، ومع ذلك يؤمنون بالجِبْتِ والطَّاغوت[1]؟

﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾.

أي: يقولُ أولئك اليهودُ عن الكفَّار بأنَّهم أقومُ وأعدَلُ طريقًا من المؤمِنين[2].

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا (٥٢)﴾.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾.

أي: هؤلاء الذين وصفَهم بأنَّهم أوتوا نصيبًا من الكتابِ، وأنَّهم يؤمنون بالجبتِ والطاغوتِ، قد أبعَدهم اللهُ تعالى، وطَردهم من رحمتِه[3].

﴿وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾.

أي: ومَن يطرُدْه اللهُ تعالى من رحمتِه، فلن تجدَ له- يا محمَّدُ- مَن ينصُرُه في الدُّنيا ولا في الآخرةِ؛ فيتولَّاه ويقومُ بمصالحِه، ويحفَظُه عن المكارِه[4].

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (٥٣)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا كانت النَّفسُ الإنسانيَّةَ لها قوَّتانِ: القوَّةُ العالِمة، والقوَّة العاملة؛ وكمال

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٠٨).

قال ابن عطية: (الآيةُ ظاهرُها يعمُّ اليهودَ والنَّصارى، ولكن أجمَع المتأولون على أنَّ المرادَ بها طائفةٌ من اليهود، والقصص يبين ذلك) ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٤١-١٤٢، ١٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٢-١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٠٩-٤١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤١٠).

القوَّة العالِمة: العِلم، ونقصانُها: الجهل، وكمالُ القوَّة العاملة: الأخلاقُ الحميدة، ونقصانها: الأخلاقُ الذَّميمة، وأشدُّ الأخلاقِ الذَّميمة نقصانًا: البُخل والحسَد؛ لأنَّهما مَنشآنِ لِعود المضارِّ إلى عباد الله- لذا وصَف الله تعالى اليهودَ في الآية المتقدِّمةِ بالجهل الشَّديد، وهو اعتقادُهم أنَّ عبادةَ الأوثان أفضلُ من عبادة الله تعالى، ووصَفهم في هذه الآية بالبُخلِ والحسَدِ[1] فقال:

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ﴾.

أي: أم لهم حظٌّ من مُلكِ الله تعالى حتَّى يُفضِّلوا مَن شاؤوا بمجرَّدِ أهوائهم، بحيث يمنَعون فضلَ الله سبحانه على نبيِّه وأتباعِه، ويجعلون الفضلَ لهؤلاء الكفَّار؟ والمعنى: ليس لهم حظٌّ من المُلكِ ليفعَلوا ذلك[2].

﴿فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾.

أي: ولو كان لهم حَظٌّ من المُلكِ، لَمَا أعطَوْا أحدًا مِن النَّاس شيئًا ولو كان قليلًا، ولا ما يملأُ النُّقطة الَّتي على ظهرِ النَّواةِ، مِن شدَّة بُخلِهم[3].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠].

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا (٥٤)﴾.

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٤٩، ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤١٣).

أي: أمِ الحاملُ لهم على ذلك حَسَدُهم النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم وأصحابَه على ما رزَقه الله تعالى من النُّبوَّةِ العظيمة؛ لكونه من العربِ، وليس من بني إسرائيلَ[١]؟

﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾.

أي: ليس هذا أوَّلَ فضلٍ تفضَّلْنا به على عباد الله، بل إنَّ الفضلَ قد وُجِدَ من قبلُ في أسلافِكم من ذُرِّيَّة إبراهيمَ عليه السَّلام؛ حيث أعطاهم اللهُ تعالى النُّبوَّة، وأنزَل عليهم الكتبَ، وآتاهم الحِكمةَ، وهي ما أوحاه اللهُ تعالى إليهم ممَّا سوى الكتبِ الإلهيَّة، وآتاهم الملك الواسِعَ الكبير؛ كمُلك سليمانَ عليه السَّلام[٢].

﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا (٥٥)﴾.

﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ﴾.

أي: فمِن أهلِ الكتاب مَن آمَن بمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، وبالقرآنِ الَّذي أُنزل إليه، ومنهم مَن أعرَض عن ذلك ولم يُؤمِنْ، وسعَى في صَرْف النَّاس عن الإيمانِ بذلك[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٥٣-١٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٥٨، ١٦٠، ١٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٦١-١٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (٥/ ٢٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٣).

قال الواحديُّ: (قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ﴾، قال ابنُ عبَّاس، والأكثرون: مِن أهلِ الكتاب مَن آمَن بمحمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم) ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٦٨).

وقال ابنُ عطية: (﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ الآية، اختلَف المتأوِّلون في عَوْد الضمير مِن ﴿بِهِ﴾؛ فقال الجمهور: هو عائدٌ على القرآنِ الذي في قولِه تعالى: ﴿آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا﴾) ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٦٨). =

﴿وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾.

أي: وحسْبُهم النَّارُ تُوقَدُ عليهم، فيُحرَقون فيها؛ عُقوبةً لهم على كفرِهم[١].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (٥٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

بعدَما ذكَر الوعيد بالطَّائفة الخاصَّة مِن أهل الكتابِ، بيَّن ما يعُمُّ الكافرين مِن الوعيد فقال[٢]:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾.

أي: إنَّ الكافرين بآياتِ الله عزَّ وجلَّ- سواءٌ الآياتُ الكونيَّةُ أو الشَّرعيَّة- سيُدخِلُهم اللهُ تعالى النَّارَ؛ فيحترِقون فيها[٣].

﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾.

أي: كلَّما انشوَتْ جلودُهم بالنَّارِ فاحترقتْ، أبدَلهم اللهُ تعالى بجلودٍ أخرى؛ فهُم على هذه الحالِ دائِمون[٤].

= وقيل: فمِنْ آل إبراهيم مَن آمَن بالذي أُوتوه من الكتاب والحِكمة، ومِنهم مَن أَعْرَض عن ذلك، فلم يُؤمِن، وسعَى في صَرْف الناس عن الإيمانِ بذلك. وهو اختيار ابن كثير في ((تفسيره)) (٢/ ٣٣٦)، وابن عثيمين في ((تفسير سورة النساء)) (١/ ٤٢٠-٤٢١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٢٢-٤٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٢٣).

﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾.

أي: ليجِدوا ألَمَ العذابِ، وكَرْبَه، وشدَّتَه[١].

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى هو الغالبُ القاهرُ، العزيزُ في انتقامِه؛ فلا يقدِر على الامتناعِ منه أحدٌ أراده بضُرٍّ، ولا الانتصارِ منه أحدٌ أحلَّ به عقوبةً، وهو الحكيمُ الَّذي له الحكمةُ في خَلْقِه وقدَرِه، وثوابِه وعقابِه[٢].

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا (٥٧)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذكَر تعالى وعيدَ الكفَّار، أعقَب بوعدِ المؤمنين، فقد جرَتْ عادةُ الله تعالى في هذا الكتابِ الكريمِ بأنَّ الوعدَ والوعيدَ يتلازمانِ في الذِّكر على سبيلِ الأغلبِ[٣]، قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

أي: والَّذين آمَنوا بالله ورسوله محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، وبما أنزل اللهُ عليه، وأدَّوا ما أمرهم الله عزَّ وجلَّ به من الطَّاعات، واجتنَبوا ما حرَّم اللهُ عليهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٢٤-٤٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٣٠-٤٣١).

من المنهيَّات، مخلِصين لله تعالى، ومتَّبِعين في ذلك نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم(١).

﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

أي: سوف يُدخِلُهم اللهُ يوم القيامة جنَّاتٍ تجري الأنهارُ في جميع فِجاجِها ومحَالِّها وأرجائِها، ومن تحتِ أشجارِها وقصورِها(٢).

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾.

أي: ماكثين في تلك الجنَّاتِ على الدَّوام، بغير نهايةٍ ولا انقطاعٍ(٣).

﴿لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾.

أي: لهم في تلك الجنَّات زوجاتٌ مطهَّرات طهارةً حِسِّيَّة من الأدناسِ؛ كالحيضِ، والغائط، والبول، والحَبَل، والبُصاق، والرَّائحة المنتِنة، وسائر ما يكون في نساء أهلِ الدُّنيا، ومطهَّراتٌ طهارةً معنويَّةً من الأخلاقِ الرَّذيلة، والصِّفات النَّاقصة(٤).

﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾.

أي: ونُدخِلُهم ظلًّا كنينًا غزيرًا طيِّبًا ممتدًّا، لا يَستحيلُ ولا ينتقل(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٣٠-٤٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٦٧-١٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٣١-٤٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٣٤-٤٣٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٦٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٣٦).

كما قال تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠].

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- النَّهيُ عن تزكيةِ النَّفس، والإنكارُ على مَن يزكِّي نفسَه؛ وجه ذلك أنَّ قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ، كما صرَّح به في قوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾[1] [النجم: ٣٢].

٢- أنَّ تزكيةَ الغيرِ لا بأس بها؛ لأنَّ النَّهيَ أو الإنكارَ مُنصبٌّ على تزكيةِ النَّفس، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾، أمَّا لو زكَّى غيرَه فإنَّ ذلك لا بأسَ به، ويَنبغي ألا يُزكِّي غيرَه بمجرَّدِ المَظْهرِ، بل لا بدَّ من خِبرةٍ[2].

٣- أنَّه يجبُ على الإنسان أنْ يلجأَ في طلب التَّزكيةِ إلى الله؛ لقوله: ﴿بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾، فأنت إذا علِمتَ أنَّ اللهَ هو الَّذي يزكِّي فاسألِ اللهَ[3].

٤- تزكيةُ النَّفس تكون بالعملِ الَّذي يجعَلُها زاكيةً، أي: طاهرةً كثيرةَ الخير والبركة، فتزكيةُ النَّفس بالفعل عبارةٌ عن تنميةِ فضائلِها وخَيراتها، ولا يتمُّ ذلك إلَّا باجتنابِ الشُّرور الَّتي تُعارِضُ الخيرَ وتعُوقه، وهذه التَّزكيةُ محمودةٌ، وهي المرادةُ بقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩]، أي: نفسَه، وتكون بالقول، وهو ادِّعاءُ الزَّكاءِ والكمال، ومنه تزكيةُ الشُّهود، وقد أجمَع العقلاءُ على استقباحِ تزكيةِ المرء لنفسِه بالقول، ومدحِها ولو بالحقِّ، ولَتزكيتُها بالباطل أشدُّ قُبحًا، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ﴾، وهذا النَّوعُ مِن التَّزكية مصدرُه الجهلُ والغرورُ، ومِن آثاره العتوُّ والاستكبارُ عن قَبولِ الحقِّ، والانتفاعِ بالنُّصحِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٩٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٩٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٩٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ١٢٣).

٥- التَّحذيرُ من التَّعرُّض لِلَعنة الله؛ لأنَّ الإنسانَ إذا تعرَّض لِلَعنة الله، وحقَّت عليه لن يجدَ مَن يَنصُره، قال تعالى: ﴿وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾[1].

٦- بيانُ أنَّ الله أنعَمَ على هؤلاء الحسَدةِ بما ذكَره في قوله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾... الآية؛ فلا وجهَ للحسَدِ مع ما أعطاهم اللهُ تعالى من الفَضْل، وهذا أيضًا مِن الدَّواءِ الَّذي يُداوي به الإنسانُ الحسَدَ، فيقول مثلًا: ما لي أحسُدُ فلانًا، وقد أعطاني اللهُ كذا وكذا[2].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- الرَّدُّ على القدَريَّةِ، الَّذين يقولون باستقلالِ الإنسانِ في عملِه، ويؤخذ من قوله: ﴿بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾[3].

٢- إثباتُ المشيئةِ لله عزَّ وجلَّ؛ لقوله: ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾، وأنَّ الله سبحانه له مشيئةٌ، يدبِّر الأمرَ بحسَب هذه المشيئة، ولكنَّ هذه المشيئةَ ليست مشيئةً مجرَّدةً عن الحكمة، بل هي مشيئةٌ مقرونة بالحِكمة[4].

٣- نفيُ الظُّلم عن الله؛ لقوله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾، وليس في صِفاتِ الله ما هو نفيٌ محضٌ؛ فكلُّ نفيٍ في صفاتِ الله فهو متضمِّنٌ لإثبات؛ فقوله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾، أي: لأنَّ الله كاملُ العدل، ومَن كان كاملَ العدل فإنَّه لا يَظلِمُ فتيلًا[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤١٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤١٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٠٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٤- قوله تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ يدلُّ على أنَّ الله تعالى يَجزي كلَّ عاملِ خيرٍ بعمله، وإنْ كان مشرِكًا؛ لأنَّ لعملِه أثرًا في نفسه يكونُ مناطَ الجزاء، فإذا لم يصِلْ تأثيرُ عملِ المشرِكِ إلى الدَّرجة الَّتي يكون بها النَّجاةُ من العذاب ألبتَّةَ، فإنَّ عمله ينفعُه بكون عذابِه أقلَّ مِن عذابِ مَن لم يعمَلْ من الخير مِثلَ عملِه[1].

٥- دعوة الإنسانِ إلى العجَبِ فيما يُتعجَّبُ منه، وأنَّ هذا من طُرُقِ القرآن؛ لقوله: ﴿انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾[2].

٦- تعظيمُ الكذِبِ على الله؛ لأنَّه لم يؤمَرْ بالتَّعجُّبِ منه إلَّا لأنَّه شيءٌ عظيم؛ ولقوله: ﴿وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا﴾، يعني: ما أعظَمَه وما أكثَرَه، إذا افترى على الله الكذِبَ أن يأثَمَ هذا الإثمَ[3]!

٧- بيانُ قُبحِ صَنيعِ المذكورينَ في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ....﴾ الآية؛ حيث إنَّ اللهَ قد أعطاهم نصيبًا من الكتاب، ومع ذلك قالوا للكفَّار: إنَّهم أهدى من المؤمنين، ومعلوم أنَّ مَن حكَم بخلاف ما يعلَمُ فهو أقبحُ ممَّن حكَم بما لا يعلَمُ، والكلُّ قبيحٌ، لكن الأوَّل أشدُّ[4]!

٨- بيانُ استحقاقِ مَن آمَن بالجِبْتِ والطَّاغوت، وقال للَّذين كفروا: إنَّهم أهدى من الَّذين آمنوا سبيلًا- لِلَعنةِ الله، وبيانه أنَّ كلَّ مَن قال مِثل هذا القول فإنَّه مستحِقٌّ لِلَعنة الله؛ لقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾، وأحكامُ الله سبحانه الشَّرعيَّةُ والجزائيَّةُ لا تتعلَّقُ بالأشخاص أبدًا، فإذا استحقَّ هؤلاء اللَّعنَ بإيمانِهم

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٠٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٠٤، ٤٠٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤١١).

بالجِبْتِ والطَّاغوت، وقولِهم: ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾؛ فمَن جرى مجراهم استحقَّ ما يستحقُّون من العقاب[1].

٩- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ...﴾، هذه الآيةُ تدلُّ على أنَّ سببَ لعنِ اللهِ للأُمَمِ هو إيمانُها بالخُرافاتِ والأباطيل والطُّغيان، وأنَّه تعالى إنَّما ينصُرُ المؤمنين باجتنابِهم ذلك، فليُحاسبِ المسلِمون أنفسَهم بها وبما في معناها من الآياتِ؛ كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]؛ ليتبيَّنَ لهم مِن كتابِ ربِّهم صِدقُهم في دعْوى الإيمان من عدمِه، ولعلَّهم يَرجِعون إليه، ويُعوِّلون في أمرِ دِينهم ودُنياهم عليه[2].

١٠- تأثيرُ الدِّعاية بلَبْس الحقِّ بالباطل، وإلَّا فمن المعلومِ أنَّ الكافرَ فيما يرمي إليه أو فيما يذهب إليه، ليس فيه هدايةٌ إطلاقًا، ومع ذلك قالوا: إنَّهم ﴿أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾. ويتفرَّعُ على هذه الفائدة: ما عليه بعضُ النَّاس اليومَ من قوله: إنَّ الكفَّار أوفى بالعهد من المؤمنين، وإنَّهم أخلصُ مِن المؤمنين، وأنصحُ من المؤمنينَ، وما أشبهَ ذلك، فمَن قال هذا في المسلمين، فإنَّ فيه شَبَهًا من اليهود، ونحن لا نُنكِر أنَّ في المسلمين مَن خالَف طريقَ الإسلامِ بعدمِ الصِّدق في القول، وعدمِ الوفاءِ بالعهدِ، وعَدَمِ الوفاء بالوعدِ، وعدم النُّصح في العمل، ولكنْ كلُّ هذه الأخلاق حذَّر منها النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم أشدَّ التَّحذير؛ فهي أخلاقٌ دخيلة على المُسْلمين، وسببُها ما كان عليه هؤلاء من النَّقصِ في العِلم وفي الإيمان[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤١٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ١٢٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤١١).

١١- تحريمُ تفضيلِ الكفَّار على المؤمنين؛ لأنَّ الله تعالى أنكَره بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ..﴾ إلى آخره(١).

١٢- قوله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ فيه أنَّ الحسَدَ لا يحصُلُ إلَّا عند الفضيلة، فكلَّما كانت فضيلةُ الإنسان أتمَّ وأكملَ كان حسَدُ الحاسدينَ عليه أعظمَ، ومعلومٌ أنَّ النُّبوَّة أعظمُ المناصبِ في الدِّين، ثمَّ إنَّه تعالى أعطاها لمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، وضمَّ إليها أنَّه جعَله كلَّ يومٍ أقوى دولةً، وأعظَمَ شوكةً، وأكثرَ أنصارًا وأعوانًا، وكلُّ ذلك ممَّا يوجِبُ الحسَدَ العظيمَ(٢).

١٣- قَوْلُ اللهِ تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ فيه بيانُ أنَّ الحسَدَ كما يكونُ على المالِ والجاهِ، يكونُ على الدِّينِ والعِلْمِ(٣).

١٤- في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ المراد بـ﴿الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ كمالُ العِلم، وأمَّا المُلكُ العظيمُ فهو كمالُ القُدرة، وقد ثبَتَ أنَّ الكمالاتِ الحقيقيَّةَ ليستْ إلَّا العِلمَ والقدرةَ؛ فهذا الكلامُ تنبيهٌ على أنَّه سبحانه آتاهم أقصى ما يَليقُ بالإنسانِ من الكمالاتِ، ولَمَّا لم يكُنْ ذلك مستبعَدًا فيهم لا يكونُ مستبعَدًا في حقِّ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم(٤).

١٥- وتَضمَّن قوله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا...﴾ تسليةَ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم في كونِهم يحسُدونه ولا يتَّبِعونه، فذكَر أنَّهم أيضًا مع أسلافِهم وأنبيائِهم انقسَموا إلى مؤمنٍ وكافرٍ، هذا وَهُم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٠٤).

(٣) ((جامع المسائل)) لابن تيمية (ص:٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٠٥).

أسلافُهم، فكيف بنبيٍّ ليس هو منهم(١)؟!

١٦- أنَّ الإحساسَ إنَّما يكونُ في الظَّاهر؛ لقوله: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ﴾ فهي الَّتي يقعُ عليها العذابُ، والعياذُ بالله، هذا هو الظَّاهرُ(٢).

١٧- إثباتُ الحكمة لله عزَّ وجلَّ في أفعالِه، وتؤخذ من قوله: ﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾، وهكذا كلَّما رأيتَ لامَ التَّعليلِ بعد حُكمٍ كونيٍّ أو شرعيٍّ، فإنَّها تُفيدُ إثباتَ الحكمة لله عزَّ وجلَّ(٣).

١٨- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا ... لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ إثباتُ غضَبِ الله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ العذابَ لا يكون عن رضًا، بل عن غضَبٍ، لكن الاستدلالَ بهذه الآية على الغضبِ مِن بابِ الاستدلالِ باللَّازم(٤).

١٩- أنَّ أهلَ الجنَّة يُنعَّمون في الدُّنيا وفي الآخرة؛ لقوله: ﴿سَنُدْخِلُهُمْ﴾؛ لأنَّ السِّينَ تدلُّ على القُربِ، وأنَّ أصحابَ الجنَّة هم في الجنَّة في الدُّنيا وفي الآخرة؛ لأنَّه لا أحدَ أطيبُ عيشًا ممَّن آمَن وعمِل صالحًا(٥).

٢٠- إنَّما قدَّم تعالى ذِكرَ الكفَّار ووعيدَهم، على ذِكرِ المؤمنين ووعْدِهم؛ لأنَّ الكلامَ فيهم، وذِكْر المؤمنين بالعَرَض(٦).

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ في تصدير الجملةِ بـ(بل) تصريحٌ بإبطالِ تزكيتهم، وأنَّ الَّذين زكَّوْا أنفسَهم لا حظَّ لهم في تزكيةِ الله، وأنَّهم ليسوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٢٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٢٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٢٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٣٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣١١).

ممَّن يشاءُ اللهُ تزكيتَه، ولو لم يذكر (بل) فقيل: واللهُ يُزكِّي مَن يَشاء، لكان لهم مطمَعٌ أنْ يكونوا ممَّن زكَّاه الله تعالى[1].

٢- قوله: ﴿انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ جعَل افتراءَهم الكذبَ لشِدَّة تحقُّقِ وقوعه، كأنَّه أمرٌ مَرئيٌّ ينظرُه النَّاسُ بأعينهم، وإنَّما هو ممَّا يُسمَعُ ويُعقَلُ[2].

- وفيه تلوينُ الخِطاب في قوله: ﴿يَفْتَرُونَ﴾؛ حيث أقام المضارعَ مقامَ الماضي؛ إعلامًا أنَّهم مستمرُّون على ذلك[3].

٣- قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾: اسمُ الإشارة ﴿أُولَئِكَ﴾ وما فيه مِن معنى البُعد مع قُربهم في الذِّكر؛ للإشعارِ ببُعدِ منزلتِهم في الضَّلال، والجملةُ مستأنَفةٌ لبيانِ حالِهم، وإظهارِ مصيرِهم ومآلِهم[4].

٤- قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾:

- قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ﴾: ﴿أَمْ﴾ مُنقطعةٌ تُفَسَّرُ بـ(بل) وهمزةِ الاستفهامِ، أي: بلْ ألَهم، والاستفهامُ فيه إنكاريٌّ، حُكمُه حُكم النَّفي، ومعناه التَّوبيخُ والتَّقريع، وإنكارُ أنْ يكونَ لهم نصيبٌ من المُلْك، وجَحْدٌ لِما زعَمَت اليهودُ مِن أنَّ المُلك سيصير إليهم، ويجوز أن يكون المعنى إنكارَ أنَّهم أوتوا نصيبًا من المُلكِ على الكِناية، وأنَّهم لا يؤتونَ النَّاسَ شيئًا[5].

- قوله: ﴿فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾: فائدة (إذًا) تأكيدُ الإنكار والتَّوبيخ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٨٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٨٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٨٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٨٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٧٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٨٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٨٨).

حيث يجعَلون ثبوتَ النَّصيبِ سببًا للمنعِ، مع كونه سببًا للإعطاء[١].

- وفيه: تَعريضٌ؛ حيث عرَّض بشدَّة بُخلِهم[٢].

٥- **قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾:**

- **قوله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾:** ﴿أَمْ﴾ مُنقطعةٌ بمعنى (بل)، وهمزةِ الاستفهامِ لإنكارِ الحسَدِ واستقباحِه[٣].

- **قوله: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾:** فيه إجراءُ الكلام على سَنَنِ الكبرياءِ؛ حيث عبَّر بقوله: ﴿آتَيْنَا﴾ بطريق الالتِفاتِ؛ لإظهارِ كمالِ العنايةِ بالأمر[٤].

- **قوله: ﴿وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾:** في وصْفِ المُلك بالعِظَم، وتنكيرِه التَّفخيميِّ مِن تأكيد الإلزامِ، وتشديدِ الإنكار ما لا يَخفَى[٥].

٦- **قوله: ﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾** كلمة (سوف) تُذكَر للتَّهديد والوعيد، وينوبُ عنها السِّين، وقد يُذكرانِ في الوعدِ فيُفيدان التَّأكيد، أي: ندخلُهم نارًا عظيمة هائلةً[٦].

٧- **قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾** واقعٌ موقعَ التَّعليل لِمَا قبله؛ فالعزَّة يتأتَّى بها تمامُ القُدرة في عقوبةِ المجترئ على الله، والحكمة يتأتَّى بها تلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٩٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٨٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٩٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٩٠).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٩١).

الكيفيَّةُ في إصلائِهم النَّارَ[1]. مع تأكيد الخبرِ بـ: (إنَّ) واسميَّةِ الجملة.

– وإظهار الاسم الجليلِ (الله) بطَريقِ الالتفات؛ لتهويلِ الأمرِ، وتربيةِ المَهابة، وتعليلِ الحُكم[2].

٨- **قوله:** ﴿ظِلًّا ظَلِيلًا﴾: (ظليلًا) صفةٌ مشتقَّة من الظِّلِّ؛ لتأكيده[3]؛ للدَّلالةِ على بلوغِه الغايةَ في جِنسِه[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٩٠).

الآيتان (٥٨ - ٥٩)

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا (٥٨) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا (٥٩) ﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾: (نعِمَّا) كلمةٌ مركَّبة من (نِعم) و(مَا)، أي: نعمَ شيئًا يعِظُكم به[1].

﴿تَأْوِيلًا﴾: أي: عاقبةً ومعنًى وثوابًا في الآخِرة، والتَّأويل مِن أَوَل، أي: رجَع إلى الأصل، ومنه قِيل: مَوْئِل، للموضِعِ الَّذي يُرجَع إليه، وهو ردُّ الشَّيء إلى الغاية المرادة منه[2].

مُشكِلُ الإعراب:

قَوْله: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا... أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾

﴿أَنْ تُؤَدُّوا﴾: مصدر مؤوَّل بالصَّريح- أي: (تَأْدِية)، ومثله ﴿أَنْ تَحْكُمُوا﴾، أي: حُكْم- وهو في مَوضِع نصْب؛ إمَّا على إسقاط حرف الجرِّ (نزْع الخافض)، وأَصله: بِأَنْ تُؤَدُّوا، وَبِأَنْ تَحكُموا؛ لأنَّ حذفه يطَّرد مع (أنْ)[3] إذا أُمِن اللَّبس لطولهما بالصِّلة، وإمَّا لأنَّ الفعل (أَمَرَ) يَتعدَّى إلى المفعول الثاني بنفسه، نحو: (أمرتك الخير)[4].

---

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٠، ٢٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٩٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٧).

(٣) وعلى هذا يَجري الخلافُ في محلِّها: أهي في محلِّ نصب، أم جَرٍّ.

(٤) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٠١)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري =

﴿أَنْ تَحْكُمُوا﴾: معطوف على ﴿أن تُؤدُّوا﴾، أي: يأمُركم بتأديةِ الأمانات، وبالحُكمِ بالعَدل، فيكون فيه فصلٌ بين حرْف العطف والمعطوف بالظَّرف[(١)]. وقيل: ﴿أَنْ تَحْكُمُوا﴾ المذكور مفسِّرٌ للمحذوف مِن عامل ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ﴾ حيث إنَّه قد حُذِف فعلٌ، تقديرُه: يأمُركم أن تَحكُموا إذا حكمتم؛ فلا موضعَ لـ﴿أَنْ تَحْكُمُوا﴾؛ لأنَّه مُفسِّرٌ للمحذوف، والمحذوف مفعولُ ﴿يَأْمُرُكُمْ﴾، ولا يجوز أن يعمل ﴿أَنْ تَحْكُمُوا﴾ في ﴿إِذَا﴾؛ لأنَّ معمولَ المصدر لا يَتقدَّم عليه[(٢)].

المَعْنى الإجماليُّ:

يأمُر الله عباده بردِّ الأمانات إلى أصحابها، وأن يحكُموا بالعدل إذا حكَموا بين النَّاس، ونِعْم ما يأمرهم اللهُ به من أداء الأمانات والحُكم بالعَدْل بين النَّاس، إنَّ الله كان سميعًا بصيرًا.

ثمَّ أمر الله تعالى عبادَه المؤمنينَ بطاعَتِه سبحانه، وطاعةِ رسوله صلَّى الله عليه وسلَّم، وأنْ يُطيعوا من يتولَّون أمورَهم الدِّينيَّةَ والدُّنيوية، وهم العلماءُ والأمراء، يطيعونهم فيما لا يخالِفُ طاعةَ الله، وطاعةَ رسوله صلَّى الله عليه وسلَّم، ويُرشِدُ اللهُ تعالى عبادَه المؤمنين إلى أنَّه في حال اختلفوا في شيءٍ مِن أَمْر دِينهم، فَلْيطلبوا معرفةَ حُكمِه من كتاب الله تعالى، وسنَّةِ رسوله صلَّى الله عليه وسلَّم، إن كانوا يؤمنونَ بالله واليومِ الآخِر، ذلك خيرٌ لهم، وأفضلُ، في دِينهم ودنياهم وآخِرَتِهم.

= (١/ ٣٦٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٩-١٢).

(١) وهي مسألةُ خلافٍ. يُنظر في تفصيلها وتحريرها: ((الدر المصون)) للسَّمين الحلبي (٤/ ١٠)، وكتُب النحو عمومًا.

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٠١)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٦٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٩-١٢).

تفسيرُ الآيتين:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (٥٨)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا حكى عن أهلِ الكتابِ أنَّهم كتَموا الحقَّ، وذَكَر مِن أحوالِهم في تحريفِهم الكلِمَ عن مواضعه، وليِّهم ألسِنَتَهم، وافترائِهم على الله الكذبَ، وحسَدِهم بإنكارِ فضلِ الله؛ إذ آتاه الرَّسولَ والمؤمنينَ، وقولِهم للَّذين كفروا: ﴿هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ كلُّ ذلك يشتملُ على خيانةِ أمانةِ الدِّين، والعِلم، والحقِّ، والنِّعمة، وهي أماناتٌ معنويَّة- فناسَب أن يُعقِّبَ ذلك بالأمر بأداءِ الأمانة الحسِّيَّة إلى أهلِها، ويتخلَّص إلى هذا التَّشريعِ، فأمَر المؤمنينَ بأداءِ الأماناتِ في جميعِ الأمور، سواءٌ كانت تلك الأمورُ من باب المذاهبِ والدِّياناتِ، أو من باب الدُّنيا والمعاملاتِ[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَر سبحانه وتعالى وعْدَ المؤمنينَ، وما لهم من الثَّوابِ العظيم، وذكَر عمَل الصالحاتِ، نبَّه على عملينِ شريفينِ مِن أَجَلِّ الأعمالِ الصالحةِ، مَن اتَّصفَ بهما كان أحرى أن يتَّصفَ بغيرهما من الأعمال الصَّالحة؛ فأحدُهما: ما يختصُّ به الإنسانُ فيما بينه وبين غيره؛ وهو أداءُ الأمانة، والثَّاني: ما يكونُ بين اثنينِ من الفَصْل بينهما بالحُكْم العدلِ الخالي عن الهوى، وهو مِن الأعمالِ العظيمة الَّتي أمر الله بها رسلَه وأنبياءه والمؤمنينَ، ولَمَّا كان الترتيبُ الصَّحيح أن يبدأَ الإنسانُ بنفسِه في جَلْبِ المنافع ودفعِ المضارِّ، ثمَّ يشتغلَ بحال غيره، أمَر بأداءِ الأمانة أوَّلًا، ثمَّ بعده أَمَر بالحُكم بالحقِّ[2] فقال تعالى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٠٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٨٤)، وينظر ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٠٨).

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾.

أي: إنَّ مَن له الألوهيَّةُ والحُكم عزَّ وجلَّ، يأمركم بأن تردُّوا كلَّ ما اؤْتُمِنْتم عليه إلى أصحابه، سواءٌ كان من حقوقِ الله تعالى، أو مِن حقوقِ عباده؛ فرُدُّوه كاملًا موفَّرًا، من غير نقصٍ، ولا بخسٍ، ولا مماطلةٍ(١).

﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾.

أي: ويأمُركم اللهُ تعالى أيضًا بالحُكم بالعدل في كلِّ شيء، ومع كلِّ أحدٍ من النَّاس؛ وذلك بالحُكم بشريعةِ الله تعالى، فهي العدل كُلُّه(٢).

﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾.

أي: ونِعم الشَّيءُ يعِظُكم به ربُّكم سبحانه وتعالى في أمرِه لكم- أداءُ الأماناتِ إلى أهلها، والحُكمُ بالعدل بين النَّاس(٣).

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾.

أي: إنَّه سبحانه سميعٌ لأقوالكم، بصيرٌ بأفعالكم، ومن ذلك أداءُ الأمانات إلى أهلِها، وحُكمُكم بين النَّاس(٤).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٣٨-٤٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٧٣-١٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٤١).

تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٥٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أمر سبحانه الرُّعاةَ والوُلاة بالعدلِ في الرَّعيَّة، ورغَّب فيه ورهَّب مِن تَرْكِه، أمَرَ الرَّعيَّة بطاعة الولاةِ(١).

سَببُ النُّزول:

عن ابن عبَّاسٍ رضِي اللهُ عنهما، أنَّه قال في قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، قال: ((نزَلت في عبدِ الله بن حُذَافة بن قيس بن عدي؛ إذ بعَثه رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم في سَريَّة))(٢).

وعن عليٍّ رَضِيَ اللَّه عنه، قال: ((بعَث النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم سَرِيَّةً، فاستعْمَل رَجُلًا مِن الأنصارِ، وأمَرهم أنْ يُطيعوه، فغَضِب، فقال: أليس أمَرَكُم النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ تُطِيعوني؟ قالوا: بلى. قال: فاجْمعوا لي حَطَبًا. فجَمَعوا، فقال: أَوْقِدُوا نارًا. فأَوْقَدوها، فقال: ادْخُلوها. فهَمُّوا، وجعَل بعضُهم يُمْسِكُ بعضًا، ويقولون: فرَرْنا إلى النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن النَّارِ. فما زالوا حتَّى خَمَدَتِ النَّارُ، فسكَن غضَبُه، فبلَغ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال: لو دَخَلوها ما خَرَجوا منها إلى يومِ القيامةِ، الطَّاعةُ في المعروفِ))(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣١٠).

وذلك لأنَّ الطَّاعةَ لهم هي مظهرُ نفوذ العدل الَّذي يحكُمُ به حكَّامهم؛ فطاعة الرَّسول تشتمل على احترام العدلِ المشرع لهم وعلى تنفيذه، وطاعة ولاة الأمور تنفيذٌ للعدل، وأشار بهذا التَّعقيب إلى أنَّ الطَّاعة المأمورَ بها هي الطَّاعةُ في المعروف. ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٩٦).

(٢) رواه البخاري (٤٥٨٤).

(٣) رواه البخاري (٤٣٤٠) ومسلم (١٨٤٠).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنون أطيعوا اللهَ تعالى، وأطيعوا رسوله محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم، وذلك بامتثالِ أمْرِهما، واجتنابِ نَهْيِهما[1].

﴿وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾.

أي: وأطيعوا أيضًا الوُلاةَ عليكم الَّذين يَلُون لكم أمورَ دِينكم ودنياكم، وهم الأمراء والعُلماء؛ فأطيعوهم فيما لم يكُنْ فيه مخالفةٌ لطاعة الله تعالى وطاعةِ رسوله عليه الصَّلاة والسَّلام[2].

عن عليٍّ بن أبي طالب رضِي اللهُ عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إنَّما الطَّاعةُ في المعروفِ))[3].

وفي رواية: ((لا طاعةَ في معصيةِ اللهِ، إنَّما الطَّاعة في المعروفِ))[4].

وعن عُبادة بن الصَّامتِ رضِي اللهُ عنه، قال: ((بايَعْنا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم على السَّمعِ والطَّاعة في المَنْشَطِ والمَكْرَهِ[5]، وألَّا نُنازِعَ الأمرَ أهلَه، وأن نقومَ- أو: نقولَ- بالحقِّ حيثُما كنَّا لا نَخافُ في اللهِ لَوْمَةَ لائِمٍ))[6].

﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾.

أي: فإن اختلفتم- أيُّها المؤمنون- في شيءٍ مِن أمرِ دِينكم؛ مِن أصولِه وفروعِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٧٤-١٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٤٦-٤٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٣-١٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٤٧).

(٣) رواه البخاري (٧١٤٥)، ومسلم (١٨٤٠) واللفظ له.

(٤) رواه مسلم (١٨٤٠)، من حديث علي رضي الله عنه.

(٥) المنْشَطِ والمَكْرَه: يعني المحبوب والمكروه. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ١٦٩).

(٦) رواه البخاري (٧١٩٩) واللفظ له، ومسلم (١٨٤٠).

فاطلبوا معرفةَ حُكمِه من كتابِ الله تعالى، وسنَّةِ رسوله صلَّى الله عليه وسلَّم[(١)].

﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

أي: افعلوا ذلك إن كنتم مؤمنين بالله تعالى حقًّا، ومؤمنين بالآخرة أيضًا[(٢)].

﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾.

أي: ردُّكم لِما اختلفتُم فيه إلى الكتاب والسُّنَّة خيرٌ لكم وأفضلُ، في دِينكم ودنياكم وآخرتِكم، وأحسنُ عاقبةً[(٣)].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- معاملة الإنسانِ إمَّا أن تكونَ مع ربِّه أو مع سائر العبادِ، أو مع نفسِه، ولا بدَّ من رعايةِ الأمانةِ في جميع هذه الأقسام الثَّلاثة، أمَّا رعايةُ الأمانةِ مع الرَّبِّ: فهي في فِعلِ المأمورات وتَرْك المنهيَّاتِ، **وأمَّا القِسْم الثَّاني**: وهو رعايةُ الأمانة مع سائر الخَلْقِ، فيدخُلُ فيه ردُّ الودائع، ويدخُلُ فيه تركُ التَّطفيفِ في الكَيل والوزن، ويدخل فيه ألَّا يُفشيَ على النَّاس عيوبَهم، ويدخلُ فيه عدلُ الأمراء مع رعيَّتِهم، وعدلُ العلماء مع العوامِّ؛ بألَّا يَحْمِلوهم على التَّعصُّبات الباطلة، بل يرشدونهم إلى اعتقاداتٍ وأعمالٍ تنفَعُهم في دنياهم وأخراهم، ويدخل فيه أمانةُ الزَّوجة للزَّوج في حفظِ فرجِها، وفي ألَّا تُلحِقَ بالزَّوج ولدًا يُولَدُ من غيره، وغيرها، **وأمَّا القِسْم الثَّالث**: وهو أمانةُ الإنسان مع نفسِه؛ فهو ألَّا يختارَ لنفسه إلَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٨٤-١٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٤٨-٤٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤٥-٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٤).

ما هو الأنفعُ والأصلحُ له في الدِّين والدُّنيا، وألَّا يُقدِمَ بسبب الشَّهوة والغضبِ على ما يضُرُّه في الآخرة(١).

٢- وجوبُ أداء الشَّهادة على الشَّاهد كما تحمَّلَها؛ لأنَّ الشَّاهدَ مؤتَمَنٌ، فيجبُ عليه أن يؤدِّيَ الشَّهادةَ كما تحمَّلَها من غير زيادةٍ ولا نقص، وهل يجوز أن يؤدِّيها بالمعنى؟ الجواب: نَعم، إذا كان عالِمًا بالمعنى، ولم يحدُثْ ما يتغيَّرُ به المعنى، فإنَّه لا بأس أن يؤدِّيها بالمعنى(٢).

٣- قوله: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ فيه التَّعبيرُ بالعدل دون المساواة، التي شُغِف بالتعبير بها كثيرٌ من العصريِّين، ولا تكادُ تجدُ أحدًا منهم يقول: الدِّينُ الإسلاميُّ دِينُ العَدْلِ، بل يقولُ: الدِّينُ الإسلاميُّ دِينُ المساواة؛ مما جعل المرأة تقول: لا بدَّ أن أُعامَلَ كما يعامَلُ الرَّجلُ، وجعل الرَّجلَ السَّاقطَ الَّذي لا خيرَ فيه يقول: لا بدَّ أن أعامَلَ كما يعامَلُ الشَّريفُ، وهلمَّ جرًّا، لكن إذا استعملنا العَدْلَ، فمعناه أن نُنْزِلَ كلَّ إنسانٍ منزلتَه(٣).

٤- الرَّدُّ إلى اللهِ ورسوله شرطٌ في الإيمانِ؛ فلهذا قال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٠٩).

(الأماناتُ تبدأُ من الأمانةِ الكبرى؛ الأمانةِ الَّتي ناط الله بها فِطرةَ الإنسان، والَّتي أبَتِ السَّمواتُ والأرضُ والجبال أن يحمِلْنَها، وأشفَقْنَ منها، وحمَلها «الإنسان»، أمانة الهداية والمعرفةِ والإيمانِ بالله عن قصدٍ وإرادةٍ وجُهد واتِّجاه، فهذه أمانةُ الفِطرة الإنسانيَّة خاصَّةً، فكلُّ ما عدا الإنسانَ ألهَمه ربُّه الإيمانَ به، والاهتداءَ إليه، ومعرفتَه، وعبادتَه، وطاعتَه، وألزَمه طاعةَ ناموسِه بغير جُهد منه ولا قصدٍ ولا إرادة ولا اتِّجاه، والإنسانُ وحده هو الَّذي وُكِل إلى فِطرته، وإلى عقلِه، وإلى معرفته، وإلى إرادته، وإلى اتِّجاهه، وإلى جُهدِه الَّذي يبذُلُه للوصول إلى اللهِ، بعونٍ من الله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وهذه أمانةٌ حملَها، وعليه أن يؤدِّيَها أوَّلَ ما يؤدِّي مِن الأماناتِ). ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٦٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٤٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٤٤).

بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ فدلَّ ذلك على أنَّ مَن لم يرُدَّ إليهما مسائلَ النِّزاعِ فليس بمؤمنٍ حقيقةً(١).

الفَوائِدُ العِلْمِيَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ...﴾ هاتانِ الآيتانِ هما أساسُ الحُكومة الإسلاميَّةِ، ولو لم يَنزِلْ في القرآن غيرُهما لكَفَتَا المسلِمين في ذلك، إذا هم بنَوْا جميعَ الأحكامِ عليهما(٢)، فأداءُ الأماناتِ إلى أهْلِها، والحُكْم بين النَّاس بالعَدْل هما جِماعُ السِّياسة العادِلَة، والوِلاية الصَّالحَة(٣).

٢- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِها وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ هذه الآيةُ من أمهَّات الأحكام؛ تَضَمَّنَت جميعَ الدِّينِ والشَّرْع(٤)، فأداءُ الأماناتِ إلى أهْلِها، والحُكْم بين النَّاس بالعَدْل هما جِماعُ السِّياسة العادِلَة، والوِلاية الصَّالحَة(٥).

٣- وفي قوله: ﴿إِلَى أَهْلِهَا﴾ دلالةٌ على أنَّها لا تُدفَع وتؤدَّى لغير المؤتَمِن، ووكيلُه بمنزلتِه؛ فلو دفعها لغير ربِّها لم يكُنْ مؤدِّيًا لها(٦).

٤- من الأمانَةِ التي أمَرَ اللهُ تعالى أن تؤدَّى إلى أهْلِها في قَوْلِه سبحانه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ١٣٦).

(٣) ((السياسة الشرعية)) لابن تيمية (ص: ٦).

(٤) ((تفسير القرطبي)) (٥/ ٢٥٥).

(٥) ((السياسة الشرعية)) لابن تيمية (ص: ٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٣).

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾: أنْ يَقْصِدَ من يتصرَّفُ لغيره؛ مَصْلَحةَ من يتصرَّفُ له، ولا يقصِد هواه[1].

٥- في قَوْلِه سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ الأمرُ بالحُكْمِ بالعَدْلِ، والعدْلُ هو الشَّرْع، وكتابُ الله تعالى هو المُبَيِّنُ للشَّرْع؛ فالكِتابُ والعَدْلُ متلازمان، ومَن حَكَمَ بالعَدْلِ فقد حَكَمَ بالشَّرْع، ولكنَّ كثيرًا من الناس يَنْسُبون ما يقولونَه إلى الشَّرْع، وليس من الشَّرْع؛ بل يقولون ذلك إمَّا جهلًا، وإمَّا غَلَطًا، وإمَّا عَمْدًا وافتراءً، وهذا هو الشَّرْعُ المبَدَّل الذي يستحِقُّ أصحابُه العقوبةَ؛ ليس هو الشَّرعَ المنزَّلَ الذي جاء به جبريلُ مِن عِنْدِ الله إلى خاتَم المُرْسَلينَ؛ فإنَّ هذا الشَّرْعَ المنزَّلَ كُلُّه عدلٌ، ليس فيه ظُلْمٌ ولا جَهْلٌ[2].

٦- أنَّ الأحكامَ الشَّرعيَّةَ تُسمَّى موعظةً؛ لأنَّ الله تعالى قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾، مع أنَّه ليس فيها وعيدٌ، وليس فيها تهديدٌ، وإنَّما فيها بيانُ أحكامٍ[3].

٧- الحُكمُ بالعدل بين النَّاس النَّصُّ يُطلِقه هكذا عدلًا شاملًا بين النَّاس جميعًا، ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾، لا عدلًا بين المسلمين بَعْضِهم وبعض فحَسْب، ولا عدلًا مع أهلِ الكتاب دون سائِرِ النَّاس.. وإنَّما هو حقٌّ لكلِّ إنسانٍ بوصفِه إنسانًا، فهذه الصِّفةُ- صفةُ النَّاس- هي الَّتي يترتَّبُ عليها حقُّ العدلِ في المنهج الرَّبَّانيِّ، وهذه الصِّفةُ يلتقي عليها البشرُ جميعًا: مؤمنين وكفَّارًا، أصدقاءَ وأعداءً، سُودًا وبِيضًا، عَرَبًا وعجَمًا، والأمَّة المسلِمة قيِّمةٌ على الحُكم بين النَّاس بالعدل- متى حكمت في أمرهم- هذا العدلُ الَّذي لم تعرِفْه

(١) ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٣/ ٨٣).
(٢) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٥/ ٣٦٦)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٥/ ١٢٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٤٥).

البشَريَّةُ قط- في هذه الصُّورة- إلَّا على يدِ الإسلام، وإلَّا في حُكمِ المسلمين، وإلَّا في عهد القيادة الإسلاميَّةِ للبشريَّة.. وذلك هو أساسُ الحُكمِ في الإسلامِ، كما أنَّ الأمانةَ- بكلِّ مدلولاتها- هي أساسُ الحياةِ في المجتمَعِ الإسلاميِّ(١).

٨- التَّناسقُ بين المأمورِ به من التَّكاليف، وهو أداءُ الأماناتِ، والحُكمُ بالعدل بين النَّاس، وبين كونِ الله سبحانه ﴿سميعًا بصيرًا﴾ مناسبةٌ واضحةٌ ولطيفةٌ معًا.. فاللهُ يسمَعُ ويُبصِرُ قضايا العدل وقضايا الأمانة، والعدلُ كذلك في حاجةٍ إلى الاستماع البصير، وإلى حُسن التَّقدير، وإلى مراعاةِ الملابَساتِ والظَّواهر، وإلى التَّعمُّقِ فيما وراء الملابَساتِ والظَّواهر، وأخيرًا فإنَّ الأمرَ بهما يصدُرُ عن السَّميعِ البصيرِ بكلِّ الأمور(٢).

٩- أنَّه تعالى لَمَّا أمَرَ في هذه الآيات بالحُكمِ على سبيل العدلِ وبأداءِ الأمانة، قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾، أي: إذا حكمتَ بالعدلِ فهو سميعٌ لكلِّ المسموعاتِ، يسمَعُ ذلك الحُكم، وإن أدَّيتَ الأمانةَ فهو بصيرٌ لكلِّ المُبصَراتِ، يُبصِرُ ذلك، ولا شكَّ أنَّ هذا أعظمُ أسبابِ الوعد للمُطِيع، وأعظمُ أسباب الوعيد للعاصي(٣).

١٠- كلَّما كان احتياجُ العبدِ أشدَّ، كانت عنايةُ الله أكملَ، والقضاةُ والوُلاةُ قد فوَّض الله إلى أحكامِهم مصالحَ العباد، فكان الاهتمامُ بحُكمهم وقضائِهم أشدَّ؛ فهو سبحانه مُنزَّه عن الغفلةِ والسَّهو، والتَّفاوت في إبصار المبصَراتِ، وسماعِ المسموعات، ولكن لو فرَضْنا أنَّ هذا التَّفاوتَ كان ممكِنًا، لكان أَولى المواضعِ بالاحترازِ عن الغفلةِ والنِّسيان هو وقتَ حُكمِ الولاة والقضاة، فلمَّا كان هذا الموضعُ مخصوصًا بمزيد العنايةِ، لا جرَمَ قال في خاتمة هذه الآية:

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٦٨٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١١١).

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ فما أحسَنَ هذه المقاطعَ الموافِقةَ لهذه المطالعِ[١].

١١- في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ إنَّما أُعِيد فِعلُ: (وأطيعوا الرَّسول) مع أنَّ حرفَ العطف يُغني عن إعادته؛ إظهارًا للاهتمامِ بتحصيل طاعةِ الرَّسول؛ لتكونَ أعلى مرتبةً من طاعةِ أُولي الأمر، ولينبِّهَ على وجوب طاعتِه فيما يأمُرُ به، ولو كان أمرُه غيرَ مقترنٍ بقرائنِ تبليغ الوحيِ؛ لئلا يتوهَّمَ السَّامعُ أنَّ طاعةَ الرَّسول المأمورَ بها ترجعُ إلى طاعةِ الله فيما يُبلِّغُه عن الله دون ما يأمُرُ به في غير التَّشريعِ؛ فإنَّ امتثالَ أمرِه كله خيرٌ[٢]، وأيضًا ليفيد بيان الدَّلالتين؛ فالكتاب يدلُّ على أمرِ الله، ثمَّ نعلَمُ منه أمرَ الرَّسول لا محالةَ، والسُّنَّةُ تدلُّ على أمر الرَّسول، ثمَّ نعلَمُ منه أمرَ الله لا محالةَ، فثبَت بما ذكرناه أنَّ قوله: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ يدلُّ على وجوب متابعةِ الكتاب والسُّنَّة[٣].

١٢- قَوْلُ اللهِ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ فيه الأمرُ بطاعةِ أُولي الأمرِ مِن العُلماءِ والأمراءِ إذا لم يَتنازعوا؛ وهو يَقتضي أنَّ اتِّفاقَهم حُجَّةٌ[٤].

١٣- قولُه تعالى: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ ولم يَقُلْ: وإلى الرَّسولِ؛ فإنَّ الرَّدَّ إلى القرآنِ رَدٌّ إلى اللهِ والرَّسولِ، فما حَكَمَ به اللهُ تعالى هو بعَيْنِه حُكْمُ رَسولِه، وما يحكُمُ به الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم هو بعَيْنِه حُكْمُ الله؛ فإذا رَدَدْتُم إلى اللهِ ما تنازَعْتُم فيه- يعني كتابَهُ- فقد رَدَدْتُموه إلى رَسُولِه. وكذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١١١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٩٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١١٢).
(٤) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٩/ ٦٧).

إذا رَدَدْتُموه إلى رسولِه فقد رددْتُموه إلى اللهِ، وهذا من أسرارِ القرآنِ(١).

١٤- قَوْلُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾، فيه الأمرُ بالردِّ عندَ التنازُعِ إلى اللهِ والرسولِ، فأبطَلَ الرَّدَّ إلى إمامٍ مُقَلَّد، أو قياسٍ عقليٍّ فاضِلٍ(٢).

بَلاغةُ الآيتين:

١- قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ﴾: جملةٌ مستأنفة مُقرِّرة لِما قبلها، متضمِّنةٌ لمزيدِ لُطفٍ بالمخاطَبينَ، وحُسْنِ استدعاءٍ لهم إلى الامتثالِ بالأمرِ، و(إنَّ) فيها لمجرَّدِ الاهتمامِ بالخَبَرِ؛ لظهورِ أنَّ مِثلَ هذا الخبرِ لا يقبَلُ الشَّكَّ حتَّى يُؤكَّدَ؛ لأنَّه إخبارٌ عن إيجاد شيءٍ لا عن وجوده، فهو والإنشاءُ سواءٌ(٣).

- قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ فيه بيانُ عظَمةِ الله عزَّ وجلَّ؛ وذلك حيث عبَّر عن نفْسِه تباركَ وتعالى بصيغةِ الغائبِ التي تدُلُّ على التَّعظيمِ(٤).

٢- قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ واقع موقعَ التَّحريضِ على امتثالِ الأمرِ، فكان بمنزلة التَّعليلِ، وأغنَتْ (إنَّ) في صَدْرِ الجملة عن ذِكر فاءِ التَّعقيبِ، كما هو الشَّأن إذا جاءت (إنَّ) للاهتمامِ بالخبرِ دون التَّأكيدِ(٥).

- وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ الأصلُ في تركيب الجملة: إنَّه نِعْمَ ما يعِظُكم اللهُ به، ولكنَّ التَّعبيرَ يقدِّم لفظَ الجلالة، فيجعله «اسمَ إنَّ»، ويجعَلُ نِعْمَ مَا ﴿نعمَّا﴾ ومتعلِّقاتِها في مكانِ «خبر إنَّ» بعد حذف الخبر؛

(١) ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٤١).
(٢) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٩/ ٦٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٩١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٤١).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٩٦).

ذلك ليوحي بشدَّةِ الصِّلةِ بين الله- سبحانه- وهذا الَّذي يعِظُهم به، ثمَّ إنَّها لم تكُنْ «عِظة»، إنَّما كانت «أمرًا»، ولكن التَّعبير يُسمِّيه عِظَة؛ لأنَّ العِظَةَ أبلغُ إلى القلب، وأسرعُ إلى الوجدانِ، وأقربُ إلى التَّنفيذِ المنبعِثِ عن التَّطوُّعِ والرَّغبةِ والحياءِ[١]!

٣- قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ خبرٌ فيه وعدٌ ووعيدٌ، وإظهارُ الجلالة فيه تأكيدٌ لكلٍّ من الوعدِ والوعيدِ[٢]، مع ما في تأكيدِ الخبر بـ(إنَّ) واسميَّةِ الجُملةِ.

٤- قوله: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾: لفظ ﴿شَيْءٍ﴾ نكِرة متوغِّلة في الإبهام؛ فهو في حيِّز الشَّرط يُفيدُ العموم، أي في كلِّ شيءٍ، فيصْدُقُ بالتَّنازعِ في الخُصومة على الحقوق، ويصدُقُ بالتَّنازع في اختلاف الآراء عند المشاوَرةِ، أو عند مباشَرةِ عملٍ ما؛ كتنازُعِ ولاةِ الأمورِ في إجراءِ أحوالِ الأمَّةِ، ولقد حسَّن موقعَ كلمةِ (شيءٍ) هنا تعميمُ الحوادثِ وأنواعِ الاختلافِ[٣].

٥- قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ شرطٌ، وجوابُه محذوفٌ، أي: فردُّوه إلى اللهِ والرَّسولِ، وهو شرطٌ يُرادُ به الحضُّ على اتِّباع الحقِّ؛ لأنَّه ناداهم أولًا بـ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، فصار نظير: إنْ كُنتَ ابني فأَطِعْني. وفيه إشعارٌ بوعيدِ مَن لم يَرُدَّ إلى اللهِ تعالى والرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم[٤]، وهو تحريضٌ وتحذيرٌ معًا؛ لأنَّ الإيمانَ باللهِ واليومِ الآخِرِ وازعانِ يَزعانِ عن مُخالفةِ الشَّرعِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٦٨٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٩٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٩٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٨٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٠١).

الآيات (٦٠ - ٦٥)

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (٦٣) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا (٦٤) فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥)﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿يَزْعُمُونَ﴾: يكذِبون، والزَّعم: يُطلَق غالبًا على حِكايةِ قولٍ يكونُ مَظِنَّةً للكذبِ، وعَلَى اعتقادِ الباطِلِ بتقوُّلٍ، والقولِ مع الظَّنِّ، ويُطلَقُ كذلك على الكَلامِ الذي لا سَنَدَ له، وإنَّما يُحكَى على الألْسُنِ على سَبيلِ البَلاغِ، وقدْ يكونُ الزَّعم حَقًّا، وأصلُ (زعم): القولُ مِن غير صِحَّةٍ ولا يقينٍ[١].

﴿بَلِيغًا﴾: أي: قَويًّا يَبْلُغُ شَغَافَ قلوبِهم لبَلاغَتِه وفَصاحتِه، ومن بلاغةِ الكلامِ أنْ يكون صوابًا في موضوعِ لُغتِه، وطِبقًا للمعنى المقصودِ به، وصِدْقًا في نفْسه.

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٠)، ((معجم الفروق اللغوية)) للعسكري (ص: ١٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٠)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٣٠٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٨).

وأصل (بلغ): الوُصولُ إلى الشَّيءِ(١).

﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾: أي: فيما اختلَفوا فيه، واختلَط بينهم، والتَّشاجُر: المنازَعةُ، وأصْلُ (شجر): تداخُلُ الشَّيءِ بَعْضِه في بعضٍ(٢).

﴿حَرَجًا﴾: أي: شكًّا وضِيقًا، والحَرَج: الضِّيقُ والإثْمُ، وأصْلُ الحَرَج: تجمُّع الشَّيء وضِيقُه(٣).

المَعْنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى لنبيِّه محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم: ألَا تتعجَّبُ- يا محمَّدُ- مِن حالِ أولئك الَّذين يدَّعون كَذِبًا أنَّهم يؤمنونَ بالقرآنِ وبِغيرِه من الكُتُب السَّماويَّةِ السَّابقةِ، ومع ذلك يُريدون أن يتحاكَموا إلى غيرِ ما أنزَل اللهُ، وقد أُمِروا أن يكفُروا بالحُكمِ إذا كان كذلك، ويريدُ الشَّيطانُ أن يُغوِيَهم عن طريقِ الهدايةِ غَوايةً شديدةً.

وإذا قيل لهم: تعالَوْا إلى ما أنزله اللهُ تعالى في كتابه وفي سنَّةِ رسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم، رأيتَ هؤلاءِ المنافقينَ مُعرِضين عنك وعمَّا تَدْعوهم إليه، ويمنَعونَ غيرَهم كذلك عنه.

فكيف سيكونُ حالُ هؤلاء المنافِقينَ إذا حلَّت عليهم مُصيبةٌ بسبب كفرِهم وذُنُوبِهم، ومنه تحاكُمُهم إلى غيرِ ما أنزَل اللهُ تعالى، ثمَّ أتَوْا إلى النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم مُعتذرينَ يَحْلِفون بالله كذِبًا أنَّهم ما تَحاكَموا إلى غيرِه إلَّا بقصدِ

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٤٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٧).

الإحسانِ إلى المتخاصِمينَ، والتَّوفيقِ بينهم، ولم يكونوا معتقدينَ صحَّةَ تلك الحكومةِ، فأخبَرَ تعالى أنَّه يعلَمُ ما تنطوي عليه قلوبُهم من نفاقٍ وقصدٍ سيئٍ في فِعْلِهم ذلك، وسيجازيهم على ذلك، وأمَرَ نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم بالإعراضِ عنهم، وترغيبِهم في الانقيادِ للهِ ولرسولِه، وحذَّرهم من مخالفةِ ذلك، وأن ينصَحَهم سِرًّا نصيحةً مؤثِّرةً تصِلُ إلى قَرارةِ أنفسِهم.

ثمَّ يُخبِر تعالى أنَّه ما أرسَل رسولًا إلَّا والغرضُ من ذلك الإرسالِ أن يُطيعَه المرسَلُ إليهم، ويتَّبِعوه بتقدير الله وقضائه ومشيئتِه، ولو أنَّهم حين يقَعون في ظُلْم أنفسِهم بالذَّنبِ والخطيئةِ يأتون الرَّسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم -في حالِ حياتِه- مُقرِّينَ بذُنوبِهم، طالبينَ من الله مغفرتَها، وطلَبَ الرَّسولُ مِن الله أن يغفِرَ لهم تلك الذُّنوبَ، حينها سيَجِدونَ من اللهِ الصَّفحَ عن ذنوبِهم تلك، وسيتوبُ عليهم وسيرحَمُهم.

ثمَّ أقسَم تعالى بنفسِه، فقال: فلا وربِّك يا محمدُ لا يؤمن أحدٌ إيمانًا يُقبَل منه حتَّى يُحكِّمَك في جميعِ الأمور الَّتي يحدُثُ فيها التَّنازعُ، ثمَّ لا يَجِدَ في نفسِه ضِيقًا وحرَجًا من الحُكم الَّذي يصدُرُ منك، وينقادَ له، ويُسلِّمَ تسليمًا كليًّا.

تفسيرُ الآيات:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أوجَب اللهُ تعالى في الآيةِ الأولى على جميعِ المكلَّفين أن يُطيعوا اللهَ، ويُطيعوا الرَّسولَ- ذكَر في هذه الآيةِ أنَّ المنافقينَ والَّذين في قلوبهم مرضٌ لا

يُطيعونَ الرَّسولَ، ولا يرضَوْن بحُكمِه، وإنَّما يريدونَ حُكمَ غيرِه متعجِّبًا من حالهم مع ادِّعائهم الإيمانَ[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَر الله تعالى أنَّ اليهودَ يؤمِنونَ بالجِبْتِ والطَّاغوت... إلخ، وذكَر مِن سوء حالِهم ووعيدِهم ما ذكَر، ثمَّ أمر المؤمنين بعد ذلك بأداءِ الأماناتِ إلى أهلِها، والحُكمِ بالعَدْل، وأَمَرَهم بطاعةِ الله ورسولِه في كلِّ شيءٍ، وطاعةِ أُولي الأمر، وبِرَدِّ ما تنازَعوا فيه إلى اللهِ ورسولِه- بيَّن لنا بعْدَ هذا حالَ طائفةٍ أخرى بين الطَّائفتينِ، وهم المنافقون الَّذين يزعمون أنَّهم آمَنوا، ومن مقتضى الإيمان: امتثالُ ما أُمِر به المؤمنونَ في الآيتين السَّابقتينِ، ولكنَّهم مع هذه الدَّعوى يريدونَ أنْ يَتحاكَموا إلى الطَّاغوتِ الَّذي عليه تلك الطَّائفةُ[2].

سَببُ النُّزول:

عن ابن عبَّاسٍ رضِي اللهُ عنهما، قال: كان أبو بَرْزةَ الأسلميُّ كاهنًا يَقضي بين اليهود فيما يَتنافَرون إليه، فتنافر إليه أناسٌ مِن أسلَمَ، فأنزَل الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَتَوْفِيقًا﴾[3] [النساء: ٦٠-٦٢].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾

أي: ألَا تتعجَّب- يا محمَّدُ- مِن حال أولئك الَّذين يزعُمون أنَّهم يؤمِنونَ بالقرآن، وبغيره من الكتب الإلهيَّة السَّابقة[4]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ١٨١).

(٣) رواه ابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (٥٥٤٧)، والطبراني (١١/ ٣٧٣) (١٢٠٤٥)، والضياء في ((الأحاديث المختارة)) (١٤١).

قال الهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٧/ ٩): رجاله رجال الصَّحيح. وجود إسناده ابن حجر في ((الإصابة)) (٤/ ١٩)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٥٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) =

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾.

أي: وهم مع ذلك يودُّون التَّحاكُمَ في فصلِ الخصوماتِ إلى غير الكتابِ والسُّنَّة(١).

﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾.

أي: والحالُ أنَّهم قد أُمروا أن يكفُروا بالحُكم بغيرِ ما أنزَل اللهُ جلَّ وعلا(٢).

﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾.

أي: إنَّ الشَّيطانَ يريد أن يجُورَ بهؤلاء المتحاكِمينَ إلى الطَّاغوت جَورًا شديدًا بَعِيدًا عن سبيل الحقِّ والهُدى(٣).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (٦١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذكَر ضلالَهم بالإرادةِ، ورغبتَهم في التَّحاكمِ إلى الطَّاغوت، ذكَر فِعلَهم فيه؛ في نُفرتِهم عن التَّحاكمِ إلى رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فقال(٤):

= (ص: ١٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٦٠-٤٦١).

قال الرازي: (اعلم أنَّ المفسِّرين اتَّفقوا على أنَّ هذه الآية نَزلتْ في بعضِ المنافقينَ) ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٢١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٨٨-١٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٨٨-١٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٦٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣١٣).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾.

أي: وإذا قيل للمنافقين: هلمُّوا وأقبِلوا على حُكمِ الله تعالى، الَّذي أنزَله في كتابِه وفي سنَّة رسولِه محمَّدٍ عليه الصَّلاة والسَّلام(١).

﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾.

أي: أبصرتَ أولئك المنافقينَ مُعرِضينَ وممتنِعينَ مِن المصيرِ إليك للحُكم بينهم؛ بسبب نفاقِهم، ويمنَعون غيرَهم كذلك(٢).

كما قال تعالى عن المشركين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [لقمان: ٢١].

﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاؤُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢)﴾.

﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾.

أي: فكيف يكون حالُ هؤلاء المنافقينَ إذا ساقَتْهم المقاديرُ إليك، في مصائبَ حلَّتْ بهم بسبب كُفرِهم وذنوبِهم، ومن ذلك تحاكُمُهم إلى غيرِ ما أنزل اللهُ تعالى(٣).

﴿ثُمَّ جَاؤُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾.

أي: ثمَّ أتاكَ هؤلاء المنافقون- يا محمَّدُ- يُقسِمونَ بالله تعالى كذِبًا وزورًا، وجُرأةً على الله عزَّ وجلَّ، معتذرينَ بأنَّهم ما أرادوا بذَهابِهم للتَّحاكُمِ إلى غيرك

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٦٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٦٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٤).

إلَّا الإحسانَ إلى المتخاصمينَ، والتَّوفيقَ بينهم، ومداراةَ النَّاس ومصانَعتَهم، لا اعتقادًا منهم بصحَّةِ تلك الحكومةِ[1].

كما قال تعالى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ [المائدة: ٥٢].

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (٦٣)﴾.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى يعلَمُ حقيقةَ ما تُكِنُّه قلوبُهم من النِّفاقِ، والقصدِ السَّيِّئ في احتكامِهم إلى الطَّاغوت، وتركِهم الاحتكامَ إليك، وإن حلَفوا باللهِ ما أرَدْنا إلَّا إحسانًا وتوفيقًا، وسيَجزيهم على ذلك، فإنَّه لا تخفى عليه خافيَةٌ سبحانه، فاكتفِ به- يا محمَّدُ- فيهم؛ فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ عالمٌ بهم[2].

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾.

أي: فدَعْهم، ولا تُبالِ بهم، ولا تعاقِبْهم[3].

﴿وَعِظْهُمْ﴾.

أي: ورغِّبهم في الانقيادِ لله تعالى ولرسولِه عليه الصَّلاة والسَّلام، وخوِّفهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٩٦-١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٦٩).

وحذِّرهم مِن تَرْكِه(١).

﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾.

أي: انصَحْهم- يا محمَّدُ- سِرًّا فيما بينك وبينهم بكلامٍ بليغٍ مؤثِّر، يصِلُ إلى قرارةِ نفوسِهم؛ ليزجُرَهم ويردَعَهم عمَّا هم عليه(٢).

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا (٦٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أمَر اللهُ سبحانه وتعالى بطاعة الرَّسولِ في قوله: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، ثمَّ حكى أنَّ بعضَهم تحاكَمَ إلى الطَّاغوتِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٧١).

ويتعَلَّقُ قَوْلُه: ﴿فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ بقوله: ﴿قُلْ﴾ وفيه معنيان، الأول أيْ: قُلْ لهم خاليًا بهم، لا يكونُ معهم أحدٌ. أو: قُلْ لهم في معنى أنفسِهم قولًا يَبْلُغ منهم ما يزجُرُهم عن العوْدِ إلى ما فعلوا. وقيل: إنَّ قوله تعالى: ﴿فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ متعلِّق بقولِه: ﴿بَلِيغاً﴾ على مذهب مَن يجيزُ تقديمَ معمولِ الصِّفة على الموصوفِ. ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٩١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٦).

قال ابنُ عثيمينَ: (قوله: ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا﴾ أي: قل لهم قولًا يصلُ إلى قرارةِ نفوسِهم، ولهذا جُعِل ظَرفُ القولِ هو النَّفس، ويحتملُ أن يكونَ المعنى ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: في شأنِهم وحالِهم قولًا بليغًا يبلغُ قلوبَهم، والمعنيان لا يتنافيان، وعلى هذا فيكونان جميعًا حقًّا؛ أي: قل لهم في شأنِهم وفي أنفسِهم بأنَّكم فعلتُم كذا وفعلتُم كذا، أو قل لهم قولًا في النَّفس يصلُ إلى النُّفوس، وإلى قرارةِ القلوبِ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (١/ ٤٧٠).

والقولُ البليغُ قيل: هو التوعُّدُ بالقتلِ إن استداموا حالةَ النِّفاق، قاله الحسنُ. ينظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (٥/ ٢٦٥).

ولم يتحاكَمْ إلى الرَّسول، وبيَّن قُبحَ طريقِه وفسادَ منهجِه- رغَّب بهذه الآية مرَّةً أخرى في طاعةِ الرَّسولِ؛ فقال(١):

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

أي: لم يبعَثِ اللهُ تعالى الرُّسلَ- ومنهم محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم- إلَّا لأجلِ أن يُطيعَهم النَّاسُ ويتَّبعوهم، وذلك بتقديرِ الله تعالى وقضائِه ومشيئتِه(٢).

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾.

أي: ولو أنَّهم حين يقَعُ منهم الخطأُ والزَّلَلُ أتَوا إليك- يا محمَّدُ- في حال حياتِك، معترفينَ بذنوبهم، طالبينَ مِن الله تعالى سَترَها، والتَّجاوزَ عن المؤاخَذة بها، وطلبْتَ مِن الله تعالى أن يغفِرَ لهم(٣).

﴿لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾.

أي: لو فعَلوا ذلك، لتاب اللهُ جلَّ وعلا عليهم بمغفرتِه ظُلْمَهم، ورحِمهم بالتَّوفيقِ للتَّوبة وقَبولِها والثَّوابِ عليها، وعدمِ مؤاخَذتِهم بذُنوبهم الَّتي تابوا منها(٤).

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٨٠-٤٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٧٩-٤٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٥).

سَببُ النُّزول:

عن عبدِ الله بن الزُّبيرِ رضِي اللهُ عنهما: ((أنَّ رجلًا من الأنصارِ خاصم الزُّبيرَ عند رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، في شِراجِ الحَرَّةِ الَّتي يسقون بها النَّخلَ، فقال الأنصاريُّ: سَرِّحِ الماءَ[1] يمُرُّ، فأبى عليه، فاختصموا عند رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ للزبيرِ: اسْقِ يا زبيرُ، ثمَّ أَرْسِلِ الماءَ إلى جارِك»، فغضب الأنصاريُّ؛ فقال: يا رسولَ اللهِ، أنْ كان ابنَ عمَّتِك! فتلوَّنَ وجهُ نبيِّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ثمَّ قال: يا زبيرُ، اسْقِ، ثمَّ احبِسِ الماءَ حتَّى يرجعَ إلى الجَدْرِ[2]، فقال الزُّبيرُ: واللهِ، إنِّي لأحسبُ هذه الآيةَ نزلت في ذلك[3]: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا

(١) سَرِّحِ الماءَ: أي: أَرْسِلْه. يُنظَر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ١٠٧).

(٢) الجَدْر- بفتح الجيم وكسرها-: هو ما رُفِع حَوْلَ المَزْرَعَةِ كالجِدار، وقيل هو لُغة في الجِدارِ، وقِيلَ هو أصلُ الجِدارِ، والمرادُ به: أصلُ الحائِطِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٢٤٦)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ١٠٨).

(٣) هذه الصيغة ليست صريحة في كونه سبب النزول.

وقد قال ابنُ جرير: (وهذا القولُ؛ أعني قولَ من قال: عُنِيَ به المحتكِمان إلى الطاغوتِ اللَّذان وصَفَ الله شأنَهُما في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [النساء: ٦٠] أَوْلى بالصواب؛ لأن قوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥] في سياق قِصَّة الذين ابتدأ الله الخبرَ عنهم بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ [النساء: ٦٠] ولا دلالةَ تدلُّ على انقطاع قصتهم؛ فإلحاقُ بعض ذلك ببعضٍ ما لم تأتِ دلالةٌ على انقطاعه أولى، فإنْ ظَنَّ ظانٌّ أنَّ في الذي رُوِيَ عن الزبير وابن الزبير من قصَّتِه وقصة الأنصاريِّ في شِراجِ الحَرَّة، وقولُ من قال في خبرهما، فنزلت: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥] ما يُنبِئُ عن انقطاعِ حُكم هذه الآية وقِصَّتها من قِصَّة الآياتِ قبلها، فإنَّه غيرُ مستحيلٍ أن تكون الآيةُ نزلت في قصة المحتكمينَ إلى الطاغوت، ويكون فيها بيانُ ما احتكم فيه الزبيرُ وصاحبه الأنصاريُّ؛ إذ كانت الآيةُ دالةً على ذلك. وإذ كان ذلك غيرَ مستحيلٍ، كان إلحاقُ معنى بعضٍ ذلك ببعضٍ أولى ما دام الكلامُ متَّسقةً معانيه على سياقٍ واحد، إلا أن تأتيَ دلالةٌ على انقطاعِ بعضِ ذلك من بعضٍ، فيُعْدَلَ به عن معنى ما قبْلَه) ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٠٤-٢٠٥).

يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا﴾))[١].

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾.

أقسَم تعالى بنفسه الكريمة على أنَّه لا يؤمن أحدٌ - يا محمَّدُ - الإيمانَ المطلوبَ والمقبولَ منه، حتَّى يحكِّمَك في جميع الأمورِ الَّتي يحصلُ فيها اختلافٌ[٢].

﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ﴾.

أي: ثمَّ لا يكفي هذا التَّحكيمُ الظَّاهر حتَّى يطيعوك في بواطنِهم أيضًا؛ بأن ينتفيَ الضِّيقُ والحَرَج من قلوبهم ممَّا حكَمْتَ به - يا محمَّدُ[٣].

﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

أي: وينقادوا لِقَضائك؛ إذعانًا منهم بالطَّاعة، وإقرارًا بحُكْمِك، فيسلِّموا لذلك تسليمًا كلِّيًّا، من غير ممانَعةٍ ولا مدافَعة ولا منازَعة، تسليمًا بانشراحِ صدرٍ، وطمأنينةِ نَفْسٍ، وانقيادٍ بالظَّاهرِ والباطِنِ[٤].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- وجوبُ الإعراضِ حيث لا ينفع الكلامُ؛ لقوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾[٥].

٢- في قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ هذا دليلٌ على أنَّ

---

(١) رواه البخاري (٢٣٥٩)، ومسلم (٢٣٥٧) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٥٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٧٧).

مقترِفَ المعاصي وإن أُعرِض عنه فإنَّه يُنصَحُ سرًّا، ويبالَغُ في وعظِه بما يُظَنُّ حصولُ المقصودِ به(١).

٣- أنَّه يَنبغي للإنسانِ إذا تَكلَّم أن يتكلَّم بكلامٍ بليغٍ يصِلُ إلى النَّفْس؛ لقوله: ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾(٢).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- كمالُ الإسلام والمتمسِّكين به؛ لأنَّ الإسلامَ يأمر النَّاسَ بالإيمانِ بكلِّ ما أنزلَ اللهُ، والمتمسِّكون به كذلك يؤمنونَ بكلِّ ما أنزَل اللهُ؛ فالَّذين اعتنقوا غيرَ الإسلام -كاليهود والنَّصارى- لا يؤمنون بكلِّ ما أنزل الله، أمَّا السَّابقون منهم فإنَّما يؤمنون به إيمانًا حُكميًّا، يعني: يؤمنون بما تأخَّر عن شرائعهم إيمانًا حُكميًّا؛ لأنَّهم لم يُدْركوه، ولكنَّهم يؤمنونَ به، يعني: أنَّ المؤمنين بموسى في وقتِه، والمؤمنين بعيسى في وقتِه، يؤمنونَ بالقرآن؛ لأنَّهم يجدونَ الرَّسولَ مكتوبًا عندهم في التَّوراة والإنجيلِ، لكنَّه إيمانٌ حُكميٌّ، أمَّا إيمانُ المسلمينَ بالقرآن وبالشَّرائع السَّابقة فهو إيمان حقيقيٌّ؛ لأنَّ دينَ الإسلامِ هو المتأخِّر(٣).

٢- أنَّ التَّحاكمَ إلى غيرِ الله ورسولِه تحاكمٌ إلى الطَّاغوتِ؛ لقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾(٤).

٣- أنَّ التَّحاكُمَ إلى غير الله ورسولِه كفرٌ، وتؤخَذُ من تكذيبِهم في دعوى الإيمانِ، وذلك في قوله: ﴿يَزْعُمُونَ﴾؛ لأنَّهم لو كانوا مؤمِنِينَ ما أرادوا التَّحاكمَ إلى غَيرِ اللهِ ورسولِه(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٧٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٧٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٧٤).

٤- أنَّه إذا كانت إرادةُ التَّحاكم إلى الطَّاغوت مُخرِجةً من الإسلام، فالتَّحاكمُ إليه فعلًا من بابِ أَولى؛ ولهذا قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾(١) [النِّساء: ٦٥].

٥- أنَّ الإنسانَ مؤاخَذٌ على كَسْبِ القلبِ، يؤخَذُ ذلك من قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾، فمَن عزَم على المعصيةِ بقلبِه، ووطَّن نفسَه عليها أَثِم في اعتقادِه وعزمِه، ويُحمَلُ ما وقَع في قولِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ تجاوَز عن أمَّتي ما حدَّثَتْ به أنفُسَها ما لم تعمَلْ أو تتكلَّمْ))(٢) وأمثالِه على أنَّ ذلك فيمَن لم يوطِّن نفسَه على المعصيةِ، وإنَّما مرَّ ذلك بفكرِه مِن غيرِ استقرارٍ، ويسمَّى هذا همًّا، ويُفرَّقُ بينَ الهمِّ والعزمِ(٣).

٦- أنَّنا مأمورونَ بأن نكفُرَ بالطَّاغوت؛ لقوله: ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾، ولا يتمُّ إيمانُنا إلَّا بالكُفْر بالطَّاغوت؛ لقوله: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة: ٢٥٦]، فلا بدَّ من الكُفْر بالطَّاغوتِ، وإلَّا لم يصِحَّ الإيمانُ بالله(٤).

٧- أنَّ للشَّيطانِ إرادةً، وتؤخَذُ من قوله: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ﴾، بل وله أمْرٌ، وتؤخذ من قوله أيضًا: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨]؛ فهو يريدُ ويأمر، ويُمكِننا أن نرُدَّ تلك الإرادةَ والأمرَ بالاستعاذةِ بالله منه؛ لأنَّ الله سبحانه يقول: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٧٤).

(٢) أخرجه البخاري (٥٢٦٩) ومسلم (١٢٧) من حديث أبي هريرة.

(٣) ينظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ١٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٧٤).

[الأعراف: ٢٠٠] فهذا هو العصمةُ منه(١).

٨- في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ إثباتُ عِصْمة الرُّسل فيما يبلِّغونَه عن الله، وفيما يأمرونَ به وينهَوْن عنه؛ لأنَّ اللهَ أمَر بطاعتِهم مُطلقًا، فلولا أنَّهم معصومونَ لا يَشْرَعون ما هو خطأٌ؛ لَمَا أمَر بذلك مطلَقًا(٢).

٩- في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ إثباتُ القضاء والقدَرِ، والحثُّ على الاستعانة بالله، وبيانُ أنَّه لا يمكنُ الإنسانَ- إن لم يُعِنْه اللهُ- أن يطيعَ الرَّسولَ(٣).

١٠- في قولِه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ... ﴾ زِيدَتْ لفظةُ (مِن) قبلَ المفعولِ به؛ لتأكيدِ العمومِ، والأصلُ: (ما أَرْسَلْنَا رَسُولًا...)، وقد تقرَّر في الأصولِ أنَّ النَّكرةَ في سياقِ النَّفيِ إذا زِيدتْ قبلَها لفظةُ (مِن) لتوكيدِ العمومِ، كانتْ نصًّا صريحًا في العمومِ(٤).

١١- إيجابُ طاعة الرَّسول في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ تُشْعِر بأن الرَّسول أخصُّ من النَّبيِّ(٥).

١٢- ثبوتُ قيام الأفعال الاختياريَّةِ للهِ عزَّ وجلَّ، بمعنى: أنَّه تتجدَّدُ له الأفعالُ الاختياريَّة حسَب المفعولاتِ، وتؤخَذُ من قوله: ﴿أَرْسَلْنَا﴾؛ لأنَّ إرسالَ الرُّسل يتجدَّدُ؛ فأوَّلُهم نوحٌ وآخِرُهم محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم(٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٧٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) ينظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤١٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٠٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ١٨٩).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٨٣).

١٣- إثباتُ تعليلِ أفعالِ الله، ويؤخَذُ من قوله: ﴿إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، وهذا الَّذي عليه أهلُ السُّنَّة والجماعة، أنَّ أفعالَ الله وأحكامَ الله معلَّلةٌ، لكنَّ العلَّةَ قد تكون معلومةً لنا، وقد تكون مجهولةً لنا(١).

١٤- ثبوتُ الإذنِ لله عزَّ وجلَّ؛ لقوله: ﴿إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، والإذنُ نوعان: شرعيٌّ، وكونيٌّ، فمِن الأوَّل قولُه تبارك وتعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، أي: شرعًا، ولا يصح حمله على الإذن الكوني؛ لأنَّه وقع، فقد أذِن الله به قدَرًا، لكن لم يأذَنْ به شرعًا، وأمَّا الإذْنُ الكونيُّ فكثيرٌ، مثل قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾(٢) [البقرة: ٢٥٥].

١٥- في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ إنَّما قرن استغفارَهم الَّذي هو عنوان توبتِهم باستغفار الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لأنَّ ذنبَهم هذا لم يكن ظلمًا لأنفسهم فقط، فيكفي فيه توبتُهم، بل تعدَّى إلى إيذاء الرَّسول، فكان لا بدَّ في توبتِهم وندمِهم على ما صدر منهم أن يُظهِروا ذلك للرَّسول؛ ليصفحَ عنهم فيما اعتدَوْا به على حقِّه، ويدعو الله تعالى أن يغفِرَ لهم إعراضَهم عن حُكمِه(٣).

١٦- استدلَّ أهلُ الغلوِّ بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا جَاؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ على أنَّ الإنسان ينبغي له إذا أذنب ذنبًا أن يأتيَ إلى القبر النَّبويِّ فيستغفرَ الله، ويستغفر له الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم، والآية تدلُّ على بطلان هذا القول؛ لأنَّ الله يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا﴾ و﴿إِذْ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٨٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٨٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ١٩٠).

للماضي، ولو قال: إذا ظلموا ربَّما يكون فيها شبهةٌ، على أنَّه لو قال: إذا ظلموا لم يكُنْ فيها دليل؛ لأنَّ قوله: ﴿وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ يمنَعُ أن يكونَ ذلك بعد موتِه قطعًا؛ إذ إنَّ الرَّسول صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يمكن أن يستغفرَ لهم بعد موته، فالمرادُ به: في حياتِه[1].

١٧- قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ من المعهود في اللُّغة أنَّ مِثل هذا القسَم يُعدُّ تكريمًا[2].

١٨- في قولِ اللهِ تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أنَّ إقسامَه سبحانه بنَفْسِه على نَفْيِ إيمانِ مَن لم يَجمَعْ أمرينِ؛ تَحكيمَه شَرْعَ الله تعالى، وألَّا يجِدَ في نفْسِه حَرَجًا مِن حُكْمِه؛ يُوجِبُ أنَّه ليس في أمْرِه ونَهْيِه ما يُوجِبُ الحَرَجَ لِمَن امتَثَلَ ذلك[3].

١٩- قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾، التَّحكيمُ في مقام الإسلام، وانتفاءُ الحرَج في مقام الإيمان، والتَّسليم في مقام الإحسان، فمَن استكمل هذه المراتبَ وكمَّلها، فقد استكمل مراتبَ الدِّين كلَّها[4].

٢٠- الرَّاضي بحُكم الرَّسول عليه الصَّلاة والسلام قد يكون راضيًا به في الظَّاهر دون القلب، فبيَّن في قوله تعالى:﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ﴾ أنَّه لا بدَّ من حصول الرِّضا به في القلب، وليس المرادُ من الآية ميلَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٨٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ١٩١).
(٣) ((قاعدة في المحبة)) لابن تيمية (ص:١٩٣).
(٤) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ١٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٥).

القلبِ ونفرتَه، فهو شيءٌ خارج عن وُسع البشر، بل المرادُ منه أن يحصُلَ الجزمُ واليقين في القلب بأنَّ الَّذي يحكم به الرَّسولُ هو الحقُّ والصِّدقُ، ومَن عرَف بقلبه كونَ ذلك الحُكم حقًّا وصدقًا قد يتمرَّد عن قَبوله على سبيل العناد، أو يتوقَّف في ذلك القَبول، فبيَّن تعالى أنَّه كما لا بدَّ في الإيمان من حصول ذلك اليقين في القلب، فلا بدَّ أيضًا من التَّسليم معه في الظَّاهر، فقوله: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ﴾ المرادُ به الانقيادُ في الباطن، وقوله: ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ المراد منه الانقيادُ في الظَّاهر، والله أعلم(١).

بَلاغةُ الآياتِ:

١- **قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾:**

- **قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾**: الاستفهامُ فيه مُرادٌ به التَّعجُّب(٢).

- **قوله: ﴿الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾** جِيء باسمِ موصولِ الجماعةِ؛ لأنَّ المقام مقامُ توبيخٍ، كقولهم: ما بال أقوامٍ يقولون كذا؛ ليشملَ المقصودَ، ومَن كان على شاكلتِه(٣).

- **قوله: ﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾**: وصَفَهم بادِّعاءِ الإيمانِ بالقُرآنِ وبما أُنزِل مِن قبلِه (التَّوراة) حيث قال: ﴿يَزْعُمُونَ﴾؛ لتأكيدِ التَّعجيب، وتشديدِ التَّوبيخِ والاستقباحِ(٤).

٢- **قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾**: استئنافٌ سِيق لبيان محلِّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٩٤).

التَّعجيب، وهذا الاسم ﴿الطَّاغُوتِ﴾ مشتَقٌّ مِن طَغَى يَطغُو، إذا تعاظَم وترفَّع، وأصلُه مصدرٌ بوزن فَعلوت؛ للمُبالغة[1].

٣- قوله: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾: (ضلالًا) مصدر مؤكِّد، والضَّلال البعيدُ هو الكفر، ووصْفُه بالبَعيدِ؛ لشدَّة الضَّلالِ بتنزيلِه منزلةَ جنسٍ ذي مسافةٍ إذا كان هذا الفردُ منه بالغًا غايةَ المسافةِ[2].

٤- قوله: ﴿يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ ﴿صُدُودًا﴾ مفعولٌ مُطلَقٌ للتوكيدِ، ولقصْدِ التوصُّلِ بتنوينِ ﴿صُدُودًا﴾؛ لإفادةِ أنَّه تنوينُ تعظيمٍ[3].

٥- قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ﴾: الاستفهامُ مستعمَلٌ في التَّهويلِ[4].

٦- قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ إشارةٌ إلى المنافقين، وما في ﴿أُولَئِكَ﴾ من معنى البُعد؛ للتَّنبيه على بُعدِ مَنزلتِهم في الكُفْر والنِّفاق[5]، وفي قوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ تنبيهٌ على أنَّ المشارَ إليهم جديرونَ بالحُكم الذي سيُذكَر؛ لما تقدَّم من أحوالهم[6].

٧- قوله: ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ يجوزُ أن يتعلَّق قوله: ﴿فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ بقوله: ﴿بَلِيغًا﴾، وإنَّما قدَّم المجرورَ؛ للاهتمامِ بإصلاحِ أنفسِهم، مع الرِّعاية على الفاصلةِ، وفيه أمْرٌ بتهديدِهم على وجهٍ مُبلغ صَميمَ قلوبِهم، ويجوزُ أنْ يَتعلَّق بِفعل ﴿قُلْ لَهُمْ﴾، أي: قُلْ لهم قولًا في شأنِ أنفسِهم، وعلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٨٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٠٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٠٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ١٠٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٩٦).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٨٧).

هذا فقوله: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ كالشَّرحِ للوعظِ في قوله: ﴿وَعِظْهُمْ﴾، ولذِكرِ أهمِّ ما يَعظُهم فيه، وهو نفوسُهم التي عَلِمَ اللَّه ما انطوتْ عليه من المذامِّ، وعلى هذا يكون المرادُ الوعظَ وما يَتعلَّق به[1].

٨- قوله: ﴿وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ فيه التفاتٌ؛ حيث لم يقُلْ: (واستغفرْتَ لهم)؛ وذلِك تفخيمًا لشَأنِ رَسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم- لِمَا في هذا الاسمِ الظاهرِ مِن التَّشريفِ والتنويهِ بوصْفِ الرِّسالة- وتَعظيمًا لاستِغْفارِه، وتنبيهًا على أنَّ شَفاعةَ مَن اسمُه الرَّسولُ مِن اللَّهِ بمكانٍ، وعلى أنَّ مِن حقِّ الرسولِ أنْ يَقبَلَ اعتذارَ التَّائِبِ، وإنْ عَظُم جُرمُه، ويَشْفَعَ له، ومِن مَنْصِبِه أنْ يشفعَ في كبائرِ الذُّنوبِ، وعَلى أنَّ هذا الوَصْفَ الشريفَ- وهو إرسالُ اللهِ إيَّاه- موجبٌ لطاعتِه. وفي هذا النَّوعِ مِن الالتِفاتِ خصوصيَّةٌ، وهي اشتمالُه على ذِكرِ صِفةٍ مناسبةٍ (الرِّسالة) لِمَا أُضِيف إليه (الاستغفار لِمَن عَظُمتْ ذُنوبُهم)، وذلك زائدٌ على الالتِفاتِ بذِكرِ الأعلام[2]؛ فدَلَّ أيضًا على أنَّ هذا الاستغفارَ له مَزيَّةٌ، وهي كونُه صادرًا عن الرَّسولِ بوَصْفِه (رسولًا).

وقيل: إنَّ نُكتةَ وضْع الاسمِ الظاهِرِ ﴿الرَّسُولُ﴾ موضِعَ الضَّمير، هي أنَّ حقَّ الرَّسولِ عليهم في التحاكُم إليه إنَّما كان له بأنَّه رسولُ اللهِ، وأنَّه مأمورٌ بأنْ يحكُمَ بينَ الناسِ بما أراه اللهُ في وحْيِه، وما هداه إليه في اجتهادِه، ولو أنَّهم اعتَدَوْا في معصيتِهم على حقوقِه الشخصيَّةِ، كأكْل شيءٍ من مالِه بغير حقٍّ لقال: (واستغفرتَ لهم)؛ فإنَّ التوبةَ عن المعاصي المتعلِّقةِ بحقوقِ الناس لا تكونُ مقبولةً ولا صحيحةً إلَّا بعدَ استرضاءِ صاحِب الحقِّ. وهذا أظهرُ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- مع الحاشية)) (١/ ٥٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- مع الحاشية)) (١/ ٥٢٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٨١)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٠٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٨- ١٩).

جَعْل نُكتةِ وضْع الظَّاهِر موضِعَ الضمير إجلالَ منصبِ الرِّسالةِ، والإيذانَ بقَبولِ استغفارِ صاحِب هذا المنصب الشريفِ، وعدم ردِّ شفاعته؛ لأنَّ المنصبَ هو هو في شَرفِه وعُلوِّه، ولكنَّ اللهَ لا يَغفِرُ للمنافقينَ إذا لم يتوبوا، وإنِ استغفرَ لهم الرسولُ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال له فيهم: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾[1] [التوبة: ٨٠].

٩- قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾:

- في هذه الآيةِ ألوانٌ مِن البلاغةِ، ومبالغاتٌ عَديدةٌ، وضُروبٌ مِن التأكيدِ، بلَغَتْ أسْمَى مَراتبِ البيانِ، والغايةُ منها: زيادةُ الوَعيدِ والتَّهديدِ ممَّا ترتعدُ له الفرائصُ، وترتجِفُ منه الأفئدةُ؛ وتَفصيلُ ذلك كما يلي[2]:

- قوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فيه تأكيدٌ بالقَسَمِ بنَفْسِه سبحانه، وإضافةُ الرَّبِّ إلى كافِ الخِطاب؛ لتعظيمِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وهو التفاتٌ راجِعٌ إلى قوله: ﴿جَاؤُوكَ﴾.

- تَصديرُ الجملةِ المقْسَمِ عليها بحرْفِ النَّفيِ المتضمِّنِ لتأكيدِ النَّفْيِ المقسَمِ عليه، وهو في ذلك كتَصديرِ الجُملة المثبَتةِ بـ(إنَّ)؛ فـ(لَا) في قوله: ﴿فَلَا﴾ مَزيدةٌ لتأكيدِ القسَمِ، وقَدَّم (لَا) على القسَمِ؛ اهتمامًا بالنَّفي، ثمَّ كرَّرها بعدُ توكيدًا، وأصل الكلام: (فوربِّك لا يُؤمِنون)، والعرب تأتي بحرفِ النَّفيِ قبلَ القَسمِ إذا كان جوابُ القسمِ مَنفيًّا؛ للتَّعجيلِ بإفادةِ أنَّ ما بعدَ حرْفِ العطفِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٢٨-٥٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٩٢-٦٩٥، ٧٠٨)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٤/ ١٥٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١١٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٢٥٠- ٢٥١).

قَسَمٌ على النَّفي لِمَا تضمَّنَتْه الجملةُ المعطوفُ عليها؛ فتقديمُ النَّفي للاهتمامِ بالنَّفي.

– أنَّه أتَى بالمقسَم عليه ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ بصيغةِ الفِعلِ الدالَّةِ على الحُدوثِ، أي: لا يقعُ منهم إيمانٌ ما حتَّى يُحكِّموكَ.

– في قوله: ﴿حَتَّى يُحَكِّمُوكَ﴾ أتَى في الغايةِ بـ(حتى)- دون (إلَّا)- المُشْعِرةِ بأنَّه لا يُوجَدُ الإيمانُ إلَّا بَعْدَ حُصولِ التحكيمِ؛ لأنَّ ما بعدَ (حتى) يَدخُل فيما قَبلَها.

– أنَّه أتَى المُحكَّم فيه بصِيغة الموصولِ الدالَّة على العمومِ، وهو قوله: ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾، أي: في جَميعِ ما تَنازَعوا فيه من الأمورِ الدَّقيقةِ والجليلةِ.

– وفي قوله: ﴿فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا﴾: أتى بـ﴿حَرَجًا﴾ نكرةً في سِياق النفيِ، أي: لا يَجِدون نوعًا مِن أنواعِ الحرجِ البتَّةَ، وأَطلَق اسمَ الحرَجِ- الَّذي هو من وصْفِ الشَّجْرِ إذا تضايَق- على الأمر الَّذي يشقُّ على النَّفس؛ للمناسبة الَّتي بينهما، وهو من الضِّيق.

– أنَّه أتى بذِكْر ما قَضَى به بصيغةِ العمومِ ﴿مِمَّا قَضَيْتَ﴾؛ فإنَّ (ما) إمَّا مَصدريَّة، أي مِن قَضائِك، أو موصولة، أي: مِن الذي قَضيتَه، وهذا يَتناوَلُ كلَّ فردٍ من أفرادِ قَضائه.

– أنَّه سُبحانَه لَمَّا أَقسمَ- أوَّلًا- بنَفْسِه مؤكِّدًا لهذا القَسَمَ بحرْفِ النَّفي بأنَّهم لا يُؤمنون، والإيمانُ رأسُ مالِ الصَّالِحين من عِبادِ الله حتَّى تحصُلَ لهم غايةٌ من أشرفِ الغايات، وهي اللُّجوءُ إلى رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وتحكيمُه فيما نشَب بينهم من خِلافٍ؛ لم يَكْتفِ سبحانَه بذلِك حتَّى قال:

﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ﴾، فضمَّ إلى التَّحكيمِ أمرًا آخرَ، وهو عدَمُ وجودِ أيِّ حرجٍ في صدورهم، فلا يكون مجرَّدُ التَّحكيمِ والإذعانِ كافيًا، بل لا بدَّ أنْ يكون نابعًا من صُدورِهم، صادرًا عن رِضًا واطمئنانٍ وطِيب نفْسٍ، وهذا أجملُ تصويرٍ للعلاقةِ الَّتي يجِبُ أنَّ تترسَّخَ بين رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم والمؤمنينَ.

ثمَّ لم يَكتفِ سبحانه بهذا كلِّه، بل ضمَّ إليه قوله: ﴿وَيُسَلِّمُوا﴾، أي يُذعنوا إذعانًا تامًّا، وينقادوا ظاهرًا وباطنًا، لا انقيادًا أعمى، ولكنَّه انقيادُ الواثقِ المطمئنِّ إلى سلامةِ موقفِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فلم يكتفِ منهم بذلك حتى يُضيفوا إليه التسليمَ، وهو قدْرٌ زائدٌ على التَّحكيمِ وانتفاءِ الحرجِ؛ فما كلُّ مَن حَكَّم انتفى عنه الحرجُ، ولا كلُّ مَن انتفى عنه الحَرَجُ يكونُ مُسلِّمًا منقادًا؛ فإنَّ التسليمَ يَتضمَّنُ الرِّضا بحُكمِه، والانقيادَ له.

وأكَّد فِعلَ التَّسليمِ ﴿يُسَلِّمُوا﴾ بالمصدرِ المؤكِّد ﴿تَسْلِيمًا﴾، وهكذا لا يَثْبُت الإيمانُ لعبدٍ حتَّى يقَعَ منه هذا التَّحكيمُ، ولا يجدَ الحرجَ في صدره بما قضى عليه، والتَّسليمُ لحُكم الله وشرعِه تسليمًا لا يخالطه ردٌّ، ولا تشوبه شائبةٌ، فسبحان قائلِ هذا الكلامِ!

الآيات (٦٦ - ٧٠)

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦) وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٦٨) وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا (٧٠)﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿الصِّدِّيقِينَ﴾: جمع صِّدِّيق، وهو المُصدِّقُ قولَه بفِعلِه، أو صدَق بقولِه واعتقادِه، وحقَّق صِدْقَه بفِعلِه، أو مَن كَمَل في صِدْقِه وتَصديقِه، وقيل: هو مَن كثُر منه الصِّدق، وقيل: هو مَنْ لا يَكذِب قطُّ، أو مَن لا يَتأتَّى منه الكذبُ؛ لتعوُّده الصِّدق، وأصل (صدق): يدلُّ على قوَّة في الشيء قولًا وغيرَه[1].

﴿رَفِيقًا﴾: أي: رُفقاء، وأصل (رفق): يدلُّ على موافَقةٍ، ومقاربةٍ بلا عنف[2].

المَعْنى الإجماليُّ:

يُخبِر تعالى أنَّه لو فَرَض على أولئك الَّذين يزعمون أنَّهم آمَنوا بما أُنزِل إلى محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، والمحتكمين إلى الطَّاغوتِ، لو فَرَض عليهم أن يقتُلَ بعضُهم بعضًا، وأن يفارقوا ديارَهم، فلن يفعل ذلك إلَّا القليلُ منهم، ولو أنَّهم فعَلوا ما يُذَكَّرون به مِن فِعل الأوامرِ، واجتناب ما نُهوا عنه، لكان فعلُهم هذا

(١) يُنظر: ((تفسير الطبري)) (٧/ ٢١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٩) ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤١٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٣٨).

خيرًا، وأكثرَ تثبيتًا لهم، وسيعطيهم الله تعالى - كما وعد - أجرًا عظيمًا من عنده، وسيُرشِدهم إلى الصِّراط المستقيم.

ثمَّ يخبر تعالى أنَّه مَن يُطِعِ اللهَ ورسوله صلَّى الله عليه وسلَّم فإنَّه في الجنَّة مع الَّذين أنعَم الله عليهم بالهدايةِ إلى الصِّراط المستقيم من الأنبياءِ، والصِّدِّيقين، والشُّهداء، والصَّالحين، وحسُن هؤلاء رفقاءَ يُجتمع بهم في جنَّاتِ النَّعيم.

تفسيرُ الآيات:

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦)﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾.

أي: ولو أنَّا فرضْنا على هؤلاء الَّذين يزعمون أنَّهم آمَنوا بما أُنزل إليك، من المحتكِمين إلى الطَّاغوت - أن يقتُلَ بعضُهم بعضًا، وأمرناهم بذلك[1].

﴿أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ﴾.

أي: أو أمرْناهم بالهجرةِ من ديارِهم إلى ديارٍ أخرى[2].

﴿مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾.

أي: ما استجاب لتلك الأوامرِ إلَّا عددٌ قليلٌ منهم[3].

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾.

أي: ولو أنَّ أولئك المنافقينَ فعَلوا ما يُذَكَّرون به من فِعل الأوامرِ، واجتنابِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (١/ ٤٩٠).

(٢) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (١/ ٤٩٠-٤٩١).

النَّواهي، ومِن ذلك التَّحاكمُ إلى الكتاب والسُّنَّة(١).

﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾.

أي: لو أنَّهم فعلوا ما يُوعَظون به، لكان أفضلَ لهم من مخالفةِ الأمرِ، وارتكابِ النَّهي في عاجلِ دُنياهم، وآجلِ معَادِهم، ولكانوا من الأخيارِ المتَّصفينَ بأوصافِهم(٢).

﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾.

أي: وأثبَتَ لهم في أمورِهم وعزائِمِهم، وأقومَ لهم عليها، وأشدَّ ثباتًا على الحقِّ؛ فالإنسانُ كلَّما ازداد طاعةً لله ازدادَ إيمانًا ويقينًا، وثباتًا عند ورود الفِتَن(٣).

﴿وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧)﴾.

أي: ولَأعطيناهم كذلك جزاءً وثوابًا عظيمًا من عندِنا في العاجلِ والآجِلِ(٤).

﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٦٨)﴾.

أي: ولأرشدْناهم ووفَّقْناهم إلى الصِّراط المستقيم(٥).

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٩٠-٤٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٠٨-٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٩٣-٤٩٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٩٤).

وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (٦٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى بطاعة الله وطاعةِ الرَّسول بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩]، ثمَّ زيَّف طريقةَ الَّذين تحاكموا إلى الطَّاغوتِ وصدُّوا عن الرَّسول، ثمَّ أعاد الأمرَ بطاعة الرَّسول مرَّة أخرى فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]، ثمَّ رغَّب في تلك الطَّاعة بقوله: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ٦٦ - ٦٨] أكَّد الأمرَ بطاعة اللهِ وطاعة الرَّسولِ في هذه الآية مرَّة أخرى[1].

سَببُ النُّزول:

عن عائشةَ رضِي اللهُ عنها، قالت: ((جاء رجلٌ إلى النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال: يا رسول الله، إنَّك لَأحبُّ إليَّ من نفسي، وإنَّك لأحبُّ إليَّ من ولدي، وإنِّي لأكونُ في البيت فأذكُرُك فما أصبِر حتَّى آتيَ فأنظُرَ إليك، وإذا ذكرتُ موتي وموتَك عرفتُ أنَّك إذا دخلْتَ الجنَّة رُفِعْتَ مع النَّبيِّين، وأنِّي إذا دخلتُ الجنَّة خَشِيتُ ألَّا أراك، فلم يرُدَّ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم شيئًا حتَّى نزل عليه جبريلُ بهذه الآية: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾))[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٣٢).

(٢) رواه الطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٤٧٧)، وأبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (٤/ ٢٣٩) حسَّنه الضياء كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٤/ ٥٢٧)، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٧/ ١٠): رجالُه رجالُ الصَّحيح غير عبد الله بن عمران العابديِّ، وهو ثقة. ووثَّق رِجالَه ابنُ حجر في ((العجاب)) (٢/ ٩١٤)، وصحَّحه لغيره أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٥٣٧)، وذكر الألبانيُّ في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٦/ ١٠٤٤) أن =

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾.

أي: ومَن يمتثِلْ أمرَ الله تعالى ورسولِه عليه الصَّلاة والسَّلام، ويجتنِبْ نهيَهما، فهو في الجنَّة مع مَن أنعَم الله تعالى بهدايتِهم إلى الصِّراطِ المستقيم[1].

﴿مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾.

أي: مِن الرُّسل والأنبياء الَّذين فضَّلهم الله تعالى بوحيِه، والصِّدِّيقين الَّذين كمَلَ صدقُهم وتصديقُهم، فعلِموا الحقَّ، وصدَّقوه بيقينهم، وقاموا به قولًا وعملًا وحالًا، والشُّهداء الَّذين قُتِلوا في سبيل الله تعالى لإعلاء كلمتِه، والصَّالحين الَّذين صلَحَتْ سرائرُهم وعلانيتُهم[2].

عن عائشةَ رضِي اللهُ عنها، قالت: ((سمِعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ما من نبيٍّ يَمرَضُ إلَّا خُيِّر بين الدُّنيا والآخِرَةِ، وكان في شَكواه الَّذي قُبِض فيه، أخَذَتْه بُحَّةٌ[3] شديدةٌ، فسمِعتُه يقولُ: ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾، فعلِمتُ أنَّه خُيِّر))[4].

= فيه عبدُ الله بن عمران صدوق، ويُقوِّيه أنَّ له شواهدَ مُرسلةً. وقال الوادعيُّ في ((صحيح أسباب النزول)) (٨٠): له شواهدُ تَزيده قُوَّةً.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٦).
وقيل: المعيَّةُ في قوله تعالى: ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ في الآخِرة وفي الدنيا أيضًا؛ لأنَّ كلَّ مَن اعتنق طريقَ شخص فهو معه في الواقع. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٥-١٨٦).

(٣) بُحَّة شديدة: البُحَّة: هي غِلَظُ الصَّوتِ وخُشُونَتُه. يُنظَر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ٢٠٨) ((مرقاة المفاتيح)) للهروي (٩/ ٣٨٤٧).

(٤) رواه البخاري (٤٥٨٦).

﴿وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾.

أي: وحَسُنَ هؤلاء- الَّذين وصفَهم اللهُ عزَّ وجلَّ- رُفقاءَ يُجتمَعُ بهم في جنَّات النَّعيم، ويُؤنَس بقُربهم في جوار الرَّبِّ الرَّحيم[١].

عن عائشةَ رضِي اللهُ عنها، قالت: ((كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو صحيحٌ يقول: إنَّه لم يُقبَضْ نبيٌّ قطُّ حتَّى يرَى مَقْعَدَهُ في الجنَّةِ، ثمَّ يُحَيَّا، أو يُخَيَّرَ، فلمَّا اشتكى وحضرَهُ القبضُ، ورأْسُهُ علَى فخِذِ عائِشَةَ غُشِيَ عليهِ، فلمَّا أفاقَ شخصَ[٢] بصرُهُ نحوَ سقفِ البيتِ، ثمَّ قال: اللَّهُمَّ في الرَّفيقِ الأعلَى فقُلْت: إذًا لا يُجاوِرُنا، فعرفتُ أنَّه حديثُهُ الَّذي كان يُحَدِّثُنا وهو صحيحٌ))[٣].

﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا (٧٠)﴾.

﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ﴾.

أي: ذلك الإنعامُ الَّذي نالوه عطاءٌ وفضلٌ من اللهِ تعالى عليهم؛ فهو الَّذي برحمتِه أهَّلهم ووفَّقهم لذلك، وأعانَهم عليه، لا بأعمالِهم؛ فقد أعطاهم من الثَّوابِ ما لا تبلُغُه أعمالُهم[٤].

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٠٤-٥٠٥).

(٢) شَخَصَ أي: ارتفَعَ، وشُخوصُ البَصَرِ: ارتفاعُ الأجفانِ إلى فوق، وتحديدُ النَّظَر وانزعاجُه. يُنظَر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٤٥٠)، ((شرح القسطلاني على البخاري)) (٦/ ٤٦٤).

(٣) رواه البخاري (٤٤٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢١٦-٢١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٦).

أي: وحسْبُ العبادِ باللهِ عالِمًا بأعمالهم وأحوالهم، فيعلَمُ مَن يستحقُّ منهم الهدايةَ والتَّوفيقَ، والثَّوابَ الجزيل[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه ينبغي أن يلحَظَ العبدُ ضدَّ ما هو فيه من المكروهات، لتخفَّ عليه العباداتُ، ويزداد حمدًا وشكرًا لربِّه[2].

٢- في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾ بيان ضَعْفِ الإنسان، وأنَّه لا يستطيعُ أن يتحمَّل كلَّ ما أُمِر به إذا كان لا يلائمه، لا سيَّما مع ضَعْف الإيمان[3].

٣- أنَّ النَّاجيَ من العِباد قليلٌ؛ لقوله: ﴿مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾، فهل أنت من هؤلاء القليل أو من الكثير[4]؟!

٤- أنَّ طاعةَ الله تعالى سببٌ لكلِّ خيرٍ؛ لقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾[5].

٥- في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ أنَّه ينبغي للعبدِ أن يَنظُرَ إلى الحالة الَّتي يَلزمُه القيامُ بها، وإلى ما وُظِّف عليه في كلِّ وقت بحَسَبه، فيَبذل همَّتَه، ويُوفِّر نفسَه للقيام به وتكميله، إلى أنْ يصلَ إلى ما قُدِّر له مِن العِلم والعمَل في أمر الدِّين والدُّنيا، وهذا بخِلافِ مَن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٩١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٩٢).

طمَحَتْ نفسُه إلى أمرٍ لم يصِلْ إليه ولم يؤمَرْ به بعدُ، فإنَّه لا يكادُ يصلُ إلى ذلك بسبب تفريقِ الهمَّة، وحُصولِ الكسَل، وعدم النَّشاط[1].

٦- القولُ الثابتُ وفِعلُ ما أُمِرَ به العبدُ، بِهما يُثبِّتُ اللهُ عبْدَه؛ فكلُّ مَن كان أثبَتَ قولًا وأحسنَ فِعلًا، كان أعظم تثبيتًا؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ وقال سبحانه: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾[2] [إبراهيم: ٢٧].

٧- الإشارةُ إلى عَظيمِ ما يحصُلُ في المستقبلِ، وأنَّ الإنسانَ يُخشى عليه من الزَّللِ، إلَّا أنْ يُثبِّته الله؛ لقوله: ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾؛ لأنَّ التَّثبيتَ على غيرِ مواطنِ الزَّللِ لا يُذكَر، إنَّما يُذكَر التَّثبيتُ في حالِ مواطنِ الزَّلل، ومعلوم أنَّ الإنسانَ يرِدُ عليه في حياته شبهاتٌ، ويرِدُ عليه شهواتٌ؛ فالشُّبهاتُ تدُكُّ العِلم وتُذهِبُه، والشَّهوات تدُكُّ الإرادةَ حتَّى يصبحَ الإنسانُ لا يريد إلَّا ما يهواه فقط، وهذه آفةٌ؛ فالإنسانُ يُحيط به شيئان: شبهةٌ يزولُ بها العِلمُ، وشهوةٌ تزولُ بها الإرادةُ، فإذا لم يثبِّتْه اللهُ بالعِلم، والإرادة الصَّادقة، والعزيمة الجازمة فإنَّه يهلِكُ[3].

٨- أنَّ الإيمانَ يتفاوت؛ لأنَّ قوله: ﴿خَيْرًا﴾ اسمُ تفضيل، ويَقتضي وجودَ مفضَّل ومفضَّل عليه، وهذا هو التفاوتُ، وكذلك يؤخذ من قوله: ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾[4].

٩- أنَّ الجَزاءَ مِن جِنْسِ العَملِ؛ فالحسنَةُ الثَّانيَة قد تكون من ثوابِ الأُولى. وكذلك السَّيِّئَة الثَّانية قد تكون من عقوبَةِ الأُولى؛ ولهذا يُجزى الرَّجلُ في

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٥).
(٢) ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٣٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٩٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٩٣).

الدُّنيا على ما فَعَلَه من خيرِ الهُدى بما يُفتَح عليه من هدًى آخَرَ؛ يُبيِّن ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾(١).

١٠- في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ﴾ الحثُّ على توجُّه الإنسانِ إلى ربِّه في سؤالِ مطلوبه، ووجهُه: أنَّه إذا كان الفضلُ من الله، فلا تسأَلِ الفضلَ إلَّا ممَّن بيدِه الفضلُ(٢).

١١- في قوله تعالى: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ تفويضُ الأمرِ إلى الله، وأنَّ الله تعالى إذا فضَّل أحدًا على أحدٍ، فاعلَمْ أنَّ ذلك عن علمٍ وليس عبثًا؛ ولهذا لَمَّا قال المكذِّبون: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ ردَّ اللهُ عليهم فقال لهم: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] أي: وأنتم لستم أهلًا للرِّسالةِ(٣).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- أنَّ قتلَ النَّاسِ بعضِهم بعضًا من أشقِّ ما يكون على النُّفوسِ؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾(٤).

٢- في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ دليلٌ على صعوبةِ الخروج من الدِّيار؛ إذ قرَنه اللهُ تعالى بقتل الأنفس(٥).

---

(١) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٢٤٠) و (١٨/ ١٧٥- ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٠٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٩١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٩٦).

٣- في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾ إنَّما سُمِّي هذا التَّكليفُ والأمرُ وعظًا؛ لأنَّ تكاليفَ الله تعالى مقرونةٌ بالوعد والوعيد(١).

٤- في قوله تعالى: ﴿وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾ دليلٌ على بُطلان قولِ الصُّوفيَّة الَّذين يقولون: اعبُدِ اللهَ للهِ، ولا تعبُدْه لثوابِ اللهِ؛ ووجه الدَّلالة: أنَّه لولا أنَّ لِذِكر الثَّواب تأثيرًا في العمل لكان ذِكرُه عبثًا ولغوًا؛ فالله عزَّ وجلَّ لم يذكُرِ الثَّواب، ويُرغِّبْ في العملِ من أجل الثَّواب إلَّا ليُبيِّن أنَّ نيةَ الثَّواب لا تُضعِف العملَ، ولا تنافي الإخلاص، وقد وصَف الله نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم والَّذين معه بأنَّهم يبتغون فضلًا من الله ورضوانًا، فقال تعالى: ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ [الفتح: ٢٩]، وجاء في آيةٍ أخرى المدحُ للَّذين يبتغون وجهَ الله، فيكون هذا دليلًا على أنَّك إن أردتَ وجهَ الله فإنَّك مُثابٌ، وإن أردتَ ثواب الله فإنَّك مثابٌ أيضًا(٢).

٥- قوله: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: ثوابًا، وسمَّى الله تعالى الثَّواب الَّذي جعَلَه على الأعمال أجرًا، ليتبيَّن للإنسان أنَّ هذا الثَّوابَ لا بدَّ من حصوله، كما أنَّه لا بدَّ من حصولِ الأجر لمن استأجر بيتًا أو نحوه، فلا بدَّ أن يحصُلَ على الأُجرة(٣).

٦- في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ جوازُ عطف الرَّسول على الرَّبِّ عزَّ وجلَّ بالواو في الطَّاعة، وكذلك في المعصية، كما في قوله: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأحزاب: ٣٦]؛ لأنَّ أمرَ الرَّسول من أمر الله؛ وشرعَ الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم هو شرعُ الله، وكذلك قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [التَّوبة: ٥٩]، وهذا إيتاءٌ شرعيٌّ، أمَّا في الأمور الكونيَّة،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٣١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٩٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٩٤).

فإنَّه لا أحدَ يشارك الله تعالى في ربوبيَّته، فلا بدَّ أن يكونَ مذكورًا بحرف العطف الدَّالِّ على التَّرتيب (ثم)(١).

٧- قوله تعالى: ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ ليس المراد بكون مَن أطاع اللهَ وأطاع الرَّسول مع النَّبيِّين والصِّدِّيقين، كونَ الكلِّ في درجة واحدة؛ لأنَّ هذا يقتضي التَّسويةَ في الدَّرجة بين الفاضل والمفضول، بل المراد كونُهم في الجنَّة، بحيث يتمكَّنُ كلُّ واحد منهم من رؤية الآخَر، وإن بعُد المكانُ، وإذا أرادوا الزِّيارة والتَّلاقيَ قدَروا عليه، فهذا هو المراد من هذه المعيَّة(٢).

٨- في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ بيانُ أنَّ مَن أطاع اللهَ ورسولَه أنَّه يكونُ مع النَّبيِّين والصِّدِّيقين والشُّهداء والصَّالحين، ليس ذلك فقط، بل ذكَر أنَّه يكون رفيقًا له، والرَّفيق هو الَّذي يُرتَفَق به في الحضَر والسَّفر، فبيَّن أنَّ هؤلاء المطيعين يرتفقونَ بهم، وإنَّما يرتفقونَ بهم إذا نالوا منهم رفقًا وخيرًا، والإنسانُ قد يكون مع غيره ولا يكون رفيقًا له، فأمَّا إذا كان عظيمَ الشَّفقة، عظيمَ الاعتناءِ بشأنِه كان رفيقًا له، فبيَّن تعالى أنَّ الأنبياءَ والصِّدِّيقين والشُّهداءَ والصَّالحين يكونون له كالرُّفقاء، من شدَّةِ محبَّتهم له، وسُرورهم برُؤيته(٣).

٩- الأنبياءُ أفضلُ مِن الأولياءِ؛ يُبيِّن ذلك أنَّ اللهَ سُبحانَه رتَّب عِبادَه السُّعداءَ المُنعَمِ عليهم أربعَ مراتِبَ، وبدأَ بالأنبياءِ لشَرَفِهم وفَضْلِهم؛ فقالَ تعالى: ﴿وَمَنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٠٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٣٣)، وينظر: ((تفسير القرطبي)) (٥/ ٢٧٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٣٦).

يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾(١).

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ...﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ فيه توبيخٌ عظيم؛ وهو مسوقٌ لتوبيخِ الذين يَتقاعَسون عن الاستجابةِ للرَّسول وطاعتِه(٢).

٢- قوله: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾: جِيءَ باسمِ الإشارةِ ﴿فَأُولَئِكَ﴾ في جُملةِ جواب الشَّرط؛ للتَّنبيهِ على جَدارتِهم بمضمونِ الخبرِ عن اسمِ الإشارة؛ لأجْلِ مضمونِ الكلامِ الَّذي قبْلَ اسمِ الإشارة(٣).

٣- قوله: ﴿مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ فيه: تقسيمٌ بليغ(٤)، وحُسْنُ تَرتيبٍ في التَّقديمِ والتَّأخيرِ، حيثُ قدَّم الأشرفَ بالفَضيلةِ(٥)؛ فمرتبةُ النبوَّةِ أشرفُ وأفضلُ من مرتبةِ الصِّدِّيقيَّة، ومَرتبةُ الصِّدِّيقيَّةِ أشرفُ وأفضلُ من مرتبةِ الشَّهادةِ، ومرتبةُ الشَّهادةِ أشرفُ وأفضلُ من مرتبة الصَّلاح(٦).

- وجاءَ قوله: ﴿وَالصِّدِّيقِينَ﴾ على صِيغة المبالغةِ؛ للدَّلالةِ على أنَّهم مُتقدِّمون في تَصديقِهم، مُبالِغون في الصِّدق(٧).

---

(١) ((الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان)) لابن تيمية (ص:٨٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٣٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٢٥٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١١٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٠٩).
(٥) يُنظر: ((البرهان)) للزركشي (٣/ ٢٥٥).
(٦) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٤٩).
(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٩٩).

٤- قوله: ﴿وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ تذييلٌ مقرِّرٌ لِما قبله، مؤكِّدُ للتَّرغيبِ والتَّشويق[1].

- وفيه معنى التَّعجُّب، كأنَّه قيل: وما أحسَنَ أولئك رَفيقًا[2]!

- وجاء قوله: ﴿رَفِيقًا﴾ مفردًا مع أنَّه صِفة لجمْع؛ لأنَّ الواحدَ في التميزِ ينوبُ عن الجماعةِ، ولأنَّ الرَّفيقَ والرسولَ والبَريدَ تُعبِّر بها العربُ عن الواحدِ والجَمْع. وقيل: معنى قوله: ﴿وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾، أي: حسُن كلُّ واحد منهم رفيقًا، كما قال: ﴿يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾[3] [غافر: ٦٧].

٥- قوله: ﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ﴾ التعبيرُ باسمِ الإشارةِ ﴿ذَلِكَ﴾ وما فيه مِن مَعنى البُعد؛ للإشعارِ بعلوِّ رُتبته، وبُعدِ منزلتِه في الشَّرف[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٣١)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٩٩). وينظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٠٢).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٧٨)، ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٩٩).

الآيات (٧١ - ٧٦)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ﴿٧١﴾
وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ
شَهِيدٗا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ
مَوَدَّةٞ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا ﴿٧٣﴾ ۞ فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ
ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ
فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ
وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ
ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ
ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿فَانْفِرُوا﴾: أي: فاخرُجوا إلى الجِهاد، وانفِروا للنُّصرة، وأصل (نفر): يدلُّ على تَجافٍ وتباعُد(١).

﴿ثُبَاتٍ﴾: أي: جماعاتٍ متفرِّقةً، أو جماعةً منفردة، واحدتها ثُبَة، والثُّبَة: الجماعةُ الثَّائب بعضُهم إلى بعض في الظَّاهِر(٢).

﴿لَيُبَطِّئَنَّ﴾: أي: يُثبِّط غيرَه، ويتأخَّر ويُؤخِّر غيره، والمقصود مَن يتثاقلون ويتخلَّفون عن الجِهاد(٣).

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/٤٥٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٧٢، ١٨٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٢، ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٣).

﴿كَيْدَ الشَّيْطَانِ﴾: أي: حِيلَته، والْكَيْدُ: ضربٌ من الاحتيال، وقد يكونُ مذمومًا وممدوحًا، واستعمالُه في المذموم أكثرُ، وأصل (كيد) يدلُّ على مُعالجةٍ لشيءٍ بشدَّة[1].

مُشكلُ الإعراب:

قوله: ﴿أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾

﴿الظَّالِمِ﴾: مجرورٌ، على أنَّه نعْتٌ سببيٌّ للقريةِ، و(أل) في ﴿الظَّالِمِ﴾ موصولةٌ بمعنى (التي). و﴿أَهْلُهَا﴾: مرفوعٌ على أنَّه فاعلُ اسم الفاعِلِ ﴿الظَّالِمِ﴾ العامِلِ عمَلَ فِعله، والتقدير: القريةُ التي ظَلَم أهلُها؛ فالظلمُ جارٍ على القرية لفظًا، وهو لِمَا بعدَها ﴿أَهْلُهَا﴾ معنًى، ولم يُؤنَّث اسمُ الفاعل ﴿الظَّالِمِ﴾- حيث لم يَقُل: (الظالمة)- وإنْ كان نعتًا للقريةِ في اللَّفظِ؛ لإسنادِ ﴿الظَّالِمِ﴾ إلى الاسمِ الظَّاهِرِ الذي عَمِلَ فيه (أَهْل) وهو مُذكَّرٌ، كما تقولُ: مِنْ هذِه القَريةِ التي ظَلَم أهلُها؛ لأنَّ كلَّ اسمِ فاعلٍ إذا جرَى على غَيرِ مَن هو له، فتَذكيرُه وتأنيثُه على حسَبِ الاسمِ الظَّاهِرِ الذي عَمِل فيه[2].

المَعْنى الإجماليُّ:

يَأمُرُ اللهُ تعالى عِبادَه المؤمنين بأخْذِ الحذَر من أعدائهم، وأنْ يَخرُجوا لجِهادِهم متفرِّقين جماعةً بعدَ جماعةٍ، أو يَخرجوا كلُّهم مجتمعينَ.

ثمَّ يخاطب اللهُ تعالى المؤمنين مبيِّنًا لهم أنَّ في أوساطِهم منافقينَ، يتثاقَلون في الخروج للجهاد، ويتخلَّفون عنه، ويثبِّطون غيرَهم عنه، فإنْ حلَّت بالمؤمنين

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣٤).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٠٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٧٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٣٨-٤٠).

الخارجينَ للجهاد مصيبةٌ، قال هذا المنافقُ المتخلِّفُ، والَّذي يدعو غيره للتَّخلُّف: قد منَّ الله عليَّ بعدمِ الخروجِ معهم للقتالِ، وإلَّا لكان حلَّ بي ما حلَّ بهم، وإن انتصرَ المؤمنون على عدوِّهم، وحصلوا منهم على غنيمةٍ، فسيقول هذا المنافقُ، وكأنَّه لم تكُنْ بين المؤمنين وبينه مودَّةٌ: ليتني شاركتُهم الخروجَ للجهادِ، فأُشارِكَهم في الغنائم الَّتي حصلوا عليها من عدوِّهم.

ثمَّ أمر اللهُ بالقتال في سبيله تعالى، ووجَّه الأمرَ لمن رغِبوا فيما عند الله؛ فباعوا الحياة الدُّنيا بالآخرة، ثمَّ وعَد سبحانه مَن يقاتل في سبيله، سواءٌ قتَله الأعداء، أو لم يُقتل، وإنَّما انتصر عليهم: أنَّ اللهَ سوف يعطيه أجرًا عظيمًا.

ثمَّ حثَّ المؤمنينَ على القِتال في سبيله قائلًا لهم: ما الَّذي يمنعُكم من القِتال في سبيل الله لإعلاء كلمَتِه، ومن أجْل استنقاذِ الضُّعفاء من الرِّجال والنِّساء والأطفال الَّذين يَدْعون ربَّهم أن يُخرجَهم من مكَّةَ الَّتي ظلَمهم فيها أهلُها من المشركينَ، ويَدْعون اللهَ أن يجعَلَ لهم من عنده وليًّا، ونصيرًا ينصُرُهم على عدوِّهم؟!

ثمَّ يُخبر تعالى أنَّ الَّذين آمنوا يقاتلون مِن أجل إعلاءِ كلمة الله تعالى، والَّذين كفروا يقاتلون في سبيل الطَّاغوتِ، فأمَر الله بقتالِ من يتولَّى الشَّيطانَ ويُطيعه، مخبرًا سبحانه أنَّ كيدَ الشَّيطانِ كيدٌ واهنٌ وضعيفٌ.

تفسيرُ الآيات:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا (٧١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

استئنافٌ وانتقالٌ إلى التَّحريضِ على الجهاد بمناسبةٍ لطيفة، فإنَّه انتقَل من طاعة الرَّسول إلى ذِكرِ أشدِّ التَّكاليفِ، ثمَّ ذكَر الَّذين أنعَم اللهُ عليهم من النَّبيِّين والصِّدِّيقين والشُّهداءِ والصَّالحين، وكان الحالُ أدعى إلى التَّنويهِ بشأنِ الشَّهادة

دون بقيَّةِ الخِلال المذكورة معها الممكنة النَّوالِ(١).

وأيضًا لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى طاعتَه وطاعةَ رسولِه، وكان من أهمِّ الطَّاعات إحياءُ دِين الله، أمَر بالقيام بإحياءِ دِينه، وإعلاء دعوتِه، بالجهاد؛ لأنَّه أشقُّ الطَّاعات، ولأنَّه أعظمُ الأمور الَّتي بها يحصلُ تقويةُ الدِّين، وأمَرَهم ألا يقتحِموا على عدوِّهم على جَهالةٍ؛ فقال(٢):

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنون، احذَروا من عدوِّكم، وذلك بالأخْذِ بالأسبابِ الَّتي يُستعانُ بها على قِتالهم ودَفْعِهم(٣).

﴿فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ﴾.

أي: فاخْرُجوا لِقتالِ عَدوِّكم متفرِّقينَ، جماعةً بعد جماعةٍ(٤).

﴿أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٠٣)، ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٦).

قال ابن عثيمين: (فقولُه تعالى: ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ يَشمل كلَّ ما يكون سلاحًا علينا، ومعلوم أنَّنا نأخذ لكلِّ سلاح ما يُناسبه؛ فالذي يُناسب السِّلاحَ الخُلُقي أن يُبصِّر الناس، وتُبيَّن لهم العاقبةُ السيِّئة في دَمار الأخلاق... ويُبيَّن لهم المضارُّ في سوء الأخلاق والفواحِش، وغير هذا. وفي الأفكار: يُبيَّن للناس العقيدةُ السَّليمة التي تَصِلُهم بالله، وتَجعل الإنسانَ دائمًا مع الله عزَّ وجلَّ، يَذكُر اللهَ بقلبه ولِسانِه وجوارحِه، قائمًا وقاعدًا وعلى جنب. والغزو المسلَّح بالسِّلاح، لا بدَّ أن نُعِدَّ له العُدَّة). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥١٥-٥١٦).

أي: أو انفِروا كلُّكم مجتمعينَ(١).

﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا (٧٢)﴾.

﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ﴾.

أي: وإنَّ في عِدادِكم - أيُّها المؤمنون - منافقينَ، يتثاقَلون ويتخلَّفون بأنفُسِهم عن جهادِ عدوِّكم إذا أنتم نفَرْتم إليهم، ويثبِّطون غيرَهم، فيتخلَّفونَ عن الخروجِ في سبيل الله تعالى(٢).

﴿فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ﴾.

أي: فإنْ حلَّتْ بكم هزيمةٌ وقتلٌ، وظفِر الأعداءُ عليكم في بعض الأحوال لِمَا للهِ تعالى في ذلك من الحِكَمِ(٣).

﴿قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥١٥-٥١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥١٨).

قال ابن عثيمين: (نتيجةُ القتالِ إمَّا أن تكونَ الغنيمةَ والغَلَبَةَ والنُّصرةَ، وإمَّا أن تكونَ العكسَ، فهو إذا أصابَتْكُم مُصيبةٌ... ﴿قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ فيتضمَّنُ كلامُه هذا الافتخارَ والاحتقارَ؛ الافتخارَ بنَفْسِه أنَّه لم يشهَدْ هذه المُصيبةَ، والاحتقارَ لِمَن أُصِيبوا بهذه المُصيبةِ، وهذا غايةُ ما يكونُ مِنَ التَّباعُدِ، وهذا الذي يقولُ- وهو منهم- هذا الكلامَ؛ كأنَّه لم يكُنْ بينه وبينهم مَوَدَّةٌ، وكأنَّه مِن أبعَدِ النَّاسِ عنهم، حين افتخَرَ بأنْ نجا من المُصيبةِ التي أصابَتْهم، واحتقَرَ هؤلاء الذين أُصيبوا، وصار كالموَبِّخِ لهم) ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥١٨-٥١٩).

أي: فإنْ أصابَكم ذلك، قال هذا المنافِق الَّذي يَتباطَأُ، ويُبطِّئُ غيرَه عن الجِهاد: قد منَّ الله عليَّ بعدمِ الخُروجِ معهم للقِتال، وإلَّا لَأصابني ما أصابَهم من القَتْلِ أو الهزيمةِ[(١)].

﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧٣)﴾.

﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ﴾.

أي: وإنْ أظفرَكم اللهُ بعدوِّكم فانتصرْتم عليهم، ونِلتم منهم غنيمةً[(٢)].

﴿لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾.

أي: ليقولَنَّ هذا المنافقُ، وكأنَّه ليس من أهلِ دِينكم- يا مَعشرَ المؤمنينَ- لا يرتبطُ معكم فيه بالتزامِ أحكامِه، ومنها النُّصرةُ لكم[(٣)].

﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

أي: تمنَّى هذا المنافقُ أن يكونَ مع المؤمنين في الخروج للجهاد، فيُصيبَ معهم من الغنائم الَّتي ظفِروا بها من عدوِّهم[(٤)].

﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢١٩-٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٢١-٢٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٦).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذمَّ سبحانه وتعالى المبطِّئين في الجهاد، عاد إلى التَّرغيب فيه، ودلَّهم بهذه الآيةِ على طريقِ تطهير نفوسِهم من ذلك الذَّنبِ العظيم؛ ذنبِ القعود عن القتال، مبيِّنًا أنَّ قَصْدَ المجاهد الآخرةُ، وإيثارُ ما عند الله[١]، فقال:

﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾.

أي: فلْيجاهدْ أعداءَ الله؛ لإعلاءِ كلمة الله سبحانه، المؤمنون الصَّادقون الَّذين يبيعونَ الحياة الدُّنيا بالآخرة، رغبةً فيما عند الله عزَّ وجلَّ[٢].

﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾.

أي: ومن يُجاهِدْ أعداءَ الله تعالى لإعلاء كلمتِه جلَّ وعلا، فسواءٌ قتَله الأعداء، أو بقي حيًّا، وانتصَر عليهم[٣].

﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

أي: فهو غانمٌ على كلِّ حال؛ إذ سيُعطيه اللهُ تعالى ثوابًا جزيلًا[٤].

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا (٧٥)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٤٠). ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٢٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٢٢-٢٢٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٢٣-٥٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٢٤-٥٢٥).

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾.

أي: ولمَ لا تُجاهدون- أيُّها المؤمنون- لإعلاءِ كلمة الله تعالى، وتُجاهِدون للسَّعي في استنقاذِ الرِّجال والنِّساءِ والصِّبيان، الَّذين غُلِبُوا على أنفسِهم؛ بقَهْرهم وإيذائِهم وإذلالِهم وسَومِهم العذابَ، ولا يَستطيعون حيلةً للهجرة، ولا يهتدون إليها سبيلًا[1]؟!

عن عُبَيد اللهِ بنِ عَبدِ اللهِ بنِ عُتْبةَ، قال: (سَمِعْتُ ابنَ عبَّاسٍ رضِي اللهُ عنهما يقولُ: كنتُ أنا وأمِّي مِن المستضعَفينَ، أنا من الوِلدانِ، وأمِّي من النِّساءِ)[2].

وعن عَبدِ الله بن أبي مُلَيكةَ: (أنَّ ابنَ عبَّاسٍ تَلا: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾. قال: كنتُ أنا وأمِّي ممَّن عذَر اللهُ)[3].

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾.

أي: يَدْعون ربَّهم بأن يخرجَهم من مكَّةَ؛ للنَّجاةِ من فتنةِ استضعافِهم من قِبَل مشركِي قريشٍ[4].

﴿وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾.

أي: وسخِّرْ لنا من عندك مَن يتولَّى أمرنا ويُنقذُنا، وسخِّرْ لنا من عندك مَن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٢٤-٢٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٢٨-٥٢٩).

(٢) رواه البخاري (١٣٥٧).

(٣) رواه البخاري (٤٥٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٢٩-٥٣٠).
قال ابنُ عطية: (القريةُ هاهنا مكَّةُ بإجماعٍ من المتأوِّلين) ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٧٩).

ينصُرُنا على عدوِّنا[١].

﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن الله تعالى وجوبَ الجهاد بيَّن أنَّه لا عبرةَ بصورةِ الجهادِ، بل العبرةُ بالقَصْدِ والدَّاعي، فالأمورُ بمقاصدها وغاياتها؛ فالمؤمنون يقاتِلون لغَرَضِ نُصرةِ دِين الله، وإعلاءِ كلمته، والكافرون يقاتِلون في سبيل الطَّاغوتِ ولم يكتفِ ببيان كونِ القتالِ المأمور به مقيَّدًا بكونه في سبيل الله، وهي سبيلُ الحقِّ والعدلِ، وإنقاذ المستضعَفين المظلومين من الظُّلم، حتَّى أكَّده بإعادةِ ذِكره، مع مقابلتِه بضِدِّه، وهو ما يقاتِلُ الكفَّارُ لأجله[٢]، فقال:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

أي: إنَّ المؤمنينَ حقًّا إنَّما يُقاتِلون من أجْلِ إعلاء كلمةِ الله تعالى[٣].

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾.

أي: والكافرونَ يُقاتلونَ في طاعةِ الشيطانِ، وطَريقِه ومِنْهاجِه الَّذي شَرَعَه لأوليائِه من أهلِ الكفرِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (٥/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٤٢). ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٢١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٧).

والطَّاغوت: هو كلُّ ما تجاوَز به العبدُ حدَّه؛ من معبودٍ أو متبوعٍ أو مُطاعٍ[١].

﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾.

أي: فقاتِلوا- أيُّها المؤمنون- أولئك الَّذين يتولَّوْن الشَّيطانَ، ويُطيعون أوامرَه[٢].

﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

أي: فلا تهابوا أولياءَ الشَّيطان؛ لأنَّ إمامَهم الشَّيطانَ ذو كيدٍ واهنٍ وضعيفٍ، لا يقوَى على مقاومةِ الحقِّ والتَّغلُّب عليه[٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- أنَّه يجب على الإنسانِ أنْ يكونَ كيِّسًا فطِنًا؛ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾[٤].

٢- في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ﴾ دليلٌ على أنَّ التَّكاسلَ في الخير، والتَّراجعَ عنه من أسباب النِّفاق، وهو كذلك، والتَّباطؤُ عن الخير والتَّكاسل عنه ليس سببًا للنِّفاق فحسبُ، بل هو سببٌ للضَّلال والعمى، والعياذُ بالله! كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال الله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾[٥] [ق: ٥].

---

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٢٩-٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥١٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٥٢٢).

٣- قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا * وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَالَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ فيه أنَّ هَؤُلَاءِ الْمُبَطِّئِينَ لم يُحِبُّوا لإخوانِهِم الْمُؤمنِينَ مَا يحِبُّونَ لأَنْفُسِهِم، بل إِنْ أَصَابَتْهم مُصِيبَة فَرِحوا باختصاصِهم، وَإِن أَصَابَتْهم نعْمَةٌ لم يَفْرَحوا لهم بها، بل أَحبُّوا أَن يكون لهم منها حَظٌّ؛ فهم لَا يفرحون إِلَّا بدُنيا تَحصُل لهم، أَو شَرٍّ دُنْيَوِيٍّ ينْصَرف عَنْهُم؛ إِذْ كَانُوا لَا يحبُّونَ الله وَرَسُولَه وَالدَّارَ الْآخِرَة، وَلَو كَانُوا كَذَلِك لأحبُّوا إِخْوَانهمْ وأَحَبُّوا مَا وصَل إليهم مِن فَضْلِه، وتألَّموا بِما يُصيبُهم من الْمُصِيبَة، وَمن لم يَسرَّه مَا يَسُرُّ الْمُؤمنِينَ ويَسُوءُه مَا يسوءُ الْمُؤمنِينَ؛ فليس منهم[1].

٤- قوله تعالى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ فالإسلامُ لا يعرِف قتالًا إلَّا في هذا السَّبيل، لا يعرف القتالَ للغنيمةِ، ولا يَعرف القتالَ للسَّيطرة، ولا يعرف القتالَ للمجد الشَّخصيِّ أو القوميِّ! إنَّه لا يقاتِلُ للاستيلاء على الأرض، ولا للاستيلاءِ على السُّكَّان.. لا يقاتِلُ ليجدَ الخاماتِ للصِّناعات، والأسواقَ للمنتجات، أو لرؤوس الأموال يستثمرها في المستعمَرات وشِبْه المستعمرات! إنَّه لا يقاتِلُ لمجِد شخصٍ، ولا لمجدِ بيتٍ، ولا لمجد طبقةٍ، ولا لمجد دولةٍ، ولا لمجد أمَّة، ولا لمجد جنس، إنَّما يقاتل في سبيل الله؛ لإعلاء كلمةِ الله في الأرض، ولتمكينِ منهجه من تصريفِ الحياة، ولتمتيع البشريَّة بخيراتِ هذا المنهج، وعَدْلِه المطلَق بين النَّاس، مع تركِ كلِّ فرد حرًّا في اختيارِ العقيدةِ الَّتي يقتنع بها.. في ظلِّ هذا المنهج الرَّبَّانيِّ الإنسانيِّ العالميِّ العامِّ[2].

٥- قوله تعالى: ﴿فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّ المجاهِدَ ينبغي أن يثبُتَ

(١) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ١٢٨).
(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٧٠٥).

في المعركةِ، وأن يوطِّنَ نفسَه على أنَّه لا بدَّ من أحدِ أمرين؛ إمَّا أن يقتلَه العدوُّ، فينالَ الشَّهادة، وإمَّا أنِ يغلبَ العدوَّ ويقهَرَه، ويعودَ بالظَّفَر والغَلَبة، فإنَّه إذا عزم على ذلك لم يفِرَّ عنِ الخَصم، ولم يُحجِمْ عن المحارَبة[1].

٦- توبيخ مَنْ توانى عن الجهادِ؛ لقوله: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾[2].

٧- ذِكْر ما يشجِّعُ على القتال من النَّاحية النَّفسية؛ لقوله: ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾؛ لأنَّ ذِكر ما يُثير الإنسانَ ويهيِّجُه أمرٌ مطلوب، ولا شكَّ أنَّ الإنسان إذا قيل له: إنَّ هناك رجالًا مستضعَفين ووِلدانًا ونساءً لا شكَّ أنَّه سوف يزداد همَّةً وإقدامًا[3].

٨- في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ أنَّه بحسَب إيمانِ العبد يكون جهادُه في سبيل الله، وإخلاصُه ومتابعتُه؛ فالجهادُ في سبيلِ الله من آثارِ الإيمانِ ومقتضيَاتِه ولوازِمه، كما أنَّ القِتالَ في سبيل الطَّاغوتِ مِن شُعَبِ الكفرِ ومقتضياتِه[4].

٩- في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ أنَّ الَّذي يقاتِلُ في سبيلِ الله ينبغي له، ويحسُنُ منه من الصَّبرِ والجلَدِ ما لا يقوم به غيرُه، فإذا كان أولياءُ الشَّيطانِ يَصبِرون ويُقاتِلون وهم على باطلٍ، فأهلُ الحقِّ أَولى بذلك؛ كما قال تعالى في هذا المعنى: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ الآية[5].

١٠- في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٤٠)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣١٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٣٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٧).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ أنَّ الَّذي يقاتِلُ في سبيل الله معتمدٌ على ركنٍ وثيقٍ، وهو الحقُّ، والتَّوكُّل على الله؛ فصاحبُ القوَّة والرُّكن الوثيقِ يُطلَب منه من الصَّبر والثَّبات والنَّشاط ما لا يُطلب ممَّن يقاتِلُ عن الباطل، الَّذي لا حقيقةَ له ولا عاقِبةَ حميدةً؛ فلهذا قال تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[1].

١١- بيان أنَّ الإيمانَ يحمِلُ على الإخلاصِ؛ لقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾[2].

١٢- بيان ضَعفِ ما يعملُه الشَّيطان بالكيدِ أو بغير الكيد، لأنَّه إذا كان كيدُه ضعيفًا، فما يكيدُ به أضعفُ؛ لقوله: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[3].

١٣- أنَّه لا يَنبغي للإنسانِ أنْ يَخشى أو يخافَ أولياءَ الشَّيطان؛ لأنَّ أولياءَ الشَّيطان ضُعفاءُ، كما أنَّ الشَّيطانَ الَّذي هو وليُّهم كيدُه ضعيفٌ[4].

١٤- أنَّ الشَّيطانَ يكيدُ للإنسان؛ لقوله: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ﴾ فاحذَرْ كيدَه لا يغرَّنَّك، فربَّما يوسوس لك في التَّهاونِ في العبادات المطلوبة، أو في غِشيان الأشياءِ الممنوعة، ويقول: اللهُ غفور رحيمٌ، والأمر سهلٌ، افعَلْ وتُبْ، حتَّى يكيدَ لك فتقعَ في الشِّباك، فاحذَرْ كيدَه[5]!

١٥- قال تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ هكذا يقفُ المسلمون على أرضٍ صُلبةٍ، مسندين ظهورَهم إلى ركنٍ شديدٍ، مُقتنعي الوِجدانِ بأنَّهم يخوضون مَعركةً للهِ، ليس لأنفسهم منها نصيبٌ، ولا لذواتهم منها

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٤٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٥٤١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

حظٌّ، وليست لقومِهم، ولا لجنسهم، ولا لقَرابتهم وعَشيرتهم منها شيءٌ.. إنَّما هي لله وحده، ولمنهجِه وشريعتِه. وأنَّهم يواجِهون قومًا أهلَ باطلٍ يُقاتِلون لتغليبِ الباطل على الحقِّ... كذلك يخوضون المعركة، وهم يوقِنون أنَّ اللهَ وليُّهم فيها، وأنهم يواجهون قومًا، الشَّيطانُ وليُّهم؛ فهُم إذًا ضِعافٌ.. إنَّ كيدَ الشَّيطان كان ضعيفًا، ومن هنا يتقرَّرُ مصيرُ المعركة في حسِّ المؤمنين، وتتحدَّدُ نهايتُها قبل أن يدخلوها، وسواءٌ بعد ذلك استُشهِد المؤمنُ في المعركة- فهو واثقٌ من النتيجة- أم بقي حتَّى غلَب، ورأى بعينيه النَّصرَ، فهو واثقٌ من الأجرِ العظيم[(١)].

الفَوائدُ العلميَّةُ واللَّطائف:

١- في قوله تعالى: ﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ وجوبُ أخذِ الحذَر من أعدائنا، وكلُّ عدوٍّ يؤخذ منه الحذرُ فيما يخاف منه؛ فالَّذين يغزوننا بالسِّلاح نأخذ الحذرَ منهم بالسِّلاح، والَّذين يغزوننا بالأفكار نأخذ الحذر منهم بالعِلم، والَّذين يغزوننا بالأخلاق نأخذ الحذر منهم بالتَّرفُّع عن سفاسف الأخلاق، فكلُّ عدوٍّ يقابَلُ بسِلاحه[(٢)].

٢- في قوله تعالى: ﴿فَانفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُواْ جَمِيعًا﴾ وجوبُ النُّفور للجهادِ في سبيل الله، سواءٌ كنَّا مجتمعين أو متفرِّقين[(٣)].

٣- لفظة ﴿لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ مختارةٌ هنا بكلِّ ما فيها من ثِقَل وتعثُّر، وإنَّ اللِّسان ليتعثَّر في حروفها وجَرْسها، حتَّى يأتي على آخرها، وهو يشدُّها شدًّا، وإنَّها لتصوِّرُ الحركةَ النَّفسيَّة المصاحِبة لها تصويرًا كاملًا بهذا التَّعثُّر والتَّثاقل في جَرْسها، وذلك من بدائعِ التَّصويرِ الفنيِّ في القرآنِ، الَّذي يرسُمُ حالةً كاملةً بلفظةٍ واحدة[(٤)].

٤- قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ﴾ الخِطابُ لعسكرِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٧٠٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥١٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٥١٧).
(٤) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٧٠٥).

المؤمنين منهم والمنافقين، ﴿لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ﴾ أي: ليتأخَّرَنَّ وليتثاقَلنَّ عن القتالِ، وهم المنافقون؛ كعبدِ اللهِ بن أُبيٍّ المنافقِ وأصحابِه، وإنَّما قال: (مِنكم)؛ لاجتماعِهم مع أهلِ الإيمانِ في الجنسيَّةِ والنَّسبِ وإظهارِ الإسلام، لا في حقيقةِ الإيمان(١).

٥- وجوبُ قِتالِ الأعداء؛ لقوله: ﴿فَلْيُقَاتِلْ﴾، ووجوبُ إخلاص النِّيَّةِ فيه؛ لقوله: ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾(٢).

٦- أنَّ المقاتلَ في سبيلِ الله ناجحٌ على كلِّ حال؛ لقوله: ﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾ فهو غانمٌ ناجحٌ على كلِّ حال، سواءٌ قُتِل، أو غَلَب، فهو على أجرٍ عظيم(٣).

٧- قوله تعالى: ﴿فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾، وإنَّما اقتَصَر على القتلِ والغلَبة في قوله: ﴿فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾، ولم يزِدْ: (أو يؤسَر) إبايةً مِن أن يذكرَ لهم حالةً ذميمةً لا يَرْضاها اللهُ للمؤمنينَ، وهي حالةُ الأَسْر، فسكَت عنها؛ لئلَّا يذكُرَها في معرِض التَّرغيب، وإنْ كان للمسلمِ عليها أجرٌ عظيمٌ أيضًا، إذا بذَل جُهدَه في الحربِ فغُلِب؛ إذ الحربُ لا تَخلو من ذلك، وليس بمأمورٍ أنْ يُلقيَ بيدِه إلى التَّهلُكة، إذا عَلِم أنَّه لا يُجدي عنه الاستبسالُ؛ فإنَّ مِن منافع الإسلامِ استبقاءَ رجالِه لِدفاع العدوِّ(٤).

٨- بيان عظَمة الرَّبِّ عزَّ وجلَّ؛ لقوله: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ﴾، وجه ذلك: ضمير الجمعِ؛ لأنَّنا نعلَمُ أنَّ اللهَ إلهٌ واحد، فكلُّ ما أُضيفَ إلى الله عزَّ وجلَّ من ضمائرِ الجمع، فالمراد بها التَّعظيمُ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣١٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٢٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٥٢٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٢٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٢٧).

٩- قيل في الفرقِ بينَ المولَى والنَّصير: إنَّ المولَى هو الذي يتولَّى حفظَ الشيءِ في كلِّ حالٍ، والنَّصيرُ هو الذي ينصرُه إذا حزَبه أمرٌ، فكان الوليُّ هو النصيرَ في كلِّ حال، والنَّصير هو المولَى في حالٍ دونَ حالٍ[1].

١٠- أنَّ للإنسانِ أنْ يطلُبَ من الله تعالى وليًّا من عنده؛ لقوله: ﴿وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾، ولا يقال: إنَّه لا بدَّ أن تقول: اللَّهمَّ تولَّني، فأنت إمَّا أن تدعوَ اللهَ بأن يتولَّاك، أو أن ييسِّرَ لك وليًّا، وكذلك يقال في قوله تعالى: ﴿وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾[2].

١١- بيان علوِّ همَّة هؤلاء؛ حيث قالوا: ﴿مِنْ لَدُنْكَ﴾ في الوليِّ، و﴿مِنْ لَدُنْكَ﴾ في النَّصيرِ؛ لأنَّ الوليَّ إذا جاء من عند الله وكذلك النَّصيرُ، فهذا هو الَّذي ينفعُ، أمَّا الوليُّ الَّذي لا يأتي من عند الله عزَّ وجلَّ، وإنَّما حملَتْه الحمِيَّةُ والعصبيَّة، فهذا قد ينفعُ، وقد لا ينفع[3].

١٢- وجوبُ الدِّفاع عن المستضعَفين عند الكفَّار؛ لأنَّ اللهَ تعالى وبَّخ على أمرين: على تركِ القتالِ في سبيل الله، وعلى ترك القتالِ في سبيل هؤلاء المستضعَفين لتخليصِهم، وهذا أمرٌ واجبٌ على كلِّ مسلمٍ- مع القدرة- أن يفُكَّ أسيرَ المسلمينَ، وأن يرفَعَ الظُّلمَ عنهم، بقدر المستطاع؛ لقول الله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[4] [التغابن: ١٦].

١٣- قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ﴾ يدلُّ على أنَّ الجهادَ واجبٌ، ومعناه أنَّه لا عذرَ لكم في ترك المقاتَلة، وقد بلغ حالُ المستضعَفينَ من الرِّجال والنِّساءِ

---

(١) ((تفسير الراغب الأصفهاني)) (٣/ ١٣٢٤)

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٣٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٥٣٤).

والوِلْدان مِن المسلمين إلى ما بلَغ في الضَّعفِ؛ فهذا حثٌّ شديدٌ على القتال، وبيانُ العلَّة الَّتي لها صار القتالُ واجبًا، وهو ما في القِتال من تَخليصِ هؤلاء المؤمنين مِن أيدي الكفَرةِ؛ لأنَّ هذا الجمعَ إلى الجهادِ يجري مجرى فَكاكِ الأسير[1].

١٤- في قولِه تعالى: ﴿مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ ذُكر الوِلْدان تكميلًا للاستعطافِ واستجلابِ المَرْحَمة، وتنبيهًا على تناهي ظُلمِ المشركين؛ بحيث بلغ أذاهم الصِّبيانَ لإرغامِ آبائِهم وأمهاتِهم، وإيذانًا بإجابة الدعاءِ الآتي، واقترابِ زمانِ الخَلاصِ؛ ببيانِ شَرِكَتِهم في التضرُّعِ إلى الله تعالى؛ كلُّ ذلك للمبالغةِ في الحثِّ على القتالِ[2].

١٥- جواز التَّوسُّلِ بالحال؛ لقوله: ﴿أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾، توسَّلوا إلى الله تعالى بذِكر حالِ أهلِ هذه القرية بأنَّهم ظالمون لهم، وذِكْر الحال أنَّ الإنسانَ مظلومٌ يوجِبُ الرِّقَّة والعَطْف[3].

١٦- استُدِلَّ بقَوْلِه سبحانه: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ على أنَّ إسلامَ الوليدِ صحيحٌ؛ لأنَّه جَعَلَه من جملةِ مَن قالوا: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ وهو قولُ مَن يَطْلُب الهجرةَ، وطَلَبُ الهجرةِ لا يَصِحُّ إلَّا بعد الإيمانِ، وإذا كان له قولٌ في ذلك مُعتبَر كان أصلًا في ذلك ولم يكن تابعًا؛ بخلافِ الطِّفْل الذي لا تمييزَ له؛ فإنَّه تابعٌ لا قَوْلَ له[4].

١٧- جوازُ الجهرِ بالسُّوء لِمَن ظُلِم، فتقول: فلان ظلَمني، وفلان أخَذ مالي،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٤١).
(٢) ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٠٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٣٤).
(٤) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٤٦).

وما أشبَهَ ذلك، ولا يُعَدُّ هذا من باب الغِيبةِ؛ لقوله: ﴿الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ﴾(١) [النِّساء: ١٤٨].

١٨- قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾ هذه الآيةُ كالدَّلالةِ على أنَّ كلَّ مَن كان غرضُه في فِعله رضَا غيرِ الله، فهو في سبيل الطَّاغوت؛ لأنَّه تعالى لَمَّا ذكَر هذه القِسمة، وهي أنَّ القتالَ إمَّا أن يكون في سبيلِ الله، أو في سبيل الطَّاغوت، وجَب أن يكون ما سوى الله طاغوتًا(٢).

١٩- أنَّ الكفَّارَ المحاربين من أولياء الشَّيطان؛ لقوله: ﴿أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾، وكانوا أولياءَه؛ لأنَّهم يمتثِلون لأمرِه ولنهيِه، فإذا أمَرهم بالفحشاء امتثلوا، وإذا نهاهم عن البِرِّ امتثلوا، فبذلك صاروا له أولياءَ(٣).

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ﴾ خبرٌ إنكاريٌّ، وقد جاء التَّأكيدُ بـ: (إنَّ)، وبلام التَّأكيدِ المُزحْلَقة، ونونِ التَّوكيد الثَّقيلة، وفي استعمالِ الفعل المضعَّف- وزيادةُ الحروف زيادةٌ في المعنى- وفي مجموعِ هذه المؤكِّدات: تخويفٌ رهيبٌ لِمَن ثَبَّط نفسَه أو ثبَّط غيرَه(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٣٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٤٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٤٠).
(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٢٥٩).
(يَشِي تركيبُ الجملة كلِّها في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ﴾ بأنَّ هؤلاء المبطِّئين- وهم معدودون من المسلمين- ﴿مِنْكُمْ﴾ يزاولون عمليَّةَ التَّبطئة كاملةً، ويصرُّون عليها إصرارًا، ويجتهدون فيها اجتهادًا، وذلك بأسلوبِ التَّوكيد بشتَّى المؤكِّدات في الجملة! ممَّا =

٢- قوله: ﴿كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ اعتراضٌ بين فِعْلِ القَولِ ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ وَمَقولِه وهو: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾؛ للتَّنبيه على ضَعفِ عَقيدتِهم، وأنَّ قولَهم هذا قولُ مَن لا مواصلةَ بينكم وبينه، وإنَّما يريدُ أن يكونَ معكم لمجرَّدِ المالِ[1].

- وقوله: ﴿كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ شبَّهَ حالَهم في حينِ هذا القولِ بحالِ مَن لم تسبِقْ بينه وبين المخاطَبين مودَّةٌ حقيقيَّة أو صوريَّة؛ فاقتضى التَّشبيهُ أنَّه كان بينه وبينهم مودَّةٌ من قَبلِ هذا القول، ووجهُ هذا التَّشبيه أنَّه لَمَّا تمنَّى أنْ لو كان معهم، وتحسَّر على فواتِ فوْزِه لو حضر معهم، كان حالُه في تفريطِه رُفقتَهم يُشبِهُ حالَ مَن لم يكُنْ له اتِّصالٌ بهم، بحيث لا يشهد ما أزمَعوا عليه من الخروجِ للجهاد، فهذا التَّشبيهُ مسُوقٌ مساقَ زيادة تنديمِه وتحسيرِه، أي إنَّه الَّذي أضاع على نفسِه سببَ الانتفاع بما حصَل لرفقتهِ من الخير، وثواب النَّصر وفخرِه، ونعمةِ الغنيمة[2].

- والظَّاهر أنَّه تهكُّم؛ لأنَّ المنافِقين كانوا أعْدَى عدوٍّ للمُؤمنين، وأشدَّهم حَسدًا لهم؛ فكيف يوصَفون بالمودَّةِ إلَّا على وجهِ العكس تهكُّمًا بحالهم[3]؟!

٣- قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ خِطابٌ للمأمورين بالقِتالِ على طريقةِ الالتفات من الغَيبة إلى الخطابِ؛ مبالغةً في التَّحريض والحثِّ عليه،

= يُوحي بشدَّةِ إصرارِ هذه المجموعة على التَّبطئة، وشدَّة أثرِها في الصَّفِّ المسلِم، وشدَّة ما يلقاه منها!). ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٧٠٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٣٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٣٣).

وهذا على أنَّ المرادَ به هم المنافِقُون، وأمَّا على أنَّ المرادَ ضَعَفةُ المؤمنين؛ فليس فيه هذا الوجهُ. ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٢٠).

وهو المقصودُ من الاستفهامِ(١).

- والاستفهامُ في قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ﴾ إنكاريٌّ، أي: لا شيءَ لكم في حالِ لا تُقاتِلون، والمرادُ أنَّ الَّذي هو لكم هو أنْ تُقاتلوا، فهو بمنزلةِ أمرٍ، أي: قاتِلوا في سبيلِ الله لا يَصُدُّكم شيءٌ عن القتال(٢).

٤- قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾ كلامٌ مبتدأٌ سِيقَ لترغيب المؤمنين في القِتال، وتَشجيعِهم ببيان كمالِ قوَّتِهم بإمدادِ الله تعالى ونُصرتِه، وغاية ضَعْفِ أعدائهم(٣).

- والفاء في ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾ لبيانِ استتباعِ ما قَبْلَها لِمَا بعدَها، وذكَّرهم بهذا العنوان ﴿أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ ذلك نتيجةٌ لقتالهم في سبيل الشَّيطان، والإشعارِ بأنَّ المؤمنين أولياءُ الله تعالى، لأنَّ قتالَهم في سبيله، وكلُّ ذلك لتأكيدِ رغبة المؤمنين في القتال، وتقوية عزائمِهم عليه(٤).

٥- قوله: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ أكَّد الجملةَ بمؤكِّدينِ (إنَّ) و(كَانَ) الدَّالَّة على تقرُّرِ وصْفِ الضَّعفِ لكيد الشَّيطانِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٠١)، ((الجدول في إعراب القرآن الكريم)) لصافي (٥/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٠١)، ((الجدول في إعراب القرآن الكريم)) لصافي (٥/ ٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٠٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٠٢-٢٠٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٢٤).

الآيات (٧٧ - ٧٩)

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧٧) أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨) مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (٧٩)﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾: أي: قُصورٍ عاليةٍ، أو حُصونٍ مُطوَّلة، أو البيوتِ الَّتي فوقَ الحُصونِ، وأصل (برج): من الظُّهور والبروزِ مِن: بَرجَتِ المرأة، إذا ظهَرت وبرَزت(١).

﴿يَفْقَهُونَ﴾: يفهَمون حقَّ الفَهْم، والفِقْه: هو التَّوصُّل إلى عِلمٍ غائبٍ بعِلم شاهِدٍ، وأصل (فقه): يدلُّ على إدراكِ الشَّيء، والعِلمِ به(٢).

مُشكِلُ الإعراب:

قوله تعالى: ﴿يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾

﴿كَخَشْيَةِ اللَّهِ﴾: الجارُّ والمجرورُ في محلِّ نَصْبٍ، نَعتٌ لمصدرٍ مَحذوفٍ،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٠).

أي: خشيةً كخشيةِ اللهِ، أو في محلِّ نصبٍ على الحالِ من الواو في ﴿يَخْشَوْنَ﴾، أي: مُشْبِهينَ لأَهْلِ خَشيةِ اللهِ.

﴿أَشَدَّ خَشْيَةً﴾: ﴿أَشَدَّ﴾ منصوبٌ عطفًا على محلِّ ﴿كَخَشْيَةِ اللهِ﴾، و﴿خَشْيَةً﴾ تمييزٌ منصوبٌ، ويجوز اعتبارُ ﴿خَشْيَةً﴾ مؤخَّرةً مِن تقديمٍ، والأصلُ: يَخْشونَ النَّاسَ مِثلَ خشيةِ اللهِ أو خَشيةً أشدَّ منها؛ وعليه فهي منصوبةٌ بالعطفِ على محلِّ ﴿كَخَشْيَةِ اللهِ﴾، وينتصِبُ ﴿أَشَدَّ﴾ على الحالِ مِن ﴿خَشْيَةً﴾ الذي كان في الأصلِ نعتًا لها، فلمَّا قُدِّم عليها صارَ حالًا منها؛ كقول القائلِ: لِمَيَّةَ مُوحِشًا طَلَلُ، فلو تأخَّرَ (مُوحِشًا) لكان: لِمَيَّةَ طَلَلٌ مُوحِشٌ، ولكان نعتًا للطَّلَلِ، ولكن لَمَّا تقدَّم أصبحَ حالًا، وعلى هذا الوجهِ فلا ينتصبُ ﴿خَشْيَةً﴾ على التَّمييزِ. وقيل غير ذلك في إعرابِ هذه الآيةِ[1].

المَعْنى الإجماليُّ:

يخاطِبُ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم قائلًا له: أَلَا تعجَبُ- يا محمَّدُ- من هؤلاء الَّذين قيل لهم: أمسِكوا عن قتال المشركين، وأقيموا الصَّلاة وآتوا الزكاة- وكان بعضٌ ممَّن مع النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قد سألوا أن يُفرَض عليهم القتالُ- فلمَّا فرَض الله عليهم القتال إذا جماعةٌ منهم يخافونَ من النَّاس كخوفِهم مِن اللهِ أو أشدَّ من ذلك، وقالوا: ربَّنا لِمَ فرضْتَ علينا القتالَ؟! هلَّا أخَّرتَ فرضه إلى وقتٍ آخرَ غيرِ هذا الوقت، فأمر الله نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم أن يقولَ لهم: إنَّ ما في الدُّنيا إنَّما هو متاعٌ قليل زائل، وما في الآخرة من نعيمٍ للمتَّقين هو خيرٌ وأفضلُ ممَّا في هذه الدُّنيا، ولا يُظلَمون شيئًا.

ثمَّ يخبِر تعالى أنَّ الموتَ سيُدرك الجميع في أيِّ بقعةٍ كانوا، ولو كانوا

---

(١) ينظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٧٤)، ((الدر المصون في علوم الكتاب المكنون)) للسمين الحلبي (٤/ ٤١-٤٢).

محصَّنين في حصونٍ منيعةٍ وعاليةٍ، ويبيِّن تعالى أنَّ المكذِّبين لرسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم إنْ أصابهم خيرٌ يقولون: هذا جاء من عند الله تعالى، وإنْ أصابهم سوءٌ وشرٌّ قالوا: إنَّ ما أصابهم هو بسبب ما جاء به محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم، فأمَرَ اللهُ نبيَّه عليه الصَّلاة والسَّلام أنْ يقول لهم: إنَّ جميعَ ما أصابهم مِن خيرٍ أو شرٍّ هو بقضاءِ اللهِ وقَدَرِه؛ فما لِهؤلاءِ القومِ الصَّادرِ منهم هذا القولُ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم لا يفهمون حديثًا بالكلِّيَّة، ولا يقرُبون من فهمِه؟!

ثمَّ يخاطب اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم: أنَّ ما أصابه من خير هو من عند الله تعالى، وما ناله من أذًى ومكروه هو بسبب ذنبٍ صدَر منه، ويخبره تعالى أنَّه بعَثه للناس رسولًا بينه وبين الخَلق يبلِّغُهم شَرْعَه سبحانه، وكفى بالله شهيدًا.

تفسيرُ الآيات:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧٧)﴾.

سَببُ النُّزول:

عن ابنِ عبَّاسٍ رضِي اللهُ عنهما، أنَّ عبدَ الرحمن بنَ عوفٍ وأصحابًا له رضِي اللهُ عنهم أتَوُا النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم فقالوا: يا نبي الله، كنَّا في عزٍّ ونحن مشركونَ، فلمَّا آمنَّا صِرنا أذلَّة، قال: إنِّي أُمرتُ بالعَفْوِ، فلا تقاتلوا القَوْمَ، فلمَّا حوَّله الله إلى المدينة أمَرَه بالقتالِ، فكَفُّوا، فأنزل الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ الآية[1].

---

(١) رواه النسائي (٣٠٨٦)، والطبري في ((تفسيره)) (٨/ ٥٤٩)، وابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (٥٦٣٠)، والحاكم (٢/ ٧٦).
=

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾.

أي: ألَا تعجَبُ- يا محمَّدُ- من هؤلاء الَّذين أُمِرُوا بإمساك أيديهم عن حرْبِ أعدائهم المشركين، والامتناعِ عن قتالِهم[1].

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾.

أي: وعليكم بأداء الصَّلاة بحدودِها وفروضها تامَّةً، كما أمَر اللهُ عزَّ وجلَّ، وإيتاءِ الزَّكاة أهلَها المستحقِّين كما شُرِعت[2].

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ﴾.

أي: فلمَّا فُرِض عليهم القتالُ- الَّذي كانوا قد سألوا أن يُفرَضَ عليهم- في وقتِه المناسبِ لذلك[3].

﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾.

أي: إذا جماعةٌ منهم يخافون النَّاسَ أن يقاتلوهم، خوفًا شديدًا كخوفِهم من اللهِ تعالى، أو[4] أشدَّ خوفًا[5].

= صحَّح إسنادَه الألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (٣٠٨٦)، وصحَّحه الوادعي في ((الصحيح المسند)) (٦٣٣) وقال: رجالُه رجالُ الصَّحيح.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٧-١٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٤١-٥٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٤٢-٥٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٣٠-٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٤٣).

(٤) (أو) يحتملُ أن تكونَ للتنويعِ أي: أنَّ بعضَهم يخشون النَّاس كخشيةِ الله، وبعضَهم يخشون النَّاس أشدَّ خشيةً، ويحتملُ أن تكونَ (أو) للإضرابِ، فيكون المعنى: بل أشدَّ خشيةً، أو لتحقيقِ ما سبَق، وليست (أو) للشكِّ قطعًا. ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٤٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٩)، ((تفسير السعدي)) =

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ﴾.

أي: وقالوا: لِمَ فرَضْتَ علينا القتالَ يا أللهُ[1]؟

﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾.

أي: هلَّا أخَّرتَ فرضَ القتال مدَّةً أخرى متأخِّرةً عن الوقتِ الحاضر، قيل: يعنونَ بذلك تأخيرَه إلى أن يموتوا على فُرُشِهم وفي بيوتهم[2].

﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾.

أي: قُلْ لهم- يا محمَّدُ- ردًّا عليهم: ما في الدُّنيا من نِعَمٍ قليلة كيفًا وكمًّا ووقتًا، فهي محدودةٌ وفانية[3].

﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾.

أي: وما في الآخِرة من نعيمٍ أعدَّه الله تعالى للمتَّقين خيرٌ وأفضلُ ممَّا في الدُّنيا كيفًا وكمًّا ووقتًا؛ فنعيمُ الآخرة عظيمٌ، وكثيرٌ لا يُعَدُّ، وباقٍ لا يزولُ[4].

﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾.

أي: إنَّ سعيَكم للآخِرةِ ستَجِدون أجْرَه كاملًا موفَّرًا غيرَ منقوصٍ منه شيئًا[5].

= (ص: ١٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٤٤-٥٤٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٤٤-٥٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٣٣-٢٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٤٨-٥٤٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) =

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨)﴾

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ﴾.

أي: في أيِّ مكانٍ كنتم، فإنَّ الموتَ آتِيكم لا مَحالةَ، لا يَنجو منه أحدٌ منكم، سواءٌ في ذلك مَن خرَج للجِهاد في سبيلِ الله تعالى، ومَن قعَدَ عنه(١).

﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾.

أي: إنَّ الموتَ واصلٌ إليكم حتمًا، ولو تَحصَّنتم منه بالحُصونِ المنيعة العاليةِ(٢).

﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾.

أي: وإنْ ينَلِ المكذِّبين لمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، رخاءٌ وخصبٌ ورزقٌ وأولادٌ وعافيةٌ وظفَرٌ وفتحٌ وغنائمُ، وغيرُ ذلك من الخيرات؛ فإنَّهم يقولون: هذا قدْ جاء من قِبَل اللهِ تعالى ومِن تَقديرِه، وليس لك علينا في ذلك فَضلٌ يا محمَّدُ(٣).

﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾.

أي: وإنْ تنَلْهم شِدَّةٌ؛ كضيقٍ في الرِّزق وقحطٍ وجدبٍ ونقصٍ في الثَّمرات وموتِ أولادٍ وأحباب، وهزيمةٍ من عدوٍّ، وإصابةٍ بجراحٍ وآلام، وغير ذلك من

= (ص: ١٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٥٧-٥٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٥٨).

شدائدَ ومِحَنٍ، فإنَّهم يقولون: إنَّما أصابَنا ما أصابنا من بلايا بسببِ ما جئتَنا به يا محمَّدُ(١).

كما أخبر الله عن قوم فرعونَ في قولهم مثل ذلك لموسى عليه السلام؛ حيث قال سبحانه: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ [الأعراف: ١٣١].

وكما قال قومُ صالحٍ عليه السَّلام له: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ﴾ [النمل: ٤٧].

﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾.

أي: قُلْ- يا محمَّدُ- لهؤلاء القومِ: جميعُ ما أصابكم من حَسنةٍ أو سيِّئة، فهو بقضاءِ الله تعالى وقَدَرِه(٢).

﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾.

أي: عجبًا لهؤلاء القومِ؛ ما شأنُهم لا يفهمونَ حديثًا بالكلِّيَّة، ولا يَقرُبون من فَهمِه! ومن ذلك حقيقةُ أنَّ كلَّ ما أصابهم فمِن عندِ الله تعالى، بتَقديرِه ومَشيئته، لا يَقدِرُ على ذلك أحدٌ غيرُه(٣)؟!

﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (٧٩)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٥٨-٥٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٤٠-٢٤١)، ((منهاج السنة)) لابن تيمية (٥/ ١٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٥٩).

﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾.

أي: ما تُؤتاه- يا محمَّدُ- من نِعَم الدِّين والدُّنيا، فهو من فضلِ الله تعالى ورحمتِه[1].

﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾.

أي: وما ينالُك من أذًى ومكروهٍ؛ فبسببِ ذنبٍ صَدَر منك[2].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾.

أي: إنَّما بعثناك- يا محمَّدُ- رسولًا بَينَنا وبين النَّاس عامَّةً، تُبلِّغهم شرائعَ الله تعالى، وما يُحبُّه ويرضاه، وما يكرَهُه ويأباه[3].

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾.

أي: وحَسْبُك اللهُ عزَّ وجلَّ شاهدًا على أنَّه أرسَلك، وشاهدًا على إبلاغِك رِسالتَه، وشاهدًا على مَن أُرسلتَ إليهم في قَبولهم أو رَفْضِهم رسالتَك[4].

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- أنَّ الإنسانَ قد يتعجَّلُ الشَّيءَ فإذا نزَل به نكَص عنه، وهؤلاء تعجَّلوا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٦٣-٥٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٦٤).

(٤) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

القتالَ، فلمَّا أُمِروا به نكَص بعضُهم عنه؛ ولهذا قال النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام: ((لا تتمنَّوْا لقاءَ العدوِّ، واسأَلوا اللهَ العافيةَ، فإذا لقيتموهم فاصبِروا؛ فإنَّ الجنَّةَ تحت ظلال السُّيوفِ))[١].

ويتفرَّعُ من هذه الفائدةِ: أنَّه لا يَنبغي للإنسانِ أنْ يَتدخَّل في أمرٍ يَعجِزُ عن الخروجِ منه؛ لأنَّ فيه إذلالًا للنَّفْس، ووجهُه أنَّ الإنسانَ إذا شرَعَ في الشَّيء ثمَّ عجَز عنه وتأخَّر، نزَلتْ قيمتُه عند النَّاس، وقالوا: هذا رجلٌ مُتسرِّع، مُتعجِّل؛ كيف يَدخُلُ في أمرٍ، وهو لا يَعرِفُ كيف يخرُجُ منه[٢]؟!

٢- أنَّ الإنسانَ إذا كان لا يستطيعُ أن يقومَ بالجِهاد، فليُحسِن الأعمالَ أو العباداتِ الخاصَّةَ؛ لأنَّه أُمِر بها؛ لقوله: ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾[٣].

٣- التَّزهيد في الدُّنيا؛ لقوله: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾[٤].

٤- أنَّه يجبُ على الإنسانِ أنْ يَستعدَّ للموتِ؛ لأنَّه لا مفرَّ له منه، وإذا كان لا مفرَّ فلْنستعدَّ له، ولْنعمَلْ، قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ﴾[٥].

٥- ذمُّ مَن لا فِقهَ عنده؛ لقوله: ﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾، ويتفرَّعُ على ذلك: مدحُ مَن وفَّقه اللهُ للفِقه في دِين الله[٦].

٦- في قوله تعالى: ﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ أنَّه

(١) رواه البخاري (٣٠٢٤)، ومسلم (١٧٤٢) من حديث عبد الله بن أبي أوفى.
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٥٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٥٥١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٥٥٥).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٥٦٠).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٥٦٢).

يجبُ على العاقلِ الرَّشيد أن يطلُبَ فِقهَ القول دون الظَّواهر الحرفيَّة، فمن اعتاد الأخذَ بما يطفو مِن الظَّواهرِ دونَ ما رسب في أعماقِ الكلامِ، وما تغلغل في أنحائِه وأحنائِه، يبقى جاهلًا غبيًّا طول عمره(١).

٧- أنَّه يجبُ على الإنسانِ إذا أصابتْه الحسنةُ أن يُولِيَها شكرًا لله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّها منه تفضُّلًا وإحسانًا، وإذا أصابته السَّيِّئة فلْينظُرْ في نفسِه حتَّى يُحاسِبَها، ويستعتبَ فترتفعَ السَّيِّئةُ، قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾(٢)، فما أصابَ العبدَ مِن حُزنٍ وذُلٍّ وشَرٍّ؛ فبِذُنوبِه وخطاياه(٣).

٨- في قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ نفيُ الشُّؤم والتَّطيُّر وإبطالُهما؛ ليعلَمَ النَّاسُ أنَّ ما يُصيبهم من السَّيِّئات لا يصيبهم بشؤمِ أحدٍ يكونُ فيهم، وكانوا يتشاءمون ويتطيَّرون في الجاهليَّة، ولا يزال التَّطيُّر والتَّشاؤمُ فاشيًا في الجاهلين من جميع الشُّعوب، وهو مِن الخرافات الَّتي يرُدُّها العقلُ، وقد أبطلها دِينُ الفِطرة؛ قال تعالى في آلِ فرعون: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١]، فقد جعَل التَّطيُّر من الجهلِ، وفقدِ العِلم بالحقائق(٤).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- الدَّعوة إلى التَّعجُّبِ لِمَا يكونُ محَلَّ تعجُّبٍ؛ لأنَّ الاستفهامَ في الآية

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٢١٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٦٤).
(٣) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٦٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٢١٩).

للتَّعجيب، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ...﴾[1].

٢- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ...﴾ دلَّت الآيةُ على أنَّ إيجاب الصَّلاة والزَّكاة كان مقدَّمًا على إيجابِ الجهاد، وهذا التَّرتيبُ هو المُطابِق لِما في العقول؛ لأنَّ الصَّلاةَ عبارةٌ عن التَّعظيمِ لأمر اللهِ، والزَّكاةَ عبارةٌ عن الشَّفقة على خَلْقِ الله، ولا شكَّ أنَّهما متقدِّمان على الجهاد[2].

٣- ذمُّ مَن خَشِي النَّاسَ كخشيةِ اللهِ أو أشدَّ؛ لقوله: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾، وعلامةُ ذلك: أنَّ الإنسانَ يترُكُ ما أوجَب اللهُ عليه خوفًا مِن النَّاس، أو يفعَلُ المحرَّم خوفًا من النَّاس، فإنَّ هذا مذمومٌ، وقد يصِلُ أحيانًا إلى الشِّركِ بالله عزَّ وجلَّ[3].

٤- في قوله تعالى: ﴿كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ قد يُتوهَّمُ مِن ظاهرِ العَطفِ بـ(أو) الشَّكُّ، وذلك محالٌ على علَّام الغيوبِ سُبحانه؛ وجوابُ ذلك مِن وجوه:

الأوَّل: أنَّ المرادَ منه الإبهامُ على المخاطَب، بمعنى أنَّهم على إحدى الصِّفتين من المساواةِ والشِّدَّة؛ وذلك لأنَّ كلَّ خوفينِ فأحدُهما بالنِّسبة إلى الآخَرَ إمَّا أن يكونَ أنقصَ أو مساويًا أو أزيدَ، فبيَّن تعالى بهذه الآيةِ أنَّ خوفَهم مِن النَّاس ليس أنقصَ مِن خوفِهم من الله، بل بقِي، إمَّا أن يكونَ مساويًا أو أزيدَ، فهذا لا يوجِبُ كونَه تعالى شاكًّا فيه، بل يوجِبُ إبقاءَ الإبهام في هذين القِسمينِ على المخاطَبِ.

الثَّاني: أنْ يكونَ ﴿أو﴾ بمعنى الواو، والتَّقدير: يَخشونهم كخشيةِ اللهِ وأشدَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٥٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧١٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٥٣).

خشية، وليس بين هذينِ القِسمينِ منافاةٌ؛ لأنَّ مَن هو أشدُّ خشيةً فمعه من الخشيةِ مِثلُ خشيتِه من اللهِ وزيادةٌ.

الثَّالث: أنَّ هذا نظيرُ قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧]، يعني أنَّ مَن يُبصِرُهم يقولُ هذا الكلام، فكذا ها هنا، واللهُ أعلم(١).

- قَوْلُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً...﴾ فيه ذمُّ الجُبْنِ، وما في القرآن من الحضِّ على الجهادِ والتَّرغيبِ فيه، وذمِّ النَّاكِلينَ عنه والتَّارِكينَ له؛كلُّه ذمٌّ للجُبْنِ(٢).

٥- قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾، وإنَّما كانت الآخرةُ خيرًا من الدنيا لوجوهٍ:

الأوَّل: أنَّ نِعَمَ الدُّنيا قليلةٌ، ونِعَمَ الآخرة كثيرة. **والثَّاني:** أنَّ نِعَم الدُّنيا منقطعة، ونِعَم الآخرة مؤبَّدة. **والثَّالث:** أنَّ نِعَم الدُّنيا مَشُوبة بالهموم والغُموم والمكارهِ، ونِعَم الآخرة صافيةٌ عن الكدرات. **والرابع:** أنَّ نِعَم الدُّنيا مشكوكةٌ؛ فإنَّ أعظَمَ النَّاس تنعُّمًا لا يعرِفُ أنَّه كيف يكون عاقبتُه في اليوم الثَّاني، ونِعَم الآخرة يقينيَّة، وكلُّ هذه الوجوهِ توجِبُ رجحانَ الآخرةِ على الدُّنيا، إلَّا أنَّ هذه الخيريَّةَ إنَّما تحصُلُ للمؤمنين المتَّقين؛ فلهذا المعنى ذكَر تعالى هذا الشَّرطَ، وهو قوله: ﴿لِمَنِ اتَّقَى﴾(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٤٣- ١٤٤).
وقيل: (أو) على بابها من الشك في حق المخاطب، وقيل: للتخيير. وقيل: بمعنى بل. وقيل إنها للتنويه، بمعنى: أن منهم من يخشى الناس كخشية الله، ومنهم من يخشاهم خشية تزيد على خشيتهم الله. ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧١٥).

(٢) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٤٤).

٦- ذمُّ مَن اعترَض على أحكامِ الله الشَّرعيَّة، كما في هذه الآية: ﴿لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ﴾، والكونيَّةِ؛ لقوله: ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾؛ فإنَّ هذا يشمل الحُكمَ الكونيَّ والحُكم الشَّرعيَّ، فلا يجوز أن يعترِضَ الإنسانُ على أحكام الله الشَّرعيَّة، ولا على أحكام اللهِ الكونيَّة، بل عليه أن يستسلمَ، أمَّا الشَّرعيَّة فمن النَّاس مَن يستسلمُ، ومنهم مَن لا يستسلمُ، وأمَّا الكونيَّةُ فالجميعُ مستسلِمون؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد: ١٥]، فهذا السُّجودُ الكونيُّ، كلُّ إنسانٍ ذليلٌ خاضعٌ لحُكم اللهِ الكونيِّ، ولا يمكِنُ أن يُدافِعَه أبدًا(١).

٧- جوازُ التَّفضيلِ بين شَيئينِ مُتباينينِ غايةَ التَّبايُنِ؛ لقوله: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾؛ لأنَّه لا نسبةَ بين الدُّنيا والآخرة، لكن لَمَّا كانت الدُّنيا عاجلةً، والنَّفسُ مُولَعةٌ بحبِّ العاجلِ، صار التَّفضيلُ بينهما مستحسَنًا؛ فالآخرةُ خيرٌ لِمَن اتَّقى(٢).

٨- قولُه تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ جَمَع بينَ التزهيدِ في الدُّنيا، والترغيبِ في الآخِرَةِ، والحضِّ على فِعْلِ الخيرِ، والزَّجرِ عن فِعْلِ الشَّرِّ؛ إذ قولُه: ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ يَتضمَّنُ حثَّهم على كَسْبِ الخيرِ، وزَجْرَهم عن كسْبِ الشرِّ(٣).

٩- في قوله تعالى: ﴿يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ﴾ إسنادُ الإدراكِ إلى الموتِ، ويَتفرَّعُ عليها أنَّ الأسبابَ يصحُّ أن يُسنَدَ إليها الشَّيءُ، لكنْ بشرط أن يعتقدَ أنَّ هذه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٥٥) وينظر: أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٢٢).

(٣) ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ٨).

الأسبابَ لا تؤثِّرُ بنفسِها، وإنَّما هي من الله عزَّ وجلَّ(١).

١٠- جوازُ حَذْفِ ما يُعلَم، ولا يُعدُّ ذلك خلَلًا في الكلام؛ لقوله: ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾، أي: لأدرككُم الموتُ، ويَتفرَّعُ مِن هذه الفائدةِ ما يكونُ في عُقودِ البيعِ والإجارةِ والرَّهنِ والوقفِ وما أشبَهَها؛ فمثلًا: إذا قال الإنسانُ: وقفتُ هذا على فلانٍ ولو كان غنيًّا، المعنى: ولو كان غنيًّا فهو وقْفٌ عليه، وعلى هذا فيكونُ الوقفُ ثابتًا لهذا الموقوفِ عليه على كلِّ تقديرٍ(٢).

١١- تَلبيسُ أعداءِ الرُّسل على العامَّة بما يقدِّر اللهُ سبحانه من البلاءِ والامتحان؛ كالجدبِ والفَقْرِ والمَرَض إذا بعَث الرُّسل، فيكون لله الحِكمةُ فيما قدَّره ليبتليَ العبادَ، أيقبَلون أم لا؟ لكنْ يتَّخذُ أعداءُ الرُّسل مِن هذا ذريعةً للتَّنفير من الرُّسل، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾(٣).

١٢- إقرارُ المكذِّبين للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بتوحيدِ الرُّبوبيَّة، وتؤخَذُ من قولهم: ﴿فَمِنَ اللَّهِ﴾، فهم يُقرُّون بالله عزَّ وجلَّ، ويُقرُّون بأنَّ ما يحدُثُ في الكونِ فمِنَ الله، وأنَّ اللهَ هو الرَّزَّاق، وأنَّه المحيي المميتُ، يُقرُّون بهذا كلِّه، لكن لا يُقرُّون بلازمِه، وهو توحيدُ الألوهيَّةِ(٤).

١٣- بيانُ أنَّ ما يُصيبُنا من الحسناتِ فهو محضُ فضلٍ من الله؛ لقوله: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾، ويدلُّ لذلك: أنَّ الحسنةَ الَّتي تصيبُك إمَّا أن تكونَ ابتداءً، وإمَّا أن تكونَ ثوابًا، فإن كانت ابتداءً فكونُها فضلًا واضحٌ، وإن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٦٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٥٦١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

كانت ثوابًا على عمَلٍ فإنَّ توفيقَنا للعمل الَّذي كانت هذه الحَسنةُ ثوابًا له مِن الله عزَّ وجلَّ(١).

١٤- جوازُ إضافةِ الشَّيءِ إلى سَببِه؛ لقوله: ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾(٢).

١٥- في قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أنَّ الرُّسلَ عليهم الصَّلاة والسَّلامُ لا يكونون سببًا لشرٍّ يحدُثُ، هم ولا ما جاؤوا به؛ لأنَّهم بُعِثوا بصلاح الدُّنيا والآخرةِ والدِّين(٣).

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ الاستفهامُ هنا معناه التَّعجُّب(٤)، وهو تعجيبٌ لرسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن إحجامِهم عن القِتالِ مَع أنَّهم كانوا قَبلَ ذلكَ راغبِينَ فيه، حِراصًا عليه، بحيثُ كادوا يُباشرونه، كما يُنبئُ عنه الأمرُ بكفِّ الأيدي؛ فإنَّ ذلك مُشعِرٌ بكونِهم بصَددِ بَسْطِها إلى العَدوِّ بحيثُ يَكادون يَسطُونَ بهم(٥).

٢- قال تعالى: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾

- دلَّت ﴿إِذَا﴾ الفُجائيَّة على أنَّ هذا الفريقَ لم يكُنْ تُترقَّب منهم هذه الحالةُ؛ لأنَّهم كانوا يظهَرون من الحريصينَ على القتال(٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٦٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٢٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٠٣).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٢٥).

- وقوله: ﴿كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ مسُوقٌ مساقَ التَّوبيخِ لهم؛ حيث رغِبوا تأخيرَ العملِ بأمر الله بالجهاد؛ لخوفِهم من بأس المشركين؛ فالتَّشبيهُ جارٍ على طريقةِ المبالَغة؛ لأنَّ حملَ هذا الكلامِ على ظاهر الإخبار لا يلائمُ حالَهم من فضيلةِ الإيمان والهجرة(١).

- وفي قوله: ﴿كَخَشْيَةِ اللَّهِ﴾ تشبيهٌ، أي: يخشَوْنهم مشبِهين لأهلِ خشيةِ الله تعالى(٢).

٣- **قوله: ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾**: وقَع موقعَ زيادة التَّوبيخ الَّذي اقتضاه قوله: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾، أي: ولا تُنقصون شيئًا من أعمارِكم المكتوبة؛ فلا وجهَ للخوفِ، وطلبِ تأخير فرْض القتال. وقيل: معنى نفي الظُّلم هنا أنَّهم لا يُظلَمون بنقصِ ثوابِ جهادهم، فيكون موقعُه موقعَ التَّشجيع؛ لإزالة الخوف(٣).

٤- قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾

- قوله: ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ﴾ فيه حذفُ جوابِ لو؛ اعتمادًا على دَلالةِ ما قبلَهُ عليهِ، والتقدير: (وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مشيدةٍ يُدرككم الموتُ)، وجملةُ ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ...﴾ معطوفةٌ على أُخرى مِثلِها محذوفة، والتقدير: لو لم تكونوا في بُروج مُشيَّدةٍ ولو كُنتُم...إلخ، وقد اطَّردَ حذفُ الجملةِ الأولى المعطوفِ عليها؛ لدِلالة المذكورِ -أي: الجملة الثانية جملة المعطوف ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ﴾- عليها دَلالةً واضحةً؛ فإنَّ الشَّيءَ إذا تَحقَّقَ عِندَ المانِعِ، فلَأَنْ يَتحقَّقَ عِندَ عَدمِه أَوْلَى، وعلى هذِه النُّكتةِ يَدورُ ما في (لو) الوصليَّةِ من التأكيدِ والمبالغةِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٢٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٠٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٢٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٠٥).

٥- قوله: ﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ هذا استفهامٌ معناه التَّعجُّب من هذه المقالة، وهذا النَّوعُ مِن الاستفهامِ يَتضمَّنُ إنكارَ ما استُفْهِم عن عِلَّتِه، وأنَّه يَنبغي أنْ يوجَدَ مُقابِلُه(١).

- وهو كلامٌ مُعترِضٌ بين المبيَّن وبيانِه، مسُوقٌ من جِهتِه تعالى؛ لتعييرِهم بالجهل، وتقبيحِ حالهم، والتَّعجُّبِ مِن كمال غَباوَتِهم، والفاء لترتيبِه على ما قبله(٢).

٦- قوله: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ...﴾ بيانٌ للجوابِ المُجْملِ المأمورِ به في قوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾، وإجراؤُه على لِسان النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم ثمَّ سَوْقُ البَيانِ من جهتِه عزَّ وجلَّ بطَريقِ تلوينِ الخطابِ وتوجيهِه إلى كلِّ واحدٍ من النَّاسِ، والالتفاتُ لمزيدِ الاعتناءِ به، والاهتمامِ بردِّ مقالتِهم الباطلةِ(٣).

٧- قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ ﴿رَسُولًا﴾ حالٌ قُصِد بها التأكيدُ أو التَّعميمُ؛ فالتَّأكيدُ إنْ عُلِّق الجارُّ في ﴿لِلنَّاسِ﴾ بالفِعل ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾، والتَّعميمُ، إنْ علِّق الجارُّ بها، أي: رسولًا للنَّاس جميعًا، كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾(٤) [سبأ: ٢٨].

٨- قوله: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾: اعتراضٌ تذييليٌّ، وفيه التفاتٌ من الخِطابِ إلى الغَيبة-حيث لم يقل: (وكفى بإلهك أو بربِّك شهيدًا)-؛ لتربيةِ المهابةِ، وتَقويةِ الشَّهادةِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧١٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٠٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٠٥-٢٠٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٨٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٠٦).

الآيات (٨٠ - ٨٤)

﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا
(٨٠) وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ
وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (٨١) أَفَلَا
يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٨٢) وَإِذَا
جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي
الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ
لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا (٨٣) فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ
وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ
تَنكِيلًا (٨٤)﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿بَرَزُوا﴾: خرَجوا إلى الفَضاءِ، والمتَّسعِ من الأرض، وأصل (برز): ظهور الشَّيء وبُدُوُّه، ومنه سُمِّي الفضاء؛ لأنَّه ظاهرٌ، وبادٍ غيرُ خفيٍّ[١].

﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ﴾: أي: دَبَّروا وزوَّروا، أو قالوا وقدَّروا ليلًا، يقال: بيَّت فلان رأيَه: إذا فكَّر فيه ليلًا، وأصل البَيْت: مأوى الإنسان باللَّيل؛ لأنَّه يقال: بات: أقام باللَّيل، ويُطلَق أيضًا على المآبِ، ومجمَع الشَّمل[٢].

﴿يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾: يتأمَّلون في معانيه، ويتبصَّرون ما فيه؛ يُقال: تدبَّرتُ الأمرَ تَدبُّرًا، أي: نظرتُ في دُبُرِه، وهو عاقِبتُه وآخِرُه، ودَبَّرتُ الأمرَ تَدبيرًا، أي:

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٣).

فعلتَه عن فِكرٍ ورَوِيَّةٍ، وأصل (دبر): آخِرُ الشَّيء وخَلْفُه، خلافُ قُبُله[١].

﴿أَذَاعُوا بِهِ﴾: أي: أشاعُوه وأفشَوْه، وتحدَّثوا به، والإذاعة: الإفشاءُ والتَّفريق، وأصل (ذيع): يدلُّ على إظهارِ الشَّيء، وظُهورِه وانتشاره[٢].

﴿يَسْتَنْبِطُونَهُ﴾: أي: يَبْحثون ويُنقِّرون عنه ويَستخرجونه، مأخوذٌ من النَّبَطِ، وهو الماءُ يخرُجُ من البِئر أوَّلَ ما تُحفَر، وأصل (نبط): يدلُّ على استخراجِ شيءٍ[٣].

﴿بَأْسًا﴾: أي: عَذابًا، وشِدَّةً في النِّكايةِ، وأصلُ (بأس): الشدَّة وما ضاهاها[٤].

﴿تَنْكِيلًا﴾: أي: نِكايةً في العَدوِّ، وعُقوبةً وتعذيبًا، وهو مَصدَر: نكَّلَ بفُلانٍ يُنكِّل به تَنكيلًا: إذا أوجعَه عُقوبةً، وفعَلَ به ما يَمْنَعُه من المعاودةِ، ويَمْنَعُ غيرَه مِن إتيانِ مِثلِ صَنيعِه، وأصلُ (نكل): يدلُّ على مَنْعٍ وامتناعٍ[٥].

المَعْنى الإجماليُّ:

يُخبِر تعالى أنَّ كلَّ مَن أطاع رسولَه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم فقد أطاعه

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٧)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ١٨٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الطبري)) (٧/ ٢٥٥- ٢٥٦)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الطبري)) (٧/ ٢٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٢).

سبحانه، ومَن أعرَض عن طاعةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم فلن يُسأَلَ عنه، فإنَّ اللهَ لم يُرسِلْه حافظًا لِما يعمَلُ العبادُ، ولا محاسبًا لهم، وإنَّما أرسَله مبلِّغًا.

ثمَّ يُخبِرُ تعالى أنَّ المنافقين يقولون للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: سنُطيعُك ولن نعصيَك، فإذا خرَجوا مِن عنده أضمَر جماعةٌ منهم ليلًا معصيتَه، على غيرِ ما أظهَروه له مِن الطَّاعة، واللهُ يكتُبُ ما يُضمِرون، ويُخفون في أنفسِهم، ثمَّ أمَر اللهُ نبيَّه أن يُعرِضَ عن هؤلاء، وأن يتوكَّلَ عليه، وحسبُه اللهُ وكيلًا يتوكَّلُ عليه.

ثم يدعو الله تعالى إلى تدبر كتابه فيقول: أفلَا يتأمَّلُ ويتفكَّرُ هؤلاء المنافقون في القرآنِ الكريمِ؛ فتتَّضحَ لهم أدلَّتُه، وتظهَرَ براهينُه؟! ولو كان هذا القرآنُ مِن عند غيرِ اللهِ لوجَدوا فيه اختلافًا واضطرابًا كثيرًا.

ثمَّ يُخبِر تعالى أنَّ المنافقين إن أتاهم خبرٌ في مضمونِه أمنُ المؤمنين، أو فيه ما يخوِّفُهم، أشاعوه دون تثبُّتٍ مِن صحَّتِه، ولو ردُّوا هذه الأخبارَ قبل إشاعتِها إلى رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وإلى علمائِهم وأمرائِهم؛ ليرَوْا هل مِن المصلحةِ إذاعتُه أو لا! لو ردُّوها إليهم لعلِم حقيقةَ ذلك الخبرِ: الَّذين يبحثون عنه، ويُعمِلون أفكارَهم لاستخراجِ ما خَفِي مِن معانيه، ولولا فضلُ اللهِ عليكم لكنتم مثلَ المنافقين؛ فاتَّبعتُم الشيطانَ في إذاعة الأخبارِ، باستثناءِ القَليلِ من الإذاعةِ.

ثمَّ أمَر الله نبيَّه بالقتال في سبيله، مبيِّنًا أنَّه عليه ما كُلِّفَه هو، دون ما كُلِّفَه غيرُه، وأَمَره كذلك أن يرغِّبَ ويشجِّعَ المؤمنين على القتال؛ لعلَّ اللهَ أن يردَّ عنهم قوَّةَ الكَفَرة وشوكتَهم، واللهُ تعالى أشدُّ قوَّةً وصَولةً مِن أولئك الكفَّارِ، وأشدُّ عقوبةً، وأعظمُ عذابًا ونِكايةً في عدوِّه.

تفسيرُ الآيات:

﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (٨٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا نفَى اللهُ تعالى عِلَلَ المنافقين في التَّخلُّفِ عن طاعةِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم إلى أنْ ختَمَ بالشَّهادةِ برسالتِه- قال مرغِّبًا مرهِّبًا على وجهٍ عامٍّ يُسكِّنُ قلبَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، ويخفِّفُ مِن دوَامِ عصيانهم له، دالًّا على عصمتِه في جميعِ حركاتِه وسكَناته[1].

وأيضًا فهذه الآيةُ كالتَّكملةِ لقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ [النساء: ٧٩] باعتبارِ ما تضمَّنه مِن ردٍّ اعتقادِهم أنَّ الرَّسولَ مصدرُ السَّيِّئات الَّتي تُصيبُهم، ثمَّ من قوله: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ إلخ [النساء: ٧٩]، المؤذِن بأنَّ بين الخالقِ والمخلوق فرقًا في التَّأثير، وأنَّ الرِّسالة معنًى آخَرُ، فاحترَس بقوله: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] عن توهُّم السَّامعين التَّفرقةَ بين الله ورسولِه في أمور التَّشريعِ، فأثبَت أنَّ الرَّسولَ في تبليغِه إنَّما يُبلِّغُ عن اللهِ؛ فأمرُه أمرُ الله، ونهيُه نهيُ الله، وطاعتُه طاعةُ الله، وقد دلَّ على ذلك كلِّه قولُه: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾؛ لاشتمالِها على إثباتِ كونِه رسولًا، واستلزامِها أنَّه يأمُرُ وينهى، وأنَّ ذلك تبليغٌ لمرادِ الله تعالى[2].

﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾.

أي: كلُّ مَنْ أطاعَ محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم فقد أطاع اللهَ سبحانه؛ لكونِه لا يَنطِقُ عن الهوى، إنْ هو إلَّا وحيٌ يُوحَى؛ فهو لا يأمُرُ ولا ينهى إلَّا بأمرِ الله تعالى وشرعِه ووحيِه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٤٥-٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٦).

عن أبي هُريرةَ رضِي اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((مَن أطاعَني فقد أطاعَ اللهَ، ومَن عصَاني فقد عصَى اللهَ))[1].

﴿وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾.

أي: ومَن أعرَض عن طاعتِك- يا محمَّدُ- فلا عليك منه، ولا تُسأَلُ عنه، إنْ عليك إلَّا البلاغُ؛ فإنَّا لم نُرسِلْك عليهم حافظًا لِما يعمَلون ومُحاسِبًا، بل أرسلناك مبلِّغًا ومبيِّنًا وناصحًا، وقد أدَّيتَ وظيفتَك، ووجب أجرُك على الله عزَّ وجلَّ، سواءٌ أطاعوا أم أعرَضوا[2].

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (٨١)﴾.

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾.

أي: ويقولُ المنافقون لك- يا محمَّدُ-: سنُطيعك ولا يكونُ منَّا عِصيانٌ[3].

﴿فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ﴾.

أي: فإذا خرَجوا مِن عندك- يا محمَّدُ- وخلَوْا في حالةٍ لا تطَّلعُ فيها عليهم[4].

﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٧١٣٧)، ومسلم (١٨٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٨).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٣٥-١٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٩).

قال ابن عطيَّة: (قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طاعَةٌ...﴾ الآية نزلت في المنافقين باتفاقٍ من المفسِّرين) ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٩-١٠).

أي: استسَرَّ جماعةٌ منهم ليلًا فيما بينهم بغيرِ ما أظهَروه لك، وغيَّروا ما تقولُ لهم؛ واستقرَّ رأيُهم على معصيتِك[1].

ثم توعَّدهم الله على ما فعَلوا فقال:

﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾.

أي: واللهُ تعالى يحفَظُ عليهم هذا العصيانَ الَّذي بيَّتوه، وسيُجازيهم عليه أتمَّ الجزاء، فلا تحزَنْ عليهم- يا محمَّدُ- ولا تكُ في ضَيقٍ ممَّا يفعَلون، فإنَّ أمرَهم لا يخفى على اللهِ جلَّ وعلا[2].

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾.

أي: فأعرِضْ- يا محمَّدُ- عن هؤلاء المُنافِقين، وخَلِّهم وما هم عليه من الضَّلالةِ، ولا تؤاخِذْهم، ولا تخَفْ منهم، ولا تشغَلْ بالَك بهم[3].

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾

أي: واعتمِدْ أنتَ- يا محمَّدُ- على اللهِ تعالى وثِقْ به[4].

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

أي: وحَسْبُك باللهِ سبحانه وليًّا وناصرًا ومُعِينًا[5].

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٨٢)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٠-١١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٩).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا حَكَى عن المنافِقين أنواعَ مَكرِهم وكيدِهم، وكان كلُّ ذلك لأجلِ أنَّهم ما كانوا يَعتقِدون كونَه محقًّا في ادِّعاء الرِّسالة صادقًا فيه، بل كانوا يعتقدون أنَّه مُفترٍ متخرِّصٌ؛ فلا جرَمَ أمَرَهم اللهُ تعالى بأن ينظُروا ويتفكَّروا في الدَّلائلِ الدَّالَّة على صحَّةِ نبوَّتِه، فاحتجَّ تعالى بالقرآنِ على صحَّةِ نبوَّتِه[1]، فقال:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾.

أي: أفلا يتأمَّلُ هؤلاء المنافِقون معانيَ القُرآن، وينظُرون في مبادئِه وعواقِبه، ولوازمِ ذلك؛ فتظهَرَ لهم براهينُ الحقِّ، وتلوحَ أدلَّتُه، ويعلَموا حُجَّةَ اللهِ عليهم في طاعة النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، واتِّباعِ أمره[2]؟

﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾.

أي: ولو كان القرآنُ مفتعَلًا ومختلَقًا مِن عندِ أحدٍ، لاضطَرَبَتْ أحكامُه، واختلفَتِ اختلافًا كبيرًا، وتناقضت معانيه كثيرًا، وأبانَ بعضُه عن فسادِ بعضٍ[3].

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا (٨٣)﴾.

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ﴾.

أي: وإذا أتَى هؤلاء المنافِقينَ خبرٌ يتعلَّقُ بأمْنِ المؤمنين، كأمْنٍ مِن عدوٍّ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٥١)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٨٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٩-١٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٤-٣٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٦-١٧).

وغلبةٍ عليهم، أو أتاهم خَبرٌ يتعلَّق بتخوُّفِهم مِن عدوٍّ، وإصابتِه منهم[١].

﴿أَذَاعُوا بِهِ﴾.

أي: أفشَوْه، وأشاعوه على الفورِ، دون تثبُّتٍ وتحقُّقٍ من صحَّتِه أوَّلًا[٢].

﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾.

أي: ولو أَرجَعوا هذا الأمرَ قبل بثِّه، إلى رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وإلى أُمرائِهم وعلمائِهم حتَّى يكونَ رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم أو ذَوُو أمرِهم هم الَّذين يتولَّون الخبرَ عن ذلك، بعد أن ثبَتَتْ عندهم صحَّتُه أو كذبُه، إن رأَوْا في إذاعتِه مصلحةً ونشاطًا للمؤمنين، وسرورًا لهم، وتحرُّزًا من أعدائِهم، وإن رأَوْا أنَّه ليس فيه مصلحةٌ، أو فيه مصلحةٌ ولكنَّ مضرَّتَه تزيدُ على مصلحتِه، لم يُذِيعوه[٣].

﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾.

أي: لعَلِمَ حقيقةَ ذلك الخبرِ على الوجهِ المرادِ مِن الأمنِ أو الخوف، الَّذين يَبحَثون عنه، ويَستعلِمونه من معادنِه، ويَستخرجون ما خفِيَ من المعاني بفِكرِهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٣٩).

قال ابن عطية: (قوله تعالى: ﴿وَإِذا جاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ...﴾ الآية، قال جمهورُ المفسِّرين: الآية في المنافقين حسْبَمَا تقدَّم مِن ذِكرهم) ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٥٤-٢٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٣).

وممَّن قال مِن السَّلف: إنَّ المقصود بأُولي الأمْر في الآية هم العلماءُ: قَتادة، وابن جُرَيج، والحسن. انظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٥٦)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (١/ ٤٣٩).

وآرائِهم السَّديدةِ، وعلومِهم الرَّشيدةِ، حتَّى يصِلوا إلى حقيقةِ الأمرِ بإذنِ الله تعالى[(١)].

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾.

أي: ولولا إنعامُ اللهِ عليكم- أيُّها المؤمنون- بفضلِه وتوفيقِه ورحمتِه وإحسانِه، وتأديبِكم، وتعليمِكم ما لم تكونوا تعلَمون[(٢)].

﴿لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

أي: لكُنتُم مِثلَ المنافقين، فاتَّبعتم الشَّيطانَ في إذاعةِ الأخبار، باستثناءِ القليلِ مِن الإذاعةِ[(٣)].

وقيل: لاتَّبعتُم الشَّيطانَ في كلِّ ما تفعلونه إلَّا قليلًا مِن أفعالِكم وأحوالِكم[(٤)].

﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا (٨٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أمَر اللهُ تعالى بالجِهادِ، ورغَّبَ فيه أشدَّ التَّرغيبِ في الآياتِ المتقدِّمة، وذكَرَ في المنافقين قلَّةَ رغبتِهم في الجهاد، بل ذكَر عنهم شدَّةَ سعيِهم في تثبيطِ المسلمين عن الجهاد، وجميع ذلك قد أفاد الاهتمامَ بأمرِ القتال، والتَّحريضَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٦١، ٢٦٥، ٢٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٢).

عليه- عاد في هذه الآيةِ إلى الأمرِ بالجهادِ، وتهيَّأ الكلامُ لتفريع الأمرِ به[١]، فقال تعالى:

﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

أي: فجاهِدْ- يا محمَّدُ- بنفسِك أعداءَ الله؛ لإعلاءِ كلمة الله جلَّ وعلا[٢].

﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾.

أي: ليس لك قدرةٌ على غيرِ نفسِك، وإنَّما عليك ما كُلِّفْتَه، دون ما كُلِّفَه غيرُك[٣].

﴿وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: وحُضَّهم- يا محمَّدُ- على القتالِ، ورغِّبْهم فيه، وشجِّعْهم عليه[٤].

﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

أي: لعلَّ اللهَ تعالى أن يمنَعَ ويرُدَّ عنكم قوَّةَ الكافرين وشوكتَهم، وينصُرَكم عليهم بسببِ القتال في سبيلِ الله تعالى والتَّحريض عليه؛ فبالتَّحريض عليه

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٤٤-٣٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٩، ٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٩).

قال السعديُّ: (﴿وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ على القِتال، وهذا يَشملُ كلَّ أمْرٍ يَحصُل به نشاطُ المؤمنين وقوَّة قلوبهم، من تقويتِهم، والإخبارِ بضَعْف الأعداء وفَشلِهم، وبما أُعدَّ للمقاتلين من الثَّواب، وما على المتخلِّفين من العِقاب، فهذا وأمثاله كلُّه يدخُلُ في التحريض على القِتال). ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٠).

تنبعِثُ الهِمَمُ على مناجَزةِ الأعداء، والمدافعةِ عن حَوزةِ الإسلام وأهلِه(١).

﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا﴾.

أي: واللهُ تعالى أشدُّ قوةً وصَولةً من أولئك الكفَّارِ، وهو قادرٌ عليهم في الدُّنيا والآخرةِ(٢).

﴿وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا﴾.

أي: وهو سبحانه أشدُّ عقوبةً، وأعظمُ عذابًا ونِكايةً في عدوِّه، من نِكايةِ الكفَّارِ بالمؤمنين(٣).

الفَوائِد التربويَّة:

١- الانقيادُ لرسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، طاعةٌ للهِ، وانقيادٌ لحُكم اللهِ؛ إذ الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم في تبليغِه إنَّما يبلِّغُ عن الله؛ فأمرُه أمرُ الله، ونهيُه نهيُ الله، وطاعتُه طاعةُ الله؛ لذا قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾(٤).

٢- التَّحذيرُ من النِّفاقِ، وأنَّ الإنسانَ يجبُ أن يكونَ صريحًا بيِّنًا لا يَظهَرُ للنَّاسِ بوجهٍ، وإذا اختفَى عنهم أعطاهم وجهًا آخَرَ؛ ولهذا لا أحسَنَ مِن الشَّخصِ الصَّادقِ الَّذي لا يُباري ولا يُماري، ولا تأخُذُه في اللهِ لومةُ لائمٍ، وهذا هو الواجبُ على كلِّ مسلمٍ؛ أن يكونَ ظاهرُه وباطنُه سواءً، ﴿وَيَقُولُونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٦٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (٥/ ٢٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٣٥).

طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾[١].

٣- الإعراضُ عمَّن يئِسْنا من صلاحِه؛ لقوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾، ولكن لا يعني هذا إعراضًا مطلَقًا، بحيث إنَّنا لا نُعيدُ عليه الكَرَّةَ مرَّةً ثانية، وإنَّما نُعرِضُ عنه ما دُمْنا قد أيِسْنا من صلاحِه[٢].

٤- كفايةُ اللهِ سبحانه لِمَن توكَّلَ عليه؛ لقوله: ﴿وكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾، وهذا كقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[٣].

٥- الحثُّ على تدبُّرِ القُرآنِ؛ فقولُ الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ يُرشِدُنا إلى تعلُّمِ معاني القرآنِ، وتدبُّرِ تفاصيله، وما فيه من المعاني البديعةِ، وفِقهه وعَقْلِه، والتذكُّرِ به، والتفكُّرِ فيه، ولم يَستثنِ من ذلك شيئًا؛ فنفيُ الاختلافِ عنه لا يكونُ إلَّا بتدبُّره كلِّه، وإلَّا فتدبُّرُ بعضِه لا يُوجِبُ الحُكمَ بنفي مُخالِفِه، ولو تأمَّل النَّاسُ وتدبَّروا هَذْيَ القرآنِ لحصَل لهم خيرٌ عظيمٌ[٤]. وكلَّما ازداد العبدُ تأمُّلًا فيه، ازداد عِلمًا وعملًا وبصيرةً؛ لذلك أمَر الله بذلك، وحثَّ عليه، وأخبر أنَّه هو المقصودُ بإنزال القرآن[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٤).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٣٠٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٣٧-١٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٧).
(تدبُّر كتابِ الله مفتاحٌ للعلومِ والمعارف، وبه يُستنتَجُ كلُّ خيرٍ، وتُستخرَجُ منه جميعُ العلوم، وبه يزدادُ الإيمانُ في القلبِ، وترسَخُ شجرتُه؛ فإنَّه يعرِّفُ بالرَّبِّ المعبود، وما له مِن صفاتِ الكمال; وما يُنَزَّهُ عنه من سماتِ النَّقص، ويعرِّفُ الطَّريقَ الموصلةَ إليه وصِفةَ أهلها، وما لهم عند القدوم عليه، ويعرِّفُ العدوَّ الَّذي هو العدوُّ على الحقيقةِ، والطَّريقَ الموصلةَ إلى العذاب، وصِفةَ أهلِها، وما لهم عند وجودِ أسباب العقاب). ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٠).

٦- مِن فوائد التَّدبُّر لكتاب الله: أنَّه بذلك يصلُ العبدُ إلى درجةِ اليقينِ والعِلمِ بأنَّه كلامُ الله؛ لأنَّه يراه يصدِّقُ بعضُه بعضًا، ويوافق بعضُه بعضًا، فترى الحُكمَ والقِصَّةَ والإخباراتِ تُعادُ في القرآنِ في عدَّةِ مواضعَ، كلُّها متوافقةٌ متصادِقةٌ، لا ينقُضُ بعضُها بعضًا، فبذلك يُعلَمُ كمالُ القرآن، وأنَّه مِن عندِ مَن أحاط علمُه بجميعِ الأمور؛ فلذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾(١).

٧- كلُّ شيءٍ في القرآن تظُنُّ فيه التناقُضَ فيما يبدو لك فتدبَّرْه؛ حتى يتبيَّنَ لك؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ فإنْ لم يتبيَّنْ لك، فعليك بطريقِ الرَّاسخينَ في العِلْم الذين يقولون: ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾، وَكِلِ الأَمْرَ إلى مُنْزِلِه الذي يَعْلَمُه، واعلمْ أنَّ القصورَ في عِلْمِك أو في فَهْمِك، وأنَّ القُرآنَ لا تناقُضَ فيه(٢).

٨- التَّحذيرُ من التَّعجُّلِ في نشر الخبرِ، والحرصُ على عدم إذاعة الشَّيء إلَّا بعد التَّيقُّن من معناه، والمعرفةِ به؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾، وهذا إنكارٌ عليهم، وذمٌّ لهم، ثمَّ أرشَدهم إلى ما هو الأصوب(٣).

٩- خوضُ العامَّةِ في السِّياسة وأمور الحربِ والسِّلم، والأمن والخوف، أمرٌ معتادٌ، وهو ضارٌّ جدًّا إذا شُغِلوا به عن عملِهم، ويكونُ ضررُه أشدَّ إذا وقَفوا على أسرار ذلك وأذاعوا به، وهم لا يستطيعون كتمانَ ما يعلَمون، ولا يعرِفون كُنْهَ ضررِ ما يقولون، وأضَرُّه عِلمُ جواسيسِ العدوِّ بأسرار أُمَّتِهم، وما يكونُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٠).
(٢) ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ٣١٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٤، ٢٦).

وراء ذلك، ومِثلُ أمرِ الخوفِ والأمنِ وسائرِ الأمور السِّياسيَّة والشُّؤون العامَّة الَّتي تختصُّ بالخاصَّةِ دون العامَّةِ، قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾(١).

١٠- الرُّجوع إلى الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم في حياتِه، وإلى سنَّتِه بعد وفاته، وإلى أولي الأمر في نَشْرِ الأخبارِ وإذاعتِها؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾(٢).

١١- التَّعمُّق في التَّثبُّتِ، ويُؤخذُ من قوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ﴾ ولم يقُلْ: يَعلمونه، وهنا إظهارٌ في موضع الإضمار؛ لأنَّ الأصل: ولو ردُّوه إلى الرَّسول وإلى أُولي الأمرِ منهم لعلِموه، لكنَّه قال: ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ﴾، فأظهَر في موضعِ الإضمار لهذه الحِكمةِ(٣).

١٢- قوله: ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ فيه دليلٌ لقاعدةٍ أدبيَّة، وهي أنَّه إذا حصل بحثٌ في أمرٍ من الأمور ينبغي أن يولَّى مَنْ هو أهلٌ لذلك، ويُجعَل إلى أهله، ولا يُتقدَّمَ بين أيديهم؛ فإنَّه أقربُ إلى الصَّواب، وأحرى للسَّلامة من الخطأ(٤).

١٣- أنَّه يَنبغي للإنسانِ أنْ يَلجأَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ في ابتغاء الفضلِ، لا إلى غيرِه؛ لقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ﴾(٥).

١٤- وجوبُ الإخلاصِ؛ لقوله: ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، وما عدَا سبيلَ اللهِ، فيوصَفُ بأنَّه في سبيلِ الطَّاغوت؛ قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٢٤٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٨).

سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾[١] [النِّساء: ٧٦].

١٥- أنَّه لا يُكلَّفُ أحدٌ هدايةَ أحدٍ، حتَّى الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم الَّذي هو أهدى الخَلْق وأعظمُهم هدايةً، لا يمكِنُ أن يُكلَّفَ هدايةَ أحدٍ، دليلُه: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾، وعليه فإذا دعوتَ إلى اللهِ، أو أمرتَ بمعروفٍ، أو نهيتَ عن مُنكَرٍ، ولم يُستجَبْ لك، فلا حرَجَ عليك[٢].

١٦- أنَّه يجبُ على الإنسان مراعاةُ نفسِه، وقيادتُها للحقِّ؛ لأنَّه مكلَّفٌ إيَّاها؛ لقوله: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ فأنت مكلَّفٌ بنفسِك، يجب أن تجُرَّها إلى ما فيه الخيرُ، وأن تنهاها عمَّا فيه الشَّرُّ، وقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾[٣] [يوسف: ٥٣].

١٧- أنَّ مَن قام بالواجب في حقِّ نفسِه، فلا ينسَ إخوانه؛ لقوله: ﴿وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: حُثَّهم على القتالِ في سبيل الله، فإن استجابوا فذلك المطلوبُ، وإن لم يستجيبوا فقد أبرأتَ ذمَّتَك[٤].

١٨- أنَّ الكافرينَ لهم بأسٌ وقوَّةٌ، لكنَّهم تحت قوَّةِ الله؛ لقوله: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، ولكن ينبغي عدمُ الانبهارِ بقوَّةِ الأعداء؛ فإنهم ليسوا عند قدرةِ الله شيئًا[٥].

١٩- قول اللهِ تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٤).

وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ فيه تقويةٌ لقلوبِ المؤمنين؛ إذ إنَّ بأسَ اللهِ أشدُّ مِن بأس الكفَّارِ[(١)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ مِن أقوى الدَّلائلِ على أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم معصومٌ في جميع الأوامرِ والنَّواهي، وفي كلِّ ما يُبلِّغه عن الله سُبحانَه؛ لأنَّه لو أخطأَ في شيءٍ منها لم تكُنْ طاعتُه طاعةَ الله[(٢)].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ يدلُّ على أنَّ كلَّ تكليفٍ كلَّف اللهُ به في القرآن، ولم يكُنْ ذلك التَّكليفُ مبيَّنًا في القرآن، فحينئذٍ لا سبيلَ لنا إلى القيام بتلك التَّكاليف إلَّا ببيان الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم[(٣)].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ يدلُّ على أنَّه لا طاعةَ إلَّا للهِ ألبتَّةَ؛ وأنَّه تعالى هو الَّذي يُطاعُ لذاتِه، وذلك لأنَّ طاعةَ الرَّسول لكونِه رسولًا فيما هو فيه رسولٌ لا تكونُ إلَّا طاعة الله، فكانت الآيةُ دالَّةً على أنَّه لا طاعةَ لأحدٍ إلَّا لله؛ لأنَّه ربُّ النَّاس، وإلهُهم، ومَلِكُهم[(٤)].

٤- أنَّ الأصلَ فيما قاله الرَّسولُ عليه الصَّلاة والسلام أنَّه شَرْعٌ؛ لعمومِ قوله: ﴿مَنْ يُطِعْ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾[(٥)].

٥- قوله: ﴿مَنْ يُطِعْ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾ فيه الاحتجاجُ بالسُّنَّة، وأنَّها كالقُرآنِ في وجوبِ العملِ بها، ولكن نحتاجُ في السُّنَّةِ إلى إثباتِ نِسبتِها إلى

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٣٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٤٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٤٩-١٥٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٢٢٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٧).

رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لأنَّه ما دام أنَّها لم تثبُتْ فإنَّها ليست من كلامِ الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم[١].

٦- أنَّ معصيةَ الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم معصيةٌ لله، تؤخَذُ بطريق المفهوم؛ لأنَّه إذا كانت طاعتُه طاعةً لله، فمعصيتُه معصيةٌ لله عزَّ وجلَّ، قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾[٢].

٧- قول الله تعالى: ﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ﴾ قال: (بيَّت) بالتَّذكير، ولم يقل: (بيَّتَتْ) بالتَّأنيثِ؛ لأنَّ تأنيثَ (طائفة) غيرُ حقيقيٍّ، ولأنَّها في معنى الفريقِ والفَوجِ[٣].

٨- أنَّ المنافقين يَحرِصون على أنْ يُخفُوا أعمالَهم؛ ولهذا يُوقِعونها ليلًا؛ لقوله: ﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾[٤].

٩- بُطلانُ التَّقِيَّة الَّتي يتَّخذُها الرَّافضةُ دِينًا، وتؤخَذُ من تهديدِ الله عزَّ وجلَّ هؤلاء الَّذين يتظاهرون بالطَّاعة، ويُبيِّتون خلافَ الطَّاعة؛ وذلك في قوله: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾[٥].

١٠- إثباتُ العِلمِ للهِ تعالى؛ لقوله: ﴿يَكْتُبُ﴾، ولا كتابةَ إلَّا بعد عِلمٍ[٦].

١١- قول الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ في ذِكر تدبُّرِ القرآنِ دلالةٌ على أنَّ القرآنَ معلومُ المعنى؛ ففي ذلك ردٌّ على مَن قال مِن الرَّافضة: إنَّ القرآنَ لا يُفهَمُ معناه إلَّا بتفسيرِ الرَّسولِ والإمامِ المعصومِ، ولو كان كذلك لَمَا جاز أن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٥١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٢).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٣).

يأمُرَ اللهُ تعالى المنافقين بتدبُّرِ القرآن، وأن يُجعَلَ القرآنُ حُجَّةً في صحَّة نبوَّتِه، ولا أن يُجعَلَ عجزُهم عن مثلِه حُجَّةً عليهم(١).

١٢- في قولِ اللهِ تعالى: ﴿لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ المرادُ من التَّقييدِ بالكثير المبالغةُ في إثباتِ الملازَمَة، أي: لو كان من عند غيرِ الله، للزِمَ أن يكونَ فيه اختلافٌ كثيرٌ فضلًا عن القَليلِ(٢)، وإذا كانَ مِن عندِ اللهِ فلن يَجِدوا فيه اختلافًا ولو قليلًا، لكنْ قولُه: ﴿اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ بيانٌ لواقِعِ ما كان مِن عندِ غيرِ الله، وليس هذا قيدًا في أنَّه لو كانَ مِن عند الله لوَجدوا فيه اختلافًا قليلًا؛ إذ إنَّه لا اختلافَ في كِتابِ الله عزَّ وجلَّ(٣).

١٣- إثباتُ أنَّ القرآنَ كلامُ الله، يؤخَذ من قوله: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ﴾؛ فإنَّه يدلُّ على أنَّ القرآن من عندِ الله عزَّ وجلَّ، فإذا كان مِن عند الله صار صفةً من صفاتِه، ولا يمكن أن يكون مخلوقًا؛ لأنَّه صفةٌ، وصفةُ الموصوف لازمةٌ له، ليست بائنةً منه(٤).

١٤- إثباتُ العِنديَّة لله، كما في قوله: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ﴾، أي: إنَّ الشَّيءَ يكون من عنده، وهو كذلك، لكنَّ العنديَّة قد تكون صفةً، وقد تكون قُربًا؛ فقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ العنديَّةُ هذه عنديَّةُ قُربٍ؛ لأنَّهم ملائكةٌ بائنونَ عن الله عزَّ وجلَّ، وإذا قلت: القرآنُ مِن عند اللهِ، فإن هذه عنديَّةُ صفةٍ(٥).

١٥- ما جرَتْ به العادةُ في أنَّ الله عزَّ وجلَّ إذا نهى عن شيء بيَّن وجهًا آخرَ غيرَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٥٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣١٨-٣١٩).
(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٠).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مَنهيٌّ عنه؛ يؤخذ من قوله: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾(١).

١٦- قال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ مهمَّةُ الجنديِّ الطَّيِّب في الجيش المسلم، الَّذي يقودُه أميرٌ مؤمنٌ- بشَرْطِ الإيمانِ ذاكَ وحَدِّهِ- حين يبلُغُ إلى أذنيه خبرٌ، أن يسارعَ فيخبِرَ به نبيَّه أو أميرَه، لا أن ينقُلَه ويُذيعَه بين زملائه، أو بين مَن لا شأن لهم به؛ لأنَّ قيادته المؤمنةَ هي الَّتي تملِكُ استنباط الحقيقة، كما تملِكُ تقديرَ المصلحة في إذاعة الخبر- حتَّى بعد ثبوته- أو عدم إذاعته، وهكذا كان القرآنُ يربِّي، فيغرس الإيمانَ والولاء للقيادةِ المؤمنة، ويعلِّمُ نظام الجُنديَّة في آية واحدة(٢).

١٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ دلَّتْ هذه الآيةُ على أنَّ القياسَ حُجَّةٌ في الشَّرع؛ فالله تعالى أمَر المكلَّف بردِّ الواقعة إلى مَن يستنبطُ الحُكمَ فيها، ولولا أنَّ الاستنباطَ حُجَّةٌ لَمَا أُمِر المكلَّفُ بذلك؛ فثبت أنَّ الاستنباطَ حُجَّةٌ، والقياسُ إمَّا استنباطٌ أو داخلٌ فيه، فوجَب أن يكونَ حُجَّة(٣).

١٨- قول الله تعالى: ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ فيه أنَّ في أحكامِ الحوادثِ ما لا يُعرَفُ بالنَّصِّ، بل بالاستنباطِ(٤)، وأنَّ الاستنباطَ واجبٌ على العلماءِ(٥).

١٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ فيه أنَّ العاميَّ يجب عليه تقليدُ العلماء في أحكام الحوادث(٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٤).
(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٧٢٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٥٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٤٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٥٤).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٤٢).
(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٥٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٤٢).

٢٠- قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ فيه أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم كان مكلَّفًا باستنباطِ الأحكام؛ لأنَّه تعالى أمَرَ بالرَّدِّ إلى الرَّسولِ، وإلى أولي الأمر، فلم يخصُص أولي الأمرِ بذلك دون الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم(١).

٢١- أنَّه ليس أمامَنا إلَّا سبيلانِ: سبيلُ السُّنَّة والرَّشاد، وسبيلُ الضَّلال؛ لقوله: ﴿لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ﴾، فإذًا: لا يوجدُ إلَّا الحقُّ أو الضَّلالُ؛ قال الله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢]، وفي هذا ردٌّ على المعتزلةِ القائلين بالمنزلةِ بين منزلتينِ(٢).

٢٢- أنَّ محلَّ التَّحريضِ للقِتال- أي: قِتالِ المشركين- هم المؤمنون؛ لأنَّه لم يقُلْ: حرِّض النَّاس، بل قال: ﴿حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ فالمؤمنُ هو الَّذي ينفع فيه التَّحريضُ على القتالِ في سبيل الله(٣).

٢٣- أنَّه مهما بذَلْنا من الجهدِ والجهاد والإعداد فإنَّ الأمرَ بيدِ الله؛ لقول الله تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، يعني: بعد اجتهادِك وتحريضِك المؤمنينَ على القتال واستعدادِكم وإعدادِكم، الأمرُ بيدِ الله(٤).

٢٤- الاستدلالُ لأهلِ السُّنَّة بأنَّ أعمالَ العباد مخلوقةٌ لله عزَّ وجلَّ، وتؤخَذ من قوله: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، فنسَب ذلك إليه، مع أنَّه يأتي بفِعْل المؤمنين، لكن نسَبه اللهُ إليه، وأحيانًا يأتي بغيرِ فِعل المؤمنين، مثل قوله تبارك وتعالى في سورة الأحزاب: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٥٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥][١].

٢٥- ﴿عَسَى﴾ مِنَ الله في القُرآن واجبةٌ؛ أي: واقعةٌ حتمًا، وليستْ للترجِّي؛ لأنَّ الخلق هم الذين تعرض لهم الشكوك والظنون، والله تعالى منزَّهٌ عن ذلك[٢].

٢٦- إثبات البأسِ والتَّنكيلِ للهِ عزَّ وجلَّ، قال تعالى: ﴿والله أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا﴾[٣].

بَلاغةُ الآيات:

١- قوله: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾

- فيه التعبيرُ عنه صلَّى الله عليه وسلَّم بالاسم الظاهر ﴿الرَّسولَ﴾ دونَ التعبيرِ بضَميرِ الخِطابِ- حيثُ لم يَقُلْ: (يُطِعْكَ)-؛ للإيذانِ بأنَّ مَناطَ كونِ طَاعتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم طاعةً له تعالى، ليس خُصوصيَّةَ ذاتِهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، بل مِن حَيثيَّةِ رسالَتِه[٤].

- وإظهارُ لفظِ الجلالةِ (الله)؛ لتربيةِ المهابةِ، وتأكيدِ وُجوبِ الطَّاعةِ بذِكرِ عُنوانِ الألوهيَّةِ[٥].

٢- قوله: ﴿وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾: خبرٌ فيه تعريضٌ بهم، وتهديدٌ لهم بأنْ صَرَفه عن الاشتغالِ بهم، فيُعلَم أنَّ اللهَ سيتولَّى عِقابَهم[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٩)، ((قواعد التفسير)) للسبت (ص: ٢٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٠٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٣٥).

- وفيه التفاتٌ؛ حيث خاطَب النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالإعراضِ عن المتولِّين والمُعرضينَ عن طاعةِ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على طريقةِ الالتفاتِ مِن الغَيبةِ ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ﴾ إلى الخطابِ ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾، مبالغةً في التَّحريضِ والحثِّ عليه(١).

٣- قوله: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾

- تنكيرُ ﴿طَاعَةٌ﴾؛ للتَّعظيم بالتَّعميمِ(٢)، ورفعُها يدلُّ على ثباتِ الطَّاعةِ واستقرارِها، أي: إنَّ كلَّ طاعةٍ منَّا لك دائمًا، نحن ثابتونَ على ذلك(٣).

- قوله: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ فيه: التهديدُ بإعلامِهم أنَّه لن يُفلِتَهم من عقابِه، فلا يَغُرَّنَّهم تأخُّرُ العذابِ مدَّةً(٤).

- والتعبيرُ بصِيغة المضارِعِ في قوله: ﴿يَكْتُبُ﴾ فيه دَلالةٌ على تجدُّدِ ذلك، وأنَّه لا يُضاع منه شيءٌ(٥).

٤- قوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾: فيه إظهارُ الجَلالةِ في مقامِ الإضمارِ؛ للإشعارِ بعِلَّة الحُكمِ(٦)، مع ما فيه مِن تربيةِ المهابةِ والجلالِ.

٥- قوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾: الاستفهامُ يُرادُ به الإنكارُ والاستقباحُ؛ لعدم تدبُّرهم للقُرآن الكريمِ، فهو استفهامٌ إنكاريٌّ للتوبيخِ والتعجُّبِ منهم في

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٣٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٥٠).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٣٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٣٥).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٠٧).

استمرارِ جهلِهم، مع توفُّرِ أسباب التدبُّرِ لدَيهم، وإعراضِهم عن التأمُّل فيما فيه من مُوجِباتِ الإيمان[١].

٦- قوله: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾: كلامٌ مسوقٌ مساقَ التوبيخِ للمُنافقين، واللَّوم لِمَن يَقبَلُ مِثلَ تلك الإذاعة مِن المسلمين الأغرارِ[٢].

- والباء في قولِه: ﴿أَذَاعُوا بِهِ﴾ مزيدةٌ لتوكيدِ اللُّصوق؛ كما في: ﴿وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ﴾[٣] [المائدة: ٦]، أو لتضمُّن الإذاعةِ معنى التَّحدُّث[٤].

٧- قوله: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: فيه تلوينٌ للخطاب، وتوجيهٌ له إلى رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بطريق الالتفات، وهو جوابُ شرط محذوفٌ يَنساقُ إليه النَّظمُ الكريم، أي: إذا كان الأمرُ كما حُكي مِن عدمِ طاعة المنافقين وكَيدِهم، وتقصيرِ الآخَرين في مراعاةِ أحكامِ الإسلام، فقاتِلْ أنتَ وحْدَك غيرَ مكترِثٍ بما فعلوا[٥].

٨- قوله: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ هذا الأسلوبُ طريقٌ من طُرق الحثِّ والتحريض لغير المخاطَب؛ لأنَّه إيجابُ القِتالِ على الرسول، وقد عُلِم إيجابُه على جميع المؤمنينَ بقوله: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ [النساء: ٧٤]؛ فهو أمرٌ للقُدوةِ بما يجب اقتداءُ الناسِ به فيه، وبيَّن

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣١٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٠٩).

لهم عِلَّةَ الأمر، وهي رجاءُ كفِّ بأسِ المشركينَ[١].

٩- قوله: ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا﴾ الجملةُ اعتراضٌ تذييليٌّ مُقرِّر لِمَا قبلها[٢]، وهي جملةٌ خبريَّة، مرادٌ بها التقريعُ والتَّهديد[٣].

- وإظهار الاسم الجليل ﴿الله﴾؛ لتربيةِ المهابة، وتعليلِ الحُكم، وتقويةِ استقلال الجملة[٤].

- وتكرير الخبر (أشدُّ- وأشدُّ)؛ لتأكيد التَّشديد[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٤٣).

(٣) ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٤٣).

(٥) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

الآيات (٨٥ - ٨٧)

﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿يَشْفَعْ شَفَاعَةً﴾: شفَع لفُلانٍ إذا جاء مُلتَمِسًا مَطلبَه، ومُعينًا له، والشَّفاعةُ: الانضمامُ إلى آخَرَ؛ نُصرةً له، وسؤالًا عنه، وأصْلُ الشَّفْع: ضمُّ الشَّيء إلى مِثلِه(١).

﴿كِفْلٌ﴾: أي: نصيبٌ، وأَصْل (كفل): يَدلُّ على تَضَمُّنِ الشَّيءِ للشَّيءِ(٢).

﴿مُقِيتًا﴾: أي: قَدِيرًا ومُقْتدِرًا، وقيل: شاهِدًا وحافِظًا، وحقيقتُه: القائِمُ على كلِّ شيءٍ يَحفظُه ويُقيتُه. وأصلُ (قوت): يَدلُّ على قُدرةٍ على الشَّيءِ، والإمساكِ، والحِفظِ(٣).

﴿حَسِيبًا﴾: أي: رقيبًا، وكَافِيًا ومُقتدرًا، وعالِمًا ومحاسبًا، ومنه: أَحْسَبَني هذا الشَّيءُ، أي: كفاني(٤).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٧).

(٢) ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٢) ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩٧) ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٨٧).

(٣) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٢)، ((تفسير الطبري)) (٧/ ٢٧١- ٢٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٥، ٨٧٩).

(٤) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٩٨، ٤١٣).

المَعْنى الإجماليُّ:

يُخبِر تعالى أنَّ مَن يسعَ لمعاونةِ غيرِه في أمرٍ من الأمورِ فيه منفعةٌ وخيرٌ لذلك الغَيْرِ، فإنَّ للساعي حظًّا من ثوابِ الله تعالى، ومَن يسعَ في معاونة غيره على أمرٍ من أمور الشَّرِّ يكُنْ عليه جزءٌ من الإثمِ والوِزر المترتِّبِ على سَعيِه ونيَّته، وكان الله على كل شيءٍ مقتدرًا، وهو على كلِّ شيء حفيظٌ وحسيبٌ.

ثمَّ يأمر اللهُ تعالى مَن حُيِّي بتحيَّةٍ أن يرُدَّ بتحيةٍ أحسَنَ ممَّا حُيِّيَ بها، أو يكون الرَّدُّ بمثلها، إنَّ اللهَ كان على كلِّ شيءٍ- مِن طاعةٍ أو معصيةٍ- حفيظًا ومحصيًا، حتَّى يجازيَ فاعلَها عليها.

ثمَّ يقرِّرُ اللهُ تعالى أنَّه لا معبودَ بحقٍّ إلَّا هو سبحانه وتعالى، وأنَّه سيحشُر جميعَ الخَلْق إلى موقفِ الحسابِ، لا شكَّ أبدًا أنَّ ذلك الجمعَ واقعٌ، فإنَّه لا أحدَ أصدقُ من الله تعالى في حديثِه وخبَرِه ووعدِه ووعيدِه.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا (٨٥)﴾.

﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً﴾.

أي: مَن يَسعَ في معاونةِ غيرِه بما يجلِبُ له النَّفعَ والخير، ويدفعُ عنه الضُّرَّ والشَّرَّ[1].

﴿يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٦٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٦٤-٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩١).

أي: يكُنْ له حظٌّ من ثواب الله تعالى(١).

عن أَبِي موسى الأشعري رضِي اللهُ عنه، قال: ((كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا جاءَه السائلُ، أو طُلِبَتْ إليه حاجَةٌ، قال: اشفَعوا تؤجَروا، ويَقضي اللهُ على لسانِ نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما شاء))(٢).

﴿وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً﴾.

أي: ومَن يَسعَ في مُعاونةِ غيرِه على أمرٍ من الشَّرِّ(٣).

﴿يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا﴾.

أي: يكُنْ عليه وِزرٌ وإثمٌ مِن ذلك الأمرِ الَّذي تَرتَّبَ على سَعيِه ونيَّتِه(٤).

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى على كلِّ شيءٍ قديرٌ، وحفيظٌ وحسيبٌ، فيُجازي كُلًّا بما يستحقُّه(٥).

﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا (٨٦)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩١).

(٢) رواه البخاري (١٤٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٧-٣٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٨).

مناسبة الآية لما قبلها:

لمَّا أمَر الله المؤمنِينَ بالجهادِ أمرهم أيضًا إذا رضي الأعداءُ بالمسالمةِ أن يكونوا هم أيضًا راضين بها، فقولُه: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ كقولِه تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١].

وأيضًا لما كان الرجلُ في الجهادِ يلقاه الرجلُ في دارِ الحربِ أو ما يقاربُها فيسلِّم عليه، فقد لا يلتفتُ إلى سلامِه عليه ويقتلُه، وربَّما ظهَر أنَّه كان مسلمًا، فمنع الله المؤمنينَ عنه، وأمَرهم أن يقابلوا كلَّ مَن يسلِّم عليهم، ويكرمُهم بنوعٍ مِن الإكرامِ- أن يقابلوه بمثلِ ذلك الإكرامِ أو أزيدَ(١).

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ﴾.

أي: وإذا سُلِّم عليكم بسلامٍ، وحُيِّيتم بأيِّ تحيةٍ كانت، أو دُعِي لكم بطولِ الحياةِ والبَقاء(٢).

﴿فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾.

أي: فرُدُّوا التَّحيةَ والسَّلام، وادْعُوا لِمَن دعَا لكم بأحسَنَ ممَّا حيَّاكم ودعا لكم به وأفضَلَ، لفظًا وبَشاشةً، أو رُدُّوا عليه بمثلِ دُعائِه وتحيَّتِه(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٦٦).

قال القاسمي: (نكتةُ نظمِها مع آياتِ الجهادِ هو التمهيدُ لمنعِ المؤمنين مِن قتلِ مَن ألقَى إليهم السَّلام في الحربِ الآتي قريبًا، ببيانِ أنَّ لكلِّ مسَلِّم حقًّا يؤدَّى إليه؛ وذلك لأنَّ السَّلام نوعٌ مِن الإكرام. والمكرَم يُقابَل بمثلِ إكرامِه أو أزيدَ). ((تفسير القاسمي)) (٣/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٧٣)، ((الوجيز)) للواحدي (١/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٩-٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٩-٤١).

عن أبي هُرَيرةَ رضِي اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((خلَق اللهُ آدمَ على صورتِه، طولُه ستُّونَ ذراعًا، فلمَّا خلَقه، قال: اذهبْ فسلِّمْ على أولئك؛ نفرٍ من الملائكةِ جلوسٍ، فاستمِعْ ما يُحيُّونك؛ فإنَّها تحيَّتُك وتحيَّةُ ذرِّيَّتِك، فقال: السَّلامُ عليكم، فقالوا: السَّلامُ عليك ورحمةُ اللهِ، فزادوه: ورحمةُ اللهِ، فكلُّ مَن يدخلُ الجنَّةَ على صورةِ آدمَ، فلم يزَلِ الخَلْقُ ينقُصُ بعدُ حتَّى الآن))(١).

وعن عِمرانَ بن الحُصين رضِي اللهُ عنه، قال: ((جاءَ رجلٌ إلى النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ: السَّلامُ عليكُم، فردَّ عليهِ ثمَّ جلَسَ، فقالَ النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ: عشرٌ، ثمَّ جاءَ آخرُ فقالَ: السَّلامُ عليكُم ورحمةُ اللَّهِ، فردَّ عليهِ ثمَّ جلسَ، فقالَ: عِشرون، ثمَّ جاءَ آخرُ فقالَ: السَّلامُ عليكُم ورحمةُ اللَّهِ وبرَكاتُهُ، فردَّ عليهِ فجلسَ، فقالَ: ثلاثونَ))(٢).

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ على كلِّ شيءٍ ممَّا يعمَل النَّاسُ من طاعةٍ أو معصيةٍ حفيظٌ ومُحْصٍ له، حتَّى يجازيَهم به(٣).

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا (٨٧)﴾.

---

(١) رواه البخاري (٦٢٢٧).

(٢) رواه أبو داود (٥١٩٥)، والترمذي (٢٦٨٩)، وأحمد في ((المسند)) (١٩٩٤٨)، والدارمي (٢٦٨٢).

قال الترمذيُّ: حسن صحيح غريب من هذا الوجه. وحسن إسناده البيهقي في ((شعب الإيمان)) (٨٤٨٠)، وقوى إسناده ابن حجر في ((فتح الباري)) (١١/ ٨)، وحسَّنه الألبانيُّ في ((تخريج المشكاة)) (٣/ ١٣١٨). وقال الوادعي في ((الصحيح المسند)) (١٠٢٩): حسن على شرط مسلم.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٠، ٤٢).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّ الله تعالى لَمَّا ذكَر قولَه: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٨٦]، تلاه بالإعلام بوحدانيَّة الله تعالى، والحشْرِ، والبَعثِ مِن القُبور للحساب[١]، فقال:

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى وحْدَه هو المعبود بحقٍّ، فلا يستحقُّ العبادةَ إلَّا هو سبحانه[٢].

﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾.

أي: واللهِ ليحشرَنَّكم اللهُ تعالى جميعًا إلى موقِفِ الحساب، فيجمَعُ أوَّلَكم وآخِرَكم في صعيدٍ واحد، فيُجازي كلَّ عاملٍ بعمله[٣].

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

أي: لا شكَّ بوجهٍ من الوجوه في حقيقةِ أنَّ الله عزَّ وجلَّ سيجمَعُ النَّاسَ يوم القيامة بعد مماتهم[٤].

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾.

أي: لا أحدَ أصدقُ منه في حَديثِه وخَبرِه، ووعْدِه ووعِيدِه سبحانه؛ فحديثُه وأخبارُه وأقوالُه في أعلى مراتبِ الصِّدقِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٧٩-٢٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٦).

الفَوائد التربويَّة:

١- الحثُّ على التَّعاونِ على البِرِّ والتَّقوى؛ وذلك بإعطاءِ المتعاونين نصيبًا من الأجرِ على ما تعاونوا عليه، قال تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا﴾(١).

٢- الزجرُ عن التعاون على الإثم والعدوانِ، فمن مَن شارَك في عملٍ سيِّئٍ، كان له نصيبٌ منه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا﴾(٢).

٣- التَّحذيرُ مِن الشَّفاعةِ السَّيِّئة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا﴾(٣).

٤- أنَّ اللهَ سبحانه مُقِيتٌ على كلِّ شيء، أي: مقتدرٌ عليه، ويلزَمُ مِن هذا أن يحذَرَ الإنسانُ من مخالَفةِ الله؛ لأنَّ الله تعالى حفيظٌ عليه ومقتدِرٌ عليه: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا﴾(٤).

٥- قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ فيه أنَّ الردَّ على المسلم يكونُ بأحسنَ مِن سلامِه أو بما يماثله(٥)، وفي ذلك إشارةٌ إلى حُسنِ العِشرة وآدابِ الصُّحبة، وأنَّ مَن حمَّلك فضلًا زِدتَ على فِعلِه، وإلَّا فلا تنقُصْ عن مِثْله(٦).

٦- يتبيَّنُ من قوله تعالى: ﴿وَإِذا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْها أَوْ رُدُّوها﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٨).
(٢) يُنظر: ((المصدران السابقان)).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٤٦).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٣٤).

المحاولةُ الدَّائمة لتوثيق علاقاتِ المودَّة والقُربى بين أفرادِ الجماعةِ المسلِمة، وإفشاءُ السَّلامِ والرَّدُّ على التَّحيَّة بأحسنَ منها، من خيرِ الوسائلِ لإنشاءِ هذه العلاقات وتوثيقِها[١].

٧- ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ إنَّه من توحيدِ الله- سبحانه- وإفرادِه بالألوهيَّة تبدأُ خُطُواتُ المنهج الرَّبَّانيِّ- سواءٌ في تربية النُّفوس، أم في إقامةِ المجتمع، ووَضْع شرائعه وتنظيمِه، وسواءٌ كانت هذه الشَّرائعُ متعلِّقةً بالنِّظام الدَّاخليِّ للمجتمع المسلِم، أم بالنِّظام الدَّوليِّ، الَّذي يتعامَلُ هذا المجتمعُ على أساسِه مع المجتمعاتِ الأخرى[٢].

الفوائد العلميَّة اللَّطائف:

١- قال تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا﴾ من العِبرَةِ في الآيةِ أن نتذكَّرَ بها أنَّ الحاكمَ العادلَ لا تنفعُ الشَّفاعةُ عنده إلَّا بإعلامِه ما لم يكُنْ يعلَمُ من مظلِمةِ المشفوعِ له، أو استحقاقِه لِما يُطلَب له، ولا يقبَلُ الشَّفاعة لأجل إرضاءِ الشَّافعِ فيما يُخالِفُ الحقَّ والعدلَ، وينافي المصلحةَ العامَّة[٣].

٢- الأمرُ بردِّ السَّلام في قوله: ﴿فَحَيُّوا﴾، يُفيد وجوبَ الرَّدِّ؛ لأنَّ أصلَ صيغةِ الأمرِ أن تكونَ للوجوبِ[٤].

٣- أنَّ ردَّ التَّحيَّة يكونُ على وجهين؛ مجزِئٍ وأفضلَ: فالمجزِئُ مأخوذٌ من قوله: ﴿أَوْ رُدُّوهَا﴾، والأكملُ والأفضل من قوله: ﴿بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾، وقُدِّم

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٧٢٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٧٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٢٥١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٠).

الأحسنُ على المِثل؛ لأنَّه أكملُ وأفضلُ، فتقديُم قولِه: ﴿بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ ذلك أفضلُ[1].

٤- مراعاة الإسلامِ للعدل؛ لقوله: ﴿فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾[2].

٥- أنَّه لا يُجزئُ الرَّدُّ بغير السَّلام، فإذا قال المسلم: السَّلام عليك، فقلت: أهلًا وسهلًا، فلا يُجْزئ؛ لأنَّ هذه التَّحيَّةَ ليست مِثلَها ولا أحسنَ منها؛ إذ إنَّ قولَ المسلم: السَّلام عليكم، دعاءٌ لك بالسَّلامةِ مِن كلِّ الآفات البدنيَّة والماليَّة والقلبيَّة وغيرِها[3].

٦- يُستفادُ مِن قوله تعالى: ﴿فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾، أنَّه يُطلَب من المُسَلَّمِ عليه أن يرُدَّ بأكمَلَ، إمَّا بالكمِّيَّة وإمَّا بالكيفيَّة، فإذا قال: السَّلام عليك. فالأحسنُ: عليك السَّلامُ ورحمة الله، هذا بالكمِّيَّة. أمَّا الكَيفيَّة: فإذا قال: السَّلام عليك، بصوت مرتفعٍ مسموعٍ يدلُّ على التَّواضعِ فقلت: عليك السَّلام، بصوت مثلِه أو أبينَ فهذا ردٌّ صحيحٌ بالكيفيَّة[4].

٧- يُؤخذ من الآيةِ الكريمةِ ﴿فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾: الحثُّ على ابتداءِ السَّلام والتَّحيَّة من وجهين: أحدهما: أنَّ اللهَ أمَرَ بردِّها بأحسَنَ منها أو مثلِها؛ وذلك يستلزمُ أنَّ التَّحيَّة مطلوبةٌ شرعًا، الثَّاني: ما يستفاد من أفعل التَّفضيلِ، وهو (أحسن) الدَّالُّ على مشاركة التَّحيَّة وردِّها بالحَسن، كما هو الأصلُ في ذلك[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩١).

٨- لَمَّا صار لفظُ السَّلامِ تحيَّةَ المسلمين صارتِ التَّحيَّةُ به عنوانًا على الإسلامِ؛ كما في قوله تعالى من هذه السُّورة: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾(١) [النساء: ٩٤].

٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ الفاء في قوله (فحيُّوا) تفيد أنَّ الرَّدَّ يكونُ على الفَوْرِ(٢).

١٠- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾، فِعل (كان) يدلُّ على أنَّ ذلك الوصفَ وصفٌ مقرَّرٌ أزليٌّ(٣).

١١- أنَّ من أسماء الله الحسيب، فهو عزَّ وجلَّ حسيبٌ على كلِّ شيء؛ يحاسِبُ كلَّ مَن عمل عملًا بما يقتضيه عملُه، ويكفي مَن توكَّل عليه، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾(٤).

١٢- التَّوحيدُ والإيمان بالبعث والجزاء في الدَّار الآخرة هما الرُّكنانِ الْأَوَّلانِ للدِّينِ، وإنَّما الرُّسلُ يُبلِّغون النَّاسَ ما يجبُ مِن إقامتِهما ودعمِهما بالأعمال الصَّالحة، قال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾(٥).

١٣- قول الله تعالى: ﴿يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ القيامة والقِيام بمعنًى واحدٍ، وقيل: دخلتِ الهاءُ للمبالغة لشدَّةِ ما يقعُ فيه من الهولِ(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٢٥٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٥١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٤٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٢)، ((صفات الله عز وجل)) لعلوي السقاف (ص: ١٤٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٢٥٨).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦، ٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٥٣).

١٤- إثبات الكلامِ لله عزَّ وجلَّ، يؤخَذ من قوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾، مِن قوله: ﴿أَصْدَقُ﴾ ومن قوله: ﴿حَدِيثًا﴾، والصِّدقُ إنَّما يوصَفُ به الكلامُ، والحديثُ هو الكلام، وعلى هذا فيكونُ إثباتُ كلامِ الله عزَّ وجلَّ من الكلمتينِ جميعًا(١).

١٥- وجوبُ الإيمانِ بما أخبَر اللهُ به عن نفسِه، وعن أمورِ الغيبِ كلِّها؛ لقوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ﴾، فإذا أخبر اللهُ عن نَفْسِه بشيء، أو عن الأمور الغائبةِ بشيءٍ، وجَب علينا تصديقُه؛ فكلامُه وخبره صِدقٌ لا كذِبَ فيه بوجهٍ من الوجوه؛ لقوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ﴾ أي: مِن اسم التَّفضيل؛ لأنَّ اسمَ التَّفضيلِ يجعَلُ المفضَّل في قمَّةِ الوصف، وعلى هذا فليس في كلامِ الله سبحانه تعالى شيءٌ من الكذِبِ إطلاقًا(٢).

١٦- وصفُ كلامِ اللهِ تعالى بالحَديثِ؛ لقوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ وهو كذلك(٣).

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا﴾

- قوله: ﴿نَصِيبٌ مِنْهَا﴾ و﴿كِفْلٌ مِنْهَا﴾: فيه مناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيثُ عبَّر عنِ الجزاءِ في جانبِ الشَّفاعة الحسنةِ بأنَّه ﴿نَصِيبٌ﴾؛ إيماءً إلى أنَّه قد يكونُ له أجرٌ أكثرُ مِن ثوابِ مَن شفَع عندَه، وعبَّر بـ﴿كِفْل﴾ عن الجزاءِ في جانبِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٨).

الشَّفاعة السيِّئة؛ إشارةً إلى أنَّ مَن يَشفَعُ شفاعةً سيِّئةً يكون له نصيبٌ من وِزْرِها مُساوٍ لها في المِقْدارِ من غَيرِ أنْ يَنقُصَ منه شيءٌ؛ فالنصيبُ هو الحظُّ مِن كلِّ شيءٍ، والكِفلُ الحظُّ كذلك، ويُستعمَلُ الكِفلُ بمعنى المِثلِ؛ فيُؤخذُ من ذلك: أنَّ الكفلَ هو الحظُّ المماثِلُ لحظٍّ آخَر[1]. وقيل: عبَّر بـ﴿كِفْلٌ﴾ عن الجزاءِ في جانبِ الشَّفاعة السيِّئة؛ لأنَّه يُفهَم منه النَّصيبُ ويُفهَمُ أكثرُ مِنه؛ تغليظًا في الزَّجرِ؛ إذ الكِفلُ اسمٌ للنَّصيبِ الذي عليه يَكونُ اعتمادُ الناسِ، في تَحصيلِ المصالحِ لأنفسِهم، ودَفْع المفاسِدِ عن أنفسِهم؛ والغَرضُ من قوله: ﴿كِفْلٌ مِنْهَا﴾ التنبيهُ على أنَّ الشفاعةَ المؤدِّيةَ إلى سُقوطِ الحقِّ وقوَّةِ الباطلِ تكونُ عَظيمةَ العِقابِ عِندَ اللهِ تعالى[2].

٢- **قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا﴾**: تذييلٌ لجملة ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً﴾؛ لإفادةِ أنَّ الله يُجازي على كلِّ عملٍ بما يناسبه مِن حُسنٍ، أو سوءٍ[3].

٣- **قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾**: تذييلٌ لقصدِ الامتنانِ بهذه التعليماتِ النافعة، وقيل: في هذا التَّذييلِ وَعْدٌ بالجزاءِ الحَسَنِ على قَدْرِ فَضْلِ ردِّ السَّلامِ، أو بالجزاءِ السَّيِّئ على ترْك الردِّ مِن أصلِه[4]، فهو ترغيبٌ وترهيبٌ، أو للتَّحذيرِ مِن عَدمِ ردِّ التَّحيَّة بمثلِها أو أحسَنَ، فيُحْذَر من التعرُّض لمحاسبةِ الله عزَّ وجلَّ الذي هو على كلِّ شيءٍ حسيبٌ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٤٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٤٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٤٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ١٤٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٢).

- وقد أُكِّد وصفُ الله تعالى بأنَّه حسيبٌ بمؤكِّدين: حرف (إنَّ)، وفِعل (كان) الدالِّ على أنَّ ذلك وصفٌ أزليٌّ(١).

٤- **قوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾**: استئنافٌ ابتدائيٌّ، جمَع تمجيدَ الله، والتهديد، والتحذيرَ من مخالَفَة أمْرِه، والتَّقرير للإيمانِ بيومِ البَعثِ، والردَّ لإشراكِ بعضِ المنافقينَ وإنكارِهم البعثَ(٢).

- وجملة ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ إمَّا خبرٌ للمبتدأِ ﴿اللَّهُ﴾، وإمَّا اعتراضٌ، والخبرُ جُملةُ ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾؛ وجِيءَ بالاعتِراضِ لتَمجيدِ اللهِ عزَّ وجلَّ(٣).

- وقوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ جوابُ قَسمٍ محذوفٍ، واقِعٌ جميعُه موقعَ الخبرِ عن اسمِ الجلالة ﴿الله﴾، وأُكِّد هذا الخبر: بلام القَسَم، ونون التوكيد دلالةً على تقديرِ القَسَم؛ لإنكارِ المنكِرين ليوم القيامة؛ لتقويةِ تحقيقِ هذا الخبر؛ إبطالًا لإنكار الذين أنكروا البعثَ(٤).

- وقوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ لَمَّا كان التَّدريجُ بالإماتة شيئًا فشيئًا، عبَّر بحرفِ الغاية (إلى)؛ فالمرادُ ليجمعَنَّكم في الموتِ أو القُبورِ إلى يومِ القيامة(٥).

٥- **قوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾** هذا استفهامٌ معناه النَّفيُ، والتَّقدير: لا أحدَ أصدقُ مِن الله حديثًا(٦)؛ فالاسْتِفهامُ عن أنْ يَكُونَ أَحَدٌ أَصدَقَ مِنَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٤٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ١٤٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٤٨).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٤٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٥٣).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧).

اللَّهِ تعالى هوَ اسْتِفهامٌ إنْكَارِيٌّ؛ فهو إنكارٌ أنْ يكونَ أحدٌ أكثرَ صِدقًا منه؛ فإنَّه لا يتطرَّق الكذبُ إلى خبرِ الله تعالى بوجهٍ؛ لأنَّ الكذبَ نقصٌ، وهو على اللهِ تعالى مُحالٌ[1].

– وفي قوله: ﴿حَدِيثًا﴾ تتميمٌ؛ حيث أَتْبَعَ الكلامَ بهذه الكلمة التي تَزيدُ المعنى تمكُّنًا وبيانًا للمعنى المراد[2].

---

(١) يُنظَر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٢٥١).

الآيات (٨٨ - ٩١)

﴿ ۞ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾ ﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿فِئَتَيْنِ﴾: فِرْقَتينِ مُختلفتينِ، مُثنًّى فِئة، وهي: الجماعة المُتظاهرةُ الَّتي يرجِع بعضُهم إلى بعضٍ في التعاضُد(١).

﴿أَرْكَسَهُمْ﴾: نَكَّسَهم وردَّهم في كُفرِهم، وأصل الرِّكْسِ: قلبُ الشَّيءِ على رأسِه، وردُّ أوَّله إلى آخره(٢).

﴿يَصِلُونَ﴾: يَنتسِبون، أو يتَّصلون بقوم، مِن قولِهم: اتَّصَلَ الرَّجلُ، بمَعْنَى: انْتَمَى

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٠١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٣) ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٢).

وانْتَسَب، ويُقال: فلانٌ مُتَّصِلٌ بفلان: إذا كان بينهما نِسْبة أو مُصاهرةٌ، والوصلُ: ضِدُّ الهِجرانِ، وأصل (وصل): يدُلُّ على ضَمِّ شيءٍ إلى شيءٍ حتَّى يَعلَقَه(١).

﴿مِيثَاقٌ﴾: أي: عقدٌ وعَهْدٌ مؤكَّد بيمينٍ، أو عهدٌ مُحكَم، وأصلُه: العقدُ والإحكام(٢).

﴿حَصِرَتْ﴾: أي: ضاقتْ، والحصْر: التَّضييق، وأصل (حصر): الحَبْسُ والمَنْعُ(٣).

﴿اعْتَزَلُوكُمْ﴾: اجتَنبُوكم وتَنحَّوْا عَنكُم، والاعتزال: تجنُّب الشَّيء؛ بِالبَدنِ كان ذلِك أو بالقَلبِ، وأصلُ (عزل): يدلُّ على تنحيةٍ وإمالةٍ(٤).

﴿السَّلَمَ﴾: أي: الصُّلح، والسَّلَم اسمٌ بإزاء الحَرْب، وهو أيضًا التَّعرِّي من الآفاتِ الظَّاهرة والباطنة، والاستسلامُ والانقياد، وأصل (سلم): يدلُّ على الصِّحَّة والعافية(٥).

﴿الْفِتْنَةِ﴾: أي: الشِّرْكِ والكُفر، والشَّرِّ والعذاب، وهي في الأصْل: الاختِبار والابتلاء والامتِحان؛ مأخوذة من الفَتْن: وهو إدخالُ الذَّهبِ النَّارَ؛ لتظهَرَ جودتُه من رَداءتِه(٦).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١٠).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٠٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٤).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨١، ٢٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢١، ٤٢٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٦، ١٤٢).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٦، ١٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس =

﴿سُلْطَانًا﴾: أي: حُجَّة، وأصْل السُّلطان: القوَّة والقهر، مِن التَّسلُّط؛ ولذلك سُمِّي السُّلطان سُلطانًا[1].

المَعْنى الإجْماليّ:

يُخاطب اللهُ تعالى المؤمنين: ما شأنُكم أيها المؤمنون في المنافقين فِئتَينِ مختلفتَينِ؛ فئةً منكم تُكَفِّرُهم، وفئةً أخرى لم تكفِّرْهم، والحالُ أنَّ الله ردَّ هؤلاءِ المنافقين إلى الكُفر، وأوْقَعَهم فيه؛ بما عَمِلُوه واقترفُوه من السَّيِّئات، فلا ينبغي الشكُّ فيهم، فهل يريد الشَّاكُّون في أمرِهم من المؤمنين أن يَهْدُوا مَنْ خَذَلَه الله، ولم يُرِدْ هِدَايَته، بلِ الشَّأْنُ أنَّ مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فلا سبيلَ إلى هدايتِه أبدًا.

ثمَّ يُخبِرُ الله تعالى المؤمنينَ أنَّ هؤلاء المنافقين يَرْجُون أن يقع المؤمِنون في الكُفر، كما وقعوا هم، فَيَسْتَوُوا معهم، ناهيًا سبحانه عبادَه المؤمنين أنْ يتَّخذوا من المنافقينَ أولياءَ حتَّى يُؤمِنوا ويُهاجروا في سبيل الله؛ مِنْ دارِ الكفر وأهلِه إلى دار الإسلام وأهلِه، فإنْ أعْرَضُوا عن الإيمانِ والهِجْرة فلْيُقاتِلْهم المؤمنونَ ويأسِرُوهم، ويَقْتُلوهم أينما وَجَدُوهم، ولا يُوالُوا منهم أحدًا، ولا يَتَّخِذوا منهم نصيرًا.

ثمَّ استثْنَى الله تعالى من هؤلاء المنافقينِ الَّذين أوْجَبَ قتالَهُم وأخْذَهم أسْرى، مَنْ لجأ إلى قومٍ بينهم وبينَ المؤمنين هُدْنة بترْك القِتال، فَلْيجْعَلُوا حُكْمَ هؤلاء المنافقين كحُكْمِ هؤلاء المُهَادَنِينَ، أو إنْ أتى هؤلاء المنافقونَ المؤمنينَ وقد أبغضوا قتالَهم، وأبغضوا القتالَ مع المؤمنين ضدَّ قَوْمِهم، فلا هُمْ مع المؤمنين ولا ضِدُّهم، فَلْيَتْرُكِ المؤمنون قتالَهُم أيضًا، ولو شاء الله لسلَّط هؤلاء

= (٤/ ٤٧٢- ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩، ١٣٩- ١٤٠).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٧، ٤٢٠، ٧٢٤).

المنافقين على المؤمنين فَقَاتلوهم، ولكنْ لِلُطْفه بهم كفَّهُم عنهم، فإنِ انْصَرَف المنافقون عن قتال المؤمنين، وآثروا المُسالمة والصُّلح، فعندها لا يُبيحُ الله للمؤمنين قتلَهُم ولا غُنْمَ أموالهم ولا سَبْيَهم أو سَبْيَ ذَرَارِيِّهم.

ثمَّ يُخبِر اللهُ تعالى المؤمنين أنَّهم سيجِدُون صِنْفًا آخرَ من المنافقين، يُريدون أن يأمَنُوهم فيُظْهِرون الإسلام، ويريدون كذلك أن يَأْمَنوا قَومَهم الكُفَّارَ، فيعبُدون مع قومهم ما يَعْبُدونه مِنْ دُون الله، كَلَّما دُعُوا إلى الشِّرْك والكفرِ بالله تعالى أجابوا، فازدادوا تعمُّقًا فيهما، فهؤلاء الصِّنفُ من المنافقين إنْ لم يَتْرُكوا قتالَ المؤمنين، ويَمِيلوا للمُسالَمَة والصُّلح، فَلْيُقاتلْهم المؤمنون، وَلْيَأسِرُوهم، وَلْيَقْتُلوهم أينما وَجَدُوهم، وقد جعل الله للمؤمنين حُجَّةً واضِحةً على هؤلاء في استِحْقَاقهم للقتل.

تفسيرُ الآيات:

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (٨٨)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

هذه الآيةُ تفريعٌ عن أخبارِ المنافقينَ الَّتي تقدَّمَت؛ لأنَّ ما وُصِف من أحوالهم لا يترُكُ شكًّا عند المؤمنين في خُبْثِ طَوِيَّتِهم وكُفْرِهم. وقيل: هي تفريعٌ عن قوله ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا﴾ فقد حدَّث الله تعالى عنهم بما وُصِف من سابِقِ الآيِ، فلا يَحِقُّ التَّردُّد في سوءِ نواياهم وكفْرِهم(١).

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٤٨).

فَلِمَ اختلفْتُم- أيُّها المؤمنون- في شأنِ المنافقين على قَوْلَين؛ ما بين مُكَفِّرٍ لهم وغَيْرِ مكفِّرٍ[١]؟

﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾.

أي: والحالُ أنَّ الله تعالى قد ردَّهُم إلى الكُفرِ وأوقَعَهُم فيه؛ بسَببِ ما اقْتَرفوه مِن آثامٍ وسيِّئاتٍ؛ فلا يَنبغي لكم أنْ تَشْتَبِهوا فيهم، ولا تَشكُّوا، بل أمْرُهم واضحٌ غيرُ مُشكِلٍ، فالصَّوابُ مع مَن قال: إنَّهم كافِرون[٢].

﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾.

أي: أتودُّون- أيُّها المؤمنون- أنْ تُوَفِّقُوا للإقْرَارِ بدِينِ اللهِ تعالى، والدُّخول فيه مَنْ خَذَلَه اللهُ عنه، فَلَمْ يُوَفِّقْهُ لذلك[٣]؟

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾.

أي: ومَنْ خَذَلَه الله تعالى عن دِينِه، فلم يوفِّقْه لسُلُوك طريقِ الهدى، فلا طريقَ له إليه، ولا مَخْلصَ له إليه[٤].

﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٨٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا قال تَعَالى قبل هذه الآية: ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ وكان ذلك

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٩-٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٨٩-٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٠).

استفهامًا على سبيل الإنكار- قرَّر ذلك الاستبعادَ بأنْ قال: إنَّهم بلغُوا في الكُفْر إلى أنَّهم يتمنَّوْن أنْ تصيروا- أيُّها المسلمون- كُفَّارًا، فلمَّا بلغُوا في تعَصُّبِهم في الكفر إلى هذا الحدِّ، فكيف تَطْمَعُون في إيمانِهم(١)؟

﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾.

أي: إنَّ هؤلاءِ المنافقِينَ الَّذين اختلفتُم فيهم- أيُّها المؤمنون- إلى فِئتين، يتمنَّوْن لكم الوقوعَ في الكُفْر، فتكونون كُفَّارًا مثلَهُم، وتَسْتَوونَ أنتم وهُمْ في ذلك(٢).

﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا شرَحَ اللهُ تعالى للمؤمنينَ كفرَ هؤلاء وشِدَّة غُلُوِّهم في ذلك الكُفْر، شَرَح للمؤمنين بعدَ ذلك كيفيَّةَ الْمُخَالطة معهم؛ فقال(٣):

﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

أي: فلا تتَّخِذوا منهم أولياءَ وأخِلَّاءَ تُوالُونهم أو يُوالونكم، حتَّى يُؤمِنوا، ويقدِّموا إثباتًا على إيمانِهم، بمفارقَةِ دار الشِّرْك وأهلِه إلى دار الإسْلام وأهلِه؛ ابتغاءَ دينِ الله تعالى ومَرْضَاته(٤).

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾.

أي: فإنْ أعْرَضُوا عنِ الإيمانِ باللهِ تعالى، وترَكوا الهجرةَ في سَبيله

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٥-٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٥-٥٦).

سبحانه، فاحْمِلوا عليهم بالقِتال، وخُذُوهم أسرى، واقتلُوهم في أيِّ مكانٍ وجدتموهُم فيه[١].

﴿وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

أي: ولا تُوالُوا أيَّ أحدٍ منهم ولا تتَّخذوا منهم خليلًا، يُوالِيكم على أموركم، ويكونُ موضِعَ أسرارِكم ومَشُورتكم ومَحبَّتكم، ولا تطلُبوا من أيٍّ أحدٍ منهم نُصْرةً لكم على أعدائِكُم[٢].

﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاؤُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا (٩٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أمرَ الله سبحانه وتعالى بِقَتْل هؤلاءِ الكُفَّارِ في الآيةِ السَّابقةِ، استثنَى مِن ذلك ما في هذه الآيةِ[٣]، فقال:

﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾.

أي: سِوَى مَن لَجَأ من هؤلاء المنافقينَ إلى قومٍ بينكم وبينهم مُهادَنَةٌ وعَهْد ومِيثاقٌ بترْك القتال، فدخلوا فيهم، فاجعلُوا حُكْمَهم كَحُكْمِهم في حَقْنِ الدِّمَاء والأمْوَال[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٩١)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٩٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٥٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧١-٣٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٢). =

﴿أَوْ جَاؤُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾.

أي: أو أَتَوْكم وقدْ ضاقتْ صُدورُهم عن قِتَالكم، أو قِتَالِ قومِهم، فيُبْغِضُون قِتَالكم، ولا يَهُون عليهم أيضًا قِتَالُ قومِهم معكم؛ فلا هُمْ لكم ولا عليكم، فاتْرُكوا قِتالَ وقَتْلَ هذه الطائفةِ أيضًا[1].

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا كان الكَفُّ عن هؤلاء ممَّا قد يثْقُل على الْمُسلمينَ؛ لِمَا جرَت عليه عادةُ العربِ من الشِّدَّة في أمر الْمُعاهَدِين والْمُحالَفِين وتَكْلِيفهم قتالَ كلِّ أحدٍ يقاتِلُ مُحَالِفِيهم، ولو كانوا من الأهل والأقربين، قال تعالى مخفِّفًا ذلك عنهم، ومؤكِّدًا أمرَ مَنْعِ قتالِ الْمُسالِمِين[2]:

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ﴾.

أي: ولو شاءَ الله عزَّ وجلَّ لسلَّط عليكم- أيُّها المؤمنون- هؤلاءِ المنافقين فقاتَلوكم، ولكِنْ مِنْ لُطْفِه بكم أنْ كَفَّهُم عنكم[3].

= قال الشنقيطي: (فالاستثناءُ في قولِه: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ ...﴾ الآية لا يرجع قولًا واحدًا، إلى الجملةِ الأخيرةِ، التي تليه، أعني قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾؛ لأنَّه لا يجوزُ اتِّخاذ وليٍّ ولا نصيرٍ من الكفارِ أبدًا، ولو وصلوا إلى قومٍ بينكم، وبينهم ميثاقٌ، بل الاستثناءُ راجعٌ للأخذِ والقتلِ في قوله: ﴿فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ﴾) ((أضواء البيان)) (٥/ ٣١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٩٤-٢٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) (٥/ ٢٦٦)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٧٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٩٦-٢٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٢).

قيل المقصود بهم هنا: الطَّائفةُ الثَّانية[١]، وقيل: كِلتَا الطَّائِفَتينِ الْمُسالِمتَيْنِ اللَّتيْنِ استثنَاهما الله تعالى مِنْ قتالِهم وقتلِهم[٢].

﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾.

أي: فإنِ انْصَرَف عن قِتالِكم هؤلاء الَّذين أمَرْتُكم بالكفِّ عن قِتَالِهم من المنافقين، وآثَرُوا الْمُسَالمة، وصالَحُوكم[٣].

﴿فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾.

أي: إذا استَسْلَمَ لكم هؤلاء المنافقون صُلحًا منهم لكم، فلم يَجعلِ اللهُ تعالى لكم على أنفسِهم وأموالِهم وذَرَارِيِّهم ونِسائِهم طريقًا مُباحًا إلى قَتْلٍ أو سِبَاءٍ أو غَنيمة[٤].

﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (٩١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر الله تعالى صِفةَ الْمُجِدِّين في إلْقاء السَّلَم، وتركِ قتالِ المسلمينَ، نبَّهَ على طائفةٍ أخرى مُخَادِعَة[٥]، فقال:

﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٦١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٩٦-٢٩٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٦٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٦٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٦).

أي: ستطَّلِعون- أيُّها المؤمنون- على صِنفٍ آخَرَ من المنافقين يُظْهِرون للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم ولأصحابه الإسلامَ؛ خوفًا منهم لِيَأْمَنوا بذلك على دِمَائهم وأموالِهم وذَرَارِيِّهم ونسائِهم، ويُصَانِعون قومَهُم الكُفَّارَ في الباطِنِ، فيعبدُون معهم ما يعبُدُون من دونِ الله تعالى؛ لِيَأمَنُوا كذلك عِنْدَهم على دمائِهم وأموالِهم وذرارِيِّهم ونسائِهم[1].

﴿كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا﴾.

أي: كلَّما عَرَضَتْ لهم فتنةٌ بدَعْوَتهم إلى الكُفْر والشِّرْك بالله تعالى، أجابوا إلى ذلك، فازدادُوا إيغالًا وانْهِماكًا في الكُفْر والشِّرْك[2].

﴿فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ﴾.

أي: فَهؤلاء إنْ لم يترُكُوا قتالَكم، ولم يَسْتَسلِمُوا إليكم ويُصَالِحُوكم[3].

﴿فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾.

أي: فخُذُوهم أسْرى، وأَعْمِلوا فيهمُ القتْلَ أينما لَقِيتُمُوهم؛ فإنَّ دماءَهم حلالٌ لكم[4].

﴿وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٦٥).

قال السعديُّ: (فإنَّ الفِرقة الثانية تركوا قتالَ المؤمنين احترامًا لهم، لا خوفًا على أنفسهم، وأمَّا هذه الفرقة فتركوه خوفًا لا احترامًا) ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٠٠، ٣٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٠٣-٣٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٦٥).

أي: وهؤلاء جَعَلْنا لكم حُجَّةً واضحةً في استحقاقِهم القتلَ(١).

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- الأعمالُ تتوالدُ مِنْ جِنْسِها، فالعملُ الصَّالِح يأتي بزيادةِ الصَّالِحاتِ، والعملُ السَّيِّئُ يأتي بالمعاصِي، فالعملُ سببٌ في بُلُوغ الغاياتِ مِنْ جِنْسِه؛ يرشدنا إلى ذلك قولُ الله تعالى ﴿وَاللهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ فَقَد جَعَل الله ردَّ الْمُنافقين إلى الكُفْر جزاءً لِسُوءِ اعتِقَادِهِم، وقلَّةِ إخلاصِهِم مع رسوله صلَّى الله عليه وسلَّم(٢).

٢- في قوله تعالى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ أنَّ الهدايةَ والإضلالَ بيد الله، ويتفرَّع على هذه الفائدةِ: ألَّا تُسْأَلَ الهدايةُ من الضَّلالِ إلَّا من الله عزَّ وجلَّ، وأنْ يُجعلَ السؤالُ لبعضِ النَّاسِ كيف اهتدى، يُجْعل سؤالًا عن السَّبب والطَّرِيقِ، وأمَّا الَّذي بِيَدِه أزِمَّةُ الأمور فهو الله عزَّ وجلَّ؛ ولهذا قال الله لنَبِيِّه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾(٣) [القصص: ٥٦].

٣- التَّنبيه على الإخلاص، نستفيدُ ذلك من قولِ الله تعالى ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فقيَّدَ الهجرةَ بكونِها في سبيل الله؛ فإنَّه ربَّما كانتِ الهِجْرةُ مِنْ دارِ الكُفْرِ إلى دار الإسلام، ومِنْ شِعَار الكفر إلى شِعَار الإسلام لغَرَضٍ من أغراضِ الدُّنيا، إنَّما الْمُعتبَر وقوعُ تلك الهِجْرة لأجْلِ أمر الله تعالى(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٩)..

٤- التَّحذيرُ من الوقوعِ في الفِتَن، وأنَّ الإنسان كلَّما وقع في الفتنة أُرْكِسَ فيها، قال تعالى: ﴿كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا﴾[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ في هذه الآية دليلٌ على أنَّ المجتهدَ إذا استنَد إلى دليلٍ ضعيفٍ ما كان من شأنِه أن يستدِلَّ به العالِمُ؛ لا يكون بعيدًا عن الْمَلَام- في الدُّنيا- على أنْ أَخْطَأَ فيما لا يُخطِئُ أهلُ العِلْم في مِثْلِه[2].

٢- في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ قد أسند الله- تعالى- فِعْل هذا الإرْكَاس إليه وقَرَنَه بسببِه، وهو كَسْبُ أولئك الْمُرْكَسِينَ للسَّيِّئات والدَّنَايا من قَبْلُ حتَّى فسدت فِطْرَتُهم، وأحاطت بهم خَطِيئتُهم، فأَوْغَلوا في الضَّلال، وبَعُدُوا عن الْحَقِّ، حتَّى لم يَعُدْ يخطرُ على بالِهم، ولا يَجُول في أَذْهَانِهم إلَّا الثَّباتُ على ما هم فيه، ومقاومةُ ما عداه، مقاومةً ظاهرةً عند القُدرة، وخَفِيَّةً عند العَجْزِ، هذا هو أَثَرُ كَسْبِهم للسَّيِّئات في نفوسهم، وهو أثرٌ طبيعيٌّ، وإنَّما أسندَهُ الله تعالى إليه؛ لأنَّه ما كان سببًا إلَّا بسُنَّتِه في تأثير الأعمالِ الاختيارِيَّة في نفوسِ العاملين[3].

٣- أنَّ الأعمالَ قد تكونُ سببًا لرِدَّةِ الإنسانِ بكَثْرةِ معاصيه، فالسَّيِّئةُ تَجذِبُ السَّيِّئةَ، والصَّغائرُ بَريدُ الكَبائرِ، والكبائِرُ بَريدُ الكُفْر، يُؤخَذُ هذا من قوله: ﴿أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾[4].

٤- الرَّدُّ على الجبْرِيَّة، ويُؤخَذُ من قوله: ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾، فأثبَتَ لهم كَسْبًا،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٢٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٢).

والْجبريَّة يقولون: إنَّ الإنسان لا كَسْبَ له، وأنه مُجْبَرٌ على عَمَلِه [١].

٥- الرَّدُّ على القَدَرِيَّة، ويؤخَذُ من قوله: ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ﴾، والقَدَرِيَّة يقولون: إنَّ أفعال العِباد لا عَلَاقة لتقديرِ الله بها إطلاقًا، وأهلُ السُّنَّة والجماعة يقولون: للإنسان فِعْلٌ يُنْسَبُ إليه حقيقةً، والْمُقَدِّرُ لهذا الفعلِ هو الله عزَّ وجلَّ، وهذا هو الْمُطابِق للمَنْقُول والمعقُول والْمَحْسُوس [٢].

٦- أنَّ الكُفَّارَ يودُّون بكلِّ المحبَّة أن يَكْفُر المؤمنونَ كما كفروا؛ لقوله: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا﴾، ويتفرَّعُ على هذه الفائدة أنَّهم إذا كان هذا وُدَّهُم فسوف يَسْعَوْن إليه بكلِّ وسيلةٍ، سواءٌ كانت الوسيلةُ في تدميرِ الاقتصادِ، أو بالسِّلاحِ، أو بنَشْرِ الأخلاق الرَّذِيلةِ السَّافِلَة؛ لأنَّ الأخلاقَ الرَّذيلةَ السَّافِلةَ إذا انتشَرَتْ في الأُمَّةِ فعليها الوَداعُ [٣].

٧- في قَوْلِه تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ أنَّ كثيرًا مِن أَهْلِ الْمُنْكَر يحبُّون من يوافِقُهم على ما هم فيه، ويُبْغِضون من لا يُوافِقُهم، وهذا ظاهِرٌ في الدِّيانات الفاسِدَة من مُوالاة كلِّ قَوْمٍ لِمُوافِقِيهم، ومعاداتِهم لمُخالِفِيهم. وكذلك في أمورِ الدُّنْيا والشَّهواتِ كثيرًا ما يختارونَ ويُؤْثِرون من يشارِكُهم إمَّا للمُعاوَنَة على ذلك، كما في المتَغَلِّبينَ مِن أَهْلِ الرِّياساتِ وقُطَّاع الطَّرِيقِ ونحوهم، وإمَّا بالمُوافَقَة، كما في المجْتَمِعينَ على شُرْبِ الخَمْرِ، فإنَّهم يختارونَ أن يَشْرَبَ كُلُّ من حضر عِنْدَهم، وإمَّا لِكَراهَتِهم امتيازَه عنهم بالخَيْرِ: إمَّا حَسدًا له على ذلك؛ لئلَّا يعلوَ عليهم بذلك ويُحْمَدَ دونهم، وإمَّا لِئَلَّا يكون له

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٨).

عليهم حجَّةٌ، وإمَّا لِخَوْفِهم من معاقَبَةٍ لهم بنَفْسِه، أو بمن يَرْفَع ذلك إليهم، ولئلَّا يكونوا تحت مِنَّتِه وخَطَرِه ونحو ذلك من الأسبابِ(١).

٨- أنَّ بَنِي آدَمَ بطبيعتِهم يَتَسلَّى بعضُهم ببعضٍ، ويَقْوَى بعضُهم ببعضٍ؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾(٢).

٩- مِنْ مباحث اللَّفْظ في الآياتِ: أنَّ «الفاءَ» في قوله تعالى: ﴿فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ للعَطْفِ لا للجَوَاب؛ كقوله: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾(٣).

١٠- تحريمُ اتِّخاذ أولياءَ من الكُفَّار حتَّى يُهاجِرُوا في سبيل الله، فمَنْ تولَّى عن الهجرة في سبيل الله فليس وَلِيًّا لنا، ويجب علينا مُقاتلتُه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ﴾(٤)، ففيها الحذَرُ من مُوَالاةِ المشركينَ والمنافقينَ والْمُشْتَهرين بالزَّنْدَقَة والإلْحَاد؛ وذلك لأنَّ أعَزَّ الأشياءِ وأعْظَمَها عند جميعِ الخَلْقِ هو الدِّينُ؛ فهو الأمر الَّذي به يُتقرَّبُ إلى اللهِ تعالى، ويُتَوَسَّلُ به إلى طَلَبِ السَّعادة في الآخرة، فالعَداوة الحاصِلَة بسببه أعظمُ أنواع العَدَاوة، فهم مُضْمِرُون الكُفْرَ، ويحاولون ردَّ من يستطيعون ردَّه من المسلمين إلى الكفر، قال تعالى ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾(٥).

١١- قوله: ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ يستلزمُ عدمَ مَحبَّتِهم؛ لأنَّ الوَلايةَ فرْعُ المحبَّة، ويستلزمُ أيضًا بُغْضَهُم وعداوتَهُم؛ لأنَّ النَّهيَ عن الشَّيء أمرٌ بِضِدِّه، وهذا

(١) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ١٥١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٢٦٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٦٠).

الأمر مُوَقَّتٌ بهجرَتِهم، فإذا هاجرُوا جَرَى عليهم ما جَرَى على المسلمينَ[١].

١٢- قال اللهُ تعالى: ﴿حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ولم يقُل: (حتَّى يُهاجِروا عن الكُفْر) مثلًا، بل قال: ﴿حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وذلك يَتناولُ كلَّ معاني الهجرة، فيدخل فيه مُهاجرة دارِ الكفر، ومهاجَرة شعارِ الكُفْر[٢].

١٣- الأُمَّة لا تقوم على روابطِ العشيرة والقبيلةِ، أو روابط الدَّم والقرابة، أو روابط الحياة في أرضٍ واحدةٍ، أو مدينة واحدة، أو روابط المصالح الاقتصادية في التِّجارة وغير التِّجارة، إنَّما تقوم الأمَّة على العقيدة، وعلى النِّظَام الاجتماعي المُنْبَثِق من هذه العقيدةِ؛ قال تعالى ﴿ فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ... وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾[٣].

١٤- يَبدو في الحُكم في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ اختيارُ الإسلام للسِّلْم، حيثما وَجَد مجالًا للسِّلْم، لا يتعارضُ مع منهجه الأساسيِّ من حرية الإبلاغِ، وحرية الاختيار، وعدمِ الوقوف في وجْهِ الدَّعوةِ بالقوَّة، مع كفالةِ الأمن للمسلمين، وعدم تعريضِهم للفتنة، أو تعريض الدَّعوة الإسلاميَّة ذاتِها للتَّجْميد والخَطَر، ومن ثَمَّ يجعلُ كلَّ من يلجأ ويتَّصِل ويعيش بين قومٍ مُعاهَدِين- عَهْدَ ذمَّةٍ أو عَهْدَ هُدْنة- شأنُهُ شأنُ القوم المعاهَدِين؛ يُعامَلُ مُعامَلَتَهم، ويُسالَمُ مُسالَمَتَهم، وهي رُوحٌ سِلْميةٌ واضحةُ المعالمِ في مِثل هذه الأحكام[٤].

١٥- تمامُ وفاءِ الإسلام بالعهدِ؛ حيثُ حَمَى العهْدَ لِمَن باشَرَ عَقْدَ العَهْدِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٧٠- ١٧١).
(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٧٣٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٧٣٣).

معنا، ومَنْ لَجَأَ إليه، ويؤخَذُ من قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ الآية[1].

١٦- أنَّ أفعال العِبَاد واقعةٌ بمشيئة الله؛ لقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ﴾، فيُستَفَادُ منها الرَّدُّ على طائفةٍ مُبتدِعَةٍ زائغةٍ، وهُمُ: القَدَرِيَّة، الَّذين يقولون: إنَّ فِعْلَ الإنسان مُسْتَقِلٌّ به، لا علاقة لله به، ودليلُ ذلك قولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾[2].

١٧- وفي قوله: ﴿فَلَقَاتَلُوكُمْ﴾ الرَّدُّ على الْجَبْرِيَّة؛ حيث نَسَب القتالَ إلى الإنسان، وهم لا ينسبون الفِعْل إلى الإنسان إلَّا على سبيل المجاز، فمثلًا: يقولون: الرَّجُل إذا صلَّى إنَّما صلَّى على سبيل المجاز، وإلَّا في الحقيقة أنَّه أُجْبِر على الصَّلاة[3].

١٨- أنَّه إذا اعْتَزَلَنَا مَنْ بيننا وبينه عَهْدٌ وأمان، ولم يقاتِلْ، وألقى السَّلَمَ وَجَبَ الكفُّ عنه؛ لقوله: ﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ...﴾[4].

١٩- الحاصِلُ بالمفهوم أنَّهم لو أخذوا منَّا الميثاقَ، ولكنَّهم خانُوا، فقاتَلُونا، فإنَّ العهد ينتقِضُ، ولا يكون بيننا وبينهم عهدٌ، يُؤخَذُ من مفهوم قوله: ﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾[5].

٢٠- مَن ألقَى السِّلاح وجَبَ الكفُّ عنه؛ لقوله: ﴿فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٦٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٦٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

سَبِيلًا﴾، لكن إنْ خِيفَ أنَّ إلقاءَهُ السِّلاحَ خيانةٌ وخِداعٌ، فإنَّه لا عِبْرَة بإلقائه؛ لأنَّ العَدُوَّ قد يُلْقي السِّلاحَ غَدْرًا وخيانةً، وقد ينهزم أيضًا أمام جيوشنا غَدْرًا وخيانةً، فالواجب التَّنَبُّهُ(١).

٢١- أنَّ الشَّرْع مَنْعًا ودفعًا وإذنًا كلُّه لله عزَّ وجلَّ؛ لقوله: ﴿فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾، وهذا يدلُّ على أنَّ الأمرَ بِيَدِ الله؛ فهو الَّذي يحكم بما شاء من حِلٍّ وحُرْمَةٍ وإيجابٍ وغيرِ ذلك(٢).

٢٢- عِلْمُ الله عزَّ وجلَّ بالغيب؛ لقوله: ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾(٣).

٢٣- إثباتُ الإرادة للعبدِ، وتؤخَذُ من قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾(٤).

٢٤- أنَّه لا يمكن الجمعُ بين الوَلاية والعَداوة، ولا يُمْكن أن يكون الإنسانُ وَلِيًّا لأولياءِ الله، ووليًّا لأعداءِ الله؛ لقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾، وهذا قالَهُ في مقامِ الذَّمِّ، لا في مقام المدْحِ(٥).

بَلاغةُ الآيات:

١- قوله: ﴿**فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ**﴾: الاستفهام للإنكارِ، والتعجُّبِ مِن الانقسامِ إلى فِئتينِ في شأنِ المنافقين؛ والنَّفيُ والخِطابُ لجميعِ المؤمنين،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٦٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٦٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٦٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

لكنْ ما فيه مِن معنى التَّوبيخِ متوجِّهٌ إلى بعضِهم(١).

٢- **قوله:** ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾: استئنافٌ بيانيٌّ، نشَأ عن اللَّومِ والتعجُّب الذي في قوله: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾؛ لأنَّ السَّامعين يَترقَّبون بيانَ وجْهِ اللَّوم، ويَتساءلون عمَّاذا يتَّخذون نحوَ هؤلاء المنافقين. والاستفهام للإنكار، وقد دلَّ هذا الاستفهامُ الإنكاريُّ المشوبُ باللَّومِ على جملة محذوفةٍ، هي محلُّ الاستئنافِ البيانيِّ، وتقديرُها: إنَّهم قد أضلَّهم الله، أتُريدون أن تَهْدُوا من أضلَّ الله؛ هذا بناءً على أنَّ قوله: ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ﴾ ليس المرادُ منه أنَّه أضلَّهم، بل المراد منه: أساءَ حالَهم، وسوءُ الحال أمرٌ مُجمَل يفتقرُ إلى البيان، فيكون فصْلُ الجملةِ فصلَ الاستئناف. وأمَّا على أنَّ المعنى: أنَّه ردَّهم إلى الكفر، تكون جملةُ ﴿أَتُرِيدُونَ﴾ استئنافًا ابتدائيًّا، ووجْه الفَصْل-أي: عدم العطفِ- أنَّه إقبالٌ على اللوم والإنكار بعدَ جملة ﴿وَاللهُ أَرْكَسَهُمْ﴾ التي هي خبريَّة؛ فالفصلُ لكمالِ الانقطاع؛ لاختلافِ الغرَضينِ(٢).

- وفيه تجريدٌ للخِطاب، وتخصيصٌ له بالقائلين بإيمانِهم مِن الفئتين، وتوبيخٌ لهم على زعْمهم ذلك، وإشعارٌ بأنَّه يؤدِّي إلى محاولة المُحالِ الذي هو هدايةُ مَن أضلَّه الله تعالى؛ وذلك لأنَّ الحُكمَ بإيمانهم، وادِّعاء اهتدائِهم- وهم بمَعْزلٍ من ذلك- سعيٌ في هدايتهم، وإرادةٌ لها(٣)

- ووضْعُ الموصولِ (مَنْ) موضعَ ضميرِ المنافقين (تَهْدُوهم)؛ لتشديدِ الإنكارِ، وتأكيدِ استحالةِ الهدايةِ بما ذُكر في حيِّزِ الصِّلةِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢١٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢١٢-٢١٣).

- وفيه توجيهُ الإنكارِ إلى الإرادةِ في قوله: ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا﴾، لا إلى مُتعلَّقها- حيث لم يَقُل: (أتهدون... إلخ)-؛ للمبالغةِ في إنكارِه؛ ببيانِ أنَّه ممَّا لا يمكن إرادتُه، فضلًا عن إمكانِ نفْسِه، وحمْل الهدايةِ والإضلالِ على الحُكم بما يأباه[(١)].

- قوله: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾: فيه توجيهُ الخِطابِ إلى كلِّ واحدٍ من المخاطَبينَ؛ للإشعارِ بشُمول عدمِ الوجدان للكلِّ على طريقِ التفصيلِ. وعلى أنَّ الجملة اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّر للإنكارِ السَّابق، ومؤكِّد لاستحالة الهداية؛ فحينئذٍ يجوز أن يكون الخِطاب لكلِّ أحد ممَّن يَصلُح له مِن المخاطَبين أولًا ومِن غيرهم[(٢)].

٣- قوله: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ كلامٌ مستأنَفٌ، مسوقٌ لبيانِ غُلوِّهم، وتمادِيهم في الكُفر، وتصدِّيهم لإضلالِ غَيرِهم إثْرَ بيانِ كُفْرهم، وضلالهم في أنفسهم[(٣)].

٤- قوله: ﴿وَلَوْ شَاء الله لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾ جملةٌ جاريةٌ مجرى التَّعليلِ لاستثناءِ الطائفةِ الأخيرةِ مِن حُكم الأخْذ والقَتْل، ونظْمُهم في سلكِ الطائفةِ الأولى الجارِيَة مَجرى المعاهَدِينَ مع عدَمِ تَعلُّقهم بنا، ولا بمَن عاهدونا كالطائفةِ الأولى، أي: ولو شاءَ الله لسلَّطهم عليكم ببَسْطِ صدورهم، وتقويةِ قلوبهم، وإزالة الرُّعْب عنها[(٤)].

٥- قوله: ﴿فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢١٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢١٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢١٤).

سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ فيه حُسْنُ بلاغة القرآن؛ حيث قال هنا: ﴿فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ وهناك في الآيةِ الأولى قال: ﴿حَيْثُ وَجَدْتُّمُوهُمْ﴾؛ لأنَّ اختلافَ الألفاظِ يؤدِّي إلى النَّشاط، واتفاقها يؤدِّي إلى المَلَل غالبًا[1].

- وعبَّر باسمِ الإشارةِ ﴿وَأُولَئِكُمْ﴾؛ لزيادةِ تمييزِ هؤلاءِ المنافقين[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٥٥).

الآيات (٩٢ - ٩٤)

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿ضَرَبْتُمْ﴾: أي: سافرْتُم وسِرْتُم، وخرجتم وتباعدتُم في الأرض، وأصلُ الضَّرْب: إيقاعُ شيءٍ على شيءٍ[(١)].

﴿تَبْتَغُونَ﴾: تَطلُبون؛ يُقال: بَغَى الشَّيءَ، أي: طلبَه، وأصلُ البَغْي: جِنْسٌ من الفساد، ويُطلَق على طلبِ الشَّيء، والظُّلْم، والتَّرفُّع والعُلُوِّ، ومُجاوَزَة المقدار[(٢)].

﴿عَرَضَ الْحَيَاةِ﴾: أي: الغَنيمةَ، أو المالَ، ويُطلَقُ العَرَضُ على المتاع والحُطام[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧١، ٩١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٨٠).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (٥/ ٣٣٦، ٣٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٨٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٢٤).

﴿فَمَنَّ﴾: أي: أنْعَم، وصنَعَ الصُّنع الجَميل، والمِنَّة: النِّعمة الثَّقيلة، وأصل (منن): اصطناعُ الخير[١].

مُشكِلُ الإعراب:

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً﴾

﴿إِلَّا خَطَأً﴾: الاستثناءُ هنا؛ قِيل: إنَّه استثناءٌ منقطِعٌ؛ أي: لكنْ إنْ قتَلَه خَطأً فجزاؤه ما يُذْكَرُ. وقِيل: إنَّه استثناءٌ متَّصل- إنْ أُريدَ بالنَّفيِ التحريمُ- والمعنى: إلَّا خطأً بأنْ عَرَفَه كافرًا فقتَلَه، ثم ظهَر أنَّه كان مؤمِنًا. وقيل: إنَّه استثناءٌ مُفَرَّغٌ من أحوالٍ عامَّة- أو عِللٍ عامَّة- مَحذوفةٍ، وهو الاستثناءُ النَّاقِصُ المنفيُّ. وفي نَصْبِ ﴿خَطَأً﴾ أوجهٌ؛ أحدُها: أنَّه منصوبٌ على أنَّه مفعولٌ لأجْلِه، أي: ما يَنبغي له أنْ يَقتُلَه لعلَّةٍ من العِلل إلَّا للخطأِ وحدَه. الثَّاني: أنَّه منصوبٌ على الحَالِ، والتقدير: ما يَنبغي أن يَصدُر منه قتلٌ له إلَّا مُخطِئًا في قتْله، أي: ما يَنبغي له أن يَقتُلَه في حالٍ مِن الأحوالِ إلَّا في حالِ الخَطأِ. الثالث: أنْ يكونَ نائبًا عن المفعولِ المُطْلَق؛ أي: إلَّا قَتْلًا خَطأً[٢].

المَعْنى الإجماليُّ:

يُخْبِر تعالى أنَّه ليس للمؤمن أن يقتُلَ أخاه المؤمِنَ إلَّا أن يكون ذلك القتلُ صادرًا عن خَطَأ غيرِ مقصودٍ، فإذا ما حصل القتلُ خطأً فعلى القاتل أن يُكفِّر عن فعله ذاك بتحريرِ رقَبَة مؤمن أو مؤمنة من الرِّقِّ، وعليه أيضًا دِيَةٌ كاملةٌ تتحمَّلُها

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٢).

(٢) ينظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٨٠)، ((الدر المصون في علوم الكتاب المكنون)) للسمين الحلبي (٤/ ٦٩)، ((تفسير الألوسي)) (٣/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٥٦- ١٥٧)، ((تفسير الجلالين)) (١/ ١١٧).

عاقِلَتُه، تُدْفَعُ إلى وَرَثَة المقتول، إلَّا أن يَتَصَدَّقوا بإسقاطِ الدِّيَة، فلا تَجِبُ عليه حينَها، فإنْ كان المقتولُ مؤمنًا، لكنَّه من قومِ كُفَّار حَرْبِيِّينَ، فلا يجب على قاتله خطأً إلَّا تحريرُ رقبةٍ مؤمِن أو مؤمِنة من الرِّقِّ، وإن كان من قوم بين المؤمنين وبينهم عهدٌ وذمَّةٌ أو هُدْنة، وليسوا بحربيِّين، فعلى القاتل دفْعُ دِيَة إلى ورثة المقتول تتحمَّلها عاقلةُ القاتل، وعليه أيضًا تحريرُ رقبةٍ مؤمنٍ أو مؤمنةٍ من الرِّقِّ، فمن لم يجد الرَّقَبة لِيُعْتِقَها، أو لم يَجِدْ ثَمَنَها فعليه صيامُ شهرين متتابعينِ، شَرَعَ الله ذلك لعبادِهِ؛ توبةً منه تعالى عليهم ورحمةً، وكان الله عليمًا حكيمًا.

ثمَّ توعَّد اللهُ تعالى مَن يَقتُلُ مؤمنًا عن عَمْدٍ وقصْدٍ لإتلافِ رُوحِهِ- توعَّده بأنَّ عقوبَتَه هي المُكْثُ الطويلُ في جَهنَّم، وغَضِبَ الله عليه، وطَرَدَه من رحمته، وأعَدَّ له عذابًا عظيمًا، وهذه العقوبةُ هي ما يستحقُّه إنْ عاقَبَه الله تعالى.

ثمَّ يُخاطِبُ الله المؤمنينَ آمِرًا إيَّاهم أن يتبيَّنوا إذا خرَجوا للجهادِ في سبيل الله، ويتثبَّتوا في قتْلِ مَن أَشكَلَ عليهم أمرُه، فلم يتيقَّنوا مِنْ إسلامِهِ أو كُفْرِهِ، ولا يقولوا لِمَن أظهَرَ لهم إسلامَه، واستسلم ولم يُقاتِل: إنَّه ليس مُسلمًا، بل عليهم أن يأخذوا الظَّاهِرَ من حاله، ولا يقتلوه طلبًا لمتاع الحياةِ الدُّنيا، وذلك لسَلْب ما معه من مالٍ، مذكِّرًا إيَّاهم سبحانه أنَّهم كذلك كانوا من قبلُ يُخْفُون إيمانَهُم من قومِهِمُ المشركينَ، فتفضَّلَ الله عليهم بإعزازِ دينِهِ، فأظهروا ما كانوا يُخْفُون، فعليهم أن يتثبَّتوا قبل أن يُقْدِمُوا على قَتْلِ مَنْ أَشْكَلَ أمرُه، إنَّ الله كان بما يعملون خبيرًا.

تفسيرُ الآيتين:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ

وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٩٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا كان الكلامُ في قِتالِ المتظاهرين بالإسلام الَّذين ظَهَر نفاقُهم، فلا جَرَمَ أنْ تتشَوَّفَ النَّفسُ إلى حُكم قَتْلِ المؤمنين الخُلَّصِ، فانتَقَلَ من تحديدِ أعمال المسلمين مع العَدُوِّ إلى أحكامِ معاملةِ المسلمينَ بَعضِهم مع بعضٍ: من وجوبِ كفِّ عدوانِ بَعضِهم على بعضٍ، وأحكام قتْل مَن لا يَحِلُّ قَتْلُه من مؤمنٍ ومعاهَدٍ وذِمِّيٍّ، وما يقع مِن ذلك خطأً[1]، فقال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً﴾.

أي: وليس لمؤمنٍ أنْ يقتُلَ أخاه المؤمنَ، ولا يَحِلُّ له ذلك، كما أنَّه أمْرٌ ممتنِعٌ صدورُهُ من مؤمنٍ؛ لأنَّه منافٍ للإيمان، إلَّا أن يرتكِبَ ذلك غيرَ عامدٍ له، ولا قاصِدٍ إليه[2].

﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾.

أي: وإذا ارتكبَ المؤمنُ القتْلَ لمؤمنٍ غيرَ عامدٍ له، ولا قاصِدٍ إليه، فعليه أن يُكَفِّرَ عن ذلك بتحريرِ مؤمنٍ أو مؤمنةٍ من رِقِّ العبوديَّةِ[3].

﴿وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا﴾.

أي: وعلى القاتِل دفْعُ دِيَةٍ كاملة- ولكنْ تتحمَّلُها عاقِلَتُه- إلى ورثَةِ المقتولِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٥٦). ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٠٤-٣٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٦٨-٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٠٥-٣١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٦٩، ٧١).

عِوَضًا لهم عمَّا فاتَهُم من قريبهم، وجَبْرًا لقلوبهم، إلَّا إذا تصدَّقُوا بإسقاطِ الدِّيَة، فلا تجب حينئذٍ[١].

﴿فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾.

أي: فإنْ كان هذا المقتولُ الَّذي قَتَلَه المؤمِنُ خطأً من كُفَّارٍ حربِيِّينَ، لكنَّه مؤمنٌ، فلا دِيَةَ لهم، وعلى القاتل عِتْقُ رقبةٍ مؤمنة لا غيرُ[٢].

﴿وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾.

أي: وإنْ كان القَتيلُ الَّذي قتَلَه المؤمنُ خطأً من قومٍ بينكم- أيُّها المؤمنونَ- وبينهم عهْدٌ وذمَّةٌ أو هُدْنة، وليسوا أهلَ حربٍ لكم[٣].

﴿فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾.

أي: فعَلى القاتِلِ دِيَةٌ- تتحمَّلُها عاقِلَتُه- يدفعها إلى ورثة المقتولِ، وعِتْقُ رقبةٍ مؤمنة، كفَّارةً لقتْلِه[٤].

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾.

أي: فمَن لم يَجِدْ رقبةً مؤمنةً يُعْتِقُها كفَّارةً لخطئه في القتل، أو لم يَجِدْ ثَمَنَها، بأنْ كان مُعْسِرًا، ليس عنده ما يَفْضُل عن حوائجِه الأصليَّة، فعليه صيامُ شهرين،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٠٦، ٣١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣١٨، ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣١٨، ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٧١).

يَسْرُدُ صومَهُما إلى آخرِهِمَا، دون إفطارٍ فيهما(١).

﴿تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ﴾.

أي: هذه الكَفَّاراتُ الَّتي شَرَعَها اللهُ للمُؤمِنِ الذي قَتَلَ مؤمنًا خطأً؛ توبةً منه على عباده، ورحمةً بهم، وتكفيرًا لما عَسَاه أنْ يَحصُلَ منهم من تقصيرٍ، وعَدَمِ احترازٍ، ولو شاء اللهُ تعالى لشَقَّ عليهم، ولكان الواجبُ بقتلِ الخطأِ أكبرَ من ذلك(٢).

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى عليمٌ بكلِّ شيءٍ، ومن ذلك عِلْمُه بما يُصلِحُ عباده فيما يكلِّفُهم من فرائِضِه وغير ذلك، وهو سبحانه الحكيم في كلِّ شيء، فيَضَع كلَّ شيء في موضِعِه اللَّائق به، ومن ذلك حِكْمَته فيما يَشْرَعه لعباده من أحكام(٣).

﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (٩٣)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ الله سبحانه وتعالى حُكْمَ القتل الخطأ ذَكَرَ بعده بيانَ حُكْم القتل العَمْد؛ لأنه هو المقصودُ من التَّشْرِيع لأحكام القَتْلِ؛ لأَنَّه هو المتوقَّعُ حصولُهُ من النَّاس، وإنَّما أُخِّرَ لتهويلِ أمْرِه(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٧١).
قال الرازي: (والمراد به بالإجماع من لم يتمكَّن) ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٦٣).

﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾.

أي: ومَن يقتُلْ مؤمنًا مُتَعَمِّدًا قتْلَهُ، قاصدًا إتلافَ نفسِه، فإنَّما عقوبتُه الَّتي يستحِقُّها- إنْ عَاقَبَهُ الله تعالى- الخُلُودُ في نار جهنَّم- فقد يكون له من توحيدِ الله تعالى وتوبتِهِ وأعمالِه الصَّالِحَة ما يَصْرِف عنه هذه العقوبةَ- وقيل: بلِ المرادُ بالخلودِ هنا الْمُكْث الطويلُ؛ إذ لا يُخَلَّد مَنْ في قلبه إيمانٌ في النَّارِ أبَدَ الآبدينِ[1].

﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ﴾.

أي: وسَخِطَ عليه الجبَّارُ سبحانه، وطَرَدَه، وأبعدَهُ من رحمته جَلَّ وعَلا[2].

﴿وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾.

أي: وهَيَّأَ اللهُ تعالى له عقوبةً كبيرةً، لا يعلمُ قَدْرَ مَبْلغِها سِواه عزَّ وجلَّ[3].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا تَبيَّنَ بهذا المنعِ الشَّديد مِنْ قَتْلِ العمْد، وما في قتلِ الخَطأ من المؤاخذةِ الموجِبَة للتثبُّت، وكان الأمر قد بَرَزَ بالقتالِ والقَتْل في الجِهَاد، ومؤكَّدًا بأنواعِ التَّأكيد، وكانَ ربَّما التبس الحالُ؛ أتبعَ ذلك التَّصريحَ بالأمرِ بالتثبُّتِ، ولَمَّا كان خفاءُ ذلك منوطًا بالأسفارِ قال: ﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾، وإلا فالتثبُّت

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٣٦، ٣٥٠-٣٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٦، ٣٨٠-٣٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٨١-٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٨٢، ٨٩).

والتبيُّن لازمٌ في قتلِ من تظاهَرَ بالإسلامِ في السَّفَر وفي الحَضَر[١] فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾.

سَببُ النُّزول:

عنِ ابْنِ عباسٍ رضِي اللهُ عنهما ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ قال: (كان رجلٌ في غُنَيْمَةٍ له فلحِقَه المسلمون، فقال: السَّلامُ عليكم. فقتلوه، وأخذوا غُنَيْمَتَه، فأنزل الله في ذلك إلى قوله: ﴿عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ تلكَ الغُنَيْمَة)[٢].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾.

القراءات ذات الأثَرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ قراءتان:

١- ﴿فَتَثَبَّتُوا﴾: من التثبُّت الَّذي هو خلاف العَجَلَة[٣].

٢- ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾: من التبيُّن، بمعنى: التَّأنِّي والنَّظَر، والكَشْف عنه حتَّى يتَّضِحَ[٤].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنون إذا سِرْتُم في جهادِ أعدائِكم فتأنَّوْا في قتلِ من أشكَلَ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٦٥).

(٢) رواه البخاري (٤٥٩١) واللفظ له، ومسلم (٣٠٢٥).

(٣) قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢١٨).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٦١)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٩٤).

(٤) قرأ بها الباقون يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢١٨).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٦١)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٩٤).

عليكم أمرُهُ، فلم تعلموا حقيقةَ إسلامِهِ ولا كُفْره، ولا تَعْجَلُوا فتقتُلُوه قبل أنَّ تتثبَّتوا وتتيقَّنوا أمرَه[1].

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾.

القراءات ذات الأثر في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿السَّلَامَ﴾ قراءتان:

١- ﴿السَّلَمَ﴾ أي: الاستسلامُ والانقياد، فالمعنى: لا تقولوا لمنِ استسلَمَ إليكم وانقاد: لستَ مُسلمًا[2].

٢- ﴿السَّلَامَ﴾ الَّذي هو تحيةُ الإسلام، فالمعنى: لا تقولوا لِمَن حيَّاكم بتحيَّة الإسلام: لستَ مؤمنًا[3].

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾.

أي: ولا تقولوا لِمَنِ استسلم لكم فلم يُقاتِلْكم، مُظْهِرًا لكم أنَّه مُسْلِمٌ مِثْلُكم: لستَ كذلك، بل خُذُوه بظاهِرِ حاله[4].

﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾.

أي: فتقتلُوه لأجْلِ أخْذِ ما لديه من مالٍ، طلبًا لمتاعِ الحياة الدُّنيا. فلا يحمِلَنَّكُمُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٨٩-٩٠).

قال الرازي: (أجمع المفسِّرون على أنَّ هذه الآياتِ إنما نزلتْ في حقِّ جماعةٍ من المسلمين لقوا قومًا فأسْلَموا فقَتَلوهم، وزعموا أنَّهم إنَّما أسلموا مِن الخوفِ) ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٨٣).

(٢) قرأ بها المدنيَّان، وابنُ عامرٍ، وحمزةُ وخلفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢١٨).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٩٥).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢١٨).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٥١، ٣٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٩١).

العَرَضُ الفانِي القليلُ على ارتكابِ ما لا يَنبغي؛ فيفُوتكم ما عند الله من الرِّزْق والمغانم الحلال، فما عِندَ الله خيرٌ لكم من مالِ هذا(١).

﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا﴾.

أي: قد كنتُم- أيُّها المؤمنون- مِن قَبلُ تُخفُون إيمانكم في قومِكم من المشركينَ، وأنتم بين أظْهُرِهم، كهذا الَّذي قتلتُمُوه يُسِرُّ إيمانَه ويُخْفِيه من قَوْمِه من المشركين، فتفضَّلَ الله عليكم بإعزازِ دينِه، وإظهارِ ما كنتم تَسْتَخْفُون به، فتثبَّتُوا حتَّى يتَّضِحَ لكم أمْرُه قبل أنْ تقتلوه(٢).

عن أبي ظَبْيَانَ قال: سمعتُ أسامةَ بنَ زيدِ بنِ حارثةَ رضِي اللهُ عنه يُحدِّث، قال: ((بعثَنا النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى الـحُرَقةِ(٣) مِن جُهينةَ، فصَبَّحْنا القومَ فهزمناهم، قال: ولحقتُ أنا ورجُلٌ من الأنصارِ رجُلًا منهم، فلمَّا غَشيناه قال: لا إلهَ إلَّا اللهُ، قال: فكفَّ عنه الأنصاريُّ فطعنتُه برُمحي فقَتلتُه، فلمَّا قَدِمْنا بلَغَ ذلك النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال: يا أسامةُ، أقتلتَه بعدَما قال: لا إلهَ إلَّا اللهُ؟! قلتُ: يا رسولَ الله، إنَّما كان مُتعوِّذًا! قال: أقتلتَه بعدَما قال: لا إلهَ إلَّا اللهُ؟! قال: ما زالَ يُكرِّرها عليَّ حتَّى تمنيتُ أنِّي لم أكُنْ أسلمتُ قبلَ ذلك اليومِ))(٤)!

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٥١-٣٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٥٢، ٣٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٩٣-٩٤).

(٣) الحُرَقَة-بضم الحاء وفتح الراء- : بَطْن من جُهَيْنَةَ، وإنَّما سُمُّوا الحُرقة؛ لأنَّهم أحْرَقوا بني سهم بن مرَّة بالنَّبل. يُنظر: ((توضيح المشتبه)) لابن ناصر الدين (٣/ ١٨٢)، ((تبصير المنتبه)) لابن حجر (١/ ٤٢٨)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٢٥/ ١٥٤).

(٤) رواه البخاري (٦٨٧٢)، ومسلم (٩٦).

أي: إنَّ اللهَ تعالى بكلِّ ما تَعملونه وتَنْوُونَه ذو خبرةٍ وعِلْمٍ به، ومِنْ ذلك قَتْلُكم مَن تَقتُلون، وكَفُّكم عمَّنْ تكفُّون عن قتْلِه، فيَحفَظ عليكم ذلك، ويُجازيكم به[(١)].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- يُرشِدُ قولُ الله تعالى: ﴿وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا﴾ إلى فَضيلةِ العَفْوِ والحضِّ عليه، وأنَّه جارٍ مَجْرى الصَّدَقة، واستحقاقِ الثوابِ الآجِلِ به، دونَ طَلَبِ العَرَضِ العاجِل؛ حيثُ سَمَّى العفوَ صَدَقةً؛ حثًّا عليه، وتنبيهًا على فضلِه[(٢)].

٢- ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ لم يَرِدْ في أنواع الكبائرِ دونَ الشِّركِ أعظمُ من هذا الوعيد، بل ولا مثلُه، ألَا وهو الإخبارُ بأنَّ جزاءَه جهنَّمُ خالدًا فيها، أي: فهذا الذَّنبُ العظيمُ قد انتَهضَ وَحْدَه أن يُجازَى صاحبُه بجهنَّم، بما فيها من العذابِ العظيم، والخِزْيِ المُهين، وسَخَطِ الجبار، وفَوَات الفوز والفلاح، وحُصُول الخَيْبَة والخَسَار. فعِياذًا بالله من كُلِّ سببٍ يُبْعِدُ عن رحمته[(٣)].

٣- قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾ فيه بيانُ حكمةٍ عظيمة في حِفْظِ الجامعة الدِّينيَّة، وهي بثُّ الثِّقة والأمان بين أفراد الأمَّة، وطرْح ما من شأنه إدخالُ الشَّكِّ؛ لأنَّه إذا فُتِح هذا البابُ عَسُر سَدُّه، وكما يَتَّهِم الْمُتَّهِمُ غيرَه، فللغيرِ أنْ يتَّهِم مَنِ اتَّهَمَه، وبذلك ترتفعُ الثِّقة، ويَسْهُل على ضعفاء الإيمان المُروقُ؛ إذ قد أصبحتِ التُّهْمَة تُظِلُّ الصادقَ والْمُنافِقَ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٩٤-٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٣)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٦٨).

٤- في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾ وجوب التثبُّت في الأمور، حتَّى في الجهاد في سبيل الله؛ فالتثبُّت يحصُل فيه من الفوائِد الكثيرة، والكفُّ لشرورٍ عظيمة، ما به يُعرَف دينُ العبد وعقْلُه ورَزانته، بخلافِ المستعْجِل للأمور في بدايتها قبل أن يتبيَّنَ له حكمُها، فإنَّ ذلك يؤدِّي إلى ما لا ينبغي، كما جرى لهؤلاء الَّذين عاتَبَهم الله في الآية لمَّا لم يتثبَّتوا، وقتَلوا من سلَّمَ عليهم[١].

٥- متاعُ الدُّنيا حُطامٌ سريع النَّفَاد، وثوابُ الله تعالى موصوفٌ بالدَّوام والبقاء، كما في قول الله تعالى ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾[٢].

٦- أنَّ العبدَ يَنبغي له إذا رأَى دَواعيَ نفْسِه مائلةً إلى حالةٍ له فيها هوًى، وهي مُضِرَّةٌ له، أن يُذكِّرَها ما أعدَّ الله لمن نَهَى نفسَه عن هواها، وقدَّم مرضاةَ الله على رضا نفْسِه، فإنَّ في ذلك ترغيبًا للنَّفْس في امتثالِ أمْرِ الله، وإنْ شَقَّ ذلك عليها، قال تعالى: ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾[٣].

٧- قولُ الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا﴾ فيه تربيةٌ عظيمةٌ، وهي أنْ يستشعرَ الإنسانُ عندَ مؤاخذتِه غيرَه أحوالًا كان هو عليها تُساوِي أحوالَ مَن يؤاخِذُه كمؤاخَذَة المعَلِّم التِّلميذَ، وكذلك وُلاة الأمورِ وكبار الموظَّفين في معاملةِ صِغارِ الموظَّفين، وكذلك الآباء مع أبنائِهم، إذا بلَغَتْ بهم الحماقةُ أن يَنتَهِروهم على اللَّعِب المعتادِ أو على الضَّجَر من الآلام[٤].

٨- قولُه تبارَك وتعالى: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فيه أنَّ عَرَض الحياةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٩٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ١٩١)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ١٦٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٦٨).

الدُّنيا لا يجوز أن يَدْخُل للمسلمين في حسابٍ إذا خرجوا يجاهدونَ في سبيل الله؛ إنَّه ليس الدافِعَ إلى الجهاد ولا الباعِثَ عليه، وكذلك التَّسرُّعُ بإهدار دمٍ قبل التبيُّن. وقد يكون دمَ مسلمٍ عزيزٍ، لا يجوز أن يُرَاقَ(١).

٩- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ تهديدُ الإنسانِ أنْ يعملَ ما لا يُرضي الله عزَّ وجلَّ، يعني: لا تظُنَّ أنَّكَ إذا عَمِلْتَ شيئًا فإنَّه يخفى على الله أبدًا، ومتى آمَنَ الإنسانُ بهذا فإنَّه لن يُقْدِم على شيء لا يرضاه الله؛ لأنَّه يعلم أنَّ الله يعلم بهذا، حتَّى في قلبه؛ يحفَظُ قلْبَه من الانحرافِ والانجراف إذا عَلِمَ بأنَّ الله تعالى خبيرٌ بما يعمل، لكنْ هذه المسائل تحتاج إلى فِطْنةٍ، وأنَّ الإنسان دائمًا يكون مراقِبًا لله سبحانه، خائفًا منه، وكلَّما هَمَّ بشيء ذَكَرَ عظمةَ الله عزَّ وجلَّ وعِلْمَه بما سيعمل حتَّى يمتنع(٢).

الفَوائدُ العلميَّةُ واللَّطائف:

١- امتناعُ قَتْلِ المؤمِنِ للمؤمِنِ عمْدًا، ويُؤخَذُ من قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً﴾، وإذا جاءت (ما كان) أو (لم يكن) أو (لا ينبغي) أو (ما ينبغي) فإنَّها تفيدُ الامتناعَ، ولكنْ هذا الامتناعَ شرعِيٌّ؛ لأنَّه قَدَرًا يمكن أن يقتله عمدًا لا خطأً(٣).

٢- حالةُ القَتْلِ العمْدِ بين المسلمينَ هي الَّتي يَسْتَبْعِد السِّياقُ القرآنيُّ وقوعَها ابتداءً؛ فليس مِن شأنها أنْ تَقَع، ليس في هذه الحياةِ الدُّنيا كلِّها ما يُساوِي دَمَ مسلمٍ يُريقُه مُسلمٌ عمدًا، وليس في مُلابساتِ هذه الحياةِ الدُّنيا كُلِّها ما مِن شأنِه أن يُوهِنَ مِنْ عَلَاقة المُسلم بالمُسلم إلى حدٍّ أنْ يقتُلَه عمدًا، وهذه العلاقةُ الَّتي أنشأها

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٧٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٧٢).

الإسلامُ بينَ المُسلِمِ والمُسلِمِ من المتانةِ والعُمْقِ والضَّخامةِ والغَلاوةِ والإعْزازِ، بحيث لا يَفْتَرِض الإسلامُ أنْ تُخدَشَ هذا الخدشَ الخطيرَ أبدًا؛ ومِنْ ثَمَّ يَبدأُ حديثَه عن أحكامِ القتلِ الخَطأَ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً﴾[1].

٣- الإيمانُ الصَّحيحُ يَمنَعُ المؤمنَ مِنْ قتْلِ أخيه الَّذي قد عَقَدَ الله بينه وبينه الأُخُوَّةَ الإيمانيَّةَ الَّتي مِنْ مقتضاها محبَّتُه ومُوالاته، وإزالةُ ما يَعْرِض لأخيه من الأذى، وأيُّ أذًى أشدُّ من القتل؟ لذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾[2].

٤- القتْلُ من الكُفرِ العمليِّ، وأكبر الكبائر بعد الشِّرْكِ بالله، ولَمَّا كان قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾ لفظًا عامًّا لجميع الأحوال، وأنَّه لا يصدُرُ منه قتلُ أخيه بوجهٍ من الوجوه، استثنى تعالى قتْلَ الخَطَأِ، فقال: ﴿إِلَّا خَطَأً﴾ فإنَّ المخطِئَ الَّذي لا يقصِدُ القتلَ غيرُ آثمٍ، ولا مجترِئ على محارِمِ الله، ولكنَّه لَمَّا كان قد فعل فعلًا شنيعًا وصُورَتُه كافيةٌ في قُبْحه، وإن لم يقصِدْه، أَمَرَ تعالى بالكَفَّارة والدِّيَة، فقال: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً...﴾[3].

٥- أنَّ المؤمِنَ قد يَقتُلُ غيرَ المؤمِنِ عمدًا؛ لقوله: ﴿أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾، ولكن هل هذا جائزٌ؟ الجواب: فيه تفصيلٌ: إنْ كان محارِبًا فقتْلُه جائزٌ، ثمَّ قد يَجِب أو لا يجِب على حَسَب ما تَقتضيه الحالُ، وإنْ كان معاهَدًا أو مُسْتأمَنًا أو ذِمِّيًّا فقتْلُهُ حرامٌ[4].

٦- فضيلةُ العِتْقِ وعُلُوُّ منزلتِه؛ لأنَّه صارَ كفَّارةً لهذا الذنبِ، وهو قتْلُ المؤمِنِ؛

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٧٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٧٣).

قال تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾[1].

٧- تشوُّفُ الشَّارِعِ إلى تحريرِ الرِّقاب من الرِّقِّ، ويتفرَّعُ على هذه الفائدة: الرَّدُّ على من أنكر على المسلمين الاسْتِرْقَاقَ، فيقال: إنَّ الاسترقاقَ جاء نتيجةً لأمرٍ ضروريٍّ، ومع ذلك فإنَّ هناك مُشَجِّعَاتٍ كثيرةً على التَّحْريرِ[2].

٨- اشتراطُ الإيمانِ في عِتْق الرَّقَبة في القتلِ؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾[3].

٩- جواز إعتاقِ الذَّكَر والأنثَى في كفَّارَةِ القتلِ، وتُؤخَذ من الإطلاقِ في قوله: ﴿تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ ولم يَقُلْ: ذَكَر ولا أنثى، فيكون مُطلقًا[4].

١٠- تعظيمُ القتلِ؛ ولهذا أوجب اللهُ فيه الكَفَّارة، مع أنَّ القاعدةَ الشَّرعيَّة أنَّ المخطِئَ لا كفَّارةَ عليه، وأنَّه مرفوعٌ عنه القَلَمُ، لكنْ تعظيمًا لشأنِ القتل صار الَّذي يصدُرُ منه القتلُ- ولو مخطئًا- عليه الكَفَّارةُ[5].

١١- الحِكمةُ تَقتضي أنْ لا يُجزئَ عتقُ المَعيبِ في الكَفَّارةِ؛ لأنَّ المقصودَ بالعتقِ نَفْعُ العتيقِ، وملْكُه منافعَ نفسِه، فإذا كان يَضيع بعِتْقه، وبقاؤه في الرِّقِّ أنفعُ له فإنَّه لا يُجزئ عِتْقُه، مع أنَّ في قوله: ﴿تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ ما يدلُّ على ذلك؛ فإنَّ التحرير: تخليصُ مَنِ استحقَّت منافعه لغيرِه أنْ تكون له، فإذا لم يكن فيه مَنافعُ لم يُتَصَوَّرْ وجودُ التَّحرير. فتأمَّلْ ذلك فإنَّه واضح[6].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٧٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٧٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٣).

١٢- أشار قولُ الله تعالى: ﴿مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ﴾ إلى أنَّ الدِّيَةَ تَرضيةٌ لأهلِ القتيلِ(١).

١٣- أنَّه يجبُ على مَن وجبَتْ عليه الدِّيَةُ أنْ يُوصِلَها إلى أهلِ الميِّت؛ لقوله: ﴿مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ﴾، فأهله هُمُ الورثة(٢).

١٤- يُؤخَذ مِن قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا﴾، وهو مُستثنًى من قوله: ﴿وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ﴾، أنَّ العفو عن الدِّيَة من الصَّدقة، وذلك أنَّ الصَّدقة إمَّا إعطاءٌ وإمَّا إبراءٌ، فالإعطاءُ ظاهر، والإبراء هو: أن يُبْرِئ الإنسان شخصًا مَدِينًا من الدَّيْنِ ويُسْقِطه عنه، لكن هذا لا يُجْزِئ في الزكاة عن زكاة العَيْنِ(٣).

١٥- في سماحِ المعاهَد للمؤمِنِ بالدِّيَة مِنَّةٌ عليه، والكتابُ العزيز الَّذي وصَفَ المؤمنين بالعزَّة لا يَفتح لهم بابَ هذه المنَّة، ومِن محاسِن نَظْمِ الكلام وتأليفه أن يؤخَّرَ المعطوف الَّذي له متعلَّقٌ على ما ليس له متعلَّق، وما متعلقاتُه أكثرُ على ما متعلقاتُه أقلُّ، وهذه نكتة لفظيَّة لتأخير ذكر الدِّيَةِ في حقِّ المؤمن؛ إذ تعلَّق بها الوصف، وهو قوله: ﴿مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ﴾، والاستثناء وهو قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا﴾(٤).

١٦- قول الله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا﴾ دليلٌ على جواز البراءة من الدَّيْنِ بلفظِ الصَّدقة، وعلى أنَّه لا يُشترطُ القَبولُ في الإبراءِ(٥).

١٧- جوازُ العفْوِ عن الجَانِي، ولكن هذا مقيَّدٌ بما إذا كانَ في العفْوِ إصلاحٌ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٧٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٢٧٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٣).

لقول الله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، فإنْ لم يكن فيه إصلاحٌ فترْكُ العفو أولى، بل قد يجب الأخْذُ بالحقِّ وترْكُ العفو؛ لأنَّ الإصلاحَ أهمُّ من المصلحة الخاصَّة، فالعفو عن الدِّيَة مصلحةٌ خاصَّة، لكنَّ الإصلاحَ مصلحةٌ عامَّة، فإذا كان هذا الَّذي قَتَلَ خطأً رجلًا متهوِّرًا لو عَفَوْنا عنه لذَهَب يقتلُ مرَّةً أخرى، وثالثة ورابعة، فإنَّ العَفْوَ عن هذا ليس من الإصلاحِ؛ وعليه فلا ينبغي العفْوُ[1].

١٨- أنَّ قتْلَ المعاهَد حرامٌ؛ لأنَّ الله أوجبَ في قتْل مَنْ بيننا وبينهم ميثاقٌ الدِّيَةَ والكَفَّارةَ[2].

١٩- أنَّ دِيَة الكافِرِ المعاهَد ليست كَدِيَة المُسلِمِ؛ لأنَّه قال: ﴿وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ﴾ وهذه نكرة، وإعادة الكلمة بلفظ النكرة تدلُّ على أنَّ الثَّاني غير الأول، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾[3] [الشرح: ٥-٦].

٢٠- احترامُ الدِّين الإسلاميِّ للعهود والمواثيق؛ ولذلك لم يُهدِرْ حقَّ المعاهِدِ الَّذي بيننا وبينه ميثاقٌ، بل أوجب الدِّيَةَ لأهْلِه؛ ﴿وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ﴾[4].

٢١- وجوبُ الكَفَّارة في قتْل مَنْ بيننا وبينهم ميثاقٌ وإنْ كانوا غير مسلمينَ؛ لقولِ اللهِ تبارك وتعالى: ﴿فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وينظر في القاعدة المذكورة ((مغني اللبيب)) لابن هشام (ص: ٨٦١)

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٧٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٢٢- أنَّ مَن لم يجِدِ الرقبةَ أو ثَمَنَها فعليه صيامُ شَهرينِ متتابعينِ؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾، ومَن لم يَستطعِ الصِّيامَ فلا شيءَ عليه، لا عِتْق رقبة؛ لأنَّه لا يَجِدُ، ولا صيامَ؛ لأنَّه لا يستطيع، ولا إطعام؛ لأنَّه لم يُذكَر في الآية؛ ولهذا لمَّا أراد الله عزَّ وجلَّ أن يكون الإطعام بدلًا عن الصيام ذكره كما في آيات الظِّهَار[1].

٢٣- قول الله تعالى: ﴿تَوْبَةً مِنَ اللهِ﴾ تاب يُطلَق على معنى نَدِم، وعلى معنى قَبِلَ منه، وهي هنا بمعنى قَبِلَ التَّوبة بقرينة تعديته بـ (مِنْ)[2].

٢٤- في قول اللهِ تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ إثباتُ اسمينِ من أسماءِ الله؛ أحدهما: العليم، والثَّاني: الحُكيم، واللهُ تعالى يَقرِن بين العليمِ والحَكيمِ في مواضعَ كثيرةٍ؛ ليُبيِّن أنَّ ما يَحكُم به سبحانه من الأحكامِ الشَّرعيَّة والأحكامِ الكونيَّة، فإنَّه صادرٌ عن علمٍ وحِكمةٍ لا عن جهلٍ وسَفَهٍ، وأصلُ الخطأِ في الحُكم إمَّا مِن الجَهل، وإمَّا من السَّفَه؛ فإنْ كان عن غير علمٍ فهو من الجهل، وإنْ كان عن غيرِ حِكمةٍ فهو من السَّفَه؛ ولهذا فالآياتُ الَّتي تتضمَّن أحكامًا يَختِمُها الله جلَّ وعلا كثيرًا بهذين الاسمين[3].

٢٥- قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ومِنْ حِكْمَته أنْ أَوْجَبَ في القتْل الدِّيَةَ ولو كان خطأً؛ لتكونَ رادعةً وكافَّةً عن كثيرٍ من القتل، باستعمالِ الأسبابِ العاصمةِ عن ذلك؛ قال تعالى: ﴿فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ﴾. ومن حِكْمَته أيضًا أنْ وَجَبَتْ على العاقلةِ في قتْل الخطأِ، بإجماعِ العُلماء؛ لكونِ القاتلِ لم يُذنِبْ، فيَشُقُّ عليه أن يحمل هذه الدِّيَة الباهظة، فناسب أن يقوم بذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٧٩).

مَنْ بينه وبينهم المعاونةُ والمُناصرة والمُساعدة على تحصيل المصالحِ وكفِّ المفاسِدِ[١].

٢٦- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا...﴾ في هذه الآية الكريمة دليلٌ على أنَّ قتْل المؤمن عَمدًا من كبائرِ الذُّنوب؛ لورودِ الوعيدِ عليه؛ وكل ذنبٍ رُتِّبَ عليه الوعيدُ والعقوبةُ فهو من كبائر الذُّنوب[٢].

٢٧- في قوله تعالى: ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ إثباتُ الغضَبِ لله عزَّ وجلَّ، والغضبُ صفةٌ من الصِّفات الفعليَّة الَّتي تقَعُ بمشيئةِ الله تعالى، وكلُّ صفةٍ مُرتَّبةٍ على سببٍ؛ فهي من الصِّفاتِ الفِعليَّة؛ لأنَّها تُوجَد بوجودِ ذلك السَّببِ، وتَنتفي بانتفائِه[٣].

٢٨- أنَّ مَن قَتَل مؤمنًا متعمِّدًا فمِنْ جزائِه أنْ يُلْعَنَ، بأنْ يُطرَدَ مِن رحمة الله؛ لقوله: ﴿وَلَعَنَهُ﴾، لكن لا يجوزُ أنْ نلعنَ القاتِلَ بعينِه، ونقول: أنتَ ملعونٌ مغضوبٌ عليك؛ لأنَّه يجوز أن يتوبَ فتزولَ اللَّعنةُ[٤]، فلعنُ المطلَقِ لا يستلزمُ لعنَ المعيَّنِ الذي قام به ما يمنعُ لحوقَ اللعنةِ له[٥].

٢٩- القرآنُ مملوءٌ بِذِكْر سَخَطِ الله وغَضَبِه على أعدائه، وذلك صفةٌ قائمةٌ به، يترتَّبُ عليها العذابُ واللَّعْنَةُ، لا أنَّ السَّخَط هو نفْسُ العذابِ واللَّعْنَة، بل هما أثَرُ السَّخَط والغَضَب ومُوجِبُهما؛ ولهذا يُفَرَّقُ بينهما، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٨٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٨٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٨٨).

(٥) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ٢٨٢).

عَذَابًا عَظِيمًا﴾ ففَرَّقَ بين عذابِه وغَضَبِه ولَعْنَتِه، وجَعَلَ كُلَّ واحدٍ غيرَ الآخَرِ(١).

٣٠- عِظَمُ عذابِ النَّار؛ لقوله: ﴿عَظِيمًا﴾، والعظيم إذا استعظم الشَّيء صار بقدْرِ عظمة هذا المستعظِم، أي: إنَّه شيء عظيم عِظَمًا كبيرًا(٢).

٣١- أنَّ الواجِبَ علينا معاملةُ الخَلق بالظَّاهر؛ لقوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ ولم يقل: لستَ مسلمًا؛ لأنَّه ألقى السَّلامَ واستسلم، لكن لا تقولوا: لست مؤمنًا، يعني: لم يدخُلِ الإيمانُ في قَلبِك، فلا يجوزُ لنا أنْ نتعدَّى الظَّاهِرَ الَّذي يبدو من الإنسان، حتَّى وإن وُجِدَت قرائنُ تدلُّ على خلافِ ظاهره، والدَّليل: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾(٣).

٣٢- قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ المقصودُ من التقييدِ بـ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ زيادةُ التَّوبيخِ، والتحقير لعَرَض الدُّنيا بأنَّها نفْعٌ عارضٌ زائل، مع العلم بأنَّه لو قال لمن أظهر الإسلامَ: لستَ مؤمنًا، وقتَلَه غيرَ آخذٍ منه مالًا لكان حُكمُه أوْلَى ممَّن قصَد أخْذَ الغُنَيْمة(٤).

٣٣- عِلْمُ الله سبحانَه ببواطِنِ الأمور؛ لقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾، ويدلُّ لذلك قولُه تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣]، فقد فسَّر النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم الباطِنَ بأنَّه (الَّذي ليس دونه شيءٌ)(٥)؛ فكلُّ شيءٍ بأمْره، وكلُّ شيء بعِلْمِه، وكلُّ شيءٍ بسَمْعِه، وكلُّ شيء

---

(١) ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٩٥، ٩٦)، وينظر كذلك: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٦٨- ١٦٩).

(٥) ينظر ما رواه مسلم (٢٧١٣).

بَبَصَرِه، فَعُلُوُّهُ عزَّ وجلَّ فوقَ كلِّ شيءٍ، ولا يمنَعُ مِنْ عِلْمِه بكلِّ شيءٍ[(١)].

٣٤- الإسلامُ يمنعُ قَتْلَ مَن يُظهر الإسلامَ، ومن يُلْقِي السَّلَم أو السَّلامَ، ومَنْ بينَه وبينَ المسلمين عهدٌ وميثاقٌ إمَّا على المناصَرة، وإمَّا على تَرْكِ القتالِ، ومن اتَّصل بأهلِ الميثاقِ المعاهَدِين، ومن اعتزل القتالَ فلم يساعدْ فيه قومَه المقاتلينَ، وبَعْدَ هذا كلِّهِ رغَّب عن ابتغاء عَرَض الدُّنيا بالقتالِ؛ ليكون لِمَحْضِ رَفْعِ البغْيِ والعدوان، وتقرير الحَقِّ والإصلاح، ولا هَمَّ لجميع الدول والأمَمِ الآن إلَّا الرِّبْحُ وجَمْعُ الأموالِ، وهم ينقضُون العهدَ والميثاق مع الضُّعفاءِ، ولا يلتزمونَ حِفْظَ المعاهدات إلَّا مع الأقوياءِ، وهو ما شدَّد الإسلامُ في حفظه، وحافظ عليه النَّبيُّ- صلَّى الله عليه وسلَّم- في عهده، وحافَظَ عليه خلفاؤه الرَّاشِدونَ من بعده، فأين أرقى أمَمِ المدنيَّةِ من أولئك الأئمَّة الْمَهْدِيِّين[(٢)]؟!

بَلاغةُ الآيتين:

١- قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً﴾: فيه انتقالُ الغرضِ الذي يُعيد نشاطَ السَّامع بتفنُّن الأغراض؛ فقدِ انتقلَ مِن تحديدِ أعمالِ المسلمين مع العدوِّ إلى أحكامِ معاملةِ المسلمين بعضِهم مع بعض، مِن وجوبِ كفِّ عُدوانِ بعضِهم على بعض[(٣)].

- وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً﴾ جاءَ بصِيغة المبالغةِ في النَّفي ﴿مَا كَانَ﴾، وهي صِيغة الجُحودُ، أي: لا يَنبغي لمؤمنٍ أنْ يَقتُل مؤمنًا في حالٍ مِن الأحوالِ إلَّا في حالِ الخَطأ، أو أنْ يقتُل قتْلًا من القتْل إلَّا قتْلَ الخطأ، فكان الكلامُ حصرًا، وهو حصرٌ ادِّعائي مُرادٌ به المبالغةُ في النَّهي؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٩٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٢٨٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٥٦).

كأنَّ صِفةَ الإيمانِ في القاتِلِ والمقتولِ تُنافي الاجتماعَ مع القَتْل في نفْسِ الأمرِ منافاةَ الضِّدَّينِ؛ لقصدِ الإيذانِ بأنَّ المؤمِنَ إذا قتَلَ مؤمنًا فقدْ سُلِبَ عنه الإيمانُ، وما هو بمؤمِنٍ؛ على نحوِ: ((ولا يَشْرَبُ الخمرَ حينَ يَشرَبُها وهو مؤمنٌ))[(١)] ؛ فتكونُ جملةُ ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَأً﴾ مستقلةً عمَّا بعدَها، غيرَ مرادٍ بها التشريعُ، بل هي كالمقدِّمة للتشريعِ؛ لقصدِ تفظيعِ حالِ قتْلِ المؤمنِ المؤمِنَ قتلًا غيرَ خطأٍ، وتكونُ خبريَّةً لفظًا ومعنًى[(٢)].

- وقيل: إنَّ ﴿مَا كَانَ﴾ خبرٌ مرادٌ به النَّهي؛ فيكون فيه تَنبيهٌ على أنَّ صورةَ الخطأِ لا يَتعلَّقُ بها النَّهي؛ إذْ قد عَلِم كلُّ أحدٍ أنَّ الخطأ لا يتعلَّقُ به أمرٌ ولا نهي، يعني: إنْ كان نوعٌ مِن قتْل المؤمِن مأذونًا فيه للمؤمن، فهو قتْلُ الخطأ، وقد عُلِم أنَّ المخطئَ لا يَأتي فِعلَه قاصدًا امتثالًا ولا عِصيانًا، فرَجَع الكلامُ إلى معنى: وما كان لمؤمنٍ أن يقتُلَ مؤمنًا قتلًا تتعلَّق به الإرادة والقصد بحال أبدًا، فتكون الجملةُ مبدأَ التشريع، وما بعدَها كالتَّفصيلِ لها[(٣)].

٢- **قوله: ﴿فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾** قيل: قَدَّم الدِّيَةَ هنا إشارةً إلى المبادرة بها حِفظًا للعهد، ولتأكيدِ أمْرِ التحريرِ بكونه ختامًا كما كان

---

(١) جزء من حديث طويل رواه البخاري (٥٥٧٨)، ومسلم (٥٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٥٦-١٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٥٧).

وقال ابنُ عاشور: (وعلى هذين الوجهينِ [النفي- والخبر المرادُ به النهي] لا يُشكلُ الاستثناءُ في قوله: ﴿إِلَّا خَطَأً﴾، وذهَب المفسِّرون إلى أنَّ ﴿مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾ مرادٌ به النهي، أي: خبرٌ في معنى الإنشاء؛ فالْتجؤوا إلى أنَّ الاستثناءَ منقطِعٌ بمعنى (لكن) [أي: لكنْ إنْ قتلَه خطأً فجزاؤُه ما يُذكَر]؛ فرارًا مِن اقتضاءِ مفهومِ الاستثناءِ إباحةَ أنْ يقتُل مؤمنٌ مؤمنًا خطأً، وقد فهمتَ أنَّه غيرُ متوهَّم هنا). ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٥٧). وينظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٩٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٩-٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢١٥).

افتتاحًا في قوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ﴾؛ حثًّا على الوفاءِ به؛ لأنَّه أمانة لا طالبَ له إلَّا اللهُ[1].

وقيل: قدَّم هنا ذِكْرَ الدِّية، وأخَّر ذِكْرَ الكفَّارة، وعكَس في قتْل المؤمِن؛ لعلَّه للإشعارِ بأنَّ حقَّ الله تعالى في معاملةِ المؤمنين مُقدَّمٌ على حقوقِ النَّاس؛ ولذلك استثنى هنالك في أمر الدِّيَة فقال: ﴿إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا﴾؛ لأنَّ مِنْ شأنِ المؤمنِ العَفْوَ والسَّماحَ، واللهُ يُرَغِّبُهم فيما يَليقُ بكرامَتِهم ومكارِمِ أخلاقِهم، ولم يَستثْنِ هنا؛ لأنَّ مِن شأنِ المعاهَدين الْمُشَاحَّةَ والتَّشديدَ في حقوقِهم، وليسوا مُذْعِنين لهدايةِ الإسلام، فيُرَغِّبُهم كتابُه في الفضائل والمكارِمِ[2].

- وتكرَّرت جُملة: ﴿وتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾[3]؛ للتَّأكيدِ على تحريرِ الرِّقاب، وحصْر الرِّقابِ المطلوب تحريرُها في الرِّقاب المؤمنةِ فقط.

٣- قوله: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾: في هذه الآية فنُّ مراعاةِ النظير؛ حيث جاءَ التعبيرُ فيها دالًّا على تهديدٍ عظيمٍ بما يُناسِبُ المحتوى؛ إذ قدْ حفِلت هذه الآيةُ بالألفاظِ الدالَّة على الغَضَبِ، والتهديدِ والوعيدِ، والإرعاد والإبراق؛ للإشارةِ إلى أنَّ جريمةَ القتلِ مِن أكبرِ الجرائمِ وأشدِّها إمعانًا في الشرِّ؛ لِمَا يترتَّبُ عليها من هدْمٍ لبناءِ المجتمَع[4].

- وقوله: ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾: عطفٌ على مُقدَّر يدلُّ عليه الشَّرطيَّةُ دَلالةً واضحة، كأنَّه قيل بطريقِ الاستئنافِ تقريرًا وتأكيدًا لمضمونها: حَكَمَ اللهُ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٣٤) (٤/ ٢٩).

(٤) ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٩٠)، ((الجدول في إعراب القرآن الكريم)) لصافي (٥/ ١٣٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٢٩٨).

بأنَّ جزاءَه ذلك، وغَضِبَ عليه، وهي جملةٌ استئنافيَّة، فيها تأكيدٌ لمضمونِ ما قَبلها من حُكم اللهِ بأنَّ جزاءه ذلك، بالإضافةِ إلى غَضبِ اللهِ عليه[1].

٤- قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾: استئنافٌ ابتدائيٌّ خُوطب به المؤمنون؛ استقصاءً للتحذيرِ مِن قتْل المؤمِنِ بذِكر أحوالٍ قد يُتساهَل فيها، وتَعرِضُ فيها شُبَهٌ[2].

- والتَّصدير بالنِّداء للمؤمنين؛ لبيانِ أهميَّةِ الحُكم، وأنَّ امتثالَه من مُقتضياتِ الإيمانِ، وفيه فضيلةُ المؤمنينَ؛ حيث يُخاطبهم الله عزَّ وجلَّ بما شاءَ من أحكام، ولا شكَّ أنَّ مخاطبةَ الله للإنسانِ لشَخْصِه أو لوصفِه- لا شكَّ أنها شَرَف، والنَّاس يَتدافعون عند ملوكِ الدُّنيا، فإذا قال هذا المَلِكُ: كيف أصبحتَ يا فلانُ؟! فإنَّه يَعُدُّهُ شَرفًا، فإذا وجَّه الله الخطابَ للمؤمنينَ كان ذلك شَرفًا لهم[3].

- قوله: ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾: جملة خبريَّة، فيها تعليلٌ للنهي عن ابتغاءِ مالِه بما فيه من الوَعد الضِّمْني؛ كأنَّه قيل: لا تَبتغوا مالَه؛ فعندَ الله مغانمُ كثيرةٌ يُغنمكموها، فيُغنيكم عن ارتكابِ ما ارتكبتموه[4].

- قوله: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾: تعليلٌ للنهيِ عن القول المذكور، ولعلَّ تأخيرَه لِمَا فيه من نوعِ تفصيلٍ ربَّما يُخلُّ تقديمُه بتجاوُب

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢١٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٦٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٩٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢١٨).

أطرافِ النَّظم الكريم، مع ما فيه من مراعاةِ المقارنة بين التعليل السابق، وبين ما عُلِّل به، كما في قوله تعالى ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ ...﴾إلخ [آل عمران: ١٠٦][(١)].

- وتقديم خبَر كان ﴿كَذَلِكَ﴾؛ للقصرِ المفيدِ لتأكيد المشابهة بين طرفَي التشبيه، والفاء في ﴿فَمَنَّ﴾ للعطف على ﴿كُنْتُمْ﴾ أي: مِثلَ ذلك الذي ألْقى إليكم السلامَ كنتم أنتُم أيضًا في مبادِي إسلامِكم لا يَظهرُ منكم للناسِ غيرُ ما ظهَرَ منه لكم مِن تحيَّة الإسلامِ ونحوِها، ﴿فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ﴾ بأنْ قَبِل منكم تلك المرتبةَ، وعصَم بها دماءَكم وأموالكم، ولم يأمُرْ بالتفحُّص عن سرائرِكم[(٢)].

- وكرَّر قوله: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾؛ تأكيدًا لتعظيم الأمْر، وتَرتيبِ الحُكم على ما ذُكِر من حالهم[(٣)]، مع ما فيه من التأكيد بصِيغة التفعُّل التي بمعنى الاستفعال- أي: اطلبوا بيانَ الأمْر وثباته، ولا تَتهوَّكوا فيه من غير رويَّة[(٤)]، مع المبالغة في التَّحذير عن ذلِك الفِعل[(٥)].

- والتذييلُ بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ تعليلٌ لِمَا قَبْلَه بطريقِ الاستئنافِ، وفيه الجمْعُ بين الوعيدِ والوَعْدِ، أي: فيُجازيكم بِحَسَبِها إنْ خيرًا فخيرٌ وإنْ شرًّا فشرٌّ، فلا تَتهاونوا في القَتْلِ واحتاطُوا فيه[(٦)]، مع ما في الجملةِ مِن تأكيدِ الخبرِ بـ(إنَّ) واسميَّة الجملة.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٦٨-١٦٩).

(٢) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٩١)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٦).

(٤) ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٥٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ١٩١)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣١).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٦٩).

الآيتان (٩٥ - ٩٦)

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿أُولِي الضَّرَرِ﴾: أي: أصحابِ العَجزِ، وأهْلِ العُذرِ بذَهابِ أبصارِهم، والزَّمَانةِ وغيرِ ذلك مِن العِللِ المانعةِ مِن الجِهادِ؛ يُقال: ضريرٌ بيِّنُ الضَّرر، وأصل (ضرر): خلافُ النَّفْع[1].

مُشكِلُ الإعراب:

قوله: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾

﴿غَيْرُ﴾: قُرِئت بالرَّفْع، وبالنَّصب، وبالجرِّ؛ فالرَّفْعُ على البَدلِ مِن ﴿الْقَاعِدُونَ﴾؛ لأنَّ الكلامَ نفيٌ، والبَدلُ معه أرْجَحُ. والنَّصبُ على الاستثناءِ من ﴿الْقَاعِدُونَ﴾؛ لأنَّهم المحدَّثُ عنهم، أو يكون النَّصْبُ على الحالِ مِن ﴿الْقَاعِدُونَ﴾ أيضًا، وجازُ وقوعُ (غَيْر) حالًا وإنْ كانتْ مضافةً؛ لأنَّها نكرةٌ لا تتعرَّفُ بالإضافةِ. والجرُّ على الصِّفة لـ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، وجاز ذلك وإنْ كان لا يَجوزُ اختلافُ النَّعتِ والمنعوتِ تَعريفًا وتنكيرًا، على اعتبارِ أنَّ (المؤمنين) أُريد بهم الجِنسُ؛ فأشْبَهوا النكرةَ فوُصِفوا كما تُوصَف، أو على أنَّ (غير) قد تَتعرَّفُ إذا وقعتْ بين ضِدَّين[2].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٦٥- ٣٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٦٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٠٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٨٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٧٦-٧٧).

المَعْنى الإجماليُّ:

يُخبر تعالى أنَّه لا يَستوي مِن المؤمنين مَن قعَدَ عن الجِهادِ فلمْ يخرُجْ، ومَن خرَج للجهادِ في سَبيلِ اللهِ بمالِه ونفْسِه، وأخْبَر سبحانه أنَّه فضَّلَ المجاهدينَ بأموالهم وأنفُسِهم على القاعدينَ درجةً، وكِلَا هَذَينِ الفريقينِ من المجاهدين والقاعدينَ وَعَدَهما اللهُ الجنَّةَ، ولكنْ فضَّلَ المجاهدينَ على القاعِدينَ بأجرٍ عظيمٍ، هذا الأجرُ العظيمُ هو درجاتٌ عاليةٌ يَرفعُهم اللهُ بها في الجِنانِ، ومَغفرةُ ذنوبهم، ورَحمتُهم، وكان الله غفورًا رحيمًا.

تفسيرُ الآيتين:

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا عاتبَهم الله تعالى على ما صَدَر منهم مِن قَتْلِ مَن تكلَّم بكلمةِ الشَّهادة، فلعلَّه يَقعُ في قلبِهم أنَّ الْأَوْلى الاحترازُ عن الجهادِ؛ لئلَّا يقَعَ بسببه في مِثل هذا المحذورِ، فلا جَرَمَ ذَكَرَ اللهُ تعالى في عَقيبه هذه الآيَةَ، وبيَّنَ فيها فَضْلَ المجاهِدِ على غيرِه؛ إزالةً لهذه الشُّبْهة، وأيضًا كيلَا يكونَ ذلك اللومُ مُوهِمًا انحطاطَ فضيلَتِهم في بعضِ أحوالِهم، على عادةِ القُرآنِ في تعقيبِ النِّذَارة بالبِشَارة؛ دَفعًا لليأسِ مِن الرحمةِ عنْ أنفُس المسلمينَ[1].

وأيضًا لَمَّا عاتبَهم اللهُ تعالى على ما صدَرَ منهم مِنْ قتْل مَنْ تكلَّم بالشَّهادة؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ١٩٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٦٩).

ذكَر عقيبَه فَضيلةَ الجِهاد، كأنَّه قيل: مَن أتَى بالجهادِ فقدْ فاز بهذه الدَّرَجةِ العظيمةِ عندَ اللهِ تعالى، فَلْيَحْتَرِزْ صاحبُها من تلك الهَفْوةِ[1] فقال تعالى:

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾.

سَببُ النُّزول:

عن سَهلِ بنِ سَعدٍ الساعديِّ، أنَّه قال: رأيتُ مَرْوانَ بنَ الحَكمِ جالسًا في المسجدِ، فأقبلتُ حتَّى جلستُ إلى جَنبِه، فأخْبَرَنا أنَّ زيدَ بنَ ثابتٍ رضِي اللهُ عنه أخْبَره ((أنَّ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أمْلى عليه: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، قال: فجاءَه ابنُ أمِّ مَكتومٍ وهو يُمِلُّها عليَّ، فقال: يا رسولَ اللهِ، لو أستطيعُ الجهادَ لجاهدتُ- وكان رجلًا أعْمَى- فأَنْزَلَ اللهُ تبارَك وتَعالَى على رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وفَخِذُه على فَخِذي، فثَقُلَتْ عليَّ حتَّى خِفْتُ أنْ تَرُضَّ فَخِذي[2]، ثم سُرِّي عنه[3]، فأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾))[4].

وفي روايةٍ أخرى، عنِ البَراءِ، قال: ((لَمَّا نَزَلَتْ ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ادعُ لي فلانًا، فجاءَه ومعه الدَّوَاةُ واللَّوْحُ، أوِ الكَتِفُ، فقال: اكتب ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ﴾ وخلْفَ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ، فقال: يا رَسولَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ١٩٢).

(٢) تَرُضَّ- بفَتْح التاءِ وضمِّ الراء، ويجوز العكسُ تُرَضَّ-: أي: تَدُقَّ وتَكسِر، أو تُدَقَّ وتُكْسَر، من الرَّضِّ، وهو: الدقُّ، وكلُّ شيءٍ كَسرتَه فقدْ رَضضتَه. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ٤٧٩) و(٨/ ٢٦١)، ((تاج العروس)) للزبيدي (١٨/ ٣٤٤).

(٣) سُرِّيَ: أي: كُشِفَ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٢٦١).

(٤) رواه البخاري (٢٨٣٢).

اللهِ، أنا ضَريرٌ، فنزَلَتْ مَكانَها ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾))(١).

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾.

أي: لا يَستوي مَن لم يَخرُجْ للجهادِ لتكونَ كلمةُ الله هي العليا- إلَّا مَن تخلَّف عن الجهادِ لعُذْرٍ- مع مَن جاهَدَ من المؤمنين بنَفسِه ومالِه(٢).

﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾.

أي: فضَّل اللهُ المجاهدين ببذْلِ أموالِهم وأنفسِهم على القاعدينَ بدرجةٍ رفيعةٍ(٣).

عن أبي هُريرَةَ رضِي اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((مَن آمَنَ باللهِ ورسولِه، وأقام الصَّلاةَ، وصامَ رمضانَ، كان حقًّا على اللهِ أن يُدخلَه الجنَّةَ، هاجر في سبيلِ اللهِ، أو جلس في أرضِه الَّتي وُلِدَ فيها. قالوا: يا رسولَ اللهِ، أفلا نُنبِّئُ النَّاسَ بذلك؟ قال: إنَّ في الجنَّةِ مائةَ درجةٍ، أعدَّها اللهُ للمجاهدين في سبيلِه، كلُّ درجتَيْنِ ما بينهما كما بين السماءِ والأرضِ، فإذا سألتم اللهَ فسلُوهُ الفردوسَ، فإنَّهُ أوسطُ الجنَّةِ، وأعلى الجنَّةِ، وفوقَه عرشُ الرَّحمنِ، ومنه تَفَجَّرُ أنهارُ الجنَّةِ))(٤).

﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾.

---

(١) رواه البخاري (٤٥٩٤) واللفظ له، ومسلم (١٨٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٦٥-٣٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٩٨-١٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٠١).

(٤) رواه البخاري (٧٤٢٣)، ورواه مسلم (١٨٨٤) بنحوه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

أي: وعَدَ اللهُ كُلًّا مِن المجاهِدين بأموالهم وأنفسِهم، والقاعِدين: الجنَّةَ(١).

﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

أي: وفضَّل اللهُ المجاهدين بأموالهم وأنفُسِهم على القاعِدينَ جزاءً كبيرًا، وثوابًا جزيلًا(٢).

﴿دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٩٦)﴾.

﴿دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾.

أي: إنَّ هذا الأجْرَ العظيمَ يَشملُ رَفْعَهُم دَرجاتٍ في الجِنان العالياتِ، وسَتْرًا للذنوب، وتجاوزًا عن الزلَّاتِ، وحلولَ الرَّحَماتِ والبركات؛ إحسانًا منه سبحانه وتكريمًا، وفضلًا منه وتشريفًا(٣).

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الصف: ١٠ - ١٢].

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى هو الغفورُ الَّذي يَستُرُ ذُنوبَ عِبادِه، ويَتجاوزُ عن مُؤاخذتِهم بها، وهو الَّذي يَرحَمُهم، فيتفضَّلُ عليهم بنِعَمِه سبحانه(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٧٨-٣٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين-سورة النساء)) (٢/ ١٠٧-١٠٨).

الفَوائد التربويَّة:

١- قولُ الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ فيه التَّرغيبُ في الجِهاد، والحثُّ عليه(١).

٢- فَضْلُ الجهادِ في سبيلِ اللهِ تعالى بالمالِ والنَّفس؛ ووجهُه: أنَّهم أعْلى درجةً من القاعدين الَّذين لا يُجاهدون، قال تعالى: ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ...﴾(٢).

٣- قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ هذا التَّوكيدُ، وهذه الوُعود، وهذا التَّمجيدُ للمجاهدين، والتَّفضيل على القاعدين، والتَّلويحُ بكلِّ ما تَهفو له نفسُ المؤمِنِ من درجاتِ الأجرِ العظيم، ومِن مَغفرةِ اللهِ ورحمتِهِ للذُّنوبِ والتَّقصير، هذا كلُّه يشِي بحَقيقةٍ مُهمَّةٍ، وهي: قيمة الجِهاد بالأموال والأنفُس في ميزانِ الله سُبحانَه، واعتبارات هذا الدِّين، وأصالةِ هذا العنصرِ في طبيعةِ هذه العقيدةِ وهذا النِّظامِ؛ لِمَا يَعلَمُه اللهُ سبحانه من طَبيعةِ الطَّريق، وطبيعةِ البَشَر، وطبيعةِ المعسكرات المُعادِيَة للإسلامِ في كلِّ حينٍ(٣).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ﴾ نفْيُ التَّساوِي بين النَّاس، والعَجَبُ أنَّنا نسمع مَن يُدندِنُ كثيرًا فيقول: إنَّ دينَ الإسلام دينُ المساواة، وهذا غلطٌ على دينِ الإسلامِ، فدينُ الإسلامِ ليس دينَ المساواةِ، ولكنَّه دينُ العدلِ، والعدلُ هو: إعطاءُ كلِّ أحدٍ ما يستحقُّه؛ ولذلك تجد أكثرَ ما في القرآنِ نفيَ المساواة، وليس إثباتها؛ كقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ١٩٣، ١٩٤)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٢٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٠٥).
(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٧٤١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٠٣).

٢- قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ﴾ فيه حِكمةُ الشَّريعةِ؛ حيث لا تُسَاوِي بين المفترقَيْنِ، كما أنَّها لا تُفرِّق بين المتساوِيَن؛ فالشَّريعة الإسلامية من لدُنْ حكيمٍ خبيرٍ، فلا يمكن أنْ تجدَ فيها حُكمَينِ متناقضينِ، ولا يمكن أنْ تجد فيها شيئينِ متساويينِ ثمَّ يختلفانِ في الحكم أبدًا، بل إذا تراءى لك أنَّ هذين الشيئين متساويانِ، وقد اختلفا في الحكم شرعًا، فأَعِدِ النَّظَرَ مرَّةً بعد أخرى حتَّى يتبيَّنَ لك، فإنْ لم يتبينْ لك فاتَّهِمْ فَهْمَك، ولا تَتَّهِمِ الأحكامَ الشَّرعيَّةَ[1].

٣- نفيُ التساوي أيضًا في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ...﴾ يُفيدُ التَّذكيرَ بما بينهما مِن التفاوُتِ العَظيم، والبَوْنِ البَعيد؛ ليأنفَ القاعدُ، ويَترفَّعَ بنَفْسِه عن انحطاطِ منزلتِه، فيهتزَّ للجِهاد، ويَرغبَ فيه وفي ارتفاعِ طبقتِه[2]، كذلك فهذا النفي للتساوي يقتضي العموم، فالقاعدون والمجاهدون لا يستوون مِن كلِّ وجهٍ[3].

٤- أنَّ مَن قعَد عن الجِهاد لضَرَرٍ، فإنَّه كالذي أتى بالجهاد؛ لقوله: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، ثمَّ استثنى فقال: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾، فأولو الضَّررِ مُساوُون للمجاهدين، فالمعذورَ يُكتَبُ له مِثلُ ثوابِ الصَّحيحِ إذا كانتْ نِيَّتُه أنْ يفعلَ، وقدْ عمِلَ ما يَقدِرُ عليه[4].

٥- البِشارةُ بالحُسنَى لعامَّة المؤمنينَ من القاعدين والمجاهدين؛ لقوله: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٠٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٥٣- ٥٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٧٠).
(٣) يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (ص: ٥٦٩، ٥٧٩).
(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٧٣١) و(٢٣/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٠٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٠٥).

٦- عِظَم منَّةِ الله سبحانه على العِباد؛ حيثُ جَعَل إثابتَهُم على الأعمالِ مثلَ الأُجرة الَّتي استحقَّها الإنسان فَرْضًا على الْمُسْتَأجِر؛ لقوله: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾، فسمَّاه ﴿أَجْرًا﴾، كأُجرةِ الأجير، مع أنَّ الفضلَ للهِ تعالى أولًا وآخِرًا؛ فهو الَّذي وفَّق للعمل، وهو الَّذي منَّ بالجزاء عليه(١).

٧- قوله: ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾، هذا بيانٌ لمفهوم عدمِ استواء المجاهِدين والقاعِدين غيرِ أُولي الضَّرر، وهو أنَّ الله تعالى رَفَعَ المجاهدين عليهم درجةً، وهي درجةُ العمل الَّذي يترتَّبُ عليه دفعُ شرِّ الأعداءِ عن الْمِلَّة والأمَّة والبلاد، وكُلًّا وَعَدَ الله الحُسنى(٢).

٨- ذكَر تعالى في الآيةِ فَضْلَ المجاهدينَ في سبيلِ اللهِ على القاعِدين لغيرِ عَجزٍ؛ فعُلِمَ أنَّ العاجِزَ معذورٌ، قال تعالى: ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ...﴾(٣).

٩- قولُ الله تعالى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ فيه دليلٌ على أنَّ فرْضَ الجِهاد على الكِفايةِ، وليس على كلِّ واحدٍ بعينه؛ لأنَّه تعالى وَعَدَ القاعدين الحُسنى كما وعَد المجاهدينَ، ولو كان الجِهادُ واجبًا على التَّعيينِ لَمَا كان القاعدُ أهلًا لوعْدِ الله تعالى إيَّاه الحُسْنى(٤).

١٠- عِظَمُ دَرجاتِ المجاهدين في سَبيلِ الله، وجْهُ ذلك قولُه: ﴿دَرَجَاتٍ مِنْهُ﴾، فأضافَها إلى نَفسِه، ومعلومٌ أنَّ العطاءَ يعظُم بعِظَم المُعطِي(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٢٨٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٢٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ١٩٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٠٧).

١١- رفعةُ الدَّرَجات تعود إلى العِلْمِ والجهادِ اللَّذَيْنِ بهما قِوامُ الدِّينِ، قال تعالى: ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾، وقال: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، وقد ذُكرت رفعةُ الدَّرجات في أربعةِ مواضِعَ؛ ثلاثة منها لأَهْلِ الإيمانِ الذي هو العِلْمُ النافِعُ، والعمَلُ الصَّالِحُ، والرَّابعُ الرِّفْعَةُ بالجهادِ[١].

١٢- إثباتُ الرَّحمةِ للهِ، والرَّحمةُ الَّتي أضافَها اللهُ تعالى إلى نفْسه نوعانِ: منها صِفةٌ لله، ومنها مخلوقٌ مِن مخلوقاتِ الله سَمَّاه اللهُ تعالى (رحمةً)[٢].

١٣- لَمَّا وعَد المجاهِدِينَ بالمغفرةِ والرَّحمةِ الصَّادرَتَيْنِ عن اسْمَيهِ الكريمينِ ﴿الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، ختَم هذه الآيةَ بهما، فقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾[٣].

بَلاغةُ الآيتين:

١- قوله: **﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾**: فيه تعريضٌ بالقاعِدين، وتَشْنيعٌ بحالِهم؛ حيثُ بيَّن أنَّ القاعدَ عن الجِهاد لا يُساوي المجاهِدَ في فَضيلةِ نُصْرة الدِّين، وبهذا يَظهرُ موقعُ الاستثناءِ بقوله: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾؛ كيلَا يَحسبَ أصحابُ الضررِ أنَّهم مقصودونَ بالتَّحريضِ؛ فيَخرجوا مع المسلمين، فيُكلِّفوهم مؤونةَ نقْلِهم وحِفظهم بلا جَدْوى، أو يَظنُّوا أنَّهم مقصودونَ بالتعريضِ، فتَنكسِرَ لذلك نفوسُهم، زيادةً على انكسارِها بعَجزِهم، ولأنَّ في استثنائِهم إنصافًا لهم وعُذرًا بأنَّهم لو كانوا قادِرين لَمَا قَعَدوا؛ فذلِك الظنُّ بالمؤمنِ؛ فالاستثناءُ مقصودٌ، وله موقعٌ من البلاغةِ لا يُضاعُ، ولو لم يُذكَر الاستثناءُ هنا، لكان تجاوزُ التَّعريضِ

---

(١) ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٥٠- ٥١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٠٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٥).

أصحابَ الضررِ معلومًا في سياقِ الكلامِ؛ فالاستثناءُ عُدولٌ عن الاعتمادِ على القَرينةِ إلى التَّصريحِ باللَّفْظِ، وهو عدولٌ عن حِراسةِ المقامِ إلى صَراحةِ الكلامِ، وهو مِن البلاغةِ ومِن مراعاةِ مقتضى الحال أيضًا؛ لأنَّ السامعينَ أصنافٌ كثيرةٌ منهم الذَّكيُّ الذي يَفْهَم بالقَرينةِ، ومنهم غيرُه الذي لا يَفْهَم إلَّا بالتَّصريحِ[1].

- وفيه: تقديمُ المفضولِ ﴿الْقَاعِدُونَ﴾ في الذِّكرِ على الفاضِلِ ﴿الْمُجَاهِدُونَ﴾؛ للإيذانِ مِن أوَّل الأمرِ بأنَّ القصورَ الذي يُنْبِئ عنه عدمُ الاستواءِ مِن جِهة القاعِدين، وليس مِن جِهةِ المجاهِدِينَ؛ فإنَّ مفهومَ عدمِ الاستواءِ بين الشَّيئين المتفاوتينِ زيادةً ونقصانًا، وإنْ جاز اعتبارُه بحسَب زيادةِ الزائد، لكن المتبادِر اعتبارُه بحسَب قُصورِ القاصِر، كقولِه تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾[2] [الرعد: ١٦]، وبيانُ ذلك أنَّ الفرقَ بين المتفاوتين في الزِّيادة والنَّقصِ، يُمكن اعتبارُ التفاوتِ بالنِّسبةِ إلى النقصِ في الناقِص، ويمكن اعتبارُه بالنسبةِ إلى الزيادةِ في الزَّائد؛ فقُدِّم الجانبُ الناقِص؛ ليُبيِّنَ أنَّ التفاوتَ الذي حصَل بينهما، إنَّما هو بسببِ النَّقصِ الذي جاءَ منهم لا بسببِ الزيادةِ في الفريقِ الثاني، وفيه زيادةُ تأنيبٍ لجانبِ النقص[3]. وقدْ حَسُنَ هذا الانتقالُ مِن حالةٍ إلى أعْلى منها؛ لأنَّ هذا الانتقالَ مِن حالةٍ إلى أعلى منها عندَ التفضيل والمدْحِ، أو النُّزولِ مِن حالة إلى ما دونها عندَ القدح والذم- أحسنُ لفظًا، وأوقعُ في النَّفْس[4].

٢- **قوله: ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾:** فيه التفصيلُ بعد الإجمال؛ فإنَّه استئنافٌ مسوقٌ لتفضيلِ ما بين الفَريقينِ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٧٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٢٠).
(٣) يُنظر: ((أضواء البيان- تتمة الشيخ عطية سالم)) (٨/ ٥٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٥).

التفاضُلِ المفهومِ مِن ذِكر عدمِ استوائِهما إجمالًا، ببيانِ كيفيَّتِه وكمِّيَّته، وهو مبنيٌّ على سؤالٍ ينساقُ إليه المقال، كأنَّه قيل: كيف وقَع ذلك؟ فقيل: فضَّلَ الله... إلخ[1]؛ فجملة: ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ﴾ بيانٌ لجُملة: ﴿لاَ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2]؛ فلمَّا بيَّن أنَّ المجاهِدين والقاعِدين لا يَستويانِ، وكان عَدمُ الاستواءِ يَحتمِلُ الزِّيادةَ ويَحتملُ النُّقصانَ، وكان نَفيُ المساواةِ سببًا لترقُّبِ كلٍّ مِن الحِزبَينِ الأفضليةَ؛ لأنَّ القاعدَ وإنْ فاتَه الجهادُ، فقدْ تخلَّفَ الغازي في أَهلِه؛ إذ يُحيي الدِّينَ بالاشتغالِ بالعِلمِ ونحوِه- لا جرَمَ كشَفَ اللهُ سُبحانَه عن التَّفضيلِ فقال: ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾[3].

- وفيه مناسبةٌ حسنةٌ، حيثُ جاءَ هنا تقديمُ الأموالِ على الأنفُس، بَيْنما في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ [التوبة: ١١١] جاءَ تَقديمُ الأنفسِ على الأموالِ؛ وذلِك لأنَّ النَّفْسَ أشرفُ مِن المالِ، وقد تَبايَن الغَرضانِ في الآيتينِ؛ ولَمَّا كان الكلامُ هنا في سورةِ النِّساءِ عن المجاهِدِ وهو بائعٌ، أَخَّر ذِكرَ الأَنفُس؛ تنبيهًا على أنَّ المضايقةَ فيها أشدُّ؛ فلا يَرضَى بَبذلِها إلَّا في آخِرِ المراتِبِ، وأمَّا في سورةِ التوبةِ فالكلامُ عن الذي يَشتري- وهو اللهُ سبحانه وتعالى- فقَدَّم ذِكْرَ النَّفسِ؛ تَنبيهًا على أنَّ الرَّغبةَ فيها أشدُّ، وإنَّما يرغَب أولًا في الأنفسِ الغالِي[4].

٣- **قوله: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾**: جُملة معترِضة؛ جيءَ بها لبيانِ سَعة

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٢٠- ٢٢١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٧٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ١٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٧٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ١٩٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٦- ٣٧).

فضلِ الله عزَّ وجلَّ، ولكي يَطمئنَّ الأقلُّ درجةً أنَّ له نصيبًا من الأجرِ(١)، وفيها حُسْنُ احتراسٍ أو احترازٍ؛ فإنَّه سبحانه إذا فضَّلَ شيئًا على شَيءٍ وكلٌّ منهما له فضلٌ، احترز بذِكرِ الفَضلِ الجامعِ للأمرينِ؛ لئلَّا يتوهَّم أحدٌ ذمَّ المُفضَّلِ عليه، أو القَدْح فيه(٢).

- وقوله: ﴿وَكُلًّا﴾ مفعولٌ أوَّلُ لـ﴿وَعَدَ﴾، قُدِّم لإفادةِ القَصرِ؛ تأكيدًا للوعدِ، أي: كلَّ واحدٍ من المجاهِدين والقاعِدين(٣).

٤- قوله: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾: فيه التعبيرُ بالمصدر المؤكِّد لـ﴿فَضَّلَ﴾ على أنَّه بمعنى (أَجَرَ)، وإيثارٌ على ما هو مصدرٌ من فِعله؛ للإشعارِ بكون ذلك التفضيلِ أجرًا لأعمالهم(٤).

٥- قوله: ﴿دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾: جَمَعَ ﴿دَرَجَاتٍ﴾؛ لإفادة تعظيم الدَّرجة؛ لأنَّ الجَمْع- لِمَا فيه من معنى الكثرة- تُجعل صِيغتُه لمعنى القُوَّة(٥).

- وفي قولِه في الآيةِ السَّابقةِ: ﴿دَرَجَةً﴾ بالإفرادِ، ثم قولِه في هذه الآيةِ: ﴿دَرَجَاتٍ﴾ بالجمْع، مناسبةٌ حَسنةٌ؛ وذلك مِنْ وجوهٍ(٦):

الوجه الأوَّلُ: أنَّ قوله: ﴿دَرَجَةً﴾ جِيءَ به بصِيغةِ الإفراد، وليسَ إفرادُها للوَحْدة؛ لأنَّ ﴿دَرَجَةً﴾ هنا جِنسٌ معنويٌّ لا أفرادَ له، فالمرادُ بالدرجة ليس هو الدَّرجةَ الواحدةَ بالعَدَدِ، بل بالجنس، والواحد بالجِنْسِ يدخل تحته الكثيرُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٧٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٥، ٨٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٠٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٢١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٧٢).
(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ١٩٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٢١- ٢٢٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ١٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٧٢).

بالنوع، وذلك هو الأجرُ العظيم، والدَّرجاتُ الرفيعةُ في الجنَّة المغفرةُ والرَّحمة؛ ولذلك أُعيد التعبيرُ عنها في الجُملة، التي جاءتْ بعدَها؛ تأكيدًا لها بصِيغة الجَمْع بقولِه: ﴿دَرَجَاتٍ مِنْهُ﴾؛ لأنَّ الجَمْع أقوى مِن المفرد، وتنوين ﴿دَرَجَةً﴾ للتعظيم، وهو يُساوي مفاد الجمع في قوله الآتي: ﴿دَرَجَاتٍ مِنْهُ﴾.

الوجهُ الثاني: أنَّ المرادَ بالتفضيلِ بالدرجةِ تَفضيلُهم على القاعِدينَ بعُذر؛ لأنَّ لهم أجرًا لكونهم من الغُزاة بالهمَّة والقَصْد؛ ولهذا قال ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾، أي الجنَّة. والمرادَ بالتفضيلِ بالدَّرجات تفضيلُهم على القاعِدينَ بلا عذرٍ؛ لأنهم مُقصِّرون ومُسيئونَ؛ فكان فضلُ الغزاةِ عليهم دَرجاتٍ؛ لانتفاءِ الفضلِ لهم.

الوجه الثالث: أنَّ هذا من قبيل أُسلوبِ الإبهامِ ثمَّ التَّفسيرِ، والغَرَضُ منه مزيدُ التَّحقيقِ والتقريرِ، فكأنَّه قيل: فضَّلَ اللهُ المجاهدينَ على القاعِدينَ ﴿دَرَجَةً﴾ لا يُقادَر قَدرُها، ولا يُبلَغُ كُنهُها، ولَمَّا كانتْ معرفةُ هذا الفَرْقِ الواسعِ بين الفريقين تُوهِمُ حِرمانَ القاعدينَ، قيل: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى﴾ ثم أُريدَ تفسيرُ ما أفادَه التنكيرُ بطريقِ الإبهامِ بحيث يقطَعُ احتمالَ كونِه للوَحْدة، فجيءَ بالجمع في قَوْلِه تعالى: ﴿دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾.

الوجه الرابع: أنَّ التفضيلَ بالدَّرجةِ هو ما فضَّلَ الله المجاهدين في الدُّنيا بدَرجةٍ واحدةٍ، وهي الغنيمةُ، وأما الجَمْعُ فتفضيلُهم في الآخِرَةِ بدرجاتٍ كثيرةٍ في الجنَّة؛ بالفضلِ والرَّحمة والمغفرة.

الوجه الخامس: أنَّ المقصودَ بالمجاهِدِ الأوَّلِ غيرُ المقصود به في الموضِعِ الثاني؛ لئلَّا يحصُلَ التَّكرارُ، فالمفضَّلون درجةً هم المجاهِدون بأموالِهم وأنفُسِهم كما نصَّت الآية، وأمَّا المرادُ بالثاني وهو المفضَّلُ بالدرجات مَن كان مجاهدًا على الإطلاقِ في كُلِّ الأمور، وهو الجهادُ بالنَّفْس والمال والقلب،

وهو أشرفُ أنواعِ المجاهدةِ، وحاصِلُ هذا الجهادِ صَرْفُ القلب من الالتفاتِ إلى غير الله إلى الاستغراقِ في طاعة الله، ولَمَّا كان هذا المقامُ أعلى مما قبله؛ لا جَرَمَ جَعَل فضيلةَ الأوَّل درجةً، وفضيلة هذا الثاني درجاتٍ.

- وقد جاءتِ اللَّفظتان: ﴿مَغْفِرَةً﴾، و﴿رَحْمَةً﴾ على المَصدرِ بإضمارِ فِعلَيْهما (غَفَر- رَحِم)؛ تَرغيبًا في الجِهاد[1].

٦- **قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾**: تذييلٌ مقرِّرٌ لِمَا وعَد مِن المغفرةِ والرحمةِ[2].

- وجاء لفظ ﴿غَفُورًا﴾ على هيئة صِيغة المبالغة (فعول)؛ مبالغةً في وصْفِه تعالى بالمغفرة؛ لإفادةِ أنَّه يَغفِر له ما فرَط منه من الذُّنوب، التي مِن جملتِها القعودُ عن الهجرةِ إلى وقتِ الخروج، وكذا جاءَ لفْظُ ﴿رَحِيمًا﴾ على هَيئةِ صِيغةِ المبالغةِ (فعيل) أيضًا؛ ليدلَّ على المبالغةِ في وصْفِه تعالى بالرَّحمة؛ فيَرحمه بإكمالِ ثَوابِ هِجرتِه[3].

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٩٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٢٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨٠).

الآيات (٩٧ - ١٠٠)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿حِيلَةً﴾: الحِيلةُ ما يُتوصَّلُ به إلى حالةٍ ما، في خُفيةٍ، وأكثرُ استعمالِها فيما في تَعاطِيه خُبثٌ، وقد تُستعملُ فيما فيه حِكمةٌ، وأصل (حول): تغيُّرُ الشَّيءِ وانفصالُه عن غيرِه، والتحرُّك في دَورٍ؛ ومنه الحِيلةُ؛ لأنَّه يُدارُ فيها حوالي الشَّيءِ ليُدْرَكَ(١).

﴿مُرَاغَمًا﴾: أي: مُتَزَحْزَحًا عمَّا يَكرَهُه، أو مُتحوَّلًا، والمُراغَم والمُهاجَر واحدٌ، وأصل (رغم): المَذهبُ والمهرَبُ(٢).

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبِر اللهُ تعالى أنَّ الَّذين تَقبِض الملائكةُ أرواحَهم، وهم ظالِمو أنفسِهم بمعصيةِ الله؛ حيثُ أقاموا في دار الكُفر، ولم يُهاجِروا فرارًا بدِينهم، مع أنَّهم لا يَستطيعون إقامتَه في تلك الدَّار، وهم قادِرونَ على الهِجرة، تقولُ لهم الملائكةُ حين قَبْض أرواحِهم موبخةً لهم: لِمَ بقِيتُم في هذا المكانِ، وتركتُم الهِجرةَ؟

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٩٠، ٣٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٦- ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤١٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٢).

فأجابوا أنَّهم كانوا ضُعفاءَ، مقهورِين، ليس لهم القُدرةُ على الهجرةِ، فتقول لهم الملائكةُ حِينَها: قد كانت أرضُ اللهِ واسعةً فسيحةً، وقد كان بوُسعِكم الانتقالُ إلى أيِّ مكانٍ منها تستطيعونَ فيه عِبادةَ الله. ثمَّ يُبيِّن اللهُ تعالى أنَّ هؤلاء الَّذين ظلَموا أنفسَهم مَصيرُهم نارُ جهنَّمَ، وقَبُحتْ جهنَّمُ مآبًا ومرجعًا لهم.

واستَثْنَى اللهُ تعالى الَّذين استُضعِفوا حقًّا وقُهِروا، رِجالًا ونساءً ووِلدانًا، فلمْ يَقدِروا على الهِجرة؛ لعجزِهم عن تدبيرِ حِيلةٍ تخلِّصُهم من المشركين، ولا يَعرِفون الطَّريقَ الَّتي يَنبغي المرورُ فيها للخروجِ من دار الكُفرِ إلى دارِ الإسلام، فأولئك وعَدَهم اللهُ بأنْ يعفوَ عنهم، ويتجاوزَ عن مؤاخذتِهم بترْكِ الهجرة، وكان اللهُ عفوًّا غفورًا.

ثمَّ حثَّ اللهُ على الهِجرة ورغَّبَ بها؛ حيثُ أخبرَ أنَّ مَن يهاجرُ في سبيلِ الله فإنَّه يجدُ في الأرض مكانًا يَتزحْزَحُ فيه عمَّا يكرَهُ، وموضعًا فيه سَعةٌ في الدِّين، يمكِنُه إظهارُه فيه، وفيه سَعةٌ في الصَّدرِ، والرِّزق، وكلِّ شيء، وأخبَر تعالى أنَّ مَن يَخرج من بَيتِه مُهاجرًا قاصدًا رضَا الله، واتباعًا وحبًّا لرسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ثمَّ يموتُ قَبلَ أنْ يَبلُغَ دارَ الإسلام الَّتي هاجَر إليها، فقد ثبَت أَجرُهُ على اللهِ، وكان اللهُ غفورًا رحيمًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى ثوابَ مَن أقدَمَ على الجِهاد، أتبَعَه بعِقابِ مَن قعَدَ عن

الجِهادِ، وسكَن في بلادِ الكُفرِ(١).

وأيضًا لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى القاعِدينَ عن الجِهادِ من المؤمنين بعُذْرٍ وبدونه، كان حالُ القاعِدين عن إظهارِ إسلامِهم مِن الَّذين عَزَموا عليه بمكَّةَ، أو اتَّبَعوه ثمَّ صَدَّهم أهلُ مكَّةَ عنه، وفتَنوهم حتَّى أرجَعوهم إلى عِبادةِ الأصنام بعُذرٍ وبدونه، بحيثُ يخطُرُ ببالِ السَّامع أنْ يَتساءلَ عن مَصيرِهم إنْ هم استمرُّوا على ذلك حتَّى ماتوا، فجاءتْ هذه الآيةُ مجيبةً عمَّا يَجيش بنفوسِ السَّامعين من التَّساؤلِ عن مَصيرِ أولئك(٢).

سببُ النُّزول:

عن ابن عبَّاسٍ رضِي اللهُ عنهما: ((أنَّ أناسًا من المسلِمين كانوا مع المُشرِكين يُكثِّرون سوادَ المُشرِكين على رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فيأتي السَّهمُ يُرمى به، فيُصيبُ أحدَهم فيقتُلُه، أو يُضرَبُ فيُقتَلُ، فأنزَل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾))(٣).

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾

أي: إنَّ الَّذين تَقبِضُ الملائكةُ أرواحَهم، والحالُ أنَّهم اكتَسبوا غضَبَ اللهِ تعالى؛ بسببِ مَعصيتِه بإقامتِهم بينَ ظَهْرَانَي المشرِكين، مع عدمِ تمكُّنِهم من إقامةِ الدِّين، وهم قادِرونَ على الهِجرةِ، فلم يُهاجِروا حتَّى ماتوا(٤).

﴿قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ١٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٧٣).

(٣) رواه البخاري (٧٠٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٠٩).

أي: قالتِ الملائكةُ توبيخًا لهم: لماذا بقِيتُم في هذا المكانِ، وترَكتُم الهِجرةَ[1]؟

﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾.

أي: قال الَّذين توفَّاهم الملائكةُ ظالِمي أنفسِهم، مُعتذِرين عن تَركِ الهجرةِ: كنَّا ضُعَفاءَ مَقهورينَ، ليس لنا قُدرةٌ على الخُروجِ مِن بين ظَهْرانَيِ المُشركين[2].

﴿قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾.

أي: قالتْ لهم الملائكةُ: إنَّ أرضَ اللهِ تعالى واسعةٌ، فإذا كان العبدُ في مَكانٍ لا يتمكَّنُ فيه من إظهارِ دِينِه، فإنَّ له متَّسعًا وفُسحةً من الأرضِ، بحيث ينتقلُ إلى الأرض الَّتي يتمكَّنُ فيها من عبادةِ اللهِ تعالى[3].

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

﴿فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾.

أي: فهؤلاء الَّذين تقدَّم ذِكرُهم، ووصْفُ حالِهم، مصيرُهم في الآخرةِ جهنَّمُ، وهي مسكَنُهم[4].

﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٠٩-١١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٥-١٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٧٩-٣٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١١٠-١١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١١١).
قال السعديُّ: (قال اللهُ عن هؤلاء الذين لا عُذرَ لهم: ﴿فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾، وهذا- كما تقدم- فيه ذِكرُ بيان السَّبب الموجِب؛ فقد يترتَّب عليه مقتضاه، مع اجتماعِ شُروطِه وانتفاءِ موانعِه، وقد يَمنعُ من ذلك مانعٌ) ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٦).

أي: وساءتْ جهنَّمُ لأهلِها الَّذين صاروا إليها مرجعًا ومرَدًّا[١].

﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨)﴾.

أي: أمَّا الَّذين استضعَفَهم المشركون من الرِّجالِ والنِّساءِ والوِلدانِ وقهَروهم، فلم يقدِروا على الهجرةِ من بينِ أظهُرِهم؛ بسبب قلَّةِ الحِيلةِ في التخلُّص من أيدي المشركين، وعدمِ المعرفةِ بالطَّريق الَّتي ينبغي سلوكُها، للخروجِ من أرضِ الشِّرك إلى أرضِ الإسلام[٢].

عن أبي هُريرةَ رضِي اللهُ عنه: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان إذا قال: سمِع اللهُ لِمَن حمِدَهُ. في الرَّكعةِ الآخِرَةِ من صلاةِ العِشاءِ قنَت: اللَّهمَّ أَنجِ عَيَّاشَ بنَ أبي رَبيعَةَ، اللَّهمَّ أَنجِ الوليدَ بنَ الوليدِ، اللَّهمَّ أَنجِ سلَمَةَ بنَ هِشامٍ، اللَّهمَّ أَنجِ المستضعَفِينَ من المؤمِنينِ، اللَّهمَّ اشدُدْ وَطْأتَك على مُضَرَ[٣]، اللَّهمَّ اجعَلْها عليهم سِنينَ كسِنِي يوسُفَ[٤]))[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٨٠، ٣٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١١٧-١١٩).

(٣) اشْدُدْ وَطْأتَك على مُضَر: أي: اشْدُدْ بأسَك وعقوبتَك، وهو ما أصابَهم من الجوعِ والشِّدَّة. أو خُذْهم أخذًا شديدًا. ومُضَر: هُم أهلُ مَكَّة وما وَالَاها، وهذا إشارةٌ إلى قُريش؛ لأنَّهم مِن أولادِ مُضَر. ينظر: ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (٣/ ٣٥٢)، ((التوضيح لشرح الجامع الصحيح)) لابن الملقن (٨/ ٢٢٩)، ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٢٠٠).

(٤) سِنين كسِنِي يُوسَفَ: أي: سِنينَ شِدادًا ذواتَ قَحْطٍ وجَدْبٍ وغَلاءٍ، كالسَّبعِ السِّنين الشِّدادِ التي أصابَتْ أهلَ مِصرَ في عَهدِ يُوسُفَ عليه السَّلام، والسَّنَةُ: الجَدْبُ؛ يُقالُ: أَخَذَتْهم السَّنةُ إذا أَجْدبوا وأَقْحطوا. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٤١٣-٤١٤)، ((شرح النووي على مسلم)) (٥/ ١٧٧)، ((شرح المشكاة)) للطيبي (٤/ ١٢٣٠).

(٥) رواه البخاري (٦٣٩٣)، واللفظ له، ومسلم (٦٧٥).

﴿فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩)﴾.

﴿فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾.

أي: فهؤلاء مَوْعُودون بأن يصفَحَ اللهُ تعالى عنهم، ويتجاوَزَ عن مؤاخذتِهم بتركِ الهجرةِ؛ وذلك بمقتضى كرَمِه وإحسانِه سبحانه[١].

عنِ ابنِ عبَّاسٍ رضي اللهُ عنهما: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ قال: كانت أُمِّي ممَّن عذَر اللهُ[٢].

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾.

أي: يصفَحُ عن عبادِه، ويستُرُ عليهم ذنوبَهم، ويتجاوزُ عن مؤاخذتِهم بها[٣].

﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٠٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا رهَّب اللهُ تعالى مِن تركِ الهجرة، رغَّب فيها بما يُسلِّي عمَّا قد يُوسوِسُ به الشَّيطانُ مِن أنَّه لو فارَق رفاهيةَ الوطنِ، وقَع في شدَّةِ الغُربة، وأنَّه ربَّما تجشَّمَ المشقَّةَ، فاختُرِمَ قبل بلوغ القصدِ، فذكر ما يترتَّب عليها من وجودِ السَّعةِ، والمذاهبِ الكثيرة؛ ليذهَبَ عنه ما يتوهَّمُ[٤]، فقال تعالى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٢٢).

(٢) رواه البخاري (٤٥٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٨٠).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٧٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٣)، وينظر ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٢٩٢).

﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

أي: ومن يُفارِقْ أرضَ الشِّركِ؛ هربًا بدِينِه إلى أرض الإسلامِ؛ لإقامة دِينِ الله تعالى، ابتغاءَ مرضاتِه سبحانه(١).

﴿يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا﴾.

أي: فإنَّه يجدُ في الأرض مكانًا ومتزحزَحًا كثيرًا يمتنعُ فيه، ويتحصَّنُ ممَّا يكرَهُ، ويغلِبُ فيه أهلَ الشِّرك؛ بابتعادِه عنهم، ويتمكَّنُ فيه من إغاظتِهم وجهادِهم(٢).

﴿وَسَعَةً﴾.

أي: ويجد سَعةً في الدِّين بإظهارِ دِينه وعبادةِ ربِّه سبحانه، وسَعةً في الصَّدرِ، وفي الرِّزقِ، وفي كلِّ شيءٍ(٣).

﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا وعَد تعالى مَن يُهاجِرُ فيَصِلُ إلى دار الهجرةِ بالظَّفَرِ بما ينبغي من وُجدانِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٢٣-١٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٩٠-٣٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٢٤).
قال ابن عثمين: (قوله: ﴿مُرَاغَمًا كَثِيرًا﴾ قد تشير إلى تجمُّع القوم؛ لأنَّه كان المتبادَرُ أن يقال: «مراغَمًا عاصمًا»، لكنَّه قال: ﴿كَثِيرًا﴾، ولعلَّ ذلك- والله أعلم- إشارةٌ إلى أنَّه سيجتمع إليه من يكثُرُ بهم) ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨٠-١٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٢٥-١٢٦).

المراغمِ والسَّعةِ، وعَدَ مَن يموتُ في الطَّريق قبل بلوغها بأجرٍ عظيمٍ يضمَنُه- عزَّ وجلَّ- له[١].

سبب النُّزول:

خرَجَ ضَمْرَةُ بنُ جُنْدُبٍ مِن بيتِهِ مهاجِرًا فقال لأهلِهِ: احْمِلوني فأخرِجوني مِن أرضِ المشرِكينَ إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فمات في الطَّريقِ قبل أنْ يصلَ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فنزَل الوحيُ: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا...﴾ الآيةَ[٢].

﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

أي: ومَن خرَج من منزلِه وموطنِه فرارًا بدِينه؛ ليُقيمَه، ابتغاءَ مرضاةِ الله تعالى، واتِّباعًا لرسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ونصرًا له[٣].

﴿ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ﴾.

أي: فمات في أثناء الطَّريق بقتلٍ أو غيرِه، قبل بلوغه أرضَ الإسلامِ، ودارَ الهجرةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٢٩٣).

(٢) رواه أبو يعلى (٢٦٧٩) والطبراني ١١/ ٢٧٢ (١١٧٠٩).

ورواه الطبريُ (٧/ ٣٩٨) وابن أبيِ حاتم (٣/ ١٠٥٠) بنحوه من حديث عبد الله بن عباس قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٧/ ١٣): رجاله ثقات، وصحَّح إسناده أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٥٦٢).

وذكر الألباني في ((السلسلة الصحيحة)) (٧/ ٦٦٦): أن فيه أشعثَ بنَ سوار مختلفٌ فيه، ثم قال: لكن لعلَّه يتقوَّى بروايةِ شَريكٍ، وقال الوادعيُّ في ((صحيح أسباب النزول)) (٨٩): رجالهُ ثقاتٌ، وشريكٌ هو ابنُ عبدِ اللهِ القاضي النخعي وفي حفظه ضعفٌ، لكن الحديث له طريقٌ أخرى.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٦).

﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾.

أي: فقد ثبَت له عند اللهِ تعالى ثوابُ مَن هاجَر، وبلَغ دارَ هجرتِه(١).

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى غفورٌ يسترُ ذنوبَ عبادِه، ويتجاوزُ عن مؤاخذتِهم بها، رحيمٌ بهم، ومِن رحمته أنْ أعطاهم أجرَهم كاملًا، ولو لم يُكمِلوا العملَ، وغفَر لهم ما حصَلَ منهم مِن التَّقصيرِ في الهجرةِ وغيرِها(٢).

الفوائد التَّربويَّة:

١- أنَّ العبرةَ في الأعمالِ بالخواتيم؛ لقوله: ﴿ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾، يعني: أنَّهم في وقتِ الوفاة ظالِمون لأنفُسِهم؛ فالعبرةُ بالخواتيم؛ ولهذا يجبُ على الإنسانِ أن يكونَ خائفًا من سوءِ الخاتمةِ، وأن يسأَلَ اللهَ سبحانه دائمًا حُسنَ الخاتمةِ، وألَّا يموتَ إلَّا وهو مسلِمٌ(٣).

٢- أنَّ مَن ترَك شيئًا للهِ عوَّضه اللهُ خيرًا منه، وتُؤخَذُ مِن قوله: ﴿يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾؛ فقد خرَج مِن الضِّيق فوجَد السَّعة(٤).

٣- أنَّ مَن أُذِلَّ بطاعةِ الله صار العِزُّ له في النِّهايةِ، وتُؤخَذُ مِن قوله: ﴿مُرَاغَمًا كَثِيرًا﴾؛ فهذا الَّذي أُذِلَّ هو الآن يُذِلُّ أنوفَ الَّذين أذَلُّوه بالأمسِ(٥).

٤- الحثُّ على الهجرةِ والتَّرغيبُ فيها، وبيان ما فيها من المصالح، فوعَد

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٩٢-٣٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١١٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٢٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الصَّادقُ في وعدِه أنَّ مَن هاجَر في سبيلِه ابتغاءَ مرضاتِه، أنَّه يجِدُ مُراغَمًا في الأرضِ وسَعةً؛ فالمُراغَمُ مشتمِلٌ على مصالحِ الدِّين، والسَّعةُ على مصالحِ الدُّنيا: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾[1].

٥- كلُّ مَن نوى خيرًا ولم يُدرِكْه، فالله تعالى موفِّيه إيَّاه؛ نستفيدُ ذلك مِن قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾، فمن قصَد طاعةَ الله ثمَّ عجَز عن إتمامِها، كتَب اللهُ له ثوابَ تمامِ تلك الطَّاعة[2].

الفوائد العِلميَّة واللَّطائف:

١- أنَّ للملائكةِ ذواتًا حقيقيَّةً تقبِضُ الأرواحَ، وتُخاطِب وتتكلَّم، وكلامُها مفهومٌ، خلافًا لِمن يقول: إنَّ الملائكةَ هي القُوَى الخيِّرةُ، وإنَّ الشَّياطينَ هي القُوَى الشِّرِّيرةُ، فإنَّ هذا قولٌ باطلٌ يكذِّبُه القرآنُ والسُّنَّةُ والإجماعُ، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ...﴾[3].

٢- مِن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ...﴾ الآيةَ، نستفيدُ وجوبَ الهجرةِ من المَوْضِع الَّذي لا يتمكَّنُ المسلمُ فيه من إقامةِ دِينِه، وأنَّ مَن لم يهاجِرْ فإنَّه يموت وقد ظلَم نفسَه، ولكنَّ وجوبَ الهجرةِ مشروطٌ بشروطٍ؛ منها: القُدرة؛ لقوله في الآية الكريمة الَّتي بعد هذه الآيةِ: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ﴾؛ ولأنَّ القاعدةَ العامَّةَ العظيمةَ العميقةَ في الشَّريعة الإسلاميَّة: أنَّه لا واجبَ مع العجزِ؛ لقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، فيُشترط لوجوب الهجرةِ القدرةُ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ١٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١١٤) وينظر ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤١)، =

٣- أن الظَّالم يحتجُّ بأيِّ حُجَّةٍ كانت؛ لقول هؤلاء: ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ﴾، والواقع أنَّهم غيرُ مستضعَفين؛ لأنَّ الملائكة قالت لهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾[1].

٤- أنَّ الشَّريعة إن منَعَتْ بابًا ضيِّقًا فتَحت بابًا أوسعَ، ويؤخَذُ هذا من قوله: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾؛ فاللهُ تعالى لم يحجُرْ عليهم الأرضَ، بل جعَلها واسعةً، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾[2] [الشرح: ٥- ٦].

٥- أنَّ التَّخلُّفَ عن الهجرة الواجبة من كبائرِ الذُّنوبِ؛ لقوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾، ووجهُ الدَّلالة: أنَّه ترتَّب عليها عقوبةٌ خاصَّةٌ[3].

٦- نستفيدُ مِن قول الله تعالى: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ أنَّ مِن الرِّجالِ البالغين مَن لا تجبُ عليهم الهجرةُ؛ وذلك لكونهم مستضعَفين[4].

٧- قول الله تعالى: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾، أدخَل الوِلدانَ في جملة المُستثنَيْنَ مِن أهل الوعيد، مع أنَّ الاستثناءَ إنَّما يحسُنُ لو كانوا مستحقِّين للوعيد؛ وذلك لأنَّ سقوطَ الوعيدِ بسبب العجز، والعجزُ تارةً يحصُل بسببِ عدم الأُهْبةِ، وتارةً بسبب الصِّبا، فلا جرمَ حسُنَ هذا[5]، وقيل أيضًا: لَمَّا توعَّد اللهُ تعالى على ترك الهجرة، أتبَعَ ذلك بما زاد القاعدَ عنها

= ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٢٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١١٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٢٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ١٩٧).

تخويفًا بذِكْرِ مَن لم يدخل في المحكوم عليه بالقدرة على صورة الاستثناءِ، تنبيهًا على أنَّهم جديرون بالتَّسويةِ في الحُكمِ لولا فضلُ الله عليهم[1].

٨- أنَّ الدِّين الإسلاميَّ دِينُ اليُسر والسُّهولة، وأنَّه مع وجود المشقَّة ينتفي الحرَجُ؛ قال تعالى: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾[2].

٩- ليس كلُّ ما يُسمَّى حِيلةً حرامًا؛ ففي قولِ الله تعالى: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ أراد بالحِيلةِ التَّحيُّلَ على التخلُّصِ من بين الكفَّارِ؛ وهذِه حِيلةٌ محمودةٌ يُثابُ عليها[3].

١٠- أنَّ الواجبَ الوصولُ إلى القيامِ بالواجب بأيِّ حِيلةٍ تكونُ؛ لقوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾[4].

١١- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ..... وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ الإيمانُ بالملائكة ومدحُهم؛ لأنَّ اللهَ ساق ذلك الخطابَ لهم على وجهِ التَّقريرِ والاستحسانِ منهم، وموافقتِه لمحلِّه[5].

١٢- أنَّه تجبُ الهجرةُ على مَن يقدر عليها من أيِّ سبيلٍ؛ لقوله: ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾، وسبيلًا: نكرةٌ في سياقِ النَّفي فتعمُّ[6].

١٣- في قوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ أنَّه يُرجَى لهؤلاء أن يعفوَ اللهُ عنهم؛ لقوله:

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٧٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٢٠).
(٣) ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٣/ ١٨٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٢٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٦).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٢١).

﴿فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾؛ فالرَّجاءُ هنا باعتبارِ ما يكونُ في قلبِ المخاطَبِ، أمَّا باعتبارِه منسوبًا إلى اللهِ فقال بعضُ السَّلفِ: ﴿عَسَى﴾ مِن الله واجبةٌ، يعني: أنَّ اللهَ وعَدهم أن يعفوَ عنهم[١]، وقيل: إنَّ ذِكرَ لفظة (عسى) ها هنا مع أنَّ الله تعالى هو فاعلُ العفوِ، وهو عالمٌ بأنَّه يعفو عنهم، وذلك لفائدةِ الدَّلالة على أنَّ تركَ الهجرة أمرٌ مضيَّقٌ لا توسِعةَ فيه، فمثَّل حالَ العفوِ عنهم بحالِ مَن لا يقطَعُ بحصولِ العفوِ عنه، والمقصودُ من ذلك تضييقُ تحقُّقِ عُذرِهم؛ لئلَّا يتساهلوا في شروطِه اعتمادًا على عفوِ الله[٢].

١٤- في قوله: ﴿عَفُوًّا غَفُورًا﴾ إثباتُ اسمينِ مِن أسماء اللهِ، هما: العفوُّ، والغفورُ، وإثباتُ الصِّفتينِ الدَّالِ عليهما هذانِ الاسمانِ، والعفوُّ هو: المتجاوزُ عن السَّيِّئات، والغفورُ: هو الماحي لها، لكن إذا اجتمع العفوُّ والغفورُ، صار المرادُ بالعفوِّ ما يقابل تركَ الواجب، والغفورِ ما يقابِلُ فِعلَ المحرَّمِ، أي: عفوٌّ عن التَّفريط في الواجبِ، غفورٌ عن فِعل المحرَّمِ[٣].

١٥- قوله: ﴿مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: فيه عطفُ الرَّسولِ على اسم الجلَالةِ؛ للإشارةِ إلى خصوصِ الهجرة إلى المدينةِ؛ للالتحاقِ بالرَّسولِ وتعزيزِ جانِبه؛ لأنَّ الَّذي يُهاجِرُ إلى غير المدينة قد سلِم من إرهاقِ الكُفْر، ولم يحصُلْ على نُصرةِ الرَّسولِ؛ ولذلك بادَرَ أهلُ هجرةِ الحبَشةِ إلى اللَّحاقِ بالرَّسولِ حين بلَغَهم مُهاجَرُه إلى المدينةِ[٤].

١٦- أنَّ مَن سعى في الهجرةِ وأدرَكه الموتُ، فإنَّ أجره ثابتٌ كاملٌ، وتؤخذ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٢٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٧٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٢٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨٠)

من قوله: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾، ويقاسُ على ذلك بقيَّةُ الأعمال؛ فمن خرَج إلى المسجد يُريدُ الصَّلاةَ فمات في أثناء الطَّريقِ، يُكتَب له أجرُ الصَّلاة[(١)].

١٧- قال تعالى: ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾، ولم يقُلْ: وقَع أجرُه على الله ورسولِه، مع أنَّ الهجرةَ كانت إلى اللهِ ورسولِه؛ لأنَّ الهجرةَ إلى الرَّسولِ وسيلةٌ، والغايةُ هي: الهجرةُ إلى الله عزَّ وجل؛ فلهذا كان الَّذي يُثيب على الهجرةِ ليس الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، بل هو اللهُ عزَّ وجلَّ[(٢)].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾: جملةٌ مستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا لسائل متردِّدٍ؛ ولذلك فُصِلت- أي: لم تُعطَف بالواو-، وصُدِّرتْ بحرفِ التَّأكيد (إنَّ)؛ فإنَّ حالَهم يوجِبُ شكًّا في أن يكونوا مُلحَقينَ بالكفَّار[(٣)].

٢- قوله: ﴿قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾: استئنافٌ مبنيٌّ على سُؤالٍ نشأ مِن حِكايةِ سُؤالِ الملائكةِ؛ كأنَّه قيل: فماذا قالوا في الجوابِ؟ فقيل: قالوا-مُتجانِفينَ عن الإقرارِ الصَّريحِ بما هُم فيه مِن التَّقصيرِ، مُتعلِّلين بما يوجِبُه على زَعْمِهم-: إنَّهم كانوا مُستضعَفين في الأرضِ[(٤)].

- قوله: ﴿فِيمَ كُنْتُمْ﴾: استفهامٌ يرادُ منه التَّوبيخُ والتَّقريعُ، والتَّقرير[(٥)].

- وقوله: ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ وقَعَ جوابًا عن قولهم: ﴿فِيمَ كُنْتُمْ﴾؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٢٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٢٦- ١٢٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٧٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٢٢-٢٢٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٧٥).

لأنَّ معنى قوله: ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾ للتَّوبيخِ بأنَّهم لم يكونوا في شيءٍ مِن الدِّين؛ حيث قدَروا على المهاجَرةِ ولم يهاجِروا، فقالوا: ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ﴾ اعتذارًا ممَّا وُبِّخوا به، واعتلالًا بالاستضعافِ، وأنَّهم لم يتمكَّنوا من الهجرةِ حتَّى يكونوا في شيءٍ، فبكَّتَتْهم الملائكةُ بقولهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فيها﴾[1].

٣- **قوله: ﴿فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾** اسمُ الإشارة ﴿فَأُولَئِكَ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّهم جَديرونَ بالحُكمِ الواردِ بعْد اسمِ الإشارةِ مِن أجلِ الصِّفاتِ المذكورة قَبْلَه؛ لأنَّهم كانوا قادرينَ على التَّخلُّصِ مِن فتنةِ الشِّركِ بالخروج من أرضِه[2].

٤- **قوله: ﴿فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾:**

- الإتيانُ باسم الإشارة ﴿فَأُولَئِكَ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّهم جَديرونَ بالحُكمِ المذكور من المغفرةِ[3].

- وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾: الجملةُ اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّر لِمَا قبلها[4] مِن مقدرةِ الله عزَّ وجلَّ على العفوِ عنهم، ومغفرةِ ذنوبهم، مع ما فيها من التَّأكيدِ، والمبالغةِ في الوَصْفِ.

٥- **قوله: ﴿ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ﴾** كلمة ﴿يُدْرِكْهُ﴾ فيها إشعارٌ بأنَّ المهاجِرَ كالفارِّ الَّذي يريد أن يصِلَ إلى مُهاجَرِه، لكنَّ الموتَ لحِقَه فأدركه[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٢٦).

الآيات (١٠١ - ١٠٤)

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿تَقْصُرُوا﴾: قَصرُ الصَّلاةِ: جَعْلُها قصيرةً بتركِ بعضِ أركانها تَرخيصًا، وأصلُ (قصر): النَّقصُ، وعدمُ بلوغِ الشَّيء مَداهُ ونهايتَه(١).

﴿يَفْتِنَكُمُ﴾: أي: يَقتُلكمْ أو يَأسِرَكُم، وتُطلَق الفِتْنةُ كذلك على: الشِّرْك والكُفر، والشَّرِّ والعذاب، وهي في الأصل: الاختِبارُ والابتلاء والامتِحان، مأخوذةٌ من الفَتْن: وهو إدخالُ الذَّهبِ النَّارَ؛ لتظهَرَ جَودتُه من رداءتِه(٢).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٩٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٢- ٦٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٦، ١٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٠٤)، =

﴿وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾: جَمْع مَتَاع، وهو كلُّ ما حصَل التَّمتُّع والانتفاعُ به على وجهٍ ما، وأصلُ المتاع والمُتعةِ ما يُنتَفَعُ به انتفاعًا قليلًا غيرَ باقٍ، بل ينقضي عن قريبٍ، وأيضًا: منفعةٌ، وامتدادُ مدَّة في خيرٍ[١].

﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ﴾: أي: يتحامَلون عليكم، والمَيْل: العدولُ عن الوسَطِ إلى أحد الجانبين، وأصل (ميل): انحرافٌ في الشَّيء إلى جانبٍ منه[٢].

﴿مَوْقُوتًا﴾: أي مفروضًا محدَّدًا موقَّتًا بوقت، يقال: وقَّته اللهُ عليهم ووَقَتَهُ، أي: جعَله لأوقاتٍ، والوقتُ: نهايةُ الزَّمانِ المفروض للعمل، وأصل (وقت): يدلُّ على حدِّ شيءٍ، وكُنْهِه في زمانٍ وغيرِه[٣].

المَعنَى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى لعباده: إنَّهم إذا سافروا فلا حرَجَ عليهم ولا إثمَ في قَصْرِ صلاة الفرضِ، إذا ما خافوا أن يصُدَّهم الكفَّارُ عن دِينهم؛ بحَمْلِهم عليهم وهم في الصَّلاة؛ فإنَّ الكفَّارَ ذوُو عداوةٍ واضحةٍ لهم.

ثمَّ يخاطبُ الله نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أنَّه إذا كان في أصحابِه، وشهِد معهم القتالَ، وأراد أنْ يُقِيمَ لهم الصَّلاة، فليقسِمْ أصحابه قسمينِ، وبعد ذلك فلتقُمْ طائفةٌ منهم معه في الصَّلاةِ، والطَّائفةُ الأخرى تقفُ في وجه العدوِّ، ولْيأخذوا أسلحتَهم، فإذا فرغت الطَّائفةُ الَّتي معه من صلاتِها، فلْيكونوا مِن

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢- ٤٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩، ١٣٩- ١٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٢).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠٤).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٣).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٥، ٩٤٥).

ورائِه ووراء الطَّائفةِ الَّتي لم تكُنْ صلَّتْ معه الرَّكعةَ الأولى، وكانتْ في مقابِلِ العدوِّ، فإذا ما انصرَفَتِ الطَّائفةُ الأولى للحِراسَةِ، فلتأتِ الطَّائفةُ الَّتي كانت قبلَ ذلك في الحِراسةِ، والَّتي لم تُصَلِّ بعدُ، فَلْيُصَلُّوا مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ما تبقَّى له من ركعة، ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾؛ فقد تمنَّى الكفَّارُ لو غفَلَ المسلمون عن أسلحتِهم وأمتعتِهم، فيَحمِلون عليهم، ويَستأصلونَهم بضَربةٍ واحدةٍ.

ثمَّ رخَّص اللهُ لعباده أنْ يَضَعوا أسلحتَهم، نافيًا عنهم الحَرَجَ والإثمَ، إذا ما تأذَّوْا بمطَرٍ، أو كانوا مَرْضَى، لكن لا بدَّ أن يكونوا حَذِرينَ، ثمَّ أخبر تعالى أنَّه أعدَّ للكفَّار عذابًا مُخزيًا في الدَّارينِ.

ثمَّ أمَر اللهُ المسلِمين إذا ما انتهَوْا مِن أداء صلاةِ الخوفِ أنْ يَذكُروه قِيامًا أو قُعودًا أو مُضْطَجِعين على جنوبِهم، فإذا زال الخوفُ عنهم وأمِنوا فليُقيموا الصَّلاةَ كاملةً، إنَّ الصَّلاةَ كانت على المؤمنينَ فريضةً محدَّدةً بوقتٍ.

ثمَّ يوجِّهُ الله الخِطابَ إلى المسلمين ألَّا يكونوا ضُعفاءَ ولا كُسالى في طلبِهم للعدوِّ؛ فإنَّهم وإنْ كانوا يصيبُهم الألمُ، فإنَّ عدوَّهم أيضًا يتألَّمُ، فلا ينبغي أن يكونوا أضعفَ منهم، وهم مع ذلك يَرْجُون من الله ما لا يَرجو أولئك الكفَّارُ مِن النَّصرِ والثَّوابِ، وكان اللهُ عليمًا حكيمًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا (١٠١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أوجب اللهُ تعالى السَّفرَ للجهادِ والهجرة، وكان مُطلَقُ السَّفر مظِنَّةَ

المشقَّة، فكيف بسفرِهما مع ما ينضمُّ إلى المشقَّة فيهما من خوفِ الأعداء، ولَمَّا كانت الصَّلاةُ فرضًا لازمًا في كلِّ حالٍ، لا يسقُطُ في وقتِ القتال، ولا في أثناءِ الهجرةِ، ولا غيرِ الهجرةِ من أيَّام السَّفَرِ، ولكن قد تتعذَّرُ أو تتعسَّرُ في السَّفرِ وحالِ الحرب إقامتُها فرادَى وجماعةً، كما أمَرَ اللهُ- ناسَب في هذا المقام أن يبيِّنَ اللهُ تعالى ما يريد أن يرخِّصَ لعباده فيه من القَصْرِ من الصَّلاةِ في هاتينِ الحالَتين[1]، فقال:

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾.

أي: وإذا سافَرْتُم[2].

كما قال تعالى: ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ...﴾ الآية [المزمل: ٢٠].

﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾.

أي: فلا حرَجَ ولا إثمَ عليكم[3] في قَصْرِ كيفيَّةِ الصَّلاةِ المفروضةِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ١٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٧٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٧).

(٣) قال السعديُّ: (قوله: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾؛ أي: لا حرَج ولا إثمَ عليكم في ذلك، ولا ينافي ذلك كونَ القصر هو الأفضلَ؛ لأنَّ نفيَ الحرج إزالةٌ لبعض الوهم الواقع في كثير من النُّفوس، بل ولا يُنافي الوجوبَ؛ كما تقدَّم ذلك في سورة البقرة في قوله: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ...﴾ إلى آخر الآية، وإزالةِ الوهم في هذا الموضع ظاهرةٌ؛ لأنَّ الصَّلاة قد تقرَّر عند المسلمين وجوبُها على هذه الصِّفة التَّامَّة، ولا يُزيل هذا عن نفوسِ أكثرِهم إلا بذِكرِ ما ينافيه) ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٢٢-٤٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٩٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٤٨، ٢٥٣).

قال الشِّنقيطيُّ: (ومعنى قصر كيفيَّتها أن يجوزَ فيها من الأمور ما لا يجوز في صلاة الأمن؛ =

﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

أي: إنْ خشِيتُم أنْ يصُدَّكم الكفَّارُ عن دِينكم، بقتالِهم إيَّاكم، وبحملِهم عليكم وأنتم في صلاتِكم، فيصدُّوكم عن إقامتِها وأدائِها، ويحُولوا بينكم وبين عبادةِ الله تعالى(١).

﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾.

أي: إنَّ عداوةَ جميع الكفَّارِ لكم- أيُّها المؤمنون- بيِّنةٌ واضحةٌ، قد أظهَروها لكم(٢).

﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ

= كأن يصلِّيَ بعضُهم مع الإمام ركعة واحدة، ويقف الإمام حتى يأتي البعضُ الآخر، فيصلِّي معهم الرَّكعة الأخرى، وكصلاتهم إيماءً رِجالًا وركبانًا وغيرَ متوجِّهين إلى القِبلة؛ فكلُّ هذا من قَصْرِ كيفيَّتِها. ((أضواء البيان)) (١/ ٢٤٨).

وممَّن قال من السلف: إنَّ المقصود بالقصر هنا قصر كيفيَّة الصَّلاة: مجاهد، والضَّحاك، والسُّدِّيُّ؛ يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٩٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٠٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٣١، ١٤٠).

وقيل: إنَّ قوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ متَّصل بما بعدَه مِن صلاةِ الخوفِ، منفصلٌ عمَّا قبلَه... ومثلُه في القرآنِ كثيرٌ؛ أن يجيءَ الخبرُ بتمامِه، ثم ينسَّق عليه خبرٌ آخرُ، وهو في الظَّاهر كالمتَّصل به، وهو منفصلٌ عنه. ينظر: ((تفسير البغوي)) (١/ ٦٨٩)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (١/ ٣٠٩ وما بعدها)، قال الطبريُّ: (وهذا تأويلٌ في الآيةِ حسنٌ لو لم يكنْ في الكلامِ ﴿إِذَا﴾). ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٠٤-٤٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٤٠).

أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (١٠٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ حُكمَ القَصرِ في السَّفرِ عندَ الخوفِ، عقَّبه ببيانِ كيفيَّةِ صلاةِ الخوفِ[١].

سببُ النُّزول:

عن أبي عيَّاشٍ الزُّرَقيِّ قال: ((كنَّا مع رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بعُسْفانَ، فاستقبَلَنا المشرِكون، عليهم خالدُ بن الوليد، وهم بيننا وبين القِبْلة، فصلَّى بنا رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الظُّهر، فقالوا: قد كانوا على حالٍ لو أصَبْنا غِرَّتَهم[٢]، ثمَّ قالوا: تأتي عليهم الآن صلاةٌ هي أحبُّ إليهم من أبنائِهم وأنفُسِهم، قال: فنزل جبريلُ عليه السَّلام بهذه الآياتِ بين الظُّهرِ والعصرِ ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾، قال: فحضَرَتْ فأمَرهم رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فأخَذوا السِّلاحَ، قال: فصفَفْنا خَلْفَه صفَّيْنِ، قال: ثمَّ ركَع فركَعْنا جميعًا، ثمَّ رفع فرفعْنا جميعًا، ثمَّ سجَد النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالصَّفِّ الَّذي يليه، والآخَرون قيامٌ يحرُسُونهم، فلمَّا سجَدوا وقاموا جلَس الآخَرون، فسجدوا في مكانهم، ثمَّ تقدَّم هؤلاء إلى مصافِّ هؤلاء، وجاء هؤلاء إلى مصافِّ هؤلاء، قال: ثمَّ ركَع فركَعوا جميعًا، ثمَّ رفَع فرفعوا جميعًا، ثمَّ سجد النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والصَّفُّ الَّذي يليه، والآخَرون قيامٌ يحرُسونهم، فلمَّا جلَس جلَس الآخَرون، فسجدوا ثمَّ سلَّم عليهم ثمَّ انصرَف، قال: فصلَّاها رسولُ الله صلَّى

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٨٩٥).

(٢) أصَبْنا غِرَّتَهم: الغِرَّةُ: الغفلةُ، والمعنى: أصبْناهُم في حالِ كَونِهم غَافِلِينَ عَن حِفْظِ مَقامِهم، وما هُم فيه مِن مُقابلةِ العَدُوِّ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٢/ ٧٦٨)، ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٣٥٥).

اللهُ عليه وسلَّمَ مرَّتينِ: مرَّةً بعُسْفانَ، ومرَّةً بأرضِ بني سُلَيمٍ))[(١)].

وعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رضِي اللهُ عنهما، قال: ((خَرَجَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فلَقِي المشركين بعُسْفانَ، فلمَّا صلَّى رسولُ اللهِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ الظُّهرَ، فرَأَوْه يَركعُ ويَسجُدُ هو وأصحابُه، قال بعضُهم لبعضٍ: كان هذا فُرصةً لكم، لو أَغَرْتُم عليهم ما عَلِموا بكم حتَّى تُواقِعُوهم، فقال قائلٌ منهم: فإنَّ لهم صلاةً أخرى هي أحبُّ إليهم مِن أهْلِيهم وأموالِهم، فاستَعِدُّوا حتَّى تُغِيروا عليهم فيها، فأنزلَ اللهُ تبارَكَ وتعالى على نبيِّه: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ...﴾ إلى آخِرِ الآيةِ، وأَعْلَمَ ما ائْتَمَرَ به المشرِكون، وذَكَرَ صَلاةَ الخَوفِ))[(٢)].

﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾.

أي: وإذا كنتَ في أصحابِك- يا محمَّدُ- وأردتَ أن تُصلِّيَ بهم صلاةً كاملةً، تُقِيمُها بحدودِها ورُكوعِها وسُجودِها، وتُتمُّ ما يجبُ فيها[(٣)].

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٥٩) (١٦٦٣٠)، وعبد الرزَّاق في ((المصنف)) (٤٢٣٧)، وابنُ أبي حاتم في ((تفسيره)) (٥٨٩٩)، والطبراني (٥/ ٢١٣) (٥١٣٢).
صحَّحه الدارقطنيُّ في ((سننه)) (٢/ ٢٠٠)، وصحَّح إسناده ابن كثير في ((تفسيره)) (٢/ ٣٥٤).

(٢) رواه الطبري في ((تفسيره)) (٩/ ١٥٦)، والحاكم (٣/ ٣٢).
صحَّحه الطبريُّ، وقال ابنُ حجر في ((الكافي الشاف)) (٩٢): أصله في مسلم.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٢٣-٤٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٤٢).
قال ابنُ عطيَّة: (قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ...﴾ الآية، قال جمهور الأمَّة: الآية خطاب للنبيِّ عليه السلام، وهو يتناول الأمراءَ بعده إلى يوم القيامة) ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ١٠٥).
وقال ابنُ كثير: (وأما مَن استدلَّ بهذه الآية على أنَّ صلاة الخوف منسوخةٌ بعد النبي صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لقوله: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ﴾، فبَعْدَه تفُوتُ هذه الصِّفة- فإنَّه استدلالٌ ضعيف، ويُرَدُّ عليه مِثلَ قول مانعي الزَّكاة الذين احتجُّوا بقوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]، قالوا: فنحن لا ندفع زكاتَنا بعده صلَّى الله عليه وسلَّم إلى أحدٍ، بل نخرجها نحن بأيدينا على مَن نراه، ولا ندفعها [إلا] إلى مَن صلاتُه، أي: دعاؤه، سكَنٌ لنا، ومع هذا ردَّ عليهم الصحابةُ، وأبَوْا عليهم هذا الاستدلالَ، وأجبَروهم على أداءِ الزَّكاة، وقاتَلوا مَن منَعها منهم) ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٠٠).

﴿فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ﴾.

أي: فلتقُمْ فِرقةٌ مِن أصحابك معك في صلاتك، وليكنْ بقيَّتُهم في وجه العدوِّ[١].

﴿وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾.

قيل: المأمورُ بأخذِ الأسلحةِ هنا: الطَّائفةُ المُصلِّيَة[٢]، وقيل: بل الطَّائفةُ الأخرى الَّتي في وجه العدوِّ[٣].

﴿فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ﴾.

أي: فإذا فرغَتِ الطَّائفةُ الَّتي قامت معك- يا محمَّدُ- في الصَّلاة من صلاتها، فليتَّخِذْ أفرادُها موضعهم خلفَك، وخلفَ الطَّائفةِ الأخرى الَّتي ستدخُلُ معك في صلاتِك، ممَّن لم يُصَلِّ معك الرَّكعةَ الأولى[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٥/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٤٣).

قال ابن عثيمين: (قوله: ﴿أَسْلِحَتَهُمْ﴾: السِّلاح هو ما يقاتل به دفاعًا أو طلبًا، وينقسم إلى أقسام كثيرة: ثقيل، وخفيف، ومتوسط، وسلاح يكونُ من بعيدٍ، وسلاح يكون من قريبٍ، والآيةُ عامةٌ، فيكون المرادُ: أسلحتهم التي يحتاجون إليها في الدِّفاع عن أنفسِهم، والتي لا تشغَلُهم عن الصلاةِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٤٣).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ١١٠).

قال ابنُ عطية: (اختلف مَن المأمور بأخذ الأسلحة هنا؟ فقيل: الطائفة المُصلِّيَة، وقيل: بل الحارسة، قال القاضي أبو محمد: ولفظ الآية يتناول الكلَّ، ولكن سلاح المصلِّين ما خفَّ) ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ١٠٥)، ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٢٤).

وممَّن قال بهذا القول من السلف: ابنُ عباس رضي الله عنهما، يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٤٣).

﴿وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾.

أي: ولْتأتِ الطَّائفةُ الَّتي كانت في مقابلِ العدوِّ، ممَّن لم يُصلِّ معك الرَّكعةَ الأولى، وليُصلُّوا معك الرَّكعةَ الَّتي بقِيَتْ عليك[1].

بعضُ الأحاديثِ الواردة في صلاة الخوف:

عن ابن عمرَ رضِي اللهُ عنهما، قال: ((صلَّى رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم صلاةَ الخوفِ بإحدى الطَّائفتينِ ركعةً، والطَّائفةُ الأخرى مواجهةُ العدوِّ، ثمَّ انصَرَفوا وقاموا في مقامِ أصحابهم، مُقبِلين على العدوِّ، وجاء أولئك، ثمَّ صلَّى بهم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ركعةً، ثمَّ سلَّم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ثمَّ قضى هؤلاء ركعةً، وهؤلاء ركعةً))[2].

وعن صالحِ بنِ خوَّاتِ بن جُبيرٍ، عمَّن صلَّى مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يومَ ذاتِ الرِّقاعِ صلاةَ الخوفِ: ((أنَّ طائفةً صفَّت معه، وطائفةٌ وجاهَ العدوِّ، فصلَّى بالَّتي معه ركعةً، ثمَّ ثبَتَ قائمًا، وأتَمُّوا لأنفسِهم، ثمَّ انصَرَفوا فصفُّوا وِجاهَ العدوِّ، وجاءتِ الطَّائفةُ الأخرى فصلَّى بهم الرَّكعةَ الَّتي بقِيَت مِن صَلاتِه، ثمَّ ثبَت جالسًا، وأتمُّوا لأنفسهم، ثُمَّ سلَّمَ بهم))[3].

وعن جابرٍ رضِي اللهُ عنه، قال: ((شَهدتُ مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٤٤).
قال ابنُ عاشور: (وقد أجمَلتِ الآيةُ ما تَصنَعُه كلُّ طائفةٍ في بقيَّة الصَّلاة، ولكنَّها أشارتْ إلى أنَّ صلاة النبي صلَّى الله عليه وسلَّم واحدة؛ لأنَّه قال: ﴿فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾، فجعَلهم تابعين لصلاته، وذلك مؤذِنٌ بأنَّ صلاتَه واحدةٌ، ولو كان يُصلِّي بكلِّ طائفة صلاةً مستقلَّة، لقال تعالى: فلتصلِّ بهم) ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨٦).

(٢) رواه البخاري (٩٤٢)، ومسلم (٨٣٩).

(٣) رواه البخاري (٤١٢٩)، ومسلم (٨٤٢).

صلاةَ الخوف، فصَفَّنا خَلْفَه صفَّيْنِ، والعدوُّ خَلْفَه بيننا وبين القِبْلة، فكبَّر صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وكبَّرْنا جميعًا، ثمَّ ركَع وركعْنا، ثمَّ رفع رأسَه من الركوع، ورفَعْنا جميعًا، ثمَّ انحدر بالسُّجود والصَّفُّ الَّذي يليه، وقام الصَّفُّ المؤخَّرُ في نَحْر العدوِّ، فلمَّا قضَى صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ السُّجودَ والصَّفُّ الَّذي يليه، انحدَرَ المؤخَّرُ بالسُّجود، وقاموا، ثمَّ تقدَّم الصَّفُّ المؤخَّر، وتأخَّر الصَّفُّ المقدَّم، ثمَّ ركَع وركَعْنا جميعًا، ثمَّ رفع رأسه من الرُّكوع ورفعنا جميعًا، ثمَّ انحدر بالسُّجود والصَّفُّ الَّذي يليه، وقام الصَّفُّ المؤخَّر في نحر العدوِّ، فلمَّا قضى صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ السُّجودَ والصَّفُّ الَّذي يليه، انحدَر المؤخَّرُ بالسُّجود وقاموا، ثمَّ تقدَّم الصَّفُّ المؤخَّر، وتأخَّر الصَّفُّ المقدَّم، ثمَّ ركع وركعنا جميعًا، ثمَّ رفع رأسَه من الركوع ورفعنا جميعًا، ثمَّ انحدَر بالسُّجودِ والصَّفُّ الَّذي يليه الَّذي كان مؤخَّرًا في الرَّكعةِ الأُولى، وقام الصَّفُّ المؤخَّر في نحرِ العدوِّ، فلمَّا قضى صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وقام الصَّفُّ الَّذي يليه، انحدر الصَّفُّ المؤخَّرُ بالسُّجود، وسجد، ثمَّ سلَّم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وسلَّمْنا جميعًا))[1].

﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾.

قيل: المأمورُ بأخْذ الأسلحةِ هنا: الطَّائفةُ المُصلِّيَة[2]، وقيل: بل الطَّائفةُ الأخرى الَّتي في وجْهِ العدوِّ الَّتي صلَّتْ أوَّلًا[3].

﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾.

أي: تمنَّى الَّذين كفروا بالله لو تَنشغِلون بصلاتِكم عن أسلحتِكم الَّتي تُقاتلونهم

---

(١) رواه مسلم (٨٤٠).

(٢) وهذا اختيار ابن جرير في ((تفسيره)) (٧/ ٤٤٠)، والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ١٩٨)، وابن عثيمين في ((تفسير سورة النساء)) (٢/ ١٥١).

(٣) وهذا اختيار الواحدي في ((الوجيز)) (ص: ٢٨٥).

بها، وعن أمتعتِكم الَّتي بها بَلاغُكم في أسفارِكم، فتَسهُون عنها؛ حرصًا منهم على الإيقاعِ بكم[١].

﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾.

أي: فيَحملون عليكم جميعًا، حالَ غَفلتِكم، وانشغالِكم بصلاتِكم عن أسلحتِكم وأمتعتِكم، فيُصيبون منكم غِرَّةً بذلك، ويُجهِزون عليكم بضربةٍ واحدة[٢].

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

ولَمَّا كان الخطابُ عامًّا لجميع المحارِبين، وكان يعرِضُ لبعض الناسِ مِن العُذرِ ما يشُقُّ معه حملُ السِّلاح، عقَّبَ على العزيمةِ بالرُّخصةِ لصاحب العُذرِ فقال: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾[٣].

سببُ النُّزول:

عن سعيدِ بن جُبَير، عن ابن عبَّاسٍ رضِي اللهُ عنه قال: نزلت ﴿إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى﴾ في عبدِ الرَّحمن بن عوفٍ وكان جريحًا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٤٤-١٤٥، ١٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٣٠٥).

(٤) رواه البخاري (٤٥٩٩).

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ﴾.

أي: ولا حرجَ عليكم ولا إثمَ- إن نالكم أذًى بسبب مطرٍ تُمطَرُونه، أو أصابكم مرضٌ- في تركِ حملِ أسلحتكم، إن ضعُفْتُم عن حملِها[١].

﴿وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾.

أي: ولكنْ إن وَضعتُم أسلحتكم من أذَى مطرٍ أو مرضٍ، فكونوا متيقِّظينَ، واحترِسوا مِن عدوِّكم أن يميلَ عليكم، وأنتم عنه غافلون[٢].

﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾.

أي: إنَّ الله تعالى قد هيَّأ للكفَّارِ عذابًا مذِلًّا في الدُّنيا والآخرة[٣].

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا (١٠٣)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى بعضَ أحكام صلاة الخوفِ، وكان يقعُ فيها من التَّخفيفِ في أركانها، وغيرِ ذلك ممَّا لا يوجَد في غيرها، أعقبَه بالأمرِ بذِكره؛ لشدَّةِ تأكُّدِه في هذا الموطنِ، كذلك فإنَّ ما هُم عليه من الخوف والحَذَر مع العدوِّ جديرٌ بالمواظَبةِ على ذِكر الله والتَّضرُّعِ إليه[٤] فقال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٤٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٢٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٠٣)، ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٠٨).

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾.

أي: فإذا فرَغْتم- أيُّها المؤمنون- من أداءِ صلاةِ الخوفِ، فاذكُروا اللهَ تعالى في جميعِ أحوالِكم وهيئاتكم؛ من قيامٍ وقعودٍ واضطجاعٍ على جنوبِكم(١).

﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾.

أي: فإذا أمِنتم- أيُّها المؤمنون- وزال خوفُكم من عدوِّكم، فأتِمُّوا الصَّلاةَ على الوَجْهِ الأكملِ كما أُمِرْتُم، ظاهرًا وباطنًا، بحدودِها وأركانِها وشروطِها، وجميعِ شؤونِها(٢).

﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾.

أي: إنَّ الصَّلاةَ على المؤمنين فرضٌ مؤقَّتٌ بوقتٍ(٣).

﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٠٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا كانت آياتُ الجهادِ في هذه السُّورة معلِّمةً للحَذَرِ خوفَ الضَّررِ، مُرشِدةً إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٨).

قال ابن كثير: (يأمر الله تعالى بكثرة الذِّكر عَقِيب صلاة الخوف، وإن كان مشروعًا مرغَّبًا فيه أيضًا بعد غيرها، ولكن هاهنا آكَدُ؛ لِما وقع فيها من التخفيف في أركانها، ومن الرخصة في الذهاب فيها والإياب وغير ذلك، مما ليس يوجد في غيرها؛ كما قال تعالى في الأشهر الحرم: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦]، وإن كان هذا منهيًّا عنه في غيرها، ولكن فيها آكَدُ؛ لشدَّة حُرمتها وعِظَمها) ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٥٥).

إتقان المكائد للتَّخلُّصِ من الخطرِ، وكان ذلك مَظِنَّةً لمتابعة النَّفس والمبالغةِ فيها، وهو مظنَّةٌ للتَّواني في أمرِ الجهاد- أتبَع ذلك بما ينبِّهُ على الجِدِّ في أمره[١] فقال:

﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ٱبْتِغَاءِ ٱلْقَوْمِ﴾.

أي: ولا تضعُفُوا ولا تكسَلوا في طلب عدوِّكم، بل جِدُّوا في جهادِهم، وانشَطوا لقتالهم[٢].

ثمَّ ذكَر سبحانه ما يُقوِّي قلوبَ المؤمنينَ[٣]، وبيَّن أنَّه لا وجهَ للوَهَنِ والضَّعفِ في تركِ طلبِهم[٤]، فقال تعالى:

﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾.

أي: إنْ كنتم- أيُّها المؤمنون- تتوجَّعون ممَّا ينالُكم من عدوِّكم من جِراحٍ وأذًى في الدُّنيا، فإنَّهم مِثلُكم؛ يتوجَّعون أيضًا ممَّا ينالُهم منكم من جِراحٍ وأذًى، فليس من المعقولِ أن تكونوا أضعفَ منهم، وأنتم وهُم قد تساوَيْتُم في ذلك[٥].

كما قال تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾[آل عمران: ١٤٠].

﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾.

أي: وأنتم- أيُّها المؤمنونَ- تطمَعون فيما عند الله تعالى من الثَّوابِ والنَّصرِ لدِينه، وهم لا يطمعونَ في شيءٍ من ذلك؛ فأنتم أَولى بالقتالِ منهم، والصَّبرِ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٨٥-٣٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٦٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٦٠).

على حربِهم، وأشدُّ رغبةً في إعلاءِ كلمة الله عزَّ وجلَّ[(١)].

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى له كمالُ العِلم، فلا يخفى عليه شيءٌ مطلَقًا، ومن ذلك عِلمُه بمصالحِ عباده؛ فعرَّفهم عند حضورِ صلاتِهم، ومواجَهةِ عدوِّهم كيفيَّةَ أداء فرضِ الله عليهم، مع السَّلامةِ من عدوِّهم، وله سبحانه كمالُ الحِكمة والحُكم؛ فهو الَّذي يُقدِّر ويُدبِّر كلَّ شيءٍ من أحكامه الكونيَّةِ والشَّرعيَّة، ويضعُ كلَّ شيءٍ منها في موضعه اللَّائقِ به[(٢)].

الفَوائد التربويَّة:

١- السِّياقُ القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ...﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ لا يجيء بهذا النَّصِّ هنا لمجرَّد بيانِ الحُكم «الفِقهيِّ» في صفةِ صلاةِ الخوف، ولكنَّه يحشُد هذا النَّصَّ في حملة التَّربيةِ والتَّوجيه والتَّعليم والإعدادِ للصَّفِّ المُسلِم وللجماعةِ المسلمة، وأوَّلُ ما يلفِتُ النَّظرَ هو الحرصُ على الصَّلاةِ في ساحةِ المعركة! ولكن هذا طبيعيٌّ، بل بديهيٌّ في الاعتبار الإيمانيِّ، إنَّ هذه الصَّلاة سلاحٌ من أسلحة المعركة، بل إنَّها السِّلاحُ! فلا بدَّ من تنظيمِ استخدام هذا السِّلاح، بما يتناسب مع طبيعةِ المعركة، وجوِّ المعركة[(٣)].

٢- التَّنبيهُ على عظيم قدرِ الصَّلاة؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾؛ فالسِّياقُ يُشير إلى شدَّة

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٠٣-٤٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٥٦-٤٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٦١-١٦٤).

(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٧٤٨).

الاهتمامِ بشأن الصَّلاة، وأنَّه لا يُسقِطها عن المكلَّف شيءٌ، فلو أن فيها رخصةً بوجهٍ لوضَعَها اللهُ تعالى عن المسلمين في مثل هذه الحالة[١].

٣- قول الله تعالى: ﴿وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ فيه تعليمُ المسلمين أنْ يطلُبوا المسبَّباتِ مِن أسبابها، أي: إن أخَذْتم حِذرَكم أمِنْتُم مِن عدوِّكم[٢].

٤- الأمرُ بذِكر الله بعد انتهاء الصَّلاة؛ لقوله: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾[٣].

٥- إذا كنَّا مأمورين بالذِّكرِ على كلِّ حال نكونُ عليها في الحرب، كما يُعطيه السِّياقُ، فأجدَرُ بنا أن نؤمَرَ بذلك في كلِّ حالٍ مِن أحوالِ السِّلم، كما يُعطيه الإطلاقُ على أنَّ المؤمنَ في حربٍ دائمةٍ وجهاد مستمرٍّ، تارةً يجاهدُ الأعداءَ، وتارةً يجاهدُ الأهواءَ، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾[٤].

٦- قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾ من فوائدِ تخصيصِ الذِّكر بعد صلاة الخوفِ: أنَّ الخوفَ يوجِبُ مِن قلقِ القلبِ وخوفِه ما هو مَظِنَّةٌ لضَعفِه، وإذا ضعُفَ القلبُ ضعُفَ البدنُ عن مقاومة العدوِّ، والذِّكرُ لله والإكثارُ منه مِن أعظمِ مقوِّيات القلبِ، ومنها: أن الذِّكرَ لله تعالى مع الصَّبرِ والثَّباتِ سببٌ للفلاح والظَّفَرِ بالأعداء؛ كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥]، فأمَر بالإكثارِ منه في هذه الحالِ، إلى غيرِ ذلك من الحِكَم[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٣١٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٨، ١٩٩).

٧- ما يُصيبُ المؤمنين في الله تعالى مَقْرونٌ بالرِّضا والاحتسابِ، فإنْ فاتَهم الرِّضا فمُعَوَّلُهم على الصَّبْر، وعلى الاحتسابِ، وذلك يخَفِّفُ عنهم ثِقَلَ البلاء ومُؤْنَتَه؛ فإنَّهم كُلَّما شاهدوا العِوَض هان عليهم تحمُّلُ المشاقِّ والبلاء، والكُفَّار لا رِضَا عندهم ولا احتِسابَ، وإن صَبَروا فصَبْرُهم كصَبْرِ البهائِمِ، وقد نبَّه تعالى على ذلك بِقَوْله: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾. فاشْتَرَكوا في الألم، وامتازَ المؤمنونَ برجاءِ الأَجْرِ والزُّلْفى من اللهِ تعالى[1].

٨- المؤمِنون أَولى بالمصابَرة على القتالِ من المُشركين؛ لأنَّ المؤمنين مُقرُّون بالثَّوابِ والعقابِ، والحشرِ والنَّشر، والمشركين لا يقرُّون بذلك، نستفيدُ ذلك من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾[2].

٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ فيه إرشادٌ للمَرءِ أنْ يَرُدَّ حَرَّ المصيبةِ برَوْحِ التأسِّي بِمَن لَقِيَ مِثلَ ما لَقِي[3].

١٠- أنَّه ينبغي للإنسان إذا عمِل العملَ الصَّالحَ أن يكون راجيًا؛ لقوله: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾، ويكون هذا الرَّجاءُ عند ابتغاء القومِ وطلَبِهم، وهكذا ينبغي للإنسانِ إذا وفَّقه اللهُ للعبادةِ أن يكون راجيًا، أي: راجيًا ثوابَها؛ لأنَّ مِن بشرى الإنسان أن يُوفَّق للعبادةِ؛ فمَن وُفِّق للعبادة على ما يُرضي

(١) ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٨٧- ١٨٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٥).
(٣) ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٥٠٥)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٣١).

اللهَ، فهي بُشرى بالقَبولِ، كما أنَّ مَن وُفِّق للدُّعاءِ فهو بشرى بالإجابة[١].

١١- أنَّ بني آدمَ في الأمور البشريَّة على حدٍّ سواءٍ، فإذا كان الكافرُ يتألَّم فالمؤمنُ يتألَّم، حتَّى الأنبياءُ في الأمور البشريَّة كغيرِهم من النَّاسِ، لكنَّهم يختلفونَ عنهم في الصِّفات المعنويَّةِ؛ كالصَّبرِ، والتَّحمُّلِ، والإقدامِ، والعزيمةِ، وغيرِ ذلك، قال تعالى: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾[٢].

١٢- أنَّه يجب علينا التَّفويضُ التَّامُّ فيما لا نعلم حكمتَه مِن أحكام الله الكونيَّة أو الشَّرعيَّة؛ وجهُ ذلك: أنَّ الله عز وجل عليمٌ، وحكمتُه صادرةٌ عن علمٍ، وقد يخفى علينا وجهُ الحكمةِ، لقلةِ علمِنا[٣].

١٣- قوله تعالى: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ ذكَر اللهُ تعالى في هذه الآيةِ شيئينِ يُقوِّيانِ قلوبَ المؤمنين:

الأول: أنَّ ما يُصيبُهم من الألم والتَّعبِ والجراح ونحوِ ذلك؛ فإنَّه يصيبُ أعداءَهم، فليس من المروءةِ الإنسانيَّة والشَّهامةِ الإسلاميَّة أن يكونوا أضعفَ منهم، قد تساوَوْا هم وإيَّاهم فيما يوجِبُ ذلك؛ لأنَّ العادةَ الجاريَة ألَّا يضعُفَ إلَّا مَن توالَتْ عليه الآلامُ، وانتصر عليه الأعداءُ على الدَّوامِ، لا مَن يُدالُ مَرَّةً، ويُدالُ عليه أخرى.

الثَّاني: أنَّهم يرجُون من الله ما لا يرجو الكَفَرةُ، فيرجون الفوزَ بثوابِه، والنَّجاةَ من عقابِه، بل خواصُّ المؤمنين لهم مقاصدُ عاليَة، وآمالٌ رفيعةٌ من نصر دِين الله، وإقامةِ شرعِه، واتِّساعِ دائرةِ الإسلام، وهدايةِ الضَّالِّين، وقمعِ أعداء الدِّين؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٧٠).

فهذه الأمورُ توجِبُ للمؤمن المصدِّقِ زيادةَ القوة، وتضاعُفَ النَّشاطِ، والشَّجاعةَ التَّامَّة؛ لأنَّ مَن يُقاتِلُ ويصبِرُ على نيل عِزِّه الدُّنيويِّ إن ناله، ليس كمَن يُقاتِلُ لنَيل السَّعادةِ الدُّنيويَّة والأُخرويَّة، والفوزِ برضوانِ الله وجنَّتِه[١].

الفوائد العِلميَّة واللَّطائف:

١- الآيتان من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾، أي: في السَّفرِ، إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ أصلٌ في رخصةِ القَصْرِ، وصلاةِ الخوف[٢].

٢- قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ يدلُّ على أنَّه تعالى جعل الضَّربَ في الأرض شرطًا لحصولِ هذه الرُّخصة، فلو كان الضَّربُ في الأرضِ اسمًا لمُطلَقِ الانتقالِ، لكان ذلك حاصلًا دائمًا؛ لأنَّ الإنسانَ لا ينفكُّ طولَ عمره من الانتقالِ من الدَّار إلى المسجدِ، ومِن المسجد إلى السُّوقِ، وإذا كان حاصلًا دائمًا، امتنع جعلُه شرطًا لثُبوتِ هذا الحُكم، فلمَّا جعَل الله الضَّرب في الأرض شرطًا لثُبوت هذا الحُكم علِمْنا أنَّه في مطلق السَّفرِ[٣].

٣- أنَّ الخوفَ له أثرٌ في تغيير الأحكام؛ لقوله: ﴿أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[٤].

٤- حِرصُ الكفَّار على فَتْنِ المُؤمنينَ حتَّى في العبادات؛ لقوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٩٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٠١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٤٠).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٥- أنَّ جميعَ الكفَّار أعداءٌ لنا؛ لقوله: ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾، وأنَّ عداوتَهم لنا بيِّنةٌ ظاهرةٌ(١).

٦- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ...﴾ هذه الآيةُ تدلُّ على أنَّ صلاةَ الجماعة فرضُ عينٍ مِن وجهينِ:

أحدهما: أنَّ اللهَ تعالى أمَر بها في هذه الحالة الشَّديدةِ، وقتَ اشتدادِ الخوفِ من الأعداءِ، وحَذَرِ مهاجمتِهم، فإذا أوجَبَها في هذه الحالة الشَّديدةِ، فإيجابُها في حالة الطُّمأنينَة والأمن مِن باب أَوْلَى وأحرى.

والثَّاني: أنَّ المصلِّين صلاةَ الخوف يتركون فيها كثيرًا من الشُّروط واللَّوازم، ويُعفَى فيها عن كثيرٍ من الأفعال المُبطِلة في غيرها، وما ذاك إلَّا لتأكُّدِ وجوبِ الجماعةِ؛ لأنَّه لا تعارُضَ بين واجبٍ ومستحبٍّ، فلولا وجوبُ الجماعة لم تُترَكْ هذه الأمورُ اللَّازمةُ لأجلِها(٢).

٧- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ...﴾: تدلُّ الآيةُ الكريمة على أنَّ الأَولى والأفضلَ أن يصلُّوا بإمامٍ واحدٍ، ولو تضمَّن ذلك الإخلالَ بشيءٍ لا يُخَلُّ به لو صلَّوْها بعدَّةِ أئمَّةٍ؛ وذلك لأجلِ اجتماعِ كلمةِ المسلمين، واتِّفاقِهم، وعدمِ تفرُّقِ كلمتِهم، وليكون ذلك أوقعَ هيبةً في قلوبِ أعدائِهم(٣).

٨- قولُ الله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ مَحمَلُ هذا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٨).

قال ابن كثير: (وما أحسَنَ ما استدل به مَن ذهب إلى وجوب الجماعة من هذه الآية الكريمة؛ حيث اغتُفِرَت أفعالٌ كثيرة لأجل الجماعة، فلولا أنها واجبةٌ لَمَا ساغ ذلك). ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٨).

الشَّرطِ جارٍ على غالبِ أحوالهم يومَئِذٍ من ملازمةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لغزواتهم وسراياهم إلَّا للضَّرورة، فليس المرادُ الاحترازَ عن كونِ غيرِه فيهم، ولكن التَّنويه بكونِ النَّبيِّ فيهم(١).

٩- أنَّ الإمامَ مسؤولٌ عن صلاةِ المأموم، وتؤخَذُ من قوله: ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ﴾، كأنَّه يُقيمُها لهم، وهذا يعني أنَّه يجبُ على الإمام أن يتَّبعَ السُّنَّةَ في صلاتِه، بينما لو كان يصلِّي وحده فله أن يخفِّفَ، وله أن يُثقِلَ حسَبَ ما يريد؛ لقول النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((وإذا صلَّى أحدُكم لنفسِه فليُطوِّلْ ما شاء))(٢).

١٠- وجوبُ صلاة الجماعةِ على الأعيانِ؛ لقوله: ﴿فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ﴾، وقوله: ﴿وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾؛ لأنَّها لو كانت فرضَ كفايةٍ لاكتَفَى بالطَّائفةِ الأُولى، فلمَّا أُمِرَتِ الطَّائفةُ الثَّانية بالصَّلاة جماعةً، دلَّ هذا على أنَّها واجبةٌ على الأعيانِ(٣).

١١- قول الله تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾، خصَّ آخرَ الصَّلاة بزيادةِ الحذرِ، إشارةً إلى أنَّ العدوَّ في أوَّلِ الصَّلاة قلَّما يفطِنون لكونِهم في الصَّلاةِ، بخلاف الآخر؛ فلهذا خُصَّ بمزيد الحذَرِ(٤).

١٢- في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ﴾ أنَّ السُّجودَ ركنٌ من أركانِ الصَّلاة؛ لأنَّه عبَّر به عن إتمامِ الصَّلاة(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٤٧).

والحديث رواه البخاري (٧٠٣)، ومسلم (٤٦٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٠٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٨٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٤٩).

١٣- في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾ جوازُ انفرادِ الإنسانِ عن الإمام لعُذرٍ، وجهه: أنَّ الطَّائفةَ الأولى انفرَدَت وأتمَّت صلاتَها، فإذا حصل للإنسان عذرٌ لا يستطيعُ معه إتمامَ صلاته؛ مِثلُ أن يطرأَ عليه حَقنٌ أو ما أشبهَ ذلك، فله أن ينفردَ ويُكمِلَ صلاتَه- إن كان يستفيدُ مِن هذا الانفرادِ- بحيث لا تكونُ صلاتُه مع الإمام أفضلَ من صلاتِه إذا انفردَ[1].

١٤- في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾ جوازُ إقامة جماعتينِ في مكان واحدٍ للحاجة، ومثال الحاجة: أن يكون المسجدُ ضيِّقًا؛ كالمساجدِ الَّتي تكون في السُّوقِ المزدَحِم بالباعة والمشتَرين، فلا يسَعُهم أن يُصلُّوا، ولا يتمكَّنونَ من المتابعة في السُّوقِ، فنقول: لا بأسَ أن تصلِّي جماعةٌ أُولى، ثمَّ تأتي جماعةٌ أخرى[2].

١٥- وجوبُ أخْذ الأسلحةِ في هذه الصَّلاة؛ فقوله تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾ أمرٌ، وظاهِرُ الأمر للوجوب، فيقتضي أن يكون أخذُ السِّلاحِ واجبًا[3].

١٦- في قوله تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ أمَر سبحانه بأخذِ السِّلاحِ، والحذرِ في صلاة الخوفِ، وهذا وإن كان فيه حركةٌ واشتغالٌ عن بعض أحوال الصَّلاةِ، فإنَّ فيه مصلحةً راجحةً، وهي الجمعُ بين الصَّلاةِ والجهادِ، والحَذَرُ من الأعداء الحريصينِ غايةَ الحِرص على الإيقاعِ بالمسلمينَ، والميلِ عليهم وعلى أمتعتِهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٠٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٠). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٤٨).

أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾[(١)].

١٧- قول الله تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُم﴾ يُرشدُ إلى وجوبِ الحَذَرِ مِن العدوِّ، وعن جميع المضارِّ المظنونةِ، ويُرشِد إلى إتقانِ المكائِد للتَّخلُّص مِن الخطر[(٢)].

١٨- قوله: ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ فيه الرخصة في حملِ النَّجاسةِ إذا دعت الحاجة لذلك؛ لأنَّ الغالبَ أنَّ الأسلحة ولا سيما بعد القتال لا تخلو مِن دماء، وهذا بناءً على القولِ بأنَّ الدمَ نجسٌ[(٣)].

١٩- يؤخذُ من قوله تعالى: ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ...﴾ أنَّ الكفَّارَ يحرصونَ على عدم تسلُّحِ المسلمين، وهذا صحيحٌ؛ فالكفَّار يودُّون أن نغفُلَ عن أسلحتِنا، فكيف يُعْطوننا؟! وتدلُّ على شدَّةِ حَنَقِ الكفَّار بالنِّسبة للإغارةِ علينا؛ فإنَّ قوله: ﴿مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾ يدلُّ على الحَنَقِ وشدَّةِ الغيظ، وأنَّهم مقبِلون بقوَّةٍ[(٤)].

٢٠- أنَّ أعداءَ المسلمين يحبُّون الإجهازَ على المسلمينَ بسُرعة، وتؤخذُ من قوله: ﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾؛ فسياسةُ الكفَّار واحدةٌ مِن أوَّلِ الأمر إلى آخره، يريدونَ القضاءَ على المسلمينَ بسرعة، مرَّةً واحدة؛ لأنَّ التَّباطُؤَ يؤدِّي إلى فواتِ الفرصة عندهم، فيقولون: لا نفوِّتُ الفرصة[(٥)].

٢١- قول الله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٠٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٤٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٥٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ﴾ خصَّ رفعَ الجُناح في وَضْع السِّلاحِ بهاتين الحالتين؛ وذلك يُوجِب أنَّ فيما وراء هاتين الحالتين يكونُ الإثمُ والجُناحُ حاصلًا بسبب وضعِ السِّلاح، وهذا يُفيد إيجابَ حملِها عند عدم العُذر[١].

٢٢- قول الله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ رخصةٌ لهم في وضعِ الأسلحة عند المشقَّة، وقد صار ما هو أكملُ في أداء الصَّلاة رخصةً هنا؛ لأنَّ الأمورَ بمقاصدها، وما يحصُلُ عنها من المصالح والمفاسد؛ ولذلك قيَّد الرُّخصةَ مع أخذِ الحَذَرِ[٢].

٢٣- قول الله تعالى: ﴿أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى﴾، أي: متَّصفين بالمَرَض، وكأنَّ التَّعبيرَ بالوصف إشارةٌ إلى أنَّ أدنى شيءٍ منه لا يرخِّصُ في وضعِ السِّلاحِ[٣].

٢٤- التَّحذيرُ من الاغترار بما يُبديه الكافرُ من الموالاةِ، وجهُه: أنَّ العالِمَ بما في الصُّدورِ، والعالِمَ بكلِّ حالٍ- سبحانه وتعالى- أخبرنا بأنَّ الكافرين كانوا لنا عدوًّا مُبينًا، ولا أحدَ أعلمُ مِن الله بعبادِ الله: ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾[٤].

٢٥- قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾، إنَّما قال (عدوًّا) ولم يقُلْ (أعداء)؛ لأنَّ لفظ العدوِّ يستوي فيه الواحدُ والجمعُ[٥].

٢٦- أنَّ الذِّكرَ بعد الصَّلاة لا يُشترط فيه أن يجلس الإنسانُ حتَّى ينهيَه، بل

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٠٧)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٢٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨٧).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٨٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٤١).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٠٤).

له أنْ يذكُرَ ولو كانَ قد انصرَفَ؛ لقوله: ﴿قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾، أي: على أيِّ حال[١].

٢٧- في قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾ أنَّ الذِّكر لا ينقُصُ إذا قعد الإنسانُ من قيامٍ، أو قام من قعودٍ أو اضطجع، وهذا هو الأصلُ؛ أنَّه لا ينقُصُ بكون الإنسان قائمًا أو قاعدًا أو مضطجعًا، اللَّهمَّ إلَّا أن يترتَّب على ذلك أنَّه إذا كان قائمًا فهو أنشَطُ له، لكنَّ الغالب أن القاعدَ أخشَعُ؛ لأنَّ القائمَ لا يقوم ليقفَ، وإنَّما ليمشيَ[٢].

٢٨- الصَّلواتُ الخمسُ إنَّما كانت مَوْقُوتةً؛ لتكون مذكِّرةً لجميعِ أفراد المؤمنين بربِّهم في الأوقاتِ المختلفة؛ لئلَّا تحمِلَهم الغفلةُ على الشَّرِّ، أو التَّقصيرِ في الخيرِ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾[٣].

٢٩- قوله سبحانه: ﴿مَوْقُوتًا﴾ فيه الإشارةُ إلى أنَّ الوقتَ مقدَّمٌ على جميعِ الشُّروط، وجهه: أنَّ الله تعالى لَمَّا ذكَر صلاةَ الخوف، ثمَّ صلاةَ الأمنِ- بيَّن أنَّ هذا مِن أجل مراعاةِ الوقتِ؛ ولهذا مَن لم يجدْ ماءً تيمَّم، حتَّى يصلِّيَ في الوقت، وإذا لم يجدْ ماءً ولا ترابًا صلَّى على حسَب حالِه، وإذا لم يجدْ ثوبًا يستُرُ به العورةَ صلَّى على حسَب حاله، ولا ينتظر حتَّى يحصُلَ على ثوبٍ؛ لأنَّ الوقتَ مقدَّمٌ على كلِّ شيءٍ[٤].

٣٠- قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾، الابتغاءُ مصدرُ (ابتغى) بمعنى (بغى) المتعدِّي، أي: الطَّلَب، والمراد به هنا: المبادَأةُ بالغزو، وألَّا يتقاعَسوا،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٥٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٣١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٥٨).

حتَّى يكونَ المشركونَ هم المبتَدَئينَ بالغزو، والمُبادِئُ بالغزوِ له رعبٌ في قلوبِ أعدائه(١).

٣١- الإشارةُ إلى أنَّه لا يُشهَدُ للشَّهيدِ بأنَّه في الجنَّة؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾؛ فالرَّجاءُ قد يتحقَّقُ وقد لا يتحقَّق؛ ولهذا نُهِيَ أن نقولَ عن شخص معيَّنٍ بأنَّه شهيد، إلَّا مَن شهد له الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام؛ فمن شهِد له الرَّسولُ بالشَّهادة شهِدنا له، وكذلك مَن شهِد له القرآنُ؛ كما في غزوة أُحُدٍ(٢).

٣٢- قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ لا يدلُّ على أنَّه كان فمضى؛ لأنَّ ﴿كَانَ﴾ هنا مسلوبةُ الزَّمان، وإنَّما أُتِيَ بها لتحقيقِ هذين الاسمينِ وما تضمَّناه من صفةٍ(٣).

٣٣- إثباتُ كمالِ الله عزَّ وجلَّ في حكمته تعالى؛ حيث قرَنَ بين العِلم والحكمةِ إشارةً إلى أنَّ حكمتَه صادرةٌ عن عِلمٍ، وليست عن صُدفة؛ لأنَّ الإنسانَ قد يفعل الفِعلَ ويكون مُحكَمًا مُتقَنًا، لكن على غيرِ علم، بل صدفةً؛ كما يقال: (رُبَّ رميةٍ مِن غير رامٍ)، لكنَّ حكمةَ الله عزَّ وجلَّ مقرونةٌ بالعِلْم، مبنيَّةٌ عليه(٤).

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ جملة مستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا، مسُوقة لبيان أحكام قَصْرِ الصَّلاة(٥).

- وفيه انتقالٌ إلى تشريعٍ آخَرَ بمناسبةِ ذِكْرِ السَّفرِ للخروجِ مِن سُلطةِ الكفر،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٩٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٦٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٧٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٣٠٨).

على عادةِ القرآنِ في تَفنينِ أغراضِه، والتماسِ مُناسباتِها[(١)].

٢- قوله: ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾: تعليلٌ لِمَا قَبْله، باعتبارِ تعلُّقِه بما ذُكِر، أو لِمَا يُفهَم مِن الكلامِ من كونِ فِتنتِهم متوقَّعةً؛ فإنَّ كمالَ عداوتِهم للمؤمنين من موجِبات التعرُّض لهم بسوء[(٢)].

٣- قوله: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا ...﴾ الآية، فيها بيانٌ لِمَا قَبْلَها من النَّصِّ المُجمَلِ الواردِ في مَشروعيَّة قَصرِ الصَّلاةِ في قولِه: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ...﴾ الآيةَ، وفيها تَصويرٌ لكيفيَّةِ هذا القَصرِ عند الضَّرورةِ التَّامَّةِ، وتخصيصُ بيانِ القُرآنِ بهذه الصُّورةِ مع الاكتفاءِ فيما عَداها من الصُّورِ بالبيانِ بطَريقِ السُّنَّةِ؛ لمزيدِ حاجتِها إليه؛ لِمَا فيها مِن كثرةِ التَّغييرِ عن الهيئةِ الأصليَّة[(٣)].

- وفي الآية إيجازٌ بالحذفِ؛ فإنَّه لَمَّا قال: ﴿فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ﴾ علم أنَّ ثمةَ طائفةً أخرى؛ فالضمير في قوله: ﴿وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾ للطَّائفةِ باعتبار أفرادها، وكذلك ضميرُ قوله: ﴿فَإِذَا سَجَدُوا﴾ للطَّائفةِ الَّتي مع النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم[(٤)].

- قوله: ﴿فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ﴾، وقوله: ﴿وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ﴾: فيه تَكرار[(٥)]، وهو يُفيدُ التَّأكيدَ.

- قوله: ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾: لعلَّ زِيادةَ الأَمْرِ بالحذرِ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٢٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٣).

هذِه المرَّةِ؛ لكونِها مظِنَّةً لوقوفِ الكَفَرة على كونِ الطائفةِ القائمةِ مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في شُغلٍ شاغلٍ، وأمَّا قَبْلَها فربَّما يَظنُّونَهم قائِمينَ للحربِ، وتكليفُ كلٍّ مِن الطائفتينَ بما ذُكِر؛ لأنَّ الاشتغالَ بالصَّلاة مظنَّةٌ لإلقاءِ السِّلاحِ والإعراضِ عن غيرِها، ومظنَّةٌ كذلك لهجومِ العدوِّ(١).

٤- قوله: ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً واحِدَةً﴾ الجملة استئنافيَّةٌ، مسُوقةٌ لتعليل الأمرِ المذكورِ، وهو قوله: ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾، وفيها: التفاتٌ؛ إذ إنَّ الخِطابَ للفريقين بطريق الالتفاتِ، أي: تمنَّوْا أنْ ينالوا غِرَّةً، ويَنتهزوا فرصةً، فيشدُّوا عليكم شَدَّةً واحدةً(٢).

- قوله: ﴿مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾: استُعمِلتْ صِيغة (المرَّة) هنا للكِناية عن القوَّة والشِّدَّة؛ وذلك أنَّ الفعل الشَّديدَ القويَّ يأتي بالغرَضِ منه سريعًا دون معاودةِ علاجٍ، فلا يتكرَّر الفعلُ لتَحصيلِ الغرض، وأكَّد معنى المرَّة المستفادَ من صِيغة (فَعْلة) بقوله: ﴿وَاحِدَةً﴾؛ تَنبيهًا على قصْدِ معنى الكناية؛ لئلَّا يُتوهَّمَ أنَّ المصدرَ لمجرَّد التَّأكيدِ لقوله: ﴿فَيَمِيلُونَ﴾(٣).

- قوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾، وقوله: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾: فيه تكرارٌ(٤)، وهو يُفيدُ تأكيدَ نفْيِ الجُناحِ.

٥- قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾: الجملةُ اعتراضٌ تذييليٌّ، مُقرِّر لِمَا قبلها؛ من أجْل تشجيعِ المسلمين؛ لأنَّه لَمَّا كرَّر الأمْرَ بأخْذِ السِّلاح

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٢).

والحَذَر، خِيفَ أن تثُورَ في نفوسِ المسلمين مَخافةٌ من العدوِّ؛ من شدَّةِ التَّحذيرِ منه، فعقَّب ذلك بأنَّ اللهَ أعدَّ للكافرين عذابًا مُهِينًا، وهو عذابُ الهزيمةِ والقتلِ والأَسْر، وليعلموا أنَّ الأمرَ بالحَذرِ ليس لذلك، وإنَّما هو تعبُّد من اللهِ تعالى بتَعاطي الأسبابِ المشروعةِ(١).

- وقيل: هو تعليلٌ للأمْر بأخْذِ الحذرِ؛ فإنَّه أعدَّ لهم عذابًا مُهِينًا بأنْ يخذُلَهم وينصُرَكم عليهم، فاهتمُّوا بأموركم، ولا تُهمِلوا في مباشرة الأسباب؛ كي يحُلَّ بهم عذابُه بأيديكم، وليعلموا أنَّ الأمر بالحزم ليس لضعفِهم، وغلَبَةِ عدوِّهم، بل لأنَّ الواجبَ أن يُحافِظوا في الأمورِ على مراسم التَّيقُّظ والتَّدبُّر فيتوكَّلوا على الله سبحانه وتعالى(٢).

٦- **قوله تعالى: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾** تذييلٌ مسُوقٌ مساقَ التَّعليلِ؛ لوجوبِ المحافظةِ على الصَّلاة في أوقاتها حتَّى في وقتِ الخوفِ؛ ولو مع القَصْرِ منها(٣).

- وقوله: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ﴾ فيه إظهارٌ لِمَا كان الأصل فيه الإضمارُ- حيث قال: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ﴾ ولم يَقُل: (إنَّها)-؛ تَنبيهًا على عَظيمِ قدْرِ الصَّلاةِ(٤).

٧- **قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾** هذا تشجيعٌ لنفوسِ المُؤْمنين، وتحقيرٌ لأمْرِ الكَفَرة، ثم تأكَّدَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٩٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٣١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٨٥).

التشجيعُ بقوله: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ﴾ وهذا برهانٌ بَيِّنٌ، ينبغي بحَسَبِهِ أنْ تقوى نفوسُ المؤمنينَ[١].

٨- **قوله: ﴿وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾** جاءتْ لفظة (عليمًا) و(حَكيمًا) على صِيغة (فعيل)؛ للمبالغةِ في وصْف الله تعالى بالعِلم والحكمة؛ فإنَّه سبحانه يعلم كلَّ شيء، ويعلم الأعمالَ، ويعلَمُ ما في الضمائر[٢]، وكذلك متَّصفٌ بالحِكمةِ في كلِّ أفعاله سبحانه، مع ما تُفِيدُه الجملةُ الاسميَّةُ من التَّأكيد.

(١) ((تفسير الثعالبي)) (٢/ ٢٩٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٢٨).

الآيات (١٠٥ - ١٠٩)

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾: أي: مُخاصِمًا تُخاصِمُ عن الخائِنين، وتَدْفَعُ عنهُم مَن طَلَبَهم بِحَقِّه الَّذي خَانوه فيه، فالخَصِيمُ هنا بمعنَى المنتَصِر المدافِع، والخَصيمُ: المبالِغ في الخِصامِ، وأصل (خصم): المنازَعة(١).

﴿يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾: أي يجعلونها خائنةً بارتكابِ الخِيانةِ، ويختانون: يخُونونَ، والاختيانُ: مراودةُ الخيانةِ، وكذلك: تحرُّكُ شهوةِ الإنسانِ لتحرِّي الخيانةِ(٢).

﴿خَوَّانًا﴾: أي: مُبالِغًا في الخيانةِ، مُصِرًّا عليها(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٠).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٣، ١٧٣).

﴿أَثِيمًا﴾: أي: مبالغًا في إثمه، لا يُقلِع عنه، والإثم والآثام: اسمٌ للأفعال المُبَطِّئة عن الثَّواب، أو الذَّنبُ الَّذي يستحقُّ العقوبةَ عليه، وأصل الإثم: البُطء والتَّأخُّر(١).

﴿يُبَيِّتُونَ﴾: يُدبِّرون ليلًا، يقال لكلِّ فعل دُبِّر فيه بالليل: بُيِّتَ، وأصل البيت: مأوى الإنسان باللَّيل؛ لأنَّه يقال: بات: أقام باللَّيل، ويُطلق أيضًا على المآب، ومجمع الشَّمل(٢).

﴿مُحِيطًا﴾: أي: مُحْصِيًا وعالِمًا، لا يَخْفَى عَليهِ شَيْءٌ من أعمالِهم، وحَافِظًا لذلكَ علَيْهم، والإحاطةُ بالشَّيء هي العِلْم بوجودِه، وجِنسِه، وقَدْره، وكيفيَّته، وغرَضه المقصود به، وبإيجاده، وما يكونُ به ومِنه؛ وذلك ليس إلَّا للهِ تعالى، وأصل (حوط) هو الشَّيْءُ يُطِيفُ بالشَّيْءِ، ومنه الحائِط؛ لإحاطتِه بما يدورُ عليه، واستُعمِلَ في القُدرة والعِلم والإهلاكِ(٣).

﴿وَكِيلًا﴾: أي: مانعًا وحافظًا وكفيلًا، ووكيل الرجل في مالِه هو الَّذي كفَله له، وقام به، وأصل (وَكَلَ): يدلُّ على اعتماد غيرِك في أمرِك(٤).

المَعنَى الإجماليُّ:

يخبِرُ الله نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه هو مَن أنزل إليه الكتاب بالحقِّ، ومشتملًا على الحقِّ، ليحكُمَ بين النَّاس بما علَّمه الله تعالى ممَّا أنزله في كتابه،

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٧٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٠).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥١ - ١٥٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٥ - ٥٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨، ٣١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٦).

ناهيًا إيَّاه عن المخاصَمة والمدافعة عمَّن علِم خيانتَه، وأمَره تعالى أن يستغفر اللهَ؛ فإنَّه سبحانه غفورٌ رحيم.

ثمَّ نهاه تعالى عن المجادلة والدِّفاع عن الَّذين يخُونون أنفسَهم؛ فإنَّ الله تعالى لا يحبُّ مَن اتَّصف بالخيانةِ، وارتكابِ الإثمِ.

ثمَّ ذكَر الله عن هؤلاء الخائنين أنَّهم يستترونَ عن النَّاس عند ارتكابِهم سيِّئَ العملِ، ولا يستترون من الله، وهو معهم أينما كانوا، مُطَّلِعٌ على كلِّ ما يفعلونه، خصوصًا حين يُدبِّرون ليلًا ما لا يرضاه من القول، والله قد أحاط عِلمًا بجميع أعمالِهم.

ثمَّ يخاطبُ الله عباده قائلًا لهم: هَبْكُم جادلتُم عن هؤلاء الخَوَنة في الحياة الدُّنيا، ونفَعهم جدالُكم عند الخَلْق، فمن الَّذي سيخاصم اللهَ عنهم يومَ القيامةِ حين تقومُ عليهم الحُجَّة، أمَّن سيكون وكيلًا عنهم؟

تَفسيرُ الآيات:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أمَر الله تعالى بمجاهدة الكفَّار بيَّن أنَّ الأمرَ وإن كان كذلك، فإنَّه لا تجوزُ الخيانةُ معهم، ولا إلحاقُ ما لم يفعَلوا بهم، بل الواجبُ في الدِّين أن يُحكَمَ للكافرِ أوْ عليهِ بما أنزَل على رسولِه، وألَّا يلحَقَ الكافرَ حَيْفٌ لأجلِ كُفْره، أو إرضاءً لطرفٍ آخر ينتسب إلى الإسلامِ[1].

وأيضًا لَمَّا أمَر المؤمنينَ بأن يأخذوا حِذرَهم من الأعداءِ، ويستعدُّوا لمجاهدَتِهم

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢١١).

حفظًا للحقِّ أن يُؤتَى من الخارج- أمرهم بأن يقوموا بما يحفَظُه في نفسِه، فلا يؤتى من الدَّاخل، وأن يُقِيموه على وجهِه كما أمر اللهُ تعالى، ولا يُحابُوا فيه أحدًا(١)، فقال تعالى:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾.

أي: إنَّا أنزَلْنا إليك- يا محمَّدُ- القرآنَ، وهو حقٌّ مِن الله تعالى، نزل نزولًا متلبِّسًا بالحقِّ، ومشتملًا أيضًا على الحقِّ؛ فأخباره صِدْقٌ، وأوامرُه ونواهيه عَدْلٌ(٢).

﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾.

أي: لتقضيَ بين النَّاس، فتفصِلَ بينهم لا بهواكَ، بل بما علَّمك اللهُ ممَّا أنزَلَه إليك من كتابه(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٣٢١).

وقال عن وجه مناسبة هذه الآيةِ لمجموع الآياتِ التي سبقَتْها: (وأمَّا اتِّصالها بمجموع ما قبلها فقد علِمْنا مما مرَّ أن أول السُّورة في أحكام النساء والبيوت إلى قوله- تعالى-: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦]، ومن هذه الآية إلى هنا تنوَّعت الآياتُ بالانتقال من الأحكام العامة إلى مجادلة اليهود، وبيان حالهم مع النبي صلَّى الله عليه وسلَّم والمؤمنين، وتخلَّل ذلك الأمر بطاعة الله ورسوله، والنَّعي على المنافقين الذين يُريدون أن يَتحاكموا إلى الطاغوت، كاليهود، وتأكيد الأمر بطاعة الرَّسول، وبيان أنه تعالى لم يبعَثْ رسولًا إلَّا ليُطاع، والترغيب في هذه الطَّاعة، ثم انتقل من ذلك إلى أحكام القتال وبيان حال المؤمنين والكافرين والمنافقين فيه، وقد عاد في هذا السياق أيضًا إلى تأكيد طاعة الرَّسول وحال المنافقين فيها، فناسَب أن ينتقل الكلام من هذا السياق إلى بيان ما يجب على الرَّسول نفسِه أن يحكُم به بعدما حتَّم الله التَّحاكم إليه وأمره بطاعته فيما يحكم ويأمر به).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٧٠-١٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٩-٢٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٧٢).

وقيل: يحتمل قوله تعالى: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ﴾ أيضًا معنى الحُكم على أعمال الناس، فكما =

﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾.

مناسبتها لما قبلها:

لَمَّا أمَر اللهُ بالحُكم بين النَّاس المتضمِّنِ للعدلِ والقِسط، نهاه عن الجَوْرِ والظُّلم الَّذي هو ضدُّ العدل، فقال[1]:

﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾.

أي: ولا تخاصِمْ وتحاجِجْ عمَّن عرفتَ خيانتَه، من مدَّعٍ ما ليس له، أو منكرٍ حقًّا عليه، ولا تدافِعْ عنه[2].

﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾.

أي: واطلُبْ مغفرتَه، وهي سترُ الذَّنب، والتَّجاوُزُ عن المؤاخَذة به[3].

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

أي: فإنَّ الله تعالى هو الَّذي يغفِرُ الذُّنوب، ويرحم كلَّ مَن استَغْفره وطلَب رحمتَه[4].

= يحكُمُ بينهم في فصل الخصومات، يحكُم بينهم أيضًا في أحكام أعمالهم، فيقول: هذا حقٌّ، وهذا باطلٌ، وهذا واجبٌ، وهذا محرَّم، وما أشبه ذلك، وقيل: يحتمل قوله تعالى: ﴿بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ أيضًا معنى الحُكم بالاجتهاد. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٧٢).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٥٧، ٤٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٧٢-١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٨٠).

(٤) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (١٠٧)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا نهى الله تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن الخِصام لكلِّ من وقَعَت منه خيانةٌ ما، أتبَعَه النَّهيَ عن المجادلة عمَّن تعمَّد الخيانةَ، فقال سبحانه وتعالى[١]:

﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾.

أي: ولا تُدافِعْ - يا محمَّدُ - عمَّن يخُونون أنفسَهم، فيجعلونها خائنةً بارتكابهم الخيانةَ، فلا تُحاجِجْ وتخاصِمْ عنهم مَن يطالبُهم بحقوقه، وما خانُوه فيه[٢].

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى يُبغِضُ مَن كان من صفاتِه خيانةُ النَّاس، وركوبُ الإثم في ذلك، وفي غيره، ممَّا حرَّمه اللهُ عزَّ وجلَّ عليه[٣].

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨)﴾.

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ﴾.

أي: إنَّهم حريصونَ على إخفاءِ قبائحهم عن النَّاس، فيتوارَوْنَ منهم تجنُّبًا

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٧٠-٤٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٨٢-١٨٣).

للفضيحة بينهم، إمَّا حياءً منهم، أو خوفًا منهم، أو لئلَّا يُنكِروا عليهم سوءَ أعمالهم[١].

﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾.

أي: إنَّهم لا يُبالون بنظرِ الله تعالى إليهم، واطِّلاعِه على قبائحِهم الَّتي يبارزونه بها، وهو الَّذي لا يخفى عليه شيءٌ من أعمالهم، وبيدِه العقابُ وتعجيلُ العذابِ؛ فهو أحقُّ أن يُخافَ ويُستحيَا منه جلَّ وعلا[٢].

﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾.

أي: حيث إنَّهم يُهيِّئون ويدبِّرون ليلًا ما لا يرضاه سبحانه من القولِ؛ كتبرئةِ الجاني، ورميِ البريءِ بالجناية[٣].

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى قد أحاط علمًا بأعمالِهم، وأحصاها عليهم، حتَّى يجازيَهم عليها[٤].

﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (١٠٩)﴾.

﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٧٢-٤٧٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٨٩).

أي: هَبْ أنَّكم جادَلْتم عنهم في هذه الحياةِ الدُّنيا، ودفَعَ عنهم جدالُكم العارَ والفضيحةَ عند الخَلْق(١).

﴿فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

أي: فمَن هذا الَّذي سيخاصم اللهَ عنهم يومَ القيامةِ، حين تتوجَّه عليهم الحُجَّةُ، ويُقامُ عليهم من الشُّهودِ ما لا يُمكِنُ معه الإنكارُ؟ فيومئذٍ لا يدافعُ عنهم عنده سبحانه أحدٌ فيما يحُلُّ بهم من العذابِ(٢).

﴿أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾.

أي: لا أحدَ يكونُ نائبًا لهؤلاء الخائنينَ في ترويجِ دعواهم عندَ الله تعالى يومَ القيامةِ(٣).

الفَوائِد التربويَّة:

١- يُستفادُ مِن قول الله تعالى: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ أنَّ الأحكامَ كلَّها من الله تعالى، وأنَّه ليس لأحدٍ أن يحيدَ عن شيءٍ منها طلبًا لرضَا أحدٍ(٤).

٢- قوله: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ فيه النَّهيُ عن معاونة الآثِم، وهذا مطابقٌ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾(٥) [المائدة: ٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٠٧-٤٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٩٢-١٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٧٤)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ١١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٨٣).

٣- ترهيبُ المسلِمِ مِن أن يعلَمَ مِن الظَّالم كونَه ظالِمًا، ثمَّ يُعِينَه على ذلك الظُّلم، ويحمِلَه عليه ويرغِّبَه فيه؛ يُستفادُ ذلك من قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾[١].

٤- النَّهيُ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ لم يكُنْ موجَّهًا إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ خاصَّةً، وإنَّما هو تشريعٌ وُجِّه إلى المكلَّفينَ كافَّةً؛ فهؤلاء الخائنونَ يوجَدون في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، وفي جعلِ النَّهيِ بصيغة الخطابِ له- وهو أعدلُ النَّاسِ وأكمَلُهم- مبالغةٌ في التَّحذيرِ مِن هذه الخَلَّةِ المعهودةِ من الحُكَّامِ[٢].

٥- قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ (الاختيانُ) و(الخيانة) بمعنَى الجِناية والظُّلم والإثم، وهذا يشمَلُ النَّهيَ عن المجادَلةِ عمَّن أذنَب، وتوجَّه عليه عقوبةٌ مِن حدٍّ أو تعزيرٍ، فإنَّه لا يجادَلُ عنه بدفعِ ما صدَر منه من الخيانةِ، أو بدفعِ ما ترتَّبَ على ذلك مِن العقوبةِ الشَّرعيَّة[٣].

٦- أنَّ الخائن لغيرِه خائنٌ في الحقيقة لنفسِه؛ حيث أوقَعها في المآثِمِ والخيانةِ، فلا يظُنَّ الخائنُ الَّذي يكتسب بخيانتِه ما يكتسِبُ أنَّه رابحٌ، بل هو خائنٌ لنفسِه، قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾[٤].

٧- أنَّ الخيانةَ مِن كبائر الذُّنوب، يؤخذُ مِن قولِه تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾؛ لأنَّه إذا رُتِّب على العملِ عقوبةٌ خاصَّة فهو من الكبائرِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٣٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٨٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٨٥).

٨- في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ التَّحذيرُ من الخيانةِ؛ لكونِ الله تعالى نفى محبَّتَه للخائنِ الأثيم، وفيه أيضًا التَّرغيبُ في أداءِ الأمانة؛ لأنَّه إذا وقع الذَّمُّ على وصفٍ لزِم أن يكونَ المدحُ في ضدِّه[١].

٩- قول الله تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ تضمَّنَ الوعيدَ الشَّديدَ والتَّقريعَ البالغَ؛ حيث يرتكبون المعاصيَ مستترينَ بها، مع علمِهم -إن كانوا مؤمنين- أنَّهم في حضرتِه لا سُترةَ ولا غفلةَ ولا غَيبةَ، وكفى بهذا زاجرًا للإنسانِ عن المعاصي[٢].

١٠- أنَّ اللهَ سبحانه لا يخفى عليه شيءٌ، وأنَّ مَن حاوَل أن يُخفِيَ عن اللهِ شيئًا فإنَّه قد ظنَّ بربِّه ظنَّ السَّوء، ومع ذلك لن ينفعَه هذا الظَّنُّ؛ لقوله: ﴿فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾[٣].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- علوُّ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لقوله: ﴿أَنْزَلْنَا﴾، والنُّزولُ لا يكون إلَّا من عُلْوٍ، والقرآنُ كلامُ اللهِ، فإذا كان القرآنُ نازلًا لزِم أن يكونَ المتكلِّمُ به عاليًا[٤].

٢- في قوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾جوازُ كتابةِ القرآنِ، وهذا أمرٌ متَّفقٌ عليه بين الأمَّة، بل قد تكون كتابتُه واجبةً[٥].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ فيه دليلُ جوازِ اجتهاد النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأنَّ اجتهادَه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٨٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢١٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٩٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٧٤).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٧٥).

كالنَّصِّ؛ لأنَّ الله تعالى أخبَرَ أنَّه يُرِيه ذلك(١).

٤- قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ استُدِلَّ به على وجوب الاجتهادِ في فهم الشَّريعةِ(٢).

٥- إثباتُ العِلَل في أفعالِ الله الشَّرعيَّة والكونيَّة، وتؤخَذ من قوله: ﴿لِتَحْكُمَ﴾؛ لأنَّ اللَّامَ للتَّعليل، ولا شكَّ أنَّ تعليلَ أحكام الله عزَّ وجلَّ ثابتٌ ثبوتًا قطعيًّا لا إشكالَ فيه، والحكمةُ من تمامِ صفاتِه سبحانه(٣).

٦- قول الله تعالى: ﴿بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ (أراك) أي عرَّفك وأوحَى إليك، وأصل (رأى) للرُّؤية البَصريَّة، فأُطلِقت على ما يُدرَكُ بوجه اليقينِ؛ لمشابَهته الشَّيءَ المُشاهَدَ؛ لكونِها جاريةً مجرَى الرُّؤية في القوَّة والظهورِ، والخُلوص مِن وُجوهِ الريبِ(٤).

٧- إذا ذكرَ اللهُ تعالى لِفِعْلٍ حكمةً لم يَلْزَمْ ألَّا تكونَ له حكمةٌ أخرى- ومثل ذلك كثيرٌ في كلامِ الله عزَّ وجلَّ - لكِنْ لا بدَّ لتخصيصِ تلك الحِكْمَة بالذِّكر في ذلك الموْضِع من مناسبةٍ؛ ومنه قولُه تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾، وفي إنزالِه أيضًا تبشيرٌ وإنذارٌ، وأمرٌ ونهْيٌ، ووعْدٌ ووعيدٌ(٥).

٨- في قوله: ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ دليلٌ على تحريم الخصومةِ في باطلٍ، والنِّيابةِ عن المبطِلِ في الخصوماتِ الدِّينيَّة والحقوقِ الدُّنيويةِ(٦). وهو

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٩٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٧٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٢/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٩٢).
(٥) ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (١/ ٤٣٧- ٤٣٩).
(٦) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٠).

بابٌ في غايةِ الأهميةِ للمُحامين وغيرِهم.

٩- يدُلُّ مفهومُ قولِه تعالى: ﴿وَلا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ على جواز الدُّخولِ في نيابةِ الخصومة لِمَن لم يُعرَفْ منه ظُلْم(١).

١٠- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ فيه أنَّه لا يجوزُ الجدالُ عن الخائنِ، ولا يجوزُ للإنسانِ أن يُجادِلَ عن نفْسِه إذا كانتْ خائنةً، لها في السِّرِّ أهواءٌ وأفعالٌ باطنةٌ تَخفَى على النَّاسِ؛ وقدْ قال تعالى: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ [القيامة: ١٤- ١٥]؛ فإنَّه يَعتذِرُ عن نفْسِه بأعذارٍ ويُجادِلُ عنها وهو يُبصِرُها بخِلافِ ذلك(٢).

١١- أنَّه يجبُ على الحاكمِ أن يتأنَّى في حُكمِه، وألَّا يتعجَّلَ، بل يتريَّثُ، لا سيَّما مع وجودِ قرائنَ، فمجرد هَمِّ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ومَيلِه إلى هؤلاء فيه شيءٌ من التَّقصيرِ؛ ولهذا قال الله له: ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾ (٣).

١٢- استنبَط بعضُ العلماءِ: أنَّه ينبغي لمن استُفتِي أن يقدِّمَ بين يدَيْ فتواه الاستغفارَ؛ لأنَّ الله قال: ﴿لِتَحْكُمَ﴾ ثمَّ قال: ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾؛ ولأنَّ الذُّنوب تحُولُ بين الإنسانِ وبين معرفةِ الصَّواب(٤).

١٣- قول الله تعالى: ﴿يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ (يختانون) بمعنى يخُونون، وهو افتعالٌ دالٌّ على التَّكلُّف والمحاولةِ لقصد المبالغةِ في الخيانة(٥).

١٤- إثبات الرِّضا لله عزَّ وجلَّ؛ لقوله: ﴿مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾، ووجهه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٠).
(٢) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٤٤٤-٤٤٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٨٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٨١).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٩٤).

أنَّ نفي الرِّضا عن هؤلاء يدلُّ على ثبوتِه لغيرِهم؛ إذ لو كان منتفيًا عن الجميعِ ما حسُنَ أن يُنفى عن هؤلاء[١].

١٥- أنَّ النَّاسَ قد يتناصَرون بالباطلِ؛ قال تعالى: ﴿هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[٢].

١٦- في قوله تعالى: ﴿هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ تحريمُ المحاماةِ إذا علِم المحامي أنَّ صاحبَه مُبطِلٌ، وجهُ ذلك: أنَّ الله أنكرَ على هؤلاءِ أن يجادلوا عن صاحِبِهم، أمَّا إذا كان المحامي يريدُ أن يدافعَ عن الحقِّ بإثباتِه، فهذا جائزٌ، بل قد يكون واجبًا، كما لو وكَّلك شخصٌ لا يعرفُ ولا يكاد يُبِينُ، أن تدافعَ عنه، فهذا لا بأسَ به[٣].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿وَلا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ الإتيانُ بلفظةِ ﴿خَصِيمًا﴾ على صِيغة (فعيل)؛ للمبالغة مِن خَصَم[٤].

٢- قوله: ﴿إِنَّ الله كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أتى باللَّفظتين ﴿غَفُورًا رَحِيمًا﴾ على صيغة (فعيل)؛ للمُبالغةِ في وصْفه سبحانه بالمغفرةِ والرحمةِ لمن يستغفرُه[٥]، وفيه تأكيدُ الخبر بـ: (إنَّ)، واسميَّةِ الجملة.

٣- قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾: الإتيانُ بصِيغة المبالغة

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) ينظر ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٦)، وفيه قال أبو حيَّان: (خصيمًا أي: مخاصمًا، كجليسٍ بمعنى مجالس، ويحتمل أن يكونَ للمبالغة من خصم).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٢٩).

(فعَّال) في الخِيانة، و(فعيل) في الإثم؛ للمبالَغة في شَناعةِ الاتِّصافِ بهذه الأوصافِ؛ فإنَّ قوله: ﴿خَوَّانًا﴾ يعني أنَّه كثيرُ الخيانة، مُفرِطٌ فيها، و﴿أَثِيمًا﴾ يعني أنَّه مُنهمِكٌ في الإثم، وتعليقُ عدمِ المحبَّة المرادُ منه البُغْض والسَّخَط بصِيغة المبالغةِ(١)، مع ما فيه مِن تَأكيدِ الخبر بـ: (إنَّ)، واسميَّة الجملة.

- وتَقدَّمت صِفةُ الخيانةِ على صِفةِ الإثم؛ لأنَّها سببٌ للإثم، ولمراعاة تواخِي الفواصِل(٢).

٤- قوله: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾.

- فيه: توبيخٌ عظيمٌ وتقريعٌ؛ حيثُ يَرتكِبون المعاصِيَ مُستترِينَ بها عنِ الناسِ إنِ اطَّلعوا عليها(٣).

- وقوله: ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾: فيه ما يُعرَف في البَلاغة بـ(التَّتميم)؛ للإنكارِ عليهم والتَّغليظِ لقُبْحِ فِعلهم؛ لأنَّ حياءَ الإنسانِ ممَّن يَصحبُه أكثرُ مِن حيائِه وحْدَه(٤).

٥- قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾: فيه كنايةٌ عن المبالغةِ في الاتِّصافِ بالعلم، وفيه: وعيدٌ من حيث إنَّهم وإنْ كانوا يُخفُون كيفيَّةَ المكرِ والخِداعِ عن النَّاس، فإنَّها ظاهرةٌ في عِلْم الله(٥).

٦- قوله: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ﴾ فيه: التفاتٌ؛ فقد انتقَل مِن ضميرِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٦٢)، ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٦٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢١٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٨).

الغَيبةِ إلى الخِطاب؛ وفيه إيذانٌ بأنَّ تَعديدَ جِنايتِهم يُوجِبُ مشافهتَهم بالتَّوبيخ والتَّقريع[١].

٧- قَوْله: ﴿فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ﴾: استفهامٌ معناه النَّفيُ، أي: لا أحدَ يُجادلُ اللهَ عنهم يوم القيامةِ إذا حَلَّ بهم عذابُه[٢]، وهو وعيدٌ محْضٌ، أي: إنَّ الله يعلَمُ حقيقةَ الأمرِ؛ فلا يُمكِن أن يُلبَّسَ عليه بجدالٍ ولا غيرِه[٣].

٨- قوله: ﴿أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾: ﴿أَمْ﴾ منقطعةٌ للإضرابِ الانتقاليِّ، و﴿مَنْ﴾ استفهامٌ مُستعمَلٌ في الإنكار[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٣٠)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٥/ ١٦٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٩٥).

الآيات (١١٠ - ١١٣)

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا
(١١٠) وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١١)
وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (١١٢)
وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا
يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ
وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣) ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿خَطِيئَةً﴾: الخَطيئة: فعيلةٌ من الخطأ، وهو العدولُ عن القصدِ والجِهةِ، يقال: خَطِئ الرَّجلُ يَخْطَأُ خِطْأً-: إذا تعمَّد الذَّنب[١].

﴿بُهْتَانًا﴾: أي: ظُلمًا، والبُهتانُ كذلك الكذِبُ، أو كلُّ فِعل مستبشَعٍ يُتعاطَى باليدِ والرِّجل مِن تناوُل ما لا يجوزُ، والمَشْي إلى ما يقبُحُ[٢].

﴿لَهَمَّتْ﴾: الهمُّ: جرَيان الشَّيءِ في القلب، وأصل (هَمَم): يدلُّ على ذَوبٍ وجريانٍ ودبيبٍ[٣].

المعنَى الإجماليُّ:

يخبِرُ تعالى أنَّه مَن يعملْ عملًا يُسيءُ به إلى غيره، أو يكتسِبْ ما يجعلُه يستحقُّ العقوبةَ من الله، ثمَّ يستغفرِ اللهَ تعالى عمَّا اقترَف؛ فإنَّه سيجدُ مِن الله مغفرةً

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٧).

لذنوبه، ورحمةً به، ومَن يقترفْ ذنبًا متعمِّدًا فإنَّما يجني بذلك على نفسِه وبالَ الذَّنبِ وعاقبتَه، وكان الله عليمًا حكيمًا.

ثمَّ يخبِرُ تعالى أنَّه مَن يصدُرْ منه ذنبٌ غيرَ متعمَّدٍ له، أو يرتكِبْه عامدًا ثمَّ يتَّهِمْ بهذا الذَّنبِ الَّذي اقترفه مَن هو بَريءٌ منه، فقد تحمَّلَ بعَمَله القبيحِ هذا فِرْيَةً على ذلك البريءِ، وإثمًا ظاهرًا بيِّنًا.

ثمَّ يخاطبُ الله نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه لو لا أنَّ الله تفضَّل عليه فحَفِظَه وعصَمه، لهمَّتْ طائفةٌ مِن الَّذين يختانون أنفسَهم أن يُضلُّوه عن طريق الحقِّ، وما يُضلُّون في الحقيقة إلَّا أنفسَهم، ولا يمكن أن يضرُّوه عليه الصَّلاة والسَّلام بشيءٍ، ثمَّ ذكَّره تعالى بنعمتِه عليه وفضلِه حين أنزل عليه القرآنَ، والسنَّة، ومعرفة أسرار الشَّريعة، وعلَّمه سبحانه وتعالى ما لم يكُنْ يعلَمُه مِن قبلِ تعليمِ الله سبحانه وتعالى له، وكان فضلُ الله عليه عظيمًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا (١١٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا نهى اللهُ تعالى عن نُصْرةِ الخائن، وحذَّر منها، ندَب إلى التَّوبة مِن كلِّ سُوءٍ[١] فقال:

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾.

أي: ومَن يعمَلْ ما يُسيءُ به إلى غيرِه، أو يظلِمْ نفسَه بإكسابه إيَّاها ما يستحقُّ به عقوبةَ الله من شِركٍ ومعاصٍ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٩٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٩٤).

﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾.

أي: ثمَّ يطلُبْ مِنَ الله تعالى أن يستُرَ ما عمِلَ مِن ذنوبٍ، ويتجاوَزَ عن مؤاخَذتِه بها[١].

﴿يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

أي: فإنَّه يجدُ اللهَ تعالى غفورًا لذنوبِه، رحيمًا به[٢].

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ندَبَ الله تعالى إلى التَّوبة ورغَّب فيها، بيَّن أنَّ ضررَ إثمِ الآثِم لا يتعدَّى نفسَه، حثًّا على التَّوبةِ، وتهييجًا إليها؛ لِمَا جُبِل عليه كلُّ أحدٍ مِن محبَّة نَفْع نفسِه، ودَفْع الضُّرِّ عنها[٣]، فقال:

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾.

أي: ومَن يَأتِ ذَنبًا عامدًا له، فإنَّما يَجترحُ وبالَ ذلك الذَّنبِ وضُرَّه وخِزيَه وعارَه في الدُّنيا والآخرة على نفسِه دون غيرِه، فلا يَجني أحدٌ على أحدٍ، وإنَّما على كلِّ نفسٍ ما عمِلَتْ، لا يَحمِلُه عنها غيرُها[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٧٦-٤٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٠٠-٢٠١).

قال السعديُّ: (لكن إذا ظهرت السيِّئات فلم تُنكَرْ، عمَّت عقوبتُها، وشمِل إثمُها، فلا تخرج =

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ [فاطر: ١٨].

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى له العلمُ الكاملُ، والحِكمةُ التَّامَّة، ومِن عِلْمه وحِكمتِه أنَّه يَعلمُ الذَّنبَ وما صدَر منه، والسَّببَ الدَّاعي لفِعلِه، والعقوبةَ المترتِّبةَ على فِعلِه، ويَعلمُ حالةَ المُذنِب، فيوفِّقُ للتوبةِ مَن غلبتْه نفسُه الأمَّارة بالسُّوء، مع إنابتِه إلى ربِّه في كثيرٍ مِن أوقاتِه، ويخذلُ مَن تجرَّأ على المحارمِ تهاونًا، ولا يُوفِّقه للتوبةِ[1].

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (١١٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر سبحانه وتعالى ما يخصُّ الإنسانَ مِن إثمِه، أتبَعَه ما يُعدِّيه إلى غيرِه[2]، فقال:

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا﴾.

أي: ومَن يَرتكِبْ ذنبًا غيرَ عامدٍ له، أو يرتكبْ ذنبًا متعمِّدًا له[3].

= أيضًا عن حُكم هذه الآيَة الكريمة؛ لأنَّ مَن ترَكَ الإنكارَ الواجب فقد كسَب سيِّئةً» ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٩٨).

(٣) وهذا اختيار ابن جرير في ((تفسيره)) (٧/ ٤٧٧)، والراغب الأصفهاني في ((تفسيره)) (٣/ ١٤٣٣). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢١٥).

قال العسكريُّ: (الفرقُ بينَ الخطيئةِ والإثم: أنَّ الخطيئةَ قد تكونُ مِن غيرِ تعمُّدٍ، ولا يكونُ =

﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا﴾.

أي: ثم يُلصِقْ ذَنبَه الَّذي ارتكبَه بشخصٍ آخرَ بريءٍ من هذا الذَّنبِ[1].

﴿فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾.

أي: فقد تحمَّل بهذا الفِعلِ الشَّنيعِ فِريةً وكذبًا على ذلك البَريءِ، وإثمًا ظاهرًا بيِّنًا، يُبينُ عن أمْرِ مُتحمِّلِه، وجَراءتِه على ربِّه سبحانه وتعالى[2].

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لـمَّا وعَظ سُبحانه وتعالى في هذه النَّازلةِ، وحذَّر ونهى وأمَر- بَيَّن نِعمتَه على نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في عِصمتِه عمَّا أرادوه مِن مُجادلتِه عن الخائنِ بقوله تعالى[3]:

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ﴾.

أي: ولولا أنَّ اللهَ تعالى تَفضَّل عليك- يا محمَّدُ- فحفِظَكَ وعصَمك بتوفيقِه

= الإثمُ إلَّا تعمدًا، ثم كثُر ذلك حتى سُمِّيت الذُّنوب كلُّها خطايا). ((الفروق اللغوية)) (١/ ٢٢٢).
وقيل: الخطيئةُ هي الذنبُ الكبير، والإثمُ ما دون ذلك. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠١).
وقيل بعكس ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٧٨-٤٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٩٨).

وتبيانِه لك أَمْرَ هذا الخائنِ(١).

﴿لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ﴾.

أي: لعزَمَتْ فِرقةٌ من أولئك الَّذين يختانونَ أنفسَهم أن يَحْرِفوكَ عن طريق الحقِّ(٢).

﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾.

أي: إنَّ كيدَهم ومكرَهم يعودُ على أنفسِهم، فما يُضلُّونَ بذلك في الحقيقةِ إلَّا أنفسَهم(٣).

﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ﴾.

أي: ولا يمكِنُ أن يُضرُّوك بأيِّ شيءٍ من الأشياءِ(٤).

﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾.

أي: ومِن فَضْلِ اللهِ تعالى عليك- يا محمَّدُ- مع سائرِ ما تفضَّلَ به عليك مِن نِعَمِه، أنَّه أنزَل عليك الكتابَ: وهو القرآنُ، والحِكمةَ: وهي السُّنَّة ومعرفةُ أسرارِ أحكامِ الشَّريعة(٥).

﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٠٦-٢٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٠٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٠٨).

أي: ومِن فَضْله تعالى عليك- يا محمَّدُ- أنْ علَّمَك ما لم تكُنْ تعلَمُه من قبلِ نزولِ الوحيِ عليك[1].

كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى: ٥٢].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦].

وقال جلَّ وعلا: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى: ٧].

﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾.

أي: إنَّ ما منَحَك اللهُ تعالى إيَّاه من نِعَمٍ وعطايا- يا محمَّدُ- أمرٌ عظيمٌ من لَدُنِ العظيمِ الكريمِ سبحانه[2].

الفَوائِد التربويَّة:

١- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ يفتَحُ باب التَّوبة على مصراعَيْه، وبابَ المغفرة على سَعَتِه، ويُطمِّعُ كلَّ مذنبٍ تائبٍ في العفوِ والقَبول، ويدلُّ على أنَّ التَّوبةَ مقبولةٌ عن جميعِ الذُّنوبِ؛ لأنَّ قوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ...﴾ عمَّ الكلَّ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٠٨-٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٨٠-٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠١-٢٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٠٩).

فمَنْ يَستغْفِرْ ويصدُقْ في استغفارِه فسوفَ يَجِدُ اللهَ عزَّ وجلَّ غفورًا رحيمًا(١).

٢- أنَّ المعاصيَ ظُلْمٌ للنَّفسِ؛ لقوله: ﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾، وهذا شيءٌ ثابتٌ مُكرَّرٌ في القرآنِ(٢).

٣- أنَّ الإنسانَ تصحُّ توبتُه من الذَّنبِ ولو تكرَّر، ووجهُه: العمومُ في قوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ﴾، وهذا عامٌّ فيمَّن تكرَّر منه ذلك، أو لم يتكرَّرْ(٣).

٤- في قوله تعالى: ﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾ أنَّ الإنسانَ قد يكون عدوًّا لنفسِه، كما أنَّ أقربَ النَّاسِ قد يكون عدوًّا له؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤]، فلْيَحذَرْ كلُّ إنسانٍ نَفْسَه؛ فإنَّها عدوُّه(٤).

٥- تحريم رميِ الغيرِ بما يفعله الإنسانُ من خطيئةٍ، والتَّحذيرُ منه؛ قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾(٥).

٦- الحذرُ من شَهادة الزُّورِ والبُهتان؛ فصاحبُ البهتان مذمومٌ في الدُّنيا أشدَّ الذَّمِّ، ومعاقَبٌ في الآخرةِ أشدَّ العقابِ؛ يُستفادُ ذلك من قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾(٦).

الفوائد العلميَّة واللَّطائف:

١- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾ عملُ السُّوءِ عند الإطلاقِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢١٥)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٧٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٠٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٠٤، ٢٠٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢١٦).

يشمَلُ سائرَ المعاصي، الصَّغيرة والكبيرة، وسُمِّي (سوءًا)؛ لكونه يسُوءُ عاملَه بعقوبَتِه، ولكونِه في نفْسِه سيِّئًا غيرَ حسَنٍ، وكذلك ظُلْمُ النَّفسِ عند الإطلاقِ يشمَلُ ظُلْمَها بالشِّركِ فما دونه، ولكنْ عند اقترانِ أحدِهما بالآخَرِ قد يُفسَّرُ كلُّ واحدٍ منهما بما يُناسِبُه، فيُفسَّرُ عملُ السُّوءِ هنا بالظُّلم الَّذي يسُوء النَّاسَ، وهو ظُلْمُهم في دمائِهم وأموالِهم وأعراضِهم، ويُفسَّرُ ظُلْمُ النَّفس بالظُّلم والمعاصي الَّتي بين اللهِ وبين عبده[1].

٢- قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾ سُمِّيَ ظُلْمُ النَّفْسِ «ظُلْمًا»؛ لأنَّ نَفْسَ العبد ليست مِلْكًا له يتصرَّفُ فيها بما يشاء، وإنَّما هي مِلْكٌ لله تعالى، قد جَعَلَها أمانةً عند العبدِ، وأَمَرَه أن يُقِيمَها على طريقِ العَدْلِ؛ بإلزامِها للصِّراطِ المستقيمِ عِلْمًا وعمَلًا، فيسعى في تعليمِها ما أُمِرَ به، ويسعى في العَمَل بما يجب؛ فسَعْيُه في غير هذا الطَّريقِ ظُلْمٌ لنفْسِه، وخيانةٌ وعدولٌ بها عن العدل، الذي ضِدُّه الجَوْر والظُّلْم[2].

٣- قول الله تعالى: ﴿يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾، أي: يتحقَّقُ ذلك، فاستُعِيرَ فعل (يجد) للتَّحقُّق؛ لأنَّ فعل (وَجَد) حقيقتُه الظَّفَرُ بالشَّيءِ ومشاهدتُه، فأُطلِقَ على تحقيقِ العفْوِ والمغفرة[3].

٤- بيان عَدْلِ الله وحَكْمتِه؛ أنَّه لا يعاقِبُ أحدًا بذَنبِ أحدٍ، ولا يعاقِبُ أحدًا أكثرَ من العقوبة النَّاشئةِ عن ذَنبه؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، أي: له العِلْمُ الكاملُ والحكمة التَّامَّةُ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٩٤).

(٢) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠١).

٥- قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا﴾ قدَّم البُهتَ؛ لقُربه من قوله: ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا﴾، ولأنَّه ذنبٌ أفظعُ مِن كَسْبِ الخطيئةِ أو الإثمِ[1].

٦- أنَّ السَّيِّئاتِ تتضاعَفُ بتعدُّدِ أوصافِها؛ لقوله: ﴿وَإِثْمًا مُبِينًا﴾، وهذا هو الواقعُ، وهو العدلُ؛ فمَن قذَف قريبًا له، ومَن قذَف أجنبيًّا عنه، كلاهما قد قذَفَ، لكنِ انضَمَّ إلى قذفِ القريبِ قطيعةُ الرَّحِم، فتكونُ هذه السَّيِّئةُ متضاعِفةً، فلا جرمَ أن يتضاعَفَ إثمُها؛ لأنَّ الأحكامَ مرتَّبةٌ على أوصافِها[2].

٧- إثباتُ الرَّحمة الخاصَّة، فإنَّ قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ﴾ رحمةٌ خاصَّةٌ لم تكُنْ لغيرِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم[3].

٨- بيانُ فضلِ اللهِ على رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأنَّه محتاجٌ لفضلِ اللهِ ورحمتِه، ولولا فضلُ الله عليه ورحمتُه لحصَل له ما يحصُلُ لغيره؛ لقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ...﴾[4].

٩- أنَّ مَن أراد إضلالَ الخَلْقِ، فإنَّه لا يضُرُّ إلَّا نفسَه؛ لقوله: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾؛ لأنَّهم عَمُوا في الواقعِ عن الحقِّ، ودَعَوُا النَّاسَ إلى الباطل، فاكتسَبوا إثمًا إلى آثامِهم، فأضَلُّوا أنفسَهم بذلك[5].

١٠- ليسَ كلُّ ظُلْمٍ يضرُّ المظلومَ، بل قدْ لا يَضرُّه ظُلمُه شيئًا وإنْ قصَدَ الظالمُ إضرارَه؛ يُبيِّنُ ذلك قولُه تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٠٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢١٠).

مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ﴾، ومعلومٌ أنَّ ذلِك مِنْ ظُلمِهم، ومع هذا فلا يَضرُّونَه، وكقوله: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾[(١)].

١١- إثباتُ علوِّ الله؛ لقوله: ﴿أَنْزَلَ﴾، والنُّزولُ يكون مِن أعلى[(٢)].

١٢- أنَّ القرآنَ (كتابٌ)، على وزن (فِعَال) بمعنى (مفعول)، وهو مكتوبٌ في اللَّوحِ المحفوظ، ومكتوبٌ في الصُّحُف الَّتي بأيدي الملائكةِ الكِرام البَرَرة، ومكتوبٌ في المصاحف الَّتي بأيدينا، قال جلَّ وعلا: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[(٣)].

١٣- فضيلةُ العِلم؛ لأنَّ الله امتَنَّ به على رسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم؛ حيث قال: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾، فَذَكَر سبحانه فضْلَه ونعْمَتَه على خَاتَمِ أنبيائه وَرُسُلِه بما آتاه مِن العِلْم، ولا شكَّ أنَّ العِلمَ أشرفُ ما يُلَقَّاهُ الإنسانُ بعد الإسلامِ؛ فهو خيرٌ مِن المال، وخيرٌ من الأولادِ، وخيرٌ من الأزواجِ، وخيرٌ من الدُّنيا كلِّها[(٤)].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- **قوله: ﴿يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾**: فيه مبالغةٌ في الغُفرانِ، كأنَّ المغفرةَ والرَّحمة مُعدَّانِ لطالبِهما، مُهيَّآن له، متى طلَبهما وجَدَهما، فلا يتخلَّفُ عنه شمولُ مَغفرتِه ورحمتِه زمَنًا. وصِيغةُ ﴿غَفُورًا رَحِيمًا﴾ فيها مبالغةٌ، أي: كثيرَ الغُفران، وكثيرَ الرَّحمةِ؛ وذلك كِناية عن العُمومِ والتَّعجيل؛ فهو عامُّ المغفرةِ

(١) ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٦/ ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢١١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢١٣).

(٤) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢١٣).

والرَّحمة، فلا يخرج منها أحدٌ استغفَره وتابَ إليه(١).

٢- قوله: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

- في لفظةِ (علىٰ) في قولِه: ﴿فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ دلالةٌ على استعلاءِ الإثمِ على فاعلِه، واستيلائِه وقَهْرِه له(٢).

- قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾: التَّعبيرُ بصيغةِ المبالغةِ (فعيل)؛ للدَّلالةِ على المبالَغةِ في الوصْفِ(٣).

٣- قوله: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾.

- لفظ (احتَمَل) في قوله: ﴿فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا﴾ أبلغُ من (حمَل)؛ لأنَّ افتَعل فيه للتَّسبُّبِ، كاعْتَمَل(٤)، وأيضًا في (احتمل) تمثيلٌ لحالِ فاعلِه بحالِ عَناءِ الحاملِ ثِقلًا(٥).

- وفي قوله:﴿بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ ﴿مُبِينًا﴾ صفةٌ لقولِه ﴿إِثْمًا﴾ أي: بيِّنًا فاحشًا، وقد اكتُفِيَ في بيانِ عِظَمِ البُهتانِ بالتنكيرِ التفخيميِّ(٦).

٤- قول الله تعالى: ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ (مِنْ) تدُلُّ على العمومِ نصًّا، أي: لا يضرُّونَك قَليلًا ولا كثيرًا(٧).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٩٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٣٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٩٦).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٣٠).
(٧) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦١).

الآيات (١١٤ - ١٢٢)

﴿ ۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ
إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا
عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ
الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ
أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا
بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا
مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ اللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾
وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ
فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ
خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا
غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَالَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿نَجْوَاهُمْ﴾: أي: المُتَناجِينَ مِن النَّاسِ، وتَكُون نجْوَى خَرَجَت مَخْرَجَ جَرْحَى ومَرْضَى، أو يكون المراد بـ ﴿نَجْوَاهُمْ﴾ تناجِيهم، وأصل النَّجاءِ: الانفصالُ مِنَ الشَّيءِ؛ يُقال: ناجيتُه، أي: سَارَرْتُه، وأصلُه: أنْ تخلوَ به في نَجوةٍ مِن الأرضِ(١).

﴿مَعْرُوفٍ﴾: المعروفُ كلُّ ما كان معروفًا فِعْلُه، جميلًا مستحسَنًا غيرَ مستقبَحٍ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٢- ٧٩٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٧).

عند أهل الإيمان، و(عَرَف) في الأصل يدلُّ على السُّكونِ والطُّمأنينةِ، ومنه العُرف والمعروف؛ سُمِّي بذلك؛ لأنَّ النُّفوسَ تسكُنُ إليه(١).

﴿يُشَاقِقِ﴾: يخالِفْ، أو صار في شقٍّ غيرِ شقِّ أوليائه، والشِّقاقُ: المخالَفة، وأصل (شق): يدلُّ على انصداعٍ في الشَّيءِ(٢).

﴿وَنُصْلِهِ﴾: أي: نَشْوِهِ بها، وصَلَى النارَ: أي: دخَل فيها، وأصل الصَّلْيِ: الإيقادُ بالنَّار، ويُقال: صَلِيَ بالنَّار وبكذا، أي: بَلِيَ بها(٣).

﴿مَرِيدًا﴾: أي: ماردًا، يعني: عاتيًا، قد عرِيَ من الخيرِ وظَهَر شرُّه، من قولهم: شجرة مَرْدَاء، إذا سقَط ورقها، فظهَرَتْ عِيدانُها، ومنه غلامٌ أمردُ: إذا لم يكُنْ في وجهه شَعَرٌ، والماردُ والمَريدُ: كلُّ عاتٍ مِن شَياطينِ الجِنِّ والإنسِ، وأصل (مرد): يدلُّ على تَجريدِ الشَّيءِ مِن قِشْره، أو ما يَعْلوه من شَعرِه(٤).

﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ﴾: أي: يُقطِّعُونها ويَشقُّونها، والبَتْكُ: القَطْعُ، ويُستعملُ في قَطْعِ الأعضاءِ والشَّعرِ؛ يُقال: بتَك شَعرَه وأُذنَه(٥).

﴿فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾: يُشوِّهون خَلْقَه بالخِصاءِ، وقطعِ الآذانِ، وفَقْءِ العيون،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٨١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٩- ٤٦٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٠).

(٣) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٣).

(٥) يُنظر: ((العين)) للخليل (٥/ ٣٤٢)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٨).

ونَتْفِ اللِّحيةِ، أو: يُبدِّلون حُكمَه ودِينَه، وأصل (غير): اختلافُ شيئين، والخَلْقُ أصله: التَّقديرُ المستقيم، ويُستعمَلُ في إبداعِ الشَّيء من غير أصلٍ ولا احتذاءٍ[١].

﴿غُرُورًا﴾: الغرورُ: الباطل، والغِرَّةُ: غفلةٌ في اليقظةِ، يقال: غَرَرْتُ فلانًا: أصبتُ غِرَّتَهُ، ونِلتُ منه ما أريدُه، وأصل ذلك من الغَرِّ، وهو الأثَرُ الظَّاهر من الشَّيء، والغَرور: كلُّ ما يغُرُّ الإنسانَ من مالٍ وجاهٍ وشهوةٍ وشيطانٍ[٢].

﴿مَحِيصًا﴾: أي: مَعْدلًا ومهربًا، وحاص عن الشَّيء: أي: عدَل، وأصل (المَحْص): تخليص الشَّيء، وتنقيتُه ممَّا فيه من عيبٍ[٣].

﴿قِيلًا﴾: قولًا ومقالًا، وأصل القول من النُّطق، ويستعمل على أوجهٍ كثيرة[٤].

مُشكِلُ الإعراب:

قوله تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾

﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ﴾: في هذا الاستثناءِ قولانِ، أحدُهما: أنَّه متَّصلٌ[٥]، على أنَّ المرادَ بالنَّجْوَى: القومُ الَّذين يَتناجَون؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٣) و(٤/ ٤٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٦- ٢٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٣- ٦٠٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٠٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٧، ٨٨٢).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٤، ٣٢٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٦٠، ٧٣٩).

(٥) أي: أنَّ ما بعدَ أداةِ الاستثناءِ (المستثنى) مِن جنسِ ما قَبْلَها (المستثنى منه)، مثال ذلك حضَر الطلابُ إلَّا محمدًا. وما حضر الطلابُ إلَّا محمدٌ - ومحمَّدًا.

[الإسراء: ٤٧]، أي: مُتناجُون، وهو مِن إطلاقِ المصدرِ على الَّذي صدَرَ منه، نحو: رجلٌ عَدْلٌ، أي: عادِل. أو على أنَّ في الكَلامِ حذْفَ مُضافٍ، تقديرُه: إلَّا نَجْوَى مَنْ أَمَرَ؛ فعَلَى هذا يَجوزُ أنْ تكونَ ﴿مَنْ﴾ في موضعِ جرٍّ بدلًا مِن ﴿نَجْوَاهُمْ﴾، وأنْ تكونَ في مَوضِعِ نَصْبٍ على أَصلِ بابِ الاستثناءِ. والثَّاني: أنَّ الاستثناءَ مُنقطِعٌ[1]، وعليه فالمرادُ بالنَّجْوَى هنا المصدرُ فقط كالدَّعوى، و﴿مَنْ﴾ للأشْخاصِ، وليستْ مِن جِنسِ التَّناجِي، وعليه فـ﴿مَنْ﴾ في موضِع نصْبٍ على الاستِثْناءِ[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه لا خيرَ في كثيرٍ ممَّا يُسِرُّه النَّاسُ بينهم من الكلامِ، إلَّا ما كان مِن أمرٍ بالتَّصدُّق، أو أمرٍ بمعروف، أو إصلاحٍ بين النَّاس، ومَن يفعلْ ذلك مخلِصًا لله فسوف يُعطيه اللهُ ثوابًا عظيمًا.

ثمَّ توعَّد سبحانه وتعالى مَن يخالفُ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ويعاندُه مِن بعدِ ظهور الحقِّ له، ويتَّبِعُ خلافَ طريق المؤمنين، وينهَجُ غيرَ نهجِهم؛ توعَّده سبحانه بأن يَكِلَه إلى ما اختار لنفسِه، ويُحسِّنَه له استدراجًا له، ويُحرِقَه بنارِ جهنَّمَ، وقبُحَتْ جهنَّمُ مصيرًا.

ثمَّ أخبرَ تعالى أنَّه لا يغفِرُ لمن أشرَكَ به، ومات على ذلك، ويغفِرُ ما دون الشِّرك لمن يشاءُ سبحانه وتعالى، ومَن يُشرِكْ بالله فقد ضلَّ عن الحقِّ ضلالًا بعيدًا.

ثمَّ بيَّن أنَّ الذين يُشْرِكونَ بالله ما يَدْعُون إلَّا أصنامًا بمسمَّياتٍ مؤنَّثةٍ، وما يَدْعون في حقيقةِ الأمر إلَّا شيطانًا رجيمًا، متمرِّدًا على خالقِه جلَّ وعلا، قد

(١) أي: أنَّ ما بعدَ أداة الاستثناءِ (المستثنى) ليس مِن جنس ما قَبْلَها (المستثنى منه)، نحو: ما وصل المسافرون إلا سفينةً- بالنصب فقط عند غير بني تميم.

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٠٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٨٩).

طَرَده اللهُ مِن رحمتِه، فقال لربِّه حينها معزِّزًا قولَه بالقَسَم: إنَّه سيتَّخذُ مِن عباده جزءًا معلومًا مقدَّرًا، يكونون أولياءَه، وسيُضِلُّهم عن الطَّريقِ المستقيم، ويقذِفُ في أنفسِهم أمانيَّ يَعِدُهم بها، تكونُ سببًا في ابتعادِهم عن التَّوحيدِ والطَّاعة، وسيأمُرُهم بتقطيعِ آذانِ الأنعامِ، وتغييرِ خَلْقِ الله وفِطرتِه، ثمَّ أخبَر تعالى محذِّرًا أنَّ مَن يتَّخذ الشَّيطانَ وليًّا مِن دون الله فقد خسِر خسرانًا ظاهرًا واضحًا؛ فإنَّ الشَّيطانَ يعِدُ أولياءَه، ويقذِفُ في نفوسهم الأمانيَّ، وما وعودُه وأمانِيُّه إلَّا باطلٌ وخداعٌ، أولئك الَّذين يتَّخذونه أولياءَ مصيرُهم جهنَّمُ، ولا يجِدون عنها مَهربًا.

وأمَّا الَّذين آمنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ، فسيُدخِلُهم اللهُ جنَّاتٍ تجري من تحتها الأنهارُ، ماكثين فيها أبدًا، وَعْدَ اللهِ الَّذي وعدهم به، ووعدُه الحقُّ، ولا أحدَ أصْدَقُ منه جلَّ وعلا قولًا وخبرًا.

تَفسيرُ الآيات:

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١١٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا لم تَخلُ الحوادثُ الَّتي أشارت إليها الآيُ السَّابقةُ، ولا الأحوالُ الَّتي حذَّرَت منها؛ مِن تناجٍ وتحاورٍ، سرًّا وجهرًا، لتدبيرِ الخيانات وإخفائِها وتبييتِها؛ لذلك كان المقامُ حقيقًا بتعقيبِ جميعِ ذلك بِذِكْرِ النَّجوى وما تشتملُ عليه؛ لأنَّ في ذلك تعليمًا وتربيةً وتشريعًا(١)، فقال تعالى:

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ﴾.

أي: لا خيرَ في كثيرٍ من الكلام الَّذي يُسِرُّه النَّاس بينهم؛ إمَّا لأنَّه لا فائدةَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٩٨).

فيه؛ كفضولِ الكلام المباح، وإمَّا لكونِه شرًّا ومَضرَّةً محضةً؛ كالكلام المُحرَّمِ بجميعِ أنواعه(١).

﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾.

أي: عَدَا الأمْرَ بالتَّصدُّقِ، سواءٌ كان بالمال أو بالعِلم، أو بأيٍّ نفعٍ كان(٢).

﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾.

أي: وعَدَا الأَمْرَ بالمعروفِ، وهو كلُّ ما أمَر الله تعالى به، أو ندَب إليه من أعمالِ البِرِّ والخيرِ والإحسانِ والطَّاعة، وكلُّ ما عُرِف في الشَّرعِ والعَقلِ حُسْنُه(٣).

﴿أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾.

أي: وعَدَا الأمرَ بالإصلاحِ بين المتنازعَيْنِ والمتخاصمَيْنِ؛ ليزولَ ما بينهما من عداوة وبغضاء، ويتراجعا إلى ما فيه الأُلفةُ، واجتماعُ الكلمة على ما أَذِن اللهُ تعالى وأمَر به(٤).

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾.

أي: ومَن يأمُرْ بصدقةٍ أو معروف، أو يُصلِحْ بين النَّاس؛ طلبًا لرضَا الله تعالى بفعله هذا، مخلصًا له فيه، ومحتسبًا ثوابَه عند الله عزَّ وجلَّ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢١٧-٢١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢١٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٨١-٤٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٢)، ((تفسير =

﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

أي: فسوف يُعطيه اللهُ تعالى- جزاءً لِمَا فعَل من ذلك- ثوابًا كثيرًا واسعًا، لا يعلَمُ قدرَه سواه[١].

﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (١١٥)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا رتَّب الله تعالى الثَّوابَ العظيم على الموافَقةِ، وبيَّن وعدَه بالجزاءِ الحسَنِ للَّذين يتناجَوْن بالخيرِ، ويبتغونَ بنفعِ النَّاس مرضاةَ الله عزَّ وجلَّ- رتَّب العقابَ الشَّديدَ على المخالَفة والمشاقَقَة، ووكَل المخالِفَ إلى نفسِه[٢] فقال تعالى:

﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ﴾.

أي: ومَن يُخالِفِ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ويعانِدْه فيما جاء به، سالكًا غيرَ طريقِ الشَّريعةِ الَّتي جاء بها الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فصار في جانبٍ، والشَّرعُ في جانبٍ آخرَ[٣].

﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى﴾.

أي: وحَصَلتْ منه تِلك المُشاقَّةُ عن عَمْدٍ، بعدَما ظهَر له الحقُّ واتَّضَح[٤].

= السعدي)) (ص: ٢٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٤٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٠٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٣٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٨٣-٤٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٢)، ((تفسير =

﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: ومَن يتَّبعْ طريقًا غيرَ طريقِ المؤمنين في عَقائدِهم وأعمالِهم، ويَسلُكْ منهجًا غيرَ منهجِهم(١).

﴿نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى﴾.

أي: إذا سلَك هذه الطَّريقَ نَتخلَّى عنه، ونتركُه إلى ما اختاره لنفْسِه، ونُحسِّنُه له في صدرِه استدراجًا له(٢).

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

﴿وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ﴾.

أي: ونُدخِلْهُ نارَ جهنَّمَ، ونُحرِقْه بها(٣).

= السعدي)) (ص: ٢٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٢٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٢٦).

قال ابنُ كثير: (قوله: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا ملازِمٌ للصفة الأولى، ولكن قد تكون المخالفة لنصِّ الشارع، وقد تكون لِما أجمعت عليه الأمَّة المحمَّدية، فيما علم اتفاقُهم عليه تحقيقًا، فإنه قد ضُمِنت لهم العصمةُ في اجتماعهم من الخطأ، تشريفًا لهم، وتعظيمًا لنبيهم صلَّى الله عليه وسلَّم، وقد وردت في ذلك أحاديثُ صحيحة كثيرة، ... ومن العلماء مَن ادَّعى تواتر معناها، والذي عوَّل عليه الشافعيُّ رحمه الله، في الاحتجاج على كونِ الإجماع حجَّةً تحرُمُ مخالفتُه: هذه الآيةُ الكريمة، بعد التروِّي والفكر الطويل، وهو مِن أحسنِ الاستنباطات وأقواها، وإن كان بعضهم قد استشكل ذلك، واستبعد الدلالةَ منها على ذلك). ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٢-٤١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٢٦-٢٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٨٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٢٨٩)، ((تفسير السعدي)) =

﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾.

أي: وما أسوَأَها مِن مرجعٍ ومآلٍ يصيرُ إليه[1]!

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١١٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا توعَّد اللهُ تعالى على مُشاقَقةِ الرَّسول صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، واتِّباعِ غيرِ سبيلِ المؤمنينَ، وكان فاعلُ ذلك بعد بيانِ الهدى هم أهلَ الكتابِ، ومَن أضلُّوه من المنافقينَ، فردُّوهم إلى ظلامِ الشِّركِ والشَّكِّ- حسُنَ إيلاؤُه ببيانِ خطورةِ الشِّركِ؛ تعظيمًا لأهلِ الإسلام، وحثًّا على لزوم هديِهم، وذمًّا لِمَن نابَذهم، وتوعُّدًا له[2]، فقال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى لا يغفِرُ لِمَن أشرَكَ به، ومات على شِرْكِه[3].

﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

أي: وما دونَ الشِّركِ من الذُّنوبِ والمعاصي فهو تحت المشيئةِ؛ إن شاء اللهُ غَفَرَه برحمتِه وحِكمتِه، وإنْ شاء عذَّبَ عليه بعَدلِه وحكمتِه[4].

﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾.

= (ص: ٢٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٤٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٣).

(٤) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

أي: ومَن يجعَلْ لله تعالى شريكًا، فقد سلَكَ غيرَ طريقِ الحقِّ، وانحرَف عن سواءِ السَّبيلِ، وبَعُدَ عنِ الصَّوابِ بُعدًا شديدًا(١).

﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا (١١٧)﴾.

﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا﴾.

أي: ما يَدْعو هؤلاء المشركون مِن دونِ الله تعالى إلَّا أوثانًا وأصنامًا مسمَّياتٍ بأسماءِ الإناثِ؛ كاللَّات والعُزَّى ومَنَاةَ، والمؤنَّثُ دون المذكَّرِ في قوَّتِه ومرتبتِه ومقامِه؛ ممَّا يدلُّ على نقصِ المسمَّيات بتلك الأسماءِ، وفَقْدِها لصفات الكمال، فكيف تُتَّخذُ آلهةً تُعبدُ(٢)؟!

﴿وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾.

أي: وما يعبُدُ هؤلاء الَّذين يعبُدون هذه الأوثانَ مِن دونِ الله تعالى - في حقيقةِ الأمر - إلَّا شيطانًا متمرِّدًا على الله سبحانه، هو الَّذي أمَرهم بذلك، وزيَّنه لهم فأطاعوه، مع أنَّه عدوُّهم الَّذي يريدُ إهلاكَهم، ويسعى في ذلك بكلِّ ما يقدِرُ عليه(٣).

﴿لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (١١٨)﴾.

﴿لَعَنَهُ اللَّهُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٩٠-٤٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٣-٢٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٣٥).

وقيل المعنى: إن يَدْعون إلا شيئًا مثلَ الإناث، لا يدفع عن نفسِه، فكيف يدفع عن غيره، وعلى هذا القول يدخلُ في ذلك الأصنامُ المُذكَّرة، مثل: هُبَلُ؛ فهُبَلُ مُذكَّر، ومع ذلك يُعبد من دون الله. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٣٥-٢٣٦).

أي: قد أقصاه اللهُ تعالى وأبعَدَه، وطرَدَه مِن رحمتِه[1].

كما قال تعالى: ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [ص: ٧٧-٧٨].

وكما أبعَدَه اللهُ تعالى من رحمتِه، يسعى في إبعاد العبادِ عن رحمة الله عزَّ وجلَّ؛ ولهذا أخبَر اللهُ عن سعيِه في إغواءِ العباد، وتزيينِ الشَّرِّ لهم والفسادِ[2]؛ فقال تعالى:

﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾.

أي: وقال الشَّيطانُ لربِّه حين لَعَنَه: واللهِ لأتَّخذَنَّ مِن عبادِك جزءًا معلومًا مقدَّرًا، أجعَلُهم أولياءَ لي، أتولَّاهم ويتولَّوْنَني، فيكونون من حزبِي أصحابِ السَّعيرِ[3].

كما قال الله تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢-٨٣].

وقال أيضًا: ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ ﴿فاطر: ٦﴾.

﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا (١١٩)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٩١-٤٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٣٧-٢٣٨).

قال ابن جرير: (وإنَّما أخبر جلَّ ثناؤُه في هذه الآية بما أخبَر به عن الشَّيطان من قِيلِه: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾؛ ليعلَمَ الذين شاقُّوا الرَّسول من بعد ما تبيَّن لهم الهدى أنَّهم من نصيبِ الشَّيطان الَّذي لَعنه اللهُ المفروضِ، وأنَّه ممَّن صدَّق عليهم ظنَّه) ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٩٢).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

بعد أن أقسَمَ الشَّيطانُ أنَّه سيتَّخذُ نصيبًا مفروضًا من العِباد، ذكَر ما يعتزمُ فعلَه بهم بقوله[١]:

﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾.

أي: واللهِ لأَصُدَّنَّهم عن طريق الحقِّ إلى سُبُلِ الضَّلالِ؛ ضلالٍ في العِلمِ، وضلالٍ في العمل[٢].

﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾.

أي: واللهِ لأجعَلَنَّ في نفوسِهم من الأمانيِّ الَّتي أعِدُهم بها، ما يُزيغُهم عن توحيدِك وطاعتِك؛ كأن يُزيِّنَ لهم ما هم فيه من الضَّلالِ، مع تمنِّيهم أن ينالوا ما ناله المهتدونَ، وكأن يُمنِّيَهم بطولِ العمرِ، مع أمرِهم بالتَّسويفِ والتَّأخيرِ في التَّوبةِ حتَّى يَبغَتَهم الموتُ[٣].

﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ﴾.

أي: واللهِ لآمُرَنَّهم بأن يُقطِّعوا آذانَ الأنعامِ من الإبلِ والبقرِ والغَنَم علامةً على أنَّها محرَّمةٌ -قيل: يُقطِّعونها نُسُكًا في عبادةِ الأوثانِ- وهذا يقتضي تحريمَ ما أحَلَّ اللهُ، أو تحليلَ ما حرَّمه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٩٢-٤٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٤٠).

قال الواحدي: (قوله: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ﴾ البَتْك: القطع، والتبتيك: التقطيع، =

﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾.

أي: ولآمُرَنَّهم بتغييرِ خِلقتِهم الظَّاهرةِ بالوَشْمِ، والنَّمْصِ، والتَّفلُّجِ للحُسنِ، وغير ذلك[1]، وتغيير خِلقتِهم الباطنة، فتتغيَّرَّ فِطرتُهم الَّتي فُطِروا عليها من التَّوحيدِ إلى الشِّركِ، ومِن اليقينِ إلى الشَّكِّ، ومِن قَبولِ الحقِّ والعملِ به إلى تركِه، والإعراضِ عنه، والتَّمرُّدِ عليه[2].

عن عبدِ اللهِ بن مسعود رضِي اللهُ عنه، قالَ: ((لعنَ اللهُ الواشِمَاتِ والمُتَوشِّماتِ[3]، والمُتَنَمِّصَات[4] والمُتَفَلِّجَاتِ للحُسْنِ[5]، المُغَيِّراتِ خَلْقَ اللهِ، فبلغَ ذلكَ امرأةً من بني أسدٍ يُقالُ لها: أمُّ يعقوبَ، فجاءَت فقالت: إنَّهُ بلغَني أنَّكَ لعَنْتَ كيْتَ وكيْتَ، فقالَ: وما ليَ لا ألعَنُ مَن لعنَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ومَنْ هوَ في كتابِ اللهِ، فقالت: لقدْ قرأتُ ما بينَ اللَّوحينِ، فمَا وجدْتُ

= وهو في هذا الموضع: قطعُ آذانِ البَحِيرة عند جميع أهل التَّفسير) ((التفسير الوسيط)) (٢/ ١١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٠٢-٥٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٤٠-٢٤١).

قال السعديُّ: (وذلك يتضمَّن التَّسخُّطَ من خِلقتِه، والقدحَ في حكمته، واعتقاد أنَّ ما يَصنعون بأيديهم أحسنُ مِن خِلقةِ الرَّحمن، وعدم الرِّضا بتقديره وتدبيره) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٠٢-٥٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٤٠-٢٤١).

(٣) الوَشْم: أن يُغرَزَ الجِلدُ بإبرة، ثم يُحشَى بكُحل أو نيل، فيَزرقَّ أثرُه أو يخضرَّ. وقد وَشَمَتْ تَشِمُ وَشْمًا فهي واشمةٌ. والمستوشِمة والموتشِمة: التي يُفعَل بها ذلِك. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ١٨٩).

(٤) النَّمْص: نتفُ الشَّعر. والنَّامِصَةُ: الَّتِي تَنْتِف الشَّعرَ مِن وجهِها. والمُتَنَمِّصَةُ: الَّتِي تأمُر مَن يَفْعل بِها ذلك. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٣/ ١٠٦٠)، ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ١١٩).

(٥) التفلُّج: التشقُّق، والفَلَج بالتحريك: فُرْجة ما بين الثنايا والرَّباعيات، والفرق: فُرجة بين الثنيتين. و(المتفلِّجات للحسن)، أي: النِّساء اللاتي يفعلن ذلك بأسنانهن؛ رغبةً في التحسين. يُنظر: ((القاموس المحيط)) للفيروزابادي (ص: ٢٠٢)، ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٤٦٨).

فيه ما تقولُ، قالَ: لئنْ كنتِ قرَأتِيهِ لقد وجَدْتِيهِ، أمَا قرأتِ: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾، قالتْ: بلى، قالَ: فإنَّه قدْ نهَى عنه، قالت: فإنِّي أرَى أهْلَكَ يفعَلونَهُ، قالَ: فاذْهَبي فانْظُرِي، فَذَهَبتْ فَنَظَرتْ، فلمْ تَرَ مِن حاجَتِها شيئًا، فقال: لو كانَتْ كذَلِك مَا جَامَعَتْنا))[1].

﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا حكَى عن الشَّيطانِ دَعاوِيَه في الإغواءِ والضَّلالِ، حذَّر النَّاسَ عن متابعتِه[2]، فقال:

﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.

أي: ومَن يجعَلِ الشَّيطانَ وليًّا لنفسِه، ونصيرًا دون الله تعالى، فيتَّبِعْه ويُطِعْه[3].

﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾.

أي: فقد هلَك في الدُّنيا والآخِرةِ هلاكًا ظاهرًا، يُبِينُ عن عطَبِه وهلاكِه، فيحصُلُ له الشَّقاءُ الأبديُّ، ويفُوتُه النَّعيمُ السَّرمديُّ[4].

﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (١٢٠)﴾.

﴿يَعِدُهُمْ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٤٨٨٦)، واللفظ له، ومسلم (٢١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٠٣-٥٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٤١-٢٤٢).
قال ابنُ جرير: (لأنَّ الشَّيطان لا يملِكُ له نصرًا من الله إذا عاقَبه على معصيته إيَّاه في خلافِه أمرَه، بل يخذُلُه عند حاجتِه إليه) ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٠٣- ٥٠٤).

أي: يعِدُ الشَّيطانُ أولياءَه بوعودٍ باطلةٍ لإضلالِهم؛ كأنْ يعِدَهم بأن يكونَ لهم نصيرًا ممَّن أرادهم بسوءٍ، وكأن يعِدَهم بأنَّهم إذا أنفَقوا في سبيلِ الله عزَّ وجلَّ افتقَروا، وإن جاهَدوا في سبيل الله تعالى قُتِلوا(1).

كما قال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

﴿وَيُمَنِّيهِمْ﴾.

أي: ويُرجِّيهم، ويَفتَحُ أمامَهم الآمالَ الكاذبةَ، والأمانيَّ الباطلةَ؛ كأنْ يُمنِّيَهم بالظَّفَرِ على أعدائِهم، وكأن يُمنِّيَهم بأنَّهم هم الفائزونَ في الدُّنيا والآخرةِ(2).

﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

أي: وما يعِدُ الشَّيطانُ أولياءَه إلَّا باطلًا، وأوهامًا خادعةً لا حقيقةَ لها(3).

فإنَّه إذا حَصْحَصَ الحقُّ، وصاروا إلى الحاجةِ إليه، قال لهم عدوُّ الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وكما قال للمُشركين ببدرٍ، وقد زيَّن لهم أعمالَهم: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ﴾ [الأنفال: ٤٨]، وحَصْحَصَ الحقُّ، وعايَن جِدَّ الأمرِ، ونزولَ عذابِ الله بحزبِه، ﴿نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨]، فصارَتْ عِداتُه إيَّاهم عند حاجتِهم إليه غرورًا، ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ

---

(1) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٤٢).

(2) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

(3) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾(١)[النور: ٣٩].

﴿أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا (١٢١)﴾.

﴿أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾.

أي: إنَّ هؤلاء الَّذين اتَّخذوا الشَّيطانَ وليًّا مِن دونِ الله تعالى، مصيرُهم الَّذي يَصِيرون إليه، ومآلُهم ومستقَرُّهم يومَ حسابهم: نارُ جهنَّمَ(٢).

﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾.

أي: ولا يَجِدون عن جَهنَّمَ ملجأً ولا مفرًّا، ولا خَلاصًا منها، بل هم خالِدون فيها(٣).

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا (١٢٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى ما للكفَّار ترهيبًا، أتبَعَه ما لغيرِهم ترغيبًا، فكما رتَّبَ تعالى مصيرَ مَن كان تابعًا لإبليس إلى النَّار؛ لإشراكِه وكفرِه، وتغييرِ أحكامِ الله تعالى، رتَّب هنا دخولَ الجنَّةِ على الإيمانِ وعملِ الصَّالحاتِ(٤)، فقال:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

أي: إنَّ المؤمنين باللهِ تعالى وملائكتِه وكُتُبِه ورسُلِه واليومِ الآخِرِ، والقَدَرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٤)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٣٤).

خيره وشرِّه، على الوجهِ الَّذي أُمِروا به؛ عِلمًا وتصديقًا وإقرارًا، الَّذين يعمَلون الأعمالَ الصَّالحة مِن واجباتٍ ومستحبَّاتٍ على القلب، واللِّسانِ، وبقيَّةِ الجوارحِ، يَعمَلونها خالصةً لله عزَّ وجلَّ، وعلى هَدْيِ رسولِه عليه الصَّلاة والسَّلامُ[1].

﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

أي: سوف يُدخِلُهم اللهُ تعالى يومَ القيامةِ- جزاءً لهم- دارَ النَّعيمِ، الَّتي فيها ما لا عينٌ رأَتْ، ولا أُذنٌ سمِعَتْ، ولا خطَرَ على قلبِ بشَرٍ، تَجري من تحت أشجارِها وقُصورِها أنهارٌ متنوِّعة[2].

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾.

أي: ماكثين فيها أبدًا، بلا زوالٍ ولا انتقالٍ[3].

﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾.

أي: هذا وعدٌ مِن الله تعالى واقعٌ لا محالةَ، لا كعِدَةِ الشَّيطانِ الكاذبةِ الَّتي وعَدَها أولياءَه[4].

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾.

أي: لا أحدَ أصدَقُ مِن الله تعالى قولًا وخبرًا[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٤-٢٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٤٧-٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٤-٢٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٠٥-٥٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٥١-٢٥٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٠٦-٥٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٥٢).

الفَوائِد التربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ فضيلة الصَّدَقةِ، وجهُ ذلك: أنَّه إذا كان الآمِرُ بالصَّدقةِ في أمرِه خيرٌ، ففاعلُ الصَّدقةِ مِن بابِ أَوْلى[1].

٢- فضيلةُ الأمر بالمعروف؛ حيث قرَنه اللهُ تعالى بالأمر بالصَّدقةِ؛ لقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ﴾[2].

٣- فضيلةُ الأمرِ بالإصلاحِ بين النَّاس؛ قال سبحانه: ﴿أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾[3].

٤- الإصلاحُ لا يكونُ إلَّا بين مُتنازِعَيْنِ مُتخاصِمَيْنِ، والنِّزاعُ والخِصامُ والتَّغاضُبُ يوجِبُ مِن الشَّرِّ والفُرقةِ ما لا يمكِنُ حصرُه؛ فلذلك حثَّ الشَّارعُ على الإصلاحِ بين النَّاسِ في الدِّماءِ والأموالِ والأعراضِ، بل وفي الأديانِ فقال الله تعالى: ﴿أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾[4].

٥- وجوبُ العناية بالإخلاصِ؛ فمع أنَّ هذه المذكوراتِ في قوله: ﴿أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ أعمالٌ في غاية الشَّرفِ والجلالةِ، والخيرَ وصفٌ ثابتٌ لها؛ لِمَا فيها من المنافعِ؛ ولأنَّها مأمورٌ بها في الشَّرعِ- إلَّا أن الثَّوابَ لا يحصُلُ إلَّا عن فعلِها ابتغاءَ مرضاةِ اللهِ، ولا ينتفعُ بها المرءُ إلَّا إذا أتى بها لوجه الله؛ فقال: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، فأمَّا إذا أتى بها للرِّياءِ والسُّمعةِ انقلَبَتْ فصارت مِن أعظمِ المفاسدِ. وأيضًا فكمالُ الأجرِ وتمامُه بحسَب النِّيَّةِ والإخلاص؛ فلهذا ينبغي للعبدِ أن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٢).

يقصِدَ وجهَ الله تعالى، ويُخلِصَ العملَ لله؛ ليحصُلَ له بذلك الأجرُ العظيمُ(١).

٦- أنَّ الإيمانَ وحده لا يكفي، بل لا بدَّ من عملٍ، وأنَّ العمَلَ وحده لا يكفي، بل لا بدَّ من إيمانٍ، فلا يستحقُّ الجنَّةَ إلَّا مَن جمَع بين الإيمانِ والعملِ الصَّالح، وإذا ذُكِرَ ثوابُ الجنَّةِ مقيَّدًا أو معلَّقًا بالإيمانِ وحده، فالمرادُ بذلك الإيمانُ المتضمِّنُ للعملِ الصَّالحِ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾(٢).

٧- أنَّ العملَ لا ينفَعُ صاحبَه إلَّا إذا كان صالحًا، والعملُ الصَّالحُ هو: الخالصُ الصَّوابُ، أي: ما ابتُغِيَ به وجهُ الله، وكان على شريعةِ الله؛ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾(٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قول الله تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ الصَّدقةُ، والمعروفُ، والإصلاحُ بين النَّاس، هذه الثَّلاثةُ لو لم تُذكَرْ، لدخَلَتْ في القليلِ من نجواهم، الثَّابتِ له الخيرُ، فلمَّا ذُكِرَتْ بطريقِ الاستثناءِ علِمْنا أنَّ نَظْمَ الكلام جرى على أسلوبٍ بديعٍ، فأخرج ما فيه الخيرُ مِن نجواهم ابتداءً بمفهومِ الصِّفة، ثمَّ أُريدَ الاهتمامُ ببعض هذا القليلِ مِن نجواهم، فأُخرِجَ مِن كثيرِ نجواهم بطريقِ الاستثناءِ، فبقي ما عدا ذلك مِن نجواهم- وهو الكثيرُ- موصوفًا بأنْ لا خيرَ فيه(٤).

٢- المعروفُ يَندرجُ تحته الصَّدقةُ والإصلاحُ، لكنَّهما جُرِّدا منه في قوله

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٠٠). ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٤٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٠٠).

تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾، واختصَّا بالذِّكر؛ لعِظَمِ أهميَّتِهما[١].

٣- الحِكمةُ في كونِ النَّجوى مظِنَّةَ الشَّرِّ في الأكثرِ، هي أنَّ العادةَ الغالبةَ وسُنَّةَ الفِطرةِ المتَّبَعة هي استحبابُ إظهارِ الخيرِ، والتَّحدُّثِ به في الملأِ، وأنَّ الشَّرَّ والإثمَ هو الَّذي يخفى، ويُذكَرُ في السِّرِّ والنَّجوى؛ لذا قال تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ﴾[٢].

٤- قوله: ﴿مَعْرُوفٍ﴾ المعروفُ هو الإحسانُ والطَّاعةُ، وكلُّ ما عُرِف في الشَّرعِ والعقلِ حُسْنُه، وإذا أُطلِق الأمرُ بالمعروف من غيرِ أن يُقرَنَ بالنَّهيِ عن المُنكَرِ، دخَل فيه النَّهيُ عن المُنكَر؛ وذلك لأنَّ تَرْكَ المنهيَّاتِ مِن المعروفِ، وأيضًا لا يتمُّ فعلُ الخيرِ إلَّا بتركِ الشَّرِّ، وأمَّا عند الاقترانِ فيُفَسَّرُ المعروفُ بفعلِ المأمورِ، والمُنكَرُ بتركِ المَنْهيِّ[٣].

٥- في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ بيانُ أنَّ هذه الأمورَ الثَّلاثةَ فيها خيرٌ، وإن فعَلها الإنسانُ مِن غيرِ استحضارِ نيَّةٍ، وجهُه: أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا نفى الخيرَ في كثيرٍ من النَّجوى استثنى هذه الثَّلاثةَ، ثمَّ قال: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[٤].

٦- أنَّه يصحُّ إطلاقُ الفعلِ على القولِ، وتؤخذُ مِن قوله: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾، مع أنَّ الَّذي حصَل أمرٌ بصدقةٍ أو معروفٍ أو إصلاحٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٣٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٢٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٧- في قوله: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أنَّه لا يَنبغي للإنسانِ أنْ يستعجِلَ الثَّوابَ؛ إذ قد يؤخِّرُ اللهُ الثَّوابَ لحكمةٍ؛ ﴿فَسَوْفَ﴾ دَالَّةٌ على التَّسويفِ، وهي تدلُّ أيضًا على التَّحقيقِ؛ ولهذا لا ينبغي استعجالُ ثوابِ اللهِ، وإجابةِ اللهِ تعالى للدُّعاء[(١)].

٨- عِظَمُ ثوابِ مَن فعَل ذلك ابتغاءَ وجهِ الله؛ لقوله: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾؛ لأنَّ تعظيمَ الشَّيءِ مِن العظيمِ يدلُّ على عظَمتِه[(٢)].

٩- تحريمُ مُشاقَّةِ الرَّسولِ، وأنَّها مِن كبائر الذُّنوب، وجهُه: أنَّه رتَّب عليها العقوبةَ، وهي: التَّخلِّي عنه، وصَلْيُه جهنَّمَ فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ...﴾[(٣)].

١٠- العُذْرُ بالجهل؛ لقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى﴾، فلو أنكَر الإنسانُ شيئًا ممَّا جاء به الرَّسولُ عليه الصَّلاة والسَّلام، وصار يُحاجُّ عليه، لكنَّه جاهلٌ، فإنَّه معذورٌ؛ لأنَّ الآيةَ صريحةٌ: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى﴾، ودلَّت الآيةُ أيضًا على أنَّه مع التَّردُّدِ لا تقومُ الحُجَّةُ، لكنْ على الإنسانِ أن يتبيَّنَ، فالذين لا يطلُبون التَّبيُّنَ، هم مُفرِّطون بلا شكٍّ، ولا يُعذَرون بجهلِهم[(٤)].

١١- أنَّ ما جاء به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فهو هُدًى ونورٌ، ويتبيَّنُ بأنْ يتأمَّلَ الإنسانُ ما جاء به الرَّسولُ عليه الصَّلاة والسَّلام من العباداتِ والأخلاقِ والمعاملاتِ وغيرِ هذا، فإذا تأمَّله بعِلمٍ وعدلٍ- يعني: كان مُنصِفًا- تبيَّن له

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٢٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٢٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٢٨).

الحقُّ، وعرَفَ أنَّ ما جاء به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هو الحقُّ؛ قال تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى﴾[1].

١٢- قول الله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ﴾، فيه دَلالةٌ على أنَّ الإجماعَ حُجَّةٌ؛ لأنَّه لا يُتوعَّدُ إلَّا على مخالَفةِ الحقِّ[2]؛ فالأمَّةُ إذا أجمَعَتْ على شيءٍ فإنَّه حقٌّ[3]، و﴿سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ مفردٌ مضافٌ، يشمَلُ سائرَ ما المؤمنونَ عليه من العقائدِ والأعمالِ، فإذا اتَّفقوا على إيجابِ شيءٍ أو استحبابِه، أو تحريمِه أو كراهتِه، أو إباحتِه- فهذا سبيلُهم؛ فمن خالَفهم في شيءٍ من ذلك بعد انعقادِ إجماعِهم عليه، فقد اتَّبَع غيرَ سبيلِهم[4].

١٣- مَن لم يُشاقِقِ الرَّسولَ، واتَّبعَ سبيلَ المؤمنين، بأن كان قصدُه وجهَ اللهِ، واتِّباعَ رسولِه، ولزومَ جماعةِ المسلمين، ثمَّ صدَر منه مِن الذُّنوبِ أو الهمِّ بها ما هو من مقتضياتِ النُّفوس، وغَلَبات الطِّباعِ، فإنَّ اللهَ لا يُولِّيه نفسَه وشيطانَه، بل يتدارَكُه بلُطفِه، ويمُنُّ عليه بحفظِه، ويعصِمُه من السُّوءِ، دلَّ على ذلك مفهومُ قولِه تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾[5].

١٤- قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ﴾، يدلُّ على أنَّه يجبُ الاقتداءُ بالرَّسولِ عليه الصَّلاة والسَّلام في أفعالِه؛ إذ لو كان فعلُ الأمَّةِ غيرَ فعلِ الرَّسول

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٢٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٤٠٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٢٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٣).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٠٢).

لزِم كونُ كلٍّ واحدٍ منهما في شقٍّ آخرَ مِن العمل، فتحصُلُ المُشاقَّةُ، لكنَّ المُشاقَّةَ محرَّمةٌ، فيلزَمُ وجوبُ الاقتداءِ به في أفعاله[1].

١٥- أنَّ سبيلَ المؤمنين طاعةُ الرَّسولِ عليه الصَّلاة والسَّلام؛ لأنه قال: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ﴾، ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، إذًا: سبيلُ المؤمنين هي عدمُ المُشاقَّة، وهو كذلك، وكلَّما كان الإنسانُ أقوى إيمانًا، كان أقوى اتِّباعًا لرسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[2].

١٦- في قول اللهِ تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى﴾ علَّقَ سبحانه الوعيدَ بمُشاقَّةِ الرسولِ واتِّباعِ غيرِ سَبيلِ المؤمنينَ، مع العِلم بأنَّ مُجرَّد مُشاقَّةِ الرسولِ تُوجِبُ الوعيدَ، ولكنْ هما متلازمانِ؛ فلهذا علَّقَه بهما، كما يُعلِّقُه بمعصيةِ اللهِ ورسولِه، وهما متلازمانِ أيضًا[3].

١٧- كرَّر اللهُ تعالى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ مرَّتينِ في هذه السُّورة، وكان بين الآيتين ذِكرُ قتلِ النَّفس، وقد قال أهلُ العلم: إنَّ قاتلَ النَّفس له توبةٌ، واستدلُّوا لذلك بأنَّ الله ذكَر قَتْلَ النَّفس بين آيتين كلتاهما تدلُّ على أنَّ ما سوى الشِّرك فاللهُ تعالى يغفِرُه[4].

١٨- قوله: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾، وفي الآية الأولى: ﴿فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾، فيؤخذُ مِن مجموعِ الآيتينِ أنَّ المشركَ مُفترٍ ضالٌّ، وهو كذلك؛ لأنَّ دَعْواه أنَّ لله شريكًا كذِبٌ وافتراءٌ عظيمٌ، وكونُه يَبني على هذه

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢١٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٣١).
(٣) ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٨/ ٣٤٤-٣٤٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٣٣).

الدَّعوى أن يُشرِكَ بالله ويطبق ذلك في عمله يكونُ هذا ضلالًا[1].

١٩- قول الله تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾، كنى بالدُّعاءِ عن العبادةِ؛ لأنَّ مَن عبَد شيئًا دعاه عند حوائجِه ومصالحه، وما أنسَبَ التَّعبيرَ لعبَّاد الأوثانِ عن العبادة بالدُّعاءِ، إشارة إلى أنَّ كلَّ معبودٍ لا يُدعى في الضَّروراتِ فيسمَع، فعابدُه أجهلُ الجَهَلةِ[2].

٢٠- أنَّ الطَّاعةَ تُسمَّى دُعاءً وعِبادةً؛ لقوله: ﴿وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾[3].

٢١- التَّحذيرُ مِن الانصياعِ لأوامرِ مَن لَعَنَه اللهُ؛ لأنَّ هذه الجملةَ في قوله: ﴿لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ كالتَّعليلِ لذَمِّهم حينما عبَدوا الشَّيطانَ[4].

٢٢- إثباتُ القولِ للشَّيطان، وأنَّه يقولُ كما أنَّه يفعَلُ أيضًا، وقد أخبَر النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه يأكل ويشربُ بشِماله؛ فهو يقولُ ويفعلُ ويُمَنِّي ويعِدُ ويضُرُّ[5].

٢٣- أنَّ نصيبَ الشَّيطانِ من عباد الله مفروضٌ، أي: مُقدَّرٌ لا بدَّ أن يكونَ؛ قال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾[6].

٢٤- أنَّ الشَّيطانَ أقسَم قَسَمًا مؤكَّدًا أن يُضِلَّ هؤلاء النَّصيبَ الَّذين فُرِضوا له، وهذا القَسَمُ له مدلوله، فيتفرَّعُ عليه أنَّه يجبُ علينا أن نحذَرَ مِن وساوسِ الشَّيطانِ؛ لأنَّها كلَّها ضلالٌ؛ لقوله: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ﴾[7].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٤٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٤٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٢٥- أنَّ هذا الإضلالَ الَّذي يقعُ مِن الشَّيطانِ لبني آدمَ مصحوبٌ بالأمنِيَّاتِ، بمعنى أنَّه يُدخِلُ عليهم الأمانيَّ، وأنَّهم ينالون خيرًا، وأنَّ المعاصيَ لا تضُرُّهم، وأنَّ التَّوبةَ قريبةٌ، وما أشبَهَ ذلك(١).

٢٦- قول الله تعالى: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾، بدأ بالأمرِ بالتَّبتيكِ، وإن كان مندرجًا تحت عمومِ التَّغييرِ لخَلقِ اللهِ؛ ليكونَ ذلك استدراجًا لِمَا يكونُ بعده من التَّغييرِ العامِّ، واستيضاحًا من إبليسَ طواعيتَهم في أوَّلِ شيءٍ يُلقيه إليهم، فيَعلَمَ بذلك قَبولَهم له، فإذا قبِلوا ذلك أمَرَهم بجميع التَّغييراتِ الَّتي يُريدُها منهم؛ كما يفعلُ الإنسانُ بمن يقصِدُ خداعَه: يأمُرُه أوَّلًا بشيءٍ سهلٍ، فإذا رآه قد قبِل ما ألقاه إليه من ذلك، أمَره بجميعِ ما يُريدُ منه(٢).

٢٧- قوله: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ﴾ بتقطيعِ آذانِها كالبحيرةِ والسائبةِ والوصيلةِ والحام، فنبَّه ببعضِ ذلك على جميعِه، وهو نوعٌ من الإضلالِ يقتضي تحريمَ ما أحلَّ الله، أو تحليلَ ما حرَّم الله، ويلتحقُ بذلك مِن الاعتقاداتِ الفاسدةِ، والأحكامِ الجائرةِ، ما هو مِن أكبرِ الضَّلال(٣).

٢٨- في قوله تعالى: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ أنَّ الأصلَ في تغيير خَلْقِ الله المنعُ؛ لأنَّه من أوامرِ الشَّيطانِ(٤).

٢٩- أنَّه لولا وعودُ الشَّيطانِ لَمَا عُنِيَ أولياؤُه بنَشْرِ مذاهِبِهم الفاسدةِ وآرائِهم وأضاليلِهم، الَّتي يَبتغون بها الرِّفعةَ والجاهَ والمال، وهؤلاء موجودون في كلِّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٤٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٢-٧٣).
(٣) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٤٤).

زمان، ويُعرَفون بمقاصدِهم، وقد دلَّ على هذا ما قبله، ولكنَّه ذكَرَه ليصِلَ به قولَه: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾(١).

٣٠- الأقوالُ الباطلةُ مَصدرُها وعْدُ الشَّيطانِ وتَمنِّيه؛ فإنَّ الشيطانَ يُمنِّي أصحابَها الظَّفَرَ بالحقِّ وإدراكَه، ويَعِدُهم الوصولَ إليه مِن غيرِ طريقِه؛ فكلُّ مبطلٍ له نصيبٌ من قول اللهِ تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾(٢).

٣١- في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ أنَّ مرجعَ الطَّائعينَ للشَّيطانِ جهنَّمُ، وأنَّه لا يمكِنُ أن يخرُجوا منها، ويكونُ ذلك على مَن أطاعوه طاعةً مُطلَقةً، أمَّا مَن أطاعوه في بعضِ المعاصي فإنَّ مذهبَ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ أنَّهم لا يُخلَّدون في النَّار، وإنَّما يُعذَّبون بقدر أعمالِهم، ثمَّ يُخرَجون من النَّارِ(٣).

٣٢- جوازُ الشَّهادة لكلِّ مؤمنٍ عمِل الصَّالحات بأنَّه يدخُلُ الجنَّةَ؛ لقوله تعالى: ﴿سَنُدْخِلُهُمْ﴾، ثمَّ قال: ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾، وهذا على سبيلِ العموم، فإنَّنا نشهَدُ لكلِّ مؤمنٍ عاملٍ للصَّالحاتِ أنَّه سيدخُلُ الجنَّةَ، لكن لا نُطبِّقُ الشَّهادةَ هذه على جميعِ أفراد العمومِ(٤).

٣٣- قول الله تعالى: ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ أكثَرَ مِن التَّأكيدِ هنا؛ لأنَّه في مقابلةِ وعدِ الشَّيطان، ووعدُ الشَّيطان موافِقٌ للهوى الَّذي طُبِعَتْ عليه النُّفوسُ، فلا تنصرِفُ عنه إلَّا بعُسرٍ شديدٍ(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٣٥١).
(٢) ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ١٠٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٤٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٥٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٤)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٣٤).

٣٤- قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾، فصدَق اللهُ العظيمُ الَّذي بلَغ قولُه وحديثُه في الصِّدق أعلى ما يكونُ؛ ولهذا لَمَّا كان كلامُه صِدقًا، وخبرُه حقًّا، كان ما يدلُّ عليه مطابَقةً وتضمُّنًا وملازمةً كلُّ ذلك مرادًا مِن كلامه، وكذلك كلامُ رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لكونه لا يُخبِر إلَّا بأمرِه، ولا ينطِقُ إلَّا عن وحيِه[1].

٣٥- قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾، والصِّدقُ المطلَق في قول الله هنا يقابِلُ الغُرورَ الخادِعَ، والأمانيَّ الكاذبةَ في قول الشَّيطانِ هناك! وشتَّانَ بين مَن يثِقُ بوعدِ اللهِ، ومَن يثِقُ بتغريرِ الشَّيطان[2]!

بَلاغةُ الآيات:

١- قوله: ﴿نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ فيه: التفاتٌ من الغَيبة في قوله: ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ﴾ إلى التَّكلُّم بقوله: ﴿نُؤْتِيهِ﴾- على قِراءة الجُمهورِ بالنُّونِ-؛ ليُناسِبَ ما بَعدَه من قولِه: ﴿نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ﴾، فيكون إسنادُ الثوابِ والعِقابِ إلى ضميرِ المتكلِّمِ العَظيمِ، وهو أبلغُ مِن إسنادِه إلى ضميرِ الغائبِ[3].

٢- قوله: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾: فيه عَطْفُ اتِّباعِ غَيْرِ سبيلِ المُؤمنينَ على مُشاقَّةِ الرَّسولِ في قوله: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى﴾ على سَبيلِ التَّوكيدِ والتَّشنيعِ، وإلَّا فمَن يُشاقِقُ الرَّسولَ هو متَّبِعٌ غيرَ سبيلِ المؤمنين ضرورةً، ولكنَّه بدأ بالأعظمِ في الإثم، وأَتْبَعَ بلازمِه توكيدًا، وفائدتُه أيضًا الحَيْطَة لحِفظِ الجامِعةِ الإسلاميَّةِ بعدَ الرسولِ؛ فقد ارتدَّ بعضُ العَرَبِ بعد

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٧٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٢٢) و(٤/ ٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٠٠).

الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فكانوا ممَّن اتَّبَعَ غيرَ سبيلِ المؤمنينَ ولم يُشاقُّوا الرَّسولَ [١].

٣- قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾: استئناف ابتدائيٌّ، جُعِل تمهيدًا لِمَا بعده مِن وصفِ أحوالِ شِركِهم [٢].

- وقوله: ﴿لَا يَغْفِرُ﴾، و﴿يَغْفِرُ... لِمَنْ يَشَاءُ﴾ فيه: تكرارٌ للتَّأكيدِ، والتَّشديدِ [٣].

- وقوله: ﴿يُشْرَكَ﴾، و﴿وَمَنْ يُشْرِكْ﴾ فيه: تكرارٌ [٤]، وهو يُفيدُ التَّأكيدَ.

- وقوله: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾: فيه تأكيدُ الخبرِ بحرف (قد)؛ اهتمامًا به؛ لأنَّ المواجَهَ بالكلامِ هنا المؤمِنون، وهم لا يَشكُّون في تحقُّقِ ذلك [٥].

٤- قوله: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ بيانٌ وتفصيلٌ بعدَ الإجمال في قوله: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [٦].

- قوله: ﴿إِلَّا إِنَاثًا﴾ إيرادُها بهذا الاسم؛ للتَّنبيهِ على فَرْطِ حماقةِ عَبَدتِها، وتَنَاهِي جهلِهم [٧].

- وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ عبَّر بصيغةِ «فعيل» ﴿مَرِيدًا﴾- أي: عاتيًا صُلْبًا عاصيًا ملازمًا للعِصيان- الَّتي هي للمُبالغةِ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٧) ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٩٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٠٢).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٢٠٣).

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٣٣).

سياقِ ذمِّهم؛ تنبيهًا على أنَّهم تَعبَّدوا لِمَا لا إلباسَ في شَرِّه[1].

٥- قوله: ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾: الجملةُ اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّر لِمَا قبلها؛ فقد دلَّ على أنَّ ما دعاهم إليه الشَّيطانُ: مِن تَبْتيكِ-أي: تَقطيع- آذانِ الأنعامِ، وتغييرِ خَلْقِ الله، إنَّما دعاهم إليه؛ لِمَا يقتضيه من الدَّلالةِ على استشعارِهم بشِعاره، والتَّديُّنِ بدعوتِه[2].

٦- قوله: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ استئنافٌ لبيانِ أنَّه أنجَز عزمَه، فوعَد ومنَّى وهو لا يزالُ يعِدُ ويُمنِّي؛ فلذلك جِيءَ بالمضارعِ[3].

- وجملة: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ﴾ تأكيدٌ لقوله: ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ﴾[4].

- وفيه تَكرارُ فِعْل ﴿يَعِدُهُمْ﴾[5]، وهو يُفيد التَّأكيدَ على كثرةِ وعودِه الكاذبةِ.

- وقوله: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾: فيه إظهارٌ لِلَفْظة ﴿الشَّيْطَانُ﴾ في موضعِ الإضمار، وكان مُقتضى السِّياقِ أن يقولَ: (وما يعِدُهم إلَّا غرورًا)، لكنَّه أظهرَ في مقام الإضمارِ؛ لإظهارِ عداوتِه؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾[6] [فاطر: ٦].

٧- قوله: ﴿أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾: جِيءَ باسم الإشارة ﴿أُولَئِكَ﴾؛ لتنبيه السَّامعين إلى ما يرِدُ بعدَ اسمِ الإشارةِ من الخبرِ، وأنَّ المشارَ إليهم جَديرونَ به

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٤٠٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٠٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٤٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٨).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٤٢).

عقِبَ ما تَقدَّم مِن ذِكرِ صِفاتهم[١].

٨- قوله تعالى: ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ﴾ فيه إسنادُ الفِعلِ إلى نونِ العظَمةِ؛ اعتناءً بأنَّه تعالى هو الَّذي يتولَّى إدخالَهم الجنَّةَ، وتشريفًا لهم[٢].

٩- قوله: ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾: كلمة ﴿حَقًّا﴾ مصدرٌ مؤكِّد لمضمونِ جملة: ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾؛ إذ هذا في معنى الوَعدِ، أي: هذا الوعدُ أُحقِّقُه حقًّا، أي: لا يتخلَّفُ[٣].

١٠- قوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾: الاستفهامُ فيه غَرضُه الإنكارُ، أي: لا أحدَ أصدقُ قولًا من اللهِ تعالى[٤].

- والجملةُ تذييلٌ للوعدِ، وتحقيقٌ له، وهي جملةٌ مؤكِّدةٌ بليغةٌ، وفائدةُ هذه التَّوكيداتِ معارَضَةُ مواعيدِ الشَّيطانِ الكاذبةِ لقُرنائِه بوعدِ اللهِ الصَّادقِ لأوليائِه، والمبالغةُ في تأكيدِه؛ ترغيبًا للعبادِ في تَحصيلِه[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٠٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٢-٧٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٤، ٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٠٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٠٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٠٧).

الآيات (١٢٣ - ١٢٦)

﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِأَمَانِيِّكُمْ﴾: الأمانيُّ: الأكاذيبُ، ومَا يتمنَّاه الإنسانُ ويَشتهيه أيضًا، والأُمْنِيَّة- وهي التِّلَاوةُ المُجرَّدة عن المعرفة- تَجري عند صاحِبِها مَجرَى أمنيَّةٍ متمنَّاة على التَّخمين(١).

﴿وَلِيًّا﴾: أي: نصيرًا، وأصل (وَلِيَ) يدلُّ على القُرْب، سواءٌ من حيث: المكانُ، أو النِّسبة، أو الدِّين، أو الصَّداقة، أو النُّصرة، أو الاعتقاد، وكلُّ مَن وَلِيَ أمرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه(٢).

﴿نَقِيرًا﴾: النَّقير: النُّقرة الَّتي في ظَهرِ النَّواة، ويُضرَبُ به المَثَلُ في الشَّيء الطَّفِيف، والنَّقر: قرعُ الشَّيء المُفضِي إلى النَّقب(٣).

﴿مِلَّةَ﴾: المِلَّة: الدِّين، والطَّريقة، ويعبَّر بها عن أُصولِ الشَّرائع، مشتقَّة مِن

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧- ٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٢- ٨٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٠).

أملَلْت (أي أملَيْت)؛ لأنَّها تُبنَى على مَسموعٍ ومتلوٍّ، فإذا أُرِيد الدِّينُ باعتبارِ الدُّعاءِ إليه قِيل: مِلَّة، وإذا أُريد باعتبارِ الطَّاعةِ والانقيادِ له قيل: (دِين)[1].

﴿خَلِيلًا﴾: أي: وليًّا، والخُلَّةُ: المودَّةُ، ونهايةُ المحبةِ التي تخلَّلتْ روحَ المحبِّ وقلبَه، حتى لم يبقَ فيه موضعٌ لغيرِ المحبوبِ، فلا تدعُ فيه خللًا إلَّا ملأتْه، وأصل (خلل): دِقَّة أو فُرْجَة[2].

﴿مُحِيطًا﴾: أي: عالِمًا، والإحاطةُ بالشَّيء هي العِلْم بوجودِه، وجِنسه، وقَدْره، وكيفيَّته، وغرَضِه المقصودِ به، وبإيجاده، وما يكون به ومِنه؛ وذلك ليس إلَّا لله تعالى[3].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾

﴿بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ الجارُّ والمجرورُ في محلِّ نصْبِ خبَرُ ﴿لَيْسَ﴾، واسم ﴿لَيْسَ﴾ مُضمَر، تقديرُه: (ذلِك)، يَعودُ على الجزاءِ المفهومِ مِن قَوْلِه: ﴿يُجْزَ بِهِ﴾، أي: ليس الجزاءُ تابعًا لأمانيِّ النَّاسِ ومُشتهاهم، بل هو أمْرٌ مُقَدَّرٌ مِن الله تعالى تقديرًا بِحَسَبِ الأعمالِ، وقيل: يعودُ المُضمَر على ﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾، أي: ليس يُنالُ ما وعدَ اللَّه من الثَّوابِ بِأَمانِيِّكُمْ وَلا بِأَمانِيِّ أَهْلِ الْكِتابِ، وقيل غيرُ ذلك[4].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٣-٧٧٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩١)، ((تفسير القرطبي)) (٥/ ٤٠٠)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٣٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٩، ٣٩٨).

(٣) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٦٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٩٥-٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٠٨).

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخاطب اللهُ المسلِمين قائلًا لهم: إنَّ حصولَ النَّجاة والظَّفَرِ ليس بمجرَّدِ تمنِّيكم لها، ولا هي حاصلةٌ لأهل الكتابِ بمجرَّدِ أمانيِّهم، فإنَّ مَن يعمَلُ سوءًا يُجازى عليه، ولا يجدُ له أحدًا مِن دون الله يواليه، أو ينصُرُه.

ومَن يعمَل الأعمالَ الصَّالحةَ، سواءٌ كان ذكرًا أم أنثى، وهو مؤمنٌ بالله ورسولِه، فأولئك يدخلون الجنَّةَ، ولا يُظلَمون شيئًا ولو قلَّ، حتَّى ولو مقدارَ النُّقرةِ الَّتي تكونُ على ظهر نواةِ التَّمرِ.

ثمَّ يخبِرُ تعالى أنَّه لا أحدَ أحسنُ دِينًا ممَّن أخلَص لله عزَّ وجلَّ، وهو متَّبعٌ شرعَ الله تعالى، واتَّبعَ دِينَ وطريقة إبراهيمَ عليه السَّلام، مائلًا عن الشِّركِ، مستقيمًا على التَّوحيدِ، واتَّخَذ اللهُ إبراهيمَ خليلًا.

ولله جميع ما في السَّموات والأرضِ، وقد أحاط عِلمُه بكلِّ شيءٍ سبحانه وتعالى.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٢٣)﴾

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾.

أي: لا يَحصُلُ لكم- أيُّها المسلِمون ولا لليهود والنَّصارى- النَّجاةُ والظَّفَرُ بمجرَّدِ تمنِّي ذلك[1].

ومِن أمانيِّ أهلِ الكتابِ الَّتي أخبَر اللهُ تعالى عنها، قولُهم: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٥٧-٢٥٨).

إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ [البقرة: ١١١].

﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾.

أي: إنَّ كلَّ مَن يعمَلُ منكم - أيُّها المسلمون أو مِن أهلِ الكتاب - سوءًا صغيرًا أو كبيرًا، فإنَّه يُجازى به، سواءٌ كان جزاءً قليلًا أم كثيرًا، دُنيويًّا، أم أُخرويًّا[1].

قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

وعن أبي هُريرةَ رضِي اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا نزلتْ: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ بلغتْ مِن المسلمين مَبلغًا شديدًا، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: قارِبوا وسدِّدوا؛ ففي كلِّ ما يصابُ به المسلمُ كفَّارةٌ، حتَّى النَّكبةِ[2] يُنكَبُها، أو الشَّوكةِ يُشاكُها))[3].

﴿وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

أي: ولا يَجِد الَّذي يَعمل سوءًا أحدًا سوى الله تعالى يَلِي أمرَه، ويُحصِّل له

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٥٨).

قال السعدي: (والناسُ في هذا المقام درجاتٌ لا يعلَمُها إلا اللهُ، فمستقلٌّ ومستكثِرٌ، فمن كان عملُه كلُّه سوءًا، وذلك لا يكون إلا كافرًا، فإذا مات من دون توبةٍ جُوزِيَ بالخلود في العذاب الأليم.

ومَن كان عملُه صالحًا، وهو مُستقيمٌ في غالبِ أحواله، وإنما يصدُرُ منه بعضَ الأحيانِ بعضُ الذُّنوب الصِّغارِ؛ فما يُصيبه من الهمِّ والغمِّ والأذى وبعضِ الآلام في بدنِه أو قلبِه أو حبيبه أو مالِه ونحو ذلك- فإنَّها مُكفِّراتٌ للذُّنوب، وهي ممَّا يُجزَى به على عملِه، قيَّضها اللهُ لُطفًا بعباده، وبَيْنَ هذين الحالينِ مراتبُ كثيرةٌ.

وهذا الجزاءُ على عملِ السُّوء العامِّ مخصوصٌ في غير التَّائبين؛ فإنَّ التَّائبَ مِن الذَّنبِ كمَن لا ذنبَ له؛ كما دلَّت على ذلك النصوصُ) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٥).

(٢) النَّكْبةُ: هي ما يُصِيبُ الإنسانَ مِنَ الحوادثِ. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ١١٣).

(٣) رواه مسلم (٢٥٧٤).

ما يطلبُه، ولا يجِد ناصرًا سوى الله تعالى ينصُرُه، ويدفَعُ عنه ما يحذَرُه[١].

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (١٢٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر الله تعالى الجَزاءَ على السَّيِّئاتِ، وأنَّه لا بدَّ أن يأخُذَ مستحَقَّها مِن العبدِ، إمَّا في الدُّنيا، وهو الأجود له، وإمَّا في الآخرةِ- شرَعَ في بيان إحسانِه وكرَمِه ورحمتِه في قَبولِ الأعمالِ الصَّالحة من عبادِه[٢]، فقال:

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾.

أي: ومَن يعمَلِ الأعمالَ الصَّالحة، قلبيَّةً كانت أو بدنيَّةً، مِن ذُكور العِبادِ وإناثهم، وهو مؤمنٌ بي وبرَسولي محمَّد[٣].

﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿يَدْخُلُونَ﴾ قِراءتان[٤]:

١- قِراءة ﴿يُدْخَلُونَ﴾ على البِناءِ لما لم يُسمَّ فاعلُه؛ لأنَّهم لا يَدخُلون الجنَّة حتَّى يُدخِلَهم اللهُ تعالى[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٢٥-٥٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٦١-٢٦٢).

(٤) قال ابن زنجلة: (اعلمْ أنَّ المعنيينِ متداخِلان؛ لأنهم إذا أُدخِلوا دَخَلوا، وإذا دخَلوا فبإدخالِ الله إيَّاهم يَدخُلون) ((حجة القراءات)) (ص: ٢١٣).

(٥) قرأ بها أبو بكر وأبو عمرو وابن كثير. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢١٩). =

٢- قراءة ﴿يَدْخُلُونَ﴾ بجَعْلِ الفِعل للدَّاخلين؛ لأنَّهم هم الدَّاخلون بأمرِ الله لهم[(١)].

﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾.

أي: فإنَّ أصحاب هذه المنزلة العالية الَّذين جمَعوا بين الإيمانِ والعمل الصَّالح إنَّما يدخُلون الجنَّة بإذنِ الله تعالى، ويُنعَّمون فيها[(٢)].

﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾.

أي: ولا يَنقُصُ اللهُ تعالى هؤلاء الَّذين يعمَلون الصَّالحاتِ من ثوابِ عملِهم ولا مقدارَ النُّقرةِ الَّتي تكونُ في ظَهر النَّواة؛ فكيف بما هو أعظمُ من ذلك وأكثرُ؟! فهو سبحانه إنَّما يُوفِّيهم أجورَهم كما وعَدَهم[(٣)].

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا (١٢٥)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّن الله تعالى أنَّ أمرَ النَّجاة- بل السَّعادة- منُوطٌ بالعملِ والإيمان معًا، وذكرَ ثوابَ المؤمنين- أعقَبه بتفضيلِ دِينهم، وبيانِ أنَّ صفوةَ الأديانِ الَّتي ينتحلُها النَّاسُ هي مِلَّةُ إبراهيمَ في إخلاصِ التَّوحيدِ، وإحسانِ العملِ، وهو الدِّين القيِّمُ،

= ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣١٨)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٩٧).

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢١٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣١٨). ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٥-٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٢٦-٥٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٦).

ودرجةُ الكمالِ في ذلك[١]، فقال:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾.

أي: لا أحدَ أصوبُ طريقًا، وأصلحُ عملًا ممَّن أخلَص للهِ عزَّ وجلَّ، وانْقادَ له بالطَّاعةِ[٢].

﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾.

أي: وهو مع هذا الإخلاصِ في العملِ، متَّبِعٌ شَرْعَ اللهِ تعالى فيه[٣].

﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾.

أي: واتَّبَع دِينَ وشَرْعَ إبراهيمَ عليه السَّلام، مائلًا عن الشِّركِ، وعن التَّوجُّهِ للخَلْق، مستقيمًا على التَّوحيدِ، مقبلًا بكُلِّيَّتِه على الخالقِ جلَّ وعلا[٤].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٢٨-٢٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢١٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٧٠).

(٤) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾.

أي: واتَّخَذ اللهُ إبراهيمَ وليًّا قد وصَل إلى غايةِ ما يتقرَّبُ به العبادُ له، وانتهى إلى درجة الخُلَّةِ، الَّتي هي أرفعُ مقاماتِ المحبَّةِ الخالِصةِ لله تعالى(١).

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا (١٢٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر الله تعالى الخُلَّة لإبراهيمَ، ذكَر أنَّه مع الخُلَّةِ عبدُ الله، وأنَّ الخُلَّة ليست لاحتياجٍ، كما تكون خُلَّةُ الآدميِّينَ، وكيف يُعقَلُ ذلك وله مُلكُ السَّمواتِ والأرض؟! وما كان كذلك، فكيف يُعقَل أن يكونَ محتاجًا إلى البشر الضَّعيفِ؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٧٠).

قال ابن كثير: (وإنَّما سُمِّي خليلَ الله لشدَّةِ محبَّةِ ربِّه عزَّ وجلَّ له؛ لِما قام به من الطَّاعةِ التي يحبُّها ويرضاها) ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٢٣).

وقال السعديُّ: (وإنَّما اتَّخذ اللهُ إبراهيمَ خليلًا؛ لأنَّه وفَّى بما أُمِر به، وقام بما ابتُلِي به؛ فجعَله الله إمامًا للناس) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٦).

وقال ابنُ عثيمين: (الخليل هو ذو المحبَّة الخالصة، وسُمي بذلك؛ لأنَّ المحبَّة شمِلت جميعَ جسده حتى تخلَّلَت عروقَه، وفي ذلك يقول الشاعر:

قَدْ تخلَّلْتَ مَسْلَكَ الرُّوحِ منِّي = وبِذَا سُمِّي الخَليلُ خَليلَا).

((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٧٠)، وينظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٣٠).

قال ابن جرير: (فإن قال قائلٌ: وما معنى الخلَّةُ الَّتي أُعْطِيَها إبراهيمُ؟ قِيل: ذلك مِن إبراهيمَ عليه السَّلام العداوَةُ في اللَّهِ والبغضُ فيه، والولايَةُ في اللَّهِ والحُبُّ فيه، على ما يُعْرَفُ مِن معاني الخلَّةِ. وأمَّا مِن اللَّه لإبراهِيمَ، فنصرتُه عَلى مَن حاوَله بسُوءٍ، كالَّذي فعَل به إذ أراده نمرُوذُ بما أرادَه به مِن الإحْراقِ بالنَّارِ، فأنقَذَه منها، وأعْلَى حجَّتَه عليه إذ حاجَّه، وكما فعل مِلكُ مِصرَ إذ أرادَه عن أهْلِه، وتمكينُه مِمَّا أحَبَّ، وتَصْييرُه إمامًا لمَن بعدَه مِن عِبادِه وقُدْوَةً لمَن خَلَفَه في طاعَتِه وعِبادَتِه، فذلك مَعْنى مُخالَّتِه إيَّاه). ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٢٩).

قال ابن تيمية: (والخلةُ هي كمالُ المحبَّة المستلزمةِ مِن العَبْدِ كَمالَ العُبوديَّة لله، ومن الربِّ سبحانَه كمالَ الربوبيةِ لعِبادِه الَّذين يُحِبُّهم ويُحِبُّونه). ((العبودية)) (ص: ١٠٧).

وإنما هي خُلَّةُ تشريفٍ منه تعالى لإبراهيمَ عليه السَّلام، مع بقائِه على العبوديَّة(١).

وأيضًا لَمَّا ذكَر الله تعالى الوعدَ والوعيدَ، ولا يُمكنُ الوفاءُ بهما إلَّا عند حصولِ أمرين: أحدهما: القدرةُ التَّامَّة المتعلِّقة بجميع الكائنات والمُمكِنات، والثَّاني: العِلم التَّامُّ المتعلِّق بجميع الجزئيَّات والكلِّيَّات حتَّى لا يشتبهَ عليه المُطيعُ والعاصي، والمُحسنُ والمسيءُ- دلَّ على كمال قدرتِه بقولِه: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، وعلى كمالِ عِلمِه بقولِه: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا﴾(٢).

وأيضًا لَمَّا تقدَّم ذِكرُ عامل السُّوء وعامِل الصَّالحات، أخبَر بعظيم مُلكه، وأنه المالكُ لجميعِ ما في السَّموات، وما في الأرض، والعالَمُ مملوكٌ له، وعلى المملوكِ طاعةُ مالكِه(٣)، فقال تعالى:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى هو الَّذي يملِكُ وحْدَه جميعَ ما في السَّمواتِ، وجميعَ ما في الأرضِ؛ فالجميعُ عبيدُه وخلْقُه، وهو المُتصرِّفُ فيهم، المُتفرِّدُ بتدبيرِهم(٤).

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٨)، ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٣١، ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٦).

قال ابن جرير: (يعني بذلك جلَّ ثناؤُه: واتَّخذ اللهُ إبراهيمَ خليلًا لطاعتِه ربَّه، وإخلاصِه العبادةَ له، والمسارعة إلى رِضاه ومحبَّته، لا من حاجةٍ به إليه وإلى خُلَّته، وكيف يحتاج إليه وإلى خُلَّته، وله ما في السَّمواتِ وما في الأرض من قليلٍ وكثيرٍ مُلكًا، والمالك الذي إليه حاجةُ مُلكِه دون حاجتِه إليه، فكذلك حاجةُ إبراهيم إليه، لا حاجته إليه، فيتَّخِذه من أجلِ حاجته إليه خليلًا، ولكنه اتخذه خليلًا؛ لمسارعتِه إلى رِضاه ومحبَّتِه، يقول: فكذلك فسارِعوا إلى رِضايَ ومحبَّتي لأتَّخِذَكم لي أولياءَ) ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٣٠).

أي: لا تَخفى عليه خافيةٌ، ولا يغِيبُ عن عِلمِه مثقالُ ذرَّةٍ في السَّمواتِ ولا في الأرضِ، ولا أصغرُ مِن ذلك ولا أكبرُ، قد أحاط بكلِّ شيءٍ عِلمًا وقُدرةً، وسمعًا وبصرًا، وتدبيرًا وغيرَ ذلك[1].

الفَوائد التربويَّة:

١- أبطَل اللهُ الأمانيَّ، وأثبَت أنَّ الأمرَ كلَّه معقودٌ بالعملِ الصَّالح، وأنَّ مَن أصلَح عملَه فهو الفائزُ، ومَن أساء عملَه فهو الهالك؛ قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾، فوجَب قطعُ الأمانيِّ، وحسمُ المطامعِ، والإقبالُ على العملِ الصَّالح[2].

٢- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾، الأعمالُ بدون الإيمان كأغصانِ شجرةٍ قُطِع أصلُها، وكبناءٍ بُنِي على موجِ الماءِ؛ فالإيمانُ هو الأصل والأساسُ والقاعدةُ الَّتي يُبنَى عليها كلُّ شيء، وهذا القيدُ ينبغي التَّفطُّنُ له في كلِّ عملٍ أُطلِقَ؛ فإنَّه مُقيَّدٌ به[3].

٣- أنَّ التَّمنِّيَ لا يُجدي شيئًا؛ لقوله: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾[4].

٤- الحذرُ مِن عقوبةِ الذُّنوبِ؛ فمِن النَّاسِ مَن يُعاقَبُ بذُنوبِه؛ إمَّا في الدُّنيا، وإمَّا في الآخِرَة؛ يُبيِّن ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٧٣-٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٥٨).

(٥) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٣١٥- ٣١٦).

٥- كلُّ ظالمٍ مُعاقَبٌ في العاجِلِ على ظُلْمِه قبلَ الآجِلِ، وكذلك كلُّ مُذنِبٍ ذنبًا، وهو معنى قوله تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾، وربما رأى العاصي سلامةَ بَدَنِه ومالِه، فظَنَّ أنْ لا عقوبةَ، وغَفْلَتُه عمَّا عُوقِبَ به عقوبةٌ(١).

٦- أنَّ المصائبَ في الدُّنيا كفَّارات؛ لأنَّها نوعٌ من الجزاء، وقد أخبر النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه ما من غمٍّ ولا همٍّ ولا حزنٍ يُصيب العبدَ إلَّا كُفِّر به عنه، حتَّى الشوكةُ إذا أصابَتْه فإنَّ اللهَ يُكفِّرُ بها عنه(٢)؛ قال تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾(٣).

٧- أنَّه لا بدَّ لقَبولِ العمل أن يكونَ صالحًا؛ لقوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾، فإن كان فيه شِرْكٌ لم يُقبَلْ؛ لفواتِ الشَّرطِ، وهو الإخلاصُ، ومَن عمِل عملًا مبتدَعًا بإخلاصٍ تامٍّ، لكن ليس على شريعةِ الرسولِ، فإنَّه لا يُقبلُ منه؛ لأنَّه على غيرِ الاتِّباعِ، فالله تعالى لا يَقبَلُ مِن العَملِ إلَّا ما كان خالصًا لوَجْهِه، مع متابَعَةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيه، وما عدَا ذلك فهو مردودٌ على عامِلِه؛ يُرَدُّ عليه أحوَجَ ما هو إليه هباءً منثورًا، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾(٤).

٨- يُرشِدُ قولُ الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾، إلى أنَّ كمالَ الإيمانِ لا يحصُلُ إلَّا عند تفويضِ جميعِ الأمورِ إلى الخالقِ، وإظهارِ التَّبرِّي مِن الحَولِ والقوَّة، ويُنبِّهُ على فساد طريقةِ مَن استعان بغيرِ الله تعالى(٥).

---

(١) ((صيد الخاطر)) لابن الجوزي (ص: ٦٥).

(٢) ينظر ما رواه البخاري (٥٦٤١) من حديث أبي سعيد الخدري، وأبي هريرة رضي الله عنهما.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٦٠).

(٤) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٠٥) و (٢/ ٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٦٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٢٩).

٩- الحثُّ على الإخلاص؛ لقوله: ﴿مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾[١].

١٠- الحثُّ على المتابعة للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾[٢].

١١- دلَّ قولُ الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ على أنَّ إبراهيمَ- عليه السَّلام- إنَّما كان بهذا المنصبِ العالي، وهو كونه خليلًا لله تعالى، بسببِ أنَّه كان عاملًا بتلك الشَّريعة، وذلك يُفيد التَّرغيبَ العظيمَ في هذا الدِّين، والعملَ بهذا الشَّرعِ للفوز بأعظمِ المناصِبِ في الدِّين[٣].

١٢- إحاطةُ الله تعالى بكلِّ شيء؛ لقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا﴾، ويترتَّب على هذه الفائدة فائدةٌ مسلكيَّةٌ مهمَّة، وهي أنه متى شعَرَتِ النَّفسُ أنَّ لله ما في السَّموات وما في الأرض، وأنَّه بكلِّ شيء محيطٌ، لا ينِدُّ شيءٌ عن عِلمِه ولا عن سلطانه- كان هذا باعثَها القويَّ إلى إفرادِ الله سبحانه بالألوهيَّةِ والعبادةِ، وإلى محاولةِ إرضائِه باتِّباعِ منهجه، وطاعةِ أمْره، وأورثَ النَّفسَ الخوفَ مِن اللهِ وخشيتَه ومراقبتَه؛ لأنَّك مهما كنتَ في أيِّ مكانٍ فاللهُ محيطٌ بك، ويعلَمُ حتَّى ما في قلبِك[٤].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ ذكَر المسلمينَ في الأمانيِّ؛ لقَصدِ التَّعميمِ في تفويضِ الأمورِ إلى ما حكَم اللهُ ووعَد، وأنَّ ما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٧٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٧١).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٣٠).
(٤) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٧٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٧٥).

كان خلافَ ذلك لا يُعتَدُّ به، وما وافقه هو الحقُّ، والمَقْصِد المهِمُّ هو قوله: ﴿وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ على نحو: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(١) [سبأ: ٢٤].

٢- مجرَّدُ الانتسابِ إلى أيِّ دينٍ كان، لا يُفيد شيئًا إن لم يأتِ الإنسانُ ببرهانٍ على صحَّة دعواه؛ فالأعمالُ تُصدِّقُ الدَّعوى أو تُكذِّبُها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾(٢).

٣- أنَّ في هاتينِ الآيتينِ ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ و﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ من العِبرة والموعظةِ ما يدُكُّ صروحَ الأمانيِّ ومعاقلَ الغرورِ، الَّتي يأوي إليها ويتحصَّنُ فيها الكُسالى والجُهَّال والفُسَّاق من المسلمينَ، الَّذين جعلوا الدِّين كالجنسيَّةِ السِّياسيَّة، وظنُّوا أنَّ الله العزيزَ الحكيمَ يحابي مَن يسمِّي نفسَه مسلِمًا، ويفضِّلُه على مَن يسمِّيها يهوديًّا أو نصرانيًّا بمجرَّد اللَّقَب، وأنَّ العبرةَ بالأسماءِ والألقابِ لا بالعِلم والعَمَل(٣).

٤- يُستفادُ من قوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ ..﴾ العَدْلُ بين المتخاصمينِ، حتَّى وإنْ كان أحدُهما على حقٍّ، والثَّاني على باطلٍ؛ فالواجبُ العدلُ، وأنْ يُحكَمَ لكلٍّ واحدٍ بما يستحقُّ، وجه ذلك: نفيُ كونِ الشَّيء بالأمانيِّ بالنِّسبة للمُسلمين واليهود والنَّصارى، ثمَّ إثبات أنَّ مَن عمل سوءًا جُوزيَ به، وهذا غايةُ العدلِ(٤).

٥- الباء في قوله: ﴿بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ للملابَسة، وليستْ للسَّببيَّة، أي: ليس الجزاءُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٠٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٣٥٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٥٩).

حاصلًا حصولًا على حسَبِ أمانيِّكم[١].

٦- دلَّ قولُه تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ على أنَّ مَن عمِل سوءًا سيُجزى به، ولكنَّ اللهَ تعالى قال في كتابه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، وهذا يدلُّ على أنَّ مَن عمِل سوءًا قد يغفِرُ اللهُ له. ويُجاب عن ذلك بأنَّ قوله ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ المرادُ به التَّهديدُ، وهو مِن بابِ الوعيدِ، والعفوُ عن الوعيدِ مِن بابِ الكرمِ، وهو مدحٌ وليس بذمٍّ[٢].

٧- أنَّ الإنسانَ لا يُجازى بأكثرَ ممَّا عمِل من السُّوء؛ لقوله: ﴿يُجْزَ بِهِ﴾، والباءُ هنا للعِوَضِ، أو للبدل، بخلاف مَن عمل حسنًا، فإنَّه يعطى أكثرَ؛ كما في آياتٍ أخرى[٣].

٨- أنَّ القرآنَ الكريم- كما وصَفه اللهُ عزَّ وجلَّ- مثاني، أي: تُثَنَّى فيه الأمورُ، فإذا ذُكِر المؤمنُ ذُكِر الكافرُ، وإذا ذُكِر جزاءُ الكافر ذُكِر جزاءُ المؤمن، وهكذا، قال تعالى ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾، وذلك بعد قوله: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾[٤]

٩- أنَّه لا فرقَ بين الرِّجالِ والنِّساءِ فيما يستحقُّون مِن الجزاء، ووجهُ الدَّلالة: قولُه: ﴿مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾، ثمَّ ذكَر الجزاء فقال: ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾[٥].

١٠- قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾ (مِن) الأُولى للتَّبعيض؛ لأنَّ كلَّ واحد لا يتمكَّنُ من عمل كلِّ الصَّالحات، وليس مُكلَّفًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٠٩).

(٢) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (٢/ ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٦٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٦٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٦٥).

بها[١]، وقيل «مِن» لبيان جنس العمل المبهَم، في قوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ﴾ فـ «من» هنا بيانيَّة[٢].

١١- في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ جواز الشهادة لكلِّ مَن عمل صالحًا وهو مؤمن أنَّه في الجنَّة؛ لأنَّ هذا خبر من الله، والله تعالى لا يُخلِف وعدَه[٣] لكن الشَّهادة على سبيلِ العمومِ لا التَّعيينِ.

١٢- قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾، لَمَّا كان المرادُ الإخلاصَ الَّذي هو أشرفُ الأشياءِ؛ عبَّر عنه بالوجه الَّذي هو أشرفُ الأعضاء[٤].

١٣- أحسنُ الدِّين هو هذا الإسلامُ- مِلَّة إبراهيم- وأحسنُ العمل هو الإحسان: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾[٥].

١٤- فضيلة إبراهيمَ عليه الصَّلاة والسَّلام؛ حيث أُمِرْنا باتِّباعِه، وهذا يعني:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٢٨)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٣٤).

(فإنْ قال لنا قائلٌ: وما وجهُ دخول «مِن» في قوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ [النساء: ١٢٤]، ولم يقُلْ: (ومَن يعمل الصالحات)؟ قيل: لدخولها وجهانِ: أحدهما: أن يكونَ اللهُ قد علم أن عبادَه المؤمنين لن يُطيقوا أن يعمَلوا جميعَ الأعمال الصَّالحات، فأوجب وعدَه لِمَن عمِل ما أطاق منها، ولم يحرِمْه مِن فضله بسبب ما عجَزَتْ عن عملِه منها قواه، والآخرُ منهما: أنْ يكونَ تعالى ذِكرُه أوجبَ وعدَه لِمَن اجتنَب الكبائر وأدَّى الفرائض، وإن قصَّر في بعض الواجب له عليه؛ تفضُّلًا منه على عبادِه المؤمنين؛ إذ كان الفضلُ به أولى، والصَّفحُ عن أهلِ الإيمان به أحرى، وقد تقوَّل قومٌ مِن أهل العربية أنَّها أُدخِلَتْ في هذا الموضعِ بمعنى الحذف، ويتأوَّله: ومَن يعمل الصالحاتِ مِن ذكرٍ أو أُنثى وهو مؤمن، وذلك عندي غيرُ جائز؛ لأن دخولَها لمعنًى، فغيرُ جائزٍ أنْ يكون معناها الحَذْفَ). ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٢٧-٥٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٦١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٦٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٤١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢١٠).

(٥) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٧٦٢).

أنَّه إمامٌ؛ ولهذا يُطلِق عليه العلماءُ اسمَ أو لقبَ: إمام الحُنفاءِ[١].

١٥- في قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ الإشارةُ إلى أنَّ الخُلَّة أعلى رتبةً من المحبَّة؛ لاختصاص إبراهيمَ ومحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليهما وسلَّمَ بها، ولو كانت بمعنى المحبَّة، أو في مرتبتِها، لكانت ثابتةً لجميع مَن يستحقُّ المحبَّةَ، ومِن المعلوم أنَّه لا يَصحُّ أن تقول: إنَّ الله اتَّخذ المؤمنين أخلَّاء؛ لأنَّ الخُلَّة خاصَّة، ومن ثَمَّ نعلم خطأً من يقول: إبراهيمُ الخليلُ ومحمَّدٌ الحبيب؛ لأنَّ هذا تنقُّصٌ للرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام؛ حيث أنزل مرتبتَه من الخُلَّة إلى المحبَّة الَّتي يشتركُ فيها حتَّى المؤمنُ المتَّقي المقسِط الصَّابر[٢].

١٦- إثباتُ أفعالِ الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾، والاتخاذ حادثٌ بعد وجودِ سببِه، فهو تبارَكَ وتعالى يفعَلُ ما يريدُ، ومتى شاء[٣].

١٧- خَتْمُ هذا السِّياقِ بهذه الآية: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا﴾ لفوائد: (إحداها): التَّذكير بقدرتِه تعالى على إنجاز وعدِه ووعيدِه في الآيات الَّتي قبلها؛ فإنَّ له ما في السَّموات والأرض خَلقًا ومُلكًا، وهو أكرم مَن وعَد، وأقدرُ مَن أوعد، (ثانيها): بيان الدَّليل على أنَّه المستحِقُّ وحده لإسلام الوجهِ له، والتَّوجُّهِ إليه في كلِّ حال، وهذا هو رُوحُ الدِّين وجوهرُه؛ لأنَّه هو المالكُ لكلِّ شيء، وغيرُه لا يملِكُ بنفسِه شيئًا، فكيف يتوجَّهُ العاقلُ إلى مَن لا يملِكُ شيئًا، ويترك التَّوجُّهَ إلى مالكِ كلِّ شيءٍ، أو يُشرِكُ به غيرَه في التَّوجُّهِ ولو لأجلِ قُربِه منه؟! (ثالثها): نفيُ ما قد يَسبِقُ إلى بعضِ الأذهان مِن اللَّوازم العاديَّة في اتِّخاذِ اللهِ إبراهيمَ خليلًا، كأن يتوهَّمَ أحدٌ أنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٧١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

هنالك شيئًا من المناسَبة أو المقارَبة في حقيقةِ الذَّات أو الصِّفات، فبيَّن تعالى أنَّ كلَّ ما في السَّموات والأرض مِلكٌ له، ومِن خَلقِه، مهما اختلفتْ صفاتُ تلك المخلوقات ومراتبُها في أنفُسِها، وبنسبة بعضِها إلى بعض(١).

١٨- قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا﴾، إفرادُ الله سبحانه بالألوهيَّة يُصاحبُه في القرآن كثيرًا إفرادُه سبحانه بالمُلك والهيمنة، والسُّلطان والقَهر؛ فالتَّوحيدُ الإسلاميُّ ليس مجرَّدَ توحيدِ ذاتِ الله، وإنَّما هو توحيدُ الفاعليَّةِ والتَّأثيرِ في الكون، وتوحيدُ السُّلطانِ والهيمنة أيضًا(٢).

١٩- عمومُ مُلكِ الله، ويؤخَذُ ذلك من ﴿مَا﴾ الموصولة في قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾؛ لأنَّ جميعَ أسماءِ الموصول تفيدُ العمومَ(٣).

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾: استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ للتَّنويهِ بفضائلِ الأعمال، والتَّشويهِ بمساويها(٤).

- وقوله: ﴿بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ و: ﴿وَلَا أَمَانِيِّ﴾ فيه: تَكرارٌ(٥)، وهو يُفيد التَّأكيدَ.

٢- قوله: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾

قوله: ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ زيادةُ تأكيدٍ؛ لردِّ عقيدةِ مَن

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٣٥٩).
(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٧٦٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٧٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٠٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٨).

يتوهَّم أنَّ أحدًا يُغني عن عذابِ الله[١]، مع ما يُفيده تكرارُ حرفِ النَّفي (لا) من التَّأكيدِ، وما تفيده صيغة فعيل (نصيرًا) من المبالغة.

- قوله: ﴿مَنْ يَعْمَلْ﴾، وقوله: ﴿ومن يَعْمَلْ﴾ فيه: تكرار[٢]، وهو يفيد التَّأكيد.

٣- قوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾.

- وبين قوله: ﴿ذَكَرٍ﴾، وقوله: ﴿أُنْثَى﴾ طِباقٌ يُفيدُ التَّعميمَ، أي: إنَّ المقصودَ البشرُ كلُّهم، بدون تحديد جِنسٍ معيَّنٍ[٣]، كما أنَّه يُبرِزُ المعنى ويوضِّحه.

- قوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ فيه: اختصاصٌ بذِكْر الإيمانِ[٤]؛ إذ الإيمانُ من الشُّروطِ الأساسيَّة لقَبول العمل.

٤- قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾

- قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا...﴾ الاستفهامُ إنكاريٌّ، أي: لا أحَدَ أحسنُ دِينًا مِمَّن فعل ذلك؛ فهو إنكارٌ واستبعادٌ لأنْ يَكونَ أحدٌ أحسنَ دِينًا ممَّن فعَلَ ذلك أو مُساويًا له[٥]. وفي هذا الاستفهامِ تنبيهٌ على أنَّ ذلك مُنتهَى ما تَبْلُغُه القُوَّةُ البشريَّةُ[٦].

- وقوله: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾: يُفيد الحصرَ، في أنَّه أسلَمَ نفْسَه لله سبحانه، وما أسلَمَ لغيره[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٠٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢١٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢١٠).
(٦) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٣٦).
(٧) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٢٩).

- وفيه كنايةٌ عن تمامِ الطَّاعةِ والاعترافِ بالعبوديَّة، وهو أحسنُ الكنايات؛ لأنَّ الوجهَ أشرفُ الأعضاء[1].

- قوله: ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ فيه: اختصاصٌ[2]؛ حيث خَصَّ مِلَّة إبراهيمَ بالاتِّباع؛ للدَّلالةِ على أحقِّيَّتِها بالاتِّباعِ مِن كلِّ ملَّة.

- وقوله: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾: جُملةٌ معترِضةٌ، لا محلَّ لها من الإعرابِ؛ فائدتُها تأكيدُ وجوبِ اتِّباعِ ملَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلام؛ لأنَّ مَن بلَغَ مِن الزُّلْفَى عند اللهِ أنِ اتَّخذه خليلًا، كان جديرًا بأنْ تُتَّبَعَ مِلَّتُه وطريقتُه[3].

وقيل: إنَّ هذه الجملةَ ليستْ اعتراضيَّةً[4]، بل هي معطوفةٌ على الجُملةِ الاستفهاميةِ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ...﴾ التي معناها الخبرُ- لا أحدَ أحسنُ دِينًا ممَّن أسلمَ وجهَه لله- نَبَّهَتْ على شرفِ المتبوعِ، وأنَّه جديرٌ بأنْ يُتَّبع؛ لاصطفاءِ اللهِ له بالخُلَّة، وعلى فوزِ المتَّبع له[5].

- وفيه: إظهارُ اسمِ إبراهيمَ عليه السَّلام في موقعِ الإضمار؛ لتفخيمِ شأنِه، والتَّنصيصِ على أنَّه الممدوحُ، وتأكيدِ استقلالِ الجملةِ الاعتراضيَّة[6].

٥- قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: جملةٌ تذييليَّةٌ مبتدَأةٌ، سِيقَت لتقرير وجوبِ طاعةِ الله تعالى على أهلِ السَّموات والأرض[7].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢١٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٦٩)، ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٣٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٣٣٠).
(٤) قالوا: لأنَّ الاعتراضَ المصطلحَ عليه في النَّحو لا يُعترض به إلاَّ بَين مُفتقرينِ كصلةٍ وموصول، وشرطٍ وجزاءٍ، وقَسَم ومُقسَمٍ عليه، وتابع ومتبوع، وعامل ومعمول. وهذه الجملة ليستْ كذلك.
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٧- ٧٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٩٨- ٩٩).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٣٦).
(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٣٧).

- وإنَّما قال: ﴿مَا﴾، ولم يقُل (مَن)؛ لأنَّه ذهَب مَذهَبَ الجنسِ، والَّذي يعقِلُ إذا ذُكِر وأُريد به الجنسُ ذُكر بـ: (ما)(١).

- وفيه اختصاصُ مُلك ما في السَّموات والأرض باللهِ عزَّ وجلَّ، ويُؤخَذ ذلك مِن تقديمِ الخَبر ﴿وَلِلَّهِ﴾؛ لأنَّ تقديمَ ما حقُّه التَّأخيرُ، يفيدُ الحصرَ(٢).

- وهو كالاحتراسِ على أنَّ الخُلَّة ليستْ كخُلَّة النَّاسِ المقتضيةِ المساواةَ أو التَّفضيلَ(٣)، أو التي تقتضي الحاجةَ؛ فإنَّ لِلَّهِ ما في السَّموات وما في الأرض، فالكلُّ خَلْقُه وعبيدُه ومُلكه.

٦- **قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا﴾**: تذييلٌ مقرِّرٌ لمضمونِ ما قبله على الوجوهِ المذكورةِ(٤)، مع ما فيه مِن المبالغةِ في الاتِّصافِ بالعِلمِ بِالشَّيْءِ مِن جميعِ جِهاته(٥)، وما تَضمَّنه من التَّهديدِ والوعيد لِمَن خالَف أمْرَ المحيطِ بكلِّ شيءٍ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٣٢).

(ويحتمل أنَّه أتى بـ ﴿مَا﴾؛ ليعمَّ بذلك الأشخاصَ والأوصاف؛ لأنَّ تَعيينَ «مَن» للعقلاء و﴿مَا﴾ لغير العقلاء إنَّما هو في الأعيانِ، لكنَّ ﴿مَا﴾ للأعيانِ والأوصاف). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٧٢-٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٣٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٨).

الآية (١٢٧)

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا (١٢٧) ﴾.

غَريبُ الكَلمات:

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ﴾: يَسألُونَك الفُتيا وبيانَ الحُكم؛ يُقال: استفتيتُ عن كذا، إذا سألتَ عن الحُكْمِ، وأفتى الفقيهُ في المسألِةِ، إذا بَيَّن حُكمَها، والفُتيا والفَتوى: الجوابُ عمَّا يُشكِلُ من الأحكام، وأصل (فتي): تبيينُ حُكمٍ[١].

﴿بِالْقِسْطِ﴾: أي: بالعدلِ، وأصل القِسط يَدلُّ على مَعنيينِ مُتضادَّيْنِ: العَدلِ، والجَوْرِ؛ يُقال: أَقْسَط: إذا عدَل، وقَسَط: إذا جارَ[٢].

مُشكِلُ الإعراب:

قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ﴾.

﴿وَمَا يُتْلَى﴾: ﴿ما﴾ اسمٌ موصولٌ بمعنى الذي، وهو مبنيٌّ في محلِّ رفْع، على أنَّه معطوفٌ على ضَميرِ الفاعِلِ في ﴿يُفْتِيكُمْ﴾ العائِدِ على اللهِ تعالى، والتقديرُ: اللهُ يُفتيكم فِيهنَّ والمتلوُّ في الكِتابِ. وقيل غيرُ ذلك[٣].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٣، ٤٧٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٠).

(٣) وممَّا قيل في محلِّ إعراب ﴿مَا﴾: إنَّه عطفٌ على الضميرِ المجرور بـ﴿فِي﴾، أي: يُفْتيكم =

﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ﴾: مجرورٌ على أنَّه مَعطوفٌ على ﴿يَتَامَى النِّسَاءِ﴾، أي: ما يُتلى عليكم في يَتامَى النِّساء وفي المستضعَفين. وقيل: إنَّه في موضعِ جرٍّ، لكنَّه معْطوفٌ على المجرور في ﴿فِيهِنَّ﴾، وهذا مِن بابِ العَطفِ على الضَّمير المجرورِ من غيرِ إعادة الجارِّ. وقيل: إنَّه في مَوضِعِ نصبٍ عَطفًا على مَوضِعِ ﴿فِيهِنَّ﴾، والتَّقدير: ويُبيِّن لكم حالَ المُستضعَفين، وقيل غيرُ ذلك[1].

﴿وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ﴾ ﴿وَأَنْ تَقُومُوا﴾ مصدرٌ مؤولٌ، وهو معطوفٌ على ﴿يَتَامَى النِّسَاءِ﴾، والتقدير: ما يُتلى عليكم في يَتامَى النِّساء، وفي المستضعفينَ، وفي القيامِ لليتامَى بالعَدْلِ، ويجوزُ أَنْ يكونَ ﴿وَأَنْ تَقُومُوا﴾ منصوبًا بإضمارِ (يأمُرُكم)، أي: ويأمُرُكم أن تَقوموا، وهو خِطابٌ للأئمَّة بأَنْ ينظُروا إليهم، ويَسْتَوفوا لهم حُقوقَهم، ولا يَدَعُوا أحدًا يَهْتَضِمُ جانِبَهم[2].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قائلًا له: إنَّ أصحابَك يسألونَك عن أحكامِ النِّساءِ، فقُلْ لهم: إنَّ اللهَ يُفتيهم فيما سأَلوا عنه من أحكام النِّساء، ويُفتيهم سبحانه وتعالى أيضًا بما يُتلى عليهم في القرآن في شأنِ اليَتيمات اللَّاتي هنَّ تحتَ وِلايتِهم، فيَظلِمونَهنَّ بمَنْعِهنَّ مِن أخذِ ميراثِهنَّ، أو بمَنْعِهنَّ مِن التَّزوُّجِ؛ لينتفِعوا بأموالِهنَّ، أو بالأخذ من مهورهنَّ الَّتي تزوَّجْنَ بها، أو بغَير ذلك، وهذا في

= فيهنَّ وفيما يُتْلى، اختاره وصحَّح معناه أبو حيَّان، وضَعَّف هذا الوجهَ الزمخشريُّ والسَّمينُ الحلبي وغيرُهما؛ لاختلالِه من حيثُ المعنى؛ لأنَّه ليس المرادُ أنَّ اللهَ يُفتيكم في شأنِ ما يُتْلى عليكم في الكتاب. ينظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٧٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٨٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٠١- ١٠٢).

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٠٩)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٩٣-٣٩٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٠٠-١٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٧٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٦٦).

حالةِ رَغبتِهم عنهنَّ، أو يرغبون فيهنَّ، ويريدون نِكاحهنَّ لجمالهنَّ ومالهنَّ، مع عدمِ إعطائهنَّ حقوقهنَّ مِن المهرِ كاملةً، كما يُفتيهم جلَّ وعلا في شأن المستضعَفين من الوِلدان الصِّغار، ومنه أن يعطوهم حقَّهم من الميراث وغيرِه، وألَّا يستولُوا على أموالهم ظُلمًا وعدوانًا، وأن يعدِلوا مع اليتامى عدلًا تامًّا، ثمَّ أخبر سبحانه أنَّ ما يفعلونه من خيرٍ فإنَّ اللهَ كان به عليمًا، وسيَجزيهم عليه أتمَّ الجزاءِ.

تفسير الآية:

﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا (١٢٧)﴾.

سببُ النُّزول:

عن عُرْوةَ بنِ الزُّبَيرِ، أنَّه سَأَلَ عائِشَةَ رضِي اللهُ عنها، عن قولِ اللهِ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى، فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾، قالتْ: يا ابنَ أُختي، هي اليتيمةُ تكونُ في حَجْرِ وليِّها تُشارِكه في مالِه، فيُعجبه مالُها وجمالُها، فيُريد وليُّها أنْ يَتزوَّجَها بغيرِ أنْ يُقسِطَ في صَدَاقِها، فيُعطيها مِثلَ ما يُعطيها غيرُه، فنُهوا أنْ يَنكحوهنَّ إلَّا أنْ يُقسِطوا لهنَّ، ويَبْلُغوا بهنَّ أعْلَى سُنَّتِهنَّ مِن الصَّدَاق، وأُمروا أنْ يَنكحوا ما طابَ لهم مِن النِّساء، سواهنَّ، قال عُروةُ: قالتْ عائشةُ: ثمَّ إنَّ الناسَ استَفْتَوا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بعد هذه الآيةِ فيهنَّ، فأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ، وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾، قالتْ: والَّذي ذَكَرَ اللهُ تعالَى أنَّه يُتْلَى عليكم في الكِتابِ: الآيةُ الأُولَى الَّتي قال اللهُ فيها: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى، فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾، قالتْ عائِشَةُ: وقَوْلُ اللهِ في الآيةِ

الأُخْرَى: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾، رَغْبة أحَدِكم عَنِ اليَتِيمَةِ الَّتي تكونُ في حَجْرِه، حِينَ تكونُ قَلِيلَةَ المالِ والجَمالِ، فَنُهُوا أنْ يَنْكِحوا ما رَغِبوا في مالِها وجَمالِها مِنْ يَتامَى النِّساءِ إلَّا بِالقِسطِ؛ مِن أَجْلِ رَغْبَتِهم عنهُنَّ[1].

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر اللهُ سبحانه في أوَّلِ هذه السُّورة أنواعًا كثيرةً من الشَّرائع والتَّكاليف، ثمَّ أتبَعها بشرحِ أحوالِ الكافرين والمنافقين، واستقْصَى في ذلك، ثمَّ ختَم تلك الآياتِ الدَّالَّةَ على عظَمةِ جلالِ اللهِ وكمالِ كِبريائِه- عاد بعد ذلك إلى بيانِ الأحكام[2]، فقال:

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٢٤٩٤)، ومسلم (٣٠١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٣٣)، وقال في (١١/ ٢٣٢): (اعلَمْ أنَّ عادةَ اللهِ في ترتيب هذا الكتابِ الكريم وقَعَ على أحسنِ الوجوه، وهو أنه يذكُرُ شيئًا من الأحكام، ثم يذكُرُ عَقِيبه آياتٍ كثيرةً في الوعد والوعيد، والتَّرغيب والتَّرهيب، ويخلط بها آياتٍ دالَّةً على كبرياء الله وجلالِ قدرتِه، وعظَمة إلهيَّته، ثم يعود مرةً أخرى إلى بيان الأحكام، وهذا أحسنُ أنواع التَّرتيب، وأقربها إلى التَّأثير في القلوبِ؛ لأنَّ التَّكليفَ بالأعمال الشَّاقَّةِ لا يقعُ في موقع القَبولِ إلا إذا كان مقرونًا بالوعدِ والوعيد، والوعدُ والوعيد لا يؤثِّر في القلب إلا عند القطعِ بغاية كمالِ مَن صدَر عنه الوعدُ والوعيد، فظهَر أن هذا التَّرتيَب أحسنُ التَّرتيبات اللَّائقةِ بالدَّعوةِ إلى الدِّين الحقِّ).

وقال سيِّد قطب: (هذا الدَّرس تكملةٌ لِما بدأت به السُّورةُ من علاج رواسبِ المجتمع الجاهليِّ، فيما يختص بالمرأة والأسرة، وفيما يختص بمعاملة الضِّعاف في المجتمع؛ كاليتامى والأطفال، وتنقية المجتمع المسلم مِن هذه الرَّواسب، وإقامة البيت فيه على أساسٍ مِن كرامة شَطْرَيِ النَّفس الواحدة، ورعاية مصالحهما معًا، وتقوية روابط الأسرة، وإصلاح ما يشجُرُ في جوِّها من خلاف، قبلِ أن يستفحلَ فيؤدِّيَ إلى تقطيعِ هذه الرَّوابط، وتحطيم البيوت على مَن فيها، وبخاصة على الذُّرِّية الضَّعيفة النَّاشئة في المحاضن، وإقامة المجتمع كذلك على أساسٍ من رعاية الضِّعاف فيه؛ كيلا يكون الأمرُ للأغلب، وتكونَ شريعةُ الغَابِ هي التي تتحكم! وهذا الدرسُ يعالج بعضَ هذه الشُّؤون، ويربطها بنظامِ الكون كله، ممَّا يشعُرُ معه المخاطَبُ بهذه الآياتِ أنَّ أمر النِّساء والبيوت والأُسرة والضِّعاف في المجتمع، هو أمرٌ خطيرٌ كبير، وهو في حقيقتِه أمرٌ خطير كبير). ((في ظلال القرآن)) (٢/ ٧٦٥).

أي: ويسألُك أصحابُك- يا محمَّدُ- أنْ تُفتيَهم في أحكامِ النِّساءِ(١).

﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾.

قُلْ لهم- يا محمَّدُ-: اللهُ يفتيكم في النِّساء(٢).

ثمَّ خَصَّ سبحانه بعد التَّعميم، الوصيَّةَ بالضِّعاف من اليتامى والوِلدان؛ اهتمامًا بهم، وزجرًا عن التَّفريط في حقوقِهم، فقال(٣):

﴿وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾.

أي: ويُفتيكم أيضًا بِما يُتلَى عليكم في القُرآنِ(٤) في شأنِ اليتامى مِن النِّساءِ اللَّاتي تحتَ ولايتِكم، فتبخَسونهنَّ حقَّهنَّ، وتَظلِمونهنَّ بمَنْعِهنَّ مِن أخْذِ ميراثِهنَّ، أو بمَنْعِهنَّ مِن التَّزوُّجِ؛ لتنتفِعوا بأموالِهنَّ خوفًا من استخراجِها من أيديكم إنْ تزوَّجْنَ، أو بالأخذ من مهورهنَّ الَّتي تزوَّجْنَ بها، أو بغير ذلك، وهذا في حالةِ رَغبتِكم عنهنَّ، أو تَرغبون فيهنَّ لجمالهنَّ ومالهنَّ، ولكن تُعطونهنَّ مِن المهرِ دون ما يستحِقْنَ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٦).

(٤) قال ابن عاشور: (وقوله: ﴿وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ عطفٌ على اسم الجلالة، أي: ويُفتيكم فيهنَّ ما يُتلى عليكم في الكتاب، أي القرآن، وإسنادُ الإفتاءِ إلى ما يُتلى إسنادٌ مجازيٌّ؛ لأنَّ ما يُتلى دالٌّ على إفتاءِ اللهِ، فهو سببٌ فيه، فآلَ المعنى إلى: قل الله يُفتيكم فيهن بِما يتلى عليكم في الكِتابِ) ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢١٣)، وينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٣٧-٢٣٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٧٧).

﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ﴾.

أي: ويُفتيكم اللهُ عزَّ وجلَّ، ويُفتيكم ما يُتلى عليكم في القُرآنِ، في شأنِ المستضعَفين من الوِلدانِ الصِّغار، ومن ذلك وجوبُ إعطائِهم حقَّهم من الميراث وغيرِه، وألا تستولُوا على أموالهم ظُلمًا وعُدوانًا[1].

﴿وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ﴾.

أي: ويُفتيكم اللهُ عزَّ وجلَّ، ويُفتيكم ما يُتْلَى عليكم في القُرآن، في أن تقوموا بالعدلِ التَّامِّ مع اليتامَى، ومن ذلك إعطاؤُهم فرائضَهم على ما قَسَم اللهُ تعالى لهم في كتابِه، ومِن ذلك القيامُ عليهم بإلزامِهم بحقوق الله عزَّ وجلَّ على عباده، والقيامُ عليهم في مصالحِهم الدُّنيويَّة[2].

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾.

أي: ومهما يكُنْ منكم- أيُّها المؤمنون- من عدلٍ في أموال اليتامى الَّتي أمَرَكم اللهُ تعالى أنْ تقوموا فيهم بالقِسطِ، والانتهاءِ إلى أمرِ الله في ذلك، وفي غيره- فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ عالمٌ به، ومُحصٍ ذلك كلَّه، وحافظٌ له، وسيجزيكم عليه أوفرَ الجزاءِ وأتمَّه[3].

الفوائد التَّربويَّة:

١- قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾، فهو غيرُ مجهولٍ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٧٧-٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٤٧-٥٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٧٨-٢٨٠).

وهو غيرُ ضائع، وهو مُسجَّلٌ عند الله، ولن يَضِيعَ خيرٌ سُجِّل عند الله، وهذا هو المرجعُ الأخير الَّذي يعُودُ إليه المؤمنُ بعمله، والجهةُ الوحيدة الَّتي يتعامَلُ معها في نيَّتِه وجهدِه؛ وقوَّةُ هذا المرجعِ وسلطانُه، هي الَّتي تجعَلُ لهذه التَّوجيهاتِ ولهذا المنهجِ قوَّتَه وسلطانَه في النُّفوسِ، وفي الأوضاعِ، وفي الحياة[1].

٢- أنَّ كلَّ ما عمِلْناه من خيرٍ، قليلًا كان أو كثيرًا، فإنَّ الله يعلَمُه، ويترتَّب على هذه الفائدة: الحذرُ من الإخلالِ بالواجب؛ لأنَّه إذا كان يعلَمُ الخير الَّذي نعمَلُه، فهو يعلَمُ أيضًا ما لا نعمَلُه من الخيرِ؛ قال تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾[2].

٣- الحثُّ على الخيرِ؛ لأنَّك إذا علِمْتَ أنَّ الله يعلَمُه، وأنَّه سيجازيك عليه، نشِطَتْ وقوِيَتْ همَّتُك لفعلِه؛ قال جلَّ وعلا: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾[3].

الفوائد العلميَّة واللَّطائف:

١- في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ لفتةٌ لها قيمتُها الَّتي لا تُقدَّرُ، في لُطفِ الله سبحانه، وتكريمِه للجماعةِ المسلِمة، وهو يخاطبُها بذاتِه، ويرعاها بعينِه، ويفتيها فيما تستفتي، وفيما تحتاجُ إليه حياتُها الجديدة، وقد تناولت الفتوى هنا تصويرَ الواقعِ المُترسِّبِ في المجتمع المسلم من الجاهليَّةِ الَّتي التقَطَه المنهجُ الرَّبَّانيُّ منها،كما تناولتِ التَّوجيهَ المطلوبَ لرفع حياةِ المجتمع المسلم وتطهيرِها من الرَّواسبِ[4].

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٧٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٨٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٧٦٦).

٢- حِرصُ الصَّحابة رضِي اللهُ عنهم على معرفةِ الأحكام الشَّرعيَّة؛ لقوله: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ﴾[١].

٣- اعتناء الصَّحابةِ بشأنِ النِّساء، بل واعتناءُ الله عزَّ وجلَّ فوق ذلك بشأنهنَّ؛ لقوله: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾؛ فالمستفتي الصَّحابةُ، والمفتي هو الله عزَّ وجلَّ، والواسطةُ بين المستفتي والمفتي هو الرَّسولُ عليه الصَّلاة والسَّلام[٢].

٤- الرُّجوعُ إلى ما في كتابِ الله عزَّ وجلَّ، وأنَّ ما في الكتابِ من الفتوى صادرٌ من عند الله؛ لقوله: ﴿وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ وهو كذلك؛ لأنَّ الكتابَ منزَّلٌ من الله عزَّ وجلَّ، هو الَّذي تكلَّمَ به وأنزَله على محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، وأمَره أن يُبلِّغَه النَّاسَ، وهو نفسُه تبارك وتعالى تكفَّل ببيانِه[٣].

٥- في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ﴾ العناية بالنِّساء عمومًا، والعناية بيتامى النِّساء، وهذا أخصُّ؛ لأنَّ يتيمةَ النِّساءِ اجتمعَ في حقِّها الضَّعفُ من حيث الجنسُ؛ فجنسُ النِّساء أضعفُ من الرِّجالِ، والضَّعفُ من حيث فَقْدُ العائلِ، وهو الأبُ؛ فلهذا أوصى اللهُ بها بعنايةٍ[٤].

٦- جبروتُ أهل الجاهليَّة؛ وشدة ظُلمهم ليَتامَى النِّساء، بحيث لا يُؤتونهنَّ ما كُتِبَ لهنَّ، ويتحكَّمونَ فيهنَّ وفي مصيرهنَّ؛ لقوله: ﴿اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٨١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٧- أنَّ مهرَ المرأةِ مفروضٌ لها؛ لقوله: ﴿مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ﴾ [النِّساء: ٤]، وعلى هذا فصاحبُ المهرِ هو المرأةُ، وليس وليَّ المرأةِ، ولو كان أباها، فالمهرُ إليها؛ تقديرُه عددًا، وتعيينُه جنسًا، ولها أن تُبرِئَ منه إذا كانت عاقلةً رشيدةً(١).

٨- أنَّه يجوزُ للإنسانِ أن يتزوَّجَ مَوْلِيَّتَه؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾؛ لأنَّ هؤلاء اليتامى تحت ولاية هؤلاء الَّذين يرغَبون أنْ ينكحوهنَّ، وهو أحقُّ النَّاس بتزويجها، لكنْ عليه بتقوى الله، فلا يَظلِمْها، ولا يَهضِمْها حقَّها(٢).

٩- في قوله تعالى: ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ﴾ العناية بالمستضعَفين من الوِلدان؛ لأنَّ المستضعَفَ من الوِلدان، سواءٌ كان لِصِغَره، أو لمرضِه أو لجنونه، أو لغيرِ ذلك من الأسباب الَّتي صار بها ضعيفًا، فالعنايةُ به لا شكَّ أنَّها دليلٌ على رحمة الإنسان(٣).

١٠- وجوبُ القِيامِ لليتامى بالقِسطِ، والقيام بالقسط أمر عام، فيجب على كلِّ إنسان أن يقومَ لله شهيدًا بالقسطِ، لكن اليتامى لهم أمر خاصٌّ للعدل بينهم؛ لأنَّ اليتيمَ ليس له مَن يدافعُ عنه، وربَّما يأكُلُه وليُّه من حيث لا يشعُرُ؛ فلهذا أُوصِيَ بهم؛ قال تعالى: ﴿وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ﴾(٤).

بَلاغةُ الآيةِ:

١- قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ وعدٌ باستيفاءِ الإجابة عن الاستفتاء، وهو

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٨١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٨٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٨٤).

ضربٌ من تَبشيرِ السَّائل المُتحيِّر بأنَّه قد وجَد طَلِبتَه، وتقديمُ اسمِ الجَلالةِ للتَّنويهِ بشأنِ هذه الفُتيا[1].

٢- قوله: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ فيه: إيجازٌ بالحذف؛ حيث إنَّ حَذْفَ حرْفِ الجرِّ بعدَ ﴿وتَرْغَبُونَ﴾- هنا- وقَع موقعًا عظيمًا من الإيجازِ، وإكثارِ المعنى، أي: ترغَبون عن نكاحِ بعضِهنَّ، وفي نكاحِ بعضٍ آخرَ، فإنَّ فِعلَ رَغِبَ يتعدَّى بحرف (عن) للشَّيءِ الَّذي لا يُحَبُّ، وبحرفِ (في) للشَّيء المحبوب، فإذا حُذِفَ حرفُ الجرِّ احتمَل المعنيينِ إن لم يكُنْ بينهما تنافٍ[2]، وهذا ما يُسمَّى بالكلامِ الموجَّه، وهو الَّذي يحتملُ معنيينِ متضادَّيْنِ؛ فهنَّ إمَّا جميلات أو ذوات مالٍ، فتَرغَبون فيهنَّ، أو دميمات ولا مالَ لهنَّ، فترغَبون عنهن- حسَب تقديرِ الجارِّ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢١٢، ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٢١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٠٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٣٣٣).

الآيات (١٢٨ - ١٣٠)

﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٢٨) وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (١٢٩) وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا (١٣٠)﴾.

غَريبُ الكَلمات:

﴿بَعْلِهَا﴾: بَعْلُ المرأةِ: زَوجُها، والبَعْل في الأصل: الصَّاحِبُ[١].

﴿نُشُوزًا﴾: أي: بُغضًا، والنُّشوز: بُغضُ المرأةِ للزَّوج، أو بُغضُ الزَّوجِ للمَرأة؛ يُقال: نشَزت عليه، أي: ارتفَعَتْ عليه، والنَّشْز: المرتَفِع من الأرض؛ فأصل النَّشْز: الارتفاعُ والعُلوُّ[٢].

﴿وَأُحْضِرَتِ﴾: أي: أُلزِمت، وجُعِلتْ حاضرةً له، مطبوعةً عليه، وأصل (حضَر): إيرادُ الشَّيء، ووُرودُه ومشاهدتُه[٣].

﴿الشُّحَّ﴾: وهو الإفراطُ في الحِرص، وأيضًا: بُخْلٌ مع حِرصٍ، ويُطلَقُ على الظُّلم، وأصل (شحح): المنْع[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٦٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٥).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٧).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٨)، =

﴿كَالْمُعَلَّقَةِ﴾: المُعَلَّقةُ هي الَّتي لا تكونُ أيِّمًا، ولا ذاتَ بَعْلٍ، والعَلَقُ: التَّشبُّثُ بالشَّيء، وأصله: أن يُناطَ الشَّيءُ بالشَّيء العالي[1].

مُشكِلُ الإعراب:

قوله: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾

قَوْله: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ﴾

﴿إنْ﴾: أداةُ شرطٍ لا يَليها إلَّا الفِعلُ. و﴿امْرَأَةٌ﴾: فاعِل بِفِعلٍ محذوفٍ وجوبًا، والتَّقدير: (وإن خافتِ امرأةٌ خافتْ)، واستُغني عن المحذوفِ بـ: ﴿خَافَتْ﴾ المذكور، وقيل: هي فاعل مُقدَّم على فِعلِه، أو مَرفوعةٌ بالابتداءِ[2].

قوله: ﴿أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾

﴿صُلْحًا﴾: منصوبٌ، وفي نَصْبِه أوجهٌ بحسَبِ القِراءاتِ في قوله: ﴿يُصْلِحَا﴾[3]؛

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٣).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٢٥، ١٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٤).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٠٩)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٩٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٠٧).

والتحقيق: أنَّ القولَ بأنَّها فاعلٌ مُقدَّم ارتفَع بما عادَ إليه من الفِعل من غيرِ تَقديرِ فِعلٍ هو مذهبُ الكوفيِّين، والقولُ بأنَّها مرفوعةٌ بالابتِداءِ محكيٌّ عن أبي الحَسنِ الأخفشِ. ونَسَب السَّمينُ الحلبيُّ جَوازَ وقوعِ المبتدأِ بعدَ (إن) الشرطيَّة للأخفشِ والكوفيِّين معًا، وهذا هو المشهور؛ وهذا لأنَّهم لا يشترطُون أنْ يليَ أداةَ الشرطِ فعلٌ، وإذن فهي مُبتدأٌ على الأصلِ، وأمَّا عندَ جمهور البَصريِّين فإنَّها فاعلٌ، وهي مِن بابِ الاشتغال، ولا يَجوزُ رفعُها بالابتداءِ؛ لأنَّ أداةَ الشَّرطِ لا يَليها إلَّا الفِعلُ عندهم. ينظر: ((الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين)) للأنباري (٢/ ٥٠٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٠٧، ٤٦٢).

(٣) قوله: ﴿أَنْ يُصْلِحَا﴾ قرأ الكوفيون: «يُصْلِحَا» من أصلح، وباقي السبعة «يَصَّالَحَا» بتشديد الصاد بعدها ألف، وقرأ عثمان البَتِّيُّ والجَحْدَريُّ: «يَصَّلِحَا» بتشديد الصاد من غير ألف، =

فعلى قِراءة (يُصْلِحَا) مِن أصْلَح؛ يكونُ في نصبِ ﴿صُلْحًا﴾ ثلاثةُ أوجهٍ؛ الأوَّل: أنْ يكونَ منصوبًا على أنَّه نائبٌ عن المفعولِ المُطلَق للفِعلِ المتقدِّم ﴿يُصْلِحَا﴾؛ لأنَّ ﴿صُلْحًا﴾ اسمُ مَصْدرٍ أو مَصدرٌ على حَذْفِ الزَّوائد، كالعَطاءِ والنباتِ. الثاني: أن يكونَ مفعولًا مُطلَقًا منصوبًا بِفعلٍ مُقدَّر، أي: فيَصْلُح حالُهما صُلحًا. والمفعولُ به على هذينِ الوجهينِ قولُه: ﴿بَيْنَهُمَا﴾ اتُّسِع في الظَّرفِ فجُعِل مفعولًا به. الثالث: أنْ يكونَ نَصْبُ ﴿صُلْحًا﴾ على أنَّه مفعولٌ به إنْ جُعِل اسمًا للشَّيءِ المصطَلح عليه؛ كالعَطاءِ بمعنى المُعطَى، والنَّباتِ بمعنى المُنْبَتِ. وعلى بقيَّةِ القِراءاتِ فيجوزُ أنْ يكونَ ﴿صُلْحًا﴾ نائبًا عن المفعولِ المطلَق، ويكون واقعًا موقعَ (تصالُحًا، أو اصطلاحًا، أو مصالحةً)، حسَب القِراءات. ويجوزُ أنْ يكون ﴿صُلْحًا﴾ مفعولًا مُطلَقًا. ويَنتفِي عنه وجهُ المفعولِ به المذكورُ في قِراءة ﴿يُصْلِحَا﴾، وقيل غيرُ ذلك[1].

قوله: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾: (حَضَر) فِعلٌ يتعدَّى بنَفْسِه إلى مَفعولٍ واحد، و(أَحْضَر) يَتعدَّى بالهمزةِ إلى مَفعولَيْنِ، فلمَّا بُني (أُحْضِرَ) هُنا للمفعولِ حُذِفَ الفاعِلُ، وقامَ المفعولُ الأوَّل ﴿الْأَنفُسُ﴾؛ مقامَ الفاعِلِ، فرُفِع على أنَّه نائبُ فاعلٍ، وانتصبَ المفعولُ الآخَرُ ﴿الشُّحَّ﴾ على أنَّه مفعولٌ به ثانٍ؛ فإنَّ ﴿الْأَنفُسُ﴾ هي الفاعلُ في الأصْل؛ إذ الأصلُ: (حضَرتِ الأنفسُ الشحَّ)،

= وعَبِيدة السَّلماني: «يُصَالِحَا» بضمِّ الياء وتخفيف الصاد وبعدها ألف من المفاعلة، وابن مسعود والأعمش: «أنِ اصَّالَحَا»، فأما قراءة الكوفيِّين فواضحة، وقراءة باقي السبعة أصلها «يَتصالحَا» فأريد الإدغام تخفيفًا، فأبدلت التاء صادًا وأُدغمت، وأمَّا قراءة عثمان فأصلها: «يَصْطَلِحَا» فخفِّف بإبدال الطاء المبدلة من تاء الافتعال صادًا وإدغامهما فيما بعدَها. يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٠٨).

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٠٩)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٩٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٠٨-١٠٩)، ((إعراب القرآن الكريم)) للدعاس (١/ ٢٢٥).

ثمَّ أحْضَر اللَّهُ الأَنفسَ الشُّحَّ. وهذا هو المشهورُ من مذاهبِ النُّحاةِ. وقيل: إنَّ القائمَ مَقامَ الفاعِلِ هو المفعولُ الثَّاني وهو ﴿الْأَنفُس﴾ أيضًا، والأصلُ: وحضَر الشُّحُّ الأنفسَ، ثمَّ أحْضَر اللَّهُ الشُّحَّ الأنفسَ، فلمَّا بُني الفِعْلُ للمَفعول أُقيمَ المفعولُ الثَّاني، وهو ﴿الْأَنفُسُ﴾، مقامَ الفاعِلِ، وأُخِّر المفعولُ الأوَّلُ ﴿الشُّحَّ﴾، وبقِي منصوبًا[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ اللهُ تعالى بعضَ الأحكام الَّتي تتعلَّقُ بالزَّوجين، وما يقعُ بينهما من خلافٍ ونُفرةٍ؛ فالمرأةُ إذا خافت ترفُّعَ زوجِها عنها، وعدمَ رغبتِه فيها، فلا حرجَ ولا إثمَ أن يُصلِحَا بينهما صُلْحًا، بأن تُسقِطَ المرأةُ بعضًا من حقوقِها على أن تبقى مع زوجِها؛ فلا حرجَ عليها في إسقاطِه، ولا حرجَ عليه من قَبولِه، والصُّلحُ ببعضِ التَّنازُلاتِ خيرٌ من الفِراقِ الكُلِّيِّ، وقد جُبِلت النُّفوسُ على الحرصِ على حقوقِها، ممَّا قد يتعذَّرُ معه التَّصالُحُ، لكن ينبغي على المرءِ أن يحرصَ على تركِ هذا الشُّحِّ جانبًا، والمسامحةِ ببعضِ الحقِّ، ثمَّ رغَّب اللهُ تعالى في الإحسان عمومًا؛ في عبادتِه، والإحسان إلى الخَلْق، ومنه الإحسانُ إلى الزَّوجات حتَّى ولو كرِهوهنَّ؛ وذلك بالصَّبرِ عليهنَّ، وحُسْنِ العِشرةِ، وإيفائِهنَّ حقَّهنَّ، وأن يتَّقوا اللهَ، فإن فعَلوا ذلك، فإنَّ اللهَ خبيرٌ بكلِّ ما عمِلوه، وسيُجازيهم عليه.

ثمَّ يخبِرُ تعالى أنَّ الأزواجَ لا يمكِنُ أن يحقِّقوا العدلَ الكامل بين زوجاتِهم، ولو اشتَدَّ حرصُهم على ذلك، لكن نهى سبحانه عن الميلِ الكُلِّيِّ إلى واحدةٍ بحيث تظلُّ الأخرى كالمعلَّقة الَّتي ليست مطلَّقةً، ولا هي متزوِّجة، وأنَّهم إن يُصلِحوا بينهم وبين زوجاتهم، وبينهم وبين النَّاس، أو بين النَّاس إذا تنازَعوا،

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٩٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١١٠).

ويتَّقوا اللهَ؛ فإنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ، وإن ينفصلِ الزَّوجانِ عن بعضِهما، بعد تعسُّرِ الصُّلحِ، يُغْنِ اللهُ كلًّا منهما من فضله الواسع، وكان الله واسعًا حكيمًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٢٨)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

الآيةُ عَطفٌ لبقيَّةِ إفتاء الله تعالى؛ فهي من جُملة ما أخبَر الله تعالى أنَّه يفتيهم به في النِّساء ممَّا لم يتقدَّمْ ذِكرُه في هذه السُّورة[١].

وأيضًا لَمَّا صاروا يَتزوَّجون ذواتِ الأموالِ من اليتامى، ويُضاجِرون بعضَهنَّ، عقَّبَ ذلك تعالى بالإفتاءِ في أحوالِ المشاقَقةِ بين الأزواج[٢].

سببُ النُّزول:

عن عائشةَ رضِي اللهُ عنها في هذه الآيةِ ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ قَالَتْ: ((الرَّجلُ تكونُ عنده المرأةُ ليس بِمُستكثِرٍ منها يُريدُ أنْ يُفارِقَها، فتقول: أَجْعَلُك مِن شأني في حِلٍّ، فنزلتْ هذه الآيةُ في ذلك))[٣].

وعن هِشامِ بنِ عُروةَ، عن أبيه، قال: قالتْ عائشةُ رضِي اللهُ عنها: ((يا ابنَ أُختي، كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لا يُفضِّلُ بَعضَنا على بعضٍ في القَسْمِ مِن مُكْثِه عِندنا، وكان قلَّ يومٌ إلَّا وهو يَطوفُ علينا جميعًا، فيَدنو مِن كلِّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٤٢١).

(٣) رواه البخاري (٢٤٥٠) واللفظ له، ومسلم (٣٠٢١).

امرأةٍ مِن غيرِ مسيسٍ، حتى يَبلُغَ إلى التي هو يومُها فيَبيت عِندَها، ولقدْ قالتْ سَودةُ بِنتُ زَمْعةَ حينَ أسنَّتْ وفَرِقَتْ[1] أنْ يُفارِقَها رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: يا رسولَ اللهِ، يَوْمي لعائشةَ، فقَبِلَ ذلك رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ منها، قالتْ: نقول: في ذلِك أَنزلَ اللهُ تعالى وفي أشباهِها أُراهُ قال: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا﴾))[2].

وعن عائشةَ رضِي اللهُ عنها، قالتْ: ((كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذَا أرادَ سفرًا أَقْرَعَ بَينَ نسَائِهِ، فأَيَّتُهُنَّ خرجَ سَهْمُهَا خرَجَ بهَا معهُ، وكانَ يَقْسِمُ لكلِّ امرأةٍ منْهُنَّ يومَها وليلَتَها، غيرَ أنَّ سَوْدَةَ بنتَ زَمْعَةَ وهَبَتْ يَومَها وليلَتَها لعائِشَةَ زَوجِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ تَبْتَغِي بذلِكَ رِضا رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ))[3].

﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾.

أي: وإذا خشِيَتِ المرأةُ استعلاءً من زوجها عليها، ونفورًا منها، وانصرافًا عنها، وعدمَ رغبتِه فيها[4].

---

(١) أَسَنَّتْ: أي: كَبِرَتْ. وفَرِقَت: أي: خافَتْ. ينظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ١٥٥)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٢٩٢) و(٢/ ٤٧١).

(٢) رواه أبو داود (٢١٣٥)، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (٢٤/ ٣١) (٨١)، والحاكم في ((المستدرك)) (٢٧٦٠)، والبيهقي (٧/ ٧٤) (١٣٨١٦).

قال الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٢١٣٥): حسن صحيح. وحسنه الوادعي في ((الصحيح المسند)) (١٦٢٩).

والحديث بدون ذكر قصة سودة جوَّد إسنادَه ابنُ عبد الهادي في ((المحرر)) (٣٦٨)، وقال ابن كثير في ((إرشاد الفقيه)) (٢/ ١٨٧): إسناده صحيح حسن.

(٣) رواه البخاري (٢٦٨٨) واللفظ له، ومسلم (١٤٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٨٥).

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾.

أي: فلا حَرَجَ ولا إثمَ عليهما في أن يتَّفِقا على ما يُصلِحُ الأمورَ بينهما؛ فلها أن تُسقِطَ حقَّها أو بعضَه؛ من نفقةٍ أو كسوة، أو مَبيت، أو غيرِ ذلك من الحقوقِ عليه، على أن تبقى مع زوجها، وله أن يقبَلَ ذلك منها؛ فلا حرجَ ولا إثم عليها في بَذْلِها ذلك له، ولا عليه أيضًا في قَبولِه منها[1].

﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾.

أي: إنَّ صُلحَهما على ترْكِ بعضِ حَقِّها للزَّوج، وقَبول الزَّوجِ بذلك؛ استدامةً لعقدِ النِّكاح- خيرٌ من المفارَقة بالكُلِّيَّة[2].

﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾.

أي: إنَّ النُّفوسَ قد جُبِلت على الإفراطِ في الحرصِ على أشيائِها وحقوقِها، وهذا ممَّا يمنَعُ وقوعَ التَّصالُح والاتِّفاقِ؛ فعند النِّزاعِ وطلبِ المصالحة تكونُ الأنفسُ حريصةً جدًّا على ما لها من حُقوقٍ، كلُّ نفسٍ تُريد أنْ يكونَ الصُّلحُ في جانبها وفي مصلحتِها، وكأنَّ اللهَ يقول: دعُوا هذا الشُّحَّ الَّذي جُبِلَتْ عليه الأنفسُ، واطلُبوا الخيرَ في المصالَحةِ، والتَّسامُحِ عن بعض حقوقكم[3].

﴿وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا﴾.

أي: وإنْ تُحسِنوا- أيُّها الأزواجُ- في أفعالِكم إلى نسائِكم إذا كرِهتموهنَّ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٤٨-٥٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٨٦).

بأن تتجشَّموا مشقَّةَ الصَّبرِ عليهنَّ، مع إيفائِهنَّ حقوقَهنَّ، وعِشرتِهنَّ بالمعروف، وتقسِموا لهنَّ أُسوةَ أمثالِهنَّ، وتُحسِنوا أيضًا في عبادة الخالق عمومًا، وتُحسِنوا إلى المخلوقين بجميع طُرقِ الإحسانِ، وتتَّقوا اللهَ تعالى في أزواجِكنَّ؛ بتركِ الجَوْرِ عليهنَّ فيما يجب عليكم من حقوقِهنَّ، وتتَّقوا اللهَ عمومًا، بفعلِ جميع المأمورات، وتركِ جميعِ المحظورات[1].

﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

أي: فإنَّ اللهَ تعالى بما تَعمَلون في أمورِ نِسائِكم- أيُّها الأزواجُ- من الإحسانِ إليهنَّ، والعِشرةِ بالمعروف، وتَرْكِ الجَوْرِ عليهنَّ فيما يجبُ لهنَّ، وغير ذلك ممَّا تعمَلونه، عالِمٌ بظاهِره وباطنِه، لا يَخفَى عليه منه شيءٌ، يُحصيه، ويحفَظُه لكم، حتَّى يوفِّيَكم جزاءَ ذلك أوفرَ الجزاء[2].

﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (١٢٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر سبحانه وتعالى أنَّ الوقوفَ على الحقِّ فضلًا عن الإحسانِ- وإنْ كانت المرأةُ واحدةً- متعسِّرٌ، أتبعَه أنَّ ذلك عند الجمعِ بين أكثرَ مِن واحدةٍ أعسرُ، فقال تعالى[3]:

﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٨٧-٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٤٢٤).

أي: ولنْ تتمكَّنوا- أيُّها الأزواجُ- من إقامة العدلِ التَّامِّ بين زوجاتِكم من جميع الجوانب، ولو كنتم حريصين على ذلك، فإنَّه وإن حصَل القَسمُ الصُّوريُّ بينهنَّ، فلا بدَّ من التَّفاوُتِ في المحبَّةِ والشَّهوةِ والجِماعِ(١).

﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾.

أي: فإذا مِلْتُم إلى واحدةٍ منهنَّ، فلا تبالِغوا في الميل بالكُلِّيَّة، وتميلوا ميلًا كثيرًا، حتَّى يحمِلَكم ذلك على أن تجُوروا على صواحِبِها في تركِ أداء الواجب لهنَّ مِن حقٍّ في القَسْمِ لهنَّ، والنَّفقةِ عليهنَّ، والعِشرةِ بالمعروفِ، فتبقى كالمعلَّقةِ الَّتي ليست أيِّمًا ولا متزوِّجةً، فليست بالمطلَّقة الَّتي استراحَتْ، ورزَقها الله تعالى غيرَه، ولا هي بالمتزوِّجةِ الَّتي تسعَدُ بالزَّواجِ كغيرها(٢).

﴿وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا﴾.

أي: وإنْ تُصلِحوا أعمالَكم- أيُّها النَّاس- فتعدِلوا في قَسْمِكم بين أزواجِكم، وما فرَض الله لهنَّ عليكم من النَّفقة والعِشرة بالمعروف، فلا تجُوروا في ذلك، وتُصلِحوا أيضًا فيما بينكم وبين النَّاس، وتُصلِحوا أيضًا بين النَّاس فيما تنازعوا فيه، وتتَّقوا الله عزَّ وجلَّ في الميل الَّذي نهاكم عنه- بأن تميلوا لإحدى الزَّوجاتِ على الأخرى، فتظلِموها حقَّها- وتتَّقوا الله تعالى في جميع أمورِكم وأحوالكم بفعلِ ما أمَر، واجتنابِ ما نهى عنه وزجَر(٣).

﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٦٦-٥٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٩٧-٢٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٧).

أي: فإنَّ اللهَ تعالى يَستُرُ عليكم ما سلَف منكم مِن مَيْلِكم وجَوْرِكم على زَوجاتِكم، ويتجاوَزُ عن مؤاخذتِكم بذلك، ويستُرُ ويتجاوَزُ عمَّا صدَر منكم من الذُّنوب عمومًا، وكما عطَفْتُم على أزواجِكم ورحمتموهنَّ، فاللهُ تعالى يرحَمُكم، وهو رحيمٌ بكم؛ إذ قبِلَ توبتَكم، وتجاوَز عنكم(١).

﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا (١٣٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى جواز الصُّلح إن أراد الزَّوجانِ ذلك، ذكَر في هذه الآية جوازَ المفارَقةِ إنْ رغِبَا فيها، ووعَد أن يُغنيَ كلَّ واحدٍ منهما من سَعتِه(٢)، فقال:

﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ﴾.

أي: وإذا انفصَل الزَّوجانِ عن بَعضِهما بطَلاقٍ أو فسخٍ أو خُلعٍ أو غير ذلك، فإنَّ اللهَ تعالى يعوِّضُ الزَّوجَ برزقٍ واسعٍ أو بزوجةٍ هي خيرٌ له من زوجته، ويعوِّضُها برزقٍ واسعٍ، أو بزوجٍ هو خيرٌ لها من زوجِها، وذلك مِن فضلِه وإحسانِه الواسعِ سبحانه(٣).

﴿وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى واسعٌ لهما في إغناء كلِّ واحدٍ من الزوجين وغيرهما مِن فضلِه، فهو سبحانه واسعُ الفضلِ، عظيمُ المَنِّ، وهو ذو سَعَةٍ في جميع صفاتِه؛ كالرَّحمة، والمغفرةِ، والعِلم، والقدرة، وغير ذلك مِن صفاتِه العُلى، حكيمٌ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٧٦-٥٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٠٢).

جميع أفعالِه وأقداره وشَرْعِه، ومن ذلك أنَّه يعطي بحكمةٍ، ويمنَعُ لحكمةٍ، ومن ذلك حكمتُه فيما قضى بين الزَّوجين من الافتراق وغيره[1].

الفَوائد التربويَّة:

١- في قوله: ﴿وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ﴾ الإشارةُ إلى أنَّ الصُّلحَ قد يكون ثقيلًا على النُّفوس، لكنَّ المؤمِنَ يهُونُ عليه ذلك إذا كان يؤمِنُ بأنَّ الصُّلح خيرٌ، فالإنسانُ بطبيعتِه قد يشقُّ عليه التَّنازلُ عن بعضِ حقِّه، لكنْ في المصالحة الَّتي هي خيرٌ لا بدَّ مِنْ ملاحظةِ هذا المعنى حتى يسهُلَ على النَّفس الَّتي أُحضِرتِ الشُّحَّ الموافقةُ على الصُّلحِ[2].

٢- في قوله: ﴿وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا﴾ ندَب تعالى إلى إحسانِ عِشرة النِّساء حتى مع الكراهة لهن وعدم الرغبة فيهن؛ وأمَر بالتَّقوى؛ لأنَّ الزَّوجَ قد تحمله الكراهةُ للزَّوجة على أذيَّتِها وخصومتِها[3].

٣- قولُه تعالى: ﴿فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ يُستفادُ منه أنَّه ينبغي للإنسانِ أن يستعملَ في خطابه ما يناسبُ المقامَ، فيستعمل أسلوبَ التنفيرِ فيما يُنفِّرُ منه، ويستعملَ أسلوب التَّرغيب فيما يُرغِّبُ فيه؛ فهذا من أسلوبِ الحِكمة[4].

٤- في قوله تعالى: ﴿فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ الاستعطاف في المقامِ الَّذي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٠٢-٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٨٨).

(فالإحسانُ والتَّقوى: هما مناطُ الأمرِ في النهاية، ولن يضِيع منهما شيءٌ على صاحبه؛ فإنَّ اللهَ خبيرٌ بما تعمله كلُّ نفس، خبيرٌ ببواعثِه وكوامنه، والهتاف للنَّفس المؤمنة بالإحسان والتقوى، والنداء لها باسم الله الخبير بما تعمل، هتافٌ مؤثِّرٌ، ونداءٌ مستجاب، بل هو وحده الهتافُ المؤثِّر والنِّداء المستجاب). ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٧٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٩٩).

ينبغي فيه العطفُ؛ لأنَّه إذا تصوَّر الإنسانُ أنَّ هذه الزَّوجةَ الَّتي مال عنها كالمعلَّقةِ بين السَّماء والأرض؛ فإنَّ هذا يوجب العطفَ عليها، والرَّأفةَ بها ورحمتَها[١].

٥- أنَّ الإصلاح والتَّقوى سببٌ للمغفرة، لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾، ووجهُه ظاهرٌ؛ لأنَّ الإصلاحَ خيرٌ، والحسناتِ يُذهِبْنَ السَّيِّئاتِ، ويجلُبْنَ الرَّحمةَ[٢].

٦- سدُّ باب اليأسِ مِن رحمة الله؛ حيث قال: ﴿يُغْنِ اللهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ﴾ ولم يقُلْ: (يُغن كلًّا) فقط، بل قال: ﴿مِنْ سَعَتِهِ﴾ إشارةً إلى أنَّ فضلَ الله واسع[٣].

٧- في قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ إثباتُ الحكمةِ لله عزَّ وجلَّ، ويتفرَّعُ على هذا فائدةٌ عظيمةٌ مسلكيَّةٌ منهجيَّةٌ، وهي الرِّضا بقضاء الله وشرعِه، إذا علِم العبدُ أنَّ هذا صادرٌ عن حكمةٍ، حتَّى وإن كان فيه فواتُ مالٍ أو ولدٍ، فالله عزَّ وجلَّ ذو حكمةٍ عظيمةٍ فيما يُقدِّرُ[٤].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال تعالى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾، عنايةُ الله عزَّ وجلَّ بما يكون بين الزَّوجين، وجهُه: أنَّ الله ذكَر هنا نشوزَ الزَّوجِ، وفي أوَّلِ السُّورة ذكَر نشوز الزَّوجة، ممَّا يدلُّ على عنايةِ الله تعالى بما يكون بين الزَّوجين؛ لأنَّ الزَّوجين هما الرَّابطةُ الَّتي تربطُ بين الأولاد، وتربط أيضًا بين الصِّهرِ وصِهرِه، وهي أحدُ النَّوعينِ في الرَّبط؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾[٥] [الفرقان: ٥٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٠٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٠٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٨٩).

٢- العملُ بالقرائن، ويؤخَذ من قوله: ﴿خَافَتْ﴾ ولم يقُلْ: رأَتْ نشوزًا، بل خافت، ومِن المعلومِ أنَّها لم تخَفْ مِن النُّشوز والإعراض إلَّا بوجودِ القرائنِ، والعملُ بالقرائنِ ثابتٌ بالقرآن(١).

٣- أفاد قولُه تعالى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا...﴾ أنَّ عروضَ الخلافِ والكراهة، وما يترتَّب عليها من النُّشوزِ والإعراض، وسوءِ المعاشَرة لِمَن يقِفُ عند حدودِ الله، من الأمور الطَّبيعيَّة الَّتي لا يمكِنُ زوالُها من بين البشَرِ، والشَّريعةُ العادلة الرَّحيمة هي الَّتي تُراعَى فيها السُّنَنُ الطَّبيعيَّةُ، والوقائعُ الفِعليَّةُ بين النَّاس، ولا يُتصوَّرُ في ذلك أكملُ ممَّا جاء به الإسلامُ(٢)، فالإسلامُ يتعاملُ مع النَّفس البشريَّة بواقعِها كلِّه؛ فهو يحاولُ- بكلِّ وسائلِه المؤثِّرة- أن يرفَعَ هذه النَّفسَ إلى أعلى مستوًى تُهيِّئُها له طبيعتُها وفطرتُها، ولكنَّه في الوقتِ ذاتِه لا يتجاهلُ حدودَ هذه الطَّبيعةِ والفِطرة، ولا يحاولُ أنْ يقسِرَها على ما ليس في طاقتِها(٣).

٤- أنَّه يجوزُ أنْ يصطلحَ الزَّوجان فيما بينهما على ما شاءَا- بما لا يخالفُ الشرعَ-؛ لقوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾، ويتفرَّعُ عليها أنَّه يجوز للزَّوجةِ عند المصالَحةِ أن تُسقِطَ حقَّها من القَسْمِ، وأنَّه لا حرجَ على الزوجِ في أنْ تَبقَى عنده، ويُسقِطَ بعضَ الحقِّ، إذا صالحها على إسقاطِه(٤).

٥- في قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ ذكَر الله أوَّلًا قولَه: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا﴾ فقولُه: ﴿فلا جُناحَ﴾ يوهِمُ أنَّه رخصةٌ، والغايةُ فيه ارتفاعُ الإثم، فبيَّن تعالى أنَّ هذا الصُّلح

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٣٦٤).

(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٧٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٩٠).

كما أنَّه لا جُناحَ فيه ولا إثمَ، فكذلك فيه خيرٌ عظيمٌ، ومنفعةٌ كثيرة؛ فإنهما إذا تصالَحَا على شيءٍ، فذاك خيرٌ من أن يتفرَّقَا، أو يُقِيما على النُّشوزِ والإعراض[١].

٦- ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾: هذه قاعدةٌ عظيمةٌ من الرَّبِّ سبحانه، وقد يظُنُّ بعضُ النَّاس أنَّه إذا تَنازَلَ عن الحقِّ أنَّ في ذلك غضاضةً وهضمًا لحقِّه، وأنَّ العاقبةَ غيرُ حميدةٍ، لكنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ الَّذي بيده ملكوتُ السَّمواتِ والأرضِ يقول: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾[٢].

٧- قوله تعالى: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾: يُؤخذُ مِن عمومِ هذا اللَّفظِ والمعنى: أنَّ الصُّلحَ بين مَن بينهما حقٌّ أو منازَعةٌ في جميع الأشياء أنَّه خيرٌ مِن استقصاءِ كلٍّ منهما على كلِّ حقِّه؛ لِمَا في ذلك من الإصلاح، وبقاءِ الأُلفة، والاتِّصاف بصفة السَّماح، والصلحُ جائزٌ في جميعِ الأشياء إلَّا إذا أحَلَّ حرامًا، أو حرَّمَ حلالًا، فإنَّه لا يكونُ صُلحًا، وإنَّما يكونُ جَوْرًا[٣].

٨- كلُّ حُكمٍ مِن الأحكام لا يتمُّ ولا يكمُلُ إلَّا بوجودِ مقتَضِيه وانتفاءِ موانِعِه؛ فمن ذلك هذا الحُكمُ الكبير الَّذي هو الصُّلح، قال سبحانه: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾، فذكَر المقتضيَ لذلك، ونبَّهَ على أنَّه خيرٌ، والخيرُ كلُّ عاقلٍ يطلُبُه ويرغَبُ فيه، فإن كان- مع ذلك- قد أَمَر اللهُ به وحثَّ عليه، ازداد المؤمنُ طلبًا له ورغبةً فيه[٤].

٩- قال تعالى: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ التَّعريفُ في قوله: ﴿والصُّلح﴾ تعريفُ الجنسِ، وليس تعريفَ العهدِ؛ لأنَّ المقصودَ إثباتُ أنَّ ماهيَّةَ الصُّلح خيرٌ للنَّاس؛ فهو تذييلٌ للأمرِ بالصُّلحِ والتَّرغيبِ فيه، وليس المقصودُ أنَّ الصُّلحَ المذكور

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٣٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٩٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

آنفًا- وهو الخُلعُ- خيرٌ من النِّزاع بين الزَّوجين؛ لأنَّ هذا- وإن صحَّ معناه- إلَّا أن فائدةَ الوجهِ الأوَّلِ أوفرُ، ولأنَّ فيه التَّفاديَ عن إشكالِ تفضيل الصُّلح على النِّزاعِ في الخيريَّةِ، مع أنَّ النِّزاعَ لا خيرَ فيه أصلًا(١).

١٠- الإحسان والتَّقوى والبرُّ وما أشبَهَ ذلك، إذا أُفرِد أحدهما عن الآخَرِ شمِل الآخَرَ، وإن اقترنا فُسِّر كلٌّ منهما بما يليق به. ﴿وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا﴾ الإحسانُ بفعل الأوامر، والتَّقوى بترك النَّواهي، أمَّا إذا أُفرد الإحسانُ فإنَّه يشملُ فِعلَ الأوامر، وتركَ النَّواهي، وكذلك التَّقوى إذا أُفرِدَت فإنَّها تشمَلُ هذا وهذا، وهذا يوجد كثيرًا في القرآنِ الكريم، فالمسكين والفقير إذا أُفرِد أحدُهما عن الآخَرِ صار أحدُهما شاملًا للآخَر، وإن قُرِنا صار الفقيرُ له معنًى، والمسكينُ له معنًى؛ فهما ممَّا إذا اجتَمَعا افترَقا، وإذا افترَقا اجتمعا(٢).

١١- القاعدةَ الشَّرعيَّة: أنَّ ما لا يُستطاعُ لا يُلزَمُ به العبدُ. قال الله تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا...﴾(٣).

١٢- في قوله: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ نبَّه تعالى على انتفاءِ استطاعةِ العدلِ بين النِّساء فيما لا يملكُه الزوجُ، وفي ذلك عُذْرٌ للرِّجال فيما يقعُ من التَّفاوتِ في الميل القَلْبِيِّ، والتَّعهُّدِ، والنَّظر، والتَّأنيس، والمُفاكَهة؛ فإنَّ العدل بينهنَّ في ذلك محالٌ، خارجٌ عن حدِّ الاستطاعةِ، وعلَّق انتفاء الاستطاعةِ في ذلك الأمر، على تقديرِ وجودِ الحِرص من الإنسانِ على ذلك فلذلك قال: ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ وأقام الله ميزانَ العدلِ بقولِه: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ﴾(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((القواعد الحسان)) للسعدي (ص: ٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢١٨).

١٣- قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ فيه نهي سبحانه عن الجَوْرِ على المرغوبِ عنها، بمنعِ قسمتِها من غيرِ رضًا منها، واجتنابُ كلِّ الميلِ داخلٌ في الوُسعِ؛ ولذلك وقَع النَّهيُ عنه، أي: إنْ وقَع منكم التَّفريطُ في شيءٍ مِن المساواة، فلا تجُوروا كلَّ الجورِ(١).

١٤- يقرنُ اللهُ تعالى بين الغفور والرَّحيم في مواضعَ كثيرةٍ؛ وذلك لأنَّ بالمغفرة يزول المكروهُ، وبالرحمة يحصلُ المطلوبُ(٢).

١٥- إن قيل: ما وجهُ قولِه تعالى في الآية الأُولى: ﴿وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا﴾، وفي الثانيةِ ﴿وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا﴾ فالجوابُ عن الأُولى: أنَّ معناها: إنْ خافَت امرأةٌ مِن زوجِها ترفُّعًا أو إعراضًا، فلا إثمَ في أن يتَصالحا على أن تترك له مِن مهرِها، أو بعضِ أيامِها ما يتراضيان به، والصلحُ خيرٌ مِن أن يُقيما على التباعدِ، أو يصيرا إلى القطيعةِ، ونفسُ كلِّ واحدٍ منهما تشحُّ بما لها قِبَلَ صاحبِها. وقيل: المرادُ: شحُّهنَّ على النُّقصان مِن أموالهنَّ وأنصبائهنَّ مِن أزواجهنَّ، وهذا يقتضي مخاطبةَ الأزواجِ بمجانبةِ القبيحِ، وإيثارِ الحُسنَى في معاملتِهم، فبعَث اللهُ تعالى في هذا المكانِ على فعلِ الإحسانِ.

وأمَّا الثانيةُ فجاءتْ بعدَ قولِه: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء﴾ في محبتهنَّ والشهوةِ لهنَّ؛ لأنَّ ذلك ليس إليكم، وإن حرصتُم على التَّسويةِ بينهنَّ ﴿فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ﴾ بأن تجعلوا كلَّ مبيتِكم وخَلوتِكم، وجميلَ عشرتِكم، وسعةَ نفقتِكم عندَ التي تشتهونها دونَ الأُخرى، فتبقَى تلك معلَّقةً لا ذات زوجٍ ولا مطلَّقة، فاقتضَى هذا الموضعُ أن يحثَّ الأزواجَ على إصلاحِ ما كان منهم بالتوبةِ مما سلَف، واستئنافِ ما يقدرون عليه مِن العدلِ، ويملكونه مِن الخلوةِ،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٨٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٩٩).

وسعةِ النَّفقة، وحُسنِ العِشرةِ، فقال: ﴿وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ﴾[1].

١٦- في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ﴾ رحمة الله عزَّ وجلَّ بعباده، وأنَّ المرأة والرَّجُل إذا انكسَرا بالفِراق بينهما، جبَرهما الله عزَّ وجلَّ بالإغناءِ، فيُغني كلًّا مِن سَعتِه[2].

١٧- في قوله تعالى: ﴿يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الفِراقَ قد يكون خيرًا لهما؛ لأنَّ الفِراقَ خيرٌ من سوء المعاشَرة[3].

١٨- في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾، ناسَب ذِكرُ وصفِ الحكمةِ، وهو وضعُ الشَّيء في موضعِه المناسِب؛ لأنَّ السَّعةَ ما لم تكُنْ معها الحكمةُ كانت إلى فسادٍ أقربَ منها للصَّلاحِ[4].

١٩- في قوله تعالى: ﴿يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ أنَّ هذه السَّعةَ الَّتي وعَد الله تعالى بالإغناء منها مبنيَّةٌ على حكمةٍ، وكأنَّ هذا- والله أعلم- إشارةٌ إلى أنَّه لو تخلَّف هذا الموعودُ، فإنَّه لن يتخلَّفَ إلَّا لحكمةٍ، فقد يمنَعُ الله سبحانه الإنسانَ ما يحِبُّ لحكمةٍ ومصلحةٍ عظيمةٍ[5].

٢٠- الإسلامُ لا يُمسِكُ الأزواجَ بالسَّلاسل والحبال، ولا بالقيودِ والأغلال، إنَّما يُمسِكُهم بالمودَّةِ والرَّحمةِ، أو بالواجبِ والتَّجمُّل، فإذا بلَغ الحالُ ألَّا تبلُغَ هذه الوسائلُ كلُّها علاجَ القلوبِ المتنافرة، فإنَّه لا يحكُمُ عليها أن تُقيمَ في سِجنٍ مِن الكراهيَةِ والنُّفرة، أو في رباط ظاهريٍّ وانفصامٍ حقيقيٍّ، ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ

(١) ينظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للخطيب الإسكافي(١/ ٤٠٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٠٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢١٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٩٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٠٦).

اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾[١].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾

- فيه دلالةٌ على شِدَّةِ التَّرغيبِ في هذا الصُّلح بمؤكِّداتٍ ثلاثةٍ: وهي المصدرُ المؤكِّدُ في قوله: ﴿صُلْحًا﴾، والإظهارُ في مقامِ الإضمار في قوله: ﴿والصُّلحُ خيرٌ﴾، والإخبار عنه بالمصدرِ أو بالصِّفة المشبَّهةِ؛ فإنَّها تدلُّ على فِعلٍ سجيَّةٍ[٢].

- وقوله: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ جملة اعتراضيَّة[٣]، تُفيد التَّرغيبَ في أمرِ الصُّلح، والحثَّ عليه.

٢- قوله: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ جملةٌ اعتراضيَّةٌ مؤكِّدة للمطلوب، وأفاد هذا التَّعبيرُ أنَّ الشُّحَّ حاضرٌ للأنفُس، لا يغيبُ عنها أبدًا، ولا تنفكُّ عنه، يعني: أنَّها مطبوعةٌ عليه[٤].

٣- قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾: فيه كنايةٌ عن وعيدٍ؛ لأنَّ الخبيرَ بفاعلِ السُّوء- وهو قَديرٌ- لا يُعوِزُه أن يُعذِّبَه على ذلك، وأُكِّدت الجملةُ بـ: (إنَّ)، و(كان)[٥].

- قوله: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فيه: اختصاصٌ؛ حيث خَصَّ العَمَلَ بالذِّكرِ[٦]؛ إذ

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٧٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٠١)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٧١)، ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٣٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٢٨).

(٦) يُنظر: ((تفسبر أبي حيان)) (٤/ ١٠٦).

هو مناطُ الحساب. وأيضًا فالعَملُ يَشمَلُ الفِعلَ والتَّرك؛ إذ التَّركُ فِعلٌ، وأدلَّة ذلك لا تَخفَى من الكِتابِ والسُّنَّة وكَلامِ العرَب[1].

٤- قوله: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا﴾ التَّعبير بـ: (لن) دون غيرها من حُروفِ النَّفي؛ للمبالَغة في النَّفي[2].

٥- قوله: ﴿كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ فيه: تشبيهٌ[3]؛ حيث شَبَّه ما يفعَلُه الرَّجُلُ بامرأتِه بعد الزَّواج بأخرى مِن إهمالٍ لها، وعدمِ المراعاةِ لشؤونِها الواجبةِ عليه، بما هو مُعلَّقٌ، فلا هي ذاتُ زوجٍ، ولا هي أيِّمٌ.

---

(١) قال الشنقيطي: (الأفعال الاختياريَّة، وهي باستقراءِ الشرع أربعة أقسام: ... الثالث: الترك، والتحقيق أنَّه فِعلٌ، وهو كفُّ النَّفس وصرفُها عن المنهيِّ عنه... والدليلُ على أنَّ التركَ فِعلٌ: الكتابُ والسُّنَّة واللُّغة...). ((مذكرة في أصول الفقه)) (ص: ٤٦) مختصرًا، ويُنظر: ((القواعد الأصولية المؤثرة في فقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)) لناصر الغامدي (ص ٧٤٩ وما بعدها).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٠٦).

الآيات (١٣١ - ١٣٤)

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ﴾.

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ له وحده جميعَ ما في السَّموات، وجميع ما في الأرض، ولقد عهِدَ سبحانه إلى أهل الكُتب السَّابقة، وإلى المسلمين أن يتَّقوه؛ بالتزامِ أوامِره، واجتنابِ نواهيه، وإن يكفُروا فإنَّ الله غنيٌّ عنهم، ولن يضرُّوا اللهَ سبحانه بذلك؛ وإنَّما يضرُّون أنفسَهم؛ فاللهُ عزَّ وجلَّ له جميعُ ما في السَّموات والأرضِ، وهو الغنيُّ الحميدُ.

وللهِ ما في السَّمواتِ والأرض، وكفى به قائمًا بتدبيرِ شؤونِ خَلْقِه، إنْ يشَأْ جلَّ وعلا أنْ يُذهِبَ كلَّ النَّاس بإهلاكِهم إذا ما عصَوْه، ويأتيَ بآخرينَ أكثرَ طاعةً له، وكان سبحانه وتعالى على كلِّ شيء قادرًا.

ثمَّ حرَّضَ اللهُ تعالى النَّاسَ على أنْ يجعلوا مَقصَدَهم الأعظَمَ: الفوزَ بنعيم الآخرة، مبيِّنًا أنَّ مَن كان يُريد ثوابَ الدُّنيا- كمن يُريد بجهاده الغنيمةَ والمنافع الدُّنيويَّة- فعند اللهِ ثوابُ الدُّنيا والآخرة، فلماذا قصَر الطَّلب على المنافعِ الدُّنيويَّة، مع أنَّ ثوابَ الآخرة خيرٌ وأبقى؟! وكان الله سميعًا لكلِّ ما يجهَرُ به النَّاس ويُسرُّونه، بصيرًا بأحوالهم الظَّاهرة والخفيَّة، وسيُجازيهم بما يستحقُّونه من ثوابٍ أو عقابٍ.

تَفسيرُ الآيات:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا (١٣١)﴾

مناسبة هذه الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ﴾ ذكَر هذه الآيةَ عقِبَها؛ ليُنبِّهَ خَلْقَه على موضعِ الرَّغبة عند فِراق أحدِهم زوجتَه؛ ليفزَعوا إليه عند الجزعِ من الحاجة والفاقة والوَحْشة بِفراق سَكَنِه وزوجتِه، وتذكيرًا منه له بأنه الَّذي له الأشياءُ كلُّها، وأنَّ مَن كان له مُلكُ جميع الأشياء فغيرُ مُتعذِّرٍ عليه أن يُغنيَه، ويُؤنِسَ وَحشتَه[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَر سبحانه أنَّه يُغْني كلًّا مِن سَعتِه، وأنَّه واسعٌ، أشار إلى ما هو كالتَّفسيرِ لكونِه واسعًا، فقال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، يعني مَن كان كذلك، فإنَّه لا بدَّ أن يكونَ واسعَ القُدرة والعِلم والجُود والفضل والرَّحمة[2].

وأيضًا لَمَّا أمَر بالعدلِ والإحسانِ إلى اليتامى والمساكينِ، بَيَّن أنَّه ما أمَر بهذه الأشياءِ لاحتياجِه إلى أعمال العباد؛ لأنَّ مالكَ السَّمواتِ والأرض كيف يُعقَلُ أن يكونَ محتاجًا إلى عملِ الإنسان، مع ما هو عليه من الضَّعفِ والقُصور؟! بل إنَّما أمَر بها رعايةً لِمَا هو الأحسنُ لهم في دُنياهم وأخراهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٣٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٣٨).

(اقتضَتْ حِكمةُ الله في ترتيب كتابِه أنْ يَجيءَ بعد تلك الأحكام العملية في شؤونِ النِّساء واليتامى أو بعدَها وبعد ما قَبلَها من الأحكام المتعلِّقة بأهل الكتاب أيضًا، أن يعقِّبَ عليها =

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

أي: ولله تعالى وحده مُلكُ جميع ما تَحويه السَّمواتُ السَّبعُ، والأَرَضون السَّبع، وهو الحاكمُ فيها، ومُدبِّرُها بجميع أنواع التَّدبير[(١)].

﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر سبحانه ما يتعلَّقُ بالرُّبوبيَّة، وهو مُلكُه الواسعُ العامُّ، ذكَر ما يتعلَّقُ بالألوهيَّةِ والعبادة، وهي: التَّقوى، فقال[(٢)]:

﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾.

أي: ولقد عهِدْنا عهدًا مؤكَّدًا إلى أهلِ الكتب السَّابقةِ، كاليهود والنَّصارى، وإليكم- أيُّها المسلِمون- بأنْ تتَّقوا اللهَ تعالى بطاعةِ أوامرِه، واجتنابِ نواهيه[(٣)].

﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

أي: وإنْ تترُكوا تقوى اللهِ تعالى، وتُشرِكوا به، فإنَّكم لا تضُرُّون بذلك إلَّا أنفسَكم، ولا تضُرُّونَ اللهَ شيئًا، ولا تنقصون شيئًا من مُلكه، وله عبيدٌ خيرٌ منكم وأعظمُ وأكثرُ، مُطيعون له، خاضِعون لأمرِه، ولا يمتنعُ عليه شيءٌ أراده؛ من

= بآياتٍ في العِلم الإلهيِّ، تُذكِّرُ المخاطَبين بتِلك الأحكامِ بعظَمتِه وسَعةِ مُلكِه واستغنائِه عن خَلقِه، وقُدرتِه على ما يشاءُ من التصرُّفِ فيهم، أو إثابتِهم على طاعتِه فيما شرَعَه لهم لخيرهم ومصلحتهم، تُذكِّرهم بذلك؛ ليزدادوا بتدبُّرِها إيمانًا يَحمِلهم على العملِ بها، والوقوفِ عندَ حدودها). ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٣٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٧٨-٥٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٠٨).

إعزازِ مَن أراد إعزازَه، وإذلالِ مَن أراد إذلالَه ومعاقبتَه، وغير ذلك من الأمور كلِّها؛ لأنَّ المُلكَ مُلكُه، والخَلْقَ خَلقُه، بهم إليه الفاقةُ والحاجةُ، وبه قِوامُهم، وبقاؤُهم وفَناؤُهم(١).

كما قال تعالى إخبارًا عن موسى عليه السَّلام أنَّه قال لقومه: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨].

وقال جلَّ وعلا: ﴿فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦].

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾.

أي: وهو الغنيُّ الَّذي له الجودُ الكامل، والإحسان الشَّامل، الصَّادر من خزائن رحمتِه، الَّتي لا ينقُصُها الإنفاقُ؛ فلا حاجةَ به إلى شيءٍ ولا لأحدٍ، ومِن تمامِ غناه كمالُ أوصافِه سبحانه، وهو المحمودُ على غِناهُ وجميعِ صفاتِه، وعلى جميع ما يُقدِّره ويشرَعُه، قد استحَقَّ منكم- أيُّها الخلقُ- الحمدَ على صنائعِه الحميدةِ إليكم، وآلائِه الجميلة الَّتي أنعَم بها عليكم، وهو الحامدُ لِمَن يستحقُّ الحمدَ مِن عباده(٢).

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٣٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أعادَ تذكيرَهم بكونِه مالكَ السَّمواتِ والأرضِ؛ أي: العوالمِ كلِّها؛ ليتمثَّلوا عظمتَه، ويستحضروا الدَّليلَ على غناه وحمدِه؛ فيعلَموا أنَّه إذا كان قد توكَّل

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣١٠-٣١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٧-٢٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣١١-٣١٢).

بإغناءِ كلٍّ مِن الزَّوجين إذا أقامَا حدودَه في تفرُّقِهما، فإنَّه قادرٌ على ذلك، كما أنَّه قادرٌ على إنجازِ كلِّ ما وعَد وأوعَد به، فيجبُ أن يكتفوا به في التَّوكُّلِ لهم(١).

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٣٢)﴾.

أي: ولله تعالى مُلكُ جميعِ ما تحويه السَّموات والأرض، القيِّمُ بجَميعِه، الحافظُ والمدبِّرُ له بعلمِه وقدرتِه وحكمتِه، الرَّقيبُ الشَّهيدُ على كلِّ شيءٍ سبحانه(٢).

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا (١٣٣)﴾

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾.

أي: إنْ يشَأِ اللهُ تعالى يُذهِبْكم- أيُّها النَّاس- بإهلاكِكم وإفنائِكم إذا عصَيْتموه، ويأتِ بناسٍ آخرينَ غيرِكم، هم أتْقَى وأطوعُ للهِ عزَّ وجلَّ منكم(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: ١٩-٢٠].

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى ذو قُدرةٍ تامَّةٍ على إهلاكِكم وإفنائِكم، واستبدالِ آخرين بكم(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٨٠-٥٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣١٥-٣١٦).

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (١٣٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا كان شأنُ التَّقوى عظيمًا على النُّفوس؛ لأنَّها يَصرِفُها عنها استعجالُ النَّاس لمنافعِ الدُّنيا على خيراتِ الآخرة- نبَّههم اللهُ تعالى إلى أنَّ خيرَ الدُّنيا بيده، وخير الآخرة أيضًا، فإنِ اتَّقَوه نالُوا الخَيْرَيْنِ[1] فقال:

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾.

أي: مَن كانت هِمَّتُه وإرادتُه دنيَّةً غيرَ متجاوزةٍ ثوابَ الدُّنيا، الَّتي لا يحصُل له منها سوى ما كتَبَ اللهُ له وليس له إرادةٌ في الآخرة، فليعلَمْ أنَّ عند الله تعالى خيرَ الدُّنيا والآخرة، فإنَّه إذا سأَله مِن هذه وهذه أعطاه وأغناه، فلا يقتصِرَنَّ قاصرُ الهمَّةِ على السَّعيِ للدُّنيا فقط، بل ليطلُبْهما منه، ويَسْتَعِنْ به عليهما، مفتقِرًا إليه على الدَّوام[2].

كما قال تعالى: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [البقرة: ٢٠٠-٢٠٢].

﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى سامعٌ لكلِّ شيء، بصيرٌ مُطَّلِعٌ على كلِّ شيء سبحانه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٢٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٨).

(٣) يُنظر ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٢٢-٣٢٤). =

الفَوائِد التربويَّة:

١- أهميةُ تقوى الله عزَّ وجل؛ لأنَّه أوصى بها الأوَّلِينَ والآخِرينَ؛ لقوله: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾(١).

٢- قوله جلَّ وعلا: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ الإخبارُ بأنَّ اللهَ أوصى الَّذين أوتوا الكتابَ من قبلُ بالتقوى: مقصودٌ منه إلهابُ هِمَمِ المسلمين للتَّهمُّمِ بتقوى الله؛ لئلَّا تفضُلَهم الأممُ الَّذين من قبلِهم مِن أهلِ الكتاب؛ فإنَّ للائتساءِ أثرًا بالغًا في النُّفوس؛ كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾(٢) [البقرة: ١٨٣].

٣- تكرَّرَ كثيرًا في هذه السُّورة الأمرُ بالاتِّقاءِ، وبه افتُتِحَتْ: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ [النساء: ١]، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١]، ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾؛ لكثرةِ ما يعرِضُ مِن رعيِ حظوظِ النُّفوس عند الزَّوجية ومع القرابة، ولكونه يدِقُّ ويغمُضُ(٣).

٤- قال تبارَكَ وتعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾: التَّقوى المأمورُ بها هنا منظورٌ فيها إلى أساسِها، وهو الإيمانُ بالله ورُسُله؛ ولذلك قُوبِلت بجملة: ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، وبيَّن بها عدمَ حاجته تعالى إلى تقوى النَّاس، ولكنَّها لصلاح

= ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٢٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٤٢٦).

أنفسهم؛ كما قال: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾(١) [الزمر: ٧].

٥- في قوله: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ جعَل الأمر بالتَّقوى وصيَّة؛ وهي الأمرُ المؤكَّد، والشَّأنُ في الوصية إيجازُ القول؛ لأنَّها يُقصَد منها وعيُ السَّامع، واستحضارُه كلمةَ الوصيَّة في سائر أحواله، والتَّقوى تجمع الخيراتِ؛ لأنَّها امتثال الأوامر، واجتناب المناهي؛ ولذلك قالوا: ما تكرَّر لفظٌ في القرآن ما تكرَّر لفظ التَّقوى(٢).

٦- في هذه الآيةِ كمالُ مراقبةِ الله عزَّ وجلَّ لعباده؛ لقوله: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾، وأنَّ فيها الكفايةَ عن كلِّ مراقب(٣).

٧- قال الله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ في قوله: ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ تبكيتٌ لمن اقتصَر على أحدِ السُّؤالين مع كون المسؤول مالكًا للثَّوابين، وحثٌّ على أن يُطلَبَ منه تعالى ما هو أكملُ وأفضل من مطلوبه؛ فمن طلب خسيسًا مع أنَّه يمكنُه أنْ يطلب نفيسًا فهو دَنيءُ الهِمَّة(٤).

٨- قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ يجوز أن تكونَ الآية تعليمًا للمؤمنين ألا يصُدَّهم الإيمانُ عن طلب ثوابِ الدُّنيا؛ إذ الكلُّ من فضل الله، ويجوز أن تكونَ تذكيرًا للمؤمنين بألَّا يُلهيَهم طلبُ خير الدُّنيا عن طلَب الآخرة؛ إذ الجمعُ بينهما أفضلُ، وكِلاهما من عند الله(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٢٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣١٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير الراغب)) (٤/ ١٩٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٢٣).

٩- ترتيبُ الثَّوابِ والجزاء على النِّيَّة؛ لقوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ﴾، وعلى هذا فيجب على الإنسان أنْ يصحِّح نيَّتَه تمامًا، وألَّا ينويَ بعمل الآخرة إلَّا الآخرةَ، أمَّا عملُ الدُّنيا فهو للدُّنيا[1].

١٠- في قوله تعالى: ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ أنَّ الَّذي يعطي الثَّوابَ هو الله عزَّ وجلَّ لا غيرُه؛ فعند الله ثواب الدُّنيا والآخرة، ويتفرَّعُ على هذه الفائدة: ألَّا نعتمدَ فيما نرجوه من ثواب الدُّنيا والآخرة إلَّا على ربِّنا عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه هو الَّذي بيدِه الأمورُ سبحانه وتعالى[2].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- يَكثُرُ في القرآن التَّعقيبُ على الأحكام، وعلى الأوامر والنَّواهي بأنَّ ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، أو بأنَّ لله مُلكَ السَّموات والأرض؛ فالأمران متلازمان في الحقيقة؛ فالمالك هو صاحبُ السُّلطان في مُلكِه، وهو صاحب حقِّ التَّشريعِ لمن يحتويهم هذا المُلك، واللهُ وحده هو المالك، ومِن ثَمَّ فهو وحده صاحبُ السُّلطان الَّذي يشرَعُ به للنَّاس؛ فالأمران متلازمان[3].

٢- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيه أنَّ الأمرَ بتقوى الله شريعةٌ عامَّةٌ لجميع الأُمَم، لم يلحَقْها نَسْخٌ ولا تبديلٌ، بل هو وصيَّةُ الله في الأوَّلين والآخِرين[4].

٣- قال تبارك وتعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾، ومِن تمامِ غناه أنَّه كاملُ الأوصاف؛ إذ لو كان فيه نقصٌ بوجهٍ من الوجوه، لكان فيه نوعُ افتقار إلى ذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٢٣).

(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٧٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٢٠).

الكمالِ، بل له كلُّ صفةٍ كمالٍ، ومن تلك الصفةِ كمالُها، ومن تمام غناه أنَّه لم يتَّخِذْ صاحبةً ولا ولدًا، ولا شريكًا في مُلكِه ولا ظهيرًا، ولا مُعاونًا له على شيءٍ من تدابير مُلكِه، ومن كمالِ غناه افتقارُ العالَم العُلويِّ والسُّفليِّ في جميع أحوالِهم وشؤونِهم إليه، وسؤالُهم إيَّاه جميعَ حوائجِهم الدَّقيقةِ والجليلة، فقام تعالى بتلك المطالب والأسئلة، وأغناهم وأقناهم، ومَنَّ عليهم بلُطفِه وهداهم[1].

٤- قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ والحميدُ من أسماء الله تعالى الجليلةِ، الدَّالُّ على أنَّه هو المستحِقُّ لكلِّ حمد ومحبَّةٍ وثناء وإكرام؛ وذلك لِمَا اتَّصَف به من صفاتِ الحمد، الَّتي هي صفةُ الجمال والجلال، ولِمَا أنعَم به على خَلقِه من النِّعمِ الجِزال؛ فهو المحمودُ على كلِّ حال[2].

٥- إثباتُ المشيئةِ لله، وتؤخَذُ من قوله: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾، والمشيئةُ الثَّابتة لله ليست مشيئةً مطلَقة مجرَّدة عن الحكمة، بل هي مشيئةٌ مقرونةٌ بالحكمة، فكلُّ شيءٍ علَّقه اللهُ بالمشيئة، فالمراد المشيئةُ الَّتي تقتضيها الحكمةُ، بدليلِ قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠]، فدلَّ ذلك على أنَّ مشيئةَ الله مقرونةٌ بالعِلم والحكمة[3].

٦- في قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ الرَّدُّ على الجبريَّة؛ وذلك بإثباتِ الإرادة للعبدِ، والجبريَّةُ يقولون: إنَّ العبدَ ليس له إرادةٌ، وأنَّه مجبَرٌ على عملِه، وهذه الآية وغيرها تردُّ عليهم[4].

٧- في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ إثباتُ اسمينِ من أسماء

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣١٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٢٢).

الله، هما (السَّميع) و(البصير)، وإثبات ما يترتَّب عليهما من وصفِ (السَّمع) و(البصر)، وإثبات ما يترتَّب عليهما من أثرٍ، وهو أنَّه يسمَعُ ويُبصِرُ(١).

٨- قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ يدلُّ على أنَّ الإسلامَ يَهدي أهلَه إلى سعادةِ الدَّارينِ(٢).

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا * وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

- قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: جملةٌ مستأنَفةٌ منبِّهةٌ على كمالِ سَعتِه، وعِظَم قُدرتِه، وهي كنايةٌ عن عظيمِ سلطانه واستحقاقِه للتَّقوى(٣).

- وتَكرَّر قولُه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ما فِي السَّمواتِ وَما فِي الْأَرْضِ﴾ ثلاثَ مرَّاتٍ في آيتينِ مُتتالتَينِ هُما قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا * وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾؛ وفائدةُ هذا التكرار تقريرُ ثلاثةِ أمورٍ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٣٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢١٩-٢٢١)

الأوَّل: أنَّه تعالى قال: ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ﴾، والمرادُ منه كونُه تعالى جوادًا مُتفضِّلًا، فذَكَر عقيبَه قولَه: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، والغرضُ تقريرُ كونِه واسعَ الجودِ والكرمِ؛ ففيه تَنبيهٌ على مَوضعِ الرَّجاءِ لهذَينِ المفترقين.

الثاني: أنَّه قال: ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، والمرادُ منه أنَّه تعالى مُنزَّهٌ عن طَاعاتِ المطيعِينَ وعن ذُنوبِ المذنبِينَ؛ فلا يَزدادُ جلالُه بالطاعاتِ، ولا يَنقُصُ بالمعاصِي والسيِّئات، والغرضُ منه تقريرُ كونِه غَنيًّا لذاتِه عن الكلِّ؛ فجاء قولُه: ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّمواتِ وَما فِي الْأَرْضِ﴾ تَنبيهًا على استغنائِه سبحانَه عن العِباد، ومُقدِّمةً للخبر بكونِه غنيًّا حميدًا.

الثَّالث: أن قوله: ﴿وَلِلَّهِ ما فِي السَّمواتِ وَما فِي الْأَرْضِ، وَكَفى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ في الموضع الثالث مُقدِّمةٌ للوعيدِ الذي بعدَه وهو قوله: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾، والمرادُ منه أنَّه تعالى قادرٌ على الإفناءِ والإيجادِ؛ فإنْ عَصيتُموه فهو قادرٌ على إعدامِكم وإفنائِكم بالكُلِّيَّةِ، وعلى أنْ يُوجِدَ قَومًا آخَرين يَشتغِلون بعُبوديَّته وتَعظيمِه؛ فالغرضُ هاهنا تقريرُ كونِه سبحانه وتعالى قادرًا على جميعِ المقدوراتِ.

فظهر أنَّ هذا التكريرَ في غايةِ الحُسنِ والكمالِ؛ لأنَّ الدليلَ الواحدَ إذا كان دليلًا على مدلولاتٍ كثيرةٍ؛ فإنَّه يَحسُن ذِكرُ ذلك الدليلِ؛ ليستدلَّ به على أحدِ تلك المدلولات، ثم يَذكُره مرَّةً أخرى ليستدلَّ به على الثاني، ثم يذكره ثالثًا ليستدلَّ به على المدلولِ الثَّالث، وهذه الإعادةُ أَحْسَنُ وأَوْلى مِن الاكتفاءِ بذِكر الدليلِ مَرَّةً واحدة، لأنَّه عند إعادة ذِكر الدليلِ يَخطُر في الذِّهن ما يُوجِبُ العلمَ

بالمدلولِ؛ فكان العلمُ الحاصلُ بذلك المدلولِ أقوى وأجْلَى[1].

٢- قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾: التَّعبير بصِيغة (فعيل) ﴿قَدِيرًا﴾؛ للمبالغةِ، وتبيينِ بليغِ القدرةِ، وأنَّه سبحانه لا يُعجِزُه مرادٌ[2].

(١) ينظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ١٢١-١٢٢)، ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٣٩). وينظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٨٠)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٩١-٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٩٣).

الآيات (١٣٥ - ١٣٧)

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿قَوَّامِينَ﴾: جمْع قوَّام، وهو مُبالغةٌ من قائِم، وأصل (قوم): مراعاةُ الشَّيء وحِفظه(١).

﴿الْهَوَى﴾: أي: مَيْلَ النَّفسِ إلى الشَّهوةِ، وأصلُ (هَوِيَ): الخُلوُّ والسُّقوط؛ ولذلك يُقال للآراءِ الزائفة: أهواءٌ(٢).

﴿تَلْوُوا﴾: تَقْلِبوا الشَّهادةَ، وهو أنْ يلويَ الشَّاهدُ لِسانَه بالشَّهادة إلى غير الحقِّ بالتَّحريفِ والزِّيادة، والميلِ إلى أحدِ الخَصْمين، وأصلُ (اللَّيِّ): فتْلُ الحبلِ، وإمالة الشَّيء كذلك(٣).

---

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ١٢٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص:٧٣٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٤، ٤٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢١١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٥).

مُشكِلُ الإعراب:

قوله: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا﴾

قوله: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾

﴿شُهَدَاءَ﴾: منصوبٌ على أنَّه خبرٌ ثانٍ لـ(كان) في قوله: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ﴾، أو يكون ﴿شُهَدَاءَ لله﴾ منصوبًا على أنَّه حالٌ من الضَّمير المستكنِّ في ﴿قَوَّامِينَ﴾، وقيل: إنَّ ﴿شُهَدَاءَ﴾ نعتٌ لـ: ﴿قَوَّامِينَ﴾، و﴿لِلَّهِ﴾: جارٌّ ومجرورٌ مُتعلِّق بـ﴿شُهَدَاءَ﴾(١).

قوله: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا﴾

﴿أَنْ تَعْدِلُوا﴾: مصدرٌ مؤوَّلٌ بالصَّريح، أي: (عَدْلَكم)، وهو في محلِّ نصْبٍ على أنَّه مفعولٌ مِن أجلِه، على حَذْف مضاف، والتَّقدير: فلا تتَّبِعوا الهوى إرادةَ أنْ تَعدِلوا عن الحقِّ وتَجورُوا. ويجوزُ أنْ يُعرَبَ على إسقاطِ حرْفِ الجرِّ وحذْف (لا) النَّافية، والأصل: فلا تتَّبِعوا الهوى في ألَّا تعدِلوا، أي: في تَرْكِ العدلِ، فحذف (لا)؛ لدلالةِ المعنى عليها، ولَمَّا حُذِفَ حرفُ الجرِّ مِن (أنْ) جرَى القولانِ الشَّهيران في موقِع إعرابه (النَّصب- والجرُّ)، وقيل غير ذلك(٢).

المَعنَى الإجماليُّ:

يأمرُ اللهُ المؤمنين أنْ يَعدِلوا في جميعِ أحوالهم؛ في حقوقِ الله تعالى، وفي حقوق الخَلْق، وأنْ يُؤدُّوا الشَّهادة ابتغاءَ وجه الله، ولو كانتِ الشَّهادةُ على

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٠٩)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٩٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١١٣-١١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢١٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٩٧-٣٩٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١١٧-١١٨).

أنفسِهم، أو والديهم، أو قَراباتهم، ولا تَستميلهم في أدائها أيُّ دوافع أخرى، فلا يراعوا غنيًّا لغناه، ولا فقيرًا شفقةً به فيجوروا بالشَّهادة، بل أَمرُ كلٍّ مِن الغنيِّ والفقير إلى الله، فهو سبحانه أَوْلى بهما، وأعلمُ بما فيه صلاحهما، ونهى الله المؤمنين أنْ يحملَهم الهوى على مجانبة العدلِ، فإنْ حصَل منهم تحريفٌ أو تغييرٌ متعمَّدٌ للشَّهادة، أو أعرَضوا عنها بكتمانها أو ترْكها، فإنَّ الله تعالى خبيرٌ بما عمِلوه، سيحفَظُه ويجازيهم به.

ثمَّ يأمرُ الله المؤمنين بتَحقيقِ الإيمان به سبحانه وتعالى، وبنبيِّه محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وبالثَّبات والاستمرار عليه، وإكمال ما نقص من الدِّين، وأن يؤمنوا بالقرآنِ الكريم، وما أنزَله الله من الكتب السَّابقة، ومن يكفُرْ بالله تعالى وملائكته وكُتبه ورُسله واليومِ الآخِرِ فقد ضلَّ عن الطَّريق المستقيم، وانحرَف عنه انحرافًا بعيدًا.

ثمَّ يخبِرُ تعالى أنَّ مَن كان مؤمنًا ثمَّ كفر، ثمَّ عاد للإيمان ليرجعَ بعد ذلك إلى الكفر، ويستمرَّ عليه ويزدادَ كفرًا، لم يكُنِ الله تعالى ليغفرَ له، ولا ليوفِّقَه لطريق الحقِّ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٣٥)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا تقدَّم ذِكر النِّساء والنُّشوزِ، والمصالَحة بينهنَّ وبين الأزواج، عَقَّبه بالأمرِ

بالقيامِ بأداءِ حقوقِ اللهِ تعالى، وبالشَّهادةِ؛ لإحياءِ حقوق الله(١).

وأيضًا لَمَّا ذَكَر تعالى طالِبَ الدُّنيا، وأنَّه سبحانه عندَه ثوابُ الدُّنيا والآخرة، ذكَر عَقِيبه هذه الآيةَ، وبيَّنَ أنَّ كمالَ سعادةِ الإنسانِ في أنْ يكونَ قولُه لله، وفِعلُه لله، وحركَتُه لله، وسُكونه لله(٢).

وأيضًا لَمَّا تقدَّم في هذه السُّورة أمرُ النَّاس بالقِسطِ وبالإشهاد عند دفْع أموال اليتامى إليهم، وأمرُهم بعد ذلك ببَذْل النَّفس والمال في سبيل الله، ثمَّ إنَّه تعالى أمَر في هذه الآيات بالمصالحة مع الزَّوجة، ومعلومٌ أنَّ ذلك أمرٌ من الله لعباده بأن يكونوا قائمينَ بالقِسط، شاهدينَ لله على كلِّ أحد، بل وعلى أنفسهم، فكانت هذه الآيةُ كالمؤكِّدِ لكلِّ ما جرى ذِكرُه في هذه السُّورة من أنواع التَّكاليفِ(٣).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾.

أي: ليكُنْ مِن أخلاقِكم وصفاتكم- أيُّها المؤمنون- القيامُ بالعدلِ في كلِّ أحوالكم، في حقوق اللهِ، وفي حقوقِ عباده(٤).

﴿شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾.

أي: ليكُنْ أداءُ الشهادةِ بالعدلِ ابتغاءَ وجهِ الله تعالى، لا يحمِلُكم على ذلك رياءٌ، ولا سُمعةٌ، ولا غيرُ ذلك(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٣) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٢٤-٣٢٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٢٥).

﴿وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾.

أي: ولو كانت شَهادتُكم على أنفسِكم، أو على والديكم، أو أقربائكم، فقُوموا فيها بالعدل، وقولوا فيها الحقَّ، ولو عاد ضررُها عليكم؛ فإنَّ الحقَّ حاكمٌ على كلِّ أحد، ومُقدَّمٌ على كلِّ أحد[1].

﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا﴾.

أي: فلا تراعوا الغنيَّ لغناه، ولا الفقير لفقرِه؛ شَفقةً عليه، ورحمةً له فتجُوروا؛ فإنَّ أمرَهما إلى خالقِهما ومالكِهما؛ فهو سبحانه أَوْلى وأحقُّ بهما منكم، وأعلمُ بما فيه صلاحُهما[2].

﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا﴾.

أي: فلا يَحملَنَّكم هوَى أنفُسِكم المعارضُ للحقِّ على ترْكِ العدل؛ فإنَّكم إنِ اتَّبعتم أهواءَكم عدَلْتُم عن الصَّواب، ووقَعتم في الجَوْرِ والظُّلم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٢٥).
قال الرازي: (شهادةُ الإنسانِ على نفْسِه لها تفسيران:
الأوَّل: أن يُقرَّ على نفْسه؛ لأنَّ الإقرارَ كالشهادة في كونه موجِبًا إلزامَ الحقِّ. والثاني: أنْ يكون المرادُ: وإنْ كانت الشهادة وبالًا على أنفسكم وأقاربكم، وذلك أنْ يَشهَدَ على مَن يتوقَّع ضَرره مِن سُلطان ظالِم أو غيره) ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٤١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٨٤-٥٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٢٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٨٥، ٥٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٨-٢٠٩).
وقولُه: ﴿أن تعدلوا﴾ إمَّا مِن العدلِ، وهو القِسْط، ويكونُ التَّقديرُ على ذلك: فلا تتَّبعوا الهوَى كراهةَ أن تعدِلوا بينَ النَّاس. أو مِن العُدولِ عن الحقِّ، ويكونُ التَّقديرُ: فلا تتَّبعوا الهوَى مخافةَ أن تعدلوا عن الحقِّ، أو كراهةَ أن تعدلوا عن الحقِّ. وقيل غير ذلك. ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٩٦)، ((تفسير الشوكاني)) (١/ ٦٠٤).

كما قال تعالى: ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨].

﴿وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

بعدَ أنْ أمَرَ الله تعالى ونهى وحذَّر، عقَّب ذلك كلَّه بالتَّهديد(١).

وأيضًا لما بيَّن أنَّ الواجبَ القيامُ بالقسطِ نهَى عمَّا يضادُّ ذلك(٢)، فقال:

﴿وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَلْوُوا﴾ قراءتان:

١- قراءة ﴿تَلُوا﴾ من الولاية، والمعنى: إنْ وُلِّيتم إقامةَ الشَّهادة أو وُلِّيتُم الأمرَ(٣).

٢- قراءة ﴿تَلْوُوا﴾ من لويتُ فلانًا حقَّه ليًّا، أي: دافَعْتَه وماطَلْتَه، والمعنى: وإنْ تَلْووا ألسنتكم عن شَهادةِ الحقِّ، أو حكومةِ العَدْل(٤).

﴿وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا﴾.

أي: وإنْ تُحرِّفوا الشَّهادة وتُغيِّروها، أو تُعرضوا عنها بكتمانِها وتركِها(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٢٨).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٢٠٨).

(٣) قرأ بها ابن عامر وحمزة. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٢٠)

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٢٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢١٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١١٨-١١٩).

(٤) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٢٠).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٢٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢١٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١١٨-١١٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٩٢٥، ٥٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٣)، ((تفسير =

﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

أي: فإنَّ الله محيطٌ بما تفعَلون، ويعلَمُ ما ظهَر وما بطَن؛ مِن إقامتِكم الشَّهادةَ بالباطلِ، وتحريفِكم إيَّاها أو كِتمانِكم لها، فيَحفظ ذلك عليكم ويُجازيكم به[١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١٣٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أمَر الله تعالى المؤمنينَ بالقيامِ بالقِسطِ والشَّهادةِ لله، بيَّن أنَّه لا يتَّصِفُ بذلك إلَّا مَن كان راسخَ القدَمِ في الإيمان بالأشياء المذكورة في هذه الآيةِ؛ فالإيمانُ هو الحامِلُ على ذلك، وهو الجامعُ لمعاني القيامِ بالقِسط والشَّهادة لله؛ فأمَر بأن يؤمنوا باللهِ والمُبلِّغ والكتابِ النَّاهج لشرائعه، ويدوموا على إيمانهم، ويَحذَروا مساربَ ما يُخلُّ بذلك[٢].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

أي: حقِّقوا- أيُّها المؤمنون- إيمانكم بالله تعالى وبمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأكمِلوا ما نقَصَ لدَيكم منه، واثبُتوا واستمرُّوا عليه[٣].

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ [الحديد: ٢٨].

= السعدي)) (ص: ٢٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٢٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٤٢). ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٩٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٤٣٤). ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٣٠-٣٣١).

﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ﴾.

أي: وآمِنوا أيضًا بالقرآن[١].

﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾.

أي: وآمِنوا أيضًا بالكُتب السَّابقة الَّتي أنزلها اللهُ تعالى[٢].

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾.

أي: ومَن يكفُرْ بالله تعالى، وملائكتِه، وبما أنزله مِن كتبٍ، وبمَن بعَثهم من الرُّسلِ، وباليوم الآخِرِ، فقد خرَج عن الصِّراط المُستقيم، وانحرَف عن طريقِ الحقِّ والهدى انحرافًا بعيدًا[٣].

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا (١٣٧)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى بالإيمانِ، ورغَّب فيه، بيَّن فسادَ طريقةِ مَن يكفُرُ بعد الإيمان، وأنَّه لا يغفِرُ له[٤] فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((المصادر السابقة))

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٩).

قال ابن عثيمين: (الضلالُ البعيد يعودُ على كلِّ من كفَر بالأربعِ، أو بواحدٍ منها؛ لأن الذي يؤمِنُ ببعضٍ ويكفُرُ ببعضٍ كالذي كفَرَ بالكلِّ) ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٩٩).

أي: مَن تَكرَّر منه الكفرُ بعدَ الإيمان، فدَخَل في الإيمان ثمَّ رجع عنه، ثمَّ عاد فيه ثمَّ رجَع عنه، واستمرَّ على كفرِه، وازداد منه[١].

﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾.

أي: لم يكُنِ الله تعالى ليستُرَ عليهم كُفرَهم وذُنوبِهم، ويَتجاوزَ عن عُقوبتِهم؛ فإنَّ مَن كان هذا حالَه فهو بعيدٌ من المغفرةِ؛ لإتيانِه بأعظمِ مانعٍ يمنَعُه مِن حُصولها؛ فكُفرُه يكونُ عقوبةً وطبعًا لا يزول حتَّى مماتِه[٢].

﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾.

أي: ولم يكُنِ اللهُ عزَّ وجلَّ ليُسدِّدَهم لإصابةِ طريق الحقِّ والهدى، فيوفِّقَهم لها[٣].

الفوائد التَّربويَّة:

١- القيامُ بالقِسطِ من أعظم الأمورِ، وأدلُّ على دِينِ القائم به، وورعِه ومقامِه في الإسلام، فيتعيَّنُ على مَن نصح نفسَه، وأراد نجاتَها، أن يهتمَّ له غايةَ الاهتمام، وأن يجعَلَه نُصْبَ عينيه، ومحَلَّ إرادتِه، وأن يزيلَ عن نفسه كلَّ مانعٍ وعائق يعُوقُه عن إرادة القِسطِ، أو العمل به، قال تعالى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾[٤].

٢- الإشارةُ إلى الإخلاص في أداءِ الشَّهادة؛ لقوله: ﴿شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾، فينبغي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٨).

أن يُؤدِّيَها المسلمُ قُربةً إلى الله عزَّ وجلَّ، مخلِصًا بها للهِ؛ بامتثال أمرِه بأدائها(١).

٣- قولُه تعالى: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا﴾ فيه تحريمُ اتِّباع الهوى الَّذي يُخالِفُ العدلَ، والهوى لا يُذَمُّ مطلقًا، ولا يُحمَدُ مطلقًا، فإذا كان الهوى تبعًا لِمَا جاء به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فهو محمودٌ، وإذا كان مخالِفًا له فهو مذمومٌ(٢).

٤- في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ التَّحذيرُ مِن مخالَفة أوامِرِ الله تعالى، ويَكفي أنْ يَتذكَّرَ المؤمنُ أنَّ اللهَ خبيرٌ بما يعمل، ليستشعرَ ماذا وراءَ هذا من تهديدٍ خطيرٍ، يَرتجِفُ له كِيانُه(٣).

٥- وجوبُ الثَّباتِ على الإيمانِ، وتَكميلِه؛ لقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾(٤).

٦- أنَّه يجبُ على الإنسان أنْ يَحذَرَ من التَّردُّدِ والتَّقلُّب؛ فإنَّ الغالبَ أنَّ مَن هذه حالُه لا يبارَكُ له في عمره، ولا في عملِه، فكونُه كلَّ يوم له رأيٌ، وكلَّ يومٍ له عَمَل، هذا لا شكَّ أنَّه يضيعُ عليه الوقتُ، ولا يستفيدُ مِن عُمرِه شيئًا، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾(٥).

الفوائد العِلميَّة واللَّطائف:

١- وجوبُ إقامةِ الشَّهادة؛ لقوله: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٢٩).

(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٧٧٦). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٣٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٤١).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٣٧).

٢- قال تعالى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ مِن أعظمِ أنواعِ القِسطِ: القِسطُ في المقالات والقائلين، فلا يَحكُمُ لأحدِ القولين أو أحدِ المتنازعَيْن لانتسابِه أو مَيلِه لأحدِهما، بل يَجعل وِجهتَه العدلَ بينهما، ومن القِسطِ: أداءُ الشَّهادة الَّتي عندك على أيِّ وجهٍ كان، حتَّى على الأحبابِ، بل على النَّفس؛ ولهذا قال: ﴿شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا﴾[1].

٣- وجوبُ العدلِ في الشَّهادة، بحيث لا يزيدُ فيها ولا يَنقُص، ولا يأبى أن يؤدِّيَها عند الحاجةِ إليها؛ لأنَّ هذا كلَّه داخلٌ في قوله: ﴿قَوَّامِينَ﴾[2].

٤- أوجَب اللهُ تعالى العدلَ لكلِّ أحدٍ على كلِّ أحدٍ في كلِّ حالٍ؛ يُرشِدُ إلى ذلك قولُ الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾[3].

٥- وجوبُ الإقرار على مَن عليه حقٌّ؛ لقوله: ﴿وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾، فيجبُ على الإنسانِ أن يُقِرَّ بالحقِّ الَّذي عليه، ولو كان مُرًّا[4].

٦- وجوبُ الشَّهادة على الوالدَيْنِ والأقربين بما يلزَمُهم؛ لقوله: ﴿أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾، وعلى هذا فتُقبَلُ شَهادة الولدِ على والدَيْه[5].

٧- قوله: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ جاء هذا التَّرتيبُ في الاستقصاءِ في غايةٍ مِن الحُسنِ والفصاحة، فبدأ بقوله: ﴿وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾؛ لأنه لا شيءَ أعزُّ على الإنسانِ مِن نفسه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٣٧).

(٣) ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص:٤٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٢٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٢٨).

ثمَّ ذكَر الوالدَين، وهما أقربُ إلى الإنسان، وسبب وجوده، وقد أمر ببِرِّهما وتعظيمِهما، والحوطة لهما، ثمَّ ذكَر الأقربينَ، وهم مَظِنَّة المحبَّة والتَّعصُّب، وإذا كان هؤلاء أُمِر في حقِّهم بالقِسط والشَّهادة عليهم، فالأجنبيُّ أحرى بذلك(١).

٨- في قوله تعالى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ قدَّم الأمْرَ بالقيام بالقِسط على الأمر بالشَّهادة؛ لوجوهٍ:

الأول: أنَّ أكثَرَ النَّاس عادتُهم أنَّهم يَأمرون غَيرَهم بالمعروف، فإذا آلَ الأمرُ إلى أنفسهم ترَكوه، حتَّى إنَّ أقبَحَ القبيحِ إذا صدَر عنهم كان في مَحلِّ المسامحةِ، وأَحْسَنَ الحُسنِ إذا صدَر عن غيرِهم كان في محلِّ المنازَعة!

الثاني: أنَّ القيامَ بالقِسط عبارةٌ عن دفعِ ضررِ العقابِ عن الغير، وهو الَّذي عليه الحقُّ، ودفعُ الضَّررِ عن النَّفس مقدَّم على دفعِ الضَّررِ عن الغير.

الثالث: أنَّ القيام بالقِسط فِعلٌ، والشَّهادةُ قولٌ، والفعلُ أقوى من القول(٢).

٩- أنَّ اللهَ سبحانه نهى عن المحاباةِ للغِنى أو للفَقْر، وتؤخَذُ من قوله: ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا﴾؛ فاللهُ سبحانه هو الوليُّ على كلِّ أحدٍ، فلا تُحابِ أحدًا لغناه ولا لفقره؛ فالله وليُّ الجميع(٣).

١٠- قوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا﴾ المقصودُ من ذلك التَّحذيرُ مِن التَّأثُّر بأحوالٍ يلتبس فيها الباطلُ بالحقِّ لِمَا يحفُّ بها من عوارِضَ يُتوهَّمُ أنَّ رعيَها ضربٌ مِن إقامةِ المصالح، وحراسةِ العدالة، فلمَّا أبطَلَتِ الآيةُ الَّتي قبلها وهي قولُه تعالى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ التَّأثُّرَ للحمِيَّةِ أُعْقِبت بهذه الآيةِ لإبطالِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٩٥)

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٢٨).

التَّأثُّرِ بالمظاهر الَّتي تستجلبُ النُّفوسَ إلى مراعاتِها، فيتمحَّض نظرُها إليها، وتُغضِي بسببِها عن تمييز الحقِّ من الباطل، وتذهل عنه، فمن النُّفوسِ مَن يتوهَّمُ أنَّ الغنى يربأُ بصاحبه عن أخذِ حقِّ غيره، يقول في نفسه: هذا في غُنْيَةٍ عن أكلِ حقِّ غيره، وقد أنعَم الله عليه بعدم الحاجة، ومِن النَّاس مَن يميل إلى الفقير رقَّةً له، فيحسبه مظلومًا، أو يحسب أنَّ القضاءَ له بمالِ الغنيِّ لا يضرُّ الغنيَّ شيئًا؛ فنهاهم اللهُ عن هذه التَّأثيراتِ بكلمةٍ جامعة، وهي قوله: ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا﴾[1].

١١- في قوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا﴾ تحريمُ ما يسمَّى بالاشتراكيَّة؛ لأنَّ دعاة الاشتراكيَّة يقولون: إنَّنا نريد أن نرحَمَ الفقير، فنأخُذ من مالِ الغنيِّ، ونعطيه الفقيرَ رحمةً به، فيقال: إنَّ اللهَ أَوْلى به منكم، والله عزَّ وجلَّ له الحكمةُ في جَعْل النَّاس بعضُهم فقيرٌ وبعضُهم غنيٌّ[2].

١٢- بيَّن الله وجوب القيام بالقِسط، ونهى عمَّا يضادُّ ذلك في قوله: ﴿وَإِنْ تَلْوُوا﴾، وهو ليُّ اللِّسان عن الحقِّ في الشَّهادات وغيرِها، وتحريف النُّطق عن الصَّواب المقصود من كلِّ وجه، أو من بعض الوجوه، ويدخُلُ في ذلك تحريفُ الشَّهادة وعدمُ تكميلِها، أو تأويل الشَّاهد على أمرٍ آخَرَ، فإنَّ هذا مِن اللَّيِّ؛ لأنَّه الانحرافُ عن الحقِّ[3].

١٣- التَّهديد والإنذار والوعيد من تحريف الشَّهادة، والإعراضُ عن هذا التوجيه فيها.. ﴿وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[4].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٢٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٢٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٩).
(٤) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٧٧٦).

١٤- الشَّهادةُ لا بدَّ فيها مِن عِلْم الشَّاهِدِ وصِدْقِه وبيانِه؛ ولا يَحصُلُ مقصودُ الشَّهادةِ إلَّا بهذه الأمورِ؛ ولهذا ذَمَّ سبحانَه مَن يَكتُمُ ويُحرِّفُ، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[١].

١٥- ذكَر الله تعالى في مراتبِ الإيمان أمورًا ثلاثةً: الإيمان بالله وبالرَّسول وبالكتُب، وذكَر في مَراتبِ الكفر أمورًا خمسةً: الكفر بالله وبالملائكة وبالكتُب وبالرُّسل وباليومِ الآخِر؛ وذلك أنَّ الإيمانَ بالله وبالرُّسل وبالكتُب متى حصَل فقَدْ حصَل الإيمانُ بالملائكةِ واليوم الآخِر لا مَحالةَ؛ إذ ربَّما ادَّعى الإنسانُ أنَّه يؤمِنُ بالله وبالرُّسل وبالكتب، ثمَّ إنَّه ينكِرُ الملائكة، وينكِرُ اليومَ الآخِرَ، ويَزعُم أنَّه يَجعل الآياتِ الواردةَ في الملائكةِ وفي اليوم الآخِرِ محمولةً على التَّأويلِ، فلمَّا كان هذا الاحتمالُ قائمًا، لا جرمَ نَصَّ أنَّ مُنكِرَ الملائكةِ ومُنكِرَ القيامةِ كافرٌ بالله[٢].

١٦- قوله: ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ﴾ فيه أنَّ القرآنَ منزَّل، وأنَّه كلامُ الله؛ لأنَّه نزَل مِن عنده، فيكون كلامَه، وفيه علوُّ الله عزَّ وجلَّ أيضًا؛ لقوله: ﴿نَزَّلَ﴾، والتَّنزيلُ يكون مِن أعلى إلى أسفلَ[٣].

---

(١) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٤٣).

(بعدَ الأمرِ بالإيمان، يَجيءُ التَّهديدُ على الكفر بعناصرِ الإيمان، مع التَّفصيل فيها في موضع البيان قبل العقاب: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾، وقد ذكَر في الأمرِ الأوَّل الإيمانَ بالله وكتُبه ورُسله، ولم يذكُرِ الملائكة، وكُتُبُ الله تتضمَّنُ ذِكرَ الملائكة وذِكرَ اليوم الآخر، ومِن مقتضى الإيمانِ بهذه الكتب: الإيمانُ بالملائكة وباليوم الآخر، ولكنه يُبرِزها هنا؛ لأنه موطنُ الوعيد والتَّهديد، الَّذي يبين فيه كل عنصر على التَّحديد). ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٧٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٣٥).

١٧- أنَّ القرآنَ منزَّلٌ على محمَّدٍ عليه الصَّلاة والسَّلام؛ لقوله: ﴿عَلَى رَسُولِهِ﴾، ومنتهى نزوله قلبُ النَّبِيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام؛ لقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ﴾[1].

١٨- أنَّ القرآنَ الكريمَ نزل مُفرَّقًا؛ لقوله: ﴿نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ﴾، ويشهد على ذلك قولُه تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾[2] [الإسراء: ١٠٦].

١٩- وجوبُ الإيمانِ بالكتب السَّابقة؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾، فلو أنَّ أحدًا قال: أنا أؤمن بالقرآن، لكنَّ التَّوراةَ والإنجيلَ لم تنزِلْ على رسولِنا فلن أؤمنَ بها، قلنا: إنَّك الآن كافرٌ مرتَدٌّ؛ لأنَّه لا بدَّ أن تؤمنَ بالكتابِ الَّذي أُنزِلَ مِن قبلُ كما أمَرك الله[3].

٢٠- أنَّ هذا القرآنَ الكريمَ ختامُ الكتب، وتؤخَذُ من قوله: ﴿الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ ولم يقُلْ ومن بعدُ؛ إشارةً إلى أنَّه لا كتابَ بعد القرآن الكريم[4].

٢١- الكفرُ بشيءٍ من هذه المذكوراتِ كالكُفرِ بجَميعها؛ لتلازُمِها وامتناعِ وجود الإيمان ببعضِها دون بعضٍ، فلا يصحُّ الإيمانُ المبعَّضُ؛ لقوله: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ﴾[5].

٢٢- أنَّ الضَّلالَ يتفاوتُ، بعضُه أشدُّ من بعضٍ؛ لقوله: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾[6].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٣٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٣٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٣٦).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٣٧).

٢٣- أنَّ المتذبذبَ بين الإيمانِ والرِّدَّةِ يكونُ مآلُه أن يزداد كفرًا؛ لقوله: ﴿ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا﴾، وذلك- والله أعلم- أنَّ الإيمانَ لم يدخُلْ قلبَه(١).

٢٤- قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ دلَّتِ الآيةُ على أنَّ الكفرَ يقبَلُ الزِّيادة والنُّقصانَ، فوجَب أن يكونَ الإيمانُ أيضًا كذلك؛ لأنَّهما ضِدَّانِ مُتنافيان، فإذا قبِل أحدُهما التفاوتَ فكذلك الآخَر(٢).

٢٥- الرَّدُّ على الجبريَّةِ الَّذين يقولون: إنَّ الإنسانَ مُجبَرٌ على عمله، وأن فِعلَه لا يُنسَبُ إليه إلَّا مجازًا؛ فالرَّدُّ عليهم من قوله: ﴿آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا﴾، فأضاف الأفعالَ إليهم، ففيه ردٌّ على الجبريَّة؛ لأنَّ الجبريَّةَ عندهم أنَّ العبدَ ليس له فِعلٌ اختياريٌّ، بل هو مجبَرٌ على العمل(٣).

٢٦- الرَّدُّ على القدَريَّةِ؛ لقوله: ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾، فدلَّ هذا على أنَّ الهدايةَ بيدِ الله، وليس يستقلُّ بها العبدُ، والقدَريَّة يقولون: إنَّ الإنسانَ مستقلٌّ بفعلِه، وليس لله فيه مشيئةٌ ولا خَلْق(٤).

٢٧- أنَّ اللهَ سبحانه إذا علِم من حالِ العبد أنَّه لن يستقيم، فإنَّه لن يَغْفِرَ له ولن يهديَه؛ لأنَّ هؤلاء: ﴿آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا﴾، ويَترتَّب على هذه الفائدةِ الَّتي دلَّتْ عليها هذه الآيةُ، ودلَّ عليها قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] أنَّ الأعمالَ الصَّالحةَ تجلبُ الأعمالَ الصَّالحة، والأعمالَ السَّيِّئة تجلب الأعمالَ السَّيِّئة، فإذا منَّ اللهُ عليك

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٣٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٤٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٤٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٤١).

بعملٍ صالحٍ فأبشِرْ أنَّه سيمُنُّ عليك بعمل آخَرَ تُتبِعُه إيَّاه[١].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾: جاءت كلمة ﴿قَوَّامِينَ﴾ على صِيغة (فعَّال)؛ للمبالِغة في لزُوم الاتِّصاف بالعدْلِ، وإقامةِ القسطِ في جميع الأمورِ؛ فصِيغة ﴿قَوَّامِينَ﴾ دالَّةٌ على الكثرةِ المرادِ لازِمُها، وهو عدمُ الإخلالِ بهذا القيامِ في حالٍ من الأحوال[٢].

٢- قوله: ﴿وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ مجيء (لو) هنا؛ لاستِقْصاءِ جميعِ ما يمكِنُ فيه الشَّهادة[٣].

٣- قوله: ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا﴾ استئنافٌ واقعٌ موقعَ العِلَّة[٤].

٤- قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ كنايةٌ عن وعيد؛ لأنَّ الخبيرَ بفاعل السُّوء، وهو قديرٌ، لا يُعوِزُه أن يعذِّبَه على ذلك[٥].

٥- قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: تذييلٌ عقَّب به أمرَ المؤمنين بأنْ يكونوا قوَّامين بالقِسطِ شُهداءَ لله، فأمَرَهم اللهُ عقِبَ ذلك بما هو جامعٌ لمعاني القيامِ بالقِسط والشَّهادةِ لله، الَّذي هو الإيمانُ بالله ورسوله والكتُب[٦].

٦- قوله: ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ عبَّر في صِلةِ وصْف الكِتابِ الَّذي نزَّل على رَسولِه بصِيغة التَّفعيل ﴿نَزَّلَ﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٢٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٢٢٨).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٢٢٩).

وفي صِلةِ الكتاب الَّذي أنزل من قبلُ بصيغة الإفعال ﴿أَنْزَلَ﴾ تفنُّنًا، أو لأنَّ القرآنَ حينئذٍ بصدد النُّزول نجومًا، والتَّوراة يومئذ قد انقضَى نُزولُها[1]؛ فقوله: ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ﴾ المرادُ به هنا: القرآن، وعبَّر عنه بقوله: ﴿نَزَّلَ﴾؛ لأنَّه يَنزِلُ شيئًا فشيئًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦]، وفي قوله: ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾... عبَّر عن الكتُب السَّابقة بـ﴿أَنْزَلَ﴾؛ لأنَّها تنزِلُ جُملةً واحدةً[2].

٧- قوله: ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ﴾ فيه: المبالغةُ في تأكيدِ النَّفيِ[3]؛ فإنَّ النَّفيَ في قولِه: ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ أبلغُ مِن لو قال: (لا يغفر الله لهم)؛ لأنَّ أصلَ وضعِ هذه الصِّيغة للدَّلالة على أنَّ اسمَ كان لم يُجعَلْ ليصدُرَ منه خبرُها، ولا شكَّ أنَّ الشَّيء الَّذي لم يُجعَلْ لشيء يكون نابيًا عنه؛ لأنَّه ضدُّ طَبْعِه، ولقد أبدَع النُّحاةُ في تسميةِ اللَّام الَّتي بعد كان المنفيَّة (لام الجحود)[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٣١-٣٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١/ ٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٣٢).

الآيات (١٣٨ - ١٤٣)

﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ
مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ
عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟
مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ
وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ
ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ
وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ
عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى
ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ
بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿الْعِزَّةَ﴾: الغَلَبة، وهي حالةٌ مانعة للمُتَّصِفِ بها مِن أنْ يُغلَب، من قولهم: أرض عَزازٌ، أي: صُلْبة، وأصل (عز): يدلُّ على شدَّة وقوة، وغَلَبة وقهر[1].

﴿وَيُسْتَهْزَأُ﴾: أي: يُسخَر منها، والاستِهزَاءُ: ارتيادُ الهُزْءِ، ويُعبَّر به عن تَعاطِيه، والهُزْء: اللَّعِب والسُّخريَّة، وأصل الهُزْء: مزحٌ في خفية، وقد يقال لِمَا هو كالمزح[2].

﴿يَخُوضُوا﴾: أي: يَتحدَّثوا ويَتفاوَضوا، ويتداخَل كلامُهم؛ يُقال: تَخاوَضُوا في الحديثِ والأمرِ، والخوض: هو الشُّروع في الماءِ، والمرورُ فيه؛ يُقال: خُضْتُ

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٧٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤١).

الماءَ وغيرَه، وأصل (خوض): توسُّط شيءٍ ودخول[١].

﴿يَتَرَبَّصُونَ﴾: يَنتظِرون، والتَّربُّص: الانتظارُ والتَّمكُّث[٢].

﴿فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ﴾: أي: نصْرٌ وتأييدٌ وظَفَرٌ وغنيمةٌ، وأصلُ الفتْحِ: إزالةُ الإغلاقِ والإشكالِ[٣].

﴿نَسْتَحْوِذْ﴾: أي: نَغلِبْ ونَستولِ؛ يُقال: حاذَ الإبلَ يَحُوذها، أي: ساقَها سَوْقًا عنيفًا، وأصلُه: الخِفَّةُ والسُّرعةُ، وانكماشٌ في الأمر[٤].

﴿كُسَالَى﴾: أي: مُتثاقلين كالمُكرَه على الفِعل، والكَسلُ: التَّثاقُل عمَّا لا ينبغي التَّثاقُل عنه، وأصله: التَّثاقُل عن الشَّيء، والقعودُ عن إتمامِه أو عنه[٥].

﴿يُرَاؤُونَ﴾: أي: يَفعلون الشَّيء ليراه النَّاس، وأصلُه من الرُّؤيةِ[٦].

﴿مُذَبْذَبِينَ﴾: أي: مُتردِّدين بين الإسلامِ والكُفر، أو مُضطرِبين مائِلين، وأصل الذَّبذبة: جَعْلُ الشَّيءِ مُضطربًا[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٦).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧١١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧٧).

(٦) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٩).

(٧) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٥)، =

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَن إِذَا سَمِعْتُمْ﴾

﴿أَنْ إِذا سَمِعْتُمْ...﴾: ﴿أَنْ﴾ هي المخفَّفةُ من الثَّقيلة، واسمُها ضميرُ الشَّأن محذوف، أي: أنَّه، والجملةُ الشَّرطيَّةُ ﴿إِذَا سَمِعْتُمْ...﴾ في محلِّ رفعٍ خبرُ أنْ، و(أنْ) وما في حيِّزها مصدرٌ مؤوَّلٌ في موضِعَ نصْبٍ على أنَّه مَفعولٌ به على قِراءة ﴿نَزَّلَ﴾ بفَتْح النُّونِ، والفاعلُ هو الضَّميرُ العائدُ على لفظِ الجلَالة الله تعالى، وفي موضِع رفْعٍ مفعولٌ لم يُسمَّ فاعلُه على قِراءة مَن قرأ (نُزِّل) بالضَّمِّ، أي: وقد نُزِّل عليكمُ المنعُ من مجالستِهم عند سماعِكم الكفرَ بالآياتِ والاستهزاءَ بها[1].

المَعنَى الإجماليُّ:

يأمرُ الله نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يُبشِّرَ المنافقين الَّذين يُظهِرون الإسلامَ، ويُبطِنون الكُفرَ بالعذابِ الأليمِ، هؤلاء المنافقون الَّذين يُوالُون الكفَّارَ من دونِ المؤمنين، فيُحبُّونهم ويَنصرونهم ويُعِينونهم، أيُّ شيءٍ حمَلَهم على ذلك؟ أيَطلُبون عندَ الكفَّارِ العزَّةَ؟ فلنْ يَجِدوها عندَهم؛ فالعِزَّة لله وحْدَه.

ثمَّ خاطَب اللهُ المؤمنين أنَّه قد أَنزَل عليهم في القرآنِ أنَّهم إذا سمِعوا استهزاءً وكُفرًا بآياتِ الله، فلا يَقعدوا مع هؤلاءِ المتحدِّثين حتَّى يَتحدَّثوا بحديثٍ غيرِ حديثِ الكُفرِ والاستهزاء، فإذا ما قعَدوا معهم في هذه الحالةِ فإنَّهم مِثلُهم، ثمَّ توعَّد اللهُ المنافقين والكفَّارَ بأنَّه سيجمَعُهم في جَهنَّمَ كلَّهم، هؤلاء المنافقون الَّذين يترقَّبون ما يحلُّ بالمؤمنين من خيرٍ أو شرٍّ، فإنْ فتَحَ الله على المؤمنين

= ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٣).

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢١٠-٢١١)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٩٨-٣٩٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٢٠-١٢١)، ((إعراب القرآن الكريم)) للدعاس (١/ ٢٢٩).

فتحًا على عدوِّهم بالنَّصر أو الظَّفَر أو الغنيمة، قال هؤلاء المنافقون للمؤمنين: ألم نكُنْ في صفِّكم، شاهدينَ معكم القتالَ؛ طالبيَن منهم نصيبًا من المَغْنَم، وإن كانت الكِفَّةُ للكفَّار فأصابوا من المؤمنين، قال المنافقون للكفَّار: ألَمْ نُساعِدْكم وننصُرْكم، ونَحْمِكُم من المؤمنين؛ فاللهُ سبحانه يحكُمُ بين المؤمنين والمنافقين يوم القيامة، فيُجازي المؤمنين بالجنَّة، والمنافقين بدخولِ نارِ جهنَّمَ، ولن يُمكِّنَ اللهُ تعالى الكفَّارَ من التَّسلُّطِ التَّامِّ على المؤمنينَ في الدُّنيا، كما لم يجعَلِ اللهُ للكفَّار حُجَّةً على المؤمنينَ يغلِبونهم بها يومَ القيامة.

ثمَّ يُخبِرُ تعالى أنَّ المنافقينَ يخادِعون الله بإظهارهم الإسلامَ، وإبطانِهم الكفرَ، فيعصِمون بذلك دماءَهم وأموالهم، ويظنُّون روَاجَ فِعْلِهم هذا عند الله يوم القيامة، كما راج عند النَّاسِ في الدُّنيا، وهو سبحانه وتعالى خادِعُهم بما حكَم عليهم في الدُّنيا مِن منعِ دمائِهم وأموالِهم مع عِلمِه بهم؛ وذلك ليستدرجَهم في الدُّنيا حتَّى يلقَوْه في الآخرة، فيُدخِلهم جهنَّمَ وبئس المصيرُ، ثمَّ أخبَر تعالى عن المنافقين أنَّهم إذا قاموا إلى الصَّلاةِ قاموا وهم متثاقِلون، متبرِّمون مِن فعلِها، يؤدُّونها ليراهم المؤمنون فيظنُّون أنَّهم منهم، ولا يذكُرونَ اللهَ فيها إلَّا قليلًا، هؤلاء المنافقون متردِّدون حائرونَ بين الإيمانِ والكُفر، فلا هم مع المؤمنين خُلَّصٌ ولا مع الكفَّار خُلَّصٌ، بل مع المؤمنين في الظَّاهر، ومع الكفَّار في الباطن، ومنهم مَن يُخالِجُه الشَّكُّ فيميل إلى هؤلاء أحيانًا، وإلى هؤلاء أحيانًا أخرى، ثمَّ خاطَب اللهُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قائلًا له: إنَّ مَن يُضلِلِ اللهُ عن طريق الهُدى، فلن تجِدَ له طريقًا آخَرَ لهدايتِه.

تَفسيرُ الآيات:

﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨)﴾.

أي: أخبِرْ- يا محمَّدُ- هؤلاءِ الَّذين أظهَروا الإسلامَ، وأبطَنوا الكُفر بأقبحِ

بِشارةٍ وأسوئِها، وهي أنَّ لهم عندَ اللهِ تعالى عذابًا مؤلِمًا موجِعًا[١].

﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩)﴾

﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: هؤلاء المنافقونَ الذين صِفتُهم أنَّهم يَجعَلون الكفَّارَ أولياءَ لهم، يُحبُّونهم وينصُرونهم ويُعِينونهم لا عبادَ الله المؤمنين[٢].

ثمَّ قال اللهُ تعالى منكرًا عليهم فيما سلكوه مِن موالاةِ الكافرينَ[٣]:

﴿أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ﴾.

أي: أيُّ شيءٍ حمَلهم على ذلك؟ أيطلُبون عندَ الكفَّار المنَعَةَ والقوَّة والغَلَبة باتِّخاذهم أولياءَ من دون المؤمنين[٤]؟

﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾.

أي: فليستِ العِزَّةُ عند الكفَّار، إنَّما العِزَّةُ والمَنَعةُ والنُّصرةُ والقوَّةُ من عند الله تعالى؛ فهو وحده القاهر لكلِّ شيء، الغالب لكلِّ شيء، ذو القَدْرِ العظيم، الَّذي لا يُماثِله شيءٌ، الَّذي يمتنع عليه كلُّ نقص وعيب، يُعِزُّ مَن يشاء، ويُذِلُّ مَن يشاء؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٤٢-٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٤٥-٣٤٦).

(٣) ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٤٦).

قال السعدي: (وهذا هو الواقعُ من أحوال المنافقين؛ ساء ظنُّهم بالله، وضعُف يقينُهم بنصر اللهِ لعباده المؤمنين، ولحَظُوا بعضَ الأسباب التي عند الكافرين، وقَصُرَ نظرُهم عمَّا وراءَ ذلك؛ فاتَّخذوا الكافرين أولياءَ يَتعزَّزون بهم ويَستنصِرون) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٩-٢١٠).

فالتمِسوا العِزَّة منه سبحانه، وانتظِموا في جملةِ عبادِه المؤمنينَ، واتخِذوهم أولياءَ؛ فإنَّ لهم النَّصرةَ في هذه الحياةِ الدُّنيا، ويومَ يقوم الأشهادُ[1].

كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠].

وقال سبحانه: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ * يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٧-٨].

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠)﴾.

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾.

أي: وقد بيَّن اللهُ تعالى لكم في القُرآنِ- أيُّها المؤمنون- حُكمَه الشَّرعيَّ عند حضورِ مجالسِ الكفرِ والاستهانةِ بآياتِ اللهِ تعالى وأوامرِه ونواهيه[2].

والآيةُ الَّتي أشار اللهُ عزَّ وجلَّ إليها هي قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[3] [الأنعام: ٦٨].

﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٤٦-٣٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٤٨-٣٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٤٩).

أي: فلا تَمكثُوا فيها إلَّا أنْ يأخُذَ المُتحدِّثون في حديثٍ آخَرَ غيرِ حديثِ الكُفْر والاستهزاء(١).

﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾.

أي: إنِ ارتكبتُم هذا النَّهيَ بعد بُلوغِه إليكم، ورَضِيتم بالمُكثِ معهم في المكان الَّذي يُكفَرُ فيه بآياتِ الله ويُستهان بها، وأقررتُموهم على ذلك، فقد شاركتُموهم إثمَ ذلك(٢).

﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى جامعُ الفَريقينِ من الكفَّارِ والمنافقين في نارِ جهنَّمَ يومَ القيامة، فكما أشرَكوهم في الكُفر، واجتمَعوا على عداوةِ المؤمنين، والتَّخذيلِ عن دِينِ الله، كذلك جمَع اللهُ بينهم في الخلودِ في نار جهنَّمَ(٣).

﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (١٤١)﴾.

﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾.

أي: إنَّ المنافِقين ينتظرون ما يحلُّ بكم- أيُّها المؤمنون- من خيرٍ أو شرٍّ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٥٠-٣٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٥٦).

﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ﴾.

أي: فإنْ فتَح الله تعالى عليكم فتحًا مِن عَدوِّكم بالنَّصرِ والظَّفَرِ والغنيمةِ(١).

﴿قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾.

أي: قال لكم هؤلاء المنافقون: ألم نشهَدْ معكم قتالَ عدوِّكم؟ فأعطُونا إذًا نصيبًا من الغنيمةِ(٢).

﴿وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾.

أي: وإنْ كان لأعدائِكم من الكافرينَ حَظٌّ منكم؛ بإصابتِهم منكم في بَعضِ الأحيانِ(٣).

﴿قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: ألم نساعِدْكم، ونُحِطْ بكم إحاطةَ العنايةِ والنُّصرة، ونَحْمِكُم من المؤمنين، مِن أنْ ينالوكم بسوءٍ، وصرَفْناهم عنكم بتخذيلِهم، أو بالتَّجسُّسِ عليهم؛ لإبلاغِكم أخبارَهم، أو بإلقاء الأراجيف والفِتَن بين جيوشهم؛ لإضعاف بأسِهم، وبغير ذلك من وجوهِ المنع، حتَّى انتصرتم عليهم؟(٤).

﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

أي: فإنَّ الله تعالى سيحكُمُ بين المؤمنين والمنافقين، ويفصل بينهم بالقضاءِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٥٧).

الفصل يوم القيامة؛ وذلك بإدخالِ المؤمنين جنَّته، وإدخالِ المنافقين مع أوليائِهم الكفَّارِ نارَه[1].

﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾.

أي: ولن يُمكِّنَ اللهُ تعالى الكفَّارَ في الدُّنيا مِن التَّسلُّط التَّامِّ على المؤمنين، واستئصالهم بالكُلِّيَّة، بل لا تَزالُ طائفةٌ من المؤمنين على الحقِّ منصورةً، لا يَضرُّهم مَن خذَلهم ولا مَن خالَفهم إلى يومِ القيامة، ولن يَجعلَ اللهُ تعالى للكفَّار حُجَّةً يَغلِبون بها المؤمنين يومَ القيامة، بل يُدخِل عِبادَه المؤمنين الجنَّةَ، ويُدخل الكفَّارَ وأولياءَهم المنافقين النَّارَ؛ فالعاقبة في الدُّنيا والآخرة للمؤمنين[2].

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (١٤٢)﴾.

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾.

أي: إنَّ المنافقين يُخادِعون الله بإحرازِهم- بما أظهَروه من الإيمان، وأبطَنوه من الكُفران- دماءَهم وأموالَهم؛ إذ يعتقدون لجَهلِهم وقلَّةِ عقلهم أنَّ أمرَهم كما راج عند النَّاس، وجَرَتْ عليهم أحكامُ الشَّريعة ظاهرًا في الدُّنيا، يرُوجُ يوم القيامة عند اللهِ سبحانه وتعالى[3].

﴿وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى خادِعُهم بما حَكَم فيهم في الدُّنيا مِن منعِ دمائهم؛ لكونِهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٥٩).

أظهروا الإيمانَ بألسنتِهم، مع علمِه باستبطانِهم الكفرَ؛ وذلك استدراجًا منه لهم في الدُّنيا حتَّى يلقَوْه في الآخرة فيُوردَهم نارَ جهنَّمَ(١).

﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى﴾.

أي: وإذا قاموا لأداءِ الصَّلاةِ قاموا إليها وهم مُتثاقِلون، مُتبرِّمون مِن فِعلها؛ لأنَّهم لا نيَّةَ لهم فيها، ولا رَغبةَ، وغيرُ مؤمنين بها، ولا موقِنين بمعادٍ ولا ثوابٍ ولا عقابٍ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى﴾ [التوبة: ٥٤].

ولَمَّا ذكَر الله جلَّ وعلا صِفةَ ظواهِرهم، أعقَبَ ذلك بذِكْرِ صفةِ بواطِنهم الفاسِدة(٣)، فقال:

﴿يُرَاؤُونَ النَّاسَ﴾.

أي: إنَّما يُؤدُّون الصَّلاةَ الَّتي يَقومون إليها كُسالى؛ ليراهم المؤمنون فيَحسَبوا أنَّهم منهم؛ وذلك إبقاءً على أنفسهم، وحَذَرًا من المؤمنين عليها؛ كيلَا يُقتلوا أو تُسلَبَ أموالُهم، ولا إخلاصَ لهم لله تعالى(٤).

﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

أي: ولا يذكُرون اللهَ تعالى في صلاتِهم بألسنتِهم، وجوارِحهم، وقلوبِهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٧-٤٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦١٢-٦١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦١٢-٦١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٦٠).

ولا يَخشَعون فيها، ولا يَدْرُون ما يقولون، بل هم في صلاتِهم ساهُون لاهونَ؛ وذلك لامتلاءِ قلوبِهم بالرِّياء[1].

عن أَنسِ بنِ مالكٍ رضِي اللهُ عنه، قال: سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقول: ((تلك صلاةُ المنافق، يجلسُ يَرقُبُ الشمسَ، حتَّى إذا كانتْ بين قَرْنَيِ الشَّيطانِ قام فنقَرها أربعًا، لا يذكُرُ اللهَ فيها إلَّا قليلًا))[2].

﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (١٤٣)﴾.

﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾.

أي: إنَّ المنافقينَ مُتردِّدونَ مُتحيِّرونَ بين الإيمانِ والكُفر؛ فلا هُمْ مع المؤمنين ظاهرًا وباطنًا، ولا مع الكافرين ظاهرًا وباطنًا، بل ظواهرُهم مع المؤمنينَ، وبواطنُهم مع الكافرينَ، ومنهم مَن يَعتريه الشَّكُّ، فتارةً يميل إلى هؤلاء، وتارةً يميل إلى أولئك[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٦٠-٣٦١).
وحمل قولَه تعالى: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ على أنَّه في الصَّلاة- ابنُ كثير وابنُ عثيمينَ والشنقيطيُّ في ((أضواء البيان)) (١/ ٣٢٠).
قال ابن جرير: (فلعلَّ قائلًا أنْ يقولَ: وهل مِن ذِكر اللهِ شيءٌ قليل؟ قيل له: إنَّ معنى ذلك بخلاف ما إليه ذهبتَ، إنَّما معناه: ولا يَذكرون اللهَ إلَّا ذِكرًا رياءً؛ ليدفَعوا به عن أنفسهم القتلَ والسِّباءَ وسَلْبَ الأموال، لا ذِكر موقِنٍ مصدِّقٍ بتوحيد الله، مخلِصٍ له الرُّبوبيَّة؛ فلذلك سماه الله قليلًا؛ لأنه غيرُ مقصودٍ به اللهُ، ولا مُبتغًى به التقرُّبُ إلى الله، ولا مرادًا به ثوابُ الله وما عنده، فهو- وإنْ كثُر من وجهِ نَصَبِ عاملِه وذاكرِه- في معنى السَّرابِ الذي له ظاهرٌ بغير حقيقةِ ماءٍ). ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦١٣).
(٢) رواه مسلم (٦٢٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٦٦).

عن عبدِ اللهِ بنِ عُمرَ رضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((مَثَلُ المنافقِ كمَثَلِ الشَّاةِ العائرةِ بين الغنمَيْن، تَعيرُ إلى هذه مرَّةً، وإلى هذه مرَّةً[١]))، وفي روايةٍ: ((تكِرُّ في هذه مرَّةً، وفي هذه مرَّةً))[٢].

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾.

أي: ومَن يَخذُلْه اللهُ تعالى عن طريقِ الهُدَى والحقِّ فلا يُوفِّقه له، فلن تجِدَ له- يا محمَّدُ- طريقًا لهدايتِه، ولا وسيلةً لتركِ غَوايتِه[٣].

الفوائد التَّربويَّة:

١- في قولِه سبحانه وتعالى: ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، أنَّه يَنبغي للإنسان أنْ يَقطَعَ العلائقَ عن الخلائق، وأنْ يُعلِّقَ قلبَه بالله عزَّ وجلَّ، يبتغي منه العِزَّة، والنَّصر، ودَفْعَ البلاء، ويبتغي منه تيسيرَ الأمور ... وهكذا[٤].

٢- قال تعالى: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ﴾ وممَّا يَلحَقُ بطَلَبِ العِزَّةِ عند الكفَّارِ ووَلايتِهم من دون المؤمنين: الاعتزازُ بالآباءِ والأجدادِ الَّذين ماتوا على الكُفْر، واعتبارُ أنَّ بينهم وبين الجيلِ المسلِمِ نَسَبًا وقَرابةً! كما يَعتزُّ ناسٌ بالفَراعنةِ والأشوريِّين والفِينيقيِّين والبابليِّين وعربِ الجاهليَّة اعتزازًا جاهليًّا، وحميَّةً جاهليَّةً[٥].

---

(١) تَعِيرُ إلى هذه مرةً، وإلى هذِه مَرَّةً: أي: تتردَّد وتذهب، والعائرة هي المتردِّدةُ الحائرةُ لا تَدْري لأيِّهما تَتبع. والرواية الأخرى (تكِرُّ) بمعنى تعير أيضًا؛ يُقال: كرَّ على الشيء وإليه: عطَف عليه، وكرَّ عنه: ذهب. يُنظر: ((إكمال المعلم)) للقاضي عياض (٨/ ٣١٣- ٣١٤)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٢٨).

(٢) رواه مسلم (٢٧٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٠-٤٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٦٨-٣٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٤٧).

(٥) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٧٨٠).

٣- قول اللهِ تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾ فيه جعَلَ القاعدَ المستمِعَ من غيرِ إنكارٍ بمنزلةِ الفاعِلِ؛ ولهذا يُقال: المستمعُ شريكُ المُغتابِ، والمحرَّم هو الاستماعُ لا السَّماعُ؛ فلو سمِعَ الإنسانُ الكُفْرَ والكَذِبَ والغِيبةَ والغِناءَ مِن غيرِ قصْدٍ منه؛ بل كان مجتازًا بطريقٍ فسَمِعَ ذلك لم يأثمْ بذلك باتِّفاقِ المسلمين، ولو جلَسَ واستمَعَ إلى ذلِك ولم يُنكِرْه لا بقَلبِه ولا بلِسانه ولا يَدِه، كان آثمًا باتِّفاقِ المسلمين[1].

٤- قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ فيه وجوبُ مغادرةِ المكان الَّذي يُكفَرُ فيه بآياتِ الله ويُستهزَأُ بها، ولا يجوزُ للإنسانِ أن يبقى ويقولَ: أنا مُنكِرٌ بقلبي[2].

٥- قوله: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ فيه أنَّ جَليسَ الصَّالحين الَّذين يَعمَلون الصَّالحات مِثلُهم ومنهم، بقياس العكسِ؛ لأنَّه إذا وُزِرَ بالجلوسِ مع العصاةِ؛ أُجِرَ بالجلوس مع الطَّائعين[3].

٦- يُفيدُنا قولُه تعالى: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ الحذرَ مِن جُلَساءِ السُّوءِ، والتَّرغيبَ في جُلَساءِ الصَّلاحِ[4].

٧- قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ فيه أنَّه لَمَّا اتَّخَذوهم في الدُّنيا أولياءَ، جمَع بينهم في الآخرة في النَّارِ، والمرءُ مع مَن أَحَبَّ، وهذا توعُّدٌ منه تعالى تأكَّدَ به التَّحذيرُ من مجالَستِهم ومخالَطتِهم[5].

---

(١) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٠/ ٢١٢- ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٥٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٥٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٥٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٠٤).

٨- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى﴾ فيه أنه يَنبغي للمؤمنِ أنْ يَتحرَّزَ مِن هذه الخَصْلةِ الَّتي ذُمَّ بها المنافِقون، وأنْ يُقبِلَ إلى صلاتِه بنشاطٍ وفراغِ قلبٍ، وتمهُّلٍ في فِعلها، ولا يتقاعَسَ عنها فِعلَ المنافقِ الَّذي يُصلِّي على كُرْهٍ، لا عن طِيبِ نفسٍ ورغبةٍ(١).

٩- الكسَلُ في الصَّلاة مُؤذِنٌ بقلَّةِ اكتراثِ المُصلِّي بها، وزُهدِه في فِعلِها؛ فلذلك كان مِن شِيَمِ المنافِقين، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى﴾، ومِن أجلِ ذلك حذَّرتِ الشَّريعةُ مِن تجاوزِ حدِّ النَّشاط في العبادةِ خشيةَ السَّآمةِ(٢).

١٠- يُستفادُ مِن وصْفِ اللهِ تعالى للمُنافقين بقولِه: ﴿يُرَاؤُونَ النَّاسَ﴾ أنَّ مَن راءَى النَّاسَ بعمله الصَّالحِ ففيه شَبَهٌ بالمنافقين، والرِّياءُ بابه واسعٌ، ليس في الصَّلواتِ أو النَّفَقة أو الصَّوم أو الحجِّ فقط، بل هو أوسعُ مِن هذا، حتَّى الإنسان لو أنَّه لبِس ثيابًا رثَّةً؛ ليَظهَرَ للنَّاسِ بمظهَرِ الزَّاهد فهو مُرَاءٍ، فكلُّ شيءٍ تُظهِرُ فيه للنَّاسِ أنَّك تتقرَّبُ به إلى اللهِ؛ ليراكَ النَّاسُ، فإنَّه رياءٌ- والعياذ بالله(٣).

١١- قولُه: ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ فيه أنَّ الطُّمأنينةَ والاستقرار أمرٌ مطلوب؛ ولهذا تجدُ أشدَّ النَّاسِ استقرارًا وطُمأنينةً هم المؤمنون: ﴿قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾(٤) [البقرة: ٢٦٠].

١٢- الإشارةُ إلى اللُّجوء إلى الله عزَّ وجلَّ في طَلَب الهداية؛ لقوله: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٦٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٦٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٧٠).

١٣- ليس بَيننا وبين النَّصر في أيِّ زمانٍ وفي أيِّ مكان إلَّا أن نستكمِلَ حقيقةَ الإيمان، ونستكمِلَ مقتضيَاتِ هذه الحقيقةِ في حياتِنا وواقعِنا كذلك.. ومِن حقيقة الإيمانِ: أن نأخُذَ العُدَّة ونستكمِلَ القوَّةَ، ومِن حقيقةِ الإيمان: ألَّا نركَنَ إلى الأعداءِ، وألَّا نطلُبَ العِزَّة إلَّا مِن اللهِ. ووعدُ اللهِ هذا الأكيدُ، يتَّفِقُ تمامًا مع حقيقةِ الإيمان وحقيقة الكفرِ في هذا الكون ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾(١).

١٤- إنَّ الإيمانَ صِلةٌ بالقوَّة الكبرى، الَّتي لا تضعُفُ ولا تفنى.. وإنَّ الكفرَ انقطاعٌ عن تلك القوَّة، وانعزالٌ عنها، ولن تملِكَ قوَّةٌ محدودةٌ مقطوعةٌ منعزلةٌ فانيةٌ أن تغلِبَ قوَّةً موصولةً بمصدر القوَّةِ في هذا الكون جميعًا، غيرَ أنَّه يجبُ أن نفرِّقَ دائمًا بين حقيقةِ الإيمان ومظهرِ الإيمان، إنَّ حقيقةَ الإيمان قوَّةٌ حقيقيَّةٌ ثابتةٌ ثبوتَ النَّواميس الكونيَّة، ذاتُ أثَرٍ في النَّفس، وفيما يصدُرُ عنها من الحركةِ والعمل، وهي حقيقةٌ ضخمةٌ هائلة كفيلةٌ حين تواجهُ حقيقةَ الكُفرِ المنعزلةَ المبتوتةَ المحدودةَ أن تقهَرَها، ولكن حين يتحوَّلُ الإيمانُ إلى مظهَرٍ فإنَّ «حقيقةَ» الكفرِ تغلِبُه إذا هي صدَقَتْ مع طبيعتِها، وعمِلَتْ في مجالها؛ لأنَّ حقيقةَ أيِّ شيءٍ أقوى من «مظهَرِ» أيِّ شيء؛ قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾(٢).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- البِشارة تُستعمَلُ في الخير، وتستعمَلُ في الشَّرِّ بقَيْدٍ، كما في هذه الآيةِ؛ يقول تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ﴾(٣).

٢- لَمَّا كان التَّظاهرُ بالإيمان، ثمَّ تعقيبُه بالكفر ضربًا من التَّهكُّمِ بالإسلام

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٧٨٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٩).

وأهلِه، جِيءَ في جزاء عملِهم بوعيدٍ مناسبٍ لتهكُّمِهم بالمسلمين، فجاء به على طريقةِ التَّهكُّمِ؛ إذ قال: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ﴾؛ فإنَّ البِشارةَ هي الخبَرُ بما يُفرِحُ المُخبَرُ به، وليس العذابُ كذلك(١).

٣- أنَّه يَنبغي لنا أنْ نصارِحَ المنافقين بأنْ نبشِّرَهم- سواءٌ بلفظ: (أبشِروا)، أو بلفظ: (اعلَموا)- ﴿بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ حتَّى يَرتدِعوا عن نِفاقِهم(٢).

٤- أنَّ المنافقين مُستحقُّون للعذابِ الأليم؛ لقوله: ﴿بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، واللَّام هنا للاستحقاقِ(٣).

٥- في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾: نَصَّ مِن صفاتِ المنافقين على أشدِّها ضررًا على المؤمنين، وهي: موالاتُهم الكفَّارَ، واطِّراحُهم المؤمنين، ونبَّهَ على فَسادِ ذلك؛ ليدَعَه مَن عسى أنْ يقَعَ في نوعٍ منه من المؤمنين، غفلةً أو جَهالةً أو مُسامَحةً(٤).

٦- في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ التَّرهيبُ العظيمُ من موالاةِ الكافرين، وتَركِ موالاةِ المؤمنين، وأنَّ ذلك مِن صفاتِ المُنافقين، وأنَّ الإيمانَ يقتضي محبَّةَ المؤمنين وموالاتَهم، وبُغْضَ الكافرين وعداوتَهم(٥).

٧- لا تَناقُضَ بين قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]؛ لأنَّ القدرةَ الكاملةَ لله، وكلُّ مَن سواه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٣٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٤٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٤٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٠١).
(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٠).

فبإقدارِه صار قادرًا، وبإعزازِه صار عزيزًا؛ فالعِزَّةُ الحاصلة للرَّسولِ عليه الصَّلاة والسَّلام وللمؤمنين لم تحصُلْ إلَّا من اللهِ تعالى، فكان الأمرُ عند التَّحقيق أنَّ العِزَّةَ جميعًا للهِ[1].

٨- ظاهرُ الآية ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾- بقَطْعِ النَّظرِ عن آياتٍ أخرى-: أنَّه لا يجبُ الإنكارُ على الكافرِ بآياتِ الله المُستهزِئ بها؛ لأنَّه إنَّما نهى عن القعودِ معهم، ولم يأمُرْ بالإنكارِ عليهم، ولكن يُقال: الجوابُ عن هذا: أنَّ اللهَ تعالى إنَّما أراد أن يُبيِّنَ حُكمَ المشارِكين، ونهيَهم عن ذلك، أي: إنَّ هذا المُنكَرَ يُفهَمُ مِن نهيِنا عن الجلوسِ معهم ألَّا نُقِرَّ المنكَرَ، فالصَّواب: أنَّ هذه الآيَةَ لا تدلُّ على ارتفاع النَّهيِ عن هذا المنكَر، سواءٌ دلَّتْ عليه أو سكتت عنه، فلدينا نصوص أخرى تدلُّ على وجوب إنكار المنكَرِ[2].

٩- أنَّ الأحكامَ تدورُ مع عِلَلِها؛ لقوله: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾، فلمَّا كانوا يكفُرون بآياتِ الله ويستهزئون بها نُهِي عن القعودِ معهم، ثمَّ أذِن لنا بالقعودِ معهم إذا خاضُوا في حديثٍ غيره[3].

١٠- أنَّ المشارِكَ لفاعل المنكَرِ كفاعل المنكَرِ؛ لقوله: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾، والآيةُ وإن كانت لا تدلُّ على المشارِك صراحة، وإنَّما تدلُّ على أنَّ الجالسَ معهم له حُكمُ الفاعل، لكن إذا كان الجالسُ- يعني: القاعد- معهم له حُكمُ الفاعل، فالمشارِكُ مِن باب أَولى[4].

١١- قال تعالى: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾، فقوله: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾، هذا تعليلٌ للنَّهي، أي: إنَّكم إن قعَدْتم

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٤٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٥٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

معهم تكونوا مِثلَهم وشركاءَ لهم في كفرهم؛ لأنَّكم أقررتموهم عليه، ورضِيتموه لهم، ولا يجتمعُ الإيمانُ بالشَّيء وإقرارُ الكفرِ والاستهزاءِ به، ويؤخذ من الآيةِ أنَّ إقرارَ الكُفر بالاختيار كفرٌ، وأنَّ مَن رضِي بالكفر فهو كافرٌ، ويؤخذُ منه أنَّ إقرارَ المنكَرِ والسُّكوتَ عليه منكَرٌ، وأنَّ مَن رضِيَ بمُنكَرٍ يراه وخالَط أهلَه وإن لم يُباشِرْ، كان في الإثمِ بمنزلة المباشِرِ[1].

١٢- قوله سبحانه: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ فيه الدَّلالةُ الواضحةُ على النَّهيِ عن مجالَسةِ أهلِ الباطل من كلِّ نوعٍ من المبتدِعة والفَسَقةِ عند خوضِهم في باطِلِهم[2].

١٣- قوله تعالى: ﴿جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ﴾ فيه أنَّ النَّارَ لصِنفَيْنِ من العالَم، المنافقين والكافرين، أمَّا الصِّنفُ الثَّالث وهم المؤمنون فلهم الجنَّةُ، وهؤلاء الأصنافُ الثَّلاثةُ هم المذكورون في أوَّلِ سورةِ البقرة[3].

١٤- في قوله تعالى ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ قصرُ النَّهيِ على المجالسِ الَّتي يُكفَرُ فيها بآيات الله ويُستهزَأُ بها، وعدمُ شمولِه لكلِّ علاقاتِ المسلِمين بهؤلاء المنافقين، يَشِي بطبيعةِ الفترة الَّتي كانت تجتازُها الجماعةُ المسلِمة- إذ ذاك- والَّتي يمكِنُ أن تتكرَّرَ في أجيال أخرى وبيئاتٍ أخرى، كما تَشِي بطبيعةِ المنهج في أخْذِ الأمرِ رُويدًا رُويدًا، ومراعاة الرَّواسبِ والمشاعر والملابَسات والوقائِع في عالَم الواقِع[4].

١٥- بيانُ شدَّةِ عداوةِ المنافقين للمُؤمنين؛ لقوله: ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٤٧). ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٣٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٥٥).

(٤) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٧٨١).

أي: يَنتظرون السَّاعةَ الَّتي يكونُ فيها الضَّررُ على المؤمنين، لكن قال تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾[١] [الفتح: ٦].

١٦- أنَّ المنافقين لهم حظٌّ من الفَيْءِ، ويُؤخذُ مِن قوله: ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾؛ فدلَّ هذا على أنَّ المنافِقَ يُعامَلُ بالظَّاهرِ، فيُعطَى ما يُعطاه المسلِمُ[٢].

١٧- أنَّ المنافقين أشدُّ مِن الكفَّار؛ لأنَّ اللهَ بدأ بهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ﴾، وجميعُ الآيات الَّتي فيها الجمعُ بين المنافقين والكفَّار يُقدِّمُ اللهُ فيها المنافقين؛ كقوله: ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ [الأحزاب: ٧٣]، إلَّا في آيةٍ واحدة، بسببٍ، وهي قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [التحريم: ٩]؛ وذلك لأنَّ جهادَ الكفَّار يكون بالسِّلاحِ عَلَنًا، وجهادَ المنافقين يكونُ بالعِلمِ والبيانِ، وليس بالقتال[٣].

١٨- إثباتُ الخِداعِ لله عزَّ وجلَّ، أي: إنَّه جلَّ وعلا يَخدَعُ مَن يُخادِعُه؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾[٤].

١٩- اطَّرَدَتْ سُنَّتُه الكونيَّة سبحانه في عبادِه، بأنَّ مَن مَكَرَ بالباطِلِ مُكِرَ به، ومن احتال احْتِيلَ عليه، ومن خادَعَ غيرَه خُدِع. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾[٥].

٢٠- في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى﴾ أنَّ المنافقين

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٥٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٥٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٥٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٦١).
(٥) ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٣٦٠).

يُصلُّون، لكن لا تُقبَلُ منهم صلاتُهم؛ لأنَّ الله تعالى قال: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلا وَهُمْ كُسَالَى﴾ [التَّوبة: ٥٤] مع أنَّ النَّفقةَ نفعُها مُتعَدٍّ، ومع ذلك لا تُقبَل، فكيف بالعبادة الَّتي نفعُها غيرُ مُتعدٍّ؟ فإنَّها من بابِ أَوْلى لا تُقبَلُ(١).

٢١- مِن صِفاتِ المنافقين أنَّهم إذا أدَّوُا الصَّلاة مراءاةً يؤدُّونها بكسلٍ وبُرودٍ، وعدمِ نشاط؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى﴾(٢).

٢٢- أنَّ حالَ المنافقين التَّردُّدُ بين الكُفرِ والإيمان، لكن الحُكم عليهم في الآخرة أنَّهم كفَّارٌ، أمَّا في الدُّنيا فيُعامَلون على ظَواهِرِهم؛ لأنَّ الأحكامَ في الدُّنيا على الظَّواهِرِ، قال تعالى: ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾(٣).

٢٣- السَّببُ في تذبذبِ المنافقين كما في قوله تعالى: ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ أنَّ الفعلَ يتوقَّفُ على الدَّاعي، فإذا كان الدَّاعي إلى الفعلِ هو الأغراضَ المُتعلِّقة بأحوالِ هذا العالَم كثُرَ التَّذبذُبِ والاضطرابُ؛ لأنَّ منافعَ هذا العالَمِ وأسبابَه متغيِّرةٌ، سريعةُ التَّبدُّلِ، وإذا كان الفعلُ تبعًا للدَّاعي، والدَّاعي تبعًا للمقصود، ثمَّ إنَّ المقصودَ سريعُ التَّبدُّل والتَّغيُّر- لزِم وقوعُ التَّغيُّر في الميل والرَّغبة، وربَّما تعارَضت الدَّواعي والصَّوارفُ، فيبقى الإنسانُ في الحيرة والتَّردُّد، أمَّا مَن كانَ مَطلوبُه في فِعلِه إنشاءَ الخيرات الباقية، واكتسابَ السَّعاداتِ الرُّوحانيَّة، وعلِم أنَّ تلك المطالبَ أمورٌ باقيةٌ، بريئة عن التَّغيُّرِ والتَّبدُّلِ، لا جرَمَ كان هذا الإنسان ثابتًا راسخًا؛ فلهذا المعنى وصَفَ اللهُ تعالى أهلَ الإيمانِ بالثَّباتِ فقال: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [إبراهيم: ٢٧]،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٦٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٦٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٦٩).

وقال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، وقال: ﴿يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾(١) [الفجر: ٢٧].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- **قوله: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾**: الجملة استئناف ابتدائيٌّ، مَسُوقٌ للتَّنديدِ بالمنافقين(٢).

- وقوله: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ﴾ فيه إظهارٌ في موضِعِ الإضمارِ -حيث لم يقل: (بَشِّرْهم)-؛ تَعميمًا، وتَعليقًا للحُكمِ بالوصفِ(٣).

٢- **قوله: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾** فيه مجيءُ صِفتِهم بطريقةِ الموصولِ ﴿الَّذِينَ﴾؛ لإفادةِ تَعليلِ استحقاقِهم العذابَ الأليمَ، أي: لأنَّهم اتَّخذوا الكافرينَ أولياءَ مِن دون المؤمنينَ، أي: اتَّخذوهم أولياءَ لأجْلِ مُضادَّةِ المؤمنينَ(٤).

- وأتت ﴿مِنْ﴾ الدَّالَّة على بُعدِ الصِّلةِ بينهم وبين المؤمنينَ(٥).

٣- **قوله: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾**: الاستفهامُ غرَضُه إنكارُ رأيِهم وإبطالُه، وبيانٌ لخيبةِ رجائِهم، وقطعٌ لأطماعِهم الفارغةِ(٦).

- والجملةُ معترضةٌ، مقرِّرةٌ لِمَا قبلها(٧).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٣٥٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٤٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٣٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٤٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٤٤).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٤- قوله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ﴾: فيه التفاتٌ؛ حيث خَاطَب المنافقين قبلُ بخِطابِ الغَيبةِ في قوله: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ...﴾ و: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ...﴾ و﴿أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ﴾؛ لإفادةِ تشديدِ التَّوبيخِ الَّذي يَستدعيه تَعْدَادُ جناياتهم(١)، ثمَّ خاطَب المؤمنين بضميرِ الخِطاب: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ﴾؛ لإفادةِ القُربِ، وليكونَ أسرعَ للقَبولِ.

٥- قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ﴾:

عبَّر في قولِه: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ﴾ بالضَّميرِ في ﴿مَعَهُمْ﴾، ثمَّ تلاه قولُه: ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ﴾، وهو التفاتٌ، فعبَّر بالاسمِ الظَّاهر، والإظهارُ في موضعِ الإضمارِ له فوائدُ، منها: إرادةُ العمومِ(٢).

٦- قوله: ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: تَضمَّنَتْ هذه الآيةُ بلاغةً في اختيار الألفاظِ؛ إذ سُمِّي ظَفَرُ المسلمين (فتحًا)، وظَفَرُ الكافرين (نصيبًا)؛ لتعظيمِ شأنِ المسلِمين، وتَخسيسِ حظِّ الكافرين لخسَّةِ حظِّهم؛ لأنَّ ظَفَرَ المسلمين أمرٌ عَظيمٌ، تبتهجُ له النُّفوسُ، وتَطمئنُّ إليه القلوبُ، وتُفتَحُ لهم أبوابُ السَّماءِ حتَّى ينزِلَ على أوليائِه، وأمَّا ظَفَرُ الكافرين، فما هو إلَّا حظٌّ دَنيٌّ، ولَمْظَةٌ مِن الدُّنيا يُصيبونها(٣)، وكذلك لأنَّه لا يَحصُلُ لهم فَتْحٌ يكونُ مَبدأً لنُصرتهم المستمرَّةِ، بل غايةُ ما يكونُ أن يكونَ لهم نصيبٌ غيرُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٧٨)، ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٤٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٣٥٧).

مستقرٌّ، حِكمةً مِن الله[١].

- والاستفهامُ في قوله: ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ﴾ تَقريريٌّ، أي: إنَّا قدِ استحوذْنا؛ لأنَّ الاستفهامَ إذا دخَل على نفيٍ قَرَّره[٢].

٧- **قوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾**: استئنافٌ ابتدائيٌّ، فيه: زيادةُ بيانٍ لمساويهم[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٠).

(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٣٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٣٦١).

الآيات (١٤٤ - ١٤٧)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَٰكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلمات:

﴿أَوْلِيَاءَ﴾: جمْع وليٍّ، وهو النَّصيرُ، وأصل (وَلِيَ) يدلُّ على القُرْب، سواءٌ من حيث: المكان، أو النِّسبة، أو الدِّين، أو الصَّداقة، أو النُّصرة، أو الاعتقاد، وكلُّ مَن وَلِي أمرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه[١].

﴿سُلْطَانًا﴾: أي: حُجَّة، وأصل السُّلطان: القوَّة والقهر، من التَّسلُّط؛ ولذلك سُمِّي السُّلطانُ سُلطانًا[٢].

﴿الدَّرْكِ﴾: مَنزِلٌ من منازلِ أهلِ النَّار، فالنَّار دركاتٌ، أي: طبقاتٌ بعضُها دونَ بعضٍ، والدَّرك: أقْصَى قعرِ البحر، وأصل (درك): هو لحوقُ الشَّيءِ بالشَّيءِ، ووصولُه إليه[٣].

﴿وَاعْتَصَمُوا﴾: استمسَكوا وامتنَعوا به، والاعتصام: التَّمسُّك بالشَّيء، وأصل

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٧، ٤٢٠، ٧٢٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١١) ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٤).

العِصمة: المنعُ، ومنه يُقال: عَصَمَه الطَّعامُ، أي: منَعَه من الجوعِ، والعِصمةُ أيضًا: الإمساكُ، والملازَمة(١).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾

﴿مَا﴾: فيها وجهانِ: أحدهما: أنَّها استفهاميَّةٌ، وعليه تكونُ في محلِّ نصبٍ بـ: (يفعل)، وقُدِّم المفعولُ به؛ لكونِه له صدرُ الكلام، والباءُ على هذا سَببيَّةٌ متعلِّقة بـ: ﴿يَفْعَلُ﴾، والاستفهامُ هنا معناه النَّفي، والمعنى: أنَّ اللهَ لا يَفعلُ بعذابِكم شيئًا؛ لأنَّه لا يجلبُ لنفسِه بعذابكم نفعًا، ولا يدفَعُ عنها به ضرًّا، فأيُّ حاجةٍ له في عذابِكم؟! والوجه الثَّاني: أنَّ ﴿مَا﴾ نافية، كأنَّه قيل: لا يُعذِّبُكم اللهُ، وعلى هذا فالباءُ زائدةٌ (صلة)، ولا تَتعلَّق بشيءٍ(٢).

المَعنى الإجماليُّ:

يَنهى اللهُ عبادَه المؤمنين عن اتِّخاذِ الكافرينَ أولياءَ يُناصِرونهم، ويُصادِقونهم، ويثِقُون بهم مِن دون المؤمنين؛ فإنَّ ذلك موجِبٌ لأنْ يجعَلوا لله عليهم حُجَّةً، فيستحقُّوا العقوبةَ على ذلك.

ثمَّ أخبَر تعالى أنَّ مَصيرَ المنافقينَ المكانُ الأسفلُ من جَهنَّم، وخاطَب نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه لن يجِدَ لهؤلاء المنافقين مَن ينصُرُهم مِن عذابِ الله، إلَّا الَّذين تابوا مِن نِفاقِهم، وأصلَحوا أعمالَهم الظَّاهرةَ والباطنة، واعتَصَموا

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٧).

(٢) ينظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢١١)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٠١-٤٠٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٣٣)، ((إعراب القرآن الكريم)) للدعاس (١/ ٢٣١).

بالله، وأَخلَصوا له دِينَهم، فأولئك مع المؤمنين، وسوف يُعطي اللهُ المؤمنين ثوابًا عظيمًا.

ثمَّ يخبِرُ تعالى أنَّه في غِنًى عن عذابِهم، إنْ شكَروا وآمَنوا وكان اللهُ شاكرًا عليمًا.

تَفسيرُ الآيات:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (١٤٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر تعالى أنَّ مِن صفاتِ المنافقين اتِّخاذَ الكافرين أولياءَ من دون المؤمنين، المستلزمَ للنَّهيِ عن ذلك الاتِّخاذِ، نهى عبادَه المؤمنين أن يتَّصِفوا بهذه الحالةِ القبيحةِ، وأن يُشابهوا المنافِقين، فقال[(١)]:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: لا تَجعَلوا الكفَّارَ أولياءَ لكم من غيرِ أَهلِ دِينكم مِن المؤمنين، فتُؤازِروهم، وتُصاحِبوهم، وتُسرُّوا إليهم بالمودَّةِ، وتُفشُوا أحوالَ المؤمنين الباطنةَ إليهم، وتَثِقوا بهم، وتَعتمِدوا عليهم[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١١). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٥٠). ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٤٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦١٧-٦١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٧١-٣٧٢).

﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾.

أي: هل تُريدون أن تجعَلوا لله تعالى عليكم حُجَّةً واضحةً؛ باتِّخاذِكم الكافرين أولياءَ مِن دون المؤمنين، فتَستوجبوا منه ما استوجَبَه أهلُ النِّفاقِ باستحقاقِ العقوبة[1]؟

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا نهاهم سبحانه عن فِعلِ المنافقين، استأنَف بَيانَ جزائِهم عنده[2]، فقال:

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾.

أي: إنَّ المُنافِقين في قَعرِ جهنَّمَ، وأسفلِ طبقاتِها يومَ القيامة، جَزاءً على كُفرِهم الغليظِ[3].

﴿وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾.

أي: ولنْ تجِدَ لهؤلاء المنافقين- يا محمَّدُ- ناصرًا يَنصُرُهم مِن الله تعالى، فيُنقِذُهم مِن عذابِه، ويَدفَعُ عنهم أليمَ عقابِه[4].

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٤٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٧٤).

الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (١٤٦)﴾.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾.

أي: إلَّا التَّائبين مِن نِفاقِهم، الَّذين رجَعوا للحقِّ، وندِموا على سيِّئاتِهم[١].

﴿وَأَصْلَحُوا﴾.

أي: وأصلَحوا أعمالَهم الظَّاهرةَ والباطنةَ؛ فعَمِلوا بما أمَرهم اللهُ تعالى به، وانتهَوْا عمَّا نهاهم عنه، وأصلحوا ما أفسدوه[٢].

﴿وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ﴾.

أي: واعتصَموا برَبِّهم في جَميعِ أمورِهم، والْتَجَؤوا إليه في جَلْبِ مَنافعِهم، ودَفْعِ المضارِّ عنهم[٣].

﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾.

أي: وقَصَدوا وجهَ اللهِ تعالى بأعمالهم الظَّاهرةِ والباطنةِ، وسَلِمُوا من الرِّياءِ والنِّفاقِ[٤].

﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: فهؤلاء المُنافقون بعدَ تَوبتِهم وإصلاحِهم، واعتِصامِهم بالله تعالى، وإخلاصِهم له، مع المؤمنين في الدُّنيا والآخرةِ، يَكونون في زُمرتِهم يومَ القيامة، ويَدخُلونَ معهم الجنَّةَ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٢١-٦٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٧٥).

(٣) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

(٤) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٢٢-٦٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١١).

﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

أي: وسوفَ يُعطي اللهُ تعالى المؤمنين ثوابًا عظيمًا، لا يعلَمُ كُنْهَهُ إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ؛ ممَّا لا عينٌ رأَتْ، ولا أُذُنٌ سمِعَتْ، ولا خطَرَ على قلبِ بشَرٍ(١).

﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (١٤٧)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا كان معنى الاستثناءِ في الآيةِ السابقةِ: أنَّه لا يُعذِّبُهم، وأنَّهم يَجِدون الشَّفيعَ بإذنِه- قال مؤكِّدًا لذلك على وجهِ الاستنتاجِ، مُنكِرًا على مَن ظَنَّ أنَّه لا يَقبَلُهم بعد الإغراقِ في المهالِكِ(٢):

﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾.

أي: ما يصنَعُ اللهُ تعالى- أيُّها المنافِقون- بعذابِكم، إن شكَرْتموه على نِعَمِه، فقُمتُم بطاعتِه، وآمنتم حقًّا بما يجبُ عليكم الإيمانُ به؟ فإنَّه لا حاجةَ لله سبحانه في أن يُعذِّبَكم؛ إذ لا يَجتلِبُ إلى نفسِه بعَذابِكم نفعًا، ولا يدفَعُ عنها ضرًّا(٣).

﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى شاكرٌ لِمَن شكَر له؛ فيُثيبُهم على ما عمِلوا، أكثرَ ممَّا عمِلوا، عليمٌ بإيمانِ مَن آمَن قلبُه به، وعليمٌ بمن يستحقُّ الشُّكر مِن عبادِه، ويُجازيه على ذلك أوفرَ الجزاء(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٢٢-٦٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١١-٢١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٤٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٢٣-٦٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٧٨).

الفَوائِد التربويَّة:

١- في قوله: ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾: التَّحذيرُ مِن المعاصي؛ فإنَّ فاعلَها يجعَلُ لله عليه سلطانًا مُبينًا[1].

٢- أنَّه لا بدَّ لِمَن أفسَد أن يُصلِحَ مُقابلَ إفسادِه، ولا تَكفي التَّوبةُ المجرَّدةُ، فلا بدَّ مِن إصلاحِ ما أفسَد؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَصْلَحُوا﴾[2].

٣- في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ أنَّ مَن كان معتصِمًا بغيرِ الله، فإنَّ مِن تحقيقِ توبتِه أن يعدِلَ عن الاعتِصامِ بغير الله إلى الاعتصامِ بالله؛ لأنَّ الدَّاءَ يُداوَى بدواءٍ مقابلٍ؛ فالاعتصامُ بغيرِ الله شِركٌ، يُداوَى بالاعتصامِ بالله عزَّ وجلَّ، ولكلِّ داءٍ دواءٌ يُناسِبُه[3].

٤- أنَّ مِن تمام التَّوبةِ إخلاصَ المشرِكِ؛ لقوله: ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾، والمنافِقون عندهم إشراكٌ؛ لأنَّهم ﴿يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، لذا فالإخلاصُ شرْطٌ في توبةِ المنافِقِ؛ لأنَّ ذَنْبَه بالرِّياءِ؛ فالله تعالى قال: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾، ثم قال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾[4].

٥- قوله تعالى ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، فيه تغليظاتٌ عظيمةٌ على المنافقين؛ وذلك لأنَّه تعالى شرَط في إزالةِ العقاب عنهم أمورًا أربعة: أولها: التَّوبة، وثانيها: إصلاحُ العمل، وثالثها: الاعتصام بالله، ورابعها:

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٧٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٧٧).

(٤) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٧٠)، (تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٧٧).

الإخلاص، فإذا حصَلت هذه الشَّرائطُ الأربعةُ فعند ذلك قال: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، ولم يقُلْ: (فأولئك مؤمنون)، ثمَّ أوقَع أجرَ المؤمنين في التَّسويفِ؛ لانضمام المنافقين إليهم، فقال: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، وهذه القرائنُ دالَّةٌ على أنَّ حالَ المنافق شديدٌ عند الله تعالى[1].

٦- خصَّ اللهُ تعالى الاعتِصامَ والإخلاصَ بالذِّكرِ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ﴾، مع دخولِهما في قوله: ﴿وَأَصْلَحُوا﴾، فهما من جملةِ الإصلاحِ؛ وذلك لشدَّةِ الحاجةِ إليهما، خُصوصًا في هذا المقام الحرِجِ الَّذي يمكِّنُ مِن القلوبِ النِّفاقَ، فلا يُزيله إلَّا شدَّةُ الاعتصامِ بالله، ودوامُ اللَّجَأِ والافتقارِ إليه في دفعِه، ولكونِ الإخلاصِ منافيًا كلَّ المنافاة للنِّفاق؛ فذَكَرهما لفضلِهما، وتوقُّفِ الأعمالِ الظَّاهرةِ والباطنة عليهما، ولشدَّةِ الحاجةِ في هذا المقامِ إليهما[2].

٧- الحثُّ على الشُّكرِ وعِظَمُ فَضْلِه، يُرشِدُ إلى ذلك قولُ الله تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾، فقَرَن سبحانه الشُّكْرَ بالإيمانِ وأخْبَر أنَّه لا غرَضَ له في عذابِ خلْقِه إنْ شَكَروا وآمَنوا به[3].

٨- يُستفادُ من قوله تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾ أنَّ مَن لم يشكُرِ اللهَ، أو مَن لم يُؤمِنْ به فإنَّه عُرْضةٌ للانتقامِ والعذابِ؛ لأنَّ اللهَ سبحانه نفى العذابَ عمَّن شكَر وآمَن، وهذا يدلُّ على أنَّ مَن لم يشكُرْ ويؤمِنْ فإنَّه معرَّضٌ لعقابِه، وهذا هو الواقعُ؛ قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[4] [الأنفال: ٢٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (١/ ٢١١).

(٣) ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص:١١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٧٨).

الفوائدُ العِلميَّة واللَّطائف:

١- في هذه الآيَة: ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾: دليلٌ على كمالِ عدلِ اللهِ، وأنَّ الله لا يُعَذِّبُ أحَدًا قبل قيام الحُجَّةِ عليه(١).

٢- أنَّ اللهَ سبحانه له سلطانٌ وحُجَّةٌ على مَن خالَفَ أمْرَه، ويدلُّ على هذا قولُه تعالى حين ذكَر إرسالَ الرُّسلِ: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾، فهنا لو لم يُرسَلِ الرُّسُلَ صارتِ الحُجَّةُ للنَّاسِ على اللَّهِ، وإذا أَرسَلَ الرُّسلَ وبُيِّنَتِ الأحكامُ صارتِ الحُجَّةُ للهِ على العباد(٢).

٣- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه وجوبُ موالاةِ المؤمنين ومُناصرتِهم؛ لأنَّ المؤمنين إخوةٌ، فما أصابَ أحدَهم فقد أصاب الآخَرَ، وما حصَلَ مِن ضررٍ وجَب على جميعِ المؤمنين إزالتُه، على حسَبِ الحالِ والإمكان(٣).

٤- النهيُ عن ائتمانِ أهلِ الشِّركِ والثِّقةِ بهم؛ يُبيِّن ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾(٤).

٥- الأعمالُ المشروعةُ لا يُنهَى عنها خوفًا مِن الرِّياء، بل يُؤمَر بها، وبالإخلاصِ فيها، ونحن إذا رأينا مَن يَفعلُها أقرَرْناه، وإنْ جزَمْنا أنَّه يفعَلُها رياءً؛ فالمنافِقون الَّذين قال اللهُ فيهم: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ فهؤلاء كان النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ والمسلمون يُقرُّونَهم على ما يُظْهِرُونه من الدِّينِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٧٣).

(٣) ((المصدر السابق)).

(٤) ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (١/ ٤٧٢).

وإنْ كانوا مُرائِينَ، ولا يَنهَوْنَهم عن القيامِ بالظَّاهر؛ لأنَّ الفسادَ في ترْك إظهارِ المشروعِ أعظمُ مِن الفَسادِ في إظهارِه رياءً(١).

٦- قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾، والسَّببُ في كونِ المنافقِ أشدَّ عذابًا من الكافرِ؛ لأنَّه مِثلُه في الكفر، وضمَّ إليه نوعًا آخَرَ من الكُفرِ، وهو الاستهزاءُ بالإسلامِ وبأهله، وبسببِ أنَّهم لَمَّا كانوا يُظهِرون الإسلامَ يمكِنُهم الاطِّلاعُ على أسرار المسلمين، ثمَّ يُخبِرون الكفَّارَ بذلك، فكانت تتضاعَفُ المِحنةُ مِن هؤلاء المنافقين؛ فلهذه الأسبابِ جعَل اللهُ عذابهم أزيدَ مِن عذابِ الكفَّار(٢) فهم شرُّ أهلِ النَّار بما جمَعوا بين الكفرِ والنِّفاقِ ومُخادعةِ الله والمؤمنين وغشِّهم؛ فأرواحُهم أسفلُ الأرواحِ، وأنفسُهم أخَسُّ الأنفسِ(٣).

٧- إنَّما كان مُستَقرُّ المنافقين ﴿فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾؛ لأنَّ ذلك أخفى ما في النَّار وأسترُه وأخبَثُه، كما أنَّ كُفرَهم أخْفَى الكُفرِ وأخبثُه وأسترُه(٤).

٨- في قوله تعالى: ﴿فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ أنَّ طَبَقاتِ النَّار تُسمَّى دركاتٍ، وسُمِّيَت بذلك؛ لأنَّها مُتدارِكةٌ متتابِعةٌ إلى أسفلَ، كما أنَّ الدَّرجَ متراقيَةٌ إلى فوقَ(٥).

٩- أنَّ هؤلاء المنافقين ﴿فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾، وهذا لا يَعني أنَّ غيرَهم لا يُشاركونهم، بل قد يُشارِكُهم غيرُهم، لكنَّنا نجزِمُ بأنَّ المنافقين ﴿فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ﴾، وأنَّ مَن سواهم قد يكونون فيه، وقد لا يكونون فيه(٦).

---

(١) ((سجود التلاوة معانيه وأحكامه)) لابن تيمية (ص:٩٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٥١).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٣٨٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٣٩).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٧٤).

١٠- قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لَمَّا كان المُنافِقُ متَّصِفًا بنقائضِ هذه الأوصافِ؛ مِن الكُفرِ وفَساد الأعمالِ، والموالاة للكافرين، والاعتزازِ بهم، والمراءاة للمؤمنين- شرَط في توبتِهم ما يُناقِضُ تلك الأوصافَ، وهي التَّوبةُ مِن النِّفاقِ، وهي الوصفُ المحتوي على بقيَّةِ الأوصافِ من حيثُ المعنى، ثمَّ فصَّل ما أجمَلَ فيها، وهو الإصلاحُ للعَملِ المستأنَفِ، المقابِلُ لفسادِ أعمالهم الماضية، ثمَّ الاعتصامُ بالله في المستقبَل، وهو المقابلُ لموالاةِ الكافرين، والاعتماد عليهم في الماضي، ثمَّ الإخلاص لدِين اللهِ، وهو المقابلُ للرِّياء الَّذي كان لهم في الماضي[١].

١١- في قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾، أنَّ المنافقَ تُقبَلُ توبتُه، وأنَّ مَن اتَّصَف بهذه الصِّفات فإنَّه يكونُ مع المؤمنين، ولو كان قبل ذلك منافقًا؛ لأنَّ هذه الصِّفاتِ تنتشلُه من النِّفاقِ إلى الإيمان، فهذه معيَّةُ المؤمنين، لا شكَّ أنَّها منزلةٌ عالية، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾[٢].

١٢- لَمَّا ذكَر أنَّ هؤلاء مع المؤمنينَ لم يقُلْ: (وسوف يُؤتيهم أجرًا عظيمًا)، مع أنَّ السِّياقَ فيهم، بل قال: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾؛ لأنَّ هذه القاعدةَ الشَّريفة لم يزَلِ اللهُ يُبدِئُ فيها ويُعيدُ: إذا كان السِّياقُ في بعضِ الجزئيَّاتِ، وأراد أن يُرتِّبَ عليه ثوابًا أو عقابًا، وكان ذلك مُشتركًا بينه وبين الجِنس الدَّاخِل فيه، رتَّبَ الثَّوابَ في مقابلةِ الحُكمِ العامِّ الَّذي تندرج تحتَه تلك

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٧٦، ٣٧٧).

القضيةُ وغيرُها؛ ولئلَّا يُتوهَّمَ اختصاصُ الحُكمِ بالأمر الجُزئيِّ؛ فهذا مِن أسرارِ القرآن البديعةِ؛ فالتَّائبُ مِن المنافقين مع المؤمنين، وله ثوابُهم(١).

١٣- ﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ شُكرُ اللهِ سبحانه للعبد، يلمِسُ القلبَ لمسةً رفيقةً عميقة، التَّعبيرُ بأنَّ الله سبحانه شاكرٌ، تعبيرٌ عميقُ الإيحاء! وإذا كان الخالقُ المنشئُ، المُنعِم المُتفضِّلُ، الغنيُّ عن العالَمينَ، يشكُرُ لعبادِه صلاحَهم وإيمانَهم وشُكرَهم وامتنانَهم، وهو غنيٌّ عنهم، وعن إيمانهم، وعن شُكرِهم وامتنانهم، إذا كان الخالقُ المنشئُ، المُنعِم المتفضِّلُ، الغنيُّ عن العالَمين يشكُرُ، فماذا ينبغي للعبادِ المخلوقين المُحدَثِينَ، المغمورين بنعمةِ الله، تجاه الخالقِ الرَّازق المُنعِم المُتفضِّلِ الكريم؟! ألا إنَّها اللَّمسةُ الرَّفيقةُ العميقة الَّتي ينتفضُ لها القلبُ ويخجَلُ ويستجيبُ، ألا إنَّها الإشارةُ المُنيرة إلى معالِم الطَّريقِ، الطَّريقِ إلى اللهِ الواهِبِ المنعِمِ، الشَّاكرِ العليم(٢).

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾: استئناف ابتدائيٌّ؛ لأنَّه توجيهُ خِطابٍ بعدَ الانتهاءِ من الإخبارِ عن المنافِقين بطريقِ الغَيبة(٣)، وقد نُهوا عن موالاةِ الكَفَرةِ صَريحًا في هذه الآية، وإنْ كان ما تقدَّمَ في بيانِ حالِ المنافقين، مَزْجرةً عن ذلك؛ مُبالغةً في الزَّجر والتَّحذير(٤).

٢- قوله: ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾: استئناف بيانيٌّ؛ لأنَّ النَّهيَ عن اتِّخاذِ الكافرين أولياءَ ممَّا يبعَثُ النَّاسَ على معرفةِ جزاء هذا الفِعل، مع قصد التَّشهيرِ بالمنافقين، والتَّسجيل عليهم، أي: إنَّكم إنِ استمررتُم

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٢)، ((القواعد الحسان)) للسعدي (ص: ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٧٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٤٦).

على موالاةِ الكافرين، جعَلتُم للهِ عليكم حُجَّةً واضحةً على فَسادِ إيمانكم، فهذا تعريضٌ بالمنافقين(١).

- والاستفهام في قولِه: ﴿أَتُرِيدُونَ﴾ مُستعمَلٌ في معنى التَّحذيرِ والإنذار(٢).

٣- **قوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾**: جملةٌ مستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ إذ هي عَودٌ إلى أحوالِ المنافقين، وتأكيدُ الخبر بـ: (إنَّ) لإفادة أنَّه لا مَحِيصَ لهم عنه(٣).

٤- **قوله: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾** أتى بـ(سوف)؛ لأنَّ إيتاءَ الأجرِ يكونُ يومَ القيامة، وهو زمانٌ مستقبَل ليس حاضرًا، و(سوف) أبلغُ في التَّنفيسِ من السِّينِ(٤).

٥- **قوله: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾**: جملة استئنافيَّةٌ مسُوقةٌ لبيانِ أنَّ مدارَ تعذيبِهم وجودًا وعَدَمًا إنَّما هو كُفرُهم، لا شيء آخَر، فيكون مُقرِّرًا لِمَا قبله من إثابتِهم عن توبتِهم(٥).

- وقوله: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ- على القولِ بأنَّ ﴿مَا﴾ استفهاميَّة- مُفيدٌ للنَّفيِ على أَبلغِ وجهٍ وآكَدِه(٦).

- وقوله: ﴿إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾: فيه تقديمُ الشُّكرِ على الإيمان؛ لأنَّ العاقلَ ينظُرُ إلى ما عليه من النِّعمةِ العظيمة في خَلْقِه، وتَعريضِه للمنافعِ، فيشكُرُ شُكرًا مبهَمًا، فإذا انتَهى به النَّظرُ إلى مَعرفةِ المنعِمِ آمَنَ به، ثمَّ شكَر شُكرًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٢٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١١٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٤٥).

(٦) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

مُفصَّلًا، فكان الشُّكرُ متقدِّمًا على الإيمانِ، وكأنَّه أصلُ التَّكليفِ ومدارُه(١).

٦- قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾: اعْتِرَاضٌ في آخرِ الكلام، وهو إعلامٌ بأنَّ اللهَ لا يُعطِّلُ الجزاءَ الحسَنَ عن الَّذين يُؤمنون به، ويَشكُرون نِعمَه الجمَّةَ، والإيمانُ بالله وصفاتِه أوَّلُ درجاتِ شُكرِ العبدِ ربَّه(٢).

- وأتَى بصِفة الشُّكر ﴿شَاكِرًا﴾ باسمِ الفاعِل بلا مبالغةٍ؛ ليدلَّ على أنَّه يَتقبَّلُ ولو أقلَّ شيءٍ مِن العمل، ويُنمِّيه(٣).

- وأتَى بصفة العِلم ﴿عَلِيمًا﴾ على صِيغةِ (فعيل)؛ للمُبالغةِ في وصْفِه سبحانه بالعِلمِ بجميعِ المعلوماتِ(٤)، وفيه تحذيرٌ، وندبٌ إلى الإخلاصِ للهِ تَعالَى(٥)، مع ما في الجَمْعِ بين صِفتَي ﴿شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ مِن البَلاغةِ والمناسبةِ الحَسنةِ للسِّياق.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٠٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٤٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١١٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٤٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١١٥).

الآيات (١٤٨ - ١٥٢)

﴿ ۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿بِالسُّوءِ﴾: السُّوء اسمٌ جامعٌ للآفات، ثم استُعمل في كلِّ ما يُستقبحُ، وهو أيضًا كلُّ ما يغمُّ الإنسان[1].

﴿سَبِيلًا﴾: فِعلًا وطريقًا، والسَّبِيلُ: الطَّريق الذي فيه سُهولة، وأصل (سبل): امْتِدَادُ شَيْءٍ[2].

﴿مُهِينًا﴾: مُذِلًّا، والهوان: الاستخفاف، أو أن يُذَلَّ الإنسانُ من جهة متسلِّط، مستخِفٍّ به، وأصله يدلُّ على احتقارٍ، وحقارة في الشيء[3].

مشكل الإعراب:

قوله: ﴿إِلَّا مَنْ ظُلِمَ﴾

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٣)، ((المفردات)) للراغب (١ / ٤٤١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١ / ١٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣ / ١٢٩)، ((المفردات)) للراغب (١ / ٣٩٥).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٦).

في هذا الاستثناءِ قولان: أحدهما: أنَّه استثناء منقطع، ويكون المستثنى ﴿مَنْ﴾ في موضِعِ نصْب، تَقديرُه: لكنْ مَنْ ظُلِمَ له أنْ يَنتصِفَ مِن ظالِمِه بما يُوازي ظُلامتَه. والثاني: أنَّه متَّصل، و﴿مَنْ﴾ مُستثنًى مِن (أحَد) المُقدَّرِ الذي هو فاعلٌ للمَصدرِ ﴿الْجَهْرَ﴾، والمعنى: لا يحبُّ أن يَجهرَ أحدٌ بالسُّوء إلَّا مَن يُظلَم فيَجهر؛ كأنْ يَدعوَ الله بكشفِ السُّوءِ الذي أصابه، أو يَشكوَ ذلك إلى إمام، أو حاكمٍ، فعلى هذا يجوزُ أن يكونَ المستثنَى ﴿مَنْ﴾ في موضِع رفْعٍ بدلًا مِن المستثنَى منه المحذوفِ؛ إذ التقديرُ: أنْ يَجهَرَ أحدٌ. وأنْ يكونَ في موضِع نصْب على أصلِ الاستِثْناء مِن (أحد) المقدَّر، والتقديرُ: لا يُحبُّ اللهُ أنْ يَجْهَرَ أحدٌ بالسُّوءِ إلَّا المظلومُ، أو المظلومَ- رفعًا ونصبًا. وقيل غيرُ ذلك[1].

المعنى الإجمالي:

يُخبِر تعالى أنَّه لا يُحبُّ أن يجهرَ أحدٌ مِن عبادِه بالسيِّئ من القول، إلَّا مَن ظُلِم؛ فلا حرَجَ عليه أن يخبر بما أسيء إليه، كأن يشتكيَ ممَّن ظلَمه، أو يقولَ للنَّاس: إنَّه ظالم، أو يَدْعوَ عليه، وكان الله سميعًا عليمًا.

ثم يُخاطب عبادَه قائلًا لهم: إنَّهم إنْ يُظهروا الخير أو يُخفوه، أو يَعفوا عمَّن أساء إليهم؛ فإنَّه جلَّ وعلا عَفوٌّ يصفَحُ عن ذنوب عباده مع قُدرته على معاقبتِهم عليها؛ فلْيَعفوا هم أيضًا عمَّن أساء إليهم.

ثم بيَّن تعالى أنَّ الذين يَكفُرون بالله ورُسله، ويُريدون أن يُفرِّقوا بين الله ورُسُله؛ بالإيمانِ به عزَّ وجلَّ والكُفرِ بالرُّسل، ويقولون: نؤمن ببعض الرُّسل، ونكفُر ببعضٍ منهم، ويريدون بهذا أن يَسلُكوا طريقًا يُوصلهم إلى اللهِ، فأخبر تعالى أنَّ هؤلاء هم الكافرون حقًّا، ولا ينفعهم ما يَدَّعون من إيمانهم ببعض

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢١١)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٠٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٣٤: ١٣٨).

الرُّسل، وتوعَّدهم تعالى بكونِه أعدَّ للكافرين عذابًا مُخزيًا مُذلًّا.

وأمَّا الذين آمَنوا بالله ورُسُله ولم يُفرِّقوا بَينهم؛ إذْ آمنوا بهم جميعًا، فوعَدهم الله- ووعْدُه الحقُّ- بأنَّه سوف يُعطيهم جزاءَ إيمانهم، وسيُثيبهم عليه، وكان الله غفورًا رحيمًا.

تفسير الآيات:

﴿لَا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللهُ سَمِيعًا عَلِيمًا (١٤٨)﴾.

مُناسبةُ الآية لِمَا قَبلَها:

لَمَّا شوَّه الله حالَ المنافقين، وشَهَّر بفضائحِهم تشهيرًا طويلًا، كان الكلامُ السَّابق بحيث يُثير في نفوس السَّامعين نُفورًا من النِّفاق وأحواله، وبُغضًا للملموزين به، وخاصَّة بعد أنْ وصفَهم باتِّخاذ الكافرين أولياءَ من دون المؤمنين، وأنَّهم يَستهزئون بالقرآن، ونَهَى المسلمين عن القعود معهم؛ فحَذَّر اللهُ المسلمين من أن يَغيظهم ذلك على مَن يَتوسَّمون فيه النِّفاق، فيُجاهروهم بقول السُّوء، ورخَّص لِمَن ظُلِم من المسلمين أن يَجهرَ لظالِمِه بالسُّوء؛ لأنَّ ذلك دفاعٌ عن نفسه[1]، فقال تعالى:

﴿لَا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى يُبغض - أيُّها الناسُ - جَهْرَ أحدٍ منكم بالقول السيِّئ، كالشَّتمِ والقَذْف والسَّبِّ، ونحوِ ذلك[2].

﴿إِلَّا مَنْ ظُلِمَ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٣١-٦٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٨٠).

أي: أمَّا مَن ظُلم؛ فلا حرَجَ عليه أن يُخبِرَ بما أُسيء به إليه، كأنْ يدعوَ على مَن ظلَمَه ويتشكَّى منه، أو أن يقول له: أنت ظلمتني، أو يقول للناس: إنه ظالم، من غير أن يَكذِبَ عليه، ولا يَزيد على مظلمتِه، ولا يَتعدَّى بشَتمِه غيرَ ظالِمِه[1].

﴿وَكَانَ اللهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾.

أي: إنَّ الله تعالى سميعٌ لِمَا تَجهرون به من سوءِ القولِ وغير ذلك من أقوالِكم، عليمٌ بما تُخفون منها، وعليمٌ بنِيَّاتكم ومَصدرِ أقوالكم، ومُحْصٍ ذلك كلَّه عليكم، فيُجازي كلًّا منكم بحَسَبه؛ إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشرٌّ، فاحْذروا أن تقولوا ما لا يَرضاه، أو أن تُخفوا في قلوبِكم ما لا يحبُّه[2].

﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا (١٤٩)﴾.

مُناسبةُ الآية لِمَا قَبلَها:

لـمَّا نَهَى الله سبحانه عن الجَهرِ بالسُّوء، ورخَّص فيه لِمَن ظُلِم، ندَب المرخَّصَ لهم إلى العفوِ وقولِ الخيرِ[3]؛ فقال:

﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ﴾.

أي: إن تُظهروا - أيُّها الناسُ - جميلًا من القول أو الفِعل، أو تتركوا إظهارَه فتُخفوه[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٨١-٣٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٣٢-٦٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٨٩).

﴿أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ﴾.

أي: أو تَصْفَحوا عن إساءةِ مَن أساء إليكم بقولٍ أو فِعل(١).

﴿فَإِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾.

أي: فإنَّ الله تعالى يَصفَح عن ذُنوب عبادِه، مع قُدرتِه على عِقابهم عليها؛ فاعْفوا أنتم أيضًا- أيُّها الناسُ - عمَّن أتى إليكم ظُلمًا، ولا تَجهروا له بالسُّوء من القول، وإنْ قدَرتُم على الإساءةِ إليه، كما يَعفو عنكم ربُّكم مع قُدرتِه على عِقابِكم، وأنتم تَعصونه، والجزاءُ من جِنس العملِ؛ فمَن عفَا للهِ سبحانه عفَا اللهُ تعالى عنه(٢).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١٥٠)﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ﴾.

أي: إنَّ الكافرين بالله تعالى وبرُسله عليهم السَّلام مِن اليهودِ والنَّصارى وغيرِهم(٣).

﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ﴾.

أي: ويُريدون أن يُؤمنوا بالله تعالى، ويَكفُروا برُسُلِه الَّذين أرْسلَهم إلى خَلْقِه؛ فيُكذِّبوهُم(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٩٢-٣٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٩٣).

﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾.

أي: ويقولون: نؤمن ببعض الرُّسُل، ونكفُر ببعضهم، كما فعلتِ اليهود؛ فكَفروا بعيسى ومحمَّد صلَّى الله عليهما وسلَّم، وزَعَموا الإيمانَ بموسى عليه السَّلام. وكما فعَلتِ النَّصارى؛ فكفروا بمحمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وزَعَموا الإيمانَ بعيسى عليه السَّلام[1].

﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾.

أي: ويُريدون بإيمانهم ببعض الرُّسل دون بعضٍ سُلوكَ طريقٍ يُوصلهم إلى الله تعالى، ويُنجِّيهم من عذابه[2].

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (١٥١)﴾.

مُناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

جاءَ ذِكر هذه الآية عقِبَ ما قَبلَها؛ لئلَّا يُتوهَّم أنَّ مرتبة هؤلا الكفَّار الذين وصَفَهم اللهُ تعالى متوسِّطةٌ بين الإيمانِ والكُفر[3]، فقال تعالى:

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾.

أي: إنَّ كُفرَ هؤلاء الكفار محقَّقٌ لا محالة، وهم مُستحقُّونَ عذابَ الله تعالى حقًّا؛ فاستيقِنوا ذلك أيُّها المؤمنون، ولا يُشكِّكنَّكم في أمْرِهم انتحالُهم الكذبَ بدَعْوى أنَّهم يُقرُّون ببعض الرسل؛ فلو كانوا مؤمنين حقًّا بِمَن زعَموا الإيمانَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٢).

بهم، لآمَنوا بغيرِهم من الرُّسل عليهم السَّلام(١).

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾.

أي: إنَّ الله تعالى قد هيَّأ لهؤلاء الكفَّار وغيرهم من الكافِرين عذابًا مخزيًا ومُذلًّا لهم، كما تكبَّروا عن الإيمانِ الحقِّ بالله تعالى، واستهانوا بـمَن كفَروا به من الرُّسل عليهم السَّلام(٢).

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ (١٥٢)﴾.

مُناسبةُ الآية لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر الله عزَّ وجلَّ حالَ الذين يؤمنون ببعض، ويَكفُرون ببعض، ذكَر حالَ الذين يَجمعون في الإيمانِ بين الجميع(٣)، فقال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾.

أي: إنَّ المؤمنينَ بالله تعالى حقًّا، وبجميعِ رُسلِه الكرام عليهم السَّلام، دون أن يُفرِّقوا بينهم بالإيمانِ ببعضهم والكُفرِ ببعضهم(٤).

﴿أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾.

أي: إنَّ هؤلاءِ المؤمنين بالله تعالى ورُسُله عليهم السَّلام جميعًا، سوف

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٢-٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٣-٢١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٣٧-٦٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٣).

يُعطيهم اللهُ عزَّ وجلَّ جزاءَهم وثوابَهم على إيمانهم به سبحانه وبجَميعِ رُسلِه عليهم السَّلام[١].

﴿وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

أي: إنَّ الله تعالى غفورٌ لِمَن آمَن به وبجميعِ رُسله، فيَغفِر لهم السيِّئات، رحيمٌ بهم بتفضُّله عليهم بالهدايةِ إلى طريق الحقِّ، وتقبُّل الحسَنات[٢].

الفوائِد التربويَّة:

١- نهى الله تعالى عن الجهر بالسُّوء من القول؛ لأنَّ شيوع هذا السوء كثيرًا ما يترك آثارًا عميقةً في ضمير المجتمع؛ فهو يبدأ في أوَّل الأمر اتِّهامات فرديَّة- سبًّا وقذفًا- ويجلب العداوة والبغضاء بين مَن يَجهرون بالسُّوء ومَن يُنسب إليهم هذا السُّوء، وقد تُفضي العداوةُ إلى هضْمِ الحقوق، وسفْك الدماء، وينتهي انحلالًا اجتماعيًّا، وفوضى أخلاقيَّة، وتنعدم فيها الثقةُ بين بعض الناس وبعض، وقد شاعتِ الاتِّهاماتُ ولاكتْها الألسنةُ بلا تحرُّج، فيُخيَّل إلى الناس أنَّ الشرَّ قد صارَ غالبًا، والناس يَقتدي بعضهم ببعض[٣].

٢- أنَّ الإسلام يَحمي سُمعةَ الناس- ما لم يظلِموا- فإذا ظلموا لم يستحقُّوا هذه الحمايةَ، وأُذِن للمظلوم أن يَجهرَ بكلمة السوء في ظالِمِه، وكان هذا هو الاستثناءَ الوحيد من كفِّ الألسِنة عن كلمة السُّوء، قال تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ﴾[٤].

٣- في قوله تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ﴾:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) (٦/ ٣)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٧٩٥، ٧٩٦).

(٤) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٧٩٦).

حُسْنِ دِينِ الإسلام، وأنَّه يدعو إلى التراضي، وعدَمِ الجهر بالسوء، وأنْ لا نفضحَ أحدًا بسوئه؛ ولهذا كانتِ الغِيبةُ من كبائر الذُّنوب، وهي ذِكرُك أخاك بما يكره[1].

٤- عدالةُ الإسلام، ووجْه ذلك: أنَّه رخَّص للمظلوم أن يجهرَ بالقول، لكن بحسَب مظلمتِه ولا يَزيد؛ قال تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ﴾[2].

٥- في قوله سبحانه: ﴿لَا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ﴾: أنَّ الدينَ الإسلاميَّ لا يَكبِت النفوسَ، بل يوسِّع لها، ويَشرح الصُّدور، وجهُ ذلك: أنَّه رخَّص للمظلوم أن يجهر بالسُّوء بقدر مظلِمته؛ لأنَّ ذلك تنفيسٌ عن نفسِه بلا شكٍّ[3].

٦- يستفاد من قوله تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ﴾ أنَّ مَن كان كاملَ الإيمان، عاليَ الأخلاق، فلا فَرقَ عنده في إبداء الخير وإخفائِه من جِهة نفْسِه؛ فهو يُرجِّح أحدَ الأمرين على الآخر بنيَّة صالحة، أو منفعة بيِّنة، ومَن ليس كذلك ينبغي أن يُرجِّح الإخفاءَ؛ حتى لا يكون له هوًى فيه، ومن بواعث الإبداءِ قصدُ القدوة، ومن بواعث الإخفاءِ قصدُ السِّتر، وحِفظ كرامة مَن يُوجَّه إليه الخيرُ، كالصدقة على الفقراء المتعفِّفين[4].

٧- أنَّ الإحسانَ إلى النَّاس يكونُ إمَّا بإعطاء الخير ظاهرًا أو خفيًّا، وإمَّا بدفْع السوء، وذلك بالعفوِ عنه؛ لقوله: ﴿أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ﴾؛ فالعفو عن السوء خيرٌ، فيُستفاد من ذلك فضيلةُ العفوِ عن السُّوءِ[5].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٨٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٩٠).

٨- الإشارةُ إلى أنَّ مَن عفَا عن الخَلْق عفوًا في محلِّه فلْيُبشر بعفو الله تعالى؛ لقوله: ﴿فَإِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾[١]

٩- في قوله تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ... فَإِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾: إرشادٌ إلى التفقُّه في معاني أسماء الله وصِفاته، وأنَّ الخَلْق والأمر صادرٌ عنها، وهي مقتضيةٌ له، ولهذا تُعلَّل الأحكامُ بالأسماءِ الحُسنى؛ فإنَّه لَمَّا ذكَر عمَلَ الخيرِ، والعفوَ عن المسيء رتَّب على ذلك بأنْ أحالنا على معرفةِ أسمائه، وأنَّ ذلك يُغنينا عن ذِكر ثوابِها الخاصِّ[٢].

١٠- قوله: ﴿ فَإِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ فيه استحبابِ العفوِ مع القُدرة، والإشارة إلى أنَّه إذا كان الله تعالى مبالغًا في العفو عمَّن أساء مع كمال قُدرته على المؤاخذة ، فأنتم مِن باب أَوْلَى عليكم أن تعفوا؛ لأنَّكم ليس لديكم القدرة في الانتصار للنَّفس، والانتقام مِن المجرم كالذي عندَ الله عزَّ وجلَّ[٣]، وإيرادُه في معرض جواب الشَّرط ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا...﴾ يدلُّ على أنَّ العمدةَ هو العفوُ مع القُدرة[٤].

الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف:

١- إباحةُ الجهرِ بالسُّوء للمظلومِ أو مشروعيَّته له هو من بابِ الضَّرورات؛ لأنَّه ارتكابُ أخفِّ الضَّررينِ، والضروراتُ تُقدَّر بقَدرِها، كما قال أهلُ الأصول؛ فلا يجوزُ للمظلومِ أن يتَّبع هواه في الاسترسال والتَّمادي في الجهرِ بالسوء، بما لا دَخلَ له في منْع الظلمِ والتَّخلُّص منه، وأَطْر الظالم على الحقِّ[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٩١).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (١ / ٢١٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) (٦/ ٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٨٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٤٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٦).

٢- في ختم الآية بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ بعد ذكر ما يُمنع وما يُباح مِن الكلام: تحذيرٌ مِن التَّكلُّم بما يُغضِب الله، وفيه أيضًا ترغيبٌ في القول الحسَن؛ فهو سبحانه سميعٌ يسمعُ أقوالَكم، وعليمٌ بنيَّاتِكم ومصدرِ أقوالِكم(١).

٣- قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾: فيه ربْط الأمر في النِّهاية بالله، بعدَما ربَطَه في البداية بحبِّ الله وكُرهه حين قال سبحانه: ﴿لَا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ..﴾(٢).

٤- أنَّ معاقِد الخيراتِ على كثرتِها محصورةٌ في أمرين: صِدقٍ مع الحقِّ، وخُلُقٍ مع الخَلْق، والذي يتعلَّقُ بالخَلق محصورٌ في قِسمين: إيصالُ نفْعٍ إليهم، ودَفْعُ ضرَرٍ عنهم؛ فقوله: ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ﴾ إشارةٌ إلى إيصال النَّفْع إليهم، وقوله: ﴿أَوْ تَعْفُوا﴾ إشارةٌ إلى دفْع الضَّرَر عنهم، فدخل في هاتينِ الكلمتينِ جميعُ أنواع الخيرِ وأعمال البِرِّ(٣).

٥- أنَّ عفو الله تعالى أكملُ أنواع العَفو؛ لأنَّه عفوٌ مع القُدرة؛ لقوله: ﴿فَإِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾(٤).

٦- كلمة ﴿قَدِيرًا﴾ قد أفادتْ بوضعها هنا الدَّلالةَ على عِظَمِ الجزاءِ على العمل الذي رغَّبَتْ فيه الآية(٥).

٧- الثَّوابُ والعِقابُ يكونانِ مِن جِنسِ العملِ في قدَرِ اللهِ تعالى وفي شَرْعِه؛ يُبيِّن ذلك قولُ الله تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٢).
(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٧٩٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٥٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٩١).
(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٧).

كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ وهَذا مِن العَدْلِ الَّذِي تَقُومُ بِهِ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ[١].

٨- قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ﴾ يتضمن الإيمانَ بكلِّ ما أخبر الله به عن نفْسِه، وبكلِّ ما جاءتْ به الرُّسُلُ من الأخبار والأحكام[٢].

٩- أنَّ الكفر ببعض الرُّسُل كفرٌ بالجميع؛ لقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾، ويدلُّ على هذا أيضًا قولُه تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥] مع أنَّ نوحًا كان أوَّلَ الرُّسُل، ومع ذلك جعل تكذيب قومِه له تكذيبًا لجميعِ الرُّسل؛ لأنَّ التكذيبَ بالرسول كأنَّه تكذيبٌ بالجنس، أي: بجِنس الرِّسالة[٣].

١٠- إنَّما قال: ﴿وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ مع أنَّ التفريق يَقتضي شيئين فصاعدًا، إلَّا أنَّ لفظ (أحَد) يستوي فيه الواحدُ والجمْع، والمذكَّر والمؤنَّث، ويدلُّ عليه وجهان: الأوَّل: صحَّة الاستثناء. والثاني: قوله تعالى: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾[٤] [الأحزاب: ٣٢].

١١- في قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ تمام مِنَّة الله سبحانه على العِباد؛ حيث سمَّى الثواب أجْرًا، ومن المعلوم أنَّ الأجر ثابتٌ لزومًا للمُستأجَر، والذي أوجب هذا الأجرَ هو اللهُ تعالى؛ أوجبَه على نفْسِه، وهذا يدلُّ على تمامِ فضْله عزَّ وجلَّ ومِنَّته[٥].

بلاغة الآيات:

١- قوله تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ...﴾: فيه إيجاز

(١) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ١١٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٩٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٥٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٠٣).

بالحَذْف، والتقدير: (لا يحبُّ الله الجهرَ بالسُّوءِ مِن القول ولا الإسرارَ به...) كما يُعلَم مِن نهيِه تعالى عن التَّجْوى بالإثم والعُدوان ومعصية الرَّسول، وأمْره بالتناجي بالبرِّ والتقوى فقط. وإنما خصَّ الجهر هنا بالذِّكر؛ لمناسبةِ بيان مفاسدِ الكفَّارِ والمنافقين في هذا السِّياق، ولأنَّ الجهرَ بالسُّوءِ أشدُّ ضررًا من الإسرارِ به؛ لأنَّ ضررَه وفسادَه يَفشُو في جمهورِ الناس، حتى لا يكادَ يَسلَمُ منه أحدٌ[1].

٢- قوله: ﴿وَكَانَ اللهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾: خبرٌ فيه تهديدٌ وتحذيرٌ مِن التعدِّي في الجهر المأذونِ فيه، يعني فليتَّقِ اللهَ ولا يقُلْ إلَّا الحق، ولا يقذف مستورًا بسوء؛ فإنَّه يصير عاصيًا لله بذلك، وهو تعالى سميعٌ لِما يقوله، عليمٌ بما يضمره[2]، فيوشك أن يُوقِع العقوبةَ بمَن خالف أمْرَه وعصاه.

٣- قولُه: ﴿يَكْفُرُونَ﴾: جِيء بالمضارعِ هنا؛ للدَّلالة على أنَّ هذا أمرٌ متجدِّد فيهم مستمرٌّ؛ لأنَّهم لو كفروا في الماضي ثم رجعوا لَمَا كانوا أحرياءَ بالذمِّ[3].

٤- قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾: (حَقًّا) مصدر مؤكِّد لمضمون الجُملة الخبريَّة، أي: هم الذين كفروا كفرًا حقًّا، أي: يَقينًا محقَّقًا[4].

- وأفاد تعريفُ جُزأي الجُملة، والإتيان بضمير الفَصْل (هم)؛ تأكيدَ قصْرِ صفة الكفرِ عليهم، بتنزيل كُفر غيرِهم في جانب كُفرهم منزلةَ العَدم[5]. والإتيان بضمير الفَصْل فيه أيضًا؛ لئلَّا يُتوهَّم أنَّ ذلك الإيمانَ ينفعهم[6].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٢٠)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١١).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١١٩).

٥- قوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾: فيه إظهارٌ في مقام الإضمارِ- حيث قال: ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ ولم يقُل: (لهم)-؛ ذمًّا لهم، وتَجسيدًا لكفرهم كأنَّه بمنزلةِ المرئيِّ بالبصر. والإظهارُ في موضِع الإضمارِ ليس تطويلًا، وزيادة بلا فائدةٍ، بل له فَوائِدُ؛ منها: قصْدُ العموم، وتطبيقُ الوَصْف على أولئك الذين يَعودُ الضميرُ عليهم لو كانَ موجودًا، وكذلك بَيانُ عِليَّة الحُكم، فمثلًا: في قوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾، لو قال: (أَعتَدْنا لهم) لم يَتبيَّن لماذا أعدَّ لهم هذا العذابَ، لكن لَمَّا قال: ﴿لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، كأنَّ هذا الوصفَ يُفيد العِليَّة، أي: إنَّ العِلَّةَ في إعدادِ العَذابِ المهين لهم هو الكُفرُ[1].

٦- قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ...﴾ الآية إلى آخِرها: جِيءَ بها لمقابلةِ المسيئين بالمحسنين، ومقابلةِ النِّذارةِ بالبشارة على عادةِ القرآن[2]، وهو من محاسنُ بلاغته، فالقرآن مثانٍ، إذا ذكر شيئًا ذكر ضدَّه[3].

٧- قوله: ﴿أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾: فيه التعبيرُ باسم الإشارة ﴿أُولَئِكَ﴾؛ تَعظيمًا لهم، وجاءت بصيغة البعيدِ؛ للدَّلالة على علوِّ منزلِتهم[4].

- والتَّصدير بـ(سوف)؛ لتأكيدِ الوعد، والدَّلالة على أنَّه كائن لا محالة، وإنْ تأخَّر[5].

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٠٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٩٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٤٩).

الآيات (١٥٣ - ١٦٢)

﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى
أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا
الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا
(١٥٣) وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا
فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (١٥٤) فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ
اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا
يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥٥) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ
إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ
الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧)
بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨) وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ
مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (١٥٩) فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ
طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠) وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا
عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦١) لَكِنِ
الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ
الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا
عَظِيمًا (١٦٢) ﴾.

غريب الكلمات:

﴿جَهْرَةً﴾: أي: علانيةً ظاهرًا، وأصل الجهر: إعلانُ الشيءِ وكشفُه، وعلوُّه(١).

﴿الصَّاعِقَةُ﴾: النَّار التي تَنزِلُ من السَّماء عندَ اشتداد الرَّعد، أو الصَّوت الشَّديد

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٥).

من الجوِّ، والوَقعُ الشَّديدُ منَ الرَّعْدِ، أو كلُّ عذاب مُهلِك (الموت - العذاب - النار)، ومنه: صَعِق، إذا مات، وأصل (صعق): يدُلُّ على شِدَّة الصَّوت[1].

﴿الْبَيِّنَاتُ﴾: جمْع بيِّنة، وهي: الدَّلالة الواضحة؛ يُقال: بان الشيءُ وأبان، إذا اتَّضح وانكَشف[2].

﴿سُلْطَانًا﴾: أي: حُجَّة، وأصْل السُّلطان: القُوَّة والقهر، من التَّسلُّط؛ ولذلك سُمِّي السُّلطانُ سُلطانًا[3].

﴿الطُّورَ﴾: اسمُ جبلٍ مخصوصٍ، وهو يُطلق على الجبَل الشَّاهق، أو اسم لكلِّ جبل، أو الجبل المُنبِت، وأصل (طور): الامتدادُ في شيءٍ من مكانٍ أو زمان[4].

﴿بِمِيثَاقِهِمْ﴾: الميثاق: العقد المؤكَّد بيمينٍ وعهد، أو العهدُ المُحكَم، وأصل (وثق): العقد والإحكام[5].

﴿لَا تَعْدُوا﴾: لا تَتعدَّوا وتُجاوزوا ما أُمرتُم به، وأصْل التَّعدِّي: التَّجاوزُ في الشَّيء، والتقدُّم لِمَا يَنبغي الاقتصار عليه[6].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٤-٤٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٧، ٤٢٠، ٧٢٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢، ٢٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٠)، ((المفردات)) للراغب (٢/ ٣٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩١، ٣٩٢).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٣).

(٦) يُنظر: ((العين)) للخليل (٢/ ٢١٣)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦٨).

﴿غَلِيظًا﴾: أَيْ: شَدِيدًا، وخَشِنًا، والغِلظة ضد الرِّقَّة[١].

﴿نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾: أي: نبْذِهم إيَّاه بعدَ القَبول به، وتركِهم العملَ به، وأصل النَّقض ضِدُّ الإبرام: وهو فكُّ تركيبِ الشيء، وردُّه إلى ما كان عليه أوَّلًا؛ فنقض البناء: هدمُه، ونقض المُبرَم: حَلُّه[٢].

﴿غُلْفٌ﴾: جمْع أغلف، أي: كأنَّها في غِلاف لا تَفهم، ولا تَعقِل شيئًا ممَّا يُقال، وأصل الغلف: الغشاوة، وغشيان شيءٍ لشيءٍ[٣].

﴿طَبَعَ﴾: ختَم عليها؛ فلا يَصل إليها هُدًى ولا نورٌ[٤].

﴿بُهْتَانًا﴾: أي: ظُلمًا، ويُطلَق الْبُهْتَانُ على الكَذِبُ، وعلى كلِّ فِعل مُستبشَع يُتعاطى باليد والرِّجل، مِن تناوُل ما لا يجوز، والمشيِ إلى ما يَقبُح[٥].

﴿الْمَسِيحَ﴾: هو عيسى عليه السَّلام؛ وسُمِّي عيسى بالمسيح؛ لأنَّه كان لا يَمسحُ بيدِه ذا عاهةٍ إلَّا برِئ[٦].

﴿صَلَبُوهُ﴾: علَّقوه، وشدُّوا صُلبَه على خَشَبٍ؛ ليَقتلوه[٧].

---

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٩٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٣)، مقاييس اللغة (٤/ ٣٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٥).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥١٥).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١ / ١٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١ / ٣٠٧)، ((المفردات)) للراغب (١ / ١٤٨).

(٦) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص:٧٦٧-٧٦٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥).
وثمَّة أقوالٌ أخرى عن سبب تسمية عيسى عليه السلام بالمسيح؛ فمنها: أنَّه سُمي به لسياحته في الأرض. ومنها: لأنَّه خرَج مِن بَطنِ أُمِّه ممسوحًا بالدُّهن. ومنها: لأنَّه كان أمسحَ الرِّجلين، أي: ليس لِرجله أخمص- والأخمص: ما جفا عن الأرض من باطن الرِّجل. يُنظر: ((التبيان)) لابن الهائم (ص:١٢٣).

(٧) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٩).

﴿شَهِيدًا﴾: شاهدًا على مَن كَفَر به وكذَّبه، ولِمَن آمَن به وصَدَّقه، والشَّهادةُ قولٌ صادرٌ عن عِلمٍ حَصَل بمشاهدة بصيرة أو بصَر(١).

﴿الرِّبَا﴾: أصْل الرِّبا الزِّيادة، وخُصَّ في الشَّرع بالزِّيادة على رأسِ المالِ دون وجْه حقٍّ(٢).

﴿الرَّاسِخُونَ﴾: الثَّابتون، جمْع: راسخ، ورُسوخُ الشَّيءِ في الشَّيء، هو ثبوتُه وولوجُه فيه(٣).

مشكل الإعراب:

١- قوله: ﴿فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً﴾

﴿جَهْرَةً﴾: مصدَر، أو مصدرٌ واقعٌ موقعَ الحال؛ وعليه: فيجوز أن تكون ﴿جهرةً﴾ من صِفة القول أو السُّؤال، أو من صِفة السَّائلين، أي: فقالوا مُجاهِرين، أو: سألوا مجاهرين؛ فتكون في محلِّ نصْبٍ على الحال، أو منصوبةً على المصدَر مِن نوع الفِعل (أرنا)؛ فإنَّ الجهرة نوعٌ من الرُّؤية، مثل (قعَد القرفصاءَ)، ويجوز أن تكون نعتًا لمصدرٍ محذوفٍ تقديرُه: رؤية جهرة؛ فحينئذٍ تكون نائبةً عن المفعول المطلَق(٤).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١ / ٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣ / ٢٢١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١ / ٢٨)، ((المفردات)) للراغب (١ / ٤٦٥)، ((تفسير الخازن)) (١/ ٤٤٦).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٨٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٢٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٩).

(٤) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢١١)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٦٤-٤٠٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١/ ٣٦٧-٣٦٨) و(٤/ ١٤٠)، ((إعراب القرآن الكريم)) للدعاس (١/ ٢٣٢).

٢- قوله: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾.

قوله: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ﴾

﴿رَسُولَ﴾: بدلُ من ﴿الْمَسِيحَ﴾، أو عطفُ بيان، أو صِفة له، أو صِفة لـ﴿عِيسَى﴾ عليه السَّلام؛ هذا على أنَّ الكلامَ ما زالَ لليهودِ، وقالوه على سَبيلِ التهكُّم والاستهزاءِ، كقولِ فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧]، ويجوزُ أنْ يَضَعَ اللَّهُ الذِّكرَ الحسَنَ مكانَ ذِكرِهم القبيحِ في الحِكاية عنهم؛ رفعًا لعيسى عمَّا كانوا يَذكُرونه به، وتعظيمًا لِمَا أرادوا بمثلِه، وقيل غيرُ ذلك[1].

قوله: ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾

﴿إِلَّا اتِّبَاعَ﴾: مستثنى مُنقطِع، وهو منصوب؛ لأنَّ اتباع الظنِّ ليس من جِنس العِلم، والنَّصبُ هو أصلُ الاستثناءِ المنقطع في لُغةِ الحجاز، ويَجوزُ في لُغة تميم الإبدالُ من (عِلمٍ) لفظًا فيجرُّ، أو على الموضِع فيُرفَعُ؛ لأنَّ قولَه: ﴿عِلْمٍ﴾مَرفوعُ المحلِّ على الابتداءِ، و﴿مِنْ﴾ زائدةٌ فيه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٨٧)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٠٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٤٥)، ((إعراب القرآن الكريم)) للدعاس (١/ ٢٣٤).

(٢) القول بأنَّ الاستثناء منقطع هو الصَّحيح الذي لم يذكر الجمهورُ غيرَه. وقيل: إنَّه متصل؛ إذ العِلم والظنُّ يَضمُّهما جِنس أنَّهما من معتقدات اليقين؛ يقول الظانُّ على طريق التجوُّز: (علمي في هذا الأمر كذا)، إنما يريد ظني، ورُدَّ هذا القول بأنَّ الظنَّ ما ترجَّح فيه أحد الطرفين، واليقين ما جُزِم فيه بأحدهما، وعلى تقدير التسليم به فاتباعُ الظنِّ ليس من جنس العِلم، بل هو غيره، فهو منقطع أيضًا، أي: ولكنَّ اتباعَ الظن حاصلٌ لهم. يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٤٧)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢١٢).

قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾

﴿يَقِينًا﴾: في نَصْبه أوجه؛ منها: أنَّه حالٌ منصوبة من واوِ الجماعةِ في ﴿قَتَلُوهُ﴾، أي: وما قتلوه مُتيقِّنين لقتْله أنَّه عيسى عليه السَّلام أو غيره. ومنها: أنه نعتٌ لمصدر محذوف، أي: قَتْلًا يَقينًا؛ فيكون نائبًا عن المفعول المطلق. ومنها: أنَّه منصوبٌ بفِعلٍ مِن لفظه، حُذِف للدَّلالة عليه، أي: ما تيقَّنوه يقينًا، ويكون مؤكِّدًا لمضمون الجملة المنفية قبله، وقيل غير ذلك[1].

٣- قوله: ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ كَثِيرًا﴾

﴿كَثِيرًا﴾ منصوبٌ على أنه نعتٌ لمفعول به محذوف، أي: أُناسًا كثيرًا. أو على أنَّه نائبٌ عن المفعول المطلَق (وهو المصدر)، أي: صَدًّا كثيرًا. وقيل غير ذلك[2].

٤- قوله: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾

﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ﴾: لكِنْ: مخفَّفة، وهي حرفُ استدراكٍ لا عمَلَ لها. والرَّاسخون: مبتدأ مرفوع، وخبره إمَّا قوله ﴿يُؤْمِنُونَ...﴾ أو قوله: ﴿أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ﴾ على ما سيأتي بيانُه.

﴿والْمُقِيمِينَ﴾: على قِراءة الجمهور بالياء[3]؛ ففي إعرابه عدَّة أوجه: أظهرُها: أنه منصوبٌ على القطع الذي يُفيد المدح، أي: وأمْدَح - أو: أعني، أو: أخصُّ

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢١٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٤٨)، ((إعراب القرآن الكريم)) للدعاس (١/ ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢١٢)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٠٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٥١-١٥٢).

(٣) وقُرِئ بالواو (والمقيمون)، ولا إشكالَ في إعرابها.

- المقيمين، وهذا القطع مفيدٌ لبيانِ فضلِ الصلاة، فكثرَ الكلامُ في الوصفِ بأن جعل في جملةٍ أُخرى. وعلى هذا الوجه يجب أن يكونَ خبرُ ﴿الرَّاسِخُونَ﴾ هو جملة: ﴿يُؤْمِنُونَ...﴾، وليس: ﴿أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ﴾؛ لأنَّ القطعَ إنَّما يَكونُ بعدَ تمامِ الكلام.

وقيل: إنَّه مجرورٌ عطفًا على (مَا)؛ أي: يُؤمنون بِـما أُنزل إليك وبالمقيمين الصَّلاة، والمراد بهم: الملائكة أو الأنبياء. وقيل: التقديرُ: وبِدِين المقيمين، فيكون المرادُ بهم: المسلمين. وعليه يكون الخبرُ جملةَ ﴿أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ﴾، وتكون جملة (يُؤمِنون بما ...) جملةَ اعتراضٍ؛ لأنَّ فيه تأكيدًا وتسديدًا للكلام، ويكون (يؤمنون) يعود على (الراسخون) و(المؤمنون) جميعًا، ويجوزُ أن تكون جملة (يؤمنون) حالًا منهما. وقيل غير ذلك[1].

﴿وَالْمُؤْتُونَ﴾: في رفْعه أوجهٌ؛ أظهرها: أنَّه خبرٌ لمبتدأ محذوف، ويكون من باب القَطعِ على المدح المذكور في نَصْب (والمقيمين). ومنها: أنَّه معطوفٌ على الضمير المستكنِّ في (الرَّاسخون)، وجاز ذلِك للفَصل. ومنها: أنَّه معطوفٌ

---

(١) قال السَّمين الحلبي- بعد حكاية أوجه الإعراب وتخريجاتها في هذه القراءة-: (وقد زعَم قومٌ لا اعتبارَ بهم أنَّها لحن، ونقَلوا عن عائشةَ وأبان بن عثمان أنَّها خطأ من جِهة غلَط كاتِب المصحف، قالوا: وأيضًا فهي في مصحَف ابن مسعود بالواو فقط؛ نقله الفراء، وفي مُصحَف أُبيٍّ كذلك، وهذا لا يصحُّ عن عائشةَ ولا أبان. وما أحسنَ قولَ الزمخشريِّ رحمه الله: ولا يُلتفت إلى ما زَعَموا من وقوعه لحنًا في خط المصحف، وربَّما التفت إليه مَن لم ينظر في الكتاب، ومَن لم يعرف مذاهبَ العرب، وما لهم في النَّصب على الاختصاص من الافتنان، وغَبِي عليه أنَّ السابقينَ الأوَّلين الذين مَثَلُهم في التوراة ومثَلُهم في الإنجيل كانوا أبعدَ هِمَّةً في الغَيرة عن الإسلام، وذبِّ المطاعن عنه من أنْ يقولوا ثُلمةً في كتاب الله؛ ليسدَّها مَن بعدهم، وخرقًا يرفوه مَن يَلحق بهم) ((الدر المصون)) (٤/ ١٥٥)، وينظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٩٠)، وينظر أيضًا: ((مفاتيح التفسير)) للدكتور أحمد سعد الخطيب (ص: ٧٠٩-٧٢٨) تحت مصطلح «اللحن»؛ فقد عالج هذه الفريةَ (ادِّعاء اللحن في القرآن الكريم أو في بعض قراءاته) من خلال مناقشة الآثار والحُكم عليها، وتوجيه معنى اللَّحن أيضًا.

على الضَّمير في (المؤمنون)، أو على الضَّمير في (يؤمنون). ومنها: أنَّه مبتدأٌ أوَّل، وخَبَره ﴿أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ﴾، فيكون (أولئك) مبتدأً ثانيًا، و (سنؤتيهم) خبرَ المبتدأ الثاني، والجملةُ خبرَ المبتدأِ الأوَّل (المُؤتونَ). وعلى هذا الوجهِ يجبُ أنْ يكونَ خبرُ ﴿الرَّاسِخُونَ﴾ هو جُملة: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ أيضًا.

و﴿الصَّلَاةَ﴾ و﴿الزَّكَاةَ﴾: كلٌّ منهما مفعولٌ به لاسم الفاعِل العامِل عمَلَ فِعله (المقيمين) (الْمُؤْتُونَ)[1].

المعنى الإجمالي:

يقولُ الله تعالى لنبيِّه محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ: إنَّ أهل التوارة من اليهود يَطلُبون منك على سبيلِ التعنُّت أن تُنزِّل عليهم كتابًا من السَّماء، فيَنبغي ألَّا تكترثَ لذلك؛ فقد سألوا موسى ما هو أعظمُ من ذلك، بأنْ يُريهم اللهَ عِيانًا، فعُوقبوا بالصَّعق، بسبب ما ارتكبوه، ثم أنْجاهم اللهُ فعادوا لقبيح أفعالهم، فعَبَدوا العِجلَ بعدَما رأوا الآياتِ الواضحةَ التي جاء بها موسى، ثم عفَا الله عن ذلك، وأعطى موسى آياتٍ بيِّناتٍ، وحججًا واضحاتٍ، تدلُّ على صِدق ما جاء به.

ثم أخبَر تعالى أنَّه رفَعَ فوقَهم الجبلَ؛ تخويفًا لهم حين امتنعوا عن العمل بالتوارة التي أُخذَ عليهم العهد الموثَّق أن يلتزموا بها، وأخبر أنَّه أمَرَهم تعالى عند دُخولهم أخذَ أبواب بيت المقدس، أن يَدخُلوه وهم سجودٌ، ونهاهم عن الاعتداء يومَ السبت؛ فيَقعوا فيما حرَّمه عليهم، وأخَذ عليهم سبحانه عهدًا مؤكَّدًا شديدًا أنْ يفعلوا ما أُمروا به، ويَجتنبوا ما نُهوا عنه.

ثم أخبر تعالى أنَّ طَرْدَهم من رحمته كان بسبب نَقْضهم للعهودِ التي عاهدوا

(١) يُنظر في إعراب هذه الآية وتفصيل الأوجه فيها: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢١٢)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٠٧-٤٠٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٥٢- ١٥٥)، ((إعراب القرآن الكريم)) للدعاس (١/ ٢٣١).

اللهَ عليها، وكُفرِهم بآيات الله، وقَتْلِهم الأنبياءَ بلا سببٍ يستوجب قتْلَهم، وبسببِ قولهم: إنَّ قلوبهم في أغلفةٍ وأغطية، فلا يعقلون بها، وقد كذَبوا في ذلك، بل ختَم اللهُ عليها؛ بسببِ كُفرهم، فلا يؤمنون بما طُلب منهم الإيمانُ به إلَّا بشيءٍ يسير، كذلك كان إبعادُهم من رحمته سبحانه وتعالى بسبب كُفرِهم واتِّهامهم مريمَ بالوقوع في الزِّنا كذبًا وافتراءً. وبقولهم: إنَّهم قتَلوا المسيح عيسى ابنَ مريم رسولَ الله تعالى، وما قتلوه وما صَلبوه، ولكن أُلقي شبهُه على شخصٍ آخَرَ فظنُّوه عيسى عليه السَّلام، وأمَّا الذين اختلفوا في شأنِه من اليهود والنصارى فهُم في شكٍّ وحَيرة منه، وليس معهم سوى مُجرَّدِ ظُنون، وما قتلوه متيقِّنين من أنه عيسى عليه السَّلام، بل رفَعَه الله إليه فلم يَنالوا منه عليه السَّلام، وكان الله عزيزًا حكيمًا.

ثمَّ أخبَر تعالى أنَّه لا يَبقى أحدٌ من أهل الكتاب بعد أن يَنزل عيسى في آخِرِ الزمان إلَّا وسيُؤمن به قبلَ موته، وسيكون عليه السَّلام شاهدًا عليهم يومَ القيامة.

وبيَّن اللهُ سبحانه بعدَ ذلك أنَّه بسببِ ظُلم اليهود وصَدِّهم عن سبيله كثيرًا، حرَّم عليهم بعضَ الطيِّبات التي كان أَحلَّها لهم من قبلُ؛ عقوبةً لهم على ذلك، وعلى أخذهم للرِّبا وقد نُهوا عنه، وعلى استيلائِهم على أموال النَّاس بدون وجهِ حقٍّ، وأعدَّ الله لِمَن كَفَر منهم عذابًا مؤلِمًا.

ثم وضَّح تعالى أنَّه ليس كلُّ اليهود متَّصفين بتلك الصِّفات السيِّئة؛ فالذين ثبَت العلمُ في صُدروهم وانتفعوا به، والمؤمنون منهم باللهِ وكُتبه ورُسله جميعًا، هؤلاء يؤمنون بما أُنزل إلى رسولِ الله محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وهو القُرآن، وبما أُنزل من قبله من الكتُب المتقدِّمة، والذين يُقيمون الصَّلاة على أتمِّ الوجوه، ويُعطون الزكاة لِمَن يستحقُّها، والذين يُؤمنون بالله تعالى وباليوم الآخِرِ وما يكون فيه، أولئك وعَدَ الله أنَّه سيُؤتيهم أجرًا وثوابًا كبيرًا، وهو الجنة.

تفسير الآيات:

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا (١٥٣)﴾.

مُناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى معاذيرَ أهل الكتابين في إنكارهم رِسالةَ محمد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، أعقَبَ ذلك بذِكر شيءٍ من اقتراحهم مجيءَ المعجزات على وَفقِ مطالبهم(١)، فقال تعالى:

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾.

أي: يسألك أهلُ التوراة من اليهود يا محمَّد، على سبيل التعنُّت والعِنادِ أن تُنزِّل عليهم كتابًا من السَّماء جملةً واحدة، مكتوبًا بخطٍّ سماويٍّ، كما كانت ألواحُ التَّوراة، يَشهَدُ لك بالصِّدق، ويأمُرهم باتباعك(٢).

﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾.

أي: لا يَعظُمنَّ عليك- يا محمَّد- سؤالُهم ذلك، ولا تعجبنَّ منه؛ فإنَّه ليس بغريبٍ من أمرهم، بل سبَق لهم طلبُ ما هو أعظمُ من ذلك من موسى عليه السَّلام، الذي يَزعُمون أنَّهم يؤمنون به(٣)!

﴿فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٣٨-٦٤١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٢٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٠٧).

أي: فقالوا لموسى عليه السَّلام: نُريد رُؤيةَ الله تعالى عِيانًا نَنظُر إليه؛ كي نُصدِّقَك[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥].

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾.

أي: فعُوقبوا بالصَّعق؛ بسببِ عُدوانهم وعِنادهم فهَلَكوا، ثم أحياهم اللهُ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥ - ٥٦].

﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾.

أي: ثم اتَّخذ هؤلاء الذين سألوا موسى رؤيةَ ربِّهم عِيانًا، بعدَما أحياهم اللهُ تعالى من صَعقتِهم، اتخذوا العجلَ إلهًا يعبدونه، مِن بعدِ ما رأَوا بأبصارهم الأدلَّةَ الواضحةَ، والمعجزاتِ الباهرةَ التي جرَت لموسى عليه السَّلام[(٣)]!

﴿فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ﴾.

أي: فعَفوْنا لعبدةِ العجل عن عِبادتهم إيَّاه. وقد جعَل الله تعالى توبتَهم: أن يَقتُل بعضُهم بعضًا[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٠٨-٤١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٠٨-٤١٠).

كما قال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤].

﴿وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا﴾.

أي: وأعطينا موسى عليه السَّلام حُجَّةً واضحة، تُبين عن صِدقه ونبوَّته، وهي الآياتُ البيِّنات، والحُججُ الباهرات التي أُعطيها[١].

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (١٥٤)﴾.

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ﴾.

أي: حين امتَنعوا من العملِ بالتوراة التي عُهِد إليهم الالتزامُ بها عهدًا مؤكَّدًا، رفَعْنَا فوق رؤوسهم جبلًا لتخويفهم؛ كي يُقرُّوا بما عُوهِدوا عليه، ويَعمَلوا به بقوَّة[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣].

﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾.

أي: وأمَرْناهم أن يَخضعوا لله سبحانه بالفِعل والقولِ عند دُخولِهم أحدَ أبواب بيت المقدس، بأنْ يدخُلوا رُكَّعًا متواضعين، وأن يَطلُبوا من الله تعالى أن يَضعَ عنهم ذُنوبَهم وخطاياهم[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤١٠-٤١١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤١٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤١٩-٤٢٠).

﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾.

أي: وقُلنا لهم: لا تتجاوزوا في يوم السَّبت ما أُبيح لكم إلى ما حُرِّم عليكم(١).

كما قال تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾.

أي: وأَخذْنا عليهم عهدًا مؤكَّدًا شديدًا؛ بأنْ يَعملوا بما أمرَهم اللهُ تعالى به، ويَنتهوا عمَّا نهاهم عنه(٢).

﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥٥)﴾.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾.

أي: فبسببِ نقضِهم عهودَهم، التي عاهدوا اللهَ تعالى أن يأخذوا بها، طَرَدْناهم وأبعدناهم من رحمتِنا(٣).

كما قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً...﴾ [المائدة: ١٣].

﴿وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللهِ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٤٥-٦٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٢٢).

أي: وبسبب كُفرهم بالأدلَّة والحُجج والمعجزاتِ، التي شاهدوها دالَّةً على الحقِّ بوضوحٍ[١].

﴿وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾.

أي: وبسببِ قيامِهم بقَتْلِ الأنبياءِ الكرام عليهم السَّلام بغير سببٍ يَستحقُّون به القتل[٢].

﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾.

أي: وبسببِ قولهم: قلوبُنا داخلةٌ في غِلاف وأَغطيةٍ، فلا نَعقِل بها[٣].

كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ [فصلت: ٥].

﴿بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾.

أي: ليس الأمرُ كما زعَموا من أنَّ قلوبَهم غُلف؛ فقد كذَبوا في ذلك، وإنَّما ختَم الله تعالى على قلوبِهم؛ بسببِ كُفرهم[٤].

﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

أي: فلا يؤمنون إلا بشيءٍ يسيرٍ ممَّا وجب عليهم الإيمانُ به، لكنَّه إيمانٌ لا ينفعهم؛ لأنَّه مغمورٌ بما كفروا به، كإيمانهم ببعضِ الأنبياء وكُفرهم ببعضهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٢٣).

(٤) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٤٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٢٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (٥/ ٢٤٤).

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (١٥٦)﴾.

أي: وبسبب كُفرِهم وبسببِ افترائِهم على مريمَ عليها السَّلام برَمْيِها بالوقوعِ في الزِّنا(١).

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧)﴾.

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ﴾.

أي: وبسببِ دَعواهم قتْل عيسى عليه السَّلام(٢).

﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾.

أي: والحقُّ أنَّهم لم يَقتُلوا عيسى عليه السَّلام، ولم يَصلِبوه كما يَدَّعون، ولكن أُلقي شبهُه على شخصٍ آخَرَ؛ فظنُّوه هو(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٣٧).

أمَّا قوله: ﴿رَسُولَ اللَّهِ﴾، فقيل: إنَّها من قول الله تعالى؛ فهم لا يُقرُّون بأنه رسول، لكن الله تعالى قال: ﴿رَسُولَ اللَّهِ﴾ كأنَّه يقول: إنَّه لا يستحقُّ أن يُقتَل؛ لأنَّه رسول الله.

وقيل: بل هذا من كلامهم، وإنَّما قالوه على سبيل التهكُّم، يعني: الذي يزعم أنه ﴿رَسُولَ اللَّهِ﴾ ويدَّعي لنفسه هذا المقام، كقول قريش لمحمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦]. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٣٧).

(٣) واختار هذا القولَ في معنى ﴿شُبِّهَ لَهُمْ﴾: الواحديُّ في ((الوجيز)) (ص: ٣٠٠)، والقرطبيُّ في ((تفسيره)) (٦/ ٩)، وابنُ كثير في ((تفسيره)) (٢/ ٤٤٩)، والسعديُّ في ((تفسيره)) (ص: ١٣٢)، والشنقيطيُّ في ((أضواء البيان)) (١/ ٢٠١)، وفي ((العذب النمير)) (٢/ ٤٠٢)، وابنُ عثيمين في ((تفسير سورة النساء)) (٢/ ٤٣٨). =

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾.

أي: وإنَّ الذين اختلفوا من اليهود والنَّصارى في شأنِ عيسى عليه السَّلام- هل هو الذي قُتِل وصُلِب أم غيره- يُخالج نُفوسَهم الشكُّ، وتنتابهم الحَيرةُ من هذا الأمر(١).

﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾.

أي: مِن غير أن يكونَ لهم عِلمٌ جازم بمَن قتلوه حقًّا؛ أهو عيسى عليه السَّلام أم غيره، وإنَّما غايةُ ما لديهم هو مجرَّدُ ظنونٍ، لا تَرقى إلى درجةِ اليقين(٢).

﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾.

أي: وما قتَلوه متيقِّنين أنَّه عيسى عليه السَّلام(٣).

﴿بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨)﴾.

﴿بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ﴾.

= وقيل: يحتملُ أن يكونَ المعنى: ولكن شُبِّه لليهودِ الأولين والآخرين خبرَ صلبِ المسيحِ، أي: اشتبه عليهم الكذبُ بالصدقِ، فيكونُ من بابِ قولِ العربِ: خُيِّل إليك، واختلطَ على فلانٍ. وليس ثمة شبيهٌ بعيسى. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٦٠)، ((تفسير الواحدي)) (٢/ ١٣٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٣٩-٤٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٦١)، ((تفسير الواحدي)) (٢/ ١٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٤٠-٤٤١).

(٣) وهذا اختيارُ ابنِ جريرٍ في ((تفسيره)) (٧/ ٦٦١)، والواحديِّ في ((الوجيز)) (ص: ٣٠٠)، وابنِ كثيرٍ في ((تفسيره)) (٢/ ٤٤٩)، وجعَله ابنُ عاشور أحدَ الاحتمالاتِ في ((تفسيره)) (٦/ ٢٣).
وقيل: أي: عدم قتْل عيسى عليه السَّلام، أمرٌ يَقينيٌّ لا شكَّ فيه. يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٤/ ٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٣).
وذهب ابنُ عثيمينَ إلى حمل الآية على كلا المعنيين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (٢/ ٤٤٢).

أي: ليس الأمرُ كما ظنُّوا من أنَّهم قتلوه وصلبوه، ولكنَّ الحقيقةَ هي أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد رفَعه إليه في السَّماء؛ فلم يَظفروا به(١).

كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران: ٥٥].

﴿وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

أي: إنَّ الله تعالى ذو قدْرٍ عظيمٍ، منيع الجَناب، غالبٌ على أمره، قاهرٌ لأعدائه، منتقِمٌ منهم، ذو حكمةٍ في تدبيره وقَضائه؛ فيضع كلَّ شيءٍ في موضعه اللائق به سبحانه، ومِن عِزَّته وحِكمته عزَّ وجلَّ: رفْعُه لعيسى عليه السَّلام، ومنعُ أعدائه من الوصول إليه(٢).

﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (١٥٩)﴾.

مُناسبةُ هذه الآية لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر الله تعالى فضائح اليهود، وقبائحَ أفعالهم، وأَوْضَح أنَّهم قَصدوا قتْل عيسى عليه السَّلام، وأنَّه ما حصَل لهم ذلك المقصود، وأنَّه حصَل لعيسى أعظمُ المناصب، وأجلُّ المراتب- بَيَّن تعالى أنَّ هؤلاء اليهودَ الذين كانوا مبالغين في عَداوته، لا يخرُج أحدٌ منهم من الدُّنيا إلَّا بعدَ أن يؤمن به(٣)، فقال:

﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٤٨-٤٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٦٣).

أي: إنَّه لا يَبقى أحدٌ من أهل الكِتاب بعد نُزولِ عيسى عليه السَّلام في آخِر الزَّمان، عند اقترابِ السَّاعة، وظهورِ علاماتها الكِبار، إلَّا آمَن به قبلَ موته عليه السَّلام(١).

عن أبي هُرَيرةَ رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((والذي نَفْسي بيدِه، ليُوشِكنَّ أن يَنزِلَ فيكم ابنُ مريمَ حَكَمًا عدلًا، فيَكسِرَ الصَّليبَ، ويَقتُلَ الخِنزيرَ، ويضعَ الجزيةَ، ويَفيضَ المالُ حتى لا يقبلَه أحدٌ، حتى تكونَ السجدةُ الواحدةُ خيرًا من الدُّنيا وما فيها. ثم يقولُ أبو هريرةَ: واقرؤوا- إنْ شئتم-: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾))(٢).

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾.

أي: ويوم القِيامة يكونُ عيسى عليه السَّلام شاهدًا على أهل الكِتاب من اليَهود والنَّصارى، الذين تعارَضتْ أقوالُهم فيه؛ بتكذيبِ مَن كفَر به منهم، وتَصديق مَن آمَن به منهم، فيما أتاهم به من عند الله، وبإبلاغِه رسالةَ ربِّه ومولاه، وشاهدًا على أعمالهم التي شاهدَها منهم قَبلَ رفْعِه إلى السَّماء، وبعد نُزوله إلى الأرض(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٧٢-٦٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٥٢).

(٢) رواه البخاري (٣٤٤٨) واللفظ له، ومسلم (١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٧٥-٦٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٥٢-٤٥٤).

شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٦ - ١١٨].

﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ كَثِيرًا (١٦٠)﴾.

مُناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّ الله تعالى لَمَّا بَيَّن فَضائحَ أعمالِ اليهودِ، وقبائحَ الكافرين وأفعالَهم، ذكَر عقيبَهَ تشديدَه تعالى عليهم في الدُّنيا وفي الآخرةِ[1]، فقال:

﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾.

أي: فبسبب ظُلم اليهود- بما ارْتكبوه من الذُّنوب العَظيمة- حرَّم الله تعالى عليهم؛ عقوبةً لهم، عددًا من الطيِّبات التي أحلَّها لهم سبحانه من قبلُ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

﴿وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ كَثِيرًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٥٦).
قال ابنُ كثير في قوله: ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ﴾: (وهذا التحريم قد يكون قدريًّا، بمعنى: أنه تعالى قيَّضهم لأنْ تأوَّلوا في كتابهم، وحرَّفوا وبدَّلوا أشياءَ كانت حلالًا لهم، فحرَّموها على أنفسهم؛ تشديدًا منهم على أنفسِهم، وتضييقًا وتنطُّعًا. ويحتمل أن يكون شرعيًّا، بمعنى: أنه تعالى حرَّم عليهم في التوراة أشياءَ كانت حلالًا لهم قبل ذلك) ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٦٧).

أي: وبسببِ صدِّهم أنفُسَهم عن اتِّباع الحقِّ، وصدِّهم الناسَ أيضًا عن طريقِ الهُدى صدًّا كثيرًا، فقد قالوا على الله تعالى الباطِلَ، وبدَّلوا كتابَ الله، وحرَّفوا معانيَه عن وجوهِه، وكتَموا ما فيه- كأمْرِ مُحمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ وبيان صِفته للنَّاس- وقتَلوا خلقًا من الأنبياء، وكذَّبوا عيسى ومحمدًا عليهما الصَّلاة والسَّلام[1].

﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦١)﴾.

﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ﴾.

أي: وبسببِ تَناوُلِهم الرِّبا، والحال أنَّهم قد نُهوا عن أخْذه، فقامتْ عليهم الحُجَّةُ في ذلك[2].

﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾.

أي: وبسبب استيلائِهم على أموالِ الناسِ بغير حقٍّ[3].

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

أي: وهيَّأْنا للكفَّارِ من هؤلاء اليهود عذابًا موجعًا[4].

﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا (١٦٢)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٥٦-٤٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٥٧-٤٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٦١).

مُناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر الله تعالى مَعايبَ أهل الكتاب، ذكَر الممدوحين منهم(١)، فقال:

﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾.

أي: ليس كلُّ اليهود على تِلك الأوصاف السيِّئة؛ فالذين ثبَت العِلمُ النافع في قلوبِهم، ورسَخَ الإيقانُ في أفئدتهم، والمؤمنون بالله تعالى وجميعِ كُتبِه ورُسلِه عليهم السَّلام(٢).

﴿يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾.

أي: يُؤمِنون بالقُرآنِ الذي أُنزل إليك يا محمَّدُ، وبالكتُب السابقة التي أُنزلتْ على الأنبياء عليهم السَّلام من قَبْلك(٣).

﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾.

أي: والذين يُؤدُّون الصلاةَ على وجه الاستقامة والتَّمام، فيأتون بها تامَّةَ الشروط، مستوفيةَ الأركان والواجبات، ويُكمِّلونها بالمستحبَّات(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٧٨-٦٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٦٧-٤٦٨).

وقيل: المراد بالمؤمنين هنا أصحابُ محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٦٨).

وقال ابن عاشور: (وعطف ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ على ﴿الرَّاسِخُونَ﴾ ثناءً عليهم بأنَّهم لم يسألوا نبيَّهم أنْ يُريهم الآياتِ الخوارق للعادة؛ فلذلك قال: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، أي: جميعهم، ﴿بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾، أي: القرآن، وكفاهم به آيةً، ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ على الرُّسل، ولا يُعادون رسل الله تعصُّبًا وحمية) ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٦٨).
ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٦٨).

﴿وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾.

أي: والذين يُعطون زكاةَ أموالهم أهلَها، المستحقِّين لها(١).

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

أي: والذين يُؤمنون باللهِ تعالى، ويُؤمنون بالبَعثِ بعد الموت، والجزاءِ على الأعمالِ؛ خيرِها وشرِّها(٢).

﴿أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

أي: أولئك الذين هذه صِفتُهم- ممن جمعوا بين العِلم والإيمانِ والعملِ الصالح- سنُعطيهم جزاءً وثوابًا كبيرًا، وهو الجنة(٣).

الفوائد التربويَّة:

١- النَّظر إلى عاقبة التعنُّت في الدِّين؛ قال الله تعالى: ﴿ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ﴾ فأخذتْهم الصاعقة بتعنُّتِهم، وسؤالِهم ما ليس لهم أن يَسألوه(٤).

٢- أنَّ الذَّنب كلَّما عظُم كان أسرعَ للعقوبة؛ لقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾، والفاء تدلُّ على الترتيب والتعقيب؛ ولهذا أخذتْهم الصَّاعقةُ في الحال، فماتوا جميعًا(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٧١-٤٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٧٢-٤٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤١٦).

٣- أنَّ مَن تحيَّل على محارمِ الله مِن هذه الأمَّة ففيه شبهٌ من اليهود، سواء كان في البَيع أو في الشِّراء، أو فيما أحلَّ الله من الطعام وحرَّم، أو في النِّكاح، قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لاَ تَعْدُواْ فِي السَّبْتِ﴾[(١)].

٤- الكُفر المتزايد يَزيد تَعاصي القلوب عن تلقِّي الإرشاد؛ يستفاد ذلك من قول الله تعالى: ﴿ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[(٢)].

٥- وجوب اقتِناع الإنسان بحُكم الله، ورِضاه بقَدَره، فوجوب اقتناعه بحُكم الله؛ لأنَّه إذا آمن أنه لحِكمةٍ، وجَبَ أن يقتنع به؛ قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾؛ ولهذا كان السَّلف الصالح لا يُقنعون النفوسَ عند الإشكال إلَّا بالنُّصوص، وأمَّا الرِّضا بقضائه، فالمراد: أنْ يرضَى الإنسان بقضاء الله لا بالمقضيِّ؛ لأنَّ المقضيَّ فيه تفصيل، لكن القضاء من حيثُ هو قضاءُ الله يجب عليه أن يَرضَى به، وهذا من تمامِ توحيد الربوبيَّة[(٣)].

٦- اقتراف الذُّنوبِ والظُّلم موجبٌ للتَّشديد في الدُّنيا والآخِرة، وجامع لنكد الدَّارين؛ وسبب لحرمان الخير الشرعيِّ والقدريِّ، قال الله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾، وفي ذلك بيانُ فُحش الظُّلم، والتقبيح له، والتحذير منه[(٤)].

٧- أنَّ الجزاءَ مِن جِنس العَمل؛ قال الله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾؛ فمُنعوا مستلذَّات تلك المآكِل بما مَنَعوا أنفسَهم وغيرَهم من لذاذةِ الإيمان[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٢٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٥٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٦٢)..
(٥) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٤٤).

٨- في قوله تعالى: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ بيانُ فَضيلةِ العالِمين بأحكام اللهِ تعالى، العامِلين بِتِلك الأحكام(١).

٩- أنَّ العِلم سببٌ للإيمان؛ لقوله: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾، ولا شكَّ أنَّه كلَّما ازداد الإنسان علمًا، ازداد إيمانًا وبصيرةً بتوفيق الله عزَّ وجلَّ(٢).

الفوائد العِلميَّة واللَّطائف:

١- قول الله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ﴾ فيه الاستدلالُ على حالتهم بحالةِ أسلافهم، من قَبيل الاستدلال بأخلاق الأُمم والقبائل على أحوالِ العَشائر منهم(٣).

٢- دِفاع اللهِ تعالى عن الرَّسولِ عليه الصَّلاة والسَّلام؛ لأنَّه سلَّاه وقال: لا تتعجَّبْ، ولا تستكبِرْ هذا السؤالَ ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾(٤).

٣- أنَّ اليهودَ اتَّخذوا العجل إلهًا عن عِلمٍ، فليس لهم عُذرٌ؛ لقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾، ومعلوم أنَّ المذنب بعد العِلم أشدُّ من المذنبِ عن غير عِلمٍ(٥).

٤- أنَّ ما جاءت به الرُّسلُ فهو حُجَّة ظاهرة لا تَخفى إلَّا على مَن أعْمَى اللهُ قلبَه؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٦٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٧٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤١٢).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤١٧).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٥- إثباتُ الأسباب، وأنَّ لها أثرًا في حُصولِ المسبَّبات؛ لقوله: ﴿بِظُلْمِهِمْ﴾؛ فإنَّ الباء للسببيَّة[1].

٦- قوله: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ فيه دليل على العُذر بالجهل[2].

٧- أنَّ إيمانَ بني إسرائيل إيمانُ إكراه؛ لأنَّ أيَّ قادرٍ يقول: أنا سأُسقط عليك حجارةً من السَّماء إنْ لم تؤمن، فيؤمن المُهدَّدُ على إكراه، وعليه: فالمؤمن على إكراهٍ لا بدَّ أن يكون إيمانه ضعيفًا، إذا زال الإكراهُ ربما يَرجِع إلى الكفر؛ قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ..﴾[3].

٨- مِن أحسنِ الطُّرق لمحاجَّة الخصمِ المبطل، أنَّه إذا صدَر منه اعتراضٌ باطلٌ قد يكونُ شبهةً له ولغيرِه في ردِّ الحقِّ- أن يُبيِّن مِن أحواله الخبيثة وأفعاله الشنيعة أقبحُ ما صدَر منه؛ ليَعلمَ كلُّ أحدٍ أنَّ هذا الاعتراضَ ممَّن هذا حاله، وأن له مقدماتٍ ينبغي أن يُجعل معها؛ ليُكتفَى بذلك شرُّهم، وينقمع باطلُهم، فلَمَّا كان المرادُ من تعديد ما عدَّد اللهُ من قبائحهم هذه المقابلة لم يَبسُطْها في هذا الموضِع، بل أشار إليها، وبسَطَها في غير هذا الموضِع، فقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللهِ....﴾ الآيات[4].

٩- إثباتُ الأسبابِ الشرعيَّة، وكذلك إثبات الأسباب القدريَّة من باب أَوْلى؛ لقوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾ والباء للسببيَّة، وإثبات الأسباب المؤثِّرة في مُسبَّباتها من مقتضى حِكمة الله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ الشيء لو وقَع صُدفةً هكذا لكان سفهًا، والإنسان الذي يفعل الشيءَ اعتباطًا بدون سبب موجِب له لا يعدُّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤١٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤١٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٤).

حكيمًا، لكن الذي يفعل الشيء بأسبابه والمؤثرات فيه هذا هو الحكيم، والله عزَّ وجلَّ قد ربط المسبباتِ بالأسبابِ، ولكن لقصورِنا ونقصِنا قد نعلمُ السببَ وقد لا نعلمُه[١].

١٠- أنَّ نقْضَ الميثاق سببٌ لِلَعنةِ الله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ الآيةَ على تقديرِ محذوف، وهو: (لعنَّاهم)، أي: فبما نقضهم ميثاقهم.... لعنَّاهم[٢].

١١- أنَّ كلَّ مَن احتجَّ بالقَدَر على الشَّرْع، فحُجَّتُه داحضةٌ؛ لأنَّ هؤلاء احتجُّوا بقَدَرِ الله على شَرْعِه، حيث قالوا: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ فأبطل اللهُ تعالى حُجَّتَهم بقوله: ﴿بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، فمن كَفَر، ولم يعلمِ اللهُ فيه خيرًا، طبَع على قلبِه؛ فلا يَهتدي أبدًا، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥] فمَن زاغ عن الحقِّ فهو السبب[٣].

١٢- في قوله تعالى: ﴿وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللهِ﴾ إثباتُ الآيات لله، وآياتُ الله تعالى نوعان: كونيَّة وشرعيَّة؛ فالكونيَّة جميعُ المخلوقات، فكلُّ المخلوقات دالَّةٌ على خالقها عزَّ وجلَّ، وعلى قُدرتِه وعِلمه، وحِكمتِه ورحمته، وغير ذلك ممَّا يتعلَّق بهذه المخلوقات، والآيات الشرعية: هي ما أنزله الله على رسله من الوحي[٤].

١٣- عُتوُّ بني إسرائيل؛ حيث اعْتَدَوْا على مَن أَتَوْا بشَرْع يَهدُون الناس به، فقتلوا: ﴿الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، بل قتَلوا ﴿الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ٢١] ولو كانوا غيرَ أنبياء[٥]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٢٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٢٩، ٤٣٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٣٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٣١).

١٤- أنَّ قتْلَ الأنبياء لا يُمكن أن يكون بحَقٍّ، وقوله: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ بيانٌ للواقِع، وليس قيدًا احترازيًّا، وهو كثيرٌ في القرآن[1].

١٥- أنَّ اليهود باؤوا بإثم قَتْل المسيح أَخْذًا بإقرارهم؛ لأنَّ الله جعَلَ الإقرارَ شهادة، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [النساء: ١٣٥] ولهذا نقول: اليهود قتَلوا المسيح حكمًا ولم يقتلوه واقعًا؛ لأنهم أقروا بأنهم قتلوه، ولكنهم لم يقتلوه واقعًا في الحقيقة، فحكم قتل المسيح ثابت على اليهود بإقرارهم[2].

١٦- نِسبة الإنسان إذا لم يكُن له أبٌ إلى أُمِّه، وتُؤخذ من قوله: ﴿عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾[3].

١٧- فائدة نحويَّة: أنَّ الإنسان إذا اشتهر بلقبِه، فلا بأس أن يُقدَّم على اسم العَلَم؛ لأنَّه قدَّم المسيح، في قوله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ﴾، وإلَّا فالأصل أن يُقدَّم الاسم أولًا، ثم اللَّقب، ثم الكُنية، لكن إذا اشتهَر باللَّقب فإنَّه يُقدَّم، مثل أن تقول: (الإمام أحمد بن حنبل)، أو (أحمد بن حنبل الإمام)؛ فالأوَّل مُقدَّم؛ لأنَّه مشتهرٌ به[4].

١٨- سَفاهةُ النَّصارى وقِلَّة تمييزهم؛ إذ إنَّهم يَعبُدون الصَّليب ويُعظِّمونه، ولو كانوا عُقلاءَ لكسروه؛ صليبٌ يُصلَب عليه نبيُّهم، ثم يذهبون إلى تقديسه! لو أُخِذ بظاهر الحال لقِيل: هذا دليلٌ على بُغضهم لعيسى، حيث قدَّسوا ما عُذِّب به، وهو الصَّليب، لكن هم يدَّعون أنَّ هذا تعظيمٌ لعيسى عليه الصَّلاة والسَّلام[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٤٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٤٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ١٦٤)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٢/ ٢١٥).

١٩- إثباتُ علوِّ الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ﴾[١].

٢٠- أنَّ عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسَّلام حيٌّ؛ لقوله: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ﴾، وهذا يقتضي رَفْعَه برُوحه وجَسَدِه، كما عُرِج بالنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ برُوحه وجسَدِه إلى السموات[٢].

٢١- أنَّ الكتابيَّ قد يؤمن إيمانَ اضطرارٍ إمَّا عند موته- على قول-، أو إذا نَزَل عيسى، ولكن النصوص تدلُّ على أنَّ الإيمانَ الاضطراريَّ لا ينفع، وأنَّ الإيمان لا ينفع إذا حضَر الأجلُ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ﴾ [النساء: ١٨]، ولكن الإيمان الاضطراري في غير هذا الحال قد يَرْسَخُ في قلْبِ المرء، فقد يُؤمِنُ أولًا خوفًا من السَّيف، ثم يَرسَخُ الإيمان في قلبه ويثبت، ويكون إيمانًا حقيقيًّا يُثاب عليه، وينجو به من النَّارِ[٣].

٢٢- قوله تعالى: ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ كَثِيرًا﴾ فيه التحذيرُ من كلِّ أنواع الصدِّ عن سبيلِ اللهِ؛ فالصَّد لا يتقيَّد بصيغةٍ معيَّنة، بل كلُّ ما فيه صدٌّ عن سبيل الله سواء بالتخذيل، أو بالإرجاف، أو بالإيعاد، أو بالوعد، أو بغير ذلك فإنَّه داخلٌ في التَّحذير من ذلك[٤].

٢٣- في قوله: ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ كَثِيرًا﴾ جاء الوصف بقوله: ﴿كَثِيرًا﴾ ليكون أشدَّ في الذمِّ، وإنْ كان لا مفهومَ له؛ لأنهم لو صدُّوا قليلًا، لكان لهم نصيبٌ من الإثم، إنما الغاية هي الكثرةُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٤٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٥٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٦٤).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٦٥).

٢٤- أنَّ المتعاطِين للرِّبا من هذه الأمَّة مُشبهون لليهود؛ لقوله: ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ﴾(١).

٢٥- أنَّ أخذ الرِّبا مُحرَّمٌ، سواء كان للأكْل، أو للشُّرب، أو للبس، أو للاقتناء، أو لأيِّ غرَضٍ كان؛ لعموم قوله: ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا﴾(٢).

٢٦- قول الله تعالى: ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ﴾ في الآية دليل على أنَّ النهي للتحريم(٣).

٢٧- أنَّ الحُجَّة لا تقوم إلَّا بعدَ بُلوغها، وأنَّ مَن فعَل شيئًا لا يَدري عن حُكمه، فهو غير مُؤاخَذٍ به؛ لقوله: ﴿وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ﴾(٤).

٢٨- في قوله تعالى: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ...﴾ أن العِلم الرَّاسخ، والإيمان المنير، كلاهما يقودُ أهلَه إلى الإيمان بالدِّين كلِّه؛ كلاهما يقودُ إلى توحيد الدِّين الذي جاءَ من عند الله الواحِدِ(٥).

٢٩- أنَّه لا يمكن أنْ يتمَّ الإيمان إلَّا بالإيمان بما جاء به الرسولُ عليه الصلاة والسَّلام؛ لقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾، فكلُّ إنسان يدَّعي أنه مؤمنٌ دونَ أن يُؤمنَ بما أُنزل على محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فإنَّه كافرٌ، وكاذبٌ في دَعواه؛ لأنَّ دِينَ الإسلام الذي جاء به محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ ناسخٌ لجميع الأديان(٦).

٣٠- الإشارة إلى أنَّه لا نبيَّ بَعد محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ لقوله: ﴿مِنْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٦٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٤٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٦٥).
(٥) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٨٠٤).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٧٥).

قَبْلِكَ﴾ ولم يقُلْ: (من بعدك)، وهذا هو الواقع، لكن الآية فيها الإشارةُ، وليس فيها التصريح[١].

٣١- فضيلةُ إقامة الصَّلاة وإيتاء الزكاة؛ لأنَّ الله تعالى نصَّ عليهما من بين سائر الأعمال، وإقامة الصَّلاة وإيتاء الزَّكاة قرينتانِ في كتابِ الله[٢]. وأيضًا لَمَّا كانتِ الصلاةُ أعظمَ دعائم الدِّين، نُصب قولُه: ﴿والمُقِيمِينَ﴾ على المدحِ من بين هذه المرفوعات؛ إظهارًا لفضلِها[٣].

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾: جيء بالفِعل المضارع هنا ﴿يَسْأَلُكَ﴾؛ إمَّا لقصْد استحضارِ حالتهم العجيبة في هذا السُّؤال، حتى كأنَّ السامعَ يَراهم، وإمَّا للدَّلالة على تكرارِ السؤالِ، وتجدُّدِه المرةَ بعد الأخرى، بأنْ يكونوا ألَحُّوا في هذا السؤال؛ لقصد الإعناتِ[٤].

٢- قوله: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى﴾: الفاء في (فَقَدْ) فاء الفصيحة، دالَّة على مُقدَّر دلَّت عليه صيغةُ المضارع المراد منها التعجُّب، أي: فلا تعجب من هذا؛ فإنَّ ذلِك شنشنةٌ- أي: عادةٌ- قديمةٌ لأسلافهم مع رسولِهم؛ إذ سألوه معجزةً أعظم من هذا[٥].

- وفيه: إسنادُ السُّؤال إليهم، وإن كان وُجِد من آبائهم في أيام موسى عليه السَّلام- وهم النقباء السَّبعون-؛ لأنَّهم كانوا على مذهبهم، وراضين

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٧٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٥٠٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٣).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ١٤).

بسؤالهم، ومُضاهين ومُشاكِلين لهم في التعنُّت[١].

٣- **قوله:** ﴿**ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ**﴾ فيه عطفُ جملة اتِّخاذهم العجلَ بحرف (ثم) المفيدِ في عطفِهِ الجُملَ معنى التَّراخي الرُّتبي؛ لأنَّ اتخاذهم العجل إلهًا أعظمُ جُرمًا ممَّا حُكِيَ قبله[٢].

٤- **قوله:** ﴿**فَعَفَوْنَا**﴾: عبَّر الربُّ الجليل عن نفْسه سبحانه بضمير الجَمْع؛ للتَّعظيم، وليست للتعدد كما زعَم النصرانيُّ الخبيث؛ فإنَّ النصرانيَّ يقول: الآلهة متعدِّدة[٣].

٥- **قولُه تعالى:** ﴿ **وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ**﴾ فيه إيجازٌ بالحذف، حيث نزَع الجارَّ فقال: ﴿فَوْقَهُمْ﴾ ولم يقل: (مِنْ فَوقِهم)؛ لأنَّه لَمَّا كان الطور قد ملأ جِهةَ الفوق بأنْ وارى جميعَ أبدانهم، ولم يسلم أحدٌ منهم من ذلك، نَزَع الجار؛ دلالةً على ذلك[٤].

٦- **قوله تعالى:** ﴿**وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ**﴾: فيه مناسبةٌ حسنةٌ؛ فإنَّه قال في سورة آل عمران: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ٢١]؛ فلكونِه هنا في سورة النساء في سِياق طَعنِهم في القُرآنِ، الذي هو أعظمُ الآياتِ، عبَّر- مع جَمْع الكثرة ﴿الْأَنْبِيَاءَ﴾ وتنكير ﴿حَقٍّ﴾- بالمصدرِ المُفْهِم ﴿قَتْلهم﴾؛ لأنَّ الاجتراءَ على القَتلِ صارَ لهم خُلقًا وصِفةً راسخةً، بخِلاف ما مَضَى في آل عِمران؛ فإنَّه بالمضارع ﴿وَيَقْتُلُونَ﴾ الذي ربَّما دلَّ على العُروضِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٨٩)، ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٢١)، ((قواعد التفسير)) للسبت (ص: ٣١٦).

(٢) ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٥).

(٣) ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤١٧).

(٤) ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٤٥٦).

(٥) ((المصدر السابق)) (٥/ ٤٦٢).

٧- قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ... وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ فيه عطف قوله: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾ مرةً ثانية على قوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ﴾، ولم يَستغنِ عنه بقولِه: ﴿وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ وأُعيد مع ذلك حرفُ الجر الذي يُغني عنه حرفُ العطف؛ قصدًا للتأكيد، واعتُبر العطفُ لأجْل بعد ما بين اللَّفظينِ، ولأنَّه في مقام التهويلِ لأمر الكُفر، فالمتكلِّم يَذكُره ويُعيده؛ ليري أنه لا ريبةَ في إناطة الحُكم به[1].

٨- قوله: ﴿وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾: فيه استدراك[2]؛ لرَفْع التوهُّم، والمستدرَك هو ما أفادَه قوله: ﴿وَما قَتَلُوهُ﴾؛ من كون هذا القولِ لا شُبهة فيه، وأنَّه اختلاق محض؛ فبيَّن بالاستدراك أنَّ أصل ظنِّهم أنهم قتلوه أنَّهم توهَّموا أنَّهم قتلوه[3].

٩- قوله: ﴿يَقِينًا﴾ بعد قوله: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ﴾ فيه تأكيدٌ لقوله: ﴿وَما قَتَلُوهُ﴾ كقولك: ما قتلوه حقًّا، أي حقَّ انتفاءُ قتْلِه حقًّا، وفيه تهكُّم؛ لأنَّه إذا نفى عنهم العلمَ نفيًا كليًّا بحرف الاستغراق (ما)، ثم قيل: وما علموه علمَ يقين وإحاطة، لم يكُن إلَّا تهكُّمًا بهم[4]،ونُصب ﴿يَقِينًا﴾ على النِّيابة عن المفعول المطلق المؤكِّد لمضمون جملة قبله؛ لأنَّ مضمون ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ بعد قوله: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ

---

(١) ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٨).

(٢) الاستدراك: هو رفع توهُّم يتولَّد من الكلام السابق رفعًا شبيهًا بالاستثناء، وهو معنى (لكن)، وهو من البديع، ويُشترط فيه زيادة نُكتة طريفة على معنى الاستدراك؛ لتُحسِّنَه وتُدخِلَه في البديع، وإلَّا فلا يعد منه؛ وهو قسمان: قسم يتقدَّم الاستدراك تقريرٌ وتوكيد؛ إمَّا لفظًا أو معنى لما أخبر به المتكلِّم، وهذا هو الأكثرُ الذي بَنى عليه فحول أرباب البديعيات أبياتهم، وقسم لا يتقدَّمه ذلك. يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٢/ ٢٣٨)، ((أنوار الربيع)) لصدر الدين المدني (١/ ٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٣).

لَهُمْ﴾ يدلُّ على أنَّ انتفاءَ قتلهم إيَّاه أمرٌ متيقَّن؛ فصحَّ أن يكون يقينًا مؤكدًا لهذا المضمون[١]، فاليقين هنا عائد إلى نفي القتل، والذي أوجب هذا أنَّ اليهود لهم دِعايةٌ قويَّة فيما يذهبون إليه؛ فمِن أجْل هذه الدِّعاية القوية قُوبلوا بهذه التأكيدات التي تدلُّ على أنَّهم لم يَقتُلوا عيسى، وهذا من رحمة الله وحِكمته، أما كونه من رحمته؛ فلئلَّا يعلق في قلوب المسلمين من هذه الدعاية، وأمَّا كونه من حِكمة الله؛ فلأجْل أن يتبيَّن الأمرُ كما هو، حتى لا يكون ملتبسًا[٢].

١٠- قوله: ﴿وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾: تذييل حسنٌ ومناسبٌ لقوله تعالى: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ﴾؛ لأنَّه لَمَّا عزَّ فقد حقَّ لعزه أن يُعزَّ أولياءَه، ولَمَّا كان حكيمًا؛ فقد أتْقن صُنع هذا الرفع، فجعله فِتنةً للكافرين، وتبصرةً للمؤمنين[٣]، وفيه مناسبة حسنة في ختْم الآية بهذَينِ الاسمينِ الكريمين؛ وَجهُها أنَّ هؤلاءِ اليهود جاؤوا مغالبين يُريدون أن يقتُلوا رسولًا من رسل الله عزَّ وجلَّ، فناسب أن يختم الآية بقوله: ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ فالحَكيمُ هنا محمولٌ على معنى الحُكم، وهو أظهرُ مِن حمْله على مَعْنى الحِكمة؛ فإنَّ الحَكيمَ يأتي لهذا وهذا، يعني: هو الحاكِمُ عزَّ وجلَّ؛ ولذلك منَعَ هؤلاءِ مِن إفسادِهم وقتْلهم النبيَّ[٤].

١١- قوله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ...﴾:

- فيه: تنكير (ظلم) للتعظيم[٥].

- وتقديمُ السَّبب (الظُّلم) على المسبَّب (تحريم الطيِّبات)؛ للتَّنبيه على فُحش الظلم، والتقبيح له، والتحذير منه[٦]، وأيضًا هذا التقديم يُفيد الحصر،

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٤٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٤٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٦).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٣٣).

أي: حرَّم عليهم ذلك بسبب الظُّلمِ لا بسببٍ آخَرَ، وقد أبهم ما حرَّم عليهم هنا; لأنَّ الغرضَ من السياق العبرةُ بكونه عقوبةً، لا بيانُه في نَفْسِه، كما أبهم الظلم الذي كان سببًا له; ليعلمَ القارئ والسامع أنَّ أيَّ نوعٍ من الظلم يكون سببًا للعقاب في الدُّنيا قبل الآخرة(١).

- والإظهار في مقام الإضمار- حيث قال: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾، ولم يقل: (فبِظُلمهم)-؛ حتى تأتيَ الضمائر متتابعةً من قوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ﴾ إلى آخره؛ ولأنَّ في الموصول وصِلته من قوله: ﴿الَّذِينَ هَادُوا﴾ ما يَقتضي التنزُّهَ عن الظُّلم، لو كانوا كما وَصَفوا أنفسهم، فصدور الظُّلم عن الذين هادُوا محلُّ استغراب(٢).

١٢- قولُه: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ فيه استدراكٌ ناشئ على ما يُوهمه الكلام السابق ابتداءً من قوله: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ من توغُّلهم في الضلالة حتى لا يُرجى لأحد منهم خيرٌ وصلاحٌ، فاستدرك بأنَّ الراسخين في العِلم منهم ليسوا كما تُوهِّم؛ فهم يؤمنون بالقرآن مِثل عبد الله بن سلام رضي الله عنه(٣)، وكان مجيء (لكن) هنا في غايةِ الحُسن؛ لأنَّها داخلةٌ بين نَقيضينِ وجَزائهما، وهم الكافِرون والعذابُ الأليم، والمؤمنونَ والأجرُ العظيم(٤).

١٣- قوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ فيه ذكر الخَاصِّ بعد العامِّ، فإنَّ الإيمان بهذا داخلٌ في قولِه قبلَه: ﴿يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾؛ وذلك لأهميَّته؛ فإنَّ مدارَ الإيمان كلِّه على الإيمانِ بالله؛ لأنَّا نؤمن بأنَّ الرُّسل رسل الله، وأنَّ الكتب كتب الله، وأنَّ الملائكة عباد الله، وهلمَّ جرًّا، فالركيزةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٣٤).

الأولى هي الإيمان بالله عزَّ وجل، وما بعدَه يُعدُّ فروعًا أو جِهاتٍ متعدِّدةً من الإيمان بالله(١).

١٤- قوله: ﴿أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾

- فيه: بيان علوِّ مرتبةِ هؤلاء المتَّصفين بهذه الصفات، يُؤخَذ ذلك من الإشارة إليهم بإشارة البعيد، ولم يقل: (هؤلاء)، ولم يقل: (فإننا سنؤتيهم)، بل قال: ﴿أُولَئِكَ﴾، والإشارة إلى المشار إليه بالبُعد تدلُّ على علوِّ مرتبته، كما في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] مع أنَّه بين أيدينا، لكن لعلوِّ مرتبته أُشير إليه بإشارة البَعيد ﴿ذَلِكَ﴾(٢).

- تنكير ﴿أجرًا﴾، ووصفه بـ﴿عظيمًا﴾؛ للدَّلالة على أنَّه أجرٌ عظيم لا تُتصوَّر عظمتُه(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٧٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٧٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٧٦).

الآيات (١٦٣ - ١٦٦)

﴿۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾.

غريب الكلمات:

﴿وَالْأَسْبَاطِ﴾: جمْع سِبْط، وهم ذُرِّيَّةُ يعقوبَ عليه السلام، وهم اثْنَا عشر سبطًا مِن اثْنَي عشر ولدًا ليعقوبَ عليه السلام، وسُمُّوا بالأسباط؛ لأنَّه كان مِن كلِّ واحد منهم سِبطٌ، أي: أمَّة عظيمة، والسِّبطُ بمنزلةِ القبيلةِ، والسِّبط: الجماعةُ يَرجعون إلى أَبٍ واحدٍ، وأصلُ السِّبط: امتدادُ شيءٍ، وقيل: أصلُ السَّبْطِ شَجرةٌ ملتفَّةٌ كثيرةُ الأغصانِ؛ وسُمُّوا الأسباطَ؛ لكثرتِهم، فكما أنَّ الأغصانَ مِن شجرةٍ واحدةٍ، كذلك الأسباطُ كانوا مِن يَعقوبَ عليه السلام(١).

﴿زَبُورًا﴾: الزَّبور هو الكِتابُ المنزَّلُ على داود عليه السَّلام، والزَّبور يُطلَقُ على كلِّ كتابٍ ذي حِكمة، من الزَّبر، وهو الكِتابة والقِراءة؛ فأصل (زبر): يدلُّ على إحكامِ الشَّيءِ وتوثيقِه، وعلى قِراءةٍ وكتابةٍ وما أشْبَه ذلك(٢).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٣/ ٢٩٧ - ٢٩٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١/ ٢٤٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (١/ ٤٩٥)، =

﴿حُجَّةٌ﴾: دَلالة مبيِّنة للمَحجَّة، وبُرهان وسُلطان(١).

مشكل الإعراب:

١- قوله: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾:

﴿رُسُلًا﴾: قِراءة الجُمهور بالنَّصب في الموضِعين، وفي نصْبه ثلاثة أوجه: الأوَّل: أنَّه منصوبٌ على الاشتغال، أي: بفِعل محذوفٍ، تقديرُه: وقَصصنا رُسلًا، على حَذْف مضاف، أي: قصصنا أخبارَهم، فيكون ﴿قَدْ قَصَصْنَاهُمْ﴾ - ومثله ﴿لَمْ نَقْصُصْهُمْ﴾ - لا محلَّ له؛ لأنَّه مفسِّرٌ لذلك العاملِ المضمَر (قصصنا). الثَّاني: أنه منصوبٌ عطفًا على معنى الآية قبلها ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ﴾، أي: أرسَلنا ونبَّأْنا نوحًا ورَسُلًا. الثالث: أنَّه منصوبٌ على أنَّه مفعولٌ به لفِعل محذوف، والتقدير: (وأَرْسَلْنا رسلًا)، وعلى الوجهين الأخيرين فيكون ﴿قَدْ قَصَصْناهم﴾ - ومثله ﴿لَمْ نَقْصُصْهُمْ﴾ - في محلِّ نصب؛ لأنَّه صِفةٌ لـ﴿رُسُلًا﴾(٢).

٢- قوله: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾

﴿رُسُلًا﴾: منصوبٌ على أنَّه بَدَلٌ من قولِه: ﴿وَرُسُلًا قد قَصَصْنَاهُمْ﴾ في قِراءة النَّصب. أو مَنصوبٌ على القَطع المراد منه المدحُ، وتقديرُه: أعني - أو أمدح - رُسلًا. وقيل: منصوبٌ على الحالِ الموطِّئة(٣)، وقيل: منصوبٌ على أنَّه

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١ / ٥٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (١ / ١٣٣).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢١٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٠٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٥٩-١٦٠)، ((إعراب القرآن الكريم)) للدعاس (١/ ٢٣٦).

(٣) معنى الحال الموطِّئة، أنَّها ليستْ مقصودةً، إنَّما المقصودُ صِفتُها، مِثل: (مررت بزيدٍ رجلاً =

مفعولٌ به لِفِعل محذوف، أي: أَرْسَلْنا رسلًا[١].

المعنى الإجمالي:

يُخاطِبُ اللهُ تعالى نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ، بأنَّه أَوْحى إليه مِثلَ ما أوحى إلى نوحٍ والأنبياء مِن بعدِه، وأوحى اللهُ إلى إبراهيم وإسماعيل، وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطِ، وعيسى، وأيُّوب ويُونسَ، وهارون وسُليمان، عليهم جميعًا السَّلام، وأعطى سبحانه وتعالى داودَ عليه السَّلام كتابًا اسمُه الزَّبور.

وأخبره تعالى أنَّه أَوْحى إلى رُسلٍ قد قص عليه نبأهم في القرآن قبلَ أن تنزلَ هذه الآية، وأنَّ هناك رسلًا غيرَهم قد أَوْحى الله إليهم، لكن لم يقصصْ عليه أخبارَهم في كتابِه، وقد كَلَّم الله موسى تكليمًا بدون واسطةٍ.

هؤلاء الرُّسل أرسلهم اللهُ إلى عِباده مبشِّرين لأهل الطاعة بسعادة الدَّارين، ومنذرين للعصاةِ والمكذِّبين بالشَّقاء في الدُّنيا والآخرة؛ وذلك حتى لا يكونَ للناس أيُّ عُذرٍ يحتجُّون به بعدَ إرسال الرسل، وكان الله عزيزًا حكيمًا.

ثم يقول الله لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ: إنْ يكفُرْ بك يا محمَّدُ مَن كفَر، فإنَّ الله يَشهَدُ بما أَنزله عليك من كتاب عظيم، وهو القُرآن الكريم، فإنَّه أَنزله تعالى بعِلمه، والملائكةُ كذلك يَشهدونَ على صِدق ما جِئتَ به؛ فلا يَحْزُنْكَ تكذيبُ مَن كذَّب، ولا كُفرُ مَن كَفَر، وحَسْبُك بربِّك تعالى شاهدًا على صِدق ما أَتيتَ به.

تفسير الآيات:

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ

= صالحًا)، فـ(رجلًا) حالٌ وليستْ مقصودةً، إنَّما المقصودُ وَصْفُها. يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٦١).

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢١٣)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٩١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٦١)، ((إعراب القرآن الكريم)) للدعاس (١/ ٢٣٦).

وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣)﴾.

مُناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا حَكَى الله تعالى أنَّ اليهود سألوا الرسولَ صلَّى الله عليه وسلَّمَ أن يُنزِّل عليهم كتابًا من السَّماء، وذكَر تعالى بعده أنَّهم لا يطلُبون ذلك لأجْل الاسترشاد، ولكن لأجْل العِناد واللِّجاج، وحكى أنواعًا كثيرةً من فضائحهم وقبائحهم، وامتدَّ الكلامُ إلى هذا المقام- شَرَع سبحانه في الجوابِ عن تِلك الشبهة، بأنه لم يكنْ عدمُ إنزالِ الكتابِ على هؤلاء الأنبياءِ المذكورين في الآية دفعةً واحدةً مكتوبًا بخطٍّ سماويٍّ قادحًا في نبوَّتهم، بل كفى في إثبات نبوَّتهم ظهورُ نوعٍ واحدٍ من أنواع المعجزات عليهم، علمنا أنَّ هذه الشبهة زائلةٌ، وأنَّ إصرارَ اليهودِ على طلبِ هذه المعجزةِ باطلٌ[1]، فقال تعالى:

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾.

أي: إنَّا أعلمناك- يا محمدُ- بشرعِنا، كما أعلمنا أيضًا نوحًا ومَن جاء بعدَه مِن الأنبياءِ عليهم السَّلامُ[2].

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٦٦)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٧٧-٤٧٨).

قال ابن عاشور: (والتشبيه في قوله: ﴿كما أوحينا إلى نوح﴾ تشبيهٌ بجنسِ الوحي، وإن اختلفت أنواعهُ، فإنَّ الوحيَ إلى النبيء صلَّى الله عليه وسلَّم كان بأنواع من الوحي ... بخلاف الوحي إلى غيره ممن سمَّاهم الله تعالى فإنَّه يحتمل بعضًا من الأنواع، على أنَّ الوحي للنبي صلَّى الله عليه وسلَّم كان منه الكتاب القرآن، ولم يكنْ لبعضِ مَن ذكر معه كتابٌ) ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٣١).

مناسبتها لما قبلها:

لَمَّا ذكَر سبحانه اشتراكَ النبيين في وحيه إليهم، خصَّ بعضَهم بالذِّكر[١]، فقال:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ﴾.

أي: وأعلمنا بشرعنا أيضا كلًّا مِن إبراهيمَ وإسماعيلَ، وإسحاقَ ويعقوبَ والأنبياء من ذرية يعقوب، وعيسى، وأيُّوبَ ويونسَ وهارون وسليمانَ عليهم الصَّلاة والسَّلام[٢].

﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾.

أي: وأَعْطينا داودَ عليه السَّلام كتابًا يُسمَّى بالزَّبور[٣].

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (١٦٤)﴾.

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾.

أي: وأَوْحينا إلى رُسلٍ قد أتَيْنا على ذِكرهم لك في القُرآن من قبلِ نُزولِ هذه الآية[٤].

﴿وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٨٧-٦٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٤-٢١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٨٠).

أي: وأَوْحينا أيضًا إلى رُسلٍ آخرين لم نَأتِ على ذِكرهم لك في القُرآن(١).

﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾.

أي: وخاطَب اللهُ عزَّ وجلَّ بكلامِه مُوسى عليه السَّلام دون واسطةٍ، بكلامٍ واضحٍ بحرف وصوت، سِمعه منه مُوسى عليه السلام(٢).

﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٦٥)﴾.

﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾.

أي: أَرسلتُهم رسلًا إلى عِبادي، مبشِّرين مَن أطاعني، وآمَن برُسلي بالسَّعادةِ الدنيويَّة والأُخرويَّة، ومُحذِّرين مَن عصاني وكذَّب رُسلي بشقاوةِ الدَّارين(٣).

﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾.

أي: لئلَّا يَبقَى لمعتذرٍ عُذرٌ؛ فلا يحتجُّ مَن كفر بالله تعالى، وضلَّ عن سبيله بأنَّ الرِّسالة لم تبلغْه(٤).

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾ [طه: ١٣٤].

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٨٢-٤٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٩٢-٦٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٨٣-٤٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٨٤).

أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ٤٧].

وعن المُغيرةِ بنِ شُعبةَ رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((ولا أَحدَ أحبُّ إليه العذرُ من اللهِ؛ ومن أجْلِ ذلك بعَثَ المبشِّرين والمنذرين...))(١).

وعن عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((وليسَ أحدٌ أحبَّ إليه العذرُ من اللهِ؛ مِن أجْلِ ذلك أَنزلَ الكتابَ، وأرسل الرُّسلَ))(٢).

﴿وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

أي: إنَّ الله تعالى ذُو عزَّة، ومِن عِزَّته: قَهرُه وانتقامُه ممَّن كفَر به وعصاه بَعدَ بلوغِ رِسالتَه إليه، وهو ذو حِكمةٍ سبحانه، فيَضع كلَّ شيءٍ في موضعِه اللَّائق به، ومِن حِكمته عزَّ وجلَّ: أنْ أَرْسل إلى عِبادِه الرُّسلَ، وأَنزل عليهم الكتُبَ(٣).

﴿لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا (١٦٦)﴾.

مُناسبةُ الآية لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر الله تعالى أنَّه أَوْحى إلى رسوله محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، كما أَوْحى إلى إخوانِه من المُرسَلين عليهم السَّلام- أخبَر هنا بشهادتِه تعالى على رِسالتِه، وصِحَّة ما جاء به(٤)، فقال:

﴿لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٧٤١٦) واللفظ له، ومسلم (١٤٩٩).
(٢) رواه مسلم (٢٧٦٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٥).

أي: وإنْ كفَرَ بك مَن كفَر يا محمَّد، فالله تعالى يَشهَدُ لك بأنَّه أنزل عليك القرآنَ العظيم[١].

﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾.

أي: إنَّ إنزالَ الله تعالى للقرآنِ صادرٌ عن عِلم؛ فيعلم بماذا نزَلَ وكَيف نزَل، وعلى مَن نزَل، ويعلم حالةَ الذي أَنزله عليه، وكذلك نزَلَ القرآنُ مشتملًا على عُلومٍ إلهيَّة، وأحكامٍ شرعيَّة، وأخبارٍ غَيبيَّة، ممَّا هو مِن عِلم الله تعالى الذي أراد أن يُطلع العِبادَ عليه[٢].

﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾.

أي: ويَشهد لك بصِدقِ رِسالتك، وصِحَّة ما أُنزل عليك، ملائكةُ الله جلَّ وعلا؛ فلا يَحزُنْك تكذيبُ مَن كذَّبك[٣].

﴿وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا﴾.

أي: وحَسْبُك بالله شاهدًا على صِدقك دون مَن سواه مِن خَلْقِه[٤].

الفوائد التربويَّة:

١- قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ...﴾، فكلُّ محسنٍ له من الثَّناء الحسَن بين الأنام بحسَبِ إحسانِه، والرسل- خصوصًا المسمَّون في هذه الآية- في المرتبةِ العُليا من الإحسان[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٨٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٤).

٢- قوله تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ فيه أنَّه يَنبغي للإنسانِ الدَّاعي إلى الله أن يُعامِل الناسَ بما كانتْ تُعامِلُ به الرُّسلُ أقوامَها؛ فتارةً يُبشِّر، وتارةً يُنذر؛ لأنَّه إنْ سلك سَبيلَ البشارة دائمًا أدخلَ الناسَ في الإرجاء، وإنْ سلَك سبيلَ الإنذار دائمًا أَدْخل الناس في القُنوط واليأس(١).

٣- بيانُ رَحمةِ الله تعالى بعِباده؛ حيث أَرْسل إليهم الرُّسلَ يُعلِّمونهم ويُرشدونهم، ويَهدونهم إلى دِين الله، ولولا الرحمةُ ما أَرسلَ إليهم، قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾(٢).

الفوائد العِلميَّة واللَّطائف:

١- في ذِكر هؤلاء الرُّسل وتَعدادهم من التنويه بِهم، والثناء الصَّادق عليهم، وشَرْح أحوالهم ما يزدادُ به المؤمنُ إيمانًا بهم، ومحبَّةً لهم، واقتداءً بهَدْيهم، واستنانًا بسُنَّتهم، ومعرفةً بحقوقهم، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾(٣).

٢- خَصَّ بعضَ النبيِّين الذين جاؤوا من بعد نوح بالذِّكر؛ لشهرتِهم، وعلوِّ مقامِهم عند أهل الكتاب، فقال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ﴾(٤).

٣- أنَّ أوَّل الرُّسُل نوحٌ عليه السَّلام؛ لقوله: ﴿وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾، وهذا هو الحقُّ، وليس قَبلَه رسول، أمَّا النبوَّة فكانتْ قبل نوح؛ فإنَّ آدمَ عليه الصلاة والسَّلام كان نبيًّا(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٨٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٥٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٨٠).

٤- بدأ اللهُ تعالى بذِكر نوحٍ؛ لأنَّه أقدمُ نبيٍّ مُرسَل ذُكر في كتُب أهلِ الكِتاب، وإنَّما تنهض الحُجَّةُ على الناس إذا كانت مُقدِّماتها معروفةً عندهم[١].

٥- قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ... وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ عُطفت جملة ﴿وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ على ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾، ولم يُعطف اسم داود على بقيَّة الأسماء المذكورة قبله؛ للإيماءِ إلى أنَّ الزبور مُوحًى بأنْ يكون كتابًا[٢]، كسائرِ الكتبِ المنزلةِ.

٦- ما أَخْبَرَ اللهُ به في كتابِه من تكليمِ موسى وسَمْعِ موسى لكلامِ اللهِ؛ يدلُّ على أنَّه كَلَّمَه بصوتٍ؛ وذلك أنَّ اللهَ تعالى قال في كتابِه عن موسى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا * وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾، ففرَّق بينَ إيحائِه إلى سائرِ النبيِّينَ وبينَ تكليمِه لموسى؛ فلو كان تكليمُه لموسى إلهامًا أَلْهَمَه موسى من غيرِ أن يَسمَعَ صوتًا، لم يكُن فرقٌ بينَ الإيحاءِ إلى غيرِه والتَّكليمِ له[٣].

٧- إثباتُ التعليلِ لأحكام الله القدريَّة، كما هو ثابتٌ في الأحكام الشرعيَّة، ويُؤخذ من لام التَّعليل في قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾، وهذا ثابتٌ بأدلَّة كثيرة، أوصلها بعضُهم إلى ألف دليلٍ على أنَّ أفعال الله وأحكامه مُعلَّلة، ولو لم يكُن مِن ذلك إلَّا اسم الله (الحَكيم)، لكان هذا كافيًا؛ فكلُّ ما فَعَله فلِحِكمة، وكل ما شرَعه فلِحِكمة[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٣٥).

(٣) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٥٣١-٥٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٨٥).

٨- أنَّ الله تعالى يحبُّ الإعذارَ من الناس؛ لأنَّه أرسل الرسل؛ قال تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ﴾[١].

٩- الآية: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ مُطلقَة، والمتبادر منها أنَّ مِن حِكمة إرسال الرُّسل قَطْعَ حُجَّة الناس، واعتذارهم بالجهل، عندما يُحاسبهم الله تعالى في الآخِرة، ويَقضي بعذابهم، ومفهومُه ومفهومُ سائرِ الآيات: أنَّه لو لا إرسالُ الرُّسل، لكان للناس أن يحتجُّوا في الآخِرة على عذابها، وعلى عذاب الدنيا الذي كان أصابَهم بظُلمهم. واستدلَّ بها كثيرٌ من العلماء على امتناع مؤاخذةِ الله الناس وتعذيبهم على تَرْكِ الهداية التي لا تُعرَف إلَّا من الرُّسلِ عليهم السَّلام، ويستدلُّون بآيةِ الإسراء ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] على نجاةِ أهلِ الفَترة وكلِّ مَن لم تَبلُغْه الدَّعوة[٢].

١٠- يُستفادُ من قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ﴾ العُذر بالجَهل حتى في أصول الدِّين؛ لأنَّ الرسلَ يأتون بالأصول والفروع، فإذا كان الإنسانُ جاهلًا لم يأتِه رسولٌ، فله حُجَّةٌ على الله، ولا يمكن أن تثبُتَ الحُجَّةُ على الله إلَّا إذا كان معذورًا، لكن العذر بالجهل ليس على إطلاقِه من كلِّ وجهٍ، فيُشترط عدمُ التَّفريط في التعلُّم، فإنْ كان مفرِّطًا فلا عذر[٣].

١١- إثبات الشَّهادة لله، من قوله: ﴿لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ﴾، وقوله: ﴿وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا﴾، وهو سبحانه وتعالى شاهدٌ على كلِّ أعمال الخلق، وعلى كلِّ ما يَحدُث في السَّماء والأرض[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٨٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٨٨).

١٢- يُستفادُ من قوله تعالى: ﴿لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ أنَّ إنزال الله للقرآن كان بعِلمِه، فلا يتطرَّق إليه أيُّ خلل؛ لأنَّه يعلم متى نزل، وبماذا نزل، وكيف نزل، وعلى مَن نزل، ولا يمكن أن يتطرَّق اختلافٌ أو ادِّعاءُ نقْص أو ادِّعاء زيادة؛ لأنَّ الله أنزله بعِلمه؛ أي: أن إنزاله مقرونٌ بعلم الله، فمَن ادَّعى أنَّ فيه زيادةً أو نقصًا، فقد رمى الله تعالى بالجهل؛ لأنَّ الله أنزله بعِلمه سبحانه، وكذلك نزَل القرآنُ بما يعلم الله تعالى أنَّه مُصلِحٌ للخلق[1].

١٣- في قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ أنَّ الملائكة ذاتُ عقول، فهي تعلمُ، وتسمع، وتقول، خلافًا لِمَن قال: إنَّهم لا عقولَ لهم[2].

١٤- في قوله تعالى: ﴿لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ عنايةُ الله سبحانه وتعالى برسولِه، وبما أوحاه إليه؛ حيث ذكَر أنَّ الله يشهد به، وكذلك الملائكة، وكثرةُ سِياق الأدلَّة على الشيء تدلُّ على العناية به، وهو كذلك[3].

١٥- قال تعالى: ﴿لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ الأمورُ العظيمة لا يُستشهد عليها إلَّا الخواصُّ، كما قال تعالى في الشهادة على التوحيد: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وكفَى بالله شهيدًا[4].

بلاغة الآيات:

١- **قوله: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾** فيه التأكيد بـ(إنَّ)؛ للاهتمامِ بهذا الخبر، أو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٩٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٥).

لتنزيل المردود عليهم منزلةَ مَن يُنكر كيفيةَ الوحي للرُّسل(١).

٢- قوله: ﴿كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ﴾ فيه: تشبيهٌ بجِنس الوحي، وإنِ اختلفتْ أنواعه؛ فإنَّ الوحي إلى محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ كان بأنواع من الوحي، ورد بيانُها في حديثِ عائشةَ في الصحيحِ عن سؤالِ الحارثِ بنِ هشامٍ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم: كيف يأتيك الوحي(٢)؟ بخلاف الوحي إلى غيره ممَّن سماهم الله تعالى؛ فإنَّه يحتمل بعضًا من الأنواع، على أنَّ الوحي لمحمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ كان منه الكتابُ (القرآن) ولم يكن لبعضِ مَن ذُكِر معه كتاب(٣).

٣- قوله: ﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾:

غيَّر الأسلوب: فعدَل عن العَطفِ إلى ذِكر فِعْلٍ آخَر- حيث لم يقل: (وإلى موسى)، أي: وأَوْحينا إلى موسى-؛ لأنَّ لهذا النوعِ من الوحي مزيدَ أهميَّة(٤).

و﴿تَكْلِيمًا﴾ مصدر مؤكِّد لِفعله، والتوكيد بالمصدر يَرجِع إلى تأكيد النِّسبة وتحقيقها، مِثل (قد) و(إن)، وقد أَكَّد هنا بالمصدر؛ دَلالةً على وقوع الفِعل على حقيقتِه لا على مجازِه؛ فمعنى قوله: ﴿تَكْلِيمًا﴾ هنا: أنَّ الله تعالى كلَّم موسى كلامًا حقيقيًّا، بحيث لا يحتمل أنَّ الله أرسل إليه جبريلَ بكلام، أو أَوْحى إليه في نفْسِه(٥). والقاعدةُ: أنَّ التوكيدَ بالمصدرِ يَنفي احتمالَ المجازِ، ويَرْفَعُ تَوهُّمَه(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٣١).

(٢) رواه البخاري (٢)، ومسلم (٢٣٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٣١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٣٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٨٢).

(٦) يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسَّبت (١/ ٢٥٣)، وينظر أيضًا: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٣٨٩/١).

٤- قولُه تعالى: ﴿بَعْدَ الرُّسُلِ﴾

لَمَّا كان المرادُ استغراقَ النَّفي لجميع الزمان المتعقَّب للإرسال، أسقط الجارَّ، فقال: ﴿بَعْدَ﴾ ولم يقل: (مِنْ بَعْد)، أي: انتفى ذلك انتفاءً مستغرقًا لجميعِ الزَّمان الذي يوجد بعد إرسالِ الرُّسل، وتبليغهم للناس[١].

وفيه: إظهارٌ في مقام الإضمار في قوله: ﴿بَعْدَ الرُّسُلِ﴾- حيث لم يقُلْ: (بعدهم)-؛ للاهتمام بهذه القضية، وللدلالة على استقلالها في الدَّلالة على معناها؛ حتى تسير مسرَى الأمثالِ[٢].

٥- قوله: ﴿لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ﴾ فيه: استدراك عن مفهوم ما قبله؛ لأنَّ ما تقدَّم من قوله: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ مسوقٌ مساق بيان تعنُّتِهم ومكابرتهم عن أن يشهدوا بصِدق الرسول صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وصِحَّة نِسبة القرآن إلى الله تعالى؛ فكان هذا المعنى يستلزمُ أنَّهم يأبون من الشهادة بصِدق الرسول، وأنَّ ذلك يُحزن الرسولَ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فجاء الاستدراكُ بقوله: ﴿لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ﴾، أي: لم يشهدْ أهلُ الكتاب، لكن اللهُ شَهِدَ، وشهادةُ الله خيرٌ من شهادتهم[٣].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٥١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٤٤).

الآيات (١٦٧ - ١٧٠)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ ﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿صَدُّوا﴾: أَعْرَضوا وعدَلوا، ويُطلق الصدُّ أيضًا على الانصرافِ عن الشَّيءِ، والامتناع عنه، وأصْل (صد): الصَّرْف والمنْع(١).

مشكلُ الإعراب:

قوله: ﴿فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾

﴿خَيْرًا﴾: منصوبٌ على أنَّه خبرُ (كان) المحذوفةِ مع اسمِها، والتقديرُ: فآمِنُوا يَكُنِ الإيمانُ خيرًا لَكُم(٢). أو مَنصوبٌ بِفعلٍ مَحذوفٍ واجبِ الإضمارِ، تقديرُه: وأْتُوا أو اقْصُدوا خيرًا لكم؛ لأنَّه لَمَّا أمَرَهم بالإيمان؛ فهو يُريدُ إخراجَهم من أمْرٍ، وإدخالَهم فيما هو خيرٌ منه. وقيل: إنَّه مَنصوبٌ على الحالِ مِن المصدرِ الذي تَضمَّنه الفِعلُ، والتَّقدير: فآمِنوا حالَ كَونِ الإيمانِ خيرًا. وقيل غير ذلِك(٣).

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٧).

(٢) وقد ردَّ بعضُهم هذا المذهب بأنَّ (كان) لا تُحْذَف مع اسمِها دونَ خبرِها إلاَّ فيما لا بدَّ له منه، وممَّا يُضعِّف ذلك المذهبَ أنَّ (يكن) المقدَّرةَ هنا جوابُ شَرطٍ محذوف؛ فيَصيرُ المحذوفَ الشرطُ وجوابُه، أي: إنَّ التقديرَ: إنْ تُؤمنوا يكنِ الإيمانُ خيرًا، فَحُذِفَ الشرطُ، وهو (إنْ تُؤمِنوا) وجوابُه، وهو (يكُنِ الإيمانُ)، وأُبقِي معمولُ الجواب وهو (خيرًا). ينظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٦٤-١٦٥).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢١٤)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٩٣)، =

المعنى الإجمالي:

يُخبر تعالى أنَّ الذين كفروا، وأعْرَضوا عن سلوك طريق الحقِّ، ومنعوا غيرَهم من سلوكِه، قد ضلُّوا ضلالًا عظيمًا.

ويخبر أيضًا أنَّ الذين كفروا، وظَلموا أنفسَهم بعدمِ إيمانهم لم يكُن الله ليغفر لهم ذُنوبهم، ولم يكن ليُوفِّقَهم لسلوكِ الطَّريق القويم الذي يُوصل لنعيمه، لكن سيَهديهم إلى سلوك طريق الباطِل الموصل لجهنم؛ ليمكثوا فيها أبدًا، وكان هذا الأمرُ على الله هيِّنًا يسيرًا.

ثم خاطَب الله تعالى جميعَ الناس، قائلًا لهم: إنَّ ما أتاهم به رسولُ الله محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّمَ هو الحقُّ من عنده جلَّ وعلا؛ فلْيُؤمنوا به؛ فهذا خيرٌ لهم في الدارين، فإنْ أَبَوْا وكفروا فإنَّ الله غنيٌّ عنهم، فهو الذي يملكُ جميعَ ما في السَّموات والأرض، وكان الله عليمًا حكيمًا.

تفسير الآيات:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا (١٦٧)﴾.

مُناسبةُ الآية لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أخبر سبحانه عن رسالة الرُّسل عليهم الصلاة والسلام، وأخبر برسالة خاتمهم محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وشهِد بها، وشهِدتْ ملائكتُه- لزم من ذلك ثبوتُ الأمر المقرَّر والمشهود به، فوجَب تصديقُهم، والإيمانُ بهم واتِّباعُهم، لذا أتبع ذلك بوصْفِ مَن كفر بهم، وصدَّ عن سبيل الله زجرًا عن مِثل حاله، وتقبيحًا لِمَا أَبدى من ضلاله[1]، فقال:

= ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤١١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٦٤-١٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٤٩- ٥٠).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٥١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٥).

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾.

أي: إنَّ الكفَّار الذين أعرضوا عن اتِّباع الحقِّ، وسَعَوْا في منْع الناس من اتِّباعه[1].

﴿قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾.

أي: قد انحرَفوا عن طريق الحقِّ، وبَعُدوا منه بعدًا عظيمًا[2].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨)﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا﴾.

أي: إنَّ الكفَّارَ الظالمين لأنفسِهم بالكُفر، وبالصدِّ عن سبيلِه، ومخالفةِ أوامرِه، وارتِكابِ نواهيه[3].

﴿لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾.

أي: لم يكُنِ الله تعالى ليسترَ عليهم ذُنوبَهم، ويتجاوزَ عن مؤاخذتِهم بها[4].

﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾.

أي: ولم يكُنِ الله تعالى ليوفِّقَهم لسلوك طريق الحقِّ الذي يَصِلُون به إلى الجنة[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٩٥-٦٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٩٢-٤٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٩٤-٤٩٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٩٥).

﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا (١٦٩)﴾.

﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾.

أي: لكنَّ اللهَ تعالى يَهديهم لسلوك طريق الباطِل، الذي يَصِلون به إلى جهنَّمَ، فيمكثون فيها بلا نهايةٍ[١].

﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا﴾.

أي: إنَّ تخليدَ هؤلاء الكفَّار في جهنَّمَ أمرٌ هيِّنٌ على الله تعالى، الذي لا يَصعُب عليه شيءٌ سبحانه[٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧٠)﴾.

مُناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّ الله تعالى لَمَّا أجاب عن شُبهة اليهودِ على الوجوه الكثيرة، وبيَّن فسادَ طريقتهم، ذكَر خطابًا عامًّا يعمُّهم، ويعمُّ غيرَهم في الدعوة إلى دِين محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام[٣]، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

أي: يَا أَيُّها الناسُ إنَّ ما أتاكم به محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّمَ من الله تعالى فهو حقٌّ، وبَعْثَته عليه الصَّلاة والسَّلام حقٌّ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٩٦-٦٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٩٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٩٨-٥٠٠).

﴿فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾.

أي: فآمِنوا بما جاءكم به محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ واتَّبعوه، فإنَّ الإيمان به خيرٌ لكم في الدُّنيا والآخرة من الكُفر به[1].

كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

أي: وإنْ كفرتُم بالرسول صلَّى الله عليه وسلَّمَ وبما جاء به، فاعْلَموا أنَّ الله تعالى غنيٌّ عنكم وعن إيمانكم، ولا يتضرَّر بكُفركم؛ إذ يملك جميعَ ما في السَّموات وما في الأرض[2].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨].

﴿وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

أي: إنَّ الله تعالى عليمٌ بما أنتم صائرون إليه من الإيمان أو الكفر، عليمٌ بمَن يستحقُّ الهدايةَ منكم فيَهديه، وبمَن يستحقُّ الضلالة منكم فيُضِلُّه، حكيمٌ في جميع أقواله وأفعالِه وشَرْعه وقدَره، فيضع سبحانه كلَّ شيءٍ في موضعِه اللائق به[3].

الفوائد التربويَّة:

١- الكُفر والظُّلم من شأنهما أن يُخيِّمَا على القلب بغشاوةٍ تمنعُه من وصول

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٠٠).

(٢) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٩٧-٦٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٠١).

الهُدَى إليه، فليحذرْ منهما، يُرشد إلى ذلك قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا * إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾(١).

٢- وجوبُ الإيمان بالحقِّ ممَّن جاء به؛ لقوله: ﴿فَآمِنُوا﴾ بعد قوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ﴾(٢).

٣- في قوله تعالى: ﴿فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾ أنَّ الإيمانَ كلَّه خيرٌ؛ خيرٌ في الدنيا، وخيرٌ في الآخرة، فالإيمان خيرٌ للمؤمنين في أبدانهم، وقلوبِهم وأرواحهم؛ وذلك لِمَا يَترتَّب عليه من المصالح والفوائد؛ فكلُّ ثوابٍ عاجِلٍ وآجِل فمِن ثمرات الإيمان، فالنَّصر والهُدى، والعلم والعمل الصالح، والسرور والأفراح، والجَنَّة وما اشتملَتْ عليه من النَّعيم، كلُّ ذلك مُسبَّب عن الإيمان، حتى في المعيشة وإنْ كانت ضنكًا، فهي عند المؤمن خيرٌ(٣).

٤- في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ نادى الله تعالى جميعَ الناس في سِياق خِطاب أهل الكتاب؛ لأنَّ الحُجَّة إذا قامت عليهم بشهادة الله تعالى بنبوَّة محمد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، ووجَب عليهم الإيمانُ به، فبالأَوْلى تقومُ على غيرهم ممَّن ليس لهم كتابٌ ككتابهم(٤).

الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف:

١- أنَّ مَن آمن واستقام على سبيل الله، ودعا الناسَ إليه فهو على الهُدَى، ويُعرف ذلك من المقابِل والضدِّ؛ فإنَّه إذا ثبَت الحُكم لشيءٍ ثبَتَ نقيضُه لضده؛ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٠٣)..

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٦٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٩٣).

٢- إثبات الأفعال الاختياريَّة لله عزَّ وجلَّ؛ يعني: أنَّه يفعل ما يشاءُ بإرادته متى شاء؛ لقوله: ﴿لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾، والمغفرة فِعلٌ اختياريٌّ، وهذا الذي عليه السَّلَفُ الصالح أهلُ السُّنة والجماعة[١].

٣- إثبات الخلودِ الأبديِّ؛ لقوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾، والخلودُ الأبديُّ يتضمَّن أبديَّةَ المكان الذي يكون فيه الخلودُ، وعلى هذا يكونُ في الآية دليلٌ واضحٌ على أبديَّة الخلود في النَّار[٢].

٤- عمومُ رِسالة النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ لجميعِ الناس؛ لقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾[٣].

٥- إلزامُ قَبول ما جاء به الرسولُ صلَّى الله عليه وسلَّمَ عقلًا، كما هو لازمٌ شرعًا؛ ووجه ذلك قوله: ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾، فإذا كان من ربِّنا، وهو مالكُنا وخالقُنا والمتصرِّف فينا كيف يشاء، وجب علينا قَبولُه[٤].

٦- أنَّ ما جاء به الرسولُ عليه الصَّلاة والسَّلام هو الحقُّ، ولا يصحُّ أن يُقال: كلُّ ما يُنسب للرسول حقٌّ، بل كلُّ ما جاء به؛ لأنَّ هناك أحاديثَ ضعيفةً، وأحاديثَ موضوعةً[٥].

٧- إثبات الربوبيَّة العامَّة؛ لقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ بالإضافة إلى قوله: ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾، وربوبيَّة الله سبحانه وتعالى عامَّة وخاصَّة؛ فالعامة كقوله تعالى: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، والخاصة كقوله: ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٢]، وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٩٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٩٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٠١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٠٢).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

[الحجر: ٩٢ - ٩٣]، وقوله: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥]، والأمثلة على هذا كثيرة[١].

٨- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّها الناسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يفيد أنَّ إرسالَ الرُّسل من مقتضى الربوبيَّة؛ لأنَّه تصرُّفٌ في الخَلق، وفِعل من أفعال الله، وكلُّ ما كان كذلك فهو داخلٌ تحت مضمون الربوبيَّة[٢].

٩- قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هذا من إقامة العِلَّة مقام المعلول؛ إذ المراد: أنَّ الله تعالى له الغِنى المطلَق، فإنْ تستمرُّوا على كُفرانكم، يكُنْ الكفران شرًّا لكم، ولا يضرُّه تعالى من ذلك شيءٌ[٣].

بلاغة الآيات:

١- **قوله: ﴿وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾** فيه- على جَعْلِ الفِعل (صَدَّ) متعدِّيًا- إيجازٌ بالحذف، حيث حذفَ المفعول، وتقديره: (الناسَ)، أي: وصدُّوا الناسَ عن سبيل الله؛ لقصد التَّكثير[٤].

٢- **قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا...﴾** بيان لجملة ﴿قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾؛ لأنَّ السامع يترقب معرفة جزاء هذا الضلال؛ فبينته هذه الجملة[٥].

وإعادة الموصول وصِلته في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ دون أن يذكر ضميرهم؛ لتبنى عليه صلة (وظلموا)، ولأنَّ في تكرير الصلة تنديدًا عليهم[٦]. وقد يُقصد بـ(الظلم) هنا الشرك، كما هو شائع في استعمال القرآن كقوله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٠٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٥١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٤٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٤٧).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]؛ فيكون من عطف الأخصِّ على الأعم في الأنواع[١].

٣- قوله: ﴿لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾: الإتيان بلام الجحود في (ليغفر) أبلغُ من الإتيان بالفعل المجرَّد عنها؛ فالجملةُ التي على صيغةِ جحودٍ تقتضي تحقيقَ النفيِ[٢].

٤- قوله: ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا * إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ فيه: استثناء[٣] لتأكيد الشيء بما يشبه ضدَّه؛ لأنَّ الكلام مسوق للإنذار، والاستثناء فيه رائحةُ إطماعٍ، ثم إذا سِمع المستثنى تبيَّن أنَّه من قبيلِ الإنذارِ[٤].

وفيه: تهكُّم؛ لأنَّه استثنى من الطَّريق المعمول لـ(يهديهم)، وليس الإقحامُ بهم في طريقِ جهنَّمَ بهدًى؛ لأنَّ الهدى هو إرشادُ الضالِّ إلى المكانِ المحبوبِ؛ ولذلك عقبه بقوله: ﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾ أي الإقحام بهم في طريق النار ﴿عَلَى اللهِ يسيرًا﴾؛ إذ هم عبيدُه يصرفُهم إلى حيثُ يشاء، ولأنَّه لا يُعجزُه شيءٌ سبحانه وتعالى[٥].

٥- قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾: فيه: توجيهُ الخِطابِ إلى النَّاس جميعًا؛ ليكون تذييلًا وتأكيدًا لِمَا سبقه؛ إذ قد تهيَّأ من القوارع السالفة ما قامت به الحجةُ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٤٧).

(٣) الاستثناء: هو المذكور في كتب النحو، وهو: إخراج (بإلاَّ) أو إحدى أخواتها تحقيقًا أو تقديرًا من مذكور أو متروك، والمراد بالمخرج تحقيقًا: المتصل، كقام القوم إلا زيدًا، وبالمخرج تقديرًا: المنقطع، نحو: ﴿ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾؛ فإنَّ الظنَّ وإن لم يدخل في العلم تحقيقًا؛ فهو في تقدير الداخل فيه؛ إذ هو مستحضر بذكر العلم؛ لكثرة قيامه مقامه، فهو مُخرَج منه تقديرًا، وبالمذكور التام كهذين المثالين، وبالمتروك المفرغ نحو: ما ضربت إلا زيدًا. وشرط كونه من البديع: أن يتضمَّن ضربًا من المحاسن زائدًا على ما يدلُّ عليه المعنى اللغوي. يُنظر: ((أنوار الربيع في أنواع البديع)) لصدر الدين المدني (١/ ١٩١)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٢/ ٢٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٤٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

واتَّسعت المحجةُ، فكان المقامُ للأمرِ باتِّباعِ الرسولِ والإيمانِ(١).

٦- قوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾:

فيه تعدية الفِعل إلى ضمير المخاطبين في قوله: ﴿جَاءَكُمُ﴾ ترغيبًا لهم في الإيمان؛ لأنَّ الذي يجيء مهتمًّا بناسٍ يكون حقًّا عليهم أنْ يتَّبعوه، وأيضًا في طريقِ الإضافةِ من قوله: ﴿رَبِّكُمْ﴾ ترغيبٌ ثانٍ؛ لِمَا تدلُّ عليه من اختصاصهم بهذا الدِّين، الذي هو آتٍ مِن ربِّهم(٢).

- وإيرادهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلام بعنوان الرِّسالة ﴿الرَّسُولُ﴾؛ لتأكيدِ وجوبِ طاعتِه، والتعرُّض لعنوان الرُّبوبيَّة مع الإضافةِ إلى ضميرِ المخاطبين (رَبِّكم)؛ للإيذان بأنَّ ذلك لتربيتِهم وتبليغِهم إلى كمالِهم اللائقِ بهم؛ ترغيبًا لهم في الامتثالِ بما بعدَه مِن الأمرِ(٣).

- وذَكر ﴿الرَّسُول﴾ هاهنا مُعرَّفًا بـ(ال) وهي للعهد الذهني؛ لأنَّ أهل الكتاب قد بُشِّروا به، وكانوا ينتظرون بَعثَه(٤).

٧- قوله: ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ﴾:

- فيه: تعريضٌ بالمخاطَبين، أي: إنَّ كفرَكم لا يُفلتُكم من عِقابه؛ لأنَّكم عبيدُه؛ لأنَّ له ما في السَّموات وما في الأرض(٥).

- ولم يُؤكَّد بتكرير (ما)، وإنْ كان الخطابُ مع المضطربين؛ لأنَّ قيامَ الأدلَّة أوصل إلى حدٍّ من الوضوحِ بشهادةِ الله ما لا مَزيدَ عليه(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٤٨-٤٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٦٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٥٠).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٥١٨).

الآيات (١٧١ - ١٧٥)

﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ
إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ
مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ
سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ
وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ
ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا
﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن
فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا
وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٧٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ
مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ
بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿١٧٥﴾﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿لَا تَغْلُوا﴾: لا تُجاوزوا الحدَّ، وترتفِعوا عن الحقِّ، أو لا تَزيدوا ولا تُفرِطوا فيه، وأصل الغُلوِّ: الإفراط ومجاوزة الحدِّ، والزِّيادة(١).

﴿أَلْقَاهَا﴾: أمَر بها، أو أَعْلَمَ بها، وأصْلُ الإلقاء: طَرْح الشيءِ حيث تَلْقاه(٢).

﴿يَسْتَنْكِفَ﴾: يَأنَف، مِن: نكف الدَّمعَ، إذا مَسَحه عن خدِّه بإصبعيه، أنفةً

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٢٥).

من أن يُرى أثَرُ البكاء عليه، وأصلُ (نكف): يدلُّ على قطْعِ شيءٍ، وتنحيتِه[1].

﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ﴾: يَبعثُهم ويَجمُعهم، والحشر: إخراجُ الجماعة عن مقرِّهم، وإزعاجهم عنه إلى الحربِ ونحوها، وأصلُ (حشر): السَّوْق، والبَعْث والانبعاث[2].

﴿وَلِيًّا﴾: أصْل (ولي) يدلُّ على القُرْب، سواء من حيث: المكان، أو النِّسبة، أو الدِّين، أو الصَّداقة، أو النُّصرة، أو الاعتقاد، وكلُّ مَن وَلِي أمرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه[3].

﴿نَصِيرًا﴾: ناصرًا، وعونًا، وأصل (نصر): يدلُّ على إتيان خيرٍ، وإيتائِه[4].

﴿بُرْهَانٌ﴾: حُجَّةٌ ودَلالةٌ واضحة، وأصله: وضوحُ الشَّيء[5].

﴿وَاعْتَصَمُوا﴾: استَمسَكوا، وامتنعوا به، وأصلُ العِصمة: المنْعُ- ومنه يُقال: عَصَمَه الطَّعامُ؛ أي: مَنعَه من الجوع-، والإمساكُ، والملازمةُ[6].

﴿وَفَضْلٍ﴾: أي: عطاءٍ زائِد؛ فأصلُ الفضل الزِّيادة، وكلُّ عَطيَّة لا تلزم مَن

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١٢).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢، ٢٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٧).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٥).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١ / ١٠٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١ / ٥٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤ / ٣٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (١ / ١٢٧).

يُعطي، يُقال لها: فضل، والإفضالُ: الإحسانُ[١].

مشكلُ الإعراب:

قوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾.

﴿ثَلَاثَةٌ﴾: خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، والجملةُ مِن هذا المبتدأِ والخبرِ في محلِّ نصبٍ بالقولِ أي: ولا تقولوا: «آلهتنا ثلاثةٌ» يدلُّ عليه قوله بعد ذلك: ﴿إِنَّمَا الله إله وَاحِدٌ﴾ وقيل: تقديره: الأقانيمُ ثلاثةٌ أو المعبود ثلاثة، وقيل: تقديرُه: اللهُ ثالثُ ثلاثةٍ، ثم حُذف المضاف، وأقيم المضافُ إليه مُقامه، موافقةَ قوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الذين قالوا إنَّ الله ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾[٢] [المائدة: ٧٣].

قوله: ﴿انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾[٣]

﴿خَيْرًا﴾ مَنصوبٌ على أنَّه خبرُ (كان) مَحذوفةٍ مع اسمِها، والتقديرُ: انْتَهُوا يَكُنِ الانتهاءُ خيرًا. أو منصوبٌ بِفِعلٍ مَحذوفٍ واجبِ الإضمارِ، تقديرُه: انتُهوا وأْتُوا خيرًا لكم. وقيل غير ذلِك[٤].

المعنى الإجمالي:

يُوجِّه الله تعالى الخِطاب إلى أهل الكتاب بأنْ لَا يُجاوزوا الحقَّ في الدِّين، فيُفْرِطوا في عقيدتهم، وينهاهم عن الافتراء على الله؛ بِنِسبة الصاحبة والولد

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٢).

(٢) ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢١٤)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤١٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٦٦-١٦٧)، ((إعراب القرآن الكريم)) للدعاس (١/ ٢٣٨).

(٣) الكلامُ في إعرابِ هذه الآيةِ مِثل الكلام في إعرابِ قوله تعالى: ﴿فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾ وقد تقدَّم.

(٤) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢١٤)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٩٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤١١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٦٤-١٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٤٩-٥٠، ٥٨).

إليه، ويُؤكِّد لهم أنَّ عيسى رسولٌ من رسل الله، خَلَقه بكلمتِه التي ألقاها إلى مريمَ، وليس ابنًا له، كما يعتقدون؛ فليؤمنوا بالله وجميعِ رُسله، ولا يقولوا: إنَّ الآلهة أو الأرباب ثلاثة، ثم أمرهم أن يَنتهوا عن هذه المقولةِ الشَّنيعة، والاعتقادِ الكُفري، فإن انتهاءهم عن ذلك خيرٌ لهم، فما مِن إله إلَّا إلهٌ واحدٌ هو الله تعالى، تنزَّه أن يكون له ولد؛ فإنَّ جميع مَن في السموات والأرض خَلْقُه وعبيده؛ فكيف يكون له منهم الزوجةُ أو الولد؟! وكفَى به سبحانه وتعالى وكيلًا.

ثم بيَّن تعالى أنَّ عيسى بن مريم عليه السلام لن يأنفَ أن يكون عبدًا لله، ولا الملائكةُ المقرَّبون يأنفون من ذلك، ومَن يأنفْ من عِبادة الله ويمتنع عنها، فإنَّ الله سيحشرهم جميعًا إليه، وسيُعاملهم بما يستحقُّونه؛ فأمَّا مَن آمن وعَمِل الصالحاتِ، فسيؤتيهم اللهُ ثوابَ أعمالهم وافيًا، ويَزيدُهم من فضله الواسع، وأمَّا مَن أَنِف وامتنع وتكبَّر، فسيُعذِّبه الله عذابًا موجعًا، ولن يجدَ مَن يتولَّاه، أو ينصره من دون الله.

ثم وجَّه الله تعالى الخطابَ للناس كافَّةً، أنَّه قد جاءهم منه حُججٌ وأدلَّة قاطِعة تُبيِّن الحقَّ من الباطل، وأنزل إليهم القرآن، نورًا واضحًا يَهتدون به؛ فأمَّا المؤمنون بالله تعالى، والمعتمدون عليه في كلِّ شؤونهم، فسيُدخلهم الله تعالى في رحمته، ويَزيدُهم من فضله الواسع، وسيدلُّهم ويُوفِّقهم لسلوك الطَّريق القويم، الموصل إلى مَرْضاته.

تفسير الآيات:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا (١٧١)﴾.

مُناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لمَّا دحض الله تعالى شُبهات اليهود، وأقام الحُجَّة عليهم، وقدْ غلَوا في تحقير عيسى عليه السلام وإهانته، والكُفرِ به، ففرَّطوا كلَّ التفريط- قفَّى بدَحْض شُبهات النصارى الذين غلَوا في تعظيمه وتقديسه، فأَفرطوا كلَّ الإفراط[1]، فقال عزَّ مِن قائل:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾.

أي: يا أهلَ الإنجيل من النَّصارى، لا تتجاوزوا الحقَّ في دِينكم فتُفْرِطُوا فيه؛ فإنَّهم قد تجاوزوا حدَّ التصديق بعيسى عليه السَّلام، حتى رفَعوه عن مقام النبوَّة والرِّسالة إلى مقام الربوبيَّة، الذي لا يَليقُ بغير الله عزَّ وجلَّ[2].

﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾.

أي: ولا تَفتروا على اللهِ عزَّ وجلَّ بأنْ تَجعلوا له صاحبةً وولدًا[3].

قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ﴾.

أي: ما المسيحُ- أيُّها النصارى الغالُون في دِينهم- ابنٌ لله تعالى، كما تَزْعُمون، ولكنَّه عيسى ابنُ مريم، لا نَسبَ له غير ذلك، فهو عبدٌ من عباد الله تعالى، وخَلْقٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٠٦).

(٣) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

من خلْقه، ورسولٌ من رُسله[١].

كما قال الله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥].

وعن عُمرَ رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، قال: ((لا تُطْروني[٢]، كما أطْرَتِ النَّصارى ابنَ مريمَ، فإنما أنا عبدُه، فقولوا: عبدُ اللهِ ورسولُه))[٣].

عن أنسِ بنِ مالكٍ، أنَّ رجلًا قالَ: يا مُحمَّدُ، يا سيِّدَنا وابنَ سيِّدِنا، وخَيرَنا وابنَ خيرِنا، فَقالَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((يا أيُّها الناسُ، عليكُم بقولِكُم، ولا يَستَهْوينَّكُمُ[٤] الشَّيطانُ، أَنا مُحمَّدُ بنُ عبدِ الله، عبدُ اللهِ ورسولُه، واللهِ ما أُحبُّ أنْ ترفعوني فوقَ منزلَتي الَّتي أَنزلَني اللهُ عزَّ وجلَّ))[٥].

﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾.

أي: خَلَقه بالكلمة التي أُرسل بها جبريلُ عليه السَّلام إلى مريم[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٠٧-٥٠٨).

(٢) لا تُطرُوني: أي: لا تُجاوزا الحدَّ في مَدْحي، ولا تكذبوا فيه. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ١٢٣)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٥/ ٦).

(٣) رواه البخاري (٣٤٤٥).

(٤) يَستَهْوينَّكمُ الشَّيطانُ: يَذهبنَّ بهواكِم وعُقولِكم، أو يُحيِّرَنَّكم، أو يُزيِّنن لكم هَواه فيُغويكم ويُضلكم. ينظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٤٠/ ٣٢٩).

(٥) رواه أحمد (١٢٥٧٣)، وعبد بن حميد في ((المنتخب)) (١٣٠٩)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١٠٠٠٦)، وابن حبان (٦٢٤٠).
صحح إسناده على شرط مسلم، ابن عبد الهادي في ((الصارم المنكي)) (٤٥٩)، وصحح إسناده أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٦١١)، وصحح الحديث الألباني في ((غاية المرام)) (١٢٧)، والوادعي في ((الصحيح المسند)) (١٣٢)

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٠٨).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾.

أي: إنَّ عيسى عليه السَّلام رُوحٌ مِن خَلْق الله سبحانه؛ فقد أَرسل اللهُ تعالى جبريلَ عليه السَّلام، فنَفَخ في فَرْج مريمَ عليها السَّلام، فحمَلتْ بإذن الله عزَّ وجلَّ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١].

وقال سبحانه: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢].

وعن عُبادَةَ بنِ الصَّامت رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((مَن شَهِدَ أنْ لا إله إلَّا اللهُ وحْدَه لا شريكَ له، وأنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، وأنَّ عيسى عبدُ اللهِ ورسولُه، وكلمتُه ألقاها إلى مريمَ ورُوحٌ منه، والجَنَّةَ حقٌّ، والنَّارَ حقٌّ، أَدْخَله اللهُ الجنةَ على ما كان من العملِ))(٢).

وفي روايةٍ: ((أدخله اللهُ مِن أيِّ أبوابِ الجنَّةِ الثَّمانيةِ شاء))(٣).

﴿فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ﴾.

أي: فآمِنوا بالله تعالى الواحِدِ الأحد، الذي لا صاحبةَ له ولا ولدَ، وآمِنوا برُسله، وبما جاؤوكم به من عند الله عزَّ وجلَّ(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧٨-٤٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٠٨-٥٠٩).

(٢) رواه البخاري (٣٤٣٥) واللفظ له، ومسلم (٢٨).

(٣) رواه البخاري (٣٤٣٥)، ومسلم (٢٨) واللفظ له.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥١٠).

﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾.

أي: ولا تقولوا: الأربابُ ثلاثةٌ، فتجعلوا عيسى وأمَّه شَريكينِ لله سبحانه وتعالى[1].

كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ...﴾ الآية [المائدة: ١٧-٧٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [المائدة: ٧٣].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ...﴾ الآية [المائدة: ١١٦].

﴿انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾.

أي: انتَهوا عن قولِ ذلِك واعتقادِه، فإنَّ الانتهاء عن ذلك خيرٌ لكم[2].

﴿إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾.

أي: ما الله سبحانه بثالثِ ثلاثةٍ، ولكن الله تعالى هو المنفردُ بالألوهيَّة، الذي لا تَنبغي العبادةُ إلَّا له؛ فلا ولدَ له، ولا والدَ، ولا صاحبةَ له، ولا شريكَ[3].

﴿سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥١١).

أي: تنزَّه وتقدَّس الرَّبُّ عزَّ وجلَّ عن أن يكونَ له ولدٌ[1].

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

أي: إنَّ جميعَ ما في السَّموات وجميعَ ما في الأرض مُلكه وخَلقُه وعَبيدُه؛ فكيف يكون له منهم صاحبةٌ أو ولد؟![2].

كما قال سبحانه: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٥].

﴿وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا﴾.

أي: وحسْبُ الخلق كلِّهم اللهُ تعالى وحده، فهو القائمُ بشؤون كلِّ شيء، والحافظ لكلِّ شيء والمدبِّر له، فلا يُحتاج معه إلى غيرِه سبحانه؛ من ولدٍ، أو صاحبةٍ، أو غيرهما[3].

﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥١١-٥١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥١٢، ٥١٨).

يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢)﴾.

مُناسبةُ الآية لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر تعالى غلوَّ النصارى في عيسى عليه السَّلام، وذكَر أنَّه عبدُه ورسولُه، ذكر هنا أنَّه لا يستنكفُ عن عبادة ربِّه، لا هو ﴿وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ فنزَّههم عن الاستنكافِ، ونفْيُ الشَّيءِ فيه إثباتُ ضدِّه[1] فقال:

﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلهِ﴾.

أي: لن يأنفَ ويمتنعَ عيسى عليه السَّلام عن عبادة ربِّه عزَّ وجلَّ[2].

﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾.

أي: ولن يأنفَ ويمتنع أيضًا من الإقرارِ لله تعالى بالعبوديَّة له وحده، ملائكتُه المقرَّبون[3].

﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ﴾.

أي: ومَن يأنفْ ويمتنعْ عن عِبادة ربِّه، ويَترفَّعْ عنها ويتعالَ عليها[4].

﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٦-٢١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٢٠).

قال ابنُ عُثَيمين: (قوله: ﴿الْمُقَرَّبُونَ﴾ هل هي صفةٌ كاشفة أو صِفة قَيْد؟ الجواب: يحتمل أن تكون صِفة كاشفة؛ لأنَّ الملائكة مقرَّبون إلى الله عزَّ وجلَّ، ويحتمل أن تكونَ قيدًا، وعلى هذا الاحتمال يكون الملائكةُ فيهم المقرَّبون، وفيهم مَن ليس بمقرب. فالله أعلم) ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧٠٨ - ٧٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (٢/ ٥٢٠ - ٥٢١).

أي: فسيبعثُ الله سبحانه يومَ القيامة المستنكفين والمستكبرين عن عِبادته، فيجمعهم جَمِيعًا عنده، فيفصل بينهم بحُكمه العَدْل[١].

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٧٣)﴾.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

أي: فأمَّا الذين جمَعوا بين الإيمان المأمور به، وعَملِ الأعمال الصالحات من واجباتٍ ومُستحبَّات[٢].

﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾.

أي: فيؤتيهم من الثَّواب على قدْرِ إيمانهم وأعمالهم الصَّالحة، جزاءً وافيًا كاملًا[٣].

﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

أي: ويَزيدهم على ما لهم من الأجور والثَّواب في الدُّنيا والآخِرة، زيادةً من فضله وإحسانِه، وسَعَةِ كرَمه ورحمتِه سبحانه[٤].

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٢١-٥٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧٠٩-٧١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٢٥).

أي: وأمَّا الذين أَنِفوا وامتنعوا عن عبادةِ الله تعالى، وترفَّعوا عنها، وتعالَوْا عليها[(١)].

﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

أي: فسيُعذِّبهم الله تعالى عذابًا موجِعًا لهم[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

أي: ولا يَجِدون أحدًا من الخَلْق يتولَّاهم فيحصُل لهم ما يَطلُبون، ولا مَن يَنصرُهم فيدفعُ عنهم ما يَحذرون[(٣)].

﴿يَا أَيُّها الناسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا (١٧٤)﴾.

مُناسبةُ الآية لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أنْ أزاح الله تعالى شُبهَ جميع المخالفين من سائر الفِرَق: اليهود، والنصارى، والمنافقين، وأقام الحُجَّة عليهم، وأقام الأدلَّةَ القاطعة على حَشْر جميع المخلوقات، فثَبَتَ أنَّهم كلَّهم عبيدُه- عمَّ في الإرشاد لطفًا منه بهم[(٤)]، فقال:

﴿يَا أَيُّها الناسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٥٢٦).

أي: يا أيُّها الناسُ قد جاءتْكم من الله تعالى حُججٌ قاطعةٌ للعُذر، وأدلَّةٌ واضحةٌ مزيلة للشُّبهات، تُبيِّن الحقَّ وضدَّه[١].

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾.

أي: وأنزلْنا إليكم ضياءً واضحًا، هو القرآن الذي أنزله اللهُ تعالى على محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، يُبيِّن لكم طريقَ الحقِّ الهادي إلى ما فيه الفوزُ الأبديُّ لكم، والنجاةُ من عذاب الله تعالى إنْ سلكتموها، واستنرتم بضَوئِه[٢].

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (١٧٥)﴾.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ﴾.

أي: فأمَّا المؤمنون بالله تعالى، المعتمدون عليه في جميعِ أمورِهم[٣].

﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ﴾.

أي: فسيتغمَّدهم الله تعالى برحمةٍ خاصَّة، فيُوفِّقهم للخيرات، ويَجزل لهم المثوبات، ويَدفع عنهم المكروهات، ويُدخلهم الجَنَّة، ويَزيدهم ثوابًا، ورَفعًا في درجاتهم، من فَضْله عليهم، وإحسانه سبحانه إليهم[٤].

﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧١٢-٧١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٣٢-٥٣٣).

أي: ويُوفِّقهم ويُسدِّدهم لسلوك طريق مَن أنعم الله تعالى عليه من أهل طاعتِه، ولاقتفاء آثارِهم، واتِّباعِ دِينهم، فيوفِّقهم للعِلم النَّافع، والعمل الصالح(١).

الفوائد التربويَّة:

١- أنَّه لا يجوزُ الغلوُّ في الدِّين، سواء ما يتعلَّق بالرسولِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، أو بالأعمالِ، يُرشدنا إلى ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾، وعلى هذا: فمَن أحبَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ أكثرَ من محبَّةِ الله، فهو غالٍ فيه عليه الصلاة والسَّلام، ومَن نَزَّله منزلةَ الربِّ، وزعم أنَّه يتصرَّف في الكون، فهو غالٍ فيه، ومَن زعَم أنَّ غيره ممَّن هو دونه يتصرَّف في الكون، فهو غالٍ فيه، فالغلوُّ هو مجاوزة الحدِّ في كلِّ شيءٍ(٢)، فينبغي الحَذَرُ مِن الغُلوِّ، وتعدِّي الحدودِ، والإسرافِ، ولُزومُ الاقتصادِ والاعتصامِ بالسُّنَّةِ؛ فعليهما مدارُ الدِّين(٣).

٢- في قوله تعالى: ﴿وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا﴾ ما يُوجب للإنسان صِدقَ الاعتماد على الله عزَّ وجلَّ، وأن يعتمدَ على الله وحده؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا﴾، فمن اعتمد على الله فإنَّ الله كافيه، وهو حسبُه، ومَن كان الله حسْبَه، فقد تمَّ له أمرُه(٤).

٣- الترهيب من الكِبر؛ يُرشد إلى ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، أي: مؤلِمًا، بما وجَدوا من لذاذة الترفُّع والتكبُّر(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥١٣). وينظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٥١٩)، (تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٥٠).

(٣) ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ١٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥١٨).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٥٢٥)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ١).

٤- أنَّ مَن آمَن واعتَصَم بالله، فإنَّه سوف ينالُ الرحمةَ العاجلةَ والآجلة؛ لقوله: ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ﴾، والسِّين تدلُّ على القُرب، وأنعمُ الناس بالًا، وأشدُّهم انشراحًا في الصُّدور هم المؤمنون المعتصِمون بالله[1].

٥- في قوله: ﴿بُرْهَانٌ مِن رَّبِّكُمْ﴾ ما يدلُّ على شرف هذا البُرهان وعظمته، حيث كان من ﴿رَّبِّكُمْ﴾ الذي ربَّاكم التربيةَ الدِّينيَّة والدنيويَّة، فمِن تربيته لكم التي يُحمد عليها ويُشكر، أن أوصلَ إليكم البيِّنات؛ ليهديَكم بها إلى الصِّراط المستقيم، والوصول إلى جنَّات النَّعيم[2].

٦- الاعتِصامُ بالله ثمرةٌ ملازمةٌ للإيمان به، متى صحَّ الإيمان، وعرَفت النفسُ حقيقةَ عبوديَّة الكلِّ لله؛ فلا يبقى أمامَها إلَّا أن تعتصمَ بالله وحْده، وهو صاحب السُّلطان والقُدرة وحْدَه، وهؤلاء يُدخلهم الله في رحمةٍ منه وفضل؛ رحمةٍ في هذه الحياة الدُّنيا- قبل الحياة الأُخرى- وفضلٍ في هذه العاجلة- قبل الفضلِ في الآجِلة، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ﴾[3].

الفوائد العِلميَّة واللَّطائف:

١- إذا نهى الله أُمَّةً عن شيءٍ، وقصَّه علينا فهو عِبرةٌ لنا كما في قوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ﴾[4].

٢- إثبات رِسالة عيسى ابن مريم، وبيان أنَّه لا يستحقُّ من أمر الربوبية شيئًا، وتُؤخَذ من قوله: ﴿رَسُولُ اللهِ﴾[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٧).

(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٨٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥١٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥١٣، ٥١٦).

٣- إطلاق السَّبب على مُسبَّبه، لقوله: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾؛ فإنَّ عيسى ليس هو الكلمة نفْسَها، لكنَّه خُلِق بالكلمة، فأُطلق السبب، وأُريد المسبَّب(١).

٤- أنَّ عيسى عليه الصلاة والسَّلام مِن أشرف عباد الله وأكرمهم عليه؛ لأنَّه أضافه إلى نفْسه، فقال: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾، والإضافة للتخصيص والتَّكريم(٢).

٥- قوله: ﴿فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ﴾: أُمِروا بالإيمان بالله مع كونِهم مؤمنين به؛ لأنَّهم لَمَّا وصفوا الله بما لا يَليق فقد أَفسدوا الإيمان، وليكون الأمرُ بالإيمان بالله تمهيدًا للأمر بالإيمان برسله، وهو المقصود(٣).

٦- قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا﴾ (ثلاثة) خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، وحُذِف؛ ليصلح لكلِّ ما يصلح تقديرُه من مذاهب النَّصارى من التثليثِ؛ فإنَّ النصارى اضطربوا في حقيقةِ تثليثِ الإلهِ(٤).

٧- لقدْ عُني الإسلامُ عنايةً بالغةً بتقرير حقيقة وحدانيَّة الله سبحانه، وحدانيَّةً لا تتلبَّس بشُبهة شِرك، أو مشابهة في صورة مِن الصُّور، وعُني بتقرير أنَّ الله سبحانه ليس كمثله شيءٌ، فلا يشترك معه شيءٌ في ماهيَّةٍ ولا صِفة ولا خاصية؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾(٥).

٨- الاستطراد بذِكر ما يُشارك الشيءَ، وإن لم يكُن له ذِكر؛ لقوله: ﴿وَلَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥١٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٥٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٥٩).
(٥) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٨١٨).

﴿الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾؛ فإنَّها ذُكرت إلى جانب المسيح؛ لأنَّ مِن الناس مَن يَعبُد الملائكة، ويدَّعي أنهم بناتُ الله[1].

٩- قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ﴾ الاستنكاف غيرُ الاستكبار، فالاستنكافُ بالقلب؛ بأنْ يكونَ الإنسان عنده أنفةٌ وكبرياء قلبيَّة عن عبادة الله، والاستكبار أن يدَعَ العبادة، ويستكبر عنها، ويحتقرَها، ويحتقرَ الرسول؛ كقولهم: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللهُ رَسُولًا﴾[2] [الفرقان: ٤١].

١٠- الردُّ على الجبريَّة؛ يُؤخذ من قوله: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فأضاف العملَ إليهم، والجبريَّة يقولون: إنَّ الإنسان لا يَعمل، ولا يُضاف العملُ إليه إلا مجازًا، وأنَّ عمله ليس باختياره، ولا بقَصدِه[3].

١١- في قوله تعالى: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ بيان مِنَّة الله عزَّ وجلَّ؛ حيث سمَّى الثواب أجرًا، كأنَّه استأجر أُجراءَ يعملون فيأجرهُم، مع أنَّ فائدةَ العملِ للعامل نفْسِه، بينما الأُجراء في غير المعاملة مع الله يكون العملُ لِمَن دفَع الأجرة، أمَّا هذا فالعمل للإنسان، ومع ذلك يَأجُره الله عزَّ وجلَّ[4].

١٢- أنَّ ثواب الأعمال الصالحة يَزيد على ما قدَّره الله تعالى مِنْ أنَّ الحسنةَ بعشْر أمثالها، لقوله: ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾[5].

١٣- أنَّ القرآن الكريم نازلٌ لجميع الخلق؛ لقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ

---

(١) يُنظر: ((الفروق اللغوية)) للعسكري (ص: ٢٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٢٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٢٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، ويترتَّب على هذا عمومُ رسالة النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ(١).

١٤- في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ أنَّ القرآن الكريم فيه بيانٌ لكلِّ شيء؛ لأنَّ النور لا بدَّ أن تستبينَ به كلُّ الأشياء؛ كالنَّهار إذا طلَع بانتْ به الأشياء، وكالحُجرة إذا أُسْرِجَتْ فلا بدَّ أن يَبينَ منها ما كان خافيًا، فالقرآن تبيانٌ لكلِّ شيء(٢).

١٥- قول الله تعالى: ﴿فَسَيُدْخِلُهُم﴾ لعلَّ السِّين ذُكرت؛ لتفيدَ مع تحقيق الوعد الحثَّ على المثابرة، والمداومة على العمل؛ إشارةً إلى عِزَّة ما عنده تعالى(٣).

١٦- أنَّ الرحمة تُطلق صفةً من صفات الله، وتُطلق على ما كان مِن آثارِها، وهذه الآيةُ مِن إطلاقِ آثارِ الصِّفة؛ لأنَّه قال: ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ﴾(٤).

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ فيه: تجريدٌ للخطاب، وتخصيص له بالنَّصارى؛ زجرًا لهم عمَّا هم عليه من الكفرِ والضَّلال(٥)، وخُوطبوا بعنوانِ أهلِ الكتابِ تعريضًا بأنَّهم خالفوا كتابَهم(٦).

٢- قوله: ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾: فيه عطفُ الخاص ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ - على العامِّ ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾؛ للاهتمام بالنَّهي عن الافتراءِ الشَّنيع(٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٢٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٣٠).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٥٢٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٣٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٥٩).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٥٠).
(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٥١).

٣- قوله: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾:

- هي جملة مبيِّنة للحدِّ الذي كان الغلوُّ عنده؛ فإنَّه مُجمَل، ومبيِّنة للمراد من قول الحقِّ، ولكونها تتنزَّل من التي قبلها منزلةَ البيان فُصِلت عنها من غير عطفٍ بالواو[١]، وأيضًا هي جملة مستأنفة؛ مسوقة لتعليل النَّهي عن القول الباطل المستلزم للأمْر بضدِّه وهو الحقُّ، أي: إنَّه مقصورٌ على رُتبة الرِّسالة، لا يتخطَّاها[٢].

- وفيه قصرُ موصوفٍ على صفة، حيثُ قصر المسيحَ على صِفات ثلاث: صفة الرسالة، وصفة كونه كلمةَ الله أُلقيت إلى مريم، وصفة كونه رُوحًا من عند الله؛ والقصدُ من هذا القصرِ إبطالُ ما أحدثه غلوُّهم في هذه الصفات غلوًّا أخرجها عن كُنهها؛ فإنَّ هذه الصفاتِ ثابتةٌ لعيسى، وهم مُثبِتون لها، فلا يُنكَر عليهم وصفُ عيسى بها؛ فأفاد القصرُ أنَّ عيسى مقصورٌ على صفة الرِّسالة، والكلمة، والرُّوح، لا يتجاوز ذلك إلى ما يُزاد على تلك الصِّفات من كون المسيح ابنًا لله، واتِّحاد الإلهية به، وكون مريمَ صاحبةً[٣].

- وقوله: ﴿رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ﴾ فيه: تقديمُ كونه عليه السَّلام رسولَ الله في الذِّكر مع تأخُّره عن كونه كلمته تعالى، ورُوحًا منه في الوجود؛ لتحقيقِ الحقِّ من أوَّل الأمر بما هو نصٌّ فيه، غير محتملٍ للتأويلِ، وتعيين مآلِ ما يَحتمِله، وسدِّ بابِ التأويلِ الزَّائغ[٤].

٤- قوله: ﴿فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ﴾: فيه احتراسٌ؛ حيث أُريد بالرُّسل: جميعهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٥١-٥٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٥٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٥١-٥٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٦٠).

أي: لا تكفروا بواحدٍ من رسله، وهذا بمنزلةِ الاحتراسِ عن أن يتوهَّم متوهِّمون أن يُعرضوا عن الإيمان برسالة عيسى عليه السَّلام مبالغةً في نفْي الإلهية عنه(١).

٥- قوله: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾: فيه حصْر بـ(إنَّما)؛ للدلالة على انفرادِ الله تعالى بالألوهيَّة، وأنَّ الله تعالى هو الإلهُ وحْدَه، وقوله: ﴿وَاحِدٌ﴾ زيادة تأكيد لذلك الحصرِ(٢).

٦- قوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فيه تقديم ما حقُّه التأخير ﴿لَهُ﴾؛ لإفادة الحصر في انفراد الله تعالى وحده بالمُلك(٣).

٧- قوله: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾:

- جملة استئنافية، مقرِّرة لِمَا سبق من التنزيه(٤).

- وفي قوله: ﴿عَبْدًا لِلَّهِ﴾ أظهرَ الحرفَ الذي تُقدَّر الإضافة عليه، وهو (اللام) في قوله: ﴿لِلَّهِ﴾؛ لأنَّ التنكيرَ هنا أظهرُ في العبوديَّة، أي: عبدًا من جُملة العبيد، ولو قال: (عبد الله) لأوهمتِ الإضافة أنَّه العبدُ الخِصِّيص (الأخصُّ مِن الخاصِّ)، أو أنَّ ذلك عَلَم له(٥).

- وقوله: ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ فيه: إيجاز بالحذف، حيث إنَّ المراد: (ولا الملائكة المقربون أن يكونوا عبيدًا لله)(٦).

وفيه: تخصيصُ المقرَّبين لكونِهم أرفعَ الملائكة درجةً، وأعلاهم منزلةً(٧).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٥٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥١٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥١٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٦٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٥٤).
(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٧٣)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٩٧).
(٧) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٩٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٤٦). =

٨- قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ... وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا...﴾ فيه: بيان لحال الفريق المطويِّ ذِكرُه في الإجمال (وهو الفريق الذي لم يستنكف)، قُدِّم على بيان حال ما يُقابله؛ إبانةً لفضله، ومسارعةً إلى بيان كون حشْرِه أيضًا معتبرًا في الإجمال، وإيرادُه بعنوان الإيمان والعمل الصالح، لا بوصف عدم الاستنكاف المناسِب لِما قبله وما بعده؛ للتنبيه على أنه المستتبع لِمَا يعقبُه من الثمراتِ[1]. وتقديمُ ثوابِ المؤمنين على عِقاب المستنكفين؛ لأنَّهم إذا رأوا أولًا ثواب المطيعين، ثم شاهدوا بَعدَه عقاب أنفسهم، كان ذلك أعظمَ في الحسرةِ[2].

٩- قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصَمُوا بِهِ﴾ جاء بصيغة الافتعال؛ للدَّلالةِ على الاجتهاد في ذلك؛ لأنَّ النفس داعيةٌ إلى الإهمال المنتِج للضَّلال[3].

١٠- قوله: ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ فيه: تقديم ذِكر الوعدِ بإدخال الجَنَّةِ على الوعدِ بالهدايةِ إليه، على خِلاف الترتيب في الوجودِ بين الموعودين؛ للمسارعةِ إلى التبشير بما هو المقصدُ الأصليُّ قبلُ[4].

= وهذا على القول بأنَّ قوله: ﴿الْمُقَرَّبُونَ﴾ صفة مقيِّدة للملائكة، وليستْ صفة كاشفة لهم كلِّهم.

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٥٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٦٣).

الآية (١٧٦)

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٧٦)﴾.

غريب الكلمات:

﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾: يَسألُونَك عن بيانِ الحُكم، ويَطلُبون الفتوى، والفُتيا والفتوى هي الجوابُ عمَّا يُشكِل من الأحكام، وأصل (فتي): تَبيين حُكم[١].

﴿الْكَلَالَةِ﴾: هو الرَّجُل يموت ولا ولدَ له ولا والدَ، مصدرٌ من تَكلَّله النَّسَب، أي: أحاط به؛ فالابنُ والأبُ طرفانِ للرَّجُل، فإذا مات ولم يُخلِّفْهما، فقد مات عن ذَهاب طَرفَيْه، فسُمِّي كلالةً؛ لذَهاب طرفيه المحيطينِ به[٢].

﴿هَلَكَ﴾: ماتَ، وأصل (هَلَكَ): يدلُّ على كَسرٍ وسُقوطٍ؛ ولذلك يُقالُ للميِّت: هَلَكَ[٣].

﴿حَظِّ﴾: نصيب مقدَّر، وأصل (حظظ): النَّصِيبُ والجَدُّ[٤].

﴿تَضِلُّوا﴾: تَعدِلُوا عن الطريقِ المستقيم، وأصلُ الضلال: خِلافُ الهُدى،

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٣، ٤٧٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١ / ١٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١ / ٣٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥ / ١٢١)، ((التبيان)) لابن الهائم (١ / ١٣٦- ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١ / ١٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢ / ١٤)، ((المفردات)) للراغب (١ / ٢٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (١ / ١٣٦).

وضَياعُ الشيءِ، وذَهابُه في غيرِ حقِّه[1].

المعنى الإجمالي:

يقولُ الله تعالى لنبيِّه: يَسألُك أصحابك أن تُبيِّن لهم الحُكم الشرعيَّ في توريث الكلالة، وهو مَن مات وليس له ولدٌ ولا والدٌ يرثه، فقل لهم يا محمَّد: إنَّ الله تعالى هو الذي يفتيكم في ذلك؛ إذا مات شخصٌ ولم يترك والدًا، ولا أولادًا- لا مِن الذُّكور ولا الإناث- وترك أختًا شقيقةً أو لأبٍ؛ فإنَّ نَصيبَها من الميراث في هذه الحالة هو النِّصف، فإذا ماتت الأختُ قبلَ أخيها ولم يكُن لها ولدٌ- ذكرًا كان أو أُنثى- ولا والدٌ يَرثانِها ورث مالَها كلَّه ، فإنْ كان معه صاحبُ فرضٍ- كزوجٍ- أَخَذ فَرْضَه، وما بقِي فلأَخِيها.

ثم ذكَر صُورتين أُخريين فقال: فإنْ كانتَا أُختين فأَكْثَر، فإنَّ لهما ثُلُثَيْ ما يترُك أخوهما، وإنْ كان الورثةُ لهذا الأخِ المتوفَّى إخوةً، سواء كانوا ذكورًا وإناثًا، فيأخذ الذَّكرُ مثلَ نَصيبِ اثنتين من الأخواتِ، يُبيِّن الله أحكامَه للنَّاس؛ حتى لا يَضلُّوا، والله بكلِّ شيءٍ عليمٌ.

تفسير الآية:

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٧٦)﴾.

عن البَراءِ رضي اللهُ عنه قال: (آخِرُ سورةٍ نزلَتْ: بَراءةٌ، وآخِرُ آيةٍ نزلَتْ: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾)[2].

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٥٦) و(٦/ ٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٩).
(٢) رواه البخاري (٤٦٠٥).

وعن عُمرَ رضي الله عنهما، قال: ((إنِّي لا أَدَعُ بعدي شيئًا أهمَّ عندي من الكَلَالَة، ما راجعتُ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ في شيءٍ ما راجَعْتُه في الكَلالَة، وما أَغْلَظَ لي في شيءٍ ما أَغْلَظَ لي فيه، حتى طَعَنَ بإصبعِه في صدري، فقال: يا عمرُ، أَلَا تَكْفيك آيةُ الصَّيْفِ التي في آخِرِ سورةِ النِّساء؟ وإنِّي إنْ أَعِشْ أَقْضِ فيها بقضيةٍ، يَقضي بها مَن يقرأُ القُرآنَ، ومَن لا يقرأُ القرآنَ))(١).

سبب النُّزول:

عن جابرِ بن عبد الله رضي الله عنه، قال: ((مرضتُ فأتاني رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ وأبو بكرٍ يُعوداني ماشيينِ، فأُغمي عليَّ، فتوضَّأ ثم صبَّ عليَّ من وَضوئِه، فأفقتُ، قلت: يا رسولَ الله، كيف أَقضي في مالي؟ فلمْ يردَّ عليَّ شيئًا حتى نزلتْ آيةُ الميراث: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ﴾))(٢).

﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾.

أي: يَطلُب الصحابةُ منك- يا محمَّدُ- إخبارَهم عن الحُكم الشرعيِّ للكَلالة(٣).

﴿قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾.

أي: قُلْ لهم- يا محمَّد-: الله عزَّ وجلَّ هو الذي يُخبركم عن حُكم الكَلالة، أي: عمَّن مات وليس له ولدٌ- ذكرًا كان أو أُنثى- ولا والدٌ يَرِثُه(٤).

---

(١) رواه مسلم (٥٦٧).

(٢) رواه البخاري (٦٧٢٣)، ومسلم (١٦١٦) واللفظ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٣٥).

قال ابن كثير: (قال ابن جرير: وقد رُوي عن عُمرَ رضي الله عنه، أنه قال: (إنِّي لأستحي أن أُخالِفَ فيه أبا بكر). وكان أبو بكر رضي الله عنه، يقول: هو ما عدَا الولدَ والوالد. =

﴿إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾.

أي: إذا مات إنسانٌ، وليس له ولدٌ- ذكرٌ أو أُنثى- ولا والدٌ، وله أختٌ شقيقةٌ أو لأبٍ، فإنَّها ترِثُ نِصفَ متروكات أخيها؛ مِن نقود وعَقار وأثاثٍ، وغير ذلك(١).

﴿وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ﴾.

أي: إنَّ الأخَ الشَّقيقَ أو لأبٍ يرِثُ جميعَ ممتلكاتِ أُخته إذا ماتتْ، ولم يكن لها ولدٌ، ولا والد يَرِثها، فإنْ فُرِضَ أنَّ معه مَن له فرض- كزوجٍ، أو أمٍّ، أو أخٍ من أمٍّ-، صُرِفَ إليه فَرْضُه، وصُرِفَ الباقي إلى الأخِ(٢).

فعن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما، أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((أَلْحِقوا الفرائضَ بأهلها، فما بقِيَ فهو لأَوْلى رَجُلٍ ذَكَرٍ))(٣).

﴿فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾.

أي: فإنْ كان لِمَن يموت كلالةً، أُختان شقيقتان أو لأبيه، فلهما ثُلُثَا ما ترَك أخوهما، وكذا ما زاد على الأُختين، فله حُكمهما(٤).

﴿وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾.

= وهذا الذي قاله الصِّدِّيق عليه جمهورُ الصَّحابة والتابعين والأئمَّة، في قديم الزمان وحديثه، وهو مذهب الأئمَّة الأربعة، والفقهاء السبعة، وقول علماء الأمصار قاطبة، وهو الذي يدلُّ عليه القرآن، كما أرشد الله أنَّه قد بيَّن ذلك ووضَّحه في قوله: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾)) ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨٢-٤٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٣٦-٥٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٣٧-٥٣٨).

(٣) رواه البخاري (٦٧٣٢)، ومسلم (١٦١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧٢٤-٧٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٧).

أي: وإنْ كان للميِّت إخوةٌ من الذكور والإناث، فنصيبُ الذَّكر منهم من التركة مِثلُ نصيب اثنتين من أَخواتِه، وذلك إذا كان الميِّت يُورَث كلالةً، وكان إخوته وأخواته شقيقاتٍ أو لأبيه[1].

﴿يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾.

أي: يبيِّن الله تعالى لكم أحكامَه، ومنها قِسمة مواريثكم، وحُكم الكلالة فيها؛ كيلَا تضلُّوا في أمْر المواريث وقِسمتها، فتجوروا عن الحقِّ، وتُخطئوا الصواب[2].

﴿وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى عالِمٌ بجميع الأشياء، وما فيه المصلحةُ لعِباده، ومن ذلك: قِسمة مواريثِهم، وما يستحقُّه كلُّ واحدٍ من أقرباء المتوفَّى، ويعلم أيضًا حاجتَهم إلى العِلم والبيان[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٧).

قال القرطبيُّ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ...﴾ [النساء: ١٢]: (ذكَر الله عزَّ وجلَّ في كِتابه الكلالة في موضعين: آخِرَ السُّورة، وهنا، ولم يذكر في الموضعين وارثًا غير الإخوة؛ فأمَّا هذه الآية فأجمع العلماءُ على أنَّ الإخوة فيها عنى بها الإخوة للأم، لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾، وكان سعد بن أبي وقَّاص يقرأ: (وله أخٌ أو أخت من أُمِّه)، ولا خلافَ بين أهل العلم أنَّ الإخوة للأب والأمِّ أو الأب ليس ميراثُهم كهذا؛ فدلَّ إجماعهم على أنَّ الإخوة المذكورين في آخِر السورة هم إخوةُ المتوفَّى لأبيه وأمِّه أو لأبيه؛ لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١٧٦]، ولم يختلفوا أنَّ ميراثَ الإخوة للأمِّ ليس هكذا؛ فدلَّت الآيتانِ أنَّ الإخوة كلَّهم جميعًا كلالة) ((تفسير القرطبي)) (٥/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٨).

الفوائد التربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾ الحثُّ على العِلم؛ بالرجوع إلى كتاب الله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّنا لا نعلم بيانَ اللهِ عزَّ وجل إلَّا عن طريق الكتاب والسُّنَّة، وكل إنسان يفرُّ من الضلال ويُريد البيانَ والهدى، فنقول: طريق ذلك أن تَحرِصَ على اتِّباع الكتابِ والسُّنَّة[1].

٢- حقيقٌ بِمَن أُقيم في منصبِ الإفتاءِ أنْ يُعِدَّ له عُدَّتَه، وأن يتأهَّبَ له أُهْبَتَه، وأنْ يعلَمَ قدْرَ المَقامِ الذي أُقيمَ فيه، ولا يكونَ في صَدْرِه حَرَجٌ مِن قولِ الحقِّ والصَّدْعِ به؛ فهو المنْصِبُ الذي تولَّاه بنَفْسِه ربُّ الأربابِ، فقال تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ وكفَى بما تولَّاه اللهُ تعالى بنَفْسِه شَرَفًا وجلالةً[2].

الفوائد العِلميَّة واللَّطائف:

١- قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ...﴾ فيه حِرصُ الصَّحابة رضي الله عنهم على معرفة الحقِّ[3].

٢- أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قد يُشكل عليه بعضُ الشيء، فيُفتي اللهُ تعالى به؛ لقوله: ﴿قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ﴾ ولم يقُلْ: فأفتِني فأُفْتِيَهم[4].

٣- في قوله تعالى: ﴿قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ﴾: إطلاقُ الإفتاء على الله، وهذا فِعلٌ من الأفعال، وإنْ كان هو قولًا، ويجوزُ أن نشتقَّ منه وصفًا لله، ولا يجوز أن نشتقَّ من ذلك اسمًا لله؛ لأنَّ الوصف أوسعُ وأعم[5].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٤٣).
(٢) ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٣٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٤٠).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٤- أنَّ ترتيب الآيات توقيفيٌّ، ووجه ذلك: أنَّ هذه الآية لها صِلةٌ بآيات المواريث التي في أوَّل السورة، ولو كان اجتهاديًّا، لكان مقتضى الاجتهاد أن تُربط مع أخواتها، وأنْ تُذكر هناك، لكن لَمَّا كان ترتيبُ القرآن توقيفيًّا في آياته، صار محلُّها هنا[١].

٥- المرادُ بالأختِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ الأختُ الشقيقةُ أو التي للأبِ فقط، بقرينةِ مخالفةِ نَصيبها لنصيبِ الأُخت للأمِّ المقصودة في آية الكلالة الأُولى، وبقرينة قوله: ﴿وَهُوَ يَرِثُهَا﴾؛ لأنَّ الأخَ للأمِّ لا يرثُ جميعَ المالِ إنْ لم يكن لأخته للأمِّ ولدٌ؛ إذ ليس له إلَّا السُّدُسُ[٢].

٦- أنَّ الميراث يَدخُل في ملك الوارث شاءَ أم أبى، وتُؤخذ من قوله: ﴿فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾، وقوله: ﴿فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ﴾؛ فاللَّام للتَّمليك[٣].

٧- أنَّ الرقيق المملوك لا يَرِث، وتُؤخذ من اللام التي هي للتمليك؛ إذ إنَّ العبد المملوك لا يملك، فالعبدُ المملوكُ مُلكُه لسيِّده، ولأنه لو وَرِث الأخ من أخته إذا كان رقيقًا، لكان حقيقة الأمرِ أنَّ سيِّدَه هو الذي ورِثَ، وهو أجنبيٌّ منها[٤].

٨- تفضيل الذَّكَر على الأُنثى في التَّعصيب؛ لقوله: ﴿فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ والحِكمة: فضل الذُّكورة على الأُنوثة؛ ولأنَّ الذَّكر عليه مُتطلَّبات في الحياة من نكاحٍ، وإنفاقٍ على غيرِه، وغير ذلك[٥].

٩- الردُّ على أهل التفويض في صِفات الله عزَّ وجلَّ، الذين يقولون: إنَّنا لا نعلم معانيَ صفاته عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه يلزمُ من ذلك أنْ لا بيانَ في القرآن، والله عزَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٤٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٦٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٤٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وجلَّ يقول: ﴿يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾، ولأنَّ الضَّلال في بابِ الصِّفات أعظمُ من الضَّلال في بابِ الأحكام؛ لأنَّ الضَّلال في باب الصِّفات يَتعلَّقُ بالخالق عزَّ وجلَّ، والضَّلال في الأحكام إنَّما هو في العِبادة، وبينهما فَرْقٌ[1].

١٠- قال تعالى: ﴿إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ النُّكتة في الاكتِفاء بنَفْي الولد، وعدم اشتراط نفْي الوالد في الآية، مع أنَّه لا بدَّ من كونه- أيضًا- لا والدَ له، تظهر بوجوه:

الوجه الأوَّل: أنَّه داخلٌ في مفهومِ الكلالة لُغةً.

الوجه الثَّاني: أنَّ الأكثر أنَّ الإنسان يموت عن تَرِكة، بعد موت والديه؛ لأنَّ المال الذي يتركُه إمَّا أن يكون وَرِثه منهما، وإمَّا أن يكون اكتسبه، وإنَّما يكون الكسبُ في سِنِّ الشباب والكهولة، ويقلُّ في هذه الحال بقاءُ الوالدين، فلمْ يُراعَ في الذِّكر إيجازًا.

الوجه الثالث- وهو العُمدة-: أنَّ عدم إرث الإخوة والأخوات مع الوالد الذي يُدلون به قدْ عُلِم من آيات الفرائض التي أُنزلت أولًا، وتَقدَّمت في أوائل السورة، ومضَتِ السُّنَّة في بيانها، والعمل بها على ذلِك، وعُلم أيضًا من القاعدة القياسيَّة المأخوذةِ من تلك الآيات، ومِن هذه الآية، وهي كونُ الأصل في الإرث أن يكونَ للذَّكَر مِن كلِّ صِنف مِثلُ حظِّ الأُنثيين، ومن قاعدة حَجْب الوالد لأولادِه[2].

١١- قال تعالى: ﴿فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ عبَّر بالعدد، فقال: ﴿اثْنَتَيْنِ﴾ دون (أختين)؛ لأنَّ الكلام في الإخوة، والعِبرة في الفَرْض بالعدد[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٤٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٨٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٩١).

١٢- من مباحث اللَّفظ والأسلوبِ في الآية: أنَّها تدلُّ على أنَّ المعلوم من السِّياق له حُكمُ المذكور في اللَّفظ، حتَّى في إعادة الضمير عليه؛ فلا يَتعيَّن تقديرُ لفظ المرء في بيان مرجع ضَمير ﴿وَهُوَ يَرِثُهَا﴾، بل يصحُّ أن نقول: إنَّ المعنى: ﴿وهو﴾، أي: أخوها، ﴿يرثها﴾... إلخ، ومثله قوله: ﴿فَإِنْ كَانَتَا﴾: ﴿وَإِنْ كَانُوا﴾[1].

١٣- قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ الآية الأخيرة (هذه) ذيلٌ للسورة في فتوى متمِّمة لأحكام الفرائض التي في أوائلها، وأمَّا فائدة الأحكام أو المسائل التي تُجعل ذيلًا أو مُلحَقًا لكتاب أو قانون؛ فهي أنَّ الذهنَ يَتنبَّهُ إليها أفضلَ تنبُّهٍ، فلا يَغفُل عنها، كما يَغفُل عمَّا يكون مندمجًا في أثناء أحكام أو مسائل كثيرة من ذلك النوع، فكأنَّ جَعْل هذه الآية مفردةً على غير فواصل السورة يُراد به توجيهُ النفوس إليها؛ لئلَّا تغفل عنها[2].

١٤- في هذه السُّورة لطيفةٌ عجيبة، وهي أنَّ أوَّلها مشتملٌ على بيان كمال قُدرة الله تعالى؛ فإنَّه قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾، وهذا دالٌّ على سَعَة القُدرة، وآخِرَها مشتملٌ على بيان كمال العِلم، وهو قوله: ﴿وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، وهذان الوصفان هما اللذان بهما تَثبُتُ الرُّبوبيَّة والإلهيَّة والجلالة والعِزَّة، وبهما يجبُ على العبد أن يكون مطيعًا للأوامر والنواهي، منقادًا لكلِّ التكاليف[3].

بلاغة الآية:

١- قوله: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾: عبَّر بصيغة المضارع؛ لأنَّ شأن السُّؤال يتكرَّر،

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٩٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٩٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٧٥).

والتعبيرُ بصيغة المضارع في مادَّة السؤال طريقةٌ مشهورة، فشاع إيرادُه بصيغة المضارع، نحو: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ﴾ [البقرة: ١٨٩]، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩]، وقد يغلب استعمالُ بعض صِيغ الفعل في بعض المواقع، ومنه غَلبةُ استعمال المضارع في الدُّعاء في مقام الإنكار: كقول عائشة رضي الله عنها: (يَرْحَمُ اللهُ أبا عبد الرحمن)(١)- تعني: ابن عمر. وقولهم: (يغفر الله له)، ومنه غلبة الماضي مع لا النافية في الدعاء إذا لم تُكرَّر (لا)، نحو: فلا رجَعَ. على أنَّ (الْكَلَالَةِ) قد تكرَّر فيها السؤال قبل نزول الآية وبعدَها(٢).

٢- قوله: ﴿قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ﴾: فيه تقديمُ المسنَد إليه ﴿اللهُ﴾؛ للاهتمام لا للقَصر؛ إذ قد عَلِم المستفتون أنَّ الرسول لا يَنطِق إلَّا عن وحيٍ؛ فإنهم لَمَّا استفتوه فإنما طلبوا حُكم الله، فإسناد الإفتاءِ إلى الله تنويهٌ بهذه الفَريضة(٣).

٣- قوله: ﴿وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ﴾: فيه إيجازٌ بالحذف؛ إذ التَّقدير: (ويرث الأختَ امرؤٌ إن هلكت أختُه، ولم يكنْ لها ولدٌ)، وعُلم معنى الأُخوَّة مِن قوله: ﴿وَلَهُ أُخْتٌ﴾، وهذا إيجازٌ بديعٌ، ومع غايةِ إيجازِه فهو في غايةِ الوضوحِ(٤).

٤- قوله: ﴿يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾: قوله: ﴿أَنْ تَضِلُّوا﴾ أصله (لئلَّا تَضِلُّوا)، حُذفت منه اللامُ و(لا)، وهو تعليلٌ لـ(يبين)، والمقصودُ التعليلُ بنفي الضَّلال لا لوقوعِه؛ لأنَّ البيان يُنافي التضليلَ، فحُذفت (لا) النافية، وحَذْفها موجودٌ في مواقِع من كلامِهم إذا اتَّضح المعنى(٥).

---

(١) رواه البخاري (١٧٧٥)، ومسلم (١٢٥٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٦٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٦٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٦٧).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

تمَّ بحمد الله تعالى المجلَّد الثَّالث

ويليه المجلدُ الرَّابع، وأوَّله

تفسير سورة المائدة

الفهرس

الفهرس

تَفْسِيرُ سُورَةِ النِّساءِ........... ٥
أسماءُ السُّورةِ ٧
فضائلُ السُّورة وخَصائصُها.... ٧
بيانُ المَكِّي والمَدنيِّ.......... ٩
مقاصدُ السُّورةِ ٩
موضوعاتُ السُّورةِ.......... ١٠
الآية (١)...................... ١٣
غَريبُ الكَلِمات ١٣
مُشكِل الإعراب ١٣
المَعنَى الإجمالي.............. ١٤
تَفسيرُ الآية ١٤
الفَوائِدُ التَّربويَّة ٢٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف..... ٢١
بَلاغَةُ الآية ٢٤
الآيات (٢ - ٦).............. ٢٨
غَريبُ الكَلِمات ٢٨
مُشكِلُ الإعراب.............. ٣٠
المَعنَى الإجمالي.............. ٣١
تَفسيرُ الآيات.................. ٣٣
الفَوائِدُ التَّربويَّة ٤٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف..... ٤٥
بَلاغَةُ الآيات ٤٩
الآيات (٧ - ١٠) ٥٦
غريبُ الكلمات ٥٦
المَعنَى الإجمالي.............. ٥٦
تَفسيرُ الآيات.................. ٥٧
الفَوائِدُ التَّربويَّة ٦٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف..... ٦٣
بَلاغَةُ الآيات ٦٥
الآيات (١١ - ١٤) ٦٨
غَريبُ الكَلِمات ٦٨
مُشكِلُ الإعراب.............. ٦٩
المَعنَى الإجمالي.............. ٧٠
تَفسيرُ الآيات.................. ٧٢
الفَوائِدُ التَّربويَّة ٨٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف..... ٨٦

بَلاغَةُ الآيات ٩٠
الآيات (١٥ - ١٨) ٩٤
غَريبُ الكَلِمات ٩٤
مُشكِلُ الإعراب ٩٥
المَعنَى الإجمالي ٩٦
تَفسيرُ الآيات................ ٩٦
الفَوائِدُ التَّربويَّة ١٠٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف.... ١٠٤
بَلاغَةُ الآيات ١٠٦
الآيات (١٩ - ٢٢) ١٠٩
غَريبُ الكَلِمات ١٠٩
مُشكِلُ الإعرابِ ١١٠
المَعنَى الإجمالي ١١٠
تَفسيرُ الآيات................ ١١١
الفَوائِدُ التَّربويَّة ١١٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف.... ١١٩
بَلاغَةُ الآيات ١٢١
الآية (٢٣) ١٢٤
غَريبُ الكَلِمات ١٢٤
المَعنَى الإجمالي............ ١٢٥
تَفسيرُ الآية ١٢٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف.... ١٢٩
بَلاغَةُ الآية ١٣١
الآيتان (٢٤ - ٢٥)......... ١٣٣
غريبُ الكَلِمات ١٣٣
مُشكِلُ الإعرابِ............ ١٣٤
المَعْنى الإجماليُّ............ ١٣٧
تفسيرُ الآيتين............... ١٣٨
الفَوائِدُ التَّربويَّة ١٤٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف.... ١٤٧
بَلاغةُ الآيتين ١٥٣
الآيات (٢٦ - ٢٨) ١٥٦
غريبُ الكَلِمات ١٥٦
المَعْنى الإجماليُّ............ ١٥٦
تفسيرُ الآياتِ............... ١٥٧
الفَوائِدُ التَّربويَّة ١٦٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف.... ١٦١
بَلاغةُ الآياتِ ١٦٣

الآيات (٢٩ - ٣١) ١٦٦
غريبُ الكَلِمات ١٦٦
مُشكِلُ الإعرابِ ١٦٦
المَعْنى الإجماليُّ............. ١٦٧
تفسيرُ الآياتِ................. ١٦٧
الفَوائِدُ التَّربويَّة ١٧٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف.... ١٧٣
بَلاغةُ الآياتِ ١٧٥
الآيات (٣٢ - ٣٥) ١٧٨
غريبُ الكَلِمات ١٧٨
المَعْنى الإجماليُّ............. ١٧٨
تفسيرُ الآياتِ................. ١٧٩
الفَوائِدُ التَّربويَّة ١٨٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف.... ١٨٥
بَلاغةُ الآياتِ ١٨٨
الآيتان (٣٤ - ٣٥).......... ١٩٠
غريبُ الكَلِمات ١٩٠
مُشكِلُ الإعرابِ ١٩٢
المَعْنى الإجماليُّ............. ١٩٣
تفسيرُ الآيتين................. ١٩٣
الفَوائِدُ التَّربويَّة ١٩٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف.... ٢٠٢
بَلاغةُ الآيتين ٢٠٤
الآيات (٣٦ - ٤٢) ٢٠٦
غريبُ الكَلِمات ٢٠٦
المَعْنى الإجماليُّ............. ٢٠٨
تفسيرُ الآياتِ................. ٢١٠
الفَوائِدُ التَّربويَّة ٢٢٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف.... ٢٢٥
بَلاغةُ الآياتِ ٢٣٠
الآية (٤٣) ٢٣٤
غريبُ الكَلِمات ٢٣٤
المَعْنى الإجماليُّ............. ٢٣٥
تفسيرُ الآياتِ................. ٢٣٥
الفَوائِدُ التَّربويَّة ٢٤١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف.... ٢٤١
بَلاغةُ الآياتِ ٢٤٥
الآيات (٤٤ - ٤٦) ٢٤٨

غريبُ الكَلِمات ٢٤٨
مُشكِلُ الإعرابِ ٢٤٩
المَعْنى الإجماليُّ ٢٤٩
تفسيرُ الآياتِ ٢٥٠
الفوائد التَّربويَّة ٢٥٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف ٢٥٦
بَلاغةُ الآياتِ ٢٥٨
الآيتان (٤٧ - ٤٨) ٢٦١
غريبُ الكَلِمات ٢٦١
المَعْنى الإجماليُّ ٢٦٢
تفسيرُ الآيتين ٢٦٢
الفَوائِدُ التَّربويَّة ٢٦٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف ٢٦٦
بَلاغةُ الآيتين ٢٦٩
الآيات (٤٩ - ٥٧) ٢٧٢
غريبُ الكَلِمات ٢٧٢
المَعْنى الإجماليُّ ٢٧٤
تفسيرُ الآياتِ ٢٧٥
الفَوائِدُ التَّربويَّة ٢٨٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف ٢٨٦
بَلاغةُ الآياتِ ٢٩٠
الآيتان (٥٨ - ٥٩) ٢٩٤
غريبُ الكَلِمات ٢٩٤
مُشكِلُ الإعرابِ ٢٩٤
المَعْنى الإجماليُّ ٢٩٥
تفسيرُ الآيتين ٢٩٦
الفَوائِدُ التَّربويَّة ٣٠٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف ٣٠٢
بَلاغةُ الآيتين ٣٠٦
الآيات (٦٠ - ٦٥) ٣٠٨
غريبُ الكَلِمات ٣٠٨
المَعْنى الإجماليُّ ٣٠٩
تفسيرُ الآياتِ ٣١٠
الفَوائِدُ التَّربويَّة ٣١٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف ٣١٩
بَلاغةُ الآياتِ ٣٢٤
الآيات (٦٦ - ٧٠) ٣٣٠
غريبُ الكَلِمات ٣٣٠

المَعْنى الإجماليُّ............ ٣٣٠	الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف.... ٣٧٢
تفسيرُ الآياتِ............... ٣٣١	بَلاغةُ الآياتِ ٣٧٧
الفَوائِدُ التَّربويَّة ٣٣٦	الآيات (٨٠ - ٨٤) ٣٨٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف... ٣٣٨	غريبُ الكَلِمات ٣٨٠
بَلاغةُ الآياتِ ٣٤١	المَعْنى الإجماليُّ............ ٣٨١
الآيات (٧١ - ٧٦) ٣٤٣	تفسيرُ الآياتِ............... ٣٨٢
غريبُ الكَلِمات ٣٤٣	الفَوائِد التربويَّة ٣٩٠
مُشكِلُ الإعرابِ ٣٤٤	الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف.... ٣٩٥
المَعْنى الإجماليُّ............ ٣٤٤	بَلاغةُ الآياتِ ٤٠٠
تفسيرُ الآياتِ............... ٣٤٥	الآيات (٨٥ - ٨٧) ٤٠٤
الفَوائِدُ التَّربويَّة ٣٥٢	غريبُ الكَلِمات ٤٠٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف.... ٣٥٦	المَعْنى الإجماليُّ............ ٤٠٥
بَلاغةُ الآياتِ ٣٦٠	تفسيرُ الآياتِ............... ٤٠٥
الآيات (٧٧ - ٧٩) ٣٦٣	الفَوائِد التربويَّة ٤١٠
غريبُ الكَلِمات ٣٦٣	الفوائد العلميَّة اللَّطائف ٤١١
مُشكِلُ الإعرابِ ٣٦٣	بَلاغةُ الآياتِ ٤١٤
المَعْنى الإجماليُّ............ ٣٦٤	الآيات (٨٨ - ٩١) ٤١٨
تفسيرُ الآياتِ............... ٣٦٥	غريبُ الكَلِمات ٤١٨
الفَوائِدُ التَّربويَّة ٣٧٠	المَعْنى الإجماليُّ............ ٤٢٠

تفسيرُ الآياتِ ٤٢١
الفَوائِدُ التَّربويَّة ٤٢٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف.... ٤٢٩
بَلاغةُ الآياتِ ٤٣٤
الآيتان (٩٢ - ٩٣).......... ٤٣٨
غريبُ الكَلِمات ٤٣٨
مُشكِلُ الإعرابِ ٤٣٩
المَعْنى الإجماليُّ............ ٤٣٩
تفسيرُ الآيتين ٤٤٠
الفَوائِدُ التَّربويَّة ٤٤٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف.... ٤٥٠
بَلاغةُ الآيتين ٤٥٨
الآيتان (٩٥ - ٩٦).......... ٤٦٣
غريبُ الكَلِمات ٤٦٣
مُشكِلُ الإعرابِ ٤٦٣
المَعْنى الإجماليُّ............ ٤٦٤
تفسيرُ الآيتين ٤٦٤
الفَوائِد التربويَّة ٤٦٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف.... ٤٦٨
بَلاغةُ الآيتين ٤٧١
الآيات (٩٧ - ١٠٠).......... ٤٧٧
غَريبُ الكَلِمات ٤٧٧
المَعنَى الإجماليُّ............ ٤٧٧
تَفسيرُ الآياتِ ٤٧٨
الفوائد التَّربويَّة ٤٨٥
الفوائد العِلميَّة واللَّطائف.... ٤٨٦
بَلاغةُ الآياتِ ٤٩٠
الآيات (١٠١ - ١٠٤)...... ٤٩٢
غَريبُ الكَلِمات ٤٩٢
المَعنَى الإجماليُّ............ ٤٩٣
تَفسيرُ الآياتِ ٤٩٤
الفَوائِد التربويَّة ٥٠٦
الفوائد العِلميَّة واللَّطائف.... ٥١٠
بَلاغةُ الآياتِ ٥١٧
الآيات (١٠٥ - ١٠٩)...... ٥٢٢
غَريبُ الكَلِمات ٥٢٢
المَعنَى الإجماليُّ............ ٥٢٣
تَفسيرُ الآياتِ ٥٢٤

الفَوائِد التربويَّة ٥٢٩	غَريبُ الكَلِمات ٥٧٩
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف.... ٥٣١	مُشكِلُ الإعرابِ ٥٨٠
بَلاغةُ الآياتِ ٥٣٤	المَعنَى الإجماليُّ............ ٥٨١
الآيات (١١٠ - ١١٣) ٥٣٧	تَفسيرُ الآياتِ.............. ٥٨١
غَريبُ الكَلِمات ٥٣٧	الفَوائِد التربويَّة ٥٨٨
المَعنَى الإجماليُّ............ ٥٣٧	الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف.... ٥٩٠
تَفسيرُ الآياتِ.............. ٥٣٨	بَلاغةُ الآياتِ ٥٩٥
الفَوائِد التربويَّة ٥٤٣	الآية (١٢٧) ٥٩٩
الفوائد العِلميَّة واللَّطائف.... ٥٤٤	غَريبُ الكَلِمات ٥٩٩
بَلاغةُ الآياتِ ٥٤٧	مُشكِلُ الإعرابِ............ ٥٩٩
الآيات (١١٤ - ١٢٢) ٥٤٩	المَعنَى الإجماليُّ............ ٦٠٠
غَريبُ الكَلِمات ٥٤٩	تفسير الآية ٦٠١
مُشكِلُ الإعرابِ ٥٥١	الفوائد التَّربويَّة ٦٠٤
المَعنَى الإجماليُّ............ ٥٥٢	الفوائد العِلميَّة واللَّطائف.... ٦٠٥
تَفسيرُ الآياتِ ٥٥٣	بَلاغةُ الآية ٦٠٧
الفَوائِد التربويَّة ٥٦٦	الآيات (١٢٨ - ١٣٠) ٦٠٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف.... ٥٦٧	غَريبُ الكَلِمات ٦٠٩
بَلاغةُ الآياتِ ٥٧٥	مُشكِلُ الإعرابِ............ ٦١٠
الآيات (١٢٣ - ١٢٦) ٥٧٩	المَعنَى الإجماليُّ............ ٦١٢

تَفسيرُ الآياتِ ٦١٣
الفَوائِد التربويَّة ٦١٩
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف ٦٢٠
بَلاغةُ الآياتِ ٦٢٦
الآيات (١٣١ - ١٣٤) ٦٢٨
المَعنَى الإجماليُّ ٦٢٨
تَفسيرُ الآياتِ ٦٢٩
الفَوائِد التربويَّة ٦٣٤
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف ٦٣٦
بَلاغةُ الآياتِ ٦٣٨
الآيات (١٣٥ - ١٣٧) ٦٤١
غَريبُ الكَلِمات ٦٤١
مُشكِلُ الإعرابِ ٦٤٢
المَعنَى الإجماليُّ ٦٤٢
تَفسيرُ الآياتِ ٦٤٣
الفوائد التَّربويَّة ٦٤٩
الفوائد العِلميَّة واللَّطائف ٦٥٠
بَلاغةُ الآياتِ ٦٥٧
الآيات (١٣٨ - ١٤٣) ٦٥٩
غَريبُ الكَلِمات ٦٥٩
مُشكِلُ الإعرابِ ٦٦١
المَعنَى الإجماليُّ ٦٦١
تَفسيرُ الآياتِ ٦٦٢
الفوائد التَّربويَّة ٦٧٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف ٦٧٣
بَلاغةُ الآياتِ ٦٧٩
الآيات (١٤٤ - ١٤٧) ٦٨٢
غَريبُ الكَلِمات ٦٨٢
مُشكِلُ الإعرابِ ٦٨٣
المَعنَى الإجماليُّ ٦٨٣
تَفسيرُ الآياتِ ٦٨٤
الفَوائِد التربويَّة ٦٨٨
الفوائدُ العِلميَّة واللَّطائِف ٦٩٠
بَلاغةُ الآياتِ ٦٩٣
الآيات (١٤٨ - ١٥٢) ٦٩٦
غريب الكلمات ٦٩٦
مشكل الإعراب ٦٩٦
المعنى الإجمالي ٦٩٧

تفسير الآيات................ ٦٩٨	بلاغة الآيات ٧٥٦
الفوائِد التربويَّة ٧٠٣	الآيات (١٦٧ - ١٧٠) ٧٥٩
الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف ٧٠٥	غريبُ الكلمات ٧٥٩
بلاغة الآيات ٧٠٧	مشكلُ الإعراب ٧٥٩
الآيات (١٥٣ - ١٦٢) ٧١٠	المعنى الإجمالي............ ٧٦٠
غريب الكلمات ٧١٠	تفسير الآيات................ ٧٦٠
مشكل الإعراب ٧١٣	الفوائِد التربويَّة ٧٦٣
المعنى الإجمالي............ ٧١٧	الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف ٧٦٤
تفسير الآيات................ ٧١٩	بلاغة الآيات ٧٦٦
الفوائِد التربويَّة ٧٣١	الآيات (١٧١ - ١٧٥) ٧٦٩
الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف ٧٣٣	غريبُ الكلمات ٧٦٩
بلاغة الآيات ٧٣٩	مشكلُ الإعراب............ ٧٧١
الآيات (١٦٣ - ١٦٦) ٧٤٥	المعنى الإجمالي............ ٧٧١
غريب الكلمات ٧٤٥	تفسير الآيات................ ٧٧٢
مشكل الإعراب ٧٤٦	الفوائِد التربويَّة ٧٨٢
المعنى الإجمالي............ ٧٤٧	الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف ٧٨٣
تفسير الآيات................ ٧٤٧	بلاغة الآيات ٧٨٦
الفوائِد التربويَّة ٧٥٢	الآية (١٧٦) ٧٩٠
الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف ٧٥٣	غريب الكلمات ٧٩٠

المعنى الإجمالي............ ٧٩١

تفسير الآية ٧٩١

الفوائِد التربويَّة ٧٩٥

الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف.... ٧٩٥

بلاغة الآية ٧٩٨

الفهرس ٨٠١

التفسير المحرر للقرآن الكريم

سورة المائدة

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر سابقا

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الرابع

الدرر السنية
www.dorar.net

التفسير المحرر

للقرآن الكريم

٤

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر - ١٤٣٧هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية
التفسير المحرر للقرآن الكريم (سورة المائدة) المجلد الرابع/ القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية - الظهران، ١٤٣٧هـ
ص، ١٧ سم × ٢٤ سم
ردمك: ٨-٣٢-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨
١- القرآن - سورة المائدة - تفسير ٢- القرآن - التفسير الحديث
أ- العنوان
ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٣٧/٥٥٠

رقم الإيداع: ١٤٣٧/٥٥٠
ردمك: ٨-٣٢-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

الدرر السنية
www.dorar.net
مؤسسة الدرر السنية - المملكة العربية السعودية
ص. ب ٣٩٣٦٤ الظهران ٣١٩٤٢ - جوال: ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠
ت: ٠١٣٨٦٨٠١٢٣ / فاكس: ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨ - بريد إلكتروني nashr@dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسِيرُ

سُورَةِ المائِدَةِ

❋

❋

❋

سُورةُ المائِدَةِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَتْ هذه السُّورةُ الكريمةُ، سُورةَ المَائدة(١).

فعَن جُبَيرِ بنِ نُفَيرٍ، قال: (حَجَجتُ فدخلتُ على عائشةَ رضِي اللهُ عنها، فقالَت لي: يا جُبَيرُ، تقرأُ المائدةَ؟ فقُلتُ: نَعم، فقالَت: أمَا إنَّها آخِرُ سُورةٍ نزَلَتْ...)(٢).

فَضائلُ السُّورةِ وخَصائصُها:

١- سُورةُ المَائدةِ مِن السَّبعِ الطِّوالِ التي أُوتِيَها النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مكانَ التَّوراةِ:

فعَن واثلةَ بنِ الأسقَعِ رضِي اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((أُعطِيتُ مَكانَ التَّوراةِ السَّبعَ الطِّوالَ، وأُعطيتُ مَكانَ الزَّبورِ المِئِينَ، وأُعطيتُ مَكانَ الإنجيلِ المثانيَ، وفضِّلتُ بالمفَصَّلِ))(٣).

---

(١) سُمِّيتْ هذه السورةُ بهذا الاسمِ؛ لوُرودِ ذِكر المائدةِ فيها؛ حيث طلَب الحواريُّون مِن عيسى عليه السلام آيةً تدلُّ على صِدق نُبوَّته، وتكون لهم عِيدًا، وقد اختصَّتْ هذه السُّورة بذِكرها.
قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ * قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٢-١١٥]. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٦٩).

(٢) أخرجَه أحمدُ (٢٥٥٤٧)، والنَّسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٠٧٣)، والحاكم في ((المستدرك)) (٣٢١٠).
قال الحاكم (٣٢١٠): صحيحٌ على شرْطِ الشَّيخين. وقال الشوكانيُّ في ((نيل الأوطار)) (٩/ ٢٠٤): رجاله رجالُ الصَّحيح.

(٣) أخرجه أحمدُ (١٦٩٨٢)، والطَّيالسيُّ في ((المسند)) (١١٠٥)، والطبرانيُّ في ((المعجم الكبير)) (٢٢/ ٧٦) (١٨٧)، والبيهقيُّ في ((شعب الإيمان)) (٢٢٥٥)، وأبو نعيم في =

٢- مِن خَصائصِ هذِه السُّورةِ: أنَّها مِن آخِرِ ما نزَلَ مِنَ القُرآنِ[١]:

فعَن عبدِ اللَّهِ بنِ عَمرٍو رضِي اللهُ عنهما، قالَ: (آخِرُ سُورةٍ أُنزِلَت سورَةُ المائدةِ)[٢].

وعن جُبَيرِ بنِ نُفَيرٍ، أن عائشةَ رضِي اللهُ عنها، قالت له: (يا جُبَيرُ، تَقرَأُ المائدةَ؟ فقال: نَعَم، قالتْ: أمَا إنَّها آخِرُ سُورَةٍ نَزَلَت)[٣].

٣- مِن خَصائِصِها: أنَّها أجمعُ سُورةٍ في القُرآنِ لفُروعِ الشَّرائعِ، وذُكِر فيها مِن التَّحليلِ والتحريمِ والإيجابِ ما لم يُذكَرْ في غيرِها[٤].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدنيِّ:

سُورةُ المَائدةِ سُورةٌ مدَنيَّة، نزلَتْ بعدَ الهِجرةِ، ونقَل الإجماعَ على ذلِك عددٌ

= ((معرفة الصحابة)) (٦٤٨٥).

قال الهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٧/ ٤٩): فيه عِمران القطَّان، وبقيَّةُ رِجاله ثقاتٌ. وحسَّنه السيوطيُّ في ((الجامع الصغير)) (١١٧١)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح الجامع)) (١٠٥٩).

(١) ينظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢١).

وقيل: إنَّ سورة المائدة مُحكَمةٌ ليس فيها منسوخٌ، وقد وردَ هذا عن ابنِ عبَّاس وعائشةَ وعمرِو ابنِ شُرَحبيلَ وجمعٍ من السَّلفِ.

قال ابنُ حجر: (حتَّى صحَّ عن ابنِ عبَّاسٍ وعائشةَ وعمرِو بنِ شُرَحبيلَ وجمْعٍ مِن السَّلف: أنَّ سورةَ المائدة مُحكَمةٌ) ((فتح الباري)) (٥/ ٤١٢).

(٢) رواه الترمذيُّ (٣٠٦٣)، والحاكم في ((المستدرك)) (٣٢١١)، والبيهقيُّ في ((السنن الكبرى)) (١٣٩٧٩).

قال الترمذيُّ: حسنٌ غريبٌ. وحسَّن إسنادَه الألباني في ((صحيح الترمذي)) (٣٠٦٣).

(٣) تقدم تخريجه

(٤) قال أبو حيَّان: (قد تَضمَّنت هذه السورةُ ثمانيَ عَشْرةَ فريضةً لم يُبيِّنْها في غيرِها) ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٥٧). وقال ابنُ عاشور: (احتوتْ هذه السورةُ على تشريعاتٍ كثيرةٍ تُنْبئُ بأنَّها أُنزلت لاستكمالِ شرائعِ الإسلام) ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٧٢)، ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٤٤٨).

من المفسِّرينَ[١].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أَهمِّ المقاصِدِ التي تَضمَّنَتْها سورةُ المائدةِ:

١- التَّأكيدُ على حِفظِ العُهودِ والمواثيقِ والوفاءِ بها[٢].

٢- بيانُ كَثيرٍ مِن أُمورِ العقيدةِ، ومن أبرَزِها الولاءُ والبَراءُ، والحُكْمُ بما أنزَلَ الله[٣].

٣- بيانُ الكَثيرِ من الأحكامِ الشَّرعيَّةِ[٤].

٤- تَنظيمُ العَلاقاتِ بينَ المسلمينَ وغَيرِهم[٥].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أَبرزِ الموضوعاتِ التي تناولَتْها سورةُ المائدةِ:

١- تقريرُ العَقيدةِ الصَّحيحةِ، والاهتمامُ بأمورِ التَّوحيدِ، وتَصحيحُ الكثيرِ مِن المعتقَداتِ الباطلةِ، والتذكيرُ بيومِ القيامةِ.

٢- تقريرُ أنَّ الحُكمَ للهِ تعالى وحدَه، وأنَّه لا حُكمَ أحسنُ مِن حُكمِ الله تعالى، مع بيانِ وجوبِ الحُكمِ بما أَنزَلَ اللهُ تعالى، وإلغاءِ حُكْمِ الجاهليَّة وتقبيحِه.

٣- التأكيدُ على عقيدةِ الولاءِ والبراء، والتشديدُ على تولِّي المؤمنين، مع

---

(١) وممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطية في ((تفسيره)) (٢/ ١٤٣)، والقرطبيُّ في ((تفسيره)) (٦/ ٣٠)، وابنُ عاشور في ((تفسيره)) (٦/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ١٧٩)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٨٢٦).

(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٨٢٥، ٨٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٧٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

التحذيرِ غايةَ التحذيرِ من تولِّي أهلِ الكُفر، وبيانِ أنَّ الذين في قلوبِهم مرضٌ هم المسارِعونَ في تَوَلِّيهم.

٤- تنظيمُ علاقاتِ المُسلمينَ مع غيرِهم، خاصَّةً اليهودَ والنَّصارى.

٥- بيانُ كثيرٍ من الأحكامِ الشَّرعيَّة وتوضيحُها؛ فمِن ذلك: الأحكامُ الشَّرعيَّة المتعلِّقة بالعباداتِ والمعاملاتِ؛ كأحكامِ العُقود، والذَّبائح، والصَّيد، والإِحرام، ونِكاح الكتابيَّات، والرِّدَّة، وأحكامِ الطَّهارة، وحَدِّ السَّرقة، وحدِّ البَغي والإفسادِ في الأرضِ (الحِرابة)، وتحريمِ الخَمْر والميسرِ، وكَفَّارة اليَمين، والنَّهي عن قَتْلِ الصَّيدِ في الإِحرام، والوَصيَّةِ عندَ الموتِ؛ إلى غيرِ ذلك.

٦- اشتملتْ سورةُ المائدةِ على بعضِ القِصصِ، ومِن ذلك قِصَّةُ بني إسرائيلَ مع موسى عليه السلامُ، وقِصَّة ابنَيْ آدَم، وقِصة المائدة.

٧- بيانُ أحوالِ أهلِ الكتابِ، ونقضِهم للعهودِ وتحريفِهم للكتبِ المنزَّلةِ، ومناقشةُ بعضِ عقائدِهم الزَّائفةِ؛ من نسبةِ الولدِ إلى الله، وإنكار رِسالةَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، إلى غير ذلِك من عقائدِهم الباطِلة.

الآيتان (١ - ٢)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ (١) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ (٢)﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿أَوْفُوا﴾: أدُّوا مع التَّمامِ، وأصلُ الوفاء: تمامُ الشَّيءِ، وإتمامُ العَهدِ، والقيامُ بمقتضاه، وإكمالُ الشَّرط[1].

﴿بِالْعُقُودِ﴾: بالعُهودِ الموثَّقةِ، وأصل (عقد) يدلُّ على: شَدٍّ، وشِدَّةِ وُثوقٍ[2].

﴿بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾: الإبلُ والبَقَر والغَنَم، والبَهيمَةُ: كلُّ ما استَبْهَم عن الجَوابِ، أي: استَغلَق، وما لا نُطْقَ له؛ وإنما قيل للأنعامِ: بَهيمة؛ لأنَّها أبهمتْ عن أن تُميِّزَ، والأنعامُ: أصلُها الإبل، ثم استُعمِلَتْ للبقرِ والغَنَم، وأصل كلمة (نعم): يدلُّ على تَرفُّهٍ، وطِيبِ عَيشٍ، وصلاحٍ[3].

﴿الصَّيْدِ﴾: أي: الاصطياد، والصَّيد: هو تناولُ ما يُظفَر به، أو ما كان مُمتنِعًا

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٨٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٦).

ولـم يكُن له مالكٌ، وكان حلالًا أكْلُه، وأصلُه: ركوبُ الشَّيءِ رأسَه، ومُضيُّه غيرَ ملتفِتٍ ولا مائلٍ[(١)].

﴿حُرُمٌ﴾: مُحرِمونَ، جمْع حَرامٍ، وهو بمَعْنَى مُحرِمٍ، مِن: أَحْرم الرَّجلُ بالحجِّ؛ لأنَّه يَحرُم عليه ما كان حلالًا له من الصَّيدِ والنِّساءِ، وغير ذلك، وأصل (حرم): المنْع والتَّشديد[(٢)].

﴿شَعَائِرَ﴾: وَاحِدُها شَعيرَة، وهي مَا جعَله الله تعالى عَلَمًا لطاعَتِه، والشَّعائِر: أعلامُ الحجِّ وأَعمالُه، ومشاعِرُ الحجِّ: مواضِعُ المناسِك[(٣)].

﴿الْهَدْيَ﴾: مُختصٌّ- في هذا الموضِع- بما يُهْدَى إلى البَيتِ من الأنعامِ؛ قربةً إلى الله، والهَديَّة: كلُّ ما يُهدَى إلى ذِي مَوَدَّةٍ[(٤)].

﴿الْقَلَائِدَ﴾: ما قُلِّد من الهَدْي، وكانوا يقلِّدونَ البعيرَ من لِحاءِ شَجرِ الحرمِ، فيأمنُ بذلك حيث سلَك، وأصل (قلد): الفَتْل، ويدلُّ على تعليقِ شيءٍ على شيءٍ، ولَيِّه به[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١ / ٢٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣ / ١٩٤)، ((المفردات)) للراغب (١ / ٤٥٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١ / ٢٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (١ / ٩٨).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٣٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٤).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٧).

﴿آمِّينَ﴾: قَاصِدينَ وعامِدِين إليه، جمْع آمٍّ، وأصل الأَمِّ: القصدُ المستقيم، أو التوجُّه نحو مقصودٍ[1].

﴿فَضْلًا﴾: عطاءً زائدًا؛ فأصلُ الفَضلِ الزِّيادةُ؛ وكلُّ عطيَّةٍ لا تلزَمُ مَن يُعطي يُقال لها: فضلٌ، والإفضال: الإحسان[2].

﴿حَلَلْتُمْ﴾: خَرجتُم من إحرامِكم، أو خرجتُم مِن الحرَمِ، وأصل الحَلِّ: حَلُّ العُقدةِ، وفَتْح الشَّيءِ[3].

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾: ولَا يَحمِلنَّكم، أو لا يَكْسِبنَّكم، وجَرَم أَيْ: كَسَبَ؛ لأنَّ الَّذي يَحوزُه فكأنَّه اقْتَطَعه، ويقال: جَرَمَ: إذا أَذْنَبَ وَاكْتَسَبَ الإِثمَ، ولا يكادُ يُقالُ في عامَّةِ كلامِهم للكسْبِ المحمودِ، وأصل (جرم) يدلُّ على القَطعِ[4].

﴿شَنَآنُ﴾: بَغضاءُ، أو شِدَّةُ البُغض والعداوة؛ يُقال: شَنِئْتُه، أي: تَقَذَّرْتُه بُغضًا له[5].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١، ٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٩٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٧).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤١).

مُشْكِلُ الإعرابِ:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾.

﴿غَيْرَ﴾: منصوبٌ على أنَّه حالٌ، واختُلِف في صاحبِ الحال؛ فقيل: هو الضمير المجرور في ﴿لَكُمْ﴾، وهذا قولُ الجمهورِ، وهو مِثْلُ قولِك: أُحِلَّ لك هذا الشَّيءُ لا مُفَرِّطًا فيه ولا مُتَعَدِّيًا، والمعنى: أُحِلَّت لكم بهيمةُ الأنعامِ إلَّا أن تُحِلُّوا الصَّيدَ في حالِ الإحرامِ؛ فإنَّه لا يحِلُّ لكم ذلك إذا كنتم مُحْرمينَ. وقيل: الضَّميرُ المجرورُ في ﴿عَلَيْكُمْ﴾، أي: إلَّا ما يُتْلى عليكم حالَ انتفاءِ كونكم مُحِلِّين الصَّيدَ. وقيل: هو ضميرُ الجمعِ في ﴿أَوْفُوا﴾، والتقديرُ: أَوْفُوا بالعقودِ في حالِ انتفاءِ كونِكم مُحِلِّينَ الصيدَ وأنتم حُرُم[1].

﴿الصَّيْدِ﴾: مجرورٌ لفظًا، منصوبٌ محلًّا من إضافةِ اسمِ الفاعِلِ إلى مفعولِه، وهو مَصدرٌ بمعنى المفعول، أي: الـمَصِيد، ويجوزُ أنْ يكون على بابِه هاهنا؛ أي: غَيرَ مُحلِّين الاصطيادَ في حالِ الإحرامِ[2].

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (١/ ٢٩٨)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢١٧)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤١٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٧٨ - ١٨٥)، ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٧٩).

وقد أورد السَّمين الحلبي مناقشاتٍ كثيرةً في هذه الآية، ثم قال: (وقديمًا وحديثًا استشكل الناسُ هذه الآية؛ قال ابنُ عطيَّة: «وقد خلَط الناسُ في هذا الموضع في نصب (غير) وقدَّروا تقديماتٍ وتأخيرات، وذلك كله غيرُ مُرضٍ؛ لأنَّ الكلام على اطراده فيُمكن استثناء بعد استثناء»، وهذه الآية ممَّا اتضح للفصحاء البُلغاء فصاحتُها وبلاغتها، حتى يُحكَى أنَّه قيل للكندي: أيُّها الحكيم، اعملْ لنا مثل هذا القرآن، فقال: نعَمْ أَعملُ لكم مِثلَ بعضه، فاحتجب أيَّامًا كثيرة، ثم خرج فقال: واللهِ لا يَقدِر أحدٌ على ذلك؛ إنَّني فتحتُ المصحف فخرجتْ سورة المائدة؛ فإذا هو قدْ نطَق بالوفاء، ونَهَى عن النَّكث، وحلَّل تحليلًا عامًّا، ثم استثنى استثناءً بعدَ استثناءٍ، ثم أَخبَر عن قُدرته وحِكمته في سَطرين!). ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٨٤ - ١٨٥)، ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤١٥)، ((إعراب القرآن)) للدعاس (١/ ٢٤١).

قوله: ﴿وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾: مبتدأٌ وخبر، والجملةُ في محلِّ نصبٍ حالٌ من الضَّميرِ المُسْتكِنِّ في ﴿مُحِلِّي الصَّيدِ﴾، كأنَّه قيل: أَحْلَلْنا لكم بعضَ الأنعام في حالِ امتناعِكم من الصيدِ وأنتم مُحْرِمون؛ لئلَّا تُحرجَ عليكم(١).

المعنى الإجماليُّ:

أَمَرَ اللهُ تعالى المؤمنينَ أنْ يُتمُّوا العُهودَ التي بَيْنه وبَيْنهم، والعهودَ التي بينهم وبين الخَلقِ، والتي لا تُخالِف شَرْعَه، وأخبرَهم تعالى أنَّه أحلَّ لهم الإبلَ والبقَرَ والغَنَمَ، إلَّا ما سيُقرأ عليهم تحريمُه منها، وهو ما بيَّنه في قولِه سبحانه: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ...﴾، كما يُستثنى أيضًا صَيدُ البَرِّ فيما لو كانوا داخلَ حدودِ الحرَمِ، أو كانوا مُحرِمينَ بحجٍّ أو عُمرةٍ، إنَّه سبحانه وتعالى يَحكُم بما شاءَ، ويَقضي بما أرادَ.

ثمَّ نَهى سبحانه وتعالى عِبادَه المؤمنين أنْ يَتعدَّوا حُدودَه بتحليلِهم حُرُماتِه التي أُمِروا بتعظيمِها، والتي منها شعائرُ الحجِّ، ولا يَنتهِكوا حُرمةَ الأشهُرِ الحُرُم بابتداءِ القِتال فيها، أو التلبُّسِ فيها بظُلمٍ أو ارتكابِ مُحرَّماتٍ، كما نهاهم عن انتهاكِ ما يُهدَى إلى الحَرَمِ من الأنعامِ؛ بأنْ يَذبَحوها قبلَ بلوغِها مَحِلَّها، أو يَمنعوها من الوصولِ إلى محِلِّها، أو يَنتهكوا الهَديَ التي تُجعَلُ القلائدُ في أعناقِها، ونَهاهم أنْ يستحِلُّوا قِتالَ مَن قصَد البيتَ الحرامَ طلبًا لفَضْلِ اللهِ ورِضوانِه، ثم أباح لهم الصَّيدَ بعد الانتهاءِ من إحرامِهم، وإذا خرجوا مِن الحرَمِ، ثم نهاهم جلَّ وعلا أنْ يَحمِلَهم بُغضُهم وكراهيتُهم لأقوامٍ منعوهم من الوُصولِ للمسجدِ الحرامِ، على أنْ يَعْتدوا عليهم، ويقتصُّوا منهم ظُلمًا وعدوانًا، وأمَرَهم أنْ يتعاونوا على البِرِّ والتقوى، وألَّا يتعاوَنوا على الإثمِ والعُدوانِ، وأمَرَهم بتقوى الله؛ فإنَّه شديدُ العقابِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٠١)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢١٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٨٥ - ١٨٦).

تَفسيرُ الآيتين:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ (١)﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنونَ، قوموا بإتمامِ وإكمالِ جميعِ العُهودِ التي بينكم وبين الخالِقِ سبحانه، وجميعِ العهودِ التي بينكم وبين المخلوقينَ؛ ما لم تُخالِفْ شَرْعَ اللهِ تعالى[1].

﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾.

أي: قد أحلَّ اللهُ تعالى لأجْلِكم- أيُّها المؤمنون- الإبلَ والبَقر والغنَم؛ فضلًا منه ورحمةً[2].

﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾.

أي: إلَّا ما سيُتلَى عليكم تحريمُه منها في قولِه سبحانه: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ...﴾[3] [المائدة: ٣].

﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٧).
قال ابنُ جريرٍ: (اختلَف أهلُ التأويلِ في العقودِ التي أمَر الله جلَّ ثناؤُه بالوفاءِ بها بهذه الآيةِ، بعدَ إجماعِ جميعِهم على أنَّ معنى العقودِ: العهودُ) ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ١٤-١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٧-٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٨).

أي: ويُستثنى أيضًا مِن حِلِّ بهيمة الأنعامِ لكم صيدُها وأنتم في الحَرَم، أو وأنتم مُحرِمون بحَجٍّ أو عُمرةٍ(١).

﴿إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى يَقضي في خَلْقِه ما يشاءُ، ومن ذلك تحليلُ وتحريمُ ما يشاءُ، وهو الحكيمُ في جميعِ ما يُقدِّره ويَشْرَعُه من أحكامٍ(٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّ الله تعالى لَمَّا حرَّم الصيدَ على المُحرِم في الآيةِ الأولى، أكَّدَ ذلك بالنهيِ في هذه الآيةِ عن مخالفَةِ تكاليفِ الله تعالى(٣)، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللهِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٨-٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٩-١٠).

قال القرطبيُّ: (وهذه الآيةُ مما تلوحُ فصاحتُها وكثرةُ معانيها، على قلَّة ألفاظِها، لكلِّ ذي بصيرةٍ بالكلامِ؛ فإنَّها تضمَّنت خمسةَ أحكام: الأولُ: الأمرُ بالوفاءِ بالعقود. الثاني: تحليلُ بهيمةِ الأنعامِ. الثالثُ: استثناءُ ما يلي بعدَ ذلك. الرابعُ: استثناءُ حالِ الإحرامِ فيما يُصادُ. الخامسُ: ما تقتضيه الآيةُ مِن إباحةِ الصَّيد لمَن ليس بمُحرِمٍ). ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٧٩).

أي: يا أيُّها المؤمنون، لا تَنتَهِكوا ما حرَّمَ الله تعالى عليكم، ولا تُضَيِّعوا فرائِضَه، ومِن ذلك مناسِكُ الحجِّ(١).

﴿وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾.

أي: ولا تَنتهِكوا حُرمةَ الأشهُرِ الحُرُم بابتداءِ القِتالِ فيها، وبغيرِ ذلك من أنواعِ الظُّلْم والمحرَّماتِ(٢).

قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة: ٣٦].

وعن نُفَيعِ بنِ الحارثِ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((إنَّ الزمانَ قد استدارَ كهيئَتِه يومَ خلَقَ اللهُ السَّمواتِ والأرضَ؛ السَّنةُ اثنا عشرَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٨).

قال ابنُ كثير: (وقد ذهب الجمهور إلى أنَّ ذلك منسوخ، وأنه يجوزُ ابتداء القتال في الأشهر الحرم، واحتجُّوا بقوله: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، قالوا: والمراد أشهرُ التسييرِ الأربعة، ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾، قالوا: فلم يَستثنِ شهرًا حرامًا من غيره) ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٩). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (١/ ٢١٨-٢١٩).

وقال ابن عثيمين: (أمَّا القتالُ في الشهر الحرام، فاختلَفَ فيه العلماء: فمنهم مَن يقول: إنَّه منسوخٌ، ومنهم مَن يقول: إنَّه مُحكَم وليس بمنسوخ؛ فالقائلون بأنَّه منسوخٌ يقولون: إنَّ الرسولَ عليه الصلاة والسلامُ قاتَلَ في الشَّهر الحرام؛ فإنَّه بعدَ فَتْح مكَّة- أي: في رمضان- خرَج إلى هوازنَ وثقيفٍ وقاتَلَهم في ذي القَعدة، وكذلك كانت غزوةُ تبوك في الشهر الحرام في مُحرَّم، وهذا يدلُّ على أنَّ القتالَ في الشهر الحرام نُسِخ تحريمُه، ولكنَّ الصَّحيحَ أنه باقٍ، وأنَّه لا يجوزُ القتالُ في الشَّهر الحرام ابتداءً، أمَّا إذا كان دفاعًا أو امتدادًا لغزوةٍ سابقةٍ؛ فإنَّ ذلك جائزٌ، وعليه تُحمَلُ قِصَّة هوازن وتبوك؛ لأنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ إنَّما غزاهم لأنَّه قيل له: إنَّهم قد جمَعوا له، فلا بدَّ من الدِّفاعِ) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٥).

شهرًا، منها أربعةٌ حُرمٌ؛ ثلاثٌ متوالياتٌ: ذو القَعدةِ وذو الحِجةِ والمحَرَّمُ، ورجبُ مُضَرَ[١]، الذي بين جُمادى وشعبانَ))[٢].

﴿وَلَا الْهَدْيَ﴾.

أي: ولا تَنتهِكوا ما يُهدَى إلى الحَرَم من إبلٍ أو بقرٍ أو غنمٍ تقرُّبًا إلى الله تعالى، فلا تذبحوه قبلَ بلوغِه مَحِلَّه، ولا تَحُولوا بينه وبين الوصولِ إلى محِلِّه، بل عَظِّموه[٣].

﴿وَلَا الْقَلَائِدَ﴾.

أي: ولا تَنتهِكوا أيضًا الهَدْيَ الذي تُجعَل له قلائدُ في عُنقِه؛ وكانت الهدْيُ تُقلَّدُ إظهارًا لشعائرِ الله تعالى، وحملًا للنَّاسِ على الاقتداءِ، فتَبعَث مَن يراه على الإتيانِ بمثلِه، وتعليمًا لهم للسُّنَّة، وليُعْرَفَ أنه هديٌ فيُحْتَرَم[٤].

﴿وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾.

أي: ولا تستحلُّوا قِتالَ القاصدين إلى بيتِ الله تعالى الحرامِ، الذي مَن دخَلَه

---

(١) ورجبُ مُضرَ: رجَب: هو اسم الشهر الذي بين جُمادى وشَعبان، من رَجِبْتُه، أي: هِبْتُه وعظَّمْتُه، فهو مرجوبٌ؛ ومنه سمِّيَ رجب؛ لأنَّهم كانوا يُعظِّمونه في الجاهليَّة ولا يستحلُّون فيه القِتال، ومضر: اسم قَبيلة، وإنَّما أضيف لهم فقيل: رجَبُ مُضَرَ؛ لأنَّه كان بين بني مُضَر وبين ربيعةَ اختلافٌ في رجب؛ فكانت مُضر تجعَلُ رجبًا هذا الشَّهرَ المعروف الآن، وهو الذي بين جُمادَى وشعبان، وكانوا مُتمسِّكين بتعظيمِه، وكانتْ ربيعةُ تجعلُه رمضانَ؛ فأُضيفَ إلى مُضرَ مبالغةً في إيضاحِه وإزالةً للَبْسْ عنه. وقيل: لأنَّهم كانوا أشدَّ تَعظيمًا له مِن غيرِهم، فكأنَّهم اختصُّوا به. ينظر: ((الصحاح)) للجوهري (١/ ١٣٣)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ١٩٧)، ((شرح النووي على مسلم)) (١١/ ١٦٨)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٣٢٥).

(٢) رواه البخاري (٤٦٦٢) واللفظ له، ومسلم (١٦٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٦-٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٩).

كان آمنًا، والحالُ أنَّهم طالبونَ فَضلَ الله تعالى بالتِّجارةِ والمكاسِبِ المباحَةِ، أو راغبونَ في رِضوانِه بالحجِّ والعُمرةِ والطَّواف بالبيت، والصَّلاة وغيرِها من أنواعِ العباداتِ، فلا تَصدُّوهم ولا تتعرَّضوا لهم بسوءٍ، ولا تُهينوهم، بل عظِّموا الزَّائرينَ لبيتِ الله عزَّ وجلَّ[١].

﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾.

أي: وإذا فرَغْتُم مِن إحرامِكم بالحجِّ أو العُمرةِ وأحللتُم منه، وخرجتُم من الحَرَم، فلا حَرَج عليكم في اصطيادِ ما كان محرَّمًا عليكم صيدُه[٢].

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قوله تعالى: ﴿أَنْ صَدُّوكُمْ﴾ قِراءتان[٣]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٩-٢٠).

قال السعديُّ: (هذه الآية الكريمة مخصوصةٌ بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾؛ فالمشرك لا يُمَكَّن من الدُّخول إلى الحرم) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٢-٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٠-٢١).

قال ابنُ جريرٍ: (يعني بذلك جلَّ ثناؤه: ﴿وإذا حللتم فاصطادوا﴾ الصيد الذي نهيتُكم أن تحلُّوه وأنتم حرمٌ، يقول: فلا حرجَ عليكم في اصطيادِه واصطادوا إن شئتُم حينئذٍ؛ لأنَّ المعنى الذي مِن أجلِه كنتُ حرَّمته عليكم في حالِ إحرامِكم قد زال، وبما قلنا في ذلك قال جميعُ أهلِ التأويل) ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٢-٤٣).

(٣) قرأ ابن كثير وأبو عمرو: (إِنْ صَدُّوكُمْ) بكَسْر الهمزة، وقرأ الباقون (أَنْ صَدُّوكُمْ) بفتحها. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٢٣).

ويُنظر لمعنى القراءتين: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٢٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٩٢).

١- قِراءة ﴿أَنْ صَدُّوكُمْ﴾ بالفتح على أنَّها عِلَّة للشَّنَآنِ، والمعنى: لا يَحْمِلَنَّكم بغضُكم لقومٍ على الاعتداءِ عليهم؛ لأجْلِ صَدِّهم إيَّاكم عن المسجدِ الحرامِ.

٢- قِراءة ﴿إِنْ صَدُّوكُمْ﴾ بـ (إن) الشرطيَّة، والمعنى: لا يحملنَّكم بُغضُ قومٍ على الاعتداءِ عليهم، إنْ صدُّوكم عن المسجدِ الحرامِ.

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾.

أي: ولا يَحملنَّكم- أيُّها المؤمنون- بُغضُ قومٍ على أن تَعْتَدوا عليهم فتقتَصُّوا منهم ظلمًا؛ طلبًا للاشتفاءِ منهم؛ لأجْل أنْ منعوكم من الوصولِ إلى المسجِدِ الحرام؛ فإنَّ العبدَ عليه أن يلتزمَ أمْرَ الله تعالى، ويَسلُكَ طريقَ العَدْلِ، ولو اعتُدِيَ عليه[1].

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾.

أي: ولْيُعِنْ بعضُكم بعضًا- أيُّها المؤمنون- على فِعْل الطَّاعاتِ، وتَرْكِ المحرَّمات[2].

﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾.

أي: ولا يُعِنْ بعضُكم بعضًا- أيها المؤمنونَ- على اقترافِ المعاصي، وارْتِكابِ الظُّلم، والاعتداءِ على حقوقِ الخَلْق[3].

﴿وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٤-٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢١-٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢-١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٣).

أي: وامْتَثِلوا ما أمَرَكم اللهُ تعالى به واجتنِبوا ما نهاكم عنه؛ فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ذو عِقابٍ شديدٍ على مَن عصاه، وتجرَّأ على محارِمِه[1].

الفوائد التربويَّة:

١- تصدير الآية بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يدلُّ على فضيلةِ الإيمانِ، وأهميَّة ما يُذكر بعدَ هذا النِّداء، وأنَّه مِن مُقتَضَياتِ الإيمانِ؛ تصديقًا به إنْ كان خبرًا، وعملًا به إنْ كان طَلَبًا، وأنَّ مخالفةَ ذلك نقصٌ في الإيمانِ، وامتثاله يَزيد به الإيمانُ، وفيه إغراءٌ للمخاطَبِ ؛ لأنَّ قولَه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ كأنَّه يخاطِبُهم بقوله: إنَّ إيمانَكم يحمِلُكم على أنْ تفعلوا كذا وكذا، وأن تتركوا كذا وكذا، حسَبَ السِّياقِ[2]؛ لذا قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا﴾ لأنَّ صِفةَ الإيمانِ مُلزِمَةٌ لهم بهذا الوَفاءِ، مستحِثَّةٌ لهم عليه[3].

٢- وُجوبُ الوفاءِ بالعقود؛ لقوله: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾؛ لأنَّ الأصلَ في الأمرِ أنَّه للوجوبِ لا سيَّما إذا كان متعلِّقًا بحقِّ الآخرينَ، والعَقْدُ متعلِّقٌ بحقِّ الآخرين؛ لأنَّه إبرامُ شيءٍ بينك وبين الآخرِ[4].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ فيه التنبيهُ على الانقيادِ لله تعالى في جميعِ تكاليفِه وأوامِرِه ونواهيه، فلا يُسأَلُ عن تَخصيصٍ ولا عن تفضيلٍ، ولا غيرِه[5].

٤- الإشارةُ إلى أنَّه لا يحلُّ للإنسانِ أن يعترضَ على الأحكامِ الشرعيَّةِ؛ وجهُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين – سورة المائدة)) (١/ ٦، ١٠).

(٣) ينظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٨٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين – سورة المائدة)) (١/ ١١)

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٧)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٥١).

ذلك: أنَّ الله تعالى ختَمَها بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾، وذلك بعدَ أنْ ذكَرَ أنواعًا من الأحكامِ[١].

٥- الإرشادُ إلى احترامِ أعظمِ المكانِ: الحَرَمِ، وأكْرَمِ الزَّمانِ: الشَّهرِ الحرامِ، وما لابَسَهما؛ قال الله تعالى: ﴿لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللهِ وَلَا الشَّهْرَ الحَرَامَ﴾[٢].

٦- تعظيمُ الشَّعائرِ؛ لأنَّ اللهَ أضافها إلى نفسِه، في قوله: ﴿لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللهِ﴾، والمضافُ يَشرُف ويَعظُمُ بحسَبِ المضافِ إليه[٣].

٧- قوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾ قِمَّةٌ في ضَبْط النَّفسِ، وفي سماحَةِ القلب، ولكنَّها هي القِمَّةُ التي لا بدَّ أن تَرْقى إليها الأمَّةُ المكلَّفةُ من ربِّها أن تقومَ على البشريَّةِ؛ لتهديَها وترتفِعَ بها إلى هذا الأفُقِ الكريمِ الوَضيءِ؛ إنَّها تَبِعَةُ القيادَةِ والقِوامَةِ والشَّهادة على النَّاسِ؛ التَّبِعَة التي لا بدَّ أن يَنسَى فيها المؤمنون ما يقَعُ على أشخاصِهم من الأذى؛ ليُقدِّموا للنَّاسِ نموذجًا من السُّلوكِ الذي يُحقِّقُه الإسلامُ، ومن التَّسامي الذي يصنَعُه الإسلامُ، وبهذا يؤدُّون للإسلامِ شهادةً طيِّبةً تَجذِبُ الناسَ إليه، وتُحبِّبُهم فيه[٤].

٨- جمَع بين التَّحْلِيَةِ والتَّخلِيَة في قوله: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾؛ إذ إنَّ التَّعاوُنَ على البِرِّ والتقوى مِن أركانِ الهدايةِ الاجتماعيَّةِ في القرآن؛ لأنَّه يُوجِبُ على النَّاسِ إيجابًا دِينيًّا أن يُعِينَ بعضُهم بعضًا على كلِّ عملٍ من أعمالِ البرِّ التي تنفَعُ النَّاسَ أفرادًا وأقوامًا في دِينهم ودُنياهم، وكلِّ عَملٍ من أعمالِ التقوى التي يدفعونَ بها المفاسِدَ والمضارَّ عن أنفُسِهم، فجَمَعَ بذلك بين التحلِيَة والتخْلِيَة، ولكنَّه قدَّم التحلِيَة بالبرِّ، وأكَّدَ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين – سورة المائدة)) (١/ ٢٥).

(٤) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٨٣٩).

هذا الأمْرَ بالنَّهيِ عن ضِدِّه؛ وهو التعاونُ على الإثمِ بالمعاصي وكلِّ ما يعوقُ عن البِرِّ والخيرِ، وعلى العُدوانِ الذي يُغْري الناسَ بعضَهم ببعضٍ، ويجعلُهم أعداءً متباغِضينَ يتربَّصُ بعضُهم الدوائِرَ ببعضٍ(١).

٩- نَدَبَ اللهُ سبحانَه إلى التَّعاونِ على البِرِّ، وقَرَنَه بالتَّقوى له، فقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾؛ لأنَّ في التَّقوى رِضا اللهِ تعالى، وفي البِرِّ رِضا النَّاسِ، ومَن جَمَعَ بين رِضا الله تعالى ورِضا النَّاسِ؛ فقد تمَّتْ سَعادتُه، وعَمَّتْ نِعمَتُه(٢).

الفوائِد العِلميَّة واللَّطائِفُ:

١- وجوبُ الوفاءِ بالشُّروطِ المشترَطَةِ في العقدِ، فإذا عقَدَ رجلانِ بينهما عقدَ بيعٍ أو غيره، واشترطَا شروطًا، فالأصلُ وجوبُ الوفاءِ بالشُّروط؛ وذلك لأنَّ قولَه: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ يشمَلُ الوفاءَ بالعقدِ نفْسِه، وبأوصافِه التي هي شروطُه، فإذا اشترَطَ المتعاقدانِ شرطًا، وحصَل نِزاعٌ في هذا الشَّرطِ، فالصوابُ أنَّ هذا الشرطَ يصحُّ حتى يُقيمَ المانِعُ دليلًا على المنعِ(٣).

٢- يُستَفاد مِنْ قَوْلِه: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ أنَّ جميعَ العقودِ حلالٌ؛ وجهُ ذلك: أنَّ اللهَ أمَرَ بالوفاءِ بها، واللهُ تعالى لا يأمُرُ بالوفاءِ بالفحشاءِ أبدًا، ولكنَّ هذا ليس على عمومِه؛ إذ يُستثْنَى منها ما حَرَّمه الشَّرعُ؛ كبيعِ الغَرَر، والبيعِ بالرِّبا، والقِمارِ، وما أشْبَهَ ذلك(٤).

٣- يُستَفاد مِنْ قَوْلِه: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ أنَّ العقودَ تنعقِدُ بما دلَّ عليها مِن قولٍ أو فِعلٍ، بلفظٍ أو إشارةٍ أو كتابةٍ؛ وجْهُ ذلك أنَّ الله جلَّ وعلا أطلَقَ العقدَ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ١٠٨).

(٢) ينظر: ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي، ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين – سورة المائدة)) (١/ ١٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١١).

فكلُّ ما كان عقْدًا بين النَّاسِ فهو عقْدٌ[١].

٤- قوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ مُجمَلٌ؛ لأنَّ الإحْلالَ إنَّما يُضافُ إلى الأفعالِ، وهاهنا أُضيفَ إلى الذَّاتِ، فتعذَّر إجراؤُه على ظاهِرِه؛ فلا بُدَّ من إضمارِ فِعلٍ، وليس إضمارُ الأفعالِ أَوْلى من بعضٍ، فيَحتمِل أن يكون المرادُ إحلالَ الانتفاعِ بجِلْدِها، أو بعَظْمِها، أو صُوفِها، أو لَحْمِها، أو المرادُ إحلالَ الانتفاعِ بالأكْلِ، فصارتِ الآيةُ مُجملةً، إلَّا أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل: ٥] دلَّ على أنَّ المرادَ بقَوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ إباحةُ الانتفاعِ مِن كلِّ هذه الوجوهِ، والله أعلم[٢].

٥- قوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ فيه تعظيمُ الإحرامِ، وأنَّه يحرُمُ على المُحْرِم الصَّيدُ[٣].

٦- تحريمُ إحلالِ الشَّهرِ الحرامِ بالقتالِ، وكذلك أيضًا بالمعاصي؛ فإنَّها في هذه الأشهرِ الحُرُم أعظمُ من المعاصي في غيرها، قال تعالى: ﴿لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾[٤].

٧- احترامُ الهَدي وتحريمُ إحلالِه؛ لقوله: ﴿وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ﴾[٥].

٨- في قوله: ﴿وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ حثٌّ على احترامِ الحُجَّاجِ والعُمَّارِ، وهذا يُفيدُ أنَّ العُدوانَ عليهم أشدُّ مِنَ العُدوانِ على غَيرِهم[٦].

٩- الإشارةُ إلى مِنَّةِ اللهِ عزَّ وجلَّ على هؤلاءِ الذين قَصَدوا البيتَ الحرامَ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (١/ ١١-١٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ١٦٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (١/ ١٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٥).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٧).

وجْهُ ذلك أنَّ إضافةَ الربوبيَّةِ إليهم في قوله: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ دليلٌ على عنايَتِه تبارك وتعالى بهم، ومن ذلك أنْ وفَّقَهم للحضورِ إلى المسجِدِ الحرامِ، فالربوبيَّة نوعان: عامَّة، وخاصَّة، وإليهما الإشارةُ في قوله تعالى: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الأعراف: ١٢١- ١٢٢]، فقوله: ﴿رَبِّ العَالِمِينَ﴾، ربوبيَّة عامَّة، وقوله: ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ ربوبيَّة خاصَّة[١].

١٠- إثباتُ حُرْمة المسجِدِ الحرام؛ لقوله: ﴿أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، أي: ذي الحرمةِ والتعظيمِ، وهو أوَّلُ بيتٍ وُضِع للنَّاس ليتعبَّدوا الله فيه[٢].

بلاغةُ الآيتين:

١- قوْلُه تعالى: ﴿أَوْفُوا بِالعُقُودِ﴾: فيه تعريفُ (العقود) تعريفَ الجِنس؛ للاستغراقِ؛ فشَمِلَ العقودَ التي عاقَد المسلمونَ عليها ربَّهم، وشَمِل العقودَ التي عاقد المسلمون عليها المشركينَ، ويشمَلُ العقودَ التي يتعاقَدُها المسلمونَ بينهم[٣].

٢- قوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ تمهيدٌ لِمَا سَيرِدُ بَعدَها من المنهيَّات: كقولِه: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ﴾، وفي الابتداءِ بذِكرِ بَعضِ المباحِ امتنانٌ وتأنيسٌ للمُسلِمين؛ ليتلقَّوا التكاليفَ بنفوسٍ مُطمئِنَّةٍ؛ فهي جملةٌ مستأنفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا؛ لأنَّها تصديرٌ للكلام بعد عنوانِه، وهو قوله تعالى: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾[٤].

- وإضافة البهيمة إلى الأنعامِ للبيانِ مِن إضافةِ العامِّ للخاصِّ، وهي الإضافةُ التي بمعنى «مِن»، ومعناه: البَهيمةُ مِن الأنعام، وفائدتُها: الإشعارُ بعِلَّة الحُكم المشترَكة بين المضافينِ؛ كأنَّه قيل: أُحلَّت لكم البهيمةُ الشَّبيهةُ بالأنعامِ التي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (١/ ٢٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٢، ٣٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٧٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٧٧- ٧٨).

بُيِّن إحلالُها فيما سبَق، المماثِلَةُ لها في مَناطِ الحُكم(١).

- وفي آية أخرى: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ [الحج: ٣٠]، فالفائدةُ في زِيادة لفظ (البهيمة) في هذه الآية: التأكيدُ؛ إذ المرادُ بالبهيمة وبالأنعام شيءٌ واحد(٢).

- وتقديم الجارِّ والمجرور ﴿لَكُمْ﴾ على القائمِ مقام الفاعلِ ﴿بَهِيمَةُ﴾؛ لإظهارِ العناية بالمقدَّم؛ لِمَا فيه من تَعجيلِ المسرَّةِ والتَّشويقِ إلى المؤخَّرِ، فإنَّ ما حقُّه التقديمُ إذا أُخِّرَ تبقى النَّفسُ مترَقِّبةً إلى ورودِه، فيتمكَّن عندها تَمكُّنًا زائدًا(٣).

٣- قوله: ﴿لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ﴾ فيه: النَّهيُ عن إحلالِها؛ مبالغةً في النهيِ عن التعرُّضِ للهَدْي(٤)، فلمَّا حرَّم الصيدَ على المُحرِمِ في الآية الأولى أكَّد ذلك بالنَّهي في هذه الآيةِ عن مخالفةِ تكاليفِ اللهِ تعالى(٥).

- وإضافة قوله: ﴿شَعَائِرَ﴾ إلى الله عزَّ وجلَّ؛ لتشريفِها، وتهويلِ الخَطْب في إحلالِها(٦).

- وقوله: ﴿وَلَا الْقَلَائِدَ﴾: عُطِفَت ذواتُ القلائِد مِن الهَدْي على الهَدْيِ؛ مبالغةً في التوصيةِ بها؛ لأنَّها أشرفُ الهَدْيِ، ويُحتَمَل أن يكون النَّهيُ عن التعرُّضِ لنفْسِ قَلائِدِ الهَدي؛ مبالغةً في النَّهيِ عن التعرُّضِ للهَدْي، على معنى: لا تُحِلُّوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١١٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣).

قلائِدَها، فضلًا عن أن تُحِلُّوها[1].

٤- **قوله: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ فيه**: تنكيرُ قوله: ﴿فَضْلًا﴾، و﴿وَرِضْوَانًا﴾؛ للتفخيمِ، وإضافةُ الربِّ إلى ضميرِ الآمِّينَ في قوله: ﴿رَبِّهِمْ﴾؛ للإيماءِ إلى اقتصارِ التشريف عليهم، وحرمانِ المخاطَبين عنه، وعن نَيْلِ المبتغَى، وفي ذلك من تعليلِ النَّهيِ وتأكيدِه، والمبالغةِ في استنكارِ المنهيِّ عنه؛ ما لا يَخفَى[2].

٥- **قوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ فيه**: تصريحٌ بمفهومِ قَولِه: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ لقَصْدِ تأكيدِ الإباحةِ[3].

٦- **قوله: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ فيه**: تأكيدٌ لمضمون قوله: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾؛ لأنَّ الأمرَ بالشيءِ وإنْ كان يتضمَّن النهيَ عن ضدِّه، فالاهتمامُ بحُكم الضدِّ يَقتضي النهيَ عنه بخصوصِه[4].

٧- **قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾** كرَّر الأمْر بالتقوى مُطلقةً فيه، وإنْ كان قد أمَر بها في قوله: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾؛ تأكيدًا لأمْرِها، وإشارةً إلى أنَّها الحاملةُ على كلِّ خيرٍ[5].

٨- **قوله: ﴿إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ فيه**: تعريضٌ بالتَّهديدِ والوعيدِ[6]، مع ما فيه من تأكيدِ الخبرِ بـ(إنَّ)، واسميَّةِ الجملةِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٨٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٨٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٨٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ١٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٨٨).

الآية (٣)

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣)﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ﴾: أي: رُفِع فيه الصَّوتُ بتسميةِ غيرِ الله، أو ما ذُبِحَ لغيرِ الله، وأصْل (هلل): يَدلُّ على رفْعِ صوتٍ، ومنه قولهم: أهلَّ بالحجِّ: رفَع صوتَه بالتَّلبيَةِ(١).

﴿الْمُنْخَنِقَةُ﴾: التي تموتُ خنقًا، وهو حبسُ النَّفَس، سواءٌ فعَل بها ذلك آدميٌّ، أو اتَّفق لها ذلك في حَجَرٍ أو شجرةٍ أو بحبلٍ أو نحوه، وأصل (خنق): يدلُّ على ضِيق(٢).

﴿الْمَوْقُوذَةُ﴾: المقتولةُ بالضَّربِ، والوَقْذ: الإيلامُ بالضَّرْب، وأصْل (وقذ): يدلُّ على ضربٍ بخَشَب(٣).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢١١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٢)، =

﴿الْمُتَرَدِّيَةُ﴾: الواقعةُ من جَبَلٍ أو حائطٍ، أو في بِئرٍ؛ يُقال: تردَّى: إذا سقَط، وأصله يدلُّ على رمْيٍ أو ترامٍ، وما أشبهَ ذلك(١).

﴿النَّطِيحَةُ﴾: المنطوحةُ التي نطحتْها شاةٌ أو بقرةٌ فماتتْ(٢).

﴿ذَكَّيْتُمْ﴾: ذبَحتُم، فقطعْتُم أوداجَه، وأنهَرْتم دمَه، وذكرتُم اسمَ الله تعالى إذا ذبَحْتُموه، وأصلُ الذَّكاة: تمامُ الشَّيْء(٣).

﴿النُّصُبِ﴾: الحَجَر، أو الصَّنَم الذي يَذبحونَ عنده، أو يُنصَب للعبادةِ، وجمْعُه أنصابٌ، وقيل: النُّصُب جمعٌ مفردُه نَصِيبٌ، وأصلُ (نصب): يدلُّ على إقامةِ شيءٍ، وإهدافٍ في استواءٍ(٤).

﴿تَسْتَقْسِمُوا﴾: تطلُبوا عِلمَ ما قُسِمَ لكم، والاستقسامُ بها: أن يُضربَ بها، ثم يُعمَلَ بما يَخْرُجُ فيها من أمْرٍ أو نهيٍ، وأُخِذ الاستقسامُ من القَسْم، وهو النَّصيبُ، كأنَّه طَلَبُ النَّصيبِ(٥).

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٧).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٠٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٧) ، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٦٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٠) و(ص: ٤٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٧).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٩).

﴿بِالْأَزْلَامِ﴾: جمْعُ زَلَم وزُلَم، وهي القِداحُ التي كانوا يَضربونَ بها على المَيسرِ ويَستَقْسِمون بها، أو هي سِهامُ العربِ، وأصل (زلم): يدلُّ على نحافةٍ ودِقَّةٍ في مَلاسةٍ[(١)].

﴿فِسْقٌ﴾: خروجٌ عن حدودِ الشَّرع؛ من قولهم: فَسَق الرُّطَب، إذا خرَج عن قِشْرِه، والفُسُوق: الخروجُ من الطاعة إلى المعصِيَة، والخروجُ من الإيمانِ إلى الكُفرِ[(٢)].

﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾: فلا تَخافوهم، والخَشْيةُ: أكثرُ ما تكونُ عن عِلمٍ بما يُخشَى منه، وقيل: هي خوفٌ يشوبُه تعظيمٌ، وأصل خَشِيَ: فواتٌ بالكليَّةِ يدلُّ على خوفٍ وذُعْرٍ[(٣)].

﴿مَخْمَصَةٍ﴾: أي: مجاعةٍ؛ مُشتقَّةٌ من خَمْصِ البَطن، أي: ضُمورِه، وأصلُ (خمص): يدلُّ على الضُّمْرِ والتَّطامُنِ[(٤)].

﴿مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾: مُنحرفٍ، مائلٍ إلى ذلك متعمِّدًا، بأنْ يأكُل بعدَ زوالِ الضَّرورة، أو يأكُلَ فوقَ الشِّبَع، وأصلُ الجنف: الميلُ ميلًا ظاهِرًا، والعدولُ عن الحقِّ[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٦، ٨١٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٣).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٣)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٥٠٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٢٨).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٧).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١ / ٤٨٦)، ((المفردات)) للراغب (١ / ٢٠٧)، ((تذكرة =

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّن اللهُ تعالى لعبادِه المؤمنين أنَّه حرَّم عليهم أكْلَ ما مات من الحيوانِ دون ذَكاةٍ ولا اصطيادٍ، وحرَّم عليهم أكْلَ الدَّمِ المسفوحِ، ولحمِ الخنزيرِ، وأكْلَ ما ذُكِرَ عليه غيرُ اسمِ الله عند ذَبْحه، ثم ذَكَر سبحانه أنواعًا أُخرى مِن المحرَّمات: وهي ما يموت بالاختناقِ من البَهائم، وما ضُرِبَ بشيءٍ ثقيلٍ غيرِ محدَّدٍ حتى مات، والبهيمةُ التي تتردَّى من مكانٍ عالٍ فتموت نتيجةَ سقوطِها، والتي ماتتْ بسبب نطْحِ غيرِها لها، والتي عدَا عليها سَبُعٌ- كأسدٍ أو ذئبٍ وغيرهما- فماتتْ بذلك، إلَّا ما أمكَنَ تدارُكُه بالذَّكاةِ مِن هذه الأنواعِ، وكانت فيه حياةٌ، فإنَّه يجوز أكْلُه، كما حَرَّم عليهم سبحانه وتعالى ما ذُبِحَ عند الأوثان تقرُّبًا لها، وحرَّم عليهم أن يَطلُبوا عِلمَ ما قُسِمَ لهم، باستخدامِ الأقداحِ؛ كما يَفعل أهلُ الجاهليَّة، فإنَّ كلَّ ما سبق ممَّا حرَّمه الله خروجٌ عن طاعة الله إلى معصيته، ثم أخبَرَ تعالى أنَّ الكفَّار انقطعَ طمعُهم من أن يرتدَّ المؤمنونَ عن دِينهم يوم عرفةَ في حجَّةِ الوداعِ؛ يومَ نَزَلَت هذه الآيةُ؛ فلا يَنبغي للمسلمينَ أن يخافوهم، بل عليهم أن يخافوا اللهَ تعالى؛ فهو في هذا اليومِ أكْمَلَ للمؤمنين دِينَهم، وأَتَمَّ عليهم نِعمتَه، ورَضِيَ لهم دِينَ الإسلام دينًا يتقرَّبون به إلى الله، فمْن ألجأتْه الضرورةُ إلى أكْل شيءٍ من المحرَّماتِ التي ذَكَرَها الله في الآية، غيرَ مُريدٍ للحرامِ، فله تناوُلُ ما يدفع حاجتَه، واللهُ غفورٌ رحيمٌ.

تفسيرُ الآية:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ

= الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (١ / ١٠٢، ١٤٨).

وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا قال تعالى في أوَّل السُّورة: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ ثم ذكَر فيه استثناءَ أشياءَ تُتلَى عليهم في قَوْلِه: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾- ذَكَر هنا تلك الصُّورَ المستثناةَ من ذلك العمومِ[1]، فقال:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾.

أي: حرَّم اللهُ تعالى عليكم- أيُّها المؤمنونَ- أكْلَ المَيْتَة، وهي: ما مات مِن الحيوان حتْفَ أنفِه، من غير ذكاةٍ شرعيَّة، ولا اصطيادٍ[2].

﴿وَالدَّمُ﴾.

أي: وحرَّم عليكم أيضًا أكْلَ الدَّمِ المسفوحِ[3]، كالذي يخرُج عند الذَّكاةِ، أو يخرج عند فصْد العِرْقِ، وما أشبهَ ذلك[4].

قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ [الأنعام: ١٤٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٣-٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٩-٢٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٥).
ويُستثنى من الميتات الجراد والسمك. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٧).
قال ابن جرير: (فأمَّا ما كان قد صارَ في معنى اللَّحْمِ كالكَبِدِ والطِّحال، وما كان في اللَّحمِ غير مُنسفِحٍ؛ فإنَّ ذلك غيرُ حرامٍ؛ لإجماعِ الجميعِ على ذلك) ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٧).

﴿وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾.

أي: وحرَّم عليكم أكْلَ الخِنزيرِ؛ إنسيِّه ووحشيِّه، وظاهِرِه وباطِنِه؛ فجميعُ أجزائِه مُحرَّمٌ أَكْلُها(١).

﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ﴾.

أي: وحرَّم عليكم أيضًا أكْلَ ما ذُبِحَ فذُكر عليه غيرُ اسمِ الله عزَّ وجلَّ(٢).

﴿وَالْمُنْخَنِقَةُ﴾.

أي: وحرَّم عليكم أيضًا أكْلَ ما يموتُ بالخَنقِ، سواءٌ بنفسها؛ كإدخالِها رأسَها في شيءٍ ضيِّقٍ، فتعجِز عن إخراجِه حتى تموتَ، أو بخنْقِ غيرِها لها(٣).

﴿وَالْمَوْقُوذَةُ﴾.

أي: وحرَّم عليكم أيضًا أكْلَ الموقوذةِ، وهي التي تُضرَب بشَيءٍ ثقيلٍ غير محدَّدٍ حتى تموتَ، كالتي تُضرَب بعصًا، أو حصًى، أو خَشبةٍ(٤).

عن عَديِّ بن حاتمٍ الطائيِّ رضي الله عنه، قال: ((قلتُ: يا رسولَ اللهِ، إني أُرسِلُ الكِلابَ المُعلَّمةَ، فيُمْسِكْنَ عليَّ، وأذكرُ اسمَ اللهِ عليه؟ فقال: إذا أرسلتَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٤-٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٧-٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٨).

قال ابنُ عطية: (قوله تعالى: ﴿وَالْمُنْخَنِقَةُ﴾ معناه التي تموتُ خَنقًا، وهو حَبسُ النَّفَس، سواءٌ فَعَل بها ذلِك آدميٌّ، أو اتَّفق لها ذلك في حجرٍ أو شجرةٍ، أو بحبلٍ أو نحوِه، وهذا إجماعٌ) ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ١٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٨).

كلبَك المُعلَّمَ، وذكَرْتَ اسمَ اللهِ عليه، فكُلْ، قلتُ: وإنْ قتلْنَ؟ قال: وإنْ قتلْنَ! ما لم يَشرَكْها كلبٌ ليس معها، قلتُ له: فإنِّي أَرْمي بالمِعراضِ[١] الصَّيدَ، فأصيبُ؟ فقال: إذا رَميتَ بالمعراضِ فخَرَق، فكُلْهُ، وإنْ أصابَه بعَرْضِه، فلا تأكُلْه))[٢].

﴿وَالْمُتَرَدِّيَةُ﴾.

أي: وحرَّم عليكم أيضًا أكْلَ المتردِّيَة، وهي التي تَسقُط من موضعٍ عالٍ فتموتُ بذلك[٣].

﴿وَالنَّطِيحَةُ﴾.

أي: وحرَّم عليكم أيضًا أكْلَ المنطوحةِ، وهي التي ماتتْ بسبب نَطْحِ غيرِها لها[٤].

﴿وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾.

أي: وحرَّم عليكم أيضًا أكْلَ التي عَدَا عليها سَبُعٌ، كالأسدِ أو الفهد أو النَّمِر وغيرها، فأكَلَ بعضَها فماتتْ بذلك[٥].

﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾.

---

(١) المِعْراض- بكسر الميم-: سهمٌ بلا رِيش ولا نَصْل، وإنَّما يُصيب بعَرضِه دون حَدِّه. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٢١٥).

(٢) رواه مسلم (١٩٢٩).

قال ابنُ كثير: (ففرَّق بين ما أصابه بالسَّهم، أو بالْمِزْراق [الرمح الصَّغير] ونحوِه بحَدِّه فأحلَّه، وما أصابَه بعُرْضِه فجعله وقيذًا فلم يُحلَّه، وقد أجمعَ الفقهاءُ على هذا الحُكم هاهنا) ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٩-٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٨-٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٩).

أي: إنَ أمكنَ تَداركُ المُنخَنِقةِ والموقوذةِ والمتردِّيةِ والنَّطيحةِ وما أكَلَ السَّبعُ- إنْ أمكن تَداركُها بذَكاةٍ شرعيَّة، وفيها حياةٌ مستقرَّة؛ فإنَّه يحِلُّ أكلُها[١].

﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾.

أي: وحرَّم عليكم أيضًا أكلَ ما ذُبِحَ عند الأوثانِ تقربًا لها[٢].

﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾.

أي: وحرَّم عليكم- أيُّها المؤمنون- الاستقسامَ بالأزلامِ، وقد كانتِ العربُ في جاهليَّتِها يَتعاطَون ذلك، وهي عبارةٌ عن قِداحٍ ثلاثة، مكتوبٌ على أحدها: «افْعَلْ»، وعلى الآخر: «لا تفعَلْ»، والثالث ليس عليه شيءٌ. وقِيل: كان يُكتَب على الواحِدِ منها: «أمَرني ربِّي»، وعلى الآخر: «نَهاني ربي»، والثالث ليس عليه شيء، فإذا أجالَها فطَلَع السَّهمُ الآمِرُ فَعَلَه، أو الناهي ترَكَه، وإنْ طلع الفارغُ أعاد الاستقسامَ، حتى يخرجَ أحدُ القَدَحين الآخَرَين فيعمل به[٣].

﴿ذَلِكُمْ فِسْقٌ﴾.

أي: إنَّ سائرَ الأمورِ التي حرَّمها الله تعالى في هذه الآية- كأكْلِ المَيْتَة والدَّمِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٧-٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٩-٤٠).

وأدْخَل ابنُ جرير فيها: ما أُهِلَّ لغير الله تعالى به. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٧-٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٩-٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤١-٤٢).

قال ابنُ كثير: (قد أمَرَ الله المؤمنين إذا تردَّدوا في أمورهم أن يستخيروه بأنْ يَعبُدوه، ثم يسألوه الخِيرَة في الأمْر الذي يُريدونه) ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٥).

وقال السعديُّ: (فحرَّمه الله عليهم، الذي في هذه الصورة وما يُشبهه، وعوَّضهم عنه بالاستخارة لربِّهم في جميع أمورهم) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٠).

ولحمِ الخنزير، والاستقسامِ بالأزلام، وغيرِ ذلك- خروجٌ عن طاعةِ الله تعالى إلى مَعصِيَتِه(١).

﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾.

أي: الآنَ (والمرادُ باليومِ يومُ عَرفَةَ في حَجَّةِ الوداعِ) انقطَع طمَعُ الكفَّار والمشركينَ من أن ترتدُّوا عن دِينِكم- أيُّها المؤمنون(٢).

﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾.

أي: فلا تَخافُوا من المشركين، وخافوني(٣).

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾.

أي: اليومَ (وهو يومُ عَرفةَ في حَجَّةِ الوداعِ) أكملتُ لكم دِينَ الإسلامِ- أيُّها المؤمنونَ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٢-٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٠).
قال ابنُ جرير: (وأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ أن يُقالَ: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أخبرَ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمؤمنينَ به؛ أنَّه أكمَلَ لهم- يومَ أنزَلَ هذه الآيةَ على نبيِّه- دينَهم، بإفرادِهم بالبَلَدِ الحَرامِ، وإجلائِه عنه المشركينَ، حتى حجَّه المسلمونَ دونهم، لا يُخالِطُهم المشركونَ، فأمَّا الفرائِضُ والأحكامُ، فإنَّه قد اختُلِفَ فيها، هل كانت أُكمِلَت ذلك اليومَ أم لا؟ ... ولا يدفَعُ ذو عِلمٍ أنَّ الوَحيَ لم ينقطِعْ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى أن قُبِضَ، بل كان الوحيُ قبل وفاتِه أكثَرَ ما كان تتابُعًا، فإذا كان ذلك كذلك، وكان قولُه: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ [النساء: ١٧٦] آخِرَها نزولًا، وكان ذلك من الأحكامِ والفرائِضِ- كان معلومًا أنَّ معنى قولِه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] على خلافِ الوَجهِ الذي تأوَّلَه مَن تأوَّلَه؛ أعني: كمالَ العباداتِ والأحكامِ والفرائِضِ) ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٨٢). =

﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾.

أي: وأتممْتُ عليكم نِعمتي - أيُّها المؤمنون- بإظهارِكم على المشركينَ، ونفْيِي إيَّاهم عن بلادِكم، وقطعي طمَعَهم في عودِكم إلى الشِّركِ، وإكمالِ دِينِكم[1].

﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾.

أي: واخترتُ واصطفيتُ لكم الإسلامَ دينًا، فكما ارتضيتُه لكم؛ فارْضَوْه أنتم لأنفُسِكم، وقوموا به والْزموه، ولا تتَّخذوا دِينًا سواه[2].

= وقال ابنُ عَطيَّة: (وهذا الإكمالُ عندَ الجمهورِ، هو الإظهارُ واستيعابُ عُظْمِ الفرائض والتَّحليلِ والتَّحريم. قالوا: وقد نزَل بعدَ ذلك قرآنٌ كثيرٌ، ونزلتْ آية الرِّبا، ونزلت آيةُ الكلالة إلى غير ذلك، وإنَّما كَمَّل عُظْمَ الدِّين، وأمْرَ الحجِّ أنْ حجُّوا وليس معهم مشركٌ) ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ١٥٤).

وقال ابنُ رجب: (إكمال الدِّين في ذلك اليومِ حَصَل من وجوه؛ منها: أنَّ المسلمين لم يكونوا حجُّوا حَجَّةَ الإسلام بعد فَرْض الحجِّ قبل ذلك، ولا أحدٌ منهم، هذا قول أكثرِ العلماء أو كثيرٍ منهم، فكمَّل بذلك دِينَهم؛ لاستكمالهم عملَ أركان الإسلام كلها. ومنها: أنَّ الله تعالى أعاد الحجَّ على قواعد إبراهيم عليه السلام، ونفَى الشركَ وأهلَه، فلم يختلطْ بالمسلمين في ذلك الموقفِ منهم أحدٌ) ((لطائف المعارف)) (ص: ٢٧٩). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٠٣-١٠٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٤).

قال ابنُ رجب: (وأمَّا إتمام النِّعمة فإنما حصَل بالمغفرة، فلا تتمُّ النعمة بدونها، كما قال لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢]، وقال تعالى في آية الوضوء: ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٦]، ومن هنا استنبط مُحمَّدُ بن كعبٍ القرظيُّ بأنَّ الوضوء يُكفِّر الذنوب، كما وردتِ السُّنة بذلك صريحًا، ويشهد له أيضًا أنَّ النبي صلَّى الله عليه وسلَّمَ سمع رجلًا يدعو ويقول: اللهمَّ إنِّي أسالك تمامَ النِّعمة، فقال له: «تمامُ النِّعمة: النجاة من النار، ودخولُ الجنة»، فهذه الآية تَشهَد لِمَا رُوي في يوم عرفةَ أنَّه يوم المغفرة والعِتق من النار) ((لطائف المعارف)) (٢٧٩-٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٨٤-٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٤).

عن طارِقِ بنِ شِهابٍ، قال: (جاء رجلٌ مِن اليهودِ إلى عُمرَ، فقال: يا أميرَ المُؤْمِنينَ؛ آيةٌ في كِتابِكم تَقْرَؤونَها، لو علينا نَزَلَتْ- مَعْشَرَ اليهودِ- لَاتَّخَذْنا ذلك اليومَ عِيدًا، قال: وأيُّ آيةٍ؟ قَالَ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، فقال عُمرُ: إنِّي لَأعْلَمُ اليومَ الَّذي نَزَلَتْ فيه، والمكانَ الَّذي نزلَتْ فيه، نزلَتْ على رسُولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم بعَرفاتٍ في يومِ جُمُعَةٍ)(١).

﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ﴾.

أي: فمَن ألجأتْه الضرورةُ لأكْلِ شيءٍ من هذه المحرَّماتِ، التي ذَكَرها اللهُ تعالى في هذه الآيةِ(٢).

﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾.

أي: غيرَ مُريدٍ لهذه المحرَّماتِ؛ بألَّا يأكُلَ حتى يُضطَرَّ، ولا يَزيدَ في الأكْلِ على كِفايتِه(٣).

﴿فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

أي: فله تناولُ ذلك، واللهُ غفورٌ له؛ لأنَّه تعالى يعلَمُ حاجةَ عبْدِه المضطرِّ، وافتقارَه إلى ذلك؛ فيتجاوزُ عن أكْلِ ما حرَّمَه، ورحيمٌ به حيثُ أباحَ له الأكْلَ في هذه الحالِ(٤).

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥)، ومسلم (٣٠١٧) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٩١-٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٠-٢٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٤-٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٩٣-٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٦).

الفوائد التربويَّة:

١- عِظَم خَطر الشِّرك، وأنَّه يؤثِّرُ حتى في الذبائح؛ لقوله: ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ﴾(١).

٢- تأثيرُ النيَّة في العملِ؛ لقوله: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ أي: للأصنام؛ فإنَّه يكون حرامًا حتى ولو ذُكِرَ اسمُ الله عليه؛ وذلك لتأثير النيَّة، وأنَّ النيَّةَ تؤثِّرُ حتى في حِلِّ الشيءِ وتحريمِه، وكذلك في قوله: ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾(٢).

٣- تحريمُ خَشية الكفَّارِ التي يترتَّب عليها المُداهنةُ في دِينِ الله؛ لقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾(٣).

٤- التَّحريضُ بأكملِ ما يكونُ على التمسُّكِ بما شرَعَ اللهُ تعالى، وذلك في قولِه سبحانه: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾؛ لأنَّه قد حصَل لهم اليأسُ مِن دينِكم؛ فإذا صارَ الأمرُ كذلك فيجبُ عليكم ألَّا تَلْتَفِتوا إليهم وألَّا تخافوهم، وأنْ تُقبِلوا على طاعةِ الله عزَّ وجلَّ، والعملِ بشَرائعِه(٤).

الفوائد العِلميَّة واللَّطائف:

١- في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ﴾ أنَّه سواءٌ وصَل العِلمُ البشريُّ إلى حِكمةِ هذا التحريمِ أم لم يَصِل، فقد قرَّرَ العلمُ الإلهيُّ أنَّ هذه المطاعِمَ ليستْ طيِّبةً، وهذا وحْدَه يكفي؛ فالله لا يُحرِّم إلَّا الخبائِثَ، وإلَّا ما يؤذي الحياةَ البشريَّةَ في جانبٍ من جوانبها، سواءٌ عَلِم الناسُ بهذا الأذى أو جهِلوه، وهل عَلِم الناسُ كلَّ ما يُؤذي وكلَّ ما يُفيد(٥)؟!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٨، ٥٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٨٦).

(٥) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٨٤٠).

٢- قَدْ حرَّم الله الاستقسامَ بالأزلامِ في قوله: ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ﴾؛ لأنَّه من الخُرافاتِ والأوهامِ التي لا يَركَنُ إليها إلَّا مَن كان ضعيفَ العقل؛ يَفعلُ ما يَفعلُ من غير بيِّنةٍ ولا بصيرةٍ، ويترُك ما يترُك عن غير بيِّنةٍ ولا بصيرةٍ، ويَجعل نفْسَه أُلعوبةً للكَهَنَة والسَّدَنَة، ويتفاءل ويتشاءم بما لا فأْلَ فيه ولا شُؤْم، فلا غَرْوَ أنْ يُبطِلَ ذلك دِينُ العقْلِ والبصيرة والبرهان، كما أَبطَلَ التطيُّرَ(١)، والكِهانةَ(٢)، والعِيافةَ(٣)، والعِرافة(٤)، وسائرَ خُرافات الجاهليَّة، ولا يَليق ذلك كلُّه إلَّا بجهلِ الوثنيَّةِ وأوهامِها(٥).

٣- قوله: ﴿ذَلِكُمْ فِسْقٌ﴾ المشارُ إليه كلُّ ما سبَق؛ لأنَّ القاعدةَ: أنَّه إذا أمكن أن يعودَ اسمُ الإشارةِ أو الضَّميرُ إلى كلِّ ما سبَق، حُمِلَ عليه(٦).

٤- قوله: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾ الفرق بين الخَشْيَةِ والخوف: أنَّ الخشية

(١) التطيُّر: التشاؤم بالشَّيءِ، مِن الطِّيَرة- بكسر الطاء وفتح الياء، وقد تسكن-، وأصلُه: الشيءُ المكروه من قولٍ أو فعلٍ أو مرئيٍّ، وكانوا يَتطيَّرون فيُنفِّرون الظِّباء والطيور، فإنْ أخذت ذاتَ اليمين تبرَّكوا به ومضَوا في سفرهم وحوائجهم، وإنْ أخذت ذاتَ الشمال رجَعُوا عن حاجتهم وسفرهم وتشاءَموا به، فكانت تصدُّهم في كثيرٍ من الأوقات عن مصالحهم، فنَفَى الشرع ذلك وأبطَلَه، ونهى عنه، وأخبر أنه ليس له تأثيرٌ بنَفْعٍ ولا ضُرٍّ. ينظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٤/ ٢١٨)، ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ١٥٢).

(٢) الكَهَانة- بفَتْح الكاف، ويجوز كسرها-: ادِّعاءُ عِلم الغيب، كالإخبارِ بما سيقع في الأرض مع الاستنادِ إلى سببٍ. ينظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ٢١٦)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٣٦/ ٨١).

(٣) العِيافة: زجْر الطير، والتَّفاؤُل بأسْمائِها وأصْواتها ومَمرِّها. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٣٣٠)، ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٤٤٠)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٢٤/ ١٩٦).

(٤) العرافة: مِهنة العرَّاف، وهو الذي يستدلُّ على الأمورِ بأسبابٍ ومُقدِّمات يَدَّعي معرفتَها بها، أو مَن يستخرجُ الوقوفَ على المغيَّبات بضربٍ مِن فعلٍ أو قول. ينظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٤/ ٢٢٣)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ٢١٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ١٩٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ١٢٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ١٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٢).

تكون عن عِلم، والخوف لا يلزم أن يكونَ عن عِلم، كذلك الخشيةُ تكون مِن عِظَمِ الْمَخْشِيِّ، وإنْ كان الخاشي قويًّا، لكنَّ الْمَخْشِيَّ يكون أقوى منه، والخوف لا يدلُّ على عِظَمِ الْمَخُوفِ، وإنَّما يدلُّ على ضَعْفِ الخائِفِ أمامَ مَن يَخاف منه وإنْ لم يكن قويًّا، وهذا فرقٌ واضِحٌ؛ فالطِّفل الذي له أربعُ سَنواتٍ يَخاف من الطِّفلِ الذي له ثمانِي سنواتٍ، مع أنَّ الثاني ضعيفٌ، لكنَّ الذي يَخشى مِن مَلِك أو صاحبِ سلطانٍ قويٍّ، هذا يُقال: إنَّه خاشٍ[١].

٥- يُستَفاد مِنْ قَوْلِه تعالى: ﴿اليوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ أنَّ شريعةَ الله كلٌّ لا يتجزَّأ، سواء فيه ما يختصُّ بالتصوُّرِ والاعتقاد، وما يختصُّ بالشَّعائِرِ والعباداتِ، وما يختصُّ بالحلالِ والحرام، وما يختصُّ بالتنظيماتِ الاجتماعيَّةِ والدوليَّة، وأنَّ هذا في مجموعِه هو «الدِّين» الذي يقول الله عنه في هذه الآية: إنَّه أكْمَلَه، وهو «النِّعمة» التي يقول الله للذين آمنوا: إنَّه أتمَّها عليهم، فكلُّها في مجموعها تُكَوِّن المنهجَ الربَّانيَّ الذي ارتضاه اللهُ للذين آمنوا[٢].

٦- قوْلُه تعالى: ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ المرادُ من الدِّين دِينُ الإسلامِ، وإضافتُه إلى ضَميرِ المسلمين؛ لتشريفِهم بذلك[٣]، وليَفْخروا ويعتزُّوا بتمسُّكِهم به، ويُدافِعوا عنه[٤].

٧- بيانُ نِعمة الله على هذه الأمَّة- وله الحمدُ والمِنَّة- بإكمالِ الدِّين؛ لقوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، فهذه أكبَرُ نِعَمِ اللهِ عزَّ وجلَّ على هذه الأمَّةِ؛ حيث أكمَلَ تعالى لهم دينَهم، فلا يحتاجونَ إلى دينٍ غَيرِه، ولا إلى نبيٍّ غيرِ نَبيِّهم- صَلواتُ اللهِ وسلامُه عليه؛ ولهذا جَعَله اللهُ خاتَمَ الأنبياءِ، وبعَثَه إلى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٣).
(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٨٤١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٠٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٥١).

الإنسِ والجِنِّ، فلا حلالَ إلَّا ما أحَلَّه، ولا حرامَ إلا ما حَرَّمه، ولا دِينَ إلا ما شَرَعه. وفيه بيانُ شرَفِ ذلك اليوم الذي أُكْمِلَ فيه الدِّينُ؛ لأنَّه لولا ذلك لم يكُن لقوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ فائدةٌ[١].

٨- في قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ بيانُ أنَّ الدِّين كاملٌ، فكل مُتكلِّف يزعُمُ أنَّه لا بدَّ للنَّاسِ- في مَعرفةِ عقائدِهم وأحكامِهم -مِن معرفةِ علومٍ غيرِ عِلم الكتابِ والسُّنة، من عِلم الكلامِ وغيره؛ فهو جاهلٌ، مُبطِلٌ في دعواه، قد زعَم أنَّ الدِّين لا يكمُل إلَّا بما قالَه ودعا إليه، وهذا من أعظمِ الظُّلم والتَّجهيلِ لله ولرسولِه[٢]، قال الإمامُ مالِكُ بنُ أنسٍ: (مَن أحدَثَ في هذه الأمَّةِ شيئًا لم يكُنْ عليه سَلَفُها؛ فقد زعم أنَّ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم خان الرِّسالةَ؛ لأنَّ اللهَ يقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾، فما لم يكُنْ يومَئذٍ دِينًا؛ فلا يكونُ اليومَ دِينًا)[٣].

٩- قوْلُه تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا﴾ فيه إشارةٌ لى أنَّ نَسْخَ الأحكامِ قد انتهى، وأنَّ هذا الدِّين دينٌ أبديٌّ؛ لأنَّ الشيءَ المختار المدَّخر لا يكونُ إلَّا أنْفَسَ ما أُظْهِرَ من الأديانِ، والأَنفَسُ لا يُبطِلُه شيءٌ؛ إذ ليس بعده غايةٌ[٤].

١٠- أفاد قولُه: ﴿فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ بعد قوله: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ حُكمًا شرعيًّا، وهو أنَّه تعالى غفَر للمضطرِّ الذنبَ بتناوُلِ هذا المحرَّم، ورحِمه بإباحتِه له، فالأحكامِ تؤخَذُ من أسماء الله عزَّ وجلَّ؛ لا سيَّما المتعدِّيَة، فلا بدَّ أن يكونَ لها أثرٌ، كما في قوله تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٥٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٠).
(٣) ينظر: ((الإحكام)) لابن حزم (٦/ ٥٨)، ((الاعتصام)) للشاطبي (١/ ٤٩٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٠٨).

أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٤] يعني: إذا تاب قُطَّاعُ الطريق قبل القُدرَةِ عليهم سقَطَ عنهم الحدُّ(١).

بلاغَةُ الآيَة:

١- قوله: ﴿وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾: خصَّ المنخنقةَ وما عُطِفَ عليها مِن الْمَيتاتِ بالذِّكر- مع كونِها داخلةً في عمومِ الْمَيتةِ بالمعنى الشَّرعي-؛ لأنَّ بعضَ العربِ في الجاهليَّةِ كانوا يأكلونَها، ولئلَّا يغترَّ أحدٌ باستباحةِ بعضِ أهلِ الجاهليَّةِ لها، ولئلَّا يشتَبِهَ فيها بعضُ النَّاسِ؛ لأنَّ لِمَوتها سببًا معروفًا(٢).

٢- قوْلُه تعالى: ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ... وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ ما ذُبِح على النُّصُبِ جزءٌ مِمَّا أُهِلَّ به لغيرِ اللهِ، لكن خُصَّ بالذِّكر بَعدَ جِنسِه؛ لشُهرةِ الأَمْرِ، وتَعظيمِ النُّفوسِ له(٣)، ولإزالة وَهمِ مَن توهَّم أنه قد يَحِلُّ بقصْدِ تعظيمِ البيتِ الحرامِ إذا لم يُذكَرِ اسمُ غيرِ اللهِ عليه(٤).

٣- قوله: ﴿ذَلِكُمْ فِسْقٌ﴾: اعتراضٌ وقَعَ بين آيةِ المحرَّماتِ المتقدِّمة، وبين آيةِ الرُّخصة الآتية: وهي قوله: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ﴾، وفائدتُه تأكيدُ معنى التحريمِ، وكذلك ما بعده ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ ...﴾؛ لأنَّ تحريمَ هذه الخبائِثِ من جُملة الدِّين الكامِلِ والنِّعمةِ التامَّة، والإسلامِ المنعوتِ بالرِّضا دونَ غيرِه من المِلَل(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٥٤- ٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ١١٤-١١٧-١٢٢).

وكانتِ العرب تعتقد أنَّ هذه الحوادثَ (الخنق والوقذ والتردي والنطح) على المأكول كالذَّكاة، وأنَّ الميتة ما ماتتْ بوجعٍ دون سببٍ يُعرف من هذه الأسباب. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطيَّة)) (٢/ ١٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ١٢٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٩٩).

٤- قوْلُه تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾ أفاد مفادَ صِيغةِ الحصر، ولو قيل: (فإيَّاي فاخشون) لجرَى على الأكثر في مقامِ الحَصْر، ولكن عدَل إلى جُملتَي نفيٍ وإثباتٍ؛ لأنَّ مفاد كِلتا الجملتينِ مقصودٌ، فلا يَحْسُن طيُّ إحداهما، وهذا من الدَّواعي الصَّارِفَة عن صيغةِ الحَصْر إلى الإتيان بصِيغتَيْ إثبات ونفي[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٠٢).

الآيتان (٤ - ٥)

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿الْجَوَارِحِ﴾: أي: الصَّوائِدِ أو الكَواسِبِ- كالكِلابِ والفُهودِ، والصُّقورِ وأشباهِها- وهي ما صِيدَ به من سِباعِ البَهائِمِ والطَّير، أو كِلابِ الصَّيد، وأصلُ الاجتراح: الاكتسابُ[1].

﴿مُكَلِّبِينَ﴾: أي: أصحابَ ضَوارٍ وكلابٍ، وَالمُكَلِّبُ: الذي يعلِّم الكلبَ، ويُقال: رجلٌ مُكلِّبٌ وكَلَّابٌ، أي: صاحبُ صيدٍ بالكِلابِ[2].

﴿الْمُحْصَنَاتُ﴾: ذواتُ الأزواجِ، والمحصناتُ أيضًا: الحرائرُ وإنْ لم يَكُنَّ مزوَّجاتٍ، والعفائفُ، فهي مُحْصَنَة، إما بعفَّتها، أو تزوُّجها، أو بمانعٍ مِن شَرَفِها وحُرِّيَّتِها، وأصلُ الحِصن: الحِفظُ والحِياطةُ والحِرز[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٩١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٣، ١٢٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني =

﴿مُحْصِنِينَ﴾: أي: متزوِّجين وأعفَّاءَ بالنِّكاحِ، وأصلُ الحِصن: الحِفظُ والحِياطةُ والحِرز[1].

﴿مُسَافِحِينَ﴾: جمْعُ مسافِح، وهو الزَّاني، أو المجاهِر بالزِّنا، الذي يَصبُّ ماءَه حيث اتُّفِق، مِن سَفَحْتُ القِربةَ: إذا صَببْتَها، وسُمِّي الزِّنا سفاحًا؛ لأنَّه يُسافَحُ فيه، أي: يَصُبُّ الرَّجلُ النُّطفةَ وتَصُبُّ المرأةُ النُّطفةَ، وأصل (سفح): يدلُّ على إراقةِ شيءٍ[2].

﴿أَخْدَانٍ﴾: جمْع خِدْن، وهو الزَّاني سرًّا، أو مُصاحِبٌ وصَديق، أو خليلٌ في السِّرِّ، ويُطلَقُ كذلك على الحبيبِ والرَّفيق، وأكثرُ ذلك يُستعملُ فيمَن يصاحبُ بشهوةٍ؛ يُقال: خِدْنُ المرأةِ وخَدينُها، وأصل (خدن): المصاحَبة[3].

﴿حَبِطَ﴾: أي: بطَلَ؛ فالحَبَط: البُطلانُ والألَم، وأصلُه: أن تُكثِرَ الدابَّةُ أكلًا حتى يَنتفخَ بطنُها فتموتَ[4].

= (١/ ٤٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٦٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٧)، ((الكليات)) للكفوي (١/ ٥٥).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٣)، (ص: ٨٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٢)، ((الكليات)) للكفوي (١/ ٥٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٧)، ((الكليات)) للكفوي (١/ ٨٧٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٨)، ((الكليات)) للكفوي (١/ ٦٥، ٤٣٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٦)، ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٣٣١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٦).

مُشكِلُ الإعرابِ:

﴿مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾.

﴿مُكَلِّبِينَ﴾: منصوبةٌ، حالٌ مِن فاعل ﴿عَلَّمْتُمْ﴾، والتَّقدير: علَّمتُم الجَوارِحَ حالَ كونِكم مُؤدِّبينَ ومدرِّبين ومُعوِّدينَ لها على كيفيَّة الصَّيدِ.

﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾: فعلٌ وفاعلٌ ومفعولٌ، والجملةُ مستأنفة لا محلَّ لها من الإعراب، أو تكون في محلِّ نَصْبٍ، على أنها حالٌ ثانيةٌ من فاعِل ﴿عَلَّمْتُمْ﴾، أو حالٌ من الضَّميرِ المستترِ في ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ فتكونُ حالًا من حالٍ، وتُسمَّى المتداخِلَةَ، وعلى كلا التقديرينِ فهي حالٌ مؤكِّدةٌ؛ لأنَّ معناها مفهومٌ مِن ﴿عَلَّمْتُمْ﴾ ومِن ﴿مُكَلِّبِينَ﴾[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى لنبيِّه محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: إنَّ أصحابَك يسألونَك عمَّا يُباحُ لهم أَكْلُه من الأطعمةِ، ثم أمَرَه أن يُجيبَهم: أنَّ اللهَ أحلَّ لهم أَكْلَ الطيِّباتِ، وأباحَ لهم أَكْلَ ما اصطادوه عن طريقِ ما يَصيدُ بنابِه أو مِخلَبِه من السِّباعِ والطُّيورِ، كالكِلاب والصُّقورِ، إذا عَلَّموها ودَرَّبوها على طريقةِ الصَّيد، يُعلِّمونها ممَّا امتنَّ اللهُ عليهم من العِلم بآدابِ الصَّيد، فلْيأكلوا ممَّا أمسكْنَه لأجْلِهم؛ ولْيَذكروا اسمَ الله عليها عندَ إرسالِها للصَّيد، ولْيتَّقوا اللهَ؛ فإنَّه سريعُ الحسابِ.

ثم أخبَرَ تعالى عن بعضِ مظاهرِ إسباغِ نِعمِه وإكمالِ دِينه، وتيسيرِ شَرعِه، ومن ذلك أنَّه سبحانه أحلَّ لهم التمتُّعَ بالطيِّباتِ، وأحلَّ لهم أكْلَ ذبائِحِ أهلِ

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢١٩)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٢٠٢-٢٠٣)، ((إعراب القرآن الكريم)) للدعَّاس (١/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٥٨).

الكِتاب من اليهودِ والنَّصارى، وأحلَّ لهم نِكاحَ الحرائرِ العفيفاتِ من المؤمناتِ، والحرائر العفيفاتِ من الكتابيَّات، إذا أعْطَوهُنَّ مُهورَهنَّ، في حالِ كونِ الأزواجِ مُحصِنين لهنَّ، غير مُعلِنين بالزِّنا، ولا متَّخذين عشيقاتٍ يُعاشرونهنَّ زِنًا في السرِّ، وأَخْبَرَ الله تعالى أنَّ مَن كفَر به، وكَفَر بما يجبُ الإيمانُ به؛ فقد حَبِطَ عمَلُه، وتوعَّده بأنَّه في الآخِرة من الهالِكينَ.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤)﴾.

مُناسبةُ الآية لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر تعالى ما حرَّمه في الآيةِ المتقدِّمةِ من الخبائثِ الضارَّة لمُتناوِلها- إمَّا في بدَنِه، أو في دِينه، أو فيهما- واستثنى ما استَثْناه في حالةِ الضرورةِ[1]- شرَع في بيانِ ما أحلَّه لهم[2]، فقال تعالى:

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾.

أي: يسألُكَ أصحابُك- يا محمَّد- ما الذي أُبيحَ لهم أكْلُه من الأطعِمَةِ[3]؟

﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾.

أي: قلْ يا محمَّدُ: أُبيحَ لكم أكْلُ الطيِّباتِ، وهي الحلالُ الذي أَذِنَ لكم ربُّكم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣١).
(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ١٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٥٥).

في أكْلِه من كلِّ ما فيه نفعٌ أو لذَّة، من غيرِ ضَررٍ بالبدنِ ولا بالعَقلِ(١).

﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾.

أي: وأُبيحَ لكم أيضًا أكْلُ ما اصطادَه لكم سِباعُ البَهائِم والطَّيرِ -كالكِلاب والصُّقور وغيرها- التي علَّمتموها؛ مُؤدِّبينَ لها ومُدرِّبين إيَّاها على كيفيَّةِ اقتناصِ الصَّيدِ(٢).

﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ﴾.

أي: تُؤدِّبون الجوارحَ، وتُدَرِّبونَهنَّ على طلبِ الصَّيدِ لكم، ممَّا منَّ الله تعالى به عليكم من العِلم بآدابِ الصَّيدِ، وذلك كأنْ يسترْسِلَ الجارحُ إذا أُرْسِلَ، ويَنزجرَ إذا زُجِرَ(٣).

﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾.

أي: فكُلوا- أيُّها الناس- ممَّا أمسكتْ جوارحُكم من الصَّيدِ لأجلِكم(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٩٩، ١٠٠، ١٠٦)، ((تفسير الواحدي)) (٢/ ١٥٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ١٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢-٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٥٧-٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ١٠٧، ١٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢-٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٥٨).

قال القرطبيُّ: (لا خِلافَ بين العلماء في شَرطينِ في التَّعليم، وهما: أن يأتمرَ إذا أُمِر، ويَنزجِر إذا زُجِر، لا خلافَ في هذين الشرطين في الكلاب وما في معناها من سِباع الوحوش، واختُلِفَ فيما يُصادُ به من الطَّير، فالمشهور أنَّ ذلك مَشترَطٌ فيها عند الجمهور) ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ١٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٥٨).

قال ابنُ كثيرٍ: (تلك الآيةُ: ﴿فكلوا مما أمسكن عليكم﴾ ليستْ على عمومِها بالإجماعِ، بل مخصوصةٌ بما صِدْن من الحيوانِ المأكولِ، وخرَج مِن عمومِ لفظِها الحيوانُ غيرُ المأكولِ =

﴿وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ﴾.

أي: واذكُروا اسمَ الله عندَ إرسالِ الجارِحِ[(١)].

عن عَدِيِّ بن حاتمٍ الطائيِّ رضي لله عنه، أنه قال: ((يا رسولَ اللهِ، إنِّي أُرسِلُ كَلبي وأُسَمِّي، فقال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: إذا أَرْسَلْتَ كلَبَك وسمَّيتَ، فأخَذ فقتَل فأكَل فلا تأكُلْ، فإنَّما أمسَك على نَفْسِه، قُلتُ: إني أُرْسِلُ كلبي فأجِدُ معَه كلبًا آخَرَ، لا أدري أيُّهما أخَذَه؟ فقال: لا تأكُلْ؛ فإنَّما سمَّيْتَ على كلبِكَ ولم تُسَمِّ على غيرِه))[(٢)].

﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾.

أي: امتثِلوا ما أمَرَكم اللهُ تعالى به، واجتنِبوا ما نهاكم عنه[(٣)].

= بالاتِّفاقِ) ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٠).

قال ابنُ عاشور: (وحرفُ (على) في قوله: ﴿مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ بمعنى لام التعليل، كما تقول: سُجن على الاعتداء، وضُرب الصبيُّ على الكذبِ) ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير الواحدي)) (٢/ ١٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١١٨).

الهاء في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ﴾ فيها ثلاثةُ أوجهٍ:

أحدُها: أنَّها تعودُ على (مَا عَلَّمْتُمْ)، أي: اذكروا اسمَ الله على الجوارحِ عندَ إرسالِها على الصَّيدِ، ودلَّت عليه السُّنَّة.

والثاني: أنَّها عائدةٌ على المصدرِ المفهومِ من الفعلِ، وهو الأكْلُ، كأنَّه قيل: واذكروا اسمَ الله على الأكلِ.

والثالثُ: أنَّها تعودُ على (ما أَمْسَكْنَ) أي: اذكروا اسم الله على ما أدركتم ذكاته مما أمسكته عليكم الجوارح.

يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٢٠٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٦١).

(٢) رواه البخاري (٥٤٨٦) واللفظ له، ومسلم (١٩٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ١٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٥٩).

﴿إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

أي: إنَّ الله سبحانه سريعُ الإحْصاءِ لأعمالِ عبادِه، سريعُ المجازاةِ لهم، يُحاسِبُ الخلائقَ يومَ القيامةِ على أعمالِهم في مدَّةٍ وجيزة جدًّا، وإن حسابَه عزَّ وجلَّ قريبٌ؛ لسرعةِ انقضاءِ الدُّنيا(١).

﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٥)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أخبَرَ الله تعالى في الآيَةِ المتقدِّمةِ أنَّه أحلَّ الطيِّباتِ، وكان المقصودُ من ذِكره الإخبارَ عن هذا الحُكم، ثم أعاد ذِكرَه في هذه الآيةِ، والغَرضُ من ذِكره أنَّه قال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ فبَيَّن أنَّه كما أكملَ الدِّينَ وأتَمَّ النِّعمةَ في كلِّ ما يَتعلَّق بالدِّين، فكذلك أتمَّ النِّعمةَ في كلِّ ما يتعلَّق بالدُّنيا(٢).

وأيضًا لَمَّا كان أهلُ الكتابِ في الأصل أهلَ توحيدٍ، ثم سَرَتْ إليهم نزَغاتُ الشِّركِ ممَّن دخَل في دِينهم من المشركين، ولم يُشدِّدوا في الفصلِ بينهم وبين ماضيهم، وكان هذا مَظِنَّةَ التشديدِ في مُؤاكلةِ أهلِ الكتابِ ومُناكَحتِهم، كما شدَّد في أكْلِ ذَبائحِ مشركي العربِ ونِكاح نسائِهم- بيَّن اللهُ في هذه الآيةِ ألَّا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ١٢٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٩٣).

نُعامِلَ أهلَ الكتابِ معاملةَ المشركينَ في ذلك، فأحلَّ لنا مؤاكلتَهم، ونِكاحَ نسائِهم[1]، فقال:

﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾.

أي: اليومَ أباح اللهُ تعالى لكم - أيُّها المؤمنون - الحلالَ من الذَّبائِحِ والأطعمةِ ممَّا ليس بضارٍّ ولا مُستقذَرٍ، دون الخبيثِ منها[2].

﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾.

أي: وذبائحُ أهلِ الكتابِ من اليهودِ والنَّصارى حلالٌ لكم - أيُّها المؤمنون - أكْلُها[3].

﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾.

أي: وذبائِحُكم - أيُّها المؤمنونَ - حلالٌ لليهودِ والنَّصارى؛ فلكم أن تُطْعِموهم مِن ذبائحِكم[4].

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ١٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١١٢-١١٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (١/ ٦٥-٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ١٢٩، ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (١/ ٦٦-٦٧).

قال ابنُ جزي: (وأما الطعامُ، فهو على ثلاثةِ أقسامٍ أحدُها: الذبائحُ، وقد اتَّفق العلماءُ على أنها مرادةٌ في الآيةِ) ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٢٢٣).

والدليلُ على أنَّ المرادَ بطعامِهم ذبائحُهم، أنَّ الطعامَ الذي ليس مِن الذَّبائحِ كالحبوبِ والثِّمارِ ليس لأهلِ الكتابِ فيه خصوصيَّة، بل يُباحُ ذلك ولو كان من طعامِ غيرِهم، وأيضًا فإنَّه أضافَ الطعامَ إليهم. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ١٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (١/ ٦٧).

أي: وأحلَّ لكم -أيُّها المؤمنون- نِكاحَ الحرائرِ العفيفاتِ من النِّساءِ المؤمناتِ(١).

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾.

أي: وأحلَّ لكم- أيُّها المؤمنون- أيضًا نِكاحَ الحرائرِ العفيفاتِ من نِساء اليهودِ والنَّصارى(٢).

﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾.

أي: إذا أعطيتُم مَن نكحتُم- من مُحصناتِكم ومُحصناتِهم- مُهورَهنَّ(٣).

﴿مُحْصِنِينَ﴾.

أي: حالةَ كونِكم مُحْصِنينَ لِنسائكم؛ بسببِ حِفظكم لفروجِكم عن غَيرِهنَّ، وعفَّتِكم عن الزِّنا(٤).

﴿غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾.

أي: ولستُم كذلك بالزُّناة المُعلِنين بالزِّنا، الذين يَزنون بأيِّ امرأةٍ كانت، ولا يردُّون أنفُسَهم عمَّن جاءَهم(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ١٣٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٢/ ١٢١-١٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ١٣٨-١٣٩، ١٤٦-١٤٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٢/ ١٢١-١٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢١-٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ١٣٩، ١٤٧-١٤٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٢/ ١٢١ - ١٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ١٤٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٢/ ١٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٦٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ١٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٦٩).

﴿وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾.

أي: ولا مِن ذوي العَشيقاتِ الذين لا يَفعلون الفاحشةَ إلَّا خُفيَةً معهنَّ(١).

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾.

أي: ومَن كفَر بالله تعالى وما يجبُ الإيمانُ به، فقد بطَلَ ثوابُ عملِه الذي كان يَعملُه في الدُّنيا، إنْ مات على كُفرِه(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

أي: وهو في الآخِرةِ من الهالِكين، الذين خَسِروا أنفُسَهم وأموالَهم وأهليهم يومَ القيامَةِ، وحصَلوا على الشَّقاوةِ الأبديَّة(٣).

الفوائد التربويَّة:

١- حِرصُ الصَّحابة رضي الله عنهم على العِلم؛ لقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾، ومِن هنا نَعرفُ أنَّ ما لم يَسألِ الصحابةُ عنه ممَّا يرِدُ السؤال عنه في عصرِنا من أمورِ الغيبِ، فالسؤال عنه بدعةٌ؛ لأنَّنا نعلم أنه لو كان هناك خيرٌ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ١٤٨-١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ١٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٧٠).

العلم به لألْهَم الله الصحابةَ أن يسألوا عنه؛ حتى يَتبيَّنَ الأمرُ(١).

٢- قولُ الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾ (تعلمونهنَّ) المقصود منه المبالغةُ في اشتراطِ التَّعليمِ، أي: أن يكون مَن يُعلِّم الجوارحَ نِحريرًا في عِلمه، مُدرَّبًا فيه، فقيهًا عالِمًا بالشَّرائط المعتبرَة في الشَّرع لحِلِّ الصيد، ففيه فائدةٌ جليلةٌ، وهي أنَّ على كلِّ طالبٍ لشيءٍ ألَّا يأخذَه إلَّا مِن أجَلِّ العلماءِ به، وأشدِّهم درايةً له، وأغوصِهم على لَطائِفِه(٢).

٣- قوْلُه تعالى: ﴿مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ﴾ فيه لفتةٌ قرآنيَّةٌ تُصوِّر أسلوبَ التربيةِ القرآنيَّ، وتَشي بطبيعةِ المنهجِ الحَكيم الذي لا يَدَعُ لحظةً تمرُّ، ولا مناسبةً تعرِض، حتى يُوقِظَ في القلبِ البشريِّ الإحساسَ بهذه الحقيقةِ الأولى: حقيقةِ أنَّ الله هو الذي أَعْطى كلَّ شيءٍ؛ هو الذي خلَق، وهو الذي عَلَّم، وهو الذي سخَّر، وإليه يَرجع الفضلُ كلُّه، في كلِّ حركةٍ وكلِّ كسْبٍ وكلِّ إمكان، يصِل إليه المخلوقُ(٣).

الفوائد العلميَّة واللَّطائف:

١ - يُستَفاد مِنْ قَوْلِه: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾ أنَّ التَّحليلَ والتحريمَ ليس إلى العِباد، بل هو إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، وقد حذَّرَنا اللهُ عزَّ وجلَّ من أن نُحلِّل أو نحرِّم بأهوائِنا، فقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ﴾ [النحل: ١١٦]، وأنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم لا يستقلُّ بالتحليلِ أو التَّحريمِ، وجه ذلك: أنَّ الرسولَ لم يُجِبْهم،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٩٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٨١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢٢)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٥٥).

(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٨٤٧).

ولكنَّ الله تعالى أجابَهم، فقال: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾(١).

٢- أنَّ كلَّ ما أحلَّه اللهُ تعالى فهو طيِّب؛ نافعٌ للبَدَن ونافعٌ للقلب، ونافعٌ للفَرْد ونافعٌ للمجتمع؛ لقوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ وأيضًا نأخُذ من المفهومِ أنَّ كلَّ ما حرَّمه الله تعالى فهو خبيثٌ(٢).

٣- قول الله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ نصٌّ في هذه الآيةِ ونظائِرِها على إباحةِ المستلذَّات والطيِّبات، فصار هذا أصلًا كبيرًا، وقانونًا مرجوعًا إليه في معرفةِ ما يَحِلُّ ويَحرُم من الأطعمةِ؛ فالطيِّباتُ وصفٌ للأطعمة قُرِن به حُكمُ التحليلِ؛ فدلَّ على أنَّ الطيِّبَ علَّةُ التحليلِ، وأفاد أنَّ الحرامَ ضدُّه، وهو الخبائثُ(٣).

٤- في قوله تعالى: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ﴾ لُطفُ اللهِ بعباده ورَحمتُه بهم؛ حيث وسَّعَ عليهم طُرُقَ الحلالِ(٤).

٥- جوازُ اقتناءِ كَلب الصَّيدِ، مع أنَّ اقتناءَ الكلب مُحرَّمٌ؛ لأنَّ مِن لازِمِ إباحةِ صَيده وتَعليمِه جوازَ اقتنائِه، وطهارةَ ما أصابه فمُ الكلْبِ من الصَّيد؛ لأنَّ الله أباحه ولم يذكُرْ له غَسلًا؛ فدلَّ على طهارَتِه؛ قال تعالى: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ﴾(٥).

٦- في قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ فضيلةُ العِلم، وأنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٦٠-٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الجارِحَ المـُعلَّم- بسبب العِلم- يُباحُ صيدُه، والجاهل بالتَّعليمِ لا يُباح صيدُه(١).

٧- أنَّ الاشتغالَ بتعليمِ الكلبِ أو الطَّيرِ أو نحوهما، ليس مذمومًا، وليس من العبَثِ والباطِلِ، بل هو أمرٌ مقصودٌ؛ لأنَّه وسيلةٌ لحِلِّ صيدِه والانتفاع به، يُؤخَذ ذلك مِنْ قَوْلِه تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ﴾(٢).

٨- قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ الجوارحُ يَدخُل فيها كلُّ ما يُمكنُ الاصطيادُ به، كالفهدِ والسِّباعِ والعُقابِ والصَّقرِ وغيرِها؛ فهذه كلُّها جوارحُ، وإنَّما عبَّر بقوله: ﴿مُكَلِّبِينَ﴾؛ لأنَّ المكلِّبَ هو مُؤدِّبُ الجوارحِ ومُعلِّمُها أنْ تصطادَ لصاحبِها، وأصلُ (كلب) يدلُّ على تَعلُّقِ الشَّيءِ بالشَّيءِ في شِدَّةٍ وشِدَّةِ جَذْبٍ، ومِن ذلك: الكَلْبُ. وإنما اشتُقَّ اسمُ (مُكلِّبين) مِن الكَلْبِ؛ لأنَّ التأديبَ أكثرُ ما يكونُ في الكِلاب؛ فاشتُقَّ منه هذا اللفظُ لكثرتِه في جِنسِه. وأيضًا لأنَّ كلَّ سَبُع فإنَّه يُسمَّى كلبًا. أو يكون قوله: ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ مأخوذًا مِن الكَلَب الذي هو بمعنى الضَّراوةِ والحِرص على الشيء، ولو فُرِض أنَّ المذكور في هذه الآية إباحةُ الصيدِ بالكلْبِ فقط؛ فتخصيصُه بالذِّكرِ لا يَنفي حِلَّ غيره؛ بدليلِ أنَّ الاصطيادَ بالرَّمْي ووضْعِ الشَّبكةِ جائزٌ، وهو غيرُ مذكورٍ في الآيةِ(٣).

٩- قطعُ ما يُوجِبُ الإعجابَ بالنَّفْس؛ لأنَّ قوله: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾ فيه إسنادُ التعليمِ إلى البَشرِ، فقدْ يُزهَى الإنسانُ بنفْسِه ويغترُّ ويُعجَب؛ فلهذا قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ عِلمَك الذي تُعلِّمه إيَّاهنَّ مَصدُره مِن

---

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٩١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٢٠٢- ٢٠٣)، ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٢٠٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ١٤١). وينظر أيضًا: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٣٣- ١٣٤).

عندِ الله عزَّ وجلَّ(١).

١٠- قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ﴾، فيه توسعةُ الله عزَّ وجلَّ على عبادِه في أسبابِ الرِّزقِ، فقد رَخَّص في الصيد بالجارحةِ؛ لأنَّه يشقُّ على الإنسانِ أن يصطادَ الصيدَ بنفسِه في كلِّ وقتٍ وحينٍ؛ لأنَّ المصيدَ ربَّما يكون مَثلًا في جبالٍ أو في سهولٍ أو في أوديةٍ، ولا يستطيعُ أن يَصيدَه بنفسِه(٢).

١١- أنَّه يجوزُ أكْلُ ما صادَه الجارحُ، سواء قتَلَه الجارحُ أم لا، قال سبحانه: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾، وإنْ أدركَه صاحِبُه، وفيه حياةٌ مستقرَّة، فإنَّه لا يُباحُ إلَّا بتذكيتِه(٣).

١٢- في قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ...﴾ الآية، تَظهرُ صفحةٌ من صفحاتِ السَّماحة الإسلاميَّة في التعامُلِ مع غيرِ المسلمين، ممَّن يعيشون في المجتمعِ الإسلاميِّ (في دار الإسلام)، أو تربطهم به روابطُ الذِّمَّة والعهدِ من أهل الكتاب؛ حيث إنَّ الإسلامَ لا يَكتفي بأن يترُكَ لهم حريَّتَهم الدِّينيَّة ثم يعتزِلهم، بل يجعل طعامَهم حِلًّا للمسلمين، وطعامَ المسلمين حِلًّا لهم كذلك(٤).

١٣- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾ أنَّ الأصلَ في الأطعمَةِ الحِلُّ، ومن الأدلَّة أيضًا قولُه تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، فالأصلُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٦٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٦٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢١).
(٤) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٨٤٨).

الحِلُّ، ومَن ادَّعى في شيءٍ التحريمَ لزِمَه الدليلُ على ذلك(١).

١٤- أنَّ مَن سِوى اليهودِ والنَّصارى لا تَحِلُّ ذَبيحتُهم؛ كالمجوسِ والوثنيِّين والشيوعيِّين والمشركينَ ومَن أشبَهَهم؛ يُؤخَذُ ذلِك من مفهومِ قولِه: ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾(٢).

١٥- حِلُّ المحصَنات من أهلِ الكتابِ كحِلِّ المحصَناتِ من المؤمنات؛ لأنَّ الله قال: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾؛ فالله يُبيِّن أنَّ المحْصَناتِ من المؤمناتِ والمحصناتِ من الذين أُوتُوا الكتابَ سواءٌ في الحِلِّ، ولكنْ لا يلزَمْ من تساويهنَّ في الحِلِّ أن يتساوَيْنَ في الإقدامِ عليهنَّ، قد يكون الشيءُ حلالًا، ولكن نقول: الأفضلُ ألَّا تُقْدِمَ عليه(٣).

١٦- أنَّ المهرَ بمنزلةِ الأُجرةِ؛ لقوله: ﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾(٤)، وتقييدُ الحِلِّ بإيتاءِ الأُجورِ؛ لتأكيدِ وُجوبِها، والحثُّ على ما هُوَ الأَوْلى(٥).

١٧- أنَّ المقصودَ الأعظمَ من النِّكاح هو الإحصانُ؛ لقوله: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ١٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ١٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٧٧).

والإحصانُ قيدٌ لازمٌ، وتحقُّقه لاسيَّما في المجتمعاتِ الغربيةِ الكافرةِ عسيرٌ؛ لما عُلم مِن حالِهم، وشيوعِ الفاحشةِ فيهم.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٨٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٨١).

١٨- الإشارةُ إلى أنَّه يَنبغِي إعلانُ النِّكاحِ؛ لأنَّه قال: ﴿غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾، والأَخدانُ الأخلَّاءُ في السِّرِّ[١].

١٩- أنَّ الاستمتاعَ بالنِّساءِ ينقسِمُ إلى أقسامٍ في قوله: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾: تحصين، وسِفاح، واتِّخاذ أخدان، والفرقُ بينها: أنَّ الأوَّل: عَقْد شرعيٌّ، والثاني: زِنًا مُعلَن، والثالث: زِنًا سِرِّيٌّ[٢].

٢٠- يُستَفاد مِنْ قَوْلِه: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾، ومِنْ قَوْلِه: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ طهارةُ بدَنِ الكافر؛ لأنَّه لا بدَّ أن يلامسَ الطَّعامَ، وأيضًا في النِّكاحِ لا بدَّ أن يكونَ مِنَ الزَّوجِ مع زوجته الكتابيَّة ما يَقتضي التنجيسَ لو كانت نجِسةً، وفي الآيةِ أيضًا دليلٌ على أنَّ آنيتَهم طاهرةٌ، إلَّا ما عُلِم نجاستُه منها؛ كأواني المسلمين[٣].

٢١- أنَّ الإماءَ مِن أهل الكتابِ لا يُبَاح للمسلمِ الزواجُ بهنَّ ولو خاف العنَتَ؛ دليله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾، أمَّا الإماءُ من المؤمنات فيحلُّ للمسلمِ الزواجُ بهنَّ عند الضَّرورةِ على حسَب ما ورد في سورة النساءِ مِنْ قَوْلِه: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾[٤] [النساء: ٢٥].

٢٢- قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ جملةٌ معترِضَةٌ بين الجُمل، والمقصود التنبيهُ على أنَّ إباحةَ تزوُّجِ نِساءِ أهلِ الكتابِ لا يَقتضي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٨١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٢١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٨١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٨٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٢١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٨٣).

تزكيةً لحالِهم[١].

٢٣- قولُ الله تعالى: ﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ تسميةُ المهرِ بالأجْرِ يدلُّ على أنَّ الصَّداقَ لا يَتقدَّرُ، كما أنَّ أقلَّ الأجرِ لا يتقدَّر في الإجاراتِ[٢].

٢٤- ذَكَر الله تعالى حِلَّ المُحصَنات من المؤمناتِ في أثناءِ إباحةِ طعامِ أهلِ الكتاب وإباحةِ تزوُّجِ نسائهم فقال: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾؛ إيماءً إلى أنهنَّ أَوْلى بالمؤمنينَ من مُحصَناتِ أهلِ الكِتاب[٣].

بلاغةُ الآيتين:

١- قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾: عبَّر بالمضارِعِ في قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾؛ للدَّلالةِ على تجدُّد السُّؤالِ، أي: تكرُّره، أو توقُّع تكرُّره[٤].

٢- قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾:

- تذييلٌ عامٌّ خُتمت به آية الصَّيد، وهو عامُّ المناسَبة[٥].

- وقوله: ﴿إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ جملة خبريَّة مؤكَّدة بـ﴿إِنَّ﴾، والغرضُ منها التخويفُ من اجتنابِ التقوى، وأنَّ مَن لم يتَّقِ الله، فـ﴿إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي: إنَّ الله تعالى سيُحاسِبكم على أعمالِكم، وقوله: ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يتضمَّن سُرعةَ التنفيذِ من وجهٍ، وسرعةَ الوقتِ من وجهٍ آخَرَ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٢٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٨٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٢٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ١١٠).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ١١٨).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ١٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٥٩).

- وإظهارُ الاسمِ الجليلِ (الله) في موقعِ الإضمار؛ لتربيةِ المهابة، وتعليلِ الحُكمِ[1].

٣- قوله: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾: فيه تَكرارُ (اليوم) للتأكيدِ، وهذا بناءً على أنَّ المرادَ بالأيَّامِ الثلاثةِ وقتٌ واحدٌ[2]، وفائدةُ إعادةِ ذِكر إحلالِ الطيِّباتِ: التنبيهُ بإتمامِ النِّعمةِ فيما يَتعلَّق بالدُّنيا[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٨٢).

(٣) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

الآية (٦)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿الْمَرَافِقِ﴾: جمْع مِرْفَق، وهو مَوْصِلُ الذِّراعِ في العَضُد، وسُمِّي مِرفقًا؛ لأنَّه يُستراحُ في الاتِّكاءِ عليه؛ يُقال: ارتفق الرَّجُل: إذا اتَّكأ على مِرفقِه في جُلوسِه(١).

﴿جُنُبًا﴾: أي: إنْ أصابتْكم الجَنابة؛ سُمِّيت الجنابةُ بذلك؛ لكونِها سببًا لتجنُّب الصلاةِ في حُكم الشَّرعِ، وأصل (جنب): البُعد(٢).

﴿الْغَائِطِ﴾: هو كنايةٌ عن قَضاءِ الحاجةِ؛ والغائطُ المطمئِنُّ من الأرضِ، وجُعِلَ كنايةً عن قضاءِ الحاجةِ؛ لأنَّهم كانوا إذا أرادوا قَضاءَ الحاجةِ أتَوْا غائطًا من الأرضِ، ففَعلوا ذلِك فيه؛ فقِيل لكلِّ مَن قضَى حاجتَه: مُتغوِّط، وأُطْلِقَ الغائطُ على العَذِرَة نفْسِها. وأصْل (غوط): يدلُّ على اطمئنانٍ وغورٍ(٣).

﴿فَتَيَمَّمُوا﴾: اقصِدوا وتَعمَّدوا، وأصلُ التيمُّم: قَصْدُ الشيء وتعمُّده(٤).

---

(١) يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٤/ ١٤٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤١٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٣٤٩)، ((الصحاح)) للجوهري (٣/ ١١٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠) =

﴿صَعِيدًا﴾: ترابًا، والصَّعيد: الغُبار الذي يَصعَد؛ من الصُّعود، ويُطلق أيضًا على وجْه الأرض[(١)].

﴿حَرَجٍ﴾: أي: ضِيق وإثم، وأصل الحرَج: تجمُّع الشيء وضيقُه[(٢)].

مُشْكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾: قُرِئ بالنَّصب والجرِّ؛ فعلى قِراءةِ النَّصْب تكون معطوفةً على الوجوه والأيدي في ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾؛ أي: فاغْسلوا وجوهَكم وأيديَكم وأرجلَكم. وقيل: هي معطوفةٌ على موضِع ﴿بِرُؤُوسِكُمْ﴾، والأوَّل أقوى؛ لأنَّ العطفَ على اللفظ أقوى من العَطف على الموضِع. وأمَّا على قِراءة الجرِّ- وهي مشهورةٌ كشهرة النَّصب- فإنَّها تُعرَب على الجوارِ؛ فتكون معطوفةً على ﴿بِرُؤُوسِكُمْ﴾ في الإعرابِ، والحُكم مختلفٌ؛ فالرؤوسُ ممسوحةٌ، والأرجلُ مغسولةٌ، ويُمكِنُ أنْ تكونَ مَعطوفةً على ﴿بِرُؤُوسِكُمْ﴾ لفظًا ومعنًى، أي: إعرابًا وحُكمًا، ويُحمَل مَسْحُ الأَرْجُلِ على بَعضِ الأحوالِ، وهو لُبْسُ الخُفِّ، وقيل غيرُ ذلك[(٣)].

المعنى الإجماليُّ:

يَأمُر اللهُ تعالى عِبادَه المؤمنين إذا أرادوا القيامَ إلى الصَّلاةِ أن يَغسِلوا

= (٦/ ١٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٩٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٩).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٢٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٦٧).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢١٩)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٢٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٢٠٩ : ٢١٦)، ((إعراب القرآن الكريم)) للدعاس (١/ ٢٤٤).

وجوهَهم، وأيديَهم من أطرافِ الأصابعِ إلى المِرفقين، وأن يَمْسحوا جميعَ الرأسِ، ويَغسِلوا أرجلَهم مِن أطرافِ الأصابعِ إلى الكَعبينِ، ويأمُرهم سبحانه- إنْ أصابتْهم جَنابةٌ- أن يَغتسِلوا إذا ما أرادوا القيامَ إلى الصَّلاة، وإنْ كانوا مَرْضَى يتعذَّرُ عليهم استعمالُ الماء، أو مُسافرين، أو قَضَى أحدهم حاجتَه من بولٍ أو غائط، أو لامَس النِّساءَ، ولم يجدْ ماءً لِيتطهَّرَ به، فلْيقصدْ وجهَ الأرضِ الطاهرَ النَّظيفَ، ولْيَمْسح منه وجهَه وكفَّيه، ثم أخبر تعالى أنَّه شرَع هذه الأحكامَ حتى لا يجعلَ الناسَ في عُسرٍ وحَرَجٍ، فالله سبحانه يُريد أن يُطهِّر عبادَه ظاهرًا بما شرَعه من الوضوءِ والغُسل والتيمُّم، وباطنًا بتكفيرِ السيِّئات، ويُريدُ سبحانه أن يُتِمَّ نِعمتَه على عبادِه بإكمالِ الشَّرائعِ، وتسهيلها عليهم؛ لعلَّهم يَشْكُرونَه على ذلِك.

تفسير الآية:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا افتتَح اللهُ تعالى السُّورةَ بالأمْرِ بإيفاءِ العهودِ، وذكَر تحليلًا وتحريمًا في المطعَمِ والمنكَحِ، واستقصى ذلك، وكان النوعانِ معاملاتٍ دُنيويَّةً بين النَّاس بعضِهم من بعضٍ، استطرَد منها إلى المعاملاتِ الأُخرويَّة التي هي بين العبدِ وربِّه سبحانه وتعالى، ولَمَّا كان أفضلُ الطاعاتِ بعد الإيمانِ الصَّلاةَ، والصلاةُ لا تُمكن إلَّا بالطَّهارةِ، بدأَ بالطَّهارةِ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٩٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٨٧).

وأيضًا قد افتتَحَ الله سبحانه السورةَ بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾؛ والعهد نوعان: عهدُ الربوبيَّةِ من الله، وعهد العبوديَّة من العباد، فقدَّم الوفاءَ بعهد الربوبيَّة والكَرَم، ولَمَّا كانت منافِعُ الدُّنيا محصورةً في نوعينِ: لذَّات المطعم، ولذات المنكَح، فاستقصى سبحانَه في بيان ما يَحِلُّ ويَحرُم من المطاعِم والمناكِحِ، ولَمَّا كانت الحاجةُ إلى المطعومِ فوقَ الحاجَةِ إلى المنكوحِ، لا جرَم قدَّمَ بيانَ المطعوم على المنكوح، وعندَ تمامِ البيان كأنَّه يقول: قد وفيتُ بعهدِ الربوبيَّة فيما يُطلَب في الدُّنيا من المنافِعِ واللذَّات، فاشتغِلْ أنت في الدُّنيا بالوفاءِ بعهدِ العبوديَّة، فلمَّا كان أعظمُ الطَّاعاتِ بعد الإيمان الصلاةَ، ولا يمكن إقامتُها إلَّا بالطَّهارةِ لا جرَم بدأ الله تعالى بذِكر شرائِطِ الوضوء[1].

وأيضًا لَمَّا ذَكَرَ ما يتعلَّق بالمطعَم والمنكَح، وكان الحَدَثان (الأصغر والأكبر) اللَّذان هما سببُ الطَّهارتين هما أثَرُ الطَّعامِ والنِّكاحِ، فلولا الطعامُ لَمَا كان الغائطُ الموجِبُ للوضوء، ولولا النكاحُ لَمَا كانت ملامسةُ النِّساءِ الموجِبة للغُسل[2]؛ لذا قال سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنونَ، إذا أردتُم القيامَ إلى الصَّلاةِ[3].

﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٩٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ١٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) ٢/ ٤٣-٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٨٥).

قال ابنُ كثير: (قال آخَرون:... الآية آمرةٌ بالوضوء عند القيام إلى الصَّلاة، ولكن هو في حقِّ المُحدِث على سبيل الإيجاب، وفي حقِّ المتطهِّر على سبيل النَّدبِ والاستحباب) ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣).

أي: فاغْسلوا الوجهَ، وهو ما تحصُلُ به المواجهةُ، من مَنابِتِ شَعرِ الرَّأس المعتاد، إلى ما انحدَر من اللَّحيينِ والذَّقن طولًا، ومِن الأُذُنِ إلى الأُذُن عَرضًا(١).

﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾.

أي: واغْسِلوا اليدَ كاملةً مِن أطرافِ الأصابعِ إلى المِرفَقِ- وهو مِفْصلُ العَضُد مِن الذِّراع- مع غَسْلِه(٢).

﴿وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ﴾.

أي: وامْسَحوا جميعَ الرأسِ(٣).

عن عبدِ اللهِ بنِ زيدٍ رضي الله عنه، أنَّه قال في وصْفِ وُضوءِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((... ثم مَسَحَ رأسَه بيدَيه، فأَقبلَ بهما وأَدْبرَ، بدَأ بمُقَدَّمِ رأسِه حتى ذهبَ بهما إلى قَفاه، ثم ردَّهُما إلى المكانِ الذي بدَأَ منه...))(٤).

﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ١٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٨٧-٨٨).
قال السعديُّ: (ويَدخُل فيه المضمضةُ والاستنشاقُ بالسُّنَّة، ويدخل فيه الشعورُ التي فيه، لكن إنْ كانت خفيفةً فلا بدَّ من إيصال الماءِ إلى البَشَرة، وإنْ كانت كثيفةً اكتُفي بظاهرها) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) ٢/ ٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٨٨-٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) ٢/ ٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٨٩).
قال ابن عثيمين: (يدخل في ذلك الأُذنان؛ أولًا: لأنَّ الاشتقاق يدلُّ على دخولهما، وثانيًا: أنه ثبَت عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ أنَّه كان يمسح بأُذنيه) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٩٠).

(٤) رواه البخاري (١٨٥) واللفظ له، ومسلم (٢٣٥).

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قوله تعالى: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ قراءتان:

١- قِراءةُ ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ بالنَّصب عطفًا على الوُجُوهِ والأيدي في قولِه تعالى: ﴿اغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾؛ فالواجبُ غَسلُها إذا كانت مكشوفةً[١].

٢- قراءة ﴿وَأَرْجُلِكُمْ﴾ بالجرِّ عطفًا على (رُؤُوسِكم) في قوله تعالى: ﴿وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ﴾، والمسحُ في كلامِ العَرَبِ يكون غسلًا، ويكون مَسحًا باليَدِ، والأخبارُ جاءت بغَسْلِ الأَرْجُلِ ومَسْحِ الرُّؤُوسِ، أو يكون الخفضُ حَمْلًا على العَامِلِ الأَقْرَبِ للجِوَارِ، ومِن أَهْلِ العِلْمِ مَن حَمَلَ قراءةَ الجرِّ على مَسْحِ القَدَمينِ إذا كان عليهما الخُفَّانِ[٢].

﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾.

أي: واغْسِلوا الرِّجلَ كاملةً من أطرافِ الأصابعِ إلى الكَعب- وهو العَظْمُ الناتئُ عند مِفصَل السَّاق والقَدَم- مع غَسْله، إذا كانت مكشوفةً، وامسحوا على الخُفِّ إذا كانت مستورةً به[٣].

---

(١) قرأ بها: نافعٌ، وابن عامر، والكسائيُّ وحفص ويعقوب. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٢٣). ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٢٦)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٢١، ٢٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٩١).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٢٣).

ويُنظر لمعنى هذه القِراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٢٦)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٢١، ٢٢٣)، ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٩)، ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥١-٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٩٠-٩١).

﴿وَإِنْ كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾.

أي: وإنْ أصابتْكم جنابةٌ فاغتسلوا قبل أن تَقوموا إلى الصَّلاةِ[١].

﴿وَإِنْ كُنتُمْ مَرْضَى﴾.

أي: وإنْ كُنتم ذَوي مَرَضٍ، يتعذَّرُ معه استعمالُ الماءِ[٢].

﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾.

أي: وإنْ كُنتم مسافرينَ[٣].

﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾.

أي: أو كنتُم مُحْدِثينَ؛ الحدَثَ الأصغرَ[٤].

﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾.

أي: أو جامعتُم النِّساءَ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٩١-٩٢).

قال ابن عثيمين: (الجنب من أنزل مَنِيًّا، وألحقت السُّنة به مَن جامع وإن لم يُنزِل) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢١٣)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٢/ ١٤)، ((تفسير القاسمي)) (٣/ ١٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٩٣-٩٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٩)، (٢/ ٣١٤-٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٣).

وممَّن اختار أنَّه الجماع: ابن جرير في ((تفسيره)) (٨/ ٢١٣).

وممَّن قال بهذا القولِ من السَّلف وهو أنَّه الجِماع: ابن عباس، وعليٌّ، وأُبيُّ بن كعب، ومجاهد، وطاوس، والحسن، وعُبَيد بن عُمَير، وسعيد بن جُبَير، والشَّعبي، وقَتادة، ومقاتل بن حيَّان. ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٤)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٣/ ٩٦١). =

﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾.

أي: إنْ حصَلَتْ إحدى الحالاتِ السَّابقِ ذِكرُها- كالسَّفرِ- ففقدتُم الماءَ، فعليكم بقَصدِ وجهِ الأرضِ الطَّاهرِ النَّظيفِ(١).

﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾.

أي: فامْسَحوا مِن هذا الصَّعيدِ الطيِّبِ الوجهَ والكفَّينِ(٢).

﴿مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾.

أي: لا يُريدُ الله تعالى بما فرَض عليكم من هذه الأحكامِ أن تَقَعُوا في الضِّيقِ والعُسرِ(٣).

﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾.

أي: ولكنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يُريد أن يُطهِّركم بما فرَض عليكم من وضوءٍ أو غُسلٍ أو تيمُّمٍ، فتتطهَّروا ظاهرًا طهارةً حسيَّة لأبدانِكم، وتتطهَّروا طهارةً معنويَّةً بتكفيرِ سيِّئاتِكم، ومَحوِ خطيئاتِكم(٤).

= وقيل المراد بقوله: ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾: كُلُّ لَمسٍ باليدِ أو بغيرِها

وممَّن اختار أنَّه اللمس باليدِ: الواحديُّ في ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٥٨).

وممَّن قال بهذا القول من السَّلف أنه ما دون الجماع: عبد الله بن مسعود، وابن عمر، وعَبيدة، وأبو عُثمان النَّهدي، وأبو عُبَيدة، والشَّعبي، وثابت بن الحجَّاج، وإبراهيم النخعي، وزيد بن أسلم، وعطاء، والحَكَم، وحمَّاد. ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٩٦١)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٣/ ٩٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢١٤-٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٣-٢٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٩٥-٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٩٦-٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٩٧).

﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾.

أي: ويُريد ربُّكم سبحانه أيضًا إتمامَ نِعمَتِه عليكم ببيانِ شرائِعِ دِينه، وتيسيرها لعِبادِه[١].

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

أي: كي تَشكُروا الله تعالى- بقلوبِكم وألسنتِكم وجوارِحِكم- على نِعَمِه عليكم[٢].

الفوائد التربويَّة:

١- أنَّ الطَّهارةَ من مُقتضياتِ الإيمانِ؛ كأنَّه قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لإيمانِكم افعلوا كذا وكذا؛ ومِن ثَمَّ فإنَّ الإيمانَ يَزيد بالطَّهارةِ، وضوءًا كانتْ أو غُسلًا أو تيمُّمًا؛ لأنَّها إذا كانت من مُقتضياتِه لَزِم أن يَزيدَ بزيادتِها، ويَنقُصَ بنُقصانها، وأنَّ الإخلالَ بها منافٍ لكمالِ الإيمانِ[٣].

٢- التَّكنِيَة عمَّا يُستقبحُ ذِكرُه؛ لقولِه: ﴿مِنَ الْغَائِطِ﴾ وقوله: ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾[٤].

٣- الإشارةُ إلى أنَّه يَنبغي لقاضي الحاجةِ أن يَستترَ حتى يتوارى عن النَّاسِ؛ وجهُه قوله تعالى: ﴿مِنَ الْغَائِطِ﴾، فالغائط هو المكان المطمَئِنُّ الهابطُ من الأرض، كانوا ينتابونه لقضاءِ الحاجة، ليستتروا به عن النَّاس[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢١٨-٢١٩)، ((تفسير الواحدي)) (٢/ ١٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٩٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٢٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٢٧).

٤- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ وفي قراءةٍ أخرى ﴿وَأَرْجُلِكُمْ﴾ بالكسرِ، أنَّها جُرَّتْ مُنَبِّهَةً على عدمِ الإسرافِ باستعمالِ الماء؛ لأنَّها مظنَّةٌ لصبِّ الماءِ كثيرًا، فعُطِفَتْ على الممسوح؛ لا لتُمْسَحَ، ولكِنْ لِيُنَبَّهَ على وجوبِ الاقتصادِ في صبِّ الماءِ عليها؛ وأنَّ مِن سُنَنِ الوضوءِ الاقتصادَ في الماء(١).

٥- التَّرغيبُ في التَّزكيةِ والتطهيرِ؛ يُرشِدُ إلى ذلك قولُه تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾، أي: يُكْمِلَ نِعمةَ الإسلام بزِيادَةِ أحكامِه الرَّاجِعَة إلى التَّزكيةِ والتَّطهيرِ(٢).

الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف:

١- وجوبُ استيعابِ الوَجْهِ بالغَسْلِ؛ لقوله: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾(٣).

٢- وجوب غَسلِ الأيدي من أطرافِ الأصابعِ إلى المرافقِ؛ لقوله: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾(٤).

٣- وجوبُ غَسلِ الرِّجل إلى الكَعبينِ، والكعبانِ داخلانِ في الغَسْل؛ لقوله: ﴿إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾(٥).

٤- قولُ الله تعالى: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦١١)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ١٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٠٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١١٢).

بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ الفصلُ بالمسحِ بين المغسولاتِ مُعْلِمٌ بوجوبِ الترتيبِ[١].

٥- التَّثليثُ في أعمالِ الوضوءِ سُنَّةٌ لا واجب، إنَّما الواجب هو المرَّة الواحدةُ، والدَّليلُ عليه أنَّه تعالى أَمَر بالغَسْل، فقال: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾ وماهيَّةُ الغسل تَدخُل في الوجودِ بالمرَّةِ الواحدةِ[٢].

٦- حِكمةُ الشَّرع في التَّطهيرِ؛ حيث كان الاقتصارُ على أربعةِ أعضاءٍ في الحدَثِ الأصغَرِ؛ لأنَّ هذه الأعضاءَ هي غالبًا أدواتُ العَمَل وآلاتُ العمل، فالبَطشُ باليد، والمشيُ بالرِّجْل، والبَصرُ والشمُّ والكلامُ في الوجه، والسَّمعُ والتخيُّل والتفكيرُ في الرَّأس، فشُرع تطهيرُ هذه الأعضاء الأربعة؛ أمَّا في الجنابة فشُرِعَ للإنسانَ أنْ يُطهِّرَ جميعَ بدنه؛ وذلك لأنَّ الجَنابة تُخلخِلُ البدنَ كلَّه، ولهذا يَضعُف الإنسانُ إذا حصَلت منه الجَنابةُ، ويُؤمَرُ إذا أراد أن يعودَ أن يغتسلَ فإنْ لم يُمْكِنْه فليتوضَّأ[٣].

٧- في قوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾: جاء المخاطَب جماعة، والخبر بصِيغة الإفراد؛ حيث لم يقُل: (إن كنتم جُنُبِين)، بل قال: ﴿جُنُبًا﴾؛ لأنَّ كلمة (جنب) في اللُّغة الفصحى يستوي فيها المفردُ والاثنان والجَماعةُ[٤].

٨- في قوله تعالى: ﴿فَاطَّهَّرُوا﴾ أنَّ الغُسْلَ لجميعِ البَدن؛ لأنَّه أطْلَقَ ولم يخصَّ الأعضاءَ كما في الوضوء[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٣٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣٠٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٢٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٩١).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣٠٨)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٥٨).

٩- أنَّه لا يُشترَط في الغُسل ترتيبٌ، وأنَّ المغتَسِل لو بدأَ مِن أسفلِ بدنِه أو مِن وَسَط بَدَنِه أو من أعلى بَدَنِه وعمَّه بالماءِ؛ كان ذلك مُجزئًا؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَاطَّهَّرُوا﴾ ولم يُفَصِّلْ(١).

١٠- أنَّ غُسْلَ الجَنابة تُستباحُ به الصَّلاة، وأنَّه لا يجبُ الوضوءُ معه؛ وجهُ الدَّلالة: أنَّ الله قال: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾، ولم يذكر وضوءًا حتى لو لم يَنوِ إلَّا رَفْعَ الحدَث الأكبرِ، فإنَّه يُجزِئه؛ لعمومِ الآية(٢).

١١- أنَّ التيمُّم جائزٌ في الحدَثِ الأصغر وفي الحَدَثِ الأكبر؛ لأنَّ الآيَةَ واضحةٌ؛ قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾، ثم قال: ﴿عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا﴾ ذَكَرَ الله تعالى التيمُّمَ بعد الوضوءِ وبعد الغُسْلِ من الجنابَةِ، فيكون في ذلك دليلٌ على أنَّ مَن عليه غُسلُ الجنابةِ إذا لم يَجِدِ الماءَ، فإنَّه يتيمَّمُ ويُصلِّي(٣).

١٢- أنَّه لا يجب التطهُّرُ بغيرِ الماء، يعني: لو كان مع الإنسانِ نبيذٌ أو شايٌ أو لَبن، فإنَّه لا يتطهَّر به؛ لأنَّ اللهَ جَعَل آلَةَ الطَّهارةِ هي الماءُ؛ فقال تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾(٤).

١٣- قولُ الله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ يدلُّ على أنَّه كلَّما بقِيَ اسمُ الماءِ المطلَق كان طاهرًا طَهورًا(٥).

١٤- أنَّ الماءَ ما دام يُطلَق عليه اسمُ الماءِ، فإنَّه مُطهِّرٌ ولو تغيَّر بشيءٍ طاهرٍ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١١٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١١٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١١٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣١٣).

لعمومِ الآية: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ و﴿مَاءً﴾ نكرةٌ في سِياقِ النَّفي؛ فما دام اسمُ الماءِ باقيًا، فإنَّه يجبُ التطهُّرُ به، ولو مع التغيُّرِ[1].

١٥- وجوبُ طَلَبِ الماءَ؛ لقوله: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾، أي: في الأماكِنِ القريبةِ منه التي لا يَلحَقُه حرَجٌ بطلب الماءِ فيها، وإذا تيقَّنَ عَدَمَ وجود الماءِ حَوْلَه، فلا يجِبُ عليه البحثُ عند كلِّ صلاةٍ؛ لأنَّ هذا عبَثٌ ومنافٍ للحِكمة، ومنافٍ للشَّرْع[2].

١٦- قوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا﴾ فيه أنَّ الدينَ يسرٌ، سواء كان مِن أصلِ المشروعاتِ، أو إذا وُجِد سببٌ للرُّخصةِ؛ لأنَّ المشقَّةَ تجلبُ التيسيرَ، لكنها لا تُسقطُ الواجبَ إلا في حدودِ الشَّرع[3].

١٧- قوْلُه تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ فيه أنَّه لا بدَّ في التيمُّمِ من النيَّة؛ فقوله: ﴿فَتَيَمَّمُوا﴾ أي: اقْصِدوا، فالتيمُّم عبارةٌ عن القَصْدِ[4].

١٨- استُدلَّ بقولِه: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا﴾ على جوازِ التيمُّمِ من الصَّعيدِ الذي على ظَهْرِ الأرض أيًّا كان، سواءٌ كان هذا الصَّعيدُ رمليًّا أو حجريًّا أو سبخةً، أو يابسًا أو رطبًا، يعني: نديًّا، المهمُّ أنَّه يُسمَّى صعيدًا[5].

١٩- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه تعالى: ﴿فتيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ أنَّه لا بدَّ أن يكونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣١٣)، ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٢٠).

الصَّعيدُ الذي يُتَيمَّم منه طيِّبًا وهو الطَّاهِرُ، وضِدُّه النَّجس، وعلى هذا فلا يصحُّ التيمُّمُ على أرض متنجِّسةٍ(١).

٢٠- وجوبُ استيعابِ الوَجهِ بالمسْحِ في التيمُّمِ؛ لقوله: ﴿بِوُجُوهِكُمْ﴾ وهو شاملٌ لجميع الوجه، ومِن ثَمَّ يجبُ أن نُنبِّهَ بعضَ العامَّة الذين إذا تَيمَّموا مَسَحوا الأنفَ وما حوله، وترَكوا الباقِيَ؛ فيُقال: هذا لا شكَّ أنَّه لا يُجزِئُ؛ لأنَّ الآية صريحةٌ؛ فقد قال تعالى: ﴿بِوُجُوهِكُمْ﴾ أي: كلِّها(٢).

٢١- قوله: ﴿مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ فيه رفْعُ الحرَجِ عن هذه الأمَّةِ، وهو تارةً يكون برفْعِ المشروعِ بالكليَّةِ، وتارةً بتخفيفِه، وتارةً بفِعل بدَلِه(٣).

٢٢- قولُ الله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ أصلٌ كبيرٌ في الشَّرعِ، وهو أنَّ الأصْلَ في المضارِّ ألَّا تكونَ مشروعةً(٤).

٢٣- إثباتُ الحِكمةِ في شَرْع الله؛ وجهُ ذلك: التعليلُ في قوله تعالى: ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾، وهذا الذي دلَّ عليه الكتابُ والسُّنة من وجوهٍ لا تُحصَى- أنَّ الله سبحانه وتعالى حكيمٌ في كلِّ ما يَخلُق، وفي كلِّ ما يَشرَع؛ ومِن ثَمَّ فيجبُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٢٩).

(٣) أمَّا رفعه بالكلية فمِثل: كفَّارة القتل؛ إذا عجَز الإنسانُ عن صِيام شهرين متتابعين تَسقُط عنه، أي: تُرفَع عنه بالكليَّة. وأمَّا تخفيفه فمِثل: القِيام في الصلاة؛ إذا عجزَ الإنسان عنه، يُخفَّف فيُصلي قاعدًا إذا لم يستطعْ أن يُصلِّي قائمًا. وأمَّا فعل بدله فمثل: أن يكون إلى بدلٍ؛ فالإنسان العاجز عن الصيام عجزًا مستمرًّا لا يلزمه أن يصومَ، لكن عليه البَدَل، وهو: إطعامُ مِسكين عن كلِّ يوم، فصار الأمر والحمد لله واسعًا، وبناءً على هذه القاعدة فمن عجَز عن الكفَّارات أيًّا كانتِ الكفارة وقتَ الوجوب، فإنَّها تسقط عنه. ينظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (١/ ١٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣١٧).

الاستسلامُ لقضاءِ الله الشرعيِّ والكونيِّ(١).

٢٤- أنَّ الطَّهارةَ بأقسامِها الثلاثة- الغُسل والوضوء والتيمُّم- نعمةٌ من الله عزَّ وجلَّ على العبادِ؛ لقوله: ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾، ولا شكَّ أنَّها نِعمةٌ، ومَن رأى فضائِلَ الوضوءِ وما يُكفِّر من الذُّنوبِ، عَرَف نِعمةَ الله عزَّ وجلَّ بهذا، وكذلك الغُسْلُ من الجَنابة، ولا سيَّما في أيَّام الشِّتاءِ وأيَّامِ المشقَّةِ(٢).

٢٥- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ قال فيه بعضُهم: دلَّت هذه الآيةُ على سَبعةِ أصولٍ، كُلُّها مَثْنَى: طهارتانِ: الوُضوءُ والغُسل، ومُطَهِّران: الماءُ والتُّراب، وحُكْمان: المسحُ والغَسل، وموجِبان: الحَدَثُ والجَنابةُ، ومُبيحانِ: المَرَضُ والسَّفَرُ، وكنايتان: الغائِطُ والمُلامَسةُ، وكَرامتان: تطهيرُ الذُّنوبِ، وإتمامُ النِّعمةِ(٣).

٢٦- قولُه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (لعلَّ) هنا للتَّعليلِ، وليست للترجِّي؛ لأنَّ الرجاءَ طلبُ ما فيه عُسر، والله عزَّ وجلَّ لا يتأتَّى في حقِّه ذلك؛ لأنَّ كلَّ شيءٍ سهْلٌ عليه، فتكون (لعلَّ) هنا للتعليلِ(٤).

بلاغةُ الآية:

١- قوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إلى الصَّلَاةِ﴾، أي: إذا أردْتُم القيامَ إلى الصَّلاةِ؛ ففيه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٣٦).

(٣) ينظر: ((حاشية البجيرمي على الخطيب)) (١/ ١٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٩٧).

جوازُ التَّعبيرِ عن إرادةِ الفِعل بالفِعل؛ لأنَّ الفعلَ يوجدُ بقُدرةِ الفاعِلِ عليه وإرادَتِه له، وهو قَصْدُه إليه وميلُه وخُلوصُه؛ وذلك لأنَّ الفِعْلَ مسبَّبٌ عن القُدرةِ والإرادة، فأُقيمَ المسبَّبُ مقامَ السَّبَب؛ للملابسةِ بينهما، ولإيجازِ الكلامِ ونحوه، والتَّنبيهِ على أنَّ مَن أراد العبادةَ ينبغي أن يبادِرَ إليها، بحيث لا ينفكُّ الفعلُ عن الإرادةِ، ويَجوزُ أنْ يكونَ المرادُ: إذا قَصَدْتم الصَّلاةَ؛ لأنَّ التوجُّهَ إلى الشَّيءِ والقيامَ إليه قَصْدٌ له[1].

٢- قوله: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾ فيه كنايةٌ حَسَنَةٌ؛ فالمجيءُ من الغائِط- وهو المطمئنُّ أو المنخفِض من الأرض- كنايةٌ عن الحدَثِ[2].

٣- قوله: ﴿مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾: فيه التعبيرُ عن نفْي الفِعلِ بنفي الإرادةِ له؛ فالإرادةُ هنا كنايةٌ عن نفْي الجَعْلِ؛ لأنَّ المريدَ الذي لا غالبَ له لا يَحُولُ دون إرادَتِه عائِقٌ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١١٥)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٠٨)، ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٨٧).

(٢) يُنظر ما تقدم في غريب الكلمات.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٣١).

الآيات (٧ - ١١)

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨) وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١)﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿مِيثَاقَهُ﴾: الميثاقُ هو العقدُ المؤكَّدُ بيمينٍ وعهدٍ، أو العهدُ المُحكَم، وأَصْلُ (وثق): العقدُ والإحكامُ[1].

﴿كُونُوا قَوَّامِينَ﴾: ﴿قَوَّامِينَ﴾ جمعٌ، مفردُه (قوّام)، بناءُ مبالغةٍ مِن (قائمٍ)، أي: ليتكررْ منكم القيامُ، وأصلُ (قوم): مراعاةُ الشيءِ وحِفظُه[2].

﴿شُهَدَاءَ﴾: جمع شهيد، والشَّهادة قولٌ صادرٌ عن عِلمٍ حصَل بمشاهدةِ بصيرةٍ أو بصَرٍ[3].

﴿بِالْقِسْطِ﴾: بالعدلِ، وأصلُ (قسط) يدلُّ على مَعنيينِ متضادَّين: العدلِ، والجَوْرِ؛

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٣).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ١٢٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٦٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ١٢٢)، ((الكليات)) للكفوي (١/ ٧٣٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١ / ٦٥)، ((المفردات)) للراغب (١ / ٤٦٥).

يُقال: أَقسَط: إذا عدَل. وقَسَط: إذا جارَ وظَلَم(١).

﴿شَنَآنُ﴾: شِدَّةُ البُغض والعداوة؛ يُقال: شَنِئتُه، أي: تَقذَّرْتُه بغضًا له(٢).

﴿الْجَحِيمِ﴾: النَّار، وأصْل (جحم): عِظَم الحرارة وشِدَّتها(٣).

﴿يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾: يَمدُّوا إليكم أيديَهم بالصَّوْلةِ والضَّرب، وأصل (بسط): امتدادُ الشَّيءِ، في عَرْض أو غير عَرْض(٤).

مُشكِلُ الإعراب:

قولُه تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿وَعَدَ﴾: فِعلٌ يَتعدَّى لمفعولَينِ؛ أولهما ﴿الَّذِينَ﴾، والثَّاني مَحذوفٌ، وجملةُ ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ جملةٌ اسميَّةٌ وقعَتْ بيانًا للوعدِ، كأنَّه قال: قَدَّم لهم وعْدًا، فقيل: أيُّ شيءٍ وَعَدَه لهم؟ فقال: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾؛ وعليه فهي مُفسِّرةٌ لمفعولِ ﴿وَعَدَ﴾ الثاني المحذوفِ، لا محلَّ لها من الإعرابِ. وقيل: إنَّ جملةَ ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ منصوبةٌ بقولٍ محذوفٍ؛ كأنَّه قيل: وَعَدَهم وقال: لهم مَغفِرةٌ. وقيل: الوعدُ جارٍ مجرَى القولِ؛ لأنَّه ضَرْبٌ منه، وهو واقعٌ على الجملةِ ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾؛ فهي منصوبةٌ به؛ كأنَّه قيل: وعَدَهم هذا القَولَ(٥).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢٩).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٨).

(٥) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٢١)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦١٢)، =

المعنى الإجماليُّ:

يَأمُر اللهُ المؤمنينَ أن يَذكُروا نعمتَه عليهم، والعهْدَ الذي أخَذَه عليهم بمبايعةِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ على متابعَتِه، ونُصْرَتِه، والقيامِ بدِينِه والدَّعوةِ إليه؛ حيث الْتَزموا بذلك العهدِ حينها، وقالوا: سمِعْنا وأطَعْنا، ثم أمَرَهم بتقواه عزَّ وجلَّ؛ فإنَّه عليمٌ بكلِّ ما تُكِنُّه الصُّدورُ.

ويأمُر اللهُ المؤمنينَ كذلِك بأنْ يقوموا بحقِّ اللهِ تعالى في كلِّ ما يَلْزَمُهم القيامُ به مخلِصينَ له، وأنْ يُلازِموا العدلَ في شَهادَتِهم، ولا يَحمِلَنَّهم بُغضُهم وكراهِيَتُهم لقومٍ على ألَّا يَعدِلوا، بل عليهم مُلازمةُ العدلِ؛ فإنَّه أقربُ لتحقيقِ كمالِ التَّقوى، ولْيتَّقوا الله؛ فإنَّ الله خبيرٌ بما يعملونَ.

ثم يُخبر تعالى أنَّه وعَدَ المؤمنين الذين يَعملون الأعمالَ الصالحةَ بأنَّ لهم مغفرةً لذنوبهم، وثوابًا كبيرًا، وهو الجنَّة، وأمَّا الذين كَفروا وكذَّبوا بآياتِه فهمُ أصحابُ النارِ المُلازِمون لها.

ثم أَمَر اللهُ المؤمنينَ أن يَذكُروا نِعمتَه عليهم، حين هَمَّ بعضُ أعدائِهم بالبَطْشِ بهم، فصرَفَهم اللهُ عنهم، وحالَ بينهم وبين ما يُريدونَه بهم من سوءٍ، وختَم الآيةَ بالأمرِ بتقواه، وأن يَعتَمِدوا عليه وحْدَه سبحانه وتعالى.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧)﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر التَّكاليفَ في الآياتِ السَّابقةِ من بدايةِ السُّورةِ، أرْدَفَه بما يُوجِبُ

= ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٢٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٢١٨).

عليهم القَبولَ والانقيادَ، وذلك من وجهينِ: الأوَّل: كَثرةُ نِعَمِ الله عليهم؛ لأنَّ كثرةَ النِّعَمِ تُوجِبُ على المُنعَمِ عليه الاشتغالَ بخدمةِ المُنعِمِ، والانقيادَ لأوامِرِه ونواهيه. والوجه الثاني: في السَّببِ الموجِبِ للانقيادِ للتَّكاليفِ، وهو الميثاقُ الذي واثقَكم به[(١)]، فقال:

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾.

أي: واذْكروا- أيُّها المؤمنونَ- نِعمَ اللهِ تعالى عليكم، فتَذكَّروها بقُلوبِكم وألسِنَتِكم، ومنها نِعمةُ الهدايةِ للإسلامِ[(٢)].

﴿وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ﴾.

أي: واذكُروا أيضًا- أيُّها المؤمنونَ- عَهدَه الذي عاهَدَكم به بمبايعةِ نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ على مُتابعتِه ومُناصَرتِه ومُؤازَرتِه، والقيامِ بدِينه، وتبليغِه[(٣)].

قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الحديد: ٨].

﴿إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾.

أي: حيث التَزَمْتُم بهذا العَهْدِ بإعلانِ السَّمعِ والطَّاعة، فقلتم: سَمِعْنا ما دَعوتَنا به- أيُّها الرسولُ الكريمُ- من الآياتِ القرآنيَّةِ والكونيَّةِ، سَمْعَ فَهمٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢١٩، ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٣٨).

قال ابنُ عثيمين: (قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾ إنما أمَرَ الله تعالى أن نَذكُر النِّعمة؛ من أجْلِ أن نَعرِفَ فضلَه علينا؛ حتى يسهُلَ علينا الانقيادُ لطاعته؛ لأنَّ الإنسان بمقتضى فِطرته وطبيعتِه لا بدَّ أن يَنقادَ لِمَن أحسن إليه) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢١٩، ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٣٨-١٣٩).

وإذعانٍ وانقيادٍ، وأطَعْنا ما أمَرْتَنا به، واجتَنَبْنا ما نهيتَنا عنه[١].

عن جُنادَةَ بنِ أبي أُميَّةَ، قال: دَخَلْنا على عُبادةَ بنِ الصَّامتِ وهو مريضٌ، قُلنا: أصلحَك اللهُ، حَدِّثْ بحديثٍ ينفعُك اللهُ به، سَمِعْتَه مِن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، قال: ((دَعانا النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ فبايعْناه، فقال فيما أَخَذَ علينا: أنْ بايَعَنا على السَّمْعِ والطَّاعةِ، في مَنْشَطِنا[٢] ومَكْرَهِنا[٣]، وعُسْرِنا ويُسْرِنا، وأَثَرةٍ علينا[٤]، وأنْ لا نُنازِعَ الأمرَ أهلَه، إلَّا أنْ تَرَوْا كُفرًا بَواحًا عندكم من اللهِ فيه برهانٌ))[٥].

﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾.

أي: وامتَثِلوا ما أَمَرَكم اللهُ تعالى به، واجتَنِبوا ما نهاكم عنه في جميعِ أَحْوالِكم[٦].

﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

أي: إنَّه يعلمُ ما يتخالَجُ في الضَّمائِرِ والسَّرائِرِ، وما تَنطوي عليه القُلوبُ من الأَفْكارِ والخواطِرِ؛ فاحذَروا أن يَطَّلِعَ من قُلُوبِكم على أمرٍ لا يرضاه، كأنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦١-٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٣٩).

(٢) مَنشَطنا: المنشَط مَفعَل من النَّشاط، أي: حِين نَشاطِنا. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٥٧)، ((التوضيح لشرح الجامع الصحيح)) لابن الملقِّن (٣٢/ ٢٨٤).

(٣) ومَكْرَهِنا: المَكْرَهُ: وهو ما يَكْرَهُه الإنسانُ ويشقُّ عليه؛ أراد في وقتِ الكَسَلِ والمشقَّةِ في الخروج. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ١٦٨)، ((التوضيح لشرح الجامع الصحيح)) لابن الملقِّن (٣٢/ ٢٨٤)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/ ٧).

(٤) وأَثَرَة عَلَينا: الأَثَرَة الاسمُ من: آثَر يُؤثِر إيثارًا: إذا أعطى، والاستئثار: الانفرادُ بالشيء، والمراد أنَّ طواعِيَتَهم لمن يتولَّى عليهم لا تتوقَّف على إيصالِهم حقوقَهم، بل عليهم الطاعةُ ولو منَعَهم حقَّهم. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٢٢)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/ ٨).

(٥) رواه البخاري (٧٠٥٥) واللفظ له، ومسلم (١٨٤٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٣٩).

تُضمِروا عدَمَ الوفاءِ بميثاقِ اللهِ(١).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا حَثَّ على الانقيادِ للتَّكاليفِ، وهي مع كَثْرَتِها محصورةٌ في نوعينِ: التَّعظيم لأمْرِ الله، وهذا ذَكَرَه في قوله: ﴿إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللهَ﴾، ثم أعْقَبَه بذكْرِ النَّوعِ الثَّاني وهو الشَّفقَةُ على خَلْقِ الله(٢)، فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنونَ، كونوا بمُقتَضى إيمانِكم ذَوي قِيامٍ بالحقِّ للهِ تعالى وَحْدَه، لا رِياءً ولا سُمْعةً، ولا لنيلِ غَرَضٍ من أغراضِ الدُّنْيا(٣).

﴿شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾.

أي: وكونوا أيضًا شُهَدَاءَ بالعَدْلِ، ولا تَجُوروا في أَحْكامِكم على القَريبِ والبَعيدِ، والصَّديقِ والعَدُوِّ(٤).

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٣٩-١٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٢٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٤٥).

أي: ولا يَحْمِلنَّكم عداوةُ قومٍ وبُغضُهم على ألَّا تَعْدِلوا في حُكْمِكم فيهم، فتَجورُوا عليهم[١].

﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾.

أي: عليكم بالعَدْلِ- أيُّها المؤمنونَ- مع كلِّ أحدٍ، فاستعمالُ العَدْلِ أقرَبُ إلى التَّقْوى الكاملةِ[٢].

﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾.

أي: امتَثِلوا ما أمَرَكم اللهُ تعالى به، واجتَنِبوا ما نهاكم عنه، ومِن ذلك القيامُ بالعَدْلِ، وتَرْكُ الجَورِ[٣].

﴿إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى هو وَحْدَه العالِمُ ببواطنِ ما تَعمَلونَه- أيُّها المؤمنونَ- مِن خَيْرٍ أو شرٍّ ومُجازيكم بها[٤].

﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٩)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٤).

قال السعديُّ: (﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ أي: كلَّما حرَصْتُم على العدل، واجتهدتم في العمل به، كان ذلك أقربَ لتقوى قلوبِكم؛ فإنْ تمَّ العدلُ كمَلَتِ التَّقوى) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٤).

وقال ابنُ عاشور: (ومعنى ﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾، أي: للتقوى الكاملة التي لا يَشُذُّ معها شيءٌ من الخير؛ وذلك أنَّ العدل هو ملاكُ كبْحِ النَّفْس عن الشهوة، وذلك ملاكُ التقوى) ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٤٦-١٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٤٧).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ أوامِرَ ونواهيَ، ذكَر وعْدَه مَن اتَّبَعَ أوامرَه واجتَنَبَ نواهيَه(١).

وأيضا لَمَّا كان الأَمْرُ بالتَّقْوى ممَّا حُتِمَ على الإطلاقِ، بعدَ بيانِ أنَّ العدْلَ هو أقربُ ما يُتَّقَى به عقابُ اللهِ في الدُّنيا والآخِرَة؛ لأنَّه قِوامُ الصَّلاحِ للأفرادِ، والإصلاحِ في الأقوامِ، ولَمَّا عُلِّل هذا الأمرُ المطلَقُ بأنَّ الله خبيرٌ بدقائِقِ الأعمالِ وخَفاياها، وكان هذا التعليلُ يُشيرُ إلى جزاءِ العاملينَ المُتَّقينَ وغَيْرِ المتَّقينَ- قال عزَّ وجلَّ في بيانِ الجزاءِ العامِّ(٢):

﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾.

أي: وعَدَ اللهُ عزَّ وجلَّ- الذي لا يُخلِفُ الميعاد- المؤمنينَ الذين عَمِلوا الأَعْمالَ الصَّالِحات مخلصين للهِ تعالى فيها، ومُتابعين شريعَتَه، وَعَدَهم بسَتْرِ ذُنُوبِهم، والتَّجاوُزِ عن مؤاخَذَتِهم بها(٣).

﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

أي: ولهم ثوابٌ كبيرٌ، وعطاءٌ جزيلٌ غيرُ محدودٍ، وهو الجَنَّةُ(٤).

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى ثوابَ المؤمنينَ العاملينَ للصَّالحاتِ، ثنَّى بذِكر مَن يُقابِلُهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٩٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٢٢٧)

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٥٢-١٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٢٥-٢٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٢-٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٤).

وما لهم من العقابِ[١]؛ فقال:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٠)﴾.

أي: وأمَّا الكُفَّارُ المكذِّبونَ بالأدلَّةِ الدالَّةِ على الحقِّ، فهُم أهلُ نارِ الجحيمِ الملازِمونَ لها، لا يَخرجُون منها أبَدًا[٢].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١)﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾.

أي: يا مَعْشَرَ المؤمنينَ، تذكَّروا ما أنعمَ اللهُ تعالى به عليكم بقُلوبِكم وألْسِنَتِكم؛ لأجْلِ القيامِ بواجِبِ شُكْرِ اللهِ عزَّ وجلَّ على ذلك[٣].

﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾.

أي: حيث أنعمَ اللهُ تعالى عليكم، بأنْ ردَّ كيدَ أعدائِكم الذين همُّوا بالبَطْشِ بكم، فصَرَفَهم وحَجزَهم عنكم، وحالَ بينهم وبين ما أرادُوه بكم؛ فلم يَستَطيعوا أن يَنالُوكم بسُوءٍ[٤].

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٢٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٩٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٥٩-١٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٦٤-١٦٥).

﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾.

أي: وافْعلوا ما أمرَكم اللهُ تعالى به، واجتَنِبوا ما نَهاكم عنه[1].

﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

مُناسَبَتُها لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تعالى إنعامَه عليهم بكفِّ أَيدِي أعدائِهم عنهم، وردِّ كَيْدِهم في نُحورِهم- أَمَرَهم بما يَستعينونَ به على الانْتِصارِ على عَدُوِّهم، وعلى جميعِ أُمُورِهم[2]، فقال:

﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

أي: وعلى اللهِ تعالى وحْدَه دونَ غيره، فلْيعتمِدِ المؤمنونَ الَّذين آمنوا باللهِ تعالى وبكلِّ ما يَجِبُ عليهم الإيمانُ به، فليعتمدوا عليه في جَلْبِ منافِعِهم ودَفْعِ مَضَارِّهم، ممَّا يتعلَّقُ بِشُؤونِ الدُّنيا والآخِرَةِ؛ ثِقةً به عزَّ وجلَّ، وتفويضًا إليه[3].

الفوائدُ التربويَّةُ:

١- الحثُّ على التأمُّلِ في نِعَمِ الله تعالى؛ نبَّه على ذلك قولُه: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ﴾[4].

٢- تهديدُ مَن خَرَجَ عن التَّقوى، بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، يعني أنَّه لا بدَّ أن تكونَ التَّقوى مبنيَّةً على صَلاحِ القَلْبِ، وليست مُجرَّدَ قَوْلٍ باللِّسانِ، ويُكرِّرُ اللهُ عزَّ وجلَّ التَّقوى في آياتٍ كثيرة؛ لأنَّها في الحقيقَةِ عليها

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٦٥-١٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣١٩).

مدارُ الإِسلامِ، فإذا اتَّقى الإنسانُ ربَّه فسوف يقومُ بِدِينِ الله تعالى على ما يُرِيدُ اللهُ جلَّ وعلا(١).

٣- وجوبُ الإخلاصِ لله عزَّ وجلَّ في الشَّهادَةِ؛ لقولِه: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾، وقال في آيةٍ أخرى: ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق: ٢]، ومِن ثَمَّ فلا يكونُ هناك محاباةٌ لقريبٍ أو صَدِيقٍ، ولن يَحمِلَك بُغضُك لشَخْصٍ على أنْ لا تشْهَد له ما دُمتَ مُخلِصًا لله تعالى بالشَّهادَةِ(٢).

٤- وجوبُ الشَّهادَةِ بالقِسْطِ ولو كنتَ كارهًا؛ دلَّ على ذلِك قولُه تعالى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾؛ لأنَّ بعضَ النَّاسِ قد تحمِلُه كراهةُ أن يتَضَرَّرَ الشَّخصُ على كِتمانِ الشَّهادَةِ(٣).

٥- أمَرَ اللهُ تعالى جميعَ الخَلْقِ بأنْ لا يُعامِلُوا أحدًا إلَّا على سَبيلِ العَدْلِ والإنصافِ، وترْكِ المَيْلِ والظُّلْمِ والاعتِسافِ؛ قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾(٤).

٦- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه تعالى: ﴿ولا يجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا﴾ أنَّ على المؤمِنِ أن يكونَ ضابطًا نفْسَه، سَمْحًا يُعامِلُ النَّاسَ بالعَدْلِ، وإنِ اختَلَفَ معهم، وهي قِمَّةٌ أعلى مُرتقًى، وأصعبُ على النَّفس وأَشَقُّ؛ فهي مرحلةٌ وراءَ عَدَمِ الاعتداءِ والوقوفِ عندَه، تتجاوَزُه إلى إقامَةِ العَدْلِ، مع الشُّعورِ بالكُرْهِ والبُغْضِ! إنَّ التكليفَ الأوَّلَ أيسَرُ؛ لأنَّه إجراءٌ سَلْبيٌّ ينتهي عند الكَفِّ عن الاعتداءِ، فأمَّا التَّكليفُ الثَّاني فأشَقُّ؛ لأنَّه إجراءٌ إيجابيٌّ يَحمِلُ النفْسَ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٣٩، ١٤٢، ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٢٤٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٤٢).

مباشَرَةِ العَدْلِ والقِسْطِ مع المبغوضينَ المَشْنوئينَ! والمنهجُ التربويُّ الحكيمُ يُقدِّرُ ما في هذا المُرتَقى من صعوبةٍ؛ فيُقدِّم له بما يُعينُ عليه؛ ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾[1].

٧- يُستَفاد مِنْ قَوْلِه: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ أنَّ الأعمالَ الصَّالحةَ منها ما يَبعُدُ عن التَّقوى، ومنها ما يَقرُبُ، ويَنبني على تفاضُلِ الأعمالِ، وتفاضُلُ الأعمالِ قد دلَّ عليه الكتابُ والسُّنَّةُ والعَقْلُ، وأنَّ الأعمالَ تَتَفاوتُ، والعُمَّال يتفاوَتون أيضًا، ويُستَفادُ أيضًا أنَّ الإيمانَ يَزيدُ وكذلك ينقُصُ[2].

٨- أنَّ الإيمان وحْدَه لا يَكفي، بل لا بدَّ مِن عَمَلٍ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ ولهذا فالَّذينَ يُركِّزون على العقيدةِ، فيقولون: عَقِيدتُنا سليمةٌ والحمدُ لله، ولا يَتعرَّضون للعَمَلِ؛ عندهم قُصورٌ، بل لا بدَّ مع العقيدَةِ مِن عَمَلٍ صالحٍ[3].

٩- وُجوبُ تقوى الله عزَّ وجلَّ عند ذِكرِ النِّعَمِ؛ حتى لا يَطغى الإنسانُ، ويرتفعَ ويَرْبأَ بنفْسِه؛ لقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾[4].

١٠- وجوبُ التوكُّلِ على الله عزَّ وجلَّ، وأنَّه من الإيمانِ؛ لقوله: ﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾، فوجَّه الأمرَ إلى المؤمنينَ؛ لأنَّهم هم أَهْلُ التوكُّلِ، ولأنَّ تَرْكَ التوكُّلِ على الله نَقْصٌ في الإيمانِ[5].

الفوائد العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ ولم يقُل: (نعم الله)؛ لأنَّه

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٨٥٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٤٢، ١٤٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٥٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٦٧).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ليس المقصودُ منه التأمُّلَ في أعدادِ نِعَمِ الله، بل المقصودُ منه التأمُّلُ في جِنْسِ نِعَمِ الله؛ لأنَّ هذا الجِنْسَ جنسٌ لا يَقْدِرُ غيرُ اللهِ عليه(١).

٢- أنَّه يجبُ على الإنْسانِ أنْ يَذكرَ الميثاقَ الذي واثَقَ اللهَ عليه، وهو العَهْدُ بالسَّمْعِ والطَّاعَةِ المذكورُ في قوله: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، ويُستَفادُ مِنَ الآيةِ أنَّ السَّمْعَ المجرَّدَ لا يُغني شيئًا، فلا بدَّ أن يكونَ سمعًا واستجابَةً، فأمَّا مجرَّدُ السَّمْعِ فلا؛ وذلك لِقَوْلِه: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾(٢).

٣- في قوله تعالى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾ إشارةٌ إلى التَّعظيمِ لأَمْرِ اللهِ(٣).

٤- ممَّا يُستَفادُ مِن قَوْلِه سبحانَه: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾: أنَّ هناك فَرْقًا بين المساواةِ والعَدْلِ، وأكثرُ ما ورد في القرآنِ هو نفْيُ المساواةِ، مع إثباتِ العَدْلِ؛ قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥ - ٣٦]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٤) [الزمر: ٩].

٥- تأكيدُ الأَمْرِ بالعَدْلِ مع الأعداءِ، والشَّهادةُ لهم به في قَوْلِه تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ يُفيدُ وجوبَه مع غَيْرِهم من الأَولياءِ بالأَوْلى(٥).

٦- من اللَّطائِفِ في قولِه تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...﴾ وقولِه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ في المؤمنينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٢٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٤٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٢٤٣).

جاءتِ الجملةُ فِعليَّةً متضمِّنةً الوعدَ بالماضي الذي هو دليلٌ على الوُقوعِ، فأنْفُسُهم متشوِّقةٌ لِمَا وُعِدُوا به، مُتشوِّفةٌ إليه، مبتهجةٌ طولَ الحياةِ بهذا الوَعْدِ الصَّادِقِ. وفي الكافرينَ جاءت الجملةُ اسميَّةً دالَّةً على ثُبوتِ هذا الحُكْمِ لهم، وأنَّهم أصحابُ النَّارِ؛ فهم دائمونَ في عذابٍ؛ إذ حَتَّمَ لهم أنَّهم أصحابُ الجحيمِ، ولم يأتِ بصورةِ الوعيدِ، فكان يكونُ الرجاءُ لهم في ذلك(١).

٧- قولُه: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: فيه: تقديرُ محذوفٍ، أي: عَمِلُوا الأعمالَ الصَّالحات، ويكون العملُ صالحًا إذا تَضمَّن أمرينِ؛ الأوَّل: الإخلاصُ للهِ كما في قوله: ﴿فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ٢]، والثاني: المتابعةُ لشريعةِ اللهِ؛ لأنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم قال: ((مَن عَمِلَ عَمَلًا ليس عليه أمْرُنا؛ فهو رَدٌّ))(٢).

٨- يُستَفاد مِنْ قَوْلِه: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ تفضُّلُ اللهِ عزَّ وجلَّ على عبادِهِ؛ حيث جعَل الثوابَ بمنزلَةِ الأَجْر، كأنَّ العامِلَ أجيرٌ إذا وَفَّى العَمَلَ أُعْطِيَ أَجْرَه، مع أنَّ المِنَّةَ لله عزَّ وجلَّ أولًا وآخِرًا(٣).

٩- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ عِظَمُ ثَوابِ المؤمنينَ العاملينَ الصَّالحاتِ؛ حيث عظَّمَه الله عزَّ وجلَّ، وتعظيمُ العَظيمِ للشَّيءِ يدلُّ على أنَّه عَظيمٌ عَظَمةً لا يتخيَّلُها الإنسانُ ولا يتصوَّرها، وهو كذلك(٤).

١٠- أنَّ القرآنَ الكريمَ مَثانٍ؛ إذا ذَكَر أهْلَ العَمَلِ الصَّالح ذكَرَ أهلَ العَمَلِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٥٣).
والحديث أخرجه مسلم (١٧١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٥٩).

السيِّئ؛ كما قال سبحانه: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ثم ثَنَّى بعدها بقولِه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾، وفائدةُ ذلك: أنْ لا يَغلِبَ جانبُ الرَّجاءِ أو جانبُ الخَوْفِ[1].

١١- يُستفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أنَّ الكُفْرَ قد يَصحَبُه التَّكذيبُ، وقد لا يَصحَبُه؛ ولهذا أحيانًا يَذكُرُ اللهُ الكُفْرَ فقط؛ مثل قولِه تعالى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١]، وأحيانًا يَذكُرُ التَّكذيبَ فقط؛ قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ [الزمر: ٣٢]، وأحيانًا يَقْرِن بينهما؛ وذلك لأنَّ كلًّا منهما قد يكونُ وَحْده مُوجِبًا للخُلُودِ في النَّارِ، فإذا اجتمعَا جميعًا، صار ذلك أشدَّ وأعظمَ، والعياذُ بالله[2].

١٢- قوله: ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾: المرادُ بالآياتِ هنا الآياتُ الشرعيَّةُ[3] والكونيَّة[4]؛ فمَن أنكَرَ ربوبيَّةَ الله وخَلْقَه للمَخلوقاتِ، وتصرُّفَه في الكَوْنِ، فهذا مكذِّبٌ بالآياتِ الكونيَّةِ، وقد يُقِرُّ بذلك، لكنَّه يكْفُرُ، ويُكذِّبُ بالآياتِ الشرعيَّةِ، ويُعْرِضُ عن طاعَةِ اللهِ[5].

١٣- أنَّ الخلودَ في النَّار ليس إلَّا للكُفَّارِ؛ فقَوْلُه تعالى: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ يُفيدُ الحصرَ، والمصاحَبةُ تقتضي الملازَمَة، كما يُقال: أصحابُ الصَّحراءِ، أي: الملازِمونَ لها[6].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٦٢).

(٣) الآيات الشرعيَّة: هي ما جاءتْ به الرُّسُل، وكانتْ آياتٍ دالَّةً على الله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ البشرَ لا يُمكن أن يأتوا بمِثلها. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٥٩).

(٤) الآيات الكونيَّة: وهي هذا الكونُ بما فيه من الشَّمْسِ والقَمَر والنُّجوم، والليلِ والنَّهار، والبحارِ والأنهارِ، وغير ذلك مِن المخلوقاتِ العظيمةِ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٥٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٥٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣٢١)، ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٢٤٤).

١٤- قال تعالى: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ﴾ الآية، أمَرَ الله تعالى أن نَذكُرَ نِعْمَتَه، لا مِن أجْلِ مجرَّدِ الذِّكْرِ والخَبَر، ولكن للقيامِ بشُكْرِ هذه النِّعمَةِ؛ لأنَّه لا يَكفي مجرَّدُ أن أقولَ: إنَّ اللهَ سلَّمَني من العدوِّ، أو إنَّ اللهَ نصَرني على العَدُوِّ، هذا لا يَكفي، لا بدَّ أن يكونَ ذلك شُكرًا لله عزَّ وجلَّ، فإنْ كان شكرًا بأنْ كان الإنسانُ يتحدَّثُ بنِعمةِ اللهِ ثناءً على الله، فهذا من الشُّكر[1].

١٥- أنَّه يجِبُ على الإنسانِ أن يَذكُرَ نِعمَةَ اللهِ عليه في جَلْبِ المنافِعِ ودَفْعِ المضارِّ؛ وَجْهُ ذلك: أمْرُ اللهِ جلَّ وعلا بذِكرِ نِعَمِه بكفِّ أيدي الأعداءِ عنَّا في قوله: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾[2].

١٦- يُستَفاد مِنْ قَوْلِه: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ أنَّ كفَّ الأذى والضَّرَر من النِّعَمِ، وهو كذلك، وكثيرٌ من النَّاسِ يظنُّونَ أنَّ النِّعَمَ هي الإيجادُ، وهذا قصورٌ؛ النِّعمَةُ: إمَّا إيجادُ معدومٍ، وإمَّا كفُّ موجودٍ؛ ولهذا يُشْكَرُ اللهُ عزَّ وجلَّ على هذا وهذا[3].

١٧- من فوائِدِ هذا التذكيرِ للمتأخِّرينَ في قَوْلِه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾ ترغيبُهم في التأسِّي بسلَفِهم في القيامِ بما جاء به الدِّينُ؛ من الحقِّ والعَدْلِ، والبرِّ والإحسانِ، واحتمالِ الجُهدِ، والصَّبرِ على المشاقِّ في هذه السَّبيلِ، وهي سبيلُ اللهِ، وهذا هو المعنى العامُّ للجِهادِ في سبيلِ اللهِ[4].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٢٣١).

وَأَطَعْنَا﴾ ﴿إِذْ﴾ في قولِه: ﴿إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ ظرفٌ لـ﴿وَاثَقَكُمْ بِهِ﴾، أو ظرفٌ لمحذوفٍ وقَع حالًا منَ الضَّميرِ المجرورِ في ﴿بِهِ﴾ أو مِنْ ﴿مِيثَاقَهُ﴾، أي: كائنًا وقتَ قَولِكم: سَمِعْنا وأطَعْنا، وفائدةُ التقييدِ به تأكيدُ وجوبِ مراعاتِه بتذكيرِ قَبُولهم، والتزامِهم بالمحافَظَةِ عليه[1].

٢- قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾: جملةُ ﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ للتَّحذيرِ مِن إضمارِ المعاصي، ومِن تَوهُّم أنَّ اللهَ لا يَعلَمُ إلَّا ما يبدو منهم، وتعليلٌ للأمْرِ بالاتِّقاءِ؛ فحرف (إنَّ) أفاد أنَّ الجملة عِلَّةٌ لِمَا قَبْلَها على الأُسلُوبِ المقرَّرِ في البلاغَةِ[2].

- وإظهارُ الاسْمِ الجليلِ ﴿اللَّه﴾ في موقِع الإضمارِ؛ لتربيةِ المهابَةِ، وتعليلِ الحُكم، وتقويَةِ استقلالِ الجُملة[3].

٣- قوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾: فيه تأكيدٌ شديدٌ على أمْرِ العَدْلِ؛ فقولُه: ﴿اعْدِلُوا﴾ تأكيدٌ ثانٍ؛ حيث قد نَهاهم أولًا أنْ تحمِلَهم الضَّغائِنُ على ترْك العَدْلِ، ثم أمَرَهم بقَوْلِه: ﴿اعْدِلُوا﴾؛ فصرَّحَ لهم بالأَمْرِ بالعَدْلِ؛ تأكيدًا وتشديدًا، ثم استأنَفَ فذَكَرَ لهم وجْهَ الأمْرِ بالعَدْلِ، وهو قَوْلُه: ﴿هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾، أي: العَدْلُ أقربُ إلى التقوى، وأَدْخَلُ في مناسَبَتِها. أو أقربُ إلى التَّقوى؛ لكونِه لُطفًا فيها، وفيه تنبيهٌ عظيمٌ على أنَّ وجودَ العَدْلِ مع الكفَّارِ الذين هم أعداءُ اللهِ إذا كان بهذه الصِّفَةِ من القُوَّةِ؛ فما الظنُّ بوجوبِه مع المؤمنينَ الذين هم أولياؤُه وأحِبَّاؤُه[4]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٣٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٩٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٤٢٥).

٤- قوله: ﴿إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ جملةٌ تتَضَمَّنُ التهديدَ بمخالفةِ التَّقوى، وقولُه: ﴿إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ﴾ الخبيرُ أدقُّ من العليم؛ لأنَّ الخبيرَ من الخُبْر وهو العِلْمُ ببواطنِ الأَمْرِ؛ ولذلك سُمِّيَتِ المزارعةُ مخابرةً؛ وسُمِّي الزَّارعُ خبيرًا؛ لأنَّه يدسُّ الحَبَّ في الأَرْضِ فيَختفي، فالخبيرُ هو العليمُ بخفايا الأُمورِ[١].

٥- قوله: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾: فيه بيانٌ للوعْدِ بعدَ تمامِ الكلامِ قبْلَه، كأنَّه قال: قدَّمَ لهم وعْدًا، فقِيل: أيُّ شَيءٍ وعَدَه لهم؟ فقيل: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾؛ فجُملةُ ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ مُبيِّنةٌ لجُملةِ ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ فاستُغْنِيَ بالبَيانِ عن المفعولِ الثَّانِي، فصارَ التَّقديرُ: وعَدَ اللهُ الذين آمنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ مَغفرةً وأجرًا عَظيمًا لهم، وإنَّما عدَلَ عن هذا النَّظْمِ لِمَا في إثباتِ المغفرةِ لهم بطَريقِ الجُملةِ الاسميَّةِ من الدَّلالةِ على الثَّباتِ والتقرُّرِ[٢].

٦- قوله: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾: فيه قصرٌ: وهو إمَّا قَصْرٌ ادِّعائيٌّ؛ لأنهم لَمَّا كانوا أحقَّ النَّاسِ بالجحيمِ، وكانوا خالدينَ فيه، جُعلوا كالمنفردينَ به، أو هو قصرٌ حقيقيٌّ إذا كانت إضافةُ ﴿أَصْحَابُ﴾ مُؤذِنةً بمزيدِ الاختصاصِ بالشَّيءِ كما في مُرادفِها، وهو ذُو كذا، كما في قوله: ﴿وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ [آل عمران: ٤]؛ فيكون وجهُ هذا الاختصاصِ أنَّهم الباقونَ في الجحيمِ أبدًا[٣].

٧- قوله: ﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ إظهارُ ﴿أَيْدِيَهُمْ﴾ في موقعِ الإضْمارِ؛ لزِيادَةِ التَّقريرِ، أي: مَنَعَ أيديَهم أنْ تُمَدَّ إليكم عَقِيبَ همِّهِم بذلك، لا أنَّه كفَّها

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٤٧، ١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٣٦).

وهذا الوجهُ بناءً على القَوْلِ بأنَّ جملةَ ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ تَفْسيريَّة لا محلَّ لها من الإعرابِ، مُفسِّرة للمفعولِ الثاني لـ﴿وَعَدَ﴾، وأمَّا على بقيَّةِ أوجه الإعرابِ فليس فيها هذا الوَجْهُ.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٣٧).

عنكم بعدَما مدُّوها إليكم[١].

٨- قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾:

جملةُ ﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ تذييلٌ مقرِّرٌ لمَا قَبْلَهُ[٢].

- وفيه تقديمُ المتعلِّقِ ﴿عَلَى اللهِ﴾ على المتعلَّقِ به: ﴿فلْيَتَوَكَّلِ﴾؛ لإفادةِ الحَصْرِ، أي: ينبغي أن يتوكَّل المؤمنونَ على اللهِ فقط، لا على غَيْرِه[٣].

- وإظهارُ الاسْمِ الجليلِ ﴿اللَّهِ﴾ في مَوْقِعِ الإضمارِ؛ لتعليلِ الحُكْمِ، وتقويَةِ استقلالِ الجُملَةِ التذييليَّةِ[٤].

- وإيثارُ صيغَةِ أمْرِ الغائبِ وإسنادُها إلى المؤمنينَ- حيثُ جاء الأَمْرُ بالتوكُّلِ بصِيغَةِ الغائِبِ ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾، وليس بصِيغَةِ الخِطابِ، فلم يقُلْ: (تَوكَّلوا) بعد قولِه: ﴿وَاتَّقُوا﴾- لإيجابِ التوكُّلِ على المُخاطَبينَ بالطَّريقِ البُرْهانيِّ، وللإيذانِ بأنَّ ما وُصِفُوا به عند الخِطابِ مِن وَصْفِ الإيمان داعٍ إلى مَا أُمِرُوا بِهِ من التَّوَكُّلِ والتَّقْوى؛ وازعٌ عن الإخلالِ بهما، ولأجلِ الفاصِلَةِ، وإشعارًا بالغَلبةِ، وإفادةً لعُمومِ وصْفِ الإيمانِ[٥]. وهذا أيضًا التفاتٌ من الخِطابِ إلى الغَيبةِ.

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣- ١٤).

الآيات (١٢ - ١٤)

﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ
نَقِيبًا ۖ وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ
وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ
عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ فَمَن
كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٢) فَبِمَا نَقْضِهِم
مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن
مَّوَاضِعِهِ ۙ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا
مِّنْهُمْ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣) وَمِنَ الَّذِينَ
قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا
بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا
كَانُوا يَصْنَعُونَ (١٤) ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿نَقِيبًا﴾: ضَمينًا وأمينًا، وشاهدًا، أو كفيلًا، وسُمِّيَ نقيبًا؛ لأنَّه يَعْلَمُ دخيلةَ أمْرِ القَوْمِ، ويَعْلَم مناقِبَهم[١].

﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾: أي: نَصَرْتُموهم وأَعَنْتُموهم وقوَّيْتُموهم، أو عَظَّمْتُموهم، والتَّعزيرُ: النُّصْرةُ معَ التَّعظيمِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤١)، ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٤٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣١١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦١).

﴿وَأَقْرَضْتُمُ﴾: أي: أنْفَقْتُم في سبيلِ الله، والقَرْضُ: ما يُدفَعُ من المالِ بشَرْط ردِّ بَدلِه، وأَصْلُ القَرْضِ: القَطْعُ؛ ومنه سُمِّيَ القَرْض؛ فكأنَّه شيءٌ قد قَطَعْتَه مِن مالِكَ[1].

﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾: أي: قَصْدَ الطَّريقِ ووَسَطه، والسَّواء: الوَسَطُ، والسَّبيلُ الطَّريق[2].

﴿نَقْضِهِمْ﴾: أي: نَبْذِهم إيَّاه بعدَ القَبولِ به، وتَرْكِهم العَمَلَ به، وأَصْلُ النَّقْضِ ضِدُّ الإبرامِ: وهو فكُّ تركيبِ الشَّيءِ وردُّه إلى ما كان عليه أوَّلًا؛ فنَقْضُ البِناءِ: هَدْمُه، ونَقْضُ المبرَم: حلُّه[3].

﴿لَعَنَّاهُمْ﴾: طَرَدْناهم وأَبْعَدْناهم مِن رَحْمَتِنا، واللَّعْنُ: الطَّرْدُ والإبعادُ على سبيلِ السَّخَطِ[4].

﴿خَائِنَةٍ﴾: خِيانةٍ، أو جماعةٍ خائنةٍ منهم، أو خائنة بمعنى خائِن، كما يقال: رَجُلٌ طاغِيَة[5].

﴿نَصَارَى﴾: جمْع نصرانٍ ونصرانة، قيل: هو منسوبٌ إلى قريةٍ نَصرة أو نصرانة، وهي قريةٌ نَزَلها عيسى عليه السَّلامُ، وقيل: كلمة النَّصارى في الأصل

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧١، ٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩، ١٤٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤١).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٩، ٨٤٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٩).

مأخوذةٌ مِنْ قَوْلِه: ﴿مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللهِ﴾، ثم صار لازِمًا لهم بعدَ نَسْخِ شَريعَتِهم، وأصل (نصر): يدلُّ على إتيانِ خَيْرٍ وإيتائِه(١).

﴿حَظًّا﴾: نصيبًا مقدَّرًا، وَأصل (حظظ): النَّصِيبُ وَالْجَدُّ(٢).

﴿فَأَغْرَيْنَا﴾: هيَّجْنَا، أو أَلْزَمْنا، مِن غَرِيَ بكذا، أي: لَهِجَ به ولَصِقَ، وأصلُ ذلك من الغِراء، وهو ما يُلْصَقُ به(٣).

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِر تعالى أنَّه أخَذَ على مَن تقدَّمَ مِن أَسْلافِ اليَهودِ عهدًا مؤكَّدًا، وأقام عليهم اثْنَي عَشَرَ رئيسًا، يَتلقَّى كلُّ رئيسٍ ممَّن تحتَه المبايعةَ على السَّمْعِ والطَّاعةِ والوفاءِ بعَهْدِ الله تعالى، ويتولَّى توجيهَهم وحثَّهم على القِيامِ به، ومُطالَبَتَهم بذلك، ويُخْبِر تعالى أنَّه قال لبني إسرائيلَ: إنَّه معهم، لَئِنْ قاموا بما واثقَهم عليه، وذلك بأداءِ الصَّلاةِ كما ينبغي، ودَفْعِ الزَّكاة لمن يستحِقُّها، والإيمانِ برُسُلِ الله، ونَصْرِهم على أعدائِهم، والإنفاقِ في سبيلِ اللهِ تعالى ابتغاءَ رِضاه، فإنْ قاموا بذلك، فسيعفو اللهُ عن ذُنُوبِهم، وسيُدْخِلُهم جنَّاتٍ تَجْري الأنهارُ تحت أَشْجارِها وقُصورِها، ومَن كفَر وخالَفَ ذلك الميثاقَ، فقد ضلَّ وغَوَى عن الطَّرِيقِ القَويمِ.

ثم أَخْبَرَ تعالى أنَّه- بسببِ عَدَمِ وفائِهم بِعَهْدِهم، ونَقْضِهم الميثاقَ- طَرَدَهم مِن رَحْمَتِه، وجعَلَ قُلُوبَهم قاسيةً غليظةً لا تتأثَّرُ بالمواعِظِ، ولا خيرَ فيها؛ يُبدِّلونَ

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٨، ٧٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١ / ١٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢ / ١٤)، ((المفردات)) للراغب (١ / ٢٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (١ / ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٣).

كلامَ الله في التَّوارة، وتركوا قَدْرًا كبيرًا مما ذُكِّرُوا به من الوَحْيِ متعمِّدينَ، ثم خاطَبَ اللهُ نبيَّه محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ أنَّه لا يزالُ يَكْتَشِفُ من اليهودِ المكرَ والخديعةَ، والغَدْرَ والخيانَةَ، إلَّا قليلًا منهم؛ يُوفون بِعُهودِهم التي يُبْرِمونها، ثم أَمَرَه أن يَعْفوَ عن إساءَةِ هؤلاءِ القَوْمِ، وأنْ يُعْرِضَ عنهم؛ إنَّ الله يُحِبُّ المحسنينَ.

ثم بيَّن تعالى أنَّه أَخَذَ أيضًا العَهْدَ والميثاقَ مِن الذين ادَّعَوْا أنَّهم نَصَارى بأنْ يُطِيعُوا اللهَ، ويتَّبِعوا رُسلَه، فترَكوا قَدْرًا كبيرًا مما ذُكِّروا به مِنَ الوَحْيِ متعمِّدينَ، فعاقبَهم الله أنْ جعَل بينهم التباغُضَ والكراهيةَ والشِّقاقَ إلى يوم القيامَةِ، وسوف يُخْبِرهم سبحانه في ذلك اليَوْمِ بما كانوا يَفْعَلونه في الدُّنيا، وسيُعاقِبُهم عليه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٢) فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣) وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١٤)﴾.

مُناسَبةُ الآياتِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى عِبادَه المؤمنينَ بالوَفاءِ بعَهْدِه ومِيثاقِه، الذي أَخَذَه عليهم على لِسانِ عَبْدِه ورسولِه محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وأَمَرَهم بالقيامِ بالحقِّ والشَّهادَةِ بالعَدْلِ، وذكَّرَهم نِعَمَه عليهم الظَّاهِرةَ والباطِنَةَ، فيما هداهم له من

الحقِّ والهُدى؛ شرَعَ يُبَيِّنُ لهم كيف أَخَذَ العُهودَ والمواثيقَ على مَن كان قَبْلَهم مِن أَهْلِ الكِتابينِ: اليهودِ والنَّصارى(١)، فقال تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

في هذه الآيَةِ ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ناسَبَ ذِكْرُ ميثاقِ بني إسرائيلَ عَقِبَ ذِكْرِ ميثاقِ المُسلمينَ مِنْ قَوْلِه: ﴿وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ﴾؛ تحذيرًا من أنْ يكونَ ميثاقُ المسلمينَ كمِيثاقِهم، ولكي يؤدِّيَ المسلمونَ مِن جانِبِهم ما استُحْفِظُوا عليه، ويتَّقُوا أن يَنقُضُوا ميثاقَهم معه(٢)، فقال تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

أي: قد أَخَذْنا على مَن تَقَدَّمَ مِن أَسْلافِ اليهودِ عَهدًا ثقيلًا مؤكَّدًا وغليظًا(٣).

﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾.

أي: وأَقَمْنا عليهم اثْنَي عَشَرَ رئيسًا، موكولًا إليهم مُهِمَّةُ تَلقِّي مبايعَةِ مَن تَحْتَهم على السَّمْعِ والطَّاعَةِ؛ وفاءً بعهد الله تعالى، ومُهِمَّةُ تَوجيهِهم وحثِّهم على القيامِ به، ومُطالَبَتِهم به(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٦٤)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٣٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٠١)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٨٥٦)، ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣٢٢، ٣٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٣٤-٢٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٣٥-٢٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٦٤)، ((تفسير السعدي)) =

﴿وَقَالَ اللهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾.

أي: وقال اللهُ تعالى لبني إسرائيلَ: إنِّي مَعَكم بالحِفْظِ والعَوْنِ، والنَّصْرِ والتَّأييدِ[1].

ثم ذَكَر اللهُ عزَّ وجلَّ ما وَاثَقَهم عليه[2]، فقال:

﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ﴾.

أي: واللهِ إنْ أدَّيتُم- يا مَعْشَرَ بني إسرائيلَ- الصَّلاةَ على نحوٍ مُستقيمٍ ظاهرًا وباطنًا، ودَفَعْتُم الزكاةَ إلى مُستحِقِّيها كما أَمَرْتُكم[3].

﴿وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي﴾.

أي: وإنْ صَدَّقْتُم رُسُلي فيما جَاؤُوكُمْ به مِنَ الوَحْيِ، وأَقَرَرْتُم وأَذْعَنْتُم وانْقَدْتُم لهم، دونَ تفريقٍ بينهم، ومنهم محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّمَ[4].

= (ص: ٢٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٣٩-١٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٦٩-١٧٠).

قال ابنُ عَطيَّة: (اختَلف المفسِّرون في كيفيَّة بَعْثة هؤلاءِ النقباءَ بعدَ الإجماع على أنَّ النقيب كبيرُ القوم القائم بأُمورهم، الذي يُنقِّب عنها وعن مصالِحهم فيها) ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ١٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٧٠، ١٧٧).

قال ابن عاشور: (والظاهرُ أنَّ هذا القولَ وقَعَ وعدًا بالجزاء على الوفاء بالميثاق) ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٤١).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٦٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٧٠-١٧١).

قال ابنُ عاشور: (وجملة ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ...﴾ الآية، استئنافٌ محض ليس منها شيءٌ يتعلَّق ببعض ألفاظ الجملة التي قَبلها، وإنَّما جمعهما العامل، وهو فِعل القول، فكِلتاهما مقول؛ ولذلك يَحسُنُ الوقفُ على قوله: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾، ثم يستأنف قوله: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ﴾ إلى آخِره) ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٤١). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) ٦/ ١١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٧١).

﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾.

أي: وإنْ نَصَرْتُموهم على أَعْدائِهم(١).

كما قال اللهُ تعالى لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٨-٩].

---

(١) اختار هذا القَوْلَ: ابنُ جرير في ((تفسيره)) (٨/ ٢٤٤-٢٤٥)، وابن كثير في ((تفسيره)) (٣/ ٦٦)، وابن عاشور في ((تفسيره)) (٦/ ١٤٢).

وممَّن قال بهذا القول من السَّلف: مجاهدٌ، والسُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٤٣).

قال ابنُ جرير: (وأَوْلى هذه الأقوال- عندي في ذلك- بالصَّواب قولُ مَن قال: معنى ذلك: نصرتموهم، وذلك أنَّ الله جلَّ ثناؤه قال في سورة الفتح: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٨-٩] فالتوقيرُ: هو التعظيمُ، وإذا كان ذلك كذلك، كان القولُ في ذلك إنَّما هو بعضُ ما ذكَرْنا من الأقوال التي حَكيناها عمَّن حَكَيْنا عنه، وإذا فسَد أن يكونَ معناه التعظيمَ، وكان النصرُ قد يكون باليدِ واللِّسان؛ فأمَّا باليد فالذبُّ بها عنه بالسيف وغيرِه، وأمَّا باللِّسان فحُسن الثَّناء، والذَّبُّ عن العِرض- صحَّ أنَّه النصرُ؛ إذ كان النصرُ يحوي معنَى كلِّ قائلٍ قال فيه قولًا ممَّا حكينا عنه) ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٤٤-٢٤٥).

وقال ابنُ عاشور: (والتعزير: النَّصر؛ يُقال: عزَره مُخفَّفًا، وعزَّره مشدَّدًا، وهو مبالغةٌ في عزَره عزرًا إذا نَصَره، وأصلُه المنع؛ لأنَّ الناصرَ يمنع المعتدي على منصور) ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٤٢).

قال الأزهري: (وقال أبو عبيدةَ في قولِه: ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ قال: عظَّمتُموهم. وقال غيرُه: ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾: نَصرتُموهم. وقال إبراهيمُ بن السَّريِّ: وهذا هو الحقُّ، والله أعلم؛ وذلك أنَّ العزْر في اللُّغة: الردُّ، وتأويل عزرت فلانًا، أي: أدَّبته، إنما تأويله: فعلتُ به ما يَرْدَعه عن القبيح؛ كما أنَّ نكَّلت به تأويله: فعلتُ به ما يجب أن يَنكُل معه عن المعاودة؛ فتأويل ﴿عَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ نَصرتموهم، بأنْ تردُّوا عنهم أعداءَهم، ولو كان التعزيرُ هو التوقيرَ لكان الأجودُ في اللُّغة الاستغناءَ به، والنصرة إذا وجبتْ، فالتعظيم داخلٌ فيها؛ لأنَّ نُصرةَ الأنبياء هي المدافعةُ عنهم، والذبُّ عن دِينهم وتعظيمهم وتوقيرهم) ((تهذيب اللغة)) (٢/ ٧٨).

واختار أنَّ التَّعزير هنا بمعنى: التَّعظيم والتوقير. الواحدي في ((الوجيز)) (ص: ٣١١)، والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ٢٢٥).

واختار كِلَا المعنيَيْن: الواحديُّ في ((التفسير الوسيط)) (٢/ ١٦٦)، وابن عَطيَّة في ((تفسيره)) (٢/ ١٦٨)، وابنُ تيمية في ((مجموع الفتاوى)) (١/ ٦٧).

﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾.

أي: وإنْ أنفَقْتُم في سبيلِ الله تعالى عن إخلاصٍ وصِدْقٍ؛ ابتغاءَ مَرْضاةِ الكريمِ الوهَّابِ، واحتسابًا لجزيلِ الأَجْرِ والثَّوابِ(١).

﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾.

أي: لَئِنْ قُمْتُم بهذه الأُمُورِ التي افترَضْتُها عليكم، لأُغَطِّيَنَّ بعَفْوِي عنكم على ذُنوبَكم التي سَلَفَتْ منكم، ولا أُؤَاخِذُكم بها(٢).

﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

أي: وسأُدخِلُكم يومَ القيامَةِ جنَّاتٍ تَجري فيها الأنهارُ مِن تحت أَشْجارِها وقُصُورِها(٣).

﴿فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

أي: فمَن خالَف هذا الميثاقَ المؤكَّدَ وجَحَدَه، فقد عَدَلَ عن طَريقِ الحقِّ الواضِحِ، وتاهَ عن الصِّراطِ المُستقيمِ(٤).

﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٧١-١٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٦٦).

قال ابنُ عُثيمين: (قوله: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أجعلُها مُكَفَّرةً بالحسنات التي فُعِلَت، من إقامة الصَّلاة وإيتاء الزكاة، والإيمان بالرُّسل وتعزيرهم، وإقراض الله قرضًا حسنًا؛ فالسيِّئات تُكَفَّر بهذه الحسنات) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٧٤-١٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٤٧-٢٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٧٦).

فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣)﴾.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ﴾.

أي: فبِسَبَبِ عَدَمِ وفاءِ اليَهودِ بالعَهْدِ المؤكَّدِ الذي أُخِذَ عليهم؛ طَرَدْناهم مِنْ رَحْمَتِنا، وأَبْعَدْناهم عن الحقِّ والهُدى[١].

﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفْسيرِ:

في قَوْلِه تعالى: ﴿قَاسِيَةً﴾ قِراءتانِ[٢]:

١- ﴿قَسِيَّةً﴾ بتَشْديدِ الياءِ من غير ألِفٍ، على وَزْنِ (فعيل)؛ للمبالغَةِ، وقيل: لإفادَةِ معنى التَّكريرِ، وهذا أبلغُ في الذَّمِّ والمَدْحِ من (فاعل)، وقيل: (قَسِيَّة)، أي: رَدِيئة، فتكون القُلُوبُ القَسِيَّةُ هي التي لَيْسَتْ بخالصةِ الإيمانِ، أي قد خالَطَها كُفْرٌ، فهي فاسِدَةٌ[٣].

٢- ﴿قَاسِيَةً﴾ بالألِف وتخفيفِ الياءِ، اسمُ فاعِلٍ مِن قَسَا يَقْسُو، والقلوبُ القاسِيَةُ هي الغَلِيظةُ البائِنَةُ عن الإيمانِ، والتي نُزِعَت منها الرَّحمةُ والرَّأفة[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٨٨-١٨٩).

(٢) قال ابن عثيمين: (﴿قَاسِيَةً﴾ اسم فاعل، و(قَسِيَّة) صفة مُشبَّهة، والصفة المشبَّهة أغلظُ من اسْمِ الفاعِلِ؛ لأنَّها وصفٌ ملازِمٌ... فالصِّفَةُ المشبَّهة ملازِمَةٌ، إذَنْ [في] ﴿قَاسِيَةً﴾ ... قِراءتان، وإذا كان في الآية قِراءتان، فالمعنى أنَّ الأمرينِ كِلاهما حاصلٌ؛ فهي قسيَّةٌ وهذا وصفُها الملازِمُ، وقاسية عند وجودِ ما يُوجِبُ لينَ القَلْبِ تقسو، والعياذ بالله؛ فهي قسيَّة وَصْفًا، قاسيةٌ فعلًا) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٨٩).

(٣) قرأ بها حمزةُ، والكسائيُّ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (ص: ٢٢٣).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٢٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٢٤)، ((الكشف عن وجوه القراءات السبع)) لمكي (١/ ٤٠٨). ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٠٤).

(٤) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (ص: ٢٢٣). =

﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾.

أي: وبِسَبَب عَدَم وفائِهم بالعَهْدِ المؤكَّدِ الذي أُخِذَ عليهم، عاقَبْناهم أيضًا بأنْ جَعَلْنا قُلُوبَهم ملازِمةً لصِفَةِ القَسْوَةِ والغِلْظَةِ، مَنزوعًا منها الخَيْرُ، وإذا ما اتَّعَظوا؛ فإنَّه لا تُجْدِي فيهم المواعِظُ، وإذا تُلِيَتْ عليهم الآياتُ؛ فإنَّهم لا يَنْتَفِعونَ بها، فلا يُرغِّبُهم تشويقٌ، ولا يُرهِّبُهم تخويفٌ[١].

﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾.

أي: إنَّ قَسْوَةَ قُلوبِهم جَعَلَتْهم يُحرِّفونَ كلامَ ربِّهم في التَّوراةِ التي أَنْزَلَها على نبيِّهم مُوسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فتأوَّلوا كلامَه على غَيْرِ ما أَنْزَلَه، وحَمَلُوه على غيرِ مُرادِه، وقالوا عليه ما لم يَقُلْه تعالى وتَقدَّسَ[٢].

﴿وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾.

أي: ونَسُوا نصيبًا مِن وَحْيِ الله تعالى، فضاعَ منهم، كما أنَّهم أَهْمَلوا- وتَركوا عن عَمْدٍ- نصيبًا منه، فلم يَعْمَلوا به؛ رَغبةً عنه، فضيَّعوا أمْرَ اللهِ عزَّ وجلَّ[٣].

﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾.

أي: ولا تزالُ- يا محمَّدُ- تكتَشِفُ وتشاهِدُ مِنَ اليَهودِ شيئًا ممَّا هم مُسْتَمِرُّونَ

= ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الكشف عن وجوه القراءات السبع)) لمكي (١/ ٤٠٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٢٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٥١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ١١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٨٩-١٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٦٦)، ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٣/ ٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٩٠-١٩١).

عليه مِنَ المَكْرِ والغَدْرِ، والخيانَةِ والخَديعةِ لك ولأصحابِك، إلَّا قليلًا من اليَهودِ قد سَلِموا من ذلك؛ فهم يُوفُونَ بِمَا عُوهِدُوا عليه(١).

﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾.

أي: فتَجَاوَزْ- يا محمَّدُ- عن أولئك القَوْمِ، ولا تُؤاخِذْهم على ذلِك، وأَعْرِضْ عنهم(٢).

﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

أي: إنَّما أَمَرْناك بالعَفْوِ والصَّفْحِ عن أولئك القَوْمِ؛ لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يُحِبُّ عبادَه المُحسنينَ، الذين مِن إحْسَانِهم العفوُ والصَّفحُ عمَّن أَسَاءَ إليهم(٣).

﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١٤)﴾.

﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ﴾.

أي: وأَخَذْنا مِنَ الَّذينَ ادَّعَوْا أنَّهم نَصَارى يَنصرُون الحقَّ، ويتَّبِعُونَ المسيحَ عيسى ابنَ مريمَ عليه السلام؛ أخَذْنا عليهم العُهُودَ والمواثيقَ على طاعَتِي واتِّباعِ رُسُلِي(٤).

﴿فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٥٢-٢٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٥-٢٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٦٦-٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٠١).

أي: فنَسُوا نَصيبًا مِن وَحْيِ اللهِ تعالى، فضاع منهم، كما أنَّهم أهْمَلوا- وتَركوا عن عمدٍ- نصيبًا منه، فلمْ يعملوا به؛ رغبةً عنه، فضيَّعوا أَمْرَ اللهِ سبحانه[١].

﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾.

أي: لَمَّا ترَكَ هؤلاء النَّصارى الوَفاءَ بعهْدِي، عاقَبْناهم بأنْ جَعَلْنا بينهم الشِّقاقَ والعَدَاءَ والتباغُضَ؛ بالأهواءِ التي حدَثَتْ بينهم، واختلافِهم في قَوْلِهم في المسيحِ، فتَسَلَّط بعضُهم على بعضٍ، فكَفَّرَ بَعْضُهم بعضًا، ولعَن بَعْضُهم بعضًا، ولا يزالونَ كذلك إلى قِيامِ السَّاعَةِ[٢].

﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾.

أي: وسوف يُخبِرُهم اللهُ عزَّ وجلَّ- عند وُرودِهم عليه في مَعادِهم- بما كانوا يَعْمَلونه في الدُّنيا مِنْ نَقْضِهم ميثاقَه، ونكْثِهم عَهْدَه، فيُعاقِبُهم على ذلك بحَسَبِ استحقاقِهم[٣].

الفوائدُ التربويَّةُ:

١- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ أنَّه ينبغي للنَّاسِ أن يتَّخِذوا نُقَبَاءَ يرجعونَ إليهم في أُمُورِهم؛ عند النِّزاعِ يكونونَ مُصلِحين، وعند الإشكالِ يكونون مُوَضِّحينَ، وما أشبهَ ذلك[٤].

٢- في قَوْلِه تعالى: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ هذه المعيَّةُ دَلالةٌ على عِظَمِ الاعتناءِ والنُّصْرةِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٥٧-٢٦١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ١٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٠٢-٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٠٣-٢٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٧٧).

فمَن كان اللهُ معه، فلا شَيءَ إذنْ ضِدُّه، ومهما يكُنْ ضِدَّه من شيءٍ، فهو هباءٌ لا وُجودَ في الحقيقةِ له ولا أَثَرَ، ومَن كان اللهُ معه فلن يَضِلَّ طريقَه، ومَن كان اللهُ معه فلنْ يَقْلَقَ ولن يَشقَى؛ فإنَّ قُرْبَه من الله يُطَمْئِنُه ويُسْعِدُه، وعلى الجملةِ فمَن كانَ الله معه فقد ضَمِن، وقد وصَلَ، وما له زِيادةٌ يَستزيدُها على هذا المقامِ الكريمِ(١).

٣- في إيتاءِ الزَّكاةِ اعترافٌ بنِعمةِ اللهِ في الرِّزقِ، ومِلكيَّته ابتداءً للمالِ، وتَحقيقٌ للتكافُلِ الاجتماعيِّ الذي على أَساسِه تقومُ حياةُ المجتمَعِ المؤمِنِ، وإقامةٌ لأُسسِ الحياةِ الاقتصاديَّةِ على المنهجِ الذي يَكفُلُ ألَّا يكونَ المالُ دُولةً بين الأغنياءِ، وألَّا يكونَ تكدُّسُ المالِ في أيدٍ قليلةٍ سببًا في الكَسادِ العامِّ، ويُفضِي إلى الفَسَادِ والاخْتِلالِ في المجتَمَعِ بشَتَّى ألوانِه، كلُّ هذا الشَّرِّ تَحُولُ دونه الزكاةُ، ويَحُولُ دونه مَنْهَجُ اللهِ في تَوْزيعِ المالِ، قال تعالى: ﴿وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ﴾(٢).

٤- وُجوبُ نُصْرَةِ الرُّسُلِ؛ لقوله: ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾، فنُصْرَتُهم في حياتهم أن يكونَوا معهم في الجهادِ والدِّفاعِ، وغير ذلك، ونُصْرَتُهم بعد وَفاتِهم أن يَنصُروا شَرَائِعَهم ويُقِيمُوها بين النَّاسِ، فواجِبٌ علينا نحن الآن أن نَنْصُرَ شريعةَ النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّمَ(٣).

٥- أنَّه يُبْدَأُ بالنَّجاةِ مِنَ المرْهوبِ قبل بيانِ حُصُولِ المَطْلوبِ؛ لِقَوْلِه: ﴿لأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ﴾، وهو شاهدٌ لِمَا اشْتَهَرَ عند العُلماءِ أنَّ التَّخْلِيَةَ قَبل التَّحْلِيَة، أي: إزالةُ الشَّوائِبِ والعوائِقِ قبل أن يَحصُلَ المَطْلوبُ(٤).

٦- قَوْله: ﴿فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ فيه أنَّ المؤمِنَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٠٣)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٨٥٧).
(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيِّد قطب (٢/ ٨٥٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٨٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٨٥).

اهتدى إلى سواءِ السَّبيلِ؛ أي: وَسَطَها دُونَ حافتَيْها، وجهُ ذلك: أنَّه إذا ثبَتَ في حُكم الكافِرِ ضلالُ سواءِ السَّبيلِ، فَيَثْبُتُ ضدُّ حُكْمِه للمُؤْمِنِ؛ وذلك لأنَّه إذا تضادَّتِ الأَعْمالُ تضادَّتِ الجزاءاتُ[1].

٧- يُستَفادُ من قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ أنَّ للقُلوبِ أحوالًا: قسوةً ولينًا، وأنَّه كلَّما عصى الإنسانُ ربَّه قَسَا قلبُه، وعلى العكس: كلَّما أطاعَ الإنسانُ ربَّه لانَ قلبُه، وما أكثرَ الذين يَطلُبون أن تلينَ قلوبُهم، ويسألونَ ما هو الدواءُ لقَسْوَةِ القَلْبِ؟ فالجوابُ أنَّ الدَّواءَ لقَسْوَةِ القلب: كثرةُ طاعَةِ الله عزَّ وجلَّ[2]، والإكثارُ مِن الذِّكْرِ، وقراءةُ القرآنِ بتدبُّر.

٨- أنَّ المعاصِيَ سببٌ لقلَّة فَهْم كلام الله عزَّ وجلَّ، أو للعُدْوانِ في فَهمِه؛ لقوله: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾، وتحريف الكَلِم عن مواضعه: إمَّا أن يكون سببُه الجهلَ وفَقْدَ العِلم، وإمَّا أن يكون سببُه الاستكبارَ والعدوان، فالمعاصِي سببٌ لعَدَمِ الأخْذِ بالنُّصوصِ، وسببٌ لتَحْريفِها[3].

٩- يُستفادُ مِنْ قَوْلِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أنَّ قسوةَ القلبِ، وتحريفَ الكَلِمِ عن مواضعه، ونسيانَ ما ذُكِّرَ به الإنسانُ؛ مِن خصالِ اليهودِ، وإذا كانتْ من خِصالِهم، فالواجبُ على الإنسانِ أن يبتَعِدَ عنها، وأن يَفِرَّ منها فِرارَه مِنَ الأَسَدِ[4].

١٠- يُستَفاد مِنْ قَوْلِه: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٩٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

حُسْنُ معامَلَةِ الإسلام لعدوِّه، وذلك حين أَمَرَ اللهُ بالعفو عنهم والصَّفْحِ، ولا سيَّما إذا ظَهَرَ النَّصْرُ لنا، فحينئذٍ يأتي دورُ العَفْوِ؛ لأنَّ العَفْوَ الحقيقيَّ الذي يُمدَحُ عليه صاحِبُه، هو: العَفْوُ مع القُدْرَةِ، أمَّا العَفْوُ مع العَجْزِ، فهذا ليس بِعَفْوٍ، ولا يُحمَدُ عليه الإنسانُ(١).

١١ - قوله: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ هذا كالتَّعليلِ لِمَا سبَق مِنْ قَوْلِه: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾، أي: إنَّما أَمَرْناك بالعَفْوِ والصَّفْحِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى يحبُّ المحسنينَ، وفيه أيضًا أنَّه إذا كان اللهُ يُحِبُّ ذلك فلا ينبغي التأخُّرُ في العَمَلِ به، وفيه الحثُّ على الإِحْسانِ ومَكارِمِ الأخلاقِ الجالِبةِ لحبِّ الله تعالى(٢).

١٢ - أنَّ عدَمَ المؤاخَذةِ على الذَّنبِ من الإحسانِ؛ لقوله: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾(٣).

١٣ - أنَّ إضاعةَ حقِّ اللهِ مِن أسبابِ إلْقاءِ العَداوةِ والبَغْضاءِ بين الناس، بمعنى أنَّك متى وجدْتَ عداوةً وبَغْضاءَ بين النَّاس، فهذا بسببِ إعراضِهم عن دِينِ اللهِ؛ لقوله: ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا﴾، فالفاءُ في ﴿فَأَغْرَيْنَا﴾ للسَّببيَّةِ، والعكْسُ يكون بالعَكْسِ، بمعنى أنَّ النَّاسَ إذا قاموا بِطاعَةِ اللهِ واتَّفقوا عليها، فإنَّ اللهَ يُلقي بينهم المودَّةَ والمحبَّةَ والولايةَ(٤).

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١ - أنَّ الصَّلاةَ والزَّكاةَ مفروضةٌ على الأُمَمِ السَّابقة؛ لِقَوْلِه: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ﴾، فالصَّلواتُ والزَّكوات مفروضةٌ، لكن لا يَلْزَمُ مِن كَوْنِها

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٩٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٩٥، ٢٠٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٩٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٠٥).

مفروضةً أن تكونَ مماثِلَةً لِمَا وجَبَ علينا في الكيفيَّةِ والوَقْتِ والمقدار(١).

٢- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه تعالى: ﴿أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ﴾ أنَّه يجب إقامتُها على أُصُولِها التي تَجعَلُ منها صلةً حقيقيَّة بين العَبْدِ والرَّبِّ، وعُنْصرًا تهذيبيًّا وتربويًّا وَفْقَ المنهجِ الربَّانيِّ القَويمِ، وناهيًا عن الفَحْشاءِ والمُنكَرِ؛ حياءً من الوقوفِ بين يَدَيِ اللهِ بحصيلةٍ من الفَحْشاءِ والمُنْكر(٢).

٣- بيانُ فَضْلِ اللهِ عزَّ وجلَّ على العِبادِ؛ حيث إنَّه يُعْطِيهم الرِّزْقَ، ثمَّ يقولُ تعالى: ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، وهو المُعطي أولًا، والمثيبُ ثانيًا؛ لقوله: ﴿وَأَقْرَضْتُمُ﴾، والحكمةُ في التَّعبيرِ عن الإنْفاقِ في سبيلِ الله بالقَرْضِ، أنَّ اللهَ جعَلَ الإنفاقَ في سبيلِه بمنزلَةِ القَرْضِ الذي يَلْزَم المُستَقْرِضَ أنْ يُوَفِّيَه(٣).

٤- قوْلُه تعالى: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ﴾ إشارةٌ إلى إزالةِ العِقابِ، وقولُه: ﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ﴾ إشارةٌ إلى إيصالِ الثَّوابِ؛ فجَمَعَ لهم بين حصولِ المحبوبِ بالجَنَّةِ وما فيها من النَّعيمِ، واندفاعِ المكروهِ بتكفيرِ السيِّئاتِ، ودفْعِ ما يترتَّبُ عليها من العُقوباتِ(٤).

٥- أنَّ نعيمَ الجنَّة نعيمٌ للنَّفْسِ والقَلْبِ، والسَّمْعِ والبصر، وكلِّ شيءٍ، وذلك حينما ذكَر أنَّ هذه الجَنَّاتِ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، وهذا لا شَكَّ أنه يُطْرِبُ السَّمْعَ، فحفيفُ جَريانِ النَّهْرِ يُطرِبُ السَّمع؛ ولهذا تَجِدُ الإنسانَ يقِفُ عند الشلَّالاتِ متمتِّعًا بالاستماعِ إليها، وكذلك النَّظَر أيضًا، وكذلك القَلْبُ، والنَّفْسُ تستريحُ(٥).

٦- في هذه الآيَةِ ﴿فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ لطيفةٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٨٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٨٥).

جليلةٌ، وهي أنَّ الضلالَ بعدَ الإيمانِ أظهَرُ وأعظَمُ؛ لأنَّ الكُفْرَ إنَّما عَظُم قُبْحُه لِعِظَم النِّعْمَةِ المكفورةِ، فإذا زادتِ النعمةُ زاد قُبحُ الكُفرِ، وبَلَغ النِّهايةَ القُصْوى[1].

٧- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ التَّنبيهُ على أنَّ الغالِبَ أنَّ وَسَطَ السَّبيلِ والطَّريقِ هو الحقُّ؛ لأنَّ ﴿سَوَاءَ﴾ بمعنى وَسَط؛ كَقَوْله تعالى: ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٥٥]، أي: في وسَطِها ومستَقَرِّها، وهذا هو الغالِبُ؛ أنَّ ما تَطرَّفَ عن الوَسَطِ، فهو ضلالٌ[2].

٨- قوْلُه تعالى: ﴿ونَسُوا حَظًّا﴾: عبَّر بالماضي ﴿نَسُوا﴾؛ لأنَّ النِّسيانَ لا يتجَدَّدُ، فإذا حَصَلَ مضى، حتى يذكِّرَه مذكِّرٌ[3].

٩- يُستَفاد مِنْ قَوْلِه: ﴿وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا﴾ أنَّ النِّسيانَ يأتي لمعنيينِ: الأوَّل: النِّسيان العَمليُّ، ومعناه التَّرْك، والثَّاني: النسيانُ العِلميُّ، وهو النسيان بعدَ الذِّكْر، والمرادُ مِنَ الآيَةِ كِلاهما[4].

١٠- أنَّ هؤلاء قد أُقيمَتْ عليهم الحُجَّة، ولكنَّهم ترَكوا العَمَلَ بعد إقامَةِ الحُجَّةِ؛ لقوله: ﴿مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾[5].

١١- أنَّ خِيانةَ اليَهودِ لا تزالُ باقيةً؛ لِقَوْلِه: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ﴾، وفي ذلك تسليةٌ له صلَّى الله عليه وسلَّمَ[6]، وإرشادٌ للمُسلمين في كلِّ زمانٍ ومكانٍ ألَّا يَنخدِعوا بهم.

١٢- إثباتُ المحبَّةِ لله تعالى؛ لقوله: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾، ومحبَّةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٩١).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٩٨).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٩٩).

الله عزَّ وجلَّ ثابتةٌ بالكِتابِ والسُّنة وإجماعِ السَّلَفِ(١).

١٣- إقامةُ الحُجَّة على الخَصمِ بما يَدَّعيه؛ لقوله: ﴿قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾؛ لأنَّه تقدَّم أنَّ الحِكمةَ مِنْ قَوْلِه: ﴿قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ دون قَوْلِه: (ومِن النَّصارى)؛ لإقامَةِ الحُجَّة عليهم بما ادَّعوه، فهم يَدَّعون أنَّهم نصارى، ومع ذلك نَسُوا حظًّا ممَّا ذُكِّروا به؛ فقد سَمَّوا أنفُسَهم بهذا الاسْمِ؛ ادِّعاءً لنُصرةِ الله تعالى، فبيَّن اللهُ تعالى أنَّهم يَدَّعونَ هذه الصِّفَةَ، ولكنَّهم ليسوا موصوفينَ بها عند الله تعالى، ولم يُحقِّقُوها في حياتهم واقعًا(٢).

١٤- يُستَفاد مِنْ قَوْلِه: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ﴾ وكذلك من قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، وقَوْلِه: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ﴾، أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى لم يُغْفِل أُمَّةً من الميثاقِ الذي أخَذَه عليهم؛ فأخَذَ الميثاقَ على اليهودِ، وأخَذَه على النَّصارى، وأخَذَه على هذه الأُمَّة؛ بل أخَذَه على جميعِ بني آدمَ(٣).

١٥- يُستَفاد مِنْ قَوْلِه: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ التفريقُ بين العَداوةِ والبَغضاءِ، العداوة: ضِدُّها الوَلاية، والبَغضاء: ضِدُّها المحبَّةُ، وهناك فرقٌ بين حبيبٍ ليس وليًّا وبين حبيبٍ هو وَلِيٌّ، وبين بغيضٍ ليس عدوًّا، وبغيضٍ هو عدوٌّ؛ لأنَّ البَغيضَ قد يَعتدي عليك فيكون بذلك بَغيضًا عدوًّا، وقد لا يَعتدي عليك، ولكن يَكْرَهُك فقط، فلا يكون عدوًّا(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٤٦)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٨٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٠٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٠٥).

١٦- الردُّ على الجبريَّة؛ لقوله: ﴿يَصْنَعُونَ﴾، فأضافَ الفعلَ إليهم، والأَصْلُ أنَّ الفِعْلَ إذا أُضيف إلى أحدٍ، فإنَّه قائمٌ به، مختار له، والجَبْرية يقولون: إنَّ الإنسانَ مجبَرٌ على عَمَلِه، حتى في الحرَكاتِ الإراديَّةِ، يقولون: هو مُجبَر، حتى لو أراد الإنسانُ أن يأكلَ أو يشربَ، يقولون: هو مُجبَرٌ على ذلك، ولا شكَّ أنَّ قَوْلَهم هذا يُخالِفُ المحسوسَ والمعقولَ والمنقولَ(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللهُ...﴾

- قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ فيه تأكيدُ الخَبَرِ الفِعلي والاهتمامُ به؛ فـ(قَدْ)؛ للاهتمام به، والقَسَمُ الذي دلَّت عليه هذه اللَّامُ الموطِّئة يُفيدُ أنَّ اللهَ تعالى قد أخذ العهد الموثَّق على بني إسرائيلَ لَيَعْمَلُنَّ بالتَّوراةِ التي شرَعها لهم؛ لإفادةِ تأكيدِ هذا الأَمْرِ وتحقيقِه، والاهتمامِ بما رُتِّب عليه؛ لأنَّ الرَّسولَ قد عُلِّمَه بالوَحْيِ الإلهيِّ، وإنْ لم يَطَّلِعْ على تَوْراتِهم، ولا على شَيءٍ من تاريخِهم(٢).

- ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ﴾: ذكَر الله سبحانه نَفْسَه بالغَيبة؛ تعظيمًا وتكبيرًا له جلَّ وعلا، وَجْهُه أنَّه لم يقُل: (وَلَقَدْ أَخَذْنَا)، وهذا كما يقول الملكُ لجنوده: إنَّ المَلِك يأمُركم أن تَفْعلوا كذا، لا يقول: إنِّي آمُرُكم، فإظهارُ الاسْمِ الجليل (اللهُ)؛ لتربيةِ المهابة، وتفخيمِ الميثاقِ، وتهويلِ الخَطْبِ في نَقْضِه، مع ما فيه من رِعاية حقِّ الاستئنافِ المُستدعِي للانقطاعِ عمَّا قَبْلَه(٣).

٢- وقوله: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾: فيه التفاتٌ، حيث عبَّر بقوله: ﴿بَعَثْنَا﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٧٦).

بعد ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ﴾، ولم يقل: (وأَخَذْتُ)؛ للجَري على سَنَنِ الكِبْرياءِ، وقيل: لأنَّ البَعْثَ كان بواسِطَة موسى عليه السَّلام[١]، فمِن أساليبِ البلاغة الانتقالُ من أسلوبٍ إلى آخَرَ؛ لتنبيهِ المخاطَب، ولا شكَّ أنَّ تغيُّر الأسلوبِ يُوجِبُ الانتباهَ[٢].

- وفيه: تقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿مِنْهُمُ﴾ على المفعولِ الصَّريحِ ﴿اثْنَي عَشَرَ﴾؛ للاهتمامِ بالمقدَّم، والتَّشويقِ إلى المُؤَخَّر[٣].

٣- وقوله: ﴿وَقَالَ اللهُ﴾ فيه: التفاتٌ أيضًا؛ حيث لم يقُل: (وقُلْنَا) كما قال ﴿وَبَعَثْنَا﴾، وفائدتُه: تربيةُ المهابةِ، وتأكيدُ ما يتضمَّنُه الكلامُ مِنَ الوَعْدِ[٤].

٤- قوله: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي﴾ فيه: تقديمُ الصَّلاةِ والزَّكاةِ على الإيمانِ؛ تشريفًا لهما، وقد عُلِمَ وتَقرَّر أنَّه لا ينفعُ عَمَلٌ إلَّا بالإيمانِ[٥]، وأخَّرَ الإيمانَ بالرُّسُلِ عن إقامِ الصَّلاة وإيتاءِ الزكاة، مع أنَّه مقدَّمٌ عليهما؛ لأنَّ اليهودَ كانوا مُقرِّينَ بأنَّه لا بدَّ في حُصولِ النَّجاة من إقام الصَّلاةِ وإيتاء الزكاة، إلَّا أنَّهم كانوا مُصِرِّين على تكذيبِ بعضِ الرُّسُل، فذَكَر أنَّ بعدَ إقام الصلاة وإيتاء الزكاة لا بدَّ من الإيمانِ بجميعِ الرُّسُل؛ حتى يحصُلَ المقصودُ، وإلَّا لم يكُن لإقامِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزكاة تأثيرٌ في حُصولِ النَّجاة بدونِ الإيمانِ بجميعِ الرُّسُل[٦].

٥- قوله: ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ فيه: تخصيصُ الإنفاقِ (الإقراض)

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٧٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٠٣).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٢٥٠)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٨٤).

بالذِّكْرِ؛ تنبيهًا على شَرفِه وعُلُوِّ مَرتَبَتِه[١].

- وفائدةُ إعادَةِ قَوْلِه: ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ بالرَّغمِ من أنَّه داخلٌ تحتَ إيتاءِ الزَّكاة؛ لأنَّ المرادَ بالزكاةِ الواجبةُ وبالقرضِ الصَّدقةُ المندوبةُ، وخصَّها تنبيهًا على شَرفِها، وقد نبَّه على الصَّدقاتِ المَندوبَةِ بذِكْرها فيما يترتَّبُ على المجموعِ تشريفًا وتعظيمًا لمَوْقِعِها من النَّفْعِ المتعدِّي[٢].

٦- **قوله: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾**: فيه إيجازٌ بديعٌ، وبيانُ ذلِك: أنَّ العَداوةَ والبغضاءَ اسمانِ لمعنَيينِ مِن جِنسِ الكَراهيةِ الشَّديدةِ؛ فهُمَا ضِدَّانِ للمحبَّةِ، وظاهِرُ عطفِ أَحدِ الاسمينِ على الآخَرِ في القُرآنِ أنَّهما ليسَا من الأسماءِ المترادِفةِ؛ لأنَّ التزامَ العَطفِ بهذا الترتيبِ يَبعُد أنْ يكونَ لمجرَّدِ التأكيد؛ فإذا كان كذلك لم يَصِحَّ اجتماعُ مَعنيي العَداوةِ والبغضاءِ في موصوفٍ واحدٍ في وقتٍ واحدٍ؛ فيتعيَّن أنَ يكونَ إلقاؤُهما بينهما على معنى التَّوزيعِ، أي: أَغْرَيْنا العداوةَ بين بعضٍ منهم والبغضاءَ بين بعضٍ آخَرَ؛ فوقَع في هذا النظم إيجازٌ بديعٌ؛ لأنَّه يرجع إلى الاعتمادِ على عِلْمِ المخاطَبين بعدَم استقامةِ اجتماعِ المعْنَيَيْنِ في موصوفٍ واحدٍ؛ إذ إنَّ بين مَعْنَيَي العداوة والبغضاءِ التضادَّ والتبايُنَ؛ فالعداوةُ كراهيةٌ تَصدُر عن صاحِبِها: معاملةٌ بجَفاء، أو قطيعةٌ، أو إضرارٌ؛ لأنَّ العداوةَ مشتقَّةٌ من العَدْوِ، وهو التجاوُز والتباعُدُ. وأمَّا البغضاءُ فهي شدَّةُ البُغْضِ والكراهية، غيرَ مصحوبةٍ بعَدْوٍ، فهي مُضْمَرَةٌ في النَّفْسِ[٣].

٧- **قوله: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾**: خبرٌ فيه توبيخٌ لهم وزجرٌ عمَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٢٥٠)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٤٧، ١٤٨).

ادَّعَوْه مِن أنَّهم ناصِرو دِينِ الله وأنبيائِه؛ إذ جَعَل ذلك منهم مُجرَّدَ دَعوى لا حقيقة(١).

- وفيه تعريضٌ؛ حيث يُفيدُ لفظُ ﴿قَالُوا﴾ بطريقِ التَّعريضِ الكِنائيِّ أنَّ هذا القولَ غيرُ مُوَفًّى به، وأنَّه يَجِبُ أن يُوفَّى به(٢).

٨- قوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾: فيه تأكيدُ الكلامِ وتمكينُه في النَّفْسِ بذِكر (مَا)(٣).

٩- قوله: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ التعبيرُ بصِيغة المضارعِ في قوله: ﴿يُحَرِّفُونَ﴾؛ للدَّلالة على التجدُّدِ والاستِمْرارِ(٤).

- والجملةُ استئنافٌ لِبَيانِ قَسْوةِ قلوبِهم؛ فإنَّه لا قسوةَ أشدُّ من تغييرِ كلامِ الله سبحانه وتعالى والافتراءِ عليه(٥)، وقيل: حالٌ من مفعول ﴿لَعَنَّاهُمْ﴾، أي: لعنَّاهم حالَ كونِهم محرِّفين الكَلِم(٦).

١٠- قوله: ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾: فيه تأكيدُ الوعيدِ بذِكْرِ كلمةِ (سَوْفَ). والالتفاتُ إلى ذِكر الاسمِ الجليلِ (الله)؛ لتربيةِ المهابَةِ، وإدخالِ الرَّوعةِ؛ لتشديدِ الوعيدِ بعذابِ الآخِرَةِ(٧).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٠٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق))، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٤٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٦).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٦).
(٧) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٥٠).

الآيتان (١٥ - ١٦)

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿سُبُلَ السَّلَامِ﴾: طُرُقَ السَّلامَة، أو طُرُقَ الجَنَّة، أو طُرُقَ الله، وهي دِينُه[1].

المعنى الإجماليُّ:

يُوجِّه اللهُ الخِطابَ إلى أَهْلِ الكتابِ منَ اليهودِ والنصارى مُبيِّنًا لهم أنَّه قد بعَث إليهم رَسُولَه محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّم الذي يَعرِفونَ أوصافَه في كتُبِهم، يُظْهِرُ كثيرًا ممَّا كانوا يُخْفُونه عن النَّاسِ، ويوضِّحُ ما حرَّفوا وبدَّلوا مِن كلامِ الله، ويَتْرُكُ كثيرًا ممَّا غيَّروه وكَتَموه ممَّا لا فائدةَ مِن بيانه وذِكْرِه، ثم ذَكَّرَهم تعالى بأنَّه قد جاءَهم من اللهِ كتابٌ عظيمٌ، وهو القرآنُ الكريمُ، وهو نورٌ يُستضاءُ به في ظُلُماتِ الجَهْلِ والغَوايةِ، ويبيِّن للخَلْقِ كلَّ ما يحتاجونَه من أمورِ دِينِهم ودُنياهم، ويُرشِدُ اللهُ به مَن أرادَ الوصولَ إلى رِضاه جلَّ وعلا، فيوفِّقُهم لسُلُوكِ طُرُقِ النَّجاةِ والأمْنِ والسَّلامَةِ في الدُّنيا والآخِرَةِ، حتى يَبلُغوا الجَنَّةَ؛ دارَ السَّلامِ، ويُخرِجُهم من ظُلُماتِ الكُفْرِ والمعاصي إلى نورِ الإيمانِ والطَّاعة بمشيئَتِه سبحانه، ويَهديهم إلى الطَّريقِ القَويمِ، وهو دِينُه الحَنيفُ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٩).

تَفسيرُ الآيتين:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى عن اليَهُودِ والنَّصارى نقْضَ العَهْدِ، ودَحَضَ حُجَّتَهم، ووَضَّحَ أُكْذُوبَتَهم من ادِّعائِهم أنَّهم ﴿أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ اقتضى ذلك الالتفاتَ إلى وعْظِهم على وَجْهِ الامتنانِ عليهم، وإبطالِ ما عساهم يَظنُّونه حُجَّةً، فدَعاهم إلى الإيمانِ بمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ[١]، فقال:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾.

أي: يا أيُّها اليهودُ والنَّصارى- يا من تَعلمونَ مِن التَّوراةِ والإنجيلِ صِفاتِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ وثُبوتَ بَعْثتِه- ها قد أتاكم مُحمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّمَ[٢].

﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾.

أي: جاءَكم يُظْهِرُ كثيرًا ممَّا كنتم تَكتُمونَه عن النَّاسِ، ويُوضِّحُ ما بدَّلْتُموه وحرَّفْتُموه وأوَّلْتُموه على غيرِ وَجْهِه المُرادِ.

وممَّا كانوا يُخفونَ مِنْ أَحْكامِ التَّوراةِ: رجْمُ الزَّاني المحصَنِ، ومِن ذلك: ما أخفاه اليهودُ من صِفاتِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ في كتابِهم، وإنكارُهم أنَّهم يَعرفونَ أنَّه هو الرسولُ المُنتظَرُ، ومن ذلك: كتْمُ النَّصارى بِشارةَ عيسى ابنِ مريمَ لهم بمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٢٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٦١-٢٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٦٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٧٨)، ((تفسير ابن =

﴿وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾.

أي: ويَترُكُ ذِكرَ كثيرٍ ممَّا كَتَمْتموه وغيَّرْتُموه ممَّا لا فائدةَ في بيانِه، ولا ذِكْرِه[1].

قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١].

﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾.

أي: قد جاءَكم- يا أهلَ التَّوراةِ والإنجيلِ- مِنَ اللهِ تعالى القرآنُ العظيمُ، الذي نزَل على محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ نورٌ يُستضاءُ به في ظُلماتِ الجَهالة، وعَمَايَةِ الضَّلالة، ويُنيرُ لكم به معالِمَ الهِدايَةِ، وهو نورٌ في قلوبِ أَهْلِه المتَّبِعينَ له، ونورٌ في وُجُوههم، ونورٌ في قُبُورِهم، ونورٌ لهم يومَ القيامَةِ، وهو كتابٌ يُبيِّنُ للخَلْقِ كلَّ ما يحتاجونَ إليه من أُمُورِ دِينِهم ودُنياهم[2].

﴿يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٦)﴾.

﴿يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾.

أي: يُرشِدُ اللهُ عزَّ وجلَّ ويُسدِّدُ بهذا القرآنِ العظيمِ، مَن ابتغى بلوغَ مَرْضاةِ الله تعالى فأَقْبَل عليه، وأسلمَ وآمَنَ بالله ربًّا، وبمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ نبيًّا،

= كثير)) (٣/ ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٣٧٠-٣٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٠٦-٢٠٧).

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ١٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٠٧-٢٠٨، ٢١٢-٢١٣).

وذهَب ابنُ جريرٍ إلى أنَّ المرادَ بقوله: ﴿نُورٌ﴾ محمدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم، وقال به قتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٦١)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (١/ ٥٢٩).

فيُرْشِدُه ويوفِّقُه إلى اتِّباع شرائعِ الإسلامِ، التي فيها النَّجاةُ والأمنُ والسَّلامةُ في الدُّنيا والآخِرة، حتى يَستقرَّ في الجَنَّةِ؛ دارِ السَّلامِ، المنزَّهةِ عن كلِّ آفةٍ، والمُؤمَّنَةِ مِن كلِّ مَخافةٍ(١).

﴿وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ﴾.

أي: ويُخْرِجُ مَن اتَّبَعَ رِضوانَه، وهَدَاه سُبُلَ السَّلامِ، مِن ظُلُماتِ الكُفرِ والشِّركِ والمعاصِي، إلى نورِ الإيمانِ واليقينِ والطَّاعَةِ بمشيئةِ الله عزَّ وجلَّ(٢).

﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

أي: ويُرشِدُهم ويُسدِّدُهم إلى طريقٍ لا اعوجاجَ فيه، وهو دِينُ اللهِ القَويمُ(٣).

الفوائد التربويَّة:

١- أنَّه كلَّما اتَّبَعَ الإنسانُ ما يُرْضي اللهَ، ازدادَ معرفةً بشريعةِ اللهِ؛ لِقَوْلِه: ﴿يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾، وعلى العَكْسِ؛ فمَن أعْرَضَ عن رِضوانِ الله، فإنَّه لا يُهدَى سُبُلَ الله؛ لأنَّه ليس أهلًا للهِدايةِ(٤).

٢- يُستَفادُ مِن قَوْلِه سبحانه: ﴿سُبُلَ السَّلَامِ﴾ أنَّ مَن سلكَ سَبيلَ الشريعةِ فقد سَلِم سلامةً مُطلَقةً؛ في عقيدَتِه، وأعمالِه، وجزائِه؛ لأنَّ هذا المسلكَ سيؤدِّي به

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٦٤-٢٦٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ١٧١)، ((تفسير القرطبي)) (٦/ ١١٨-١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٣٧٠-٣٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٠٨-٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٦٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ١٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٠٩-٢١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢١٥).

إلى دارِ السَّلامِ التي يدعو اللهُ تعالى إليها؛ كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[1] [يونس: ٢٥].

٣- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه تعالى: ﴿وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ﴾ أنَّ الجاهليَّةَ كلَّها ظلماتٌ؛ ظُلمةُ الشُّبهاتِ والخُرافاتِ والأساطيرِ والتصوُّراتِ، وظلمةُ الشَّهَواتِ والنَّزَعاتِ والاندفاعاتِ في التِّيه، وظلمةُ الحَيْرةِ والقَلَقِ، والانقطاعِ عن الهُدى، والوَحْشَةِ من الجَنابِ الآمِنِ المأنوسِ، وظلمةُ اضطرابِ القِيَمِ، وتَخَلْخُلِ الأحكامِ والقِيَمِ والموازينِ[2].

٤- أنَّه كلَّما تمسَّكَ الإنسانُ بشريعةِ الله هداه اللهُ تعالى؛ لقوله: ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾؛ فالمعاصي سببٌ للزَّيْغِ، والطَّاعةُ والامتثالُ سببٌ للهِدايَةِ والرَّشَدِ، وهذا له أمثلةٌ كثيرة في القرآنِ[3].

الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف:

١- قوله: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ عبَّر بالمضارِعِ في ﴿يُبَيِّنُ﴾ إشارةً إلى أنَّ دِينَه وبيانَه لا ينقَطِعُ أصلًا بحِفْظِ كِتابِه، فكلَّما دَرَسَتْ سُنَّةٌ قيَّضَ الله عالِمًا يردُّ النَّاسَ إليها بالكِتابِ المعْجِزِ القائِمِ أبدًا؛ فلذلك لا يحتاجُ الأمْرُ إلى نبيٍّ مجدِّدٍ إلَّا عند الفِتنَةِ التي لا يُطيقُها العلماءُ، وهي فتنةُ الدَّجَّالِ ويأجوجَ ومَأْجوجَ[4]، وينزِلُ عيسى عليه السَّلامُ حاكمًا بشريعةِ الإسلامِ، لا نبيًّا برسالةٍ مستقلةٍ، وشريعةٍ ناسخةٍ[5].

٢- قوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾: هم اليهودُ والنَّصارى، أضافَهم اللهُ تعالى إلى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٨٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٢١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٧٠).

(٥) ينظر: ((طرح التثريب)) للعراقي (٧/ ٢٦٥).

الكِتابِ، وسمَّاهم أهلًا له؛ لإقامةِ الحُجَّةِ عليهم ونَفْيِ العُذْرِ؛ فعندهم علمُ معرفةٍ؛ ويعرِفونَ الرسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم كما يعرِفون أبناءَهم(١).

٣- رِفْعةُ شأنِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ وذلك لِقَوْلِه: ﴿رَسُولُنَا﴾، فإنَّ إضافةَ رِسالَتِه إلى الله لا شكَّ أنَّها شَرَفٌ، وكلُّ ما يُضافُ إلى الله فهو شَرَفٌ(٢).

٤- أنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ مُرسَلٌ إلى أهلِ الكتابِ؛ لِقَوْلِه: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾، وهو كذلك، فهو مُرْسَلٌ إليهم بالقرآنِ والسُّنةِ وإجماعِ المسلمين(٣).

٥- أنَّ أهلَ الكتابِ أهلُ كِتمانٍ للعِلم؛ لقوله: ﴿كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾، وأنَّ مَن كتَم العِلْمَ مِن هذه الأمَّة ففيه شَبَهٌ باليهودِ والنَّصارى؛ لأنَّ هذا هو دَأْبُهم؛ فمَن كتَم فقد شابَهَهم في أَقْبَحِ خَصلة- والعياذُ بالله- وهي كتمانُ ما جاءَهم مِنَ العِلْم(٤).

٦- قوْلُه تعالى: ﴿مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ...﴾ في هذه الآيةِ دلالةٌ على صِحَّةِ نُبوَّةِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لأنَّ إعلامَه بما يُخفون مِن كِتابِهم- وقد أَخْفَى النَّصارى التوحيدَ، وأخفى اليهودُ كثيرًا من أحكامِ الشَّريعةِ كرَجْمِ الزَّاني، وتحريمِ الرِّبا كافَّةً، كما أَخْفَوا جميعًا خبرَ بَعْثةِ النبيِّ الأميِّ- وهو أُمِّيٌّ لا يقرأ ولا يَكتُب ولا يَصْحَبُ القرَّاءَ؛ دلالةٌ على أنَّه إنما يُعلِّمُه اللهُ تعالى(٥).

٧- قال تعالى: ﴿سُبُلَ السَّلَامِ﴾: ما أدقَّ هذا التعبيرَ وأصدَقَه! إنَّه «السَّلام» هو ما يَسْكُبه هذا الدِّينُ في الحياةِ كلِّها؛ سلامُ الفَرْدِ، وسلامُ الجَماعَةِ، وسلامُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢١١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢١٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٦)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٨٦١).

العالَم، سلامُ الضَّمير، وسلام العَقْلِ، وسلامُ الجوارح، سلام البيت والأُسرة، وسلامُ المجتمعِ والأُمَّة، وسلامُ البشر والإنسانيَّة، السَّلامُ مع الحياة، والسَّلام مع الكَونِ، والسَّلام مع اللهِ ربِّ الكونِ والحياةِ، السَّلام الذي لا تَجِدُه البشريَّة- ولم تجدْه يومًا- إلَّا في هذا الدِّينِ وإلَّا في منهجِه ونِظامه وشريعته، ومجتمعِه الذي يقومُ على عقيدتِه وشريعتِه، ولا يُدرِكُ عُمْقَ هذه الحقيقة كما يُدرِكها مَن ذاق سُبُلَ الحَرْبِ في الجاهليَّات القديمة أو الحديثةِ، ولا يُدْرِكُ عُمْقَ هذه الحقيقةِ كما يُدرِكها مَن ذاقَ حربَ القَلَقِ الناشِئ من عقائدِ الجاهليَّة في أعماقِ الضَّمير، وحربَ القلق الناشِئ من شرائع الجاهليَّة وأنظمتِها وتخبُّطها في أوضاعِ الحياة[1].

٨- قوله: ﴿سُبُلَ السَّلَامِ﴾ لم يَقُلْ: (سَبِيْلَ السَّلام)، مع أنَّ التعبيرَ الغالب أنه يُعبَّر عن طَريقِ الإسلامِ بالإفراد، وعن طُرُقِ الضلال بالجَمْع، لكن هنا لَمَّا قال: ﴿اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾ تعيَّن أن يكونَ المرادُ بالسُّبُل هنا شرائعَ الإسلامِ؛ لأنَّه إذا كان متَّبِعًا لرضوان الله فقدِ اهتدى وأسلَمَ وآمَن، لكنَّ الإسلامَ له شرائعُ وله سُبلٌ؛ فلهذا قال: ﴿سُبُلَ السَّلَامِ﴾، وإضافةُ السُّبل إلى السَّلام من بابِ إضافةِ الشيءِ إلى مُسبِّبه؛ أي: السُّبلُ التي يَحصُل بها السَّلامُ، فالسَّلام مِن كل شيءٍ، والسَّلامُ من النَّار، والسَّلام من الزيغ، والسَّلام من الشُّبهات، يعني تشمَلُ كلَّ معنًى تحتمِلُه كلمة السَّلام، أمَّا الإسلامُ جملةً فهو سبيلٌ واحد[2].

٩- إثباتُ الرِّضا لله تعالى؛ لقوله: ﴿يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾، فالرِّضوانُ بمعنى الرِّضا أو الرِّضا الكثيرِ، والرِّضا: صِفةٌ فعليَّة من صِفاتِ الله عزَّ وجلَّ، تتعلَّق بمشيئته ولها سببٌ، وسببُها عملُ العبدِ بتوفيقِ الله[3].

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٨٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٠٨، ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢١٥).

١٠- قوله تعالى: ﴿وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ فيه الردُّ على القَدَريَّة الذين يقولون: إنَّ اللهَ لا علاقةَ له بفِعل العَبْدِ[١].

١١- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ﴾ أنَّ الشَّريعةَ نورٌ، وهي كذلك؛ هي نورٌ لا شكَّ، ولا يُحِسُّ بذلك إلَّا مَن آتاه الله تعالى إيمانًا ويقينًا كاملًا، وكلَّما كَمُل الإيمانُ ازدادَ الإنسانُ نورًا، وتَبيَّنَ له نورُ الشَّريعة[٢].

١٢- قوْلُه تعالى: ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ لفظة ﴿صِرَاطٍ﴾ مُفرَدةٌ؛ لأنَّ الحقَّ واحدٌ لِذَاتِه، ومُتَّفِقٌ من جميعِ جِهاتِه، وأمَّا الباطِلُ ففيه كثرةٌ، وكلُّها مُعْوَجَّة[٣].

بلاغةُ الآيتين:

١- قوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾: فيه التفاتٌ إلى خِطابِ الفَريقينِ- اليهودِ والنَّصارى[٤]، ووحَّد الكِتاب مع أنَّ لكلِّ فريقٍ كِتابًا؛ لأنَّه أراد جِنسَ الكِتابِ[٥].

٢- قوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ﴾: جملة مُستأنَفةٌ مسوقةٌ لبيانِ أنَّ فائدةَ مجيءِ الرَّسولِ ليستْ منحصرةً فيما ذُكِرَ[٦].

- وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿مِنَ اللهِ﴾ على الفاعِلِ ﴿نُورٌ﴾ للمُسارَعةِ إلى بيانِ كَوْنِ المجيءِ من جِهته العاليةِ، والتَّشويق إلى الجائي، ولأنَّ فيه نَوعَ تطويلٍ يُخِلُّ تقديمُه بتجاوُبِ أطرافِ النَّظْم الكريمِ، وتنكيرُ ﴿نُورٌ﴾؛ للتَّفْخيمِ[٧].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢١٩).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٢٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣٢٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١١٨).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨).
(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨)، ((تفسير الألوسي)) (٣/ ٢٦٩).

- وجملة ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ﴾ بدلٌ مِن جملة ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ بدل اشتمالٍ؛ لأنَّ مَجيءَ الرسولِ اشتمَل على مجيءِ الهُدى والقرآنِ؛ ولذلك فُصِلتْ عنها-أي: لم تُعطَفْ عليها بالواو- وأُعيدَ حرفُ ﴿قَدْ﴾ الدَّاخِلِ على الجُملةِ المبدَلِ منها؛ زيادةً في تحقيقِ مَضمونِ جُملةِ البَدل؛ لأنَّ تعلُّقَ بَدَلِ الاشتمالِ بالمُبْدَل منه أضْعَفُ من تَعَلُّقِ البَدَلِ المطابِقِ[1].

٣- قوله: ﴿يَهْدِي بِهِ اللهُ﴾ فيه: توحيدُ الضَّميرِ في قوله: ﴿بِهِ﴾ مع أنه عائِدٌ على ﴿نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾؛ لأنَّ المرادَ بالنُّورِ والكِتابِ المبينِ واحدٌ: (القرآنُ)، أو لأنَّهما كواحدٍ في الحُكم؛ إذا كان النورُ غيرَ الكِتابِ المُبينِ[2].

- وتقديمُ الجارِّ والمجرور (بِه)؛ للاهتمامِ، وإظهارِ لفظ الجلالةِ (الله) في موضِع الإضمارِ؛ لإظهارِ كمالِ الاعتناءِ بأمْرِ الهِدايةِ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨).

الآيات (١٧ - ١٩)

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٨) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٩) ﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿عَلَى فَتْرَةٍ﴾: على حِين فُتورٍ من الإرسالِ، وانقطاعِ الوَحْيِ، وأصل الفُتور: السكون بعد الحِدَّة، واللِّينُ بعدَ الشِّدَّة، والضَّعْف بعد القُوَّة(١).

﴿بَشِيرٍ﴾: مُبشِّرٌ مَن أطاعَه، وأصلُ البُشرى: ظهورُ الشيءِ مع حُسنٍ وجمالٍ(٢).

﴿نَذِيرٍ﴾: مُنذِرٌ مَن عصاه، وأصْلُ النِّذارةِ: التخويفُ(٣).

المعنى الإجماليُّ:

يُخبر تعالى مُقْسِمًا أنَّ النَّصارى- القائلين بأنَّ الله هو عيسى ابنُ مريمَ- قد

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٢).

كَفروا، وأمَرَ نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ أن يقولَ لهؤلاء النَّصارى على سبيلِ الإنْكارِ والتَّوبيخ: من ذا الذي يملِكُ مِنْ أَمْرِ الله وإرادته شيئًا يَدْفَعُ به الهلاكَ عن المسيحِ وعن أمِّه وعن سائرِ أهلِ الأرضِ، إن أرادَ الله أن يُهْلِكَهم ويُبِيدَهم، لا أحدَ يَستطيع أنْ يدفع عن نفسِه الهلاكَ، فالجميعُ تحتَ قدرةِ اللهِ وإرادتِه وقهرِه، والمسيحُ وأمُّه في ذلك كسائرِ المخلوقاتِ، فدلَّ ذلك على بُطلانِ أُلُوهيَّة مَن سِوَى اللهِ تعالى، ولله وَحْدَه مُلكُ السَّمواتِ والأَرْضِ وما بينهما؛ يَخلُقُ ما يشاء، وهو على كلِّ شيءٍ قادرٌ، لا يُعْجِزُه شيءٌ.

ثم يُخبر تعالى أنَّ كلًّا مِنَ اليَهُودِ والنَّصارى ادَّعَوْا أنَّهم في القُرْبِ من اللهِ بمنزلَةِ أبنائِه، وأحِبَّائِه، وأمَر نبيَّه مُحمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ أن يقولَ لهم: إنْ كنتم حقًّا كما تَدَّعُونَ مِن كَوْنِكم أبناءَ اللهِ وأحباءَه، فلِمَ يُعذِّبُكم بذُنُوبِكم التي تَقْتَرِفونها؟! فالأمْرُ ليس كما تَدَّعُونَ، بل أنتم بشرٌ ممَّن خَلَقَ الله، يَغفِرُ لِمَن يشاءُ، ويُعذِّبُ مَن يشاءُ سبحانه، فله مُلْكُ السَّمواتِ والأرض وما بينهما، وإليه سبحانه المرجِعُ والمصيرُ في الآخِرَةِ.

ثم وجَّه الله الخطابَ إلى أَهْلِ الكتابِ مِنَ اليَهودِ والنَّصارى، أنَّه قد جاءَهم رَسولُه محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّمَ يُوضِّحُ لهم الطريقَ القويمَ، والدِّين الحقَّ، في وقتٍ اشتدَّت الحاجةُ إليه بعد انقطاعٍ من الرُّسُلِ؛ أَرْسَلَه اللهُ تعالى حتى لا يكونَ لهم حُجَّةٌ فيقولوا: ما جاءَنا من بشيرٍ ولا نَذيرٍ، فقد جاءهم بشيرٌ ونذيرٌ هو محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم، واللهُ على كلِّ شيء قادرٌ، لا يُعْجِزُه شيءٌ، ومن ذلك قُدرتُه على خَلْقِ عيسى عليه السَّلامُ من أمٍّ بلا أبٍ، وقدرتُه على إهلاكِه وأُمِّه وجميعَ مَن في الأرضِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ

شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر تعالى أخْذَ الميثاقِ على أهلِ الكِتابين، وأنَّهم لم يَقوموا به، بل نَقَضُوه، ذكَر أقوالَهم الشَّنيعةَ، فذكَر قول النَّصارى وردَّ عليهم[1]، فقال:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾.

أي: أُقْسِمُ على أنَّ الذين ادَّعَوا أنَّ عيسى ابنَ مريمَ هو الله، قد كَفروا[2].

﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾.

أي: قُلْ- يا مُحمَّدُ- لهؤلاءِ النَّصارى الجَهَلَةِ الذين افتَرَوْا عليَّ، وضلُّوا عن سواءِ السَّبيلِ بقَوْلِهم: إنَّ اللهَ هو المسيحُ ابنُ مريمَ، قل لهم: فمَن الذي يُطيقُ إذَنْ أن يَدْفَعَ مِن أَمْرِ اللهِ جلَّ وعزَّ شيئًا، فيردَّه إذا قَضاه؟! فلو أراد أن يُهلِكَ المسيحَ ابنَ مريمَ بإعدامِه من الأَرْضِ وإعدامِ أُمِّهِ مريمَ، وإعدامِ جميعِ مَن في الأَرْضِ من الخَلْقِ جميعًا؛ فمَن الذي يَقدِرُ على مَنْعِه وصَرفِه عن ذلك؟! وإذا كان المذكورونَ لا امتناعَ عندهم يمنَعُهم لو أرادَ اللهُ أن يُهْلِكَهم، ولا قُدْرَةَ لهم على ذلك- دلَّ على بُطلان إلهيَّةِ مَن لا يمتَنِعُ من الإهلاكِ، ولا في قوَّتِه شيءٌ من الفَكاكِ[3].

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٢١-٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٦٦-٢٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٦-٢٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٢٣-٢٢٥).

أي: ولله عزَّ وجلَّ وَحْدَه أمرُ تدبيرِ جميعِ ما في السَّمواتِ وما في الأَرْضِ وما بينهما وتصريفِها؛ فهُم خَلقُه، مملوكونَ له مُدَبَّرون بأمْرِه، فيُهْلِك منهم ما يشاءُ، ويُبْقِي منهم ما يَشاء، ويُوجِدُ ما أراد حتى لو كان من أمٍّ بلا أبٍ، ويُعْدِمُ ما أراد، لا يمنَعُه من ذلك مانِعٌ، ولا يَدفَعُه عنه دافعٌ؛ يُنْفِذُ فيهم حُكْمَه، ويُمْضِي فيهم قضاءَه، ولن يقدِرَ على ذلك أحدٌ غيرُ الله الواحِدِ القهَّار؛ فكيف زَعَمْتُم- أيُّها النَّصارى- أنَّ المسيحَ إلهٌ، وهو لا يُطيقُ شيئًا من ذلك؟! وكيف يكونُ المملوكُ العبدُ إلهًا معبودًا؟! فهذا من أعظمِ المُحالِ[1].

﴿وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: إنَّ المعبودَ الحقَّ جلَّ جلالُه هو القادرُ على كلِّ شيء؛ فلا يُعْجِزُه شيءٌ أرادَه، ولا يَغْلِبه شيءٌ طلبَه، ومن ذلك قُدْرَتُه على خَلْقِ عيسى عليه السَّلامُ من أمٍّ بلا أبٍ، وهو القادِرُ أيضًا على إهلاكِ المسيحِ وأمِّه ومن في الأرض جميعًا سبحانه وتعالى[2].

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٨)﴾.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾.

أي: قال كلٌّ من اليهودِ والنَّصارى: نحن أبناءُ اللهِ وأحبَّاؤه، في مَودَّته وإكرامِه وإعزازِه لنا، وحُنوِّه وعَطفِه علينا[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٦٧-٢٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٢٥-٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٦٩-٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٦٨-٦٩)، ((تفسير =

﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾.

أي: قلْ لهم- يا محمَّدُ- إنْ كان الأمرُ كما تَدَّعونَ مِن أنَّكم أبناءُ اللهِ تعالى وأحبَّاؤُه، فأخْبروني- إذنْ- لِمَ أَعَدَّ اللهُ لكم نارَ جهنَّم على كُفْرِكم وافترائِكم وذُنُوبِكم؛ فإنَّ الحبيبَ لا يُعذِّب حَبيبَه، وأنتم مُقرُّون أنَّه مُعذِّبُكم؟!

كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾(١) [البقرة: ٨٠].

﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾.

أي: ليس الأمرُ كما زعمتُم أنَّكم أبناءُ اللهِ وأحباؤُه، بل أنتم خَلقٌ خَلَقَكم اللهُ مثلَما خَلَقَ سائرَ بني آدمَ(٢).

﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾.

أي: يُعامِلُكم كما يعامِلُ سائرَ البَشَرِ، فتجري عليكم بحِكْمَتِه أحكامُه الدَّائرةُ بينَ عَدْلِه وفَضْلِه، ولا تغترُّوا بتلك الأمانيِّ، وبمنازِلِ أنبيائِكم وصالحي آبائِكم عندَ الباري؛ فإنَّهم إنما نالوا القُرْبَ منه بطاعتِه، واجتنابِ مَعْصِيَتِه، فجِدُّوا أنتم أيضًا في ذلك(٣).

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾.

أي: ولله عزَّ وجلَّ وحدَه أمْرُ تدبيرِ جميعِ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ وما بينهما وتَصريفِه، فهم خلقُه ومُلكُه، وإليه وحده سبحانه المرجعُ والمنقلَبُ

= ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٣٧).

وينظر أيضًا: ((التفسير الوجيز)) للواحدي (ص: ٣١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٧٠-٢٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٣٧-٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٧١-٢٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٣٩).

في الآخرة، فأيُّ شيءٍ خصَّكم بهذه الفضيلةِ التي تَزْعُمونها، وأنتم مِن جُملةِ المماليك، ومِن جُملةِ مَن يرجِعُ إلى اللهِ في الدَّارِ الآخِرَةِ، فيُجازيكم بأعمالِكم، واعلموا- يا مَن تدَّعونَ أنَّكم أبناءُ الله وأحبَّاؤه- أنَّه إنْ عذَّبكم بذُنُوبِكم، لم يكُن لكم منه مانِعٌ، ولا لكم عنه دافِعٌ؛ لأنه لا نسَبَ بينه وبين أحدٍ فيُحابِيَه، فاتَّقوا غَضَبَه وعِقابَه، ولا تغترُّوا بالأمانيِّ وفَضائِلِ الآباءِ[1].

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٩)﴾.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾.

أي: يا أيُّها اليهودُ والنَّصارى- الذين أنعمَ اللهُ عليكم بالتوراةِ والإنجيلِ، وتَعلمونَ منهما بَعثةَ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ- ها قدْ أتاكم محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّمَ[2].

﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾.

أي: جاءَ يُوضِّحُ لكم الحقَّ، ويُبيِّنُ كلَّ ما تحتاجون إليه من المطالِبِ الإلهيَّةِ، والأحكامِ الشَّرعيَّة، وذلك بعدَ شِدَّةِ حاجةٍ إليه، ومُضِيِّ زمنٍ طويلٍ بين إرسالِ عيسى عليه السَّلام وبَعثةِ محمَّدٍ خيرِ الأنامِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٧٢-٢٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٤٤-٢٤٥).

قال الألوسي: (الفترةُ فعلةٌ مِن: فتَر عن عملِه، يفترُ فتورًا. إذا سكَن، والأصلُ فيها الانقطاعُ عمَّا كان عليه مِن الجدِّ في العملِ، وهي عندَ جميعِ المفسِّرين انقطاعُ ما بينَ الرَّسولين) ((تفسير الألوسي)) (٣/ ٢٧٤).

عن أبي هُرَيرةَ رضي الله عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بابنِ مريمَ؛ الأنبياءُ أولادُ عَلَّاتٍ(١)، وليس بَيني وبينَه نبيٌّ))(٢).

وعن عِياضِ بنِ حِمار المُجاشعيِّ، أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال ذاتَ يوم في خُطبَتِه: ((أَلَا إنَّ ربِّي أمَرَني أنْ أُعلِّمَكم ما جَهِلتُم ممَّا عَلَّمني يَومِي هذا: كلُّ مالٍ نَحَلْتُه عبدًا حَلالٌ، وإنِّي خَلقتُ عِبادي حُنفاءَ كلَّهم، وإنَّهم أتَتْهم الشياطينُ فاجْتالَتْهم(٣) عن دِينِهم، وحَرَّمَتْ عليهم ما أَحللْتُ لهم، وأَمَرَتْهم أن يُشرِكوا بي ما لم أُنَزِّلْ به سُلْطانًا، وإنَّ اللهَ نظَرَ إلى أهلِ الأرضِ، فمَقَتَهم عرَبَهم وعَجَمَهم، إلَّا بَقايَا من أهلِ الكتابِ، وقال: إنَّما بَعثتُك لأَبتلِيَكَ وَأبتليَ بك، وأنزلتُ عليكَ كتابًا لا يَغسِلُه الماءُ، تَقرؤُه نائمًا ويَقْظانَ، وإنَّ اللهَ أمَرَني أنْ أُحَرِّقَ قُرَيْشًا، فقلتُ: رَبِّ إذًا يَثْلَغُوا رَأْسَي(٤) فيَدَعُوه خُبْزَةً، قال: اسْتَخْرِجْهم كما اسْتَخرَجوكَ، واغْزُهم نُغْزِكَ(٥)، وأَنفِقْ فسنُنفِقُ عليك، وابعثْ جَيشًا نَبعثْ خَمسةً مِثلَه، وقاتِلْ بمَن أطاعَكَ مَن عَصاكَ...)) الحديث(٦).

---

(١) أولاد عَلاَّت: العَلاَّت- بفتح العين، وتشديدِ اللاَّم-: الضَّرائر، وأصله أنَّ مَن تزوَّج امرأةً ثم تزوَّج أخرى كأنَّه عَلَّ منها، والعَلَل الشُّرْب بعدَ الشُّرب، وأولاد العَلَّات الإخوةُ من الأبِ وأُمَّهاتهم شتَّى. ينظر: ((فتح الباري))لابن حجر (٦/ ٤٨٩)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ١١٩).

(٢) رواه البخاري (٣٤٤٢)، ومسلم (٢٣٦٥) واللفظ له.

(٣) فاجْتَالَتْهم: أي: استخفَّتْهم فجالوا معهم في الضَّلال؛ يُقال: جالَ واجتالَ: إذا ذهَب وجاءَ، ومنه الجولانُ في الحَربِ، واجتالَ الشَّيءَ إذا ذهَب به وساقَه، والجائلُ: الزائلُ عن مَكانِه. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٣١٧).

(٤) يَثْلَغوا رأسي: أي: يَشدَخُوه ويشجُّوه، والثَّلغ: الشَّدخ، وقيل: هو ضَربُك الشيءَ الرَّطبَ بالشيءِ اليابسِ حتى يَنشدِخَ. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٢٢٠)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٩٨).

(٥) نُغْزِكَ: نُعِنْكَ؛ مِن أغزَيتَه: إذا جَهَّزْتَه للغزوِ، وهيَّأْتَ له أسبابَه. يُنظر: ((شرح النوويِ على مسلم)) (١٧/ ١٩٨) ((مرقاة المفاتيح)) للمُلا الهروي (٨/ ٣٣٦٩).

(٦) رواه مسلم (٢٨٦٥).

﴿أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾.

أي: أَرْسلناه إليكم؛ قَطْعًا لعُذركم؛ كي لا تَحتجُّوا قائلين بأنَّه لم يأتِنا رسولٌ منذ عهدٍ طويلٍ، يُبشِّر بالخيرِ مَن آمَن به وأطاعَه، ويُنذرُ بالشرِّ مَن كذَّبَ به وعَصاه[1].

﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾.

أي: فها قد جاءَكم هذا البَشيرُ والنَّذيرُ؛ محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فالآن لا حُجَّةَ لكم، ولا عُذرَ بَقِيَ لديكم[2].

﴿وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: لا يُعجِزُ اللهَ تعالى شيءٌ أرادَه، ولا يفوتُه شيءٌ طَلَبه، ومن ذلك قُدْرَتُه على بَعْثِ الرُّسل وإنزال الكتُبِ، وإثابةِ المؤمنينَ المُطيعينَ، ومعاقبَةِ المكذِّبين العاصينَ[3].

الفوائِد التربويَّة:

١ - أنَّه ينبغي أن يُنادَى المخاطَب بالوَصْفِ الذي يَقتضي أن يقومَ بما وُجِّه إليه؛ لقوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ وهذا موجودٌ في اللُّغة العربيَّة، فإذا كنتَ تُخاطِب مؤمنًا تقول: يا أيُّها المؤمِنُ، وإذا كنت تُخاطِب رجلًا تقول: يا أيها الرَّجُلُ، ومن فوائد ذلك: أولًا: توبيخُ هذا الرَّجُلُ إذا خالف؛ لأنَّه لا يَنبغي أن يُخالِفَ وهو متَّصِفٌ بهذه الصِّفة. ثانيًا: حثُّه على الموافقَةِ باعتباره هذا الوصفَ الذي اتَّصف به[4].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٧٥-٢٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٤٥-٢٤٧، ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٤٧).

الفوائِد العلميَّة واللَّطائف:

١- قوله: ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ﴾ فيه فائدة لُغويَّة؛ إذ إنَّ (هو) ضميرُ فَصْل، وضميرُ الفَصل يُفيد ثلاثةَ أشياءَ: الأوَّل: الحَصْر، والثاني: التوكيد، والثالث: التمييزُ بين الصِّفة والخَبَر، وهذا الأخيرُ أحيانًا يُستغنَى عنه، ويُعرَفُ الخبر بدونه، لكن يُؤتى به، كقوله تعالى: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ [الشعراء: ٤٠]، وقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ أكَّدوا تأكيدًا بهذا الضميرِ أنَّ الله هو المسيحُ ابنُ مريم(١).

٢- جوازُ انتسابِ الإنسانِ إلى أُمِّه إذا لم يكُن له أبٌ؛ لقوله: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾(٢).

٣- شِدَّة الردِّ على النَّصارى؛ حيث قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾؛ إذ إنَّ اللهَ إذا أراد شيئًا فإنَّ الشَّرَفَ والجاه والرِّئاسة ولو في الدِّينِ لا تمنع ممَّا أرادَ الله؛ لأنَّ المسيحَ ابنَ مريمَ عليه الصَّلاة والسَّلام مِن أُولي العَزمِ من الرُّسُلِ(٣).

٤- قوله: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ...﴾ فيه الردُّ على أهلِ الباطِلِ بالأدلَّة السمعيَّة والعقليَّة(٤).

٥- أنَّه عند المناظرة يَنبغي أنْ تَبدأَ بأوَّل مَا يَحتجُّ به المناظِرُ، وتُبيِّن أنَّه على خِلاف ما ناظَرَ عليه؛ ووجهُ ذلك: أنَّ الله بدَأَ بذِكر إهلاكِ المسيحِ وأُمِّه، الذي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٣٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

يعتقِدُ هؤلاءِ أنه إلهٌ، قال تعالى: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾(١).

٦- يَنبغي في المُناظَرَةِ إبطالُ حُجَّةِ الخَصْمِ، ثم الإتيان بما يُثْبِتُ خلافَ قَوْلِه، فالله عز وجل قال: ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾، فنقَض سبحانه دعواهم أن يكونوا أحِبَّةً وأبناءً بأمرين: الأمرُ الأوَّل: أنَّهم أذنبوا. والأمرُ الثاني: أنَّهم عُذِّبوا. فكيف يقولون أنَّهم أبناءُ الله وأحباؤُه، وهم يعْصونه ويُذنبون؟! ثم كيف يكونُ حبيبًا لهم وهو يعذِّبُهم؟! ثم احتجَّ الله عليهم بعدَ أن أبْطَلَ حُجَّتهم، فقال: ﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾، أي: كسائرِ البَشَرِ(٢).

٧- لَمَّا بطَل مُدَّعى النَّصارى أُلوهيَّةَ عيسى عليه السَّلام على أتقَنِ منهاجٍ وأخْصَرِه، وذلك في قولِه تعالى: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ حيث وصَفه بما هو في غايةِ الوضوحِ في بطلانِ قولِهم؛ لبعدِه عن رتبةِ الألوهيَّة في الحاجةِ إلى امرأة فقال: ﴿ابْنُ مَرْيَمَ﴾ فهو محتاجٌ إلى كفالتِها بما لها مِن الأمومةِ، وكان ربما دقَّ على بعضِ الأفهام ذلك- أوضَحه بِقَوْلِه: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ دالًّا على أنَّ المسيحَ عليه السَّلامُ عبدٌ مملوكٌ للهِ(٣).

٨- أنَّ عذابَ اللهِ لبني إسرائيلَ- أي: لليهودِ والنَّصارى- لم ينقطعْ ولن ينقَطِعَ؛ لقوله: ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾، فلم يقُل: فلِمَ عذَّبَكم؛ ليُستَفاد بذلك أنَّ تَعذيبَ اللهِ تعالى لهم مستمرٌّ؛ لأنَّ الفِعل المضارِعَ يُفيد الاستمرارَ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٣٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٣٧).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٦٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٤١).

٩- الاحترازُ عمَّا يُوهِمُ باطِلًا؛ حيث قال: ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمْ﴾، ولم يقُلْ: ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ﴾ فقط؛ لأنَّه لو قالَها بدون أنْ يَقْرِنَها بقوله: ﴿بِذُنُوبِكُمْ﴾ لأَوْهَم أنَّ اللهَ تعالى يُعذِّب بغيرِ ذنبٍ(١).

١٠- قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ فيه الإشارةُ إلى أنَّ ما بين السَّماءِ والأَرْضِ هو خَلقٌ عظيمٌ، حتى جعَلَه اللهُ عزَّ وجلَّ عديلًا، أو قَسيمًا للسَّمواتِ والأَرْضِ(٢).

١١- قوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾، وقَبْلَها قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فاختلَفَ ختْمُ الآيتينِ، فقال في السَّابقَةِ: ﴿وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ لأنَّ المقام مقامُ ردٍّ على الذين قالوا: ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾، أمَّا هنا فالمقامُ مقامُ تهديدٍ ووعيدٍ، فقال: ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أي: إليه وحْدَه المرجعُ لا إلى غيرِه؛ فقد تقدَّمَ الخبر ﴿وَإِلَيْهِ﴾، وتقديمُ الخبرِ يُفيد الحَصْرَ، إذَن: فليست المسألَةُ مسألةَ دَعْوى أنَّكم أبناءُ اللهِ وأحبَّاؤه، وإنَّما المسألَةُ مسألةُ عملٍ؛ إمَّا سيِّئ وإمَّا حَسَن(٣).

١٢- قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ فيه إقامةُ الحُجَّة على الأمَّةِ؛ حيث إنَّ محمدًا رسولُ الله، فهو حُجَّةٌ عليه الصَّلاة والسَّلام، فبمُجرَّد أنْ شَهِد اللهُ أنَّه رسولُه، كان ذلك حُجَّةً، وقد قال الله تعالى: ﴿لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾(٤) [النساء: ١٦٦].

١٣- أنه لا حظَّ للرَّسولِ عليه الصَّلاة والسَّلام في شيءٍ من الرُّبوبيَّة؛ لقَوْلِه:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٤٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٣٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٣٩- ٢٤٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٤٩).

﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾، ووجه ذلك: أنَّه رسولٌ، والرَّسولُ لا يُمكن أن يكون شريكًا للمُرسِلِ فيما يختصُّ به(١).

١٤ - أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ مُبَيِّنٌ للخَلْقِ، وأنَّه ليس فيما جاء به شيءٌ من الغُموضِ والإلغازِ؛ لقوله: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾، أمَّا غيرُ العربِ من أهل الكتاب فبيانُه يكونُ عن طريق التَّرجمة؛ ولهذا لم يَنتشرِ الإسلامُ في البلادِ الأعجميَّة إلا بواسِطَةِ التَّرجمة، وأنَّه إذا احتجْنا إلى معرفة اللُّغاتِ الأجنبيَّة لبيانِ الشريعة، كان ذلك ممَّا يُثابُ عليه؛ لأنَّ مِن صفاتِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ أنَّه يُبيِّنُ للنَّاسِ بأيِّ وسيلةٍ، وعلى هذا فمَن تعلَّمَ اللُّغةَ غيرَ العربيَّة مِن أجلِ الدَّعوة إلى الله، كان مُثابًا على ذلك؛ لأنَّها وسيلةٌ لتبيينِ الشَّريعةِ ونَشْرِها(٢).

١٥ - رِسالةُ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ كانتْ على فترةٍ من الرُّسُلِ؛ ليس بينه وبين عيسى رسولٌ؛ لقوله: ﴿عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾، وكلَّما طال زمنُ الرِّسالةِ صار الناسُ أشدَّ حاجةً إلى الرَّسولِ؛ ولهذا جعَل اللهُ ذلك مِنَّةً عُظمى على أهلِ الكتابِ؛ حيث جاءَهم على فترةٍ، ومِثْل هذا يكونُ أيضًا في الواقعِ المَحْسُوس، فالإنسانُ الذي يَشرَبُ الماءَ على عطشٍ أشدُّ شوقًا إلى الماءِ والحاجةِ إليه مِن إنسانٍ يَشْرَبُه على رِيٍّ(٣).

١٦ - إثباتُ الرِّسالاتِ السابقة للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلام؛ لقوله: ﴿عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾ والظَّاهِرُ أنَّ هذا يُشيرُ إلى أنَّ الرَّسولَ صلَّى الله عليه وسلَّمَ هو آخِرُ الأنبياءِ؛ لقوله: ﴿مِنَ الرُّسُلِ﴾ يعني ليس بعدَه رسولٌ، وهذا هو الذي صرَّحَ الله به في كتابِه في قوله: ﴿وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقد قال: ﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ ولم يقُل: (وخاتم المُرسَلين) مع أنَّه قال: ﴿رَسُولُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٤٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٥٠).

اللهِ﴾؛ لأنَّه قد يكون نبيًّا ولا يكون رسولًا، ومحمَّدٌ رسولُ الله صَلَواتُ اللهِ وسلامُه عليه خاتَمُ الأنبياءِ والمُرسَلينَ(١).

١٧- رحمةُ الله تعالى بالخَلْقِ؛ حيث أَرْسَلَ الرُّسلَ؛ لئلَّا يكونَ لأحدٍ حجَّةٌ عليه سبحانه؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾، ومِن ثَمَّ فمَن لم تَبْلُغْه الرسالةُ فإنَّه معذورٌ(٢).

١٨- أنَّه لا حُجَّةَ للإنسان بالقَدَرِ على مخالفةِ الرُّسُلِ؛ لقوله تعالى: ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ وَجْهُ الدَّلالة: لو كان لهم حقٌّ لم يرتفعْ بإرسالِ الرُّسلِ، وهو كذلك(٣).

١٩- أنَّه متى احْتِيجَ إلى التوكيدِ، فلا عيبَ في التَّكرارِ؛ لقوله: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ بعد قوله: ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾، ولهذا كان مِن آدابِ الخُطبةِ أنَّ الإنسانَ يُكرِّر في المواضع المهمَّة، وأنَّ هذا لا يُعَدُّ عِيًّا ولا يُعدُّ زيادةً(٤).

٢٠- ختَم الله عزَّ وجلَّ هذه الآيةَ بالقُدرَةِ في قوله: ﴿وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ إشارةً إلى أنَّه تبارك وتعالى قادِرٌ على بَعْثِ الرُّسلِ، وقادرٌ على ألَّا يَبْعَثَهم، وأنَّ الأَمْرَ كلَّه بيدِه تبارك وتعالى(٥).

بلاغةُ الآيات:

١- قوله: ﴿فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئًا﴾: ﴿فَمَنْ﴾ استفهامٌ للإنكارِ والتَّوبيخِ، أي: لا يُوجَدُ أحدٌ يستطيعُ أن يردَّ إرادتَه؛ لأنَّه هو المالكُ لأمرِ الوجودِ كلِّه، ولا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٥٢).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٤٧).

يملكُ أحدٌ مِن أمْرِه شيئًا يستطيعُ به أن يَصرِفَه عن عملٍ يُريدُه، أو يَحمِلَه على أمرٍ لا يُريدُه، أو يَستقِلَّ بعملٍ دونَه[1]، والفاءُ عاطفةٌ للاستفهامِ الإنكاريِّ على قَوْلِهم: ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ﴾؛ للدَّلالَةِ على أنَّ الإنكارَ ترتَّب على هذا القَوْلِ الشَّنيعِ؛ فهي للتَّعقيبِ الذِّكْرِيِّ[2].

- وتنكيرُ ﴿شَيْئًا﴾ للتَّقليلِ والتَّحقيرِ، ولَمَّا كان الاستفهامُ في قوله: ﴿فَمَنْ يَمْلِكُ﴾ بمعنى النَّفْيِ، كان نفيُ الشَّيءِ القليل مقتضيًا نفيَ الكثيرِ بطريقِ الأَوْلى[3].

٢- قوله: ﴿إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ فيه: عَطْفُ العامِّ ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ على الخاصِّ ﴿الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ﴾؛ ليكونَا قد ذُكِرَا مرَّتين: مرَّةً بالنصِّ عليهما، ومرَّة بالاندراجِ في العامِّ، وذلك على سبيلِ التَّوكيدِ والمبالَغَةِ في تعلُّق نَفاذِ الإرادةِ فيهما، وكذلك تأكيدُ عَجْزِ المسيحِ[4].

٣- قوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: تذييلٌ فيه تعظيمُ شأنِ اللهِ تعالى، وردٌّ آخَرُ عليهم بأنَّ الله هو الذي خَلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ، ومَلَكَ ما فيها من قَبْلِ أن يظهرَ المسيحُ؛ فالله هو الإلهُ حقًّا، وأنَّه يَخلُقُ ما يشاء، فهو الذي خَلَقَ المسيحَ خلقًا غيرَ معتادٍ؛ فكان مُوجِبَ ضلالِ مَن نَسَبَ له الأُلوهيَّةَ[5].

- وجملة: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ جملةٌ مؤكِّدةٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٢٥٦- ٢٥٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٥٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ١٥٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٠).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ١٥٥).

لِقَوْلِه: ﴿إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ﴾ ودالَّة على أنَّه إذا أراد فَعَلَ؛ لأنَّ مَن له ذلك المُلْك يَفعلُ في مُلْكِه ما يشاءُ(١).

٤- قوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ فيه إيجازٌ: حيثُ إنَّ ظاهِرَ اللَّفظ: أنَّ جميعَ اليهودِ والنَّصارى قالوا عن جميعِهم ذلك، وليس كذلك، بل في الكلامِ لفٌّ وإيجازٌ. والمعنى: وقالت كلُّ فِرقةٍ من اليهودِ والنَّصارى عن نفْسها خاصَّةً: نحن أبناءُ الله وأحبَّاؤُه(٢).

٥- قوله: ﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾ فيه: تعريضٌ أيضًا بأنَّ المسيحَ عليه السَّلام بَشَرٌ(٣).

٦- قوله: ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾: فيه احتراسٌ؛ لأنَّه لَمَّا رتَّبَ على نَوَالِ العذاب إيَّاهم أنَّهم بشرٌ، دفَع توهُّمَ النَّصارى أنَّ البشريَّة مقتضيةٌ استحقاقَ العذابِ بوراثةِ تبعةِ خَطيئة آدَم، فقال: ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، أي: مِن البَشَرِ، ﴿وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾(٤).

٧- قوله: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾: فيه إيثارُ الجملةِ الفعليَّة على غيرها؛ للدَّلالةِ على تجدُّدِ البيانِ(٥).

٨- قوله: ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾: زِيادةُ ذِكْرِ ﴿مِنْ﴾ في الفاعِلِ؛ للمبالغةِ في نفْي المجيء، وتَنكير ﴿بَشِيرٍ﴾ و﴿نَذِيرٍ﴾؛ للتَّقْليلِ(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢١١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢١١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٥٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٥٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٢).

٩- قوله ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ التنوين في ﴿بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾؛ للتَّفخيمِ، أي: لا تَعتذِروا بذلك؛ فقد جاءَكم بشيرٌ أيُّ بشيرٍ، ونذيرٌ أيُّ نذيرٍ[١].

- قوله: ﴿وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: اعتراضٌ تذييليٌّ مُقرِّرٌ لمضمونِ ما قَبْلَه، وإظهارُ الاسْمِ الجليلِ﴿وَاللَّهُ﴾ للتَّعليلِ، وتقويةِ استقلالِ الجُملةِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٠).

الآيات (٢٠ - ٢٦)

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿الْمُقَدَّسَةَ﴾: أي: المطهَّرةَ المُعظَّمة؛ فالتَّقديسُ: هو التَّطهيرُ والتَّعظيمُ[١].

﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ﴾: ولا تَرجِعوا مُدبِرين، والردُّ: صرْفُ الشيءِ بذاتِه، أو بحالةٍ من أحوالِه؛ يُقال: رَددتُه فارتدَّ، والارتدادُ والرِّدَّة: الرُّجوعُ في الطَّريقِ الذي جاء مِنه، ومنه قيل للكافرِ بعدَ إسلامِه: مُرتدٌّ. وأصْل الدُّبُر: آخِرُ الشَّيءِ وخَلفُه، وهو ضِدُّ القُبُل[٢].

﴿فَتَنْقَلِبُوا﴾: أي: فترْجِعوا، والانقلابُ: الانصرافُ؛ يُقال لِمَن كانَ على شيءٍ

---

(١) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨، ١٤٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٠).

(٢) ينظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٨، ٣٤٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٧٦، ٩٧٧).

ثُمَّ رجَع عنه: قدِ انقلَبَ على عَقِبه، وأَصْلُ (قلب): صرْفُ الشَّيءِ عن وجهٍ إلى وجهٍ، أو ردُّه من جِهةٍ إلى جِهةٍ(١).

﴿جَبَّارِينَ﴾: أقوياءَ عِظامَ الأجسامِ، وقيل: طوالًا؛ وُصِفوا بذلك لكثرتِهم وقُوَّتِهم، وعِظَم خَلْقِهم، وطولِ جُثَثِهم، وجبَّارون جمْع جبَّار، وهو القَهَّار، ويُطلَقُ على المتكبِّر المتعالي عن قَبولِ الحقِّ، والمتسلِّطِ، والقَتَّال، وأصلُ (جبر): جِنسٌ مِن العَظمةِ والعُلوِّ(٢).

﴿فَافْرُقْ﴾: فافصِل، مِن فرقتُ بين الشَّيئين: إذا فَصلْتَ بينهما، سواءٌ كان ذلك بفَصْلٍ يُدركُه البصرُ، أو بفَصْلٍ تُدركُه البصيرةُ، والفَرْق يُقاربُ الفَلْقَ، لكنَّ الفَلْقَ انشقاقٌ، والفَرْقَ انفصالٌ، وأصْل الفَرْق: الفصلُ والتمييزُ، والتَّزييلُ بين الشَّيئين(٣).

﴿الْفَاسِقِينَ﴾: جمْعُ فاسِق، وهو الخارجُ مِنَ الشَّرعِ، والفاسقُ أعمُّ مِن الكافِرِ، والفُسوقُ: خروجٌ مِنَ الطَّاعةِ إلى المعصيةِ، وخروجٌ مِنَ الإيمانِ إلى الكُفرِ؛ فأصْلُ الفسوق: الخُروجُ، ومنه قولهم: فَسَقَتِ الرُّطبةُ، إذا خرَجتْ عن قِشْرتها(٤).

﴿يَتِيهُونَ﴾: يَحارُونَ ويَضلُّونَ، ويَذهبون مُتحيِّرين؛ مِن تاه يَتيه: إذا تَحيَّر(٥).

---

(١) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨١).

(٢) ينظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٣).

(٣) ينظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٣٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٢، ٦٣٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٤).

(٤) ينظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٦، ٨١٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٣).

(٥) ينظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٤).

﴿فَلَا تَأْسَ﴾: فلا تَحْزنْ؛ يُقال: أَسِيتُ على كذا، أي: حَزِنْتُ، والأسى: الحُزن(١).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا﴾.

﴿مِنَ الَّذِينَ﴾: جارٌّ ومجرور في مَحلِّ رفْعٍ، صِفةٌ لـ﴿رَجُلَانِ﴾.

وجُملة ﴿أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا﴾: في محل رَفْعٍ، صِفةٌ ثانيةٌ لـ﴿رَجُلَانِ﴾، وجِيء هنا بأفصحِ الاستعمالينِ من كونِه قَدَّم الوصفَ بالجارِّ على الوَصفِ بالجُملةِ؛ لقُربه من المفردِ. وقيل: إنَّها جملة مُعترِضةٌ. وقيل: هي حالٌ من الضَّمير في ﴿يَخافونَ﴾، أو حالٌ مِن ﴿رَجُلَانِ﴾ وجاءتِ الحالُ مِن النَّكرةِ؛ لتخصُّصِها بالوَصْفِ. أو حالٌ من الضَّميرِ المستترِ في الجارِّ والمجرورِ ﴿مِنَ الَّذِينَ﴾؛ لوقوعِه صِفةً لموصوفٍ، وعلى أنَّها حالٌ، فلا بُدَّ مِن إضمارِ (قَدْ)، أي: قدْ أَنعمَ اللهُ عليهما(٢).

المَعنَى الإجْماليُّ:

يقول اللهُ تعالى لنَبيِّه مُحمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: واذكرْ- يا محمدُ- توجيهَ موسى عليه السَّلام لبني إسرائيلَ- على سبيلِ النُّصْحِ والإرشادِ- أنْ يتذكَّروا نِعمةَ اللهِ التي أنعمَ بها عليهم، بأنْ جعَلَ فيهم أنبياءَ، وجعَلَهم مُلوكًا، وآتاهم مِن النِّعمِ الدِّينيَّة والدُّنيويَّة ما لم يُعْطِه أحدًا مِن أهلِ زمانِهم.

وبعدَ هذا التذكيرِ بالنِّعَم نادَى موسى عليه السَّلامُ قومَه بني إسرائيل، وطَلَب

---

(١) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٠٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٥).

(٢) ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٢٢)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٣٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٢٣٣)، ((إعراب القرآن الكريم)) للدعاس (١/ ٢٥٠).

منهم أنْ يَدخُلوا الأرضَ المقدَّسة، التي هي بيتُ المقدِسِ التي كتَبَها الله لهم، وأنْ يأخذوها من يدِ أعدائِهم، ونهاهُم عن التَّراجُعِ عن القِتالِ، والنُّكولِ عن الجِهاد؛ فإنَّ ذلك يؤدِّي إلى الخسرانِ في الدُّنيا والآخرةِ، فردُّوا عليه أنَّ في هذه البلدةِ قومًا أشداءَ أقوياءَ ضِخامًا؛ وأنَّه لا طاقةَ لهم بقِتالهم، وأنَّهم لن يَدخلوها ما دامَ هؤلاءِ موجودينَ فيها، وعلى تقديرِ خروجِهم منها فيمكنُ لهم أن يدخلُوها؛ ثم بيَّن الله تعالى أنَّ رجلَيْنِ منهم مؤمنَيْنِ يَخافانِ اللهَ، قدْ أنعم اللهُ عليهما بأنْ وفَّقهم لطاعتِه والخوفِ منه وحْدَه، وأنعَمَ عليهما أيضًا بالصَّبرِ واليقينِ، والرأيِ القويمِ، قد استنكَرا إحجامَ قومِهما عن الجهادِ، فقالَا لبني إسرائيل: إنَّه لا يحولُ بينكم وبينَ غَلَبةِ هؤلاءِ والنَّصرِ عليهم سوى دُخولِكم بابَ الأَرْضِ المقدَّسةِ، فإنْ دَخَلْتُموها انتصرتُم عليهم؛ فتوكَّلوا على اللهِ، واعتمِدوا عليه إنْ كنتُم مُؤمنينَ.

لكنَّ هذه النصيحةَ لم تَلْقَ قَبولًا من بني إسرائيلَ، وكرَّروا لنبيِّهم نفيَهم دخُولَ الأرضِ المقدَّسةِ أبدًا ما دام هؤلاءِ القومُ فيها، وقالوا لموسى عليه السَّلامُ: إذا كان دخولُ هذه الأرضِ يهمُّك أمرُه، فاذهبْ أنت وربُّك لقتالِ سكَّانِها الجبابرةِ، وأَخْرِجاهم منها.

عندَ ذلك توجَّه موسى عليه السَّلامُ إلى ربِّه يبثُّ إليه الشَّكوى، معتذرًا مِن عصيانِ قَوْمِه، وأنَّه لا يَستطيعُ أن يحمِلَ أحدًا على القِتالِ إلَّا نفْسَه وأخاه هارونَ، ودَعا اللهَ أن يَفصِلَ بينه وبين هؤلاءِ القومِ الفاسقينَ؛ فاستجابَ اللهُ دُعاءَه، وعاقبَهم بأنْ حرَّم عليهم دخولَ الأرضِ المقدَّسةِ أربعينَ سَنةً، يظلُّون ضائعينَ حائرينَ في الأرضِ، لا يَهتدون لطريقٍ، ولا يستقرُّونَ في مكانٍ، ونهى موسى عليه السَّلامُ أنْ يحزنَ عليهم جرَّاءَ تلك العقوبةِ التي استحقُّوها لخروجِهم عن طاعةِ اللهِ سبحانه.

تَفْسيرُ الآيات:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٠)﴾.

مناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أقام اللهُ تعالى الحُججَ على بني إسرائيلَ، وأثبتَ لهم رسالةَ نبيِّه محمدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ودحَض شُبُهاتِهم، وأبطَلَ دعاويهم، ثمَّ لَمَّا لم يَزِدْهم ذلك كلُّه إلا كُفرًا وعنادًا- بيَّن اللهُ تعالى في هذه الآياتِ واقعةً مِن وقائعِ أسلافِهم مع موسَى عليه السلامُ، وتمرُّدَهم عليه، وعِصيانَهم له، مع تذكيرِه إيَّاهم نِعمَ اللهِ عليهم؛ ليعلمَ الرَّسولُ بهذا أنَّ مكابرةَ الحقِّ ومعاندةَ الرُّسلِ خُلُقٌ مِن أخلاقِهم الموروثةِ عن سلفِهم، وأنَّ هؤلاءِ الذين هم بحَضرةِ الرسولِ هم جارُونَ مجرَى أسلافِهم مع موسى عليه السَّلامُ؛ فيكونَ ذلك تسليةً له صلَّى الله عليه وسلم[1].

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾.

أي: واذْكر- يا محمَّدُ- حينَ خاطَبَ موسى عليه السَّلامُ بَنِي إسرائيل، أنْ اذكُروا- يا قومي- بقُلوبِكم وألسِنَتِكم نِعمَ اللهِ تعالى عليكُم؛ فإنَّ ذِكرَها داعٍ إلى القيامِ بشُكرِه عليها، وداعٍ إلى محبَّتِه عزَّ وجلَّ، ومُعِينٌ على عِبادتِه سُبحانَه وتعالى[2].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢١٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٢٦٥)، وينظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٧٦- ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٧٦- ٢٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٥٤).

وقال ابنُ عُثَيمين: (هنا هل نقول: إنَّ متعلق «إذ»، «اذكُر»، فيكون هنا الخطابُ موجَّهًا إلى الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم، أو أنَّ المراد: اذكُروا، أي: يا أهلَ الكتاب؟ نقول: يحتمل هذا أو هذا) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٥٤).

وقال ابنُ عَطيَّة: (المعنى: واذكُرْ لهم- يا محمَّدُ- على جهة إعلامِهم بغير كُتبهم؛ ليتحقَّقوا نبوَّتك، وينتظمَ في ذلك نِعمُ الله عليهم، وتلقِّيهم تلك النِّعم بالكفرِ، وقِلَّة الطاعة والإنابة) =

ثمَّ بيَّن تعالى هذه النِّعمَ، فقال[1]:

﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾.

أي: فاذْكُروا إنعامَ اللهِ تعالى عليكم بأنْ جعَلَ فيكم أنبياءَ يأتونَكم بوَحيِه، ويُخبرونَكم بآياتِه، كلَّما هلَكَ نبيٌّ قامَ فيكم نبيٌّ آخَرُ، مِن لَدُن إبراهيمَ عليه السَّلامُ وإلى مَن بَعدَه، حتَّى خُتِمُوا بعيسى عليه السَّلامُ[2].

﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾.

قيلَ المعنى: جعَل لكم مِن غيرِكم خَدمًا وحَشَمًا، سَخَّرَهم ليَخدموكم[3].

وقيلَ المرادُ: مُلْكُ مَن مَلَكَ مِن بني إسرائيل؛ لأنَّ الملوكَ شرفٌ في الدُّنيا[4].

وقيل المعنى: صَيَّركم أحرارًا تَملِكون أمْرَكم ولا تُملَكونَ، بعدَ زوالِ استعبادِ عدوِّكم لكم، الذي كان يَقهَرُكم ويَستخْدِمُكم[5]، وقيلَ غيرُ ذلِك[6].

= ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ١٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٧٧- ٢٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٥٤- ٢٥٥).

قال ابنُ عُثَيمين: (هل المرادُ هنا بالأنبياءِ الرُّسل، أو الأنبياء الذين دونَ الرُّسل؟ يحتملُ هذا وهذا؛ لأنَّ فيهم رسلًا، وفيهم أنبياءُ بلا رسالةٍ) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٥٥).

(٣) وهذا اختيارُ ابنِ جريرٍ في ((تفسيره)) (٨/ ٢٧٨)، والواحدي في ((الوجيز)) (ص: ٣١٤).

وممن روي عنه من السَّلف مثل هذا القولِ قتادةُ. ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٧٨).

(٤) ذكره ابنُ عطيةَ في ((تفسيره)) (٢/ ١٧٣)، وجعَله ابنُ عاشورٍ وابنُ عثيمينَ مما يشملُه معنى الآية. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) ٦/ ١٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٥٥).

(٥) وهذا اختيارُ القرطبيِّ في ((تفسيره)) (٦/ ١٢٣)، والسعديِّ في ((تفسيره)) (ص: ٢٢٧)، وجعله ابنُ عاشورٍ وابنُ عثيمينَ مما يشملُه معنى الآية. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) ٦/ ١٦١)، و((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٥٥).

وممن روي عنه من السَّلف نحو هذا القول السُّدِّي. ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٨١).

(٦) قال جماعةٌ مِن السَّلف: إنَّ كلَّ مَن له امرأةٌ وخادم ومَسكن، فهو مَلِك. =

﴿وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾.

أي: ومَنَحكم اللهُ- يا معشرَ اليهودِ- مِن نِعَمِه الدِّينيَّة والدُّنيويَّة، وكراماتِه العَليَّة، ما لم يُعطِهِ لأحدٍ سواكم مِن أهلِ زَمانِكم، فَفُقتُموهم شرفًا وفضلًا(١).

كما قال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الجاثية: ١٦].

وكما قال عزَّ وجلَّ إخبارًا عن موسى لَمَّا قال قومُه: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٨-١٤٠].

﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١)﴾.

مناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَّر موسى عليه السَّلامُ بني إسرائيلَ بنِعَم اللهِ تعالى عليهم، وكان في طيَّاتِ ذلك الحثُّ على الوفاءِ بما عاقَدوا اللهَ عليه من الطَّاعة- كان هذا كالتَّمهيدِ لطلبِ امتثالِهم للأمْرِ الذي تَضمَّنَتْه هذه الآيةُ، بقِتال الجبَّارين؛ ليهيِّئَ نُفوسَهم إلى قَبولِ هذا الأمرِ العَظيمِ عليهم، وليوثِّقَهم بالنَّصرِ إنْ قاتلوا أعداءَهم(٢).

= وممَّن رُوي عنه من السَّلف نحوُ هذا القولِ: ابنُ عبَّاس، وعبد الله بنُ عمرِو بن العاصِ، ومجاهدٌ، والحسن، والحَكَم. ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٨٣- ٢٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٥٥- ٢٥٦).

قال ابنُ كَثيرٍ: (والجمهورُ على أنَّه خِطابٌ من موسى لقومِه، وهو محمولٌ على عالَمِي زمانِهم) ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٧).

﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾.

أي: نادَى موسى عليه السَّلامُ بَني إسرائيل؛ أنْ جاهِدُوا- يا قومي- عَدُوَّكم حتَّى تدخُلوا الأرضَ المطهَّرةَ المعظَّمة- بيتَ المقدِس[1]- وتُصبِحَ في مُلْككم؛ فقد قضَى اللهُ وقدَّرَ أنْ تكونَ لكم بعدَ أنْ تستنقِذوها مِن أيدي أعدائِكم[2].

﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾.

أي: ولا تَنكُلوا عن الجِهادِ، وتَرجِعوا القَهْقَرَى؛ فتَخْسَروا دُنياكم بما يَفوتُكم مِن نَصرٍ على الأعداءِ وفَتحٍ لبلادِكم، وتَخْسَروا آخرتَكم بما يفوتُكم مِن ثوابٍ، وما تَستحقُّونه مِن عقابٍ[3].

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢)﴾.

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾.

أي: قالوا- جوابًا لطَلَبِه مُنادِين له باسمِه مُجرَّدًا مِن كلِّ ما يدلُّ على تقديرِه

---

(١) وهذا اختيارُ ابنِ كثيرٍ في ((تفسيره)) (٧٤- ٧٥)، والسعديِّ في ((تفسيره)) (ص: ٢٧٧)، والشِّنقيطيِّ في ((العذب النمير)) (١/ ١١١).
ومِمَّن رُوي عنه هذا القول من السَّلف: ابنُ عبَّاس، والسُّديُّ، وابنُ زيد، والضحَّاك. ينظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (١/ ٥٣٢).
واختار الواحديُّ أنَّها الشَّام. يُنظر: ((الوجيز)) (ص: ٣١٤).
واختار ابنُ عاشورٍ أنَّها أرضُ فلسطينَ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٦٢).
وقيلَ غير ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٨٤، ٢٨٦، ٢٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٧٤- ٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٥٥- ٢٥٦).
واختار الواحديُّ أنَّها سُمِّيت أرضًا مقدَّسةً، أي: مُطهَّرة؛ لأنَّها طُهِّرتْ من الشِّركِ. يُنظر: ((التفسير الوسيط)) (٢/ ١٧٢)، ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٨٧- ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٧- ٢٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٥٩- ٢٦٠).

وإجلالِه-: يا موسى، في هذه البَلدةِ التي أمَرْتَنا بدخولها، وقِتالِ أهلِها أُناسٌ عَمالقةٌ، ذَوُو خِلقةٍ ضَخمةٍ، وأجسامٍ طويلةٍ، وقُوَّةٍ شديدةٍ؛ فلن نقدِرَ على مقاوَمَتِهم، ولا طاقةَ لنا بحربِهم؛ وهذا مِن ضَعْفِ قلوبِهم، وخَوَرِ نُفوسِهم، وعدمِ اهتمامهم بأمْرِ ربِّهم ورسولِهم(١).

﴿وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾.

أي: ونحن نُؤكِّد جازِمينَ لك- يا موسى- بأنَّنا مُمتنِعونَ عن الدُّخولِ إليها مُطلقًا، ما دام يَسكُنها أولئك الجبَّارونَ، ولم يَخرجُوا منها(٢).

﴿فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾.

أي: فأمَّا إنِ افترَضْنا خروجَهم منها، ففي هذه الحالِ يُمكِنُنا الدخولُ إليها(٣).

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٣)﴾.

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾.

أي: لَمَّا نَكَل بنو إسرائيلَ عن طاعةِ اللهِ تعالى ومُتابعةِ رسولِه موسى عليه السَّلامُ، قال لهم رجلانِ ممَّن يَخافونَ اللهَ تعالى، قدْ أنعَمَ عليهما بالتوفيقِ لطاعتِه، والخوفِ منه وحْدَه سُبحانَه، فيقولانِ كلمةَ الحقِّ دون أنْ يخافَا في اللهِ تعالى لومةَ لائمٍ، وأنعمَ عليهما أيضًا بالصَّبرِ واليقينِ، والشَّجاعةِ وحَصافةِ الرَّأيِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٦٠- ٢٦١، ٢٧٤).

(٢) ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٩٣، ٢٩٧، ٢٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٧٦- ٧٧)، =

﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾.

أي: قالَا لقومِهم- استنهاضًا لهِمَمِهم، وتشجيعًا لهم على قِتال عدوِّهم-: ليس بَينكم وبينَ نصْرِكم عليهم إلَّا مجرَّدُ دخولِ بابِ الأرضِ المقدَّسة التي يَستوطِنونها؛ فإنَّكم إنْ فعلتُم ذلك كانتِ الغلبةُ لكم عليهم[1].

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ هذانِ الرجلانِ قَومَهما بالأَخْذِ بالأسبابِ النَّافعةِ، أرْشدَاهُم إلى ألَّا يَعتمِدوا على أنفُسِهم[2]، فقالاَ:

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

أي: فَوِّضُوا جميعَ أمورِكم إلى اللهِ تعالى وحْدَه، ومنها قِتالُ أعدائِكم، واعتمِدوا عليه اعتِمادًا تامًّا صادقًا، إنْ كان لديكُم إيمانٌ باللهِ تعالى وبِصدقِ وعْدِه[3].

= ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٦٣- ٢٦٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٦٥).

قال ابن عاشور: (و﴿البَاب﴾ يجوزُ أن يُراد به مدخلُ الأرض المقدَّسة، أي: المسالك التي يُسلَك منها إلى أرض كنعان، وهو الثَّغر والمضيق الذي يُسلَك منه إلى منزل القبيلة يكون بين جَبلَينِ وَعرَينِ؛ إذ ليس في الأرض المأمورين بدخولها مدينةٌ، بل أرض؛ لقوله: ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾، فأرادَا: فإذا اجتزتم الثغر ووطِئْتُم أرضَ الأعداء، غَلبتُموهم في قِتالهم في دِيارهم، وقد يُسمَّى الثغر البحري بابًا أيضًا... وحمَل المفسِّرون البابَ على المشهورِ المتعارَف، وهو باب البلد الذي في سُورِه، فقالوا: أرادَا بابَ قريتِهم، أي: لأنَّ فتْحَ مدينة الأرض يُعدُّ ملكًا لجميع تلك الأرض...) ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٦٥- ٢٦٧).

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤)﴾.

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا﴾.

أي: قال اليهودُ: إنَّا نرفُض- يا موسى- رفْضًا باتًّا ودائمًا، دخولَ تِلك المدينةِ التي يَسْكُنُها الجبَّارونَ ما داموا باقينَ فيها(١).

﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾.

أي: ولكنِ امضِ- يا موسى- أنتَ وربُّك لِقتالِهم، أمَّا نحنُ فماكِثونَ في هذا المكانِ، ولنْ نَبرحَه معكَ للمضيِّ إليهم(٢).

فلمَّا نَكَلَ بَنو إِسرائيل عنِ القِتالِ غَضِبَ عليهم موسى عليه السَّلامُ، فدعا عليهم، قال اللهُ تعالى عنه(٣):

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥)﴾.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾.

أي: قال موسى عليه السَّلامُ: يا ربِّ، لا أَقدِرُ أنْ أَحمِلَ أحدًا على طاعتِكَ إلَّا نفْسي وأخِي هارونَ(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٠٢- ٣٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٦٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٦٧).
(٣) ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٧٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٦٨).
فإنْ قيل: لم قال: ﴿لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾، وكان معه الرجلانِ المذكوران؟
قيل: كأنَّه لم يثِقْ بهما كلَّ الوثوقِ؛ لِمَا رأى من إطباقِ الأكثرين على التمرُّد، وقيل غير ذلك. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣٣٥)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٦٧)، ((تفسير القاسمي)) (٤/ ١٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٦٦- ١٦٧).

﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

أي: فافْصِلْ بَيْنَنا وبينَ هؤلاءِ القومِ الخارجينَ عن طاعتِك، بحُكمٍ وقَضاءٍ مِنكَ تَقضيه فينا وفيهم، فتُبعِدَهم عنَّا[1].

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٦)﴾.

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾.

أي: فأجاب اللهُ تعالى دُعاءَ موسى عليه السَّلامُ فقال: إنَّ عُقوبتَهم أنْ يُحرَّمَ عليهم دُخولُ الأرضِ المقدَّسةِ التي نَكَصوا عن دُخولِها، مُدَّةَ أربعين سَنةً يَظلُّون فيها ضائعينَ وحائرينَ في الأرضِ، لا يَهتدُونَ إلى طريقٍ، ولا يَبقَوْنَ مُطمئنِّينَ[2].

﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٠٥- ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٦٨).

(٢) وهذا اختيارُ ابنِ جَرير في ((تفسيره)) (٨/ ٣١٤-٣١٥)، وابنِ عطيةَ في ((تفسيره)) (٢/ ١٧٦)، وابنِ كثيرٍ في ((تفسيره)) (٣/ ٧٩)، والسعديِّ في ((تفسيره)) (ص: ٢٢٨)، وابنِ عثيمينَ في ((تفسير سورة المائدة)) (١/ ٢٦٨- ٢٦٩).

قال السعديُّ: (ولعلَّ الحِكمةَ في هذه المدَّة أن يموتَ أكثرُ هؤلاء الذين قالوا هذه المقالة، الصادرةَ عن قلوبٍ لا صَبرَ فيها ولا ثبات، بل قد أَلِفَتِ الاستعبادَ لعدُوِّها، ولم تكُن لها هِمَمٌ تُرقِّيها إلى ما فيه ارتقاؤها وعُلوُّها، ولتظهرَ ناشئةٌ جديدةٌ تتربَّى عقولُهم على طلب قَهرِ الأعداء، وعدمِ الاستعباد، والذلِّ المانعِ من السَّعادة) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٨)، ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٦٩).

قال القرطبيُّ: (﴿أَرْبَعِينَ﴾ ظرفُ زمانٍ للتِّيهِ، في قولِ الحسنِ وقتادةَ، قالا: ولم يدخُلْها أحدٌ منهم، فالوقفُ على هذا على ﴿عَلَيْهِمْ﴾. وقال الرَّبيعُ بنُ أنسٍ وغيرُه: إن ﴿أربعين سَنَةً﴾ ظرفٌ للتحريم، فالوقفُ على هذا على ﴿أربعين سنة﴾، فعلى الأوَّل إنَّما دخَلها أولادُهم، قاله ابنُ عبَّاسٍ. ولم يبقَ منهم إلا يوشعُ وكالب، فخرج منهم يوشعُ بذرِّيَّاتِهم إلى تلك المدينةِ وفتَحوها. وعلى الثَّاني فمَن بقي منهم بعدَ أربعينَ سنةً دخَلوها). ((تفسير القرطبي)) (٦/ ١٣٠). وينظر: ((إيضاح الوقف والابتداء)) للأنباري (٢/ ٦١٦).

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا عَلِم اللهُ تعالى أنَّ موسى عليه السَّلامُ في غايةِ الرَّحمةِ على الخَلْقِ- خُصوصًا قومَه- وأنَّه يَحزَنُ عليهم؛ قال تَعالى[1]:

﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

أي: فلا تَحزنْ عليهم- يا موسى- ممَّا عاقَبَهم اللهُ تعالى به؛ فهُم يَستحقُّونَ هذه العقوبةَ؛ لخُروجِهم عن طاعةِ ربِّهم سُبحانَه[2].

الفوائدُ التَّربويَّة:

١- أنَّ مَن رزَقَه اللهُ عِلمًا فقدْ أنْعَمَ عليه نِعمةً عظيمةً، تحتاجُ إلى التذكُّرِ؛ لأنَّ نبيَّهم موسى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ذَكَّرَهم بهذه النِّعمة، مِن خلالِ تَذكيرِهم بنِعمةِ الأنبياءِ فيهم، فقال: ﴿يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾[3].

٢- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أنَّه ينبغي للداعيةِ أن يُذكِّرَ مَن يُوجِّهُ إليهم الخطابَ بنِعَمِ الله عليه؛ لأنَّ تذكيرَهم بالنِّعَمِ يُوجِبُ لهم مَحبَّةَ اللهِ[4].

٣- أنَّه كلَّما أَنعمَ اللهُ على عبدِه بنِعمةٍ وجَبَ عليه مِن السَّمعِ والطَّاعةِ ما لم يجبْ على غيرِه؛ لأمْرِه بدخولِ الأرضِ المقدَّسةِ، بعدَ ذِكرِ النِّعمِ مباشرةً؛ حيث قال: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾[5].

٤- تقديمُ مقامِ العُلماءِ على الأمراءِ؛ لقولِه: ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾ ثم قال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٦٩).

(٣) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٥٧).

(٤) ينظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٥٦).

(٥) ينظر: ((المصدر السابق)).

﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾، فبَدأَ بالعلماءِ؛ لأنَّهم ورثةُ الأنبياءِ، وذَكَر بَعدَهم الأُمَراء؛ لأنَّهم إمَّا يكونونَ مِن الملوكِ، أو مِن وَرثتِهم أو نُوَّابِهم أو ما أشبهَ ذلِك[١].

٥- أنَّه ينبغي أن يُذَكَّر الإنسانُ بما خصَّه الله تعالى به مِن النِّعم؛ وذلك لقولِه: ﴿وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾[٢].

٦- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أنَّ الإيمانَ شرْطٌ في إخلاصِ التَّوكُّلِ على اللهِ عزَّ وجلَّ؛ إذ لا يَتوكَّلُ على اللهِ تمامَ التوكُّلِ إلَّا مَن كان عندَه إيمانٌ بما وعَدَ اللهُ به في قولِه: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[٣] [الطلاق: ٣].

٧- أنَّه يَنبغي للدَّاعيةِ أنْ يَذكُرَ ما يُهيِّجُ النُّفوسَ ويُغريها بالقَبولِ؛ لأنَّه ذكَرَ في الآيَة أنَّ الأرضَ مُقدَّسةٌ؛ هذا الأوَّل، والثاني: أنَّ اللهَ كتبَها لهم. والثالث: قولُه: ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ﴾ وكأنَّ هذه بشارةٌ بأنَّهم سيَنتصِرونَ، وسوفَ يَدخُلون الأرضَ؛ فالبِشارةُ مِن وجوهٍ ثلاثة[٤].

٨- أنَّه يَنبغي للدَّاعيةِ إلى الله أنْ يَذكُرَ عواقبَ السيِّئاتِ؛ مِن أجْلِ تَنفيرِ النُّفوسِ منها، وإنْ كانتِ الدَّعوةُ إلى اللهِ تعالى تَحصُل ببيانِ الحلالِ والحرامِ، لكن إذا ذَكَرَ التَّرغيبَ والترهيبَ كان في ذلك حَفزٌ للنُّفوسِ على الامتثالِ؛ وجهُ ذلك أنَّ موسى قال لقومِه: ﴿فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾[٥].

٩- أنَّ التوكُّلَ على اللهِ عزَّ وجلَّ مِن أسبابِ النَّصرِ؛ لقولِ هذين الرَّجُلينِ: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا﴾[٦].

---

(١) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٥٧).

(٢) ينظر: ((المصدر السابق)).

(٣) ينظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٦٧).

(٤) ينظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٦٩).

(٥) ينظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٧٢).

(٦) ينظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٧٦).

١٠- أنَّه ينبغي ألَّا يَعتمِدَ الإنسانُ على نفْسِه وعلى السَّببِ الحسِّي فقط؛ لقولِهما بعدَ أنْ وجَّهَا قومَهما إلى أنْ يَدخُلوا عليهم البابَ: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا﴾(١).

١١- أنَّ إفرادَ اللهِ بالتوكُّلِ مِنَ الإيمانِ؛ لقوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وأنَّ نقْصَ التوكُّلِ على الله نقصٌ في الإيمانِ؛ لأنَّ ما رُتِّبَ على شيءٍ ازدادَ بزيادتِه ونَقَصَ بنَقْصِه(٢).

١٢- جوازُ دُعاءِ الإنسانِ ربَّه عزَّ وجلَّ أن يَفصِلَ بينَه وبينَ أهلِ الفُسوقِ والفُجورِ؛ لقوله: ﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾، ويمكن أن يَتفرَّعَ على هذه الفائدةِ جوازُ هِجرانِ الفَسَقةِ؛ لأنَّ الهجرَ مفارقةٌ(٣).

١٣- أنَّ التخلِّيَ عن الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ مِن الفِسقِ؛ لقوله: ﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾(٤).

١٤- إرشادُ الإنسانِ ألَّا يَحزنَ على الفاسقِ؛ لأنَّه إذا بذَلَ جُهدَه فيما يجبُ مِنَ الدَّعوةِ، فإنَّ هِدايةَ الخَلْقِ ليستْ إليه، بل إلى اللهِ، فلا يحزنْ؛ ولهذا قال الله: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦](٥).

الفَوائدُ العامَّة واللَّطائف:

١- نِداءُ موسَى عليه السَّلامُ قومَه، في قولِه: ﴿يَا قَوْمِ﴾ يتضمَّن استعطافًا لهم؛ لأنَّه فرْقٌ بين أنْ يكونَ المخاطَبُ من قومِك أو مِن غيرِ قومِك(٦).

٢- الإشارةُ إلى أنَّ وجودَ الأنبياءِ بين الناسِ مِن أكبرِ النِّعمِ، فقال: ﴿إِذْ جَعَلَ

(١) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٧٦).
(٢) ينظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٨٠).
(٣) ينظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٨١).
(٤) ينظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٨٢).
(٥) ينظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٨٤).
(٦) ينظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٥٨).

فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾، ولا شكَّ أنَّ حاجةَ الناسِ إلى الأنبياءِ أعظمُ من حاجتِهم إلى الملوكِ، وإنْ كانوا يَحتاجونَ إليهم[1].

٣- في قوله ﴿كَتَبَ اللهُ لَكُمْ﴾ فائدةٌ عظيمةٌ؛ وهي أنَّ القومَ وإنْ كانوا جبَّارين، إلَّا أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا وعَدَ هؤلاءِ الضَّعفاءَ بأنَّ تِلك الأرضَ لهم، فإنْ كانوا مؤمنينَ مقرِّينَ بصِدقِ موسى عليه السَّلامُ عَلِموا قطعًا أنَّ اللهَ سيَنصرُهم ويُسلِّطهم عليهم؛ فحينئذٍ يُقدِمون على قِتالِهم مِن غَيرِ جُبنٍ ولا خوفٍ ولا هلَعٍ[2].

٤- أنَّ الكتابةَ نوعانِ: شرعيَّةٌ، وقَدَريَّة؛ فالكتابةُ في قوله: ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ بمعنى الكتابة القَدَريَّة، وتأتي غالبًا مقرونةً باللَّام، أما الكتابةُ الشَّرعيَّة فتأتي غالبًا لا دائمًا مقرونة بـ(على)؛ بدليل قوله: ﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ﴾ [الحشر:٣] فالكتابةُ هنا: قَدَريَّة[3].

٥- أنَّ بَني إسرائيلَ كانوا أحقَّ بأرضِ الشَّامِ من غيرِهم؛ لقوله: ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ فهم أحقُّ الناسِ بها، وهي مكتوبةٌ لهم حِينَ كانوا مؤمنينَ؛ لا لأنَّهم مِن بني إسرائيلَ، ولا شكَّ أنَّهم في عَهدِ موسى هم أفضلُ أهلِ الأرض، وموسى عليه السَّلامُ يُخاطِبُ قومًا صدَّقُوا وآمَنوا به، وقدْ قال اللهُ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، إذن فقولُ بني إسرائيلَ: إنَّ هذه أرضُ الميعادِ، نقول: إنْ شاءَ اللهُ هي أرضُ ميعادِ هلاكِكم، أمَّا أنَّها أرضٌ لكم مكتوبةٌ شرعًا فلا، وأمَّا قَدَرًا فيُمكِن، لكنْ شرعًا ليس لهم فيها حقٌّ إطلاقًا؛ قال: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، فكما أنَّ اللهَ أَوْرَثَ بني إسرائيل بلادَ فِرعونَ وأرضَه؛ لأنَّهم

(١) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٥٦).

(٢) ينظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣٣٢، ٣٣٣).

(٣) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٦٩).

كانوا مُسلِمينَ، فكذلك المسلمونَ المؤمنونَ بمُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَرِثونَ بَنِي إسرائيلَ[١].

٦- بَيانُ جفاءِ بني إسرائيلَ؛ وذلك أنَّ موسى عليه السَّلامُ كان يُخاطبهم بقولِه: ﴿يَا قَوْمِ﴾ بهذا اللَّفظِ، وهم يقولون: ﴿يَا مُوسَى﴾، ولم يقولوا: يا نَبيَّ اللهِ، أو يا رسولَ الله، وهذا مِن جفائِهم وغِلَظ طَبائعِهم[٢].

٧- سوءُ ظنِّ بَني إسرائيلَ باللهِ؛ وذلك لأنَّ نبيَّهم عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وعَدَهم أنَّ اللهَ كتَبَ لهم الأرضَ المقدَّسةَ في قولِه: ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾، ولكنَّهم اعتَمَدوا على الأمْرِ الماديِّ، فقالوا: ﴿إنَّ فيها قومًا جبَّارينَ﴾[٣].

٨- بعد أنْ قال قومُ موسى: ﴿وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ جاءَ تأكيدُ هذا المعنى بقولهم: ﴿فَإِنْ يَخْرُجُوا﴾ ولم يقولوا: (فإذا خرَجوا)، كأنَّهم يستبعدون خُروجَهم؛ لأنَّ (إنْ) الشَّرطيَّة: تتميَّز عن (إذا) بأنَّ (إنْ) يكونُ فِعلُ الشَّرطِ فيها حاصلًا وغيرَ حاصلٍ؛ فإنَّها للمَشكوكِ فيه، بلْ قد يكونُ مِنَ الأشياءِ المستحيلةِ، لكن (إذا) تكونُ للشَّرْطِ المَقطوعِ بوقُوعِه حَقيقةً أو حُكمًا[٤].

٩- بيان جُبنِ بَني إسرائيلَ؛ لقولِهم: ﴿لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾، وهذا غايةُ ما يكونُ مِن الجُبن؛ لأنَّ الجبانَ هو الذي يقولُ: لا أدخُلُ البلدةَ أو القريةَ أو المدينةَ إلَّا إذا خرَجَ منها أهلُها، ثم أكَّدوا هذا الجُبنَ مرَّةً ثانيةً بقولِهم: ﴿فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾[٥].

---

(١) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٧٠).
(٢) ينظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٧٢).
(٣) ينظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٧٤).
(٤) ينظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٦١)، وينظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٧٧).
(٥) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين-سورة المائدة)) (١/ ٢٧٤)، وينظر أيضًا: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٢٧٢).

١٠- أنَّ مَن غُزِيَ في عُقرِ دارِه فهو ذليلٌ، وهذا مَثَلٌ مشهورٌ: ما غُزِيَ قومٌ في عُقرِ دارِهم إلَّا ذَلُّوا؛ لقوله: ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾، وأهل البلدِ مغلوبونَ(١).

١١- لَمَّا كان يَعلمُ الرَّجُلانِ المذكورانِ في قولِه تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ أنَّه لا بدَّ مِن دخولِهم عليهم، وإنْ تَقاعَسوا وإنْ طال المدَى؛ لأنَّ اللهَ وعَدَ بنَصرِهم عليهم ووعْده حقٌّ، عبَّرا بأداةِ التحقيقِ (إذا) فقالا: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ﴾، ثم أكَّدا خَبرَهما إيقانًا بوعدِ الله فقالَا: ﴿فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾، أي: لأنَّ المَلِكَ معكم دُونَهم(٢).

١٢- قولُه تعالى: ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ناسَب أوَّلُ الآيةِ آخِرَها؛ فبعدَ أنْ أمَرَ القومَ باتِّخاذِ الأسبابِ والوسائلِ أمَرَهم بالتَّوكُّل على اللهِ، والاعتمادِ على وعْدِه ونَصْرِه وخَبرِ رسولِه؛ ولذلك ذيَّلَا بقولهما: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾؛ لأنَّ الشَّكَّ في صِدقِ الرَّسولِ مبطِلٌ للإيمانِ(٣).

١٣- إصرارُ بني إسرائيلَ على المعصيةِ، وعلى الجُبن والخَوَرِ؛ لقولهم: ﴿إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا﴾، وهذا ظاهرٌ في أنَّهم مُصرُّونَ على معصيةِ نبيِّهم الذي قال لهم: ﴿ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾(٤).

١٤- الغَطرسةُ العظيمةُ في بني إسرائيلَ؛ حيث قالوا لموسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾، حتَّى قولهم: «اذْهَبْ»-

---

(١) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٧٥).

(٢) ينظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٧٦).

(٣) ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٦٥) ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٢٠).

(٤) ينظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٨٠).

بهذه الصِّيغة كأنَّهم آمِرونَ لموسى - أيضًا فيه استعلاءٌ واستكبارٌ، ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ﴾ يعني: ما رَجَوْه رجاءً وقالوا: ألَا تذهبُ يا رسولَ اللهِ، أو يا نبيَّ اللهِ، أو ما أشبهَ ذلك، وجه ثالثٌ مِن الغطرسة في قولهم: ﴿إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾، أي: لا نَتحرَّكُ ولا نذهبُ معَكم، لم يقولوا مثلًا: إنَّنا رِدْءٌ لك نَحمِيكَ مِن ظَهرِك، وما أشبهَ ذلك! ففيها أيضًا مُنتهَى الغطرسةِ مِن بني إسرائيلَ[١].

١٥ - في قولِه تَعالَى: ﴿إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ مواجهةٌ لنبيِّهم في هذا المقامِ الحرجِ الضيِّق، الذي قد دعَتِ الحاجةُ والضرورةُ فيه إلى نُصرةِ نبيِّهم، وإعزازِ أنفسِهم، وبهذا وأمثالِه يظهرُ التفاوتُ بين سائرِ الأُممِ وأُمَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ حيث قال الصحابةُ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ - حين شاورَهم في القِتالِ يومَ «بدر» مع أنَّه لم يُحَتِّمْ عليهم -: يا رسولَ اللهِ، لو خُضتَ بِنا هذا البحرَ لخُضناهُ معَك، ولو بلغتَ بِنا بَرْكَ الغُمادِ[٢] ما تخلَّفَ عنك أحدٌ، ولا نقولُ كما قال قومُ موسى لموسى: ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾، ولكِنْ اذهبْ أنتَ وربُّك فقاتِلَا إنَّا مَعكُما مقاتلونَ، مِن بَينِ يَديكَ ومِن خَلفِكَ، وعن يَمينِكَ وعن يَسارِكَ[٣].

١٦ - أنَّ التحريمَ يُطلَقُ على المنعِ القَدَريِّ؛ لقوله: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾؛ فاللهُ تعالى لم يُرِدْ أنَّه حرَّمَ عليهم دخولَها شَرْعًا، لكنْ قَدَرًا،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (١/ ٢٨٠).

(٢) بَرْك الغُماد - تُفتح الباءُ وتُكسَر، وتُضمُّ الغينِ وتُكسَر -: هو اسمُ موضِعٍ أو بَلَدٍ باليَمنِ، وقيل: هو موضعٌ وراءَ مكَّةَ بخَمسِ ليالٍ ممَّا يلِي البَحر. والبَرْك: حِجارةٌ مِثلُ حِجارةِ الحرَّة، خَشِنة يَصعُب المسلكُ عليها، وعرةٌ. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ١٢١)، ((معجم البلدان)) لياقوت (١/ ٣٩٩- ٤٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٨).

وينظر ما أخرجه مسلمٌ (١٧٧٩) من حديثِ أنسٍ رضي الله عنه، وما أخرجه البخاريُّ (٣٩٥٢) من حديثِ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه.

والتحريمُ يكون كونيًّا، ويكون شرعيًّا، فمِن التحريمِ القَدَريِّ الكونيِّ: قولُه تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ﴾ [القصص: ١٢]، ومِن التحريمِ الشرعيِّ: قولُه تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ﴾(١) [المائدة: ٣].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ موسى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ (إِذْ) ظَرْفٌ في مَحلِّ نصْبٍ على أنَّه مَفعولٌ لِفِعلٍ مُقدَّرٍ، أي: واذْكُرْ وقْتَ قولِ موسَى لقومِه ناصحًا لهم ومُستميلًا لهم بإضافتِهم إليه ﴿يَا قَوْمِ ...﴾؛ فتوجَّه الأَمْرُ بالذِّكر إلى الوقتِ دونَ ما وقَعَ فيه مِن الحوادثِ، مع أنَّها المقصودةُ بالذَّات؛ للمبالغةِ في إيجابِ ذِكرِها؛ لأنَّ إيجابَ ذِكرِ الوقتِ إيجابٌ لذِكرِ ما وقَعَ فيه بالطريقِ البُرهانيِّ(٢).

٢- وفي قوله: ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ فيه- على أحدِ وُجوهِ التفسيرِ المذكورةِ-: تَشبيهٌ بليغٌ، حيث جعَلَهم كالملوكِ في تصرُّفِهم في أنفُسِهم، وسلامتِهم من العبوديَّةِ التي كانتْ عليهم للقِبط، أو استُعمل فِعل ﴿جَعَلَكُمْ﴾ في معنى الاستقبال، مِثل قوله: ﴿أَتَى أَمْرُ اللهِ﴾ [النحل: ١]؛ قصدًا لتحقيقِ الخبر، فيكونُ الخبرُ بشارةً لهم بما سيكونُ لهم(٣).

٣- قوله: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾: كرَّر النِّداءَ الذي ابتدأَ به مَقالتَه، وهو النِّداءُ بـ﴿يَا قَوْمِ﴾؛ اهتمامًا بشأنِ الأمرِ، ومبالغةً في حثِّهم على الامتثالِ به(٤).

٤- قوله: ﴿إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا﴾: فيه تأكيدٌ؛ حيثُ أكَّدوا الامتناعَ الثاني من الدُّخولِ بعدَ المحاورةِ أشدَّ توكيدٍ؛ دلَّ على شِدَّتِه في العربية بثلاثةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٦٢).

مؤكِّداتٍ: (إنَّ)، و (لن)، وكلمة (أبدًا)، حيثُ أكَّدوا نَفيَهم للإقدامِ عليهم بقولِهم: ﴿إِنَّا﴾، وَعظَّموا تأكيدَهم بقولهم: ﴿لَنْ نَدْخُلَهَا﴾، وزادوه تأكيدًا بقولِهم: ﴿أَبَدًا﴾[١].

٥- قوله: ﴿فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾: فيه تصريحٌ بمَفهومِ الغايةِ التي في قولِه: ﴿وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾؛ لقصدِ تَأكيدِ الوَعدِ بدُخولِها إذا خلَتْ مِنَ الجبَّارينَ الذين فيها[٢]؛ فأكَّدوا على دُخولهم إذا خرَج منها هؤلاءِ القومُ الجبَّارونَ بقولِهم: ﴿فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾-فهو مُؤكَّد بـ(إنَّ) واسميَّةِ الجُملة- وهذا لا يَحتاجُ إلى توكيدٍ، لكن يَدلُّ على شِدَّةِ بلاهتِهم؛ لأنَّ المعروف أنَّه متى خلَتِ البلادُ مِن الأعداء فخرَجُوا منها، فالدُّخولُ في هذه الحالة لا يَحتاجُ إلى تأكيدٍ[٣].

٦- قوله: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾: فيه تعريضٌ؛ حيثُ يجوزُ أن يكونَ المرادُ بالخوفِ: الخوفَ مِن الله تعالى، أي: كان قولهما لقومِهما: ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ﴾ ناشئًا عن خوفِهما مِن الله تعالى، فيكون تعريضًا بأنَّ الذين عَصَوهما لا يخافونَ اللهَ تعالى[٤].

٧- قوله: ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ﴾: فيه تقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَيْهِم﴾ على المفعولِ به ﴿البَابَ﴾؛ للاهتمامِ بالمقدَّم[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٦٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٦٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٧٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٤).

الآيات (٢٧ - ٣٢)

﴿ ۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٧ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٣٠ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ٣١ مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ ٣٢ ﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿نَبَأَ﴾: النَّبأُ: الخبرُ الذي له قَدرٌ، وفائدةٌ عظيمةٌ، ويَحصُل به علمٌ أو غَلَبَةُ ظنٍّ، وأَصْلُ (نبأ): الإتيانُ مِن مكانٍ إلى مكانٍ؛ وسُمِّيَ الخبرُ نبأً؛ لانتقالِه مِن مكانٍ إلى مكانٍ(١).

﴿قُرْبَانًا﴾: ما يُتقرَّبُ به إلى اللهِ عزَّ وجلَّ مِن ذِبْحٍ أو غيرِه، وصارَ اسمًا للنَّسيكةِ التي هي الذَّبيحةُ، وأصلُ القُرب: خِلافُ البُعدِ(٢).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٤٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٨- ٧٨٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٨٠)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٦٦٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (١/ ١٣٣).

﴿بَسَطْتَ﴾: مَدَدْتَ، والبَسطُ في الشيءِ: فتْحُه وتَوسعتُه، وقيل: إمدادُه في جميعِ جِهاتِه[١].

﴿تَبُوءَ﴾: أي: تَرجِعَ، أو تَنقلِبَ وتَنصرِفَ، ولا يُقال: (باء) إلَّا بشَرٍّ، ويُقال: باءَ بكذا إذا أقرَّ به[٢].

﴿بِإِثْمِي﴾: أي: بإثمِ قتْلي، والإثمُ والآثام: اسمٌ للأفعالِ المبطِّئةِ عن الثَّوابِ، أو الذَّنبِ الذي تُستَحقُّ العقوبةُ عليه، وأصل الإثم: البُطءُ والتأخُّر[٣].

﴿فَطَوَّعَتْ﴾: سهَّلَتْ وزَيَّنتْ، أو طاوَعتْ وأعانَتْ، وأجابتْ وانقادَتْ، وأصْل الطَّوع: الانقيادُ والإصحابُ، ويَضادُّه الكُرهُ[٤].

﴿يَبْحَثُ﴾: يَحْفِرُ، والبَحْثُ: طَلَبُ الشَّيءِ في التُّرابِ، ويُطلَقُ كذلك على الكَشفِ والطَّلبِ[٥].

﴿يُوَارِي﴾: يَستُر، مِن واريتُ كذا: إذا سَترتَه[٦].

﴿يَا وَيْلَتَا﴾: يا فَضيحَتَاه! والويلُ: كلمةُ دُعاءٍ بالهلاكِ والعذابِ، وتُطلَق

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٢٨)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٠- ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٥، ٥٢٩، ٥٣١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٨٣، ٥٨٧).

(٥) يُنظر: ((العين)) للخليل بن أحمد (٣/ ٢٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٠٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٤٥).

(٦) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦٥).

كذلِك على حُلولِ الشرِّ، وتُستعمَلُ في التَّحسُّرِ، والويلةُ: الفَضيحةُ والبليَّةُ(١).

﴿سَوْءَةَ أَخِي﴾: السَّوْءةُ: العورةُ، وما لا يَجوزُ كَشْفُه مِن الجَسدِ، والمُرادُ هنا بَدَنُه وجيفتُه، وأَصْلُ (سوء): يدلُّ على القُبحِ(٢).

﴿النَّادِمِينَ﴾: جمْعُ نادمٍ، وهو المتحسِّرُ مِن تغيُّرِ رأيٍ في أمْرٍ فائتٍ، مِن نَدِم: إذا تَفطَّنَ لشيءٍ قد كان(٣).

﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾: جمْع بيِّنة، وهي: الدَّلالةُ الواضِحةُ؛ يُقال: بانَ الشيءُ وأبانَ، إذا اتَّضحَ وانكَشَف(٤).

﴿لَمُسْرِفُونَ﴾: لمُفرِطون، والسَّرَف: تَجاوزُ الحدِّ في كلِّ فِعلٍ يَفعلُه الإنسانُ، وأصلُه: تَعدِّي الحدِّ، والإغفالُ للشَّيء أيضًا(٥).

المَعنى الإجْماليُّ:

يَأمرُ اللهُ تعالى نبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يَقصُصَ على اليهودِ وغيرِهم خبرَ ابنَي آدَمَ، وهو خبرٌ حقٌّ؛ إذ أخرجَ كلُّ أخٍ منهما شيئًا يتقرَّبُ به إلى اللهِ سُبحانَه وتعالى، فقبِلَ الله قُربانَ أحدِهما، ولم يَقبَلْ مِن الآخَر، فحسَد الذي لم يَتقبَّلِ اللهُ قُربانَه أخاه، فتوعَّده بالقَتْلِ، فقال له أخوه: إنَّما يتقبَّلُ الله من المتَّقينَ، وقال له: إنْ مددْتَ إليَّ يدَكَ لتقتُلَني، فلنْ أمدَّ يَديَ إليك لأقتلَك، والَّذي يَمنعني مِن ذلِك هو خَوفي مِن اللهِ تعالى، وأنِّي أُريدُ أن تتحمَّلَ أنتَ

---

(١) يُنظر: ((العين)) للخليل بن أحمد (٨/ ٣٦٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٤٥).

(٢) يُنظر: ((العين)) للخليل بن أحمد (٢/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٣)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٢٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ١٨١).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٦).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٧).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣١).

إثمَ قتْلي مع إثمِ ما ارْتكبْتَه مِن قبلُ من المعاصِي، فتكون- بسببِ ذلك- من أصحابِ النار، وهذه هي عقوبةُ كلِّ ظالمٍ.

فسهَّلتْ له نفْسُه قتْلَ أخيه فقتَلَه؛ فأصبح مِن الذين خَسِروا دُنياهم وآخِرتَهم، فلمَّا قتَلَه تحيَّر كيف يصنعُ بأخيه المقتولِ؟! حينها بعَثَ اللهُ غُرابًا يَحفِرُ في الأرضِ ويُثير الترابَ؛ ليشاهدَه القاتلُ، فيفطِنَ للطريقةِ التي مِن خلالها يُغطِّي بدنَ أخيه، فلام القاتلُ نفْسَه، وقال: عجبًا، كيف لم أَقدِرْ على فِعلِ ما فَعلَه هذا الغرابُ فأُغطِّيَ بدنَ أخي؟! فأصبحَ مِنَ النادمينَ.

ثم أَخبر تعالى أنَّه مِن أجلِ تِلك الجريمةِ التي ارتكبها ولدُ آدمَ بقَتْلِه أخاه ظلمًا؛ حَكَمَ تعالى على بَني إسرائيل أنَّه مَن قتَلَ نفْسًا واحدةً دون أن تكونَ مُستحِقَّةً للقتْلِ- بسببِ قِصاصٍ أو فَسادٍ في الأرض- فهو بفِعْلِه ذلك مِثلُ مَن استحلَّ دِماءَ جميعِ النَّاس، ومَن أحياها فهو مِثلُ مَن أحيا الناسَ جميعًا، ولقدْ جاءتْ رسلُ اللهِ إلى بني إسرائيل بالبيِّناتِ، ثم إنَّ كثيرًا منهم يَعملون المعاصي، ويرتكبون ما حرَّم اللهُ تعالى، مُنتهِكين حُدودَه.

تَفْسيرُ الآياتِ:

مُناسَبةُ الآياتِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بينَ هذه القِصَّةِ والتي قَبلَها مُناسَبةُ تماثُلٍ ومُناسَبةُ تضادٍّ؛ فأمَّا التماثُلُ، فإنَّ في كِلتَيهما عدَمَ الرِّضا بما حَكَم الله تعالى؛ فإنَّ بني إسرائيل عصَوْا أمْرَ رسولِهم إيَّاهم بالدُّخولِ إلى الأرض المقدَّسةِ، وأحد ابنَيْ آدَمَ عصَى حُكمَ الله تعالى بعدَم قَبولِ قُربانِه؛ لأنَّه لم يكُنْ مِن المتَّقين، وفي كِلتَيهما جُرأةٌ على اللهِ بعدَ المعصية؛ فبنو إسرائيل قالوا: فاذْهَبْ أنتَ وربُّك، وابنُ آدَمَ قال: لأقتُلَنَّ الذي تَقبَّل اللهُ مِنه. وأمَّا التضادُّ، فإنَّ في إحْديهما إقدامًا مذمومًا مِن ابنِ آدَمَ، وإحجامًا مذمومًا من بني إسرائيل، وإنَّ في إحْدَيهما اتفاقَ أَخوينِ هما موسى وأخوه على

امتثالِ أمْرِ الله تعالى، وفي الأُخرى اختلاف أَخوينِ بالصَّلاحِ والفَسادِ(١).

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧)﴾.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾.

أي: واقْصُصْ - يا محمَّدُ - خبَرَ ابنَي آدَمَ لصُلبِه(٢) على هؤلاءِ اليَهودِ وغيرِهم، بالصِّدقِ الثابتِ الذي لا لَبْسَ فيه ولا كَذِبَ، ولا وَهْم ولا تَبديلَ، ولا زِيادةَ ولا نُقصانَ(٣).

﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٦٨).
قال أبو حيَّان: (فتقدَّم قولُه أوائلَ الآيات: ﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾، وبَعدَه ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ وقوله: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ ثم قِصَّة محاربة الجبَّارين، وتبيَّن أنَّ عدمَ اتِّباع بني إسرائيل محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم إنَّما سبَّبه الحسدُ، هذا مع عِلمِهم بصِدقه، وقِصَّة ابْنَي آدمَ انطوتْ على مجموعِ هذه الآيات مِن بَسْط اليَد، ومِن الإخبارِ بالمغيب، ومِن عدمِ الانتفاعِ بالقُرب، ودَعواه مع المعصية، ومِن القتْل، ومن الحسَد). ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٢٧).
(٢) وقد نقَلَ ابنُ جريرٍ الإجماعَ على ذلك، فقال: (إجماعُ أهلِ الأخبارِ والسِّيَرِ والعِلمِ بالتأويلِ على أنَّهما كانَا ابنَي آدم لصُلبِه، وفي عهدِ آدَمَ وزمانِه) ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٢٥).
ونَسبَه ابنُ كثير وغيرُه إلى جمهورِ العلماء. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٨١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٣٧١).
وقال ابنُ كَثيرٍ: (... فهذه أقوالُ المفسِّرين في هذه القصَّة، وكلُّهم مُتَّفقون على أنَّ هذين ابنَا آدَمَ لصُلبه، كما هو ظاهرُ القرآن، وكما نطَقَ به الحديثُ في قوله: «إلَّا كان على ابنِ آدَمَ الأوَّلِ كِفلٌ مِن دَمِها؛ لأنَّه أوَّلُ مَن سَنَّ القَتْل»، وهذا ظاهرٌ جليٌّ) ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٩٠).
والمشهورُ أنَّ اسمَهما: هابيل وقابيل. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٨١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٣٧١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣١٧- ٣٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٨١- ٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٨٥- ٢٨٦).

أي: حين أَخرجَ كلُّ واحدٍ من الأخوينِ شيئًا؛ يُتقرَّبُ به مِنَ اللهِ تعالى، فقُبِلَ مِن أحدِهما دُونَ الآخَرِ[١].

﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾.

أي: فلمَّا قُبِلَ مِن أَحدِهما قُربانُه، ولم يُقبَلْ مِن الآخِرِ، وعَلِم الذي لم يُقبَلْ مِنه بذلِك، حسَدَ أخاه، فتوعَّدَه بالقتلِ[٢].

﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾.

أي: ردَّ عليه أخوه بقَولِه:إنما يُتقبَّل الله العملَ ممَّن اتَّقى الله فيه؛ فعَمِلَه خالصًا لله، موافقًا لأمر الله؛ فمَن اتَّقاه في عَملٍ تقبَّله منه[٣]، فأيُّ ذَنبٍ لي يُوجِبُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٨٦- ٢٨٧).

قال ابنُ كَثيرٍ: (ثم المشهورُ عندَ الجمهور أنَّ الذي قَرَّبَ الشاةَ هو هابيلُ، وأنَّ الذي قرَّبَ الطعامَ هو قابيل، وأنَّه تُقبِّل من هابيلَ شاتُه، حتى قال ابنُ عبَّاس وغيرُه: إنَّه الكبشُ الذي فُدِي به الذَّبيحُ، وهو مناسبٌ، والله أعلمُ، ولم يُتقبَّل مِن قابيل، كذلك نصَّ عليه غيرُ واحدٍ مِن السَّلفِ والخلفِ) ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٩).

(٣) وهذا اختيارُ ابنِ تَيميَّة في ((مجموع الفتاوى)) (١٠/ ٣٢٢)، والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ٢٢٩).

واختارَ تفسيرَ التقوى هاهنا بأنَّها امتثالُ الأوامرِ واجتنابُ النَّواهي: ابنُ جرير في ((تفسيره)) (٨/ ٣٢٧)، وابن عثيمين في ((تفسير سورة المائدة)) (١/ ٢٨٧).

وقال ابنُ عاشور: (وقد أفاد قولُ ابنِ آدَمَ حصرَ القَبولِ في أعمال المتقين؛ فإذا كان المرادُ من ﴿الْمُتَّقِينَ﴾ معناه المعروف شرعًا المحكيَّ بلفظه الدالِّ عليه مرادُ ابنِ آدم، كان مفادُ الحصر أنَّ عمَلَ غيرِ المتَّقي لا يُقبل، فيحتمل أنَّ هذا كان شريعتَهم، ثم نُسِخ في الإسلام بقَبول الحسناتِ مِن المؤمِن وإنْ لم يكن متقيًا في سائرِ أحواله، ويحتمل أنْ يُراد بالمتَّقين المُخلِصون في العمل؛ فيكون عدمُ القَبول أمارةً على عدم الإخلاص، وفيه إخراجُ لفظ التقوى عن المتعارَف، ويحتمل أنْ يُريد بالتقبُّل تقبُّلًا خاصًّا، وهو التقبُّل التام الدالُّ عليه احتراقُ القُربان، فيكون على حدِّ قولِه تعالى: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، أي: هدًى كاملًا لهم، وقوله: ﴿وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٥]، أي: الآخرة الكاملة، ويحتمل أن يُريد =

لك قتْلي، إلَّا أنِّي اتقيتُ اللهَ الذي تقواه واجبةٌ عليَّ وعليكَ؟! فكنْ أنتَ من المتقين حتَّى يُتقبَّلَ منك أيضًا[1].

﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨)﴾.

﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾.

أي: لو مَددتَ إليَّ يدَك مِن أجْلِ أنْ تَقتُلَني، فلنْ أُقابِلَك على صَنيعِك الفاسدِ بمِثلِه[2].

﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾.

أي: لا أُريدُ أنْ أُقدِمَ على قتْلِك؛ لأنَّني أخافُ غضَبَ وعقابَ اللهِ، الَّذي نتوجَّه إليه وحْدَه بالعِبادة، والخالِق المالِك لجميعِ الخلائقِ ومُدبِّرها سُبحانَه[3].

﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩)﴾.

﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾.

= تقبُّل القرابين خاصَّةً، ويحتمل أن يُراد ﴿الْمُتَّقِينَ﴾ بالقُربان، أي: المريدين به تقوى الله، وأنَّ أخاه أراد بقُربانِه [المباهاة]، ومعنى هذا الحصرِ أنَّ الله لا يَتقبَّل من غيرِ المتَّقين، وكان ذلك شرعُ زمانِهم) ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٢٨-٣٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٨٨).

أي: إنِّي أُريدُ أن ترجِعَ مُتحمِّلًا إثمَ قَتْلي، مع إثمِك الذي اكتسبتَه من مَعاصٍ سابقةٍ(١).

﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾.

أي: فتكونَ بذلِك مِن سُكَّانِ الجحيمِ الملازِمينَ لها، وهذا عقابُ كلِّ ظالمٍ(٢).

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠)﴾.

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ﴾.

أي: فسَوَّلتْ له نفْسُه وسَهَّلت عليه قتْلَ أخيه، الذي يَقتضي الشَّرعُ والطبعُ احترامَه والرأفةَ به، فاستجابَ لنَفْسِه الأمَّارةِ بالسُّوءِ، فقَتَلَ أخاه(٣).

﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

فصارَ بقَتْلِ أخيه مِن الذين خابوا وخَسِروا دُنياهم وآخِرتَهم(٤).

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((لا تُقتَلُ نفسٌ ظُلمًا، إلَّا كانَ على ابنِ آدمَ الأوَّلِ كِفلٌ من دَمِها(٥)؛ لأنَّه أولُ مَن سَنَّ القَتْلَ))(٦).

---

(١) وقد نقَل ابنُ جرير الإجماعَ على هذا المعنى. ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٣٢). ويُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٣٦- ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٨٩).

(٥) كِفلٌ من دَمِها: أي: ضِعْفٌ من إثمِها، أو: جزءٌ ونصيب من إثمها. ينظر: ((مشارق الأنوار)) للقاضي عياض (١/ ٣٤٦)، ((شرح النووي على مسلم)) (١١/ ١٦٦)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢٧١)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١١/ ٥٨٨).

(٦) رواه البخاري (٣٣٣٥) واللفظ له، ومسلم (١٦٧٧).

ولَمَّا قتَل أخاه حارَ كيفَ يَصنعُ بأخيه المقتولِ[(١)]، قال تعالى:

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١)﴾.

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾.

أي: فأَرسل اللهُ تعالى له غُرابًا يَحفِرُ في الأرضِ، ويُثير الترابَ- قيل: ليدفن غرابًا ميتًا[(٢)]-؛ ليشاهدَه القاتلُ، فيتفطَّنَ مِن خلال ذلِك إلى الطريقةِ التي يَسترُ بها بدَنَ أخيه[(٣)].

﴿قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي﴾.

أي: فقال القاتلُ حينئذٍ لائمًا وموبِّخًا لنَفْسِه: كيف لم أقْدِرْ على مِثلِ ما فعَلَه الغرابُ فأستُرَ بذلِك بدَنَ أخي[(٤)]؟!

﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٩).

قال الشوكانيُّ: (قيل: إنَّه لما قتَل أخاه لم يَدرِ كيف يُواريه؛ لكونِه أوَّل ميتٍ مات مِن بني آدمَ) ((فتح القدير)) (٢/ ٣٧).

(٢) وهذا اختيارُ ابنِ جرير في ((تفسيره)) (٨/ ٣٤٠)، والواحدي في ((الوجيز)) (ص: ٣١٦)، والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ٢٢٩).

وقال ابنُ عُثيمين: (قولُه: ﴿يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ﴾ ذكَر المفسِّرون أنَّ غُرابين اقتتَلا، فقَتَل أحدُهما الآخَرَ، فبَحَث القاتلُ في الأرض ثم دفَن الغراب، ولكن ظاهر الآية خلافُ ذلك؛ لأنَّ الله يقول: ﴿بَعَثَ اللهُ غُرَابًا﴾، ولم يقُل: غُرابين) ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (١/ ٢٨٩- ٢٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٤٠، ٣٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٤٥-٣٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٩٠).

أي: فصارَ نادمًا على قَتْلِه لأخيه[١].

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (٣٢)﴾.

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾.

أي: بسببِ جَريرةِ قتْلِ ابنِ آدَمَ أخاه ظُلمًا وعُدوانًا، حَكَمْنا على بني إسرائيلَ بأنَّه مَن تَجرَّأَ منهم فقتَل نفْسًا واحدةً بغير سببٍ مِن قِصاصٍ، أو فسادٍ في الأرضِ- فإنَّ النفسَ إذا قَتَلَت نفْسًا بغيرِ حقٍّ استحقَّتِ القتلَ بها قِصاصًا، وكذا إذا كان منها فسادٌ في الأرض كقَطعِ الطَّريقِ وإخافةِ السَّبيلِ- فهو مِثلُ مَن استحلَّ دِماءَ جميعِ النَّاسِ[٢].

﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾.

أي: مَن حرَّم قتْلَ مَن حرَّم اللهُ تعالى قتْلَه، ولم يُقدِمْ على قتْلِه، فقدْ حَيِيَ الناسُ كلُّهم بسَلامتِهم منه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٩).
وقال ابنُ عُثَيمين: (هذا القاتلُ أصبح مِن النَّادمين على قتلِ أخيه، وعلى عجزِه عن مواراةِ سوأةِ أخيه، فجمَع النَّدم للأمرينِ جميعًا) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٤٧- ٣٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٠٤- ٣٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٩).
قال ابنُ عُثَيمين: (قولُه: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾، أي: أنقذَها من الموتِ أو القتْلِ، وليس المعنى: أنه نفخ فيها الرُّوح؛ لأنَّ ذلك لا يكون إلَّا لله عزَّ وجلَّ، وهذا يشمل أشياء:
أولًا: لو هَمَّ الإنسانُ بقتْلِ شخص فطوَّعت له نفسُه قتْلَ أخيه، ثم استيقظ ورأى أنَّ ذلك =

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾.

أي: قدْ أتَى رُسلُنا بني إسرائيل ومعهم البراهينُ الظاهرةُ، والدلائلُ الواضحةُ، التي لا يَبقَى معها حُجَّةٌ لأحدٍ[1].

﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾.

أي: ثمَّ إنَّ كثيرًا من بني إسرائيلَ بعدَ مَجيءِ رُسلِنا إليهم بالبيِّناتِ القاطعةِ للحُجَّة، الموجِبةِ للاستقامةِ؛ عاملونَ في الأرضِ بالمعاصي؛ مخالفةً للهُدَى واتِّباعًا للهَوَى، فارْتكبوا محارمَ الله تعالى، وانتهكوا حدودَه سُبحانَه بعدَ عِلْمِهم بها[2].

الفوائدُ التَّربويَّة:

١ - يُستفادُ مِن قولِه: ﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾ أنَّه قد يشتركُ الرَّجُلانِ في عمل، ويكونُ بينهما مِن الفَرقِ كما بَينَ السَّماءِ والأرضِ؛ إمَّا في ردِّ عَملِ الثاني، وإمَّا في زيادةِ ثوابِ الأوَّل، وإنْ لم يُحرَمِ الثاني مِن الثَّوابِ، وفي هذه القِصَّةِ أنَّ الثانيَ حُرِمَ مِنَ الثَّوابِ[3].

= حرام، ثم كفَّ عن هذا القتْل، يكون قد أحيا هذه النفس، فبعدَ أن طوَّعت له نفسُه قتْلَه تراجَع.
ثانيًا: الدَّفْع: دفْع الصَّائل الذي يريد أن يقتُل شخصًا، فيدفعه، ويكون بهذا أحيا نفْسًا، أي: أنقذَها من القتْل.
ثالثًا: ... أن يقَعَ شخصٌ في هلكة كحريق أو غرَق أو هدم، فيأتي شخصٌ آخر فينقذه) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٠٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٠٨- ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٩١).

٢- أنَّه لا حرَجَ على الإنسانِ أنْ يُخبِرَ بوصفٍ محمودٍ إذا لم يَقصِدِ الفَخرَ، وإنَّما قَصَدَ مصلحةَ الغَيرِ؛ لقول هذا الذي تُقبِّلَ منه: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾؛ لأنَّ هذه الجملةَ تصلُحُ لأنْ يكونَ القائلُ يُريدُ أنْ يحُثَّ هذا على التَّقوى(١).

٣- قوله: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ هذا القولُ- بهذا التأكيدِ المنبِئِ عن الإصرارِ- ينبعثُ مِن غيرِ موجِبٍ، اللهمَّ إلَّا ذلك الشُّعور الخبيث المُنكَر؛ شُعور الحسدِ الأَعْمَى الذي لا يَعمُر نفسًا طيِّبةً، وهذا الخُلُقُ مذمومٌ في كلِّ شريعةٍ، وكان ممَّا حمَلَ الأخَ على قتْلِ أخيه حسَدُه على مزيَّةِ القَبولِ(٢).

٤- في قوله تعالى: ﴿مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ نموذجٌ لطَبيعةِ الخيرِ والسَّماحةِ، ونموذجٌ كذلِك من الطِّيبةِ والوداعةِ(٣).

٥- أنَّ الإنسان يَنبغي له إذا امتَنَع مِن شيءٍ محرَّم، أنْ يُبيِّنَ لصاحبه أنَّه إنما امتَنَعَ لا عجزًا ولا خوفًا، ولكن للمعنى الذي مِن أجْله امتَنعَ، وذلك لقولِه: ﴿مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾(٤).

٦- أنَّ الخوفَ مِن الله هو أقوى الأسبابِ الرادعةِ عن مَعصيتِه؛ لقولِه: ﴿مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾(٥).

٧- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ الحذرُ مِن النَّفسِ الأمَّارةِ بالسُّوء؛ لأنَّها قد تُطوِّعُ للإنسانِ أكبرَ المعاصي، فيجب على الإنسانِ أن يكونَ حازمًا بالنسبةِ لنفْسِه ويَقِظًا، فلا يَتَّبِعها فيما تُطوِّعُه له مِن معاصِي الله(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٩٣).
(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٨٧٦) ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٧٠).
(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٨٧٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٩٥).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٩٨).

٨- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أنَّ كلَّ إنسانٍ حسَدَ أخاه، وحاوَلَ أنْ يَحُولَ بينَه وبينَ التوفيقِ، فإنَّ الخَسارةَ ستعودُ على هذا الحاسدِ(١).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- أهميَّةُ هذه القِصَّة؛ وجهُ ذلك: أنَّ اللهَ أمَرَ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أمرًا خاصًّا أنْ يَتلُوَها؛ فقال: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ﴾(٢).

٢- أنَّه ينبغي لنا أنْ نعرِفَ أخبارَ مَن سبَقَ، لا سيَّما فيما فيه مصلحةٌ؛ لنأخذَ منها العِبَرَ(٣).

٣- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى- له الحُكمُ في القَبولِ والرَّدِّ؛ يَتقبَّلُ أو لا يَتقبَّل، ولكنْ مِن المعلومِ أنَّ اللهَ جعَلَ للقَبولِ ميزانًا، وجعَل للردِّ ميزانًا(٤).

٤- أنَّ الله سُبحانَه وتعالى موصوفٌ بصِفاتِ الأفعالِ؛ لقولِه: ﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا﴾، ولقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾(٥).

٥- جاءَ الفِعل ﴿فتُقبِّل﴾ مبنيًّا للمَفعولِ، وهذه الصِّياغة تُفيدُ أمرين: الأوَّل: عدَمُ البَحثِ عن كيفيَّةِ هذا التقبُّلِ، وعدَمُ الخَوضِ فيه، والثاني: الإيحاءُ بأنَّ الذي قُبِل قُربانُه لا جَريرةَ له تُوجِبُ الحفيظةَ عليه، وتَبييتَ قتْلِه، فالأمرُ لم يكُنْ له يدٌ فيه(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٨٥- ٢٩١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٩١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٩٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٩٣).

(٦) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٨٧٥).

٦- قولُه: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ على قولِ الخَوارجِ والمعتزلة لا تُقبل حَسنةٌ إلَّا ممَّن اتَّقاه مطلقًا، فلم يأتِ كبيرةً، وعند المرجئةِ إنَّما يَتقبَّل ممَّن اتَّقى الشِّرْك؛ فجَعَلوا أهلَ الكبائر داخلينَ في اسمِ المتَّقين، وعند أهل السُّنَّة والجماعة يُتقبَّل العملُ ممَّن اتَّقى الله فيه فعَمِلَه خالصًا لله، موافقًا لأمر الله؛ فمَن اتَّقاه في عَملٍ تقبَّله منه، وإنْ كان عاصيًا في غيرِه، ومَن لم يتَّقِه فيه لم يتقبَّلْه منه، وإنْ كان مطيعًا في غيرِه(١).

٧- يُستفادُ من قولِه: ﴿إِنِّي أُرِيدُ﴾ إثباتُ الإرادةِ للعَبدِ، وأنَّ هذا معلومٌ منذ خُلِق البَشرِ، فيكونُ في ذلِك ردٌّ على الجَبريَّةِ الذين يقولون: إنَّ الإنسانَ ليس له إرادةٌ، وإنَّما يَفعَلُ الشيءَ قهرًا وجبرًا(٢).

٨- أنَّ مَن أُريد قتلُه ولم يُدافِعْ عن نَفْسِه خوفًا مِن الإثم(٣)، فإنَّه لا حرَجَ عليه؛ لقوله: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾(٤).

٩- قولُه تعالَى: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ يدلُّ على أنَّ اللهَ عزَّ ذِكرُه قد كان أمَرَ ونَهَى آدَمَ بعدْ أنْ أَهبطَه إلى الأرضِ، ووعَد وأَوْعَد، ولولا ذلِك ما قال المقتولُ للقاتلِ: فتكونَ مِن

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٩٦).

(٣) قال ابنُ عُثيمين: (لأنَّه ربَّما يَقتُلُ الصَّائِلَ فيتعَجَّلُ؛ لأنَّ الواجِبَ في دَفعِ الصَّائِلَ أن يُدافَعَ بالأسهَلِ فالأسهَلِ، فإن رجَعَ عن صَولِه بالتَّهديدِ لم يُضْرَب، وإن رجَعَ بالضَّربِ اليَسيرِ لم يُضرَبْ كثيرًا، وإن رجع بالضَّربِ الكثيرِ لم يُقتَل، وإن لم يندفِعْ إلا بالقَتلِ فالحُكم أنَّه يُقتَل، إلَّا أنَّ العُلماءَ- رَحِمَهم اللهُ- استثنَوْا من ذلك مسألةً، وقالوا: ما لم يَخَفْ أن يبادِرَه بالقَتلِ، فإن خاف أن يبادِرَه بالقتلِ، فلا بأسَ أن يقتُلَه لأوَّلِ وَهلةٍ، كما لو كان هذا الصَّائِلُ معه سلاحٌ أشهَرَه على صاحِبِه، وصاحِبُه يخاف أن يُطلِقَه عليه فيقتُلَه، فحينئذٍ لا حَرَجَ أن تبادِرَه بالقَتلِ؛ لأنَّ هذا الصَّائِلَ ربَّما لا يعطيكَ فُرصةً أن تدفَعَه بيدِك مثلًا، أو تصيحَ به، أو ما أشبَهَ ذلك، وحينئذٍ لا بأسَ أن تَبدُرَه بالقَتلِ) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٩٦).

أصحابِ النارِ بقَتْلِك إيَّاي، ولا أخْبَره أنَّ ذلك جزاءُ الظَّالمين(١).

١٠- في قولِه تَعالى: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ إن قيل: كيف يُعقَلُ أن يبوءَ القاتلُ بإثم المقتولِ مع أنَّه تعالى قال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [فاطر: ١٨]، فالجواب: أنَّ المرادَ تحملُ إثْمَ قتلي وإثمِك الذي كان مِنك قبلَ قَتْلي، وهذا بحَذْفِ المضافِ، أو أن يكونَ المرادُ ترجِع إلى اللهِ بإثمِ قتْلي وإثمك الذي مِن أجْلِه لم يُتقبَّل قُربانُك(٢).

١١- إذا قيل: كيف جازَ أن يقولَ: ﴿إِنِّي أُرِيدَ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ مع أنَّه لا يجوزُ للمسلمِ أن يُريد من غيرِه أن يَعصيَ اللهَ؟ فالجواب من عِدَّة وجوه:

الأوَّل: أنَّ المعنى إنِّي أُريد أن تبوءَ بإثمِ قتْلي إنْ قتَلْتَني؛ لأنِّي لا أَقتُلك، فإنْ أنتَ قتلتَني فإنِّي مريدٌ أنْ تبوءَ بإثمِ مَعصيتِك اللهَ في قتْلِك إيَّاي، وهو إذا قتَلَه فهو لا محالةَ باءَ به في حُكمِ الله، فإرادتُه ذلك غيرُ موجِبةٍ له الدُّخولَ في الخطأ.

الثاني: أنَّ المراد: إنِّي أُريد أن تبوءَ بعقوبةِ قتْلي، ولا شكَّ أنه يجوزُ للمظلومِ أن يُريد مِن الله عقابَ ظالِمه.

الثَّالث: أنَّه رُوِيَ أنَّ الظالم إذا لم يجِدْ يوم القيامة ما يُرضِي خَصمَه أُخِذ مِن سيِّئات المظلومِ وحُمِلَ على الظالم؛ فعلى هذا يجوزُ أن يُقال: إنِّي أُريدُ أن تبوءَ بإثمي في أنَّه يُحمَلُ عليك يومَ القيامة إذا لم تجِدْ ما يُرضيني، وبإثمِك في قتْلِك إيَّاي(٣).

١٢- قولُه تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا...﴾ الآية، أصلٌ في دفنِ الميِّت(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٣٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣٤٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٣٣)، ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣٤٠).
(٤) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ١١٠).

١٣- أنَّ أفعالَ الحيوانِ كأفعالِ الإنسانِ؛ مخلوقةٌ للهِ وبإرادتِه؛ لقولِه تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ﴾(١).

١٤- أنَّ الحيواناتِ قد تكونُ مُرشِدةً للبَشرِ كما في هذه القِصةِ؛ الغراب أرْشدَ ابنَ آدَمَ إلى أنْ يَحفِرَ لأخيه ويَدفنَه، وصارتْ سُنَّةَ البَشرِ إلى يومِنا هذا، إلَّا مَن ضلَّ عنِ الصِّراطِ المستقيمِ؛ لقولِه تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا﴾(٢).

١٥- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا﴾ أنَّ الله سُبحانَه تعالى يُيسِّرُ للإنسانِ إذا ضاقتْ به الأرضُ ما لم يطرأْ له على بالٍ؛ فإنَّ هذا الرَّجُلَ ضاقتْ عليه الأرضُ؛ ماذا يَصنَعُ بأخيه الذي قتَلَه؟ إلى أن بعَث اللهُ هذا الغرابَ(٣).

١٦- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ﴾ أنَّ الواجبَ في الدَّفْنِ ما تُوارَى به السَّوأةُ، أي: ما يُغطَّى به الجِسمُ، لكنَّ العلماء رحِمهم الله زادوا على ذلِك شرطًا لا بدَّ منه، وهو أن يكونَ الدفنُ مانعًا من وصولِ السِّباع إليه، ومن خروجِ رائحَتِه(٤).

١٧- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ﴾ أنَّ بدَنَ الميِّتِ كلَّه عورةٌ؛ لأنَّ القبر يُواري البدنَ كلَّه؛ ولهذا قال العلماءُ رحمهم الله: إنَّ بدَنَ الميِّتِ كلَّه عورةٌ، لكن هذا بالنسبة إلى وجوبِ تَعميمِ الكفنِ لا بالنِّسبةِ للنَّظَرِ(٥).

١٨- في قولِه تعالَى: ﴿كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ مَشهدٌ عظيمٌ؛ وهو مشهدُ أوَّلِ حَضارةٍ في البَشر، وهي مِن قَبيلِ طلبِ سَتْرِ المشاهِدِ المكروهةِ، وهو أيضًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ١٢٣)، ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٢٩٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٠٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ١٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٠٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مشهدُ أوَّلِ عِلمٍ اكْتَسبَه البشرُ بالتَّقليدِ وبالتَّجرِبةِ، وهو أيضًا مَشهدُ أوَّلِ مظاهرِ تلقِّي البشرِ معارفَه من عوالمَ أضعفَ منه، كما تَشبَّه الناسُ بالحيوانِ في الزِّينةِ، فلَبِسوا الجلودَ الحسنةَ الملوَّنة، وتَكلَّلوا بالرِّيشِ المُلوَّن، وبالزُّهورِ والحجارةِ الكريمةِ(١).

١٩- يُستفادُ مِن قَوْلِه: ﴿يَا وَيْلَتَى﴾ أنَّ فاعلَ المعصيةِ إذا لم يتُبْ فإنَّه يُجازَى بالخسرانِ والنَّدمِ، وضِيقِ النَّفْس(٢).

٢٠- قولُه تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ الظاهرُ أنَّ نَدمَه لم يكُن ندمَ التوبةِ، وإلَّا لقبِلَ اللهُ توبتَه، وإنَّما كان الندمَ الناشئَ من عدمِ جدوى فِعْلَتِه، وما أعقبَتْه له مِن تَعبٍ وعناءٍ وقلقٍ، ومصداقُ ذلك ما جاءَ في الصحيح: ((ما مِن نَفْسٍ تُقتَلُ ظُلمًا إلَّا كان على ابنِ آدمَ الأوَّلِ كِفلٌ مِن دَمِها؛ ذلك لأنَّه أَوَّلُ مَن سَنَّ القتلَ))(٣)، وقيل: حتى وإن كان ندمَ توبةٍ فلم يكن موفيًا شروطَه، فلم يقبلْ منه، أو نَدِمَ ولم يستمرَّ ندمُه، وقيل غير ذلك(٤).

٢١- قولُه تَعالَى: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ فيه دليلٌ على أنَّ القتلَ يجوزُ بأحدِ أمرينِ: إمَّا أن يَقتُلَ نفْسًا بغيرِ حقٍّ متعمِّدًا في ذلك، فإنَّه يَحِلُّ قتْلُه، إنْ كان مُكلَّفًا مُكافِئًا، ليس بوالدٍ للمقتولِ، وإمَّا أنْ يكونَ مُفسِدًا في الأرض، بإفسادِه لأديانِ الناسِ أو أبدانِهم أو أموالِهم، كالكفَّارِ المرتدِّينَ والمحاربينَ، والدُّعاةِ إلى البِدعِ الذين لا ينكَفُّ شَرُّهم إلَّا بالقَتْلِ، وكذلك قُطَّاعُ الطريقِ ونحوُهم، ممَّن يَصولُ على الناس لقَتْلِهم، أو أخْذِ أموالِهم(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٧٤) ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٨٧٧). والحديث تقدم تخريجه.

(٤) يُنظر ((تفسير القرطبي)) (٦/ ١٤٢)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (١/ ٥٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٩).

٢٢- إثباتُ العلةِ للأحكامِ الشرعيَّة؛ لقوله: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ﴾ وهذه مِن أقوى صِيَغ التَّعليلِ، وإثباتُ العلَّة والحكمةِ لا شكَّ أنَّها مِن كمالِ الله عزَّ وجلَّ، فاللهُ تعالى لا يُشرِّع شيئًا إلا لحكمةٍ، ولا يُقدِّر شيئًا إلا لحكمةٍ[1].

٢٣- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ضاعَفَ العقوبةَ على كلِّ مَن قتَلَ نفسًا بغير نفْسٍ أو فسادٍ في الأرضِ؛ حيث جعَلَه كالذي قتَل الناسَ جميعًا[2].

٢٤- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ...﴾ جوازُ تخصيصِ مُعيَّنٍ في الحُكم وإنْ كان عامًّا؛ لكونِه أكثرَ الناسِ عملًا به؛ وجْهُه أنَّ الله خصَّ هذه الكتابةَ على بني إسرائيل مع أنَّها عامَّة؛ لأنَّهم هم أكثرُ مَن انتَهَكوا حُرماتِ اللهِ عزَّ وجلَّ بقتْلِ النُّفوسِ[3].

٢٥- وفي قولِه تعالى: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ قرَنَ اللهُ قتْلَ النَّفسِ بالفسادِ في الأرضِ، وجعَل كلًّا منهما مبرِّرًا للقَتْل، واستثناءً مِن صيانةِ حقِّ الحياةِ، وتفظيعِ جريمةِ إزهاقِ الرُّوح؛ ذلك أنَّ أمْنَ الجماعةِ المسلمةِ في دارِ الإسلامِ، وصِيانةَ النِّظامِ العامِّ الذي تستمتعُ في ظلِّه بالأمان، وتُزاوِلُ نشاطَها الخيِّرَ في طُمأنينةٍ، ذلك كلُّه ضروريٌّ كأمْنِ الأفرادِ، بل أشدُّ ضرورةً؛ لأنَّ أمْنَ الأفراد لا يتحقَّقُ إلَّا به، فضلًا على صيانةِ هذا النموذجِ الفاضلِ من المجتمعاتِ، وإحاطتِه بكلِّ ضَماناتِ الاستقرارِ كيما يُزاوِلُ الأفرادُ فيه نشاطَهم الخيِّر، وكيما تترقَّى الحياةُ الإنسانيَّة في ظِلِّه وتُثمِر، وكيما تتفتَّحُ في جوِّه براعمُ الخيرِ والفضيلةِ والإنتاجِ والنَّماء[4].

---

(١) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٠٩).

(٢) ينظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣١٢).

(٣) ينظر: ((المصدر السابق)).

(٤) ينظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٨٧٨).

٢٦- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ﴾، أنَّ الفسادَ في الأرض مبيحٌ لقتْلِ النَّفْس، ولكنَّه مقيَّدٌ بالأدلَّة الأخرى الدالَّةِ على أنَّه ليس كلُّ فسادٍ يُبيح قتْلَ النَّفسِ، بل منه ما يُبيحُ القتلَ، ومِنه ما يُبيح دونَه، فتُحمَل هذه الآيةُ على النُّصوصِ الدالَّة على التَّخصيصِ(١).

٢٧- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ أنَّ إنقاذَ المعصومِ كإنقاذِ جميعِ المعصومينَ؛ اعتبارًا بالجِنس، فمَن أنقَذَ معصومًا من هَلَكةٍ، فكأنَّما أنقذَ النَّاسَ جميعًا باعتبارِ الجِنس، كما أنَّ مَن كذَّب رسولًا، فكأنَّما كذَّب جميعَ الرُّسلِ(٢).

٢٨- قوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ ﴿رُسُلُنَا﴾: الَّذين أرسلَهم اللهُ عزَّ وجلَّ، فأضافَ الرُّسلَ إليه؛ لأنَّه هو الذي أرْسلَهم، وربَّما نقول: وتشريفًا لهم؛ لأنَّ الرسولَ يَشْرُفُ بشرفِ مُرسِله، فاللهُ عزَّ وجلَّ شرَّفهم بإضافةِ رِسالتهم إليه جلَّ وعلا، وقد تأتي الرسالةُ مضافةً إلى المرسَل إليهم، مِثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الأعراف: ١٠١]، ولا تناقُضَ بينهما، فهم رسلُ اللهِ؛ لأنَّه هو الذي أرسلَهم، ورسلٌ إلى الخَلْق؛ لأنَّهم بلَّغوهم رسالاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ(٣).

٢٩- أنَّ مَن لم تَبْلُغْه الرسالةُ فهو معذورٌ؛ لقولِه: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾، وهذا لإقامةِ الحُجَّة عليهم، والنُّصوصُ في هذا واضحةٌ؛ قال الله تعالى:﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ

(١) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣١٥).
(٢) ينظر: ((المصدر السابق)).
(٣) ينظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٠٨).

الرُّسُلِ﴾[1] [النساء: ١٦٥].

٣٠- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ مَحبَّةُ اللهِ عزَّ وجلَّ للإعذارِ وإقامةِ الحُجَّةِ؛ حيثُ جعَل مع كلِّ رسولٍ آيةً بيِّنةً يُؤمِنُ على مِثلِها البشرُ، حتَّى لا يقولَ الناسُ: مَن قال: إنَّ هذا رسولٌ؟ أينَ البيِّنةُ على أنَّ هذا رسولٌ؟ فإذا جاءَ بالآياتِ البيِّناتِ قامتِ الحُجَّةُ[2].

٣١- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ العلمُ بشراسةِ بني إسرائيلَ، وأنَّهم أهلُ الغَطْرسةِ والاستكبارِ والتَّكذيب، وأنَّ بني إسرائيلَ مع الرُّسلِ المبيِّنينَ لم يَهتدوا، بل كثيرٌ منهم- بعدَ هذا البيانِ، وبعدَ هؤلاءِ الرُّسلِ- مُسرِفونَ مُتجاوِزونَ للحدِّ[3].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾:

- فيه إيجاز بالحذف، والتقدير: كأنَّه قال: لِمَ تقتلُني؟ قال: لأنَّ قُربانك صار مقبولًا، فقال: وما ذنبي؛ ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[4]؟!

- وفيه تعريض؛ إذ المعنى: إنَّما يَتقبَّلُ اللهُ مِنَ المتَّقين، لا مِن غَيرِهم، وإنَّما تقبَّلَ قُرباني، وردَّ قُربانَك لِمَا فينا من التَّقوى وعَدمِه، أي: إنما أُتيتَ من قِبَلِ نفْسِك لا مِن قِبَلي؛ فلماذا تَقتُلني؟! ولم يُصرِّحْ بذلك؛ بل سَلَك مَسْلَكَ التَّعريضِ حَذَرًا من تهييجِ غَضَبِه، وحملًا له على التقوى، والإقلاعِ عمَّا نواه[5].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣١٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣١٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣٣٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٢٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٦، ٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٧٠).

٢- قوله: ﴿مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ﴾: جملة اسميَّة مُصدَّرة بـ(ما) الحجازيَّة المفيدة لتأكيد النَّفي بما في خبرها ﴿بِبَاسِطٍ﴾ من الباء؛ للمبالغة في إظهار براءتِه عن بَسْطِ اليد، وللتبرِّي عن هذا الفِعل الشَّنيع رأسًا، والتحرُّز من أن يُوصَفَ به، ويُطلَق عليه(١).

٣- قوله: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ﴾ فيه تشبيهٌ؛ حيثُ شبَّه قَتْلَ أخيه بشيءٍ مُتعاصٍ عنه ولا يُطيعه؛ بسببِ معارضةِ التعقُّلِ والخشيةِ؛ وشُبِّهتْ داعيةُ القتْلِ في نفْسِ القاتِلِ بشخصٍ يُعِينُه، ويُذلِّلُ له القتْلَ المتعاصِي(٢).

- وفيه: إطنابٌ حسَنٌ، وكان مقتضَى الإيجازِ أنْ يَحذف ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾، ويَقتصر على قولِه: ﴿فَقَتَلَهُ﴾، لكن عدَلَ عن ذلك؛ لقصدِ تفظيعِ حالةِ القاتلِ في تصويرِ خواطرِه الشِّرِّيرة، وقَساوة قلبِه؛ إذْ حدَّثه بقَتْلِ مَن كان شأنُه الرحمةَ به والرِّفقَ(٣).

٤- قوله: ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ﴾: الاستفهامُ فيه للإنكارِ والنَّفي(٤).

٥- قوله: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ فيه: تشبيهٌ تَمثيليٌّ، ومناطُ التَّشبيهِ اشتراكُ فِعلَي القتْلِ في هتْك حُرمةِ الدِّماءِ والتجرُّؤ على الله، وتَشجيعِ النَّاس على القتلِ، والمقصودُ مِن تشبيهِ قتلِ النَّفسِ الواحدةِ بقتْلِ النُّفوسِ: المبالغةُ في تَعظيمِ أمرِ القَتْلِ العَمْدِ العُدوانِ، وتَفخيمُ شأنِه، يعني كما أنَّ قَتْلَ كلِّ الخَلقِ أمرٌ مُستعظَمٌ عند كلِّ أحدٍ، فكذلك يجبُ أن يكونَ قتلُ الإنسانِ الواحدِ مُستعظَمًا مَهيبًا،

---

(١) ينظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٢٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٢٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٧).
(٢) ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٧٢).
(٣) ينظر: ((المصدر السابق)).
(٤) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٧٣).

فالمقصودُ مشاركتُهما في الاستعظامِ، لا بيانُ مشاركتِهما في مِقدارِ الاستعظامِ[(١)].

والتشبيهُ بين قاتِلِ النَّفسِ وقاتِلِ الكلِّ قد يَحصُل مِن ثلاث جِهاتٍ لا مِن جميعِها. إحداها: القَوَد-القِصاص-؛ فإنَّه واحدٌ. والثانية: الوعيدُ؛ فقد وعَدَ اللهُ قاتِلَ النَّفسِ بالخلودِ في النَّار. والثالثة: انتهاكُ الحُرمةِ؛ فإنَّ نفسًا واحدةً في ذلك وجميعَ الأنفسِ سواءٌ، والمنتهِك في واحدةٍ ملحوظٌ بعينِ مُنتَهِكِ الجميعِ[(٢)].

٦- **قوله: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾** فيه: تشبيهٌ؛ حيث شبَّه الواحدَ بالجميعِ وجعَل حُكمَه كحُكمِهم؛ لأنَّ كلَّ إنسانٍ يُدلَى بما يُدلَى به الآخرُ من الكرامةِ على الله، وثبوتِ الحُرمةِ، فإذا قُتِل فقدْ أُهينَ ما كَرُم على اللهِ، وهُتِكتْ حُرمتُه، وعلى العكس؛ فلا فرقَ إذَنْ بين الواحِدِ والجميعِ في ذلك، والفائدةُ في ذِكْر ذلك هي: تعظيمُ قَتْل النَّفْسِ وإحيائِها في القلوبِ؛ ليشمئزَّ الناسُ عن الجَسارةِ عليها، ويَتراغَبوا في المحاماةِ على حُرمتِها؛ لأنَّ المتعرِّضَ لقَتْلِ النَّفسِ إذا تَصوَّرَ قتْلَها بصورةِ قتْلِ الناسِ جميعًا عَظُمَ ذلك عليه؛ فثبَّطَه، وكذلِك الذي أرادَ إحياءَها[(٣)].

٧- **قوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾**: تَذييلٌ لحُكمِ شَرْعِ القِصاصِ على بَني إسرائيلَ، وهو: خبرٌ مُستعمَلٌ في الكِنايةِ عن إعراضِهم عن الشَّريعة، وأنَّهم- مع ما شُدِّد عليهم في شأنِ القتلِ- لم يَزالوا يَقتُلون، كما أشْعَر به قولُه: ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾، أي: بعدَ أنْ جاءتْهم رسُلُنا بالبيِّناتِ، وحُذِف مُتعلَّق (مُسْرِفون)؛ لقَصدِ التَّعميمِ، والمرادُ:

---

(١) ينظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٤٦٣).

(٢) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٣٨).

(٣) ينظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٢٦).

مُسرِفون في المفاسدِ التي مِنها قتْلُ الأنفسِ[١].

- وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾: فيه تقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ على الخبرِ ﴿لَمُسْرِفُونَ﴾؛ للاهتمامِ، وهو يُفيدُ زيادةَ تفظيعِ الإسرافِ فيها مع أهميَّةِ شأنها[٢].

- وفيه مِن الفَصاحةِ: تأكيدُ الخبرِ؛ إذ الحاجةُ تدْعو إلى تَأكيدِ الخبرِ، والمقامُ يَدعو إلى توكيدِ الخبرِ، وإنْ كان المخبِرُ من أهلِ الصِّدق، حتَّى يَطمئنَّ المخاطَبُ، وقد أُكِّدَ هذا الخبرُ بمؤكِّدين، وهما: ﴿إِنَّ﴾ واللام في ﴿لَمُسْرِفُونَ﴾[٣].

---

(١) ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٧٩).

(٢) ينظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ١٢٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣١٨).

الآيتان (٣٣ - ٣٤)

﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (٣٤) ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿يُصَلَّبُوا﴾: يُعلَّقوا، وتُشدَّ أَصلابُهم على خَشَبٍ للقَتْلِ[١].

﴿مِنْ خِلَافٍ﴾: أي: يُخالَفُ بين الأيدي والأَرْجُلِ في القَطعِ؛ فتُقطَعُ اليدُ اليُمنَى مع الرِّجلِ اليُسرى، والعكس[٢].

﴿يُنْفَوْا﴾: أي: يُطْرَدوا، وقيل: يُسجَنُوا ويُحبَسُوا؛ لأنَّ المحبوسَ بمنزلةِ المطرودِ مِن الدُّنيا، وأَصْلُ (نفي): الطَّردُ، وتَعريةُ شيءٍ مِن شيءٍ، وإبعادُه منه[٣].

﴿خِزْيٌ﴾: هوانٌ وهلاكٌ، وأصل الخِزي: الإبعادُ[٤].

المَعنَى الإجْماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ جزاءَ مَن يُبارِزونَ اللهَ بالعداوةِ، ويَعْتَدونَ على أحكامِ دِينِه،

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((العين)) للخليل بن أحمد (٨/ ٣٧٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٥٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣١٧).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٥).

ويُفسِدون في الأرضِ بالكُفرِ وعَمَلِ المعاصي؛ مِن إخافةِ السُّبُل، ومِن قَطْعٍ للطُّرق، واغتصابٍ للأموالِ، وانتهاكٍ للحُرُماتِ- يُخبِرُ أنَّ جزاءَهم القَتْلُ، أو الصَلْبُ، أو أنْ تُقطَّعَ أيديهم اليُمنى مع الأرْجُل اليُسرى، أو يُطْرَدوا مِن البلدِ الذي هم فيه إلى غَيرِه، تِلك العقوبةُ لهم ذُلٌّ وفضيحةٌ في الدنيا، ولهم في الآخِرة عذابٌ عظيمٌ؛ هو عذابُ جَهنَّم.

واسْتَثنى الله تعالى مِنهم مَن تاب، وترَكَ محاربةَ اللهِ والسَّعيَ في الأرضِ بالفسادِ مِن قَبلِ أنْ يَقدِرَ عليهم أُولو الأمرِ، فإنْ أتَوْا تائِبينَ نادمينَ، فاعلموا- أيُّها المؤمنون- أنَّ اللهَ غفورٌ؛ فلن يُؤاخِذَهم بذُنُوبهم لا في الدُّنيا ولا في الآخِرة، بلْ يَغفِرُها لهم، ورحيمٌ؛ إذ عفا عنهم، ورفَع عنهم العِقابَ.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣)﴾.

مناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ في الآيةِ الأُولى تغليظَ الإثمِ في قَتْلِ النَّفسِ بغيرِ حقٍّ،، أتْبعَه ببيانِ الفسادِ الذي يُوجِبُ القتلَ؛ فإنَّ بعضَ ما يكون فسادًا في الأرضِ لا يُوجِبُ القتلَ، فقال[1]:

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾.

أي: إنَّ جزاءَ مَن يُبارزونَ اللهَ تعالى ورسولَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالكُفرِ والعداوةِ، ويُضادُّونَ اللهَ ورسولَه بالاعتداءِ على أحكامِ الدِّين، فيفعلون المنهياتِ،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣٤٥) ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٣٠٣).

ويَترُكون المأموراتِ على وجهِ الاستكبارِ والعِنادِ(١).

﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾.

أي: ويُسارِعونَ في عمَلِ المعاصي في أرضِ الله؛ مِن إخافةِ سُبلِ المؤمنين، أو سُبلِ أهلِ ذِمَّتِهم، وقَطْعِ طُرُقهم، واغتصابِ أموالِهم، وانتهاكِ حُرَمِهم(٢).

﴿أَنْ يُقَتَّلُوا﴾.

أي: جزاءُ أولئك الذين يَفعلونَ ذلك؛ القتلُ(٣).

﴿أَوْ يُصَلَّبُوا﴾.

أي: أو(٤) يُوضَعَ الجناةُ مَشدودينَ على خَشبةٍ ونحوها؛ قيل: لقَتْلِهم، وقيل:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٢٩-٢٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣١٩).
قال ابنُ الجوزي: (وقال سعيدُ بنُ جُبَيرٍ: أراد بالمحاربةِ للهِ ورسولِه، الكفرَ بعدَ الإسلامِ، وقال مقاتلٌ: أراد بها الشِّرك) ((زاد المسير)) (١/ ٥٤٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣١٩).
قال ابنُ جريرٍ: (عن مجاهدٍ: ﴿ويسعون في الأرض فسادا﴾ قال: الفسادُ: القتلُ، والزِّنا، والسَّرقة) ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٧٢).
قال ابنُ الجوزيِّ: (قولُه تعالى: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ فيه أربعةُ أقوالٍ: أحدُها: بالمعاصي، قاله ابنُ عبَّاس، ومُقاتل) ((زاد المسير)) (١/ ٥٦٧).
قال السعدي: (والمشهورُ أنَّ هذه الآيةَ الكريمةَ في أحكامِ قطَّاعِ الطريقِ، الذين يَعرِضون للنَّاس في القُرَى والبوادي، فيَغْصبونهم أموالَهم، ويقتلونهم، ويُخيفونهم، فيمتنعُ النَّاس مِن سُلوكِ الطَّريق التي هم بها، فتنقطعُ بذلك) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٢٠).
(٤) اختلَف أهلُ العِلم في معنى ﴿أَوْ﴾ التي تَكرَّرت في هذه الآيةِ الكريمة، فقِيل: هي للتخييرِ، فيفعلُ الإمامُ أو نائبُه ما رآه المصلحةَ مِن هذه الأمورِ المذكورة.
وممَّن قال مِن السَّلفِ: إنَّ ﴿أو﴾ هنا للتخييرِ: ابنُ عبَّاس- في رواية عنه- ومجاهد، =

بلْ يُصلَبوا بعدَ قتْلِهم، وقيل غيرُ ذلك(١).

﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾.

أي: أو تُقطَّعَ أيديهم اليُمنَى وأَرْجُلهم اليُسرى؛ ويكونُ القطعُ في اليدِ مِن مَفْصِلِ الكفِّ مِن الذِّراع، ويكونُ القطعُ في الرِّجلِ من مَفْصِل القدَمِ من العَقِبِ(٢).

= وإبراهيم، وعطاء، ورواية عن الحسن، وسعيد بن المسيَّب. ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٧٨).
وقيل: للتَّنويع، وأنَّ هذه العقوباتِ تختلفُ بحسبِ الجرائم.
وممَّن قال مِن السَّلف: إنَّ ﴿أَوْ﴾ هنا للتَّنويع: ابنُ عبَّاس - في روايةٍ عنه - وإبراهيمُ، وأبو مِجْلَز، والحسن، وقتادة، والسُّدِّي، وعطاء الخُراساني، وسعيد بن جُبَير، والربيع، ومُورِّق العِجلي. ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٧٣).
قال ابنُ جرير: (وأَوْلى التأويلين بالصَّواب في ذلك عندنا: تأويلُ مَن أوجبَ على المحاربِ مِن العقوبةِ على قدْرِ استحقاقِه، وجعَل الحُكم على المحاربين مختلفًا باختلافِ أفعالِهم) ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٨١).
ينظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٣٩٤-٣٩٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٨٩-٤٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (١/ ٣٢٣- ٣٢٤).

(١) قال ابنُ عَطيَّة: (أمَّا صَلبُه فجمهورٌ مِن العلماء على أنَّه يُقتَل ثم يُصلَب نكالًا لغيره، وهذا قول الشافعيِّ، وجمهورٍ مِن العلماء على أنه يُصلَبُ حيًّا، ويُقتَل بالطَّعن على الخَشبةِ، ورُوي هذا عن مالكٍ وهو الأظهرُ من الآية، وهو الأنْكَى في النَّكَال) ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ١٨٥)، وينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٨٣).
وقال الشنقيطي: (الظاهر أنه يُصلَب بعد القتل زمنًا يحصُل فيه اشتهارُ ذلك؛ لأنَّ صَلْبَه رَدعٌ لغيره) ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٣٩٦).
وقال ابنُ عُثَيمين: (قولُه: ﴿أَوْ يُصَلَّبُوا﴾ يعني: يُصلَّبون، وهل المراد الصَّلب بعد القتْل؛ فيكون الجمع بين الأمرين؟ أو هو صلبٌ فقط دون قتْل؟ ظاهرُ الآيات الكريمة الثاني أن يُصلَب حتى يفتضح بجنايتِه، ثم بعدَ ذلك يَنظر وليُّ الأمر فيه بما يراه مناسبًا، لكن المعروف أنَّ الصلب يكون بعدَ القتل، وقيل: يُصلَّبون قبلَ القتل، فالأقوالُ ثلاثة: الرأي الأوَّل: يُصلَّبون بعد القتْل، والرأي الثاني: يُصلَّبون قبْلَ القتْل، والرأي الثالث: أنَّ الصَّلبَ عقوبةٌ منفردةٌ، يعني: ليست مركَّبة مع القتل، وهذا القولُ هو ظاهرُ الآية) ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (١/ ٣٢٠- ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٨٣- ٣٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (١/ ٣٢١).

﴿أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾.

أي: أو يُطرَدُوا مِن البلدِ الذي هُم فيه إلى بلدٍ غيرِه(١).

﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾.

أي: هذا الجزاءُ الذي جُوزُوا به؛ ذُلٌّ وعارٌ وفَضيحةٌ لهم في الدُّنيا(٢).

﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

أي: ولهم مع ذلك عذابٌ أُخْرويٌّ، وهو عذابُ جهنَّمَ(٣).

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٤)﴾.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾.

---

(١) فيُطرَد مِن البَلد الذي حارَب فيه اللهَ ورسولَه، وسعى فيه بالفساد، وهذا اختيارُ ابنِ عطيةَ في ((تفسيره)) (٢/ ١٨٥)، والقرطبيِّ في ((تفسيره)) (٦/ ١٥٣)، وابنِ عثيمينَ في ((تفسير سورة المائدة)) (١/ ٣٢١، ٣٢٤).

وقيل: بل المرادُ إخراجُه من وطنِه؛ لأنَّ مفارقة الأوطان أمرٌ شاقٌّ على النفوس، وهذا اختيارُ ابن عاشور في ((تفسيره)) (٦/ ١٨٤)، والشنقيطي في ((أضواء البيان)) (١/ ٣٩٦). ونَسبَه لابن جرير. لكن قال ابن جرير: (وأَوْلى الأقوال في ذلك عندي بالصَّواب قولُ مَن قال: معنى النَّفي من الأرض في هذا الموضع: هو نفيُه مِن بلدٍ إلى بلدٍ غيرِه، وحبْسُه في السجن في البلدِ الذي نُفِي إليه، حتى تظهرَ توبتُه من فُسوقِه، ونُزوعُه عن معصيتِه ربَّه) ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٨٩). ولم يُحدِّد البلدَ التي يُنفى منها.

وممَّن قال من السَّلف نحوَ هذا القول: سعيدُ بن جُبَير. ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٨٧).

وقيل: يُحبس في البلدة التي نُفي إليها، وهذا اختيارُ ابن جرير في ((تفسيره)) (٨/ ٣٨٩).

وقيل: معنى النَّفي من الأرض: الحبسُ في السِّجن؛ لأنَّ المسجونَ بمنزلةِ المُخرَجِ من الدُّنيا، وهذا اختيارُ الواحديِّ في ((الوجيز)) (ص: ٣١٧).

وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٠٠- ١٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٠).

أي: ما عدَا مَن رجَعُوا إلى اللهِ تعالى، وكفُّوا عن مُحاربةِ اللهِ ورسولِه وعن سَعيِهم في الأرضِ بالفسادِ، فوَضَعوا السِّلاحَ، وكفُّوا عن قَطْعِ الطَّريقِ من تِلقاءِ أنفسِهم، قبلَ أن تَقْدِروا عليهم(١).

﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

أي: فاعْلَموا- أيُّها المؤمنون- أنَّ اللهَ تعالى غيرُ مُؤاخِذٍ مَن تاب منهم بذُنوبه، ولكنَّه يَسترُها، ويَتجاوزُ عن المؤاخذةِ بها، في الدُّنيا والآخِرة، فيُسقِطُ عنه ما وجَب عليه من عُقوباتٍ، وهو رحيمٌ به إذْ عفَا عنه، ورفَع ما عليه مِن عقابٍ(٢).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا...﴾ الآية: عِظَمُ جريمةِ محاربةِ اللهِ ورسولِه، وأنَّ الإنسانَ إذا حاربَ الله ورسوله فإنَّه يُخشَى عليه؛ وذلك لعِظَمِ العقوبةِ، فإنَّ عِظَمَ العقوبةِ يدلُّ على عِظَم الجريمةِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٠١- ٤٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٢٢).

قال الرازي: (لا خلافَ أنَّ هذا الاستثناءَ راجعٌ إلى ما تقدَّم من أوَّل الآيةِ، وأنَّ التوبةَ حاصلةٌ لهؤلاء جميعًا) ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٢٢).

قال السعديُّ: (فيَسقُطُ عنه ما كان للهِ، مِن تحتُّمِ القتْلِ والصَّلْبِ والقَطعِ والنَّفي، ومِن حقِّ الآدميِّ أيضًا، إنْ كان المحاربُ كافرًا ثم أسْلَم، فإنْ كان المحاربُ مُسلمًا فإنَّ حقَّ الآدميِّ لا يسقُطُ عنه من القَتْل وأخْذ المالِ، ودلَّ مفهومُ الآيةِ على أنَّ توبة المحارب- بعد القُدرة عليه- أنها لا تُسقِط عنه شيئًا، والحكمة في ذلك ظاهرة) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٠).

وقال الشنقيطي: (الإجماعُ على سقوطِ حدودِ الله عنهم بتوبتِهم قبلَ القُدرة عليهم) ((أضواء البيان)) (١/ ٣٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٢٢).

١- قوله: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا...﴾ يقتضي وُجوبَ عِقابِ المحارِبين بما ذكر الله فيها، لأنَّ الحصرَ يفيدُ تأكيدَ النِّسبةِ(١).

٢- يُفيدُ قولُه: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا...﴾ الآية: أنَّ اللهَ تعالى يُريدُ مِن عِبادِه أنْ يُطهِّروا الأرضَ مِن الفساد؛ ولذلك عاقَبَ الذين يَسعَونَ في الأرضِ فسادًا بهذه العقوبةِ العظيمةِ(٢).

١- ممَّا تُفيدُه الآيةُ أنَّ قُطَّاعَ الطريقِ يُجمَعُ لهم بين العُقوبةِ في الدُّنيا والآخِرَةِ؛ لقولِه: ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(٣).

٣- أنَّ هؤلاءِ المجرِمينَ مع عِظَمِ جُرمِهم إذا تابوا قبلَ القُدرةِ عليهم سقَطَ عنهم الحدُّ(٤)، ويُؤخَذُ سقوطُ الحدِّ من قولِه تعالى: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(٥).

٢- استُدلَّ بقولِه تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾ أنَّه إذا كانتِ التوبةُ قَبلَ القُدرةِ عليه تَمنَعُ من إقامةِ الحدِّ في الحَرابةِ؛ فغيرها مِن الحدودِ- إذا تاب مِن فِعلها قبلَ القُدرةِ عليه- مِن باب أَوْلى(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٢٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٢٧).

(٤) يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (١٧/ ١٣٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٢٧)

(٦) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٠).

لا خلافَ بينَ الفقهاءِ في أنَّ حدَّ قطَّاع الطريقِ يسقطُ بالتوبةِ إذا تحقَّقت قبلَ القدرةِ عليهم، أما بقيةُ الحدود فمذهبُ الحنفيةِ والشافعيةِ في مقابلِ الأظهرِ، والحنابلةِ في روايةٍ أنَّها تسقطُ بالتوبةِ أيضًا قبلَ أن تُرفعَ للحاكمِ. ينظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (١٧/ ١٣٣، ١٣٤).

وقطَّاعُ الطريقِ وإن سقطتْ عنهم حدودُ الله تعالى بالتوبةِ قبلَ القُدرةِ عليهم، لكن يبقَى عليهم =

بَلاغَةُ الآيتين:

١- قولُه: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا...﴾: كلامٌ مُستأنفٌ سِيقَ لبيانِ حُكمِ نوعٍ من أنواعِ القتلِ، وما يَتعلَّقُ به من الفسادِ بأَخْذ المالِ ونظائرِه، وتَعيينِ موجِبه العاجلِ والآجلِ، إثرَ بيانِ عِظَمِ شأنِ القَتلِ بغيرِ حقٍّ في قولِه: ﴿أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ...﴾، وأُدرِجَ فيه بيانُ ما أُشيرَ إليه إجمالًا من الفَسادِ المبيحِ للقَتْل[1].

٢- قوله: ﴿أَنْ يُقَتَّلُوا أو يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعُ...﴾ التعبيرُ بصِيغة التفعُّل في هذه الأفعالِ؛ للمُبالغةِ في العُقوباتِ (القتل، والصلب، والقطع)، وقد قُصِد من المبالغةِ هنا إيقاعُه بدون لِين ولا رِفق؛ تشديدًا عليهم[2].

٣- قوله تعالى: ﴿لَهُمْ خِزْيٌ﴾ فيه تقديمٌ وتأخيرٌ؛ ليفيدَ أنَّه خاصٌّ بهم دونَ الأفرادِ الذين يَعملونَ مِثلَ عَملِهم مِن غيرِ أن يكونوا مُحارِبينَ، ومُغترِّين بالقوَّةِ والعصبيَّة[3].

= القصاصُ في النَّفسِ والجراحِ، وغرامةِ المالِ، والدِّية لما لا قصاصَ فيه، إلا أن يُعفى لهم عن ذلك، وهذا لا خلافَ فيه بينَ أهلِ العلمِ. ينظر ((المغني)) لابن قدامة (٩/ ١٥١).

(١) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣١).

(٢) ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٣٠١).

الآيات (٣٥ - ٣٧)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ ﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿وَابْتَغُوا﴾: واطلُبوا، مِن بغَى الشَّيءَ، أي: طَلَبَه[١].

﴿الْوَسِيلَةَ﴾: القُربَة، والزُّلفَى؛ يقال: تَوسَّل إليَّ بكذا، أي: تَقرَّب، وحقيقةُ الوَسيلَةِ إلى اللهِ تعالى: مُراعاةُ سَبيلِه بالعِلمِ والعِبادَةِ، وتحرِّي مكارمِ الشَّريعةِ، وأصلُ الوسيلةِ: التوصُّلُ إلى الشيءِ برغبةٍ[٢].

﴿لِيَفْتَدُوا بِهِ﴾: لِيَتحامَوْا ببذلِه، والفِدَى والفِداء: حِفظُ الإنسانِ عنِ النائبةِ بما يَبذُلُه، والبَدَلُ من الشَّيءِ؛ صيانةً له، وأَصْلُ (فدي): جَعْلُ شَيءٍ مكانَ شَيءٍ حِمًى له[٣].

المَعنَى الإجْماليُّ:

يَأمُرُ اللهُ المؤمنينَ بتَقواه، وطلَبِ القُربِ منه، والجهادِ في سَبيلِه؛ حتَّى يُفلِحوا بأنْ يَنجُوا ممَّا يخافون، ويَحصُلوا على ما يَطْمَعونَ، ويَسعَدوا سَعادةً أبديَّةً.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٤٦).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٨٣)، ((المفردات)) للراغب (٢/ ١٨١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٧).

ثم أخبرَ تعالى أنَّ الكُفَّارَ لو أنَّهم يَملِكونَ كلَّ ما في الأرضِ ومِثلَه معه، وأرادوا أنْ يُقدِّموه فِديةً مقابلَ تخلُّصِهم من عذابِ الآخِرةِ؛ فلنْ يَتقبَّلَ اللهُ منهم ذلِك الفِداءَ، ولهم عذابٌ مؤلِم موجِع، يُريد هؤلاء الكفَّار أنْ يَخرُجوا من النَّارِ بعد أن ذاقوا عذابَها، ولن يَخرُجوا منها أبدًا، ولهم عذابٌ دائمٌ.

تَفْسيرُ الآيات:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣٥)﴾.

مناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى جزاءَ مَن حارَبَ اللهَ ورسولَه، وسعَى في الأرضِ فسادًا من العقوباتِ الأربَعِ، والعذابِ العظيمِ المُعَدِّ لهم في الآخِرةِ- أمَرَ المؤمنين بتقوى اللهِ، وابتغاءِ القُرباتِ إليه؛ فإنَّ ذلك هو المُنجِي من المحاربةِ، والعِقابِ المعَدِّ للمحارِبينَ(١)، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾.

أي: يا مَعشرَ المؤمنين، امتثِلوا ما أمَرَكم اللهُ تعالى به، واجتَنِبوا ما نَهاكم عنه، واطلُبوا القُربَ مِنه، والحظوةَ لديه بالعملِ بما يُرضيهِ عزَّ وجلَّ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٠٢- ٤٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٢٢).

قال ابن كثير في تفسير قوله سبحانه: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾: (عن ابنِ عبَّاس: أي القربةَ. وكذا قال مجاهدٌ وعطاء وأبو وائلٍ، والحسنُ، وقتادةُ، وعبدُ الله بنُ كثيرٍ، والسُّدي، وابنِ زيدٍ. وقال قتادةُ: أي تقرَّبوا إليه بطاعتِه، والعملِ بما يُرضيه. وقرأ ابنُ زيد: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ وهذا الذي قاله هؤلاء الأئمَّةُ لا خلافَ بينَ المفسِّرين فيه) ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٠٣).

ثمَّ خصَّ- تبارَكَ وتعالى- مِن العباداتِ المقرِّبةِ إليه: الجهادَ في سَبيله؛ فهو مِن أَجلِّ الطَّاعاتِ، وأفضلِ القُرُبات، ومَن قامَ به، فهو على القيامِ بغيره أَحْرَى وأَوْلى[1]، فقال:

﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

أي: وجاهِدوا- أيُّها المؤمنون- أعداءَ اللهِ تعالى؛ لإعلاءِ كلمتِه سُبحانَه بأموالِكم، وأنفسِكم، وألْسِنتِكم؛ كي تَنجُوا ممَّا تَرْهَبون، وتَظفَروا بما تَرْغَبون، وتُدركوا السَّعادةَ الأبديَّة في جَنَّاتِه[2].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٣٦)﴾.

مناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أَمَرَ اللهُ تبارَكَ وتَعالَى عِبادَه المؤمنين أنْ يَتَّقوا اللهَ، ويَبْتغوا إليه الوسيلةَ، ويُجاهدوا في سَبيلِه، وبَيَّن عاقبةَ هذا بأنَّه الفلاحُ- بَيَّن عاقبةَ مَن لم يَقُمْ بذلك من الكفَّار، فقالَ تعالى[3]:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾.

أي: لو كانَ للكُفَّارِ مُلكُ ما في الأرض كلِّها، ومَلَكوا ضِعْفَه معه[4].

﴿لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٣٧). يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٣٨).

أي: وأَرادوا أنْ يُقدِّموا ذلك كلَّه يومَ القِيامةِ فِديةً؛ ليتخلَّصوا بها مِن عذابِ الآخِرةِ[١].

﴿مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أي: لَمَـا تَقبَّل اللهُ تعالى منهم ذلِكَ الفِداءَ مهما بذَلُوا، وقدْ حقَّ عليهم عذابٌ مؤلمٌ، مُوجِع[٢].

كما قال تَعالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٩١].

وعن أنسِ بنِ مَالكٍ رضِيَ اللهُ عنه أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((يُجاءُ بالكافرِ يومَ القِيامةِ فيُقالُ له: أَرأيتَ لو كان لك مِلءُ الأرضِ ذهبًا، أكُنتَ تَفتدي به؟ فيقولُ: نعمْ، فيُقالُ له: قدْ كُنتَ سُئِلتَ ما هو أيسرُ من ذلِك!))[٣].

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٣٧)﴾.

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾.

أي: يُريدُ هؤلاءِ الذين كفَروا بربِّهم أنْ يَخرُجوا مِنَ النَّارِ بعدَ دُخولِها، ولكنْ أنَّى لهم ذلِك؟! فلن يَخرجُوا منها أبدًا[٤].

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج: ٢٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٠٥-٤٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٣٨).

(٣) رواه البخاري (٦٥٣٨) واللفظ له، ومسلم (٢٨٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٤٠-٣٤١).

وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧].

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾.

أي: ولهم عَذابٌ دائمٌ ثابتٌ، لا يزولُ عنهم، ولا يَنتقِلُ مطلقًا؛ فهم ماكثونَ فيه أبدًا(١).

الفوائدُ التَّربويَّة:

١- توجيهُ النِّداءِ إلى المؤمنين في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يدلُّ على أنَّ امتثالَ الأمرِ الذي يَعقُبه من مقتضياتِ الإيمانِ، وأنَّ مُخالفتَه نقصٌ في الإيمانِ(٢).

٢- يُستفادُ مِن قولِه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ...﴾ أنَّه يَنبغي إغراءُ الشخصِ المخاطَبِ بما يَحملُه على الامتثالِ؛ لأنَّ وصْفَ الإنسانِ بالشيءِ الذي يَحملُه على الفِعلِ والامتثالِ لا شكَّ أنَّه يُغريه، ويَزيده نشاطًا، فنقول مثلًا: يا أيُّها الكريمُ، أكْرِمِ الضَّيفَ؛ فإن ذلك يكونُ دافعًا له على إكرامِ الضَّيفِ(٣).

٣- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ أنَّه كلَّما كانتِ العبادةُ تُقرِّبُ إلى اللهِ أكثرَ، كان الاهتمامُ بها أكثرَ؛ لأنَّ الحُكمَ يَدورُ مع عِلَّته، فإذا قيل: اسلكِ الطريقَ المقرِّبَ إلى اللهِ، فإنَّ مِنَ المعلومِ أنَّ ما يكون أقربَ أو أشدَّ تقريبًا فهو أَوْلى(٤).

٤- الإشارةُ إلى الإخلاصِ؛ لقوله: ﴿فِي سَبِيلِهِ﴾ حيث أضافَه إلى نفْسِه عزَّ وجلَّ؛ إشارةً إلى أنَّه يجبُ على الإنسانِ أنْ يكونَ جهادُه في سبيلِ اللهِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٢٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٣٣).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٣٦).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١ - قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ جملة اعتراضيَّة بين آياتِ وعيدِ المحاربينَ وأحكامِ جَزائِهم، وبين ما بَعدَه مِن قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾، وهذه عادةُ القُرآنِ في تخلُّل الأغراضِ بالموعظةِ، والترغيبِ والترهيبِ(١).

٢ - لَمَّا أمَرَ الله بتَرْك ما لا يَنبغي بقولِه: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾، وهو شاقٌّ ثقيلٌ على النَّفسِ، وأمر بِفعل ما يَنبغي، بقوله: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾، وكان الانقيادُ لذلك من أشقِّ الأشياءِ على النَّفسِ، وأشدِّها ثقلًا على الطَّبع؛ فلهذا السببِ أردفَ ذلك التكليفَ بقوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(٢).

٣- قوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ فيه التَّنبيهُ إلى مَجامِع التَّكليفِ؛ فإنَّها محصورةٌ في نَوعينِ لا ثالثَ لهما؛ أحدُهما: ترْكُ المنهيَّات، وإليه الإشارةُ بقوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾، وثانيهما: فِعْل المأموراتِ، وإليه الإشارةُ بقولِه تعالى: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾، ولَمَّا كان ترْكُ المنهيَّات مُقدَّمًا على فِعلِ المأموراتِ بالذَّاتِ؛ لا جرمَ قدَّمه تعالى عليه في الذِّكر؛ لأنَّ التَّرْكَ عبارةٌ عن بقاءِ الشَّيءِ على عَدمِه الأصليِّ، والفِعل هو الإيقاعُ والتَّحصيلُ، ولا شكَّ أنَّ عدَم جميعِ المحدَثاتِ سابقٌ على وجودِها، فكان التركُ قبلَ الفِعل لا محالةَ(٣).

٤ - قولُه تعالى: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ معناه ابتغوا التقرُّبَ إلى الله، وليس المرادُ بالوسيلةِ ما هو معروفٌ عند المتأخِّرينَ، بأنْ يَتَّخِذَ الإنسانُ وسائلَ في

(١) ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٨٧).

(٢) ينظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣٥٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ١٣١)، ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٣١٣).

(٣) ينظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣٤٩).

دُعائِه أو نحو ذلِك؛ فبعض المُحرِّفينَ قال: المرادُ بالوسيلةِ: الوليُّ أو النبيُّ، أو جاهُ النبيِّ أو جاهُ الوليِّ، وهذا تحريفٌ باطِلٌ[١].

٥- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أنَّ مدارَ النَّجاةِ والفلاحِ على ما في نفْسِ الإنسانِ، لا على ما هو خارجٌ عنها، كما يَتوهَّم الكفَّارُ في أمْرِ الفِديةِ[٢].

٦- استدلَّ أهلُ السُّنة بقولِه تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ على أنَّ اللهَ تعالى يُخرِجُ مِن النَّارِ مَن قال: لا إلهَ إلَّا اللهُ مخلصًا؛ لأنَّه تعالى جعَل هذا المعنى مِن تهديداتِ الكفَّار، وأنواعِ ما خوَّفهم به، ولولا أنَّ هذا المعنى يختصُّ بالكفَّارِ لَمَا كان لتخصيصِ الكفَّارِ به معنًى، ويُؤكِّده قولُه: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾، وهذا يُفيدُ الحصرَ، فكأنَّ المعنى: ولهم عذابٌ مقيمٌ لا لغيرِهم[٣].

٧- أنَّ الكفَّارَ الذين هم أهلُ النَّار لن يَخرُجوا منها البتةَ؛ لقولِه: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ وهذا خبرٌ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ، وخبرُ اللهِ حقٌّ[٤].

٨- قولُه تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ فيه إشارةٌ إلى ما هو لازِمٌ لهم في الدُّنيا والآخِرةِ مِن الآلامِ النَّفسيَّة: غمًّا وحَزَنًا، وقسوةً وظُلمةَ قَلْبٍ، وجَهلًا، فإنَّ للكُفرِ والمعاصي من الآلامِ العاجِلةِ الدَّائمةِ ما اللهُ به عليمٌ، ولهذا تجِدُ غالِبَ هؤلاء لا يُطيِّبونَ عَيشَهم إلَّا بما يُزيلُ العَقلَ، ويُلهي القَلبَ: مِن تناوُلِ مُسكِرٍ، أو رُؤيةِ مُلْهٍ، أو سَماعِ مُطرِبٍ، ونحوِ ذلك، وبإزاءِ ذلك قولُه في المؤمنين: ﴿أُولَئِكَ

---

(١) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٣١).

(٢) ينظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٣١٢).

(٣) ينظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٣١٧).

(٤) ينظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ١٣٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٣١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٤٣).

سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٧١] فإنَّ اللهَ يُعَجِّلُ للمُؤمنينَ مِنَ الرَّحمةِ في قلوبِهم، وغيرِها بما يَجِدُونَه من حلاوةِ الإيمانِ، ويَذوقونَه مِن طَعمِه، وانشراحِ صُدورِهم للإسلامِ، إلى غير ذلك مِنَ السُّرورِ بالإيمانِ، والعِلمِ والعَمَلِ الصَّالحِ، بما لا يُمكِنُ وَصفُه(١).

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قولُه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا...﴾ فيه مِن البلاغة: استعمالُ ما يكونُ به التَّنبيهُ في الأمورِ الهامَّة؛ وجهُه: أنَّ اللهَ صدَّرَ هذه الأوامرَ الثلاثةَ المهمَّة بالنِّداءِ(٢).

٢- قوله: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ فيه: تقديمُ المجرورِ ﴿إِلَيْهِ﴾ على متعلَّقه ﴿الْوَسِيلَةَ﴾ للحصر، أي: لا تتوسَّلوا إلَّا إليه لا إلى غَيرِه؛ فيكون تعريضًا بالمشركين؛ لأنَّ المسلمينَ لا يُظنُّ بهم ما يَقتضي هذا الحصرَ(٣).

٣- قوله: ﴿جَمِيعًا﴾ فيه: توكيدٌ لـ(ما) الموصولة، في ﴿مَا فِي الْأَرْضِ﴾(٤).

٤- قوله: ﴿لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾ فيه: إيجازٌ بالحذفِ؛ حيثُ إنَّ في الكلامِ جملةً محذوفةً، والتقدير: وبَذَلوه وافتَدَوْا به ما تُقُبِّلَ منهم؛ إذ لا يَترتَّبُ انتفاءُ التقبُّلِ على كَينونةِ ما في الأرض ومِثلِه معه، إنَّما يترتَّبُ على بذْلِ ذلك، أو الافتداءِ به(٥).

٥- قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لبيانِ حالِهم في أثناءِ مُكابدةِ العذابِ، مَبنيٌّ على سُؤالٍ نشأ ممَّا قَبلَه؛ كأنَّه قِيلَ: فكيف يكونُ

---

(١) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ١١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٤٤).

حالُهم؟ أو ماذا يَصنعونَ؟ فقيل ﴿يُرِيدُونَ...﴾[١].

٦- **قوله: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ فيه**: إيثارُ الجُملةِ الاسميَّةِ على الفِعليَّةِ، مع تصديرِها بـ(ما) الحِجازيَّةِ الدالَّةِ- بما في خبرِها مِن الباءِ- على تأكيدِ النَّفي، والمبالغةِ؛ لبيانِ كَمالِ سوءِ حالِهم باستمرارِ عَدمِ خُروجِهم منها؛ فإنَّ الجملةَ الاسميةَ الإيجابيَّةَ كما تُفيدُ- بمعونةِ المقامِ- دوامَ الثُّبوتِ، تُفيدُ السلبيةُ أيضًا بمعونتِه دوامَ النَّفيِ لا نفْيَ الدَّوامِ[٢].

(١) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٤).

(٢) ينظر: ((المصدر السابق))، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٢٦).

الآيات (٣٨ - ٤٠)

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿نَكَالًا﴾: أي: عُقوبةً وتنكيلًا، وعِبرةً وعِظَةً لِمَن وراءَهم، وأَصْلُ (نكل): المنعُ والامتناعُ؛ وسمِّي النَّكال؛ لأنَّه فعَلَ به ما يَمنعُه مِن المعاودةِ، ويَمنعُ غيرَه مِن إتيانِ مِثلِ صَنيعِه[1].

المَعنى الإجْماليُّ:

يَأمرُ اللهُ تعالى بقَطْعِ يدِ السَّارقِ والسَّارقةِ مقابلَ ما اقترفاهُ مِن أخْذِ المالِ الحرامِ، وعقوبةً رادعةً مِن اللهِ تعالى لهما، وزَجرًا لغيرِهما عن الوقوعِ في هذا الجُرمِ الخَطير، واللهُ سُبحانَه عزيزٌ حكيمٌ.

فمَن تابَ مِنَ السَّرقةِ التي ظلَمَ بها نفْسَه وغيرَه، ورجَع إلى اللهِ وأصْلَحَ عَملَه؛ فإنَّ اللهَ يَقبَلُ توبتَه؛ إنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ.

ثم ذَكَرَ اللهُ تعالى ما يدلُّ على عظمةِ مُلكِه ونفاذِ أمرِه قائلًا: أَلَمْ تَعْلَمْ أيُّها المخاطَبُ أنَّ اللهَ تعالى هو مَن يملِكُ السَّمواتِ والأرضَ؛ يُعذِّب مَن يُريد، ويَغفِرُ لِمَن يُريد، وهو على كلِّ شيءٍ قادرٌ لا يُعجِزُه شيءٌ.

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢، ١٨٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٤).

تَفْسِيرُ الآياتِ:

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨)﴾.

مناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

في مناسَبَةِ الآيةِ لِمَا قَبْلَها وجهانِ:

الأوَّل: أنَّه تعالى لَمَّا أوجبَ في قوله: ﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾ قَطْعَ الأيدي والأَرجُلِ عند أخْذِ المالِ على سَبيلِ المحارَبةِ؛ بَيَّن في هذه الآيةِ أنَّ أخْذَ المالِ على سبيلِ السَّرقةِ يُوجِبُ قَطعَ الأَيدي فقط، وجاءتِ السُّنَّةُ بقَطْعِ الأَرجُلِ أيضًا في السَّرِقةِ[1]؛ إذِ السَّرقةُ أيضًا حِرابةٌ من حيثُ المعنى؛ لأنَّ فيها سعيًا بالفَسَادِ إلَّا أنَّ تِلك تكونُ على سبيلِ الشَّوْكةِ والظُّهورِ[2].

الثاني: أنَّه تعالى لَمَّا ذكَر تعظيمَ أمْرِ القتْلِ في قولِه: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾؛ ذكَر بعدَ هذا الجناياتِ التي تُبيحُ القَتْلَ والإيلامَ، فذكَر أولًا: قطْعَ الطَّريق، وثانيًا: أمْرَ السَّرقةِ[3].

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾.

أي: ومَن سرَق- رجلًا كانَ أو امرأةً- فاقْطَعوا أيُّها النَّاسُ[4] يدَه اليُمنى (فتُقطَعُ

(١) ينظر: ((إرواء الغليل)) للألباني (٨/ ٨٥) فما بعدها.

(٢) ينظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٣١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ١٣٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٢٩٦).

(٣) ينظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣٥١).

(٤) قال ابنُ عُثَيمين: (قوله: ﴿فاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾...: الخطاب للأمَّة جميعًا، لكن المقصود بالذات والعين هو الإمامُ أو نائبُه، لكن المسؤوليَّة على الجميع، بمعنى: لو تهاون الإمامُ وجَبَ على =

مِن مَفْصِل الكَفِّ)[١].

﴿جَزَاءً بِمَا كَسَبَا﴾.

أي: جاءَ هذا الحُكمُ بالقطعِ مُجازاةً للسَّارقِ والسَّارقةِ على ما اكتَسَباهُ من المالِ الحرامِ[٢].

﴿نَكَالًا مِنَ اللَّهِ﴾.

أي: وجاءَ الحُكمُ بالقطعِ أيضًا عقوبةً رادعةً لهما على لُصوصيَّتِهما، وزجرًا لهما عنِ اعتيادِ هذا الجُرْم، وزجرًا لغيرِهما عن الإقدامِ عليه[٣].

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

أي: واللهُ عزَّ وجلَّ ذو القَهرِ والغَلبةِ، العزيزُ في انتقامِه من هذا السَّارقِ وهذه السَّارقةِ، وغيرِهما من أهلِ معاصيه، وهو الحكيمُ في حُكمِه فيهم، وقَضائِه عليهم، وفي غيرِ ذلِك مِن أوامرِه ونَواهيهِ وشَرائعِه وأقدارِه؛ فحُكمُه في الجميعِ نافذٌ، وكلُّ شيءٍ يَضعُه في موضعِه اللَّائق[٤].

= الأمَّة أن تُطالِبَ بقطْعِ يدِ السارق) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٤٦- ٣٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٠٧-٤٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٤٤- ٣٤٩).

قال ابنُ كَثيرٍ: (عن عامرِ بن شراحِيلَ الشَّعبيِّ، أنَّ ابن مسعود كان يقرؤها: «والسَّارِقُ والسَّارِقةُ فاقْطَعُوا أيمانَهما»، وهذه قراءة شاذَّة، وإنْ كان الحُكم عند جميع العلماء موافقًا لها، لا بها، بل هو مستفادٌ من دليلٍ آخَر، وقد كان القطع معمولًا به في الجاهلية، فقُرِّر في الإسلام وزِيدت شروطٌ أُخر... هي مِن تمامِ المصالح) ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٤٩- ٣٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٤٩- ٣٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٥٠).

﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٩)﴾.

﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾.

أي: فمَن رجَعَ- بَعدَ سَرقتِه التي ظَلَمَ بها نَفْسَه وغيرَه- إلى اللهِ تعالى، وأَصلحَ عمَلَه وما أفْسدَه بظُلْمِه؛ فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يَقبَلُ توبتَه(١).

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى يَستُرُ ذُنوبَ عِبادِه، ويتجاوزُ عن مؤاخذتِهم بها، وهو رحيمٌ بهم، ومِن رحمتِه أنَّه يُوفِّقُهم للتوبةِ، ويَقبَلُها منهم(٢).

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٠)﴾.

مناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أَوْجبَ اللهُ تعالى قَطْعَ اليدِ، وعِقابَ الآخِرَةِ على السَّارقِ قبلَ التوبةِ، ثم ذَكَر أنَّه يَقبَلُ توبتَه إنْ تابَ- أَرْدَفَه سُبحانَه ببيانِ أنَّ له أنْ يَفعلَ ما يشاءُ، ويَحكُمَ ما يُريدُ؛ فيُعذِّبَ مَن يشاءُ، ويغفرَ لِمَن يشاءُ(٣)، فقال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٧٠- ٣٧١).

قال ابنُ كَثيرٍ: (فأمَّا أموالُ الناس فلا بدَّ مِن ردِّها إليهم أو بدلَها- عند الجمهور) ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١١٠). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٧٢- ٣٧٤).

(٣) ينظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣٥٧).

قال ابنُ عثيمين: (وأتى بهذه الآيةِ في مكانِها اللائقِ؛ لأنَّ ما سبَق مِن الآياتِ كان في إقامةِ الحدودِ، فلعلَّ النفسَ تقولُ: لماذا كلُّ هذه الشدَّة، لماذا هذه الغلظةُ، فقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾). ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (١/ ٣٧٧).

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

أي: أَلَمْ تَعلَمْ(١) أنَّ اللهَ تعالى هو المالكُ لجَميعِ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ، وهو المَلِكُ المتصرِّفُ فيه بما يشاءُ سُبحانَه(٢).

﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

أي: يُعذِّبُ مَن يشاءُ مِن خَلقِه بعَدْلِه، ويَغفرُ لِمَن يشاءُ منهم بفَضْلِه؛ فكلُّ العبادِ ملْكُه وإليه أمْرُهم، ولا نَسبَ بينه وبين أحدٍ منهم فيُحابِيَه، وإنَّما يُعذِّبُ ويغفرُ بحسَبِ ما اقتضتْه حِكمتُه سُبحانَه(٣).

﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: واللهُ قادِرٌ على كلِّ شيءٍ أرادَه، لا يُعجِزُه شيءٌ أبدًا، ومِن ذلك قُدرتُه على تعذيبِ مَن أراد تَعذيبَه مِن عبادِه، والغُفرانِ لمَن أرادَ أنْ يَغفرَ له منهم(٤).

الفوائدُ التَّربويَّة:

١- أنَّ فِعلَ المعاصي، وترْكَ الواجباتِ ظُلمٌ؛ لقولِه: ﴿مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ﴾؛ وذلك أنَّ النَّفْسَ عندَ الإنسانِ أمانةٌ، يجبُ أن يَسعَى لها بما هو الأصلحُ والأنفعُ،

(١) قيل: المخاطب هو النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وقيل: الْخِطَابُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُرَادُ بِهِ الْجَمِيعُ، وقيل: المخاطبُ هو كلُّ مكلَّف، ومَن يصحُّ توجُّه الخطاب إليه، وقيل: للمجترئ على السَّرقة وغيرها مِن المحظوراتِ. ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (٦/ ١٧٦)، ((تفسير البغوي)) (١/ ٢٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤١٢- ٤١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٨٠).

فإذا خالفَ فهو ظالمٌ، خائنٌ للأمانةِ(١).

٢- حثُّ الإنسانِ على التوبةِ حتَّى لو ظَلَمَ؛ لقولِ اللهِ تعالى: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ واللهُ تعالى لم يقُلْ هذا لمجرَّدِ الخبرِ؛ بل لأجْلِ الحثِّ على التوبةِ(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- مِن الحِكم في الابتداءِ بالسارقِ في قولِه: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾، وبالزانيةِ في قولِه: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ [النور: ٢] أنَّ السَّرِقةَ مبناها على القُوَّة والجَلَد والنَّشاط والجُرْأة، والرِّجالُ أخصُّ مِن النِّساء في هذا، فبدَأ بهم؛ ولذلك نجِد السُّرَّاقَ مِن الرجالِ أكثرَ مِن النِّساءِ، أمَّا الزِّنا فبالعكس؛ لأنَّ الزِّنا سِلعُ البَغايا- والعياذ بالله- فبدأ بالزَّانيةِ؛ لأنَّ أكثرَ ما يُوجد سببُه من النِّساءِ، ولأنَّ أثرَ الزِّنا يظهرُ عليها في الحبَل، وإزالةِ العُذرةِ؛ فهو في حقِّها أشنعُ، وقيل غير ذلك(٣).

٢- ظاهرُ قولِه تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ وجوبُ قطعِ أيديهما بأيِّ سرقةٍ، لكن السُّنَّة قَيَّدتْ عُمومَ هذه الآيةِ من عِدَّةِ أوجه(٤):

منها: الحِرْز؛ فإنَّه لا بدَّ أنْ تكونَ السرقةُ مِن حِرْز، وحِرزُ كلِّ مالٍ: ما يُحفَظُ به عادةً، فلو سَرَق مِن غيرِ حِرْزٍ فلا قَطْعَ عليه.

ومنها: أنَّه لا بدَّ أن يكونَ المسروقُ نِصابًا، وهو رُبعُ دِينارٍ، أو ثلاثةُ دَراهمَ، أو ما يُساوي أحدَهما؛ فلو سرَقَ دونَ ذلك فلا قَطْعَ عليه.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٧٦).

(٣) ينظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٣٢٤)، ((تفسير الراغب الأصفهاني)) (٤/ ٣٤٤)، ((غرائب التفسير وعجائب التأويل)) (١/ ٣٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٤٦).

(٤) ينظر: ((المغني)) لابن قدامة (٩/ ١٠٤).

ومنها: أنه يُشترط أيضًا أن يكونَ المسروقُ مالًا مُحترَمًا.

ومنها: اشتراطُ انتفاءِ الشُّبهة[1].

٣- قوله: ﴿فَاقْطَعُوا﴾ استُدِلَّ به على أنَّه يجبُ على الأمَّةِ أن يَنصِبوا لأنفسِهم إمامًا معيَّنًا؛ لأنَّه تعالى أوجبَ بهذه الآيةِ إقامةَ الحدِّ على السُّرَّاقِ، فلا بدَّ من شخصٍ يكون مخاطبًا بهذا الخِطابِ، وأجمعتِ الأُمَّةُ على أنَّه ليس لآحادِ الرعيَّة إقامةُ الحدودِ على الأحرارِ الجُناةِ إلَّا الإمام، فلمَّا كان هذا تكليفًا جازمًا، ولا يُمكنُ الخروجُ من عُهدتِه إلَّا بوجودِه وجَبَ نصْبُه؛ لأنَّ ما لا يأتي الواجبُ إلَّا به، وكان مَقدورًا للمُكلَّف، فهو واجبٌ[2].

٤- قَطعُ يدِ السَّارقِ والسَّارقةِ يكونُ لليُمنى، كما أجْمَع عليه العلماءُ، وفَسَّر ذلك قراءةُ عبدِالله بن مسعودٍ رضِيَ اللهُ عنه: (فاقْطَعوا أيمانَهما)، فالغالِبُ أنَّ الأخْذَ والإعطاءَ والسَّرقةَ باليَمينِ؛ فناسَبَ أنْ تُقطَعَ اليُمنى دُونَ اليُسرَى، فتُقطَع اليدُ اليُمنى برُبعِ دِينارٍ؛ بعدَ دَرْء الشُّبُهاتِ المنصوصِ عليها في كتُبِ الفِقهِ[3].

٥- جعَلَ اللهُ حدَّ السرقةِ قطعَ اليدِ؛ لتناوُلِها المالَ؛ لقولِه: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾، ولم يجعلْ حدَّ الزِّنا قَطْعَ الذَّكرِ معَ موافقةِ الفاحشةِ به؛ لأمورٍ: أحدها: أنَّ للسَّارقِ مِثلَ يَدِه التي قُطِعتْ، فإنِ انزجَرَ بها اعتاضَ بالباقيةِ، وليس للزَّاني مِثلُ ذَكرِه إذا قُطِع، ولم يَعتَضْ بغيرِه لو انزَجَر بقَطعِه. الثاني: أنَّ الحدَّ زجرٌ للمحدودِ ولغيرِه، وقطْعُ يدِ السارقِ ظاهرٌ، وقَطعُ الذَّكرِ في الزِّنا باطنٌ. الثالث: أنَّ

(١) ينظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٨٨٣) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣١).
(٢) ينظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٣٣٢).
(٣) ينظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ١٣٤)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٠٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٣١٥)، ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٥٩- ٣٦٣).

قَطْعَ الذَّكرِ إبطالٌ للنَّسلِ، وليس في قطعِ اليدِ إبطالٌ للنَّسْل(١).

٦- قوله: ﴿بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ﴾ فيه ردٌّ ظاهرٌ على الجبريَّة، ووجهٌ آخَرُ معنويٌّ، وهو: أنَّه لو كان السارقُ والسارقةُ مُجبرَينِ ما صحَّ أنْ يُعاقَبا؛ لأنَّ المُجْبَرَ لا حُكمَ لِفعْله، حتَّى المُكرَهُ على الكُفرِ إذا كان قلبُه مُطمئنًّا بالإيمان، فإنَّه لا يَكفُرُ(٢).

٧- أنَّ الحدودَ كفَّارةٌ؛ لقوله: ﴿جَزَاءً بِمَا كَسَبَا﴾ ولا يُضاعِفُ اللهُ عليه الجزاءَ(٣).

٨- في قولِه تعالى: ﴿نَكَالًا مِنَ اللَّهِ﴾ توضيحٌ للحِكمةِ في إيجابِ الحدودِ، والنَّكالُ يكونُ للغيرِ؛ كما قال اللهُ تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ [البقرة: ٦٦]، فإنَّ مَن عَلِمَ أنَّ يدَه سوف تُقطَعُ بالسَّرقةِ سوف يَنكُلُ عنها ولا يَسرِقُ(٤).

٩- حُسْنُ الخِتامِ في الآياتِ الكريمةِ، وأنَّها مطابِقةٌ تمامًا للأحكامِ التي خُتِمت بها، فالعِزَّة مِن معناها الغَلَبةُ، ولا شكَّ أنَّ إيجابَ قَطْعِ الأيدي يدلُّ على العِزَّةِ والغَلبةِ وكمالِ السُّلطة، كما أنَّ الحِكمةَ أيضًا تُناسِبُ القطعَ؛ لأنَّ فيها حُكمًا صارمًا، وفيها أيضًا حِكمةٌ بالغةٌ؛ فلذلك كانتِ الجملة: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ مطابِقةً تمامًا لِمَا ذُكِر في الآيةِ الكريمةِ مِن قطعِ يدِ السَّارق(٥)، وقد رُوِيَ أنَّ بعضَ الأعرابِ سَمِع قارئًا يقرأُ: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ إلى آخِرِها، وختَمَها بقوله: ﴿وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فقال: ما هذا كلامٌ فصيحٌ! فقيل له: ليس التلاوةُ كذلك، وإنَّما هي ﴿وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، فقال: بخٍ بخٍ؛ عزَّ فحَكَم فقَطَع(٦)!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٦٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٦٨).

(٦) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٥٥).

١٠- في قوله: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ردٌّ على كلِّ ناعقٍ يقولُ: إنَّ قطْعَ الأيدي وحشيَّةٌ، وأنَّ ذلك يستلزمُ أن يكونَ نصفُ الشَّعبِ أشلَّ، ليس له إلَّا يدٌ واحدةٌ؛ فيُقال: بل هذِه هي عينُ الحِكمةِ وعينُ الصَّوابِ؛ فاللهُ تعالى أوجبَ قطْعَ يدِ السَّارقِ لحِكمتَينِ: ليطهِّرَ صاحبَها من هذه الرذيلةِ الدنيَّةِ الخبيثةِ، وكذلك ليردَعَ الناسَ عن أموالِ الناسِ؛ لأنَّ المالَ هو شَريانُ الحياةِ، وبه قِوامُ شُؤونِها، فأمَرَ بقَطْعِ يدِ السَّارقِ؛ محافظةً على أموالِ المجتمَعِ؛ لأنَّه لو تُرِكَ النَّاسُ لحصلتِ الفوضى، وابتزازُ الأموالِ، والسَّطْوُ على الآمنينَ، فكان قطْعُ اليدِ لا شكَّ أنَّه هو الحِكمةُ(١).

١١- الفائدةُ من ذِكرِ قوله: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ...﴾ بعدَ قوله: ﴿فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ هي أنَّ السارقَ قدْ تُقطَعُ يدُه، ومعلومٌ أنَّ إقامةَ الحدِّ تُكفِّرُ ذنبَه، لكنَّه إذا كان في قَرارةِ نفْسِه يُريد أن يَسرِقَ إذا سَنحَتْ له الفُرصةُ، فهو في هذه الحال لم يتُبْ، فإنَّ الحدودَ كفارةٌ لِمَا مضَى، وأمَّا ما يبقَى في قلبِه من إرادةِ المعصيةِ، فلا بدَّ أن يتوبَ منها(٢).

١٢- في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أن السارقَ إذا تابَ قبلَ القطعِ تابَ اللهُ عليه، واستُدلَّ بها على أنه يَسقطُ عنه الحدُّ؛ لأنَّ ذِكْرَ الغفورِ الرَّحيم في آخِرِ هذه الآيةِ يدلُّ على سقوطِ العقوبةِ عنه، والعقوبةُ المذكورةُ في هذه الآيةِ هي الحدُّ، فظاهِرُ الآيةِ يَقتضي سُقوطَها(٣).

١٣- يقترنُ قولُه: ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ كثيرًا في القرآن؛ لأنَّ بالأوَّلِ زوالَ المكروهِ، وبالثاني حُصولَ المحبوبِ؛ فالأوَّلُ غفورٌ، يعني: للذُّنوبِ، والثاني رحيمٌ، يعني:

---

(١) ينظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٨١ - ١٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (١/ ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣٥٧).

أنَّه يُوصِلُ الخيرَ إلى عِبادِه بمُقتضَى رحمتِه سُبحانَه وتعالى[١].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾: فيه دفْعُ توهُّمٍ؛ حيث ذَكَر (السَّارِقَة) مع (السَّارِق)؛ لدفع توهُّمِ أنْ يكونَ صِيغةُ التذكيرِ في ﴿السَّارِق﴾ قيدًا بحيث لا يُجرَى حدُّ السَّرِقةِ إلَّا على الرِّجال، وقد كانتِ العربُ لا يُقيمونَ للمرأةِ وَزْنًا؛ فلا يُجرونَ عليها الحدودَ، وهو الدَّاعي إلى ذِكر الأُنثى في قولِه تعالى في سورة البقرة: ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾[٢] [البقرة: ١٧٨].

٢- قوله: ﴿جَزَاءً﴾ مصدرٌ مؤكِّدٌ لِفعلِه الذي يدلُّ عليه ﴿فَاقْطَعُوا﴾، أي: فجازُوهما جزاءً[٣]، على أحدِ الأوجهِ في الإعرابِ.

٣- قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أُكِّدت الجملةُ بـ(إنَّ)؛ مِن أجْلِ طُمأنينةِ العبدِ التائبِ بأنَّ توبتَه لن تَذهبَ سُدًى[٤].

- وجاءَ بلفظتَيْ ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ على هيئةِ صِيغةِ المبالغةِ؛ للمُبالغةِ في وصْفِه بالمغفرةِ والرحمةِ؛ ولذلك يَقبلُ توبتَه، وهو تعليلٌ لِمَا قَبلَه[٥].

- وإظهارُ الاسمِ الجليلِ ﴿اللَّهَ﴾؛ للإشعارِ بعِلَّة الحُكم، وتَأييدِ استقلالِ الجُملةِ[٦].

٤- قوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الاستفهامُ إنكاريٌّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٧٢).
(٢) ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٩٠، ١٩١).
(٣) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٧٢).
(٥) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٥).
(٦) ينظر: ((المصدر السابق)).

لتقريرِ العِلم، والجملةُ استئنافٌ بيانيٌّ؛ جوابٌ لِمَن يسألُ عن انقلابِ حالِ السَّارقِ مِن العقابِ إلى المغفرةِ بعدَ التوبةِ، مع عِظمِ جُرْمِه: بأنَّ اللهَ هو المتصرِّفُ في السَّمواتِ والأرضِ وما فيهما؛ فهو العليمُ بمواضعِ العِقابِ، ومواضعِ العَفْوِ[1].

٥- قوله: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ فيه: مناسبةٌ حسنةٌ؛ حيثُ قُدِّمُ التعذيبُ على المغفرةِ؛ لأنَّه في مُقابلةِ تَقدُّمِ السَّرِقةِ على التوبةِ، ولأنَّ الكلامَ هنا عن الحدودِ والعقوباتِ؛ فناسَب أن يُقدَّمَ التعذيبُ على المغفرةِ[2].

٦- قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيه: إظهارٌ في مقامِ الإضمارِ- حيث قال: (والله)، ولم يقُلْ: (وهو)-؛ لإظهارِ كمالِ قُدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، والجملةُ تذييلٌ مُقرِّرٌ لِمَا قبلها[3].

---

(١) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٩٤).

(٢) ينظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٣٢)، ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٦)، ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٣٣٣).

(٣) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٦).

الآيات (٤١ - ٤٣)

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْۚ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔاۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿الَّذِينَ هَادُوا﴾: أي: اليهود، وهَادَ فلان: إذا تحرَّى طَريقةَ اليَهُود في الدِّين؛ قيل: أَصْلُ (يَهُود) مِن: ﴿هُدْنَا إِلَيْكَ﴾، أي: تُبْنَا، وكان اسمَ مَدحٍ، ثم صارَ بعدَ نَسْخِ شَريعتِهم لازمًا لهم، وإنْ لم يكُنْ فيه معنَى المدحِ، وقيل: كَانَتِ اليَهُود تُنْسَب إلى يَهوذا بنِ يَعْقُوبَ(١).

﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾: قابِلونَ ومُصغُونَ له بكثرةٍ، مبالغة مِن (سامِعون)، وأَصْلُ (سمع): إيناسُ الشيءِ بالأُذُن(٢).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٥)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٨٤٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٠٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٢، ١٣٩)، =

﴿سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ﴾: مُطيعون لَهُم، أو عُيونٌ لهم، وجواسيسُ يَتجسَّسون لهُم الأخبارَ[(١)].

﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ﴾: يَقلِبونَ ويُغيِّرونَ ألْفاظَ التوراةِ، أو حدودَ اللهِ في التوراةِ، بإزالتِها وإثباتِ غيرِها، وأصْلُ التَّحريفِ والانحرافِ: إمالةُ الشَّيءِ والعدولُ به عن الاستقامةِ. والكَلِم جمع كلمة، وأَصْلُ (كلم): يدلُّ على نُطْقٍ مُفهِمٍ بالنَّظرِ إلى أحدِ مَدْلولَيه[(٢)].

﴿فِتْنَتَهُ﴾: ضَلالتَه، وتُطلَقُ الفِتنةُ على الشِّرْكِ والكُفرِ، والشَّرِّ والعذابِ، وهي في الأصلِ: الاختِبارُ والابتلاءُ والامتِحانُ، مأخوذة مِن الفَتْن: وهو إدخالُ الذَّهبِ النَّارَ؛ لتظهَرَ جودتُه من رَداءتِه[(٣)].

﴿خِزْيٌ﴾: هوانٌ وهلاكٌ، وأصلُ الخِزي: الإبعادُ[(٤)].

﴿لِلسُّحْتِ﴾: السُّحتُ هو الرِّشَا، أو كَسْبُ ما لا يَحِلُّ، أو كُلُّ مالٍ حَرَامٍ يَلزَمُ

= ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٠، ١٥١)، ((حاشيه الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٤٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥١٨).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٠٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٢، ١٣٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٠، ١٥١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥١٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٢) و(٥/ ١٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٨، ٧٢٢، ٧٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٦٥، ٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١/ ٧٦، ١٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢ - ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٦٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٢٩، ١٣٩ - ١٤٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٨).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٥).

آكِلَه العارُ، وأصلُ (سحت): الاستِئصالُ، ومنه سُمِّي المالُ الحرامُ سُحْتًا؛ لأنَّه لا بَقاءَ له[1].

﴿بِالْقِسْطِ﴾: بالعَدلِ، وأصْل القِسطِ يدلُّ على مَعنيين مُتضادَّين: العَدْلِ، والجَوْرِ؛ يُقال: أقْسَطَ: إذا عدَل، وقَسَطَ: إذا جارَ[2].

﴿يَتَوَلَّوْنَ﴾: يُعرِضونَ بعدَ الإقبالِ، فالفِعل (تولَّى) إذا عُدِّي بـ(عن) لفظًا أو تقديرًا- كما هنا- اقتَضى معنى الإعراضِ، وتركِ قربِه، وأصْلُ هذه المادَّة يدلُّ على القُرْب، سواءٌ من حيثُ: المكانُ، أو النِّسبةُ، أو الدِّينُ، أو الصَّداقةُ، أو النُّصرةُ، أو الاعتقادُ، وكلُّ مَن وَلِي أمرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه[3].

المَعنَى الإجْماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى مُخاطِبًا نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: لا يَحْزُنْك- يا محمدُ- الذين يُسارعونَ إلى الدُّخولِ في الكُفرِ؛ من المنافقينَ الذين أَظْهَروا الإيمانَ بألسِنَتِهم، بينما خلَتْ قلوبُهم منه، ومِنَ اليهودِ؛ فهم يُصغُونَ للكذبِ- الذي يَصدُرُ مِن أحبارِهم ورُؤسائِهم- بكثرةٍ، وهم يَخضعونَ لأوامرِ قومٍ آخرينَ مِنَ الأحبارِ والرؤساءِ الذين أَعْرَضوا عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فلا يأتونَ مجلسَه؛ هؤلاءِ الأحبارُ والرؤساءُ المعرِضونَ عن مَجلسِك يُحرِّفونَ كلامَ اللهِ تعالى عن المعنى الذي يدلُّ عليه، ويتأوَّلونه على غيرِ تأويلِه مُتعمِّدِينَ، وهم

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٩-٤٠٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٠).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥- ٨٨٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩).

يعلمون الحقَّ، ويقولون لأتْباعِهم: تَحاكَموا إلى محمَّدٍ، فإنْ حَكَم لكم بما يُوافِقُ أهواءَكم فاقْبلوه، وإنْ لم يَحكُم بذلك فلا تأخُذوا بحُكمِه.

ثم أخْبَر تعالى أنَّه مَن يُرِدْ أن يَفتنَه ويُضِلَّه فلنْ يملكَ له النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن اللهِ شيئًا يَستنقذُه ممَّا أرادَه اللهُ له من الضَّلالةِ، وأمَّا أولئك اليهودُ الذين لا يَقبَلون من الحقِّ إلَّا ما وافَقَ هوًى لهم لم يُرِدِ اللهُ أنْ يُطهِّرَ قلوبَهم من الكُفرِ والشِّركِ؛ لهم في الحياةِ الدنيا ذلٌّ وهوانٌ، ولهم في الآخرةِ عذابٌ عظيمٌ هو عذابُ النار.

هؤلاءِ اليهودُ سمَّاعونَ للباطل، مُستجيبونَ له، يأكلونَ المالَ الحرامَ بكثرةٍ، ثم أرشَدَ اللهُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى أنَّهم إذا جاؤُوه يَحتكِمون إليه، فله أن يَحكُمَ بينهم إنْ شاء، أو يُعرِضَ عن الحُكم بينهم، وأخبره تعالى أنَّه إنْ يُعرِضْ عنهم فلن يَضرُّوه شيئًا، وإنِ اختار أنْ يحكُمَ بينهم فليَحْكُم بينهم بالعَدلِ، والله يحبُّ المتَّصفينَ بالعدلِ بينَ الناس في أحكامِهم.

ثم يقولُ اللهُ لنبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: كيف يُنَصِّبك هؤلاءِ اليهودُ حَكمًا، وهم في حقيقةِ الأمر يُكذِّبونك، وعندهم كتابُ اللهِ التوارةُ فيها حُكمُ الله؟! لكنَّهم أعْرَضوا عنه، وطَلَبوا حُكمًا غيرَ ما عندهم؛ لعلَّه يُوافِقُ أهواءَهم، وَمَا أُولَئِكَ الذين هذا صنيعُهم؛ بالمؤمنينَ.

تَفْسيرُ الآيات:

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤١)﴾.

مناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ سُبحانَه وتعالى بعضَ التكاليفِ والشَّرائعِ، ومنها أحكامُ الحِرابةِ والسَّرقة، وكان في ذِكرِ المحارِبينَ أنَّهم يُحارِبونَ اللهَ ورسولَه، ويَسعَون في الأرضِ فسادًا، وكان الله قد عَلِم مِن بعضِ الناسِ كونَهم متسارِعينَ إلى الكفرِ- لذا صبرَّ رسولَه على تحمُّل ذلك، وأمَرَه تعالى ألَّا يحزنَ ولا يَهتمَّ بأمْرِ المنافقين وأمْرِ اليهودِ؛ مِن تعنُّتهم وتربُّصهم به وبمَن معه الدَّوائرَ، ونَصبِهم له حبائلَ المكروهِ، وما يَحدُث منهم من الفَسادِ في الأرض، ونصْب المحاربةِ للهِ ولرسولِه، وغير ذلك مِن الرَّذائِلِ الصادرةِ عنهم[١].

وأيضًا لَمَّا تَقرَّرَ في الآيةِ السَّابقةِ ﴿أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، كان من غيرِ شكٍّ عِلةً لعدمِ الحزنِ على شيءٍ من أمْرِهم، ولا مِن أمْرِ غيرِهم ممَّن عصَى اللهَ في شيءٍ من هذه الأحكامِ[٢].

سببُ النُّزولِ:

عنِ البَراءِ بن عازبٍ رضِيَ اللهُ عنه قال: ((مُرَّ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بيهوديٍّ محمَّمًا[٣] مجلودًا، فدَعاهم صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال: هكَذا تَجِدون حدَّ الزاني في كِتابِكم؟ قالوا: نعَم، فدَعا رجلًا من عُلمائِهم، فقال: أَنشُدُك باللهِ الذي أنزلَ التوراةَ على موسى، أهكذا تَجِدون حدَّ الزَّاني في كتابِكُم؟ قال: لا، ولولا أنَّك نَشدْتَني بهذا لم أُخْبِرْكَ؛ نجدُه الرَّجمَ، ولكنَّهُ كثُرَ في أشرافِنا، فكنَّا إذا أخَذْنا الشَّريفَ ترَكْناهُ، وإذا أخَذْنا الضعيفَ أقَمْنا عليهِ الحدَّ! قلنا: تَعالَوْا فلنجتمعْ على شيءٍ نُقيمُه على الشَّريفِ والوَضيعِ، فجعَلْنا التَّحميمَ والجلْدَ

(١) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣٥٨).
(٢) ينظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ١٣٨).
(٣) محمَّمًا: اسمُ مَفعولٍ، أي: مُسْودُّ الوجه، من الحُمَمَة، وهي الفَحْمَة، وجمعها حُمَمٌ، والتَّحميم بمعنى التَّسويدِ. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٤٤٤).

مكانَ الرَّجمِ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: اللهمَّ إنِّي أولُ مَن أحيا أمْركَ إذْ أماتوهُ، فأمرَ بِهِ فرُجِمَ، فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ إلى قولِه: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ﴾، يقول: ائتوا محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فإنْ أمَرَكم بالتَّحميمِ والجَلْدِ فخُذوه، وإنْ أفتاكم بالرَّجمِ فاحْذروا، فأنزل اللهُ تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾، ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ في الكُفَّارِ كلُّها))(١).

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾.

أي: لا تَجعلْ- يا محمَّدُ- هؤلاءِ المنافقين، الذين يَتسابقون إلى الكُفرِ، يُدْخِلُون الحزنَ على نفسِكَ بما يَفعلونَه(٢).

﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾.

أي: الَّذين أَظهَروا الإيمانَ بألْسنتِهم، وقلوبُهم في الحقيقةِ خاويةٌ منه(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨].

﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾.

أي: ولا تَجعلِ الحُزْنَ يُصيبكَ أيضًا بسببِ اليهودِ(٤).

---

(١) رواه مسلم (١٧٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤١٨- ٤١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عثيمين-سورة المائدة)) (١/ ٣٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٩٧).

(٤) وهذا اختيارُ ابنِ جرير في ((تفسيره)) (٨/ ٤١٩)، وابن كثير في ((تفسيره)) (٣/ ١١٣)، وابن =

﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾.

أي: يُكثرونَ الإصغاءَ إلى الكَذِبِ الصادرِ مِن أحبارِهم ورُؤساءِهم، فيَحْفِلون به، ويَقبلونَه منهم، ومِن ذلك: تَقليدُهم في قولهم: إنَّ محمَّدًا ليس بنبيٍّ، وفي قولهم: إنَّ حُكمَ الزاني المحصَنِ في التوراة: التَّحميمُ والجَلْدُ، وليس الرَّجمَ[1].

قيل: المرادُ بهؤلاء المنافقونَ مِن اليهودِ، وقيلَ: المرادُ بهم اليهودُ فقط، وقيل: المنافقونَ واليهودُ[2].

﴿سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾.

أي: يَستجيبونَ لأوامرِ أقوامٍ آخَرين من الأحبارِ والرؤساءِ المُعرِضينَ عن الإتيانِ إلى مجلسِك- يا محمَّدُ[3].

﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾.

أي: إنَّ هؤلاءِ القومَ الآخَرينَ مِن أحبارِ اليهودِ الذين يَتَّبِعُهم العامَّةُ، يَصرِفونَ كلامَ الله عن معناه الحقيقيِّ عمدًا، ويتأوَّلونه على غيرِ تأويلِه، وهم يَعلمون

= عاشور في ((تفسيره)) (٦/ ١٩٨- ١٩٩). فيكون الوقفُ على قولِه تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾. وقيل: الابتداءُ من قوله: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾، أي: ومِن الذين هادوا قومٌ سمَّاعون للكذب، ويكون الأمرُ للرسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلام بعدمِ الحزن على مسارعةِ المنافقين في الكُفر، لا المنافقين واليهود. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٦/ ١٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٩٧- ٣٩٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤١٩-٤٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٩٨).

(٢) اختار ابنُ جرير أنَّهم المنافقون من اليهود. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٢٠). واختار أنَّهم اليهود: ابنُ عثيمين في ((تفسير سورة المائدة)) (١/ ٣٩٨)، واختارَ أنَّهم المنافقون واليهود: ابنُ عاشور في ((تفسيره)) (٦/ ١٩٩).

(٣) وهذا اختيارُ ابن كثير في ((تفسيره)) (٣/ ١١٣)، والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ٢٣١)، وابن عاشور في ((تفسيره)) (٦/ ١٩٩- ٢٠٠).

الحقِّ، فيقولون: المرادُ كذا وكذا، على خلافِ ما أرادَ اللهُ ورسولُه[١].

﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾.

أي: إنَّ أولئك الأحبارَ الذين يَتَّبِعُهم العامَّةُ، يقولون لأتْباعِهم: تَحاكَمُوا إلى محمَّدٍ؛ فإنْ حَكَم لكم بما يُوافِقُ أهواءَكم فاقبلوا حُكمَه، وإنْ لم يحكُمْ لكم به فاحْذروا مِن قَبولِه، واتِّباعِه على ذلك[٢]؛ ومن ذلك ما يَتعلَّقُ بحَدِّ الزَّاني[٣].

ثم يقول الله تعالى مسلِّيًا لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلم، ومخفِّفًا عنه مِن ثِقَلِ حُزنه على مسارعتِهم في الكُفْر[٤]:

---

(١) واختار أنَّ التحريف صِفةٌ للقومِ الآخَرين الذين لم يأتوا النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم: السعديُّ في ((تفسيره)) (ص: ٢٣١)، وابنُ عاشور في ((تفسيره)) (٦/ ٢٠٠)، وابنُ عثيمين في ((تفسير سورة المائدة)) (١/ ٣٩٩).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ من السَّلف: ابنُ زيد: يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٢٦)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٤/ ١١٣٢).

واختارَ ابنُ جرير أنَّ التحريفَ صفةٌ للذين يُسارِعون في الكفرِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٩٩).

قال ابنُ عاشور: (وإنَّما قالوا: فاحذروا؛ لأنَّه يفتحُ عليهم الطعنَ في أحكامِهم التي مضَوا عليها، وفي حُكَّامهم الحاكِمين بها) ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٠٠).

(٣) قال ابنُ عُثَيمين: (وهذا مثالٌ وليس حصرًا لمعنى الآية، بل المراد أنَّهم يُعيِّنون- أي: الأحبار- أحكامًا لعامَّتهم، ويقولون: إنْ حَكَمَ بها محمَّدٌ فاقبَلوها، وإنْ لم يَحكُمْ فاحذروا) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٦٢). قال ابنُ جرير في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾: (وهذا تسليةٌ من الله تعالى ذِكرُه نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم من حُزنه على مسارعة الذين قصَّ قصَّتَهم من اليهود والمنافقين في هذه الآية، يقول له تعالى ذِكرُه: لا يحزنك تسرُّعهم إلى جحودِ نبوَّتك؛ فإنِّي قد حتَّمتُ عليهم أنهم لا يتوبون من ضلالتهم، ولا يَرجعون عن كُفرهم للسابق من غضبي عليهم، وغيرُ نافعِهم حُزنُك على ما ترى مِن تسرُّعهم إلى ما جعلتُه سبيلًا لهلاكهم واستحقاقِهم وعيدي... فلا تُشعِرْ نفْسَك بالحزنِ على ما فاتَك =

﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾.

أي: إذا حتَّم اللهُ تعالى على أحدٍ أنَّه لا يتوبُ مِن ضلالتِه، ولا يَرجِعُ عن غيِّه ممَّن هو أهلٌ لذلك؛ فلن تملكَ له- يا محمَّدُ- مِن اللهِ تعالى استنقاذًا ممَّا هو فيه من الحَيرةِ والضَّلالةِ، فليس بمقدورِكَ هدايتُه[1].

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾.

أي: إنَّ أولئك اليَهودَ الذين لا يَقبَلون من الحقِّ إلَّا ما وافَق أهواءَهم، لم يُرِدِ الله تعالى أن يُطهِّر قلوبَهم مِن دَنسِ الكُفرِ، ووسَخِ الشِّركِ وغير ذلك، بطهارةِ الإسلامِ، ونظافةِ الإيمانِ، فيتوبوا؛ فلذلك صَدَر منهم ما صَدَر[2].

﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

أي: لهم في الحياةِ الدُّنيا ذلٌّ وهوانٌ، وفَضيحةٌ وعارٌ، ولهم في الآخِرة غضبُ الجبَّار، وعذابُ النَّار[3].

﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاؤُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ

= من اهتدائِه للحقِّ)) ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٢٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٠٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٠١).

قال الرازي: (لفظ الفتنة محتملٌ لجميع أنواع المفاسِد، إلَّا أنَّه لَمَّا كان هذا اللفظُ مذكورًا عقيبَ أنواع كُفرهم التي شرحَها اللهُ تعالى، وجَبَ أن يكون المرادُ من هذه الفتنةِ تلك الكُفرياتِ التي تَقدَّم ذِكرُها، وعلى هذا التقديرِ فالمرادُ: ومَن يُرِدِ اللهُ كُفرَه وضلالتَه فلن يقدِرَ أحدٌ على دفْع ذلك عنه). ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٠١- ٤٠٢).

عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢)﴾.

﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾.

أي: إنَّ هؤلاء اليهودَ الذين وصفتُ لك- يا مُحمَّدُ- صِفتَهم؛ سمَّاعون للباطِلِ، مُستجيبونَ له، مِثل قولِ بعضِهم لبعضٍ: محمَّدٌ ليس بنبيٍّ، وكقول بعضهم: إنَّ حُكْمَ الزَّاني المحصَنِ في التوراة الجلدُ والتحميمُ، وغير ذلِك من الأباطيلِ(١).

﴿أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر سُبحانَه ما يَدخُلُ في آذانِهم وقلوبِهم مِنَ الكلامِ؛ أَتْبَعَ ذلك بِذِكرِ ما يَدخُلُ في أفواهِهم وبُطُونِهم من الطَّعامِ، وهما غذاءانِ خَبيثانِ(٢)، فقال:

﴿أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾.

أي: ومِن صفاتِهم أنهم كثيرًا ما يأكلونَ المالَ الحرامَ؛ كالرَّشاوى وغيرِها(٣).

﴿فَإِنْ جَاؤُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾.

أي: فإنْ أتاكَ هؤلاءِ اليهودُ- يا محمَّدُ- للاحتكامِ إليك، فلك أنْ تحكُمَ بينهم إنْ شئتَ، أو تَدعَ ذلك إنْ شئتَ، فالخيارُ إليك في ذلِك؛ فهم لا يَقصِدون بتَحاكُمهم إليك اتِّباعَ الحقِّ، بل يَطلُبون ما وافَقَ أهواءَهم(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ١٩٦- ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤١١- ٤١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤١٢- ٤١٣).

قال ابنُ عُثَيمين: («أو» هنا هل هي للتَّنويعِ أو للتخيير؟ الجواب: هذه للتَّخيير، وإذا كانتْ =

﴿وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا﴾.

أي: وإنْ تُعرِضْ- يا محمَّدُ- عن هؤلاءِ المحتكِمينَ إليك من اليهودِ، وتَخْتَرْ تَرْكَ الحُكم بينهم، فلن يَقدِروا على إلحاقِ أيِّ ضررٍ بك في أمْرِ دِينٍ ولا دُنيا[1].

﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾.

أي: وإنِ اخترتَ الحُكمَ بينهم- يا محمَّدُ- فاحكمْ بينهم بالحقِّ والعدل، وإنْ كانوا في الحقيقةِ أعداءً وظَلَمةً، خارجينَ عن طريقِ العدل[2].

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى يحبُّ العادلينَ في حُكْمِهم بينَ النَّاس[3].

عن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((إنَّ المُقسِطينَ عندَ الله على منابرَ مِن نورٍ، عن يَمينِ الرَّحمنِ عزَّ وجلَّ- وكِلتَا يديهِ يمينٌ- الذين يَعدِلونَ في حُكمِهم وأَهليهم وما وَلُوا[4]))[5].

= للتخيير؛ فهل هو تخييرُ تشَهٍّ أو مصلحةٍ؟ نقول: هو تخييرُ مصلحةٍ)) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤١٣).

والقاعدةُ تقول: إذا خُيِّرَ العبدُ بين شيْئيْنِ فأكثر، فإنْ كانَ التَّخييرُ لمصلحتِه فهو تخييرُ تشهٍّ واختيار، وإن كانَ لمصلحةِ غيره فهو تخييرُ اجتهادٍ في مصلحةِ غيره. يُنظر: ((قواعد التفسير عند المفسرين)) لخالد السبت (ص: ٨٧٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٤٥ - ٤٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (١/ ٤١٣-٤١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤١٥).

(٤) وَمَا وَلُوا- بفَتْح الواو وضمِّ اللام المخفَّفة-: أي: ما كانتْ لهم عليه ولايةٌ مِن النَّظر إلى اليتيم، أو وقْفٍ، أو حِسبة، ونحو ذلك، ورُوي (وُلُّوا)- بضمِّ الواو وتشديد اللام-: أي ما جُعِلوا والينَ عليه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٢/ ٢١١)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٦/ ٢٤٠٤).

(٥) رواه مسلم (١٨٢٧).

﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٣)﴾.

﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾.

أي: كيف يَجعلُك هؤلاءِ اليهودُ- يا مُحمَّدُ- حَكَمًا بينهم وهم يُكذِّبونَك، وعندهم التوراةُ التي أُنزِلَتْ على موسى، والتي فيها حُكم اللهِ على ما يُريدون، ومِن ذلك حُكمُ الله فيها على الزاني المحصَن بالرَّجْمِ؟! ومع هذا أَعْرَضوا عن حُكْمِها، وهم يَعلمون أنَّه الحقُّ، وطَلَبوا حُكمَ غيرِها؛ لاحتمالِ موافقَتِه لأهوائِهم بظَنِّهم الفاسِدِ[1].

﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: إنَّهم ليسوا مِن أهلِ الإيمانِ؛ فإنَّ ذلك ليس مِن صَنيعِهم ودأْبِهم، أمَّا هؤلاء فقد جَعَلوا آلهتَهم أهواءَهم، وجَعَلوا أحكامَ الشَّرْع تابعةً لها، ولو كانوا مؤمنِينَ عاملينَ بما يَقتضيهِ الإيمانُ لم يَعدِلوا عن حُكمِ اللهِ في التوراةِ التي بين أيديهم[2].

الفوائدُ التَّربويَّة:

١- في قولِه: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ تعليمٌ وتأديبٌ للمؤمنينَ ألَّا يُخاطِبوا رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم باسْمِه، وأنْ يُخاطِبوه بوصْفِه[3].

٢- الإشارةُ إلى أنَّ المدارَ في الإيمانِ والصَّلاحِ والفسادِ، على القلبِ؛ لقولِه: ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾، وقولِه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٤٧-٤٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤١٩- ٤٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٢٠- ٤٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٣٢٠).

يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾، فالإيمانُ باللِّسانِ ليس إيمانًا حتَّى يكونَ مبنيًّا على إيمانِ القَلبِ، وإلَّا فإنَّه لا يَنفعُ صاحبَه؛ فالإيمانُ محلُّه القلبُ[١]. وفي الحديثِ: ((ألَا وإنَّ في الجسدِ مضغةً، إذا صَلَحَت صَلَحَ الجسدُ كلُّه، وإذا فَسَدَت فَسَدَ الجسدُ كلُّه))[٢].

٣- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ أنَّ مَن حَرَّف الكلمَ عن مواضعِه من هذه الأمَّة ففيه شَبَهٌ مِن اليهود، فيَقتضي هذا التحذيرَ مِن تحريفِ الكَلِمِ عن مواضعِه؛ لئلَّا يقعَ الإنسانُ في مشابهةِ اليهودِ[٣].

٤- أنَّ التحريفَ المذموم، هو الذي يقعُ بعدَ معرفةِ الإنسان للحقِّ؛ لقولِه: ﴿مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾، وفي الآيةِ الأخرى: ﴿عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [المائدة: ١٣]، فهم يُريدون أن يُزيلوا الكلمَ عن مواضعِه، أمَّا الإنسانُ الذي تأوَّل بتأويلٍ سائغٍ؛ فإنَّه لا يُذمُّ، ولا يُعدُّ فِعلُه تحريفًا يأثَمُ به[٤].

٥- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ ذمُّ أولئك الذين لا يَقبلون مِن الحقِّ إلَّا ما وافَق أهواءَهم، وإذا لم يوافقْ أهواءَهم ذهَبوا يتطلَّبون الرُّخَصَ من هذه الأمَّة[٥].

٦- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ أنَّه يَنبغي للإنسانِ أنْ يسألَ اللهَ دائمًا أن يُطهِّرَ قلبَه، وأنْ يَعتنيَ بأعمالِ القَلب، واعتناءُ المرء بأعمال القلب يجبُ أن يكونَ أشدَّ من اعتنائِه بعَملِ الجَسَد؛ لأنَّ عمَلَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٠٣، ٤٠٩، ٤١٠).
(٢) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٠٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٠٥).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٠٧).

الجسدِ يقعُ مِن كلِّ إنسانٍ؛ من مؤمنٍ ومنافقٍ، لكنَّ عمَلَ القلبِ هو المهمُّ[١].

٧- أنه يجبُ على الإنسانِ المستدِلِّ أن ينظُرَ إلى النُّصوصِ مِن جميعِ الجوانِبِ، وذلك أنَّك إذا نظرتَ إلى قَوْلِه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ لقُلْتَ: إنَّ إرادةَ اللهِ تعالى لتطهيرِ القلب مجرَّدُ مشيئةٍ، لكن إذا قيَّدْتَها بالنُّصوصِ الأخرى عَرَفْتَ أنَّ عدمَ إرادةِ اللهِ تطهيرَ قلوبِ هؤلاء؛ لأنَّهم ليسوا أهلًا لذلك، كما قال اللهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[٢] [الصف: ٥].

٨- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ الوعيدُ لهؤلاء لعلَّهم يَرجِعون؛ فإنَّ الوعيدَ على المعصيةِ مِن أسباب العُدول عنها، بحيثُ لا يُقدِمُ عليها، وإذا أَقدمَ استعتَبَ وتاب[٣].

٩- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ التحذيرُ من هذا الوصفِ القبيحِ، وهو الاستماعُ للكذب، أو نَقْلُ الكذب؛ لأنَّ اللهَ أكَّد بيانَ هذا الوصفِ القبيحِ من اليهود[٤].

١٠- التحذيرُ من أكْلِ المالِ بالباطل؛ لقوله: ﴿أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾، والله عزَّ وجلَّ لم يذكُرْ هذا الوصفَ إلَّا لنَحْذرَه[٥].

١١- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ أنَّ مَن اكتَسَب المالَ الحرامَ ففيه شَبَهٌ من اليَهود؛ فآكِلو الرِّبا مُشابِهونَ لليهود، وآكِلو الأموالِ بالغشِّ مشابِهون لليهود، وآكِلو الأموالِ بالحَلِف الكاذبِ مشابِهون لليهود؛ فكلُّ مَن اكتسب مالًا بغير حقٍّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤١٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٠٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤١٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤١٥).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤١٦).

بطريقٍ محرَّمٍ فهو مشابهٌ لليهود، كالرَّاشي والمرتشي، فالرِّشوة شائعةٌ في اليهودِ[1].

١٢ – أنَّه لا يجوزُ للإنسان أن يُراعيَ في حُكمه قريبًا ولا صديقًا، ولا غنيًّا ولا فقيرًا؛ لقوله: ﴿بِالْقِسْطِ﴾، وهذا يعني: أن يَنظُرَ إلى القضيةِ من حيث هي قضيةٌ، لا من حيثُ إنَّها قضيةُ فلانِ بن فلان[2].

١٣ – يُستفادُ مِن قولِه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ الحثُّ على الإقساطِ، أي: العَدْلِ؛ وجْه ذلك: كونُ الله يُخبِرُ أنَّه يحبُّ المُقْسطين يتضمَّن الحثَّ على العَدْلِ، فهذا ليس مُجرَّدَ خَبَر، بل هو خبرٌ يُرادُ به الحثُّ والإغراءُ على العَدْل[3].

١٤ – يُستفادُ مِن قولِه: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ﴾ أنَّ مَن استفتَى عالِمًا طلبًا للرُّخصةِ، ففيه شَبَهٌ من اليهودِ[4].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١ – نِداؤه تعالى له: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ هنا، وفي ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ﴾ و﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ في مواضعَ أخرى تشريفٌ وتعظيمٌ وتفخيمٌ لِقَدْرِه، ونادَى غيرَه من الأنبياء باسمِه، فقال: ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ﴾ [البقرة: ٣٥]، و﴿يَا نُوحُ اهْبِطْ﴾ [هود: ٤٨]، ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ [الصافات: ١٠٤- ١٠٥]، ﴿يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٤٤]، ﴿يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ [آل عمران: ٥٥]، ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ﴾[5] [مريم: ١٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤١٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤١٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٢١).

(٥) ينظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣٥٨) ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٣٣٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٣١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٠٢).

٢- تقويةُ قلبِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وتسليتُه بقولِه: ﴿لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾[1].

٣- أنَّ النَّاسَ يَختلفونَ في الكُفرِ؛ فمِنهم مَن يُسارِع فيه بخُطًى حثيثة، ومنهم مَن هو دونَ ذلك؛ لأنَّه قَسَّم، فقال: ﴿لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾، يعني: وهناك أناسٌ لا يُسارِعون فيه، فالداعيةُ إلى الكفرِ مسارِعٌ فيه، وغيرُ الداعيةِ غيرُ مسارِعٍ[2].

٤- قال تعالى هنا: ﴿مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾، وفي آيةٍ أخرى قال: ﴿عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [النساء: ٤٦]؛ لأنَّ آيةَ سورةِ النِّساءِ في وصْفِ اليهودِ كلِّهم، وتحريفِهم في التوراةِ، فهو تغييرُ كلامِ التوراةِ بكلامٍ آخَرَ عن جهْلٍ أو قصْدٍ، أو خطأٍ في تأويلِ معاني التَّوراةِ أو في ألفاظِها، فكان إبعادًا للكَلامِ عن مواضعِه، أي: إزالةً للكلامِ الأصليِّ سواءٌ عُوِّضَ بغيره أو لم يُعوِّض، وأمَّا هذه الآية ففي ذِكر طائفةٍ معيَّنةٍ أبطلوا العملَ بكلامٍ ثابتٍ في التَّوراة؛ إذ ألْغَوا حُكمَ الرَّجْمِ الثابتَ فيها دون تعويضِه بغيرِه من الكلامِ، فهذا أشدُّ جرأةً من التَّحريف الآخَر؛ فكان قوله: ﴿مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ أبلغَ في تحريفِ الكلامِ؛ لأنَّ لفظ (بعد) يَقتضي أنَّ مواضعَ الكلمِ مُستقرَّة، وأنَّه أبطلَ العملَ بها مع بقائِها قائمةً في كِتابِ التوراةِ[3].

٥- أنَّ اليهودَ لا يَقْبَلون من الحقِّ إلَّا ما وافقَ أهواءَهم؛ لقوله: ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾[4].

٦- شِدَّةُ كَراهةِ أحبار اليهودِ للحقِّ؛ لقوله: ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ لم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٠٢).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٠٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٠٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٠٦).

يقولوا: (فلا تأخذوه)، بل قالوا: ﴿فَاحْذَرُوا﴾، وهذا أشدُّ وقعًا مِن قَوْلِهم: (فلا تأخذوه)، وكان مُقتضى المقابلة أن يُقال: وإنْ لم تؤتوه فلا تأخُذوه[١].

٧- يُستفادُ من قولِه تعالى: ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ أنَّ الثيِّبَ الذِّميَّ يُرجَم، وهو مذهبُ الشافعيِّ رحمه الله؛ قال: لأنَّه صحَّ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنه أمَرَ برجْمِه، فإنْ كان الأمرُ برجْمِ الثيِّب الذميِّ مِن دِينِ الرسولِ فقد ثبَت المقصودُ، وإنْ كان إنَّما أمَرَ بذلك بناءً على ما ثبَتَ في شريعةِ موسى عليه السَّلامُ وجَب أن يكونَ ذلك مشروعًا في دِيننا، ويدلُّ عليه وجهان: الأول: أنَّ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لَمَّا أفتى على وَفقِ شريعةِ التَّوراةِ في هذه المسألةِ كان الاقتداءُ به في ذلك واجبًا، والثاني: أنَّ ما كان ثابتًا في شَرْعِ موسى عليه السَّلامُ، فالأصلُ بقاؤُه إلى طَرَيانِ النَّاسِخ، ولم يوجدْ في شَرْعِنا ما يدلُّ على نسْخ هذا الحُكمِ؛ فوجَب أنْ يكون باقيًا[٢].

٨- في قولِه تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ﴾ و﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ ردٌّ على القَدَريَّة والمعتزلةِ، الذين يَنْفُون مشيئةَ اللهِ لأفعالِ العبادِ، فدلَّت الآيةُ على أنَّ الله تعالى غيرُ مريدٍ إسلامَ الكافِرِ إرادةً كونيَّة، وأنَّه لم يُطهِّرْ قلْبَه من الشكِّ والشِّرْكِ، ولو فعَلَ ذلك لآمَنَ[٣].

٩- عُتوُّ اليهودِ، وأنَّهم بعدَ أن يَتبيَّنَ لهم الحقُّ يتولَّوْن؛ لقوله: ﴿وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ﴾؛ لأنَّ ﴿ثُمَّ﴾ تدلُّ على الترتيبِ والتَّراخي[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٠٧).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) للجصاص (٥/ ٩٨)، ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣٥٩).

(٣) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٦٢). ((تفسير الرازي))(١١/ ٣٦٠).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٢٣).

١٠- في قوله ﴿وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا﴾ نفي لضَرَرِه صلَّى الله عليه وسلَّم، لكنْ قد يُؤذونَه، فالأذيةُ لا يلزم منها الضررُ؛ فقد قال تعالى ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٧٦]، وقال في الحديث القدسي: ((يا عِبادي، إنَّكم لن تَبلُغوا ضُرِّي فتضروني))(١)، فنفَى أن يضرَّه أحدٌ، أمَّا الأذيَّة فقدِ أثبَتَها، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأحزاب: ٥٧]، وقوله في الحديثِ القُدسي: ((يُؤذِيني ابنُ آدَمَ؛ يسبُّ الدهر))(٢)، فالضرر منفيٌّ عن الله عزَّ وجلَّ، والأذيَّة ثابتةٌ(٣).

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ لتهوينِ تألُّبِ المنافقينَ واليهودِ على الكَذِبِ والاضطرابِ في معاملةِ الرسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وسوءِ طواياهم معه(٤).

- وفيه كنايةٌ في قوله: ﴿لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ﴾؛ حيث إنَّ نهيَه عن أنْ يحصُلَ له إحزانٌ مسنَدٌ إلى الَّذين يُسارِعونَ في الكُفرِ، والإحزانُ فِعلُ الذين يُسارِعون في الكُفر، والنهيُ عن فِعلِ الغيرِ إنَّما هو نهيٌ عن أسبابِه، أي: لا تجعلْهم يُحزِنونك، أي: لا تهتمَّ بما يَفعلونَ ممَّا شأنُه أن يُدخِلَ الحزنَ على نفْسِك(٥).

٢- قوله: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ فيه: تَكرار؛ تأكيدًا لِمَا قبله، وتمهيدًا لِمَا بعده،

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧).

(٢) رواه البخاري (٤٨٢٦)، ومسلم (٢٢٤٦).

(٣) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤١٣- ٤١٤).

(٤) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٩٤).

(٥) ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٩٧).

وتقريرًا للمعنى، ولإفادة اهتمامِ المتكلِّم به، و﴿سَمَّاعُونَ﴾ من صِفات المبالغة[١]، وأفاد تكرار ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ أنَّ هذه الخَصلة أصبحت خَصلةً لهم؛ تَهَشُّ نفوسُهم لسَماعِ الكذبِ والباطلِ، وتنقبِضُ لسماعِ الحقِّ والصِّدْق، وهذه طبيعةُ القلوبِ حين تَفسُد، وعادةُ الأرواحِ حين تَنطمِسُ[٢]؛ ففيه كنايةٌ عن تفشِّي الكَذِب في جماعتِهم بَين سامعٍ ومختلِقٍ؛ لأنَّ كثرةَ السَّمع تستلزمُ كثرةَ القولِ[٣].

٣- قوله: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ هذا التركيبُ يدلُّ على انتفاءِ الحِيلة في تحصيلِ أمرٍ ما، أي: لا تَقدِر على أقلِّ شيءٍ من الله، أي: لا تستطيعُ نَيْلَ شيءٍ من تيسيرِ اللهِ؛ لإزالةِ ضلالةِ هذا المفتون؛ لأنَّ مادَّةَ المِلْك تدلُّ على تمامِ القُدرة[٤].

- وتنكيرُ ﴿شَيْئًا﴾ للتقليلِ والتحقيرِ، ويدلُّ على انتفاءِ مِلكِ الشيءِ القليلِ، ويَقتضي انتفاءَ مِلْك الشَّيء الكثيرِ بطَريقِ الأَوْلى[٥].

٤- قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ فيه: إشارةٌ إلى المذكورين مِن المنافقين واليهودِ، وما في اسمِ الإشارةِ ﴿أُولَئِكَ﴾ من معنى البُعد؛ للإيذانِ ببُعدِ منزلتِهم في الفسادِ[٦].

٥- قوله: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾: تَكرير ﴿لَهُمْ﴾ مع اتِّحادِ المرجع؛ لزيادةِ التقريرِ والتأكيد، وتنكيرُ ﴿خِزْيٌ﴾ للتفخيم[٧]،

---

(١) ينظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٧- ٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٠١)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٧٦).

(٢) ينظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٨٩٣).

(٣) ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٩٩).

(٤) ينظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٢٠١).

(٥) ينظر: ((المصدر السابق)).

(٦) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٨).

(٧) ينظر: ((المصدر السابق)).

مع ما يُفيد تقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَهُمْ﴾ من القصرِ والحصرِ، وما يُفيده تنكيرُ ﴿عَذَابٌ﴾ مِن التَّفخيم والتهويل كذلك، ووصْفه بـ﴿عَظِيم﴾ بصِيغة المبالَغة.

٦- قوله: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ﴾ الاستفهامُ للتعجُّب؛ إذْ مِنَ العجيبِ أنَّهم يَترُكونَ كتابَهم ويُحكِّمونك، وهم غيرُ مؤمنينَ بك، ثم يتولَّون بعدَ حُكمِك إذا لم يُرْضِهم، والجملةُ استئنافيَّة، مسوقةٌ لبيانِ أنَّ عندَهم ما يُغْنيهم عن التَّحكيم[1].

٧- قوله: ﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ تذييلٌ مُقرِّر لفحوى ما قَبْلَه، ووضْع اسم الإشارة ﴿أُولَئِكَ﴾ موضع ضميرهم (هُمْ)؛ للقصدِ إلى إحضارِهم في الذِّهن بما وُصِفوا به مِن القبائح؛ إيماءً إلى عِلَّة الحُكم[2]، وأتى بـ «أولاء» مقرونةً بالكافِ الدالَّةِ على بُعدِ المشار إليه، وهذا لدنوِّ منزلتِهم وليس لعُلوِّها، يعني: ما هؤلاءِ المنحطُّون الذين نزلوا إلى أسفلِ السَّافلين بالمؤمنين، وأتى بحَرْفِ الجرِّ في قوله: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ للتَّوكيدِ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٢٠- ٤٢١).

الآيتان (٤٤ - ٤٥)

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًاۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ﴾: جمْع ربَّانيٍّ، مَنسوبٌ إلى الرَّبِّ أو إلى الرَّبَّان، وهو الجامِعُ إلى العِلمِ والفِقهِ البَصرَ بالسِّياسةِ، والتَّدبيرَ، والقيامَ بأُمورِ الرَّعيَّة وما يُصلحُهم في دُنياهم ودِينهم، ويَشمَلُ ذلك: العَالِمَ الحكيمَ، والفَقيهَ التَّقيَّ العابِدَ، والمُعلِّمَ المُصلِحَ، والذي يُربِّي النَّاسَ بصِغارِ العِلمِ قَبل كِبارِه، وأصل (ربّ): يدلُّ على إصلاحِ الشَّيءِ والقِيامِ عليه ولُزومِه، وضمِّ الشَّيءِ للشَّيءِ[1].

﴿وَالْأَحْبَارُ﴾: العُلماءُ، وهنا تَختصُّ بعُلماءِ اليهودِ من ولَدِ هارون، جمْع حَبْر، وأَصْلُ (حبر): يدلُّ على الأثرِ في حُسنٍ وبهاءٍ[2].

﴿اسْتُحْفِظُوا﴾: استُودِعوا، والحِفظُ هو التَّعاهُدُ، وقِلَّةُ الغَفْلة، ويُستعملُ في كلِّ تفقُّدٍ وتعهُّدٍ ورِعايةٍ، وهو نَقيضُ النِّسيانِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٢٩-٥٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٨١- ٣٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص:٣٣٦- ٣٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٦، ١٥١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٠٨).

(٣) يُنظر: ((العين)) للخليل بن أحمد (٣/ ١٩٨)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٤)، =

﴿فَلَا تَخْشَوُا﴾: الخَشيةُ: خوفٌ يَشوبُه تَعظيمٌ، وهي: أشدُّ مِن الخوفِ وأخَصُّ مِنَه؛ فهي خوفٌ مَقرونٌ بمعرفةٍ، وأكْثرُ ما تكونُ الخَشْيةُ عن عِلمٍ بالمَخوفِ منه، وهي مأخوذةٌ مِن قولِهم: شَجرةٌ خاشيةٌ: أي يابسةٌ، وأَصْلُ (خشِي): يدلُّ على خَوفٍ وذُعْر(١).

﴿قِصَاصٌ﴾: وهو: مُقابلةُ الفِعل بمثلِه، وتتبُّع الدَّم بالقَوَدِ، كقَتْلِ القاتِل بَدلَ القَتيلِ، وأصلُ القَصِّ: تتبُّع الشَّيءِ والأَثَرِ، ومنه اشتُقَّ القِصاصُ في الجِراح؛ لأنَّه يُفعَل به مِثلُ فِعلِه بالأوَّل، فكأنَّه اقتصَّ أثَرَه(٢).

﴿كَفَّارَةٌ﴾: الكفَّارة: ما يُغطِّي الإثمَ، وأصْل الكفر: السَّترُ والتَّغطية(٣).

المعنَى الإجْماليُّ:

يُخبرُ تعالى أنَّه أنزلَ التوراةَ مشتملةً على الهُدى والنُّور؛ يَحكمُ بها بين اليهود أنبياؤُهم الذين استَسلموا وخضَعوا للهِ تعالى، ويَحكُمُ بها أيضًا بينهم الربَّانيُّون والأحبار؛ وذلك لِكَونِهم مستأمَنينَ على كتابِ الله، مأمورينَ بتبليغِه، وشهداءَ عليه، ثم نهى اللهُ علماءَ اليهودِ أنْ يخافوا من النَّاسِ في تنفيذِ أحكامِه، بل يخافونه وحْدَه، ونهاهم عن أنْ يتركوا الحُكمَ بما في كتابِه مِن أجْلِ مَتاعِ الدُّنيا القليلِ الزائل، وأخبر أنَّ مَن لم يَحكُم بما أنْزَلَه تعالى فأولئك هم الكافِرون.

ثمَّ بيَّن تعالى أنَّه فرَض على اليهودِ في التَّوارة القصاصَ بأنْ تُقتَلَ النفسُ

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٤).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٣)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٥٠٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٢٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧١- ٦٧٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧١٧).

إذا قَتَلتْ نفسًا أخرى عَمْدًا بغير حقٍّ، وكذا العينُ مقابلَ العينِ، والأنفُ مقابلَ الأنفِ، والأذنُ مقابلَ الأُذُنِ، والسِّنُّ مقابلَ السِّنِّ، كما فرَض القِصاصَ في الجُرُوح؛ فللمجروحِ أن يقتصَّ بالمِثل ممَّن جرَحَه ظُلمًا، فمَن تنازَلَ عن حقِّه من القِصاصِ فيما سبَق فعَفَا عمَّن تَعدَّى عليه، فسيُكفِّر اللهُ ذنوبَه جزاءَ عَفْوِه عنه، وأخبَر تعالى أنَّ مَن لم يَحكُمْ بما أنزَلَه فأولئك هم الظَّالِمون.

تَفْسيرُ الآيتين:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤)﴾.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا وصَف اللهُ عزَّ وجلَّ التوراةَ بأنَّ فيها حُكمَه سُبحانَه في قوله: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ وتضمَّن ذلك مدْحَ التَّوراةِ؛ صرَّح بذلك هنا، فأثْنى عليها وعلى الحاكمينَ بها، تأكيدًا لذمِّ اليهودِ في الإعراضِ عمَّا دعَتْ إليه مِن أصلٍ وفرعٍ، وتحذيرًا من مِثل حالِهم[1]، فقال:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾.

أي: نحنُ نزَّلنا التوراةَ على موسى عليه السَّلامُ، وفيها ما يَهدي إلى الحقِّ، وما يُستضاءُ به في ظُلماتِ الشَّهوات والشُّبهاتِ[2].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ١٤٤). ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٢٤).

﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾.

أي: يَحكُمُ بحُكمِ التوراةِ الأنبياءُ الكِرامُ سادةُ الأنامِ عليهم السَّلامُ، الذين استَسلَموا للهِ تعالى ظاهرًا وباطنًا، فيَحكُمون بها بينَ اليهودِ، لا يَخرُجون عن حُكْمِها، ولا يُبدِّلونها ولا يُحرِّفونها[1].

﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾.

أي: ويَحكُمُ بالتَّوراةِ وأحكامِها أيضًا الرَّبَّانيُّونَ (وهم العلماءُ الحكماءُ العُبَّاد، الذين يُربُّون الناسَ بصغارِ العلمِ قبلَ كبارِه)، والأحبارُ (وهم العلماءُ الكبارُ ذَوو العلمِ الواسِع، المُحْكِمُون لعِلْمِهم)؛ وذلك لأنَّ اللهَ تعالى جعَلَهم أُمَناءَ على كِتابِه؛ استودَعهم إيَّاه، وأمَرَهم أن يُظْهِروه ويَعملوا به، وأوجب عليهم حِفظَه من الزِّيادةِ والنُّقصانِ والكِتمان[2].

﴿وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾.

أي: شُهداءَ على أنَّه كتابُ الله، نزَل من عندِ اللهِ، وفيه حُكمُ الله، وهم مؤتَمَنون على تبليغِه، وحِفظِه من التَّبديلِ والتَّحريفِ والكِتمان، ومِن ذلك الحُكمُ برجْمِ الزاني المُحصَن، وإثباتُ أنَّ محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ هو الرسولُ المنتظَر المذكور في التوراةِ[3].

﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٢٤- ٤٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٥١- ٤٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٢- ٢٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٢٥- ٤٢٦).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ١٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (٦/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٠٩- ٢١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٢٦، ٤٣١).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ من السَّلفِ ابن عباس في رواية عنه. ينظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (١/ ٥٥٢).

مُناسَبَتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا قَرَّرَ فيما سبَقَ أنَّ النبيِّين والربَّانيِّين والأحبارَ كانوا قائمينَ بإمضاءِ أحكامِ التَّوراةِ من غيرِ مبالاةٍ؛ خاطَب اليهودَ الذين كانوا في عصْر النبيِّ صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّمَ، ومنَعَهم مِنَ التَّحريفِ والتَّغييرِ(١)، فقال:

﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾.

أي: فما دُمتُم قدِ استُحْفِظْتُم على كتابِ اللهِ تعالى- يا علماءَ اليهودِ(٢)- فلا تَخشَوُا النَّاسَ في تنفيذِ حُكمي وإمضائِه عليهم؛ فإنَّهم لا يَقدِرون على ضرِّكم ولا نَفعِكم إلَّا بإذني؛ فإنَّ الحفيظَ على الشَّيءِ، الأمينَ حقَّ الأمانةِ لا يَخشى أحدًا في القيامِ بوجهِ أمانتِه، ولكنَّه يَخشى الذي استأمنَه، فلا تُخِلُّوا بها استرضاءً لأهواءِ النَّاس- ككِتمانِ حُكم الرَّجمِ، الذي حَكَم به اللهُ تعالى في التوراةِ على الزاني المحصَن وتبديلِه بغيره، وكِتمانِ صِفةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ- ولكنِ اخْشَوني دون كلِّ أحدٍ مِن خَلقي، واقصُروا أنظارَكم على رِضاي؛ فإنَّ النفعَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٣٤٩).

(٢) هذا اختيارُ ابنِ جريرٍ في ((تفسيره)) (٨/ ٤٥٥)، والواحديِّ في ((التفسير الوسيط)) (٢/ ١٩٠)، وابنِ عطيةَ في ((تفسيره)) (٢/ ١٩٦) أنَّ الخطابَ لعلماءِ اليهودِ.
وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ من السَّلفِ: ابنُ عباس رضي الله عنهما. ينظر: ((زاد المسير)) (١/ ٥٥٢).
وذكَر ابنُ عطيَّة أنَّه يحتمل أنْ يكون قولُه: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ﴾ إلى آخِرِ الآيةِ خِطابًا لأمَّة محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم.
وذهَب ابنُ عاشور إلى جواز أن يكون الخطابُ بقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ﴾ ليهودِ زمان نزولِ الآية، والفاء للتفريع عمَّا حُكي عن فِعل سَلف الأنبياء والمؤمنين؛ ليكونوا قدوةً لخلَفهم من الفَريقين، وتكون الجملةُ على هذا الوجه معترضةً، وذهب أيضًا إلى جواز أن يكونَ الخطاب للنبيِّين والربانيِّين والأحبار؛ فهي على تقديرِ القول، أي: قلنا لهم: فلا تَخشَوُا الناس. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢١٠).

والضرَّ بيدي، وخافوا عِقابي على كِتمانكم أو تبديلِكم ما استُحْفِظْتُم مِن كتابي[١].

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

أي: ولا تَتركوا الحُكمَ بآياتِ كتابي - أيُّها العلماءُ- فتكتموا الحقَّ، وتُظهِروا الباطلَ؛ لأجْلِ متاعٍ قليلٍ، وعِوَضٍ خسيس- كطلب بقاءِ جاهٍ وسيادةٍ، أو طَلبِ مال يُبذَل رِشوةً[٢].

﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا منَعَهم مِن خَشيةِ النَّاس، وأن يشترُوا بآياتِه ثمنًا قليلًا؛ أتْبعَه بالوعيدِ الشَّديدِ[٣].

سبَبُ النُّزولِ:

عن البَراءِ بن عازبٍ رضِيَ اللهُ عنه، قال: ((مُرَّ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بيهوديٍّ محمَّمًا مجلودًا، فدَعاهم صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال: هكَذا تَجِدون حدَّ الزاني في كِتابِكم؟ قالوا: نعَم، فدَعا رجلًا من عُلمائِهم، فقال: أَنشُدُك باللهِ الذي أنزلَ التوراةَ على موسى، أهكذا تَجِدون حدَّ الزَّاني في كتابِكُم؟ قال: لا، ولولا أنَّك نَشدْتَني بهذا لم أُخْبِرْكَ؛ نجدُه الرَّجمَ، ولكنَّهُ كثُرَ في أشرافِنا، فكنَّا إذا أخَذْنا الشَّريفَ ترَكْناهُ، وإذا أخَذْنا الضعيفَ أقَمْنا عليهِ الحدَّ! قلنا: تَعالَوْا فلنجتمعْ على شيءٍ نُقيمُه على الشَّريفِ والوَضيعِ، فجعَلْنا التَّحميمَ والجلْدَ مكانَ الرجمِ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: اللهمَّ إنِّي أولُ مَن أحيا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٣٤٩).

أمْرِكَ إذْ أماتوهُ، فأمرَ بِهِ فرُجِمَ، فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ إلى قولِه: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ﴾، يقول: ائتوا محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فإنْ أمَرَكم بالتَّحميمِ والجَلدِ فخُذوه، وإنْ أفتاكم بالرَّجمِ فاحْذروا، فأنزل اللهُ تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾، ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ في الكُفارِ كلُّها))(١).

﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾.

أي: إنَّ الذين لم يَحكُموا بما أَنزلَ اللهُ تعالى في كِتابِه من اليهودِ وغيرِهم، فبدَّلوا حُكمَه، وكتَموا الحقَّ الذي أنزلَه في كتابِه، وحَكَموا بالباطل؛ هؤلاءِ همُ الكافرونَ(٢).

---

(١) رواه مسلم (١٧٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٥٦، ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (١/ ٤٢٧).

والحُكم بغير ما أنزل اللهُ قدْ يكونُ كفرًا أكبر يُخرِجُ من المِلَّة في بعضِ الأحوالِ، ككراهيةِ حُكمِ الله تعالى، أو ظَنِّ أنَّ حُكمَ غيرِه مِثلُه أو أحسنُ منه، أو اعتقادِ أنَّ حُكمَ اللهِ تعالى غيرُ صالحٍ في في بَعضِ الأزمانِ كزَمانِنا هذا، أو استبدالِ قَوانينَ وأنظمةٍ عامَّةٍ بحُكمِ اللهِ تعالى، تخالف حكمَ الله؛ فتحلُّ ما حرَّم الله وتحرِّم ما أحلَّ الله، هذا مع تحقُّقِ وجودِ شُروطِ التكفيرِ وانتفاءِ موانعِه، وقد يكونُ في أحوالٍ أخرى كُفْرًا أصغر لا يُخرِجُ مِن الملَّة، كمَن يَحكُم في قضيةٍ معيَّنة بخلافِ حُكمِ اللهِ تعالى لشهوةٍ أو رِشوةٍ، فيكونُ كبيرةً من كَبائرِ الذُّنوبِ.

ينظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٤٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٥٨-٢٥٩).

قال السعديُّ: (﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ من الحقِّ المبين، وحَكَم بالباطلِ الذي يعلمه؛ لغرضٍ من أغراضِه الفاسدة ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ فالحكمُ بغير ما أنزل الله مِن أعمال أهل الكُفر، وقد يكون كُفرًا يَنقُل عن الملَّة، وذلك إذا اعتقَد حِلَّه وجوازَه، وقد يكون كبيرةً من كبائر الذنوب ومِن أعمالِ الكفر؛ قد استحقَّ مَن فعلَه العذابَ الشديد) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٣).

وقال الشِّنقيطيُّ: (فالخطابُ للمُسلمين كما هو ظاهرٌ متبادَر من سِياق الآية؛ وعليه: فالكفرُ إمَّا كُفرٌ دون كُفر، وإمَّا أن يكون فعل ذلك مستحلًّا له، أو قاصدًا به جحْدَ أحكام اللهِ وردَّها مع العِلم بها، أمَّا مَن حَكم بغير حُكم اللهِ، وهو عالمٌ أنَّه مرتكبٌ ذنبًا، فاعلٌ قبيحًا، وإنما حمَله على ذلك الهوى، فهو من سائرِ عصاة المسلمين) ((أضواء البيان)) (١/ ٤٠٧). =

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ

= وقال أيضًا: (واعلم أنَّ تحرير المقام في هذا البحث: أنَّ الكفر، والظلم، والفسق، كل واحدٍ منها ربما أطلق في الشرع مرادًا به المعصيةُ تارةً، والكفرُ المخرجُ من الملَّة أخرى: ومَن لم يحكم بما أنزل الله؛ معارضةً للرُّسل، وإبطالًا لأحكام الله، فظلمُه وفِسقُه وكفرُه كلُّها كفرٌ مخرجٌ عن الملَّة، ومَن لم يحكُمْ بما أنزل الله معتقدًا أنه مرتكبٌ حرامًا، فاعل قبيحًا، فكفرُه وظلمُه وفسقُه غيرُ مخرجٍ عن الملَّة) ((أضواء البيان)) (١/ ٤٠٧ - ٤٠٨).

قال ابن عثيمين: (من لم يحكُمْ بما أنزَل الله استخفافًا به، أو احتقارًا له، أو اعتقادًا أنَّ غيره أصلحُ منه، وأنفعُ للخلقِ، فهو كافرٌ كفرًا مخرجًا عن الملَّة، ومِن هؤلاء مَن يضعون للنَّاس تشريعاتٍ تخالفُ التشريعاتِ الإسلاميةَ؛ لتكون منهاجًا يسيرُ النَّاس عليه، فإنَّهم لم يضعوا تلك التشريعاتِ المخالفةَ للشريعةِ الإسلاميَّة إلا وهم يعتقدون أنَّها أصلحُ وأنفعُ للخلقِ، إذ مِن المعلومِ بالضرورةِ العقليَّة، والجِبلَّة الفطريَّة أنَّ الإنسانَ لا يعدلُ عن منهاجٍ إلى منهاجٍ يخالفُه إلَّا وهو يعتقدُ فضلَ ما عدَل إليه، ونقصَ ما عدَل عنه). ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢/ ١٤٣).

وقال أيضًا: (والحُكمُ بغَيرِ ما أنزَلَ اللهُ ينقَسِمُ إلى قِسمَينِ:

أحدُهما: أن يستبدِلَ هذا الحُكمَ بحُكمِ اللهِ تعالى، بحيث يكونُ عالِمًا بحُكمِ اللهِ، ولكِنَّه يرى أنَّ الحُكمَ المخالِفَ له أَوْلى وأنفَعُ للعبادِ مِن حُكمِ الله، أو أنَّه مُساوٍ لحُكمِ الله، أو أنَّ العُدُولَ عن حُكمِ اللهِ إليه جائِزٌ، فيجعَله القانونَ الذي يجِبُ التَّحاكُمُ إليه؛ فمِثلُ هذا كافِرٌ كُفرًا مُخرِجًا عن المِلَّةِ؛ لأنَّ فاعِلَه لم يَرْضَ باللهِ ربًّا، ولا بمحمَّدٍ رسولًا، ولا بالإسلامِ دينًا، وعليه ينطَبِقُ قولُه تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾.

الثاني: أن يستبدِلَ بحُكمِ الله تعالى حُكمًا مخالِفًا له في قضِيَّةٍ مُعَيَّنةٍ، دون أن يجعَلَ ذلك قانونًا يجِبُ التَّحاكُمُ إليه؛ فله ثلاثُ حالاتٍ:

الأولى: أن يفعَلَ ذلك عالِمًا بحُكمِ اللهِ تعالى، مُعتَقِدًا أنَّ ما خالَفَه أَوْلى منه وأنفَعُ للعِبادِ، أو أنَّه مُساوٍ له، أو أنَّ العُدولَ عن حُكمِ اللهِ إليه جائِزٌ؛ فهذا كافِرٌ كُفرًا مُخرِجًا عن المِلَّةِ؛ لِمَا سَبَقَ في القِسمِ الأوَّلِ.

الثانية: أن يفعَلَ ذلك عالِمًا بحُكمِ اللهِ، مُعتَقِدًا أنَّه أَوْلى وأنفَعُ، لكِنْ خالَفَه بقصدِ الإضرارِ بالمحكومِ عليه، أو نَفْعِ المحكومِ له، فهذا ظالِمٌ وليس بكافِرٍ، وعليه يتنَزَّلُ قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

الثالثة: أن يكونَ كذلك، لكِنْ خالَفَه لِهوًى في نفسِه، أو مصلحةٍ تعودُ إليه؛ فهذا فاسِقٌ وليس بكافِرٍ، وعليه يتنَزَّلُ قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾) ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين))(٢/ ١٤٥).

وقال أيضًا: (الأدلَّة دلَّت على أنَّ هذا [أي: التكفير] مقيَّد بشروط: =

بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥)﴾.

مناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن الله تعالى في التوراةِ أَحْكَامَ حَدِّ الزِّنَى، وأنَّ حُكمَ الزاني المحصَن هو الرجمُ، وأنَّ اليهودَ غيَّروه وبدَّلوه- ذكر في هذه الآيةِ أنَّه تعالى بيَّن في التوراةِ أَحْكَامَ القِصَاصِ، لكنَّ اليهودَ غيَّروها أيضًا[1]، فقال تعالى:

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾.

أي: وفرَضْنا على اليهودِ في التَّوراةِ أنَّ النَّفس تُقتلُ قِصاصًا، إذا قَتلتْ نفسًا أخرى عَمْدًا بغير حقٍّ، وكذا العينُ تُفقَأُ بالعَينِ، والأنفُ تُجدعُ بالأنفِ، والأُذنُ تُقطَعُ بالأُذنِ، والسِّنُّ تُقلَعُ بالسنِّ، ويُقتصُّ للمجروحِ ممَّن جرَحه ظلمًا وعدوانًا بمِثل الجُرحِ الذي جرَحه[2].

= الأوَّل: أن يكون الحاكمُ عالِمًا بحُكم الله، والثاني: أن يكونَ عالِمًا بمخالفة هذا الحُكم لحُكمِ الله، والثالث: أن يَجعلَه بديلًا عن حُكم الله، والرابع: ألَّا يرضَى بحُكم الله، فإذا تمَّت هذه الشروط صارَ حينئذٍ خارجًا عن الملَّة) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٣٥- ٤٣٦).

قال الرازي: (أجمَع المفسِّرون على أنَّ هذا الوعيدَ يتناولُ اليهودَ بسببِ مخالفتِهم حكمَ الله تعالى في واقعةِ الرَّجم) ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٣٦٨).

وممَّن ذهب مِن السَّلف أنَّ الآيةَ في اليهودِ، وتشملُ كذلِك هذه الأمَّةَ: ابنُ مسعود، وإبراهيمُ النَّخَعي، والحسن، والسُّدِّيُّ. ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٦٦)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (١/ ٥٥٢).

(١) ينظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٣٦٨) ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٧٠، ٢٧١) ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤٦٨- ٤٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٢٠- ١٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين)) (١/ ٤٣٩- ٤٤٨).

قال السعديُّ: (ومِثل هذه ما أشبَهها من الأطرافِ التي يُمكن الاقتصاصُ منها بدون حيفٍ) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٣). =

وهذا من جملة أحكامِ التوراة، التي يَحكُم بها النبيُّون الذين أسلموا للذين هادُوا، ويَحكُم بها الربَّانيُّون والأحبارُ، ومع ذلِك يُخالفُها اليهودُ عمدًا؛ فهُم بترْكِ حُكمِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بينهم أَحْرى وأَوْلى(١).

﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾.

أي: فمَن تنازَلَ عمَّا وجَبَ له مِن حقٍّ بالقِصاص في النَّفْس، وما دونها من الأطرافِ والجُروحِ فعفَا عن الجاني، تُكفَّرُ عنه ذنوبُه؛ جزاءً لعَفْوه وتنازُلِه(٢).

﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

أي: إنَّ الذين لم يَحكُموا بما أنزلَ اللهُ تعالى في كتابِه من اليهودِ وغيرِهم،

= قال النَّحاسُ: (﴿وَكَتَبْنا عَلَيْهِمْ فِيها﴾ فهذا الضميرُ لليهودِ بإجماعٍ) ((إعراب القرآن)) (١/ ٢٦٩).

وقال الرازي: (أجمع العلماءُ على أنَّ قولَه تعالى: ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس﴾ حكمُه باقٍ في شرعِنا) ((تفسير الرازي)) (١١/ ٣٥٩-٣٦٠).

وقال القرطبيُّ: (أجمَع العلماءُ على أنَّ قولَه تعالى: ﴿والسن بالسن﴾ أنَّه في العمدِ) ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٢٠٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢١٣- ٢١٥).

(٢) واختار هذا القولَ ابنُ جرير في ((تفسيره)) (٤٧٩- ٤٨٠)، واختارَه ابنُ العربيِّ في ((أحكام القرآن)) (٢/ ١٣٦)، وذكَر أنَّ عليه أكثرَ الصحابة، واختاره القرطبيُّ في ((تفسيره)) (٦/ ٢٠٨) وقال: إنَّه الأظهرُ. واختاره ابنُ تيميَّة في ((مجموع الفتاوى)) (٣٠/ ٣٦٢)، وابن عاشور في ((تفسيره)) (٦/ ٢١٦- ٢١٧).

وممَّن قال من السَّلف بنحوِ هذا القولِ: ابنُ مسعود، وعبدُ الله بن عَمرٍو، وإبراهيمُ النَّخَعيُّ- في أحد قوليه- والحسن، وقتادة، والشَّعبي، وأبو إسحاق الهمدانيُّ. ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٤/ ١١٤٦)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (١/ ٥٥٤).

وقيل: كفارةٌ للجاني، فإذا عفا المجنيُّ عنه كان عفوُه كفارةً لذنبِ الجاني، كما القِصاصُ منه كفَّارةٌ له. ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٧٥).

واختار السعديُّ أنه كفَّارةٌ للعافي وللجاني أيضًا؛ لأنَّ المجني عليه عفا عن حقِّه، والله تعالى أحقُّ وأَوْلى بالعفوِ عن حقِّه، يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٣).

فبدَّلوا حُكمَه، وكتَموا الحقَّ الذي أَنزله في كتابِه، وحكَموا بالباطِلِ في أحكامِ القِصاصِ وغيرِها، فهم ممَّن جارَ على حُكمِ اللهِ وتعدَّى حُدودَه، ووضَع فِعلَه في غَيرِ مَوضعِه الذي جعَله اللهُ تعالى له[1].

الفوائدُ التَّربويَّة:

١- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ أنَّ العِبرةَ بالاهتداء بالدِّين، وأنَّه لا ينفعُ أهلَ الانتماءِ إليه إذا لم يُقيموه؛ إذ لا يَستفيدونَ من هِدايتِه ونورِه إلَّا بإقامتِه والعَمَلِ به، وأنَّ إيثارَ أهلِ الكتابِ أهواءَهم على هدايةِ دِينِهم هو الذي أعماهم عن نورِ القُرآنِ، والاهتداءِ به[2].

٢- أنَّ أهلَ العِلم ورثةُ الأنبياءِ في إظهارِ حُكمِ اللهِ والدَّعوةِ إلى شريعتِه؛ لقوله: ﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾، عطفًا على الأنبياءِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤٨٢).

واختارَ ابنُ عاشور أنَّ المراد بالظالمين الكافرون؛ لأنَّ الظلم يُطلق على الكفر؛ فيكون هذا مؤكِّدًا للذي في الآية السابقة، ويحتمل أنَّ المرادَ به الجَوْرُ، فيكون إثباتُ وصفِ الظلمِ لزيادةِ التشنيع عليهم في كُفرهم؛ لأنَّهم كافِرون ظالمون. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢١٧).

واختار ابنُ عُثَيمين: أنَّ قوله سبحانه: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، في مَن حَكَم وهو يعتقدُ أنَّ حُكمَ اللهِ هو الحقُّ، وأنه أنسبُ للعباد من حُكم الطاغوتِ، لكنَّه أراد أن يَعتديَ على المحكومِ عليه لعداوةٍ بينه وبينه، فهذا ظالمٌ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٥٧).

ممَّن قال بنحوِ هذا القولِ: ابنُ عبَّاس. ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٦٧)

قال ابنُ جرير: (عن عليِّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عباسٍ رضي الله عنه، قوله: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ [المائدة: ٤٤] قال: مَن جحد ما أنزَل اللهُ فقد كفَر، ومن أقرَّ به ولم يحكمْ فهو ظالمٌ فاسقٌ). ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٦٧).

وتقدَّم أنَّ الظُّلم يُطلَق ويُراد به المعصيةُ تارةً، ويُراد به الكفرُ المخرجُ مِن الملَّة تارةً أخرى. ينظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٠٧)

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٣٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٣٠).

٣- الثَّناءُ على أهلِ العِلم، وأنَّهم هم حَفَظةُ شريعةِ الله؛ لقوله: ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾؛ فهم وَرَثةُ الأنبياءِ، وهم الذين يَلزمُهم الدَّعوةُ إلى الله على بصيرةٍ، ونشْرُ شريعةِ الله(١).

٤- تحريمُ خَشيةِ الناس في إضاعةِ شريعةِ الله؛ لقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾(٢).

٥- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أنَّ المنحرِفَ عن الدِّينِ وعن نشْر العِلم ينحرفُ لأحدِ سببينِ: السَّبب الأوَّل: خشيةُ النَّاسِ، والسبب الثاني: الطَّمعُ في الدُّنيا، وطلَبُ الدُّنيا والرِّئاسةِ والمالِ، وما أشْبَه ذلك(٣).

٦- في قوله تعالى: ﴿وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ نهيٌ عن جميعِ المكاسِبِ الخبيثةِ بالعِلم، والتحيُّل للدُّنيا بالدِّين، وهذا المعنى بعينه يتناول علماءَ هذه الأمَّة وحُكَّامَها(٤).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- شرفُ التوراة؛ لقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ﴾؛ حيث إنَّ اللهَ تعالى أنْزَلَها مِن عنده، لكنَّ المرادَ بالتوراة: التي لم تُغيَّرْ ولم تُبدَّلْ(٥).

٢- أنَّ في التوراةِ هدًى ونورًا؛ لقوله: ﴿فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾، وكذلك في القرآنِ الكريمِ؛ قال الله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٣٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٣٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٣٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ١٩٦)
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٢٨).

[البقرة: ١٨٥]، فالقرآن كلُّه هدًى وكلُّه نورٌ؛ قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]، وفي هذه الآية قال الله تعالى في التوراة: ﴿فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾، وهذا التعبيرُ بينه وبينَ التعبيرِ القرآنيِّ بالنسبة للقرآن الكريم فرْقٌ عظيم؛ لأنَّ التوراةَ جُعِل فيها هدًى ونورٌ، والقرآن جَعَله هو الهُدى والنُّور(١).

٣- قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ فذكَر أنَّ في التوراة نورًا، بينما قال في آيةٍ أخرى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨]، فوصَفَها بأنَّها ضياءٌ، والضياء: هو النورُ الذي يَحصُل فيه نوعُ حرارةٍ وإشراق، كضياءِ الشَّمس، بخِلافِ القمر؛ فإنَّه نورٌ محْضٌ، فيه إشراقٌ بغيرِ إحراقٍ؛ وذلك لأنَّ الغالبَ على شريعتِهم الضياءُ؛ لِما فيها من الآصارِ والأغلالِ والأثقالِ، ووَصَف شريعةَ محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنها نورٌ لِمَا فيها مِن الحنيفيَّة السَّمْحةِ؛ قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾(٢).

٤- أنَّ التوراةَ أصلٌ للأنبياءِ مِن بني إسرائيل الذين جاؤوا من بعدِ موسى عليه وعليهم السَّلام؛ لقوله: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ﴾(٣).

٥- وصْفُ الأنبياءِ بالإسلامِ؛ لقوله: ﴿النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾، والمرادُ هنا: الاستسلامُ الظاهرُ والباطِنُ، وفيه الإشارةُ إلى شَرفِ الإسلامِ وفَضلِه؛ إذ كان دِينَ الأنبياءِ(٤).

٦- وجهُ وصفِ النبيِّينَ بقوله: ﴿الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ مع أنَّ كلَّ نبيٍّ لا بدَّ أن يكونَ مسلمًا، أنَّه وصَفَهم بذلك على سَبيلِ المدحِ والثَّناءِ، لا على سبيلِ التَّفصيل والتَّوضيح؛ فإنَّ الأنبياءَ كلَّهم مسلِمون، وقيل: بل في ذلك إعظامُ صفةِ الإسلامِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٢٨).
(٢) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٢٤- ٢٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٢٩).
(٤) ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٢٩).

بعِظَم موصوفِها وهم الأنبياءُ، وقيل: يُحتَمَل أن يكون المرادُ هو محمدًا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ وذلك لأنَّه حَكَم على اليهوديَّيْنِ بالرَّجم، وكان هذا حُكْمَ التَّوراةِ، وإنما ذُكِر بلفظِ الجَمْعِ ﴿النَّبِيُّونَ﴾ تعظيمًا له[1].

٧- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ﴾ أنَّه لا عُذرَ لليهود في الخروجِ عن شريعةِ الله؛ لأنَّ اللهَ تعالى قيَّض لهم الأنبياءَ الكثيرين يَحكُمون لهم بالتوراةِ، لكنَّهم عاندوا وكفروا[2].

٨- مِن اللَّطائف: أنَّه جازَ التبديلُ على أهلِ التوراةِ، ولم يَجُزْ على أهلِ القُرآنِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال في أهلِ التوراة: ﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾، فوكَل الحِفظَ إليهم، وقال في القرآنِ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، فتَعهَّد اللهُ بحِفظِه؛ فلم يَجُزِ التبديلُ على أهلِ القرآنِ[3].

٩- في قولِه تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ لَمَّا قدَّم الخوفَ- لأنَّه أقوى تأثيرًا- أتْبعَه الطَّمَعَ، فقال: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا﴾، ولَمَّا كان الاشتراءُ معناه اللَّجاجة في أخْذِ شيءٍ بثمنٍ، وكان المُثْمَنُ أشرفَ مِن الثَّمنِ من حيثُ إنَّه المرغوبُ فيه- جعَل الآياتِ مُثْمنًا وإنِ اقترنَتْ بالباء، حتَّى يُفيدَ الكلامُ التعجُّبَ مِن الرغبة عنها، وأنَّها لا يصحُّ كونُها ثمنًا، فقال: ﴿بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ١٤٤)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٧٦)، ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٣٦٥، ٣٦٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٣٢٩)، ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٣٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٠٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ١٤٥) وينظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٣٤٩).

١٠- قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ...﴾ الآية: استُدِلَّ به على أنَّ شَرْعَ مَن قَبْلَنا شرْعٌ لنا، إذا حُكي مُقرَّرًا ولم يُنسَخْ؛ حيثُ كان الحُكمُ عندنا على وَفقِها في الجناياتِ عندَ جميعِ الأئمَّة[1].

١١- يُستفادُ مِن قولِه تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ أنَّ القصاصَ ثابتٌ في النُّفوسِ، ولو اختلَفَ النَّاسُ في السِّنِّ والطُّولِ والقِصَر والعِلمِ والعَقْلِ والذَّكاء، وغير ذلك؛ وَجْه ذلك: العمومُ؛ ولهذا لو أنَّ رجلًا شابًّا عالِمًا كريمًا حسيبًا قتَلَ طفلًا في المهدِ، فإنَّه يُقتَلُ به؛ لأنَّه لا عِبرةَ بالاختلافِ في هذه الأشياءِ؛ وذلك للعمومِ[2].

١٢- الاقتصارُ على ذِكر هذه الأعضاءِ دونَ غيرِها مِن أعضاءِ الجسدِ؛ كاليدِ والرِّجلِ والإصبَع؛ لأنَّ القطعَ يكونُ غالبًا عندَ المضاربةِ بقصدِ قطْعِ الرَّقبةِ، فقد ينبو السيفُ عن قطعِ الرَّأس، فيُصيب بعضَ الأعضاءِ المتَّصلةِ به مِن عينٍ أو أنفٍ أو أُذُن أو سِنٍّ، وكذلك عندَ المصاولةِ؛ لأنَّ الوجهَ يُقابِلُ الصائلَ[3].

١٣- لا بدَّ من المماثَلَة في القِصاص؛ فاليُمنى باليُمنى، واليُسْرى باليُسرى؛ لأنَّ التعريفَ في قوله: ﴿وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ﴾ يدلُّ على أنَّ الثانيَ هو الأوَّل، وهذا يَقتضي المماثلةَ، ولأنَّه جاء بالباءِ الدالَّة على البَدَل، والبَدل لا بدَّ أن يكون مُساويًا للمُبْدَل منه[4].

١٤- قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ فيه الحثُّ على العَفْوِ عن الجاني[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٤٣).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ١٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٥٦).=

١٥- قال تعالى: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ المرادُ مِن التصدُّقِ العفوُ؛ لأنَّ العفوَ لَمَّا كان عن حقٍّ ثابتٍ بِيَدِ مُستحِقِّ الأخْذِ بالقِصاصِ، جَعَل إسقاطَه كالعطيَّةِ؛ ليشيرَ إلى فَرْطِ ثوابِه، وبذلك يَتبيَّنُ أنَّ معنى ﴿كفَّارَةٌ لَهُ﴾ أنَّه يُكفِّر عنه ذُنوبًا عظيمةً؛ لأجْلِ ما في هذا العَفْوِ من جَلْبِ القلوبِ، وإزالةِ الإِحَنِ، واستبقاءِ نُفوسٍ وأعضاءِ الأمَّةِ[1].

١٦- قال اللهُ تعالى في الموضع الأوَّل: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾؛ لأنَّ اليهود جَحَدوا حُكمَ اللهِ قصدًا منهم وعنادًا وعَمدًا، وقال في الموضعِ الثَّاني: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾؛ لأنَّهم لم يُنْصِفوا المظلومَ مِن الظَّالمِ في الأمْرِ الذي أمَر اللهُ بالعدلِ والتسويةِ بين الجميعِ فيه، فخالَفوا وظَلموا، وتَعدَّى بعضُهم على بعضٍ[2].

١٧- في قولِه تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ عاد سُبحانَه وتعالى فحذَّر مِن مخالفةِ حُكمِ اللهِ؛ ليُنَبِّهَ على أنَّ الترغيبَ في العفوِ لا يَقتضي الاستخفافَ بالحُكمِ، وإبطالَ العملِ به؛ لأنَّ حُكمَ القِصاصِ شُرِعَ لحِكَمٍ عظيمة: منها الزَّجرُ، ومنها جبرُ خاطرِ المعتدَى عليه، ومنها التَّفادي من ترصُّدِ المعتدَى عليهم للانتقامِ مِن المعتدينَ أو مِن أقوامِهم؛ فإبطالُ الحُكمِ بالقِصاصِ يُعطِّلُ هذه المصالحَ، وهو ظلمٌ؛ لأنَّه غمصٌ لحقِّ المُعتدَى عليه أو وليِّه، وأمَّا العفوُ عن الجاني فيُحقِّقُ جميعَ المصالحِ، ويَزيد مصلحةَ التحابُبِ؛ لأنَّه عن طِيبِ نفْسٍ، وقد تَغشى غباوةُ حُكَّام بني إسرائيل على أفهامِهم، فيجعلوا إبطالَ الحُكمِ بمنزلةِ العَفْوِ، فهذا وجهُ إعادةِ التحذيرِ عقبَ استحبابِ العفوِ[3].

= قال السُّيوطيُّ: (فيه استحبابُ العفوِ عن القصاصِ إن أُريد بـ(من): المجنيُّ عليه، وأنَّ القصاصَ كفارة الذنب إن أُريد به الجاني) ((الإكليل في استنباط التنزيل)) (ص: ١١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢١٦)، (٦/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢١٧).

بَلاغَةُ الآيتين:

١- قوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ سِيق لبيانِ عُلوِّ شأنِ التَّوراة، ووجوبِ مراعاةِ أحكامِها، وهو يَتضمَّنُ تعظيمَ التوراةِ وتَفخيمَ شأنِها(١)، وفيه التأكيد بـ(إنَّ) واسميَّةِ الجُملةِ.

٢- قوله: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾:

- قوله: ﴿الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ فيه: رفْعٌ لشأنِ المسلِمين، وتعريضٌ باليهود، وأنَّهم بمعْزِلٍ مِن الإسلامِ والاقتداءِ بدِينِ الأنبياءِ عليهم السَّلام(٢).

- وقوله: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾: فيه من البَلاغةِ ما يُعرف بالاحتباك؛ حيثُ ترَك أولًا ذِكْر ﴿بِمَا اسْتُحِفُظُوا﴾؛ لدلالةِ ما ذُكر بعدَ ذلك عليه، وتَركَ ذِكْرَ الإسلامِ بعدَ ذلك؛ لدلالة ذِكْره أولًا عليه، والتقدير: (يحكُم بها النبيُّون الذين أسْلَموا بما استُحفظوا... للذين هادوا، والربَّانيُّون والأحبارُ الذين أسْلَموا بِما استُحفظوا)، وإنَّما خصَّ الأوَّل بذِكرِ الإسلامِ؛ لأنَّ الأنبياءَ أحقُّ به، وهو داعٍ إلى الحِفظ قَطعًا، وخصَّ الثاني بالاستِحفاظ؛ لأنَّ الأتْباع أَوْلى به، وهو دالٌّ على الإسلام(٣).

- وفي إبهامِ ذِكْرِ التوارةِ أولًا في قوله: ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا﴾، ثمَّ بيانِها ثانيًا بقولِه تعالى: ﴿مِنْ كِتَابِ اللهِ﴾ تَفخيمٌ وإجلالٌ لها ذاتًا وإضافةً، وتأكيدٌ

(١) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٤٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٩).
(٢) ينظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٤١).
(٣) ينظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ١٤٥).

لإيجابِ حفظِها والعَملِ بما فيها، وإيرادُها بعنوان (الكتاب)؛ للإيماءِ إلى إيجابِ حِفظِها عن التَّغييرِ من جِهة الكتابةِ[1].

٣- قوله: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ فيه: التفاتٌ؛ إذ إنَّه خطابٌ لرؤساءِ اليهودِ وعُلمائهم- على هذا المعنى- بطَريقِ الالتفاتِ، وأمَّا حُكَّامُ المسلمين فيتناولُهم النهْيُ بطريقِ الدَّلالةِ دون العِبارةِ[2].

٤- قوله: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ الجملة تذييلٌ مُقرِّرٌ لمضمونِ ما قَبلَها أبلغَ تقريرٍ، وتحذيرٌ عن الإخلالِ به أشدَّ تحذيرٍ؛ حيث علَّق فيه الحُكمَ بالكفرِ بمجرَّد ترْك الحُكمِ بما أنزل اللهُ تعالى؛ فكيف وقد انضمَّ إليه الحُكمُ بخِلافِه- لا سيَّما مع مباشرةِ ما نُهوا عنه من تحريفِه- ووضْعُ غيرِه موضِعَه، وادِّعاءُ أنَّه مِن عندِ الله؛ ليشتروا به ثمنًا قليلًا[3]؟!

- وجاءَ ضميرُ الفصلِ ﴿هُمْ﴾؛ لإفادةِ الحَصرِ والتوكيدِ، وضميرُ الفصل له ثلاثُ فوائدَ، الأولى: إفادةُ الحَصْر، والثانية: التوكيدُ، والثالثة: التمييزُ بين الخبر والصِّفة؛ ولهذا سُمِّيَ ضميرَ فصْلٍ[4].

٥- قوله: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ﴾ التعبيرُ بصِيغةِ التفعُّل في ﴿تَصَدَّقَ﴾؛ للمُبالغة في الترغيبِ فيه[5].

٦- قوله: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ الجملةُ تذييلٌ مُقرِّرٌ لإيجابِ العملِ بالأَحْكامِ المذكورة[6].

---

(١) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٤١).
(٢) ينظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٤٢).
(٣) ينظر: ((المصدر السابق)).
(٤) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٢٧).
(٥) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٤٣).
(٦) ينظر: ((المصدر السابق)).

الآيتان (٤٦ - ٤٧)

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

غريبُ الكَلماتِ:

﴿وَقَفَّيْنَا﴾: أي: أتْبَعْنا، وأَرْدَفْنا، مأخوذٌ من القَفا؛ يُقال: قَفَوْتُ الرجلَ: إذا سرتَ في أثَرِه[١].

﴿عَلَى آثَارِهِمْ﴾: أي: على آثارِ الأنبياءِ، وأثَرُ الشيءِ: حُصولُ ما يدلُّ على وجودِه، وأَصْلُ (أثر): رَسْمُ الشَّيءِ الباقي[٢].

﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: لِمَا قبْلَه، أو لِمَا كان مُتقدِّمًا له من الإنجيلِ ونحوِه[٣].

﴿مَوْعِظَةً﴾: الموعظةُ والوَعْظُ: التخويفُ، أو الزجْرُ المُقترِنُ بتَخويفٍ، أو التَذكيرُ بالخَيرِ وما يَرِقُّ له القَلبُ، وقيل: ما يَدْعُو إلى الصَّلاحِ بطريقِ الرَّغبةِ والرَّهْبةِ؛ فالوَعْظُ هو الأمرُ أو النَّهيُ المقترِنُ بما يَحمِلُ على الامتِثالِ مِن التَّرغيبِ أو التَّرهيبِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٣٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٦)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٣١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٠).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿مُصَدِّقًا﴾: منصوبٌ على أنَّه حالٌ مِن عِيسَى عليه السَّلام.

﴿فِيهِ هُدًى﴾: جملةٌ في مَحلِّ نَصبٍ، حالٌ مِنَ ﴿الْإِنْجِيلَ﴾.

﴿ومُصَدِّقًا﴾: مَنصوبٌ عَطفًا على مَحلِّ ﴿فِيهِ هُدًى﴾، والمعطوفُ على الحالِ حالٌ؛ فهي في حُكمِ الحال أيضًا مِن ﴿الْإِنْجِيلَ﴾.

﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً﴾: اسْمانِ مَعطوفانِ على ﴿وَمُصَدِّقًا﴾؛ فهُما في حُكمِ الحالِ مِن ﴿الإنْجِيلَ﴾ أيضًا، أي: وآتيناهُ الإنجيلَ هاديًا وواعظًا، أو مَعطوفانِ على ﴿مُصَدِّقًا﴾ الأُولى؛ فهُما في حُكمِ الحالِ مِن ﴿عِيسَى﴾، أي: ذا هُدًى وذا مَوعظةٍ. ويَجوزُ أن يكونَ (هُدًى) مَفعولًا مِن أجلِه والعامِلُ فيه مُقدَّرٌ؛ كأنَّه قيل: وللهُدَى والموعظةِ آتيناهُ الإنجيلَ(١).

المَعنَى الإجْماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه أَتبعَ الأنبياءَ والمرسَلين- الذين يَحكُمون بالتوارةِ- بعِيسى ابنِ مريمَ عليه السَّلامُ، مُؤمِنًا بما في التوارةِ، ومُؤيِّدًا لها، وشاهدًا على أنَّ التوارةَ حقٌّ، وآتاه اللهُ الإنجيلَ فيه هدًى ونورٌ، شاهدًا وموافقًا لِمَا في التوارة، وبيانًا للحقِّ، وزاجرًا للمتَّقينَ عن ارتكابِ المحرَّماتِ والآثامِ.

ويأمر اللهُ سُبحانَه أنْ يَحكُمَ النصارى بما أنزَل في الإنجيل، فالله عز وجل

---

(١) ينظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٣٩)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٤٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٢٨٣- ٢٨٥) ((المجتبى من مشكل إعراب القرآن)) للخراط (١/ ٢٣١).

أنزَله على عيسَى عليه السَّلام؛ ليُقيموه ويتحاكموا إليه، ويؤمنوا بجميعِ ما فيه، ومنه البشارةُ ببعثةِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم والأمرُ بالإيمانِ به واتباعِه، وأخْبَر تعالى أنَّ مَن لم يحكُمْ بما أَنزلَ اللهُ فأولئك هم الفاسِقون.

تَفْسيرُ الآيتين:

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (٤٦)﴾.

مناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذكَر تعالى أنَّ التوراةَ يَحكُم بها النَّبيُّون، ذكَر أنَّه قفَّاهم بعِيسى؛ تَنبيهًا على أنَّه من جُملةِ الأنبياء، وتنويهًا باسمِه، وتنزيهًا له عمَّا يدَّعيه اليهودُ فيه، وأنَّه من جملة مصدِّقي التوراةِ[1]، فقال:

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾.

أي: وأتْبَعْنا هؤلاءِ الأنبياءَ والمرسَلين، الذين يَحكُمون بالتَّوراة، بعيسى عليه السَّلامُ، فبعثناه عَقِبَهم نبيًّا رسولًا شاهدًا على أنَّ التوراة حقٌّ، مؤيِّدًا لها ومؤمنًا بها، وحاكِمًا بشريعتها فيما لم يَنسخْه الإنجيلُ[2].

﴿وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾.

---

(١) يُنظَر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٧٧).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٣- ٢٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٥٧- ٤٥٨).

قال ابنُ عُثَيمين: (وتَصديقُه لِمَا بين يديه مِن التَّوراةِ له معنيانِ: المعنى الأوَّل: أنَّه يُصدِّق التَّوراةَ، ويَشهَد أنَّها حقٌّ. المعنى الثاني: أنَّه يُصدِّقُ خبرَها، ويشهد بوقوعِ ما أخبرتْ به، حيث كان عيسى ابنُ مريمَ عليه السَّلام مذكورًا فيها) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٥٨).

أي: وأَنزلْنا إليه كِتابَنا المسمَّى بالإنجيلِ، فيه هُدًى إلى الحقِّ، ونورٌ يُستضاءُ به من ظُلماتِ الشُّبهاتِ، وعمَى الجَهالةِ[1].

﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾.

أي: مثبِتًا وشاهدًا وموافِقًا لها، ومشتمِلًا على أحكامِها، إلَّا ما نسخَه منها[2].

﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾.

أي: وجعَلْنا الإنجيلَ هدًى وبيانًا للحقِّ، وزاجرًا عن ارتكابِ المحارمِ والمآثمِ للمتَّقينَ الذين يمتَثِلون ما أمرَ اللهُ تعالى به، ويجتَنِبون ما نهَى عنه؛ فهم الذين ينتفعونَ بالهدَى، ويتَّعظونَ بالمواعظِ، ويرتدعونَ عمَّا لا يَنبغي[3].

﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤٧)﴾.

﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿وَلْيَحْكُمْ﴾ قراءتان[4]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٨٢-٤٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٤).

(٤) قال ابنُ جرير: (والذي يَتراءَى في ذلك: أنَّهما قِراءتانِ مَشهورتانِ متقاربتَا المعنى، فبأيِّ ذلك قرأَ قارئٌ فمصيبٌ فيه الصوابَ؛ وذلك أنَّ الله تعالى لم يُنزل كتابًا على نبيٍّ من أنبيائه إلَّا لِيَعمَلَ بما فيه أهلُه الذين أُمروا بالعملِ بما فيه، ولم يُنزله عليهم إلَّا وقد أمَرَهم بالعمل بما فيه) ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٨٤).

١- ﴿وَلِيَحْكُمَ﴾ بجَعْل اللامِ لامَ (كي)، فالمعنى: أنَّ الله عزَّ وجلَّ أنزل الإنجيلَ؛ لكي يحكُمَ أهلُ الإنجيلِ بما فيه(١).

٢- ﴿وَلْيَحْكُمْ﴾ بِجَعْل اللامِ (لامَ الأمر)، فالمعنى: أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أَمَرَ أهْلَ الإنجيلِ بالحُكْمِ بما أنزَلَه في الإنجيلِ(٢).

﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾

أي: وآتَيْنا عيسى عليه السَّلامُ الإنجيلَ لِيَحْكُمَ أهلُ ملَّته به، فلْيؤمِنوا بجميعِ ما فيه، ولْيُقيموا ما أُمِرُوا به فيه، وممَّا فيه البشارةُ ببَعثةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، والأمرُ بالإيمانِ به واتِّباعِه(٣).

﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

أي: إنَّ الذين لم يَحكُموا بما أنزلَ اللهُ تعالى في كِتابِه من النَّصارى وغَيرِهم، خارجونَ عن طاعةِ ربِّهم، تارِكونَ للحقِّ، مائِلونَ إلى الباطلِ(٤).

---

(١) قرأ بها حمزة. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٢٣).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٨٣)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١٣١).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٢٣).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١٣١)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٤١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٨٤- ٤٨٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ١٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٦٣- ٤٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٢٧).

وقال ابنُ عُثَيمين: (قوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾... هل الفسقُ هنا فِسقُ معصيةٍ أو فِسق كُفر؟ لأنَّ الفسقَ قد يكون فِسقَ كُفرٍ وفِسقَ مَعصيةٍ؛ هذا على حسبِ الحال... فمَن حَكَم بغير ما أنزل الله عادلًا عن حُكمِ الله، زاعمًا أنَّه يُساوي حُكم الله أو أنفعُ، فهذا كافرٌ، ... ومَن حَكَم بغير ما أنزل الله لهوًى في نفسه، فهذا فاسقٌ) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٦٤).

الفوائدُ التَّربويَّة:

الحثُّ على التقوى، وأنَّها سببٌ لكلِّ خيرٍ، ولكلِّ عِلمٍ؛ لقوله: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾، ولا شكَّ أنَّ التَّقوى: هي أساسُ العملِ؛ لأنَّ مَن لم يتَّقِ اللهَ لا يعمَل، ومَن اتقى الله عمِلَ بأوامرِ الله حسَبَ ما عنده من التَّقوى(١)، لذا خصَّ الهُدَى والموعظةَ بكونهما للمُتَّقينَ؛ لأنَّهم هم الذين يَنتفعونَ بهما، وكلَّما زادتِ التَّقوى في الإنسانِ زاد اتِّعاظُه بالكتُب السَّماويَّة(٢).

الفَوائدُ العلميَّةُ واللَّطائف:

١ - أنَّ عِيسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ آخِرُ الأنبياءِ؛ لقوله: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾، وليس بعدَه نبيٌّ يقفوه إلَّا محمدُ بنُ عبد اللهِ الهاشميُّ القرشيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ ولهذا جعله قافيًا لمن سبقَه، ولو كان هناك نبيٌّ بعدَ عيسَى عليه السلامُ لكان هو المقفَّى(٣).

٢- أنَّ مَن ليس له أبٌ يُنسَبُ إلى أمِّه؛ لقوله: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ فنُسِبَ عيسى ابنُ مريم إلى أمِّه؛ لأنَّه ليس له أبٌ، ومن أمثلة الذي ليس له أب: أنْ يزنيَ رجلٌ بامرأةٍ فتأتي منه بولدٍ؛ فهنا الولدُ ليس للزاني، ومنها: أنْ يُلاعِنَ الرجلُ امرأتَه لاتِّهامِه إيَّاها بالزِّنا، ويَنتفي مِن وَلَدِها، فيقول: ليس الولدُ منِّي، فحينئذٍ يكون له أمٌّ وليس له أبٌ(٤).

٣- في نِسبة عيسى عليه السَّلامُ إلى أمِّه في قولِه: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه لا والدَ له؛ تكذيبًا لليهودِ فيما افتَروه على أُمِّه مريمَ،

---

(١) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٦٣).

(٢) ينظر: ((المصدر السابق)).

(٣) ينظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٦٠)، وينظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨).

(٤) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٦١)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٧٨).

وإشارةٌ إلى أنَّه عبدٌ مربوبٌ؛ تكذيبًا للنَّصارى في إضافتِهم بنوَّتَه إلى اللهِ سبحانَه وتعالَى، فهو عليه السَّلام ابْنُ أُمِّه مَرْيَمَ[1].

٤- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ التنويهُ بعظمةِ التوراة وفضلِها وشرَفِها؛ لأنَّه ذُكِر في هذه الآية: أنَّ عيسى مصدِّقٌ لِمَا بين يَدَيه من التوراة، وأنَّ الإنجيلَ أيضًا مصدِّقٌ لِمَا بين يديه من التوراةِ[2].

٥- أنَّ الإنجيلَ مُنَزَّلٌ من عند الله؛ لقوله: ﴿بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾، وهو صريحٌ جدًّا في قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ٣-٤]، وعلى هذا فيكونُ الإنجيلُ من كلامِ الله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه نزَلَ مِن عنده، وهو كلامٌ مُوحًى، والكلامُ إذا أُضيفَ إلى المتكلِّمِ فهو كلامُه[3].

بَلاغَةُ الآيتين:

١- قوله: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ﴾ في ذِكْرِ ﴿عَلَى آثَارِهِمْ﴾ تأكيدٌ لمدلولِ فِعل ﴿قَفَّيْنَا﴾، وإفادةُ سُرعةِ التَّقْفِيَةِ[4].

٢- قوله: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ﴾ فيه: إيجازٌ بالحذفِ، والتقدير: وقُلْنا: لِيَحكُمْ أهلُ الإنجيل؛ فيكونُ هذا إخبارًا عمَّا فُرِض عليهم في ذلِك الوقت من الحُكم بما تَضمَّنه الإنجيلُ، ثم حُذِف القول؛ لأنَّ ما قَبلَه مِنْ قَوْلِه: ﴿وَكَتَبْنَا﴾

---

(١) ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٠٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ١٥٨).

(٢) ينظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ١٦٠)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٦٢)، ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٣٦١).

(٣) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٦٦).

(٤) ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢١٨).

﴿وَقَفَّيْنَا﴾ يدلُّ عليه، وحَذْفُ القولِ كثيرٌ[١].

٣- قوله: ﴿بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ فيه: وضْعُ الموصولِ (ما) موضعَ الضَّميرِ (به) في قولِه: ﴿بِمَا﴾؛ للتنبيهِ على عِلِّيَّةِ ما في حيِّزِ الصِّلةِ للحُكم، وفيه التفاتٌ بإظهارِ الاسمِ الجليلِ؛ لتربيةِ المهابةِ، والإشعارِ بعِلَّة الحُكم[٢].

٤- قوله: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الجملةُ تذييلٌ مقرِّرٌ لمضمون الجُملة السابقة، ومؤكِّدٌ لوجوبِ الامتثالِ بالأَمْرِ[٣].

---

(١) ينظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٣٧٠).
(٢) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٤٥).
(٣) ينظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٤٤).

الآيات (٤٨ - ٥٠)

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَـٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿وَمُهَيْمِنًا﴾: أي: شاهدًا ورَقيبًا، وأَمينًا ومؤتمَنًا، وحاكمًا[1].

﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾: جمْعَ هوًى: وهو مَيلُ النَّفسِ إلى الشَّهوةِ، وأصلُه: الخلوُّ والسقوطُ، ومنه قيل للآراء الزَّائفةِ: أهواءٌ[2].

﴿شِرْعَةً﴾: أي: سُنَّةً وطَريقةً، والشَّرعُ: نهجُ الطريقِ الواضِح، وكُلُّ ما شُرِع فيه مِن شَيءٍ فهو شَريعةٌ، ومِنه الشِّرْعَةُ والشَّريعةُ: وهي الطريقةُ الظاهرةُ، ومنه قيل لشريعةِ الماءِ (نهر- أو واد) شريعة؛ لأنَّها أظهرُ طُرقِه إليه، وأصل (شرع):

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١، ١٤٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٢٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٤٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢١١).

شيءٌ يُفتَح في امتدادٍ يكونُ فيه[١].

﴿مِنْهَاجًا﴾: طَرِيقًا وَاضحًا، والمنهاجُ: الطَّرِيقُ المستمرُّ، وأصل النَّهج: الطريقُ الواضِح[٢].

﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾: أي: لِيَختبِرَكم ولِيَمتَحِنكم، وأَصْلُ (بلي): الامتحانُ والاختبارُ، ويكون البلاءُ في الخيرِ والشرِّ[٣].

﴿الْجَاهِلِيَّةِ﴾: نِسبةً إلى الجاهِل، والمرادُ بالجاهليَّة: ما كان في الفترةِ قبلَ الإسلامِ من الجَهلِ باللهِ ورسولِه وشرائعِ الدِّين- وقد يُوصَفُ بها مَن تَشبَّه ببعضِ أحوالِها- وأَصْلُ (جهل): خِلافُ العِلمِ، ويُطلَقُ الجهلُ على: خلوِّ النَّفْس من العِلم، وعلى اعتقادِ الشيءِ بخِلافِ ما هو عليه، وعلى فِعلِ الشيءِ بخِلافِ ما حقُّه أن يُفعَل، سواءٌ اعتَقَد فيه اعتقادًا صحيحًا أو فاسدًا[٤].

﴿يَبْغُونَ﴾: أي: يَطلُبون، وأصل (بغي): طلَب الشَّيءِ[٥].

﴿يُوقِنُونَ﴾: يَعلمُونَ عِلمًا مُتمكِّنًا في نفوسِهم، لا يمكن أن يَدخُلَه شكٌّ، وأصلُ اليقين: زوال الشكِّ[٦].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٦٢)، ((تفسير الماوردي)) (٢/ ٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٦١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٢، ٤٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١/ ٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٤٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٩٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (١/ ١١٢).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٩)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٢٠٩)، ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٣٢٣)، ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ١١٠).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٤٧).

(٦) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥٧)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٨٦).

مُشكِلُ الإعراب:

١- قوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾.

﴿لِكُلٍّ﴾: اللامُ فيها مُتعلِّقةٌ بـ﴿جَعَلْنَا﴾، وتقديمُها عليه للتَّخصيص.

﴿جَعَلْنَا﴾: فِعلٌ وفاعلٌ، والفِعلُ (جَعَل) يَحتمِل أنْ يَتعدَّى لمفعولٍ واحدٍ، أو يَتعدَّى لمفعولَينِ- كما سيأتي.

﴿مِنكُمْ﴾ مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ وقَع صِفةً للاسْمِ المحذوفِ الذي عُوِّضَ عنه بتنوينِ العِوَضِ في ﴿كُلٍّ﴾؛ أي: لكُلِّ أمَّةٍ مِنكم جَعَلْنا...، ولا ضَيرَ في توسُّط ﴿جَعَلْنَا﴾ بَينَ الصِّفة والموصوفِ، ونَظيرُه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ الآية [الأنعام: ١٤]؛ لأنَّه فصَل بين الجلالةِ وصِفتِها بالعَملِ في المَفعولِ الأوَّل.

﴿شِرْعَةً﴾: مفعولٌ به لـ﴿جَعَلْنَا﴾ المتعدِّي لمفعولٍ واحد، ويَحتمل أنْ يكونَ الفِعلُ ﴿جَعَلْنَا﴾ متعدِّيًا لاثنينِ بمعنى (صَيَّرنا)؛ فيكون ﴿لِكُلٍّ﴾ مَفعولًا ثانيًا مقدَّمًا، ويكون قوله: ﴿شِرْعةً﴾ مفعولًا أوَّلَ[1].

٢- قوله: ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ﴾.

﴿أَنْ يَفْتِنُوكَ﴾: مَصدرٌ مؤوَّل بالصَّريح (فِتنتهم إيَّاك)، وفي إعرابِه وجهان؛ الأوَّل: أنَّه مفعولٌ مِن أجلِه، أي: احْذَرهم مَخافةَ أَنْ يَفْتِنوك. والثاني: أنَّه بدلُ اشْتِمالٍ من المفعولِ؛ كأنَّه قال: واحْذَرْهُمْ فِتنتَهم؛ كقولك: أعجبَني زيدٌ عِلمُه[2].

---

(١) ينظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٢٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٤٥).

(٢) ينظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٢٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٤٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٢٩٤-٢٩٥) ((الجدول في إعراب القرآن)) (٦/ ٣٦٩).

المَعنى الإجْماليُّ:

يُخاطِبُ اللهُ تعالى نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قائلًا له: أنزَلْنَا إليك القرآنَ بالحقِّ، شاهدًا بصِدْقِ الكتُبِ السَّماويَّة التي سبقَتْه، وأمينًا عليها، وحافظًا لها، مُشتمِلًا على ما اشتمَلَتْ عليه وزيادة، وناسخًا وحاكمًا عليها، وأمَرَه الله سُبحانَه بعدَها أن يَحكُم بين أهلِ الكتابِ وغيرِهم بما أنزَلَه اللهُ من القُرآن، ونهاه عن اتِّباعِ أهوائِهم التي تُعارِض ما جاءَه من الحقِّ، وقد جعَل اللهُ لكلِّ أهل مِلَّةٍ سبيلًا وسُنَّةً يتَّبِعونها، ولو شاءَ سُبحانَه لجعَلَ النَّاسَ جميعًا على شريعةٍ ومنهاجٍ واحِدٍ، لكنَّ اللهَ جعَلَ الشَّرائِعَ مختلفةً ليختبرَ عبادَه، ثم أمَر تعالى بالمبادَرَةِ والمسابقةِ إلى فِعلِ الخيراتِ؛ فإنَّ المعادَ والمرجِعَ إليه، فيُخبِر العبادَ بالذي كانوا يَختلِفون فيه.

وأمَر اللهُ نبيَّه أن يَحكُمَ بينهم بما أنزَلَه إليه في القُرآنِ، ولا يَتَّبع أهواءَهم، ولْيكُنْ حَذِرًا منهم أن يَصدُّوه عن بعضِ ما أنزلَ اللهُ إليه في كتابه، فإنْ أعرَضوا عما حَكَمَ به عليهم، فليعلمْ أنَّ سببَ تولِّيهم هي إرادةُ الله تعالى أن يُعاقِبَهم ببعضِ ما اقترفوه من ذنوبٍ، وأخبره تعالى أنَّ كثيرًا من النَّاسِ خارجونَ عن طاعةِ ربِّهم.

ثم يقولُ تعالى لنبيِّه: أيُريدُ هؤلاء اليهودُ وغيرُهم الأحكامَ المخالِفَةَ للحقِّ، المبنيَّة على الجهلِ والظُّلم؟! ثم بيَّن تعالى أنَّه لا أحدَ أحسنُ حُكمًا منه سُبحانَه، يَتبيَّن ذلك ويتَّضِحُ لِمَن أيقنَ باللهِ تعالى وآمَنَ به.

تَفْسيرُ الآياتِ:

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ

جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨)﴾.

مناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى التوراةَ التي أنزَلَها على موسَى عليه السَّلامُ، ومدَحَها وأثْنَى عليها، وأمَر باتِّباعِها؛ حيثُ كانتْ سائغةَ الاتِّباعِ، وذكَر الإنجيلَ ومدَحَه، وأمَر أهْلَه بإقامَتِه واتِّباع ما فيه؛ شَرَع تعالى في ذِكرِ القرآنِ العظيم، ومكانِه من الكتُب التي قَبلَه، وهو الذي أنزلَه على عبدِه ورسولِه الكريمِ محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، مُقرِّرًا لنبوَّته وكتابِه؛ لأنَّ اليهودَ والنَّصارى يُنكِرونَ نُبوَّتَه وكتابَه، وأنَّ حِكْمتَه تعالى اقتضَتْ تعدُّدَ الشَّرائعِ ومناهجِ الهداية؛ فتلك مُقدِّماتٌ ووسيلةٌ، وهذا هو المقصِدُ والنتيجة[١]، فقال:

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾.

أي: وأَنزلْنا إليك- يا محمَّدُ- القرآنَ العظيمَ الذي نزولُه حقٌّ من عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ، ونزلَ مُتضمِّنًا للحقِّ، فأخبارُه صِدْقٌ، وأحكامُه عَدلٌ، فلا كَذِبَ فيه ولا جَورَ، ولا ريبَ أنَّه مِن عندِ اللهِ تبارَكَ وتعالى[٢].

﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾.

أي: وأنزلْناه شاهدًا للكتُبِ الإلهيَّةِ السابقةِ بصِدقها، وموافقًا لها، ومطابِقًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٢٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٨١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٨٥- ٤٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٦٩، ٤٧٥).

لأخبارِها وأصولِ شرائعها، وفي وجودِه أيضًا دَلالةٌ على صِدقها؛ لأنَّها أخبرتْ بنُزولِ القُرآن(١).

﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾.

أي: وأنزلْناه أمينًا على الكتُبِ الإلهيَّة السابقة، حافظًا لها، مشتملًا على ما اشتملَتْ عليه الكتُبُ السَّابقَة وزيادة، وناسخًا لها، وحاكمًا عليها كلِّها، فما شهِد له القرآنُ منها بالصِّدقِ فهو مقبولٌ، وما شهِد له بالردِّ فهو مردودٌ، قد دخلَه التحريفُ والتبديلُ، وإلَّا فلو كان من عندَ اللهِ تعالى، لم يُخالِفْه(٢).

﴿فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾.

أي: وما دام أنَّ هذه هي حالُ القرآن؛ فاحكمْ إذنْ- يا محمَّدُ- بينَ أهلِ الكتاب وغيرِهم بهذا القرآنِ العظيم، في كلِّ ما احتكموا فيه إليك(٣).

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾.

أي: لا تَترُكَنَّ تحكيمَ كتابي بَينهم- يا محمَّدُ- متابعةً منك لأهوائِهم الفاسدةِ المعارِضةِ للحقِّ، فتحكمَ بها إرضاءً لهم بدلًا عن الحُكمِ بما أتاك من الحقِّ الذي هو أحقُّ أن يُحكمَ به(٤).

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٩١- ٤٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٧٠- ٤٧١).

أي: لكلِّ أهلِ ملَّةٍ منكم- أيُّها الأممُ- جعَلْنا سبيلًا تَسلُكونَه، وسنَّةً واضحةً تتَّبعونها[1].

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾.

أي: ولو شاء اللهُ لجَمَعَكم- أيُّها النَّاسُ- على دينٍ واحدٍ، وجعل شَرائِعَكم شريعةً واحدةً؛ لا يختلِفُ متأخِّرُها عن مُتقدِّمها، ولكنَّه تعالى خالَفَ بينها؛ لِيَختبرَكم وينظرَ كيف تَعملون[2]، فيبتلي كلَّ أُمَّةٍ بحسَب ما تَقتضيه حِكمتُه، ويُؤتي كلَّ أحدٍ ما يَليقُ به، وليحصلَ التنافسُ بين الأُممِ؛ فكلُّ أُمَّةٍ تحرِصُ على سَبْقِ غيرِها[3].

﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان في الاختبارِ أعظمُ تهديدٍ في قوله: ﴿وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ سبَّب عنه قولَه: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ﴾؛ ليحُثَّ على السَّبقِ للخَيرِ[4]؛ فقال تعالى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٩٢- ٤٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٧١).
قال السعديُّ: (وهذه الشرائعُ التي تختلف باختلاف الأُمم، هي التي تَتغيَّر بحسَب تغير الأزمنة والأحوال، وكلُّها ترجع إلى العدل في وقتِ شِرعتها، وأمَّا الأصولُ الكِبار التي هي مصلحةٌ وحِكمةٌ في كلِّ زمان، فإنَّها لا تختلفُ، فتُشرَعُ في جميعِ الشرائع) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٤).
وقال ابنُ عاشور: (فمنهاجُ المسلمين لا يُخالفُ الاتِّصال بالإسلام، فهو كمنهاج المهتدين إلى الماء، ومنهاج غيرِهم منحرفٌ عن دِينهم، كما كانتِ اليهودُ قد جَعلتْ عوائدَ مخالفة لشريعتِهم، فذلك كالمنهاج الموصل إلى غير المورود، وفي هذا الكلام إبهامٌ أريد به تنبيهُ الفريقين إلى الفَرق بين حاليهما، وبالتأمُّل يظهر لهم) ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٢٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٩٨- ٤٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٧٢).
(٣) ينظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٤).
(٤) ينظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ١٨٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٧٧).

﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾.

أي: فبادِروا- أيُّها الناسُ- إلى الطاعاتِ والأعمالِ الصالحاتِ، وسارِعوا إليها وَفقًا لشرعِه ونهْجِه الذي أنزلَه في كتابِه القرآنِ[1].

﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾.

أي: معادُكم- أيُّها الناسُ- مِن جميعِ الأُمم، ومصيرُكم إلى الله تعالى وحْدَه يومَ القيامة[2].

﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

أي: فيُخبِرُكم بما اختلفتُم فيه من الحقِّ، وحينئذٍ يحصُلُ الفصلُ بالعدلِ، ويَتبيَّنُ المحِقُّ مِن المبطِلِ، ويُثابُ أهلُ الحقِّ، ويُعاقَبُ أهلُ الباطِلِ[3].

﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩)﴾.

مناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا كان الأمرُ بالحُكمِ فيما مضَى مِنْ قَوْلِه: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٧٢).

وقال ابنُ عُثَيمين: (هل المرادُ: المرجعُ في الدُّنيا أو في الدُّنيا والآخِرة؟

الجواب: مرجعُنا إلى اللهِ في الدنيا والآخرة، أمَّا في الدُّنيا فإنَّ مرجعنا إلى الله: هو الذي يَحكُم بيننا، وهو الذي يَحكُم علينا، ويحكم فينا، وأمَّا في الآخرة فكذلك يَفصِلُ بيننا يومَ القيامة؛ فريق في الجَنَّة، وفريق في السَّعير) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٧٣).

مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ لكونِه مُسبَّبًا عمَّا قَبلَه من إنزالِ الكتابِ على الأحوالِ المذكورة؛ أعادَ الأمرَ به سُبحانَه مصرِّحًا بذلك لِذاتِه لا لشيءٍ آخَر؛ ليكونَ الأمرُ به مؤكَّدًا غايةَ التأكيدِ بالأمرِ به مرَّتين: مرَّةً لأنَّ اللهَ أمَرَ به، وأخرى لأنَّه على وَفْقِ الحِكمة، فقال تأكيدًا له وتنويهًا بعظيمِ شأنِه، ومحذِّرًا من الأعداءِ فيما يُلقُونه من الشُّبَه للصدِّ عنه(١):

﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾.

أي: واحْكُمْ بينهم إذا تنازَعوا إليك- يا مُحمَّدُ- بحُكمِ الله تعالى الذي أنزلَه إليكَ في القرآنِ، ولا تَحكُمْ بما عندَهم(٢).

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾.

أي: والْزمِ العملَ بالقرآنِ الذي أُنزِلَ إليك- يا محمَّدُ- ولا تتَّبعْ أهواءَ اليهودِ، ولا أهواءَ غيرِهم(٣).

﴿وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾.

أي: وإيَّاك- يا محمَّد- والاغترارَ بهؤلاء الأعداءِ من اليهودِ وغيرِهم ممَّن يَحتكِمون إليك، فكنْ على حَذرٍ من أنْ يصدُّوك عن بعضِ ما أنزَلَ اللهُ تعالى إليك من أحكامِ القُرآنِ، فيَحْملوك على ترْكِ العملِ بها، واتِّباعِ أهوائِهم(٤).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٧٩).

قال السعدي: (هذه الآيةُ تدلُّ على أنَّه إذا حكَم، فإنَّه يحكمُ بينهم بما أنزل الله مِن الكتابِ والسُّنَّة، وهو القسطُ الذي تقدَّم أنَّ الله قال: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ ودلَّ هذا على بيانِ القسطِ، وأنَّ مادتَه هو ما شرَعه الله مِن الأحكامِ، فإنَّها المشتملةُ على غايةِ العدلِ والقسطِ، وما خالف ذلك فهو جورٌ وظلمٌ) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٣٠)، ((تفسير السعدي)) =

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾.

أي: فإنْ أعرَضَ هؤلاءِ الذين يَحتكِمون إليك- يا محمَّدُ- من اليهودِ وغيرِهم عن العملِ بما حَكمتَ به عليهم، فاعلمْ أنَّهم لم يَتولَّوا عن حُكْمِك وقد قضيتَ بالحقِّ إلَّا بقَدَرِ اللهِ تعالى وحِكْمَتِه فيهم؛ مِن أجلِ أنَّه يُريدُ صرْفَهم عن الهُدى، وتعجيلَ عُقوبتِهم في الدنيا؛ لِمَا صدَرَ منهم من ذُنوبٍ اقتضتْ إضلالَهم ونكالَهم[1].

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾.

أي: وإنَّ كثيرًا من الناسِ خارجونَ عن طاعةِ ربِّهم، مخالِفونَ للحقِّ، فالفِسْقُ طبيعةٌ لهم وسجيَّةٌ[2].

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠)﴾.

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾.

أي: أفيَطلُبُ هؤلاءِ اليهودُ وغيرُهم الأحكامَ المخالِفةَ للحقِّ، المبنيَّةَ على الجهلِ والظُّلمِ، والتي وضَعَها الناسُ بلا مُستنَدٍ من شريعةِ اللهِ تعالى، بحسَبِ آرائِهم وأهوائِهم؛ أفيَطلُبون ذلك وعندهم كتابُ اللهِ فيه الهدى والنُّور، والعَدْلُ والحقُّ المُبينُ الذي لا يجوزُ خِلافُه، ومع ذلِك يَعدِلون عنه[3]؟!

= (ص: ٢٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٤- ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٨٠).

قال ابنُ عُثَيمين: (قوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ الجملةُ هذه كالتسليةِ للرسولِ عليه الصَّلاة والسَّلام؛ لكي لا يحزنَ؛ لأنَّ كثيرًا من النَّاس فاسقون) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٨٦).

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

أي: لا أحدَ أحسنُ وأعدلُ مِن الله تعالى في حُكمِه، ولكنَّ ذلك يَتبيَّن لِمَن أيقنَ باللهِ تعالى وأسمائِه وصِفاتِه- ومن ذلك أنَّه أحكمُ الحاكِمينَ سُبحانَه- فعَرَف الفرقَ بين حُكمِه سُبحانَه وحُكمِ الجاهليَّة، وميَّز بإيقانِه ما في حُكمِ الله عزَّ وجلَّ من الحُسن، ودَفعَه يقينُه إلى العملِ به(١).

الفوائدُ التَّربويَّة:

١- أنَّه يَنبغي لِمَن نهَى عن شيءٍ قبيحٍ أن يُبيِّنَ قُبْحَه، وأنْ يَنقُل النَّاسَ إلى ما هو خيرٌ منه؛ لقوله: ﴿عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾، فكأنه قال: لا تتَّبعْ أهواءَهم، واتَّبِع ما جاءَك من الحقِّ(٢).

٢- أنَّه يجِبُ على المسلمينَ أنْ تكونَ لهم شخصيَّةٌ قائمةٌ بعزَّة الإسلامِ، وألَّا يكونوا أذنابًا لأعداءِ الله؛ لقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾(٣).

٣- قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ موجَّهٌ مِن الله عزَّ وجلَّ إلى رسولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، مع أنَّنا نعلمُ عِلمَ اليقينِ أنَّه لن يَفعلَ ذلك؛ لكن لِيَعتبرَ النَّاسُ أنَّه إذا كان محمَّدٌ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ينهاه ربُّه ومُرسِلُه عن اتِّباعِ أهوائِهم عمَّا جاءَه من الحقِّ، فكيف بغَيْرِه(٤)؟!

٤- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أنَّه لا بدَّ لبني آدَمَ من الاختلافِ، وهذا هو الواقِعُ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٨٧- ٤٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٧٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٧٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٧٨).

٥- أنَّ الذنوبَ لها آثارٌ سيِّئة، مِن أعظمِها التولِّي عن دِينِ اللهِ وعمَّا أنزَلَ الله؛ فالإنسانُ كلَّما عصَى اللهَ ابتعَدَ عن قَبولِ الوحي والشَّريعةِ؛ ولهذا قال: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾[1].

٦- الحَذرُ الشَّديدُ مِن موافقةِ الكفَّارِ؛ لقولِه تعالى: ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ﴾[2].

٧- أنَّ حُكمَ اللهِ أحسنُ الأحكام؛ لقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا﴾، ويترتَّبُ على هذا أنَّ الإنسانَ إذا آمَن بأنَّ حُكمَ اللهِ أحسنُ الأحكامِ، استسلَمَ لحُكمِ الله ورضِيَ به تمامًا، سواءٌ علِم الحِكمةَ أم لم يعلمْ، وهذا حقٌّ؛ فأيُّ إنسانٍ يرى أنَّ حُكمَ أحدٍ هو أحسنُ الأحكام فسوف ينقادُ له، ولا يُعارِض ولا يمانِع[3].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- الثَّناءُ على القرآن؛ لقوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾؛ لأنَّ جميعَ ما في القرآن حقٌّ، إنْ كان خبرًا فهو صِدْق، وإنْ كان قَصَصًا فهو نافعٌ، وإنْ كان أحكامًا فهو عَدْلٌ[4].

٢- القرآنُ مهيمِنٌ على الكتُبِ؛ لأنَّه الكتابُ الذي لا يصيرُ منسوخًا ألبتَةَ، ولا يتطرَّقُ إليه التبديلُ والتحريفُ؛ على ما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وإذا كان كذلِك كانتْ شهادةُ القرآن على أنَّ التوراةَ والإنجيلَ والزبورَ حقٌّ وصدقٌ باقيةً أبدًا، فكانتْ حقيقةُ هذه الكتُبِ معلومةً أبدًا؛ قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٨٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٨٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٧٥).

(٥) ينظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٣٧١).

٣- أنَّ القرآنَ ناسِخٌ لِمَا قبْلَه من الكتُب؛ لقوله: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[١].

٤- وجوبُ الحُكم بما أنزلَ اللهُ في القرآنِ إذا تحاكَم إلينا أهلُ الكتابِ؛ لقوله: ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾، وهذا الخطابُ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، لكن يَشمَلُ الأمَّةَ[٢].

٥- قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ ولم يقُلْ: (شريعتهم أو نحوها)؛ لأنَّهم على هوًى، وليسوا على هُدًى، فكُفرُهم بما جاء به محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن هوًى، ليس عن عقلٍ ولا عن شَرْعٍ[٣].

٦- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ أنَّ ما جاءَ به الرسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حقٌّ لا يُمكِنُ العدولُ عنه إلى غيرِه؛ لأنَّه لم يقل: (عمَّا جاءَك) أو (عمَّا نزَل) فقط، بل أضافَ: ﴿مِنَ الْحَقِّ﴾[٤].

٧- أنَّ المرجعَ إلى اللهِ تبارك وتعالى شَرْعًا وقدَرًا؛ لقولِه: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ فالمرجعُ إلى اللهِ شرعًا؛ هو الذي يَحكُم بيننا، وقدَرًا؛ فإنَّ الأمرَ كما قال الله: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾[٥] [الغاشية: ٢٥- ٢٦].

٨- في قولِه تعالى: ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ...﴾ هذه الآيةُ تدلُّ على أنَّ الخطأَ والنِّسيانَ جائزانِ على الرَّسولِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾، والتعمُّدُ في مِثل هذا غيرُ جائزٍ على الرَّسولِ، فلم يَبقَ إلَّا الخطأُ والنِّسيان[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٧٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٧٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٧١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٧٧).

(٦) ينظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٣٧٤).

٩- وجوبُ الحَذرِ مِن اليهودِ والنَّصارى وغيرِهم؛ لقوله: ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ﴾[١].

١٠- في قوله تعالى: ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ الإشارةُ إلى أنَّ مِن أكبرِ غاياتِ اليهودِ والنَّصارى أن يَفتِنوا المسلمينَ عمَّا أنزلَ اللهُ إليهم، وإذا كانَ اللهُ تعالى قد تَكلَّمَ في هذا في عهدِ الرسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فالأمرُ في وقتِنا أشدُّ؛ لأنَّهم الآن يَرَوْن أنَّهم أقوى منَّا في المادَّةِ الحِسيَّة، فيكونُ حِرصُهم على صَدِّنا عن سبيلِ الله أشدَّ[٢].

١١- في قولِه: ﴿بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ أبْهَم الذنوبَ؛ زيادةً في استدراجِهم وإضلالِهم، وتحذيرًا لهم من جميعِ مساوي أعمالِهم؛ لئلَّا يَعلموا عينَ الذنبِ الذي أُصيبوا به، فيحملَهم ذلك على الرجوعِ عنه، ويَصيرَ ذلك كالإلجاءِ[٣].

١٢- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أنَّ كلَّ حُكمٍ مخالفٍ لحُكمِ الله فهو حُكمٌ جاهليٌّ[٤].

١٣- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أنَّه لا يجوزُ للإنسانِ أن يُعارِضَ أحكامَ الشَّرع بعقلِه، هذا في العمليَّات الفقهيَّات، وفي العَقَديَّات العِلميَّات مِن باب أَوْلى؛ لأنَّه إذا كان لا يجوزُ للإنسان أن يُعارِضَ الشرعَ في الأمورِ العمليَّةِ التي يَدخُلها القياسُ، فالأمورُ العِلميَّةُ الخبريَّة من باب أَوْلى[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٨١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٨٢).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ١٨٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٨٨).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٩٠).

١٤- قولُه تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ فيه الإنكارُ على من خَرَجَ عن حُكمِ اللهِ المُحكَم، المشتَمِل على كلِّ خيرٍ، النَّاهي عن كلِّ شرٍّ، وعَدَلَ إلى ما سواه مِنَ الآراءِ والأهواءِ والاصطلاحاتِ، التي وضَعَها الرِّجالُ بلا مُستنَدٍ مِن شريعةِ اللهِ، كما كان أهلُ الجاهليَّةِ يحكُمونَ به من الضَّلالاتِ والجَهالات، مِمَّا يضعونَها بآرائِهم وأهوائِهم، وكما كان يحكُمُ به التَّتارُ مِنَ السِّياساتِ المَلَكيَّةِ المأخوذةِ عَن مَلِكِهم جنكيزخان، والتي اقتبَسَها مِن شرائِعَ شتَّى، من اليهوديَّةِ والنَّصرانيَّةِ والمِلَّةِ الإسلاميَّةِ، وفيها كثيرٌ مِنَ الأحكامِ أخَذَها من مجرَّدِ نَظَرِه وهواه، فصارَتْ في بَنِيه شَرعًا مُتَّبَعًا، يُقَدِّمونها على الحُكمِ بكِتابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فمَن فعل ذلك فهو كافِرٌ يجِبُ قِتالُه، حتى يرجِعَ إلى حُكمِ اللهِ ورَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلا يُحكِّمُ سواه في قليلٍ ولا كثيرٍ[1].

١٥- أنَّه لا يَعرِف حُسنَ أحكامِ اللهِ إلَّا مَن عنده يقينٌ، وكلَّما كان الإنسانُ أشدَّ يقينًا، كان بيانُ حُسنِ أحكامِ الله عنده أكثرَ وأشدَّ؛ لقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[2].

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ فيه: إظهارٌ في محلِّ الإضمار بقولِه: ﴿الْكِتَابَ﴾؛ لبيانِ أهميَّته، وأنَّه المرجعُ والملاذُ والمعتصَم إذا حَزَبَ الأمرُ[3].

- وفي قوله هنا: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾، وقوله عن التوراة: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٩٠)

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٤٩٥).

التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ وقوله عن الإنجيل: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ... وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ﴾، لطيفةٌ ومناسبةٌ حسنةٌ في كلِّ سِياق؛ فإنَّه لَمَّا ذكَر تعالى أنَّه أنزلَ التوراةَ فيها هدًى ونورٌ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ لم يَذكُرْ مَن أنزلها عليه؛ لاشتراكِ كلِّهم في أنَّها نزلتْ على موسى؛ فترَكَ ذِكْرَه للمَعرفةِ بذلك، ثم ذكَر عيسى وأنَّه آتاهُ الإنجيلَ في قولِه تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ﴾، فذَكَره ليُقِرُّوا أنَّه من جُملةِ الأنبياء؛ إذ اليهودُ تُنكِر نبوَّتَه، وإذا أنكرتْه أنكرتْ كِتابَه، فنصَّ تعالى عليه وعلى كِتابِه، ثمَّ ذكَر إنزالَ القُرآنِ على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فذَكَر الكتابَ ومَن أَنزلَه، مُقرِّرًا لنبوَّته وكِتابِه؛ لأنَّ الطائفتَينِ يُنكرون نُبوَّتَه وكتابَه، وجاءَ هنا ذِكرُ المُنزَلِ إليه بكَافِ الخِطاب؛ لأنَّه أنصُّ على المقصودِ(١).

٢- قوله: ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾ تعريفُ الكِتاب للجِنس؛ لأنَّه عنَى به جِنسَ الكتُبِ المنزلَة، ويجوزُ أن يُقال: هو للعَهد؛ لأنَّه لم يُرَدْ به ما يقعُ عليه اسمُ الكتاب على الإطلاقِ، وإنَّما أُريد نوعٌ معلومٌ منه، وهو ما أُنزِلَ من السماء سِوى القرآنِ(٢)، وقيل: لَمَّا كانتِ الكتُبُ السَّماويَّة مِن شدَّةِ تَصادُقِها كالشيءِ الواحدِ عبَّر تعالى عنها بالمفردِ؛ فقال: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾(٣).

٣- قوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ وفيه: الخطابُ بطريق التلوينِ والالتفاتِ للنَّاس كافَّةً؛ ولكن ليس للموجودينَ خاصَّةً، بل للماضين أيضًا بطريق التَّغليبِ(٤).

- وقوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾: فيه حذف، والتقدير: لكلٍّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٣٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ١٨٠)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٢٣).

أمَّة منكم أيُّها النَّاس، أو لكلِّ نبيٍّ مِنكم أيُّها الأنبياءُ، وعلى هذا الوجهِ يكون فيه تنبيهٌ لمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، أي: فاحفظْ شِرعتك ومِنهاجَك؛ لئلَّا تستزلَّك اليَهودُ وغيرُهم في شيءٍ منه(١).

- وهو كالتَّعليلِ للنَّهي؛ أي: إذا كانتْ أهواؤُهم في متابعةِ شريعتِهم أو عَوائِدهم؛ فدَعُوهم وما اعتادُوه، وتمسَّكوا بشَرعِكم(٢).

- وعلى القولِ بأنَّ الشِّرعة والمنهاجِ عِبارتان عن معنًى واحدٍ- والمرادُ بهما الدِّين- فيكونُ فيه تكريرٌ بعطفِ أحدِ المترادفَين على الآخَر، أو ما هو قَريبٌ منه في المعنى؛ لقَصدِ التَّأكيد(٣).

٤- قوله: ﴿**إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا**﴾ استئنافٌ في معنى التَّعليلِ؛ لأمْرِه تعالى باسْتِباقِ الخيراتِ؛ كأنَّه يقول: يَظهَرُ ثمرةُ استباقِ الخيراتِ والمبادرةِ إليها في وقتِ الرجوعِ إلى اللهِ تعالى ومُجازاتِه(٤).

٥- قوله: ﴿**وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ**﴾ فيه: إظهارُ الاسمِ الجليلِ ﴿اللَّهُ﴾؛ لتأكيدِ الأمرِ بتهويلِ الخَطب(٥).

٦- قوله تعالى: ﴿**وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ**﴾: تأكيدٌ لِمَا تقدَّمِ مِن الأمرِ بذلك في الآيةِ السَّابقة، والنهيِ عن خِلافِه(٦)، وكرَّر النهيَ عن اتِّباع أهوائِهم في قوله: ﴿وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾؛ لشدَّةِ التحذير منها، ولأنَّ ذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٣٧٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٨٣- ٢٨٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٢٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٣٧٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٨٤)، ((البرهان)) للزركشي (٢/ ٤٧٢- ٤٧٣).
(٤) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٨٥).
(٥) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٤٦).
(٦) ينظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٣٠).

في مقامِ الحُكم والفتوى، وهو أوسعُ، وهذا في مقامِ الحُكم وحْدَه، وكلاهما يلزمُ فيه ألَّا يتَّبعَ أهواءَهم المخالفةَ للحقِّ[١].

٧- قوله: ﴿بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ يعني: بذَنْبِ التَّولِّي عن حُكْمِ اللَّه، وإرادةِ خِلافِه، فوَضَعَ ﴿بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ مَوضِعَ ذلك، وأرادَ أنَّ لهم ذُنوبًا جمَّةً كثيرةَ العددِ، وأنَّ هذا الذَّنبَ- مع عِظَمه- بعضُها وواحدٌ منها؛ وهذا الإبهامُ لتعظيمِ التولِّي، واستسرافِهم في ارتكابِه، وجَسامَته وفَداحةِ التطاوُلِ به؛ فما أخسرَ صفقتَهم، وما أبشعَ ما اقترَفوه! واستعمالُ (بعض) في الإبهامِ واردٌ كثيرًا في كلامِ العرب[٢].

٨- قوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ مُقرِّرٌ لمضمونِ ما قَبْلَه؛ ليَهُون عِندَه بَقاؤهم على ضَلالِهم؛ إذ هو عادةُ أكثرِ النَّاس، وفيه كِنايةٌ عن كون أكْثرِ اليهودِ فاسِقين[٣].

٩- قوله: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ الاستفهامُ إنكاريٌّ، وتقديمُ المفعول ﴿أَفَحُكْمَ﴾ على فِعله ﴿يَبْغُونَ﴾؛ للتخصيصِ المفيدِ لتأكيدِ الإنكارِ والتعجُّب[٤]، ولإفادةِ الحَصرِ، يعني: كأنَّ هؤلاءِ لا يُريدون إلَّا الحُكمَ الجاهليَّ المبنيَّ على الجهلِ أو الجهالةِ[٥].

١٠- قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ فيه ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بـ(الإيغال)[٦]، ونوعه: الإيغالُ التَّخييريُّ؛ إذ إنَّ المعنى قد تمَّ بقَولِه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٤).
(٢) ينظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٤٧).
(٣) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٢٧).
(٤) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٢٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٨٥).
(٦) الإيغال: هو استكمالُ الكلام قبل الإتيانِ بمقطعِه، فإذا أُريدَ الإتيانُ بذلك أُتي بما يُفيد معنى زائدًا على معنى ذلك الكلام، وهو ضربان: =

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا﴾، ولَمَّا احتاجَ الكلامُ إلى فاصلةٍ تُناسِبُ ما قَبلَها وما بَعدَها، أتتْ هذه الفاصلةُ ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ لتُفيدَ معنًى زائدًا، لولاها لم يَحصُل؛ وذلك أنَّه لا يَعلَمُ أنَّ حُكمَ الله أحسنُ مِن كلِّ حُكمٍ إلَّا مَن أَيقنَ أنَّه واحدٌ حكيمٌ عادلٌ، وعدَلَ عن قوله: (يَعْلمونَ) إلى قولِه: ﴿يُوقِنُونَ﴾؛ ليكون عِلمُهم برَبِّهم عِلْمَ قَطعٍ ويقينٍ[1].

= ١- إيغال تخيير: كما في هذه الآية.

٢- إيغال احتياط: وهو استكمال معنى الكلام قبل قَطْعِه، فإذا أُريد الإتيانُ بذلك أُتي بما يُفيد معنى زائدًا تتمَّةً للمبالغة، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾ [النمل: ٨٠]، ثم علم عزَّ وجلَّ أنَّ الكلام يحتاج إلى فاصلةٍ تماثل مقاطعَ ما قبلها وما بعدها، فأتى بها مفيدةً معنى زائدًا على معنى الكلام، حيث قال: ﴿إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾، فإنْ قيل: ما معنى مُدبرين؟ وقد أغنى عنها ذِكرُ التولِّي؟ قيل: ذلك لا يُغني عنها؛ إذ التولِّي قد يكون بجانبٍ دون جانب، كما يكون الإعراض. ينظر: ((تحرير التحبير))، لابن أبي الإصبع (ص: ٢٢٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٥٠٠- ٥٠١).

(١) ينظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٥٠٠- ٥٠١).

الآيات (٥١ - ٥٣)

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿أَوْلِيَاءَ﴾: أي: أصدقاءَ ونُصراءَ، والوِلايةُ النُّصرةُ، وأَصْلُ (ولي) يدلُّ على القُرْب، سواء مِن حيث: المكان، أو النِّسبة، أو الدِّين، أو الصَّداقة، أو النُّصرة، أو الاعتقاد، وكلُّ مَن وَلِي أمرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه[١].

﴿مَرَضٌ﴾: أي: شكٌّ ونِفاقٌ، وأصلُ المرض: الفُتورُ، والخروجُ عن الاعتدالِ الخاصِّ بالإنسانِ[٢].

﴿أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾: أي: أنْ يَدورَ علينا الدَّهرُ بمكروهٍ فلا يُبايعونا، فنحتاج إليهم وإلى مُعاونتهم، وأَصْلُ (دور) يدلُّ على إحداقِ الشيءِ بالشيءِ مِن حَواليه[٣].

﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾: أي: اجتَهَدوا في الحَلِفِ والأَيمانِ، أو هو كنايةٌ عن أغلظِ

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٣).

الأيمانِ، وأَصْلُ (جهد): المشقَّة. و﴿أَيْمَانِهِمْ﴾: جمْع يمين: وهو القَسَمُ والحَلِف[١].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾.

﴿جَهْدَ﴾: منصوبٌ، وفي نَصبِه ثلاثة أوجهٍ؛ الأوَّل: أنَّه مَصدرٌ مؤكِّدٌ، وناصبُه (أَقْسَمُوا) فهو مِن معناه لا مِن لَفظِه، والمعنى: أَقْسَموا إقْسامَ اجتهادٍ في اليَمين. الثاني: أنَّه منصوبٌ على الحالِ من ضَميرِ (أَقْسَمُوا) على تأويلِ المَصْدَرِ باسْمِ الفاعِلِ، أي: جاهِدِينَ، والتَّقديرُ: وأقْسَموا باللهِ جاهِدينَ أنفُسَهم في أَيمانِهم؛ أي: بالغِينَ بها أقْصى الطَّاقَةِ، وإضافةُ ﴿جَهْدَ﴾ إلى ﴿أَيْمَانِهِمْ﴾ على هذا الوَجهِ إضافةٌ على مَعْنى (من)، أي: جَهدًا ناشِئًا عن أيمانِهم. الثالث: أنَّه منصوبٌ على المفعولِ المُطلَق الواقِعِ بدلًا مِن فِعْلِه، والفعلُ المُقدَّر في مَوضِعِ الحالِ من ضَمير (أقْسموا)، والتقدير: أقسموا يَجْهَدون أيمانَهم جَهْدًا، وإضافة ﴿جَهْدَ﴾ إلى ﴿أَيْمَانِهِمْ﴾ على هذا الوجه من إضافةِ المصدرِ إلى مفعولِه[٢].

المَعنَى الإجْماليُّ:

يَنهى اللهُ تعالى عِبادَه المؤمنينَ عن مُناصرةِ اليهودِ والنَّصارَى ومعاوَنَتِهم على غيرِهم، وأخبَرَ أنَّ اليهودَ يوالي بعضُهم بعضًا، والنَّصارى يوالي بعضُهم بعضًا، ومَن يُناصِرِ اليهودَ والنصارى من المسلمين فإنَّه منهم؛ إنَّ الله لا يَهدي القومَ الظَّالمين بتولِّيهم لأهلِ الكتابِ.

ثم قال اللهُ تعالى لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ: فترى- يا محمَّدُ- المنافقينَ

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٦) (٥/ ٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٣٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٥٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٤٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٣٠٥) (٨/ ٤٣٢) ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٧٧).

الذين في قلوبِهم شكٌّ وريبةٌ يُبادِرونَ إلى مُناصرةِ اليهودِ والنَّصارى ومُعاونتِهم؛ قائلين- ليُبرِّروا قُبحَ صَنيعهم-: إنَّما يُسارِعونَ في موالاتِهم خشيةَ أن تُصيبَهم دائرةٌ، كأنْ يكونَ لهؤلاء الكفَّارِ النصرُ على المسلمين، فيكون لهم أيادٍ عندَهم تنفعُهم حينَها، فردَّ اللهُ عليهم ذلك العُذرَ الواهيَ، فقال: لعلَّ اللهَ يأتي بالنَّصرِ على اليهودِ والنَّصارى وغيرِهم، أو يأتي بأمرٍ يكونُ فيه هلاكُ المنافقينَ، أو فَضحُهم، فيُصبِحَ هؤلاء المنافقون الموالونَ لليهودِ والنَّصارى على ما أسرُّوا في نفوسِهم نادمينَ.

ويقول المؤمنون- مُتعجِّبين مِن حالِ المنافقين بعدَ أنْ ظهرَ ما أسرُّوه في أنفُسِهم-: أهؤلاءِ الذين حلَفوا باللهِ كَذِبًا مؤكِّدينَ حَلِفَهم أنَّهم معنا في الإيمانِ والنُّصرةِ والمحبَّة؟! بطَلَتْ أعمالُهم؛ فأصبحوا خاسِرينَ.

تَفْسيرُ الآياتِ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١)﴾.

مناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أخبرَ اللهُ عن اضطرابِ اليهود في دِينهم، ومحاولتِهم تضليلَ المسلمينَ، وتقليبَ الأمورِ للرسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وبَيَّن عِنادَهم وعداوتَهم لأهلِ هذا الدِّين في الآياتِ السابقةِ- تهيَّأت نُفوسُ المؤمنينَ لقَبولِ النَّهي عن موالاةِ أهلِ الكتابِ؛ لأنَّ الوَلايةَ تَنبني على الوِفاقِ والوِئام والصِّلةِ، وليس أولئك بأهلٍ لوَلاية المسلمينَ؛ لبُعدِ ما بينَ الأخلاقِ الدِّينيَّة، ولإضمارِهم الكيدَ للمسلمين، فأَقبلَ عليهم بالخِطابِ، فنهى مَن اتَّسم بالإيمانِ عن موالاتِهم[1]، فقال:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٢٨، ٢٢٩).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنونَ إيَّاكم أنْ تُناصِروا اليهودَ والنَّصارى، أو تُعاوِنُوهم على غيرِهم[1].

﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾.

أي: إنَّ بعضَ اليهودِ أولياءُ بعضٍ، وبعضَ النصارى أولياءُ بعضٍ؛ فأهلُ كلِّ ملَّةٍ يتناصرون ويتعاضَدونَ فيما بينهم، ويكونون يدًا واحدةً على مَنْ سِواهم[2].

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾.

أي: ومَن يتولَّ اليهودَ والنَّصارى، ويَنصُرْهم على المسلمين، ويُظاهِرْهم عليهم؛ رغبةً فيهم، ورِضًا بدِينهم، فهو مِن أهلِ دِينِهم وملَّتهم، وحُكمُه حُكمُهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٩- ١٠).
قال ابنُ عُثَيمين: (الوَلاية التي نهى الله سبحانه وتعالى أن نتولَّى بها اليهود والنصارى هي المناصرةُ؛ سواء ناصرناهم على مسلمين أو على كافِرين، فلا يحلُّ لنا أن نناصرَهم على كافرين، ما لم يكُن في مناصرتنا إيَّاهم على هؤلاء الكافرين مصلحةٌ للإسلام، فإنْ كان فيه مصلحة مثل أن تقومَ حرب بين كَافِرينَ وكافِرينَ، ويكون الطرفُ الثاني أكثرَ إساءةً للمسلمين من الطرف الآخَر، فهنا لا بأسَ أن نناصرهم، لا لمصلحتِهم، ولكن لمصلحة المسلمين؛ لأنَّ هذا من باب دفْع أشرِّ الأمرين بأخفِّهما) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٩) بتصرف يسير.
(٢) وهذا اختيارُ ابنِ جرير في ((تفسيره)) (٨/ ٥٠٧-٥٠٨)، وابن عاشور في ((تفسيره)) (٦/ ٢٢٩). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤١٢).
واختار ابنُ عُثَيمين أنَّ الآيَة تَعني التعاونَ بين أهل الملَّة الواحدة، وتعني أيضًا التناصُرَ والتعاون بين اليهود والنصارى على أعدائهم. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٠).
قال ابنُ عثيمين: (اليهود والنصارى بعضهم أولياء بعض، وهل المراد الملَّة الواحدة، أم كِلتا الملَّتين؟ المرادُ العمومُ؛ الملَّة الواحدة وكِلتا المِلَّتين؛ يدلُّ لذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٣]) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٣).
(٣) ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٢١٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١٩٤) (١٨/ ٣٠٠- ٣٠١) (٢٨/ ٦٤٤- ٦٤٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤١٢- ٤١٣). =

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

أي: إنَّ مَن يتولَّاهم منكم فهو مِن جُملةِ الظالمين الذين وَضَعوا الولايَةَ في غيرِ مَوْضِعِها، ونَقَصوا أنفسَهم حقَّها بما ارتكبوا مِن كفرٍ أو عِصيانٍ؛ فلا يُوفِّقُهم الله تعالى لاتِّباعِ الحقِّ(١).

= قال ابنُ جرير: (يعني تعالى ذِكرُه بقولِه: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]: ومَن يتولَّ اليهودَ والنصارى دون المؤمنين فإنَّه منهم؛ يقول: فإنَّ مَن تولَّاهم ونصَرَهم على المؤمنين، فهو من أهلِ دِينهم ومِلَّتهم؛ فإنَّه لا يتولى متولٍّ أحدًا إلا وهو به وبدِينه وما هو عليه راضٍ، وإذا رَضِيَه ورضِيَ دِينَه فقد عادَى ما خالفَه وسَخِطه، وصار حُكمُه حُكمَه) ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٠٨).

وقال ابنُ حزم: (وصحَّ أنَّ قولَ الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١] إنَّما هو على ظاهرِه بأنه كافرٌ من جملة الكفَّار فقط- وهذا حقٌّ لا يَختلِفُ فيه اثنانِ من المسلمين) ((المحلى)) (١/ ٣٨٦).

وقال ابنُ القيِّم: (... أنَّه سبحانه قد حَكَم- ولا أحسنَ مِن حُكمِه- أنَّه مَن تولَّى اليهودَ والنصارى فهو مِنهم: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]، فإذا كان أولياؤُهم منهم بنصِّ القرآنِ، كان لهم حُكمُهم) ((أحكام أهل الذمة)) (١/ ١٩٥).

وقال الشِّنقيطيُّ: (قولُه تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ ذكَر في هذه الآية الكريمة، أنَّ مَن تولى اليهود والنصارى من المسلمين، فإنَّه يكون منهم بتولِّيه إيَّاهم... وبيَّن في موضِعٍ آخَرَ: أنَّ محلَّ ذلك فيما إذا لم تكُن الموالاةُ بسببِ خوفٍ وتقيَّة، وإنْ كانت بسبب ذلك فصاحبُها معذورٌ، وهو قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ [آل عمران: ٢٨]، فهذه الآيةُ الكريمةُ فيها بيانٌ لكلِّ الآياتِ القاضية بمنعِ موالاةِ الكفَّار مطلقًا، وإيضاح لأنَّ محلَّ ذلك في حالة الاختيارِ، وأمَّا عند الخوفِ والتقيَّة، فيُرخَّص في موالاتهم، بقدْر المداراةِ التي يَكتفي بها شرَّهم، ويُشترَط في ذلك سلامةُ الباطن من تلك الموالاة... ويُفهم من ظواهرِ هذه الآيات أنَّ مَن تولَّى الكفَّارَ عمدًا اختيارًا؛ رغبةً فيهم: أنَّه كافرٌ مثلُهم) ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤١٢-٤١٣).

وقال ابنُ باز: (وقد أجمعَ عُلماءُ الإسلامِ على أنَّ مَن ظاهَرَ الكفَّارَ على المسلمين، وساعدَهم عليهم بأيِّ نوعٍ مِن المساعدةِ، فهو كافرٌ مثلُهم، كما قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾) ((مجموع فتاوى ابن باز)) (١/ ٢٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١١-١٢).

﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢)﴾.

﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾.

أي: فترَى- يا محمَّدُ- الَّذين في قُلوبِهم شَكٌّ ونِفاقٌ يُسارعونَ في موالاةِ اليهودِ والنَّصارى، ومودَّتِهم ومصانَعتِهم[1].

﴿يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾.

أي: يقولُ هؤلاء المنافقون: إنَّما نسارعُ في موالاةِ هؤلاء اليهودِ والنصارَى؛ خوفًا من أنْ تقعَ علينا نائبةٌ من نوائبِ الدَّهرِ فنَهلِكَ- كما لو لَحِقَتْنا هزيمةٌ بظَفَرِ الكفَّارِ بالمسلمين- فتكونُ لنا أيادٍ عندَهم فتَنفَعُنا؛ لذا نتَّخذُهم أصدقاءَ نُحافظُ على صداقتهم؛ فننالُ منهم ما يُؤمِّلُ الصديقُ من صَديقِه[2].

﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾.

أي: فلعلَّ اللهَ أن يأتيَ بالنَّصرِ الذي يُعزُّ به الإسلامَ وأهلَه على الكفَّارِ؛ من اليهود والنصارى وغيرِهم، أو يأتيَ بأمرٍ يكونُ فيه هلاكُ المنافقينَ بقَتْلهم، أو فَضْحِهم وبيانِ مَخازيهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥١٢-٥١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥١٣-٥١٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٢٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤١٣-٤١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٣). =

﴿فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾.

أي: فيُصبِحَ هؤلاءِ المنافِقون الذين والَوُا اليَهودَ والنَّصارَى على ما أضْمَروا في نُفوسِهم من موالاتهم نادِمين، فحين يأتي نصرُ اللهِ للمسلمين، ويُذِلُّ ويَقهرُ الكافِرينَ، لا تُجْدِي عنهم تلك الموالاةُ شيئًا، ولا تَدفعُ عنهم محذورًا، فيحصُلُ لهم من الغمِّ ما اللهُ تعالى به عليمٌ[(١)].

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (٥٣)﴾.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾.

أي: ويقولُ المؤمنونُ متعجِّبين مِن حالِ أولئك القومِ بعدَ أن ظهَرَ ما أضْمَروه، وتبيَّن ما أسرُّوه: أهؤلاءِ الذين حلَفوا لنا باللهِ، وأكَّدوا حَلِفَهم، وغلَّظوه بأنواعِ التأكيدات: أنَّهم معنا في الإيمانِ، وما يلزمُه من نُصرةٍ ومحبَّةٍ[(٢)]؟!

﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾.

أي: بطَلَتْ أعمالُهم التي عَمِلوها في الدُّنيا، فلا ثوابَ لها ولا أجرَ، فخابتْ

= قال ابنُ عَطيَّة: (ويظهر أنَّ هذا التقسيم إنما هو لأنَّ الفتحَ الموعودَ به هو ما [يترتَّب] على سعيِ النبيِّ وأصحابه، ويُسبِّبه جدُّهم وعملهم، فوعد الله تعالى إمَّا بفتْح بمقتضى تلك الأفعال، وإمَّا بأمرٍ من عنده يُهلِك أعداءَ الشرع، هو أيضًا فتحٌ لا يقع للبشر فيه تسبيبٌ) ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٢٠٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥١٤- ٥١٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥١٦-٥١٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٥- ٢٧).

قال ابنُ عَطيَّة: (ذهَب كثيرٌ من المفسِّرين إلى أنَّ هذا القول من المؤمنين إنَّما هو إذا جاء الفتحُ حصلتْ ندامةُ المنافقين، وفضَحَهم الله تعالى، فحينئذٍ يقول المؤمنون: ﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا...﴾ الآية) ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٢٠٦).

صفقَتُهم، وفاتَهم مقصودُهم، وحضرَهم الشقاءُ والعذابُ فهلَكوا[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- تصدير الخِطاب بالنِّداء، في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ فيه بيانُ أهميَّة تجنُّبِ اتِّخاذِ الأولياءِ من اليهودِ والنَّصارى، وأنَّ تجنبَ ذلك مِن مقتَضَياتِ الإيمان، وأن اتِّخاذَهم أولياءَ يُوجِبُ نقصَ الإيمان، وربَّما يُوجِبُ محوَ الإيمانِ وزوالَه كلِّه؛ قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾[2].

٢- يُستفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ بيانُ أنَّ النصارى واليهود وسائرَ الكفَّار بعضُهم أولياءُ بعضٍ في مضادَّة المسلمين- على أحد الأقوال في التفسير- ومِن ثَمَّ فيجبُ على المسلمين الحذرُ من أعدائِهم، وأن يَدَعُوا الخلافاتِ التي بينهم؛ حتى يكونوا يدًا واحدةً على أعدائِهم[3].

٣- يُستفادُ من قولِه: ﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ أنَّه يجوزُ للمرءِ أن يُجري الكلامَ على سبيلِ التعجُّبِ فيمَن يستحقُّ العَجَب منه، ولا يُعدُّ ذلك مِن بابِ الغِيبة؛ لأنَّ اللهَ تعالى ذكَر هذا عن المؤمنينَ، ولم يُنكِرْه عليهم[4].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ...﴾ الآية، فيه انقطاعُ الموالاةِ بينَ المسلمينَ والكفَّار، فلا توارُثَ بينهم ولا عَقل، ولا ولاية نكاحٍ[5].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥١٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٧- ٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٢، ١٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٧).

(٥) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ١١٣).

٢- قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ تعليلٌ للوعيدِ في قوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾، وبيانٌ لسببه؛ وهو أنَّ مَن يُوالي أعداءَ المؤمنين الذين نَصَبوا لهم الحربَ، وينصرُهم أو يستنصرُ بهم فهو ظالمٌ بوضْعه الوَلايةَ في غيرِ موضعها، ولن يَهتديَ مثلُه إلى الحقِّ والنَّجاة أبدًا[1]، إذا أصرَّ على ذلك.

٣- يُستفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾ أنَّ كلَّ مَن يُسارِعُ في موادَّةِ الكافرينَ وفي مناصرتِهم ففي قلبِه مَرَضٌ، ويَنبني على ذلك أنَّ هذا المَرَضَ ربَّما يتضاعَفُ حتى يصلَ إلى الكُفْر- والعياذُ باللهِ[2].

٤- يُستفاد من قولِه: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾ أنَّ الذين في قُلوبهم مرضٌ- وهم المنافِقون- يُسارِعونَ في مُوادَّةِ الكافِرين[3].

٥- أنَّ مَن أشار على وُلاةِ الأمور بالمسارعةِ في موادَّة الكفَّارِ وفي مناصرتِهم، فإنَّ فيه شبهًا من هؤلاء المنافقين؛ لقوله: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ...﴾[4].

٦- ضعْفُ توكُّلِ المنافقينَ على اللهِ وأنَّهم إنَّما يتوكَّلون على الأمورِ الماديَّة التي يظنُّون فيها النصرَ؛ لقوله: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾[5].

٧- بشارةُ المؤمنينَ بأنَّ الفتحَ والنَّصر سيكونُ لهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾؛ فـ﴿عَسَى﴾ مِن الله واجبةٌ؛ لأنَّ الكريم

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٣٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٤).

إذا أطْمَعَ في خيرٍ فَعَلَه، فهو بمنزلةِ الوعدِ؛ لتعلُّقِ النَّفسِ به ورَجائِها له[١].

٨- أنَّ المنافِقَ لا بدَّ أن يَفضحَه اللهُ؛ لقوله: ﴿أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾[٢].

٩- تحذيرُ المنافقين ممَّا سيقعُ بهم مِن النَّدمِ على ما أسرُّوا في أنفسِهم؛ لقوله: ﴿فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾[٣].

١٠- لَمَّا كان الإسرارُ لا يكون إلَّا لِمَا يُخشَى من إظهارِه فسادٌ، وكان يُطلَقُ على ما دار بين جماعةٍ خاصَّة على وجهِ الكِتمانِ عن غيرهم- بيَّن أنَّه أدقُّ من ذلك، وأنَّه على الحقيقةِ مَنَعَهم خوفُهم من غائلتِه وغِرَّته عندَهم أن يُبرزوه إلى الخارجِ، فقال: ﴿فِي أَنْفُسِهِمْ﴾[٤].

١١- ممَّا يُستفادُ مِن الآياتِ: كذبُ المنافقين، وأنَّهم يُروِّجون باطلَهم ونفاقَهم بالأيمانِ؛ قال تعالى: ﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾[٥].

١٢- يُستفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أنَّ المنافقين يُقسِمون باللهِ ويُظهِرون تعظيمَ الله، كما أنَّهم يَذكُرون اللهَ ويُصلُّون ويتصدَّقون، لكنْ كلُّ هذا لا يَنفعُهم؛ فعَمَلُهم حابطٌ لعدمِ الإيمانِ في قلوبِهم[٦].

١٣- أنَّ المنافقَ مهما ظنَّ من الرِّبحِ فإنَّه خاسرٌ؛ لقوله: ﴿فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾، ووجه ذلك: إنْ فضَحَه اللهُ في الدُّنيا تبيَّن وخَسِر، وصارَ مكروهًا عندَ الناس،

(١) ينظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ١٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٧).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٨).

وإنْ لم يَفضَحْه اللهُ في الدُّنيا ففي الآخِرة، وحينئذٍ لا يكونُ منتفعًا بدُنياه؛ لأنَّه خسِرَ الدُّنيا والآخِرة(١).

بَلاغَةُ الآيات:

١- قوله: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ الجملةُ مستأنَفةٌ مَسوقةٌ لتعليلِ النَّهي، وتأكيدِ إيجابِ الاجتنابِ عن المنهيِّ عنه(٢).

٢- قوله: ﴿فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ الإجمالُ فيه مبالغةٌ في التَّحذيرِ مِن موالاتِهم في وقتِ نُزولِ الآيةِ، وفيه: تشبيهٌ بليغٌ، أي: فهو كواحدٍ منهم في استحقاقِ العذابِ- على أحدِ الوجوهِ في التفسيرِ(٣).

٣- قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ تذييلٌ للنهي، وموقعُ الجملةِ يَقتضي أنَّ اليهودَ والنصارى مِن القومِ الظالِمينَ بطريقِ الكِناية(٤).

٤- قوله: ﴿يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾ إيثارُ التعبيرِ بـ﴿فِيهِمْ﴾ على (إلى)؛ للمبالغةِ في بيانِ رغبتِهم فيها وتهالُكِهم عليها، فكلَّما سَنَحتْ لهم فرصةٌ لتوثيقِ وَلائِهم وتأكيدِه ابتَدَروها؛ وللدَّلالةِ على أنَّهم مستقرُّون في الموالاةِ، وإنَّما مسارعتُهم من بعضِ مراتبها إلى بعضٍ آخَر منها، فهم يُسارِعونَ في أعمالِ موالاتِهم مسارعةَ الداخلِ في الشَّيء، الثابتِ عليه، الرَّاغِبِ فيما يَزيدُه تمكُّنًا وثباتًا، كما في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [المؤمنون: ٦١]، لا أنَّهم خارجُون عنها متوجِّهون إليها، كما في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾(٥) [آل عمران: ١٣٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٨)
(٢) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٩١).
(٣) ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٣٠).
(٤) ينظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٢٣١).
(٥) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٤٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٣٥٦).

٥- قوله: ﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ...﴾ الاستفهامُ في ﴿أَهَؤُلَاءِ﴾ مُستعمَل في التعجُّب مِن نفاقهم، والعجب هو قَسمُهم أنَّهم معهم، وقد دلَّ هذا التعجُّبُ على أنَّ المؤمنين يظهر لهم مِن حالِ المنافقينَ يومَ إتيانِ الفتْحِ ما يَفتضحُ به أمرُهم، فيعجبونَ مِن حَلِفهم على الإخلاصِ للمؤمنين[١].

٦- قوله: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ فيه ما يُعرَف في البَلاغة بالإغرابِ والطرفة أو النوادر[٢]، والآيةُ الكريمة مِن قسم لا يكون الإغرابُ في معناه ولا في ظاهرِ لفظِه، بل في تأويلِه، ففي هذه الآية قد يتوهَّم متوهِّمٌ أنَّ لفظة ﴿أَصْبَحُوا﴾ في الظَّاهر حشوٌ لا فائدةَ فيه؛ فإنَّ هؤلاءِ المُخبَرَ عنهم بالخُسران قد أمْسَوْا في مِثل ما أصبحوا، ومتى قلت: أصبح العسلُ حُلوًا، كانت لفظة (أصبح) زائدةً، من الحَشوِ الذي لا فائدةَ فيه؛ لأنَّه أمْسَى كذلك، والتأويل الذي تَحصُل به الفائدةُ الجليلة التي لولا مجيءُ (أصبح) لم تحصُلْ، هي: لَمَّا كان العليلُ الذي قد بات مُكابدًا آلامًا شديدةً تُعتبر حالُه عند الصَّباح، فإذا أصبح مُفيقًا مُستريحًا من تلك الآلام رُجِيَ له الخيرُ، وغلَب على الظَّنِّ بُرؤُه وإفاقتُه من ذلك المرض،

---

(١) ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٣٣).

(٢) الإغراب: هو أنْ يكون المعنى ممَّا لم يُسبق إليه على جهةِ الاستحسان، وهو على ثلاثة أقسام:
الأول: الإغرابُ في اللفظ، وهو كثيرٌ.
الثاني: الإغراب في المعنى، كقول المتنبي:

يُطمِّع الطَّيرَ فيهم طولُ أكْلِهِمُ ... حتَّى تكادَ على أحيائِهم تَقَعُ

فإنَّه عمَدَ إلى المعنى المعروفِ مِن كَون الطيرِ إنَّما تقعُ على القتْلى وتَتْبَع الجيوشَ؛ ثِقةً بالشِّبع، فتجاوزَه بزيادة المبالغة المستحسنة؛ لاقترانِها بـ(تكاد) إلى ما قال، فحصَل في بيته من الإغراب والطرفة ما لا يَحصُل لغيره.
الثالث: الإغراب في تأويلِ الكلام، وهو الذي إذا حُمِل على ظاهرِه كان الكلامُ مَعيبًا، وإذا تُؤوِّل ردَّه التأويلُ إلى نمطٍ مِن الكلام الفصيح، فأماط عن ظاهرِه العيب.
ينظر: ((نقد الشعر)) لقدامة بن جعفر (١/ ٥٤)، ((تحرير التحبير))، لابن أبي الإصبع (ص: ٥٠٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٥٠٤- ٥٠٥).

وإذا أصبح كما أمْسَى تَعيَّن هلاكُه، بجَريانِ العادةِ بهيجانِ الإعلالِ في اللَّيل، وسُكونِه عند الصَّباح، وشُبِّهت حالُ الأشقياءِ بالعَليلِ الذي أَصبحَ من الألَم على ما أمْسى؛ فهو ممَّن يُيْئَس من إصلاحِه، وعلى هذا تكونُ لفظة ﴿فَأَصْبَحُوا﴾ قد أفادتْ معنًى حَسنًا جميلًا، وخرجَتْ عن كونِها حشوًا غيرَ مفيد، ولَمَّا أخبر الله سبحانه بأنه ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ عُلِم بالقطع أنَّهم أصبحوا خاسرينَ، فلفظة ﴿أَصْبَحُوا﴾ لا يَصلُح غيرُها في موضعها، ولا يتمُّ المعنى إلَّا بها[1]، وقيل: لَمَّا كانتِ المصيبةُ عند الإصباحِ أَعظمَ عبَّر به، وإنْ كان المرادُ التَّعميمَ[2].

(١) ينظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٢٠٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٥٠٤ - ٥٠٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ١٨٩).

الآيات (٥٤ - ٥٦)

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ (٥٥) وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ (٥٦) ﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿يَرْتَدَّ﴾: أي: يَرجِعْ مِن الإسلامِ إلى الكُفر، مِن الرِّدَّة والارتدادِ، والرِّدَّةُ تختصُّ بالكُفر، والارتداد يُستعمَلُ فيه وفي غَيرِه[١].

﴿أَذِلَّةٍ﴾: أي: لَيِّنين لهم، مِن قولهم: دابَّةٌ ذَلولٌ، أي: مُنقادةٌ لَيِّنةٌ سهلةٌ، وأصلُ الذُّلِّ: الخُضوعُ والاستكانةُ واللِّين، وهو ضِدُّ العِز[٢].

﴿أَعِزَّةٍ﴾: يُغالِبونَ الكفَّارَ ويمانعونهم، يُقال: عزَّه يعُزُّه عزًّا إذا غَلَبه؛ من العَزازِ: وهي الأرض الصُّلبة، وأصل العِزَّة: الشِّدَّة والقوَّة وأمثالهما مِن الغَلبة والقَهر[٣].

﴿فَضْلُ اللهِ﴾: عطاؤُه، وأصلُ الفضل الزِّيادة؛ وكلُّ عطيةٍ لا تَلزمُ مَن يُعطِي، يُقال لها: فضلٌ، والإفضالُ: الإحسانُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (١/ ٣٤٩).

(٢) يُنظَر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٣١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٤٥)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٣٣٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٨- ١٥٢).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٣).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٢).

﴿حِزْبَ اللهِ﴾: أي: أنصارَ اللهِ، أو جُنْدَه وجموعَه، والحزبُ: جماعةٌ فيها غِلَظ، وقيل: الحزب: الوليُّ، واشتقاقُه من قولهم: تحزَّب القومُ، أي: اجتَمَعوا، وأَصْلُ (حزب): يدلُّ على تجمُّعِ شيءٍ[1].

المَعنى الإجْماليُّ:

يُبيِّن اللهُ سُبحانَه للمُؤمنين أنَّ مَن يَرجِعْ منهم عن دِينِه الحقِّ إلى الكُفر، فسوف يأتي اللهُ- عِوَضًا عمَّنِ ارتدَّ- بقومٍ خيرٍ منهم، مِن صفاتهم أنَّهم يحبُّهم اللهُ سبحانه وتعالى ويُحبُّونه، وأنهم رحماءُ بإخوانهم المؤمنين، مُتواضِعون لهم، أشدَّاءُ على الكافِرين، يُقاتلونَ في سبيلِ اللهِ ولإعلاء كلمته، وإعزازِ دينه، وأنَّهم في حِرصِهم على ما يُرضي اللهَ سبحانه لا يَخافون لومًا من أيِّ لائمٍ، ثم بيَّن تعالى أنَّ ما هم فيه مِن الصِّفاتِ الحميدة، والمناقِب الجَليلةِ المذكورةِ هي مِن فضْلِه جلَّ وعلا، وفضلُ اللهِ يُؤتيه مَن يشاء، وهو سبحانه واسعٌ عليمٌ.

ثم بَيَّن سبحانَه مَن تجِبُ موالاتُهم، بعدَ النَّهي عن تولِّي مَن تجبُ معاداتُهم، فقال: إنَّما وليُّكم الله- فلا ناصرَ لكم إلَّا هو سبحانه وتعالى، فهو المرجوُّ وحدَه في الشَّدائِدِ- ورسولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ- الذي أخرجكم الله به مِن الكفرِ إلى الإيمانِ- والمؤمنونَ الذين يُقيمونَ الصَّلاةَ على وجهِها، ويُعطون الزكاةَ لمستحقِّيها، وهم خاضعونَ ذليلون للهِ، ثم بيَّن سبحانه حُسنَ عاقبةِ الذين يوالون اللهَ ورسولَه والمؤمنين بأنَّ مَن يتَّخِذِ اللهَ ورسولَه والمؤمنينَ أولياءَ فإنَّه من أنصارِ الله، وأنصارُه عزَّ وجلَّ هم الغالِبون.

تَفْسيرُ الآيات:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٢).

وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤)﴾.

مناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا نهَى تعالى عن موالاةِ اليهودِ والنَّصارى، وبيَّن أنَّ موالاتَهم مستدعيةٌ للارتدادِ عن الدِّين بقولِه: ﴿فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾، وقوله: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾- شرَع في بيانِ حالِ المرتدِّين على الإطلاقِ[١].

وأيضًا لـمَّا نهَى اللهُ تعالَى عن مُوالاةِ اليهودِ والنَّصارى، وأخبَر أنَّ فاعلَها منهم- عقَّب ذلك بالإشارةِ إلى أنَّ اتخاذَ اليهودِ والنَّصارى أولياءَ ذريعةٌ للارتدادِ، وأنبأَ المتردِّدين ضعفاءَ الإيمانِ بأنَّ الإسلامَ غنيٌّ عنهم، إن عزموا على الارتدادِ إلى الكُفْر[٢]، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنونَ، مَن يرجِعْ منكم عن دِينِ الحقِّ إلى الباطلِ، فيُبدلْه بدخولِه في الكفرِ كأنْ يتهوَّدَ أو يتنصَّر[٣].

﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾.

أي: فلن يَضرَّ اللهَ شيئًا، وإنَّما يضرُّ نفْسَه؛ فإنَّ الله تعالى سيأتي بدلًا من الَّذين ارتدُّوا بقومٍ خيرٍ منهم، أكملَ منهم أوصافًا، وأحسنَ أخلاقًا، وأقوى نفوسًا؛ أجلُّ صِفاتهم أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يُحِبُّهم، وأنَّهم يُحبُّونَه سبحانه وتعالى[٤]،

(١) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٤/ ١٦٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٣٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥١٧- ٥١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٠- ٣١).

(كأبي بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه، وأصحابِه الذين قاتلوا المرتدِّين)(١).

﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: ومِن صِفاتِهم أنَّهم رُحَماءُ بإخوانِهم المؤمنين، ذَوُو رأفةٍ ورِفقٍ بهم، وشفقةٍ وحُنوٍّ عليهم، وتواضعٍ لهم(٢).

كما قال سبحانه: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

أي: ومِن صِفاتهم أيضًا أنَّهم أشدَّاءُ على الكافرينَ، ذَوُو قَسوةٍ وغِلظةٍ عليهم، يُظْهِرون للكفَّارِ القُوَّةَ والعِزَّةَ بما هم عليه من الدِّين(٣).

﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾.

أي: ومِن صِفاتهم أيضًا أنَّهم يُقاتلونَ أعداءَ اللهِ تعالى بأموالِهم وأنفسِهم وأقوالِهم وأفعالِهم؛ لتكونَ كلمتُه سبحانه هي العُليا، لا يردُّهم عن هذا المقصدِ رادٌّ، ولا يَصدُّهم عن هذا المطلبِ صادٌّ، بل يُقدِّمون رِضا ربِّهم، والخوفَ مِن لومِه على لومِ المخلوقين(٤).

---

(١) يُنظر: ((الصفدية)) لابن تيمية (١/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣١).
قال السعديُّ: (ولا تَمنَعُ الغلظةُ عليهم والشِّدةُ دعوتَهم إلى الدِّينِ الإسلاميِّ بالتي هي أحسنُ، فتَجتمِعُ الغلظةُ عليهم واللِّينُ في دعوتهم، وكِلا الأمرين مِن مصلحتِهم، ونفْعُه عائدٌ إليهم) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣١- ٣٢).

عن عُبادةَ بنِ الصَّامت رَضِيَ الله عنه، قال: (بايَعْنا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم على السَّمْعِ والطاعةِ في المَنْشَطِ والمَكْرَهِ، وألَّا نُنازِعَ الأمرَ أهلَه، وأن نقومَ- أو نقولَ- بالحقِّ حيثُما كُنَّا، لا نَخافُ في اللهِ لَوْمَةَ لائِمٍ[1])[2].

﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا مدَحَهم اللهُ تعالى بما مَنَّ به عليهم مِنَ الصِّفاتِ الجليلةِ، والمناقِبِ العاليَة، المستلزِمة لِمَا لم يُذكَرْ مِن أفعالِ الخيرِ- أخبرَ أنَّ هذا مِن فضلِه عليهم وإحسانِه؛ لئلَّا يُعجَبوا بأنفسِهم، ولِيَشكروا الذي مَنَّ عليهم بذلك؛ ليزيدَهم من فضلِه، وليعلمَ غيرُهم أنَّ فضلَ الله تعالى ليس عليه حجابٌ[3]، فقال تعالى:

﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

أي: هذه الصِّفاتُ التي نَعتَهم بها اللهُ تبارك وتعالى؛ فضلٌ منه وإحسانٌ تَفضَّلَ به عليهم، وتوفيقٌ منه لهم، واللهُ يُؤتي فضلَه مَن يشاءُ مِن خلقِه، بما تَقتضيه حِكمتُه سبحانه[4].

﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

(١) قال ابنُ القيِّم: (ونحن نَشهَدُ [بالله] أنَّهم وَفَّوْا بهذه البيعة، وقالوا بالحقِّ، وصدَعوا به، ولم تأخُذْهم في الله لومةُ لائم، ولم يَكتُموا شيئًا منه مخافةَ سوطٍ ولا عصًا، ولا أميرٍ ولا والٍ، كما هو معلومٌ لِمَن تأمَّله من هَدْيِهم وسِيرَتِهم؛ فقد أنكر أبو سعيدٍ على مَرْوانَ، وهو أميرٌ على المدينة، وأنكر عُبادةُ بن الصامت على معاويةَ، وهو خليفةٌ، وأنكر ابنُ عمر على الحَجَّاجِ مع سطوتِه وبأسِه، وأنكر على عمرِو بن سعيد، وهو أميرٌ على المدينة، وهذا كثيرٌ جدًّا من إنكارِهم على الأُمَراء والولاة إذا خرَجوا عن العَدْلِ؛ لم يخافوا سوطَهم ولا عُقوبتَهم) ((إعلام الموقعين عن رب العالمين)) (٤/ ١١٠).

(٢) رواه البخاري (٧١٩٩)، ومسلم (١٨٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٢).

أي: واللهُ تعالى واسعٌ في جميعِ صِفاتِه، ومِن ذلك سَعةُ عَطائِه وفَضلِه وإحسانِه، عليمٌ بمَن يستحقُّ ذلك فيُعطِيه[1].

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا نهى اللهُ تعالى عن ولايةِ الكفَّارِ من اليهودِ والنَّصارى وغيرِهم، وذكَر مآلَ تولِّيهم أنَّه الخسرانُ المُبين- أخبر تعالى بمَن يجبُ ويتعيَّن تولِّيه، وذكَر فائدةَ ذلك ومصلحَتَه[2]، فقال:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾.

أي: ليس لكم- أيُّها المؤمنون- ناصرٌ إلَّا اللهُ تعالى ورسولُه عليه الصَّلاة والسَّلام والمؤمنون، فأمَّا اليهودُ والنَّصارى، فليسوا لكم بأولياءَ ولا نُصَراءَ[3].

كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: ١١]. وقال سبحانه: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٢٨-٥٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥١).

قال ابنُ عثيمينَ: (فإنْ قال قائلٌ: ولايةُ الله عزَّ وجلَّ صالحةٌ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ، لكن كيفَ ولايةُ الرَّسول؟

الجواب: أمَّا ما كان في حياتِه؛ فالولايةُ واضحةٌ ظاهرةٌ، وأمَّا بعدَ وفاتِه فإنَّ تمسُّكَنا بسنَّته مِن تولِّيه لنا؛ لأنَّنا نُنْصَر بها، ونُعان بها، فكأنَّه عليه الصلاةُ والسَّلام معنا يناصرُنا ويُعينُنا) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٢).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

ثمَّ ذكَر اللهُ تعالى صِفاتِ المؤمنينَ الذين تَنبغي ولايتُهم، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾.

أي: وهم الذين اتَّصفوا- بالإضافةِ إلى إيمانِهم- بأداءِ الصَّلاةِ بشُروطِها وواجباتِها وأركانِها ومستحبَّاتها، وببَذْلِ الزكاةِ من أموالِهم، لأهلِها المستحقِّين لها[1].

﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾.

أي: ومِن صِفاتهم أيضًا: أنَّهم للهِ تعالى خاضِعون ذَليلون، وله مُنقادُون[2].

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦)﴾.

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾.

أي: أيُّ امرئٍ يتَّخِذِ اللهَ تعالى ورسولَه وعِبادَه المؤمنينَ أولياءَ له[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥١- ٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٦).

قال ابنُ عثيمين: (فإنْ قال قائل: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ﴾ هل اللهُ في حاجة لأنْ يتولَّاه أحد؟ الجواب: الله عزَّ وجلَّ ليس بحاجة لأنْ يتولَّاه أحد، لكنَّ الدِّين بحاجة إلى أن يتولَّاه أهلُه، ومَن تولى دِينَ الله فقد تولَّى اللهَ كما قال الله عزَّ وجلَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧]، ومن المعلوم أنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يحتاجُ إلى نصرٍ، لكن ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ﴾، أي: تنصروا دِينَه ﴿يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

وقوله: ﴿وَرَسُولَهُ﴾ الرسول عليه الصَّلاة والسَّلام يحتاج إلى مَن يتولَّاه في حياته، ويتولَّى =

﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

أي: فإنَّه مِن أنصارِ اللهِ تعالى، وأنصارُه هم المُفْلِحون المنصورون، الذين لهم العاقبةُ في الدُّنيا والآخِرة[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣].

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- في قوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ الثَّناءُ على مَن كان ذليلًا على المؤمنين، وهو الذي يَخفِضُ جناحَه لهم ويتطامَن ويتواضَع؛ فإنَّ هذه من الصفاتِ التي يحبُّها الله عزَّ وجلَّ، أما ترفُّعُ الإنسانِ على إخوانِه المسلمينَ فليس محمودًا عندَ اللهِ، بل ولا عندَ الخَلْق؛ وكلَّما ازدادَ الإيمان ازدادَ التواضع، وكلَّما ازدادَ العِلمُ ازدادَ التواضعُ[2].

٢- قال تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ...﴾ يُفهم من هذه الآياتِ أنَّ المؤمنَ يجبُ عليه ألَّا يَلينَ إلَّا في الوقتِ المناسِب للِّين، وألَّا يشتدَّ إلَّا في الوقتِ المناسب للشدَّة؛ لأنَّ اللِّينَ في مَحلِّ الشدَّةِ ضَعْفٌ وخَوَرٌ، والشدَّةَ في محلِّ اللِّين حُمقٌ وخَرَق، وقد قال أبو الطيب المتنبي:

= سُنَّته ويدافع عنها بعد وفاتِه، فيكون تولِّي الرسولِ بمعنى تولِّي سُنَّته ونَصْرها، كما قلنا: إنَّ تولِّي الله يعني تولِّي دِينه، ونُصرةَ دِينه.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ تولِّي المؤمنين إلى يوم القيامة؛ لأنَّه لا تزال طائفةٌ من هذه الأُمَّة على الحقِّ حتى تقومَ الساعةُ، وحتى يُقبضوا قبلَ قيام الساعة؛ لأنَّ الساعة لا تقومُ إلَّا على شِرار الخَلْق)) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٣).

إذا قِيلَ حِلْـمٌ قُلْ فلِلْحِلْـمِ مَوضِعٌ وحِلْمُ الفَتَى في غَيرِ مَوْضِعِه جَهْلُ[١]

وفيها إيماءٌ إلى أنَّ صِفاتِهم تُسيِّرُها آراؤُهم الحصيفةُ؛ فلَيْسُوا مُندفِعين إلى فِعلٍ ما إلَّا عن بصيرةٍ، ولَيْسُوا ممَّن تنبعِثُ أخلاقُه عن سَجيَّةٍ واحدةٍ بأنْ يكون ليِّنًا في كلِّ حالٍ، وهذا هو معنى الخُلُق الأقوم، وهو الذي يكونُ في كلِّ حالٍ بما يُلائِم ذلك الحالَ[٢].

٣- قَوْلُه: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ﴾ فيه الثناءُ على عِزَّة النَّفسِ وقوَّة الشخصيةِ أمامَ الكفَّار، وأنْ نكونَ أعِزَّةً عليهم، نرى في أنفسنا العلوَّ عليهم، والظهورَ عليهم لا بذَواتِنا، ولكن بما معنا من الدِّين[٣].

٤- الإشارةُ إلى الإخلاصِ؛ لقوله: ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ لأنَّ الجهاد- وهو القِتالُ- يحملُ عليه عِدَّةُ أسباب، والجهادُ المحمودُ هو الجهادُ في سبيلِ اللهِ[٤].

٥- أفاد قوله تعالى: ﴿وَهُمْ راكِعُونَ﴾ بعد قوله: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ﴾ أنَّه لا بدَّ أنْ يقترنَ بهذه الأعمالِ الصالحةِ الذلُّ والخضوعُ للهِ عزَّ وجلَّ، بحيث يَشعرُ الإنسانُ أنَّه مُتعبِّدٌ للهِ خاضعٌ له، وهذا يَفوتُ كثيرًا من النَّاسِ؛ فيؤدِّي الواحدُ منهم العبادةَ على أنَّها مفروضةٌ عليه فقط، ولا يَشعُرُ بأنَّه متعبِّدٌ لله بذلك[٥].

٦- قوله: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾، لم يقُلْ عزَّ وجلَّ: (ومَن يتولَّ اللهَ ورسولَه والذين آمنوا فإنَّه الغالب)، بل قال: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ﴾؛ ليكون دالًّا على شَيئين: الشيء الأوَّل: أنَّ مَن تولَّى اللهَ ورسولَه والذين آمنوا فهو مِن حزبِ

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٣٨)

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٤).

اللهِ. الشيء الثاني: إرادةُ العمومِ أنَّ حزبَ اللهِ لا بدَّ أن يكون غالبًا؛ لأنَّ دِينَ الله لا بدَّ أن يكون غالبًا، فالمتمسِّك بدِين الله؛ هو مِن حِزبِ الله، وهو غالبٌ ولا بدَّ، لكنَّ الغَلَبَة قد تكونُ في حالِ الحياةِ، وقدْ تكون بعدَ الموتِ؛ ولهذا نجِدُ الأئمَّةَ الذين لم يُقدَّرْ لهم أن يَظهروا ظهورًا كاملًا في حياتِهم؛ ظَهَروا ظهورًا كاملًا بعدَ وفاتِهم؛ كالإمام أحمد، وابن تيميَّة، وغيرِهما من العلماءِ والأئمَّة، الذين لَحِقَهم من الإهانةِ مِن وُلاةِ السُّوءِ ما لَحِقَهم، وكانتِ الغَلَبَةُ لهم؛ إمَّا في الحياةِ، وإمَّا بعدَ المماتِ[1].

٧- يُستفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ أنَّ للهِ تعالى حِزبًا، وحزبُه الذي يُقابِلُ حَربَه؛ لأنَّ اللهَ له حِزبٌ وله حَرْبٌ، فمَن أقام على شريعتِه فهو حِزبُه، ومَن خالَفَ شريعتَه فهو حَربُه، فإعلانُ المخالفةِ حربٌ لله، لا سيَّما فيما نصَّ على أنه حربٌ لله عزَّ وجلَّ، كالرِّبا وقَطْع الطريقِ، وما أشبهها[2].

٨- في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ بشارةٌ عظيمة لِمَن قام بأمْرِ الله وصارَ مِن حِزبِه وجُندِه، أنَّ له الغَلَبَةَ، وإنْ أُديلَ عليه في بعض الأحيان لحِكمةٍ يُريدها الله تعالى، فآخِرُ أمرِه الغَلَبةُ والانتصارُ، ومَن أصدقُ من الله قيلًا[3]؟!

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- التَّحذيرُ مِن الرِّدَّة؛ لقوله: ﴿مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ...﴾[4].

٢- يُستفادُ من قولِه: ﴿مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٣).

وَيُحِبُّونَهُ﴾ أنَّ الله غنيٌّ عن العِباد؛ فلو ارتدَّ قومٌ جاء الله بقومٍ آخرينَ؛ كما قال الله: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾(١) [محمد: ٣٨].

٣- قولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ...﴾ مِن أدلِّ الدَّلائلِ على فسادِ مذهبِ الإماميَّة مِن الرَّوافضِ؛ فمذهبُهم أنَّ الذين أقرُّوا بخِلافة أبي بكرٍ وإمامَتِه كلهم كَفَروا وصاروا مرتدِّينَ، فنقول: لو كان كذلك لجاءَ اللهُ تعالى بقومٍ يُحارِبونهم ويَقهرونهم ويردُّونهم إلى الدِّين الحقِّ؛ بدليل قوله: ﴿مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ...﴾ إلى آخِرِ الآية، وكلمةُ (مَن) في معرضِ الشَّرْط للعمومِ، فلو كان الذين نَصَّبوا أبا بكر للخلافةِ قد ارتدُّوا لوجَبَ بحُكم الآيةِ أنْ يأتيَ اللهُ بقومٍ يقهرونهم، ويُبطِلون مَذهبَهم، ولَمَّا لم يكُنِ الأمرُ كذلك، بل الأمرُ بالضدِّ؛ فإنَّ الروافضَ هم المقهورونَ المَمْنوعونَ عن إظهارِ مَقالاتِهم الباطلةِ أبدًا منذ كانوا- عَلِمْنا فسادَ مَقالتِهم ومذهبِهم، وهذا كلامٌ ظاهرٌ لِمَن أنصفَ(٢).

٤- أنَّ المرتدِّين مَبغوضونَ عندَ اللهِ؛ لقوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾(٣).

٥- قوله: ﴿مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ...﴾ مِن الكائناتِ التي أَخْبَر عنها في القرآنِ قبلَ كونِها، وقد وقَع المخبَرُ به على وَفْقِها، فيكون معجزًا(٤).

٦- إثباتُ أفعالِ اللهِ الاختياريَّة، يعني: التي يَفعلُها سُبحانَه باختياره؛ لقوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي﴾ وسوف: للمُستقبَل(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٣٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٤/ ١٦٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤١).

٧- إثباتُ المحبَّةِ مِن اللهِ ولله؛ مِن اللهِ في قوله: ﴿يُحِبُّهُمْ﴾، ولله في قوله: ﴿وَيُحِبُّونَهُ﴾، وهذه الآية جمَعتْ بين محبَّة اللهِ لعبادِه الصالحين، ومحبَّةِ العبادِ الصالحين للهِ[1].

٨- يُستفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿وَلا يَخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾ أنَّه يَنبغي للإنسانِ ألَّا تأخذَه في اللهِ لومةُ لائم؛ فما دام على حقٍّ، فلا يُهِمَّنَّه أحدٌ؛ لأنَّه لا بدَّ لكلِّ عابدٍ من عدوٍّ، لكن ذلك مع وجوبِ الحِكمة؛ لأنَّ التهوُّرَ يَحصُل منه انعكاسُ المقصودِ[2].

٩- قولُه: ﴿وَلا يَخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾ فيه أنَّ خوفَ الملامةِ ليس عذرًا في تركِ أمرٍ شرعيٍّ[3].

١٠- يُستفادُ من قولِه: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ يُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾ أنَّ الوصفَ بالمحبَّة، والذلَّة، والعِزَّة، والمجاهَدة، وانتفاءِ خوفِ اللائمة- حصَل بفضلِ الله تعالى، وهذا يدلُّ على أنَّ طاعاتِ العبادِ مخلوقةٌ للهِ تعالى[4].

١١- قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ﴾، ولم يقُل: (أولياؤكم) للتنبيهِ على أنَّ الولايةَ للهِ على الأصالةِ، ولرسولِه وللمؤمنينَ على التَّبَع؛ إذ التقديرُ: إنَّما وليُّكم اللهُ وكذا رسولُه والمؤمنونَ، ولو قيل: (إنما أولياؤكم الله ورسوله والذين آمنوا) لم يكُن في الكلامِ أصلٌ وتبعٌ[5].

١٢- يُستفادُ من قولِه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٧).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٣٩٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٨٢).

فضيلةُ الصَّلاةِ؛ لأنَّ الصَّلاةَ دائمًا في المقدِّمة، فهي أفضلُ العبادات بعدَ التوحيدِ، والشهادةِ بالرِّسالة(١).

١٣- يُستفادُ من قولِه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أنَّ مرتبةَ الزكاةِ في دِينِ الإسلامِ بعدَ مرتبةِ الصَّلاةِ، وهكذا في الآياتِ الكريمةِ وفي الأحاديثِ النبويَّة؛ تأتي الزكاةُ بعد الصَّلاةِ(٢).

١٤- لَمَّا كان لقَبُ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يشملُ كلَّ مَن أسلمَ في الظاهرِ، وصَفَ هؤلاء الأولياءَ بقولِه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾، أي: دون المنافقين الذين قالوا آمنَّا بأفواهِهم، ولم تُؤمنْ قلوبُهم، والذين يأتون بصورةِ الصَّلاةِ دون رُوحِها ومعناها، فإذا قاموا إليها ﴿قَامُوا كُسَالَى يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾(٣) [النساء: ١٤٢].

١٥- الثَّناءُ التامُّ على رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم وعلى المؤمنين، وأنَّ تولِّيَهم من أسبابِ الغَلَبَة، أمَّا تولي اللهِ فهو شأنٌ فوقَ ذلك؛ لقوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾(٤).

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ﴾ جملةٌ معترِضة بين ما قبلَها وبين قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ دعَت لاعتراضِها مناسبةُ الإنذارِ في قوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٣٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ١٩٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا ((٦/ ٣٦٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٨).
(٥) ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٣٤).

٢- قوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾

- فيه مناسَباتٌ حَسنةٌ لطيفةٌ في التَّقديمِ والتَّأخيرِ؛ حيث قَدَّمَ مَحبَّةَ اللهِ تعالى لهم ﴿يُحِبُّهُمْ﴾ على مَحبَّتِهم له ﴿وَيُحِبُّونَهُ﴾؛ لشَرفِ مَحبَّةِ الله لهم، وسَبْقِها على مَحبَّتِهم إيَّاه. وقدَّمَ الوَصْفَ بالمحبَّةِ مِنهم ولهم على وَصْفِهم بأذلَّةٍ على المؤمِنين، وأَعِزَّة على الكافِرين؛ لأنَّهما ناشِئتانِ عن المحَبَّتَينِ. ولَمَّا كان الوصفُ الذي بَينَ المؤمِن وربِّه أشرفَ مِن الوصفِ الذي بَينَ المؤمِن والمؤمِن؛ لِذَا قدَّم قولَه: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ على قولِه: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾. وقدَّمَ وَصْفَهم المتعلِّقَ بالمؤمِنينَ ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ على وصْفِهم المتعلِّقِ بالكافرينَ ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾؛ لأنَّ المتعلِّقَ بالمؤمِنينَ آكَدُ وألزَمُ من المتعلِّقِ بالكافِرين، ولشَرفِ المؤمنِ أيضًا[1].

- ووقَعَ الوَصفُ في جانبِ المحبَّةِ بالجُملةِ الفِعليَّة ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾؛ لأنَّ الفِعلَ يَدُلُّ على التجدُّدِ والحدوثِ، وهو مُناسبٌ؛ فإنَّ محبَّتهم للهِ تعالى تُجَدِّدُ طاعاتِه وعبادتَه كلَّ وقتٍ، ومَحبَّةُ اللهِ إيَّاهم تُجَدِّدُ ثوابَه وإنعامَه عليهم كلَّ وقتٍ، بَيْنمَا وقَع الوَصفُ في جانبِ التواضُعِ للمُؤمنين والغِلظة على الكافِرينَ بالاسمِ الدالِّ على المبالَغةِ؛ دَلالَةً على ثُبوتِ ذلك واستقرارِه، وأنَّه عزيزٌ فيهم؛ فالاسمُ يدلُّ على الثُّبوتِ والاستقرارِ[2].

- ولَمَّا كان ذلُّهم هذا إنَّما هو الرِّفقُ ولِينُ الجانبِ لا الهوانُ، كان في الحقيقةِ عِزًّا، فأشارَ إليه بحَرْفِ الاستعلاءِ (على)، في قوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾؛

(١) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٩٧، ٢٩٩)، ((الدر المصون)) للحلبي (٤/ ٣١٠)، ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٣٨٨).

(٢) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٩٩)، ((الدر المصون)) للحلبي (٤/ ٣١٠).

ففيه مناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيث جاء التعبير بـ﴿عَلَى﴾ وليس باللام، فلم يقل: (أذلَّة للمؤمنين)؛ لأنَّه قد ضُمِّن الذُّلُّ معنى الشَّفقة والحُنوِّ والعطَف، مُبيِّنًا أنَّ تواضُعَهم عن علوِّ منصبٍ وشرفٍ، كأنَّه قيل: عاطِفين عليهم على وجْه التَّذلُّلِ والتواضُع، أو: أنَّهم مع شَرفِهم وعلوِّ طبقتِهم وفضلِهم علَى المؤمنينَ خافِضونَ لهم أجنِحَتَهم[١].

٣- وقوله: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ فيه: تعريضٌ بالمنافقين؛ فإنَّهم كانوا إذا خرَجوا في جيشِ المسلمين خافوا أولياءَهم اليهودَ، فلا يكادون يَعمَلون شيئًا يَلحَقُهم فيه لَوْمٌ من جِهَتِهم[٢].

- وفي تنكيرِ ﴿لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ مبالغةٌ، كأنَّه قيل: لا يَخافون شيئًا قطُّ مِن لومِ أحدٍ من اللُّوَّام[٣]، و﴿لَوْمَةَ﴾ للمرَّة الواحدةِ من اللَّومِ، وهي نَكِرةٌ في سياقِ النفي؛ فتَعُمُّ؛ فهم لا يَخافون جميعَ أنواعِ اللَّومِ مِن جميعِ اللَّائمين[٤].

٤- قوله: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ تذييلٌ، وفيه إشارةٌ إلى ما تقدَّمَ من الأوصافِ الجليلةِ، والتعبيرُ باسم الإشارةِ ﴿ذَلِكَ﴾ وما فيه من معنى البُعد؛ للإيذانِ ببُعد منزلتِها في الفَضلِ[٥].

٥- قوله: ﴿ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ الجملة اعتراضٌ تذييليٌّ مُقرِّر لِمَا قبله،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ١٩١)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٨٢).

(٢) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٥٢).

(٣) ينظر: ((المصدر السابق))، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٣٨).

(٤) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٣٨).

(٥) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ١٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٣٩).

وإظهارُ الاسمِ الجليلِ ﴿اللهُ﴾ في موضِعِ الإضمار؛ للإشعارِ بالعِلَّة، وتأكيدِ استقلالِ الجُملةِ الاعتراضيَّة(١).

- وقوله: ﴿وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ الواسِع فيه إشارةٌ إلى كَمالِ القُدرة، والعليمُ فيه إشارةٌ إلى كمالِ العِلم، وجاء على صِيغة (فعيل)؛ للمبالغة في وصْفه بالعِلم بجميعِ الأشياء التي مِن جُملتِها مَن هو أهلٌ للفضل والتوفيق؛ فلمَّا أخبر الله تعالى أنَّه سيجيء بأقوامٍ هذا شأنُهم وصِفتُهم، أكَّد ذلك بأنَّه كاملُ القُدرةِ؛ فلا يَعجِزُ عن هذا الموعودِ، كاملُ العلم؛ فيمتنع دخولُ الخُلفِ في أخبارِه ومواعيدِه(٢).

٦- قوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ... فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ فيه: وضْعُ الظاهرِ موضعَ المضمَر- حيث لم يقُل: (فإنَّهم هم الغالبون)- وفائدة وضْعِ الظاهرِ موضعَ المضمَرِ هنا الإضافةُ إلى اللهِ تعالى، فيُشرَّفون بذلك، ويَصيرون بذلِك أعلامًا، وفيه تنبيهٌ على البُرهان عليه، فكأنَّه قيل: ومَن يتولَّ هؤلاءِ فهم حزبُ اللهِ، وحزبُ اللهِ هم الغالبون؛ ففيه تنويهٌ بذِكرهم، وتَعظيمٌ لشأنِهم، وترغيبٌ في ولايتِهم، وتعريضٌ لِمَن يُوالي غيرَ هؤلاء بأنَّه حزبُ الشَّيطانِ(٣).

---

(١) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٥٢).

(٢) ينظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٣٨٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٥٢).

(٣) ينظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٠١) ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ١٩٤).

وهذا الوجه بناءً على القول بأنَّ جوابَ ﴿مَنْ﴾ هو قوله: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ...﴾، وأمَّا على القَولِ بأنَّ جوابَ ﴿مَنْ﴾ محذوفٌ؛ لدلالةِ ما بَعدَه عليه، أي: يكُن مِن حزبِ اللهِ ويَغْلِب؛ فليس فيه هذا الوجهُ.

الآيات (٥٧ - ٦١)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ (٥٧) وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ (٥٨) قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ (٥٩) قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ (٦٠) وَإِذَا جَآءُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ (٦١) ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿هُزُوًا﴾: أي: سُخريًّا واستِهزاءً وتلعبًا[1].

﴿تَنْقِمُونَ﴾: تكرَهُونَ وتُنكِرون وتَعيبون، مِن نَقِمْتُ الشَّيءَ: إذا أنكرْتَه، إمَّا باللِّسانِ، وإمَّا بالعقوبةِ، وأَصْلُ (نقم): يدلُّ على إنكارِ شيءٍ وعَيبِه[2].

﴿أُنَبِّئُكُمْ﴾: أُخْبِرُكم، والنَّبأ: الخبرُ الذي له قَدرٌ، وفائدةٌ عظيمةٌ، ويحصُل به علمٌ أو غَلَبَةُ ظنٍّ، وأَصْلُ (نبأ): الإتيانُ من مكانٍ إلى مكانٍ؛ وسُمِّي الخبرُ نبأً لانتقالِه من مكانٍ إلى مكانٍ[3].

﴿مَثُوبَةً﴾: أي: جزاءً ثابتًا، أو ثوابًا، وهو عبارةٌ عن المنفعةِ الخالِصةِ المقرونةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٣٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٢٣٣)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٨٤١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٤٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٨- ٧٨٩).

بالتعظيم، والمثوبةُ مختصَّةٌ بالخيرِ؛ كما أنَّ العقوبةَ مختصَّةٌ بالشرِّ[(١)].

﴿لَعَنَهُ﴾: طَرَدَه وأبْعَدَه، واللَّعْن: الطردُ والإبعادُ على سَبيل السَّخطِ[(٢)].

﴿الطَّاغُوتَ﴾: الطَّاغُوتُ هو كُلُّ ذِي طُغْيَانٍ عَلَى الله، فكلُّ مَعْبُودٍ مِن دُونِ الله إذا لم يَكُنْ كارِهًا لذلك: طاغوتٌ؛ إنَسانًا كان ذلك المعبودُ، أو شَيْطانًا، أو وَثنًا، أو صَنَمًا كَائِنًا ما كان من شيءٍ، والمُطاعُ في معصيةِ اللّهِ طاغوتٌ، وكذلك السَّاحِرُ والكاهِنُ، واشتقاقُه من الطُّغْيان: وهو الظُّلْم والبغْيُ، يقال طَغَا فُلانٌ يَطْغَى: إذا عَدا قَدْرَه فتجاوَز حَدَّه[(٣)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

١ - قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ﴾

﴿وَالْكُفَّارَ﴾: قُرِئ بالنَّصب وبالجرِّ؛ فعلى النَّصب فهو عطفٌ على ﴿الَّذِينَ﴾ المنصوبة في قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا...﴾، أي: لا تَتَّخِذوا المُسْتَهْزئينَ ولا الكُفَّار أولياءَ؛ فيَخرُجون مِن الوَصفِ بالهزُءِ واللَّعبِ. وعلى الجرِّ

---

(١) يُنظر: ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٧، ٨٨١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٥٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٢٠٠) ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٣).

وقال ابنُ القيِّم: (والطاغوتُ: كلُّ ما تَجاوَزَ به العبدُ حَدَّه مِن معبودٍ، أو مَتبوعٍ، أو مطاعٍ؛ فطاغوتُ كلِّ قومٍ مَن يَتحاكَمون إليه غيرَ اللهِ ورسولِه، أو يَعبُدونه مِن دون الله، أو يَتَّبعونه على غيرِ بصيرةٍ مِن الله، أو يُطيعونه فيما لا يَعلمون أنَّه طاعةٌ لله؛ فهذه طواغيتُ العالمِ ...) ((أعلام الموقعين)) (١/ ٤٠).

فهو عَطفٌ على ﴿الَّذِينَ﴾ المجرورةِ في قولِه: ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا﴾؛ ومعناها: أنَّه نَهاهُم أن يَتَّخِذوا المُستهزئينَ أولياءَ، وبيَّنَ أنَّ المُستهزئينَ صِنفانِ: أهلُ كِتابٍ مُتقَدِّمٍ؛ وهم اليَهودُ والنَّصارى، وكُفَّارٌ عبَدَةُ أوثانٍ؛ فيكونونَ موصوفينَ باللَّعب والهزء، كما وُصِف به الَّذين أُوتوا الكِتابَ؛ والمعنيانِ صَحيحانِ[1].

٢- قوله: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾

﴿أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ﴾: ﴿أُنَبِّئُكُمْ﴾ فِعلٌ وفاعِلٌ، والكاف مَفعولٌ أوَّلُ، و﴿بِشَرٍّ﴾ جارٌّ ومَجرورٌ، وهو في مَحلِّ نَصبٍ مَفعولٌ ثانٍ لـ(أُنَبِّئ)[2].

﴿مَنْ لَعَنَهُ اللهُ﴾: ﴿مَنْ﴾: موصولةٌ بمَعْنَى الذي، وقد حَمَلَ على لفظِها فأفرَدَ في قوله: ﴿لَعَنَهُ﴾ و﴿عَلَيْهِ﴾، ثمَّ حَمَل على معناها فجَمَع في قوله: ﴿مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ﴾. ويجوزُ في إعرابِ ﴿مَنْ﴾: أنْ يكونَ في محلِّ رفْع على أنَّه خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ، أي: هو مَن لَعَنه اللهُ. ويجوز أنْ يكون ﴿مَن﴾ في موضِع جرٍّ على البَدلِ مِن لَفْظِ ﴿بِشَرٍّ﴾ بدَلَ الشَّيءِ من الشَّيء، والتقدير: (أَؤُنَبِّئُكُمْ بِمَنْ لَعَنَهُ اللهُ). ويجوزُ أنْ يكونَ في مَوضِع نصْبٍ على البَدلِ مِن مَحلِّ قولِه: ﴿بِشَرٍّ﴾؛ إذ محلُّه النَّصبُ، أو في مَوضِع نَصْبٍ بفِعلٍ مَحذوفٍ دلَّ عليه ﴿أُنَبِّئُكم﴾، أي: أعرِّفكم مَن لَعَنَه اللهُ[3].

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٣٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٤٦)، ((إعراب القرآن الكريم)) للدعاس (١/ ٢٦٣).

(٢) وذلِك لأنَّ أصْلَ الفِعل (نَبَّأ وأنبأ) يَتعدَّى لمفعولَين؛ فيتعدَّى إلى المفعولِ الأوَّل بنَفْسِه، وإلى الثَّاني بحَرْفِ الجرِّ كما هنا، ونحوه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ﴾، وقدْ يُحْذَفُ الجارُّ تَخفيفًا، نحوُ قولِه تعالى: ﴿مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا﴾، وقد يُحذَفُ المفعولُ الأوَّلُ؛ للدَّلالةِ عليه، كقولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَت بِهِ﴾، حيثُ تعدَّى لمفعولَينِ حُذِفَ أوَّلُهما، والثاني مجرورٌ بالباء، أي: نَبَّأَتْ به غيرَها. يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٣٦٤).

(٣) ينظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٣١)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري =

المَعنَى الإجْماليُّ:

يَنهَى اللهُ تعالى المؤمنينَ عن اتِّخاذِ أعدائِهم حُلفاءَ وأنصارًا وأعوانًا، الذين مِن صِفاتهم أنَّهم يَستهزِئونَ بشعائرِ الدِّينِ القويم ويَحتقرونها؛ مِن اليهودِ والنصارى وغيرِهم من الكفَّارِ، ثم يَأمُرُهم بتقواه في ذلك، إنْ كانوا حقًّا مؤمنينَ.

ثم يُخبِرُ اللهُ تعالى المؤمنين عن بعض مظاهرِ استهزاءِ هؤلاء الأعداءِ بالدِّين، فهم إذا سمِعوا الأذانَ يُنادَى للصَّلاةِ اتَّخذَها هؤلاءِ الكفارُ من اليهودِ والنصارى، والمشركين سُخريةً ولعبًا؛ وذلك لكونِهم قومًا لا يَعقلونَ.

ثم يَأمُرُ اللهُ نبيَّه محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يقولَ لأهلِ الكتابِ: يا أهلَ الكتابِ إنَّكم بمعاداتِكم لنا، وحَرْبِكم علينا، ما تَكْرَهون منَّا، ولا تَعِيبونَ علينا إلا إيمانَنا باللهِ، وبالقرآنِ الذي أُنزِل علينا، وإيمانَنا بما أُنْزِلَ مِن قبلُ كالتَّوراةِ والإنجيلِ، وأنَّ أكثرَكم فاسقونَ.

ويأمُرُ اللهُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أن يَقولَ لهم أيضًا: هل أُخْبِرُكم- يا معشرَ اليهودِ والنَّصارى- بِشَرٍّ مِن ذَلِكَ الذي نقَمْتُم فيه علينا ثوابًا وجزاءً، مع التنزُّلِ معكم؟ مَن طردَهم اللهُ مِن رَحْمتِه، وأنزل عليهم غضبَه، ومسخَ بعضَهم إلى قرودٍ وخنازيرَ، وجعَل منهم مَن عَبَدَ الطاغوتَ؛ هؤلاء الذين عدَّد اللهُ أوصافَهم هم شرٌّ منزلةً في الدُّنيا والآخِرة من المؤمنينَ الذين نقَموا عليهم إيمانَهم.

ثم يُخبرُ اللهُ الذين آمنوا أنَّ المنافقين من اليهودِ إذا أَتَوهم قالوا لهم كَذِبًا: إنَّهم آمنوا، والحقيقة أنـهم متمسِّكون بكُفرِهم، قد دخلوا بكُفرِهم عليكم، وخرَجوا به كما قد دَخَلوا، لم ينفعْهم ما يَسمَعونه عندَكم من العِلم والمواعِظ، واللهُ تعالى هو أعلمُ بما يُسرُّونه ويُخفونَه.

= (١/ ٤٤٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٣٢٦).

تَفْسيرُ الآياتِ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٥٧)﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ﴾.

أي: لا تتَّخذوا- أيُّها المؤمنونَ- الَّذين يَستهزِئون بشعائرِ دِينكم، ويَرمُقونها بعينِ الاحتقارِ والسُّخرية، ويعتقدونها ضَربًا من اللَّهوِ والعبثِ في نظرِهم الفاسدِ؛ مِن اليهودِ والنَّصارى ومن سائرِ الكفَّارِ والمشركين- لا تتَّخذوا هؤلاءِ ولا هؤلاءِ أنصارًا لكم وحُلفاءَ وأعوانًا[1].

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

مُناسَبَتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا نهَى الله تعالى المؤمنين عن اتِّخاذِ أهلِ الكتابِ والكفَّار أولياءَ، أمَرَهم بتقواه؛ فإنَّها هي الحاملةُ على امتثالِ الأوامرِ، واجتنابِ النواهي، أي: اتَّقوا اللهَ في موالاة الكفَّار، ثم نبَّه على الوصفِ الحاملِ على التقوى، وهو الإيمانُ[2]، فقال تعالى:

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

أي: امتَثِلوا ما أمَرَكم اللهُ تعالى به، واجتنِبوا ما نهاكم عنه، ومن ذلك ترْكُ اتِّخاذِ هؤلاءِ الأعداءِ لكم ولدِينِكم أولياءَ، إنْ كنتم مؤمنين حقًّا بشَرْعِ اللهِ عزَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٦٢- ٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٠٢).

وجلَّ الذي اتَّخذَه هؤلاءِ هُزُوًا ولعبًا[١].

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (٥٨)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا حَكَى اللهُ تعالى في الآيةِ الأُولى عن أهلِ الكِتابِ والكفَّارِ أنَّهم اتَّخذوا دِينَ المسلمين هُزوًا ولعبًا، ذكَر هاهنا بَعضَ ما يتَّخِذونه مِن هذا الدِّينِ هُزوًا ولعبًا[٢]، فقال:

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾.

أي: وإذا أذَّنْتُم للصَّلاة- أيُّها المؤمنون- سَخِرَ منها هؤلاءِ الكفَّارُ من اليهود والنصارى والمشركين، واعتقدوها ضَربًا من اللَّهوِ والعبثِ[٣].

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

أي: إنَّما تقَعُ منهم السُّخريةُ بالصَّلاةِ، ويتَّخذونَها لَعبًا؛ لعدمِ عَقلِهم، ولجهلِهم العظيمِ بربِّهم، وبمعاني عِبادَتِه وحَقيقةِ شرائِعِه، وإلَّا فلو كانتْ لهم عقولٌ راشدةٌ لعظَّموا هذه العبادةَ العظيمةَ[٤].

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ (٥٩)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٣٥- ٥٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٦- ٢٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٦٤).

(٢) ينظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٣٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٦٩- ٧٠).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا حَكَى تعالى عنهم في الآيةِ السَّابقةِ أنَّهم اتَّخذوا دِينَ الإسلامِ هُزوًا ولَعِبًا، أمَرَ بسؤالهم: ما الذي تَنقِمون من هذا الدِّينِ، وما الذي تَجِدون فيه ممَّا يوجِبُ اتخاذَه هُزوًا ولعبًا[1]؟! فقال تعالى:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ (٥٩)﴾.

أي: قلْ- يا محمَّدُ- لهؤلاءِ الذين اتَّخذوا دِينكم هزوًا ولعبًا من أهل الكِتابِ: يا معشرَ اليهودِ والنَّصارى، ما لكم علينا مِن مطعَنٍ أو عيبٍ إلَّا إيمانُنا باللهِ تعالى وبالقرآنِ الذي أُنزِلَ إلينا وبالكتُبِ الإلهيَّة السابقةِ التي أُنْزِلَت مِن قبلنا، وإلَّا إيمانُنا بأنَّ أكثرَكم خارجونَ عن طاعةِ اللهِ العظيم، ناكِبون عن الطَّريق المستقيم؛ فهل يُعدُّ هذا عيبًا؟! وكيف تَعيبوننا بهذا الذي هو أوجبُ الواجباتِ، وأعظمُ المهمَّات[2]؟!

كما قال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البروج: ٨-٩].

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (٦٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بكَّتَ اللهُ اليهودَ والنصارَى، وأقامَ الحُجَّة على هُزْئهم ولَعِبِهم بما تقدَّم، انتقَل عزَّ وجلَّ إلى ما هو أشدُّ تبكيتًا وتشنيعًا عليهم، بما فيه مِن التذكيرِ بسوءِ

---

(١) ينظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٣٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٣٧- ٥٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٧٦- ٧٩).

حالهم مع أنبيائهم، وما كان من جزائِهم على فِسقِهم، وتمرُّدِهم بأشدِّ ما جازَى اللهُ تعالى به الفاسقينَ الظَّالِمين لأنفسِهم، وهو اللَّعنُ والغَضَب، والمسخُ الصوريُّ أو المعنويُّ، وعبادةُ الطاغوتِ[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَر أنَّ أهلَ الكتابِ يعيبونَ المسلمينَ بالإيمانِ باللهِ ورُسُلِه- ذكَر عيوبَ أهلِ الكتابِ في مقابلةِ ذلك ردًّا عليهم[2]، فقال:

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾.

أي: قل- يا محمَّدُ- هل أنبِّئكم يا أهلَ الكتابِ بشرٍّ عندَ اللهِ مِن الذي نَقَمتُم فيه علينا ثوابًا وجزاءً[3]؟

﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾.

أي: هو مَن طَردَه اللهُ تعالى وأَبْعَدَه مِن رَحمتِه، وأحلَّ عليه غضبَه[4].

﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾.

أي: ومَسَخَ بعضَهم إلى قردةٍ وخنازيرَ؛ خِزيًا ونكالًا في الدُّنيا[5].

﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قولِه تعالى: ﴿عَبَدَ﴾ قِراءتان:

(١) ينظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٣٧٠)

(٢) ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٢٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٣٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٢٠٤) ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٨٢- ٨٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٨٤).

١- ﴿عَبُدَ﴾ بجَعْل ﴿عَبُد﴾ اسمًا مُفردًا ليس بجَمْع، على وزن (فَعُل)، الذي يُفيدُ معنى المبالغةِ والكثرةِ؛ فالعَبُدُ هو المبالِغُ في العُبوديةِ المنتهِي فيها؛ كما يُقال: فَطُن وحَذُر، للبليغِ في الفِطنة والحَذَر، فيكون (وَعَبُدَ) اسمًا مُضافًا إلى الطَّاغوتِ، وهو منصوبٌ عطفًا على ﴿القِرَدَةَ﴾[1]، وقيل: إنَّ (عَبُد) جمْع (عَبْد)، أي: خَدَمًا للطَّاغوتِ[2].

٢- ﴿عَبَدَ﴾ بجَعْل ﴿عَبَدَ﴾ فعلًا ماضيًا عطفًا على ﴿لَعَنَهُ اللهُ﴾ ونُصِبَ ﴿الطَّاغُوتَ﴾ بِه[3].

﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾.

أي: ومَن عبَدوا الطَّاغوتَ، (وهو كلُّ ما تجاوزَ به العبدُ حَدَّه مِن معبودٍ أو مَتبوعٍ أو مطاعٍ ورضِي بذلك)[4].

---

(١) قرأ بها حمزة. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٢٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٣١)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٤١٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٣٢٧) ((إبراز المعاني)) (٢/ ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٤١)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١٣٣).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٢٦).
قال ابنُ خالويه: (الحُجَّة لِمَن فتَح الباء: أنه جعله فعلًا ماضيًا مردودًا على قوله: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللهُ﴾ ومَن عبَدَ الطاغوتَ) ((الحجة)) (ص: ١٣٣).
وقال مكيُّ بن أبي طالبٍ: (وحُجَّة مَن فتَح الباء والتاء [أي التاء في كلمة الطاغوت] أنَّه جعَله فعلًا ماضيًا، وعطَفَه على فِعلٍ ماض، وهو غضِبَ ولَعَن وجَعَل، ونصب الطاغوتَ به) ((الكشف)) (١/ ٤١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٤٤)، ((أعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٨٥- ٨٧).
قال ابنُ تَيميَّة: (فـ «جعَل» معطوف على «لعَن»، ليس المراد: وجعَل منهم مَن عبَدَ الطاغوت، كما ظنَّه بعضُ الناس، فإنَّ اللَّفظ لا يدلُّ على ذلك والمعنى لا يناسبه، فإنَّ المراد ذَمُّهم على ذلك لا الإخبار بأنَّ الله جعَلَ فيهم مَن يَعبُد الطاغوت؛ إذ مجرَّد الإخبار بهذا لا ذمَّ فيه لهم، بخِلاف جعْله منهم القردةَ والخنازير، فإنَّ ذلك عقوبةٌ منه لهم على ذُنوبهم، وذلك خزيٌ =

﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾.

أي: هؤلاءِ الذين وصَفَهم اللهُ تعالى هُم في الحَقيقةِ شرٌّ مكانًا ومنزلةً في الدُّنيا والآخِرة عند اللهِ تعالى مِنَ المؤمنين؛ الذين نَقَمتُم عليهم إيمانَهم باللهِ وبما أُنزل إليهم وبما أُنزل مِن قَبلِهم، وهم أيضًا أشدُّ بُعدًا عن الطَّريقِ القويم[1].

﴿وَإِذَا جَاؤُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ (٦١)﴾.

﴿وَإِذَا جَاؤُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ﴾.

أي: وإذا جاءَكم- أيُّها المؤمنون- هؤلاءِ المنافقون من اليهودِ[2]، قالوا لكم بألسنتِهم كذبًا ومكرًا: آمنَّا، والحالُ أنَّهم دخلوا وهم مُقيمونَ على كُفْرِهم الذي تَنطوي عليه قلوبُهم[3].

﴿وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾.

أي: وقدْ خرَجوا بالكُفرِ مِن عندِكم كما دَخَلوا به عليكم، لم يَرجِعوا بمجيئِهم

= لهم، فعابَهم بلعنة الله وعقوبته بالشِّرْك الذي فيهم، وهو عبادةُ الطاغوت) ((منهاج السنة النبوية)) (١/ ٤٨٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٤٥- ٥٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٤٣- ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٨٧- ٩٠).

وقيل: قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ جوابٌ مِن الله تعالى، وممَّن اختار هذا القولَ: ابنُ جرير في ((تفسيره)) (٨/ ٥٤٥- ٥٤٦)، وابنُ عثيمين في ((تفسير سورة المائدة)) (٢/ ٨٧).

وقيل: ذلِك من كلام المؤمنين. وممَّن اختار هذا القول: ابنُ كثير في: ((تفسيره)) (٣/ ١٤٣).

(٢) وهذا اختيار ابن جرير في ((تفسيره)) (٨/ ٥٤٦)، والواحدي في ((الوجيز))، (ص: ٣٢٦)، وابن عاشور في ((تفسيره)) (٦/ ٢٤٧)، وابن عثيمين في ((تفسير سورة المائدة)) (٢/ ٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٩٧).

إليكم عن كُفرِهم الكامِنِ فيهم، فلم يَنتفعوا بما قد سَمِعوا منكم من العِلم، ولا نجعتْ فيهم المواعظُ(١).

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾.

أي: واللهُ عالمٌ بما انطوتْ عليه قلوبُهم، وإنْ أظهروا للناسِ خلافَ ذلك؛ فإنَّ عالمَ الغيبِ والشَّهادة أعلمُ بهم منهم، وسيُجازيهم على ذلك(٢).

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١ - التَّحذيرُ التَّامُّ مِن اتِّخاذِ أهلِ الكتابِ والكفَّارِ أولياءَ، وذلك بإثارة الحميَّة والغَيرةِ في قوله: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا﴾؛ لأنَّ أيَّ إنسانٍ يشعرُ بأنَّ شخصًا يَهْزَأُ به في دِينه ويقول: هذا الدِّين لعبٌ لا فائدةَ منه؛ لا شكَّ أنَّه سيثورُ(٣).

٢ - أنَّ العِلمَ قد يكون وبالًا على صاحبِه؛ لقوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ فإنَّ هؤلاءِ أُعطُوا العِلْمَ، ووُصِفَ لهم الرسولُ محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم في التَّوراة والإنجيل وصفًا يَجعلهم يَعرِفونه كما يَعرِفون أبناءَهم، ومع ذلك لم ينفعْهم هذا العلمُ(٤).

٣- أنَّ الإيمانَ الحقيقيَّ مُقتضٍ للتَّقْوى؛ لقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(٥).

٤ - يُستفادُ من قولِه: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ تعظيمُ الصَّلاةِ حيث يُنادَى لها، وحتى يَعلمَ الناسُ دُخولَ وقتِها؛ فيُصلُّوا ويحضُروا إنْ كانوا ممَّن يجِبُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٦٥)، ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٤٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٦٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٦٧).

عليهم الحضورُ للجماعة[١].

٥- أنَّ القيام بالصَّلاة دليلٌ على كمالِ العقل، وأنَّ مَن لم يهتمَّ بها فإنَّ ذلك دليلٌ على نقْصِ عقلِه؛ لقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فتكونُ إقامةُ الصلاةِ مِن تمامِ العقولِ، والتهاونُ بها مِن نقصِ العقولِ، كما أنَّه نقصٌ في الدِّينِ[٢].

٦- أنَّه ينبغي للمؤمِنِ أن يكونَ صريحًا، فلا يُداهِن؛ لقوله: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾، وهذه مقابلةٌ صريحةٌ بوصفهم بالفِسْق[٣].

٧- أنَّ العِبرةَ إنَّما تكون بالمنزلةِ عندَ الله لا عند النَّاس؛ لقوله: ﴿مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾، ويتفرَّع على هذا: أنَّه يَنبغي لنا ألَّا ننظُرَ إلى منزلتنا عند النَّاسِ، وإنما ننظُرُ إلى منزلتِنا عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ، وإذا صحَّحنا ذلك كفانا اللهُ مؤونةَ النَّاسِ[٤].

٨- يُستفادُ مِن قَوْلِه: ﴿وَإِذَا جَاؤُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ التَّحذيرُ مِن المنافقين؛ لأنَّ اللهَ لم يَقصَّ علينا قَصَصَهم أو حالَهم إلَّا لنحْذرَ، لا لنعلمَ فقط[٥].

٩- أنَّه ليس لنا أن نَحكُمَ إلَّا بما ظهَر؛ لقوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾؛ لأنَّ اللهَ لم يُخبِرْنا إلَّا لنحذرَ، ولو أنَّنا بَقِينا على ما يَبدو لنا لكانَ هؤلاءِ مؤمنينَ حسَبَ ما يقولون، لكنَّ اللهَ أخبَرَنا بهذا لنحذرَهم[٦].

١٠- يُستفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ تحذيرُ المرءِ مِن أن يُبطِنَ في قلبِه ما يُخالِفُ لسانَه، وهذه مسألةٌ يجب علينا أن نُعالِجَ أنفسَنا منها،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٧٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٧٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٩١).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٩٨).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

احذرْ أن تُضمرَ في قلبِك ما يُخالِفُ ما تَنطِقُ به بلسانِك، أو تفعله بجوارحِك؛ يجب أن تُصفِّيَ القلبَ أوَّلًا، وتُطهِّر القلبَ، ثم بعدَ ذلك تَبني أعمالَك على حسَبِ هذه التصفيةِ[١].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- يُستفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ إظهارُ عداوةِ هؤلاءِ الكفَّار من أهل الكتاب والكفَّار للإسلام، وأنَّ عداوَتَهم ظاهرةٌ[٢].

٢- مشروعيَّةُ النِّداءِ للصَّلاةِ؛ لقوله: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾، والنداء يعني الأذانَ، ففيه دلالةٌ على ثُبوتِ الأذانِ بنصِّ الكتابِ لا بالمنامِ وحْدَه[٣].

٣- يُستفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ أنَّه إذا كان النِّداءُ للصَّلاة مشروعًا، كان عبادةً يتقرَّب به المنادي إلى اللهِ، وهو كذلك، فالأذانُ مِن أفضلِ الأعمالِ[٤].

٤- قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ أصلٌ في تكفيرِ المُستهزئ بشيءٍ من الشَّريعةِ[٥].

٥- في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ سؤال: كيف يَنقِم اليهودُ على المسلمين مع كونِ أكثرِ اليهودِ فاسقين؟ والجواب من وجوه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٩٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٦٦)

(٣) ينظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٣٨٨)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٤٠٢)، ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ١١٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٣٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٧١)

(٥) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ١١٣).

الأوَّل: قوله: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ تخصيصٌ لهم بالفِسق، فيدلُّ على سبيلِ التعريض أنَّهم لم يتَّبعوهم على فِسقهم، فكان المعنى: وما تَنقِمون منَّا إلَّا أنَّ آمنَّا، وما فسَقْنا مثلَكم.

الثاني: لَمَّا ذكَر تعالى ما يَنقِمُ اليهودُ عليهم مِن الإيمانِ بجميعِ الرُّسل، وليس ذلك ممَّا يُنقَم، ذكَر في مقابله فِسقَهم، وهو ممَّا يُنقَم، ومِثل هذا حسنٌ في الازدواج؛ يقول القائل: هل تنقم منِّي إلَّا أني عفيفٌ وأنك فاجرٌ، وأنِّي غنيٌّ وأنت فقيرٌ، فيَحسُن ذلك لإتمامِ المعنى على سبيلِ المقابلة.

والثَّالث: أنْ يكونَ الواو بمعنى (مع)، أي: وما تَنقِمون منَّا إلَّا الإيمانَ بالله مع أنَّ أكثَركم فاسقون، فإنَّ أحدَ الخَصمين إذا كان موصوفًا بالصفات الذميمةِ، واكتسب الثاني شيئًا كثيرًا من الصِّفات الحميدة، كان اكتسابُه للصفات الحميدة مع كونِ خصمِه مكتسِبًا للصفات الذَّميمة أشدَّ تأثيرًا في وقوعِ البُغض والحسَد في قلبِ الخَصم.

والرابع: أن يكونَ على تقديرِ حذْفِ المضافِ، أي: واعتقاد أنَّكم فاسقون.

الخامس: أن يكونَ التقدير: وما تنقمون منَّا إلَّا بأنْ آمنَّا بالله وبأنَّ أكثَركم فاسقون، يعني بسبب فِسقِكم نَقَمتُمُ الإيمانَ علينا.

السادس: يجوز أن يكون تعليلًا معطوفًا على تعليلٍ محذوف، كأنَّه قيل: وما تَنقِمون منَّا إلَّا الإيمانَ؛ لقلَّة إنصافِكم، ولأجْلِ أنَّ أكثَركم فاسقون[1].

٦- يُستفاد مِنْ قَوْلِه: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ فضيلةُ هذه الأمَّة، وأنَّ هذه الأمَّةَ لها فَضلٌ ومَزيةٌ على الأُممِ السَّابقة؛ لأنَّها تؤمنُ بالله وما أُنزِلَ إليها وما

(١) ينظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٣٨٩)

أُنْزِلَ من قبلُ، وهذا لا يوجدُ في أممٍ آخرين؛ لا يُوجد إلَّا في هذه الأُمَّة(١).

٧- قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾ النبأ إنما يُرادُ به الشيءُ المهمُّ العظيمُ؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ [ص: ٦٧]، بخلاف الخَبَر، الذي قد يكونُ في أمورٍ تافهةٍ، لكنَّ النبأَ لا يكون إلَّا في أمورٍ مهمَّة؛ ولعلَّ ذلك- واللهُ أعلم- لأنَّ أحد اشتقاقاتِه مِن النَّبْوَة، والنَّبوة: بمعنى الارتفاع(٢).

٨- في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ...﴾ الآية، قد يتساءَلُ متسائلٌ: المثوبةُ مختصَّةٌ بالإحسان؛ فكيف جاءتْ في الإساءةِ؟ فالجواب: أنَّ هذا مِن الكلامِ الذي يُقصَد به الاستهزاءُ الزائد في غَيظِ المستهْزَأِ به كما يقول الرجلُ لعدوِّه: أَبْشِرْ بقتْلِ ذُرِّيَّتِك ونهْبِ مالك! فهي على سبيلِ التهكُّم، أو لأنَّ المثوبةَ هنا وُضِعتْ موضِعَ عُقوبة(٣).

٩- مسَخ بعضَهم إلى قِرَدةٍ وخنازيرَ، كما في قوله: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ لما لنوعَيِ القِردةِ والخنازيرِ مِن الخِسَّة والحَقارة، وما لهما في صدورِ الدَّهماءِ والخاصَّة من القُبحِ والتشويهِ، وشَناعةِ المنظَر، ونذالَة النَّفْس، وحقارة القَدْر، ووضاعة الطَّبْع، وقُبح الصوتِ، ودناءةِ الهِمَّة، ممَّا ليس لغيرِهما مِن سائرِ أنواع الحيوانِ(٤).

١٠- لا نَسْلَ لِمَن مُسِخوا قردةً وخنازيرَ(٥)، فعن ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه، ((أنَّ رجلًا قال: يا رسولَ اللهِ، القردةُ والخنازيرُ، هي ممَّا مُسِخَ؟ فقال النبيُّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٨١).

(٣) ينظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٥١-٦٥٢)، ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٣٩٠) (٢/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٤١٠)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٨٣).

(٤) ينظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٥١٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٨٤- ٨٥).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لم يُهلِكْ قومًا، أو يُعذِّب قومًا، فيجعل لهم نَسلًا، وإنَّ القردةَ والخنازيرَ كانوا قبلَ ذلك))(١).

١١- أنَّ اسمَ التَّفضيل قد يقَعُ بين شيئين لا يَشترِكان في أصلِ المعنى، فيكون المرادُ به مطلقَ الاتصاف، لا معنى التفضيل؛ لقوله سبحانه: ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾؛ لأنَّ المعنى: بأشرَّ مِن ذلك، وكذلك في الخَيرِ ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا﴾ [الفرقان: ٢٤]، ولا خيرَ في مستقرِّ أهلِ النارِ(٢). وقيل: إنَّ مكان هؤلاء في الآخرة شرٌّ وأضلُّ من مكان المؤمنين في الدنيا؛ لِمَا يَلحقُهم فيها من الشرِّ والضلال الحاصلِ لهم بالهموم الدنيويَّة، كسماعِ الأذى وغيرِه، أو أنَّ ذلك على سبيلِ التنزُّلِ والتسليمِ للخَصمِ على زعْمِه إلزامًا بالحُجَّة(٣)؛ فيكون فيه إخراجُ الكلامِ على حسَبِ قولِهم واعتقادِهم؛ لأنَّهم لَمَّا حَكموا بأنَّ دينَ الإسلام شرٌّ، فقيل لهم: هَبُوا الأمرَ كذلك، ولكنْ لَعنةُ الله تعالى وغضبُه، والإبعادُ عن رحمتِه، والطردُ من ساحة رِضاه، ومَسْخُ الصورةِ إلى أقبحِ أنواعِ الحيوانِ وأرذَلِه، شرٌّ مِن ذلك الذي تَزعُمون أنَّه شرٌّ(٤).

١٢- إثباتُ الغَضبِ للهِ عزَّ وجلَّ؛ لقوله: ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾، وهو من الصِّفات الفعليَّة(٥).

١٣- يُستفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ أنَّ كلَّ مَن عبدَ غيرَ الله فقد عبدَ الطاغوت، يعني: عبَد عِبادةَ الطاغوت، يعني الطغيانَ(٦).

(١) رواه مسلم (٢٦٦٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٩١).
(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٨٤).
(٤) ينظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٥١٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٩١).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٩٦).

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ﴾

- الجُملةُ استئنافيَّة، جاءتْ لتأكيدِ بَعضِ مضمونِ الكلامِ الذي قَبْلَها[١].

- وقد رتَّب النَّهيَ عن موالاتِهم على اتِّخاذهم دِينَهم هزوًا ولعبًا؛ إيماءً إلى العلَّة، وتنبيهًا على أنَّ مَن هذا شأنُه بعيدٌ عن الموالاةِ، جديرٌ بالمعاداةِ والبغضاءِ[٢].

٢- قوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ فيه: بيانٌ للمُستهزئين، والتعرُّض لعنوانِ إيتاءِ الكِتابِ؛ لبيانِ كَمالِ شَناعتِهم، وغايةِ ضلالتِهم؛ لأنَّ إيتاءَ الكتابِ وازعٌ لهم عن الاستهزاءِ بالدِّين المؤسَّسِ على الكتابِ المصدِّقِ لكتابِهم[٣].

٣- قوله: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا...﴾ هذه الآيةُ كالتوكيدِ للآيةِ قَبلَها[٤].

- وفيه: بيانٌ لاستهزائِهم بحُكم خاصٍّ من أحكامِ الدِّينِ، بعدَ بيان استهزائِهم بالدِّين على الإطلاقِ؛ إظهارًا لكَمالِ شَقاوتِهم[٥].

٤- قوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾:

---

(١) ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٤١).

(٢) ينظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٣١).

(٣) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٥٣).

(٤) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٠٣).

(٥) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٥٣).

- في هذه الآيةِ نوعٌ طَريفٌ مِن البَلاغة، وهو توكيدُ المدحِ بما يُشبِه الذمَّ[١]، وهو ذائعُ الشُّهرة، ولكنَّه قَليلُ الأمثلةِ، ومنه هذه الآيةِ؛ فإنَّ الاستثناءَ بعدَ الاستفهامِ الجاري مَجرَى التوبيخِ على ما عابوا به المؤمنين مِن الإيمان يُوهِم بأنْ يأتي بعدَ الاستفهامِ ما يجب أن يُنقَمَ على فاعِله بما يُذَمُّ به، فلمَّا أتى بعد الاستفهامِ ما يُوجِبُ مدْحَ فاعِله، كان الكلامُ متضَمِّنًا تأكيدَ المدحِ بما يُشْبِه الذمَّ؛ فكأنَّه قال: أنتُم لا تَعيبونَ علينا شيئًا هو عيبٌ، بل تَعيبونَ علينا شيئًا هو كمالٌ، وهو الإيمانُ باللهِ وبما أُنزل إلَيْنا[٢]!

- وفي قوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا﴾ أمرٌ لرَسولِ الله بطريقِ تلوينِ الخِطابِ حيثُ قال: ﴿قُلْ﴾ مُخاطبًا الرَّسول، بعدَ نهي المؤمنينَ عن تولِّي المستهزئينَ، في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا...﴾ [المائدة: ٨٤- ٨٥] فأمَرَه أنْ يُخاطِبَهم، ويُبيِّن أنَّ الدِّينَ مُنزَّهٌ عَمَّا يُصحِّح صدورَ ما صدَر عنهم من الاستهزاءِ، ويُظهِرُ لهم سَببَ ما ارتكبوه، ويُلْقِمهم الحجرَ! أي: قُلْ لأولئك الفَجَرةِ[٣].

- والاستفهامُ في قوله: ﴿هَلْ تَنْقِمُونَ﴾ إنكاريٌّ وتعجُّبي؛ فالإنكارُ دلَّ عليه الاستثناءُ، والتعجُّبُ دلَّ عليه أنَّ مفعولاتِ ﴿تَنْقِمُونَ﴾ كلَّها محامِدُ لا يحقُّ نَقمُها، أي: لا تجِدون شيئًا تنقِمونه غير ما ذُكِر[٤].

---

(١) تأكيدُ المدحِ بما يُشبه الذمَّ- أو بعبارة أتقَن: تأكيد الشَّيءِ بما يُشبه ضِدَّه-: وهو عند عُلماءِ البلاغةِ استِثناءُ صِفة مَدْحٍ مِن صِفةٍ ذمٍّ منفيَّةٍ عن الشَّيء، بتقديرِ دُخولِها في صِفة الذمِّ المنفيَّة. ينظر: ((البرهان)) للزركشي (٣/ ٥١)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٥١١).

(٢) ينظر: ((تفسير القاسمي)) (٤/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٥١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٧٧).

(٣) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٥٣- ٥٤).

(٤) ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٤٣).

٥- قوله: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ...﴾

- فيه عرْضُ الخِطابِ بصِيغةِ الاستفهام ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾؛ لأنَّ ذلك أمكَنُ في النَّفْسِ، وأحضَرُ للقلب(١).

٦- قوله: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ فيه: وضْعُ الاسمِ الجليلِ ﴿اللَّهُ﴾ موضعَ الضَّمير؛ لتربيةِ المهابةِ، وإدخالِ الرَّوعةِ، وتهويلِ أمْرِ اللَّعن وما تبِعه، والموصول ﴿مَنْ﴾ عبارةٌ عن المخاطبَين؛ حيث أبعدَهم اللهُ تعالى من رحمتِه، وسَخِط عليهم بكُفرِهم وانهماكِهم في المعاصي بعدَ وضوحِ الآياتِ(٢).

٧- قوله: ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ جُعِلتِ الشَّرارةُ للمَكانِ، وهي لأهْلِه؛ ليكونَ أبلغَ في الدَّلالةِ على شَرارتِهم؛ ففي قوله: ﴿شَرٌّ مَكَانًا﴾ مبالغةٌ ليستْ في قولِ: (أولئك شرٌّ وأضلُّ)؛ لدخولِه في بابِ الكِنايةِ(٣).

- واسمُ الإشارةِ ﴿أُولَئِكَ﴾ عبارةٌ عمَّن ذُكِرت صفاتُهم الخبيثةُ، وما فيه مِن معنى البُعد؛ للإيذانِ ببُعدِ مَنْزلتِهم في الشَّرارةِ(٤).

٨- قوله: ﴿وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ﴾: أفاد دخولُ ﴿قَدْ﴾- مع إفادتِها تقريبَ الماضي مِن الحالِ؛ ليصحَّ أن يقعَ حالًا لِمَا فيها من التوقُّع-: أنَّ أمارةَ النِّفاقِ كانتْ لائحةً عليهم(٥).

٩- قوله: ﴿وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ فيه تأكيد وصْفِهم بالكُفر بتكرار المسنَدِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٩٠)

(٢) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٥٥).

(٣) ينظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٥٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٥٦).

(٤) ينظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٥٦).

(٥) ينظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٥٢)، ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٣٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٣١)

إليه ﴿وَهُمْ﴾؛ تَنْبيهًا على تحقُّقهم بالكُفْر، وتماديهم عليه؛ وأنَّ رُؤيةَ الرَّسولِ- إن كان الخطاب في ﴿جَاؤُوكُمْ﴾ للرسول- لم تُجْدِ معهم، ولم يتأثَّروا لها، وكذلك إنْ كان ضميرُ الخطاب في: ﴿وَإِذَا جَاؤُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾ للمؤمنين؛ كان يَنبغي لهم أن يُؤمنوا ظاهرًا وباطنًا لِمَا يرونَ مِن المؤمنين من التصديقِ للرَّسولِ، والاعتمادِ على الله تعالى، والرَّغبة في الآخرة، والزُّهد في الدُّنيا، وهذه حالُ مَن ينبغي موافقتُه؛ فكان يَنبغي لهم ألَّا يَخرُجوا بالكفر؛ لأنَّ رُؤيتَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كافيةٌ في الإيمانِ، ألَا ترى إلى قولِ بعضِهم حين رأى الرسولَ: علمتُ أنَّ وجْهَه ليس بوجهِ كذَّابٍ، مع ما يَظهَرُ لهم مِن خوارقِ الآياتِ، وباهِرِ الدَّلالاتِ، فكان المناسبُ أنَّهم وإنْ كانوا دخلوا بالكفر ألَّا يَخرُجوا به، بل يخرجون بالرسولِ مُؤمنِينَ ظاهرًا وباطنًا، وكان ينبغي إذْ شاهدوهم أن يَتَّبعوهم على دِينهم، وأن يكونَ إيمانُهم بالقولِ موافقًا لاعتقاد قلوبِهم[(١)]. وفيه- مع تأكيد إضافةِ الكُفرِ إليهم- نفْيُ أن يكونَ من النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم في ذلك فِعلٌ[(٢)].

١٠- **قوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾** خبرٌ الغرضُ منه المبالغةُ فيما في قلوبِهم من الجدِّ والاجتهادِ في المكرِ بالمسلمين، والكيدِ بهم، والبُغض والعداوةِ لهم[(٣)]، وفيه: وعيدٌ شديدٌ لهم؛ فعِلمُه محيطٌ بهم وسَيجزيهم عليه[(٤)].

---

(١) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣١٠، ٣١١).
(٢) ينظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٣٩٢).
(٣) ينظر: ((المصدر السابق)).
(٤) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٥٧)، ((تفسير القاسمي)) (٤/ ١٧٦).

الآيات (٦٢ - ٦٤)

﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٦٢) لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ (٦٣) وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ (٦٤) ﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿مَغْلُولَةٌ﴾: مُمسِكةٌ مُنقبِضةٌ عن العَطاء، وأصل الغَلَلِ: تدرُّعُ الشيءِ وتوسُّطه، ويدلُّ على تَخلُّلِ شيءٍ، وثَباتِ شيءٍ، كالشَّيءِ يُغرَز؛ يقال: غَلَل الشَّيءَ في الشَّيءِ، إذا أثْبَتَه فيه، كأنَّه غَرَزَه[1].

﴿مَبْسُوطَتَانِ﴾: أي: مَمدوتانِ بالبَذلِ والإعطاءِ، وأَرزاقِ عِبادِه، وأقواتِ خَلْقِه، وأَصْلُ (بسط): يدلُّ على امتدادِ الشَّيءِ، في عَرْض أو غيرِ عَرْض[2].

﴿طُغْيَانًا﴾: أي: مُجاوزةً للحدِّ في العِصيان[3].

﴿الْعَدَاوَةَ﴾: أي: اختلافَ القلوبِ والنِّيَّات والتباعُد بها، والعَداوةُ أخصُّ من البَغضاء؛ لأنَّ كلَّ عَدوٍّ مبغِضٌ، وقد يُبغَض مَن ليس بعدوٍّ، مأخوذةٌ مِن عَدْوَتي الجَبل، وهما طَرَفاه؛ سُمِّيَا بذلك لبُعد ما بينهما، وقيل: مِن عدا، أي: ظَلَم[4].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٧٥- ٣٧٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٥٣- ٥٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٤٤).

﴿وَالْبَغْضَاءَ﴾: أي: البُغض، وهو نفارُ النَّفسِ عن الشيءِ الذي تَرغَبُ عنه، وأصلُ البُغض: خلافُ الحبِّ[1].

المَعنَى الإجْماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى لنبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ترى- يا محمَّدُ- كثيرًا من اليهودِ يُبادرونَ إلى ارْتِكابِ المعاصي، والاعتداءِ على حقوقِ الخَلْقِ، وأكْلِ الأموالِ بالباطِلِ؛ لَبِئسَ هذا العملُ الذي يعملونه! هلَّا يَنهاهم الربَّانيُّون منهم، وأحبارُهم عن قولِهم الإثمَ وأكْلِهم المالَ الحرامَ! لبئسَ هذا الصنيعُ مِن هؤلاءِ العلماءِ في ترْكِهم نهيَ اليهودِ عن أفعالِهم المنكَرة!

ثمَّ يُخبِرُ تعالى عن اليهودِ- قاتلَهم اللهُ- أنَّهم وصَفوا اللهَ تعالى بالبُخل، وزَعَموا أنَّ يدَه مقبوضةٌ عن الإنفاقِ، تعالى اللهُ عن ذلِك علوًّا كبيرًا، فردَّ عليهم سبحانه قائلًا: قُبِضتْ أيديهم، وطُرِدُوا من رحمةِ اللهِ بما قالوه من كذب وافتراءٍ؛ فالأمْر ليس كما زعَمُوا، بل يداه مبسوطتانِ بالبذلِ والعطاءِ، يُنفِقُ كما أراد.

ثمَّ أخبر اللهُ نبيَّه محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ ما أنزله إليه مِن القرآن، إذا سمعه اليهودُ سيَزيدُهم تجاوزًا لحدودِ اللهِ وكُفرًا، وأخبر عزَّ وجلَّ أنَّه جَعَل بين اليهودِ عَداوةً وتباغضًا، ولا يزال ذلك مُستمرًّا بينهم إلى يَومِ القيامةِ، وأنَّهم كلَّما أرادوا إشعالَ حَربٍ؛ أطفأَها اللهُ سُبحانَه، وأنَّ اليهودَ يُسارعون في نشْرِ الفسادِ في الأرض، واللهُ سُبحانَه لا يحبُّ المفسِدين.

تَفْسيرُ الآياتِ:

﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٢)﴾.

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٩).

﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾.

أي: وتُبصِر- يا محمَّدُ- كثيرًا من هؤلاءِ اليهودِ يَتسابَقون في ارتكابِ معاصِي اللهِ لا يَتحاشَوْنَ شيئًا منها، ويُبادرون إلى تعدِّي حدودِه؛ ممَّا أحلَّ لهم وحرَّمَ عليهم، ومن ذلك: الاعتداءُ على حقوقِ المخلوقين، وأكْلُ الأموالِ بالباطلِ، كالرَّشاوَى التي يتلقَّوْنَها[1].

﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

أي: واللهِ لَبِئسَ العملُ ما كانَ هؤلاءِ اليهودُ يَعملونه في مسارعتِهم في الإثمِ والعُدوانِ، وأكْلِهم السُّحتَ[2].

﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (٦٣)﴾.

﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾.

أي: هلَّا يَنهاهم الربانيُّون (وهم العلماءُ الحُكماءُ العُبَّاد الذين يُربُّون الناسَ بصغارِ العلمِ قبلَ كبارِه)، والأحبارُ (وهم العلماءُ الكبارُ ذَوو العلمِ الواسِع، المحكِمُون لعِلمهم) عنِ الوقوعِ في الكذبِ والزُّورِ؛ ومِن ذلك قولُهم: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾، وأكْلِ المالِ الحرامِ، كالرِّشوة![3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٤٨- ٥٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٤٧- ٢٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٩٩- ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٠٠- ١٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٠١).

وقال ابنُ عُثَيمين: (الإثمُ الذي يقولونه أعظمُه وأشدُّه أنَّهم يُنكِرون رسالةَ النبيِّ صلَّى الله =

﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾.

أي: واللهِ لَبِئسَ الصَّنيعُ ما كان يَصنعُه هؤلاءِ الربَّانيُّونَ والأحبارُ في ترْكهم نهيَ كثيرٍ من اليهودِ- الذين يُسارِعونَ في الإثمِ والعدوانِ وأكْلِ السُّحتِ- عن تعاطِي ذلك(١).

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٦٤)﴾.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾.

أي: وقالتِ اليهودُ- عليهم مِن الله ما يستحقُّون-: إنَّ اللهَ يَبخَلُ علينا، ويَحبِسُ عطاءَه، ويَقبِضُ خيرَه عنَّا، تعالى اللهُ عمَّا قال أعداءُ اللهِ عُلوًّا كبيرًا(٢).

ثم قال اللهُ تعالى على وجه الإخبارِ(٣):

= عليه وآله وسلَّم، وأعظمُ مِن ذلك أنهم يقولون: إنَّ عُزيرًا ابنُ الله، والمسيحَ ابنُ الله، والقائل: عزيرٌ ابن الله اليهودُ، والقائل: المسيحُ ابن الله النَّصارى؛ هذا قولُ الإثم، كذلك يقولون الكَذِب، كما سبَق أنهم يقولون لعوامِّهم قولًا يُكذِّبون به الرسولَ، ويَستمِعون للكذبِ، وقوله: ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ يعني: أكْل المال المحرَّم، سواء بالرِّشوة أو بالرِّبا، أو غير ذلك) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٥٢- ٥٥٣)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٤/ ٤١٢- ٤١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٤٥- ١٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٠٨).

(٣) قال ابنُ عُثيمين: (هذا خبرٌ وليس دعاءً؛ لأنَّه صادرٌ من عند الله عزَّ وجلَّ، والله سبحانه وتعالى يُخبر ولا يدعو، هذا هو الأصلُ؛ أنَّ ما أخبر الله به عن نفسِه فهو خبرٌ عن نفْسه ووقوعٌ- أي: وقوع الشيء- إلَّا إنْ دلَّ دليلٌ... على أنَّ الله جلَّ وعلا عَلَّمَ العبادَ أن يَدْعُوا، وأمَّا أن يسألَ =

﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾.

أي: قُبِضتْ أيديهم عن العَطاءِ والخَيرِ والإحسانِ، وطُرِدوا من رَحمةِ اللهِ تعالى؛ وهذا الغَلُّ لأَيديهم، ولَعْنُهم؛ جَزاءٌ لهم بسَببِ ما قالوه مِن كُفرٍ وافتراءٍ على اللهِ عزَّ وجلَّ(١).

﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾.

أي: ليسَ الأمرُ كما يَزعُمون، بل يداه سبحانه مبسوطتانِ بالبذلِ والعطاء، غير مقبوضتَينِ، فهو الواسعُ الفضلِ، الجزيلُ العطاءِ، لكنَّه يُعطي ويمنعُ بحسَبِ ما تَقتضيه حِكمتُه سبحانه(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وعن أبي هُرَيرَةَ رضِي اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، قال: ((إنَّ

= نفسَه أن يفعلَ؛ فلا يَرِد) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٠٩)، وينظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٥٣) ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٣٩٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٠٩).

قال ابنُ كثيرٍ: (... وهكذا وقَعَ لهم؛ فإنَّ [ما] عندهم من البُخلِ والحسدِ والجُبن والذِّلَّة أمرٌ عظيمٌ، كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا * أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا * فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ٥٣/٥٥]، وقال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ﴾ الآية [آل عمران: ١١٢]) ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٠٩- ١١٠).

يَمِينَ اللهِ مَلأى، لا يَغيضُها[1] نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ[2] اللَّيْلَ وَالنَّهارَ، أَرَأَيْتُم ما أَنْفَق مُنْذُ خَلَقَ السَّمَواتِ والأَرْضَ، فإنَّه لم يَنْقُصْ ما في يَمينِه))[3].

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾.

أي: إنَّ كثيرًا من هؤلاءِ اليهودِ- يا محمَّدُ- يَزدادون بسماعِهم القرآنَ العظيمَ تجاوُزًا لحُدودِ اللهِ تعالى، وكفرًا بالحقِّ[4].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤-١٢٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

---

(١) لا يَغيضها: أي لا يَنقُصُها. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٤٠١).

(٢) سحاءُ: أي: دائمةُ الصَّبِّ والهَطْل بالعَطاءِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٣٤٥)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٦/ ٤٥٩).

(٣) رواه البخاري (٧٤١٩)، واللفظ له، ومسلم (٩٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٥٧-٥٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١١٠، ١٦١).

قال السعديُّ: (تكونُ لمِثل هذا زِيادةَ غيٍّ إلى غيِّه، وطُغيانٍ إلى طُغيانه، وكفرٍ إلى كُفره؛ وذلك بسببِ إعراضه عنها، وردِّه لها، ومعاندتِه إيَّاها، ومعارضته لها بالشُّبه الباطلة) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٨).

وقال ابنُ عاشور: (وهذا بيانٌ للسببِ الذي بعثَهم على تلك المقالة الشَّنيعة، أي: أعماهم الحسدُ، فزادهم طغيانًا وكفرًا، وفي هذا إعدادٌ للرسول عليه الصَّلاة والسَّلام لأخْذِ الحذرِ منهم، وتسليةٌ له بأنَّ فَرْطَ حَنقِهم هو الذي أنطقَهم بذلك القولِ الفظيع) ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٥١).

﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾.

أي: وجعَلْنا بين اليهودِ عداءً لبعضِهم بأفعالِهم، وتباغضًا بينَهم بقلوبِهم، ولا يزالونَ كذلك إلى وقوعِ القِيامة(١).

﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾.

أي: كلَّما عقَدَ اليهودُ أسبابًا وأمورًا لحربِ أعدائِهم أبْطَلَها اللهُ عزَّ وجلَّ، فانحلَّ عزْمُهم، وكلَّما أقاموا حَرْبًا ردَّ اللهُ تعالى كَيدَهم في نُحورِهم، فانْخَذلوا وانْهَزموا(٢).

﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾.

أي: ويُسارِعونَ ويَجتهِدون في اكتسابِ الفسادِ بالكُفرِ، وعمَلِ المعاصي، ومحاربةِ الإسلامِ وأهلِه، ونشْرِ الباطِل، وغير ذلك من الأعمالِ الفاسِدة(٣).

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٢١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٥٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١١١- ١١٢).

قال ابنُ تَيميَّة: (﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ فهذا اللفظُ أصلُه: أنَّ المحاربين يُوقدون نارًا يجتمع إليها أعوانُهم، ويَنصُرون وليَّهم على عدوِّهم، فلا تتمُّ محاربتُهم إلا بها، فإذا طُفِئت لم يجتمعْ أمرهم، ثم صار هذا كما تُستعمل الأمثالُ في كلِّ محاربٍ بطَل كيدُه) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ٤٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٦١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٨٢، ١٨٣، ٢٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١١٢).

أي: واللهُ تعالى لا يُحبُّ هؤلاءِ؛ لأنَّهم مُفسِدونَ، ولا يحبُّ كلَّ مُفسدٍ من اليهودِ وغيرِهم، بل يُبغضهم، وسيُجازِيهم على ذلك(١).

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- أنَّ مَن سارَعَ في الإثمِ والعُدوانِ وأكْل السُّحت ففيه شَبَهٌ من اليهود؛ لقولِه: ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾(٢).

٢- يُستفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ التحذيرُ مِن الكَسْبِ المحرَّم؛ وجهه: أنَّ اللهَ سمَّاه سُحتًا؛ فاحْذرْ أن تخسرَ الدُّنيا والآخِرةَ بأكْلِ المحرَّم(٣).

٣- أنَّه لا حرَجَ أنْ نذُمَّ الأفعالَ المكروهةَ بقَطْعِ النَّظرِ عن فاعِليها؛ لقولِه تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٤).

٤- عِظَمُ مسؤوليَّة المربِّين والعلماءِ؛ لقوله: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ﴾، فجعَلَ اللهُ اللومَ على الربانيِّين والأحبارِ؛ لأنَّهم لم يقوموا بما أوجبَ اللهُ عليهم مِن نَهْيِ هؤلاءِ عن قولِهم الإثمَ وأكْلِهم السُّحتَ، فيجبُ على العُلماءِ أن يُبيِّنوا الحقَّ بقطْعِ النَّظرِ عن مكانتِهم الشخصيَّة، حتى لو فُرِض أنهم أُهينوا أو أُذلُّوا بسببِ ذلك، فالعاقبةُ لهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾(٥) [هود: ٤٩].

٥- قوله تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ فيه توبيخُ العُلماءِ التَّاركينَ للأمرِ بالمَعروفِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٠٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٠٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٠٣، ١٠٤).

والنَّهيِ عن المنكرِ؛ فليَفتَحِ العُلماءُ لهذه الآيةِ مَسامِعَهم، ويُفرِجُوا لها عن قُلوبِهم؛ فإنَّها قد جاءَتْ بما فيه البَيانُ الشَّافي لهم: بأنَّ كَفَّهم عن المعاصي مع تَرْكِ إنكارِهم على أهلِها؛ لا يُسمِنُ ولا يُغني مِن جُوعٍ، بل هم أشَدُّ حالًا، وأعظَمُ وبالًا مِنَ العُصاةِ، فرَحِمَ اللهُ عالِمًا قام بما أوجَبَه اللهُ عليه مِن فريضةِ الأمرِ بالمَعروفِ والنَّهيِ عنِ المُنكَرِ؛ فهو أعظَمُ ما افتَرَضه اللهُ عليه، وأوجَبُ ما أوجَبَ عليه النُّهوضُ به(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- عبَّر بالأكْلِ في قولِه: ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾؛ لأنَّه هو الغالبُ؛ ولأنَّ أعْلى ما يمكن أن ينتفعَ به الإنسانُ بالمالِ هو الأكلُ؛ لأنه يُغذِّي البَدن ويُنمِّيه، بخلاف اللِّباسِ والمساكِن والنِّكاح؛ فعبَّر به لهذا الوجهِ(٢).

٢- قوله: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ فيه دلالةٌ على كونِ الكفِّ فِعلًا؛ فترك الربانيِّين والأحبارِ نهيَهم عن قولِ الإثمِ وأكْلِ السُّحتِ سمَّاه اللهُ جلَّ وعلا في هذه الآية الكريمة صُنعًا، في قوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾، أي: وهو تركُهم النهيَ المذكورَ، والصنع أخصُّ مِن مُطلقِ الفِعلِ؛ فصراحةُ دَلالةِ هذه الآيةِ الكَريمةِ على أنَّ التَرْكَ فِعلٌ في غايةِ الوُضوحِ(٣).

٣- بيانُ عُدوانِ اليهودِ، وأنَّهم يُصرِّحون بالعدوانِ والاعتداءِ، حتى في حقِّ الخالِقِ عزَّ وجلَّ؛ لقولِهم: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾(٤).

---

(١) ينظر: ((فتح القدير)) للشوكاني (٢/ ٦٤).
(٢) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٠٢).
(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٤٨).
(٤) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١١٢).

٤- يُستفادُ من قولِهم: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ أنَّ اليهودَ يُقرُّون بصِفاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ الحقيقيَّة؛ لأنَّه لا يُقال: يدُ أحدٍ مغلولةٌ إلَّا لِمَن له يدٌ[1].

٥- يُستفادُ من قولِهم: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ الإشارةُ إلى حِرصِ اليهودِ على المالِ؛ وجه الدَّلالة: أنَّهم لم يَحملْهم على هذا القولِ إلَّا الجشعُ والطمعُ[2].

٦- في قوله: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ لم يُبيِّن اللهُ عزَّ وجلَّ مَن اللاعِنُ؛ لإفادةِ العُمومِ؛ أنَّ اللهَ يَلعَنُهم ويَلعنُهم اللاعِنون أيضًا[3].

٧- قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا...﴾ الآية أصلٌ في تكفيرِ مَن صدَر منه في جانبِ الباري تعالى ما يُؤذِنُ بنقْصٍ[4].

٨- إثباتُ اليدينِ للهِ عزَّ وجلَّ؛ لقوله سبحانه: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[5].

٩- كثرةُ عطاءِ اللهِ وَجُودِه؛ لقوله: ﴿مَبْسُوطَتَانِ﴾ لا يُمكن أن تُقبضَا بالنسبةِ للعطاء، وأنَّ عطاءَ اللهِ ومَنْعَه تابعٌ لمشيئتِه؛ لقولِه: ﴿يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾[6].

١٠- قال تعالى: ﴿أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ وقوله: ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ مُتعلِّق بـ﴿أُنْزِلَ﴾، وإنَّما قَيَّدَ إنزالَ القُرآنِ بكونِه مِن الرَّبِّ تعالى؛ ليدلَّ على أنَّ القُرآنَ نزَلَ مِنه سُبحانَه لا مِن غَيرِه من مَخلوقاتِه، وأنَّ نُزولَ القرآنِ ليسَ كنُزول غيرِه، فقَدْ فرَّق اللهُ تعالى بين ما نَزَّله منه وما نَزَّله مِن بعضِ المخلوقاتِ كالمطرِ، بأنْ قال: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [الرعد: ١٧]، فذَكَر المطرَ في غيرِ موضعٍ، وأخبر أنَّه نَزَّلَه مِن

(١) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١١٢).
(٢) ينظر: ((المصدر السابق)).
(٣) ينظر: ((المصدر السابق)).
(٤) ينظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ١١٣).
(٥) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١١٥).
(٦) ينظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١١٨).

السَّماء، وأخبَر بتنزيل مُطلَق في مِثل قوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ [الحديد: ٢٥]، وأمَّا القرآنُ فأَخبَر أنَّه مَنزَّلٌ منه، وقد قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢]، وروحُ القُدسِ هو جبريلُ؛ فبَيَّن أنَّ جِبريلَ نزَّلَه مِنَ اللهِ لا مِن هواه ولا مِن لَوحٍ ولا مِن غيرِ ذلك، وكذلك سائرُ آياتِ القرآنِ فقدْ بَيَّن في غير موضِعٍ أنَّه مُنزَّلٌ مِن الله، كقوله: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الزمر: ١]؛ فمَن قال: إنَّ القرآنَ مُنزَّلٌ مِن بعضِ المخلوقاتِ كاللَّوحِ أو الهواء، فهو مُفتَرٍ على الله، مُكذِّبٌ لكتاب الله، مُتَّبعٌ لغير سبيل المؤمنين(١).

١١- تحريمُ الفَسادِ في الأَرضِ؛ لقوله: ﴿لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾، وهكذا كلُّ شيءٍ نفَى اللهُ مَحبَّته فإنَّه حرامٌ؛ فالفسادُ في الأرضِ حرامٌ(٢).

١٢- يُستفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ أنَّ الشيء إذا ثبَت لوصفٍ، ثبَت ضدُّه لضدِّ ذلك الوَصف، فعلى هذا نقول: إذا كان اللهُ لا يحبُّ المفسِدين، فإنَّه يحبُّ المصلِحين(٣).

١٣- عنايةُ اللهِ عزَّ وجلَّ بالرسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ وذلك بقوله: ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾؛ فإنَّ هذه الربوبيَّةَ خاصَّةٌ، تَقتضي العنايةَ التامَّةَ والأقْوى والأشدَّ(٤).

١٤- أنَّ اللهَ تعالى أَلْقَى العَداوةَ والبَغضاءَ بين اليهود؛ لقوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ [الحشر: ١٤]، ولذلك هم أحزابٌ شتَّى، وحتى داخلَ الحزبِ الواحدِ مُتفرِّقون؛ لأنَّهم لا يُمكن أن يجتمِعوا وقد أَلْقَى اللهُ بينهم العداوةَ والبغضاءَ، فاجتماعُهم الآن ليس لأنَّهم متحابُّون متآلِفون، لكنَّهم اجتمعوا لهدفٍ واحدٍ

(١) ينظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ٤٠- ٤٣)، ((مجموع الفتاوى)) ابن تيمية (١٢/ ١٢٨).
(٢) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٢٥).
(٣) ينظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٢٦).
(٤) ينظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٣٢).

ومصلحةٍ واحدةٍ ضدَّ عدوٍّ واحدٍ للجميع، وهذا الاجتماعُ لا شكَّ أنَّه اجتماعٌ ظاهريٌّ فقط، مقصودٌ لغيرِه، وليس مقصودًا لذاتِه[1].

١٥- قال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ في هذا الخَبرِ الإيماءُ إلى أنَّ اللهَ عاقبَهم في الدُّنيا على بُغضِهم المسلمين، بأنْ ألْقَى البغضاءَ بين بعضِهم وبعضٍ؛ فهو جزاءٌ من جِنس العملِ، وهو تسليةٌ للرسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ألَّا يُهمَّه أمرُ عداوتِهم له؛ فإنَّ البغضاءَ سجيَّتُهم حتى بينَ أقوامِهم، وأنَّ هذا الوصفَ دائمٌ لهم، شأنُ الأوصافِ التي عَمِيَ أصحابُها عن مُداواتِها بالتخلُّق الحسَنِ[2].

١٦- لَمَّا كان الإخبارُ باجتماعِ كَلمتِهم على شقاوةِ الكفرِ- في قوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾- ربَّما أحْدَث خوفًا من كيدِهم، نفَى ذلك بقوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾، ولَمَّا كانتِ العداوةُ ربَّما زالتْ بزوالِ السَّبب، أفاد أنَّها لازمةٌ لا تنفكُّ بقوله: ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[3].

١٧- في قولِه تعالى: ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ سُمِّي ذلك اليَومُ الآخِرُ بيومِ القِيامة لوجوهٍ ثلاثة؛ الوجه الأوَّل: أنَّ الناس يقومون فيه مِن قُبورِهم لربِّ العالَمِين. الوجه الثاني: أنَّه يُقامُ فيه العدلُ. والثالث: أنَّه يُقام فيه الأشهادُ؛ تُستشهَدُ الرُّسلُ، ثم الأُممُ، ثم الجلودُ والأعضاءُ، ويَتبيَّن الأمرُ وينكشِف، ويَظهرُ ما في الصُّدور؛ فلذلك سُمِّي يومَ القيامةِ[4].

١٨- البُشرى التامَّة للمسلمين بأنَّ اليهود لن تقومَ لهم قائمةٌ في الحروب؛

---

(١) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٣٣)
(٢) ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٥١).
(٣) ينظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢٢٢).
(٤) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٣٤).

لأنَّهم: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ ولم ينالوا بها مقصودَهم، وإنْ كانوا قد يَنالون بعضَ الشيء، لكنَّهم لن ينالوا المقصودَ الذي يُريدونه بإشعالِ نارِ الحربِ[1].

١٩- إثباتُ الأفعالِ الاختياريَّة للهِ عزَّ وجلَّ؛ لقولِه: ﴿أَطْفَأَهَا﴾، وإطفاؤُها يكون بعدَ إيقادِها، وهذا فعلٌ مُتجدِّد[2].

٢٠- محبَّةُ اليهودِ للفسادِ في الأرضِ، وسَعيُهم في ذلك سعيًا حثيثًا؛ لقوله: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا﴾[3].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

- قوله: ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ...﴾ عبَّر هنا بلفظ (المسارعة)- مع أن أكثرَ استِعمالِه يكونُ في الخَيرِ- ولم يُعبِّر بلفظ (العجلة) مع أنه يكون في الشَّرِّ في الأغلب؛ قيل: للإشارة إلى أنَّ هذه المعاصي كأنها عِندَهم مِن قَبيل الطاعاتِ؛ فلذلك يُسارِعونَ فيها، أو إلى أنَّهم كانوا يُقدِمون على هذه المنكراتِ كأنَّهم مُحقُّون فيها[4].

- وقال تعالى: ﴿يُسَارِعُونَ فِي﴾ ولم يقُل: (يُسارعون إلى)؛ ذلك لأنَّ المسارعَ إلى الشيءِ يكون خارجًا عنه، فيُقبِلُ عليه بسرعةٍ، وهؤلاءِ غارقونَ في الإثمِ والعُدوان، وإنَّما يُسارِعون في جزئيَّات وقائعِهما، كلَّما قدَروا على

(١) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٣٥).
(٢) ينظر: ((المصدر السابق)).
(٣) ينظر: ((المصدر السابق)).
(٤) ينظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٣٩٢) ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣١١) ((تفسير الخازن)) (٢/ ٥٩).

إثمٍ أو عُدوانٍ ابْتَدَروه[1].

- وقوله: ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ خَصَّ ﴿الْعُدْوَانَ﴾ و﴿السُّحْتَ﴾ بالذِّكر مع اندراجِهما في الإثمِ، وهو يَتناولُ جميعَ المعاصي والمنهيَّات؛ للدَّلالةِ على أنَّ هذينِ النَّوعينِ أعظمُ أنواعِ المعصية، وللمبالغةِ في التَّقبيح[2].

٢- قولِه تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾

- قوله: ﴿ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ...﴾ فيه تَحضيضٌ مُرادٌ منه هنا التَّوبيخُ والتَّنديمُ لعُلمائِهم على سُكوتِهم عنِ النَّهيِ عن معاصِي اللهِ تعالى[3].

- وفي قوله تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢١٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٣٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٣٩٢) ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣١١) ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٤٨).

(لولا) التَّحضيضيَّة حَرْفٌ يَدلُّ على طَلَبِ الفِعلِ بِحَثٍّ وحضٍّ، وهي تَنقسِمُ قِسمين؛ الأولى: أنْ تَدخُل على فِعلٍ مضارعٍ، أو فِعلٍ يَكونُ مُمكنًا تَداركُه، مُمكنًا فِعلُه؛ فهذه تُفيدُ التحضيضَ فقط. الثانية: أنْ تَدخُل على فِعلٍ ماضٍ أو فِعلٍ فاتَ تَداركُه، ولم يَبقَ فِعلُه مُمكنًا؛ لأنَّ فُرصتَه ضاعَتْ ومَضَتْ، ولم يُمكِنْ تَداركُه؛ ولم يَبقَ مُمكنًا أبدًا؛ فهذه يَنقلِبُ تَحضيضُها إلى التوبيخِ والتنديمِ؛ وتارةً يُوبَّخ بها موجودٌ، كقولِه للَّذين تكلَّموا في عائشةَ وصفوانَ رضِي الله عنهما: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦]؛ لأنَّهم قدْ تَكلَّموا بما لا يَليقُ، فكأنَّه يُوبِّخُهم ويُنَدِّمُهم على ما فَرَط منهم. وتارةً يكونُ الموبَّخُ بها قدْ ماتَ، وليس موجودًا، كقوله: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ [الأنعام: ٤٣]؛ لأنَّ وقتَ نُزولِ الآيةِ هؤلاءِ الأممُ قدْ ماتوا وانْقَضَوْا في أزمانٍ متناهيةٍ، قد مَضَوْا في الزَّمانِ الماضي؛ فلا يُمكنُ حُصولُ الفعلِ منهم، وليسوا مَوجودِينَ حتَّى يَسمَعوا التوبيخَ، ولكنَّ المقصودَ مِن توبيخِ هذا الذي غَابَ وماتَ؛ ليعتبرَ به غيرُه؛ ولذا كان من الحَسن أن يُوبَّخ أولئك؛ لنعتبرَ بتَوبيخِهم، فنَجتنِبَ ذلِك الأمرَ الذي استحقُّوا التَّوبيخَ مِن أجْلِه. يُنظر: ((مغني اللبيب)) لابن هشام (ص: ٣٦١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٤٨).

السُّحْتَ﴾ اقتصَر في تَوبيخِ الرَّبَّانيِّين على تَرْكِ نَهيِهم عن قَولِ الإثمِ وأكْلِ السُّحتِ، ولم يَذكُرِ العُدوانَ؛ إيماءً إلى أنَّ العُدوانَ يَزجُرهم عنه المسلِمون، ولا يَلتجِئون في زَجْرِهم إلى غيرِهم؛ لأنَّ الاعتِمادَ في النُّصرةِ على غيرِ المجنيِّ عليه ضَعفٌ(١).

٣- قوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وقوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾: فيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ؛ فإنَّه لَمَّا ذكَر قولَه: ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ...﴾ ختَم بقولِه: ﴿يَعْمَلُونَ﴾، ولَمَّا ذكَر قولَه: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ...﴾ ختَم بقولِه: ﴿يَصْنَعُونَ﴾؛ وذلك لأنَّ في الأُولى مَعاصِي العوامِّ، وهي مِن قبيلِ ما يَحصُل بالطَّبعِ؛ لأنَّه اندفاعٌ مع الشَّهوةِ بلا بَصيرةٍ، أمَّا الثانيةُ فهي مَعصيةُ العلماءِ بتَرْكِ النَّهيِ عن المنكَرِ والأمرِ بالمعروفِ، وهذا مِن قَبيلِ الصناعة المتكلَّفة لفائدةٍ للصانعِ فيها، يلتمسها ممَّن يَصنَعُ له؛ فما ترَكَ العلماءُ النهيَ عن المنكرِ وهم يعلمون ما أخَذ اللهُ عليهم من الميثاقِ، إلَّا تكلُّفًا لإرضاءِ النَّاس، وتحاميًا لتَنفيرِهم منهم؛ فهو إيثارٌ لِرضا النَّاسِ على رِضوانِ اللهِ وثَوابه، والأقربُ أن يكونَ ﴿يَصْنَعُونَ﴾ مِن الصُّنع، لا مِن الصِّناعة، وهو العَملُ الذي يُقدِّمه المرءُ لغيرِه يُرضيه به(٢)، والصُّنع أيضًا عَملُ الإنسان بعدَ تدرُّب فيه، وتَروٍّ

(١) ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٤٨).

(٢) ينظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢١٧)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٨٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٣٧٣).

قال ابنُ عُثيمين: (وقوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ الصُّنع والفعل بينهما خصوصٌ وعموم مُطلَق؛ لأنَّ الصنع إنما يكون فِعلًا بترتيبٍ، وإعدادٍ للقول أو للفعل، بخلاف الفِعل المجرَّد، فالفعل يُطلق على كلِّ فِعل، سواء كان عن قصدٍ أو عن غيرِ قصد، حتى البهيمة لو أكَلَتْ قلنا: إنها فعلت، لكن الصُّنع لا يكونُ إلَّا بتدبيرٍ وتنسيقٍ وإصلاح؛ وذلك أنَّ هؤلاء الربانيِّين والأحبار يصنعون ما يصنعون مِن كتمان الحقِّ وعدم الأمر به؛ يُريدون أن يَبقَوا وجهاءَ في قومهم؛ لأنَّ الشيطان يقول لهم: إنْ نهيتموهم صِرتُم أعداءً لهم، ولم تحصُل لكم الرئاسةُ؛ فلذلك تجدهم يعملون هذا العملَ عن ترتيبٍ وعن سياسةٍ - كما يقولون) ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (٢/ ١٠٢).

وتحرِّي إجادةٍ؛ ولذلك ذُمَّ به خَواصُّهم (الربَّانيُّون والأحْبار)، ولأنَّ ترْكَ الحِسْبةِ أقبحُ من مُواقعةِ المعصية؛ لأنَّ النفسَ تلتذُّ بها وتَميل إليها، ولا كذلك تركُ الإنكارِ عليها، فكان جديرًا بأبلغِ الذمِّ[1].

- والجمْع بين صِيغتي الماضي ﴿كَانُوا﴾ والمستقبل ﴿يَصْنَعُونَ﴾؛ للدِّلالةِ على الاستمرارِ[2].

٤- **قوله: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ فيه**: تمثيلٌ وكنايةٌ حسَنة؛ حيث عبَّر بإيقادِ النار عن إظهارِ الحقدِ والكيدِ والمكرِ بالمؤمنين والاغتيالِ والقتالِ، فشبَّه به حالَ التهيُّؤ للحربِ والاستعدادِ لها، والحزامةِ في أمرِها، بحالِ مَن يُوقِدُ النارَ لحاجةٍ بها فتنطفئ، وعبَّر بإطفائِها عن صَرْفِ الله عنهم ذلك، وتفرُّقِ آرائهم، وحلِّ عزائمِهم، وتفرُّق كلمتِهم، وإلقاءِ الرُّعبِ في قلوبِهم؛ فشبَّه حالَ انحلالِ عزمِهم، أو انهزامِهم وسُرعة ارتدادِهم عنها، وإحجامِهم عن مقاتلةِ أعدائِهم، بحالِ مَن انطفأتْ نارُه التي أوقدَها[3].

٥- **قوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾ فيه**: بيانُ فظاعةِ سوءِ أدبِ اليهود؛ حيث عبَّروا عن إمساكِ الإحسانِ بأنَّه صادرٌ من مقهورٍ على الإمساكِ؛ فإنَّ لفظةَ ﴿مَغْلُولَةٌ﴾ تدلُّ على القَهر؛ إذ لا يغلُّ إلَّا المقهورُ[4].

٦- **قوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾**: ثُنِّيت اليدُ هنا، بالرغمِ مِن كونها أتتْ مفردةً في قولهم: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾؛ ليكونَ ردُّ قولهم وإنكارُه أبلغَ وأدلَّ على إثباتِ

(١) ينظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٣١).
(٢) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٥٧).
(٣) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٥١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٥٢٠).
(٤) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣١٤).

غاية السَّخاءِ له، ونفْي البُخل عنه سبحانه؛ وذلك أنَّ غاية ما يبذله السخيُّ بماله مِن نفْسه، وأنْ يُعطيه بيديه جميعًا(١).

٧- قوله: ﴿يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ جملةٌ مستأنَفَة واردةٌ لتأكيدِ كمالِ جُودِه، وللتنبيهِ على سرِّ ما ابتُلوا به من الضِّيقِ الذي اتَّخذوه- من غايةِ جهلِهم وضلالِهم- ذَريعةً إلى الاجتراءِ على الله بهذه المقالة الشنيعة، والمعنى أنَّ ذلك ليس لقصورٍ في فيضِه، بل لأنَّ إنفاقَه تابعٌ لمشيئتِه، المبنيَّةِ على الحِكَم، التي عليها يدورُ أمرُ المعاشِ والمعادِ، ففي قوله: ﴿يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ دلالةٌ على أنَّه لا ينفقُ إلَّا على مقتضى الحِكمةِ والمصلحةِ(٢).

٨- قوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ...﴾ جُملةٌ واقعةٌ في جَوابِ القَسمِ؛ وعليه فالجُملةُ مُؤكَّدةٌ بثَلاثةِ مؤكِّدات: القَسَم المقدَّر تقديره: (وَاللَّهِ)، واللام، ونُون التَّوكيد؛ وإنَّما أكَّد اللهُ ذلك لأهميَّته، ولئلَّا يُنكِرَ مُنكِرٌ أنْ يكونَ النازلُ شِفاءً لِمَا في الصُّدور- وهو القرآن- يَزيدُ هؤلاءِ طُغيانًا وكفرًا(٣).

- وفيه تقديمُ المفعولِ ﴿كَثِيرًا﴾ على الفاعِلِ ﴿مَا﴾- بمعنى الذي-؛ للاعتناءِ به، وتخصيصُ الكثيرِ منهم بهذا الحُكمِ؛ لأنَّ بعضَهم ليس كذلك(٤).

- وتأخيرُ قولِه: ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ عن ﴿إِلَيْكَ﴾ مع أنَّ حقَّه أن يَتقدَّم؛ لاقتِضاءِ

---

(١) ينظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣١٥).
مع تقرير أنَّ لله تعالى يَدينِ حقيقيتينِ تليقانِ بكمالِه وجلالِه، وهذه الآية كغيرها من آياتِ الصِّفات عندَ أهلِ السُّنة والجماعةِ؛ تُمَرُّ كما جاءتْ مِن غيرِ تعطيلٍ أو تحريفٍ، ومن غيرِ تمثيلٍ أو تكييفٍ، وغالبُ البلاغيِّين والمفسِّرينَ من أهلِ الكلامِ يتَّجهونَ في هذا الموضِعِ إلى نَفْيِ هذه الصِّفةِ بالتأويلِ المخالِفِ لاعتقادِ أهلِ السُّنةِ والجماعةِ، ولهم في ذلك تأويلاتٌ متعدِّدة، كلُّها مردودةٌ.
(٢) ينظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٥٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١١٠).
(٤) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٥٨).

المقامِ الاهتمامَ ببيانِ المنتهي؛ لأنَّ مدارَ زِيادةِ طُغيانِهم وكُفرِهم هو النُّزولُ إليه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، كما في قولِه تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾[1] [النمل: ٦٠].

- والتعرُّض لعنوانِ الرُّبوبيَّة مع الإضافةِ إلى ضَميرِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في قوله: ﴿رَبِّكَ﴾؛ لتشريفِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[2].

(١) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٥٨).

(٢) ينظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٦٥ - ٦٨)

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٦٥) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ (٦٦) يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٦٧) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٦٨)﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿مُقْتَصِدَةٌ﴾: عادلةٌ غيرُ غاليةٍ ولا مُقصِّرةٍ، أو مؤمنةٌ، والاقتصادُ: الاستواءُ في العملِ من غيرِ إفراطٍ ولا تفريطٍ[١].

﴿سَاءَ﴾: أي: قَبُحَ، والسُّوء: اسمٌ جامعٌ للآفاتِ، ثم استُعمِلَ في كلِّ ما يُستقبَحُ، وهو أيضًا كلُّ ما يغمُّ الإنسانَ[٢].

﴿يَعْصِمُكَ﴾: يَمنَعُك، وأصلُ العِصمةِ: المنعُ- ومنه يُقال: عَصَمَه الطَّعامُ؛ أي: منعَه من الجوعِ-، والإمساكُ والملازمةُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٩٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٣)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٤٤١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١/ ١٠٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٥٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (١/ ١٢٧).

﴿تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ﴾: أي: تُوفُّوا حُقوقَهما بالعِلمِ والعَملِ؛ وإقامَةُ الشيء: توفية حقِّه[1].

﴿فَلَا تَأْسَ﴾: أي: لا تَحزَنْ؛ يُقال: أسيتُ على كذا، أي: حزنتُ، فأنا آسَى أسًى، والأَسى: الحُزنُ[2].

المَعنَى الإجْماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى: لو آمَن أهلُ الكِتابِ من اليهودِ والنَّصارى حقًّا، واتَّقَوا ربَّهم سبحانه؛ لَمَحَا اللهُ عنهم ما اقترفوه من سيِّئاتٍ، ولأدخَلَهم الجَنَّة، ولو عمِلوا بما في التوارةِ والإنجيلِ والقرآنِ، لأفاض عليهم بركاتِ رِزقه، وعمَّهم الخيرُ مِن كلِّ جهةٍ؛ بأن يُرسِلَ عليهم المطرَ من السَّماء، ويُخْرِجَ لهم الثمراتِ من الأرضِ، ثمَّ أخبَرَ تعالى أنَّ مِن أهلِ الكتابِ جماعةً مستقيمةً على طريق الحقِّ، قائمةً بالواجبِ الذي كُتِب عليها، مقتصرةً عليه، وأنَّ كثيرًا منهم قدْ أساؤوا العملَ.

ثم أمَر اللهُ تعالى نبيَّه محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يُبلِّغَ كلَّ ما أنزلَه إليه، فإنْ لم يفعلْ ذلك، فما امتثل أمْرَه عزَّ وجلَّ بتبليغِ رِسالتِه، وطَمْأنَه سبحانه بأنَّه سيَمْنَعُه مِن الناسِ؛ فلا ينبغي أن يَثْنِيَه عن إبلاغِ شريعةِ اللهِ خوفُه من المخلوقينَ؛ إنَّ اللهَ لا يَهدي القومَ الكافرينَ. وأمَرَه أيضًا أنْ يقولَ لأهلِ الكتابِ: إنَّهم ليسوا على شيءٍ ممَّا يَدَّعون أنَّهم عليه من الدِّينِ، حتى يَعملوا بالتوارةِ والإنجيلِ والقرآنِ، وأخْبَره تعالى أنَّ كثيرًا من اليهود يَزدادون بسماعِ القرآن تجاوزًا لحدودِ اللهِ وكفرًا، فلا تحزنْ- يا نبيَّ اللهِ- على القومِ الكافرين.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٠، ٦٩٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٠٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٥).

تَفْسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٦٥)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بالَغَ اللهُ تعالى في ذمِّ أهلِ الكتابِ، وفي تَهجينِ طريقتِهم؛ بَيَّن أنَّهم لو آمَنوا واتَّقَوْا لوجَدوا سعاداتِ الآخرةِ والدُّنيا(١).

وأيضًا لَمَّا أثبتَ بقولِه: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ أنَّهم كانوا كَفرةً قبلَ إتيانِ هذا الرسولِ عليه السَّلامُ، وكرَّر ما أعَدَّه لهم من الخِزْيِ الدائمِ على نحوِ ما أخبَرَهم به كتابُهم؛ وعَظَهم ورَجَّاهم سبحانه؛ لئلَّا يَيْئسوا من رَوحِ اللهِ على عادةٍ منه في رحمتِه لعبادِه، ورأفتِه بهم(٢)، فقال تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾.

أي: ولو أنَّ أهلَ التَّوراةِ والإنجيلِ آمَنوا حقًّا بكلِّ ما يجبُ الإيمانُ به- ومِن ذلك: الإيمانُ باللهِ تعالى وبرسولِه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ- وفَعَلوا ما أمَرَهم اللهُ تعالى به، واجتَنبوا ما نهاهم عنه(٣).

﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾.

أي: لَمَحوْنا عنهم ذُنوبَهم، ولو كانتْ ما كانت، فغطَّيْنا عليها، ولم نَفْضَحْهم بها(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٣٩٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٣٧).

﴿وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾.

أي: ولأدْخلناهم في الآخِرةِ جَنَّاتٍ تَنعَمُ فيها قلوبُهم وأبدانُهم بأنواعِ النَّعيم، ممَّا تَشتهيه الأنفسُ، وتلَذُّ الأعينُ[١].

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ (٦٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا رغَّبهم اللهُ تعالى في الآيةِ السَّابقةِ في مَوعودِ الآخِرةِ؛ مِن تَكفيرِ السيِّئاتِ، وإدخالِهم الجَنَّةَ- رغَّبهم عقبَ ذلك في موعودِ الدُّنيا؛ ليجمَعَ لهم بين خَيْرَيِ الدُّنيا والآخِرةِ[٢]، فقال تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾.

أي: ولو أنَّ اليهودَ والنَّصارى عمِلوا بما في التوراةِ والإنجيلِ، وعَمِلوا بالقُرآنِ الذي أُنزِلَ إليهم مِن اللهِ تعالى، فصدَّقوا به، وامْتَثلوا أوامرَه واجتنبوا نواهيَه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٣٧- ١٣٨).

(٢) ينظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٣٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٦٢- ٥٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٤٧- ١٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٤٠- ١٤١).

قال ابنُ جرير: (فإنْ قال قائلٌ: وكيف يُقيمون التَّوراةَ والإنجيل وما أُنزل إلى محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم، مع اختلافِ هذه الكتُب ونَسْخ بعضها بعضًا؟ قيل: وإنْ كانت كذلك في بعض أحكامها وشرائعها، فهي متَّفقةٌ في الأمْر بالإيمان برُسل اللهِ، والتَّصديقِ بما جاءتْ به من عند الله؛ فمعنى إقامتِهم التوراةَ والإنجيلَ وما أُنزل إلى محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم تصديقُهم بما فيها، والعملُ بما هي متَّفقةٌ فيه، وبكلٍّ واحدٍ منهما في الحِين الذي فُرِض العملُ به) ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٦٢- ٥٦٣).

﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾.

أي: لأدرَّ اللهُ تعالى عليهم الرِّزقَ؛ بأنْ يُرسِلَ عليهم المطرَ من السَّماءِ، ويُخرِجَ لهم الثَّمراتِ من الأرضِ(١).

كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وكإخْبارِه تعالى عن نُوحٍ عليه السَّلام أنَّه قالَ لقَومِه: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠- ١٢].

﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾.

مناسبتُها لما قبلَها:

لَمَّا كان ما مضى قبلَ هذه الآيةِ مِن ذمٍّ أهلِ الكتابِ ربَّما أَفْهَم أنَّه لِكُلِّهم، قال- مستأنفًا جوابًا لِمَن يسألُ عن ذلك(٢):

﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾.

أي: مِن أهلِ الكِتابِ جَماعةٌ قائمةٌ بالواجبِ الذي عليها، فتَمتثِلُ ما أُمرَتْ به، وتجتنِبُ ما نُهيَتْ عنه، بلا زيادةٍ على ذلِك ولا نَقصٍ(٣).

﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٨- ٢٣٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤١٦).

(٢) ينظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٤٢).

أي: وكثيرٌ من اليَهودِ والنَّصارى قدْ أساؤوا العملَ[(١)].

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٦٧)﴾.

مناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا قال تعالى: ﴿لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ... وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ وعَلِم أنَّ مَن أُريدتْ سَعادتُه يُؤمِنُ ولا بدَّ، ومَن أُريدتْ شقاوتُه لا يُؤمِنُ أصلًا، وكان ذلك ربَّما أدَّى إلى الفُتورِ عن الإبلاغ؛ لذا أمَرَ اللهُ تعالى نبيَّه بالإبلاغِ وحثَّه عليه[(٢)].

وأيضًا لَمَّا حَكَى اللهُ تعالى في الآياتِ السَّابقةِ ما كان عليه أعداءُ الإسلامِ- سواء مِن أهل الكتاب من اليهودِ والنَّصارى، أو مِن المنافقين- مِن دَسائسَ، ومِن استهزاءٍ بتعاليمِ الإسلامِ، ومِن حِقْدٍ على المؤمنين، ومِن سوءِ أدبٍ مع الله، وكان الفريقان متظاهرَين على الرسول صلى الله عليه وسلم: فريق مجاهر، وفريق متستر- أتبَعه بتوجيهِ نِداءٍ إلى الرسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأمَرَه فيه بأنْ يَمضِي في تبليغِ رِسالتِه إلى النَّاسِ، دون أن يَلتفِتَ إلى مكرِ الماكرين، أو حِقْد الحاقِدين؛ فإنَّه سبحانه قد حماهُ وعَصَمه منهم[(٣)]، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾.

أي: يا محمَّدُ، أبلِغْ جميعَ ما أَرسلَكَ اللهُ تعالى به، فلا تترُكْ ولا تكتُمْ شيئًا منه[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٤٢).

(٢) ينظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢٢٩).

(٣) ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٥٦، ٢٥٧)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (٤/ ٢٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٤٧).

عن عائشةَ رضِي اللهُ عنها قالت: ((مَن حدَّثك أنَّ محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كتَم شيئًا ممَّا أُنزِلَ عليه فقَدَ كذَبَ؛ واللهُ يقولُ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ الآية))(١).

وعنها رضِي اللهُ عنها، قالت: ((ولوْ كانَ محمَّدٌ صلَّى اللهُ علَيهِ وسلَّمَ كاتِمًا شيئًا ممَّا أُنْزِلَ علَيهِ، لَكَتَمَ هذِهِ الآيَةَ: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب:٣٧]))(٢).

وعن جابرٍ رضِي اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال في حَجَّة الوداع: ((تركتُ فيكم ما لَنْ تَضِلُّوا بعدَه إنِ اعتصمتُم به: كتابَ اللهِ، وأنتُم تُسألونَ عنِّي، فما أنتُم قائلونَ؟ قالوا: نَشهَدُ أنَّكَ قد بلغْتَ وأدَّيتَ ونَصحْتَ، فقال بإصبَعِه السبَّابةِ، يَرفعُها إلى السَّماءِ، ويَنكتُها إلى الناسِ(٣): اللَّهُمَّ اشْهَدْ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ! ثلاثَ مراتٍ))(٤).

﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾.

أي: وإنْ لم تُؤدِّ إلى الناسِ جميعَ ما أُرْسِلتَ به، فما امتثلتَ أمْرَه(٥).

﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾.

أي: بلِّغْ أنتَ رِسالةَ اللهِ تعالى، واحْرِصْ على تَبليغِها، ولا يَثْنِيَنَّكَ عن ذلِك

(١) رواه البخاري (٤٦١٢).

(٢) رواه مسلم (١٧٧).

(٣) يَنكُتُها إلى النَّاسِ: أي: يشيرُ بها إليهم، كالذي يَضرِبُ بها الأرضَ. يُنظر: ((مِرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٥/ ١٧٧٣).

(٤) رواه مسلم (١٢١٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٤٨).

خوفٌ من المخلوقينَ؛ فإنَّ اللهَ تعالى يَحفَظُك، ويمنعُ أعداءَك مِن أن ينالوكَ بسوءٍ، أو أن يَضرُّوك بشيءٍ[(١)].

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

أي: بلِّغْ أنتَ؛ فما عليكَ إلَّا البَلاغ، واللهُ تعالى لا يُوفِّقُ للحقِّ الكافرينَ المصرِّين على كُفْرِهم؛ بسببِ كُفرِهم، وإعراضِهم عنِ الهُدى والحقِّ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦- ٩٧].

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٦٨)﴾.

مناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى نبيَّه محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالتبليغِ، سواءٌ طابَ للسَّامعِ أو ثَقُل عليه، أمَرَه أنْ يَقولَ لأهلِ الكِتابِ هذا الكلامَ، وإنْ كان ممَّا يَشقُّ عليهم جدًّا[(٣)]، فقال:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

أي: قل يا مُحمَّدُ: يا أهلَ التَّوراةِ والإنجيلِ، لستُم على شيءٍ ممَّا تَدَّعون أنَّكم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥١- ١٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٠١).

عليه من الدِّين، إلى أنْ تُؤمِنوا حقًّا- معشرَ اليهودِ- بالتوراةِ، ومَعشرَ النَّصارى بالإنجيلِ، وتَعمَلوا بما فيهما- ومِن ذلك اتِّباعُ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ- وحتى تُؤمِنوا بالقرآنِ أيضًا وتَعمَلوا به؛ فقد جاءَ مِن ربِّكم الذي أنعمَ عليكم بإنزالِه؛ فالواجبُ عليكم أن تَقومُوا بشُكرِ اللهِ تعالى على ذلِك بأنْ تُؤمِنوا بالقرآنِ وتَتَّبِعوه(١).

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾.

أي: إنَّ كثيرًا مِن هؤلاءِ اليَهودِ والنَّصارى- يا محمَّدُ- يَزدادونَ بسَماعِهم القرآنَ العظيمَ تجاوزًا لحدودِ اللهِ تعالى، وكُفرًا بالحقِّ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

أي: فلا تحزنْ- يا محمَّدُ- على هؤلاءِ الكفَّارِ مِن اليهودِ والنَّصارى الذين

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٥٥- ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٤٧، ١٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٥٧، ١٥٨).

كذَّبوك، وردُّوا رِسالتَك، وإنَّما أدِّ ما عليك، وبلِّغِ الرسالةَ(١).

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١ - قولُه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ بالرغم مِن أنَّ الإيمانَ وحْدَه سببٌ مستقلٌّ لتكفيرِ السيِّئات، وإعطاءِ الحَسنات، إلَّا أنَّه ضَمَّ شَرطًا آخَرَ، وهو التقوى؛ لأنَّ المرادَ من الإيمانِ تحقيقُ التقوى والطاعة، لا لغرضٍ آخَر من الأغراضِ العاجلةِ، كما يفعله المنافِقون(٢).

٢- أنَّ التائبَ مِن الذَّنبِ يُثاب ثَوابَين: ثواب الدُّنيا، وثواب الآخرة: أمَّا ثواب الآخِرة؛ فلقولِه: ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾، وأمَّا ثواب الدُّنيا؛ فلقوله: ﴿لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾(٣).

٣- يُستفادُ من قولِه: ﴿لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ أنَّه يجوزُ ترغيبُ النُّفوسِ البَشريَّة في فِعل الطاعاتِ بما يُذكَر من ثوابِ الدُّنيا، وعلى هذا فلو أنَّ إنسانًا عمِلَ عملًا صالحًا يُريد أن يَنالَ حُسنَ الدُّنيا والآخِرة، فإنَّه لا يُلامُ؛ لأنَّه لو كان هناك لَوْمٌ، ما ذَكَر اللهُ سبحانه وتعالى ما يَحصُل من ثوابِ الدُّنيا؛ يَبقَى ذِكرُه شبيهًا باللفظِ الذي ليس له معنًى، وعلى العكسِ مِن هذا المحرَّماتُ، تجِدُ أنَّ الله تعالى جعَلَ لها روادعَ تَردَعُ عنها؛ حتى لا يَفعلَها الإنسانُ، فتجد الرجلَ قد يترُكُ الزِّنا مثلًا خوفًا من العقوبةِ، ولولا هذا لَمَا كان للعقوبةِ فائدةٌ(٤).

٤- يُستفادُ من قولِه: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ وجوبُ إبلاغِ الشَّريعةِ على أهلِ العِلم؛ وجه ذلك: أنَّ العلماءَ وَرَثةُ الأنبياءِ، وإذا كانوا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٥٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٤٣٤).
(٣) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٣٩).
(٤) ينظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٤٣).

ورثةَ الأنبياءِ وجَبَ عليهم أن يَقوموا بحقِّ الإرثِ، فيُبلِّغوا ما علِموا مِن شريعةِ اللهِ وجوبًا؛ إمَّا بالقولِ وإمَّا بالفِعل، إمَّا بالكتابةِ وإمَّا بالإشارة؛ بأيِّ وسيلةٍ، يجب عليهم أن يُبلِّغوا ما أُنزِلَ إلى الرسولِ عليه الصَّلاة والسَّلام(١).

٥- الإشارةُ إلى أنَّ القلوبَ بيَدِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وأنَّ أفعالَ الخَلقِ تابعةٌ لإرادةِ الله؛ لقوله: ﴿يَعْصِمُكَ﴾؛ لأنَّ عِصمةَ الرسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم من الناس تنقسِمُ إلى قِسمين: إمَّا عدَم الإرادة: بأنْ يصرفَ اللهُ القلوبَ عن قتْلِه، وإمَّا بالعجزِ: بأنْ يُحاولَ الفاعلُ ولكن يَعجِز(٢).

٦- يُستفادُ من قولِه: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أنَّ العبرةَ للمُسلمِ في الآيةِ أنْ يعلمَ أنَّ المسلِمينَ لا يكونونَ على شيءٍ يُعتدُّ به مِن أمْرِ الدِّين حتى يُقيموا القرآنَ، وما أُنزِلَ إليهم مِن ربِّهم فيه، ويهتدوا بهدايتِه؛ فحُجَّةُ اللهِ على جميعِ عِبادِه واحدةٌ، فإذا كان اللهُ تعالى لا يَقبَلُ مِن أهلِ الكِتاب قَبْلَنا تلك التقاليدَ التي صَدَّتْهم عمَّا عندَهم مِن وحيِ اللهِ تعالى على ما كان قد طرَأَ عليه من التَّحريفِ بالزِّيادةِ والنُّقصانِ، فألَّا يَقبَلَ منَّا مِثلَ ذلك مع حِفظه لكتابِنا أَوْلى(٣).

الفَوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قُدِّم الإيمانُ في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾؛ لأنَّه أساسُ جميعِ الأعمال، فقدَّمه إعلامًا بأنَّه لا نجاةَ لأحدٍ إلَّا بتصديقِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ(٤).

٢- كمالُ عدْلِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وأنَّ كلَّ مَن آمَن واتَّقى ولو بَعدَ الكفرِ والعنادِ؛

(١) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٥١).

(٢) ينظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٥٤).

(٣) ينظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٣٩٤).

(٤) ينظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢٢٤).

فإنَّ اللهَ تعالى يتوبُ عليه؛ لقولِه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾(١).

٣- قولُه سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ فيه دلالةٌ على سَعةِ رَحمةِ اللهِ تعالى، وفتْحِه بابَ التوبةِ لكلِّ عاصٍ، وإنْ عَظُمتْ معاصيه، وبلَغتْ مبالغَ سيِّئاتِ اليهودِ والنَّصارى(٢).

٤- إنَّ الإسلامَ يَهدِم ما قَبْلَه من السيِّئاتِ وإنْ جَلَّتْ وعَظُمتْ؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾(٣).

٥- يُفيدُ قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ أنَّ الكتابيَّ لا يَدخُل الجنَّةَ ما لم يُسلِمْ(٤).

٦- إثباتُ أفعالِ اللهِ سبحانه وتعالى الاختياريَّةِ؛ لقوله: ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾؛ لأنَّ هذا التَّكفيرَ يكونُ بعدَ إيمانِهم وتَقواهم، فيكونُ فيه دليلٌ على إثباتِ أفعالِ اللهِ الاختياريَّة؛ فاللهُ عزَّ وجلَّ يَفعَلُ ما يشاءُ في أيِّ وقتٍ، وعلى أيِّ كيفيَّةٍ(٥).

٧- أنَّ الجزاءَ يكونُ بالنَّجاةِ من المرهوبِ، وحُصولِ المطلوب؛ يشيرُ إلى الأوَّل قولُه: ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾، وإلى الثاني قولُه: ﴿وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾؛ فالأوَّل به النجاةُ من المرهوبِ، والثاني فيه حُصولُ المطلوبِ(٦).

---

(١) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٣٩).

(٢) ينظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٨٥).

(٣) ينظر: ((المصدر السابق)).

(٤) ينظر: ((المصدر السابق)).

(٥) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٣٩).

(٦) ينظر: ((المصدر السابق)).

٨- أنَّ إقامةَ الشريعةِ في كلِّ زمان سببٌ لكلِّ خير؛ لقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ...﴾ إلى آخره[(١)].

٩- أنَّه يجب على أهلِ الكتابِ أنْ يُقيموا القرآنَ، كما يجبُ أنْ يُقيموا التوراةَ والإنجيل؛ لقولِه: ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ وهو كذلِك؛ ولهذا نقولُ لأهلِ الكتابِ الذين يَدَّعون أنَّهم مؤمِنون باللهِ واليومِ الآخِر: إنَّكم إنْ لم تؤمنوا بالرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، ما نفَعَكم ذلك الإيمانُ؛ لأنَّكم لم تُتِمُّوا إيمانَكم[(٢)].

١٠- إقامةُ الدَّليلِ على أهلِ الكِتاب أنَّه يلزمُهم أنْ يُؤمِنوا بالقرآنِ؛ لقوله: ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾؛ فإنَّ لازمَ كونِه ربًّا لهم أنْ يقوموا بأمْرِه، ويَلْتَزِموا بحُكمِه؛ لأنَّه ربٌّ، والربُّ لا بدَّ له من مربوبٍ، وهو سبحانه وتعالى السيِّدُ؛ والإنسانُ عبدٌ؛ فلا بدَّ أنْ يقوموا بمقتضى هذه الرُّبوبيَّة، فيُؤمنوا بما أَنزلَ اللهُ تعالى على محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم[(٣)].

١١- انقسامُ أهلِ الكِتابِ إلى قِسمين: قِسمٍ مُقتصِدٍ؛ قائمٍ بالواجبِ، تاركٍ للمُحرَّمِ، ولكن ليس عندَهم سَبْقٌ إلى الخيرات، وقِسمٍ آخَر: سيِّئٍ مُسيءٍ في عملِه؛ إمَّا بترْك الواجباتِ، وإمَّا بفِعل المحرَّماتِ؛ لقوله: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾[(٤)].

١٢- في قوله: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾ جعَلَ أَعْلى مقاماتِ أهلِ الكتابِ الاقتصادَ، وهو أوسطُ مَقاماتِ هذه الأمَّة، وفوق ذلك رتبةُ السَّابقينَ؛ كما في قولِه تعالى:

---

(١) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٤٣).

(٢) ينظر: ((تفسير المنار))، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٨٧)، (٦/ ٣٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٤٤).

(٣) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٤٥).

(٤) ينظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٤٦).

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا...﴾(١) [فاطر: ٣٢- ٣٣]؛ فدلَّ على فَضْلِ هذه الأمَّةِ على غيرِها من الأُمَم.

١٣- التعبيرُ في قولِه: ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ بالعملِ؛ لأنَّهم يَزعُمون أنَّه لا يَصدُرُ منهم إلَّا عن عِلمٍ، وهم الذين حرَّفوا الكلمَ عن مواضعِه، وارْتَكبوا العظائمَ في عداوةِ اللهِ ورسولِه(٢).

١٤- يُستفادُ مِن تصديرِ الخطابِ بالنِّداءِ في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا﴾ الدلالةُ على الاهتمامِ بالخطابِ والعنايةِ به، كذلك قولُه تعالى: ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾(٣).

١٥- قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ وصَفَه بالرِّسالةِ إشارةً إلى أنَّ هذا الوصفَ مقتضاه- وإنْ لم يُؤمَرْ بالإبلاغِ- أنْ يكون مُبلِّغًا(٤).

١٦- قوله: ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ فيه عنايةُ الله عزَّ وجلَّ بالرسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، والإشارة إلى أنَّ كونَه مربوبًا لله عزَّ وجلَّ يستلزمُ أن يُبلِّغ، وأيضًا لأنَّ رُبوبيةَ اللهِ عزَّ وجلَّ لرسولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ رُبوبيَّةٌ خاصَّة(٥).

١٧- شِدَّةُ تأكيدِ اللهِ عزَّ وجلَّ على إبلاغِ شَريعتِه؛ لأنَّ هذه الجملةَ: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ﴾ شديدةٌ جدًّا؛ ممَّا يدلُّ على أنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يَرضَى لعِبادِه أن يتركوا شريعتَه غيرَ مبلَّغةٍ(٦).

---

(١) ينظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٤٩).

(٢) ينظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢٢٨).

(٣) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٤٦، ١٥١).

(٤) ينظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٤٦).

(٥) ينظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٤٧، ١٥١).

(٦) ينظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٥٢).

١٨- أنَّ كتْمَ شيءٍ من الشريعةِ كَكَتْم جميعِها؛ لقوله: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾(١).

١٩- عنايةُ اللهِ تعالى بالرسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في عِصمتِه من الناسِ؛ لقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾(٢).

٢٠- يُستفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ أنَّ مَن عَلِمَ اللهُ تعالى منه الكفرَ فإنَّه لا يُهدَى ولا يُوفَّق؛ فتكون هذه الآية كقولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾(٣) [الصف: ٥].

٢١- أنَّه لا تتمُّ إقامةُ التوراةِ والإنجيلِ إلَّا بإقامةِ القرآن؛ لأنَّ اللهَ اشترَط ثلاثةَ أشياء: ﴿حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ فمَن ادَّعى أنَّه مُقيمٌ للتوراةِ وهو كافرٌ بالإنجيل، قلنا: هذا غيرُ صحيحٍ، ودعواه باطلةٌ، ومَن ادَّعى أنَّه مؤمنٌ بالإنجيلِ ولم يُؤمِن بالقرآنِ، فلنا: هذه دَعوَى باطلةٌ(٤).

٢٢- أنَّه يلزمُ مَن أقرَّ بالربوبيَّةِ أنْ يُقرَّ بالألوهيَّةِ والشريعةِ؛ لقوله: ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يعني: مِن ربِّكم الذي لا تُنكِرون رُبوبيَّته، وإذا كنتم لا تُنكِرون رُبوبيَّته لزِمَكم أن تَقوموا بأمْرِه(٥).

٢٣- قوله: ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ فيه إضافةُ ربوبيَّة اللهِ للكافرين، لكنْ هذه الإضافةُ ليستْ إضافةَ تشريفٍ، ولكنَّها إضافةٌ لإقامةِ الحُجَّة عليهم؛

(١) ينظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢٢٩)، ((تفسير المنار)) (٦/ ٣٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٥٣).
(٢) ينظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٥٣).
(٣) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٥٥).
(٤) ينظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٥٩).
(٥) ينظر: ((المصدر السابق)).

لأنَّه إذا كان اللهُ هو ربَّكم، لزِمكم أن تقيموا ما أَنزَل إليكم منه؛ لأنَّه ربُّكم وسيِّدكم وإلهُكم[(١)].

٢٤- يُستفادُ من قولِه: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ أنَّ كثيرًا مِن أهلِ الكتابِ لا يَزدادون بالقُرآنِ إلَّا طُغيانًا وكفرًا؛ إمَّا بالتكذيبِ، وإمَّا بالعِصيانِ، ويُفهَم منه أيضًا أنَّ بَعضَهم لا يَزيدُه طغيانًا وكفرًا، بل لا يَزيده إلَّا إيمانًا[(٢)].

٢٥- العدلُ في كلامِ اللهِ وعدمُ المجازفةِ؛ لقوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ ولم يقُل: (كلهم)؛ لأنَّ الواقعَ أنَّ بعضَهم يزدادُ بالقرآن إيمانًا[(٣)].

٢٦- جوازُ توكيدِ الكلامِ بما يُثبت صِدقَه، وإنْ كان في الأصلِ صِدقًا؛ لقوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾، مع أنَّ خبر الله وإنْ لم يكُن مؤكَّدًا فهو صدقٌ بلا شكٍّ، ووجهُ تأكيده: أنَّه قد يُستغرَبُ أن يكونَ هذا القرآنُ الذي هو هدًى للناس لا يَزيد هؤلاءِ إلا طغيانًا وكفرًا، فلمَّا كان هذا محلَّ استغرابٍ، أكَّده اللهُ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ تأكيدَ الكلامِ إذا كان صادرًا من صادقٍ لا بدَّ أن يكون له سببٌ، وإلَّا لكان التوكيدُ لغوًا[(٤)].

٢٧- أنَّ الكفرَ يَزيد ويَنقُص، وجهه: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾، وفيه دليلٌ على أنَّ الإيمانَ يَزيد ويَنقُص؛ لأنَّ الكفرَ إذا كان يَزيدُ ويَنقُص فبإزائِه الإيمانُ؛ فلا بدَّ أن يكون مِثلَه يَزيدُ ويَنقُص، والذي عليه أهلُ السُّنَّة والجماعة أنَّ الإيمانَ يَزيدُ ويَنقُص، سواء بالأقوالِ أو بالأفعالِ أو باليَقينِ[(٥)].

---

(١) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٦٠).
(٢) ينظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٦٠، ١٦١).
(٣) ينظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٦٠).
(٤) ينظر: ((المصدر السابق)).
(٥) ينظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٦١).

٢٨- الفَرْقُ بين نِسبةِ إنزالِ القُرآنِ إلى الرَّسولِ في قوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾، ونِسبة إنزالِه إليهم في أوَّل الآيةِ في قولِه: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، هو أنَّ خِطابهم بإنزالِ القرآنِ إليهم يُراد به أنَّهم مخاطَبون به، ومَدْعوُّون إليه، وأمَّا إسنادُ إنزالِه إلى الرسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فليس لإفادةِ أنَّه أُوحي إليه فقط، بل يُشعر مع ذلك بأنَّ إنزالَه إليه سببٌ لطُغيانهم وكُفرهم، وأنَّهم لم يَكفُروا به لأجْلِ إنكارِهم لعقائدِه وآدابِه وشرائعِه، أو استقباحِهم، بل لعَداوةِ الرَّسولِ الذي أُنزِلَ إليه، وعداوةِ قومِه العربِ. وقيل: إنَّه يُفيد براءتَهم منه، وأنَّه لا حظَّ لهم فيه[1].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾: ذَكَرَ اليهودَ والنَّصارى بقوله: ﴿أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ تأكيدًا للتشنيعِ؛ فإنَّ أهليَّةَ الكتاب تُوجِبُ إيمانَهم به، وإقامتَهم له لا محالةَ، فكفرُهم به وعدمُ إقامتِهم له، وهم أهلُه، أقبحُ مِن كلِّ قبيحٍ، وأشنعُ من كلِّ شَنيعٍ[2].

- وتَكريرُ اللَّامِ في ﴿وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ﴾؛ لتأكيدِ الوعدِ[3].

- وفيه: تعريضٌ؛ حيثُ عقَّب نَهيَهم وذمَّهم بدَعوتِهم للخيرِ[4].

٢- قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾: في هذه الآيةِ حذفانِ بَليغانِ: الأوَّل: حذْفُ المضافِ في قوله: ﴿أَقَامُوا

(١) ينظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٣٩٤).

(٢) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٥٩).

(٣) ينظر: ((المصدر السابق)).

(٤) ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٥٢).

التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾، والمرادُ أحكامُ التوراةِ والإنجيلِ وحُدودُهما، وما انطوى تحتَهما من حِكَمٍ بالِغة، وعِبَر شائِعة. والثاني: حذفُ المفعولِ به في قوله تعالى: ﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾؛ لقصْدِ التَّعميم، أو للقصدِ إلى نَفْسِ الفِعل، كَما في قَولِه: (فُلانٌ يُعطي ويَمنَعُ) بعد (أو للقصدِ إلى نَفْسِ الفِعل)[(١)].

٣- قوله: ﴿بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ فيه: إيجازٌ بالحذفِ؛ حيث حُذِف مُتعلَّقُ ﴿بَلِّغْ﴾؛ لقصدِ العموم، أي: بلِّغْ ما أُنزِلَ إليك جميعَ مَن يحتاجُ إلى معرفتِه، وهو جميعُ الأمَّة[(٢)].

٤- قوله تعالى: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ يُفيد المبالغةَ التامَّة، يعني: أنَّه لا يُمكنُ أن يُوصَفَ تَرْكُ التبليغِ بتهديدٍ أعظمَ من أنَّه تَرْكُ التبليغِ، فكان ذلك تنبيهًا على غايةِ التهديدِ والوعيدِ[(٣)].

٥- قوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ﴾ أتَى بصيغة المضارِع في ﴿يَعْصِمُكَ﴾؛ لأنَّ المضارِع يدلُّ على الديمومةِ والاستمرارِ[(٤)].

٦- قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ فيه: تعليلٌ لعِصمتِه تعالى له صلَّى الله عليه وسلَّم، وإيماءٌ إلى أنَّ سببَ عَدَمِ هِدايَتِهم هو كُفْرُهم.

- وإيرادُ الآيَة الكريمةِ ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ...﴾ في تَضاعيفِ الآياتِ الواردةِ في حقِّ أهل الكتاب؛ لأنَّ الكلَّ قوارعُ يَسوءُ الكفَّارَ سماعُها، ويَشُقُّ على الرسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم مشافَهَتُهم بها، وخصوصًا ما يَتْلُوها من

---

(١) ينظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٣٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٥٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٥٢٢- ٥٢٣).

(٢) ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٥٨).

(٣) ينظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٠٠).

(٤) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٢٣).

النصِّ النَّاعي عليهم كمالَ ضلالتِهم[١].

٧- قوله: ﴿لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ تنكيرُ ﴿شَيْءٍ﴾ يُفيد التَّقليلَ والتحقيرَ، أي: لستُم على شيءٍ يُعتدُّ به حتى تُقيموا أحكامَ التوراةِ والإنجيلِ، وفي هذا التعبيرِ من التَّحقيرِ والتصغيرِ ما لا غايةَ وراءَه[٢].

٨- قوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ جملةٌ مُستأنَفةٌ مبيِّنةٌ لشِدَّةِ شَكيمتِهم، وغُلوِّهم في المكابرةِ والعنادِ، وعدمِ إفادةِ التبليغِ نفعًا، وتصديرُها بالقَسَم- الذي دلَّت عليه اللامُ في (لَيَزِيدَنَّ)-؛ لتأكيد مضمونِها، وتحقيقِ مدلولِها، ونِسبةُ الإنزالِ إلى رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم مع نِسبتِه فيما مرَّ إليهم؛ للإنباءِ عن انسلاخِهم عن تِلك النِّسبة[٣].

٩- قوله: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ فيه: إقامةُ الظاهرِ مَقامَ المضمَرِ- حيثُ قال: ﴿عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾، ولم يقُل: (عَلَيهم)- وفائدتُه: التنبيهُ على العِلَّة الموجِبةِ لعدمِ التأسُّف[٤].

---

(١) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٦١).

(٢) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٦١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٥٢٥).

(٣) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٦٢).

(٤) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٦٢).

الآيات (٦٩ - ٧١)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿الصَّابِئُونَ﴾: هم قومٌ لا دِينَ لهم، وإنَّما بَقُوا على فِطرتِهم، يَقولون: لا إلهَ إلَّا اللهُ، وليس لهم دِينٌ مُقرَّرٌ لهم يتَّبعونَه، وقِيل: هم قومٌ يَعبُدون المَلائكةَ، وقيل: هم طائفةٌ مِن أهلِ الكِتابِ، والصَّابِئون جمْعُ صابِئ، وهو الخارجُ من دِينِه إلى دِينٍ آخَرَ، وأصلُه: الخُروجُ؛ يُقال: صَبأتِ النُّجُومُ، إذا خرجتْ من مطالِعِها[(١)].

﴿تَهْوَى﴾: تميلُ، والهوى: ميلُ النَّفسِ إلى الشَّهوةِ، وأصلُه: الخلوُّ والسُّقوط، ومنه قِيلَ للآراء الزَّائِفة: أهواءٌ[(٢)].

﴿فِتْنَةٌ﴾: أي: شرٌّ وعذابٌ، وتُطلَق الفِتنةُ أيضًا على الضَّلال والشِّرْك والكُفر، والفِتنةُ في الأصلِ: الاختِبارُ والابتلاءُ والامتِحانُ، مأخوذةٌ من الفَتْن: وهو إدخالُ الذَّهبِ النَّارَ؛ لتظهَرَ جَودتُه مِن رَداءتِه[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٩).

(٢) ينظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٤، ٤٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢١١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١/ ٧٦، ١٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس =

﴿فَعَمُوا﴾: أي: لم يَعْمَلوا بما سَمِعوا، فصارُوا كالعُمْيِ، والعَمَى يُقال في افتِقادِ البَصرِ والبَصيرةِ[١].

﴿وصَمُّوا﴾: أي: لم يُصْغوا إلى الحقِّ، فصاروا كالصُّمِّ، والصَّمَمُ: فقدانُ حاسَّةِ السَّمع، وبه يُوصَفُ مَن لا يُصغِي إلى الحقِّ، ولا يَقبلُه، وأصلُه: الصَّلَابةُ، وقيل: السَّدُّ[٢].

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

﴿الصَّابِئونَ﴾: مَرفوعٌ على أنَّه مُبتَدأٌ، وخبرُه محذوفٌ؛ لدَلالةِ خَبَرِ ﴿إنَّ﴾ عليه- وهو جُملةُ الشَّرطِ وجوابِه كما سيأتي- والنيَّةُ به التأخيرُ؛ والتقديرُ: إنَّ الذينَ آمَنُوا والذين هادُوا والنَّصارى مَنْ آمَنَ باللهِ واليَومِ الآخِرِ... إلى آخِرِه، والصَّابئونَ كذلِك، وقوله: ﴿وَالصَّابِئُونَ﴾ مع خَبَرِه المحذوفِ (كَذلِك) جُملةٌ اسميَّةٌ مَعطوفةٌ على جُملة ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الاستئنافيَّة؛ فلا محلَّ لها مِن الإعرابِ، كما لا مَحلَّ للتي عُطِفَتْ عليها. وَقيلَ: إنَّه مرفوعٌ عطفًا على محلِّ اسمِ (إنَّ): ﴿الَّذِينَ﴾؛ لأنَّه قبلَ دُخُولِها مرفوعٌ بالابتداءِ. وقِيل غيرُ ذلك.

﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾: ﴿مَن﴾ اسمُ شَرْطٍ، وهو في محلِّ رفعِ مُبتدأٍ، وجملة ﴿آمَنَ﴾ خَبَر ﴿مَنْ﴾، وجملة

= (٤/ ٤٧٢- ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٦٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٢٩، ١٣٩-١٤٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٢).

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٨٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (١/ ٥٣).

﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ جوابُ الشَّرْطِ، وجملةُ الشَّرْطِ وجوابِه في محلِّ رفْع خبر ﴿إنَّ﴾، والرابطُ مُقدَّر، أي: مِنهم(١).

٢- قوله: ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾.

﴿وَحَسِبُوا﴾: فِعلٌ وفاعلٌ، وفِعل (حَسِب) يأتي بمعنى الشَّكِّ، ويأتي بمعنى اليَقين.

﴿أَلَّا تَكُونَ﴾: ﴿أَلَّا﴾ مُكوَّنةٌ من (أنْ) و(لا)، و﴿تَكُونَ﴾ فِعلٌ مُضارِعٌ تامٌّ بمعنى تَقَع أو تُصِيب، وقدْ قُرِئَ بالنَّصبِ والرَّفع؛ فعَلى قِراءة النَّصبِ؛ فـ(أَنْ) مَصدريَّةٌ ناصبةٌ للفِعل، و ﴿تَكُونَ﴾ منصوبٌ بها، وعلى هذا ففِعلُ ﴿حَسِبُوا﴾ بمعنى الظَّنِّ والشَّكِّ. و﴿فِتْنَةٌ﴾: فاعِلُ ﴿تَكُونَ﴾، والتَّقديرُ: ظَنُّوا أَلَّا يَقَعَ مِنَ الله عزَّ وجَلَّ ابتلاءٌ واختِبارٌ بالشَّدائدِ. أو: لا تُصيبُهم فتنةٌ نتيجةَ فِعلِهم المذكورِ في الآيةِ السَّابقة.

وعلى قِراءةِ (تَكُونُ) بالرَّفع، فـ(أَنْ) هي المخفَّفةُ مِن الثَّقيلةِ، واسمُها ضَميرُ الشأنِ محذوفٌ، والتقديرُ: أنَّه، و(لَا) نافيةٌ، و﴿تَكُونُ﴾ فِعلٌ مُضارِعٌ مرفوعٌ، وهو تامٌّ أيضًا، و﴿فِتْنَةٌ﴾ فاعلُه، وجُمل (تَكُونُ فِتْنَةٌ) في مَحلِّ رفْع خبرِ (أنْ)؛ فهي مُفسِّرةٌ لضَميرِ الشأنِ، وعلى هذا ففِعل (حَسِب) هنا لليَقينِ لا للظَّنِّ والشَّكِّ(٢)، وعلى كِلَا التَّقديرينِ فإنَّ (أَنْ) وما بَعدَها سَدَّ مَسدَّ مَفعولَيْ ﴿حَسِبُوا﴾(٣).

---

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٥٠-٤٥٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٣٥٣، ٣٦٣)، ((إعراب القرآن الكريم)) للدعاس (١/ ٢٦٨).

(٢) لأنَّ (أن) المخفَّفة مِن الثقيلة لا تأتي مع أفعالِ الشكِّ والطَّمع، ولا تَأتي (أنْ) النَّاصبة للفِعل مع (عَلِمت) وما كان في معناها. ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٥٢).

(٣) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٥٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٣٦٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٧٢)، ((إعراب القرآن الكريم)) للدعاس (١/ ٢٦٨).

المَعنَى الإجْماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تعالى أنَّ المسلمين مِن أمَّة محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، واليهودَ قبلَ نسْخِ دِينهم، والصَّابئة الحُنفاءَ الذين بقُوا على فِطرتِهم بتوحيدِ اللهِ عزَّ وجلَّ، محرِّمين للظلمِ والفواحِشِ، وغير ذلك، ولم يتقيَّدوا بمِلَّةٍ ولا نِحلةٍ، والنَّصارى قَبلَ نَسْخِ دِينهم؛ هؤلاءِ الأصنافُ الأربعةُ مَن آمَن منهم باللهِ واليومِ الآخِرِ وعمِلَ عَملًا صالحًا، فلا خوفٌ عليهم ممَّا يَستقبِلونه، ولا هم يَحزنون على ما يُخلِّفونه.

ثمَّ أخْبَر تعالى أنَّه أخَذَ العَهدَ المؤكَّدَ من بَني إسرائيل بالإيمانِ باللهِ تعالى والقيامِ بما أوْجبَه عليهم، وأرسلَ إليهم بذلِك رُسلَه، لكنَّهم قابلوا ذلك بأنَّهم كلَّما جاءَهم رسولٌ بما لا يُوافِقُ أهواءَهم ورغباتِهم، كذَّبوا بعضًا من المرسَلين، وقتَلوا آخَرين.

وظنُّوا ألَّا تَحيقَ بهم فِتنةٌ وعُقوباتٌ وشرٌّ نتيجةَ ما فعلوه؛ فاستمرُّوا على طُغيانهم، فعَمُوا عن رؤيةِ الحقِّ، وصَمُّوا عن سماعِه، ثم تابَ اللهُ عليهم، ثم بعدَ ذلك رجَعَ كثيرٌ منهم لحالتِهم السيِّئةِ الأولى، وعادُوا لضلالِهم السَّابقِ، فعَمُوا مُجدَّدًا عن رؤيةِ الحقِّ، وصمُّوا عن سَماعِه، واللهُ مطَّلِعٌ على جميعِ أعمالِهم، وسيُجازيهم عليها.

تَفْسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٩)﴾.

مناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ أهلَ الكِتابِ ليسُوا على شيءٍ ما لم يُؤمِنوا؛ بَيَّن أنَّ هذا الحُكمَ عامٌّ في الكلِّ، وأنَّه لا يَحصُلُ لأحدٍ فضيلةٌ ولا مَنقَبةٌ إلَّا إذا آمَن باللهِ

واليومِ الآخِرِ، وعَمِلَ صالحًا[1].

وأيضًا لَمَّا كان ما مَضَى في هذِه السُّورةِ غالبًا في فَضائحِ أهلِ الكتابِ لا سيَّما اليهود، وبيانِ أنَّهم عَضُّوا على الكُفرِ، ومَرَدُوا على الجَحدِ، وتمرَّنوا على البُهت، وعَتَوْا عن أوامرِ الله- أخْبَرَ أنَّ البابَ مفتوحٌ لهم ولغيرِهم من جميعِ أهلِ المِلل، وأنَّه إذا أَخْلَصوا أُذِن في دُخولِهم، ونُودِي بقَبولِهم[2]، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى﴾.

أي: إنَّ المسلمين- وهم أمَّةُ محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ- واليهودَ قَبل نَسْخِ دِينهم، وقبلَ تحريفِه، والصَّابئين- وهم فِرقٌ؛ منها: الصَّابئة الحُنفاءُ، الذين بَقُوا على فِطرتِهم بتوحيدِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وتحريم الظُّلمِ والفواحِش، وغيرِ ذلك، من غير تَقيُّدٍ بمِلَّة ولا نِحلة، ودون أنْ يُحدِثوا كُفرًا- والنَّصارى قَبلَ نَسْخ دِينهم، وقبل تحريفِه[3].

﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾.

أي: مَن آمَن مِن أتْباعِ هذه المِللِ باللهِ تعالى حقًّا، وآمَن بالمعادِ والجزاءِ يومَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٧٥)، ((الصفدية)) لابن تيمية (٢/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٦٣- ١٦٥).

واختارَ تفسيرَ الصابئة بنحوِ ما ذُكر: ابنُ تيمية في ((الجواب الصحيح)) (٣/ ١٢٣)، وابن القيم في ((إغاثة اللهفان)) (٢/ ٢٥٠- ٢٥٢)، وابن كثير في ((تفسيره)) (١/ ٢٨٧)، وابن عثيمين في ((تفسير الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٢٢).

قال ابنُ كَثيرٍ: (وأظهرُ الأقوالِ- والله أعلم- قولُ مجاهدٍ ومتابعيه، ووهْبِ بن مُنبِّه: أنَّهم قومٌ ليسوا على دِينِ اليهود ولا النصارى ولا المجوسِ ولا المشركين، وإنَّما هم قومٌ باقون على فِطرتهم، ولا دِينٌ مُقرَّرٌ لهم يتَّبعونه ويَقتفونه؛ ولهذا كان المشركون يَنبِزون مَن أسلم بالصابئيِّ، أي: إنَّه قد خرَج عن سائرِ أديان أهلِ الأرضِ إذ ذاك) ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٨٧). وممَّن ذهَب من السلفِ في تفسيرِ الصَّابئة إلى نحوِ ما ذُكر: ابنُ زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣٦).

الدِّين، وعمِلَ عملًا صالحًا، بأنْ يكون خالصًا لله تعالى، مُوافقًا لشريعتِه التي وجَبَ عليه اتِّباعُها(١).

وهذا الحُكمُ بينَ هذه الطَّوائفِ مِن حيثُ هي؛ فكلُّ مَن اتَّبع رسولَه المرسَلَ إليه في زَمانِه- قَبل بَعثةِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ- فهو على هُدًى ونجاةٍ، فأمَّا بعدَ بَعثةِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فلا يُعدُّ مُؤمنًا مَن لم يُؤمنْ برِسالتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ولم يَعملْ بمقتضاها(٢).

﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

أي: فلا خَوفٌ عليهم ممَّا يَستقبِلونه، ولا هُم يَحزنونَ على ما يُخلِّفونَه(٣).

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ (٧٠)﴾.

مناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا كانتِ البِشارةُ في الآيةِ السابقةِ مُوجِبةً للدُّخولِ في الإيمانِ، والتعجُّبِ ممَّن لم يُسارعْ إليه، وكان أكثرُ أهلِ الكتابِ إنَّما يُسارِعون في الكُفرِ، كان الحالُ مقتضيًا لتذكُّرِ ما مضَى مِن أَخْذِ الميثاقِ عليهم، وزِيادةِ العَجَبِ منهم مع ذلِك، فأعادَ سبحانه الإخبارَ به مؤكِّدًا له؛ تحقيقًا لأمْره، وتفخيمًا لشأنه، مُلتفِتًا مع التذكيرِ بأوَّلِ قَصصِهم في هذه السُّورةِ إلى أوَّلِ السُّورةِ ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾(٤) [المائدة: ١]، فقال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٦٦- ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٦) (١/ ٢٨٤- ٢٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٦٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢٤٣) وينظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٠٤).

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾.

أي: واللهِ لقدْ أخَذْنا على اليهودِ عهدًا ثَقيلًا مؤكَّدًا، بالإيمانِ باللهِ تعالى وتوحيدِه، والقيامِ بما أوجبَه عليهم، وأَرسَلْنا إليهم بذلك رُسلًا، يَتوالَون عليهم بالدَّعوة، ويتعاهدونهم بالتوجيه، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾(١) [المائدة: ١٢].

﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾.

أي: كلَّما أتاهم رسولٌ مِن أولئك الرُّسلِ الكِرامِ عليهم السَّلام، بما لا تَشتهيه نُفوسُهم، ولا يُوافق رَغباتِهم، نقَضوا تلك العُهودَ والمواثيقَ، وعانَدوا تِلك الرُّسلَ وعادَوْهم، فقاموا بتكذيبِ بعضِهم، وقتَلوا بعضًا آخَرين(٢).

﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٧١)﴾.

﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾.

أي: وظنَّ بنو إسرائيلَ ألَّا يترتَّبَ- جرَّاءَ ما كانوا يَفعلونَ مِن نَقضِ المواثيقِ، وتكذيبِ رُسلِ الله تعالى وقتْلِهم- شرٌّ وعُقوباتٌ تَحيقُ بهم(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٨٢- ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٨٣- ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٨٨).

﴿فَعَمُوا وَصَمُّوا﴾.

أي: فترتَّبَ على ظنِّهم الفاسدِ هذا: أنِ استمرُّوا على طُغيانهم، فَعَمُوا عن رُؤيةِ الحقِّ، وَصَمُّوا عن سَماعِه، فلا يَسمعونَ حقًّا، ولا يَهتدُون إليه[1].

﴿ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾.

أي: ثمَّ وفَّقهم اللهُ تعالى للتَّوبةِ، وقَبِلَها منهم، ورفَعَ عنهم الفتنةَ التي عاقَبَهم بها، فأنابوا ورَجَعوا عمَّا كانوا عليه من الهَوى إلى الهُدَى[2].

﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾.

أي: ثمَّ بعدَ توبةِ اللهِ تعالى عليهم، واستنقاذِهم من الهَلَكةِ لم يَستمرَّ كثيرٌ منهم على التَّوبةِ، فانقلبوا إلى حالِهم القبيحةِ الأولى، وعادوا إلى ضلالِهم القديمِ، فعَمُوا مجدَّدًا عن رؤيةِ الحقِّ، وصمُّوا عن سماعِه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٨٨- ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٧٧).

قال ابنُ عاشور: (وقد وقَف الكلامُ عند هذا العَمى والصَّمم الثاني، ولم يذكرْ أنَّ الله تابَ عليهم بعده؛ فدلَّ على أنهم أعرضوا عن الحقِّ إعراضًا شديدًا مرةً ثانيةً، فأصابتهم فتنةٌ لم يتُبِ اللهُ عليهم بعدها) ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٧٧).

وقال الشِّنقيطيُّ: (ذكَر تعالى في هذه الآية الكريمة أنَّ بني إسرائيل عَمُوا وصمُّوا مرَّتين، تَتخلَّلهما توبةٌ من الله عليهم، وبيَّن تفصيلَ ذلك في قوله: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا * إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ =

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى مُطَّلِعٌ على جميعِ أعمالِهم لا يَخفَى عليه شيءٌ منها، ويُجازِيهم عليها يومَ القيامةِ(١).

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- يُستفادُ من قولِه: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أنَّ ثواب اللهَ عزَّ وجلَّ لا يَنبني على حَسَبٍ ولا نَسبٍ، وإنَّما يَنبني على الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ؛ كما قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾(٢) [الحجرات: ١٣].

٢- يُستفادُ من قولِه: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ التَّحذيرُ ممَّا فعلتْ بنو إسرائيلَ مِن تكذيبِ الرُّسلِ والعُدوانِ عليهم؛ لأنَّ اللهَ لم يقُصَّ قَصصَ الأنبياءِ وقَومِهم للعِلمِ بالتَّاريخِ فقط؛ بل للاعتبارِ بها؛ كما قال تعالى:

= [الإسراء: ٤ - ٧]، وبيَّن التوبةَ التي بينهما بقولِه: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾، ثم بيَّن أنَّهم إنْ عادُوا إلى الإفساد عاد إلى الانتقامِ منهم بقوله: ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٨]، فعادوا إلى الإفسادِ بتكذيبه صلَّى الله عليه وسلَّم، وكتْم صِفاته التي في التوراة، فعاد اللهُ إلى الانتقامِ منهم، فسلَّط عليهم نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم فذَبح مُقاتِلةَ بني قريظة، وسبَى نساءَهم وذراريَّهم، وأجْلى بني قَيْنُقاع وبني النَّضير، كما ذكَر تعالى طرفًا من ذلك في سورة الحشر، وهذا البيانُ الذي ذَكَرْنا في هذه الآية ذكَرَه بعضُ المفسِّرين، وكثيرٌ منهم لم يَذكُرْه، ولكن ظاهر القرآن يَقتضيه؛ لأنَّ السياق في ذِكر أفعالهم القبيحة الماضية، من قتْل الرسل، وتكذيبهم؛ إذ قبل الآية المذكورة: ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾)) ((أضواء البيان)) (١/ ٤١٧ - ٤١٨) وينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٧٧ - ٢٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٩٠).

(٢) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٧٠).

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[١] [يوسف: ١١١].

٣- الحذرُ مِن هوى النَّفْس، وأنَّ هوى النَّفْسِ قد يؤدِّي إلى الهلاكِ، وإلى فِعْلِ ما يَقبُحُ شرعًا وعقلًا؛ لقوله: ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا﴾[٢].

٤- التحذيرُ مِن الأمنِ مِن مَكْرِ اللهِ، وأنَّ ذلك مِن خُلُقِ اليهودِ؛ وذلك بأنْ يأمنَ الإنسانُ مِن مكرِ الله، ويظنَّ أنَّ معصيتَه لا يَعقبُها عقابٌ؛ لقوله: ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾[٣].

٥- أنَّ الله تعالى قد يتوبُ على المرءِ بعدَ عَمَاهُ وصَمَمِه؛ لقوله: ﴿ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ بعدَ أنْ ذكَر أنَّهم عَمُوا وصمُّوا[٤].

٦- الحذرُ مِن بَطَرِ النِّعمةِ بالعَوْدِ إلى الفُسوقِ والكُفرانِ؛ لأنَّ اللهَ هدَّدَهم بقولِه: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[٥].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- يُستفادُ مِن قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى﴾ أنَّه يَنبغي التعبيرُ عن اليهودِ بـ(اليهود) وعن النَّصارى بـ(النَّصارى)؛ لأنَّ ذلك استخدامُ القُرآنِ واستعمالُه[٦].

٢- قال تعالى في سُورةِ البَقرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ

---

(١) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٨٦).

(٢) ينظر: ((المصدر السابق)).

(٣) ينظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٩١).

(٤) ينظر: ((المصدر السابق)).

(٥) ينظر: ((المصدر السابق)).

(٦) ينظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٧٠).

وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[البقرة:٦٣]، وهنا قال في سورةِ المائدة: ﴿وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى﴾؛ فإنَّ النصارى أفضلُ مِن الصَّابئين، فلمَّا قُدِّموا عليهم نصبَ لفظ (الصَّابئين)، ولكن (الصَّابئون) أقدمُ في الزَّمان فقُدِّموا هاهنا؛ لتقدُّمِ زمنِهم، ورُفِعَ اللَّفظ؛ ليكونَ ذلك عَطفًا على المحلِّ؛ فإنَّ المعطوفَ على المحلِّ مرتبتُه التأخيرُ؛ ليُشعِرَ أنَّهم مؤخَّرون في المرتبةِ، وإنْ قُدِّموا في الزمنِ واللَّفظ(١).

٣- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾ أنَّه مِن رحمةِ اللهِ تبارَك وتعالى بعبادِه أنَّه لم يَكِلْهم سبحانه وتعالى إلى ما عَلِموه بِفِطَرِهم، بل أرسلَ إليهم الرُّسلَ؛ لتؤكِّدَ ذلك(٢).

٤- أنَّ المتكلِّمين الذين بنَوا أصولَ عَقيدتِهم على العقلِ فيهم شَبَهٌ من اليهود؛ لقوله: ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا﴾ إلى آخِرِه؛ فإنَّهم إذا أتاهم النصُّ بما لا يَرَون كذَّبوه إنِ استطاعوا إلى ذلك سبيلًا، أو حرَّفوه إنْ لم يستطيعوا إلى ذلِك سبيلًا؛ لأنَّهم يرون مرجعَ ما أخبَر الله به عن نفْسِه العقلَ، فإذا جاءَ النصُّ بما لا يَهْوَونَ حسَبَ عقولهم كذَّبوه وأنكروه(٣).

٥- في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾ لطيفةٌ جليلةٌ؛ حيث بُدِئ بالعَمى لأنَّ أوَّلَ ما يَعرِض للمُعرِض عن الشَّرائعِ أنْ لا يُبصِر مَن أتاه بها مِن عند الله، ثم لو أبْصَره لم يَسمَعْ كلامَه، فعرَض لهم الصَّممُ عن كلامِه، ولَمَّا كانوا قبلَ ذلك على طريقِ الهدايةِ، ثم عرَض لهم الضَّلالُ، نُسِبَ الفعلُ إليهم وأُسْنِد لهم، فقال: ﴿عَمُوا وَصَمُّوا﴾، ولم يقُلْ سبحانَه وتعالى: (فأَعْماهُم اللهُ وأصمَّهم)(٤).

(١) ينظر: ((الصفدية)) لابن تيمية (٢/ ٣٠٤).

(٢) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٨٥)

(٣) ينظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٨٦).

(٤) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٢٨).

بَلاغَةُ الآيات:

١- قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى﴾ فيه: تقديمٌ وتأخير- على أحدِ أوجهِ الإعرابِ في الآية-، كأنَّه قيل: إنَّ الذين آمنوا والذين هادُوا والنَّصارى حُكمُهم كذا، والصَّابِئون كذلك، وفائدتُه: التنبيهُ على أنَّ الصَّابئين يُتابُ عليهم إنْ صَحَّ مِنهم الإيمانُ والعَمَلُ الصَّالح؛ فما الظنُّ بغَيرِهم[1]؟!

٢- قوله: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فيه: تكريرٌ؛ حيث قال في أوَّل الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ثم قال في آخِرها: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾، وفي هذا التكريرِ فائدتان؛ الأولى: أنَّ المنافقين كانوا يَزعُمون أنَّهم مؤمنونَ، فالفائدةُ في هذا التكريرِ إخراجُهم عن وعْدِ عدمِ الخوفِ، وعدمِ الحُزن. الفائدة الثَّانية: أنَّه تعالى أطْلَقَ لفْظَ الإيمان، والإيمان يَدخُلُ تحتَه أقسامٌ، وأشرفُها الإيمانُ باللهِ واليومِ الآخِر، فكانتِ الفائدةُ في الإعادةِ التنبيهَ على أنَّ هذينِ القِسمينِ أشرفُ أقسامِ الإيمانِ[2].

٣- قوله: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾ استئنافٌ عادَ به الكلامُ على أحوالِ اليهودِ وجَراءتِهم على اللهِ وعلى رُسلِه، وفيه: تعريضٌ باليأس مِن هَديهم بما جاء به محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم، وبأنَّ ما قابَلوا به دَعوتَه ليس بِدْعًا منهم، بل ذلك دأْبُهم جيلًا بعدَ جيلٍ[3].

---

(١) ينظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٦٠).

وهذا الوجْهُ على القَولِ بأنَّ الصَّابئين مِن المشركينَ كانوا يَعبُدون الملائكةَ أو الكواكبَ؛ فيكون الصَّابئونَ أشدَّ الفِرَقِ المذكورينَ في هذه الآيةِ ضلالًا، فكأنَّه قيل: كلُّ هؤلاء الفِرق إنْ آمنوا وعمِلوا صالحًا قَبِلَ اللهُ توبتَهم وأزالَ ذَنبَهم، حتى الصَّابئون؛ فإنَّهم إنْ آمنوا كانوا أيضًا كذلك. ينظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٠٢).

وأمَّا على القولِ بأنَّ الصابئةَ حُنفاءُ مِن الذين بَقُوا على فِطرتهم بتوحيدِ اللهِ تعالى؛ فليس فيه هذا الوجهُ.

(٢) ينظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٠٤).

(٣) ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٧٢).

٤- قوله: ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾: عبَّر أوَّلًا بالفِعلِ الماضي ﴿كَذَّبُوا﴾ لتقريرِ الأمْرِ الواقِع، ثمَّ عبَّر بالفِعل المضارِع ﴿يَقْتُلُونَ﴾ على حِكايةِ الحالِ الماضية؛ استفظاعًا للقتْلِ، واستحضارًا لتِلك الحالِ الشَّنيعةِ؛ للتعجُّب منها، وللتَّنبيهِ على أنَّ ذلك دَيْدنُهم المستمِرُّ؛ ففيه تصويرُ جُرمِ القَتلِ الشَّنيع، واستحضارُ هَيئتِه المنكَرَة كأنَّه واقعٌ في الحال؛ للمبالغة في النَّعي عليهم، والتوبيخ لهم؛ فقد أفادت الآيةُ أنَّهم بلغوا من الفسادِ، واتِّباعِ أهوائهم مبلغًا كبيرًا، حتى لم يَعُدْ يؤثِّر في قلوبِهم وعْظُ الرسل وهديُهم، بل صارَ يُغريهم بزيادةِ الكُفر والتكذيبِ، وقتْلِ أولئك الهُداةِ الأخيارِ، وفيه إشارةٌ إلى استمرارِ قتْلِهم للأنبياءِ، وأنه أصبح دَيدنَهم المستمرَّ؛ لأنَّ الفعلَ المضارع يدلُّ على الاستمرارِ. أو يكونُ الفِعل المضارع ﴿يَقْتُلُونَ﴾ حالًا على حقيقتِه؛ لأنَّهم حاوَلَوْا قتْلَ نَبيِّنا مُحمَّدٍ عليه أفضلُ الصلاةُ والسَّلام؛ فيكونُ في هذا- والله أعلم- إشارةٌ إلى أنَّهم لا يَزالون يَقتُلون الأنبياءَ حتى آخِرهم عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وهو محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم. وفي التعبيرِ بالفِعلِ المضارِعِ ﴿يَقْتُلُونَ﴾ أيضًا مُحافظةٌ على رُؤوس الآي الكريمةِ(١).

- وقوله: ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ أيضًا فيه نوعٌ مِنَ الالتِفات، وهو التفاتٌ مِن الإخبارِ بالفِعل الماضي إلى الإخبارِ بالفِعلِ المضارع، وهذا مِن أدقِّ الأمورِ، ولا يُتاحُ في الاستعمالِ إلَّا للعارفِ برموزِ الفصاحةِ والبلاغةِ(٢).

- وتقديمُ المفعولِ ﴿فَرِيقًا﴾ في الموضعَينِ؛ للاهتِمامِ به، وتشويقِ السَّامعِ

---

(١) ينظر: ((تفسير الزمخشري- مع الحاشية)) (١/ ٦٦٢- ٦٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٦٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٣٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٨٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٥٣٠)، وينظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٠٥).

(٢) ينظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٥٣٠).

إلى ما فَعَلوا به لا للقَصر[١]؛ فقدَّم المفعولَ هنا؛ لأنَّ التقديمَ إنَّما يكونُ لشِدَّة العنايةِ؛ فالتكذيبُ والقتلُ وإنْ كانَا مُنكَرينِ إلَّا أنَّ تكذيبَ الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ وقتلهم أقبحُ، فكان التقديمُ لهذه الفائدةِ[٢].

٥- قوله: ﴿وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ فيه: إيجازٌ بديعٌ؛ لأنَّه ثَمَّةَ مجرورٌ مُقدَّرٌ دالٌّ عليه السِّياق، أي: ظنُّوا ألَّا تَنزِلَ بِهم مَصائبُ في الدنيا، فأَمِنوا عِقابَ الله في الدنيا، بعد أن استخفُّوا بعذاب الآخِرة، وتوهَّموا أنَّهم ناجون منه؛ لأنَّهم أبناءُ اللهِ وأحباؤه، وأنَّهم لن تمسَّهم النارُ إلَّا أيامًا معدودة؛ فمِن بديع إيجاز القرآن أنْ أوْمَأَ إلى سُوءِ اعتقادِهم في جزاءِ الآخِرة، وأنَّهم نبَذوا الفِكرةَ فيه ظِهريًّا، وأنَّهم لا يُراقبون اللهَ في ارْتِكابِ القبائحِ، وإلى سوءِ غَفلتِهم عن فِتنة الدُّنيا، وأنَّهم ضالُّون في كِلا الأمْرَينِ[٣].

- وعطَفَ ﴿فَعَمُوا﴾ على ﴿حَسِبُوا﴾ بالفاءِ؛ للدَّلالةِ على تَرتيبِ ما بعدَها على ما قَبْلَها، أي: أَمِنوا بأسَ الله تعالى، فتمادَوا في فُنونِ الغَيِّ والفساد، وعمُوا عن الدِّينِ بعدما هداهم الرُّسل إلى معالِمه الظَّاهرة، وبيَّنوا لهم مناهِجَه الواضِحَة[٤].

- وعطَفَ قولَه: ﴿فَعَمُوا وَصَمُّوا﴾ الأوَّل بالفاءِ، وعَطَفَ قولَه: ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا﴾ الثاني بـ(ثم)، وهو معنًى حَسَنٌ؛ ففي العَطفِ بالفاءِ دليلٌ على أنَّهم عَقيبَ الحُسبانِ، حصَل لهم العَمى والصَّمم من غيرِ تراخٍ، وفي العطف بـ﴿ثُمَّ﴾ دليلٌ على أنَّهم تَمادَوْا في الضلالِ زمانًا إلى أنْ تابَ اللهُ عليهم[٥].

---

(١) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٦٣).

(٢) ينظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٠٥).

(٣) ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٧٦).

(٤) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٦٤).

(٥) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٢٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٣٧٣)، ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٤٥٧).

- وأَسْنَدَ الفِعلَ الحسَنَ الشَّريفَ ﴿تَابَ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ إلى نَفْسِه سُبحانَه، ولم يقُل: (تَابُوا)؛ إظهارًا للاعتناءِ بهم، ولُطفِه تعالى بهم. وأَسْنَدَ الفِعلَينِ ﴿عَمُوا وَصَمُّوا﴾ إليهم، بخِلافِ قوله: ﴿فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٣]؛ لأنَّ هذا فيمَن لم يَسْبِقْ له هِدايةٌ(١).

٦- **قوله: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾**: الجُملةُ تذييلٌ أُشيرَ به إلى بُطلانِ حُسبانِهم المذكورِ، ووقوعِ العذابِ مِن حيثُ لم يَحتسِبوا؛ إشارةً إجماليَّةً اكتُفِيَ بها تعويلًا على ما فُصِّل نوعَ تفصيلٍ في سورة بني إسرائيل، والتقدير: حسِبوا ألَّا يُصيبَهم عذابٌ ففعلوا ما فعَلوا من الجناياتِ العظيمةِ المستوجبةِ لأشدِّ العقوباتِ، واللهُ بصيرٌ بتفاصيلِها؛ فكيفَ لا يُؤاخِذُهم بها، ومِن أينَ لهم ذلك الحسبانُ الباطلُ(٢)؟!

- وناسَب ختْمُ الآيةِ بهذه الجُملةِ ﴿وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ المشتمِلةِ على ﴿بَصِير﴾؛ إذ تَقدَّم قبلَه ﴿فَعَمُوا﴾(٣).

- وقوله: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ جاءَ على صِيغةِ المضارعِ لحِكايةِ الحالِ الماضيةِ؛ استحضارًا لصورَتِها الفَظيعة، ورِعايةً للفَواصِل(٤)؛ ففائدةُ التعبيرِ بقولِه: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ بمعنى الماضي، استحضارُ صُورةِ أعمالِهم في ماضيهم، وتمثيلُها لهم ولغيرِهم في حاضرِهم، وإنَّما تَحسُنُ هذه النكتةُ في العملِ المعيَّنِ المهمِّ الذي يُراد التذكيرُ به بعدَ وقوعِه، بجَعْل الزمنِ الحاضرِ مرآةً للزمنِ الغابرِ، ولا يظهرُ هذا الحُسن في الأعمالِ المطلَقةِ المُبهمَةِ(٥).

---

(١) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٢٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٣٧٣)، ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٤٥٧).
(٢) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٧٩).
(٣) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٢٨).
(٤) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٧٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٣٩٩).

الآيات (٧٢ - ٧٧)

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٤) مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٧٥) قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٧٦) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (٧٧) ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿وَمَأْوَاهُ﴾: مَصِيرُه الَّذي يَأوي إلَيْهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ، فَيَصِيرُ فِيهِ؛ يُقال: أَوى إلى كذا، أي: انضمَّ إليه يأوي أويًا ومأوًى، وأصْله: التَّجمُّع[1].

﴿لَيَمَسَّنَّ﴾: ليُصيبَنَّ، والمسُّ يُقال في كلِّ ما يَنال الإنسانَ مِن أذًى[2].

﴿صِدِّيقَةٌ﴾: كَثُر منها الصِّدقُ والتَّصدِيقُ، والصِّدِّيقُ يُقال لِمَن لا يَكذبُ قطُّ، وقيل لِمَن لا يَتأتَّى منه الكذبُ؛ لتعوُّدِه الصِّدقَ، وقيل لِمَن صدَق بقوله

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٢٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٣).

واعتقادِه وحقَّق صِدقَه بِفعلِه، وأَصْلُ (صدق) يدلُّ على قوَّةٍ في الشيءِ قولًا كان أو غيرَه[١].

﴿يُؤْفَكُونَ﴾: أي: يُصرَفون عن الحقِّ، ويعدلون عنه؛ يُقال: أفِكَ الرجلُ عن كذا: إذا عدَلَ عنه، والإفك: كلُّ مصروفٍ عن وجهِه الذي يحقُّ أن يكونَ عليه، وأَصْلُ (أفك): يدلُّ على قلبِ الشيءِ، وصرْفِه عن جِهتِه[٢].

﴿لَا تَغْلُوا﴾: أي: لا تُجاوِزوا الحدَّ المسموحَ لكم به، ولا تَرتفِعوا عن الحقِّ، أو لا تَزيدوا ولا تُفرِطوا فيه، والغلوُّ: الإفراطُ والزيادةُ، ومجاوزةُ الحدِّ المسموحِ به[٣].

﴿ضَلُّوا﴾: عَدَلُوا عن الطريقِ المستقيم؛ فالضَّلالُ: خِلافُ الهُدى، وضَياعُ الشَّيءِ وذَهابُه في غيرِ حقِّه[٤].

﴿أَضَلُّوا﴾: أَوْقَعوا النَّاسَ في الضَّلالِ[٥].

﴿سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾: أي: قصْدِ الطريقِ ووسَطِه[٦].

مُشكِلُ الإعراب:

١- قوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٣٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٥).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٥٦) (٦/ ٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٩).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٤٢) و(٣/ ٣٥٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٩).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩، ١٤٩).

﴿مِنْ إِلَهٍ﴾: ﴿مِن﴾ صِلةٌ في المبتدأِ لوجودِ الشَّرطين، وهما كونُ الكلامِ منفيًّا، وتنكيرُ المجرورِ بها. و﴿إلهٍ﴾ مُبتدأٌ مجرورٌ لفظًا بـ﴿مِنْ﴾، مرفوعٌ محلًّا.

﴿إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾: ﴿إِلَهٌ﴾ مرفوعٌ على أنَّه بدلٌ مِن مَحلِّ ﴿إِلَهٍ﴾؛ لأنَّه مَرفوعٌ محلًّا، مَجرورٌ لَفْظًا بـ﴿مِنْ﴾ الاستغراقيَّة، والتَّقديرُ: وما إلهٌ مُستَحِقٌّ للعبادَةِ إلَّا إلهٌ متَّصِفٌ بالوحدانيَّةِ(١).

٢- قوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾.

﴿غَيْرَ الْحَقِّ﴾: ﴿غيرَ﴾ مَنصوبٌ، وفي نَصْبِه أوجُهٌ؛ منها: أنَّه نائِبٌ عن المفعولِ المُطْلَق؛ لأنَّه نَعتٌ لِمَصدرٍ محذوفٍ؛ أي: لا تَغْلُوا في دِينِكم غُلُوًّا غيرَ الحَقِّ. ومنها: أنَّه مَنصوبٌ على الحالِ مِن ضَميرِ الفاعِلِ (واو الجماعة) في ﴿تَغْلُوا﴾ أي: لا تَغْلوا مُجاوِزينَ الحَقَّ. وقيل غيرُ ذلك(٢).

المَعنَى الإجْماليُّ:

يؤَكِّدُ اللهُ تعالى كُفْرَ النَّصارى، الذين جعَلوا اللهَ تعالى هو المسيحَ عيسى عليه السَّلامُ، وقدْ قال المسيحُ عيسى لبني إسرائيلَ: اعبُدوا اللهَ وحْدَه؛ فهو ربِّي وربُّكم؛ إنَّه مَن يَعبُد مع اللهِ غيرَه، فقدْ حرَّم عليه اللهُ دُخولَ الجَنَّةِ، ومُستقَرُّه النارُ، وليس لِمَن ظلَمَ نفْسَه بالشِّركِ من نصيرٍ يمنعُه من عذابِ اللهِ، أو يُنقِذُه منه.

كما يُؤكِّدُ سبحانه كُفرَ الَّذين زعَموا من النَّصارى أنَّ عيسى وأمَّه إلَهانِ مع اللهِ تعالى، فجعلوه جلَّ وعلا ثالثَهم، تعالى اللهُ عن ذلِك! فما من معبودٍ بحقٍّ سواه، ثم بيَّن سبحانه سوءَ عاقبةِ هؤلاءِ الضَّالينَ الذين قالوا ما قالوا، وأنَّه إن لم

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٣٥)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٥٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٣٧٤- ٣٧٥).

(٢) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعُكبري (١/ ٤٥٤)، ((الدر المصون)) للسَّمين الحلبي (٤/ ٣٨٠)، ((المجتبى من مُشكل إعراب القرآن)) للخراط (١/ ٢٤١).

يرجعْ هؤلاءِ عن هذه المقولةِ الكُفْريَّةِ، والفِريةِ العظيمةِ، فسيُصيبُ الذين كفروا منهم- بتمسُّكهم بِها- عذابٌ مؤلِم مُوجِعٌ، وبعدَ هذا التَّرهيبِ الشَّديدِ للكافرينَ مِن العَذابِ الأليمِ، فتَح لهم سبحانه بابَ رحمتِه؛ حيثُ رغَّبَهم في الإيمانِ، وحضَّهم على التَّوبةِ والاستغفارِ؛ فإنَّ الله سبحانه غفورٌ رحيمٌ.

ثم بَيَّن تعالى حقيقةَ المسيحِ وأُمِّه؛ فهما ليسَا كما زعَم هؤلاءِ الكَفَرةُ مِن النَّصارى، بل المسيحُ هو ابنُ مريمَ، وهو رسولٌ مِن رُسُلِ اللهِ كسائرِ عِبادِ اللهِ المرسَلينَ الذين كانوا مِن قَبلِه، وأُمُّه صِدِّيقةٌ، كانَا يأكلانِ الطعامَ، ويَحتاجانِ للتغذيةِ كغيرهما مِن بني آدَمَ، فانظرْ- يا محمَّدُ- كيف يُبيِّن اللهُ لهم الأدلَّةَ والحُجج، ثم انظرْ كيف يُصرَفون عن الحقِّ، ويَضِلُّون عن هذه الأدلَّةِ الواضحة، وقلْ- يا مُحمَّدُ- لهؤلاءِ الكَفَرةِ من النَّصارى مُنكرًا عليهم: أَتعبُدونَ غيرَ اللهِ ممَّن لا يَملِك لكم ضرًّا ولا نفعًا، واللهُ هو السَّميعُ العليمُ؟!

وأمَرَ اللهُ سبحانه نبيَّه أن ينهاهم عن الغُلوِّ الباطِلِ في دِينِهم، وألَّا يَتَّبِعوا أهواءَ أكابرِهم ورُهبانِهم الجَهَلةِ الذين ضلُّوا من قبلُ، وأضلُّوا كثيرًا غيرَهم، وانحرَفوا عن الطَّريقِ المستقيم.

تَفْسيرُ الآيات:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٧٢)﴾.

مناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا تَكلَّم اللهُ عن اليهودِ في الآياتِ السَّابقةِ، شرَعَ في الكلامِ هاهنا عن النَّصارى[1] فقال تعالى:

(١) ينظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢٤٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٤٠٠)، ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٤٥٨).

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾.

أي: لقد كفَر النَّصارى(١) الَّذين جعَلوا اللهَ تعالى هو عَبْدَه ورسولَه المسيحَ

(١) مِن المفسِّرين مَن ذهَب إلى أنَّ قولَه تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ في طائفةٍ من النَّصارى، وأنَّ قولَه: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ في طائفةٍ أُخرَى منهم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٧٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٤/ ٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٨١- ٢٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٠٤).

ورجَّح ابنُ تيميةَ أنَّ هذه الأقوالَ جميعَها قولُ طوائفِ النصارى.

قال ابنُ تيميةَ: (مِن النَّاس مَن يظنُّ أنَّ هذا قولُ طائفةٍ منهم، وهذا قولُ طائفةٍ منهم، كما ذكَره طائفةٌ مِن المفسِّرين، كابنِ جريرٍ الطبريِّ والثعلبيِّ وغيرِهما، ثم تارةً يحكون عن اليعقوبيةِ أنَّ عيسَى هو اللهُ، وعن النسطوريةِ أنَّه ابنُ الله، وعن المربوسيةِ أنَّه ثالثُ ثلاثةٍ، وتارةً يحكون عن النسطوريةِ أنَّه ثالثُ ثلاثةٍ، وعن الملكيةِ أنَّه الله، ويفسِّرون قولَهم: ثالثُ ثلاثةٍ بالآب والابنِ ورُوح القُدسِ. والصوابُ أنَّ هذه الأقوالَ جميعَها قولُ طوائفِ النَّصارى المشهورةِ: الملكية واليعقوبية والنسطورية). ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٢/ ١١).

وقال أيضًا: (وأمَّا استدلالُه بقولِه: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾، فهذا يَسلُكه طائفةٌ مِن النَّاس، ويقولون: قولُه تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ إشارةٌ إلى أحدِ أقوالِهم الثلاثة، وهو قولُ اليَعاقبة القائلين بأنَّ اللاهوت والناسوت صارَ جوهرًا واحدًا كالماءِ واللبن، وقوله: ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ إشارةٌ إلى قولِ الملكيَّة، وقوله: ﴿ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ إشارةٌ إلى قولِ النسطوريَّة الذين يقولون بالحلولِ، وهو قولُهم بالأقانيمِ الثَّلاثة. وليس الأمرُ كما قال هؤلاءِ، بل ما ذكَره اللهُ تعالى هو قولُ النَّصارى جملةً؛ فإنَّهم يقولون: إنَّه اللهُ باعتبارٍ، وإنَّه ابنُ اللهِ باعتبارٍ آخَرَ، وقولهم: ﴿إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ بدليل المراد بقوله: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فعبَدوا معه المسيحَ وأُمَّه، فصارَ ثالثَ ثلاثةٍ بهذا الاعتبارِ) ((درء تعارض العقل والنقل)) (١٠/ ٢٣٨).

وقال أيضًا: (... وعلى هذا فتكون كلُّ آيةٍ ممَّا ذكَره الله من الأقوال تعمُّ جميعَ طوائفهم، وتعمُّ أيضًا بتثليث الأقانيم، وبالاتحادِ والحلول، فتعمُّ أصنافَهم وأصنافَ كُفرِهم، ليس يختصُّ كلُّ آية بصنفٍ، كما قال مَن يزعم ذلك، ولا تختصُّ آيةٌ بتثليث الأقانيم، وآيةٌ بالحلول والاتِّحاد، بل هو سبحانه ذكَر في كلِّ آيةٍ كُفرَهم المشترَكَ، ولكنْ وصَفَ كُفرَهم بثلاثِ صِفاتٍ، وكل صِفة تستلزمُ الأخرى؛ أنَّهم يقولون: المسيحُ هو الله، ويقولون: هو ابنُ الله، ويقولون: إنَّ الله ثالثُ ثلاثة، حيث اتَّخذوا المسيحَ وأمَّه إلهينِ مِن دونِ الله، هذا بالاتِّحاد، وهذه بالحلول، وتَبيَّن بذلك إثباتُ ثلاثةِ آلهةٍ منفصلةٍ غيرِ الأقانيم) ((الفتاوى الكبرى)) (٦/ ٥٨٩- ٥٩٠).

عِيسى ابنَ مريمَ عليه السَّلام، الذي خلَقَه الله عزَّ وجلَّ بشرًا مثلَهم معروفًا نَسبُه وأصلُه[1].

﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾.

والحالُ أنَّ عيسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قد ناداهم أنِ اعبدوا- يا بني إسرائيلَ- اللهَ المستحِقَّ وحْدَه للعِبادة، الذي أنا وأنتم عبيدٌ له مَربُوبون؛ فهو مالكُنا وخالقُنا، ومُدبِّرُ أمورِنا جميعًا سبحانَه وتعالى[2].

﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾.

أي: إنَّ مَنْ يقَعْ في شَرَك الشِّركِ، فيَعبُد معَ اللهِ تعالى غيرَه، فحرامٌ عليه دخولُ الجَنَّةِ في الآخِرَة، وإنَّما تكونُ النارُ مقامَه الذي يستحقُّه، ودارَه التي يَأوِي إليها[3].

﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾.

أي: ولَيس لِمَن ظلَمَ نفْسَه بشِركِه باللهِ تعالى، ولا لأيِّ ظالمٍ كان، أيُّ ناصرٍ يمنعُ عنه عذابَ اللهِ تعالى، أو يُنقِذُه منه[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٩٣- ١٩٤).
قال السعديُّ: (يُخبِر تعالى عن كُفرِ النَّصارى بقولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ بشُبهةِ أنَّه خرج من أُمٍّ بلا أَبٍ، وخالَف المعهودَ مِن الخِلقة الإلهيَّة) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٩٣- ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٩٣- ١٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٩٨).
قال ابنُ عاشور: (وجملة ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ يحتمل أيضًا أن تكونَ من كلامِ المسيحِ عليه السَّلامُ على احتمالِ أن يكون قولِه: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ مِن كلامه، ويحتمل أنْ =

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣)﴾.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾.

أي: كفَر النَّصارَى الَّذين جعَلوا المسيحَ وأُمَّه إلهيْنِ مع اللهِ سبحانه، فجَعَلوا اللهَ تعالى وتقدَّس ثالثَهم(١).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦].

ثمَّ ردَّ اللهُ تعالى عليهم هذا القولَ الباطلَ(٢)، فقال عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾.

أي: ليسَ لكم- أيُّها الناسُ- معبودٌ بحقٍّ إلَّا معبودٌ واحدٌ غيرُ متعدِّدٍ، مُتَّصفٌ بكلِّ صِفةِ كمالٍ، مُنزَّهٌ عن كلِّ عيبٍ ونقصٍ؛ ومنها: أنَّه ليس بوالدٍ لشيءٍ، ولا

= تكونَ من كلام اللهِ تعالى؛ تذييلًا لكلام المسيح على ذلك الاحتمالِ، أو تذييلًا لكلامِ الله تعالى على الاحتمالِ الآخَر) ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٨١)، وينظر ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٩٧- ١٩٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٧٩-٥٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٠٤).

قال ابنُ عُثيمين: (﴿إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ مَن هؤلاء الثلاثة؟ هؤلاءِ ذكَرهم اللهُ تعالى في هذه السُّورة: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦].

قوله: ﴿إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: معَ الله، فإذا كانَا إلهينِ من دونِ اللهِ واللهُ صاروا ثلاثةً؛ إذًا ﴿ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ هو: الله، والمسيح، وأمُّه، هؤلاءِ هم الثلاثة، فسَّر ذلك القرآن، والقرآنُ يُفسِّر بعضُه بعضًا. وأمَّا ما قيل: إنَّه الابنُ والأب ورُوح القدس؛ ففيه نظرٌ، يعني: لا نُفسِّره بالقرآن، وإنْ كان قد يكونُ منهم، أو من المتأخِّرين منهم مَن يقول: إنَّ هؤلاءِ هم الثلاثة) ((تفسير ابن عثيمين-سورة المائدة)) (٢/ ٢٠٤-٢٠٥). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ٤٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (٢/ ٢٠٥).

مولودٍ منه، بل هو خالقُ كلِّ والدٍ ومولودٍ، سبحانه[1].

كما قال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أي: وإنْ لم يَكُفَّ قائلو هذه المقالةِ الكُفريةِ عن القولِ بهذه الفِريةِ واعتقادِها، ليُصيبَنَّ مَن استمرَّ على كُفرِه منهم- بالتمسُّكِ بها- عذابٌ مؤلِمٌ، موجِعٌ لقلوبِهم وأبدانِهم في الآخِرة[2].

﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٤)﴾.

مناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا تَوعَّدَهم اللهُ تعالى، أعْقَبَ الوعيدَ بالتَّرغيبِ في الهدايةِ[3]، فقال سبحانه:

﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾.

أي: هلَّا أنابوا إلى اللهِ تعالى، ورَجَعوا عمَّا كانوا يقولونَه مِن الشِّركِ والافتراءِ، إلى ما يُحبُّه اللهُ عزَّ وجلَّ ويَرضاه؛ مِن الإيمانِ به وتوحيدِه، والإقرارِ بأنَّ عيسى عبدُ اللهِ ورسولُه، ويَطلُبونَ منه سبحانه المغفرةَ[4]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٨٠-٥٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٨٣- ٢٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢١٠- ٢١١).

كما قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

أي: واللهُ تعالى أهلٌ لأنْ يتوبوا إليه ويَستغفِروه؛ فإنَّهم إنْ فعَلوا تابَ عليهم وغفَر لهم؛ لأنَّه غفورٌ يَستُر ذنوبَ عِبادِه، ويتجاوزُ عن مؤاخَذتِهم بها. رحيمٌ بهم، ومِن رحمتِه أنْ يَعرِض عليهم التوبةَ إليه، ويَقبَلَها منهم(١).

﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٧٥)﴾.

﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾.

أي: ليس الأمرُ كما قال هؤلاءِ الكفرةُ في المسيحِ عليه السَّلام، بل الحقُّ أنَّه ابنُ مريمَ التي ولدتْه ولادةَ الأمَّهات لأبنائهنَّ، كغيرِه من البَشَرِ، وهو للهِ تعالى رسولٌ مثلُ سائرِ عبادِه المـُرسَلين، الذين كانوا قبلَه ثم مَضَوا، فهذه غايتُه ومَبْلَغُ أمْرِه، وليس هو اللهَ ولا ابنَ الله، كما يَزعُمون(٢).

﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾.

أي: وأمُّ المسيحِ مَريمُ عليها السَّلام صادقةٌ، مُصدِّقةٌ بآياتِ الله، مؤمنةٌ بعيسَى عليه السلام، مُصدِّقةٌ له، قد صدَّقت قولَها بفعلِها، وهذا أعْلى مقاماتِها(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٣٢، ٥٨١- ٥٨٢)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٢١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢١٧- ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢١٨). =

فإذا كان عيسى عليه السَّلامُ مِن جنسِ الرُّسلِ مِن قَبلِه، وأُمُّه صِدِّيقة؛ فكيف يتَّخذُهما النَّصارى إلهينِ مع الله سبحانه؟! تعالى عمَّا يقولون عُلوًّا كبيرًا[١].

﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾.

أي: كانَا محتاجَينِ إلى التغذيةِ بالطَّعامِ، وإلى خُروجِه منهما، كغيرِهما من بني آدَمَ، وليسَا بإلهينِ كما زعَم النَّصارى؛ إذ لو كانَا كذلك حقًّا لاستَغْنيَا عن الطعامِ؛ فالمفتقرُ إلى الغذاءِ قِوامُه بغيرِه، وفي قوامِه بغيرِه وحاجتِه إلى ما يُقيمه دليلٌ ظاهرٌ على عَجْزِه، والعاجزُ لا يكونُ ربًّا، بل مربوبٌ؛ فإنَّ الإلهَ الحقَّ مُستغنٍ عن غيرِه، كما وصَفَ اللهُ تعالى نفْسَه بقولِه: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤][٢].

﴿انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ﴾.

أي: انظُرْ - يا محمَّدُ - نظرَ تدبُّرٍ وإقرارٍ؛ كيف نُورِدُ لهؤلاءِ الكفرةِ الأدلَّةَ والحُججَ المجلِّيَةَ للحقِّ، الموضِّحةَ لبُطلانِ ما يَفترُون على ربِّهم[٣].

﴿ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾.

أي: ثم انظُرْ - يا محمَّدُ - كَرَّةً أخرى نظرَ تعجُّبٍ وإنكارٍ؛ كيف يُصرَفونَ عن

= قال ابنُ القَيِّم: (والصِّديقيَّةُ هيَ كَمالُ الايمان بما جاءَ به الرَّسُولُ عِلمًا وتَصْديقًا وقيامًا؛ فهي راجعةٌ إلى نفْسِ العِلم؛ فكلُّ مَن كان أعلمَ بما جاءَ به الرسولُ وأكملُ تَصديقًا له، كان أتَمَّ صِدِّيقيَّةً؛ فالصِّدِّيقيَّة شجرةٌ أصولُها العلمُ، وفُروعُها التصديقُ، وثَمرتُها العملُ). ((مفتاح دار السعادة)) (١/ ٨٠).

قال السعديُّ: (والصديقيَّة، هي العِلمُ النافعُ المثمِرُ لليقينِ والعَملِ الصَّالح) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٨٢- ٥٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢١٩).

الحقِّ فيَضلُّون مع هذه البراهينِ الجليَّةِ التي لا تَدَعُ مجالًا للشكِّ؟! ومِن أينَ يتطرَّقُ إليهم الصرفُ عن الاعتقادِ الحقِّ، بعدَ هذا البيانِ البالغِ غايةَ الوضوح[1]؟!

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٧٦)﴾.

مناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن تعالى بدَليلِ النَّقلِ والعقلِ انتفاءَ الإلهيَّةِ عن عِيسى عليه السَّلام، وكان قد توعَّدَ مَن زعَم ذلك، ثمَّ استَدْعاهم للتوبةِ، وطلبِ الغُفرانِ- أنكرَ عليهم، ووبَّخهم مِن وجهٍ آخرَ، وهو عجزُ عِيسى عليه السلام، وعدَمُ اقتدارِه على دفْعِ أيِّ ضررٍ، وجَلْبِ أيِّ نفعٍ، وأنَّ مَن كانَ لا يَدفَعُ عن نفْسِه حريٌّ ألَّا يَدفعَ عنكُم[2]، فقال:

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾.

أي: قلْ- يا محمَّدُ- منكرًا على هؤلاءِ الكَفَرةِ مِن النصارى وغيرِهم: أتَعبدُونَ سوى اللهِ- الذي يَملِكُ ضرَّكم ونَفْعَكم- شيئًا لا يَقدِرُ على إلحاقِ أيِّ ضَررٍ بكم، ولا جَلْبِ أيِّ نفعٍ لكم[3]؟!

﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

أي: واللهُ عزَّ وجلَّ هو السَّميعُ لكلِّ شيءٍ، ومِن ذلِك أقوالُكم، العليمُ بكلِّ شيءٍ، ومِن ذلك أعمالُكم، فلِمَ عَدلْتُم عن إفرادِه سبحانه بالألوهيَّة، إلى تأليهِ مَن ليستْ هذه صِفتَه؟! فإنَّ الكاملَ الذي هذِه أوصافُه هو الإلهُ الحقُّ الذي يستحقُّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٢٤).

أنْ يُعبدَ وحْدَه[١].

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (٧٧)﴾.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾.

أي: قلْ- يا محمَّدُ- لهؤلاءِ النَّصارى الذين آتاهُم اللهُ تعالى كتابًا ينطِقُ بالحقِّ: لا تُفْرِطوا فيما تَدينون به مِنَ الحقِّ في أمْرِ المسيحِ عليه السَّلام، ولا تُطْرُوا هذا الذي أُمرتُم بتعظيمِه فتُبالِغوا في شأنِه، وتَتعَدَّوْا فيه الحقَّ إلى الباطِلِ، فتُخرِجوه عن حيِّزِ النبوَّةِ إلى مقامِ الألوهيَّةِ[٢].

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾.

أي: ولا تَنقادُوا للأهواءِ المخالفةِ للحقِّ الصادرةِ مِن أكابِرِكم ورُهبانِكم الجَهَلةِ[٣] الذين كانوا مِن قبلِكم[٤]، وقد ابتَدعوا بِدَعًا بدَّلوا بها شَرْعَ المسيحِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٢٤- ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٨٤- ٥٨٥)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٤/ ٣٨٤- ٣٨٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٥١٥- ٥١٦)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٤- ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤١).
وقد اختارَ ابنُ جرير، وابنُ تيميَّة، وابنُ القيِّم، وابنُ كثير، والسعديُّ: أنَّ الخطابَ في الآيةِ للنَّصارى. يُنظر المصادر السَّابقة.
واختارَ ابنُ عاشور، وابنُ عُثَيمين: أنَّ الخطابَ هنا لليهودِ والنَّصارى، ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٢٩).

(٣) ذهَب ابنُ جرير إلى أنَّ الذين ضلُّوا من قبل وأضلُّوا كثيرًا هم اليهودُ الذين بَهَتوا مريمَ عليها السلام، وكذَّبوا عيسى ومحمدًا عليهما الصَّلاة والسَّلام. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٨٥).
وممَّن ذهب إلى ذلِك من السَّلف مجاهد. ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٨٥)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٤/ ١١٨١).

(٤) وقيل: قبل مجيءِ الإسلام. =

عليه السَّلام، فحادوا عن طريقِ الهُدى، وصَرَفوا عنه كثيرًا من الناسِ، وانحرَفوا عنِ الصِّراطِ المستقيمِ[1] المعتَدِلِ، الذي ليس فيه غلوٌّ ولا تفريطٌ[2].

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- يُستفادُ مِن قولِه تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾، و﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾، أنَّه لا يُمكن قيامُ ولاءٍ ولا تناصرٍ بين أحدٍ مِن أهلِ الكتابِ هؤلاءِ، وبين المسلمِ الذي يَدينُ بوحدانيَّةِ اللهِ كما جاء بها الإسلامُ، ويَعتقِدُ بأنَّ الإسلامَ في صورتِه التي جاء بها محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هو وحْدَه الدِّينُ عند اللهِ، ومن ثَمَّ يصبحُ الكلامُ عن التَّناصر بينَ أهلِ الأديانِ أمامَ الإلحادِ كلامًا لا مفهومَ له في اعتبارِ الإسلامِ[3]!

٢- أنَّ إقرارَ الإنسانِ على غيرِه غيرُ مَقبولٍ؛ لأنَّهم ادَّعوا أنَّ اللهَ هو المسيحُ، وعيسى ابنُ مريمَ أنكَرَ ذلك، فقال: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾؛ فأنا لستُ إلهًا تَعبدونني، بل أنا وأنتم على حدٍّ سواءٍ، كلُّنا مربوبون للهِ عزَّ وجلَّ[4].

= قال ابنُ تيميَّة: (فذكَر سبحانه أنَّهم أضلُّوا مِن قبلِ مبعثِ محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم) ((الجواب الصحيح)) (٤/ ٣٨٤).

قال ابنُ عاشور: (قد ضلُّوا في دِينهم من قبلِ مجيءِ الإسلام) ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٩١).

(١) وقيل: سواء السَّبيل: هو الإسلام.

قال ابنُ عاشور: (قوله: ﴿وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ مقابل لقولِه: ﴿قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ﴾ فهذا ضلالٌ آخرُ، فتعيَّن أنَّ سواء السبيل الذي ضلُّوا عنه هو الإسلام... أي: قد ضلُّوا في دِينهم من قبلِ مجيء الإسلام، وضلُّوا بعد ذلك عن الإسلام) ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٣٠- ٢٣٣).

(٣) ينظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٩٤٧).

(٤) ينظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٤٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٩٩).

٣- الاستدلالُ الملزِم للخَصم، وأنَّه يَنبغي للإنسانِ عند المجادلةِ أنْ يتَّبعَ أوضحَ الأدلَّةِ وأشدَّها إلزامًا للخَصم؛ لقوله: ﴿اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ لم يقل: (اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)، قال: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ إلزامًا لهم بعبادتِه؛ لأنَّهم مُقرُّون بالربوبيَّة، وهذا كقولِه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، فقال: اعبُدوا ربَّكم إلزامًا لهم بالعبادةِ؛ لأنَّ اللهَ هو الذي خلَقَهم، وهو الذي يَحكُم فيهم ويَحكُم بينهم(١).

٤- فتْحُ بابِ التوبةِ لكلِّ مَن أساءَ وإنْ عظُمت إساءتُه؛ لقوله: ﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا...﴾ الآية، فالله تعالى حكَى عنهم الكُفرَ، مع ذلِك عرَض عليهم أنْ ينتهوا عمَّا يقولون(٢).

٥- يُستفادُ من قولِه: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ الاستدلالُ بالأوضحِ الأجْلَى دون الأَخْفى؛ لأنَّ أكْلَهما للطعامِ أمرٌ لا يُنكَر، لكن لو جِيء بأدلَّةٍ عقليَّةٍ أخرى ربَّما يكونُ فيها جدلٌ، لكنَّ الاستدلالَ بالمحسوسِ أبلغُ من الاستدلالِ بالمعقولِ؛ لأنَّ المعقولَ يمكن فيه الجدلُ، لكنَّ المحسوسَ لا يمكن فيه الجدلُ(٣).

٦- قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾، إذا نُهي أهلُ الكتاب عن الغُلوِّ، والغلوُّ في ذاتِه مَفسدةٌ، فكذلِك يُنهى غيرُهم؛ ولهذا حذَّرَ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم من الغُلوِّ في الدِّين، وحذَّر من الغُلوِّ فيه نفْسِه(٤).

٧- أنَّ الذي يَحمِلُ الإنسانَ على الضلالِ هو الهوى، وإلَّا لو كان الإنسانُ

---

(١) ينظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٤٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٠٠).

(٢) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٠٩).

(٣) ينظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٤٦٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٤٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٢١).

(٤) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٣١).

يقول بالعدل، ويَحكُم بالقِسط، ما ضلَّ عن الصِّراطِ المستقيم، لكن يَغلِبه هواه حتى يضلَّ؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا﴾، ثم بَيَّنَ ضلالَهم بقولِه: ﴿وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- قوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ...﴾ جاءَ مؤكَّدًا بثلاثةِ مؤكِّدات: القَسَمُ المقدَّر، واللام، و(قَدْ)، على عادةِ اللِّسانِ العربيِّ في تأكيدِ ما يستحقُّ التأكيد، وإلَّا فخبرُ اللهِ عزَّ وجلَّ حقٌّ، ثم إنَّ هذا أيضًا، أي: قوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ﴾ ليس خبرًا مجرَّدًا، بل هو خبرٌ وحُكم؛ فقد حَكَم عليهم بالكُفرِ؛ لقولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ فهو مؤكَّد؛ لئلَّا يُعارِضَ معارِضٌ فيقول: ليس هذا بكُفرٍ(٢).

٢- أنَّ أحكامَ القُرآنِ الكريم يُؤتَى بها غالبًا بحُكمٍ عامٍّ مَنُوطٍ بالعلَّة، بمعنى: لو شاءَ الله تعالى لقال: لقدْ كفَر النَّصارَى، لكنَّه قال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ سواءٌ كانوا من بني إسرائيلَ الذين هم النَّصارى أو مِن غيرِهم(٣).

٣- أنَّه لا كُفرَ إلَّا بعدَ قِيامِ الحُجَّةِ بِناءً على أنَّ الواو في قوله: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ﴾ حاليَّةٌ، يعني: أنَّهم كفَروا، وقدْ بُيِّنَ لهم الأمرُ(٤).

٤- لَمَّا كانتْ دعوى الاتِّحادِ أشدَّ في الكفرِ، وأنْفى للإلهِ مِن دعوى التثليث، قدَّمها الله تعالى، فقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾،

---

(١) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٣٢).

(٢) ينظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٤٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١٩٣/٢).

(٣) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٩٨).

(٤) ينظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٩٩).

ثم قال بعدَها في الآيةِ التالية: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾[١].

٥- في قولِه تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ أمرُ المسيحِ لهم بأداءِ الحقِّ لأهلِه مُذكِّرًا لهم بعظمتِه بقوله: ﴿اعْبُدُوا اللهَ﴾، ثم ذكَّرهم بإحسانِه، وأنَّه وإيَّاهم في ذلِك سواء، فقال مقدِّمًا لِمَا يتعلَّقُ به؛ لأنَّه أهمُّ لإنكارهم له ﴿رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾[٢].

٦- يُستفادُ من قولِه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ إقامةُ الحُجَّةِ على أهلِ الشِّركِ؛ حيثُ أشركوا بالله مع أنَّه ربُّهم، وأنَّ الأصنامَ ليس لها شأنٌ في الربوبيَّةِ إطلاقًا؛ فهي لا تَسمعُ ولا تُبصِرُ، ولا تَنفع ولا تَضرُّ، كما قال تعالى: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾[٣] [النحل: ٢١].

٧- أنَّه لا حظَّ لعيسى في الأُلوهيَّةِ والرُّبوبيَّة، ولا حقَّ له فيهما؛ لقوله: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ هذا في الألوهيَّةِ ﴿رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ وهذا في الرُّبوبيَّة، وكذلك غيرُه من الرسلِ وغيرُه من الناسِ، وبهذا نَعرِفُ ضلالَ أولئك القومِ الذين يدَّعون أنَّ أولياءَهم هم الذين يُدبِّرون الكونَ، وهم الذين يُصرِّفونَه، وأنَّهم على ضَلالٍ مبينٍ[٤].

٨- قوله: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ ذكَر العِبادةَ ثمَّ ذكَر الرُّبوبيَّة؛ إشارةً إلى أنَّ الربوبيَّةَ تستلزمُ الأُلوهيَّةَ، أي: إنَّ توحيدَ الرُّبوبيَّةِ يستلزمُ توحيدَ الألوهيَّة، فمَن أقرَّ للهِ عزَّ وجلَّ بالرُّبوبيَّة لزِمَه أن يُقرَّ بالعبادةِ؛ لأنَّ الربَّ يجبُ أن يكونَ

---

(١) ينظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢٤٧) هذا على قولِ بعضِ المفسِّرين أنَّ كلَّ آية في طائفةٍ مِن النَّصارى.

(٢) ينظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢٤٧).

(٣) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٠٠).

(٤) ينظر: ((المصدر السابق)).

معبودًا؛ لأنَّ له الأمرَ وله الحُكم، فإذا كان كذلك يجبُ أن يُعبَدَ كما شرَع[1].

٩- يُستفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ أنَّ عِقابَ الفُسَّاقِ لا يكون مخلَّدًا؛ لأنَّه تعالى جعَل أعظمَ أنواعِ الوعيدِ والتهديدِ في حقِّ المشركينَ، وهو أنَّ الله تعالى حرَّم عليهم الجنَّةَ ومأواهم النَّار، وأنَّه ليس لهم ناصرٌ يَنصرُهم، ولا شافعٌ يَشفَعُ لهم، فلو كان حالُ الفُسَّاقِ من المؤمنين كذلك لَمَا بقِي لتهديدِ المشركين على شِركهم بهذا الوعيدِ فائدةٌ[2].

١٠- أنَّه لا مأوى للخَلقِ إلَّا أحدُ أمرين: إمَّا الجنَّة، وإمَّا النار، ليس هناك شيءٌ وسطٌ؛ لقولِه: ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾[3].

١١- لَمَّا كان المنعُ مِن دار السُّعداءِ مُفهِمًا لكونه في دارِ الأشقياء، صرَّحَ به فقال: ﴿وَمَأْوَاهُ﴾، أي: محلُّ سُكناه ﴿النَّارُ﴾، ولَمَّا جرَتْ عادةُ الدنيا بأنَّ مَن نزَلَ به ضيمٌ يَسعى في الخَلاصِ منه بأنصارِه وأعوانِه، نفَى ذلك سبحانه مُظهِرًا للوصفِ المقتضي لشَقائِهم تعليلًا وتعميمًا، فقال: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ لا بِفِداءٍ ولا بشفاعةٍ[4].

١٢- الإشارةُ إلى أنَّ الشِّركَ ظلمٌ؛ لقوله: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ وقد جاءَ ذلك صريحًا في القرآنِ الكريم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[5] [لقمان: ١٣].

١٣- فائدةُ جمْعِ الأنصارِ في قوله: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾- مع كونِ

(١) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٩٦).
(٢) ينظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٤٥٨).
(٣) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٠١).
(٤) ينظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢٤٩).
(٥) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٠٣).

النَّكِرة المفردةِ تُفيدُ العمومَ في سِياقِ النَّفيِ - هي التَّنبيهُ على كونِ النَّصارى كانوا يتَّكِلونَ على كثيرٍ مِن الرُّسلِ والقِدِّيسينَ؛ إذ كانتْ وثنيةُ الشَّفاعةِ قدْ فشَتْ فيهم، وإنْ لم تكُن من أصلِ دِينِهم(١).

١٤- أنَّ الظالِمينَ لا ناصِرَ لهم؛ لقوله: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾، و(مِن) هنا حرفُ جرٍّ جاء لإفادةِ العمومِ والتوكيد؛ فإنْ قال قائل: كيفَ يَستقيمُ هذا النفيُ المؤكَّد مع أنَّ الكفَّارَ قد يُنصَرون، والمشركين قدْ يُنصَرون؟ الجواب: أنَّ هذا نصرٌ مؤقَّتٌ؛ ليبتليَ اللهُ به المؤمنين، وليس نصرًا دائمًا؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]، وقال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ [البقرة: ١٦٦]، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨]، ولا يُمكِن أنْ يتناصرَ الكفَّارُ في دفْعِ العذاب عنهم يومَ القِيامة، وحينئذٍ فلا إشكالَ(٢).

١٥- أَبطلَ اللهُ قولهم: ﴿إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ بقوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾، وهذا خبرٌ مِن أصدقِ المخبِرينَ، خبَرٌ مؤكَّد بحَرفِ الجرِّ الزائِدِ وبالحَصْر، وطريقُ الحصرِ النفيُ والإثبات، وهذا الحصرُ مؤكَّد بـ«من» الزائدة، وكلُّ الحروفِ الزائدة مؤكِّدة(٣).

١٦- إثباتُ عدْلِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وأنَّه لا يُعذِّبُ إلَّا مَن استمرَّ على كُفرِه ومعصيتِه؛ لقوله: ﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٤).

١٧- التَّحذيرُ البليغُ من الاستمرارِ على الكفرِ والشِّركِ، وأنَّ مَن استمرَّ عليه

---

(١) ينظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٤٠٠).

(٢) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٠٣).

(٣) ينظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢٤٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٤٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٠٥).

(٤) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٠٩).

فله العذابُ الأليمُ؛ لقولِه: ﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(١).

١٨- في قوله: ﴿أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ.... عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بيانُ لُطفِ اللهِ تعالى بعِبادِه؛ حيث صدَّر دَعوتَهم إلى التوبةِ بالعَرَضِ الذي هو غايةُ اللُّطفِ واللِّين؛ فمع هذه الفِريةِ العُظمَى والوقوعِ في جنابِ اللهِ جلَّ وعلا بهذا الأمْرِ الهائلِ العظيمِ، فاللهُ مع هذا يَستعطِفُهم ويَتلطَّفُ بهم للتوبةِ أحسنَ استعطافٍ وألْطفَه(٢).

١٩- في قولِه تعالى: ﴿... وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ استدلالٌ على فسادِ قولِ النصارى بألوهيَّة عيسى وأُمِّه، وبيانُه مِن وجهين: الأوَّل: أنَّ عيسى عليه السلامُ له أمٌّ، وكلُّ مَن له أُمٌّ فقدْ حدَث بعدَ أنْ لم يكُنْ، وكلُّ من كان كذلك كان مخلوقًا لا إلهًا، والثاني: أنَّ عيسى وأمَّه كانا محتاجَيْنِ إلى الطَّعامِ، والإلهُ الحقُّ غنيٌّ عن جميعِ الأشياء(٣).

٢٠- ممَّا يُستفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا﴾ أنَّ الهوى لا يكاد يُذكَرُ إلَّا في موضعِ الشرِّ، فلا يكاد يُقال: فلان يَهوى الخيرَ، إنَّما يُقال: يريدُ الخيرَ ويُحبُّه، وقيل: سُمِّيَ الهوى هوًى؛ لأنَّه يَهوِي بصاحبِه إلى النَّارِ(٤).

٢١- قولُه: ﴿قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا﴾ فيه الردُّ على الجبْريَّةِ الذين قالوا: إنَّ ضلالَ الإنسانِ لا يُنسَبُ إليه، وإنَّه مَجبورٌ عليه، ولا اختيارَ له فيه؛ لأنَّ الآيةَ صريحةٌ بأنهم ضلُّوا وأضلُّوا(٥).

---

(١) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٠٩).
(٢) ينظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤١٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٤٠- ٣٤١).
(٣) ينظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٠٩، ٤١٠).
(٤) ينظر: ((تفسير الشربيني)) للبقاعي (١/ ٣٩٠).
(٥) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٣٢).

٢٢- إثباتُ الأسبابِ؛ لقوله: ﴿وَأَضَلُّوا﴾ فإنَّ هذا إضلالٌ ليس عن قوَّةٍ وإجبارٍ وإكراهٍ، لكنَّه عن سببٍ، يُزيِّنون به الباطلَ حتى يُضلُّوا به غيرَهم[1].

٢٣- أنَّ الدِّينَ الصَّحيحَ وسَطٌ بين الغالي فيه والجافي عنه؛ لقوله: ﴿وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾، أي: عن مُستقيمِ السَّبيلِ، الذي ليس فيه غُلوٌّ ولا تفريطٌ[2].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ، وفيه: شروعٌ في تفصيلِ قَبائحِ النَّصارى، وإبطالِ أقوالهم الفاسدةِ بعدَ تفصيلِ قبائحِ اليهودِ[3].

٢- قوله: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ على القَوْلِ بأنَّ هذه الجملةَ حِكاية لكلامٍ صدَر من عيسى عليه السَّلام، فتكون تعليلًا للأمْر بعبادةِ الله، ووقوع ﴿إِنَّ﴾ في مِثل هذا المقامِ تُغني غَناءَ فاءِ التفريعِ، وتُفيد التَّعليل، وفي حكايتِه تَعريضٌ بأنَّ قولَهم ذلك قد أوْقَعهم في الشِّرْكِ، وإنْ كانوا يظنُّون أنَّهم اجتنبوه؛ حذرًا من الوقوعِ فيما حذَّر منه المَسيحُ؛ لأنَّ الذين قالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ﴾ أرادوا الاتِّحادَ باللهِ، وأنَّه هو هو. وعلى القول بأنَّ الجملةَ من كلامِ اللهِ تعالى فهو تذييلٌ لإثباتِ كُفْرِهم، وزيادةُ تنبيهٍ على بُطلانِ معتقدِهم، وتعريضٌ بهم بأنَّهم قد أشْركوا باللهِ مِن حيثُ أرادوا التوحيدَ، والضمير المقترن بـ(إنَّ) ضميرُ الشَّأنِ يدلُّ على العِناية بالخبرِ الواردِ بعدَه[4].

٣- قوله: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾: خبرٌ، المرادُ منه

(١) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٣٣).
(٢) ينظر: ((المصدر السابق)).
(٣) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٨٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٨٠- ٢٨١).

الوعيدُ والتهديدُ، وهذا مِن بابِ التَّحذيرِ؛ فالجُملةُ هنا استئنافيَّةٌ للتَّحذيرِ(١).

- وفيه: إظهارُ الاسمِ الجَليلِ ﴿اللَّهُ﴾ في مقامِ الإضمارِ؛ لتهويلِ الأمرِ، وتربيةِ المهابةِ(٢).

٤- قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

- قوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ فيه: تأكيدٌ أنَّه لا يكونُ إلهٌ في الوُجودِ مستحِقٌّ للعبادَةِ إلَّا إلهٌ واحدٌ موصوفٌ بالوحدانيَّة، مُتعالٍ عن قَبول الشَّرِكةِ، وأكَّد ذلك بزيادةِ ﴿مِن﴾ الاستغراقيَّة التي تُؤكِّد عمومَ النَّفْي(٣)، وحَصْرِ إلهيَّته- بأداتَيِ الحصْرِ (ما) و(إلَّا)- في صِفة الوحدانيَّة؛ فانتفى التثليثُ المحكيُّ عنهم(٤).

- وعبَّر بالمضارعِ في قولِه: ﴿يَنْتَهُوا﴾؛ لأنَّه المناسِبُ للانتهاءِ؛ إذ الانتهاءُ إنَّما يكونُ عن شيءٍ مستمرٍّ، وناسَب التعبيرُ بالماضي في قولِه ﴿قَالُوا﴾ مع قولِه ﴿لَقَدْ كَفَرَ﴾؛ لأنَّ الكُفرَ حصَلَ بقولِهم ذلك ابتداءً من الزَّمنِ الماضي(٥).

- وأكَّد الوعيدَ بلامِ القَسَم في قَوْلِه: ﴿لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ...﴾؛ ردًّا لاعتقادِهم أنَّهم لا تَمسُّهم النارُ؛ لأنَّ صَلْبَ عيسى كان كفَّارةً عن خَطايا بني آدَمَ(٦).

---

(١) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٩٧).

(٢) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٦٦).

(٣) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٣٠).

(٤) ينظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٦٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٨٢-٢٨٣).

(٥) ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٨٣).

(٦) ينظر: ((المصدر السابق)).

- وفي قوله: ﴿لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ إقامةُ الظَّاهِرِ مقامَ المضمَرِ - حيثُ لم يقُلْ: (وليمسنَّهم) - وفائدتُه: تكريرُ الشَّهادةِ عليهم بالكُفرِ في قولِه: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا...﴾، وفيه فائدةٌ أخرى، وهي: الإعلامُ أنَّهم بمكانٍ مِن الكُفرِ، أي: ليمسنَّ الذين كَفروا من النَّصارى خاصَّةً نوعٌ شديدُ الألمِ من العَذابِ(١).

٥- قوله: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إلى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ الاستفهامُ فيه؛ قيل: معناهُ الإنكارُ والتعجُّبُ مِن إصرارِهم؛ كيفَ لا يَتوبونَ ويَستغفِرون مِن هذه المَقالةِ الشَّنعاءِ؟! والإنكارُ هنا إنكارٌ للواقِعِ منهم لا إنكارُ الوقوعِ؛ فمدارُ الإنكارِ والتعجُّبِ عَدَمُ الانتهاءِ، وعَدمُ التَّوبةِ معًا. وقيل: معنى هذا الاستفهامِ الأمرُ والتَّحضيضُ؛ لأنَّ المفهومَ مِن الصِّيغةِ طَلَبُ التَّوبةِ والحثُّ عليها، فمعناه: تُوبوا إلى اللهِ واستغفِرُوه مِن ذَنبِكم(٢).

٦- قوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ جملةٌ حاليَّةٌ مِن فاعِل ﴿يَسْتَغْفِرُونَهُ﴾، وهي مؤكِّدةٌ للإنكارِ والتعجُّبِ من إصْرارِهم على الكُفرِ، وعدمِ مُسارعتِهم إلى الاستغفارِ، أي: والحالُ أنَّه تعالى مبالِغٌ في المغفرةِ، فيَغفرُ لهم عندَ استغفارِهم، ويَمنحُهم من فضلِه؛ فكيف لا تُوجَدُ التوبةُ مِن هذا الذَّنبِ، وطَلَبُ المغفرةِ، والمسؤولُ منه ذلك مُتَّصفٌ بالغُفرانِ التامِّ، والرحمةِ الواسعةِ لهؤلاء وغيرِهم(٣)؟!

٧- قوله: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ﴾ استئنافٌ لتبيانِ وصْفِ المسيحِ

---

(١) ينظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٦٣)، ((تفسير القاسمي)) (٤/ ٢١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٨٢-٢٨٣).

(٢) ينظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٣١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٣٧٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٦٧).

(٣) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٣١)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٨٤).

في نَفْسِ الأمرِ، ووصْفِ أمِّه؛ زيادةً في إبطالِ مُعتقَدِ النصارى إلهيَّةَ المسيحِ، وإلهيةَ أمِّه(١).

٨- قوله: ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ جاءَ قولُه: ﴿صِدِّيقَةٌ﴾ على بِناءٍ مِن أبنيةِ المبالَغةِ (فِعِّيل)؛ للدَّلالةِ على مُبالغَتِها في الصِّدْقِ والتَّصديقِ(٢).

٩- قوله: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ قِيل: فيه كنايةٌ حَسَنةٌ؛ حيثُ كنَّى عن قَضاءِ الحاجةِ بأكْلِ الطَّعامِ، وقصَدَ مِن ذلك أنَّهما- صلواتُ اللهِ عليهما- بَشَرٌ، فاكتفَى بذِكرِ أكْلِ الطَّعامِ عن كلِّ هذا؛ لأنَّهما منه مُسبَّبانِ؛ إذ لا بدَّ للآكلِ منهما، لكن استُقبِح في المخاطَبِ ذِكرُ الغائطِ فكنَّى به عنه؛ تهذيبًا وتصوُّنًا، وهذا مِن غريبِ الكناياتِ في اللُّغة العربيَّة، وفيها أيضًا تشنيعٌ وبشاعةٌ على مَن اتَّخذهما آلهةً(٣). وقيل: بلْ هو على حَقيقتِه، ويَكفِي حاجتُهما إلى الطعامِ دَلالةً على بشريَّتِهما؛ إذ هذه الحاجةُ من أقوى الدلائلِ على أنَّه ليس بإلهٍ؛ فلا حاجةَ إلى الكنايةِ(٤).

١٠- قوله: ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾

- الجُملة استئنافٌ للتعجُّبِ مِن حالِ الذين ادَّعَوُا الإلهيَّةَ لعيسى عليه السلامُ(٥).

- والتكريرُ في قوله: ﴿ثُمَّ انْظُرْ﴾ بعد قوله: ﴿انْظُرْ﴾؛ للدَّلالةِ على الاهتمامِ بالنَّظر والتدبُّر، وإن اختلفتِ النَّظرتانِ؛ فالأُولى متعلِّقة بكيفيَّةِ إيضاحِ اللهِ لخَلْقِه الآياتِ، والثانية متعلِّقةٌ بانصرافِهم عنها، وصُدوفِهم عن التأمُّلِ في مراميها وأهدافِها؛ إذ تكريرُ الأمرِ بالنظرِ للمبالغةِ في التعجُّب، و﴿ثُمَّ﴾

---

(١) ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٨٥).

(٢) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٨٦).

(٣) ينظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٢/ ٣٠٤- ٣٠٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٥٣٤- ٥٣٥).

(٤) ينظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٠٩- ٤١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٣٣).

(٥) ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٨٧).

لإظهارِ ما بين العجبينِ من التفاوتِ، أي: إنَّ بيانَنا للآياتِ أمرٌ بديعٌ في بابه، بالغٌ لأقاصي الغاياتِ القاصية من التحقيق والإيضاح، وإعراضَهم عنها- مع انتفاءِ ما يُصحِّحه بالمرَّةِ، وتعاضُد ما يُوجِب قَبولَها- أعجبُ وأبدعُ[١].

١١- قوله: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ فيه: استفهامٌ غرضُه التوبيخُ والإنكارُ؛ فإنَّه لَمَّا بيَّن تعالى انتفاءَ الإلهيَّة عن عيسى، وكان قدْ توعَّدَهم، ثمَّ استدعاهم للتوبةِ وطلَبِ الغفرانِ- أنكرَ عليهم، ووبَّخهم من وجهٍ آخر، وهو عجزُه وعدمُ اقتدارِه على دفْع أيِّ ضررٍ، وجَلْب أيِّ نفعٍ، وأنَّ مَن كان لا يدفَعُ عن نفْسِه حريٌّ ألَّا يدفعَ عنكم[٢].

- وتقديمُ قولِه تعالى: ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ على قولِه تعالى: ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾؛ للاهتمامِ بالمقدَّم، والتشويقِ إلى المؤخَّر، والاسمُ الموصول ﴿مَا﴾ عبارةٌ عن عيسى عليه السلام، وإيثارُه على كلمة ﴿مَنْ﴾؛ لتحقيقِ ما هو المرادُ من كونِه بمعزلٍ من الألوهيَّة رأسًا ببيانِ انتظامِه عليه السَّلام في سِلْكِ الأشياءِ التي لا قُدرةَ لها على شيءٍ أصلًا، وهو عليه السَّلامُ وإنْ كان يملِك ذلك بتمليكِه تعالى إيَّاه، لكنَّه لا يملكُه مِن ذاتِه، ولا يملك مِثلَ ما يضرُّ به اللهُ تعالى من البلايا والمصائِب، وما ينفعُ به من الصحَّةِ والسَّعةِ[٣].

- وتقديمُ الضَّرِّ على النَّفع في قولِه: ﴿ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ من بابِ تقديمِ الأهمِّ؛ لأنَّ التحرُّزَ عنه أهمُّ من تحرِّي النفعِ، ولأنَّ أدْنى درجاتِ التأثيرِ دفْعُ الشرِّ، ثم جلْبُ الخيرِ[٤].

١٢- قوله: ﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ حالٌ من فاعل ﴿أَتَعْبُدُونَ﴾ وفيه

---

(١) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٦٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٥٣٥).
(٢) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٣٤).
(٣) ينظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٦٨).
(٤) ينظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٦٨).

تأكيدٌ للإنكار والتوبيخ، وتقريرٌ للإلزامِ والتَّبكيت، والرَّابط هو الواو، أي: تُشركون بالله تعالى ما لا يَقدِرُ على شيءٍ مِن ضرِّكم ونَفْعِكم، والحالُ أنَّ الله تعالى هو المختصُّ بالإحاطةِ التامَّة بجميعِ المسموعاتِ والمعلوماتِ، التي مِن جُملتها ما أنتُم عليه من الأقوالِ الباطِلَة، والعقائدِ الزائغَةِ، والأعمالِ السيِّئة، وبالقُدرة الباهِرة على جميعِ المقدوراتِ، التي مِن جُملتها مضارُّكم ومنافعُكم في الدُّنيا والآخرة[١].

١٣- قوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾

- فيه تلوينُ الخِطاب وتَوجيهٌ له إلى أهلِ الكتابِ بطَريقِ الالتفاتِ على لِسانِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بعدَ إبطالِ مسالكهم؛ للمبالغةِ في زَجْرِهم عمَّا سلَكوه مِن المسلك الباطِلِ، وإرشادِهم إلى الطَّريقِ الحقِّ الذي يُرضي اللهَ تعالى[٢].

- وتَنكيرُ ﴿قَوْمٍ﴾ تحقيرًا لهم[٣].

- وفيه تَكرارُ وصْفِ أهلِ الكتابِ بالضَّلالِ؛ وأنَّهم ضلُّوا قديمًا في دِينِهم مِن قَبلِ مجيءِ الإسلامِ، وأضلُّوا كثيرًا مِن أتْباعِهم، ثمَّ أكَّد ذلك بتَكرار قولِه: ﴿وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾، وأنَّهم ضلُّوا بعد ذلك عن الإسلامِ[٤].

---

(١) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٦٨).

(٢) ينظر: ((المصدر السابق)).

(٣) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٣٦).

(٤) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٩٠).

الآيات (٧٨ - ٨١)

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ ﴾.

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾.

﴿أَنْ سَخِطَ﴾: ﴿أَنْ﴾: حرفٌ مَصدريٌّ ناصِبٌ، و﴿سَخِطَ﴾: فِعلٌ ماضٍ تَعلَّق به الجارُّ والمجرورُ ﴿عَلَيْهِمْ﴾، و﴿أَنْ سَخِطَ﴾: مَصدرٌ مؤوَّلٌ، ومحلُّه الرفْع على أنَّه مبتدأٌ مؤخَّرٌ، وخبرُه المقدَّمُ جملةُ الفِعلِ الجامِدِ (بِئْسَ)، والتقديرُ: سَخَطُ اللهِ عليهم بِئسَ ما قدَّمَتْه لهم أنفُسُهم. وقيل: ﴿أَنْ سَخِطَ﴾: مَصْدر مُؤَوَّلٌ في محَلِّ رفعٍ خَبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ تقديرُه (هو)، والتقديرُ: بِئسَ ما قدَّمتْه لهم أنفُسُهم هو سَخَطُ اللهِ. وقيل غير ذلك[1].

المَعنَى الإجْماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه لَعَن كفَّارَ بني إسرائيلَ بأنْ طرَدَهم مِن رَحمتِه على لِسانِ نَبيَّينِ كَريمينِ؛ هما داودُ وعيسى عليهما السَّلامُ، وذلك بسببِ عِصيانِهم لخالقِهم، واعتدائِهم على حُقوقِ العِبادِ، ثمَّ فسَّر سبحانه عِصيانَهم وعُدوانَهم بأنَّهم كانوا

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٥٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٣٨٤-٣٨٦)، ((إعراب القرآن الكريم)) للدعاس (١/ ٢٧٢).

لا يَنهَى بعضُهم بعضًا عن ارتكابِ المعاصِي والموبِقات، لبئسَ فِعلًا تَركُهم التَّناهي عن المعاصِي.

ثمَّ يحَكِي الله تعالى ما كان يقومُ به اليهودُ في العَهْدِ النبويِّ من تحالفٍ مع المشركين ضدَّ المسلمين، وأنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم كان يرَى كثيرًا من اليهودِ يُوالونَ الكفَّارَ والمشركين، ولبِئسَ الشيء الذي قدَّمته لهم أنفسُهم ليوم المعاد هو ما استحقُّوا به سَخطَ اللهِ عز وجل عليهم، وفي عَذابِ جهنَّمَ هم خالدونَ، ولو أنَّ اليهودَ يُؤمِنون باللهِ تعالى حقًّا وبمحمدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وبالقرآنِ الكريمِ، ما والَوْا الكفَّارَ، ولكنَّ كثيرًا منهم فاسِقونَ.

تَفْسيرُ الآياتِ:

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨)﴾.

مناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ سبحانَه في الآيةِ السابقَةِ أنَّهم ﴿قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ﴾، دلَّل على ذلِك بلَعْنِهم مِن أنبيائِهم[1]، فقال:

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى قد طَرَدَ كُفَّارَ بني إسرائيلَ، وأبْعدَهم عن رَحمتِه بدَعوةِ نبيَّيْه داودَ وعِيسى عليهم بذلِك[2].

﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٨٦، ٥٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٣٤).

أي: إنَّ ذلِك اللَّعنَ قدْ وقَع عليهم بسببِ عِصيانهم للهِ تعالى، وظُلمِهم لعبادِه(١).

ثم بَيَّن اللهُ تعالى حالَهم فيما كانوا يَعتمِدونَه في زَمانِهم، مِن عُدوانٍ ومعاصٍ أحَلَّتْ بهم الْمَثُلاتِ، وأوقعتْ بهم العُقوباتِ(٢)، فقال سبحانه:

﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩)﴾.

﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾.

أي: كان لا يَنهى بعضُهم بعضًا عن رُكوبِ المعاصِي وارتكابِ المُحرَّمات(٣).

﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.

أي: واللهِ بِئسَ الشَّيءُ الذي كانوا يَفعلونَه، وهو ترْكُهم النَّهيَ عن معاصِي اللهِ تعالى(٤).

﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٣٤- ٢٣٥).

وممَّن جعَلَ الإشارة في قولِه: ﴿ذَلِكَ﴾ إلى اللَّعن: ابنُ عطية في ((تفسيره)) (٢/ ٢٢٤)، والقرطبيُّ في ((تفسيره)) (٦/ ٢٥٣)، وابنُ عاشور في ((تفسيره)) (٦/ ٢٩٢)، وابن عثيمين في ((تفسير سورة المائدة)) (٢/ ٢٣٤- ٢٣٥).

وممَّن جعَلَ الإشارةَ في قوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إلى الكفرِ واللَّعن معًا: السعديُّ في ((تفسيره)) (ص: ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٣٥- ٢٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٣٦).

مناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا وصَفَ اللهُ تعالى أسلافَهم بما تَقدَّمَ بأنَّهم ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ وأخْبرَ أنهم كانوا يُقرُّون المنكراتِ، ودلَّل على ذلك بأمرٍ ظاهرٍ منهم، فوصَف الحاضرينَ منهم بأنَّهم يَتولَّوْن الكفَّارَ وعبدةَ الأوثانِ(١)، فقال:

﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

أي: ترَى- يا مُحمَّدُ(٢)- كثيرًا من اليهودِ يتَّخذون الكفَّارَ والمشركين أولياءَ لهم(٣).

﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾.

أي: واللهِ بِئسَ الشَّيءُ الذي قدَّمتْه لهم أنفسُهم لِمَعادِهم في الآخِرة، بموالاتِهم الكافرينَ والمشركين، وهو سَخَطُ اللهِ تعالى عَليهم سَخَطًا مُستمرًّا إلى يَومِ القِيامةِ؛ الذي يَنتقلونَ فيه إلى عذابٍ أبديٍّ(٤).

---

(١) ينظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢٦٦).

(٢) قال ابنُ عَطيَّة: (وقوله تعالى لمحمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿تَرَى كَثِيرًا﴾ يحتمل أنْ يكون رؤيةَ قلبٍ، وعلى هذا فيحتمل أنْ يُريد من الأسلاف المذكورين، أي: ترَى الآن إذا خبرناك، ويحتمل أنْ يُريد من مُعاصري محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لأنَّه كان يرى ذلك من أمورِهم ودلائلَ حالهم، ويحتمل أنْ تكونَ الرؤيةُ رؤيةَ عينٍ، فلا يريد إلَّا معاصري محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم) ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٢٢٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٢٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٤٤- ٢٤٥).

قال ابنُ عثيمين: (ومِن هؤلاء اليهودُ حينما ساعَدوا قريشًا عامَ غزوة الأحزاب؛ فإنَّهم تولَّوا الذين كفروا وساعدوهم وعاونوهم، ومِن هذا تولِّي اليهود للنصارى في وقتنا الحاضِر، هذا إذا قلنا: إنَّ «ترَى» عامَّة؛ لأنَّ النصارى من الذين كفروا؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [البينة: ٦]، وهذا بيانٌ للذين كفروا) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٩٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢١٧- ٢١٨).

﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٨١)﴾.

مناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا كانَ تولِّيهم الكفَّارَ قدْ يكون دليلًا على كُفرِهم؛ لقوله: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أكَّدَ ذلك الكُفرَ بقوله: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ...﴾[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى في الآيةِ السَّابقةِ اليَهودَ بأنَّهم يتولَّوْن الكُفَّارَ وعَبدةَ الأَوثانِ- عقَّب ذلك بعِلَّةِ هذه الموالاةِ، وهي: أنَّهم لم يُؤمِنوا باللهِ والنبيِّ، وأنَّ كَثرتَهم فاسقةٌ[2]، فقال تعالى:

﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾.

أي: ولوْ أنَّ اليهودَ آمنوا حقًّا باللهِ تعالى وبمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وبالقرآنِ العظيمِ، لَمَا جعَلوا الكفَّارَ أولياءَ لهم مِن دون المؤمنين؛ فإنَّ الإيمانَ بذلِك يُوجِبُ على العَبدِ موالاةَ ربِّه سبحانه وأوليائِه المؤمنين، وبُغضَ أعدائِه الكافِرين ومعاداتَهم[3].

﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

أي: ولكنَّ كثيرًا مِن هؤلاءِ أهلُ خُروجٍ عن الإيمانِ بما يجِبُ عليهم الإيمانُ به إلى الكُفرِ به، وعن طاعةِ اللهِ تعالى إلى مَعصيتِه سبحانه[4].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٩٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٥١- ٢٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٥٢).

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- يُستفادُ من قولِه تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ.... كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ أنَّ السُّكوتَ عن المنكَرِ مع القُدرةِ موجِبٌ للعقوبة؛ لِمَا فيه من المفاسدِ العظيمة، التي منها:

أولًا: أنَّ مجرَّدَ السُّكوت فِعلُ معصيةٍ، وإنْ لم يباشِرْها السَّاكتُ؛ فإنَّه- كما يجبُ اجتنابُ المعصيةِ- يجبُ الإنكارُ على مَن فعَلَ المعصيةَ، وعدمُ الإنكارِ يدلُّ على التهاوُنِ بالمعاصي، وقِلَّةِ الاكتراثِ بها.

ثانيًا: أنَّ ذلك يُجرِّئ العصاةَ والفَسَقةَ على الإكثارِ من المعاصي إذا لم يُردَعوا عنها، فيزدادُ الشرُّ، وتعظُم المصيبةُ الدِّينيَّة والدُّنيويَّة، ويكون لهم الشوكةُ والظهور، ثم بعدَ ذلك يَضعُف أهلُ الخيرِ عن مُقاومةِ أهلِ الشرِّ؛ حتى لا يَقدِروا على ما كانوا يَقدِرون عليه أوَّلًا.

ثالثًا: أنَّ في ترْكِ الإنكارِ للمُنكَر اندِراسَ العِلم، وكثرةَ الجَهل؛ فإنَّ المعصيةَ- مع تكرُّرِها وصُدورِها من كثيرٍ من الأشخاص، وعدَم إنكارِ أهلِ الدِّين والعِلم لها- يُظَنُّ أنَّها ليستْ بمعصية، وربَّما ظنَّ الجاهلُ أنَّها عبادةٌ مُستحسَنةٌ، وأيُّ مفسدةٍ أعظمُ مِن اعتقادِ ما حرَّم اللهُ حلالًا، وانقلابِ الحقائقِ على النُّفوسِ، ورؤيةِ الباطل حقًّا؟!

رابعًا: أنَّ السكوت على معصيةِ العاصين، ربَّما يُزيِّن المعصيةَ في صُدورِ النَّاسِ، ويقتدي بعضُهم ببعضٍ؛ فالإنسانُ مُولَع بالاقتداءِ بأضرابه وبَني جِنسِه(١).

٢- يُستفادُ من قولِه تعالى: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ أنَّ الأمرَ بالمعروفِ والنَّهيَ عن المنكرِ مِن أوجبِ واجباتِ المسلِمِ في مجتمعِه(٢).

---

(١) ينظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤١).

(٢) ينظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٩٤٩). =

٣- التَّحذيرُ من موالاةِ الكافرينَ؛ لقوله: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ...﴾، وموالاةُ الكافرين أنواعٌ كثيرة، منها ما يصِلُ إلى الكُفرِ، ومنها ما هو دون ذلك[1].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- أنَّ تَرْكَ التَّناهي عن المنكَرِ سببٌ لِلَعنةِ اللهِ للعَبدِ وطَرْدِه وإبعادِه من رَحمتِه، والعياذُ باللهِ؛ لقوله: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ... كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾[2].

٢- في قوله تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ تاريخَ بني إسرائيل في الكُفرِ والمعصيةِ واللَّعنةِ عريقٌ[3].

٣- قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ قد تقرَّر في غير موضعٍ مِن القرآنِ ما جرَى في مُدَّة موسى عليه السَّلامُ مِن كُفرِ بعضِهم وعُتوِّهم، وكذلك أمرُهم مع محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم كان مشاهدًا في وقتِ نُزولِ القرآن، فخَصَّت هذه الآيةُ داودَ وعيسى؛ إعلامًا بأنَّهم لُعِنوا في الكتُبِ الأربعةِ، وأنَّهم قدْ لُعِنوا على لِسانِ غيرِ موسى ومحمَّد عليهما السَّلامُ[4].

٤- أنَّ مِن بني إسرائيلَ قبل مَبعَث النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم مَن هو كافرٌ،

= قال ابنُ عَطيَّة: (والإجماعُ على أنَّ النهي عن المنكر واجبٌ لِمَن أطاقَه، ونهَى بمعروفٍ وأمِن الضررَ عليه وعلى المسلمين، فإنْ تعذَّر على أحدٍ النهيُ لشيءٍ من هذه الوجوهِ، ففرضٌ عليه الإنكارُ بقلبِه، وأنْ لا يُخالِطَ ذا المنكرَ) ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٢٢٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٣٨).

(٣) ينظر: ((في ظلال القرآن لسيد قطب)) (٢/ ٩٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٢٢٣).

ومنهم مَن هو مؤمنٌ؛ لقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، وهذا هو الواقعُ؛ فإنَّ منهم مؤمِنِين، كالحواريِّين لعيسى عليه الصَّلاة والسَّلام، وكالقومِ الذين اختارَهم موسى سَبعينَ رجلًا، وغير ذلك[1].

٥- أنَّ الله سبحانه وتعالى لا يَظلِمُ الناسَ شيئًا، وأنَّه لا يُعاقِبُ أحدًا بعقوبةٍ إلَّا بذنبٍ؛ لقولِه: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾[2].

٦- يُستفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ الإخبارُ بفُشُوِّ المنكراتِ فيهم، وانتشارِ مَفاسِدِها بينهم؛ لأنَّ وجودَ العِلَّة يَقتضي وجودَ المعلولِ، ولولا استمرارُ وقوعِ المنكرات لَمَا صحَّ أن يكونَ تركُ التناهي شأنًا من شؤونِ القومِ، ودأْبًا من دُؤوبهم[3].

٧- قال تعالى: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أطْلَق على تَرْكِ التناهي لفظَ الفِعل في قوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ مع أنَّه تَرْكٌ؛ لأنَّ السُّكوتَ على المنكَرِ لا يَخلو من إظهارِ الرِّضا به والمشاركةِ فيه[4]، وعلى القولِ بأنَّ التركَ فعلٌ، فلا يحتاجُ لهذا التَّوجيهِ.

٨- في قولِه تعالى: ﴿لَبِئْسَ ما كانُوا يَفْعَلُونَ﴾ ما يدلُّ على سُوءِ ما عليه بعضُ المسلمين في إعراضِهم عن بابِ التَّناهي عن المناكيرِ، وقِلَّة اهتمامِهم به؛ كأنَّه ليس مِن مِلَّةِ الإسلامِ في شَيءٍ مَع ما يَتْلُونَ مِن كلامِ اللَّهِ، وما فيه مِنَ المبالغاتِ في بابِ الأمرِ بالمعروفِ، والنهيِ عن المنكَرِ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢٦٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٤٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٩٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٦٧).

٩- الردُّ على الجَبريَّة؛ لقوله: ﴿قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾، وقوله أيضًا: ﴿يَتَوَلَّوْنَ﴾(١).

١٠- إثباتُ صِفة السَّخَطِ للهِ عزَّ وجلَّ على ما يَليقُ بكَمالِه وجَلالِه؛ لقوله: ﴿أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾(٢).

١١- يُستفادُ من قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ أنَّه لا ولاءَ ولا تناصُرَ بين أهل الكِتابِ وبين المسلِمين، في شأنٍ من الشؤون؛ لأنَّ كلَّ شأنٍ مِن شؤون الحياةِ عندَ المسلمِ خاضعٌ لأمْر الدِّين(٣).

١٢- أنَّ اتِّخاذَ الكافرينَ أولياءَ مُنافٍ للإيمانِ باللهِ ورسولِه وكتابه؛ لقوله: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾(٤).

١٣- الاستدلالُ بالمحسوسِ على المعقولِ، وإن شئتَ فقُل: بالمشاهَدِ على الخفيِّ؛ لقوله: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ وجه ذلك: أنَّ الإيمانَ في القلبِ، ولا أحدَ يَعلمُ عن الإيمانِ الذي في القَلبِ، لكنَّ الآثارَ تدلُّ عليه، والأثَر الذي دلَّنا على أنَّهم لم يُؤمنوا هنا، هو تولِّي الكفَّارِ، واتِّخاذهم أولياءَ(٥).

١٤- أنَّ الفِسقَ يُطلقُ على الكفرِ؛ لقولِه: ﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾، ودليلُ ذلِك أيضًا قولُه تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ [السجدة: ٢٠]، في مقابلِ الذين آمنوا، وإذا جاءَ الفسقُ في مقابلِ الإيمانِ، والوعيدُ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٤٩).

(٣) ينظر: ((في ظلال القرآن لسيد قطب)) (٢/ ٩٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٥١).

(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٥٥).

مقابل الوعدِ؛ فالمراد به الكفرُ[١].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ...﴾ جملةٌ مستأنفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا فيها تخلُّص بديعٌ؛ لتخصيصِ اليهودِ بإلقاءِ اللَّوْم عليهم، وذِكرهم بالسُّوء دون النَّصارى[٢].

- وجاء التَّعبير بحرف الجرِّ (على) في قوله: ﴿عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ﴾ بدلًا من باءِ الملابسة؛ لإظهارِ تمكُّنِ الملابسةِ، وقصْدِ المبالغةِ فيها، أي: لُعِنوا بلسانِ داودَ، أي: بكلامِه المُلابسِ لِلسانِه[٣].

٢- قوله: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ الجملةُ مستأنَفة واقعةٌ موقعَ الجوابِ عمَّا نشَأ مِن الكلامِ، كأنَّه قيل: بأيِّ سببٍ وقعَ ذلك؟ فقيل: ذلك اللعنُ الهائلُ الفظيعُ بسببِ عِصيانِهم واعتدائِهم المستمرِّ، كما يُفيدُه الجمعُ بين صِيغتي الماضي والمستقبَل[٤].

- و(ما) في قوله ﴿بِمَا عَصَوْا﴾ مصدرية، أي: بعصيانهم وكونهم معتدِين، فعدل عن التعبيرِ بالمصدرين إلى التعبيرِ بالفِعلين مع (ما) المصدريَّة؛ ليُفيدَ الفعلانِ معنى تجدُّدِ العصيان، واستمرارِ الاعتداءِ منهم، ولتفيد صِيغةُ المضيِّ أنَّ ذلك أمرٌ قديم فيهم، وصيغةُ المضارع أنَّه متكرِّرُ الحدوث، وإنما عبَّر في جانبِ العصيانِ بالماضي فقال: ﴿عَصَوْا﴾؛ لأنَّه تَقرَّر فلم يقبلِ الزيادة، وعبَّر في جانبِ الاعتداءِ بالمضارع فقال: ﴿يَعْتَدُونَ﴾؛ لأنَّه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٥٥).

(٢) ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٩٢).

(٣) ينظر: ((المصدر السابق)).

(٤) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٦٩).

مستمرٌّ؛ فإنَّهم اعتدَوْا على محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالتكذيبِ والمنافقةِ، ومحاولةِ الفَتْكِ والكيدِ(١).

- وإيثارُ اسمِ الإشارةِ ﴿ذَلِكَ﴾ على الضَّمير- حيث لم يقُل: (هو بما عصوا)-؛ للتَّنبيهِ على كَمالِ ظهورِه، وامتيازِه عن نظائرِه، وانتظامِه بسببِه في سلكِ الأمورِ المشاهَدة، وما فيه مِن معنى البُعدِ؛ للإيذانِ بكَمالِ فظاعتِه، وبُعدِ درجتِه في الشَّناعةِ والهولِ(٢).

- وقوله: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ فيه تأكيدٌ على سَببِ اللَّعنِ، أي: ذلك اللَّعنُ كان بسَببِ عِصيانهم وعُدوانِهم، وذُكِر هذا على سَبيلِ التوكيدِ، مع أنَّه قد فُهِمَ سَببُ اللَّعنةِ بإسنادِها إلى مَن تَعلَّقَ به الوصفُ الدالُّ على العِليَّة، وهو ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾(٣).

- وفي قولِه: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ خَصَّ العُدوانَ بالذِّكر مع أنَّه مِن المعاصِي؛ لكونِ العُدوانِ أشدَّ وأقبحَ مِن مُجرَّدِ المعصيةِ(٤).

٣- قوله: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾:

- قوله: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ فيه تَوبيخٌ لهم، حيثُ تَضمَّنَ الإخبارَ بأمرينِ قَبيحينِ، أحدُهما: أنَّهم كانوا يَفعلون المناكِير، والآخَر: أنَّهم كانوا تارِكين للنَّهْيِ عنها، أي: عن أمثالِها في المستقبَل، وأفادَ قوله: ﴿فَعَلُوهُ﴾، التَّصريحَ بوقوعِ المُنكراتِ منهم، ولو لم يُذكَر قولُه: ﴿فَعَلُوهُ﴾ لكان المصرَّحُ به فقط هو تَرْكَ النَّهيِ عن المنكَر عند استِحقاقِ النَّهيِ؛ فانتظَمَ

(١) ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٩٣).
(٢) ينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٦٩).
(٣) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٣٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٣٧).

ثُبوتُ الأمرينِ جميعًا على أَخصرِ وجهٍ وأَبْلغِه(١).

- وأفادَ تنكيرُ ﴿مُنْكَرٍ﴾ في سياقِ النفيِ بيانَ إغراقِهم في عدمِ المبالاةِ(٢).

- وقوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ خبرٌ فيه تعجُّبٌ من سُوء فِعلهم، وفيه تأكيدٌ بالقَسم؛ فاللام في ﴿لَبِئْسَ﴾ رابطةٌ في جوابِ قَسَمٍ مَحذوفٍ، أي: أُقسم لَبِئسَ ما كانوا يفعلون- يعني: مِن ارتكاب المعاصي والعُدوان(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المنير)) (١/ ٦٦٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢٦٥).

(٣) ينظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٣٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٣٨)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٦٧).

الآيات (٨٢ - ٨٦)

﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانًا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ ﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿قِسِّيسِينَ﴾: جمْع قِسِّيس، وهو العالِمُ العابِدُ مِن رُؤوس النَّصارى، على وزْن فِعِّيل، مِن: قَسَسْت الشَّيْء وقَصَصْته إذا تتبَّعْته؛ وسُمِّي القِسِّيسُ بهذا لتتبُّعه كِتابَه، وآثارَ مَعَانيه، وأصل (قسس): تتبُّع الشَّيء وطلبُه[1].

﴿رُهْبَانًا﴾: رُهبانُ النَّصارَى هم المبالِغونَ في الْعِبَادَة، والانقطاعِ عَن النَّاس، جمْع رَاهِبٍ، وهو الذي يَرهَبُ اللهَ، أي: يخافه، وأصل (رهب): يدلُّ على خَوفٍ[2].

﴿تَفِيضُ﴾: تَسيل، وأصل (فيض): يدُلُّ على جَرَيانِ الشَّيءِ بِسُهولةٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٤٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٧٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٧).

﴿فَأَثَابَهُمُ﴾: أي: فَجازَاهم، والإثابةُ: ما يرجِعُ للإنسانِ من ثوابٍ، وتُستعمَل في المحبوبِ والمكروهِ[1].

﴿الْجَحِيمِ﴾: أي: النَّارِ، والجحيمُ أيضًا الجَمر، والجُحْمَة: شدَّةُ تأجُّج النَّار، وأصْل (جحم): عِظَمُ الحرارة وشِدَّتها[2].

المَعنَى الإجماليُّ:

يقول اللهُ تعالى لنبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: لَتجِدَنَّ اليهودَ والمشركينَ أشدَّ الناسِ بُغضًا وكراهيةً وعداوةً للمؤمنين، ولتَجِدَنَّ النَّصارى أقربَ الناسِ مودَّةً للمؤمنينَ من أهلِ الأديانِ المخالِفةِ للإسلامِ؛ والسَّببُ أنَّ منهم عُلماءَ وعُبَّادًا، وأنَّهم لا يَستكبرون.

وإذا سَمِعوا القرآنَ الكريم ترَى أعيُنَهم تَسيلُ دمعًا؛ لأنَّهم عرَفوا أنَّ ما يُتلى عليهم هو الحقُّ؛ يقولون: ربَّنا آمنَّا، فاكتبْنا مع محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وأمَّتِه.

ويقولُ هؤلاء النَّصارى: وأيُّ مانعٍ يمنعُنا مِن الإيمانِ باللهِ، وبما جاءنا على لسانِ رسولِه محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم مِن قرآنٍ يهدي إلى الرُّشدِ، ونحن نطمَعُ بسبب إيمانِنا أن يُدخِلَنا ربُّنا مع القومِ الصَّالحين، فجزاهم اللهُ بما قالوا من الإيمانِ، ونَطَقوا من الحقِّ، جنَّاتٍ تجري من تحتِها الأنهارُ، ماكثينَ فيها أبدًا، وذلك جزاءُ مَن أحسَنَ في عِبادة ربِّه، وكان مُحْسنًا إلى الخَلقِ، وأمَّا مَن كفَر وكذَّب بآياتِ اللهِ تعالى، فأولئك سكَّانُ نارِ جهنَّمَ، الملازِمونَ لها.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٧).

تَفسيرُ الآيات:

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى مِن أحوالِ أهلِ الكِتاب من اليهودِ والنَّصارى ما ذكَرَه في الآياتِ السَّابقةِ؛ ذكَرَ في هذه الآيةِ أنَّ اليهودَ في غايةِ العداوةِ مع المسلمينَ؛ ولذلك جعَلَهم قُرَناءَ للمشركينَ في شِدَّة العداوةِ، بل نبَّه على أنَّهم أشدُّ في العداوةِ من المشركينَ مِن جِهة أنَّه قَدَّم ذِكرَهم على ذِكْر المشرِكينَ(١) فقال تعالى:

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾.

أي: لَتجِدَنَّ- يا محمَّدُ- أعظمَ النَّاسِ عداوةً للمُؤمنينَ وأكثرَهم سعيًا في إلحاقِ الضَّررِ بهم؛ لشِدَّة بُغضِهم وبَغيِهم وحسَدِهم لهم؛ اليهودَ والمشركينَ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٩٣-٥٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٦٠-٢٦٢).

قال ابنُ عُثيمين: (الخطابُ يحتمل أنْ يكون للرسول صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، وعلى هذا فيختصُّ الحُكم بهؤلاء الذين في عهْد الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم، ويحتمل العمومَ، ويكون المرادُ الجِنسَ، ليس كلَّ فرد، فلا نقول: كلُّ يهودي أشدُّ الناس عداوةً للمؤمنين، ولا كلُّ نصراني أقرَبُ الناس مودَّةً) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٦٠).

وقال الشِّنقيطيُّ: (قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ﴾، فدلَّت هذه الآيةُ على المغايرة بين المشركين وأهلِ الكتاب، والتحقيقُ: أنَّ الكتابيِّين نوعٌ من المشركين، وقد أوْضَحَ الله في هذه السورة الكريمة أنَّ أهل الكتاب من المشركين؛ حيث قال فيهم: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، فصرَّح تعالى بأنَّهم مشركون، إلَّا أنَّهم نوعٌ خاصٌّ من المشركين، ربما أُدخل في عمومهم، وربما أُفرِدَ منهم، كأنَّه غيرُ داخل فيهم؛ للفوارق =

﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾.

أي: ولَتجِدَنَّ- يا محمَّد- أقربَ النَّاسِ وِدادًا لأهلِ الإيمانِ مِن أهل المِلَلِ المخالِفةِ للإسلامِ، النَّصارى[1].

= التي بين الكتابيِّن وعَبَدةِ الأصنام- كما هو معروف) ((العذب النمير)) (٥/ ٢٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٦٢-٢٦٤).

وقال ابن عثيمين: (لا تعمُّ كلَّ يهوديٍّ بعينِه أو نصرانيٍّ بعينِه أو كلَّ مسلم بعينِه، لكن هذا الحكم على سبيلِ العُموم، والأحكامُ تأتي دائمًا على سبيلِ العمومِ، كما تقولُ: الرجالُ خيرٌ مِن النِّساء، يعني هذا الجنسُ خيرٌ مِن هذا الجنسِ، ويوجدُ في النِّساء مَن هو خيرٌ مِن كثيرٍ مِن الرِّجال، ويوجدُ في الرجالِ مَن هو شرٌّ مِن كثيرٍ مِن النِّساء) ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (٢/ ٢٦٠).

وقال أيضًا: (هنا قال: ﴿أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً﴾ ولم يقلْ: (أشدَّهم مودةً)؛ يعني ليس عندهم مودةٌ لكنهم قريبونَ، يعني أنَّ الله عزَّ وجلَّ قال في اليهودِ أنهم: ﴿أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً﴾، لكن هؤلاء قال هنا: ﴿أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً﴾، ومعلومٌ أنَّ القربَ ليس هو الوصولَ، فهم ليس عندهم مودةٌ للمؤمنين أعني: النَّصارى، لكنهم أقربُ مِن غيرِهم مودةً، ولو كان عندهم مودةٌ لقال: (أشدَّ النَّاس مودةً) أو ما أشبه ذلك) ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (٢/ ٢٦٢).

قال ابنُ تيميةَ: (وأمَّا قولُه في أوَّلِ الآيةِ: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ [المائدة: ٨٢] فهو كما أخبرَ- سبحانَه وتعالى- فإنَّ عداوةَ المُشركينَ واليهودِ للمُؤمنينَ أشَدُّ مِن عَداوةِ النَّصارى، والنَّصارى أقرَبُ مودَّةً لهم، وهذا معروفٌ مِن أخلاقِ اليَهودِ؛ فإنَّ اليَهودَ فيهم مِنَ البُغضِ والحَسَدِ والعَداوةِ ما ليس في النَّصارى، وفي النَّصارى مِنَ الرَّحمةِ والمودَّةِ ما ليس في اليَهودِ، والعداوةُ أصلُها البُغضُ، فاليهودُ كانوا يُبغِضونَ أنبياءَهم، فكيف ببُغضِهم للمؤمنينَ؟!

وأمَّا النَّصارى فليس في الدِّينِ الذي يَدينونَ به عداوةٌ ولا بُغضٌ لأعداءِ اللهِ، الذين حارَبُوا اللهَ ورسولَه، وسَعَوْا في الأرضِ فسادًا، فكيف بعَداوتِهم وبُغضِهم للمُؤمنينَ المُعتدلينَ، أهلِ مِلَّةِ إبراهيمَ، المؤمنينَ بجميعِ الكُتُبِ والرُّسُلِ؟

وليس في هذا مَدحٌ للنَّصارى بالإيمانِ باللهِ، ولا وَعدٌ لهم بالنَّجاةِ مِنَ العَذابِ، واستحقاقِ الثَّوابِ، وإنَّما فيه أنَّهم أقرَبُ مَودَّةً، وقولُه تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: بسبَبِ هؤلاء، وسبَبِ تَركِ الاستكبارِ يَصيرُ فيهم مِنَ المودَّةِ ما يُصَيِّرُهم بذلك خيرًا مِنَ المشركينَ، وأقرَبَ مودَّةً مِنَ اليَهودِ والمُشركينَ.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣] فهؤلاء الذينَ مَدَحَهُم بالإيمانِ ووَعَدَهم بثَوابِ الآخِرَة). ((الجوابُ الصَّحيحُ)) (٣/ ١٠٧- ١١٠). =

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

مُناسَبَتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَر الله تعالى التفاوتَ الحاصِلَ بين اليهودِ والنَّصارى، فقال في حقِّ اليهودِ: ﴿أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً﴾، وقال في حقِّ النَّصارى: ﴿أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً﴾ أعْقبَ ذلك بعِلَّة هذا التَّفاوتِ[1]، فقال سبحانه:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

أي: قرُبَتْ مودَّتُهم للمؤمنين مِن أجْلِ أنَّ منهم علماءَ وعُبَّادًا- فالعبادةُ تُلَطِّف القلبَ وتُرقِّقه- كما أنَّهم يَتواضعونَ للحقِّ إذا عرَفوه، ولا يَستكبِرون عن قَبولِه، والانقيادِ إليه إذا تَبيَّنوه[2].

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣)﴾.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾.

أي: وإذَا سَمِعوا[3]، ما أُنزِل إلى مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن القرآنِ

= وذهب بعضُ المفسِّرين- منهم ابنُ جرير والواحديُّ والبغويُّ- إلى أنَّه لم يُردْ بقولِه: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ جميع النَّصارى، بل الآيةُ فيمَن أسلَم منهم، مثل النَّجاشيِّ وأصحابِه أو غيرِهم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٩٧)، ((الوجيز)) للواحدي (١/ ٣٣١)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٧٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤١٣، ٤١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٩٤-٦٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٦٧-١٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤١-٢٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٦٤-٢٦٥).
قال ابنُ عاشور: (الأمَّة التي فيها أمثالُ هؤلاء تكون قريبةً من مودَّة المسلمين) ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٩).

(٣) قال ابن تيمية: (الضميرُ وإن عادَ إلى المتقدِّمينَ، فالمرادُ جِنسُ المُتقدِّمينَ، لا كلُّ واحدٍ منهم). ((الجوابُ الصَّحيحُ)) (٣/ ١١٠).

الكريمِ يُتْلَى[١].

﴿تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾.

أي: ترَى[٢] أعينَهم قد امتلأتْ دُموعًا فتسيلُ منها؛ وذلك لأنَّهم عرَفوا أنَّ الذي يُتلَى عليهم مِن كِتاب اللهِ تعالى حقٌّ، ومِن ذلك: بَعْثةُ النبيِّ الموعودِ به- محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ- الذي خبرُه من جُملةِ الحقِّ الذي جاءَ به عيسى عليه السلامُ، والنبيُّون مِن قَبلِه[٣].

وفي حديثِ بَدْءِ الوحيِ عن عائشةَ رضي الله عنها: ((أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لَمَّا رجَعَ إلى خَديجةَ يرجُفُ فؤادُهُ، انطلقتْ به إلى وَرقةَ بنِ نوفلٍ- وكان رجلًا تنصَّرَ يَقرأُ الإنجيلَ بالعربيَّةِ- فقال وَرَقةُ: ماذا ترَى؟ فأخبرَهُ، فقال ورقةُ: هذا الناموسُ[٤] الذي أَنزلَ اللهُ على موسى، وإنْ أدركني يَومُكَ أنصُرْكَ نصرًا مؤزَّرًا))[٥].

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٢).

(٢) قال ابنُ عاشور: (الخطاب في قوله: ﴿تَرَى أَعْيُنَهُمْ﴾ للنبي صلَّى الله عليه وسلَّم- إنْ كان قد رأى منهم مَن هذه صِفتُه- أو هو خطابٌ لكلِّ مَن يصحُّ أن يرى؛ فهو خطابٌ لغير مُعيَّن؛ ليعمَّ كلَّ مَن يُخاطَب) ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٠-١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٦٦).

قال ابنُ عاشور: (أي: ففاضتْ أعينُهم من انفعال البهجة بأنْ حضروا مشهدَ تصديق عيسى فيما بَشَّر به، وأنْ حضروا الرسولَ الموعود، به ففازوا بالفضيلتين) ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٠).

(٤) الناموس: يقصد جِبريلَ عليه السلام- وهكذا يُسمِّيه أهل الكتاب. والناموس: هو صاحبُ سرِّ الخير؛ وناموسُ الرجُل: صاحبُ سرِّه الذي يُطلعه على باطنِ أمْره، ويَخصُّه بما يَستُرُه عن غيره. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٣/ ٩٨٦)، ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ١١٩).

(٥) رواه البخاري (٣٣٩٢) واللفظ له، ومسلم (١٦٠).

أي: والحالُ أنَّهم يقولون: يا ربَّنا، آمنَّا بالحقِّ؛ فلأجْلِ هذا الإيمانِ اجْعَلْنا مع محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وأُمَّتِه، وأَثبِتْنا معهم في عِدادهم؛ فهم الذين يَشهَدون للهِ تعالى بالتوحيدِ، ولرُسلِه بالرِّسالة، وصحَّةِ ما جاؤُوا به، وأنَّهم بلَّغوا أُممَهم، ويَشهَدون على الأُممِ السَّابقة بالتصديقِ أو التَّكذيب[1]، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ * رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٢-٥٣].

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ(٨٤)﴾.

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ﴾.

أي: قال هؤلاءِ النَّصارى الذين أسْلَموا: وما الذي يَمنعُنا من الإيمانِ بالله تعالى، وما أتانا مِن الحقِّ، الذي لا يَقبَلُ الشكَّ والرَّيبَ[2]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٠٣-٦٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (٢/ ٢٦٦-٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٠٤-٦٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٦٧).

قال ابنُ عاشور: (قوله: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ﴾، هو مِن قولهم؛ فيحتمل أنَّهم يقولونه في أنفسهم عندَما يُخامرهم التردُّدُ في أمْر النُّزوع عن دِينهم القديم إلى الدُّخول في الإسلام، وذلك التردُّد يَعرِض للمعتقِد عند الهمِّ بالرجوع في اعتقاده... ويحتمل أنَّهم يقولونه لِمَن يُعارضهم مِن أهل مِلَّتهم أو مِن إخوانهم، ويُشكِّكهم فيما عزَموا عليه، ويحتمل أنَّهم يقولونه لِمَن يُعيِّرهم من اليهود أو غيرهم بأنَّهم لم يَتصلَّبوا في دِينهم) ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١١-١٢).

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[آل عمران: ١٩٩].

وقال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾[القصص: ٥٢- ٥٣].

﴿وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾.

أي: ونحنُ نَطمعُ بإيمانِنا أن يُدخِلَنا ربُّنا مع المؤمنين بالله، المُطيعين له، جَنَّتَه يومَ القيامة(١).

﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٨٥)﴾.

﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

أي: فجَزاهم اللهُ تعالى بما تَفوَّهوا به من الإيمانِ، ونَطقوا به من الحقِّ في قولِهم: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ... مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ جنَّاتٍ تَجري الأنهارُ من تحتِ أشجارِها وقُصورِها، وهم ماكثونَ فيها على الدَّوام(٢).

ولَمَّا كانتِ اللَّذةُ لا تَكمُل إلَّا بالدَّوامِ، قال تعالى(٣):

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾.

أي: ماكثينَ فيها على الدَّوام، لا يخْرُجون منها، ولا يُحوَّلونَ عنها(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٦٩-٢٧١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين-سورة المائدة)) (٢/ ٢٦٩-٢٧١).

﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾.

أي: هذا الذي جَزيتُ به أولئك القومَ من الخُلودِ في الجنَّاتِ، جزاءُ كلِّ مُحسِنٍ في عِبادة الله تعالى، أو مُحسنٍ إلى عِبادِه[1].

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٨٦)﴾.

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى في آخِرِ الآيةِ السَّابقة أنَّ ما أثابَ به أولئك النَّصارى، الذين آمنوا بالرَّسولِ الأعظمِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، هو جزاءُ جميعِ المحسِنين عندَه، الذين آمنوا كإيمانِهم، وخشَعوا للحقِّ كخُشُوعهم- عقَّب عليه بذِكْر جزاءِ الـمُسيئينَ إلى أنفُسهم بالكُفْر والتكذيبِ؛ على سُنَّةِ القرآن في الجَمْع بين الوعدِ والوعيدِ[2]، فقال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٨٦)﴾.

أي: وأمَّا الكُفَّارُ والمكذِّبون بآياتنا فإنَّهم سُكَّانُ النَّارِ الشَّديدةِ التأجُّجِ والحرارةِ، الملازِمون لها[3].

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- أنَّ قُربَ مودَّة النصارى للمُؤمنين له أسبابٌ؛ منها: أنَّ منهم قِسِّيسين ورهبانًا، فيُستفادُ من هذا: أنَّ العِلم نافعٌ حتَّى لغَيْرِ المسلمين، وكذلك العبادةُ تُرقِّق القلبَ، وتُزيلُ ما فيه من الجَفاء والغِلْظة، فالرَّاهِبُ إنَّما سلَك هذا الطريقَ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٠٥ - ٦٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (٢/ ٢٧١ - ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٧٢-٢٧٤).

يُريد رضا الله، أمَّا الأوَّلُ فيُؤخَذ مِنْ قَوْلِه: ﴿بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ﴾، وأمَّا الثاني فيُؤخَذُ مِنْ قَوْلِه: ﴿وَرُهْبَانًا﴾[١].

٢- أنَّ مِن أسباب قَبول الحقِّ والمودَّة للمؤمنين التواضُعَ؛ لِقَوْلِه: ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾؛ حيث إنَّ الاستكبارَ سببٌ لردِّ الحقِّ، والتواضُع سببٌ لقَبُولِه، فالمتواضِعَ أقربُ إلى الخيرِ من المستكبِر، وأقربُ إلى سماعِ الحقِّ منه[٢].

٣- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ فضيلةُ هؤلاء القومِ الذين يُؤمنون بالرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلام، وأنَّهم إذا سمِعوا ما أُنزِلَ إلى الرَّسولِ ترَى أعينَهم تَفيضُ من الدَّمع، ولا شكَّ أنَّ فَيْضَها من الدَّمعِ دليلٌ على الإيمانِ والتَّصديق والتأثُّر؛ لأنَّ الإنسانَ كلَّما آمَن ازداد خُشوعًا، فالإيمانُ كلَّما قوِيَ صارَ المؤمنُ كأنَّما يُشاهِدُ الشيءَ بعينه، فيَزدادُ إيمانًا وخشوعًا وبكاءً[٣].

٤- أنَّ تأثُّرَ هؤلاء إنَّما كان بسببِ مَعرفتِهم الحقَّ؛ ولهذا قال: ﴿مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾، والإنسانُ كلَّما عَلِمَ بالحقِّ ازداد إيمانُه به، وازداد تأثُّره به[٤].

٥- قَوْلُه تعالى: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا...﴾ فيه الثَّناءُ على هؤلاء الذين آمنوا بما أُنزِلَ على الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، بأنَّهم يُعْلِنونَ الإيمانَ، ولا يُخفونَه؛ فالمؤمِنُ حقًّا يُعلِنُ إيمانَه، لا سيَّما إذا كانوا قِسِّيسين ورُهبانًا؛ لأنَّهم قدوةٌ للنَّاسِ[٥].

٦- يَنبغي للإنسانِ أن يَدفعَ اللَّومَ عن نفْسِه، ولا يُبْقِي عِرْضَه لعِبادِ الله

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٧٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٧٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٨٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٨٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٨٢).

يَعملونَ ما يَشاؤون فيه؛ لِقَوْلِه: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾، ولهذا أَصْلٌ من السُّنَّة؛ فإنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّمَ لَمَّا قام يَقلِبُ إحْدى زوجاتِه، وهي صَفيَّةُ رضي الله عنها، بعدَ أنْ بَقِيَتْ عنده قام يَقْلِبُها[1]، فمرَّ به رجلانِ من الأنصارِ، فلمَّا رأيَا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ معه أهلُه خَجِلَا وسارَا بسرعةٍ، فقال لهما: ((على رِسْلِكما! إنَّها صفيَّةُ بنتُ حُيَيٍّ، فقالا: سبحانَ الله، سبحانَ الله!- يعني: لا يُمكن أنْ يقَعَ في قُلوبِنا شيءٌ- فقال لهما: إنَّ الشيطانَ يَجري مِن ابنِ آدَمَ مجرَى الدَّمِ، وإنِّي خَشيتُ أنْ يَقذِفَ في قُلوبِكما شرًّا- أو قال:- شيئًا))[2].

٧- أنَّ الإنسانَ لا يَنبغي أن يُعجَبَ بعملِه؛ فيشهدَ لنَفْسه أنَّه من أهل الجَنَّة؛ لقولهم: ﴿وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا﴾، ولم يَجزِموا بذلك؛ ولهذا مهما يعمَل الإنسانُ مِن عملٍ صالح مبنيٍّ على الإيمان فلا يُزكِّ نفْسَه؛ لا يَدري فلعلَّ هناك سرًّا في القلبِ لا يَشعُر به – أعاذنا الله مِن النِّفاق- قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((وإنَّ الرَّجُلَ ليَعْملُ بعملِ أهلِ الجَنَّة فيما يَبدو للنَّاسِ، وهو مِن أهلِ النَّارِ))[3].

٨- أنَّه يَنبغي اختيارُ الرَّفيقِ الصَّالح؛ لِقَوْلِه: ﴿وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾، وهذا أمرٌ دلَّت عليه السُّنَّةُ دلالةً صريحةً؛ فإنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((مَثَلُ الجَليسِ الصَّالحِ كحَامِلِ المِسكِ؛ إمَّا أنْ يَبيعكَ أو يُحذِيَك، أو تَجِدَ منه رائحةً طيِّبة))[4].

---

(١) يَقْلِبها: يَردُّها ويَرْجِعُها ويَصْرِفُها إلى بيتِها. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ٩٦)، ((مختار الصحاح)) للرزاي (ص: ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٩٠).
والحديث أخرجه البخاريُّ (٢٠٣٥)، ومسلمٌ (٢١٧٥) من حديث صَفيَّة زَوجِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم ورضِي الله عنها.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٩١).
والحديث أخرجه البخاري (٢٨٩٨)، ومسلم (١١٢) من حديث سَهلِ بن سَعد رضي الله عنه.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٩٢).
والحديث أخرجه البخاريُّ (٥٥٣٤)، ومسلمٌ (٢٦٢٨) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

٩- الحثُّ على الإحسانِ؛ لِقَوْلِه: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾؛ الإحسانُ في عِبادَة اللهِ والإحسانُ إلى عِبادِ الله؛ قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((وَلا تَحْقِرَنَّ من المعروفِ شيئًا، ولو أنْ تَلقَى أخاكَ بوجهٍ طَلْقٍ))[1].

١٠- في قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ بشارةٌ مِن الله لِمَن قام بالإيمانِ قولًا وعملًا، والإحسانُ أعْلى درجاتِ الإيمانِ والإسلامِ، واللهُ جلَّ جلالُه قد شَهِد لهذا الفَريقِ من النَّاسِ أنَّه مِن المحسنين، وهي التي فسَّرها رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بقَوْلِه: ((أنْ تَعبُدَ اللهَ كأنَّك تَراه، فإنْ لم تكُنْ تراه فإنَّه يَراك))[2]، ولا إخلاصَ ولا عِلمَ أرفعُ مِن هذه الرُّتبة[3].

١١- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ أنَّه ينبغي للواعظِ ألَّا تكونَ موعظتُه للنَّاسِ بالترغيب دائمًا أو بالترهيبِ دائمًا؛ لأنَّه إنْ أدام الترغيبَ أوْقَعَهم في الأمْنِ مِن مَكْرِ الله، وإنْ أدام الترهيبَ أوْقَعَهم في القُنوطِ مِن رحمةِ الله؛ فالواعِظُ في الحقيقةِ كالطَّبيب، إنْ أعْطَى جرعةً زائدةً هلَكَ المريضُ، وإنْ نقَصَ لم يَبرأِ المريضُ، فلا بدَّ للواعظِ أنْ يُراعِيَ الأحوالَ، لا يَقتصِر على الترغيبِ دائمًا، ولا على الترهيبِ دائمًا، فمِن النَّاسِ مَنِ الأَوْلى في حقِّه التَّرغيبُ، ومِن النَّاس مَنِ الأَوْلى في حَقِّه التَّرهيبُ[4].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٩٤).
والحديث أخرجه مسلمٌ (٢٦٢٦) من حديث أبي ذرٍّ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه مسلمٌ (٨) من حديث عمر رضي الله عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٤٨)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٩٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٩٥).

ذكَر المشركينَ مع اليهودِ لمناسبةِ اجتماعِ الفريقَينِ على عداوةِ المسلمينَ؛ فقد أَلَّف بينَ اليهودِ والمشركينَ بُغْضُ الإسلامِ؛ فاليهودُ للحسَدِ على مجيءِ النُّبوة مِن غيرِهم، والمشركون لحَسَدِهم النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم على نُبُوَّتِه، وحَسَدِهم المسلمين على أنْ سبقُوهم بالاهتداءِ إلى الدِّين الحقِّ، ونَبْذِ الباطِل، وكذا الكِبْرُ والأَنَفَةُ لدى الفريقينِ[1].

٢- أنَّ عداوةَ هؤلاءِ اليهودِ والمشركين ظاهرةٌ؛ لقوله سبحانه: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً﴾، لكنَّ الظُّهورَ والخَفاءَ أمرانِ نِسبيَّان، بمعنى أنَّ بعضَ الناسِ يَظهَرُ له ما يَخفَى على آخَر، وبعضُ الناس يَخفى عليه ما يَظهَرُ للآخَر، لكن مَن سَبَرَ الأمورَ ونظَر باعتبارٍ تَبيَّن له ذلك[2].

٣- أنَّ الكفَّار يتفاوتونَ في العداوةِ للمُسلمينَ؛ لِقَوْلِه: ﴿أَشَدَّ﴾ و(أشد) اسمُ تفضيلٍ، يدلُّ على أنَّ هؤلاءِ الأعداءَ يختلفون، وهو كذلك، هذا هو الواقِعُ[3].

واللهُ تعالى ذَكَرَ طَرَفينِ في مُعاملةِ المسلمين، وبَينَ الطَّرَفينِ فِرَقٌ مُتفاوتَةٌ في بُغضِ المسلمين؛ مِثل: المجوس، وعبَدَة الأوثان، والمُعَطِّلة[4].

٤- أنَّ كلَّ حُكْم له سببٌ، وهذا مُطَّرِد؛ فكلُّ حُكمٍ شرعيٍّ أو قدَريٍّ له سببٌ، لكن مِنَ الأسبابِ ما يُعلَم، ومِنَ الأسبابِ ما لا يُعلَم؛ لأنَّ الله تعالى لم يُطلِعْنا على كلِّ شيءٍ؛ قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ...﴾ إلى آخِره[5].

٥- في قولِه تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾ كيفَ مدَحهم اللهُ تعالى بذلِك مع قولِه: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾ [الحديد: ٢٧]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٧٥).

قيل: إن ذلكَ ممدوحٌ في مُقابلةِ طريقةِ اليهودِ في القَساوةِ والغِلظة، ولا يلزم مِن هذا القَدْرِ كونُه ممدوحًا على الإطلاقِ[(١)].

٦- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ حُسْنُ تعليمِ اللهِ عزَّ وجلَّ في كِتابِه العزيزِ؛ لأنَّه إذا ذكَر الحُكْمَ ذكَرَ العِلَّةَ أحيانًا؛ فهنا ذكَر حُكمًا قَدَريًّا، وهو قُربُ النَّصارى من مودَّة المسلمين، وذكَر له عِلَّةً ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ...﴾. كذلك ذكَر الله تعالى أحكامًا شرعيَّة كثيرةً مقرونةً بالحِكمَةِ منها؛ ومِن ذلك قولُه تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾[(٢)] [البقرة: ٢٢٢].

٧- التنويهُ بالرَّسولِ محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لِقَوْلِه: ﴿الرَّسُولِ﴾؛ لأنَّ (أل) هنا للعهدِ الذِّهني، يعني كونَه رسولًا معلومًا لا يَخفى على أحدٍ[(٣)].

٨- اعترافُ الأُمم بأنَّ هذه الأمَّةَ هي الشَّاهدةُ على الأُمَمِ؛ لِقَوْلِه: ﴿مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾، وهم أمَّةُ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾[(٤)] [البقرة: ١٤٣].

٩- ﴿مِنْ﴾ في قوله ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ يَحتملُ أن يكونَ صلةً، أي: (تجري تحتَها الْأَنْهَارُ)، ويحتمَلُ أن يكونَ المرادُ أنَّ ماءَها مِنها لا يجري إليها مِن موضعٍ آخرَ، فيقالُ: هذا النهرُ منبعُه مِن أين؟ يقال: مِن عِين كذا، مِن تحتِ جبلِ كذا[(٥)].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤١٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٧٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٨١).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٨٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٤٤).

١٠- قول الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ يَقتضِي تخصيصَ الكفَّار بالدَّوام فيه؛ لأنَّ هذه الصِّيغةَ تُفيدُ الحصر، أي: أولئك أصحابُ الجحيمِ لا غيرُهم، والمُصاحِبُ للشيءِ هو الملازمُ له الذي لا ينفكُّ عنه(١).

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قَوْلُه: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ جملةٌ مُستأنَفةٌ مَسوقةٌ لتقريرِ ما قَبْلَها مِن قبائحِ اليهودِ، وعَراقتِهم في الكُفْر، وسائرِ أحوالِهم الشَّنيعة، التي مِن جُملتها موالاتُهم للمشركينَ، وأُكِّدتْ الجملةُ بالتوكيدِ القَسَمي؛ اعتناءً ببيانِ تحقُّق مضمونِها؛ فاللامُ في قوله: ﴿لَتَجِدَنَّ﴾ لامُ القَسم ويُقصَد منها التأكيدُ، وزادتْه نونُ التوكيدِ تأكيدًا(٢).

- وفي جَعْلِ اليهودِ قُرَناءَ للمُشركينِ بيانٌ لشدَّةِ عداوةِ اليهودِ للمُؤمنين، وتقديمُهم في الذِّكرِ على المشركين: إشعارٌ وتَنبيهٌ على تقدُّمِ اليهودِ في العداوةِ على الَّذين أشْركوا، كما أنَّ في تقديمِهم عليهم في قولِه تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [البقرة: ٩٦] إيذانًا بتقدُّمِهم عليهم في الحِرصِ(٣).

- وقد أُعيدَ الموصولُ مع صِلتِه ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ في قوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ رَوْمًا لزيادةِ التَّوضيحِ والبيانِ(٤).

٢- قولُه: ﴿تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ فيه: مبالغةٌ في التَّمييزِ، وهي مِن أبلغِ التراكيب؛ لأنَّ الترقيةَ فيه تَترقَّى ثلاثَ مراتبَ، فالأُولى: فاضَ دَمْعُ عينِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤١٦)، ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٤٨٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٧١).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٧١).

والثانية في تحويلِ الفاعِل تمييزًا: فاضتْ عينُه دَمْعًا، والثالثة: في إبرازِ التَّمييزِ في صورةِ التعليلِ كما في الآية ﴿تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾؛ فأفادَ إلى جانبِ التمييزِ التعليلَ(١).

٣- قَوْلُه: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ فيه: استفهامُ إنكارٍ واستبعادٍ لانتفاءِ الإيمانِ مع قيامِ موجبِه والدَّاعي له، وهو الطَّمعُ في إنعامِ اللَّهِ عليهم بصُحبةِ الصَّالحينَ(٢).

٤- قَوْلُه: ﴿وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ فيه: إيجازٌ بالحَذْفِ؛ حيثُ إنَّ تقديرَ الآية: ونَطْمع أنْ يُدخِلَنا ربُّنا مع القومِ الصَّالحينَ جنَّتَه ودارَ رِضوانه، إلَّا أنَّه حَسُن الحذفِ؛ لكونه معلومًا(٣).

٥- قَوْلُه: ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ التعبيرُ باسمِ الإشارةِ ﴿ذَلِكَ﴾، وما فيه من مَعنَى البُعد؛ للدَّلالةِ على علوِّ مرتبة هذا الجزاءِ(٤).

٦- قَوْلُه: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ التعبيرُ باسم الإشارةِ ﴿أُولَئِكَ﴾ وما فيه من معنى البُعد؛ للإشارةِ إلى بُعدِهم في السُّفولِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنير)) (١/ ٦٦٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٧٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٩٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٧٣).

الآيات (٨٧ - ٨٩)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْۚ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿بِاللَّغْوِ في أَيْمَانِكُمْ﴾: الأيمانُ اللَّاغيةُ هي التي لا يَقصِدها الحالفُ، بل تَجرِي على لِسانه عادةً من غير تَعقيدٍ ولا تأكيدٍ[١]. واللَّغْو: ما يَجري في الكلامِ على غيرِ عَقْدٍ ولا قصْدٍ، ويُطلق اللَّغوُ على الباطِل من الكَلامِ[٢]. والأَيْمَان: جمْع يمينٍ، وهو القَسَم، وأصلُه مِن اليُمْن، أي: البركة، سمَّاها اللهُ تعالى بذلِك؛ لأنَّها تَحفَظُ الحُقوقَ[٣].

﴿عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾: وثَّقتُموها باللَّفظِ مع العزم عليها، والعقدُ: الجمْعُ بين أطرافِ الشَّيء، وأصلُ (عقد): يَدلُّ على شَدٍّ، وشِدَّةِ وُثوقٍ[٤].

﴿أَوْسَطِ﴾: أي: أَعْدَل، في المقدارِ، أو في الجِنس، أو في القِلَّة والكَثْرةِ، وأصل (وسط) يَدُلُّ عَلَى العَدْلِ والنِّصْفِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٠١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٤٠١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٩).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٢٦٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٤١).

(٥) يُنظر: ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٧٣، ١٧٤).

﴿تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾: أي: إعتاقُها؛ يُقال: حررتُ المملوك، أي: أعْتَقْته، وأصل (حرر): ما خالَف العُبوديَّة، وما بَرِئَ من العيبِ والنَّقْص، والرقبةُ تُطلَقُ على الإنسانِ المملوكِ[(١)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾.

﴿فَصِيَامُ﴾: الفاءُ رابطةٌ في جَوابِ الشَّرْطِ (مَنْ)، و(صِيام) مرفوعٌ، على أنَّه مبتدأٌ لخبرٍ محذوف، والتقديرُ: فعَليهِ صِيامُ ثلاثةِ أيَّام، أو على أنَّه خبَرٌ لمبتدأ محذوفٍ، والتقدير: فواجبُه صِيامُ ثلاثةِ أيَّام، أو مرفوعٌ على أنَّه فاعلٌ لفِعلٍ محذوفٍ، والتقدير: فيَجِبُ عليه صيامُ ثلاثةِ أيَّامٍ[(٢)].

المَعنَى الإجماليُّ:

يَنهى اللهُ المؤمنين أن يُحرِّموا على أنفُسِهم طيِّباتٍ أحلَّها لهم، ويَنهاهم أنْ يَتجاوَزوا حُدودَه تعالى فيما أحلَّه لهم، أو حرَّمه عليهم؛ فإنَّ اللهَ تعالى لا يُحبُّ مَن يَتعدَّى حُدودَه.

كما يَأمرُهم سبحانه أنْ يأكلوا مِن الرِّزقِ الحلالِ الطيِّبِ الذي رزقَهم إيَّاه، وتفضَّل عليهم به، وأن يتَّقوا اللهَ الذي آمَنوا به.

ثم يُخبر الله جلَّ وعلا أنَّه لا يُؤاخِذُ على اللَّغْوِ في اليمينِ، وهو ما يجري على الألْسِنَةِ بدونِ قصدٍ، لكنَّ مُؤاخذتَه تعالى على ما عُقِدَ العزمُ عليه، وقُصِدَ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦١) ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٣٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٨١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٧٢)، ((إعراب القرآن الكريم)) للدعاس (١/ ٢٧٥).

من الأيمانِ، فإذا ما حنَث أحدٌ في أيمانٍ معقودةٍ فكفَّارةُ ذلك أنْ يُطعِمَ عَشَرةَ مساكينَ، طعامًا وسَطًا بين الجيِّد والرَّديءِ ممَّا يُطعِمُ أهلَه منه، أو كسوةُ عَشَرةِ مَساكينَ، أو عِتقُ رَقَبةٍ مؤمنةٍ، فمَن لم يجِدْ ما يكفِّرُ به مِن إطعامٍ أو كساءٍ أو تحريرِ رقبةٍ فعليه حينئذٍ صِيامُ ثلاثةِ أيَّام تكفِّر يمينَه، فهذه الخِصالُ المذكورةُ هي كفَّارةُ الأَيْمانِ المعقودة. ثمَّ أمَر الله عِبادَه بأنْ يَحفظوا أيمانَهم بتَرْك الحَلِف كذبًا، وترْك الإكثارِ من الحَلِف، وعدَم الحِنْث في اليَمينِ إلَّا إذا كان خيرًا، فإذا حنثوا فيها كفَّروا كفَّارةَ اليمينِ، فبذلك تُحفَظُ أيمانُهم، كذلك يُوضِّحُ اللهُ آياتِه لعِبادِه؛ ليَشْكُروه سبحانَه على ذلك.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٨٧)﴾.

مُناسَبةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا تَقدَّم الثناءُ على القِسِّيسين والرُّهبان، وكان مِن سُنَّتِهم المبالغةُ في الزُّهدِ، وقدْ أحْدَثوا رهبانيَّةً من الانقطاعِ عن التَّزوجِ، وعن أكْلِ اللُّحومِ، وكثيرٍ من الطيِّبات وغير ذلك- نبَّه اللهُ تعالى المؤمنينَ على أنَّ الثناءَ على الرُّهبان والقِسِّيسين بما لهم مِن الفَضائِلِ لا يَقتضي اطِّرادَ الثناءِ على جميعِ أحوالِهم الرهبانيَّة[1]، فقال عزَّ وجلَّ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنونَ، لا تَحكُموا بالحُرمةِ على ما أباحه اللهُ تعالى لكم من مَلذَّاتٍ تَشتهيها النُّفوسُ مِن مناكِحَ ومطاعِمَ ومشارِبَ وغيرِها، فلا تردُّوا نِعمتَه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٣).

عليكم بعدَمِ قَبولِها، واعتقادِ تَحريمِها، فتَجمعوا بذلك بين الكَذِب على الله تعالى، وكُفرِ نِعمتِه(١).

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ [النحل: ١١٦].

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه، قال: ((جاءَ ثلاثةُ رَهْطٍ(٢) إلى بُيوتِ أزواجِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، يَسألونَ عن عِبادةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فلمَّا أُخبِروا كأنَّهم تَقالُّوها(٣)، فقالوا: أين نحنُ مِنَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؟ قدْ غفَرَ اللهُ له ما تَقدَّم من ذَنْبِه وما تأخَّر، قال أحدُهم: أمَّا أنا فإنِّي أُصلِّي اللَّيلَ أبدًا، وقال آخَرُ: أنا أصومُ الدَّهرَ ولا أُفطِرُ، وقال آخَرُ: أنا أَعتزِلُ النِّساءَ فلا أتزوَّجُ أبدًا، فجاءَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: أنتمُ الذين قُلتُم كذا وكذا؟ أمَا واللهِ إنِّي لَأخشاكم للهِ وأتْقاكم له، لكنِّي أصومُ وأُفطِرُ، وأُصلِّي وأرقُدُ، وأتزوَّجُ النِّساءَ؛ فمَن رغِبَ عن سُنَّتي فليس منِّي))(٤).

وعن سَعدِ بن أبي وقَّاصٍ رضي الله عنه، قال: ((أرادَ عُثمانُ بنُ مَظعونٍ أنْ يَتبتَّلَ(٥)، فنهاه رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ولو أجازَ له ذلِك لاختَصَيْنا))(٦).

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ الله عنهما، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٣، ١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٩٩-٣٠٠).

(٢) الرَّهْطُ: ما دُونَ عَشَرةٍ مِنَ الرِّجالِ، ليس فيهم امرأةٌ، وقيل: ما دونَ الأربعينَ. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٢٤١)، ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (١/ ٢٢٧).

(٣) تَقالُّوها: استَقَلُّوها، وهو تفاعُلٌ مِنَ القِلَّة. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ١٠٤)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٩/ ١٠٥).

(٤) رواه البخاري (٥٠٦٣) واللفظ له، ومسلم (١٤٠١).

(٥) أرادَ أنْ يَتبَتَّلَ: أي: أراد الانقطاعَ عن النِّساء وتَرْكَ النِّكاح. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٩٤).

(٦) رواه البخاري (٥٠٧٣)، ومسلم (١٤٠٢) واللفظ له.

له: ((أَلَمْ أُخبَرْ أنَّكَ تقومُ اللَّيلَ وتصومُ النَّهارَ؟ قلتُ: إنِّي أفعلُ ذلك، قال: فإنَّك إذا فعلتَ ذلِك، هَجَمَتْ[1] عَيناكَ، ونَفِهَتْ[2] نَفْسُكَ! لِعينِكَ حقٌّ، ولنَفْسِكَ حقٌّ، ولأهلِكَ حقٌّ؛ قُمْ ونَمْ، وصُمْ وأفطِرْ))[3].

وعن أبي جُحَيفةَ وهْبِ بنِ عبدِ الله السُّوَائِيِّ، قال: ((آخَى النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بين سَلمانَ وأبي الدَّرداءِ، فزارَ سَلمانُ أبا الدَّرداءِ، فرأَى أُمَّ الدَّرداءِ مُتبَذِّلَةً[4]، فقال لها: ما شأنُكِ؟ قالتْ: أخوك أبو الدَّرداءِ ليس له حاجةٌ في الدُّنيا، فجاءَ أبو الدَّرداءِ، فصَنَع له طعامًا، فقال: كُلْ، قال: فإنِّي صائمٌ، قال: ما أنا بآكِلٍ حتى تأكُلَ، قال: فأكَل، فلمَّا كان اللَّيلُ ذهَب أبو الدَّرداءِ يَقومُ، قال: نَمْ، فنامَ، ثم ذهَبَ يَقومُ، فقال: نَمْ، فلمَّا كان مِن آخِرِ اللَّيلِ، قال سَلمانُ: قُمِ الآنَ، فَصلَّيَا، فقالَ له سَلمانُ: إنَّ لربِّك عليك حقًّا، ولنفْسِك عليك حقًّا، ولأهلِك عليك حقًّا، فأعطِ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، فأتَى النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فذكَر ذلك له، فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: صَدَق سَلمانُ))[5].

﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾.

أي: ولا تُجاوِزوا حدودَ الله تعالى فيما أَحلَّ لكم وحَرَّم عليكم؛ فإنَّ الله تعالى لا يُحبُّ مَن يَتعدَّى حدودَه سُبحانَه[6].

---

(١) هَجَمَتْ، أي: غَارَتْ ودَخَلَتْ في نُقْرَتِها من الضَّعْفِ. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٢٤٧)، ((شرح النووي على مسلم)) (٨/ ٤٥).

(٢) نَفِهَت- بكسرِ الفاءِ، وفتْحُها لغةٌ-: أي: أعيتْ وكلَّتْ، وضَعُفَتْ وسَقَطَتْ. ينظر: ((الصحاح)) للجوهري (٦/ ٢٢٥٣)، ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ١٠٠)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٣٦/ ٥٢٩).

(٣) رواه البخاري (١١٥٣)، ومسلم (١١٥٩) واللفظ له.

(٤) مُتَبَذِّلةً: أي: لابِسَةً ثيابَ البِذْلةِ- بكَسرِ الباءِ- وهي: المِهْنَةُ وزنًا ومعنًى، أي: أنَّها تارِكةٌ لِلِباسِ الزِّينةِ. والتَّبَذُّل: تَرْكُ التَّزَيُّنِ والتَّهَيُّؤ بالهَيئةِ الحَسَنةِ الجَميلةِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ١١١)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٤/ ٢١٠).

(٥) رواه البخاري (١٩٦٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٠٦، ٦٠٧، ٦١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٠٠-٣٠١). =

﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٨٨)﴾.

﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾.

أي: وكُلوا- أيُّها المؤمنونَ- مِن رِزق اللهِ تعالى الذي ساقَه إليكم، ويَسَّره لكم في حالِ كونِه حلالًا، غيرَ خَبيثٍ[1].

كما قال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

وقال أيضًا: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ ما رَزَقْناكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾.

أي: واجْعَلوا بينكم وبين غضَبِ الله تعالى وعذابِه حاجزًا يَقيكم مِن ذلك بامتثالِ ما أَمَرَ به، واجتنابِ ما نَهَى عنه، ومِن ذلك اعتداءُ حدودِه؛ فإنَّ إيمانَكم باللهِ عزَّ وجلَّ يُوجِبُ عليكم تقواه[2].

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ

= وقيل: ذِكرُ الاعتداءِ في مقابلة تحريمِ الطيِّبات يدلُّ على أنَّ المرادَ النهيُ عن تجاوُزِ حدِّ الإذن المشروع، كما قال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩]، فلمَّا نهى عن تحريمِ الحلال أَرْدَفَه بالنهيِ عن استحلالِ المحرَّمات، وذلك بالاعتداءِ على حُقوقِ الله تعالى، أو على حُقوقِ النَّاس، فعلى ذلك يكون المراد: كما لا تُحرِّمون الحلالَ فلا تعتدوا في تناول الحلال، بل خُذوا منه بقدْرِ كِفايتكم وحاجتكم، ولا تجاوزوا الحدَّ فيه، كما قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، وقد جعَل ابنُ كثيرٍ هذا المعنى ممَّا تحتملُه الآية. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٧٢)، وذكره ابن عاشور في ((تفسيره)) (٧/ ١٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٠١).

تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٨٩)﴾.

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا قال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ...﴾؛ وكان التحريمُ يقعُ في غالِبِ الأحوالِ بأيمانٍ معزومةٍ، أو بأيمانٍ تَجري على اللِّسان لقصدِ تأكيدِ الكلامِ، أو تجري بسببِ غضبٍ، عقَّب الله تعالى ذلك بقوله[1]:

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾.

أي: لا يُعاقِبُكم اللهُ تعالى بكفَّارةٍ تَلزمُكم في الدُّنيا، ولا بعُقوبةٍ تَحُلُّ بِكم في الآخِرة، على الأيْمانِ التي صدَرَتْ منكم على وجهِ اللَّغْو، وهي الأيْمانُ التي حلَفَ بها المُقسِمُ مِن غير نيَّةٍ ولا قَصْدٍ، أو عقَدَها يظنُّ صِدْقَ نفْسِه، فبان الأمرُ بخِلافِ ما ظنَّه[2].

﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ قراءات:

١- ﴿عَاقَدْتُمُ﴾، أي: تَعاهدتُم، وتحالفتُم، وهو فعلٌ مِن اثنين[3].

٢- ﴿عَقَدْتُمُ﴾- بتَخفيفِ القافِ-، أي: أوْجَبْتُم، فالمعنى: أوجبتموها على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٢٠-٤٢١).

(٣) قرأ بها ابنُ ذكوان. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٢٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٣٥)، ((البحر المحيط)) لأبي حيان (٤/ ٣٥١).

أنْفُسِكم، وعَزَمتْ عليها قلوبُكم، وهذا يدلُّ على أنَّه أراد به عقْدَ مرَّةٍ واحدة؛ لأنَّ مَن حَلَفَ مرَّةً واحدةً لَزِمَه البِرُّ أو الكفَّارة(١).

٣- ﴿عَقَّدْتُمُ﴾- بتشديد القاف-، أي: وَكَّدتُم، فالتَّشديدُ يدلُّ على كثرةِ الفِعل؛ فهو يدلُّ على توكيدِ اليمينِ بالحَلِفِ على الشيءِ مرارًا(٢).

﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾.

أي: ولكن يُعاقِبُكم اللهُ تعالى بما عقدتُم العزمَ عليه، وقَصدتموه مِن الأيْمان(٣).

﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾.

أي: كفَّارةُ ما حَنِثْتُم فيه من اليمينِ المعقودةِ؛ إطعامُ عَشَرةِ مَحاويجَ ليس لدَيهم ما يَكفِيهم، مِن صِنفٍ وَسَطٍ بين الجيِّد والرَّديء، ممَّا تُطعمون أَهْلِيكم(٤).

---

(١) قرأ بها حمزةُ، والكسائيُّ، وخلفٌ، وأبو بكر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٢٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦١٦)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٣٤)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٤١٧).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٢٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٣٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٣٤)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٤١٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٣٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢١٧-٢١٨).
واختارَ أنَّ المراد بـ﴿أَوْسَطِ﴾: أي: وسطٌ بين الجيِّد والرَّديء: القرطبيُّ في ((تفسيره)) (٦/ ٢٧٦)، وابنُ عُثيمين في ((تفسير سورة المائدة)) (٢/ ٣١٠).
وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلف: ابنُ عُمر، والأسود، وعَبِيدة، والحسن، وابنُ سِيرين، وشُريح. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٢٤- ٦٢٦)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (١/ ٥٨٠).
وقيل: وسطٌ بين القِلَّة والكثرة، وهو اختيارُ ابن جرير في ((تفسيره)) (٨/ ٦٣٦-٦٣٧).
وممَّن قال بنحو ذلك مِن السَّلف: عُمر، وعليٌّ، وابن عبَّاس، ومجاهد، وسعيد بن جُبَير، والضحَّاك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٣٥)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (١/ ٥٧٩).
وقيل: المراد بالأوسط هنا: الأفضل والأجود. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٣٣). =

﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾.

أي: وإمَّا كسوةُ عَشرةِ مَساكين(١).

﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾.

أي: أو فكُّ عبدٍ مُؤمنٍ مِن أَسْرِ العُبوديَّة(٢).

فمَتَى فعَل واحدًا مِن هذه الثلاثةِ التي هو مخيَّرٌ فيها، فقدِ انحلَّتْ يمينُه(٣).

= وممَّن قال بذلك من السلفِ: عطاء. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٤/ ١١٩٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (٢/ ٣١٠).

قال ابنُ جرير: (وأَوْلى الأقوالِ في ذلك عِندنا بالصِّحَّة وأشبهها بتأويل القرآن: قولُ مَن قال: عنَى بقوله: ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ ما وقَع عليه اسمُ كسوة ممَّا يكون ثوبًا فصاعدًا؛ لأنَّ ما دون الثوبِ لا خِلافَ بين جميعِ الحُجَّة أنَّه ليس ممَّا دخل في حُكم الآية، فكان ما دون قدْرِ ذلك خارجًا من أن يكونَ الله تعالى عناه بالنَّقْل المستفيض، والثوب وما فوقه داخلٌ في حُكم الآية؛ إذ لم يأتِ مِن الله تعالى وحيٌ، ولا مِن رَسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم خبرٌ، ولم يكُن من الأمَّة إجماعٌ بأنَّه غيرُ داخلٍ في حُكمها، وغيرُ جائزٍ إخراجُ ما كان ظاهرُ الآية محتملَه من حُكم الآية إلَّا بحُجَّة يجب التسليمُ لها، ولا حُجَّة بذلك) ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٤٥).

وقال ابنُ عثيمينَ: (قوله: ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ معطوفةٌ على ﴿إطعام﴾، والكسوةُ ما يكسو به الإنسانُ بدنَه، وتختلفُ الكسوةُ باختلافِ الأزمانِ والبلدانِ والأحوالِ، ولذلك ترون في مواسم الحجِّ والعمرةِ اختلافًا كبيرًا في كسوةِ النَّاس، فيرجعُ في هذا إلى العرفِ، ففي بلادِنا الكسوةُ عبارةٌ عن قميصٍ وسروالٍ وغترةٍ وطاقيةٍ، هذه الكسوةُ، وإن نقص شيءٌ مِن ذلك فالكسوةُ ناقصةٌ. وقوله: ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ لم يقيَّد (من أوسط ما تكسون)، فيُؤخذ بما يعدُّ كسوةً) ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (٢/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (٢/ ٣١٠-٣١١).

واشترَط الإيمانَ في الرَّقبة المحرَّرة: الواحديُّ في ((الوجيز)) (ص: ٣٣٣)، والقرطبيُّ في ((تفسيره)) (٦/ ٢٨٠)، والسعديُّ في ((تفسيره)) (ص: ٢٤٢)، وابنُ عثيمين في ((تفسير سورة المائدة)) (٢/ ٣١١). وهذا قول الجمهور خلافًا للحنفية. يُنظر: ((بداية المجتهد)) لابن رشد (١/ ٤١٩)، ((المجموع)) للنووي (١٧/ ٣٦٨)، ((المغني)) لابن قدامة (٨/ ٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٢). =

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾.

أي: فمَن لم يَقْدِرْ على التَّكفيرِ عن يمينِه بواحدةٍ مِن هذه الخِصالِ الثَّلاث، فعليه أنْ يَعدِلَ إلى الصِّيامِ، فيصومَ ثلاثةَ أيَّام[1].

﴿ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾.

أي: هذا الذي ذَكرتُه لكم مِن الخِصالِ الأربعِ (الإطعام، والكسوة، وتحرير رَقبة، والصِّيام)، يُكفِّرُ ما حَنِثتُم فيه من الأيمانِ المعقودةِ[2].

﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾.

أي: واحْفَظوا- أيُّها المؤمنون- أيمانَكم عن الحَلِف باللهِ تعالى كَذِبًا، وعن كثرةِ الحَلِف، وعن الحِنْثِ فيها- إلَّا إنْ كان الحِنثُ خَيرًا- وعن تَرْكِ الكفَّارة إذا لزِمَتْكُم[3].

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

أي: كمَا أوضحَ اللهُ تعالى لكم كفَّارةَ أيمانِكم، فإنَّه يُوضِّحُ لكم أيضًا آياتِه الشرعيَّةَ، وأعلامَ دِينِه؛ لتَشْكُروه سبحانَه على ذلك حيثُ علَّمكم ما لم تَكونوا تَعلمُون[4].

= ونقَل الإجماعَ على التخيير بين هذه الثلاثة: ابنُ جرير في ((تفسيره)) (٨/ ٦٤٨)، وابنُ كثير في ((تفسيره)) (٣/ ١٧٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٢-٢٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣١٢-٣١٣).

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- تَصديرُ الخِطابِ بالنِّداء في قولِه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يدلُّ على أهميَّته؛ لأنَّ النِّداءَ يَستلزمُ انتباهَ المخاطَب، وإصدار الخِطاب بوصْفِ الإيمان يدلُّ على أنَّ ما سيُذكَر مِن خِصال الإيمان، وأنَّ مُخالفتَه نقْصٌ في الإيمانِ، ثم إنَّ فيه إغراءً للامتثالِ؛ لأنَّك إذا وصفْتَ شخصًا بوصْفٍ لتأمُرَه أو تنهاه، فهذا من بابِ الإغراءِ بهذا الوَصْفِ؛ ولذلك تقولُ لشخصٍ: أنتَ رجلٌ؛ كيف تفعل كذا وكذا؟! فقولك: أنت رجل، يَعني: مُقتضى الرُّجولةِ ألَّا تَفعَلَ، وتقول: يا فلان، أنت كريمٌ، وهذا سائلٌ، يعني: فأَعْطِه[(١)].

٢- قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ النَّهي إنَّما هو عن تحريمِ ذلك على النَّفْس، أمَّا ترْك تناوُلِ بعضِ ذلك في بعضِ الأوقاتِ من غيرِ التزامٍ، ولقصدِ التربية للنَّفس على التصبُّرِ على الحِرمانِ عند عدم الوِجدانِ، فلا بأسَ به بمقدارِ الحاجةِ إليه في رِياضة النَّفسِ. وكذلك الإعراضُ عن كثيرٍ مِن الطيِّبات للتطلُّع إلى ما هو أعْلى؛ من عِبادةٍ أو شُغلٍ بعملٍ نافعٍ، وهو أعْلى الزُّهْدِ، وقد كان ذلك سُنَّةَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وخاصَّةٍ مِن أصحابِه، وهي حالةٌ تُناسِبُ مرتبتَه، ولا تتناسَبُ مع بعض مراتبِ النَّاس، فالتطلُّعُ إليها تعسيرٌ، وهو مع ذلك كان يتناولُ الطيِّباتِ دون تشوُّفٍ ولا تَطلُّعٍ، وفي تناولها شُكرٌ لله تعالى[(٢)].

٣- قال تعالى: ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ﴾ ولم يقُل تعالى: (وكلوا ما رزقكم الله)، وكلمة (مِن) للتبعيض، فكأنَّه قال: اقتَصِروا في الأكْل على البعضِ، واصْرِفوا البقيَّةَ إلى الصَّدَقات والخَيْرات؛ لأنَّه إرشادٌ إلى ترْك الإسرافِ، كما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٩٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٥).

قال: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾[1] [الأنعام: ١٤١].

٤- قَوْلُه تعالى: ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ﴾ يدلُّ على أنَّه تعالى قد تكفَّلَ برِزقِ كلِّ أحدٍ؛ فإنَّه لو لم يَتكفَّلْ برِزقه لَمَا قال: ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ﴾ وإذا تكفَّلَ اللهُ برِزقه وجَبَ ألَّا يُبالَغَ في الطَّلبِ، وأنْ يُعوَّلَ على وعْدِ الله تعالى وإحسانِه؛ فإنَّه أكرمُ مِن أن يُخلِفَ الوعدَ[2].

٥- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿حَلَالًا طَيِّبًا﴾ أنَّ ذلك القيد ﴿طَيِّبًا﴾ هو قيدٌ مُحذِّر ممَّا فيه شُبهةٌ؛ تنبيهًا على الوَرَع، ويكون معنى طِيبه تيقُّنَ حِلِّه، فيكون بحيث تتوفَّر الدَّواعي على تناوُله دِينًا تَوفُّرَها على تناوُلِ ما هو نهايةٌ في اللَّذةِ شهوةً وطبعًا، وأنْ يكون مُخرِجًا لِمَا تَعافُه النَّفسُ ممَّا أخَذَ في الفساد من الأطعمةِ؛ لئلَّا يضرَّ[3].

٦- أنَّ الإيمانَ بالله عزَّ وجلَّ مستلزِمٌ لتقواه؛ لِقَوْلِه: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾، أي: فلإيمانِكم يَلزمُكم التقوى، فالإيمانُ الحقيقيُّ مستلزِمٌ للتقوى، فمَن لم يَتَّقِ اللهَ، فهو إمَّا فاقدٌ للإيمانِ بالكليَّة، وإمَّا ناقصُ الإيمانِ[4].

٧- قَوْلُه تعالى: ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ في الأمْر بالتَّقوى في هذا المقامِ جمْعٌ بينَ حقوقِ الرُّوحِ والجَسد، وفيها دفْعٌ لِمَن قد يَستشكِل قائلًا: إنَّ الدِّينَ شُرِع لتزكيَةِ النُّفوس، والتمتُّعُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤١٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والحديث أخرجَه ابنُ ماجه (٢١٤٤)، والطبرانيُّ في ((المعجم الأوسط)) (٣١٠٩)، والحاكمُ (٢١٣٥) من حديث جابرٍ رضي الله عنه.

قال ابنُ عبد البرِّ في ((التمهيد)) (٢٤/ ٤٣٥): مُسنَدٌ حسَن. وضَعَّف إسنادَه البُوصِيريُّ في ((مصباح الزجاجة)) (٢/ ٦)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٢١٤٤).

والحديث رُوي من طُرقٍ عن أبي أُمامةَ وابنِ مَسعودٍ وحذيفةَ رضي الله عنهم.

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٠٧).

بالشَّهواتِ واللذَّات يُنافي التزكيةَ، وإنِ اقْتصِرَ فيه على المباحاتِ؛ فكيف يكون الاستمتاعُ بالطيِّباتِ مطلوبًا شرعًا؟!

ووَجْهُ ذلِك الدَّفعِ: أنَّ تزكيةَ الأنفُس إنَّما تكونُ بإيقافِها عندَ حدِّ الاعتدالِ، واجتنابِ التَّفريطِ والإفراط، وقد خلَق اللهُ الإنسانَ مركَّبًا من رُوحٍ مَلكيَّة وجَسَد حيوانيٍّ، فلم يجعلْه مَلَكًا مَحضًا، ولا حيوانًا مَحضًا، وسخَّر له بهذه المزيَّة جميعَ ما في عالَمِه الذي يعيش فيه مِن الموادِّ والقُوى والأحياء، وجعَل مِن سُنَّته في خلْقه أنَّه تكونُ سلامةُ البدن وصحَّتُه من أسباب سلامةِ العقلِ وسائرِ قُوى النَّفْس؛ ولذلك حرَّم عليه ما يضرُّ بجَسَده، كما حرَّم عليه ما يضرُّ برُوحِه وعقلِه، فالتمتُّعُ بالطيِّبات من غيرِ إسرافٍ ولا اعتداءٍ لحدودِ الله وسُننِ فِطرته هو الذي يُؤدَّى به حقُّ الجَسدِ وحقُّ الرُّوح، ويُستعان به على أداءِ حُقوق اللهِ وحُقوقِ خَلْقه، فإنْ صَحِبَتْه التقوى فيه وفي غيرِه تتمّ التزكيةُ المطلوبةُ[1].

٨- قولُه تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾، وفي سورةِ البقرة: ﴿بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥]، فيه دليلٌ على أنَّ العِبرة بما في القُلوب، وهذا كقولِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((إنَّما الأعمالُ بالنيَّات، وإنَّما لكلِّ امرئٍ ما نوى))[2]، ويَنبني عليه مسائلُ كثيرةٌ في الأيمانِ والطَّلاقِ والبيوع والأوقافِ وغيرِها[3].

٩- يُستفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ أنَّه ينبغي تقليلُ الأيمانِ، وحِفظُ اليمينِ عن الحِنْث، هذا إذا لم يكُنْ حلَف بيمينِه على ترْكِ مندوبٍ أو فِعْلِ مَكروهٍ، فإنْ حلَف على ترْك مندوبٍ أو فِعل مكروهٍ، فالأفضلُ أنْ يَحنثَ في يَمينِه، ويُكفِّرَ ويأتيَ الذي هو خيرٌ؛ لحديث أبي هُرَيرةَ رضي الله عنه، أنَّ رسولَ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٥).

(٢) أخرجه البخاريُّ (١) واللفظ له، ومسلم (١٩٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣١٤).

الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((مَن حلَف على يمينٍ فرَأى غيرَها خيرًا منها، فليأتِ الذي هو خيرٌ، وليُكَفِّرْ عن يمينِهِ))(١).

١٠- أنَّ العِلم مِن نِعَم الله التي يجبُ علينا شُكرُها؛ لأنَّ بيانَ الآياتِ به يَعلمُ الإنسانُ آياتِ الله، فإذا كان اللهُ يُبيِّنها لِنَشْكُرَه عليها، دلَّ ذلك على أنَّ العِلمَ بالشريعةِ وبآياتِ الله نعمَةٌ يجب على الإنسانِ أنْ يَشكُرَها؛ لقول الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(٢).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- إنَّ الله هو خالقُ هؤلاء البَشر ورازقُهم؛ فهو وحْدَه صاحبُ الحقِّ إذنْ في أنْ يُحِلَّ لهم ما يَشاءُ مِن رِزقه، وأنْ يُحرِّمَ عليهم ما يشاءُ، وهو مَنْطقٌ يعترِفُ به البشرُ أنفسُهم؛ فصاحب المِلكِ هو صاحبُ الحقِّ في التصرُّف فيه، والخارجُ على هذا المبدأ البديهيِّ مُعْتدٍ لا شكَّ في اعتدائِه، قال الله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾(٣).

٢- في قولِه تعالى: ﴿لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ تنبيهٌ لفُقهاءِ الأمَّة على الاحترازِ في القولِ بتحريم شيءٍ لم يَقُمِ الدليلُ على تحريمِه، أو كان دليلُه غيرَ بالغٍ قوَّةَ دليلِ النَّهي الواردِ في هذه الآيَةِ(٤).

٣- الإشارةُ إلى مِنَّة اللهِ تبارَكَ وتعالى على عِبادِه بما أحلَّ لهم؛ لِقَوْلِه: ﴿طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾، ولو شاءَ اللهُ عزَّ وجلَّ لحرَّم علينا طيباتٍ أُحِلَّت

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٥٠٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢٨٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٤).
والحديث أخرجه مسلم (١٦٥٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٢٦).
(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٩٧٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٦).

لنا، كما حرَّم ذلك على بني إسرائيلَ؛ حيث قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠]، وتحريمُ الطيِّباتِ الشرعيُّ بسببِ الظُّلمِ مِثلُه التحريمُ القَدَريُّ بسبب الظُّلم؛ فإنَّ الإنسانَ قد يُحرَم الطيِّباتِ تحريمًا قدريًّا كالمريضِ الذي يمتنعُ مِن أكلِ اللحمِ؛ لأنَّه يزيدُه مرضًا، وكما يمنعُ اللهُ نباتَ الأرضِ بسببِ المَعاصي، فهذا تحريمٌ قدريٌّ(١).

٤- ذهَب بعضُ العُلماء إلى أنَّ مَن حرَّم مأكلًا أو مَشربًا أو شيئًا من الأشياءِ، فإنَّه يجب عليه بذلك كفَّارةُ يمينٍ، كما إذا الْتزمَ ترْكَه باليمينِ، فكذلك يُؤاخَذُ بمجرَّد تحريمِه على نفْسِه إلزامًا له بما الْتَزَمه؛ فإنَّه لَمَّا ذكَر هذا الحُكم ﴿لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ﴾ عقَّبه بالآيةِ المبيِّنة لتكفيرِ اليَمينِ؛ فدلَّ على أنَّ هذا مُنَزَّلٌ منزلةَ اليمينِ في اقتضاءِ التَّكفير، وكَمَا فِي قَوْلِه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التَّحْرِيم: ١]، ثمَّ قال: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ...﴾ [التَّحْرِيم: ٢] واللهُ تعالى أعلم(٢).

٥- خَصَّ الله الأكلَ بالذِّكْرِ في قولِه: ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ﴾؛ بعدَ أنْ قال: ﴿لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ...﴾؛ لأنَّ مُعظَمَ ما حرَّمه الناسُ على أنفُسِهم هو المآكِلُ(٣).

٦- إثباتُ المحبَّة للهِ عزَّ وجلَّ؛ لِقَوْلِه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾؛ لأنَّ نفيَه محبَّةَ المعتدِين يدلُّ على ثُبوتِ أصل المَحبَّة، ولو كان لا يُحبُّ مُطلقًا لم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٠٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٧١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٧).

يكن لنَفْيِ محبَّته للمعتدينَ فائدةٌ[١].

٧- في قولِه تعالى: ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ أمْرُ الإنسانِ بالأكْلِ ممَّا رزَقَ اللهُ، وضِدُّه عدمُ الأكْلِ، وعدمُ الأكلِ ممَّا رزَق اللهُ ثلاثةُ أقسام: الأوَّل: أن يَترُكَ الأكلَ مع خوفِ الهلاك إذا لم يأكُلْ، فهنا تركُ الأكْلِ حرامٌ؛ لأنَّه يجبُ على الإنسانِ أن يُنقِذَ نفْسَه. الثاني: إذا كان ليس به ضرورةٌ للأكْلِ لكن يحتاجُ إلى الأكْلِ لتقويةِ البَدنِ، فهنا الأكلُ مُستحَبٌّ؛ لأنَّه لو ترَكَه لم يَهلِك، لكنَّه في حاجةٍ، نقول له: لا تمنعْ نفْسَك. الثالث: أن يَترُكَ الأكلَ تنزُّهًا، فهذا يُنهَى عنه، ويُقال: كُلْ ممَّا أباحَ اللهُ لك[٢].

٨- سَعةُ حِلم اللهِ وعَفْوِه؛ لِقَوْلِه: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ حيث نفَى المؤاخَذةَ عن اللَّغْو في الأيمانِ؛ وذلك لكثرةِ تَكرارِها، ومَشقَّةِ التحرُّزِ منها، وهذا بناءً على أنَّ المرادَ بها: الأيمانُ التي لا تُقصَد، والتي تكونُ في عَرَضِ الحديثِ[٣].

٩- قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ...﴾ احتجَّ الشافعيُّ رضِي اللهُ عنه بآيةِ سورة البقرة: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٥] مع هذه الآيةِ على وجوبِ الكفَّارةِ في اليمينِ الغموسِ، قال: إنَّه تعالى ذَكَر في آية البقرة: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ وقال في آية المائدة: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ وعقْدُ اليمين محتمِلٌ لأنْ يكونَ المرادُ منه عقدَ القلبِ به، ولِأنْ يكونَ المرادُ به العَقدَ الذي يُضادُّ الحَلَّ، فلمَّا ذكر في آيةِ البقرة قولَه: ﴿بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ عَلِمْنَا أنَّ المرادَ من ذلك العَقْدِ هو عقدُ القَلْبِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣١٣).

وأيضًا ذَكَر المؤاخذةَ في آية البقرة، ولم يُبيِّن أنَّ تلك المؤاخذةَ ما هي، وبَيَّنها هنا في آيةِ المائدة بقوله: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ..﴾؛ فبَيَّن أنَّ المؤاخذةَ هي الكفَّارة، فكلُّ واحدةٍ من هاتين الآيتينِ مُجمَلةٌ من وجهٍ، مُبيَّنة من وجهٍ آخَر، فصارتْ كلُّ واحدةٍ منهما مُفسِّرةً للأخرى مِن وَجْهٍ، وحصَل من كلِّ واحدةٍ منهما أنَّ كلَّ يمينٍ ذُكِر على سبيلِ الجِدِّ وربْط القَلْبِ، فالكفَّارةُ واجبةٌ فيه، واليمينُ الغموسُ كذلِك؛ فكانتِ الكفَّارةُ واجبةً فيها(١).

١٠- أنَّه لا يَنبغي الحِنثُ إلَّا إذا كان خيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَفَّارَتُهُ﴾ والكفَّارةُ لا تكون إلَّا في مقابلةِ ذَنبٍ أو ما يُشبِهه؛ ولهذا قال في آخِر الآيةِ: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾(٢).

١١- قُدِّمَ الإطعامُ على العِتْقِ في قولِه تعالى: ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ مع أنَّ العِتْقَ أفضلُ لا محالةَ؛ وذلك لأمور:

منها: أنَّ المقصودَ منه التنبيهُ على أنَّ هذه الكفَّارةَ وجبتْ على التخييرِ لا على الترتيب؛ لأنَّها لو وجبتْ على الترتيب لوَجبتِ البَداءةُ بالأَغْلَظِ.

ومنها: قُدِّمَ الإطعامُ لأنَّه أسهلُ، ولِكَوْن الطعامِ أعمَّ وُجودًا، والمقصودُ منه التنبيهُ على أنَّه تعالى يُراعي التخفيفَ والتسهيلَ في التكاليف(٣).

١٢- في قوله تعالى: ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ رقِي مِن الأدْنى إلى الأعلى، فالإطعامُ أيسرُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٦/ ٤٢٨)، (١٢/ ٤١٩).
وذهَب أكثرُ أهلِ العلمِ إلى أنَّ اليمينَ الغموسَ لا كفَّارة فيها. ينظر: ((المغني)) لابن قدامة (٩/ ٤٩٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣١٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٢١).

من الكسوة، كما أنَّ الكسوة أيسرُ مِن العِتْق[١].

١٣- أنَّ الإطعامَ مُطلَقٌ لا يُشترَطُ فيه التمليكُ؛ لأنَّ اللهَ تعالى لم يقُلْ: (فللمساكين)، لو قال: (فللمساكين) لكان يُشترَطُ فيه التمليكُ، كما قال في الزكاة: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾ [التوبة: ٦٠]، وإنَّما قال: ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ﴾؛ وذلك لأنَّ الطعامَ يُنتفعُ به مرَّةً واحدةً، فلا يُشترط فيه التمليكُ، أمَّا الكسوة فيُشترط فيها التمليكُ، وإلَّا لكان تُعِيرُه الثوبَ ثم تأخُذُه منه[٢].

١٤- أنَّه لو أطعمَ مَن يأكلُ الطَّعامَ - ولو كان صغيرًا - كفَى؛ لِقَوْلِه: ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ﴾[٣].

١٥- في قوله تعالى: ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ لو قارنتَ بين إطعامِ عَشَرةِ مساكين وكِسوتهم وعِتق الرَّقبة، لوجدتَ الفَرْقَ كبيرًا، لكنْ للهِ الحِكمة فيما يَشْرَع؛ فلا يُمكن أن يَعترِضَ مُعترِضٌ على حُكْمِه[٤].

١٦- تمامُ عدلِ الله عزَّ وجلَّ في إيجابِ الأوسَطِ؛ لِقَوْلِه: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ فالواجب على الإنسانِ هو الوَسَط؛ فالزكاةُ مثلًا على صاحِبِ الغَنَم الواجبُ الوَسَط، والزكاة في الثِّمار الواجبُ الوَسَطُ، فإنَّه لو أوْجَب الأكملَ والأعلى، لكان في هذا ضرَرٌ على المعطِي، ولو أوجَبَ الأدْنى لكان فيه ضررٌ على الـمُعطَى، أي: المدفوع إليه، فالوسطُ ليس فيه حَيفٌ لا على مَن يجِبُ عليه، ولا عَلى مَن يجبُ له، وهذا لا شكَّ أنَّه من العدالةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣١٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٢٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٢١، ٣٢٣).

١٧- وجوبُ الإنفاقِ على الأهلِ؛ لِقَوْلِه: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ يعني: كأنَّ هذا أمرٌ مُقرَّر؛ أنَّ الرجل يُطعِم أهلَه، وهذا لا شكَّ فيه؛ أنَّه يجب على الرجلِ أن يُنفقَ على أهلِه؛ قال الله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾(١) [النساء: ٣٤].

١٨- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ أنَّ الكِسْوةَ مُطلقةٌ، فما سُمِّي كِسْوةً حصَل به الإجزاءُ، وهذا يختلفُ باختلافِ الأحوالِ والأزمانِ والأماكنِ والأُمم(٢).

١٩- قولُه تعالى: ﴿إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ فيه دقيقةٌ، وهي التنبيهُ على أنَّ تقديمَ الكفَّارةِ قبلَ اليمينِ لا يجوزُ، وأمَّا بعدَ اليمينِ وقبل الحِنث فإنَّه يجوزُ(٣).

٢٠- أنَّ تقديرَ العباداتِ كمِّيةً ونوعًا وكيفيَّةً موكولٌ إلى الشَّرْعِ؛ لِقَوْلِه: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾؛ ولذلك لا يَتقابَلُ أو لا يَتساوى إطعامُ عَشَرةِ مَساكينَ مع صِيام ثلاثةِ أيَّام، فكفَّارة الظِّهارِ الواجبُ فيها صيامُ شَهرينِ متتابعينِ، فإنْ لم يجد فإطعامُ سِتِّينَ مِسكينًا، فجاءَ إطعامُ كلِّ فقيرٍ يُقابل صيامَ يومٍ، لكن هنا يختلفُ الوضع، ولعلَّ السببَ- والله أعلمُ - أنَّه في كَفَّارة الظِّهار الإطعامُ بدلٌ عن الصيامِ، فمن لم يستطعِ الصيامَ أطعَمَ، وإذا كان بدلًا عن الصِّيام، فالحُكم أنَّ صومَ كلِّ يوم يُطعِمُ عنه مِسكينًا، كما في العاجِزِ عن الصِّيام عجزًا لا يُرجَى زَوالُه، فإنَّه يُطعِمُ عن كلِّ يوم مسكينًا، أمَّا في كفَّارةِ اليمينِ وفِديةِ الأذى، فليس الأمرُ كذلك؛ لأنَّ الأمرَ فيهما على التخييرِ، فكلٌّ من خِصال الكفَّارة نوعٌ مستقلٌّ بنفْسِه(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٢٣).

٢١- أنَّ الله سبحانه وتعالى بَيَّنَ لعبادِه من آياته كلَّ ما يحتاجون إليه؛ لِقَوْلِه: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾(١).

٢٢- ممَّا يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ محبَّةُ الله تعالى للشُّكرِ؛ حيث بَيَّنَ الآياتِ لعِبادِه من أجْلِ أنْ يَشكُروه(٢).

٢٣- تعليلُ أحكامِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وأنَّها مقرونةٌ بالحِكمة؛ لأنَّ قَوْلَه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ للتعليلِ، والتعليلُ يُفيد الحِكمةَ؛ فجميعُ أفعالِ اللهِ وأحكامِ اللهِ كلُّها لحِكمةٍ، لكنْ منها ما يُعلَم، ومنها ما لا يُعلَم(٣).

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قَوْلُه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾:

- قَوْلُه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ الجملةُ تعليلٌ لِمَا قَبْلَها مِنْ قَوْلِه: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾(٤)، وهي أيضًا جملةٌ تذييليَّة للتي قَبْلَها؛ للتحذيرِ مِن كلِّ اعتداءٍ(٥).

٢- قَوْلُه: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيه: تأكيدٌ للتَّوصيةِ بما أمَرَ به، وزادَه تأكيدًا بقوله: ﴿الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾؛ لأنَّ الإيمانَ به يُوجِبُ التقوى في الانتهاءِ إلى ما أمَرَ، وعمَّا نهى عنه(٦).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٢٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٢٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤١٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٧).
(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٧٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٧٤)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٤٩٣).

٣- قَوْلُه: ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾:

- قَوْلُه: ﴿تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾، أي: فتحريرُ الإنسانِ كلِّه؛ ففيه تَسميةُ الكُلِّ (الإنسان) بالجُزءِ (الرَّقبة)؛ وخُصَّتِ الرَّقبةُ مِن الإنسان؛ إذ هو العُضوُ الذي فيه يكونُ الغُلُّ والتَّوثُّقُ غالبًا من الحيوانِ؛ فهو موضعُ المِلكِ فأُضيفَ التحريرُ إليها(١).

٤- قَوْلُه: ﴿ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ﴾ الكفَّارة مبالَغَةٌ في (كفر)، بمعنى ستَر وأزال، وقد جاءتْ فيها دَلالتانِ على المبالغةِ، هما التضعيفُ والتاء الزائدة، كتاء (نسَّابة) و(علَّامة)، والعربُ تجمعُ بينهما غالبًا(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٢٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٩).

الآيات (٩٠ - ٩٣)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ
فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ
فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ
وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٩٢﴾
لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿الْمَيْسِرُ﴾: القِمار؛ مِن قولهم: يَسَرَ، إذا ضَرَب بالقِداحِ، وأصلُ (يسر): يَدُلُّ على انْفِتاحِ شَيءٍ وخِفَّتِه[١].

﴿الْأَنصَابُ﴾: جمْع نُصُب، وهو: حَجرٌ أو صَنمٌ يَذبحون عندَه، أو يُنصَبُ للعبادةِ، وأصل (نصب): يدلُّ على إقامةِ شيءٍ، وإهدافٍ في استواءٍ[٢].

﴿الْأَزْلَامُ﴾: أي: القِداحُ التي كانوا يَضربون بها، ثم يعملون بما يخرجُ فيها مِن أمرٍ أو نهيٍ، أو التي يَضربون بها على الميسرِ، أو هي سِهامُ العَرَب، مفردها: زلَم[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٤١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٠، ٤٨٦)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٣/ ٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٢).

﴿رِجْسٌ﴾: أي: قذَرٌ مُنْتِن، وأصل (رجس): يدلُّ على اختلاطٍ(١).

﴿الشَّيْطَانِ﴾: إبليسَ؛ وكلُّ عاتٍ مُتمرِّدٍ مِن الجنِّ والإنسِ والدوابِّ: شيطانٌ، وأصلُه من (شطَن) إذا تباعَد؛ وذلك لبُعدِه عن الخيرِ أو رَحمةِ اللهِ تعالى. وقيل: أصله مِن (شَيَط) إذا احترَق(٢).

﴿يَصُدَّكُمْ﴾: أي: يَصرِفكم ويَمنعَكم، والصدُّ: الإعراضُ والعدولُ، ويُطلَق أيضًا على الانصرافِ عن الشيءِ والامتناعِ عنه، وأصل (صدد): صرَف ومنَع(٣).

﴿جُنَاحٌ﴾: إثمٌ؛ سُمِّي الإثمُ بذلك لِمَيلِه عن طريقِ الحقِّ؛ فأصل (جنح): مال وتَعدَّى(٤).

المَعنَى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ اللهُ تعالى لعبادِه المؤمنين أنَّ الخَمْرَ والقِمار، وما يُنصَب لعبادةِ غيرِ الله، والقِدَاحَ التي يُضرَب بها؛ ليُعملَ بما يخرجُ فيها مِن أمرٍ أو نهْيٍ، ويُعرف عن طريقِها ما قُسِم للإنسانِ مِن خيرٍ أو شرٍّ؛ هذه الأربعةُ أمورٌ مستقذَرةٌ ينأى عنها العُقلاءُ، وتَعافُها النُّفوس؛ فهي مِن تزيينِ الشيطان، فيجبُ عليهم الابتعادُ عنها واجتنابُها؛ حتى يُفلحوا؛ فالشيطانُ الرجيمُ يُريد بتَزْيينِه هذه المُنكَراتِ أن يُوقِعَ بينهم العداءَ والتباغُضَ، ويثيرَ في نفوسِهم الأحقادَ؛ بسببِ تعاطي الخمرِ والقِمار، فإنَّ مَن سَكِر، اختلَّ عقلُه، فربَّما تسلَّط على أذَى النَّاس في أنفسِهم

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٨٤، ٢٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥١).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٧).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٨).

وأموالِهم، وربَّما بلَغ به ذلك إلى القتلِ، ومَن قامَرَ فربَّما خَسِر مالَه، فلم يبقَ له شيءٌ، فيشتد حِقْدُه على مَن أخَذ مالَه. كما يريدُ الشيطانُ أيضًا أن يَصدَّهم عن ذِكْرِ الله وعن الصَّلاة، إذا تبيَّن لهم هذا فهلَّا انتَهَوْا عن تلك الأمورِ المستقبَحةِ.

ثم يأمرُ اللهُ عِبادَه المؤمنين أن يُطيعوه جلَّ وعلا، ويُطيعوا رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأن يَحذَروا مِن المخالَفةِ لأمْرِ اللهِ ورسولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلام، فإنْ أعْرَضوا عن الطَّاعةِ فلْيَعلموا أنَّما على الرسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ البلاغُ عن الله تعالى، وأمَّا عقوبةُ مَن تولَّى وحسابُه فعلى الله عزَّ وجلَّ وَحْدَه.

ثم يُبيِّنُ تعالى أنَّه ليس على الذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ إثمٌ فيما شَرِبوا وأكَلوا ممَّا حرَّم الله تعالى إذا فَعَلوا ذلك قَبل نُزولِ تحريمِه أو قَبْل مَعْرِفتِهم بتحريمِه، إذا ما اجتنَبوا ما حرَّمَ اللهُ، وآمَنوا به، وعمِلوا الصالحاتِ، ثم استمرُّوا على اجتنابِ ما حرَّم تعالى، وعلى الإيمانِ به، ثم استمرُّوا على اجتنابِ ما حرَّم اللهُ تعالى؛ حتى بَلَغوا مَرتبةَ الإحسانِ، واللهُ تعالى يحبُّ المحسنينَ في عِبادتِه، والذين يُحسِنون إلى عِبادِه.

تَفسيرُ الآيات:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أحلَّ اللهُ عزَّ وجلَّ الطيِّباتِ حرَّم الخبائثَ الْمُفْضيةَ إلى مفاسدَ؛ ولَمَّا كان الخمرُ والميسِرُ مِن جملةِ الأُمورِ المستطابةِ في جاهليَّتهم؛ بيَّن أنَّهما غيرُ داخِلَينِ في المحلَّلاتِ، والمَيْسِرُ كان وسيلةً للكسْبِ والأكْل؛ فكانتْ هذه الآيةُ كالاحتراسِ عمَّا قد يُساءُ تأويلُه مِن قَوْلِه سبحانه: ﴿لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ

اللَّهُ لَكُمْ﴾[١]، فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنونَ، إنَّ الخمرَ والقِمارَ وما نُصِبَ لعبادةِ غيرِ الله تعالى، والأزلامَ التي يُسْتَقْسَم بها، كما كانتِ العربُ في جاهليَّتِها يَتعاطَون ذلك، وهي عبارةٌ عن قِداحٍ ثلاثةٍ، مكتوبٌ على أحدِها: «افْعَل»، وعلى الآخَر: «لا تفعل»، والثَّالث ليس عليه شيءٌ، وقِيل: كان يُكتَب على الواحدِ منها: «أَمَرني ربِّي»، وعلى الآخَر: «نَهاني ربِّي»، والثالث ليس عليه شيءٌ، فإذا أجالَها فطَلَع السَّهمُ الآمِرُ فَعَلَه، أو النَّاهي ترَكَه، وإنْ طلَعَ الفارغُ أعاد الاستقسامَ، حتى يَخرُجَ أحدُ القَدَحينِ الآخَرَينِ فيَعملَ به[٢].

﴿رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾.

أي: إنَّ تلك الأشياءَ ما هي إلا خُبثٌ ونَتَنٌ وأمورٌ مُستقذَرَة، يَنبغي أن تَعافَها النُّفوسُ، وهي مِن تزيينِ الشيطان، ووحْيِه إليكم؛ ليُرغِّبَكم في إتيانِها وتعاطيها[٣].

﴿فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٧٢، ٦٥٥-٦٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٢٨-٣٢٩).
واختار ابنُ جرير أنَّ المراد بالأنصاب: الأنصابُ التي يُذبح عندها. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٢٩).
واختلف أهلُ العلمِ في هل الخمر نجسةٌ نجاسةً عينيَّة أو لا. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٢٦-٤٢٨)، ((مختصر فقه الطهارة)) (ص: ١٤٣).

أي: فابْتَعِدوا عن هذا الرِّجْس؛ كيما تَظْفَروا بما تَطلُبون، وتَنجوا ممَّا تَرهَبُون[1].

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (٩١)﴾.

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى باجتنابِ الخمرِ والميسرِ، عقَّب بِذِكر نوعينِ من المفسدةِ التي تترتَّبُ على تعاطيها وارتكابها: الأول: ما يتعلَّق بالدُّنيا، وهو قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾، والثاني ما يَتعلَّق بالدِّين وهو قولُه تعالى: ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾[2].

سَببُ النُّزولِ:

عن مُصعَبِ بنِ سَعدٍ، عن أبيه، أنَّه قال: أتيتُ على نفرٍ مِنَ الأنصارِ والمهاجرينَ، فقالوا: تعالَ نُطْعِمْك، ونَسْقِك خمرًا، وذلك قبل أنْ تُحرَّم الخمرُ، قال: فأتيتُهم في حَشٍّ - والحَشُّ البُستانُ - فإذا رأسُ جَزورٍ مشويٌّ عندهم، وزِقٌّ مِن خَمْر، قال: فأكلتُ وشَرِبْتُ معهم، قال: فذكرتُ الأنصارَ والمهاجرينَ عندهم، فقُلْتُ: المهاجرون خيرٌ من الأنصارِ، قال فأخَذَ رجلٌ أحدَ لَحْيَي الرَّأْسِ فضَربَني به، فجرَح بأنفي، فأتيتُ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فأخبرتُه، فأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ فيَّ - يعني: نفْسَه - شأنَ الخمرِ: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾[3] [المائدة: ٩٠].

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٢٤).

(٣) رواه مسلم (١٧٤٨).

أي: إنَّما يُريدُ لكم الشيطانُ- عن طَريقِ شُربِ الخمرِ وتَعاطِي القِمار- أن يُعاديَ بعضُكم بعضًا بأفعالِهم، ويُبغضَ بعضُكم بعضًا بقلوبِهم، فيُشتِّت أمرَكم بعد تأليفِ الله تعالى بين قلوبِكم[1].

﴿وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾.

أي: ويُريدُ الشيطانُ أنْ يَصرِفَكم بغَلَبةِ هذه الخمرِ على عُقولِكم، وباشتغالِكم بهذا الميسِرِ عن ذِكرِ الله تعالى بألسِنَتِكم وجوارِحِكم وقُلوبِكم، وعن الصَّلاةِ التي بها فلاحُكم[2].

﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بَيَّن تعالى اشتمالَ شُرْبِ الخمرِ واللَّعِب بالميسرِ على هذه المفاسِدِ العظيمةِ في الدِّين[3]، قال تعالى:

﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾.

أي: فهلْ تَمتنِعون عن تِلك القبائحِ بعدَ هذا البيانِ الجليِّ والموعظةِ البليغة[4]؟

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٩٢)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٥٦-٦٥٧)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٤٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٣٠-٣٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٥٧)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٤٥٧-٤٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٣١-٣٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٥٧، ٦٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٣٣).

مُناسَبةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا كان الخَمْرُ والميسرُ مألوفًا لهم، محبوبًا عندهم، وكان تركُ المألوفِ أمَرَّ مِن ضَرْبِ السُّيوف؛ أكَّد دعوتَهم إلى اجتنابِه، مُحذِّرًا من المخالفةِ بقولِه(١):

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا﴾.

أي: وأطيعوا اللهَ تعالى، وأطيعوا رسولَه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بفِعلِ الأوامرِ، واجتنابِ النَّواهي؛ ومِن ذلك اجتنابُ تلك القَبائحِ، واحذروا من مَعصيةِ اللهِ تعالى، ومَعْصِيةِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ(٢).

﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾.

أي: فإنْ أنتم أعرضتُم عن طاعةِ الله تعالى وطاعةِ رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فاعْلَموا إذنْ أنَّه ليس على مَن أرسَلْناه إليكم سِوى إبلاغِكم رسالةَ ربِّكم بجَلاءٍ ووُضوحٍ، وأمَّا إيقاعُ العقابِ بكم إذا تولَّيْتم عنها، فعلى الله تعالى وحْدَه(٣).

﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (٩٣)﴾.

سَببُ النُّزول:

عن أنسٍ رضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كنتُ ساقِيَ القومِ في مَنزلِ أبي طَلحةَ، وكان خمرُهم يومئذٍ الفَضيخَ(٤) فأمَر رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مناديًا يُنادي: ألَا

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٥٤-٣٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٦٣-٦٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٥٥-٣٥٦).

(٤) الفَضِيخ: هو شرابٌ يُتَّخذ من البُسْرِ المَفضوخ- أي: المَشْدوخ- وحْدَه، من غيرِ أن تمسَّه النار. =

إنَّ الخمرَ قد حُرِّمت، قال: فقال لي أبو طَلحةَ: اخرُجْ فأهرِقْها. فخرَجْتُ فهَرَقْتُها فجرَتْ في سِكَكِ المدينةِ، فقال بعضُ القَوْمِ: قد قُتِل قومٌ وهي في بُطونِهم؛ فأنزَلَ اللهُ: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ الآيَةَ))[1].

﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾.

أي: ليس على المؤمنينِ الذين يَعملون الأعمالَ الصالحة؛ إثمٌ فيما شَرِبوا وأكَلوا ممَّا حرَّمَ الله تعالى قبلَ نُزولِ تحريمِه ومعرفتِه، وذلك كالخمرِ التي كانوا يَشربونها، والقِمارِ الذي كانوا يَتعاطَوْنه[2].

﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

أي: يُنفَى عنهم الإثمُ بشَرْط أن يَجتنبوا ما حرَّم اللهُ تعالى، ومِن ذلك ما حرَّمَ عليهم من مَطعوماتٍ، ويُؤمنوا باللهِ تعالى إيمانًا صحيحًا، يَدعوهم إلى اكتسابِ الأعمالِ الصَّالحات[3].

﴿ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا﴾.

أي: ثم استمرُّوا على اجتنابِ ما حُرِّم عليهم، وثَبَتوا واستمرُّوا على الإيمانِ به سبحانه، دون أن يُغيِّروا أو يُبدِّلوا[4].

= ينظر: ((الصحاح)) للجوهري (١/ ٤٢٩)، ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٤٥٣).

(١) رواه البخاريُّ (٢٤٦٤) واللفظ له، ومسلم (١٩٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٦٥-٣٦٨).
قال مكي: (فهذه الآيةُ نزلت في قولِ الجميعِ فيمَن مات منهم وهو يشربُها، اعلموا أنه لا جناحَ عليهم) ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) (٣/ ١٨٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٦٩).

﴿ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا﴾.

أي: ثمَّ داوَمُوا على اجتنابِ المحرَّماتِ، حتى دعاهم ذلك إلى بُلوغِ الإحسانِ في فِعل الطَّاعاتِ(١).

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

أي: والله تعالى يحِبُّ المحسِنِينَ في عِبادتِه، الذين يَعبُدونه سبحانه كأنَّهم يَرونَه، المحسِنين في نَفْعِ عِبادِه(٢).

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- بَدْؤُه تعالى الكلامَ بهذا الوَصْفِ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يدلُّ على أنَّ العملَ به تَصديقًا أو امتثالًا من مقتضياتِ الإيمانِ، كذلك أيضًا: يدلُّ على أنَّ مخالفتَه، أو الشكَّ فيه، أو تكذيبَه منافٍ للإيمانِ؛ إمَّا لأصلِه أو لكمالِه، وثالثًا: أنَّ في هذا إغراءً للمخاطَب، كأنَّه يقول: إنْ كنتَ مؤمنًا فاستمعْ وامتثِلْ(٣).

٢- يَكفي أنْ يعلمَ المؤمنُ أنَّ شيئًا ما مِن عملِ الشَّيطانِ؛ لينفِرَ منه حسُّه، وتَشمئزَّ منه نَفْسُه، ويَبعُدَ عنه من خوفٍ ويتَّقيَه! فالشيطانُ عدوُّ الإنسانِ القديمُ؛ لذا قال تعالى: ﴿رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ فتَعاطي هذه المحرَّماتِ بتسويلٍ من الشيطان، فكأنَّ الذي عمِلَها وتعاطاها هو الشَّيطانُ، وفي ذلِك تنفيرٌ لمتعاطيها بأنَّه مَن عَمِلَ عَمَلَ الشيطانِ، فهو شيطانٌ، وذلك ممَّا تأباه النُّفوسُ، ولم يكتفِ بذلك ذمًّا لهذا العَمَل، بل وفي هذه اللَّحظة يَصدُر النَّهيُ مصحوبًا كذلك بالإطماعِ في الفَلاح، وهي لمسةٌ أخرى من لمساتِ الإيحاءِ النفسيِّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٦٤-٦٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٦٩-٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٧٠-٣٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٢٧).

العميقِ، فقال: ﴿فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[١].

٣- قَوْلُه تعالى: ﴿رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ فيه بيانُ أنَّه لا مَعصيةَ أعظمُ وأقبحُ من معصيةٍ تُدنِّس صاحبَها، وتجعلُه من أهل الخُبثِ، وتُوقِعُه في أعمالِ الشَّيطانِ وشِباكه، فينقادُ له كما تنقادُ البهيمةُ الذليلةُ لراعيها، وتَحولُ بين العبدِ وبين فلاحِه، وتُوقِعُ العداوةَ والبغضاءَ بين المؤمنين، وتصدُّ عن ذِكر اللهِ وعن الصَّلاة؟ فهل فوقَ هذه المفاسدِ شيءٌ أكبرُ منها[٢]؟!

٤- فضيلةُ الصَّلاةِ لتَخصيصِها بالذِّكر مِن بين ذِكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لِقَوْلِه: ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾، وهذا يدلُّ على شَرَفِها وفَضلِها على غيرِها[٣].

٥- أنَّ كَلَّ ما صدَّ عن ذِكرِ الله فهو مِن أوامرِ الشَّيطانِ؛ لِقَوْلِه: ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾، وذِكرُ الله تبارك وتعالى يكونُ بالقلبِ واللِّسان والجوارحِ، فكلُّ ما صدَّك عن ذِكرِ اللهِ من هذه الأشياءِ، فهو من أوامِر الشيطانِ وإراداتِه[٤].

٦- أنَّ كلَّ ما وقَع في قلبك مِن التثاقُل عن الصَّلاة، فاعلمْ أنَّه من الشَّيطانِ، ومرادِ الشيطان؛ لِقَوْلِه: ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾[٥].

٧- في قولِه تعالى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ الحضُّ على ترْكِ هذه الخبائثِ، والإقلاعِ عنها؛ لأنَّ العاقِلَ إذا نظَر إلى بعضِ تِلك المفاسدِ انزجَر عنها وكفَّتْ

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٩٧٥)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٥٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٥٣).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

نفْسُه، ولم يَحتَجْ إلى وعْظٍ كثيرٍ، ولا زجرٍ بليغٍ(١).

٨- في قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ بيانُ أنَّ طاعةَ الله وطاعةَ رسولِه واحدةٌ، فمَن أطاعَ الله فقدْ أطاعَ الرسولَ، ومَن أطاع الرسولَ فقد أطاع اللهَ، وذلك شاملٌ للقِيامِ بما أمَر اللهُ به ورسولُه من الأعمال والأقوالِ، الظاهرةِ والباطِنة، الواجبةِ والمستحبَّةِ، المتعلِّقة بحقوقِ اللهِ وحقوقِ خَلْقِه، والانتهاءِ عمَّا نهى الله ورسولُه عنه كذلك(٢).

٩- أنَّ تولِّيَ الناسِ عمَّا يدعو إليه النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لا يضرُّه، ولا يُلامُ عليه؛ لِقَوْلِه: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾؛ لأنَّه إذا كان ليس عليه إلَّا البلاغُ، فإنَّه لن يضرَّه تولِّيهم ولا يُلام عليه، ويتفرَّع على ذلك: أنَّ الداعيةَ إلى الله في وقتِنا وفيما قبْلَه لا يضرُّه ألَّا يَقبلَ الناسُ منه؛ لأنَّه أدَّى الواجبَ، ويَنبغي أن يُفَرِّحَ نفْسَه بأنَّه أدَّى الواجِبَ، وألَّا يحزنَ بعدم قبولِهم دعوتَه؛ لأنَّ الله تعالى قال للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧]، لكن ربَّما نقول: يحزنُ لعدمِ قَبولِ الشَّريعة، لا لعدمِ قبولِهم منه، والفرقُ بين هذا وهذا واضحٌ(٣).

١٠- وجوبُ الرُّجوعِ إلى قولِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لِقَوْلِه: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾، وأنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قام بالواجِب، فعلينا- نحن- أن نقومَ بالواجِبِ(٤).

١١- قَوْلُه تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٦١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا﴾، فيه ثناءٌ من الله، وحَمْدٌ لأحوال مَن يتَّصِفون بهذه الصِّفات: الإيمانِ والتقوى والإحسان، وهذا مدعاةٌ لتحرِّيها والاتصافِ بها[1].

١٢ - يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا﴾ القيودُ الشَّديدة في نفْيِ الإثمِ عمَّن أكَل أو شَرِب في مأكولِه ومَشروبِه، والتقوى ذُكرتْ في الآيةِ ثلاثَ مرَّات، والإيمانُ مرَّتين، والإحسانُ مرَّة، قيودٌ شديدة عظيمة؛ فينبغي الحَذَر من أنْ يكون في المطعومِ إثمٌ[2].

١٣ - يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا﴾ أنَّ مَن أكَلَ حلالًا بكسْبٍ حرامٍ فعليه الإثمُ؛ لأنَّه لم يتَّقِ اللهَ في كسْبِه، ولا بدَّ أن يتَّقيَ اللهَ عزَّ وجلَّ، وإذا كان الشيءُ المحرَّمُ مُعيَّنًا فيكون الآكِلُ كالكاسِب، مثل: أنْ أعرفَ أنَّ هذه الشَّاةَ التي ذبَحَها إكرامًا لي قد سرقَها من فلانٍ، فهذه حرامٌ عليَّ أنْ آكُلَها[3].

١٤ - يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا﴾ فضيلةُ الإحسانِ إلى الخَلْق والإحسانِ في عِبادةِ الخالِق؛ فالإحسانُ إلى الخَلْق أن تبذُلَ جاهَك، تبذل مالَك، تبذل خِدمتك، تبذل منفعتَك البدنيَّة، والإحسانُ في عبادة الخالِق فسَّره أعلمُ الناسِ بمعناه، وهو النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم بقوله: ((أنْ تَعبُدَ اللهَ كأنَّك تراه، فإنْ لم تكُن تراه فإنَّه يَراك))[4].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٢٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٧١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٧٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٧٣). =

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١ - أطْلَقَ اللهُ عزَّ وجلَّ الإيمانَ في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ولم يَذكُر ما يُؤمَن به؛ لأنَّ ذلك معلومٌ، وقد سأل جِبريلُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عنه؛ أي: عن الإيمانِ، فقال: ((أنْ تُؤمِنَ بالله، وملائكتِه، وكُتُبه، ورُسلِه، واليومِ الآخِر، والقَدَرِ خيرِه وشرِّه))[1].

٢ - قَوْلُه: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ...﴾ يُستفادُ منه تحريمُ الخمرِ مِن أيِّ شيءٍ كان، سواءٌ من العِنب أو مِن الرُّطَب، أو مِن الشَّعير، أو مِن البُرِّ، أو من أيِّ شيءٍ؛ لعمومِ الآيَةِ[2].

٣- قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ...﴾ يُستفادُ من الآيَةِ تحريمُ الميسرِ قليلِه وكثيرِه؛ للعموم، حتى لو كانتِ المغالَبةُ بقِرشٍ واحدٍ، ولو يَسيرًا؛ لأنَّنا نقول: قليلُ الميسرِ الذي لا يُجحِف بمالِ الإنسانِ، ولا يُهتمُّ به، كقليلِ الخمرِ الذي إذا كان قليلًا لم يُسْكِر، وإذا كان كثيرًا أسْكَر، ولا شكَّ أنَّ المغالَبَةَ إذا كانتْ في شيءٍ يسيرٍ تجرُّ إلى المغالبةِ في شيءٍ كثيرٍ، ويُستثنَى من ذلك ما مَصلحتُه أعْلَى مِن مفسَدَتِه، وذلك في ثلاثةِ أشياءَ بَيَّنَها النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّمَ فقال: ((لا سَبَقَ إلَّا في نصْلٍ أو خُفٍّ أو حافِرٍ))[3]- السَّبَق بفَتْح الباءِ-

= والحديث أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (١٠) من حديث أبي هريرة، وأخرجه مسلم (٨) من حديث عمر.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٢٧).
والحديث أخرجه مسلم (٨) من حديث عمر رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٣٣).

(٣) أخرجه أبو داود (٢٥٧٤)، والترمذيُّ (١٧٠٠)، والنَّسائيُّ (٣٥٨٥)، وأحمد (١٠١٤٢) من حديث أبي هُرَيرَة رضي الله عنه.
حسَّنه التِّرمذي، وقال العُقيليُّ- كما في ((لسان الميزان)) لابن حجر (٦/ ٣٢٧)-: رواه النَّاسُ عن ابن أبي ذِئب، عن أبي هُرَيرة، وهو الصَّحيح. واحتجَّ به ابن حزم في ((المحلى)) =

هو: العِوَضُ المأخوذِ على السَّبْقِ- بسكون الباء-، والنَّصل: السِّهام، والخُف: البعير، والحافِر: الفرس- وإنَّما استثنى النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ ذلك؛ لأنَّ بها يقومُ الجهادُ في سَبيلِ الله الذي به إعلاءُ كلمةِ الله، وهذه مصلحةٌ عظيمةٌ؛ فإذا رُخِّص للنَّاسِ في أَخْذ العِوَضِ عليها، كَثُر تسابُقُهم فيها(١).

٤- قَوْلُه تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾ فيه نصٌّ صريحٌ في أنَّ كلَّ مُسْكِرٍ حرامٌ؛ وذلك لأنَّه قال بعده: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ فرتَّب النَّهيَ عن شُرْب الخمرِ على كونِ الخَمْرِ مشتملةً على تلك المفاسِد، ومِن المعلومِ في بَدائِهِ العقولِ أنَّ تلك المفاسدَ إنَّما تَولَّدتْ مِن كونِها مؤثِّرةً في السُّكْر، وهذا يُفيد القطعَ بأنَّ عِلَّة قوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ هي كونُ الخمرِ مُؤثِّرةً في الإسكارِ، وإذا ثبَت هذا وجبَ القطعُ بأنَّ كلَّ مُسكِرٍ حرامٌ(٢).

٥- للقرآنِ الكريمِ طريقةٌ في بيان العِلل؛ فتارةً يَتقدَّم بيانُ العِلَّة، وتارةً يتأخَّر، يعني: إذا ذَكَر الله حُكمًا، وذَكَر له عِلَّةً، فتارةً يَذكُر العِلة قَبلُ ثم يَبني عليها الحُكمَ، وتارةً يَذكُرُ الحُكمَ ثم يأتي بالعِلَّةِ، حسَبَ ما تَقتضيه الحالُ وقرائنُ السِّياقِ، فهنا ذَكَر العِلَّة قبلَ الحُكم، وهي: ﴿رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾(٣).

٦- تحريمُ الأصنامِ؛ لقولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ فالأنصابُ: ما يُنصب ليُعبدَ مِن دون الله، وهو

= (٧/ ٣٥٤)، وصحَّحه ابن العربي في ((عارضة الأحوذي)) (٤/ ١٦٠)، وصحَّح إسنادَه ابنُ القَطَّان في ((الوهم والإيهام)) (٥/ ٣٨٢)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٢٥٧٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٤١).

يعمُّ كلَّ ما اتُّخِذَ صَنمًا من أيِّ مادةٍ كان؛ لأنَّ الآيةَ مُطلَقةٌ[١].

٧- في قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ حُذِفَ المتعلَّق لإفادةِ العُموم، فلمْ يَخُصَّ سبحانه وتعالى الاجتنابَ بنَوعٍ من أنواعِ الانتفاعِ؛ فيُحمَل على العُموم، ويكون المعنى: اجتَنِبوا بَيعَه، وشُرْبَه، وإهداءَه، وتخليلَه، وهِبتَه، وغيرَ ذلك[٢].

٨- رحمةُ اللهِ تبارَك وتعالَى بعِبادِه الَّذين خَلَقَهم لعِبادتِه؛ حيثُ حذَّرهم مِن كلِّ ما فيه ضَررٌ؛ لِقَوْلِه: ﴿فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٣].

٩- إثباتُ الإرادةِ للشَّيطانِ؛ لِقَوْلِه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ﴾، والله تعالى يقول: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ [البقرة: ٣٤]، وقد جادَلَ ربَّه عن إرادةٍ[٤].

١٠- في قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾ اقتصرتِ الآيةُ على تبيينِ مفاسِدِ شُرْبِ الخمرِ وتعاطي الميسِر، دون تَبْيينِ ما في عِبادَةِ الأنصابِ والاستقسامِ بالأزلامِ من الفَسادِ؛ وذلك لأنَّ إقلاعَ المسلمينَ عنهما قد تَقرَّر قَبلَ هذه الآيةِ مِن حِين الدُّخولِ في الإسلامِ؛ لأنَّهما من مآثِرِ عَقائِدِ الشِّركِ، ولأنَّه ليس في النُّفوسِ ما يُدافِعُ الوازعَ الشرعيَّ عنهما بخِلافِ الخَمْر والميسِرِ؛ فإنَّ ما فيهما من اللَّذَّات التي تُزجِي بالنُّفوسِ إلى تَعاطيهما قد يُدافِع الوزاعَ الشرعيَّ؛ فلذلك أكَّد النهيَ عنهما أشدَّ ممَّا أكَّد النهيَ عن الأنصابِ والأزلامِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (٢/ ٣٢٨، ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسَّبت (ص: ٥٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٤٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٥٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٠).

١١ - لَمَّا كانتِ العداوةُ قد تزولُ أسبابُها، ذكَر ما يَنشَأُ عنها ممَّا إذا استحكَم تعسَّر، أو تَعذَّر زوالُه، فقال: ﴿وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ أي: في تعاطيهما؛ لأنَّ الخَمْرَ تُزيل العَقْلَ، فيزول المانعُ من إظهارِ الكامِنِ من الضَّغائن والمحاسَدة، فربَّما أدَّى ذلك إلى حروبٍ طويلةٍ، وأمورٍ مَهولة، والميسِرُ يُذهِبُ المالَ، فيُوجِبُ ذلك الحقدَ على مَن سَلَبه مالَه، ونغَّص عليه أحوالَه[1].

١٢ - كراهةُ اللهِ تبارك وتعالى للعداوةِ والبغضاءِ بين المسلمينَ؛ لأنَّ قولَه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ إلى آخِره، فهذا تحذيرٌ ليس بعدَه تحذيرٌ؛ وذلك لأنَّ الله تعالى أمَرَ بالاجتماعِ ونهَى عن التفرُّقِ، فقال جلَّ وعلا: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾[2] [آل عمران: ١٠٣].

١٣ - في قولِه تعالى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ ناسَب العطفُ في ﴿وَأَطِيعُوا﴾ على معنى قولِه: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾؛ إذ تضمَّن هذا معنى الأمْر، وهو قوله (فَانْتَهُوا)[3].

١٤ - أنَّ طاعةَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مستقلَّة، بمعنى: أنَّه إذا أمَرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بشيءٍ، لا نقول: هل يوجدُ في القرآن هذا الأمرُ أو لا يوجد، بل طاعتُه مستقلَّةٌ؛ وجْه ذلك: أنَّه أعادَ الفِعلَ فقال: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾، وإعادة الفِعل تدلُّ على أنَّ طاعةَ الرَّسول مستقلَّةٌ، بمعنى: أنَّنا لا نحتاجُ إلى شاهدٍ مِن القرآنِ فيما أمَرَ به الرسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم[4].

١٥ - أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم يمتازُ عن غيرِه بالرِّسالةِ، والرِّسالةُ من أشرفِ الأوصافِ التي يتَّصِفُ بها العبدُ؛ لِقَوْلِه: ﴿الرَّسُولَ﴾، ولا شكَّ أنَّ الرسولَ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢٩٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٥٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٥٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٥٧).

يَفضُل ويَشرُف بحسَبِ منزلةِ مُرسِله[1].

١٦- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم لا يَستطيعُ أنْ يَهدِيَ أحدًا؛ لأنَّه بلَّغَ البلاغَ المبينَ، ومع ذلك حصَلتِ المخالفةُ والتولِّي[2].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قَوْلُه: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ... فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾

أكَّد تحريمَ الخمرِ والمَيْسِر في هذه الآيةِ الكريمة بأنواعٍ مِن المؤكِّداتِ[3]:

منها: تصديرُ الجملة بقوله: ﴿إِنَّمَا﴾، والقصرُ المستفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿إِنَّمَا﴾ هو قصرُ مَوصوفٍ على صِفةٍ، أي: إنَّ هذه الأربعةَ المذكوراتِ مقصورةٌ على الاتِّصافِ بالرِّجسِ، لا تتجاوزُه إلى غيرِه، وهو قصرٌ ادِّعائيٌّ؛ للمبالغةِ في عدَمِ الاعتدادِ بما عدَا صِفةَ الرِّجس من صِفات هذه الأربعةِ.

ومنها: أنَّ اللهَ تعالى جَعَل الخمرَ والميسِرَ رجسًا، وكلمةُ الرِّجْس تدلُّ على منتهى القُبح والخبث؛ ولذلك أُطلِقَت على الأوثانِ؛ فهي أسوأُ مفهومًا من كلمةِ الخبيثِ، وقد عُلِم مِن عِدَّة آياتٍ أنَّ اللهَ أحلَّ الطيِّباتِ، وحرَّم الخبائثَ.

ومنها: أنَّه قرَنَهما بالأصنامِ والأزلامِ التي هي مِن أعمالِ الوثنيَّة، وخُرافاتِ الشِّرك، وسمَّاهما رجسًا، وجعَلهما من عملِ الشيطانِ؛ تنبيهًا على أنَّ الاشتغالَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٥٧، ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٧٤-٦٧٣)، ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٢٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٧٥-٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٥٣).

بهما شرٌّ خالصٌ أو غالبٌ، ولِمَا يَنشأُ عنهما من الشُّرور والطُّغيانِ، ولا يكون عَملُ الشيطانِ إلَّا موجِبًا لسَخطِ الرَّحمنِ؛ فالشَّيطان لا يَأتي منه إلَّا الشرُّ البَحْتُ.

ومنها: أنَّه أمَرَ بالاجتِنابِ عن عينِهما، وجَعْلُ الأمْرِ بترَكِهما مِن مادَّة الاجتنابِ أبلغُ مِن التَّرْكِ؛ لأنَّه يُفيدُ الأمرَ بالتَّرْكِ مع البُعدِ عن المتروكِ بأنْ يكونَ التاركُ في جانبٍ بعيدٍ عن جانبِ المتروك؛ وغالِبُ ما جاءَ في القُرآنِ من التَّعبيرِ بالاجتنابِ جاء في الشِّركِ والطَّاغوتِ الذي يَشملُ الشِّركَ والأوثانَ وسائرَ مَصادرِ الطُّغيان، والكبائرِ عامَّةً، وقَولِ الزُّور الذي هُو مِن أكبرِها؛ قال تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠]، وقال: ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، كما قال: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا﴾ [الزمر: ١٧]، وقال: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢].

ومنها: أنَّه جعَلَ الاجتنابَ من الفَلاح، وإذا كان الاجتنابُ فلاحًا ومرجاةً له، دَلَّ ذلك على أنَّ ارتِكابَهما مِن الخُسرانِ والخَيبةِ، في الدُّنيا والآخِرة.

ومنها: أنَّه ذكَر ما يَنتج منهما مِن الوَبال، وهو وقوعُ التعادِي والتباغُض من أصحابِ الخمر والميسِر، فجعَلَهما مثارًا للعداوةِ والبغضاء، وهما شرُّ المفاسِدِ الدُّنيويَّة المتعدِّيةِ إلى أنواعٍ من المعاصِي في الأموالِ والأعراضِ والأنفُس؛ ولذلك سُمِّيتِ الخمرُ أمَّ الخبائثِ وأمَّ الفواحِش.

ومنها: أنَّه جعَلهما صادَّينِ عن ذِكرِ اللهِ وعن الصَّلاةِ، وهما رُوحُ الدِّينِ وعِمادُه، وزادُ المؤمِنِ وعَتادُه.

ومنها: الأمْر بالانتهاءِ عنهما بصِيغة الاستفهامِ المقرونِ بفاءِ السببيَّة ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾.

ولم يُؤكَّدْ تحريمُ شيءٍ في القرآنِ مِثلَ هذا التأكيدِ ولا قريبًا منه؛ وحِكمتُه: شدَّةُ افتتانِ الناسِ بشُربِ الخمرِ، وكذا الميسِرُ، وتأوُّلُهم كلَّ ما يُمكن تطرُّقُ الاحتمالِ إليه من أحكامِ الأديانِ التي تُخالِفُ أهواءَهم، كما أوَّلت اليهودُ أحكامَ التوراةِ في تَحريمِ أكْلِ أمْوالِ النَّاسِ بالباطِلِ كالرِّبا وغيرِه، وكما استحلَّ بعضُ فُسَّاقِ المسلمين شُربَ بَعضِ الخمورِ بتَسميتِها بغيرِ اسمِها؛ إذ قالوا: هذا نَبيذٌ لا يُسكِرُ إلَّا الكثيرُ منه، وقد أحلَّ ما دون القدْرِ المُسْكِرِ منه فلان وفلان، يقولون ذلك فيما هو خمرٌ لا حَظَّ لهم مِن شُرْبِه إلَّا السُّكْرُ.

- وفي قولِه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ مناسبةٌ حسنةٌ مِن حيثُ تَرتيبُها في الذِّكرِ؛ فإنَّه لَمَّا كانتِ الخَمرُ غايةً في الحَمْلِ على إتلافِ المال، قَرَن بها ما يَليها في ذلك، وهو القِمار، ولَمَّا كان الميسِرُ مَفسدةَ المالِ، قرَنَ به مفسدةَ الدِّينِ، وهي الأنصابُ، ولَمَّا كان تَعظيمُ الأنصابِ شِركًا جليًّا إنْ عُبِدت، وخفيًّا إنْ ذُبِحَ عليها دون عِبادةٍ، قرَن بها نوعًا من الشِّرك الخفيِّ، وهو الاستقسامُ بالأزلامِ، ثم أمَرَ باجتنابِ الكُلِّ إشارةً وعبارةً على أتمِّ وجْهٍ، فقال: ﴿رِجْسٌ﴾، أي: قذَرٌ أهلٌ لأنْ يُبعَدَ عنه بكلِّ اعتبارٍ حتى عن ذِكره، سواء كان عيْنًا أو معنًى، وسواء كانتِ الرجسيَّةُ في الحسِّ أو المعْنَى[1].

٢- قَوْلُه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ خصَّ ﴿الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ بإعادةِ الذِّكر، وشرْحِ ما فيهما مِن الوَبالِ، بعدَما جمَعَ الخمرَ والميسرَ مع الأنصابِ والأزلامِ أولًا، ثم أفردَهما آخِرًا؛ تَنبيهًا

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢٩١).

على أنَّهما المقصودُ بالبيانِ[١]، ولأنَّ الخِطابَ مع المؤمنين، وإنَّما نهاهم عمَّا كانوا يَتعاطَوْنه مِن شُرْبِ الخَمرِ واللَّعِب بالميسِر، وذَكَر الأنصابَ والأزلامَ لتأكيدِ تحريمِ الخمرِ والميسِر، وإظهارِ أنَّ هذه الأربعةَ متقاربةٌ في القُبحِ والمفسَدَة، وأنَّ ذلك جميعًا من أعمالِ الجاهليَّةِ وأهلِ الشِّرك؛ فوجَبَ اجتنابُه بأسْرِه[٢].

٣- قَوْلُه: ﴿**وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ**﴾ فيه: تخصيصُ الصَّلاةِ بالإفرادِ مع دُخولها في ﴿ذِكْرِ اللهِ﴾؛ للتعظيمِ، والإشعارِ بأنَّ الصادَّ عنها كالصادِّ عن الإيمانِ؛ لأنَّها عمادُه، كأنَّه قيل: وعن الصَّلاةِ خصوصًا[٣].

- وكرَّر الجارَّ في قوله: ﴿وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾ تأكيدًا للأمْرِ، وتغليظًا في التَّحذيرِ[٤].

٤- قَوْلُه: ﴿**فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ**﴾ هذا الاستفهامُ مِن أبلغِ ما يُنهَى عنه، كأنَّه قيل: قد تُلِيَ عليكم ما فيهما من المفاسِدِ الدُّنيويَّة والدِّينيَّة التي تُوجِبُ الانتهاءَ؛ فهل أنتم منتهونَ أم باقون على حَالِكم مع عِلْمِكم بتلك المفاسِدِ؟! وهذا استفهامُ ذمٍّ معناه الأمرُ، أي: انْتَهُوا، ومعناه: اتركوا وانتقِلوا عنه إلى غيرِه[٥]، فأكَّد النهيَ عنها بأنْ أوْرَدَه بصِيغةِ الاستفهامِ؛ فهو أبلغُ في الزَّجرِ من صِيغةِ الأمْرِ التي هي «انتهُوا»[٦].

- وفي هذا الاستفهامِ كِنايةٌ عن التَّحذيرِ مِن انتفاءِ وقوعِ المستَفْهَم عنه، أي: التَّحذيرِ مِن عَدمِ الانتهاءِ[٧]؛ فقدْ أعْظَمَ التهديدَ بهذا الاستفهامِ والجملةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٧٤)، ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٧٦).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢٩٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٧٦).

(٦) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٠٥).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٢-٢٨).

الاسميَّةِ الدالَّة على الثَّبات[١].

٥- قَوْلُه: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا﴾

فيه تكرارُ قوله: ﴿وَأَطِيعُوا﴾ على سَبيلِ التأكيدِ[٢].

- حُذِفَ المفعولُ مِن كلمةِ ﴿وَاحْذَرُوا﴾؛ للتحذيرِ من مَعصيةِ اللهِ ورسولِه، وهو أشدُّ وقعًا من ذِكر مَفعولِها؛ لأنَّه أبلغُ في التَّخويفِ؛ لأنَّ المتكلِّمَ مقتصِرٌ عليها دونَ مُتعلِّقاتها[٣].

٦- قَوْلُه: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ خبرٌ فيه من الوعيدِ البالغِ ما لا خفاءَ به؛ إذ تضمَّنَ أنَّ العقابَ إنَّما يتولَّاه المرسِلُ لا الرَّسولُ؛ فما كُلِّفَ الرسولُ من الأمْرِ غيرَ التبليغِ[٤].

- وقوله: ﴿عَلَى رَسُولِنَا﴾ في إضافةِ الرسول إلى ضميرِ الجلالة إشارةٌ إلى تعظيمِ جانبِ هذه الرِّسالة، وإقامة لمعذرتِه في التبليغِ بأنَّه رسولٌ من القادِرِ على كلِّ شيءٍ، فلو شاءَ مُرسِلُه لهدَى المُرسَلَ إليهم، فإذا لم يَهتدوا فليس ذلك لتقصيرٍ من الرسولِ[٥].

٧- قَوْلُه: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾

﴿فِيمَا طَعِمُوا﴾، أي: في طعمِ الَّذي طَعِموه، ومِن فصاحةِ القُرآن: إيرادُ فِعل ﴿طَعِمُوا﴾ هنا؛ لأنَّ المرادَ نفيُ التَّبِعَةِ عمَّن شَرِبوا الخمرَ وأكلوا لحمَ الميسرِ قبلَ نزولِ آيَةِ تَحريمهما؛ فإنَّ أصْلَ معنى طعموا أنَّه بمعنى أَكَلوا، و(طَعِم) يأتي

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٥٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣١).

بمعنى (ذاق)، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [البقرة: ٢٤٩]، أي: ومَن لم يَذُقْه، بقرينةِ قوله: ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ﴾ [البقرة: ٢٤٩] ويُقال: وجدتُ في الماءِ طَعْمَ التراب، ويقال: تَغيَّر طعمُ الماء، أي: أسِنَ، فاسْتُعْمِلَ اللَّفظُ في معنييه، أو هو مِنْ أُسلوبِ التَّغليبِ[(١)].

٨- **قَوْلُه: ﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا﴾** فيه: تَكرارُ هذه الجُمل على سبيلِ المبالغةِ والتوكيدِ في هذه الصِّفات، والتأكيدِ والمبالغةِ في الحثِّ على الإيمانِ والتَّقوى، ولا ينافي التأكيدَ العطفُ بـ﴿ثُمَّ﴾[(٢)]؛ فإنَّ حَرْفَ ﴿ثُمَّ﴾ الدالَّ على التَّراخي الرُّتبي فيه إيماءٌ إلى الازديادِ في التقوى وآثارِ الإيمان[(٣)]، ويحتمل أنْ يكون هذا التكريرُ باعتبارِ الأوقاتِ الثلاثة، أو باعتبارِ الحالات الثَّلاث: استعمالُ الإنسانِ التقوى والإيمانَ بينه وبين نفْسِه، وبَينَه وبينَ الناس، وبَيْنه وبينَ الله تعالى؛ ولذلك بدَّل بالإيمانِ الإحسانَ في الكرَّة الثالثة؛ إشارةً إلى ما قاله عليه الصَّلاة والسَّلام في تفسيره، أو باعتبارِ المراتبِ الثلاثِ: المبدأ، والوسط، والمنتهَى، أو باعتبار ما يَتَّقي؛ فإنَّه ينبغي أن يترُكَ المحرَّماتِ توقِّيًا من العقاب، والشُّبهاتِ تحرُّزًا عن الوقوعِ في الحرام، وبعضَ المباحات تَحفُّظًا للنَّفْس عن الخِسَّة، وتهذيبًا لها عن دَنسِ الطَّبيعة[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٣).
قال محمد رشيد رضا: (لا يمكنُ أن يكونَ (طعم) في القرآنِ بمعنى الشُّربِ مطلقًا، ولا يجوزُ أن يفيدَ هذا المعنَى إلا بالتبعِ لمعنى الأكلِ تغليبًا له، فيُجعل ﴿طَعِمُوا﴾ هنا بمعنَى أكلوا الميسرَ، وشربوا الخمرَ، كتغليبِ الأكلِ في كلِّ استعمالٍ في مثلِ النَّهي عن أكلِ أموالِ اليتامَى، وأكلِ أموالِ النَّاس بالباطل). ((تفسير المنار))(٧/ ٦٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٥١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٧٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٧٧).

- قَوْلُه: ﴿ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا﴾ فيه تقديمُ الاتِّقاءِ على الإيمان؛ إمَّا للاعتناء به، أو لأنَّه الذي يدلُّ على التحريمِ الحادثِ الذي هو المؤمَنُ بِه، وللإشارةِ إلى أنَّ الإيمانَ هو أصلُ التقوى(١).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٥).

الآيات (٩٤ - ٩٦)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٩٥) أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩٦) ﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿النَّعَمِ﴾: أي: الإبل والبَقر والغَنَم، وأصلُ (نعم): يدلُّ على ترفُّه وطِيب عَيشٍ وصلاحٍ[1].

﴿ذَوَا عَدْلٍ﴾: أي: عَدلانِ بيِّنَا العدالةِ، والعدالةُ هي الاستقامةُ على طريقِ الحقِّ بالاجتنابِ عمَّا هو محظورٌ دِينًا، وأصل (عدل): يدلُّ على استواءٍ[2].

﴿هَدْيًا﴾: جمْع هَدْيَةٍ، وهو هنا مختصٌّ بما يُهدَى إلى البيتِ مِن الأنعامِ، وأصلُ (هدي): يدلُّ على مَا أُهدِيَ مِن هَدِيَّةٍ إلى ذي مودَّةٍ، ويدلُّ على التَّقدُّمِ للإرشادِ[3].

﴿عَدْلُ ذَلِكَ﴾: أي: مِثلُه، أو مَا يُعادلُه، وأصلُ (عدل): يدلُّ على استواءٍ[4].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٦) ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢١٦)، ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ١٩١).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٤٢- ٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٣٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٨).

﴿وَبَالَ أَمْرِهِ﴾: أي: جزاءَ ذَنبِه، أو ثِقَلَ فِعلِه، أو عاقبةَ أمْرِه مِن الشرِّ، والوَبَال: الوخامةُ، وسوءُ العاقبة، وأصل (وبل): يدلُّ على شِدَّةٍ في شيءٍ، وتجمُّع[(١)].

﴿مَا سَلَفَ﴾: أي: الذي مضَى وتَقدَّم، والسَّلفُ: المتقدِّم، وأصل (سلف): يدلُّ على تقدُّم وسَبْق[(٢)].

﴿صَيْدُ الْبَحْرِ﴾: أي: ما صِيدَ من السَّمكِ، والصيدُ هنا يُرادُ به المَصيدُ، أو: ما يُصطادُ منه طريًّا[(٣)].

﴿وَلِلسَّيَّارَةِ﴾: أي: المسافِرين، وأصلُ (سير): يدلُّ على مُضيٍّ وجريانٍ[(٤)].

﴿تُحْشَرُونَ﴾: تُجمَعون وتُساقون، والحشرُ: الجمْعُ مع سَوْقٍ، أو الجمعُ بكثرةٍ، وكلُّ جمْعٍ حشْرٌ، والحشر أيضًا: البعثُ والانبعاثُ[(٥)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾.

﴿فَجَزَاءٌ﴾: مرفوعٌ مُنوَّن، على أنَّه مبتدأٌ لخبرٍ محذوفٍ، والتقدير: فعليه جزاءٌ، ويجوز أنْ يكونَ ﴿جَزَاءٌ﴾ خبرًا لمبتدأٍ محذوفٍ، والتقديرُ: فالواجبُ جزاءٌ، ويجوز أنْ يكون فاعلًا بِفعلٍ محذوف، أي: فيلزمه أو يجبُ عليه جزاءٌ.

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٤٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٨٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٣١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٩٧).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٩).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦١).

و﴿مِثْلُ﴾: بمعنى (مماثِل)، وهي مرفوعةٌ صفةٌ لـ﴿جَزَاءٌ﴾، ويجوزُ أن تكون بدلًا منه. و﴿مِنَ النَّعَمِ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ، حالٌ من ضمير المفعول المحذوف؛ أي: ما قَتَلَهُ من النَّعَم. أو في محلِّ رفْع صِفة ثانية لـ﴿جَزَاءٌ﴾.

وقُرِئ ﴿جَزَاءُ﴾ بالرَّفْعِ من غيرِ تنوينٍ على إضافتِه إلى ﴿مِثْلِ﴾، وإعراب (جَزَاءُ) على هذه القِراءة كما سبَق، لكن: ﴿مِثْلِ﴾ مجرورةٌ على أنَّها مضاف إليها، وهي في حُكم الزَّائدة؛ لأنَّ الذي يجِبُ به الجزاءُ هو المقتولُ لا مِثلُه، وهذا كقولِه تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ﴾ [البقرة: ١٣٧] أي: بما آمنتُم به، وكقولهم: مِثلي لا يقولُ ذلك، أي: أنا لا أقولُ ذلِك. و﴿مِنَ النَّعَمِ﴾ جارٌّ ومجرور في محلِّ نصْبٍ، حالٌ من الضمير في ﴿قَتَلَ﴾؛ لأنَّ المقتولَ يكون من النَّعَم، أو يكونُ الجارُّ والمجرور متعلقًا بنَفْسِ الجزاء.

و﴿مَا قَتَلَ﴾: ﴿مَا﴾ يجوزُ أنْ تكون موصولةً اسميَّة، أو نكرةً موصوفةً، والعائد محذوف- على كِلا التَّقديرَينِ - أي: مِثل الذي قتَله مِن النَّعم، أو مِثل شيءٍ قتَلَه من النَّعَم(١).

قوله: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾.

﴿هَدْيًا﴾: منصوبٌ على أنَّه حالٌ من الهاء في ﴿بِهِ﴾، فيكون بمعنى مَهْدِيٍّ، أو منصوبٌ على المصدر- أي: إنَّه مفعولٌ مُطلَق لفِعل محذوفٍ-، أي: يُهديه هَدْيًا، وقيل غير ذلك.

﴿أَوْ كَفَّارَةٌ﴾: بالرَّفْع والتنوينِ، على أنَّه معطوفٌ على ﴿فجَزَاءٌ﴾، أي: أو عليه

---

(١) يُنظَر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٣٦-٢٣٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٦٠- ٤٦١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٤١٨- ٤٢٠).

كفَّارةٌ. و﴿طَعَامُ﴾: مرفوعٌ على البَدل مِن ﴿كفَّارة﴾. و﴿صِيَامًا﴾ منصوبٌ على التمييز[١].

قوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾.

﴿مَتَاعًا لَكُمْ﴾: ﴿مَتَاعًا﴾ منصوبٌ على المصدر- مفعول مُطلَق- لأنَّ قوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ بمعنى: أَمْتَعْتُكم به إمتاعًا، أو منصوبٌ على أنَّه مفعولٌ من أجْلِه، أي: أُحِلَّ لكم تمتيعًا لكم. و﴿لَكُمْ﴾ صِفة لـ﴿مَتَاعًا﴾- على القول بأنَّ ﴿مَتَاعًا﴾ مصدرٌ. وعلى القول بأنَّ ﴿مَتَاعًا﴾ مفعولٌ لأجْله، فيكون ﴿لَكُمْ﴾ مُتعلِّقًا بفعلٍ محذوف، أي: أَعْني لكم[٢].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ الله تعالى عِبادَه المؤمنينَ أنَّه سيختبِرُهم في حالِ إحرامِهم ببعضٍ مِن الصيدِ المحرَّم، الذي يستطيعون أخْذَه بأيديهم أو رِماحِهم؛ وذلك حتَّى يَعلمَ اللهُ مَن يَخافُه حالَ كَوْنِه لا يَرَى اللهَ عَزَّ وجَلَّ، ومَن يَخشاهُ في حالِ غِيابِه عن النَّاسِ، ثم توعَّد مَن اعتدَى متجاوزًا ما حدَّه اللهُ بعدَ حُكمِ تحريم الصَّيدِ عند التلبُّسِ بالإحرامِ، فخالَف شرْعَ اللهِ في ذلك؛ توعَّدَه بأنَّ له عذابًا مؤلِمًا مُوجِعًا.

ثمَّ نهى اللهُ تعالى عِبادَه المؤمنينَ عن قَتْلِ الصَّيدِ وهُم مُحْرِمون، أو كانوا داخِلَ الحرمِ، وبيَّن أنَّ مَن قتَلَ الصيدَ قاصدًا ذلك، فيجبُ عليه أنْ يذبَحَ مِثلَه مِن بهيمةِ الأنعامِ، يُقدِّر ذلك المِثْلَ الواجبَ اثنانِ عَدْلانِ من المؤمنينَ، ويَنبغي أن يَصلَ هذا الهديُ الواجبُ على قاتلِ الصَّيدِ إلى الحَرمِ؛ ليُذبحَ هناك، ويُوزَّع

---

(١) يُنظَر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٣٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٦١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٤٢٣- ٤٢٤).

(٢) يُنظَر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٣٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٦٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٤٢٩- ٤٣٠).

لحْمُه على مساكينِه. أو يكفِّر قاتلُ الصيدِ عمَّا اقترَفه من ذنبٍ بإطعامِ مساكينَ. أو يصوم ما يُعادلُ الإطعامَ، بأنْ يكون مقابلَ إطعامِ كلِّ مِسكينٍ صِيامُ يومٍ؛ ليذوقَ مَن قتَل الصيدَ- وهو مُحرِمٌ بعدَ تحريمِه- عقوبةَ ما اقترفه مِن ذنبٍ. ثم ذكَر اللهُ مَظْهرًا مِن مظاهرِ رحمتِه بعبادِه؛ وهو أنَّه عفا الله عمَّا مضى مِن قبلِ التَّحريمِ، فلم يؤاخِذْهم عليه، أمَّا مَن عاود فِعلَ ذلك بعد أنْ بَلَغه التحريمُ؛ فإنَّ اللهَ تعالى ينتقمُ منه، ويعاقِبُه عقابًا شديدًا، فهو سبحانه عزيزٌ ذو انتقامٍ.

وبعدَ أنْ ذَكَر اللهُ حُكمَ صَيدِ البَرِّ بيَّن أنَّ صيدَ البحرِ وطعامَه حلالٌ حتى للمُحرِمِ- وصيدُ البَحر ما أُخِذ حيًّا، وطعامُه ما لَفَظَه البحرُ ميتًا، أو طفَا عليه أو انْحسَر عنه- أحلَّ الله تعالى ذلك؛ منفعةً لعبادِه في حالِ إقامَتِهم وحالِ سَفَرِهم، وأوضَحَ اللهُ سبحانه أنَّ صيدَ البَرِّ حرامٌ على عِبادِه حالَ إحرامِهم، فلْيتَّقوا اللهَ في كُلِّ أحوالِهم؛ فهو الذي إليه يُحشَرونَ وإليه مَرْجِعُهم فيجازيهم على أعمالِهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٤)﴾.

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَهم اللهُ تعالى ألَّا يُحرِّموا الطيِّباتِ، أخرج منها ما حرَّمَه في حالٍ دون حال، وهو حال الصيد[١]، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنون، لَيَختبِرنَّكم اللهُ تعالى، ويَمتحِنَنَّ إيمانَكم ببعضِ الصَّيد المحرَّمِ الذي تَقدِرونَ على أخْذِه بأيديكم ورِماحِكم، وذلك حالَ إحرامِكم بحَجٍّ أو عُمرةٍ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٦١)، ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٩٠)، ((تفسير السعدي)) =

﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾.

أي: أقامَ اللهُ تعالى هذا الابتلاءَ؛ ليَعلمَ عِلمًا ظاهرًا للخَلْقِ، يَترتَّبُ عليه الثوابُ والعِقابُ، مَن يخافُ اللهَ تعالى ولم يَرَهُ، ومَن يَخافُ اللهَ تعالى في حالِ غِيابِه عن النَّاسِ، فيُطيع ربَّه عزَّ وجلَّ، ويَجتنب معصيتَه سرًّا وجهرًا، وهو لا يَراه ولا يُعايِنُه[(١)].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢].

﴿فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أي: فمَن تجاوَزَ حدَّ اللهِ عزَّ وجلَّ بعدَ حُكمِ تحريمِ الصَّيدِ عليه حالَ إحرامِه، فخالَفَ شرْعَ اللهِ تعالى في ذلك؛ فله عذابٌ مؤلِمٌ مُوجِع[(٢)].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٩٥)﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنون، إيَّاكم أن تَقتُلوا صيدَ البَرِّ[(٣)] وأنتم مُحْرِمون بحجٍّ أو

= (ص: ٢٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٧٨-٣٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٧٩).

(٣) المقصودُ بالصَّيد: الحيوانُ البريُّ المأكولُ المتوحِّش طبعًا. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٨٥).

عمرةٍ[(١)]، أو كنتم داخِلَ منطقةِ الحَرَم[(٢)].

﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾.

أي: وكلُّ مَن قتَلَ منكم صَيدًا، مُتعمِّدًا قتْلَه، فيجبُ عليه أنْ يَذبحَ مِثلَه من بهيمةِ الأنعامِ: الإبلِ، والبقرِ، والغَنم[(٣)]، ويَتصدَّقَ به عِوضًا عمَّا قَتلَه[(٤)].

﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾.

أي: يُقدِّرُ ذلك الجزاءَ الواجبَ، اثنانِ عدلانِ منكم- أيُّها المؤمنون- من ذوي الاستقامةِ والمروءةِ[(٥)]، يَعرِفان الحُكمَ، ووجهَ الشَّبَهِ[(٦)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٨٤-٣٨٥).

قال ابنُ عثيمين: (والحُرُم: جمعُ حرامٍ، والمرادُ به: الحُرُم في المكانِ، والحُرُم في الحالِ: الحُرُم في المكانِ: بأن يكونوا في حَرمِ مكَّةَ، والحُرُم في الحالِ: بأن يكونوا مُحرِمين بحجٍّ أو عمرةٍ، وعلى هذا لو أحرَم الإنسانُ مِن ذي الحُليفةِ فمِن حينِ إحرامِه مِن ذي الحليفةِ يدخلُ في الآيةِ، ولو كان محلًّا ووصَل إلى مكَّة إلى حدودِ الحَرَم، فإذا دخل هذه الحدودَ فقد صار حرامًا أي: يدخل في الآية أيضًا).

(٣) قال ابنُ عُثيمين: (المرادُ بالمماثلة هنا: المقاربةُ في الخِلْقة؛ لأنَّ التماثُلَ بيْن الصَّيدِ وبَين النَّعَم مستحيلٌ، أعْني: التماثُلَ من كلِّ وجه؛ لكن المراد بذلك التقارُب في الخِلقة) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٧٨-٦٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٨٦-٣٨٧).

(٥) قال ابنُ عُثيمين عن المروءة: (العدالةُ: هي الاستقامةُ في الدِّين والمروءة، فمعنى ﴿ذَوَا عَدْلٍ﴾ أي: ذوا استقامةٍ في الدِّين والمروءة. أمَّا في الدِّين: ففسَّرها الفقهاءُ رحمهم الله بأنْ يأتي بالفرائض، وأنْ لا يفعلَ كبيرةً، ولا يُصرَّ على صغيرةٍ، هذه الاستقامةُ في الدِّين، الاستقامةُ في المروءة: أنْ لا يفعل ما يَشينُه عندَ الناسِ، وأنْ يفعل ما يُجمِّله عندهم، يعني: يفعل الجميلَ ويَدَع المُشين، وهذا الأخيرُ يختلف باختلافِ الأحوالِ والبلدان والأزمان، قد يكون فعلُ شيءٍ في بلد لا يَخرم المروءةَ، وقد يكون في بلد آخَر يَخرم المروءةَ، والعبرةُ بأعرافِ الناس المستقيمة، لا عِبرةَ للهَمجِ) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٨٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٩٢)، ((تفسير السعدي)) =

﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾.

أي: هذا الهدْيُ يَنبغي أنْ يكونَ واصلًا إلى الحرَمِ، فيُذبحَ فيه، ويُوزَّعَ لحْمُه على مساكينِه[1].

﴿أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ﴾.

أي: وله- عوضًا عن ذَبْحِ الهَدْيِ المماثِل- أنْ يكفِّرَ عن ذَنبِه بإطعامِ مساكينَ[2].

﴿أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾.

أي: وله أيضًا أنْ يَختارَ للجزاءِ صِيامَ ما يُعادِلُ إطعامَ المساكينِ، فيصومَ عن إطعامِ كلِّ مِسكينٍ يومًا[3].

﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾.

أي: أوْجَبْنا الجزاءَ المذكور على قاتِلِ الصَّيدِ المنهيِّ عن قتلِه؛ ليذوقَ عقوبةَ ذَنبِه الذي ارتكبَه بإلزامِه بما يُتعِبُه، ويشقُّ عليه[4].

= (ص: ٢٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٨٧-٣٨٨).

قال السعديُّ: (كما فعَل الصحابةُ رضي الله عنهم، حيث قضَوْا بالحمامة شاةً، وفي النعامة بدنةً، وفي بقَر الوحش- على اختلاف أنواعِه- بقرةً، وهكذا كلُّ ما يُشبه شيئًا من النَّعم، ففيه مِثلُه، فإنْ لم يُشبه شيئًا ففيه قِيمتُه، كما هو القاعدةُ في المُتْلَفات) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٩٥، ٧٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٨٨).

قال القرطبيُّ: (ولم يُرِدِ الكعبةَ بعينِها؛ فإنَّ الهديَ لا يبلغُها؛ إذ هي في المسجدِ، وإنَّما أراد الحرمَ، ولا خلافَ في هذا) ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٩٦، ٧٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٨٨-٣٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٧٠٨-٧٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٧١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٨٩-٣٩٠).

﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾.

أي: تجاوزَ اللهُ تعالى عن قتْلِكم الصيدَ، وأنتم حُرُمٌ، قبلَ تحريمِ ذلك عليكم، فلا يُؤاخِذكم به[١].

﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾.

أي: ومَن فعل ذلك بعد تحريمِه، وبُلوغِ الحُكم الشرعيِّ إليه، فإنَّ الله تعالى يَأخُذُه بعقوبةٍ[٢].

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾.

أي: واللهُ تعالى مَنيعٌ في سُلطانه، غالبٌ على أمْرِه، لا يَقهرُه قاهرٌ، ولا يَمنعُه من الانتقامِ مانعٌ، ذو معاقبةٍ لِمَن عصاه سبحانه[٣].

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩٦)﴾.

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا كانَ الصيدُ يشملُ الصيدَ البَرِّيَّ والبَحريَّ، استَثْنى تعالى الصيدَ البحريَّ، فذَكَر في الآياتِ الماضيةِ حُكمَ صيدِ البَرِّ للمُحْرِمِ، وذكر هنا حُكمَ صيدِ البَحرِ[٤]، فقال:

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٧١٢-٧١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٩٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٧٢٠-٧٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٩٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٧٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٩٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤١٠).

أي: أباحَ الله تعالى لكم مُطلقًا في حالِ حِلِّكم وحَرَمِكم- أيُّها المؤمنون- أَكْلَ صيدِ البحرِ، وهو ما أخذتُموه من حيواناتِه حيًّا، وطعام البحرِ، وهو ميتتُه التي لفَظَها أو طفَتْ عليه، أو انحسر عنها(١).

﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾.

أي: منفعةً لكم- أيُّها المخاطَبون- فتنتفعون به أكْلًا وبَيعًا، ومنفعةً أيضًا للمسافرينَ يَتزوَّدونَ به في سَفرِهم، ويَجلِبونه بضاعةً إلى الأمصارِ في تَرحالِهم(٢).

﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾.

أي: وحرَّم اللهُ تعالى عليكم- أيُّها المؤمنون- أخْذَ الحيوانِ البريِّ في حالِ إحرامِكم(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٧٢٢، ٧٢٦، ٧٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤١٠-٤١٢).

وممَّن قال مِن السَّلف في معنى صيد البحرِ وطعامِه بنحو ما قُلنا: أبو بكر الصِّدِّيق، وعمر بن الخطَّاب، وابن عباس، وزيد بن ثابت، وأبو هُرَيرة، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، وسعيد بن جُبَير، والسُّدِّي، وقَتادة، وسعيد بن المسيَّب، ومجاهد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٧٢٢)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٤/ ١٢١٠).

وقال مكي: (وكلُّ نهرٍ تسمِّيه العربُ بحرًا، فالأنهارُ صيدُها داخلٌ في هذا، حلالٌ بإجماعٍ) ((الهداية الى بلوغ النهاية)) (٣/ ١٨٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٧٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤١٠).

وقد ذهَب إلى أنَّ المراد بـ ﴿لَكُمْ﴾ أي: أنتم- أيُّها المقيمون- في بلادِكم. وهو اختيارُ ابن جرير في ((تفسيره)) (٨/ ٧٣٥)، والواحديُّ في ((الوجيز)) (ص: ٣٣٦)، وابن عطية في ((تفسيره)) (٢/ ٢٤١)، وابن عثيمين في ((تفسير سورة المائدة)) (٢/ ٤١٠).

وممَّن قال بنحو ذلك من السَّلف: مقاتل. يُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (١/ ٥٨٨).

وقال ابن عاشور: (والخطابُ في قولِه: ﴿مَتَاعًا لَّكُمْ﴾ للمُخاطبين بقولِه: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾ باعتبارِ كونِهم مُتناولين الصَّيد، أي: متاعًا للصَّائدين وللسَّيَّارة) ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٧٣٧-٧٣٨، ٧٤٦-٧٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٠٠)، =

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

أي: واتَّقوه سبحانه بفِعلِ ما أمَر، وترْكِ ما نَهى، واستَعينوا على تقواه بعِلمِكم أنَّكم إليه راجعونَ، فيُجازِيكم في آخرتِكم ثوابًا أو عقابًا على ما قدَّمتُم في دُنياكم[1].

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ بيانُ امتحانِ اللهِ تبارَك وتعالى لعبادِه بتيسيرِ أسبابِ المعصية لهم؛ ليعلمَ مَن يخافُه بالغيبِ ومَن لا يخافُه إلَّا في العلانِيَة، ووجهُه من الآية ظاهِر[2].

٢- قَوْلُه تعالى: ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ فيه الحذرُ مِن الوقوعِ في المعصيةِ، وإن تيسَّرتْ أسبابُها، ومعرفةُ أنَّ ذلك امتحانٌ مِن الله[3]، فقد يكونُ التيسيرُ هو عينَ الابتلاءِ؛ ليعلمَ اللهُ مَن يخافُه في السرِّ، حيثُ لا يراه أحدٌ من النَّاس؛ إذ إنَّ هذا الصيدَ في مُكنتِهم وسهْلُ الأخْذ؛ فالخائفُ لا يَصيدُ، وغيرُ الخائفِ يَصيدُ[4].

٣- قولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ فيه أنَّ اجتنابَ قتْلِ الصيدِ مِن مقتَضَياتِ الإيمانِ؛ وجهُ ذلك: أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ وجَّه

= ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٧٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤١١-٤١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٩٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٥١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٨).

الخطابَ بهذا النهيِ إلى المؤمنين، ودلَّ على أنَّ قتْلَ الصَّيدِ مُنافٍ لكمالِ الإيمانِ(١).

الفَوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَوْلُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ...﴾ فيه فضلٌ عظيمٌ لهذه الأمَّة، وأنَّها تَفضُل سائرَ الأُمَمِ، وعلى رأسِهم الأمَّةُ اليهوديَّة، وفيه أيضًا فضيلةُ الصَّحابة رضي الله عنهم، الذين هم مُقَدَّمُ هذه الأمَّةِ، فقد امتحن اللهُ تعالى أصحابَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في عُمرةِ الحُديبيَةِ بالصيدِ وهم مُحرِمون، فهيَّأ لهم جميعَ أنواعِ الصيدِ من الوُحوش والطَّير، مِن كِبارِها وصِغارها، ولم يَعتَدِ رجلٌ منهم، ولم يَصِدْ في الإحرام، كما بيَّنه الله تعالى بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ...﴾ فخافوا اللهَ عزَّ وجلَّ وعظَّموا محارمَه، فلم ينتهكوها أو يتحيَّلوا عليها، أمَّا بنو إسرائيلَ فقد ابتلاهم اللهُ بصيدٍ، وهو صيدُ السَّمكِ، كما قال تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ [الأعراف: ١٦٣] فحَدَاهم الطَّمَعُ في أكْلِ الحُوتِ إلى أنِ اعْتَدَوْا في السَّبتِ، فكانوا يجعلون شِباكًا في يومِ الجُمعة، ثم يأخذون السَّمكَ أو الحيتانَ يومَ الأحَدِ، فمَسَخَهم اللهُ قِرَدةً(٢).

٢- قَوْلُه: ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ﴾ ابتلاءُ تكليفٍ ونهْيٍ، كما دلَّ عليه تعلُّقُه بأمْرٍ ممَّا يُفعَل؛ فهو ليس كالابتلاءِ في قوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ...﴾ [البقرة: ١٥٥]، وإنَّما أخبرَهم بهذا على وجْهِ التَّحذير؛ فالابتلاءُ مُستقبَلٌ؛ لأنَّه لا يَتحقَّقُ معنى الابتلاءِ إلَّا مِن بعدِ النهي والتَّحذيرِ، ووجودُ نونِ التوكيدِ يُعيِّن المضارعَ للاستقبالِ؛ فالمستقبل هو الابتلاءُ، وأمَّا الصَّيدُ ونوالُ الأيدي والرِّماحِ فهو حاضِرٌ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٩٠-٣٩١).

(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٩). ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٨- ٣٩).

٣- جاءتْ (مِن) في قولِه: ﴿مِنَ الصَّيْدِ﴾ للتبعيضِ؛ وذلك مِن وجهينِ: الأوَّل: أنَّ المرادَ صيدُ البَرِّ دون البَحر، والثاني: صيدُ الإحرامِ دون صيدِ الإحلالِ(١).

٤- خصَّ اللهُ الأيديَ بالذِّكرِ في قولِه تعالى: ﴿تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾؛ لأنَّها أعظمُ تصرُّفًا في الاصطيادِ، وفيها تدخُلُ الجوارحُ والحِبالاتُ وما عُمِل باليدِ مِن فِخاخٍ وشِباكٍ، وخصَّ الرِّماح بالذِّكْرِ، فقال: ﴿وَرِمَاحُكُمْ﴾؛ لأنَّها أعظمُ ما يُجرحُ به الصَّيدُ، وفيها يدخلُ السَّهمُ ونحوه(٢). وقيل: عَبَّر بالأيدي والرِّماح؛ ليشملَ الصَّيدَ القريبَ والبعيدَ؛ فبَعضٌ من الصَّيدِ يُتناوَلُ بالأيدي لقُرب غِشيانِه حتَّى تَتمكَّن منه اليدُ، وبعضٌ منه يُنال بالرِّماح لبُعده وتَفرُّقه؛ فلا يُوصَل إليه إلَّا بالرُّمح(٣). وقيل: عَبَّر بقوله: ﴿تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِماحُكُمْ﴾؛ للدَّلالةِ على غَايةِ قُرْبِ الصَّيدِ، حتى لو شَاؤوا لتناوَلوه بأَيديهم؛ فنَهاهم اللهُ أنْ يَقْرَبوه، وهذا لتَحقيقِ وقوعِ الابتلاءِ بالصَّيْدِ؛ إذ ابتلاهَم بما يَغشاهُم في رِحالهم، ويَتمكَّنون مِن أَخْذِه بالأيدي والرِّماح سرًّا وجهرًا؛ لتظهرَ طاعةُ مَن يُطيع منهم في سِرِّه وجَهْرِه(٤).

٥- يُؤخَذُ من لفظ ﴿الصَّيْدِ﴾ أنَّه لا بدَّ أن يكون وحشيًّا؛ لأنَّ الإنسيَّ ليس بصَيْدٍ، وأن يكون مأكولًا؛ فإنَّ غيرَ المأكولِ لا يُصادُ، ولا يُطلَق عليه اسمُ الصَّيد(٥).

٦- في سِياق قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إشكالٌ، وهو أنَّه قد نرَى في ظاهرِ الآية أنَّها تدلُّ على تجدُّدِ العِلم

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٢٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٢٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٦٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٦٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٩٠)، ((تفسير الألوسي)) (٢/ ٤٣٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٥).

للهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه قال: ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ﴾، ثم قال: ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾، وهو جلَّ وعلا عالمٌ بذلك قبلَ أنْ يخلُقَ هذا، وقد قدَّر مقاديرَ الخلائقِ قبلَ خلْق السَّمواتِ والأرضِ بخَمسينَ ألفَ سَنةٍ، والجوابُ عن هذا الإشكال: أنَّ عِلمَ الله تعالى بالشيءِ قبلَ وقوعِه علمٌ بأنَّه سيقَعُ، وعِلمه بعدَ وقوعه عِلمٌ بأنَّه واقعٌ، وفرْقٌ بين كونِ الشيءِ معلومًا قبلَ أن يقعَ، ومعلومًا بعدَ أن يقَعَ؛ فالعلمُ الأوَّلُ لا يترتَّبُ عليه جزاءٌ بالنِّسبةِ للعبدِ، والعِلم الثاني: يترتَّبُ عليه جزاءٌ[١]، فمعنى ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ﴾ أنْ يعلمَ عِلمًا ظاهرًا للخَلْقِ يترتَّب عليه الثوابُ والعقابُ[٢].

٧- مِن مِنَنِ اللهِ تعالى على عبادِه: أنْ أخبرَهم ببعضِ ما سيَبْتَليهم به؛ ليُطيعوه ويُقدِموا على بصيرةٍ، ويَهلِكَ من هلَك عن بيِّنةٍ، ويحيا من حيَّ عن بيِّنةٍ، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾[٣].

٨- أفاد قولُه: ﴿تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ أنهم يتمكَّنون من صيدِه؛ ليتمَّ بذلك الابتلاءُ، وإلَّا فلو كان غيرَ مقدورٍ عليه بيدٍ ولا رُمحٍ، لم يبقَ للابتلاءِ فائدةٌ[٤].

٩- قَوْلُه تعالى: ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ ثناءٌ على الذين يَخافون اللهَ؛ فقدْ أثنى عليهم بصِدق الإيمانِ وتنَوُّرِ البصيرة؛ فإنَّهم خافوه ولم يَرَوْا عظمتَه وجلالَه، ونعيمَه وثوابَه، ولكنَّهم أيقَنوا بذلك عن صِدْقِ استدلالٍ[٥].

١٠- يُستفادُ من مجموعِ الآيتين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ...﴾ و﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ النهيُ عن

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٨١).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٠).

الاصطيادِ، والنهيُ عن قتْلِ الصيدِ، والظَّاهِرُ عمومُ الصَّيدِ، وقد خُصَّ هذا العمومُ بصيدِ البَرِّ؛ لِقَوْلِه: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾[1].

١١- حرَّم اللهُ تعالى الصيدَ في حالينِ: حال كَوْن الصائِد مُحرِمًا، وحال كون الصيدِ مِن صيدِ الحرَم ولو كان الصائدُ حلالًا، والحكمةُ في ذلك أنَّ الله تعالى عظَّمَ شأنَ الكعبةِ من عَهدِ إبراهيمَ عليه السَّلام، وأمَرَه بأنْ يتَّخذَ لها حرَمًا كما كان الملوكُ يتَّخذونَ الحِمَى، فكان بيتُ اللهِ وحِماه- وهو حَرَمُ البَيْتِ- مُحتَرَمًا بأقْصى ما يُعدُّ حُرمةً وتعظيمًا؛ فلذلك شرَع اللهُ حَرَمًا للبيتِ واسعًا، وجعَل الله البيتَ أمْنًا للنَّاس، ووسَّع ذلك الأمنَ حتى شَمِلَ الحيوانَ العائِشَ في حَرمِه، بحيث لا يرَى الناسُ للبيتِ إلَّا أمنًا للعائذِ به وبحَرَمِه[2].

١٢- يُستفادُ من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ التصريحُ بالنَّهي عن قتْلِ الصيدِ في حالِ الإحرامِ، والنَّهيُ عن قتْله يشملُ النهيَ عن مُقدِّمات القتْلِ، وعن المشاركةِ في القَتْلِ، والدَّلالةِ عليه، والإعانةِ على قتْله؛ حتى إنَّ مِن تمام ذلك أنَّه يُنهَى الْمُحْرِمَ عن أكْلِ ما قُتِل أو صِيدَ لأجْلِه؛ وهذا كلُّه تعظيمٌ لهذا النُّسُكِ العظيم[3].

١٣- ممَّا يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ تعظيمُ الإحرامِ وتعظيمُ الحَرَم؛ أما تعظيمُ الإحرامِ: فإنَّ منْعَ الْمُحْرِم من الصَّيد يعني احترامَ النُّسُك وعدَمَ اللَّهو وعدَم التَّرَف؛ لأنَّه لو أُبيح للمُحْرِم أن يَصطادَ لتلهَّى عن النُّسُك؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧]، كلُّ هذا لأجْلِ أنْ يَتفرَّغَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٦٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٤).

الإنسانُ قلبًا وقالَبًا لِما هو مُتلبِّسٌ به من النُّسُك. وأمَّا حَرَمُ مكَّة فظاهرٌ أيضًا أنَّ في الآيةِ دليلًا على تعظيمِه وحُرمتِه؛ لأنَّ الحرمَ آمنٌ كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾ [التين: ٣]، هذا البلدُ آمِنٌ فيه الآدميُّون والحيوانُ والأشجارُ؛ ولذلك يَحرُمُ صيدُه، ويحرُمُ قَطْعُ شجرِه إلَّا الميِّت، ويَحرُم القتالُ فيه، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾[1] [البقرة: ١٩١].

١٤- حرَّمَ الله تعالى الصَّيدَ على الْمُحْرِم بقولِه: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١]، وقوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [المائدة: ٢]، وبقولِه هنا: ﴿لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ وكرَّر ذلك تغليظًا لحُكمِه[2].

١٥- أنَّ ما صادَه المحرِمُ مَيتةٌ؛ لا يحلُّ أكْلُه لا له ولا لغَيْره، سواءٌ قتَلَه بالسَّهم، أو أمْسَكه وذبَحه؛ فإنَّه مَيْتة؛ لِقَوْلِه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ وجه الدَّلالةِ: أنَّ الله عبَّر عن صَيدِه بقَتْله، ومعلومٌ أنَّ القَتْل ليس ذَكاةً؛ فيدلُّ هذا على أنَّ ما قَتلَه المُحْرِمُ من الصيودِ فهو مَيتةٌ[3].

١٦- تقييدُ القتْلِ بالعَمدِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾. خَرَجَ به المخطِئُ، فمَن لم يتعمَّدْ فقتَل خطأً، بأنْ كان ناسيًا لإحرامِه، أو رَماه ظانًّا أنَّه ليس بصيدٍ، فإذا هو صيدٌ، أو عدَل سهمُه الذي رماه لغيرِ صيدٍ فأصابَ صيدًا، فلا جزاءَ عليه ولا إثمَ[4]، فالجزاءُ إنَّما يلزم المتعمِّدَ، والقاعدةُ: أنَّه لا مؤاخذةَ مع الجهلِ والنِّسيانِ، وكذلك الإكراهُ، وهي قاعدةٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٩٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٧٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٩٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٩٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٤).

عظيمةٌ في الشَّريعة الإسلاميَّة، ولا يجوزُ أن نُخْرِجَ منها أيَّ شيءٍ إلَّا بدليلٍ[١].

١٧- قال سبحانه وتعالى: ﴿فَجَزَاءٌ﴾ سمَّى اللهُ الكفَّارةَ هنا جزاءً؛ لأنَّ فيها تأديبًا وعقوبةً، وقد دلَّنا على أنَّ مَقصِدَ التَّشريع في ذلك هو العقوبةُ؛ قولُه عقِبَه: ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾[٢].

١٨- يُؤخذُ من قولِه تعالى: ﴿فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ أنَّه لو اجتَمَع مُحرِمونَ في صَيدٍ لم يجبْ عليهم إلَّا جزاءٌ واحِدٌ[٣].

١٩- ﴿أَوْ﴾ في قوله: ﴿أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ﴾ وقولِه: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ﴾ تَقتضي تخييرَ قاتِلِ الصيدِ في أحدِ الثلاثةِ المذكورةِ، وكذلك كلُّ أمرٍ وقَعَ بـ(أو) في القرآنِ، فهو من الواجِبِ المخيَّر، والقولُ بالتَّخييرِ هو قولُ الجمهورِ[٤].

٢٠- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه تعالى: ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ أنَّ العَدْلينِ ذَكَرانِ، فلا يَحكُم فيه امرأتانِ، وإن اتَّصَفَتا بالعدالةِ[٥].

٢١- وصف ﴿ذَوَا عَدْلٍ﴾ بقولِه: ﴿مِنْكُمْ﴾ أي: من المسلمينَ؛ للتحذير من متابعةِ ما كان لأهلِ الجاهليَّةِ مِن عَمَلٍ في صيدِ الحَرَمِ؛ فلعلَّهم يدَّعُونَ معرفةً خاصَّةً بالجزاءِ[٦].

٢٢- استُدِلَّ بقوله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ على إثباتِ القياسِ؛ لأنَّه تعالى فرَضَ تعيينَ المِثل إلى اجتهادِ النَّاسِ[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٩٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٦٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٦٦).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٨).
(٧) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٦٦).

٢٣- أنَّ جزاءَ الصَّيد لا بدَّ أن يصِلَ إلى الحَرَم، ويُذبَحَ هناك؛ لِقَوْلِه: ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾، فلو قُدِّرَ أنَّ إنسانًا أَحْرَمَ مِن ذي الحُلَيفَةِ وقتَل صيدًا في بَدْرٍ، فإنَّه يجبُ عليه أن يَجزي هذا الصيدَ في مكَّةَ ولا بدَّ[1].

٢٤- ممَّا يُستفادُ من التَّصريحِ بالكعبة في قوله: ﴿بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ الزِّيادةُ في التعظيمِ، والإعلامُ بأنَّها هي المقصودَةُ بالذاتِ بالزِّيارة والعمارةِ[2].

٢٥- أنَّ هؤلاءِ المساكينَ لا يُحْصَرونَ بعددٍ معيَّنٍ، بل له أن يُطْعِمَ ثلاثةً أو عشَرةً أو عشرينَ أو ثلاثينَ؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى أطلَقَ، فقال: ﴿أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ﴾ وأقلُّهم ثلاثةٌ[3].

٢٦- اسْتُدِلَّ بقَوْلِه تعالى: ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ على جوازِ التعزيرِ بالمالِ؛ لأنَّ هذا القاتِلَ أُلزِمَ بهذه الفِدْيةِ؛ ليذوقَ وبالَ أمْرِه، فهو نوعٌ من التَّعزيرِ[4].

٢٧- قَوْلُه: ﴿فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ فيه رحمةُ الله عزَّ وجلَّ بهذه الأمَّة؛ حيث خيَّرها بين قوله: ﴿فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ وبين ما بَعدَه، فقال: ﴿أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ و(أو) للتَّخييرِ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٠٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٣٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٠٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٠٦). ومسألةُ التعزيرِ بالمال فيها خلافٌ بين أهلِ العلم. يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (١٢/ ٢٧٠).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٣٠٣).

٢٨- إنَّما سمَّى الله تعالى ما أوْجَبه على مَن قتَل صيدَ البَرِّ وهو مُحْرِمٌ وَبالًا في قولِه: ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾؛ لأنَّه خيَّره بينَ ثلاثةِ أشياءَ؛ اثنانِ منها يوجِبَان تنقيصَ المالِ، وهو ثقيلٌ على الطَّبْعِ، وهما الجزاءُ بالمِثل والإطعامُ، والثَّالثُ يُوجِبُ إيلامَ البَدَنِ، وهو الصَّومُ، وذلك أيضًا يَثقُل على الطَّبعِ؛ وذلك حتى يُحترزَ عن قتْلِ الصَّيدِ في الحرمِ، وفي حالِ الإحرامِ(١).

٢٩- لا يُوصَفُ الله تعالى بالانتقامِ وصفًا مُطلقًا، ولا يُسمَّى بالمنتقِم، وقولُه: ﴿ذُو انْتِقَامٍ﴾ لا يدلُّ على أنَّه وصفٌ مُطلَقٌ لله؛ لأنَّ الله تعالى قيَّدَ الانتقامَ بالمجرمين، فقال تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢]، فنُقيِّد ما قيَّده اللهُ عزَّ وجلَّ(٢) وأيضًا فقوله: ﴿ذُو انْتِقَامٍ﴾ وصف لـ﴿عزيزٌ﴾ وهو الذي لا يحتاج إلى ناصرٍ، فوُصِف بذلك؛ لأنَّ من صِفاته الحِكمةَ، وهي تَقتضي الانتقامَ من المُفْسِد؛ لتكونَ نتائجُ الأعمالِ على وَفْقِها(٣).

٣٠- أنَّ جميعَ حيوانِ البحرِ حلالٌ؛ لِقَوْلِه: ﴿صَيْدُ الْبَحْرِ﴾ والإضافةُ تقتضي العمومَ، فيشملُ كلَّ ما في البحرِ مِن سَمَكٍ وحيتانٍ، صغيرٍ وكبيرٍ مشابهٍ للإنسانِ، أو مشابهٍ للذِّئابِ، أو مشابهٍ للخنزيرِ، أو غير ذلك(٤).

٣١- استدلَّ جمهورُ العلماءِ على حِلِّ مَيتةِ البحرِ بقولِه تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ﴾ وطعامُه يشملُ ما مات فيه(٥).

٣٢- حِلُّ صيدِ البحرِ للمُحِلِّين والمحرِمينَ؛ لِقَوْلِه: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٥٢٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤١٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٥١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (٢/ ٤١٢، ٤١٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٩٨).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤١٢).

٣٣- أنَّه لو وُجِد ماءٌ فيه سمكٌ داخلَ حدودِ الحرَمِ فإنَّ الظاهِرَ أنَّه يكونُ حلالًا؛ لعمومِ قوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ﴾، ثم قال: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾(١).

٣٤- من حِكمةِ الله عزَّ وجلَّ في حِلِّ صيدِ البحرِ دون صيدِ البَرِّ؛ لأنَّ الأوَّل تناوُلُه سَهْلٌ، ولا يلهو به الإنسانُ، كما يلهو به في صيدِ البَرِّ، بخلافِ صيدِ البرِّ الذي يتلهَّى الإنسانُ به وينسابُ وراءَه، ثم إنَّ صيدَ البحرِ صيدٌ خفيٌّ في باطنِ المياه؛ فلا يكونُ كالصَّيْدِ الظَّاهِرِ على سطحِ الأَرْضِ(٢).

٣٥- الإشارةُ إلى جوازِ ادِّخارِ لحمِ البَحْرِ؛ لِقَوْلِه: ﴿وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ يعني: السَّائرينَ في السَّفر، ومِثل ذلك لحمُ صيد البرِّ في غيرِ الإحرامِ، لكن يُشترَطُ في ذلك ألَّا يصلَ إلى حدِّ الضَّررِ، فإنْ وصَلَ إلى حدِّ الضَّرَر بأنْ أنتنَ، وقَبُحتْ رائحتُه، وخِيفَ على الإنسانِ منه، صار إمَّا مَكروهًا وإمَّا حرامًا؛ لقولِ الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، وقوله: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾(٣) [البقرة: ١٩٥].

٣٦- لَمَّا كان الاصطيادُ بحَشْرِ المصيدِ إلى حيثُ يَعجِز عن الخلاصِ منه، وكانتْ حالةُ الإحرامِ أشبهَ شيءٍ بحالةِ الحَشرِ في التجرُّدِ عن المخيطِ، والإعراضِ عن الدنيا وتمتُّعاتِها، ختَم الآيةَ بقولِه عطفًا على ما تقديرُه: فلا تأكلوا شيئًا منه في حالِ إحرامكم، ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾، أي: الذي له الأمرُ كلُّه في ذلك وفي غيرِه من الاصطياد وغيرِه؛ ﴿الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾؛ ليكونَ العَرْضُ عليه نُصْبَ أَعْيُنِكم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤١٤).

فتكونوا مواظِبينَ على طاعتِه مُحترِزينَ عن مَعصيتِه[١].

بَلاغةُ الآيات:

١- قَوْلُه: ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ﴾ فيه: التأكيدُ باللَّامِ، ونونِ التَّوكيدِ، في قوله: ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ﴾ التي تُعيِّن المضارعَ للاستقبالِ[٢].

- وقوله: ﴿بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ﴾ تَنكيرُ ﴿بِشَيْءٍ﴾؛ للتَّقليلِ والتَّصْغيرِ[٣]، وعَبَّر بـ﴿مِن﴾ التي للتَّبعيض، أي: بشَيءٍ غيرِ كثيرٍ. وقيل: تَنكيرُ ﴿بِشَيْءٍ﴾ هنا للتنويعِ لا للتَّحقيرِ[٤].

٢- قَوْلُه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ؛

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٣٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٩).

(٣) وقد اختُلِفَ في توجيهِ هذِه الصِّيغةِ التي تُشعِرُ بالتَّقليل والتَّصغيرِ هنا؛ فقِيل: المرادُ بما يُشعِرُ به اللفظُ من التَّقليل والتَّصغيرِ هو أنْ يُعلمَ أنَّ هذا المذكورَ ليسَ بفِتنةٍ مِن الفِتَنِ العِظامِ التي يكونُ التكليفُ فيها صَعبًا شاقًّا، كالابتلاءِ ببَذْلِ الأرواحِ والأموالِ في الجِهادِ، وإنَّما هو ابتلاءٌ سَهلٌ؛ فتكونُ مِحنةً يَسيرةً؛ تَخفيفًا من اللهِ تعالى ولُطفًا. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٧٦)، ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٢٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٤).
وقيل: المرادُ هو التَّنبيهُ على أنَّ جميعَ ما يقَعُ الابتلاءُ به مِن هذه البلايا بَعضٌ مِن كلٍّ بالنِّسبةِ إلى مَقدورِ اللهِ تعالى؛ فإنَّ جميعَ المحنِ والأرزاءِ والبلاءِ والفِتَنِ ليستْ بالنسبةِ إلى مَقدورِ الله تعالى سِوى جزءٍ يَسيرٍ، خَليقٌ به أن يُحقَّر ويُصغَّر، وهذِه الصِّيغةُ- التي تُشعِرُ بالتَّقليلِ والتَّصغيرِ- بعَينِها قدْ وردتْ في الفِتَنِ العَظيمةِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾، ولا خَفاءَ في عِظَمِ هذه البلايا والمِحنِ التي يَستحِقُّ الصَّابرُ عليها أنْ يُبشَّر؛ لأنَّه صَبَرَ على عَظيمٍ؛ وإنَّما خاطَب سُبحانَه المؤمنينَ بهذه الصِّيغةِ تَخفيفًا لهم، وبَعثًا لهم على الصَّبرِ، وحفزًا لهم على الاحتِمالِ؛ تَلطُّفًا بهم، وتَرفُّقًا بما يُكابدونه منه؛ لأنَّ سَبْقَ التوعُّدِ بذلك لم يكُن إلَّا ليكونوا مُتوطِّنين على ذلك عندَ وقوعِه، فيكون أيضًا باعثًا على تَحمُّلِه؛ لأنَّ مُفاجأةَ المكروهِ بَغتةً أصعبُ، والإنذارَ به قبل وقوعِه ممَّا يُسهِّلُ موقعَه. يُنظر: ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المنير)) (١/ ٦٧٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ١٧-١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٩).

لبيانِ الإجمالِ الواقِعِ في قولِه تعالى: ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ...﴾[١].

٣- قولُه: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ﴾ فيه: إيجازٌ بديع؛ لأنَّ شأنَ جواب الشَّرطِ إذا كان فِعلًا ألَّا تدخلَ عليه الفاءُ الرابطة؛ لاستغنائِه عن الرَّبط بمجرَّدِ الاتِّصالِ الفِعلي، ودخولُ الفاءِ على الفعلِ يقعُ في كلامِهم على خلافِ الغالِبِ؛ لقصدِ الدَّلالةِ على الاختصاصِ، أو التَّقوِّي، والتقدير: (فَهو ينتقمُ الله منه)؛ لقصدِ الاختصاصِ للمبالغةِ في شِدَّةِ ما يناله، حتى كأنه لا يَنالُ غيرَه، أو لقصدِ التقوِّي، أي: تأكيدِ حصولِ هذا الانتقامِ[٢].

٤- قَوْلُه: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ تذييلٌ، وفي هذه الجملة تَذكارٌ بنِقَمِ الله وتخويفٌ[٣].

- ولَمَّا كان قاتِلُ صيدِ البَرِّ مُنتهكًا لحُرمةِ الإحرامِ والحَرَم، وكان التَّقديرُ: فاللهُ قادرٌ عليه، عَطَفَ على ذلك ما اقتَضاه المقامُ مِن الإتيانِ بالاسمِ العَظيم (اللَّه) ووصْفِ العزَّةِ، فقال: ﴿وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾[٤].

٥- قَوْلُه: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ...﴾ استئنافٌ بيانيٌّ نشأَ عن قولِه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾؛ فإنَّه اقتَضى تحريمَ قتْلِ الصَّيدِ على المحْرِم، وجَعَلَ جزاءَ فِعْلِه هدْيَ مِثلِ ما قتَل مِن النَّعَم، فكان السامعُ بحيث يسألُ عن صيدِ البَحرِ؛ فبيَّن اللهُ للناس حُكمَ صيدِ البحرِ وأبقاه على الإباحةِ[٥].

٦- قَوْلُه: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ فيه: زيادةُ تأكيدٍ لتحريمِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٢)، ويُنظر أيضًا: ((البرهان)) للزركشي (٢/ ١٩٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٥٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٥١).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٣٠٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٥١).

الصَّيدِ؛ تصريحًا بمفهومِ قولِه: ﴿لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾، ولبيانِ أنَّ مُدَّةَ التحريمِ مُدَّةُ كونِهم حُرُمًا[١].

٧- قَوْلُه: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فيه: تنبيهٌ وتهديدٌ جاءَ عقيبَ تحليلٍ وتحريمٍ، وناسَب ذِكرُ الحشْرِ؛ إذ فيه يَظهَرُ مَن أطاع وعصَى[٢]؛ ففي إجراءِ الوَصفِ بالموصولِ ﴿الَّذِي﴾ وتِلك الصِّلة ﴿إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ تذكيرٌ بأنَّ المرجِعَ إلى الله؛ ليُعِدَّ الناسُ ما استطاعوا من الطاعةِ لذلك اللِّقاء[٣].

- وقوله: ﴿الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ قدَّم الجارَّ والمجرورِ في قوله: ﴿إِلَيْهِ﴾ على عاملِه، وهو قولُه: ﴿تُحْشَرُونَ﴾؛ لفائدتين: فائدة معنويَّة، وفائدة لفظيَّة؛ فالفائدةُ المعنويَّة: الحصرُ، وهذه قاعدةٌ معروفة عند البلاغيِّين والأصوليِّين: أنَّه إذا قُدِّمَ ما حقُّه التأخيرُ، فإنَّه يُفيد الحصرَ. والفائدةُ اللفظيَّة: مناسبةُ رُؤوسِ الآياتِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٥٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٧١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٥٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤١٧).

الآيات (٩٧ - ١٠٠)

﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿قِيَامًا﴾: أي: قِوامًا لهم، يقومُ به معاشُهم ومعادُهم، ودِينهم ودُنياهم وأمْنُهم، وأصلُ (قوم): مراعاةُ الشيءِ والحفظُ له، والانتصابُ والعزمُ[1].

﴿وَالْقَلَائِدَ﴾: أي: ما قُلِّد من الهَدْيِ، وكانوا يُقلِّدون البعيرَ مِن لِحاءِ شَجرِ الحرَمِ، فيأمَن بذلك حيثُ سلك، والقَلْد الفَتْل، وأصل (قلد): يدلُّ على تعليقِ شيءٍ على شيءٍ ولَيِّه به، وعلى حَظٍّ ونَصِيبٍ[2].

﴿أُولِي الْأَلْبَابِ﴾: أي: أصحاب العُقولِ السَّليمة، ومفرد ألباب: لُبٌّ، وأصل اللُّبِّ: الخُلوصُ والجودةُ، والشَّيءُ المنتقى[3].

مُشكِلُ الإعراب:

قوله: ﴿ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا﴾.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٢).

﴿ذَلِكَ﴾: اسمُ إشارةٍ مبنيٌّ في محلِّ رفْعٍ، على أنه خبرٌ لمبتدأٍ محذوف، والتقدير: الأمرُ ذلك، أو الحُكمُ الذي حَكمْناه ذلِك لا غيرُه، أو يكون مبتدأً وخبرُه محذوفٌ، والتقدير: ذلك الحُكمُ هو الحقُّ لا غيرُه. ويجوز أنْ يكون في محلِّ نصْب على أنَّه مفعولٌ به لفِعل مُقدَّر يدلُّ عليه السِّياقُ، وبه تتعَلَّقُ اللَّامُ في ﴿لِتَعْلَمُوا﴾، والتقدير: شَرَعْنا ذلِك لتعلموا. وقيل: ﴿ذَلِكَ﴾: إشارةٌ إلى الجَعْلِ المأخوذِ مِن قَوْلِه: ﴿جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ﴾ ولامُ التَّعليل في ﴿لِتَعْلَمُوا﴾ متعَلِّقَةٌ بـ ﴿جَعَلَ﴾، وتوسُّطُ اسمِ الإشارةِ بينهما هنا شَبيهٌ بتوسُّطِ ضَميرِ الفَصْلِ؛ فلذلك كان الكلامُ شَبيهًا بالمستأنَفِ، وليس هو بمُستأنَفٍ، فلم يكُن في هذا الكَلامِ شيءٌ جَديدٌ غيرُ التَّعليلِ، والمعنى: جَعَلَ اللهُ الكعبةَ قيامًا للنَّاسِ؛ لتَعْلَموا أنَّ اللهَ يَعْلَمُ... إلخ[1].

المَعنى الإجْماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه جعَل الكعبةَ البيتَ الحرامَ قِوامًا للنَّاس، تقومُ به مَصالحُهم الدِّينيَّة والدُّنيويَّة، وكذلك الشهرُ الحرامُ، والهَديُ الذي يُساقُ إلى الحرمِ من بهيمةِ الأنعامِ؛ وخصوصًا ما يُقلَّد منه، كلُّ ذلك جعَلَه الله ممَّا تقومُ به مصالحُ النَّاسِ؛ ذلك من أجْلِ أنْ يَعلمَ النَّاسُ أنَّه تعالى يَعلمُ ما في السَّموات والأرض، ومِن ذلك عِلمُه بما يَصلُح لعبادِه في دِينهم ودُنياهم، وأنَّ الله بكلِّ شيءٍ عليمٌ.

ثم خوَّف الله تعالى مِن عقابِه، ورغَّب في ثوابِه، فأمَرَ النَّاسَ أنْ يَعلموا أنَّه عزَّ وجلَّ شديدٌ عِقابُه إذا أنْزلَه بمَن عصاه، وأنَّه غفورٌ يَستُرُ ذنوبَ مَن تاب إليه، ويَتجاوز عن المؤاخذةِ عليها، رحيمٌ سبحانه بعبادِه.

ثمَّ أخْبَر تعالى أنَّه ما على رسولِه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلَّا أداءُ الرِّسالة التي أُرْسِلَ بها، وأنَّه ما قصَّر في أدائِها، وأنَّ الله تعالى يَعلمُ ما يُعلِنُ الخَلقُ وما

---

(١) يُنظَر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٣٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٦٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٤٣٣) ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٥٩).

يُسرُّونه، وسيُجازيهم على أعمالِهم.

ثم أمَر الله نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يقولَ للنَّاس: إنَّه لا يَستوي الخبيثُ والطيِّب، ولو أُعْجبَ المرءُ بكثرةِ الخبيث، فاتَّقوا اللهَ يا أصحابَ العقولِ السَّليمة؛ لعلَّكم تَظْفَرون بما تَطلبونَه وتَرجُونه، وتنجونَ ممَّا تَحذرونه في دُنياكم وآخِرتِكم.

تَفسيرُ الآيات:

﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٩٧)﴾.

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا حرَّم اللهُ تعالى في الآيةِ المتقدِّمةِ الاصطيادَ على الـمُحرِم، وبيَّن أنَّ الحرمَ كما أنَّه سببٌ لأَمْنِ الوحشِ والطير، فكذلك هو سببٌ لأمْنِ النَّاسِ عن الآفاتِ والمخافاتِ، وسببٌ لحصولِ الخيراتِ والسَّعادات في الدُّنيا والآخِرة(١)، فقال سبحانه:

﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ﴾.

أي: صيَّر اللهُ تعالى حرَمَه قِوامًا للنَّاس، تقومُ به مصالحُ دِينهم، من صلاةٍ وحجٍّ وعمرةٍ، وغير ذلك، وتقومُ به أيضًا مصالحُ دُنياهم؛ بما يُجبَى إليها من ثمراتِ كلِّ شيءٍ رزقًا من عند اللهِ تبارَك وتعالى، وبما يَحصُل فيه مِن الأمْنِ، وبما يَحصُل فيه مِن اجتماعٍ للمسلمينَ، فيتعارَفون، ويتعاونون، ويتشاورونَ في مصالحِهم الدِّينيَّة والدُّنيويَّة(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥-٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤١٧).

﴿وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى ما به القوامُ من المكان، أتْبعَه ذلِك مِن الزمانِ[1]، فقال:

﴿وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾.

أي: وصَيَّرَ اللهُ تعالى الأشهُرَ الحُرمَ قِوامًا للناسِ، تقومُ فيها مصالحُهم بما جَعَل الله تعالى فيها من الأمْنِ بتحريمِ القِتال والظُّلمِ فيها[2].

﴿وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ﴾.

أي: صيَّرَ اللهُ تعالى الهدْيَ الذي يُهدَى إلى الحرمِ مِن إبلٍ أو بقرٍ أو غنمٍ تقرُّبًا إلى اللهِ تعالى، والقلائدَ- وهي الهَدْيُ الذي تُجعَلُ له قلائدُ في عُنقه؛ إظهارًا لشعائرِ الله تعالى، ولغيرِ ذلِك من أسباب[3] - صيَّرها الله سبحانه قِوامًا للنَّاس في دِينِهم بالثوابِ الذي يَنالونه مِن الله تعالى، وفي دُنياهم بالبيعِ والشِّراءِ والأكْل والانتفاعِ بالجلودِ، وغير ذلك[4].

﴿ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

أي: إنَّ تصييرَه سبحانه الكعبةَ البيتَ الحرامَ والشَّهرَ الحرامَ والهديَ والقلائدَ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٧، ٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤١٧-٤١٨، ٤٢١-٤٢٢).

قال ابن عطية: (والشَّهْر هنا اسمُ جنسٍ، والمرادُ الأشهرُ الثلاثةُ بإجماعٍ مِن العربِ، وشهرُ مُضَر وهو رجبٌ) ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (١/ ٥٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤١٨).

قيامًا لكم- أيُّها الناس- كي تَعلموا أنَّ الله سبحانه يَعلمُ جميعَ ما في السَّموات وجميعَ ما في الأرض، ومِن ذلك عِلمُه بما يَصلُحُ لكم مِن مصالحَ دِينيَّةٍ ودُنيويَّة(١).

﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

أي: ولِتَعلموا أيضًا أنَّه لا يَخفى عليه شيءٌ، ومِن ذلك أعمالُكم، فيُجازيكم بها(٢).

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩٨)﴾.

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى أنواعَ رَحمتِه بعِبادِه، ذكَر بعدَه أنَّه شديدُ العِقاب؛ لأنَّ الإيمانَ لا يتمُّ إلَّا بالرَّجاء والخوف، ثم ذكَر عَقيبَه ما يدلُّ على الرحمةِ، وهو كونُه غفورًا رحيمًا، وذلك يدلُّ على أنَّ جانبَ الرَّحمة أغلبُ؛ لأنَّه تعالى ذَكَر فيما قَبلُ أنواعَ رحمتِه وكرمِه، ثم ذكَرَ أنَّه شديدُ العقابِ، ثم ذكَرَ عقيبه وصْفَينِ من أوصافِ الرَّحمةِ، وهو كونه غفورًا رحيمًا(٣)، قال تعالى:

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

أي: اعْلموا- أيُّها الناس- أنَّ ربَّكم شديدُ الأخْذِ بالذنبِ إذا عاقَب مَن عصاه(٤).

﴿وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٢٦).

أي: واعْلَموا أيضًا أنَّه يَستُر ذُنوبَ مَن تاب إليه مِن عِبادِه، ويتجاوزُ عن مؤاخذتِه بها، رحيمٌ سبحانه، ومِن رحمتِه بعبادِه أنَّه لا يُكلِّفهم ما يشقُّ عليهم، وأنَّه يقبلُ توبتَهم إذا تابوا إليه[1].

﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٩٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمَّا تقدَّم الترغيبُ والترهيبُ أخبَر تعالى أنَّه كلَّف رسولَه بالتبليغِ، وهو توصيلُ الأحكامِ إلى أُمَّته، وهذا فيه تشديدٌ على إيجابِ القيامِ بما أمَر به تعالى، وأنَّ الرَّسولَ قد فرَغ ممَّا وجَب عليه مِن التبليغِ، وقامتْ عليه الحجَّةُ، ولزِمتْكم الطاعةُ، فلا عذرَ لكم في التفريطِ[2].

﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾.

ليسَ على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الذي أرْسلناه إليكم- أيُّها الناسُ- سوى أداءِ رِسالتِنا إليكم، وأمَّا ما عدَا ذلك فليس له مِن الأمرِ شيءٌ[3].

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾.

أي: إنَّ أعمالَكم ليستْ مُوكَلةً إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وإنَّما الذي يُجازيكم بها هو اللهُ تعالى وحْدَه، الذي يَعلمُ جميعَ ما تُظْهِرونَه، وجميعَ ما تُخفونه[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١١-١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٢٩-٤٣٠).

﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠٠)﴾.

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا زجَر عن المعصيةِ ورغَّب في الطَّاعة بقولِه: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، ثم أتْبعَه بالتكليفِ بقولِه: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾، ثمَّ أتْبعَه بالتَّرغيبِ في الطاعةِ والتنفيرِ عن المعصيةِ بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾، أتْبعَه بنوعٍ آخَرَ من الترغيبِ في الطاعةِ والتنفيرِ عن المعصيةِ(١)، فقال ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ...﴾.

وأيضًا لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى أنَّ عقابَه شديدٌ لِمَن عصَى، وأنَّه غفورٌ رحيمٌ لِمَن أطاع؛ بيَّن أنَّه لا يستوي المطيعُ والعاصي، وإنْ كان من العُصاةِ والكفَّار كثرةٌ؛ فلا تَمنعُه كثرتُهم من عقابِهم(٢)، فقال تعالى:

﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾.

أي: قلْ- يا محمَّد- للنَّاس: لا يَستوي الخبيثُ والطيِّب من كلِّ شيءٍ؛ مِن أشخاصٍ وأعمالٍ وغيرِ ذلك، فلا يَستوي المؤمنُ والكافرُ، ولا تَستوي الطاعةُ والمعصيةُ، ولا يَستوي الحلالُ والحرام(٣).

﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾.

أي: فلا تَعجبنَّ- أيُّها الإنسانُ- مِن كثرةِ الخبيث مِن أيِّ شيءٍ كان، فلا تُعجبْك

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٣٣-٤٣٤).

كثرةُ مَن يَعصي الله؛ فإنَّ الفلاحَ لأهلِ الطاعةِ وإنْ قلُّوا، والقليلُ الحلالُ النافع خيرٌ من الكثيرِ الحرام الضارِّ[١].

قال تعالى: ﴿وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ ﴿وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١].

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

أي: يا أصحابَ العقولِ الصَّحيحةِ الرَّاشدة، اتَّقوا اللهَ سبحانه بامتثالِ ما أمَرَكم به، واجتنابِ ما نهاكم عنه؛ كي تَظفَروا بما تَأمُلون، وتَنجُوا ممَّا تَحذرون في الدُّنيا والآخِرة[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- إثباتُ الحِكمةِ في أحكامِ الله عزَّ وجلَّ؛ لِقَوْلِه: ﴿ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا﴾، واللامُ هنا للتعليلِ، ومِن أسماءِ الله تبارك وتعالى: الحكيم، وهو الذي يَضعُ الأشياءَ في مواضعِها، ويتفرَّع على هذه الفائدةِ العظيمة: أنْ نُؤمِن بأنَّ كلَّ ما شرَعه الله أو فَعَلَه الله فهو لحِكمةٍ، وحينئذٍ لا يَلْزَمُنا أن نَبحثَ عن الحِكمةِ، أو نتمحَّلَ حِكمةً بَعيدةً قد تكون غيرَ مرادةٍ لله عزَّ وجلَّ، إنْ تَبيَّنتْ لنا الحكمةُ بسُهولة، فلا شكَّ أنَّ هذا مِن نِعمةِ الله، ويَزيد الإنسانَ طُمأنينةً، وإنْ لم تَتبيَّن فإنَّنا نعلمُ أنَّها لحكمةٍ، لكنَّ عُقولَنا قاصرةٌ عن إدراك حِكمةِ الله عزَّ وجلَّ في كلِّ ما شرَع[٣].

٢- الحثُّ على معرفةِ صِفاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لِقَوْلِه: ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٢-١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٣٤-٤٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٣٥-٤٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٢٣).

فينبغي البحثُ عن صِفاتِ اللهِ تبارَك وتعالى، سواءٌ الصِّفاتُ التي ليس لها أسماءٌ، أو الصِّفات التي تَتضمَّنها الأسماءُ؛ لأنَّه كلَّما ازدادتْ المعرفةُ بأسماءِ الله وصِفاته ازداد اليقين(١).

٣- التَّحذيرُ مِن مخالفةِ اللهِ عزَّ وجلَّ وتَرْكِ مراقَبَتِه سبحانه؛ وَجْهُه: إثباتُ العِلم في قولِه: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾؛ لأنَّ كلَّ إنسانٍ يَهمُّ بمعصية، سواء كانتْ ترْكَ واجبٍ، أو فِعلَ مُحرَّمٍ إذا أَيقنَ أنَّ اللهَ عالمٌ به، فإنَّه يَخافُ ويُمسِك(٢).

٤- في قولِه تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، يأمُر الله عِبادَه أنْ يكونَ هذان العِلمانِ موجودَينِ في قُلوبهم على وجهِ الجزم واليقين، فيَعلموا أنَّه شديدُ العقابِ العاجِلِ والآجِل على مَن عصاه، وأنَّه غفورٌ رحيمٌ لِمَن تاب إليه وأطاعَه، فيُثمِرَ لهم هذا العلمُ الخوفَ من عِقابِه، والرَّجاءَ لمغفرتِه وثوابِه، فيَعملوا على ما يَقتضيه الخوفُ والرَّجاء(٣).

٥- ممَّا يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ أنَّ أهل العِلم الذين هم وَرَثةُ الأنبياء إذا بَلَّغوا بَرِئتْ ذِمَّتُهم(٤).

٦- أنَّه لا يَنبغي للإنسانِ أن يَعتبرَ أو يغترَّ بالكثرةِ، وإنَّما يَعتبر بالكيفِ لا بالكمِّ؛ لِقَوْلِه: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾(٥).

٧- تفريعُ قَوْلِه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ على ﴿قُلْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٢٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٣٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٩٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ١٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٣٦).

لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ مُؤذِنٌ بأنَّ اللهَ يُريد منَّا إعمالَ النَّظَرِ في تمييزِ الخبيثِ مِن الطيِّب، والبحثَ عن الحقائِق، وعدمَ الاغترارِ بالمظاهرِ الخلَّابة الكاذِبة؛ فإنَّ الأمرَ بالتقوى يستلزمُ الأمرَ بالنظر في تمييزِ الأفعالِ؛ حتى يُعرفَ ما هو تقوى دون غيرِه[1].

٨- خَصَّ أُولي الألبابِ بالذِّكر في آخِرِ الآية في قولِه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ بعدَ مخاطبةِ كلِّ مُكلَّفٍ في صدرِها؛ لأنَّ أهلَ البصيرةِ والرَّوِيَّةِ من العقلاءِ هم الذين يَعتبِرون بعواقبِ الأمورِ التي تدلُّ عليها أوائلُها ومُقدِّماتُها، بعد التأمُّلِ في حقيقتِها وصِفاتها، فلا يُصرُّون على الغرورِ بكثرةِ الخبيثِ بعدَ التنبيهِ والتَّذكيرِ، وأمَّا الأغرارُ والغافلون الذين لم يُمرِّنوا عقولَهم على الاستقلالِ في النَّظر، والاعتبارِ بالتجارِب، فلا يُفيدُهم وعظُ واعظٍ، ولا تذكيرُ مُذكِّر، بل لا يَعتبِرون بما يَرون بأعينِهم، ويَسمعون بآذانِهم من حوادثِ الأغنياءِ الذين ذهبَتْ أموالُهم الكثيرةُ المجموعةُ من الحرامِ، ولا مِن عواقبِ الأُممِ والدُّول التي اضمحلَّتْ كثرتُها العاطلةُ مِن فضيلتَيِ العلمِ والنِّظامِ، وكيف ورِثَ هؤلاء وأولئك مَن كانوا أقلَّ مالًا ورجالًا؛ إذ كانوا أفضلَ أخلاقًا وأعمالًا؛ ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[2] [الأعراف: ١٢٨].

٩- أنَّ الذين يُخاطَبون بالتَّقوى وبمِثل هذه الأحكامِ العظيمةِ هم أصحابُ العقولِ؛ لِقَوْلِه: ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾، والمرادُ بالعقولِ هنا: عقولُ الرُّشْد لا عقولُ الإدراك[3].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه تعالى: ﴿جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ ...﴾ تعظيمُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ١٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٣٧).

شأنِ الكعبة، حيث جعَلها قيامًا للنَّاسِ، تقوم بها أمورُ دِينهم ودُنياهم، هذه الكعبةُ التي حُرِّمت أرضُ الحَرَمِ لأجْل تعظيمِها، ويُستفادُ أيضًا التذكيرُ بنعمة الله على سُكَّانه بما جعَل لهم من الأمْنِ في عَلائِقها وشعائرِها[١].

٢- كانتِ الكعبةُ قِيامًا للناسِ وهم العربُ؛ إذ كانتْ سببَ اهتدائِهم إلى التوحيدِ واتِّباع الحَنيفيَّة، واستبْقَتْ لهم بقيَّةً من تلك الحنيفيَّة في مُدَّة جاهليَّتِهم كلِّها، لم يَعْدَموا عوائدَ نفْعِها، فلمَّا جاء الإسلامُ كان الحجُّ إليها من أفضلِ الأعمال، وبه تُكفَّرُ الذنوبُ، فكانتِ الكعبةُ من هذا قيامًا للنَّاس في أمورِ أُخراهم بمقدارِ ما يَتمسَّكون به ممَّا جُعِلَتِ الكعبةُ له قيامًا؛ قال تعالى: ﴿جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ﴾[٢].

٣- في قولِه تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ﴾ ناسَب ذِكرُ اللهِ تعالى أنَّه جعَلَ الكعبةَ البيتَ الحرامَ قِيامًا للناس ذِكْرَ الشَّهرِ الحرامِ والهَدْيِ والقلائِد؛ لأنَّ هذه الثلاثةَ إنَّما صارتْ سببًا لِقِوامِ المعيشة؛ لانتسابِها إلى البيتِ الحرام، فكانَ ذلك دليلًا على عَظمةِ هذا البيتِ وغايةِ شَرفِه[٣].

٤- في قوله تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ﴾ خصَّ اللهُ القلائدَ بالذِّكر هنا، ووجْهُ تخصيصِها- وإنْ كانتْ هي مِن أقلِّ آثارِ الحجِّ- التنبيهُ على أنَّ جميعَ علائقِ الكعبةِ فيها قيامٌ للنَّاس، حتى أدْنَى العلائِقِ، وهي القلائدُ، فكيف بما عَداها؛ ولأنَّ القلائدَ أيضًا لا يخلو عنها هديٌ مِن الهدايا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٥٤) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٢٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٥٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٤٠، ٤٤١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٥٨، ٥٩).

٥- تعظيمُ الأشهرِ الحُرم؛ لِقَوْلِه: ﴿وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ وأنَّها قيامٌ للناس، وتعظيمُها جاءَ في القرآن والسُّنة؛ قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [التوبة: ٣٦]، وكذلك جاءَ في السُّنة، كما قال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم مُقرِّرًا ذلك: ((إنَّ دِماءَكم وأموالَكم وأعراضَكم عليكم حَرامٌ كحُرْمةِ، يَومِكم هذا في، شَهرِكم هذا، في بلدِكم هذا))[١].

٦- تعظيمُ الهدْي والترغيبُ فيه؛ لِقَوْلِه: ﴿وَالْهَدْيَ﴾ يعني: أنَّ الله جعَلَه قيامًا للناس، والهَدْيُ غيرُ مرتبطٍ بالنُّسُك؛ إذ يجوزُ للإنسان أن يَبعثَ الهديَ إلى مكَّة وإنْ كان في بلدِه، كما كان النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم يَفعلُ[٢].

٧- مشروعيَّة القلائِد؛ لِقَوْلِه: ﴿وَالْقَلَائِدَ﴾ وجه ذلك: أنَّ فيها إظهارًا لشعائرِ الله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ كلَّ مَن رأى هذه النَّعَمَ المقلَّدةَ، عرَف أنَّها هديٌ، فعظَّمها واحترَمَها[٣].

٨- تكرارُ الثَّناء على اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ الله كرَّر عمومَ عِلمه بقولِه: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾، ثم أكَّد العمومَ بما هو أعمُّ بقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾؛ لأنَّ هذا يعمُّ ما في السَّموات وما في الأرض ممَّا يكون بعدَ فَناءِ السَّماء والأرض[٤].

٩- قال تعالى هنا: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، وقال في موضعٍ آخَر: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٢١).
والحديث أخرجه البخاري (٧٠٧٨) ومسلم (١٦٧٩) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٢٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٢٤).

﴿الْأَلِيمُ﴾ [الحِجْر: ٤٩ - ٥٠]؛ فجَعَل الرحمةَ صِفةً له مذكورةً في أسمائِه الحُسنى، وأمَّا العذابُ والعقابُ، فجَعَلَهما من مَفعولاتِه غيرَ مَذكورَينِ في أسمائِه(١).

١٠- لَمَّا ذَكَر تعالى أنواعَ رحمتِه لعبادِه، ذكَر بعدَه شِدَّة العقابِ فقال: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؛ لأنَّ الإيمانَ لا يتمُّ إلَّا بالرَّجاءِ والخوفِ(٢).

١١- أنَّه ليس على النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أن يُجبِرَ الناسَ على أنْ يَهتدوا؛ لِقَوْلِه: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾، ويُؤيِّد هذا آياتٌ كثيرةٌ؛ منها: قوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾(٣) [يونس: ٩٩].

١٢- قَوْلُه: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ بيانٌ لوظيفةِ الرَّسول في إثرِ بيانِ كونِ الجزاءِ بيدِ اللهِ العليم بكلِّ شيء، فالرسولُ من حيثُ هو رسولُ الله، ليس عليه إلَّا تبليغُ رسالةِ مَن أرسله؛ فهو لا يعلمُ جميعَ ما يُبديه المكلَّفون من الأعمالِ والأقوالِ، وما يَكتُمونه منها، فيكون أهلًا لحِسابِهم وجزائِهم على أعمالِهم، وإنَّما يعلم ذلك اللهُ وحْدَه(٤).

١٣- الردُّ على الجبريَّة الذين يقولون: إنَّ الإنسانَ ليس له إرادةٌ، وهذا مأخوذٌ مِنْ قَوْلِه: ﴿تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾؛ فالإنسانُ يُريد أن يُبْديَ، ويُريد أن يَكتُم، وهذا هو إثباتُ الإرادةِ للعَبدِ(٥).

١٤- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ أنَّه لا يستوي الخبيثُ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٩٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٥٤٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٣٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ١٠٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٣١).

والطيِّبُ عند اللهِ عزَّ وجلَّ ولا عندَ أصحابِ العُقول، وهذا في مراتبِهم عندَ الله، وعند ذوي العُقول، أمَّا فيما يَعملون من أمورِ الدُّنيا، فإنَّه قد يكونُ الخبيثُ أكثرَ من الطَّيِّب عملًا، كما هو مُشاهَدٌ الآن؛ فإنَّ الدولَ الكافرةَ أقدمُ مِن الدُّوَل المسلِمة فيما يتعلَّق بأمورِ الدنيا(١).

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قَوْلُه: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّه يَحصُل به جوابٌ عمَّا يَخطُر في نفْس السَّامعِ مِن البحثِ عن حِكمةِ تحريم الصَّيدِ في الحرم، وفي حالِ الإحرام، بأنَّ ذلك من تعظيمِ شأنِ الكعبةِ التي حُرِّمتْ أرضُ الحَرَم لأجْل تَعظيمها، وتذكيرٌ بنعمة الله على سُكَّانه بما جعَلَ لهم من الأمْن في علائقِها وشعائرِها(٢).

- وقوله: ﴿الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ بيانٌ للكعبة؛ قُصِد من هذا البيان التنويهُ والتعظيمُ؛ إذ شأنُ البيانِ أن يكونَ مُوضِّحًا للمبيَّن بأنْ يكون أشهرَ مِن المبيَّن، ولَمَّا كان اسمُ الكعبةِ مساويًا للبيت الحرامِ في الدَّلالةِ على هذا البيت، فقد عبَّر به عن الكعبةِ في قوله: ﴿وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢]، فتعيَّن أنَّ ذِكرَ البيانِ للتَّعظيم(٣).

٢- قَوْلُه: ﴿ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

- قوله: ﴿ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا...﴾ مرتبطٌ بالكلامِ الذي قبْلَه بواسطة لام التَّعليل في قوله: ﴿لِتَعْلَمُوا﴾، وتوسُّط اسمِ الإشارة ﴿ذَلِكَ﴾ بين الكلامَين؛ لزيادةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٣٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٥٤-٥٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الرَّبطِ، مع التنبيهِ على تعظيمِ المشارِ إليه، وهو الجَعْلُ المأخوذ مِنْ قَوْلِه: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ﴾[1].

- وقَوْلُه: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيه تعميمٌ إثْرَ التَّخصيصِ الذي في قولِه: ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾؛ للتأكيدِ[2]، مع مَا فيه مِن تأكيدِ الخبرِ بـ (أنَّ) واسميَّة الجُملة.

٣- قَوْلُه: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ، وتذييلٌ لِمَا سبَق من حظْر الصَّيد للمُحرِم وإباحةِ صيدِ البحرِ، والامتنانِ بما جَعَل للكعبةِ مِن النِّعم عليهم، وافتتاح الجُملة بـ﴿اعْلَمُوا﴾ للاهتمامِ بمضمونها[3].

- وفيه: وعيدٌ لِمَن انتهك محارِمَه أو أصرَّ عليها، ووعدٌ لِمَن أقْلعَ عنه[4].

- وفيه مناسبةٌ حسنةٌ؛ حيث قال هنا: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، وقال في موضعٍ آخَر: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩-٥٠]، وبَينهما فرقٌ؛ فهذه الآية هنا ذُكرتْ عقيبَ أحكامٍ عظيمة قد يُخلُّ بها المرءُ؛ فقُدِّم فيها جانبُ التَّهديدِ، وأمَّا في آية الحِجرِ؛ فقولُه: ﴿نَبِّئْ﴾ أمرٌ من الله إلى الرسولِ بأنْ يُنبِّئَ الخلقَ، وقدَّم الوصفَ بالمغفرةِ والرَّحمةِ على العذابِ الأليم؛ لأنَّ المقصودَ الإخبارُ عن صفةِ الله عزَّ وجلَّ، فقدَّم الجانبَ الذي فيه اللُّطفُ والإحسان[5].

٤- قَوْلُه: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾

جملةٌ معترِضة ذُيِّل بها التعريضُ بالوعيدِ والوعْد، والقَصرُ المستفاد هنا من

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٤٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٢٦).

(ما) و(إلَّا) ليس بحقيقيٍّ؛ لأنَّ على الرسولِ أمورًا أُخَرَ غير البَلاغ مثل التعبُّد لله تعالى، والخروجِ إلى الجهاد، والتكاليفِ التي كلَّفه الله بها، مِثْل قيامِ اللَّيل؛ فتعيَّن أنَّ معنى القصر: ما عليه إلَّا البلاغ، أي: دون إلجائِكم إلى الإيمانِ؛ فالقصرُ إضافيٌّ، فلا يُنافي أنَّ على الرسولِ أشياءَ كثيرةً[1].

٥- قَوْلُه: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ فيه: تعريضٌ بالوعيدِ والوعد؛ تذكيرًا بأنَّه لا يَخفَى عليه شيءٌ من أعمالِهم؛ ظاهرِها وباطِنها؛ ففيه تهديدٌ بأنَّه تعالى مُطَّلِع على حالِ العبدِ ظاهرًا وباطنًا؛ فهو مُجازيه على ذلِك ثوابًا أو عقابًا، والمقصودُ مِنْ قَوْلِه: ﴿ما تُبْدُونَ﴾ التَّعميمُ والشُّمول[2]، وهو تحذيرٌ للمُبَلَّغِينَ من المخالفةِ؛ فإنَّ إخبارَه بعِلمه بعدَ أنْ قال: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ فيه التهديدُ والوعيدُ على مَن خالَفَ[3].

٦- قَوْلُه: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾: تصديرُ الحُكم بـ ﴿قُلْ﴾ يدلُّ على العنايةِ به؛ وذلك لأنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم كان مأمورًا أن يقولَ جميعَ القرآنِ للنَّاس ويُبلِّغه، لكن إذا نُصَّ على شيءٍ معيَّنٍ، دلَّ هذا على أخصِّيَّته؛ فهو كالتَّخصيصِ بعدَ التَّعميم[4].

- ولعلَّ نكتةَ تقديمِ الخبيثِ في الذِّكرِ هي كونُ السِّياقِ للاهتمامِ بإزالةِ شُبهة المغترِّينَ بكثرتِه؛ ولذلك قال: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٦١-٦٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٦١-٦٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٣١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٣٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ١٠٣).

الآيات (١٠١ - ١٠٥)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ
عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿١٠١﴾ قَدۡ سَأَلَهَا
قَوۡمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ
وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ
﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا
عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا
فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿تَسُؤْكُمْ﴾: أي: تَحْزُنْكم وتَغُمَّكم، والسوءُ مصدرُ ساء، وهو اسمٌ جامعٌ للآفات، ويُستعملُ في كلِّ ما يُستقبَحُ، وهو أيضًا كلُّ ما يغمُّ الإنسانَ(١).

﴿بَحِيرَةٍ﴾: هي الناقةُ التي إذا نُتِجتْ خَمسةَ أَبطُنٍ شقُّوا أُذُنَها، وحُرِّمتْ على النِّساءِ، ويُمنَح دَرُّها للطواغيتِ؛ فلا يَحْلُبها أحدٌ مِن النَّاس، والبَحيرة الفَعيلةِ، مِن قول القائل: بحرتُ أُذن هذه النَّاقةِ إذا شَقَّها، وأصل (بحر): يدلُّ على الانبساطِ والسَّعَة(٢).

﴿سَائِبَةٍ﴾: السَّائبةُ هي الأُنثَى من النَّعَم الَّتي كان يُسيِّبُها الكُفَّارُ لطَواغيتِهم؛ فلا يُحمَل عليها شيءٌ، أو التي تُسيَّب في المرعَى؛ فلا تُردُّ عن حَوضٍ ولا عَلفٍ،

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٣).
(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٠١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٠٨).

وكان الواحدُ مِنهم يُسيِّبها بنَذْرٍ؛ إنْ سُلِّم مِن مَرضٍ، أو بُلِّغ مَنزلَه أنْ يَفعَلَ ذلك، وأصل (سيب): يدلُّ على استِمرارِ شيءٍ وذَهابِه[1].

﴿وَصِيلَةٍ﴾: الوَصيلةُ هي: الأُنثى من النَّعَم إذا ولَدَتْ سَبعةَ أَبطُنٍ، نظَروا؛ فإنْ كان السَّابعُ ذَكَرًا ذُبِح، فأَكَل مِنه الرِّجالُ والنِّساءُ، وإنْ كان أُنثى تُرِكتْ، وإنْ كان ذَكَرًا وأُنثى قالوا: قد وَصَلَتْ أخاها، فلم تُذبَح بدَفْعِها عنه الذَّبحَ، وكانتْ لحومُها حَرامًا على النِّساءِ، ولبَنُ الأُنثى حَرامًا على النِّساءِ إلَّا أنْ يَموتَ منهما شيءٌ فيأكلَه الرِّجالُ والنِّساءُ[2].

﴿حَامٍ﴾: الحامِي هو: الفَحلُ من النَّعَمِ إذا نُتِجَ مِن صُلبِه عَشرة أبطُنٍ، كان يُقال: حمَى ظَهرَه؛ فيَتركونَه للطَّواغيتِ، ويُحمَى مِن الحَمْلِ والرُّكوبِ عليه والانتفاعِ به؛ بسَببِ تتابُعِ الأولادِ مِن ضِرابِه، وأصل (حمي) يدلُّ على الدَّفْعِ والمَنْعِ[3].

المَعنَى الإجماليُّ:

يَنهَى اللهُ عِبادَه المؤمنين عن السُّؤالِ عن أشياءَ لو بانَ لهم جوابُها لساءَهم ذلك، وشقَّ عليهم، ولكنَّهم إنْ سألوا عن أشياءَ بعدَ نُزولِ القرآنِ عليهم بها، فهنا قدْ وافَق سؤالُهم مَحلَّه، فيُبيَّن لهم ما سَألوا عنه، والله تعالى قد عفا عمَّا كان مِن مسألتِهم قبلَ النَّهي؛ فهو سبحانه غفورٌ حليمٌ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٨٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٠٨).

ثم أَخبر تعالى أنَّه قد كان أناسٌ ممَّن سَبَقوا سألوا هذه المسائلَ المنهيَّ عنها، فأُجيبوا عنها، لكنَّهم أَصْبَحوا بسببِ الخوضِ فيها، والتفتيشِ عنها كافرينَ.

ثم نفَى اللهُ أن يكونَ أَذِنَ في شيءٍ ممَّا يفعله الكفَّارُ بالأنعامِ ممَّا ابتدعوه، فهو سبحانه لم يَشْرَع لهم البحيرةَ ولا السَّائبةَ ولا الوصيلةَ ولا الحامِيَ، وهي حيواناتٌ حرَّم أهلُ الجاهليةِ أكلَها والانتفاعَ بها مِن عندِ أنفسِهم بدونِ علمٍ أو برهانٍ، فهؤلاء الكفَّار يَفْترون على الله الكذبَ، وأكثرُهم لا يعقلون.

وإذا ما قيل لهؤلاء الكفَّارِ: تعالَوا إلى كتابِ اللهِ وإلى رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ ليتَّضِحَ لكم دِينُ الله ويتبيَّن لكم شَرْعُه، كان جوابُهم أنَّهم يَكفيهم ما وَجدوا عليه آباءَهم من قبلُ، وكيف يكون ذلك مع أنَّ آباءَهم جَهَلةٌ لا يَعلمون شيئًا، وضُلَّالٌ لا يهتدونَ؟!

ثم يُبيِّن الله لعبادِه المؤمنين أنَّهم إنِ استقاموا كما أُمِروا، فإنَّه لا يَضرُّهم مَن سَلَك سبيلَ الضلالةِ؛ فإليه سبحانه وتعالى مرجعُهم، فيُخبرهم بما كانوا يَفعلون.

تَفسيرُ الآيات:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١)﴾.

مُناسَبةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا قال تعالى: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ صارَ التقديرُ كأنَّه قال: ما بلَّغه الرسولُ إليكم فخُذوه، وكونوا مُنقادِين له، وما لم يُبلِّغْه الرسولُ إليكم فلا تَسْألوا عنه، ولا تَخوضوا فيه؛ فإنَّكم إنْ خُضْتُم فيما لا تَكليفَ فيه عليكم فربَّما جاءَكم بسببِ ذلك الخوضِ الفاسدِ من التكاليفِ ما يَثقُل عليكم ويشُقُّ عليكم[1].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٤٣).

سَببُ النُّزولِ:

عن أنسِ بنِ مالكٍ رضِي اللهُ عنه، قال: ((بلَغ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن أصحابِه شيءٌ، فخَطَب فقال: عُرِضَتْ عليَّ الجَنَّةُ والنار، فلمْ أرَ كاليومِ في الخيرِ والشرِّ، ولو تَعلمونَ ما أعلمُ لضَحِكتُم قليلًا ولبَكَيتُم كثيرًا! قال: فما أتَى على أصحابِ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يومٌ أشدُّ منه، قال: غطَّوْا رُؤوسَهم ولهم خَنينٌ[١]، قال: فقام عُمَرُ فقال: رَضِينا باللهِ ربًّا، وبالإسلامِ دينًا، وبمحمَّدٍ نبيًّا. قال: فقام ذاك الرجلُ، فقال: من أبي؟ قال: أبوك فلان. فنَزَلَت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١]))[٢].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾.

أي: لا تَسألوا- أيُّها المؤمنون- عن أشياءَ لو أُظْهِر جوابُها لكم لساءَكم وشقَّ عليكم[٣].

عن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((أيُّها النَّاسُ، قد فَرَض اللهُ عليكم الحجَّ فحُجُّوا، فقال رجلٌ: أكُلَّ عامٍ يا رسولَ اللهِ؟ فسكَت، حتى قالها ثلاثًا، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: لو قلتُ:

---

(١) الخَنين: نوعٌ مِن البكاء دون الانتحابِ، وأصلُ الخَنين خروجُ الصوتِ من الأنف، كالحنين مِن الفمِ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٥/ ٢١٠٩)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٨٥).

(٢) رواه البخاري (٧٢٩٥)، ومسلم (٢٣٥٩) واللفظ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٠٣، ٢٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٣٧-٤٣٨).

وهذه الأشياء التي نُهي المسلمون عن سؤالها تَشملُ أمورًا عديدة؛ منها: سؤال بعض المسلمين لرسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم عن آبائِهم، وعن حالهم أفي الجنَّة هم أم في النار؟ وكالسؤال عمَّا لا يَعني وكالسؤال عمَّا سكَتَ عنه الشرع، وما يُخشَى أن يكون السؤالُ عنه سببًا لنزول التَّشديد فيه، إلى غير ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٣، ٢٣)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ٢٤٠-٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٣٧-٤٣٨).

نعمْ، لوجبَت، ولَمَا استطعتُم، ثم قال: ذَروني ما تركتُكم؛ فإنَّما هلَك مَن كان قبلكم بكثرةِ سؤالِهم واختلافِهم على أنبيائِهم، فإذا أمرتُكم بِشَيءٍ فَأْتُوا منهُ ما استطعتُم، وإذا نهيتُكم عن شيءٍ فدَعوهُ))[1].

وعن سَعدِ بن أبي وقَّاصٍ رضِي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((إنَّ أعظمَ المسلِمين في المسلِمين جُرمًا: مَن سألَ عن شيءٍ لم يُحرَّم على المسلمينَ، فحُرِّم عليهم مِن أجْلِ مسألَتِه))[2].

﴿وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا منَع اللهُ تعالى من السُّؤال في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾، أوْهَم اللفظُ أنَّ جميعَ أنواعِ السؤالِ ممنوعٌ منه، فأتْبعَه بما ليس داخلًا في النهي[3]، فقال تعالى:

﴿وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ﴾.

أي: ولكنَّكم إنْ سألتُم عن أشياءَ بعدَ نُزولِ القرآنِ عليكم بها، كالسُّؤالِ عن آيةٍ أَشكلتْ، أو حُكمٍ خَفِيَ وجهُهُ عليكم وغير ذلك، فهنا قدْ وافَق سؤالُكم مَحلَّه، فيُبيَّن لكم ما سَألتم عنه[4].

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾.

---

(١) رواه مسلم (١٣٣٧).

(٢) رواه البخاري (٧٢٨٩)، ومسلم (٢٣٥٨) واللفظ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٤٤- ٤٤٥)، ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٥٥٠).

(٤) وهذا اختيارُ ابنِ جرير، والواحديِّ، والقرطبيِّ، وابنِ رجبٍ، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٣٣٣-٣٣٤)، ((جامع العلوم والحكم)) (١/ ٢٤٠-٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٥).

وممَّن قال مِن السَّلف بنحو هذا: ابن عبَّاس رضي الله عنهما. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥).

قيل: المعنى: عفا الله عمَّا كان منكم مِن سؤالٍ عن تلك الأشياءِ التي نهاكم اللهُ تعالى عن السُّؤال عنها، فلا يُعاقِبُكم عليها(١).

وقيل: المرادُ أنَّ اللهَ تعالى وإنْ نهاكم عن المسألةِ إلَّا أنَّه عفا عنكم السؤالَ حين يَنزِلُ القرآنُ، فأذِنَ لكم بذلك(٢).

وقيل: المرادُ أنَّ ما لم يَذكُرْه الله تعالى في كتابِه فهو ممَّا عفا عنه، وأباحه لكم؛ فاسكُتوا أنتم عنه كما سكَتَ عنه سبحانه(٣).

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

أي: واللهُ تعالى غفورٌ يستُر ذُنوبَ عِبادِه، ويتجاوَزُ عن مؤاخذتِهم بها، وهو الحليمُ سبحانه فلا يُعاجِلُ عِبادَه بالعقوبةِ، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ [فاطر: ٤٥](٤).

﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ (١٠٢)﴾.

أي: قد سألَ هذه المسائلَ المنهيَّ عنها أناسٌ سَبقوكم، فأُجيبوا عنها لكنَّهم لم يُؤمنوا بها، ولم يَعمَلوا بها؛ لأنَّهم لم يَسألوا عنها على وجهِ الاسترشادِ، بل على وجهِ التعنُّتِ والعِناد، فصاروا بسببِها كفَّارًا(٥).

عن أبي هُرَيرَةَ رضِي اللهُ عنه أنَّ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((ذَروني ما تركتُكم؛ فإنَّما هلَكَ مَن كان قَبلَكم بكثرةِ سؤالِهم واختلافِهم على أنبيائِهم، فإذا

---

(١) وهذا اختيارُ ابن جريرٍ في ((تفسيره)) (٩/ ٢٥)، والواحدي في ((الوجيز)) (ص: ٣٣٧).

(٢) وهذا اختيارُ ابنِ عاشور في ((تفسيره)) (٧/ ٦٨).

(٣) وهذا اختيارُ ابن كثير في ((تفسيره)) (٣/ ٢٠٧)، والسعديِّ في ((تفسيره)) (ص: ٢٤٦)، وابنِ عُثيمين في ((تفسير سورة المائدة)) (٢/ ٤٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٦).

أمرتُكم بشيءٍ فأتُوا منهُ ما استطعْتُم، وإذا نهيتُكم عن شيءٍ فدَعُوه))[1].

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٣)﴾.

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا منَع اللهُ تعالى الناسَ مِن البَحثِ عن أمورٍ لم يُكلَّفوا بالبحْثِ عنها، كذلك منَعَهم من التزامِ أُمورٍ لم يُكلَّفوا بالتزامِها، ولَمَّا كان الكفَّارُ يُحرِّمونَ على أنفسهم الانتفاعَ بهذه الحيوانات، وإنْ كانوا في غايةِ الحاجةِ إلى الانتفاعِ بها؛ بيَّن الله تعالى أنَّ ذلك باطلٌ[2]، فقال تعالى:

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾.

أي: لم يأذنِ اللهُ تعالى مطلقًا بأنْ يُفعَل بالأنعامِ شيءٌ ممَّا ابتدَعَه الكفَّار، فلم يَشرَعْ لهم البحيرةَ: وهي ناقةٌ يشقُّون أُذُنَها، ثم يُحرِّمون رُكوبَها ويَرونَها محترَمَةً. ولا السَّائبةَ: وهي ناقةٌ، أو بقرةٌ، أو شاة، تُسيَّب وتُخلَّى؛ فلا تُركَبُ ولا يُحمَل عليها، ولا تُؤكَل ولا يُنتفَع منها بشيءٍ. ولا الوصيلةَ: وهي التي تُحرَّم أو تُجعل لآلهتهم. ولا الحاميَ: وهو جملٌ يُحمَى ظهرُه عن الركوب والحَمْل[3].

﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾.

أي: لم يَشرعِ اللهُ هذه الأشياءَ، وليستْ هي عندَه بقُربةٍ، ولكن الكُفَّار هم الذين

---

(١) رواه مسلم (١٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٥٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٩-٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٥٠-٤٥١).

وفي تفصيل معنى البَحِيرَة والسائِبَة والوَصِيلَة والحَامي، ومتى تسمَّى كلُّ واحدة بذلك يُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (١/ ٥٩٢-٥٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٠٨-٢١١).

يَفعلون ذلك بغيرِ دليلٍ، ويَفتَرُون على اللهِ تعالى الكَذِبَ(١).

﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

أي: وأكثرُ هؤلاءِ الكفَّار لا يَملِكون عَقْلًا صحيحًا راشدًا، وإنَّما يَنساقونَ إلى تلك الشرائعِ الباطلةِ بجهلِهم، متَّبعين في ذلك أكابرَهم(٢).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٠٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا حرَّموا هذه الأشياءَ مِنْ قَوْلِه: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ اضطُرُّوا إلى تحليلِ المَيتةِ، فحرَّموا الطيِّبَ، وأحلُّوا الخبيثَ! ولَمَّا اتَّخذوه دِينًا، واعتَقدُوه شَرعًا، ومضَى عليه أسلافُهم، دَعَتْهم الحظوظُ والأَنَفَةُ من نِسبةِ آبائهم إلى الضَّلالِ، والشهادةِ عليهم بالسَّفهِ إلى الإصرارِ عليه، وعَدَمِ الرجوعِ عنه بعدَ انكشافِ قبحِه، وبيانِ شناعتِه، فقال تعالى دالًّا على خِتام الآية التي قَبْلها مِن عَدَمِ عَقْلِهم(٣):

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٦، ٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٥١-٤٥٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٣٢٢).

وقال محمَّد رشيد رضا في بيانِ مناسبةِ هذه الآيةِ والتي قبلَها للآياتِ التي قبلَهما: (وجهُ اتِّصال هاتين الآيتين بما قبلَهما أنَّه سبحانه وتعالى نهَى في السِّياق الذي قبلَهما عن تحريمِ ما أحلَّه الله، وعن الاعتداءِ فيه، وإن كان التحريمُ تركًا لمباحٍ يُلتزمُ بالنَّذر أو بالحلفِ باسمِ الله تنسكًا وتعبدًا، مع اعتقادِ إباحتِه في نفسِه، لا شرعًا يدعى إليه ويعتقدُ وجوبَه، وبيَّن فيه كفارةَ الأيمانِ، وحرَّم الخمرَ والميسرَ والأنصابَ والأزلامَ، وصيدَ البرِّ على المُحْرِم بحجٍّ أو عمرةٍ، وبعد أن نهَى عن تحريمِ ما أحلَّه، نهَى أن يكونَ المؤمنُ سببًا لتحريمِ الله تعالى شيئًا لم يكنْ حرَّمه، =

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾.

أي: وإذا قِيل لهؤلاءِ الذين وقَعوا في تحريمِ ما أحلَّ الله تعالى: هلمُّوا وأقْبِلوا إلى كتابِ الله عزَّ وجلَّ وإلى رسولِه عليه الصَّلاة والسَّلام؛ ليتبيَّنَ لكم شَرعُ اللهِ سبحانه، وما أوجبَه وما حرَّمه، وبُطلانُ ما ابتدَعتُم[1].

﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾.

أي: قالوا جوابًا على مَن دَعاهم إلى ذلك: يَكفينا ما وجَدْنا عليه مَن قَبْلَنا مِن الآباءِ والأجدادِ مِن طرائقَ ساروا عليها، ونحن لهم تبَعٌ في ذلك[2].

﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.

أي: أيتَّبِعون آباءَهم حتى لو كانوا على هذه الحالِ التي لا يَستحقُّون أنْ يُتَّبعوا فيها؛ إذ لا يَحمِلون عِلمًا بشريعةِ الله تعالى، ولا يَعمَلون على وَفْقِها عمَلًا صالحًا؛ فكيفَ يتَّبعونَهم ومِثْلُهم لا يصلُحُ أنْ يُقتدَى بهم[3]؟!

كما قال سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

= أو شرعِ حكمٍ لم يكنْ شرَعه، بأن يسألَ الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم عن شيءٍ مما سكَت الله عنه عفوًا وفضلًا، فيكونَ الجوابُ عنه أن أورد تكليفًا جديدًا، فناسبَ بعدَ هذا أن يبيِّن ضلالَ أهلِ الجاهليَّة فيما حرَّموه على أنفسِهم وما شرعوه لها بغيرِ إذنٍ مِن ربِّهم، وما قلَّد به بعضُهم بعضًا على جهلِهم، مع بيانِ بطلانِ التقليدِ وكونِه ينافي العلمَ والدِّينَ) ((تفسير المنار)) (٧/ ١٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٢-٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢١١-٢١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٥٢).

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ* وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢٠-٢١].

وقال جلَّ وعلا: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ [الصافات: ٦٩-٧٠].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥)﴾.

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا كان المانِعُ لهم من قَبولِ الهُدى كونَ ذلك تسفيهًا لآبائهم؛ فيعود ضررًا عليهم يُسبُّون به على زَعْمهم، أعْلمَ اللهُ المؤمنينَ أنَّ مخالفةَ الغيرِ في قَبول الهُدى لا تضرُّهم أصلًا، بأنْ عقَّبَ آيةَ الإنكارِ عليهم في التقيُّد بآبائهم لمتابعتِهم لهم في الكُفرِ بهذه الآيةِ[1].

أيضًا لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى مكابرةَ المشركينَ وإعراضَهم عن دعوةِ الخير بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أعْقَبه بتعليمِ المسلمين حدودَ انتهاءِ المناظَرَةِ والمجادلةِ إذا ظهرتِ المكابرةُ، وعُذْرِ المسلمين بكِفايةِ قِيامِهم بما افترَض اللهُ عليهم من الدَّعوة إلى الخيرِ، فأعْلَمَهم أنَّ على الدَّاعي بذْلَ جُهدِه، وأنَّه ليس مسؤولًا إذا لم يُصغِ المدعوُّ إلى الدَّعوة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾[2] [القصص: ٥٦].

وأيضًا لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى أنواعَ التَّكاليفِ والشرائعِ والأحكامِ، ثم قال: ﴿مَا

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٣٢٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٧٦).

عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾، إلى قولِه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾، فكأنَّه تعالى قال: إنَّ هؤلاء الجُهَّالَ مع ما تقدَّم مِن أنواع المبالغةِ في الإعذارِ والإنذارِ والترغيبِ والترهيبِ لم يَنتفعوا بشيءٍ منه، بل بقُوا مُصرِّين على جَهلِهم، مُجدِّين على جَهالاتِهم وضلالتِهم؛ فلا تُبالوا- أيُّها المؤمنون- بجهالتِهم وضلالتِهم، بل كونوا مُنقادِينَ لتكاليفِ اللهِ، مُطيعينَ لأوامرِه ونواهيه، فلا يضرُّكم ضلالتُهم وجهالتُهم؛ فلهذا قال[1]:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنون ألْزِموا أنفسَكم العملَ بطاعةِ الله تعالى، وترْكَ معصيتِه؛ فإنَّه لا يَضرُّكم مَن سلَك غيرَ سبيلِ الحقِّ، إذا أنتم استقمتُم على صراطِ الله تعالى فآمنتُم بربِّكم وأطعْتُموه، ومِن ذلك: قِيامُكم بواجبِ أمْرِ الناسِ بالمعروفِ، ونهيِهم عن المنكرِ، ولا ضيرَ عليكم بعدَ ذلك إنْ تمادَوْا في غيِّهم وضلالِهم، ما دُمتُم قد أدَّيْتُم حقَّ الله تعالى فيهم[2].

﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

أي: إنَّ مآلَكم في الآخرةِ إلى الله تعالى وحْدَه، وسوف يُخبرُكم بما قدَّمتموه في الدُّنيا من خيرٍ أو شرٍّ؛ فإنَّه لا يَخفَى عليه شيءٌ من أعمالِكم، ويُجازيكم عليها ثوابًا أو عقابًا[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٤-٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٥٩-٤٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٥٩).

وممَّن رُوي عنه من السَّلف نحوٌ من هذا: أبو بكر الصِّدِّيق، وابن عبَّاس، وسعيد بن المسيِّب، وحُذيفة، والسُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٦٠).

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- أنَّ ممَّا يُنافي كمالَ الإيمان أنْ يسألَ الإنسانُ عن شيءٍ لم يُكلَّفْ به؛ لِقَوْلِه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا..﴾[1].

٢- ممَّا يُستفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ أنَّ الإنسانَ قد يَسُوؤه ما شرَعه الله عزَّ وجلَّ من إيجابٍ أو تحريمٍ، ولكنَّ المؤمِنَ وإنْ كرِه ذلك بطبيعتِه، لا يَكرهُه من حيثُ كونُه شرعًا لله عزَّ وجلَّ[2].

٣- في قوله تعالى: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ توجيهُ الأمَّة الإسلاميَّة إلى الأدَبِ الواجبِ مع رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وعدمِ سُؤالِه عمَّا لم يُخبرْها به ممَّا لو ظهَر لساءَ السائلَ وأحْرجَه، أو ترتَّبَ عليه تكاليفُ لا يُطيقُها، أو ضُيِّقَ عليه في أشياءَ وسَّعَ اللهُ فيها وفي ترْكها بلا تحديدٍ؛ رحمةً بعباده[3].

٤- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه تعالى: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ﴾ أنَّ القرآنَ جاءَ لا لِيُقرِّر عقيدةً فحسبُ، ولا ليشرعَ شريعةً فحسبُ، ولكن كذلك ليربِّيَ أُمَّةً، ويُنشئ مجتمعًا، وليُكوِّنَ الأفرادَ ويُنشئَهم على منهجٍ مِن صُنعه يتوافَقُ مع العَقْل والفِطْرة، وهو هنا يُعلِّمُهم أدبَ السُّؤالِ، وحدودَ البحث، ومنهجَ المعرفةِ، وما دام اللهُ سبحانه هو الذي يُنزِّلُ هذه الشريعةَ، ويُخبرُ بالغيبِ، فمِن الأدبِ أن يَترُكَ العبيدُ لحِكمته تفصيلَ تلك الشريعةِ أو إجمالَها، وأنْ يتركوا له كذلك كشْفَ هذا الغَيْبِ أو سَتْرَه، وأنْ يَقِفوا هم في هذه الأمورِ عند الحدودِ التي أرادها العليمُ الخبير، لا ليُشدِّدوا على أنفُسِهم بتنصيصِ النُّصوص، والجري وراءَ الاحتمالاتِ والفُرُوض، كذلك لا يَجرُون وراءَ الغيب يُحاولون الكشفَ عمَّا لم يَكشفِ اللهُ منه، وما هم ببَالِغيه، واللهُ أعلمُ بطاقةِ البشرِ واحتمالِهم؛ فهو يَشرَعُ لهم في حدودِ طاقتِهم،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٣٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٥٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٤٠).
(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٩٨٤).

ويَكشِفُ لهم من الغيبِ ما تُدْرِكُه طبيعتُهم، وهناك أمورٌ ترَكَها اللهُ مُجمَلةً أو مجهلةً، ولا ضيرَ على النَّاسِ في ترْكها هكذا كما أرادَها اللهُ(١).

٥- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ ضربُ الأمثالِ بالأمم السَّابقين؛ حتى نقتنِعَ بأنَّه لا ينبغي لنا أن نَسْأَلَ؛ لأنَّ غيرَنا سألَ وكفَر(٢).

٦- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ أنَّ الإنسانَ لا يَنبغي أن يتعرَّض لِمَا قد يكونُ مِحنةً عليه(٣).

٧- قَوْلُه: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ...﴾ فيه دلالةٌ على أنَّ الإنسانَ قد يقعُ في شَرْعِه لنفْسِه على الخبيثِ دون الطيِّبِ؛ وذلك لأنَّ الكفَّارَ شَرَعوا لأنفسِهم هذا، وظنُّوا أنَّه من محاسنِ الأعمال، فإذا هو ممَّا لا يَعبأُ الله به، بل ممَّا يُعذِّب عليه؛ لكونه أوقعَهم فيما كانوا مُعترِفينَ بأنَّه أقبحُ القبائِحِ وهو الكَذِب، بل في أقبحِ أنواعِه، وهو الكذبُ على مَلِك الملوك، ثم صارَ لهم دِينًا، وصاروا أرسخَ الناسِ فيه، وهو عينُ الكُفْر(٤).

٨- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ﴾ خطرُ الإفتاء، وأنَّ الإنسانَ قد يُفتي بالشيءِ فيكون ممَّن افترى على الله كذبًا(٥).

٩- ذمُّ أولئك الذين يقولونَ بلا عِلمٍ، وأنَّهم قد فَقَدوا عُقولَهم؛ لِقَوْلِه: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ وصدَق اللهُ عزَّ وجلَّ؛ كلُّ إنسانٍ يُقدِم على الفتوى بالتَّحليلِ أو التَّحريم أو الإيجاب بدون عِلمٍ فهو غيرُ عاقلٍ، وإنْ ظنَّ أنه صارَ

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٩٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٤٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٤٨).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٣١٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٥٣).

إمامًا فإنَّه غيرُ عاقلٍ، وسيَفْضَحه اللهُ عزَّ وجلَّ إمَّا في الدُّنيا وإمَّا في الآخِرةِ، يعني: قد يُمهِل اللهُ له، ويكون إمامًا في وقتٍ ما؛ لغفلةِ الناسِ وعدمِ العلماء، ولكنَّ النَّتيجة أنَّه سوف يكون مخذولًا، والعياذُ بالله[١].

١٠ - يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أنَّ التحرِّيَ في الإفتاءِ مِنَ العَقْلِ، ولقد كان السلفُ الصَّالح يَتدافعون الإفتاءَ، ويُؤجِّلونَ المُستفتيَ[٢].

١١ - يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ أنَّ كلَّ مَن أتى بشريعةٍ ليستْ مِن عندِ الله فإنَّه يَصدُقُ أن نقول: إنَّه افتَرى على اللهِ الكذِبَ، لكنْ مَن اجتهدَ وبذَل الوُسْعَ للوصولِ إلى الحقِّ، وحَكَمَ بغير الصَّواب، فإنَّه لا يُقال: إنَّه افترَى على الله كذبًا، بل يُقال: إنَّه اجتهَدَ وأخطَأَ، وله أجرٌ واحدٌ، وهذا- والحمدُ لله- مِن سَعةِ رحمةِ الله عزَّ وجلَّ[٣].

١٢ - أنَّ العوامَّ يُوجَّهون ويُرشَدونَ ويُدْعَون إلى الكتابِ والسُّنَّة؛ لِقَوْلِه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا﴾ وأبهم القائلَ إمَّا لكثرةِ القائلينَ، وإمَّا لاختلافِ مراتِبِهم؛ لأنَّ كثرةَ القائلين تُوجِبُ أنَّ الإنسانَ ينصاعُ، والمرتبة العُليا تُوجِبُ أيضًا أنَّ الإنسانَ ينصاعُ ويأتي[٤].

١٣ - يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أنَّ مَن تعصَّب لقولِ إمامٍ والْتزمَه، وأصرَّ عليه مع عِلْمِه بمخالفةِ قوله للكتابِ والسُّنَّة، ففيه شَبَهٌ من هؤلاء الكفَّار؛ لأنَّه إذا قيل

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٥٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٥٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٥٥).

له: تعالَ إلى ما أنزَلَ اللهُ وإلى الرسولِ قال: حسبي إمامي؛ فيكون فيه شَبهٌ من هؤلاء الكفَّارِ(١).

١٤- وجوبُ الرُّجوعِ إلى ما جاءَ في الكِتاب والسُّنة؛ لأنَّ الله أنكَرَ على هؤلاءِ الذين قالوا: ﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾(٢).

١٥- لا يجوزُ تركُ اتِّباعِ ما أنزل الله، واتباعِ رسلِه، وتقليدُ مَن لا علمَ عنده صحيحٌ، ولا عقلٌ رجيحٌ، وإنَّما يجوزُ الاقتداءُ بالعالمِ المهتدي، الذي يبني قولَه على الحجَّة والدليلِ، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾(٣).

١٦- أنَّ إصلاحَ النَّفْس والعنايةَ بها مِن مُقتضياتِ الإيمانِ؛ لِقَوْلِه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾(٤).

١٧- المقصودُ مِنْ قَوْلِه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ...﴾ بعدَ قولِه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ بيانُ أنَّه لا يَنبغي للمؤمنينَ أن يتشبَّهوا بهم في هذه الطريقةِ الفاسِدةِ، بل ينبغي أن يكونوا مُصِرِّين على دِينهم، وأنْ يَعلَموا أنَّه لا يضرُّهم جهلُ أولئك الجاهِلين إذا كانوا راسِخينَ في دِينهم، ثابِتينَ فيه(٥).

١٨- قولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٥٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٤٩).

اهْتَدَيْتُمْ...﴾ هذه الآيةُ الواحدةُ تُقرِّر مبادئَ أساسيَّةً في طبيعةِ الأمَّةِ المُسْلِمة، وفي طبيعةِ عَلاقاتِها بالأُمَمِ الأخرى، وأنَّ على الأمَّة المسلمةِ أن تتضامَنَ فيما بينها، وأنْ تَتناصَحَ وتتواصَى، وأنْ تهتديَ بهدْيِ اللهِ الذي جعَل منها أمَّةً مستقلَّةً منفصلةً عن الأممِ غيرِها، ثم لا يَضيرُها بعدَ ذلك شيئًا أن يضِلَّ الناسُ حولَها ما دامتْ هي قائمةً على الهُدى، ولكن ليس معنى هذا أنْ تَتخلَّى الأمَّةُ المسلمةُ عن تكاليفِها في دعوةِ الناس كلِّهم إلى الهُدى، والهُدى هو دِينُها هي، وشريعتُها ونظامُها، فإذا هي أقامتْ نِظامَها في الأرض بقِيَ عليها أن تدعوَ النَّاسَ كافَّةً، وأنْ تحاولَ هِدايتَهم، وبَقِيَ عليها أن تباشرَ القِوامةَ على الناس كافَّةً؛ لتُقيمَ العدلَ بينهم، ولِتَحُولَ بينهم وبين الضَّلال والجاهليَّة التي منها أَخرجَتْهم، وكونها لا يَضيرُها من ضلَّ إذا اهتدَتْ، لا يعني أنَّها غيرُ محاسَبةٍ على التقصيرِ في الأمْرِ بالمعروف والنَّهْيِ عن المنكَر فيما بينها أولًا، ثمَّ في الأرض جميعًا[1].

١٩- أنَّ الإنسانَ لا يُحاسَب على حديثِ النَّفْسِ؛ لِقَوْلِه: ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وحديثُ النَّفْسِ ليس عملًا؛ ودليلُ ذلك قولُ النبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((إنَّ اللهَ تجاوزَ عن أمَّتي ما حدَّثت به أنفُسَها ما لم تعمَلْ أو تتكلَّم))[2]، ولكن إذا ركَن الإنسانُ إلى حديثِ النَّفْس واطمأنَّ إليه واعتقدَه، فحينئذٍ يكونُ قد عمِل عملًا قلبيًّا لا جوارحيًّا[3].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- دفْعُ التَّعارُضِ بين قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾، وقولِه: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧] حيث ذكَر كراهةَ السؤالِ والنهيَ عنه في الموضِع الأوَّل، وأمَر بالسُّؤالِ في

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ٩٩٢).
(٢) أخرجه البخاريُّ (٥٢٦٩) واللفظ له، ومسلمٌ (١٢٧) من حديث أبي هُرَيرَة رضي الله عنه.
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٦٣).

الموضِع الثاني، فالجوابُ عن ذلك:

أنَّ الأوَّل المنهيَّ عنه هو سؤالُ الأشياءِ التي إذا بُيِّنَتْ لهم ساءتْهم وأحزنَتْهم بخلافِ سُؤال الاسترشادِ والتَّعلُّم مما تدعو الحاجةُ إليه في أمورِ الدِّين والدُّنيا، فهو محمودٌ قد أمرَ الله به، وأَذِن بالسُّؤالِ عنه[1].

٢- قدَّم قولَه: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ﴾ على قولِه: ﴿وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ﴾؛ لفائدة الزَّجرِ عن السُّؤالِ؛ فإنَّه قدَّم لهم أنَّ سؤالَهم عن أشياءَ متَى ظهرتْ أساءتْهم؛ قبلَ أنْ يُخبِرَهم بأنَّهم إنْ سألوا عنها، بدَتْ لهم لينزجِروا[2].

٣- أنَّ ما سكَت اللهُ عنه فهو عَفْوٌ؛ لِقَوْلِه: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[3].

٤- البِناءُ على الأصلِ في بَراءة الذِّمَّةِ؛ لِقَوْلِه: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾، فالأصلُ عدمُ شَغلِ الذِّمَّة بإيجابٍ أو تحريمٍ[4].

٥- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ أنَّ مَن قَبْلَنا كانوا يَسألون، ولكن يَهلِكون بالسُّؤال، ويُؤيِّدُ هذا قولُ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم في الحديثِ الصحيحِ عمَّن سبقَنا: ((إنَّما أَهْلَكَ الذين مِن قبلكم كثرةُ مَسائِلِهم واختلافُهم على أنبيائِهم))[5]؛ يسألون ثم يختلِفونَ عليهم، ولا يُوافِقونَهم[6].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٥٥٠)، ((فتح القدير)) للشوكاني (٢/ ٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٥٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٤١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٤٥).

(٥) أخرجه البخاريُّ (٧٢٨٨)، ومسلمٌ (١٣٣٧) واللفظ له من حديث أبي هُرَيرَة رضي الله عنه.

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٤٨).

٦- إنْ قيل: كيف قال: ﴿لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ﴾ ثم قال: ﴿قَدْ سَأَلَهَا﴾ ولم يقُلْ: (قد سأَل عنها)؟ فالجوابُ: أنَّ الضميرَ في: ﴿سَأَلَهَا﴾ ليس براجعٍ إلى ﴿أَشْيَاءَ﴾ حتَّى تجبَ تعديتُه بـ(عن)، وإنَّما هو راجعٌ إلى المسألةِ التي دلَّ عليها ﴿لا تَسْأَلُوا﴾ يعني: قد سأَل قومٌ هذه المسألةَ مِن الأوَّلين، ﴿ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا﴾ أي: بمرجوعِها أو بسببِها ﴿كافِرِينَ﴾ وذلك أنَّ بني إسرائيلَ كانوا يستفتون أنبياءَهم عن أشياءَ، فإذا أُمِروا بها تركوها فهلكوا[١]، وقيل غير ذلك[٢].

٧- إطلاقُ الجَعْل على التَّشريع؛ لِقَوْلِه: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ﴾[٣].

٨- حُسنُ الجدال في القرآنِ الكريم؛ حيث أقام الحُجَّة على هؤلاء الذين: ﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ بأنَّ آباءَهم ﴿لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ فهم ضالُّونَ في عِلمهم وفي عَمَلِهم[٤].

٩- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ أنَّ ضَلالَ مَن يضِلُّ لا يترتَّبُ عليه ضررُ المهتدي، يعني: الضَّررَ المعيَّن الشَّخصي، وأمَّا الضررُ العامُّ، وهي العقوبةُ العامَّة فهذه قد تكونُ، وقد لا تكونُ أيضًا إن كانوا ينهَوْنَ عن السُّوءِ؛ فاللهُ تعالى لَمَّا أخَذَ مَن أخَذَ من الأممِ السابقةِ نجَّى أنبياءَه ومَن معهم[٥].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قَوْلُه: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ مُقرِّر لعفوِه تعالى، ومجيءُ الوصفَيْنِ ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ على صيغة المبالغَةِ؛ للمبالغة في وصْفِه بمغفرةِ الذُّنوبِ،

(١) ينظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٤٥، ٤٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (٢/ ٤٥٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٥٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٦١).

والإغضاءِ عن المعاصي؛ ولذلك عفا عنكم، ولم يُؤاخِذْكم بعقوبةِ ما فرَط منكم[1].

٢- قَوْلُه: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، جوابُ سؤالٍ يُثيرُه النهيُ عن السؤال ثمَّ الإذنُ فيه في حِين يُنزَّل القرآنُ؛ أنْ يقول سائلٌ: إنْ كان السؤالُ في وقتِ نزولِ القرآنِ، وإنَّ بعضَ الأسئلةِ يسوءُ جوابُه قومًا؛ فهل الأَوْلى تركُ السؤال أو إلقاؤه؟ فأُجيب بتفصيلِ أمْرِها بأنَّ أمثالَها قد كانتْ سببًا في كُفر قومٍ قبلَ المسلمين[2].

- وقوله: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ﴾، أي: سألوا هذه المسألةَ لكنْ لا عينَها، بل مثلَها في كونها محظورةً ومستتْبِعةً للوبال، وعدمُ التصريح بالمِثل- حيث لم يقُلْ: سأل مِثلَها قومٌ- للمبالغةِ في التَّحذيرِ[3].

- (ثُمَّ) في قوله: ﴿ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ للترتيبِ الرُّتبي، كشأنها في عطْفِ الجُمَل؛ فإنَّها لا تُفيد فيه تراخِي الزَّمانِ، وإنَّما تُفيد تراخي مَضمونِ الجملة المعطوفة في تصوُّر المتكلِّم عن تصوُّر مضمونِ الجملةِ المعطوفِ عليها؛ فتدلُّ على أنَّ الجملة المعطوفة لم يكُن يُترقَّبُ حُصولُ مضمونِها حتَّى فاجأَ المتكلِّمَ[4].

- وفِعْلُ ﴿أَصْبَحُوا﴾ مستعمَلٌ بمعنى صاروا، وهو في هذا الاستعمالِ مُشْعِرٌ بمصيرٍ عاجِلٍ لا تريُّثَ فيه؛ لأنَّ الصَّباحَ أَوَّلُ أوقاتِ الانتشارِ للأعمالِ[5].

٣- قَوْلُه: ﴿مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ فيه: الإغراقُ في النَّفي بقوله: ﴿مِنْ بَحِيرَةٍ﴾، ثم تأكيد النَّفي بإعادةِ حَرْفِ النَّفي (لا)، فقال:

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٨٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٦٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٨٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٦٩).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٧٠).

﴿وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾[1].

٤- **قَوْلُه: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾** الواو في (أَوَلَوْ) للعطفِ على شرطيَّةٍ أُخرى مقدَّرة قبلها، والتقدير: أحَسْبُهم ذلك، أو أيقولون هذا القولَ لو لم يكُن آباؤُهم لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا من الدِّين، ولا يَهتُدون للصَّوابِ ولَوْ كانوا لا يعلمون... إلخ[2]، وما في (لو) مِن معنى الامتناعِ والاستبعادِ إنَّما هو بالنَّظَر إلى زَعْمهم لا إلى نفْسِ الأمْرِ، وفائدتُه: المبالغةُ في الإنكارِ والتعجُّب ببيانِ أنَّ ما قالوه موجِبٌ للإنكارِ والتعجُّب، إذا كان كونُ آبائِهم جَهلةً ضالِّين في حيِّز الاحتمالِ البعيد؛ فكيف إذا كانَ ذلك واقعًا لا ريبَ فيه[3]؟!

٥- **قَوْلُه: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾** خبرٌ فيه: وعدٌ ووعيدٌ للفريقين، وتنبيهٌ على أنَّ أحدًا لا يُؤاخَذُ بذنبِ غيرِه[4].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٣١٨).

(٢) وقيل: إنَّ الواو في قوله: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ﴾ واو الحال قد دخلتْ عليها همزة الإنكار، وتقديره: أحسْبُهم ذلك ولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئًا ولا يهتدون. وقيل: إنَّ مؤدَّى القولين واحد. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٨٥)، ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٨٥- ٣٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٨٨).

الآيات (١٠٦ - ١٠٨)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾: الشَّهادةُ قولٌ صادرٌ عن عِلمٍ حَصَل بمشاهدةِ بصيرةٍ أو بَصرٍ، وأَصْلُ (شهد): يَدُلُّ على حُضورٍ وعِلْمٍ وإعلامٍ(١).

﴿الْوَصِيَّةِ﴾: الوصيةُ هي: التقدُّمُ إلى الغيرِ بما يَعملُ به مُقترنًا بوعظٍ؛ من قولهم: أرضٌ واصِيَة: مُتَّصِلةُ النباتِ قد امتلأتْ منه، ووصيتُ الشيءَ: وصلتُه، وأصل (وصي) يدلُّ على وصلِ شيءٍ بشيءٍ(٢).

﴿ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾: أي: ذهبتُم فيها؛ للتجارةِ وغيرِها من السَّفَر، وأصلُ الضَّربِ معروفٌ، وتُستعارُ منه مَعانٍ كثيرةٌ(٣).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٣١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٩٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٥٢).

﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾: تُوقفونهما، وأصلُ الحبس: المنعُ مِن الانبعاثِ(١).

﴿عُثِرَ﴾: أي: ظَهَر، واطُّلِع منهما، وأصل (عثر): الوقوعُ على الشيءِ والسُّقوط عليه، ثم يُستعمَلُ ذلك في كلِّ واقعٍ على شَيءٍ كان عنه خَفيًّا، ويُتجوَّز به فيمَن يَطَّلِع على أمْرٍ مِن غيرِ طَلَبِه، وإنَّما قِيل (عُثِرَ) مِن الاطِّلاعِ على الشَّيءِ؛ لأنَّ كلَّ عاثرٍ فلا بدَّ أن يَنظُرَ إلى موضِعِ عَثْرتِه(٢).

﴿اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ أي: استوجبَا جنايةً باليمينِ الكاذبةِ التي أقدَمَا عليها وحَلفَا بها؛ يُقال: استحقَّ فلانٌ الأمرَ: استوْجَبَه، وحقَّ الشيءُ إذا وجَب وثبَت(٣).

﴿أَدْنَى﴾: أي: أقربُ، والدُّنُو: القُربُ بالذَّات أو بالحُكم، ويُستعمَلُ في المكانِ والزَّمان والمنزِلة(٤).

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قَوْلُه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾(٥).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٨١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٨٢)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (٣/ ٢٤٤)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ١٤٤).

(٤) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٤٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٧).

(٥) قيل عن هذه الآية وما بَعدَها: إنَّها- في إعرابِها ومعناها وتفسيرِها وأحكامِها- مِن أشكلِ آياتِ القرآن وأصعبِها. وقدْ صَنَّف فيها مكيُّ بن أبي طالب مُصنَّفًا مفردًا. يُنظر: ((مشكل إعراب =

﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾.

﴿شهادةُ﴾ مرفوعةٌ على الابتداءِ. وخَبَرُها ﴿اثْنَانِ﴾ على نِيَّةِ حَذفِ مُضافٍ، والتَّقديرُ: شهادةُ اثنينِ؛ لأنَّ الشَّهادةَ لا تكونُ هي الـ﴿اثنانِ﴾. وقيل: ﴿شَهَادَةُ﴾ مبتدأٌ أيضًا، ولكِنْ خبرَها مَحذوفٌ يَدُلُّ عليه سياقُ الكَلامِ، والتَّقديرُ: فيما فُرِضَ عليكم أن يَشهَدَ اثنانِ، و﴿اثْنَانِ﴾ على هذا فاعِلُ المَصدَرِ الذي هو ﴿شَهَادَةُ﴾. و﴿بَيْنِكُمْ﴾ مضافٌ إليه مجرور مِن بابِ الاتِّساعِ في الظُّروفِ.

و﴿إِذَا﴾ على هَذَينِ الوَجهينِ ظرفٌ لـ﴿شَهَادَةُ﴾ أي: لِيَشْهَدْ وقتَ حُضورِ أماراتِ الموتِ. و﴿حِينَ﴾ بدلٌ من ﴿إِذَا﴾، أو ظَرْفٌ لـ﴿حَضَرَ﴾، أي: حينَ حضَر أماراتُ الموتِ. و﴿ذَوَا﴾ صفةٌ لـ﴿اثْنَانِ﴾، أي: صاحِبَا عَدلٍ، وكذلك ﴿مِنْكُمْ﴾ صِفةٌ ثانِيةٌ. ﴿آخَرَانِ﴾ مرفوعٌ عطفًا على ﴿اثنانِ﴾ على تقديرِ حذْفِ مضافٍ أيضًا، تقديرُه: أو شهادةُ آخرَينِ، و﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ صِفةٌ لـ﴿آخَرَانِ﴾.

﴿إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾: ﴿إِنْ﴾شرطيَّةٌ. ﴿أَنْتُمْ﴾: فاعلٌ لِفعلٍ محذوفٍ يُفَسِّرُه المذكورُ. و﴿ضَرَبْتُمْ﴾ تفسيرٌ للفِعلِ المحذوفِ؛ فلا محلَّ له مِنَ الإعرابِ، وجوابُ الشَّرطِ محذوفٌ يدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ﴾، والتَّقديرُ: إنْ ضَرَبْتُم في الأرْضِ فلْيَشهَدِ اثنانِ منكم أو مِنْ غيركم، أو التَّقديرُ: فأَشْهِدُوا آخَرَينِ مِن غيركم. ﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾: جملةٌ استئنافيَّةٌ لا محلَّ لها مِنَ الإعرابِ، وهو أَوْلى مِنَ القَولِ بكَونِها صِفَةً لـ﴿آخَرَانِ﴾؛ لِمَا يترَتَّبُ عليه مِنَ الفَصلِ بكلامٍ طَويلٍ بينَ الصِّفةِ ومَوصوفِها. ﴿فَيُقْسِمَانِ﴾: الفاءُ

= القرآن)) لمكي (١/ ٢٤٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٤٥٣).

عاطِفةٌ، والجملةُ معطوفةٌ على ﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾، فلا محلَّ لها مِنَ الإعرابِ.

﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا﴾: شرطٌ، وجوابُه محذوفٌ تقديرُه: إنِ ارْتَبْتُم فيهما فحَلِّفوهما، وهذا الشَّرطُ وجوابُه المقدَّرُ مُعترِضٌ بين القَسَمِ ﴿فَيُقْسِمَانِ﴾ لأنَّه يقومُ مقامَ اليَمينِ، وجوابِه: ﴿لَا نَشْتَرِي﴾، وليسَتْ هذه الآيةُ مِمَّا اجتمَعَ فيه شَرْطٌ وقَسَمٌ فأُجيبَ سابقُهما. والهاء في ﴿بِهِ﴾ تعودُ على تَحريفِ الشَّهادةِ، أو القَسَم. و﴿ثَمَنًا﴾ مفعولُ ﴿نَشْتَرِي﴾، ولا حَذْفَ فيه؛ لأنَّ الثَّمنَ يُشترَى كما يُشترَى به، وقيل: التَّقديرُ: ذا ثمنٍ، فحُذِفَ المُضافُ وأُقيمَ المُضافُ إليه مَقامَه.

﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ جملةٌ امتناعِيَّةٌ في محلِّ نصبٍ على الحالِ، واسمُ ﴿كان﴾ مُضَمرٌ فيها يعودُ على المَشهودِ له: أي: لا نَشْتري به ثمنًا في كُلِّ حالٍ، ولو كانَ الحالُ كونَ المشهودِ له ذا قرابةٍ. ﴿وَلَا نَكْتُمُ﴾ معطوفٌ على جوابِ القَسَمِ ﴿لَا نَشْتَرِي﴾؛ فلا مَحَلَّ له مِنَ الإعرابِ. ﴿إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾ جملةٌ استئنافيةٌ لا محلَّ لها من الإعراب. وقيل غيرُ ذلك في توجيهِ هذه الآيةِ(١).

٢- قَوْلُه تعالى: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾: ﴿عُثِرَ﴾: فِعلٌ مبنيٌّ لِمَا لم يُسمَّ فاعلُه. و﴿عَلَى أَنَّهُمَا﴾: في محلِّ رفْعٍ نائِبُ الفاعِلِ، أي: فإنِ اطُّلِعَ على استحقاقِهما الإثمَ.

﴿فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ﴾: ﴿فآخَرانِ﴾

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٤١- ٢٤٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٦٦- ٤٦٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٤٥٣-٤٧٠).

مرفوعٌ على أنَّه خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٌ، أي: فالشَّاهِدانِ آخَرانِ، والفاءُ رابطةٌ في جوابِ الشَّرطِ، دخلَتْ على الجُملةِ الاسميَّة، و﴿يَقُومَانِ﴾ و ﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ﴾ كِلاهما في محلِّ رفعٍ صفةٌ لـ ﴿آخَرَانِ﴾.﴿الْأَوْلَيَانِ﴾ فاعِلُ ﴿اسْتَحَقَّ﴾ مرفوعٌ، والمفعولُ محذوفٌ، أي: وصيَّتَهما. وقيلَ غيرُ ذلك(١).

- وقُرِئ (اسْتُحِقَّ) بالبناءِ للمفعولِ، و﴿الْأَوْلَيَانِ﴾ نائب فاعِل على تقديرِ حذْفِ مضافٍ، تقديرُه: مِن الَّذين استُحِقَّ عليهم إثْمُ الأَوْلَيين، أو انتدابُ الأَوْلَيين. وقيل: مرفوع (استُحِقَّ) ضميرُ الإيصاءِ أو المالِ أو الإثمِ، و﴿الْأَوْلَيَانِ﴾ بدلٌ مِنَ الضَّميرِ في ﴿يَقُومَانِ﴾ والتَّقديرُ: فيقومُ الأَوْلَيانِ، أو خَبَرُ مبتدأٍ محذوفٍ، أي: (هما الأوليان)؛ لأنَّه لَمَّا قال: ﴿فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ فكأنَّه قيل: ومَنْ هُما؟ فقيل: الأَوْلَيَانِ.

وقُرِئَ: (اسْتُحِقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلِينَ)، ومرفوعُ (استُحِقَّ) ضميرُ الإيصاءِ أو المالِ أو الإثمِ، كما تقدَّمَ في القِراءةِ السَّابقةِ، و (الْأَوَّلِينَ) مجرورٌ نعتٌ لـ (الَّذينَ استُحِقَّ عَلَيهم) أو بدلٌ مِنَ الضَّميرِ في ﴿عليهم﴾، أو منصوبٌ على المَدحِ(٢).

٣- ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا﴾: ﴿أَنْ يَأْتُوا﴾ مَصدرٌ مُؤوَّلٌ في محلِّ نصْبٍ على نَزْعِ الخافِضِ، أي: إلى أنْ يأتوا(٣).

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٤٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٦٨-٤٧٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٤٧٠- ٤٨٢).

(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٤٧٣-٤٨١)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٨٨-٦٨٩)، ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٥٥).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٤٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٧٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٤٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٩٢).

المَعنى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ اللهُ تعالى المؤمنين أنَّه إذا حضرتْ مُقدِّماتُ الموتِ أحدًا منهم، فليكتُبْ وصيَّتَه ولْيَشهَدْ عليها اثنانِ من المؤمنينَ العدولِ، وفي حالِ كان على سَفرٍ وحضَرَه أجَلُه، فلْيَشهدْ آخرانِ مِن غيرِ مِلَّة الإسلامِ إذا لم يُوجدِ العَدْلانِ من المؤمنينَ، فيُوقِفُ المسلمون الشاهدَينِ اللَّذينِ من غيرِ مِلَّتهم بعدَ صلاةِ العَصْرِ، ويَجعلانِهما يَحلِفان باللهِ- إنْ شكُّوا في شَهادتِهما، وظهرتْ لهم منهما رِيبةٌ- أنَّهما لا يَبغيانِ بحَلِفهما عرَضًا من الدُّنيا حتى يَكذِبَا فيها، وأنَّهما لا يُحابيانِ أحدًا ولو كان مِن قَرابتِهما، وأنَّهما لا يَكتُمانِ شهادةَ الله عندهما، وأنَّهما إنْ فَعَلَا شيئًا من ذلك فإنَّهما يكونان بذلك مِن المذنِبين العاصِين.

فإنْ ظهَر أنَّهما كاذبانِ بأنْ خانَا في أداءِ أمانةِ الميِّت، أو بدَّلَا في وصيَّته، فاستوجَبَا بأيمانِهما الكاذبةِ الإثمَ، فعندها يقومُ مَقامَهما اثنانِ من أولياءِ الميِّت المستحقِّينَ للتَّركة، ويكونانِ من أَوْلى مَن يَرِثُ الميِّتَ، فيحلفانِ بالله أنَّ شهادتهما أحقُّ مِن الشَّهادة التي شهِدها اللذَّانِ من غيرِ المسلمين، التي كذَبَا فيها وخانَا، وأنَّها أصحُّ منها وأثبتُ، وأنَّهما ما تَعدَّيَا الحقَّ في الشهادةِ والإخبارِ عن خِيانةِ هذينِ الشاهدَينِ، وأنَّهما إنْ كذَبا عليهما فإنَّهما إذَنْ من الظَّالمينَ.

ثم يُخبرُ تعالى أنَّ ذلك التحليفَ للشَّاهدَينِ إذا استُريب في أمرِهما، أقربُ لإتيانهما بالشهادةِ على وجهِها الصَّحيحِ بلا كَذِبٍ ولا خيانةٍ، وأمَر اللهُ سبحانه العبادَ بأنْ يتَّقوه، ويَسمعوا ما يُؤمَرون به، فيَعمَلوا على وَفْقِه، وأخبرَ أنَّه تعالى لا يُوفِّق الفاسقين للحقِّ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ

ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ (١٠٦)﴾.

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا قال الله تعالى في آخِر الآية السابقةِ: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فذكَر أنَّ مرجِعَنا إليه بعدَ الموتِ، وأنَّه يُحاسِبُنا ويُجازينا، ناسَب أنْ يُرشِدَنا في أَثَرِ ذلك إلى الوصيَّةِ قبلَ الموت، وإلى العنايةِ بالإشهادِ عليها؛ لئلَّا تضيعَ[(١)].

وأيضًا لَمَّا قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ كان في ذلك تنفيرٌ عن الضُّلَّالِ، واستبعادٌ عن أنْ يُنتفعَ بهم في شيءٍ من أمور المؤمنينَ من شهادةٍ أو غيرِها، فأخبَرَ تعالى بمشروعيَّة شهادتِهم أو الإيصاءِ إليهم في السَّفَرِ[(٢)].

سَببُ النُّزول:

عن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما، قال: ((خرَج رجلٌ من بَني سَهْمٍ مع تَمِيمٍ الدَّاريِّ وعَدِيِّ بنِ بَدَّاءٍ، فماتَ السَّهْميُّ بأرضٍ ليس بها مسلمٌ، فلمَّا قدِمَا بتَرِكتِه فقَدُوا جَامًا مِن فِضَّةٍ مُخَوَّصًا من ذَهبٍ[(٣)]، فأَحْلَفهما رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ثم وُجِد الجامُ بمكَّةَ، فقالوا: ابْتعْناهُ من تميمٍ وعديٍّ، فقام رجلانِ من أوليائه، فحلَفَا: لَشهادتُنا أحقُّ من شهادتِهما، وإنَّ الجامَ لِصَاحبِهم، قال: وفيهم

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٩٠).

(٣) الجامُ: إناءٌ من فِضَّةٍ، عربيٌّ صحيحٌ، ومُخوَّصًا: أي عليه صفائحُ الذَّهبِ مِثْل خُوصِ النَّخل. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٨٧)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٣١/ ٤٢٩).

نزلتْ هذه الآيةُ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾))[١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنونَ، إذا حضَر أحدَكم مُقدِّماتُ الموتِ وعلاماتُه، فكتَب وصيَّتَه، فلْيَشهدْ عليها اثنانِ من المؤمنين، مِن ذَوي الاستقامةِ والمروءة[٢].

﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾.

أي: أو ليَشهدْ على الوصيةِ آخَرانِ من غيرِ أهل مِلَّتكم- أيُّها المؤمنون- سواءٌ من اليهود أو النَّصارى أو غيرِهم، إنْ لم يوجدْ ذَوَا عدلٍ منكم، وفي حالِ سَفَرِكم، وإيقانِكم بحضورِ أجلِكم[٣].

﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾.

أي: فتُوقفونَ الشاهدَينِ اللَّذيْنِ من غيرِكم بعدَ صلاةِ العَصْرِ، وتَجْعلونَهما يحلفَانِ بالله تعالى، إنْ شكَكتُم في شهادتِهما، وظهرتْ لكم منهما رِيبةٌ في أنهَّما قد خانَا، فيحلفانِ حينئذٍ باللهِ تعالى أنَّا لا نَبغِي بحَلِفنا هذا عَرَضًا من الدُّنيا فنكذبَ في شَهادتِنا، ولا نُحابي أحدًا، ولو كان المشهودُ عليه من أقربائِنا[٤].

---

(١) رواه البخاري (٢٧٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٥-٦٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢١٥-٢١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٦-٢٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٦٤).

ويُنظر في معنى العَدَالة ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦١، ٧٠-٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٧٤-٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٦٥). =

عن الشَّعبيِّ: ((أنَّ رجلًا حضرتْه الوفاةُ بدَقُوقَاءَ[١]، فلم يجِدْ أحدًا من المسلمين يُشْهِدُهُ على وصيَّته، فأَشْهَد رجُلينِ من أهل الكِتاب، فقدِما بتركتِه إلى أبي موسى الأشعريِّ، فأخبراه، فقال الأشعريُّ: هذا أمرٌ لم يكُنْ بعد الذي كان في عهدِ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فأحْلَفهما بعدَ صلاةِ العَصْرِ باللهِ ما خانَا، ولا كَذَبَا، ولا بدَّلَا، وإنَّها لتَرِكَتُه، ثم أجاز شهادتَهما))[٢].

﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾.

أي: ولا نُخفي عنكم الشَّهادةَ التي حمَّلَنا اللهُ تعالى إيَّاها على الوصيَّة، بتحريفِها أو تبديلِها، أو كِتمانِها بالكلِّيةِ؛ فإنَّا إنْ فعَلْنا شيئًا من ذلك وقَعْنا في الإثمِ مع الواقعينَ فيه[٣].

= قال ابنُ عثيمين: (إذا أراد الشاهدانِ مِن غيرِ المسلمين أداءَ الشَّهادة فإنَّهما يُحبسان مِن بعدِ الصَّلاة....، ولكن هل هذا مشروطٌ بالارتيابِ في شهادتِهما، أو نقول: إنَّهما يُحبَسان على كلِّ حالٍ؛ ليظهرَ الفرقُ بين أداء الشَّهادة للمسلمِ وأداءِ الشَّهادة من غير المسلم؟ الآية فيها احتمالٌ؛ لأنَّ قوله: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ يحتملُ أنْ يكون قوله: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ قيدًا في قوله: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ ويحتمل أن يكون قيدًا لقوله: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ فعلى الاحتمالِ الأوَّل يكون حبسُهما واجبًا، وعلى الثاني: لا يكون حبسُهما واجبًا إلَّا إذا ارْتَبْنا منهما) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٨٦).

(١) دَقُوقَاء: مدينةٌ بين إربل وبغداد، لها ذِكرٌ في الأخبارِ والفُتوح، كان بها وقعةٌ للخوارج. ((معجم البلدان)) لياقوت (٢/ ٤٥٩).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٦٠٥)، وعبد الرزَّاق في ((المصنف)) (١٥٥٣٩)، والدارقطني في ((السنن)) (٤٣٤١)، والحاكم في ((المستدرك)) (٣٢٢٤).
قال الحاكمُ (٣٢٢٤): صحيحٌ على شرْط الشَّيخينِ. وصحَّح إسنادَه ابن كثير في ((التفسير)) (٣/ ٢١٥)، والزيلعيُّ في ((تخريج الكشاف)) (١/ ٤٢٨)، وقال ابن حجر في ((فتح الباري)) (٥/ ٤٨٣): إسنادٌ رجالُه ثقاتٌ. وقال الشوكاني في ((نيل الأوطار)) (٩/ ٢٠٤): صالحٌ للاحتجاج. وقال الألباني في ((صحيح أبي داود)) (٣٦٠٥): إسنادُه صحيحٌ إنْ كان الشعبيُّ سمِعَه من أبي موسى.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٦٥-٤٦٦).

﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٧)﴾.

﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾.

أي: فإنْ ظهَر أنَّهما كاذبانِ، فوُجِدَ أنَّهما قد خانَا مِن مالِ الميِّت شيئًا، أو بدَّلا وصيَّتَه، فاستوجبَا بأيمانِهما الكاذبةِ إثمًا(١).

﴿فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ﴾ ثلاثُ قِراءات:

١- ﴿اسْتَحَقَّ﴾ بِفَتْح التَّاء والحاء، و﴿الْأَوْلَيَانِ﴾ مُثنَّى (أَوْلى)، رُفع بـ﴿اسْتَحَقَّ﴾ على أنَّه فاعِلٌ(٢).

٢- ﴿اسْتُحِقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلِينَ﴾، ومرفوع ﴿اسْتُحِقَّ﴾ ضميرُ الإيصاءِ أو الوَصِيَّةِ أو المالِ، أو الإثْمِ. و﴿الْأَوَّلِينَ﴾ جمْع (أوَّل)، أي: المتقدِّم ذِكرُهم، أي: مِن الأَوَّلِين الذين استُحِقَّ عليهم الإيصاءُ أو الإثْمُ(٣).

٣- ﴿اسْتُحِقَّ﴾ بِضَمِّ التَّاء وكَسْرِ الحاءِ على البِناءِ للمَفعولِ، و﴿الْأَوْلَيَانِ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٨١-٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٦٦).

(٢) قرأ بها حفص. يُنظر: ((العشر)) لابن الجزري (ص: ٢٢٧).
ويُنظر في معنى هذه القراءة: ((الكشف)) لمكي (١/ ٤٢٠)، ((البحر المحيط)) لأبي حيان (٤/ ٣٩٧).

(٣) قرأ بها حمزةُ وخلفٌ ويعقوب وأبو بكر. يُنظر: ((العشر)) لابن الجزري (ص: ٢٢٧).
ويُنظر في معنى هذه القراءة: ((الكشف)) لمكي (١/ ٤٢٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٤٨٠).

مرفوعٌ بـ ﴿اسْتُحِقَّ﴾ على أنَّه نائِبٌ عَنِ الفاعِلِ[(١)].

﴿فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ﴾.

أي: فحينئذٍ يقومُ مقامَهما اثنانِ مِن أولياءِ الميِّتِ المستحقِّينَ للتركةِ، ولْيَكونا مِن أَوْلى مَن يَرِثُ هذا الميِّتَ الذي شُهِدَ على وصيَّتِه[(٢)].

﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

أي: فيَحلفانِ بأنَّ شهادتَنا أحقُّ مِن شهادتهما التي كذَبَا فيها وخانَا، وهي أصحُّ وأثبَتُ، وما تجاوَزْنا الحقَّ في شهادتِنا، وإخبارِنا عن خيانتِهما؛ فإنَّا إنْ كذَبْنا عليهما نكونُ في عدادِ الظَّالمين، ونقتطعُ بذلك أموالَ النَّاس بغيرِ حقٍّ[(٣)].

﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (١٠٨)﴾.

﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا﴾.

أي: هذا الفِعلُ- مِن تحليفِ الشاهدَينِ إذا استُريب بهما- أقربُ لأن يَصْدُقوا في شهادتِهم، ويُقيموها على الوجهِ الصَّحيح، فلا يَكذِبوا ولا يَخونوا[(٤)].

﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾.

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((العشر)) لابن الجزري (ص: ٢٢٧).
ويُنظر في معنى هذه القراءة: ((الكشف)) لمكي (١/ ٤٢٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٤٧٥-٤٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٨٢-١٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٠٣-١٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٦٦-٤٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٦٧).

أي: أو يَخافَ هؤلاءِ الشهودُ ألَّا تُقبلَ أيمانُهم إنْ ظهَرَ كذِبُهم وخيانتُهم، فتُرَدَّ الأيمانُ إلى الورثةِ، فيَحلِفونَ ويستحقُّون ما يَدَّعون، ويُفتضَح أمرُ شهودِ الوصيةِ بين النَّاس[1].

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا﴾.

أي: واتَّقوا اللهَ تعالى في جميعِ أُمورِكم، ومن ذلك: ترْكُ الحلِفِ بالله تعالى كذبًا، واجتنابُ خيانةِ الأمانةِ وغير ذلك، واسمَعوا ما يُقال لكم فاعْمَلوا به[2].

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

أي: واللهُ تعالى لا يُوفِّق للحقِّ الخارِجينَ عن طاعتِه، واتِّباعِ شريعتِه[3].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللهِ﴾ تعظيمُ أمْرِ الشَّهادةِ؛ حيث أضافَها تعالى إلى نفْسِه، وأنَّه يجبُ الاعتناءُ بها، والقيامُ بها بالقِسطِ[4].

٢- أنَّ الأصلَ في النَّاس أنْ يكونوا أُمَناءَ، وفي المُؤتمَنِ أن يكون أمينًا، وأنْ يكونَ ما يقولُه في أمْر الأمانةِ مقبولًا؛ ولذلك قال: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ فأفادتْ أداةُ الشرط (إنْ) أنَّ الأصل في هذا ألَّا يقع، وأنَّه إنْ وقَع كان شاذًّا، وأفاد فِعلُ ﴿عُثِرَ﴾ المبنيُّ للمفعولِ أنَّ هذا الشذوذَ إنْ وقَع فشأنُه أنْ يُطَّلعَ عليه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٨٨).

بالمصادفةِ والاتِّفاقِ، لا بالبحثِ وتتبُّعِ العَثَراتِ[١].

٣- أنَّ المدَّعَى عليه لا يجزمُ ببطلانِ شهادةِ الشاهدِ التي تَبيَّن أنَّ فيها شيئًا من الخَلَلِ؛ لِقَوْلِه: ﴿لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا﴾ بهذا اللَّفظِ، ولم يقل: (باطلةٌ)، لكنَّ قوله: ﴿أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا﴾ يستلزمُ أن تكونَ مردودةً، وأنَّ القولَ قولُ المدَّعَى عليه[٢].

٤- الختمُ بقولِه تعالى: ﴿وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فيه دلالةٌ على استقباحِ الظُّلْم والتبرُّؤ منه[٣].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ﴾ مشروعيَّةُ الوصيَّة والحثُّ عليها، وتأكيدُ أَمْرِها، وعدمُ التَّهاوُن فيها بشواغلِ السَّفَر وإن قُصِرَت فيه الصلاةُ، وأُبيحَ فيه الإفطارُ في رمضانَ، وأنَّه يَنبغي لِمَن حضَرَه الموتُ وعندهُ ما يُوصِي به أنْ يُوصِيَ[٤].

٢- أنَّ الوصيَّة مُعتبَرَةٌ، ولو كان الإنسانُ قد وصَل إلى مُقدِّماتِ الموتِ وعلاماتِه، ما دامَ عَقْلُه ثابتًا؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ﴾[٥].

٣- أنَّه يَنبغي الإشهادُ على الوصيَّةِ؛ لِقَوْلِه: ﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ﴾، وظاهرُ الآية الكريمة: أنَّه لا بدَّ من رجُلينِ؛ لِقَوْلِه: ﴿اثْنَانِ﴾ واثنان عددٌ للمُذكَّر، لكن هذه الآية تُقيَّدُ بآية البقرة، وهي قوله تعالى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ١٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٧).

﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾(١) [البقرة: ٢٨٢].

٤- أنَّه يُشترطُ في الإشهادِ أنْ يكونَ الشاهدانِ ذَوَيْ عدْلٍ؛ لِقَوْلِه: ﴿اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ﴾، ولكن إذا لم يُوجد عدلٌ ووُجِد فاسقٌ مأمونٌ؛ فهل يقوم مقامَ العَدْلِ؟ اختار بعضُ أهل العِلمِ أنَّه يقوم مقامَ العَدْلِ، وأنَّ اشتراط العدالةِ إنَّما هو عند التحمُّلِ، بمعنى: أنَّك إذا أردتَ أن تُشهِدَ فلا تُشهِد إلَّا عدلينِ، أمَّا عند أداءِ الشَّهادَةِ فالضروراتُ لها أحكامٌ، فإذا لم نجِدْ مَن يَشهد إلَّا هذينِ الفاسقَينِ، لكنَّهما في الأمانة موثوقانِ، فإنَّنا نَقبل شهادتَهما، وهذا هو الصَّواب؛ أنَّ العدالةَ شَرْطٌ مع الإمكانِ، وأمَّا إذا لم يُمكن فإنَّه تُقْبَل شهادةُ الفاسقِ بشَرْط أن يكون ثقةً، وكم مِن إنسانٍ يكونُ فاسقًا في عِبادتِه لكنَّه أمينٌ في شهادته! ونعلم أنَّنا لو اتَّبَعْنا اشتراطَ العدالة في أداء الشَّهادة، مُعتبِرينَ الشُّروط التي ذَكَرَها الفقهاءُ في العدالة، أنَّ كثيرًا من الحقوق سوف تضيعُ؛ لأنَّ كثيرًا من الناس ليسُوا على الاستقامةِ التي ذَكَرَها الفقهاءُ رحِمَهم الله(٢).

٥- جوازُ شهادةِ الكافر إذا عُدِمَ المسلمُ، سواء كان يهوديًّا أو نصرانيًّا أو بوذيًّا أو شيوعيًّا، أيًّا كان؛ لِقَوْلِه: ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾(٣)، والضروراتُ قد تُبيح المحظوراتِ؛ لأنَّ المسلمَ إذا قَرُب أجلُه في الغُربة، ولم يجدْ مسلمًا يُشهِده على نفْسِه، ولم تكن شهادةُ الكفَّار مقبولةً، فإنَّه يَضيع أكثرُ مهمَّاته؛ فإنَّه ربَّما وجبتْ عليه زَكَواتٌ وكفَّارات، وما أدَّاها(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٥٧٢)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٠٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٥٧١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٥٢).

٦- في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ بيانُ أنَّ جوازَ الاستشهاد بآخَرينَ من غيرِ المسلِمين مشروطٌ بما إذا كان المستشهِدُ مسافرًا ضاربًا في الأَرْض، وحضرتْ علاماتُ نُزولِ الموتِ به[1].

٧- جوازُ سفرِ المسلمِ مع الكافرِ إذا لم يكُن محذورٌ؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾[2].

٨- قَوْلُه تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ إشارةٌ إلى تحليفِ الشَّاهدينِ في جمْعٍ من النَّاسِ[3].

٩- شرعيَّة اختيارِ الأوقاتِ التي تُؤثِّر في قلوبِ الشُّهود ومُقْسِمي الأيمانِ، ويُرجى أن يَصدُقوا ويَبَرُّوا فيها؛ لِقَوْلِه: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾[4].

١٠- الغرضُ من التحليفِ بعدَ إقامة الصَّلاةِ في قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ هو أن الصَّلاة مُعظَّمة، والإنسانُ يخاف أنْ يَشهدَ بباطلٍ بعد هذه الصَّلاةِ التي ذَكَرها اللهُ عزَّ وجلَّ، إضافة إلى أنَّ الصلاةَ تَنهى عن الفحشاءِ والمنكَر؛ فكان احترازُ الحالفِ عن الكذبِ في ذلك الوقت أتمَّ وأكملَ، والله أعلم[5].

١١- التغليظُ على الحالِفِ بصيغةِ اليمينِ، بأنْ يقول فيه ما يُرجَى أنْ يكون رادعًا للحالفِ عن الكَذِبِ كالألفاظِ التي وردَتْ في قَوْلِه: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾، وأشدُّ منها ما ورَدَ في شهادةِ اللِّعانِ[6].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ١٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٨٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ١٩٠).

١٢- أنَّه لا يُحلَف بغيرِ الله؛ لِقَوْلِه: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾، فلو أُقسِم بغيرِ الله حتى بمَن يُعَظَّم عندَهم كالمسيح مثلًا، فإنَّها لا تُقبَل ولا يُعتدُّ بها[١].

١٣- أنَّ إقسامَ الشاهدَينِ لا يلزم إلَّا عند الارتيابِ في شهادتِهما؛ لِقَوْلِه: ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾. وأنَّ للقاضي أن يُحلِّفَ الشاهدَينِ عند الارتياب في شهادتِهما؛ فالحُكم يدور مع عِلَّته؛ لأنَّنا لم نُحَلِّفْهما بالله إلَّا عند الارتياب، لا لكونهما من الكفَّار[٢].

١٤- أن يكونَ صفةُ الإقسامِ على هذا: ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾، والصواب أنَّه يَكفي المعنى؛ لأنَّ هذا اللفظ لا يُتعبَّد به؛ حتى نقولَ: لا يمكن أن يُغيَّر، بل عبَّر الله عزَّ وجلَّ عن المعنى بهذا اللَّفْظِ، إذنْ: فالمرجعُ إلى المعنى[٣].

١٥- الإشارةُ إلى أنَّ للقرابةِ تأثيرًا في المَيلِ والعاطفة؛ لقولهما: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ وهذا شيءٌ فِطْريٌّ معروف، وقد أشارَ الله تبارك وتعالى إلى هذا في قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى﴾ [التوبة: ١١٣]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾[٤] [النساء: ١٣٥].

١٦- إضافةُ الشَّهادة إلى (الله) في قوله: ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾؛ لأنَّه هو الآمِرُ بها وبحِفظها، وألَّا تُكتَم، ولا تُضَيَّع، كذلك أضافَها إلى الله تشريفًا لها، وتعظيمًا لأمرِها[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٨٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ١٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٨٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٨٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢١٧)، ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٥٧٦).

١٧ - الإشارةُ إلى أنَّ الإرْثَ يكون للأَوْلى فالأَوْلى؛ لِقَوْلِه: ﴿الْأَوْلَيَانِ﴾ وقد جاء الحديثُ مقرِّرًا ذلك؛ فعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((أَلْحِقوا الفرائضَ بأهلِها، فما بقِيَ فِلأَوْلى رجُلٍ ذَكرٍ))[1].

١٨ - أنَّه إذا احتِيجَ في الشَّهادةِ أو في القَسَم إلى إثباتٍ ونفيٍ، فلا بدَّ مِن ذِكرِ الإثبات والنَّفي، فقولهما- يعني الأَولَيَينِ-: ﴿لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا﴾ هذا إثباتٌ، ﴿وَمَا اعْتَدَيْنَا﴾ هذا نفيٌ، فإذا احتِيجَ إلى ذلك فلا بدَّ مِن ذِكر النفيِ والإثبات؛ حتى تكونَ الشهادةُ خالصةً[2].

١٩ - أنَّ ردَّ الأَوْلَيَينِ لشهادةِ الشَّاهدَينِ على سبيلِ الاعتداء أعظمُ اعتداءً مِن تغييرِ الشهادة من الشاهدَينِ؛ وجهُ ذلك أنَّه في تغييرِ الشَّهادةِ من الشَّاهدَينِ، قال: ﴿إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾، وهنا قال: ﴿إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾[3].

٢٠- أنَّه كلَّما كان الشيءُ أقربَ إلى استنتاجِ الصوابِ والحقِّ في الشهادة فهو أَوْلى أن يُتَّبع، لِقَوْلِه: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا﴾؛ لأنَّ الإنسانَ إذا فَهِم أنَّ مِن ورائِه أناسًا سيقومون بردِّ شهادتِه والإقسامِ على بُطلانها، فلا بدَّ أن يتحرَّى الصدقَ فيما يشهدُ به[4].

٢١- أنَّ اللهَ سبحانه أَخْبَر بأنَّه لا يَهدي القومَ الفاسقينَ، أي: الخارجينَ عن طاعتِه، وخَبَر الله صِدقٌ، لكنْ يُشكِل على هذا أنَّ الواقِعَ أنَّ الله قد يَهدي الفاسقينَ، وقد يَهدي الكافرينَ؛ فكيف نجمع بين الواقِعِ وهذا الخبرِ الصادِق؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٩٠).
والحديث أخرجه البخاريُّ (٦٧٣٧) ومسلمٌ (١٦١٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٩٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٩١).

الجَمْع أن نقول: إنَّ قولَه: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾، أي: الذين كتَب اللهُ عليهم الفِسقَ، وأمَّا مَن كتَب عليه أن يؤمِنَ فيُؤمن ولا بدَّ، ولكنَّ الفائدة مِن هذا- أي: مِن إطلاقِ قولِه: ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾- الإشارةُ إلى أنَّ عدمَ هِدايةِ الله للقَوْمِ الفاسقين؛ لأنَّهم اختاروا الفِسقَ، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾(١) [الصف: ٥].

بَلاغةُ الآياتِ:

١ - قَوْلُه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ استئنافٌ مسوقٌ لبيانِ الأحكامِ المتعلِّقة بأمور دُنياهم إثرَ بيانِ الأحوالِ المتعلِّقة بأمورِ دِينهم، وتصديرُه بحرفَي النِّداءِ والتنبيهِ ﴿يَا أَيُّهَا﴾؛ لإظهارِ كمالِ العنايةِ بمضمونِه(٢).

٢- قَوْلُه: ﴿إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ فيه: التفاتٌ من الغَيبة إلى الخِطاب، ولو جرَى على لفظ: ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ لكان التركيب: (إنْ هو ضرَبَ في الأرض فأصابتْه مصيبةُ الموت)، وإنما جاءَ الالتفات جمعًا؛ لأنَّ قوله: ﴿أَحَدَكُم﴾ معناه: إذا حضرَ كلَّ واحد منكم الموتُ(٣)، وقيل: بل ليس فيه التفاتٌ؛ لأنَّ الخطابَ جارٍ على أسلوبِ الخِطاب الأوَّل مِنْ قَوْلِه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ...﴾ إلى آخِره(٤).

٣- قَوْلُه: ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾

- قوله: ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ اعتراضٌ يفيد اختصاص القَسَم بحال الارتياب(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٩٤).

(٤) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٤٦٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٤٦).

- وقَوْلُه: ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا﴾ فيه كنايةٌ عن استبدال عَرَضٍ من الدُّنيا، وهو على حَذْف مضاف، أي: لا نَشْتَري ذا ثَمَن؛ لأنَّ الثَّمنَ لا يُشترى، ولا يَصِحُّ أن يكونَ ﴿لَا نَشْتَرِي﴾ هنا بمعنى لا نبيع، وإنْ كان ذلك صحيحًا في اللُّغة(١).

- وقَوْلُه: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ فيه حذْفُ جوابِ ﴿لَوْ﴾؛ ثقةً بدَلالةِ ما سبَق عليه، أي: ولو كانَ ذا قربى لا نَشتري به ثمنًا(٢).

- وخصَّ اللهُ (ذا القُربى) بالذِّكر؛ لأنَّ الميلَ إليهم أتمُّ، والمداهنةَ بسببهم أعظمُ(٣).

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ تأكيدُ تبرُّئهما من الحَلِف كذبًا، ومبالغةٌ في التنزُّه عنه، كأنَّهما قالا: لا نأخُذُ لأنفسِنا بدلًا مِن حُرمةِ اسمِه تعالى مالًا، ولو انضمَّ إليه رعايةُ جانب الأقرباء؛ فكيف إذا لم يكُنْ كذلك(٤)؟!

٤- في قوله تعالى: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ.... إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾ ناسبَ ختْمُ ما أقْسم عليه شاهدَا الزُّورِ بقولِه: ﴿لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾؛ لأنَّ عدَمَ مطابقة يمينهما للواقِع وكَتْمَهما الشهادةَ يجرَّانِ إليهما الإثمَ، وفي قوله: ﴿وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ناسَب ذِكْرُ الظلمِ هنا قولَهما: ﴿وَمَا اعْتَدَيْنَا﴾؛ لأنَّ الاعتداءَ والظُّلم متقارِبان(٥).

٥- ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾: إنَّما جمَع

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٩٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٩٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٥٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٩٠)، ((تفسير الألوسي)) (٢/ ٤٥٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٠٠).

الضَّمائرَ هنا في ﴿يَأْتُوا﴾ وما بعدَه، وإن كان السابق مثنًّى، فلم يُثنِّها كما سَبَق؛ لأنَّه حُكمٌ يعمُّ الشُّهودَ كلَّهم؛ فإنَّه لا يعودُ إلى الشَّاهِدَينِ بخُصوصيَّتهما، بل إلى النَّاسِ الشُّهودِ، والتقدير: ذلك أدْنَى أنْ يحذرَ الناسُ الخيانةَ فيَشْهَدوا بالحقِّ خوفَ الفضيحةِ في ردِّ اليمينِ على المدَّعِي. وقيل: هو عائدٌ على الشَّاهِدَينِ باعتبارِ الصِّنفِ والنَّوعِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٠١).

الآيتان (١٠٩ - ١١٠)

﴿ ۞ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١٠٩) إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١١٠) ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾: أي: جبريلَ عليه السَّلام، سُمِّيَ بذلك؛ لأنَّه يأتي بما فيه حياةُ القلوبِ، وأصل القُدس الطَّهارةُ(١).

﴿الْمَهْدِ﴾: أي: مَضْجَعِ الصَّبيِّ فِي رَضاعِه، وما يُهيَّأ له، وأصلُه: التَّوطئةُ للشَّيءِ، وتَسهيلُه(٢).

﴿وَكَهْلًا﴾: أي: ابن ثلاثين سَنةً، والكَهْل: الذي انتهَى شبابُه، ومَن وَخطَه الشيبُ، والكهولةُ فوقَ الغلومة، ودونَ الشَّيخوخةِ، وأصل (كهل): القوَّة في الشَّيءِ، أو اجتماع الجِبلَّة(٣).

---

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤١٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٥٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٤٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٤٥).

﴿وَالْحِكْمَةَ﴾: أي: الفِقه، وتُطلَق الحِكمةُ على إصابةِ الحقِّ بالعِلم والعَمَل، وأصل (حكم): المنْع، والإحكامُ هو الفصلُ والتمييزُ، والفَرْقُ والتَّحديد الذي به يتحقَّقُ الشيءُ ويحصُل إتقانُه؛ ولهذا دخَل فيه معنى المنْع كما دخَل في الحدِّ، فالمنعُ جزءُ معناه لا جميعُ معناه، والحِكمة اسمٌ للعَقل، وإنَّما سُمِّي حِكمة؛ لأنَّه يمنع صاحبَه من الجَهل[1].

﴿وَتُبْرِئُ﴾: وتَشْفِي، أصلُه من البُرء والبَراء والتبرِّي: وهو التفصِّي ممَّا يُكرَه مجاورتُه، والتباعُدُ من الشَّيءِ ومُزايلتُه، والمقصودُ هنا: السَّلامة من السُّقم[2].

﴿الْأَكْمَهَ﴾: الذي يُولَد أعْمَى، أو هو الذي يُولَد مَطموسَ العين، وقيل: هو الأعْمَى مطلقًا[3].

﴿الْأَبْرَصَ﴾: الذي به مرضُ البَرَصِ، وهو مرضٌ معروفٌ يُصيب الجِلدَ، وهو لمعةٌ تُخالِفُ سائرَ لونِ الجلد[4].

﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾: جمْع بيِّنة، وهي: الدَّلالة الواضحة؛ يُقال: بانَ الشَّيء وأبان، إذا اتَّضح وانْكشَف[5].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦،٣٤٧)، ((الإكليل في المتشابه والتأويل)) لابن تيمية (ص: ١١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٤).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٤).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٧).

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تعالى عن بعضِ ما سيَجري يومَ القيامةِ؛ إذ يجمع سبحانه الرُّسلَ، فيسألُهم عن الذي أجابَتْهم به أُممُهم حينَ بلَّغوهم دعوةَ الحقِّ، فيجيبُ الرُّسلُ بأنَّهم لا عِلْمَ لهم، وأنَّ اللهَ سبحانَه هو علَّامُ الغُيوبِ.

ويخبِرُ اللهُ تعالى أيضًا عن قولِه لعيسَى عليه السلامُ: يا عيسى ابنَ مريمَ، اذكُرْ نِعَمِي عليك وعلى والدتِك؛ إذ أعنْتُك وقوَّيتُك بجبريلَ عليه السَّلام، تُكلِّمُ الناسَ في صِغَرك وفي كِبَرك، وإذ علَّمتُك الكِتابةَ، والفَهمَ ومعرفةَ أسرارِ الشَّرعِ، وعلَّمتُك التوراةَ والإنجيلَ، وإذ تَصنَعُ من الطِّين كهيئةِ طائرٍ بإذني، فتنفخُ فيما صنعتَه من الطِّين، فيكونُ طيرًا ذا رُوحٍ بإذني، وتَشفِي مَن يُولَد أعْمَى، وتَشفِي مَن به داءُ البَرَصِ بإذني، وتُخرِجُ الموتى من قُبورِهم أحياءً بإذني، وإذ صددْتُ بني إسرائيلَ عنك وقد أرادوا قتْلَك لَمَّا جِئتَهم بالبيِّناتِ؛ فقال الكافرونَ منهم: ما هذا الذي أتيتَ به إلَّا سحرٌ واضحٌ ظاهرٌ.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١٠٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أَخْبَرَ تعالى بالحُكم في شاهِدَيِ الوصيَّة، وأمَرَ بتَقْوى اللهِ، والسَّمعِ والطَّاعة، ذكَّر بهذا اليومِ المَهُولِ المخوفِ، وهو يومُ القيامةِ فجَمَع بذلك بين فَضيحةِ الدُّنيا، وعقوبةِ الآخِرة لِمَن حرَّف الشهادةَ، ولِمَن لم يتَّقِ اللهَ ولم يَسمعْ[1].

وأيضًا لَمَّا كان من عادةِ القُرآنِ الكريمِ أنَّه إذا ذَكَر أنواعًا كثيرةً من الشَّرائع

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٠٢).

والتَّكاليف والأحكام، أتْبَعَها إمَّا بالإلهيَّات، وإمَّا بشَرْحِ أحوالِ الأنبياء، أو بشَرْحِ أحوال القيامة؛ ليصير ذلك مؤكِّدًا لِمَا تَقدَّم ذِكرُه من التكاليف والشَّرائع، فلا جرمَ لَمَّا ذكَر فيما تَقدَّم أنواعًا كثيرة من الشَّرائعِ أتْبَعَها بوصْفِ أحوالِ القيامةِ أولًا، ثمَّ ذِكْرِ أحوالِ عيسى عليه السَّلامُ[(١)]، فقال تعالى:

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾.

أي: اذكرْ يومَ يَجمَعُ الله تعالى جميعَ رُسُلِه عليهم الصَّلاةُ والسَّلام يومَ القيامة، فيسألُهم: ما الذي أجابتْكم به أُممُكم حين دَعوتُموهم إلى الحقِّ[(٢)]؟

كما قالَ تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦].

﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾.

أي: قال الرُّسُلُ الكِرامُ عليهم الصَّلاةُ والسَّلام: لا عِلْمَ لنا، ولا يَخفَى عليك يا ربَّنا ما عِندنا من عِلمِ ذلك وغيرِه؛ فأنت العَليمُ ببواطن الخَلْق، والمطَّلِعُ على كلِّ شيءٍ[(٣)].

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٠٩-١١٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٩٢-٤٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١١٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٨).

وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (١١٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا كان الغَرَضُ من قولِه تعالى للرُّسلِ: ﴿مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ توبيخَ مَن تمرَّدَ مِن أُمَمِهم، وكان أشدَّ الأممِ افتقارًا إلى التوبيخِ والملامةِ النَّصارى الذين يَزعُمون أنَّهم أتْباعُ عيسى عليه السَّلام؛ لأنَّ طَعْنَ سائرِ الأُمَم كان مقصورًا على الأنبياءِ، وطَعْنَ هؤلاء المَلاعِين تعدَّى إلى جلالِ الله وكِبريائِه؛ حيث وصَفُوه بما لا يَليقُ بعاقلٍ أن يصفَ الإلهَ به، وهو اتِّخاذُ الزوجةِ والولدِ؛ فلا جرَمَ ذَكَر اللهُ تعالى أنَّه يُعدِّد أنواعَ نِعَمه على عيسى بحضرةِ الرُّسُلِ واحدةً فواحدةً، والمقصودُ منه توبيخُ النصارى وتقريعُهم على سوءِ مَقالتِهم؛ فإنَّ كلَّ واحدةٍ مِن تلك النِّعَم المعدودة على عيسى تدلُّ على أنَّه عبدٌ وليس بإلهٍ[١]، فقال تعالى:

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ﴾.

أي: اذْكُرْ حين نادَى الله تعالى عيسى عليه السَّلام[٢] قائلاً له: اذكُرْ ما أجريتُه عليكَ وعلى والدتِك مِنَ النِّعَم[٣].

ثمَّ شرَع اللهُ تعالى يُفصِّل تِلك النِّعمَ، فقال[٤]:

﴿إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٥٨).

(٢) ذهَب إلى وقوعِ ذلك يومَ القيامة: ابنُ عطية في ((تفسيره)) (٢/ ٢٥٧)، والقرطبيُّ في ((تفسيره)) (٦/ ٣٦٢)، وابنُ عاشور في ((تفسيره)) (٧/ ١٠٠). وجعَلَه ابنُ كثير احتمالًا. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٩٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٩٩-٥٠٠).

أي: حيثُ قوَّيتُك بجبريلَ عليه السَّلامُ، وأعنتُك به[1].

﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾.

أي: تدْعُو النَّاسَ إلى اللهِ تعالى في حالِ صِغَرِك وكِبَرِك[2].

﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾.

أي: واذكُرْ- يا عيسى- أيضًا نِعمَتي عليك إذْ علَّمتُك الخطَّ والكتابةَ[3]، والفَهمَ ومعرفةَ أسرارِ الشَّرع، وعلَّمتُك التوراةَ والإنجيل[4].

﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ ثلاث قراءات:

١- ﴿... كَهَيْئَةِ الطَّائِرِ... فَتَكُونُ طَائِرًا﴾، أي: إنَّه كان يَخْلُق واحدًا ثمَّ واحدًا[5].

٢- ﴿... كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ... فَتَكُونُ طَائِرًا﴾ أي: تُقدِّر هيئةً كهيئةِ الطَّير، فتكونُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١١٣-١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٨).

(٣) وقيل المرادُ بالكتاب هنا: جِنسُ الكتُب السَّابقة. وهو اختيارُ السعدي في ((تفسيره)) (ص: ٢٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٠٢-٥٠٣).

(٥) قرأ بها أبو جعفر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٨٧).

ويُنظر لمعنى القراءتين: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٥٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٦٤).

الهيئةُ طائرًا، أي: كلُّ هَيئةٍ تُقدِّرها تكونُ واحدًا مِن الطَّير[(١)].

٣- ﴿... كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ... فَتَكُونُ طَيْرًا﴾، أي: إنَّ الله تعالى أَذِنَ له أن يَخلُقَ طيرًا كثيرةً، ولم يكن يَخلُقُ واحدًا فقط[(٢)].

﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾.

أي: تُصوِّر الطِّينَ، وتَصنَعُ منه هيئةَ طائرٍ بإذني، فتنفخُ في تِلك الصُّورةِ التي شكَّلتَها، فتكونُ طائرًا ذا رُوحٍ بإذني[(٣)].

﴿وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾.

أي: وتَشْفِي مَن يُولَد أعْمى، ومَن به داءُ البَرَص الذي يُصيب الجِلدَ بإذنِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وتُخرجُ الموتَى من قُبورِهم أحياءً بإذنِ الله تبارَك وتعالى[(٤)].

﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبْلَها:

بعدَ أن ذكَر اللهُ سبحانَه بعضَ ما أعطاه لعيسَى عليه السَّلام مِن معجزاتٍ فيها مِن المنافعِ، أتْبَعها بذكرِ ما دفَع عنه مِن مضارَّ[(٥)]، فقال:

---

(١) قرأ بها نافع ويعقوب. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٨٧).

ويُنظر لمعنى القراءتين: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٠٢).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٨٧).

ويُنظر لمعنى القراءتين: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٥٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٠٣-٥٠٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٤/ ٢٩٢).

﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾.

أي: واذكُرْ- يا عيسى- أيضًا نِعمتي عليك، في صدِّي بني إسرائيلَ عنك، وقدْ همُّوا بقتْلِك حين جِئتَهم بالحُججِ والبَراهينِ على رِسالتِك، فحَفِظتُك منهم وعصَمتُك[1].

﴿فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قوله تعالى: ﴿سِحْرٌ﴾ قِراءتان[2]:

١- قِراءة ﴿سَاحِرٌ﴾- بالألِف على أنَّه اسمُ فاعلٍ- إشارةً إلى عِيسى عليه السَّلام[3].

٢- قِراءة ﴿سِحْرٌ﴾- مِن غيرِ ألِفٍ على أنَّه مصدرٌ- إشارةً إلى ما جاءَ به عيسى عليه السَّلام من البيِّنات، أي: ما هذا الَّذي جاءَ به من الآياتِ الخَوارقِ إلَّا سِحرٌ[4].

﴿فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١١٥-١١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٠٥).

(٢) قال ابنُ جرير: (والصوابُ من القول في ذلك: أنَّهما قِراءتانِ معروفتانِ صحيحتَا المعنى، متَّفقتانِ غير مُختلفتَينِ؛ وذلك أنَّ كلَّ مَن كان موصوفًا بِفعل السحر فهو موصوفٌ بأنَّه ساحر، ومَن كان موصوفًا بأنَّه ساحر فإنَّه موصوفٌ بِفعل السحر، فالفعل دالٌّ على فاعله، والصِّفة تدلُّ على موصوفها، والموصوف يدلُّ على صِفته، والفاعل يدلُّ على فعله، فبأيِّ ذلك قرأ القارئ فمصيب) ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١١٦).

(٣) قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٢٧-٢٢٨).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٤٩٨).

(٤) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٢٧-٢٢٨).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٤٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٤٩٧).

أي: فقال كفَّارُ بني إسرائيلَ: ما هذا إلَّا ساحرٌ ظاهرٌ ذُو سِحرٍ جليٍّ[1].

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ أنَّه يجبُ على الإنسانِ أنْ يَتذكَّرَ هذا اليومَ العظيمَ؛ لينظرَ ماذا أجابتْ به الرُّسُلُ، وهو يومُ القِيامة حين يُجمَعُ الرُّسُل ويُسألون[2].

٢- التَّنصيصُ على النِّعمة بالعِلم والشَّرعِ والحِكمة، وأنَّها أخصُّ من مطلَق النِّعمة؛ لأنَّ مُطلَق النِّعمة سبَقَ في قَوْلِه تعالى: ﴿اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ﴾ أما العِلمُ فخصَّه بقوله: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ﴾، وعلى هذا فيجبُ على طالبِ العِلم أنْ يَشكُرَ اللهَ تعالى على نِعمتِه عليه؛ حيث خصَّه بالعِلم الذي حَرَمَهُ كثيرًا من النَّاسِ، وإذا منَّ اللهُ عليه بالعِبادةِ والدَّعوة إلى الله صارَ نِعمةً فوقَ نِعمةٍ؛ مِمَّا يدعوه إلى المُثابرةِ والصبرِ على ما هو عليه مِن طلبِ العِلم، وازديادِ العبادةِ، وقوَّة الدَّعوة إلى الله عزَّ وجلَّ[3].

٣- في قَوْلِه: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ﴾ تذكيرُ الله سبحانه وتعالى عِبادَه بنِعَمِه عليهم، وهذا جاءَ في القرآنِ في غيرِ ما موضعٍ، مِثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [فاطر: ٣]، أحيانًا يكون عامًّا كهذه الآية، وأحيانًا يكون خاصًّا؛ مثل قوله: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٦]، وما أشبه ذلك؛ وإنَّما يُذكِّر اللهُ العبادَ بالنِّعمة من أجْلِ وجوبِ شُكرها؛ لأنَّ وجوبَ شُكر المنعِم ثابتٌ سَمْعًا وعقلًا، أمَّا السَّمع فمملوءٌ به القرآنُ؛ كقولِه تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا لِي﴾ [البقرة: ١٥٢]،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٠٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٩٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥١٠).

وقوله: ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٢]، وأمَّا عَقْلًا: فلأنَّه ليس من المروءةِ أن تُقابَل النِّعمةُ بالإساءةِ والكُفر؛ فشُكْرُ المنعِم إذنْ واجبٌ سمعًا وعقلًا(١).

٤- أنَّ اللهَ يُدافِعُ عن المؤمنينَ، وأنَّ كَفَّ الأذَى عن الإنسانِ مِن نِعمةِ اللهِ عليه؛ لقولِه تعالى: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾؛ ولهذا امتنَّ اللهُ به على المؤمنينَ، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج: ٣٨]، فكلَّما كان الإنسانُ أشدَّ إيمانًا بالله عزَّ وجلَّ دفَعَ اللهُ عنه، وتسليطُ بعضِ الناس عليه بالإيذاءِ ما هو إلَّا كتسليطِ المَرَضِ على الرُّسُلِ والأنبياءِ من باب رِفعةِ الدَّرجاتِ، وإلَّا فلا شكَّ أنَّ هناك أئمَّةً مِن هذه الأمَّة أُوذُوا أشدَّ الإيذاء، بل الرُّسُلُ عليهم الصَّلاةُ والسَّلام يُؤذَوْنَ؛ كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا﴾ [الأنعام: ٣٤]، لكنْ هذا من باب رِفعةِ الدَّرجاتِ(٢).

٥- تشجيعُ الدَّاعي إلى اللهِ عزَّ وجل الذي يأتي بالآياتِ البيِّناتِ؛ فإنَّه عُرضةٌ للإيذاءِ لِقَوْلِه: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾، فكلُّ إنسانٍ يَدْعو إلى اللهِ، ويأتي بالبراهينِ والأدلَّة، لا بدَّ أنْ يُسلَّطَ عليه مَن يُسلَّطُ، ولكنَّ اللهَ تعالى بقُوَّتِه وقُدرتِه يَصرِفُ عنه(٣).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ معرفةُ تمامِ قُدرة اللهِ تبارَكَ وتعالى؛ وذلك بجَمْعِه الرُّسُلَ في ذلك الموقِفِ العظيمِ، الذي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٠٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥١٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥١٦).

يَختلطُ فيه الآدميُّون والوُحوشُ والسِّباعُ والإبلُ وغيرها، فيَجمَعُ اللهُ سبحانه وتعالى الرُّسلَ بقُدرتِه وإذْنِه[1].

٢- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ فضيلةُ الرُّسُلِ عليهم الصلاة والسلام؛ حيث إنَّ اللهَ سبحانه وتعالى يَعتني بهم هذا الاعتناءَ، حتى إنَّه يسألُهم يومَ القيامَةِ في هذا المشهَدِ العظيمِ: ماذا أُجِيبوا؟ تكريمًا لهم، وإظهارًا لإبلاغِهم الرِّسالةَ[2].

٣- لَمَّا كان ممَّا لا يَخفى أصلًا أنَّهم أُجيبوا، ولا يقعُ فيه نزاعٌ، ولا يتعلَّقُ بالسُّؤال عنه غرضٌ، تجاوزَ السُّؤالَ إلى الاستفهامِ مِن نوعِ الإجابةِ، فقال: ﴿مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ أي: أيَّ إجابةٍ أجابَكم مَن أُرْسِلْتم إليهم؟ إجابةَ طاعةٍ، أو إجابةَ معصيةٍ[3].

٤- في قَوْلِه تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ دليلٌ على جوازِ إطلاق لفْظ العلَّام على الله سبحانه، كما جاز إطلاقُ لفظِ الخلَّاقِ عليه، أما العلَّامة؛ فإنَّهم أجمعوا على أنَّه لا يجوزُ إطلاقها في حقِّه تعالى[4].

٥- قدْ يُتوهَّمُ التعارُضُ بين ظاهِرِ قَوْلِه تعالى: ﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾، وهو يدلُّ على أنَّ الأنبياءَ لا يَشهدون لأُممهم، وبَيْنَ قَوْلِه تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، وفيه أنَّ الأنبياءَ يشهدون على أُممهم. والجَمْعُ بينهما من وجوهٍ:

الوجه الأوَّل: أنَّهم إنَّما قالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾؛ لأنَّك تعلَمُ ما أَظهروا وما أضمروا، ونحن لا نعلم إلَّا ما أَظهروا؛ فعِلمُك فيهم أنْفَذُ مِن عِلْمِنا؛ فلهذا المعنى نَفَوْا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٩٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٣٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٥٨).

العِلْمَ عن أنفُسِهم؛ لأنَّ عِلمَهم عندَ الله كَلَا علم.

الوجه الثَّاني: أنَّهم قالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ إلَّا أنْ عَلِمْنا جوابَهم لنا وقتَ حياتِنا، ولا نعلمُ ما كان منهم بعدَ وفاتِنا، والجزاءُ والثوابُ إنَّما يحصُلانِ على الخاتمةِ، وذلك غيرُ معلومٍ لنا.

الوجه الثَّالث: أنَّ الحاصِلَ عندَ كلِّ أحدٍ مِن حالِ الغيرِ إنَّما هو الظنُّ لا العِلْم؛ فالأنبياءُ قالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ البتةَ بأحوالِهم، إنَّما الحاصلُ عندنا مِن أحوالهم هو الظنُّ، والظنُّ كان مُعتبَرًا في الدُّنيا؛ لأنَّ الأحكامَ في الدُّنيا كانت مبنيَّةً على الظنِّ، وأمَّا الآخرَة فلا التفاتَ فيها إلى الظنِّ؛ لأنَّ الأحكامَ في الآخرة مبنيَّةٌ على حقائِقِ الأشياء، وبواطِنِ الأمورِ؛ فلهذا السببِ قالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ ولم يذكروا البتةَ ما معهم من الظنِّ؛ لأنَّ الظنَّ لا عِبرةَ به في القيامَةِ.

الوجه الرابع: أنَّهم لَمَّا علِموا أنَّه سبحانه وتعالى عالمٌ لا يَجهل، حكيمٌ لا يَسْفَه، عادلٌ لا يَظلِم، علِموا أنَّ قولَهم لا يُفيد خيرًا، ولا يدفعُ شرًّا، فرأوا أنَّ الأدبَ في السُّكوتِ، وفي تفويضِ الأَمْرِ إلى عدلِ الحيِّ القيومِ الذي لا يموتُ[1].

٦- جوازُ نسبَةِ الإنسان إلى أمِّه إذا لم يكُن له أبٌ؛ لِقَوْلِه: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾[2].

٧- شرع الله في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى... إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ في تعديدِ نِعَمه على عيسى عليه السلام، لكن قولُ الكفَّارِ في حقِّه: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ليس من النِّعَمِ؛ فكيف ذكَره هاهنا؟

والجواب: أنَّ مِن الأمثال المشهورة: أنَّ كلَّ ذي نِعمة محسودٌ؛ وطَعْنُ الكفَّارِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٥٦، ٤٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (٢/ ٤٩٤، ٤٩٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٠٧).

في عيسى عليه السلام بهذا الكلام يَدلُّ على أنَّ نِعَم اللهِ في حقِّه كانتْ عظيمةً، فحَسُنَ ذِكرُه عند تعديدِ النِّعَم(١).

٨- قَوْلُه تعالى: ﴿اذْكُرْ﴾ فائدةُ هذا الذِّكر إسماعُ الأممِ ما خَصَّه به تعالى من الكرامةِ، وتأكيدُ حُجَّته على جاحِدِه(٢).

٩- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ﴾ أنَّ الأنبياءَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلام يجب عليهم الشُّكرُ، كما يجب على مَن أُرسِلَ إليهم؛ لأنَّ اللهَ أمَر عيسى أنْ يذكُرَ نِعمتَه عليه وعلى أُمِّه، والأنبياءُ أشدُّ الناسِ قِيامًا بشُكرِ النِّعمة(٣).

١٠- فضيلةُ جبريلَ عليه السَّلامُ؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ أَيَّدْتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ وأنَّه يُؤيِّد الأنبياءَ والرُّسُل(٤).

١١- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿بِإِذْنِي﴾ أنَّ المسيحَ لم يُعطَ هذه القوَّةَ دائمًا، بل كانتْ هذه الآيةُ كغيرها لا تقَعُ إلَّا بإذنٍ من الله، وتأييدٍ مِن لَدُنْه(٥).

١٢- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ إطلاقُ لفظ الخَلْق على ما صنَعَه المخلوق، فلو صنعْتَ بابًا، تقول: خلقتُ بابًا، ويدلُّ لهذا قولُ الله تبارَك وتعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، والفرق بين خَلْق الخالِقِ، وخَلْق المخلوقِ: أنَّ خَلْقَ الخالق إيجادٌ مِن عدَم على ما يُريد اللهُ عزَّ وجلَّ؛ قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٦]، أمَّا خَلْق المخلوقِ: فهو تحويلُ مخلوقِ الله إلى صِفةٍ أخرى،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٦٠، ٤٦١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٠٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٠٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٠٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٠٥).

وإلَّا فالأصلُ من الله عزَّ وجلَ؛ وذلك كأن يجعلَ مِن الذَّهب حُليًّا، أما أن يجعلَ من الحجرِ ذهبًا فلا يستطيعُ ذلك أحدٌ(١).

١٣- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ أنَّه سبحانه وتعالى يَختارُ مِن الآيات أشدَّها إعجازًا؛ فإنَّه لم يَمُنَّ على عيسى بأنْ يخلُقَ أرنبًا أو قِطًّا أو ما أشبَهَ ذلك، بل طائرًا؛ لأنَّ الطيرانَ في الجوِّ أبلغُ من المشي على الأرض، فاختارَ اللهُ له أن يَخلُق طائرًا، يعني: على صورةِ الطَّير(٢).

١٤- ممَّا يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ أنَّ النَّفْخَ له تأثيرٌ في الأجسادِ إذا أراد الله عزَّ وجلَّ أن يُؤثِّرَ؛ لأنَّه نَفَخَ في الطيرِ الذي صنعَه فصارَ طائرًا كما في القِراءة الأخرى، لَمَّا نفخَ فيه صارَ حيوانًا من الطيور، ثمَّ طار لتحقُّقِ أنَّه دخلَتْه الرُّوحُ، ومِن ثَمَّ جاءتِ القراءةُ على المريض عن طريقِ النَّفْثِ، والنَّفْث يتضمَّن نفخًا وريقًا، وهذا مؤثِّرٌ بإذنِ الله عزَّ وجلَّ(٣).

١٥- ممَّا يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾ أنَّه لا يُمكن لأيِّ بشرٍ مهما أُوتيَ أن يحصُلَ له مرادُه إلَّا بإذنِ الله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ كلَّ جملةٍ أو كلَّ كلمةٍ قيَّدها الله تعالى بإذنه؛ لئلَّا يدَّعِيَ مُدَّعٍ أنَّ الخَلْقَ لهم استقلالٌ في أفعالِهم، فيكون لهذه الفائدةِ فرعٌ، وهو الردُّ على القَدَريَّة، والقَدَرِيَّة هم الذين يقولون: إنَّ الإنسانَ مستقِلٌّ بعملِه، أي يخلُقُ فعلَه بنفسِه، فيأكُلُ ويَشرَبُ، ويَدخُل ويَخرُج، ويتحرَّك ويَسكُن، بإرادةٍ تامَّة ليس لله تعالى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥١١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥١٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فيها تعلُّقٌ، وهذا يعني: إثباتَ خالقٍ مع الله عزَّ وجلَّ، أو إثباتَ مُوجِدٍ للحوادثِ مع الله عزَّ وجلَّ(١).

١٦- قَوْلُه: ﴿بِإِذْنِي﴾ فيه إثباتُ إذنِ الله، والإذنُ المضافُ إلى الله عزَّ وجلَّ ينقسِمُ إلى قِسمين: إذنٍ كونيٍّ قدريٍّ، وإذنٍ شرعيٍّ تعبُّديٍّ؛ مثالُ الإذنِ الكونيِّ: هذه الآيةُ: ﴿تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾، ومثالُ الإِذْن الشرعيِّ: قولُ الله تبارك وتعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]؛ إذ إنَّه مكَّنَ لهؤلاء مِن أنْ يَشْرَعوا لأقوامِهم ما لم يأذنْ به اللهُ، ومكَّن لأقوام أن يَتعبَّدوا بهذه الشريعةِ البِدعيَّة، لكنْ شرعًا لا، والفائدةُ مِن معرفة القِسْمين: أنْ نؤمِنَ بأنَّ ما أَذِنَ اللهُ فيه قَدَرًا فلا بدَّ من وقوعِه، وما لم يأذنْ به فلا يمكن وقوعُه، أمَّا شرعًا: فما أذِن اللهُ فيه شرعًا فقدْ يقَعُ وقدْ لا يقَعُ، وما لم يأذنْ فيه فقد يقَعُ وقد لا يقعُ، هذا هو الفرقُ(٢).

١٧- في قوله: ﴿وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾ عطَفَ التذكيرَ بإبراءِ الأَكْمَهِ والأبرَصِ على ما قَبْلَه مباشرةً فلم يبدأْ بـ﴿إذ﴾، وبُدِئ بـ﴿إذ﴾ للتذكيرِ بإخراجِ الموتى، فكان عطفًا على قوله: ﴿إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾، ولعلَّ نكتةَ ذلك أنَّ إبراءَ الأكْمَهِ والأَبْرَصِ مِن جِنس شفاءِ المرضِ الذي قد يقعُ بعضُ أفرادِه على أيدي غيرِ الأنبياءِ المرسَلين، ولا سيَّما مَن يظنُّ المرضى فيهم الصَّلاحَ والولايةَ، فلمَّا كان كذلك ذُكِرَ بالتَّبع لإحياءِ الصُّورة من الطِّيرِ، ولَمَّا كان إحياءُ الموتى أعظمَ منه جُعِل نعمةً مستقلَّةً فقُرِنَ بـ﴿إذْ﴾، والمرادُ بالأكمهِ والأبرصِ والموتَى الجِنسُ(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥١٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥١٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٠٥).

بَلاغةُ الآيتين:

١- قَوْلُه: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾

- فيه إظهارُ الاسمِ الجليلِ ﴿اللَّهُ﴾ في موضِعِ الإضمارِ؛ لتربيةِ المهابة، وتشديدِ التهويلِ(١).

- وتخصيصُ الرُّسلِ بالذِّكر ليس لاختصاصِ الجَمْعِ بهم دون الأُمَمِ، كيف لا و﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣]، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١]؟! بل لإبانةِ شرَفِهم وأصالتِهم، والإيذانِ بعدمِ الحاجةِ إلى التَّصريحِ بجَمْعِ غيرِهم بناءً على ظهورِ كونِهم أتباعًا لهم، ولإظهارِ سُقوطِ منزلتِهم، وعدمِ لياقتِهم بالانتظامِ في سِلْكِ جمْعِ الرُّسُل، كيف لا وَهُم عليهم السلامُ يُجمَعون على وجهِ الإجلالِ، وأولئك يُسحَبون على وجوهِهم بالأغلالِ(٢)؟!

٢- قَوْلُه: ﴿مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ هذا السُّؤالُ لتوبيخِ قَومِهم وأُمَمِهم؛ لتقومَ الحُجَّةُ عليهم، ويَبتدِئَ حسابُهم، كما أنَّ سؤالَ الموءودةِ لتَوبيخِ الوائِدِ(٣).

٣- قَوْلُه: ﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾ استئنافٌ مَبنيٌّ على سؤالٍ نشأ مِن سَوْقِ الكلام؛ كأنَّه قيل: فماذا يقولُ الرُّسُلُ عليهم السَّلام هنالك؟ فقيل: يقولون: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾(٤).

- والتعبيرُ بصيغَةِ الماضي ﴿قَالُوا﴾ عن المستقبلِ؛ للدَّلالة على التقرُّرِ والتحقُّق، كما في قوله: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ﴾ [الأعراف: ٤٤]،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٩٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق))، وينظر: أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٠٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٠٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٩٣).

ونظائرها؛ فعبَّر بالماضي عن المستقبلِ؛ لتحقُّقِ وقوعِه حتى كأنَّه وقَع[١].

٤- قَوْلُه: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ فيه: تعليل لذلك، أي فتَعْلَم ما أجابوا وأظهروا لنا، وما لم نَعْلَمْه مما أضمروه في قلوبهم، وفيه إظهارٌ للشَّكَاة، وردٌّ للأمر إلى عِلمه تعالى بما لَقُوا مِن قِبَلِهم من الخطوب، وكابَدُوا من الكروب[٢].

٥- قَوْلُه: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ...﴾

- فيه تفصيلٌ بعد إجمال؛ حيث شرَع في بيان ما جرَى بَيْنَه تعالى وبين واحدٍ مِن الرُّسُل المجموعِينَ من المفاوضةِ على التفصيلِ، إثْرَ بيانِ ما جرَى بينه تعالى وبين الكلِّ على وجهِ الإجمالِ، وتَخصيصُ شأنِ عيسى عليه السَّلام بالبيانِ تفصيلًا مِن بين شؤونِ سائرِ الرُّسُلِ عليهم السَّلام- مع دَلالتِها على كمالِ هوْلِ ذلك اليومِ، ونهاية سوءِ حال المكذِّبين بالرُّسُل-؛ لأنَّ شأنَه عليه السَّلامُ متعلِّقٌ بكِلَا الفَريقينِ مِن أهلِ الكِتابِ الذين نُعِيَتْ عليهم في السُّورةِ الكريمةِ جِناياتُهم؛ فتفصيلُه أعظمُ عليهم، وأجْلَبُ لحَسرتِهم وندامتِهم، وأَفَتُّ في أعضادِهم، وأدْخَلُ في صَرْفِهم عن غيِّهم وعنادِهم[٣]، فقد وقع الاختلافُ بين طائفتَيِ اليهودِ والنَّصارى فيه إفراطًا وتفريطًا؛ هذه تجعله إلهًا، وهذه تجعله كاذبًا[٤].

- والتعبيرُ بصِيغة الماضِي دُون المستقبَل في قوله: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ...﴾؛ للدَّلالة على تحقُّقِ الوقوعِ، وعلى قُربِ القيامةِ حتى كأنَّها قد قامتْ ووقَعَتْ؛ وكلُّ آتٍ قريبٌ؛ قال الله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾[٥] [النحل: ١]، وقيل:

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٩٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٠٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٩٣- ٩٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٩٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ١٠٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٩٤).

لأنَّه ورَدَ على حِكاية الحالِ؛ كقولِه تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ﴾ [سبأ: ٥١] وغيره من الآيات، كلُّها خرَج على سبيلِ الحكايةِ عن الحالِ[١].

- وإظهارُ الاسمِ الجَليل ﴿اللَّهُ﴾ في مقامِ الإضمارِ؛ للمبالغة في التهويلِ[٢].

٦- في قوله تعالى: ﴿نِعْمَتِي﴾ أضاف اللهُ النِّعمةَ إليه؛ تنبيهًا على عِظَمها[٣].

٧- قَوْلُه: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ خُصَّ التوراةُ والإنجيلُ بالذِّكر ممَّا تناوله الكتابُ والحِكمة- على القولِ بأنَّ المرادَ بالكِتابِ والحِكمةِ جِنسُ الكِتاب والحِكمة، فيدخل فيهما التوراةُ والإنجيل- إظهارًا لشَرفِهما[٤].

٨- قَوْلُه: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾

- فيه التعبيرُ بالمضارعِ عن أفعالٍ مضَتْ (تَخْلُقُ - فَتَنْفُخُ - فَتَكُونُ - وَتُبْرِئُ - تُخْرِجُ)؛ لتصويرِ ذلك الماضِي، وتمثيلِه حاضرًا في الذِّهْن، كأنَّه حاضرٌ في الخارِجِ، لا لإفادةِ الاستمرارِ؛ فإنَّه فِعْلٌ مضَى، والكلامُ تذكيرٌ به كما وقَع إذ وقَع[٥].

وفي هذه الآيةِ مناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيثُ قال هنا في سورةِ المائدة: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾، وقال تعالى في

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٥٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٩٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٠٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٩٥).
وعلى القول بأنَّ ﴿الْكِتَابَ﴾ هو الخطُّ، و﴿الْحِكْمَةَ﴾ هي الكلامُ المحكَم الصَّواب؛ فليس فيه هذا الوجه.
(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٠٥).

سورةِ آل عمرانَ: ﴿كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩]، فخُصَّتْ آيةُ المائدةِ بتأنيثِ الضميرِ والفِعل ﴿فِيهَا فتكُونُ﴾، وخُصَّتْ آيةُ آل عِمران بتذكيرِ الضميرِ والفِعل ﴿فِيهِ فَيَكُونُ﴾، مع أنَّ المذكورَ في الموضعين ﴿كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾، وهو صالحٌ لأنْ يَعودَ الضميرُ إليه مُذكَّرًا أو مُؤنَّثًا، فيُرادُ (مِثلَ هيئةِ الطَّير)، وهو مُذكَّر، أو يُرادُ (هيئةً كهيئةِ الطَّيرِ)، وهي مُؤنَّثة؛ وذلك أنَّ الآيةَ في سورةِ المائدةِ المخصوصةِ بتأنيثِ الضَّميرِ العائدِ إلى ما يَخلُقه، هي في ذِكر ما عَدَّد اللهُ مِنَ النِّعمِ على عِيسى عليه السَّلام، وما أَصْحَبَه إيَّاه من المُعجِزات، وأَظهرَ على يدِه مِنَ الآيات، وابْتداؤُها: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ...﴾ إلى قولِه تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فتكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾، والإشارةُ في هذِه الآيةِ ليستْ إلى أوَّلِ ما يُبدِيه لبَنِي إسرائيلَ مِن ذلك مُحتجًّا به عليهم، وإنَّما هي إلى جميعِ ما أَذِنَ اللهُ تعالى في كونِه دَلالةً على صِدقِه، مِن قَبيلِ الصُّوَرِ التي يُصوِّرها من الطِّينِ على هيئةِ الطَّيرِ، وذلك جمعُ التأنيث أَوْلَى به.

وذُكِّرَ الضَّميرُ في ﴿فِيهِ﴾ مِن آلِ عِمرانَ؛ لأنَّه في سِياقِ إخبارٍ مِنَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ عن عيسى- على نبيِّنا وعليه السَّلامُ- وقولِه عليه السَّلامُ لبَني إسرائيلَ: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: آخُذُ مِن الطِّينِ ما أُصوِّرُ منه صورةً على هيئةِ الطيرِ في تَركيبِه، فأَنفُخُ فيه، فينقلِبُ حيوانًا لحمًا، قد رُكِّبَ عظْمًا وخالَط دمًا، واكتسَى رِيشًا وجَناحًا كالطَّائرِ الحيِّ، والقصدُ في هذا المكانِ إلى ذِكر ما تقومُ به حُجَّتُه عليهم، وذلك أوَّلَ ما يُصوِّرُ الطِّينُ على هيئةِ الطير، ويكون واحدًا تلزمُ به الحُجَّة، فالتذكيرُ أَوْلَى به[1].

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (١/ ٣٧٢ - ٣٧٤).

- وقيل: إنَّ قوله: ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا﴾ الضَّميرُ فيه للكافِ في قولِه: ﴿كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾؛ لأنَّها صِفةُ الهَيئةِ التي كان يَخلُقها عيسى ويَنفُخُ فيها، ولا يَرجِعُ إلى الهيئةِ المضافِ إليها؛ لأنَّها ليستْ مِن خَلْقِه ولا نَفْخِه في شيءٍ، والكافُ تُؤنَّثُ بحَسَبِ المعنى؛ لدَلالتِها على الهيئةِ التي هي مِثلُ هيئةِ الطَّير، وتُذكَّرُ بحَسَبِ الظَّاهرِ، وإذا كان كذلِك جازَ أنْ يقَعَ الضَّميرُ عنها تارةً على وجه التذكيرِ، وأخرى على وجهِ التأنيثِ؛ وأمَّا وجهُ تخصيصِ كلٍّ مِن الموضعَينِ بالواردِ فيه؛ فمِن وجهين:

الوَجهُ الأوَّل: أنَّ الترتيبَ الذي استقرَّ عليه القرآنُ في سُوَرِه وآياتِه أصلٌ مُراعًى، وعودَة الضَّميرِ على اللَّفظِ، وما يَرجِعُ إليه أَوْلى، وعَوْدَته على المعنى ثانٍ عن ذلِك، وكِلا التَّعبيرينِ عالٍ فصيحٌ، فعادَ في آيةِ آل عِمران على الكافِ؛ لأنَّها تُعاقِب (مِثل)، وهو مُذكَّر، فهذا لحْظٌ لفظيٌّ، ثم عادَ في آيةِ المائدةِ إلى الكافِ من حيثُ هي في المعنى صِفةٌ؛ لأنَّ المِثل صِفةٌ في التقديرِ المعنويِّ، فحصَلَ مراعاةُ المعنى ثانيًا على ما يجبُ كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الأحزاب: ٣١] بِعَودةِ الضَّميرِ في ﴿يَقْنُتْ﴾ مُذكَّرًا رَعْيًا لِلَفظ ﴿مَن﴾، ثم قال: ﴿وَتَعْمَلْ﴾ بالتاءِ رَعيًا للمعنى، وهو كثيرٌ، ورَعْيُ اللَّفظِ في ذلك هو الأَوْلَى، فجرَى في آيةِ آل عِمران على ذلِك؛ لأنَّها مُتقدِّمةٌ في الترتيبِ، وجرَى في آيةِ المائدةِ على ما هو ثانٍ؛ إذ هي ثانيةٌ في التَّرتيبِ، وذلك على ما يجبُ.

الوجه الثاني: وهو أنَّه قد ورَدَ قبل ضميرِ آيةِ آل عِمران مِن لَدُنْ قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ...﴾ إلى قولِه: ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾ [آل عمران: ٤٤ - ٤٩] نحوٌ مِن عِشرينَ ضَميرًا مِنَ ضمائرِ المذكَّرِ، فورَدَ الضميرُ في قوله: ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾ ضميرَ مُذكَّرٍ ليُناسِبَ ما تَقدَّمه، ويُشاكِلَ الأكثرَ الواردَ قَبْلَه. أمَّا آيةُ المائدةِ فمُفْتَتَحةٌ بقوله تعالى: ﴿اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾ وخَلْقُه الطائرَ ونفخُه فيه مِن أَجلِّ نِعَمِه تعالى

عليه؛ لتأييدِه بذلك، فناسَبَ ذلك تأنيثَ الضَّمير، ولم تَكثُرِ الضمائرُ هنا ككثرتِها هناك، فجاءَ كلٌّ مِنَ الآيتَينِ على أتمِّ مُناسبةٍ[1]، وقيل غير ذلك[2].

- جاء هنا ﴿بِإِذْنِي﴾ أربعَ مرَّات عقيبَ أربعِ جُمَل؛ لأنَّ هذا موضعُ ذِكر النِّعمة، والامتنانِ بها، فناسَب الإسهاب[3].

- وعبَّر هنا في آية المائدة بقوله: ﴿بِإِذْنِي﴾ مُضافًا إلى ضَميرِه سبحانه في أَربعةِ مواضعَ مع وَجازةِ الكلامِ، وتقارُب ألفاظِ الآية، وقد جرَى هذا الغرضُ في آيةِ آلِ عِمران، فورَد فيها ذلك في موضعينِ خاصَّةً مُضافًا إلى اسمِه سبحانه؛ حيث قال: ﴿فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩]؛ لأنَّ آيةَ آلِ عِمرانَ إخبارٌ وبِشارةٌ لمريمَ بما مَنَح لابنِها عيسى عليه السَّلام، وبمقالِه عليه السَّلامُ لبني إسرائيلَ تعريفًا برِسالتِه، وتحدِّيًا بمعجزاتِه، وتبريئًا مِن دَعوى الاستبدادِ، أو الانفرادِ بِقُدرةٍ في مقاله: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ...﴾ إلى قَوْلِه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٤٩] إلى ما بَعْدَه، ولم تتضمَّنْ هذه الآيةُ غيرَ البِشارةِ والإعلامِ.

وأمَّا آيةُ المائدة فقُصِد بها غيرُ هذا، وبُنِيَتْ على تَوبيخِ النصارَى، وتعنيفِهم في مقالِهم في عيسى عليه السَّلامُ؛ فوَرَدتْ متضمِّنةً عَدَّه سبحانه إنعامَه على نبيِّه عيسى عليه السَّلامُ على طريقةِ تُجارِي العتْبَ، وليس بعَتْبٍ، وذلك كقولِ القائلِ لعبدِه الأحبِّ إليه المتبرِّئِ مِن عصيانِه- ولكلامِ الله سبحانه المثلُ الأعلَى -: ألم أفعَلْ لك كذا؟ ألم أُعْطِكَ كذا؟ ويعدِّد عليه نعمًا ثم يقول: أَفعَلَ لك ذلك غَيري؟ هل أحسَنْتَ إلى فلانٍ إلَّا بما أعطيتُك؟ فيقصدُ السَّيِّدُ بهذا قطعَ تخيُّل مَن

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٦٠)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٨٣، ٨٤).

(٢) يُنظر: ((البرهان في توجيه متشابه القرآن)) للكرماني (ص: ٨٩- ٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٠٧).

ظنَّ أنَّ ما كان مِن هذا العبدِ مِن إحسانٍ إلى أحدٍ أنَّ ذلك مِن قِبَلِ نفسِه، وليس مِن قِبَلِ سيِّده، فإذا قرَّره السيدُ على هذا، واعترف العبدُ بأنَّ ذلك كما قال السيِّدُ، انقطعَتْ حجةُ مَن ظنَّ خلافَه، وتوهَّم استقلالَ العبدِ، فعلى هذا النحوِ - واللهُ أعلم - وردت الآيةُ الكريمةُ؛ لذلك تكرَّر فيها ما تَكرَّر مع الآياتِ قولُه تعالى: ﴿بِإِذْنِي﴾ وتكرَّر ذلك أربعَ مرَّاتٍ عقبَ أربعِ آياتٍ ممَّا خُصَّ به عليه السَّلامُ مِن خَلْقِ الطيرِ، والنَّفخِ فيه فيَحيَا، وإبراءِ الأكْمَهِ والأبرصِ، وإحياءِ الموتَى.

وهي مِن الآياتِ التي ضلَّ بسببِها مَن ضَلَّ مِن النَّصارَى، وحمَلَتْهم على قولِهم بالتثليثِ، تعالى الله عمَّا يقولون عُلوًّا كبيرًا؛ فأعْلَمَ اللهُ سبحانه وتعالى أنَّ تلك الآياتِ بإذنِه، وأكَّد ذلك تأكيدًا يرفَعُ توهُّمَ حوْلٍ أو قُوَّةٍ لغيرِ اللهِ سبحانه، أو استبدادٍ ممَّن ظنَّه، ونزَّه نبيَّه عيسى عليه السلامُ عن نِسبةِ شَيءٍ من ذلك لنَفْسِه مُستقلًّا بإيجادِه، أو ادِّعاءِ فِعلِ شيءٍ إلَّا بقُدرةِ ربِّه سبحانه وإذْنِه، وبرَّأه مِن شَنيعِ مقالَتِهم؛ فآيةُ آلِ عمرانَ بشارةٌ وإخبارٌ لمريم، وآيةُ المائدةِ واردةٌ فيما يقولُه سبحانه لعيسى عليه السَّلامُ توبيخًا للنَّصارى، فلمَّا اختلَفَ القصدانِ اختلفتِ العبارتانِ(١).

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٨٤- ٨٥).

الآيات (١١١ - ١١٥)

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (١١١) إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (١١٥) ﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾: أي: قَذَفتُ في قلوبِهم، ويُطلَقُ الوحيُ والإيحاءُ على إلْقاءِ المعنى إلى صاحبِه، والإلهامِ، والإشارةِ والكِتابة؛ وأصلُ الوَحْي: يدُلُّ على إلْقاءِ عِلمٍ في إخفاءٍ، وكلُّ ما ألْقيتَه إلى غَيرِك حتَّى عَلِمَه فهو وَحْيٌ كيف كانَ[١].

و﴿الْحَوَارِيِّينَ﴾: جمْع حوارِيٍّ، وهمْ أصفياءُ عِيسى عليه السَّلام، وشِيعتُه وناصِرُوه، وخُلاصةُ أصحابِه، وشاعَ استعمالُه في الَّذين خَلَصوا، وَأَخْلصُوا فِي التَّصْدِيق بالأنبياءِ ونُصرتِهم؛ قيل: سُمُّوا بذلك؛ لأنَّهم كانوا يُحوِّرون الثِّياب، أي: يُبيِّضونَها، واشتقاقُهُ من حُرْتُ الثوبَ، أي: أَخْلَصْتُ بياضَه بالغَسْلِ، ومنه يُقال للدَّقيق الأبيضِ النَّقيِّ: حُوَّارَى. وقيل: اشتقاقُه مِن: حارَ يحورُ: إذا رجَع، فكأنَّهم الرَّاجعونَ إلى اللهِ، وقيل: هو مُشتَقٌّ مِن نقاءِ القَلْبِ وخُلوصِه وصِدْقه[٢].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٨ - ٨٥٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١١٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥)، =

﴿عِيدًا﴾: أي: يَومًا نُعظِّمه، ونَعبُد اللهَ ونُصلِّي له فيه، وهو اليومُ الذي نزَلَتْ فيه المائدةُ، والعيد: كلُّ ما يُعاوِدُ الإنسانَ مرَّةً بَعدَ أُخرَى، وأصل (عود): يدلُّ على تَثنيةٍ في الأمْرِ، ومنه العيدُ؛ لأنَّه يَعودُ كلَّ عامٍ، أو لأنَّه يُعادُ إليه أو لأنَّه اعتِيدَ[1].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُذكِّر اللهُ تعالى نبيَّه عيسى عليه السَّلامُ ممتنًّا عليه بما يَسَّر له مِن أتْباعٍ، وأنَّه ألْهمَ سبحانه وتعالى الحواريِّينَ- وهم الخُلَّص من أصحابِ عيسى عليه السَّلامُ- أن يُؤمِنوا به عزَّ وجلَّ وبرسولِه عيسى عليه السلامُ، فأعْلنوا إيمانَهم، واستشهدوه على أنَّهم مُسلِمونَ.

ثم يُذكِّر اللهُ سبحانه عيسى عليه السَّلام أيضًا حين قال له الحواريُّون: هل يفعل ربُّك إذا سألتَه أن يُنزِّل علينا مائدةَ طعامٍ من السَّماءِ، فأمَرَهم عيسى عليه السَّلام أن يتَّقوا اللهَ ولا يَطلُبوا هذا الأمرَ إنْ كانوا حقًّا مؤمنينَ. فأجابوه أنَّهم يُريدون أنْ يأكُلوا منها؛ لتَطمئِنَّ قلوبُهم، ويعلموا يَقينًا أنَّ عيسى صادقٌ فيما جاءَ به، ويكونوا شهودًا على هذه الآيةِ التي نزلتْ مِن الله، ويُبلِّغوها لِمَن لم يَشهَدْها، حينَها دعَا عيسى ربَّه أنْ يُنَزِّلَ عليهم مائدةً من السَّماء؛ تكونُ عيدًا لهم ولِمَن بعدَهم، وعلامةً وبُرهانًا منه تعالى تدلُّ على وحدانيَّتِه، وعلى صِدق ما جاء به عيسى، وأنْ يَرزُقَهم تعالى وهو خيرُ الرَّازقينَ. فأجابَ اللهُ سبحانه أنَّه مُنزِّلها عليهم، لكنْ مَن كفَرَ بعد إنزالِ هذه الآيةِ فإنَّه تعالى سيُعذِّبُه عذابًا شديدًا، لا يُعذِّبُه أحدًا من العالَمِين.

= ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٢٦٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢٠٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٤).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٨١ - ١٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٩٤).

تَفْسيرُ الآيات:

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (١١١)﴾.

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾.

أي: واذْكر أيضًا- يا عيسى- إذ يسَّرْتُ لك أتْباعًا وأنصارًا، فألهمتُ الخُلَّصَ مِن أصحابِك، وألقيتُ في قلوبِهم الإيمانَ بي وبرسولي[١].

﴿قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾.

أي: قال الحواريُّون: آمنَّا بما وجَب علينا اعتقادُه بقلوبِنا، واشهدْ علينا[٢] بأنَّنا خاضِعونَ لله تعالى، طائِعون له بأعمالِنا[٣].

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١١٢)﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ قِراءتان:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٢٠-٥٢٢).
اختار أنَّ المراد بالوحيِ هنا الإلهامُ: ابنُ جرير في ((تفسيره)) (٩/ ١١٦-١١٧)، وابن كثير في ((تفسيره)) (٣/ ٢٢٤)، والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ٢٤٨).
وقيل المراد: أوحيتُ إليهم بواسطتِك يا عيسى، فدعوتَهم إلى الإيمان باللهِ وبرسولِه، وجعلَه ابن كثير احتمالًا في ((تفسيره)) (٣/ ٢٢٤)، والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ٢٤٨).
وذهَب ابن عثيمين إلى حمْل الآية على كِلا المعنيين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٢٠).

(٢) قيل: الخِطابُ مُوجَّه لله تعالى، وقيل: لعيسى عليه السلام. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٢٢-٥٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٢٢-٥٢٣).

١- قراءة (تَسْتَطِيعُ رَبَّكَ) على الخِطاب من الحواريِّين لعيسى عليه السلام، يعني: هل تَقدِر يا عيسى، أنْ تَسألَ ربَّك، وكان الأَصْلُ على هذه القِراءَةِ (هَلْ تستطيعُ سؤالَ رَبِّك)، فحُذِفَ المضافُ (سُؤالَ)، وأُقيمَ المضافُ إليه (رَبَّك) مُقامَه؛ فأخَذَ إعرابَه فنُصِبَ[1].

٢- قِراءة ﴿يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾، أي: هلْ يَفعلُ ربُّك؟ فلَفْظُه لفظُ الاستفهامِ، ومعناه معنى الطَّلبِ والسُّؤالِ[2].

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾.

أي: اذكرْ حين قال الحواريُّون طلبًا لزيادةِ اطمئنانِ قُلوبِهم: يا عيسى ابنَ مريمَ، هل يفعَلُ[3] ربُّك إذا سألتَه أن يُنزِّلَ علينا مائدةَ طعامٍ من السَّماءِ[4]؟

﴿قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

أي: قالَ عيسى عليه السَّلامُ للحواريِّين: الْزَموا التَّقوى، ولا تَسألُوا هذا الأمرَ إنْ كنتُم مؤمنينَ حقًّا، وإذا كنتُم كذلك فما حاجتُكم إلى هذه المعجزةِ[5]؟!

---

(١) قرأ بها الكسائي. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٢٨).
ويُنظر في معنى هذه القِراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٤٠-٢٤١)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٤٢٠).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٢٨).
ويُنظر في معنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٣٥)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٤٣).

(٣) وهذا اختيارُ ابنِ جريرٍ في ((تفسيره)) (٩/ ١١٨)، والواحديِّ في ((الوجيز)) (ص: ٣٤١)، وابنِ عطيةَ في ((تفسيره)) (٢/ ٢٥٩)، واستحسنه القرطبيُّ في ((تفسيره)) (٦/ ٣٦٥)، واختاره السعديُّ في ((تفسيره)) (ص: ٢٤٨)، وابن عاشور في ((تفسيره)) (٧/ ١٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٢٣-٥٢٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٨-٢٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٢٥).

﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣)﴾.

﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾.

أي: قال الحواريُّون: إنَّما أَرَدْنا مِن سؤالِك ذلك، التشرُّفَ بالأكلِ مِن تلك المائدةِ، فنعلمُ يقينًا قدرةَ الله على كلِّ شيء، وتسكُن بذلك قلوبُنا، ويَستقرُّ إيمانُها[1].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠].

﴿وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾.

أي: ونعلمَ يقينًا صِدقَك يا عيسى، وصِدقَ ما جئتَ به، ونشهدَ على أنَّ المائدةَ آيةٌ من عند الله عزَّ وجلَّ، وحُجَّةٌ لنا نُبلِّغها مَن لم يَشهَدْها[2].

﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤)﴾.

﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾.

أي: دعَا عيسى عليه السَّلامُ ربَّه سبحانه مستجيبًا لطلبِ الحواريِّين، فقال: اللهمَّ ربَّنا، أنزِلْ علينا مائدةَ طعامٍ من السَّماء، نتَّخِذُ وقتَ نزولها عيدًا نَعبُدك فيه، ونتذكَّرُها نحن ومَن بعدَنا[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٢٢-١٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٢٢-١٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٢٣-١٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٩)، ((تفسير ابن =

﴿وَآيَةً مِنْكَ﴾.

أي: وتكونُ حجَّةً وعلامةً منك، يا ربِّ، على عبادِك، دالَّةً على وحدانيَّتِك وصِفاتِك، وعلى صِدْقِ ما جئتُ به[١].

﴿وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.

أي: وأعْطِنا مِن عِندِك؛ فإنَّك يا ربِّ، خيرُ مَن يُعطي؛ فلا أحدَ أكرمُ منك[٢].

﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (١١٥)﴾.

أي: قال اللهُ تبارَك وتعالى: إنِّي مُنزِّلها عليكم فمُطعِمكُموها، ولكن مَن وقَعَ منكم في الكفرِ بعدَ إنزالي هذه الآيةَ العظيمةَ، فإنِّي أُوقِعُ عليه عذابًا شديدًا، لا أُعذِّبُه أحدًا من عالَمِي زمانِه[٣].

= عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٣١-٥٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٣١-١٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٩).

اختار أنَّ المراد بالعالَمين هنا: عالَمُو زَمانِهم: ابنُ جرير في ((تفسيره)) (٩/ ١٣٢)، والواحدي في ((الوجيز)) (ص: ٣٤٢)، وابن كثير في ((تفسيره)) (٣/ ٢٢٥).

وقال ابنُ عُثيمين: (لو قال قائل: قوله تعالى: ﴿فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ ألَا يجوزُ أن يكون هذا خاصًّا بعالَمي زمانهم؟

الجواب: إذا دلَّ دليلٌ على هذا فلا بأس، مِثل قوله تعالى: ﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧]، أمَّا إذا لم يدلَّ دليلٌ فالأصل العُموم) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٣٧).

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- قَوْلُه تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ﴾ يدلُّ على التلطُّف والتأدُّب في السُّؤالِ، كما هو مناسبٌ لأهل الإيمانِ الخالِصِ، ليس شكًّا في قُدرةِ الله تعالى، ولكنَّهم سألوا آيةً لزيادَةِ اطمئنانِ قلوبِهم بالإيمانِ، بأن ينتقِلوا من الدَّليل العقليِّ إلى الدَّليلِ المحسوس؛ فإنَّ النفوسَ بالمحسوسِ آنَسُ، كما لم يكن سؤالُ إبراهيمَ بقوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [البقرة: ٢٦٠] شكًّا في الحالِ[1].

٢- في قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أمْرٌ بملازمة التَّقوى، وعدمِ تزلزلِ الإيمان؛ ولذلك جاءَ بـ ﴿إِنْ﴾ المفيدة للشكِّ في الإيمانِ؛ ليعلمَ الداعي إلى ذلك السؤالِ خشيةَ أنْ يكونَ نشأَ لهم عن شكٍّ في صِدْقِ رَسولِهم، فسألوا معجزةً يَعلمون بها صِدقَه بعدَ أن آمنوا به، وهو قريبٌ من قوله تعالى لإبراهيمَ المحكيِّ في قوله: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، أي: ألم تكُن غنيًّا عن طَلَبِ الدَّليل المحسوس؛ فالمرادُ بالتقوى في كلامِ عيسى ما يَشملُ الإيمانَ وفروعَه[2].

٣- أنَّه يَنبغي للإنسانِ في حالِ الدُّعاء أنْ يذكُر هذينِ المعنيَيْنِ: الألوهيَّةَ والربوبيَّةَ؛ لِقَوْلِه: ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا﴾؛ لأنَّ هذا نوعٌ من التوسُّل؛ يتوسَّلُ الإنسانُ بألوهيَّةِ الله عزَّ وجلَّ وربوبيَّتِه[3].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- إثباتُ وحيِ الله عزَّ وجلَّ؛ لِقَوْلِه: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ﴾، ووحيُ الله ينقسِمُ إلى قِسمين: وحيُ شرْعٍ، وهو لا يكون إلَّا للأنبياءِ والرُّسُل، ووحيُ إلهامٍ كما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٣٢).

في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧]، وقولِه تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [النحل: ٦٨]، فالأوَّل يتعلَّق بالشَّرعِ، والثاني يتعلَّقُ بالكَوْنِ[١].

٢- في قوله تعالى: ﴿أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ قدَّم اللهُ تعالى ذِكْرَ الإيمانِ على الإسلامِ؛ لأنَّ الإيمانَ صِفةُ القلْبِ، والإسلامَ عبارةٌ عن الانقيادِ والخُضوعِ في الظَّاهِرِ، يعني: آمِنوا بقلوبِكم، وانقادُوا بظواهِرِكم[٢].

٣- أنَّ الإيمانَ باللهِ لا يتمُّ إلَّا بالإيمانِ برسولِه؛ لِقَوْلِه: ﴿أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾[٣].

٤- جوازُ حذْفِ المعلوم؛ حيث قالوا: ﴿آمَنَّا﴾ ولم يقولوا: بكَ وبرسولِك؛ لأنَّ هذا معلومٌ، فالمُطلَق يُحمَل على المقيَّد إذا كان معلومًا، فإذا عقَد الإنسانُ عَقْدًا، وذكَر عند الإيجابِ شُروطًا، فقال الآخَرُ: قبلتُ البيعَ منك؛ مثال ذلك قال: بعتُك هذا البيتَ على أن أسكُنَ فيه سَنةً، فقال: قبلتُ البيعَ؛ هل يَثْبُت الشَّرطُ؟ نعمْ يَثبُت؛ لأنَّ قبولَه البيعَ، يعني القَبولَ بهذا الشَّرطِ، وإنْ لم يُذْكَر، لكنَّه معلومٌ من السِّياقِ[٤].

٥- جوازُ استثباتِ الشيءِ بالإشهادِ عليه؛ لِقَوْلِه: ﴿واشْهَدْ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ﴾[٥].

٦- قَوْلُه: ﴿آمَنَّا واشْهَدْ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ﴾، استُدلَّ به على أنَّ الإيمانَ هو الإسلامُ، ولكنَّ هذا القولَ على إطلاقِه فيه نظرٌ، والصوابُ أنَّ الإسلامَ إذا أُفرِدَ دخَل فيه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٢٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٢٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الإيمانُ، وإذا ذُكِرَ مع الإيمانِ صارَ له معنًى آخَرُ، ويدلُّ لهذا التفصيلِ قولُ الله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]، يعني: لم يدخُلْ لكن قريبًا يدخُلُ؛ لأنَّ (لَمَّا) تُفيدُ النَّفيَ مع قُربِ المنفيِّ، وتُخرَّج هذه الآيةُ بناءً على ذلك بأنَّهم جمَعوا بين الإيمانِ والإسلامِ، فيكون الإيمانُ في القلوبِ، والإسلامُ في الجوارحِ، يعني: أنَّهم آمنوا وانقادُوا انقيادًا تامًّا لأوامرِ اللهِ ورسولِه[١].

٧- في قولِه تعالى: ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أتتْ هذه المعاطيفُ مُرتَّبةً ترتيبًا لطيفًا؛ وذلك أنَّهم لا يأكلونَ منها إلَّا بعدَ مُعاينةِ نُزولِها، فيجتمع على العِلم بها حاسَّةُ الرؤيةِ وحاسَّةُ الذَّوق؛ قال تعالى: ﴿نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾ فبذلِك يزولُ عن القَلْب قلقُ الاضطراب، ويَسكُنُ إلى ما عاينَه الإنسانُ وذاقَه ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾، وباطمئنانِ القلبِ يَحصُلُ العلمُ الضروريُّ بصِدقِ مَن كانتِ المعجزةُ على يديه؛ إذ جاءت طِبْقَ ما سأَلَ ﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾[٢].

٨- قَوْلُه: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ هذه مُتعلِّقة بقولِه: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾؛ لأنَّ الإيمانَ يَحمِلُ على التقوى، وهي شرطٌ في قوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾[٣].

٩- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أنَّ وقوعَ الشيءِ يُعطي يقينًا أكثرَ من الخبرِ به[٤].

١٠- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أنَّ عيسى ابنَ مريمَ مُفتقرٌ إلى الله تعالى وإلى عطائِه، وكذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥١٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٣٠).

الأنبياءُ عليهم الصَّلاة والسَّلام؛ فإنَّهم جميعًا لا يَستطيعون أنْ يأتوا بكلِّ ما يُطلَب منهم، وأنَّهم كغيرهم؛ مُفتقِرون إلى الله، يَسألونَه ويَلجؤُون إليه، فعيسى عليه السلام يُنادي: يا أللهُ، يا ربَّنا، إنَّني أَدْعوك أنْ تُنَزِّلَ علينا مائدةً من السَّماء، تَعمُّنا بالخير والفرحةِ كالعيد، فتكون لنا عيدًا لأوَّلنا وآخِرنا، وأنَّ هذا من رِزقِك، فارزقْنا وأنت خيرُ الرازقين؛ فهو إذَنْ يعرف أنَّه عبدٌ، وأنَّ الله ربُّه، ويَنبني على هذه الفائدةِ بطلانُ دعوى النَّصارى: أنَّه إلهُهُم[1].

١١- في قوله تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ سأل عيسى عليه السَّلام نزولَها وأنْ تكونَ لهاتين المصلحتَينِ: مصلحة الدِّين، بأن تكونَ آيةً، ومصلحة الدنيا، وهي أنْ تكونَ رزقًا[2].

١٢- أنَّ ما جاء على خِلاف المعهودِ وكان خارقًا للعادة فهو آيةٌ؛ لِقَوْلِه: ﴿وَآيَةً مِنْكَ﴾ وجهُ ذلك أنَّه لم يُعْهَد أنَّ المائدة تَنْزلُ من السَّماء عِيانًا يُشاهدُها النَّاسُ، فيكونُ نزولُها- ولا سيَّما أنَّه بطلَبٍ بعد اقتراحٍ- آيةً ودليلًا على صِدْق مَن تكلَّم بالرِّسالة[3].

١٣- في قولِه تعالى: ﴿وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ إطلاقُ الرِّزق على غيرِ الله عزَّ وجلَّ؛ بمعنى: أنَّه يَصِحُّ أنْ نَصِفَ غيرَ الله بأنَّه رازقٌ؛ لأنَّ الرِّزْق بمعنى: العطاء، ولكنَّ الرِّزقَ الأكمَل والأوفى هو رِزقُ الله تبارك وتعالى[4].

١٤- إثباتُ الكلامِ لله عزَّ وجلَّ؛ لِقَوْلِه: ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾، وأنَّ

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١٠٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٣٢، ٥٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٣٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

كلامَه تعالى بحرفٍ وصوتٍ؛ لأنَّه تعالى قال قولًا وصَل إليه، ولا يُمكن أنْ يصلَ إليه إلَّا بصوتٍ، وأنَّ كلامَ الله تبارك وتعالى بحرفٍ، بل بحروفٍ متتابعةٍ؛ لأنَّ اللهَ قال: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ﴾ وهذه حروفٌ متتابعةٌ لا إشكالَ فيها[1].

١٥- يُستَفادُ مِن قَوْلِه: ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ خطَرُ طلبِ الآياتِ من الأُمَم، وأنَّه إذا جاءتِ الآياتُ المطلوبةُ فقد عرَّضوا أنفُسَهم للهلاكِ، ففيه وعيدٌ وتهديدٌ مِن الله بهلاكِ مَن يكذِّبُ بعدَ المعجزة؛ حتى لا يُصبحَ طلبُ الخوارقِ تسليةً ولهْوًا، وحتى لا يَمضِيَ الذين يَكفُرون بعدَ البرهانِ المفحِم دون جزاءٍ رادعٍ، وقد ذكَر أهلُ العِلم رحمهم الله أنَّه متى طَلبتِ الأمَّةُ آيةً معيَّنةً وحصَلت لهم؛ حقَّ عليهم العذابُ[2]، وفيه أتمُّ زاجرٍ لهذه الأمَّة عن اقتراحِ الآياتِ[3].

١٦- قَوْلُه تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ﴾ فيه تحذيرٌ لهم من الوقوعِ في الكُفْر بعد الإيمان؛ إعلامًا بأهميَّةِ الإيمانِ عند الله تعالى، فجعَل جزاءَ إجابتِه إيَّاهم ألَّا يعودُوا إلى الكُفرِ؛ فإنْ عادوا عُذِّبوا عذابًا أشدَّ من عذابِ سائرِ الكفَّار؛ لأنَّهم تَعاضَدَ لديهم دليلُ العقلِ والحِسِّ؛ فلم يَبقَ لهم عُذْرٌ[4].

١٧- إثباتُ أنَّ العذابَ له أَعْلى وله أَدْنى؛ لِقَوْلِه: ﴿فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾، فهذا دليلٌ على أنَّ العذابَ يتفاوتُ من شخصٍ لآخَر، وتفاوُتُ العذابِ أسبابُه كثيرة؛ منها: قلَّة الدَّاعي إلى الذنبِ؛ فإنَّ قلَّة الدَّاعي إلى الذَّنب تُوجِبُ شِدَّةَ العقوبةِ عليه، وانظرْ إلى قولِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٣٨).
(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١٠٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٣٨).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٣٥٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١١١).

((ثلاثةٌ لا يُكلِّمهم الله يومَ القيامةِ، ولا يُزكِّيهم- وفي روايةٍ: ولا ينظرُ إليهم- ولهم عذابٌ أليمٌ: شيخٌ زانٍ، وملِكٌ كذَّابٌ، وعائِلٌ مستكبرٌ))(١).

١٨- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ أنَّ كُفرَ مَن رأوا الآياتِ ليس ككُفرِ مَن لم يَرَوْها؛ فالأوَّل أعظمُ، أي: مَن رأى الآياتِ؛ لأنَّ مَن رأى الآياتِ فقد رآها عينَ اليقينِ، ومَن نُقِلَتْ إليه فقدْ عَلِمَها عِلمَ اليقين، أي: بواسطةٍ(٢).

بَلاغةُ الآيات:

١- قَوْلُه: ﴿أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾ في إيرادِ اللهِ تعالى لعِيسى عليه السَّلام بعنوانِ الرِّسالة ﴿وَبِرَسُولِي﴾ تَنْبيهٌ على كيفيَّةِ الإيمانِ به عليه السَّلام، كأنَّه قيل: آمِنوا بوحدانيَّتي في الأُلوهيَّة والرُّبوبيَّة، وبرِسالة رسولي، ولا تُزيلوه عن حيِّزه حطًّا ولا رَفعًا(٣)، مع ما في الإضافةِ مِن التَّشريفِ له.

٢- قَوْلُه: ﴿قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾

استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ من سَوقِ الكلام، كأنَّه قيل: فماذا قالوا حِينَ أُوحيَ إليهم ذلك؟ فقيل: قالوا: آمنَّا...(٤).

- وفيه مناسبة حسَنةٌ، حيث ثبتَتْ النونُ في آية المائدة هنا في قوله: ﴿بِأَنَّنَا﴾، وحُذفت من ﴿بِأَنَّا﴾ في آية آل عِمران في قوله: ﴿وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢]؛ تخفيفًا، وكِلاهما جائز، والإثباتُ هو الأصل، ووجهُ تخصيصِ كلٍّ من الموضعين بما ورد فيه: أنَّ آية المائدة لَمَّا ورد فيها

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٣٩). والحديث رواه مسلم (١٠٧) من حديث أبي هريرة.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٩٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

التفصيلُ فيما يجبُ الإيمانُ به، وذلك قوله: ﴿أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾ فجاءَ على أتمِّ عبارةٍ في المطلوب وأوفاها، ناسَب ذلك ورود ﴿أَنَّنا﴾ على أوْفَى الحالين، وهو الورود على الأصل. وقيل: لَمَّا كان الإيمانُ باطنًا فلا بدَّ في إثباتِه من دليلٍ ظاهر، وكان في سِياقِ عدِّ النِّعم، والطواعيةِ لوحيِ المِلك الأعظمِ دلُّوا عليه بتمامِ الانقيادِ، ناسَبَ المقامَ زيادةُ التأكيدِ بإثبات النون الثالثةِ في قولِهم: ﴿وَاشْهَدْ بِأَنَّنا﴾ بخِلاف آل عمران.

- وأيضًا قال تعالى في آل عمران: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ...﴾ [آل عمران: ٥٢]، وقال هنا في المائدة: ﴿آمَنَّا وَاشْهَدْ...﴾ [المائدة: ١١١] دون قوله: ﴿بِاللَّهِ﴾؛ لأنَّه لَمَّالم يقعْ إفصاحٌ بهذا التفصيلِ في آيةِ آل عمران؛ حيث قال: ﴿قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾، فلم يقع فيها (وَبِرَسُولِهِ)؛ إيجازًا للعِلم به وشهادةِ السِّياق، ولأنَّه تقدَّم ذِكر اللهِ فقطْ في آل عمران، وهنا في المائدة جاء ﴿قَالُوا آمَنَّا﴾ فلم يَتقيَّد بلفظ الجلالةِ؛ إذ قد تقدَّم ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾؛ فناسَب ما في آل عمران الإيجازَ، كما ناسَب الإتمامُ في آيةِ المائدةِ الإتمامَ، وجاء كلٌّ على ما يجب، ولو قُدِّر ورودُ العكسِ لَمَا ناسَب، والله سبحانه أعلمُ بما أراد[1].

٣- قَوْلُه: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى...﴾ كلامٌ مستأنفٌ لبيانِ بعضِ ما جرَى بين عيسى عليه السَّلام وقومِه، وهو منقطِعٌ عمَّا قبله بدليلِ الإظهارِ في موقِع الإضمارِ- حيث قال: ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾، ولم يقل: (قالوا)- و﴿إِذْ﴾ منصوبةٌ بفعل مُضمَر، تقديره: اذْكُر، وخُوطِبَ به النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بِطَريقِ تلوينِ الخطابِ والالتفاتِ[2].

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٠٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٩٦).

- وابْتدأَ الحواريُّون خِطابَهم عيسى بندائِه باسمِه؛ للدَّلالة على أنَّ ما سيقولونَه أمرٌ فيه اقتراحٌ وكُلْفةٌ له، وكذلك شأنُ مَن يُخاطِب مَن يَتجشَّم منه كُلْفةً أن يُطيلَ خِطابَه؛ طلبًا لإقبالِ سمْعِه إليه؛ ليكون أوْعَى للمقصودِ(١).

٤- **قَوْلُه:** ﴿**رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا**﴾ فيه: تقديمُ الظرفِ ﴿عَلَيْنَا﴾ على المفعولِ: ﴿مَائِدَةً﴾ للاهتمامِ بالمقدَّمِ، والتَّشويقِ إلى المؤخَّر(٢).

- وأسندَ ذلك إلى المائدةِ في قَوْله: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ لأنَّ شَرفَ اليومِ مُستعارٌ مِن شرَفِها(٣).

٥- **قَوْلُه:** ﴿**وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ**﴾ تذييلٌ جارٍ مجرَى التَّعليل، أي: خيرُ مَن يرزقُ؛ لأنَّه خالقُ الأرزاقِ، ومُعطيها بلا عِوَضٍ(٤).

٦- **قَوْلُه:** ﴿**إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ**﴾ التعبيرُ عن الجوابِ بصِيغة التَّفعيل ﴿مُنَزِّلُهَا﴾، المُنْبِئَةِ عن التكثيرِ، مع كونِ الدُّعاءِ منه عليه السَّلام بصيغة الإفعال ﴿أَنزِلْ﴾؛ لإظهارِ كمال اللُّطفِ والإحسانِ، مع ما فيه مِن مراعاةِ ما وقَع في عِبارة السَّائلين ﴿يُنَزِّل﴾(٥).

- وفي تصديرِ الجُملةِ بكلمة التحقيق (إنَّ) وجعْل خبرها اسمًا (مُنزِّل) تحقيقٌ للوعد، وإيذانٌ بأنَّه تعالى مُنْجِزٌ له لا محالةَ، مِن غير صارفٍ يُثْنيه، ولا مانعٍ يلويه(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٠٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٩٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١١٦-١٢٠)

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ
مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ
فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦)
مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا
دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧)
إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ
يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩) لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٢٠)﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿تَوَفَّيْتَنِي﴾: أي: قبَضْتَني إليك؛ يُقال: تَوَفَّيْتُ الشيءَ واستوفيتُه: إذا أخذتَه كلَّه حتى لم تتركْ منه شيئًا، واستيفاءُ الشيءِ استقصاؤُه كلِّه، ومنه يُقال للميِّت: توفَّاه اللهُ، وأصل (وفي): يدلُّ على إكمالٍ وإتمام(١).

﴿الرَّقِيبَ﴾: أي: الحافظَ، والعالمَ، والمطَّلِعَ، وأصل (رقب): انتصابٌ لمراعاةِ شيءٍ(٢).

مُشكِلُ الإعراب:

قوله: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٢٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٢٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٤).

﴿يَوْمُ﴾: قُرِئَ بالرَّفْعِ والنَّصب، وهو مُعرَبٌ على القَوْلِ المُختارِ؛ لأنَّه مُضافٌ إلى مُعرَب، فبَقِيَ على حَقِّه من الإعرابِ؛ فعلى قِراءة الرَّفع فهو خبرٌ لـ﴿هَذَا﴾. وعلى قِراءة النصبِ فهو منصوبٌ على أنَّه ظرفٌ للخبرِ المحذوفِ، أي: هذا يقَعُ أو يكونُ يَومَ يَنفعُ. وقيل: إنَّ «يَوْمَ» مبنيٌّ في مَوضِعِ رفعِ خَبرُ ﴿هَذَا﴾، ولكنَّه بُنِيَ على الفتْح؛ لإضافَتِه إلى الفِعلِ، وجُملة ﴿هَذَا يَوْمُ..﴾ مَقولُ القولِ في مَحلِّ نصْبٍ[1].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُذكِّرُ اللهُ تعالى بقولِه لعِيسى عليه السَّلام يَومَ القيامة بحَضرةِ النَّصارى؛ توبيخًا لهم: يا عيسى ابنَ مريم، هل أنتَ أَمَرْتَ الناسَ أن يَجعلوك وأمَّك معبودَين، تُعْبَدانِ مِن دون اللهِ تعالى؟ فيُجيبُ عيسى عليه السَّلام: أُنزِّهُك يا ربِّ، عن كلِّ ما لا يَليق بك؛ لا يَنبغي لي أنْ أقولَ ما ليس لي بحقٍّ، إنْ كنتُ قلتُه فأنت تعلمُه؛ فإنَّه لا يَخفى عليك شيءٌ، فأنت تَعلمُ ما أُضْمِرُه في نفْسي، ولا أعلمُ ما تُخْفيه في نفْسِك؛ إنَّك أنتَ علَّامُ الغيوب. ما قلتُ لهم إلَّا ما أمَرْتَني به أن يَعبدُوك؛ فإنَّك ربِّي وربُّهم، وكنتُ شاهدًا على أعمالِهم حينَ كنتُ بينهم، فلمَّا قَبَضْتَني برَفْعي إلى السَّماء حيًّا، كنتَ أنتَ المطَّلِعَ عليهم، وأنتَ على كلِّ شيءٍ شهيدٌ، إنْ تُعذِّبْهم فإنَّهم عِبادُك تفعلُ بهم ما تشاءُ، وإنْ تغفرْ لهم فإنَّك أنتَ العزيزُ الحكيم. قال الله مجيبًا له: هذا اليوم- الذي هو يومُ القيامة- هو الوقتُ الذي يَنفعُ الصَّادقين صِدقُهم، لهم جنَّاتٌ تَجري الأنهارُ من تحتِ أشجارِها وقصورِها، ماكثينَ فيها على الدَّوامِ، رضِي اللهُ عنهم ورضُوا عنه، ذلك هو الفوزُ العظيم.

ثم أخبَر تعالى أنَّ له وحْدَه مُلكَ السَّموات والأرض وما فيهنَّ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

---

(١) يُنظَر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٤٤- ٢٤٥)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٧٧).

تَفْسيرُ الآيات:

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦)﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.

أي: واذكُرْ يا محمَّدُ حِينَ يقولُ اللهُ تعالى لعيسى عليه السَّلام يومَ القيامةِ بحَضرةِ النَّصارى توبيخًا لهم: يا عيسى ابنَ مَريمَ، هل قُلتَ بنفسِك للنَّاس: اجْعَلوني أنا وأُمِّيَ مَعبودَينِ مِن دونِ اللهِ سبحانه وتعالى[1]؟

﴿قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾.

أي: قال عيسَى عليه السَّلامُ: أُنَزِّهك يا ربِّ، عن هذا الأمرِ الذي لا يَليق بكَ، وما يَنبغي لي أنْ أدَّعِيَ ذلك؛ فما أنا وأمِّي إلَّا عَبْدانِ مِن عِبادِك[2].

﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾.

أي: إنْ كان قد صدَرَ منِّي هذا فقدْ عَلِمْتَه يا ربِّ؛ فإنَّه لا يَخفَى عليكَ شيءٌ ممَّا قلتُه[3].

﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٤١-٥٤٢).
واختارَ هذا القولَ أنَّ ذلك يكونُ يومَ القيامةِ: ابنُ كثير في ((تفسيره)) (٣/ ٢٣٢)، والشِّنقيطي في ((العذب النمير)) (٢/ ٣٩٨)، وابن عثيمين في ((تفسير سورة المائدة)) (٢/ ٥٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٤٢-٥٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٣٢).

أي: وأنتَ تَعلمُ يا ربِّ، ما أضمرتُه في نفْسي ممَّا لم أنطقْ به؛ فكيفَ بما قد نطقتُ به؟ ولا أعلمُ أنا ما أَخفيتَه عنِّي في نفْسِك، فلمْ تُطْلِعْني عليه؛ لأنِّي لا أعلمُ مِن الأشياءِ إلَّا ما أعلمتَنِيه؛ فأنت الربُّ الخالقُ، وأنا العبدُ المخلوق[1].

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾[ق: ١٦].

﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾.

أي: فأنتَ العالمُ بخَفيَّاتِ الأمورِ التي لا يَعلمُها سِواكَ[2].

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧)﴾.

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾.

أي: ما قلتُ لهم إلَّا الذي كلَّفْتني بإبلاغِه؛ فأنا عبدٌ متَّبعٌ لأمرك، لا مُتجرِّئٌ على عظمتِك، فمَا أمرتُهم إلَّا بعبادةِ الله تعالى وحْدَه، الذي هو ربِّي وربُّهم، فأنا عبدٌ مربوبٌ مِثلُهم[3].

﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾.

أي: كنتُ شاهدًا على أعمالِهم حِينَ كنتُ بين أظهُرِهم[4].

﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٣٦-١٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (٢/ ٥٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق))، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٣٣).

أي: فلمَّا قبَضْتَني إليك كنتَ أنتَ المطَّلِعَ عليهم دُوني(١).

عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما، قال: ((قامَ فينا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ خطيبًا بموعظةٍ، فقال: يا أيُّها الناسُ، إنَّكم تُحشَرون إلى اللهِ حُفاةً عراةً غُرْلًا؛ ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، ألَا وإنَّ أوَّلَ الخَلائقِ يُكسَى يومَ القيامةِ إبراهيمُ عليهِ السلامُ، ألَا وإنَّهُ سيُجاءُ برِجالٍ من أُمَّتي، فيُؤْخَذ بهم ذاتَ الشِّمالِ، فأقولُ: يا ربِّ، أصحابي، فيقال: إنَّك لا تَدري ما أحْدَثوا بعدَك، فأقول، كما قال العبدُ الصالحُ: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٧ - ١١٨]، قال: فيقال لي: إنَّهم لم يزالوا مُرتدِّينَ على أعقابِهم منذُ فارقْتَهم)) وفي رواية: ((فيقال: إنَّك لا تَدْري ما أحْدَثوا بعدَك))(٢).

﴿وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

أي: وأنتَ الذي تَشهَدُ على كلِّ شيءٍ، ولا يَخفى عليك شيءٌ، ثم تُجازي عبادَك بحسَب ما قدَّموه من خيرٍ وشرٍّ(٣).

﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨)﴾.

﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٥٠-٥٥٢).

وقد سبَق في تفسير سُورة آل عمران تفسيرُ قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾، أي: متوفِّيك وفاةَ نوم.

قال الواحديُّ: (﴿فَلَمَّا توفَّيْتَنِي﴾ يَعني: رفَعْتَني إلى السَّماء). ((الوجيز)) (ص: ٣٤٣).

(٢) رواه البخاري (٣٤٤٧)، ومسلم (٢٨٦٠) واللفظ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٩).

أي: إنْ تُقدِّرْ لهم فِعلَ ما يَستحقُّون أن يُعذَّبوا عليه؛ لأنَّهم أهلٌ لذلك، فإنَّهم عبادُك، الذين أنتَ أرحمُ بهم من أنفسِهم وأمَّهاتِهم، وأعلمُ بأحوالِهم، فلولا أنَّهم عبادٌ مُتمرِّدون مستحقُّون للعذابِ لم تُعذِّبْهم، وهم عِبادٌ مستسلِمون لك طَوعًا أو كَرهًا؛ فلا يَقدِرون على الامتناعِ ممَّا أردتَ بهم، ولا يَدْفَعون عن أنفُسِهم ضرًّا يَحُلُّ بهم[١].

﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

أي: وإنْ قدَّرتَ لهم أسبابَ المغفرةِ فغَفرتَ لهم، فذلك صادرٌ عن تمامِ عِزَّتك (عزَّة القَدْر والقَهرِ والغَلبةِ والامتناعِ)، لا عنْ عجزٍ وذلٍّ وضَعْف؛ فإنَّك إن أردْتَ الانتقامَ منهم؛ فلا يقدِرُ أحدٌ أن يمنعَ عنك ذلك، لأنَّك العزيز، وصادرٌ أيضًا عن حِكمةٍ؛ فمِن مُقتضَى حِكمتِك أنْ تغفرَ لِمَن أتَى بأسبابِ المغفرةِ، فأنت الحكيمُ، تهدي مَن هدَيتَ مِن خَلقِك إلى التوبةِ، ونَيلِ مغفرتِك[٢].

عن عبد اللهِ بنِ عَمرٍو رضي اللهُ عنهما: ((أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ تلا قولَ اللهِ عزَّ وجلَّ في إبراهيمَ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ الآية، وقال عيسى عليه السَّلامُ: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، فرفعَ يديهِ وقال: اللهُمَّ، أُمَّتي أُمَّتي، وبكَى! فقال اللهُ عزَّ وجلَّ: يا جبريلُ، اذهبْ إلى محمَّدٍ- وربُّكَ أعلمُ- فسَلهُ ما يُبكيكَ؟ فأتاهُ جبريلُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ فسَألهُ، فأخبرهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بما قالَ- وهو أعلمُ- فقال اللهُ: يا جبريلُ، اذهبْ إلى محمَّدٍ فقلْ: إنَّا سنُرضِيكَ في أُمَّتكَ ولا نَسُوءُكَ))[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١١٧) ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٦٥).

(٣) رواه مسلم (٢٠٢).

وعن أبي ذرٍّ رضِي اللهُ عنه، قال: ((قامَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بآيةٍ حتى أصبحَ يُرَدِّدُها، والآيةُ: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُم فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾))(١).

﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩)﴾.

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا انقَضَى جوابُ عيسى عليه الصَّلاة والسَّلام على هذا الوجهِ الجليلِ من تفويضِ الأمْر للهِ في قوله: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، تشوَّف السامعُ إلى جوابِ اللهِ له، فقال تعالى مشيرًا إلى كونِ جوابه حقًّا ومضمونه صِدقًا، منبِّهًا على مَدْحه، حاثًّا على ما بُنِيَت عليه السُّورةُ مِن الوفاءِ بالعُقود(٢).

﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ﴾ قراءتان:

١- قراءة ﴿هَذَا يَوْمَ﴾ بنَصْب ﴿يَوْمَ﴾ وجَعْلِه ظرفًا للفِعل ﴿يَنْفَعُ﴾، وجَعْل ﴿هَذَا﴾ إشارةً إلى ما تقدَّم من الكلام، فقيل: المعنى أنَّ هذا الغُفرانَ والعذابَ يقع في يومِ يَنفعُ الصَّادقين صِدقُهم(٣)، وقيل: المعنى أنَّ الله تعالى أجابَ عيسى

---

(١) أخرجه ابن ماجة (١٣٥٠)، والنسائي (١٠١٠)، وأحمد (٢١٣٨٨)، والحاكم (٨٧٩).
صحَّحه الحاكم في ((المستدرك)) (٨٧٩)، وحسَّنه ابن القطان في ((بيان الوهم والإيهام)) (٥/ ٧٠١)، والألبانيُّ في ((صحيح ابن ماجة)) (١١١٨)، وحسَّن إسناده النوويُّ في ((الخلاصة)) (١ / ٥٩٥)، وصحَّح إسناده العراقي في ((تخريج الإحياء)) (١/ ٣٧٥).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٣٦٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٢٨).
(٣) قرأ بها نافع. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٢٨). =

حين قال: ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ إلى قولِه: ﴿فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، فقال له عزَّ وجلَّ: هذا القولُ النافعُ، أو هذا الصِّدقُ النافعُ يومَ يَنفعُ الصَّادقين في الدُّنيا صِدقُهم ذلك في الآخِرة عندَ الله؛ فاليومَ وقتُ القولِ والصِّدقِ النَّافع[1].

٢- قِراءة ﴿هَذَا يَوْمُ﴾ برَفْع ﴿يَوْمُ﴾ وجَعْل ﴿هذا﴾ مبتدأً، و﴿يَوْمُ يَنْفَعُ﴾ خبرًا، والمعنى: أنَّ هذا يومُ منفعةِ الصَّادقين[2].

﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾.

أي: قال اللهُ تعالى مُجيبًا لعيسى عليه السَّلام: يومُ القيامةِ هذا هو الوقتُ الذي يَجِدُ فيه الصَّادِقون- الذين استَقامتْ أعمالُهم وأقوالُهم على الصِّراطِ المستقيمِ، فأَخْلَصوا للهِ تعالى واتَّبعوا شَرْعَه فيها- ثمرةَ صِدْقِهم[3].

﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أخبر الله تعالى أنَّ صِدْقَ الصَّادقين في الدُّنيا يَنفَعُهم في القيامة، شرَح كيفيَّةَ ذلك النَّفعِ وهو الثوابُ[4]، فقال تعالى:

﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾.

= ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٣٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٤١).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٢٨).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٣٦)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٦٩).

أي: للصَّادقين جنَّاتٌ تَجري من تحتِ أشجارِها وقُصورِها الأنهارُ، ماكثِينَ فيها على الدَّوام(١).

﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾.

أي: رضِيَ اللهُ عن هؤلاءِ الصَّادقينَ باعتناقِهم الإيمانَ، وبما قاموا به من طاعةِ الرحمنِ، ورَضُوا هم عن اللهِ تعالى في تَوفيقِه لهم إلى الصَّالحات، وفي وفائِه بوَعْدِه لهم بدُخولِ الجَنَّات(٢).

عن أنسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، قال: ((ثمَّ يَتجلَّى لهم ربُّهم تعالى، ثم يقولُ: سَلُوني أُعطِكم، فيَسألونه الرِّضا، فيقولُ: رِضائي أَحَلَّكم دارِي، وأَنالَكُم كرامتي، فسلُوني أُعطِكم، فيسألونَه الرِّضا، فيُشْهِدُهم أنَّه قدْ رَضِيَ عنهم))(٣).

﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

أي: هذا الثوابُ الذي مَنَحَهم الله تعالى إيَّاه- مِن دُخولِ الجَنَّاتِ التي تَجري مِن تحتِها الأنهارُ، خالِدِين فيها أبدًا، مع رِضاه عنهم، ورِضاهم عن ربِّهم- هو الظَّفَرُ الكبيرُ الذي لا أَعْظم منه(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٦٧-٥٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٤٢-١٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٦٨).

(٣) أخرجه الدارميُّ في ((الرد على الجهمية)) (١٤٤)، وعبد الله بن أحمد في ((السنة)) (١/ ٢٥٠)، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٢٠٨٤) والدارقطني في ((رؤية الله)) (٦١).
قال الذهبي في ((العلو)) (٣٠): مشهورٌ وافرُ الطرق. وقال ابن القيِّم في ((حادي الأرواح)) (٢٦٨): (حديثٌ كبيرٌ عظيمُ الشأن، رواه أئمة السنة، وتلقَّوه بالقَبول، وجمَّل به الشافعيُّ مُسنَدَه). وجوَّد إسنادَه البُوصِيريُّ في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٢/ ٢٥٩)، وقال الهيتميُّ المكي في ((الزواجر)) (٢/ ٢٦٢): إسناده جيِّد قوي. وحسَّنه لغيره الألباني في ((صحيح الترغيب)) (٣٧٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٦٨-٥٦٩).

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٢٠)﴾.

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ عزَّ وجلَّ ما جرَى بَينَه وبينَ عيسى عليه الصَّلاةُ والسَّلام، وأنَّ عيسى تبرَّأ ممَّا يدَّعِي النصارى فيه؛ بَيَّنَ عزَّ وجلَّ أنَّ له مُلكَ السَّمواتِ والأرض، وأنَّ عيسى لا يَصلُح أنْ يكونَ إلهًا لا هو ولا غَيرُه؛ لأنَّهم لا يَملِكون شيئًا ممَّا في السَّمواتِ والأرض، فقال سبحانه(١):

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾.

أي: هو وحْدَه الخالقُ المالكُ للسَّمواتِ والأرضِ وما فيهنَّ، والمدبِّرُ لذلك كلِّه، فالجميعُ مِلكُه، وتحتَ قَهرِه وسُلطانِه وحْدَه سبحانَه، دون عيسى أو غيرِه مِن خَلْقِه(٢).

﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: وهو سبحانه لا يُعجِزُه شيءٌ أرادَه، وجميعُ الأشياءِ مُنقادةٌ لمشيئتِه(٣).

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- إثباتُ عِلم اللهِ بما في نفْس الإنسانِ؛ لِقَوْلِه: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾؛ فالله

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٣٦).

قال ابن عاشور: (﴿وَما فِيهِنَّ﴾ عَطْفٌ على ﴿مُلْكُ﴾، أي: للَّه ما في السَّمواتِ والأرضِ، كما في سُورةِ البقرةِ [٢٨٤] ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمواتِ وَما فِي الْأَرْضِ﴾ فيفيدُ قَصْرَها على كونها للَّه لا لغيره، وليس معطوفًا على السَّمواتِ والأرضِ؛ إذْ لا يحسُنُ أنْ يُقالَ: لِلَّهِ مُلْكُ ما في السَّمواتِ والأرضِ؛ لأنَّ المُلْك يُضافُ إلى الأقْطارِ والآفاقِ والأماكِنِ كما حكَى اللَّهُ تعالى: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ [الزخرف: ٥١]، ويُضافُ إلى صاحِبِ المُلْكِ، كما في قولِهِ: ﴿عَلَى مُلْكِ سُلَيْمانَ﴾ [الْبَقَرَة: ١٠٢]). ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٠).

عزَّ وجلَّ يعلمُ ما في القلبِ، فينبغي الحذَرُ من أن يكونَ فيه ما يُخالِفُ أمْرَ اللهِ عزَّ وجلَّ(١).

٢- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أنَّه يجِبُ على العبدِ كمالُ مراقبةِ اللهِ تبارَكَ وتعالى، بحيثُ لا يَفقِدُه عندَ أمْرِه، ولا يَجِده عندَ نَهيِه؛ لأنَّ الله رقيبٌ عليه(٢).

٣- أنَّ عيسى عليه السَّلام وهو أحدُ أُولي العزمِ من الرُّسل، يُفوِّض الأمرَ إلى الله؛ حيثُ قال: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ﴾، ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ﴾، وهكذا يجبُ علينا نحن أنْ نُفوِّضَ الأمرَ إلى الله عزَّ وجلَّ فيما يَفعلُه، ولا نَعترِضَ عليه؛ فالله يقول: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ لكمالِ حِكْمته، ﴿وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾؛ لأنَّهم عابِدونَ للهِ عزَّ وجلَّ(٣).

٤- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ الحثُّ على الصِّدقِ، والترغيبُ فيه، وبيانُ الفائدةِ العظيمةِ في الصِّدقِ؛ لكونِه نافعًا للإنسانِ في ذلك الوقتِ الحَرِجِ، الذي يكون الإنسانُ فيه أحوجَ ما يكون إلى ما يَنفَعُه(٤).

٥- أنَّ الفوزَ حقيقةً ليس بِربحِ الدِّينارِ والدِّرهم والجاهِ والرِّئاسةِ؛ الرِّبحُ العظيمُ أو الفوزُ العظيمُ هو فوزُ الإنسانِ بجَنَّاتِ النعيم- نسألُ اللهَ أن يَجعلَنا من الفائزِين بها- ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾(٥).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَوْلُه تعالى: ﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾ معنى (دون) إمَّا المغايرة أو القُصور؛ فعلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٦٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٥٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٦٢)، وينظر أيضًا: ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ٦٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٦٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٧٣).

المغايرة يكون فيه تنبيهٌ على أنَّ عِبادة الله سبحانه وتعالى مع عِبادةِ غيرِه كَلَا عبادةٍ، فمَن عبَدَه مع عِبادتِهما كأنَّه عبَدَهما ولم يَعبُدْه، وعلى القصورِ؛ فإنَّهم لم يَعتقِدوا أنَّهما مستقلَّانِ باستحقاقِ العبادةِ، وإنَّما زعَموا أنَّ عبادَتَهما تُوصِلُ إلى عبادةِ الله سبحانه وتعالى، وكأنَّه قيل: اتَّخِذوني وأمِّيَ إلهينِ مُتوصِّلِينَ بنا إلى الله سبحانه وتعالى(١).

٢- إثباتُ القولِ لله؛ لقولِه: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ﴾، ولِقَوْلِه: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ﴾، وفي القرآن إثباتُ الكلام، وإثباتُ النِّداء، وكلُّ هذا يدلُّ على أنَّ اللهَ تعالى يَتكلَّم بكلامٍ حقيقةً بحَرْفٍ وصوتٍ؛ أمَّا كونه بحرفٍ: فلأنَّ الكلماتِ التي جاءتْ بعدَ القول حروفٌ، وأمَّا كونه بصوتٍ؛ فلأنَّ الله تعالى يُخاطِبُ به عيسى، وعيسى يردُّ عليه، وهذا مذهبُ أهل السُّنَّة والجماعة، وهو الواجبُ على كلِّ مؤمنٍ(٢).

٣- في سؤالِ اللهِ عيسى عليه السلامُ بقولِه: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ...﴾ دون النَّصارى مع كونِه تعالى عالِمًا بأنَّ عيسى عليه السَّلامُ لم يقُلْ ذلك- عِدَّةُ أوجه:

الأوَّل: أنَّ المرادَ به توبيخُ الكَفَرةِ الذين اتَّخذوا عيسى وأمَّه إلهينِ، وتَبكيتُهم(٣).

الثاني: أنه تعريضٌ بالإرهابِ، والوعيدِ بتوجُّه عقوبةِ ذلك إلى مَن قال هذا القولَ إنْ تَنصَّلَ منه عيسى، فيَعلَم أحبارُهم الذين اخترَعوا هذا القولَ أنَّهم المرادُ بذلك، والمعنى: أنَّه إنْ لم يكن هو قائلَ ذلِك، فلا عُذْرَ لِمَن قالَه؛ لأنَّهم زعَموا

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٥٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٤٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٢٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٥٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٤٤).

أنَّهم يتَّبِعون أقوالَ عيسى وتعاليمَه[١].

الثالث: تحذيرُ عيسى عن قِيلِ ذلك ونهيُه، كما يقولُ القائلُ لآخر: (أفعلت كذا وكذا؟) ممَّا يعلم المقولُ له ذلك أنَّ القائلَ يستعظمُ فِعْلَ ما قال له: (أفعَلْتَه)، على وَجهِ النَّهي عن فِعلِه، والتَّهديدِ له فيه[٢].

الرابع: أنَّ المرادَ به إعلامُ عيسى أنَّ قومَه الذين فارَقهم قدْ خالفوا عَهدَه، وبدَّلوا دِينَهم بَعدَه[٣].

٤- في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ كانتِ المبادرةُ من عيسى عليه السَّلام بتنزيهِ الله تعالى أهمَّ مِن تبرئتِه نفْسَه بقوله: ﴿مَا يَكُونُ لِي...﴾ على أنَّها مُقدِّمة للتبرِّي؛ لأنَّه إذا كان يُنزِّه اللهَ عن ذلك، فلا جرمَ أنَّه لا يأمُرُ به أحدًا[٤].

٥- في قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ...إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ كمالُ أدَبِ المسيحِ عليه الصَّلاة والسَّلام في خِطابه لربِّه؛ فلم يقُلْ عليه السلام: (لم أقلْ شيئًا من ذلك)، وإنَّما أخبر بكلامٍ يَنفي عن نفْسِه أن يقولَ كلَّ مقالةٍ تُنافي منصبَه الشَّريفَ، وأنَّ هذا من الأمورِ المُحالةِ، ونَزَّه ربَّه عن ذلك أتمَّ تنزيهٍ، وردَّ العِلمَ إلى عالمِ الغيبِ والشَّهادة[٥] كذلك قوله: ﴿إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾؛ فهو يُشعِر بأنَّه رسولٌ مأمورٌ، مُكلَّفٌ بالأمْرِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١١٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٩).

وقيل: لم يقُلْ بأنِّي ما قلتُ هذا الكلام؛ لأنَّ هذا يَجري مجرى دعْوى الطَّهارة والنَّزاهة، والمقام مقامُ الخُضوعِ والتواضُع. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٦٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٥١).

٦- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ أنَّه لا حقَّ لعيسى في الأُلوهيَّة ولا الربوبيَّة؛ ولذا تبرَّأ عيسى عليه السَّلام من ذلك، وقال: إنَّه ليس بحقٍّ له، ونزَّه اللهَ تعالى أنْ يكونَ له شريكٌ؛ لِقَوْلِه: ﴿رَبِّي﴾ ومَن ليس له رُبوبيَّة ليس له أُلوهيَّة، فالألوهيَّة حقٌّ خاصٌّ لله، وإذا كان الرُّسُل- بل خُلاصةُ الرُّسُل- ليس لهم حقٌّ في الأُلوهيَّة، فمَن دُونَهم مِن باب أَوْلى؛ فلا أحدَ يستحقُّ أن يكونَ إلهًا، ولا أحدَ يستحقُّ أنْ نَعبُده مِن دونِ اللهِ عزَّ وجلَّ(١).

٧- قَوْلُه تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾ خصَّ النَّفْس؛ لأنَّها مَظِنَّةُ الكتْمِ، والانطواءِ على المعلومات(٢).

٨- في قوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ أنَّ مَن ادَّعى عِلمَ الغيبِ فقدِ ادَّعى أنَّه شريكٌ لله؛ وجهُ الدَّلالة: أنه أتَى بضميرِ فَصْل ﴿أَنْتَ﴾ بَينَ طرَفَي الجُملةِ، وهذا يَدُلُّ على الحَصْرِ، يعني: أنت لا غيرُك علَّامُ الغيوبِ(٣).

٩- أنَّ الرُّسُلَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلام شهداءُ على أمَّتهم ما داموا فيهم؛ لِقَوْلِه: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾، ومع ذلك هم شهداءُ على ما يَرَوْنَ أو يَسمعونَ، وليسوا شهداءَ على غائبٍ بعيدٍ لا يَرونه ولا يَسمعونَه؛ لأنَّ الرُّسُل لا يَعلمونَ الغيبَ(٤).

١٠- يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ حِكمةُ الله عزَّ وجلَّ في جَعْل الخَلْق يَنقسِمونَ إلى قِسمين: مُعذَّبٍ، ومغفورٍ له؛ كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، ولولا هذا الانقسامُ ما ظهَر فضلُ الإيمانِ، ولا شُرِعَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٤٤، ٥٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٤٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٥١).

الجهادُ، ولا الأمرُ بالمعروفِ والنهيُ عن المنكرِ، ولا أُرْسِلتِ الرُّسُلُ، لكنْ حِكمةُ الله اقتضتْ أنْ يكونَ الناسُ قِسمينِ(١).

١١- قال تعالى: ﴿وَمَا فِيهِنَّ﴾، ولم يقُلْ: (وَمَنْ فيهنَّ)، فغلَّب غيرَ العُقلاءِ على العقلاءِ؛ والسَّببُ فيه التنبيهُ على أنَّ كلَّ المخلوقاتِ مُسخَّرونَ في قبضةِ قَهْرِه وقُدرتِه، وقَضائِه وقَدَره، وهم في ذلك التَّسخيرِ كالجَماداتِ التي لا قُدرةَ لها، وكالبَهائِمِ التي لا عَقْلَ لها، فعِلْمُ الكلِّ بالنِّسبة إلى عِلْمه كَلا عِلْمٍ، وقُدرةُ الكلِّ بالنسبة إلى قُدْرَتِه كَلَا قدرةٍ(٢).

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قَوْلُه: ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ استئنافٌ مُقرِّر للتنزيهِ، ومُبيِّن للمُنزَّه منه، وإيثارُ ﴿لَيْسَ﴾ على الفِعل المنفيِّ؛ لظُهورِ دَلالتِه على استمرارِ انتفاءِ الحقِّيَّة، وإفادة التأكيدِ بما في حيِّزه من الباءِ في ﴿بِحَقٍّ﴾(٣).

٢- قَوْلُه: ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ استئنافٌ مُقرِّر لعدمِ صُدور القولِ المذكورِ عنه عليه السَّلامُ بالطريقِ البُرهانيِّ؛ فإنَّ صدورَه عنه مستلزِمٌ لعِلمِه تعالى به قطعًا، فحيثُ انتفى عِلمُه تعالى به انتَفَى صدورُه عنه حتمًا؛ ضرورةَ أنَّ عدمَ اللازمِ مُستلزِمٌ لعدمِ الملزومِ(٤).

٣- قَوْلُه: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ استئنافٌ مَسُوقٌ لبيانِ ما صدر عنه قد أُدْرِجَ فيه عدمُ صدورِ القولِ المذكورِ عنه على أبلَغِ وَجْهٍ وآكَدِه؛ حيث حَكَمَ بانتفاءِ صُدور جميعِ الأقوال المغايِرَة للمأمورِ به، فدخَل فيه انتفاءُ صدورِ القولِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٦٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٦٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٠٠-١٠١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

المذكور دخولًا أوَّليًّا، أي: ما أمَرْتُهم إلا بما أمَرْتَني به[١].

- وعبَّر بقولِه: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾، ولم يقُل: (ما أمرتُهم إلَّا ما أمرتَني به)، وهو مِن بابِ وضْعِ القَولِ موضِعَ الأمْرِ؛ نُزولًا على مُوجِبِ الأدبِ الحَسَنِ؛ لئلَّا يَجعَلَ نفْسَه وربَّه آمِرَينِ معًا[٢].

٤- قَوْلُه: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾ استئنافٌ جرَى مجرَى التعليلِ لِمَا قبْلَه، كأنَّه قيل: لأنَّك تعلمُ ما أُخفيه في نفْسي؛ فكيف بما أُعلِنه[٣]؟!

٥- قَوْلُه: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ تعليلٌ لمضمون الجُملَتين منطوقًا ومفهومًا، وهو تقريرٌ وتأكيدٌ للجُملتَينِ: ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ وقوله: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾؛ لأنَّ ما انطوتْ عليه النفوسُ مِن جُملة الغيوبِ، ولأنَّ ما يَعلمُه علَّامُ الغيوبِ، لا يَنتهي إليه عِلمُ أحدٍ[٤].

٦- قَوْلُه: ﴿وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ مُقرِّر لِمَا قَبلَه، وفيه إيذانٌ بأنَّه تعالى كان هو الشَّهيدَ على الكلِّ حِين كونِه عليه السَّلام فيما بينهم وشِبه الجُملة ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ مُتعلِّق بشهيد، وتقديمُه لمراعاةِ الفاصلة[٥].

- والتعبير بصِيغة فَعِيل ﴿شَهِيد﴾؛ للمبالغةِ في وصْفِه بكونِه شهيدًا، أي: رقيبًا، كثيرَ الحِفظِ عليهم[٦].

٧- قَوْلُه: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٠٠-١٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٩٣)، ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٠٠-١٠١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٠٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤١٩).

﴿الْحَكِيمُ﴾: في ختامِ هذه الآيةِ بقوله: ﴿فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾- مع كون المتبادَر أنْ تُختَمَ بقولِه: (فإنَّك أنت الغفور الرحيم)- مناسَبةٌ حسنةٌ لطيفةٌ، وفي هذه المناسبة أوجهٌ؛ منها: أنَّ مقصودَ عيسى عليه السَّلام تفويضُ الأمورِ كلِّها إلى اللهِ تعالى، وترْكُ الاعتراضِ بالكليَّة؛ ولذلك ختَم الكلام بقَوْلِه: ﴿فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: قادرٌ على ما تُريد في كلِّ ما تفعلُ، لا اعتراضَ عليك؛ فإنَّه لو قال: (فإنَّك أنت الغفور الرحيم)، أشْعَرَ ذلك بكونِه شفيعًا لهم، فلمَّا قال: ﴿فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ دلَّ ذلك على أنَّ غرَضَه تفويضُ الأمرِ بالكليَّةِ إلى اللهِ تعالى، وترْكُ التعرُّضِ لهذا البابِ من جميعِ الوجوهِ، ففوَّض أمْرَهم إلى اللهِ؛ فهو أعلمُ بما يُجازيهم به؛ لأنَّ المقامَ مقامُ إمساكٍ عن إبداءِ رغبةٍ؛ لشدَّةِ هولِ ذلك اليومِ، وغايةُ ما عَرَّضَ به عيسى أنَّه جوَّزَ المغفرةَ لهم رحمةً منه بهم[1].

ومنها: أنَّه لا يَحتمِل إلَّا ما أَنزلَه اللهُ تعالى؛ لأنَّ المعنى مُتعلِّق بالشَّرطينِ جميعًا؛ إذْ لو ختَمها بقولِه: (فإنَّك أنتَ الغفورُ الرحيم) ضَعُف معناه؛ فإنَّه ينفردُ الغفورُ الرحيمُ بالشَّرْط الثاني ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ﴾، ولا يكون له بالشَّرطِ الأوَّل تعلُّقٌ ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُم﴾، وأمَّا قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ على ما أَنْزلَه اللهُ تعالى، وأَجْمَع على قِراءتِه المسلمون؛ فهو مُتعلِّقٌ بالشَّرطينِ مِن جِهةِ المعنى أولِهما وآخِرِهما؛ إذ تلخيصُه: إنْ تعذبْهم فأنتَ العزيزُ الحكيمُ، وإنْ تغفرْ لهم فأنتَ العزيزُ الحكيمُ في الأمرينِ كِلَيْهما من التعذيبِ والغفرانِ، فكان ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أليقَ بهذا المكانِ لعمومِه، وأنَّه يَجمَعُ الشَّرْطَيْنِ، ولم يَصْلُحِ (الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) أنْ يَحتمِلَ ما احتملَه ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[2].

ومنها: أنَّ هؤلاءِ قد استحقُّوا العذابَ دون الغُفرانِ؛ فوجَبَ أنْ تكونَ الفاصلة:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٦٨)،((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٢٠- ٤٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٢١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٥١٩).

﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾؛ ولـم تجِئ (الغفور الرحيم) بعدَ ذِكر الغُفران؛ لأنَّه لا يَغْفِرُ لهم، فوجَب أن تكون الفاصلة كما وردتْ ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾؛ لأنَّ الله سبحانه مُمتنِعٌ عن القَهرِ والمعارضة. وهو ما يُسمَّى عند البلاغيين بـ (التخيير)[1].

٨- قوله: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ﴾ فيه: التعبيرُ بصيغةِ الماضي ﴿قَالَ اللَّهُ﴾ عن المستقبَل الذي سَيكونُ يومَ القِيامةِ؛ للدَّلالةِ على تَحقُّقِ الوقوعِ[2].

- وفيه تقديمُ الخبرِ ﴿لَهُمْ﴾ على المبتدأ ﴿جَنَّاتٌ﴾ وهو يدلُّ على الحَصرِ، بمعنى أنَّ هذا الثوابَ يختصُّ به الصادِقونَ[3].

٩- قَوْلُه: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

- فيه تنبيهٌ على كَذِبِ النصارَى وفسادِ دَعواهم في المسيحِ وأمِّه[4].

- وتقديمُ الخَبرِ ﴿لِلَّهِ﴾؛ لبيانِ اختصاصِ مُلكِ السَّموات والأَرْضِ وما فيهنَّ باللهِ عزَّ وجلَّ؛ فتقديمُ ما حقُّه التأخيرُ يُفيد الحصرَ، سواءٌ كان هذا الذي حقُّه التأخيرُ خبرًا أمْ مفعولًا، أو غير ذلك ممَّا حقُّه التأخيرُ[5].

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ٥٤- ٥٦).
والتخيير: الإتيانُ بكلام يَسوغُ أن يُقفَّى بقوافٍ شتَّى، فيُتخيَّر منها قافيةٌ مُرجَّحة على سائرِها، ويُستدلُّ بإيثارِه إيَّاها على حُسن اختيارِه، وصِدق حسِّه، وقدْ تَقضي البداهةُ الأولى بأنْ تكونَ غيرَ ما اختاره، ولكنَّه عزَفَ عن ذلك لسرٍّ دقيقٍ، وفي هذه الآية البداهةُ البدائية تَقضي بأنْ تكون الفاصلة: (إنَّك أنت الغفور الرحيم)؛ لملاءمتِها لقوله: ﴿إِنْ تَغْفِرْ﴾، ولمناسبته ما بين الغُفران والغفور، ولكنَّ هذا الوهمَ الناجِمَ عن هذه البداهةِ سَرعانَ ما يَزولُ أثرُه عندما يَذكُر المتوهِّم أنَّهم استحقُّوا العذابَ لا الغُفران. يُنظر: المرجع السَّابق نفْسُه.

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٥١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٧٦).

- وفيه تقديمُ ﴿السَّمَوَاتِ﴾ على ﴿الْأَرْضِ﴾؛ لأنَّ السَّمواتِ أشرفُ وأكبرُ، وآياتها أدلُّ وأكثرُ من الأرض[١].

- وقال: ﴿وَمَا فِيهِنَّ﴾ لأنَّ (ما) يُطلَق متناوِلًا للأجناسِ كلِّها؛ فهو أَوْلى بإرادةِ العمومِ[٢].

تمَّ بحمدِ الله تعالى المجلدُ الرَّابعُ
ويليه المجلدُ الخامسُ، وأوَّله
تفسيرُ سورةِ الأنعامِ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٥١).

الفهرس

❋

❋

❋

الفهرس

تَفْسِيرُ سُورَةِ المائِدَةِ ٥
أَسماءُ السُّورةِ ٧
فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها ٧
مَقاصِدُ السُّورةِ ٩
مَوضوعاتُ السُّورةِ............ ٩
الآيتان (١ – ٢) ١١
غريبُ الكَلِمات ١١
مُشْكِلُ الإعرابِ ١٤
المعنى الإجماليُّ: ١٥
تَفسيرُ الآيتين................. ١٦
الفوائِد التربويَّة ٢٢
الفوائِد العِلميَّة واللَّطائفُ..... ٢٤
بلاغَةُ الآيتين ٢٦
الآية (٣)...................... ٢٩
غريبُ الكَلِمات ٢٩
المعنى الإجماليُّ.............. ٣٢
تفسيرُ الآيةِ ٣٢
الفوائِد التربويَّة ٤٠
الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف..... ٤٠
بلاغَةُ الآية ٤٤
الآيتان (٤ – ٥) ٤٦
غريبُ الكَلِمات ٤٦
مُشْكِلُ الإعرابِ.............. ٤٨
المعنى الإجماليُّ.............. ٤٨
تَفسيرُ الآيتين................. ٤٩
الفوائِد التربويَّة ٥٥
الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف..... ٥٦
بلاغَةُ الآيتين ٦٢
الآية (٦)...................... ٦٤
غريبُ الكَلِمات ٦٤
مُشْكِلُ الإعرابِ.............. ٦٥
المعنى الإجماليُّ.............. ٦٥
تفسير الآية ٦٦
الفوائِد التربويَّة ٧٢

الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف.... ٧٣
بلاغَةُ الآية ٧٨
الآيات (٧ – ١١) ٨٠
غريبُ الكَلِمات ٨٠
مُشكِلُ الإعرابِ................. ٨١
المعنى الإجماليُّ............... ٨٢
تَفسيرُ الآياتِ.................... ٨٢
الفوائِدُ التربويَّةُ ٨٩
الفوائِد العِلْميَّةُ واللَّطائفُ.... ٩١
بلاغَةُ الآياتِ ٩٥
الآيات (١٢ – ١٤) ٩٩
غريبُ الكَلِمات ٩٩
المعنى الإجماليُّ............. ١٠١
تَفسيرُ الآياتِ.................. ١٠٢
الفوائِدُ التربويَّةُ ١١٠
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ.... ١١٣
بلاغَةُ الآياتِ ١١٧
الآيتان (١٥ – ١٦) ١٢١
غريبُ الكَلِمات ١٢١
المعنى الإجماليُّ............ ١٢١
تَفسيرُ الآيتين.................. ١٢٢
الفوائِد التربويَّةُ ١٢٤
الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف.... ١٢٥
بلاغَةُ الآيتين ١٢٨
الآيات (١٧ – ١٩) ١٣٠
غريبُ الكَلِمات ١٣٠
المعنى الإجماليُّ............ ١٣٠
تَفسيرُ الآياتِ................. ١٣١
الفوائِد التربويَّة ١٣٧
الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف.... ١٣٨
بلاغَةُ الآياتِ ١٤٢
الآيات (٢٠ – ٢٦) ١٤٦
غريبُ الكَلِمات ١٤٦
مُشكِلُ الإعرابِ ١٤٨
المَعنَى الإجْمالِيُّ............١٤٨
تَفْسيرُ الآياتِ................ ١٥٠

الفوائِدُ التَّربويَّة ١٥٨
الفَوائِدُ العامَّة واللَّطائِف ١٦٠
بَلاغَةُ الآياتِ ١٦٥
الآيات (٢٧ - ٣٢) ١٦٧
غريبُ الكَلِمات ١٦٧
المَعنَى الإجْمالِيُّ ١٦٩
تَفْسيرُ الآياتِ ١٧٠
الفوائِدُ التَّربويَّة ١٧٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف.... ١٧٩
بَلاغَةُ الآياتِ ١٨٦
الآيتان (٣٣ - ٣٤) ١٩٠
غريبُ الكَلِمات ١٩٠
المَعنَى الإجْمالِيُّ ١٩٠
تَفسيرُ الآيتينِ ١٩١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف.... ١٩٥
بَلاغَةُ الآيتين ١٩٧
الآيات (٣٥ - ٣٧) ١٩٨
غريبُ الكَلِمات ١٩٨
المَعنَى الإجْمالِيُّ ١٩٨
تَفْسيرُ الآياتِ ١٩٩
الفوائِدُ التَّربويَّة ٢٠٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف.... ٢٠٣
بَلاغَةُ الآياتِ ٢٠٥
الآيات (٣٨ - ٤٠) ٢٠٧
غريبُ الكَلِمات ٢٠٧
المَعنَى الإجْمالِيُّ ٢٠٧
تَفْسيرُ الآياتِ ٢٠٨
الفوائِدُ التَّربويَّة ٢١١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف.... ٢١٢
بَلاغَةُ الآياتِ ٢١٦
الآيات (٤١ - ٤٣) ٢١٨
غريبُ الكَلِمات ٢١٨
المَعنَى الإجْمالِيُّ ٢٢٠
تَفْسيرُ الآياتِ ٢٢١
الفوائِدُ التَّربويَّة ٢٢٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف.... ٢٣٢

بَلاغَةُ الآياتِ ٢٣٥
الآيتان (٤٤ – ٤٥)........... ٢٣٨
غريبُ الكَلِمات ٢٣٨
المَعنَى الإجْمالِيُّ............. ٢٣٩
تَفْسيرُ الآيتين ٢٤٠
الفوائِدُ التَّربويَّة ٢٤٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف.... ٢٤٩
بَلاغَةُ الآيتين ٢٥٤
الآيتان (٤٦ – ٤٧)........... ٢٥٦
غريبُ الكَلِماتِ ٢٥٦
مُشكِلُ الإعرابِ ٢٥٧
المَعنَى الإجْمالِيُّ............. ٢٥٧
تَفْسيرُ الآيتين ٢٥٨
الفوائِدُ التَّربويَّة ٢٦١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف.... ٢٦١
بَلاغَةُ الآيتين ٢٦٢
الآيات (٤٨ – ٥٠) ٢٦٤
غريبُ الكَلِمات ٢٦٤
مُشكِلُ الإعرابِ ٢٦٦
المَعنَى الإجْمالِيُّ............. ٢٦٧
تَفْسيرُ الآياتِ............... ٢٦٧
الفوائِدُ التَّربويَّة ٢٧٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف.... ٢٧٥
بَلاغَةُ الآياتِ ٢٧٨
الآيات (٥١ – ٥٣) ٢٨٣
غريبُ الكَلِمات ٢٨٣
مُشكِلُ الإعرابِ ٢٨٤
المَعنَى الإجْمالِيُّ............. ٢٨٤
تَفْسيرُ الآياتِ............... ٢٨٥
الفَوائِدُ التَّربويَّة ٢٩٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف.... ٢٩٠
بَلاغَةُ الآياتِ ٢٩٣
الآيات (٥٤ – ٥٦) ٢٩٦
غريبُ الكَلِمات ٢٩٦
المَعنَى الإجْمالِيُّ............. ٢٩٧
تَفْسيرُ الآياتِ............... ٢٩٧

الفَوائِدُ التَّربويَّة ٣٠٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف ... ٣٠٥
بَلاغَةُ الآياتِ ٣٠٨
الآيات (٥٧ - ٦١) ٣١٢
غريبُ الكَلِمات ٣١٢
مُشكِلُ الإعرابِ ٣١٣
المَعنَى الإجْمالِيُّ ٣١٥
تَفْسيرُ الآياتِ ٣١٦
الفَوائِدُ التَّربويَّة ٣٢٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف ... ٣٢٤
بَلاغَةُ الآياتِ ٣٢٨
الآيات (٦٢ - ٦٤) ٣٣٢
غريبُ الكَلِمات ٣٣٢
المَعنَى الإجْمالِيُّ ٣٣٣
تَفْسيرُ الآياتِ ٣٣٣
الفَوائِدُ التَّربويَّة ٣٣٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف ... ٣٤٠
بَلاغَةُ الآياتِ ٣٤٤
الآيات (٦٥ - ٦٨) ٣٥٠
غريبُ الكَلِمات ٣٥٠
المَعنَى الإجْمالِيُّ ٣٥١
تَفْسيرُ الآياتِ ٣٥٢
الفَوائِدُ التَّربويَّة ٣٥٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف ... ٣٦٠
بَلاغَةُ الآياتِ ٣٦٦
الآيات (٦٩ - ٧١) ٣٦٩
غريبُ الكَلِمات ٣٦٩
مُشكِلُ الإعرابِ ٣٧٠
المَعنَى الإجْمالِيُّ ٣٧٢
تَفْسيرُ الآياتِ ٣٧٢
الفَوائِدُ التَّربويَّة ٣٧٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف ... ٣٧٨
بَلاغَةُ الآياتِ ٣٨٠
الآيات (٧٢ - ٧٧) ٣٨٤
غريبُ الكَلِمات ٣٨٤
مُشكِلُ الإعرابِ ٣٨٥

المَعنَى الإجْمالِيُّ........... ٣٨٦
تَفْسيرُ الآياتِ................ ٣٨٧
الفَوائِدُ التَّربويَّة ٣٩٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف.... ٣٩٨
بَلاغَةُ الآياتِ ٤٠٣
الآيات (٧٨ - ٨١) ٤٠٩
مُشكِلُ الإعرابِ ٤٠٩
المَعنَى الإجْمالِيُّ........... ٤٠٩
تَفْسيرُ الآياتِ................ ٤١٠
الفَوائِدُ التَّربويَّة ٤١٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف.... ٤١٥
بَلاغَةُ الآياتِ ٤١٨
الآيات (٨٢ - ٨٦) ٤٢١
غريبُ الكَلِماتِ ٤٢١
المَعنَى الإجماليُّ........... ٤٢٢
تَفسيرُ الآياتِ................ ٤٢٣
الفَوائِدُ التَّربويَّة ٤٢٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف.... ٤٣٢
بَلاغةُ الآياتِ ٤٣٥
الآيات (٨٧ - ٨٩) ٤٣٧
غريبُ الكَلِماتِ ٤٣٧
مُشكِلُ الإعرابِ ٤٣٨
المَعنَى الإجماليُّ........... ٤٣٨
تَفسيرُ الآياتِ................ ٤٣٩
الفَوائِدُ التَّربويَّة ٤٤٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف.... ٤٥٠
بَلاغةُ الآياتِ ٤٥٦
الآيات (٩٠ - ٩٣) ٤٥٨
غريبُ الكَلِماتِ ٤٥٨
المَعنَى الإجماليُّ........... ٤٥٩
تَفسيرُ الآياتِ................ ٤٦٠
الفَوائِدُ التَّربويَّة ٤٦٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف.... ٤٧٠
بَلاغةُ الآياتِ ٤٧٤
الآيات (٩٤ - ٩٦) ٤٨١
غريبُ الكَلِماتِ ٤٨١

مُشكِلُ الإعرابِ ٤٨٢
المَعنَى الإجماليُّ ٤٨٤
تَفسيرُ الآياتِ ٤٨٥
الفَوائِدُ التَّربويَّة ٤٩١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف ... ٤٩٢
بَلاغةُ الآياتِ ٥٠١
الآيات (٩٧ - ١٠٠) ٥٠٤
غريبُ الكَلِماتِ ٥٠٤
مُشكِلُ الإعرابِ ٥٠٤
المَعنَى الإجْماليُّ ٥٠٥
تَفسيرُ الآياتِ ٥٠٦
الفَوائِدُ التَّربويَّة ٥١١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف ... ٥١٣
بَلاغةُ الآياتِ ٥١٧
الآيات (١٠١ - ١٠٥) ٥٢٠
غريبُ الكَلِماتِ ٥٢٠
المَعنَى الإجماليُّ ٥٢١
تَفسيرُ الآياتِ ٥٢٢
الفَوائِدُ التَّربويَّة ٥٣١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف ... ٥٣٥
بَلاغةُ الآياتِ ٥٣٧
الآيات (١٠٦ - ١٠٨) ٥٤٠
غريبُ الكَلِماتِ ٥٤٠
مُشكِلُ الإعرابِ ٥٤١
المَعنَى الإجماليُّ ٥٤٥
تَفسيرُ الآياتِ ٥٤٥
الفَوائِدُ التَّربويَّة ٥٥١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف ... ٥٥٢
بَلاغةُ الآياتِ ٥٥٧
الآيتان (١٠٩ - ١١٠) ٥٦٠
غريبُ الكَلِماتِ ٥٦٠
المَعنَى الإجماليُّ ٥٦٢
تَفسيرُ الآيتين ٥٦٢
الفَوائِدُ التَّربويَّة ٥٦٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف ... ٥٦٩
بَلاغةُ الآيتين ٥٧٥

الآيات (١١١ - ١١٥) ٥٨٢
غريبُ الكَلِماتِ ٥٨٢
المَعنَى الإجماليُّ ٥٨٣
تَفْسيرُ الآياتِ ٥٨٤
الفَوائِدُ التَّربويَّة ٥٨٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف ٥٨٨
بَلاغةُ الآياتِ ٥٩٣
الآيات (١١٦ - ١٢٠) ٥٩٦
غريبُ الكَلِماتِ ٥٩٦
مُشكِلُ الإعرابِ ٥٩٦
المَعنَى الإجماليُّ ٥٩٧
تَفْسيرُ الآياتِ ٥٩٨
الفَوائِدُ التَّربويَّة ٦٠٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف ٦٠٦
بَلاغةُ الآياتِ ٦١٠
الفهرس ٦١٥

تم الصف والإخراج في
مؤسسة الدرر السنية
nashr@dorar.net
هاتف ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
فاكس ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨
جوال ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

9 786038 154328

التفسير المحرر

للقرآن الكريم

سورة الأنعام

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر (سابقًا)

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الخامس

الدرر السنية
www.dorar.net

التفسير المحرر

للقرآن الكريم

٥

ⓗ مؤسسة الدرر السنية للنشر - ١٤٣٧هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
مؤسسة الدرر السنية - القسم العلمي
التفسير المحرر - سورة الأنعام - المجلد الخامس/ مؤسسة الدرر السنية -
القسم العلمي - الظهران، ١٤٣٧هـ
٧٦٨ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم
ردمك: ٢-٣٤-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨
١- القرآن - سورة الأنعام - تفسير أ- العنوان
ديوي ٢٢٧,٣٢ ١٤٣٧/٣٠٠٣

رقم الإيداع: ١٤٣٧/٣٠٠٣
ردمك: ٢-٣٤-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

الدرر السنية
www.dorar.net
مؤسسة الدرر السنية - المملكة العربية السعودية
ص. ب ٣٩٣٦٤ الظهران ٣١٩٤٢ - جوال: ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠
ت: ٠١٣٨٦٨٠١٢٣/فاكس: ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨ - بريد الكتروني nashr@dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسِيرُ
سُورَةِ الأنعامِ

سُورة الأنعام

أسماءُ السُّورة:

سُمِّيتْ هذه السُّورةُ الكريمةُ سُورةَ الأنعامِ(١).

فعن سَعيدِ بنِ جُبَيرٍ، عنِ ابنِ عباسٍ رضي اللهُ عنهما، قال: (إذا سَرَّك أنْ تَعلَمَ جَهْلَ العربِ، فاقرَأْ ما فَوقَ الثَّلاثينَ ومِئَةٍ في سورةِ الأنعامِ: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ...﴾ إلى قولِه: ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾)(٢).

فَضائلُ السُّورةِ وخصائصُها:

عنِ ابنِ عبَّاسٍ رضِي اللهُ عنهما، قالَ: ((نزَلَتْ سورَةُ الأنعامِ بمَكَّةَ ليلًا جُملةً، حولَها سَبعونَ ألفَ مَلَكٍ، يَجأَرُونَ حولَها بالتَّسبيحِ))(٣).

بيانُ المَكيِّ والمَدنيِّ:

سورةُ الأنعامِ مَكيَّةٌ، وقد نقَلَ الإجماعَ على ذلِك بعضُ المفسِّرين(٤).

---

(١) سُمِّيت سورةَ الأنعام؛ لِمَا فيها مِن ذِكر الأنعام مكرَّرًا ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ﴾، ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾، ﴿وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزآبادي (١/ ١٨٧).

وقال السيوطي: (وتسميةُ سورةِ الأنعامِ؛ لِما ورَد فيها من تفصيلِ أحوالِها، وإن كان قد ورَد لفظُ «الأنعام» في غيرِها إلَّا أنَّ التفصيلَ الواردَ في قولِه تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ إلى قولِه: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ﴾ لم يرِدْ في غيرِها). ((الإتقان في علوم القرآن)) (١/ ١٩٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣٥٢٤).

(٣) أخرجه القاسم بن سلَّام في ((فضائل القرآن)) (ص٢٤٠)، وابن الضريس في ((فضائل القرآن)) (١٩٦)، والطبراني (١٢/ ٢١٥) (١٢٩٣٠).

حسَّنه ابن حجر في ((نتائج الأفكار)) (٣/ ٢٢٧)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٧٦١).

(٤) ممَّن نقَل الإجماع على ذلك: ابنُ تيميَّة في ((الفتاوى الكبرى)) (١/ ١٦٢)، والشِّنقيطيُّ في ((العذب النمير)) (٢/ ٣٦٢)، وابنُ عاشور في ((تفسيره)) (٧/ ١٢١). =

مَقاصِدُ السُّورة:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ سُورةِ الأنعام:

١- ترسيخُ العَقيدةِ، وتعريفُ النَّاسِ بربِّهم، وتعبيدُهم له، وإقامةُ الأدلَّةِ على وحدانيَّةِ اللهِ، وصِدقِ رسولِه، وعلى اليومِ الآخِرِ(١).

٢- مُحاجَّةُ المشركِينَ وغيرِهم من المُبتدِعينَ، ومَن كذَّبَ بالبَعْثِ والنُّشورِ، ودحْضُ شُبَهِهم(٢).

موضوعاتُ السُّورة:

مِن أبرزِ الموضوعاتِ التي تناولَتْها سورةُ الأنعامِ:

١- بيانُ أنَّ حقَّ الحَمدِ ليسَ إلَّا للهِ؛ لأنَّه مُبدِعُ العوالمِ، وإبطالُ تَأثيرِ الشُّركاءِ مِن الأصنامِ والجنِّ؛ بإثباتِ أنَّه المتفرِّدُ بخَلْقِ العالَمِ، وخَلْقِ الإنسانِ ونظامِ حَياتِه ومَوتِه، بحِكمتِه تعالى وعِلْمِه، وتنزيهُ اللهِ تعالى عن الوَلَدِ والصَّاحبةِ.

٢- موعِظةُ المعرِضِينَ عن آياتِ القُرآنِ والمكذِّبينَ بالدِّينِ الحَقِّ، وتَهديدُهم بأنْ يَحُلَّ بِهم ما حلَّ بالقُرونِ المكذِّبينَ مِن قَبْلِهم، والكافِرين بنِعَمِ اللهِ تعالى، وأنَّهم ما يَضرُّون بالإنكارِ إلَّا أنفُسَهم، ووعيدُهم بما سَيَلْقَونَ عِندَ نزْعِ أرواحِهم، ثمَّ عِندَ البَعثِ.

٣- تسفيهُ المشرِكينَ فيما اقْترحُوه على النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ من طَلَبِ إظهارِ الخوارقِ تهكُّمًا، وإبطالُ اعتقادِهم أنَّ اللهَ شاء لهم الإشراكَ؛ قصْدًا منهم

= وقال ابنُ عبدِ البرِّ: (وقد أجمَع العلماءُ أنَّ سورةَ الأنعامِ مكيَّةٌ، إلَّا قولَه: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ...﴾ الآيات الثلاث). ((التمهيد)) (١/ ١٤٦).

وقيل: كلُّها مكيَّة إلَّا ستَّ آياتٍ. يُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٧).

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١٠١٧)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (٥/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٢٥).

لإفحامِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وبيانُ حَقيقةِ مَشيئةِ اللهِ، وإثباتُ صِدقِ القُرآنِ بأنَّ أهلَ الكِتابِ يَعرِفون أنَّه الحقُّ.

٤- ساقتِ السُّورةُ حَشدًا من الأدلَّةِ والبَراهينِ على وحدانيَّة اللهِ، وقُدرَتِه، وأنَّه وحْدَه المستحِقُّ للعبادةِ.

٥- الإنكارُ على المشرِكينَ تَكذيبَهم بالبَعثِ، وتحقيقُ أنَّه واقِعٌ، وأنَّهم يَشهَدون بعْدَه العذابَ، وتَبرُّأ منهم آلهتُهم التي عَبَدوها، وسَيَندمُون على ذلِك، كما أنَّها لا تُغْني عنهم شيئًا في الحياةِ الدُّنيا؛ فإنَّهم لا يَدْعُونَ إلَّا اللهَ عِندَ النَّوائبِ.

٦- في السُّورةِ تَسليةٌ للنبيِّ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَثبيتٌ لقلبِه، ودَعوتُه للصبرِ على تحمُّلِ أعباءِ الرِّسالةِ دون كَللٍ ولا مَلَلٍ، وإرشادُه إلى الاقتداءِ بمَن سبَقَه مِنَ الرُّسُلِ الَّذين صَبَروا على تَكذيبِ أقوامِهم.

٧- بيانُ حِكمةِ إرسالِ اللهِ الرُّسلَ، وأنَّها الإنذارُ والتبشيرُ، وليستْ وظيفةُ الرُّسلِ إخبارَ الناسِ بما يَتطلَّبون عِلمَه مِن المُغيَّباتِ.

٨- بيانُ اختِصاصِ الحقِّ تَعالى بالعِلمِ المغيَّبِ، وقَهرِه، وغَلبتِه على المخلوقاتِ.

٩- بَيَّنتِ السُّورةُ أنَّ الذين يَستجيبونَ لدعوةِ الحقِّ، هم الذين يَسمَعونَ ويتَّعظون ممَّن قُلوبُهم حيَّة، أمَّا مَن ماتتْ قلوبُهم فهم لا يَنتفِعون بموعظةٍ، ولا يَقْبَلون هِدايةً، ومصيرُهم إلى اللهِ وسيُجازِيهم على جُحودِهم وأعمالِهم المنكَرةِ.

١٠- بيانُ أنَّ تَفاضُلَ النَّاسِ بالتَّقوى والانتسابِ إلى دِينِ اللهِ، وإبطالُ ما شرَعَه أهلُ الشِّركِ مِن شرائعِ الضَّلالِ.

١١- النَّهيُ عن مُجالسةِ الخائضين في آياتِ اللهِ ومُؤانستِهم.

١٢- الأمْرُ بالإعراضِ عن المشرِكين، والنَّهيُ عن سَبِّ الأَصنامِ وعُبَّادِها.

١٣- بيانُ أنَّ التَّقوى الحقَّ ليستْ مُجرَّدَ حِرمانِ النَّفسِ مِنَ الطيِّباتِ، بل هي حِرمانُ النَّفْسِ مِن الشَّهواتِ التي تَحُولُ بين النَّفْس وبينَ الكَمالِ والتَّزكيةِ.

١٤- ضربُ المثَلِ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم مع قومِه بمَثَلِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ مع أبيه وقومِه، وكان الأنبياءُ والرُّسُلُ على ذلِك المَثَل؛ مَن تَقدَّمَ منهم ومَن تأخَّرَ.

١٥- المنَّةُ على الأمَّةِ بما أَنزلَ اللهُ مِن القرآنِ هُدًى لهم، كما أَنزلَ الكِتابَ على موسى، وبأنْ جَعَلَها اللهُ خاتِمةَ الأممِ الصَّالحةِ.

١٦- بيانُ فَضيلةِ القرآنِ ودِينِ الإسلامِ وما مَنَحَ اللهُ لأهْلِه مِن مُضاعَفةِ الحَسَناتِ.

١٧- تَخلَّلتْ ذلك قوارعُ للمُشرِكين، وتنويهٌ بالمؤمنين، وامتنانٌ بنِعمٍ اشتمَلَتْ عليها مخلوقاتُ اللهِ، وذِكْرُ مَفاتِحِ الغيبِ.

١٨- ذكرُ أحوالِ العربِ في الجاهليَّةِ، مع بيانِ ما كانوا عليه مِن سفاهةٍ، وسورةُ الأنعامِ أَجمَعُ سُورِ القُرآنِ لذلك.

١٩- في السُّورةِ تَفصيلُ مُحرَّماتِ الشَّريعةِ الإسلاميَّة، ومُحْكَمَاتِ آياتِ القُرآن، والأوامِر والنَّواهي.

٢٠- ذَكَر اللهُ تعالى في السُّورةِ خِلافةَ الخلائِق، وتفاوُتَ دَرجاتِهم، وخَتَمَ السُّورةَ بذِكرِ سُرعةِ عُقوبةِ اللهِ لمستحِقِّيها، ورحمتِه ومَغفرتِه لمستوجِبيها.

الآيات (١ - ٣)

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝٢ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ۝٣﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾: أي: يَجعلون له عديلًا من الحِجارةِ، ويُسَوُّون الأوثانَ به، وقيل: يَعدِلون بأفعالِه عنه، ويَنسُبونها إلى غيرِه، وقيل: يَعدِلون بعبادَتِهم عنه تعالى، والعدالةُ: لفظٌ يَقتضي معنى المساواةِ، وأصل (عدل): يدلُّ على استواءٍ[(١)].

﴿قَضَى﴾: القضاءُ: إتمامُ الشَّيءِ، أو فَصْلُ الأمْرِ؛ قولًا كان ذلِك أو فِعلًا، ويُعبَّرُ عنه بالموتِ، ويُطلَقُ على الأجَل، وعلى الفَصلِ في الخُصومةِ أيضًا، وأصل (قضي): يَدُلُّ على إحكامِ أمرٍ وإتقانِه، وإنفاذِه لجِهتِه[(٢)].

﴿أَجَلًا﴾: الأجَلُ: غايةُ الوقتِ، سواءٌ في مَحلِّ الدَّيْن، أو انقضاءِ العِدَّة أو غيرِهما، والمدَّةُ المضروبةُ للشيءِ، ويُقال للمدَّةِ المضروبةِ لحياةِ الإنسانِ: أجلٌ: ويُعبَّرُ به عن عُمرِ الإنسانِ، فيُقال: دنا أجَلُه، وهو عبارةٌ عن دُنوِّ المَوتِ، واستيفاءُ الأجَلِ، أي: مدَّةُ الحياةِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥١، ٥٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٩٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٤، ٦٧٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٠٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥، ٦٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣) (١/ ٤٠٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٠).

﴿تَمْتَرُونَ﴾: تَشُكُّون، أو تَختلِفون، أو تَتردَّدون، مِن المِرْيَة: وهي الشَّكُّ، وقيل: هي التردُّدُ في الأمْر، وهو أخصُّ من الشكِّ(١).

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبرُ تعالى أنَّ الحمدَ الكاملَ المُستحَقَّ هو له وحْدَه؛ فهو الذي خلَق السَّمواتِ والأرضَ، وجعَل الظُّلماتِ والنُّورَ، ومع ذلك كلِّه؛ فإنَّ الكفَّارَ عدَلوا بربِّهم سواه، وجعَلوا معه شريكًا يُساوونَه به.

ثمَّ أخبَر تعالى أنَّه هو الذي خلَقَ جميعَ البشرِ مِن طينٍ، وذلك بخلقِ أبيهم آدَمَ منه، ثم حدَّد مُدَّةَ إقامَتِهم في الدُّنيا، وحدَّد كذلك وقتًا لهذه الحياةِ الدُّنيا تزولُ فيه، لا يَعلمُه غيرُه، ثمَّ يكونُ بعدَه البعثُ والانتقالُ للآخِرةِ؛ ليجازيَ العبادَ بحسَبِ أعمالِهم، ومع هذا البيانِ فإنَّهم يشكُّون في أمْرِ البَعثِ والنُّشورِ.

ثمَّ بيَّن اللهُ تعالى أنَّه هو المعبودُ في السَّمواتِ والأرضِ، يعلَمُ ما يُسرُّه الخلقُ وما يُعْلِنونَه، ويَعلمُ كلَّ ما يَعملونَه، خيرًا كان أو شرًّا، ويُحْصيه، وسيُجازِيهم عليه.

تفسير الآيات:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.

أي: جميعُ المحامِدِ يَستحقُّها اللهُ تعالى وحْدَه، الذي أَوْجَد بتقديرِه السَّمواتِ والأرضَ. وفي ضِمْنِ ذلكَ تعليمٌ مِن الله تعالى لخَلقِه أنْ يَحمدُوهُ، ويُفْرِدُوه بالحمْدِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٤٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٠-١٥).

﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾.

أي: وهو الذي جعَل الظُّلماتِ والنورَ، وذلك شامِلٌ للحِسِّي كاللَّيلِ والنَّهارِ، والمعنويِّ كظُلماتِ الجَهلِ والشِّركِ والمعصيةِ، ونورِ العِلمِ والإيمانِ والطَّاعةِ(١).

﴿ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ﴾.

أي: ومع هذا كلِّه، كفَر به بعضُ عِبادِه، وعدَلوا به سِواه، بأنْ جعَلوا معه شريكًا يُساوونَه به في العبادةِ والتَّعظيمِ، فيُعظِّمون أمْرَه، ويَعبُدونَه كما يَعبُدون اللهَ سبحانه وتعالى(٢).

﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ ۝٢ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا استدلَّ تعالى بخَلْقِه السَّمواتِ، وتعاقُبِ الظُّلماتِ والنُّورِ على وجودِ الصَّانعِ الحكيمِ- أتْبَعَه الاستدلالَ بخَلْقِه الإنسانَ على إثباتِ هذا المطلوبِ(٣)، فقال:

﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ ﴾.

أي: هو سُبحانَه الذي أوجدَ أصْلَكم، وأنشأَ مادَّتَكم- أيُّها النَّاسُ- من طِينٍ، وذلك بخَلْقِ أبيكم آدَم عليه السَّلامُ(٤).

﴿ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٤٤-١٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٤٦-١٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٤٩-١٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٢).

أي: ضرَبَ لِمُدَّة إقامتِكم في هذه الدَّارِ أجلًا تُبتَلَوْن فيه، ثم يُعيدكم ترابًا كما كُنتم، وضرَب لهذه الدُّنيا وقتًا تَزولُ فيه، لا يَعلمُه إلَّا هو، فتُبعَثون أحياءً، وتنتَقِلون إلى الدَّارِ الآخِرة؛ ليجازيَكم بأعمالِكم مِن خيرٍ وشرٍّ[1].

﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾.

أي: ثمَّ أنتُم مع هذا البيانِ التامِّ، والحُجَّة السَّاطعة- حيث عرفتُم أنَّكم خُلِقْتُم من طينٍ، وأنَّ الآجالَ تَنقضي- تشكُّون في أمْرِ البَعثِ، وقيامِ السَّاعة[2]!

﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (٣)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا تَقدَّم ما يدلُّ على القُدرةِ التامَّةِ والاختيارِ، وذلكَ في قولِه تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ... ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾، ذكَر ما يدلُّ على العِلم التامِّ، فكان في التنبيهِ على هذِه الأوصافِ دلالةٌ على كونِه تعالى قادرًا مختارًا، عالِمًا بالكليَّات والجُزئيَّات، وإبطالٌ لشُبَهِ مُنكِرِ المعادِ[3]، فقال تعالى:

﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾.

أي: وهو المألوهُ المعبودُ في السَّمواتِ وفي الأرضِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٢).
قال ابنُ عُثيمين: (قوله: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ﴾، أي: معلومٌ عند الله، وهنا الأفضلُ أن نقِفَ على قوله: ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا﴾ ولا نصِل؛ لأنَّ الوصلَ قد يُشعر بالتناقُض، وجهه: أنَّ الأولَ منصوبٌ ﴿أَجَلًا﴾، والثاني مرفوع ﴿وَأَجَلٌ﴾، والحُكم أيضًا مختلفٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٣٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٥٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٣١١)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤].

وقال سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾.

أي: يعلمُ ما تُسرُّونه وما تُعلنونَه؛ فلا يَخفَى عليه شيءٌ[١].

﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾.

أي: ويَعلمُ جميعَ ما تَعملونَ مِن خيرٍ وشرٍّ، فيُحصي ذلك عليكم، ويُجازيكم به عندَ رُجوعِكم إليه؛ فاحْذَروا معصيتَه، وارْغَبوا في طاعتِه[٢].

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- في قولِه تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ...﴾: حَمِدَ اللهُ تعالى نفْسَه أنْ خلَق السَّمواتِ والأرضَ؛ فاللهُ تعالى يَحمَدُ نفْسَه عندَ الأمورِ العظيمةِ، فحَمِد نفْسَه على خلقِه السَّمواتِ والأرضَ، الدالَّة على كمالِ قُدرته، وسَعةِ عِلمِه ورَحمتِه، وعمومِ حِكمتِه، وانفرادِه بالخلقِ والتدبير، وعلى جَعْلِه الظُّلماتِ والنورَ؛ لأنَّ هذه الأمورَ العظيمةَ تُوجِبُ للعبدِ المتأمِّل أنْ يَحمَدَ اللهَ عزَّ وجلَّ على كمالِ صِفاتِه، وعلى كمالِ إفضالِه وإنعامِه، وتدلُّ دلالةً قاطعةً أنه تعالى هو المُستحِقُّ للعِبادة، وإخلاصِ الدِّين له[٣].

٢- أنَّ الإيمانَ بما تضمَّنه قولُه تعالى: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ يَقتضي

= ابن كثير)) (٣/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٦-٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٠).

عدمَ مُخالفةِ أمْرِ اللهِ عزَّ وجلَّ، بتَرْك واجبٍ، أو فِعلِ معصيةٍ؛ والرغبةَ في الأعمال التي تقرِّبُ مِن الله، والحذرَ مِن كلِّ عملٍ يُبعِدُ منه سبحانه وتعالى، فإذا عَلِمَ العبدُ أنَّ اللهَ يَعلمُ سِرَّه وجَهرَه، استحيا منه، فلم يترُكْ ما وجَب، ولم يفعلْ ما يَحرُم، وإذا لم يُثمرِ العلمُ بذلك هذه الثمرةَ الجليلةَ، كان علمًا لا فائدةَ منه(١).

٣- قولُه تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ فيه بيانُ عِلمِ اللهِ تبارك وتعالى بما نكسِبُ؛ أي: بما نكسِبُه من الأعمالِ، سواءٌ كان كَسبًا دُنيويًّا، أو كسبًا أُخرويًّا، فإنَّ اللهَ تعالى يَعلمُه ولا يَخفَى عليه، ويَترتَّب على هذا ألَّا نكسِب شيئًا حرَّمه اللهُ علينا(٢).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- يُستفادُ مِن قَولِه تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ أنَّ حمْدَ الله يكونُ على أفعالِه التي يَختارُها، وعلى صِفاتِه الكاملةِ اللازِمة له؛ فهو جلَّ وعلا مستحِقٌّ أنْ يُحمَد، والحمدُ الكاملُ مختصٌّ به(٣).

٢- لمَ قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ولم يقُل: (المدحُ لله)، أو (الشُّكر لله)، والجواب: إنَّما لم يقُل: (المدح لله)؛ لأنَّ المدحَ كما يَحصُلُ لله تعالى، فقدْ يَحصُل لغيرِه، ألَا ترى أنَّه كما يَحسُن مدْحُ الرَّجُل العاقلِ على أنواع فضائِله، فكذلك قد يُمدَحُ اللؤلؤُ؛ لحُسنِ شَكلِه، ولَطافةِ خِلقتِه، فيُقال: ما أحْسنَه! أمَّا الحمدُ فإنَّه لا يحصُل إلَّا لله عزَّ وجلَّ على ما يَصدُر منه من الإنعامِ والإحسانِ. ولم يقُل: (الشُّكرُ لله)؛ لأنَّ الشُّكرَ عبارةٌ عن تعظيمِه بسببِ إنعامٍ صدَرَ منه، ووصَل إليك، وهذا مُشعِرٌ بأنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٠)؛ ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٣١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٣١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١١).

العبدَ إذا ذكَر تعظيمَ الله بسببِ ما وصَلَ إليه من النِّعمة، فحينئذٍ يكونُ المطلوبُ الأصليُّ به وصولَ النِّعمة إليه، فأمَّا إذا قال: (الحمدُ لله)، فهذا يدلُّ على أنَّ العبدَ حمِدَه؛ لأجْل كونِه مستحِقًّا للحمدِ، لا لخُصوصِ أنَّه تعالى أوْصَل النِّعمةَ إليه؛ لأنَّ الحمدَ عبارةٌ عن تعظيمِ اللهِ سُبحانه؛ لأجْلِ ما صدَر عنه من الإنعامِ، سواءٌ كان ذلك الإنعامُ واصلًا إليك أو إلى غيرِك، فيكون الإخلاصُ أكملَ(١).

٣- إنَّما قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، ولم يقل: (أحمَدُ الله)؛ لأنَّه لو قال: (أحمد الله) كان ذلك مُشعِرًا بأنَّه ذكَرَ حَمْدَ نفْسِه، ولم يذكُر حمْدَ غيرِه، أمَّا إذا قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، فقد دخَلَ فيه حمْدُه، وحمدُ غيرِه، من أوَّل خلْق العالَم إلى آخِرِ استقرار المكلَّفين في درجات الجِنان، ودَركاتِ النِّيران، كما قال تعالى: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠]، فكان هذا الكلامُ أفضلَ وأكملَ(٢).

٤- خصَّ السَّمواتِ والأرضَ بالذِّكر في قوله: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾؛ لأنَّهما أعظمُ المخلوقاتِ فيما يرَى العبادُ؛ لأنَّ السَّماءَ بغيرِ عَمَدٍ، يرونَها، فيها العِبَرُ والمنافعُ؛ والأرضُ مسكنُ الخلائِقِ، وفيها أيضًا العِبَرُ والمنافِع(٣).

٥- الاقتصارُ في ذِكرِ المخلوقاتِ على هذه الأربعِ: (السَّموات، والأَرْض، والظُّلمات، والنُّور)، في قولِه تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾، فيه تعريضٌ بإبطالِ عقائدِ كفَّارِ العربِ؛ فإنَّهم بين مُشرِكين، وصابئةٍ، ومجوسٍ، ونصارى، وكلُّهم قد أثبتوا آلهةً غيرَ الله؛ فالمشركونَ أثبتوا آلهةً من الأرضِ، والصابئةُ أثبتوا آلهةً من الكواكبِ السَّماويةِ، والنصارى أثبتوا إلهيَّةَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٧٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٤٧٣، ٤٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٠٩).

عيسى أو عيسى ومريمَ، وهما من الموجوداتِ الأرضيَّة، والمجوسُ- وهم المانويَّة- ألَّهوا النُّورَ والظُّلمة، فالنورُ إلهُ الخيرِ، والظُّلمةُ إلهُ الشرِّ عندهم؛ فأخبرَهم اللهُ تعالى أنَّه خالقُ السمَّواتِ والأرضِ- أي: بما فيهما- وجاعِلُ الظُّلماتِ والنُّورِ[1].

٦- قال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ لماذا اختَلفَ التعبيرُ؛ في قوله: ﴿خَلَقَ﴾ و﴿جَعَلَ﴾؛ فهل هو مُجرَّدُ اختلافِ لفظٍ، أو هناك فرقٌ بين الفِعْلَين؟

قيل: إنَّ ﴿خَلَقَ﴾ هنا و﴿جَعَلَ﴾ معناهما واحدٌ؛ وعلى هذا فيكونُ التَّفريقُ في هذا الموضع لمجرَّدِ اختلافِ اللَّفْظ فقط. ويدلُّ لهذا قولُ الله تبارك وتعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١]، وقال تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

وقيل: بَينهما فرْقٌ، فالخَلْقُ: إنشاءٌ لذاتِ المخلوقِ وأصلِه، والخَلْقُ فيه معنى التَّقديرِ، فعبَّر به عن السَّمواتِ والأرض، بينما الظُّلماتُ ليستْ ذاتًا، وإنَّما هي وصفٌ للمخلوقِ، وكذلك النُّورُ، وهما ليسَا شيئًا محسوسًا، وإنَّما يَظهرانِ في غيرِهما؛ لذا عبَّر عنهما بكَلمةِ ﴿جَعَلَ﴾ ففي الجَعْلِ معنى التَّضمينِ والتَّصييرِ، كإنشاءِ شيءٍ من شيءٍ، وتَصييرِ شيءٍ شيئًا. وإنَّما حَسُن لَفظُ الجَعْلِ هاهنا في قولِه تعالى: ﴿جَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾؛ لأنَّ النورَ والظُّلمةَ لَمَّا تَعاقبَا صارَ كأنَّ كلَّ واحدٍ منهما إنَّما تولَّد مِنَ الآخَر. والقولُ بأنَّ بين اللفظين (خَلَق) و(جَعَل) فرقًا، لا شكَّ أنَّه أبلغُ مِن أنْ نقولَ: إنَّه ليسَ بينهما فرْقٌ، وإنَّما اختلَفَ اللَّفظُ فقط[2].

٧- يُؤخَذُ من قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ﴾ بيانُ سَفهِ الكفَّار، وأنَّهم لا عُقولَ لهم؛ وجهُه: أنَّه بعدَ ظهورِ هذه الآياتِ العظيمةِ، عدَلوا باللهِ عزَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٠).

وجلَّ، وجعَلوا له عَديلًا ونِدًّا، وهذا يَدلُّ على سَفهِهم، وإنْ كانوا أذكياءَ[(١)].

٨- رُبوبيَّةُ اللهِ تعالى عامَّةٌ للمؤمنِ والكافرِ؛ لقوله: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ﴾، فأخبَر سبحانه وتعالى عن نفْسِه أنَّه ربٌّ لهؤلاء، ولا إشكالَ في ذلك؛ فهذه هي الربوبيَّة العامَّة، وهناك ربوبيَّة خاصَّة بالمؤمنين تقتضي الكِلاءَةَ والعنايةَ والحِفظَ والتَّربية، وقد اجتمَع النوعانِ في قول سَحَرةِ فرعونَ: ﴿آمَنَّا بِرِبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الأعراف: ١٢١-١٢٢]، فالأُولى عامَّة، والثَّانِيَة خاصَّة[(٢)].

٩- الجَمْعُ بين قولِه تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾، وبيْن قولِه تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٥- ٦]: ففي الآيةِ الأُولَى أنَّ البشرَ مخلوقون مِن طينٍ، وفي الثانيةِ أنَّهم مخلوقون مِن ماءٍ دافقٍ، والجمعُ بينهما أنَّ خلْقَ البَشَر مِن الطِّين باعتبارِ الأصل، وأمَّا خلْقُهم من الماءِ الدَّافِق، فباعتبارِ الفَرْع المتولِّد مِن الأصْل[(٣)].

١٠- لا خِلافَ ولا تناقُضَ بين قَولِه تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾، وقولِ اللهِ تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦]، وقولِه تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ [فاطر: ١١]؛ فالجمْعُ بين هذه الآياتِ أنَّ أصلَ بني آدمَ ترابٌ صُبَّ عليه الماءُ، فصار طينًا، يَلْزقُ باليَدِ إذا مسَّه الإنسانُ، ثمَّ صَارَ حمأً مَسْنُونًا، ثم صَارَ صَلْصالًا كالفخَّار له صوتٌ إذا قُرِع[(٤)].

١١- في قَولِه سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ نُسِبَ الخَلْقُ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢١- ٢٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣).
(٤) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٤).

الطِّين إلى المخاطَبين لا إلى آدَم عليه السَّلام مع أنَّه هو المخلوقُ مِن الطِّينِ حَقيقةً- حيث لم يقُل: (هو الذي خَلَق أباكم آدَمَ مِن طين...)-؛ لأنَّ آدَم عليه السَّلامُ هو أوَّلُ البَشرِ، وهُو أبوهم؛ فكانَ كُلُّ البَشرِ راجعًا إلى الخَلقِ مِن الطِّين؛ فأخْرَجَ ذلك مَخرجَ الخِطابِ لهم؛ لأنَّهم ذُرِّيتُه(١).

١٢- ذَكَر اللهُ مادَّةَ ما منه الخَلْقُ بقوله: ﴿مِنْ طِينٍ﴾؛ لإظهارِ فَسادِ استدلالِهم على إنكار الخَلْق الثاني؛ لأنَّهم استبعدوا أنْ يُعادَ خلْقُ الإنسانِ بعدَ أنْ صار ترابًا، وتكرَّرتْ حكايةُ ذلك عنهم في القرآنِ، فقد اعترَفوا بأنَّهم يَصيرون ترابًا بعدَ الموتِ، وهم يَعترِفون بأنَّهم خُلِقوا من تراب؛ لأنَّ ذلك مُقرَّرٌ بين النَّاسِ في سائرِ العُصورِ، فاستدلُّوا على إنكارِ البَعث بما هو جديرٌ بأنْ يكونَ استدلالًا على إمكانِ البَعْثِ؛ لأنَّ مصيرَهم إلى ترابٍ يُقرِّبُ إعادةَ خلْقِهم؛ إذ صاروا إلى مادَّةِ الخَلْقِ الأوَّلِ؛ فلذلك قال اللهُ هنا: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾، وقال في آياتِ الاعتبارِ بعجيبِ تكوينِه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: ٢]، وأمثال ذلك(٢).

١٣- إعادةُ النكرةِ بعدَ نكرةٍ في قوله: ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى...﴾ يُفيد أنَّ الثانيةَ غيرُ الأولى، فصار المعنى: ثمَّ قضَى لكم أجلَيْنِ: أجلًا تَعرِفون مُدَّتَه بموتِ صاحبِه، (وهو عُمرُ الإنسانِ)، وأجلًا مُعيَّنَ المدَّةِ في عِلم الله، (وهو يومُ القيامةِ)(٣).

١٤- يُستفادُ من قولِه تعالى: ﴿قَضَى أَجَلًا﴾ أنَّ مَن مات مقتولًا فقدْ ماتَ بأجَلِه الذي قدَّره اللهُ له؛ لأنَّ الله قضاه، ولا يُقال: (لولا أنَّه قُتِل لم يَمُتْ)؛ لأنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٠٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٣٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ١٣١).

اللهَ تعالى قضَى أن يموتَ بالقَتْل، فهو مقتولٌ بأجَلٍ[١].

١٥- أنَّ الحُكمَ لله عزَّ وجلَّ وحْدَه؛ لقولِه تعالى: ﴿قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾، ولا أحدَ يُغيِّر في هذه الآجالِ[٢].

١٦- قال اللهُ تعالى: ﴿مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ فقيَّد (المسمَّى) بكَوْنِه عندَه، فإنَّ وقتَ السَّاعةِ لا يَعلَمُه ملَكٌ مُقرَّب ولا نبيٌّ مُرسَلٌ، كما قال: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، بخلاف ما إذا قال: (مُسمًّى) كقوله: ﴿إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [البقرة: ٢٨٢]؛ إذ لم يُقيَّدْ بأنَّه (مُسَمًّى عِنْدَهُ) فقدْ يَعرِفُه العبادُ، وأمَّا أجَلُ المَوْتِ فهذا تَعرِفُه الملائكةُ الذين يَكتُبونَ رزقَ العبدِ وأجلَه وعمَلَه، وشقيٌّ أو سعيدٌ، كما في حديثِ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((...ثمَّ يُبعَثُ إليه المَلَكُ، فيُؤمَرُ بأربعِ كلماتٍ، فيقال: اكتُبْ رِزقَه وأجَلَه وعمَلَه، وشقيٌّ أو سعيدٌ))[٣]، فهذا الأجَلُ الذي هو أجلُ الموتِ قدْ يُعْلِمُه اللهُ مَن شاءَ من عبادِه، وأمَّا أجَلُ القيامةِ المسمَّى عندَه فلا يَعْلمُه إلَّا هو[٤].

١٧- في قولِه تعالى: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهرَكُمْ﴾ ذكَر السِّرَّ؛ لأنَّ عِلمَ السرِّ دليلُ عمومِ العِلم، وذَكَر الجهرَ لاستيعابِ نوعَيِ الأقوالِ[٥].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ...﴾ كلامٌ خرَج مخرجَ الخبرِ وأُريدَ به الأمرُ- على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) أخرجه البخاري(٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣).
(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٤٨٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٣٣).

أحد القولين-، أي: احْمَدوا الله، أي: أخْلِصوا الحَمدَ والشُّكرَ للهِ، ولا تُشرِكوا معه في ذلك أحدًا شيئًا؛ فإنَّه المستوجِبُ عليكم الحمدَ بأياديه عندكم، ونِعَمِه عليكم، لا مَن تَعبدُونه من دونِه، وتَجعلونَه له شريكًا مِن خلقِه[1]؛ وإنَّما جاءَ على صِيغة الخبرِ؛ لفوائد: إحداها: أنَّ قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ يُفيد تعليمَ اللَّفظ والمعنى، ولو قال: (احْمَدوا) لم يَحصُل مجموعُ هاتينِ الفائدتينِ. وثانيها: أنَّه يُفيدُ أنَّه تعالى مستحِقٌّ الحمدَ، سواءٌ حمِده حامدٌ أو لم يَحْمَده. وثالثها: أنَّ المقصودَ منه ذِكْرُ الحُجَّة؛ فذِكْرُه بصيغةِ الخبرِ أَوْلى[2].

- وقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ (أَلْ) في ﴿الْحَمْدُ﴾ لتعريفِ الجِنسِ؛ فدلَّتْ على انحصارِ استحقاقِ جنسِ الحمد للهِ تعالى؛ فتُفيد استحقاقَ اللهِ تعالى الحمدَ وحْدَه دونَ غيرِه؛ لأنَّ هذه الجُملةَ تدلُّ على الحَصْرِ، فالمعنى هنا أنَّ الحمدَ كلَّه لا يستحقُّه إلَّا اللهُ، وهذا قَصرٌ إضافيٌّ؛ للردِّ على المشركينَ الذين حَمِدوا الأصنامَ على ما تَخيَّلوه من إسدائِها إليهم نِعَمًا ونَصْرًا، وتفريجَ كُرباتٍ[3].

- و (اللامُ) في قوله: (لله): إمَّا للاختصاصِ، وإمَّا للاستحقاقِ، ولا تَنافيَ بين المعنيينِ، وعلى هذا فتكون للاستحقاقِ والاختصاصِ؛ لأنَّ (أل) في قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ للعمومِ، ولا أحَدَ يستحِقُّ الحَمْدَ على العُمومِ إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ[4].

٢- قوله: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾

- قدَّم السَّمواتِ على الأرضِ؛ لشَرفِها وعلوِّ مكانِها[5]، وقيل: لأنَّ خلْقَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٤٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ٦٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٧٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٢٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٥٣).

السَّمواتِ أعظمُ[١].

٣- قوله: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾: تقديمُ ذِكرِ ﴿الظُّلُمَاتِ﴾ على ﴿النُّورِ﴾؛ مراعاةً للترتُّب في الوجودِ؛ لأنَّ الظُّلْمةَ سابقةُ النُّورِ[٢]، وفي الحديث: ((إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ خَلَقَ الخَلْقَ في ظُلمةٍ، ثمَّ ألْقَى عليهم مِن نُورِه يومئذٍ...))[٣].

- وفيه: المخالفةُ في الإفرادِ والجَمعِ، حيث جمَع ﴿الظُّلُمَاتِ﴾ وأفْرَدَ ﴿النُّورَ﴾؛ وذلك لمناسباتٍ لطيفةٍ:

فقِيل: لظُهورِ كَثرةِ أَسبابِ الظُّلماتِ، ومَحالِّها عندَ الناسِ، ومُشاهَدتِهم لها على التَّفصيلِ[٤].

وعلى حَمْلِ ﴿الظُّلُمَاتِ﴾ على الكُفرِ والباطِل، و﴿النُّورِ﴾ على الإيمانِ والحَقِّ؛ فقِيل: لَمَّا كان الحقُّ واحدًا، والباطلُ كثيرًا؛ فلمَّا كانتِ الظُّلمةُ بمنزلةِ طُرقِ الباطلِ، والنُّورُ بمنزلةِ طَريقِ الحقِّ؛ فقد أُفْرِدَ النورُ، وجُمِعتِ الظُّلمات، ونحوُ هذا ما جاءَ في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ حيثُ وحَّدَ وليَّ الذين آمنوا، وهو اللهُ الواحدُ الأحدُ، وجمَعَ وَلِيَّ الَّذين كفروا؛ لتعدُّدِهم وكثرتِهم، وجمَع الظُّلماتِ- وهي طُرُق الضَّلالِ والغيِّ- لكَثرتِها واختلافِها، ووحَّد النورَ- وهو دِينُه الحقُّ وطريقُه المستقيمُ الذي لا طريقَ إليه سِواه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٢٧).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٦٤٢)، والطيالسي في ((المسند)) (٢٤٠٥)، وأحمد (٦٦٤٤).
حسَّنه الترمذيُّ في ((السنن))، وابنُ العربيِّ في ((عارضة الأحوزي)) (٥/ ٣١٦)، وصحَّح الحديث الحاكمُ في ((المستدرك)) (١/ ١٨٨)، والألبانيُّ في ((صحيح الترمذي)) (٢٦٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٥٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ١٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٠٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٧٩)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١١٩- ١٢٠)، =

وقيل: جمَع ﴿الظُّلُمَاتِ﴾ وأفردَ ﴿النُّور﴾ اتِّباعًا للاستعمالِ؛ لأنَّ لفظَ ﴿الظُّلُمَاتِ﴾ بالجمعِ أخفُّ، ولفظ ﴿النُّور﴾ بالإفرادِ أخفُّ؛ ولذلك لم يَرِدْ لفظ ﴿الظُّلُمَاتِ﴾ في القرآنِ إلَّا جمعًا، ولم يرِدْ لفظ ﴿النُّور﴾ إلَّا مفردًا، وهما معًا دالَّانِ على الجنسِ، والتعريفُ الجِنسيُّ يستوي فيه المفردُ والجمعُ؛ فلم يبقَ للاختلافِ سببٌ لاتِّباعِ الاستعمالِ[1].

وقيل: إنَّه جَمَع لفْظَ ﴿الظُّلُمَاتِ﴾ ووحَّدَ لفظ ﴿النُّورَ﴾؛ لكونِه أشرفَ، كما قال سُبْحانَه: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾[2] [النحل: ٤٨].

- وفي إيثارِ ﴿الظُّلُمَاتِ والنُّورَ﴾ بالذِّكرِ دونَ غيرِهما مِنَ الأعراضِ: إيماءٌ وتَعريضٌ بحالَي المُخاطَبين بالآيةِ؛ مِن كُفرِ فريقٍ وإيمانِ فَريقٍ؛ فإنَّ الكفرَ يُشبه الظُّلمةَ؛ لأنَّه انغماسٌ في جَهالةٍ وحَيرةٍ، والإيمانَ يُشبه النورَ؛ لأنَّه استبانةُ الهدى والحقِّ[3].

٤- **قوله: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾:**

- عطَف بـ ﴿ثُمَّ﴾؛ لاستبعادِ صُدورِ الشِّركِ منهم مع وجودِ ما يَقتضي

= ((طريق الهجرتين وباب السعادتين)) لابن القيم (ص: ١٧٧- ١٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٠- ٢١).

وقال ابنُ القيِّم بعدَ أن ذكَر هذا الوجهَ: (مع أنَّ فيه سرًّا ألطفَ مِن هذا، يعرفُه مَن يعرفُ منبعَ النُّور، ومِن أين فاض، وعمَّاذا حصَل، وأنَّ أصلَه كلَّه واحدٌ، وأمَّا الظُّلماتُ فهي متعددةٌ بتعدُّدِ الحُجُبِ المقتضيةِ لها، وهي كثيرةٌ جدًّا؛ لكلِّ حجابٍ ظُلمةٌ خاصَّة، ولا ترجعُ الظُّلماتُ إلى النُّورِ الهادي جلَّ جلالُه أصلًا، ولا وصفًا، ولا ذاتًا، ولا اسمًا، ولا فعلًا، وإنما ترجعُ إلى مفعولاتِه، فهو جاعلُ الظُّلماتِ، ومفعولاتُها متعددةٌ متكثِرةٌ، بخلافِ النُّور، فإنَّه يرجعُ إلى اسمِه وصفتِه، تعالى أن يكونَ كمِثلِه شيءٌ، وهو نورُ السَّموات والأرضِ).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٢٧).

(٢) ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٢٧).

عدمَه[١]؛ فـ﴿ثُمَّ﴾ للتَّراخي الرُّتبي الدالِّ على أنَّ ما بعدَها يَتضمَّن معنًى من نوعِ ما قَبْلَها، وهو أهمُّ في بابِه، وذلك شأنُ (ثُمَّ) إذا وردتْ عاطفةً جملةً على أخرى؛ فإنَّ عدولَ المشركينَ عن عبادةِ الله مع عِلمهم بأنَّه خالقُ الأشياءِ أمرٌ غريبٌ فيهم، أعجبُ مِن عِلمهم بذلك[٢].

- وقوله: ﴿بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ فيه إظهارُ (الرَّبِّ) في موضعِ ضَميرِه- وهو مِن الإظهار في موضع الإضمارِ؛ حيث قال: ﴿بِرَبِّهِمْ﴾ ولم يقل: (بِه)، مع أنَّ ذِكْر الله تقدَّمَ- لزيادةِ التشنيعِ والتقبيحِ عليهم، وتَفخيمًا لجلالِه، وهي سُنَّةٌ مِن سُنَنِ العَرَبِ في كلامِهم؛ يُعيدون الاسمَ ظاهرًا، وإنْ تقدَّم، دون التعبيرِ عنه بالضَّمير؛ للدَّلالةِ على كمالِ العِنايةِ[٣].

- وقوله: ﴿بِرَبِّهِمْ﴾ مُتعلِّقٌ بِقَوله: ﴿يَعْدِلُونَ﴾، وقُدِّمَ عليه؛ لِمَزيدِ الاهتمامِ، والمسارَعَةِ إلى تحقيقِ مدارِ الإنكارِ والاستبعادِ، والمحافظةِ على الفواصِل.
والباءُ في قولِه: ﴿بِرَبِّهِمْ﴾ للتَّعديةِ، ويَعْدِلونَ مِنَ العَدْلِ، وهو التَّسويةُ بين الشَّيئينِ، فيكون المفعولُ محذوفًا؛ ففيه إيجازٌ بالحَذفِ؛ حَذَف المفعولَ به؛ لظُهورِه، أي: يَعدِلون به غَيرَه[٤].

٥- قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ...﴾ استئنافٌ مَسُوقٌ لبيانِ بُطلانِ كُفرِهم بالبعثِ، مع مُشاهدتِهم لِمَا يُوجِبُ الإيمانَ به، إثرَ بيانِ بُطلانِ إشراكِهم به تعالى، مع مُعايَنتِهم لموجِباتِ توحيدِه[٥]، وهذا الاستئنافُ لغَرَضِ التعجُّبِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٠٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ٦٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٢٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٠٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ٦٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٠٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٥٢٥- ٥٢٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ٦٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٠٦).

من حالِ المشركين(١).

- وتَخصيصُ خَلْقِهم بالذِّكرِ مِن بين سائرِ دَلائلِ صِحَّةِ البعثِ- مع أنَّ ما ذُكِر مِن خلْق السَّمواتِ والأرضِ مِنْ أوضَحِها وأظهرِها؛ كما ورَد في قولِه تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [سورة يس: ٨١]- لأنَّ محلَّ النِّزاعِ بَعْثُهم؛ فدَلالةُ بَدءِ خَلْقِهم على ذلك أظهرُ، وهم بشُؤونِ أنفسِهم أعرَفُ، والتعامِي عن الحُجَّةِ النَّيِّرة أقبَحُ(٢).

- والإتيانُ بضَميرِ ﴿هُوَ﴾ في قولِه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾؛ ليحصلَ تعريفُ المسنَدِ والمسنَدِ إليه معًا؛ فتُفيد الجملةُ القصرَ في رُكْنَيِ الإسنادِ وفي مُتعلِّقِها، أي: هو خالِقُكم لا غيرُه، مِن طينٍ لا مِن غيرِه، والقصرُ أفادَ نفيَ جميعِ هذه التكويناتِ عن غيرِ اللهِ مِن أصنامِهم(٣).

- بناءً على أن الخِطابَ في قوله: ﴿خَلَقَكُمْ﴾ مُوجَّهٌ إلى الَّذين كفروا(٤)؛ ففيه الْتفاتٌ من ضَميرِ الغائِب- الذي هو قولُه: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾- إلى الخِطاب؛ لقصدِ التَّشنيعِ والتَّوبيخِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٢٩).

(٤) وإنَّما قيل بتوجُّهه إلى الكفَّار فقط؛ لأنَّ قوله: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ لا يُمكِن أن يندرجَ في هذا الخِطاب مَن اصطفاه اللهُ بالنبوَّة والإيمانِ، وإنْ كان الخلقُ وقضاءُ الأجَل ليس مختصًّا بالكفَّار؛ إذ اشترَك فيه المؤمنُ والكافِرُ، لكنَّه قُصِدَ به الكافرُ؛ تنبيهًا له على أصلِ خَلقِه، وقضاءِ الله تعالى عليه وقُدرتِه. يُنظر: ((تفسير أبي حيَّان)) (٤/ ٤٣٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيَّان)) (٤/ ٤٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٢٩).

٦- **قوله:** ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾:

- حرف ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ دالٌّ على التَّراخي الرُّتْبي، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ التعجُّبَ حَقيقٌ ممَّن يَمْتَرونَ في أَمْرِ البعثِ، مع عِلمِهم بالخَلقِ الأوَّلِ وبالموت، والمخاطَب بقولِه: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ هم المشرِكون[1].

- وجِيء بالمسنَدِ إليه ﴿أَنْتُمْ﴾ ضَميرًا بارزًا؛ للتوبيخ[2].

٧- **قوله:** ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ فيه ذِكرُ الجهرِ بعدَ السرِّ، مع أنَّه مفهومٌ منه بالأَوْلى؛ للمقابلةِ والتأكيد[3].

٨- **قوله:** ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ فيه تعريضٌ بالوعدِ والوعيدِ؛ إذ إنَّ المرادَ بقولِه: ﴿تَكْسِبُونَ﴾ جميعُ الاعتقاداتِ والأعمالِ من خيرٍ وشرٍّ[4].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٣٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ١٥٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٣٣).

الآيات (٤ - ٦)

﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿آيَةٍ﴾: أي: عَلامَةٍ ودليلٍ وحُجَّةٍ على وَحدانيَّة اللهِ، وصِدقِ رسلِه فيما جاءوا به، وتُطلَقُ الآيةُ على العلامةِ- يُقال: آيةُ كذا؛ أي: علامَتُه- وعلى العَجيبةِ، وتُطلق أيضًا على الجماعةِ، وسُمِّيت الآيةُ مِن القرآنِ بذلك: إمَّا مِن العلامةِ؛ لأنَّها علامةٌ على صدقِ مَن جاء بها، أو مِن الجماعةِ؛ لأنَّها جماعةٌ مِن كلماتِ القرآنِ مشتملةٌ على بعضِ ما اشتَمل عليه القرآنُ مِن الإعجازِ، والحلالِ والحرامِ، والعقائدِ(١).

﴿قَرْنٍ﴾: أي: قوم وأُمَّة من الناس مُقترنينَ في زمَنٍ واحد، وجَمْعُه قرونٌ، ويُطلَق القرنُ كذلك على الزَّمان، وأهلِ الزمان، وأهلِ مُدَّة كان فيها نبيٌّ، أو كان

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٠٤، ٥٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٦١).

قال الشنقيطيُّ: (والآيةُ في القرآنِ تُطلَق إطلاقَين: تُطلَقُ الآيةُ على الآيةِ الكونيَّةِ القدريَّةِ، وهي مِن الآيةِ بمعنى: العلامةِ، وهي ما نصَبه اللهُ جلَّ وعلا مِن آياتِه جاعلًا لها علاماتٍ على كمالِ قُدرتِه، وأنَّه الربُّ وحدَه، المعبودُ وحدَه، كقولِه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ﴾ [آل عمران: آية ١٩٠] أي: لعلاماتٍ ودلالاتٍ واضحاتٍ على أنَّه الربُّ المستحِقُّ أنْ يُعبدَ وحدَه.

الإطلاقُ الثَّاني: تُطلَق الآيةُ في القرآنِ على الآيةِ الشرعيَّة الدينيَّةِ، كآياتِ هذا القرآنِ العظيمِ). ((العذب النمير)) (٤/ ٣٦٢).

فيها طَبقةٌ من أهل العِلم، قلَّت السِّنون أو كثُرت؛ قيل: مُدَّتُه ثمانون سَنةً، ولا يَقِلُّ عن ثَلاثينَ سَنةً، وأصل (قرن): يدلُّ على جمْعِ شيءٍ إلى شيء(١).

﴿مَكَّنَّاهُمْ﴾: أَعطَيْناهم، وثبَّتْناهم، وأسْكنَّاهم، وملَّكْناهم، ووَطَّأْنا لهم البِلادَ والأرضَ(٢).

﴿مِدْرَارًا﴾: المطرُ المدرارُ هو: المُتتابع الغزيرُ الذي يَتْبَعُ بَعضُه بَعضًا، وأصلُه: تَولُّدُ شَيءٍ عن شيءٍ(٣).

﴿وَأَنْشَأْنَا﴾: خَلَقْنا وأحْدَثْنا، والنَّشأة: إحداثُ الشَّيءِ وتربيتُه، والإنشاءُ: إخراجُ ما في الشَّيءِ بالقوَّة إلى الفِعل، وأصل (نشأ) يدلُّ على ارتفاعٍ في شيءٍ(٤).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾

﴿كَمْ﴾: اسمٌ له وجوبُ الصَّدارةِ في الكَلام، ويجوزُ هنا أن تكونَ استفهاميَّةً أو خَبريَّة، وهي في مَحلِّ نَصبٍ مفعولٌ به مُقَدَّمٌ بـ﴿أَهْلَكْنَا﴾ لا بـ﴿يَرَوْا﴾؛ لأنَّ الاستفهامَ وما جرَى مجراهُ لا يَعمَلُ فيه ما قَبْلَه، وهي مُعَلِّقةٌ للفِعل (يَرَى)

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦، ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص:٧٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٥٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٥).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٩، ٢٠٢).

عن العَمَلِ[1]. والرؤيةُ هنا الأقربُ أنّها رُؤيةٌ عِلْميَّةٌ وليستْ بَصريَّةً، فتَنصِب مَفعولَينِ، و﴿كَمْ﴾ وما في حيِّزها سَدَّتْ مَسدَّ هذَينِ المفعولَينِ. وقوله: ﴿مِنْ قَرْنٍ﴾ تمييزٌ لـ (كم)؛ وهذا الإعرابُ بِناءً على أنَّ (كم) عِبارةٌ عن الأشخاص، أي: كَثيرًا من القرونِ أهلَكْنا. ويَجوزُ أنْ تكونَ ﴿كَمْ﴾ عِبارةً عن المصدرِ، فتَنتصبَ انتصابَه بـ﴿أَهْلَكْنا﴾ على المفعوليَّة المُطْلَقَة، والتقدير: كَمْ إهلاكًا أَهْلَكْنا، و﴿مِنْ قَرْنٍ﴾ على هذا صِفةٌ لمفعولِ ﴿أَهْلَكْنَا﴾، أي: أهلكْنا قومًا أو فوجًا مِن القُرونِ. ويجوزُ أنْ تكونَ ﴿كَمْ﴾ عِبارةً عن الزَّمان، فتَنتصبَ على الظَّرفِ، والتقدير: كم أَزمنةً أهلَكْنا فيها، وعلى هذا الوجهِ فـ﴿مِنْ قَرْنٍ﴾ هو المفعولُ به لـ﴿أَهْلَكْنَا﴾، و﴿مِنْ﴾ مَزيدةٌ فيه؛ وجازَ ذلك لأنَّ الكلامَ غيرُ مُوجَبٍ، والمجرورَ نكرةٌ[2].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ المشرِكين والمكذِّبين لا تأتيهم من حُجَّةٍ وعلامةٍ على وحدانيةِ اللهِ، وصِدقِ رُسلِه إلَّا أعْرَضوا عنها؛ فكذَّبوا بالحقِّ لَمَّا أتاهم من عندِ الله، ولَسَوف تأتيهم عقوبةٌ على اتِّخاذِهم هذا الحقَّ ومَن جاء به سُخريةً.

ألَم يَعتبِرْ هؤلاءِ بالأُممِ الماضِيَة فيَروا كثرةَ الأُمم التي أهْلَكها اللهُ، مِن الذين

---

(١) التَّعليقُ في اصطلاح النُّحاة: هو مَنْعُ العامِلِ من العَمَلِ لفظًا لا محلاًّ؛ لفَصْلِ ما له صَدْرُ الكلام- مثل: لام الابتداء، والاستِفهام- بَينَه وبين مَعمولِه؛ نحو: ظَننتُ لَزيدٌ قائِمٌ- كان أصلُها: ظننتُ زيدًا قائمًا- فقولك: (لَزيدٌ قائمٌ) لم تعمل فيه (ظنَّ) لفظًا؛ لأجل المانِع لها من ذلك، وهو اللَّام، ولكنَّه في موضع نصب، سادٌّ مسدَّ المفعولينِ؛ بدليل أنَّك لو عَطفتَ عليه لنصبْتَ؛ نحو: ظننتُ لَزيدٌ قائِمٌ وعَمْرًا مُنطلِقًا؛ فهي عاملةٌ في (لزيد قائم) في المحلِّ دون اللَّفْظِ. يُنظر: ((شرح ألفية ابن مالك)) لابن عقيل (٢/ ٤٥)، ((شرح شذور الذهب)) للجوجري (٢/ ٦٥٧- ٦٥٨)، ((جامع الدروس العربية)) لمصطفى الغلاييني (٣/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٤٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٨١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٥٣٥- ٥٣٦).

مكَّنَهُم الله في الأرضِ ما لم يُمكِّنْ لهؤلاءِ الكَفرةِ، وجعَل الأمطارَ يَتتابَع نُزولُها عليهم، وجعَل الأنهارَ تَجري من تحتِهم، فأهْلَكَهم بذُنوبهم، وأحْدَث سبحانه بعدَ إهلاكِهم جيلًا آخَرَ.

تَفسيرُ الآيات:

﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا تكلَّم اللهُ تعالى أولًا: في التَّوحيدِ، وثانيًا: في المعادِ، وثالثًا: فيما يقرِّر هذين المطلوبَيْن، ذكَر بعدَه ما يتعلَّق بتقريرِ النُّبوَّة، وبدأ فيه بأنْ بيَّن كونَ هؤلاء الكفَّار مُعرضين عن تأمُّل الدَّلائلِ، غيرَ ملتفِتين إليها[1]، فقال تعالى:

﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ ﴾.

أي: ومهما أتى هؤلاء الكفَّارَ والمشركين المكذِّبين مِن حُجَّةٍ وعلامةٍ على وحدانيته تعالى، وصِدق رُسُلِه عليهم السَّلام؛ فإنَّهم يُعْرِضونَ عنها، غيرَ مُبالِين بها[2].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦- ٩٧].

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

في هذه الآياتِ رتَّب اللهُ تعالى أحوالَ هؤلاء الكفَّارِ على ثلاثِ مراتبَ؛

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٥٥-١٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٠).

فالمرتبةُ الأولى: كونُهم مُعرِضينَ عن التأمُّلِ في الدَّلائل والتفكُّرِ في البيِّناتِ، وهذا في الآية السَّابِقَة، والمرتبة الثانِيَة: كونُهم مُكذِّبينَ بها، وهذه المرتبةُ أزيدُ ممَّا قبلَها؛ لأنَّ المُعْرِضَ عن الشَّيءِ قد لا يكونُ مكذِّبًا به، بل يكون غافلًا عنه غيرَ مُتعرِّضٍ له، فإذا صار مُكذِّبًا به، فقد زاد على الإعراض، والمرتبةُ الثالثة: كونُهم مُستهزِئين بها؛ لأنَّ المكذِّبَ بالشيءِ قد لا يَبلغُ تكذيبُه به إلى حدِّ الاستهزاءِ، فإذا بلغَ إلى هذا الحدِّ فقَدْ بلَغَ الغايةَ القُصْوى في الإنكار، وهاتان المرتبتانِ في هذه الآيةِ، فبَيَّن تعالى أنَّ أولئكَ الكفَّارَ وصَلوا إلى هذه المراتبِ الثلاثِ على هذا الترتيبِ[1].

وأيضًا لَمَّا كان إعراضُهم عن النَّظرِ المذكورِ في الآيةِ السَّابقةِ سببًا لتكذيبهم، وكان تكذيبُهم سببًا لتعذيبِهم[2]؛ لذا قال تعالى:

﴿ فَقَدْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾.

أي: فقَدْ كذَّبوا بما جاءَهم من عندِ الله تبارَك وتعالى[3].

﴿ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَـٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾.

أي: فسوف تأتِيهم أخبارُ استهزائِهم بآياتِ اللهِ، وبالأدلَّة التي آتاهم، وسيجدونَ عقوبتَه وجزاءَه[4].

ثم حذَّرهم اللهُ تعالى مِن أنْ يصيبَهم مِن العذابِ، والنَّكالِ الدنيويِّ، ما حلَّ بأشباهِهم ونُظرائِهم مِن القُرونِ السَّالفةِ[5]، فقال تعالى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٥٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٣٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٠).

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا منَعَهم اللهُ تعالى عن ذلِك الإعراضِ، والتكذيبِ، والاستهزاءِ، بالتهديدِ والوعيدِ؛ أتْبعَه بما يَجري مجرَى الموعظةِ والنَّصيحةِ في هذا البابِ، فوَعَظَهم بسائرِ القُرون الماضية؛ كقومِ نوحٍ، وعادٍ، وثمودَ، وقومِ لوطٍ، وقومِ شعيبٍ، وفِرعونَ، وغيرِهم[١]، وحذَّرهم مِن أنْ يصيبَهم مِن العذابِ والنَّكالِ الدنيويِّ ما حلَّ بأشباهِهم ونُظرائِهم مِن هذه القُرون الماضيةِ[٢]، فقال تعالى:

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ ﴾.

أي: ألم يَعتبرْ هؤلاء بالأممِ الماضيةِ، فيَرَوا[٣] كثرةَ مَن أفنيتُ، ودَمَّرتُ مِن قبلِهم من الأممِ، الذين وطَّأتُ لهم البلادَ والأرضَ تَوطئةً لم أُوطِّئْها لهم، وأعطيتُهم فيها ما لم أُعْطِهم؛ فقدْ كانوا أشدَّ قوَّةً، وأكثرَ جمعًا، وأكثرَ أموالًا وأولادًا[٤].

كما قال تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٨٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٠).

(٣) قال ابنُ عُثيمين: (قوله: ﴿يَرَوْا﴾ يحتمل أنْ يُراد بالرؤية هنا: الرؤية العِلميَّة، أو الرؤية البصريَّة؛ فالبلاد التي مروا بها مُدمَّرةً رؤيتُها بصريَّة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ﴾ [الصافات: ١٣٧- ١٣٨]، والبلاد التي لم يَرَوْها، ولم يمرُّوا بها، تكون رؤيتُها عِلميَّةً، يتناقلها أهلُ الأخبار). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٥٦-١٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥١).

وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [التوبة: ٦٩].

وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الروم: ٩-١٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [سبأ: ٤٥].

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾.

أي: وجَعَلْنا المطرَ يَتتابَعُ نزولُه عليهم بغزارةٍ(١).

﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ﴾.

مُناسبتُها لمَا قبلها:

لَمَّا ذَكَر نفْعَهم بماءِ السَّماءِ، وكان غيرَ دائمٍ، أتْبعَه ماءَ الأرضِ؛ لدوامِه، وملازَمتِه للبَساتين والرِّياضِ، فقال(٢):

﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ﴾.

أي: وأَجْرَيْنا لهم الأنهارَ من تحتِ أشجارِهم ومساكنِهم(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٥٧)، ((تفسير الواحدي)) (٢/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٤٢).

﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾.

أي: فأخَذْناهم بعذابٍ أفناهم؛ بسببِ ما ارتكبوه مِن خطايا، ومنها تكذيبُ رُسلِ الله، عليهم السَّلام[١].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩].

﴿وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾.

أي: وأَحْدَثْنا مِن بعدِ الَّذين أَهلَكْناهم جيلًا آخَرَ[٢].

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- خَطرُ الإعراضِ عن الآياتِ، وأنَّه يُخشَى على مَن أعرضَ عنِ الآياتِ ألَّا يَهتديَ إليها؛ لِقَوله تعالى: ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ توجيهٌ وإرشادٌ إلى الاعتبارِ بالأُمم السَّالِفة؛ فإنَّ إهلاكَ الأممِ المكذِّبةِ، بعدَ إمهالِهم وتمكينِهم في الأرضِ؛ سُنَّةُ اللهِ، ودأْبُه في السَّابقين واللَّاحقين؛ فينبغي الاعتبارُ بمَن قَصَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٥٧)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٤٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤١).

قيل المعنى: فعمِلوا مِثلَ أعمالهم فهَلَكوا كهلاكِهم، فاحْذروا- أيُّها المخاطبون- أن يُصيبكم مثلَ ما أصابهم، وهذا اختيارُ ابن كثير في ((تفسيره)) (٣/ ٢٤١)، والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ٢٥١).

وقال ابنُ عُثيمين: (هل القوم الآخَرون عصَوْا أو أطاعوا؟ منهم مَن عصى، ومنهم مَن أطاع، ولكن الله قال: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ [المؤمنون: ٤٤]). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٣٥، ٣٦).

الله نَبأَهم[١]، والنَّظرُ في مصارعِ الغابرينَ بعدَ أن يُصبحوا أحاديثَ؛ فهو توجيهٌ قرآنيٌّ؛ ليتنبَّهَ المخدوعون الذين لا يرَوْن- في حياتِهم الفرديَّة القصيرةِ- نهايةَ الطريقِ، فيَخْدَعهم ما يَرون في حياتِهم القصيرةِ، ويَحسَبونه نهايةَ الطريق[٢]!

٣- قوله تعالى: ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ يُوجِب الاعتبارَ، والانتباهَ من نَوْم الغفلةِ، ورقدةِ الجَهالة؛ لأنَّه تعالى بيَّن أنَّهم مع مزيدِ العزِّ في الدنيا بهذه الوُجوهِ، ومع كثرةِ العددِ والبَسْطَة في المالِ والجِسم، جرَى عليهم عندَ الكُفْر الإهلاكُ[٣].

٤- يُستفادُ من قولِه: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أنَّ فِعلَ الذُّنوبِ سببٌ لهلاكِ أصحابِها، وأنَّ الله هو الذي يُهلِك المُذنِبين بذُنوبِهم، وأنَّ هذه سُنَّةٌ ماضِية، ولو لم يرَها فردٌ في عُمُره القصيرِ أو جيلٌ في أجَلِه المحدودِ، ولكنَّها سُنَّةٌ تصيرُ إليها الأممُ حين تفشُو فيها الذُّنوبُ، وحين تقومُ حياتُها على الذُّنوبِ[٤].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- إضافةُ الآياتِ إلى الربِّ في قولِه: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ تُفيدُ أنَّ إنزالَه الوحيَ، وبعثَه للرُّسُل، وتأييدَهم، وهدايتَه للخَلْقِ بهم، كلُّه مِن مقتضى ربوبيَّته، أي: مقتضى كونِه هو السيِّدَ المالِكَ المربِّيَ لخلقِه، المدبِّرَ لأمورِهم على الوجه الموافِق للحِكمة، وأنَّه لا يَقدِر عليه غيرُه؛ فالذين يُؤمنون بالربِّ، ولا يُؤمنون بكُتُبه ورُسلِه، يَجهلون قدْرَ ربوبيَّته، وكُنْهَ حِكمتِه ورحمتِه[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥١).
(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١٠٣٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٨٥).
(٤) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١٠٣٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٥٢).

٢- إضافةُ (الربِّ) إلى ضَمير (هم) في قوله تعالى: ﴿رَبِّهِمْ﴾؛ لقصدِ التَّسجيلِ عليهم بالعقوق لحقِّ العبوديَّة؛ لأنَّ مِن حقِّ العبد أن يُقبِلَ على ما يأتيه من ربِّه، وعلى مَن يأتيه يقولُ له: إنِّي مُرسَلٌ إليك مِن ربِّك، ثم يتأمَّلَ وينظرَ، وليس من حقِّه أن يُعرِضَ عن ذلك؛ إذ لعلَّه يُعرِض عمَّا إنْ تأمَّلَه عَلِمَ أنَّه مِن عند ربِّه[١].

٣- يُستفادُ من قولِه: ﴿وَما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ﴾ أنَّهم يتَّخِذون موقفَ الإعراضِ عِنادًا وإصرارًا، فليس الذي يَنقُصُهم هو الآياتِ الداعيةَ إلى الإيمان، ولا العلاماتِ الدالَّةَ على صِدقِ الدَّعوة والدَّاعيةِ، ولا البراهينَ الناطقةَ بما وراءَ الدَّعوةِ والدَّاعيةِ من أُلوهيَّةٍ حقَّةٍ، ليس هذا هو الذي يَنقصُهم، إنَّما تَنقُصُهم الرغبةُ في الاستجابة، ويُمسِكُ بهم العنادُ والإصرارُ، ويَقعُد بهم الإعراضُ عن النَّظرِ والتدبُّر[٢].

٤- قوله تعالى: ﴿مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ فيه أنَّ الله سبحانه وتعالى حكيمٌ رحيمٌ؛ وذلك لكونِه يأتي بالآياتِ للخَلقِ، فإنَّ هذا من الحِكمةِ الواضحةِ؛ لأنَّه ليس من المعقولِ أن يأتيَ رجلٌ، ويقولَ للناس: إنَّه رسولٌ، ويستبيح دِماءَ مَن لم يُؤمِنْ به وأموالَهم وذُرِّيَّاتِهم ونِساءَهم، بدون أنْ يكون هناك آيةٌ تدلُّ على صِدقه؛ ولهذا قال النبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((ما مِن الأنبياءِ مِن نبيٍّ إلَّا قد أُعطِيَ مِن الآياتِ ما مِثلُه آمَن عليه البَشَرُ))[٣]، وهذا مِن جِهة الحِكمة. أمَّا مِن جِهة الرَّحمة؛ فإنَّ الله رحِمَ الخَلقَ بكونِه إذا أرسلَ إليهم الرُّسلَ آتاهم الآياتِ الدالَّةَ على صِدق هؤلاء الرُّسُلِ، ولو شاءَ لأرسَلَهم بدونِ آياتٍ، ثمَّ مَن كذَّب أخَذَه، لكن تأبى حِكمتُه ورحمتُه أنْ يُرسِلَ رسلًا بلا آيةٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١٠٣٦).

(٣) أخرجه البخاري (٧٢٧٤)، ومسلم (١٥٢) واللفظ له. من حديثِ أبي هريرةَ رضي الله عنه.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٣٥).

٥- أنَّ الإعراضَ عن الحقِّ يَعقبُه التكذيبُ به؛ ففائدةُ (الفاء) في قوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ التعقيبُ بعد قوله: ﴿مُعْرِضِينَ﴾، يعني: أنَّ الإعراضَ عن الآياتِ أعْقَبه التكذيبُ[1].

٦- قولُه تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ فيه أنَّ هؤلاء- مع تواتُرِ الآياتِ عليهم- كذَّبوا بالحقِّ، ولم يَستجيبوا له، والتكذيبُ بالحقِّ بعدَ مجيئه أشدُّ من التَّكذيبِ به قبلَ أن يأتيَ، بحيثُ يَسمَعُ الإنسانُ عنه، ولكنَّه لم يتأكَّدْ، فإنَّ هذا الذي أتاه الحقُّ، وكذَّب به، يكون تكذيبُه أعظمَ[2].

٧- كيف قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ مع أنَّ القومَ ما كانوا مُقرِّين بصِدقِ محمَّدٍ عليه السَّلام فيما يُخبِر عنه، وهم أيضًا ما شاهَدوا وقائعَ الأُمم السَّالِفة؟

والجواب: أنَّ أقاصيصَ المتقدِّمين مشهورةٌ بين الخَلْقِ، فيَبعُدُ أنْ يُقال: إنَّهم ما سَمِعوا هذه الحكاياتِ، ومجرَّدُ سَماعِها يَكفي في الاعتبارِ[3].

٨- يُستفادُ من قولِه: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ...﴾ الآية، هوانُ المكذِّبين المعرِضين أصحابِ القوَّة والتَّمكينِ مِن البَشَرِ، على الله[4].

٩- قولُه تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ فيه بيانُ عظمةِ اللهِ سبحانه وتعالى وغَيْرتِه؛ حيث أهْلَكَ أولئكَ القومَ مع ما عِندَهم من القوَّةِ والنِّعمةِ؛ قال تعالى: ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ....﴾[5].

١٠- قوله تعالى: ﴿وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ فيه بيانُ تمامِ قُدرةِ الله

---

(١) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٥٣٤)، ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٨٥).

(٤) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١٠٣٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٤٣).

تبارك وتعالى وسُلطانِه، والتنبيهُ على أنَّه تعالى لا يَتعاظَمُه أنْ يُهلِكَهم، ويُخلِيَ بلادَهم منهم؛ فإنَّه قادرٌ على أن يُنْشِئَ مكانَهم قومًا آخَرين، يَعمُر بهم بلادَهم؛ كقوله: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [الشمس: ١٥]؛ لأنَّ الأمرَ أمرُه عزَّ وجلَّ، والمُلك مُلكُه، والسُّلطان سُلطانه؛ فهو سبحانه وتعالى يَفعَلُ ما يشاءُ؛ من إهلاكٍ وإنشاءٍ[١].

١١- قولُه تعالى: ﴿وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ المقصودُ من هذا: تعريضٌ بالمشركين بأنَّ الله مُهلِكُهم، ومنشئٌ مِن بَعدِهم قَرنَ المسلِمينَ في دِيارهم؛ ففيه نِذارةٌ بفَتْح مكَّة، وسائرِ بلادِ العربِ على أيدي المُسلمينَ[٢].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ فيه التفاتٌ؛ إذ ضمائرُ جمْع الغائبين في قولِه: ﴿تَأْتِيهِمْ﴾، ﴿رَبِّهِمْ﴾ مرادٌ منها المشرِكون، الذين هم بعضُ مَن شمِلَتْه ضمائرُ الخِطاب في الآيةِ التي قبْلَها، من قوله: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾؛ ففي العدولِ عن الخِطابِ إلى الغَيبة بالنِّسبةِ إليهم التفاتٌ أوْجَبه تَشهيرُهم بهذا الحالِ الذَّميم، تَنصيصًا على ذلك، وإعراضًا عن خِطابهم، وهو مِن أحسنِ الالتفاتِ؛ لأنَّ الالتفاتَ يُحسِّنه أن يكونَ له مُقتَضٍ زائدٌ على نقْلِ الكلامِ مِن أسلوبٍ إلى أسلوبٍ، المرادُ منه تجديدُ نشاطِ السَّامع[٣].

- وعبَّر بصِيغةِ المضارعِ في قوله: ﴿تَأْتِيهِمْ﴾ لحِكايةِ الحالِ الماضية، وفيه دَلالةٌ على الاستمرارِ التجدُّدي[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٤٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٤٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٣٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٣٤).

- و﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ آيَةٍ﴾ مزيدةٌ للاستغراقِ، ولتأكيدِ النَّفي، وفي قوله: ﴿مِنْ آيَاتِ﴾ للتبعيضِ(١).

- وفي قوله: ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾: اخْتِيرَ الإتيانُ في خبرِ (كان) بصِيغةِ اسمِ الفاعلِ ﴿مُعْرِضِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ هذا الإعراضَ متحقِّقٌ من دَلالةِ فِعل الكَونِ (كَانُوا)، ومُتجدِّد مِن دَلالةِ صِيغة اسم الفاعِل؛ لأنَّ المشتقَّاتِ في قُوَّة الفِعلِ المضارعِ(٢).

- والاستثناءُ في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ دالٌّ على أنَّهم لم يَكُنْ لهم حالٌ إلَّا الإعراضُ(٣).

٢- قوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ الفاء في ﴿فَسَوْفَ﴾ للتفريعِ والتسبُّبِ على قولِه: ﴿كَذَّبُوا بِالحَقِّ﴾؛ تأكيدًا لوعدِ المؤمنين بالنَّصرِ، وإظهارِ الإسلامِ على الدِّين كلِّه، وإنذارِ المشركينَ بأنْ سيحُلُّ بهم ما حلَّ بالأُمم الذين كذَّبوا رُسلَهم ممَّن عَرَفوا، وحرفُ التَّسويفِ (سَوْفَ) جاءَ لتأكيدِ حصولِ ذلك في المستقبَلِ(٤).

- وفي قوله: ﴿أَنْبَاءُ﴾ إيذانٌ بغاية العِظَم؛ لأنَّ (النَّبأ) لا يُطلَق إلَّا على خبرٍ عظيمِ الوقْعِ(٥).

- قال تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ﴾ جاء هنا تقييدُ الكذبِ بالحقِّ، والتَنفيسِ بـ﴿سَوْفَ﴾، وفي الشُّعراء: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ﴾ [الشعراء: ٦]، فحذَف (الحقَّ)، وجاء بالسِّين فقط؛ لأنَّ الأنعام

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ١٣٥- ١٣٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٠).

مُتقدِّمةٌ في النُّزولِ على الشُّعراءِ، فاستوفَى فيها اللَّفظَ، وحذَفَ مِن الشُّعراءِ، وهو مرادٌ؛ إحالةً على الأوَّلِ، وناسَب الحذفُ الاختصارَ في حرْفِ التَّنفيسِ، فجاء بالسِّين[1]، ويَحسُن أن يُزادَ على ذلك أنَّه لَمَّا كان فِعلُ الاستقبالِ المقرونُ بـ (سوف) أبعدَ زمانًا من المقرون بالسِّين، تَعيَّن الأوَّلُ فيما نزل أولًا، والثاني فيما نزَل آخِرًا[2].

٣- قوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا﴾ استئنافٌ مَسُوقٌ لتعيينِ ما هو المرادُ بالأنباءِ التي سبَق بها الوعيدُ، وتقريرِ إتيانِها بطريقِ الاستشهاد، وهمزةُ الإنكار في قوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ لتقريرِ الرُّؤْية، و﴿كَمْ﴾ مفيدةٌ للتكثير[3].

- وفيه التفاتٌ من الغَيْبة في قوله: ﴿يَرَوْا﴾ إلى الخِطابِ- حيث قال: ﴿لَكُمْ﴾، دُونَ (لهم)- وفيه تعريضٌ بقلَّة تمكينِ هؤلاءِ، ونَقصِهم عن أحوالِ مَن سَبق، ومع تمكينِ أولئك في الأرضِ فقد حلَّ بهم الهلاكُ؛ فكيفَ لا يحُلُّ بكم على قلَّتِكم، وضِيق خُطَّتكم؟! فالهلاكُ إليكم أسرعُ من الهلاكِ إليهم[4].

- وجاءت لفظة: ﴿مِدْرَارًا﴾ للمبالغةِ في اتِّصالِ المطرِ، ودوامِه وقتَ الحاجة[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٣٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٤٠).

الآيات (٧ - ١١)

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿قِرْطَاسٍ﴾: أي: صَحيفةٍ، أو ورقٍ، أو ما يُكتَب فيه، والجمعُ قَراطيس[(١)].

﴿يُنْظَرُونَ﴾: أي: يُؤخَّرونَ، وأصل (نظر): تأمُّل الشيءِ ومُعاينتُه[(٢)].

﴿وَلَلَبَسْنَا﴾: أي: ولخَلَطْنا عليهم، أو أضللْناهم بما ضلُّوا به قبلَ أن يُبعث المَلكُ، وأصل اللَّبْس: سَترُ الشَّيء، والمخالطةُ والمداخلةُ أيضًا[(٣)].

﴿فَحَاقَ﴾: أي: أحاطَ ونزَل وأصاب، وأصل (حيق): نزولُ الشَّيءِ بالشَّيء[(٤)].

﴿عَاقِبَةُ﴾: العاقبةُ تختصُّ بالثَّواب إذا أُطلقتْ، وقد تُستعمَلُ - إذا أُضيفتْ - في العُقوبةِ، أو ما يُؤدِّي إليه السَّببُ المتقدِّم، وأصل (عقب): يدلُّ على تأخيرِ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٤١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٢، ٨١٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٣١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٣٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣).

شيءٍ، وإتيانِه بعدَ غيرِه[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾

﴿كَيْفَ﴾: اسمُ استفهامٍ، في محلِّ نصْبٍ، خبرٌ لـ﴿كَانَ﴾، وهو مقدَّمٌ عليها وجوبًا؛ لأنَّ للاستفهامِ صَدْرَ الكلامِ.

و﴿عَاقِبَةُ﴾: مرفوعةٌ؛ اسمُ ﴿كَانَ﴾، ولم يُؤَنَّثْ فِعلُها -حيث لم يَقُل: (كانَتْ)-؛ لأنَّ العاقبة بمَعنى المصيرِ أو المعاد، أو المآل والمنتَهى، ولأنَّ تأنيثَها غيرُ حقيقيٍّ.

والجُملةُ الاستفهاميةُ ﴿كَيْفَ كَانَ...﴾ في مَحَلِّ نَصْبٍ على إسقاطِ حرفِ الجرِّ؛ إذ التقديرُ: ثم انظُروا في كذا؛ لأنَّ ﴿كَيْفَ﴾ مُعلِّقةٌ للفِعلِ ﴿انْظُرُوا﴾ عن العملِ؛ لأنَّ معنى النَّظَر هنا التفكُّرُ والتدبُّرُ[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تعالى أنَّه لو أَنزَلَ على نبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كلامًا، مكتوبًا في أوراقٍ، فتأكَّد الكفَّارُ منه، حتى إنَّهم لَمَسوه بأيديهم، لاستمرُّوا في عِنادِهم، وقالوا: ما هذا إلَّا سِحرٌ واضحٌ، ولاستمرُّوا في تَعنُّتِهم، وقالوا: هلَّا أُنزِلَ مع محمَّدٍ أحدُ الملائكةِ، يكون مُصدِّقًا له ومعاوِنًا، فردَّ اللهُ تعالى عليهم بأنَّه لو أنْزَل ملَكًا- كما سألوا- لجاءَهم العذابُ عاجلًا، إنْ لم يُؤمِنوا، ولن يُمهَلوا حتَّى يتوبوا.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٤٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٨٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٤٠١).

ثم بيَّن تعالى أنَّه لا جَدْوى من إرسالِ الملَك إليهم؛ لأنَّه لو أَرْسَل ملَكًا يَشهدُ بتصديقِ النبيِّ، ويأمُرُهم باتِّباعِه، لجَعَلَه على هيئة بَشرٍ؛ ليتمكَّنوا مِن رُؤيتِه، ومِن سماعِ كلامِه الذي يُبلِّغُه عن اللَّه، ويَحصُلَ الانتفاعُ به؛ ولأنَّهم لا يَقدِرون على رؤيةِ الملَك على صورتِه، وفي حالِ كان على شكلِ بشرٍ، فسَيلتَبِسُ عليهم أمْرُه، كما لَبَسوا على أنفسِهم في قَبول رِسالةِ الرَّسولِ البَشريِّ، واستبعدوا أن يكونَ الرسولُ بشرًا مثلَهم.

ثمَّ خاطَب اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُبيِّنًا له أنَّه قد سُخِر واستُهزِئ برُسلٍ من قبلِه، فعاقبَهم الله جزاءَ تلك السُّخرية برُسُلِه عليهم السَّلام، وقال له: قلْ لهؤلاء الذين كذَّبوا بك- يا محمَّد: امشُوا في الأرض، واطَّلِعوا على آثارِ الأُمم الماضيةِ التي كذَّبتْ رُسلَها، ثمَّ انظروا كيف كانتْ عاقبتُهم، وما الذي حلَّ بهم مِن الهلاكِ، وخرابِ الدِّيار، فخُذوا من ذلِك العِظةَ والعِبرةَ.

تَفسيرُ الآيات:

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أَخبرَ اللهُ عزَّ وجلَّ عنهم أنَّهم كذَّبوا بكلِّ ما جاءَهم من آيةٍ، تَبع ذلك إخبارٌ فيه مُبالغةٌ مُضمَّنةٌ أنَّه لو جاءَهم أعظمُ ممَّا جاء، لكذَّبوا أيضًا(١)، فقال تعالى:

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ﴾.

أي: وهُم لشِدَّة عِنادِهم، ومُكابَرتِهم للحقِّ، لو أَنزلتُ عليك- يا محمَّد-

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٢٦٩).

كلامًا[(١)] مكتوبًا في صَحيفةٍ، يُعايِنونَه، ويَلمَسونَه بأيديهم، بما يَرفَعُ عنهم كلَّ شكٍّ وريبة[(٢)].

﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾.

أي: فلو وقَعَ ذلك لقالَ الكفَّارُ ظُلمًا وعِنادًا: ما هذا إلَّا سِحرٌ ظاهرٌ، سَحَرْتَنا به[(٣)]!

كما قال تعالى مُخبِرًا عن مكابرتِهم للمحسوسات: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤-١٥].

﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞ﴾.

أي: وقالوا أيضًا تعنُّتًا: هلَّا أُنزِلَ مع محمَّدٍ مَلَكٌ يكون مُصدِّقًا له ومعاوِنًا[(٤)]؟

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧].

﴿وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾.

أي: قال اللهُ تعالى: ولو أَنْزَلنا مَلَكًا على ما سألوا، لجاءَهم العذابُ عاجلًا،

---

(١) اختار ابنُ جريرٍ أنَّه القرآنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥١)، ((تفسير ابن عثيمين-سورة الأنعام)) (ص:٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٥٨-١٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٥١).

إنْ لم يُؤمنوا، ولنْ يُمهَلوا حتَّى يتوبوا[١].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ * لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ﴾ [الحجر: ٦-٨].

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَا يَلْبِسُونَ (٩)﴾.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾.

أي: ولو أنزَلْنا على هؤلاءِ رسولًا ملكيًّا، يَشهَدُ بتصديقِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ويَأمُرُهم باتِّباعه، لجعَلْناه على هَيئةِ رجُلٍ مِن البَشرِ؛ لِتُفْهَم مُخاطبتُه، ويَحصُل الانتفاعُ بالأخْذِ عنه؛ لأنَّهم لا يَقدِرون على رؤيةِ الملَك في صُورتِه[٢].

﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَا يَلْبِسُونَ﴾.

أي: وإذا تَشكَّل بصورةٍ بَشريَّةٍ، فسَيلتبِس عليهم أمْرُه، لا يَدْرون أمَلَكٌ هو أمْ إنسيٌّ، كما لَبَسوا على أنفسِهم في قَبول رسالةِ الرَّسول البشريِّ؛ فلا جَدْوى إذنْ من إرسالِ ملَكٍ[٣].

﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (١٠)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٦٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأنعام)) (ص:٥١-٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٦٢)، ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٥٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٦٣-١٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤١-٢٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٤٥-١٤٦).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا كان بعضُ الأقوامِ يقولون على سبيلِ الاستهزاءِ: إنَّ رَسولَ اللهِ يجبُ أنْ يكونَ ملَكًا من الملائكةِ؛ وكان يَضيقُ قلبُ الرسولِ عندَ سَماعِه ذلك؛ ذَكَر أنَّه قد استُهزِئ برُسُلٍ مِن قَبلِه؛ ليصيرَ سببًا للتخفيفِ عن قلبِه عليه الصَّلاة والسَّلام؛ لأنَّ ممَّا يُخفِّف عن القلبِ، المشاركةَ في سببِ المحنةِ والغمِّ؛ فكأنَّه قيل له: إنَّ هذه الأنواعَ الكثيرةَ من سوءِ الأدبِ، التي يُعاملونك بها، قد كانت موجودةً في سائرِ القُرون مع أنبيائِهم؛ فلستَ أنت فريدًا في هذا الطَّريقِ[1].

وأيضًا لَمَّا كانوا في قولهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ قاصِدين التعجيزَ والاستهزاءَ معًا؛ لأنَّهم ما قالوه إلَّا عن يقينٍ منهم أنَّ ذلك لا يكونُ، ابتَدأَ الردَّ عليهم بإبطالِ ظاهرِ كَلامِهم بقولِه: ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾، ثم ثَنَّى بتهديدِهم على ما أرادوه منَ الاستهزاءِ، والمقصودُ مع ذلك تهديدُهم بأنَّهم سيَحيقُ بهم العذابُ، وأنَّ ذلك سُنَّةُ اللهِ في كلِّ أمَّةٍ استهزأتْ برسولٍ لها[2]، فقال تعالى:

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾.

أي: قد سَخِرَت أممٌ برُسُلٍ مِن قبلِك- يا مُحمَّد[3].

﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾.

أي: فحَلَّ بهؤلاءِ الساخرينَ العذابُ؛ جزاءً لهم بسببِ سُخريتِهم برُسلِهم عليهم السَّلام[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٤٦) ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٦٥-١٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص:٥٥).

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر تعالى ما حلَّ بالمكذِّبين المسْتَهْزئين، حين قال: ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾، وكان المخاطَبون بذلِك أُمَّةً أُمِّيَّة، لم تَدرُسِ الكُتبَ، ولم تُجالسِ العلماءَ- أُمِروا بالسَّير في الأرضِ، والنَّظرِ فيما حلَّ بالمكذِّبين؛ ليعتبروا بذلك، ويتظافَرَ مع الإخبارِ الصَّادقِ الحسُّ؛ فللرؤيةِ مِن مزيدِ الاعتبارِ ما لا يكونُ بغيرِها[1]، فقال سبحانه:

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾.

أي: قلْ- يا محمَّدُ- لهم: جُولوا في بلادِ المكذِّبين برُسلِهم، أمثالِكم؛ لتطَّلِعوا على آثارِهم[2].

﴿ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾.

أي: ثمَّ انظُروا إلى ما حلَّ بهم مِن البَوار، وخرابِ الدِّيار، وفكِّروا في أنفُسِكم؛ كيف أَعْقَبهم تكذيبُهم ذلك الهلاكَ، وخِزيَ الدنيا وعارَها؛ فاعْتَبِروا، واحْذَروا أنْ يَحيقَ بكم مثلُ ما حاقَ بهم[3].

كما قال اللهُ تبارَك وتعالَى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧- ١٣٨].

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- أنَّ المعاصيَ سببٌ للعقوبة؛ لقوله: ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾، وأنَّ العقوبة

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٤٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٥٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٦٦-١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٥٩-٦١).

بقَدْرِ العملِ؛ ولذلك عبَّر بقوله: ﴿بِهِ﴾ عنها، وهذا مِن عَدلِ الله عزَّ وجلَّ، أمَّا المثوبةُ فالحسنةُ بعَشْر أمثالِها إلى سبعِ مِئةِ ضِعفٍ إلى أضعافٍ كثيرة(١).

٢- الأمرُ بالسَّيرِ في الأرضِ للاعتبار، سواءٌ كان بالبصائرِ أو بالأبصار؛ لقوله: ﴿سِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾، ويتفرَّع على هذه الفائدةِ: أنَّه يَنبغي أن نَقرأَ تاريخَ الأُمم السَّابقة، وأفضلُ ما نَقرؤُه منه هو القرآنُ وصحيحُ السُّنة؛ لأنَّ مِن الأحاديثِ الضعيفةِ أو الموضوعةِ عن الأُمم السَّابقة ما لا يُحْصيه إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ، والعِبْرَةُ بالصَّحيحِ، وما أكثرَ الأحاديثَ التي فيها الأخبارُ عن الأمم السَّابقة(٢).

٣- فضلُ الاعتبارِ، وأنَّه أمرٌ مطلوبٌ؛ لقوله: ﴿انْظُرُوا﴾، وسواءٌ أكان الاعتبارُ بِمَن انتقمَ الله منهم أو بمَن أثابهم، فإنْ كان بمَنِ انتقمَ الله منهم، فالإنسانُ يَحذَر، وإنْ كان ممَّن أثابهم، فالإنسانُ يَرْغَب، وفي هذه الآيةِ الاعتبارُ بمَن انتقمَ اللهُ منه(٣).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- يُستفادُ من قولِه: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أنَّه ليس الذي يَجعلُهم يُعرِضونَ عن آياتِ اللهِ، أنَّ البُرهانَ على صِدقِها ضعيفٌ أو غامضٌ، أو تختلفُ فيه العقولُ؛ إنَّما الذي يَجعلُهم يَقِفونَ هذا الموقفَ هو المكابرةُ الغليظةُ والعنادُ الصَّفيقُ! وهو الإصرارُ مبدئيًّا على الرَّفضِ والإنكارِ، وعدم اعتبارِ البُرهان أو النظرِ إليه أصلًا! ولو أنَّ الله سبحانه نزَّلَ على رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هذا القرآنَ لا عن طريقِ الوَحْيِ الذي لا يَرَوْنه، ولكن في ورقةٍ منظورةٍ ملموسةٍ محسوسةٍ، ثم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٥٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٦١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

لَمَسوا هم هذه الورقةَ بأيديهم- لا سَماعًا عن غيرِهم، ولا مُجرَّد رؤيةٍ بعيونهم- ما سَلَّموا بهذا الذي يَرَوْنه ويَلْمَسونَه[١].

٢- قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا...﴾ فيه بيانُ أنَّ هؤلاءِ المكذِّبين لن يُؤمِنوا ولو جاءتْهم كلُّ آيةٍ؛ لأنَّ مِن أعظمِ الآيات أنْ يُنَزَّل الكتابُ يُشاهدونَه بقرطاسٍ ويَلمَسونَه؛ ومع ذلِك لو نَزَل هكذا سيُنْكرونَه، ويَدَّعُون أنَّه سِحرٌ واضحٌ قدْ سُحِروا به[٢].

٣- فائدةُ زِيادةِ لَمْسِ القِرطاسِ بأَيديهم في قوله: ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ تحقيقُ القِراءةِ على قُربٍ، أي: فقَرؤوه وهو بأيديهم، لا بَعيدٌ عنهم[٣].

٤- قوله تعالى: ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ فيه بيانُ عِلمِ اللهِ تبارَك وتعالَى بما سيكونُ لو كان؛ لأنَّه عَلِمَ ماذا سيكونُ قولُ هؤلاءِ، لو نزَلَ عليهم الكتابُ في قِرطاسٍ[٤].

٥- قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾، فيه دليلٌ على تعنُّتِ المكذِّبين للرُّسل، وتفنُّنِهم في المكابرةِ والعِناد؛ تصلُّبًا في شِركِهم وإصرارًا عليه؛ فهذه الاقتراحاتُ لم تكن طلبًا للبُرهان؛ إنَّما كانت وسيلةً من وسائلِ الإعناتِ، وأسلوبًا من أساليبِ التعنُّت، وخُطةً للمُماحكةِ والمعاندةِ؛ فإنَّهم كانوا كما قال اللهُ سبحانه عنهم في الآيةِ السَّابقةِ: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١٠٣٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٤٦، ٤٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٦٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٤٩).
(٥) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١٠٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٥٢).

٦- أنَّ المكذِّبين للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُقِرُّون بالملائكةِ؛ لقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾[(١)].

٧- في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ أنَّ الله ما كان ليُظهرَ آياتِه عن اقتراحِ الضالِّين؛ إذ ليس الرسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بصدَد التصدِّي لرَغباتِ النَّاسِ، مِثلَما يتصدَّى الصانعُ أو التاجر، ولو أُجيبت رغباتُ بعضِ المقتَرِحين لرامَ كلُّ مَن عُرِضت عليه الدعوةُ أنْ تَظهرَ له آيةٌ حسَبَ مُقْتَرحِه، فيصير الرسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُضيِّعًا مدَّةَ الإرشادِ، وتلتفُّ عليه النَّاسُ التفافَهم على المشَعْوذينَ، وذلك يُنافي حرمةَ النُّبوةِ، ولكنَّ الآياتِ تأتي عن مَحضِ اختيارٍ مِن اللهِ تعالى دونَ مسألةٍ[(٢)].

٨- في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ بيانُ رَحمةِ الله ولُطْفه بعِباده؛ حيثُ أَرسلَ إليهم بَشرًا منهم يكونُ الإيمانُ بما جاءَ به عن عِلمٍ وبصيرةٍ وغيبٍ؛ لأنَّه لو أرْسَل ملكًا برِسالتِه، لكان الإيمانُ لا يَصدُر عن معرفةٍ بالحقِّ، ولكان إيمانًا بالشَّهادة، الذي لا ينفَعُ شيئًا وحْدَه، هذا إنْ آمنوا، والغالبُ أنَّهم لا يُؤمنونَ بهذه الحالةِ، فإذا لم يُؤمنوا قُضِي الأمرُ بتعجيلِ الهلاكِ عليهم، وعدمِ إنظارِهم؛ لأنَّ هذه سُنَّةُ الله فيمَن طلَب الآياتِ المقترَحَةَ، فلم يُؤمِنْ بها[(٣)].

٩- قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾، الفائدةُ في كلمة ﴿ثُمَّ﴾ التنبيهُ على أنَّ عدَم الإنظارِ أشدُّ من قضاءِ الأمْرِ؛ لأنَّ مفاجأةَ الشِّدَّة أشدُّ من نفْس الشِّدَّة[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٤٤، ١٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٨٧).

١٠- يُستفادُ من قولِه: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ أنَّ البَشرَ لا قُوَّةَ لهم على رُؤيةِ الملَكِ في صورتِه، وإنَّما رآه الأفرادُ مِن الأنبياءِ عليهم السَّلام؛ لأنَّ اللهَ تعالى أقْدَرَهم على ذلك(١).

١١- الحِكمةُ في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ أمور:

أحدُها: أنَّ الجِنسَ إلى الجنسِ أمْيَلُ.

ثانيها: أنَّ البشرَ لا يُطيقُ رؤيةَ الملَك.

ثالثها: أنَّ طاعاتِ الملائكةِ قويَّةٌ فيَستحقرون طاعةَ البَشر، وربَّما لا يَعذِرونَهم في الإقدامِ على المعاصِي.

رابعها: أنَّ النُّبوَّةَ فضلٌ من الله عزَّ وجلَّ؛ فيختصُّ بها مَن يشاءُ مِن عِبادِه(٢).

١٢- قوله تعالى:﴿لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ فيه دليلٌ على إمكانِ تَمثيل الملائكةِ بصُورة البَشرِ، وهو صحيحٌ واقعٌ بالنَّقْل المُتواتِر(٣).

١٣- حِكمةُ الله تبارَك وتعالى في إرْسالِ الرُّسلِ مِن البَشر كما في قوله تعالى: ﴿لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾؛ من أجْل الرُّكونِ إليهم وقَبولِهم، بل إنَّ اللهَ تبارك وتعالى يَجعَلُ الرُّسُلَ من أوساطِ الأقوامِ وأشرافِهم وأفاضلِهم، حتى يَحْتَموا بهم، ولا يضرُّ أن يَجعلَ اللهُ تبارك وتعالى للرُّسُلِ مَن يَحميهم من أقوامِهم، ويدلُّ لذلك قولُ قومِ شعيبٍ له: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ [هود:٩١]؛ ممَّا يدلُّ على أنَّ الإنسانَ إذا كان من القومِ صار له شأنٌ كبيرٌ وهَيْبةٌ(٤).

١٤- في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا...﴾ حُسنُ المحاجَّة

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤١٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٨٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٤٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٥٣).

في القرآنِ الكريمِ، وهو أنَّه لو جاءَ الأمرُ على اقتراحِ هؤلاءِ لم يكُن على ما اقْتَرحوه، أي: لم يكُن ملكًا؛ لعدم المناسبةِ بين الرسولِ والمُرسَلِ إليهم، فإذا كان رجلًا عادَ اللَّبسُ والاقتراحُ الذي اقتَرحوه؛ لقوله: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[1].

١٥- في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ تعليمٌ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ سُننَ الله في الأُمم مع رُسلِهم، وتَسليةٌ له وتَسريةٌ عنه ممَّا يَلقاه من عِناد المُعرِضين، وعَنَتِ المكذِّبين، وتَطمينُ قلبِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى سُنَّة اللهِ سبحانه في أخْذِ المكذِّبين المسْتهزِئين بالرُّسُل، وتَأسِيَتُه كذلك بأنَّ هذا الإعراضَ والتكذيبَ ليس بِدْعًا في تاريخ الدَّعوةِ إلى الحقِّ؛ فقد لقِيَ مِثلَه الرُّسُلُ قَبْلَه، وقد لقِي المستهزِئون جزاءَهم الحقَّ، وحاق بهم ما كانوا يَستَهْزئون به مِن العذاب، ومِن غَلَبةِ الحقِّ على الباطلِ في نِهاية المطافِ[2]، فكونُه يَعْلَم أنَّ الأمم السابقةَ كذَّبَتْ رُسُلَها، يُهوِّن عليه الأمْرَ؛ فإنَّ الإنسانَ يَتسلَّى بالمصائبِ إذا أصابتْ غيرَه، وتهونُ عليه مُصيبتُه، وقد أشارَ اللهُ إلى هذا في قوله: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩]، مع أنَّه لو كان في الدُّنيا، واشترَك الناسُ في العذابِ، لهان عليهم ونفَعَهم، وحمَلَهم على الصَّبر، لكنْ في القيامَةِ لا يَنفَعُ[3].

١٦- أنَّ السُّخريةَ والاستهزاءَ بالرُّسلِ موجِبٌ للعِقاب؛ لقوله: ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[4].

١٧- يُستفادُ من قولِه: ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ لمسُ قُلوبِ المكذِّبين المسْتَهزِئين من العربِ بمصارعِ أسلافِهم مِن المكذِّبين

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٥٤).
(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١٠٤٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٥٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٧).

المسْتَهزئين، وتَذكيرُهم بهذه المصارِعِ التي تنتظرُهم إنْ هم لَجُّوا في الاستهزاءِ والسُّخريةِ والتكذيبِ، وقد أخَذَ اللهُ مِن قَبلِهم قُرونًا كانتْ أشدَّ منهم قوةً، وتمكينًا في الأرض، وأكثرَ منهم ثراءً، ورخاءً(١).

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ...﴾ جملةٌ مُستأنفَةٌ سِيقتْ بطريقِ تلوينِ الخِطابِ؛ لبيان شِدَّة شَكيمتِهم في المكابرةِ، وما يتفرَّعُ عليها من الأقاويلِ الباطلةِ إثرَ بيانِ إعراضِهم عن آياتِ اللهِ تعالى، وتكذيبِهم بالحقِّ واستحقاقِهم بذلك لنُزولِ العذابِ(٢).

- قوله: ﴿فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ فيه تأكيدُ المعلومِ بالمحسوسِ، أو تأكيدُ المعقولِ بالمحسوسِ؛ حيث قال: ﴿فِي قِرْطَاسٍ﴾، وقال: ﴿فَلَمَسُوهُ﴾؛ لأنَّ هذا تأكيدٌ بشَيءٍ محسوسٍ يُنظَر إليه أنَّه في قِرطاسٍ، ويُلمَس باليدِ(٣).

- وجاءَ تخصيصُ اللَّمسِ؛ لأنَّ التَّزويرَ لا يقعُ فيه؛ فلا يُمْكنُهم أن يقولوا: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾، ولأنَّ الثِّقةَ باللَّمْس أقْوى؛ لأنَّ البَصرَ قد يُخدَع بالتخيُّل(٤).

- وفي تقييدِه اللَّمْسَ بالأيدي- مع أنَّ اللَّمْس لا يكونُ إلَّا بها- إطنابٌ؛ حتى يَجتمعَ لهم إدراكُ الحاسَّتينِ: حاسَّةِ البَصَرِ وحاسَّة اللَّمْس، وفيه كذلك تأكيدٌ لمعنى اللَّمْسِ؛ لرَفْعِ احتمال أن يكونَ المرادُ به (التأمُّل)، كما في قوله: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ [الجن: ٨]، أي:

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١٠٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٣٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٦٠).

تفحَّصْنا، ففيه زِيادةُ تعيُّنٍ، ودفْع احتمالِ التجوُّز[١]. وقيَّد اللَّمس بالأيدي أيضًا؛ للإفصاحِ عن مُنْتهى ما اعْتِيد مِن مُكابرتِهم، ووقاحتِهم في الإنكارِ والتكذيبِ[٢].

٢- قوله: ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فيه إظهارٌ في موضِع الإضمارِ- حيث أظهرَ الموصولَ في موضِع ضميرِه، فقال: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ولم يقُل: (لقالوا)- وذلك للتنصيصِ على اتِّصافِهم بما في حيِّز الصِّلة من الكُفْر[٣]، ومِن فوائد الإظهارِ في موضعِ الإضمارِ: القياسُ، بمعنى: أنَّ كلَّ مَن قال قولهم فهو كافرٌ؛ لأنَّه لو قال: (لقالوا) لن نَستفِيدَ أنَّ مَن قال مِثلَ قولهم يكون كافرًا بالنصِّ، فإذا كان هذا الوصفُ ظاهرًا قِسْنَا عليه كلَّ ما ماثَلَه، أو كلَّ مَن اتَّصف بهذا الوصفِ[٤].

٣- قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ فيه بناءُ الفِعل الأوَّل في الجوابِ للفاعِل ﴿أَنْزَلْنَا﴾ الذي هو نونُ العَظَمَة، مع كونِه في السُّؤال مَبنيًّا للمفعول ﴿أُنْزِلَ﴾؛ لتهويلِ الأمرِ، وتربيةِ المهابةِ، وبناءُ الثاني (قُضِيَ) للمفعولِ للجَرْيِ على سَنن الكبرياءِ[٥].

٤- قوله: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ تصديرُ الجملةِ بلامِ القَسمِ وحرْفِ التحقيقِ (قد) في ﴿وَلَقَدِ﴾، يدلُّ على تأكيدِ الخَبَر[٦]؛ وإظهارِ كمالِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٤٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ٦٩-٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٤٨، ٤٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٣).

(٦) مِن فوائدِ تَوكيدِ الجُملة بأنواعِ المؤكِّدات- مع أنَّ خبرَ الله تعالى صِدقٌ، سواءٌ اقترن بالقَسَم وأدوات التوكيدِ أو لا-: أنَّ القرآن الكريم جاءَ باللِّسان العربيِّ، واللسانُ العربيُّ يحسُن فيه التأكيدُ إذا اقتضتِ الحالُ ذلك؛ ومنها: أنَّ تأكيدَ اللهِ له بالقسَمِ يدلُّ على أهميَّته، وأنَّه من الأمورِ =

الاعتناءِ بمضمونِ الجملةِ[١].

- وقوله: ﴿بِرُسُلٍ﴾ التنكيرُ والتنوينُ للتَّفخيمِ والتَّعظيمِ والتَّكثيرِ[٢].

٥- قوله: ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾

- قوله: ﴿بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ﴾ مُتعلِّق بقوله: ﴿فَحَاقَ﴾، وتَقديمُه على فاعِله الذي هو ﴿مَا﴾؛ للمُسارَعَةِ إلى بَيانِ لُحوقِ الشرِّ بهم[٣].

- و(ما) في قوله: ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ موصولةٌ بمعنى (الذي)، وهي مُفيدةٌ للتهويلِ، والجارُّ والمجرور ﴿بِهِ﴾ عائدٌ إليها، ومتعلِّقٌ بالفِعل ﴿يَسْتَهْزِئُونَ﴾، وتقديمُه عليه لرِعايةِ الفواصِل، وللاهتمامِ به، أي: فأحاطَ بهم الذي كانوا يَستهزِئون به[٤].

= التي لا بدَّ أن يَقبَلها الإنسانُ ويُصدِّقَ بها، ومنها: أنَّه قد يُراد به دفْعُ إنكارِ مَن أنكرَ مدلولَ الخبرِ؛ ككونِ اللهِ عزَّ وجلَّ يُؤكِّدُ قيامَ الساعةِ بالمؤكِّدات الكثيرة لردِّ إنكارِ المكذِّبين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٥٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق))، وينظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٤٨).

الآيتان (١٢ - ١٣)

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿سَكَنَ﴾: أي: ثبَتَ بعدَ تحرُّك، ويُستعمَلُ السُّكونُ في الاستيطانِ، وأصل (سكن): يدلُّ على خِلافِ الاضطرابِ والحركةِ[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

﴿الَّذِينَ﴾: في محلِّ رفْعٍ، مبتدأٌ أوَّل، و﴿فَهُمْ﴾ مبتدأٌ ثانٍ، وجملةُ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ خبرُ المبتدأِ الثاني، والمبتدأُ الثاني وخبرُه خبرٌ للمبتدأِ الأوَّل؛ ودخلتِ الفاء في ﴿فَهُمْ﴾ لِمَا في ﴿الَّذِينَ﴾ من معنى الشَّرْط. وقيل: ﴿الَّذِينَ﴾ في محلِّ رفْعٍ، خبرٌ لمبتدأ محذوف، والتقديرُ: هم الذين خسِروا، أو: أنتُم الَّذين خَسِروا. وقيل غير ذلك[2].

المَعنَى الإجماليُّ:

يَأمُر اللهُ تعالى نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أن يقولَ لهؤلاءِ المكذِّبين ويسألَهم: لِمَن مُلكُ جميعِ ما في السَّموات والأرضِ؟ ثم أمَرَه أن يُجيبَ عن السُّؤال بأنْ يقولَ: إنَّ مُلكَ ذلك كلِّه للهِ تعالى الذي يَستحقُّ العبادةَ وحْدَه، أوجبَ

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٤٧)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٨٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٥٥١-٥٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٥٤).

سبحانه على نفْسِه الرحمةَ، ليَجمعنَّكم- أيُّها النَّاسُ- جميعًا يومَ القيامةِ الذي لا شكَّ فيه، ثم ذكر أنَّ الخاسرينَ حقًّا هم الَّذين أضاعوا أنفُسَهم، فلم يُؤمنوا.

ثم أخبَرَ الله تعالى أنَّ له وحْدَه كلَّ شيءٍ سَكَن في اللَّيلِ والنَّهارِ، وهو السَّميعُ العليمُ.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: قلْ- يا محمَّدُ- لهؤلاءِ المكذِّبين: لِمَنْ مُلكُ جميعِ ما في السَّمواتِ، وجَميعِ ما في الأرض[1]؟

ثم أمَرَ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يُجيبَ عن هذا السُّؤالِ، فقال[2]:

﴿ قُل لِّلَّهِ ﴾.

أي: قلْ- يا محمَّدُ-: ذلك كلُّه مِلكٌ للهِ تعالى، الذي يَستحقُّ العبادَةَ وحْدَه[3].

﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾.

أي: أوْجَب على نفْسِه الرَّحمةَ، فوَسِعَتْ رحمتُه كلَّ شيءٍ[4].

عن أبي هُرَيرَةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((لَمَّا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٦٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٦٢-٦٣).

خلَقَ اللهُ الخلقَ، كتَب في كِتابِه، فهو عندَه فوقَ العَرشِ: إنَّ رحمَتي تَغلِبُ غضَبي))(١).

﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

أي: واللهِ ليَجمعنَّكم الربُّ سبحانه- أيُّها النَّاسُ- يومَ القيامةِ الذي لا شَكَّ في وُقوعِه(٢).

﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

أي: إنَّ الَّذين أضاعوا أنفُسَهم، فعدِموا فائدةَ الانتفاعِ منها؛ بحِرْمانها تصديقَ الرَّسولِ والرِّسالةِ، هم الخاسِرون حقًّا(٣)؛ إذ لَمَّا أعْرَضوا عن ذلك فاتَهُمُ الإيمانُ باللهِ تعالى وبرسولِه عليه الصَّلاة والسَّلام، وباليوم الآخِرِ الذي هو سببُ الفوزِ في الدُّنيا والآخِرة(٤).

قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الزمر: ١٥].

﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

---

(١) رواه البخاري (٧٤٠٤)، ومسلم (٢٧٥١) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٧١-١٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٢-٢٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٦٥-٦٦).

(٣) وهذا بناءً على أنَّ جُملة ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ استئنافيةٌ لا تعلُّق لها بقولِه تعالى: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾، فيكون ﴿الَّذِينَ﴾ مبتدأ، وهذا اختيارُ القرطبي في ((تفسيره)) (٦/ ٣٩٦)، وابن عثيمين في ((تفسير سورة الأنعام)) (ص: ٦٦). وخبره إمَّا محذوف فيُقدَّر، أو خبره جملة ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. يُنظر: المصدران السابقان، و ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٥٣-١٥٤).
وقيل: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بدلٌ من قوله سبحانه: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾، وهذا اختيارُ ابن جرير في ((تفسيره)) (٩/ ١٧٣-١٧٤)، وابن عطية في ((تفسيره)) (٢/ ٢٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٥٣-١٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٦٦-٦٧).

ذَكَر اللهُ تعالى في الآيةِ السَّابقةِ السَّمواتِ والأرضَ؛ إذ لا مكانَ سواهما، وفي هذه الآيةِ الكريمةِ ذَكَر اللَّيلَ والنَّهارَ؛ إذ لا زَمانَ سواهما، فالزَّمانُ والمكانُ ظرفانِ للمُحْدَثاتِ؛ فأخبَر تبارَك وتعالى أنَّه مالِكٌ للمكانِ والمكانيَّات، ومالكٌ للزَّمان والزَّمانيَّات[1]، فقال تعالى:

﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾.

أي: وله عزَّ وجلَّ مُلكُ كلِّ شيءٍ؛ فإنَّه ما مِن شيءٍ مِن خَلْقِ الله تعالى إلَّا وقد حلَّ واستقرَّ في ليلٍ أو نهارٍ؛ فالجَميعُ خَلْقُه، وتحتَ قَهْرِه وتَصرُّفِه وتدبيرِه سبحانه[2].

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾.

أي: وهو السَّميعُ لجميعِ الأصواتِ والأقوالِ، وهو العَليمُ بكلِّ شيءٍ، المطَّلعُ على الظَّواهرِ والسَّرائرِ، ثم يُجازي كلَّ إنسانٍ بما اكتَسبَ مِن خيرٍ وشرٍّ[3].

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- قولُه تعالى: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ﴾؛ فيه اللُّجوءُ إلى اللهِ وحْدَه تعالى، وعدَمُ الخوفِ إلَّا منه سُبحانه؛ فإنَّنا متى آمنَّا أنَّ مَن في السَّمواتِ والأرضِ لله، فإنَّنا لن نَلجأَ إلَّا إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، ولنْ نخافَ إلَّا مِنه سُبحانه؛ لأنَّه مالكُ مَن في السَّموات والأرضِ[4].

٢- اللَّام في قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ للمِلْكِ؛ دلَّت على عُبوديَّة الناسِ للهِ دون غيرِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٩٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٧٤)، ((الوجيز)) للواحدي (١/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٦٧).

وتستلزم أنَّ العبدَ صائرٌ إلى مالكِه لا محالةَ[١].

٣- قولُه تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ فيه استِعطافٌ للمُعْرِضينَ عنه إلى الإقبالِ إليه بالتَّوْبَةِ؛ فإنهم إنْ تابوا وأنابوا قَبِل توبتَهم، وقد قَضى في خَلْقه أنَّ رحْمَته وَسِعتْ كلَّ شيءٍ[٢].

٤- جملةُ: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ معترِضةٌ، وهي مِن المقولِ الذي أُمِرَ الرسولُ بأنْ يقولَه، وفي هذا الاعتراضِ معانٍ:

أحدها: أنَّ ما بَعدَه لَمَّا كان مُشْعِرًا بإنذارٍ بوعيدٍ، قَدَّمَ له التذكيرَ بأنَّه رَحيمٌ بعبيدِه، عساهم يَتوبونَ، ويُقلِعون عن عِنادِهم؛ كقوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤]، والشِّركُ باللهِ أعظمُ سوءٍ، وأشدُّ تلبُّسًا بجهالةٍ.

والثاني: أنَّ الإخبارَ بأنَّ للهِ ما في السَّمواتِ، وما في الأرضِ؛ يُثير سُؤالَ سائلٍ عن عدمِ تعجيلِ أخْذهم على شِركِهم بمَن هُم ملكُه؛ فالكافرُ يقول: لو كانَ ما تقولونَ صِدقًا لعجَّل لنا العذاب، والمؤمِنُ يَستبطئُ تأخيرَ عِقابِهم، فكان قوله: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ جوابًا لكِلَا الفَريقينِ؛ بأنَّه تَفضَّل بالرَّحمة، فمنها رحمةٌ كاملةٌ، وهذه رحمتُه بعبادِه الصَّالحين، ومنها رحمةٌ مُوَقَّتة، وهي رحمةُ الإمهالِ، والإملاءِ للعُصاة والضالِّين.

والثالث: أنَّ ما في قوله: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ﴾ مِن التمهيدِ لِمَا في جملةِ ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ مِن الوعيدِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٦٧).

والوعدِ؛ فذُكِرَتْ رحمةُ الله تعريضًا ببشارةِ المؤمنين، وبتَهديدِ المشرِكين(١).

٥- قوله تعالى: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ﴾ فيه استدعاءٌ ليُوجِّهوا النَّظَرَ العقليَّ في الموجوداتِ الخفيَّة، وما في إخفائِها مِن دلالةٍ على سَعةِ القُدرة، وتصرُّفاتِ الحِكمةِ الإلهيَّةِ(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ﴾ هذا استِدلالٌ على المشْركين بأنَّ غيرَ اللهِ ليس أهلًا للإلهيَّة؛ لأنَّ غيرَ الله لا يَملِكُ ما في السَّمواتِ وما في الأرض؛ إذ مُلكُ ذلك لخالِقِ ذلك، وهو تمهيدٌ لقوله بعدَه: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾؛ لأنَّ مالكَ الأشياءِ لا يُهمِلُ مُحاسبتَها(٣).

٢- قدَّم الله تعالى المكانَ (السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) في قولِه: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ﴾؛ لأنَّه أقربُ إلى العقولِ والأفكارِ مِن الزَّمان (اللَّيل والنهار)، والمذكورِ بعدَه في قولِه تعالى: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾(٤).

٣- قوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ سؤالٌ، وقوله: ﴿قُلْ لِلَّهِ﴾ جوابٌ؛ فقد أمَرَه الله تعالى بالسُّؤالِ أولًا، ثم بالجواب ثانيًا؛ وهذا إنَّما يَحسُن في الموضعِ الذي يكونُ الجوابُ قد بلَغَ في الظهورِ إلى حيثُ لا يَقدِر على إنكارِه مُنكِرٌ، ولا يَقدِر على دَفْعِه دافِعٌ، ولَمَّا كانتْ آثارُ الحدوثِ والإمكانِ ظاهرةً في ذواتِ جميع الأجسامِ، وفي جميعِ صِفاتها؛ لا جرمَ كان الاعترافُ بأنَّها بأَسْرِها مِلكٌ لِلَّهِ تعالى، ومُلْكٌ له، ومَحلُّ تصرُّفِه وقُدرتِه، لا جرمَ أمَرَه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٥١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ١٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٤٩).

بالسؤال أولًا، ثم بالجوابِ ثانيًا؛ ليدلَّ ذلك على أنَّ الإقرارَ بهذا المعنى ممَّا لا سبيلَ إلى دفْعِه البتَّةَ. وأيضًا فالقومُ كانوا معترِفين بأنَّ كلَّ العالَم مِلكٌ للهِ سبحانه، وتحتَ تصرُّفه وقَهرِه وقُدرتِه بهذا المعنى، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾(١) [لقمان: ٢٥].

٤- أنَّ للهِ تعالى أن يكتُبَ على نفْسِه ما شاءَ؛ لقوله: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾(٢).

٥- يُستفادُ من قولِه: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أنَّ رحمةَ الله بعبادِه هي الأصلُ، حتى في ابتلائِه لهم أحيانًا بالضَّرَّاءِ(٣).

٦- قوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ فيه سؤالٌ: كيفَ يكونُ الشيءُ لازمًا على الله؟ والجواب: أنَّ اللهَ تعالى ألْزَمَ نفْسَه به، وله سبحانه أنْ يَفعلَ ما شاءَ، نحن لا نُلزِمُ اللهَ بشيءٍ، وليس لنا على الله حقٌّ إلَّا ما أوْجَبه على نفْسِه، لكنَّ اللهَ له أن يُلزِمَ نفْسَه بشيءٍ، فكتابةُ الله على نفْسِه الرَّحْمةَ لا تُنافي كمالَه، بل هي مِن كمالِه عزَّ وجلَّ(٤).

٧- أنَّ اللهَ يُعبِّرُ عن ذاته بالنَّفْسِ؛ لقوله: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾، ولها نظائرُ؛ قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨] وقال عيسى عليه السَّلام: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦]، والإنسانُ له نفْسٌ، وليستْ نفْسُ اللهِ كنَفْس الإنسان؛ فهو سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١](٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٨٨، ٤٨٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٦٨).
(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١٠٤٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٦٨، ٦٩).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٦٩).

٨- في قوله تعالى: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أنَّه لا ريبَ في هذا اليومِ، شرعًا وعقلًا: شرعًا؛ لأنَّ اللهَ أخْبَر به وأكَّده، وضرَب له الأمثالَ. وعقلًا؛ لأنَّه ليس مِن المعقولِ أنَّ الله تعالى يُوجِد هذه الخليقةَ، ويَأمُرها ويَنهاها، ويُرسل إليها الرُّسُل، وتُستباحُ الأنفسُ والأموالُ والذريَّة في القِتالِ في سبيلِ الله، ثم تكونُ النتيجةُ أنَّ الأرضَ تَبلعُهم فقط! هذا يُنافي الحِكمةَ؛ فالعقلُ يُوجِبُ أنْ يكونَ هناك بعْثٌ، حتى وإنْ لم يكُن نصٌّ؛ فكيف والنصوصُ كثيرة؟! ومِن رحمةِ الله عزَّ وجلَّ- وله الحمدُ والفضلُ والمِنَّة- أنَّه يُكثِرُ من إثباتِ يومِ القيامةِ، ويَضرِبُ له الأمثال؛ لأنَّ الإيمانَ باليومِ الآخِرِ هو الذي يَحمِلُ الإنسانَ حقيقةً على الإيمانِ؛ إذ لو لا اعتقادُ المؤمنِ أنَّه سيُبعَث ويُجازى- إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشرٌّ- ما عمِل أبدًا، ولصارتِ الأمَّةُ موطنًا للسَّلْبِ والنَّهبِ والعُدوان[١].

٩- في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أنَّ السُّكونَ والحركةَ بيدِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ مالِكَ مَن يَسكُن ويَتحرَّك مالِكٌ للحركةِ والسُّكون، فيكون في هذا دليلٌ على أنَّ أفعالَ العِبادِ مخلوقةٌ لله تعالى، وهذا هو مذهبُ السَّلَفِ وأهلِ السُّنة، وهو وسَطٌ بين مذهبَيِ الجبريَّة والقَدَريَّة[٢].

١٠- قد جاءَ قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ بعدَ قوله: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ كالنتيجةِ للمقدِّمة؛ لأنَّ المقصودَ من الإخبارِ بأنَّ اللهَ يَمْلِك الساكناتِ؛ التمهيدُ لإثباتِ عُمومِ عِلْمه، وإلَّا فإنَّ مُلْك المتحرِّكات المتصرِّفات أقوى مِن مُلْك الساكناتِ، التي لا تُبدي حراكًا؛ فظهَر حُسنُ وقْع قولِه: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ عقبَ هذا[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٧٠، ٧١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٥٥، ١٥٦).

بَلاغةُ الآيتينِ:

١ - قوله: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ فيه مناسبةٌ حسنةٌ؛ حيث عبَّر هنا بـ﴿ثُمَّ انْظُرُوا﴾ فعَطَف بـ(ثُمَّ) الدَّالة على التَّراخِي، وفي غيرِ هذه السُّورة عقَّب الأمرَ بالسَّير بقوله: ﴿فَانْظُرُوا﴾، فعطفَ بالفاءِ، الدَّالةِ على التَّعقيبِ المباشِرِ، مع اشتراكِهما في الأمْر بالسَّيرِ؛ وبيانُ هذه المناسبةِ مِن وجهينِ:

الوجه الأوَّل: أنَّ ما في سُورةِ الأنعامِ وقَعَ بَعدَ ذِكر القُرونِ، في قوله: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾، وقوله: ﴿وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾؛ فتعدَّدت القرونُ في أزمنةٍ متطاولةٍ؛ فخُصَّت الآيةُ هنا بـ﴿ثُمَّ﴾، بخِلاف ما في غيرِ هذه السُّورة، إذْ لم يَتقدَّمْه شيءٌ من ذلك؛ فخُصَّت بالفاء[1]؛ فقوله: ﴿ثُمَّ انْظُرُوا﴾ في سورةِ الأنعام ناسَب العطف فيه بـ(ثُم)، حيثُ لم يَجعَلِ النَّظرَ فيها واقعًا عَقيبَ السَّير، مُتعلِّقًا وجودُه بوجودِه؛ لأنَّه بعْثٌ على سيرٍ بعدَ سيرٍ؛ لِمَا تَقدَّم مِن الآيةِ التي تدلُّ على أنَّه تعالى حَدَاهم على استقراءِ البِلادِ، ومنازلِ أهلِ الفَسادِ، وأنْ يَستكثِروا مِن ذلك؛ ليَرَوا أثرًا بعدَ أثرٍ، في دِيارٍ بعدَ دِيارٍ، قدْ عمَّم أهلَها بدمارٍ؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾، ثمَّ قال: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾، فذكَر في قوله: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ أي: قُرونًا كثيرةً أهلكناهم، ثم قال: ﴿وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾، فدعَا إلى العِلمِ بذلك بالسَّيرِ في البلادِ ومشاهدةِ هذه الآثارِ، وفي ذلك ذَهابُ أزمنةٍ كثيرةٍ ومُددٍ طويلةٍ تمنعُ النظرَ مِن مُلاصقةِ السَّير، فجَعَل السَّيرَ في الأرض في هذا المكانِ مأمورًا

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ١٦٠).

به على حِدَةٍ، والنظرَ بَعدَه مأمورًا بِه على حِدَة؛ فلذلك خُصَّت بـ(ثمَّ) التي تُفيدُ تَراخِيَ المهلةِ بَينَ الفِعلين.

وأمَّا قوله: ﴿فَانْظُرُوا﴾ في بقيَّة الآياتِ فيدلُّ على أنَّ السَّيرَ يُؤدِّي إلى النَّظرِ، فيَقعُ بوقوعِه، وليس كذلك (ثمَّ)؛ فإنَّ الفاءَ وقعَتْ في الجزاءِ، ولم تقَع فيه (ثم)؛ فسائِرُ الأماكنِ التي دخَلَتْها الفاءُ عُلِّق فيها وقوعُ النَّظرِ بوقوعِ السَّيرِ؛ لأنَّه لم يَتقدَّمِ الآيةَ ما يَحْدُو على السَّيرِ الذي حدَا عليه فيما قَبلَ آيةِ الأنعامِ، فالمواضِعُ التي دَخَلَتْها الفاءُ قُصِد فيها معنى التعقيبِ، واتِّصالِ النَّظرِ بالسَّيرِ؛ إذ لَيس في شيءٍ مِن الأماكنِ التي ذُكِرتْ فيها الفاءُ ما في سَورةِ الأنعامِ مِن البَعْثِ على استقراءِ الدِّيارِ، وتأمُّلِ الآثارِ، والله أعلم(١).

الوجه الثاني: أنَّ قوله: ﴿ثُمَّ انْظُرُوا﴾ في آيةِ الأنعام عُطِفَ بـ﴿ثُمَّ﴾ المقتضيةِ مُهلةَ الزَّمان؛ لأنَّ سُورةَ الأنعامِ افتُتِحَتْ بذِكْرِ خَلْق السَّمواتِ والأرضِ، وجَعْل الظُّلماتِ والنُّور، وإنَّما ذُكِر هذا مِن الخَلْقِ الأكبرِ؛ ليُعتبَرَ بذلك؛ فإنَّه أعظمُ مُعتبَرٍ وأَوْسَعُه، فكأنَّ الآيةَ في قوَّة أنْ لو قِيل: سِيروا في الأرضِ فاعْتَبِروا لخالقِها، وكيف دَحاها لكم، وذلَّلَها لسُكْنَاكُم، وجعَل فيها رواسيَ أنْ تَميدَ بكم، وفَجَّرَ فيها الأنهارَ، إلى عجائبِ ما أودَعَ فيها، وكيف جعَلَ السَّماءَ سقفًا مَحفوظًا بغيرِ عِمادٍ، وزَيَّنها بالنجومِ؛ لتَهْتَدوا بها في الظُّلماتِ، وجعَلَ الشمسَ والقمرَ حُسبانًا وضياءً وزينةً للسَّماء الدُّنيا، وكيف محا آيَةَ اللَّيلِ لمصلحةِ العبادِ، وجعَلَ آيَةَ النَّهارِ مبصرةً، إلى ما لا يُحصَى مِن مَنافِعِها وعَجائِبِها لِمَن مُنِحَ الاعتبار؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣]، ثمَّ انظُروا عاقبةَ مَن كذَّب، ونُبِّه فلمْ يَعتبِرْ. وأمَّا العَطْفُ بالفاءِ في بقيَّة الآياتِ على الأمْر بالسَّيرِ؛ فلأنَّهم أُمِروا أنْ يَعقُبوا سَيرَهم بالتدبُّرِ والاعتبارِ، وحَصْرِ نَظرِهم واعتبارِهم في

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٤٩٠ - ٤٩٢).

المعقَّبِ المذكورِ بعدَ الفاءِ، ولم تقَعْ إشارةٌ إلى اعتبارِهم بغيرِ ذلك[١].

- وقوله: ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ وضَع ﴿المكَذِّبِينَ﴾ موضعَ (المسْتَهْزِئين)؛ لتحقيقِ أنَّ مدارَ إصابةِ ما أصابَهم هو التَّكذيبُ؛ لينزجرَ السامِعون عنه لا عن الاستهزاءِ فقط، مع بقاءِ التكذيب بحالِه، بناءً على توهُّم أنَّه المدارُ في ذلك[٢]؛ فوَصفَهم اللهُ بالمكذِّبين دون المسْتَهزِئين؛ للدَّلالة على أنَّ التَّكذيبَ والاستهزاءَ كانَا خُلُقَينِ مِن أخلاقهم، وأنَّ الواحدَ من هذين الخُلُقينِ كافٍ في استحقاقِ تلك العاقبةِ؛ إذ قال في الآية السابقة: ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾، وقال في هذِه الآيةِ: ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المكَذِّبِينَ﴾، وهذا ردٌّ جامعٌ لدَحْضِ ضَلالاتِهم الجاريةِ على سَننِ ضَلالاتِ نُظرائِهم مِن الأُمم السَّالفةِ المكذِّبين[٣].

٢- قوله: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ استفهامٌ يُفيد التبكيتَ والتَّقرير؛ فالاستفهامُ للتقريرِ، والمرادُ به لازمُ معناه، وهو تبكيتُ المشرِكين، وإلجاؤُهم إلى الإقرارِ بما يُفضِي إلى إبطالِ مُعتقَدِهم الشِّركَ[٤].

- وفي تقديمِ: ﴿لِمَنْ﴾ على ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تنبيهٌ على الاهتمامِ بالمعبودِ[٥].

٣- قوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ استئنافٌ وقَسَمٌ مسوقٌ للوعيدِ على

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٤٥، ١٤٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٤٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٥٠).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٩).

إشراكِهم، وإغفالِهم النَّظرَ، أي: ليَجمعنَّكم فيُجازيكم على شِرككم، وسائرِ مَعاصِيكم، وإنْ أمْهَلكم بموجِبِ رحمتِه، ولم يُعاجِلْكم بالعقوبةِ الدُّنيويَّة[1].

- وقول الله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ﴾ كلامٌ ورد على لَفظِ الغَيبةِ، وقوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ كلامٌ ورد على سبيلِ المخاطَبَة؛ والمقصودُ منه التأكيدُ في التَّهديد، كأنَّه قيل: لَمَّا عَلمتُم أنَّ كلَّ ما في السَّموات والأرضِ للهِ ومُلْكُه، وقد علمتُم أنَّ المَلِكَ الحكيمَ لا يُهملُ أمْرَ رعيَّته، ولا يجوزُ في حِكمتِه أن يُسوِّيَ بين المطيعِ والعاصي، وبين المشتغِلِ بالخِدمة والمُعرِضِ عنها، فهلَّا عَلمتُم أنَّه يُقيمُ القيامةَ، ويُحضِرُ الخلائقَ، ويُحاسبُهم في الكلِّ[2]؟

٤- قوله: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ تذييلٌ مَسُوقٌ من جِهتِه تعالى؛ لتقبيحِ حالِهم[3].

- وعبَّر بالفاءِ في قوله: ﴿فَهُمْ﴾؛ لتضمُّن المبتدأِ معنى الشَّرْط، وللإشعارِ بأنَّ عدمَ إيمانهم بسببِ خُسرانهم؛ فإنَّ إبطالَ العَقلِ باتِّباعِ الحواسِّ، والوَهْم، والانهماكِ في التَّقليدِ، وإغفالِ النَّظر؛ أدَّى بهم إلى الإصرارِ على الكُفْر والامتناعِ مِن الإيمان[4].

٥- قوله: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾

- تقديمُ الجارِّ والمجرورِ (لَهُ) على ﴿مَا﴾ التي بمعنى (الذي)؛ للدَّلالةِ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الحَصْر، وهو حصْر الساكناتِ في كونِها له لا لغيرِه، أي: في كَونِ ملكِها التامِّ له(١).

- وخصَّ السَّاكِنَ بالذِّكر دون المتحرِّك؛ لأنَّ السَّاكنَ من المخلوقاتِ أكثرُ عددًا من المتحرِّك، والسُّكونَ أكثرُ وجودًا من الحركةِ. أو لأنَّ كُلَّ مُتحرِّك يصيرُ إلى السُّكونِ، من غير عَكسٍ؛ فإنَّ كلَّ مُتحرِّكٍ قد يَسكُن، وليس كلُّ ما يَسكُن يَتحرَّك. أو لأنَّ السُّكونَ هو الأصلُ، والحركة حادثةٌ عليه(٢).

- وتقديمُ اللَّيلِ على النَّهار؛ قيل: لأنَّ ما يَسكُنُ فيه هو المقصودُ بالذَّات(٣)؛ فالسَّاكِنُ فِي ذلك الوَقتِ يَزدادُ خَفاءً، فهو كقولِه: ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٥٩]. وَعَطَفَ النَّهارَ عليه؛ لقصدِ زِيادَةِ الشُّمولِ، لأنَّ اللَّيْلَ لَمَّا كان مَظِنَّةَ الاختفاءِ فيه قد يُظَنُّ أنَّ العالِمَ يَقْصِدُ الاطِّلاعَ على السَّاكِناتِ فيه بأهميَّةٍ، ولا يَقْصِدُ إلى الاطِّلاعِ على السَّاكِناتِ في النَّهارِ، فذَكَر النَّهارَ لتحقيقِ تَمامِ الإحاطَةِ بالمعلوماتِ(٤).

- وقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ جاءَ الوصفانِ على صِيغةِ المبالَغة؛ للمُبالغةِ في وصْفِه سبحانه بسَماعِ كلِّ مَسموعٍ، والعِلمِ بكلِّ مَعلومٍ؛ فلا يَخفَى عليه شيءٌ من الأقوالِ والأفعالِ(٥).

- وفي خَتْمِ الآيةِ بهاتَينِ الصِّفتَينِ مناسَبَةٌ حَسنةٌ؛ فإنَّه لَمَّا تَقدَّم ذِكْرُ مُحاوراتِ الكفَّارِ المكذِّبين، وذِكرُ الحَشْرِ الذي فيه الجزاءُ، ناسَب ذِكْرُ صِفةِ السَّمع لِمَا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٩١)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٤٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ١٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٥٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٦).

وقعتْ فيه المحاورةُ، وصِفةِ العِلمِ؛ لتَضمُّنِها معنى الجزاءِ؛ إذ ذلك يدلُّ على الوعيدِ والتَّهديدِ[١].

وأيضًا: فإنَّه لَمَّا ذَكَر أنَّ له ما سَكَن في اللَّيلِ والنهارِ، وذلك يدلُّ على شُمولِ مُلكِه؛ عَقَّبَه بذِكر هاتينِ الصِّفتينِ (السَّمع والعلم)؛ ليدلَّ على إحاطةِ عِلمِه بكلِّ شيءٍ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٥٥- ١٥٦).

الآيات (١٤ - ١٦)

﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٤) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (١٦) ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿وَلِيًّا﴾: أي: ناصرًا، والوِلايةُ النُّصرةُ، وأصلُ (ولي) يدلُّ على القُرْب، سواء مِن حيث: المكانُ، أو النِّسبة، أو الدِّين، أو الصَّداقة، أو النُّصرة، أو الاعتقاد، وكلُّ مَن وَلِيَ أمرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه[(١)].

﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾: أي: خالِقِهما ومُبدِعِهما ومُبتدِئِهما، وأَصْلُ (فطر): الشَّقُّ طولًا، ويدلُّ على فتْحِ شيءٍ، وإبرازِه[(٢)].

﴿يُصْرَفْ عَنْهُ﴾: أي: يُردَّ عنه العذابُ؛ والصَّرفُ: ردُّ الشَّيءِ من حالةٍ إلى حالةٍ، أو إبدالُه بغيرِه، وأصل (صرف): يدلُّ على رجْعِ الشيءِ[(٣)].

﴿الْفَوْزُ﴾: الظَّفَرُ بالخَيرِ، مع حصولِ السَّلامةِ والنَّجاةِ، وأصل (فوز): النَّجاة[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥١)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٣٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٧، ١٦١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٤).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾

﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾: جملةٌ مِن شَرْطٍ وجَزاءٍ، وقعَتْ صِفةً لـ﴿عَذَابَ﴾ في قوله تعالى في الآيةِ السَّابقة: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، وقيل: هي جُملةٌ مُستأنَفةٌ، لا محلَّ لها من الإعرابِ.

﴿مَنْ يُصْرَفْ﴾ قرِئَ ﴿يُصْرَفْ﴾ بضمِّ الياءِ وفتْحِ الرَّاءِ على البِناء للمَفعول، وقُرِئَ (يَصْرِف) بفَتْحِ الياءِ وكسرِ الرَّاءِ على البِناءِ للفاعِلِ؛ فعَلَى القِراءة الأُولى: فـ﴿مَنْ﴾ شَرْطيَّةٌ، ومحلُّها على هذِه القِراءة الرَّفْعُ على الابتداءِ، وخبر ﴿مَنْ﴾ فِعلُ الشَّرْطِ وحْدَه، أو جملةُ الشَّرطِ والجزاءِ، والهاءُ في ﴿عَنْهُ﴾ يَجوزُ أنْ تَرجِع على ﴿مَنْ﴾، والتقدير: مَن يُصرَفْ عنه العذابُ ونائبُ الفاعل ضَميرٌ مستترٌ تَقديرُه (هو)، عائدٌ إلى العَذابِ، وأنْ تَرجِع على العذابِ في قوله: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ والتقدير: مَن يُصْرَفْ هُوَ عن العَذابِ، ونائبُ الفاعل ضَميرٌ مستترٌ تَقديرُه (هو)، عائدٌ إلى ﴿مَنْ﴾. و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرفٌ لـ﴿يُصْرَفْ﴾، أو للعذابِ.

وعلى القِراءة الثانية (يَصْرِف): فالفاعِلُ مُضمرٌ في (يَصْرِف) يَعودُ على ﴿رَبِّي﴾ في الآيةِ السَّابقةِ، وهو اللهُ جَلَّ ذِكرُه، والمفعولُ بِه مُضمَرٌ كذلِك، والتَّقديرُ: مَن يَصرِف اللهُ عنه العَذابَ. و﴿مَنْ﴾ على هذا في مَحلِّ رفْعٍ مبتدأٌ أيضًا، ويعودُ عليها الهاءُ في ﴿عَنْهُ﴾ وفي ﴿رَحِمَهُ﴾. ويجوزُ أن تكونَ ﴿مَنْ﴾ في محلِّ نصْبٍ بـ﴿يَصْرِفْ﴾ على أنَّه مفعولٌ مُقدَّم له، وتكون الهاءُ في ﴿عَنْهُ﴾ للعذاب، والتقديرُ: أيَّ إنسانٍ يَصرِفِ اللهُ عنِ العَذابِ فقدْ رحِمه[1].

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٤٧)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٨٤).

المَعنَى الإجماليُّ:

قلْ- يا مُحمَّدُ-: أأتَّخِذُ غيرَ الله تعالى وليًّا أستعينُ به وأَستنصِرُه، وهو سبحانه خالقُ السَّمواتِ والأرضِ على غيرِ مثالٍ سابقٍ، والغنيُّ عن جميعِ المخلوقاتِ؛ فهو يَرزقُهم ويُطعِمُهم، من غيرِ أنْ يحتاجَ إليهم؟!

قل- يا محمَّد-: إنِّي أمَرَني ربِّي أنْ أكونَ أوَّلَ مَن أَسْلَمَ له وخضَع، ونُهيتُ أنْ أكونَ مِن المشركينَ، قل- يا محمَّدُ-: إنِّي أخافُ إنْ عصيتُ ربِّي عذابَ يومِ القيامةِ، ذلك العذابُ الهائلُ الشَّديدُ، الذي مَن يُصرَفْ عنه في يومِ القيامةِ، فقدْ أَسْبَغَ اللهُ عليه رحمتَه، وذلك هو الفوزُ الحقيقيُّ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا تَقدَّم أنَّه تعالى بديعُ السَّمواتِ والأرضِ، وأنَّه مالِكٌ لِمَا تضمَّنه المكانُ والزمانُ؛ أَمَر تعالى نبيَّه أنْ يقولَ لهم: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا...﴾ على سبيلِ التَّوبيخِ لهم، أي: مَن هذه صفاتُه هو الذي يُتَّخذُ وليًّا وناصرًا ومُعِينًا، لا الآلهةُ التي لكُم؛ إذ هي لا تَنفعُ ولا تضرُّ؛ لأنَّها بين جمادٍ أو حيوانٍ مقهورٍ[1]، فقال تعالى:

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا ﴾.

أي: قلْ- يا محمَّدُ-: أأجْعَلُ غيرَ اللهِ تعالى؛ مِن هذه المخلوقاتِ العاجزةِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن حيان)) (٤/ ٤٥٢).

وليًّا يتولَّاني، فأستنصرَه وأستعينَ به؟! والمرادُ: لا أتَّخذُ وليًّا إلَّا اللهَ تعالى وحْدَه[١].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤].

﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: لا أتَّخذُ وليًّا غيرَ اللهِ تعالى؛ لأنَّه خالقُ السَّمواتِ والأرضِ، ومُبدِعُهما على غيرِ مثالٍ سبَق[٢].

﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾.

أي: ولا أتَّخِذُ غيرَه سبحانه وليًّا؛ لأنَّه سبحانه الرزَّاقُ لجميعِ خَلْقِه، من غيرِ احتياجٍ إليهم[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦- ٥٨].

وقال سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ﴾ [الواقعة: ٦٣- ٧٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٧٥-٧٦).

وعن أبي هُرَيرَةَ رضي اللهُ عنه، قال: ((دعَا رجلٌ منَ الأنصارِ؛ مِن أَهْلِ قُباءٍ، النَّبيَّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّمَ فانطلَقْنا معَه، فلمَّا طَعِمَ، وغسلَ يَدَهُ- أو يَديهِ- قالَ: الحمدُ للَّهِ الَّذي يُطعِمُ ولا يُطعَمُ، مَنَّ علينا فَهَدَانا، وأطْعَمَنا وسقانا...)) الحديث[1].

وعن أبي هُرَيرَة أيضًا، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ يومَ القيامةِ: يا ابنَ آدَمَ، مرِضتُ فلم تعُدْني! قال: يا ربِّ، كيف أعودُك وأنت ربُّ العالَمِين؟! قال: أمَا عَلِمتَ أنَّ عبْدي فلانًا مرِضَ فلم تَعُدْه، أمَا عَلِمتَ أنَّك لو عُدْتَه لوجدتَني عندَه؟ يا ابنَ آدَمَ، استطعمتُك فلمْ تُطعِمْني! قال: يا ربِّ، وكيف أُطعِمُك وأنت ربُّ العالَمِين؟! قال: أمَا عَلِمتَ أنَّه استطعمَك عبدي فلانٌ فلم تُطعِمْه، أمَا علِمتَ أنَّك لو أطعمْتَه لوجدتَ ذلك عندي؟ يا ابنَ آدَمَ، استسقيتُك فلمْ تَسقِني! قال: يا ربِّ، كيف أَسقِيك وأنت ربُّ العالَمِين؟! قال: استسقاكَ عَبدي فلانٌ فلم تَسْقِه، أمَا إنَّك لو سقَيْتَه وجدتَ ذلك عِندي))[2].

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾.

أي: قلْ- يا محمَّد-: إنِّي أَمَرني ربِّي أنْ أكونَ أوَّلَ مَن خضَع له سبحانَه بالتوحيدِ، وانقادَ له بالطَّاعةِ من هذه الأُمَّة[3].

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

أي: ونُهيتُ أيضًا عن أنْ أكونَ مِن المشْرِكين[4].

---

(١) أخرجه النسائي في ((السنن الكبرى)) (١٠٠٦٠)، وابن حبان في ((صحيحه)) (٥٢١٩)، والطبراني في ((الدعاء)) (٨٩٦)، والحاكم في ((المستدرك)) (٢٠٠٣).
قال الحاكم (٢٠٠٣): صحيحٌ على شرْط مسلم. وصحَّحه أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٧٦٥)، وقال الوادعي في ((الصحيح المسند)) (١٣٢٦): حسنٌ على شرْط مسلم.

(٢) رواه مسلم (٢٥٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٧٦-٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٢).

﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٖ ١٥ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّن تعالى كونَ رسولِه مأمورًا بالإسلامِ، ثمَّ عقَّبه بكونه منهيًّا عن الشِّرك، وكان فعلُ المنهيِّ قد لا يُعذَّب عليه، قال مُعْلِمًا بأنَّ المخالفةَ في هذا مِن أبلغِ المخالفاتِ، فصاحبُها مستحِقٌّ لأعظمِ الانتقامِ[1]، فقال:

﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٖ ١٥ ﴾.

أي: قلْ- يا محمَّد-: إنِّي أخافُ إنْ عصيتُ ربِّي- بمعصيةِ الشِّركِ به سبحانه، أو بغيرِها من أنواعِ المعاصي- عذابَ يومِ القيامةِ، ذلك اليومُ الَّذي يعظُمُ هولُه[2].

﴿ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٖ فَقَدْ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ١٦ ﴾.

﴿ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٖ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ﴾.

أي: مَن يُصرَفْ عنه العذابُ يومَ القيامةِ فقدْ رحِمَه اللهُ تعالى[3].

﴿ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴾.

أي: وصَرْفُ العذابِ يومَ القيامةِ هو الفوزُ الحَقيقيُّ؛ فمَن نجا مِن العذابِ فقدْ ظَفِر ورَبِح[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٩٢، ٤٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٨١).

كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- قوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ فيه أنَّ العبدَ لا يَلجأُ إلَّا إلى اللهِ سبحانه وتعالى؛ لأنَّ اللهَ هو الوليُّ، ثمَّ ولايةُ الله عزَّ وجلَّ ولايةٌ مبنيَّةٌ على الحمْدِ، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾(١) [الشورى: ٢٨].

٢- قوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ يَقتضي تَنزيهَ القلبِ عن الالتِفاتِ إلى غيرِ اللهِ تعالى، وقطْعَ العلائِقِ عن كلِّ ما سِوى اللهِ تعالى(٢).

٣- وصْفُ اللهِ تعالى نفْسَه بفاطِرِ السَّموات والأرضِ في قوله: ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يُؤيِّدُ إنكارَ اتِّخاذ غيرِه وليًّا يُستنصَرُ ويُستعانُ به، أو يُتَّخذ واسطةً للتأثير في الإرادة الإلهيَّة، فإنَّ مَن فطَر السمواتِ والأرضَ بمحضِ إرادتِه من غيرِ تأثيرِ مؤثِّرٍ، ولا شفاعةِ شافعٍ؛ يجب أنْ يُتوجَّهَ إليه وحْدَه بالدُّعاء، وإيَّاه يُستعانُ في كلِّ ما وراءَ الأسبابِ(٣).

٤- في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ أنَّ الله تبارَك وتعالى هو المطعِمُ لا مُطعِمَ سواه، ويَنبني على هذا ألَّا نَسألَ الإطعامَ إلَّا مِن اللهِ تبارَك وتعالى، ولو أنَّنا تَمسَّكْنا بهذا مع التوكُّلِ على اللهِ والاستعانةِ به، لكان رِزقُنا مَضمونًا؛ لقولِ الله تبارَك وتعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾(٤) [الطلاق: ٢- ٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٧٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٩٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢٧٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٧٧، ٧٨).

٥- قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ في العُدولِ عن اسمِ الجلالةِ إلى قوله: ﴿رَبِّي﴾ إيماءٌ إلى أنَّ عِصيانَه أمرٌ قبيحٌ؛ لأنَّه ربُّه، فكيفَ يَعصيه[1]؟!

٦- قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فيه أنَّ المعصيةَ سببٌ للعذابِ، والمعاصي على نَوعينِ: معاصٍ لا يَغفرُها اللهُ، وهي الشركُ، ومعاصٍ تَدخُل تحت مشيئةِ الله، وهي الكبائرُ، وهناك معاصٍ أُخرى تُكفِّرها الأعمالُ الصالحةُ، وهي الصَّغائرِ؛ هذا فيما يتعلَّقُ بينَ اللهِ عزَّ وجلَّ وعَبْدِه، أمَّا حقوقُ الآدميِّين فلا بدَّ مِن إيصالِ حقِّهم إليهم، إمَّا باستحلالٍ منهم في الدُّنيا، وإمَّا بأعمالٍ صالحةٍ تُؤخَذُ مِن أعمالِ هذا الظَّالِم[2].

٧- ممَّا يُستفادُ من قولِه: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أنَّ هذا الدِّينَ دِينُ اللهِ الحقُّ لا محاباةَ فيه لأحدٍ، مهما يكُنْ قَدْرُه عظيمًا في نفْسِه، وأنَّ يومَ الجزاءِ لا بَيعٌ فيه ولا خُلَّةٌ ولا شفاعةٌ بالمعنى المعروفِ عند المشركين، ولا سلطانٌ لغيرِ اللهِ تعالى فيَتَّكلَ عليه مَن يَعصيه؛ ظنًّا أنْ يُخفِّفَ عنه أو يُنجِيَه[3].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قولِه تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ أُمِر النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أن يُعلِنَ أنَّه لنْ يتَّخِذَ وليًّا من دون اللهِ عزَّ وجلَّ، وهذا واجبٌ عليه؛ لأنَّه رسولٌ وإمامٌ مُقتدًى به، فلا بدَّ أن يُعلِنَ تحقيقَ الربوبيَّة[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٧٧).

٢- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ التأكيدُ على إنكارِ اتِّخاذِ وليٍّ غيرِ الله، وفيها تعريضٌ بمَن اتَّخذوا أولياءَ مِن دونه من البَشرِ بأنَّهم مُحْتاجونَ إلى الطَّعام، لا حياةَ لهم ولا بقاءَ إلى الأجلِ المحدودِ بدونه، وأنَّ اللهَ تعالى هو الذي خلَقَ لهم الطَّعامَ، فهُم عاجِزون عن البقاءِ بدونه، وعاجزون عن خَلْقِه وإيجادِه؛ فكيف يتَّخِذون أولياءَ مع الغنيِّ الحميدِ، الرزَّاقِ الفعَّالِ لِمَا يُريد[1]؟!

٣- قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ فيه تأييسُ المشْركين، وقطْعُ أطماعِهم مِن عودِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى دِينِهم؛ لأنَّهم ربَّما كانوا إذا رَأَوا منه رحمةً بهم، وَلِينًا في القولِ، طمِعوا في رُجوعِه إلى دِينهم، وقالوا: إنَّه دِينُ آبائِه[2].

٤- صِحَّةُ النَّهيِ عمَّا لا يُمكن أن يقعَ؛ لقوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، فشِركُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لا يُمكِن أن يقَعَ شَرعًا، ومع ذلك نُهِيَ عنه. والحِكمة مِن ذلك -فيما قيل- من وجوه:

الوجهُ الأوَّل: أنَّه قد جَرَت العادةُ في القرآنِ أنَّ اللهَ سبحانه يأمُر نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم وينهاهُ؛ ليَشرَعَ ذلك الأمْرَ والنهيَ لأمَّتِه على لِسانِه صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لأنَّه هو القدوةُ لهم، والمشرِّعُ لهم بقولِه وفِعلِه وتقريرِه.

والوجه الثاني: دعوتُه إلى الثَّباتِ على الإخلاصِ، وإنْ كان الشِّركُ لا يَقعُ منه.

والوجهُ الثالث: طَمْأنَةُ أُمَّتِه إذا نُهوا عن الشِّركِ، بأنَّ ذلك ليسَ بمستنكَرٍ، وليس فيه بأسٌ؛ لأنَّ اللهَ أمَرَ إمامَهم صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ألَّا يكونَ مِن المشركين[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٥٩).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٧٩).

٥- ممَّا يُستفادُ من قولِه: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أنَّه لَمَّا كان الأمرُ بالإسلامِ نهيًا عن الشِّرْكِ، لم يَكتفِ به، بل صرَّحَ به؛ جمعًا بين الأمْرِ والنَّهْي من هذا الربِّ الكريمِ، الذي يَدْعو إحسانُه وكرمُه إلى ولايتِه، ويَنهى تمامُ مُلكِه وجبروتِه عن شيءٍ من عداوتِه[1].

٦- في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ إثباتُ الرحمةِ لله، وهي رحْمةٌ حَقيقيَّة، وليست عِبارةً عن الثَّواب، أو إرادةِ الثَّواب، لكنَّها ليستْ كرحمةِ المخلوقِ التي يكون فيها نوعٌ من الضَّعْف، بل هي رحمةُ الخالقِ الذي هو فوقَ عِبادِه عزَّ وجلَّ[2].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ استفهامٌ للإنكارِ على سبيلِ التَّوبيخِ لهم، أي: مَن هذه صفاتُه هو الذي يُتَّخذُ وليًّا وناصرًا ومُعينًا، لا الآلهةُ التي لكُم[3].

- وقدَّم المفعولَ الأوَّل ﴿أَغَيْرَ﴾ على الفِعل وفاعلِه ﴿أَتَّخِذُ﴾، ولم يقُل: (أَأَتَّخِذُ غيرَ اللهِ وليًّا)؛ لأنَّ الإنكارَ إنَّما حصَل على اتِّخاذِ غيرِ اللهِ وليًّا، لا على اتِّخاذ الوليِّ، والعربُ يُقدِّمون الأهمَّ فالأهمَّ الذي هم بشأنِه أعْنَى؛ فكان قوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ أوْلى مِن العِبارةِ الثَّانيةِ، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾[4] [يونس: ٥٩].

- وأُعيدَ الأمرُ بالقَولِ في قوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾- وكان سبَق في

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٨٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٥٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٩١)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٥٦).

قوله: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمواتِ...﴾- اهتمامًا بهذا المقُول؛ لأنَّه غَرَضٌ آخَرُ غيرُ الذي أُمِرَ فيه بالقولِ قَبْله(١).

٢- قوله: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ فيه تَخصيصُ الطَّعام بالذِّكرِ من بين أنواعِ الانتفاعاتِ؛ لشدَّةِ الحاجةِ إليه، أو لأنَّه مُعظمُ ما يَصِلُ إلى المرزوقِ من الرِّزقِ(٢).

- قوله: ﴿وَلَا يُطْعَمُ﴾ فيه تعريضٌ بهم فيما يُقدِّمونه إلى أصنامِهم مِنَ القَرابينِ، وما يُهرِقونَ عليها من الدِّماءِ(٣).

٣- قوله: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ فيه تعريضٌ؛ إذ إنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لم يَصدُرْ منه امتناعٌ عن الحقِّ، وعدمُ انقيادٍ إليه، وإنَّما هذا على طريقِ التعريضِ على الإسلامِ، كما يأمرُ الملِكُ رعيَّتَه بأمرٍ ثمَّ يُتْبِعُه بقولِه: أنا أوَّلُ مَن يفعلُ ذلك؛ ليحملَهم على فِعل ذلك(٤).

٤- قوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ النَّهيُ مقصودٌ منه تأكيدُ الأمرِ بالإسلامِ؛ لأنَّ الأمْرَ بالشَّيءِ يَقتضي النهيَ عن ضِدِّه، وهذا التأكيدُ لتُقطَعَ جُرثومةُ الشِّركِ من هذا الدِّين(٥).

٥- قوله: ﴿أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾

- قوله: ﴿إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ شَرْطٌ مُعترِضٌ بين الفِعلِ ﴿أَخَافُ﴾ ومَفعولِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٥٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ١٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٥٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٥٩).

﴿عَذَابَ﴾، وجوابُ الشَّرطِ مَحذوفٌ دَلَّ عليه الجُملةُ قَبْلَه، أي: إنْ عَصيتُ ربِّي فإنِّي أخافُ عذابَ يومٍ عظيمٍ، وفيه مُبالغةٌ في قَطْعِ أَطماعِهم، وتَعريضٌ لهم بأنَّهم عُصاةٌ مُسْتوجِبون للعَذابِ(١).

- وقوله: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أُضيفَ العَذابُ إلى ﴿يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾؛ تهويلًا له؛ لأنَّ في مُعتادِ العربِ أنْ يُطلقَ اليومُ على يومِ نَصْرِ فريقٍ، وانهزامِ فريقٍ من المحاربينَ، فيكون اليومُ نَكالًا على المنهزِمين؛ إذ يَكثُر فيهم القتْلُ والأسْرُ، ويُسامُ المغلوبُ سوءَ العذابِ، فذِكرُ (يوم) يُثير مِن الخيالِ مخاوفَ مألوفةً، وبهذا الاعتبارِ حَسُنَ جعْلُ إضافةِ العذابِ إلى اليومِ العظيمِ كنايةً عن عِظَم ذلك العذابِ؛ لأنَّ عظمةَ اليوم العَظيمِ تستلزمُ عِظَمَ ما يقَعُ فيه عُرفًا(٢).

٦- قوله تعالى: ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ مُؤكِّدٌ لتهويلِ العذابِ(٣).

- وفيه كنايةٌ وأسلوبٌ بديعٌ؛ إذ المقصودُ مِن هذا الكلام إثباتُ مقابلِ قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، كأنَّه قال: أرجو إنْ أطعتُه أنْ يرحمَني ربِّي؛ لأنَّ مَن صُرِف عنه العذابُ ثَبتَتْ له الرحمةُ؛ فجاءَ في إفادةِ هذا المعنى بطريقةِ المذهبِ الكلاميِّ، وهو ذِكرُ الدَّليلِ ليُعلَمَ المدلولُ، وهذا ضربٌ من الكنايةِ، وأسلوبٌ بديعٌ بحيثُ يدخل المحكومُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٧).
وهذا الوجْهِ على قولِ البَصريِّين الذين لا يُجيزونَ تَقدُّمَ الجَوابِ على شَرْطِه، وأمَّا على قولِ الكُوفيِّين، فيكون ﴿أَخَافُ﴾ جوابَ شَرطٍ مُقدَّمًا؛ وإنَّما قدَّمَ ذِكْرَ الخَوفِ في قولِه: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ﴾ على شَرْطِه ﴿إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ الذي شَأنُه أنْ يَتقدَّمَه؛ لأنَّه هو الأهمُّ المقصودُ بالذِّكر. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢٧٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٦١).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٧).

له في الحُكمِ بعنوان كونِه فردًا مِن أفراد العُمومِ، الذين ثبَت لهم الحُكمُ؛ ولذلك عقَّبَه بِقَوله: ﴿وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾، والإشارةُ بـ(ذلك) موجَّهةٌ إلى الصَّرْفِ المأخوذِ من قوله: ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ﴾ أو إلى المذكور، وإنَّما كان الصَّرْفُ عن العذابِ فوزًا؛ لأنَّه إذا صُرِف عن العذابِ في ذلك اليومِ فقدْ دخَل في النَّعيمِ في ذلِك اليومِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٦٢).

الآيات (١٧ - ١٩)

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿يَمْسَسْكَ﴾: أي: يُصبْك، والمسُّ يُقال في كلِّ ما يَنالُ الإنسانَ مِن أذًى، وأصل (مسس): جسُّ الشيءِ باليدِ(١).

﴿الْقَاهِرُ﴾: أي: الغالبُ، العالي، والقهرُ: الغلبةُ والتَّذليلُ معًا، وأصلُ (قهر): يدلُّ على غلبةٍ وعلوٍّ(٢).

﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ﴾: أي: أُلقِيَ إليَّ، ويُطلَقُ الوحيُ والإيحاءُ على إلْقاءِ المعنى إلى صاحبِه، والإشارةِ، والكتابةِ، وأصلُ الوحي: يدُّل على إلْقاءِ عِلمٍ في إخفاءٍ، وكلُّ ما ألْقيتَه إلى غَيرِك حتَّى عَلِمَه فهو وَحْيٌ كيف كانَ(٣).

﴿لِأُنْذِرَكُمْ﴾: أي: لأُبلِّغكم وأُخوفِّكم؛ فالإنذارُ: هو التَّخويفُ، والتهديدُ، والإبلاغُ، والإخبارُ الذي فيه تخويفٌ(٤).

---

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٧).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٨-٨٥٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٢).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠١).

مُشكِلُ الإعراب:

قوله: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾

﴿أيُّ﴾: مبتدأٌ[١]، و﴿أَكْبَرُ﴾: خبرُه، و﴿شَهَادَةً﴾: تمييزٌ، واسمُ الجَلالةِ ﴿اللهُ﴾ خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ، والتَّقديرُ: أكبرُ الأشياءِ شَهادةً اللهُ. ويجوزُ أنْ يَكونَ مبتدأً، والخبرُ مَحذوفٌ؛ والتَّقديرُ: اللهُ أكبرُ شَهادةً. وقوله: ﴿شَهِيدٌ﴾ خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، والتقدير: هو شَهيدٌ؛ فعَلَى هذا يكون قولُه: ﴿قُلِ اللهُ﴾ جوابًا لـ﴿أَيُّ﴾ مِن حيثُ اللَّفظُ والمعنى. ويجوزُ أنْ يكون لفظُ الجَلالة ﴿اللهُ﴾ مُبتدأً، و﴿شَهِيدٌ﴾ خبرَه، ودلَّتْ هذِه الجُملةُ على جَوابِ ﴿أَيُّ﴾ من طَريقِ المعنى، أيْ: إنَّها دالَّةٌ على الجوابِ، وليستْ هي الجواب. وجملةُ ﴿اللهُ شَهِيدٌ..﴾ في مَحلِّ نَصْبٍ؛ لأنَّها مقولُ القولِ[٢].

المَعنَى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ لنبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: إنْ يُصبْك اللهُ بضُرٍّ، فلن يُزيلَه ويَرفعَه عنك إلَّا هو، وإنْ يُصبْك بخيرٍ، فهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

ثم بيَّنَ سبحانه كمالَ قدرتِه، وعظيمَ سلطانِه، وأنَّه هو الذي قهَر كلَّ شيءٍ، وأنَّه هو العالي على خَلْقَه ذاتًا وقدْرًا وقهرًا، ذو السُّلطةِ التامَّةِ على عِبادِه، وهو الحكيمُ الخَبير.

---

(١) و(أيٌّ) اسمٌ مُبهَمٌ نَكِرةٌ، وهي بَعضُ ما تُضافُ إليه؛ فإنْ أُضيفَتْ إلى الزَّمانِ فهي زمانٌ، وإنْ أُضيفَتْ إلى المكانِ فهي مكانٌ؛ فإنَّها إلى أيِّ شَيءٍ أُضيفتْ كانتْ منه؛ وهي هنا اسمُ استفهامٍ مُضافٌ إلى ﴿شَيْءٍ﴾، فصارتْ هذه الكلمةُ صادِقةً على جوابِ الاستفهامِ، وهنا جوابُ الاستفهامُ ﴿اللهُ﴾، فاقْتَضَى إطلاقَ اسمِ (شَيْءٍ) خَبرًا عن اللهِ تعالى. يُنظر: ((شرح المفصل)) لابن يعيش (٤/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٨٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٥٦٦- ٥٦٧).

ثمَّ يأمُر اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يسألَ المكذِّبين: أيُّ شيءٍ أعظمُ شهادةً على صِدقِ ما جاءَ به؟ وأمَرَه تعالى أنْ يُجيبهم: أنَّ أكبرَ الأشياءِ شهادةً هو اللهُ تعالى، هو الذي لا يجوزُ أن يقَعَ في شهادتِه السَّهوُ والخطأُ والكذِبُ، وهو الشهيدُ جلَّ وعلا بيْنه وبيْنهم، وهو سبحانه قد أوْحَى إليه هذا القرآنَ؛ ليُنذِرَهم به من العذابِ، ويُنْذِرَ كلَّ مَن بلَغَه القرآنُ، ثم أمَره أنْ يسألَ هؤلاء المكذِّبين: هل هم يَشهَدون أنَّ مع اللهِ تعالى آلهةً غيرَه تستحقُّ أن تُعبَد؟! فإنْ شَهِدوا بذلك فليقلْ لهم: إنَّه لا يَشهَدُ معهم، إنَّما هو مَعبودٌ واحدٌ هو الذي يَستحقُّ العبادةَ سبحانه وتعالى، وأنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بَريءٌ ممَّا يُشرِكون.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أبْطلَتِ الآياتُ السَّابقةُ استحقاقَ الأصنامِ الإلهيَّةَ؛ لأنَّها لم تَخْلُقْ شيئًا، وأوجبتْ عبادةَ المستحِقِّ الإلهيَّةَ بحقٍّ؛ أبطلتْ هذه الآيةُ استحقاقَهم العبادةَ؛ لأنَّهم لا يَملِكونَ للنَّاسِ ضَرًّا ولا نفعًا[1]، فقال تعالى:

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾.

أي: وإنْ يُصِبْكَ اللهُ- يا محمَّدُ- بشِدَّةٍ وعُسرٍ وضِيقٍ، مِن شَظَفِ عيشٍ، أو مَرضٍ، أو غمٍّ أو همٍّ، أو غيرِ ذلك مِن أنواعِ الضُّرِّ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٦٢، ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٨٣).

﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: فلنْ يَرفعَ، ويُزيلَ ذلك الضرَّ عنك إلَّا اللهُ تعالى وحْدَه(١).

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾.

أي: وإنْ يُصِبْكَ اللهُ تعالى- يا محمَّدُ- بأيِّ خيرٍ كان، كالصِّحَّةِ والعقلِ، والمالِ والأهلِ، والأمْنِ وغيرِ ذلك(٢).

﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: فهو على كلِّ شيءٍ قادرٌ، لا يُعجِزُه شيءٌ، ولا يَمتنِعُ منه، ومِن ذلك خيرُه وعطاؤُه؛ فلا يَقدِرُ أحدٌ على ردِّه عمَّنْ أرادَه له سبحانه(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [يونس: ١٠٧].

وقال سبحانه: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ [الفتح: ١١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٨٣).

(٢) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٧٥).

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٧].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رضِي اللهُ عنه، قال: ((كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذا رفَعَ رأسَه مِنَ الرُّكوعِ قال: ربَّنا لكَ الحمدُ مِلْءَ السَّمواتِ والأرضِ، ومِلْءَ ما شِئتَ مِن شيءٍ بعدُ، أَهْلَ الثناءِ والمجدِ، أحقُّ ما قال العبدُ، وكلُّنا لك عبدٌ، اللهمَّ لا مانعَ لِمَا أعطيتَ، ولا مُعطِيَ لِمَا منعتَ، ولا ينفَعُ ذا الجَدِّ منك الجَدُّ))[1].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال له: ((... واعلمْ أنَّ الأُمَّةَ لو اجتمعتْ على أنْ ينفعوك بشَيءٍ، لم ينفعوك إلَّا بشَيءٍ قد كتبَه اللهُ لك، وإنِ اجتَمعوا على أنْ يَضُرُّوك بشيءٍ لم يضُرُّوك إلَّا بشيءٍ قد كتبَه اللهُ عليك...))[2].

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر تعالى انفرادَه بتصرُّفِه بما يُريدُه من ضُرٍّ وخيرٍ، وقُدرتَه على الأشياءِ، ذَكَرَ قَهْرَه وغَلبَتَه، فقال[3]:

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾.

أي: واللهُ سبحانه هو المستعبِدُ خَلْقَه، العالي عليهم؛ ذاتًا وقَدْرًا وقهرًا، ذو

(١) رواه مسلم (٤٧٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد (٢٦٦٩)، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٥٤١٧)، والحاكم في المستدرك (٦٣٠٣).

صحَّحه الترمذيُّ (٢٥١٦)، والألبانيُّ في ((صحيح الجامع)) (٧٩٥٧)، وحسَّنه ابنُ رجب في ((جامع العلوم والحكم)) (١/ ٤٥٩)، وابنُ حجر في ((موافقة الخبر الخبر)) (١/ ٣٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٥٧).

السُّلطةِ التامَّةِ عليهم، الذي له الخَلائقُ خَضَعَتْ، وذلَّتْ له، ودَانَتْ[١].

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

أي: وهو سُبحانَه الحَكيمُ في جميعِ ما يَفعلُه؛ فيما أمَرَ به ونَهى عنه، وأثابَ وعاقَب، وفيما خلَقَ وقدَّر، فيَضعُ كلَّ شيءٍ في مَوضعِه اللَّائقِ به، وهو سُبحانَه الخبيرُ، المطَّلعُ على جميعِ السَّرائرِ والضَّمائرِ، العليمُ بمصالحِ الأشياءِ ومَضارِّها، ومواضعِها ومحالِّها، الذي لا تَخفَى عليه عواقبُ الأمورِ[٢].

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكرَ اللهُ عزَّ وجلَّ الاستدلالَ على إثباتِ ما يَليقُ به تعالى مِن الصِّفات، انتَقَلَ إلى إثباتِ صِدقِ رِسالةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وإلى جَعْلِ اللهِ حَكَمًا بينه وبينَ مُكذِّبيه[٣].

وأيضًا لَمَّا أقامَ الأدلَّةَ على الوحدانيَّةِ والقُدرة، ووصَل إلى صِفةِ القهرِ المؤذِنِ بالانتقامِ، لم يَبقَ إلَّا الإشهادُ عليهم؛ إيذانًا بما يَستحقُّونه مِن سوءِ العذابِ، وإنذارًا به؛ لئلَّا يقولوا إذا حَلَّ بهم: إنَّه لم يَأتِنا نذيرٌ[٤]، فقال:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٨٦-٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٨٧-٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٦٦).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٩).

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾.

أي: قلْ- يا محمَّد- لهؤلاءِ المكذِّبين: أيُّ شيءٍ أعظمُ شَهادةً على صِدقي[١]؟

﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾.

أي: قلْ لهم- يا محمَّدُ-: إنَّ أكْبَرَ الأشياءِ شهادةً هو اللهُ تبارك وتعالى، الذي لا يَجوزُ أنْ يقعَ في شَهادتِه السهوُ والخطأُ والكذبُ، وهو الشَّهيدُ بَيني وبَينكم؛ بالمحقِّ منَّا مِن المبطِلِ؛ فهو العالمُ بما جِئتُكم به، فيَشهَدُ لي بإقرارِه وفِعلِه، فيُقِرُّني على ما قلتُ لكم؛ إذ لا يَليقُ بحِكمتِه وقُدرتِه سبحانه أنْ يُقِرَّ كاذبًا عليه، يَزعُمُ أنَّ اللهَ تعالى أرْسلَه، وهو سبحانه لم يُرسِلْه[٢].

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٠- ٤٧].

وقال سبحانه: ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦].

وقال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].

وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٩٩-١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٢-٢٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٩٩-١٠٠).

هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الأحقاف: ٨].

﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾.

أي: وأَوْحَى اللهُ إليَّ هذا القرآنَ الكريمَ لِمَصلحتِكم؛ أنْ أُنذِرَكم به مِن العذابِ، وأُنذرَ كذلك كلَّ مَن بلَغَه القرآنُ[1].

ثمَّ أمَرَ اللهُ تعالى رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم بالشَّهادةِ له بالوحدانيَّة التي جحَدها المُشركونَ، وبالبراءةِ من قولِهم، وشهادتِهم بالشِّرك[2]، فقال تعالى:

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ﴾.

أي: هل تَشهدون- يا أيُّها المشرِكونَ- بأنَّ معَ اللهِ تعالى معبوداتٍ أخرى، تستحقُّ العبادةَ[3]؟

﴿قُل لَّآ أَشْهَدُ﴾.

أي: إنْ شَهِدوا بأنَّ مع اللهِ تعالى آلهةً أخرى، فقُلْ- يا محمَّدُ-: لا أَشهَدُ مَعكُم على ذلك[4].

﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾.

أي: قلْ: إنَّما هو معبودٌ واحدٌ، مُنفردٌ باستحقاقِ العبوديَّةِ، لا شَريكَ له[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٨١-١٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٠١-١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٠٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٣).

﴿وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾.

أي: وإنَّني بريءٌ مِن كلِّ شَريكٍ تدَّعونَه لله، وتَعبُدونه مع اللهِ تعالى؛ فلا أَعْبُدُ سِوى اللهِ شيئًا، ولا أَدْعُو غيرَه إلهًا[1].

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- يُستفادُ مِن قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ...﴾ أنَّه يَنبغي للإنسانِ أنْ يُعلِّقَ رجاءَه باللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه إذا عَلِم مضمونَ هذه الآيةِ فسوفَ يَعتمِدُ في أمورِه كلِّها على اللهِ عزَّ وجلَّ[2].

٢- قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ فيه الحثُّ على الصَّبرِ؛ لأنَّك إذا عَلِمتَ أنَّ الذي أصابَك بالضرِّ هو اللهُ، فلا بدَّ أنْ تَصبِرَ؛ لأنَّك عَبْدُه، يَفعلُ بك ما شاءَ، فتصبرُ على ما يُصيبك مِن الضَّرر[3].

٣- قوَّةُ رَجاءِ العبدِ باللهِ عزَّ وجلَّ إذا أصابَه الضَّررُ أنْ يزولَ عنه الضررُ؛ وجْهُ ذلك قولُه: ﴿فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وكم مِن أضرارٍ حدَثَتْ للإنسانِ حتى أوصلتْ إلى اليأسِ والقُنوطِ، فكَشَفَها اللهُ عزَّ وجلَّ! وكم مِن إنسانٍ أُصيبَ بمرضٍ حتى وصَلَ إلى حافَةِ القبرِ، ثمَّ شفاه الله عزَّ وجلَّ! وكم مِن إنسانٍ أُصيبَ بالفقرِ حتى وصَلَ إلى ألَّا يجِدَ قُوتَ يومِه فأَغْناه اللهُ عزَّ وجلَّ! وكم مِن إنسانٍ كان وحيدًا فرَزَقَه اللهُ! وهلمَّ جرًّا؛ لأنَّ اللهَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ[4].

٤- في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ إثباتُ وصْفِ الخبرةِ للهِ عزَّ وجلَّ، وهي العلمُ ببواطنِ الأمورِ، ويَترتَّبُ على إيمانِنا بهذا أنْ نَستسلمَ لحُكمِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٨٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

اللهِ الشرعيِّ، كما أنَّنا مُسْتسلِمون لحُكمِه القَدَريِّ، وألَّا نُكلِّفَ أنفُسَنا بالاطِّلاعِ على الحِكمةِ فيما لا تُدرِكُه عقولُنا، بل نُؤمِنُ ونُسلِّمُ، وكذلك يُقال في الأحكامِ القَدَريَّة: نُؤمِنُ باللهِ ونُسلِّمُ لقَضائِه[١].

٥- وجوبُ التبرُّؤِ من أهلِ الباطِلِ وما هم عليه، ومِن المشركين ومِن عملِهم الشركيِّ، والتبرؤِ من كلِّ ما يُعبَدُ من دونِ الله، ولا تجوزُ المُداهنةُ في هذا، ولا الموافقةُ، فإن لم يشهَدْ ببُطلانِ الآلهةِ سوَى اللهِ عزَّ وجلَّ، فإنَّه لم يُخلصْ ولم يُوحِّد؛ إذ إنَّ التوحيدَ مبنيٌّ على النفيِ والإثْباتِ؛ وذلك لقولِه: ﴿قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾ وقولِه: ﴿وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾[٢].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- تمامُ سلطانِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وأنَّه سبحانه وتعالى هو المتصرِّفُ كما يَشاءُ بعبادِه؛ لقوله: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ...﴾ ﴿... وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾[٣].

٢- قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ فيه تقويةُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في الدَّعوةِ إلى اللهِ، وأنَّه مهما حاولَ هؤلاءِ أنْ يُصيبوه بضررٍ فإنَّهم لا يَملِكون ذلك، إذا لم يَكُنِ اللهُ أرادَه[٤].

٣- قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ في هذه الآيةِ دليلٌ على أنَّه لا يجوزُ للعاقلِ أنْ يتَّخذَ غيرَ اللهِ وليًّا؛ وذلك لأنَّ الضرَّ اسمٌ للألمِ والحُزنِ والخوفِ، وما يُفضي إليها أو إلى أحدِها، والنَّفع اسمٌ للذَّة والسُّرورِ وما يُفضي إليهما أو إلى أحدِهما،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٩٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١١٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٨٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والخير اسمٌ للقَدْرِ المشترَكِ بين دفْع الضرِّ وبين حُصولِ النَّفع؛ فإذا كان الأمرُ كذلك، فقد ثبَت الحصرُ في أنَّ الإنسان إمَّا أنْ يكونَ في الضرِّ أو في الخير؛ لأنَّ زوالَ الضرِّ خيرٌ، سواءٌ حصَل فيه اللَّذةُ أو لم تَحصُل، وإذا ثبَت هذا الحصرُ، فقد بيَّن اللهُ تعالى أنَّ المَضارَّ- قليلَها وكثيرَها- لا تندفِعُ إلَّا بالله، والخيراتِ لا يحصُل قليلُها وكثيرُها إلَّا باللهِ تعالى(١).

٤- مِن أدلَّةِ توحيدِه عزَّ وجلَّ: أنَّه تعالى المنفردُ بكَشفِ الضَّرَّاء، وجَلْب الخيرِ والسَّرَّاء؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ﴾ مِن فقرٍ أو مرضٍ، أو عُسرٍ، أو غمٍّ أو هَمٍّ أو نحوه، ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، فإذا كان هو وحْدَه النافعَ الضارَّ، فهو الذي يَستحقُّ أنْ يُفرَدَ بالعُبوديَّة والإلهيَّة(٢).

٥- إثباتُ الفَوقيَّةِ للهِ عزَّ وجلَّ؛ لقولِه: ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾، وهي فوقيَّةُ ذاتٍ وقدْرٍ وقهْرٍ(٣).

٦- إثباتُ العبوديَّةِ لجميعِ الخَلقِ؛ لقوله: ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ وهذه هي العبوديَّةُ الكونيَّة؛ فكلُّ الخَلقِ عِبادُ الله عزَّ وجلَّ، يَفعل فيهم ما يَشاءُ، ولا يُمكن لأيِّ أحدٍ: برًّا أو فاجرًا، مؤمنًا أو كافرًا، أن يَستعصيَ على ربِّه عزَّ وجلَّ مِن هذه الناحيةِ(٤).

٧- ممَّا يُستفادُ مِن مجيءِ قوله: ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ بعدَ قوله: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ أنَّه لَمَّا كان في القَهرِ ما يكونُ مذمومًا، نفاهُ بقوله: ﴿وَهُوَ﴾، أي: وحْدَه ﴿الْحَكِيمُ﴾؛ فلا يُوصلُ أثرَ القهرِ بإيقاعِ المكروهِ إلَّا لمستحِقٍّ، وأتمَّ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٩٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٩٣- ٩٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٩٦).

المعنى بقولِه: ﴿الْخَبِيرُ﴾، أي: بما يستحقُّ كلُّ شَيءٍ، فتمَّتِ الأدلَّةُ على عظيمِ سُلطانِه[1].

٨- قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ فقرَنَ اللهُ تعالى هنا بين الحكيمِ والخبيرِ؛ ليعلمَ الناسُ أنَّ حِكمةَ اللهِ عزَّ وجلَّ عن خِبرةٍ وعِلمٍ ببواطنِ الأمورِ؛ وعلى هذا فقدْ تكون الحكمةُ خفيَّةً على كثيرٍ مِن النَّاس؛ لأنَّه لا يُدرِكُ الحِكمةَ إلَّا مَن كان خبيرًا، ففي قرْنِ هذينِ الاسمينِ فائدةٌ، وهي أنَّ الحكمةَ قد تكونُ خَفيَّةً لا يَعلمُها إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ[2].

٩- إطلاقُ اسمِ (الشَّيء) على اللهِ تعالى؛ لقوله: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهِ﴾؛ لأنَّ اسمَ الاستفهامِ إذا أُضيفَ إلى كَلمةٍ، صارتْ هذه الكلمةُ صادقةً على جوابِ الاستفهامِ، وهنا جوابُ الاستفهامُ ﴿اللهُ﴾، فيكونُ اللهُ تعالى شَيئًا، فيُخبَرُ بكلمةِ (شيء) عن اللهِ، ولكن لا يُسمَّى به؛ فالله تعالى له الأسماءُ الحُسْنى، وكَلمةُ (شيء) لا تدلُّ على هذا المعنى[3].

١٠- في قوله: ﴿لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ اقتُصِرَ على جَعْلِ عِلَّة نُزولِ القرآنِ للنِّذارةِ، دون ذِكرِ البِشَارة؛ لأنَّ المخاطَبين في حالِ مُكابرتِهم التي هي مقامُ الكلامِ لا يُناسِبُهم إلَّا الإنذارُ؛ فغايةُ القرآنِ بالنسبةِ إلى حالِهم هي الإنذارُ[4].

١١- أنَّ مَن بلَغَه القُرآنُ فقد قامتْ عليه الحُجَّة؛ لقوله: ﴿لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾[5]، فكلُّ مَن بلَغَه هذا القرآنُ من النَّاس بلُغةٍ يَفهمُها، ويَحصُل منها محتواه،

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٩١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٠٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٦٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٠٨).

فقد قامتْ عليه الحُجَّةُ به، وبلَغَه الإنذارُ، وحقَّ عليه العذابُ إنْ كذَّب بعدَ البلاغِ(١).

١٢- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ الدَّلالةُ على أنَّ أحكامَ القرآنِ تَعمُّ الموجودِينَ وقتَ نُزولِه ومَن بَعدَهم، وأنَّه لا يُؤاخَذُ بها مَن لم يَبلُغْه(٢).

١٣- يُستفادُ مِن قَولِه تعالى: ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾ أنَّه يجبُ على عُلماءِ المسلمينَ أنْ يُبلِّغوا القرآنَ كلَّ أحدٍ؛ لأنَّهم وَرَثةُ الأنبياءِ، ولكن مَن لم يَكُن لسانُه عربيًّا، فإنَّه يُبلَّغُ معنى القرآنِ بلِسانِه، ثم يُعطَى القُرآنَ، فيَقرؤه باللَّفظِ العربيِّ إذا أسْلَم(٣).

١٤- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ النصُّ على عُمومِ بَعثةِ خاتَمِ الرُّسلِ عليه أفضلُ الصَّلاةُ والسَّلام(٤).

١٥- يُستفادُ من قولِه تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى﴾ سَفَهُ أولئك المشرِكين الذين يَشهدون أنَّ معَ اللهِ آلهةً أخرى، ولو سُئِلوا عنها: أتَخلُقُ شيئًا؟ لقالوا: لا، وهذا مِن سَفهِهم؛ أنْ يَعبدوا مَن لا يَخلُقُ(٥).

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

- في قولِه: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ وقولِه: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ نابَ

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١٠٥٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤١٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٠٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٨٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١١٢).

الضرُّ مَنابَ الشرِّ- وإنْ كان الشرُّ أعمَّ منه- فقابَلَ الخيرَ[١]، ونُكتةُ المقابلةِ أنَّ الضرَّ مِن اللهِ تعالى ليسَ شَرًّا في الحَقيقةِ، بل هو تَربيةٌ واختبارٌ للعَبدِ، يَستفيدُ به مَن هو أهلٌ للاستفادةِ أخلاقًا وآدابًا وعِلمًا وخبرةً[٢].

وقيل: قابَل قولَه: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ بقولِه: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ مُقابلةً بالأعمِّ؛ لأنَّ الخيرَ يَشملُ النَّفْعَ- وهو الملائمُ- ويَشملُ السَّلامةَ من المنافِرِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ المرادَ من الضرِّ ما هو أعمُّ، فكأنَّه قيل: إنْ يَمسَسْك بضُرٌّ وشرٌّ، وإنْ يَمسَسْك بنَفعٍ وخيرٍ؛ ففي الآيةِ احتباكٌ[٣].

وقيل: ناب هنا الضُّرُّ عن الشرِّ، وعدَل عن الشرِّ الذي يُقابِلُ الخيرَ؛ لأنَّ الشرَّ أَعمُّ مِن الضُّرِّ، فأُتِيَ بلفظِ الضرِّ الذي هو أَخصُّ، وبلفظِ الخيرِ الذي هو عامٌّ مُقابِلٌ لعامٍّ؛ تَغليبًا لجهةِ الرَّحمةِ[٤].

- وقُدِّمَ مَسُّ الضرِّ على مَسِّ الخيرِ في قوله: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾؛ لمناسبةِ اتِّصالِ مَسِّ الضرِّ بما قَبْلَه مِن التَّرهيبِ المدلولِ عليه بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، وأيضًا بدَأ بذِكرِ الضُّرِّ؛ لأنَّ كَشْفَه مُقدَّمٌ على نَيلِ مُقابِلِه، كما أنَّ صَرْفَ العذابِ في الآخرةِ مُقدَّمٌ على النَّعيمِ فيها[٥].

- وجاءَ جوابُ الشرطِ الأوَّلِ بالحَصرِ في قولِه: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٢٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٦٣).

وينظر تعريف الاحتباك في تفسير سورة البقرة (١/ ٢٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٥٥، ٤٥٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٦٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٧٩).

مبالغةً في الاستقلالِ بكشْفِه؛ إشارةً إلى استقلالِه بكَشْفِ الضُّرِّ دونَ غَيرِه، وجاءَ جواب الشَّرْطِ الثاني بقولِه تعالى: ﴿فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ إشارةً إلى قُدرتِه الباهِرةِ، فيَندرجُ فيها المسُّ بخَيرٍ وغيرِه[1].

٢- قوله: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ يُفيد الحَصرَ والقصرَ، ومعناه: أنَّه لا مَوصوفَ بكَمالِ القُدرةِ، وكَمالِ العِلمِ إلَّا الحقُّ سبحانه، مع عُلوِّه وفَوقيَّتِه؛ حيثُ أَبطلتْ هذه الآيةُ أنْ يكونَ غيرُ اللهِ قاهرًا على أحدٍ، أو خبيرًا أو عالِمًا بإعطاءِ كلِّ مخلوقٍ ما يُناسِبُه، ولا جرَمَ أنَّ الإلهَ تجبُ له القُدرةُ والعِلم، وهما جِماعُ صِفاتِ الكمالِ، كما تجبُ له صفاتُ الأفعالِ مِن نفْعٍ وضرٍّ، وإحياءٍ وإماتةٍ[2].

- وهذه الآيةُ تتنزَّلُ مِن التي قَبلَها مَنزِلةَ التَّعميمِ بعدَ التَّخصيص؛ لأنَّ التي قبلها ذَكرتْ كمالَ تصرُّفه في المخلوقاتِ، وجاءتْ به في قالَبِ تثبيتِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهذه الآيةُ أوْعَتْ قُدرتَه على كلِّ شيءٍ، وعِلمَه بكلِّ شيءٍ، وذلك أصلُ جميعِ الفِعل والصُّنع، وقد أفاد تعريفُ الجزْأَين القصرَ، أي: لا قاهرَ إلَّا هو؛ لأنَّ قهرَ اللهِ تعالى هو القهرُ الحقيقيُّ الذي لا يجِد المقهورُ منه مَلاذًا؛ لأنَّه قهرٌ بأسبابٍ لا يستطيعُ أحدٌ خَلْقَ ما يُدافِعها، وممَّا يُشاهَد منها دومًا: النومُ وكذلك الموتُ؛ سبحان مَن قهرَ العبادَ بالموتِ[3].

٣- قوله: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ، والاستِفهامُ فيه على جِهَةِ التَّقريرِ والتَّوقيفِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٥٦- ٤٥٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٥٦٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٦٤).
(٣) يُنظر: ((المصدران السابقان)).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٦٦).

- وتكريرُ كَلِمة (بَيْن)؛ لتحقيقِ المقابلةِ، وللتأكيدِ؛ حيث كرَّر اللهُ تعالى كلمة (بين) في قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾، وكان الأصلُ أنْ يقول: (قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيننا)(١).

٤- قوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ في الآيةِ إيجازٌ بالحذفِ؛ حيث حُذِفَ فاعِلُ الوحيِ، وبُنِي فِعلُه ﴿وَأُوحِيَ﴾ للمفعولِ؛ للعلمِ بالفاعلِ الذي أوحاه إليه، وهو اللهُ تعالى(٢)، وفيه حَذْفٌ في قوله ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾ والتقدير: ومَنْ بلَغَه هذا القرآنُ(٣).

٥- قوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾

- في قوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى﴾ الاستفهامُ إنكاريٌّ؛ للتقريعِ لهم والتوبيخِ، وهو يُفيدُ إنكارينِ؛ أحدُهما صريحٌ بأداةِ الإنكار، والآخَرُ كِنائيٌّ بلازمِ تأكيدِ الإخبارِ؛ لغرابةِ هذا الزعمِ بحيثُ يَشكُّ السَّامعُ في صدورِه منهم(٤).

- وقوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ﴾ فيه تأكيدُ الخَبر بـ(إنَّ) ولامِ الابتداءِ؛ ليُفيدَ أنَّ شهادتَهم هذه ممَّا لا يَكادُ يُصدِّقُ السَّامِعونَ أنَّهم يَشهَدونها؛ لاستبعادِ صُدورِها مِن عُقلاءَ؛ فاحتاجَ المخبِرُ عنهم بها إلى تأكيدِ خَبرِه بمُؤكِّدَينِ(٥).

- وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ فيه تأكيدٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٦٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٩٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١١)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٧٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٥٩- ٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٦٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٦٩).

على إيجابِ التَّوحيدِ، والبَراءةِ عن الشِّركِ بـ﴿إِنَّمَا﴾ التي تُفيدُ الحصرَ، ولفظِ ﴿وَاحِدٌ﴾ الصريحِ في التوحيدِ، ونفْيِ الشُّركاءِ، وقولِه: ﴿إِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ الذي فيه تصريحٌ بالبراءةِ عن إثباتِ الشُّركاءِ؛ أو البراءةِ مِن إشراكِهم، وهو كالتوكيدِ لِمَا قبلَه؛ فثبَتَتْ دَلالةُ هذه الآيةِ على إيجابِ التوحيدِ بأعظمِ طُرقِ البيانِ، وأبلغِ وجوهِ التَّأكيدِ[1].

- وفي هذه الآيةِ ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ...﴾ تكريرٌ للأمْرِ بقوله: ﴿قُلْ﴾ أربعَ مرَّات؛ لتأكيدِ التبليغِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٤٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٦١)، ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٧٠).

الآيات (٢٠ - ٢٤)

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

غريبُ الكَلماتِ:

﴿افْتَرَى﴾: أي: اختَلق وكذَب، والافتراءُ الاختلاقُ، ومنه قِيل: افترَى فلانٌ على فلانٍ، إذا قذَفَه بما ليسَ فيه، وأصلُ (فري) قَطْعُ الشَّيءِ؛ فالفَرْيُ: قطعُه لإصلاحِه، والإفراءُ: قطعُه للإفسادِ، والافتِراءُ فيهما، وفي الإفسادِ أكثرُ[١].

﴿نَحْشُرُهُمْ﴾: أي: نَسوقُهم ونَجمَعُهم، والحشرُ: الجمعُ مع سَوْقٍ، وكلُّ جمْعٍ حشرٌ، ويُطلَقُ أيضًا على البعثِ والانبعاثِ، أو الجَمْعِ بكثرةٍ[٢].

﴿تَزْعُمُونَ﴾: أي: تَكذِبون، والزَّعم غالبًا هو حِكايةُ قولٍ ما، يكونُ مَظِنَّةً للكذبِ، أو اعتقادُ الباطِل بتقوُّلٍ، وقدْ يكونُ الزَّعم حَقًّا، وأصلُ (زعم): القولُ مِن غيرِ صِحَّةٍ ولا يقينٍ[٣].

﴿فِتْنَتُهُمْ﴾: أي: مَقالتُهم وحُجَّتُهم، أو بَليَّتُهم التي ألْزمتْهم الحُجَّةَ، وزادتْهم لائمةً، والفتنةُ تُطلَق على: الشِّركِ والكُفرِ، والشرِّ والعذابِ، وهي في الأصل:

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦١).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٠)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزآبادي (٣/ ١٢٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٨).

الاختبارُ والابتلاءُ والامتحانُ، مأخوذةٌ من الفَتْن: وهو إدخالُ الذهبِ النَّارَ؛ لتظهرَ جَودتُه مِن رداءتِه[1].

﴿وَضَلَّ﴾: أي: وذَهَب، والضَّلالُ: العُدولُ عن الطريقِ المستقيمِ، وضياعُ الشيءِ، وذَهابُه في غيرِ حقِّه[2].

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾

﴿لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾ قُرِئ (تكن) و (يكن) بالتَّاءِ وبالياءِ، وقُرِئت ﴿فِتْنَتُهُمْ﴾ بالرَّفْع والنَّصب في كلٍّ مِنهما؛ فهذه أربعةُ أوجهٍ في الإعرابِ؛ فـ﴿فِتْنَتُهُمْ﴾ على الرَّفعِ هي اسمُ كان، والخبر قوله: ﴿أَنْ قَالُوا﴾ الذي هو مصدرٌ مُؤوَّل بمعنى (قولهم)، وعلى نصْب ﴿فِتْنَتَهُمْ﴾ فهي خبرُ كان مُقدَّم، و﴿أَنْ قَالُوا﴾ اسمُ كانَ مُؤخَّر. وعلى قِراءة ﴿تَكُنْ﴾ بالتاءِ ورفْع الفتنةِ يكونُ تأنيثُ الفِعلِ مُراعاةً لِتأنيثِ لفظِ الفِتنة، وعلى قِراءة ﴿يَكُنْ﴾ بالياءِ مع رفْع ﴿فِتْنَتُهُمْ﴾ فيكونُ تذْكِير الفِعل؛ لأنَّ تأنيثَ الفتنةِ غيرُ حقيقيٍّ، ولأنَّ الفتنةَ هنا بمعنى القَول؛ فحَمَلَه على المعنى فذَكَّره.

وعلى قِراءة ﴿تَكُنْ﴾ بالتَّاءِ ونصْب ﴿فِتْنَتَهُمْ﴾ يكونُ تأنيثُ الفِعلِ مُراعاةً لمعنى ﴿أَنْ قَالُوا﴾؛ لأنَّه بمعنى المقالةِ والفِتنةِ، وعلى قِراءة ﴿يَكُنْ﴾ بالياءِ مع

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٦، ١٠١، ١٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢- ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٤،٢٩، ١٣٩، ١٤٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٠١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٥٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٧٦).

نصْب ﴿فِتْنَتَهُمْ﴾، فيكونُ تذكيرُ الفِعل؛ لإسنادِه إلى مُذكَّرٍ؛ لأنَّ ﴿أَنْ قَالُوا﴾ بمعنى القَولِ، أي: قَولُهم.

وقِراءة ﴿يَكُنْ﴾ بالياءِ، و﴿فِتْنَتَهُمْ﴾ بالنَّصبِ، هي أوضحُ هذه القِراءاتِ؛ لإجرائِها على القواعِدِ مِن غيرِ تأويلٍ؛ لأنَّ الأحسنَ جَعْلُ الأعرفِ اسمًا مُحَدَّثًا عنه، وجَعْلُ الأقلِّ تعريفًا خبرًا حديثًا عنه، والأعرفُ هنا ﴿أَنْ قَالُوا﴾ لأنَّه في منزلةِ الضَّميرِ، والضَّميرُ أَعْرَفُ المعارفِ بَعْدَ اسْمِ اللهِ تعالى، والفِتنةُ دونه في التَّعريفِ؛ لأنَّها تعرَّفتْ بإضافتِها إلى المُضمَرِ؛ فهي دونَ تعريفِ ﴿أَنْ قَالُوا﴾ بكثيرٍ، ولأنَّ ﴿يَكُنْ﴾ بالتذكير على الأصلِ؛ لأنَّها عائدةٌ إلى مُذَّكرٍ، وهو ﴿أَنْ قَالُوا﴾، أي: قَولُهم[1].

٢- قوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾

﴿يَوْمَ﴾ منصوبٌ على أنه مفعول به لفِعلٍ مُضمَرٍ، أي: واذْكُرْ- يا محمَّدُ- يومَ نَحشُرهم، وقيل: انتصَب بـ (نقول) مُضمرةً[2].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ الَّذين أُوتوا التوراةَ والإنجيلَ مِن اليهودِ والنَّصارى يَعرِفونَ مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، كما يَعرِفُ الواحدُ منهم ابنَه، والذين خَسِروا أنفُسَهم كلَّ الخَسارةِ هُم الَّذينَ كَفضروا بمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، وفاتَهم الإيمانُ به وبرسالتِه.

ثمَّ بَيَّن تعالى أنَّه لا أَحدَ أشدُّ ظُلمًا ممَّن افترَى على اللهِ تعالى كذِبًا، أو مَن كذَّبَ بحُجَجِه وبَراهينِه، إنَّه لا يُفلحُ الظَّالِمون أبدًا.

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٤٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٨٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٥٧٢- ٥٧٣).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٧٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٨٧).

ويَومَ يَحشُرُهم اللهُ جميعًا ثمَّ يَسألُ المشركينَ: أينَ شُركاؤُهم الذين كانوا يَزعُمون أنَّهم آلهةٌ مع اللهِ تعالى؟! ثمَّ بعدَ هذا السؤالِ لم يَكُن جوابُهم حِينَ اختُبِروا وامتُحِنوا به إلَّا أنَّهم حَلَفوا بربِّهم ما كانوا مُشرِكين.

ثمَّ أمَرَ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يتأمَّل كيف كذَبَ هؤلاءِ المشرِكون على أنفُسِهم يومَ القِيامةِ، وغابَ عنهم شُركاؤُهم الذين زَعَموهم مع اللهِ تعالى، فلمْ يَنفعوهم بشَيءٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ﴾.

أي: الذين أُوتوا التوراةَ والإنجيلَ مِن اليَهودِ والنَّصارَى يَعرِفونَ مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، كما يَعرِفُ أحدُهم ابنَه، دون أدْنَى شَكٍّ[1].

كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

---

(١) وهذا اختيارُ الواحديِّ في ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٢٥٩)، والقرطبيِّ في ((تفسيره)) (٦/ ٤٠٠)، وابنِ كثيرٍ في ((تفسيره)) (٣/ ٢٤٥)، وابنِ عثيمينَ في ((تفسير سورة الأنعام)) (ص:١١٤).
وممَّن قال مِن السَّلف بهذا القولِ: قتادةُ في روايةٍ عنه، والسُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٨٧)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٤/ ١٢٧٢)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٥).
واختار ابنُ جرير، والسعديُّ أنَّ المرادَ يعرفون أنَّه لا إله حقٌّ إلا الله، وأنَّ محمدًا رسولُ الله. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٣).
وممَّن قال بهذا مِن السَّلف: قتادةُ في رواية أُخرى عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٨٧)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٤/ ١٢٧٣).
ورجَّح ابنُ عاشور أنَّ المرادَ: يَعرِفونَ أنَّ القرآنَ حقٌّ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٧١).

﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

أي: الَّذين أَهْلَكوا أنفُسَهم، وألْقَوْها في نارِ جَهنَّمَ؛ بإنكارِهم أنَّ مُحمَّدًا رسولُ اللهِ تعالى، وهم بحَقيقةِ ذلك عارِفون، قد خَسِروا كلَّ الخَسارةِ؛ إذ لَمَّا أَعْرَضوا عن ذلِك فاتَهُم الإيمانُ الحقيقيُّ، الذي هو سببُ الفوزِ في الدُّنيا والآخِرة[1].

كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الزمر: ١٥].

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بَيَّنَ خُسرانَ المُنكِرينَ في الآيةِ الأُولى؛ بَيَّن في هذه الآيةِ الكريمةِ سَببَ ذلك الخُسرانِ، وهو أمران؛ أحدُهما: الافتراءُ على اللهِ كَذِبًا، الأمْرُ الثَّاني من أسبابِ خَسارتِهم: تكذيبُهم بآياتِ اللهِ تعالى، وقَدْحُهم في مُعجزاتِ محمَّد عليه الصَّلاةُ والسَّلام، وإنكارُهم كونَ القرآنِ العظيمِ مُعجزةً قاهرةً منه[2]، فقال تعالى:

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾.

أي: لا أحدَ أشدُّ ظُلمًا ممَّن تقوَّلَ على اللهِ تعالى، كمَن زعَمَ أنَّ له شَريكًا، أو كذَّبَ بحُجَجِه وأعلامِه، ومِن ذلك ما أعطاهُ لرُسلِه من الأدلَّةِ على صِدْقِهم[3].

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٥٣-١٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) ص: ١١٦-١١٨).

أي: إنَّ كلَّ ظالمٍ لا يُفلحُ أبدًا، ومنهم القائِلون على اللهِ تعالى الباطِلَ، والمكذِّبون بآياتِه عزَّ وجلَّ[1].

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا كان معنى قولِه تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ أنَّهم أكذبُ الناسِ، دلَّ عليه بكَذِبِهم يومَ الحشرِ بعدَ انكشافِ الغطاءِ[2]، فقال:

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾.

أي: ويومَ يَجمعُ اللهُ تعالى جميعَ المشرِكين، والمفترِين على اللهِ كَذِبًا، والمكذِّبين بآياتِه[3].

﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾.

أي: ثمَّ نقولُ للمُشرِكين- تَوبيخًا وتقريعًا لهم- إذا جمعْناهم: أينَ شُركاؤُكم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١١٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٢٦).

اختار بعضُ المفسِّرين أنَّ (يوم) متعلقةٌ بما قبلَها على معنى: إنَّه لا يُفلح الظالمون في الدُّنيا ولا يوم نحشرُهم. وهذا اختيارُ ابنِ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٨٨).

واختار بعضُهم أنَّ (يوم) متعلقٌ بمحذوفٍ تقديرُه: واذكرْ يومَ نحشرُهم. على معنى أنَّ قولَه سبحانه: ﴿لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ كلامٌ تامٌّ معناه، و﴿يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ جملةٌ استئنافيةٌ، وهذا اختيارُ الواحديِّ، وابنِ عثيمينَ. يُنظر: ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٢٦).

قال ابنُ عثيمينَ: (أي: اذكرْ لهم، ويجوزُ أن نقولَ: اذكرْ في نفسِك حتى تتسلَّى بهذه الذِّكرَى، ويهونَ عليك أمرُهم). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٢٦).

الذين كنتُم تدَّعون أنَّهم آلهةٌ مع اللهِ سبحانه(١)؟

كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢].

﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ قِراءتان:

١- قِراءة ﴿وَاللَّهِ رَبَّنَا﴾ بنَصْبِ ﴿رَبَّنَا﴾ على النِّداءِ، بمعنى: واللهِ يا ربَّنا، وفيه معنى الخُضوعِ والتضرُّعِ للهِ تعالى(٢).

٢- قِراءة ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا﴾ بجرِّ ﴿رَبِّنَا﴾ على النَّعْتِ للهِ عزَّ وجلَّ، والثناءِ(٣).

﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: ثمَّ بَعدَ هذا السؤالِ لم يَكُنْ جوابُهم عليه حِين اختُبِروا وامتُحِنوا بِه، إلَّا إنكارَهم لشِركِهم، وحَلِفَهم أنَّهم ما كانوا مُشرِكين(٤).

كما قال تعالى عن المنافِقين: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٢٦-١٢٧).

(٢) قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٣٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٩١)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١٣٧)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٤٢٧).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٣٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٨٩-١٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٧٦).

وعن سَعيدِ بنِ جُبَيرٍ، قال: قال رجلٌ لابنِ عَبَّاسٍ: إنِّي أَجِدُ في القرآنِ أشياءَ تَختلِفُ عليَّ؟ قال:... ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]، ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، فقدْ كتَموا في هذه الآيةِ؟... فقال ابنُ عبَّاس: وأمَّا قوله: ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]، فإنَّ اللهَ يغفرُ لأهلِ الإخلاصِ ذُنوبَهم، وقال المشركون: تَعالَوْا نقولُ: لم نكُنْ مُشركين، فخُتِمَ على أفواهِهم، فتَنطِقُ أيديهم، فعندَ ذلك عُرِفَ أنَّ اللهَ لا يُكتَمُ حديثًا، وعندَه: ﴿يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ الآيةَ[1] [البقرة:١٠٥].

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ (٢٤)﴾.

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾.

أي: انظُرْ بقلبِك- يا محمَّدُ- وتأمَّلْ كيفَ كذَب هؤلاءِ المشركون في الآخِرةِ على أنفسِهم بنَفيِهم الشِّركَ عنها، فكَذَبوا كذِبًا يعودُ بالخُسرانِ والضَّررِ عليها[2].

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾.

أي: وغابَ عنهم الشُّركاءُ الذين زَعموهم مع اللهِ سبحانه وتعالى، وبَطلَتْ دعواهم فيهم؛ فلم يُغنوا عنهم شيئًا[3].

---

(١) أخرجه عبدُ الرزَّاق في ((التفسير)) (٥٨٨)، والطبري في ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٢)، وابن أبي حاتم في ((التفسير)) (٧١٨٠)، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (١٠/ ٢٤٥) (١٠٥٩٤)، والحاكم في ((المستدرك)) (٣١٩٨)، وأخرجه البخاريُّ (٦/ ١٢٧) معلَّقًا بصيغةِ الجزم.
صحَّح إسنادَه الحاكمُ (٣١٩٨)، وأحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٥٠٩)، وقال ابنُ حجرٍ في ((تغليق التعليق)) (٤/ ٣٠١): له متابعةٌ بنحوه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٩٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٢٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٩٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٢٦٠-٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٢٧-١٢٨).

كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ [غافر: ٧٣- ٧٤].

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فيه التَّحذيرُ مِن أن يَفتريَ الإنسانُ على اللهِ تعالى الكذبَ؛ لأنَّه بيَّنَ أنَّه في المرتبةِ العُليا من الظُّلم؛ ومِن الافتراءِ على الله كذِبًا: أنْ يجعلَ العبدُ لله تعالى صاحبةً أو ولدًا، أو يتَّخِذَ مَعَهُ شريكًا، ومن الافتراء: أنْ يكْذِبَ الإنسانُ على ربِّه عزَّ وجلَّ في مدلولِ آياتِه، فيقول: أراد اللهُ بكذا، كذا وكذا. هذا كذبٌ على اللهِ، ومِن ذلك: أنْ يفتريَ على الله كذبًا في أحكامِه فيقول: هذا حلالٌ، وهذا حرامٌ. كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾[1] [النحل: ١١٦].

٢- في قولِه تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ وجوبُ التَّصديقِ بكلِّ آياتِ الله الكونيَّةِ والشرعيَّة؛ وجه ذلك: أنَّ (آيات) مضافةٌ، والجمع إذا أُضيفَ يُفيدُ العمومَ، ويتفرَّع على هذا: أنَّ مَن آمَن ببعضٍ، وكفَر ببعضٍ، فقدْ كفَر بالجميع، فلا يُعَدُّ مؤمنًا؛ لأنَّه يوجدُ بعضُ الناسِ يُؤمِن ويُصدِّقُ بما يرَى عقلُه أنَّه حقٌّ، ويُكذِّب بما يرى أنَّه ليس بحقٍّ، أو يُؤمنُ بما يرَى أنَّه مناسبٌ، ويَكفُر بضدِّ ذلك، وهؤلاء بَيَّن الله حُكمَهم، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٢٠).

يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا * أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا...﴾[١] [النساء: ١٥٠-١٥١].

٣- في قوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ بُشرَى للمظلومينَ مِن أنَّ الظالِمَ لا يُفلِحُ؛ فيُبشَّر المجاهِدون بالنَّصرِ، وبأنَّ مآلَ مَن جاهدَهم الخِذلانُ، ويُبشَّر مَن ظُلِمَ بأخْذِ مالِه أو جَحْدِ مالِه، وما أشبهَ ذلك بأنَّ هذا الظالمَ لن يُفلِحَ[٢].

٤- التحذيرُ مِن الظُّلم، وأنَّ عاقبتَه الخَسارةُ والدَّمارُ؛ لقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[٣].

٥- التحذيرُ من الشِّركِ؛ لأنَّ المشركينَ سوف يُوبَّخونَ ويُقرَّعونَ في يومٍ لا يَستطيعُونَ الخلاصَ فيه؛ حيث يُقال لهم في هذا المَجمعِ العَظيمِ: ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ﴾[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- أنَّ الحُجَّةَ قائمةٌ على اليهودِ والنصارى في صِحَّةِ بَعثةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لقوله: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾[٥].

٢- أنَّه يَنبغي أنْ يُضرَبَ المَثَلُ بأقربِ مُطابِقٍ للمُمثَّلِ؛ لقوله: ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾؛ لأنَّ هذا أقربُ إلى التصوُّرِ وإلى الصِّدقِ[٦].

٣- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ فيه أنَّ الظُّلمَ يَختلِفُ؛ بعضُه أشدُّ من بعضٍ؛ لأنَّ المعاصيَ تختلِفُ؛ بعضُها أعظمُ من بعضٍ، فهناك كبائرُ، وهناك صغائرُ، والكبائرُ نفسُها تَختلِفُ، فهناك أكبرُ مِن الكبائرِ، وما دونها، والصَّغائرُ كذلك

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٢١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق))(ص: ١٢٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢٨، ١٢٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١١٤).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١١٥).

تختلِفُ، وكلُّ فِعلٍ مُحرَّمٍ، أو ترْكُ واجبٍ ظلمٌ، وإذا كان يتفاوتُ لزِمَ من ذلك تفاوتُ الأعمالِ(١).

٤- مع عِظَمِ ظُلمِ مَن كذَّب بآياتِ الله؛ لقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾، فإنَّه لا يُحكَمُ بظُلمِه، أو بكونِه في المرتبة العليا إلَّا إذا تبيَّنتْ له الآياتُ؛ لقوله: ﴿كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [الأنعام:١٥٧]، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥]، فإذا تَبيَّن لهم ما يتَّقون حَكَمَ بضلالِهم سبحانه وتعالى، وإلَّا فَهُم في عُذرٍ(٢).

٥- في قولِه تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ...﴾ ما الجمعُ بَينَ هذه الآيةِ الكريمةِ وبينَ نُصوصٍ أخرى يَرِدُ فيها مِثلُ هذه العبارةِ في ذَنبٍ آخَرَ غيرِ هذا، وتدلُّ أيضًا على أنَّ هذا الفِعلَ أظلمُ شيءٍ؛ مثل قولِه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [البقرة: ١١٤]، وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ [الأنعام:٩٣]، وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [الكهف: آية ٥٧]، وقوله في هذِه الآية: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾؛ فكيفَ نَجمعُ بين هذه النُّصوصِ؟

والجوابُ مِن أحدِ وجهينِ: الأول: أنَّ هذه الأشياءَ جميعَها اشتركَتْ في المرتبةِ العُليا من الظُّلمِ؛ فكلُّها في مقامِ الأظلميَّة، فأفعل التفضيل لا تمنع التساوي ولكنها تمنع الزيادة. وعلى ذلك فلا مُعارَضَةَ ألبتَّةَ بينَ الآياتِ، فهؤلاءِ المذكورونَ لا يُوجَدُ أحدٌ أظلَمُ منهم، وهم متساوونَ في مرتبةِ الظُّلْم. الوجه الثاني: أنَّ هذه المواضعَ تتخصصُ بصِلاتِها. ومعنَى (تتخصصُ بصِلاتِها): أنَّ كُلَّ واحدٍ منها تُفَسِّرُه صلةُ موصُولِه، أي أنَّ كلَّ واحدةٍ تختصُّ ببابِها، فيكونُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١١٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢١).

المعنَى: لا أحدَ مِنَ المفْتَرِينَ أظلمُ مِمَّنِ افْتَرَى على اللَّهِ كَذِبًا، ولا أحدَ مِنَ المانِعِينَ أظلمُ مِمَّنْ مَنَعَ مساجدَ اللَّهِ، ولاَ أحدَ مِنَ المعْرِضِينَ أظلمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بآياتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عنه... إلخ[1].

٦- في قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ قد نفَى فلاحَهم، فعمَّ كلَّ فلاحٍ في الدُّنيا والآخِرة؛ فإنَّ الفلاحَ المعتدَّ به في نظرِ الدِّينِ في الدُّنيا هو الإيمانُ والعملُ، وهو سببُ فلاحِ الآخِرَة[2].

٧- ما الجَمعُ بَينَ قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ والواقعِ؛ لأنَّنا نرَى أنَّ الظالمَ قد يُفلحُ؟

الجواب: الجمعُ بينها وبينَ الواقِعِ: أنْ يُقال: الفلاحُ نوعان؛ فلاحٌ مُطلَقٌ، وهذا لا يُمكن للظالمِ أبدًا، ودليلُ هذا قولُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((إنَّ اللهَ لَيُملِي للظالمِ حتَّى إذا أخَذَه لم يُفْلِتْه))، وتلا قولَه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]))[3]، فلا بدَّ أنْ يخسرَ الظالم، ولا بدَّ، طالتِ الدُّنيا أم قَصُرتْ؛ فمَن كان ظالِمًا بمبدإٍ مِن المبادِئِ؛ فلا بدَّ أنْ يَنخذِلَ هذا المبدأُ حتَّى بعدَ موتِه، وإذا كان خاصًّا، فإنَّه وإنْ لم يَحصُل له ذلِك في الدُّنيا حسَبَ ما نَرَى فهو في الآخِرَةِ، وربَّما يكونُ في قَلبِ الظالمِ أشياءُ لا نَدري عنها يُبتلَى بها، مِن ضِيقِ الصَّدرِ، وكراهةِ الحقِّ، وما أشبهَ ذلك.

أمَّا الفلاحُ المقيَّدُ بمعنى أن يُفلِحَ في زمَنٍ معيَّنٍ، أو مكانٍ معيَّن، أو قضيَّةٍ

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥١٢-٥١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٢٢- ١٢٣).

والوجهُ الأوَّل مخرجٌ على قاعدةِ: (نفيُ التفضيلِ لا يستلزمُ نفيَ المساواةِ). يُنظر: ((قواعد التفسير)) لخالد السبت (٢/ ٥٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٧٢).

(٣) أخرجه البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

معيَّنة، فهذا يُمكن أنْ يَقعَ، ولا يُخالِفُ الآيَةَ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قدْ يُعطي الظالمَ فلاحًا؛ حتَّى يَغترَّ بهذا الفلاحِ فيتمادَى في طُغيانِه، ثمَّ يَقصِمُ اللهُ ظَهرَه[١].

٨- قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ فيه تسليةُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ حيثُ ذُكِرَ له مآلُ المكذِّبين له[٢].

٩- قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ فيه أنَّ الحَشرَ عامٌّ شاملٌ لا يَشِذُّ عنه أحدٌ، لا مؤمِنٌ ولا كافرٌ، ولا بَرٌّ ولا فاجرٌ؛ حيثُ أكَّده اللهُ عزَّ وجلَّ بقولِه: ﴿جَمِيعًا﴾[٣].

١٠- في قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ إثباتُ القولِ للهِ، وأنَّه بحروفٍ مسموعةٍ معقولةٍ، وبصوتٍ لا يُشبهُ صوتَ المخلوقينَ؛ لأنَّ اللهَ يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[٤] [الشورى: ١١].

١١- قوله تعالى: ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ يدلُّ على أنَّ الأصنامَ لا تَنفعُ عابِديها؛ لأنَّها لا تَنصُرهم في هذا الموقِف، بل قدْ قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[٥] [الأنبياء: ٩٨].

١٢- أنَّ أولئك العابِدينَ لهذه الأصنامِ ليس عِندَهم حُجَّةٌ ولا بُرهان، وإنَّما هي مُجرَّدُ دعوى لقولِه: ﴿تَزْعُمُونَ﴾، والزعمُ في الغالِبِ يكونُ في قولٍ لا دليلَ عليه[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٢٣، ١٢٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢٩).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٣٠).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

١٣- في قولِه: ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ أنَّ المشركين يُكذِّبون يومَ القيامةِ حِين يَطَّلعونَ على حقائقِ الأمورِ، بالرَّغمِ مِن كونِ الكذبِ والجحودِ لا وَجْهَ لمنفعتِه؛ لأنَّ المُمتحَنَ يَنطِقُ بما يَنفعُه وبما لا يَنفعُه، من غيرِ تمييزٍ بينهما؛ حيرةً ودهشةً، وكذِبُ الكفَّارِ في الآخِرة ثابتٌ بمِثل قولِه تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾[1] [سورة المجادلة: ١٨].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾ فيه تشبيهُ المعرفةِ بالمعرفةِ، ووجهُ الشَّبهِ هو التَّحققُ والجزمُ بأنَّه هو الكتابُ الموعودُ به -على أحَدِ أوجُهِ التَّأويلِ-، وإنَّما جُعِلتِ المعرفةُ المشبَّهُ بها هي معرفةَ أبنائِهم؛ لأنَّ المرءَ لا يَضِلُّ عن معرفةِ شخصِ ابنِه وذاتِه إذا لقِيَه، وأنَّه هو ابنُه المعروفُ؛ وذلك لكثرةِ مُلازمةِ الأبناءِ آباءَهم عُرفًا[2].

٢- قوله: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ...﴾ استئنافٌ لزيادةِ إيضاحِ تَصلُّبِ المشرِكين وإصرارِهم، وهذا مِن التَّكريرِ للتسجيلِ، وإقامةِ الحُجَّةِ، وقطْعِ المعذرةِ، وأنهم مصرُّون على الكفر، حتَّى ولو شَهِدَ بصِدقِ الرسول أهلُ الكتاب[3].

٣- قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾: الاستفهامُ في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ تقريريٌّ لظُلمِهم بافتراءِ الكَذبِ على اللهِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤١٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٨٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٧١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
وهذا الوجهُ المذكورُ هو على القول بأنَّ المرادَ بـ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ هم المشركون.
(٤) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١٠٦٢).

- وفي هذه الآيةِ مُناسبةٌ حَسَنةٌ؛ حيثُ بدأَ الآيةَ هنا بالواو ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾، وبدَأَها في يونسَ بالفاءِ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾؛ لأنَّ المتقدِّمَ على هذِه الآيةِ في سورة الأنعامِ مَعطوفٌ بالواو، بخِلافِ ما في سُورةِ يونس، فإنَّ المتقدِّمَ قبلَها سَببٌ لها، ومعطوفٌ بالفاءِ؛ فناسَب فيها ما ذُكِر؛ فما تَقدَّم آيةَ سورةِ الأنعامِ مِن قولِه: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً..﴾ إلى قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ..﴾ جُمَلٌ عُطِف صدورُ بعضِها على بعضٍ بالواو، ولم تَتعلَّق الثانيةُ بالأولى تعلُّقَ ما هو مِن سببِها، فأجْرَى قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ مَجراها، وعَطَف بالواوِ عليها. وأمَّا الآيةُ في سورة يونس فإنَّ ما قَبلَها عُطِف بعضُها على بعضٍ بالفاءِ، كقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦]، فتَعلَّق كلُّ ما بعدَ الفاءِ بما قَبْلَه تَعلُّقَ المسبَّبِ بسَببِه، فهذا موضعُ الفاء؛ وكلُّ موضعٍ في القرآنِ يكونُ بعدَ هاتينِ الآيتينِ بالواو أو بالفاءِ فيُعتبَرُ بما ذُكِرَ هنا؛ فناسَب العطف بالواو في سورة الأنعامِ، وبالفاءِ في سورة يونس.

- وأيضًا مِن المناسبةِ الحَسنةِ أنْ ختَم آيةَ الأنعامَ بقوله: ﴿الظَّالِمُونَ﴾ وختَم آيةَ يونس بقولِه: ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾؛ لأنَّه في الآيةِ الأولى في الأنعامِ لَمَّا قال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا..﴾ وكان المعنى: أنَّه لا أحَدَ أظلَمُ لنفْسِه ممَّن وصَفَ اللهَ تعالى بخِلافِ وصْفِه، فأَوْرَدَها العذابَ الدَّائِمَ، كان قولُه: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ﴾ عائدًا إلى مَن فَعَل هذا الفعلَ - أي: لا يَظفَر برحمةِ اللهِ، ولا يفوزُ بنجاةِ نفْسِه مَن كان ما ذُكِر مِنْ فِعلِه-؛ فبناءُ الآخِرِ على الأوَّلِ اقتَضى أنْ يكون: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾. وأمَّا الآيةُ الثانية في سُورةِ يونس فختَمَها بقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾؛ لأنَّها تَقدَّمَتْها الآيةُ التي تَضمَّنتْ وصْفَ هؤلاءِ القومِ بما عاقبَهم به؛ حيث قال: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا

الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يونس: ١٣]، فوصَفَهم بأنَّهم مُجرِمون عندَ تعليقِ الجزاءِ بهم، وقال بعده: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ...﴾ إلى الموضِعِ الذي أَبطلَ فيه حُجَّتَهم ودفَعَ سؤالَهم، وهو ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: ١٤-١٥]، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾؛ ليُعلمَ أنَّ هؤلاءِ سبيلُهم في الضَّلالِ سبيلُ القومِ الذين أَخْبَرَ عن هَلاكِهم، وقال: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يونس: ١٣]؛ ليُوقِعَ التَّسْويةَ بينهم في الوَصفِ كما أَوْقعَ التسويةَ بينهم في الوعيدِ.

وأيضًا لَمَّا كان قولُ فُصحاءِ العربِ العالِمين بمقاطِعِ الكلامِ، وجليلِ النَّظْمِ وعَلِيِّ البلاغةِ: ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ مع عِلمِهم بعَلِيِّ فصاحتِه، واعترافِهم بالعجزِ عنه- لَمَّا كان قولُهم هذا فيه الجَمْعُ بين إنكارِ ما عَلِموا صِدقَه، ممَّن عرَفوا على حالِهِ وجليلِ مَنصبِه، وبَينَ قولِهم في إنكارهم: ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾؛ فلا أَظلمَ مِن هؤلاءِ، ثم في إنكارِهم وقولهم: ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ أعظمُ إقدامٍ، وأوضحُ إجرامٍ؛ لأنَّه كُفرٌ على عِلمٍ؛ فلهذا أُعقِبتِ الآيةُ هنا بقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ ولم يَقَعْ قبل التي في سورةِ الأنعام مِثلُ هذا الإقدامِ على مِثلِ هذه الجريمةِ في القَولِ، وإنَّما تَقدَّم عَداوتُهم وظُلمُهم أنفسَهم في مُرتَكَباتِهم وتَعامِيهم، فناسَبَه قولُه: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾. وقيل غيرُ ذلِك في هذه المناسَبة(١).

- والجَمْعُ بين الأمرَينِ: الافتراءِ على اللهِ الكذبَ، أو التكذيبِ بآياتِ اللهِ في قوله: ﴿افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾؛ للتنبيهِ على أنَّ كُلًّا منهما

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٤٩٨- ٥٠٢)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٥٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ١٦١-١٦٢).

وحْدَه بالغٌ غايةَ الإفراطِ في الظُّلم على النفس[١].

- وقوله: ﴿كَذِبًا﴾ مصدرٌ مُؤَكِّدٌ للافتراءِ، وهو أعمُّ منه[٢].

- قوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ الجملةُ تذييلٌ[٣]، والضميرُ في ﴿إِنَّه﴾ ضميرُ الشأنِ، ومدارُ وضْعِه موضعَه ادِّعاءُ شُهرتِه المغْنِيةِ عن ذِكرِه؛ وفائدةُ تصديرِ الجملةِ به: الإيذانُ بفخامةِ مَضمونِها، مع ما فيه مِن زيادةِ تَقريرِه في الذِّهن[٤].

٤- قوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ ﴿وَيَوْمَ﴾ منصوبٌ على المفعوليَّةِ بفِعلٍ مُضمَرٍ مُقدَّمٍ تقديرُه: اذْكُرْ أو انظُر[٥]؛ تهويلاً للأمْرِ وللتَّخويفِ والتَّحذيرِ، أو منصوبٌ لمحذوفٍ متأخِّر، تقديرُه: ويومَ نَحشُرُهم كانَ كيتَ وكيتَ؛ فتُرِكَ ليبقَى على الإبهامِ الذي هو أَدْخلُ في التَّخويفِ[٦]، وتقديرُ صِيغةِ الماضِي (كَانَ)؛ للدَّلالةِ على التحقُّقِ، ولحُسنِ مَوْقِعِ عَطفِ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ...﴾ عليه[٧].

- قوله: ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ الاستفهامُ مرادٌ به التوبيخُ والاحتجاجُ، والتبكيتُ والتأنيبُ، والتقريعُ عمَّا كان المشرِكون يَزعُمونه؛

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٩).

(٥) وقيل: الأظهرُ أنْ يُقدَّرَ العاملُ المحذوفُ ممَّا تدلُّ عليه المعطوفاتُ، وهي: نقولُ، أو قالوا، أو كذبوا، أو ضلَّ، وكلُّها صالحةٌ للدَّلالةِ على تَقديرِ المحذوفِ، وليستْ تلك الأفعالُ متعلِّقًا بها الظَّرفُ، بل هي دَلالةٌ على المتعلِّقِ المحذوفِ؛ لأنَّ المقصودَ تهويلُ ما يَحصُلُ لهم يومَ الحَشرِ مِن الفِتنةِ والاضطرابِ الناشئَينِ عن قولِ الله تعالى لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمْ﴾، وتصويرُ تِلك الحالةِ المهولةِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٧٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٩).

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١١٩).

مِن أنَّ شُركاءَهم تَشفعُ لهم عندَ الله، أو أنَّها تَنصُرُهم عندَ الحاجةِ[١].

- وأضافَ الشُّركاءَ هنا في قوله: ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ﴾ إليهم؛ وذلك على حسَبِ ما كانوا يُسمُّونَه ويَعتقِدونَه فيهم، أو لأنَّهم كانوا مِن جِنسِهم وجَوهرِهم، يَفْنَوْن كما يَفْنَوْن هم، وفي آياتٍ أُخرَى قال: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾ [النحل: ٢٧، القصص: ٦٢-٧٤، فصلت: ٤٧]؛ فأضافَهم إلى نفْسِه حِكايةً لقَولِهم، واللهُ لا شَريكَ له، والمعنى: أينَ الذين في دَعواكم أنَّهم شُركائِي، فأضافَهم على حسَبِ ما كانوا يَقولونَه، ويَنسُبونَه[٢].

- وقد حُذِفَ المفعولُ الثَّاني لقوله: ﴿تَزْعُمُونَ﴾[٣]؛ ليعمَّ كلَّ ما كانوا يَزعُمونه لهم؛ مِن الإلهيَّةِ والنَّصرِ والشَّفاعةِ[٤].

٥- **قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾**

- عطفَ بـ﴿ثُمَّ﴾؛ لأنَّ القولَ متأخِّرٌ عن زمَنِ حشْرِهم بمهلةٍ؛ لأنَّ حِصَّةَ انتظارِ المجرمِ ما سيَحلُّ به أشدُّ عليه، ولأنَّ في إهمالِ الاشتغالِ بهم تَحقيرًا لهم[٥].

- قوله: ﴿لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا...﴾ الفِتنةُ يحتملُ أنْ تكونَ هنا بمعنى اضطرابِ الرأيِ، والحَيرةِ في الأمْرِ؛ فيكون في الكلامِ إيجازٌ، والتَّقدير: فافتَتنوا في ماذا يُجيبون، فكان جوابُهم أنْ قالوا: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٢)، ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٧٥)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١٠٦٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٤/ ٤٤)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (١٣/ ٤٧).

(٣) أمَّا المفعولُ الأوَّلُ فحُذِفَ على طريقة حَذْفِ عائد الصِّلَة المنصوبِ؛ إذ التقدير: تزعمونهم شركائي. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٧٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ١٧٤).

فعدَلَ عن المقدَّرِ إلى هذا التركيبِ؛ لأنَّه قد عُلِم أنَّ جوابَهم ذلك هو فِتنتُهم؛ لأنَّه أثَرُها ومَظْهرُها، ويَحتملُ أنْ تكونَ الفِتنةُ أُطلِقتْ على معناها الأصليِّ، وهو الاختبارُ، والمرادُ به السؤالُ، ويَتعيَّن حينئذٍ تقديرُ مضافٍ، أي: لم يكُن جوابَ فِتنَتِهم، أي: سؤالِهم عن حالِ إشراكِهم ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[١].

- قوله: ﴿قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فيه استعمالُ الماضِي مَوضِعَ المستقبلِ؛ تحقيقًا لوقوعِه ولا بدَّ[٢].

- وذِكرُهم الربَّ بالإضافةِ إلى ضَميرهم ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا﴾ مبالغة منهم في التنصُّلِ مِن الشِّركِ، أي: لا ربَّ لنا غيرُه، وقد كذَبوا وحَلَفوا على الكَذبِ؛ جَريًا على سَنَنِهم الذي كانوا عليه في الحياةِ[٣].

٦- **قوله: ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾** عبَّر بالفِعلِ الماضِي ﴿كَذَبُوا﴾ وإنْ كانَ معناه مُستقبَلًا؛ لأنَّه في يومِ القِيامةِ؛ فهو لتحقُّقِ المعنى أبْرَزَه في صُورةِ الماضي[٤]، فالأمْر وإنْ لم يكُن قدْ أتى بَعدُ؛ فإنَّ هذا على حِكايةِ الحالِ، واللهُ عزَّ وجلَّ دائمًا يَحكي الأشياءَ المستقبلةَ حتى يَتصوَّرَها الإنسانُ وكأنَّها واقعةٌ، وإنَّما يكون ذلك؛ لأنَّ الشيءَ المستقبَلَ المُحقَّق يكونُ كالواقِع تمامًا؛ ولهذا قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١] مع أنَّه ما أتَى، بدليل قوله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾؛ فيكونُ التعبير بالماضِي على حِكاية الحال حتى يتصوَّرَ الإنسانُ، وكأنَّ الشيءَ بينَ يديه[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٧٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٦٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٧٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٧٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٢٧).

الآيتان (٢٥-٢٦)

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَكِنَّةً﴾: أغطيةً، مفردُها كِنانٌ، وأصل (كنن): يدلُّ على سَتْرٍ أو صَونٍ(١).

﴿وَقْرًا﴾: أي: ثِقَلًا، وَصَمَمًا في الأُذنِ، وهذا إشارةٌ إلى جَهلِهم لا إلى عَدمِ سَمْعِهم، وأصلُ (وقر): يَدُلُّ على ثقلٍ في الشَّيءِ(٢).

﴿أَسَاطِيرُ﴾: أي: أباطيلُ وتُرَّهات، جمع أُسطورة، وهي: ما سُطِّرَ من أخبارِ الأوَّلين وكَذِبهم، وقيل: ما سَطَّره الأوَّلون من الكتُبِ، وأصل (سطر): يدلُّ على اصطفافِ الشَّيءِ، كالكِتاب والشَّجر؛ والأساطيرُ كأنَّها أشياءُ كُتِبتْ مِن الباطلِ، فصارَ ذلك اسمًا لها، مَخصوصًا بها(٣).

﴿وَيَنْأَوْنَ﴾: يَتباعدون، والنَّأي: البُعد(٤).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٢، ٧٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٠، ٨٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٢- ٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٣١).

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ مِن المشرِكين مَن يَستمعُ القرآنَ مِنَ النبيِّ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، لكن لا يَنتفعون بهذا السَّماعِ؛ فاللهُ تعالى جعَلَ على قُلوبِهم أغطيةً؛ لئلَّا يَعقِلوه، وجعَلَ في آذانِهم صَممًا عن السَّماعِ النَّافِعِ، وذلك بسببِ عنادِهم وجحودِهم، ومهما رأَوا مِن الدَّلالاتِ والحُججِ البيِّنةِ فلن يُؤمِنوا بها، حتى إذا حضَروا إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فإنَّهم يُخاصمونَه في الحقِّ بالباطلِ، ويقولُون له: ما هذا الذي جِئتَ به إلَّا مأخوذٌ مِن كتُبِ السَّابِقين.

هؤلاءِ المشرِكون يَنهَوْن الناسَ عن اتِّباعِ الحقِّ، ويَبتعِدون عنه بأنفسِهم، وما يُهلِكون إلَّا أنفسَهم بصدِّهم، وإعراضِهم عن الحقِّ، ولا يَشعُرون بذلِك.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (٢٥) ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بَيَّن أحوالَ الكفَّارِ في الآخِرَةِ؛ أتْبَعه بما يُوجِبُ اليأسَ عن إيمانِ بَعضِهم(١)، فقال:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾.

أي: ومِن هؤلاءِ المشرِكين مَن يَستمِعُ للقرآنِ مِنك- يا مُحمَّدُ(٢).

(١) ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٣٢).

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾.

أي: وضَعْنا على قُلوبِهم أغطيةً وأغشيةً؛ لئلَّا يَعقِلوا كلامَ الله سبحانَه؛ وذلك بسببِ مُبادرتِهم إلى الكُفرِ، وتكذيبِ الرُّسُلِ طائِعين مُختارين، فجَزاهم اللهُ تعالى على ذلك الذنبِ طَمْسَ البَصيرة، والعَمَى عن الهُدَى، جزاءً وِفاقًا[1].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا * وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء: ٤٥-٤٦].

وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾.

أي: وجَعَلنا في آذانِهم ثِقلًا وصَممًا عن السَّماعِ النافِعِ، فلا يَنتفِعون بما سَمِعوا، ومَن لا يَنتفِعُ بمَا سَمِعَ فهو كمَن لم يَسمَعْ، مُجازاةً لهم على كُفرِهم[2].

كما قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٩٦-١٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٦-٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٣٢، ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٦-٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٣٣).

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر سبحانه عدمَ انتفاعِهم بعقولِهم- حتَّى كأنَّ على محالِّها أكنَّةً- ولا بَسماعِهم، حتَّى كأنَّ في آذانهم وقرًا، انتقَلَ إلى الحاسَّة التي هي أبلغُ مِن حاسَّةِ السَّماعِ، فنَفَى ما يَترتَّبُ على إدراكِها، وهو الإيمانُ، فقال[1]:

﴿وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا﴾.

أي: ومَهما يَرَ هؤلاءِ من الدَّلالاتِ والحُججِ البيِّنات، لا يَنقادُوا إليها، ولا يُصدِّقوا بها، ولا يُقرُّوا بها[2].

كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ٢].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾.

أي: حتَّى إذا حضَروا إليك- يا محمدُ- يُخاصِمونَك، ويُحاجُّونك في الحقِّ بالباطِل، قالوا لكَ: ما هذا الذي جِئتَ بِه إلَّا أشياءُ مأخوذةٌ من كتُبِ السَّابقِينَ، ومَنقولةٌ عن صُحُفِهم المسطورةِ، التي ليستْ عن اللهِ تعالى، ولا عن رُسلِه عليهم السَّلام[3].

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١].

وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٦٩، ٤٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٣٣-١٣٥).

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾.

أي: والمشركونَ باللهِ تعالى يَنهَوْنَ الناسَ عن اتِّباعِ الحقِّ، وتصديقِ الرَّسولِ، والانقيادِ للقُرآن، ويبتَعدونَ بأنفُسِهم عنه؛ فهم لا يَنتفِعونَ بالحقِّ، ولا يَتركُون أحدًا ينتفِعُ به، جامِعينَ بين الضَّلالِ والإضلالِ(١).

﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

أي: ولا يعودُ وبالُ صَدِّهم عن الحقِّ، وإعراضِهم عنه إلَّا عليهم، لكنَّهم لا يَشعُرون بذلك(٢).

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ فيه التحذيرُ مِن الاستِماعِ بلا انتفاعٍ، وأنَّ هذا دأبُ الكفَّار، فلَيسَ كلُّ مُستمعٍ بمُنتفِعٍ ، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾ [محمد: ١٦] ويَتفرَّعُ على هذا أنَّه يَنبغي للإنسانِ إذا استَمَع أنْ يَتأمَّلَ، ويتفكَّر فيما استمَعَ إليه، لا سيَّما في الكتابِ والسُّنَّةِ؛ حتى يَعرِفَ معناهما(٣).

٢- قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها﴾ فاللهُ تعالى يُريدُ أنْ يُبيِّنَ لنا هذه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٠٥-٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٧-٢٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) ٩/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٣٥).

النماذجَ البشريَّةَ التي تستمعُ، ولكنَّها لا تَفقَهُ، كأنْ ليس لها قلوبٌ تُدرِكُ، وكأنْ ليس لها آذانٌ تسمعُ، وهي نماذجُ مَكرورةٌ في البشريَّةِ في كلِّ جِيلٍ، وفي كلِّ قَبيلٍ، في كلِّ زمانٍ، وفي كلِّ مكانٍ؛ إنَّهم أَناسيُّ من بَني آدم، ولكنَّهم يَسمعون القولَ، وكأنَّهم لا يَسمَعونه، كأنَّ آذانهم صمَّاءُ لا تُؤدِّي وظيفتَها، وكأنَّ إدراكَهم في غِلافٍ لا تَنفُذُ إليه مدلولاتُ ما سَمِعتْه الآذانُ! فأعينُهم ترَى كذلك، ولكن كأنَّها لا تُبصِر، أو كأنَّ ما تُبصِرُه لا يَصِلُ إلى قُلوبِهم وعُقولِهم[1]!

٣- في قولِه تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاؤُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أنَّ قولَ الكافِرين هنا هو شأنُ مَن يَنظُرُ إلى الشيءِ نظرًا سطحيًّا، لا ليستنبطَ منه عِلمًا ولا بُرهانًا، ومَن يسمعُ الكلامَ جرْسًا لفظيًّا، لا يَتدبَّره، ولا يَفقَه أسرارَه، فمَثَلُ هذا وذاك كمَثَلِ الطِّفلِ الذي يُشاهِدُ ألعابَ الصُّورِ المتحرِّكة، يُديرُها قومٌ لا يَعرِفُ لُغتَهم؛ فكلُّ حظِّه ممَّا يرَى مِن المناظِرِ، ومِن المكتوباتِ المفسِّرةِ لها، لا يَعْدُو التسليةَ. ولو عقَلَ هؤلاءِ المقلِّدونَ الغافِلون قَصصَ القرآنِ، وتَدبَّروا معانيَها، لكان لهم منها آياتٌ بيِّنةٌ على صِدقِ دَعوةِ الرَّسول صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ونُذُرٌ عظيمةٌ ممَّا فيها؛ مِن بيانِ سُننِ اللهِ تعالى في الأُممِ، وعاقبةِ أمْرِهم مع الرُّسُلِ، وغير ذلك مِن الحِكَم والعِبَرِ[2].

٤- في قولِه تعالى: ﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ التحذيرُ من سُلوكِ الإنسانِ سُبلَ الهَلاكِ وهو لا يَشعُرُ، وقد بيَّن اللهُ تعالى ذلِك في قوله: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[3] [فاطر: ٨].

٥- في قولِه تعالى: ﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ بيانٌ أنَّ أولئك

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١٠٦٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٩١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٤٣).

الذين يَجعلون هَمَّهم كلَّه في الحيلولةِ بَينَ أنفُسِهم والناسِ معهم، وبَينَ هُدَى الله؛ مَساكينُ! ولو تَبدَّوْا في ثِيابِ الجبابرةِ وزِيِّ الطَّواغيتِ! مساكينُ؛ فهُم لا يُهلِكون إلَّا أنفُسَهم في الدُّنيا والآخِرة، وإنْ بَدَا لهم حِينًا من الدَّهرِ، وبدَا للمَخدوعِينَ بالزَّبَدِ أنَّهم رابِحون مُفلِحون[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- المُشرِكون أصنافٌ، يتفاوتونَ في الفَهمِ والعَقلِ وفي الكُفرِ وأسبابِه، وقد بَيَّن اللهُ أحوالَ كلِّ فَريقٍ منهم في كِتابِه، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ...﴾[٢].

٢- وجهُ إسنادِ الفِعل إلى ذاتِه تعالى في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا﴾ للدَّلالةِ على أنَّه أمرٌ ثابتٌ فيهم لا يَزولُ عنهم، كأنَّهم مجبولون عليه، أو هي حِكايةٌ لِمَا كانوا يَنطِقون به مِن قولهم: ﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥]، أو لأنَّه خلَقَهم على هذه الخَصلةِ الذَّميمةِ والتعقُّلِ المُنحرِف، فهُم لهم عقولٌ وإدراكٌ؛ لأنَّهم كسائرِ البَشرِ، ولكنَّ أهواءَهم تُخيِّرُ لهم المنعَ مِن اتِّباعِ الحقِّ[٣].

٣- أنَّ الفِقهَ محلُّه القلبُ؛ لقوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾[٤].

٤- أنَّ عدَمَ الانتفاعِ بالسَّماعِ كالصَّممِ تمامًا؛ لقوله: ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ بل صاحبُ الصَّممِ معذورٌ، والذي لا يَنتفعُ بما سَمِع غيرُ معذورٍ؛ لأنَّ صاحبَ الصَّممِ لم يَسمعْ مِن آفةٍ حلَّتْ به[٥].

٥- قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١٠٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٧٩، ١٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٣٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ إنَّ هؤلاءِ لم يتَّجِهوا إلى الهُدى ليهديَهم اللهُ، ولم يُحاولوا أنْ يَستخدِموا أجهزةَ الاستقبالِ الفِطريَّة في كِيانهم، فيُيسِّر اللهُ لهم الاستجابةَ، هؤلاء عطَّلوا أجهزتَهم الفِطريةَ ابتداءً، فجَعَل اللهُ بينهم وبَينَ الهُدَى حِجابًا، وجَرَى قضاؤُه فيهم بهذا الذي جرَى؛ جزاءً على فِعلِهم الأوَّل ونيَّتِهم الأولى، وكلُّ شيءٍ إنَّما يكونُ بأمْرِ اللهِ؛ ومِن أمْرِ اللهِ: أنْ يَهديَ مَن يُجاهِد، وأنْ يُفلِحَ مَن يَتزكَّى، ومن أمْرِ الله: أنْ يَجعلَ على قُلوبِ المعرِضين أكنَّةً أنْ يَفقهوه وفي آذانِهم وقرًا، وإنْ يَرَوْا كلَّ آيةٍ لا يُؤمنوا بها، والذين يُحيلون ضلالَهم وشِرْكَهم وخطاياهم على إرادةِ اللهِ بهم، وعلى قَضائِه فيهم، إنَّما يُغالِطون في هذه الإحالةِ، والله سبحانه يَجبَهُهم بالحقِّ، وهو يَحكي أقوالَهم في هذا الشأنِ ويُسفِّهُها: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [النحل: ٣٥]، فدلَّ هذا على إنكارِ اللهِ عليهم قولَهم، وعلى أنَّ الضَّلالةَ إنَّما حقَّتْ عليهم- بعدَ النِّذارةِ- بِفعلِهم(١).

٦- أنَّ المجادِلَ بالباطِلِ يَلجأُ إلى المكابَرةِ؛ كما في هذِه الآيةِ ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾؛ لأنَّ دَعواهم ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ مكابرةٌ بلا شكٍّ، وكلُّ أحدٍ يَعرِفُ أنَّ القرآنَ الكريمَ ليس قولَ البَشرِ، فضلًا أنْ يكونَ أساطيرَ الأوَّلين، ولكن هذه نهايةُ المجادَلةِ والمكابَرةِ(٢).

٧- أنَّ هؤلاءِ المشركين جمَعوا بين الضَّلالِ والإضلالِ؛ الإضلالُ في قوله: ﴿يَنْهَوْنَ﴾، والضَّلالُ في قولِه: ﴿يَنْأَوْنَ﴾ وهذا أشدُّ مِن العُدوانِ والظُّلمِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١٠٦٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٤٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٤٣).

٨- قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ قُدِّم النهيُ على النَّأيِ مع أنَّه كان المتوقَّعُ أنْ يُبدأَ بالنَّأيِ الذي هو فِعلُهم بأنفسِهم دون فِعلِهم بغيرهم؛ إشارةً إلى شِدَّةِ كراهتِهم لِمَا جاءَ به الرسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، حتى إنَّهم يَبدَؤون بنهيِ الناسِ قَبلَ أنْ يَبتعِدوا عنه(١).

٩- أنَّ كلَّ مَن حاولَ إبطالَ الحقِّ، وإبعادَ الناسِ عنه، فإنَّما جنَى على نفْسِه، وستكونُ العاقبةُ عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾ حتى لو برَقتْ له الدُّنيا، وظفِرَ بنصْرٍ ظاهريٍّ(٢).

١٠- قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ فيه تسليةٌ للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وأنَّ ما أرادوا به نِكايتَه إنما يَضرُّون به أنفُسَهم(٣).

١١- عقَّب قوله: ﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ بقولِه: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ زيادةً في تحقيقِ الخطأِ في اعتقادِ أولئكَ المشركِينَ، وإظهارًا لضَعْفِ عُقولِهم مع أنَّهم كانوا يَعُدُّونَ أنفسَهم قادةً للنَّاسِ(٤)!

بَلاغةُ الآيتين:

١- قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتمعُ إِلَيكَ...﴾ فيه مناسبةٌ حسنةٌ؛ حيثُ قال هنا: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتمعُ﴾ بالإفرادِ، وفي سورةِ يونس قال: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٤٢] بالجمْعِ؛ لأنَّ لكلٍّ مِن الموضعينِ ما يُوجِبُ اختصاصَه باللَّفظِ الذي جاءَ فيه؛ فأمَّا قولُه تعالى هنا: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتمِعُ﴾ بالإفرادِ فقد نَزلَ في قَومٍ قليلِينَ، وهم: أبو سُفيان، والنَّضرُ بن الحارث، وعُتْبة، وشَيبة،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٤١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٤٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٨٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وأُميَّةُ، وأُبيُّ بن خَلَف، وأمَّا قوله تعالى في سورةِ يونس ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ...﴾ [يونس: ٤٢] بالجمْعِ، فهو في كلِّ الكفَّار الذين يَستمِعون مسموعًا هو حُجَّةٌ عليهم، وهو القرآنُ، ولا يَنتفعونَ بسماعِه، فكأنَّهم صُمٌّ عنه؛ فلمَّا كانت (مَن) تصلُح للواحدِ فما فَوقَه، ويجوزُ أن يَعودَ الضَّميرُ إلى لَفظِه وهو الواحد، وإلى معناه وهو الجمعُ، واختَلَف هذانِ المكانانِ في القِلَّةِ والكثرةِ- حُمِلت في موضعِ القِلَّةِ على حُكم اللَّفظِ، وعادَ الضَّميرُ إليها بلفظِ الواحِد، وفي موضِعِ الكثرةِ على حُكم المعنى، وعاد الضَّميرُ إليها بلفظِ الجَمْعِ؛ لإفادةِ هذا المعنى بالاختلافِ في التَّعبيرِ؛ فلمْ يصلُحْ في كلِّ مكانٍ إلَّا اللَّفظُ الذي خَصَّه، مع القَصْدِ الذي ذُكِر(١).

٢- قولُه: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾

- في جَعْلِ الأكنَّةِ على القلوبِ في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾، والوَقرِ في الآذانِ في قوله: ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ تَشبيهٌ للحُجُبِ والموانِعِ المعنويَّة بالحُجُبِ والموانِعِ الحِسيَّة؛ فإنَّ القلبَ الذي لا يَفقَهُ الحديثَ، ولا يَتدبَّره، كالوعاءِ الذي وُضِع عليه الكِنُّ أو الكِنانُ- وهو الغطاءُ- حتَّى لا يَدخُلَ فيه شيءٌ، والآذانُ التي لا تَسمَعُ الكلامَ سَماعَ فَهمٍ وتدبُّرٍ، كالآذانِ المصابةِ بالثِّقل أو الصَّمم؛ لأنَّ سمْعَها وعدمَه سواءٌ(٢).

- وفيه كنايةٌ في جَعْلِ الأكنَّةِ على القلوبِ، والوَقْرِ في الآذانِ، وهذا كِنايةٌ

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٥٠٣- ٥٠٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ١٦٢-١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٩٠).

عن نُبُوِّ قُلوبِهم ومَسامِعِهم عن قَبولِ الحقِّ، والاعتقادِ بصحَّتِه(١).

٣- قوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ جملةٌ شرطيَّةٌ مَقصودٌ بها الإخبارُ عن المبالغةِ التامَّةِ، والعِنادِ المُفرِط في عدمِ إيمانِهم، حتَّى إنَّ الشَّيءَ المرئيَّ الدالَّ على صِدقِ الرَّسولِ حَقيقةً، لا يُرتِّبون عليه مُقتضاه، بل يُرتِّبون عليه ضِدَّ مُقتضاه(٢).

٤- ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾: فيه العدولُ عن الإضمارِ إلى الإظهارِ- حيث قال: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ولم يقُل: (يقولون)- لزيادةِ التَّسجيلِ عليهم بالكُفرِ، وأنَّهم ما جاؤوا طالبِينَ الحقَّ كما يَدَّعُونَ، ولكنَّهم قدْ دخَلُوا بالكفرِ وخرَجوا به، فيقولون: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾؛ فهم قدْ عدَلُوا عن الجدلِ إلى المباهَتةِ والمكابرةِ(٣).

٥- قوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ فيه إظهارٌ لغايةِ نُفورِهم عنه، وتأكيدٌ لنَهيِهم عنه بقوله: ﴿وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾، أي: يَتباعدون عنه بأنفسِهم؛ فإنَّ اجتنابَ الناهِي عن المنهيِّ عنه مِن مُتمِّماتِ النَّهيِ(٤).

- وبين قوله: ﴿يَنْهَوْنَ﴾، وقوله: ﴿وَيَنْأَوْنَ﴾ جِناسٌ، وهو جناسُ التصريفِ الذي هو اختلافُ صِيغةِ الكلمتينِ بإبدالِ حرفٍ مِن حرفٍ، أو مِن قَريبٍ مِن مَخْرجِه، سواءٌ أكان الإبدالُ في الأوَّل أم في الوَسطِ أم في الآخِر(٥)، وهو مِن المحسِّناتِ البديعيَّة.

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ٨٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٧٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٨١، ١٨٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٢٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٨٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ٩٠).

٦- قوله: ﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ فيه قصرٌ إضافيٌّ، وهو يُفيدُ قلبَ اعتقادِهم؛ لأنَّهم يَظنُّون بالنَّهي والنَّأْي عن القرآنِ أنَّهم يَضرُّون النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لئلَّا يتَّبعوه، ولِئَلَّا يَتَّبِعَه النَّاسُ، وهم إنَّما يُهلِكون أنفسَهم؛ بدوامِهم على الضلالِ، وبتضليلِ الناسِ، فيَحمِلون أوزارَهم، وأوزارَ الناسِ معَ أوزارِهم[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٨٣).

الآيات (٢٧ - ٣٢)

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾
بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ
هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا
بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ
ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ
ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ
لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿بَغْتَةً﴾: أي: فجأةً، وكلُّ ما جاءَ فجأةً فقد بَغَتَ، يقال: قد بَغَتَه الأمرُ يَبْغَتُه بغتًا وبَغتةً، إذا أتاه فجأةً، والبغتُ: مفاجأةُ الشَّيءِ من حيثُ لا يُحتَسَب[١].

﴿يَا حَسْرَتَنَا﴾: أي: يا نَدامتَنا واغتمامَنا على ما فاتَنا- ولا يُمكن ارْتجاعُه- وتلهُّفَنا عليه، وأصلُ (حسر): كشْفُ الشَّيءِ[٢].

﴿فَرَّطْنَا﴾: أي: تَركْنا وأَغْفَلْنا وضَيَّعْنا، والتفريطُ: التقصيرُ؛ يقال: ما فرَّطتُ في كذا، أي: ما قصَّرتُ فيه، وأصلُ (فرط): يدلُّ على إزالةِ شيءٍ من مَكانِه، وتنحيتِه عنه[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٢٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٧٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٠٠).

﴿أَوْزَارَهُمْ﴾: جَمْع وِزْر، والوِزْرُ هو الإثمُ والذَّنْبُ، والثِّقْلُ والحِمْل أيضًا، وقيل: الوِزْرُ: هو الحِمْلُ الثَّقيلُ مِن الإثمِ، وهو الإثمُ العَظيمُ، وأصلُ (وزر): يدلُّ على مَا حمَلَه الإنسانُ، وعلى الثِّقل في الشَّيء؛ ومنه سُمِّيت الآثامُ أوزارًا؛ لأنَّها أحمالٌ مُثقِلةٌ[1].

﴿سَاءَ﴾: أي: قبُح، والسُّوءُ: اسمٌ جامِعٌ للآفاتِ، ويُستعمَل في كلِّ ما يُسْتقبَحُ، وهو أيضًا كلُّ ما يَغُمُّ الإنسانَ[2].

﴿مَا يَزِرُونَ﴾: أي: الإثمُ الذي يَأثَمونَه، والثِّقَلُ الَّذي يَتحَمَّلون[3].

﴿وَلَهْوٌ﴾: اللَّهو: ما يَشغَلُ الإنسانَ عمَّا يَعنيه ويُهِمُّه، أو كلُّ باطلٍ ألْهَى عن الخيرِ وعمَّا يَعني؛ يُقال: لهوتُ بكذا، ولهيتُ عن كذا: اشتغَلْتُ عنه بلهوٍ، وأصل (لهو): يدلُّ على شُغلٍ عن شيءٍ بشيءٍ[4].

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قوله: ﴿فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

(١) يُنظر: ((العين)) للخليل بن أحمد (٧/ ٣٨٠)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٩)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٣/ ١٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٧).
فائدة: قال ابن جرير: (وقد زعم بعضُهم أنَّ الوزر: الثِّقَل والحِمل. ولستُ أعرفُ ذلك كذلك في شاهدٍ ولا مِن روايةٍ ثقةٍ عن العرب). ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢١٦)، وهو رحمه الله إنما أخبر بما علمه، وإلا فمعاجم اللغة على إثباتِ هذا المعنى. وينظر- إضافةً لِمَا سَبَق من مراجِع-: ((الصحاح)) للجوهري (٢/ ٨٤٥- ٨٤٦)، ((لسان العرب)) لابن منظور (٥/ ٢٨٢- ٢٨٣).
(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢١٦)، و(١٤/ ١٩٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٧).
(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧٨).

الفِعلان ﴿نُكَذِّبَ﴾ و﴿نَكُونَ﴾ قُرِئَا بالنَّصب فيهما، وبالرَّفع فيهما، وبنَصْبِ الأَوَّلِ ورفْعِ الثَّاني، وبالعكسِ؛ فهذه أربعةُ أوجهٍ في الإعرابِ(١)

فأمَّا نَصْبُ الفِعلَينِ: فهو بإضمارِ (أَنْ) بعدَ الواوِ التي بمعنى (معَ)؛ مِثل: (ليت لي مالًا وأُنفقَ منه)، و(أنْ) المُضمَرَة مَصدريَّةٌ يَنسبِكُ منها ومِن الفعلِ بعدَها مَصدرٌ، والواوُ حرفُ عطفٍ، فيُقدَّر المعطوفُ عليه مَصدرًا مُتوهَّمًا، يُعْطَفُ هذا المصدرُ المنسبِكُ مِن (أَنْ) وما بَعدَها عليه، والتقديرُ: يا ليتَنا لنا رَدٌّ، وانتفاءُ تكذيبٍ بآياتِ ربِّنا، وكَوْنٌ مِن المؤمنين، أي: ليتَنا لنا ردٌّ مع هذَينِ الشَّيئينِ؛ فهذه الثلاثةُ الأشياءِ مُتمنَّاةٌ بقيدِ الاجتِماعِ، لا أنَّ كلَّ واحدٍ مُتمنًّى وحْدَه؛ لأنَّ هذه الواوَ شَرْطُ إضمارِ (أنْ) بعدَها: أنْ تَصلُح (مع) في مكانِها.

أو يكونُ النَّصبُ على جَوابِ التمنِّي؛ فلا يكون التكذيبُ، وكونُهم من المؤمنين، داخلَينِ في التَّمنِّي، والواوُ بمعنى الفاءِ حينئذٍ، فالواو مُبْدَلةٌ من الفاءِ، والتقديرُ: يا لَيتنا نُرَدُّ فلا نكذِّبَ ونكونَ؛ فتكونُ الواوُ هنا بمنزلةِ الفاءِ في قوله: ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٥٨]، وقيل غيرُ ذلك.

وأمَّا رفْعُ الفِعلين: فعَلَى وجهينِ: الأوَّل: العطفُ على ﴿نُرَدُّ﴾، فيكونُ عدمُ

(١) ولعلَّ حِكمةَ اختلافِ القِراءاتِ في قوله: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بيانُ اختلافِ أحوالِ أولئك المشركين في تَمنِّيهم بأنْ يكونَ منهم مَن يَتمنَّى أنْ يُردَّ إلى الدُّنيا، وأنْ يكونَ فيها غيرَ مُكذِّبٍ بآياتِ اللهِ الكونيَّة والمُنَزلةِ، وأنْ يكونَ من المُؤمنين، وذلك على قِراءة الجمهور ﴿نُكَذِّبُ... وَنَكُونُ﴾ برَفْعِهما، ومنهم مَن يتمنَّى الردَّ مُصاحِبًا لِمَا حدَثَ له في الآخِرة من النَّدمِ على التَّكذيبِ ومِن الإيمانِ بما جاءَ به الرسولُ؛ إذ لا تلازُمَ بين الردِّ وبقاءِ ذلك الأمْرِ الحادِثِ، وذلك في قوله: ﴿نُكَذِّبَ... وَنَكُونَ﴾ على قراءةِ النَّصب، ومنهم مَن يتمنَّاه؛ ليكونَ سببًا للإيمانِ وعدمِ التَّكْذيب، وذلك في قوله: ﴿نُكَذِّبُ... وَنَكُونَ﴾ على قراءة النَّصْب في ﴿نَكُونَ﴾ فقط، ومِنهم مَن يعِدُ بذلك وعدًا، وهذا الاختلافُ في كيفيَّات ذلك التمنِّي أقربُ إلى الحُصولِ من اتِّفاق أولئك الكفَّارِ الكثيرينَ على كيفيَّةٍ واحدةٍ؛ ممَّا يدلُّ عليه اختلافُ القِراءات؛ لأنَّه هو المعهودُ من البَشَر، ولعلَّهم يتمنَّون ذلك جاهِلين أنَّه مُحالٌ، على أنَّ الناسَ يَتمنَّوْن المحالَ ولو على سَبيلِ التحسُّرِ. يُنظَر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٩٤).

التكذيبِ، والكَونُ من المؤمنين، داخلَينِ في التَّمنِّي كالردِّ، ويكونون قد تَمنَّوا ثلاثةَ أشياءَ: الردَّ إلى دارِ الدنيا، وعدَمَ تكذيبِهم بآياتِ ربِّهم، وكونَهم من المؤمنين. الثاني: أنْ يكونَ الرَّفْعُ على القَطعِ بتَقديرِ مُبتدأ، وتكونَ جملةُ الفِعل هي الخَبَر، والتقديرُ: ونحنُ لا نُكذِّبُ، ونحن نَكونُ من المؤمنين، وعلى هذا فجُملةُ (نحن لا نُكذِّب) و(نحن نكون...)؛ إمَّا في مَحلِّ نصْبٍ على الحالِ من الضَّمير في ﴿نُرَدُّ﴾؛ فيكونانِ داخلَينِ في التمنِّي كذلك، وإمَّا استئنافًا لا تَعلُّقَ له بما قَبلَه؛ ويكون المعنى: أنَّهم ضَمِنوا ألَّا يُكذِّبوا بعدَ الردِّ، وأنْ يكونوا مِن المؤمنين. وقيل غيرُ ذلك.

وأمَّا نصْبُ الأوَّلِ ورفْعُ الثَّاني والعكسُ؛ فإعرابُ كلِّ فِعلٍ بحسَبِ ما مرَّ من توجيهِ الرَّفعِ والنَّصبِ لكلِّ واحدٍ منهما[1].

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٤٩- ٢٥٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٨٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٥٨٤- ٥٩٠).

وثمَّة إشكال في الأوجه الإعرابيَّة التي يَدخُل فيها قولُهم في التمنِّي؛ لأنَّه قال بعدَ هذه الآية: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، والتَّمنِّي إنشاءٌ، والإنشاءُ لا يَدخُله الصدقُ ولا الكذبُ، وإنَّما يَدخُلانِ في الإخبارِ، وهذا قد دخلَه الكذبُ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، وقد أُجيب بجوابين؛ الأوَّل: أنَّ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ليس متعلِّقًا بالمتمنَّى، بل هو مَحْضُ إخبارٍ من الله تعالى بأنَّهم دَيْدَنُهم الكذبُ وهِجِّيراهم ذلك؛ فيكون ذلك حِكايةً وإخبارًا عن حالِهم في الدُّنيا، لا تَعلُّقَ به بمتعلِّقِ التمنِّي، فلم يدخل الكذبُ في التمنِّي. الثاني: أنَّ هذا التمنِّي قد تَضمَّنَ معنى الخبرِ والعِدَة، فإذا كانتْ سجيَّةُ الإنسانِ شيئًا، ثمَّ تَمنَّى ما يُخالِفُ السجيَّةَ، وما هو بعيدٌ أن يقَعَ منها، صحَّ أنْ يَكذِبَ على تجوُّزٍ، نحو: ليتَ اللهَ يَرزُقني مالًا فأُحسِنَ إليكَ، وأُكافِئَك على صَنيعِك، فهذا مُتمَنٍّ في معنى الواعِدِ والمخبِرِ، فإذا رزَقه اللهُ مالًا ولم يُحسِنْ إلى صاحبِه، ولم يُكافِئْه كذَبَ، وكان تمنِّيه في حُكم مَن قال: إنْ رزَقَني اللهُ مالًا كافأتُك على إحسانِك؛ فلَمَّا تَضمَّنَ التمنِّي في قولِهم: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ...﴾ وعدًا؛ فلذلك صحَّ إدخالُه في حُكم كذِبِهم دُخولَ الخاصِّ في العامِّ؛ لأنَّ التذييلَ يُؤذِنُ بشمولِ ما ذُيِّل به وزيادة؛ فليس وصفُهم بالكذبِ بعائدٍ إلى التمنِّي، بل عائدٌ إلى ما تَضمَّنه من الوعدِ بالإيمانِ، وعدمِ التكذيبِ بآياتِ الله. =

٢- قوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾

﴿بغتةً﴾: منصوبةٌ على أنَّها مصدرٌ في موضِعِ الحال، أي: باغِتةً أو مُباغِتةً، وقيل: منصوبةٌ على أنَّها مصدرٌ لِفعلٍ مَحذوفٍ مِن لفظِها، والتقديرُ: تَبغتُهم بَغتةً، وقيل: إنَّها منصوبةٌ على أنَّها مصدرٌ على غيرِ الصَّدر- من غيرِ لفْظِه-؛ لأنَّ معنى ﴿جَاءَتْهُمْ﴾: بَغَتَتْهُمْ بغتةً[1].

المَعنَى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ لنبيِّه صلَّى عليه الله وسلَّم: لو اطَّلعتَ على هؤلاءِ المشركين، ورأيتَهم لرأيتَ أمرًا عَظيمًا، عندمَا يقِفون على النَّارِ، ويُشاهِدون ما فيها مِن أهوالٍ، ويُعايِنونَ عذابَها، عندَ ذلك يتحسَّرونَ، ويتمنَّونَ العودةَ إلى الدُّنيا للعَمَلِ الصَّالِحِ، والتَّصديقِ بآياتِ اللهِ، ولِيكونوا مِن المؤمنينَ.

وليس الأمرُ كما قالوا؛ بل ظَهَر لهم ما كانوا يُخفونَ مِن قَبلُ، ولو رُدُّوا إلى الدُّنيا لعادُوا لارتكابِ ما نُهوا عنه قبل ذلِك، من الكُفرِ والعِصيان، وإنَّهم لكاذِبون فيما يَدَّعونَه.

ثم ذكَر اللهُ تعالى بعضَ ما كان هؤلاء المشركونَ يَفترونَه في الدُّنيا، ومن ذلك قولُهم: لا توجدُ حياةٌ أُخرى غيرُ الحياةِ الدُّنيا، وما نحن بمَبعُوثينَ، ولا محاسَبينَ.

ثم يقولُ اللهُ لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ولو رأيتَ هؤلاء المكذِّبين بالبعثِ حينَ يَقِفونَ بين يَدَيْ ربِّهم، فيقول لهم تعالى مُوبِّخًا: أليس هذا البعثُ- الذي تَرونَه- حقًّا ثابتًا؟ فيُجيبون حالِفينَ بربِّهم: إنَّه حقٌّ ثابتٌ، لا شكَّ فيه، فيقولُ لهم تعالى: فذُوقوا العذابَ جزاءَ كُفرِكم.

= ينظر المراجِع السَّابقة، وينظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٨٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٩٣).

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٥٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٩٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٥٩٥).

ويُخبِرُ تعالى أنَّه قد خَسِر الذين كذَّبوا بلِقائِه تعالى، حتَّى إذا جاءتْهم الساعةُ فجأةً، أظهَروا تَحسُّرَهم وتندُّمَهم على ما فاتَهم بسببِ تفريطِهم في دنياهم، وتضييعِ أعمارِهم، وتركِ الاستعدادِ لهذا اليومِ، الذي يُلاقونَ فيه ربَّهم، وهم يَحمِلونَ ذُنوبَهم وآثامَهم على ظُهورِهم، ألَا بِئسَ ما يَحملونَه مِن آثامٍ!

ثُمَّ يُبيِّن تعالى أنَّ الحياةَ الدُّنيا إنَّما هي لعِبٌ ولهوٌ، وأنَّ الدَّارَ الآخِرةَ هي خيرٌ لِمَن اتَّقى، ثم يقولُ تعالى: أليستْ لكم - يا مَنْ كذَّبتم بالبعثِ - عقولٌ تعقلونَ بها حقيقةَ الدُّنيا، وأنَّ الآخرةَ خيرٌ وأبقَى؟!

تَفسيرُ الآيات:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى صِفةَ مَن يَنهى عن متابعةِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلام، ويَنأى عن طاعتِه بأنَّهم يُهلِكونَ أنفسَهم، شرَحَ كيفيَّةَ ذلك الهلاكِ بهذه الآيةِ[1].

وأيضًا لَمَّا حَكَى تعالى عنهم في آياتٍ سابقةٍ إنكارَهم للحشرِ والنَّشرِ والبعثِ والقِيامة؛ بَيَّن في هذه الآيةِ كيفيَّةَ حالِهم في القيامةِ[2].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر تعالى حديثَ البَعثِ في قَولِه: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾، واستطرَدَ من ذلِك إلى شَيءٍ مِن أوصافِهم الذَّميمةِ في الدُّنيا، عادَ إلى الحديثِ عن البَعثِ[3]، فقال تعالى:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾.

أي: ولو رأيتَ - يا محمَّدُ - هؤلاءِ الكفَّارَ والمشْرِكين، وقد أُوقِفوا يومَ القِيامةِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥٠٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٥١١).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٧٣).

على النَّارِ، فشاهَدُوا ما فيها من الأهوالِ؛ لرأيتَ أمرًا عَظيمًا، وشأنًا فظيعًا(١).

﴿فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾.

أي: فيقولُ هؤلاء المشركون حينذاك: يا ليتَنا نُعادُ إلى الدُّنيا؛ كي نؤمِنَ، ونعملَ صالحًا(٢).

كما قال سبحانه: ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ * وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٦-٣٧].

﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾.

أي: وإذا عُدْنا إلى الدُّنيا فلنْ نُكذِّبَ بالأدلَّةِ، والبيِّناتِ التي جاءتْنا من ربِّنا(٣).

﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: ونكونَ من المؤمنِين حقًّا(٤).

﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾.

أي: ما زَعَموه من أنَّهم لو رُدُّوا إلى الدُّنيا لآمَنوا بدَعْوَى أنَّه ظهَرَ لهم الآنَ صِدقُ رُسلِ اللهِ تعالى؛ ليس صحيحًا، بل كانوا يَعلمون صِحَّةَ رِسالتِهم وصِدقَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٠٦-٢٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٠٨، ٢١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص:١٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٠٨).

نُبوَّتهم، ولكنَّهم كانوا في الدُّنيا يُخفونَ ذلك في قَرارةِ أنفسِهم؛ ظلمًا وعنادًا، فلم يَظهرْ لهم يومَ القيامة شيءٌ جديدٌ؛ ليكونوا عالِمين به فيُعذَروا، بل ظَهَرَ لهم ما كان معلومًا لدَيهم من قَبلُ. وإنَّما تَمنَّوُا العودةَ إلى الدُّنيا لا رَغبةً وحبًّا في الإيمانِ كما زعَموا كذبًا؛ فإنَّهم لو رُدُّوا لعادوا للكفرِ الذي هو طَبعٌ لهم وسجيَّة، ولكنَّهم تَمنَّوا ذلك لَمَّا عاينوا العذابَ الذي لا طاقةَ لهم باحتمالِه(١).

كما قال تعالى مخبرًا عن موسى عليه السَّلام أنَّه قال لفرعونَ: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢].

وقال الله تعالى مخبرًا عن فِرعونَ وقومِه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾.

أي: ولو رُدُّوا إلى الدُّنيا، فأُمْهِلوا؛ ليُؤمنوا، ويَعْمَلوا صالحًا، لرَجَعوا إلى مِثلِ ما كانوا عليه مِن قبلُ من الكُفرِ والعِصيانِ(٢).

﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

أي: وهم كاذِبون في قولِهم: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٣).

---

(١) وهذا المعنى اختارَه ابنُ القيِّم في ((عدة الصابرين)) (ص: ١٨٦)، والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ٢٥٤)، وابن عاشور في ((تفسيره)) (٧/ ١٨٥).

وجعَلَه ابنُ كثير وابن عثيمين ممَّا تحتملُه الآية. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٨-٢٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٤٧). وفي معنى الآية أقوال أخرى. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٢٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢١١-٢١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٤٨).

﴿ وَقَالُوٓاْ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

أي: وقال هؤلاءِ المشركون المنكِرون للبعثِ: لا تُوجدُ حياةٌ أخرى لنا سِوى هذه الحياةِ التي نَعيشُها في الدُّنيا، وما نحنُ بخارِجين من قُبورِنا، وما ثَمَّ حسابٌ ولا ثوابٌ ولا عقابٌ(١).

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾.

أي: ولو رأيتَ- يا محمَّدُ- هؤلاءِ القائلينَ: ما هي إلَّا حياتُنا الدُّنيا وما نحنُ بمبعوثين، وقدْ أُوقِفوا بين يَدَيِ اللهِ تعالى، لرأيتَ أمرًا فظيعًا، وهَوْلًا عظيمًا(٢).

﴿ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ﴾.

أي: قال اللهُ تعالى لهم موبِّخًا: أليسَ هذا البعثُ- الذي كنتُم في الدُّنيا تُظهرُون إنكارَه- حقًّا ثابتًا، وليسَ بباطلٍ كما كنتم تَدَّعُون؟! فأجابوا مُعترِفين: واللهِ إنَّه لَحقٌّ ثابتٌ(٣).

﴿ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢١٢-٢١٣)، ((تفسير ابن عثيمين-سورة الأنعام)) (ص:١٥٠-١٥١).
قال ابنُ جرير: (وكان ابنُ زيد يقول: هذا خبرٌ من الله تعالى عن هؤلاء الكَفرةِ الذين وُقفوا على النار، أنَّهم لو رُدُّوا إلى الدُّنيا لقالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾). ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٨٧-١٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأنعام)) (ص: ١٥٣-١٥٤).

أي: فقال اللهُ تعالى لهم: فذُوقوا مَسَّ العذابِ الذي كنتُم في الدُّنيا تُكذِّبون به؛ فذُوقوه اليومَ جزاءً على كُفرِكم في الدُّنيا[1].

﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ (٣١) ﴾.

﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ﴾.

أي: قدْ خابَ وحُرِمَ الخيرَ كلَّه، الَّذين أنكروا البعثَ بعدَ المماتِ، ولِقاءَ اللهِ تعالى للحسابِ، ونَيْلِ الثوابِ والعِقاب، وقد أوجبَ لهم هذا التكذيبُ في الدنيا ترْكَ الطاعاتِ، واقترافَ المحرَّماتِ[2].

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ﴾.

أي: حِينَ تأتِيهم الساعةُ التي يَبعثُ اللهُ فيها الموتَى مِن قُبورِهم فجأةً، يقولون تحسُّرًا: ما أعظَمَ ندامتَنا على تَفريطنا في الاستعدادِ لهذا اليومِ، وتضييعِنا لأوقاتِنا وأعمارِنا في الدُّنيا[3]!

كما قال تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٥-٥٦].

﴿ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٥٧-١٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢١٤-٢١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٥٨-١٥٩).

أي: وهؤلاءِ الذين كذَّبوا بلِقاءِ اللهِ، يَحمِلون آثامَهم وذُنوبَهم يومَ القِيامةِ على ظُهورِهم[١].

﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾.

أي: ألَا بئسَ ما يَحمِلونَه من آثامٍ[٢].

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٣٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا جرَى ذِكرُ الساعةِ، وما يَلحَقُ المشركين فيها من الحَسرةِ على ما فرَّطوا، وكانَ المنكِرون للبعثِ والقيامةِ تَعظمُ رغبتُهم في الدُّنيا، وتَحصيلِ لذَّاتِها؛ ذَكَر اللهُ تعالى هذه الآيةَ تَنبيهًا على خَساسةِ الدنيا وركاكتِها، وتذكيرًا للناسِ بأنَّ الحياةَ الدنيا زائلةٌ، وأنَّ عليهم أنْ يستعدُّوا للحياةِ الآخرةِ[٣].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر تعالى قَولَهم: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾؛ ذَكَر مصيرَها، وأنَّ مُنتهى أمرِها أنَّها فانيةٌ، مُنقضيةٌ عن قَريبٍ، فصارتْ شبيهةً باللهوِ واللعبِ؛ إذ هما لا يَدومانِ، ولا طائلَ لهما، كما أنَّها لا طائلَ لها؛ فاللَّهوُ واللعِبُ اشتغالٌ بما لا غِنى به ولا منفعةَ، كذلِك هي الدنيا، بخلافِ الاشتغالِ بأعمالِ الآخرةِ، فإنَّها التي تَعقُب المنافِعَ والخيراتِ[٤]، فقال تعالى:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٥٩).
قال ابنُ عُثيمين: (يَحمِلون جزاءَ الأعمالِ على ظُهورِهم حملًا حقيقيًّا، فالواجبُ أن نَحمِلَ الآياتِ على ظاهرِها. ولا يقول قائلٌ: كيف يحملُ الجزاء على الظَّهرِ؟! فيومَ القيامة لا يُقاس بأيَّام الدُّنيا؛ لأنَّ الحال تختلف اختلافًا عظيمًا، فمِن الجائز الممكن أنَّ الله تعالى يخلُقُ هذه الجزاءاتِ حتى تكونَ أجسامًا تُحمَل على الظهور). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٥٩-١٦٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٦٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٩٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٨٤).

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾.

أي: وليستْ هذه الحياةُ الدَّنيَّةُ زمنًا ومرتبةً- بأعمالِها ولذائذِها وشَهواتِها ومتاعِها- سِوى لعبٍ ولهوٍ(١).

كما قال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠]

﴿وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾.

أي: وأمَّا الآخِرةُ، فإنَّها- في ذاتِها وصِفاتِها، وبقائِها ودوامِها ونعيمِها- والعملَ لها، والاستعدادَ لأجْلِها في الدُّنيا بالإيمانِ والعملِ الصالحِ؛ خيرٌ من الدُّنيا لِلَّذين يَفعَلون ما أمَرَ اللهُ تعالى به، ويَترُكون ما نَهى عنه(٢).

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ [الضحى: ٤].

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧].

وعن المستورِدِ بنِ شَدَّاد رضِي اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((واللهِ، ما الدُّنيا في الآخِرةِ إلَّا مِثْلُ ما يَجعَلُ أَحدُكم إصبَعَهُ هذهِ- وأشارَ يَحيى بالسَّبَّابةِ- في اليمِّ، فلْيَنظرْ بِمَ يَرجِعُ؟))(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٩٣-١٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٦٦-١٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٦٧-١٦٨).

(٣) رواه مسلم (٢٨٥٨).

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

أي: أفليستْ لكم- أيها المكذِّبون بالبعثِ- عُقولٌ تُدركون بها حقيقةَ كلِّ دار، وأيُّهما أَوْلى بالإيثارِ[1]؟!

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- الإشارةُ إلى دُنُوِّ الحياةِ الدُّنيا، وأنَّها ليستْ بتلك الحياةِ التي يَنبغي للإنسان أن يُحافظَ عليها، ويَنسى الآخرةَ؛ لقوله: ﴿الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾.

٢- التَّزهيدُ في الدُّنيا والترغيبُ في الآخِرة؛ وجهُ ذلك: أنَّه وصَفَ الدُّنيا بقوله: ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾، ووصَفَ الآخِرةَ بقوله: ﴿خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾[2].

٣- يُستفادُ من قولِه: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أنَّ هذا تقييمٌ مُطلَق، ولكنَّه في التصوُّرِ الإسلاميِّ لا يُنشئ إهمالًا للحياةِ الدُّنيا، ولا سلبيَّةً فيها ولا انعزالًا عنها؛ فالنماذجُ الكبيرةُ التي تمثِّل التصوُّرَ الإسلاميَّ في أكملِ صورة، لم تكُن سلبيَّةً ولا انعزاليَّة؛ فهذا جيلُ الصحابةِ كلُّه، الذين قهَروا الشيطانَ في نُفوسِهم، كما قَهروه في الأنظِمةِ الجاهليَّة السَّائدةِ مِن حَوْلهم في الأرضِ، إنَّما أفادَهم هذا التَّقييمُ الربانيُّ للحياةِ الدُّنيا ولِلدَّارِ الآخِرةِ؛ أنَّهم لم يُصبِحوا عبيدًا للدُّنيا، لقد رَكِبوها ولم تَرْكبْهم! وعبَّدوها، فذلَّلوها للهِ ولسُلطانه، ولم تَستعبِدْهم! ولقد قاموا بالخِلافة فيها بكلِّ ما تَقتضيه الخلافةُ من تعميرٍ وإصلاحٍ، ولكنَّهم كانوا يَبتغونَ في هذه الخلافةِ وجهَ الله، ويَرجُون الدارَ الآخِرةَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢١٨-٢١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٦٨-١٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١٠٧٢).

٤- قولُه تعالى: ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ فيه أنَّ الدَّار الآخِرةَ خيرٌ للمتَّقينَ مِن الدُّنيا، وعلى هذا فما يُصيبهُم في الدُّنيا من الأذَى في اللهِ عزَّ وجلَّ، أو أمراضٍ تُصيبُهم، أو في فقْدِ حبيبٍ، أو ما أشْبهَ ذلك؛ فإنَّه في الآخِرَةِ يُنسَى وكأنَّه لم يكُنْ؛ لأنَّ الدارَ الآخِرةَ تمحو كلَّ شيءٍ سبَقَ، وكأنَّه لم يكُن[1].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- قولُه تعالى: ﴿فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ في العَطفِ بالفاءِ دَلالةٌ على أنَّ أوَّلَ شيءٍ يقعُ حينئذٍ في قلوبِهم، ويَسبِقُ التعبيرُ عنه إلى ألْسنتِهم، هو النَّدمُ على ما سلَفَ منهم، وتمنِّي الرُّجوع إلى الدُّنيا ليُؤمنوا[2].

٢- في قولِه تعالى: ﴿فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ شِدَّةُ ندَمِ الكافِرين إذا وُقِفوا على نارِ جهنَّم؛ لكونِهم يَتمنَّوْن أمرًا لا يُمكنُ أنْ يكون[3].

٣- قوله تعالى: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ فيه إشكال؛ إذ كيف يتمنون الردَّ مع أنَّهم يَعلَمون أنَّ الردَّ لا يَحصُلُ البتَّةَ؟

والجوابُ: أنَّه لعَلَّهم لم يَعْلَموا أنَّ الردَّ لا يَحصُلُ، أو أنَّهم وإنْ عَلِموا أنَّ ذلك لا يَحصُل إلَّا أنَّ هذا العِلمَ لا يَمنَعُ من حصولِ إرادةِ الردِّ؛ كقولِه تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ﴾ [المائدة: ٣٧]، وكقوله: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٥٠]، فلمَّا صحَّ أنْ يُريدوا هذه الأشياءَ مع العِلم بأنَّها لا تَحصُلُ، فبأنْ يَتمنَّوْه أقربُ؛ لأنَّ بابَ التمنِّي أوسعُ؛ لأنَّه يصحُّ أن يتمنَّى ما لا يصحُّ أنْ يُريدَ مِن الأمورِ الثلاثةِ الماضيةِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٦٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٩٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٤٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥١٠).

٤- في قولِه: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ غلوُّهم في الإصرارِ على الكُفرِ، وعدمُ رَغبتِهم في الإيمانِ؛ فقدْ بيَّن اللهُ تعالى أنَّهم لو شاهَدوا النَّارَ والعذابَ، ثم سألوا الرجعةَ ورُدُّوا إلى الدُّنيا، لعادوا إلى الشِّركِ[1].

٥- تعلُّقُ عِلمِ اللهِ بالمستحيلِ؛ لقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾[2].

٦- أنَّ الكافرينَ لا يَستنزِهون من الكَذِبِ حتَّى في الآخِرةِ، وكذلك المنافِقون؛ لأنَّ اللهَ تعالى كذَّبهم، وقال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[3].

٧- قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ الخواطرَ الناشئةَ عن عوامِلِ الحِسِّ دون النظرِ والدليلِ لا قَرارَ لها في النَّفْس، ولا تسيرُ على مُقتضاها إلَّا ريْثَما يدومُ ذلك الإحساسُ، فإذا زالَ زالَ أثرُه؛ فالانفعالُ به يُشبِهُ انفعالَ العَجْماواتِ من الزَّجْرِ والسَّوطِ ونحوِهما، ويزولُ بزوالِه حتَّى يُعاودَه مِثلُه[4].

٨- قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾، قوله: ﴿رَبِّهِمْ﴾، وهو اللهُ عزَّ وجلَّ، وإنَّما أضافَ رُبوبيَّتَه إليهم مع أنَّهم مِن أراذلِ عِبادِ اللهِ؛ إشارةً إلى أنَّه عزَّ وجلَّ هو الخالقُ المالِكُ المدبِّرُ لهم؛ فكانَ عليهم أنْ يَقوموا بعِبادتِه، فتكونُ إضافةُ الرُّبوبيَّةِ إليهم للإشارةِ إلى أنَّ السُّلطانَ له عليهم عزَّ وجلَّ، ومع ذلِك لم يُؤمنوا به ولا برُسُلِه، ولا عَمِلوا لهذا اليومِ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٩٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٤٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٨٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٥٣).

٩- قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ قَدْ يُتوهَّمُ أنَّه يُناقِضُ قولَه تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [البقرة: ١٧٤]، فقيل: دَفْعُ هذا التوهُّم بأنْ يُحمَل قولُه: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمْ﴾ على مَعنى: لا يُكلِّمهم كَلامَ تكريمٍ وتشريفٍ، ولا الكلامَ الذي فيه خَيرٌ، وأمَّا التوبيخُ والتَّقريعُ والإهانةُ، فكلامُ الله لهم به من جِنسِ عَذابِه لهم، ولم يُقصَدْ بالنفيِ في قوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُم﴾[1]، وقيل: يومُ القيامةِ يومٌ طويلٌ، ذو مواطنَ ومواقفَ ومواقيتَ، فيَنطِقون في وقتٍ، أو موقفٍ، ولا يَنطِقون في وقتٍ، أو موقفٍ آخَرَ[2].

١٠- خَصَّ لفظَ الذوق في قولِه: ﴿فَذُوقُوا﴾؛ لأنَّهم في كلِّ حالٍ يَجِدونه وِجْدانَ الذائقِ في قوَّةِ الإحساسِ[3].

١١- في قولِه تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ بيانُ خُسرانِ الكافرين المكذِّبين بالبعثِ، وأنَّهم مهما ظنُّوا أنَّهم رَبِحوا فهُم خاسِرون، ولكنْ متى يَعلمون أنَّهم خاسِرون؟ إذا جاءَ الأجلُ، أمَّا الآن فهُم في سَكرةٍ لا يَدرُون؛ ولهذا لو انتَصروا اقتصاديًّا، أو عسكريًّا، أو فِكريًّا، لظنُّوا أنَّهم رابِحون، ولكنَّهم خاسِرون[4].

١٢- قولُه تعالى: ﴿قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ فيه شِدَّةُ تحسُّرِ هؤلاءِ الذين كذَّبوا بلقاءِ اللهِ، وإقرارُهم على أنفسِهم بأنَّهم فرَّطوا[5].

١٣- في تَسميةِ الحياةِ الدُّنيا باللَّعِبِ واللَّهوِ في قوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥١٢)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٧-٢٨).
(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) لزكريا الأنصاري (ص: ٥١)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٤٦٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥١٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٦٠، ١٦١).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٦٤، ١٦٥).

الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ وجوه، منها: الأوَّل: أنَّ مُدَّة اللهوِ واللَّعِبِ قليلةٌ، سريعةُ الانقضاءِ والزَّوال، ومُدَّةُ هذه الحياةِ كذلك، الثاني: أنَّ اللَّعِبَ واللهوَ ينساقَان في أكثرِ الأمْرِ إلى شيءٍ مِن المكارِه، ولذَّاتُ الدُّنيا كذلِك. الثالث: أنَّ اللَّعِبَ واللهوَ إنَّما يَحصُلان عند الاغترارِ بظواهرِ الأُمورِ، فليس لهما في نفْسِ الأمرِ حقيقةٌ مُعتبَرَةٌ، فكذلك الإغراقُ في الالتذاذ بطيِّباتِ الدُّنيا، والانتفاع بخيراتِها، لا يَحصُلُ إلَّا للجاهِلين بحقائقِ الأمور. الرابع: أنَّ اللَّعِبَ واللَّهوَ ليس لهما عاقبةٌ محمودةٌ[1].

١٤- يُستفادُ من قولِه: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ، وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ بيانُ حَقيقةِ وزنِ الدُّنيا ووزنِ الآخِرَةِ في مِيزانِ اللهِ، وقِيمةِ هذه الدُّنيا وقِيمةِ الآخِرَة في هذا الميزانِ الصَّحيح؛ فهذه هي القِيمةُ المطْلَقةُ الأخيرةُ في ميزانِ اللهِ للحياةِ الدُّنيا ولِلدَّارِ الآخِرَة[2].

١٥- أوجهُ الخيريَّةِ في قوله: ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ متعددةٌ؛ أحدُها: أنَّ خيراتِ الدُّنيا خسيسةٌ؛ فالحيواناتُ تُشارِكُ الإنسانَ فيها، كالأكلِ والجماعِ، بل ربَّما كان أمرُ تِلك الحيوانات فيها أكملَ مِن أمْرِ الإنسان، وكذلك فلذَّاتُها سريعةُ الانقضاءِ والاستحالةِ، إلى غيرِ ذلك مِن الوجوهِ التي تثبت خَساسةَ هذه الملذَّات، بخلاف خيراتِ الآخِرة وسعاداتِها الرُّوحانيَّةِ فهي شريفةٌ، عاليةٌ، باقيةٌ، مُقدَّسة. الأمر الثاني: في بيانِ أنَّ خيراتِ الآخرةِ أفضلُ مِن خيراتِ الدُّنيا، هو أنْ يُقالَ: هبْ أنَّ هذينِ النَّوْعين تَشاركَا في الفضلِ إلَّا أنَّ الوصولَ إلى الخيراتِ الموعودةِ في غدِ القيامةِ معلومٌ قطعًا، وأمَّا الوصولُ إلى الخيراتِ الموعودةِ في غدِ الدُّنيا فغيرُ معلومٍ، بل ولا مظنونٍ، فكم مِن سُلطانٍ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥١٥).
(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١٠٧٢).

قاهرٍ في بُكرةِ اليومِ صار تحتَ التُّرابِ في آخِرِ ذلك اليومِ. الأمْر الثَّالث: هبْ أنَّه وَجَدَ الإنسانُ بعدَ هذا اليومِ يومًا آخَرَ في الدُّنيا إلَّا أنَّه لا يَدرِي هلْ يُمكنه الانتفاعُ بما جمَعَه من الأموالِ والطيِّباتِ واللذَّاتِ أم لا؟ أمَّا كلُّ ما جَمَعه من السَّعادات، فإنَّه قطعًا ينتفعُ به في الآخِرَة. الأمر الرابع: هبْ أنَّه يَنتفعُ بها إلَّا أنَّ انتفاعَه بخيراتِ الدُّنيا لا يَخلو عن الشَّوائبِ والمنغِّصات، والانتفاعُ بخيراتِ الآخِرَةِ خالٍ عن شوائبِ المكروهاتِ. الأمر الخامس: هبْ أنَّه ينتفعُ بتلك الأموالِ والطيِّبات من غيرِ شائبةٍ إلَّا أنَّ ذلك الانتفاعَ منقرضٌ ذاهبٌ، والمنافعُ المنقرضةُ تُحزِنُ الإنسانَ لمفارقتِها، وكلَّما كانتْ تلك المنافعُ أكملَ وألذَّ، كانتْ تلك الأحزانُ الحاصلةُ عن انقراضِها وانقطاعِها أقوى وأكْمَلَ(١).

بَلاغةُ الآياتِ:

١ - قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ فيه إيجازٌ بحَذْفِ جوابِ ﴿لَوْ﴾(٢)، وحَذْفِ مفعولِ ﴿تَرَى﴾ أيضًا، وفائدتُه: أنَّ النَّفسَ تذهبُ في تَقديرِ المحذوفِ كلَّ مذهبٍ، والخيالَ يتَّسعُ للتقديرِ، إلى جانِبِ تَفخيمِ الأمرِ، وتَعظيمِ الشَّأنِ(٣)،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ١٠٨).

(٢) فقوله: ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ يَقتضي له جوابًا، وجازَ حَذْفُه؛ لعِلم المخاطَبِ به. وأشباهُه كثيرةٌ في القُرآنِ والشِّعر، ولو قُدِّر الجوابُ، كان التقدير: لرأيتَ سُوءَ مُنقَلَبِهم، أو لرأيتَ سُوءَ حالِهم. وحذْفُ الجوابِ في هذه الأشياءِ أبلغُ في المعنى من إظهارِه، ألَا تَرى: أنَّك لو قُلتَ لغُلامِك: واللهِ لئنْ قُمتُ إليكَ! وسكتَّ عن الجوابِ، ذهب بفِكرِه إلى أنواعِ المكروهِ، من الضَّربِ، والقتْل، والكَسْر، وعَظُمَ الخوفُ، ولم يَدرِ أيَّ الأقسامِ تَبغي. ولو قلتَ: واللهِ لئن قُمتُ إليكَ لأضربنَّك، فأتيتَ بالجواب، لَعلِمَ أنَّك لم تبلغْ شيئًا غيرَ الضربِ، ولا يَخطُر ببالِه نوعٌ من المكروهِ سواه، فثبَتَ أنَّ حذْفَ الجوابِ أقوى تأثيرًا في حُصولِ الخوفِ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥٠٨).

وقيل: إنَّ جوابَ (لو) مذكورٌ مِن بَعضِ الوجوهِ، والتقدير: ولو ترَى إذا وُقِفوا على النارِ يَنوحُونَ ويقولون: يا لَيْتَنَا نردُّ ولا نُكذِّب. وعلى هذا القول فليس فيه وجه الحذف.

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ٩١).

والقاعدةُ: أنَّ حَذْف جَوابِ الشَّرطِ في مقاماتِ الوعيدِ يدلُّ على تَعظيمِ الأمْر، وشِدَّتِه(١).

- وفيه ذِكْرُ ما يكونُ مِن وُقُوفِهم على النَّارِ، وما يَترتَّب عليه من قولِهم بصِيغةِ الماضي الواقِع في حيِّزِ الشَّرطِ المستقبَل في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا﴾؛ للإعلامِ بتحقُّقِ وقوعِه، على القولِ المشهورِ في مِثله(٢). وقيل: كلمة (إذ) تُقامُ مقامَ (إذا) إذا أراد المتكلِّمُ المبالغةَ في التكريرِ والتوكيدِ، وإزالةِ الشُّبهةِ؛ لأنَّ الماضِيَ قد وقَع واستقرَّ، فالتعبيرُ عَنِ المستقبلِ باللفظِ الموضوعِ للماضي يُفيدُ المبالغةَ مِن هذا الاعتبارِ(٣).

٢- **قوله: ﴿فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾**

حرفُ النِّداء (يا) هنا لمجرَّد التنبيهِ؛ فهو حرفُ تنبيهٍ لا حرْفُ نِداء(٤)، وقيل: هو حرفُ نِداءٍ مُستعمَلٌ في التَّحسُّر؛ لأنَّ النِّداءَ يَقتضي بُعْدَ المنادَى؛ فاستُعمِلَ في التحسُّر(٥).

٣- **قوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾**: تَذييلٌ لِمَا قَبْلَه، وجِيءَ بالجُملةِ الاسميَّةِ الدالَّةِ على الدَّوامِ والثَّباتِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ الكذبَ سجيَّةٌ لهم، قد تَطبَّعوا عليها من الدُّنيا؛ فلا عجبَ أنْ يَتمنَّوُا الرُّجوعَ ليُؤمِنوا، فلو رجَعوا لعادوا لِمَا كانوا عليه؛ فإنَّ الكذبَ سجيَّتُهم(٦).

- وأيضًا فقَوْلُه: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ اعتراضٌ توسَّطَ بينَ قوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا

---

(١) يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (١/ ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥٢٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٧٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ٩٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٨٤).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ١٨٦).

لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ وقولِه: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾، وهذا الاعتراضُ مَسوقٌ لتقريرِ ما أفادَتْه الشَّرْطيةُ مِنْ كَذِبِهم المَخصوصِ، ولو أُخِّر لأَوْهَم أنَّ المرادَ تَكذيبُهم في إنكارِهم البعثَ، والمعنى: لو رُدُّوا إلى الدُّنيا لعادوا لِمَا نُهوا عنه، وقالوا...[١].

٤- قوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾

- قوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ صِيغةُ حَصْرٍ، أي: انحصَرَ جِنسُ حَياتِنا في حياتِنا الدُّنيا، فلا حياةَ لنا غيرُها؛ فبَطَلَتْ حياةٌ بعدَ الموتِ[٢].

- والضَّمير ﴿هِيَ﴾ بعد ﴿إِنْ﴾ مُبهَمٌ يُفسِّره ما بعدَ الاستثناء المُفرَّغ ﴿حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾؛ قُصِد من إبهامه الإيجازُ؛ اعتمادًا على مُفسِّره[٣].

- وقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ فيه نفيٌ للبَعثِ، وهو يستلزمُ تأكيدَ نفْيِ الحياةِ غير حياةِ الدنيا؛ لأنَّ البعثَ لا يكونُ إلَّا مع حياةٍ، وإنَّما عُطِفت ولم تُفصَل، فتكون مؤكِّدةً للجُملة قبلها؛ لأنَّ قَصْدَهم إبطالُ قولِ الرسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم: إنَّهم يَحْيَون حياةً ثانيةً، وقولِه تارةً: إنَّهم مبعوثون بعدَ الموت، فقَصَدوا إبطالَ كلٍّ باستقلالِه[٤].

٥- قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ...﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، وفي تعليقِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٢٤).
وهذا الوجه على القول بأنَّ ﴿وَقَالُوا﴾ عَطْفٌ على ﴿لَعَادُوا﴾، في قوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا﴾، أي: ولو رُدُّوا لكَفَروا ولَقَالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ كما كانوا يقولونَ قَبْلَ مُعاينَةِ القِيامَة. وأمَّا على القولِ بأنَّ ﴿وَقَالُوا﴾ مُستأنفةٌ ليستْ داخلةً في حيِّز (لو)، فليس فيه هذا الوَجْهُ. يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٥٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قَوْلِه: ﴿عَلَى رَبِّهِمْ﴾ بقولِه: ﴿وُقِفُوا﴾ تمثيلٌ لحضورِهم المحشَرَ عندَ البعثِ؛ شُبِّهَتْ حالُهم في الحضورِ للحِسابِ بحالِ عبدٍ جَنَى، فقُبِضَ عليه، فوقَف بين يدَيْ ربِّه، وبذلك تظهَرُ مزيَّةُ التعبيرِ بلَفْظ ﴿رَبِّهِمْ﴾، دون اسمِ الجلالةِ[١].

٦- قوله: ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سُؤالٍ نشأَ مِن الكلامِ السَّابقِ، كأنَّه قيل: فماذا قال لهم ربُّهم إذ ذاكَ؟ فقيل: ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾[٢]، وهو استفهامٌ تقريريٌّ دخَل على نفْيِ الأمرِ المُقرَّر به؛ لاختبارِ مقدارِ إقْرارِ المسؤولِ؛ فلذلك يُسأل عن نفْيِ ما هو واقعٌ؛ لأنَّه إنْ كان له مَطْمَعٌ في الإنكارِ تَدرَّع إليه بالنفيِ الواقِعِ في سؤال المقرِّر. والمقصود: أهذا حقٌّ؟! إذ إنَّهم كانوا يَزعُمونه باطلًا؛ ولذلك أجابوا بالحرفِ الموضوعِ لإبطالِ ما قَبْلَه وهو ﴿بَلَى﴾ فهو يُبطِلُ النفيَ؛ فهو إقرارٌ بوقوع الأمانيِّ، أي: بلى هو حقٌّ[٣].

- وقوله: ﴿قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا﴾ فيه تأكيدُ اعترافِهم باليمينِ؛ إظهارًا لكمالِ يَقينهم بأنَّه حقٌّ؛ تحقيقًا لاعترافِهم للمُعترَفِ به؛ لأنَّه معلومٌ لله تعالى، أي: نُقرُّ ولا نشكُّ في أنَّه حقٌّ؛ فلذلك نُقسِم عليه، وهذا مِن استعمالِ القَسمِ لتأكيدِ لازمِ فائدةِ الخبرِ[٤] وهذا القَسَمُ منهم يُشعِرُ بشِدَّةِ النَّدمِ على إنكارِهم الأوَّل، فكأنَّهم كذَّبوا أنفُسَهم تكذيبًا مقرونًا بالقَسَمِ، ولا يَخفَى أنَّ مِثلَ هذا لا يَخرُجُ إلَّا مِن قلبٍ مُتحسِّرٍ، ولكن فاتَ الأوانُ[٥]!

- وفي ذِكر الربِّ في قوله تعالى: ﴿بَلَى وَرَبِّنَا﴾ تَذكارٌ لهم بأنَّه كان يُربِّيهم، ويُصلِحُ حالَهم؛ فهو سيِّدُهم وهم عَبيدُه، لكنَّهم عصَوْه، وخالَفوا أمْرَه[٦].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٨٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٢٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٨٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٨٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٥٥).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٨١).

٧- قوله: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾

- قوله: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ فيه الإظهارُ في موضِع الإضمارِ؛ فالَّذين كذَّبوا هم الَّذين حُكِيت أحوالُهم، لكنْ وُضِع الموصولُ مَوضعَ الضَّمير؛ للإيذانِ بتسبُّبِ خُسرانِهم بما في حيِّزِ الصِّلةِ من التكذيبِ بلِقائِه تعالى بقيامِ الساعةِ، وما يَترتَّبُ عليهِ مِن البعثِ وأحكامِه المتفرِّعةِ عليه، واستمرارِهم على ذلك؛ فإنَّ كلمةَ ﴿حَتَّى﴾ في قولِه تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ﴾ غايةٌ لتكذيبِهم لا لخُسرانهم؛ فإنَّه أبَدِيٌّ لا حدَّ له[1]، وفي هذا الإظهارِ كذلك تَعميمٌ، وتَنبيهٌ على ما أَوْجَب لهم ذلِك الخُسرانَ[2].

- وحَسُنَ مجيءُ الخُسْران كنايةً عن فَواتِ الثوابِ العظيمِ، وحُصولِ العقابِ العظيمِ؛ لأنَّ موقِفَ القيامةِ موقفٌ لا حُكْمَ فيه لأحدٍ إلَّا للهِ تعالى، ولا قُدرةَ لأحدٍ على النَّفعِ والضرِّ، والرَّفعِ والخَفضِ إلَّا لله[3].

- قوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا...﴾ على القولِ بأنَّ تحسُّرَهم هذا يكون عندَ موتِهم؛ ففيه التعبيرُ عن الموتِ بالسَّاعةِ؛ وذلك لَمَّا كانَ الموتُ وُقوعًا في أحوالِ الآخرةِ ومُقدِّماتِها، جُعِل مِن جِنسِ السَّاعةِ، وسُمِّي باسمِها، أو جُعِل مَجيءُ السَّاعةِ بعدَ الموت؛ لسُرعتِه، كالواقِع بغيرِ فَترةٍ[4].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٦)، ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥١٣).

وقال أبو حيَّان-بعدَما نقَلَ كلامَ الزمخشريِّ السابقَ-: ((ويُمكن حمْلُ السَّاعة على الحقيقة، وهو يوم القيامة، ولا يلزمُ من تحسُّرهم وقتَ الموتِ أنَّهم لا يتحسَّرون يومَ القيامة، بل الظاهرُ ذلِك؛ لقوله: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾؛ إذ هذا حالٌ مِنْ قولهم: ﴿قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ وهي حالٌ مُقارِنةٌ، وإذا حمَلْنا الساعةَ على وقتِ الموتِ كانتْ =

- قوله: ﴿يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ فيه تنبيهٌ للنَّاس على ما سَيحصُلُ لهم من الحَسرةِ، والعربُ تُعبِّر عن تَعظيمِ أمثالِ هذه الأمورِ بهذه اللَّفْظة ﴿يَا حَسْرَتَنَا﴾، وهذا أبلغُ مِن أنْ يُقال: الحسرةُ علينا في تَفرِيطنا[1].

- والنِّداءُ في قولِه: ﴿قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا﴾ مقصودٌ به التندُّمُ، وأضافوا الحسرةَ إلى أنفُسِهم؛ ليكونَ تَحسُّرُهم لأجْلِ أنفسِهم؛ فهم المُتحسِّرون والمتحسَّرُ عليهم، بخِلافِ قولِ القائِل: يا حسرةً، فإنَّه في الغالِبِ تحسُّرٌ لأجْلِ غيرِه، فهو يتحسَّرُ لحالِ غيرِه[2].

- والافتتاحُ بحرف الاستفتاح ﴿أَلَا﴾ في قوله: ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ يُفيد التنبيهَ للعنايةِ بالخبرِ[3]، والجملةُ تذييلٌ مُقرِّرٌ لِمَا قبلَه، وتَكملةٌ له[4].

٨- **قوله: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾** أفادتْ هذه الصِّيغةُ (وَمَا... إِلَّا) قَصْرَ الحياةِ على اللعبِ واللَّهوِ[5].

- وفيه مُناسبةٌ حسَنةٌ حيثُ قَدَّم اللَّعبَ هنا، وكذلِك في سُورةِ محمَّد في قوله: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [محمد: ٣٦]، وسُورةِ الحديد في قوله: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الحديد: ٢٠]، وعكَس في سورةِ الأعرافِ والعنكبوتِ؛

= حالًا مُقدَّرة، ومجيء المُقدَّرَة بالنسبةِ إلى المقارِنَة قليلٌ، فيكون التكذيبُ متَّصلًا بهم مُغيًّا بالحسرةِ إلى يوم القيامة؛ إذ مُكثُهم في البرزخِ على اعتقاد أمثلِهم طريقةً يومٌ واحد). ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٨٢).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٩٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ١٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٢٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٩٣).

حيث قال في سُورة الأعرافِ: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [الأعراف: ٥١] وقال في سورة العنكبوت: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، فقدَّم اللَّهوَ على اللَّعِبِ، والحِكمةُ مِن تقديمِ اللَّعِب على اللهوِ في بعضِ المواضِع وتأخيرِها في البعض الآخَر: أنَّ الآيَةَ الأُولى التي في سُورةِ الأنعام في قومٍ مِن الكُفَّار، كانوا إذا سَمِعوا آياتِ اللهِ هَزِلوا عندَها، واسْتَهْزؤوا بها، فهذا اتِّخاذُهم دِينَ اللهِ لَعبًا، فهؤلاءِ قومٌ حضَروا النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم وسمِعوا القرآن، وعَبِثوا عند سماعِه، ولَعِبوا بآياته، وأجْرَوها مجرَى أفعالٍ يُستَرْوَح إليها، ولا نفعَ في عُقباها، ثم شُغِلوا بدنياهم عن تَدبُّرِها، وألهتْهم حلاوتُها عن الفِكر في صِحَّتها، فأوَّل أفعالهم لعبٌ، وثانيها لهوٌ، فهؤلاءِ لَمَّا فعلوا عند سماعِ القرآن مِن الاستهزاءِ والعبثِ أُطلِقَ على فِعلهم اسمُ اللَّعِب، ثم شُغِلوا عنه باستِحلاءِ الدنيا، كان هذا لهوًا منهم بعدَ اللَّعِب، وكان أوَّلُ دِينهم لعبًا وما بعدَه لهوًا؛ فلذلك قدَّم اللَّعِب على اللَّهو في هذه الآيةِ. وتقديمُ اللَّعبِ على اللَّهو في سورة الحديدِ؛ فلأنَّ معناه: الحياةُ الدُّنيا لِمَن اشتَغَل بها، ولم يتعَبْ لغيرِها مِن أعمالِ الآخرةِ مَقسومةٌ من الصِّبا، وهو وقتُ اللَّعِب، وبعدَه اللَّهو، ويتبع ذلك أخْذُ الزينةِ، ومِنْ أخذِ الزينة تنشأُ مباهاةُ الأكْفَاءِ، ومفاخرةُ الأشكالِ والنُّظَراءِ، ثم بَعْدَه المكاثرةُ بالأموالِ والأولادِ، فترتيبُ الحياةِ على هذه الأحوالِ يُوجِبُ تقديمَ حالَ اللَّعِبِ على حالِ اللَّهو.

وأمَّا تقديمُ اللَّهوِ على اللَّعبِ في آيةِ الأعرافِ؛ فلأنَّ المقصودَ بالكافرينَ عامَّةُ الكفَّارِ، وليس مَن سمِعَ الآياتِ فقط، فقدَّم فِعْلَ أكثرِهم على فِعل أقلِّهم، وهم الذينَ شَغلتْهم الحياةُ الدُّنيا وحلاوتُها، والولايةُ وغباوتُها، وهذا هو اللَّهو، ثمَّ كانتْ أفعالُهم التي اقتدَوْا فيها بآبائِهم لَمَّا طابتْ لهم، ولم يَجِدوا في العاقبةِ

نفعًا عليهم، كاللَّعبِ الذي يَنطوي على أفعالٍ تَبطُلُ في الآجِل، وإنْ سَرَّتْ في العاجِل، وهذا بعدَ الأوَّلِ، وأَكثرُ الكفَّارِ دَأْبهم اللَّهوُ، وإنْ شَغَلَتْهم الحالُ التي اسْتَصْحَبوها عن الفِكر فيما يطرأُ عليها؛ فوَجَب لهذا تقديمُ ذِكرِ اللَّهوِ لوجهين: لتقدُّمِه على ما هو كاللَّعب، ولأنَّه فِعلُ أَكثرِهم. واللَّعب في آية الأنعامِ المرادُ به فِعلُ أقلِّهم، وهو هناك أوَّلُ ما رُدَّ به ما جاءَ به الرسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم.

وقُدِّم اللَّهوُ في سورةِ العنكبوت في قولِه: ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ...﴾ [العنكبوت: ٦٤]؛ لأنَّ المرادَ المبالغةُ في وصْف قِصَر مدَّة الدُّنيا بالإضافةِ إلى مُدَّةِ الأخرى، فكأنَّه قال: ما أَمدُ الحياةِ الدُّنيا إلَّا كأَمَدِ أَزْمِنَةِ اللَّهوِ واللَّعِب؛ فهي أزمنةٌ لشَغْلِ النَّفسِ بحلاوةِ ما يُتعجَّلُ، وإنَّما قُدِّم اللَّهْوُ على اللَّعِب هنا؛ لأنَّ أزمنةَ اللَّهوِ أكثرُ مِن أَزْمِنَة اللَّعِب؛ لأنَّ التشاغُلَ به أكثرُ؛ فوجَبَ تقديمُ ما يَكثُر على ما هو دُونَه في الكثرةِ؛ لأنَّ ذلك آخِذٌ بالشَّبهِ، وأبلغُ في وصْفِ المشبَّه[1].

وقيل: لأنَّ اللَّعِبَ يكونُ في زَمَنِ الصِّبا، واللَّهوُ يكونُ في زمَنِ الشَّبابِ، وزمنُ الصِّبا مُقدَّمٌ على زَمنِ الشَّباب؛ فناسَبَ إعطاءُ المقدَّمِ للأكْثرِ، والمُؤخَّرِ للأقلِّ[2].

وقيل: لأنَّه لا يتقدَّمُ اللَّفظُ في الكِتابِ العزيزِ ذِكرًا أو يتأخَّرُ إلَّا لموجِبٍ؛ فوجهُ تقديمِ اللَّعب في الأنعامِ: أنَّه المتقدِّمُ في الوجودِ الدُّنيويِّ على اللَّهو، ولأنَّ أوَّلَ ابتداءِ تعقُّلِ الإنسانِ وتَمْييزه حالَه حالُ اللَّعِب، وهو المطابقُ لسنِّ الابتداءِ، فإذا استمرَّ أُلْهِيَ عن التدبُّر والاعتبارِ، وشُغِل بتماديه عن التفكُّرِ فيما به النجاةُ والفوزُ، فلمَّا لم يَبْرَحْ هؤلاء عن الجَري على عادةِ الصُّمِّ والبُكْم الذين لا يَعقِلون جرَى الإخبارُ عنهم في الآيةِ الثانيةِ من الأنعامِ بمُقتضَى أحوالِهم في أعمارِهم التي لم تَخرُجْ عن أحوالِ البهائمِ؛ فأوَّلُ أعمارِهم لعبٌ، وعَقِب ذلك

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٥١٦ - ٥٢٥).
(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ١٦٤).

لَهْوٌ، فورَدَ الإخبارُ على حسَبِ جَرْيِ الأعمارِ. وقيل غيرُ ذلِك في أوجهِ التقديمِ والتأخيرِ في هذه الآياتِ(١).

٩- قوله: ﴿وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فيه تخصيصُ المتَّقينَ بالذِّكْر، مع أنَّ غيرَهم كذلك؛ لأنَّهم الأصلُ، وغيرَهم تَبَعٌ لهم(٢).

- ويحتملُ أنَّه اعتراضٌ بالتَّذْييلِ لحِكاية حالِهم في الآخِرَة؛ فإنَّه لَمَّا حَكَى قولَهم: ﴿يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ عَلِمَ السامعُ أنَّهم فرَّطوا في الأمورِ النَّافعةِ لهم في الآخِرَة؛ بسببِ الانهماكِ في زخارفِ الدُّنيا، فذَيَّلَ ذلك بخِطابِ المُؤْمِنين؛ تعريفًا بقيمةِ زخارفِ الدُّنيا، وتبشيرًا لهم بأنَّ الآخِرةَ هي دارُ الخيرِ للمُؤْمِنين(٣).

- وفيه مناسبة حسنةٌ؛ حيث عبَّر هنا بقولِه تعالى: ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، وفي سورةِ الأعرافِ عبَّر بقوله: ﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٩]؛ ففي الأنعام ﴿وَلَلدَّارُ﴾ باللَّامِ، وفي الأعراف ﴿وَالدَّارُ﴾ بغيرِ تلك اللام؛ لأنَّ آية الأنعام تَقدَّمها قولُه تعالى مُعرِّفًا بحالِ الدنيا: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾، ومعنى التأكيدِ في هذا حاصِلٌ مِن جَرْيِ الكلامِ وسياقِه؛ حيثُ دخَلتْه (إلَّا) بعدَ (ما) النافيةِ، فأفادت القَصْرَ، ومِثل هذا هو المعنى الحاصِلُ مِن لفظِ القَسَم الصَّريح؛ فناسَبَه هنا مَجيءُ اللامِ داخِلةً على المبتدأِ في الآيةِ المعرِّفةِ لحالِ الدَّار الأُخرى، وكأنَّه نصُّ قولك: واللهِ لَلدَّارُ الآخِرةُ خيرٌ، وتَناسَب هذا مع ما تقدَّم قبلَه مِن تقديرِ القَسَمِ المؤكَّد كما تَبيَّن، وليس في آيةِ الأعراف ما يَقتضي هذا؛ لأنَّها مُناطةٌ

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٥٥ - ١٥٧).
(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ١٦٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٩٣).

بقوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾[1] [الأعراف: ١٦٩].

– وأيضًا أُجْرِيت ﴿الآخِرَة﴾ على الدَّار نَعتًا لها في سُورتَي الأنعامِ والأعراف، وفي سورة يوسُفَ قال: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ [يوسف: ١٠٩] على الإضافةِ؛ وذلِك لأنَّ كلَّ لفْظٍ مُطابِقٌ لِمَا تقدَّمَ قَبْلَ كلِّ واحدةٍ مِن الآيتين، أمَّا في آيةِ الأنعام فقوله تعالى مُخبِرًا عنهم: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾، فطابَقَ هذا قولَه تعالى: ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾، وأمَّا آيةُ الأعرافِ فقولُه تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ [الأعراف:١٦٩]، المرادُ به الدَّارُ الدُّنيا، فقُوبِلَ بقوله: ﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾ [الأعراف:١٦٩]، وهذا بَيِّنٌ، ولَمَّا لم يتقدَّمْ مِثلُ ذلك قبلَ آيةِ يُوسُفَ، ورَدَ لفظُ الدارِ مُضافًا بغيرِ الألِفِ واللامِ فيه، فقيل: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وجاءَ كلٌّ على ما يجبُ ويُناسِبُ[2].

– وأيضًا عبَّر في الأنعام والأعراف بقوله: ﴿خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ بالمضارِع، وفي سورة يُوسَف قال: ﴿خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [يوسف: ١٠٩] بالماضِي؛ لأنَّه في سورة يوسُفَ قدْ تَقدَّم قبلَه قولُه تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا...﴾ الآية [يوسف: ١٠٩]، والحاصِلُ منه أنَّهم ظَلَموا أنفُسَهم فأُهْلِكوا، ولو اتَّقَوْا لنَجَوْا؛ فناسَبَ هذا المعنى المقدَّرَ ورودُ الماضي في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أوْضَحَ مُناسَبةٍ[3].

– وفي قوله: ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ تعريضٌ بالمشرِكينَ بأنَّهم صائِرونَ إلى

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٥٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٥٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآخِرَة، لكنَّها ليستْ لهم بخيرٍ ممَّا كانوا في الدُّنيا(١).

- وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾(٢) يَحتملُ أن يكونَ فيه التفاتٌ مِن الحديثِ عنهم بالغَيبةِ إلى خِطابِهم بالدَّعوةِ- إذا كانتِ الآية إعادةً لدعوتهم إلى الإيمان والتقوى. ويَحتملُ أن يكون قوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ اعتراضًا بالتذييلِ لحِكاية حالهم في الآخِرة؛ فإنَّه لَمَّا حَكَى قولَهم: ﴿يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾، عَلِم السامعُ أنَّهم فرَّطوا في الأمورِ النافعة لهم في الآخرة بسببِ الانهماك في زخارفِ الدُّنيا، فذَيَّل ذلك بخِطابِ المؤمنين تعريفًا بقِيمةِ زخارف الدُّنيا، وتبشيرًا لهم بأنَّ الآخِرَةَ هي دارُ الخير للمؤمنين(٣).

- والاستفهامُ في قوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ مُستعمَلٌ في التَّوبيخِ عن عَدَمِ عَقلِهم؛ إنْ كان خِطابًا للمُشركين، أو مستعمَلٌ في التَّحذيرِ إنْ كان خِطابًا للمؤمنين، على أنَّه لَمَّا كان استعمالُه في أحدِ هذَينِ على وجهِ الكِنايةِ، صحَّ أنْ يُرادَ منه الأمرانِ باعتبارِ كِلَا الفَريقينِ؛ لأنَّ المدلولاتِ الكنائيَّةَ تَتعدَّدُ، ولا يَلزمُ مِن تَعدُّدِها الاشتراكُ؛ لأنَّ دَلالتَها التزاميَّةٌ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٩٥).

(٢) قرأ نافع، وابن عامر، وحفص، وأبو جعفر، ويعقوب، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾- بتاء الخِطاب- على طريقة الالتفات. وقرأه الباقون (أَفَلَا يَعْقِلُونَ)- بياء تحتية-، فهو على هذه القراءةِ عائدٌ لِمَا عاد إليه ضمائرُ الغيبة قبْلَه، والاستفهام حينئذٍ للتعجب من حالهم. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٩٢ - ١٩٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ١٩٥).

الآيات (٣٣ - ٣٥)

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

غريبُ الكَلماتِ:

﴿يَجْحَدُونَ﴾: أي: يُنكِرونَ بألسِنَتِهم وهم مُستَيقِنونَ بقُلوبِهم، والجُحُود: نفْيُ ما في القلبِ إثباتُه، وإثباتُ ما في القلبِ نَفْيُه، وأصلُ (جحد): يدلُّ على قلَّةِ الخيرِ[١].

﴿ولَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾: أي: لا مُغَيِّرَ لكَلماتِ الله، والتَّبديلُ: جَعْلُ شَيءٍ مَكانَ آخَرَ، وأصلُ (بدل): قِيامُ شَيءٍ مقامَ الشَّيءِ الذَّاهب[٢].

﴿نَبَأ﴾: النبأُ هو الخبَرُ الذِي له شَأنٌ، وفائدةٌ عظيمةٌ، ويحصُلُ به عِلمٌ أو غَلَبَةُ ظنٍّ، وأصل (نبأ): الإتيانُ من مكانٍ إلى مكانٍ؛ وسُمِّي الخبرُ نبأً؛ لانتقالِه من مكانٍ إلى مكانٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧، ٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٧١) (١٠/ ٣٨٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٤٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٨-٧٨٩).

﴿نَفَقًا﴾: أي: سَرَبًا ومَنفذًا في الأرضِ، وأصل (نفق): يدلُّ على إخفاءِ شَيءٍ وإغماضِه(١).

﴿سُلَّمًا﴾: أي: مِصْعَدًا، أو ما يُتَوصَّل به إلى الأمكِنَةِ العاليةِ، فيُرجى به السَّلامةُ، وقيل: سببًا؛ وسُمِّيَ سُلَّمًا؛ لتسليمِه إلى المَقْصِد(٢).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى لنَبِيِّه محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: إنَّه يعلَمُ أنَّ ما يقولُه المُشْركونَ يُورِثُه الحُزنَ، وأخبرَه أنَّهم لا يكذِّبونَه في حقيقةِ الأمْر، بل هم يَعْلمونَ أنَّه صادِقٌ، ولكنَّ الظَّالمينَ يُنْكِرون آياتِ اللهِ عنادًا.

ثم يُخبِرُ اللهُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه قد حصَل التَّكذيبُ لرُسُلٍ مِن قَبلِه، فقابلوا التكذيبَ والأذى بالصَّبرِ حتى أتاهم نصْرُ اللهِ تعالى، ولا أحَدَ بإمكانه أن يُغيِّرَ كلماتِ الله التي كتَبَها مِن وَعْدِه لرَسولِه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ومَن معه بالنَّصرِ والظَّفَرِ، ثم ذكَّرَه اللهُ تعالى أنَّه جاءه مِن قَصَصِ الرُّسُل قبله، وأنَّ عاقبتَهم كانت النصرَ والظَّفَرَ.

ثم يقولُ اللهُ تعالى لنبيِّه محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: إنْ كان شَقَّ عليك إعراضُ هؤلاء المشركينَ عن تَصديقِك، فإنِ استطعْتَ أن تتَّخِذَ نفَقًا تنفُذُ به إلى باطنِ الأرض، أو مِصْعَدًا تَرْقَى به إلى السَّماءِ، فتأتِيَهم بحُجَّةٍ وبُرهانٍ على صِدقِك؛ فلْتَفْعل ذلك، ولو شاءَ الله تعالى لجَمَع أولئك المكذِّبينَ على الهُدَى،

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٥٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص:٩١٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢٠).

ثم نهى اللهُ نبيَّه أنْ يكونَ من الجاهلينَ الذين لا يَعْرِفون حَقائِقَ الأمورِ، ولا سُنَنَ اللهِ في خَلْقِه، فيعْظُمَ عليه إعراضُهم، ويَحْزَنَ لعدمِ إيمانِهم.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا تكرَّر في هذه السُّورةِ أمْرُ اللهِ تعالى رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بمقاوَلَةِ الكفَّار، وذلك بتلقينِه لفْظَ (قل..، قل..)، وأطال في الحَثِّ على مُجادَلَتِهم، وختَم بما يَقتضي سَلْبَهم العقلَ، مع تكريرِ الإخبارِ بأنَّ المَقضِيَّ بخَسارتِه منهم لا يُؤمنونَ لآيةٍ من الآيات، وكان مِن المعلومِ أنَّهم حالَ إسماعِهم ما أَمَر به لا يَسكتونَ؛ لِمَا عندَهم من عظيمِ النَّخْوة، وشماخَةِ الكِبْر، وقُوَّة الجُرأة، وأنَّه لا جوابَ لهم إلَّا التَّبعةُ والبذاءةُ، كما هو دَأْب المعانِد المغلوبِ، وأنَّ ذلك يَحزُنُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لِمَا جُبِل عليه من الحَياءِ والشَّهامَةِ والصِّيانَةِ والنَّزاهَة- كان الحالُ محتاجًا إلى التَّسْلِيَة[1]، فقال تعالى:

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾.

أي: قدْ عَلِمْنا أنَّ ما يقولُه المُشركون[2]، يُورِثُك الحُزْنَ يا محمَّدُ[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٩٤).

(٢) ومِن ذلك قولُهم: إنَّه كذَّاب، أو شاعِر، أو ساحِر، أو كاهن، أو هذا الذي جئتَ به أساطيرُ الأولين، أو لا نقبَلُ دِينَك، أو يَقترحون الآياتِ تعنُّتًا، أو يقولون: لله البناتُ، أو نحن نعبُد ما عبَد آباؤُنا...إلخ. يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٤-٢٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٧٧-١٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٧٢).

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: ٩٧].

وقال سبحانه: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢].

وقال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾.

أي: فلا تظُنَّنَّ أنَّ ما يقولونَه صادرٌ عن شَكٍّ واشتباهٍ في صِدْقِك، وصِدْقِ ما جئتَ به؛ فهُم يَعلمون في قرارةِ أنْفُسِهم أنَّك صادقٌ، وأنَّ ما جئتَ به هو الحقُّ[1].

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

أي: ولكِنَّ هؤلاءِ الكُفَّارَ يُنْكِرونَ - عنادًا منهم بسببِ ظُلْمِهم - الأدِلَّةَ والبراهينَ التي هي الحقُّ مِن عندِ اللهِ تبارَكَ وتعالَى[2].

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا أزالَ الله تعالى الحُزْنَ عن قلبِ رَسولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في الآيةِ السَّابقةِ؛ بأنْ بَيَّنَ أنَّ تكذيبَ رسولِه يَجري مَجرَى تكذيبِ اللهِ تعالى - ذَكَرَ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٢٠)، ((التسعينية)) لابن تيمية (٢/ ٦٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٠-٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٧٣).

هذه الآيةِ طريقًا آخرَ في إزالةِ الحُزْنِ عن قلْبِه، وذلك بأنْ بيَّنَ أنَّ سائِرَ الأُمَم عاملوا أنبياءَهم بِمِثْل هذه المعامَلَةِ، وأنَّ أولئك صَبَروا على تكذيبِهم وإيذائِهم حتَّى أتاهم النَّصْرُ والفَتْحُ والظَّفَرُ؛ فوجَب أن يَقْتديَ بهم في هذه الطريقةِ[1]؛ فقال:

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾.

أي: ولقد كذَّبَ الكفارُ رُسُلًا مِن قَبْلِك- يا محمَّدُ- قد أرسَلَهم اللهُ تعالى إلى أقوامِهم، فصَبَروا على ما نالَهم من التكذيبِ والأذى البليغِ، ومَضَوْا في دَعْوتِهم وجِهادِهم، حتى أتاهم نَصْرُ اللهِ سبحانه، فإنْ يُكَذِّبْك- يا محمَّدُ- هؤلاءِ المشركونَ مِن قومِك، فلا يَحزُنْك ذلك، واصبِرْ على تكذيبِهم إيَّاك وما تَلْقَى منهم من مَكروهٍ في ذاتِ الله عزَّ وجلَّ، كما صَبَروا[2].

﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾.

أي: ولا أحَدَ يَستطيعُ أنْ يُغيِّر كلماتِ الله تعالى التي كتبَها، والتي أنزَلَها إلى نبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، مِن وَعْدِه المؤمنينَ بالنَّصْرِ والظَّفَر على مَن خالَفَهم[3].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥١٧)، ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ١١٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٧٦-١٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٧٨).

اختار ابنُ جريرٍ أنَّ المُرادَ بكَلماتِ اللهِ تعالى: ما أنزَلَه إلى نبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، مِنَ الوَعدِ بالنَّصرِ على أعدائِه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٢٤).

واختار ابنُ عاشورٍ أنَّ المرادَ بكَلِماتِ اللهِ تعالى: ما أوحاه اللهُ سُبحانه إلى عمومِ رُسُلِه مِنَ الوَعدِ بالنَّصرِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٠٢).

وقال ابنُ عثيمين: (وكلماتُه: هي وحيُه الذي أنزَلَه على الرُّسُلِ، وكذلك هي كلماتُه القَدَريَّةُ التي يكون بها النَّصرُ لأنبيائِه، والخِذلانُ لأعدائِه، ولا يَرِدُ على هذا ما جاء به النَّسْخُ؛ لأنَّ مُبَدِّلَ الحُكمِ المنسوخِ هو اللهُ عزَّ وجَلَّ، والآيةُ تدُلُّ على أنَّه لا أحَدَ يُبَدِّلُ كَلِماتِ اللهِ، أمَّا اللهُ =

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١- ١٧٣].

وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِي ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

أي: ولقدْ جاءَك- يا محمَّدُ- مِن قَصَص وأخبارِ مَن كان قبلك من الرُّسُل، كيف نُصِرُوا على مَن كذَّبَهم مِن قَوْمِهم؛ فلك فيهم أُسْوةٌ، وفي أخبارِهم تَثبيتٌ لفؤادِك، واطمئنانٌ لقَلْبِك(١).

كما قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠].

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ (٣٥)﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا سلَّى اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بما هو في غايةِ الكِفايةِ في التَّسْلِيةِ؛ أخبره بأنَّه لا حِيلةَ له غيرُ الصَّبرِ؛ فإنَّه لا سبيلَ إلى إيمانِ هؤلاء الجاحدينَ إلا بمشيئةِ الله وإرادتِه(٢)، فقال تعالى:

= تبارك وتعالى، فله أن يُبَدِّلَ؛ كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]، وقال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ١٠١]. ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٧٨-١٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٠٠)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (٥/ ٦٨).

قال ابنُ عاشورٍ عن هذه الآيةِ: (عَطْفٌ عَلَى جُمْلَةِ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ =

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾.

أي: وإنْ كان عَظُم وشَقَّ عليك- يا محمَّد- إعراضُ هؤلاءِ المشركينَ عنك، وانصرافُهم عن تصديقِك فيما جئْتَهم به من الحَقِّ؛ لِحِرْصِك عليهم، ومَحبَّتِك لإيمانِهم(١).

﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾.

أي: فإنْ قدرْتَ- يا محمَّدُ- على أنْ تتَّخِذَ سِرْدابًا تنفُذُ به إلى باطِنِ الأرض، أو تطلُبَ مِصْعَدًا تصعَدُ به كالدَّرَجِ إلى السَّماءِ؛ لتأتِيَهم بعَلامةٍ وبرهانٍ على صِدْقِك، وصِحَّةِ قولِك؛ فافعلْ ذلك(٢).

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

أي: ولو شاءَ اللهُ تعالى لجَمَع أولئك المكذِّبينَ على طَريقِ الاستقامةِ؛ فهو القادِرُ على ذلك سبحانه، ولكنَّه لم يَفعَلْ؛ وَفقًا لِمَا تَقتضيه حِكمَتُه سبحانه وتعالى؛ فلا تكونَنَّ- يا محمَّدُ- مِن الذين لا يَعرفونَ حَقائِقَ الأمورِ، وسُنَنَ اللهِ تعالى في خَلْقه، فيَكْبُرَ عليك إعراضُهم، وتَحْزَنَ لعدمِ إيمانِهم(٣).

= فإنَّ رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم كان يَحزُنُه ما يَقولونه فيه مِنَ التَّكْذيبِ به وبالقرآنِ، حُزْنًا على جَهْلِ قَوْمِه بقَدْرِ النَّصيحَةِ، وإنكارِهم فَضيلَةَ صاحِبِها، وحُزْنًا من جَرَّاءِ الأسَفِ عليهم من دَوامِ ضَلالِهم شفقةً عليهم، وقد سَلَّاه اللَّه تعالى عن الحُزْنِ الأوَّلِ بقولِه: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ وسَلَّاه عن الثَّاني بقولِه: ﴿وَإِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ...﴾ الآيَة). ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٠٣)

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٢٥-٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٨٨-١٨٩).

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قوله: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ فيه التسليةُ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وإرشادٌ له إلى سُنَّتِه تعالى في الرُّسُل والأُمَم، أو هي تذكيرٌ بهذه السُّنَّة، وما تتضمَّنه مِن حُسْن الأُسْوةِ، وقد ثبت بالتَّجارِبِ أنَّ التأسِّيَ يُهَوِّنُ المُصابَ، ويُفيدُ شيئًا من السَّلوةِ؛ فالإنسانُ إذا عَلِم أنَّ غَيرَه قدْ أصابَه ما أصابَه هانَ عليه الأمْرُ، ويَنبغي لنا أيضًا أنْ نتأسَّى ونتسلَّى أيضًا بما جرَى للرُّسُل عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ فنَصبِرَ على أذَى مَن يقومُ أمامَ دَعوتِنا، والعاقبةُ للمُتَّقين(١).

٢- يُؤخَذ من قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أنَّه ينبغي للدُّعاةِ أن يتسَلَّوْا برسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فإذا سَمِعوا ما يَكرهونَ من هؤلاءِ المكذِّبينَ المعاندينَ، فلْيَتَسلَّوْا به ويقولوا في أنفُسِهم وبألسِنَتِهم: إنَّ الله تعالى عالِمٌ بما تقولون وسيُجازيكم(٢).

٣- في قوله: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ...﴾ ذِكرَى وتسْرِيَةٌ، ومواساةٌ وتأسِيَةٌ لرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهي كلماتٌ ترسُم للدُّعاةِ إلى الله مِن بَعْدِ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ طريقَهم واضحًا، ودَورَهم مُحدَّدًا، كما ترسُم لهم مَتاعبَ الطَّريقِ وعَقَباتِه، ثمَّ ما يَنتظِرُهم بَعدَ ذلك كلِّه في نِهايةِ الطَّريقِ؛ إذ تُبيِّن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٢٤)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤١٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٨٠- ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٧٤، ١٧٥).

لهم أنَّ سُنَّةَ اللهِ في الدعواتِ واحدةٌ، ووحدةٌ لا تَتجزَّأ؛ فهي دعوةٌ يَتلقَّاها الأغلبيةُ بالتَّكذيبِ، وأذَى أصحابِها، فيتحمَّلُ الدعاةُ الأذَى ويَصبِرون على التَّكذيب، ثم يكونُ النَّصرُ حليفَهم في النِّهاية، لكنَّ هذا النَّصرَ يأتي في مَوْعِدِه، لا يُعجِله عن هذا الموعدِ تَلقِّي الدُّعاةِ المخلِصين الطيِّبين للأذَى والتَّكذيبِ، ولا قُدرةُ المجرمين الضالِّين والمُضلِّين على أذى المُخلصين الأبرياءِ الطيِّبين، ولا رَغبةُ الدَّاعيةِ المخلِص في هِدايةِ قومِه، وتَحسُّره وأَسَاهُ على ما هُم فيه مِن الضَّلال، ولا تَألُّمُه لِمَا يَنتظرُهم من عذابٍ ودمارٍ في الدَّارينِ، بل يأتي في الموعد المحدَّدِ منه تعالى؛ فإنَّ اللهَ تعالى لا يَعجَلُ لعَجَلةِ أحدٍ مِن خَلْقِه، ولا مُبدِّلَ لكلماتِه، سواءٌ تَعلَّقتْ هذه الكلماتُ بالنصرِ المحتومِ، أمْ تَعلَّقتْ بالأَجَلِ المَرْسُوم[١].

٤- قوله تعالى: ﴿فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ فيه أنَّ فَرَجَ الله عزَّ وجلَّ يأتي مع شِدَّةِ الكَرْب؛ فكلَّما اشتدَّ الكَرْبُ، فاعلَمْ أنَّه دنا الفَرَجُ[٢].

٥- أفاد قوله تعالى: ﴿حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ أنَّه لا يُرجى النَّصرُ إلَّا مِن عندِ الله؛ لأنَّه قال: ﴿حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾، ولم يَقُلْ: حتى نَصَرَهم فلانٌ أو فلان، لهذا جعل النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم يُناشِدُ ربَّه النَّصْرَ، في عريشٍ له، يومَ بَدْرٍ؛ حتى نصَره اللهُ- والحمدُ لله- فلا يُطلَبُ النصرُ إلَّا من الله، حتَّى في المجادلةِ العِلميَّة لا يُطلبُ النصرُ مِن المُوافِق، أو غيره، بل يُطلَبُ النَّصرُ مِن اللهِ، وإذا وصَلَ الإنسانُ إلى الحقِّ، فلْيَطلبْ مِن الله تعالى أنْ يَنصُرَه، أو يطلبْ مِن اللهِ تعالى أنْ يَهديَه صِراطَه المستقيمَ[٣].

٦- يُستَفاد من قوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ أنَّ الإنسانَ يَنبغي له ألَّا

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١٠٧٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٨١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٨١، ١٨٢).

يَهُونَ عليه إعراضُ النَّاسِ، بل يكونُ كبيرًا في نفْسِه، لكنْ لا تَعصُّبًا لِمَا هو عليه، ولكنْ من أجْلِ مَصلحةِ الآخرينَ[1].

٧- أنَّ الهدايةَ والضَّلالةَ بيَدِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لقوله: ﴿وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾[2].

٨- في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ بيانُ حِكمةِ الله عزَّ وجلَّ في جَعْلِ الناس صِنْفينِ: مؤمنينَ وكافرينَ، وهذا أمرٌ لا بدَّ منه؛ لأنَّه لولا الكُفرُ لم يُعْرَفْ فضلُ الإيمانِ، ولولا الإيمانُ لم يُعرَفْ قُبحُ الكُفْرِ، فإنْ لم يكُن هناك أشياءُ متضادَّةٌ ما عُرِف فَضْلُ الأشياءِ المحمودة، ثم إنَّه لولا اختلافُ النَّاسِ في الإيمانِ والكُفْر ما قامتْ رايةُ الجهادِ؛ لأنَّهم كلَّهم إمَّا مؤمنونَ وإمَّا كافرون؛ فمن يجاهدُ؟! فلولا هذا الاختلافُ ما قام الأمرُ بالمعروفِ والنَّهْيُ عن المنكَر؛ لأنَّ النَّاسَ سيكونون كلُّهم إمَّا على مُنكرٍ وإمَّا على معروفٍ، لولا هذا الاختلافُ ما قامتِ الدَّعوةُ إلى الله- عزَّ وجلَّ-؛ لأنَّهم إنْ كانوا مؤمنينَ كلُّهم لم يَحتاجوا إلى دعوةٍ، وإنْ كانوا كافرينَ ما دُعُوا، إذَن فَمِنَ الحِكْمةِ أنَّ الله جعل الخَلْقَ صِنفينِ[3].

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿لَيَحْزُنُكَ﴾ فيه حِرْصُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّمَ على هِدايةِ الخَلْقِ، وأنَّه يَحْزُنُه إعراضُ النَّاسِ عن دِينِ اللهِ[4].

٢- في قوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ ليس نهيًا عن الحُزنِ-

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٩٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٩١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٩٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٧٤).

في حدِّ ذاتِه-؛ إذ لا شكَّ أنَّ الحُزنَ عندَ وقوعِ ما يَسوءُ مِن طَبْعِ البَشَرِ، الذي لا يُقدَرُ على الانفكاكِ عنه، فالنَّهيُ عنه- إذن- إنَّما هو نهيٌ عمَّا يَنشأُ عنه من الاسترسالِ المؤدِّي إلى الجَزَعِ المؤدِّي إلى عدَمِ الصَّبرِ، ونِسيانِ ما يُعزِّي؛ فهو من النَّهْيِ عن السَّبَبِ؛ للمبالغةِ في النَّهيِ عن المُسَبَّبِ[1].

٣- في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أنَّ الجحْدَ بآياتِ الله كُفْرٌ، ولو استيقَنَها الإنسانُ ما دام جَحَدها، وإنْ كان مؤمنًا بها في قَلْبِه؛ فإنَّه يَكفُر؛ لأنَّ أحكامَ الدُّنْيا تَجري على الظَّاهِرِ، فنحن نُكَفِّرُ مَن أظهَرَ الكُفرَ وإنْ كان مؤمنًا بقَلبِه، ونَسْكُتُ عمَّن أظْهَرَ الإسلامَ، ولو كان كافرًا بقَلْبِه؛ لأنَّ هذه هي أحكامُ الدُّنيا التي أوجبَها اللهُ عزَّ وجلَّ؛ إذ إنَّنا لا نعلَمُ ما في قلوبِ النَّاسِ[2].

٤- قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ ظاهِرُه يَقتضي أنَّهم لا يُكذِّبون محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ولكنَّهم يَجحدونَ بآياتِ الله، واختَلَفوا في كيفيَّةِ الجَمْعِ بين هذينِ الأمرينِ على وجوه:

الوجه الأوَّل: أنَّ القَوْمَ ما كانوا يُكَذِّبونه في السِّرِّ، ولكنَّهم كانوا يُكذِّبونَه في العلانِيَة، ويَجْحدون القرآنَ والنُّبوَّةَ.

الوجه الثاني: أنَّهم لا يقولون: إنَّك أنتَ كذَّاب؛ لأنَّهم جرَّبوك الدَّهْرَ الطَّويلَ، والزَّمانَ المديدَ وما وجَدُوا منك كذِبًا البتَّةَ، وسَمَّوْكَ بالأمينِ؛ فلا يقولون فيك: إنَّك كاذبٌ، ولكنْ جَحَدوا صِحَّةَ نبوَّتِك ورسالتِك؛ إمَّا لأنَّهم اعتقدوا أنَّ محمَّدًا عرَضَ له نوعُ خبلٍ ونُقصان؛ فلأجْلِه تخيَّل مِن نفْسِه كونَه رسولًا مِن عند الله، وبهذا التقدير: لا ينسبونَه إلى الكَذِبِ، أو لأنَّهم قالوا: إنَّه ما كذَبَ في سائرِ الأمور،

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٩٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٧٥).

بل هو أمينٌ في كلِّها إلَّا في هذا الوجهِ الواحِدِ.

الوجه الثَّالث: أنَّه لَمَّا ظهرتِ المعجزاتُ القاهرةُ على وَفْقِ دعواه، ثم إنَّ القوم أصرُّوا على التكذيبِ، فاللهُ تعالى قال له: إنَّ القَوْمَ ما كذَّبوك، وإنَّما كذَّبوني. وليس المقصودُ منه نفيَ تكذيبِه، بل المقصودُ تعظيمُ الأمرِ، وتفخيمُ الشَّأن، كقولِه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠].

والوجه الرَّابع: أنْ يُقال: المرادُ من قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ أي: لا يَخصُّونَك بهذا التَّكذيبِ؛ بل يُنْكرونَ دَلالةَ المُعْجِزة على الصِّدْق مطلقًا، وهو المرادُ من قوله: ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾، والمرادُ أنَّهم يقولونَ في كلِّ مُعجزةٍ: إنَّها سِحْرٌ، ويُنْكرون دَلالةَ المُعجزةِ على الصِّدقِ على الإطلاقِ، فكان التقديرُ: إنَّهم لا يُكَذِّبونك على التَّعيينِ، بل القومُ يُكذِّبون جميعَ الأنبياءِ والرُّسُل، واللهُ أعلم[1].

٥- في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ سؤالٌ: ما الحِكْمَةُ من إرسالِ الرُّسُل مع تكذيبِهم؟

والجوابُ: أنَّ ذلك لإقامةِ الحُجَّةِ عليهم، أي: على المُكذِّبين؛ لأنَّ هؤلاء المكَذِّبين لو لم يَأتِهم رسولٌ لقالوا: ربَّنا لولا أرسلْتَ إلينا رسولًا، ولو لم يأْتِهم رسولٌ لكان لهم حُجَّةٌ؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[2] [النساء: ١٦٣-١٦٥].

٦- في قوله: ﴿حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ بِشارةٌ للرَّسولِ مؤكِّدةٌ للتَّسليةِ بأنَّه

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥١٨، ٥١٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٧٩، ١٨٠).

سَينصُره على المكذِّبين الظَّالمينَ مِن قَومِه، وعلى كُلِّ من يكذِّبُه ويُؤْذيه من أمَّة البَعْثَة، وإيماءٌ إلى حُسْنِ عاقبة الصَّبر؛ فمَن كان أصبرَ كان أجدَرَ بالنَّصْرِ، إذا تساوتْ بين الخَصْمينِ سائرُ أسبابِ الغَلَب والقَهْر[١].

٧- يُستَفاد من إضافةِ الكَلِمات إلى الاسْمِ الأجَلِّ الأعظَمِ في قوله: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ الشعورُ بعلَّة القَطعِ بأنَّه لا مبدِّلَ لها؛ لأنَّ المُبَدِّلَ لكلماتِ غيرِه لا بُدَّ أن تكون قُدرَتُه فوق قُدْرَتِه، وسلطانُه أعْلَى من سلطانِه[٢].

٨- أنَّه لا أحَدَ يبدِّلُ كلماتِ الله؛ فإذا قدَّر اللهُ النَّصرَ، فلا أحَدَ يمنَعُه، وإذا قدَّرَ الخِذلان فلا أحَدَ يمنعه؛ أمَّا الكلماتُ الكونيَّةُ فعدمُ المُبَدِّل لها ظاهرٌ؛ لأنَّ الكلماتِ الكونيَّةَ لا بدَّ أن تقعَ، كن فيكون، ولا أحدَ يَستطيعُ أنْ يُبدِّلها، فإذا قال اللهُ تعالى: (كُنْ) لنُزولِ المَطَرِ نَزَل، ولا أحد يمنَعُه، وإذا قال: (كُنْ) لامتناعِ المَطَرِ امتنعَ، ولا أحدَ يُنْزِله. أمَّا الكلماتُ الشَّرعيَّة فمِنَ النَّاسِ مَن يُبَدِّلها، لكنَّ تبديلَه هذا باطلٌ، والباطِلُ لا وجودَ له شرعًا؛ قال تعالى: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ﴾[٣].

٩- قوله تعالى: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ﴾ فيه تَطْمينٌ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنَّ اللهَ تعالى ينصرُه، كما نصَر مَن قبلَه من الرُّسُل[٤].

١٠- يُستَفادُ من قوله: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾ بيانُ شِدَّةِ حِرصِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على هِدايَتِهم، بأنَّه لو قَدَرَ على أنْ يتكَلَّفَ النُّزولَ إلى تَحتِ الأرضِ أو فوقَ السَّماءِ فيأتِيَهم بما يُؤمنون به؛ لفَعَلَ[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣١٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٨٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٠٢).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٠٠)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤١٨).

١١- أنَّ الله سبحانه وتعالى قد يُبيِّن الشَّيءَ المستحيلَ بِضَرْب مَثَلٍ له، دون أن يذكُرَه بعَينِه؛ وجْهُه أنَّ اللهَ قال: ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ﴾، يعني: فافعَلْ، بدلًا من أن يقول: وإنْ كان كبُر عليك إعراضُهم فإنَّهم لن يؤمنوا، ولأنَّ هذا هو المتوقَّع، لكنَّ الله تعالى ضرب مثَلًا حتى يكون مُقْنِعًا للرَّسولِ عليه الصَّلاة والسَّلام ولغيره أيضًا(١).

١٢- يُستَفاد من قولِه تعالى: ﴿فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ﴾ أنَّه لا بدَّ لكلِّ نبيٍّ من آيةٍ، وهذا مِن حِكمةِ الله عزَّ وجلَّ، أرأيتَ لو جاء رجلٌ في غيرِ هذه الأُمَّة، وادَّعى أنَّه رسولٌ، وقال: أنا رسولٌ ومنهجي كذا، وعقيدتي كذا، وعبادتي كذا، فأطيعوني بدون أيِّ آيةٍ، هل يكونُ هذا منَ الحِكمةِ؟ الجوابُ: لا، ومَن كَذَّبَه فهو معذورٌ، وإلَّا لكان كلُّ كاذبٍ دجَّالٍ يدَّعِي أنَّه نبيٌّ، وربَّما يدَّعي أنَّه ربٌّ، فالآياتُ فيها نصرٌ للرُّسُل، ورحمةٌ بالمُرْسَل إليهم؛ حتى يُؤمِنوا عن يقينٍ(٢).

١٣- يُستَفاد من قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ﴾ إثباتُ مرتبةٍ مِن مراتبِ الإيمانِ بالقَدَرِ، وهي المشيئةُ، وأنَّ اللهَ تعالى قد شاءَ جميعَ أفعالِ عِبادِه، ومراتِبُ القَدَر أربعةٌ، وهي: العِلْم، والكِتابةُ، والمشيئةُ، والخَلْق(٣).

١٤- في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ قد يَستشكِلُ بعضُهم أنَّه ما دُمْنا نقول: إنَّ الكُفْر بمشيئةِ الله، وأنَّ الله عزَّ وجلَّ بحِكْمته قَسَّم النَّاسَ إلى قِسْمينِ؛ أفلا يقولُ الكافِرُ إنَّ في هذا ظلمًا لي؟

والجوابُ: لا، ليس ظلمًا، وليس له أنْ يَحتجَّ بالقَدَر على ما هو فيه؛ وذلك للآتي:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٩٠، ١٩١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٩١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أولًا: أنَّ مَنْعَ اللهِ الكافرَ مِن الإيمان ليس ظلمًا؛ لأنَّ هذا حقُّه تعالى وفضلُه، وفضلُ اللهِ يُؤتِيه مَن يشاءُ.

ثانيًا: لا حُجَّةَ للكافِر ولا للعاصي على كُفره ومَعْصِيَتِه بقَدَر اللهِ تعالى؛ لأنَّه يُقْدِمُ على ذلك باختيارِه، من غيرِ أنْ يَعلمَ أنَّ الله تعالى قَدَّرَه عليه؛ إذ لا يَعلمُ أحدٌ بقَدَر اللهِ إلَّا بعد وقوعِ مَقدورِه؛ فكيف يصِحُّ الاحتجاجُ بحُجَّةٍ لا يعلمُها المحتَجُّ حين إقدامِه على ما اعتذرَ بها عنه؟!

ثالثًا: إنْ كان حقًّا محتجًّا بالقَدَرِ؛ فلماذا لم يُقْدِمْ على الطَّاعةِ مُقدِّرًا أنَّ الله تعالى قد كتَبَها له؛ فإنَّه لا فَرْقَ بينها وبين المعصِيَةِ في الجَهلِ بالمقدورِ قبلَ صُدُورِ الفِعْل منه؟! ولهذا لَمَّا أخْبَرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الصَّحابةَ بأنَّ كُلَّ واحدٍ قد كُتِبَ مَقْعَدُه من الجنَّة ومَقْعَدُه من النَّار، قالوا: أفلا نَتَّكِلُ، ونَدَعُ العملَ؟ قال: ((اعْمَلوا؛ فكُلٌّ ميَسَّرٌ لِما خُلِقَ له))[1].

رابعًا: أنَّ هذا الكافرَ أو العاصِي إذا أرادَ سفرًا، وكان له طَريقانِ؛ أحدُهما مَخُوفٌ وصعبٌ، والآخَر آمِنٌ سَهْلٌ، فإنَّه سيسلُك الآمِنَ، ولا يُمكن أن يَسلُكَ الأوَّلَ ويقول: إنَّه مُقدَّرٌ، وإلَّا لعُدَّ مَجنونًا؛ فلِمَ يَسلكُ- إذنْ- طريقَ الكفر والمعاصي ثم يحتجُّ بالقدَرِ[2]؟!

١٥- شِدَّة الخِطابِ للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، فيه سرٌّ لطيفٌ، وهو تبعيدُ جنابِه الكريمِ عن الحِرصِ على ما لا يكونُ، والجزعِ في مواطِنِ الصَّبرِ، ممَّا لا يليقُ إلَّا بالجاهِلين، وهذا النهيُ لا يَقتضي إقدامَه على مِثلِ هذه الحالةِ كما أنَّ قوله: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب: ٤٨] لا يدلُّ على أنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أطاعَهم

(١) ينظر ما أخرجه البخاري (٤٩٤٩)، ومسلم (٢٦٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٩٢، ١٩٣).

وقَبِلَ دِينَهم، والمقصود: أنَّه لا يَنبغي أن يَشتدَّ تحسُّرُك على تَكذيبهم، ولا يجوزُ أن تجزعَ مِن إعراضِهم عنك؛ فإنَّك لو فعلتَ ذلك قرُبَ حالُك مِن حالِ الجاهِلين(١).

بلاغةُ الآيات:

١- قوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾

- استئنافٌ ابتدائيٌّ مسُوقٌ لتسليَةِ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن الحُزْن الذي يَعتريهِ ممَّا حُكِيَ عن الكَفَرة من الإصرارِ على التَّكذيبِ، والمبالغَةِ فيه، ببيانِ أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بمكانةٍ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ(٢).

- و﴿قَدْ﴾ هنا تُفيدُ التَّحقيقَ للخَبَرِ الفِعليِّ ﴿نَعْلَمُ﴾؛ فإنَّ (قَدْ) في تَحقيقِ الجُملةِ الفِعليَّةِ بمنزلةِ (إنَّ) في تَحقيقِ الجُملةِ الاسميَّةِ، ومعنى التَّحقيقِ مُلازِمٌ له، سواءٌ كان مدخولُه ماضيًا أو مضارعًا على الأَصَحِّ(٣)، والقاعدةُ: أنَّ (قد) إذا دخَلَتْ على المضارعِ المسنَدِ إلى اللهِ تعالى، فهي للتَّحقيقِ دائمًا(٤).

- قوله: ﴿نَعْلَمُ﴾ عَبَّر بالمضارعِ؛ لأنَّ المرادَ الاتِّصافُ بالعِلْم واستمرارُه، مِن غيرِ نظَرٍ إلى الزَّمانِ، وعَدَل عن الماضِي؛ لئلَّا يُظَنَّ الاختصاصُ به، فالمرادُ تحقُّقُ التجدُّد؛ لتعلُّقِ العِلْم بتجدُّدِ الأقوالِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥٢١)، ((تفسير القاسمي)) (٤/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٨٩)، وينظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٨٨-٤٨٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٦٠٣-٦٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٩٧-١٩٦).

(٤) يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (١/ ٣٩٥).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٩٤)، ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ١١١).

- وقوله تعالى: ﴿الَّذِي يَقُولُونَ﴾، أي: أقوالُهم الدالَّةُ على عدَمِ تَصديقِهم الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، كما دلَّ عليه قولُه بعده: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ﴾؛ فعَدَل سبحانه عن ذِكْر اسْمِ التَّكذيبِ ونَحْوه إلى اسمِ الموصولِ وصِلَتِه، فقال: ﴿الَّذِي يَقُولُونَ﴾ ولم يَقُلْ: (تكذيبُهم)؛ تَنزيهًا للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عن ذِكْر هذا اللَّفْظِ الشَّنيعِ في جانبِه؛ تلطُّفًا معه، و﴿الَّذِي يَقُولُونَ﴾ هو قولهم: ساحرٌ، مجنونٌ، كاذبٌ، شاعرٌ؛ فعَدَلَ عن تفصيلِ قولهم إلى إجمالِه؛ إيجازًا، أو تحاشيًا عن التَّصريحِ به في جانَبِ المنزَّهِ عنه(١).

- والفاءُ في قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ للتَّعليلِ، والمعلَّل محذوفٌ دلَّ عليه قوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ﴾، أي: فلا تَحْزَنْ؛ فإنَّهم لا يُكذِّبونك، أي: لأنَّهم لا يُكذِّبونك. ويجوزُ كونُها الفَصيحةَ(٢)، والتقديرُ: فإنْ كان يَحزنُك ذلك لأجْلِ التكذيبِ فإنَّهم لا يُكذِّبونك. ويجوزُ أنْ تكونَ للتفريعِ على ﴿قَدْ نَعْلَمُ﴾، أي: فعِلْمُنا بذلك يتفرَّعُ عليه أنَّا نُثبِّتُ فؤادَك، ونشرَحُ صدرَك بإعلامِك أنَّهم لا يكذِّبونك، وأنْ نُذكِّرَك بسُنَّة الرُّسُلِ مِن قبلِك، ونُذكِّرك بأنَّ العاقبةَ هي نصرُك- كما سبَق في عِلم اللهِ(٣).

- قوله: ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ فيه استدراكٌ(٤) لدَفْعِ أن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٩٨).

(٢) الفاءُ الفصيحة: هي التي يُحذَف فيها المعطوفُ عليه، مع كونِه سببًا للمعطوفِ مِن غيرِ تقديرِ حرفِ الشَّرط. وقيل: سُميت فصيحةً؛ لأنَّها تفصحُ عن المحذوفِ، وتفيدُ بيانَ سببيته، سواء أكان المحذوفُ شرطًا أم غيرَ شرطٍ، وقال بعضُهم: هي داخلةٌ على جملة مسببةٍ عن جملةٍ غيرِ مذكورةٍ، نحو قولِه تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ﴾[البقرة: ٦٠] أي: ضرَب فانفجرتْ. يُنظر: ((معجم القواعد العربية)) للدقر (١/ ٤٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٩٨).

(٤) الاستدراك: هو رفع توهُّم يتولَّد من الكلامِ السَّابق رفعًا شَبيهًا بالاستثناء، وهو معنى (لَكِنْ)، وهو من البَديع، ويُشترَطُ فيه زيادةُ نُكتةٍ طريفةٍ على معنى الاستدراكِ؛ لتُحسِّنَه وتُدخلَه في البديع، وإلَّا فلا يُعدُّ منه؛ وهو قِسمان: قسمٌ يَتقدَّم الاستدراكَ تَقريرٌ وتوكيدٌ؛ إمَّا لفظًا أو =

يُتَوَهَّمَ من قولِه: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ أنَّهم لم يَصدُرْ منهم أصْلُ التَّكذيبِ، مع أنَّ الواقِعَ خِلافُ ذلك؛ فاستدرَكَ عليه بأنَّهم يَجْحَدونَ بآياتِ الله، فيَظْهَر حالُهم كحالِ مَن يَنْسُب الآتيَ بالآياتِ إلى الكَذِب، وما هُم بمكَذِّبينَ في نُفوسِهم[1].

- وفيه: إقامَةُ الظَّاهِرِ مَقامَ المُضْمَر - حيثُ عدَل عن الإضمارِ (ولكنَّهم) إلى قولِه: ﴿ولكنَّ الظَّالِمِينَ﴾-؛ للإسهابِ في ذمِّهم، وللتَّصْريحِ بلَفْظِ الظُّلْم وتَسْمِيَتِهم به؛ ليكونَ سِمةً يَتميَّزونَ بها؛ زيادةً في تأكيدِ ذَمِّهم، وللدَّلالةِ على أنَّ الظُّلْم هو الحامِلُ لهم على الجُحُود، وإعلامًا بأنَّ شأنَ الظالمِ الجَحدُ بالحُجَّة، وتَسجيلًا عليهم بالرُّسوخِ في الظُّلْم- الذي جُحودُهم هذا فَنٌّ من فُنونِه- وأنَّ هذا الظلم سَجيَّتُهم[2].

- وفي قوله: ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الالتفاتُ إلى الاسمِ الجليلِ لتربيةِ المهابَةِ، واستعظامِ ما أقْدَموا عليه من جحودِ آياته تعالى، وإيرادُ الجحودِ في مَوْرِد التكذيبِ؛ للإيذانِ بأنَّ آياتِه تعالى مِنَ الوضوحِ بحيث يشاهِدُ صِدْقَها كلُّ أحدٍ[3].

- وقوله: ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ متعلِّقٌ بـ ﴿يَجْحَدُونَ﴾ وتقديمُه عليه؛ للقَصْرِ ولإفادةِ الحَصْرِ، كأنَّ المعنى: (وَلَكنَّ الظَّالمينَ لا يَجحدون إلَّا بآياتِ اللهِ)، وإلَّا فهم يَعترفونَ بأشياءَ كثيرةٍ إلَّا آياتِ اللهِ؛ فإنَّهم لا يَعتَرِفون بها[4].

= معنًى لِمَا أخبرَ به المتكلِّم، وقِسمٌ لا يتقدَّمه ذلك. يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٢/ ٢٣٨)، ((أنوار الربيع في أنواع البديع)) لصدر الدين المدني (١/ ٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٦٠)، ويُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ١١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٢٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق))، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص:١٧٣).

- وأيضًا قدَّمَ قوله: ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ على قولِه: ﴿يَجْحَدُونَ﴾؛ لتناسُبِ رؤُوسِ الآياتِ(١).

- وفي هذه الآيةِ احتباكٌ؛ حيث حُذِفَ مِن الجملة الأولى سببُ الحُزنِ، وهو التَّكذيبُ؛ لدَلالةِ الثانية عليه، وحُذِفَ مِن الثَّاني النهيُ عن المسبِّبِ؛ لدَلالةِ الأولى عليه(٢).

٢- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾

- قوله: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ تصديرُ الكلامِ بلام القَسَم في قوله: ﴿وَلَقَدْ﴾ لتأكيدِ الخَبَر بتنزيلِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ منزلةَ مَن ذُهِلَ طويلًا عن تكذيبِ الرُّسُلِ؛ لأنَّه لَمَّا أحْزَنَه قولُ قَومِه فيه، كان كمن بَعُد عِلمُه بذلك(٣).

- وفيه افتنانٌ في تسليتِه عليه الصَّلاة والسَّلام؛ فإنَّ عمومَ البليَّةِ ربما يُهوِّنُ أمرَها بعضَ تهوينٍ، وإرشادٌ له عليه الصَّلاةُ والسلام إلى الاقتداءِ بمن قبلَه من الرُّسُل الكرامِ عليهم الصَّلاة والسَّلام في الصَّبرِ على ما أصابَهم من أُمَمِهم من فنونِ الأَذِيَّة، وعِدَةٌ ضمنيَّةٌ له عليه الصَّلاة والسَّلام بمِثل ما مُنِحوه من النَّصْر(٤).

- وتنكيرُ قوله: ﴿رُسُلٌ﴾ وتنوينُه؛ للتَّفخيمِ والتكثيرِ(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٩٦).

وذكَر ابنُ عاشور وجهًا آخرَ فقال: (... فيكونُ في الآيةِ احتباكٌ. والتقديرُ: فإنَّهم لا يكذِّبونك ولا يكذِّبون الآياتِ، ولكنَّهم يجحدون بالآياتِ، ويجحدون بصدقِك، فحذَف مِن كلٍّ لدلالةِ الآخرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٢٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قوله: ﴿حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ فيه التفاتٌ بديعٌ من ضميرِ الغَيبةِ إلى ضَميرِ المتكَلِّمِ؛ إذ قبله: ﴿بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾، ولو جرى الكلامُ على نَسَقِه لقيل: (نَصْرُه)، وفائدةُ هذا الالتفات- بالإضافَةِ إلى تطريةِ الكلامِ وتنويعِه-: إبرازُ الاعتناءِ بشأنِ النَّصْرِ، وأنَّه أضاف النَّصْرَ إلى ضميرِ المتكلِّم المُشْعِرِ بالعَظَمة، المُتَنَزَّل فيه الواحِدُ منزلَةَ الجمعِ، والحافِزِ على وجوب مداومَةِ الجهاد[1].

- وأيضًا إضافةُ النَّصرِ إلى ضَميرِ العَظَمة تُشْعِر بعظَمَة شأنِه، وتشيرُ إلى كونِه من الآياتِ المؤيِّدَة لرُسُلِه[2].

- قوله: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ اعتراضٌ مُقَرِّر لِمَا قبله من إتيانِ نَصْرِه إيَّاهم[3].

- والالتفاتُ إلى الاسم الجليل ﴿اللَّه﴾؛ للإشعارِ بعلَّةِ الحُكم؛ فإنَّ الألوهيَّةَ من موجِباتِ ألَّا يُغالبَه أحدٌ في فعلٍ من الأفعالِ، وأنه لا يقعَ منه تعالى خُلْفٌ في قولٍ من الأقوالِ[4].

- قوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ جملةٌ قَسميَّة جِيءَ بها لتحقيقِ ما مُنِحوا من النَّصْرِ، وتأكيدِ ما في ضِمْنِه من الوَعْد لرسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أو لتقريرِ جميعِ ما ذُكِر من تكذيبِ الأُمَمِ، وما ترتَّب عليه مِن الأمورِ[5].

٣- قوله: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٢٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ١٠١).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣١٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٢٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٢٨)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٩١).

الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾

- قوله: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ...﴾ كلامٌ مستأنَفٌ مسوقٌ لتأكيدِ إيجابِ الصَّبرِ المستفادِ من التَّسْليَةِ ببيانِ أنَّه أمْرٌ لا محيدَ عنه أصلًا[1].

- وتقديم الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَيْكَ﴾؛ للاهتمامِ بالمقدَّم، والتشويقِ إلى المؤخَّر[2].

- قوله: ﴿فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾ تنكير ﴿بِآيَةٍ﴾؛ للتَّفخيمِ[3].

- قوله: ﴿نَفَقًا فِي الْأَرْضِ﴾: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ صفةٌ لـ﴿نَفَقًا﴾؛ لإفادةِ المبالغةِ في العُمْقِ، مع استحضارِ الحالةِ، وتَصويرِ حالةِ الاستطاعةِ؛ إذ مِن المعلومِ أنَّ النَّفَقَ لا يكون إلَّا في الأرضِ[4].

- قوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ تذييلٌ مفرَّعٌ على ما سَبَق.

- وأكَّد اللهُ تعالى الكلامَ في قوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ ليَعْلَمَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه قد حتَّمَ اللهُ بافتراقِهم، فيَسْكُن إلى ذلك، ويُخالِف ما جُبِلَ عليه من شِدَّةِ الشَّفَقةِ عليهم[5].

- وعَدَل عن الأَمْرِ بالعِلْمِ- حيثُ لم يَقُلْ (فاعْلَمْ)-؛ لأنَّ النَّهيَ عن الجَهلِ يَتضمَّنُه؛ فيتقَرَّرُ في الذِّهن مرَّتينِ؛ ولأنَّ في النهي عن الجَهْل بذلك تحريضًا

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٢٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١٢٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٠٥).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٠٠-١٠١).

على استحضارِ العلمِ به، كما يُقال للمُتعَلِّم: لا تَنْسَ هذه المسألةَ[1].

- ولم يقلْ (لا تكُنْ جاهلًا) بل مِن قومٍ ينُسَبون إلى الجهلِ، تعظيمًا لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم؛ بأن لم يُسنِدِ الجهلَ إليه؛ للمبالغةِ في نفيِه عنه[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٠٧).

وقال ابنُ عاشور: (وليس في الكلامِ نَهيٌ عن شيءٍ تلبَّسَ به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كما توهَّمَه جمْعٌ من المفسِّرين، وذهَبوا فيه مذاهِبَ لا تَسْتبين)، وينظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٠١)، ((تفسير القاسمي)) (٤/ ٣٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٤/ ٣٤٩).

الآيات (٢٦ - ٢٩)

﴿ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ ﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿دَآبَّةٍ﴾: الدابَّةُ هي كلُّ شيءٍ دبَّ على وجه الأرضِ، ويُستعْمَلُ في كلِّ حيوانٍ، وفي الحشراتِ أكثَر، وأصل (دبب): حركةٌ على الأرض أخَفُّ من المَشْيِ[١].

﴿أُمَمٌ﴾: جمعُ أُمَّة، أي: جماعة، وتُطلَق على المِلَّة، والسُّنة، والحِين، وأصل (أمم): الأَصلُ والمَرْجِع، والجماعة، والدِّين[٢].

﴿صُمٌّ﴾: جمْعُ أصَمَّ، والصَّمَم فُقدانُ حاسَّة السَّمْع، وبه يُوصَفُ مَن لا يُصغي إلى الحقِّ، ولا يَقبَلُه، وأصْلُه: الصَّلابةُ، وقيل: السَّدُّ[٣].

﴿وَبُكْمٌ﴾: جمْع أبْكَم، وهو الذي يُولَدُ أخرَسَ؛ فكُلُّ أبكمَ أخرَسُ، وليس كلُّ أخرَسَ أبكَمَ، والبَكم: آفةٌ في اللِّسان مانعةٌ من الكلام، وبه يُوصَفُ مَن لا ينطقُ بالحقِّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨١، ١٤٤، ٢٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٣، ٣٤٤).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ١٢٨)، ((مقاييس =

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه إنَّما يستجيبُ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم أولئك الذين يَسمعونَ توجيهاتِه وأقوالَه سماعَ تدبرٍ وتفهُّم وتأمُّلٍ، وأمَّا الكُفَّارُ فيبعَثُهم اللهُ من قُبورهم، ثم يَعودونَ إليه؛ ليجازِيَهم على أعمالِهم.

وقال المشرِكونَ المُكَذِّبون برسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: لو أُنْزِلَ على محمَّدٍ علامةٌ من عند ربِّه تدلُّ على صِدقِه. فأَمَرَ اللهُ نبيَّه أن يُخبِرَهم أنَّه تعالى قادِرٌ على أن يُنَزِّلَ تلك العلامةَ، ولكنَّه سبحانَه يُنزِّل ما تَقتضيه حِكمتُه، ولكِنَّ أكثرَهم لا يَعلمونَ حِكَم الله في أفعالِه، ولا سُننَه في خلْقِه.

ثم بيَّنَ اللهُ تعالى لخَلْقِه بعضَ آياتِه الكونيةِ؛ ومنها أنَّه ما مِن دابةٍ تَدِبُّ على الأرضِ، ولا طائرٍ يَطيرُ في السَّماءِ، إلا وهي أممٌ مماثلةٌ لكم، ما أهمَلَ ولا أغفَلَ سبحانه في اللَّوْحِ المحفوظ شيئًا، ثمَّ إلى الله تعالى يُحْشَرونَ جميعًا.

ثم يُخبِرُ تعالى أنَّ المُكَذِّبين بحُجَج اللهِ تعالى هم صمٌّ عن سَماع الحَقِّ، بُكْمٌ عن النُّطْقِ به، وهم في ظُلُماتِ الكُفْر لا يُبْصِرونَ، وأنَّ مَن يُرِدِ اللهُ إضلالَه مِن خَلْقِه أضَلَّه، ومَن يُرِدْ هدايتَه فإنَّه يَدُلُّه للسَّيرِ على الطَّريقِ المُستقيمِ المُوصِل إليه.

تفسيرُ الآيات:

﴿ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

هذه الآيةُ تعليلٌ لِمَا أفادَه قولُه: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ إلى قَولِهِ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ من تأييسٍ مِن وُلوجِ الدَّعوةِ إلى أنْفُسِهم، أي لا

= اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٨٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ١٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٣).

يستجيبُ إلَّا الذين يسمعونَ دونَ هؤلاءِ الذين حَرَمهم فائدةَ السَّمعِ، وفهمَ المسموعِ(١).

وأيضًا لَمَّا بيَّنَ الله تعالى في الآية السابقةِ أنَّه لو شاءَ لجَمَع النَّاسَ على الهُدى، ولكنَّه لم يَشَأْ أن يَجعلَ البَشَر مَفطورينَ على ذلك، ولا أنْ يُلْجِئَهم إليه إلجاءً بالآياتِ القاسرةِ، بل اقتضَتْ حِكْمَتُه، ومضَتْ سُنَّته في البَشر بأنْ يكونوا مُتفاوتينَ في الاستعدادِ، عاملينَ بالاختيارِ؛ فمِنهم مَن يختار الهُدى على الضَّلالِ، ومِنهم مَن يَستحِبُّ العَمى على الهُدى- بيَّنَ لنا في هاتينِ الآيتينِ أنَّ الأوَّلينَ هم الذين يَنظرونَ في الآياتِ، ويَعقِلونَ ما يَسمعونَ من البيِّناتِ، وأنَّ الآخَرينَ لا يَسمعونَ ولا ينظرونَ، حتى كأنَّهم من الأمواتِ(٢)، فقال عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾.

أي: إنَّما يستجيبُ لِدَعْوتِك- يا محمَّدُ- مَن يَعي الكلامَ بقلبِه ويَفْهَمُه، فينقادُ لك(٣).

﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾.

أي: وأمَّا هؤلاءِ الكُفَّارُ المعْرِضون عنكَ- يا محمَّدُ- فهُم أمواتُ القُلوبِ، لا تُرجَى منهم استجابةٌ؛ كموتى الأجسادِ، وسيُخْرِجهم اللهُ تعالى من قُبُورهم جميعًا يومَ القيامةِ، ثمَّ يعودونَ إليه لمجازاتِهم(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٠٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٢٠).
يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٠٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٩٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٠٧-٢٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٩٤-١٩٥). =

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٧) ﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

الآيةُ عَطْفٌ على جملة: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ...﴾، وهذا عَوْدٌ إلى ما جاء في أوَّلِ السُّورةِ مِن ذِكْرِ إعراضِهم عن آياتِ الله بقولِه: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾، ثم ذَكَر ما تفَنَّنوا به من المعاذيرِ من قولِهم: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٨] وقوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾[الأنعام: ٢٥]، أي: وقالوا: لولا أُنزِلَ عليه آيةٌ، أي على وَفْقِ مُقْتَرحِهم، وقد اقترحوا آياتٍ مختلفةً في مجادلاتٍ عديدةٍ؛ ولذلك أجْمَلها الله تعالى هنا اعتمادًا على عِلْمِها عندَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمؤمنينَ، فقال[1]:

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾.

أي: وقال المشركونَ المكذِّبونَ بالرَّسولِ؛ عِنادًا وتعنُّتًا: هلَّا أُنزِلَ على محمَّدٍ برهانٌ وعلامةٌ من عند رَبِّه، تدلُّ على صِدْقِه وصِحَّةِ رسالَتِه، بما لا لَبْسَ في الحقِّ مَعَهَا[2].

= قال الشِّنقيطي: (وقد أجمَع مَن يُعتدُّ به من أهل العِلْم أنَّ المرادَ بالموتى في قوله: ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ﴾: الكفارُ، ويدلُّ له مقابلةُ الموتى في قوله: ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ﴾ بالذين يَسمعون في قوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ...﴾، ولو كان يُراد بالموتى مَن فارقَتْ أرواحُهم أبدانَهم لقابَلَ الموتى بما يناسِبُهم؛ كأنْ يقال: إنَّما يستجيبُ الأحياءُ، أي: الذين لم تفارِقْ أرواحُهم أبدانَهم، وكقوله تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ...﴾). ((أضواء البيان)) (٦/ ١٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٩٩-٢٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٩٧-١٩٨).

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٠- ٩٣].

﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾.

قل- يا محمَّدُ- لأولئك المشركين: إنَّ الله قادرٌ على أن يُنزِّلَ ما تطلبونَ؛ فليس في قُدرتِه قصورٌ عن ذلك(١).

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أي: ولكِنَّ أكثرَ الذين يسألونَك آيةً- يا محمَّدُ- لا يدرونَ ما حِكمةُ تَرْكِ إنزالِ ذلك عليك؟ ولو عَلِموا السَّببَ لَمَا سألوك؛ فَهُم لِجَهْلِهم يَطلبونَ ما هو شرٌّ لهم من الآياتِ التي لو جاءتهم وَفْقَ ما طلبوا ثم لم يُؤْمِنوا بها، لعُوجِلوا بالعقوبةِ، وأُهْلِكوا هلاكَ استئصالٍ، كما وقَع للأُمَمِ السَّابقةِ؛ فهي سُنَّةُ الله التي لا تَبديلَ لها، والعادةُ التي أَجْراها القديرُ سبحانه وتعالى(٢).

قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩].

وقال سبحانه: ﴿إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٣١-٢٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٠١-٢٠٤).

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قبلَها:

لَمَّا توعَّدَهم اللهُ بالآيةِ السَّابقةِ بأنَّهم إليه يُرجَعونَ، زاد أنْ سَجَّل عليهم جهْلَهم، فأخبَرَهم بما هو أعجَبُ ممَّا أنكروه، وهو إعلامُهم بأنَّ الحَشْرَ ليس يختصُّ بالبَشَر، بل يعُمُّ كلَّ ما فيه حياةٌ من الدوابِّ والطيرِ[1].

وأيضًا لَمَّا حكَى عن هؤلاء قولَهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ ولم يَعْتبروا ما نَزَل مِن الآياتِ، وأُجِيبوا بأنَّ القُدرَةَ صالحةٌ لإنزالِ آيةٍ، ونُبِّهوا على جهلهم؛ حيث فرَّقوا بين آيةٍ وآيةٍ- أُخْبِروا أنَّهم أنفُسَهم وجميعَ الحيوانِ غيرِهم متماثلونَ في تعلُّقِ القُدْرةِ الإلهيَّةِ بالجميعِ؛ فلا فرْقَ بين خَلْقِ مَن كُلِّف وما لم يُكَلَّف في تعلُّق القدرةِ بهما، فكأنَّه قِيل: القُدرةُ تعلَّقَت بالآياتِ كُلِّها مُقْتَرَحِها وغيرِ مُقترَحِها، كما تعلَّقَت بخَلْقِكم، وخَلْقِ سائرِ الحيوان، فالإمكانُ هو الجامِعُ بين كُلِّ ذلك؛ ولذلك قال تعالى: ﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾، يعني في تَعَلُّقِ القُدرةِ بإيجادِها كتعلُّقها بإيجادِكم، وكذلك الآياتُ[2].

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾.

أي: كلُّ ما يَدِبُّ في الأرض، وكلُّ ما يَطيرُ في جَوِّ السَّماءِ بجَناحَيهِ، على اختلافِ أنواعِها كلِّها، إنَّما هي أجناسٌ وأصنافٌ مُصَنَّفَةٌ مِثْلُكم أيُّها النَّاسُ؛ خلقْناها كما خلقْناكم، ورزقْناها كما رزقناكم، ويَعْرِف بعضُها بعضًا كما تَعرفونَ، ويَتزاوجونَ ويتناسلون، ولها آجالٌ محدَّدة، وهي أنواعٌ تختلفُ أيضًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥٢٣)، ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ١٢٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢١٤، ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٠٥).

في أحجامِها، وألوانِها، ولُغاتها، وقُدراتها، وغير ذلك؛ كما هو واقعٌ بينكم[(١)].

﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾.

أي: ما أهمَلْنا ولا أغفَلْنا في اللَّوحِ المحفوظِ شيئًا من الأشياءِ، بل جميعُ الأشياءِ صغيرِها وكبيرِها، حتى أصناف الدوابِّ وغيرها؛ مُثبَتةٌ في اللَّوحِ المحفوظِ على ما هي عليه، والجميعُ عِلْمُهم عندَ الله تعالى، لا يَنسَى واحدًا منها مِن رِزقه وتَدبيرِه[(٢)].

كما قال سبحانه: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦].

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾.

أي: إنَّ كلَّ دابَّة وكُلَّ طائرٍ محشورٌ إلى الله تعالى بعد انقضاء هذه الحياةِ الدُّنيا، وكذلك جميعُ الأُمَم تُحْشَر وتُجمَع إلى الله يومَ القيامةِ، فيُجازيهم بعَدْلِه وإحسانِه سبحانه[(٣)].

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٣٢، ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٠٧-٢١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٠٢-٢٠٣).
ونسَب الشنقيطيُّ هذا المعنى المذكورَ إلى أكثرِ العلماءِ، وقال أيضًا: (ومما يكونُ من تلك المماثلةِ: أن الجميعَ يُحْشَرُونَ إلى اللَّهِ، كما قال هنا: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ وَنَصَّ على ذلك في سورة التكويرِ في قولِه: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥]). ((العذب النمير)) (١/ ٢١٠-٢١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٣٢، ٢٣٤)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٩/ ٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٣-٢٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٥-٢٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٠٧).

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ الله تعالى مِن حالِ الكُفَّار أنَّهم بَلَغُوا في الكُفْر إلى حيث كانت قلوبُهُم قد صارت مَيِّتةً عن قَبولِ الإيمانِ بقوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾- ذكر هذه الآيةَ تقريرًا لذلك المعنى(١).

وأيضًا لَمَّا ذَكَرَ تعالى في قولِه: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ في كَونِها دالَّةً على كَونِها تحت تدبيرِ وتقديرِ حكيمٍ قدير، وفي أنَّ عنايةَ اللهِ محيطةٌ بهم، ورَحْمَتَه واصلةٌ إليهم- قال بَعدَه: والمكَذِّبونَ لهذه الدَّلائلِ والمُنْكِرون لهذه العجائب صُمٌّ لا يَسمعونَ كلامًا البتَّةَ، بُكْمٌ لا يَنطقون بالحَقِّ، خائِضونَ في ظُلُماتِ الكُفرِ، غافلونَ عن تأمُّلِ هذه الدلائلِ(٢).

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾.

أي: إنَّ المكَذِّبينَ بِحُجَجِ الله وأدِلَّتِه، لا يَسمعون الحَقَّ، ولا ينطقونَ به، وهُم في ظُلُماتِ الكُفْر، لا يُبْصرونَ، فلا يَعْتبرونَ ولا يهتدون(٣).

﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

أي: مَن يَشَأِ اللهُ تعالى إضلالَه مِن خَلْقِه أَضَلَّه، ومَن يَشَأِ اللهُ تعالى هدايَتَه، فإنَّه يَهدِيه إلى الطَّريقِ المستقيم الذي لا عِوَج فيه، فهو سبحانه المُنْفَرِدُ بالهِدايةِ والإضلالِ، بِحَسَب ما يَقتضيه فَضْلُه وحِكْمَتُه(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥٣٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٣٧ - ٢٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٢٠- ٢٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢١٠-٢١٢).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- يُستَفاد مِن قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ أنَّه كلَّما صار الإنسانُ أَسْمعَ لكلامِ الله ورسولِه صارت استجابتُه أقوى، وذلك مأخوذٌ من القاعدةِ المعروفةِ (أنَّ ما عُلِّقَ على وَصْفٍ فإنَّه يزدادُ قُوَّةً بِحَسَب هذا الوَصْفِ الذي عُلِّقَ عليه الحُكْم)[١].

٢- أنَّ الإنسانَ يجِبُ أن يَعرِفَ قَدْرَ نَفْسِه؛ فهو بالنِّسبةِ لعَظَمةِ الله- عزَّ وجلَّ- كالنَّملةِ؛ لقوله: ﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ إذَن لا تترفَّعْ ولا تتعالَ؛ فما أنتَ إلَّا مِثلُ هذه الدوابِّ بالنِّسبةِ لعظمةِ الله عزَّ وجلَّ، وإن كانَ الله عزَّ وجلَّ قال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]، أي: لم يُفَضِّلْ بني آدمَ على ما خَلَقَ اللهُ، بل على كثيرٍ مِمَّا خَلَقَ الله[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ فيه تَنبيهٌ للمُسْلمين على الرِّفقِ بالحيوانِ؛ فإنَّ الإخبارَ بأنَّها أُمَمٌ أمثالُنا تنبيهٌ على المشاركةِ في المخلوقيَّةِ وصفاتِ الحيوانيَّة كلِّها[٣].

٤- قَوْله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ فيه إشارةٌ إلى التَّحذيرِ من الاعتداءِ على الحيواناتِ بما نهى الشَّرْعُ عنه من تَعذِيبِها، وإذا كان يُقْتَصُّ لبَعضِها من بعضٍ وهي غيرُ مُكَلَّفةٍ، فالاقتصاصُ مِن الإنسانِ لها أَوْلى بالعَدْلِ[٤].

٥- يُستَفادُ من قوله: ﴿مَنْ يَشَأِ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٩٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٠٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢١٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

﴿مُسْتَقِيمٍ﴾ أنَّ مَن شاءَ الله هِدايتَه اهتدَى، وأنَّ مَن شاء إضلالَه ضَلَّ، ويتفرَّعُ على هذا أنْ يلجَأَ الإنسانُ إلى ربِّهِ تبارك وتعالى بطَلَبِ الهِدايةِ والاستعاذةِ من الغَوَايةِ؛ لأنَّ الأمرَ بيَدِ الله[1].

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمْ﴾ فيه قدرةُ الله عزَّ وجلَّ الكاملةُ، وذلك ببعثِ الموتَى، فإنَّهم يُبْعَثونَ كُلُّهم في لحظةٍ واحدةٍ، والدَّليلُ قَوْلُ الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣- ١٤] وقوله: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]، وليس البَعثُ كالإحياءِ يكون شيئًا فشيئًا، يخرجُ المخلوقُ صغيرًا ثم ينمو حتى يتكاملَ[2].

٢- الإتيانُ بفعل النُّزول في قولِه تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ يدلُّ على أنَّ الآيةَ المسؤولةَ مِن قَبيل ما يأتي مِن السَّماء، مثلُ قولِهم: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام:٨]، وقولهم: ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ﴾ [الإسراء: ٩٣]، ونحو ذلك[3].

٣- في قولِه تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ طَلَبُهم للآيَةِ والآياتِ- مع وُجُودِ القرآنِ وما فيه من الآياتِ البيِّناتِ- سَبَبُه محاولةُ تَعجيزِ الرَّسولِ، لا كَوْنُه هو الدَّليلَ الذي يرونَه مُوصِلًا إلى المدلولِ، وقد قال تعالى لرَسولِهِ في هذه السورة: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢١١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٩٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٠٩).

لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾[(١)] [الأنعام: ٧].

٤- استكبارُ هؤلاءِ وترَفُّعُهم؛ حيثُ قالوا: ﴿مِنْ رَبِّهِ﴾، ولم يقولوا: (مِنْ رَبِّنَا)، ولم يقولوا: (مِنَ الله)، كأنَّهم في جانبٍ، واللهُ تعالى ورسولُه صلَّى الله عليه وعلى آلِه وسلَّم في جانبٍ آخَرَ[(٢)].

٥- انتصارُ اللهِ عزَّ وجلَّ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فإنَّه دافَعَ عنه حِينما قالوا: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ ولا شكَّ أنَّ هذا يُشكِّلُ عبئًا على الرَّسولِ عليه الصَّلاة والسَّلام؛ فاللهُ تعالى يُجيبُ عنه انتصارًا له؛ ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلِ آيَةً﴾[(٣)].

٦- قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلِ آيَةً﴾ فيه إثباتُ قُدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وهذه القُدرةُ قدرةٌ كاملةٌ، لا يَلْحَقُها شيءٌ من العَجْزِ؛ لقولِ الله تبارَك وتعالَى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]، فلِكمالِ عِلْمِه وقُدرَتِه لا يُعْجِزُه شيءٌ؛ لأنَّ العجزَ عن الشَّيءِ سَبَبُه إمَّا الجهلُ وإمَّا الضَّعفُ، فاللهُ عليمٌ قديرٌ، وهذه القدرةُ تتعلَّقُ بكلِّ شيءٍ؛ فهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ[(٤)].

٧- أنَّ أفعالَ الله عزَّ وجلَّ مقرونةٌ بمشيئتِه؛ بمعنى: أنَّ ما لم يَشَأْ لم يكُنْ، وإنْ كان قادرًا عليه؛ لقوله: ﴿قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلِ آيَةً﴾، يعني: ولكنَّه لم يَشَأْ[(٥)].

٨- قولُه تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ تَنبيهٌ على أنَّ فيهم مَن يَعلَمُ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٢٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٩٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٩٩، ٢٠٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٠٠).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٠١).

ذلك، ولكنَّه يُكابِرُ، ويُظْهِرُ أنَّه لا يَتِمُّ عنده الاستدلالُ إلَّا على نحوِ ما اقترحوه[1].

٩- خَصَّ ما في الأرضِ بالذِّكْرِ دون ما في السَّماء في قوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ وإنْ كان ما في السَّماءِ مخلوقًا له؛ لأنَّ الاحتجاجَ بالمُشاهَد أظهَرُ وأَوْلى ممَّا لا يُشاهَد[2].

١٠- المقصودُ من قوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ الدَّلالةُ على كمالِ قُدرةِ الله تعالى، وشُمُولِ عِلْمِه، وسَعَةِ تَدبيرِه؛ ليكون كالدليلِ على أنَّه قادِرٌ على أن يُنَزِّلَ آيةً، وهي التي ذَكَرَها في الآيةِ التي تَسْبِقُها مباشرةً في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3].

١١- في قوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ حصْرُ الحيوانِ في هاتين الصِّفتينِ، وهما: إمَّا أن يَدِبَّ، وإما أن يطيرَ، ولكنْ قد يقول قائلٌ إنَّ هناك مِن الحيوانات ما لا يدخلُ في هذينِ القِسْمينِ؛ مثل: حِيتانِ البَحرِ، وسائرِ ما يَسبَحُ في الماءِ، ويَعيش فيه؛ والجوابُ: أنَّها لا يَبعُدُ أنْ تُوصَفَ بأنَّها دابَّةٌ؛ مِن حيثُ إنَّها تدِبُّ في الماء؛ أو هي كالطَّيرِ؛ لأنَّها تسبحُ في الماءِ كَسَبْح الطيرِ في الهواء، إلَّا أنَّ وَصْفَها بالدَّبِّ أقربُ إلى اللُّغة مِن وَصْفِها بالطَّيَرانِ[4].

١٢- يُستفادُ مِن قولِه تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ أنَّ النَّاسَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢١٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤١٩)، ويُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ١٢٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤١٩)
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ١٢٤).

ليسوا وَحْدَهم في هذا الكون، حتى يكون وجودُهم مُصادَفةً، وحتى تكون حياتُهُم سُدًى! بل إنَّ حولَهم أحياءً أخرى، كلُّها ذاتُ أمْرٍ مُنتَظِمٍ، يوحي بالقَصْدِ والتدبيرِ والحِكمَةِ، ويوحي كذلك بوَحدةِ الخالِقِ، ووَحدَةِ التَّدبيرِ الذي يأخذ به خَلْقَه كُلَّه؛ إنَّه ما ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ تَدِبُّ على الأرضِ، وهذا يشملُ كلَّ الأحياءِ مِن حَشراتٍ وهوامَّ وزواحفَ وفقارياتٍ، وما ﴿مِنْ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ في الهواءِ، وهذا يَشملُ كلَّ طائرٍ مِن طيرٍ أو حَشرةٍ غيرِ ذلك مِن الكائنات الطائرة، ما مِن خلقٍ حيٍّ في هذه الأرضِ كلِّها إلَّا وهو ينتظمُ في أمَّة، ذات خصائِصَ واحدةٍ، وذات طريقةٍ في الحياةِ واحدةٍ كذلك، شأنُها في هذا شأنُ أمَّةِ الناسِ، ما ترَكَ اللهُ شيئًا مِن خلْقِه بدونِ تَدبيرٍ يَشملُه، وعِلمٍ يُحصيه، وفي النِّهايةِ تُحشَرُ الخلائقُ إلى ربِّها، فيَقضي في أمْرِها بما يَشاءُ[(١)].

١٣- لم يُبيِّنِ اللهُ لنا وَجهَ المماثلة بين أنواعِ الأمم المختلفةِ في قوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾؛ لأجل أنْ نَستعمِلَ حواسَّنَا وعُقولَنا في البَحْثِ المُوصِلِ إلى ذلك[(٢)].

١٤- أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لم يُهمِلْ شيئًا في اللَّوحِ المحفوظ، فكلُّ شيءٍ كَتَبَه؛ لقوله: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ولأنَّ الله تعالى أمَرَ القَلَمَ أن يكتبَ ما هو كائنٌ إلى يومِ القيامةِ[(٣)]، فالكتابُ الأوَّل قد حوى جميعَ الكائناتِ، وهذا أحدُ مراتِبِ القضاءِ والقَدَرِ؛ فإنَّها أربعُ مراتِبَ: عِلْمُ الله الشامِلُ لجميعِ الأشياء، وكتابُه المحيطُ بجميعِ الموجوداتِ، ومشيئتُه وقُدرتُه النافِذَةُ العامَّة لكلِّ شيءٍ، وخَلْقُه لجميعِ المخلوقاتِ، حتى أفعال العباد[(٤)].

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١٠٨٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٢٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٠٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٥).

١٥- قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ الذين كذَّبوا بآياتِ اللهِ المبثوثة في صَفحاتِ الوجودِ، وآياتِه الأخرى المسجَّلةِ في صفحاتِ هذا القرآنِ؛ إنَّما كذَّبوا لأنَّ أجهزةَ الاستقبال فيهم مُعطَّلةٌ؛ إنَّهم صمٌّ لا يسمعون، بُكمٌ لا يَتكلَّمون، غارِقون في الظُّلُماتِ لا يُبصِرون! إنَّهم كذلك لا مِن ناحيةِ التكوين الجُثماني المادِّي، فإنَّ لهم عُيونًا وآذانًا وأفواهًا، ولكنَّ إدراكَهم مُعطَّلٌ، فكأنَّما هذه الحواسُّ لا تَستقبِلُ ولا تَنقُل! وإنَّه لكذلك؛ فهذه الآياتُ تَحمِلُ في ذاتِها فاعليَّتَها وإيقاعَها وتأثيرَها، لو أنَّها استُقبِلتْ وتلقَّاها الإدراكُ! وما يُعرِضُ عنها معرِضٌ إلَّا وقد فسدَتْ فِطرتُه، فلم يعُدْ صالحًا لحياةِ الهُدى، ولم يَعُدْ أهلًا لذلك المستوى الرَّاقي من الحياةِ[١].

١٦- قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ جَمْعُ الظُّلماتِ جارٍ على الفَصيحِ مِن عَدَمِ استعمالِ الظُّلْمة مُفردًا. وقيل: للإشارةِ إلى ظُلْمةِ الكُفْرِ، وظُلْمةِ الجَهْلِ، وظُلمةِ العناد[٢]، ولعلَّ اللهَ جَمَعَها إشارةً إلى أنَّ المُكَذِّبَ لا يَنتفعُ ببصرٍ ولا ببصيرةٍ؛ وذلك أنَّهم لَمَّا لم يَنتفعوا بحياتِهم ولا بأسماعِهم ولا نُطقِهم ولا أبصارِهم ولا عُقُولِهم- كان كلُّ ذلك منهم عَدَمًا[٣].

بلاغةُ الآيات:

١- قوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾

- السِّينُ والتَّاءُ في قولِه: ﴿يَسْتَجِيبُ﴾ زائدتانِ للتَّأكيدِ[٤]، ومفهومُ الحَصر

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) (٢/ ١٠٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢١٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٠٨).

(٤) وقيل: إنما قال: ﴿يَسْتَجِيبُ﴾ ولم يقُل: يُجِيبُ، لأنَّ هناك فرقًا بينهما؛ فقوله: ﴿يَسْتَجِيبُ﴾ فيه قَبولٌ لِمَا دُعِيَ إليه، وليس كذلك في (يُجيب)؛ لأنه قد يُجِيبُ بالمخالفةِ؛ كقَولِ القائلِ: أتوافِقُ =

بـ﴿إِنَّمَا﴾ مُؤْذِنٌ بإعمالِ مَنطوقِه الذي يُومِئُ إلى إرجاءٍ بعد تأييسٍ بأنَّ الله جعل لقومٍ آخرينَ قلوبًا يفقهون بها، وآذانًا يسمعون بها؛ فأولئك يستجيبونَ(١).

- قوله: ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾

على القَولِ بأنَّ قولَه: ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ مُقابلٌ لقولِه: ﴿الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾، أي: وأمَّا المُعرِضون عنك فهُم مِثلُ الموتَى فلا يَستجيبون؛ فيكون حَذَفَ مِن الكلامِ ما دَلَّ عليه السِّياقُ؛ فإنَّ الذي لا يَسمَعُ قد يكونُ فُقدانُ سَمْعِه مِن عِلَّةٍ كالصَّمم، وقد يكونُ مِن عَدَمِ الحياةِ، وحَسُنَ عطْفُ جملةِ ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ على جملةِ: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾، وتَضمَّن عطْفُها تَعريضًا بأنَّ هؤلاءِ كالأمواتِ لا تُرجَى منهم استجابةٌ، وتَخلَّصَ إلى وَعيدِهم بأنَّه يَبعثُهم بَعدَ موتِهم، أي: لا يُرجَى منهم رُجوعٌ إلى الحَقِّ إلى أن يُبعَثوا، وحينئذٍ يُلاقُون جَزاءَ كُفرهم، ويكونُ قولُه: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ زيادةً في التهديدِ والوعيدِ. ويجوزُ أنْ يكونَ الوقفُ عِندَ قولِه تعالى: ﴿يَبْعَثُهُمُ اللهُ﴾ وتمَّ التمثيلُ هنالك، ويكون قولُه: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ استِطرادًا تَخلَّصَ به إلى قَرْعِ أسماعِهم بإثباتِ الحَشْرِ الذي يقَعُ بعدَ البعثِ الحقيقيِّ(٢).

- وفيه: تَمثيلٌ لاختِصاصِه تعالى بالقُدرةِ على تَوفيقِهم للإيمانِ، باختِصاصِه تعالى بالقُدرةِ على بَعْثِ الموتَى مِن القُبورِ(٣).

٢- قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً﴾

= في هذا المَذْهَب أم تخالِفُ؟ فيقول المجيب: أُخالِفُ. يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ١٢٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٠٧- ٢٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣٠).

- ﴿لَوْلَا﴾ حرف تحضيضٍ بمعنى (هَلَّا)، والتحضيضُ هنا لقَطْعِ الخَصْمِ وتعجيزِه[١].

- وتَنكيرُ ﴿آيَةً﴾ في قولِه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً﴾؛ للتفخيمِ والتَّهويلِ[٢].

- وفي التعرُّضِ لعنوانِ ربوبيَّتِه تعالى له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في قوله: ﴿مِنْ رَبِّهِ﴾ إشعارٌ بالعِلِّيَّة، بطريقِ التعريضِ بالتهكُّمِ من جِهَتِهم[٣].

- وإظهارُ الاسمِ الجليلِ ﴿اللَّهَ﴾ في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ﴾- حيثُ لم يقُلْ: (قُلْ إنَّهُ قادرٌ)-؛ لتربيةِ المهابة، مع ما فيه مِن الإشعارِ بعِلَّةِ القدرةِ الباهرةِ[٤].

- وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً﴾ مُستعملٌ في معناه الكِنائيِّ، وهو انتفاءُ أن يُريد اللهُ تعالى إجابةَ مُقْتَرَحِهم؛ لأنَّه لَمَّا أرسَلَ رسولَه بآياتٍ بيِّناتٍ حصل المقصودُ من إقامةِ الحُجَّةِ على الذين كفروا، فلو شاء لزادَهم من الآياتِ؛ لأنَّه قادِرٌ[٥].

٣- قوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾

- قوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ كلامٌ مستأنَفٌ مَسُوقٌ لبيانِ كمالِ قُدرَتِه عزَّ وجلَّ، وشمولِ عِلْمِه، وسَعَةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٠٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢١٠).

تدبيرِه؛ ليكونَ كالدَّليلِ على أنَّه تعالى قادِرٌ على تنزيلِ الآيةِ[١].

- وزيادةُ ﴿مِنْ﴾ لتأكيدِ الاستِغراقِ[٢].

- وقوله: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ صِفةٌ قُصِد منها إفادةُ التَّعميمِ والشُّمولِ؛ بذِكرِ اسمِ المكانِ الذي يَحوي جميعَ الدوابِّ، وهو الأرضُ، وكذلك وصف ﴿طَائِرٍ﴾ بقوله: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ قُصِدَ به الشُّمولُ والإحاطةُ؛ لأنَّه وَصْفٌ آيِلٌ إلى معنى التوكيدِ؛ لأنَّ مَفادَ ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ أنَّه طائِرٌ، كأنه قيل: ولا طائرٌ ولا طائرٌ، والتوكيدُ هنا يُؤكِّد معنى الشُّمولِ الذي دلَّتْ عليه ﴿مِن﴾ الزَّائدة في سِياقِ النَّفيِ، فحصَل من هذينِ الوصفينِ تقريرُ معنى الشُّمولِ الحاصلِ مِن نَفْيِ اسْمَيِ الجنسينِ، ونكتةُ التوكيدِ أنَّ الخَبَرَ لغرابَتِه عندهم، وكَونِه مَظِنَّةَ إنكارِهم- أنَّه حقيقٌ بأنْ يؤكَّدَ؛ ففائدةُ زِيادةِ قوله: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ مع أنَّها لا تكونُ إلَّا في الأرضِ، وقوله: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾: زيادةُ التعميمِ والإحاطةِ، والتأكيدُ، كأنَّه قيل: وما مِن دابَّةٍ قطُّ في جميعِ الأرَضينَ السَّبعِ، وما مِن طائرٍ قطُّ في جوِّ السَّماء من جميعِ ما يطير بجناحَيْه إلَّا أمَمٌ أمثالُكم، محفوظةٌ أحوالُها، غيرُ مُهْمَلٍ أمْرُها[٣]، والغَرضُ في ذِكْر ذلك: الدَّلالةُ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢١)، يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥٢٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ١٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢١٥- ٢١٦).

وقال ابنُ عاشور: (ووقَع في «المفتاح» في بحث إتْباع المسنَدِ إليه بالبيانِ: أنَّ هذين الوَصفَينِ في هذه الآيةِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ القَصدَ مِن اللَّفظين الجنسُ لا بعضُ الأفراد، وهو غيرُ ما في «الكشَّاف»، وكيف يُتوهَّم أنَّ المقصودَ بعضُ الأفراد ووجودُ (مِن) في النَّفْي نصٌّ على نفيِ الجِنسِ دُونَ الوحدةِ؟!

وبهذا تعلمُ أنْ ليس وصفُ ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ وارِدًا لرفْعِ احتمالِ المجازِ في ﴿طَائِرٍ﴾ كما جَنَح إليه كثيرٌ من المفسِّرين، وإن كان رفْعُ احتمالِ المجازِ من جملة نُكَتِ التوكيدِ اللفظيِّ إلَّا أنَّه غيرُ مُطَّرِد، ولأنَّ اعتبارَ تأكيدِ العموم أَوْلى، بخلافِ نحو قولِهم: نظرتُه بعَيني، وسمعتُه بأذني).

عِظَمِ قُدرَتِه، ولُطفِ عِلْمِه، وسَعَةِ سُلطانِه، وتدبيرِه تلك الخلائقَ المتفاوِتةَ الأجناسِ، المتكاثِرَةَ الأصنافِ، وهو حافظٌ لِمَا لها وما عليها، مُهَيمِنٌ على أحوالِها، لا يشغَلُه شأنٌ عن شَأْنٍ، وأنَّ المُكَلَّفينَ ليسوا بمخصوصينَ بذلك دونَ من عداهم مِن سائِرِ الحيوانِ[١].

- وذِكْرُ الطَّائِرِ بعد ذِكْر الدَّابَّةِ تخصيصٌ بعدَ تَعميمٍ، وذِكْرُ بعضٍ من كُلٍّ، وصار مِن بابِ التَّجريدِ؛ كقوله: ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ بعد ذِكْر الملائكةِ، وإنَّما جُرِّد الطائِرُ؛ لأنَّ تصرُّفَه في الوجودِ دون غيره من الحيوانِ أبلغُ في القُدرةِ، وأدَلُّ على عِظَمِها من تَصَرُّفِ غيره من الحيوان في الأرضِ؛ إذ الأرضُ جِسمٌ كثيفٌ يُمْكِنُ تصرُّفُ الأجرامِ عليها، والهواءُ جِسْمٌ لطيفٌ لا يُمكِنُ عادةً تَصَرُّفُ الأجرامِ الكثيفةِ فيها إلَّا بباهِرِ القُدرةِ الإلهيَّة[٢].

- وعبَّر بقولِه سبحانه: ﴿إِلَّا أُمَمٌ﴾ بالجَمْعِ، مع إفرادِ الدابَّةِ والطَّائِرِ؛ لأنَّه لَمَّا كان قولُه: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ﴾ دالًّا على معنى الاستغراقِ، ومُغْنيًا عن أنْ يُقال: وما مِنْ دوابَّ ولا طيورٍ، حُمِلَ قولُه: ﴿إِلَّا أُمَمٌ﴾ على المعنى- الذي هو الجَمْعُ[٣].

- قوله: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾

- قوله: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ جملةٌ مُعتَرِضَةٌ مُقَرِّرةٌ لِمَضْمونِ ما قبلها من بيانِ سَعَةِ عِلْمِ الله تعالى، وعَظيمِ قُدْرَتِه[٤].

- وقولُه تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ الضميرُ في ﴿يُحْشَرُونَ﴾ عائدٌ إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢١)، ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢١٧).

الأممِ المذكورةِ، وفيه رَدُّ الضَّميرِ بصِيغةِ ضَميرِ العُقَلاءِ، على الطيورِ والدوابِّ وهي ليسَتْ من العقلاءِ؛ وذلك لأنَّه لَمَّا شَبَّهَهُمْ بالعُقَلاءِ، وقال: ﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ سوَّغَ ذلك أن يَبْنِيَ عليهم ضَميرَ العقلاءِ، وقد تقررَ في فَنِّ العربيةِ: أنَّ غيرَ العاقلِ كُلَّمَا شُبِّهَ بالعاقلِ جرَى عليه في الضَّمائرِ ونوعِ الصِّيَغِ ما يَجري على العاقلِ، ونظيرُه في القرآنِ قولُه تعالى في رُؤْيَا يوسفَ: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ قال: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: آية ٤] فَجُمِعَ جمعَ المذكرِ السَّالمِ المختصَّ بالعقلاءِ؛ لأنها لَمَّا اتَّصَفَتْ بالسُّجودِ أَشْبَهَتِ العقلاءَ من هذه الحيثيَّةِ، فَجَرَتْ عليها صيغةُ العقلاءِ(١).

٤- قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

- قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ فيه تمثيلٌ لحالِهم في ضَلالِ عقائِدِهم، والابتعادِ عن الاهتداءِ، بحالِ قومٍ صُمٍّ وبُكْمٍ في ظلامٍ؛ فالصَّمَمُ يَمْنَعُهم مِن تلقِّي هُدَى مَن يَهْدِيهم، والبَكَمُ يمنعُهُم مِن الاسترشادِ ممَّن يمرُّ بهم، والظلامُ يمنعُهم من التبصُّر في الطريقِ أو المنفَذِ المُخْرِجِ لهم من مَأْزِقِهم(٢).

- وقوله: ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ جاء قوله: ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ كنايةً عن عَمَى البَصيرةِ، فهو كقوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة: ١٨-١٧١]، لكن قوله: ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أبلغُ مِن قوله: ﴿عُمْيٌ﴾؛ إذ جُعِلت الظُّلماتُ ظرفًا لهم(٣).

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢١٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢١٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٠٥). =

- وقوله: ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ فيه مناسبةٌ حسنةٌ، حيث عَطَف هنا بين ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ﴾ بالواو، بَينما وردتْ في سُورةِ البقرة في مَوضعينِ بدون العطفِ ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة: ١٨-١٧١]، والحِكمةُ في ذلك: أنَّ تَرْكَ العطفِ في آيتَي البقرةِ لبيانِ أنَّ هذه الصِّفاتِ لاصقةٌ بالموصوفينَ بها، مجتمعةً في آنٍ واحدٍ، والأُولى منهما في المختومِ على قُلُوبِهم، الميؤوسِ من إيمانِهم من المنافقينَ وغَيْرِهم، والثانيةُ في المقَلِّدينَ الجامدينَ، وكُلٌّ منهما لا يستمعُ لدعوةِ الحَقِّ عند تلاوةِ القرآنِ وغيرِه، ولا يَسألُ الرَّسولَ ولا غيرَه من المؤمنين عما يَحوك في قَلْبِه، ويجول في ذِهْنه من الكُفْر والشَّكِّ، ولا ينطقُ بما عساه يَعْرِف من الحقِّ، ولا يستدلُّ بآياتِ الله المرئيَّةِ في نفسه، ولا في الآفاقِ، فكأنَّه أصمُّ أبكمُ أعمى في آنٍ واحد، وأمَّا هذه الآيةُ التي في الأنعام فهي في مُشْركي مكَّةَ، ولم يكونوا كلُّهم من المختومِ على قلوبِهم، الميؤوسِ من إيمانِهم، ولا من المقَلِّدينَ الجامدين الذين لا ينظرونَ في شيءٍ من الآياتِ الإلهيَّة المنزَّلَة والمُكوَّنة، بل كان منهم الجامدُ على التقليدِ، والإعراضِ عن سماعِ القرآنِ حتى كأنَّه أصمُّ ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ [سورة لقمان: ٧]، ومنهم من يسمعُ ويعلمُ أنَّها الحقُّ، ولكنَّه لا ينطِقُ بما يعلم عنادًا، فهذان فريقانِ منفصلانِ، عُطِفَ أحدُهما على الآخر؛ لبيانِ هذا الانفصالِ[1].

= قال ابن عاشور: (وإنَّما قيل: ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ ولم يُوصَفوا بأنَّهم عُمي، كما في قوله: ﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧]؛ ليكونَ لبعضِ أجزاءِ الهيئةِ المشبَّهةِ بها ما يَصلُحُ لشَبَهِ بعضِ أجزاءِ الهيئةِ المُشبَّهة؛ فإنَّ الكفرَ الذي هم فيه، والذي أصارَهم إلى استمرارِ الضلالِ، يُشبه الظلماتِ في الحيلولةِ بين الداخلِ فيه، وبين الاهتداءِ إلى طريقِ النجاةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٣٨).

- قوله: ﴿مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ لأنَّ حالَهُم العجيبةَ تُثيرُ سؤالًا، وهو أن يقولَ قائلٌ: ما بالُهم لا يهتدونَ مع وضوحِ هذه الدلائلِ البيِّناتِ؟! فأُجيبَ بأنَّ اللهَ أضَلَّهم فلا يهتدونَ، وأنَّ الله يُضِلُّ مَن يشاء، ويَهدي مَن يشاءُ؛ فدَلَّ على أنَّ هؤلاءِ المكَذِّبينَ الضالِّينَ هم ممَّن شاءَ اللهُ إضلالَهم على طَريقةِ الإيجازِ بالحَذْفِ؛ لظهورِ المحذوفِ(١).

- وقوله: ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ معنى ﴿عَلَى﴾ الاستعلاءُ، وهو استعلاءُ السائرِ على الطريقِ؛ فالكلام تمثيلٌ لحالِ الذي خَلَقه الله فمَنَّ عليه بعقلٍ يَرْعَوي مِن غَيِّه، ويُصْغي إلى النصيحةِ؛ فلا يقعُ في الفسادِ، فاتَّبَع الدِّينَ الحَقَّ- بحالِ السَّائرِ في طريقٍ واضحةٍ لا يتحيَّرُ، ولا يُخطِئُ القصدَ، ومستقيمةٍ لا تطوحُ به في طُولِ السَّيْرِ. وهذا التمثيلُ أيضًا صالحٌ لتَشبيهِ كلِّ جُزءٍ من أجزاءِ الهيئةِ المشبَّهةِ بجزءٍ من أجزاءِ الهيئةِ المشبَّه بها(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٢٠).

الآيات (٤٠ - ٤٥)

﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ
جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ
﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ
أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِالْبَأْسَاءِ﴾: البأساءُ: اسمٌ للبُؤسِ، وهو المكروهُ والضَّرَرُ والشِّدَّةُ وسُوءُ الحالِ، وقيل: البأساءُ الفَقْرُ والفاقةُ، وهو مِن البُؤسِ، وأصل (بأس): الشِّدَّةُ وما ضاهاها. وقيل: البأساءُ ضرَّاءُ مَعها خوفٌ، وأصلُها مِن البأسِ، وهو الخَوفُ؛ يُقال: لا بَأسَ عليكَ، أي: لا خوفَ عليك(١).

﴿وَالضَّرَّاءِ﴾: أي: المرضِ والزَّمانةِ، وسوءِ الحالِ، والفَقْرِ والقَحْطِ، وهي مقابِلُ السَّرَّاءِ، والضُّرُّ: خلاف النَّفْعِ(٢).

﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾: أي: يَتذلَّلونَ، وأصل (ضرع): يدلُّ على لِينٍ في الشَّيءِ(٣).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٠، ٨١)، ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨)، ((الفروق اللغوية)) للعسكري (ص: ١٩٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٢).
(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٦٠)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٠). ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٣، ٥٠٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٢، ١٢٩).
(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٩٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٣).

﴿بَأْسُنَا﴾: أي: عذابُنا[1].

﴿مُبْلِسُونَ﴾: أي: آيِسونَ من رحمة الله تعالى، ومُلْقُونَ بأيديهم، والإِبلاسُ: الحُزْنُ المعترِض من شِدَّةِ البأس، وأصلُه: اليَأْس، قيل: ومنه اشْتُقَّ إبْلِيسُ؛ كأنَّه يَئِسَ مِن رَحمةِ اللَّهِ[2].

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ القومِ﴾: أي: اجتُثَّ أصلُهم، وقَطْعُ دابرِ الإنسانِ: هو إفناءُ نَوْعِه، ودابِرُ القومِ: آخرُهم، وأصلُ (قطع): الفَصْل، وأصل (دبر): آخِرُ الشَّيء وخَلْفُه، خلاف قُبُله[3].

مُشكل الإعراب:

١ - قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

﴿أَرَأَيْتَكُمْ﴾: بمعنى: أَخْبِروني، والهمزةُ للاستفهامِ التقريريِّ، والتاءُ ضَميرُ الفاعِل، مبنيٌّ على الفتْحِ أبدًا في محلِّ رفْعٍ، وهذه التاءُ إذا اتَّصَلَتْ بها الكَافُ الَّتي للخِطابِ فإنَّها تلزمُ الإفرادَ والتَّذكير؛ فتقول: أرأيتكُما، أَرأيتكُم، أرأيتكُنَّ. والكافُ هنا حَرْفُ خِطابٍ مَبنيٌّ، لا محلَّ له مِن الإعراب، والفِعل (رأى) مُتعدٍّ لمفعولَين؛ فالمفعول الأوَّلُ هنا محذوف، والمسألةُ مِن بابِ التنازُع؛ تَنازَعَ ﴿أَرَأَيْتَكُمْ﴾ وفِعلُ الشَّرْطِ ﴿أَتَاكُمْ﴾ على ﴿عَذَابُ اللهِ﴾، فأُعْمِلَ الثاني، وهو

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص:١٠٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٧، ٦٧٨).

﴿أَتَاكُمْ﴾، فارتفعَ ﴿عَذَابُ﴾ به على الفاعليَّةِ، ولو أُعمِلَ الأوَّلُ لكان التركيبُ: (عذابَ) بالنَّصْبِ على المفعوليَّة، وأمَّا المفعولُ الثاني فهو الجملةُ مِن الاستفهام: ﴿أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ﴾، والرابطُ لهذه الجملةِ محذوفٌ؛ تقديرُه: أغيرَ اللهِ تَدْعُون لكَشْفِه، والمعنى: قل أَرَأَيتكم عَذابَ اللهِ إنْ أتاكم- أو السَّاعةَ إنْ أَتَتْكُم- أغيرَ اللهِ تَدْعُون لكَشْفِه، أو لكشْفِ نوازِلِها، وجوابُ الشَّرطِ محذوفٌ، تقديرُه: إنْ أتاكم عذابُ اللهِ فمَنْ تَدْعونَ؟ وقيل: المفعولُ الأوَّلُ، والجملةُ الاستفهاميَّةُ التي سَدَّت مَسَدَّ الثاني محذوفانِ؛ لفَهْم المعنى، والتقدير: أرأيتكم عِبادتَكم الأصنامَ هل تنفعُكم، أو اتِّخاذَكم غيرَ الله إلهًا هل يَكْشِفُ ضُرَّكم؟ فـ(عِبادَتَكُمْ) أو (اتِّخاذَكم): مفعول أوَّل، والجملةُ الاستفهاميَّة سادَّةٌ مَسَدَّ الثاني. وجملةُ ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ...﴾ اعتراضيَّة لا محلَّ لها من الإعراب. وقيل غير ذلك[1].

٢- قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾

﴿بَغْتَةً﴾: مَصدرٌ في مَوضِعِ الحالِ من الفاعِلِ (نا العظَمَةِ) في ﴿أَخَذْنَاهُمْ﴾، أي: مُباغِتِينَ، أو مِن المفعولِ به (هُم) في ﴿أَخَذْنَاهُمْ﴾؛ أي: مَبغوتينَ، ويجوزُ أنْ يكونَ مصدرًا على المعنى؛ لأنَّ ﴿أَخَذْنَاهُمْ﴾ بمعنى بَغَتْناهم، فيكون مفعولًا مُطلقًا، نائبًا عن المصدرِ؛ فهو نوعُه، أي: أَخَذْناهم أَخْذَ البَغْتِ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يقولَ للكُفَّارِ: أَخْبِروني إنْ أتاكم عذابُ الله، أو أتاكم يَومُ القيامةِ؛ هل ستَدْعونَ في ذلك الوقتِ أحدًا غيرَ

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٩٥- ٤٩٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٦٢٣-٦٢٤).

(٢) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٩٧)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٧/ ١٢٣).

الله؛ ليُنْجِيَكم ممَّا حَلَّ بكم إنْ كنتم صادِقينَ في اتِّخاذِكُم آلهةً من دونه؟ بل لنْ تدْعُوا غيرَه تعالى، فيُفَرِّجُ عنكم سبحانه ما حلَّ بكم مِن كَرْب، وتَنْسَونَ وقتَ الشَّدائدِ وعند الكَرْب ما تُشركونَه مع اللهِ تعالى.

ثمَّ يُخبرُ الله تعالى أنَّه أرسل رُسلًا إلى أُممٍ مِن قَبلِ النبيِّ محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فكذَّبوا رُسُلَ ربِّهم، فأذاقَهُم اللهُ شِدَّةَ الفقرِ، وضَنْك العَيْش، كما ابتلاهم بالأسقامِ والأمراض؛ لعلَّهم يتضرَّعونَ إليه- جلَّ وعلا- ويُخْلِصون له العبادةَ.

فهلَّا حين ابتلاهم اللهُ بهذا البلاءِ لجَؤُوا إليه، وتَضرَّعوا، حتى يَصْرِفَ عنهم العذابَ، ولكنَّهم قسَتْ قلوبُهم، وزيَّن لهم الشَّيطانُ ما هم فيه من الأعمالِ التي يَكرهُها الله؛ مِن الكُفرِ والشِّرْك والمعاصي.

فلَمَّا ترَكوا- مُتعمِّدينَ- العملَ بما أمَرَهم الله وتناسَوْه؛ بدَّلهم الله- استدراجًا- مكانَ الفَقْرِ الغِنى، ومكانَ المرضِ الصِّحَّةَ، حتى إذا فَرِحوا بما أُعْطُوا فَرَحَ بَطَرٍ وأَشَرٍ، أتاهم عذابُ الله بقوَّةٍ، مُباغِتًا لهم، فإذا هم هالِكون قد قَنَطوا مِن رَحمةِ اللهِ، فاستُؤْصِلوا جميعًا، ولم يَبْقَ منهم أحدٌ، والحمْدُ لله ربِّ العالمينَ.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ تعالى غايةَ جَهْلِ أولئك الكفَّار، بَيَّنَ مِن حالِهم أيضًا أنَّهم إذا نَزَلَت بهم بَلِيَّةٌ أو محنةٌ فإنَّهم يَفزعونَ إلى الله تعالى، ويَلجؤونَ إليه، ولا يَتمرَّدونَ عن طاعته، فقال سبحانه(١):

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥٣٢).

﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ ﴾.

أي: قل- يا محمَّدُ-: أَخبِرُوني أيُّها الكفَّارُ الذين تَعدِلُونَ باللَّهِ سواه، وتَصرِفونَ حقوقَه لغيرِه؛ أَخبِرُوني إنْ جَاءَتْكُمْ بَلِيَّةٌ مِنَ البلايا والكروبِ، كما لو هَاجَ عليكم البحرُ، والتطمَتْ أمواجُه فرأيتم الموتَ عِيَانًا، أو إنْ جاءَتْكم السَّاعةُ التي تُنْشَرون فيها من قُبورِكم، وتُبعثَون لموقفِ القيامةِ(١).

﴿ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.

أي: هل ستَدْعونَ في ذلك الوقتِ والكَرْبِ أحدًا أو شيئًا غيرَ الله؛ لإنجائكم مِمَّا نزَل بكم من شدَّةٍ وبلاء، إنْ كنتم مُحِقِّينَ في اتِّخاذكم آلهةً معه، وأنَّها تُنجيكم ممَّا حلَّ بكم(٢)؟

كما قال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢].

﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ ﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا كان استفهامُ الإنكارِ في قوله: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ من الآيةِ السَّابقة، بمعنى النَّفْيِ، كأنَّه قيل: لا تَدْعون غيرَهُ، عَطَفَ عليه قوله: ﴿بَلْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٤٠-٢٤١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٧٧-٤٧٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٣٧-٢٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢١٣-٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢١٣-٢١٤).

إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾(١).

﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ ﴾.

أي: ما أنتم- أيُّها المشركونَ باللهِ- بمُستغيثينَ بشيءٍ غير الله في حالِ الشَّدائِدِ، والأهوالِ النَّازلة بكم؛ فتَدْعونَ ربَّكم الذي خلَقَكم، وإليه تَفْزَعون؛ لأنَّكم تعلمونَ أنَّه هو الذي بِيَده وحدَه إزالتُها، وأنَّ غَيرَه لا يَقدِرُ على رفْعِ الكُرُبات عنكم(٢).

﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ ﴾.

أي: فيُفَرِّجُ عنكم ربُّكم عندَ استغاثتِكم به، وتضرُّعِكم إليه، ويُذهِب الكَرْبَ النازلَ بكم، إنْ شاء أنْ يَفعلَ ذلك؛ لأنَّه القادِرُ على كلِّ شيءٍ، ومالِكُ كلِّ شيءٍ؛ فإن شاءَ كشَفَ الضُرَّ عنكم، وإنْ شاءَ لم يَكْشِفْهُ، وذلك بحَسَب ما تقتضيه حِكْمَتُه سبحانه وتعالى(٣).

﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾.

أي: وتَنْسَون(٤) في وقتِ الضَّرورةِ حِينَ تأتيكم الشَّدائدُ، وتَحُلُّ بكم الكُرُبات

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٤١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٣٩).

(٤) قال الشنقيطي: (﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ فيه للعلماءِ وَجْهَانِ:

أن معنَى ﴿وَتَنْسَوْنَ﴾ تَتْرُكونه عَمْدًا، تنسونَ الشركاءَ، أي: تَتْرُكون دُعاءَها وقتَ الشدةِ عمدًا؛ لعِلْمِكم بأن الكرباتِ والشدائدَ لا يكشفُها إلا اللَّهُ جل وعلا، فتتركونها عمدًا. والنسيانُ يُطْلَقُ على تركِ الشيءِ عمدًا، كما قال: ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ [الأعراف: آية ٥١] معناه: نَتْرُكُهم عَمْدًا كما تَرَكوا العملَ لِلقاءِ يومِ القيامةِ عمدًا. وهذا معروفٌ في كلامِ العربِ؛ أنها تُطْلِقُ النسيانَ على تركِ الفعلِ عمدًا، وتطلقُه على تَرْكِه نِسْيانًا.

الوجهُ الثاني: أنَّه من شدةِ الهولِ نَسُوا غيرَ اللَّهِ جلَّ وعلا، ولم يَخْطُرْ في أذهانِهم إلا اللَّهُ؛ =

ما تُشركونه مع الله تعالى؛ لِعِلْمكم أنْ لا شيءَ يَملِكُ كَشفَ الضرِّ عنكم سوى اللهِ تعالى وحْدَه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧].

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا أقامَ لهم بالآية السابقةِ الدَّليلَ على توحيدِه؛ حتى استنارتِ السُّبُلُ في تذكيرهم أنَّ التضرُّعَ قد يُكشَف به البلاءُ- أخبرَهم أنَّ ترْكَه يُوجِبُ الشَّقاءَ؛ ترغيبًا في إدامَتِه، وترهيبًا مِن مجانَبتِه[2].

وأيضًا لَمَّا أنذَرهم اللهُ تعالى بتوقُّع العذابِ- أعقَبَه بالاستشهادِ على وقوعِ العذابِ بأُمَمٍ من قَبلُ؛ ليعلَمَ هؤلاءِ أنَّ تلك سنَّةُ اللهِ في الَّذين ظَلَموا بالشِّرْك[3]، فقال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

أي: ولقد أرسَلْنا- يا محمَّدُ- رُسُلًا إلى جماعاتٍ مِن قبلك، فأمرناهم ونهيناهم، فكذَّبوا رُسُلَنا، وخالفوا أمْرَنا ونَهْيَنا، فامتحنَّاهم بشِدَّة الفقر، والضِّيقِ في المعيشةِ، وابتليناهم بالأسْقام والأمراض، فعَلْنا ذلك بهم؛ ليتضرَّعوا إليَّ،

= لأنهم عارفونَ أنَّه لا يكشفُ الكرباتِ إلا هو؛ ولذا قال: ﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾. ((العذب النمير)) (١/ ٢٣٩-٢٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢١٣-٢١٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٢٦).

ويُخْلِصوا ليَ العبادةَ؛ بالتذلُّلِ والخضوعِ والخُشُوعِ لي[١].

﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قبلَها:

لَمَّا لم يقعْ منهم التَّضرعُ الذي كان يُرجَى بعدَ أخذِهم بالبأساءِ والضراءِ- تسبَّبَ عن ذلك الإنكارُ عليهم، فقال الله تعالى معبِّرًا بأداة التَّحضيضِ (لَوْلَا)؛ ليُفيدَ مع النَّفيِ أنَّهم ما كان لهم عُذْرٌ في تَرْكِ التضرُّعِ[٢]:

﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ ﴾.

أي: فهلَّا حِين ابتلَيْناهم تضرَّعوا إلينا، وتَمَسْكَنوا إلينا، فيُصرف عنهم العذابُ[٣].

﴿ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾.

أي: إنَّ قُلوبَهم ما رقَّتْ ولا خشَعَتْ، بل استحجَرَتْ وصَلُبَت، فلم تَلِنْ للحَقِّ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٤١، ٢٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢١٧-٢١٨).

قال الشِّنقيطي: (وأكثرُ العلماءِ على أنَّ البأساءَ: هي ما كان من جِهةِ الفقرِ، والفاقةِ والجوعِ وضياعِ الأموالِ. وأنَّ الضراءَ: هي ما كان من قَبيلِ أمراضِ الجسومِ وآلامِها وما يقعُ فيها). ((العذب النمير)) (١/ ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٦).

قال ابنُ جرير: (ثمَّ قال: (فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾، ولم يخبِرْ عمَّا كان منهم مِن الفِعل عندَ أخذِه إيَّاهم بالبأساءِ والضَّرَّاء. ومعنَى الكلامِ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ فلم يتضرَّعوا، ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾). ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٤٣).

وأقاموا على ما هم عليه من تكذيبِ الرُّسُل، وأصرُّوا على ذلك، واستكبَروا عن أمْرِ ربِّهم[١].

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

أي: وحسَّن لهم الشيطانُ[٢] ما كانوا يَعملونَ من الأعمالِ التي يكرهُها الله ويَسْخَطها منهم؛ من الكُفْرِ والشِّرْك والمعاصي، فظنُّوا أنَّ ما هم عليه حَسَنٌ وحقٌّ[٣].

﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

هذا مِن تمام القِصَّةِ الأولى؛ بيَّنَ تعالى أنَّه أخذَهم بالبأساءِ والضرَّاءِ لعلَّهم يتضرَّعونَ، ثمَّ بيَّنَ في هذه الآية أنَّهم لَمَّا نَسُوا ما ذُكِّروا به من البأساءِ والضرَّاء فتَحْنَا عليهم أبوابَ كُلِّ شيءٍ، ونقلناهم من البأساءِ والضرَّاء إلى الرَّاحةِ والرَّخاء، وأنواع الآلاءِ والنَّعْماءِ، والمقصودُ: أنَّه تعالى عامَلَهم بتسليطِ المكارِه والشَّدائدِ تارةً، فلم يَنتفعوا به، فنَقَلَهم من تلك الحالةِ إلى ضِدِّها، وهو فتْحُ أبواب الخيراتِ عليهم، وتَسهيلُ مُوجِبات المسَرَّاتِ والسَّعادات لديهم، فلم ينتفعوا به أيضًا، وهذا كما يفعلُه الأبُ المُشْفِق بولده؛ يُخاشِنُه تارةً، ويُلاطِفُه أخرى؛ طلبًا لصلاحِه، حتى إذا فَرِحوا بما أُوتوا من الخَيْر والنِّعَم، لم يَزيدوا على الفَرَح والبَطَر من غيرِ انتدابٍ لِشُكرٍ، ولا إقدامٍ على اعتذارٍ وتوبةٍ؛ فلا جَرَم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٦).

(٢) قال الشِّنقيطي: (المرادُ بالشَّيطانِ هنا: جنسُ الشَّيطانِ، وهو إبليس وذريَّتُه، والعياذُ بالله مِن تَضليلِهم). ((العذب النمير)) (١/ ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٥٤).

أخذناهم بغتةً[١].

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التفسيرِ:

في قوله تعالى: ﴿فَتَحْنَا﴾ قِراءتانِ:

١- ﴿فَتَّحْنَا﴾ بمعنى تَكثيرِ الأبوابِ، وتَكرُّر فِعْل ذلك مرَّةً بعد مرَّةٍ[٢].

٢- ﴿فَتَحْنَا﴾ أي: فَعَل ذلك مرةً واحدةً[٣].

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

أي: فلَمَّا تركوا عمْدًا العملَ بما أمَرْناهم به على ألْسِنَة رُسُلِنا، وتناسَوْه، وجعلوه وراءَ ظُهُورِهم، فأعْرَضُوا عمَّا ذُكِّرُوا به من البأساءِ والضَّراءِ- فتَحْنا أبوابَ كلِّ شيءٍ كنَّا أغلَقْنا بابَه عليهم، فبدَّلْنا مكانَ البأساءِ الرَّخاءَ، والسَّعَةَ في العَيْش، ومكانَ الضَّرَّاء الصِّحةَ، والسَّلامةَ في الأبدان؛ استدراجًا، وإملاءً مِنَّا لهم[٤].

وذلك كما قال تعالى في موضعٍ آخرَ مِن كِتابِه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ * ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥٣٤، ٥٣٥)، ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ١٤٩).

(٢) قرأ بها ابن عامر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٥٨).

ويُنظر لمعنى هذه القِراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٥٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٥٠-٢٥١).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٥٨).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٥٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٥٠-٢٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢١٩).

الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٤-٩٥]

وعن عُقبةَ بنِ عامرٍ رضيَ الله عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((إذا رأيتَ اللَّهَ يُعطي العبدَ منَ الدُّنيا- علَى مَعاصيهِ- ما يُحبُّ، فإنَّما هوَ استدراجٌ، ثمَّ تلا رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]))(١).

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾.

أي: ولم يَزَلْ ذلك الفتْحُ ممتدًّا لهؤلاءِ المكذِّبينَ بِرُسُلِهم، إلى أنْ فَرِحوا بما أُعْطُوا من السَّعةِ في المعيشة والأموالِ والأولادِ والأرزاقِ، والصِّحةِ في الأجسامِ؛ فَرِحوا بذلك فَرَحَ أَشَرٍ وبَطَرٍ، فلَمَّا صَدَر ذلك منهم؛ أتيناهُم بالعذابِ بقوَّةٍ وشِدَّة، مباغِتًا، لم يطرَأْ لهم على بالٍ، فإذا هم هالِكونَ، قد قَنَطوا وأَيِسوا من رحمةِ الله تعالى، وانقطَعَتْ حُجَجُهم(٢).

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا كان مِن عادةِ مَن يَغْلِبُ مِن أهلِ الدُّنيا أنْ يَفوتَه آخِرُ الجُيوشِ، والمتفرِّقون

(١) أخرجه أحمد (١٧٣١١)، والروياني في ((المسند)) (٢٦١)، والطبراني في الأوسط (٩٢٧٢)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٤٢٢٠).
حسَّن إسناده العراقي في ((تخريج الإحياء))(٤/ ١٦٢)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٥٦١)، وحسَّنه الأرنؤوط في تحقيق ((مسند الإمام أحمد بن حنبل)) (١٧٣١١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٤٦-٢٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٥٨-٢٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢١٩).

عنهم؛ لِمَلَل أصحابِه من الطَّلَب، وضَجَرِهم من النَّصَب والتَّعَب، وقُصورِهم عن الإحاطةِ بجميعِ الأَرَب؛ أخْبَر تعالى أنَّ أخْذَه على غير ذلك، وأنَّ نَيْلَه للآخِر كَنَيْلِه للأوَّلِ على حدٍّ سواءٍ، فقال- مسبِّبًا عن الأخذ الموصوف مشيرًا بالبناءِ للمفعولِ إلى تمام القُدرةِ، وبالدَّابِر إلى الاستئصالِ(١):

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾.

أي: فاستُؤصِلَ هؤلاء المشركونَ الذين خالفوا أمْرَ الله، وكذَّبوا رُسُلَه، فهلكوا عن آخِرِهم، ولم يَبْقَ منهم أحدٌ(٢).

﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

مناسَبَتُها لما قَبْلَها:

لَمَّا أُرسِلَ الرُّسُلُ إلى هؤلاء الأُمَمِ كذَّبوهم وآذَوْهم، فابتلاهم اللهُ تارةً بالبلاءِ، وتارةً بالرَّخاءِ، فلم يؤمنوا؛ فأهلَكَهم واستراحَ الرُّسُل من شَرِّهم وتكذيبِهم، وصار ذلك نعمةً في حَقِّ الرُّسُل؛ إذْ أنجَزَ الله وَعْدَه على لسانهم بهلاكِ المكَذِّبين، فناسب هذا الفِعْلَ كُلَّه الخَتْمُ بالحمدلةِ(٣).

﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

أي: والحمدُ لله تعالى على ما قضاه وقَدَّرَه؛ من هلاكِ المُكذِّبينَ، فبذلك تتبيَّنُ آياتُه وحُجَجُه، ويظهر صِدْق رُسُلِه، ويحصُلُ إكرامُه لأوليائه، وإهانَتُه لأعدائه، ويكون ذلك الإهلاكُ نَكالًا لغيرِهم(٤).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٦٠-٢٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٢٧-٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥٠-٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٢٨).

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- قوله: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ* بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ هذا طَرَفٌ مِن وسائلِ المنهجِ الربانيِّ في خِطابِ الفِطْرةِ الإنسانيَّةِ بهذه العقيدةِ؛ لقدْ خاطبَها هنا ببأسِ اللهِ، وبموقفِ الفطرةِ إزاءَه حين يُواجِهُها في صُورةٍ من صُوَرِه الهائلة، التي تهزُّ القلوب، فيَتَساقطُ عنها رُكامُ الشِّرك، وتَتعرَّى فِطرتُها من هذا الركامِ الذي يَحجُبُ عنها ما هو مُستقِرٌّ في أعماقِها، مِن معرفتِها بربِّها، ومِن توحيدِها له أيضًا، إنَّها مواجهةُ الفِطرة بتصوُّر الهول! والفطرةُ حين تَلمَسُ هذه اللمسةَ، وتتصوَّر هذا الهولَ تُدرِكُ حقيقةَ هذا التصوُّرِ، وتهتزُّ له؛ لأنَّه يُمثِّل حقيقةً كامنةً فيها، يعلم بارِئُها سبحانه أنها كامنةٌ فيها، ويُخاطِبُها بها على سبيلِ التصوُّرِ، فتهتزُّ لها وترتجفُ وتتعرَّى! وهو يسألهم ويطلبُ إليهم الجوابَ بالصِّدقِ مِن ألسنتِهم؛ ليكون تَعبيرًا عن الصِّدقِ في فِطرتِهم(١).

٢- قوله: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ يُبيِّنُ أنَّ الفزَع إليه سبحانه عِندَ شِدَّة الضِّيقِ واليأسِ من الأسبابِ مركوزٌ في فِطْرَةِ البَشَر، تنبعثُ إليه بذاتِها، كما تنبعثُ إلى طَلَب الغِذَاء عند الجوعِ مثلًا؛ فلا يَذهبُ به ما يُتلقَّى بالتعليمِ الباطِلِ مِن مَسائل الدِّين غالبًا إلَّا مَن تَمَّ فسادُ فِطرتِه، وانتهتْ سفالةُ طِينتِه، حتى كان كالأعجمِ، لا يَفهَمُ ولا يُفهِم، وإنَّما مَثَل تعاليم الشِّركِ مع هذه الغريزة الفِطريَّة كمَثَل ما كان عند المشركينَ مِن أحكامِ الطعامِ الباطلةِ مع غريزةِ التغذِّي؛ فإنَّهم كانوا يُحرِّمون بعضَ الطيبات كالبحائرِ والسوائبِ، ويبيحون بعضَ الخبائث كالميتةِ والدَّمِ المسفوح، فيَجنُون على غريزةِ التغذِّي بأكْل هذا والحرمانِ مِن ذاك، ثم يأكلون كلَّ شيءٍ عند

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١٠٨٦).

الاضطرارِ، كذلك يجنون على غريزةِ التوجه إلى خالقِهم وخالقِ العالمِ كلِّه بما يتَّخذون من الأندادِ والأولياءِ والشُّفعاءِ، الذين يَتوجَّهون إليهم كما يَتوجَّهون إلى اللهِ؛ فإنَّهم عندَ الشِّدَّةِ يَنسَوْنها ويَدْعُون اللهَ وحْدَه(١).

٣- يُستفاد من قوله تعالى: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ﴾ أنَّه لا يصرفُ السُّوءَ إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ، ويتفرَّعُ على هذه الفائدة أنَّه إذا أصابك السُّوءُ فلا تلجأْ إلَّا إلى اللهِ عزَّ وجلَّ(٢).

٤- في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ الدَّلالةُ على أنَّ البأساءَ والضرَّاءَ، وما يُقابِلُهما من السَّرَّاء والنَّعماءِ، مِمَّا يتربَّى ويتهذَّب به الموَفَّقون من الناس، وإلَّا كانت النِّعَمُ أشَدَّ وَبالًا عليهم من النِّقَم، وهذا ثابتٌ بالاختبارِ، فلا خلاف في أنَّ الشدائِدَ مُصْلِحةٌ للفَسَادِ، وأجدَرُ النَّاسِ بالاستفادةِ مِنَ الحوادثِ المؤمِنُ؛ كما ثبت في حديثِ صُهَيبٍ مرفوعًا في صحيحِ مسلمٍ ((عَجَبًا لِأَمْرِ المؤمنِ؛ إنَّ أمرَهُ كلَّه له خيرٌ، وليس ذلك لأحَدٍ إلَّا للمؤمنِ؛ إنْ أصابَتْه سرَّاءُ شَكَرَ فكان خيرًا له، وإن أصابَتْه ضَرَّاءُ صَبَرَ فكان خيرًا له))(٣).

٥- إذا ابتلى اللهُ عَبدَه بشَيءٍ مِن أَنواعِ البلايا والمِحَن، فإنْ رَدَّه ذلك الابتلاءُ والمِحَنُ إلى ربِّه، وجَمَعَه عليه وطَرَحَه ببابِه؛ فهو علامةُ سَعادَتِه، وإرادةِ الخَيرِ به، وإن لم يَرُدَّه ذلك البلاءُ إليه، بل أنساه ذِكرَ رَبِّه والضَّراعةَ إليه، والتذَلُّلَ بين يَدَيه، والتَّوبةَ والرُّجوعَ إليه؛ فهو علامةُ شَقاوَتِه، وإرادةِ الشَّرِّ به؛ قال الله تعالى:

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٤٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢١٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٤٧).
والحديث أخرجه مسلم (٢٩٩٩).

﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾[1].

٦- يُستَفاد من قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ وجوبُ التضرُّع إلى الله عزَّ وجلَّ، باللجوءِ والإنابة إليه، والقيامِ بما يجب له من عقيدةٍ أو قولٍ أو عملٍ[2].

٧- إثباتُ قسوةِ القَلْب بعد لِينِه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، وكما في آية البقرةِ: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ [البقرة: ٧٤]، والواجِبُ على الإنسان أن يلاحِظَ قلبَه دائمًا، فكلُّ أحدٍ يمكنُه الإتيانُ بالأعمالِ الظاهرة على أحْسَنِ وجهٍ، فالمنافِقُ يُمكِنُه أن يأتيَ بالصَّلاةِ على أحسنِ وجهٍ، ويُمكِنُ أن يتصَدَّق، لكنَّ أعمالَ القلوبِ صعبةٌ؛ فينبغي للإنسانِ أن يُحَرِّرَ قَلْبَه من رِقِّ المعاصي، وأن يَحرِصَ على فِعلِ أسبابِ إزالةِ هذه القسوةِ؛ ومنها: كثرةُ قراءةِ القرآنِ بتدبُّرٍ، واستشعارُ أنَّ هذا كلامُ الله عزَّ وجلَّ، ومنها: كثرةُ ذِكْر الله عزَّ وجلَّ، ومصاحبةُ الأخيارِ، ورحمةُ الصِّغارِ، ولا سيَّما اليتامى منهم[3].

٨- قوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ يُبيِّنُ أنَّ الرَّخاءَ ابتلاءٌ آخَرُ كابتلاءِ الشِّدَّة، وهو مرتبةٌ أشَدُّ وأعْلَى مِن مرتبةِ الشدَّة! والله يَبتلي بالرخاءِ كما يَبتلي بالشدَّة؛ يبتلي الطائِعين والعُصاة سواءً، بهذه وبذاك سواءً، والمؤمنُ يُبتلَى بالشدَّةِ فيَصبِر، ويُبتلَى بالرَّخاءِ فيَشكُرُ، ويكون أمرُه كلُّه خيرًا، فأمَّا هذه الأُمم التي كذَّبت بالرُّسُل، والتي يقصُّ اللهُ مِن أنبائها هنا؛ فإنَّهم لَمَّا نَسُوا ما ذُكِّروا به، وعَلِم اللهُ سبحانه أنَّهم مُهلَكون، وابتلاهم بالبأساءِ والضراءِ فلم يَتضرَّعوا- فأمَّا هؤلاء فقدْ فتَحَ عليهم أبوابَ كلِّ شيءٍ للاستدراجِ بعد الابتلاء، ﴿حَتَّى إذا

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ١٦٣، ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٢٣، ٢٢٤).

فَرِحُوا بِما أُوتُوا﴾ كان أَخْذُهم على غِرَّةٍ وهم في سَهوةٍ وسَكرةٍ[١].

٩- يُؤخَذُ من قوله تعالى: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أن يَحْذَرَ الإنسانُ عقوبةَ الله عزَّ وجلَّ إذا منَّ الله عليه بتيسيرِ أمورِ الدُّنيا؛ من مأكلٍ ومَشْربٍ ونِكاحٍ ومَرْكَبٍ ومَسْكَنٍ؛ فلا يغترَّ بهذا؛ لأنه قد يكونُ استدراجًا[٢]، قال أبو حازمٍ الأعرجُ: (إذا رأيتَ اللهَ يتُابعُ نِعَمَه عليك وأنت تَعصيه؛ فإنَّما هو استدراجٌ، فاحذَرْه)، وقد قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٣] [الأعراف: ١٨٢].

١٠- أنَّ الذي بيَدِه الرَّخاءُ والشِّدةُ هو الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾[٤].

١١- أنَّه يَجِبُ الحَذَرُ من الفَرَح الذي هو فَرَحُ البَطَرِ بِنِعَم الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله: ﴿فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾، أي: فَرَحَ بطرٍ، أمَّا إذا فَرِح الإنسانُ بما يَسُرُّه من أمورِ الدنيا، أو من أمورِ الآخرةِ فَرَحَ سرورٍ وانبساطٍ بنعمة الله، فإنَّ هذا لا بأس به؛ قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾[٥] [يونس: ٥٨].

١٢- أنَّ الإنسانَ قد يأتيه العذابُ بغتةً، فبَيْنا هو في نعيمِه وسرورِه في الدنيا، منغمسًا في معاصي الله إذا بالعذابِ يأتيه بغتةً، وسواءٌ كان هذا العذابُ عامًّا شاملًا، أو كان خاصًّا؛ فقد يُبْتَلى بمرضٍ، أو بحوادِثَ تَكْسِره وتَحْطِمُه، أو بموتٍ

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١٠٩٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٢٦).
(٣) يُنظر: ((الآداب الشرعية)) لابن مفلح (٣/ ٢٣٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٢٦).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٢٧).

عاجل؛ ولهذا قال: ﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾[١].

١٣- قوله تعالى: ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِيْنَ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّه يَحِقُّ الحمدُ للهِ عند هلاكِ الظَّلَمة، الذين ليس فيهم خيرٌ، وليس فيهم إلَّا الشرُّ للبلادِ والعبادِ؛ لأنَّ هلاكَهم صلاحٌ للنَّاسِ، والصَّلاحُ أعظَمُ النِّعَمِ، وشُكْرُ النِّعمة واجبٌ، وهذا الحمدُ شُكْرٌ؛ لأنَّه مقابِلُ نعمةٍ[٢]؛ فهلاكُ الكافرينَ من حيثُ إنَّه تَخليصٌ لأهلِ الأرضِ من شُؤمِ عَقائِدِهم وأعمالِهم نعمةٌ جليلةٌ، يحقُّ أن يُحمَدَ عليها[٣].

١٤- قوله: ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فيه: تعليمٌ للمؤمنينَ بأن يَحْمَدوا اللَّهَ جلَّ وعلا على إهلاكِه الظَّلَمةَ وكفايته شَرَّهم[٤].

الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- تقريرُ الإنسانِ بما لا يُمْكِنُه دفعُه؛ وذلك بأن يُقَرَّرَ بشيءٍ يُقِرُّ به، ولا يُمكِنُه دَفْعُه، وذلك في قوله: ﴿أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ﴾؛ لأنَّهم في هذه الحال لا يدْعونَ إلَّا اللهَ، فإذا كان كذلك فلماذا يُخْلِصون في الشِّدَّةِ، ويُشْرِكون في الرخاءِ[٥]؟!

٢- في قوله: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ بيانُ أنَّ الفطرةَ تَعْرِف ربَّها جيِّدًا، وتدينُ له بالوحدانيَّة، فإذا غَشِيَ عليها الرُّكامُ مدَّةً، فإنَّها إذا هَزَّها الهَوْل تساقَطَ عنها ذلك الرُّكامُ كلُّه وتعرَّت منه جملةً، وعادت إلى بارئِها كما خَلَقَها أوَّلَ مرَّةٍ مؤمنةً طائعةً خاشعةً، أمَّا ذلك الكيدُ كلُّه فحَسْبُه صيحةُ حَقٍّ تُزلزِلُ قوائِمَه، وترُدُّ الفِطْرَةَ إلى بارئها سبحانه. ولن يَذْهَبَ الباطلُ ناجيًا، وفي الأرضِ مَن يُطْلِق هذه الصَّيحةَ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ١٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢١٥).

ولن يخلوَ وجْهُ الأرضِ مهما جَهَدوا ممن يُطْلِق هذه الصَّيحة[١].

٣- قوله تعالى: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ﴾ فيه أنَّ الله تعالى يُجيبُ دعوةَ المضطرِّ ولو كان كافرًا، بل ويَعْلَم عزَّ وجلَّ أنَّه سيكفُر إذا نجا؛ لأنَّ الله يُنَجِّيهم من الكَرْب، وهو يعلمُ أنَّهم إذا نَجَوْا فسوف يُشْركون، ومثلُ ذلك المظلومُ؛ فإنَّ اللهَ يُجيبُ دَعْوتَه ولو كان كافرًا[٢].

٤- قُيِّدَت هذه الآيةُ بالمشيئة ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾، وأمَّا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[البقرة: آية ١٨٦] فقد أُطْلِقَت فيه إجابةُ الدَّعوة دون تقييدٍ بالمشيئةِ؛ قيل: لأنَّ الآيةَ التي قُيِّدت جاءت في دُعاءِ الكُفَّارِ، وجاءتِ الآيةُ الأخرى في دعاءِ المؤمنينَ فلم تُقَيَّدْ بالمشيئةِ؛ لأنَّ دعاءَ المؤمِنِ لا يُرَدُّ إلَّا إذا كان بإثم أو قطيعةٍ، وما جرى مجرى ذلك، وعلى كُلِّ حالٍ لا شيءَ إلَّا بمشيئةِ اللَّهِ، إلَّا أنَّ وَعْدَ اللَّهِ صادقٌ، وقد وعدَ المؤمنينَ بالإجابةِ، ولم يُقَيِّدْهُ بشيءٍ، وإنَّما جاء بقيدِ المشيئةِ في دعاءِ الكفَّارِ[٣].

وقيل: تُحملُ الآيةُ المطلقةُ على الآيةِ المقيَّدةِ، وقيل: المرادُ بالدعاءِ العبادةُ، وبالإجابةِ الثوابُ، وعليه فلا إشكالَ[٤].

٥- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ فيه رحمةُ الله تبارك وتعالى بالخَلْق؛ حيث أرسل إليهم الرُّسُل لإقامة الحجَّة، ولبيان المحجَّة؛ يعني: الطريق، فلولا الرُّسُل ما عرفْنا الطريقَ إلى الله عزَّ وجلَّ، فلولا أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وعلى آلِه وسلَّم

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١٠٨٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢١٥، ٢١٦).
(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٣٩).
(٤) ((تفسير الرازي)) (٥/ ٢٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٧٤).

بيَّنَ لنا كيف نتوضأ، ما عَرَفنا كيف نصلِّي، وما عرفنا كيف نزكِّي، وكيف نصوم، وكيف نحجُّ، وكيف نتعامل، فإرسالُ الرُّسُل من رحمة الله عزَّ وجلَّ(١).

٦- في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ إقامةُ الحجَّة على الخلق بإرسالِ الرُّسُل، وهذه كقوله تعالى في سورة النِّساء: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ [النساء: ١٦٣] إلى قوله: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، ومن تمام الحُجَّة في إرسالِ الرُّسُل أنَّهم أُرْسِلوا بلسانِ قَوْمِهم، أي: بِلُغةِ قَوْمِهم الذين أُرْسِلوا إليهم، وذلك من أجل أن يفهموا الحُجَّةَ، ويتفرَّعُ على هذا أنَّه لا تقوم الحُجَّةُ بمجرَّدِ البلاغ حتى يفهمَها المرْسَل إليهم، وإلَّا فلا فائدةَ، إلَّا أنَّه يجب على من بَلَغَه ولم يفهمْ أن يبحَثَ، لكن أحيانًا يتعذَّر البحث لكونهم لا يجدون من يثقونَ به فيبقَوْنَ جاهلينَ(٢).

٧- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ لَمَّا كان أخذُهم بالبأساء والضراء مقارِنًا لزَمَن وجودِ رُسُلِهم بين ظَهْرانَيْهم؛ عَطَف قوله: (أَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ) بالفاء؛ للإشارةِ إلى أنَّ ذلك كان بمرأًى رُسُلِهم، وقبلَ انقراضِهم؛ ليكونَ إشارةً إلى أنَّ الله أيَّدَ رُسُلَه ونَصَرَهم في حياتهم؛ لأنَّ أخْذَ الأُمَمِ بالعقاب فيه حكمتان: إحداهما: زَجْرُهم عن التكذيب، والثانية: إكرامُ الرُّسُل بالتأييدِ بمرأًى من المكذِّبين، وفيه تكرمةٌ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بإيذانِه بأنَّ الله ناصِرُه على مكذِّبيه(٣).

٨- إثباتُ الحكمةِ في أفعالِ الله تعالى؛ لقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾، وثبوتُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٢٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢١٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٢٧).

الحِكمةِ لله عزَّ وجلَّ في أفعالِه وفي شَرْعِه أمرٌ معلومٌ لكُلِّ ذي عقلٍ؛ لأنَّ كونَ الأفعالِ والأحكامِ تَصْدُر عن حكمةٍ يدلُّ على كمالِ الفاعِل والمُشَرِّع، فالله تعالى يبتلي بالبأساءِ والضرَّاءِ لكنْ لحكمةٍ، لا لمجرَّدِ إلحاقِ الضَّرَرِ بالخَلْق، والحكمةُ بَيَّنها سبحانه وتعالى في قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾، وإلَّا فإنَّ اللهَ لا يمكن أنْ يريدَ مُجَرَّد الإضرارِ، بل كلُّ ما ضرَّ النَّاسَ من تقديراتِ اللهِ فالمرادُ به مصلحةُ الخَلْقِ[1].

٩- في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ نصَّ سبحانه وتعالى هنا على الحِكمةِ، وليس كُلُّ فعلٍ أو حُكمٍ جاءَ مِن عندِ اللهِ يكونُ معلومًا لنا حِكمتُه؛ لأنَّ عُقولَنا أقصرُ مِن أن تُحيطَ بحِكمةِ الله عزَّ وجلَّ، لكن نعلمُ عِلمَ اليقين أنَّ ذلك لحِكمةٍ؛ فيجبُ على كلِّ مؤمنٍ أنْ يُؤمِنَ بأنَّ جميعَ أفعالِ اللهِ، وجميعَ شرائعِ اللهِ كلِّها لحِكمةٍ، لكن قد تُعلم وقد لا تُعلم[2].

١٠- إنْ قيلَ: أليسَ قَوْلُه: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ يَدُلُّ على أنَّهم تضرَّعوا؟ وهاهنا يقولُ: ﴿قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ ولم يتضرَّعوا. والجواب على ذلك: أنَّ أولئكَ أقوامٌ، وهؤلاءِ أقوامٌ آخرونَ. أو يقال: أولئك تضرَّعوا لطَلَبِ إزالة البَلِيَّة، ولم يتضرَّعوا على سبيلِ الإخلاصِ لله تعالى؛ فلهذا الفَرْقِ حَسُنَ النفيُ والإثباتُ[3].

١١- قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فيه تسليةٌ للرسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأنَّ عادةَ الأُمَم مع رسُلِهم التكذيبُ، والمبالغةُ في قسوةِ القلوبِ حتى هم إذا أُخِذوا بالبلايا لا يتذلَّلونَ لله، ولا يسألونَه كَشْفَها، وهؤلاء الأُمَم الذين بَعَث الله تعالى إليهم الرُّسُل أبلغُ انحرافًا،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٢٠، ٢٢١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٢١).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥٣٤).

وأشدُّ شكيمةً، وأجلَدُ من الذين بُعِثَ إليهم رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ إذ خاطبهم تعالى بِقَولِه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ﴾ الآية، وأخبر أنَّهم عند الأَزَمات لا يَدْعونَ لكَشْفِها إلَّا اللهَ تعالى[١].

١٢- قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فيه بيانُ شدَّةِ قسوةِ هؤلاء المعَذَّبينَ، وذلك أنَّه لَمَّا جاءهم العذابُ ليتضَرَّعوا صارَ الأمْرُ بالعكس، بل زاد ذلك قسوةً في قلوبِهم، نسألُ اللهَ العافيةَ، وكان ينبغي عليهم أن يتضرَّعوا إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، وهذا قد يقع من الإنسانِ؛ ألَّا تزيدَه البأساءُ والضرَّاءُ إلَّا قسوةً في القلب، وسَخَطًا على الله عزَّ وجلَّ، وشعورًا بما لا ينبغي، فإنَّ بعضَ النَّاسِ إذا ابتُلِيَ ببلاءٍ قال: ما هذا؟ لماذا يَظْلمُني؟ لماذا يُصيبُني بما لم يُصِبْ به غيري؟ ثم يقسو قلبُه، والعياذ بالله[٢].

١٣- أنَّ الشَّيطانَ يُزَيِّن لبني آدم سوءَ العَمَلِ؛ كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وفي آية أخرى: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ﴾[٣] [التوبة: ٣٧].

١٤- إنَّ اللهَ تعالى يُضيفُ تزيينَ الدُّنيا والمعاصِي، إلى الشَّياطينِ، كما قال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وَقَالَ: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٧]، ولا يُناقِضُ هذا قَولُه تعالى: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨]؛ فإنَّ إضافةَ التَّزيينِ إليه قضاءً وقدَرًا، وإلى الشَّيطانِ تَسبُّبًا، مع أنَّ تزيينَه تعالى عقوبةٌ لهم على رُكونِهم إلى ما زَيَّنَه الشَّيطانُ لهم، فمِن عُقوبةِ السَّيئةِ السَّيئةُ بَعدَها، ومِن ثَوابِ الحَسَنةِ الحَسَنةُ بَعدَها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥١٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٢٢، ٢٢٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٢٥، ٢٢٦).
(٤) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٢٠١- ٢٠٢).

١٥- قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ معنى البغتةِ: الفجأةُ. وذلك أَشَدُّ ما يُؤخَذ به الإنسانُ؛ لأنه إذا عَلِمَ بالعذابِ قبلَ نُزُولِه يكونُ مُتَجَلِّدًا مُستَعِدًّا، أما إذا بَغَتَهُ قبلَ استعدادٍ له فهذا أشدُّ وأنْكَى؛ ولأجلِ هذا بعَينِه أخبرَ اللَّهُ المؤمنينَ بالبلايا التي تَرِدُ عليهم قبلَ أن تقعَ؛ ليكونوا مُستَعِدِّين لها، ولئلَّا تُفاجِئَهم؛ حيثُ قال لهم: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة: ١٥٥] أَخْبَرَهم بأنَّ الابتلاءَ سيأتيهم؛ لئلا يُباغِتَهم، ويكونوا مستعدِّينَ له قبل نزولِه[١].

١٦- في قوله تعالى: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ إنَّما أُخِذُوا في حالِ الرَّخاءِ والرَّاحةِ؛ ليكونَ أشدَّ لتحسُّرِهم على ما فاتَهم من حالِ السلامةِ والعافيَةِ[٢].

١٧- أتى قوله تعالى: ﴿قُطِعَ﴾ بصيغةِ ما لم يُسَمَّ فاعِلُه؛ لأنَّه معلومٌ، وهو اللهُ عزَّ وجلَّ، ولكنَّ الله تبارك وتعالى في الأمورِ التي تسوءُ يأتي بها بصيغةِ ما لم يُسَمَّ فاعِلُه، وهو كقولِ الجنِّ: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠]، الجنُّ يؤمنونَ بأنَّ مُريدَ الشَّرِّ هو اللهُ عزَّ وجلَّ، ويعرفونَ أنَّ الخيرَ والشَّرَّ بِيَدِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وهو المُدَبِّر، لكنْ كرهوا أن يضيفوا الشرَّ إلى الله، فقالوا: ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠][٣].

١٨- إثباتُ الأسبابِ؛ لقوله: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾؛ لأنَّ هذه العقوبةَ مُرَتَّبةٌ على قومٍ اتَّصفوا بالظُّلْم، فيكونُ الظُّلمُ سببًا للعقوبةِ[٤].

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٥٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥٣٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٢٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

١٩- في قوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بيانُ أنَّ الظُّلْمَ سببٌ للعقوبةِ والهلاكِ؛ لأنَّ الحُكْمَ إذا عُلِّقَ على وصفٍ، صارَ ذلك الوصفُ عِلَّةً له؛ يزدادُ الحُكمُ قوةً بقُوَّتِه وينقُصُ بنَقْصِه[1].

٢٠- قولُه تعالى: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ المرادُ بهم المشرِكونَ، وفيه: أنَّ الشِّرْكَ أعظَمُ الظُّلْمِ؛ لأنَّه اعتِداءٌ على حَقِّ اللهِ تعالى على عبادِه في أن يَعْتَرِفوا له بالربوبيَّةِ وَحْدَه، وأنَّ الشِّرْكَ يَسْتَتْبِعُ مظالِمَ عِدَّةً؛ لأنَّ أصحابَ الشِّرْكِ لا يؤمنونَ بِشَرْعٍ يَزَعُ النَّاسَ عَنِ الظُّلْمِ[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ يتضمَّنُ تهديدًا بالوعيدِ؛ طردًا للأغراضِ السَّابقة[3].

- وقوله: ﴿أَرَأَيْتَكُمْ﴾ تركيبٌ شهيرُ الاستعمالِ، يُفتتَحُ بمِثلِه الكلامِ الذي يُرادُ تحقيقُه والاهتمامُ به، وهي كلمةُ استفهامٍ وتَعجُّبٌ، وليس لها نظيرٌ؛ فهمزةُ الاستفهامِ فيه للتَّقرير، والاستفهامُ للتَعجيب[4].

- وقد جَمَع في هذِه الآيةِ ونظيرتِها بَعْدُ بَينَ عَلامَتَي خِطابٍ (التَّاءِ) و(الكافِ)؛ لمزيدِ الاهتمامِ للمُرادِ، الذي هو الاستئصالُ بالهلاكِ، والتاءُ اسمٌ، والكافُ حرفٌ جِيءَ به لتأكيدِ الخِطابِ[5].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٢٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٢١).
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٦١)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٢١).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ١٦٦-١٦٧).

- وفيه: تعريضٌ بالحثِّ على خلْعِ الشِّرْك؛ إذ ليس لشركائِهم نفعٌ بأيديهم، فذُكِّروا بأحوالٍ قد تعرض لهم يلجؤونَ فيها إلى اللهِ[١].

- وقوله: ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ...﴾ إضافةُ العذابِ إلى اسمِ الجلالةِ في قوله: ﴿عَذَابُ اللهِ﴾؛ لتَهويلِه؛ لصُدُورِه مِن أقدَرِ القادرينَ[٢].

- قولُه: ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ أعادَ الفِعْلَ (أتى) مَع كَونِ حَرفِ العَطفِ (أو) مُغنِيًا عَن إعادةِ العامِلِ؛ بِأن يُقالَ: إنْ أَتَاكُم عَذابُ اللَّهِ أَوِ السَّاعَةُ، وهو ما يُوَجَّه به الإظهارُ فِي مَقامِ الإضمارِ مِن إرادةِ الاهتمامِ بِالمُظْهَرِ؛ بِحيث يُعادُ لفْظُه الصَّريحُ؛ لأنَّه أقوى استِقرارًا فِي ذِهنِ السَّامِعِ[٣].

- وقوله: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ﴾ فيه مِن التبكيتِ ما هو ظاهرٌ، وفيه تقديمُ ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ﴾ على عاملِه ﴿تَدْعُونَ﴾؛ لتكونَ الجملةُ المستفهَم عنها جملةَ قَصْرٍ، وذلك إمَّا للاختصاصِ، بمعنى: أَتَخُصُّون آلهتَكم بالدَّعوة فيما هو عادَتُكم إذا أصابكم ضُرٌّ، أم تَدْعونَ اللهَ دونَها؟ وإمَّا للإنكارِ عليهم في دُعائِهم للأصنام؛ لأنَّ المُنْكَر إنَّما هو دعاءُ الأصنامِ، لا نفسُ الدُّعاءِ، ألا ترى أنَّك إذا قُلْتَ: أزيدًا تَضْربُ؟ إنما تُنْكِرُ كونَ زيدٍ مَحَلًّا للضَّرْب، ولا تُنْكِر نفسَ الضَّرْب[٤].

٢- قوله: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾

- قوله: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ فيه تقديمُ المفعولِ ﴿إِيَّاهُ﴾؛ لإفادةِ التَّخصيصِ[٥]،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٦١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٦٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٢٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٦١).

أو للقَصرِ، وهو قصرُ إفرادٍ؛ للردِّ على المشركين في زعْمهم أنَّهم يَدْعون اللهَ، ويَدْعون أصنامَهم، وهم وإنْ كانوا لم يَزْعُموا ذلك في حالٍ ما إذا أتاهم عذابُ الله، أو أتتْهم الساعةُ؛ إلَّا أنهم لَمَّا ادَّعَوْه في غيرِ تلك الحالةِ نُزِّلوا منزلةَ مَن يَستصحبُ هذا الزعمَ في تلك الحالة أيضًا[1].

- قَولُه: ﴿فَيَكْشِفُ﴾ عَطفٌ على ﴿تَدْعُونَ﴾ وَهذا إطماعٌ في رحمَةِ اللَّهِ؛ لعلَّهم يَتَذكَّرونَ[2].

- قوله: ﴿وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾، أي: تتركون ما تُشركونه به تعالى من الأصنامِ تركًا كليًّا، عطفٌ على ﴿تَدْعُونَ﴾ أيضًا، وتوسيطُ الكَشْفِ بينهما مع تقارنِهما، وتأخُّرِ الكَشْف عنهما؛ لإظهارِ كمالِ العنايةِ بشأنِ الكَشْفِ[3].

- وعُدِّيَ فِعْلُ ﴿تَدْعُونَ﴾ بحرفِ (إلى) في قوله ﴿تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ لأنَّ أصْلَ الدُّعاءِ نداءٌ؛ فكأنَّ المدعوَّ مطلوبٌ بالحضورِ إلى مكانِ اليأسِ[4].

- ومفعـول ﴿شَـاءَ﴾ محذوفٌ علـى طريقةِ حَـذْفِ مَفعـولِ فِعلِ المشـيئةِ الواقِعِ شـرطًا[5].

- وفي هذه الآيةِ ما يُعرَفُ عند علماءِ البيانِ ببابِ استدراجِ المخاطَبِ، وهو أن يُلينَ الخطابَ، ويَمْزِجه بنوعٍ من التلطُّفِ، حتى يُوقِعَ المخاطَبَ في أمْرٍ يعترفُ به؛ فتقومَ الحجَّةُ عليه، واللهُ تعالى خاطَب هؤلاءِ الكفَّارَ بِلِينٍ من القَوْلِ، وذكر لهم أمرًا لا يُنازِعونَ فيه، وهو أنَّهم كانوا إذا مسَّهم الضرُّ دعَوُا اللهَ لا غيرَه[6].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٢٤- ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٢٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥١١).

٣- قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾

- قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ كلامٌ مستأنَفٌ مَسوقٌ لبيانِ أنَّ منهم مَنْ لا يدعو اللهَ تعالى عند إتيانِ العذابِ أيضًا؛ لتماديهم في الغَيِّ والضَّلالِ(١).

- وتصديرُهُ بالجملة القَسَميَّة ﴿وَلَقَدْ﴾؛ لإظهارِ مزيدِ الاهتمامِ بمضمونِ الجملة وتوكيدِه(٢).

- ومفعول ﴿أَرْسَلْنَا﴾ محذوف؛ لأنَّ مُقتضى المقامِ بيانُ حالِ المرسَلِ إليهم لا حالِ المرسَلين(٣).

- وهذا الخبرُ مستعمَل في إنذارِ السامعين من المشركينَ على طريقةِ التعريضِ(٤).

- قوله: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بِالبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾

- قوله: ﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي: يَتَذَلَّلُونَ؛ لأَنَّ الضَّراعةَ التَّذلُّلُ والتَّخشُّعُ، وهو هُنا كنايةٌ عن الاعترافِ بالذَّنب والتَّوبة منه، وهي الإيمانُ بالرُّسُل(٥).

- وفيه مناسبةٌ حسنةٌ، حيث عبَّر هنا بقوله: ﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾ بإظهار التَّاء، وقال في سورة الأعراف: ﴿يَضَّرَّعُونَ﴾ بالإدغام مع اتحاد المرمى في الآيتينِ؛ وذلِك لأنَّ هاهنا وافَق ما بعدَه، وهو قولُه: ﴿جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾، ومُستقبَلُ (تضرَّعوا): (يَتضرَّعون) لا غيرُ، والعربُ تراعي مجاورةَ الألفاظِ؛ فتَحمِلُ اللفظَ على مجاوِره لمجرَّدِ المضارعةِ اللفظيَّة، وإنِ اختلَف المعنى،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق))، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٢٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٢٦).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٢٧).

وماضي الفِعل ﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾ من الضَّراعة لا إدغامَ فيه؛ إنَّما تقول: تضرَّع؛ إذ لا حَرْفُ مُضارَعَةٍ فيه يُسوِّغُ الإدغامَ، فلمَّا ورد الماضي فيما بُني على آيةِ الأنعام مِن قوله: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ ولا إدغامَ فيه، ورَد الأوَّل مفكوكًا غير مُدغَم فقيل: ﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾؛ رعيًا للمناسبةِ. أمَّا آيةُ الأعرافِ فلم يرِدْ فيها ما يَستدعي هذه المناسبةَ؛ فجاءَ مُدغمًا على الوجهِ الأخفِّ؛ إذ لا داعيَ لخلافِه(١).

٤- **قوله: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾** (لولا) هنا حَرْفُ تَوبيخٍ؛ لدُخولِها على جُملةٍ فِعليَّةٍ ماضَوِيَّةٍ واحدةٍ ﴿تَضَرَّعُوا﴾، فليستْ (لولا) حَرْفَ امتناعٍ لوجودٍ، بل هي التَّحضيضيَّة، وهي حرفٌ يَدُلُّ على طَلَبِ الفعلِ بِحَثٍّ وَحَضٍّ؛ ولذا سُمِّيَتْ حرفَ تحضيضٍ، وعبَّر بها هُنا عن فِعلٍ فاتَ تَدارُكُه، ولم يَبْقَ مُمْكِنًا أبدًا؛ فانْقَلَبَ في هذا المعنى تَحْضِيضُها إلى التَّوبيخِ والتَّنديمِ؛ فالمُوَبَّخُ بها هنا قد مَاتَ، ولم يَعُدْ موجودًا؛ لأنَّ وقْتَ نُزولِ الآيةِ هؤلاءِ الأممُ قد ماتوا، وانْقَضَوْا في أزمانٍ متناهيةٍ، قد مَضَوْا في الزمانِ الماضي؛ فلا يُمكنُ حُصولُ الفِعلِ منهم، وليسوا موجودِينَ حتَّى يَسمعوا التوبيخَ، ولكنَّ المقصودَ مِن توبيخ هذا الذي غَابَ وماتَ؛ ليعتبرَ به غيرُه؛ فجاء حرف التحضيض ﴿فَلَوْلَا﴾؛ للدَّلالةِ على التَّوبيخِ، وليُفيدَ أنَّه لم يكُنْ لهم عُذْرٌ في تَرْك التضرُّع إلَّا قسوةَ قلوبِهم، وإعجابَهم بأعمالِهم التي زَيَّنَها الشَّيطانُ لهم، والتوبيخُ إنما يليقُ بالحاضرينَ دون المُنْقَرضينَ الذين تحكي عنهم الآيةُ؛ لفواتِ المقصود؛ ففي هذا التنزيلِ إيماءٌ إلى مُساواةِ الحالَينِ؛ حالِ مَنْ مضى، وحالِ مَن يُشْبِه وَضْعَهم من الحاضرينَ، وتوبيخٌ

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٠٩)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٦٠- ١٦١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ١٦٧).

للحاضرينَ بالمُهِمِّ من العِبرةِ؛ لبقاءِ زَمَنِ التَّدارُكِ قَطعًا لعُذْرِهم(١).

- وتقديمُ الظرفِ المضافِ مع جُملته ﴿إِذْ جاءَهُمْ﴾ على عاملِه ﴿تَضَرَّعُوا﴾؛ في قوله: ﴿إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾؛ للاهتمامِ بمضمونِ جملتِه، وأنَّه زمنٌ يَحِقُّ أنْ يكون باعثًا على الإسراعِ بالتضرُّعِ ممَّا حصل فيه من البأسِ(٢).

٥- قوله: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

- قوله: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ فيه وَضْعُ الظَّاهِرِ موضِعَ الضَّمير؛ للإشعارِ بعِلَّة الحُكم؛ فإنَّ هلاكَهم بسبب ظُلْمِهم الذي هو وَضْعُ الكُفْر موضعَ الشكر، وإقامةُ المعاصي مَقامَ الطاعاتِ(٣).

- وقطْعُ الدَّابر كنايةٌ عن ذَهابِ الجميعِ؛ لأنَّ المُسْتَأصِلَ يبدأُ بما يليه، ويذهَبُ يستأصِلُ إلى أن يبلُغَ آخِرَه، وهو دابِرُه، وهذا ممَّا جرى مجرى المَثَلِ(٤).

- قوله: ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يجوز أن تكون هذه الجملةُ معطوفةً على جملة: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ بما اتَّصل بها، عطْفَ غرضٍ على غرضٍ، ويجوز أن تكون اعتراضًا تذييليًّا، فتكون الواو اعتراضيَّة، وأيًّا ما كان موقِعُها ففي المرادِ منها اعتباراتٌ ثلاثة: أحدها: أن تكونَ تلقينًا للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمؤمنينَ أن يحمَدوا اللهَ على نَصْرِه رُسُلَه وأولياءَهم وإهلاكِ الظَّالمينَ؛ فيكون الحمدُ لله مصدرًا بدلًا من فِعله، عدَلَ عن نَصْبِه وتنكيرِه إلى رفْعِه وتعريفِه؛ للدَّلالة على معنى الدَّوامِ والثَّبات.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٣)، ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ١٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٢٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٤٩- ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣١).

ثانيها: أن يكون الحَمْدُ لله كنايةً عن كَوْنِ ما ذُكِرَ قبله نعمةً مِن نِعَم الله تعالى؛ لأنَّ من لوازمِ الحمدِ أن يكونَ على نعمةٍ. ثالثها: أن يكونَ إنشاءَ حَمْدٍ لله تعالى من قِبَل جَلالِهِ مُستعمَلًا في التعجُّبِ من معاملةِ الله تعالى إيَّاهم، وتدريجِهم في درجاتِ الإمهالِ إلى أنْ حقَّ عليهم العذابُ(١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٢).

الآيات (٤٦ - ٥٠)

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿وَخَتَمَ﴾: الخَتْمُ على الشَّيءِ: هو الطَّبْع عليه ووسْمُه، وسدُّه وربْطُه، والخاتِم بمنزلة الطَّابع(١).

﴿نُصَرِّفُ﴾: أي: نبيِّن ونوضِّح ونُفَسِّر، والصَّرْف: ردُّ الشَّيءِ من حالةٍ إلى حالةٍ، أو إبدالُه بغيرِه، وأصل (صرف): يدلُّ على رَجْعِ الشَّيءِ(٢).

﴿يَصْدِفُونَ﴾: أي: يُعْرِضون، ويَعدِلون عن الحَقِّ، والصُّدُوف: الإعراضُ عن الشَّيء؛ يُقال: صَدَفَ عن الشَّيء، أي: أعرض عنه إعراضًا شديدًا يجري مجرى الصَّدَف، أي: الميل في أرجُل البعير، وأصل (صدف): يدلُّ على المَيْلِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٥ يُنظر: ٢٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٧).

﴿جَهْرَةً﴾: أي: علانيةً ظاهرًا، وأصل (جهر): إعلانُ الشَّيءِ وكَشفُه وعُلُوُّه[1].

﴿مُبَشِّرِينَ﴾: مُخبِرينَ بما يَسُرُّ؛ يُقال: أبشرتُ الرَّجُلَ وبشَّرْتُه: أخبرتُه بسارٍّ بسَط بشَرةَ وجْهِه، وأصل (بشر): ظهورُ الشَّيءِ مع حُسنٍ وجمالٍ[2].

﴿مُنْذِرِينَ﴾: مُخبِرينَ ومُبلِّغين ومُحذِّرين ومُخوِّفين، والإنذارُ: إخبارٌ فيه تخويفٌ، أو الإبلاغُ[3].

﴿خَزَائِنُ اللهِ﴾: الخَزْن: حِفظُ الشَّيء في الخِزانةِ، ثم يُعبَّر به عن كلِّ حِفْظ؛ كحِفْظِ السرِّ ونحوِه، وأصل (خزن): يدلُّ على صيانةِ الشَّيء[4].

المعنى الإجماليُّ:

يأمرُ اللهُ نبيَّهُ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يقولَ للمشركين: أخبِروني إنْ أخَذَ اللهُ سَمْعَكم؛ فأصمَّكم، وأخَذَ أبصارَكم؛ فأعماكم، وطبَعَ على قلوبكم؛ فلم تفقهوا شيئًا، فهل هناك إلهٌ غيرُ اللهِ قادرٌ على إرجاعِ ذلك لكم؛ فتعبدوه أو تُشرِكوه في عبادةِ ربِّكم؟ انظُرْ أيُّها الرَّسولُ كيف نتابعُ عليهم الحُجَجَ، ونوضِّحُها، ثم هم يُعْرِضون عنها!

ثم يأمُرُ اللهُ نبيَّه أنْ يقولَ لهؤلاءِ المشركينَ: أخْبِروني إنْ أتاكُم عذابُ اللهِ فجأةً، وأنتم لا تشعرونَ به، أو أتاكم عقابُه ظاهرًا عِيانًا؛ هل يُهلَك بذلِك العذابِ إلَّا أنتُم لِظُلْمِكم؟!

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٥).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ١٩٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٧).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦١).

ثمَّ يخبِرُ تعالى أنَّه ما يُرْسِلُ المرسَلينَ إلَّا مُبَشِّرينَ مَن أطاع بالفَوْزِ العظيم، ومُنذِرِينَ مَن عصَى بالخُسرانِ المُبين، فمَن آمَنَ وأصلح فلا خوفٌ عليهم فيما يَسْتَقبلونَ، ولا هم يَحزنونَ على ما مضَى، والذين كذَّبوا بآيات الله ينالُهم العذابُ بِسببِ فِسقِهم.

ثم يأمُرُه سبحانَه بأنْ يُخبِرَهم لَمَّا كَثُرَ اقتراحُهم عليه، وتعنتُهم بإنزالِ الآياتِ التي تضطرُّهم إلى الإيمانِ، أنَّه لم يكُنْ عِندَه خزائنُ الله حتَّى يأتيَهم بما اقترحوه من الآياتِ، وأنْ يقولَ لهم: إنَّه لا يعلمُ الغَيْبَ حتى يُخْبِرَهم به، ويُعَرِّفَهم بما سيكونُ في مُستقبَلِ الدَّهْرِ، ولا يدَّعي أنَّه مَلَكٌ حتى يُكَلِّفوه من الأفعالِ الخارقَةِ للعادَةِ ما لا يُطيقُه البَشَر، وإنَّما هو رسولٌ أرسلَه اللهُ للدَّعوة، ولا يقولُ ما يقولُ، ويفعلُ ما يفعلُ، إلَّا وَفْقًا لوَحْيِ الله؛ فهل يَستوي مَن اتَّبَعَ الحَقَّ وهُدِيَ إليه، ومَن ضَلَّ عنه ولم ينقَدْ له؟! أفلا تتفكَّرونَ؟!

تفسيرُ الآيات:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر تعالى آنفًا: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ [الأنعام: ٢٥] وكان ذلك تنبيهًا لهم على عَدَمِ إجداءِ هذه المواهِبِ عليهم مع صلاحيتها للانتفاع- هدَّدَهم هنا بزوالِها بالكلِّيةِ إن داموا على تعطيلِ الانتفاعِ بها فيما أمر به خالِقُها، فقال تعالى[١]:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٥).

أي: قل- يا محمَّدُ- لهؤلاءِ المُشركينَ: أخبروني إنْ سَلَبَكم اللهُ سَمْعَكم وأبصارَكم، فأصمَّكم وأعماكم، وطبَع على قلوبِكم، فترككم بلا عقلٍ(١).

﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾.

أي: هل ثَمَّ إلهٌ غيرُ الله يَقْدِرُ على أنْ يَرُدَّ عليكم الأسماعَ والأبصارَ والأفهامَ إذا سلبَها اللهُ منكم، فتعبدوه أو تُشْرِكوه في عِبادة ربِّكم(٢)؟

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ﴾.

مُناسَبَتُها لما قَبْلها:

لَمَّا غَمَرَهم اللهُ تعالى بالأدلَّةِ على الوحدانيَّةِ، وصِدْقِ الرَّسولِ، وأبطَلَ شُبَهَهم، في كثيرٍ مِمَّا تقدَّمَ من آياتٍ- عقَّب ذلك كُلَّه بالتعجيبِ من قوَّةِ الأدِلَّةِ، مع استمرارِ الإعراضِ والمكابرةِ، فقال تعالى(٣):

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ﴾.

أي: انظُرْ- يا محمَّدُ- كيف نُتابعُ عليهم الحُجَجَ ونُنَوِّعُها، ونَضْرِبُ لهم الأمثالَ والعِبَرَ ونُبَيِّنُها؛ تارةً بالوعدِ، وتارةً بالوعيدِ، وتارةً بالابتلاءِ بالسرَّاءِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٦٤-٢٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٢٩).

قال ابن كثير: (ويحتمل أنْ يكونَ هذا عبارةً عن منْع الانتفاعِ بهما الانتفاع الشرعيِّ). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٧).

وقيل المعنى: أنَّه يأخُذ الأُذنَ بحاسَّتها، ولا يترك لها أثرًا، ويأخذ العينَ حتى يترُكَ الوجه مَطْمُوسًا. يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٥).

وتارةً بالضرَّاءِ، وغير ذلك؛ ليعتَبِروا ويذَّكَّروا، فيُنيبوا ويَعْلَموا أنَّ ما يَعبدونَ من دونه سبحانه باطِلٌ وضَلالٌ(١).

﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾.

أي: ثُمَّ هم مع مُتابَعَتِنا عليهم الحُجَجَ، وتنبيهِنا إيَّاهم بالعِبَر، وإيضاحِ الحَقِّ، وتبيُّنِه لهم بهذا البيانِ التَّامِّ- يُعْرِضُون عن ذلك كُلِّه، ويَنصرفونَ عن الحَقِّ(٢).

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾.

أي: قُلْ- يا محمَّدُ- لهؤلاءِ المشركينَ: أخبروني إنْ أتاكُم عِقابُ اللهِ على ما تُشْركون به بعدَ بيانِ الحقِّ واتِّضاحِه، فجأةً على حينِ غِرَّةٍ، وأنتم لا تَشعرونَ، أو أتاكم عِقابُه وأنتُم تُعاينونَه ظاهرًا بعدَ أن ترَوْا مُقَدِّماتِه(٣).

﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

أي: لا يُهْلِكُ اللهُ منَّا ومنكم إلَّا مَن كان يَعبدُ غيرَه، فيُحيطُ العذابُ بالظَّالِمينَ أنفُسَهم بالشِّرْكِ باللهِ عزَّ وجلَّ، وينجو الذين كانوا يعبدونَ اللهَ وحْدَه لا شريكَ له(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥٣-٢٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٧٦-٢٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٣١).

كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا كان صُدوفُهم وإعراضُهم يَتعلَّلون له بأَنَّهم يَرُومونَ آياتٍ على وَفْقِ مُقْتَرَحِهم، وأنَّهم لا يَقْنعونَ بآياتِ الوحدانيَّةِ، ألَا تَرَى إلى قولِهم: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠] إلى آخِرِ ما حُكِيَ عنهم في تلك الآيةِ- أنبأَهُم اللهُ بأنَّ إرسالَ الرُّسُل للتبليغِ والتبشيرِ والنِّذارةِ، لا للتلهِّي بهم باقتراحِ الآياتِ[1]، فقال تعالى:

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾.

أي: وما نُرسِلُ رُسُلَنا[2] إلاَّ ببشارةِ مَن أطاعَهم بالخيراتِ، والفَوْزِ بالجنَّاتِ، وبإنذارِ مَن عصاهم بالنِّيرانِ، والنِّقْماتِ والعُقُوباتِ[3].

﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

أي: فمَن آمَنَ قلبُه بما جاء به الرُّسُل الكرامُ ممَّا وجب الإيمانُ به، وأصلَحَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٨).

(٢) قال الشنقيطيُّ: (المرادُ بهم هنا: المرسَلونَ مِنْ بَنِي آدمَ، مع أنَّ المرسلين يكونون من الآدميِّين ومن غيرِهم كالملائكةِ، كما يأتي في قولِه: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]). ((العذب النمير)) (١/ ٢٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٣٣-٢٣٤).

عَمَلَه بالإخلاصِ لله تعالى واتِّباعِهم؛ فلا خَوْفٌ عليه فيما يَستقبِلُ، ولا هو يَحْزَن على ما مَضَى[1].

﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلۡعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ حالَ المصْلِحينَ، أتْبَعَه بذكْرِ حالِ المفْسدينَ؛ فقال[2]:

﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلۡعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

أي: وأمَّا الذين كذَّبوا برُسُلِنا، ودافعوا حُجَّتنا، فإنَّهم ينالُهم العذابُ؛ جزاءً لهم على كُفْرِهم، وخُروجِهم عن أوامِرِ اللهِ تعالى، وارتكابِ مناهيه[3].

﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا تَقَضَّت المجادلةُ مع المُشْركينَ في إبطالِ شِرْكِهم، ودَحْضِ تعاليلِ إنكارِهم نبوَّةَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ بأنَّهم لا يُؤمنونَ بنبُوتِه إلَّا إذا جاء بآيةٍ على وَفْقِ هواهم، وأُبْطِلَت شُبْهَتُهم بقوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ [الأنعام: ٤٨]، وكان محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ممَّن شَمِلَه لفظُ المُرْسَلين- نَقَل الكلامَ إلى إبطالِ معاذيرِهم، فأعْلَمَهم اللهُ حقيقةَ الرِّسالةِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥٤-٢٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٨٢-٢٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٣٥-٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٨٦-٢٩٠).

واقترانِها بالآياتِ، فبيَّنَ لهم أنَّ آيَةَ صِدْقِ الرَّسولِ تجيءُ على وَفْقِ دعواه الرِّسالةَ، فلو ادَّعى أنَّه مَلَكٌ، أو أنَّه بُعِثَ لإنقاذِ النَّاسِ من أرزاء الدُّنيا، ولإدْناءِ خيراتِها إليهم، لكان مِن عُذْرِهم أنْ يسألوه آياتٍ تؤيِّدُ ذلك، فأمَّا والرَّسولُ مبعوثٌ للهُدى، فآيتُه أنْ يكونَ ما جاء به هو الهُدى، وأنْ تكون مُعجزَتُه هو ما قارَنَ دَعْوَتَه، ممَّا يَعْجِز البَشَرُ عن الإتيانِ بِمِثْلِه في زَمَنِهم[1].

﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ ﴾.

أي: قل- يا محمَّدُ- لهؤلاءِ المشْركينَ: لستُ أقولُ لكم إنِّي أمْلِكُ خزائِنَ رِزْقِ الله تعالى[2].

﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ ﴾.

أي: ولا أقولُ لكم: إنِّي أعلمُ غُيوبَ الأشياءِ الخَفِيَّةِ التي لا يَعْلَمُها إلَّا اللهُ وحده، الذي لا يَخفَى عليه شيءٌ[3].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٨٨].

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ﴾.

أي: ولا أدَّعي أنِّي مَلَكٌ، فأكونَ نافِذَ التصرُّفِ قويًّا، غنيًّا عن الأكلِ والمالِ، أشاهِدُ مِن أَمْرِ الله تعالى ما لا يُشاهِدُه البَشَر[4].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥٥-٢٥٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٥٤)، ((مجموع =

﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾.

أي: ما أَتَّبعُ إلَّا وَحْيَ اللهِ الذي يُوحيه إليَّ، فأَمضِي لِوَحْيِه، وأأْتَمِرُ لأمْرِه، لستُ أخرجُ عنه قِيدَ شِبْرٍ ولا أدْنى منه، وهذا مُنتهَى أمْري وأعلاه، فأعْمَلُ به في نفْسي، وأدْعو الخَلْقَ كُلَّهم إلى ذلك، كما أُوحِيَ إليَّ[1].

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾.

أي: قل- يا محمَّدُ- لهم: هل يستوي الذي عَمِيَ عن الحَقِّ وأَعْرَض عنه، مع من أَبْصَرَ الحَقَّ وانقادَ إليه[2]؟

كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٩].

﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾.

أي: أتَغْفُلونَ وتُعْرِضونَ عن تلك الآياتِ والحُجَجِ، فلا تتفكَّرونَ فيها حتى تَفْهموها، وتَعْلَموا صِحَّةَ ما أَدْعوكم إليه، فتختاروا اتِّباعَ الحَقِّ[3]؟!

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ...﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ ينبغي لِكُلِّ مسلمٍ أن يَعتبرَ بها،

= الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٣١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٨-٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٠١-٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٠٣-٣٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٥٠).

فيعلمَ أنَّ اللَّهَ شقَّ له في وَجْهِه عَيْنَيْنِ، وصبَغَ له بعضَهما بصبغٍ أسودَ، وبعضَهما بصبغٍ أبيضَ، وأعطاه لهما سِلْكًا من جفونِه، وجعلَ لعَيْنيه شحمًا؛ لئلَّا يُجَفِّفَهما الهواءُ، وجعلَ ماءَ عينِه مِلْحًا؛ لئلَّا تُنْتِنَ الشحمةُ، وجعلَ له عقلًا، وهو هذا العقلُ الذي يُمَيِّزُ به بين الأشياءِ، ويفعلُ به هذه الأفعالَ الغريبةَ العجيبةَ، وأعطاه حاسَّةَ السَّماعِ، كُلُّ هذا أعطاه له؛ ليبذُلَ هذه النِّعَمَ فيما يُرْضِي رَبَّهُ جلَّ وعلا؛ فلا ينبغي منه ولا يَجْمُلُ به أنْ يَستعينَ بِنِعَمِ رَبِّهِ على مَعصيةِ خالقِه جلَّ وعلا، فهذا عَمَلٌ لا يليقُ بعاقلٍ؛ ثم إنَّه يُلَاحِظُ قُدرةَ اللَّهِ وعظمتَه وجلالَه، وأنه قادرٌ على أن يَنزِعَ منه السَّمعَ والبصرَ والعقلَ فيتركَه كالجمادِ لا يسمعُ شيئًا، ولا يُبصرُ شيئًا، ولا يعقِلُ شيئًا، فلا ملجأَ له غيرُ اللَّهِ يُزِيلُ ذلك عنه؛ وَلِذَا قال: ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾[1].

٢- قوله تعالى: ﴿إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ...﴾ فيه تذكيرٌ لهم بأنَّ اللهَ هو خالِقُ أسماعِهم وأبصارِهم وألبابِهم؛ فليس غَيرُه جديرًا بأنْ يعبدوه[2].

٣- في قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ يُوقفُ السِّياقُ القرآنيُّ المشركينَ بالله، أمامَ بأسِ الله، في ذواتِ أنفُسِهم، في أسماعِهم وأبصارِهم وقلوبِهم، وهم عاجِزونَ عن رَدِّه، وهم لا يَجِدون كذلك إلهًا غير الله، يردُّ عليهم أسماعَهم وأبصارَهم وقلوبَهم إنْ أخَذَها الله، وهو مشهدٌ تصويريٌّ يُجسِّم لهم عجْزَهم أمامَ بأسِ اللهِ من جانبٍ، كما يُصوِّر لهم حقيقةَ ما يُشركون به مِن دُونِ اللهِ في موقفِ الجِدِّ مِن جانبٍ، ولكنَّ هذا المشهدَ يَهزُّهم مِن الأعماقِ. إنَّ خالقَ الفِطرةِ البشريَّةِ يَعلَمُ أنَّها تُدرك ما في هذا المشهدِ

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٥).

التصويريِّ مِن جِدٍّ، وما وراءَه مِن حَقٍّ، أنَّها تُدرك أنَّ اللهَ قادرٌ على أنْ يَفعل بها هذا، قادرٌ على أنْ يأخُذَ الأسماعَ والأبصار، وأنْ يَختِمَ على القلوبِ، فلا تعودَ هذه الأجهزةُ تؤدِّي وظائفَها، وأنَّه- إنْ فعَلَ ذلك- فليس هناك مِن إلهٍ غيرُه يردُّ بأسَه، وفي ظلالِ هذا المشهدِ، الذي يَبعَثُ بالرجفةِ في القلوبِ والأوصالِ، ويُقرِّر في الوقتِ ذاتِه تفاهةَ عَقيدةِ الشِّرك، وضلالَ اتِّخاذِ الأولياءِ من دون اللهِ، في ظلالِ هذا المشهدِ يعجَبُ مِن أمْرِ هؤلاءِ الذين يُصرِّفُ لهم الآياتِ، ويُنوِّعها، ثمَّ هم يَميلون عنها[(١)]!

٤- قوله تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ فيه بيانُ رحمةِ الله عزَّ وجلَّ؛ حيث صَرَّف الآياتِ للعبادِ، ولو شاء لَترَكَ التَّصريفَ وجَعَل النَّاسَ يتخبَّطونَ خَبْط عَشْواء، لكنْ مِن نعمةِ الله عزَّ وجلَّ ورَحْمتِه بعِباده أنَّه يُريهم الآياتِ ويُصَرِّفُها ويُنوِّعها لهم، فإذا لم يؤمنْ بهذه الآيةِ آمَنَ بالآيةِ الأخرى وحَصَلَ المقصودُ، وكم من إنسانٍ تفوتُه آياتٌ كثيرةٌ لا يعتَبِرُ بها، ثم يُصابُ بآيةٍ واحدةٍ فيَعتبِرُ[(٢)]!

٥- التحذيرُ من نزولِ العذابِ؛ إمَّا بغتةً، وإمَّا جهرةً؛ فلا يأمَنِ الإنسانُ إذا كان عاصيًا أن يَنزِلَ به العذابُ، لكنْ أيظُنُّ أنَّ العذابَ هو عقوبةُ الجَسَدِ فقط، فرغمَ أنَّ عقوبةَ الجَسَد عذابٌ في حدِّ ذاتِها إلَّا أنَّ هناك ما هو أكبرُ منها، وهو الإعراضُ عن دِين الله عزَّ وجلَّ؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾[(٣)] [المائدة:٤٩].

٦- قوله تعالى: ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ فيه وعْدٌ مِنَ اللهِ تعالى بأنَّه مُنْجي المؤمنينَ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١٠٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٣٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٨).

٧- قوله تعالى: ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فيه تشجيعُ الإنسانِ على الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ، والحثُّ على ذلك بذِكْر عاقبةِ هذا المؤمِنِ المُصْلحِ[1].

٨- يُستَفاد من قوله تعالى: ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ﴾ أنَّ الإيمانَ وَحْده لا يكفي، بل لا بدَّ معه من إصلاحٍ[2].

٩- قال تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ التفكُّر مطلوبٌ، والحضُّ عليه منهجٌ قرآنيٌّ، ولكنَّه التفكُّرُ المضبوطُ بضابطِ الوحي، الذي يَمضي معه مُبصِرًا في النُّورِ، لا مُطلق التفكُّرِ الذي يَخبِط في الظَّلامِ أعْمَى، بلا دليلٍ ولا هُدًى ولا كتابٍ منير، والعقلُ البَشريُّ حين يتحرَّكُ في إطارِ الوحيِ لا يَتحرَّكُ في مجالٍ ضيِّق، إنَّما يتحرَّكُ في مجالٍ واسعٍ جدًّا، يتحرَّكُ في مجالٍ هو هذا الوجودُ كلُّه، الذي يَحتوي عالَمَ الشَّهادةَ وعالَمَ الغيبَ أيضًا، كما يحتوي أغوارَ النَّفْس ومجاليَ الأحداث، ومجالاتِ الحياةِ جميعًا؛ فالوحيُ لا يكفُّ العقلَ عن شيءٍ إلَّا عن انحرافِ المنهجِ، وسُوءِ الرؤيةِ، والْتواءِ الأهواءِ والشَّهوات! وبعدَ ذلك يَدفعُه إلى الحركةِ والنَّشاط دفعًا؛ فهذه الأداةُ العظيمةُ التي وهَبَها اللهُ للإنسانِ- العقل- إنَّما وهبَها له؛ لتعمَلَ وتَنشَطَ في حراسةِ الوحيِ والهُدى الربَّاني، فلا تضلُّ إذنْ ولا تَطْغَى[3].

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- المرادُ مِن قَولِه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١٠٩٩).

الدَّلالةُ على وجودِ الصَّانعِ الحكيمِ المُختارِ؛ لأنَّ أشرَفَ أعضاءِ الإنسانِ هو السَّمْعِ والبَصَرِ والقَلْبِ؛ والأذنُ محلُّ القوَّةِ السَّامعة، والعينُ محلُّ القوَّةِ الباصِرَةِ، والقلبُ محلُّ الحياةِ والعِلْم والعَقْل، فلو زالتْ هذه الصِّفاتُ عن هذه الأعضاءِ اختلَّ أمرُ الإنسانِ، وبطَلَت مصالِحُه في الدُّنيا والدِّينِ، ومِن المعلومِ بالضَّرورةِ أنَّ القادِرَ على تحصيلِ هذه القُوى فيها، وَصْونِها عن الآفاتِ والمخافاتِ ليس إلَّا الله، وإذا كان الأمرُ كذلك كان المُنْعِم بهذه النِّعَم العالِيَةِ، والخيراتِ الرَّفيعةِ هو الله سبحانه وتعالى؛ فوجَبَ أن يقال: المُستحِقُّ للتعظيمِ والثَّناءِ والعبوديَّةِ ليس إلَّا الله تعالى[(١)]، وقوله تعالى: ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ فيه دليلٌ على توحيدِ الله تعالى، وأنَّه المتصَرِّفُ في العالَمِ، الكاشِفُ للعَذاب، والرادُّ لِمَا شاء بعدَ الذَّهاب[(٢)]، كما أنَّه دليلُ بُطلانِ الشِّرْكِ؛ فإذا لم يكن غيرُ الله يأتي بذلك، فلِمَ يَعبدونَ معه من لا قدرةَ له على شيءٍ إلَّا إذا شاءَه اللهُ[(٣)]؟!

٢- التَّشنيعُ على هؤلاء الذين صُرِّفَت لهم الآياتُ فأَعرضوا؛ لقوله: ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾[(٤)].

٣- ما المرادُ بقوله: ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ مع العِلْمِ بأنَّ العذابَ إذا نزَلَ لم يَحصُلْ فيه التمييزُ؟ والجواب: أنَّ الهلاكَ وإنْ عمَّ الأبرارَ والأشرارَ في الظَّاهرِ، إلَّا أنَّ الهلاكَ في الحقيقةِ مختصٌّ بالظَّالِمينَ الشِّريرينَ؛ لأنَّ الأخيارَ يَستوجبونَ بسببِ نُزُولِ تلك المضارِّ بهم أنواعًا عظيمةً من الثَّوابِ، والدَّرجاتِ الرفيعةِ عند اللهِ تعالى، فذاك وإنْ كان بلاءً في الظَّاهرِ، إلَّا أنَّه يُوجِبُ سعاداتٍ عظيمةً، أمَّا الظَّالِمونَ فإذا نزَلَ البلاءُ بهم فقد خَسِروا الدُّنيا والآخرةَ معًا؛ فلذلك

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ١٥٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥١٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٣٠، ٢٣١).

وَصَفَهم اللهُ تعالى بكونِهم هالِكينَ، وذلك تنبيهٌ على أنَّ المؤمِنَ التقيَّ النقيَّ هو السَّعيدُ، سواءٌ كان في البلاءِ أو في الآلاءِ والنَّعْماءِ، وأنَّ الفاسِقَ الكافِرَ هو الشقيُّ، كيف دارت قضيَّتُه، واختلفت أحوالُه، والله أعلم(١).

٤- في قوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الأنبياءَ إنَّما بُعِثوا مُبَشِّرينَ بالثَّوابِ على الطَّاعاتِ، ومُنذرينَ بالعقابِ على المعاصي، ولا قُدرَةَ لهم على إظهارِ الآياتِ والمُعجزاتِ، بل ذلك مُفَوَّضٌ إلى مشيئةِ الله وحِكْمَتِه(٢).

٥- قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ﴾ فيه بيانُ منَّةِ اللهِ عزَّ وجلَّ على عِبادِه بإرسالِ الرُّسُل، وحِكمةُ اللهِ عزَّ وجلَّ تقضي بإرسالِ الرُّسُل؛ لأنَّ العقلَ البَشريَّ لا يستقلُّ بمعرفةِ ما يجب لله من الأسماءِ والصِّفاتِ والأحكامِ، ولا يُمكِنُ أن يستقلَّ بمعرفةِ العباداتِ، فالنَّاسُ مضطرُّونَ غايةَ الضَّرورةِ إلى الرُّسُل، قال الله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، أي: على دينٍ واحدٍ، فلما كثُروا تفرَّقوا واختلفَوا ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾(٣) [البقرة: ٢١٣].

٦- قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ فيه أنَّ رسالةَ الرُّسُل تتضمَّنُ هذينِ الشَّيئينِ، وهما: البِشارةُ والإنْذارُ؛ فالبشارةُ تكونُ لِمَن أطاع واتَّبعَ الرُّسُل، والإنذارُ بالعقوبةِ يكونُ لِمَن كذَّبَ، ويتفرَّعُ على هذا أنَّ الرُّسُل

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥٣٧).

قال الشِّنقيطي: (وفي الآيةِ سؤالٌ معروفٌ: جاء في الأحاديثِ الصَّحيحةِ أن العذابَ إذا نَزَلَ بقومٍ كفارٍ شَمِلَ مَنْ فيهم مِنَ المسلمين، وهذه الآيةُ بَيَّنَتْ أنه لا يُهْلَكُ إلَّا القومُ الظالمون؟ أُجِيبَ عن هذا: بأن العذابَ لو شَمِلَ، وأَهْلَكَ مَن هو معهم، أنَّ هذا الهلاكَ تمحيصٌ له، وأنه يُبْعَثُ يومَ القيامةِ في نعمةٍ من اللَّهِ ورحمةٍ وأجورٍ). ((العذب النمير)) (١/ ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٣٨).

عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ لم يأتوا بمجرَّدِ الأحكامِ، أي: لمجرَّدِ أن يقولوا: هذا حلالٌ وهذا حرامٌ، بل قَرَنوا ذلك بالبِشارَةِ والإنذارِ؛ لأنَّ البِشارةَ تَحمِلُ الإنسانَ على فِعْلِ المأمورِ؛ فلو بُشِّر إنسانٌ بأنَّه سيحصُل على كَنزٍ في المكانِ الفلانيِّ لوُجِدَ يُسابِقُ، فيفعل ما يُوصله إليه، والإنذارُ يحصُلُ به البُعدُ عن المعاصي، وعلى هذا تتركَّبُ دعوةُ الرُّسُلِ(١).

٧- قَوْله تعالى: ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ﴾ و﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ فيهما بيانُ حِكْمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ في انقسامِ النَّاسِ بالنِّسبةِ إلى قَبُولِ دَعوةِ الرُّسُلِ إلى قِسْمَينِ: مؤمنٌ يعملُ عملًا صالحًا، ومُكَذِّبٌ يرتكِبُ المعاصِيَ، هذا من الحِكْمةِ بل ومِنَ الرَّحْمة؛ لأنَّه لو لم يكُنْ كُفْرٌ لم يُعرَف قَدْرُ الإسلامِ، ومِن رحمةِ اللهِ وحِكْمَتِه أنَّه قسَّمَ النَّاسَ إلى قِسْمينِ؛ لأنَّه لولا هذا الانقسامُ لَمَا حَصَلَت فُروضٌ من الشَّريعةِ: مِثل الجِهادِ، والأَمْر بالمعروفِ والنَّهْي عن المنكَر، والامتحان والاختِبار؛ لأنَّ النَّاسَ كُلَّهم كانوا سيصيرونَ على وتيرةٍ واحدةٍ، لكنْ إذا انقَسَمُوا إلى مؤمنٍ وكافرٍ، حصَل الامتحانُ والاختبارُ للمؤمِنِ والكافِرِ، فلا تَظُنَّ أنَّ الله عزَّ وجلَّ إذا أزاغَ قُلُوبَ الكافرينَ أنَّ في ذلك لَغْوًا، بل هو عَيْنُ الحِكْمةِ(٢).

٨- أنَّ التكذيبَ بآياتِ اللهِ سببٌ للعقوبة؛ لقولِه: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾(٣).

٩- أنَّ هؤلاءِ المكذِّبينَ سيُصيبُهم العذابُ مباشرةً؛ لقوله: ﴿يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ﴾، وإنْ أَفْلَتوا من العذابِ في الدُّنيا فلن يُفْلِتوا منه في الآخِرةِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٣٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٨، ٢٣٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٤١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٤٣).

١٠- أنَّ الفِسْقَ يُطْلَق على الكُفْرِ؛ لقوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾، والتَّكذيبُ بالآياتِ كُفْرٌ، ثمَّ قال: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾(١).

١١- قولُه تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ فيه تمامُ عَدْلِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ حيث إنَّه لم يُعَذِّبْ هؤلاء إلَّا لأنَّهمُ استَحَقُّوا العذابَ لِفِسْقِهم؛ جزاءً وِفاقًا(٢).

١٢- أنَّ كُلَّ ما صُدِّرَ بـ﴿قُلْ﴾ بالنِّسْبةِ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان دليلًا على أهَمِّيته، وأنَّ اللهَ تعالى أوْصَى نَبِيَّه أن يُبَلِّغَه خاصَّةً؛ مِمَّا يدلُّ على العِنايةِ به(٣).

١٣- أُمِرَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يَبْرَأَ مِن دَعْوى هذه الثَّلاثةِ بقولِه تعالى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ وكذلك قال نوحٌ عليه السَّلامُ: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [هود: ٣١]، فهذا أوَّلُ أُولِي العَزْمِ، وأوَّلُ رسولٍ بَعَثَه اللهُ تعالى إلى أهْلِ الأرْضِ، وهذا خاتَمُ الرُّسُلِ وخاتَمُ أُولِي العَزْمِ؛ كلاهما يَتَبَرَّأُ من ذلك(٤).

١٤- يُؤخَذُ من قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ أنَّه إذا كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّم لا يَمْلِك خزائنَ الله، فإنَّه لا يجوزُ أن يُطْلَبَ الرِّزْقُ منه مباشرةً؛ لأنَّه لو طُلِبَ الرِّزْقُ من الرَّسولِ مُباشرةً لكان هذا شِرْكًا، وتجاوزًا لِمَا هو عليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٤٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٤٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥٠).
(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٣١٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٥٠).

١٥- في قَوْلِه تعالى: ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ قد يقولُ قائلٌ: أليس النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُحدِّثُ عن أشياءَ مُستقبَلةٍ، فكيفَ قيلَ: ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾؟ فالجوابُ: بلى، ولكِنْ بِوَحْيٍ من الله عزَّ وجلَّ، والله تبارك وتعالى يَعْلَمُ الغَيْبَ؛ ولِهذا نقولُ: كُلُّ ما أخبَرَ به النبيُّ صلَّى الله عليه وعلى آلِه وسلَّم مِنْ أمورِ المُسْتَقبلِ؛ فهو بِوَحْيٍ خاصٍّ من الله عزَّ وجلَّ، وحينئذٍ لا يُنافي ما أَخْبَر به من أمورِ الغَيبِ ما ذكره اللهُ تعالى في هذه الآيةِ: ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾؛ لأنَّ عِلْمَه بالمستقبَلِ بما أَوْحَى اللهُ إليه، ليس عِلْمًا ذاتيًّا أدْرَكَه بنفْسِه، لكنَّه عِلْمٌ مِنْ عِند الله، كما أنَّ الإنسانَ يرى الرُّؤْيا الصَّالحةَ في المنامِ، وينتفعُ بها في المُستقبَل، و((الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جزءٌ من سِتَّةٍ وأربعينَ جُزءًا من النبوَّةِ))[1].

١٦- أنَّ المَلَك قد يَتصوَّرُ بصُورةِ إنسانٍ؛ لقوله: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾؛ لأنَّه لولا أنَّه يُمْكِن تصوُّرُه بصورةِ إنسانٍ ما احْتِيجَ إلى النَّفيِ؛ إذ إنَّه معلومٌ بدونِ نَفيٍ، وهذا هو الواقِعُ، وقد جاء جبريلُ عليه السلامُ بصورةِ البَشَر[2].

١٧- قوله تعالى: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ ردٌّ على الذين قالوا: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ فإنَّ الملائكةَ لا يُمْكنُ أن يَنْزِلوا ليكونوا رُسُلًا إلى البَشَر، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[3] [الأنعام: ٩].

١٨- لَمَّا كانَ عِلْمُ الغيبِ أمرًا يُمْكِن أن يَظْهَرَ على لسانِ البَشَر، بل قد يدَّعيه كثيرٌ من النَّاسِ كالكُهَّانِ وضُرَّابِ الرَّمْل والمُنَجِّمينَ، وكان صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٥١).

والحديث أخرجه البخاري (٦٩٨٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. وأخرجه مسلم (٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قد أخبر بأشياءَ من المُغَيَّباتِ، وطابقَتْ ما أخبَرَ به- نفى علمَ الغيبِ من أصله؛ فقال: ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ تنصيصًا على مَحْضِ العبوديَّةِ والافتقارِ، وأنَّ ما صَدَر عنه من إخبارٍ بِغَيبٍ إنَّما هو من الوَحْيِ الواردِ عليه لا من ذاتِ نَفْسِه، فقال: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ كما قالَ فيما حَكَى اللهُ عنه: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾[1] [الأعراف:١٨٨].

١٩- الفائدةُ مِن ذِكْر نفيِ الأحوالِ الثلاثةِ في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾:

قيل: ليُظْهِرَ الرَّسولُ مِن نَفْسِه التواضُعَ لله، والاعترافَ بعُبودِيَّتِه؛ حتى لا يُعتقَدَ فيه مِثْلُ اعتقادِ النَّصارى في المسيحِ عليه الصَّلاة والسَّلام.

وقيل: إنَّ القومَ كانوا يقترحونَ عليه إظهارَ المُعْجزاتِ القاهِرَةِ، فكان المقصودُ من هذا الكلامِ إظهارَ العَجْزِ والضَّعفِ، وأنَّه لا يَستَقِلُّ بتحصيلِ هذه المعْجزاتِ التي طَلَبوها منه.

وقيل: إنَّ المرادَ مِن قَولِه: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾، أي: لا أدَّعي كوني موصوفًا بالقُدْرةِ، ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾، أي: ولا أدَّعي كوني موصوفًا بعِلْمِ الله تعالى، وبمجموعِ هذينِ الكلامينِ حصل أنَّه لا يدَّعي الإلهيَّة، ثمَّ قال: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ وذلك؛ لأنَّه ليس بعد الإلهيَّة درجةٌ أعلى حالًا من الملائكةِ، فصار حاصلُ الكلامِ كأنَّه يقولُ: لا أدَّعي الإلهيَّةَ، ولا أدَّعي المَلَكيَّةَ، ولكنْ أدَّعي الرِّسالَةَ، وهذا مَنْصِبٌ لا يَمْتنعُ حصولُه للبَشَر، فكيف أَطْبَقْتُم على استنكارِ قولي[2]؟!

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥١٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥٣٨).

٢٠- في قوله تعالى: ﴿قُل لَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ جاء النَّفيُ على سبيلِ الترقِّي، فنفى أوَّلًا ما يتعلَّقُ به رغباتُ النَّاسِ أجمعينَ من الأرزاقِ التي هي قِوامُ الحياةِ الجُسمانيَّة، ثم نفى ثانيًا ما يتعلَّق به، وتتشوَّف إليه النُّفوسُ الفاضِلَة من معرفةِ ما يَجْهلونَ، وتَعَرُّف ما يقعُ من الكوائنِ، ثمَّ نفى ثالثًا ما هو مختصٌّ بذاتِه من صفةِ الملائكةِ التي هي مُبايِنةٌ لصفةِ البشريَّةِ، فترقَّى في النَّفيِ من عامٍّ إلى خاصٍّ إلى أخصَّ، ثمَّ حَصَر ما هو عليه في أحوالِه كُلِّها بقوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ أي: أنا مُتَّبِعٌ ما أوحى اللهُ غيرَ شارعٍ شيئًا مِن جِهَتي[1].

٢١- قوله: ﴿قُل لَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ فيه: تخليصٌ لصورةِ النبوَّةِ وصورةِ النبيِّ من الخُرافاتِ والأساطيرِ والأوهامِ والأضاليلِ، التي شاعت في الجاهليَّاتِ كُلِّها. وكان أقربُها إلى مُشْركي العَرَبِ جاهلياتِ أهلِ الكتابِ من اليهودِ والنَّصارى على اختلافِ المِلَل والنِّحَل بينهم، وكلُّها تشتركُ في تشويه صورةِ النبوَّةِ وصورةِ النبيِّ أقبحَ تشويهٍ؛ فحقيقةُ الرَّسولِ كما جاءت في القرآن: أنَّه لا يملِك خزائنَ الله، ولا يعلمُ الغَيبَ، ولا يقولُ لهم: إنِّي مَلَك، وهو لا يتلقَّى إلَّا مِن ربِّه، ولا يتَّبِعُ إلَّا ما يُوحَى إليه منه، والذين يقبلونَ دَعوتَه هم أكرمُ البَشَرِ عند الله، وعليه أن يَلْزَمَهم، وأن يَهَشَّ لهم، وأن يُبَلِّغَهم ما كَتَبَه اللهُ لهم على نَفْسِه من الرَّحْمة والمغفرةِ؛ كما أنَّ عليه إنذارَ الذين تتحرَّكُ ضمائِرُهم من خشيةِ الآخرةِ؛ ليصلوا إلى مرتبةِ التَّقوى، وفي هذا وذلك تنحَصِرُ وظيفتُه، كما أنَّه في «البشريَّة» وفي «تلقِّي الوَحْيِ» تنحصِرُ حقيقتُه. فتصِحُّ في التصوُّراتِ حقيقَتُه ووظيفَتُه جميعًا[2].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥١٩).

(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١٠٩٤)

٢٢- قولُه تعالى: ﴿قُل لَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ فيه أمْرُ اللهِ تعالى رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يُعلِنَ للنَّاس أنَّه لا يعلمُ الغيبَ؛ ولذا لَمَّا رُمِيتَ عائشةُ رضي الله عنها بالإفكِ، لم يعلمْ أهي بريئةٌ أم لا حتَّى أخبره اللهُ تعالى بقولِه: ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ [النور: ٢٦]، وقد ذَبَح إبراهيمُ عليه السَّلام عِجلَه للملائكةِ، ولا عِلمَ له بأنَّهم ملائكةٌ حتى أخبروه، وقالوا له: ﴿إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٠]، ويعقوبُ عليه السلام ابيضَّتْ عيناه من الحزنِ على يُوسُفَ، وهو في مصرَ لا يَدري خبرَه حتى أظهرَ الله خبَرَ يُوسُف، ونوحٌ عليه السَّلام ما كان يَدري أنَّ ابنه الذي غَرِق ليس مِن أهلِه الموعودِ بنجاتِهم حتى قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ الآية [هود: ٤٥]، ولم يعلمْ حقيقةَ الأمرِ حتى أخْبَره الله بقوله: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦]، والملائكةُ عليهم السَّلام لَمَّا قال لهم: ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة: ٣١-٣٢]؛ فقد ظهَر أنَّ أعلمَ المخلوقاتِ- وهم الرُّسُل، والملائكة- لا يَعلمون مِن الغيبِ إلَّا ما عَلَّمهم اللهُ تعالى، وهو تعالى يُعلم رُسلَه من غيبِه ما شاءَ[1].

٢٣- أنَّ الشَّرائِعَ توقيفيَّةٌ، فلا يجوزُ لأحدٍ أن يبتدعَ منها شيئًا؛ لقوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾؛ ولهذا قرَّرَ أهْلُ العِلمِ أنَّ الأصلَ في العباداتِ المَنْعُ والحَظْرُ، وأنَّه لا يجوزُ للإنسانِ أن يتعبَّدَ لله تعالى بشيءٍ إلَّا ما أَذِنَ اللهُ فيه شَرْعًا، وهذا حقٌّ مستنِدٌ إلى آياتٍ متعدِّدةٍ، وإلى قولِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((مَنْ أَحْدَثَ في أمْرِنا هذا ما ليس منه؛ فهو رَدٌّ))[2].

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٨١، ٤٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٥٣). =

٢٤- بعد أن قال الله تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ أكَّدَ ذلك عزَّ وجلَّ بقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾؛ وذلك لأنَّ العَمَلَ بغيرِ الوَحيِ يجري مَجرى عملِ الأعمى، والعَمَلُ بمقتضى نُزُولِ الوَحْيِ يجري مَجرى عَمَلِ البَصيرِ(١).

٢٥- في قوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ حجَّةٌ مِن حُجَجِ الله تعالى للمُستقِلِّينَ في هدايةِ الدِّينِ، على المُقَلِّدينَ فيه لآبائِهم ومشايخِهم الجاهلين(٢).

بلاغةُ الآيات:

١- قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ عاد به إلى الجدالِ معهم في إشراكِهم باللهِ تعالى بعدَ أنِ انصرَفَ الكلامُ عنه بخصوصِه من قَوْلِه تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾(٣) [الأنعام: ١٩].

- وهذا الكلامُ جارٍ مَجرَى التهديدِ والتَّخويفِ، واخْتِيرَ فيه التهديدُ بانتزاعِ سَمْعِهم وأبصارِهم وسَلْبِ الإدراكِ من قلوبِهم؛ لأنَّهم لم يَشْكُروا نعمةَ هذه المواهِبِ، بل عَدِموا الانتفاعَ بها(٤).

- ولم يؤكِّدْ هنا خِطابَ الضَّمير (التاء) بـ(الكاف) في قَوْلِه: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾، كما أكَّدَه في قَوْلِه: ﴿أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾

= والحديث أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨)- واللفظ له- من حديث عائشة رضي الله عنها.

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٣٥).

[الأنعام: ٤٠]؛ وذلك لأنَّه لَمَّا ذَكَرَ أَوَّلًا تهديدَهم بإتيانِ العذابِ أو السَّاعةِ، كان ذلك أعظَمَ من هذا التهديدِ، فأكَّد خِطابَ الضميرِ بحَرْفِ الخطابِ (الكاف)، فقيل: ﴿أَرَأَيْتَكُمْ﴾، ولَمَّا كان التهديدُ هنا أخَفَّ من ذلك لم يُؤَكَّد به، بل اكتُفِيَ بخطابِ الضَّميرِ، فقيل ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾[1].

- وفيه أمرٌ لرسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بتكريرِ التبكيتِ عليهم، وتثنيةِ الإلزامِ بعدَ تكمِلَةِ الإلزامِ الأوَّلِ؛ ببيان أنَّه أمرٌ مستمِرٌّ لم يَزَلْ جاريًا في الأُمَمِ[2].

- وقوله: ﴿إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ﴾ فيه تمثيلٌ؛ لأنَّ اللهَ هو معطي السَّمْعِ والبَصَرِ فإذا أزالَها كانت تلك الإزالةُ كحالةِ أَخْذِ ما كان أعطاه، فشُبِّهَت هيئةُ إعدامِ الخالقِ بَعضَ مواهِبِ مخلوقِه بهيئةِ انتزاعِ الآخِذِ شيئًا من مَقَرِّه؛ فالهيئة المُشبَّهةُ هنا عقليَّةٌ غيرُ محسوسةٍ، والهيئةُ المُشَبَّهةُ بها محسوسةٌ[3].

- قوله تعالى: ﴿سَمْعَكُمْ﴾ ذُكِرَ السَّمعُ مُفردًا؛ لأنَّه مصدرٌ دالٌّ على الجِنسِ، فكان في قوَّةِ الجَمعِ، فعمَّ بإضافتِه إلى ضَميرِ المخاطَبينَ، ولا حاجةَ إلى جَمْعِه، والعربُ إذا نَعَتَتْ بالمصدرِ ألْزَمَتْه الإفرادَ والتذكيرَ، ولأنَّ كُلَّ مفردٍ هو اسمُ جنسٍ، فمِن أساليبِ اللغةِ العربيةِ أن يُطْلَقَ مفردُه مُرادًا به الجمعُ؛ نظرًا إلى أنَّ أصلَه اسمٌ شاملٌ للجنسِ. وهذا كثيرٌ في القرآنِ، وفي كلامِ العربِ؛ كقولِه: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: آية ٧٤] يعني: أئمةً، وغيره من الآياتِ[4].

- قوله: ﴿سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ﴾ فيه تقديمُ السَّمْعِ على الأبصارِ؛ وقد اطَّرد

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥١٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٦٧- ٢٦٨).

تقديمُ السَّمعِ على البَصر وما يَجري مَجراه في القرآنِ الكريم؛ وذلك لأنَّ السَّمعَ هو طريقُ تلقِّي الوحي، ولأنَّ السَّمع أهمُّ من البصر، وأفضلُ فائدةً لصاحبِه من البَصرِ؛ فإنَّ التقديمَ مُؤذِنٌ بأهميَّة المُقدَّم؛ وذلك لأنَّ السَّمعَ آلةُ تَلقِّي المعارفِ التي بها كمالُ العقل، وهو وسيلةُ بُلوغِ دَعوةِ الأنبياءِ إلى أفهامِ الأممِ على وجهٍ أكملَ مِن بُلوغِها بواسطة البصرِ لو فُقِدَ السَّمع، ولأنَّ السَّمعَ تَرِدُ إليه الأصواتُ المسموعةُ من الجهاتِ الستِّ بدون توجُّه، بخلافِ البصرِ؛ فإنَّه يحتاجُ إلى التوجُّهِ بالالتفاتِ إلى الجهاتِ غيرِ المُقابلة؛ فما يحصُل من ضروبِ المعرفةِ عن طريقِ السَّمع لا يَحصُل عن البَصر، والبصرُ يَتوقَّفُ في تَحصيلِه للعلمِ على وسائطَ لا يتوقَّف عليها السَّمع؛ وكم من أناس فقَدوا نِعمةَ الإبصار فلم يَقعُدوا عن طلبِ العِلم، بل كانوا مِن المُبرَّزين فيه. أو قدَّم السَّمعَ؛ لأنَّ إدراكَ السَّمعِ أقدَمُ مِن إدراك البَصرِ؛ فإنَّ الإنسانَ يَسمعُ أوَّلًا كلامًا فينظر إلى قائلِه؛ ليعرفَه، ثم يَتفكَّر بقَلبِه في ذلك الكلامِ؛ ليفهمَ معناه[1].

- قوله: ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ الاستفهامُ في قوله: ﴿مَنْ﴾ مستعمَلٌ في التقريرِ يُقصَد منه إلجاءُ السَّامعينَ إلى النَّظَر في جوابِه، فيُوقِنوا أنَّه لا إلهَ غيرُ اللهِ يأتيهم بذلك؛ لأنَّه الخالِقُ للسَّمْعِ والأبصارِ والعقولِ[2].

- وفيه لَطيفةٌ لغويَّة، حيثُ وحَّد الهاءَ في ﴿بِهِ﴾ في قوله: ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾، وقدْ مَضَى الذِّكرُ قبلَ ذلِك بالجَمْعِ في قوله: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾؛ قيل: لأنَّ معنَى ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾، أي: بما ذُكِرَ مِمَّا أَخَذَه اللَّهُ منكم، كقولِه جلَّ وعلا: ﴿لَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٣٢)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٢٠٥)، ((خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية)) للمطعني (٢/ ١٠٦- ١٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٤).

فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ [البقرة: آية ٦٨]، أي: ذلِكَ المذكور، ولم يقُل: (ذَلِكُمَا)؛ فجائزٌ أنْ تكونَ معنيًّا بها: مَن إلهٌ غيرُ اللهِ يأتيكم بما أُخِذ منكم مِن السَّمع والأبصارِ والأفئدة، فتكون موحَّدةً لتوحيدِ (ما)، والعربُ تفعلُ ذلك؛ إذا كَنَّتْ عن الأفعالِ وحَّدت الكنايةَ، وإنْ كَثُرَ ما يُكنَّى بها عنه مِن الأفاعيل، كقولهم: إقبالُك وإدبارُك يُعجبني. وجائزٌ أن تكون الهاء عائدةً على السَّمعِ، فتكون موحَّدةً لتوحيدِ السَّمع. وقيل: إنَّ الهاء التي في (به) كنايةٌ عن الهُدَى[١].

- قوله: ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ الجملةُ مستأنفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا، وهي تَتنزَّلُ منزلةَ التَّذييلِ للآياتِ السَّابقةِ؛ فإنَّه لَمَّا غَمَرَهم بالأدلَّةِ على الوحدانيَّةِ، وصِدْقِ الرَّسولِ، وأبطَلَ شُبَهَهم؛ عقَّبَ ذلك كلَّه بالتَّعجيبِ من قُوَّةِ الأدلَّةِ مع استمرارِ الإعراضِ والمكابَرَةِ، والأمرُ في قوله: ﴿انْظُرْ﴾ مستعملٌ في التعجيبِ مِن حالِ إعراضِهم[٢]؛ فهو تعجيبٌ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ من عدمِ تأثُّرهم بما عايَنوا مِن الآياتِ الباهرةِ، أي: انظر كيف نُكرِّرها ونُقرِّرها مصروفةً من أسلوبٍ إلى أسلوبٍ؛ تارةً بترتيبِ المقدِّمات العقليَّة، وتارةً بطريقِ الترغيبِ والترهيبِ، وتارةً بالتنبيهِ والتذكيرِ ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾[٣]!

- قوله: ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ ﴿ثُمَّ﴾ في هذا المكانِ للاستبعادِ؛ لاستبعادِ صُدوفِهم، أي إعراضِهم عن تِلك الآيات بعدَ تصريفِها على هذا النَّمطِ البديعِ الموجِبِ للإقبالِ عليها، والتَّراخي المفهومُ بـ (ثم) للاستبعادِ؛ لأنَّه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٧٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣٤).

يُسْتَبْعَدُ عندَ العقولِ السليمةِ أنْ يكونَ اللَّهُ مع عَظمتِه وجلالِه، ومع ما يُحْسِنُ به إلى الإنسانِ يُصرِّفُ له الآياتِ، ومع هذا هم يَصدفُون[1]!

- وجيءَ بالمُسْنَدِ في جملةِ ﴿هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ فعلًا مضارعًا للدَّلالة على تجدُّدِ الإعراضِ منهم، وتقديم المُسْنَد إليه ﴿هم﴾ على الخبَرِ الفِعليِّ ﴿يَصْدِفُونَ﴾؛ لِتَقَوِّي الحُكْمِ[2].

٢- قوله: ﴿**قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ**﴾ استئنافٌ للتَّهديدِ والتوعُّد، وإعذارٌ لهم بأنَّ إعراضَهم لا يَرجِعُ بالسُّوءِ إلَّا عليهم، ولا يَضُرُّ بغيرهم[3]، وهو تبكيتٌ آخَرُ لهم بإلجائِهم إلى الاعترافِ باختصاصِ العذابِ بِهِم[4].

- قوله تعالى: ﴿بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾ أوْقَعَ الجهرةَ هنا في مُقابلة البَغْتةِ، وكان الظَّاهِرُ أن تُقابَلَ البَغتةُ بالنَّظْرةِ، أو أن تُقابَلَ الجهرةُ بالخُفْيَةِ، إلَّا أنَّ البغتةَ لَمَّا كانت وقوعَ الشَّيءِ من غير شعورٍ به، كان حصولُها خفيًّا؛ فحَسُنَ مقابلَتُه بالجَهرةِ، فالعذابُ الذي يجيءُ بغتةً هو الذي لا تسبِقُه علامةٌ، ولا إعلامٌ به، والذي يجيء جهرةً هو الذي تسبِقُه علامةٌ؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤]، أو يسبِقُه إعلامٌ به؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود:٦٥][5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٦٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٧).

- قوله: ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ الاستفهامُ في قوله: ﴿هَلْ﴾ بمعنى النَّفيِ؛ ولذلك دَخَلت (إلَّا)، وهو مُستعمَلٌ في الإنكارِ والتقريرِ، أي: قلْ لهم تقريرًا لهم باختصاصِ الهلاكِ بهم: أخبروني إن أتاكُم عذابُه تعالى حَسَبما تستحقُّونَه: هل يُهلَك بذلك العذابِ إلَّا أنتم[(١)].

- ولَمَّا كانَ المُخَوَّفُ بالذَّاتِ هو الهُلاك، مِن غير نَظَرٍ إلى تَعيينِ الفاعلِ، بُنِيَ الفِعلُ ﴿يُهْلَكُ﴾ للمَفعولِ[(٢)].

- وفيهِ وَضْعُ الظَّاهِرِ ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ مَوضِعَ المُضْمَرِ- حيثُ لم يَقُلْ: (هلْ يُهلَكُ غيرُكم)- وإنَّما وُضِعَ موضِعَه؛ تَسجيلًا عليهم بالظُّلْم، وإيذانًا بأنَّ مناطَ إهلاكِهم ظُلْمُهم، الذي هو وَضْعُهم الكُفرَ موضِعَ الإيمانِ[(٣)].

٣- قوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ كلامٌ مستأنَفٌ، مَسُوقٌ لبيانِ وظائِفِ مَنْصِب الرِّسالةِ على الإطلاقِ، وتحقيقِ ما في عُهْدةِ الرُّسُلِ عليهم السلامُ، وفيه: إظهارُ أنَّ ما يقترحُه الكَفَرةُ عليه- عليه السلامُ- ليس مما يتعلَّقُ بالرِّسالةِ أصلًا[(٤)].

- والتعبيرُ بصيغةِ المضارعِ ﴿نُرْسِلُ﴾ دون الماضي (أَرْسَلْنا)؛ لبيانِ أنَّ ذلك أمرٌ مستمرٌّ جَرَت عليه العادةُ الإلهيَّةُ، وللدَّلالةِ على تجدُّدِ الإرسالِ مُقارِنًا لهذين الحالَينِ، أي: ما أرسَلْنا، وما نُرْسِل، فقوله: ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ حالانِ مُقَدَّرتانِ باعتبارِ المُستقبلِ، ومُحَقَّقتانِ باعتبارِ الماضي[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق))، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٨).

- والقَصْرُ بـ(ما... وإلَّا) هو الذي يُسَمِّيهِ البلاغيون: قصرًا إضافيًّا؛ لأنَّه يُرْسِلُهم بأعمالٍ أُخَرَ طيبةٍ من تعليمِ الآدابِ والمكارمِ، وغيرِ ذلك ممَّا هو زائدٌ على البِشارةِ والإنذارِ؛ للردِّ على مَن زعموا أنَّه إنْ لم يأتِهم بآيةٍ كما اقترحوا فليس برسولٍ مِن عند الله، فهو قَصْرُ قَلْبٍ، أي: لم نُرْسِلِ الرَّسولَ للإعجابِ بإظهارِ خوارقِ العاداتِ[1]، فحَصَرَ اللهُ تعالى وظيفةَ الرُّسُلِ في البِشارة والإنذارِ؛ حتى لا يدَّعيَ مُدَّعٍ أنَّ وظيفةَ الرُّسُلِ تتعلَّق بالربوبيَّة، وأنَّ لهم نصيبًا من تدبيرِ الخَلْقِ، فالرُّسُل ليس لهم إلَّا أن يُبشِّروا النَّاسَ، ويُنذِروهم فقط، أمَّا أن يَهْدُوهم، أو يَرْزقوهم، أو يدفعوا عنهم السُّوءَ؛ فليسَ من وظائِفِهم[2].

- وقد كنَّى بالتَّبشيرِ والإنذارِ عن التَّبليغِ؛ لأنَّ التَّبليغَ يَسْتلزِمُ الأَمْرينِ، وهما التَّرغيبُ والتَّرهيبُ، فحَصَل بهذه الكِنايةِ إيجازٌ؛ إذِ استغنى بِذِكْرِ اللَّازِمِ عن الجَمْعِ بينه وبين المَلزومِ[3].

٤- قوله: ﴿يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ فيه: كِنايةٌ عن قُرْبِ العذابِ؛ حيثُ جَعَلَ العذابَ ماسًّا لهم؛ كأنَّه حيٌّ يَفعلُ بهم ما يُريدُ مِنَ الآلامِ[4].

- وجِيءَ بِخَبَرِ (كان) جملةً مضارعيَّةً ﴿يَفْسُقُونَ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ فِسْقَهم كان متجدِّدًا مُتكرِّرًا، وللدَّلالةِ أيضًا على الاستمرارِ؛ لأنَّ (كان) إذا لم يُقْصَدْ بها انقضاءُ خَبَرِها فيما مضَى، دَلَّتْ على استمرارِ الخَبَر بالقَرينةِ؛ كقولِه تعالى: ﴿وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦][5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٩).

٥- قوله: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾

- قوله: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ انتقل بِه الكلامُ مِن غَرَضٍ إلى غَرَضٍ، وهو استئنافٌ مبنيٌّ على ما أُسِّسَ من السُّنَّة الإلهيَّةِ في شأنِ إرسالِ الرُّسُلِ، وإنزالِ الكُتُب؛ مسوقٌ لإظهارِ تَبَرُّئِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مما يدورُ عليه مقترحاتُهم، وقد افتتحَ الكلامَ بالأمْرِ بالقولِ؛ للاهتمامِ بإبلاغِه[1].

- وفي قوله: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ خاطبَهم مخاطبةً غيرَ الأُولى، يَعني: كرَّر المخاطبةَ ﴿لَكُمْ﴾؛ لأنَّ المقامَ هنا- وهو نفيُ أن يكون مَلَكًا- أبلغُ وأشدُّ، والإتيان بكافِ الخِطاب يدلُّ على شِدَّة توجيهِ الخِطاب للمُخاطَب، كما في قولِ الخَضِر لموسى في الآيةِ الأُولى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٢]، وفي الثانية: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾[2] [الكهف: ٧٥].

- وأعادَ قولَه: ﴿لَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ في قولِه: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾، ولم يُعِدْها في نَفْيِ عِلْم الغَيبِ؛ حيث قال: ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾، ونُكتةُ ذلك: أنَّ نفيَ عِلم الغيبِ ونَفْيَ التصرُّفِ في خزائنِ الله يؤلِّفانِ التبرُّؤَ من دَعْوَى واحدةٍ، هي دعوَى الصِّفاتِ الخاصَّةِ بالله تعالى، وأمَّا نفيُ ادِّعاءِ المَلَكيَّة فهو شيءٌ آخرُ، فأُعيدَ العامِلُ لإفادة ذلك، كأنَّه قال: إنَّني لا أدَّعي صفاتِ الإله حتى تطلُبوا منِّي ما لا يقدِرُ عليه أو ما لا يَعْلَمُه إلَّا اللهُ، ولا أدَّعي أنِّي مَلَك- وهو دون ما قَبْلَه- حتى تطلبوا منِّي ما جعله الله في قدرةِ الملائكةِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٤٨).

ولم يجعَلْه من مقدورِ البَشَرِ، بل ادَّعَيْتُ أنِّي عبدُ اللهِ ورسولُه، وإنَّما وظيفةُ العبدِ الطاعةُ، ووظيفةُ الرَّسولِ التبليغُ، وعبَّر عن هذا بقولِه: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ أي: ما أفعلُ مِن حيثُ أنا عبدٌ رسولٌ إلَّا اتِّباعَ ما يُوحِيه إليَّ مَن أَرْسَلَني، مِن تَبليغِ دِينِه بالتبشيرِ والإنذارِ والعَمَلِ به[1].

- وفي قوله: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ مناسبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ كرَّر ضَميرَ الخِطابِ المجرورَ مِن قَولِه: ﴿لَكُمْ﴾ وفي سُورة هودٍ قال: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [هود: ٣١] بغيرِ تكريرِ الخِطابِ؛ وذلِك لأنَّ الواردَ في سُورةِ هودٍ إنَّما هو حِكايةُ قَولِ نوحٍ عليه السَّلامُ مُتلطِّفًا، ومشْفِقًا من حالِ قَومِه، ويُلْحَظ ذلك من النَّظَرِ فيما استَفْتَحَ به خطابَه لهم، وذلك بقوله: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ...﴾ الآية، وقوله: ﴿وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ﴾ إلى قوله ﴿إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾، فهو عليه السَّلامُ يُلاطِفُهم، ويَظهَرُ من كلامه عظيمُ الإشفاقِ مِن حالِهم، وإرادتُه ما به نجاتُهم من العذابِ، فهذا كلُّه استلطافٌ في الدُّعاءِ، لا يلائِمُه تكرارُ كلمةٍ تُفْهِمُ تعنيفًا أو توبيخًا، والتأكيدُ والتَّكرارُ يُفْهِمانِ ذلك، ويَرِدانِ حيثُ يُقْصَد.

وأمَّا قولُه تعالى هنا في آيةِ الأنعام: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ فوارِدٌ في أثناءِ كلامٍ أمَرَ اللهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بتبليغه عُتاةَ قُريشٍ والعربِ؛ توبيخًا لهم وتقريعًا؛ فقيل له: ﴿قُلْ﴾ والمراد: قلْ لهم يا محمَّدُ: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ...﴾ الآية، فعَنى به من يقولُ: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٥٥).

فمن يصدُرْ عنه هذا وأشباهُه ممَّا يُنبئُ عن الإزراءِ، وفسادِ الظَّاهِرِ والباطِنِ، فَهُم المَقولُ لهم: ﴿لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ...﴾، فتكَرَّر فيها قولُه: ﴿لَكُمْ﴾ تأكيدًا يُفْهِم التَّعنيفَ ويُناسِبُ التَّوبيخَ والتَّقريعَ[١].

وقيل: كرَّر في هذِه الآية قوله: ﴿لَكُمْ﴾؛ لعدمِ ذِكْرِه قبلَها وبعدَها، ولم يُكرِّر قولَه: ﴿لَكُمْ﴾ في سورةِ هودٍ؛ لأنَّه تقدَّم فيها قولُه تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ وعَقِبَه ﴿وَمَا نَرَى لَكُمْ﴾ وَبعدَه ﴿أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ﴾ فَلَمَّا تكَرَّرَ (لكم) في القِصَّةِ أَربعَ مَرَّاتٍ اكْتفى بذلك[٢].

- وتقديمُ المسْنَدِ، وهو قوله: ﴿عِنْدِي﴾ على قوله: ﴿خَزَائِنُ اللَّهِ﴾؛ للاهتمامِ به، لِمَا فيه مِن الغَرابةِ والبِشَارةِ للمُخْبَرِينَ به[٣].

- قوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ جملةٌ مستأنفَةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّه لَمَّا نفى أن يقولَ هذه المقالاتِ، كان المقامُ مثيرًا سؤالَ سائلٍ يقولُ: فماذا تدَّعي بالرِّسالةِ، وما هو حاصِلُها؟ لأنَّ الجَهَلَةَ يَتوهَّمونَ أنَّ معنى النبوةِ هو تلك الأشياءُ المتبرَّأُ منها في قوله: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ...﴾ إلخ، فيُجابُ بقولِه: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾، أي: ليستِ الرِّسالةُ إلَّا التبليغَ عَنِ الله تعالى بواسطةِ الوَحْيِ[٤].

- قوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ خِتامٌ للمجادَلَةِ معهم، وتذييلٌ للكلامِ المُفْتَتَحِ بقوله: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (١/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٠٩ - ١١٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٤١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٤٢).

اللهِ﴾، أي: قلْ لهم هذا التذييلَ عَقِبَ ذلك الاستدلالِ[(١)].

- وتكريرُ الأمرِ ﴿قُلْ﴾؛ لتَثنيةِ التَّبكيتِ، وتَأكيدِ الإلزامِ[(٢)].

- والاستفهامُ في قوله: ﴿هَلْ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ، والمرادُ إنكارُ استواءِ من لا يعلمُ ما ذُكِرَ من الحقائقِ ومن يَعْلَمُها، وفيه من الإشعارِ بكمالِ ظُهُورِها، ومن التَّنفيرِ عن الضَّلالِ، والتَّرغيبِ في الاهتداءِ ما لا يخفى[(٣)].

- وفيه تشبيهُ حالةِ من لا يَفْقَهُ الأدلَّةَ، ولا يُفكِّك بين المعاني المتشابهةِ بحالةِ الأعمى الذي لا يَعْرِف أين يَقْصِد، ولا أين يَضَعُ قدَمَه، وتشبيهُ حالةِ من يُمَيِّزُ الحقائقَ، ولا يلتبسُ عليه بعضُها ببعضٍ بحالةِ القَوِيِّ البَصَرِ؛ حيث لا تختلطُ عليه الأشباحُ، وهذا تمثيلٌ لحالِ المشركينَ في فسادِ الوَضْعِ لأدِلَّتِهم، وعُقْم أَقْيِسَتِهم، ولحالِ المؤمنينَ الذين اهتَدَوْا، ووضعوا الأشياءَ مَوَاضِعَها، أو تمثيلٌ لحالِ المُشْركينَ التي هم متلبِّسونَ بها، والحالِ المطلوبة منهم التي نَفَروا منها؛ ليعلموا أيُّ الحالينِ أَوْلى بالتخلُّقِ[(٤)].

- قوله: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ توبيخٌ وتقريعٌ لهم، والاستفهامُ للإنكارِ، وهو معطوفٌ بالفاءِ على الاستفهامِ الأوَّلِ ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾؛ لأنَّه مترتِّبٌ عليه؛ لأنَّ عدمَ استواءِ الأعمى والبصيرِ بديهيٌّ، لا يسَعُهُم إلَّا الاعترافُ بعَدَمِ استوائِهما؛ فلا جَرَمَ أن يتفرَّعَ عليه إنكارُ عدمِ تفكُّرِهم في أنَّهم بأيِّهما أشبَهُ[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٤٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٤٣).

الآيات (٥١ - ٥٥)

﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٥١) وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٥٢) وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ (٥٣) وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٤) وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ (٥٥) ﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿شَفِيعٌ﴾: أي: ناصِر ومُعينٌ، والشَّفاعةُ: الانضمامُ إلى آخَرَ؛ نُصْرةً له، وسؤالًا عنه، وشَفَعَ فلانٌ لفلانٍ: إذا جاء ملتمِسًا مَطْلَبَه، ومُعِينًا له؛ فأصل الشَّفْع: ضمُّ الشَّيءِ إلى مِثْلِه(١).

﴿بِالْغَدَاةِ﴾: الغَداةُ هي أوَّلُ النَّهارِ، أو وَقتُ الضُّحى، أو مِن طُلوعِ الفَجْرِ إلى الظُّهرِ، وأصْلُ (غدو): يدلُّ على زمانٍ(٢).

﴿وَالْعَشِيِّ﴾: العشيُّ هو آخِرُ النَّهارِ مِن وقْتِ العَصرِ إلى اللَّيلِ، أو مِن الظُّهر إلى نِصْفِ اللَّيلِ، وأصل (عشو): يدلُّ على ظلامٍ، وقِلَّة وضوحٍ في الشَّيءِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٢٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣) و(٢٤/ ١٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٨٧) و(٤/ ٤١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣) و(٢٤/ ١٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٦)، =

﴿فَتَنَّا﴾: أي: اختبَرْنا وابتَلَينا وامتحَنَّا[١].

﴿سُوءًا﴾: السوءُ: هو كُلُّ ما يسوءُ صاحبَه إذا رآه في صحيفتِه، وهو اسمٌ جامعٌ للآفاتِ، وهو أيضًا كلُّ ما يَغُمُّ الإنسانَ، ويُستعمَلُ في كلِّ ما يُستقبَحُ[٢].

﴿بِجَهَالَةٍ﴾: الجهالةُ فِعلُ الشَّيءِ بخلافِ ما حقُّه أن يُفعَلَ، وأصل (جهل): خلافُ العِلْم[٣].

﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾: أي: لتَظْهَرَ ولتنكشِفَ، وأصل (بين): الانكشافُ[٤].

مشكل الإعراب:

١ - قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾

﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾: الفاءُ سَببيَّة، و(تطردَ): منصوبٌ في جَوابِ النَّفْيِ ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ بـ(أنْ) مُضمَرة بعدَ الفاءِ؛ على إرادةِ انتفاءِ الطَّرْدِ؛ لانتفاءِ كَوْنِ حسابِهم عليه، وحسابِه عليهم، أي: ما يكون مؤاخذةُ كلِّ واحدٍ بحسابِ صاحبِه؛ فكيف يقَعُ طردٌ؟!

= ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٢).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٦، ١٠١، ١٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢). يُنظر: ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص:٢٩، ٩٤، ١٣٩، ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٤٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٩) و(٤/ ٥٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٤٣٧).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٣).

﴿فتكُونَ﴾: مَنصوبٌ بالعَطْفِ على ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾؛ على وجْهِ التَّسبيبِ؛ لأنَّ كونَه ظالِمًا مُسَبَّبٌ عن طَرْدِهم. أو منصوبٌ بـ(أنْ) مُضمرةً على أنَّه جوابُ النَّهْيِ الذي في أوَّلِ الآيةِ ﴿وَلَا تَطْرُدِ﴾، وتكونُ الجُملتانِ- ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ وجوابُ الأولى ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾- اعتراضًا بين النَّهْيِ وجوابِه(١).

٢- قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

﴿أَنَّهُ... فَأَنَّهُ﴾: قُرِئَ بفتحِ «أنَّ» في الموضعينِ وبِكَسْرِهما؛ فعلى قِراءةِ الفتحِ فيهما تكونُ ﴿أَنَّهُ﴾ الأُولى في مَوضِع نَصْبٍ بدلًا من ﴿الرَّحْمَةَ﴾، أي: كَتَب أنَّهُ مَن عَمِلَ. وأمَّا فَتْحُ الثَّانيةِ ﴿فَأَنَّهُ﴾ فعلى: أنَّها في مَحلِّ رفعٍ مبتدأٌ، والخبرُ محذوفٌ، أي: فغُفرانُه ورحمتُه حاصِلانِ أو كائنان، أو فعَلَيه غُفرانُه ورَحْمتُه. أو على: أنَّها في محلِّ رفْعٍ خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، أي: فأمْرُه أو شَأْنُه أنَّه غفورٌ رحيمٌ.

وأمَّا على قِراءة كَسْرِ الهَمزةِ: فكَسْرُ الأُولى (إِنَّهُ) على أنَّها مستأنفَةٌ، وأنَّ الكَلامَ تامٌّ قَبْلَها، وجِيءَ بها وبما بَعْدَها كالتَّفسيرِ لِقَوْله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ على نَفْسِهِ الرحمةَ﴾، أو على إضمارِ (قال)، فكُسِرَت (إنَّ) بَعْدَه، وأمَّا كَسْرُ الثَّانِيةِ (فإِنَّهُ) فعَلى الاستئنافِ، بمعنى أنَّها في صَدْرِ جملةٍ وَقَعَت خبرًا لـ﴿مَنْ﴾ الموصولةِ، أو جوابًا لها إنْ كانَتْ شرطًا(٢).

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٥٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٢٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٦٤٥- ٦٤٦).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٥٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٩٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٦٥٠- ٦٥٣).

٣- قوله تعالى: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾

﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾: قُرِئَ ﴿ولِتَسْتَبِينَ﴾ بالتاءِ، وقُرِئ (وَلِيَسْتَبِينَ) بالياءِ، وقُرِئ ﴿سَبِيلُ﴾ بالرَّفْع والنَّصْب، وهذه القِراءاتُ دائرةٌ على تَذكيرِ (السَّبيل) وتأنيثِه، وتَعَدِّي الفعلِ (استبان) ولُزومِه، وكِلاهما جاء فيه الأمرانِ؛ فالسَّبيلُ يُذكَّر ويُؤنَّثُ؛ قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٦] فذَكَّر السَّبيلَ، وقال: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾ [يوسف: ١٠٨] فأنَّثَ السبيلَ. وأمَّا الفِعلُ (استبانَ) فيكونُ متعدِّيًا؛ نحو: استبَنْتُ الشَّيْءَ، ويكون لازمًا؛ نحو: استبانَ الصُّبْحُ.

فمَنْ قرأ بالتَّاءِ ورَفَعَ (السَّبيل): فالسَّبيلُ فاعِلٌ للفِعْلِ (تَسْتَبِينَ) على لغَةِ التَّأنيثِ، والفِعلُ لازِمٌ.

ومَن قرأ بالياءِ ورَفَع (السَّبيل): فالسَّبيلُ فاعِلٌ للفِعل (يَسْتَبِينَ) على لُغة التَّذْكيرِ، والفِعْلُ لازِمٌ أيضًا.

ومن قرأ بالتَّاءِ ونَصَبَ (السَّبيل): فإنَّ الفاعِلَ ضميرُ المخاطَب المستَتِر، تقديره: (أنت)، و(السَّبيلَ) مفعولٌ به منصوبٌ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يَأمرُ اللهُ نبيَّهُ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أن يُنْذِرَ بالقرآنِ الذين يخافونَ أن يُحْشَروا إلى ربِّهم، ليس لهم غير اللهِ وليٌّ ينصرُهم، ولا شفيعٌ يشفعُ لهم عنده فيُخَلِّصَهم مِن عذابِه، لعلَّهم يتَّقونَ؛ فيمتثلون ما أمَر الله به، ويجتنبونَ ما نَهى عنه.

ثم يَنهى اللهُ تعالى نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن طَرْدِ الذين يَدْعونَه

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٥٤)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٠١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٦٥٥).

عزَّ وجلَّ في أوَّلِ النَّهارِ وآخِرَه، مُخْلِصينَ له تعالى في ذلك، وأَعْلَمَه أنَّ كلًّا له حسابُه؛ فلا هو صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ سيُحاسَبُ على ما يعملونَه، ولا هم سيُحاسَبونَ على عَمَلِه، حتَّى يَطرُدَهم؛ فإنَّه إنْ فعَلَ ذلك فسيكونُ من الظَّالمينَ.

ثم يُخبِرُ تعالى أنَّه كذلك يَختَبِر ويَبتلي النَّاسَ بعضَهم ببعضٍ، فيجعلُ بعضَهم غنيًّا، وبعضَهم فقيرًا، وبعضَهم شريفًا، وبعضَهم وضيعًا، فإذا ما آمن الفقيرُ والضَّعيفُ كان ذلك فتنةً للغنيِّ والشَّريفِ، وترتَّب عليه أن يقولوا لِمَن يَرون أنَّهم دونَهم؛ ممَّن آمنَ: أهؤلاءِ منَّ اللهُ عليهم بالهدايةِ مِن بَيْنِنا، لو كان خيرًا لكنَّا نحنُ أَوْلى به، فاللهُ تعالى يَرُدُّ عليهم بأنَّه هو أعلَمُ بمن يقومُ بِشُكْرِه، فيوفِّقُه ويَهديه.

ثم أمَرَ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أن يقولَ للمؤمنينَ بآياتِ اللهِ، مُرَحِّبًا بهم إذا جاؤوه: سلامٌ عليكم، وأنْ يُبَشِّرَهم برحمَتِه التي أوجَبَها على نَفْسِه عزَّ وجلَّ، وأنْ يُعْلِمَهم أنَّه مَن اقترفَ منهم ذنبًا بجهالةٍ، ثم تاب عن ذلك الذَّنْب وأصلَحَ، فإنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ.

ثمَّ أخبرَه تعالى أنَّه كذلك يُوضِّحُ الآياتِ؛ لتتبيَّنَ طريقُ المُشْرِكين المُوصِلَةُ إلى سَخَطه وعذابِه ليُمكِنَ اجتنابُها، ومن أجْل أنْ يَتبيَّنَ الحقُّ من الباطلِ.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ ﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا وَصَفَ تعالى الرُّسُلَ بكونِهم مُبَشِّرينَ ومُنذِرينَ، أَمَرَ الرَّسولَ في هذه الآيةِ بالإنذارِ(١)، فقال:

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٢/ ٥٣٩).

﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾.

أي: وأنذرْ بهذا القرآنِ- يا محمَّدُ- مَن يَنتفعُ به حقًّا، وهم الذين يخافونَ الحشرَ إلى رَبِّهِمْ، ويوقنون بالانتقالِ مِن هذه الدَّارِ الفانيةِ، إلى الدَّارِ الباقيةِ، فيَستصحِبونَ إليها ما ينفعُهم، ويَدَعُون ما يضرُّهم[1].

﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾.

أي: والحالُ أنَّه ليس لهم يَومَئِذٍ من عذابِ الله- إنْ عَذَّبَهم- وليٌّ مِن دُونِ اللهِ ينصرُهم، فيستنقِذُهم من العذابِ، ولا شفيعٌ يتوسَّطُ لهم عندَ الله تعالى، فيُخَلِّصهم من العِقابِ[2].

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾.

أي: أنذِرْهم كي يتَّقوا اللهَ تعالى وعذابَه؛ بامتثالِ أوامِرِه، واجتنابِ نواهِيه[3].

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى بإنذارِ غيرِ المتَّقينَ لعلَّهم يتَّقونَ؛ أردَفَ ذلك بتقريبِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥٧-٢٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٠٤-٣٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٠٥-٣٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣١٠-٣١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٦٢).

المتَّقينِ وإكرامِهم، ونهاه عن طَرْدِهم، ووَصَفَهم بموافقةِ ظاهِرِهم لباطِنِهم؛ مِن دُعاءِ رَبِّهم، وخُلُوصِ نِيَّاتِهم(١).

سببُ النُّزولِ:

عَن سَعدِ بنِ أَبي وقَّاصٍ رضي الله عنه، قال: ((كنَّا مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ستَّةَ نَفَرٍ، فقال المُشركونَ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: اطرُدْ هؤلاءِ؛ لا يجتَرِئونَ علينا. قال: وكنتُ أنا وابنُ مسعودٍ، ورجلٌ من هُذَيلٍ، وبلالٌ، ورجلانِ لستُ أُسمِّيهما، فوقَعَ في نفسِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ما شاءَ اللهُ أن يقعَ، فحدَّث نفسَه، فأنزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾))(٢).

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾.

أي: ولا تُقْصِ- يا محمَّدُ- هؤلاءِ الذينَ هم في العملِ لله تعالى دائبونَ، فيلازمونَ دُعاءَ رَبِّهم دعاءَ مسألةٍ، ودعاءَ عبادةٍ، في أوَّلِ النَّهارِ وآخِرَه؛ بإخلاصٍ لله تعالى وطَلَبًا لوَجْهِه الكريمِ، فهؤلاء اجْعَلْهم جُلَساءَك وخاصَّتَك، ولا تُبْعِدْهم عنك؛ لأجْلِ أنَّ الكُفَّارَ يُريدونَ ذلك، فليسوا مُستحقِّينَ للطَّرْدِ والإعراضِ عنهم، بل هم مُستحقُّونَ لتقريبِهم؛ فهم الصَّفْوةُ مِن الخَلْقِ وإنْ كانوا فقراءَ، والأعِزَّاءُ في الحقيقةِ، وإنْ كانوا عندَ النَّاسِ أذلَّاءَ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٢١).

(٢) رواه مسلم (٢٤١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٦٩-٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٧-٢٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣١٢-٣١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٦٤-٢٦٥).

﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ﴾.

أي: كلٌّ له حسابُه؛ فله عملُه الصَّالحُ، وعليه عَمَلُه الطَّالحُ، وحسابُه على اللهِ عزَّ وجلَّ وَحْدَه، ولستَ محاسَبًا- يا محمَّدُ- بما يفعلُ أصحابُك الضُّعفاءُ، كما أنَّهم ليسوا مُحاسَبينَ بما تفعلُ؛ حتَّى يكونَ ذلك سَببًا في طَرْدِهم[1].

كما حَكَى الله تعالى عن نوحٍ وقَوْمِه، فقال: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ * قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ * وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ * إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الشعراء: ١١١- ١١٥].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رضِي الله عنهما، أنَّ هِرَقْلَ قال لأبي سفيانَ: ((سَأَلْتُكَ: أشرافُ النَّاسِ يتَّبعونَه أم ضُعَفاؤُهم، فزَعَمْتَ أنَّ ضُعفاءَهُم اتَّبَعوه، وهمُ أتباعُ الرُّسُل))[2].

﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

أي: فإنْ طردْتَهم- يا مُحمَّدُ- فإنَّك تكونُ بذلك مِن المتجاوِزينَ لحُدُودِ الله تعالى، الذين يَضَعونَ الأشياءَ في غَيْرِ مواضِعِها الصَّحيحةِ واللائِقَةِ بها، ومن ذلك إبعادُ من يستحِقُّ القُرْبَ من أجلِ إرضاءِ وتقريبِ من يستحِقُّ البُعْدَ[3].

﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٢٢-٣٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٦٥-٢٦٦).
قال ابنُ عاشورٍ: (وجملةُ ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ تعليلٌ للنهي عن طَرْدِهم، أو إبطالٌ لعِلَّة الهمِّ بطَرْدِهم، أو لعِلَّة طلبِ طَرْدهم؛ فإنَّ إبطالَ عِلَّة فِعل المنهيِّ عنه يؤول إلى كونِه تعليلًا للنهي؛ ولذا فُصِلتْ هذه الجملة [أي: لم تُعطَف بالواو على التي قبْلَها]). ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٤٨).

(٢) رواه البخاري (٢٩٤١) واللفظ له، ومسلم (١٧٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٥٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٢٢-٣٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٥١-٢٥٢).

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾.

أي: كما فتَنَ اللهُ تعالى هؤلاءِ الأغنياءَ من الكفَّارِ بأولئك الفُقراءِ من المؤمنينَ، كذلك أيضًا يَبتَلي النَّاسَ، ويَمتحِنُ بعضَهم ببعضٍ؛ فبعضُهم غنيٌّ؛ وبعضُهم فقيرٌ، وبعضُهم شريفٌ، وبعضُهم وضيعٌ، فإذا مَنَّ اللهُ بالإيمانِ على الفقيرِ أو الوضيعِ؛ كان ذلك موضِعَ محنةٍ للغنيِّ والشَّريفِ(١).

﴿لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآ﴾.

أي: إنَّما اختبَرْنا النَّاسَ بالغِنى والفَقْرِ، والعِزِّ والذُّلِّ، والقوَّةِ والضَّعْف، والهُدى والضَّلال؛ كي يقولَ مَن أضلَّهم اللهُ للذين هداهم الله ووفَّقَهم: أهؤلاءِ مَنَّ اللهُ عليهم مِن بَيْنِنا بالهدايةِ إلى الحقِّ، وهم فقراءُ ضعفاءُ أذِلَّاءُ، ونحن أغنياءُ أقوياءُ شُرَفاءُ؟ كلَّا! بل لو كان خيرًا لهُدِينا نحنُ إليه؛ لأنَّنا أَوْلى منهم بذلك(٢).

فقال اللهُ تعالى ردًّا عليهم:

﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

أي: أليسَ هو سبحانه أعلمَ بِمَن شَكَر نِعَمَه- وأعظَمُها نِعمَةُ الإيمانِ- بأقوالِه وأفعالِه؛ فيُوفِّقَه ويهديَه؛ جزاءً له على شُكْرِه، ممَّن هو لها كافرٌ؛ فيَخْذُله ويُضِله؛ جزاءً على كُفْره؟

واللهُ تعالى حَكيمٌ، لا يضَعُ فَضْلَه عند مَن ليس له بأهلٍ، غنيًّا كان أو فقيرًا؛ فإنَّ الثَّوابَ والعِقابَ لا يَستحِقُّه أحدٌ إلَّا جزاءً على عَمَلِه الذي اكتسَبَه، لا على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٢٤-٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٧١)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٧٠).

غناه وفَقْرِه، كما قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1] [العنكبوت: ٦٩].

﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٤)﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا نهى اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن طَرْدِهم، عَلَّمَه كيف يُلاطِفُهم[2]، فقال تعالى:

﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾.

أي: وإذا جاءَكَ- يا محمَّدُ- المُصَدِّقونَ، المُقِرُّون بتنزيلِنا وأدِلَّتِنا وحُجَجِنا، المُنقادونَ إليها بقُلُوبِهم وجَوارِحِهم؛ فحيِّهم ورحِّبْ بهم، وأكْرِمْهم بإلقاءِ السَّلامِ عليهم، وهو دعاءٌ لهم بأن يُسلِّمَهم اللهُ تعالى من جميعِ الآفاتِ والشُّرورِ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٧١-٢٧٢)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٤٥٠) (٣/ ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٣٧-٣٣٩).

قيل: المرادُ بالمؤمنين هنا: الذين نَهَى اللهُ تعالى عن طرْدِهم كما تقدَّم، وهذا قولُ جمهور المفسِّرين، كما ذكَر ابنُ عطيَّة في ((تفسيره)) (٢/ ٢٩٦)، والشنقيطي في ((العذب النمير)) (١/ ٣٣٧)، واختاره القرطبيُّ في ((تفسيره)) (٦/ ٤٣٥)، والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ٢٥٨)، وابنُ عاشورٍ في ((تفسيره)) (٧/ ٢٥٦).

وقيل: المراد: المؤمنون مِن غيرِهم، وهذا اختيارُ ابنِ جريرٍ في ((تفسيره)) (٩/ ٢٧٣).

وجمَع بين القولين: الواحديُّ، فقال: (يعني: الصَّحابةَ وهؤلاءِ الفقراءَ). ((الوجيز)) (ص: ٣٥٦).

﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾.

أي: وبَشِّرْهم برحمةِ الله الواسِعَةِ الشَّامِلَةِ؛ فقد أوجَبَها على نَفْسِه الكريمةِ؛ تفضُّلًا منه وإحسانًا[1].

عن أبي هريرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((إنَّ اللهَ كتبَ كتابًا قبل أن يخلُقَ الخلقَ: إنَّ رحمتي سبَقَتْ غضبي، فهو مكتوبٌ عندَه فوقَ العرشِ))[2].

﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التفسيرِ:

هذه الآيَةُ فيها ثلاثُ قراءاتٍ:

١- ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

بفَتْح همزةِ (أنَّ) في الموضعين ﴿أَنَّهُ﴾ ﴿فأَنَّهُ﴾، والمعنى: كتَبَ ربُّكم على نفْسِه المغفرةَ، وهي بدَلٌ من الرَّحْمة، كأنَّه قال: كتَب ربُّكم على نفْسِه الرَّحْمةَ، وهي المغفرةُ للمُؤمنين التائِبين[3].

٢- ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٤٠).

(٢) رواه البخاري (٧٥٥٤) واللفظ له، ومسلم (٢٧٥١).

(٣) قرأ بها ابن عامر وعاصم ويعقوب. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٥٨). ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٥٦).

بفَتْح همزةِ (أنَّ) في الموضع الأوَّل ﴿أَنَّهُ﴾، وكسْرِها في الموضِع الثاني ﴿فَإِنَّهُ﴾؛ فالفَتْحُ على الإبدالِ من الرَّحمة، والكَسْر في (فَإِنَّهُ) لوُقوعِها بعد الفاءِ في جَوابِ (مَن) على القَوْلِ بشَرطيَّتِها[1].

٣- ﴿إِنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

بكسرِهما جميعًا على مذهبِ الحِكاية، كأنَّه لَمَّا قال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمة﴾ قال: ﴿إِنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، ودخلتِ الفاءُ جوابًا للجزاءِ فكُسِرت (إنَّ)؛ لأنَّها دخلتْ على ابتداءٍ وخبرٍ، كأنَّك قُلتَ: فهُو غفورٌ رحيمٌ، إلَّا أنَّ الكلامَ بـ (إنَّ) أوكَدُ[2].

﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: مَنِ اقترفَ منكم ذنبًا، والحالُ أنَّه متَّصِفٌ بالجَهالةِ- حيث آثَرَ دُنياه على أُخراه، وعَمِيَ عن عواقِبِ اقترافِ فِعْلِ ما لا يَنبغي فِعْلُه- ثم رجَع عمَّا ارتكبَه، وأقلَعَ ونَدِمَ وعَزَمَ على ألَّا يعودَ إليه، وقام بإصلاحِ جميعِ ما أفسَدَه من الأعمالِ الظَّاهِرةِ والباطِنَةِ، إذا وُجِدَ ذلك كُلُّه فاللهُ تعالى غفورٌ، فيَسْتُر ذَنْبَه، ويتجاوَزُ عن مؤاخَذَتِه به، رحيمٌ به، ومِن رَحْمَتِه أنْ تابَ عليه، وتَرَكَ عِقابَه على الذَّنبِ بعد تَوبتِه منه[3].

---

(١) قرأ بها نافع وأبو جعفر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٥٨).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٥٦).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٥٨).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٥٦)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٢)، ((تفسير السعدي)) =

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾.

أي: وكما وضَّحْنا، فيما تقدَّم من هذه السُّورةِ، حُجَّتَنا على المشركينَ، وبيَّنَّا أدِلَّتَنا، وميَّزْنا طريقَ الهُدى من الضَّلالِ، فكذلك نوضِّحُ أيضًا أدلَّتَنا في إثباتِ كلِّ حقٍّ، وردِّ كُلِّ باطلٍ[1].

﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التفسيرِ:

في قوله تعالى: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ قِراءتانِ:

= (ص: ٢٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٤٦-٣٥٣).

قال ابنُ تيميةَ: (في قولِه تعالى: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ﴾ طالَ الفصْلُ بين أنَّ واسْمِها، وخبرِها؛ فأعاد (أنَّ) لتَقَعَ على الخبرِ لتأكيدِه بها؛ ونظيرُ هذا قوله تعالى ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ لَمَّا طالَ الكلامُ أعاد (أنَّ)، هذا قولُ الزَّجَّاجِ وطائفةٍ، وأحسَنُ من هذا أن يُقالَ: كُلُّ واحدةٍ من هاتَينِ الجُملتينِ جملةٌ شرطيَّةٌ مركَّبةٌ من جملتينِ جَزائيَّتينِ، فأُكِّدَت الجملةُ الشَّرطيَّةُ بـ«أنَّ» على حدِّ تأكيدِها في قولِ الشَّاعر:

إنَّ مَنْ يَدْخُلِ الكَنيسَةَ يومًا   يَلْقَ فِيها جَآذِرًا وظِبَاءَ

ثمَّ أُكِّدَت الجملةُ الجزائيَّة بـ«أنَّ»؛ إذْ هي المقصودةُ على حدِّ تأكيدِها في قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾. ونظيرُ الجمعِ بينَ تأكيدِ الجملةِ الكبرى المرَكَّبةِ من الشَّرط والجزاءِ، وتأكيدِ جملةِ الجزاء قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فلا يقالُ في هذا: «إنَّ» أعيدَتْ لطُولِ الكلامِ، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا﴾ ونظيره: ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فهما تأكيدانِ مَقصودانِ لمعنَيَينِ مختلفَينِ؛ ألا ترى تأكيدَ قولِه: ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ بـ «أنَّ» غيرَ تأكيدِ ﴿مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ له بـ «أنَّ»، وهذا ظاهرٌ لا خفاءَ به، وهو كثيرٌ في القرآنِ وكلامِ العَرَبِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٢٧٦-٢٧٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٥٧).

١- قِراءة ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ﴾ على مَعنى: وَلِتَسْتَبِينَ أنتَ- يا محمَّدُ- سَبيلَ المُجْرِمينَ(١).

٢- قراءة ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ﴾ على معنى: ولِتَظْهَرَ طَرِيقُ المُجرِمينَ(٢).

﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

أي: فصَّل اللهُ تعالى آياتِه؛ لتَظْهَرَ لك ولغيرِك- يا محمَّدُ- طريقُ المُشركينَ المُوصِلَةُ إلى سَخَطِ الله وعذابِه؛ ليُمكِنَ اجتنابُها، وليَتَبَيَّنَ الحَقُّ من الباطلِ(٣).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾ وجوبُ الإنذارِ بالقُرآنِ، ويتفرَّعُ على هذا أنَّ خيرَ ما يُنذَر به هو القرآنُ، يعني هو أبلغُ المواعِظِ في الإنذارِ، لكنْ كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾(٤) [ق: ٣٧].

٢- أنَّه لا ينتفِعُ بالإنذارِ بالقُرآنِ إلَّا الذين يؤمنونَ باليومِ الآخِرِ؛ لقوله: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾(٥).

٣- في قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ صورةٌ للتجرُّدِ والحبِّ والأدَبِ؛ فإنَّ الواحِدَ منهم لا يَتوجَّهُ إلَّا إلى الله وَحْدَه

---

(١) قرأ بها نافع. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٣٢-٢٣٣).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١٤١)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٥٨).

(٢) قرأ الباقون عدا حمزة والكسائي وأبي بكر ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ بالتاء كنافع، و﴿سَبِيلُ﴾ بالضمة كحمزة ومن معه. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٣٢-٢٣٣).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٣-٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٦١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٥٧-٣٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٦٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٦٣).

بالعبادةِ والدُّعاء، وهو لا يَبغي وجْهَ اللهِ إلَّا إذا تجرَّدَ، وهو لا يَبغي وجْهَ اللهِ وحْدَه حتَّى يكونَ قلبُه قدْ أحبَّ، وهو لا يُفرِدُ اللهَ سبحانَه بالدُّعاءِ والعِبادةِ ابتغاءَ وجهِه إلَّا ويكون قدْ تَعلَّم الأدبَ، وصار رَبانيًّا؛ يعيش للهِ وباللهِ[1].

٤- في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى يَفْتِنُ بعضَ النَّاسِ ببعضٍ، فيَضِلُّ أَحَدُهم بسبَبِ الآخَرِ، وهذا واقِعٌ، مثلًا: يُفتَحُ بابُ مُساهمةٍ في الخيرِ، فيَسْبِقُ فلانٌ وفلانٌ، فيقولُ الآخرونَ: شيءٌ تَدَخَّلَ فيه فُلانٌ لا نوافِقُ عليه ولا نُريدُه، ولا يُمْكِنُ أن يَسْبِقَنا إليه[2].

٥- في قوله تعالى: ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ بيانُ أنَّ المسلِمَ إذا أقدمَ على الذَّنْبِ مع العِلْمِ بكونه ذنبًا ثمَّ تابَ منه توبةً حقيقيَّةً؛ فإنَّ اللهَ تعالى يقبلُ توبتَه[3].

٦- قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ يجب أن تتمَّ في نفوسِ أصحابِ الدَّعوةِ هذه الاستبانةُ؛ كي تَنطلِقَ طاقاتُهم كلُّها في سبيلِ اللهِ لا تَصُدُّها شُبهةٌ، ولا يَعوُقُها غَبَشٌ، ولا يُمَيِّعُها لَبْس؛ فإنَّ طاقاتِهم لا تنطلِقُ إلَّا إذا اعتقدوا في يقينٍ أنَّهم هم المسلِمون، وأنَّ الذين يَقِفونَ في طريقِهم ويَصُدُّونهم ويصدُّون النَّاسَ عن سبيلِ اللهِ هم المُجْرمونَ، كذلك فإنَّهم لن يَحتَمِلوا متاعِبَ الطريقِ إلَّا إذا استيقَنُوا أنَّها قضيَّةُ كُفْرٍ وإيمانٍ[4].

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ خصَّ

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٧).

(٤) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١١٠٧).

الذين يخافونَ الحَشْرَ؛ لأنَّ انتفاعَهم بذلك الإنذارِ أكملُ؛ وذلك أنَّ خَوْفَهم يحمِلُهم على إعدادِ الزَّادِ ليومِ المَعَادِ، وهم أجدَرُ مِن غَيْرِهم بفَهْم حقيقةِ الرِّسالَةِ(١).

٢- قوله تعالى: ﴿أَنْ يُحْشَرُوا﴾ فيه إثباتُ الحَشْرِ إلى الله عزَّ وجلَّ، وهذا يكونُ يومَ القيامةِ؛ تُحشَرُ الخلائقُ على ربِّها عزَّ وجلَّ؛ ليقضي بينهم قضاءً دائرًا بين العَدْلِ والفَضْلِ؛ العدْلُ للكُفَّار، والفَضْل للمؤمنينَ(٢).

٣- يُستَفاد من قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ إثباتُ الشَّفاعةِ؛ لأنَّه لولا وجودُها ما صحَّ نَفْيُها(٣).

٤- في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ..﴾ كمالُ عدْلِ الله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه خاطَبَ نبيَّهُ بهذا الخطابِ القويِّ من أجل قومٍ من أصحابِه، والنبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عند اللهِ أعظَمُ جاهًا، وأعلى منزلةً، لكنَّ الله عزَّ وجلَّ حَكَمٌ عدْلٌ يقضي بالحَقِّ سبحانه وتعالى(٤).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أنَّ الرَّجُلَ الصَّالِحَ إن طَرَدَ الصَّالحينَ مِن مَجلِسِه يخافُ أنْ يُوصَلَ إلى درجةِ الظَّالمينَ، ففيه التَّحذيرُ من إيذاءِ الصَّالحينَ(٥).

٦- قال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾، وبيَّنَ في آياتٍ أُخَرَ أنَّ طَرْدَ ضعفاءِ المسلمين الذي طَلَبَه كفَّارُ العربِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ١٥٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٦٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٦٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٦٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٦٨، ٢٦٩).
(٥) ((تفسير آيات من القرآن الكريم)) (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الجزء الخامس) (ص: ٥٧).

مِن نَبِيِّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فنهاه اللهُ عنه؛ طَلَبَه أيضًا قومُ نوحٍ مِن نوحٍ عليه السلامُ فأبى؛ كقوله تعالى عنه: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية [هود: ٢٩]، وقوله: ﴿وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ﴾ الآية [هود: ٣٠]، وقوله: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٤]، وهذا مِن تشابُه قلوبِ الكُفَّارِ المذكورِ في قوله تعالى: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الآية[1] [البقرة: ١١٨].

٧- في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ خصَّ الله الغَداةَ والعَشِيَّ بالذِّكْر؛ لأنَّ الشُّغْل فيهما غالِبٌ على النَّاسِ، ومَن كان في هَذينِ الوَقْتينِ يَغْلِبُ عليه ذِكْرُ اللهِ ودعاؤُه، كان في وقتِ الفَراغِ أغلَبَ عليه[2].

٨- إثباتُ وَجْهِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لقوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾، والوَجْهُ صفةٌ حقيقيَّةٌ لله عزَّ وجلَّ، يجب علينا أن نؤمِنَ بذلك، ولكن على حدِّ قولِه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وأمَّا من فسَّر ذلك بأنَّ المرادَ بالوَجْهِ الثَّوابُ؛ فقد أخطَأَ؛ لأنَّ ذلك مخالِفٌ لظاهِرِ اللَّفْظِ، ومخالِفٌ لإجماعِ السَّلَفِ، ثمَّ إنَّ الله عزَّ وجلَّ قال في القرآنِ الكريم: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦- ٢٧] جعَلَه وصفًا للوَجْهِ، ولا يُمكِنُ أن يُقالَ: إنَّ الثَّوابَ هو الموصوفُ بأنَّه ذو الجلالِ والإكرامِ، وتأمَّلْ هذا مع قولِه تعالى: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨] فـ (ذي) بالجرِّ صفةٌ لـ (رَبِّ)، ولم تكن بالرَّفْعِ صفةً للاسْمِ، مع أنَّ أسماءَ اللهِ عزَّ وجلَّ لها من الجلالة والتَّعظيم ما لها[3].

٩- لم يُكتَفَ بقولِه: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ عنْ ﴿وَمَا مِنْ

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٧٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٢١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٦٦، ٢٦٧).

حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾؛ لأنَّ الجُملتينِ جُعِلَتا بمنزلةِ جملةٍ واحدةٍ، وقُصِدَ بهما مؤدًّى واحِدٌ، وهو المعنيُّ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤]، ولا يُفيدُ هذا المعنى إلَّا الجُملتانِ جميعًا، كأنَّه قيل: لا تؤاخَذُ أنت ولا هم بحسابِ صاحِبِه(١).

١٠- قولُه: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ يدلُّ على نفْيِ الرِّياسةِ الدِّينيَّةِ المعهودةِ في المِلَل الأُخرى، وهي سيطرةُ رُؤساءِ الدِّينِ على أهْلِ دِينِهم في عقائِدِهم وعباداتِهم، ومحاسَبَتُهم عليها، وعقابُ مَن يَرون عِقابَه منهم حتى بالطَّرْد من الدِّينِ، والحِرمانِ من حُقوقِه، ويجبُ في بعضِ تلك المِلَل أنْ يَعترفَ كُلُّ مكَلَّفٍ مِن ذَكَرٍ وأنثى للرَّئيسِ الدِّينيِّ بأعمالِه النفسيَّة والبَدَنيَّة، وللرئيسِ أنْ يغفِرَ له ما يَعترِفُ به من المعاصي، ويعتقدونَ أنَّ مغفرةَ الله تعالى تَتْبَعُ مغفرَتَه، وإذا كان اللهُ تعالى لم يجعَلْ للرَّسولِ الذي أوجَبَ طاعَتَه حقَّ محاسبَةِ النَّاسِ على أعمالِهم الدينيَّة ونِيَّتِهم فيها، ولا حَقَّ طَرْدِهم مِن حَضْرَتِه- دَعْ حَقَّ طَرْدِهم مِنَ الدِّينِ- فكيف يُمْكِن أن يكون لمن دُونَه مِنَ الأُمَراءِ أو القضاةِ أو غَيرِهم من الرُّؤساءِ مثلُ هذا الحَقِّ(٢)؟!

١١- لَمَّا نهى اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن طَرْدِهم مُبَيِّنًا أنَّه ضررٌ لغيرِ فائدةٍ؛ في قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾؛ سَبَّبَ عن هذا النَّهْيِ قولَه: ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: بِوَضْعِك الشَّيءَ في غير مَحَلِّه؛ فإنَّ طَرْدَكَ هؤلاءِ ليس سببًا لإيمانِ أولئك، وليس هدايَتُهم إلَّا إلينا، وقد طلبوا منَّا فيك لَمَّا فَتَنَّاهم بتَخْصيصِك بالرِّسالَةِ ما لم يَخْفَ عليكَ مِن قَوْلِهم: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٨] ونحوِه مِمَّا أرادوا به الصَّرْفَ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٦٤٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٦٩).

عنك، فكما لم نَقْبَلْهم فيكَ فلا تَقْبَلْهم أنتَ في أوليائِنا؛ فإنَّا فتَنَّاهم بكَ حتى سألوا فيك ما سألوا، وتَمَنَّوْا ما تَمَنَّوْا[١].

١٢- أنَّ مَنْعَ الإنسانِ حَقَّه ظُلْمٌ، وإنْ لم يكنْ عدوانًا بِضَرْبٍ أو أَخْذِ مالٍ، لكن إذا منعه حقَّه فإنَّه ظالمٌ؛ لقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ إلى قوله: ﴿فتكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ وهذا حقٌّ؛ ولهذا قال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((مَطْلُ الغَنِيِّ ظُلْمٌ))[٢]، مع أنَّ هذا لم يأخُذْ مِن مالِ الفقيرِ، لكنْ ماطَلَه، يعني: مَنَعَ حَقَّه، فكلُّ من مَنَع صاحِبَ حَقٍّ حقَّه فهو ظالمٌ له، كما لو اعتدى بأخْذِ شيءٍ مِن مالِه[٣].

١٣- استُدِلَّ بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ على مسألةِ خَلْقِ الأفعالِ من وجهينِ: الأول: أنَّ قوله: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ تصريحٌ بأنَّ إلقاءَ تلك الفِتنةِ مِنَ الله تعالى، والمرادُ من تلك الفتنةِ ليس إلَّا اعتراضَهم على الله في أنْ جَعَلَ أولئك الفقراءَ رؤساءَ في الدِّينِ، والاعتراضُ على اللهِ كُفرٌ، وذلك يدلُّ على أنَّه تعالى هو الخالِقُ للكُفْرِ. والثاني: أنَّه تعالى حَكَى عنهم أنَّهم قالوا: ﴿أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ أي: مَنَّ عليهم بالإيمانِ بالله، ومتابعةِ الرَّسولِ، وذلك يدلُّ على أنَّ هذا المعنى إنَّما حَصَلَ من الله تعالى؛ لأنَّه لو كان المُوجِدُ للإيمان هو العبدَ؛ فاللهُ ما مَنَّ عليه بهذا الإيمانِ، بل العبدُ هو الذي مَنَّ على نَفسِه بهذا الإيمانِ[٤].

١٤- جاء لَفْظُ الشُّكْرِ هنا في قوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ في غايةِ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٢٩).
(٢) أخرجه البخاري (٢٤٠٠)، ومسلم (١٥٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٦٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ١٧٢).

من الحُسْنِ؛ إذ تقدَّمَ مِن قولهم: ﴿أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أنعمَ عليهم، فناسَبَ ذِكْرُ الإنعامِ لفظَ الشُّكْرِ[1].

١٥- قد عُلِمَ مِن قَولِه: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ أنَّه أيضًا أعلَمُ بأضدادِهم، وضِدُّ الشُّكْرِ هو الكُفْرُ، كما قال تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧] فهو أعلَمُ بالذين يأتونَ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مُسْتهزئينَ مُتكبِّرينَ، لا هَمَّ لهُم إلَّا تحقيرُ الإسلامِ والمُسلمينَ، وقد استفرَغُوا وُسْعَهم ولُبَّهُم في مجادلةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وتضليلِ الدَّهماءِ في حقيقةِ الدِّينِ؛ ففي الكلامِ تعريضٌ بالمشركينَ[2].

١٦- في قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ دليلٌ على أنَّه لا يَمتنِعُ تسميةُ ذاتِ اللهِ تعالى بالنَّفْسِ، وأيضًا قوله تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة:١١٦] يدلُّ عليه[3].

١٧- قال تعالى: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ في هذه الآيةِ الكريمةِ سؤالٌ: لِمَ خَصَّ سبيلَ المجرمين، ولم يَذْكُرْ سبيلَ المؤمنين؟ وللعلماءِ عَنْهُ جَوَابَانِ: أحدُهما: أنَّ سبيلَ المجرمين إذا عُرِفَتْ، عُرِفَتْ منها سبيلُ المسلمين؛ لأنَّ الأشياءَ تُعْرَفُ بأضدادِها، وإذا عَرَفَ الإنسانُ الشرَّ عرفَ أنَّ مُقَابِلَهُ هو الخيرُ؛ فالضِّدَّانِ إذا كانَا بحيثُ لا يَحصُل بينهما واسطةٌ، متى بانتْ خاصيَّةُ أحدِ القِسمينِ بانتْ خاصيةُ القِسمِ الآخَر، والحقُّ والباطلُ لا واسطةَ بينهما؛ فمتى استبانتْ طريقةُ المجرِمينَ فقد استبانتْ طريقةُ المحقِّين أيضًا لا محالةَ. والثاني: أنَّ في الآيةِ هنا حَذْفَ الواوِ والمعْطوف، أي: لتَستبينَ سبيلُ المجرمين وسبيلُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٢٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٥٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٦).

المؤمنين؛ قالوا: ومنه: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل: آية ٨١]، أي: والبردَ ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ﴾ [الأنعام: آية ١٣]، أي: وما تَحَرَّكَ، وحَذْفُ الواوِ وما عَطَفَتْ إنْ دَلَّ المقامُ عليه مَعروفٌ في كلامِ العربِ(١). وقيل: لا يُحتاج إلى ذلك؛ لأنَّ المقامَ إنَّما يَقتضي ذِكْرَ المجرِمين فقط؛ إذ هُم الذين أثاروا ما تَقدَّم ذِكْرُه(٢).

١٨- قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ إنَّ المنهجَ القرآنيَّ في العقيدةِ لا يُعنَى ببيان الحقِّ وإظهارِه، حتى تَستبينَ سبيلُ المؤمنين الصَّالحين فحسبُ؛ إنَّما يُعنَى كذلِك ببيانِ الباطلِ وكَشْفِه؛ حتَّى تستبينَ سَبيلُ الضالِّينَ المجرمين أيضًا. إنَّ استبانةَ سبيلِ المجرِمينَ ضروريَّةٌ لاستبانةِ سبيلِ المؤمنين، وذلك كالخطِّ الفاصِلِ يُرسَمُ عندَ مَفرِق الطَّريق! إنَّ هذا المنهجَ هو المنهجُ الذي قرَّره اللهُ سبحانه؛ ليتعامَلَ مع النفوسِ البشريَّة؛ ذلك أنَّ اللهَ سبحانه يعلمُ أنَّ إنشاءَ اليقينِ الاعتقاديِّ بالحقِّ والخيرِ يَقتضي رُؤيةَ الجانبِ المضادِّ مِن الباطلِ والشرِّ، والتأكُّد مِن أنَّ هذا باطلٌ ممحَّضٌ وشرٌّ خالِص، وأنَّ ذلك حقٌّ ممحَّضٌ وخيرٌ خالِص، كما أنَّ قوَّةَ الاندفاع بالحقِّ لا تنشأُ فقط من شُعورِ صاحبِ الحقِّ أنَّه على الحقِّ، ولكن كذلك مِن شُعورِه بأنَّ الذي يُحادُّه ويُحارِبُه إنَّما هو على الباطلِ، وأنَّه يَسلُك سَبيلَ المجرِمين(٣).

بلاغةُ الآيات:

١- قوله: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ١٦٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٥٨- ٣٦٠).

(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٦٥٦).

(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١١٠٥).

- قوله: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ فيه تعريضٌ بأنَّ المشركينَ لا ينْجَع فيهم الإنذارُ؛ لأنَّهم لا يُؤمِنونَ بالحَشْرِ؛ فكيف يخافونَه، وخوفُ الحَشرِ يَقتضي الإيمانَ بوقوعِه[1]؟

- في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ تعريضٌ بالمشركينَ الذين اتَّخذوا شُفعاءَ وأولياءَ غيرَ اللهِ[2].

- قولُه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ رجاءٌ مَسُوقٌ مَسَاقَ التَّعليلِ لِلأمرِ بإنذارِ المؤمنينَ؛ لأنَّهم يُرجَى تَقواهم، بخلافِ من لا يؤمنونَ بالبَعْثِ[3].

٢- قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾

- قوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ﴾ اعتراضٌ وسِّط بين النهيِ ﴿وَلَا تَطْرُدِ﴾ وجوابِه ﴿فَتَكُونَ﴾؛ تقريرًا له، ودفعًا لِمَا عسَى يُتوهَّم كونُه مسوِّغًا لطردِهم من أقاويل الطاعنِينَ في دِينهم، كدأبِ قومِ نوحٍ عليه السلامُ؛ حيث قالوا: ﴿مَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ [هود: ٢٧]، أي: ما عليك شيءٌ ما مِنْ حسابِ إيمانِهم، وأعمالِهم الباطنةِ حتى تتصدَّى له، وتَبنيَ على ذلك ما تراه مِن الأحكامِ، وإنَّما وظيفتُك- حسَبَما هو شأنُ مَنصِبِ النبوَّة- اعتبارُ ظواهرِ الأعمالِ، وإجراءُ الأحكامِ على مُوجِبِها، وأمَّا بواطنُ الأمورِ فحِسابُها على العَليمِ بذاتِ الصُّدورِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٤٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣٩).

- وذُكِرَ قولُه تعالى: ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ مع أنَّ الجوابَ قد تمَّ بما قَبْلَه ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾؛ للمبالغةِ في بيانِ انتفاءِ كَوْنِ حسابِهم عليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بنَظْمِه في سِلْك ما لا شُبهةَ فيه أصلًا[1].

- وقوله: ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ فيه حُسْنُ اعتنائِه تعالى بنبيِّه وتشريفِه بخِطابِه؛ حيثُ بدأ به في الجُملتينِ معًا، فقال: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾، ثمَّ قال: ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾؛ فقَدَّمَ خِطابَه في الجملتينِ، وكان مقتضى التَّركيبِ الأوَّلِ لو لُوحِظَ؛ أن يكونَ التَّركيبُ الثَّاني: (وما عليهم من حسابِكَ مِن شيءٍ)، لكنَّه قدَّمَ خِطابَ الرَّسولِ وأَمْرَه؛ تشريفًا له عليهم، واعتناءً بمخاطَبَتِه[2]. وقيل: تقديمُ خِطابِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في الموضِعينِ في قوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ جاءَ على الأصْلِ العامِّ في اللُّغَةِ، وهو تقديمُ الأهَمِّ بحسَبِ سياقِ الكلامِ، والأهَمُّ في الأوَّلِ النَّفيُ، وفي الثاني المنفيُّ، يعني: أنَّ الأهمَّ في كلِّ موضعٍ ما يتعلَّق به صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّه تعليلٌ لانتفاء عمَلٍ له (وهو الطَّرد) مترتِّبٌ على ذلك النفيِ، ولو كان الثاني تعليلًا لعملٍ لهم لقال: (وما عليهم من حِسابِك مِن شيءٍ فيَطردُوك)[3].

- وفيه تعريضٌ بالمشركينَ بأنَّهم أظهروا أنَّهم أرادوا بطَرْدِ ضُعفاءِ المؤمنينَ عن مجلسِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ النُّصْحَ له؛ ليكتَسِبَ إقبالَ المشركينَ عليه، والإطماع بأنَّهم يُؤمِنونَ به، فيَكْثُر مُتَّبِعوه[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٦٩)

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٥١).

- وقوله: ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ (مِن) زائدةٌ لتوكيدِ النَّفيِ؛ للتَّنصيصِ على الشُّمولِ في سياقِ النَّفيِ[1].

- وقد اجتَمَع في هذه الآية خمسةُ مُؤَكِّدات؛ وهي: (مِن) البيانيَّة، و(مِن) الزائدةِ، وتقديمُ المعمولِ، وصيغةُ الحصْرِ في قوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾، والتأكيدُ بالتَّتميمِ بنَفيِ المقابِلِ في قوله: ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾؛ فإنَّه شبيهٌ بالتَّوكيدِ اللَّفظيِّ، وكلُّ ذلِك للتَّنصيصِ على منتهى التَّبرئَةِ من محاوَلَةِ إجابَتِهم لاقتراحِهم[2].

- قوله: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فيه تعريضٌ بالذين سألوا طَرْدَهم لإرضاءِ كبريائِهم؛ بأنَّهم ظالِمونَ معتادون على الظُّلْم، وإعادة فِعل الطَّرْد دون الاقتصارِ على قوله: ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾؛ لإفادةِ تأكيدِ ذلك النَّهيِ[3].

٣- قوله: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ استئنافٌ مُبيِّن لِمَا نشأ عنه ما سَبَقَ من النهيِ[4]؛ لأنَّ السَّامِعَ لَمَّا شعر بقصَّةٍ أومَأَ إليها قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ الآية، يأخُذُه العَجَب من كبرياءِ عُظماءِ أهْلِ الشِّرْكِ، وكيف يَرْضَونَ البقاءَ في ضلالةٍ؛ تكبُّرًا عن غِشْيانِ مَجْلسٍ فيه ضعفاءُ النَّاسِ من الصَّالحين، فأُجيبَ بأنَّ هذا الخَلْقَ العجيبَ فتنةٌ لهم، خَلَقَها اللهُ في نُفوسِهم بسوءِ خُلُقِهم[5].

- والكاف في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾؛ لتأكيدِ ما أفادَه اسمُ الإشارةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٤٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٥٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٥١- ٢٥٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٣٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٥٢).

(ذلك) مِن الفخامة(١)، وتُفيدُ التَّشبيهَ المقصودَ منه التعجُّبُ من المشَبَّهِ، بأنَّه بلغ الغايةَ في العَجَب(٢).

- قوله: ﴿أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا﴾ الاستفهامُ مُستعمَلٌ في التعجُّبِ والإنكارِ، غرضُهم منه إنكارُ أنْ يُخَصَّ هؤلاءِ مِن بينهم بإصابةِ الحَقِّ، والسَّبْقِ إلى الخيرِ؛ فغَرَضُهم بذلك إنكارُ وقوعِ المنِّ رأسًا على طريقةِ قولِهم: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾، لا تحقيرُ الممنونِ عليهم مع الاعترافِ بوُقوعِه بطريقِ الاعتراضِ عليه تعالى، وإنما قالوا: ﴿مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ على سَبيلِ التهكُّمِ ومجاراةِ الخَصْمِ؛ إنكارًا منهم لأنْ يكونَ المؤمنون مِن الفُقراءِ والعَبيدِ على الحقِّ، وممنونًا عليهم مِن بَينهم بالخَيرِ، أي: حيثُ اعتقَدَ المؤمنونَ أنَّ اللهَ مَنَّ عليهم بمعرفةِ الحقِّ، وحَرَمَ صناديدَ قريشٍ؛ فلذلك تعجَّبَ أولئكَ من هذا الاعتقادِ، أي: كيف يُظَنُّ أنَّ اللهَ يَمُنُّ على فَقراءَ وعبيدٍ، ويتركُ سادةَ أهْلِ الوادي(٣)؟!

- والإشارةُ ﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ مستعمَلةٌ في التَّحقيرِ أو التَّعجُّبِ(٤).

- وتقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿أَهَٰؤُلَاءِ﴾ على الخَبَرِ الفِعليِّ ﴿مَنَّ اللَّهُ﴾؛ لقَصْدِ تَقويةِ الخبرِ(٥).

- قوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ تذييلٌ للجملةِ كُلِّها؛ فهو من كلامِ اللهِ تعالى، وليس مِن مقولِ القَوْلِ؛ ولذلك فُصِلَ - أي لم يُعْطَف بالواوِ(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٥٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٥٦).

- والاستفهامُ في قوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾؛ لتقريرِ عِلمِه البالغِ بذلك، أي: أليسَ الله بأعلمَ بالشَّاكرين لِنِعَمِه حتى تَستبعِدوا إنعامَه عليهم، وفيه مِنَ الإشارةِ إلى أنَّ أولئك الضُّعفاءَ عارفون بحقِّ نِعَم الله تعالى في تنزيل القرآنِ والتوفيقِ للإيمان، شاكِرون له تعالى على ذلِك، مع التعريضِ بأنَّ القائلين بمعزلٍ من ذلك[1].

٤- قوله: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

في هذِه الآية مناسبةٌ حسنةٌ؛ إذ سِيقَ هذا المقولُ أحْسَنَ مَساقٍ؛ أمَرَه أوَّلًا أن يقولَ للمؤمنينَ: سلامٌ عليكم، فبدأ أوَّلًا بالسَّلامةِ والأمْنِ لِمَن آمَنَ، ثم خاطَبَهم ثانيًا بوجوبِ الرَّحْمةِ، وأسنَد الكتابةَ إلى ربِّهم، أي: كتَب النَّاظِرُ لكم في مَصالِحِكم، والذي يُرَبِّيكم ويَمْلِكُكم، الرَّحْمةَ؛ فهذا تبشيرٌ بعُمومِ الرَّحْمةِ، ثم أبدلَ منها شيئًا خاصًّا، وهو غُفرانُه ورَحْمَتُه لِمَن تاب وأصلَحَ[2] وهذا على أحدِ الأوجهِ في الآيةِ.

- قوله: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا﴾ عَطْفٌ على قَولِه ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾، وهو ارتقاءٌ في إكرامِ الذينَ يَدعونَ رَبَّهُم بالغَداةِ والعَشِيِّ؛ فهم المرادُ بِقَولِه: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا﴾؛ وُصِفوا هنا بالإيمان بآياتِ الله عزَّ وجلَّ، كما وُصفوا في الآيةِ التي قبلها بالمداومةِ على عِبادتِه تعالى بالإخلاصِ، وتأخيرُ وصفِهم بالإيمانِ مع تقدُّمه على الوصفِ الأوَّلِ؛ لأنَّ مدارَ الوَعدِ بالرَّحْمة والمغفرةِ هو الإيمانُ بها، كما أنَّ مناطَ النهْيِ عن

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٥٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٢٨).

الطردِ فيما سبَق هو المداومةُ على العبادةِ[١].

- قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ في التعرُّضِ لعنوانِ الرُّبوبيَّةِ مع الإضافةِ إلى ضميرِهم ﴿رَبُّكُمْ﴾ إظهارُ اللُّطْفِ بهم والإشعارُ بعلَّة الحُكْمِ[٢].

٥- **قوله:** ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ الجملةُ تذييلٌ للكلامِ الذي مضى مبتَدَأً بقوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِم﴾[٣] [الأنعام: ٥١].

- والمجرِمون في قوله: ﴿سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ هم المشركون، وُضِعَ الظاهرُ موضعَ المضمرِ؛ للتنصيصِ على أنَّهم المرادُ، ولإجراءِ وصْفِ الإجرامِ عليهم. وخصَّ المجرمين؛ لأنَّهم المقصودُ من هذه الآياتِ كلِّها؛ لإيضاحِ خفيِّ أحوالِهم للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمسلمين[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٦٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٦١).

الآيات (٥٦ - ٥٨)

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

غَريبُ الكَلمات:

﴿أَهْوَاءَكُمْ﴾: جمْعُ هوًى، وهو مَيْلُ النَّفسِ إلى الشَّهوةِ، وأصلُه: الخلوُّ والسُّقوطُ؛ ولذلك يقال للآراءِ الزائفةِ: أهواءٌ[١].

﴿بَيِّنَةٍ﴾: أي: بصيرةٍ ودَلالةٍ ويقينٍ وحُجَّةٍ وبُرهانٍ، وأصْلُ (بَيَنَ): الانكشافُ[٢].

﴿الْفَاصِلِينَ﴾: جمْع فاصِلٍ، وهو مَن يُبيِّنُ ويميِّزُ بين المُحقِّ والمبطِلِ، والفصلُ: إبانةُ أحد الشَّيئين من الآخَرِ، حتى يكون بينهما فُرجةٌ، وأصل (فصل): يدلُّ على تمييزِ الشَّيءِ من الشَّيءِ وإبانتِه عنه[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يأمرُ الله نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أن يُخبِرَ المشركينَ أنَّه نُهي عن عِبادةِ جميعِ ما يعبدونَ مِن دونِ الله تعالى، وأن يقولَ لهم: إنَّه لا يتَّبِعُ أهواءَهم الباطلةَ؛

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٤٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص:٢١١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٤٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٧٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٨).

فإنَّه إنِ اتَّبَعَها فقد ضلَّ عن طريقِ الحَقِّ، وما هو من المُهتدينَ إن فعَل ذلك.

وأمَرَه أنْ يُخبِرَهم أنَّه على بيِّنةٍ وبصيرةٍ من ربِّه، بينما هم قد كذَّبوا بالحقِّ الذي جاء مِن عندِ الله، وأنْ يخبِرَهم أيضًا أنَّه ليس بيَدِه ما يَستعجلونَ به مِن العذابِ.

فالحكمُ لله تعالى وحدَه، إنْ شاء عجَّلَ لكم ما سألْتُموه من العذابِ، وإنْ شاء أنْظَرَكم وأجَّلَكم، بِحَسَب ما تقتضيه حِكْمَتُه، وكلُّ ما يتلوه عزَّ وجلَّ في كتابِه هو الحقُّ الواضِحُ، وهو سبحانه خيرُ من يَفْصِلُ في القضايا، فيُبَيِّن المُحِقَّ من المُبْطِل.

وأَمَرَه أنْ يقولَ لهم: إنَّه لو كان بِيَدِه ما يَستعجلونَه من العذابِ، لعاجَلَهم بإيقاعِ ما يستحقُّونَه منه، لكنْ أمْرُ ذلك إلى اللهِ، وهو أعلمُ بالظَّالمين ومتى يُمْهِلُهم، وأعلمُ بالوقت الذي يُوقِع عليهم فيه العذابَ.

تفسيرُ الآيات:

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قبلَها:

لَمَّا كان محطُّ حالِهم في السُّؤالِ طرْدَ الضُّعفاءِ؛ قَصْدَ اتِّباعِ أهوائِهم- أمَرَه تعالى بأنْ يُخْبِرَهم أنَّه مبايِنٌ لهم- لِمَا بيَّنَ له بالبيانِ الواضِحِ من سوءِ عاقبَةِ سَبيلِهم- مُبايَنةً لا يُمكِنُ معها اتِّباعُ أهوائهم، وهي المُبايَنَة في الدِّين[1].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى في الآيةِ المتقدِّمةِ ما يدلُّ على أنَّه يُفَصِّلُ الآياتِ؛ ليَظْهَر الحقُّ، وليَسْتَبينَ سبيلُ المُجْرمينَ؛ ذكَرَ في هذه الآيةِ أنَّه تعالى نهى عن

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٣٢).

سُلُوكِ سَبيلِهم[١]، فقال تعالى:

﴿قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

قل- يا محمَّدُ- لهؤلاءِ المشركينَ الذين يَدْعونَ مع اللهِ آلهةً أخرى: إنَّ رَبِّي نهاني عن عِبادةِ جميعِ المعبوداتِ التي تعبدونَها وتلجؤونَ إليها مِن دُونِه سبحانه[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥-٦٦].

﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهۡوَآءَكُمۡ﴾.

أي: قُلْ لهم- يا محمَّدُ-: لا أتَّبع أهواءَكم الباطلةَ في عبادةِ غيرِ الله تعالى، والإشراكِ به، ولا أوافِقُكم على ذلك[٣].

﴿قَدۡ ضَلَلۡتُ إِذٗا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾.

أي: فإنِ اتَّبعتُ أهواءَكم فقد خرجتُ عن طريقِ الهدى، وصِرْتُ مِثْلَكم على غيرِ استقامةٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٨) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٦١-٢٦٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٦١-٣٦٣).

قال ابن عاشور: (ومعنى ﴿تَدْعُونَ﴾ تعبدون وتلجؤون إليهم في المهمَّات، أي: تدْعونهم، و﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾ حالٌ من المفعول المحذوف، فعامِلُه ﴿تَدْعُونَ﴾، وهو حكايةٌ لِمَا غلَب على المشركين من الاشتغال بعِبادة الأصنام ودُعائهم، عن عِبادة الله ودُعائه، حتى كأنَّهم عبدوهم دون الله، وإنْ كانوا إنَّما أشركوهم بالعبادة مع اللهِ، ولو في بعض الأوقات). ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٧٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٦٣-٣٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٦٤).

﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا نفَى أنْ يكون الهوى مُتَّبعًا؛ نبَّه على ما يَجِبُ اتِّباعُه[1].

وأيضًا لَمَّا انتهى تعالى من إبطالِ الشِّرْك بدليلِ الوحيِ الإلهيِّ، المؤيِّدِ للأدلَّة السَّابقةِ في قوله: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ..﴾- انتقلَ إلى إثباتِ صِدْقِ الرِّسالةِ بدليلٍ من الله، مُؤيِّدٍ للأدلَّةِ السَّابقةِ أيضًا؛ لِيَيْئَسوا من محاولةِ إرجاعِ الرَّسولِ- عليه الصَّلاةُ والسَّلام- عن دَعوتِه إلى الإسلامِ، وتَشكيكِه في وَحْيِه بقولِهم: ساحِرٌ، مجنونٌ، شاعرٌ، أساطيرُ الأوَّلينَ، ولِيَيْئَسوا أيضًا من إدخالِ الشَّكِّ عليه في صِدْقِ إيمانِ أصحابِه، وإلقاءِ الوَحشَةِ بينه وبينهم، بما حاولوا مِن طَرْدِه أصحابَه عن مجلِسِه حين حضورِ خُصُومِه، فأمَرَه الله أن يقولَ لهم إنَّه على يقينٍ مِن أمْرِ ربِّه، لا يتزعزعُ[2]؛ قال تعالى:

﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾.

أي: قلْ- يا محمَّدُ- لهؤلاء: إنِّي على بصيرةٍ، وحُجَّةٍ قاطعةٍ، قد أبانت بيقينٍ صِحَّةَ توحيدِ ربِّي مِن غيرِ إشراكِ شيءٍ به، وأوضَحَتْ صِحَّةَ شريعَتِه التي أوحاها إليَّ[3].

﴿وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾.

أي: ولكنَّكم- أيُّها المُشركونَ- كذَّبْتُم بالحَقِّ الذي جاءَني مِن عند الله تعالى،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٨، ٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٦٤، ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٧٨-٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٦٥).

وهو لا يَستحِقُّ هذا منكم، ولا يليقُ به إلَّا الإيمانُ[1].

﴿مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾.

مناسَبَتُها لما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر بيِّنَتَه وتكذيبَهم به، قفَّى بِرَدِّ شُبهةٍ تخطُر عند ذلك بالبالِ، ومن شأنِها أنْ يقعَ عنها منهم السُّؤالُ، وهي أنَّ اللهَ أنذَرَهم عذابًا يَحُلُّ بهم إذا أصرُّوا على عنادِهم وكُفْرِهم، ووَعَدَ بأنْ يَنصُرَ رسولَه عليهم، وقد استعجلوا النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ذلك، فكان عَدَمُ وقوعِه شبهةً لهم على صِدْق القرآنِ؛ لجَهْلِهم بسُنَنِ الله تعالى في شُؤونِ الإنسانِ، فأمَرَ اللهُ تعالى رسولَه أن يقولَ لهم[2]:

﴿مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾.

أي: ليس الذي تَتعجَّلونَه مِن عذابِ الله تعالى بيَدِي، ولا أنا على ذلك بقادرٍ[3].

كما حَكَى اللهُ تعالى عنهم أنَّهم قالوا: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص:١٦].

وقال عنهم: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾.

أي: إنَّما يرجِعُ أمْرُ ذلك إلى الله تعالى، فإنْ شاء عجَّلَ لكم ما سألْتُموه من

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٦٦).
وقيل: المرادُ: وكذبتُم بالله، وهذا اختيارُ ابنِ جريرٍ في ((تفسيره)) (٩/ ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٦٦).

العذابِ، وإنْ شاء أنْظَرَكم وأجَّلَكم، بِحَسَبِ ما تقتضيه حِكْمَتُه، فالحكمُ الكونيُّ، والحُكم الشرعيُّ لله تعالى وحْدَه(١).

﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التفسيرِ:

في قوله تعالى: ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ﴾ قِراءتان:

١- ﴿يَقُصُّ﴾ من القَصَصِ، فالمعنى: أنَّ جميعَ ما أنبَأَ به اللهُ تعالى أو أمَرَ به؛ فهو مِنَ أقاصيصِ الحَقِّ(٢).

٢- ﴿يَقْضِ﴾(٣) مِنْ: قضَى يقضي: إذا حَكَم وفَصَل؛ فالمعنى: أنَّ اللهَ تعالى يقضي القَضاءَ الحقَّ(٤).

﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾.

أي: يتْلو علينا في كتابِه الحقَّ الواضِحَ، الذي لا لبْسَ فيه، والذي تنقَطِعُ به حُجَجُهم(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسيره ابن جرير)) (٩/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٦٩).

(٢) قرأ بها المدنيَّان وابنُ كثيرٍ وعاصمٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٣٣).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٧٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٥٤).

(٣) وحُذِفَتِ الياءُ خَطًّا تَبعًا لِلَّفظِ؛ لالتقاءِ السَّاكنين؛ كما في ﴿تُغْنِ النُّذُرُ﴾ [القمر: ٥]، وكحذف الواو في ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨] ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ [الشورى: ٢٤]، ونُصِبَ ﴿الحَقَّ﴾ بعدَه على أنَّه صِفَةٌ لمصدرٍ محذوفٍ؛ أي: يَقضِي القَضَاءَ الحَقَّ، أو على إسقاطِ الباءِ؛ أي: يَقضِي بالحَقِّ؛ ووَقَفَ عليه يعقوبُ بالياءِ. يُنظر: ((إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر)) للبناء (ص:٢٦٤).

(٤) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٣٣).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٥٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٥٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٦٨).

وعلى قِراءةِ (يَقْضِ الحَقَّ) يكونُ المعنى: يَقضِي القَضاءَ الحقَّ، الذي لا جَوْرَ فيه ولا حَيْفَ، بيني وبينكم(١).

﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴾.

أي: وهو خَيْرُ مَن فَصَلَ القضايا، فبَيَّن وميَّز بين المحِقِّ والمبْطِل، وحَكَم بين عِبادِه؛ فأنْصَفَ بينهم، وأحقَّ الحَقَّ سبحانه وتعالى(٢).

﴿ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٨ ﴾.

﴿ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾.

أي: قلْ- يا محمَّدُ- لهؤلاء المُستعجلينَ بالعذابِ؛ جهلًا منهم وعنادًا وظلمًا: لو أنَّ بِيَدِي ما تتعجَّلونَه من العذاب لعاجَلْتُكم بإيقاعِ ما تستحقُّونه منه(٣).

﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

أي: ولكنَّ ذلك الأمرَ بيَدِ الله، الذي هو أعلمُ بوقْتِ إرسالِه على الظَّالمينَ الذين يَضَعونَ عبادتَهم- التي لا تَنبغي أنْ تكونَ إلَّا للهِ- في غَيرِ مَوضِعها، فيَعبدونَ مَن دُونَه، وهو أعلمُ بوقْتِ الانتقامِ منهم، ولا يَخفَى عليه شيءٌ مِن أحوالِهم، فيُمْهِلُهم ولا يُهْمِلُهم عزَّ وجلَّ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٧٩-٢٨٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسيره ابن جرير)) (٩/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسيره ابن جرير)) (٩/ ٢٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسيره ابن جرير)) (٩/ ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٩).

الفَوائِد التربويَّة:

قولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾، في قوله: (أهواءكم) تنبيهٌ على السببِ الذي حصَل منه الضَّلالُ، وتنبيهٌ لمن أرادَ اتِّباعَ الحقِّ، ومجانبةَ الباطلِ[1].

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- بُنِي الفعلُ ﴿نُهِيتُ﴾ لِمَا لم يُسَمَّ فاعِلُه؛ للاستغناءِ عن ذِكْرِ الفاعِلِ؛ لظُهُورِ المرادِ، أي: نهاني اللهُ[2].

٢- قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾ فيه تأكيدٌ لقَطْعِ أَطماعِهم، وإشارةٌ إلى الموجِبِ للنَّهيِ، وعلَّةِ الامتناعِ عن متابعَتِهم، وبيانٌ لمبدأ ضلالِهم، والسَّبَبِ الذي منه وقَعُوا في الضَّلالِ وأنَّ ما هم عليه هوًى، وليس بهُدًى، وتنبيهٌ لِمَن تحرَّى الحقَّ على أنْ يتَّبِعَ الحُجَّة، ولا يُقلِّد؛ لذا قال: ﴿لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾ دون (لا أَتَّبِعُكم)؛ للإشارةِ إلى أنَّهم في دِينِهم تابعونَ للهَوى، نابذونَ لدليلِ العَقلِ، وفي هذا تجهيلٌ لهم في إقامةِ دِينِهم على غيرِ أصلٍ مَتينٍ[3].

٣- قوله: ﴿ما عِنْدِي ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفاصِلِينَ﴾ فيه تجريدُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ نفسَه مِن أنْ تكونَ له قدرةٌ أو تَدَخُّلٌ في شأنِ القَضَاءِ الذي يُنْزِلُه اللهُ بعباده؛ فهذا من شأنِ الألوهيَّةِ وحْدَها وخصائِصِها، وهو بَشَرٌ يُوحَى إليه؛ ليُبَلِّغ ويُنذِرَ، لا لِيُنْزِلَ قضاءً ويَفْصِلَ، وكما أنَّ اللهَ سبحانه هو الذي يَقُصُّ الحقَّ ويُخْبِرُ به، فهو كذلك الذي يقضي في الأَمْرِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٦٢).

ويفصِلُ فيه، وليس بعد هذا تنزيهٌ وتجريدٌ لذاتِ الله سبحانه وخَصائِصِه، عن ذواتِ العبيدِ، ثم يُؤمَرُ أن يَلْمَس قلوبَهم وعقولَهم ويَلْفِتَها إلى دلالةٍ قويَّةٍ على أنَّ هذا الأمرَ مِن عند الله، ومتروكٌ لمشيئة الله، فلو أنَّ أمْرَ الخوارقِ بما فيها إنزالُ العذابِ في مقدوره، وهو بَشَرٌ، ما استطاعَ أن يُمْسِكَ نفسَه عن الاستجابةِ لهم، وهم يُلْحِفُون هذا الإلحافَ، ولكنْ لأنَّ الأمْرَ بِيَدِ الله وحده، فهو يَحْلُم عليهم، فلا يَجِيئُهم بخارقةٍ يَتْبَعُها العذابُ المدَمِّر إن هم كذَّبوا بها؛ كما فَعَلَ بمن قَبْلَهم(١).

٤- قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ للطَّاقةِ البَشريَّةِ حدودٌ في الصَّبْرِ والحِلْم والإمهالِ، وما يحلُم على البَشَر، ويُمْهِلُهم على عصيانِهم وتمرُّدِهم وتبجُّحِهم، إلَّا اللهُ الحليمُ القويُّ العظيمُ؛ فإنَّ الإنسانَ لَيَرَى مِن بعض الخَلْقِ ما يضيقُ به الصَّدْرُ، وتبلغُ منه الرُّوحُ الحُلقومَ، ثم يَنظُرُ فيجِدُ اللهَ سبحانه يَسَعُهم في مُلْكه، ويُطْعِمُهم، ويَسْقِيهم، ويُغْدِقُ أحيانًا عليهم، ويفتَحُ عليهم أبوابَ كُلِّ شَيءٍ(٢).

٥- إنْ قيلَ: فما الجَمْعُ بين قوله في هذه الآيةِ: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾، وبين ما ثبَتَ في الصَّحيحَينِ مِن قَوْلِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لِمَلَكِ الجبالِ حين استأمَرَه ليُطْبِقَ على من آذاه الأَخْشَبينِ، فقال له: ((بَلْ أَرجُو أن يُخْرِجَ اللهُ من أصلابِهم من يَعْبُدُ اللهَ، لا يُشْرِكُ به شيئًا))(٣)، فقد عَرَضَ عليه عذابَهم واستئصالَهم، فاستَأْنَى بهم، وسألَ لهم التأخيرَ؛ لعلَّ اللهَ أن يُخرِجَ مِن أصلابِهم مَن لا يُشْرِكُ به شيئًا؟

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١١١١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.

فالجوابُ- واللهُ أعلمُ-: أنَّ هذه الآيَةَ دلَّتْ على أنَّه لو كان إليه وقوعُ العذابِ الذي يطلبونَه حالَ طَلَبِهم له؛ لأَوْقَعَه بهم، وأمَّا الحديثُ، فليس فيه أنَّهم سألوه وقوعَ العذابِ بهم، بل عَرَضَ عليه مَلَكُ الجبالِ أنَّه إن شاء أطْبَقَ عليهِمُ الأَخْشَبَينِ- وهما جَبَلا مكَّةَ اللَّذانِ يكتنفانِها جنوبًا وشمالًا- فلهذا استأنى بهم وسأَلَ الرِّفْقَ لهم(١).

٦- قوله: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ فيه دلالةٌ على أنَّ العَبدَ لا يَقدِرُ على أمرٍ من الأمور إلَّا إذا قضاه اللهُ، فيَمتنِعُ منه فِعلُ الكُفرِ إلَّا إذا قضَى اللهُ وحَكَم به، وكذلك في جميعِ الأفعالِ؛ لأنَّ قولَه: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ يُفيد القَصْرَ؛ ففيه ردٌّ على المعتزلةِ الذين يقولون: لا يشاءُ الله تعالى الكُفرَ مِن الكافِرِ، ولا المعصيةَ مِن العاصِي(٢).

٧- في قوله: ﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أُسْنِدَ الفعلُ إلى المفعولِ؛ إشارةً إلى أنَّه لو كان عندَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ما يَستعجلونَ به وقُضِيَ؛ لَمَا قُضِيَ إلَّا بمشيئةِ اللهِ تعالى وقُدْرتِه(٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ عاد به الكلامُ إلى إبطالِ الشِّرْك بالتبرِّي من عبادةِ أصنامِهم، بطريقةٍ أخرى لإبطالِ عِبادةِ الأصنامِ- بعدَ أنْ أبطلَ إلهيةَ الأصنامِ بطريقِ الاستدلالِ- وهي أنَّ اللهَ نهى رسولَه عليه الصَّلاة والسَّلام عن عِبادتِها، وعن اتِّباعِ أهواءِ عَبَدتِها(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٩)، ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ١٨٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٨٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٦١).

- وأُجْرِيَ على الأصنامِ في قولِه: ﴿الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ اسمُ الموصولِ الموضوعِ للعُقَلاءِ؛ لأنَّهم عامَلوهم معاملةَ العُقَلاءِ، فأتى لهم بما يَحكي اعتقادَهم، أو لأنَّهم عَبَدوا الجِنَّ وبعضَ البَشَر، فغُلِّبَ العُقَلاءُ من معبوداتِهم[١].

- قوله: ﴿قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾ استئنافٌ آخرُ ابتدائيٌّ، وأُعيدَ الأمرُ بالقولِ ﴿قُلْ﴾ زيادةً في الاهتمامِ بالاستئنافِ واستقلالِه؛ ليكونَ هذا النفيُ شاملًا للاتِّباعِ في عبادةِ الأصنامِ، وفي غيرِها من ضلالَتِهم[٢]. أو كرَّر الأمرَ بقوله: ﴿قُلْ﴾ مع قُرْبِ العهدِ؛ اعتناءً بشأنِ المأمورِ به، أو إيذانًا باختلافِ المَقولينِ؛ من حيثُ إنَّ الأوَّلَ مِن قَوْلِه: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ حكايةٌ لِمَا مِن جِهَتِه تعالى من النَّهيِ، والثاني من قوله: ﴿قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾ حكايةٌ لِمَا مِن جِهَتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ من الانتهاءِ عمَّا ذُكِرَ من عبادة ما يعبدونَه[٣].

- قوله: ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ استئنافٌ مؤكِّدٌ لانتهائه عمَّا نُهِيَ عنه، مُقَرِّرٌ لكونِهم في غايةِ الضَّلالِ والغَوايةِ، أي: إنِ اتَّبعتُ أهواءَكم فقدْ ضلَلْتُ[٤].

- وفيه تعريضٌ بأنَّهم ليسوا مِن المُهتدين[٥].

- وقوله: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ مُؤَكِّد لِقَولِه: ﴿قَدْ ضَلَلْتُ﴾، والتعبيرُ بالجُملة الاسميَّة في قوله: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾؛ للدَّلالة على الثُّبوتِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٦١). وينظر أيضًا: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١١١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٦٤).

والدَّوامِ والاستمرارِ، أي: دوامِ النَّفْيِ واستمرارِه، لا نفْيِ الدَّوامِ والاستمرارِ، وجاءتْ جملةُ ﴿قَدْ ضَلَلْتُ﴾ فِعْلِيَّةً؛ لتدُلَّ على التجدُّدِ؛ فحَصلَ نَفْيُ تجدُّدِ الضَّلالِ وثُبوتُه[١].

- وقدْ أُتي بالخَبرِ بالجارِّ والمجرور، فقيل: ﴿مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾، ولم يقُلْ: (وما أنا مهتدٍ)؛ لأنَّ المقصودَ نفيُ الجملةِ التي خبرُها ﴿مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾؛ فإنَّ التَّعريفَ في ﴿الْمُهْتَدِينَ﴾ تعريفُ الجِنسِ، فإخبارُ المتكلِّمِ عن نفْسِه بأنَّه مِن المهتدين يُفيد أنَّه واحدٌ من الفِئة التي تُعرَف عندَ الناسِ بفِئة المهتدين؛ فيُفيد أنَّه مهتدٍ إفادةً بطريقةٍ تُشبه طريقةَ الاستدلالِ؛ فهو مِن قَبيلِ الكنايةِ التي هي إثباتُ الشَّيءِ بإثباتِ مَلزومِه، وهي أبلغُ مِن التَّصريحِ[٢].

٢- قوله: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ مَسوقٌ مَساقَ التَّعريضِ بالمُشْركينَ في أنَّهم على اضطرابٍ مِن أمْرِ آلهَتِهم، وعلى غيرِ بصيرةٍ[٣].

- وتنكيرُ لفظةِ ﴿بَيِّنَةٍ﴾ للتفخيم[٤].

- قوله: ﴿وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ الباءُ التي عُدِّيَ بها فِعلُ كَذَّبْتُمْ هي لتأكيدِ لُصوقِ معنى الفعلِ بمفعولِه؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ﴾ [المائدة: ٦]؛ فلذلك يدُلُّ فعْلُ التكذيبِ إذا عُدِّيَ بالباءِ على معنى الإنكارِ، أي: التكذيبِ القَوِيِّ[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٦٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٦٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٦٣، ٢٦٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٦٦).

=

- قوله: ﴿ما عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ حالَهم في الإصرارِ على التَّكذيبِ، مِمَّا يزيدُهم عِنادًا عندَ سَماعِ تَسْفيهِ أحلامِهم، وتنقُّصِ عقائِدِهم[١].

- قوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ مُقَرِّرٌ لمضمونِ ما قبله، مشيرٌ إلى أنَّ قَصَّ الحقِّ هاهنا بطريقٍ خاصٍّ هو الفصلُ بين الحَقِّ والباطِلِ، هذا هو الذي تستدعيه جزالةُ التَّنزيلِ[٢].

٣- قوله: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ قولَه: ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ يُثيرُ سؤالًا في نفس السامِعِ؛ أن يقول: فلو كان بِيَدِك إنزالُ العذابِ بهم، ماذا تصنعُ؟ فأجيب بقوله: ﴿لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ...﴾[٣].

- قوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ تذييلٌ، أي: اللهُ أعلمُ منِّي ومِن كلِّ أحدٍ بحكمةِ تأخيرِ العذابِ، وبوقْتِ نزولِهِ؛ لأنَّه العليمُ الخبيرُ، الذي عنده ما تستعجلونَ به[٤]، وهو في معنى الاستدراكِ؛ كأنه قال: ولكنَّ الأمْرَ إلى الله سبحانه وتعالى، وهو أعلمُ بمن ينبغي أن يُؤخَذَ وبِمَن ينبغي أن يُمْهَلَ منهم[٥].

- والتعبيرُ بالظَّالمينَ في قوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ إظهارٌ في مقامِ

= وقال ابن عاشور: (ولعلَّ الاستعمالَ أنَّهم لا يُعَدُّونَ فِعلَ التكذيبِ بالباءِ إلَّا إذا أُريدَ تكذيبُ حجَّةٍ أو برهانٍ مِمَّا يُحْسَبُ سببَ تصديقٍ؛ فلا يُقالُ: كذَّبْتُ بفلانٍ، بل يقال: كذَّبتُ فلانًا، قال تعالى: ﴿لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ﴾ [الفرقان: ٣٧]، وقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ [القمر: ٢٣]).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٦٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٧٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٦٥).

ضميرِ الخطاب، والمعنى: (واللهُ أعلمُ بكم)؛ فوُضِعَ الظَّاهِرُ المُشعِرُ بوصْفِهم بالظُّلم موضعَ المضمَر؛ لإشعارِهم بأنَّهم ظالمونَ في شِرْكِهم؛ إذِ اعتَدَوْا على حقِّ الله، وظالمونَ في تكذيبِهم؛ إذ اعتَدَوْا على حقِّ اللهِ ورسولِه، وظالمونَ في معامَلَتِهم الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ(١).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٧٠).

الآيات (٥٩ - ٦٢)

﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ
مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ
(٥٩) وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ
أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٦٠) وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ
عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ
(٦١) ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ (٦٢) ﴾.

غريبُ الكَلماتِ:

﴿جَرَحْتُم﴾: أي: كَسَبْتُم، والاجتراحُ: اكتسابُ الإثْمِ، وأصلُ (جَرَحَ): الكسْبُ، وشقُّ الجِلْد[١].

﴿تَوَفَّتْهُ﴾: أي: بالموتِ؛ يقال: توفَّيْتُ الشَّيءَ واستوفيتُه، إذا أخَذْتَه كُلَّه حتَّى لم تترُكْ منه شيئًا، ومنه يُقال للميِّت: تَوفَّاه اللهُ، وأصلُ (وفى) يدلُّ على إكمالٍ وإتمامٍ، ومنه الوفاءُ: تمامُ الشَّيء، وإتمامُ العَهدِ، والقيامُ بمقتضاه، وإكمالُ الشَّرطِ[٢].

﴿لَا يُفَرِّطُونَ﴾: أي: لا يُضَيِّعون ما أُمِروا به، ولا يُقَصِّرونَ فيه، وأصل (فرط): يدلُّ على إزالةِ شيءٍ من مكانِه، وتنحيته عنه[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٩١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٧).

مشكل الإعراب:

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾

﴿وَرَقَةٍ﴾: فاعل ﴿تَسْقُطُ﴾ وهو مجرورٌ لفظًا، مرفوعٌ محلًّا بضمَّة مُقدَّرة؛ لاشتغالِ مَحلِّها بحركةِ حرْفِ الجرِّ الزَّائد، و﴿مِنْ﴾ زائدةٌ للتأكيدِ، أفادتِ العمومَ، وقوله: ﴿إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ حالٌ من ﴿وَرَقَةٍ﴾، وجاءتِ الحالُ مِن النَّكرةِ؛ لاعتمادِها على النَّفيِ، والتقدير: ما تَسقطُ مِن ورقةٍ إلَّا عالِمًا هو بها. ويجوزُ أنْ تكونَ الجملةُ نعتًا لورقةٍ.

﴿وَلَا حَبَّةٍ﴾ ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾: كلُّها مجرورةٌ، عَطفًا على لفْظِ ﴿وَرَقَةٍ﴾.

﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾: استثناءٌ جارٍ مجرَى التوكيدِ، وهو بدلٌ مِن الاستثناءِ الأوَّلِ ﴿إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ بدلَ الكلِّ - على أنَّ الكتابَ الْمُبينَ عِبارةٌ عن عِلمِه تعالى - أو بدلَ الاشتمالِ على أنَّه عبارةٌ عن اللَّوحِ المحفوظِ. وقد قُرِئ الأخيرانِ ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ بالرَّفعِ، عطفًا عَلى محلِّ ﴿وَرَقَةٍ﴾. وقيل: رفْعُهما بالابتداءِ، والخبرُ حينئذٍ قولُه: ﴿إِلَّا فِي كتاب مُّبِينٍ﴾[1].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبرُ تعالى أنَّ عنده خزائنَ الغيبِ لا يعلَمُها إلَّا هو سبحانه، ويعلمُ ما في البَرِّ والبحر، وما مِن ورقةِ شَجَرٍ تسقطُ إلَّا وهو يعلَمُها، ولا حَبَّةٍ في ظُلُماتِ الأرضِ، ولا شيءٍ رَطْبٍ ولا يابسٍ إلَّا وهو مكتوبٌ في اللَّوحِ المحفوظِ.

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٥٥)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٠٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٦٦١)، ((إعراب القرآن)) للدعاس (١/ ٣٠٩).

وهو تعالى الذي يَقْبِضُ أرواحَ الخلْقِ باللَّيلِ عند النَّومِ، ويَعلمُ ما كَسَبوا من أعمالٍ بالنهارِ، ثم يُوقِظُهم مِن منامِهم؛ ليَقْضِيَ اللهُ الأجَلَ الذي حدَّدَه لحياتِهم، ثُمَّ إليه وَحْدَه عزَّ وجلَّ مرجِعُهم يومَ القيامةِ، ثم يُخبِرُهم بما كانوا يَعملونَه في حياتِهم.

وهو عزَّ وجلَّ القاهرُ فوقَ عبادِه، الذي خضَعَ له كلُّ شيءٍ، وهو الذي يُرسِلُ على العبادِ حفَظَةً من الملائكةِ؛ حتى إذا جاء أحدًا من العبادِ الموتُ، تَوَفَّتْه رسلُ اللهِ من الملائكةِ، وهم لا يُفَرِّطونَ.

ثمَّ بعدَ الموتِ يُرَدُّون إلى اللهِ مولاهُمُ الحَقِّ، هو وحْدَه مَن له الحُكْم، فيتولَّى الحُكْمَ بينهم بالعَدْلِ، وهو أسرَعُ الحاسبينَ.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا قال تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ وقال: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ بعد قَولِه: ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾، انتقَل من خاصٍّ إلى عامٍّ، وهو عِلْمُ اللهِ بجَميعِ الأمورِ الغيبيَّةِ؛ فقال: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾؛ فاندرَجَ في هذا العامِّ ما استعجلوا وقوعَه وغَيْرُه(١).

وأيضًا لَمَّا أَمَرَ الله تعالى رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يُبَيِّنَ للمشركينَ أنَّه على بَيِّنةٍ من رَبِّه فيما بلَّغَهم إيَّاه من رسالَتِه، وأنَّ ما يَستعجلونَ به من عذابِ اللهِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٣٤).

ونَصْرِه عليهم- تعجيزًا أو تهكُّمًا أو عنادًا- ليس عنده، وإنَّما هو عند الله، الذي قَضَتْ سُنَّتُه أن يكون لكُلِّ شيءٍ أجَلٌ وموعِدٌ، لا يَتقدَّمُ ولا يتأخَّرُ عنه، وأنَّه تعالى هو الذي يَقضي الحَقَّ، ويقُصُّه على رسولِه، وبِيَدِه تنفيذُ وَعْدِه ووعيدِه- فقَفَّى على ذلك ببيانِ كونِ مفاتحِ الغيبِ عنده، وكونِ التصرُّفِ في الخَلْق بيَدِه، وكونِه هو القاهِرَ فوقَ عِبادِه، لا يُشارِكُه أحدٌ مِن رُسُلِه ولا غيرُهم في ذلك حتى يصِحَّ أن يُطالِبُوا به[1]، فقال عزَّ وجلَّ:

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: وعندَه خزائنُ الغيبِ، فيعلَمُ جميعَ ما غاب عن خَلْقِه، فلم يَطَّلِعوا عليه، وأعلَمُ المخلوقاتِ- وهم الرُّسُلُ والملائكةُ- لا يَعلمونَ من الغيبِ إلَّا ما عَلَّمَهم اللهُ تعالى، وهو تعالى يُعَلِّم رسُلَه مِن غَيْبِه ما شاء[2].

كما قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وقوله: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤].

وعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((مفاتيحُ الغيبِ خَمسٌ، لا يَعلمُها إلَّا اللهُ: لا يَعلمُ ما في غَدٍ إلَّا اللهُ، ولا يَعلمُ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسيره ابن جرير)) (٩/ ٢٨٢-٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٨١-٤٨٢).

ما تَغيضُ الأرحامُ إلَّا اللهُ، ولا يَعلمُ متى يأتي المطرُ أحدٌ إلَّا اللهُ، ولا تَدري نفسٌ بأيِّ أرضٍ تموتُ، ولا يعلمُ متى تقومُ السَّاعةُ إلَّا اللهُ))[١].

وعن عائشةَ رضِي اللهُ عنها، أنَّها قالت: ((... ومَن زعمَ أنَّه- أي النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم- يُخبرُ بما يَكونُ في غدٍ، فقد أعظمَ علَى اللهِ الفِرْيَةَ، واللهُ يقولُ: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]))[٢].

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾.

أي: ويَعلمُ أيضًا مع ذلك جميعَ ما يعلَمُه النَّاسُ، فعِلمُه مُحيطٌ بجميعِ الموجوداتِ، بَرِّيِّها وبَحْرِيِّها؛ لا يَخفى عليه من ذلك شيءٌ، فيَعلمُ ما في البَراري والقِفار؛ من الحيواناتِ والأشجارِ، والرِّمالِ والحَصَى والتُّراب، وغيرِ ذلك، وما في البحارِ؛ مِن حيواناتِها ومعادِنِها وصَيْدِها، وغير ذلك[٣].

﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾.

أي: وما مِن ورقةِ شَجَرٍ تقَعُ في أيِّ مكانٍ من الأرض إلَّا واللهُ عزَّ وجلَّ يَعْلَمُها، فهو سبحانَه يعلمُ الحركاتِ حتى مِن الجماداتِ[٤].

﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

أي: وَلا حَبَّةٍ من حبوبِ الثِّمارِ والزُّروعِ، وحبوبِ البُذورِ التي يَبْذُرها الخَلْقُ؛ وبُذورِ النَّوابِتِ البَرِّيَّة التي يُنشِئُ منها أصنافَ النَّباتاتِ، مظروفةٍ في ظُلُماتِ

(١) رواه البخاري (٤٦٩٧).

(٢) رواه مسلم (١٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسيره ابن جرير)) (٩/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسيره ابن جرير)) (٩/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٧٢).

الأَرْضِ؛ لا تحولُ بينها وبين رؤيةِ الله تعالى لها وعِلْمِه بها، وكذا كلُّ شيءٍ آخَرَ من رطْبٍ أو يابسٍ؛ قد أُثْبِتَ في اللَّوحِ المحفوظِ، مكتوبًا فيه عدَدُه ومَبْلَغُه، والوَقْتُ الذي يوجَدُ فيه، والذي يَفنى فيه، وغير ذلك، واللَّوحُ المحفوظُ يُبِينُ عن صِحَّة ما أُثبتَ فيه بوجودِ الشَّيءِ في الواقع، كما أُثبتَ من قبلُ[1].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا ذكر تعالى استئثارَه بالعِلْم التامِّ للكليَّاتِ والجزئيَّاتِ؛ ذكَرَ استئثارَه بالقُدرةِ التامَّةِ؛ تنبيهًا على ما تختصُّ به الإلهيَّةُ، وذَكَرَ شيئًا محسوسًا قاهرًا للأنام، وهو التوفِّي باللَّيلِ، والبَعْثُ بالنَّهارِ وكِلاهما ليس للإنسان فيه قُدرةٌ، بل هو أمرٌ يُوقِعُه اللهُ تعالى بالإنسانِ[2]، فقال تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ﴾.

أي: واللهُ هو الذي يتوفَّى أرواحَكم باللَّيلِ وفاةَ النَّومِ، فيَقبِضُها من أجسادِكم[3].

كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢].

﴿وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسيره ابن جرير)) (٩/ ٢٨٣-٢٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٧٣)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ١٨٩-١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٩).

أي: ويعلمُ ما كَسَبْتُم من الأعمالِ بالنَّهارِ[1].

﴿ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾.

أي: ثم يُوقِظُكم مِنْ منامِكم في النَّهارِ؛ ليقضِيَ اللهُ الأجَلَ الذي حدَّده لحياتِكم، فيَبْلُغَ مدَّتَه ونهايتَه[2].

﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

مناسبتها لما قبلها:

لَمَّا ذَكَر تعالى أنَّه يُنيمُهم أولًا، ثمَّ يُوقظُهم ثانيًا؛ كان ذلك جاريًا مجْرَى الإحياءِ بعدَ الإماتةِ؛ لا جَرَمَ استدلَّ بذلِك على صِحَّةِ البعثِ والقِيامة، فقال[3]:

﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾.

أي: ثمَّ إلى الله وَحْدَه معادُكم ومصيرُكم يومَ القيامةِ[4].

﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

أي: ثم يُخبِرُكم بما كنتُم تَعملونَه في حياتِكم الدُّنيا، ويُجازيكم بذلك، إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشَرٌّ[5].

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٨٦-٢٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ١٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٦).

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا ذكَر الله تعالى في الآيةِ السابقةِ النَّومَ والموتَ، وهو سبحانَه خلَقَهما، فغَلَبَا شِدَّةَ الإنسانِ كيفَما بلغَتْ- بَيَّنَ عَقِبَ ذِكْرِهما أنَّ الله هو القادِرُ الغالِبُ دونَ الأصنامِ، فالنَّومُ قهْرٌ؛ لأنَّ الإنسانَ قد يُريدُ ألَّا ينامَ فيغْلِبُه النَّومُ، والموْتُ قهْرٌ، وهو أظْهَرُ[1]، فقال تعالى:

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾.

أي: واللهُ تعالى هو الذي قَهَر كلَّ شيءٍ، وخضَعَ له كلُّ شيءٍ، الغالِبُ خَلْقَه بقُدرَتِه، العالي عليهم بتذليلِه لهم، وخلقِه إيَّاهم، النافذةُ فيهم مَشيئَتُه؛ فليسوا يَملِكونَ مِن الأمرِ شيئًا، ولا يَتحرَّكون أو يَسكُنونَ إلَّا بإذْنِه سبحانَه[2].

﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾.

أي: وَقد وكَّلَ بكم حَفَظةً من الملائكةِ؛ يحفظونَكم، ويَحفظونَ عليكم أعمالَكم ويُحْصُونها[3].

كما قال تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١].

وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠- ١٢].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٩).

أي: إنَّ ربَّكم يحفَظُكم وأعمالَكم في حياتِكم، بالملائِكةِ الموَكَّلين بكم، إلى أنْ يَحْضُرَكم الموتُ، فإذا جاء ذلك أحدَكم تَوفَّته ملائكَتُنا الموَكلونَ بقَبْضِ الأرواح، لا يَزيدونَ ساعةً ممَّا قَدَّرَه اللهُ وقَضاه، ولا يَنْقُصونَ، ولا يُنَفِّذونَ ذلك إلَّا بحَسَب التقاديرِ الرَّبانيَّةِ، ولا يُفرِّطون أيضًا في حِفْظ رُوحِ المتوفَّى، بل يحفظونَها ويُنْزِلونَها حيثُ شاءَ الله تعالى، فإنْ كان مِن الأبرارِ فهو في عِلِّيِّينَ، وإنْ كان مِن الفُجَّار فهو في سِجِّينٍ[١].

﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ٦٢﴾.

﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾.

أي: ثمَّ بعدَ الموتِ والحياةِ البرزَخيَّة يُرَدُّ العبادُ المُتوفَّونَ بالموتِ، فيَرْجِعون يومَ القيامةِ إلى الله سَيِّدِهم، الذي تولَّى أمورَهم بحُكْمِه القَدَريِّ، فنَفَّذَ فيهم ما شاءَ مِن تَدبيرِه، وتولَّاهم بحُكْمِه الشَّرعيِّ، فأَرْسَل إليهم الرُّسُلَ، وأنزَلَ عليهم الكُتُبَ، وتولَّى رَزْقَهم وبَعْثَهم وغيرَ ذلك، وهو سبحانه الحقُّ الذي ليس بباطلٍ[٢].

﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾.

أي: رُدُّوا إليه؛ ليتولَّى الحُكمَ فيهم بالعَدْلِ، فيُثيبَهم على ما قدَّموا من الخيراتِ، ويُعاقِبَهم على ما اكتَسَبُوا من السيِّئاتِ؛ فله سبحانه وَحْدَه الحُكمُ والقَضاءُ دون مَن سواه مِن جميعِ خَلْقِه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٨٩-٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٢٨١)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٠١)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٩٣-٢٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٩).

﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾.

أي: وهو أسرَعُ مَن حَسَبَ عَدَدَكم وأعمالَكم وآجالَكم، وغيرَ ذلك من أمورِكم- أيُّها النَّاسُ- وأحصاها وعَرَفَ مَقاديرَها ومَبَالِغَها، لا يَخفَى عليه منها خافيةٌ؛ لكمالِ عِلْمِه وحِفْظِه لأعمالِكم[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ذِكْرُه تعالى للورقةِ والحَبَّةِ فيه تنبيهٌ للمُكَلَّفينَ على أمْرِ الحِسابِ، وإعلامٌ بأنَّه لا يَفوتُه مِن كُلِّ ما يَصنعونَ في الدُّنيا شيءٌ؛ لأنَّه إذا كان لا يُهْمِلُ من الأحوالِ التي ليس فيها ثوابٌ وعقابٌ وتكليفٌ، فبأَلَّا يُهْمِلَ الأحوالَ المشتمِلَةَ على الثَّوابِ والعقابِ أَوْلى[2].

٢- قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ في الإخبارِ أنَّه عزَّ وجلَّ يَعلمُ ما يقَعُ في النَّهارِ تَحذيرٌ مِن اكتِسابِ ما لا يَرْضَى اللهُ باكتِسابِه بالنِّسبةِ للمُؤمنينَ، وتهديدٌ للمُشركينَ[3].

٣- في قوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ التَّحذيرُ مِن ارتِكابِ المعاصي[4].

٤- القصدُ مِن قوله: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ هو إلقاءُ ظِلِّ الرَّقابةِ المباشِرَةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٩).
قال السعديُّ: (فإذا كان تعالى هو المنفردَ بالخَلْق والتَّدبير، وهو القاهِر فوقَ عِباده، وقد اعْتَنى بهم كلَّ الاعتناء في جميع أحوالهم، وهو الذي له الحُكم القَدَريُّ والحُكم الشَّرعيُّ والحُكم الجزائي؛ فأين للمُشركين العدولُ عن مَن هذا وصفُه ونعتُه إلى عِبادةِ مَن ليس له مِن الأمْر شيءٌ، ولا عِندَه مِثقالُ ذرَّة مِن النَّفع، ولا له قُدرة وإرادة؟) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٧٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٧٨).

على كلِّ نَفْسٍ؛ ظِلِّ الشُّعورِ بأنَّ النَّفسَ غيرُ منفرِدَةٍ لحظةً واحدةً، وغيرُ متروكةٍ لِذَاتِها لحظةً واحدةً؛ فهناك حفيظٌ عليها رقيبٌ، يُحصِي كلَّ حَرَكةٍ وكُلَّ سكنةٍ، ويحفَظُ ما يصدُرُ عنها، لا يَنِدُّ عنه شيءٌ؛ وهذا التصوُّر كفيلٌ بأنْ يَنتفِضَ له الكِيانُ البشريُّ، وتستيقظَ فيه كُلُّ خالِجَةٍ، وكُلُّ جارحةٍ[1].

٥- يُستَفاد من قوله: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ أنَّ كُلَّ نَفْسٍ مَعدودةُ الأنفاسِ، متروكةٌ لأجَلٍ لا تعلَمُه؛ فهو بالنِّسبة لها غيبٌ لا سبيلَ إلى كَشْفِه، بينما هو مرسومٌ مُحدَّدٌ في عِلْم الله تعالى، لا يتقدَّمُ ولا يتأخَّرُ، وكلُّ نفْسٍ مُوكَلٌ بأنفاسِها وأجَلِها حفيظٌ قريبٌ مُباشِرٌ حاضِرٌ، ولا يغفو ولا يَغْفُل ولا يُهْمِل؛ فهو حفيظٌ مِن الحَفَظَة، وهو رسولٌ من الملائِكَةِ، فإذا جاءتِ اللَّحظَةُ المرسومةُ الموعودةُ- والنَّفْسُ غافلةٌ مشغولةٌ- أدَّى الحفيظُ مُهِمَّتَه، وقام الرَّسولُ برِسالَتِه، وهذا التصوُّرُ كفيلٌ بأنْ يرتَعِشَ له الكِيانُ البشريُّ، وهو يُحِسُّ بالقَدَر الغيبيِّ يُحيطُ به، ويعرِفُ أنَّه في كلِّ لحظةٍ قد يُقبَض، وفي كُلِّ نَفَسٍ قد يَحينُ الأجلُ المحتومُ[2].

٦- قال تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾، فقوله: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ يَتضمَّنُ وعدًا ووعيدًا؛ لأنَّه لَمَّا أُتِيَ بِحَرْف المُهْلَةِ في الجمَل المتقدِّمةِ ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ..﴾، وكان المُخاطَبونَ فريقَينِ: فريقٌ صالِحٌ، وفريقٌ كافِرٌ، وذَكَرَ أنَّهم إليه يُرجَعونَ؛ فالصَّالحونَ لا يُحِبُّون المُهلَةَ، والكافِرونَ بعَكْسِ حالِهم، فعُجِّلَتِ المَسَرَّةُ للصَّالحين، والمَساءَةُ للمُشركينَ بقوله: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾[3].

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١١٢٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١١٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٨٠).

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ هذه الآيةُ دلَّتْ على عِلْمِه المحيطِ بجميعِ الأشياءِ؛ الذي لا يَنِدُّ عنه شيءٌ في الزَّمانِ ولا في المكانِ، في الأَرْضِ ولا في السَّماءِ، في البَرِّ ولا في البَحرِ، في جوفِ الأرضِ ولا في طِباقِ الجَوِّ، من حيٍّ ومَيِّتٍ ويابسٍ ورَطْبٍ، كما أفادتْ أيضًا عُمومَ عِلمِه تعالى بالكليَّاتِ والجُزئيَّاتِ، وفي هذا إبطالٌ لقولِ جمهورِ الفلاسفةِ أنَّ اللهَ يعلمُ الكليَّاتِ خاصَّةً، ولا يَعلَمُ الجزئيَّاتِ[1].

٢- في قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ...﴾ دقيقةٌ جليلةٌ، وهي: أنَّ قوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ لما كان قضيَّةً عقليَّةً محضة مجردة، ذَكَر بعده مِثالًا من الأمورِ المحسوسةِ الداخلةِ تحتَ القضيَّةِ العقليَّةِ الكليَّةِ المحضةِ المجرَّدة؛ ليصيرَ ذلك المعقولُ- بمعاونةِ هذا المثالِ المحسوسِ- مفهومًا لكلِّ أحد؛ فقال أولًا: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾، ثمَّ أكَّد هذا المعقولَ الكليَّ المجرَّدَ بجزئيٍّ محسوسٍ فقال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾؛ وذلك لأنَّ أحدَ أقسامِ مَعلوماتِ اللهِ هو جميعُ دوابِّ البَرِّ والبَحرِ، والحِسُّ والخيالُ قد وقَفَ على عظمةِ أحوالِ البرِّ والبحرِ، فذِكْرُ هذا المحسوسِ يَكشِفُ عن حقيقةِ عظمةِ ذلك المعقولِ[2].

٣- في قوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٩)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٠، ١١).

إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ الحكمةُ مِن تَخصيصِ هذه الأشياءِ بالذِّكْرِ: أنَّ المعلومَ أو ما يتعلَّقُ به العِلْمُ: إمَّا موجودٌ، وإمَّا معدومٌ، والموجودُ إمَّا حاضِرٌ مشهودٌ، وإمَّا غائِبٌ في حُكم المفقودِ، وليس في الوجودِ شيءٌ غائِبٌ عن اللهِ تعالى، فعِلْمُه تعالى بالأشياءِ إمَّا عِلْمُ غيبٍ، وهو عِلْمُه بالمعدومِ، وإمَّا عِلْمُ شهادةٍ، وهو عِلْمُه بالموجودِ، وأمَّا أهلُ العِلم مِن الخَلْقِ فمِنَ الموجوداتِ ما هو حاضِرٌ مشهودٌ لَدَيهم، ومنها ما هو حاضِرٌ غيرُ مشهودٍ؛ لأنَّه لم يَخْلُق لهم آلَةً للعِلم به؛ كعالَم الجِنِّ والملائكةِ مع الإنس، ومنها ما هو غائِبٌ عن شُهودِهم، وهم مستعِدُّونَ لإدراكِه، لو كان حاضرًا، وما هو غائبٌ وهم غيرُ مستعِدِّينَ لإدراكِه لو حضَر، فكلُّ ما خُلِقوا غيرَ مستعدِّينَ لإدراكِه من موجودٍ ومعدومٍ؛ فهو غيبٌ حقيقيٌّ بالنِّسبةِ إليهم، وكلُّ ما خُلِقوا مُستعَدِّينَ لإدراكِه دائمًا أو في بعضِ الأحوال فهو - إنْ غاب عنهم - غيبٌ إضافيٌّ، وقد بيَّنَ اللهُ تعالى لنا في هذه الآيةِ أنَّ خزائِنَ عالَمِ الغَيبِ كلَّها عنده، وعنده مفاتيحُها وأسبابُها المُوصِلَة إليها، وأنَّ عنده مِن عِلْمِ الشَّهادة ما ليس عند غيرِه، وذَكَرَ على سَبيلِ المَثَل عِلْمَه بكلِّ ما في البرِّ والبحرِ مِن ظاهِرٍ وخفيٍّ، ثم خَصَّ بالذِّكْرِ ثلاثةَ أشياءَ مِمَّا في البرِّ: إحاطة عِلْمِه بكلِّ ورقةٍ تَسقُط مِن نَبْتةٍ، وكلِّ حبَّة تسقُطُ في ظلماتِ الأرضِ، وكُلِّ رَطْبٍ ويابسٍ؛ فهذه الأشياءُ مِن عالَم الشَّهادةِ تدخُلُ في عالَم الغيبِ، ثم تَبْرُز في عالَم الشَّهادةِ، وعِلْمُ اللهِ تعالى محيطٌ بكلِّ شيءٍ منها على كَثرَتِها، ودِقَّةِ بعضِها وصِغَرِه، وتنقُّلُه في أطوارِ الخَلْقِ والتَّكوينِ، وما يَتْبَعُهما من الصُّوَر والمَظاهِرِ، وحَسْبُكَ هذا الإيماءُ مِن حِكمةِ تخصيصِها بالذِّكْرِ(١).

٤- قال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ لَمَّا جاءَ القُرآنُ العظيمُ بأنَّ الغيبَ لا يَعلمُه إلَّا اللهُ، كان جميعُ الطُّرُق التي يُرادُ بها التوصُّل إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٨٢)

شيءٍ من عِلْمِ الغيب- غيرَ الوَحْيِ- مِنَ الضَّلالِ المُبِينِ، وبعضٌ منها يكون كُفْرًا؛ ولذا ثَبَتَ عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه قال: ((مَنْ أتى عَرَّافًا فسأَلَه عن شيءٍ، لم تُقْبَلْ له صلاةٌ أربعينَ ليلة))(١)، ولا خِلافَ بين العُلماء في مَنْعِ العِيافَةِ(٢)، والكَهَانةِ(٣)، والعِرَافةِ(٤)، والطَّرْقِ(٥)، والزَّجْرِ(٦)، والنُّجومِ(٧)، وكلُّ ذلك يدخُلُ في الكَهانة؛ لأنَّها تَشمَلُ جميعَ أنواعِ ادِّعاءِ الاطِّلاعِ على عِلْمِ الغَيبِ، وقد سُئِلَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن الكُهَّانِ، فقال: ((لَيْسُوا بِشَيْءٍ))(٨).

٥- قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ دلَّ على إثباتِ عِلْمٍ لله تعالى، دون نَفْيِ عِلْمِ غيرِه، وذلك عِلْمُ الأمورِ الظَّاهرة، وقد عُطِفَ على جُملةِ ﴿لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾، أو على جملةِ ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ المشتملَتَينِ على إثباتِ عِلْمٍ لله ونَفْيِ عِلْمٍ عن غيره؛ لإفادةِ تعميمِ عِلْمِه تعالى بالأشياءِ الظَّاهِرَة المتفاوِتَةِ في

(١) أخرجه مسلم (٢٢٣٠) من حديث بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم.
(٢) العِيافة: زَجرُ الطَّيرِ، والتَّفاؤُل بأسْمائِها وأصْوَاتها ومَمَرِّها. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٣٣٠)، ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٤٤٠).
(٣) الكَهانة: ادِّعاءُ عِلمِ الغَيبِ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٣٦/ ٨١).
(٤) العِرافة: حِرفةُ العرَّافِ: وهو الذي يستدِلُّ على الأمورِ بأسبابٍ ومُقدِّماتٍ يَدَّعي مَعرِفتَها بها. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٤/ ٢٢٣).
(٥) الطَّرْقُ: الضَّربُ بالحَصَى، وهو ضَربٌ مِنَ التكهُّنِ، وقِيل: هو الخطُّ في الرَّمْل. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ١٢١)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ١٩٠).
(٦) الزَّجْرُ: هُو العِيافَةُ أيضًا، وهو ضَربٌ مِنَ التكهُّنِ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ١٣٥).
(٧) هو ما يدَّعيه أهلُ التَّنجيمِ مِن علمِ الكَوائِنِ والحوادثِ التي لم تقع وستقَعُ في مستقبَلِ الزَّمان، كأخبارهم بأوقات هُبوبِ الرِّياح، ومجيءِ المَطَر، وظهورِ الحرِّ والبَرد، وتغيُّرِ الأسعارِ، وما كان في معانيها من الأمور، يزعمونَ أنَّهم يُدركون معرفتَها بسيرِ الكواكب في مجاريها، وباجتماعِها واقترانِها، ويدعون أنَّها تتصرَّفُ على أحكامِها، وتجري على قضايا مُوجِباتِها. يُنظر: ((معالم السنن)) للخطابي (٤/ ٢٢٩-٢٣٠).
(٨) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٨٢).
وقولُه صلَّى الله عليه وسلَّم: ((لَيْسوا بشَيءٍ)) أخرجه البخاريُّ (٦٢١٣)، ومسلم (٢٢٢٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

الظُّهورِ، بعدَ إفادَةِ عِلْمِه بما لا يَظهَرُ للنَّاسِ[١].

٦- لَمَّا كَشَفَ الله عن عظمةِ قَوْلِه: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ بِذْكر البَرِّ والبحر في قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾- كشَفَ عن عظمةِ البَرِّ والبحر بقَوْلِه: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾؛ وذلك لأنَّ العقلَ يستحضِرُ جميعَ ما في وَجْهِ الأرض من المُدُن والقرى، والمفاوِزِ والجبالِ والتِّلالِ، ثم يَستحضِرُ كَمْ فيها من النَّجْم والشَّجَر، ثم يَستحضرُ أنَّه لا يتغيَّرُ حالُ ورقةٍ إلَّا والحقُّ سبحانه يعلَمُها، ثمَّ يتجاوَزُ من هذا المثال إلى مثالٍ آخَرَ أشَدَّ هيئةً منه، وهو قوله: ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾؛ وذلك لأنَّ الحبَّةَ في غاية الصِّغَر، وظُلُمات الأرضِ موضِعٌ يَبْقى أكبرُ الأجسامِ وأعظَمُها مَخفيًّا فيها، فإذا سمع أنَّ تلك الحبَّةَ الصغيرة المُلْقاةَ في ظلماتِ الأرض، على اتِّساعها وعَظَمتِها، لا تخرجُ عن عِلْم الله تعالى البتَّةَ، صارتْ هذه الأمثلة منبهةً على عظمةٍ عظيمةٍ، وجلالةٍ عاليةٍ من المعنى المشارِ إليه بقوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ بحيث تتحيَّرُ العقولُ فيها، وتتقاصرُ الأفكارُ والألبابُ عن الوصولِ إلى مباديها، ثم إنَّه تعالى لَمَّا قَوَّى أمْرَ ذلك المعقولِ المَحْضِ المجرَّد بذِكر هذه الجزئيَّاتِ المحسوسَةِ- فبَعْدَ ذِكْرِها عاد إلى ذِكر تلك القضيَّةِ العقليَّة المحضةِ المجرَّدةِ بعبارةٍ أخرى فقال: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ وهو عينُ المذكورِ في قوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾[٢].

٧- في قولِه تعالى: ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾، قد يقولُ قائلٌ: ما وَجْهُ إثباتِه تعالى في اللَّوحِ المحفوظِ والكتابِ الْمُبينِ ما لا يَخْفَى عليه، وهو بجَميعِه عالِمٌ لا يُخافُ نِسيانُه؟ قيل: للهِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١١).

تعالى فِعْلُ ما شاء. وجائِزٌ أنْ يكونَ كان ذلك منه امتحانًا منه لِحَفَظَته، واختبارًا للمُتَوكِّلينَ بكتابةِ أعمالهم؛ فإنَّهم فيما ذُكِرَ مأمورونَ بكتابةِ أعمالِ العبادِ، ثم بِعَرْضِها على ما أَثْبَتَه اللهُ من ذلك في اللَّوح المحفوظِ، حتى أثبَتَ فيه ما أثبتَ كلَّ يومٍ. وقيل: إنَّ ذلِك معنى قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية:٢٩]، وجائزٌ أنْ يكونَ ذلك لغيرِ ذلك ممَّا هو أعلمُ به، إمَّا بحُجَّةٍ يحتجُّ بها على بعضِ ملائِكَتِه، وإمَّا على بَني آدَمَ، وغير ذلك(١).

٨- في قولِه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾ أَسْنَدَ اللهُ عزَّ وجلَّ التوفِّي إلى ذَاتِه المقدَّسةِ؛ لأنَّه لا يُنفَرُ منه هنا؛ إذِ المرادُ به النومُ، وهو وسيلةٌ للدَّعةِ والرَّاحةِ، وأَسْنَدَه إلى غَيرِه في قوله: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾، وقوله: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]؛ لأنَّه يُنفَر منه، إذ المرادُ به الموتُ(٢).

٩- إنَّما قال: ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾؛ لأنَّه وصَفَ نَفسَه تعالى بقَهرِه إيَّاهم، ومِن صِفَةِ كُلِّ قاهرٍ شيئًا، أن يكونَ مُستعليًا عليه(٣).

١٠- قوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ ذَكَر العلماءُ في الفائدةِ مِن جَعْلِ الملائكةِ مُوكَّلينَ على بَني آدَمَ يَكتُبون أعمالَهم وُجوهًا؛ منها: أنَّ المكلَّفَ إذا عَلِمَ أنَّ الملائكةَ- وهم الكرامُ الكاتبون- مُوكَّلونَ به؛ يُحصُونَ عليه أعمالَه، ويكتبونها في صحائف تُعرَضُ على رُؤوسِ الأشهادِ في مواقفِ القِيامة؛ فإذا عَلِم أنَّ أعمالَه تُكتَب عليه وتُعرَضُ على رؤوس الأشهاد، كان هذا أَزْجرَ له عن القبائحِ والمعاصِي، وأنَّ العبدَ إذا وَثِق بلُطفِ سَيِّدِه، واعتمَدَ على عَفْوِه وسَتْرِه،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٨٣- ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤ / ٥٣٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٦٦٣)، ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ١٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٨٠).

لم يَحتشِمْ منه احتشامَه مِن خَدَمِه المطَّلعين عليه. ومنها: أنَّه يحتملُ في الكتابةِ أنْ يكونَ الفائدةُ فيها أنْ تُوزَنَ تلك الصَّحائفُ يومَ القيامةِ. ومنها: أنَّ الله تعالى يَفعلُ ما يشاءُ ويَحكُمُ ما يُريد، ويجِبُ علينا الإيمانُ بكلِّ ما ورَدَ به الشرعُ، سواء عقَلْنا الوجهَ فيه أو لم نعقِلْ(١).

١١- في قوله تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ دليلٌ على ثُبُوتِ عِصْمَةِ الملائكةِ على الإطلاقِ، كما قال تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾(٢).

١٢- الجَمْعُ بين قولِه هنا: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾، وقولِه: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، وقولِه: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١] أنَّ المُتَوَفِّي في الحقيقةِ هو اللهُ تعالى، فإذا حضَرَ أجَلُ العبدِ أَمَرَ اللهُ تعالى ملَكَ الموتِ أن يقبِضَ رُوحَه، ولِمَلَكِ الموتِ أعوانٌ من الملائكةِ، يأمُرُهم بِنَزْعِ رُوحِ ذلك العبدِ مِن جَسَدِه، فإذا وَصَلَتْ إلى الحُلقومِ تَوَلَّى قَبْضَها مَلَكُ الموتِ بِنَفْسِه، فحصل الجمعُ بين الآياتِ(٣).

١٣- وَصْفُ الاسمِ الكريم بـ(مولاهم الحَقِّ) في قوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٢٦).

قال ابنُ جرير: (فإنْ قال قائل: أوَليسَ الذي يَقبضُ الأرواحَ ملَكُ الموت؛ فكيف قيل: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾، والرُّسلُ جملةٌ وهو واحد؟ أوَليس قد قال: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة:١١]؟ قيل: جائزٌ أنْ يكون اللهُ تعالى أعان ملَكَ الموتِ بأعوانٍ من عنده، فيتولَّوْن ذلك بأمْر ملَك الموت، فيكون (التوفِّي) مضافًا- وإنْ كان ذلك من فِعل أعوان ملَك الموتِ- إلى ملَك الموت؛ إذ كان فِعلُهم ما فعلوا من ذلك بأمْره، كما يُضاف قتْلُ مَن قتَلَ أعوانُ السلطان ،وجَلْد مَن جلدوه بأمْر السلطان، إلى السُّلطان، وإنْ لم يكُن السلطان باشرَ ذلك بنفسه ولا وَلِيَه بيده. وقد تأوَّل ذلك كذلك جماعةٌ من أهل التأويل). ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٩٠).

مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ يدلُّ على أنَّ رَدَّهُم إليه حَتْمٌ؛ لأنَّه هو سيِّدُهم الحقُّ الذي يتولَّى أمورَهم، ويَحْكُم بينهم بالحَقِّ(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾

- قوله: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ...﴾ عطفٌ على جملةِ: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ على طَريقةِ التخلُّصِ، والمناسبةُ في هذا التخلُّص هي الإخبارُ بأنَّ اللهَ أعلَمُ بحالةِ الظَّالمينَ؛ فإنَّها غائبةٌ عن أعيُنِ النَّاسِ، فاللهُ أعلمُ بما يناسِبُ حالَهم من تَعجيلِ الوعيدِ أو تأخيرِه، وهذا انتقالٌ لبيانِ اخْتِصاصِه تعالى بعلمِ الغيبِ، وسَعَةِ عِلمِه، ثُمَّ سَعَةِ قدرتِه، وأنَّ الخلقَ في قبضَةِ قدرتِه(٢).

- وتقديمُ الظَّرفِ ﴿وَعِندَهُ﴾؛ لإفادةِ الاختصاصِ، أي: عِندَه لا عِنْدَ غيرِه(٣).

- قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ قُدِّمَ ذِكْرُ البَرِّ؛ لأنَّ الإنسانَ قد شاهَدَ أحوالَ البَرِّ، وكثرةَ ما فيه من المُدُنِ والقُرى والمَفاوِزِ والجبالِ والتِّلالِ، وكثرةَ ما فيها من الحيوانِ والنَّباتِ والمعادِنِ. وأمَّا البحرُ فإحاطةُ العَقلِ بأحوالِه أقَلُّ إلَّا أنَّ الحِسَّ يدلُّ على أنَّ عجائِبَ البِحارِ في الجملةِ أكثرُ، وطُولُها وعَرْضُها أعظمُ، وما فيها من الحيواناتِ وأجناسِ المخلوقاتِ أعجَبُ. فإذا استحضَرَ الخَيالُ صورةَ البحرِ والبَرِّ على هذه الوجوهِ، ثمَّ عَرَفَ أنَّ مجموعَها قِسْمٌ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٤٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

حقيرٌ من الأقسامِ الدَّاخِلةِ تحت قوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ فيصيرُ هذا المثالُ المحسوسُ مُقَوِّيًا ومُكَمِّلًا للعظمةِ الحاصِلَةِ تحت قولِه: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾(١). أو قُدِّم ذِكرُ البَرِّ على البَحرِ على طريقةِ الترقِّي مِن الأدْنَى إلى ما هو أعظمُ منه؛ فإنَّ قِسمَ البَحرِ من الأرضِ أعظمُ مِن قِسم البَرِّ، وخفاياه أكثرُ وأعظمُ(٢).

- قوله: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ﴾ عطفٌ على جملةِ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾؛ لقَصْدِ زيادةِ التَّعميمِ في الجزئيَّاتِ الدَّقيقةِ؛ فإحاطَةُ العِلْمِ بالخفايا مع كونِها مِن أضْعَفِ الجزئيَّاتِ مؤذِنٌ بإحاطَةِ العِلْمِ بما هو أعظَمُ وأَوْلى به(٣).

- وزيادةُ حرفِ ﴿مِنْ﴾؛ لتأكيدِ النَّفْيِ؛ ليفيدَ العمومَ نصًّا(٤).

- قوله: ﴿لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ فيه تأكيدٌ لمضمونِ ما قبله، وإيذانٌ بأنَّ المرادَ هو الاختصاصُ من حيثُ العلمُ، لا مِن حيثُ القدرةُ، أي: إنَّ ما تستعجلونَه من العذابِ ليس مقدورًا لي حتى أُلْزِمَكم بتعجيلِه، ولا معلومًا لدَيَّ لِأُخبِرَكم وقتَ نزولِه، بل هو مِمَّا يختصُّ به تعالى قدرةً وعلمًا، فيُنْزِلُه حَسَبما تقتضيه مشيئَتُه المَبنِيَّة على الحِكَم والمصالِحِ(٥).

- وفي الآية حُسْنُ ترتيبٍ لهذه المعلوماتِ؛ فبدَأَ أولًا بأمْرٍ معقولٍ لا نُدرِكُه نحن بالحِسِّ، وهو قوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾، ثم ثانيًا بِأَمرٍ نُدرِكُ كثيرًا منه بالحِسِّ، وهو ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾، وفيه عمومٌ، ثمَّ ثالثًا بجُزْأَينِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١١).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٣٨١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٧٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤٣).

لطيفين؛ أحدُهما عُلويٌّ: وهو سقوطُ وَرقةٍ مِن عُلْوٍ إلى أسفَلَ، والثاني سُفْلِيٌّ: وهو اختفاءُ حبَّةٍ في بطن الأَرضِ(١).

٢- قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

- قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾ صيغةُ قَصْرٍ؛ لتعريفِ جُزْأَيِ الجُملةِ، أي: هو الذي يتوفَّى الأنفُسَ دون الأصنامِ؛ فإنَّها لا تَملِكُ موتًا ولا حياةً(٢).

- وفيه إطلاقُ التَّوفِّي على النَّوْمِ؛ لشَبَهِ النَّومِ بالمَوتِ في انقضاءِ الإدراكِ والعَمَلِ؛ لِمَا بينهما من المشاركَةِ في زَوالِ الإحساسِ والتَّمييزِ؛ فإنَّ أصْلَ التوفِّي قبضُ الشَّيء بتمامِه. وفائدته: التقريبُ لكيفيَّةِ البَعْثِ يومَ القيامة؛ فالمراد بقوله: ﴿يَتَوَفَّاكُمْ﴾ يُنيمُكم بقرينةِ قوله: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾، أي في النَّهار(٣).

- وتخصيصُ التوفِّي باللَّيلِ والجَرْح بالنَّهارِ، مع تحقُّقِ كُلٍّ منهما فيما خُصَّ بالآخَرِ؛ للجَرْيِ على سَنَنِ العادةِ(٤)، فوَقَع الاقتصارُ على الإخبارِ بِعِلْمِه تعالى ما يَكسِبُ النَّاسُ في النَّهار دون الليل؛ رَعْيًا للغالِبِ؛ لأنَّ النهارَ هو وقتُ أكثرِ العملِ والاكتسابِ(٥).

- وتوسيطُ قولِه: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ بينَ قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾؛ لقَصْدِ الامتنانِ بنِعمةِ الإمهالِ، أي: ولولا فَضْلُه لَمَا بَعَثَكم في النَّهارِ؛ مع عِلْمِه بأنَّكم تكتسبونَ في النَّهارِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٣٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٧٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٧٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٧٦).

عبادةَ غَيرِه، ويكتسِبُ بعضُكم بعضَ ما نهاهُم عنه؛ كالمؤمنين[١].

- وصِيغةُ الماضي في قوله: ﴿جَرَحْتُمْ﴾؛ للدَّلالةِ على التحقُّق[٢].

٣- قوله: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾

- قوله: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾: وَ﴿يُرْسِلُ﴾ عَطْفٌ عَلَى ﴿الْقَاهِرُ﴾ فيدلُّ على التَّخصيصِ بقَرينةِ المقامِ، أي: هو الذي يُرسِلُ عليكم حَفَظةً دونَ غَيرِه، والقَصْرُ هنا حقيقيٌّ، فلا يستدعي رَدَّ اعتقادِ مخالِفٍ، والمقصودُ الإعلامُ بهذا الخَبَرِ الحقِّ؛ ليَحْذَرَ السَّامعونَ من ارتكاب المعاصي[٣].

- وفيه تقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ على المفعولِ الصَّريحِ ﴿حَفَظَةً﴾؛ للاعتناءِ بالمقدَّمِ، والتشويقِ إلى المؤخَّرِ[٤].

- ولفظةُ (على) في قوله: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ مُشعِرةٌ بالعُلُوِّ والاستعلاءِ؛ لتَمكُّنِ الحَفَظةِ منَّا جُعِلوا كأنَّ ذلك علينا، ويَحتملُ أن يكون متعلِّقًا بـ﴿حفَظَةً﴾ أي: ويُرسِلُ حفَظَةً عليكم، أي: يَحفظون عليكم أعمالَكم، كما قال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ [الانفطار: ١٠]، كما تقول: حَفِظْتُ عليك ما تَعْمَلُ[٥].

٤- قوله: ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ فيه تقديمُ المجرورِ في قوله: ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾ للاختصاصِ، أي: له لا لغَيرِه، فإنْ كان المرادُ مِن الحُكْمِ جِنْسَ الحُكْم فقَصْرُه على الله؛ إمَّا حقيقيٌّ للمبالَغةِ؛ لعدمِ الاعتدادِ بحُكْم غيرِه،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٧٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٧٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٣٨)، وينظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٧٨).

وإمَّا إضافيٌّ للرَّدِّ على المشركين، أي: ليس لأصنامِكم حُكْمٌ معه. وإنْ كان المرادُ مِن الحُكْم الحِسابَ، أي: الحُكم المعهود يومَ القيامةِ، فالقصْرُ حقيقيٌّ، وربَّما تَرجَّحَ هذا الاحتمالُ بقوله عَقِبَه: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾، أي: ألَا له الحِسَاب، وهو أسرعُ من يحاسِبُ، فلا يتأخَّر جزاؤُه[1].

- قوله: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ تذييلٌ؛ ولذلك ابتُدِئَ بأداةِ الاستفتاحِ المؤْذِنَةِ بالتَّنبيه إلى أهميَّةِ الخَبَر[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٧٩).

الآيات (٦٢- ٦٧)

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿تَضَرُّعًا﴾: أي: تذلُّلًا، وأصل (ضرع): يدلُّ على لِينٍ في الشَّيء[١].

﴿كَرْبٍ﴾: أي: غَمٌّ شديدٌ، وأصل (كرب): يدلُّ على شِدَّةٍ وقوَّةٍ[٢].

﴿يَلْبِسَكُمْ﴾: أي: يَخلِطَ أمرَكم، وأصل (لبس): يدلُّ على مخالَطَةٍ ومُداخَلَةٍ[٣].

﴿شِيَعًا﴾: أي: فِرَقًا مُختلفينَ، أو أحزابًا متفرِّقينَ، وأصل (شيع): يدلُّ على مُعاضدَةٍ ومُساعَفةٍ، وعلى بَثٍّ وإشادَةٍ[٤].

﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾: أي: يُسَلِّطَ بعضَكم على بعضٍ بالقِتالِ والحرْبِ،

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٩٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧٥).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٣٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص:٩٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٣).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص:٢٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٣٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩١).

فتتقاتلوا. وأصلُ (ذوق): اختبارُ الشَّيءِ من جهة تطعُّمٍ(١)، وأصلُ (بأس): الشِّدَّةُ وما ضاهاها(٢).

﴿يَفْقَهُونَ﴾: أي: يَفْهَمون؛ يُقال: فَقِهْتُ الكلامَ: إذا فَهِمْتَه حقَّ فَهْمِه، والفِقْه: هو التوصُّلُ إلى عِلْم غائبٍ بعِلْم شاهدٍ، وأصل (فقه): يدلُّ على إدراكِ الشَّيءِ، والعِلْم به(٣).

المعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ نبيَّه محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يَسألَ المشركين عمَّن يُنَجِّيهم من ظُلُماتِ البَرِّ والبَحر، وهم يَدْعُونَه مُظْهِرينَ التذلُّلَ والخُضُوع، ويَدْعون سرًّا، يقولون: لَئِنْ أَنجَيْتَنا مِمَّا نحن فيه يا ربُّ لنكوننَّ لك من الشَّاكرينَ، المُعترفينَ بنِعَمِك، المُخْلصِينَ لك في العبادَةِ.

ثمَّ بيَّن أنَّهم بعدَ النَّجاةِ يُشركونَ بربِّهم سِواه، فقال تعالى: قُل لهم- يا محمَّدُ-: هو اللهُ الذي يُنَجِّيكم من هذه الضَّائقَةِ، ومن كُلِّ كَرْبٍ يمرُّ بكم، ثم أنتم تُشرِكونَ به غيرَه في حال الرَّخاءِ.

وأمَرَ اللهُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يقول لهم أيضًا: إنَّ الله هو القادِرُ على أنْ يبعثَ عليهم عذابًا يأتيهم مِن فوقِ رُؤُوسِهم كالرَّجْم، أو مِن تحت أرجُلِهم كالخَسْف، أو يَخْلِطَهم فِرَقًا مختلفةً، وأحزابًا مُتفرِّقةً، ويُسَلِّطَ بعضَهم على بعضٍ،

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٦٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٠، ١٥٤))، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص:٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص:٢٤٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٠).

فيَقتُل بعضُهم بعضًا، ثم أمَرَ الله تعالى نبيَّه أن ينظرَ كيف ينَوِّعُ لهم الحُجَجَ، ويُظْهِرُ لهم الحقَّ؛ لعلَّهم يَفهمونَه، ويتركونَ ما هم فيه من الشِّرْكِ بالله تعالى.

ثم أخبرَ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ قومَه، وهم قريشٌ، كذَّبوا بالقرآنِ، وهو الحقُّ، وأمَرَه أنْ يقولَ لهم: إنَّه ليس عليهم بحَفيظٍ ولا رقيبٍ، إنَّما عليه البلاغُ.

ثمَّ هدَّدهم سبحانه وتوعَّدهم قائلًا: لكلِّ خَبَرٍ يُخبِرُ به الله تعالى وقْتٌ يقعُ فيه، لا يتقدَّم ولا يتأخَّر، وسوف يعلَمُ المُشْركون ما يُوعَدونَ به من العذابِ، حين يَحُلُّ بهم في وقته الذي أرادَه الله تعالى.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ (٦٣) ﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا تقدَّمَ ذِكْرُ الدَّلائلِ على أُلوهيَّتِه تعالى من العِلم التامِّ، والقُدرةِ الكامِلَةِ؛ ذَكَرَ نوعًا من أثرهما، وهو الإنجاءُ من الشدائدِ[1]، فقال:

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾.

أي: قلْ- يا مُحمَّدُ- للمشركينَ مُلْزِمًا لهم بما أثبتوه من توحيدِ الربوبيَّة، على ما أنكروا من توحيدِ الألوهيَّة: مَنِ الذي يُنجِّيكم في مَفاوزِ البَرِّيَّةِ البَعيدةِ الأطرافِ، إذا ضَلَلْتم فيها فتحيَّرتُم، وفي اللُّجَجِ البَحريَّة، إذا الرِّيحُ العاصِفةُ هاجتْكم، أو أخطأتُم فيها طريقَكم، فتعَذَّر عليكم الخروجُ من تلك الشَّدائدِ[2]؟

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٠).

﴿تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾.

أي: تَدْعونَه مُظهرينَ التذلُّلَ والفَقْرَ والخُضوعَ، وتَدْعونه سِرًّا، قائلين وأنتُم في تلك الحال: لئنْ أخرجْتَنا يا ربُّ، مِن هذه الضائقةِ والشِّدةِ التي وقَعْنا فيها، لنكُونَنَّ ممن يعترف بنِعْمَتِك، ويوحِّدُك بالشُّكر، ويخلصُ لك العبادةَ(١).

كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢].

﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾.

أي: قلْ- يا محمَّدُ- لهؤلاءِ المشركينَ: اللهُ هو القادِرُ على تَفريجِ الكَرْبِ إذا حَلَّ بكم، فيُنَجِّيكم من عَظيمِ ما حلَّ بكم في البَرِّ والبَحرِ؛ مِن هَمِّ الضَّلالِ، وخَوْفِ الهلاكِ، ومن كُلِّ كَرْبٍ آخَرَ، لا آلِهَتُكم التي تُشْرِكون بها في عِبادتِه، وتعبدونَها من دونه؛ فهي لا تَقدِرُ لكم على نَفْعٍ ولا ضُرٍّ(٢).

﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾.

أي: ثم أنتُم بعدَ تفضُّلِه عليكم بكَشْفِ كَرْبِكم، تُشْرِكون به في حالِ الرَّخاءِ، فلا تَفُونَ لله تعالى بما قُلْتُم، وتنسَونَ نِعَمَه عليكم(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٩٤)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٩٥-٢٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٨)، (تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٠).

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [يونس: ٢٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧].

﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾[1].

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا كانوا بإشراكِهم كأنَّهم يَظنُّون أنَّ الشِّدةَ زالتْ عنهم زوالًا لا يعودُ، وكان اللَّائقُ بهم دوامَ التذلُّلِ؛ إمَّا وفاءً وإما خوفًا- أخبرَهم ترهيبًا لهم من سَطْوَتِه، وتحذيرًا مِن بالِغِ قُدرَتِه، أنَّ شِدَّتَهم تلك التي أذلَّتْهم لم تَزَلْ في الحقيقةِ؛ فإنَّ قدرةَ المَلِك عليها حالةَ الرَّخاءِ كقُدرَتِه عليها في وقْتِها سواءً؛ فإنَّه خالِقُ الحالتَينِ وأسبابِهما وما فيهما، فقال[2]:

﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾.

أي: قل- يا محمَّدُ- لهؤلاء المُشركينَ: إنَّ الذي ينجِّيكم من ظُلُماتِ البَرِّ

---

(١) قال ابن جرير: (والصَّوابُ من القول عندي: أنْ يُقال: إنَّ الله تعالى توعَّد بهذه الآيةِ أهلَ الشِّرك به من عبَدَةِ الأوثان، وإيَّاهم خاطب بها؛ لأنَّها بين إخبارٍ عنهم، وخطابٍ لهم... وأمَّا الذين تأوَّلوا أنه عُنِي بجميع ما في هذه الآية هذه الأمَّة، فإني أراهم تأوَّلوا أنَّ في هذه الأمَّةِ مَن سيأتي مِن معاصي الله، وركوبِ ما يُسخط اللهَ، نحوَ الذي ركِب مَن قَبلهم مِن الأممِ السَّالفة مِن خِلافِه، والكفرِ به، فيَحُلُّ بهم مثلُ الذي حَلَّ بمَن قبلهم من المَثُلاتِ والنِّقمات) ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٠٨).

وممَّن قال من السَّلف أنَّ المقصود بالخطاب هم أمَّة محمَّدٍ عليه الصَّلاة والسَّلام: ابنُ عبَّاس، وأُبيُّ بنُ كعب، وقتادةُ، وأبو العاليةِ، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٠١)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٤٣).

والبحر، ومِن كُلِّ كَرْبٍ، ثم تعودونَ للإشراكِ به؛ قادرٌ على إرسالِ العذابِ إليكم بالرَّجْم أو الطُّوفانِ، وغير ذلك مما ينزِلُ عليكم من فوقِ رُؤوسِكم، أو بالخَسْفِ وما أشبَهَه، مِمَّا يأتيكم من تحتِكم[١].

كما قال تعالى: ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا * أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا * أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ [الإسراء: ٦٦- ٦٩].

﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾.

أي: أو يَخلِطَكم فِرَقًا مختلفةً، وأحزابًا مفترِقَةً[٢].

عن جابرِ بن عبدِ الله رضِيَ الله عنهما، قال: ((لَمَّا نزَلَ على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾. قال: أعوذُ بوجهِك، ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، قال: أعوذُ بوجْهِك، فلما نزَلتْ: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾، قال: هاتانِ أهوَنُ، أو: أيسَرُ))[٣].

وعن ثَوبانَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((إنَّ اللهَ زَوَى[٤] ليَ الأرضَ، فرأيتُ مَشارِقَها ومَغارِبَها، وإنَّ أمَّتي سيبلُغُ مُلْكُها ما زُوِيَ لي منها، وأُعْطِيتُ الكَنْزينِ: الأَحمرَ والأبيضَ، وإنِّي سألتُ ربِّي لِأمَّتي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٩٦، ٢٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٩، ٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٩٨، ٢٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٠).

(٣) رواه البخاري (٧٣١٣).

(٤) زَوَى: جمَعَ وطَوى. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٣٢٠).

أَلَّا يُهْلِكَها بسَنَةٍ[1] عامَّةٍ، وألاَّ يُسَلِّطَ عليهم عدُوًّا مِن سِوى أنفُسِهم، فيستبيحَ بَيضَتَهم[2]، وإنَّ ربِّي قال: يا محمَّدُ، إنِّي إذا قضيتُ قضاءً فإنَّه لا يُرَدُّ، وإنِّي أعطيتُك لأُمَّتِك ألَّا أُهْلِكَهم بسَنَةٍ عامَّةٍ، وألَّا أُسَلِّطَ عليهم عدُوًّا مِن سِوى أنفُسِهم، يَستبيحُ بيضَتَهم، ولو اجتمَعَ عليهم مَنْ بأقطارِها- أو قال مَنْ بينَ أقطارِها- حتى يكونَ بعضُهم يُهْلِكُ بعضًا، ويَسْبي بعضُهم بعضًا))[3].

وعن جابرِ بن عَتيكٍ؛ أنه قال: ((جاءَنا عبدُ اللهِ بنُ عمَرَ في بني معاوِيَةَ- قريةٍ من قُرى الأنصارِ- فقال لي: هل تَدري أين صلَّى رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في مَسْجِدِكم هذا؟ فقلْتُ: نعم. فأشرْتُ إلى ناحيةٍ منه، فقال: هل تَدْري ما الثَّلاثُ التي دَعا بهنَّ فيه؟ فقلتُ: نعمْ. فقال: وأخْبِرْني بهنَّ، فقلتُ: دعا ألَّا يُظْهِرَ عليهم عدوًّا مِن غَيرِهم، ولا يُهْلِكَهم بالسِّنينَ، فأُعْطِيَهُما، ودعا بألَّا يَجعَلَ بأسَهم بينهم، فمُنِعَها. قال: صَدَقْتَ، فلا يزالُ الهَرْجُ[4] إلى يومِ القيامةِ))[5].

(١) بَسنةٍ: أي: قحْطٍ وجَدْبٍ؛ يُقَالُ: أَسْنَتَ فهوَ مُسْنِتٌ: إذا أَجْدَبَ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٤٠٧)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٣/ ٦٩).

(٢) فيستبيحَ بَيضَتَهم: أي: يستأصل ويُهلك. بيضتَهم، أي: جماعتَهم وأصلَهم ومُجتمعَهم وموضعَ سُلطانهم، ومُستقرَّ دَعوتِهم، والبيضةُ أيضًا العزُّ والمُلك، وبيضةُ الدار: وسطُها ومعظمها. قيل أراد: إذا أُهلِك أصلُ البيضةِ كان هلاكُ كلِّ ما فيها من طعم أو فرخ، وإذا لم يُهلَك أصلُ البيضة ربَّما سَلِم بعضُ فراخها. وقيل: أراد بالبيضة الخوذة، فكأنَّه شبَّه مكانَ اجتماعهم والتئامهم ببَيضةِ الحديد. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ١٧٢)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ١٣).

(٣) رواه مسلم (٢٨٨٩).

(٤) الهَرْج: أَي: القَتْلُ، والهرج أيضًا الفِتْنَةُ والاختلاط؛ يُقال: هَرَج الناسُ يَهرجون هَرْجًا، إذا اختَلطوا. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (١/ ٣٥٠)، ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٢٥٧)، ((شرح النووي على مسلم)) (٧/ ٩٧).

(٥) أخرجه أحمد (٢٣٨٠٠)، وابن أبي عاصم في ((الآحاد والمثاني)) (٢١٤٠)، والداني في ((السنن الواردة في الفتن)) (٥).

جوَّد إسناده وقوَّاه ابن كثير في ((تفسير القرآن)) (٣/ ٢٦٦)، ووثق رجاله الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٧/ ٢٢٤).

﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾.

أي: ويُسلِّطَ بعضَكم على بعضٍ، فيَقتُلَ بعضُكم بعضًا في الفِتنةِ[1].

﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾.

أي: انظرْ- يا محمَّدُ- إلى تنويعِ حُجَجِنا على هؤلاء المشركينَ، وإيضاحِنا للحَقِّ؛ ليفهموا ذلك ويتدبَّروه، ويزدَجِروا عمَّا هم عليه من الشِّرْك بالله تعالى[2].

﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (٦٦)﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا كان الإنسانُ ربَّما حصَلَ له اللَّومُ بسبب قومِه؛ كان صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في هذا المقامِ بِمَعْرِضِ أن يَخافَ عاقبةَ ذلك، ويقول: فماذا أصنَعُ بهم؟ فقال تعالى- مُعلِمًا أنَّه ليس عليه بأسٌ مِن تكذيبِهم[3]:

﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ﴾.

أي: وكذَّبتْ قريشٌ- يا محمَّدُ- بالقرآنِ الذي جِئتَهم به، وهو الحقُّ الذي لا مِرْيَةَ فيه، ولا شَكَّ يعتريه[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٠).

واختار عوْدَ الضمير في ﴿بِهِ﴾ إلى القرآن: الواحديُّ في ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٢٨٥)، وابنُ عطية في ((تفسيره)) (٢/ ٣٠٣)، والقرطبيُّ في ((تفسيره القرطبي)) (٧/ ١١)، وابنُ كثيرٍ في ((تفسيره)) (٣/ ٢٧٧)، والسعديُّ في ((تفسيره)) (ص: ٢٦٠) ، وابنُ عاشورٍ في ((تفسيره)) (٧/ ٢٨٦). =

﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾.

أي: قل لهم- يا محمَّدُ-: لستُ عليكم بحَفيظٍ ولا رقيبٍ، ولستُ مُوَكَّلًا بكم، وإنَّما عليَّ البلاغُ، فأبلِّغُكم ما أُرْسِلْتُ به إليكم[1].

﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾.

أي: لكلِّ خَبَرٍ وقتٌ يستقرُّ فيه، وزمانٌ لا يتقدَّمُ عنه ولا يتأخَّرُ، وغايةٌ يَتبيَّنُ عندها حَقُّه من باطِلِه، وصِدْقُه مِن كَذِبِه[2].

﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

أي: وسوف تعلمونَ- أيُّها المُشركونَ المُكذِّبونَ- ما تُوعَدُون به مِن العذابِ[3].

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

قال تعالى: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ في هذا الإجمالِ مِن التهديدِ ما يُزَلْزِل القُلوبَ؛ إنَّها الطُّمأنينةُ الواثقةُ بالحَقِّ، الواثقةُ بِنِهايةِ الباطِلِ مهما تَبجَّح، الواثقةُ بأخْذِ اللهِ للمُكذِّبينَ في الأجَلِ المرسومِ، الواثقةُ مِنْ أنَّ كُلَّ نبأٍ إلى مُسْتَقَرٍّ، وكلَّ حاضرٍ إلى مصيرٍ، وما أحوَجَ أصحابَ الدَّعوةِ إلى اللهِ-

= وذَهَب ابنُ عاشور إلى أنَّ الضمير في ﴿بِهِ﴾ يحتملُ عودُه إلى الوعيدِ والعذابِ الذي تقدَّم ذِكرُه في الآية السابقة، وهذا اختيارُ ابن جرير في ((تفسيره)) (٩/ ٣١٠-٣١١)، ويرَى أنَّ معنى: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾، أي: العذاب الذي لا شكَّ فيه أنَّه واقعٌ.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣١١)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٠).

في مواجَهَةِ التَّكذيبِ من قومِهم، والجَفْوةِ مِن عشيرَتِهم، والغُربَةِ في أَهْلِهم، والأذَى والشِّدَّةِ والتَّعَبِ واللَّأْوَاء، ما أَحْوَجَهم إلى هذه الطُّمأنينةِ الواثِقَةِ التي يَسْكُبُها القرآنُ الكريمُ في القلوبِ[١]!

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قوله: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ الدَّلالةُ على كَمالِ القُدرة الإلهيَّةِ، وكمالِ الرَّحْمة والفضْل والإحسانِ[٢].

٢- يُستَفادُ مِن قَولِه: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ...﴾ أنَّ الهولَ والكَرْبَ الذي ترتعِدُ له الفرائِصُ ليس مؤجَّلًا دائمًا إلى يومِ الحَشْر والحِساب؛ فهم يُصادِفون الهولَ في ظُلُماتِ البَرِّ والبحر، فلا يتوجَّهونَ عند الكرب إلَّا لله، ولا يُنَجِّيهم مِنَ الكَرْبِ إلَّا اللهُ، ولكنَّهم يعودون إلى ما كانوا فيه من الشِّرْكِ عند اليُسْرِ والرَّخاء[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ يدلُّ على أنَّهم لم يَكونوا قَبْلَ الوُقوعِ في هذه الشَّدائِدِ شاكرينَ لِأَنْعُمِه[٤].

٤- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ وَضَعَ ﴿تُشْرِكُونَ﴾ مَوْضِعَ (لا تَعبُدون)؛ تَنبيهًا على أنَّ مَن أشْرَكَ في عِبادَةِ الله تعالى؛ فكأنَّه لم يَعْبُدْه[٥].

٥- قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ ....﴾ المقصودُ التَّهديدُ بتَذكيرِهم بأنَّ القادِرَ مِن شأنِه أن يُخافَ بَأْسُه[٦].

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١١٢٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ١٩٩).
(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١١٢٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٤٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٢٦).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٨٣).

٦- قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ لَمَّا كان لفظُ العذاب في قوله: ﴿عَذَابًا﴾ نكرةً؛ جازَ حَمْلُه على كلِّ عذابٍ يأتي من فوقِ الرؤوسِ ومن تحت الأرجُلِ، ولولا أنَّ هذا الإبهامَ مرادٌ لأجْلِ هذا الشُّمولِ، لصَرَّحَ بالمرادِ، كمَّا صَرَّح به في مِثْلِ قوله تعالى: ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ١٦ - ١٧]، وحِكمةُ مِثل هذا الإبهامِ في القُرآنِ أنْ ينطَبِقَ معنى اللَّفْظِ على ما يدلُّ عليه ممَّا يحدُث في المستقبَل، أو ينكشِفُ للنَّاسِ فيه ما كان خفيًّا عنهم؛ إذ ورد في وَصْفِ القرآنِ أنَّه لا تَنتهي عجائِبُه، وأنَّ فيه نبأَ مَن قَبْلَ الذين نَزَلَ في زمانهم، ومَنْ كان معهم، ومَن يَجيءُ بَعْدَهم، وما في هذه الآيةِ يشمَلُ ما لم يكُنْ في زمَنِ تنزيلِ القرآنِ ولا فيما قَبْلَه بحسَبِ ما يَعلم البَشَرُ؛ فقد أرسل اللهُ على الأمَمِ في الحروبِ المعاصِرَة عذابًا مِن فَوْقِها بما تقذِفُه الطَّيَّاراتُ من المقذوفاتِ الناريَّة، والسُّمومِ البُخاريَّة والغازِيَّة التي لم تُعْرَف من قبلُ، وعذابًا من تحتَها بما يتفجَّرُ من الألغامِ الناريَّة، وبما تُرسِلُه المراكبُ الغوَّاصةُ في البحرِ التي اختُرِعَت في هذا العصرِ، ولَبَسَها شِيَعًا متعادِيَةً، وأذاقَ بعضَها بأسَ بعضٍ، فحَلَّ بها مِنَ التقتيلِ والتَّخريبِ ما لم يُعهَدْ له نظيرٌ في الأرض[1].

٧- قوله تعالى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ عَطَفَ عليه ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾؛ لأنَّ مِن عواقِبِ ذلك اللَّبْسِ التقاتُلَ[2].

٨- في قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ﴾ عظيمُ التَّوبيخِ لهم، ودقيقُ التقريعِ، وذلك لأنَّهم كان يَنبغي عليهم أن يُسَرُّوا بسِيادَةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٤٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٨٤).

لكونِه منهم؛ لأنَّ القبيلةَ إذا ساد أحدُهم عَزَّتْ به؛ فإنَّ عِزَّه عِزُّها، وشَرَفَه شَرَفُها، ولا سيَّما إذا كان مِن بَيْتِ الشَّرَفِ، ومَعْدِنِ السِّيادة، وإذا سَفُلَ أحدُها اهتمَّتْ به غايةَ الاهتمامِ، وسَتَرَتْ عيوبَها مهما أمكَنَها؛ فإنَّ عارَه لاحِقٌ لها(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ الاستفهامُ المُسْتَعْمَل في قوله: ﴿مَنْ يُنَجِّيكُمْ﴾ يراد به التقريرُ والإنكارُ والتَّوبيخُ، والتوقيفُ على سُوءِ مُعتقَدِهم عند عِبادةِ الأصنامِ، وترْكِ الذي يُنجِّي من الشَّدائِدِ، ويُلجأُ إليه في كشْفِها؛ لكَوْنِ ذلك لا يُنازِعونَ فيه بحَسَب عَقائِد الشِّرْك(٢).

- وإعادة الأَمْرِ بالقَوْلِ ﴿قُل﴾؛ للاهتمامِ(٣).

- وخَصَّ لَفْظَ ﴿الظُّلُمَات﴾ بالذِّكرِ؛ لِمَا تَقرَّرَ في النُّفوسِ مِن هَولِ الظُّلمةِ(٤).

٢- قَوْلُه: ﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ قَدَّمَ المُسْنَد إليه ﴿اللَّهُ﴾ على الخَبَرِ الفِعليِّ ﴿يُنَجِّيكُمْ﴾؛ لإفادةِ الاختصاصِ، أي: اللهُ يُنَجِّيكم لا غَيْرُه؛ ولأجل ذلك صَرَّحَ بالفِعْل المستفْهَمِ عنه ﴿يُنَجِّيكُمْ﴾(٥).

- وفيه إطنابٌ؛ حيث زاد قولَه: ﴿وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾؛ لإفادةِ التَّعميمِ(٦).

- قوله: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ فيه تقديمُ المُسنَد إليه ﴿أَنْتُمْ﴾ على الخَبرِ الفِعليِّ ﴿تُشْرِكُونَ﴾؛ لمجرَّدِ الاهتمامِ بخَبرِ إسنادِ الشِّرْك إليهم، أي: أنتم،

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٢٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٨٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٨٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٠٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٨٢).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الذين تتضَرَّعونَ إلى الله باعترافِكم، تُشْركونَ به من قَبْلُ ومِن بَعْدُ[١].

- وجاء بالفِعل ﴿تُشْرِكُونَ﴾ بصيغةِ المُضارِع؛ لإفادَةِ تجدُّد شِرْكِهم، وأنَّ ذلك التجدُّدَ والدَّوامَ عليه أعْجَبُ[٢].

٣- قوله: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾

- قوله: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ، عقَّبَ به ذِكْرَ النِّعمَة التي في قوله: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ﴾ بذِكْرِ القُدرةِ على الانتقامِ؛ تخويفًا للمُشركينَ[٣]، ولبيانِ أنَّه القادِرُ على إلقائِهم في المهالِكِ إثْرَ بيانِ أنَّه هو المنَجِّي لهم منها، وفيه وعيدٌ ضمنيٌّ بالعذابِ؛ لإشراكِهم المذكورِ[٤].

- وتعريفُ المسنَد والمُسنَد إليه في قوله: ﴿هُوَ الْقَادِرُ﴾ أفاد القَصْرَ؛ فأفاد اختصاصَه تعالى بالقُدرة على بَعْثِ العذابِ عليهم، وأنَّ غيرَه لا يَقْدِر على ذلك؛ فلا يَنبغي لهم أن يَخْشَوُا الأصنامَ، ولو أرادوا الخيرَ لأنفُسِهم، لخافوا اللهَ تعالى، وأفرَدُوه بالعِبادةِ لِمَرْضاتِه، فالقَصْرُ المستفادُ إضافيٌّ[٥].

- وقيل: لم يَصُغْ قولَه: ﴿الْقَادِرُ﴾ صِيغةَ مبالغةٍ في قوله: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ﴾؛ لأنَّهم لم يكونوا يُنْكِرونَ قُدرَتَه، إنما كانوا يَدَّعونَ المشارَكَةَ التي نفاها

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٨٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٨٤).

بالتَّخصيصِ، على أنَّ التعريفَ يُفيدُ به المبالغة(١).

- وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ على المفعولِ الصَّريحِ ﴿عَذَابًا﴾؛ للاعتناءِ به، والمسارَعَةِ إلى بيانِ كَوْنِ المبعوثِ مِمَّا يضرُّهم، ولتهويلِ أمْرِ المؤخَّر(٢).

- قوله: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ﴾ على قراءةِ (وَنُذِيقَ) بنونِ العَظَمَةِ، يكون فيه التفاتٌ؛ لتهويلِ الأمْرِ، والمبالغةِ في التحذيرِ، ونِسبةُ ذلك إلى اللهِ على سبيلِ العَظَمَةِ والقُدْرَةِ القاهِرةِ(٣).

- قوله: ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾: في الأمْرِ بالنظر ﴿انْظُرْ﴾ تنزيلٌ للمعقولِ منزِلَةَ المحسوسِ؛ لِقَصْدِ التعجُّبِ منه(٤).

- قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ؛ جوابٌ لسؤالِ سائلٍ عن فائِدَةِ تصريفِ الآياتِ، وذلك رجاءَ حُصُولِ فَهْمِهم؛ لأنَّهم لعنادِهم كانوا في حاجَةٍ إلى إحاطةِ البيانِ بأفهامِهم؛ لعلَّها تتذكَّر وتَرْعَوي(٥).

- وفيه تَكرارٌ لِمَا سبَقَ نظيرُه في هذه السُّورة مع الاختلافِ في ختامِ كلِّ آيةٍ، وهي قولُه: ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾، وهنا قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾، وإنَّما كرَّره طلبًا للرغبةِ في إيمانِ المذكورينَ؛ إذِ التَّقديرُ: انظُرْ كيفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ (ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ)، أي: يُعْرِضون عنها، فلا تُعْرِضْ عنهم، بل كرِّرْها لهم؛ (لعلَّهم يَفْقَهون)، أي: يَفهمون؛ وإنَّما ختَم

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٤٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٨٥).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٨٦).

الأُولى بقوله: ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾، والثانيةَ بقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾؛ لأنَّ الإعراضَ عن الشَّيءِ أقبحُ من عدم فَهْمِه، فوُصِفوا بالأوَّلِ في الآيةِ الأولى؛ تَبَعًا لِما وُصِفوا به قبْلَها من قسوةِ قلوبِهم، ونسيانِهم ما ذُكِّروا به وغيرِهما، وذلك مفقودٌ في الثانيةِ[1].

٤- قوله: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾

- التَّعبيرُ عنهم بـ﴿قَوْمُكَ﴾ للتَّسجيلِ عليهم بسوءِ مُعامَلَتِهم لِمَن هو من أنْفُسِهم[2]، والمراد: بَعْضُهم؛ فإنَّ منهم أفاضِلَ المُسلمينَ والصِّديقَ وعليًّا رَضِيَ اللهُ عنهما[3].

- والتعديةُ بـ(على) في قوله: ﴿عَلَيْكُمْ﴾؛ لتضمُّنه معنى الغَلَبَة والسُّلْطة، أي: لستُ بقَيِّمٍ عليكم، يمنعُكم من التكذيبِ[4].

٥- قوله: ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ﴾ مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ يُثيرُ سؤالَهم أن يقولوا: فمتى يَنْزِل العذابُ؟ فأُجيبوا بقولِه: ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ﴾[5].

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٠٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:١٦٧-١٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٨٦).

(٣) يُنظر: ((البرهان)) للزركشي (٢/ ٢٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٨٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٦٨ - ٧٠)

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨) وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٦٩) وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠) ﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿يَخُوضُونَ﴾: أي: يَكذِبون ويَسْتَهزؤونَ، وأصلُ الخوضِ: هو الشُّروعُ في الماءِ والمرورُ فيه، ومِنه الشُّروعُ في الأمورِ؛ يُقال: تخاوَضُوا في الحَديثِ والأمرِ، أي: تَفاوَضُوا وتداخَلَ كلامُهم، وأكثرُ ما ورَدَ الخوضُ في القرآنِ فيما يُذَمُّ الشُّروعُ فيه، وأصل (خوض): توسُّطُ شيءٍ، ودخولٌ[1].

﴿وَذَرِ﴾: أي: اترُكْ؛ يقال: فلان يَذَرُ الشَّيءَ، أي: يقذِفُه؛ لقلَّةِ اعتدادِه به[2].

﴿وَغَرَّتْهُمُ﴾: أي: أصابتْ غِرَّتَهم، ونالتْ منهم ما تريدُه، والغِرَّةُ: غفلةٌ في اليقظةِ، والغِرار: غفلةٌ مع غفوةٍ، والغُرورُ: كُلُّ ما يغرُّ الإنسانَ من مالٍ وجاهٍ وشهوةٍ وشيطانٍ، وأصلُ ذلك من الغُرِّ، وهو الأثرُ الظَّاهِرُ من الشَّيءِ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣١٣، ٤٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٧).

(٢) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٩).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٣- ٦٠٤).

﴿تُبْسَلَ﴾: أي: تُرتَهنَ، وتُسْلَمَ للهَلَكَة، والبَسْل: ضمُّ الشَّيءِ ومَنْعُه، وأصل (بسل): منَعَ وحَبَس[1].

﴿حَمِيم﴾: الحميمُ: الماءُ الشَّديدُ الحرارةِ، وأصل (حمم): يدلُّ على الحرَارةِ، وعلى معانٍ أخرى متفاوِتَةٍ[2].

مُشكِلُ الإعراب:

١ - قَوْلُه تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾

﴿وَلَكِنْ ذِكْرَى﴾: (الواو) عاطِفَةٌ للجُمَلِ لا المُفرداتِ. و﴿لَكِنْ﴾ حَرْفُ استدراكٍ لا عَمَلَ له. و﴿ذِكْرَى﴾ يَجوزُ فيها النَّصْبُ والرَّفعُ، وعلامةُ الإعراب مُقدَّرةٌ عل آخِرِها للتعذُّرِ؛ أمَّا النَّصْبُ فعَلى المصْدَرِ بِفِعْلٍ مَحذوفٍ؛ والتقديرُ: (ولَكِنْ ذَكِّرُوهم ذِكْرى)، أو (ولكنْ يُذَكِّرونَهم ذِكْرى). وأمَّا الرَّفْعُ فعَلَى أنَّها مُبتدأٌ، والخبرُ محذوفٌ؛ تقديرُه: ولَكِنْ عليهم ذِكْرى. أو على أنَّه خَبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ؛ والتَّقديرُ: هو ذِكْرى؛ أي: الواجِبُ ذِكْرى، أو التقدير: هذا ذِكْرَى؛ أي النَّهْيُ عَنْ مُجالَسَتِهم ذِكْرَى، وعلى كُلٍّ فالجُملةُ معطوفةٌ بالواوِ على جُملةِ: ﴿وما عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص:١٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص:٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٤، ٤٤٨).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٥٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٠٦) ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٤٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٦٧٦).

٢- قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾

﴿أَنْ تُبْسَلَ﴾: مَصدرٌ مُؤَوَّلٌ في مَحَلِّ نَصبٍ، مَفعولٌ مِن أَجْلِه؛ والتقديرُ: مَخافةَ أنْ تُبسَل أو كَراهَةَ أنْ تُبْسَلَ، أو لِئَلَّا تُبْسَلَ. ويجوز أنْ يكونَ في محَلِّ جَرٍّ على البَدَلِ من الهاءِ في ﴿بِهِ﴾ والتقدير: وذَكِّرْ بارْتِهانِ النُّفُوسِ، وحَبْسِها بِما كَسَبَتْ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ تعالى نبيَّه محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أن يُعْرِضَ عنِ الذينَ يَتكلَّمونَ في آياتِ الله بالتَّكذيبِ والاستهزاءِ والباطِلِ، وأن ينصرفَ عن مجالِسِهم حتى يَشْرَعوا في كلامٍ آخَرَ غيرِه، فإنْ أنساه الشيطانُ النَّهْيَ عن ذلك، فجَلَس معهم ثمَّ تذكَّرَ فلْيَقُمْ عنهم، ولا يَجْلِسْ بعد الذِّكرى مع القَوْمِ الظَّالِمين.

ثم بيَّن تعالى أنَّه ليس على المُتَّقينَ- الذين اجتَنبوا الجُلُوسَ مع أولئك الخائِضينَ في آياتِ الله بالباطِلِ- شيءٌ مِن حسابِهم على ما ارْتَكبوا، ولكنْ عليهم تذكيرُ الكافرينَ بالموعظةِ والبيانِ؛ لعلَّهم يتَّقونَ.

ثم أمَرَ اللهُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أن يَدَعَ الذين جَعلوا حَظَّهم مِن الدِّينَ اللَّعِبَ واللَّهْوِ؛ مُستهزئينَ بآياتِ اللهِ، ويُعْرِضَ عنهم، وأَمَرَه أن يذَكِّرَ النَّاسَ بالقرآنِ؛ ليؤمِنوا ويتَّبِعوا الحَقَّ، حتى لا تُحْبَسَ نفسٌ بذُنُوبها وكُفْرِها عمَّا يُنَجِّيها في الدُّنيا والآخرة، وتُسْلَمَ للعذابِ والهلاكِ، ليس لها حينئذٍ أحَدٌ يُنْقِذُها من عذاب الله، ولا شَفيعٌ يَطْلُبُ لها العفْوَ من الله جلَّ وعلا، وحتى إنْ بَذَلَت تلك النَّفْسُ كُلَّ فِداءٍ لِتفتدِيَ به، لا يُقْبَل منها، وهؤلاءِ هم الذين أُسْلِمُوا لعذابِ الله،

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٥٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٤٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٦٧٩-٦٨٠).

وحُبِسُوا به؛ بسبَبِ ما ارتكبوه من المعاصي والآثامِ في الدُّنيا، أولئك لهم شرابٌ شديدُ الحرارةِ، وعذابٌ مُوجِعٌ؛ جزاءَ كُفْرِهم في الدُّنيا.

تَفْسيرُ الآياتِ:

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا بَيَّنَ تعالى في قوله: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ أنَّ الذين يُكَذِّبون بهذا الدِّينِ لا يَجِبُ على الرَّسولِ أنْ يُلازِمَهم، وأنْ يكونَ حفيظًا عليهم- بَيَّنَ في هذه الآيةِ أنَّ أولئك المُكَذِّبينَ إنْ ضَمُّوا إلى كُفْرِهم وتكذيبِهم الاستهزاءَ بالدِّينِ، والطَّعْنَ في الرَّسولِ؛ فإنَّه يجبُ الاحترازُ عن مُقارَنَتِهم، وتَرْكُ مُجالَسَتِهم(١).

وأيضًا لَمَّا أَمَرَ الله نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بما يقولُ جوابًا لتكذيبِهم في الآيةِ السَّابقةِ، تَقدَّمَ إليه فيما يفعَلُ وَقتَ خَوضِهم في التكذيبِ(٢)؛ فقال:

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ﴾.

أي: وإذا رأيتَ- يا محمَّدُ- المشركينَ الذين يَخُوضونَ في آياتِنا، التي أنْزَلْناها إليك، بالتَّكذيبِ والاستهزاءِ، وغيرِ ذلك مِمَّا يُخالِفُ الحَقَّ، فقُمْ عنهم، ولا تَجْلِسْ معهم حتَّى يأخذوا في كلامٍ آخَرَ، غيرِ ما كانوا فيه مِن التَّكذيبِ والاستهزاءِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٢٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٤٦)

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٠).

قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: وإنْ أنساكَ الشيطانُ- يا محمدُ- نَهْيَنا عن الجُلوسِ مع أولئك الخائضينَ، والإعراضَ عنهم، ثم تذكَّرْتَ ذلك؛ فقُمْ عنهم، ولا تَقْعُدْ مع القَومِ الَّذين خاضُوا فيما لا يحلُّ لهم الخَوْضُ فيه(١).

﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝٦٩﴾.

أي: إذا تجنَّبَهم المُتَّقون؛ فلم يَجْلِسوا معهم في ذلك، وأعْرَضوا عنهم- كما أُمِرُوا- فقد تخلَّصوا من إثْمِ خَوْضِ الكُفَّار فيما يَخوضُون فيه مِن الباطِلِ، ولا يُحاسَبون على شيءٍ من ذلك، ولكنْ عليهم الذِّكرى للكافرينَ بالموعظةِ والبَيانِ؛ لِيَتَّقُوا اللهَ عزَّ وجلَّ؛ فيترُكوا الخَوْضَ في آياتِه سبحانه، ولا يَعُودُوا إلى ذلك(٢).

﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ۝٧٠﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٧٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ١٤٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٤٣٠).

وقيل في تفسيرِ هذه الآيةِ أقوالٌ أخرى: يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣١٦-٣١٧)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٩٣).

﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾.

أي: ودَعْ- يا محمَّدُ- هؤلاءِ الذين جَعَلوا نصيبَهم مِن دِينِ اللهِ تعالى اللَّعِبَ بآياتِه، واللهوَ والاستهزاءَ بها إذا سَمِعوها، وقد اغترُّوا بزينةِ الحياةِ الدُّنيا، فنَسُوا المعادَ إلى الله تعالى، والمصيرَ إليه بعد المماتِ؛ فأعرِضْ عنهم، واتْرُكْهم(١).

﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ ﴾.

أي: وذكِّرِ النَّاسَ- يا محمَّدُ- بهذا القرآنِ، ومِنهم هؤلاء الذين يَخوضُون في آياتِنا وغيرُهم منَ الكُفَّار والمشركينَ؛ ليؤمنوا ويتَّبِعوا الحقَّ الذي جاءَهم مِن عِندِ الله تعالى؛ كيلا تُحْبَسَ نفسٌ بذُنوبها وكُفْرِها بِرَبِّها، عمَّا فيه نجاتُها في الدُّنيا والآخرة، وتُسْلَمَ للعذابِ والهلاكِ(٢).

﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾.

أي: ليسَ لها حينَ تُسْلَمُ بذُنُوبِها، وتُرْتَهَن بآثامِها، أحدٌ يَنصُرُها، فيُنْقِذُها من عذابِ الله تعالى، ولا شفيعٌ يَطْلُب لها العَفْوَ مِن الله عزَّ وجلَّ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣١٨-٣١٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦١).
وفي معنى الآية أقوالٌ أخرى؛ قال ابنُ عطية: (وقوله: ﴿لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ يُريد: إذ يعتقدون أنْ لا بعثَ، فهُم يتصرَّفون بشهواتِهم تصرُّفَ اللَّاعِبِ اللَّاهي) ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٠٥).
وقال ابنُ عاشور: (اتَّخذوه لعبًا ولهوًا، أي: جعَلوا الدِّين مجموعَ أمورٍ هي من اللَّعب واللهو، أي: العبث واللهو عند الأصنام في مواسِمِها، والمُكاء والتَّصدية عند الكعبة، على أحدِ التفسيرين في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥]... ويجوز أن يكونَ المرادُ من الدِّين العادةَ... أي: الذين دَأْبهم اللعب واللهو، المُعرِضون عن الحقِّ، وذلك في معاملتِهم الرسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم) ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٩٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٢٠-٣٢٣)، ((تفسير آيات أشكلت على كثير من العلماء)) لابن تيمية (١/ ٣٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٩٧).

﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا﴾.

أي: ولو بَذَلَتِ النَّفسُ التي أُبسِلَت بما كسَبَت، كلَّ فِداءٍ لتفتَدِيَ به؛ لا يُقبَل منها(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٩١].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾.

أي: وهؤلاءِ الذين إنْ فَدَوْا أنفُسَهم مِن عذابِ الله يومَ القيامةِ كُلَّ فداءٍ لم يُؤخَذْ منهم، هم الذين أُسْلِمُوا لعذابِ الله، فحُبسوا به؛ جزاءً بما كسبوا في الدُّنيا من الآثام والأوزارِ، لهم شرابٌ شديدُ الحرارةِ، يَشوي وجوهَهم، ويُقطِّعُ أمعاءَهم، ولا يَرويهم مِن عَطَشٍ، ولهم مع ذلك عذابٌ مُوجِعٌ؛ بسبَبِ كُفْرِهم في الدُّنيا بالله، وإنكارِهم توحيدَه، وعِبادَتِهم معه آلهةً دونَه(٢).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في ذَمِّ الخوضِ بالباطِلِ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ حَثٌّ على البَحْثِ والنَّظَرِ والمُناظَرَةِ بالحَقِّ(٣).

٢- سببُ النَّهيِ عن مُجالسةِ الخائضينَ في آياتِ اللهِ بالباطِلِ في قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٢٥-٣٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٠).

أنَّ الإقبالَ على الخائضينَ، والقعودَ معهم، أقلُّ ما فيه أنَّه إقرارٌ لهم على خَوْضِهم، وإغراءٌ بالتَّمادِي فيه، وأكبَرُه أنَّه رِضاءٌ به، ومُشاركةٌ فيه(١). كما أن الإعراضِ عنهم فيه زَجْرُهم، وقَطْعُ الجدالِ معهم؛ لعلَّهم يَرْجِعون عن عِنادِهِم(٢).

٣- قولُه تعالى: ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يَشْمَلُ الخائضينَ بالباطِلِ، وكلَّ مُتكلِّمٍ بِمُحَرَّمٍ، أو فاعِلٍ لمُحَرَّمٍ؛ فإنَّه يَحْرُم الجُلُوسُ والحضورُ عند حُضُورِ المُنْكَر، الذي لا يَقْدِرُ على إزالَتِه(٣).

٤- قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ فيه دَليلٌ على أنَّه إذا كان التَّذكيرُ والوعظُ مِمَّا يَزيدُ الموعوظَ شَرًّا إلى شَرِّه، كانَ تَرْكُهُ هو الواجِبَ؛ لأنَّه إذا ناقَضَ المقصودَ كان تَرْكُه مقصودًا(٤).

٥- قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ فيه دليلٌ على أنَّه يَنبغي أن يَسْتَعمِلَ المُذَكِّرُ مِن الكلامِ ما يكون أقرَبَ إلى حُصولِ مقصودِ التَّقوى(٥).

٦- يُستَفادُ من قوله: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ- ويَنْسَحِبُ الأمرُ على كلِّ مُسلِمٍ- مأمورٌ أنْ يُهْمِلَ شأنَ الذين يتَّخذون دينَهم لَعِبًا ولهوًا، وهذا يتمُّ بالقَوْلِ كما يتِمُّ بالفِعْلِ؛ فالذي لا يَجعل لِدِينِه وقارَه واحترامَه باتِّخاذِه قاعِدَةَ حياتِه؛ اعتقادًا وعبادةً، وخُلقًا وسُلوكًا، وشريعةً وقانونًا؛ إنَّما يتَّخِذُ دينَه لَعِبًا ولهوًا، والذي يتحدَّث عن مَبادِئِ هذا الدِّينِ وشرائِعِه، فيَصِفُها أوصافًا تدْعو إلى اللَّعِبِ واللَّهْو؛ كالَّذين يَتحدَّثون

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٤٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٦١).

عن (الغَيْبِ)- وهو أصْلٌ من أصولِ العقيدةِ- حديثَ الاستهزاءِ، والذين يتحدَّثون عن (الزكاةِ)- وهي ركنٌ مِن أركانِ الدِّينِ- حديثَ الاستصغارِ، والذينَ يتَّحدَّثون عن الحياءِ والخُلُقِ والعِفَّة- وهي مِن مبادِئِ هذا الدِّينِ- بوصْفِها من أخلاقِ المجتمعاتِ الزِّراعيَّة، والذين يَصِفونَ الضَّماناتِ التي جَعَلَها اللهُ للمرأة؛ لتَحْفَظَ عِفَّتَها، بأنَّها «أغلال!»، وقبلَ كُلِّ شيءٍ وبعدَ كلِّ شيء: الذين يُنكِرونَ حاكِمِيَّةَ اللهِ المُطْلَقَة في حياةِ النَّاسِ الواقعيَّة: السِّياسيَّة والاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والتَّشريعيَّة، ويقولون: إنَّ للبَشَرِ أن يُزاولوا هذا الاختصاصَ دون التقيُّدِ بشريعةِ اللهِ- أولئك جميعًا من المَعْنيِّينَ في هذه الآياتِ بأنَّهم يتَّخِذونَ دِينَهم لَعِبًا ولهوًا، وبأنَّ المُسلمَ مأمورٌ بمُفاصَلَتِهم ومُقاطَعَتِهم إلَّا للذِّكرى(١).

٧- قولُه تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا ...﴾ إلى قولِه: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ فيه بيانُ أنَّ وُجوهَ الخَلاصِ على تلك النَّفْسِ مُنسَدَّةٌ، فلا وَلِيَّ يتولَّى دَفْعَ ذلك المحذورِ، ولا شفيعَ يَشفَعُ فيها، ولا فِدْيَةَ تُقبَل؛ ليَحْصُلَ الخلاص بسبَبِ قَبُولها؛ حتى لو جُعِلَتِ الدُّنيا بأسْرِها فِديةً من عذابِ الله لم تنفَعْ. فإذا كانت وجوهُ الخلاصِ هي هذه الثلاثةَ في الدُّنيا، وثبَتَ أنَّها لا تُفيدُ في الآخرَةِ البتَّةَ، وظهر أنَّه ليس هناك إلَّا الإبسالُ، الذي هو الارتهانُ والانغلاقُ والاستسلامُ؛ فليس لها البتَّةَ دافِعٌ من عذابِ الله تعالى، وإذا تصوَّرَ المرءُ كيفيَّةَ العقابِ على هذا الوجْهِ يكادُ يُرْعَدُ إذا أقدَمَ على معاصي اللهِ تعالى(٢).

الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- الخوضُ في قوله تعالى: ﴿يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ ﴿حَتَّى يَخُوضُوا فِي

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٢٥).

حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ أكْثَرُ ما وردَ في القُرآنِ وردَ فيما يُذمُّ الشُّروعُ فيه، وإنَّما عَبَّر عن انتقالِهم إلى حَديثٍ آخَرَ بالخَوضِ؛ لأنَّهم لا يَتحدَّثون إلَّا فيما لا جَدْوَى له مِن أحوالِ الشِّرْكِ، وأُمورِ الجاهليَّةِ(١).

٢- يُؤخَذُ من قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ﴾ أنَّ الأَعراضَ البَشَريَّةَ الجائزَةَ على الأنبياءِ التي لا تُخِلُّ بتبليغٍ، قد يكونُ بعضُها مِن أثَرِ عَمَلِ الشَّيطانِ(٢).

٣- قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى﴾ يُفيدُ أنَّ التكليفَ ساقِطٌ عنِ النَّاسي(٣).

٤- يُستَفادُ مِن قولِه: ﴿وَما عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أنَّه ليستْ هنالك تَبِعَةٌ مُشتَرَكةٌ بين المُتَّقينَ والمُشْركينَ؛ فهما أُمَّتانِ مُختلِفَتانِ- وإن اتَّحدَتا في الجِنْس والقوم- فهذه لا وزنَ لها في ميزانِ اللهِ، ولا في اعتبارِ الإسلامِ، إنَّما المُتَّقون أمَّةٌ، والظَّالمون (أي المشركونَ) أمَّةٌ، وليس على المُتَّقينَ شيءٌ من تَبِعَةِ الظَّالمينَ وحِسابِهم، ولكنَّهم إنَّما يقومونَ بتَذكيرِهم؛ رجاءَ أن يتَّقوا مِثْلَهم، وينضمُّوا إليهم، وإلَّا فلا مُشارَكَةَ في شيءٍ إذا لم تكن مشاركةٌ في عقيدةٍ(٤).

٥- قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا...﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٩٠).
قال البقاعيُّ: (ولما كان الخوضُ في الآياتِ دالًّا على قلةِ العقلِ قال: ﴿حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ فحكَم على حديثِهم فيما سوَى ذلك أيضًا بالخوضِ؛ لأنَّ فيه الغثَّ والسَّمينَ؛ لأنَّه غيرُ مقيَّدٍ بنظامِ الشَّرع). ((نظم الدرر)) (٢/ ٦٥٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٩٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٢٣).
(٤) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١١٢٨).

المرادُ من هذه الآيةِ وما في معناها: إبطالُ أصْلٍ من أصول الوثنيَّةِ، وهو تعليقُ النَّجاةِ في الآخرة- كنَيْل كثيرٍ من المقاصِدِ في الدنيا- بتقديمِ الفِديَةِ لله تعالى، أو بشفاعةِ الشَّافعينَ عنده، أي: بوساطةِ الوُسَطَاء- وتقريرُ أصلِ الدِّينِ الإلهيِّ، وهو أنَّ النَّجاةَ في الآخِرة، ورضوانَ اللهِ، والقُرْبَ منه، لا يُنالُ إلَّا بما شَرَعه اللهُ على ألْسِنَةِ رُسُلِه من الإيمانِ والإسلامِ؛ وبعِبارةٍ أخرى بالعمل الصَّالِحِ الذي تتزكَّى به الأنفُسُ مع الإيمانِ الإذْعانيِّ باللهِ وبِرُسُلِه وما جاؤُوا به، ومِن إبسالِهم كَسْبُهم للسيِّئاتِ والخطايا، واتِّخاذُهم الدِّينَ لَعِبًا ولهْوًا، وغرورُهم بالحياةِ الدُّنيا، فلا تنفَعُهم شفاعةٌ، ولا تُقبَلُ منهم فِديةٌ[١].

٦- في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ خُصَّ الشَّرابُ مِن الحَميمِ من بين بقيَّةِ أنواعِ العذابِ المذكورِ مِن بعدُ؛ للإشارَةِ إلى أنَّهم يَعطَشونَ فلا يَشْربونَ إلَّا ماءً يَزيدُهم حرارةً على حرارةِ العَطَشِ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾

- قوله: ﴿الَّذِينَ يَخُوضُونَ﴾ فيه العُدولُ عن الإتيانِ بالضَّميرِ إلى الإتيانِ بالاسْمِ الظَّاهِرِ، وهو اسمُ الموصولِ ﴿الَّذِينَ﴾، فلم يقُلْ: وإذا رأيتَهم فأعْرِضْ عنهم؛ للدَّلالةِ على أنَّ الذين يخوضونَ في الآياتِ فريقٌ خاصٌّ من القومِ الذين كذَّبوا بالقرآنِ أو بالعذابِ؛ فعمومُ القَوْمِ أنكرُوا وكذَّبوا دون خوضٍ في آيات القرآنِ، فأولئك قِسْمٌ، والذين يَخوضونَ في الآياتِ قِسْمٌ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٤٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٩٩).

كان أبذى وأقْذَعَ، وأشَدَّ كفرًا وأشنَعَ، وهم المتصَدُّونَ للطَّعنِ في القرآن، وهؤلاء أُمِرَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالإعراضِ عن مجادَلَتِهم، وتَرْكِ مَجالِسِهم؛ حتى يَرْعَوُوا عن ذلك، ولو أُمِرَ الرَّسولُ- عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- بالإعراضِ عن جميع المُكذِّبينَ، لتعطَّلَت الدَّعوة والتَّبليغُ[1].

- وجاءَ تعريفُ هؤلاء بالموصوليَّة ﴿الَّذِيْنَ يَخُوضُونَ﴾ دون أن يُقالَ (الخائضينَ) أو (قومًا خائضينَ)؛ لأنَّ الموصولَ فيه إيماءٌ إلى وجْهِ الأمرِ بالإعراضِ لأنَّه أمرٌ غريبٌ، إذ شأنُ الرَّسولِ- عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- أن يمارِسَ النَّاسَ لعَرْضِ دعوةِ الدِّينِ، فأمْرُ اللهِ إيَّاه بالإعراضِ عن فريقٍ منهم يحتاجُ إلى توجيهٍ واستئناسٍ. وذلك بالتعليلِ الذي أفاده الموصولُ وصِلَتُه، أي: فأعرِضْ عنهم؛ لأنَّهم يخوضون في آياتنا، وهذه الآيةُ أحسنُ ما يُمَثَّلُ به لمجيءِ الموصولِ للإيماءِ إلى إفادةِ تعليلِ ما بُنِيَ عليه من خَبَرٍ أو إنشاءٍ؛ ألَا ترى أنَّ الأمْرَ بالإعراضِ حُدِّدَ بغايةِ حصولِ ضِدِّ الصِّلَةِ ﴿حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيْثٍ غَيْرِه﴾[2].

- قوله: ﴿وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ﴾ في عَطْفِ حالةِ النِّسيانِ زِيادةٌ في تأكيدِ الأمْرِ بالإعراضِ[3].

- قوله: ﴿مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: معهم؛ فوُضِعَ الظَّاهِرُ موضِعَ المُضْمَرِ؛ دلالةً على أنَّهم ظَلَمُوا بوضْعِ التكذيبِ والاستهزاءِ مَوضِعَ التَّصديقِ والاستعظامِ[4]، والإظهارُ في مقام الإضمار أيضًا؛ لزيادةِ فائدةِ وَصْفِهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٨٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٨٨- ٢٨٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٩٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٦٧).

بالظُّلم، فيُعْلَم أنَّ خَوْضَهم في آياتِ اللهِ ظُلْمٌ، فيُعْلَم أنَّه خَوضُ إنكارٍ للحقِّ، ومكابرةٍ للمُشاهدَةِ(١).

٢- قوله: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾

- قوله: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أمْرٌ متضَمِّنٌ للتَّهديدِ والوعيدِ لهم(٢).

- وذِكْرُ الحياةِ هنا في قولِه: ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ له موقِعٌ عَظيمٌ، وهو أنَّ هَمَّهم من هذه الدُّنيا هو الحياةُ فيها، لا ما يُكْتَسَب فيها من الخيراتِ التي تكون بها سعادةُ الحياةِ في الآخرةِ، أي: غرَّتْهم الحياةُ الدُّنيا، فأوهَمَتْهم أنْ لا حياةَ بَعْدَها(٣).

- قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ مُستأنَفٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ الكلامَ يُثيرُ سؤالَ سائلٍ يقولُ: فما حالُ الذينَ اتَّخَذوا دينَهم لعبًا ولَهْوًا من حالِ النفوسِ التي تُبْسَل بما كَسَبَتْ؟ فأُجيبَ بأنَّ أولئك هم الذين أُبْسِلوا بما كَسَبوا(٤).

- والتعريفُ للجُزأَينِ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا﴾ أفاد القَصْرَ، أي: أولئك هم المُبْسَلون لا غيرُهم، وهو قَصْر مبالغةٍ؛ لأنَّ إبسالَهم هو أشَدُّ إبسالٍ يقع فيه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٩٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٤٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٩٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٩٨).

النَّاسُ؛ فجُعِلَ ما عداه كالمعدومِ[1].

- وقوله: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فيه تأكيدٌ وتفصيلٌ لذلك، والمعنى: هم بينَ ماءٍ مُغْلًى يتجرجَرُ في بُطونِهم، ونارٍ تشتعِلُ بأبدانِهم بسبَبِ كُفْرِهم[2].

- وفي قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ زِيدَ فِعلُ (كان)؛ ليدلَّ على تَمَكُّن الكُفرِ منهم واستِمرارِهم عليه؛ لأنَّ فِعْلَ مادَّةِ الكونِ يدُلُّ على الوجودِ؛ فالإخبارُ به عن شيءٍ مُخْبَرٍ عنه بغيرِه أو موصوفٍ بغيرِه لا يُفيدُ فائدةَ الأوصافِ، سِوى أنَّه أفاد الوجودَ في الزَّمَن الماضي، وذلك مُستعمَلٌ في التمكُّنِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٩٩).

الآيات (٧١ - ٧٣)

﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٧١) وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٢) وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ (٧٣) ﴾.

غَريبُ الكَلمات:

﴿وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا﴾: أي نرجِعُ إلى الكُفر، والارْتِدادُ والرِّدَّةُ: الرجوعُ من الإسلامِ إلى الكُفْرِ، لكنَّ الرِّدَّة تختصُّ بالكُفر، والارتدادُ يُستعمَلُ فيه وفي غيره، والعَقِب: مؤخَّر الرِّجْل[١].

﴿اسْتَهْوَتْهُ﴾: أي: هَوَتْ به وذهَبَتْ، فضَلَّ في الأرضِ في حالِ حَيْرتِه، أو ذهبَتْ به مَرَدَةُ الجنِّ في المفاوز البعيدة، والهوى: ميلُ النَّفْس إلى الشَّهوةِ، وقيل: سُمِّيَ بذلك؛ لأنه يَهوِي بصاحِبِه في الدُّنيا إلى كلِّ داهِيَةٍ، وفي الآخِرَة إلى الهاوِيَة[٢].

﴿الصُّورِ﴾: أي: القَرْنُ يَنْفُخُ فيه إسرافيلُ عليه السَّلام[٣].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٩، ٥٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٧، ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص:١٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥، ٢٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٣٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٧).

مشكل الإعراب:

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾

﴿وَيَوْمَ﴾: مفعولٌ به لفعلٍ محذوفٍ تقديرُه: اذكُرْ، أو معطوفٌ على الضَّميرِ المنصوبِ في قوله: ﴿اتَّقُوه﴾ في الآيةِ السَّابقةِ، على حذْفِ مُضافٍ، أي: واتَّقوا عذابَ يومِ يقولُ، ويجوز أن يكون ظرفَ زمانٍ منصوبًا، مُتعلِّقًا بمحذوفٍ خبر مقدَّم للمبتدأِ المؤخَّر ﴿قَوْلُه﴾، و﴿الحَقُّ﴾ صِفَتُه، أي: وقولُه الحقُّ في يومِ يقولُ: كُنْ فيكونُ.

﴿كُنْ﴾: فعلُ أمْرٍ تامٌّ، وفاعلُه ضميرٌ مستَتِرٌ تقديره «أنت» يرجِعُ إلى كلِّ ما خَلَقَ الله.

﴿فَيَكُونُ﴾: مرفوعٌ، وهو فعل تامٌّ أيضًا، أي: «فهو يكونُ»، فجملةُ «يكون» ليستْ داخلةً في مقولِ القَوْلِ، بل هي جملةٌ مستقلَّةٌ مُستأنَفةٌ، وفاعله أيضًا ضميرٌ مستتِرٌ تقديره «هو» يرجع إلى كلِّ ما خَلَق الله، ويجوز أن يكون فاعِلُه: ﴿قَوْلُهُ﴾، و﴿الحَقُّ﴾ صفةٌ لـ﴿قَوْلُهُ﴾، أي: فيوجَدُ قولُه الحَقُّ، ويكون الكلامُ على هذا تامًّا على ﴿الحَقُّ﴾[1]. ويجوز أنْ يكونَ ﴿قَوْلُه﴾ مبتدأً، و﴿الْحَقُّ﴾ خَبَرُه.

المعنى الإجماليّ:

يأمُر اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أن يقولَ للمُشركينَ: أَندْعُو مِن دونِ اللهِ ما لا يَملِكُ لنا نفعًا، ولا يستطيعُ أن يُلْحِقَ بنا ضُرًّا، ونَرجِعُ إلى الضَّلال والكُفْر بعد أنْ هدانا اللهُ إلى الإسلامِ، فنكونَ كرجلٍ أَغْوَتْه الشياطينُ عن مقصِدِه، وله أصحابٌ يدعونَه للطَّريقِ المُوصِل لبُغْيَتِه، ويطلبونَ منه أنْ يأتِيَهم؛ ليكونَ معهم على الهُدى، قلْ لهم يا محمَّدُ: إنَّ هدى الله هو الهدى الحَقُّ، وأُمِرْنا أن ننقادَ لله

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٥٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٠٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٦٩٠).

تعالى، ونَستَسْلِمَ لشَرْعِه، وأُمْرِنا بإقامةِ الصَّلاةِ، وأن نَتَّقيَه عزَّ وجلَّ، وهو سبحانه مَن إليه تُجْمَعون يومَ القيامة، فيُجازيكم على أعمالِكم خَيرِها وشَرِّها.

وهو سبحانه الذي خَلَقَ السَّمواتِ والأرضَ بالحقِّ، ويومَ القِيامةِ الذي يكونُ بقَوْلِ الله: ﴿كُنْ﴾ فيكونُ، فقولُه تعالى لا مِرْيَةَ فيه، وهو الصِّدْقُ، واللهُ عزَّ وجلَّ له المُلْك وَحْدَه سبحانه في يومِ القِيامة، هو عالِمُ الغيبِ والشَّهادةِ لا يَخفَى عليه شيءٌ، وهو الحكيمُ الخبيرُ.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾.

﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا ﴾.

أي: قل- يا محمَّدُ- لهؤلاء المشركين: أَنَدْعُو مِن دون اللهِ ما لا يَقْدِرُ على نَفعِنا أو ضُرِّنا، فنَخُصه بالعبادةِ دون الله، ونَدَعُ عِبادةَ الذي بِيَدِه وحده الضُّرُّ والنَّفْعُ؟[1].

﴿ وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾.

أي: ونَرجِعُ القَهْقَرى[2] بعدَ هدايةِ اللهِ تعالى لنا إلى ما كنَّا فيه مِن الضَّلال[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦١).

(٢) القَهْقَرى: الرُّجوعُ إلى خَلْفٍ مِن غَيرِ أنْ يُعيدَ وجْهَه إلى جِهةِ مَشْيِه. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٢/ ٨٠١)، ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٠٠).

﴿ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ﴾.

أي: فيكون مَثَلُنا في ذلك مَثَلَ الرَّجُلِ الذي أضَلَّتْه الشياطينُ عن طريقِه المُوصِل إلى مقْصِدِه، فبَقِيَ في حَيرَةٍ، وله أصحابٌ يَدْعونَه إلى الطَّريقِ الصَّحيحِ الذي هم عليه مُقيمونَ، يقولون له: ائْتِنا فكُنْ معنا على استقامةٍ وهُدًى، والشَّياطينُ يدْعونَه إلى الضَّلالِ والرَّدَى[1].

﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾.

أي: قُلْ- يا محمَّدُ- لهؤلاءِ المشرِكينَ: إنَّ طريقَ اللهِ الذي أوضَحَه لنا، وسبيلَه الذي أَمَرَنا بلُزومِه، هو الهُدى والاستقامةُ التي لا شكَّ فيها، وما عداه فهو ضلالٌ وهلاكٌ[2].

﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

أي: وأَمَرَنا ربُّنا وربُّ كُلِّ شيءٍ بأنْ ننقادَ لتوحيدِه، ونستسلِمَ لأوامِرِه ونواهِيه، ونَخْضَعَ له بالذِّلَّة والطَّاعة والعبوديَّة، فنُخْلِصَ ذلك له دونَ ما سواه[3].

﴿ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

﴿ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ﴾.

أي: وأُمِرْنا بإقامةِ الصَّلاة، وذلك أداؤُها بحُدودِها وأركانِها وشروطِها وسُنَنِها،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٣٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦١-٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٢).

وبتقواه في جميعِ الأحوالِ بِفِعْلِ ما أمَرَ به، واجتنابِ ما نَهى عنه(١).

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾.

أي: وربُّ العالمين سبحانه هو الذي تُجمَعون إليه يومَ القيامَةِ، فيُجازيكم بأعمالِكم؛ خيرِها وشَرِّها(٢).

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِۚ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾.

أي: وهو سبحانَه الذي خَلَق السَّمواتِ والأرضَ لحِكَمٍ عَظيمةٍ؛ منها: إظهارُ صُنْعِه وقُدرَتِه ووَحدانِيَّتِه، ومنها تكليفُ العبادِ فيأمُرُهم وينهاهم ثم يبعَثُهم؛ ليجازِيَهم بأعمالِهم خَيْرِها وشَرِّها، فيُثيبَهم ويعاقِبَهم(٣).

كما قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٣٤-٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٣٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٢٨٧-٢٨٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٠٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٠٧).

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾.

أي: ويومَ القِيامةِ الذي يكونُ بقَوْلِ الله: ﴿كُنْ﴾ فيكونُ عن أمْره كلَمْحِ البَصرِ، أو هو أقربُ، فقوله تعالى لا مِرْيَةَ فيه، وهو الصِّدْقُ الواقِعُ لا محالةَ، ولا يقولُ سبحانه شيئًا عَبثًا(١).

﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾.

أي: وهو المنفَرِدُ يومَ القيامةِ بالمُلْك وحدَه دون مَن سواه، فلا مُنازِعَ له فيه، ولا مُدَّعِيَ له في ذلِك اليومِ الَّذي يَنفُخُ فيه المَلَكُ في القَرْنِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٢٨٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٨١).
واختُلِفَ في تقديرِ المحذوفِ المتعلِّق بقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ﴾ فقِيل: تقديرُه: واذْكُرْ يومَ، وقِيل: واتَّقوا يومَ، وقِيل: وخَلَق يومَ، وقِيل غير ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٣٨-٣٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٩ - ٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٠٧).
قال ابنُ الجوزي: (وفي الذي يقولُ له: كنْ فيكون، ثلاثةُ أقوالٍ: أحدُها: أنَّه يومُ القيامةِ، قاله مقاتِلٌ. والثاني: ما يكونُ في القيامةِ. والثالثُ: أنَّه الصُّورُ). ((زاد المسير)) (٢/ ٤٤).
وقال ابنُ عاشورٍ: (والمرادُ بالقولِ كلُّ ما يدلُّ على مرادِ الله تعالى، وقضائِه في يومِ الحشرِ، وهو يوم يقولُ: كنْ، مِن أمرِ تكوينٍ، أو أمرِ ثوابٍ، أو عقابٍ، أو خبرٍ بما اكتسَبه النَّاس مِن صالحِ الأعمالِ وأضدادِها، فكلُّ ذلك مِن قولِ الله في ذلك اليومِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٠٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٢).
وقال الواحديُّ: (والصور: قرنٌ يُنفَخُ فيه في قولِ جميعِ المفسِّرين). ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٢٨٨).
لكن قال ابنُ جرير: (واختُلِف في معنى الصُّور في هذا الموضع، فقال بعضُهم: هو قرنٌ يُنفخ فيه نفختان: إحداهما لفناءِ مَن كان حيًّا على الأرض، والثانية لنشْرِ كلِّ ميِّتٍ... وقال آخرون: الصُّور في هذا الموضع: جمْع صورة يُنفخُ فيها رُوحُها فتحيا... والصوابُ من القول في ذلك عندنا ما تظاهرتْ به الأخبارُ عن رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، أنَّه قال: «إنَّ إسرافيلَ قد التقمَ الصُّور وحنَى جبهتَه ينتظر متى يُؤمَر فينفخ»، وأنه قال: «الصُّور قرنٌ يُنفَخ فيه»). ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٣٩-٣٤٠). =

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

وكما قال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا * الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٥ - ٢٦].

﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾.

أي: هو سبحانه يَعلَمُ ما يَغيبُ عن العِبادِ وما يُشاهِدونَه، فلا يَخْفَى عليه شيءٌ[١].

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

أي: وهو الذي له الحِكمةُ التَّامَّةُ، فيُتقِنُ كلَّ شيءٍ خَلَقَه، ويضعُ كُلَّ شيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به؛ ومِن ذلك تَدبيرُه وتصريفُه خَلْقَه مِن حالِ الوجودِ إلى العَدمِ، ثمَّ مِن حالِ العَدَمِ والفناءِ إلى الوجودِ، ثم مجازاتُهم بما يُجازيهم به من ثوابٍ أو عِقابٍ، وهو المحيطُ علمًا بالسَّرائرِ والبواطِنِ، والمُطَّلِعُ على الخَفايا، فهو خبيرٌ بكلِّ ما يعملونَه، ويَكْسِبونَه مِن خيرٍ وشَرٍّ، حافظٌ ذلك عليهم؛ ليجازيَهم على كلِّ ما قدَّموه[٢].

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾ هُدى اللهِ هو وَحْدَه الهُدَى- كما يُفيدُ التَّركيبُ البيانيُّ للجُملةِ- وإنَّه لَكَذلك عن يَقينٍ، وإنَّ البشريَّةَ لتَخْبِط في التِّيه كُلَّما تركَتْ هذا الهُدَى، أو انحرَفَتْ عن شَيءٍ منه واستبدَلَتْ به شيئًا

= وقال القرطبيُّ: (والأممُ مجمعةٌ على أنَّ الذي ينفخُ في الصُّور إسرافيلُ عليه السَّلامُ) ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٤١)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٤١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٤٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٠٩).

من تصوُّراتها هي ومقولاتِها، وأنظِمَتِها وأوضاعِها، وشرائِعِها وقوانينِها، وقِيَمِها وموازينِها، بغيرِ «عِلمٍ» ولا «هُدًى» ولا «كتابٍ منيرٍ»، واللهُ سبحانه وتَعالى قدْ وَهَبَ الإنسانَ القُدرةَ على تَعرُّفِ بعضِ نواميسِ الكَوْنِ، وبعضِ طاقاتِه وقُواه؛ للانتفاعِ بها في الخِلافةِ في الأرضِ، وترقيةِ هذه الحياةِ، ولكِنَّ هذا الإنسانَ ذاتَه غَيرُ موهوبٍ مِن اللهِ القُدرةَ على اسْتِكْناهِ الحَقائقِ المُطلَقةِ في هذا الكونِ، ولا على الإحاطَةِ بأَسرارِ الغيوبِ التي تَلُفُّه مِن كُلِّ جانبٍ، ومنها: غَيبُ عَقْلِه هو ورُوحِه، بل غَيْبُ وظائِفِ جِسْمِه؛ ومِن ثَمَّ يَحتاجُ هذا الإنسانُ إلى هُدى اللهِ في كُلِّ ما يَختَصُّ بكينونَتِه وحَياتِه؛ من عَقيدةٍ وخُلُقٍ، ومَوازينَ وقِيَمٍ، وأَنظمَةٍ وأوضاعٍ، وشرائِعَ وقوانينَ؛ تَحكمُ هذه الكَينونةَ، وتُنَظِّم لها واقِعَ الحياةِ، وكُلَّما فاءَ هذا الإنسانُ إلى هُدَى اللهِ اهْتَدَى؛ لأنَّ هُدى اللهِ هو الهُدى، وكُلَّما بَعُدَ كُلِّيَّةً عنه، أو انحرفَ بَعْضَ الانحرافِ واستبدلَ به شيئًا مِن عِنده ضَلَّ؛ لأنَّ ما ليس مِن هُدى اللهِ فهو ضلالٌ؛ إذ ليس هنالك نوعٌ ثالِثٌ؛ ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾[1] [يونس: ٣٢].

٢- يُستَفادُ من قولِه: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أنَّ اللهَ وحْدَه الذي يستَسْلِمُ له العالَمون؛ فالعوالِمُ كلُّها مُستسلِمةٌ له، فماذا الذي يجعلُ الإنسانَ وحْدَه- من بين العالَمينَ- يَشِذُّ عن الاستسلامِ لهذه الرُّبوبيَّة الشاملةِ التي تستسلمُ لها العوالِمُ في السَّمواتِ والأَرَضين؟ إنَّ ذِكرَ الرُّبوبيَّة للعالَمين هنا له موضِعُه؛ إنَّه يُقَرِّر الحقيقةَ التي لا مناصَ من الاعترافِ بها، وهي استسلامُ الوجودِ كلِّه، وما فيه من عوالِمَ مَشهودةٍ ومَغِيبةٍ، للنَّواميس التي وَضَعَها اللهُ لها، وهي لا تملِكُ الخروجَ عليها، والإنسانُ- من ناحيةِ تركيبه العُضويِّ- يَستسلِمُ كذلك لهذه النَّواميسِ كَرهًا، ولا يَمْلِك الخروجَ عليها؛ فلا يبقى إلَّا أنْ يستَسْلِمَ في

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١١٣٢).

الجانب الذي تُرِكَ له الخيار فيه ليُبتَلَى فيه، وهو جانِبُ الاختيار؛ اختيار الهُدَى أو الضَّلال، ولو استسلَمَ فيه استسلامَ كِيانِه العُضوي، لاستقامَ أمْرُه، وتناسَقَ تكوينُه وسلوكُه، وجِسْمه وروحُه، ودُنياه وآخِرَتُه، وفي إعلانِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمسلمين معه، أنَّهم أُمِروا بالاستسلامِ، فاستسلموا: إيحاءٌ مؤثِّرٌ لِمَن يَفتح اللهُ قلبَه للتلقِّي والاستجابةِ على مدَى الزَّمانِ، وبعد إعلانِ الاستسلامِ لرَبِّ العالَمينَ تجيءُ التكاليفُ التعبُّديَّة والشُّعوريَّة. إنَّ الاستسلامَ لربِّ العالَمينَ ضرورةٌ وواجِبٌ؛ فهو الذي إليه تُحْشَرُ الخلائِقُ؛ فأَوْلَى لهم أنْ يُقَدِّموا بينَ يَدَيِ الحَشْرِ الحتميِّ ما يُنْجِيهم، وأَوْلَى لهم أن يَسْتَسْلِموا اليومَ له استسلامَ العالَمينَ، قبل أنْ يَقِفُوا أمامَه مَسْؤولينَ(١).

٣- قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فيه تذكيرُ المؤمنينَ بهذا اليومِ؛ تحريضًا على إقامةِ الصَّلاةِ والتَّقوى(٢).

الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ المقصودُ مِن هذه الآيةِ الردُّ على عَبَدة الأصنامِ، وهي مؤكِّدةٌ لقوله تعالى قبلَ ذلك: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ فقال: ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ..﴾، أي: أَنَعبدُ من دونِ اللهِ النَّافِعِ الضَّارِّ ما لا يَقدِرُ على نَفْعِنا ولا على ضُرِّنا، ونُرَدُّ على أعقابِنا راجِعينَ إلى الشِّرْكِ بعد أنْ أنقذَنا اللهُ منه، وهَدانا للإسلامِ(٣)؟!

٢- قال تعالى: ﴿وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ...﴾ العربُ تقول فيمَن عَجَز بعد قُدرةٍ، أو سَفُل بعدَ رِفعةٍ، أو أحجَمَ بعد إقدامٍ على مَحمَدةٍ: نَكَصَ

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١١٣٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٠٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٢٥).

على عَقِبَيْه، وارتدَّ على عَقِبَيْه، ورَجَع القَهْقَرَى، والأصلُ فيه رجوعُ الهزيمةِ أو الخَيبةِ، والعَجْزُ عن السَّيْر المحمودِ، ثم صار يُطْلَق على كلِّ تحوُّلٍ مذمومٍ(١).

٣- في قوله: ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا﴾ مَشهدٌ شاخصٌ متحرِّكٌ للضَّلالة والحَيرة التي تنتابُ مَن يُشْرِك بعد التوحيدِ، ومَن يتوزَّعُ قلبُه بين الإله الواحِدِ، والآلهةِ المتعدِّدة من العبيدِ! ويَتفرَّقُ إحساسُه بين الهُدى والضَّلال، فيذهبُ في التِّيهِ، إنَّه مَشهَدُ ذلك المخلوقِ التعيسِ: ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ﴾ - ولفظ الاستهواءِ لفْظٌ مُصوِّر بذاتِه لِمَدلولِه-، وله مِن الجانِبِ الآخَر، أصحابٌ مُهتدون، يَدْعُونَه إلى الهُدى، ويُنادونه ﴿ائْتِنَا﴾ - وهو بين هذا الاستهواءِ وهذا الدُّعاءِ ﴿حَيْرَان﴾ لا يَدْري أينَ يتَّجِهُ، ولا أيَّ الفريقينِ يُجيب! إنَّه العذاب النَّفسيُّ يرتَسِمُ ويتحرَّك؛ حتى لَيَكادُ يُحَسُّ ويُلْمَس من خلال التعبيرِ(٢)!

٤- في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ... وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ لَمَّا بَيَّنَ سبحانَه أوَّلًا أنَّ الهُدى النَّافعَ هو هُدَى اللهِ، أردَفَ ذلك الكلامَ الكليَّ بذِكْر أشرفِ أقسامِه على التَّرتيبِ، وهو الإسلامُ، والصَّلاةُ، والتَّقْوى، ثم بيَّنَ منافِعَ هذه الأعمالِ؛ فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾، يعني: أنَّ منافِعَ هذه الأعمالِ إنَّما تَظهَرُ في يومِ الحَشرِ والبَعْثِ والقيامةِ(٣).

٥- قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أتى بالبَعثِ الذي هم له مُنكِرون؛ لكثرةِ ما أقام مِن الأدلَّةِ على تمامِ القُدرةِ، في سياقٍ دالٍّ على أنَّه ممَّا لا مجالَ للخلافِ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٤٣٦).
(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١١٣١).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٢٦).

فيه، وأنَّ النَّظَر إنَّما هو فيما وراءَ ذلك، وهو أنَّ عَمَلَهم للباطِلِ سوَّغ تنزيلَهم منزلةَ مَن يَعتقِدُ أنَّه يُحشَر إلى غيره سبحانه ممَّن لا قدرةَ له على جَزائِهم، فأخبَرَهم أنَّ الحَشْرَ إليه لا إلى غيرِه؛ لأنَّه لا كلامَ هناك لسواه، فلا عِلَقَ بينَ المحشورينَ، ولا تناصُرَ كما في الدُّنيا، والجُملةُ مع ذلك كالتَّعليلِ للأمْرِ بالتَّقوى[١].

٦- في قولِه تعالى: ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ لَمَّا جُعِل اليَومُ ظَرْفًا للمُلْك، ناسَبَ أن يُعَرَّفَ اليومُ بما هو مِن شِعارِ الملْك والجُند، وهو النَّفْخُ في الصُّور[٢].

٧- قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ لَمَّا ذَكَر خَلْقَ الخَلْقِ وسُرعةَ إيجادِه لِمَا يَشاءُ، وتَضمَّنَ البَعْثُ إفناءَهم قبلَ ذلك- ناسَبَ ذِكْرَ الوَصفِ بالحَكيم، ولَمَّا ذَكَر أنَّه عالِمُ الغَيبِ والشَّهادةِ ناسَبَ ذِكْر الوَصفِ بالخَبيرِ؛ إذ هي صفةٌ تدلُّ على عِلْمِ ما لَطُفَ إدراكُه من الأشياءِ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

- قوله: ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ لتأييسِ المشركينَ مِن ارتدادِ بعضِ المسلمينَ عن الدِّينِ[٤].

- والاستفهامُ في قوله: ﴿أَنَدْعُو﴾ للإنكارِ والتَّأْييسِ؛ فهو استفهامٌ بمعنى

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٥٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٠٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٥٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٩٩).

الإنكارِ؛ أي: لا يَقعُ شيءٌ مِن هذا[١].

- قوله: ﴿وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا﴾ إيثارُ ﴿نُرَدُّ﴾ على (نَرتَدُّ)؛ لتوجيهِ الإنكارِ إلى الارتدادِ بَرَدِّ الغَيْرِ، تَصريحًا بمخالفَةِ المُضلِّين، وقطعًا لأطماعِهم الفارغةِ، وإيذانًا بأنَّ الارتدادَ من غيرِ رادٍّ ليس في حَيِّزِ الاحتمالِ ليُحتاجَ إلى نَفْيِه وإنكارِه[٢]؛ فعبَّر اللهُ تعالى بالفِعلِ المبنيِّ للمَفعولِ في ﴿وَنُرَدُّ﴾ بدَل التعبير بـ(نرتد)، أو (نرجع)؛ لأنَّ هذا التحوُّلَ المذمومَ ليس مِن شأنِه أنْ يقَعَ من عاقلٍ؛ لأنَّ العاقلَ إذا وصَلَ إلى مَرتبةٍ عاليةٍ مِن العِلمِ والكمالِ؛ فإنَّه لا يَختارُ الرجوعَ عنها، واستبدال الذي هو أدْنَى بالذي هو خيرٌ وأعلى، فإذا كانتْ فطرتُه وعقلُه يأبيانِ عليه هذه الرِّدَّةَ والنكوصَ؛ فكيف يُرَدُّ، وهو لا يرتدُّ[٣]؟!

- والتَّعبيرُ بالرَّدِّ على الأعقابِ؛ لزِيادةِ تَقبيحِه بتَصويرِه بصُورةِ ما هو عَلَمٌ في القُبحِ، مع ما فيه مِن الإشارَةِ إلى كَونِ الشِّركِ حالةً قد تُركَت، ونُبِذتْ وراءَ الظَّهر[٤].

- قوله: ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ﴾ تَشبيهٌ تمثيليٌّ؛ حيث شُبِّهَ فيه مَن خَلَصَ مِن الشِّرْك، ثم نَكَصَ على عَقِبَيْه، بحالِ مَن ذَهَبت به الشَّياطينُ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤٩)، ((تفسير القاسمي)) (٤/ ٣٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٤٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٤٩)، ((تفسير القاسمي)) (٤/ ٣٩٦).

وقال ابن عاشور: (ويُقال: رجَع على عقبِه، وعلى عقبَيه، ونكَص على عقِبَيه، بمَعْنَى رجَع إلى المكانِ الذي جاءَ منه؛ لأنَّه كان جاعلًا إيَّاه وراءَه فرجَع. وحرْفُ (على) فيه للاستعلاء، أي: رجَعَ على طريقِ جِهةِ عَقِبِه، كما يُقال: رجَع وراءَه، ثم استُعمل تمثيلًا شائعًا في التلبُّسِ بحالةٍ ذميمةٍ كان فارَقَها صاحبُها، ثمَّ عاد إليها وتلبَّس بها؛ وذلك أنَّ الخارجَ إلى سفرٍ أو حاجةٍ فإنَّما يمشي إلى غرَضٍ يُريده؛ فهو يمشي القُدُمية فإذا رجَعَ قبلَ الوصولِ إلى غرضِه، فقدْ أضاع مَشيَه، فيُمثَّل حالُه بحالِ مَن رجَع على عقبيه). ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٠٠).

الصحراء البعيدة، وأضلَّتْه بعدَما كان على الجادَّةِ المُستقيمَةِ؛ ففيه تَشبيهُ حالةِ مَن فُرِضَ ارتدادُه إلى ضَلالةِ الشِّركِ بعدَ هُدَى الإسلامِ- لِدعوةِ المشركينَ إيَّاه، وتَرْكِه أصحابَه المُسلمينَ الذين يَصدُّونه عنه- بحالِ الذي فَسَدَ عقلُه باستهواءِ مِن الشَّياطينِ والجِنِّ، فتاهَ في الأرضِ بعدَ أنْ كان عاقلًا عارفًا بمسالِكِها، وتَرَكَ رُفقتَه العقلاءَ يَدْعُونه إلى موافَقتِهم. وهذا التركيبُ البديعُ صالحٌ للتفكيك بأنْ يُشبَّه كلُّ جزءٍ مِن أجزاءِ الهيئةِ المشبَّهةِ بجزءٍ من أجزاءِ الهيئةِ المشبَّهة بها؛ بأنْ يُشبَّه الارتدادُ بعدَ الإيمانِ بذَهابِ عقلِ المجنونِ، ويُشبَّه الكفرُ بالهُيامِ في الأرضِ، ويُشبَّه المشركونَ الذين دَعَوْهم إلى الارتدادِ بالشياطينِ، وتُشبَّه دعوةُ اللهِ الناسَ للإيمانِ ونُزولُ الملائكةِ بوحيه بالأصحابِ الذين يَدْعُون إلى الهُدَى[1].

- قوله: ﴿لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا﴾ فيه إيثارُ لفْظِ الهُدَى هنا؛ لِمَا فيه من المناسَبَةِ للحالَةِ المُشَبَّهة[2].

- قوله: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾ مستأنفةٌ استئنافَ تكريرٍ لِمَا أُمِرَ أنْ يقولَه للمشركينَ حين يَدْعُون المُسْلمين إلى الرُّجوعِ إلى ما كانوا عليه في الجاهليَّة[3].

- وقد خُوطِبوا بصِيغةِ القَصرِ ﴿هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدى﴾؛ فجِيءَ بتعريفِ الجُزأَينِ، وضميرِ الفصلِ، وحرْف التوكيدِ، فاجتمعَ في الجملةِ أربعةُ مؤكِّداتٍ؛ لأنَّ القَصْرَ بمنزلةِ مؤكِّدينِ؛ إذ ليس القَصْرُ إلَّا تأكيدًا على تأكيدٍ،

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٤/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٠١-٣٠٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ١٥٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٠٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٣٠٣).

وضميرُ الفصل تأكيدٌ، و (إنَّ) تأكيدٌ؛ فكانتْ مقتضى حالِ المشركينَ المُنكرينَ أنَّ الإسلامَ هُدًى[١].

- وقوله: ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فيه ذِكْرُ اسمِ اللهِ تَعالى بوَصْفِ الرُّبوبيَّةِ لجَميعِ الخَلْقِ دون اسْمِه العَلَمِ؛ إشارةً إلى تَعليلِ الأمْرِ وأحقِّيَّته؛ إذْ لا يستحِقُّ العبادةَ مِن العبادِ إلَّا ربُّهم الذي خَلَقَهم، وغَذَّاهم بنِعَمِه[٢].

٢- قوله: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾

- في تَخْصيصِ الصَّلاةِ بالذِّكرِ من بينِ أنواعِ الشَّرائعِ، وعَطْفِها على الأَمرِ بالإسلامِ، وقَرْنِها بالأمْرِ بالتَّقوى- دليلٌ على تفخيمِ أَمْرِها، وعِظَمِ شأنِها[٣].

- قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ اشتَمَلَ على عِدَّةِ مُؤَكِّدات، وهي: صِيغةُ الحَصرِ بتَعريفِ الجُزأينِ ﴿وَهُوَ الَّذِي﴾، وتقديمُ معمولِ ﴿تُحْشَرُونَ﴾ وهو ﴿إِلَيْهِ﴾ المُفيدُ للتَّقوِّي؛ لأنَّ المقصودَ تحقيقُ وقوعِ الحَشْر على من أنْكَرَه من المشركينَ، وتحقيقُ الوَعْدِ والوعيد للمؤمنينَ، والحَصْر هنا حقيقيٌّ؛ إذ هم لم يُنكِروا كونَ الحَشر إلى الله، وإنَّما أنكروا وقوعَ الحَشْر، فسَلَكَ في إثباتِه طريقَ الكِنايةِ بِقَصْرِه على اللهِ تعالى المُستَلْزِم وقوعَه، وأنَّه لا يكونُ إلَّا إلى اللهِ، تَعريضًا بأنَّ آلِهَتَهم لا تُغني عنهم شيئًا[٤].

- وهو جملةٌ خبريَّةٌ تَتضمَّنُ التَّنبيهَ والتَّخويفَ لِمَن تَرَكَ امتثالَ ما أُمِرَ به مِن الإسلامِ والصَّلاةِ واتِّقاءِ الله؛ وإنما تظهرُ ثَمَراتُ فِعْل هذه الأعمالِ وحَسَراتُ تَرْكِها يومَ الحَشْر والقيامَةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٣٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٤/ ٣٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٠٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٥٥).

٣- قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾

- قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾

(يَوْمَ) ظرفٌ وقعَ خبرًا مُقَدَّمًا- على أحَدِ الأوجُهِ في الآيةِ-؛ للاهتمامِ به، والمبتدأُ هو ﴿قَوْلُهُ﴾ و﴿الْحَقُّ﴾ صِفَةٌ للمُبتدأِ، وأصلُ التَّركيبِ: (وقَوْلُه الحقُّ يَومَ يقولُ كُنْ فيكونُ)، ونكتةُ الاهتمامِ بتقديمِ الظَّرْفِ الردُّ على المُشركينَ المُنْكرينَ وقوعَ هذا التكوينِ بعد العَدَمِ[1].

- وقوله: ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ صِيغةُ قَصْرٍ للمبالغةِ؛ أي: هو الحقُّ الكامِلُ؛ لأنَّ أقوالَ غيرِه، وإنْ كان فيها كثيرٌ من الحَقِّ، فهي معرَّضةٌ للخَطَأِ، وما كان فيها غيرَ مُعَرَّضٍ للخَطَأِ، فهوُ راجعٌ إلى فَضلِ اللَّهِ[2].

- وقوله: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ فيه بِناءُ ﴿يُنْفَخُ﴾ للمَفعولِ؛ تعظيمًا للنَّفْخَةِ[3].

- وقوله: ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ كالفَذْلكةِ للآيةِ[4].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٠٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٣٠٨).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٥٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٦٨).

الآيات (٧٤ - ٧٩)

﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿مَلَكُوتَ﴾: أي: مُلْك، أو هُو أعظمُ المُلْك، وهو مُختصٌّ بمُلْكِ اللهِ تعالى؛ والملكوتُ مَصدرٌ من المُلْك، كالرَّغبوتِ مِنَ الرَّغبة، والرَّهبوتِ من الرَّهبة؛ زِيدَتْ فيه الواوُ والتاءُ، وبني على (فَعَلُوت)، وهو بِناءُ مُبالغةٍ؛ فالملكوتُ أبلغُ مِن المُلك؛ لفَخامةِ لفْظِه، وأصلُ (ملك): يدُلُّ على قُوَّةٍ في الشَّيءِ وصِحَّةٍ(١).

﴿الْمُوقِنِينَ﴾: جمْع موقِنٍ، واليقينُ من صفاتِ العلمِ، يُقال: علم يَقِينٍ، وهو سكونُ الفَهمِ، وثبوتُ الحُكم، واليَقينُ: زوالُ الشَّكِّ، أو الاعتقادُ الجازمُ الثَّابِتُ المطابِق للواقِع(٢).

﴿جَنَّ عَلَيْهِ﴾: أي: أظلَمَ عليه وسَترَه، وغَطَّى عليه، وأصل (جنن): السَّتْرُ والتستُّر(٣).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٤١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٥١- ٣٥٢)، ((الفروق اللغوية)) لأبي هلال العسكري (ص:٢٤٦-٢٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٩٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٥٤٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٩٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ١٧٥)، =

﴿الْآفِلِينَ﴾: أي: الغائبينَ عن العُيونِ، أي: مِن: أَفَل إذا غابَ، والأُفُول: غَيبوبةُ النيِّراتِ؛ كالقَمَر والنُّجومِ(١).

﴿بَازِغًا﴾: أي: طالعًا منتَشِرَ الضَّوءِ، أو مُبتدِئًا في الطُّلوعِ، وأصلُ البُزوغِ: طلوعُ الشَّيءِ وظهورُه(٢).

﴿فَطَرَ﴾: أي: خلَق، وأصلُ الفَطْر: فتْحُ الشَّيءِ وإبرازُه، أو الشقُّ طولًا(٣).

﴿حَنِيفًا﴾: أي: مقبلًا على الله، مُعرضًا عما سِواه، وقيل: مُستقيمًا، أو: مائلًا عَنِ الشِّرك والدِّينِ الباطِلِ؛ قَصدًا إلى التَّوحيدِ والدِّين الحقِّ المُستقيم، والدِّينُ الحنيفُ هو الإقبالُ على اللهِ وحدَه، والإعراضُ عما سِواه، وهو الإخلاصُ، والحنفُ: الميلُ عن الشيءِ بالإقبالِ على آخرَ، فالحَنَفُ: مَيلٌ عن الضَّلالِ إلى الاستقامةِ، وأصْله: مَيلٌ في إبْهامَي القَدمينِ، كلٌّ واحدةٍ على صاحبتِها(٤).

المعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى: اذكرْ- يا محمَّدُ- حينَ قال إبراهيمُ لأبيهِ المُشْرِك: أتجعَلُ الأصنامَ

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢١- ٤٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٩٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٨).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٥٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٩٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ١٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٣٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٩١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ٣١٩)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (١/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٢٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٩).

آلهةً تَعبُدُها من دون اللهِ، إنِّي أراكَ وقومَكَ الذين يعبدونَ الأصنامَ في ضلالٍ بَيِّنٍ، وانحرافٍ واضحٍ عن الطَّريقِ المستقيمِ.

ثم يُخبِر تعالى أنَّه كما وفَّقَ إبراهيمَ في دِينِه، فهداه لتوحيدِه عزَّ وجلَّ، كذلك يُريه ما تشتَمِلُ عليه السَّمواتُ والأرضُ مِن مُلْكٍ عَظيمٍ وواسعٍ؛ ليستدلَّ بذلك على وحدانيَّة الله، واستحقاقِه وَحْدَه للعبادة، ولِيَكونَ من المُوقنينَ.

فحِين أظلَمَ عليه اللَّيل رأى كوكبًا، فقال على وجه التنزُّلِ مع الخَصْم: هذا ربِّي، فلَمَّا غاب ذلك الكوكَبُ قال إبراهيمُ عليه السَّلامُ: لا أحِبُّ المعبودَ المُتَغَيِّر، الذي يغيبُ وينصرِفُ عمَّن عَبَده، فلَمَّا رأى القَمَر في أوَّلِ طلوعه قال تنزُّلًا مع الخصم: هذا ربِّي، فلمَّا غاب قال إبراهيمُ: لَئِنْ لم يُوفِّقْني ربِّي لِلحَقِّ لأكونَنَّ من القومِ الضَّالِّينَ.

فلَمَّا رأى الشَّمْس في أوَّلِ طُلُوعها قال تنزُّلًا: هذا الطَّالِعُ ربِّي، وهو أكبرُ من الكوكَبِ والقمرِ، فلَمَّا غابت الشَّمْس قال إبراهيم: إنِّي أبْرَأُ من كلِّ ما تعبدونَه مع اللهِ، إنِّي أخلَصْتُ قَصْدي، وأَفْرَدْتُ العبادةَ لله الذي أبدَعَ السَّمواتِ والأرضَ على غيرِ مثالٍ سابقٍ، مائلًا عن الشِّرْك، مستقيمًا على التَّوحيدِ، وما أنا مِن المشْركينَ مع الله تعالى غَيرَه.

تفسيرُ الآيات:

﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ ﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾، ناسَبَ ذِكْرَ هذه الآيةِ هنا، وكان التَّذكارُ بِقِصَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ مع أبيه وقومِه أنسَبَ؛ لرُجوعِ العَرَب إليه؛ إذ هو جَدُّهم الأعلى، فذُكِّروا بأنَّ إنكارَ هذا النبيِّ

محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم عليكم عِبادَةَ الأصنامِ هو مِثْلُ إنكارِ جَدِّكم إبراهيمَ على أبيه وقَوْمِه عِبادَتَها[1]، فقال تعالى:

﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ﴾.

أي: واذكُرْ- يا محمَّدُ- حين قال إبراهيمُ عليه السَّلام لأبيهِ آزَرَ مُفارِقًا دِينَه، وعائبًا عبادَتَه الأصنامَ: أتَعبُدُ الأصنامَ من دون الله عزَّ وجلَّ[2]؟!

﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾.

أي: إنِّي أراكَ وقومَك الذين يَعبُدونَ الأصنامَ في عُدولٍ واضِحٍ عن الصِّراطِ المستقيمِ، وانحرافٍ بيِّنٍ عن الطَّريقِ القويم، يَتبيَّنُ لكلِّ من أبصره مِمَّن له عقلٌ صحيحٌ؛ حيث عبدْتُم مَن لا يَستحِقُّ مِن العبادةِ شيئًا، وتركتُم عبادةَ خالِقِكم ورازِقِكم سبحانه وتعالى[3]!

كما قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا * قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا * قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا * وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤١ - ٤٨].

وعن أبي هريرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال:

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٤٢، ٣٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٤٦-٣٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٠٨).

((يَلْقَى إبراهيمُ أباه آزرَ يومَ القيامةِ، وعلى وَجْهِ آزرَ قَتَرةٌ وغَبَرةٌ، فيقول له إبراهيمُ: ألم أقُلْ لك لا تَعصِني؟ فيقول أبوه: فاليومَ لا أَعصيكَ، فيقول إبراهيمُ: يا ربِّ، إنَّك وعدْتَني ألَّا تُخزيَني يومَ يُبعثونَ، فأيُّ خِزيٍ أَخْزى مِن أبي الأَبعدِ؟ فيقول اللهُ تعالى: إنِّي حرَّمتُ الجنَّةَ على الكافرينَ، ثم يُقال: يا إبراهيمُ، ما تحتَ رِجْلَيك؟ فينظر، فإذا هو بذِيخٍ مُتلطِّخٍ[1]، فيُؤخذُ بقَوائمِه فيُلقَى في النَّارِ))[2].

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

أي: وكما بصَّرْنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ في دِينه فوفَّقناه لتوحيدِ الله تعالى، خلافًا لِمَا كان عليه أبوه وقومُه من الضَّلالِ؛ نُريه أيضًا مُلْك السَّمواتِ والأرض، فيَرَى ما أبدَعَه اللهُ تعالى فيهما من مَخلوقاتٍ؛ كالشَّمْس والقَمَر والنُّجومِ والشَّجَر والدوابِّ وغير ذلك، ويَتبيَّنُ له ببصيرتِه ما اشتمَلَت عليه من أدلَّةِ وحدانيَّة اللهِ عزَّ وجلَّ، واستحقاقِه للعبادة وَحْده لا شريكَ له، ويَصِلُ إلى دَرجةِ اليقينِ؛ فلا يتطرَّقُ إليه شكٌّ أو وهْمٌ في ذلك مُطلقًا[3].

قال عزَّ وجلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ * وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥-١٠٦].

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا كانت الأمورُ السماويَّةُ مُشاهَدةً لجميعِ الخَلْقِ: دَانِيهم وقاصِيهم، وهي

---

(١) بِذِيخٍ مُتلطِّخٍ: الذِّيخُ: ذَكَرُ الضِّباعِ الكثيرُ الشَّعرِ. وأَرادَ بالتَّلطُّخ: التلطُّخَ برَجيعِه، أو بالطِّين. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (١/ ٤٢١)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ١٧٤).

(٢) رواه البخاري (٣٣٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٤٧، ٣٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٠-٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٠٩-٤١٢).

أشرفُ مِنَ الأرضيَّةِ، فإذا بَطَلَت صلاحيتُها للإلهيَّة، بَطَلَت الأرضيَّةُ من بابِ الأَوْلى- نَصَبَ لهم الحِجَاجَ في أَمْرِها، فقال مسبَّبًا عن الإراءةِ المذكورةِ[(١)]:

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾.

أي: فلمَّا واراه اللَّيلُ، وتغشَّاه بظَلامِه، أبصَرَ بعينِه كوكبًا حين طَلَع، فقال على وجْهِ التنزُّلِ مع قومِه[(٢)]: هذا ربِّي[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٥٨).

(٢) فلم يكنْ هذا المقامُ مَقامَ نظَرٍ، بل كان مَقامَ مُناظرةٍ مِن إبراهيمَ عليه السَّلام لقومِه. وهذا اختيارُ ابنِ عطيةَ في ((تفسيره)) (٢/ ٣١٣)، وابنِ كثيرٍ في ((تفسيره)) (٣/ ٢٩٢)، والسعديِّ في ((تفسيره)) (ص: ٢٦٢)، والشِّنقيطيِّ في ((العذب النمير)) (١/ ٤٢٧)، وابنِ عاشورٍ في ((تفسيره)) (٧/ ٣١٩).

قال الشنقيطي: (إبراهيم لَمْ يَظُنَّ يومًا في ربوبيةِ كوكبٍ، ولم يشكَّ يومًا واحدًا في ربوبيةِ اللَّهِ، هذا التحقيقُ الواجبُ اعتمادُه، الذي دَلَّ عليه كتابُ اللَّهِ وسنةُ نَبِيِّهِ صلى الله عليه وسلم، أما القرآنُ: فقد دَلَّ على هذا في مواضعَ كثيرةٍ:

منها: أنه أوَّلًا قال رافعًا لهذا الاحتمالِ: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ فلما أَثْبَتَ له اليقينَ قال بَعْدَ ذلك مرتِّبًا عليه بالفاءِ: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي﴾.

والثانيةُ: أن الله ذَكَرَ أنه قال هذا في سبيلِ المناظرةِ والمُحاجَّةِ، لا في سبيلِ النظرِ بنفسِه، حيثُ قال: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾ [الأنعام: ٨٠]، وقال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنعام: ٨٣] ومِن أصْرَحِ الأدلةِ في هذا: أن الله نَفَى عن إبراهيمَ كونَ الشركِ في ماضِي الزمنِ مُطْلَقًا، حيث قال في آياتٍ كثيرةٍ من كتابِه: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣] ونَفْيُ الكونِ الماضِي يستغرقُ الكونَ في جميعِ الزمنِ كائنًا ما كانَ، وكذلك قولُه: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧] هذا جاء في آياتٍ كثيرةٍ، ونفيُ الإشراكِ عنه في الكونِ الماضي يدُلُّ بدلالةِ القرآنِ- دلالةِ المطابقةِ- على أنَّه لم يتقَدَّمْ له كونُ إشراكٍ ألبتةَ، والله يقولُ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١] فعِلمُ الله به وبصلاحِه يدلُّ على ذلك، هذا هو الحقُّ الذي لا شكَّ فيه). ((العذب النمير)) (١/ ٤١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٥٤، ٣٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٠٩-٤١٢). =

﴿ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴾.

أي: فلمَّا غاب ذلك الكوكبُ وذهَبَ؛ قال إبراهيمُ عليه السَّلام: لا أُحِبُّ المعبودَ المتغيِّرَ، المُسَخَّر، والذي يغيبُ وينصرِفُ عمَّن عَبَدَه؛ لأنَّه لا يُمكِن أنْ يكونَ مَن هذا حالُه هو القائِمَ بمصالح عبادِه، المدبِّرَ لشؤون العالَم، الذي بيده النَّفْعُ والضُّرُّ، وعليه فلا يَصْلُح أن يكون إلهًا يستحِقُّ أن يُعبَدَ[1].

﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بصَّرَهم قُصورَ صغيرِ الكواكِبِ رَقِيَ النَّظَرُ إلى أكبرَ منه، فسبَّبَ عن الإعراضِ عن الكواكِبِ لقصورِه قولَه[2]:

﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ﴾.

أي: فلمَّا رأى إبراهيمُ عليه السَّلامُ القَمَرَ في أوَّلِ طلوعِه قال تنزُّلًا: هذا ربِّي[3].

﴿ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴾.

= قال ابن تيمة: (قومُ إبراهيم كانوا مُقرِّين بالصَّانع، وكانوا يُشركون بعبادتِه كأمثالِهم مِن المشركين). ((الجواب الصحيح)) (١/ ٣٥٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٦١)، ((بغية المرتاد)) لابن تيمية (ص: ٣٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٢٢-٤٢٣).

وقال ابنُ تَيميَّة: (الأفولُ هو التغيُّبُ والاحتجابُ باتِّفاق أهل اللُّغةِ والتفسيرِ، وهو من الأمور الظاهرة في اللُّغة، وسواءٌ أُريد بالأفول ذَهابُ ضوءِ القمر والكواكب بطلوع الشمس، أو أُريد به سُقوطُه من جانبِ المغرب) ((مجموع الفتاوى)) (٥/ ٥٤٧-٥٤٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٢٣).

أي: فلمَّا غاب القمرُ قال إبراهيم عليه السَّلامُ: لئِنْ لم يُوفِّقْني ربِّي لإصابةِ الحَقِّ لأكونَنَّ من القومِ الذين أخطَؤوا طريقَ الحَقِّ، فلم يُصيبُوا الهُدَى[1].

﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) ﴾.

﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ ﴾.

أي: فلمَّا رأى إبراهيمُ عليه السَّلامُ الشَّمْسَ في أوَّلِ طُلُوعِها قال تنزُّلًا: هذا الطَّالِعُ المُنير ربِّي، وهو أكبرُ من الكوكَبِ ومن القَمَر[2].

﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾.

مناسَبَتُها لما قَبْلَها:

لَمَّا ثبَتَ بالدَّليلِ أنَّ هذه الكواكِبَ لا تَصلُحُ للربوبيَّة والإلهيَّة؛ لا جَرَم تبرَّأ من الشِّرْك[3].

﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾.

أي: فلمَّا غابتِ الشَّمْسُ قال إبراهيمُ لقومِه: إنِّي أتبرَّأُ مِن كلِّ ما تَعبُدونَه مع اللهِ عزَّ وجلَّ[4].

﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (٧٩) ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٢٤-٤٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٢٥).

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أنكَرَ على أبيه عِبادةَ الأصنامِ وضَلَّلَه وقَوْمَه، ثم استدَلَّ على ضلالِهم بقضايا العُقولِ؛ إذ لا يُذعِنونَ للدَّليلِ السَّمعيِّ؛ لتوقُّفِه في الثُّبوتِ على مُقدِّماتٍ كثيرةٍ، وأَبْدَى تلك القضايا منوطةً بالحِسِّ الصادِقِ- تبرَّأَ من عِبادتِهم وأكَّد ذلك بـ(إنَّ)، ثمَّ أخبَرَ أنَّه وجَّه عبادَتَه لمُبدِعِ العالَم الذي هذه النَّيِّراتُ المُستَدَلُّ بها بَعْضُه، ثمَّ نفَى عن نفْسِه أنْ يكونَ من المُشْرِكين؛ مبالغةً في التبرُّؤِ منهم[1].

وأيضًا لَمَّا أبطَلَ جميعَ مذهَبِهم، أظهَرَ التوجُّهَ إلى الإلهِ الحَقِّ، وأنَّه قدِ انكشَفَ له الصَّوابُ بهذا النَّظَر، والمرادُ هم، ولكنَّ سَوْقَه على هذا الوَجْه أَدْعى لقَبولِهم إيَّاه، فقال مُستنتِجًا عمَّا دَلَّ عليه الدَّليلُ العقليُّ في الملكوتِ[2]:

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.

أي: إنِّي قدْ أخلصْتُ قَصْدي، وأفرَدْتُ عِبادتي لِمَن يَستحِقُّ ذلك، وهو اللهُ تعالى؛ لأنَّه الذي أَبْدَع خَلْقَ السَّمواتِ والأرضِ، على غير مثالٍ سَبَقَ؛ فهو القادِرُ وحْده على أن يُنْشِئَ الخَلْقَ من العَدَم إلى الوجودِ[3].

كما قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٦٨).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٦١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٢٥).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿حَنِيفًا﴾.

أي: مائلًا عن الشِّرْك، مستقيمًا على التَّوحيدِ، مُقبلًا على الله تعالى، مُعْرِضًا عمَّا سِواه[1].

﴿وَمَآ أَنَاْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

مناسَبَتُها لما قَبْلَها:

لَمَّا تَبرَّأَ إبراهيمُ مِن أصنامِهم بقولِه: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾، تَبَرَّأَ من القَوْمِ[2]، فقال:

﴿وَمَآ أَنَاْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

أي: ولسْتُ ممَّن يَدينُ بِدِينِكم، ويتَّبِعُ مِلَّتكم- أيُّها المشركونَ- ولستُ أُشرِكُ بربِّي شَيئًا[3].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠- ١٢٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٢٦-٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٢٧).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا﴾ في إنكارِ إبراهيمَ على أبيه دَليلٌ على الإنكارِ على مَن أُمِر الإنسانُ بإكرامِه، إذا لم يَكُنْ على طَريقةٍ مُستقيمةٍ، وعلى البَدَاءةِ بمن يقرُبُ من الإنسانِ؛ كما قال: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾(١).

٢- في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا﴾ التنبيهُ على اقتفاءِ مَن سَلَفَ مِن صالحي الآباءِ والأجدادِ؛ فقد احتجَّ سبحانه على مُشرِكي العَرَب بأحوالِ إبراهيم عليه السَّلام؛ وذلك لأنَّه يَعترِفُ بفَضْلِه جميعُ الطَّوائفِ والمِلَل؛ فالمشرِكونَ كانوا معترفينَ بفَضْلِه، مُقِرِّين بأنَّهم مِن أولادِه، واليهودُ والنَّصارى والمسلمونَ كُلُّهم مُعَظِّمونَ له، مُعترِفونَ بجلالةِ قَدْرِه، فلا جَرَمَ ذَكَرَ اللهُ حكايةَ حالِه في مَعْرِض الاحتجاجِ على المُشركينَ(٢).

الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قولِه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾ اشتَمَلَ كلامُ إبراهيمَ عليه السَّلام في هذه الآيةِ على ذِكْرِ الحُجَّة العقليَّةِ على فسادِ قَولِ عَبَدَة الأصنامِ من وجهينِ: الأوَّلُ: أنَّ قوله: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾ يدلُّ على أنَّهم كانوا يَقولونَ بكَثرةِ الآلِهَةِ، إلَّا أنَّ القولَ بكَثرةِ الآلهةِ باطلٌ بالدَّليلِ العقليِّ، الذي فُهِمَ مِن قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا﴾، والثاني: أنَّ هذه الأصنامَ لو حَصَلَت لها قدرةٌ على الخيرِ والشَّرِّ لكان الصَّنمُ الواحدُ كافيًا، فلمَّا لم يكُنِ الواحِدُ كافيًا دلَّ ذلك على أنَّها وإن كثُرت فلا نَفْعَ فيها البتَّةَ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٦٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٦١).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٣٤).

٢- في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾ أي: اذكرْ قولَه، وحِكمةُ التَّذكيرِ بوقتِه التَّنبيهُ على أنَّ هذا لم يَزَلْ ثابتًا مُقرَّرًا على ألْسنةِ جميعِ الأنبياءِ في جميعِ الدُّهور، وكان في هذه المحاجَّةِ التصريحُ بما لَوَّح إليه أوَّلَ هذه السورةِ مِن إبطالِ هذا المذهبِ، وانعطَفَ هذا على ذاكَ أيَّ انعطافٍ! وصار كأنَّه قيل: ثمَّ الذين كفروا بربِّهم يعدلون الأصنامَ والنجومَ والنورَ والظُّلمةَ، فنبِّهْهم يا رسولَ اللهِ على ذلك؛ بأنَّه لا مُتصرِّفَ غيرُنا، اذكرْ لهم أنِّي أنا الذي خلقتُهم وخلقتُ جميعَ ما يُشاهِدون مِن الجواهرِ والأعراضِ، فإنْ تَنبَّهوا فهو حظُّهم، وإلَّا فاذْكُرْ لهم مُحاجَّةَ خليلِنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ، إذ قال: ﴿لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾[1].

٣- قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ فيه دليلٌ على هِدايةِ إبراهيمَ وعِصمَتِه مِن سَبْق ما يُوهِم ظاهِرُ قولِه: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ مِن نِسبةِ ذلك إليه على أنَّه أخبرَ عن نَفْسِه، وإنَّما ذلك على سَبيلِ التنزُّلِ مع الخَصْمِ، وتقريرِ ما يَبني عليه مِن استحالةِ أن يكون متَّصفًا بصفاتِ المخلوقين[2].

٤- قال تعالى: ﴿إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ فائدةُ عَطفِ ﴿وَقَوْمَكَ﴾ على ضَميرِ المخاطَبِ، مع العِلم بأنَّ رؤيتَه أباه في ضَلالٍ تَقتضي أنْ يرَى مماثِليه في ضلالٍ أيضًا- أنَّ المقامَ مقامُ صراحةٍ، لا يُكتَفَى فيه بدَلالةِ الالْتزامِ، ولِيُنبِّهَه من أوَّلِ وهْلةٍ على أنَّ موافقةَ جَمْعٍ عظيمٍ إيَّاه على ضَلالِه لا تُعَضِّدُ دِينَه، ولا تُشَكِّك مَن يُنكِر عليه ما هو فيه[3].

٥- في قوله: ﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ احتجَّ عليهم بالأُفولِ دون

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٥٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٦٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣١٤).

البُزوغ، وكِلاهما انتقالٌ من حالٍ إلى حالٍ؛ في قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾؛ لأنَّ الاحتجاجَ بالأُفولِ أظهَرُ؛ لأنَّه انتقالٌ مع خفاءٍ واحتجابٍ، والبزوغُ وإنْ كان طرأَ بعدَ أُفولٍ، لكنَّ الأفولَ السَّابقَ غيرُ مشاهَدٍ لهم؛ فكان الأفولُ أخْصرَ في الاحتجاجِ مِن أنْ يقولَ: إنَّ هذا البازغَ كان مِن قبلُ آفِلًا[1]، وإنَّما تريَّثَ إلى أُفولِ القَمَرِ فاستدلَّ به على انتفاءِ إلهيَّتِه، ولم يَنْفِها عنه بمُجرَّدِ رُؤيَتِه بازغًا، مع أنَّ أُفُولَه مُحقَّقٌ بحَسَب المعتادِ؛ لأنَّه أرادَ أن يُقيمَ الاستدلالَ على أَساسِ المشاهَدةِ، على ما هو المعروفُ في العُقولِ؛ لأنَّ المشاهدةَ أقوى[2].

٦- جاء بلفْظِ ﴿الْآفِلِينَ﴾ ليدُلَّ على أنَّ ثَمَّ آفلينَ كثيرينَ، ساواهم هذا الكوكبُ في الأُفولِ، فلا مزيةَ له عليهم في أن يُعبَدَ؛ للاشتراكِ في الصِّفةِ الدالَّةِ على الحدوثِ[3].

٧- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ لم يأتِ في الكواكب (رأى كوكبًا بازغًا)؛ لأنَّه أوَّلًا ما ارتقبَ حتَّى بزَغَ الكوكبُ؛ لأنَّه بإظلام اللَّيل تظهرُ الكواكبُ بخلاف حالِه مع القَمَر والشَّمْس؛ فإنَّه لَمَّا أوضَحَ لهم أنَّ هذا النَّيِّرَ- وهو الكوكَبُ الذي رآه- لا يَصلُحُ أن يكون ربًّا؛ ارتقَبَ ما هو أنورُ منه وأَضْوَأُ؛ على سَبيلِ إلحاقِه بالكوكبِ، والاستدلالِ على أنَّه لا يَصلُح للعِبادةِ، فرآه أوَّلَ طُلوعِه وهو البزوغُ، ثم عَمِلَ كذلك في الشَّمْس؛ ارتقَبَها إذ كانتْ أنْوَرَ من القَمَرِ وأضْوَأَ وأكبَرَ جِرْمًا وأعَمَّ نَفْعًا؛ فقال ذلك على سَبيلِ الاحتجاجِ عليهم، وبَيَّن أنَّها مُساوِيَةٌ للقَمَر والكواكِبِ في صفةِ الحدوثِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٦٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٥٦٥، ٥٦٦).

٨- قوله تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ يدلُّ على أنَّ الهدايةَ ليستْ إلَّا مِن اللهِ تعالى[١].

٩- قال في الشَّمْس ﴿هَذَا﴾ مع أنَّها مؤنَّثةٌ، ولم يَقُلْ (هَذِه)؛ لوجوهٍ: أحدُها: أنَّ الشَّمْس بمعنى الضِّياءِ والنورِ، فحُمِلَ اللَّفظُ على التأويلِ فذُكِّرَ. وثانيها: أنَّ الشَّمْس لم يحصُلْ فيها علامةُ التأنيثِ، فلمَّا أشبَهَ لفظُها لفظَ المُذكَّر، وكان تأويلُها تأويلَ النُّورِ؛ صَلَح التَّذكيرُ من هاتين الجِهَتينِ، وثالثها: أراد: هذا الطَّالِعُ، أو هذا الذي أراه، ورابعُها: المقصودُ منه رعايةُ الأدَبِ، وهو تَرْكُ التأنيثِ عندَ ذِكْرِ اللَّفظِ الدَّالِّ على الربوبيَّة، وخامسها: لوجود المُسَوِّغ، وهو تذكيرُ الخبَرِ؛ إظهارًا لتعظيمِها، إبعادًا عن التُّهمةِ، وسادسها: للتَّنبيهِ من أوَّلِ الأَمْرِ على أنَّ المؤنَّث لا يَصْلُح للربوبيَّةِ[٢].

١٠- في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ﴾ مسألةٌ: لَمَّا كانَ الأُفولُ حاصلًا في الشَّمْس، والأُفولُ يمنعُ من صفةِ الربوبيَّة، وإذا ثبت امتناعُ صفةِ الربوبيَّة للشَّمس كان امتناعُ حصولها للقمرِ ولسائرِ الكواكبِ أَوْلَى، وبهذا الطَّريقِ يظهر أن ذِكْرَ هذا الكلام في الشَّمْس يُغني عن ذِكْره في القَمَر والكواكب، فلِمَ لم يقتصِرْ على ذِكْر الشَّمْس رعايةً للإيجازِ والاختصارِ؟

قلنا: إنَّ الأخْذَ من الأدْوَنِ فالأدونِ، مترقيًا إلى الأعلى فالأعلى؛ له نوعُ تأثيرٍ في التقريرِ والبيانِ والتَّأكيدِ، لا يحصُل مِن غيره، فكان ذِكْرُه على هذا الوَجْه أَوْلى[٣].

١١- في قوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، قد يقول قائلٌ: هَبْ أنَّه ثبت بالدَّليل أنَّ الكواكبَ والشَّمْس والقَمرَ لا تصلحُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٤٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق))، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٦١).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٤٦).

للربوبيَّة والإلهيَّة، لكنْ لا يلزمُ مِن هذا القَدْر نفيُ الشَّريكِ مُطلقًا، وإثباتُ التَّوحيد، فلِمَ فَرَّعَ على قيامِ الدَّليل على كونِ هذه الكواكِبِ غيرَ صالحةٍ للربوبيَّة، الجَزْمَ بإثباتِ التوحيدِ مطلقًا.

والجوابُ: أنَّ القومَ كانوا مُساعدينَ على نفْيِ سائرِ الشُّركاءِ، وإنَّما نازعوا في هذه الصورةِ المُعَيَّنة، فلمَّا ثبت بالدَّليلِ أنَّ هذه الأشياءَ ليست أربابًا ولا آلهةً، وثبت بالاتِّفاقِ نَفْيُ غيرِها؛ لا جَرَمَ حصل الجَزْمُ بنفيِ الشُّركاءِ على الإطلاقِ(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ الاستفهامُ للإنكارِ والتَّوبيخِ، وقدْ نبَّه بهذا الإنكارِ على أنَّ مَعرفةَ بُطلانِ ما هو مُتدَيَّنٌ به لا يحتاجُ إلى كثيرِ تأمُّلٍ، بل هو أمرٌ بديهيٌّ أو قريبٌ منه؛ فإنَّهم يُباشِرونَ أمْرَها بجميعِ جوانبِهم، ويَعلَمون أنَّها مصنوعةٌ، وليستْ بصانعةٍ، وكثرتُها تدلُّ على بُطلانِ إلهيتِها بما أشارَ إليه قولُه تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾(٢) [الأنبياء: ٢٢].

- وعبَّر بصيغةِ الافتعالِ في (تتَّخِذ)- فهو افتعالٌ من الأخْذِ- للدَّلالة على التكلُّفِ للمبالغةِ في تَحصيل الفِعلِ، وأنَّ ذلك مُصطنَعٌ مُفتعَلٌ، وأنَّ الأصنامَ ليست أهلًا للإلهيَّة، وفي ذلك تعريضٌ بسخافةِ عَقْلِه؛ أن يجعَلَ إلهَه شيئًا هو صَنَعَه(٣).

- وفي ذِكْره ﴿أَصْنَامًا آلِهَةً﴾ بالجمْعِ تقبيحٌ عظيمٌ لِفعْلِهم(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٤٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٦٢)، ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٢٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣١٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣١٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٦٢).

- قوله: ﴿إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ جملةٌ مُبيِّنةٌ للإنكارِ في جملة: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾، وأكَّدَ الإخبارَ بحرْفِ التأكيدِ؛ لِمَا يتضمَّنُه ذلك الإخبارُ مِن كَوْنِ ضَلالِهم بيِّنًا[1].

٢- قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ جملةُ اعتراضٍ بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه، وهما قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ وجملةُ الاستدلالِ عليهم بإفرادِ المعبودِ، وكونِه لا يُشْبِه المخلوقين ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيل...﴾؛ إذ إنَّ أباه وقومَه كانوا يعبدونَ الأصنامَ والكواكِبَ، فأراد أن يُنَبِّهَهم على ضلالَتِهم، ويُرْشِدَهم إلى الحقِّ من طريقِ المُناظَرةِ والاستدلالِ[2].

٣- قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي﴾

- ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ قَصَر الفِعلَ ﴿جَنَّ﴾- وإنْ كان مُتعدِّيًا-؛ دَلالةً على شِدَّةِ ظلامِ تلك اللَّيلةِ؛ ولذلك عدَّاه بأداةِ الاستعلاءِ فقال: ﴿عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾، أي وقَعَ السَّترُ عليه[3]؛ فقوله: ﴿جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ يُقصَد به المبالغةُ في السَّترِ بالظُّلْمَةِ حتَّى صارتْ كأنَّها غِطاءٌ؛ إذ الأصْلُ أنْ يُقالَ: جَنَّه اللَّيلُ، أي: أخْفاهُ[4].

- قوله: ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ جملةٌ مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ جوابًا لسؤالٍ ينشأُ عن مَضمونِ جملةِ (رأى كوكبًا)، وهو أنْ يسأل سائِلٌ: فماذا كان عِندَما رآه؟ فيكون قولُه: ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ جوابًا لذلِك[5].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣١٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٦٢).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٥٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣١٨).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- واسمُ الإشارةِ ﴿هَذَا﴾ هنا لقَصْدِ تمييزِ الكوكَبِ مِنْ بينِ الكواكِبِ، ولكِنْ إجراؤُه على نظيرَيهِ في قوله حينَ رأى القَمَر، وحين رأى الشَّمْس: «هذا ربِّي- هذا ربِّي» يُعَيِّن أن يكون القَصْدُ الأصليُّ منه هو الكنايةَ بالإشارةِ عن كونِ المشارِ إليه أمرًا مطلوبًا مبحوثًا عنه، فإذا عُثِرَ عليه أُشِيرَ إليه[1].

- وتعريف الجزأينِ في قولِه: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ مفيدٌ للقصر؛ لأنه لم يقل: هذا ربٌّ؛ فدلَّ على أنَّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ أراد استدراجَ قومِه، فابتدأ بإظهارِ أنَّه لا يرى تعدُّدَ الآلهَةِ؛ لِيصِلَ بهم إلى التوحيدِ، واستبقى واحدًا من معبوداتِهم، ففَرَض استحقاقَه الإلهيَّةَ؛ كيلا ينفرُوا من الإصغاءِ إلى استدلالِه[2].

٤- قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾

- قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ التقديرُ: فطَلَع القمرُ، فلمَّا رآه بازغًا، فحُذِفت الجملةُ للإيجازِ، وهو يقتضي أنَّ القَمَرَ طلَعَ بعد أُفُولِ الكوكبِ[3].

- وأفاد تعريفُ الجزأينِ ﴿هَذَا رَبِّي﴾ أنه أكثرُ ضوءًا من الكوكب؛ فإذا كان استحقاقُ الإلهيَّة بسبب النُّور، فالذي هو أشدُّ نورًا أَوْلَى بها من الأَضْعَفِ[4].

- قوله: ﴿قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ فيه تعريضٌ حسنٌ؛ حيث عرَّض في كلامِه بأنَّ له ربًّا يهديه، وهم لا يُنكِرون عليه ذلك؛ لأنَّهم قائلون بعدَّةِ أربابٍ، وفي هذا تهيئةٌ لنفوسِ قَومِه لِمَا عَزَمَ عليه من التَّصريحِ بأنَّ له ربًّا غيرَ الكواكب، ثم عرَّضَ بقومِه أنَّهم ضالُّون، وهيَّأَهم قبل

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣١٨-٣٢١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٣١٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٣٢١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

المصارَحَةِ للعِلْمِ بأنَّهم ضالُّون؛ لأنَّ قَوْلَه: ﴿لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ يُدخِل على نفوسِهم الشَّكَّ في معتقَدِهم أن يكونَ ضَلالًا؛ ولأجَل هذا التعريضِ لم يقُلْ: لأكونَنَّ ضالًّا، وقال: ﴿لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ ليشيرَ إلى أنَّ في الناس قومًا ضالِّين، يعني: قومَه(١).

- والتعريضُ بضلالهم هنا أصرحُ وأقْوَى مِن قولِه أوَّلًا: ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾، وإنَّما ترقَّى إلى ذلك؛ لأنَّ الخُصومَ قد أقامَتْ عليه الاستدلالَ الأوَّلَ حُجَّةً، فأَنِسُوا بالقَدْحِ في مُعتقَدِهم، ولو قيل هذا في الأوَّل، فلعَلَّهم كانوا يَنْفِرون، ولا يُصغونَ إلى الاستدلالِ، فما عرَّض إبراهيمُ عليه السَّلام بأنَّهم في ضلالةٍ إلَّا بعد أن وَثِقَ بإصغائِهم إلى تمامِ المقصودِ، واستماعِهم إلى آخِره؛ ولذلك ترقَّى في النَّوبةِ الثالثةِ إلى التَّصريحِ بالبراءةِ منهم، والتقريعِ بأنَّهم على شِرْكٍ، حين قيامِ الحُجَّة عليهم، ووضوحِ الحَقِّ، وبلوغِه من الظُّهورِ غايةَ المقصودِ(٢)؛ فعرَّض بضلالِهم في أمْرِ القَمَر؛ لأنه أَيِسَ منهم في أمْرِ الكوكب؛ ولهذا أعْلَن في أمْرِ الشَّمْس البَراءةَ منها عن طريقِ استدراجِ الخَصْمِ، وإيقاعِه تحتَ الحُجَّةِ(٣).

٥- قوله: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ فيه التأكيدُ بـ(إنَّ)، ثم الإخبارُ أنَّه وجَّه عبادتَه لِمُبدِع العالَم، الذي هذه النيِّراتُ المستدَلُّ بها بعضُه، ثم نفى عن نفْسِه أن يكونَ من المشركينَ؛ مبالغةً في التبرُّؤِ منهم(٤)؛ فإنَّ قوله: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أفاد تأكيدًا لجملة ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِيْ فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ أيضًا(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٢١).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- الحاشية)) (٢/ ٤٠)، ((تفسير القاسمي)) (٤/ ٤٠٣).
(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ١٥٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٦٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٢٤).

الآيات (٨٠ - ٨٣)

﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾: أي: غالَبُوه وجادَلُوه وخاصَموه، والمُحاجَّة: أنْ يَطْلُبَ كلُّ واحدٍ أن يَرُدَّ الآخَرَ عن حُجَّتِه ومَحَجَّتِه، والحُجَّةُ: البُرهانُ والسُّلطانُ، وأَصْلُ (حجج): قَصْدُ جادَّةِ الطَّريقِ[(١)].

﴿سُلْطَانًا﴾: حُجَّةً، وأصلُه مِن القوَّة والقَهْر[(٢)].

﴿يَلْبِسُوا﴾: أي: يَخلِطوا، وأصلُ اللَّبْس: المخالَطَة والمُداخَلَة[(٣)].

﴿دَرَجَاتٍ﴾: منازلَ يبلُغُها بعمَلِه، وأَصْلُ (درج): يدُلُّ على مُضيٍّ الشَّيءِ، والمضيٌّ في الشَّيءِ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٢٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٣٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٩٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٢١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٧٥)، =

مُشْكِلُ الإعرابِ:

١- **قوله تعالى:** ﴿أَتُحَاجُّونِّي﴾: يُقرأُ بتَشديدِ النُّونِ على إدغامِ نونِ الرَّفْعِ في نُونِ الوِقايةِ، والأصل تُحاجُّونَنِي[1]، ويُقرأُ بالتَّخفيفِ على حَذْفِ إحْدى النُّونَينِ، وفي المحذوفةِ وجهانِ: أحدهما: هي نونُ الوِقايةِ؛ لأنها الزائدةُ التي حصَل بها الاستثقالُ. والثاني: المحذوفةُ نونُ الرَّفْعِ؛ لأنَّ الحاجةَ دعتْ إلى نونٍ مكسورةٍ من أجْلِ الياءِ، ونونُ الرفعِ لا تُكسَرُ[2].

٢- **قوله تعالى:** ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾

﴿دَرَجَاتٍ﴾: منصوبٌ، وعلامةُ نصْبِه الكسرةُ، ويُقْرَأُ بالتَّنوين، وبالإضافةِ؛ فأمَّا على قِراءةِ التنوينِ؛ فـ﴿دَرَجَاتٍ﴾ ظرفُ مكانٍ، أي: نَرفَعُ مَن نشاءُ في مراتبَ ومنازِلَ، أو منصوبٌ على حذْفِ حرْفِ الجرِّ، أي: إلى منازِلَ وإلى درجاتٍ. ويجوزُ أن يَنتصبَ على التَّمييزِ، ويكون منقولًا من المفعوليَّةِ، فيَؤُول إلى قِراءةِ الجَماعةِ؛ إذ الأصلُ: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتِ مَنْ نَشَاءُ﴾ بالإضافةِ، ثم حُوِّلَ؛ كقوله: ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر: ١٢] أي: عيونَ الأَرْضِ. و﴿مَنْ﴾ على هذا: مفعولٌ به للفِعل ﴿نَرْفَعُ﴾. أمَّا على قِراءةِ الإضافةِ: (نَرْفَعُ دَرَجَاتِ مَنْ نَشَاءُ) فـ«دَرَجَاتِ» مفعولٌ به لـ﴿نَرْفَعُ﴾، ورَفْعُ دَرَجةِ الإنسانِ رَفْعٌ له[3].

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ١٠٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٢).

(١) وفيها لغات ثلاثٌ: الفكُّ وتركُهما على حالهما، والإدغام، والحذف، لكنَّها لم تُقرَأْ إلاَّ بالحذفِ أو الإدغام، وقد قُرئ بهذه اللُّغاتِ كلِّها في قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ﴾ [الزمر: ٦٤]. يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ١٦).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٥٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥١٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ١٥-١٧).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٥٩)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥١٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٢٦-٢٧)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٧/ ٢٠٨).

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ أنَّه جادَلَه قومُه في توحيدِه ربَّه، وبراءَتِه من الأصنامِ، فقال لهم: أتجادلونَني في توحيدي لِلَّهِ، وقد هداني سبحانه للحَقِّ، ووفَّقَني لاتِّباعه، ولا أخافُ آلِهَتكم التي تُشْرِكونها مع الله في العبادةِ أنْ توقِعَ بي ضُرًّا، إلَّا أن يريدَ ربِّي شيئًا، أحاط علمُه جلَّ وعلا بكلِّ شيءٍ، أفلا تتذكَّرونَ؟ وكيف أخافُ آلهَتَكم التي أشركتموها مع اللهِ، وهي لا تضرُّ ولا تنفَعُ، بينما أنتُم لم تَخافوا مِنَ اللهِ في إشراكِكم معه غيرَه، مِمَّا لم يُعْطِكم عليه حُجَّةً ولا بُرهانًا، وهو القادِرُ على كلِّ شيءٍ؛ فأيُّ الفريقينِ أحقُّ بالأمنِ: مَن وَحَّدَ اللهَ الذي بِيَده الضُّرُّ والنَّفعُ، أو مَن أشرَكَ به مَن لا ينفَعُ ولا يَضُرُّ بلا برهانٍ؟! أخبروني إنْ كنتُم تعلمونَ.

فقال تعالى جوابًا عن سُؤالِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ: الذين آمَنوا ولم يَخْلِطوا إيمانَهم بِشِرْكٍ، أولئك هم الذين لهم الأمْنُ، وهم المُوَفَّقونَ لطريقِ الحَقِّ.

ثم أخْبَرَ تعالى أنَّ تلك حُجَّتُه آتاها إبراهيمَ على قَومِه، وأنَّه تعالى يرفعُ مَن يشاءُ درجاتٍ؛ إنَّه حكيمٌ عليمٌ.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٨٠ ﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أعْلَنَ إبراهيمُ- عليه السَّلامُ- مُعتقَدَه لقَومِه، كما في قولِه تعالى على لسانِ إبراهيمَ: ﴿إِنِّيْ وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام:٧٩]، أخَذُوا في محاجَّتِه(١)؛ قال تعالى:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٢٥).

﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥ ﴾.

أي: وجادَل إبراهيمَ قومُهُ فيما ذهَبَ إليه مِن توحيدِ الله تعالى، وبَراءَتِه من الأصنامِ[1].

﴿ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ ﴾.

أي: أتُجادِلونَني في أمْرِ توحيدي اللهَ تعالى، وعبادَتِه وحْدَه دون ما سِواه، والحالُ أنَّه قد بصَّرَني بالحقِّ، ووفَّقَني لاتِّباعِه[2]؟

﴿ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ ﴾.

أي: ولا أرهَبُ آلهتَكم التي تَدْعونها من دون اللهِ؛ أن تنالَني بسُوءٍ أو مكروهٍ؛ فهي لا تنفعُ ولا تضرُّ، لكن إذا شاءَ اللهُ تعالى أنْ ينالَني ذلك فسيكونُ؛ فله ما شاء سبحانه، ولا يَضرُّ ولا ينفَعُ إلَّا هو عزَّ وجلَّ[3].

كما قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٣- ٥٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٢٧-٤٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٣٢-٤٣٦).

والاستثناءُ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ منقطعٌ. وهذا اختيارُ ابنِ تيميةَ في ((الإخنائية)) (ص: ٣٤٩)، والشنقيطيِّ في ((العذب النمير)) (١/ ٤٣٣).

﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.

أي: أحاط عِلمُ ربِّي سبحانَه بكلِّ شيءٍ؛ فلا تَخفَى عليه خافيةٌ، لا كآلِهَتِكم التي لا تعلَمُ شيئًا[1].

﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

أي: أفلا تتَّعِظونَ، فتعْقِلوا بُطلانَ عِبادَتِكم لآلهَةٍ لا تَقدِرُ على ضُرٍّ ولا على نفْعٍ، ولا تعلَمُ شيئًا، وتعْقِلوا خطأَ تَرْكِكم عِبادةَ مَن خَلَقَكم، وخَلَقَ كلَّ شيءٍ، الذي له القُدرةُ على كلِّ شيءٍ، والعالِم بكلِّ شيءٍ، وتَعلَموا أنَّه المُستَحِقُّ وحْدَه للعبوديَّةِ[2]؟

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١)﴾.

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾.

أي: وكيف أَرهَبُ آلهتَكم التي أشركتُموها مع اللهِ، وهي عاجزةٌ لا تضرُّ ولا تنفَعُ، بينما أنتُم لا تخافونَ مِن اللهِ الذي خَلَقَكم ورَزَقَكم، والقادِرِ على كلِّ شيءٍ؛ لا تَخافون منه في إشراكِكم به ما لم يُنزِّلْ به عليكم حُجَّةً ولا بُرهانًا[3]؟!

﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

أي: فأيُّ الطائفتينِ أجدَرُ بالأمْنِ والسَّلامةِ؛ الذي عبَدَ مَن بيَدِه الضُّرُّ والنَّفْعُ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٦٥-٣٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٢-٢٦٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٣٦-٤٣٧).

أو الذي عَبَدَ مَن لا يَضُرُّ ولا ينفَعُ بلا دليلٍ؟ فإنْ كنتم تعلمونَ صِدْقَ ما أقولُ لكم، وحقيقَةَ ما أحتجُّ به عليكم، فأجيبوني، وأخْبِروني أيُّ الفريقينِ أحَقُّ بالأمْنِ(١)؟

فقال الله تعالى جوابًا عن سؤالِ إبراهيمَ السَّابقِ، وفاصلًا بين الفريقينِ(٢):

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

أي: الذين آمنوا حقًّا، ولم يَخلِطوا إيمانَهم بِشِرْك، هم الآمنونَ من المخاوِفِ في الدارَينِ، السَّالكونَ طريقَ الحَقِّ(٣).

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رضي اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا نَزَلَت هذه الآيةُ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾، شقَّ ذلك على أصحابِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وقالوا: أيُّنا لم يَظلِمْ نفسَه؟ فقال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ليس كما تظنُّونَ، إنَّما هو كما قال لُقمانُ لابنِه: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾))(٤).

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا كان إبراهيمُ عليه السَّلامُ قدِ انتصَبَ لإظهارِ حُجَّةِ اللهِ في التَّوحيدِ، والذَّبِّ عنها، وكان التقديرُ- تنبيهًا للسَّامِعِ على حُسْنِ ما مضَى؛ نَدْبًا لتدبُّرِه-:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٣١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٣٧).

(٢) وممَّن اختار أنَّها خبرٌ مِن الله تعالى: ابنُ جريرٍ في ((تفسيره)) (٩/ ٣٦٩)، وابنُ كثيرٍ في ((تفسيره)) (٣/ ٢٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٦٩، ٣٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٣٧-٤٣٩).

(٤) رواه البخاري (٦٩٣٧) واللفظ له، ومسلم (١٢٤).

هذه مقاولةُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ لأبيه وقوْمِه؛ عَطَفَ عليه قولَه، مُعَدِّدًا وجوهَ نِعَمِه عليه، وإحسانِه إليه، دالًّا على إثباتِ النبوَّةِ بعد إثباتِ الوحدانيَّة[1]، فقال:

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾.

أي: وهذه حُجَّتُنا[2] أعطَيْناها إبراهيمَ، وألْهَمْناه، وفَهَّمْناه إيَّاها؛ ليُفْحِمَ بها قومَه، فكان ذلك حيثُ قطَعَ عُذْرَهم، وانقطَعَت حُجَّتُهم، وعلَا بذلك عليهم[3].

﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾.

كما رَفَعْنا درجةَ إبراهيمَ في الدُّنيا والآخِرَةِ؛ بما آتيناه من تلك الحُجَّةِ التي صَدَعَ بها بالحَقِّ، وقَهَر بها قومَه، فكذلك نرفَعُ مَن نشاء مَنْحَه العِلمَ والحُجَّةَ، درجاتٍ فوقَ العبادِ[4].

كما قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١].

﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾.

أي: إنَّ ربَّكَ- يا محمَّدُ- حَكيمٌ في سياسَتِه خَلْقَه، وتلقينِه الحُجَجَ لرُسُلِه، وفي غير ذلك من تدبيرِه، عليمٌ بعاقبةِ رُسُلِه والمُرْسَل إليهم، وهو سبحانه لا يَضعُ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٦٨).

(٢) اختلَف المفسِّرون في الحُجَّة التي أُوتيَها إبراهيمُ عليه السَّلام؛ فذَهب ابنُ جريرٍ إلى أنَّها قولُ إبراهيم لقومِه المشركين: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ﴾. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٧٩). وذهَب آخَرون إلى أنَّ الحُجَّة هي المناظرةُ كلُّها، بدءًا مِن قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا﴾، وهذا ظاهرُ اختيارِ الواحديِّ في ((الوجيز)) (ص: ٣٦٣)، واختارَه ابنُ عاشور في ((تفسيره)) (٧/ ٣٣٤)، والشِّنقيطيُّ في ((العذب النمير)) (١/ ٤٤٠-٤٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٤٠-٤٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٤٦-٤٤٧).

العِلمَ والحِكْمَةَ إلَّا في المَحَلِّ اللَّائِقِ بهما، وهو أعلمُ بذلك المَحَلِّ، وبما ينبغي له، فيعلَمُ مَن يستحِقُّ الهدايةَ، فيوفِّقُه ويرفَعُه، ومَن يستحِقُّ الضَّلالَ، فيخذُلُه(١).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قولِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ أثبَتَ لآلِهَتِهم العجزَ بنَفْيِ الخوفِ المستَلزِم لنفيِ القُدرةِ على الضرِّ، وذلك دالٌّ على أنَّ الله تعالى أهلٌ لِأنْ يُخافَ منه، وكلُّ ذلك تلويحًا لهم بأنَّ العاقِلَ لا يَنبغي له أنْ يُخالِفَ إلَّا من يَأمَنُ ضُرَّه، فهم في مخالفَتِهم للهِ في غايةٍ من الخَطَرِ، لا يرتكِبُها عاقلٌ(٢).

٢- قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ لهم الأمنُ مِن المخاوفِ والعذابِ والشَّقاءِ، والهدايةُ إلى الصِّراطِ المُستقيمِ، فإن كانوا لم يلبِسوا إيمانَهم بظُلْمٍ مطلقًا، لا بِشِرْكٍ، ولا بمعاصٍ، حصَل لهم الأمنُ التامُّ، والهدايةُ التامَّةُ. وإنْ كانوا لم يَلبِسوا إيمانَهم بالشِّرْك وحْدَه، ولكنَّهم يَعملونَ السيِّئاتِ، حصَل لهم أصلُ الهِداية، وأصلُ الأمنِ، وإنْ لم يحصُلْ لهم كمالُها، ومفهومُ الآيةِ الكريمةِ أنَّ الذين لم يحصُلْ لهم الأمرانِ، لم يحصُلْ لهم هدايةٌ ولا أمْنٌ، بل حظُّهُم الضَّلالُ والشَّقاءُ(٣).

الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قوله تعالى: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ﴾ فيه أنَّ المُحاجَّةَ في اللهِ تارةً تكون موجِبَةً للمَدْحِ العظيمِ، والثَّناءِ البالغِ، وهي المُحاجَّة التي ذَكَرها

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٨٠-٣٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٣٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٤٦-٤٤٧).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٦٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٣).

إبراهيمُ عليه السَّلام، وذلك المَدْحُ والثَّناء هو قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾، وتارةً تكون موجِبَةً للذَّمِّ، وهو قوله: ﴿قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ﴾، ولا فَرْقَ بين هذينِ البابَينِ إلَّا أنَّ المُحاجَّةَ في تقريرِ الدِّينِ الحَقِّ توجِبُ أعظَمَ أنواعِ المدحِ والثَّناءِ، والمحاجَّة في تقريرِ الدِّين الباطِلِ تُوجِبُ أعظَمَ أنواعِ الذَّمِّ والزَّجْر(١).

٢- قال تعالى حاكيًا عن إبراهيمَ: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ إنَّما ذكَر عليه السَّلامُ هذا الاستثناءَ؛ لأنَّه لا يَبعُدُ أنْ يَحدثَ للإنسانِ في مستقبلِ عُمُرِه شيءٌ من المكارِهِ، والحمقى مِن النَّاسِ يحملون ذلك على أنَّه إنَّما حدث ذلك المكروهُ بسبب طعْنِه في الأصنامِ، فذكر إبراهيمُ- عليه الصلاة والسَّلام- ذلك حتى لو أنَّه حدث به شيءٌ من المكاره لم يُحمَلْ على هذا السَّبَب(٢).

٣- في قول إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ لَمَّا كان المحذورُ المنفيُّ هنا إنَّما هو خوفُ الضَّرَرِ من آلهَتِهم، وكان حصولُ الضَّرَر لمُخالِفِها بواسطة أتباعِها أو غيرِهم مِن سُنَنِ الله الجاريةِ في عباده؛ اقتصر الخليلُ عليه السَّلامُ على صفة الربوبيَّةِ المقتَضِيَةِ للرَّأفةِ والرَّحْمةِ والكفاية والحمايةِ، وقد وقع في قِصَّتِه الأمران: إمكانُهم من أسبابِ ضَرَرِه بإيقادِ النَّارِ، وإلقائِهم له فيها، ورحمته بِجَعْلِها عليه بردًا وسلامًا(٣).

٤- ذَكَرَ تعالى عَقِيبَ الاستثناءِ ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ سَعَةَ عِلْمِ الله في تعلُّقِه بجميعِ الكوائنِ في قوله تعالى: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾؛ فقد لا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٤٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق))، ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٢٥٦).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٦٦).

يُستبعَدُ أن يتعلَّقَ عِلْمُه بإنزالِ المَخُوفِ بي، إمَّا من جِهَتِها إن كان استثناءً متَّصلًا أو مُطْلَقًا إن كان منقطِعًا[١].

٥- قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ فيه تنبيهٌ لهم على غَفلَتِهم- حيثُ عبَدوا ما لا يضرُّ ولا ينفَعُ، وأشركوا بالله- وعلى ما حاجَّهُم به؛ من إظهارِ الدَّلائلِ التي أقامَها على عَدمِ صلاحِيَّةِ هذه الأصنامِ للرُّبوبيَّة[٢].

٦- فائدةُ عَطْفِ قَولِه تعالى: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ﴾ على قوله: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ بيانُ أنَّ عدمَ خَوفِه من آلهَتِهم أقلُّ عَجَبًا مِن عَدَمِ خَوْفِهم مِنَ الله تعالى، وهذا يؤذِنُ بأنَّ قَومَه كانوا يَعرِفونَ الله، وأنَّهم أشركوا معه في الإلهيَّة غيرَه؛ فلذلك احتجَّ عليهم بأنَّهم أشركوا بربِّهم المُعْتَرف به دون أن يُنْزِلَ عليهم سلطانًا بذلك[٣].

٧- قال تعالى: ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ﴾ ولم يَقُلْ: (ولا تخافون الله)؛ لأنَّ القومَ كانوا يَعرفونَ اللهَ ويخافونَه، ولكنَّهم لم يخافوا الإشراكَ به[٤].

٨- قوله تعالى: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ لَمَّا خوَّفوه في مكانِ الأَمْنِ، ولم يخافوا في مكانِ الخَوْفِ؛ أبرَزَ الاستفهامَ في صورةِ الاحتمالِ، وإن كان قد عُلِم قطعًا أنَّه هو الآمِنُ لا هُم[٥].

٩- قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ ورَدَ تَفسيرُ الظُّلمِ في هذِه الآيةِ بالشِّركِ؛ وذلِك أنَّ الشِّركَ جمَعَ بين

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٧٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٣٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٣٣١).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٧٠، ٥٧١).

الاعترافِ للهِ بالإلهيَّةِ، والاعترافِ لغيرِه بالرُّبوبيَّة أيضًا، ولَمَّا كان الاعترافُ لغيرِ اللهِ تعالى بذلك ظلمًا، كان إيمانُهم باللهِ مَخلوطًا بظُلمٍ، وهو إيمانُهم بغيرِه[1].

١٠- فَرَّقَ بعضُهم بين الأمْنِ والأمَنَةِ، فقالوا: الأمنُ يكونُ مع زوالِ أسبابِ الخوفِ، كقولِه تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾، والأمَنَةُ تكونُ مع بقاءِ أسبابِ الخَوفِ، كقَولِه تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾[2] [الأنفال: ١١].

١١- خصَّ اللهُ نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بالمخاطَبَةِ باسمِ الإحسانِ (رَبَّكَ) في قولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ تنبيهًا على أنَّ حَجْبَه الدَّليلَ عمَّن يَشاءُ لِحِكَمٍ أرادها سبحانه، ففيه تسليةٌ له صلَّى الله عليه وسلَّم[3].

١٢- قوله تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾ هذه الآيةُ تدلُّ على أنَّ مَن عَلَّمَه اللهُ الحُجَجَ، ومُناظراتِ الخُصومِ التي يُثْبِت بها التوحيدَ، ويدفَعُ بها شُبَهَ المُبْطِلينَ؛ أنَّ هذا رَفْعٌ من الله في درجاتِه؛ حيث أَتْبَعَ قولَه: ﴿حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ﴾ أتبعَه بقوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾[4].

١٣- العِلمُ يَرفَعُ اللهُ به صاحِبَه فوق العبادِ دَرَجاتٍ، خصوصًا العالِمَ العامِلَ المُعَلِّمَ؛ فإنَّه يجعَلُه اللهُ إمامًا للنَّاسِ، بحَسَبِ حالِه؛ تُرمَقُ أفعالُه، وتُقتَفى آثارُه، ويُستضاءُ بنورِه، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾ كما رَفَعْنا درجاتِ إبراهيمَ- عليه السَّلامُ- في الدُّنيا والآخرةِ[5].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٣٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٨٩).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٦٩).
(٤) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٤٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٣).

١٤- دلَّ قولُه: ﴿مَنْ نَشَاءُ﴾ على أنَّ التكريمَ لا يكونُ لكُلِّ أحدٍ؛ لأنَّه لو كان حاصلًا لكُلِّ النَّاسِ لم يحصُلِ الرَّفْعُ ولا التفضيلُ[1].

١٥- قُدِّمَ ﴿حَكِيمٌ﴾ على ﴿عَلِيمٌ﴾؛ لأنَّ هذا التفضيلَ مُظهِرٌ للحِكمةِ، ثمَّ عَقَّبَ بـ﴿عَلِيمٌ﴾؛ ليشيرَ إلى أنَّ ذلك الإحكامَ جارٍ على وَفْقِ العِلْمِ[2].

بلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾

حُذِفَ مُتعَلِّقُ (حاجَّهُ) لدلالةِ المقام، ودلالةِ ما بعده عليه مِن قَوْلِه: ﴿أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ﴾ الآيات[3].

- قوله: ﴿قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ﴾ الاستفهامُ للإنكارِ عليهم، وتأييسٌ من رجوعِه إلى معتقَدِهم[4].

- قوله: ﴿وَقَدْ هَدَانِ﴾ حال من ياءِ المتكَلِّم في ﴿أَتُحَاجُّونِّي﴾ مؤكِّدةٌ للإنكارِ؛ فإنَّ كونَه عليه السَّلامُ مَهدِيًّا من جهةِ الله تعالى ومؤيَّدًا من عنده ممَّا يوجِبُ استحالةَ مُحاجَّتِه عليه السَّلامُ، أي: لا جدوى لِمُحاجَّتِكم إيَّاي بعد أنْ هداني اللهُ إلى الحقِّ، وشأنُ الحالِ المؤكِّدةِ للإنكارِ أن يكونَ اتِّصافُ صاحِبِها بها معروفًا عند المخاطَبِ؛ فنزَّلَهم إبراهيمُ عليه السَّلامُ في خطابِه منزلةَ مَن يعلَمُ أنَّ اللهَ هداه؛ كنايةً على ظهورِ دلائلِ الهدايةِ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٣٢٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٣٢٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٢٧).

٢- قوله: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾

- قوله: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ إمَّا معطوفٌ على ﴿أَتُحَاجُّونِّي﴾ فيكونُ إخبارًا، أو على جملةِ ﴿وَقَدْ هَدَانِ﴾ فيكونُ تأكيدًا للإنكارِ، وتأكيدُ الإنكارِ بها أظهر منه لقوله: ﴿وَقَدْ هَدَانِ﴾؛ لأنَّ عدمَ خوفِه من آلِهَتِهم قد ظهرتْ دلائِلُه عليه، فقومه إمَّا عالِمون به، أو مُنَزَّلون منزلةَ العالِم(١).

- في قوله تعالى: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ توكيدُ الفعلِ ﴿يَشَاءَ﴾ بقوله: ﴿شَيْئًا﴾، وهو مَنصوبٌ على أنَّه نائبٌ عن المصدَرِ، أي: مَشيئةً؛ تقديرُه: إلَّا أنْ يَشاءَ ربِّي شيئًا مِنَ المَشيئةِ؛ لأنَّ الكلامَ المؤكَّد أَقْوَى وأثبَتُ في النَّفْسِ من غيرِ المؤكَّدِ(٢).

- قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ استثناءٌ مِمَّا قبله؛ فإنَّه لَمَّا نفَى أنْ يكونَ يَخافُ إضرارَ آلهَتِهم، وكان ذلك قدْ يَتوهَّم منه السَّامعونَ أنَّه لا يَخافُ شيئًا، استدرَكَ عليه بما دَلَّ عليه الاستثناءُ المنقَطِع، أي: لكنْ أخافُ مَشيئةَ ربِّي شيئًا مِمَّا أخافُه، فذلِك أخافُه، وفي هذا الاستدراكِ زِيادةُ نكايةٍ لقومِه؛ إذ كان لا يَخافُ آلِهَتهم في حين أنَّه يَخْشَى ربَّه المُستَحِقَّ للخَشيةِ إنْ كان قومُه لا يَعترِفون بربٍّ غيرِ آلهتِهم(٣).

- قوله: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ استفهامٌ معناه الإنكارُ عليهم؛ لعَدَمِ تذكُّرِهم، مع وُضوحِ دَلائلِ التذكُّرِ، والمرادُ التذكُّر في صِفاتِ آلهتِهم المنافِيَةِ لِمَقامِ الإلهيَّةِ(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٢٨).
(٢) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥١٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٢١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٢٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٣٢٩).

٣- قوله: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

- الاستفهامُ بـ﴿كَيْفَ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ تعجُّبيٌّ مِن تخويفِهم إيَّاه بما لا يُخيف؛ فمعناه التعجُّبُ، وإنكارُ الوقوعِ، ونَفْيُه بالكليَّة، كأنَّه تعجَّبَ من فَسادِ عُقولِهم؛ لأنَّهم دَعَوْه إلى أنْ يَخافَ بأسَ الآلهةِ؛ حيثُ خوَّفوه خَشَبًا وحِجارةً، لا تضرُّ ولا تنفَعُ، وهم لا يَخافونَ عُقْبى شِرْكِهم باللهِ، وهو الذي بيدِه النَّفْعُ والضُّرُّ، والأمرُ كلُّه(١).

- وقد حَذَفَ متعَلِّق الشِّرْك في مَقامِ إنكارِ خوفِه من شركائِهم، وذَكَرَه بعدَه في مقامِ إنكارِ عَدَمِ خَوْفِهم مِن شِرْكِهم؛ فقال: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾؛ لأنَّ الحاجةَ إلى بَيانِ عَدَمِ وجودِ السُّلطانِ- أي الدَّليل- على هذا الشِّرْك إنَّما يُحتاجُ إليه في مقامِ إسنادِه إليهم، والتعجُّبِ مِن عَدَمِ خَوفِهم سوءَ عاقبتِه، ما لا يُحتاجُ إليه في مقامِ إنكارِه هو كلَّ حالٍ يُمكِنُ أن تُدعَى لخَوفِه من شركائِهم، فهو يُثْبِت بذلك الإطلاقِ أنَّه لا يُمكِن أن توجَدَ حالٌ ولا صفَةٌ للخوفِ مِمَّا أشركوه، فلو عَدَلَ عنه إلى تقييدِ إنكاره بما ذُكِرَ؛ لَفاتَ بهذا القَيدِ ذلك العمومُ البليغُ، وذهَبَ ذِهْنُ السَّامعين إلى أنَّه سيخاف إذا ظهَرَ له دليلٌ على صحَّةِ دعواهم، وهم قومٌ مُقَلِّدون يعتقدونَ أنَّه لا بدَّ من وجود أدلَّةٍ تُثْبِت صحَّةَ اعتقادِهم، وإن لم يَعْرِفوها أو يَقْدِروا على بيانِها لِخَصْمِهم، وأمَّا ذِكْر هذا المتعَلَّق في مقامِ الإنكارِ التعجُّبي مِن عَدَمِ خَوْفِهم فهو ضروريٌّ، لأنَّه تذكيرٌ لهم عند ذِكْر عقيدَتِهم بأنَّهم لا عُذْرَ لهم بالجَهْلِ ببطلانِها؛ لأنَّه لا دليلَ لهم عليها(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٧٠)، ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٣٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٤٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٤٨١).

- قوله: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ﴾ الاستفهامُ للتَّقريرِ بأنَّ فريقَه هو وحْدَه أحقُّ بالأمْنِ(١).

- وقال: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، ولم يقل: (فأيُّنا أحقُّ بالأمْن أنا أم أنتُم)؛ احترازًا مِن تزكيَتِه نفسَه، فعدَل عنه إلى قولِه: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ﴾ يعني: فريقَي المشركين والموحِّدينَ، ويحتمل أن يكونَ العدولُ إلى ذلك؛ ليعُمَّ بالأمنِ كلَّ موحِّدٍ، وبالخوفِ كلَّ مُشْركٍ، ويندرجُ هو في حُكم الموحِّدينَ، وقومُه في حُكْمِ المشركينَ؛ فتكونُ نكتةُ عُدولِه عن قولِ: (فَأَيُّنَا أحقُّ بالأمْنِ)، إلى قَوْلِه: ﴿فأيُّ الْفَرِيْقَيْنِ﴾ هي بيانَ أنَّ هذِه المقابَلَة عامَّةٌ لكُلِّ موحِّدٍ ومُشْرِكٍ، منْ حيثُ إنَّ أحَدَ الفَريقينِ مُوَحِّدٌ والآخَرَ مُشرِكٌ، لا خاصَّةً به وبهم؛ فهي متضمِّنةٌ لعِلَّةِ الأَمنِ، وأحسنُ الجوابِ ما أفادَ وزاد(٢).

وقيل: إنَّ اسمَ التَّفضيلِ ﴿أَحَقُّ﴾ على غَيرِ بابِه؛ فالمرادُ أيُّنا الحقيقُ بالأمْنِ، ولكنَّه عبَّرَ باسمِ التَّفضيلِ ناطقًا في استنزالِهم عن مُنتهى الباطِلِ- وهو ادِّعاؤُهم أنَّهم هم الحقيقونَ بالأمْنِ، وأنَّه هو الحقيقُ بالخوف- إلى الوَسَطِ النَّظريِّ بين الأمرَينِ، وهو (أيُّ الفَريقينِ أحقُّ)، واحترازًا عن تَنفيرِهم من الإصغاءِ إلى قولِه كُلِّه(٣)، وإنَّما جِيءَ بصِيغة التَّفضيلِ ﴿أَحَقُّ﴾ المُشعِرَةِ باستحقاقِهم له في الجُملةِ؛ لاستنزالِهم عن رُتبةِ المكابرةِ والاعتِساف، بسَوْقِ الكلامِ على سَننِ الإنصاف(٤).

٤- قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- مع الحاشية)) (٢/ ٤٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٤٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٤٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٥٦).

مُهْتَدُونَ﴾ على القولِ بأنَّ هذه الجُملةَ مِن حِكايةِ كلامِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، فيكون جوابًا منه عن قولِه: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ﴾؛ تولَّى جوابَ استفهامِه بنَفْسِه، ولم يَنتظِرْ جوابَهم؛ لكونِ الجوابِ ممَّا لا يَسعُ المسؤولَ إلَّا أن يُجيبَ بمِثْله، وهو تبكيتٌ لهم. وعلى القول بأنَّه كلامٌ مُستأنَفٌ مِن الله تعالى؛ لابتداءِ حُكمٍ، فتكونُ الجملةُ مُستأنفةً استئنافًا ابتدائيًّا؛ تصديقًا لقولِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ[1].

- والإشارة بـ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ﴾؛ للتَّنْبيهِ على أنَّ الموصولَ المُسْنَدَ إليه ﴿الَّذِينَ﴾ في قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ جَدِيرٌ بالمُسْنَدِ في ﴿لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ مِن أجْلِ ما تقدَّمَ من أوصافِ المُسْنَدِ إليه، وهو وصْفُهم بالإيمانِ الخالِصِ عن شَوْبِ الشِّركِ ﴿آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾، وإيذانًا بأنَّهم تميَّزوا بذلِك عن غيرِهم، وانْتَظَموا في سلكِ الأمور المشاهَدة[2].

- وما في الإشارةِ بـ﴿أُولَئِكَ﴾ مِن معنى البُعدِ؛ للإشعارِ بعُلوِّ درجتِهم، وبُعدِ منزلتِهم في الشَّرفِ[3].

- وقوله: ﴿لَهُمُ الْأَمْنُ﴾ أشارَتِ اللامُ إلى أنَّ الأمْنَ مُختصٌّ بهم وثابتٌ، وهو أبلغُ مِن أن يُقالَ: آمنونَ[4].

٥- قوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٣١- ٣٣٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٣٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٥٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٣٣).

- قوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾: أضاف الحُجَّةَ إليه تعالى على سَبيلِ التَّشريفِ، ولِلتَّنويهِ بِشَأنِها وَصِحَّتِها[١].

- قوله: ﴿عَلَى قَوْمِهِ﴾ فيه تشبيهُ الغالِبِ بالمستعْلِي، المتمكِّنِ مِن المغلوبِ[٢].

- قوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ فيه إيثارُ صيغةِ الاستقبالِ ﴿نَرْفَعُ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ ذلك سُنَّةٌ مستمِرَّةٌ جارِيَةٌ فيما بين المُصطَفَينَ الأخيارِ، غيرُ مختصَّةٍ بإبراهيمَ عليه السَّلامُ[٣].

- وعلى قراءة (يَرْفَعُ) بالياء، يكون فيه التفاتٌ[٤].

- وتقديمُ ﴿دَرَجَاتٍ﴾ وتأخيرُ المفعولِ ﴿مَنْ نَشَاءُ﴾ للاعتناءِ بالمقدَّمِ، والتَّشويقِ إلى المؤخَّرِ[٥].

- والإتيانُ بصيغَةِ الجَمعِ في ﴿دَرَجَاتٍ﴾ باعتبارِ صَلاحِيَّةِ ﴿مَنْ نَشَاءُ﴾ لأفرادٍ كثيرينَ، متفاوِتينَ في الرِّفعةِ[٦].

- قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ قَوْلَه: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾ يُثير سؤالًا، يقول: لِماذا يُرفَعُ بعضُ النَّاسِ دون بعضٍ، فأُجِيبَ بأنَّ اللهَ يَعلمُ مُستحِقَّ ذلك ومِقدارَ استحقاقِه، ويخلُقُ ذلك على حَسَب تعلُّق عِلْمِه[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٥٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٣٦).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- ويحتملُ أنْ يكونَ الخِطابُ في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، ويحتَملُ أنْ يكونَ المرادُ به إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ فيكونُ من بابِ الالْتِفاتِ، ويكونَ الخروجُ مِن ضميرِ الغَيبةِ إلى ضميرِ الخِطابِ على سبيلِ التَّشريفِ بالخِطابِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٧٣).

الآيات (٨٤ - ٩٠)

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾: أي: أولادِهم، وأولادِ أولادِهم، و(ذُرِّيَّة) مأخوذةٌ مِن (ذَرَأَ)، أي: خَلَق؛ لأنَّ الذُّريَّة خَلْقُ اللهِ؛ يُقال: ذَرَأ اللهُ الخَلْقَ، أي: خلَقَهم فهو يَذْرَؤُهم، وتُرِكتِ الهَمزةُ فيها؛ لكثرةِ ما يُتكلَّم بِها[١].

﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ﴾: اصطفَيناهم، وخصَّصْناهم بالفَضْل، والاجتباءُ: الجمعُ على طريقِ الاصطفاءِ، وأصلُ (جبي): يدلُّ على جمعِ الشَّيءِ، والتجمُّعِ[٢].

﴿لَحَبِطَ﴾: أي: بَطَل؛ فالحَبَط: البُطلانُ والألَم، وأصْلُه: أن تُكْثِرَ الدابَّةُ أكلًا حتى ينتفِخَ بطنُها، فتموتَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٢٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٩٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٦)، =

﴿الْحُكْمَ﴾: أي: الفَهمُ بالكِتابِ، ومعرفةُ ما فيه مِن الأحكامِ، وأصل (حكم): منْعٌ يُرادُ به إصلاحٌ، وهو المنعُ مِن الظُّلم، ومنه سُمِّي العَقلُ حَكَمةً؛ لأنَّه يمنعُ صاحبَه مِن الجَهلِ، والمنعُ جزءٌ مِن معنى الإحكامِ لا جميعُ مَعْناه[1].

﴿اقْتَدِهْ﴾: أي: اهتَدِ واتَّبِعْ، واعْمَلْ وخُذْ به واسْلُكْه، وأصلُ (قدو): اقتباسٌ بالشَّيءِ واهتداءٌ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يُخْبِر تعالى أنَّه وَهَبَ لإبراهيمَ ابنَه إسحاقَ، وابنَ ابنِه يعقوبَ، وقد هداهم كلَّهم إلى الصِّراطِ المستقيمِ، ونوحًا هداه اللهُ من قبلهم، وهدى مِن ذُرِّيَّتِه داودَ، وسليمانَ، وأيُّوبَ، ويوسُفَ، وموسى، وهارونَ؛ عليهم السَّلامُ، وكما جزى اللهُ هؤلاء الرُّسُلَ فوفَّقَهم للصِّراطِ المُستقيمِ، فسيَجزي هذا الجزاءَ كُلَّ مَن أحسَنَ عَمَلَه للهِ.

وهدَى سبحانه وتعالى زكريَّا ويَحيَى وعيسى وإلياسَ، وكلُّ هؤلاءِ مِن الصَّالحينَ، وإسماعيلَ واليَسَعَ ويونُسَ ولوطًا هداهم كذلِك، وكُلًّا فَضَّلَهم اللهُ على العالَمينَ.

وهدَى الله أيضًا بعضًا مِن آباءِ مَن تقدَّم ذِكْرُهم من الأنبياءِ والمُرسَلينَ، وبعضَ ذُرِّيَّاتِهم، وبعضَ إخوانِهم، واصطفاهم واختارَهم لِدِينِه، وهداهم إلى الصِّراطِ المُستقيمِ.

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٦)، ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٣٣١).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٨)، ((الإكليل في المتشابه والتأويل)) لابن تيمية (ص: ١١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٣).

ذلك الهُدى الذي هدى اللهُ به من تقدَّمَ ذِكْرُهم هو هُدى اللهِ، الذي لا هُدى إلَّا هُداه، فيوفِّقُ لإصابةِ الحَقِّ من يشاءُ مِن عِبادِه، ولو أشرك هؤلاءِ الأنبياءُ والمُرْسَلونَ بالله تعالى غَيرَه، لبَطَلَ وذَهَبَ عنهم أجْرُ ما عَمِلوه من الخَيرِ.

ثم أخبَرَ تعالى أنَّ هؤلاءِ الأنبياءَ والرُّسُلَ المذكورينَ همُ الذينَ أعطاهم الكتبَ المنزلةَ عليهم، ومعرفةَ ما فيها مِن أحكامٍ، والنبوَّةَ، فإنْ يكفُرْ بها هؤلاءِ من كفَّارِ قريشٍ وغيرِهم مِن سائِرِ أهْلِ الأَرضِ؛ فقد وكَّلَ اللهُ تعالى بها قومًا آخَرينَ وَفَّقَهم للإيمانِ بها.

ثم بيَّنَ تعالى أنَّ أولئك الأنبياءَ والرُّسُلَ همُ الذين هداهُم اللهُ لِدِينِه الحَقِّ، والقيامِ به واتِّباعِه، وأمَرَ نبيَّه محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّم أن يَقتدِيَ بهداهم، وأنْ يقول للمُشركينَ: لا أسأَلُكم على تبليغي إيَّاكم الدِّينَ أجرًا، إنْ هو إلَّا تذكيرٌ وعِظَةٌ للعالَمينَ.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى عبدَه وخليلَه، إبراهيمَ عليه السَّلامُ، وذَكَر ما مَنَّ اللهُ عليه به؛ من العِلْم والدَّعوةِ، والصَّبْر- ذَكَرَ ما أكرَمَه اللهُ به من الذُّرِّيةِ الصَّالحَةِ، والنَّسْل الطيِّبِ، وأنَّ اللهَ جَعَلَ صفوةَ الخَلقِ مِن نَسْلِه، وأَعْظِمْ بهذه المنقبَةِ والكرامَةِ الجسيمةِ، التي لا يُدْرَكُ لها نظيرٌ[1]! فقال تعالى:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٣).

أي: مَنَحْنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ ابنَه إسحاقَ وابنَ ابنِه يعقوبَ، وقد هَدَيْنا جميعَهم الصِّراطَ المستقيمَ، ووفَّقْناهم للحَقِّ القويمِ(١).

كما قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا * وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٩-٥٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١].

وقال سبحانه: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ * إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٥- ٤٧].

﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾.

مناسَبَتُها لما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ شَرَفَ أبناءِ إبراهيمَ، ذَكَرَ شَرَفَ آبائِه؛ فذكَرَ نوحًا(٢)، فقال:

﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾.

أي: وهَدَينا نوحًا مِن قبلِ إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ، فوفَّقناهُ للحَقِّ(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٥٠-٤٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٥٣-٤٥٤).

﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴾.

أي: وهَدَيْنا أيضًا من ذريَّةِ نوحٍ دَاودَ وسُليمانَ وأيُّوبَ ويوسُفَ وموسى وهارونَ، عليهم السَّلامُ[1].

﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

أي: وكما جَزَيْنا هؤلاءِ الرُّسُلَ الكِرامَ، فوفَّقناهم لطريقِ الصَّوابِ؛ لحُسْنِ طاعَتِهم إيَّانا، وصَبْرِهم على الْمِحَنِ فينا، كذلك نَجزي بهذا الجزاءِ الحَسَنِ كلَّ مَن أحسَنَ عَمَلَه لله تعالى، فنجعَلُ له أيضًا من التَّوفيقِ، وإصابَةِ الحَقِّ، والثَّناءِ الجميلِ، والذريَّةِ الصَّالحةِ، بحَسَب إحسانِه[2].

كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

أي: وهدَيْنا للحَقِّ أيضًا زكريَّا ويحيى وعيسى وإلياسَ، وهؤلاءِ من الصَّالحينَ في نِيَّاتِهم وأخلاقِهم، وأعمالِهم وعُلومِهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٨١-٣٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٧-٢٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٥٥-٤٥٧).
واختار أنَّ الضميرَ في ﴿ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ يعودُ على نوحٍ عليه السَّلام: ابنُ جريرٍ في ((تفسيره)) (٩/ ٣٨١-٣٨٢)، وابنُ عطيةَ في ((تفسيره)) (٢/ ٣١٦)، وابنُ عاشورٍ في ((تفسيره)) (٧/ ٣٣٨).
وممن قال من السَّلف بذلك: ابنُ عبَّاس، ومقاتلٌ. يُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٥٠).
واختار أنَّ الضمير يعودُ على إبراهيمَ عليه السَّلام: القرطبي في ((تفسيره)) (٧/ ٣١).
وممن قال مِن السَّلف بذلك: عطاءٌ، ويحيى بنُ يعمرَ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٤/ ١٣٣٥)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٥٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٥٧-٤٥٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٨٢-٣٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٦٢).

﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٦﴾.

أي: وهدَيْنا للحَقِّ أيضًا إسماعيلَ والْيَسَع ويونُسَ ولوطًا، وفضَّلناهم على العالَمينَ في أزمانِهم(١).

﴿وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٨٧﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا نَصَّ اللهُ سبحانه على مَن ذَكَر من الأنبياءِ عليهم السَّلام، وخَتَم بتفضيلِ كلٍّ على العالَمينَ- أتبَعَه على سبيلِ الإجمالِ أنَّ غيرَهم كان مَهدِيًّا، فرَغَّبَ في سلوكِ هذا السَّبيلِ بكثرَةِ سالِكيه، وحَثًّا على منافَسَتِهم في حُسنِ الاستقامةِ عليه، والسُّلوكِ فيه(٢).

وأيضًا لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى هؤلاءِ الرُّسُلَ الكِرامَ، ذَكَرَ أنَّه هدى بعضَ أُصولِهم وفُروعِهم وبَعضَ حواشِيهم(٣)، فقال:

﴿وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٨٧﴾.

أي: وهَدَيْنا أيضًا بعضَ آباءِ مَن تقدَّم ذِكْرُهم؛ من الأنبياءِ والرُّسُلِ الكرامِ عليهم السَّلامُ، وهدَيْنا بعضَ ذُرِّيَّاتهم، وبعضَ إخوانِهم، واختَرْناهم لِدينِنا، وإبلاغِ رِسالَتِنا إلى من أَرْسَلْناهم إليه، وسدَّدْناهم، فأرشَدْناهم إلى طريقِ الحقِّ الذي لا عِوَجَ فيه، والدِّينِ الخالِصِ الذي لا شِرْكَ فيه، فوفَّقناهم لاتِّباعِه(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٨٤-٣٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٦٢-٤٦٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٨٠).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٨٥-٣٨٦)، ((الوجيز)) للواحدي (٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٤٩-٣٥٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٦٦-٤٦٧).

﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ ﴾.

أي: هذا الهُدى الذي هُدِيَ به أولئك الأنبياءُ والرُّسُلُ، فوُفِّقُوا للحَقِّ، هو هُدَى اللهِ الذي لا هُدَى إلا هُداه، فيُوفِّقُ لإصابةِ الحَقِّ مَن يَشاءُ اللهُ هدايَتَه من عبادِه[1].

﴿وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾.

أي: ولو أنَّ هؤلاء الأنبياءَ والرُّسُلَ الكِرامَ الذين هداهم اللهُ أَشْرَكوا بِرَبِّهم سبحانه وتعالى- على سبيلِ الفَرْضِ والتقديرِ- لبَطَلَ وذهب عنهم أَجْرُ جميعِ ما عَمِلوه من الخيرِ؛ فاللهُ تعالى لا يَقبَلُ مع الشِّرْك به عملًا[2].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥-٦٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٦٨).

قال ابنُ كَثير: (وهذا شرْطٌ، والشرْطُ لا يَقتضي جوازَ الوقوعِ؛ كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١]، وكقوله: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٧]، وكقوله: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤]) ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٩).

وقد ذكر بعض أهل العِلم أنَّ حبوطَ عمَلِ المرء مقيَّدٌ بما لو مات على الشِّرك بالله تعالى؛ بدليل قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢١٧]. يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٦٨-٤٧٠).

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذَكَرَ أنَّه تعالى فضَّلَهم واجتباهم وهداهم؛ ذَكَرَ ما فُضِّلوا به[1]، فقال تعالى:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ﴾.

أي: أولئك الَّذين سَمَّيناهم من الأنبياءِ والرُّسُلِ عليهم السَّلام، هم الذين أعطيناهم الكِتابَ، كصُحُفِ إبراهيمَ، وتوراةِ موسى، وزبورِ داودَ، وإنجيلِ عيسى عليهم السَّلامُ، ومنَحْناهم الفَهْمَ بالكتابِ، ومعرفةَ ما فيه من الأحكامِ، والاطِّلاعَ على دقائِقِه، وأكْرَمْناهم بجَعْلِهم أنبياءَ[2].

﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾.

أي: فإنْ يَكفُرْ- يا محمَّدُ- قومُك مِن كفَّارِ قريشٍ[3] بما آتيناكَ من الكتابِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٧٥-٤٧٦).

(٣) واختار أنَّ المراد بـ﴿هؤلاء﴾ كفارُ قريشٍ: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ، وابنُ كثيرٍ، وابنُ عاشورٍ، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٩٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٥٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٧٧).

قال ابنُ عاشورٍ: (وقد تقصَّيت مواقعَ آيِ القرآنِ فوجدتُه يعبِّر عن مشركي قريشٍ كثيرًا بكلمة (هؤلاء)، كقوله: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ﴾ [الزخرف: ٢٩] ولم أرَ مَن نبَّه عليه مِن قبلُ) ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٥٣).

واختار ابنُ عطيةَ والقرطبيُّ أنَّ الإشارةَ تعودُ إلى كفَّار قريشٍ وغيرِهم مِن الكفَّار في عصرِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣١٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٤).

والحُكْمِ والنبوَّةِ[١]، فقد رزَقْناها قومًا آخرينَ[٢]، ووفَّقْناهم للإيمانِ بها، وهيَّأْناهم لها؛ حتى يَقوموا بها، ويُحافِظُوا عليها؛ فيعبُدوني ويوحِّدوني كما ينبغي[٣].

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ (٩٠) ﴾.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾.

أي: أولئك الأنبياءُ والرُّسُلُ الكرامُ، هم الذين هداهم اللهُ لِدينِه الحَقِّ، والقِيامِ به، واتِّباعه، فَسِرْ خَلْفَهم- يا محمَّدُ- واتَّبِعْ مِلَّتَهم، واعْمَلْ بما عَمِلوا، وخُذْ سبيلَهم الذي سلكوا[٤].

(١) قيل: المرادُ يَكفُرون بهذه الثلاثة، وقيل: يَكفُرون بالنبوَّة، وقيل: يكفرون بالقُرآن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٧٦-٤٧٧).

(٢) قيل: المرادُ بالقوم الآخَرين: الأنبياءُ الثَّمانيةَ عَشَرَ الذين سمَّاهم اللهُ تعالى ذِكرُه في الآياتِ قبلَ هذه الآية. وهذا اختيارُ ابن جرير في ((تفسيره)) ((٩/ ٣٩٠-٣٩١)، واستظهره الشُّنقيطيُّ في ((العذب النمير)) (١/ ٤٧٨).

وقيل المراد: المهاجِرون والأنصارُ وأتْباعهم إلى يومِ القِيامة. وهذا اختيار ابن كثير في ((تفسيره)) (٣/ ٢٩٩).

وقيل: تَشملُ كلَّ مؤمنٍ آمَن بالله عزَّ وجلَّ. يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٧٨).

ويرَى الشُّنقيطيُّ أنَّه لا تعارُضَ بين هذه الأقوال، حيث قال: (وهؤلاءِ القومُ المؤمنون- الذين هُم ليسوا بها بكافرين، الذين وكَّلهم الله بالإيمانِ بها- للعلماءِ فيهم أوجهٌ مِن التَّفسير، لا يُكذِّب بعضُها بعضًا) ((العذب النمير)) (١/ ٤٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٨٨-٣٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٧٦-٤٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٩١-٣٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٨٠، ٤٨٩).

والهاءُ في قوله: ﴿اقْتَدِهْ﴾ هي هاءُ السَّكْت دخلَتْ لتتبيَّنَ بها حركةُ الدَّالِ. يُنظر: ((إعراب ثلاثين سورة)) لابن خالويه (ص: ١٦٤)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٦٠)، ((إتحاف فضلاء البشر)) للبناء (ص: ١٤٠).

﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾.

مناسَبَتُها لما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَه تعالى بالاقتداءِ بهُدى الأنبياءِ- عليهم السَّلامُ- المتقدِّمينَ، وكان من جملةِ هُداهم تَرْكُ طَلَبِ الأجرِ في إيصالِ الدِّينِ، وإبلاغِ الشَّريعةِ؛ لا جَرَمَ اقتدَى بهم في ذلك، فقال[1]:

﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾.

أي: قلْ- يا محمَّدُ- لِمُشْركي قومِك: لا أسألُكم على تذكيري إيَّاكم، ودعوتي لكم، وإبلاغِكم هذا القرآنَ، أُجْرةً أنالُها منكم[2].

وهذه عادةُ كلِّ الأنبياءِ؛ يُبلِّغونَ العِلمَ من غير أنْ يأخُذوا عليه جُعْلًا؛ ﴿اتَّبِعُوْا الْمُرْسَلِيْنَ * اتَّبِعُوْا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا﴾ [يس: ٢٠-٢١]، ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ [سبأ: ٤٧]، وقد ذكَر اللهُ قَصَصَ الأنبياءِ في سورةِ الشُّعراء؛ قصَّةَ نوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولوطٍ وشُعيبٍ، كلُّ واحدٍ يقولُ: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِيْنَ﴾ [الشعراء: ١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠]، وذكَرَ عن نوحٍ: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [هود: ٢٩]، وهذه عادةُ الرُّسُلِ؛ يُبلِّغون ويبذُلونَ العِلمَ والنَّصائحَ والخَيرَ مجَّانًا مِن غيرِ عِوَضٍ في ذلك[3].

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَـٰلَمِينَ﴾.

أي: وما ودَعْوتي، وتَبليغي القرآنَ الذي جئتُ به، إلَّا تذكيرٌ، وعِظَةٌ للعالَمينَ،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٨٠، ٤٨٩).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٩٤-٤٩٥).

فيتذكَّرونَ، ويتَّعظونَ بما فيه من الغرائِبِ والعجائِبِ، فيَرشُدونَ مِنَ العَمَى إلى الهُدى، ومِنَ الكُفْرِ إلى الإيمان، ويتذكَّرونَ بأْسَ اللهِ أن يحُلَّ بهم، وسَخَطَه أن يَنْزِلَ بهم على شِرْكهم وكُفْرِهم به، ويتذكَّرون ما ينفَعُهم فيفعلونَه، وما يضرُّهم فيترُكونَه، ويتذكَّرون معرفةَ رَبِّهم بأسمائِه وأوصافِه، ويتذكَّرونَ به الأخلاقَ الحميدةَ وما يُوصِلُ إليها، والأخلاقَ الرذيلةَ، وما يُفْضي إليها(١).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا﴾ كان هذا مجازاةً لإبراهيمَ عليه السَّلامُ، حين اعتزَلَ قَومَه وترَكَهم، ونَزَح عنهم، وهاجَرَ من بلادهم؛ ذاهبًا إلى عبادَةِ اللهِ في الأرض، فعوَّضَه اللهُ عزَّ وجلَّ عن قومِه وعَشيرَتِه بأولادٍ صالحينَ مِن صُلْبِه على دِينِه؛ لتَقَرَّ بهم عينُه؛ لأنَّه هَجَر الوطنَ للهِ تعالى، وخرَج عن الأقرباءِ والأحبَّاءِ، وقد أوضَحَ الله ذلك في سورةِ مريمَ؛ حيث قال: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُوْنِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوْبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤٩]، ويُفهَم من هذه الآياتِ: أنَّ مَن هَجَر الأوطانَ والأقارِبَ للهِ أقَرَّ اللهُ عينَه مِن ظَهْرِه بما يُسَلِّيه عنهم(٢).

٢- قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ هذه الآيةُ تدلُّ على أنَّ مَن أحسَنَ العمَلَ لله زادَه اللهُ هُدًى؛ لأنَّ التشبيهَ في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِيْ﴾ عائدٌ إلى الهُدى في قوله: ﴿كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوْحًا هَدَيْنَا﴾(٣).

٣- الترهيبُ من الشِّرْك؛ يُبيِّن ذلك قولُ الله تعالى: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٧)، ((القواعد الحسان)) للسعدي (ص: ١٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٥٣).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٥٨).

بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، فلو أنَّ هؤلاءِ العِبادَ المَهديِّينَ حادُوا عن توحيدِ الله تعالى، وأشْرَكوا باللهِ تعالى؛ فإنَّ مَصيرَهم أنْ يَحْبَطَ عنهم عملُهم، أي: أن يذهَبَ ضياعًا ويَهْلِك(١).

٤- أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى هو المتفَضِّلُ بالهداية على العبادِ؛ يُبيِّن ذلك قولُه تعالى: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾(٢).

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ابتدأ سبحانه بهما عليهما السَّلامُ؛ لأنَّ السِّياقَ للامتنانِ على إبراهيمَ الخليلِ عليه السَّلامُ، وهو أشدُّ سُرورًا بابْنِه الذي مُتِّعَ به، ولم يؤْمَر بفراقِه، وابنِ ابنِه الذي أكثرُ الأنبياءِ الدَّاعينَ إلى اللهِ مِن نَسْلِه ومن خواصِّه، وهو الموجِبُ الأعظمُ للبَداءةِ أنَّ أبناءَه طَهَّروا الأرضَ المُقدَّسَة التي هي مُهاجَرُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، ومُختارُه للسُّكْنى بنفْسِه ونَسْلِه، بل مُختارُ اللهِ له ولهم بَعْدَه بِمُدَدٍ، طَهَّروها من الشِّرْك وعبادَةِ الأوثانِ، ودَعَوْا إلى الله، ونَوَّروا الأرضَ بعبادَتِه(٣).

٢- في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ...﴾ ذَكَر في مَعرِض الامتنانِ مِن أولادِ إبراهيمَ إسحاقَ، ولم يَذكُر معه إسماعيلَ، بل أخَّره عنه بدَرجاتٍ، مع أنَّه أكبرُ منه؛ وذلك لأنَّ المِنَّةَ كانت في هِبةِ إسحاقَ أظهرَ، أو لأنَّ المقصودَ بالذِّكرِ هاهنا أنبياءُ بني إسرائيلَ، وهم بأَسْرِهم أولادُ إسحاقَ ويعقوبَ، وأمَّا إسماعيلُ فإنَّه ما خرج من صُلْبِه أحدٌ من الأنبياءِ إلَّا محمدٌ صلَّى اللهُ عليه وآلِهِ وسَلَّمَ، ولا يجوزُ ذِكْرُ محمَّدٍ عليه الصلاةُ والسَّلامُ في هذا المقامِ، لأنَّه تعالى

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٣٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٧٠).

أمَرَ محمدًا عليه الصَّلاة والسَّلامُ أن يحتَجَّ على العَرَبِ في نَفْيِ الشِّرْكِ بالله بأنَّ إبراهيمَ لَمَّا تَرَكَ الشِّرْك، وأصَرَّ على التوحيدِ رَزَقَه اللهُ النِّعَمَ العظيمةَ في الدِّينِ والدنيا، ومن النِّعَم العظيمةِ في الدُّنيا أنْ آتاه اللهُ أولادًا كانوا أنبياءَ ومُلوكًا، فإذا كان المحتَجُّ بهذه الحُجَّة هو محمدٌ عليه الصلاةُ والسَّلام امتنع أن يَذْكُرَ نَفْسَه في هذا المَعْرِضِ؛ فلهذا السَّبَبِ لم يُذْكَر إسماعيلُ مع إسحاقَ[١].

٣- مِن تمامِ إقرارِ العينِ بالوَلَدِ كونُه صالحًا مَهدِيًّا؛ لأنَّ الوَلَدَ إذا كان غيرَ صالحٍ لم يَكُنْ قُرَّةَ عينٍ، فهِبَتُه والنِّعمةُ به إنَّما تَتِمُّ إذا كان مَهْدِيًّا، لا إنْ كان غيرَ مهدِيٍّ؛ ولذا قال: ﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾[٢].

٤- في قولِ الله تعالى: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ إنَّما ذَكَرَ نوحًا؛ لأنَّه جَدُّ إبراهيمَ عليه السَّلام؛ فهو لبيانِ نِعَمِ الله عليه في أفضَلِ أُصولِه؛ تمهيدًا لبيان نِعَمِه عليه في الكثيرِ من فُروعِه[٣].

وأيضًا لَمَّا كانتْ قِصَّةُ نوحٍ شبيهةً بقصَّةِ إبراهيمَ؛ ذَكَرَه معه، وبَيَّنَ أنَّه هَدَى نُوحًا مِنْ قَبْلِ إبراهيمَ، كما هَدَى إبْرَاهِيمَ؛ لأنَّ نبيَّ اللهِ نوحًا نشأَ في قومٍ يعبدونَ الأصنامَ، وهو أوَّلُ نبيٍّ أُرْسِلَ لقومٍ يَعبدونَ الأصنامَ، وجادلوه جدًّا في الأوثانِ ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ [نوح: ٢٣- ٢٤]، وكان يُجادِلُهم في عبادةِ الأصنامِ حتى قالوا له: ﴿قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [هود: ٣٢]، وكان إبراهيمُ نشأَ في قومٍ يَعبدونَ أجرامَ السَّماءِ وأجرامَ الأَرْضِ كذلك، وخاصَمَهم مثلَ مُخاصَمَةِ نوحٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٥١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ١٧٠).
(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٥٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٤٨٨).
(٤) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٥٣).

وأيضًا لَمَّا كان ربَّما وَقَعَ في وَهْمٍ أنَّ هدايةَ كُلٍّ مِن إسحاقَ وابنِه بتربيةِ أبيه، ذَكَرَ من آباءِ الخليلِ نوحًا عليهما السَّلام؛ لدَفْعِ ذلك، ولأنَّ السِّياقَ لإنكارِ الأوثانِ، وهو أوَّلُ من نهى عن عبادَتِها، وهو أجَلُّ آباءِ الخليلِ عليه السَّلامُ[(١)].

٥- قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ...وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ المقصودُ من هذه الآياتِ تعديدُ أنواعِ نِعَمِ اللهِ تعالى على إبراهيمَ عليه السَّلامُ جزاءً على قيامِه بالذَّبِّ عن دلائِلِ التَّوحيدِ[(٢)].

٦- قولُ الله تعالى: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ﴾، (مِن قبلُ) حالٌ من ﴿نوحًا﴾؛ وفائدةُ ذِكْرِ هذا الحالِ التنبيهُ على أنَّ الهدايةَ مُتأصِّلةٌ في أصولِ إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ[(٣)]، وأثْبتَ الجارَّ ﴿مِنْ﴾ وقطَعَ ﴿قَبْلُ﴾ عنِ الإضافةِ؛ لتراخِي زمانِ إسحاقَ ويعقوب عليهما السَّلامُ كثيرًا عن زمانِ نوحٍ عليه السَّلام[(٤)].

٧- ذَكَرَ الله تعالى أوَّلًا أربعةً من الأنبياءِ؛ وهم: نوحٌ، وإبراهيمُ، وإسحاقُ، ويعقوبُ، ثمَّ ذَكَر من ذُرِّيَّتِهم أربعةَ عَشَرَ من الأنبياءِ: داودَ، وسُليمانَ، وأيوبَ، ويوسفَ، وموسى، وهارونَ، وزكريَّا، ويحيى، وعيسى، وإلياسَ، وإسماعيلَ، والْيَسَعَ، ويونُسَ، ولوطًا، والمجموعُ ثمانيةَ عَشَر؛ فإنْ قيل: رِعايةُ الترتيب واجبةٌ، والترتيبُ إمَّا أن يُعتبَر بحَسَب الفَضْل والدَّرَجة، وإمَّا أن يُعتبَر بحسَبِ الزَّمانِ والمدَّة، والترتيبُ بحَسَب هذين النَّوعينِ غيرُ مُعتبَر في هذه الآيةِ؛ فما السَّبَبُ فيه؟

فقيل: حرْف الواوِ لا يوجِبُ الترتيبَ، وأحدُ الدَّلائلِ على صِحَّةِ هذا المطلوبِ هذه الآيةُ؛ فإنَّ حرْف الواوِ حاصِلٌ هاهنا مع أنَّه لا يُفيدُ الترتيبَ البتَّةَ، لا بِحَسَب

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٧١).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٥١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٣٨).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٧١-١٧٢).

الشَّرَف، ولا بحَسَب الزَّمانِ، وقد يُقالُ: إنَّ هناكَ وجهًا مِن وجوهِ التَّرتيبِ؛ وذلك لأنَّه تعالى خَصَّ كلَّ طائفةٍ من طَوائِفِ الأنبياءِ بنوعٍ من الإكرامِ والفَضْل؛ فمِن المراتبِ المعتبَرة عند جمهورِ الخَلقِ: الملكُ والسُّلْطانُ والقُدرة، واللهُ تعالى قدْ أعطَى داودَ وسُليمانَ من هذا البابِ نصيبًا عظيمًا. والمرتبة الثانية: البلاءُ الشديدُ، والمحنةُ العظيمةُ، وقد خصَّ اللهُ أيُّوبَ بهذه المرتبةِ والخاصيَّة. والمرتبة الثالثة: مَن كان مُستجمِعًا لهاتينِ الحالتَينِ، وهو يُوسفُ عليه السَّلام؛ فإنَّه نال البلاءَ الشديدَ الكثيرَ في أوَّلِ الأمْر، ثم وصَلَ إلى المُلكِ في آخِرِ الأمْرِ. والمرتبة الرابعة: مِن فضائلِ الأنبياءِ عليهم السَّلام وخواصِّهم قوَّةُ المعجزاتِ وكثرةُ البَراهينِ، والمهابةُ العظيمةُ والصولةُ الشَّديدةُ، وتخصيصُ اللهِ تعالى إيَّاهم بالتقريبِ العظيمِ والتكريمِ التامِّ، وذلك كان في حقِّ موسى وهارون. والمرتبة الخامسة: الزُّهدُ الشَّديدُ، والإعراضُ عن الدُّنيا، وذلك كما في حقِّ زكريَّا ويحيى وعيسى وإلْياس. والمرتبة السَّادسة: الأنبياءُ الذين لم يَبْقَ لهم فيما بين الخَلْقِ أتْباعٌ وأشياع، وهم إسماعيلُ واليَسَعُ ويُونُسُ ولُوطٌ؛ فإذا اعتُبِرَ هذا الوجهُ، ظهَرَ أنَّ الترتيبَ حاصلٌ في ذِكرِ هؤلاءِ الأنبياءِ عليهم السَّلام بحسَب هذا الوَجهِ[1].

٨- قول الله تعالى: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ﴾ يدلُّ على أنَّ اسمَ الذريَّةِ يتناولُ الكِبارَ[2].

٩- قول الله تعالى: ﴿وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ﴾ لَمَّا كان يوسُفُ عليه السَّلامُ مِمَّن أعلى اللهُ كَلِمَتَه على كَلمةِ مَلِكِ مِصرَ، وأَعَزَّ مُلْكَها وأهْلَها وأَحياهم به- أتْبعَه مَن أَعْلى اللهُ كَلِمَتَهما على كَلمةِ مَلِكِ مِصرَ وأهْلِها، وأهلَكَهُم بهما، فكأنَّ بعضَ قَصَصِهم وِفاقٌ، وبعضُها تَقابُلٌ وطباقٌ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٥٢- ٥٣)، وينظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٧٣- ٥٧٤).
(٢) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٨/ ٤٨٤).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٧٥).

١٠- قولُه تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ فيه وصفُهم بالصَّالحين؛ لأنَّهم قد امْتازوا في الأنبياءِ عليهم السَّلامُ بشدَّةِ الزُّهْد في الدُّنيا والإعراضِ عن لذَّاتها، والرَّغبةِ عن زِينَتِها وَجَاهِها وسُلْطانِها؛ ولذلك خصَّهم هنا بوَصْفِ الصَّالحينَ، وهو أَليَقُ بهم عند مُقابَلَتِهم بغَيرِهم، وإنْ كان كُلُّ نبيٍّ صالحًا ومُحْسنًا على الإطلاقِ[1].

١١- في قوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى﴾ قدَّم زكريَّا؛ لأنَّه والِدُ يَحْيى فهو أصلٌ، ويَحيى فرعٌ[2].

١٢- في قوله: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ﴾ بدَأ بزكريَّا ويحيى لسَبْقِهما عيسى في الزَّمانِ[3]، وابتُدِئَ بعِيسى عَطْفًا على يحيى؛ لأنَّهما قَريبانِ ابنَا خالةٍ، ولأنَّ عيسى رسولٌ، وإلْياس نَبِيٌّ غيرُ رسولٍ[4].

١٣- قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ في ذِكْر عيسى، عليه السَّلامُ، في ذريَّة نوحٍ، أو إبراهيمَ- على القَوْلِ الآخَرِ بأنَّ الضَّميرَ عائدٌ له- دلالةٌ على دُخولِ وَلَدِ البناتِ في ذريَّةِ الرِّجالِ؛ لأنَّ عيسى عليه السَّلامُ، إنَّما يُنسَب إلى إبراهيمَ عليه السَّلام، بأمِّه مريمَ عليها السَّلام، فإنَّه لا أبَ له؛ فلهذا إذا أوصى الرُّجُل لذُرِّيَّته، أو وَقَفَ على ذرِّيَّته أو وهَبَهم، دخَلَ أولادُ البناتِ فيهم[5]. ويدلُّ هذا على أنَّ الحَسَنَ والحُسَينَ من ذريَّةِ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم؛ لأنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ عِيسى من ذريَّةِ إبراهيمَ مع

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٤٨٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٧٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٤٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٩٨).

أنَّه لا ينتسِبُ إلى إبراهيمَ إلَّا بالأُمِّ، فكذلك الحَسَنُ والحُسينُ من ذريَّةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّم، وإنِ انتسبَا إلى رسولِ اللهِ بالأُمِّ وجَبَ كونُهما مِن ذُرِّيته، ويُقال: إنَّ أبا جعفرٍ الباقِرَ استدلَّ بهذه الآيةِ عندَ الحجَّاج بنِ يوسُفَ(١).

١٤- قولُه تعالى: ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ فيه دَلالةٌ على أنَّ الأنبياءَ أفضَلُ من الأولياءِ، خلافًا لبعضِ مَن ينتمي إلى التَّصوُّفِ في زَعْمِهم أنَّ الوليَّ أفضَلُ من النَّبيِّ(٢).

١٥- لَمَّا ذَكَر الأنبياءَ قال: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾؛ فبيَّنَ أنَّ حُصولَ الفضيلةِ هو باجتبائِه سبحانه وتعالى للآباءِ والذريَّةِ والإخوانِ، وهدايَتِه إيَّاهم إلى صراطٍ مُستقيم، لا بِنَفْسِ القرابةِ، وقد يُوجِبُ النَّسبُ حقوقًا، ويوجِبُ لأجلِه حقوقًا، ويُعَلَّق فيه أحكامًا من الإيجابِ والتَّحريمِ والإباحة، لكنَّ الثَّوابَ والعقابَ والوَعْدَ والوعيدَ؛ على الأعمالِ لا على الأنسابِ(٣).

١٦- جاء قولُه ﴿وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ جمعًا؛ لإرادةِ أنَّ الهُدَى تعلَّقَ بذرِّيَّةِ كلِّ مَن له ذريَّةٌ من المذكورينَ؛ للتنبيهِ على أنَّ في هُدى بعضِ الذريَّةِ كرامةً للجَدِّ، فكلُّ واحدٍ من هؤلاء مرادٌ وقوعُ الهُدَى في ذُرِّيَّتِه، وإنْ كانت ذرِّياتُهم راجعينَ إلى جَدٍّ واحدٍ، وهو نوحٌ عليه السَّلامُ(٤).

١٧- قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ الهُدَى بمشيئةِ اللهِ تعالى(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٥٣، ٥٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٦٠،٤٥٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٧٦).
(٣) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٨/ ٢١٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٤٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٧٧).

١٨- قولُه تعالى: ﴿لَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ﴾ المقصودُ منه تقريرُ التَّوحيدِ، وإبطالُ طريقةِ الشِّرْكِ(١).

١٩- في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّه تعالى سينصُرُ نبيَّه ويُقَوِّي دِينَه، ويجعَلُه مستَعْليًا على كلِّ من عاداه، قاهرًا لكلِّ مَن نازَعَه، وقد وقَعَ هذا الذي أخبَرَ الله تعالى عنه في هذا الموضِعِ، فكان هذا جاريًا مَجْرى الإخبارِ عن الغيبِ؛ فيكونُ مُعْجِزًا(٢).

٢٠- قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ﴾ أي: امْشِ أيُّها الرَّسولُ الكريمُ خلْفَ هؤلاءِ الأنبياءِ الأخيارِ، واتَّبِع مِلَّتَهم، وقد امتثَلَ صلَّى الله عليه وسلَّم، فاهتدى بهَدْيِ الرُّسُلِ قَبْلَه، وجَمَعَ كلَّ كمالٍ فيهم. فاجتمعت لديه فضائِلُ وخصائِصُ، فاق بها جميعَ العالَمينَ، وكان سَيِّدَ المُرسلينَ، وإمامَ المُتَّقين، صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه وعليهم أجمعينَ، وبهذا المَلْحَظ، استدلَّ مَن استدَلَّ من الصحابَةِ أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم أفضَلُ الرُّسُلِ كُلِّهِم(٣).

٢١- قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ هي التي أخَذَ منها جماهيرُ العُلماءِ- هي وأمثالها في القرآنِ- أنَّ شَرْعَ مَن قَبْلَنا شَرْعٌ لنا- إنْ ثَبَتَ في شَرْعِنا- إلَّا بدليلٍ يدلُّ على أنَّه ليس شَرْعًا لنا، فإنَّ كلَّ ما أنزَلَه اللهُ عليهم هُدًى، إلَّا ما ثبَتَ نَسْخُه(٤).

٢٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ يدلُّ على أنَّ النبيَّ محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم مبعوثٌ إلى كلِّ أهلِ الدُّنيا لا إلى قومٍ دونَ قومٍ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٣/ ٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٤).

(٤) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٨٠، ٤٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٢٧٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾

- قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا...﴾ موقِعُ هذه الجملةِ- وإنْ كانت مَعطوفةً- هو موقِعُ التذييلِ للجُمَلِ المقصودِ منها إبطالُ الشِّرْكِ، وإقامَةُ الحُجَجِ على فَسادِه، وعلى أنَّ الصَّالحينَ كُلَّهم كانوا على خِلافِه[1].

- قوله: ﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾ اعتراضٌ، أي: كُلُّ هؤلاءِ هَدَيْناهم؛ يعني: إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ، فحُذِفَ المُضافُ إليه لِظُهورِه، وعُوِّضَ عنه التَّنوينُ في ﴿كُلًّا﴾؛ فإنَّه تَنوينُ عِوَضٍ عن المضافِ إليه[2].

- قوله: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ﴾ استطرادٌ بِذِكْرِ بعضِ مَن أنعَمَ اللهُ عليهم بالهدى، وإشارةٌ إلى أنَّ الهدى هو الأصلُ، وقدَّم المفعولَ به (نُوحًا) على الفعلِ والفاعلِ ﴿هَدَيْنَا﴾؛ للاهتمامِ[3].

٢- قوله: ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ عبَّرَ بصِيغةِ الافتعالِ في ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ﴾؛ للمبالغةِ، وعَطَفَ قولَه: ﴿وَهَدَيْنَاهُمْ﴾ على ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ﴾ عطفًا يؤكِّدُ إثباتَ هُداهم؛ اهتمامًا بهذا الهُدى، فبيَّن أنَّه هُدًى إلى صراطٍ مُستقيمٍ؛ أي: إلى ما به نوالُ ما يعملُ أهلُ الكمالِ لنَوالِه، فضَرَبَ الصِّراطَ المُستقيمَ مثلًا لذلك؛ تشبيهًا لهيئةِ العامِلِ؛ لينالَ ما يطلُبُه من الكمالِ بهيئةِ السَّاعي على طريقٍ مُستقيمٍ، يُوصِلُه إلى ما سار إليه بدون تردُّدٍ، ولا تحيُّرٍ، ولا ضلالٍ، وذَكَرَ مِن ألفاظِ المركَّبِ الدَّالِّ على الهَيئةِ المشبَّهِ بها بعضَه، وهو الصِّراطُ المستقيمُ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٣٣٧- ٣٣٨).

لِدَلالَتِه على جميعِ الألفاظِ المحذوفةِ للإيجازِ(١).

- وفي قوله: ﴿وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ كرَّر الهدايةَ على سَبيلِ التوضيحِ والبيانِ للهدايةِ السَّابِقَةِ التي هُدُوا إليها- وهي الَّتي في قولِه تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾- وأنَّها هِدايةٌ إلى طريقِ الحَقِّ المُستقيمِ القويمِ، الذي لا عِوَجَ فيه، وهو توحيدُ الله تعالى، وتنزيهُه عن الشِّرْكِ(٢).

- وقوله: ﴿وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ المقصودُ مع الثَّناءِ عليهم التعريضُ بالمُشركينَ الذين خالفوا مُعتقَدَهم(٣).

٣- قوله: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ فيه تعريضٌ بما عليه المُشْركونَ مِمَّا يزعمونَه هُدًى، ويتلقَّوْنَه عن كُبَرائِهم، وتعريضٌ بالمشركينَ الذين أنكَروا نبوَّةَ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم حَسَدًا(٤).

- وقد زاد اسمُ الإشارةِ ﴿ذَلِكَ﴾ اهتمامًا بشأنِ الهُدى؛ إذ جُعِلَ كالشَّيءِ المُشاهَدِ؛ فَزِيدَ بِاسمِ الإشارةِ كمالُ تمييزٍ، وأخبر عن الهُدى بأنَّه ﴿هُدَى اللَّهِ﴾؛ لتشريفِ أمْرِه، وبيانِ عِصمَتِه من الخطَأِ والضَّلالِ(٥).

٤- قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾

- قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٥٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٧٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٥٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٣٥١).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٣٥٠).

للتنويهِ بهم، واسمُ الإشارةِ في قَوْلِه: ﴿أُولَئِكَ﴾ لزيادةِ الاعتناءِ بتَمْييزِهم، وإحضارِ سيرَتِهم في الأذهانِ[١].

- قوله: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ أُدخِلَتِ الباءُ في خبرِ (ليس) ﴿بِكافِرِينَ﴾؛ لتأكيدِ ذلك النَّفيِ، فصار دوامَ نفْيٍ مؤكَّدًا[٢].

٥- قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾

- قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ جملةٌ ابتدائيَّةٌ قُصِدَ مِن استئنافِها استقلالُها؛ للاهتمامِ بمَضْمونِها، ولأنَّها وَقعَتْ موقِعَ التَّكريرِ لمضمونِ الجُملتَينِ اللَّتينِ قَبْلها؛ جملة ﴿وَهَدَيْناهُمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وَجملة ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ وَالْحُكْمَ والنُّبُوَّةَ﴾[٣].

- وتكريرُ اسمِ الإشارةِ ﴿أُولَئِكَ﴾ لتأكيدِ تمييزِ المُشارِ إليه، ولِما يقتضيه التَّكريرُ من الاهتمامِ بالخَبَرِ[٤].

- وتقديمُ المعْمولِ ﴿بِهُدَاهُم﴾ على عامِلِه ﴿اقْتَدِهْ﴾؛ للاهتِمامِ، والاعتناءِ بذلك الهُدى[٥]، أو لاختصاصِ طَريقِ أولئك الأنبياءِ وهُداهم بالاقتِداءِ، أي: ولا تَقتدِ إلَّا بِهم[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٥٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٥٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٥٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٣٥٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٢٩، ٤٢) و(٤/ ٥٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٥٥).
(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٧١).
وهذا الوجه بناء على أنَّ التَّقديمَ على العامِلِ يُوجِبُ الاختِصاصَ عند الزَّمخشريِّ ومَن تَبِعه، =

- وفيه: تعريضٌ للمُشركينَ بأنَّ محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم ما جاء إلَّا على سُنَّةِ الرُّسُل كلِّهم، وأنه ما كان بِدْعًا من الرُّسُلِ(١).

- قوله: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ فيه افتتاحُ الكلامِ بِفِعْل ﴿قُلْ﴾؛ للتَّنبيهِ على أهمِّيَّتِه كما تقدَّمَ في هذه السورةِ غيرَ مَرَّةٍ(٢).

- قول الله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾

عبَّر هنا في سُورةِ الأنعام بقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾، وفي سُورتي يُوسُف والتكوير بقولِه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [يوسف: ١٠٤، التكوير: ٢٧]؛ فورَد الخبرُ بلفظِ التأنيثِ في الأُولى ﴿ذِكْرَى﴾، والتَّذكيرِ في الثانية ﴿ذِكْرٌ﴾، مع تذكيرِ المبتدأِ فيهما؛ وذلك لمُناسبةٍ حَسنةٍ، وهي: أنَّ آيةَ الأنعام تقدَّمَها قولُه تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ فنُوسِب بين قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى﴾ وبَين ما تَقدَّم، ولم يتقدَّم هنا ما يَستدعي لفظَ التذكير ويُناسِبُه. وأمَّا آيةُ التكوير فلَمَّا تَقدَّمها القَسَمُ على القرآنِ بقوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ﴾ إلى ما وقَع القَسَمُ به، ثم ورَد ضميرُ المقسَمِ عليه في قوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾، أي: جبريلَ عليه السَّلامُ، ثم أَتْبَع بوصفِه إلى قولِه: ﴿ثَمَّ أَمِينٌ﴾، ثم أَعْقَب ذلك بضَمائرَ جرَتْ على التَّذكير على ما يجِب، ثم قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾، والضميرُ للقرآنِ، ولا يُمكن ورودُه خلافَ هذا؛ لمنافرةِ التناسُبِ، ومباعدةِ التَّلاؤُم(٣).

= ولكنْ أبو حيَّان يَرُدُّ على هذا بأنَّ التقديمَ إنَّما يُفيدُ الاعتناءَ والاهتمامَ بالمُقدَّم. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٢٩، ٤٢) و(٤/ ٥٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٥٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٣٦٠).

(٣) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٦٢-١٦٣).

وقيل: لَمَّا تقدم فِي سورة الأنعام قوله: ﴿بَعْدَ الذِّكْرَى﴾ ﴿وَلَكِن ذِكْرَى﴾، كَانَ الذِّكرى أليق بهَا؛ فنَاسَبَ ذِكرُه هنا كذلك، ولم يَتقدَّمْ ذلك في سُورةِ يُوسُف ولا سُورةِ التَّكوير[1].

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١١٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ١٧٠ - ١٧١).

الآيتان (٩١-٩٢)

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿وَمَا قَدَرُوا﴾: أي: ومَا عظَّموا ومَا أَجَلُّوا، والقَدْر: مَبلغُ الشَّيءِ وكُنْهُه ونهايَتُه(١).

﴿قَرَاطِيسَ﴾: جمعُ قرطاسٍ، وهو الصحيفةُ أو الورقةُ، أو كلُّ ما يُكتَب فيه(٢).

﴿تُبْدُونَهَا﴾: تُظْهِرونها؛ من البُدُوِّ، وهو ظهورُ الشَّيءِ(٣).

﴿ذَرْهُمْ﴾: أي: اتْرُكْهم ودَعْهم؛ يقال: فلانٌ يَذَرُ الشَّيءَ؛ أي: يقذِفُه لقِلَّة اعتداده به(٤).

﴿مُبَارَكٌ﴾: البَرَكَةُ من الزِّيادةِ والنَّماءِ، وهي ثُبوتُ الخيرِ الإلهيِّ في الشَّيءِ، والمباركُ ما فيه ذلك الخيرُ، وأصل (برك): يدلُّ على ثباتِ الشَّيءِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٩٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧١٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٤١).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦٤).

(٤) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٩).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٢٧، ٢٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٤٨).

﴿أُمَّ الْقُرَى﴾: أي: مكَّةَ، وأمُّ الشَّيءِ أصلُه ومُقدَّمُه؛ وسُمِّيَت مكَّةُ (أمَّ القرى)؛ لأنَّها أقدَمُها، ولتَقَدُّمِها أمامَ جميعِها، وجَمْعِها ما سواها، وقيل: لأنَّها قِبلَةُ أَهْلِ القُرى ومَحَجُّهم ومُجْتَمَعُهم وأعظَمُ القُرى شأنًا، وقيل: لأنَّ الأَرضَ دُحِيَتْ منها[1].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِر تعالى أنَّ الذين نَفَوْا أنَّ الله أنزَلَ على بشرٍ شيئًا أنَّهم ما عظَّموا اللهَ حَقَّ تعظيمِه؛ إذ قالوا هذا القولَ، وأَمَرَ نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم أن يسألَهم: من أنزَلَ التوراةَ التي أتى بها موسى نورًا وهدًى للنَّاسِ، يَجعلونَها قِطَعًا يكتبونَها بأيديهم، يُظْهِرونها ويُخْفونَ كثيرًا منها، وعَلَّمَهم الله ما لم يكونوا يعلمونَه هم ولا آباؤُهم، ثمَّ أمَرَ اللهُ نبيَّه محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يقول لهم جوابًا عن ذلك السُّؤالِ: هو اللهُ مَن فعَلَ ذلك، ثم أمَرَه أن يترُكَهم في خَوضِهم يلعبونَ.

ويُخبِر تعالى أنَّ هذا القرآنَ الذي أنزَلَه اللهُ إلى محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم مباركٌ، وفيه تصديقٌ لِمَا سَبَقَه من الكُتُب، ولِيُنْذِرَ به النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم أهلَ مَكَّةَ ومَن حَوْلَها من العَرَب، وسائِر البُلدانِ، وبَيَّن تعالى أنَّ كُلَّ الذين يؤمنونَ بقيامِ السَّاعةِ والمَعاد في الآخِرَةِ؛ فإنَّهم يؤمنون بهذا القرآنِ الكريمِ، وهم على أداءِ صلاتهم مُحافِظون.

تفسيرُ الآيتين:

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًاۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ۝٩١﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٠٢)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٣٦).

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا حَكَى عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ أنَّه ذكَرَ دليلَ التوحيدِ، وإبطالِ الشِّرْك، وقَرَّرَ تعالى ذلك الدَّليلَ بالوجوهِ الواضِحَةِ؛ شَرَعَ بعدَه في تقريرِ أَمْرِ النبوَّةِ[1].

وأيضًا لَمَّا حَصَرَ اللهُ تعالى الدَّعوةَ في الذِّكرى حين قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾، وكان ذلك نفعًا للنَّاسِ، ورِفْقًا بهم؛ إذ لا تَزيدُ طاعَتُهم في مُلْكِ الله شيئًا، ولا يَنْقُص إعراضُهم من عَظَمته شَيئًا- أكَّدَ أمْرَ الرِّسالةِ بالإنكارِ على مَن جَحَدَها، وبالتنديدِ بِمُنْكري النبوَّاتِ والرِّسالاتِ؛ فإنَّهم لا يَقْدُرونَ الله حَقَّ قَدْرِه، ولا يَعْرفونَ حِكْمةَ اللهِ ورحمَتَه وعَدْلَه[2]، فقال تعالى:

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾.

أي: وما أَجَلُّوا[3] اللهَ تعالى حَقَّ إجلالِه، ولا عَظَّموه حقَّ تَعظيمِه، ولا عَرَفوه حقَّ مَعرِفَتِه؛ حين قالوا: لم يُنْزِلِ اللهُ على آدَمِيٍّ كتابًا ولا وَحْيًا؛ فهذا قَدْحٌ في حِكمَتِه، لا يليقُ به، وزعْمٌ بأنَّه يترُكُ عِبادَه سُدًى، لا يأمُرُهم ولا ينهاهم، ولا يجازِيهم، ونَفْيٌ لأعظَم نِعمةٍ امتَنَّ اللهُ بها على عبادِه، وهي نعمةُ الرِّسالَةِ، التي لا طريقَ للعبادِ إلى نَيْلِ السَّعادةِ والفلاحِ إلَّا بها[4].

﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾.

أي: قل- يا محمَّدُ-: مَن أنزَلَ التوراةَ التي جاء بها موسى جَلاءً وضِياءً مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٥٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٨٣)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١١٤٥).

(٣) يحتمِلُ أنَّ الذين فَعَلوا ذلك هم كفَّارُ قُريشٍ، ويَحتملُ أنَّهم اليهودُ. يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٩٧-٤٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٩٣، ٣٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٩٧-٤٩٨).

ظُلْمةِ الضَّلالاتِ والشُّبُهاتِ، وهاديًا للنَّاسِ إلى الصِّراطِ المُسْتقيمِ، عِلْمًا وعَمَلًا بالصَّالحاتِ[١]؟

﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾.

أي: تَجعلونَ التَّوراةَ قِطَعًا تَنْسَخونها بأيديكم، وتَتصَرَّفونَ فيها بما شِئْتم؛ فما وافَقَ أهواءَكم منها أَظْهَرْتموه، وما خالَفَ ذلك أَخْفَيْتُموه وكَتَمتُموه، ومِمَّا كَتَمُوه أمْرُ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم ونبوَّتِه[٢].

﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾.

أي: وعلَّمَكم الله عزَّ وجلَّ بواسطةِ القرآنِ العَظيمِ ما لم تكونوا تَعلمونَه أنتم، ولم يَعْلَمْه آباؤُكم؛ كأخبارِ ما سَبَقَكم، وأنباءِ ما يأتي بَعدَكم[٣].

ثم أمَره اللهُ أن يقولَ لهم؛ جوابًا عن سؤالِه لهم: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾:

﴿قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾.

أي: قلْ- يا محمَّدُ-: اللهُ أنزَلَه على موسى، ثمَّ بعدَ أنْ تُفْحِمَهم بذلك، دَعْهُم فيما يخوضونَ فيه مِن باطِلِهم وكُفْرِهم باللهِ وآياتِه يستهزِئونَ ويَسخرونَ؛ فإنِّي مِن ورائِهم بالْمِرصادِ؛ أُذيقُهم بَأْسِي، وأُحِلُّ بهم سَخَطي[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٠١-٥٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٩٨-٣٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٠٠-٥٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٩٩-٤٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٠-٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٠٠-٤٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٠٣).

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أبْطَلَ بالدَّليلِ قَوْلَ مَن قالَ: (ما أَنْزَلَ اللهُ على بَشَرٍ من شيءٍ)؛ ذَكَرَ بعدَه أنَّ القُرآنَ كتابُ اللهِ؛ أنزَلَه اللهُ تعالى على مُحمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[(١)]، فقال:

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ ﴾.

أي: وهذا القرآنُ الذي أوحيناه إليك- يا محمَّدُ- كتابٌ كثيرُ البَركاتِ والخَيْراتِ في الدُّنيا والآخِرةِ[(٢)].

﴿ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾.

أي: إنَّ القرآنَ مُوافِقٌ لِما قَبلَه من الكُتُبِ، لا يُخالِفُها، وشاهِدٌ لها بالصِّدْقِ[(٣)].

﴿ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾.

أي: ولِتُنْذِرَ أهْلَ مَكَّةَ ومَنْ حولَهم مِن أحياءِ العَرَبِ، ومِن سائِرِ البُلْدانِ، فتُحَذِّرَ النَّاسَ عقوبةَ اللهِ عزَّ وجلَّ، وأخْذَه الأمَمَ، وتُحَذِّرهم ممَّا يوجِبُ ذلك[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٠٤-٥٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٠٥-٥٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٠٦).

قال الشَّنقيطيُّ: (يقول بعضُ العلماء: المعلَّل محذوف؛ ﴿وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أنزَلْنا إليك هذا الكتابَ. وبعضُ العلماء يقول: هو معطوفٌ على معنى ما قَبْلَه. والمعنى: كتابٌ أنزلناه إليكَ لأجلِ البركاتِ المشتمِل عليها؛ ولتصديقِ الذي بين يَديه، ولتنذرَ أمَّ القرى. وأكثرُ العلماء على أنَّ المعلل محذوف، والمعنى: ولِتُنذرَ أمَّ القرى أنزلناه إليك) ((العذب النمير)) (١/ ٥٠٦).

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾.

أي: كلُّ مَن آمَن بقيامِ السَّاعةِ والمَعادِ في الآخِرَة إلى اللهِ تعالى، وصَدَّقَ بالثَّوابِ والعقابِ؛ آمَنَ بهذا القرآنِ العظيمِ[1].

﴿وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾.

أي: وهم يَقومونَ بأداءِ الصَّلواتِ في أوقاتِها، ويُداوِمونَ عليها، ويَحْفَظونَ أرْكانَها وحُدودَها وشُرُوطَها وآدابَها، ومُكَمِّلاتِها[2].

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- يَجبُ على المؤمِنِ أن يَقْدُرَ اللهَ حَقَّ قَدْرِه؛ يُرْشِدُنا إلى ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾، فالمقصودُ: اقْدُروه قَدْرَه الذي بيَّنَه لكم وأمَرَكم به، فصَدِّقُوا الرَّسولَ فيما أخْبَر، وأطيعوه فيما أوْجَبَ وأَمَرَ، فمَن جَحَد شَرْعَ اللهِ وأَمْرَه ونَهْيَه، وجَعَلَ الخَلْقَ بمنزلةِ الأنعامِ المُهْمَلَةِ؛ فقدْ طَعَنَ في مُلْك اللهِ، ولم يَقْدُرْه حقَّ قَدْرِه[3].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾ إلى قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ فلم يترُكْ لهم أنْ يُجيبُوا، إنَّما أَمَرَ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم أن يحسِمَ القَوْلَ معهم في هذا الشَّأنِ، وألَّا يجعَلَه مجالًا لجَدَلٍ لا يُثيرهُ إلا اللَّجاجُ، فيُرشِدُ إلى الأدَبِ مع الجاهلينَ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٠٨-٥١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ١٦١)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٦٥).

المحاورةِ: أنَّه حين يبلُغُ العبَثُ أن يقولَ النَّاسُ مِثلَ ذلك الكلامِ، يحسُنُ احترامُ القَوْلِ، وحَسْمُ الجدَلِ، وتوفيرُ الكلامِ(١).

٣- يُرْشِدُنا قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ إلى أنَّ القرآنَ كثيرُ الخيرِ والبَرَكةِ؛ فهو دائمُ النَّفعِ، يُبَشِّرُ المؤمنينَ بالثَّواب والمغفِرَةِ، ويَزْجُر عن القَبيحِ والمعصِيَةِ(٢)؛ فمَن تَعلَّمَه وعَمِل به غَمرَتْه الخيراتُ في الدُّنيا والآخِرة؛ لأنَّ ما سمَّاه اللهُ مباركًا؛ فهو كثيرُ البَركاتِ والخَيراتِ قطعًا؛ لأنَّه كلامُ رَبِّ العالَمينَ؛ إذا قَرَأه الإنسانُ وتدَبَّرَ مَعانيَه؛ ففي كلِّ حَرفٍ عَشْرُ حَسَناتٍ في القراءةِ، إذا تدبَّرَ معانيَه عرَفَ منها العقائِدَ التي هي الحَقُّ، وعرَفَ أصولَ الحَلالِ والحَرامِ، ومكارِمَ الأخلاقِ، وأهلَ الجنَّةِ وأهلَ النَّارِ، وما يصيرُ إليه الإنسانُ بعد الموتِ، وما يُسبِّبُ له النَّعيمَ الأبديَّ، وما يُسبِّبُ له العذابَ الأبديَّ؛ فكُلُّه خيراتٌ وبَرَكاتٌ؛ لأنَّه نُورٌ يُنيرُ الطَّريقَ التي تُمَيِّزُ الحَسَنَ مِنَ القَبيحِ، والنَّافِعَ مِنَ الضَّارِّ، والباطِلَ مِنَ الحَقِّ، فهو كلُّه خيراتٌ وبَرَكاتٌ(٣).

٤- متى صدَّقَتِ النَّفْسُ بالآخِرَةِ واستيقَنَتْها، صدَّقَت بهذا الكتابِ وتنزيلِه، وحَرَصت على الصِّلَةِ بالله وطاعَتِه؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾(٤).

الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾ فيه إبطالُ دعوَى

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١١٤٦-١١٤٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٧٠)، وقال: (وكان بعضُ عُلماءِ التفسيرِ يقول: اشتَغَلْنا بالقرآنِ فغَمَرَتْنا البركاتُ والخيراتُ في الدُّنيا؛ تصديقًا لقوله: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾، ونرجو أنْ يكونَ لنا مِثلُ ذلك في [الآخِرةِ]).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٥١٨)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١١٤٨).

الخَصمِ بإثباتِ نقيضِها، فقد ادَّعَوا سلبًا كليًّا، فكذَّبهم الله بما يعترفونَ به، وهو الإيجابُ الجزئيُّ، فاليهودُ يعترفون بالتوراةِ التي بينَ أيديهم، ويفتخِرون بها على العربِ؛ بأنَّهم أصحابُ كتابٍ، ومع ذلك يقولونَ: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ وهذا تناقضٌ في الحقيقةِ، وقد تَقرَّرَ في فُنونِ المناظَرةِ: أنَّ (السَّالبة الكليَّة) إنما تنقُضُها (موجبةٌ جزئيَّة)، فهم قالوا: ﴿مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾، وهم يُسَلِّمونَ بَشَريَّةَ موسى، وموسى أُنزِلَ عليه الكتابُ، وهو التَّوراةُ، فالنتيجةُ أنَّ بعضَ البَشَرِ- وهو موسى- أُنزِلَ عليه الكتابُ؛ لذا قال اللهُ: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾[1].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ فيه أنَّ النَّكرةَ (شَيْء) في موضِعِ النَّفيِ تفيدُ العُمومَ؛ فلو لم تُفِدِ العُمومَ، لَمَا كان قولُه تبارَك وتعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾ إبطالًا له ونقضًا عليه، وكان استدلالًا فاسدًا[2].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ أتى بنون العَظَمة؛ لأنَّها أدلُّ على تعظيمِه؛ أي: وليس مِن عندِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن نَفْسِه، وإنَّما هو بإنزالِنا إيَّاه إليه وإرسالِنا له به[3].

٤- في قولِه تعالى: ﴿وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ اقتصَرَ على الإنذارِ دونَ التَّبشيرِ؛ لأنَّ المقصودَ تخويفُ المُشركينَ؛ إذ قالوا: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾[4] [الأنعام: ٩١].

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٩٩)، ((مناهج الجدل في القرآن الكريم)) لزاهر الألمعي (ص:٧٨)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٨٠، ٥٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٨٧-١٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٧٢).

٥- تمسَّك جماعاتٌ مِن اليهودِ بقولِه تعالى: ﴿وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، قالوا: لم يُرسَل محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم إلَّا إلى جزيرةِ العَرَبِ؛ لأنَّه قال له: ﴿وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ في موضعينِ، وقد دَلَّ القرآنُ العظيمُ والسُّنَّة الصحيحةُ وإجماعُ العلماءِ؛ أنَّ رسالةَ نبيِّنا صلَّى الله عليه وسلَّم شاملةٌ عامَّةٌ لجميعِ النَّاسِ، وعليه قد يَسألُ سائلٌ: ما الجوابُ عن قوله: ﴿أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ والاقتصارُ على هذا هنا، وفي قوله: ﴿وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾؟ للعلماءِ عنه جوابان:

أحدهما: أنَّ ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ صادِقٌ بالدُّنيا كلِّها؛ لأنَّ الدُّنيا عندَ اللهِ شيءٌ بسيطٌ كأنَّها نُقطةٌ.

والجواب الثاني: ما قاله بعض العلماء: إنَّ غايةَ ما في البابِ أنَّ هذه الآيةَ الكريمةَ اقتصَرَتْ على إنذارِ أمِّ القرى ومَن حولها، وسكَتَت عمَّا سوى ذلك، وجاءت آياتٌ أُخَرُ صرَّحَت في الإنذارِ بالتَّعميمِ؛ كقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] وقال جلَّ وعلا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾[1] [سبأ: ٢٨].

بلاغةُ الآيتين:

١- قوله: ﴿إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٠٧، ٥٠٨).

- في مقالهم: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ إفادة العموم؛ فإنَّه يَعُمُّ جميعَ البَشَرِ؛ لوقوعِ النكرة ﴿بَشَرٍ﴾ في سِياقِ النَّفيِ لنفي الجنس، ويعمُّ جميعَ ما أُنْزِلَ باقترانه بـ﴿مِنْ﴾ في حيِّز النَّفيِ؛ للدَّلالةِ على استغراقِ الجِنْس أيضًا، ويعمُّ إنزالَ اللهِ تعالى الوَحْيَ على البَشَرِ بنفيِ المُتعلِّق بهذينِ العُمومَينِ[1].

- قوله: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ﴾ فيه افتتاحٌ بالأمرِ بالقولِ؛ للاهتمامِ بهذا الإفحامِ، والاستفهامُ في قوله: ﴿مَنْ أَنْزَلَ..﴾ للتَّقريرِ[2].

- قوله: ﴿الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ على قراءة (تَجعلونَه- وتُبْدونَها- وتُخفُون) بتاء الخِطاب، وعلى القَوْلِ بأنَّ الخِطابَ لليهودِ؛ فيكون على طريقةِ الإدماجِ (أي: الخروجُ من خطابٍ إلى غَيرِه) تعريضًا باليهودِ، وإسماعًا لهم، وإن لم يكونوا حاضرينَ، من بابِ (إيَّاكِ أعني، واسْمَعي يا جارةُ)، أو هو التفاتٌ من طريقِ الغَيبةِ الذي هو مقتضى المقامِ إلى طريقِ الخِطابِ[3].

- وقد تضمَّنَت هذه الآيةُ توبيخَهم على سوءِ جَهْلِهم بالتَّوراةِ، وذَمَّهم على تَجزِئَتِها؛ بإبداءِ بعضٍ انتخَبُوه وكتَبُوه في ورقاتٍ متفرِّقةٍ، وإخفاءِ بعضٍ لا يشتهونَه[4]؛ فأدرَجَ تعالى تحت الإلزامِ توبيخَهم، وإن نَعَى عليهم سوءَ حَمْلِهم لكتابِهم وتحريفَهم، وإبداءَ بعضٍ وإخفاءَ بعضٍ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٣٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٧٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٨١).

٢- قوله: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾:

- قوله: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ﴾ افتتاحُ الكلامِ باسْمِ الإشارةِ (هَذَا) المفيدِ تمييزَ الكتابِ أكمَلَ تمييزٍ، وبناءُ فِعل ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ على خبرِ اسمِ الإشارةِ؛ لإفادةِ التقويةِ، كأنَّه قيل: وهذا أنزَلْناه، وجَعْل ﴿كِتَابٌ﴾ الذي حقُّه أن يكونَ مفعولَ ﴿أَنْزَلْنَا﴾ مسندًا إليه، ونَصْب فِعل ﴿أَنْزَلْنَا﴾ لضميرِه؛ لإفادةِ تحقيقِ إنزالِه بالتَّعبيرِ عنه مرَّتين، وذلك كلُّه للتَّنويهِ بشَأْنِ هذا الكتابِ[١]، وتنكيرُ الكِتابِ هنا للتَّفخيمِ[٢].

- وفيه مناسَبَةٌ حسنةٌ؛ حيثُ جاءَ الوصْفُ الأوَّلُ للكتابِ جملةً فعليَّةً، وهي جملة ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾؛ لأنَّ الإنزالَ يتجدَّد وقتًا بعد وقت، وجاء الوَصْفُ الثاني اسمًا، وهو قَوْلُه: ﴿مُبَارَكٌ﴾، وكذلك الثَّالث، وهو قوله: ﴿مُصَدِّقُ﴾؛ للدَّلالةِ على الثُّبوتِ والاستمرارِ، ودَيمومَةِ البركةِ؛ فلمَّا كان الإنزالُ يَتجدَّد عبَّر بالوصْفِ الذي هو فِعلٌ، ولَمَّا كان وصفُه بالبرَكَةِ والصِّدْق وصفًا لا يفارِقُ، عبَّر بالاسمِ الدَّالِّ على الثُّبوتِ؛ لأنَّ الاسمَ يدلُّ على الثُّبوتِ والاستقرارِ، وهو مقصودٌ هنا: أي أنَّ بَركَتَه ثابتةٌ مستقِرَّةٌ[٣].

- قوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ في تَرتيبِ هذه الصِّفاتِ مناسَبَةٌ حَسنةٌ كذلك؛ لأنَّه لَمَّا كان الإنكارُ إنَّما وقَع على الإنزالِ قدَّمَ وَصْفَه بالإنزالِ على وَصْفِه بالبركةِ، بخلاف قوله تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٥١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٨٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٣٧- ٣٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ١٦٨).

[الأنبياء: ٥٠]؛ لأنَّ الأَهَمَّ هنا وَصْفُه بالإنزالِ؛ حيثُ جاءَ عَقيبَ إنكارِهِم أنْ يُنْزِلَ اللهُ على بَشَرٍ شيئًا، فقالوا بقولهم: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾، وقِيل: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ﴾؛ فكان تقديمُ وصْفِه بالإنزالِ هنا آكَدَ مِن وَصْفِه بكونِه مُباركًا؛ ولأنَّ ما أنزَلَ اللهُ تعالى فهو مبارَكٌ قطعًا، فصارتِ الصِّفَةُ بكونه مباركًا كأنَّها صِفَةٌ مُؤَكِّدةٌ؛ إذ تَضمَّنَها ما قَبْلَها. وأمَّا قَوْلُه: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ فلم يَرِدْ في مَعْرِضِ إنكارِ أنْ يُنْزِلَ اللهُ شيئًا، بل جاءَ عَقِبَ قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ﴾، فذَكَرَ أنَّ الذي آتاه الرَّسولَ هو ذِكرٌ مبارَكٌ[١].

– قوله: ﴿وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أخبرَ عن المؤمنينَ بأنَّهم يُؤمنونَ بالقرآنِ؛ تعريضًا بأنَّهم غيرُ مقصودينَ بالإنذارِ، فيُعلَم أنَّهم أحقَّاءُ بضِدِّه، وهو البِشارةُ[٢].

– قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ اكتفى بذِكرِ الإيمانِ بالبَعْثِ– وهو أحَدُ الأركانِ السِّتَّة–؛ لأنَّ الإيمانَ به يستلزِمُ الإيمانَ بباقيها، ولإسماعِ كفَّار العَرَب وغيرِهم، مِمَّن لا يؤمِنُ بالبعثِ، أنَّ مَن آمَنَ بالبعْثِ آمَنَ بهذا الكتابِ وهذا الرَّسولِ، وأصلُ الدِّينِ خَوفُ العاقبةِ؛ فإنَّ مَن صَدَّق بالآخرةِ خافَ العاقِبَةَ، فمن خافَها لم يَزَلْ به الخوفُ حتى يَحمِلَه على النَّظَر والتدبُّرِ، حتى يؤمِنَ بالنبيِّ والكتابِ، ويحافِظَ على الطَّاعةِ[٣].

– قوله: ﴿وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ خصَّ الصَّلاةَ بالذِّكْرِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ الصَّلاةَ أشرفُ العباداتِ بعدَ الإيمانِ باللهِ، وأعظَمُها خَطرًا، ولأنَّها عمادُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٨٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٧٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٧٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٨٣).

الدِّينِ، وأنَّ المحافظةَ عليها داعيةٌ إلى القيامِ بسائِرِ العباداتِ المفروضةِ، وترْكِ جميعِ المُحَرَّمات المنصوصةِ؛ وكونُ الصلاةِ أشرَفَ العباداتِ بعدَ الإيمانِ باللهِ، يتَّضِحُ مِن أنَّه لم يَقَعْ اسمُ الإيمانِ على شيءٍ من العباداتِ الظَّاهرةِ إلَّا على الصَّلاةِ؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]، أي: صلاتَكم. ولم يقَعِ اسمُ الكُفرِ على شيءٍ من المعاصي إلَّا على تَرْكِ الصَّلاةِ، فلمَّا اختصَّت الصَّلاةُ بهذا النَّوعِ من التَّشريفِ، لا جَرَمَ خَصَّها اللهُ بالذِّكْرِ في هذا المَقَام(١).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٥)، ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٨٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٥١٨).

الآيتان (٩٢-٩٤)

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣) وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٩٤) ﴾.

غَريبُ الكَلمات:

﴿افْتَرَى﴾: أي: كَذَب واختَلَق؛ فالافتراءُ الكَذِبُ، أو العظيمُ من الكَذِبِ، وأصل الفَرْي: قطْع الجِلْد[١].

﴿غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾: أي: شدائِده، وأصْلُ الغَمْر: تغطيةٌ وسَترٌ في بعضِ الشدَّةِ[٢].

﴿الْهُونِ﴾: الهوانُ، وأصلُه: سكونٌ أو سكينةٌ أو ذُلٌّ[٣].

﴿خَوَّلْنَاكُمْ﴾: ملَّكْناكم وأعطيناكم، وأصله: تعهُّدُ الشَّيءِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١، ٢٨٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ١٠٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٣٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٩٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٧٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٩٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٦٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٢٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٨).

﴿تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾: أي: تقَطَّعَتْ الوُصَلُ التي كانت بينكم في الدُّنيا من القَرابة والحِلْفِ والمودَّة، وأصل قطع: الفَصْل، و(بين): موضوعٌ للخَلالةِ بين الشَّيئينِ ووَسَطِهما[١].

مُشكِل الإعراب:

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾

﴿بَيْنَكُمْ﴾: يُقْرَأُ بفَتْحِ النُّونِ، وفيه وجهان: أحدهما: أنَّه ظَرْفُ مكانٍ لـ﴿تَقَطَّعَ﴾، والفاعِلُ مضمرٌ؛ أي: تقطَّعَ الوَصْلُ بينكم، ودلَّ عليه ﴿شُرَكَاءُ﴾؛ فإنَّ الشَّرِكَة تُشْعِر بالاتِّصال، والثاني: أنَّ الفاعِلَ محذوفٌ، و﴿بَيْنَكُمْ﴾ صفةٌ له قامتْ مقامَه، تقديرُه: لقد تقطَّع وَصْلٌ بَيْنكم. وقيل غير ذلك.

ويُقْرَأُ (بَيْنُكُمْ) بضَمِّ النُّونِ؛ على أنَّه فاعِلٌ، والبَيْنُ هنا اسمٌ مُتصَرِّفٌ، خارجٌ عن الظَّرْفِيَّة؛ بمعنى الوَصْل، وهو مِن الأضدادِ[٢]، وقيل غير ذلك[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِر تعالى أنَّه لا أحَدَ أعظَمُ ظُلمًا مِمَّن اختلَقَ الكَذِبَ على الله، أو مَن قالَ- وهو كاذِبٌ- إنَّ اللهَ أوحى إليه، ومَن قال: إنَّه سيُنْزِل مثلَ ما أنزلَ اللهُ تعالى، ثم خاطَبَ الله نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليهم وسلَّم، قائِلًا له: ولو عاينتَ- يا محمَّدُ- الظَّالمينَ حين يكونونَ في سَكَراتِ الموتِ، وقد غَمَرَهم الموتُ بشدائِدِه وكُرَبِه؛

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٦، ٦٧٧).

(٢) أي: إنَّه مشتركٌ اشتراكًا لفظيًّا، يُستعمَل للوَصْلِ والفِراق. يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٥٤).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٦٢)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٢٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٤٨-٥٦).

لَرَأَيْتَ حِينَها هَوْلًا وحالًا شنيعةً، والحالُ أنَّ الملائكةَ مَدُّوا أيديَهم يضربونَهم، قائلينَ لهم: أخرِجوا أنفُسَكم مِن أجسادِكم، اليومَ جزاؤُكم عذابٌ تُهانونَ به، وذلك بما كُنتم تقولونَ على اللهِ غَيرَ الحَقِّ، وبأنَّكم كُنتم عن آياتِه تستكبرونَ.

ويقولُ لهم تعالى عند وُرودِهم عليه يومَ المعادِ: لقد جئتُمونا فُرادى على الهيئةِ التي خَلَقْناكم بها أوَّلَ مَرَّةٍ، وتركتُم ما أعْطَيناكم من النِّعَم في الدُّنيا وراءكم، ولا نَرَى معكم الذين كُنْتُم تَدَّعونَ أنَّهم شُرَكاءُ لنا، فتَعبدونَهم معنا، زاعمينَ أنَّهم سيَشْفَعونَ لكم عندنا هذا اليومَ، لقد انقَطَعَ ما بينكم وبينَهم، وغابَ عنكم ما كنتُم تَزعُمونَ.

تفسيرُ الآيتين:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣) ﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تعالى القرآنَ، وأنَّه كتابٌ مُنَزَّل من عنده مبارَكٌ، وبيَّنَ ما فيه من صفاتِ الجلالةِ والشَّرَف والرِّفْعة- أعقَبَه بوعيدِ مَنِ ادَّعى النبوَّةَ والرِّسالةَ على سبيلِ الكَذِبِ والافتراءِ، فقال[1]:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾.

أي: لا أحدَ أعظمُ ظلمًا، ولا أكبرُ جُرمًا ممَّن كَذَبَ على الله عزَّ وجلَّ، بأنْ نسبَ إليه سبحانه قولًا أو حُكمًا، وهو تعالى بريءٌ منه[2].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٦٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥١٢-٥١٣).

﴿أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾.

أي: ولا أحَدَ أظلَمُ ممَّن ادَّعى على اللهِ تعالى أنَّه بعَثَه نبيًّا، وأرسَلَه نذيرًا، وهو كاذبٌ في دعواه؛ إذ لم يُوحِ اللهُ إليه شيئًا، ولم يُرْسِلْه[(١)].

﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾.

أي: ولا أحَدَ أظلَمُ مِمَّن ادَّعى أنَّه يَقدِرُ على مُعارضَةِ القرآنِ، وأنَّ في إمكانِه الإتيانَ بمِثْلِه بما يفتريه من القَوْلِ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١].

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾.

مُناسَبَتُها لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذمَّ اللهُ الظَّالمينَ في قَوْلِه تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ ناسَبَ أن يذكُرَ ما أعَدَّ لهم من العقوبةِ في حالِ الاحتضارِ، ويومَ القيامةِ[(٣)]، فقال:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾.

أي: ولو ترى- يا محمَّدُ- الظَّالمينَ، أمثالَ هؤلاءِ المُفتَرينَ على الله تعالى، لو عايَنْتَهم حين يغمُرُهم الموتُ بسَكَراتِه، وقد غَشِيَتْهم شدائِدُه وكُرَبُه؛ لرَأَيْتَ أمرًا هائلًا، وحالًا شنيعةً[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥١٤-٥١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥١٥-٥١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٠٨-٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥١٦-٥١٧).

﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ﴾.

أي: والحالُ أنَّ الملائكَةَ قد مدُّوا أيديَهم؛ يَضربونَ وُجوهَ أولئك الظَّالِمينَ الْمُحتضَرينَ وأَدْبارَهم ضربًا مُوجعًا، ويقولون لهم عند امتناعِ أرواحِهم من الخُرُوجِ من أبدانِها: أخرِجوا أنفُسَكم مِن أجسادِكم(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [الأنفال: ٥٠-٥١].

﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾.

أي: اليومَ تُهانونَ غايةَ الإهانةِ والذِّلَّةِ بالعذابِ في جَهنَّمَ؛ جزاءَ كَذِبكم على اللهِ تعالى في الدُّنيا، واستكبارِكم عن اتِّباعِ آياتِه، والخُضوعِ لأمْرِه، والانقيادِ لرُسُلِه(٢).

﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ جلَّ وعلا في هذه الآياتِ من سورَةِ الأنعامِ أنَّه لا أحَدَ أظلَمُ مِمَّن افترى على اللهِ كَذِبًا، ولا أحَدَ أظلَمُ مِمَّن ادَّعى الوحْيَ كذِبًا، ولا أحَدَ أظلَمُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٠٩، ٤١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥١٧-٥١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤١١-٤١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥١٨-٥١٩).

مِمَّن ادَّعى أنَّه قادِرٌ على إنزالِ مِثْلِ ما أنزَلَ اللهُ، وبيَّنَ اللهُ جَلَّ وعلا أنَّ هؤلاءِ الظَّالِمينَ الذين قالوا هذه المقالاتِ؛ أنَّهم إذا حضَرَتْهم الوفاةُ بَسَطَتِ الملائكةُ أيديَهم إليهم بالعذابِ والنَّكال، وقالوا لهم: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾- بَيَّنَ حالَتَهم التي يُبعَثونَ عليها، وشِدَّةَ ضَعْفِهم، وعَدَمَ قُوَّتِهم التي كانت هي سَبَبَ تمرُّدِهم في الدُّنيا[1]، فقال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ ﴾.

يقول لهم اللهُ تعالى عند وُرودِهم عليه يومَ مَعادِهِم: لقد جِئتُمونا وُحْدانًا، بلا أهلٍ ولا أولادٍ، ولا جُنودٍ ولا أعوانٍ، ولا مالٍ ولا أثاثٍ، ولا رفيقٍ ولا صديقٍ، ولا شيءٍ من الدُّنيا معكم، فجئتمونا حُفاةً عُراةً غُلْفًا غُرْلًا[2].

كما قال تعالى: ﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الكهف:٤٨].

﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾.

أي: وخلَّفْتُم- أيُّها القومُ- ما آتَيْناكم مِنَ النِّعَم التي اقتَنَيْتُموها في الدُّنيا وراءَكم، فلم تَحْمِلوها معكم إلى الآخِرَةِ[3].

عن عبد اللهِ بنِ الشِّخِّيرِ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((أتيتُ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم وهو يقرأُ: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾، قال: يقولُ ابنُ آدمَ: مالِي، مالِي، قال: وهلْ لك يا ابنَ

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤١٣-٤١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٢٥-٥٢٦).

وقال ابنُ كثير: (أي: كما بَدَأْناكم أعَدْناكم، وقد كنتُم تُنكرون ذلك وتستبعدونه؛ فهذا يومُ البعثِ) ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٢٦).

آدَمَ مِنْ مالِكَ إلَّا ما أكَلْتَ فأفنيْتَ، أو لَبِسْتَ فأبلَيْتَ، أو تصدَّقْتَ فأمضَيْتَ؟!))[1].

﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾.

أي: ولا نرَى معكم شُفعاءَكم الذين كُنتم في الدُّنيا تَدَّعونَ أنَّهم شُرَكاءُ لنا، فتعبدونَهم معنا، وتزعمونَ أنَّهم يَشفعونَ لكم عِندنا يومَ القيامةِ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ﴾ [الشعراء: ٩٢-٩٣].

وقال سبحانه: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾.

أي: لقدِ انقطَعَ اليومَ ما كانَ بينكم وبين شرُكَائِكم في الدُّنيا؛ مِن تواصُلٍ وتَوادٍّ وتناصُرٍ، وشَفاعةٍ، فاضمحلَّ ذلك كلُّه في الآخِرَة؛ فلا أحَدَ منكم ينصُرُ صاحِبَه، ولا يُواصِلُه[3].

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ

---

(١) رواه مسلم (٢٩٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٢٧-٥٢٨).

الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

﴿وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

أي: وغاب عنكم ما كنتُم تزعمونَ أنَّهم شُركاءُ للهِ، وشفعاءُ لكم عنده، وذهَبَ ما ترجُونَ منهم مِن شفاعةٍ، تَجْلِبُ لكم- بزَعْمِكم- الأمنَ والسَّعادةَ، والنَّجاةَ يومَ القيامةِ(١).

كما قال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ * ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ * انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٢- ٢٤].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- الاعتبارُ بالموتِ وسَكَراتِه، وما يَتقدَّمُه من شدائِدِ الآلامِ مِمَّا يَحُلُّ بالظَّالمينَ عند الموتِ؛ يُرْشِدُنا إلى ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾(٢).

٢- التَّحذيرُ مِن صَرْفِ الهِمَمِ في الدُّنيا إلى تَحصيلِ المالِ والوَلَدِ والجاهِ، دون الاهتمامِ بالإيمانِ بالرُّسُلِ، والاهتداءِ بما جاؤوا به؛ فإنَّ ذلك لا يُغنِي عن صاحِبِه شيئًا يومَ القيامَةِ؛ قال اللهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٥٢١-٥٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٣٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٥٢٣).

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ فيه ردٌّ على مَن يقول: إنَّه يُحَدَّث عن قَلْبِه عن رَبِّه، أو إنَّه يأخُذُ عن اللهِ بلا واسطةٍ، وإنَّه يأخُذُ مِن حيثُ يأخُذُ المَلَكُ؛ الذي يأتي الرَّسولَ بالوحيِ؛ فهو كاذِبٌ في هذه النِّسبةِ، وله نصيبٌ وافِرٌ من هذا الذَّمِّ[1].

٢- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ فيه تسفيهُ عقائِدِ أَهْلِ الشِّرْك والضَّلالةِ منهم؛ على اختلافِها واضطرابِها[2].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللهُ﴾ يَدخُلُ في معناه: مَنِ ادَّعَى أنَّه يُنَظِّمُ للبَشريةِ ما يُغْنِيها عن نِظامِ اللَّهِ جلَّ وعلا، الذي وَضَعَه، ومَنِ اتَّبعَ هذا- والعياذُ باللَّهِ- فَقدِ اتَّبعَ أحدًا لا أظلَمَ في الدنيا مِنْه- والعياذُ باللَّهِ- فالذي يُنْزِلُه اللَّهُ لا يقدِرُ أحدٌ على أنْ يُنزلَ مثلَه، وَمَنِ ادَّعَى أنَّه ينزِلُ مثلَه؛ فقد صَرَّحَ اللَّهُ في هذه الآياتِ الكَريمةِ أنَّه لا أحدَ البتَّةَ أَظْلَمُ منه، وبهذا يُعلَمُ أنَّ الذين يَتَنَطَّعونَ، وَيَدَّعُونَ أنَّهم يُنَظِّمُونَ للبشريةِ نظامًا أحسنَ مِمَّا أنزلَ اللَّهُ، أنَّهم يَدخلونَ في هذه الآيةِ، ومعلومٌ أنَّه لا تشريعَ إلَّا للسُّلْطةِ العُلْيا، فالسلطةُ العُلْيا الحاكمةُ على كُلِّ شيءٍ هي التي لها الأمْرُ والنَّهْيُ، وممَّا يَنبغي أن يُعلَم أنَّ مَنِ ادَّعَى أنَّ هنالك تَنْظِيمًا يُنَظِّمُ الحياةَ البشريَّةَ في الدُّنيا مثلَ تنظيمِ اللَّهِ أو أحسنَ مِن تنظيمِ اللَّهِ، أنَّ هذه الدَّعْوَى كُفْرٌ بَوَاحٌ، لا يَشُكُّ فيه مَنْ له أَدنَى عَقْلٍ، والآياتُ المُصَرِّحةُ بذلك بإيضاحٍ كثيرةٌ في القرآنِ العظيمِ[3].

٤- قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ

(١) يُنظر: ((بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة)) لابن تيمية (ص:٤٨٥)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٤٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٧٤).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٢٠، ٥٢١).

بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ يدلُّ على وُقوعِ الجَزاءِ عَقِبَ الموتِ؛ فهذه الآيةُ أحَدُ الأدلَّةِ الدالَّةِ على عَذابِ القَبرِ(١)، فقولُه تعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ فيه دليلٌ على عَذابِ البَرزَخِ ونعيمِه؛ فإنَّ هذا الخطابَ، والعذابَ المُوَجَّه إليهم، إنَّما هو عند الاحتضارِ وقُبَيلَ الموتِ وبعده(٢).

٥- قوله تعالى: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ الرُّوحَ جِسْمٌ؛ يَدخُلُ ويخرُجُ، ويُخاطَبُ، ويُساكِنُ الجَسَدَ ويُفارِقُه؛ فهذه حالُهم في البَرزَخِ(٣).

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ﴾ بَسْطُ اليَدِ يُستعمَلُ بمعنى الإيذاءِ المُطْلَق؛ فإنَّ أكثَرَ الإيذاءِ العَمليِّ يكون بمَدِّ اليَدِ، فإنْ أُريد إيذاءٌ مُعَيَّنٌ ذُكِرَ؛ كقوله تعالى حِكايةً في قصَّةِ ابْنَي آدَمَ: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي﴾(٤).

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾، ﴿غَيْرَ الْحَقِّ﴾ أي غَيرَ القَولِ المتمَكِّنِ غايَةَ التمكُّنِ في درجاتِ الثَّباتِ، ولو قال بَدَلَه: (باطِلًا)، لم يُؤدِّ هذا المعنى، ولو قال: (الباطِلَ)، لقَصُر عن المعنى أكثَرَ(٥).

٨- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى﴾ يدلُّ على أنَّه تعالى ليس في خَلْقِه، ولا خَلْقُه فيه(٦).

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٢٦٧)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق))، ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٢٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٥٢١).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٩١).

(٦) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٨/ ٢٠).

٩- قولُ الله تعالى: ﴿وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ يعبِّرُ بالتَّرْك وراءَ الظَّهْرِ عمَّا فات الإنسانَ التَّصرُّفُ فيه، والانتفاعُ به؛ لِفَقْدِه إيَّاه، أو بُعْدِه عنه(١).

١٠- في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ تَقريعٌ لهم، وتوبيخٌ على ما كانوا اتَّخذوا في الدَّارِ الدُّنيا من الأندادِ والأصنامِ والأوثانِ؛ ظانِّينَ أنَّ تلك تَنفَعُهم في مَعاشِهم ومَعادِهم، إنْ كان ثَمَّ معادٌ، فإذا كان يومُ القِيامَةِ تَقطَّعتِ الأسبابُ، وانزاحَ الضَّلال، وضلَّ عنهم ما كانوا يَفتَرون(٢).

١١- قولُ الله تعالى: ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ أسنَدَ القطْعَ المبالَغَ فيه إلى (البَيْنِ)، وإذا انقَطَعَ البَيْنُ تقَطَّعَ ما كان فيه من الأسبابِ، التي كانت تُسَبِّب الاتصالَ، فلم يبقَ لأحدٍ منهم اتصالٌ بالآخَرِ؛ لأنَّ ما بينهما صار كالخندقِ بانقطاعِ نَفْسِ البَيْنِ، فلا يتأتَّى معه الوصولُ، هذا على قراءةِ الجماعةِ برَفْع ﴿بَيْنُكُمْ﴾(٣).

بلاغةُ الآيتين:

١- قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾

- قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ الاستفهامُ إنكاريٌّ؛ فهو في معنى النفْيِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٥٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ١٩٣-١٩٤).

أي: لا أحَدَ أظلمُ مِن هؤلاء أصحابِ هذِه الصِّلاتِ، ومَسَاقُ هذا الاستِفهامِ هنا مَسَاقُ التَّعريضِ بأنَّهم الكاذِبونَ؛ إبطالًا لتكذيبِهم إنزالَ الكتابِ[١].

- وخَصَّ بالذِّكر قولَه: ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَم يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ على غيرِه من أنواعِ الافتراءِ؛ تَنبيهًا على مَزيدِ العقابِ فيه والإثمِ[٢]؛ حيثُ بدأ أوَّلاً بالعامِّ، وهو افتراءُ الكَذِب على اللهِ، وهو أعمُّ من أن يكونَ ذلك الافتراءُ بادِّعاءِ وَحْيٍ أو غيرِه، ثمَّ ثانيًا بالخاصِّ، وهو افتراءٌ منسوبٌ إلى وَحْيٍ من الله تعالى[٣].

- وحُذِفَ الفاعِلُ في قوله: ﴿وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ﴾ تَعظيمًا له؛ لأنَّ المُوحِيَ هو اللهُ تعالى[٤].

- قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ فيه إيجازٌ بالحَذْفِ؛ حيث حُذِفَ مفعولُ ﴿تَرَى﴾؛ لدَلالةِ ما في حيِّز الظَّرْف عليه، أي: ولو ترَى الظَّالِمينَ، وحُذِف جوابُ (لو)؛ للتهويلِ، والمعنى: لَرَأَيْتَ أمرًا مُفْظِعًا، وحَذْفُ جوابِ (لو) في مِثلِ هذا المقامِ شائِعٌ في القرآنِ[٥].

- وجاءَ التعبيرُ عن غَمرَةِ الموتِ بالجمْع ﴿غَمَرَاتِ﴾؛ إمَّا لتعدُّد الغَمَرات بعَدَد الظَّالِمينَ، فتكون صِيغةُ الجَمعِ مُستعملةً في حقيقَتِها، أو لقَصْدِ المبالغَةِ في تهويلِ ما يُصيبُهم بأنَّه أصنافٌ من الشدائِدِ، هي لتعدُّد أشكالِها وأحوالِها لا يُعَبَّر عنها باسمٍ مفرَدٍ؛ فيجوز أن يكونَ هذا وعيدًا بعذابٍ يَلْقَونه في الدُّنيا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ١٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٢٨٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٨١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٥٢١).

في وقْتِ النَّزْعِ، ولَمَّا كان للمَوتِ سَكَراتٌ جُعِلَت غَمْرةُ الموت غَمَراتٍ[(١)].

- قوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ﴾ الأمْرُ في ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ للتَّوقيفِ والتَّوبيخِ على سَالِفِ فِعْلِهم القَبيحِ، أو للإهانةِ والإرهاقِ والإرعابِ، وأنَّهم بمنزلَةِ مَن تولَّى إزْهاقَ نَفْسِه؛ إغلاظًا في قَبْضِ أرواحِهم ولا يَتْركون لهم راحةً، ولا يُعامِلونهم بِلِينٍ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّهم يَجْزعونَ فلا يَلْفِظون أرواحَهم؛ وهو على هذا الوجه وعيدٌ بالآلامِ عِندَ النَّزْعِ؛ جزاءً في الدُّنيا على شِرْكِهم[(٢)].

- قوله: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ استئنافُ وعيدٍ، وفُصِلَتِ الجملةُ- أي: لم تُعْطَف بالواو- للاستقلالِ والاهتمامِ، وهي من قَوْلِ الملائكة، وعلى أنَّ هذا القَوْلَ صادِرٌ مِن جانِبِ الله تعالى؛ فذِكْرُ اسمِ الجلالةِ مِن الإظهارِ في مقامِ الإضمارِ؛ لقَصْدِ التهويل، والأَصْلُ (بِما كُنتُم تقولون عليَّ)[(٣)].

- وإضافَةُ العَذابِ إلى الهُونِ ﴿عَذَابَ الْهُونِ﴾؛ لبيانِ العَراقَةِ في الهوانِ، والتمكُّن فيه؛ مِثْلُ قولهم: رَجُلُ سُوءٍ[(٤)]، فهو مبالغةٌ؛ إيذانًا بأنَّه مُتمكِّنٌ فيه؛ وذلك أنَّه ليسَ كلُّ عذابٍ يكونُ فيه هُونٌ؛ لأنَّه قد يكونُ على سبيلِ الزَّجرِ والتأديبِ[(٥)].

- وأوَّلُ هذه الآيةِ، وهو قولُه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٦- ٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٧٨- ٣٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٧٣).

(٥) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٤٣).

يفيدُ التَّخويفَ العظيمَ على سبيلِ الإجمالِ، وقولُه بعدَ ذلك: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ...﴾ كالتَّفصيلِ لذلك المُجْمَلِ(١).

٢- قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾

- قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾

- عبَّر بالفِعلِ الماضي ﴿جِئْتُمُونَا﴾ الذي أُريدَ به المُستقبلُ؛ لتحقُّقِ الوقوعِ. وقيل: هو ماضٍ على حقيقَتِه محكِيٌّ، فيُقالُ لهم حالَةَ الوقوفِ بينَ يَدَيِ اللهِ للجزاءِ والحِسابِ(٢).

- قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فيه مُناسَبةٌ حسنةٌ، حيثُ وقَع هنا في آيةِ الأنعام بزِيادة ﴿فُرَادَى﴾، وفي سُورةِ الكهف: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الكهف: ٤٨]، مع أنَّ مَرْمَى الآيتينِ واحدٌ؛ وذلِك لمراعاةِ ما أُعقبت به آيةُ الأنعام مِن قوله: ﴿وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾، أي: ما أَعطيناكُم في الدُّنيا ممَّا شَغَلَكم عن آخِرتِكم، ثم قال: ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾، أي: مُنفرِدين عمَّا كُنتُم تؤمِّلون مِن أندادِكم ومعبوداتِكم من دُونِه سبحانه؛ فلِرَعْيِ هذا المعقَّبِ به في آيةِ الأنعام قيل فيها: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى﴾. أمَّا آيةُ الكهفِ فقَبْلَها قولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧]، ثمَّ قال: ﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٨٧).

جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الكهف: ٤٨] مُجرَّدين عن كلِّ مُتعلَّق، ولم يقَعْ هنا ذِكرٌ ولا إشارةٌ إلى ما عُبِدَ مِن دونِ الله؛ فلهذا لم يقَعْ هنا ﴿فُرَادَى﴾؛ وذلك يُبيِّن التناسُب(١).

- قوله: ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ الكافُ للتَّشبيهِ؛ يُريدُ كَمَجيئِكم يَومَ خَلَقْناكم بالهيئةِ التي وُلِدْتُم عليها، في الانفرادِ الأَوَّلِ وَقْتَ الخِلْقَة؛ لِكَونِ الإنسانِ يُخْلَق لا مالَ له، ولا وَلَدَ، ولا حَشَمَ(٢).

- قوله: ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾

- في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَرَى﴾ جِيءَ بالفِعلِ المنفيِّ بصِيغةِ المُضارِعِ الدَّالِّ على الحالِ دون الماضي؛ ليشيرَ إلى أنَّ انتفاءَ رؤيةِ الشُّفَعاءِ حاصِلٌ إلى الآن، ففيه إيهامُ أنَّ رُؤْيَتَهم محتمِلَةُ الحصولِ بعْدُ في المستقبلِ؛ وذلك زيادةٌ في التهكُّمِ(٣).

- وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿فِيكُمْ﴾؛ للاهتمامِ الذي وجَّهَه التعجُّبُ من هذا المزعومِ؛ إذ جعلوا الأصنامَ شُركاءَ للهِ في أنفُسِهم، وقدْ عَلِموا أنَّ الخالِقَ هو اللهُ تعالى، فهو المستحِقُّ للعبادةِ وَحْدَه(٤).

- قوله: ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ لجملة: ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمْ﴾؛ لأنَّ المُشركينَ حين يسمعونَ قولَه: ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمْ﴾ يعتادُهم الطَّمَعُ في لقاءِ شُفَعائِهم؛ فيتشوَّفونَ لأَنْ يَعْلَمُوا سَبيلَهم، فقيل لهم: ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾؛ تأييسًا لهم بعد الإطماعِ التهكميِّ(٥).

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٦٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٨٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٨٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٣٨٥).

- وعلى قِراءة الفَتْح في ﴿بَيْنَكُمْ﴾ يكون فيه إيجازٌ بالحَذْفِ؛ حيثُ حُذِفَ فاعِلُ ﴿تَقَطَّعَ﴾؛ لأنَّ المقصودَ حُصولُ التقطُّعِ، ففاعِلُه اسمٌ مُبْهَمٌ مِمَّا يصلح للتقطُّعِ، وهو الاتِّصالُ، والتقديرُ: لقد تقطَّعَ الحبلُ أو نحوُه، وقد صار هذا التركيبُ كالمَثَلِ بهذا الإيجازِ[1].

- وهذه الآية ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى... لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ خبرٌ المرادُ منه التَّقريعُ والتَّوبيخُ؛ وذلك لأنَّهم صَرَفُوا جِدَّهم وجُهْدَهم في الدُّنيا إلى تحصيلِ أمرَينِ: أحدهما: تحصيلُ المالِ والجاهِ. والثاني: أنَّهم عبدوا الأصنامَ؛ لاعتقادِهم أنَّها تكونُ شُفَعاءَ لهم عند الله، ثم إنَّهم لَمَّا وَرَدوا مَحْفِلَ القيامةِ لَمْ يَبْقَ معهم شيءٌ من تلك الأموالِ، ولم يَجِدوا من تلك الأصنامِ شفاعةً لهم عندَ الله تعالى، فبقُوا فُرادَى عن كُلِّ ما حَصَّلُوه في الدُّنْيا، وعَوَّلوا عليه، بخلافِ أهْلِ الإيمانِ؛ فإنَّهم صَرَفُوا عُمُرَهم إلى تحصيلِ المعارِفِ الحَقَّةِ، والأعمالِ الصَّالحةِ، وتلك المعارِفُ والأعمالُ الصَّالِحَةُ بَقِيَتْ معهم في قبورِهم، وحَضَرَتْ معهم في مَشْهَد القيامةِ، فهم في الحقيقة ما حَضَروا فُرادى، بل حَضَروا مع الزَّادِ ليومِ المَعادِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٦٩).

الآيات (٩٥-٩٩)

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾: أي: خالِقُهُما أو شاقُّهُما بالنَّباتِ، والفَلْق والفَطْر والخَلْق بمعنًى واحِدٍ، ولا يكون الفَلْقُ إلَّا بين جِسْمين، والفَلْق: شقُّ الشَّيءِ، وإبانةُ بَعْضِه عن بعضٍ، وأصل (فلق): يدلُّ على فُرْجَةٍ وبينونَةٍ في الشَّيءِ[1].

﴿فَأَنَّى﴾: فَمِنْ أيِّ وَجهٍ، أو كَيفَ. وهو استفهامٌ عن الوُجوهِ والمَذاهِبِ؛ تقول: أنَّى يكونُ هذا؟ أي: من أي وجهٍ وطَريقٍ. وقيل: يُسأَلُ به عن الحالِ والمَكانِ، فيكون بمعنى: أين وكيف؛ لتَضَمُّنِه معناهما[2].

﴿تُؤْفَكُونَ﴾: أي: تُصْرَفونَ عن الحَقِّ، وتَعْدِلون عنه؛ يقال: أَفَك الرَّجُل عن كذا: إذا عَدَل عنه، والإِفْك: كلُّ مصروفٍ عن وَجْهِه الذي يحِقُّ أن يكونَ عليه،

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٥/ ٤٣٧)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ١٥٦).

وأصل (أفك): قَلْبُ الشَّيء وصَرْفُه عن جِهَتِه(١).

﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾: أي: خالِق النَّهار، أو شاقُّه حتى يَتبيَّن مِن اللَّيل(٢).

﴿وَالشَّمْس وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾: أي: يَجريانِ في أفلاكِهما بحسابٍ مَعْلومٍ عنده، وعددٍ لبلوغِ أمْرِهما ونهايةِ آجالِهما، وأصلُ الحِسابِ: استعمالُ العَدَدِ(٣).

﴿تَقْدِيرُ﴾: التَّقديرُ: تَبيينُ كميَّةِ الشَّيءِ، وتَقديرُ اللهِ الأشياءَ على وجهين؛ أحدهما: بإعطاءِ القُدرةِ. والثاني: بأنْ يَجعلها على مِقدارٍ مخصوصٍ ووجهٍ مخصوصٍ حسْبَمَا اقتضتْ الحِكمةُ بالحُكم منه أنْ يكونَ كذا أو لا يكون كذا؛ إمَّا على سبيلِ الوجوبِ، وإمَّا على سبيلِ الإمكانِ(٤).

﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ أي: في الأَرْحامِ. وأَصْلُ (قرر) يَدُلُّ على تَمكُّنٍ(٥).

﴿مُسْتَوْدَعٌ﴾: أي: في الأَصْلابِ. وأصلُ (ودع): يَدُلُّ على التَّركِ والتَّخلِيَةِ(٦).

﴿مُتَرَاكِبًا﴾: أي: مُركَّبًا بعضُه فوقَ بعضٍ، أو يَرْكَب بعضُه بعضًا، وأصل (ركب): عُلُوُّ شَيْءٍ شَيْئًا(٧).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٤٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٢٨، ٤٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٩).

(٤) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٨).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٦-٣٠٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٩).

(٦) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٩).

(٧) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٣)، ((تذكرة =

﴿طَلْعِهَا﴾: طلعُ النَّخلةِ: ثَمَرُها، أو حَمْلُها؛ سُمِّيَ طَلعًا لطُلوعِه في كلِّ سَنَةٍ، ويُطْلَقُ الطَّلعُ على أوَّلِ ما يخرُجُ مِنَ النَّخلةِ في أكمامِه، وأصلُ (طلع): يدلُّ على ظهورٍ وبُرُوزٍ(١).

﴿قِنْوَانٌ﴾: أي: عُذوقُ النَّخْلِ، مفردُها قِنْوٌ، وهو: العِذقُ(٢).

﴿دَانِيَةٌ﴾: أي: قَريبةٌ، سهلةُ التناوُلِ، يَجْنُونها قائمينَ وقاعِدين، وأصل الدُّنُوِّ: القُرْبُ بالذَّاتِ أو بالحُكْم، ويُستعمَل في المكانِ والزَّمَانِ والمنزِلَةِ(٣).

﴿وَيَنْعِهِ﴾: أي: إدراكِه ونُضْجِه وبُلُوغِه؛ يُقال: يَنَعَتِ الثَّمَرةُ والفاكِهَة، وأَيْنَعَت: إذا أدرَكَتْ(٤).

مُشْكِل الإعراب:

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ﴾

﴿وجنَّاتٍ﴾: مَنصوبةٌ، على أنَّها معطوفةٌ على ﴿نَبَاتَ﴾ مِنْ قَوْلِه تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾، أي: فأخرجْنا بالماءِ النَّباتَ وجَنَّاتٍ، وهو مِن عطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ تشريفًا لهذين الجِنْسَينِ على غيرِهما؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ [البقرة:٩٨]، وعلى هذا فقَوْلُه: ﴿وَمِنَ

= الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٠).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٨٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٧).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٩٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٨).

النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ﴾ جملةٌ مُعْتَرِضةٌ. أو منصوبةٌ على أنَّها معطوفةٌ على ﴿خَضِرًا﴾ مِنْ قَوْلِه تعالى:﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾.

وقُرِئ (وَجَنَّاتٌ) بالرَّفْع، على أنَّها مرفوعةٌ بالابتداءِ، والخبر محذوفٌ، والتقدير: وثَمَّ جَنَّاتٌ، أو: وَمِنَ الكَرْمِ جناتٌ، ولا يجوزُ أنْ يكون معطوفًا على ﴿قِنْوَانٌ﴾؛ لأن العِنَبَ لا يخرجُ مِن النَّخْلِ(١).

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِر تعالى أنَّه وَحْدَه هو مَن يشُقُّ الحَبَّ فيُخْرِج منه الزُّروعَ، ويشُقُّ النَّوى فيُخْرِج منه الغُرُوسَ والشَّجَر، يُخْرِج سبحانه الحيَّ من الميِّتِ، ويُخْرِجُ الميِّتَ من الحيِّ؛ كإخراجِه تعالى الإنسانَ من النُّطْفة، والنُّطْفةَ من الإنسانِ، ذلكم الذي صَنَعَ ذلك هو اللهُ تعالى، فكيفَ تُصْرَفونَ عن هذه البَراهينِ، وتعبدونَ معه غيره؟!

والله سبحانَه يشقُّ ظُلمةَ الليلِ بضياءِ الصُّبحِ، وهو مَنْ جَعَلَ اللَّيلَ سَكَنًا لكلِّ متحَرِّكٍ بالنَّهارِ، فيهدَأُ في اللَّيلِ ويرتاحُ، وجَعَل الشَّمْسَ والقَمَرَ يجريانِ بحِسابٍ مُقَنَّنٍ مُقدَّرٍ، ذلك تقديرُ العزيزِ العليمِ.

وهو الذي جَعَلَ النُّجومَ علاماتٍ وأدلَّةً، يهتدي بها النَّاسُ في ظُلُماتِ البَرِّ والبَحْرِ، قد ميَّزَ وفَصَّل تعالى الآياتِ، ووضَّحَها لقومٍ يَعْلمونَ.

وهو تعالى الذي أوجَدَ جميعَ البَشَرِ مِن آدمَ عليه السَّلام، وقد خَلَقَه اللهُ من ترابٍ، ثم صار البَشَرُ نُطَفًا أودَعَها اللهُ في أصلابِ آبائِهم، ثمَّ يَنْقِلُها فتَستقِرُّ في أرحامِ الأمَّهاتِ، قد ميَّزَ اللهُ الآياتِ وفَصَّلَها، ووضَّحَها لقومٍ يفهمونَها، فيعرفونَ مرادَ الله.

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٦٤)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٢٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٧٥-٧٦).

وهو سبحانه الذي أنزلَ من السماءِ المَطَرَ، فأخرج به نباتَ كُلِّ شيءٍ، فأخرَجَ سبحانه من نباتِ كُلِّ شيءٍ زَرْعًا وشَجَرًا أخضَرَ رَطْبًا، ثم يخلُقُ بعد ذلك فيه الحَبَّ والثَّمَر، يرَكْبَ بعضُه بعضًا؛ كالسَّنابِلِ ونحوِها، وأخرج تعالى مِن طَلْعِ النَّخْلِ عُذوقًا قريبةً سَهْلَةَ التناوُلِ، وأخرج سبحانه بساتينَ من أعنابٍ، وأخرج شَجَرَ الزَّيتونَ، والرُّمَانَ؛ يتشابَهُ في وَرَقِه وشجرِه، ويختَلِفُ في ثَمَره شكلًا وطعمًا، ثم أمَرَ اللهُ عبادَه أن ينظرُوا إلى ثَمَرِه عند بُدُوِّه وطُلُوعِه، وعند نُضْجِه، نَظَرَ تفكُّرٍ وتدبُّرٍ؛ فإنَّ في ذلك آياتٍ لقومٍ يؤمنونَ.

تفسيرُ الآيات:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا قَرَّرَ التَّوحيدَ، وأردَفَه بتَقريرِ أمْرِ النبوَّةِ، عاد إلى ذِكْرِ الدلائِلِ الدَّالَّةِ على وجودِ الصَّانِعِ، وكمالِ قُدْرَتِه، وحِكْمَتِه، وعِلْمِه؛ تنبيهًا على أنَّ المقصودَ الأصليَّ من جميعِ المباحِثِ العقليَّة والنقليَّة: معرفةُ اللهِ بذاتِه وصفاتِه وأفعالِه[1].

وأيضًا لَمَّا كان قد تقدَّمَ ذِكْرُ البعثِ نبَّهَ على قُدرَته تعالى الباهِرَةِ في شَقِّ النَّواةِ مع صَلابَتِها، وإخراجِه منها نَبْتًا أخْضَرَ لَيِّنًا إلى ما بعد ذلك؛ مما فيه إشارةٌ إلى القدرةِ التامَّةِ والبعثِ والنَّشْر بعد الموت[2]، فقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾.

أي: إنَّ الَّذي يستحقُّ العبادةَ وَحْدَه- أيُّها النَّاسُ- هو اللهُ الذي يشقُّ الحبَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٣٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٩١).

في الثَّرى، فتَنْبُتُ الزروعُ على اختلافِ أصنافِها من الحبوبِ، ويشُقُّ النَّوى، فتَخْرُجُ الغُرُوسُ والأشجارُ، على اختلافِ أنواعِها من الثِّمارِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤- ٣٢].

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾.

أي: يُخرِجُ السنبُلَ الحيَّ من الحَبِّ المَيِّتِ، ومُخْرِجُ الحَبِّ الميِّتِ من السُّنبُلِ الحيِّ، والشَّجَرَ الحيَّ من النَّوى الميِّتِ، والنَّوى الميِّت من الشَّجَرِ الحَيِّ، كما يُخْرِجُ الإنسانَ من النُّطفَةِ، والنُّطْفَةَ من الإنسانِ، ويُخْرِجُ الدَّجاجةَ من البَيْضَةِ، والبيضةَ من الدجاجَةِ[(٢)].

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾.

أي: ذَلِكم الذي خَلَق ودَبَّر كلَّ تلك الأشياءِ العظيمةِ المُبْهِرَة، هو اللَّهُ المستحِقُّ للعبوديَّةِ وحْدَه لا شريكَ له، فكَيْفَ تُصْرفونَ عن هذه البراهينِ، والآياتِ العجيبةِ الدَّالَّةِ على عَظَمَةِ ربِّكم وجلالِه، وكمالِ قُدرَتِه، وأنَّه المعبودُ وحده، ثم تَصُدُّونَ مع ذلك عن عبادةِ مَن هذا شَأْنُه، فتُسَوُّونَ به غيرَه، وتعبدونَ معه مَن لا يَمْلِك لنفْسِه نفعًا ولا ضَرًّا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نُشُورًا؟ أين تذهبُ عقولُكم عن ذلك[(٣)]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٢٠، ٤٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٣٠-٥٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٣٣-٥٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٣٦-٥٣٧).

﴿ فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا استدَلَّ على باهِرِ حِكمَتِه وقُدرَتِه بدَلالةِ أحوالِ النَّباتِ والحيوانِ، وذلك من الأحوالِ الأرضيَّةِ- استدَلَّ أيضًا على ذلك بالأحوالِ الفَلَكيَّةِ؛ لأنَّ فَلْق الصُّبْحِ أعظَمُ من فَلْقِ الحَبِّ والنَّوى؛ لأنَّ الأحوالَ الفَلَكيَّة أعظمُ وَقْعًا في النفوسِ من الأحوالِ الأرضيَّةِ(١)، فقال تعالى:

﴿ فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا ﴾.

أي: هو سبحانه الذي يشَقُّ ظُلمَةَ اللَّيلِ وسَوادَه شيئًا فشيئًا، حتى يَضمَحِلَّ، ويَخلُفَه النَّهارُ بضِيائِه وإشراقِه، فيتحَرَّكَ فيه الخَلْقُ لمنافِعِ دِينِهم ودُنياهم، وهو سبحانه الذي جَعَلَ اللَّيلَ مُظلِمًا، فيسْكُنُ فيه كلُّ مُتحرِّكٍ بالنَّهارِ، ويهدأ فيه ويرتاح مستقِرًّا في مَسكَنِه ومأواه، ثم يُزيلُ اللهُ ذلك بضياءِ النَّهارِ، وهكذا أبدًا إلى يومِ القيامةِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧١- ٧٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٧٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٢٤-٤٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٣٩-٥٤٠).

﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗا﴾.

أي: وجعَلَ الشَّمْسَ والقَمَرَ يَجريانِ بحِسابٍ مُقدَّرٍ، لا يتغيَّر ولا يَضْطرِبُ، فيدوران لمصالحِ الخَلْقِ التي جُعِلا لها، فبهما تُعرَفُ الأزمِنَةُ والأوقاتُ، وتنضَبِطُ أوقاتُ العباداتِ، وآجالُ المعاملاتِ، وغيرُ ذلك(١).

كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥].

﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾.

أي: هذا(٢) تقديرُ الذي عَزَّ سُلطانُه، فلا يُمانَعُ ولا يُخالَفُ، ولا يقدِرُ أحدٌ أراده بسوءٍ وعقابٍ من الامتناعِ منه، فهو الغالِبُ، الذي انقادَتْ له هذه المخلوقاتُ العظيمةُ، مُذَلَّلةً مُسخَّرَةً بأمْرِه، وهو سبحانه العليمُ، الذي أحاط عِلمُه بكلِّ شيءٍ، ومن ذلك عِلْمُه بمصالحِ خَلْقِه(٣).

كما قال سبحانه: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ * وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٧-٣٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٤٢).

(٢) ذهَب بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ الإشارةَ تعودُ إلى المذكور في هذه الآيةِ، وهو فلْقُه الإصباحِ، وجعلُه الليلَ سكنًا، والشمسَ والقَمَرَ حُسبانًا. وهذا اختيارُ ابن جرير في ((تفسيره)) (٩/ ٤٣١). وذهَب بعضُهم إلى أنَّها تعودُ على كلِّ ما سبَق، وهو فلقُه الحبَّ والنوى، وفلقُه الإصباحَ، وجعلُه الليلَ سكنًا، والشَّمسَ والقَمَرَ حسبانًا. وهذا اختيار الشَّنقيطي في ((العذب النمير)) (١/ ٥٥١-٥٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٥١-٥٥٤).

وقال تعالى: ﴿... فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١٢].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ﴾.

أي: وهو سبحانه الذي خَلَقَ النُّجومَ لكم - أيُّها النَّاسُ - فجعَلَها أدلَّةً تستدِلُّونَ بها للنَّجاةِ، إذا ضَلَلْتم الطريقَ في ظُلُماتِ اللَّيلِ، سواءٌ كنتم في برٍّ أو بحرٍ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦].

﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

أي: قد ميَّزنا كلَّ جنسٍ ونوعٍ من الأدلَّة عن الآخَرِ، وبيَّنَّاها ووضَّحْناها، وجعَلْناها علاماتٍ على قُدْرَتِنا وكَمالِنا، وأنَّه ليس لأحدٍ أن يَعْبُدَ غيرَنا؛ وذلك ليتدبَّرَها ويَفْهَمَها أولو العِلْمِ بالله تعالى، الذين يعرفونَ الحَقَّ، ويجتنبونَ الباطِلَ[2].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التفسيرِ:

في قوله تعالى: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ قِراءتان:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٣١-٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٥٤-٥٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٥٦-٥٥٩).

١ - ﴿فَمُسْتَقِرٌّ﴾ على أنَّها اسمُ فاعلٍ من قولِهم: قرَّ الشَّيءُ، فهو مُستقِرٌّ، والمراد: الولدُ القارُّ في الرَّحِمِ إلى وقت الوَلادِ[١].

٢ - ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ أي: موضِعُ استقرارِ الوَلَدِ، وهو الرَّحِمُ[٢].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾.

أي: وهو سبحانه الذي أخرجَكم[٣] مِن العَدَم إلى الوجودِ، مِن آدَمَ عليه السَّلامُ، الذي خلَقَه اللهُ عزَّ وجلَّ مِن ترابٍ، ثمَّ صِرْتُم بعد ذلك نُطَفًا أودَعَها اللهُ في أصلابِ آبائِكم، ثمَّ يَنقُلُها فتَستقِرُّ في أرحامِ أمَّهاتِكم[٤].

---

(١) قرأ بها ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو وروحٌ عن يعقوبَ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٣٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٤٦)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٧٤).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٣٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٧٤).

(٣) قيل: الخطابُ للمُشركينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٣٢).
وقيل: المرادُ البَشَرُ كلُّهم، مع التعريضِ بالمشركين. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥-٨).
والقولُ بأنَّ المستقَرَّ هو القرارُ المَكينُ للنُّطْفَة في أرحامِ الأمَّهات، والمستودَعُ هو وجودُها في أصلابِ الآباءِ؛ عليه أكثرُ المُفَسِّرينَ- كما نصَّ عليه الشنقيطيُّ في ((العذب النمير)) (٢/ ٨-١١). وقال ابن كثير عن هذا القول: (هو الأظهر) ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٦).
وممَّن قال بهذا القول من السَّلف: ابنُ عبَّاس، وعكرمةُ، ومجاهدٌ، وعطاءٌ، والسُّديُّ، وقتادةُ، والضحَّاك، وابنُ زيد. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٤/ ١٣٥٥، ١٣٥٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٣٦ - ٤٤٢).
واختار السعديُّ أنَّ المراد بالمستقَرِّ: الدَّارُ الآخِرة، وأنَّ المرادَ بالمستودَع: الدَّار الدنيا ودارُ البرزخ. يُنظر ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٦-٢٦٧).
واختار ابنُ جرير عُمومَ الآيةِ، وأنَّ معنى المستقَرِّ والمستودَع يَشمل عدَّة أمورٍ، فقال: (أَوْلى التأويلاتِ في ذلك بالصَّواب، أن يُقال: إنَّ الله جلَّ ثناؤُه عمَّ بقوله: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ كلَّ خَلْقِه الذي أنشأ من نَفْسٍ واحدةٍ مستقرًّا ومستودَعًا، ولم يخصِّصْ من ذلك معنًى دون معنًى، =

﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾.

أي: قد بَيَّنَّا الحُجَجَ، وميَّزنا الأدلَّة، وأحكَمْنَاها لقومٍ يفهمونَها، فيَعُونَ عن الله تعالى مُرادَه[١].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩)﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذَكَرَ إنعامَه تعالى بخَلْقِنا؛ ذَكَرَ إنعامَه علينا بما يقومُ به أَوَدُنا ومَصالِحُنا[٢]، فقال تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

أي: وهو سبحانه الذي أَنزل المطَرَ، فأنبَتَ به كلَّ شَيءٍ، مِمَّا يأكُلُ النَّاسُ والأنعامُ؛ رزقًا للعِباد، ورحمةً من الله لخَلْقِه[٣].

﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾.

= ولا شكَّ أنَّ مِن بني آدمَ مُستقَرًّا في الرَّحِم، ومستودَعًا في الصُّلب، ومنهم من هو مستقَرٌّ على ظهر الأرضِ أو بَطْنِها، ومستودَعٌ في أصلابِ الرِّجال، ومنهم مستقَرٌّ في القبر، مستودَعٌ على ظهر الأرض، فكلٌّ مستقَرٌّ أو مستودَعٌ بمعنًى من هذه المعاني فداخِلٌ في عمومِ قوله: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ [الأنعام: ٩٨] ومرادٌ به، إلَّا أن يأتي خبرٌ يجبُ التَّسليمُ له بأنَّه معنيٌّ به معنًى دون معنًى، وخاصٌّ دون عامٍّ) ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٤٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٣-١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٧).

مناسَبَتُها لما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تعالى عُمومَ ما يَنْبُت بالماءِ؛ مِن أنواعِ الأشجارِ والنَّباتِ، ذَكَر الزَّرْعَ والنَّخْل، لكثرةِ نَفْعِهما، وكونِهما قُوتًا لأكثَرِ النَّاسِ[١]؛ فقال:

﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا ﴾.

أي: فأخرَجْنا مِن نباتِ كُلِّ شيءٍ[٢] زَرْعًا وشجَرًا أخضَرَ رَطْبًا، ثم نخلُقُ بعد ذلك فيه الحَبَّ والثَّمَر، يَركَبُ بعضُه بعضًا؛ كالسنابِلِ ونحوِها[٣].

﴿ وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ ﴾.

أي: ويُخْرِجُ اللهُ سبحانه مِن طَلْعِ النَّخْل - وهو وعاؤُها الذي تنشأُ فيه عُذوقُ الرُّطَبِ - يُخرِج تلك العذوقَ متدلِّيَةً، قريبةً، سَهْلَةَ التناوُلِ[٤].

﴿ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ ﴾.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: ﴿وَجَنَّات﴾ قراءتان:

١ - ﴿وَجَنَّاتٌ﴾ بالرَّفْع: على أنَّها مُبتَدأٌ، والخَبَرُ مَحذوفٌ، وهو إمَّا مُقَدَّمٌ، فيكونُ التقديرُ: وثَمَّ جَنَّاتٌ، أو: ومِنَ الكَرمِ جناتٌ، أو: ولَكُم جَنَّاتٌ، وإمَّا أن يكونَ مُؤَخَّرًا،

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٧).

(٢) اختار عود الضمير في ﴿منه﴾ على نباتِ كلِّ شيءٍ: ابنُ عطيةَ، وابنُ عاشورٍ، والشنقيطيُّ.
يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٩٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٢).
واختار عودَه على الماءِ: ابنُ جريرٍ في ((تفسيره)) (٩/ ٤٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٤٥-٤٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٧).

فيكونُ التَّقديرُ: وجناتٌ مِن أعنابٍ أخرَجْناها[1].

٢- ﴿وَجَنَّاتٍ﴾ بالنَّصبِ: على أنَّها معطوفةٌ على ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾، أي: وأَخْرَجْنا به جَنَّاتٍ مِنْ أعنابٍ، أو معطوفةٌ عَلى ﴿خَضِرًا﴾[2].

﴿وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾.

أي: وأخرجْنا أيضًا بساتينَ من أعنابٍ[3].

﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾.

أي: وأَخْرَجْنا شَجَرَ الزيتونِ والرُّمَّانِ الذي يتشابَهُ في وَرَقِه وشَجَرِه، ويختَلِفُ في ثَمَره شكلًا وطعمًا[4].

---

(١) رواها الأعشى عن أبي بكر. يُنظر: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٤٦)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٦٤).
ويُنظر أيضًا: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٦٤)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٢٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٧٥-٧٦)، ((منار الهدى في بيان الوقف والابتدا)) للأشموني (١/ ٢١٤).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٧٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٦٤).
ويُنظر أيضًا: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٦٤)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٢٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٧٥-٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٤٥-٤٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٩).
قال الشنقيطي: (﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ كان بعضُ العلماءِ يقولُ: في الكلامِ حذفٌ دَلَّ المقامُ عليه، أي: والزيتونَ مشتَبِهًا وغيرَ متشابِهٍ، والرمانَ مشتَبِهًا وغيرَ مُتَشابِهٍ. أنها راجعةٌ لكليهما. وحُذِف أحدُهما لدلالةِ المقامِ عليه... وهو أسلوبٌ عربيٌّ مَعْروفٌ ومعنَى كونِ الزيتونِ مُشْتَبِهًا وغيرَ مُتَشابِهٍ: أن شجرَه يتشابهُ ورقُه في القَدْرِ، ويتشابَه في نباتِه في جميعِ الغصنِ، وغيرُ متشابِهٍ لأنَّه أنواعٌ تختلفُ طُعومُها. الذي يعرفُه يَجِدُ في اختلافِ طعمِه فُروقًا =

﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓ﴾.

أي: انظروا إليه حين بُدُوِّه وطُلوعِه، وحين بُلوغِه ونُضْجِه، نَظَرَ فِكْرٍ واعتبارٍ؛ فإنَّ في ذلك عِبَرًا وآياتٍ؛ كالتفكيرِ في رحمةِ الله، وسَعَةِ إحسانِه وَجُودِه، وعنايَتِه بعبادِه، وكمالِ قُدْرَتِه؛ حيث أخرج تلك الثِّمارَ مِن العَدَمِ إلى الوُجودِ، فبَعْدَ أن كان حَطَبًا، صار عِنبًا ورطبًا، وغير ذلك مِمَّا خلَقَ تعالى؛ من الألوانِ والأشكالِ والطُّعومِ والرَّوائح(١).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾.

أي: إنَّ في إنزالِ اللهِ تعالى - أيُّها النَّاسُ - الماءَ من السَّماءِ الذي أخرَجَ به نباتَ كلِّ شيءٍ، والخَضِر الذي أخرج منه الحَبَّ المتراكِبَ، وغير ذلك مِمَّا ذكَرَه الله تعالى في هذه الآيَةِ؛ لدَلالاتٍ للمؤمنينَ على وحدانيَّة وكمالِ قُدرَةِ خالِقِ هذه الأشياءِ وحِكْمَتِه ورَحْمَتِه، وأنَّ العبادَةَ لا تصلُحُ إلَّا له عزَّ وجلَّ(٢).

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١ - النَّظَرُ في هذا الكونِ الجميلِ البهيجِ الرَّائِعِ، والتفكُّرُ في ظواهِرِه، وتقلُّباتِه من العَدَمِ إلى الوجودِ؛ يُوقِفُنا على قُدرةِ الله تعالى التي تَبْهَر العقولَ، ويُعَرِّفنا على بديعِ السَّمواتِ والأرضِ، الذي أودَعَ الوجودَ كلَّ هذه البدائِعِ؛ يُبَيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾(٣).

= يستدلُّ بها على كمالِ قدرةِ مَنْ صَنَعه...، وكذلك الرمانُ: تجدُه متشابهًا بالمنظرِ، أغصانُه وورقُه مُتَشابِهٌ، وقد تجدُ طعمَه مُتَبايِنًا أيضًا كما هو معروفٌ)) ((العذب النمير)) (٢/ ٢٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣١-٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٥٢-٤٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٣).

(٣) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (١/ ٣٢٢)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١١٥٢).

٢- قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فيه تذكيرٌ بوحدانيَّة الله، وبعظيم خِلْقَةِ النُّجوم، وبالنِّعمةِ الحاصلةِ مِن نظامِ سَيْرِها؛ إذ كانت هدايةً للنَّاسِ في ظُلُماتِ البَرِّ والبَحْرِ[١].

٣- ليس كُلُّ أحدٍ يعتَبِرُ ويتفكَّر، وليس كلُّ من تَفَكَّرَ، أدرَكَ المعنى المقصودَ؛ ولهذا قَيَّدَ تعالى الانتفاعَ بالآياتِ بالمؤمنينَ دونَ غيرِهم؛ فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فإنَّ المؤمنينَ يَحْمِلُهم ما معهم من الإيمانِ على العَمَل بمقتضياتِهِ ولوازِمه، التي منها التفكُّرُ في آياتِ الله، والاستنتاجُ منها ما يُرادُ منها، وما تدلُّ عليه، عقلًا وفطرةً، ونقلًا[٢].

الفوائِدُ العِلْمِيَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ افتتحَ الجملة بـ﴿إِنَّ﴾ مع أنَّه لا يُنكِرُ أحدٌ أنَّ اللهَ هو فاعِلُ الأفعالِ المذكورةِ هنا، ولكِنَّ النَّظَرَ والاعتبارَ في دَلالةِ الزَّرْعِ على قُدْرةِ الخالِقِ على الإحياءِ بعدَ الموتِ، كما قَدَرَ على إماتَةِ الحَيِّ؛ لَمَّا كان نظَرًا دقيقًا قد انصرف عنه المُشْركونَ، فاجترَؤوا على إنكارِ البَعْثِ- كان حالُهم كحالِ مَن أنكَرَ أو شَكَّ في أنَّ اللهَ فالِقُ تعالى الحَبِّ والنَّوَى، فأكَّدَ الخَبَرَ بحرفِ ﴿إِنَّ﴾[٣].

٢- في قولِ الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾، وقولِه: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾، جاء تَقديمُ الحَبِّ في الموضعينِ؛ مما يدلُّ على أنَّ الزَّرْعَ الَّذي منهُ يكونُ خروجُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٩٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٨٧).

الحَبِّ أفضَلُ؛ فإنَّه قوتٌ في أكثَرِ البلادِ، ولأغْلَبِ الحيواناتِ[١].

٣- قوله: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ فيه إشكالٌ، وسؤال معروفٌ للعلماءِ، وهو أنَّ في الآيةِ أنَّه سبحانه يفلقُ الإصباحَ، والذي يفلقُ ويشقُّ عن نور الصباحِ في الحقيقةِ هو الظَّلامُ، فكيف يكون نورُ الصباح هو الذي يفلقُ ويشقُّ؟ وللعلماءِ عن هذا السُّؤال أجوبةٌ:

منها: أنَّ الله تعالى قال: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾؛ لأنَّ شعاعَ الصُّبح يبدأ أوَّلًا وتحته ظلامٌ، ولم يُسْفِر إسفارًا تامًّا يكشِفُ الظَّلامَ كَشفًا كليًّا، ثم ينصَدِعُ ذلك الإصباحُ انصداعًا كليًّا عن ضَوءِ النَّهارِ كما ينبغي. وقيل: الكلامُ على حَذفِ مُضافٍ: فالِقُ ظُلمةِ الإصباحِ، وأنَّه حُذِف المضافُ إليه. ولا يخلو مِن بُعْدٍ؛ لأنَّ هذا المُضافَ لم تحتَفَّ به قرينةٌ[٢].

٤- في قوله تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيل سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ ذَكَر تعالى في هذه الآيةِ ثَلاثةَ أنواعٍ من الدَّلائِلِ الفَلَكيَّةِ على التوحيدِ؛ فأوَّلها: ظهورُ الصَّباحِ. وثانيها: قولُه: ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾. وثالثها: ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾[٣].

٥- مَصدَرُ الخَلْقِ والأَمْرِ والقضاءِ والشَّرْعِ؛ عن عِلْمِ الرَّبِّ وعِزَّتِه وحِكْمَتِه، ولهذا يَقْرِن تعالى بين الاسمين مِن هذه الثلاثةِ كثيرًا، ومنها قوله تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ وقال في سورةِ (فصِّلَت) بعد ذكرِ تخليقِ العالَمِ: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾، فارتباطُ الخلقِ بقدرتِه التامَّة يقتضي ألَّا يخرجَ موجودٌ عن قدرتِه، وارتباطُه

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٠٩).
(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٣٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٧٨).

بعلمِه التامِّ يقتضي إحاطتَه به، وتقدُّمَه عليه، وارتباطُه بحكمتِه يقتضي وقوعَه على أكملِ الوجوهِ، وأحسنِها(١).

٦- في قوله: ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ عبَّر في جانِبِ اللَّيل بمادَّةِ الجَعْلِ؛ لأنَّ الظُّلْمةَ عَدَمٌ؛ فتعَلُّقُ القُدرةِ فيها هو تعلُّقُها بإزالَةِ ما يمنَعُ تلك الظُّلْمةَ من الأنوارِ العارِضَةِ للأُفُقِ(٢).

٧- في قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ جَعَل الله حَركاتِ الشَّمْسِ والقَمَرِ على نظامٍ واحدٍ لا يختَلِفُ، وذلك من أعظَمِ دلائِلِ عِلْمِ الله وقُدْرَتِه(٣).

٨- قولُ الله تعالى: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا﴾ أصلٌ في الحسابِ والميقاتِ وأدِلَّةِ القِبلةِ(٤).

٩- قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ فيه دليلٌ على مشروعيَّةِ تعلُّمِ سَيرِ الكواكِبِ ومَحالِّها؛ الذي يُسمَّى علْمَ التَّسييرِ؛ فإنه لا تَتِمُّ الهدايةُ ولا تُمْكِن إلَّا بذلك(٥).

١٠- إنَّما خَصَّ اللهُ تعالى القومَ الذين يَعلمون في قوله: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾؛ لأنَّهم هم المنتفعونَ بها، وهذا أسلوبٌ مِن أساليبِ القرآنِ العظيمِ؛ أن يَخْصُصَ بالكلامِ الْمُنتَفِعَ به؛ كقوله: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]، وهو مُذَكِّرٌ للأسودِ والأحمَرِ، وكقوله: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ﴾ [يس: ١١]، وهو مُنذِرٌ للأسوَدِ والأحمَرِ، ﴿إِنَّمَا أَنْتَ

---

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٩١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٣٩٢).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٢٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٦).

مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا﴾ [النازعات: ٤٥] ونحو ذلك، أمَّا القومُ الذين لا يعلمونَ؛ فتَفصيلُ هذه الآياتِ لا ينفَعُ فيهم؛ لأنَّهم لا يفهمونَ عن اللهِ شيئًا؛ فهم كالأنعامِ، بل هم أنْزَلُ درجةً من الأنعامِ(١).

١١- قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا﴾ فيه الاستدلالُ على وحدانيَّة الله تعالى بالإلهيَّة؛ فلذلك صِيغ بصيغَةِ القَصْرِ بطريقِ تعريفِ المُسنَد والمُسنَد إليه؛ لأنَّ كَوْنَ خَلْقِ النُّجُومِ من الله، وكَوْنَها ممَّا يُهتَدى بها؛ لا يُنْكِرُه المخاطَبونَ، ولكنَّهم لم يَجْرُوا على ما يقتضيهِ من إفرادِه بالعبادَةِ(٢).

١٢- قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يدلُّ على أنَّ إخراجَ النباتِ يكون بواسِطَةِ الماءِ، وذلك يوجِبُ القولَ بالأسبابِ والقُوى والطَّبائع، ففيه ردٌّ على المتكلِّمين الذين يقولون: إنَّ قدرةَ العبدِ وغيرَها من الأسبابِ التي خلَقَ اللهُ تعالى بها المخلوقاتِ؛ ليست أسبابًا، وأنَّ وجودَها كَعَدَمِها، وليس هناك إلا مجرَّدُ اقترانٍ عاديٍّ(٣).

١٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ النَّخل: من جِنْسِ المُنْبَتِ بهذا الماءِ إلَّا أنَّ اللهَ قطعَه، وجاءَ به في صيغةِ جملةٍ مستأنَفَةٍ من مبتدأٍ وخبرٍ؛ تنويهًا بشأن النَّخْل؛ لأنَّ النَّخْلَ كلُّه منافِعُ، وجَرَتِ العادةُ في القرآن: أنَّه إذا ذَكَرَ الإنعامَ بالتَّمْر ذَكَرَه باسم شجَرَتِه التي هي النخلةُ، وإذا ذَكَرَ الإنعامَ باسْمِ العِنَبِ ذَكَرَه باسْمِ الثَّمرةِ التي هي العِنَبُ. هذه قاعدةٌ مطَّردةٌ في القرآنِ؛ قال بعضُ العلماءِ: إنَّما ذَكَرَ شجرةَ التَّمْر، التي هي النخلَةُ؛ لأنَّ النخْلَةَ كلُّها منافِعُ؛ فتَمْرُها بعضُ منافِعِها، فلو عَبَّر بالتَّمْر لأهمَلَ منافِعَ النخْلِ الكثيرةَ؛ لأنَّ النَّخْلَ كلُّها

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٥٦، ٥٥٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٩٣).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ١٣٦-١٣٧)، ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٣١٨).

منافِعُ؛ لأنَّ خُوصَها تُصنَع منه القِفاصُ، وجريدَها تُصنَع منه الحُصْر، وتُصنَع منها الحِبالُ، ولُبَّها يُؤكَلُ، وجِذْعها يُسْقَفُ به، وكِرنافها[١] يُوقَد به؛ فجميعُ ما فيها منافِعُ، أمَّا شجرةُ العِنَب: فليس في نَفْسِ الشجرةِ من المنافِعِ ما في النَّخْلةِ، فأعظَمُ منافِعِها في ثَمرَتِها[٢].

١٤- قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ﴾ ذَكَر (الطَّلْع)، ولم يَقُلْ: (مِن النَّخْل قِنوانٌ)؛ إذ كان الطَّلْعُ طَعامًا لذيذًا، وإدامًا نافعًا، ولم يكُنْ كسائِرِ أكمامِ الثِّمارِ[٣].

١٥- قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وجناتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ﴾ خصَّصَ اللهُ تعالى هذه الأشجارَ بالذِّكْرِ بعد أنْ عَمَّ جميعَ الأشجارِ والنَّوابت؛ لأنَّها من الأشجارِ الكثيرةِ النَّفْعِ، العظيمةِ الوَقْعِ[٤].

١٦- قال تعالى: ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ كونُه يتشابَهُ من جهةٍ، ويختلِفُ من جهةٍ، هذا دليلٌ على كمالِ قدرةِ مَن خَلَقَه، وأنَّ خالِقَه ليس بطبيعةٍ؛ لأنَّ الطبيعةَ عند من يزعمونَها معنًى واحدٌ، جوهَرٌ لا يتقَسَّم، ولا يقبلُ الانقسامَ. يستحيلُ أن تؤثِّرَ الطبيعةُ في مطبوعَينِ مختلفَينِ؛ ولا يمكن أنْ تكون الطبيعةُ الواحِدَةُ تُنتِجُ أشياءَ مختلفةً، واختلافُ هذه الأشياءِ دليلٌ على أنَّ فاعِلَ ذلك صانِعٌ مختارٌ، يفعلُ ما يشاءُ، فالمقصودُ من التقييدِ بهذه الحالِ في قولِه تعالى: ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ التنبيهُ على أنَّها مخلوقةٌ بالقَصْدِ والاختيارِ لا بالصُّدفةِ[٥].

---

(١) الكِرنافُ: أصلُ السَّعَفِ الذي يبقَى بعد قَطعِه في جِذعِ النَّخلةِ، وجمعُه: الكَرانيفُ. ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٥٢٩)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٢٤/ ٣٠٥).
(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٣، ٢٤).
(٣) يُنظر: ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (ص:٤٨٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٠٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٠). =

١٧- قولُ الله تعالى: ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ لأَجْلِ أنَّ الاشتباهَ أبلَغُ من التَّشابُه، عَلَّقَ الأمْرَ بالنَّظَرِ الذي هو أثبَتُ الحَواسِّ(١).

١٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لَمَّا كان اتِّخاذُ هذه الحبوبِ والثِّمارِ المذكوراتِ أوَّلًا، والمخالَفةُ بين أشكالِها ومقاديرِها وألوانِها ثانيًا؛ دالًّا على كمالِ قُدرَةِ الله تعالى المستلزِمِ لوحدانِيَّتِه- دلَّ على عَظَمَتِه بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكُمْ﴾ مشيرًا بأداةِ البُعْدِ وميم الجمعِ؛ أي: الأمرُ العظيمُ الشأنِ، العالي الرُّتْبَةِ(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾

- قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ انتقَلَ به من تَقريرِ التوحيدِ والبعثِ والرِّسالةِ، وأفانينِ المواعِظِ والبراهينِ التي تَخلَّلَت ذلك، إلى الاستدلالِ والاعتبارِ بِخَلْقِ اللهِ تعالى، وعَجائِبِ مصنوعاتِه المشاهَدَةِ(٣).

- وجملة ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ مُستأنفةٌ مُبيِّنةٌ لِمَا قَبْلَها من قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾، ومؤكِّدةٌ لها(٤)؛ لأنَّ فَلْقَ الحبِّ والنَّوى بالنَّباتِ والشَّجرِ النامِيَينِ، من جِنسِ إخراجِ الحيِّ

= هذا بناء على أنَّ قولَه: ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ راجعٌ للزيتونِ والرُّمان كليهما، أي: والزيتونَ مشتَبِهًا وغيرَ متشابِهٍ، والرمانَ مشتَبِهًا وغيرَ مُتَشَابِهٍ، وقد تقدَّم.

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٦٤).

من الميِّت؛ لأنَّ النَّامِيَ في حُكمِ الحَيوانِ الحيِّ، كما قال تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾(١) [الروم: ١٩].

- وجاء قوله: ﴿يُخْرِجُ﴾ على صِيغةِ الفِعلِ بَينَ اسمَي فاعِل: ﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ و﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾، فعَدَلَ عن اسْمِ الفاعِلِ إلى الفِعلِ المُضارِعِ في هذا الوصفِ وحْدَه؛ إرادةً لتصويرِ إخراجِ الحيِّ مِن الميِّتِ، واستحضارِه في ذِهنِ السَّامع، وهذا التصويرُ والاستحضارُ إنَّما يَتمكَّن في أدائِهما الفِعلُ المضارعُ، دون اسمِ الفاعلِ والماضِي(٢).

وقيل: لم يَقُل: (ومُخرِج الحيِّ من الميِّت)؛ لأنَّه لَمَّا اجتمَعَ ثلاثةُ حُروفٍ مِن حروفِ العِلة دَفعةً واحدةً، وهي: الواو والياء مِن (النَّوى)، والواو مِن (ومخرج) وهي واو العطف، ونُقِل عن لفظِ الاسمِ إلى لفظِ الفِعلِ لَمَّا كان (يُخرِج) و(مُخرِج) بمعنًى واحد، فقال: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ فجَعَل جملةَ ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ خبرَ الابتداءِ، كما في: إنَّ زيدًا ضاربُ عَمرٍو يُكرِمُ بَكرًا، ومُكرِمٌ جَعفرًا؛ فهذا أفصحُ مِن أنْ يُقال: إنَّ زيدًا ضاربُ عمرٍو، ومكرمُ بَكرٍ، ومُكرمُ جَعفرٍ؛ فلهذا المعنَى قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾(٣).

- قوله تعالى: ﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾

فيه مناسبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ عبَّر هنا في سُورةِ الأنعامِ بقولِه: ﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾، فعَطَفَ الاسمَ على لفظِ الفِعلِ، ولم يَعطِفْ عليه لفظَ الفِعل، كما في

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- مع الحاشية)) (٢/ ٤٧- ٤٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٥٢٦- ٥٢٧).

سُورتي يونس والروم، حيث قال: ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ [يونس:٣١، الروم:١٩] بالفِعلِ؛ وذلِك أنَّ الذي وقَع في الأنعام قبله اسمَا فاعِلٍ، وهما: ﴿فَالِقُ الْحَبِّ﴾، و﴿جَاعِلُ﴾، والذي وقَعَ بعده اسمُ فاعِلٍ أيضًا، وهو ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾؛ فناسَب ذِكر ﴿مُخْرِج﴾؛ لكونِه اسمَ فاعِل، وخصَّ بالاسم لتكرُّرِ الاسمينِ بعدَه، وخُصَّ ﴿يُخْرِجُ الحَيَّ﴾ قبْلَه بالفِعل؛ إذ لم يَتقدَّمه إلَّا اسمٌ واحدٌ، وما في بقيَّة السُّورِ لم يقَعْ قبلَه وبعدَه إلا أفعالٌ؛ فناسَب ذِكره بالفِعل[١].

- قوله: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾

جُملةُ ﴿ذَلِكُمُ اللهُ﴾ مستأنفةٌ، مقصودٌ منها الاعتبارُ، فتكون جملةُ: ﴿ذَلِكُمُ اللهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ كلُّها اعتراضًا[٢].

- والإشارةُ بـ﴿ذَلِكُمُ﴾ لزِيادةِ التَّمييزِ، وللتَّعريضِ بغَباوةِ المخاطَبينَ المُشْرِكينَ؛ لِغَفْلتِهم عن هذه الدَّلالة على أنَّه المُنْفرِدُ بالإلهيَّةِ، أي: ذلكم الفاعلُ الأفعالَ العظيمةَ؛ مِن الفَلْقِ، وإخراجِ الحيِّ مِن الميِّتِ، والميِّتِ مِن الحيِّ، هو الذي يَعرِفُه الخلقُ باسمِه العظيمِ، الدالُّ على أنَّه الإلهُ الواحدُ، المقصورِ عليه وصْفُ الإلهيَّةِ؛ فلا تَعْدِلوا به في الإلهيَّة غيرَه؛ ولذلك عقَّبَ بالتفريعِ بالفاءِ قولَه: ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾[٣].

- وقوله: ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ استفهامٌ تعجيبيٌّ إنكاريٌّ، أي: لا يوجَدُ موجِبٌ يَصْرِفُكم عن توحيدِه[٤].

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٥٢٨)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١١٠-١١١)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٨٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ١٧١-١٧٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٩٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٣٨٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قوله: ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ إعجازٌ يتجسَّدُ فيه عَجْزُ الإنسانِ؛ فالكلمةُ القرآنيَّةُ مهما استبدَلْتَ بها غيرَها لم يَسُدَّ مسَدَّها، ولم يُغْنِ غَناءَها، ولم يؤَدِّ الصُّورةَ التي كانت تؤدِّيها، وانظُرْ إلى طبيعةِ الأحرُفِ التي تتكوَّنُ منها كلمةُ ﴿سَكَنًا﴾ وتوالي الفَتحاتِ على حروفها، كلُّ ذلك يُشْعِرُكَ بذلك الهدوءِ الذي يَبْعَثُ على الطُّمأنينَةِ، وينْشُرُ الرَّاحَةَ في النَّفْسِ[١].

٢- قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ المقصودُ الأوَّلُ من هذا الخبرِ الاستدلالُ على وحدانيَّة اللهِ تعالى بالإلهيَّة؛ فلذلك صِيغَ بصيغةِ القَصْرِ بطريقِ تعريفِ المُسنَد والمُسنَد إليه في قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي﴾؛ لأنَّ كَونَ خَلْقِ النجومِ من الله، وكونَها مِمَّا يُهتَدى بها؛ لا يُنْكِرُه المخاطَبون، ولكنَّهم لم يَجْرُوا على ما يقتضيهِ من إفرادِه بالعبادَةِ[٢].

- قوله: ﴿لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ إضافة قوله: ﴿ظُلُمَاتِ﴾ إلى قوله: ﴿الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ للملابسةِ لهما، أو شَبَّه مُشتبهاتِ الطُّرق بالظُّلماتِ[٣]، وإنَّما أضافَ الظلماتِ إلى البَرِّ والبحرِ؛ لأنَّ المسافرين قد يكونون في ظُلماتِ اللَّيلِ تارةً في بَرٍّ، وتارةً في بَحرٍ؛ فأضاف الظلماتِ إلى مَكانِها من بَرٍّ أو بحرٍ؛ للمُلابسةِ بينهما[٤].

- قوله: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ جملةٌ مستأنفَةٌ للتَّسجيلِ، والتبليغِ، وقَطْعِ معذرَةِ من لم يُؤْمِنوا[٥].

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ١٧٨-١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٧٤).

(٤) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٥٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٩٤).

- والتعريفُ في ﴿الْآيَاتِ﴾ للاستغراقِ، فيشمَلُ آيةَ خَلْقِ النُّجومِ وغَيْرَها(١).

- وقوله ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فيه تعريضٌ بِمَن لم ينتَفِعوا مِن هذا التَّفصيلِ، بأنَّهم قومٌ لا يعلمونَ(٢).

٣- قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾

- قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ فيه مناسَبَةٌ حسنةٌ؛ حيث عبَّر هنا بلفظِ: ﴿أَنْشَأَكُمْ﴾، وفي غيرِ هذه السُّورةِ جاء التعبيرُ بلَفْظِ: ﴿خَلَقَكُمْ﴾؛ لأنَّ ما هنا موافقٌ لقولِه قبله: ﴿وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾، ولقوله بعده: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ﴾ بخلافِ البقيَّةِ(٣).

- ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ فيه تعريضٌ بِمَن لا يَتدَبَّرُ آياتِ اللهِ، ولا يعتَبِرُ بما خلَقَ، وتعريضٌ بأنَّ المُشركينَ لا يعلمونَ ولا يفقهونَ؛ فإنَّ العِلمَ هو المعرفَةُ الموافِقَةُ للحقيقةِ(٤).

- وفيه مناسبةٌ حسنةٌ، حيثُ عبَّر هنا بقوله ﴿يَفْقَهُونَ﴾ بخِلافِ الآيةِ السَّابقةِ؛ حيث عبَّر بقوله: ﴿يَعْلَمُونَ﴾؛ فختَمَ الآيةَ السابقةَ، وهي الآيةُ التي استدلَّ فيها بأحوالِ النُّجومِ بقوله: ﴿يَعْلَمُونَ﴾، وختم آخِرَ هذه الآيةِ بقوله: ﴿يَفْقَهُونَ﴾؛ لأنَّ إنشاءَ الإنْسِ من نفسٍ واحدةٍ، وتصريفَهم بين أحوالٍ مختلفةٍ؛ ألطَفُ، وأدَقُّ صنعةً وتدبيرًا، فكان ذِكْرُ الفِقْه- الذي هو استعمالُ فطنةٍ، وتدقيقُ نَظَرٍ، ويفيدُ مزيدَ قوَّةٍ وذكاءٍ وفَهْمٍ- مطابقًا له، فدلالةُ إنشائِهم على هذه الأطوارِ من

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٩٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١١١- ١١٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ١٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٩٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ١٨١).

الاستقرارِ والاستيداعِ وما فيهما من الحكمةِ؛ دلالةٌ دقيقةٌ تحتاجُ إلى تدبُّرٍ؛ فإنَّ المُخاطَبينَ كانوا مُعْرِضينَ عنها؛ فعَبَّر عن عِلْمِها بأنَّه فِقْهٌ، بخلافِ دلالةِ النُّجومِ على حِكمةِ الاهتداءِ بها؛ فهي دَلالةٌ متكرِّرةٌ؛ فناسَبَ خَتْمُ كلِّ جملةٍ بما يناسِبُ ما صُدِّر به الكلامُ[1].

٤- قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

- قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ﴾:

- قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فيه التفاتٌ من الغَيبةِ إلى التكلُّمِ، ولو جرى على لفْظِ: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ لكان التركيبُ: (فأخرج به نباتَ كُلِّ شيءٍ)، وذلك الالتفاتُ من الفصاحَةِ، وسِرُّ هذا الالتفاتِ هنا: العنايةُ بشأنِ هذا الإخراجِ، والتنويهُ بالعظمَةِ والقدرةِ البالِغَتينِ[2].

- قوله: ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ جيءَ بالتعريفِ في قوله: ﴿النَّخْلِ﴾ للعَهْدِ الجنسيِّ؛ للإشارةِ إلى أنَّه الجِنْسُ المألوفُ المعهودُ للعرب؛ فإنَّ النَّخْلَ شَجَرُهم، وثَمَرُه قُوتُهم، وحوائِطُه مُنْبَسَطُ نُفُوسِهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٠- ٥١)، ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٨٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٨٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٩٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٠٠).

- ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾، أُفرِد ذِكرُ القِنوانِ، وجُرِّد[١] مِن قوله: ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾، أي: انتُزِعَ مِن نباتِ كلِّ شَيءٍ مع أنَّه مِنه؛ لِمَا في تجريدِها من عَظيمِ المِنَّةِ والنِّعمةِ؛ إذ كانتْ أعظمَ أو مِن أعظمِ قوتِ العربِ، وأُبرزتْ الجملةُ في صورةِ المبتدأ والخبرِ؛ ليدلَّ على الثبوتِ والاستقرارِ وأنَّ ذلك مفروغٌ منه[٢].

- ﴿وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ (جَنَّاتٍ) منصوبةٌ عطفًا على قولِه: ﴿نَبَاتَ﴾، وهو مِن عَطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ لشَرفِه، ولَمَّا جُرِّدَ النَّخلُ، جُرِّدَتْ جنَّاتُ الأعنابِ؛ لشَرَفِهما، كما قال تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾[٣].

- قوله: ﴿دَانِيَةٌ﴾ أي: قريبةٌ؛ قيل: ذكَر القريبةَ، وترَك ذِكرَ البعيدةِ؛ لأنَّ النِّعمةَ فيها أظهَرُ وأدلُّ بذِكر القريبةِ على ذِكر البعيدةِ؛ كقوله: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾؛ فاقتصر على ذِكرِ ﴿دَانِيَةٌ﴾ عن مقابِلها (بعيدة)؛ لدَلالتها عليه، وزيادةِ النِّعمةِ فيها[٤].

- وجاء قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ﴾ على أَحْسَنِ مساقٍ، وأبدَعِه في الترتيبِ؛ فلَمَّا تقدَّمَ أنَّ الله فالِقُ

(١) التجريدُ اصطلاحًا: أنْ ينتزع المتكلمُ مِن أمر ذي صِفةٍ أمرًا آخَرَ مثلَه في تلك الصِّفة؛ مبالغةً في كمالها في المنتزَع منه، حتى إنَّه قد صارَ منها، بحيثُ يُمكن أن يُنتزعَ منه موصوفٌ آخَرُ بها، وأقسام التجريد كثيرة. يُنظر: ((جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع)) للهاشمي (ص: ٣٠٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٩٧ - ٥٩٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٥٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٧٥).

الحَبِّ والنَّوى، جاء الترتيبُ بعد ذلك تابعًا لهذا الترتيب، فحين ذَكَرَ أنَّه أخرج نباتَ كُلِّ شيءٍ ذَكَرَ الزَّرْعَ، وهو المرادُ بقولِه: ﴿خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا﴾، وابتدأ به كما ابتدأ به في قوله: ﴿فَالِقُ الْحَبِّ﴾ ثم ثنَّى بما له نوًى، فقال: ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ إلى آخره، كما ثنَّى به في قوله: ﴿وَالنَّوَى﴾ وقدَّمَ الزرع على الشَّجَرِ؛ لأنَّه غذاءٌ، والثَّمَر فاكهةٌ، والغذاءُ مُقَدَّمٌ على الفاكهة، وقَدَّمَ النَّخْلَ على سائرِ الفواكِه؛ لأنَّه يجري مَجْرى الغذاءِ بالنِّسبَةِ إلى العَرَبِ، وقدَّمَ العِنَبَ؛ لأنَّه أشْرَفُ الفواكِهِ، وهو في جميعِ أطوارِه منتفَعٌ به، ثمَّ إنْ عُصِرَ كان منه خلٌّ ودِبْس- أي: عُصَارَة- وإن جُفِّفَ كان منه زبيبٌ. وقُدِّمَ الزيتونَ لأنَّه كثيرُ المنفعةِ في الأكْلِ، وفيما يُعْصَر منه من الدُّهْنِ العظيم النَّفْع في الأكل والاستصباحِ، وغيرهما، وذَكَرَ الرُّمَّان لعَجَب حالِه وغرابَتِه(١)!

- قوله تعالى: ﴿وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ..﴾

فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ ورَد فيما بعدُ مِن هذه السُّورة: ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١]، فورَد في الآية الأولى: ﴿مُشْتَبِهًا﴾، وفي الثانية: ﴿مُتَشَابِهًا﴾، وفي الأولى: ﴿انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾، وفي الثانية: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾؛ وذلك لأنَّ ﴿مُشْتَبِهًا﴾ و﴿مُتَشَابِهًا﴾ لا فَرقَ بينهما إلَّا ما لا يعدُّ فارقًا؛ إذ الافتعالُ والتفاعُل متقاربانِ؛ أصولهما: الشين والباء والهاء، مِن قوله: أشبه هذا هذا، إذا قاربَه وماثلَه؛ فورَد في أُولى الآيتينِ على أخفِّ البناء، وفي الثانية على أثقلِهما؛ رعيًا للترتيبِ. أمَّا قولُه تعالى في الأُولى:

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٠١).

﴿انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾؛ فهو مبنيٌّ على ما قَبْلَه ممَّا بناه على الاعتِبارِ والتدبُّرِ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى...﴾ [الأنعام: ٩٥] الآيَة، وقال تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا...﴾ [الأنعام: ٩٦] الآية، وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا...﴾ [الأنعام: ٩٧] الآية، ثم قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩]؛ فلمَّا كان مَبْنى هذه الآيِ على الاعتِبارِ، والتَّنبيهِ بما نصَب تعالى من الدَّلائل على وَحدانيَّته- لم يكُن ليُناسِبَ ذلك ويُلائِمه إلَّا الأمرُ بالنَّظرِ والاعتبار، لا الأمرُ بالأكْل. أمَّا الآيةُ الثانيةُ فمبنيَّةٌ على غيرِ هذا؛ فقَدْ تقدَّمها قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ...﴾ [الأنعام: ١٣٨]، وجرَى ما بعدُ على التناسُب إلى قولِه: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ...﴾ إلى قوله: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأنعام: ١٤١]، ثم قال بعدَ ذِكر الأنعام: ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٤٢]، وجرَى ما بعدُ على هذا في تَفصيلِ ما أحلَّ سبحانَه لعِبادِه، وردِّ ما ظنَّتْ يهودُ تحريمَه على هذه الأمَّة، ثم أتبع سبحانه لعباده بذِكر ما حرَّم أكْلَه؛ فلمْ يَتخلَّلْ هذه الآياتِ من غيرِ أحكامِ المأكولاتِ في التَّنويعِ والإباحةِ خِلافُ ذلك، سِوى الأَمرِ بزكاةِ الحرثِ، في قوله: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾؛ فدارتْ هذه الآيِ على ما أَنعمَ به سبحانه مِن ضُروبِ ما خَلَقه تعالى، ممَّا أقام به حياةَ عِبادِه؛ مأكلًا ومَلْبسًا، ومعونةً في حَركاتهم وانتقالاتِهم، ومُباحِ ذلك ومُحرَّمِه، فلم يكُنْ ليلائمَ ذلك إلَّا ما يُناسِبُه، ولم يكُن ليناسبَ الآيَةَ المتقدِّمة لو قيل: (كُلوا)، ولا هذِه الآية لو قِيل: (انْظُروا)؛ فجاءَ كلٌّ على ما

يَجِبُ ويلائِمُ، ولا يُناسِبُ خِلافُه[١].

- قوله: ﴿انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾: نبَّه على هاتينِ الحالتَينِ فقط، وإن كان بينهما أحوالٌ يقَعُ بها الاعتبارُ والاستبصارُ؛ لأنَّهما أغرَبُ في الوقوعِ، وأظهَرُ في الاستدلالِ[٢].

- قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فيه إتمامٌ للتعريضِ بأنَّ غيرَ العالِمينَ وغيرَ الفاقِهين هم غيرُ المؤمنين، يعني: المشركينَ؛ إذ صَرَّح هنا بأنَّ الآياتِ إنَّما تنفَعُ المؤمنينَ تصريحًا بأنَّهم المقصودُ في الآيتينِ الأُخْرَيينِ بقوله: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، وقوله: ﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾[٣].

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١١٢)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٦٦-١٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٠٤).

الآيات (١٠٠-١٠٣)

﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَخَرَقُوا﴾: أي: افْتَعلوا ذلِك، واخْتَلَقوه كَذِبًا، أو: فَعَلوا مَرَّةً بعدَ أُخرى، أو: حَكَموا بذلك على سبيلِ الخَرقِ، وأصلُ (خرق): مَزْقُ الشَّيءِ، وقَطْعُه على سبيلِ الفَسادِ مِن غير تدبُّرٍ ولا تفكُّرٍ[١].

﴿بَدِيعُ﴾: أي: مُبدِعُ ومبتدِئُ، وأصلُه: ابتداءُ الشَّيءِ، وصُنعُه لا عن مِثالٍ سابِقٍ[٢].

﴿اللَّطِيفُ﴾: أي: العالِمُ بدقائقِ الأمورِ، أو الرفيقُ بالعبادِ في هدايتهم، واللُّطْف: الرِّفْق في العمل؛ يقال: هو لطيفٌ بعبادِه، أي رؤوفٌ رفيقٌ، وأصل (لطف): يدلُّ على رِفْقٍ، وعلى صِغَرٍ في الشَّيءِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٩-٢٨٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٠).

مُشكل الإعراب:

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ﴾

﴿وَجَعَلُوا﴾: بمعنى صيَّروا، ومفعولها الأوَّل: ﴿الْجِنَّ﴾، والثاني: ﴿شُرَكَاءَ﴾ وقُدِّمَ، و﴿لِلَّهِ﴾ متعلِّق بـ﴿شُرَكَاءَ﴾، ويجوز أنْ يكونَ المفعولُ الأوَّل ﴿شُرَكَاءَ﴾، و﴿الْجِنَّ﴾ بدلًا منه، و﴿لِلَّهِ﴾ متعلِّقًا بمحذوفٍ على أنَّه المفعولُ الثاني.

﴿وَخَلَقَهُم﴾: حالٌ مِن فاعلِ ﴿جَعَلُوا﴾، أي: وقد خَلَقَهُم. وقيل: هو مستأنفٌ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يخبِرُ تعالى أنَّ المُشركينَ جعلوا الجِنَّ شُركاءَ لله في العبادَةِ، وهو سبحانه الذي خلق الجِنَّ، فأَوْلَى بهؤلاء المشركينَ أنْ يعبدوا الخالِقَ، وأخبرَ أنَّهم اختَلَقوا له سبحانه- كذِبًا- بنينَ وبناتٍ بغيرِ دليلٍ؛ جهلًا به وبِعَظَمَتِه؛ تنَزَّه وتعالى عمَّا يَصِفُه هؤلاء المُشركونَ.

هو خالِقُ السَّمواتِ والأَرْضِ ومُحْدِثُهما على غيرِ مثالٍ سابقٍ؛ فكيف يكونُ له ولدٌ سبحانه، وليس له زوجةٌ، وهو الذي خَلَقَ كُلَّ شيءٍ؛ فهو الغَنِيُّ عن كلِّ مخلوقاتِه، وهي كلُّها فقيرةٌ إليه، وهو سبحانه بكلِّ شيءٍ عالِمٌ، لا يخفى عليه شيءٌ.

ذلكم هو الله المستحِقُّ وَحْدَه للعبادَةِ، ربُّ كلِّ العباد، لا إلهَ إلَّا هو، خالِقُ كلِّ شيءٍ؛ فلْيَعبُدْه كلُّ البَشَرِ، ولْيُقِرُّوا بوحدانِيَّتِه، وهو على كل شيءٍ وكيلٌ.

لا تُحيطُ به سبحانه الأبصارُ، وهو قد أحاط عِلْمُه وسَمْعُه وبَصَرُه بكلِّ شيءٍ، وهو اللَّطيفُ الخبيرُ.

---

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٢٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٨٣-٨٦).

تفسيرُ الآيات:

﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيْرِ عِلْمٍۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا نَبَّهَ الله تعالى على أنَّ الذي يُدْرِك هذه الآياتِ المؤمنونَ بها، بخلافِ الكافرينَ؛ عَقَّبه بتوبيخِ من أَشْرَك به، والردِّ عليه[١].

وأيضًا لَمَّا بَيَّنَ اللهُ جلَّ وعلا غرائِبَ صُنْعِه وعجائِبَه، الدَّالَّةَ على أنَّه الربُّ وَحْدَه، المعبودُ وَحْدَه، كما في الآياتِ الماضية؛ كقوله: ﴿إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ...﴾، وكقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾، وكقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا﴾، وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ...﴾ إلى آخِرِ الآيات، التي بيَّن اللهُ فيها كمالَ قُدرتِه، وغرائِبَ صُنْعِه، وعجائِبَه الدَّالَّةَ على أنَّه الرَّبُّ وَحْدَه، المعبودُ وَحْدَه، فكأنَّه يقولُ في هذه الآيةِ: مع ما أبدَيْتُ لخَلْقِي من آياتي الدالَّةِ على عَظَمَتي وجلالي، وأنِّي الربُّ المعبودُ، مع هذا أشركوا بي الجِنَّ، وعبدوا مَعِيَ المعبوداتِ التي لا تنفَعُ ولا تضرُّ[٢]، فقال تعالى:

﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْۖ ﴾.

أي: وجعل هؤلاءِ المشركونَ الجِنَّ شركاءَ لله تعالى في العبادَةِ، والحالُ أنَّ الذي خَلَقَ الجنَّ هو اللهُ تعالى وحده؛ فكيفَ عَبَدُوهم مَعَه[٣]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٤٠)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١١٦١).

(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٤، ٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٠٦-٤٠٧). =

كما قال إبراهيمُ عليه السَّلام لقومه: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥-٩٦].

﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

أي: اختلقوا وتخرَّصوا كَذِبًا مِن تلقاءِ أَنفُسِهم، فافتَرَوْا لله تعالى بنينَ وبناتٍ بغيرِ دليلٍ، ولا برهانٍ؛ جهلًا بالله وبعظَمَته، فإنَّه لا ينبغي لِمَن كان إلهًا أن يكونَ له بنونَ وبناتٌ، ولا أنْ يشارِكَه شريكٌ في خَلْقِه(١).

﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

أي: تنزَّه اللهُ جلَّ وعلا، وتقدَّس عن الذي يَصِفُه به هؤلاءِ الجهَلَةُ الضالُّون؛ من الأولادِ والأندادِ، والنُّظَراءِ والشُّرَكاء، وذلك لا يَنبغي أن يكونَ مِنْ صِفَتِه؛

= قال ابنُ كثير: (فإن قيل: فكيفَ عُبِدت الجن وإنَّما كانوا يَعبدون الأصنام؟ فالجواب: أنَّهم إنما عَبَدوا الأصنامَ عن طاعةِ الجنِّ وأمْرِهم إيَّاهم بذلك، كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا * لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا * وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا * يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾[النساء: ١١٧ - ١٢٠]). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٧).

وأيضا فهذه الأصنامُ التي كانوا يعبُدونها لربَّما قارَنها شياطينُ في بعضِ الأحيانِ، فسمِعوا منها مَن يكلِّمهم ويخاطبُهم. وكما تتمثَّل الشياطينُ أيضًا لمن يعبدُ الملائكةَ والأنبياءَ والصالحينَ وغيرَهم، ويخاطبونهم، فيظنُّون أنَّ الذي خاطَبَهم مَلَكٌ أو نبيٌّ، أو وليٌّ، وإنَّما هو شيطانٌ، كما أنَّهم كانوا يصرِفون للجنِّ أنواعًا مِن العباداتِ التي لا تنبغي إلا للهِ تعالى، كالاستعاذةِ بهم والذَّبحِ لهم. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٢٨٣، ٢٨٤) (١٧/ ٤٨٤)، ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ١٠٥٨-١٠٥٩)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٧)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٩/ ٢٤٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٥٤-٤٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٠٨-٤٠٩).

فإنَّه تعالى الموصوفُ بكلِّ كمالٍ، المنزَّهُ عن كلِّ نقصٍ وعَيبٍ[١].

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى فَسادَ قَوْلِ طوائِفِ أَهْلِ الدُّنيا من المُشركينَ؛ شَرَعَ في إقامَةِ الدَّلائلِ على فَسادِ قَوْلِ من يُثْبِتُ له الوَلَدَ[٢].

وأيضًا لَمَّا خَتَمَ اللهَ تعالى الآيَةَ السابقةَ بالتَّنزيهِ عمَّا قاله المُشركونَ من الشَّريكِ والوَلَدِ؛ استدَلَّ على ذلك التنزيهِ بأنَّ الكُلَّ خَلْقُه، مُحيطٌ بهم عِلْمُه، ولن يكون المصنوعُ كالصَّانعِ؛ فقال[٣]:

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى - الذي جَعَلَ المُشركونَ الجِنَّ شُرَكاءَ له، وخَرَقوا له بنينَ وبناتٍ بغَيْرِ عِلمٍ - هو خالِقُ السَّمواتِ والأرضِ، ومُحْدِثُهما على غيرِ مثالٍ سَبَقَ[٤].

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾.

أي: كيفَ يكونُ له ولَدٌ، ولا زوجةَ له؟! فالولَدُ إنَّما يكون متولِّدًا عن شيئينِ متناسِبَينِ، واللهُ لا يناسِبُه ولا يشابِهُه مِن خَلْقِه شيءٌ؛ وهو سبحانه لا يحتاجُ إلى زوجةٍ، فهو الغنيُّ عن جميعِ مخلوقاتِه، وكلُّها فقيرةٌ إليه، وجميعُ الكائناتِ خَلْقُه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٩٢).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢١٧)، ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٣٣٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٧).

وعَبيدُه، ولا يُمكِنُ أن يكون شيءٌ مِن خَلْقِه ولدًا أو زوجةً له بحالٍ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٨٨- ٩٣].

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

أي: وهو سبحانه لا يَخفَى عليه شيءٌ مِمَّا خَلَق، ويعلَمُ أيضًا المعدومَ، فهو عالِمٌ بالموجوداتِ والمعدوماتِ، والجائزاتِ والمُسْتحيلاتِ، فمِنْ إحاطَةِ عِلْمِه عزَّ وجلَّ أنَّه يعلَمُ المعدومَ الذي سبق في عِلمِه أنَّه لا يُوجَد، يعلَمُ أنْ لو كان كيف يكون؟ فمن أحاط عِلْمُه بكلِّ شيءٍ فكيف يكون جِنْسًا له- كالولَدِ- من لا يعلَمُ شيئًا إلا ما عَلَّمَه اللهُ؟ وهو عالِمٌ أيضًا بأعمالِ أولئك الذين يزعُمونَ أنَّ لله شريكًا أو ولدًا، وهو مُحْصيها عليهم فيجازِيهم بها(٢).

كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢)﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أقامَ اللهُ تعالى الحجَّةَ على وجودِ الإلَهِ القادِرِ المُختارِ الحَكيمِ الرَّحيمِ، وبيَّنَ فسادَ قَوْلِ مَن ذَهَبَ إلى الإشراكِ بالله، وفصَّلَ مذاهِبَهم على أحسَنِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٥٦-٤٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٦-٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٧-٢٦٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٧-٣٨).

الوُجوهِ، وبيَّنَ فسادَ كُلٍّ واحِدٍ منها بالدَّلائلِ اللَّائقة به. ثم حَكَى مذهَبَ مَن أثْبَتَ لله البنينَ والبناتِ، وبَيَّنَ بالدَّلائلِ القاطعة فسادَ القولِ بها- فعند هذا ثَبَتَ أنَّ إلَهَ العالَمِ فَرْدٌ واحِدٌ صَمَدٌ؛ مُنَزَّهٌ عن الشَّريكِ والنَّظيرِ، والضِّدِّ والنِّدِّ، ومُنَزَّهٌ عن الأولادِ والبنينَ والبناتِ، فعند هذا صَرَّحَ بالنتيجةِ؛ فقال[1]:

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُ﴾.

أي: ذلك- الذي لا وَلَدَ له ولا صاحِبَةَ، وخَلَقَ كُلَّ شيءٍ وهو بكلِّ شيءٍ عليمٌ- هو المألوهُ المعبودُ الذي يستحِقُّ نهايةَ الذُّلِّ ونهايةَ الحُبِّ، الرَّبُّ الذي ربَّى جميعَ خَلْقِه بنِعَمِه، فلا ينبغي أن تكون عبادَتُكم وعبادَةُ جميعِ الخَلْقِ إلَّا خالصةً له وحْدَه؛ فحَقٌّ على المصنوعِ أن يُفْرِدَ جميعَ أنواعِ العبادَةِ لصانِعِه، ويَقْصِدَ بها وَجْهَه، فاعبدوه وحْدَه لا شريكَ له، وأَقِرُّوا له بالوحدانيَّة، فلا وَلَدَ له، ولا والِدَ، ولا صاحِبَةَ له، ولا نَظيرَ ولا شريكَ[2].

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾.

أي: واللهُ على جميعِ ما خَلَقَ رَقيبٌ وحَفيظٌ؛ فيقومُ بأرزاقِهم وأقواتِهم، وسياسَتِهم وتدبيرِ شئونِهم؛ بكمالِ عِلْمِه، وقُدْرَته ورَحْمَتِه، وعَدْلِه وحِكْمَتِه عزَّ وجلَّ، وكلُّ شيءٍ بيَدِه، وأمورُ كُلِّ شيءٍ تُفَوَّضُ إليه وحده، فيفعَلُ فيها ما يشاءُ سبحانه، فذلك- الذي هذه صفاتُه- هو الذي يَستَحِقُّ أن يُعبَد وَحْدَه لا شريكَ له[3].

﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٥٨-٤٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٨-٣٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤١-٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٦).

﴿لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾.

أي: لا تُحيطُ به الأبصارُ، وإنْ كانتْ تراه في الجُملةِ، أمَّا هو سبحانه فقد أحاط عِلْمُه، وسَمْعُه، وبَصَرُه بكُلِّ شيءٍ؛ فيعلَمُ ويرى كلَّ شيءٍ على حقيقَتِه التي هو عليها[1].

﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

وهو اللَّطيفُ الذي يُوصِلُ النَّفْعَ والبِرَّ والإحسانَ لخَلْقِه بالطُّرُق الخَفِيَّة، من حيثُ لا يشعرونَ، وهو الخبيرُ الذي دَقَّ عِلْمُه؛ فأدرَكَ به الخفايا والبواطِنَ[2].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

العابدُ ينبغي أن يتفرَّغَ لعبادَةِ الله تعالى، ويقطَعَ أمورَه عن غيرِ وكالَتِه سبحانه؛ فإنَّه يكفيه بفَضْلِه عمَّن سواه؛ يُرشِدُ إلى ذلك قولُه تعالى: ﴿فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[3].

الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ يعني: وما كان ينبغي أن يكونَ له شريكٌ مطلقًا؛ لأنَّ الصِّفَةَ إذا ذُكِرَت مجرَّدةً غيرَ مُجراةٍ على شيءٍ؛ كان ما يتعلَّقُ بها من النفي عامًّا في كلِّ ما يجوز أن يكونَ له الصِّفَةُ، وحُكْمُ الإنكارِ حُكْمُ النَّفْيِ[4].

٢- قول الله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٢٨٩) (١١/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥٣-٥٩)، ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (ص: ٤٥٧).
وفي معنى ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ أقوال أخرى. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٩-٣١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥٩-٦٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢١٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢١٥).

لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ هذه الآيةُ يُفهَم منها أنَّ المِلْكَ والوَلَدِيَّةَ لا يُمكِنُ أن يجتمعا؛ لأنهم لَمَّا ذكروا له الولَدَ كان مِنْ رَدِّهِ عليهم: أنَّه مُختَرِعُ الأرضِ والسَّماءِ؛ أي: ومَنْ فيهما، وصانِعُ الشَّيءِ هو مالِكُه، والوَلَدُ لا يكون مملوكًا أبدًا، وجرت العادةُ في القرآنِ بأنَّ اللهَ يَرُدُّ على الكَفَرة في ادِّعاءِ الوَلَدِ؛ بأنَّه مالِكُ كلِّ شيءٍ، وأنَّ الخَلْقَ عبيدُه، كما قال: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ لأنَّ العبد لا يُمكِنُ أن يكونَ ولدًا. ومن هذه الآياتِ القرآنيةِ أخَذَ العُلماءُ أنَّ الإنسانَ إذا مَلَكَ وَلَدَه -بأن تزوَّجَ أمَةً لغَيرِه، وكان ولدُه رقيقًا واشتراه- أنَّه يُعتَق عليه بنفْسِ المِلْك، ولا يُمكنُ أن يَمْلِكه؛ لأنَّ المِلْكيَّة والوَلَدِيَّة متنافيانِ؛ ولذا قال هنا: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾[1].

٣- فائدةُ ذِكْرِ قَوْلِه: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعبدُوهُ﴾ فيها بعدَ قولِه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ جعلُه توطئةً لقولِه تعالى: ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ وأمَّا قولُه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فإنما ذُكِرَ استدلالًا على نَفْيِ الوَلَدِ، فقد قال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[2].

٤- قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ في ذِكْرِ العِلْم بعد الخَلْقِ إشارةٌ إلى الدَّليلِ العقليِّ إلى ثبوتِ عِلْمِه، وهو هذه المخلوقاتُ، وما اشتمَلَتْ عليه من النِّظامِ التامِّ، والخَلْقِ الباهِرِ؛ فإنَّ في ذلك دلالةً على سَعَةِ عِلْمِ الخالِقِ، وكمالِ حِكْمَتِه؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ وكما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ ذلِكُم الذي خَلَقَ ما خَلَقَ، وقَدَّر ما قَدَّرَ[3].

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٧).

٥- قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾ قد يستشْكِلُ مُستَشْكِلٌ، فيقولُ: إنَّ الإلهَ هو الذي يَستحِقُّ أن يكون معبودًا، فقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ معناه: لا يَستحِقُّ العبادةَ إلَّا هو، فلِمَ قال بعدَ ذلك ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾؛ فإنَّ هذا يُوهِمُ التَّكريرَ؟

والجوابُ: أنَّ قولَه: ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ مُسبَّبٌ عن مَضمونِ جُملةِ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، على معنى: أنَّ مَنْ استجمَعَتْ له هذه الصِّفاتُ كان هو الحَقيقَ بالعبادَةِ؛ فاعبدُوه ولا تَعبُدوا مِن دونِه بَعْض خَلْقِه[1].

٦- استُدِلَّ بقوله: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ على أنَّه تعالى هو الخالِقُ لأعمالِ العبادِ؛ فأعمالُ العبادِ أشياءُ، واللهُ تعالى خالِقُ كلِّ شيءٍ بحكم هذه الآيَةِ؛ فوجبَ كونُه تعالى خالقًا لها[2].

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ يدلُّ على جوازِ الرؤيةِ؛ لأنَّ نَفْيَ الإدراكِ الذي هو الإحاطةُ يدلُّ على أنَّه إذا رُئِيَ لا تُدْرِكُه الأبصارُ، وهو يَقتضي إمكانَ رُؤيتِه، فنفيُ إدراكِ الأبصارِ إيَّاه ليس نفيًا لرؤيَتِه؛ فهو دليلٌ على إثباتِ الرؤيَةِ، ونفيِ إحاطَةِ الأبصارِ به، فالآيَةُ تدلُّ على جوازِ الرؤيَةِ أدلَّ منها على امتناعِها؛ لأنَّ اللهَ سبحانه إنَّما ذَكَرَها في سياقِ التمدُّحِ، ومعلومٌ أنَّ المدحَ إنَّما يكونُ بالأوصافِ الثبوتيَّة، وأمَّا العَدَمُ المحضُ فليس بكمالٍ، ولا يُمدَحُ به[3].

بلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٤)، ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٩٥).

(٣) يُنظر: ((الصفدية)) لابن تيمية (٢/ ٦٥)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٩٣).

- قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ على القولِ بأنَّ ﴿شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ هما مفعولَا (جَعَلَ) في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا﴾؛ فالمفعولُ الأوَّل ﴿الْجِنَّ﴾؛ لأنَّ الجِنَّ هم المقصودُ من السِّياقِ لا مُطلَقُ الشُّركاء؛ لأنَّ جَعْلَ الشُّركاءِ للهِ قد تَقرَّر مِن قبلُ، والمفعول الثاني وهو ﴿شُرَكَاءَ﴾، وقُدِّمَ هذا المفعولُ الثاني، وفائدةُ هذا التقديمِ: استعظامُ أنْ يُتَّخَذَ مَن كان مَلَكًا أو جنيًّا أو إنسيًّا أو غيرَ ذلك، شريكًا للهِ تعالى؛ ولذلك قُدِّمَ اسمُ (الله) على الشُّركاء، وأيضًا قُدِّمَ المفعولُ الثاني؛ لأنَّه محَلُّ تعجُّبٍ وإنكارٍ، فصار لذلك أهمَّ، وذِكْرُه أسبَقَ، والعَرَبُ يُقَدِّمونَ الأهَمَّ الذي هم بشأنِه أَعْنَى[1].

وعلى القَوْلِ بأنَّ ﴿شُرَكَاءَ﴾ المفعولُ الأوَّل، و﴿لِلَّهِ﴾ المفعولُ الثَّاني، و﴿الجِنَّ﴾ فُسِّرَ به هؤلاءِ الشُّركاءُ على طَرِيقِ البَدلِ النَّحويِّ- حيثُ لم يَقُلْ: (وجعلوا الجنَّ شركاءَ لله)- فيكونُ قَدَّم وأخَّر في النَّظمِ؛ لإفادةِ أنَّ محلَّ الغَرابةِ والنَّكارةِ أنْ يكونَ للهِ شُركاءُ، لا مُطلقُ وجودِ الشُّركاءِ، ثم كونُ الشركاءِ من الجنِّ؛ فقدَّمَ الأهمَّ فالمهمَّ؛ ولو قال: (وجعلوا الجنَّ شركاء لله) لأفادَ أنَّ موضعَ الإنكارِ أنْ يكون الجنُّ شركاءَ للهِ؛ لكونِهم جِنًّا، وليس الأمرُ كذلك، بل المنكَرُ أنْ يكونَ للهِ شريكٌ مِن أيِّ جِنسٍ كانَ[2].

- وتقديمُ المجرورِ على المفعولِ في قوله: ﴿لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾؛ للاهتمامِ والتعجُّبِ مِن خَطَلِ عُقولِهم؛ إذ يجعلونَ لله شُرَكاءَ مِن مخلوقاته؛ لأنَّ المُشركينَ يعترفونَ بأنَّ اللهَ هو خالِقُ الجِنِّ، فهذا التقديمُ جرى على خِلافِ مقتضى الظَّاهِرِ؛ لأجْلِ ما اقتضى خلافَه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٢)، ((تفسير الرازي)) (١٣/ ٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٥٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٠٦).

- قولُه تعالى: ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ﴿خَرَقوا﴾، أي: اختلَقوا، وفي لفْظِها جَرْسٌ خاصٌّ وظِلٌّ خاصٌّ يرسُمُ مَشهَدَ الطُّلوعِ بالفِرْيَةِ التي تَخْرِق وتَشُقُّ، وهذا التعبيرُ من أدَقِّ بلاغَةِ التنزيلِ، وهو من بيانِ معنى الشَّيءِ بما يدلُّ على تزييفِه(١).

- وتنكيرُ العِلم هنا في حيِّزِ النَّفيِ (بغير) في قوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾؛ للدَّلالةِ على انسلاخِ هؤلاءِ المشركينَ في خَرْقِهم هذا عن كلِّ ما يُسمَّى عِلْمًا، فلا هُمْ على علمٍ بمعنى ما يقولون، ولا على دليلٍ يُثْبِتُه، ولا على علمٍ بمكانِه منَ الفسادِ والبُعدِ من العَقْلِ، ولا بمكانِه من الشَّناعَةِ والإزراءِ بمقامِ الألوهيَّة والربوبيَّةِ(٢).

- قوله: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لتنزيهه عَزَّ وجَلَّ عما نَسَبوه إليه(٣).

- وقوله: ﴿تَعَالَى﴾ جاءَ على صِيغة التفاعُل؛ للمبالغةِ في الاتِّصافِ بالعلوِّ(٤).

٢- قوله: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

- قوله: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ؛ إذ إنَّ هذا شروعٌ في الإخبارِ بِعَظيمِ قدرَةِ الله تعالى، وهي تُفيدُ مع ذلك تقويةَ التنزيهِ في قوله: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾، فتتنزَّلُ منزلَةَ التَّعليلِ لِمَضمونِ ذلك التَّنزيه بمضمونِها أيضًا(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٥٣٩)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١١٦٢).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢١٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٥٣٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٠٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٠٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤١٠).

- وعلى القَوْلِ بأنَّ ﴿بَدِيعُ﴾ فاعلٌ للفعل ﴿وتَعَالَى﴾؛ فيكونُ من الإظهارِ في موضعِ الإضمارِ؛ لتعليلِ الحُكمِ، وتوسيطُ الظرفِ ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ بينه وبين الفِعل للاهتمامِ ببيانِه[١].

- قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

- جملة ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ تذييلٌ لإتمامِ تعليمِ المُخاطَبينَ بعضَ صفاتِ الكمالِ الثابتَةِ لله تعالى؛ فهي جملةٌ معطوفةٌ على جملةِ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ باعتبارِ ما فيها من التَّوصيفِ، لا باعتبارِ الرَّدِّ[٢].

- وفي التَّعبيرِ بالجُملةِ الاسميَّةِ ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾؛ دلالةٌ على أنَّه سبحانَه متَّصِفٌ بالعِلْمِ أزَلًا وأبدًا؛ فلا يَخفَى عليه سبحانه خافيةٌ مِمَّا كان وما سيكونُ؛ من الذَّواتِ والصِّفاتِ والأحوالِ[٣].

- وقوله: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيه إظهارٌ في موضِعِ الإضمارِ؛ حيث لم يَقُلْ: (به عليمٌ)؛ لبيانِ أنَّه يَعْلَمُ كلَّ شيءٍ كائنًا ما كان؛ مخلوقًا أو غيرَ مخلوقٍ، وهو أيضًا بمنزلَةِ التَّذييلِ؛ لأنَّ التَّذييلاتِ يُقْصَدُ فيها أنْ تكونَ مُستقِلَّةَ الدَّلالةِ بِنَفْسِها؛ لأنَّها تُشْبِهُ الأمثالَ في كونِها كلامًا جامعًا لمعانٍ كثيرةٍ[٤].

٣- قوله: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ﴿ذَلِكُم﴾ إشارةٌ إلى المنعوتِ بما ذُكِرَ من جلائِلِ النُّعوتِ، وما فيه من معنى البُعْدِ؛ للإيذانِ بِعُلُوِّ شأنِ المُشَارِ إليه، وبُعْدِ منزلَتِه في العَظَمة. والخطابُ للمشركينَ المعهودينَ بطريقِ الالتفاتِ[٥]، وأيضًا فإنَّ وقوعَ اسمِ الإشارَةِ ﴿ذَلِكُمْ﴾ بعدَ إجراءِ الصِّفاتِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٦٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤١٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٦٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق))، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤١٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٦٩).

والأخبارِ المتقدِّمةِ؛ للتنبيه على أنَّ المُشارَ إليه حقيقٌ بالأخبارِ والأوصافِ التي تَرِدُ بعد اسْمِ الإشارةِ، والمشارُ إليه هو الموصوفُ بالصِّفاتِ المضَمَّنةِ بالأخبارِ المتقدِّمَة؛ ولذلك استُغنِيَ عن إتباعِ اسمِ الإشارَةِ ببيانٍ أو بدلٍ، والمعنى: ذلكم المُبدِعُ للسَّمواتِ والأرضِ، والخالِقُ كلَّ شيءٍ، والعليمُ بكلِّ شيءٍ؛ هو اللهُ، أي: هو الذي تَعْلَمونَه[1].

- قول الله تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾

فيه مُناسَبةٌ حسنةٌ، حيثُ عبَّر هنا بقولِه: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، وفي سورة غافر قال: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [غافر: ٦٢]، فقدَّمَ في سورة الأنعام قولَه: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ على قولِه: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، وقدَّم في سُورةِ غافر قوله: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [غافر:٦٢]، على قولِه: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [غافر:٦٢]؛ وذلك لأنَّ ما في سُورةِ الأنعامِ جاءَ بعدَ قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٠]، وقولِه تعالى: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]؛ فكان مِن الملائِمِ نفْيُ ما جَعَلوه وادَّعَوه مِن الشُّركاءِ والصَّاحبةِ والوَلَدِ، فأتَى بعدَه بما يَدفَعُ قولَهم، فقال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، ثم قال: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾؛ فالملائمُ هنا هو نَفْيُ ما جَعَلوه وادَّعَوه مِن الشُّركاءِ والصَّاحبةِ والوَلَدِ؛ فقدَّم ما الأمرُ عليه مِن وَحدانيتِه سُبحانَه، وتَعاليه عن الشُّركاءِ والولدِ، وعرَّف العبادَ بعدُ بأنَّ كلَّ ما سواه سبحانه خَلْقُه ومُلْكُه، فقدَّمَ الأهمَّ في الموضِعِ. وأمَّا في سُورةِ غافر فجاءَ هذا بعدَ قولِه تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤١٢).

النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧]؛ فكان الكلامُ على تَثبيتِ خَلْقِ الإنسانِ، لا على نفْيِ الشَّريكِ عنه، كما كان في الآيةِ الأولى؛ فكان تقديمُ ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ هاهُنا أَوْلى؛ فلم يَتقدَّم هنا ما تَقدَّم في آيةِ الأنعامِ؛ فكان تقديمُ هذا التعريفِ هنا أَنسبَ وأهمَّ، ثم أَعقَبَ بالتعريفِ بوحدانيتِه تعالى؛ فجاءَ كلٌّ على ما يَجِبُ ويُناسِبُ، ولم تكن واحدةٌ مِن الآيتَينِ لِتُناسِبَ ما تَقدَّم الأُخرى[1].

٤- **قوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾** فيه تعريضٌ بانتفاءِ الإلهيَّةِ عن الأصنامِ؛ فكَوْنُها مُدرَكَةً بالأبصارِ من سِماتِ المُحْدثاتِ، لا يليقُ بالإلهيَّة[2].

- وتخصيصُ الأَبصارِ في قوله: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ بالذِّكْرِ، مع أنَّه يُدرِكُ كلَّ شيءٍ؛ ليجانسَ ما قبلَه، ويَزيدَ في الكَلامِ ضَربًا من المحاسِنِ يُسمَّى (فَنَّ التعطُّفِ)[3].

- ولَمَّا كان قولُه تعالى: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصارُ﴾ ذُكِر للتخويفِ، ناسب حينئذٍ أن يشفعَ ببيانِ رأفتِه ورحمتِه، جريًا على سننِ الترغيبِ والترهيبِ، فقال: ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ﴾[4]. وعَطَفَ عليه قولَه: ﴿الْخَبِيرُ﴾ مُخصِّصًا لِذاتِه سُبحانه بصِفَةِ الكَمالِ؛ لأنَّه ليس كلُّ مَن أدرَكَ شيئًا كان خَبيرًا بذلك الشَّيءِ؛ لأنَّ المُدرِكَ للشَّيءِ قد يُدْرِكُه لِيَخْبُرَه، ولَمَّا كان الأمرُ كذلك أخبَرَ سبحانه

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٥٣٥-٥٣٦)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١١٢-١١٣)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٦٧- ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤١٣).

(٣) التعطُّف في الاصطلاح: الإتيانُ بلفظةٍ في أوَّل الكلامِ وإعادتُها بعينِها أو بما يتصرَّف منها. يُنظَر: ((أنوار الربيع في أنواع البديع)) لصدر الدين المدني (١/ ٤٦٩) وينظر أيضًا: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ١٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٤/ ٤٥٨).

وتعالى أنَّه يُدرِكُ كلَّ شَيءٍ مع الخِبْرَةِ به(١).

- وقوله: ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرِ﴾ تذييلٌ للاحْتراسِ دفعًا لتوهُّمِ أنَّ من لا تُدرِكُه الأبصار لا يعلم أحوالَ من لا يُدركونَه(٢).

(١) يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (١/ ٨١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ١٧٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤١٦).

الآيات (١٠٤-١٠٧)

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بَصَائِرُ﴾: حُجَجٌ بيِّنةٌ ظاهرةٌ؛ تُبصرونَ بها الهُدى من الضَّلالِ، والإيمانَ من الكُفْرِ، ومفردها: بصيرةٍ، والبَصَرُ يقال للجارِحَة النَّاظِرَة، ويُقال لقوَّةِ القَلْبِ المُدرِكَة، وأصل (بصر): العِلْمُ بالشَّيء(١).

﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾: أي: وما أنا عليكم بحافظٍ ولا برقيبٍ؛ أُحصِي عليكم أعمالكم وأفعالكم، وأصل (حفظ): يدلُّ على مراعاةِ الشَّيءِ، وتعاهُدِه، وتفقُّدِه(٢).

﴿دَرَسْتَ﴾: أي: قرأْتَ، ويُقال: درسْتَ العِلمَ: أي: تناولْتَ أثَرَه بالحفْظِ، ولمَّا كان تناولُ ذلك بمداومةِ القراءةِ؛ عُبِّر عن إدامةِ القراءةِ بالدَّرسِ(٣).

المعنى الإجماليُّ:

قد جاءَكُم - أيُّها النَّاسُ - أدلَّةٌ بيِّنةٌ، وحُجَجٌ قاطعةٌ في هذا القرآنِ العظيمِ؛ بيَّنَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٦٩- ٤٧٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٧).

اللهُ تعالى فيها توحيدَه، وكمالَ قُدرَتِه، فمَن تبيَّنَها وآمَنَ بما دلَّت عليه، فنَفْعُ ذلك لنفْسِه، ومَن لم يؤمِنْ بها، وعَمِيَ عمَّا دلَّت عليه، فإنَّما يعود وَبالُ ذلك على نفسِه، وما الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم عليكم بحافظٍ، ولا رقيبٍ يُحصي أعمالَكم.

ثم يخبِرُ تعالى أنَّه كما فصَّلَ الآياتِ والحُجَجَ في هذه السورة، ووضَّحَها بطُرُقٍ متنوِّعةٍ؛ لبيان التوحيد، كذلك يوضِّحُ للنَّاسِ الآياتِ، ويُبيِّنُها بطرقٍ متعدِّدةٍ في جميع القرآن، وليَقولَ عند ذلك من أعمى قَلْبَه عن الحَقِّ: تَعَلَّمْتَ يا محمدُ هذا الذي تأتي به مِن أهْلِ الكتابِ، وأيضًا لأجْلِ أنْ يبيِّنَه الله لقومٍ يعلمون الحقَّ إذا تبيَّن لهم فيتَّبِعوه ويَقْبلوه.

ثم يأمُرُ اللهُ نَبِيَّه محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّم أن يَتَّبِعَ القرآنَ المُنَزَّلَ إليه من ربِّه تعالى، هو سبحانه لا معبودَ بحقٍّ غيرُه، وأَمَرَه أن يُعْرِضَ عن المُشركينَ.

ويُخبِر تعالى أنَّه لو أراد هدايةَ المشركينَ لَفعَلَ ذلك، ولكنْ له حِكْمةٌ في خِذْلانِهم وإِضْلالِهم، ويخاطِبُ اللهُ تعالى نبيَّه محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه لم يَجعَلْه عليهم حافظًا يحفَظُ أعمالَهم ويُحْصِيها، ولا رقيبًا عليهم، وأنَّه ليس عليهم بقَيِّمٍ يُدَبِّرُ مصالِحَهم، ولا مُوكَلًا بأعمالِهم فيحاسِبَهم عليها.

تفسيرُ الآيات:

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أكثَرَ من إقامَةِ الأدلَّةِ على وحدانيَّتِه؛ ناسَبَ أن يَعِظَهم، ويمدَحَ الأدِلَّةَ حثًّا على تدبُّرِها[1].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٢٢).

﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ﴾.

أي: قد جاءتْكم حججٌ قاطعاتٌ، وأدلَّةٌ واضحاتٌ في هذا القرآنِ العظيمِ، تُبصرونَ بها الهدَى من الضَّلالِ، والحَقَّ من الباطِلِ؛ بَيَّنَ اللهُ لكم بها توحيدَه، وكمالَ قُدْرَتِه؛ فمَن عَرَفَها وآمَنَ بها، وعَمِلَ بمقتضاها، ففائِدَةُ ذلك تعودُ إليه في الدُّنيا والآخِرَة، ومن لم يؤمِنْ بها، وعمِيَ قلبُه عن دَلالَتِها، فإنَّما يعودُ وَبالُ ذلك على نَفْسِه فحَسْبُ، وإليها أساءَ لا إلى غيرها[1].

قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾.

أي: وما أنا عليكم بحافظٍ، ولا رقيبٍ أُحْصِي عليكم أعمالَكم وأفعالَكم، كلَّا! فليس هذا من شأني، وإنَّما أنا رسولٌ من اللهِ، وظيفتي تقتصِرُ على إبلاغِكم ما أُرْسِلْتُ به إليكم[2].

كما قال سبحانه: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٦٩-٤٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦١-٦٥).
قال الشنقيطي: (وهذا الكلامُ كأنَّ الله أمَر النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم أن يقولَه، ولذا قال في آخرِه: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾) ((العذب النمير)) (٢/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٧٠-٤٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦٥).

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا تَمَّمَ اللهُ تعالى الكلامَ في الإلهيَّاتِ في آياتٍ سابقةٍ؛ شَرَعَ في إثباتِ النبوَّاتِ، فبدَأَ تعالى بحكايةِ شُبُهاتِ المُنْكرينَ لنبوَّةِ مُحمَّدٍ صلَّى الله عليه وآلِه وسَلَّم؛ فقال(١):

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ ﴾.

أي: وكما فصَّلنا الآياتِ والحُجَجَ في هذه السورةِ، ووضَّحْناها بطرقٍ متنوِّعةٍ؛ لبيانِ التَّوحيدِ، وأنَّه لا إلهَ إلا هو، فهكذا أيضًا نوضِّحُ لكم آياتِنا، ونُبَيِّنُها بطُرقٍ متعدِّدةٍ في جميعِ القرآنِ(٢).

﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ ﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾ ثلاثُ قراءاتٍ:

١- قراءةُ ﴿دَارَسْتَ﴾ أي: ذاكَرْتَ، فالمعنى: قارَأْتَ أهلَ الكتابِ، وتعلمْتَ مِنهم(٣).

٢- قراءة ﴿دَرَسَتْ﴾ أي: مَضَتْ وامَّحَتْ وتقادَمَت، فالمعنى: هذا الذي تتلوه علينا قد تطاوَلَ ومَرَّ بنَا، ومُحِيَ أثرُه من قُلُوبِنا(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦٦-٦٨).

(٣) قرأ بها ابنُ كثير وأبو عَمرو. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٣٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٧١)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٧٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٦٤).

(٤) قرأ بها ابن عامر ويعقوب. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٣٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٧٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٦٤-٢٦٥).

٣- قراءةُ ﴿دَرَسْتَ﴾ أي: قرأْتَ أنت وتعلَّمْتَ- يا محمَّدُ- كُتُبَ أهلِ الكتابِ[١].

﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ﴾.

أي: ونصرِّفُ الآياتِ؛ ليقولَ مَن خَذَلَه اللهُ تعالى وأشقاه، فلم يُوفَّقْ للعَمَلِ بالقرآنِ: دَرستَ- يا محمَّدُ- هذا الذي تَأتِينا به ممَّنْ قَبْلَك من أهلِ الكتابِ، فقرَأْتَ وتَعلَّمْتَ منهم، وليس بشَيءٍ جديدٍ أُنْزِلَ عليك من السَّماءِ كما تزعُمْ[٢].

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاؤُوا ظُلْمًا وَزُورًا * وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٤-٥].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

أي: وأيضًا لأجْلِ أنْ نُبيِّنَه لقومٍ وفَّقْناهم، فلهُم عقولٌ، وعِلْمٌ يظهَرُ لهم به ما في هذا القُرآنِ العَظيمِ مِن آياتٍ مُتنوِّعةٍ، وأدلةٍ قاطعَةٍ موضِّحةٍ للحَقِّ بلا لَبْسٍ،

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٣٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٧٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٠٨-٣٠٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦٨-٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٢٢).
قال الواحديُّ: (أيْ: نصرِّفُ الآياتِ؛ ليكونَ عاقبةُ أمرِهم تكذيبًا؛ للشَّقاوةِ التي لَحِقَتْهم) ((الوجيز)) (ص: ٣٦٩).
وقال ابنُ عطيَّة: (وقرأ الجمهورُ ﴿وَلِيَقُولُوا﴾ بكسرِ اللامِ على أنَّها لامُ «كي»، وهي على هذا لامُ الصيرورةِ، كقولِه تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٣١).

فيَقبلونَ الحَقَّ ويتَّبعونَه بعد تبيُّنِه لهم(١).

كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤].

﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بَيَّنَ لرَسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّ النَّاسَ فريقانِ؛ فريقٌ قد فَسَدَتْ فِطْرَتُهم، ولم يبْقَ فيه استعدادٌ للاهتداء، وفريقٌ يعْلَمون، وبالبيانِ يَهْتدونَ- أَمَرَه أن يتَّبعَ ما أُوحِيَ إليه من رَبِّه؛ بالبيانِ له، والعَمَلِ به(٢).

وأيضًا لَمَّا حكى اللهُ تعالى عن المُشركينَ أنَّهم يَنسُبونَ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم- في إظهارِ هذا القرآنِ العَظيمِ- إلى الافتِراء، وإلى مُدارَسَةِ مَن يستفيدُ هذه العلومَ منهم، ثم يَنْظِمُها قرآنًا- أتْبَعَه بقوله: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ لئلَّا يصيرَ ذلك القولُ سببًا لفُتُورِه عن تبليغِ الدَّعوةِ والرِّسالةِ، والمقصودُ: تقويةُ قَلْبِه، وإزالةُ الحُزنِ الذي حَصَلَ بسَمَاعِ تلك الشُّبهةِ(٣).

وأيضًا لَمَّا بَيَّنَ اللهُ جَلَّ وعلا أنَّه أَنزَلَ علينا على لسانِ نَبيِّنا بصائِرَ؛ حيث قال: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ﴾ والمعنى: جاءَتْكم مِن قِبَلِنَا على لسانِ نَبيِّنا بصائِرُ؛ أي: حُجَجٌ قاطعاتٌ، وأدلَّةٌ واضحات، لا تترُكُ في الحقِّ لَبْسًا، فهذه البصائرُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦٩-٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٥٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٢٥٩).

التي جاءتكم يَلْزَمُكم اتِّباعُها، وعدمُ المَيْل والحَيْدة عنها؛ ولذا أَتْبَعَ قَوْلَه: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ﴾ بقولِه[1]:

﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: اتَّبِعْ - يا محمدُ - هذا القرآنَ العظيمَ، فاقْتَدِ به، واقتَفِ أثَرَه، وتأدَّبْ بآدابِه، وتَخَلَّقْ بما فيه من أخلاقٍ، وأحِلَّ حلالَه، وحَرِّمْ حَرامَه، واعتَقِدْ عقائِدَه، وانزَجِرْ بوَعيدِه، وانبَسِط لِوَعْدِه، واعْمَلْ به، ودعْ ما يدعوك إليه مُشْركو قومِك؛ فإنَّ ما أُوحِيَ إليك من ربِّكَ هو الحَقُّ الذي لا مِرْيَةَ فيه؛ لأنَّه لا معبودَ بحقٍّ سواه[2].

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾.

أي: ودَعْ عنك يا محمَّدُ مجادَلةَ هؤلاءِ المُشْركينَ وخُصومتَهم، واعفُ عنهم واصْفَحْ، واحتَمِلْ أذاهم؛ حتى يَنْصُرَك اللهُ تعالى عليهم[3].

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا ۗ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (١٠٧)﴾.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾.

أي: ولو أرادَ الله تعالى هدايَتَهم واستِنقاذَهم من الضَّلالةِ لَوَفَّقَهم؛ فلم يُشْرِكوا به شيئًا، ولآمَنُوا بك فاتَّبَعوا ما جِئْتَهم به من الحَقِّ، لكنَّ لله تعالى حكمةً في خِذْلانهم وإضلالِهم؛ فإنَّه لو شاء لهدى النَّاسَ كلَّهم جميعًا[4].

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٧٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٧٠-٧١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٧٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٧٩، ٨٤).

﴿وَمَا جَعَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾.

أي: لم نبعَثْك عليهم حافظًا؛ تحفَظُ أعمالَهم وأقوالَهم، وتُحْصِيها عليهم[١].

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾.

أي: ولَسْتَ عليهم بقَيِّمٍ على أرزاقِهم وأقواتِهم وأمورِهم، ولسْتَ مُوكلًا بأعمالِهم؛ فتحاسِبَهم بها، وتجازِيَهم عليها[٢].

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- ترْكُ التقليدِ، والاعتبارُ بالبصائرِ والدَّلائلِ، والترقِّي في أَوْجِ المعرفَةِ إلى سَمواتِ الاجتهادِ والعملِ بالأدلَّةِ؛ نستفيدُ ذلك من قولِ الله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾، فمن أبصَرَ وعَمِلَ بالأدلَّةَ خَلَّصَ نفسَه من الضَّلالِ المؤدِّي إلى الهلاكِ، ومَن عَمِيَ ولم يهتَدِ بالأدلَّةِ؛ فعلى نَفْسِه عماهُ؛ فيَضِلُّ ويَعْطَب[٣].

٢- على الدَّاعِيةِ تنويعُ الأسلوبِ، والتفنُّنُ في البيانِ؛ لإثباتِ أُصُولِ الدِّينِ، والهدايةِ لمحاسِنِ الآدابِ والأعمالِ؛ مراعاةً للعقولِ والأفهامِ، ولاختلافِ استعدادِ الأفرادِ والأقوامِ؛ يُرشِدُ إلى ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ أي: وكذلك نُصَرِّفُ الآياتِ على أنواعٍ شَتَّى ليهتديَ بها المستَعِدُّونَ للإيمانِ على اختلافِ العقولِ والأفهامِ[٤].

٣- صاحِبُ الدَّعوةِ لا يجوزُ أن يُعَلِّقَ قَلْبَه وأمَلَه وعَمَلَه بالمُعْرِضينَ عن الدَّعوةِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٧٩-٤٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٨٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٢٢-٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٥٤٨).

المعاندينَ، الذين لا تتفتَّحُ قلوبُهم لدلائِلِ الهُدى ومُوحِيات الإيمانِ، إنَّما يَجِبُ أن يُفَرِّغَ قلبَه، وأن يُوَجِّهَ أمَلَه وعَمَلَه للذين سَمِعُوا واستجابوا؛ يُبَيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾، فالحَقُّ يعلو متى ظَهَرَ بالقَولِ والعَمَلِ مع الإخلاصِ، لا يضرُّه الباطِلُ بخرافاتِ الأعمالِ، ولا بزخارفِ الأقوالِ(١).

٤- نبَّه بقوله: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ على أنَّه تعالى لَمَّا كان واحدًا في الإلهيَّةِ؛ فإنَّه يجِبُ طاعَتُه، ولا يجوزُ الإعراضُ عن تكاليفِه بسَبَبِ جَهْلِ الجاهلينَ، وزَيْغِ الزَّائغينَ(٢)، وأَكَّدَ به إيجابَ الاتِّباعِ لِمَا في كلمةِ التوحيدِ من التمسُّكِ بحبلِ اللهِ، والاعتصامِ به، والإعراضِ عمَّا سواه(٣).

٥- تحلِّي الدَّاعِيَةِ بالتواضُعِ، وإسلامُ الجبروتِ والقَهرِ لله تعالى؛ يُرشِدُنا إلى ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي: وما جعلناك عليهم حفيظًا تحفَظُ عليهم أعمالَهم لتحاسِبَهم وتجازِيَهم عليها، ولا وكيلًا تتولَّى أمورَهم وتتصَرَّف فيها، وما أنت عليهم بوكيلٍ ولا حفيظٍ بمُلْكٍ ولا سِيادةٍ(٤).

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ لَمَّا كانت الآياتُ- لِقُوَّتِها وجَلالَتِها- توجِبُ المعرفةَ، فتكونُ سببًا لانكشافِ الحقائِقِ؛ الذي هو كالنُّورِ في جلاءِ المحسوساتِ، قال: ﴿بَصَائِرُ﴾ أي: أنوارٌ هي لقلوبكم بمنزلَةِ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٥٥٢)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١١٦٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٠٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٤٣).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٢٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٥٥٢).

الضِّياءِ المحسوسِ لعيونِكم(١).

٢- قولُ الله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ يُبْطِلُ قولَ الجبريَّة في أنَّه تعالى يُكَلِّفُ بلا قدرةٍ(٢).

٣- قولُ الله تعالى: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ فيه قَرَنَ أمرَه باتِّباعِ ما أُوحِيَ إليه من ربِّه بكلمةِ توحيدِ الألوهيَّة؛ لبيانِ وجوبِ ملازَمَتِه لتوحيدِ الربوبيَّة، فكما أنَّ الخالِقَ المُرَبِّي بما أنْزَلَ من الرِّزْق، وللأرواحِ بما أنْزَلَ من الوَحْيِ؛ واحِدٌ لا شريكَ له في الخَلْقِ، ولا في الهدايةِ، فالواجِبُ أن يكون الإلهُ المعبودُ واحدًا لا شريكَ له(٣).

٤- وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ عَطْفٌ على جملة ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾، وهذا تلطُّفٌ مع الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، وتَطمينٌ لقلْبِه، وتذكيرٌ له بحقائقِ الأحوالِ، وإزالةٌ لِمَا يَلْقَاه من الكَدَرِ من استمرارِهم على الشِّرْكِ، وقلَّةِ إغناء آياتِ القرآنِ ونُذُره في قلوبهم؛ فذَكَّرَه اللهُ بأنَّه تعالى قادرٌ على أن يُحَوِّلَ قُلوبَهم، فتَقْبَلَ الإسلامَ بتكوينٍ آخَرَ، ولكنَّ اللهَ أرادَ أنْ يَحْصُلَ الإيمانُ مِمَّن يؤمِنُ بالأسبابِ المعتادَةِ في الإرشادِ والاهتداءِ؛ لِيَميزَ اللهُ الخبيثَ من الطَّيِّبِ، وتظهَرَ مراتِبُ النُّفوسِ في ميادينِ التلقِّي، فأرادَ اللهُ أنْ تختلِفَ النُّفوسُ في الخيرِ والشَّرِّ اختلافًا ناشئًا عن اختلافِ كيفيَّاتِ الخِلْقةِ والخُلُق والنَّشْأةِ والقَبول، وعن مراتبِ اتِّصالِ العِباد بخالِقِهم ورجائِهم منه(٤).

٥- قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا...﴾ هذه الآيةُ تَرُدُّ على القَدَريَّة

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٣٥٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٣٥٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٥٥١-٥٥٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٢٥- ٤٢٦).

الزَّاعمين أنَّ الكُفْرَ والمعاصِيَ بمشيئةِ العبدِ لا بمشيئةِ اللهِ، فمذهَبُهم باطِلٌ؛ فَرُّوا من شيءٍ فَوَقَعوا فيما هو أشْنَعُ وأكبَرُ منه؛ فهم يُريدونَ التقرُّبَ لله، بأن يَزْعُموا أنَّ الخَسائِسَ؛ كالسَّرِقَة والزِّنا والشِّرْك؛ أنَّها بمشيئةِ العبادِ لا بمشيئةِ الله، زاعمينَ أنَّ اللهَ أنْزَهُ وأعظَمُ وأجَلُّ من أن تكونَ هذه الرَّذائِلُ بمشيئتِه[١].

٦- قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا...﴾ ليس في مِثل هذا عذرٌ للمشركين ولا لأمثالِهم من العُصاة؛ ولذلك ردَّ اللهُ عليهم الاعتذارَ بمِثل هذا في قوله: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وفي قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف: ٢٠]؛ لأنَّ هذه حقيقةٌ كاشفةٌ عن الواقِع لا تصلُح عذرًا لِمَن طَلَبَ منهم ألَّا يكونوا في عِدادِ الذين لم يشأِ اللهُ أنْ يُرشِدَهم؛ قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾[٢] [المائدة: ٤١].

٧- قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ تذكيرٌ وتسليةٌ؛ ليُزيحَ عنه كَرْبَ إعراضِهم عن الإسلامِ؛ لأنَّ ما يَحصُلُ له مِن الكَدَرِ لإعراضِ قومِه عن الإسلامِ يَجعَلُ في نفْسِه انكسارًا، كأنَّه انكسارُ مَن عُهِدَ إليه بعملٍ فلم يتسنَّ له ما يُريدُه مِن حُسن القِيام، فذَكَّره اللهُ تعالى بأنَّه قد أدَّى الأمانةَ، وبلَّغَ الرِّسالة، وأنَّه لم يَبعثْه مُكرِهًا لهم ليأتيَ بهم مُسلِمين، وإنَّما بعَثَه مُبلِّغًا لرسالتِه؛ فمَن آمَن فلنَفْسِه، ومَن كفَر فعليها[٣].

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٧٩،٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٢٥- ٤٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٢٦).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ في التعرُّضِ لعنوانِ الربوبيَّةِ، مع الإضافةِ إلى ضميرِ المخاطبينَ في قوله: ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾؛ إظهارٌ لكمالِ اللُّطْفِ بهم، أي: قد جاءَكُم من جهةِ مالِكِكم ومُبَلِّغِكم إلى كَمالِكم اللَّائِقِ بكم من الوَحْيِ النَّاطِقِ بالحَقِّ والصوابِ؛ ما هو كالبصائِرِ للقُلوبِ، أو قد جاءَكُم بصائِرُ كائنةٌ من ربِّكم[1].

- قوله: ﴿أَبْصَرَ﴾، وقوله: ﴿عَمِيَ﴾ كنايتانِ عن الهدى والضَّلالِ، والمعنى: أنَّ ثمرةَ الهدى والضَّلالِ إنَّما هي للمُهتدِي والضَّالِّ؛ لأنَّه تعالى غَنِيٌّ عن خَلْقِه، وهي من الكناياتِ الحسنَةِ؛ لَمَّا ذَكَرَ البصائِرَ أعقَبَها تعالى بالإبصارِ والعمى، وهذه مُطابَقةٌ[2].

٢- قوله: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ استئنافٌ في خطابِ النبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلامُ لأمْرِه بالإعراضِ عن بُهتانِ المشركينَ، وألَّا يَكْتَرِثَ بأقوالِهم، فابتداؤُه بالأمرِ باتِّباعِ ما أوحِيَ إليه يتنَزَّلُ منزلةَ المُقَدِّمةِ للأمرِ بالإعراضِ عن المشركينَ، وليس هو المقْصِدَ الأصليَّ من الغَرَضِ المَسُوقِ له الكلامُ؛ لأنَّ اتِّباعَ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم ما أوحِيَ إليه أمْرٌ واقِعٌ بجميعِ معانيه، فالمقصودُ من الأمْرِ الدَّوامُ على اتِّباعِه، والمعنى: أَعْرِضْ عن المشركين اتِّباعًا لِمَا أُنْزِلَ إليك من رَبِّك[3]. وأيضًا فالوحيُ يَنزِلُ عليه حينًا بعدَ حينٍ في شَرائعِ الدِّينِ وأمورِ الإيمانِ؛ فهو مأمورٌ مع كلِّ وحيٍ جديدٍ بالإيمانِ به واتِّباعه.

- وفي التَّعرُّضِ لعنوانِ الربوبيَّةِ مع الإضافَةِ إلى ضميرِه صلَّى الله عليه

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٧٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٠٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٢٣).

وسلَّم في قوله: ﴿رَبِّكَ﴾ مِن إظهارِ اللُّطْف به ما لا يَخفَى(١).

- وجملة ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ بَيْن الأمرينِ في قوله: ﴿اتَّبِعْ﴾، وقوله: ﴿وَأَعْرِضْ﴾ اعتراضٌ؛ أُكِّدَ به إيجابُ اتِّباعِ المُوحَى؛ لا سيمَّا في أمرِ التوحيدِ؛ والمقصودُ منها إدماجُ التذكيرِ بالوحدانيَّة؛ لزيادةِ تقرُّرِها، وإغاظَةِ المشركين. أو تكون هذه الجملةُ في موضع الحالِ المؤكِّدَةِ(٢).

٣- قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ جملة ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾، اعتراضٌ مؤكِّدٌ للإعراضِ المذكورِ في قوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾، وكذا قولُه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ وقولُه تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾(٣).

- قوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ في الموضعينِ متعلِّقٌ بما بعده ﴿حَفِيظًا﴾ و﴿بِوَكِيلٍ﴾؛ قُدِّمَ عليه للاهتمامِ به، أو لرعايةِ الفواصِلِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٧٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٧١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٠٨-١١٠)

﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾: أي: حَلَفُوا واجتهَدُوا في الحَلِف، أو كنايةٌ عن أغلَظِ الأيمانِ، وأصْلُ (جهد): المشقَّةُ[١]. والأَيْمَانُ: جمْعُ يَمينٍ، واليمينُ: الحَلِفُ والقَسَم، وأصلُه مِن اليُمْن، أي: البَركة؛ سمَّاها اللهُ تعالى بذلك لأنَّها تَحفَظُ الحقوقَ، وقيل: سُمِّي الحَلِفُ يمينًا لأنَّه يكونُ بأَخْذِ اليَمينِ، أو اعتبارًا بِما يَفعَلُه المعاهِد والمحالِفُ وغيرُه؛ لأَنهم كَانُوا اذا تحالفوا أو توافقوا ضرَب كلُّ امْرِئ مِنْهُم يَمِينه على يَمِين صَاحِبه[٢].

﴿وَنُقَلِّبُ﴾: أي: ونُحوِّل، وقلْبُ الشَّيءِ: تصريفُه وصَرْفُه عن وَجْهٍ إلى وجهٍ، وتقليبُ اللهِ القلوبَ والبصائِرَ: صَرفُها من رأيٍ إلى رأيٍ[٣].

﴿أَفْئِدَتَهُمْ﴾: أفئدة: جمْعُ فؤادٍ، وهو القلبُ؛ سمِّيَ بذلك لحرارَتِه، أو لتَوقُّدِه،

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٢٦٤)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٣/ ٤٦٠).

(٣) يُنظر: ((غريب الحديث)) لابن قتيبة (١/ ٢٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨١- ٦٨٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠١).

وأصل (فأد): يدلُّ على حُمَّى وشِدَّةِ حرارةٍ[١].

﴿يَعْمَهُونَ﴾: يَتحيَّرونَ، ويتردَّدونَ، ويَجُورونَ عن الطَّريقِ؛ فأصل العَمَهِ: التردُّدُ في الأمرِ من التحيُّرِ[٢].

مُشكِل الإعراب:

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

﴿أَنَّهَا﴾: تُقرَأُ بفتْحِ الهمزةِ وكَسرِها؛ فعَلى قِراءةِ الفتحِ ففيها ثلاثةُ أوجه: أحدها: أنَّ (أنَّ) بمعنى (لعلَّ) وعلى هذا يكون المفعولُ الثاني محذوفًا، تقديرُه: (وما يُشْعِرُكُم إيمانَهم)، والمعنى: وأيُّ شيءٍ يُدْريكُم إيمانَهم إذا جاءَتْهم الآيةُ؛ لعلَّها إذا جاءتْهم لا يُؤْمنون. والثاني: أنَّ ﴿لَا﴾ زائدةٌ، فتكون (أنَّ) وما عملتْ فيه في موضعِ المفعولِ الثَّاني، فيكون التقدير: وما يُشْعِرُكُم أنَّها إذا جاءت يُؤْمنونَ، والمعنى على هذا: أنَّها لو جاءتْ لم يُؤمنوا. والثالث: أنَّ (أنَّ) على بابها، و﴿لَا﴾ غيرُ زائدة، والمعنى: وما يُدريكم عدَمَ إيمانِهم، ويكون هذا جوابًا لِمَن حَكَم عليهم بالكُفْر أبدًا، ويَئِسَ مِن إيمانِهم. وأمَّا على قراءةِ الكَسْرِ؛ فقوله: ﴿إِنَّها﴾ على الاستئنافِ، والمفعولُ الثاني محذوفٌ أيضًا، تقديره: وما يُشعِركم إيمانَهم[٣].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٨٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٢).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٦٥)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦١٤-٦١٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ١٠٢-١٠٦).

المعنى الإجماليُّ:

يَنهى اللهُ المؤمنينَ أنْ يَسبُّوا آلهةَ المُشْركينَ، حتى لا يُقابِلَه المشركونَ بِسَبِّ اللهِ، تعالى وتَقَدَّسَ وتنَزَّهَ عن كلِّ نقيصةٍ، وكما زَيَّنَ اللهُ لهؤلاءِ المُشركينَ أعمالَهم زَيَّنَ لكُلِّ أمَّةٍ عَمَلَهم، ثمَّ إلى ربهم تعالى مَرْجِعُهم، فيُخْبِرُهم بما عَمِلوا، ويجازِيهم عليه.

ويُخْبِر تعالى أنَّ المُشركينَ أقْسَموا باللهِ أشَدَّ الأيمانِ التي قَدَرُوا عليها؛ أنَّه إنْ جاءَتْهم آيةٌ خارِقَةٌ ممَّا اقترحوها فإنَّهم سيُؤمنونَ بها، فأمَرَ اللهُ رسولَه أَنْ يُخْبِرَهم أنَّ الآياتِ مِن اللهِ وَحْدَه، إنْ شاء أجابَ طَلَبَكم، وإنْ شاءَ امتنَعَ عن ذلك، ثم خاطَبَ عِبادَه المؤمنين قائلًا لهم: وما يُدريكُم، أنَّ هؤلاءِ المُشركينَ لا يؤمنونَ إذا جاءَتْهم المُعجزاتُ التي سَأَلُوها.

ثم أخبَرَ تعالى أنَّه يُقَلِّبُ أفئدتَهم وأبصارَهم، فيَحُولُ بينهم وبين الانتفاعِ بالحقِّ، والاهتداءِ إليه؛ لأنَّهم لم يؤمنوا بالقرآنِ في أوَّلِ مرَّةٍ أتاهم فيها الدَّاعي، ويترُكُهم في تمرُّدِهم واعتدائِهم على حدودِ الله يتردَّدونَ، ولا يهتدونَ للحقِّ.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

مناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أطالَ التَّنفيرَ عَمَّا اتُّخِذَ آلهةً مِن دُونِه من الأندادِ، فربَّما كان ذلك داعيةً إلى سبِّها، فنهى عنه لِمَفسدةٍ يَجُرُّها السَّبُّ، كبيرةٍ جدًّا[١].

وأيضًا لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى الرَّسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم بتبليغِ وَحْيِه بالقولِ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٢٦).

والفِعْلِ، وبالإعراضِ عن المُشركينَ - وَجَّهَ المؤمنينَ إلى أن يكونَ هذا الإعراضُ في أدَبٍ وفي وقارٍ، وفي ترفُّعٍ يليقُ بالمؤمنين، فأُمِرُوا ألَّا يَسُبُّوا آلهةَ المُشركينَ مخافَةَ أنْ يَحْمِلَ هذا أولئك المُشركينَ على سَبِّ الله سبحانَه[1]، فقال:

﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾.

أي: لا تسبُّوا - أيُّها المؤمنون - آلهةَ المُشركينَ وتَهْجُوها، وتذكُروا ما هي متَّصِفَةٌ به من الخساسَةِ؛ لأنَّه يترتَّبُ على ذلك مَفسدةٌ أعظَمُ منها، وهي قيامُ المُشركينَ - حَمِيَّةً لِدينِهم وتعصُّبًا له - بسَبِّ إلهِ المؤمنينَ؛ اللهِ تبارَكَ وتعالى، فيتكلَّمونَ فيه بما لا يليقُ بكَمالِه وجلالِه وعَظَمَتِه سبحانه؛ ظلمًا وجَهْلًا منهم بربِّهم، واعتداءً بغيرِ عِلْمٍ؛ فهو خالِقُهم ورازِقُهم، المُحْسِنُ إليهم[2].

﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾.

أي: كما زَيَّنَّا لهؤلاء المشركينَ عِبادةَ الأوثانِ، وطاعةَ الشَّيطانِ، وَحُبَّ الأصنامِ، والانتصارَ لها، كذلك زَيَّنَّا بحِكمَتِنا لكلِّ أمَّةٍ مِن الأُمَمِ عَمَلَهم الذي يفعلونَ[3].

كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [فاطر: ٨].

وقال سبحانه: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٤].

﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١١٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٨٦-٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٨٣-٤٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٩٦).

أي: ثمَّ بعدَ ذلك يكون مآلُهم ومَصيرُهم يومَ القيامَةِ إلى الله تعالى وَحْدَه، فيُوقِفُهم عزَّ وجلَّ، ويُخْبِرُهم بأعمالِهم التي كانوا يَعملونها في الدُّنيا، ثم يُجازيهم بها؛ إنْ كان خيرًا فخَيرٌ، وإنْ كان شرًّا فشَرٌّ، أو يَعفو بفَضْلِه، ما لم يكُن شِرْكًا أو كُفرًا[١].

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) ﴾.

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ﴾.

أي: وحَلَف المشركونَ حَلِفًا اجتَهَدوا فيه، وأكَّدوه إلى غايَةِ ما يُمْكِنُهم مِن تغليظِ اليَمينِ وتوكيدِها؛ أنَّه إنْ جاءتهم معجزةٌ مِمَّا اقترحوه تَدُلُّ على صِدْقِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فإنَّهم سيُؤمنونَ بها، ويصدِّقونَ بأنها مِنَ اللَّهِ، وأنَّ محمدًا صلى الله عليه وسلم رَسُولٌ مُرْسَلٌ، وأنَّ ما جاءَهم به هو الحَقُّ مِن عِندِ اللهِ سبحانه وتعالى[٢].

﴿ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ﴾.

أي: قُلْ- يا محمَّدُ- لهؤلاء الذين يَقترِحونَ نُزُولَ الآياتِ تَعَنُّتًا وكُفْرًا وعِنادًا:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٠٣-١٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٠٧-١١٤).

قال السعديُّ: (هذا الكلامُ الذي صدَر منهم، لم يكُن قصدُهم فيه الرشادَ، وإنما قصدُهم دفْعُ الاعتراضِ عليهم، وردُّ ما جاء به الرسولُ قطعًا؛ فإنَّ اللهَ أيَّد رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم بالآياتِ البيِّناتِ، والأدلَّةِ الواضحاتِ، التي- عند الالتفاتِ لها- لا تُبقي أدْنى شُبهةٍ ولا إشكالٍ في صِحَّة ما جاء به؛ فطلبُهم- بعد ذلك- للآياتِ من باب التعنُّت، الذي لا يَلزمُ إجابتُه، بل قد يكون المنعُ مِن إجابتهم أصلحَ لهم؛ فإنَّ الله جرَتْ سُنَّتُه في عِباده أنَّ المقترِحينَ للآياتِ على رُسُلِهم، إذا جاءتْهم فلمْ يُؤمنوا بها- أنَّه يُعاجِلُهم بالعقوبةِ) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٩).

إنَّما مَرْجِعُ هذه الآياتِ إلى الله تعالى وَحْدَه، فإنْ شاء أجاب طَلَبَكم، وإنْ شاء امتَنَعَ عن ذلك[1].

﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التفسيرِ:

في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ثلاثُ قراءاتٍ:

١- ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ إِنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

﴿إِنَّهَا إِذَا جَاءَتْ﴾ بجَعْلِ الكلامِ تامًّا عند قولِهِ: ﴿وَما يُشْعِرُكُمْ﴾، أي: ما يدريكُم أيُّها المؤمنونَ، ثُمَّ ابتدأَ الخَبَرَ عن الكفَّارِ والمُشركينَ، فقال عنهم: إنَّهم لا يؤمنونَ إذا جاءَتْهم الآياتُ[2].

٢- ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا تُؤْمِنُونَ﴾

على (أنَّ) هنا معناها: (لعَلَّ)، فالمعنى: وما يُدريكُم أيُّها الكُفَّارُ والمُشركونَ لعَلَّ الآياتِ إذا جاءت لا تُؤمنونَ[3].

٣- ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١١٤).

(٢) قرأ بها: ابنُ كثيرٍ، وأبو عَمرٍو، وشُعبةُ عن عاصمٍ في روايةٍ. ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٣٨-٢٤٠).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٤٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٦٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١١٧-١٢٦).

(٣) قرأ بها: ابنُ عامرٍ، وحمزةُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٣٨-٢٤٠).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٧٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٦٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١١٧-١٢٦).

قال الألوسي: (والخطابُ حينئذٍ في الآيةِ للمُشركين بلا خلافٍ) ((تفسير الألوسي)) (٤/ ٢٤٠).

على (أنَّ) هنا معناها: (لعَلَّ)، فالمعنى: وما يُدْريكُم أيُّها المؤمنونَ، لعَلَّ الآياتِ إذا جاءت لا يُؤْمِنُ الكُفَّارُ والمُشركونَ، وقيلَ غيرُ ذلك(١).

﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

أي: وما(٢) يُدريكُم- أيُّها المؤمنونَ- أنَّ هؤلاءِ المُشركينَ لا يُؤمنونَ إذا جاءَتْهم المُعجزاتُ التي سَألُوها(٣).

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾.

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

أي: ونُزيغُ قلوبَهم عن الإيمانِ، فلا تَعْقِلُ حقًّا، ونَحُولُ بين أبصارِهم ورؤية الحَقِّ؛ لأنَّهم لم يُؤمنوا بالقُرآنِ في أوَّلِ مَرَّةٍ أتاهم فيها الدَّاعي، وقامَتْ عليهم فيها

---

(١) قرأ بها: نافعٌ والكسائيُّ وحفصٌ عن عاصِمٍ، وشُعبة عن عاصمٍ في روايةٍ أخرى. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٣٨-٢٤٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١١٧-١١٨).
ويُنظر لمعنى هذه القِراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٧٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٦٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١١٧-١٢٦)، ((البحر المحيط في التفسير)) لأبي حيان (٤/ ٦١٤-٦١٥).

(٢) قال الكرمانيُّ: (أجمَع المفسرون على أنَّ «مَا» للاستفهامِ) ((غرائب التفسير وعجائب التأويل)) (١/ ٣٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٦-٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١١٧-١٢٦).
وقد ذهَب بعضُ المفسِّرين كابن جريرٍ إلى أنَّ معنى (أنَّ) في قوله ﴿أنَّها﴾: لعلَّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٨٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٢٤).
وقد خطَّأ ابنُ تيمة هذا المعنى، فقال: (أي: وما يُشعركم أنَّها إذا جاءتْ لا يُؤمنون بها ونُقلِّب أفئدتَهم، أي: يتركون الإيمانَ ونحن نُقلِّب أفئدتهم؛ لكونِهم لم يُؤمنوا أوَّلَ مرَّةٍ، أي: ما يُدريكم أنه لا يكونُ هذا وهذا حينئذ. ومَن فَهِم معنى الآية عرَفَ خطأ مَن قال: (أنَّ) بمعنى (لعلَّ) واستشكل قِراءة الفتح؛ بل يعلم حينئذٍ أنَّها أحسنُ مِن قراءةِ الكسر، وهذا بابٌ واسع) ((مجموع الفتاوى)) (١٣/ ٢٤٦).

الحُجَّةُ، وبادَروا بتكذيبِ الرَّسولِ(١)، وهذا مِن عَدْلِ الله تعالى وحِكْمَتِه؛ فهُم الذين جَنَوْا على أنْفُسِهم، وقد فُتِحَ لهم البابُ فلم يَدْخُلوا، وبُيِّنَ لهم الطَّريقُ فلم يَسْلُكوا، فإذا حُرِمُوا التَّوفيقَ بعد ذلك، كان هذا جزاءً وِفاقًا، مُناسِبًا لأحوالِهم(٢).

كَمَا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمْرٍو رضِيَ الله عنهما، أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ قلوبَ بَني آدمَ كلَّها بينَ إصبَعينِ من أصابعِ الرَّحمنِ كقَلْبٍ واحِدٍ؛ يُصَرِّفُهُ حيثُ يشاءُ، ثمَّ قالَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ: اللَّهمَّ مُصَرِّفَ القلوبِ، صرِّفْ قلوبَنا على طاعتِكَ))(٣).

﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

أي: ونترُكُ هؤلاءِ في تَمَرُّدِهم واعتدائِهم على حدودِ اللهِ تعالى يترَدَّدون؛ فلا لِلحَقِّ يَهتدونَ، ولا الصَّوابَ يُبصرونَ، قد غَلَبَ عليهم الخِذْلانُ، واستحوَذَ عليهم الشَّيطانُ(٤).

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١ - الطَّاعةُ إذا أدَّت إلى معصيةٍ راجحةٍ وَجَبَ تَرْكُها؛ فإنَّ ما يؤدِّي إلى الشرِّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٩١-٤٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٢٦-١٣٠).
والكنايةُ في ﴿بِهِ﴾ يجوزُ أن تعودَ على النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم. يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣١١).
وقال ابن جرير: (الهاءُ مِن قَوْلِه: ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ﴾ كِنَايَة ذِكرِ التَّقْلِيبِ) وذكر أنَّ المعنى: (كما لم يُؤمِنوا بتَقْلِيبنا إيَّاها قبلَ مجيئِها مرَّةً قبلَ ذلك). ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٩٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٩).
(٣) رواه مسلم (٢٦٥٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٣٠-١٣١).

شَرٌّ؛ يُرْشِدُ إلى ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[1].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّ الخَصْمَ إذا شافَهَ خَصْمَه بجهْلٍ وسَفاهةٍ، لم يَجُزْ لِخَصْمِه أنْ يشافِهَهُ بمِثْلِ ذلك، وهو أدَبٌ يَليقُ بالمُؤْمِنِ، المطمَئِنِّ لِدِينِه، الواثِقِ من الحَقِّ الذي هو عليه، الهادِئِ القَلْبِ، الذي لا يَدْخُلُ فيما لا طائِلَ وراءه من الأمورِ[2].

٣- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فيه تأديبٌ لِمَن يَدْعو إلى الدِّينِ؛ لِئَلَّا يَتشاغَلَ بما لا فائدةَ له في المطلوبِ؛ لأنَّ وَصْفَ الأوثانِ بأنَّها جماداتٌ لا تَنفَعُ ولا تَضُرُّ يكفي في القَدْحِ في إلهِيَّتِها، فلا حاجَةَ مع ذلك إلى شَتْمِها[3].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ تَزيينُ أعمالِهم يكونُ بواسِطَةِ الملائكَةِ والأنبياءِ والمؤمنينَ للخَيْرِ، وتزيينِ شياطينِ الإنْسِ والجِنِّ للشَّرِّ؛ قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾، ومثلُ هذا كثيرٌ؛ فالفاعِلُ للذَّنْب لو جَزَمَ بأنَّه يَحصُلُ له به الضَّرَرُ الرَّاجِحُ لم يَفعَلْه، لكنَّه يُزَيِّنُ له ما فيه من اللَّذَّةِ التي يَظُنُّ أنَّها مصلحةٌ، ولا يجْزِمُ بوقوعِ عقوبَتِه، بل يرجو العَفْوَ بحسناتٍ أو توبةٍ، أو بعَفْوِ الله ونحوِ ذلك، وهذا كلُّه من اتِّباعِ الظَّنِّ وما تهوى الأنفُسُ، ولو كان له عِلْمٌ كامِلٌ لعَرَفَ به رُجحانَ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٢٧)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٤٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٣٦٢)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٢/ ١١٦٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١١٠).

ضَرَرِ السَّيِّئةِ، فأوجَبَ له ذلك الخشيةَ المانِعَةَ له من مُواقَعَتِها[١].

٥- مَن أعرَضَ عن اتِّباعِ الحَقِّ الذي يَعلَمُه تبعًا لهواه؛ فإنَّ ذلك يُورِثُه الجَهْلَ والضَّلالَ حتى يَعمَى قلبُه عن الحَقِّ الواضِحِ؛ يُبَيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ فمعنى الآية: ونُقَلِّبُ أفئدتَهم وأبصارَهم؛ عقوبةً لهم على تَرْكِ الإيمانِ في المَرَّةِ الأولى[٢]، فمَن عُرِضَ عليه حَقٌّ فرَدَّه فلم يَقبَلْه؛ عُوقِبَ بفَسادِ قَلْبِه وعَقْلِه ورَأْيِه[٣].

٦- إذا كان القَلْبُ قاسيًا لا يَقْبَلُ تزكيةً ولا تُؤَثِّرُ فيه النَّصائِحُ؛ لم يَنتفِعْ بكُلِّ عِلْمٍ يَعْلَمُه؛ يُبَيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾[٤].

الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ نُهِيَ المُسلمونَ أن يَفعلوا ما يكونُ ذريعةً إلى سَبِّ الكافرينَ لله تعالى، فعُلِمَ أنَّ سَبَّ الله تعالى أعظَمُ عنده من أنْ يُشْرَكَ به، ويُكَذَّبَ رَسُولُه ويُعادَى[٥].

٢- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قد يَسْتَشْكِلُ بعضُهم أنَّ شَتْمَ الأصنامِ من أصولِ الطَّاعاتِ؛ فكيف يُنْهَى عنها؟

والجوابُ: أنَّ هذا الشَّتْمَ، وإنْ كان طاعةً، إلَّا أنَّه إذا وَقَعَ على وجهٍ يَسْتلزِمُ

(١) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٧٩٥-٧٩٦).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ١٠-١١)، ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٣٧٧).

(٣) ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٩٩).

(٤) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٩٦).

(٥) يُنظر: ((الصارم المسلول على شاتم الرسول)) لابن تيمية (ص:٥٥٢).

وجودَ مُنْكَرٍ عظيمٍ، وَجَبَ الاحترازُ منه، والأمرُ هاهنا كذلك؛ لأنَّ هذا الشَّتْمَ كان يَستلزِمُ إقدامَهم على شَتْمِ اللهِ وشَتْمِ رَسُولِه، وعلى فَتْحِ بابِ السَّفاهَةِ، وعلى تَنفيرِهم عن قَبولِ الدِّينِ، وإدخالِ الغَيْظِ والغَضَبِ في قُلوبِهم؛ فَلِكَونِه مُستلزِمًا لهذه المُنكَراتِ، وَقَعَ النَّهيُ عنه[1]؛ فإنَّه إذا كانتِ الطَّاعةُ تؤدِّي إلى مَفسدةٍ، خَرَجَتْ عن أنْ تكونَ طاعةً؛ فيجِبُ النَّهيُ عنها كما يُنهَى عن المعصيةِ[2].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أصْلٌ في قاعِدَةِ سَدِّ الذَّرائعِ[3]، ودليلٌ للقاعدةِ الشَّرعيَّة: أنَّ الوسائِلَ تُعتبَرُ بالأمورِ التي تُوصِلُ إليها، وأنَّ وسائِلَ المحَرَّم- ولو كانتْ جائِزَةً- تكونُ مُحَرَّمةً، إذا كانت تُفْضِي إلى الشَّرِّ[4].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يُستدَلُّ به على سُقوطِ وُجوبِ الأَمْرِ بالمعروفِ والنَّهْيِ عن المُنْكَر إذا خِيفَ من ذلك مَفْسَدَةٌ أعْظَم، وكذا كُلُّ فعلٍ مطلوبٍ ترَتَّبَ على فِعْلِه مفسدةٌ أقوى من مَفْسَدَةِ تَرْكِه[5].

٥- دَفَعَ اللهُ تَوَهُّمَ إكرامِ آلهَتِهم حين نَهى عن سَبِّها بقوله: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، فبَيَّنَ أنهم في سُفُولٍ؛ بقوله: ﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾[6].

٦- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ حُكْمُ هذه الآيةِ باقٍ في هذه الأُمَّةِ؛ فإذا كان الكافِرُ في مَنَعةٍ، وخِيفَ أن يُسَبَّ الإسلامُ أو الرَّسولُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١١٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦١١).
(٣) يُنظر: ((أعلام الموقعين)) لابن القيم (٣/ ١١٠)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٢٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٩).
(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٢٠).
(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٢٧).

أو اللهُ، فلا يحِلُّ لمسلمٍ ذَمُّ دينِ الكافِرِ، ولا صَنَمِه ولا صَليبِه، ولا يتعَرَّض إلى ما يؤدِّي إلى ذلك[(١)].

٧- قول الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ يدلُّ على أنَّ اللهَ تعالى زَيَّنَ للكافِرِ الكُفْرَ، وللمُؤمِنِ الإيمانَ، وللعاصي المعصيةَ، وللمُطيعِ الطَّاعةَ؛ ففي الآية دليلٌ على تكذيبِ القَدَريَّةِ والمُعتَزِلَة؛ حيثُ قالوا: لا يَحْسُن مِن اللهِ تعالى خَلْقُ الكُفْرِ وتَزْيينُه[(٢)].

٨- في قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ﴾ قدَّمَ اللهُ تعالى ذِكْرَ تقليبِ الأفئدةِ على تقليبِ الأبصارِ؛ لأنَّ موضِعَ الدَّواعي والصَّوارفِ هو القَلْبُ، فإذا حصَلتِ الدَّاعيةُ في القَلْبِ انصرَفَ البَصَرُ إليه شاءَ أم أبى، وإذا حَصَلَتِ الصَّوارفُ في القَلْبِ انصَرَفَ البَصَرُ عنه؛ فهو وإنْ كان يُبْصِرُه في الظَّاهِرِ، إلَّا أنَّه لا يَصيرُ ذلك الإبصارُ سببًا للوقوفِ على الفوائِدِ المطلوبَةِ؛ وهذا هو المرادُ من قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾، فلمَّا كان المَعْدِنُ هو القَلْبَ، وأمَّا السَّمْعُ والبَصَرُ فهما آلتانِ للقَلْبِ؛ كانَا لا مَحالَةَ تابعينِ لأحوالِ القَلْبِ؛ فلهذا السَّببِ وَقَعَ الابتداءُ بِذِكْرِ تقليبِ القلوبِ في هذه الآيةِ، ثم أتبَعَه بِذِكْرِ تقليبِ البَصَرِ[(٣)].

٩- قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ﴾ وجهُ الجمْعِ بين الأفئدةِ والأبصارِ وعدَمِ الاستغناءِ بالأفئدَةِ عن الأبصارِ؛ أنَّ الأفئدةَ تختَصُّ بإدراكِ الآياتِ العقليَّةِ المَحْضَةِ، مثلُ آية الأُمِّيَّة، وآيةِ الإعجازِ، ولَمَّا لم تَكْفِهم الآياتُ العقليَّةُ ولم ينتفِعوا بأفئدَتِهم- لأنها مُقَلَّبةٌ عن الفِطْرَةِ- وسألوا آياتٍ مرئيَّةً مُبصَرةً؛ كأنْ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦١٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٣٦٦)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٤٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١١٥).

يَرْقَى في السَّماء، ويُنْزِلَ عليهم كتابًا في قرطاسٍ؛ أخبرَ اللهُ رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم والمُسلمينَ بأنَّهم لو جاءَتْهم آيةٌ مُبصِرةٌ لَمَا آمَنُوا؛ لأنَّ أبصارَهم مُقَلَّبةٌ أيضًا مثلَ تقليبِ عُقولِهم(١).

١٠- العَينانِ هما رَبيئةُ(٢) القَلبِ، ولَيسَ مِن الأعضاءِ أشدُّ ارتباطًا بالقَلْبِ من العَينينِ؛ ولهذا جمَعَ بينهما في قولِه: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ﴾، وفي غَيرِها من الآياتِ كقولِه: ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٧]، ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠]، ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾ [النازعات: ٨- ٩]، ولأنَّ كِليهما له النَّظرُ؛ فنظرُ القلبِ الظاهِرُ بالعَينينِ، والباطنُ به وحْدَه(٣).

١١- قوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ الكُفْرَ والإيمانَ بقَضاءِ اللهِ وقَدَرِه، التابع لحِكمتِه سُبحانَه، وفي ذلك رَدٌّ على القَدَرِيَّة(٤).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

- قوله: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وصَفَ سَبَّ المُشْرِكينَ لله تَعالَى بأنَّه عَدْوٌ؛ للتَّعريضِ بأنَّ سَبَّ المسلمينَ أصنامَ المُشركينَ ليس من الاعتداءِ، وجَعَلَ ذلك السَّبَّ عَدْوًا، سواءٌ كان

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٤٣).

(٢) الرَّبيئةُ: الطليعة. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (١/ ٢٣٤)، ((القاموس المحيط)) للفيروزآبادي (١/ ٥١).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١١٤)، ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ١٢١).

مرادًا به اللهُ أم كان مُرادًا به مَن يأمُر النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم بما جاءَ به؛ لأنَّ الذي أمَرَ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم بما جاءَ به هو في نفْسِ الأمْرِ اللهُ تعالى، فصادَفوا الاعتداءَ على جَلالِه[١].

- وأظهَرَ لفظَ الجلالةِ ﴿اللَّهَ﴾؛ تَصريحًا بالمقصودِ وإعظامًا لهذا، وتهويلًا له، وتَنفيرًا منه[٢].

- قوله: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فيه تعريضٌ بالتوعُّدِ بأنْ سَيَحُلُّ بمشركي العَرَبِ مِن العذابِ مثلُ ما حَلَّ بأولئكَ في الدُّنيا[٣].

- والعُدولُ عن اسْمِ الجَلالة إلى لفظِ: ﴿رَبِّهِمْ﴾ لقَصْدِ تهويلِ الوعيدِ، وتَعليلِ استحقاقِه بأنَّهم يُرجعونَ إلى مالِكهم الذي خَلَقَهم، فكفروا نِعَمَه وأَشْرَكوا به، فكانوا كالعَبيدِ الآبقينَ؛ يَطُوفون ما يَطُوفونَ، ثم يَقَعونَ في يَدِ مَالِكِهم[٤].

- قوله: ﴿فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ خبرٌ مقصودٌ منه التوبيخُ والعِقابُ؛ لأنَّ العقابَ هو العاقبةُ المقصودَةُ من إعلامِ المُجْرِمِ بجُرْمِه[٥].

٢- قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فيه حصْرٌ بـ﴿إِنَّمَا﴾؛ للرَّدِّ على المشركين في ظَنِّهم بأنَّ الآياتِ في مقدورِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم إنْ كان نبيًّا، فجَعَلوا عَدَمَ إجابَةِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم اقتراحَهم آيةً؛ أمارةً على انتفاءِ نبوءَتِه، فأَمَرَه اللهُ أن يُجيبَ بأنَّ الآياتِ عند اللهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٣٢).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٢٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٣٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٤٣٤).

لا عندَ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، والله أعلَمُ بما يُظْهِرُه من الآياتِ[١].

- وقوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ كلامٌ مستأنَفٌ غيرُ داخلٍ تحت الأمْرِ في قولِه: ﴿قُلْ﴾ مَسوقٌ من جِهَتِه تعالى؛ لبيانِ الحِكمةِ الدَّاعيَةِ إلى ما أشْعَرَ به الجوابُ السَّابِقُ من عَدَمِ مجيءِ الآياتِ؛ إذ إنَّ مَرجِعَ الإنكارِ إقدامُ المشركينَ على الإقسامِ المذكورِ في قوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ مع جَهْلِهم بحالِ قُلوبهم عند مجيءِ الآياتِ؛ وهذا الكلامُ إمَّا خُوطِبَ به المسلمونَ خاصَّةً بطَريقِ التلوينِ، لَمَّا كانوا راغبينَ في نُزولِها طَمَعًا في إسلامِهم، وإمَّا خُوطِبَ المسلمونَ معه صلَّى الله عليه وسلَّم بطَريقِ التَّعميمِ[٢].

- وقد سِيقَ الخَبَرُ بصِيغةِ الاستفهام؛ لأنَّ الاستفهامَ مِن شَأْنِه أن يُهَيِّئَ نَفْسَ السَّامِعِ لطَلَبِ جوابِ ذلك الاستفهامِ، فيتأَهَّبَ لوَعْيِ ما يَرِدُ بَعْدَه[٣].

٣- قوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ الكافُ في قوله: ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾؛ لتشبيهِ حالةِ انتفاءِ إيمانِهم بعد أن تجيئَهم آيةٌ مِمَّا اقترحوا، أي: ونُقَلِّبُ أفئدتَهم وأبصارَهم، فلا يؤمنونَ بالآيةِ التي تَجيئُهم مثلما لم يؤمنوا بالقرآنِ مِن قَبْلُ، فتقليبُ أفئدَتِهم وأبصارِهم على هذا المعنى يحصُلُ في الدُّنيا، وهو الخِذْلانُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٤٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٤٣٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٤٤١).

الآيات (١١١-١١٣)

﴿ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿قُبُلًا﴾: أي: صِنفًا صنفًا، أو صفًّا صفًّا، أو جماعةً جماعةً، جمعُ قبيلٍ، وقُبُلًا أيضًا: مُقابلةً وعِيانًا، وأصْلُ (قبل) يَدُلُّ على مواجَهةِ الشَّيءِ للشَّيءِ[(١)].

﴿زُخْرُفَ الْقَوْلِ﴾: الباطِلَ المزَيَّنَ المحسَّنَ المموَّهَ، أو المزوَّقاتِ من الكلامِ، والزُّخرفُ: الزِّينةُ المزوَّقةُ، وأَصْلُ الزُّخْرف: الذَّهب[(٢)].

﴿غُرُورًا﴾: بضَمِّ الغَينِ: مَصْدَرُ: غَرَّه يغرُّه غُرورًا، أي: أصاب غِرَّتَه- وهي غَفْلتُه في اليَقَظَة- ونالَ منه ما يُريد، حتَّى يُدْخِلَه مِن معصيةِ الله فيما يستوجِبُ به عقوبتَه، وأَصْلُ (غرر) يدلُّ على النُّقْصانِ[(٣)].

﴿وَلِتَصْغَى﴾: أي: لِتميلَ إليه، وأصل (صغو): يدلُّ على الميلِ[(٤)].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٣-٦٠٤).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٨).

﴿وَلِيَقْتَرِفُوا﴾: أي: وَلِيَكْتَسِبوا، ولِيَدَّعُوا ما هم مُدَّعُونَ، والاقترافُ: الاكْتِسابُ، حُسنًا كان أو سُوءًا، وهو في الإساءةِ أكثرُ استعمالًا، وأصلُ (قرف) يَدُلُّ عَلَى مُخالطةِ الشَّيءِ، والالتِباسِ به، وادِّراعِه، ومنه: اقْتَرَفْتُ الشَّيءَ: اكْتَسَبْتُه، وكأنَّه لابَسَه وادَّرَعه(١).

مُشْكِلُ الإعْرابِ:

قوله تعالى: ﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾

﴿وَلِتَصْغَى﴾: اللامُ فيه لامُ (كي)، والفِعلُ بعدَها منصوبٌ بإضمارِ (أن)، والمصدَرُ المؤوَّلُ مِن (أنْ) المضْمَرَةِ والفِعلِ في مَحلِّ جرٍّ باللَّامِ، والجارُّ والمجرورُ معطوفٌ على ﴿غُرورًا﴾(٢)، والتَّقديرُ: يُوحِي بَعْضُهم إلى بَعضٍ للغُرورِ وللصَّغْوِ(٣).

المعنى الإجماليُّ:

يخبرُ الله تعالى أنَّه لو أجاب مَن أقْسَموا باللهِ جَهْدَ أَيمانِهم: لَئِنْ جاءَتْهم آيةٌ ليؤمِنُنَّ بها؛ لو أجابَهم لِمَا طَلَبوه؛ فأنزَلَ عليهم الملائِكةَ، أو أَحْيا لهم الموتى، فحَدَّثوهم بصِدْقِ الرَّسولِ، وجَمَعَ لهم جميعَ الأَشياءِ أمامَهم؛ لتُخبِرَهم مباشرةً بصِدْقِ الرَّسولِ، أو جَمَعَها لهم جماعةً جماعةً لتُخْبِرَهم بذلك- لَمَا آمَنُوا إلَّا أنْ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٨، ٢٢٢).

(٢) ﴿غُرُورًا﴾ مفعولٌ لأجلِه، ونُصِب لأنَّه مصدر اتَّفَقَ مع الفعلِ ﴿يوحي﴾ في الفاعل، أمَّا ﴿وَلِتَصْغَى﴾ فلم يتَّحِدْ مع ﴿يُوحِي﴾ في الفاعِلِ؛ فإنَّ فاعلَ الوَحيِ «بَعْضُهم» وفاعلَ الصَّغْوِ الأفئدةُ؛ لذلك جُرَّ بحرفِ الجَرِّ اللَّامِ. يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ١١٧)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٨/ ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٣٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ١١٧)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٨/ ٢٥٧).

يشاءَ اللهُ، ولكنَّ أكثرَهم يَجْهلونَ ذلك.

ويُخْبِر تعالى أنَّه كما ابْتَلَى نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم بأنْ جَعَلَ له أعداءً مِن مَرَدَةِ الإنسِ والجنِّ، يُخالِفونَه ويُحارِبونَه، ويَرُدُّون دَعوتَه؛ جَعَل كذلك لكلِّ نبيٍّ من الأنبياءِ أعداءً منهم؛ يُوَسْوِس شياطينُ الجنِّ إلى شَياطينِ الإنْسِ بالقولِ الباطِلِ المزَيَّنِ، ذي الألفاظِ المزَخْرَفة الخدَّاعةِ، ولو شاءَ اللهُ تعالى ما فعلُوا إيحاءَ القولِ بالغرورِ، ولكنَّ ذلك قَضاءُ اللهِ وقَدَرُه، ثمَّ أمَرَ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يَدَعَهم وما يَفْترونَه.

وأيضًا يُوَسْوِس شياطينُ الجنِّ إلى شَياطينِ الإنْسِ بالقولِ الباطِلِ المزَيَّنِ، ذي الألفاظِ المزَخْرَفة الخدَّاعةِ؛ لِتَميلَ إليه قلوبُ الَّذين لا يُؤمنونَ بالآخِرَة، ولِيَرْضَوا ذلك الكَلامَ، ولِيَكْتَسبوا بسبَبِه ما هم مُكتَسِبونَ مِنَ الكفْرِ والمعاصِي.

تفسيرُ الآيات:

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

بيَّنَ تعالى في هذه الآيةِ تفصيلَ ما ذَكَرَه على سبيلِ الإجمالِ بقولِه: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ فبَيَّنَ سبحانه أنَّه لو أَعْطاهم ما طَلَبوه مِن إنزالِ الملائكةِ، وإحياءِ المَوْتى حتى كلَّموهم، بل لو زادَ في ذلك ما لا يَبْلُغُه اقتراحُهم بأنْ يحْشُرَ عليهم كلَّ شيءٍ قُبُلًا- ما كانوا ليُؤْمِنوا إلَّا أنْ يشاءَ اللهُ(١).

وأيضًا لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى في الآيتينِ اللَّتينِ قبْلَ هذه الآيةِ أنَّ مقترِحِي الآياتِ الكونيَّةِ على الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم أقْسَمُوا باللهِ مُجتهدينَ في أَيمانِهم:

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١١٧).

لِئِنْ جاءَتْهم آيةٌ ليؤمِنُنَّ بها- بيَّن تعالى سُنَّتَه فيهم وفي أمثالِهم مِنَ المعانِدِينَ؛ أنَّهم يَنْظُرونَ إلى الآياتِ، ويتفكَّرونَ فيها بقَصْدِ الجُحودِ والإنكارِ، ويزعمونَ أنَّها لا تَدُلُّ على المطلوبِ، وبَعدَ بَيانِ سُنَّتِه تعالى فيهم عِنْدَ مجيءِ الآيةِ المقتَرحةِ، صَرَّحَ بما هو أَبْلَغُ من ذلك، فقال(١):

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾.

أي: ولو أنَّنا أجَبْنا سؤالَ هؤلاءِ الَّذين أقْسَمُوا باللهِ جَهْدَ أيمانِهم: لئنْ جاءَتْهم آيةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بها، فنزَّلْنا عليهم الملائِكَةَ، ورَأَوْها عِيانًا كما اقترَحُوا، وشَهِدَتْ لهم بصِدْقِ الرَّسولِ، وصِحَّةِ رسالَتِه(٢).

كما أخْبَرَ تعالى عنهم أنَّهم قالوا: ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٩٢].

وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١].

﴿وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

أي: ولو أَحْيَيْنا لهم المَوْتى؛ فأَخْبَروهم بصِدْقِ الرَّسولِ ورِسالَتِه(٣).

﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسير:

في قولِه تعالى: ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ قراءتانِ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٣-٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٣١-١٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٨).

١ - قراءة ﴿قِبَلًا﴾ - بِكَسْرِ القافِ وفَتْحِ الباءِ - أي: مقابلةً وعِيانًا ومشاهدةً، والمعنى: وحَشَرْنا عليهم كلَّ شيءٍ يواجِهُونَه ويُعاينُونَه[١].

٢ - قراءة ﴿قُبُلًا﴾ جمعُ قبيلٍ، والمعنى: وحَشَرْنا عليهم كلَّ شيءٍ قبيلًا قبيلًا، أي: جماعةً جماعةً، وقيل: (قُبُلًا) جمع: (قبيلٍ)، وهو: (الكفيلُ)، فيكون المعنى: لو حُشِرَ عليهم كلُّ شيءٍ، فكَفَلَ لهم بصحَّةِ ما تقولُ؛ ما كانوا ليؤمنوا، وقيل: (قُبُلًا) أي: مُقابلةً ومُواجهةً[٢].

﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾.

أي: ولو أنَّنا جَمَعْنا لهم جميعَ الأشياءِ أمامَهم؛ لتُخْبِرَهم مباشرةً بِصِدْقِ ما جاء به الرَّسولُ، أو جمَعْناها لهم فوجًا فوجًا، وجماعةً جماعةً؛ لتُخْبِرَهم بذلك[٣].

﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾.

أي: لو فَعَلْنَا لهم كُلَّ ذلك؛ ما حَصَل منهم الإيمانُ، إلَّا أنْ يَشاءَ اللَّهُ إيمانَهم؛ لأنَّهم قومٌ مُتَعَنِّتونَ[٤].

كما قال سبحانَه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

---

(١) قرأ بها المدنيان وابن عامر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٤٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٢٢)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٤٤٧).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٤٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٦٧)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٨٠)، ((البحر المحيط)) لأبي حيَّان (٤/ ٦٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٣٣-١٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٣٤).

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾.

أي: ولكنَّ أكثرَ هؤلاءِ الكُفَّارِ يَجْهَلون أنَّه لو أُنْزِلَت عليهم الآياتُ التي اقترَحوها لم يُؤمِنوا إلَّا أن يشاءَ اللهُ تعالى؛ فليس الإيمانُ إليهم، ولا الكُفرُ بأيديهم؛ فمتى شاؤُوا آمَنوا، ومتى شاؤُوا كَفَروا، بل مَرَدُّ ذلك إلى الله تعالى وحْدَه. ومِنْ جَهْلِهم أنَّهم رتَّبوا إيمانَهم على مجرَّدِ إتيانِ الآياتِ، وإنَّما العَقْلُ والعِلْمُ أن يكونَ مقصودُ العبدِ اتِّباعَ الحقِّ، وطلَبَه بالطُّرقِ التي بيَّنها اللهُ عزَّ وجلَّ(١).

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ جلَّ وعلا في هذه السُّورةِ الكريمةِ ما لاقى النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن أذَى المشركينَ ومِن عَداوَتِهم، وعدَمِ انقيادِهم إليه؛ كما في قوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ إلى قَوْلِه: ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ...﴾ [الأنعام: ٣٣- ٣٥]، وأنَّ أولئك المشركينَ المقترِحينَ للآياتِ أعداءٌ للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وما اقترَحوا ما اقترَحوا إلَّا لاعتقادِهم أنَّهم لا يُؤتَوْنَه، فيكون ذلك بابًا للطَّعْنِ في رسالَتِه - بَيَّنَ اللهُ لنبيِّه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٩٢-٤٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٣٥).

وقال ابنُ عاشورٍ: (الاستدراكُ بقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ راجِعٌ إلى قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾ المقتضي أنَّهم يُؤمنونَ إذا شاءَ الله إيمانَهم؛ ذلك أنَّهم ما سَألوا الآياتِ إلَّا لتوجيه بقائِهم على دِينِهم؛ فإنَّهم كانوا مُصَمِّمينَ على نَبْذِ دَعوةِ الإيمانِ، وإنَّما يتعلَّلونَ بالعِلَلِ بِطَلَبِ الآياتِ استهزاءً، فكان إيمانهم- في نَظَرِهم- من قبيل المُحالِ، فبَيَّنَ الله لهم أنَّه إذا شاء إيمانَهم آمنوا) ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٧).

صلَّى الله عليه وسلَّم في هذه الآيةِ الكريمةِ أنَّه ما أرسلَ نبيًّا من الأنبياءِ إلَّا جعَلَ له أعداءً كفرَةً فجَرَةً من شياطينِ الإنسِ والجنِّ، والقَصْدُ من هذا تسليةُ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وتَثبيتُ فؤادِه؛ لأنَّ ما لوقِيَ به من العَداوةِ إذا كان قد لاقاه إخوانُه الكِرامُ من الرُّسُلِ الكرامِ؛ هوَّنَ ذلك الأمَرَ عليه، فتلك هي سُنَّة الله في جميعِ الرسل[1]، فقال تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ ﴾.

أي: وكما ابْتَلَيناك- يا محمَّدُ- بأنْ جَعَلْنا لك أعداءً مِن مَرَدَةِ الإنْسِ والجنِّ يُخالِفونَك، ويردُّون دَعْوتَك، ويُعادُونك ويُحارِبونَك، فكذلك ابتَلَيْنا مَن قَبْلَك من الأنبياءِ، بأنْ جَعَلْنا لهم أعداءً يُحارِبونَهم ويُؤْذُونَهم؛ مِن مَرَدَةِ الإنسِ والجنِّ؛ فهذه سُنَّتُنا، فاصْبِرْ أنت كما صَبَروا[2].

كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ [آل عمران: ١٨٤].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام: ٣٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١].

وفي حديثِ بَدْءِ الوحيِ عن عائشةَ رَضِيَ الله عنها قالت: ((... فقال له وَرَقَةُ:

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٣٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٩٧-٤٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١٨-٣١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٣٥-١٤٧).

هذا النَّاموسُ(١) الذي نَزَلَ اللهُ به على مُوسَى، يا لَيْتَني فيها جَذَعًا(٢)، لَيْتَني أكونُ حيًّا إذْ يُخرِجُك قومُك، فقال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: أوَمُخْرِجِيَّ هم؟ قال: نعم، لم يَأْتِ رجُلٌ قطُّ بمِثْلِ ما جِئْتَ به إلَّا عُودِيَ))(٣).

﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾.

أي: يُوَسْوِسُ شياطينُ الجنِّ إلى شَياطينِ الإنسِ بالقَولِ الباطِلِ المُزَيَّن، ذي الألفاظِ المزَخْرَفة، والعباراتِ المنمَّقة المُمَوَّهَة، ويَجْعلونَه في أحسَنِ صورةٍ، فيُؤْذي به شياطينُ الإِنسِ الأنبياءَ بالجِدالِ والخُصوماتِ، ويُضِلُّون به النَّاسَ، ويَفْتِنونهم عن اتِّباعِ الحقِّ(٤).

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١].

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾.

أي: ولو شاءَ اللهُ تعالى - يا محمَّدُ - لَمَنع أولئكَ الشَّياطينَ مِن أن يُوحي بعضُهم

---

(١) النَّاموسُ: صاحِبُ سِرِّ الخيرِ. وناموسُ الرَّجُلِ: صاحِبُ سِرِّه الذي يُطْلِعُه على باطن أَمْرِه، وأهلُ الكِتابِ يسمُّونَ جبريلَ بالنَّاموسِ؛ سُمِّي عليه السلام بذلك؛ لأنَّ اللهَ تعالى خَصَّصَه بالوَحْيِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ١١٩)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٧٣٣)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ٢٦).

(٢) جَذَعًا: أي: جَلْدًا شَابًّا قويًّا حتى أبالِغَ في نُصْرَتِك، وأصْلُ الجَذَعِ من أسنانِ الدَّوابِّ، وهو ما كان منها شابًّا فتيًّا. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٢٥٠)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٧٣٣)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ٢٦).

(٣) رواه البخاري (٣) واللفظ له، ومسلم (١٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٩٧-٥٠٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٧١)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٦٧)، ((بدائع الصنائع)) لابن القيم (٢/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٦٩-٢٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٤٩).

إلى بعضٍ زُخرفَ القولِ، ولكنْ قدَّرَ اللهُ تعالى وقَضَى أن يكونَ لكُلِّ نبيٍّ عدوٌّ مِنْ هؤلاءِ[١].

﴿ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾.

أي: فَدَعْ- يا محمَّدُ- أولئك الَّذين يُجادلونَك بالباطِلِ، ويُخاصِمونَك بما يُوحِي إليهم أَوْلياؤُهم من الشَّياطينِ، ودعْ عنك ما يختلِقونَه من إفكٍ وزُورٍ؛ فسيَجِدونَ غِبَّ ذلك وعاقِبَتَه الوَخِيمةَ، واصبرْ عليهم، وتوكَّلْ على اللهِ في عداوَتِهم؛ فإنَّ اللهَ كافيك، وناصِرُك عليهم[٢].

﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾.

﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾.

أي: ولِتَميلَ إلى ذلك الكَلامِ المُزخرَفِ قلوبُ الَّذين لا يُؤْمنونَ بالآخِرَةِ؛ فعَدَمُ إيمانِهم باليَوْمِ الآخِرِ يَحمِلُهم على ذلك[٣].

﴿ وَلِيَرْضَوْهُ ﴾.

أي: ولِيُحِبُّوه ويُريدوه بعد أنْ يَصْغَوا إليه، ويُزيَّنَ في قُلوبِهم[٤].

---

(١) وهذا اختيارُ الواحديِّ في ((الوجيز)) (ص: ٣٧١)، والقرطبيِّ في ((تفسيره)) (٧/ ٦٨)، والشنقيطيِّ في ((العذب النمير)) (٢/ ١٥٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١١).
وقيل: عودُ الضَّمير في قولِه: ﴿فَعَلُوهُ﴾ إلى العداوةِ، وهذا ظاهرُ اختيارِ ابنِ جريرٍ في ((تفسيره)) (٩/ ٥٠٣)، وابنِ كثيرٍ في ((تفسيره)) (٣/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٢١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٥٧).

﴿وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾.

أي: وليَكْتَسِبوا ما هم مُكْتَسِبونَ مِنَ الكُفْرِ والمعاصي؛ بسَبَبِ ذلك القَوْلِ المزخْرَفِ، الذي صَغَتْ إليه قلوبُهم ورَضُوه وأحبُّوه(١).

الفَوائد التربويَّة:

١- مَضَتْ سُنَّةُ اللهِ تعالى في الخَلقِ بأن يكونَ الشرِّيرُ المتمرِّدُ، العاتي عن الحَقِّ والمعروفِ، الذي لا ينقادُ لهما؛ كِبرًا وعنادًا، وجمودًا على ما تعوَّدَ؛ يكون عدوًّا للدُّعاةِ إليهما؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾(٢).

٢- المؤمنُ الذي يعلم أنَّ ربَّه هو الذي يُقَدِّر، وهو الذي يأذَنُ، خليقٌ أن يستهينَ بأعدائِه من الشَّياطينِ مهما تَبلُغ قوَّتُهم الظَّاهرةُ، وسُلطانُهم المُدَّعَى؛ يُرشِدُ إلى ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ أي: فأنا مِن ورائِهم قادرٌ على أَخْذِهم، مُدَّخِرٌ لهم جَزاءَهم(٣).

٣- الحَذَرُ مِنَ الشَّيطانِ؛ فإنَّه قد لَزِمَ ثَغْرَ الأُذُنِ، يُدْخِلُ فيها ما يَضُرُّ العبدَ ولا ينفَعُه بطُرُقٍ خفيَّةٍ دقيقةٍ، لا يَفْطِنُ لباطِلِها كلُّ أحدٍ؛ فتُسْرِعُ العقولُ الضَّعيفةُ إلى قَبولِه واستِحْسانِه؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ الآية،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٥٧-١٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٦).

(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١١٩٠-١١٩١).

إلى قَوْلِه: ﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾[1].

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ دلَّ ظاهِرُه على أنَّه تبارَك وتعالى هو الذي جَعَلَ أولئك الأعداءَ أعداءً للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، ولا شَكَّ أنَّ تلك العداوةَ مَعْصِيةٌ وكفرٌ؛ فهذا يقتضي أنَّ خالِقَ الخيرِ والشَّرِّ، والطَّاعةِ والمَعْصِيَةِ، والإيمانِ والكُفْرِ؛ هو اللهُ تعالى[2].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾، قال: ﴿عَدُوًّا﴾ معبِّرًا عن الجَمعِ بالمفردِ- والمراد به الجنس- إشارةً إلى أنَّهم يدٌ واحدةٌ في العَدَاوةِ[3].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ فيه أنَّ كلامَ أعداءِ الرُّسُلِ تَصْغَى إليه أفئدةُ الَّذين لا يُؤمنونَ بالآخِرَة؛ فعُلِمَ أنَّ مخالفَةَ الرُّسُلِ وتَرْكَ الإيمانِ بالآخِرَةِ متلازمانِ؛ فمَنْ لم يُؤْمِنْ بالآخرةِ صَغَى إلى زُخْرُفِ أعدائِهم، فخَالَفَ الرُّسُلَ[4].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ وقوله: ﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ هذه الجُمَل على غايةِ الفَصاحةِ؛ لأنَّه أوَّلًا يكونُ الخِداعُ، فيكونُ المَيلُ، فيكون الرِّضا، فيكون فِعْلُ الاقترافِ، فكأنَّ كلَّ واحدٍ مسَبَّبٌ عمَّا قَبْلَه[5].

---

(١) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص:٩٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٣٨٤)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٤٥).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٣٢).
(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ٣٣).
(٥) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٣٤).

بلاغة الآيات:

١- ﴿وَلَو أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾

- قوله: ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ أَبْلغُ في النَّفيِ من (لم يُؤْمِنوا) ومِنْ: (لا يؤمنون)، وأشدُّ تقويةً لنَفْيِ إيمانِهم مع ذلك كلِّه؛ لأنَّ فيه نَفْيَ التأهُّلِ والصلاحيَّةِ للإيمانِ؛ لأنَّهم مُعانِدونَ مُكابِرونَ، غيرُ طالبينَ للحَقِّ؛ لأنَّهم لو طَلَبوا الحقَّ بإنصافٍ لكَفَتْهُم معجزةُ القرآنِ، إنْ لم يكْفِهم وضوحُ الحقِّ فيما يَدْعو إليه الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسلامُ، ولذلك جاءَتْ لامُ الجحودِ في الخَبَرِ[1].

- قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ فيه: التفاتٌ إلى الاسمِ الجليلِ- حيث لم يقل: (نشاء)- وهذا الإظهار في مقامِ الإضمارِ؛ لتربيةِ المهابةِ، وإدخالِ الرَّوعةِ؛ أي: ما كانوا ليُؤمِنوا بعد اجتماعِ ما ذُكِرَ منَ الأمورِ الموجِبَةِ للإيمانِ في حالٍ من الأحوالِ الدَّاعيةِ إليه، المتمِّمةِ لمُوجِباتِه المذكورةِ، إلَّا في حالِ مَشيئَتِه تعالى لإيمانِهم، أو ما كانوا ليُؤْمِنوا لعلَّةٍ من العِلَلِ المعدودةِ وغيرِها إلا لِمَشِيئَتِه تعالى له[2]. وأيضًا لأنَّ اسمَ الجلالةِ يُومئُ إلى مقامِ الإطلاقِ، وهو مقامُ ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، ويومِئُ إلى أنَّ ذلك جرى على حَسَبِ الحِكْمةِ؛ لأنَّ اسمَ الجلالةِ يتضَمَّنُ جميعَ صفاتِ الكمالِ[3].

- قَوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ استثناءٌ مِن عمومِ الأحوالِ التي تَضمَّنها عمومُ نفْيِ إيمانِهم، وفي هذا الاسْتثناءِ تعريضٌ بوعْدِ المسلمينَ بتَغْيير قُلوبِ هؤلاء المشركين، فيُؤْمِنوا طَوْعًا، أو أن يُكرِهَهم على الإيمانِ بأن يُسَلِّطَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٧٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٧).

عليهم رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم كما أرادَ اللَّه ذلك بفتحِ مَكَّةَ وما بعدَه[١].

- التعبيرُ بالمضارعِ في: ﴿يَجْهَلُونَ﴾ يدلُّ على أنَّهم مِن عادَتِهم وشأنِهم الجهلُ، وعدمُ المعرفةِ باللهِ[٢].

٢- قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ... فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ اعتراضٌ قُصِدَ منه تَسْليةُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، والتأسِّي بمَن تَقَدَّمَه مِن الأنبياءِ، وأنَّه ليس مُنْفَرِدًا بعَداوةِ مَن عاصَرَه، والواوُ واوُ الاعتراضِ؛ لأنَّ الجملةَ بمنزلَةِ الفَذْلكةِ، وتكونُ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم تسليةً، بعد ذِكْرِ ما يَحْزُنُه من أحوالِ كفَّارِ قومِه، وتصلُّبِهم في نَبْذِ دعوَتِه، فأَنْبَأه اللهُ بأنَّ هؤلاءِ أعداؤُه، وأنَّ عَداوةَ أمثالِهم سُنَّةٌ مِن سُنَنِ اللهِ تعالى في ابتلاءِ أنبيائِه كلِّهم[٣].

- قوله: ﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ﴾ فيه: تقديمُ المفعولِ الثاني ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾ على المفعول الأوَّلِ ﴿عَدُوًّا﴾؛ للاهتمامِ به[٤].

- قوله: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ أمرٌ فيه وعيدٌ وتهديدٌ لهم[٥].

- وعَبَّرَ هنا بقَوْلِه تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾، وقال بَعْدَه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾، فقال هنا بلفْظِ (الرَّب)، وبعده بلَفْظِ (الله)، وذلك لمناسبةٍ حسنةٍ؛ وهي أنَّ الأُولى جاء قَبْلَها قولُه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٧).
(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٣٥).
(٣) يُنظر: ((تفيسر أبي حيان)) (٤/ ٦٢٣، ٦٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٢٥).

بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾، فجاء فيها ﴿رَبُّكَ﴾ ليتضمَّنَ معنى أنَّ الله تعالى هو مَن يَحْجُزُهم عن مَضَرَّتِه صلَّى الله عليه وسلَّم، وأن يَظْفَروا بمُرادِهم مِن عداوَتِه. وقولُه في الآيَةِ الأخرى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾، جاءَ بعد قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾، فأخبَرَ أنَّهم أقاموا للهِ تعالى- الذي يحِقُّ إفرادُه بالعبادةِ- شركاءَ، فقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ﴾، فهذا موضِعٌ لم يَلِقْ به إلَّا الاسمُ الذي يفيدُ معنًى فيه حجَّةٌ عليهم دون غيرِه من الأسْماءِ، فأفادَ كُلُّ اسمٍ من الاسْمينِ في مكانِه ما لم يكُنْ لِيُسْتفادَ بغيرِه(١).

وقيل: بل المناسبةُ أنَّه لَمَّا تقدَّمَ الآيَةَ الأُولى قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام:١١١]، فعَرَّفَ سبحانَه نبيَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بما سبَقَ لهؤلاءِ، وما قَدَّرَه عليهم في الأَزَلِ؛ حتى لا يُجدِي عليهم شيءٌ، ولا ينفَعُهم تَذكارٌ، فلَمَّا تقدَّمَ مِنَ القَدَرِ على هؤلاءِ ما يُثيرُ أشَدَّ الخوفِ؛ كان مَظِنَّةَ إشفاقٍ، فآنَسَ نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم ولاطَفَه بإضافةِ اسمِ ربوبيَّتِه سبحانَه لنبيِّه عليه السلام، مخاطبًا له؛ فقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾، ولَمَّا لم يَقَعْ قبل الآيةِ الثانيةِ مثلُ هذا، وإنَّما جاءَ قبْلَها: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٧]، وليس هذا في اقْتِضاءِ الحَتْمِ عليهم المُؤْذِن بقَطْعِ الرَّجاءِ منهم؛ كقَوْلِه في الأُولى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ ..﴾ الآية،

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٥٣٧-٥٣٨).

فلذلك قال عَقِبَ هذه الآيةِ الثَّانيةِ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام:١٣٧]، فجاء باسْمِه الجليلِ تعالى مِنْ غيرِ إضافةٍ؛ إذ ليس هذا مثلَ الأوَّل، ولو ورَدَ الاسمُ الجليلُ أوَّلًا والاسمُ الكريمُ المضافُ ثانيًا لَمَا ناسَبَ على ما تمهَّدَ[١].

٣- قوله: ﴿وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ عُطِفَ ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾ على ﴿وَلِتَصْغَى﴾، وإنْ كان الصَّغْيُ يقتضِي الرِّضا ويُسَبِّبُه، فكان مقتضى الظَّاهِرِ أن يُعطَفَ بالفاءِ، وألَّا تُكَرَّرَ لامُ التَّعليلِ، فخولِفَ مقتضى الظَّاهِرِ؛ للدَّلالةِ على اسْتِقْلالِه بالتَّعليلِ، فعُطِفَ بالواوِ، وأُعيدَتِ اللامُ لتأكيدِ الاستقلالِ، فيدلُّ على أنَّ صَغْيَ أفئدَتِهم إليه ما كان يَكْفي لعمَلِهم به إلَّا لأنَّهم رَضُوه[٢].

- قوله: ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ الاقترافُ افتِعالٌ مِنْ (قَرَفَ) إذا كَسَبَ سيئةً، وصيغةُ الافتعالِ فيه للمُبالغةِ[٣].

- وجيءَ في صلَةِ الموصولِ في قوله: ﴿مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ بالجُمْلةِ الاسميَّةِ؛ للدَّلالةِ على تمَكُّنِهم في ذلك الاقترافِ، وثباتِهم فيه[٤].

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٦٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ١٢-١٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١١٤-١١٧)

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًاۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿الْمُمْتَرِينَ﴾: أي: الشاكِّين، والمِرْيَة: التردُّدُ في الأمرِ، وهو أخصُّ من الشكِّ[1].

﴿يَخْرُصُونَ﴾: يكْذِبونَ، وأصلُ (خرص): كَذَب، والخرَّاص الكذَّاب، وكُلُّ قولٍ عن ظنٍّ وتخمينٍ يُقال له: خَرْص، سواء كان ذلك مُطابقًا للشَّيءِ، أو مُخالِفًا له[2].

مُشْكِلُ الإعْرابِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾

﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾: صِدْقًا: منصوبٌ على التَّمييزِ، ويجوزُ أنْ يكونَ مفعولًا من أجْلِه، وأنْ يكونَ مصدرًا في موضِعِ الحالِ بمعنى: صادِقةً وعادلةً[3].

٢- قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (١/ ٩٧، ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٨، ١٩٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٠٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٨، ٢٣١، ٣٧٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٩).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن لمكي)) (١/ ٢٦٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٣٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ١٢٤).

﴿مَنْ يَضِلُّ﴾: في ﴿مَنْ﴾ وجهان:

الوجه الأول: أنَّها موصولةٌ بمعنى (الذي) في موضِعِ نصبٍ بفِعلٍ دلَّ عليه ﴿أَعْلَمُ﴾ لا بنَفْسِ ﴿أَعْلَمُ﴾؛ لأنَّ (أَفْعَل) لا يعملُ في الاسْمِ الظَّاهِرِ النَّصْبَ، والتَّقديرُ: هو أعلمُ يَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ، أي: الضَّالِّين، ولا يجوزُ أن يكون ﴿مَنْ﴾ في موضِعِ جرٍّ بالإضافةِ؛ لفسادِ المعنى؛ لأنَّ التَّقديرَ سيَصير: هو أعلمُ الضَّالِّين- تعالى اللهُ عن ذلك عُلوًّا كبيرًا. وقيل: في موضِعِ نَصْبٍ بِنَزْعِ الخافِضِ وهو الباءُ، كما دلَّ عليه وجودُ الباءِ في قوله ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾

والوجه الثاني: أنَّ ﴿مَنْ﴾ اسمُ استفهامٍ في موضِعِ رفعٍ مبتدأٌ، و﴿يَضِلُّ﴾ جملةُ الخبَرِ، وموضِعُ الجملة نصْب بـ(يَعْلَمُ) المقدَّرَة لا بِنَفْسِ ﴿أَعْلَمُ﴾، وقرئ (مَنْ يُضِلُّ) بضمِّ الياءِ، و﴿مَنْ﴾ أيضًا في موضع نصبٍ بـ(يَعْلَمُ) مقدَّرَةً، أو بنَزْعِ الخافِضِ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يأمرُ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم أن يقولَ لأولئك المُشركينَ: أَغَيْرَ اللهِ أتَّخِذُ حاكِمًا أتحاكَمُ إليه، وهو الذي أنزلَ إليكم الكتابَ مُبَيَّنًا فيه حُكمُ ما تختصمونَ، موضَّحًا فيه العقائِدُ والأَحكامُ، وإنَّ اليهودَ والنَّصارى الَّذين أَعْطاهم اللهُ التوراةَ والإنجيلَ يعلمونَ أنَّ هذا القرآنَ مُنَزَّلٌ منه جلَّ وعلا بالحقِّ، ثمَّ نهى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم عن الشَّكِّ في القرآنِ.

وأخبر تعالى أنَّه كَمُلَت كَلِماتُه عزَّ وجلَّ صِدْقًا في جميعِ الأخبارِ، وعدلًا في جميعِ الأَحْكامِ، لا أحَدَ بإمكانِه تغييرُ كلماتِه سبحانه، وهو السَّميعُ العليمُ.

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٦٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٣٥-٥٣٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ١٢٧-١٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣).

ثم وجَّه الخِطابَ إلى نبيِّه محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه إن أطاعَ أكثرَ أهْلِ الأَرْضِ، فإنَّهم يُضِلُّونه عن دِينِ اللهِ عزَّ وجلَّ، فهم لا يتَّبعونَ إلا ظُنونًا باطِلَةً، ويَكْذِبونَ على اللهِ تعالى فيقولونَ عليه ما لا يَعْلمونَ.

ثم أخبَرَه أنَّه تعالى هو أعلمُ بمن ينحَرِفُ عن الطَّريقِ الحَقِّ، وهو أعلَمُ بمن هو على هدايةٍ واستقامةٍ.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾.

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

أنه لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى في السِّياقِ الذي قبل هذا أنَّ الَّذين اقترحُوا على رسولِه الآياتِ الكونيَّةَ، وأقسموا بأنَّهم يؤمنونَ بها إذا جاءَتْهم؛كاذبونَ في دعواهم وأَيمانِهم، كما ثبَتَ فيما مَضَتْ به سُنَّةُ اللهِ في أمثالِهم من أعداءِ الرُّسُلِ المعانِدِينَ، وهم شياطينُ الإنسِ والجنِّ الَّذين يُغْرُونَ الجاهلينَ بزُخْرفِ أقوالِهم- قَفَّى على هذا البيانِ هاتينِ الآيتينِ المُبَيِّنَتينِ لآيةِ اللهِ الكُبرى التي هي أقوى دَلالةٍ على رسالةِ نَبيِّه مِن جميعِ ما اقترَحُوا، ومِمَّا لم يقترحوا من الآياتِ الكونيَّةِ، وهي القرآنُ الحكيمُ، وكَونُ مُنْزِلِها هو الذي يجِبُ الرُّجوعُ إليه في الحُكْم في أمْرِ الرِّسالةِ وغيرِه[1].

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا ﴾.

أي: قلْ- يا محمَّدُ- لأولئك المُشركينَ: أأَضِلُّ عن طريقِ الحقِّ؛ فأجعلَ حاكمًا أتحاكَمُ إليه، وأتقيَّدُ بأوامِره ونواهِيه دونَ الله تعالى؟ كلَّا؛ فلا يكونُ ذلك،

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٩).

ولا ينبغي أن يُتَّخَذَ حاكمٌ، سِوى اللهِ وحْدَه لا شريكَ له، الذي له الخلْقُ والأمْرُ، والذي لا حَكَمَ أَعدَلُ منه، ولا قائِلَ أَصدَقُ منه؛ فليس لي أنْ أتجاوَزَ حُكْمَه[١].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾.

أي: وهو الذي أنزَلَ إليكم الكتابَ مبيَّنًا فيه الحُكمُ فيما تختصمونَ فيه، موضِّحًا فيه العقائدُ، والأحكامُ الشَّرعيَّة، والحقُّ والباطلُ؛ فهو الكتابُ الذي لا بَيانَ فَوقَه، ولا بُرهانَ أَجْلى منه، ولا حَكَم أحسَنُ منه[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

وقال سبحانه: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾.

أي: واليهودُ والنَّصارى، الَّذين أَعْطَيْناهم التَّوراةَ والإنجيلَ، يعلمونَ أنَّ القرآنَ أُنْزِلَ إليك- يا محمَّدُ- مِن ربِّك متلبِّسًا بالحقِّ، فكلُّه حقٌّ وهُدًى، وماذا بعد الحقِّ إلَّا الضَّلالُ[٣]؟

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٥٩-١٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٦٧-١٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٠٦-٥٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٧٠).

قال ابن تيمية: (وذلك أنَّ الكتاب الأوَّلَ مُصَدِّقٌ للقرآنِ؛ فمن نظَرَ فيما بأيدي أهل الكتاب من التوراة والإنجيل عَلِمَ علمًا يقينًا لا يحتمل النقيضَ أنَّ هذا وهذا جاءا من مشكاةٍ واحدة، لا سيما في بابِ التوحيد والأسماء والصفاتِ؛ فإنَّ التوراةَ مطابقةٌ للقرآن، موافِقةٌ له مُوافَقَةً لا ريبَ فيها. وهذا ممَّا يبيِّنُ أنَّ ما في التوراة من ذلك ليس هو من المُبَدَّل الذي أنكره عليهم القرآنُ، بل هو من الحقِّ الذي صَدَّقَهم عليه). ((درء تعارض العقل والنقل)) (٥/ ٢٢٢).

﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾.

أي: وما دامَ هذا القرآنُ حقًّا لا مِرْيَةَ فيه؛ فَلا تشُكَّنَّ فيه، يا محمَّدُ[1].

كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس: ٩٤].

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ ﴾.

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾.

أي: وكَمُلَت كلماتُ ربِّكَ صِدْقًا في جميعِ الأخبارِ، وعَدْلًا في جميعِ الأَحْكامِ، فما في القرآنِ من أحكامٍ فهو في غايةِ العدالةِ والإنصافِ، وما فيه من الأخبارِ فهو حقٌّ مُطابِقٌ للواقِعِ؛ فلا أصدَقَ مِنْ أخبارِ الله التي أَوْدَعَها هذا الكتابَ العزيزَ، ولا أَعدَلَ مِن أوامِره ونواهيه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٧٠).
قال الشنقيطي: (ومعلومٌ أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم لم يكن شاكًّا فيما أوحى اللهُ إليه، وإنَّما هذا كقوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤] وكقوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤] وكقوله: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١] ولا يخفى أنَّ رسولَ الله صلواتُ الله وسلامُه عليه أنَّه مُتَّقٍ لله، وأنَّه لا يطيعُ منهم آثمًا ولا كَفورًا، وأنَّه لا يُشرك. وقد جرت العادةُ في القرآن أنَّ الله جلَّ وعلا يأمر نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم وينهاه ليُشَرِّعَ ذلك الأمرَ والنَّهيَ لأمَّتِه على لسانِه صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لأنَّه هو القدوةُ لهم، المُشَرِّع لهم بِقولِه وفِعْلِه وتقريرِه) ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٧١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٧٤-١٧٥).
وممن اختار أنَّ المرادَ بالكلماتِ هنا القرآنُ: ابنُ جريرٍ، وابنُ عاشورٍ، ونَسَبه لجمهورِ المفسِّرين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٨-١٩).
وممن قال به من السَّلف: قتادةُ. يُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٦٩).

﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾.

أي: لا أحدَ يُمكِنُه تغييرُ كلماتِ الله تعالى؛ فقد حَفِظَها وأحْكَمَها بأعلى أنواعِ الصِّدْقِ، والحقِّ؛ فلا يمكنُ تغييرُها، ولا الإتيانُ بأحْسَنَ منها[1].

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

أي: وهو السَّميعُ لأقوالِ عبادِه، العليمُ بحركاتِهم وسَكَنَاتهم، الذي أحاط سَمْعُه وعِلْمُه بكلِّ شيءٍ، فيجازي كلَّ عاملٍ بعمَلِه؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشَرٌّ[2].

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا أجابَ اللهُ تعالى عن شُبُهاتِ الكُفَّارِ، وبيَّنَ صحَّةَ نبوَّة نبيِّه عليه السَّلامُ- شَرَعَ في الحثِّ على الإعراضِ عَن جَهْل الجُهَّالِ، والإقبالِ على ذي الجلالِ[3]، فقال تعالى:

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

أي: وإنْ تُطِعْ أكثرَ أهْلِ الأرضِ- يا مُحمَّد- يَصْرِفوك ويصدُّوكَ عَن دِينِ الله عزَّ وجلَّ؛ فإنَّ أكثَرَهم قد انحَرَفوا عن طريقِ الحَقِّ[4].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الصافات: ٧١].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٠).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٣٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٩٤-١٩٩).

وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الرعد: ١].

وعن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((يقولُ اللهُ تعالى: يا آدمُ، فيقول: لبَّيكَ وسَعْدَيكَ، والخيرُ في يدَيكَ، فيقولُ: أَخرِجْ بَعْثَ النَّارِ، قال: وما بَعْثُ النَّارِ؟ قال: مِن كلِّ ألفٍ تِسعَمائةٍ وتسعةً وتسعينَ، فعنده يَشيبُ الصَّغيرُ، وتضعُ كلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها، وترى النَّاسَ سُكارَى وما هم بسُكارَى، ولكنَّ عذابَ اللهِ شديدٌ))[1].

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾.

أي: وهُم في ضَلالِهم ليسوا على يقينٍ مِن أَمْرِهم، وليس لديهم مُستنَدٌ علميٌّ يُثبِتُ صِحَّةَ طريقِهم، فغايَتُهم أنَّهم يتَّبعونَ ظُنونًا باطلةً، لا تُغني من الحَقِّ شيئًا، ويَكْذِبونَ على الله تعالى فيقولونَ عليه ما لا يَعْلَمونَ[2].

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾.

أي: إنَّ ربَّك- يا مُحمَّدُ- أعلمُ منك ومِن جميعِ خَلْقِه، بمن ينحَرِفُ عن طريقِ الحَقِّ، فيُيَسِّرُه لذلك، وبمن يَسيرُ على استقامةٍ وسَدادٍ، فيُيَسِّرُه لذلك[3].

الفوائدُ التربويَّة:

في قَوْلِه تعالى: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ

---

(١) رواه البخاري (٣٣٤٨) واللفظ له، ومسلم (٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٩٩-٢٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٠١-٢٠٥).

يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ دليلٌ على أنَّه لا يُستدَلُّ على الحقِّ بكثرةِ أهْلِه، ولا تدُلُّ قلَّةُ السَّالكينَ لأَمْرٍ من الأُمورِ أن يكون غيرَ حَقٍّ، بل الواقِعُ بخلافِ ذلك؛ فإنَّ أهلَ الحقِّ هم الأقلُّونَ عددًا، الأَعْظمونَ عند الله قَدْرًا وأجْرًا، بل الواجبُ أن يُستدَلَّ على الحقِّ والباطِلِ بالطُّرقِ الموصلَةِ إليه(١).

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ أي: إنَّ الكتابَ الحاكِمَ مُفصَّلٌ بَيِّنٌ؛ ففيه ردٌّ على من يَزْعُم أنَّ نُصوصَ الكتابِ لها معانٍ لا تُفهَم، ولا يُعْلَمُ المرادُ منها، أو أنَّ لها تأويلاتٍ باطنةً خِلافَ ما دلَّت عليه ظواهِرُها(٢).

٢- قولُه تعالى: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يدلُّ على أنَّ أكثَرَ أهلِ الأرضِ كانوا ضُلَّالًا؛ لأنَّ الإِضْلالَ لا بدَّ أن يكون مَسْبوقًا بالضَّلالِ(٣).

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾
الاستفهامُ معناه الإنكارُ والنَّفيُ، أي: لا أبتغِي حَكَمًا غيرَ اللهِ(٤).

- وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ جملةٌ حاليَّةٌ مؤكِّدةٌ لإنكارِ ابتغاءِ غيرِه تعالى حَكَمًا، ونسبةُ الإنزالِ إليهم خاصَّةً مع أنَّ مقتضى المقامِ إظهارُ تَساوِي نِسْبَتِه إلى المُتَحاكِمينَ؛ لاستمالَتِهم نحْوَ الْمُنْزَلِ، واستنزالِهم إلى قَبولِ حُكْمِه بإيهامِ قُوَّةِ نِسْبَتِه إليهم(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٠).
(٢) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٣/ ١٠٤٣-١٠٤٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٢٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٧٧)، ((تفسير الألوسي)) (٤/ ٢٥٤).

٢- قوله: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ كلامٌ مستأنَفٌ مَسُوقٌ مِن جِهَتِه سبحانه؛ لتحقيقِ حَقِّيَّةِ الكتابِ الذي نِيطَ به أمرُ الحَكَميَّة[1].

- وفي التعبيرِ عن التَّوراةِ والإنجيلِ باسْمِ ﴿الكِتَاب﴾ إيماءٌ إلى ما بينهما وبينَ القرآنِ مِن المجانَسَة المقتضِيَة للاشتراكِ في الحقِّيَّة، والنُّزولِ مِن عِندِه تعالى، مع ما فيه من الإيجازِ[2].

- وقوله: ﴿مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ﴾ فيه التَّعرُّضُ لعنوانِ الربوبيَّةِ، مع الإضافةِ إلى ضميرِه صلَّى الله عليه وسلَّم في ﴿رَبِّكَ﴾؛ لتشريفِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[3].

- قوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ يحتملُ أن يكونَ المخاطَبُ الرَّسولَ عليه الصَّلاة والسَّلام، والمقصودُ من الكلامِ المشركونَ الْمُمْتَرون، على طريقة التَّعريضِ، كما يُقال: (إيَّاكِ أعني، واسْمَعي يا جارةُ)، ويحتَمِلُ أن يكون خِطابًا لغَيْرِ مُعَيَّن؛ ليعُمَّ كلَّ مَن يحتاجُ إلى مِثْلِ هذا الخطابِ؛ أي فلا تكونَنَّ- أيُّها السَّامِعُ- مِنَ المُمْتَرينَ[4].

٣- قوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ فيه إظهارٌ في مَوْضِعِ الإضمارِ- حيث قال ﴿رَبِّكَ﴾ ولم يقل (كَلِمَتُه)؛ لتذكيرِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بما له سبحانَه من الإحسانِ، والتَّنبيهِ على ما يريدُ به من التَّشْريفِ والإكرامِ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٧٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٧).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٣٨).

- قوله: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ استئنافٌ مُبيِّنٌ لفَضْلِ كَلماتِه على غيرِها، إثْرَ بيانِ فَضْلِها في نَفْسِها[١].

- قوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ تذييلٌ لجملة: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾، أي: وهو المطَّلِعُ على الأقوالِ، العليمُ بما في الضَّمائرِ[٢]، وفيه: تعريضٌ بالوعيدِ لِمَن يسعى لتبديلِ كلماتِه[٣].

٤- قوله: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ فيه: تمثيلٌ لحالِ الدَّاعي إلى الكُفْرِ والفسادِ مَن يقبَلُ قولَه، بحالِ مَن يُضِلُّ مستهدِيَه إلى الطَّريقِ، فينعَتُ له طريقًا غيرَ الطَّريقِ المُوصِلَة، وهو تمثيلٌ قابِلٌ لتوزيعِ التشبيهِ: بأنْ يُشَبَّه كلُّ جزءٍ مِن أجزاءِ الهيئةِ المشبَّهةِ بجزءٍ من أجزاءِ الهيئةِ المشَبَّهِ بها، وذلِك أكملُ التَّمثيلِ وأعلاه في البلاغةِ العربيَّة[٤].

- قوله: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ نَشَأَ عن قوله: ﴿يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ فبيَّن سببَ ضلالِهم: أنَّهم اتَّبَعوا الشُّبهةَ مِن غيرِ تأمُّلٍ في مفاسِدِها[٥].

٥- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ يتضَمَّنُ الوعيدَ والوَعْدَ؛ لأنَّ كَونَه تعالى عالِمًا بالضَّالِّ والمهْتدي كنايةٌ عن مُجازاتِهما[٦].

- والآيةُ تعليلٌ لقوله: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ﴾؛ لأنَّ مضمونَه

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٧٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٢٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ٢٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٢٧).
(٦) يُنظر: ((تفيسر أبي حيان)) (٤/ ٦٣٠).

التَّحذيرُ من نَزَغاتِهم، وتوقُّعُ التَّضليلِ منهم، وهو يقتضي أنَّ المسلمينَ يريدونَ الاهتداءَ، فلْيَجْتَنِبوا الضَّالِّينَ، ولْيَهْتَدوا باللهِ الذي يَهديهم[1].

- قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ فيه تعريفُ المُسنَدِ إليه بالإضافةِ؛ لتشريفِ المضافِ إليه، وإظهارِ أنَّ هَدْيَ الرَّسولِ عليه الصَّلاة والسَّلام هو الهُدَى، وأنَّ الَّذين أخبَرَ عنهم بأنَّهم مُضِلُّون لا حَظَّ لهم في الهُدى؛ لأنَّهم لم يتَّخِذوا اللهَ ربًّا لهم[2].

- وقوله: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ تذييلٌ لجميعِ تلك الأغراضِ التي اشتَمَلَت عليها الآياتُ المتقدِّمةُ مِن بيانِ ضلالِ الضَّالينَ، وهُدى المُهْتدينَ[3].

- والضَّمير (هو) في قوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ﴾ ضميرُ الفَصْلِ؛ لإفادةِ قَصْرِ المُسنَد ﴿أعلم﴾ على المُسنَدِ إليه ﴿رَبَّكَ﴾، فالأَعْلَمِيَّة بالضَّالِّينَ والمُهتدينَ مقصورةٌ على اللهِ تعالى، لا يُشارِكُه فيها غيرُه[4].

- قال الله تعالى هنا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ بالمضارع في (يَضِلُّ)، وقال في سورة القَلَم: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القلم:٧]، بالماضي، وذلك لمناسَبةٍ حَسَنةٍ؛ فقولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ معناه: اللهُ أَعْلَمُ أيُّ المأمورينَ يَضِلُّ عن سبيله، وهذا المعنى يَقْتَضيه ما تقدَّمَ هذه الآيةَ وما جاء بَعْدَها من إتيانِ الفِعْلِ بصيغةِ الاستقبالِ؛ فالذي قَبْلَها: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، والذي بَعْدَها ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١١٩].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٢٨- ٢٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ٢٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وأمَّا قَوْلُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ فمعناه: اللهُ أَعْلَمُ بأحوالِ مَنْ ضَلَّ، كيف كان ابتداءُ ضلالِه وما يكون مِن مآلِه، أَيُصِرُّ على باطِلِه، أم يَرْجِعُ عنه إلى حَقِّه، وقَبْلَها: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ [القلم: ٥-٦] فناسب الفعل الماضي[1].

- وقال اللهُ تعالى هنا: ﴿هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ﴾بِسُقوطِ الباءِ، وقال في سورة النَّحل والنَّجْم والقَلَم: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ﴾[النحل: ١٢٥] [النجم: ٣٠] [القلم: ٧] بإثباتِ الباءِ في ﴿بِمَنْ﴾، وذلك لمناسبةٍ حسنةٍ؛ هي أنَّ سُقوطَ الباءِ الداخلةِ على (من) في آيَةِ الأنعام؛ لاستثقالِ زيادتها مع الزِّيادةِ اللَّازمةِ للمضارع مع التَّقاربِ إيثارًا للإيجازِ، أمَّا في المواضع الثلاثة فلا زيادةَ في الفعلِ لِكَونه ماضيًا، فزِيدَ باءُ التأكيدِ الداخلةِ على (من)[2].

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٥٤٠-٥٤٣)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٦٩).
(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٦٨-١٦٩).

الآيات (١١٨-١٢١)

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (١١٩) وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ (١٢٠) وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١)﴾.

غريب الكلمات:

﴿لَيُوحُونَ﴾: أي: ليُلْقُونَ بالوَسْوَسَةِ، أو: لَيُوَسْوِسونَ، أو يَقْذِفونَ في قُلوبِهم، وأصْلُ الوَحْيِ: يَدلُّ على إلْقاءِ عِلمٍ في خفاءٍ، وكلُّ ما ألْقَيْتَه إلى غيرِك حتَّى عَلِمَه، فهو وحيٌ كيفَ كانَ(١).

مُشْكِلُ الإعْرابِ:

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾

﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾: (إنَّ) وما دخلتْ عليه جملةٌ لا محلَّ لها من الإعرابِ، جوابُ قَسَمٍ مُقَدَّر وطَّأَتْ له لامُ قَسَمٍ محذوفةٌ قبل (إنْ) على تقديرِ (إنْ) بـ (لَئِنْ)، وجوابُ الشرطِ محذوفٌ دلَّ عليه جوابُ القَسَمِ، ولا يجوزُ أن تكونَ الجُمْلَةُ الاسميَّةُ جَوابَ الشَّرْطِ على إضْمارِ الفاءِ؛ لأنَّ ذلِكَ خاصٌّ بالشِّعرِ، وقيل غيرُ ذلك(٢).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٢).

(٢) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٣٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ١٣٢-١٣٣)، ((مغني اللبيب عن كتب الأعاريب)) لابن هشام الأنصاري (ص: ٣١١).

المعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ عبادَه أن يأكلوا مِمَّا ذُكِرَ اسمُ الله إن كانوا بحُجَجِه وأدِلَّتِه مؤمنينَ.

وما الذي يمنَعُهم أن يأكلوا مِمَّا ذُكِرَ اسمُ الله عليه، وقد أوضَحَ لهم تعالى ما حَرَّمَ عليهم أكْلَه إلَّا ما اضطُرُّوا إليه، وأخبر تعالى أنَّ كثيرًا يَضِلُّون ويُضِلُّون أتباعَهم، بغيرِ حُجَّةٍ ولا بُرهانٍ. وإنَّ الله تعالى هو أعلمُ بالمعتدينَ.

ثم يأمُرُ اللهُ تعالى عبادَه أن يَجْتَنبوا جميعَ المعاصي، فلا يَقْتَرفوها في السِّرِّ ولا في العَلَن، مُخبرًا تعالى أنَّ الذي يُخالِفُ هذا الأمرَ، ويكتسِبُ الإثمَ؛ فإنَّه سَيُجازيه بما اقترَف مِنَ المعاصي.

ثم ينهَى عبادَه عن الأكلِ مِمَّا لم يُذْكَرْ عليه اسْمُه؛ فإنَّ أكلَه خروجٌ عن الطَّاعةِ، ويُبيِّنُ تعالى أنَّ الشَّياطينَ يُوَسْوِسونَ إلى أوليائِهم من المشركينَ بالشُّبُهاتِ؛ ليُجادِلوا المؤمنينَ، وأن المؤمنينَ إنْ أَطاعوهم في أكْلِ المَيْتَةِ وما حَرَّم اللهُ عليهم مُستحِلِّينَ ذلك، فإنَّهم سَيَصِيرونَ مِثْلَهم مُشْركينَ.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (١١٩) وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ (١٢٠) وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١)﴾.

سببُ النُّزولِ:

عنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: (أتى ناسٌ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم،

فقالوا: يا رسولَ اللهِ، أنأكُلُ ما نَقْتُلُ، ولا نأكُلُ ما يَقتُلُ اللهُ؟ فأنزَلَ اللهُ: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾)(١).

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى لرسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّ أكثرَ أهلِ الأرْضِ يُضِلُّونَ مَن أطاعَهم لأنَّهم ضالُّونَ خَرَّاصون؛ يُحَرِّمونَ الحلالَ، ويُحِلُّون الحرامَ، وأنَّه هو أعلَمُ بالضَّالينَ والمُهتدِينَ- رتَّبَ على ذلك أمْرَ أتْباعِ هذا الرَّسولِ بمخالفَةِ الضَّالينَ مِن قَومِهم وغيرِ قَومِهم في مسألَةِ الذَّبائحِ، وبتَرْكِ جميعِ الآثامِ(٢)، فقال تعالى:

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

أي: فكُلوا- أيُّها المؤمنونَ- من الذَّبائحِ التي ذُكِرَ اسمُ الله عزَّ وجلَّ عليها مِن بهيمةِ الأنْعامِ، وغيرِها من الحيواناتِ المُحَلَّلِ أكلُها، إنْ كُنتم بحُجَجِ الله وأدِلَّتِه التي أتَتْكُم مؤمنينَ، ولأحْكامِه مُنقادينَ(٣).

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٦٩).

قال الترمذي: حسن غريب، وصححه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٠٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٠-٢٧١).

قال الشنقيطي: (ومعنى ذِكْرِ اسمِ الله عليه: هو أنْ يُسَمَّى على الذبيحةِ عند الذَّكاةِ، أو على العقيرةِ عند الاصطيادِ، أو على الجارحِ إذا أُرْسِلَ إلى الصَّيدِ، كلُّ هذا يُسمَّى اللهُ عليه ويؤكَلُ منه... والآيةُ على التَّحقيقِ في الذَّكاة، خلافًا لبعض العلماءِ القائلِ: هي عامَّةٌ. أي: كلُّ طعامٍ؛ مِن خُبز أو لَحْمٍ أو غيره أو فاكهة تُسَمِّي اللهَ عليه، وأن تأكُلَ منه) ((العذب النمير)) (٢/ ٢٠٨-٢٠٩).

إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا لَّيُضِلُّونَ بِأَهۡوَآئِهِم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تَأۡكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِ﴾.

أي: وأيُّ شيءٍ يَمنَعُكم أن تَأْكُلوا مِمَّا ذُكِرَ اسمُ الله عليه، وقد أوْضَحَ اللهُ تعالى لكم ما يَحْرُم أكْلُه، فلم يَبْقَ في ذلك إشكالٌ ولا لَبْسٌ، ولكِنْ يُباحُ لكم تناوُلُ الحرامِ في الحالِ التي تُضْطَرُّونَ فيها إلى ذلك[1].

﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا لَّيُضِلُّونَ بِأَهۡوَآئِهِم بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسير:

في قَوْلِه تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثيرًا لَيُضِلُّونَ﴾ قراءتان:

١- قراءة ﴿لَيُضِلُّونَ﴾ من الإضْلالِ، أي: يُضِلُّونَ غيرَهم[2]، فهو من المتعدِّي (أضَلَّ).

٢- قراءة ﴿لَيَضِلُّونَ﴾- بفَتْحِ الياءِ- بمعنى: أنَّهم يَضِلُّونَ في أنفُسِهم عن الحَقِّ[3]، فهو من اللازمِ (ضَلَّ).

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥١٢-٥١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢١٦-٢٢٠).

(٢) قرأ بها الكوفيون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٤١).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥١٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٦٩).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٤١).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥١٥)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٤٤٩).

أي: وإنَّ كثيرًا من النَّاسِ يَحْرِفُون أنفُسَهم وأَتباعَهم عن طريقِ الحَقِّ، بسببِ اتِّباعِ ما تهوَى أنفُسُهم من الباطِلِ، بغيرِ حُجَّةٍ منهم، ولا بُرهانٍ على صِحَّةِ ما يدَّعونَ(١).

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾.

أي: إنَّ ربَّك- يا محمَّد- الذي أحلَّ لك ما أحَلَّ، وحَرَّمَ عليكَ ما حَرَّمَ، هو أعلمُ بِمَن تعدَّوْا حُدودَه، فتَجاوَزُوا الحلالَ إلى الحرامِ، وهو لهم بالمِرصادِ، ولن يُفْلِتوا مِن عِقابِه(٢).

﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ (١٣٠)﴾.

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّه فصَّلَ المُحَرَّمات؛ أتْبَعَه بما يَجِبُ تَرْكُه بالكلِّيَّة؛ فقال(٣):

﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾.

أي: دَعُوا- أيُّها النَّاسُ- جميعَ المعاصي؛ فلا تَرتكِبوها في السِّرِّ ولا في العَلانِية، ولا تَقْتَرِفوها بِجَوارِحِكم ولا بِقُلوبِكم(٤).

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٣٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥١٥-٥١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٢٢-٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥١٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨/ ٣٦-٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٤٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥١٦، ٥١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٢٤-٢٢٦).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ ﴾.

أي: إنَّ الَّذين يَعملونَ بما نهاهم اللهُ عنه، ظاهرًا كان أو خفِيًّا؛ فإنَّ اللهَ سيُجازِيهم عليه، على قَدْرِ ذُنُوبهم(١).

﴿ وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾.

مناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ بأكْلِ ما سُمِّيَ اللهُ عليه، وكان مفهومُه أنَّه لا يُؤْكَلُ مِمَّا لم يُذْكَرِ اسمُ اللهِ عليه؛ أكَّدَ هذا المفهومَ بالنَّصِّ عليه(٢)، فقال:

﴿ وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ﴾.

أي: ولا تأكُلوا- أيُّها المؤمنونَ- مِمَّا لم يُذبَحْ على اسْمِ الله تعالى؛ فإنَّ أكْلَ ذلك خروجٌ عن الحقِّ وطاعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ(٣).

﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ﴾.

أي: إنَّ الشَّياطينَ يُوَسْوِسون إلى المشركينَ؛ لِيُجادِلوكم- أيُّها المؤمنونَ- بِشُبَهٍ سَقيمةٍ وآراءٍ عَقيمةٍ؛ يريدونَ بها دَفْعَ الحقِّ، وإقناعَكم بالباطِلِ، ومِنْ ذلك المجادلةُ في تحريمِ أكْلِ المَيْتَة كقَولِهم: أتأكُلونَ ما قَتَلْتم، ولا تأكلونَ ما قَتَلَ اللهُ- يَعْنون: الْمَيْتَةَ- فيَكُون ما ذَبَحْتموه إذَن حلالًا، وما ذَبَحَه اللهُ حرامًا؟! فأنتم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٢٠، ٥٢٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٧٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧١).

إذَنْ أحسَنُ مِنَ الله تعالى[1]!

عنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، ﴿إِنَّ الشَّياطين لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾ قالَ: (كانوا يقولونَ: ما ذُكِرَ عليه اسمُ اللَّهِ، فلا تَأْكُلوا، وما لم يُذكَرِ اسمُ اللَّهِ عليه، فكُلوه، فقالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾)[2].

﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾.

أي: وإنْ أَطَعْتُموهم في استحلال أكْلِ المَيْتَةِ وما حَرَّمَ عليكم ربُّكم؛ فقد صِرْتُم مِثْلَهم مُشركينَ[3].

الفَوائد التربويَّة:

١- في قولِه تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ بيانُ أنَّه مِن علاماتِ المؤمِنِ مخالَفةُ أهلِ الجاهليَّةِ؛ في عادَتِهم الذَّميمَةِ، المتضَمِّنةِ لتَغييرِ شَرْعِ اللهِ، وتحريمِ كثيرٍ مِن الحلالِ[4].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فيه تحذيرُ العبدِ مِن أمثالِ هؤلاءِ؛ وعلامَتُهم- كما وصفهم اللهُ لعباده- أنَّ دَعْوَتَهم غيرُ مَبنيَّةٍ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٢٧-٥٣١)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣١٦-٣١٧)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٧٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨/ ٤١).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٨١٨)، وابن ماجه (٣١٧٣) واللفظ له.
صحَّح إسنادَه ابنُ كثير في ((تفسير القرآن)) (٣/ ٣٢١)، وابنُ حجر في ((فتح الباري)) (٩/ ٥٣٩)، وصحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٣١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧١).
قال الشنقيطيُّ: (قَسمٌ من الله جلَّ وعلا أقسم به على أنَّ مَن اتَّبع الشيطانَ في تحليلِ الميتةِ أنَّه مشركٌ، وهذا الشركُ مخرجٌ عن الملةِ بإجماعِ المسلمين) ((أضواء البيان)) (٣/ ٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧١).

بُرهانٍ، ولا لهم حُجَّةٌ شرعيَّةٌ، وإنَّما يُوجَدُ لهم شُبَهٌ بِحَسَب أهوائِهم الفاسدَةِ، وآرائِهم القاصِرَة، فهؤلاءِ مُعْتَدونَ على شَرْعِ اللهِ وعلى عبادِ الله، واللهُ لا يُحِبُّ المُعْتدينَ[1].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ هذه الجملةُ مِنْ جوامِعِ الكَلِم، والأُصولِ الكليَّةِ في تحريمِ الآثام؛ حتى قيل: إنَّ المرادَ بهذا التعبيرِ تَرْكُ الإثمِ مِن جميعِ جِهاتِه؛ أي: جميع أنواعِ الظُّهورِ والبُطونِ فيه[2].

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ فيه النَّهيُ عن أكْلِ المَيْتة ونحوِها؛ مِمَّا لم تُقصَد ذَكاتُه؛ لأنَّ ذِكْرَ اسْمِ الله أو اسْمِ غيره إنَّما يكونُ عند إرادةِ ذَبْحِ الحيوانِ، كما هو معروفٌ لديهم، فدَلَّ هذا على تعيينِ أكْلِ ما ذُكِّيَ دون المَيْتَةِ[3].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ يدلُّ على أنَّ الأصلَ في جميعِ الأعيانِ الموجودةِ على اختلافِ أصنافِها، وتبايُنِ أوصافِها، أنْ تكونَ حلالًا مُطلَقًا للآدميِّينَ، وأنْ تكونَ طاهرةً لا يَحْرُم عليهم مُلابَسَتُها ومُباشَرَتُها ومُماسَّتُها، وقد دلَّتْ الآيةُ على ذلك مِن وجهينِ: أحدُهما: أنَّه تعالى وَبَّخَهم وعنَّفَهم على تَرْكِ الأكلِ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ الله عليه قبل أن يُحِلَّه باسْمِه الخاصِّ، فلو لم تَكُنِ الأشياءُ مُطلقةً مُباحةً لم يَلْحَقْهم ذمٌّ ولا توبيخٌ؛ إذ لو كان حُكْمُها مجهولًا أو كانت محظورةً لم يكن ذلك. الوجه الثاني: أنَّه قال: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ والتَّفصيلُ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٣٢).

التَّبيينُ، فبَيَّنَ أنَّه بَيَّنَ المُحَرَّماتِ؛ فما لم يُبَيِّنْ تحريمُه فليس بمُحَرَّمٍ، وما ليس بمُحَرَّمٍ فهو حلالٌ؛ إذ ليس إلَّا حلالٌ أو حرامٌ[1].

٣- فرَّقَت الشَّريعةُ بين ما يُذْكَر اسمُ اللهِ عليه، وما لا يُذْكَرُ اسمُ الله عليه، كما في قول اللهِ تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾، وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾، ممَّا يدلُّ على أنَّ نَفْسَ أسمائِه تعالى مُباركةٌ، وبَرَكَتُها مِن جِهَةِ دَلالَتِها على المُسَمَّى[2].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ يُرْشِدُنا إلى يُسْرِ الشَّريعةِ الإسلاميَّة؛ فمتى وَقَعَت الضرورةُ- بأنْ لم يوجَدْ مِنَ الطَّعامِ عند شدَّةِ الجوعِ إلَّا المحرَّمُ- زالَ التحريمُ[3].

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ استنبَطَ بعضُهم منه تحريمَ القولِ في الدِّينِ بمجرَّدِ التَّقليدِ، وعصبيَّة المذاهِبِ؛ لأنَّ القولَ في الدِّينِ بمجَرَّدِ التقليدِ قولٌ بمَحْضِ الهَوى والشَّهوةِ، والآيةُ دلَّتْ على أنَّ ذلك حرامٌ[4].

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ جَعَلَ الأكْلَ منه نفسَ الفِسْقِ- وهو الخروجُ عمَّا ينبغي إلى ما لا ينبغي-؛ لأنَّه عريقٌ جدًّا في كَوْنِه سَبَبَه؛ لِمَا تأصَّلَ عند المشركينَ مِن أَمْرِه، وانتشَرَ مِن شَرِّه[5].

٧- دلَّ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢١/ ٥٣٥، ٥٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧١).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ١٩٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ١٨).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٤٦).

الشَّياطين لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ على أنَّ ما يقَعُ في القلوبِ من الإلْهاماتِ والكُشُوف- التي يكثُرُ ادِّعاؤُها عند المنتسبين إلى التصوُّف ونحوِهم- لا تدلُّ بمُجَرَّدِها على أنَّها حقٌّ، ولا تُصَدَّقُ حتى تُعْرَضَ على كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم[1].

٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾، فيه دليلٌ على أنَّ كلَّ مَن أحَلَّ شيئًا ممَّا حرَّمَ اللهُ، أو حَرَّم شيئًا ممَّا أحلَّ اللهُ؛ فهو مُشْرِكٌ[2].

٩- قولُه تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ حُجَّةٌ على أنَّ الإيمانَ اسمٌ لجميعِ الطَّاعاتِ، مثلما جعل الله تعالى الشِّرْكَ اسمًا لكُلِّ ما كان مُخالِفًا له سبحانه، بدليلِ أنَّه تعالى سَمَّى طاعةَ المؤمنينَ للمُشركينَ في إباحَةِ المَيْتَةِ شِرْكًا[3].

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ التعبيرُ بحرفِ (على) يدلُّ على شدَّةِ اتِّصالِ فِعلِ الذِّكرِ بذاتِ الذَّبيحةِ[4].

- قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ تقييدٌ للاقتصارِ المفهومِ مِن فِعْل الإباحةِ، وتعليقِ المجرورِ به في قولِه: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾، وهو تحريضٌ على التزامِ ذلك، وعدمِ التَّساهُلِ فيه، حتى جُعِلَ من علاماتِ كَوْنِ فاعِلِه مؤمِنًا، وذلك حيث كان شعارُ أهلِ الشِّرْك ذِكْرَ اسْمِ غيرِ اللهِ على مُعْظَمِ الذَّبائحِ[5].

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧١).
(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٤٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤١).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٣٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٣٢).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٢- قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ الاستفهامُ يتضمَّنُ الإنكارَ على من امتَنَعَ من ذلك؛ أي: لا شيءَ يَمْنَعُ من ذلك[١]، وهو مستعملٌ في معنى النَّفْيِ: أي لا يثبُتُ لكم عدَمُ الأكلِ مِمَّا ذُكِرَ اسمُ الله عليه؛ أي: كُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسمُ اللهِ عليه[٢].

- وفيه: تعريضٌ؛ حيث أعرَضَ عن محاجَّةِ المُشركينَ؛ لأنَّ الخطابَ مَسوقٌ إلى المسلمينَ لإبطالِ مُحاجَّةِ المُشركينَ؛ فآلَ إلى الرَّدِّ على المشركينَ بطريقِ التَّعريضِ[٣].

٣- قوله: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ جملةٌ حاليَّةٌ مؤكِّدةٌ للإنكارِ[٤].

٤- قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هو أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ تذييلٌ؛ فالإخبارُ بعلْمِ اللهِ بهم كنايةٌ عَن أخْذِه إيَّاهم بالعُقوبةِ، وأنَّه لا يُفْلِتُهم، لأنَّ كَونَه عالِمًا بهم لا يُحتَاجُ إلى الإخبارِ به[٥].

٥- قولُه تعالى: ﴿سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ فيه وعيدٌ وتهديدٌ للعُصاة[٦].

- وفيه أنَّهم كانوا يُبالِغونَ في إفسادِ فِطْرَتِهم، وتَدْسِيَةِ أنفُسِهم؛ بالإصرارِ عليه، ومُعاوَدَتِه المرَّةَ بعد المرَّةِ، كما يدلُّ عليه فِعْلُ الكَونِ، وصيغةُ المضارعِ الدَّالَّةِ على الاستمرارِ[٧].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٧٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٣٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ٣٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٧٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٣٦).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٣٢).
(٧) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٩).

- صيغةُ الافتعالِ في ﴿يَقْتَرِفُونَ﴾ تدلُّ على أنَّ أفعالَ الشَّرِّ إنَّما تكون بمعالجةٍ من النَّفسِ للفِطرةِ الأُولى السَّليمةِ[1].

٦- **قولُه تعالى:** ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ هذه الجملةُ إخبارٌ يتضَمَّنُ الوعيدَ لِمَن أطاعَ المُشركينَ من المؤمنينَ[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٣٤).

الآيات (١٢٢-١٢٧)

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى
ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ
جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا
بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ
رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ
ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ
لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ
كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ
مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم
بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿أَكَابِرَ﴾: أي: عُظَمَاءَ ورؤساءَ، وأصلُ (كبر): يدلُّ على خِلافِ الصِّغَر(١).

﴿مُجْرِمِيهَا﴾: مُذْنِبيها أو كَافِريها، والجُرم- بِالضَّمِّ-: لَا يُطلَقُ إلَّا على الذَّنْبِ الغَليظِ، وأَصلُ (جرم): القطْعُ(٢).

﴿لِيَمْكُرُوا﴾: أي: ليَصْرِفوا الغيرَ عمَّا يقصِدُه- عن دِينِ اللَّه وأنبيائِه- بِحِيلةٍ؛ بغرورٍ من القولِ، أو بباطلٍ من الفِعلِ، وأصل المَكْر: الاحتِيالُ والخِداعُ(٣).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٩٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٨، ٢١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٢).

﴿صَغَارٌ﴾: ذُلٌّ وحَقارةٌ، والصَّغارُ أشدُّ الذُّلِّ؛ يقال: فلانٌ صغيرٌ باعتبارِ السِّنِّ، وتارةً باعتبارِ الجُثَّة، وتارةً باعتبارِ القَدْرِ والمنزِلَة؛ يقال: صَغُر صِغَرًا: إذا كان ضِدَّ الكِبَر، وصَغِرَ صَغَارًا: إذا هان قدْرُه وذَلَّ، وأَصل (صغر): يدُلُّ على قِلَّةٍ وحَقارَةٍ(١).

﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُ﴾: أي: يَفْتَحْه ويُفْسِحْه، أو يُوَسِّعْه بالبَيانِ، وشَرْحُ الصَّدْرِ: توسِعتُه لقَبولِ الحقِّ، وبسْطُه بنورٍ إلهيٍّ وسكينةٍ من جِهَةِ اللهِ ورُوحٍ منه، وأصل الشَّرْحِ: يدلُّ على بَسْطِ اللَّحْم، وعلى الفَتحِ والبَيانِ(٢).

﴿حَرَجًا﴾: الحَرَج: أشدُّ الضِّيقِ، وأَصْلُ (حرج): تجمُّع الشَّيءِ وضِيقُه، ومنه الحَرَج جمْعُ حَرَجة: وهي الشجرةُ الملتَفُّ بها الأشجارُ، لا يدخلُ بينها وبينها شيءٌ؛ لشِدَّةِ التفافِها بها(٣).

﴿يَصَّعَّدُ﴾: أي: يَتَصَعَّدُ معَ مَشَقَّةٍ، والصُّعُودُ: هو الذَّهابُ إلى الأمكِنَةِ المرتفِعَةِ، وأَصْلُ (صعد) يدُلُّ على ارْتِفاعٍ وَمَشَقَّةٍ(٤).

﴿الرِّجْسَ﴾: أي: العذابَ، ويُطلَق أيضًا على: القَذَر المُنتِن، وأَصْلُ (رجس): يَدُلُّ على اختِلاطٍ(٥).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩٠)، ((المفردات- مع الحاشية)) للراغب (ص: ٤٨٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٦٩،٣٣٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٧، ٤٤٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٣٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١/ ١٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٤٤، ٥٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٦٧).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٢).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٠)، =

مُشْكِلُ الإعْرابِ:

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾

﴿اللَّهُ أَعْلَمُ﴾: مبتدأٌ وخبرٌ، و﴿حَيْثُ﴾ خرجتْ عنِ الظرفيَّة، وصارتْ مفعولًا به على السَّعةِ، وعامِلُها فِعلٌ يدلُّ عليه ﴿أَعْلَمُ﴾، وليس العامِلُ ﴿أَعْلَمُ﴾؛ لأنَّ (أفعل) لا ينْصِبُ المفعولَ به، والتقديرُ: يعلمُ الموضعَ الصَّالِحَ لوَضْعِ رِسالتِه، ولا يصحُّ هنا أن تكونَ ﴿حَيْثُ﴾ ظرفًا؛ لفسادِ المعنى؛ لأنَّه تعالى لا يكونُ في مكانٍ أعلمَ منه في مكانٍ آخَرَ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقول الله تعالى: هل يستوي مَن كان كافرًا هالكًا حائرًا في الضَّلالةِ، فهَداه اللهُ للإسلامِ، وأحْيَا قَلْبَه بالإيمانِ، وجعَلَ له نورًا يمشي به في النَّاسِ؛ ومن كان في ظُلماتِ الكُفرِ ليس بخارجٍ منها؟

وكما حُسِّن لهؤلاءِ الكفَّارِ- الَّذين يجادلونَ المؤمنينَ في أكلِ ما حرَّم الله تعالى عليهم- سوءُ أعمالِهم، كذلك حُسِّن لِمَنْ كان على مِثْلِ ما هم عليه- مِن الكُفر باللهِ وآياتِه- ما كانوا يعتقدونَه ويَعْمَلونَه من الضَّلال.

وكذلك جَعَلَ اللهُ في كلِّ قريةٍ رُؤساءَ مُجرمينَ؛ ليَمْكُروا فيها بدُعاءِ النَّاسِ إلى الكُفرِ والضَّلالةِ، وبِصَدِّهم عن سبيلِ الله، لكنَّهم بِمَكْرِهم ذلك لا يَمكُرونَ إلَّا بأنفُسِهم، وما يشعرونَ.

وإذا جاءت هؤلاءِ المجرمينَ حُجَّةٌ قاطعةٌ من الله على صحَّةِ ما جاءَهم به

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٩).

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٣٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥-١٣٧)، ((المجتبى من مشكل إعراب القرآن)) للخراط (١/ ٢٩٣).

محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ قالوا: لن نؤمِنَ حتى نُعطَى مِثلَ ما أُعطِيَ رُسُلُ اللهِ؛ من الرِّسالةِ والوَحيِ والمُعجزاتِ، فبيَّنَ اللهُ أنَّه أعلَمُ بمَوْضِعِ رِسالَتِه، ومن يَصْلُحُ أن يتحَمَّلَها ويقومَ بها، وأخبَرَ أنَّه سينالُ الَّذين أجرموا ذِلَّةٌ وهوانٌ عند الله، وسيُعَذَّبونَ عذابًا شديدًا؛ جزاءً لِكَيْدِهم للإسلامِ وأهْلِه.

ويُخبِر تعالى أنَّه من أراد أنْ يَهْدِيَه يشْرَحْ صدْرَه للإسلامِ، ومن أراد أنْ يُضِلَّه يجعَلْ صَدْرَه ضيِّقًا لا ينْفُذُ إليه نورُ الإيمانِ؛ مَثَلُه في هذه الحال كمَثَلِ من تكَلَّفَ الصُّعودَ في السَّماءِ، وعَجَزَ عن ذلك؛ لأنَّه ليس في وُسْعِه، ولا حيلةَ له فيه، وكما يجعلُ الله تعالى صَدْرَه ضيِّقًا حَرَجًا، كذلك يسلِّط اللهُ عزَّ وجلَّ الشَّيطانَ عليه وعلى أمثاله؛ ممَّن أبى الإيمانَ باللهِ ورسولِه؛ فيُضِلُّه.

ثم خاطَبَ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّ ما بيَّنَه له في هذه السُّورةِ وغيرِها مِن سُوَرِ القرآنِ هو طريقُه جلَّ وعلا الذي ارتضاه ليكونَ دِينَه، وجَعَلَه مُستقيمًا؛ قد فصَّلَ الآياتِ والحُجَجَ على صحَّةِ ذلك لقومٍ يَذَّكَّرون. ولهؤلاءِ القَومِ دارُ السَّلامِ عند ربِّهم، وهي الجنَّة؛ إذ هي سالِمَةٌ مِن كلِّ عيبٍ وآفةٍ ومُنَغِّصٍ، وهو سبحانه وليُّهم بما كانوا يعملونَ.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

أنَّه جاء في الآياتِ التي قَبْلها أنَّ أكثرَ أهلِ الأرضِ ضالُّونَ مُتَّبعونَ للظَّنِّ، وأنَّ كثيرًا منهم يُضِلُّون غيرَهم بأهوائِهم بغيرِ عِلمٍ، وأنَّ الشَّياطينَ المتمَرِّدينَ العاتينَ عن أمرِ ربِّهم يُوحونَ إلى أوليائِهم ما يُجادلونَ به المؤمنينَ؛ لِيُضِلُّوهم،

ويَحمِلوهم على اقترافِ الآثامِ التي نَهَت تلك الآياتُ عن ظاهِرِها وباطِنِها، بل لِيَحْمِلوهم على الشِّرْكِ أيضًا بالذَّبحِ لغيرِ الله تعالى، فلَمَّا بيَّنَ الله تعالى ما ذكَرَ؛ ضَرَبَ له مثلًا يتبيَّنُ به الفَرْقُ بين المؤمنينَ المهتدينَ؛ للاقتداءِ بهم، والكافرينَ الضَّالينَ؛ للتَّنفيرِ من طاعَتِهم، والحَذَرِ من غَوايَتِهم، وبيَّنَ أنَّ سَبَبَه ما زُيِّنَ للكافرينَ مِن أعمالِهم؛ فلم يُمَيِّزوا بين النُّورِ والظُّلماتِ، فقال(١):

﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾.

أي: هل مَن كان كافرًا هالكًا، حائرًا في الضَّلالةِ، فهَدَيناه للإسلامِ، وأحْيَيْنا قَلْبَه بالإيمانِ، واتِّباعِ القرآنِ، فصار يرى الحَقَّ والباطِلَ، والنَّفْعَ والضُّرَّ، وصار يمشي بين النَّاسِ في النُّورِ، متبِّصرًا في أمورِه، مهتديًا لسَبيلِه(٢).

كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَا﴾.

أي: أفَيَسْتوي مَن أحْيَيْناه بنورِ الإيمانِ والقرآنِ بمن هو في ظُلُماتِ الكُفرِ؛ متردِّدًا لا يعرِفُ المَخْرَج منها، قد التبَسَتْ عليه الطُّرُق، وأظلَمَت عليه المسالِكُ، فحَضَره الهَمُّ والغمُّ والحَزَن والشَّقاء، فلا يدري كيف يتوجَّه؟ وأيَّ طريقٍ يأخُذُ؛ لشدَّةِ ظُلمةِ اللَّيلِ، وإضلالِه الطَّريقَ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٣٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٣٢-٥٣٣)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٢).

قال السعدي: (فنبَّه تعالى العقولَ بما تُدرِكُه وتعرفه، أنَّه لا يستوي هذا ولا هذا، كما لا يستوي =

كما قال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠].

﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لمَّا قال اللهُ تعالَى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ كأنَّه قِيل: فكيفَ يُؤثِرُ مَن له أدنَى مُسكةٍ مِن عقلٍ، أن يكونَ بهذه الحالةِ، وأن يبقَى في الظُّلماتِ متحيِّرًا: فأجاب[1] بقولِه:

﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

أي: كما حُسِّن لهؤلاءِ الكفَّارِ- الَّذين يجادلونكم أيُّها المؤمنونَ في أكلِ ما حرَّمتُ عليكم- كما حُسِّن لهم سوءُ أعمالِهم، كذلك حُسِّن[2] لِغَيْرِهم ممَّن كان على مِثْلِ ما هم عليه مِن الكُفر باللهِ وآياتِه، ما كانوا يعتقدونَ، ويَعْمَلون من ضَلالاتٍ، وذلك حكمةٌ من الله بالغةٌ[3].

كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ

= اللَّيل والنَّهار، والضِّياء والظُّلمة، والأحياء والأموات) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٢).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧١).

(٢) قال ابن عاشور: (وحُذِف فاعِلُ التَّزيينِ فبُنِي الفعلُ للمجهولِ؛ لأنَّ المقصودَ وُقوعُ التَّزيينِ لا معرفةُ مَنْ أوْقعَه، والمزَيِّنُ شياطينُهم وأوْلياؤُهم، كقولِه: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٧]، ولأنَّ الشَّياطينَ مِنَ الإنسِ هم المُباشرونَ للتَّزيينِ، وشياطينُ الجنِّ هم المسوِّلون المزيِّنون). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٣٦-٥٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٤٦).

لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٣٧].

وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ٦٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [فاطر: ٨].

وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٤].

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (١٢٣)﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾.

أي: وكذلك[1] صَيَّرْنا في كلِّ قريةٍ عُظماءَ ورُؤساءَ مِن المجرمينَ فيها؛ ليَمْكُروا فيها، بِدُعائِهم النَّاسَ إلى الكُفْرِ والضَّلالة، وقيامِهم بصَدِّهم عن سبيلِ الله تعالى[2].

(١) قال ابنُ جريرٍ: (يقولُ جلَّ ثَناؤُه: وكما زَيَّنَّا للكافِرين مَا كانوا يَعْمَلون، كذلك جَعَلْنا بكلِّ قَرْيَةٍ عُظَماءَها مُجْرِميها). ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٣٧)

وقال ابنُ كثيرٍ: (يقولُ تعالى: وكما جعَلْنا في قَرْيَتِك- يا محمَّدُ- أكابرَ مِنَ المجرِمين، ورُؤساءَ ودُعاةً إلى الكفرِ والصَّدِّ عَنْ سبيلِ اللَّه، وإلى مُخالَفَتِك وعداوَتِك، كذلك كانتِ الرُّسلُ مِنْ قبلك يُبْتَلون بذلك، ثُمَّ تكونُ لهم العاقِبَةُ، كما قال تَعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٣١]). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٣٧-٥٣٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٧٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٤١)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٣١)، ((أضواء =

قال سبحانه: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

وقال تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٢ - ٣٥].

﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

أي: ما يحيقُ وَبالُ مَكْرِهم ذلك ويعود إلَّا على أنفُسِهم، وهم لا يَدْرونَ أنَّهم يَمْكُرون بها، ولا يدرونَ ما أعدَّ الله تعالى لهم من العذابِ؛ جزاءً لذلك[1].

﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ (١٢٤)﴾.

أي: وإذا جاءَتْ هؤلاءِ المجرمينَ حُجَّةٌ قاطعةٌ مِن الله، على صِحَّةِ ما جاءهم به محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم، قالوا: لن نؤمِنَ بما دعانا إليه محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم من الإيمانِ به، وبما جاء به مِنْ تحريمِ ما ذَكَر أنَّ اللهَ حرَّمَه علينا؛

= البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٩١-٤٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٤٧).
وممَّن قال بهذا القولِ من السَّلف مجاهدٌ وقتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٣٧، ٥٣٨)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٤/ ١٣٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٣٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٥١).

حتى تأتِيَنا الملائكةُ من الله بالرِّسالة، فيُوحَى إلينا كما يُوحَى إلى الرُّسُلِ، ونُعطَى من المعجزاتِ مِثْلَهم(١).

﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾.

أي: فالله عزَّ وجلَّ أعلَمُ بموضِعِ رسالَتِه، ومن يَصْلُحُ لها، ويقومُ بأعبائِها(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣١-٣٢].

﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ﴾.

أي: سَيَنالُ الذين اكتَسَبوا الإثمَ- بِشِرْكِهم باللهِ، وعبادتِهم غيرَه- ذِلَّةٌ وهوانٌ عند الله، ولهم عذابٌ شديدٌ بسبَبِ كيدِهم للإسلامِ وأهْلِه(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٧٩-٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٥٣-٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٣٩-٥٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٤٠-٥٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٢).

قال الزجَّاج: (أي هم وإن كانوا أكابرَ في الدُّنيا سيصيبُهم صَغارٌ عِنْد اللَّه؛ أي مَذَلَّة) ((معاني القرآن)) (٢/ ٢٨٩).

وقال ابن عاشور: (الصَّغَارُ والعذابُ يحصُلانِ لهم في الدُّنيا بالهزيمةِ وزوالِ السِّيادةِ، وعذابِ القَتلِ والأَسْرِ والخوفِ، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ [التوبة: ٥٢] وقد حصل الأمرانِ يومَ بدْرٍ ويومَ أُحُد، فهلكت سادةُ المشركين، وفي الآخرةِ بإهانتِهم بين أهل المحشَرِ، وعذابِهم في جهنم. ومعنى ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ أنَّه صَغارٌ مُقَدَّر عند الله، فهو صَغار ثابتٌ مُحقَّق؛ لأنَّ الشيءَ الذي يجعلُه الله تعالى يحصُلُ أثرُه عندَ النَّاس كُلِّهم؛ لأنَّه تكوين لا يفارِقُ صاحبَه، كما ورد في الحديثِ: «إنَّ الله إذا أحبَّ عبدًا أمر جبريلَ فأَحَبَّه، ثم أمر الملائكةَ فأَحَبُّوه، ثم يُوضَع له القَبولُ عند أهلِ الأرضِ»، فلا حاجةَ إلى تقديرِ (مِن) في قولِه: ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾، ولا إلى جَعْلِ العِنْدية بمعنى الحصولِ في الآخرةِ، كما درج عليه كثيرٌ من المفسِّرين) ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٥٦).

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢٥﴾.

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى عاقبةَ المجرمينَ الماكرين الَّذين حُرِمُوا الاستعدادَ للإسلامِ بعد بيانِ حالِهم- قَفَّى عليه بالمُقابلةِ بينهم وبين المُستَعِدِّينَ له، ثم ببيانِ ظُهورِ هِدايَته، واستقامةِ مَحَجَّته، وبجزاءِ المُهْتَدينَ به، على حَسَب سُنَّتِه تعالى في كتابِه[1]، فقال:

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾.

أي: فمَن يُردِ الله تعالى هِدايَتَه وتوفيقَه للتَّوحيدِ، والإيمانِ به وبرسولِه؛ يفسَحْ صَدرَه لذلك، فيتَّسِعُ لِقَبولِه، ويهوِّنه عليه ويسهِّله له، فيستنيرُ قَلْبُه بنورِ الإيمانِ، ويحيا بضَوْءِ اليقينِ، وتطمَئِنُّ نفسُه بذلك[2].

كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ * فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات: ٧-٨].

﴿وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٢).

أي: ومن يُرِدِ اللهُ تعالى إضلالَه عن سبيلِ الهُدى يجعلْ صَدْرَه بخِذْلانِه، وغَلَبَةِ الكُفرِ عليه، وانغماسِ قَلْبِه في الشُّبُهات والشَّهوات؛ في أشَدِّ ما يكون من الضِّيقِ، فلا ينفُذُ فيه نورُ الإيمانِ مِن شِدَّةِ ضِيقِه، ولا تَصِلُ إليه الموعظَةُ، ولا يدخُلُه اليقينُ والاطمئنانُ(١).

﴿ كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾.

أي: هذه حالُه في عَدَمِ تقَبُّل الإيمانِ وصُعُوبَتِه وثِقَلِه عليه؛ فهي تُشْبِه صعوبةَ تَكَلُّفِ الصُّعودِ في السَّماءِ، وعَجْزَه عن ذلك؛ لأنَّه ليس في وُسْعِه، ولا حيلةَ له فيه(٢).

﴿ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾.

أي: كما يجعلُ الله تعالى صَدْرَ من أراد إضلالَه ضيِّقًا حَرِجًا كأنَّما يصَّعَّد في السَّماءِ، كذلك يسلِّط اللهُ الشَّيطانَ عليه وعلى أمثاله، ممَّن أبى الإيمانَ بالله ورسولِه؛ فيُغْوِيه ويَصُدُّه عن سبيلِ الحَقِّ(٣).

كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل: ٥-١٠].

﴿ وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٢).

(٢) وهذا اختيارُ ابنِ جريرٍ في ((تفسيره)) (٩/ ٥٤٤)، والواحديِّ في ((الوجيز)) (ص: ٣٧٤)، والقرطبيِّ في ((تفسيره))، والسعديِّ في ((تفسيره)) (ص: ٢٧٢).

وقال به من السَّلف: ابنُ عبَّاس، وعطاءٌ الخراسانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٤٩)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٤/ ١٣٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٤٤).

والقولُ بأنَّ الرِّجسَ المرادُ به الشَّيطانُ: قال به مِن السَّلف ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٥٢)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٧٦).

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لمَّا ذَكَر الله تعالَى طريقَةَ الضَّالِّينَ عن سبيلِه، الصَّادِّين عنها، نَبَّه على أشرفِ ما أرْسل به رَسولَه مِنَ الهُدَى ودينِ الحَقِّ[(١)]، فقال:

﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًاۗ ﴾.

أي: وهذا الذي بيَّنَّا لك- يا مُحمَّدُ- في هذه السُّورة وغيرِها من سُوَر القرآنِ، هو طريقُ ربِّك ودِينُه الذي ارتضاه لنَفْسِه دينًا، وجَعَلَه مستقيمًا لا اعوجاجَ فيه؛ معتدلًا مُوصِلًا إليه، وإلى دارِ كرامَتِه؛ فاثْبُتْ أنت عليه[(٢)].

﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾.

أي: قد بَيَّنَّا الآياتِ والحُجَجَ على صحَّةِ ذلك لِمَن لهم فَهْمٌ ووعْيٌ يَعْقِلون به عن اللهِ مُرادَه؛ الَّذين عَلِموا، فانتَفَعوا بعِلْمِهم[(٣)].

﴿ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾.

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ تعالى عظيمَ نِعَمِه في الصِّراطِ المستقيمِ، بَيَّنَ الفائدةَ الشَّريفةَ التي تحصُلُ من التمسُّك بذلك الصِّراطِ المستقيمِ؛ فقال[(٤)]:

﴿ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْۖ ﴾.

أي: لهؤلاء القومِ الَّذين يذَّكَّرون، دارُ اللهِ تعالى التي أعَدَّها لأوليائِه في الآخِرةِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٤٦).

وهي جَنَّتُه، السَّالِمة من كلِّ عيبٍ وآفةٍ، وَهَمٍّ وغَمٍّ، وغيرِ ذلك من مُنَغِّصاتٍ[١].

﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

أي: واللهُ تعالى ناصرٌ هؤلاءِ القومَ الَّذين يذَّكرون، وحافِظُهم ومُؤَيِّدُهم؛ يتولَّى تدبيرَهم وتربيتَهم ورعايَتَهم، وهذا جزاءٌ لهم على أعمالِهم الصَّالِحةِ، واتِّباعِهم رضا مولاهم؛ فلذلك يتولَّاهم، ويُثيبُهم الجنَّةَ بكَرَمِه[٢].

الفَوائِد التربويَّة:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ العِبرةُ في هذا المَثَل أن يُطالِبَ المسلمُ نفسَه بأن يكونَ حيًّا عالِمًا؛ على بصيرةٍ في دينِه وأعمالِه، وحُسْنِ سِيرَتِه في النَّاس، وقدوةً لهم في الفضائِلِ والخَيْرات، وحُجَّةً على فَضْلِ دِينِه على جميعِ الأديانِ، وعُلُوِّ آدابِه على جميعِ الآدابِ[٣].

٢- شَأْنُ أكثَرِ أكابِرِ الأُمَم والشُّعوب- ولا سيَّما في الأزمِنَةِ التي تكثُرُ فيها المطامِعُ، ويعظُمُ حُبُّ الرِّياسَةِ والكبرياءِ- أنَّهم يَمْكرونَ بالنَّاسِ مِن أفرادِ أُمَّتِهم وجَماعاتِها؛ ليَحْفَظوا رياسَتَهم ويُعَزِّزوا كبرياءَهم، ويُثَمِّروا مطامِعَهم فيها، ويمكُرُ الرُّؤساءُ والسَّاسةُ منهم بغيرِهم من الأُمَم والدُّول؛ لإرضاءِ مَطامِعِ أُمَّتِهم، وتعزيزِ نفوذِ حُكومَتِهم في تلك الأُمَم والدُّوَل. وقد عَظُمَ هذا المكرُ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٣٧-٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٣).

قال الخازن: (﴿لَهُمْ دارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يعني الجنَّة في قولِ جميعِ المفسِّرين) ((تفسير الخازن)) (٢/ ١٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢٦).

هذا العَصرِ، فصار قُطْبَ رَحَى السِّياسَةِ في الدُّول، وعَظُمَ الإفكُ بعِظَمِه؛ لأنَّه أعظَمُ أركانِه؛ يُرشِدُنا إلى ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾(١).

٣- إنَّ أكابِرَ المجرمينَ- الَّذين يُعادونَ الرُّسُلَ في عَصرِهم، ودعاةَ الإصلاحِ مِن وَرَثَتِهم بَعْدَهم- مهما ضَخُمَ واستطالَ كَيْدُهم؛ فلا يحيقُ إلَّا بهم في نهايةِ المطافِ؛ فالمؤمنونَ لا يخوضون المعركةَ وَحْدَهم، فاللهُ تعالى وليُّهم فيها، وهو حَسْبُهم، وهو يَرُدُّ على الكائِدينَ كَيْدَهم؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾(٢).

٤- قولُه تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ فيه مِن السُّلوك والعبادةِ أنَّه يجبُ على الإنسانِ أن يتقبَّلَ الإسلامَ كلَّه؛ أصلَه وفرعَه، وما يتعلَّق بحقِّ الله، وما يتعلَّق بحقِّ العبادِ، وأنَّه يجبُ عليه أن يشرحَ صدرَه لذلك، فإن لم يكنْ كذلك، فإنَّه من القسمِ الثاني الذين أراد الله إضلالَهم(٣).

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قولِ اللهِ تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ جُعِلَ الإيمانُ حياةً؛ لأنَّ الحيَّ صاحِبُ بَصَرٍ يهتدي به إلى رُشْدِه، وكذلك لَمَّا كان الإيمانُ يهدي إلى الفَوْزِ العظيمِ، والحياةِ الأبديَّة؛ شُبِّه بالحياةِ(٤).

٢- لمَّا ذَكَر جَعْلَ النُّورِ للمَيِّتِ قال: ﴿يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ أيْ: يَصْحَبُه كيف

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ٣٠)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٢٠٢).
(٣) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) للعثيمين (ص: ٢٢١).
(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٤٧).

تَقَلَّب، وقال: ﴿فِي النَّاسِ﴾ إشارةً إلى تَنْوِيره على نَفْسِه، وعلى غيرِه مِنَ النَّاسِ، فذكَر أنَّ منفعةَ المؤمنِ ليست مقتصِرَةً على نَفْسِه[1].

٣- قولُه تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فيه لطيفةٌ جميلةٌ، وهي أنَّه تعالى لَمَّا ذَكَرَ صِفةَ الإحسانِ إلى العبْدِ المؤمِنِ؛ نَسَبَ ذلك إليه جلَّ وعلا؛ فقال: ﴿فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ﴾ وفي صِفَةِ الكافِرِ لم ينسُبْها إلى نَفْسِه، بل قال: ﴿كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾[2].

٤- قوله: ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ فيه دقيقةٌ عقليَّةٌ، وهي أنَّ الشَّيْءَ إذا دام حُصولُه مع الشَّيْءِ صار كالأَمْرِ الذاتيِّ والصِّفةِ اللَّازِمَة له؛ فإذا دام كونُ الكافِرِ في ظُلُماتِ الجَهْلِ، والأَخْلاقِ الذَّميمةِ، صارت تلك الظُّلُماتُ كالصِّفةِ الذاتيَّةِ اللَّازِمَةِ له؛ يعسُر إزالتُها عنه، نعوذُ باللهِ من هذه الحالَةِ[3].

٥- في قَوْلِه تعالى: ﴿كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ﴾ جاءت الظُّلماتُ جمعًا؛ لتُناسِبَ تعدُّدَ أنواعِ الكُفرِ المتعدِّدةِ[4].

٦- قوله: ﴿زُيِّنَ﴾ حُذِفَ فاعل التَّزيينِ؛ فبُنِيَ الفعلُ للمفعولِ: لأنَّ المقصودَ وقوعُ التَّزيينِ لا معرفةُ مَن أوقَعَه[5].

٧- في قَوْلِه تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ خَصَّ الأكابِرَ؛ لأنَّهم أقدَرُ على الفَسادِ، والتَّحيُّلِ، والمَكرِ؛ لرِئاسَتِهم، وسَعَةِ أرزاقِهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٣٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٣٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٣٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٤٦).

واستِتْباعِهم الضُّعَفاءَ والمحاويجَ[١].

٨- قولُه تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّ أَهْلَ البَداوَةِ أقربُ إلى قَبولِ الخيرِ من أَهْلِ القُرى؛ لأنَّهم لبساطَةِ طِباعِهم من الفِطْرةِ السَّليمةِ، فإذا سَمِعوا الخيرَ تَقَبَّلوه، بخلافِ أَهْلِ القرى؛ فإنَّهم لتَشَبُّثِهم بعوائِدِهم وما أَلِفُوه؛ يَنْفِرونَ من كلِّ ما يُغَيِّره عليهم؛ ولهذا قال اللهُ تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾، فجعل النِّفاقَ في الأَعْرابِ نفاقًا مجرَّدًا، والنِّفاقَ في أَهْلِ المدينةِ نِفاقًا مارِدًا[٢].

٩- قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ في الآيةِ دليلٌ على كمالِ حِكمةِ اللهِ تعالى؛ لأنَّه وإن كان تعالى رحيمًا واسعَ الجودِ، كثيرَ الإحسانِ، فإنَّه حكيمٌ لا يَضَعُ جُودَه إلَّا عند أَهْلِه[٣].

١٠- كلُّ مَن لم يُقِرَّ بما جاء به الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم إلَّا بعد أن يقومَ على صِحَّتِه عنده دليلٌ مُنفَصِلٌ مِن عقلٍ أو كشْفٍ أو منامٍ أو إلهامٍ، لم يكُنْ مؤمنًا به قَطْعًا، وكان من جِنْس الَّذينَ قال اللهُ تعالى فيهم: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾[٤].

١١- في قوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ إشارةٌ لعَظيمِ مِقدارِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وتنبيهٌ لانْحِطاطِ نُفوسِ سادةِ المشركينَ عن نَوالِ مَرْتبةِ النُّبوةِ، وانعدامِ اسْتِعْدادِهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٣٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٤٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٢).
(٤) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٣/ ١١٦٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٥٥).

١٢- قولُه تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ فيه تنبيهٌ على دقيقةٍ جليلةٍ، وهي أنَّ أقَلَّ ما لا بدَّ منه في حصولِ النبوَّةِ والرِّسالةِ البراءةُ عن المكْر والغَدْرِ والغِلِّ والحسَد. وقولُهم: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ عَيْنُ المكْرِ والغَدْرِ والحَسَد؛ فكيف يُعْقَلُ حُصولُ النبوَّة والرِّسالةِ لهم مع اتِّصافِهم بهذه الصِّفاتِ[1].

١٣- لَمَّا كان العقابُ إنَّما يتِمُّ بأمرينِ: الإهانةِ والضَّرَرِ؛ توَعَّدَهم اللهُ تعالى بمجموعِ هذينِ الأَمْرينِ في هذه الآيةِ؛ فقال تعالى: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ وإنَّما قَدَّمَ ذِكْرَ الصَّغارِ على ذِكْرِ الضَّرَر؛ لأنَّ القومَ إنَّما تَمَرَّدوا عن طاعةِ محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلام طلبًا للعِزِّ والكرامةِ؛ فاللهُ تعالى بَيَّنَ أنَّه يُقابِلُهم بضِدِّ مَطْلوبِهم، فأَوَّلُ ما يُوصِلُ إليهم إنَّما يُوصِل الصَّغارَ والذُّلَّ والهوانَ[2].

١٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ فيه ردٌّ على القدريَّة، وبيانُ أنَّ الهدايةَ والضَّلالَ من الله تعالى[3].

١٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ فيه إثباتُ إرادةِ الله عزَّ وجلَّ، والإرادةُ المذكورةُ هنا إرادةٌ كونيةٌ لا غيرُ؛ لأنَّه قال: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ﴾، ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ﴾، وهذا التقسيمُ لا يكونُ إلَّا في الأمورِ الكونيَّات، أمَّا الشرعيةُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٣٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار)) للعمراني (٢/ ٣٨٤)، ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٤٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٦٣).

فالله يريدُ مِن كلِّ أحدٍ أن يستسلمَ لشرعِه[١].

١٦- التوفيقُ عنايةٌ خاصَّةٌ من الله تعالى؛ يتفَضَّلُ بها على بعضِ عِبادِه، فهو سبحانه عليمٌ بمَن يَصْلُح لهذا الفَضْلِ ومَن لا يصْلُحُ له، وحكيمٌ يَضَعُه في مواضِعِه وعند أهْلِه؛ يُبَيِّنُ ذلك قولُه تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾[٢].

١٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ﴾، إضافةُ الدَّارِ إلى (السَّلام) للإيذانِ بسَلامَتِها من العيوبِ، وسلامةِ أهْلِها مِن جميعِ المنَغِّصاتِ والكُروبِ[٣]، وقيل إنَّما وَصَفَ اللهُ الجنَّة هاهنا بدارِ السَّلامِ؛ لسَلامَتِهم فيما سَلَكوه من الصِّراطِ المستقيمِ، المقتفي أثَرَ الأنبياءِ وطرائِقَهم، فكما سَلِمُوا من آفاتِ الاعوجاجِ، أَفْضَوْا إلى دارِ السَّلامِ[٤].

١٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فيه نفيُ القَوْلِ بالجَبرِ، وإبطالُ القَولِ بإنكارِ القَدَرِ بصراحَةِ نَوْطِ الجزاءِ بالعَمَلِ؛ فإسنادُ العَمَلِ إليهم ينفي الجبْرَ، ونَوْطُ الجزاءِ به يُثْبِت القَدَرَ؛ الذي هو جعْلُ شيءٍ مُرَتَّبًا على شيءٍ آخَرَ، مُقَدَّرًا بقَدْرِه، وليس خَلْقًا أُنُفًا، أي مُبتدأً ومُستأنَفًا[٥].

١٩- قال تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ في هذه الآيَةِ عِدَّةُ تشريفاتٍ لِمَن عَنَاهم الله بالآيةِ:

النوع الأول: قولُه: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ﴾ وهذا يوجِبُ الحَصْرَ؛ فمعناه: لهم دارُ السَّلامِ لا لغَيرِهم.

---

(١) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (ص: ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٣٩).

(٣) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص:٩٥-٩٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٣٧- ٣٣٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٥٤).

النوع الثاني: قوله تعالى: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ وهذا يدلُّ على قُرْبِهم مِنَ اللهِ تعالى.

النوع الثالث: ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ﴾ وهذا يدلُّ على قُرْبِ اللهِ منهم(١).

بلاغة الآيات:

١- قوله تعالى: ﴿**أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ في الآيةِ التَّشبيهُ التمثيليُّ، ووجهُ الشَّبَه فيه صورةٌ منتزَعةٌ من متعدِّدٍ، وهذا مَثَلٌ ضَرَبَه اللهُ تعالى لحالِ المؤمِنِ والكافِرِ؛ فبيَّنَ أنَّ المؤمِنَ المهتديَ بمنزلةِ من كان مَيتًا فأحياه، وأعطاه نورًا يهتدي به في مصالحه، وأنَّ الكافِرَ بمنزلَةِ مَن هو في الظُّلماتِ منغمِسٌ فيها، وإنَّما ائتلفَتْ هذه الأجناسُ المختلفةُ، وتصادَفَتْ هذه الأشياءُ المُتباينةُ للتَّمثيلِ على حُكمِ المشبَّه؛ لأنَّه رُوعِي فيها ما يَستحضِرُ العقلُ، وما تَتعلَّقُ به البصيرةُ، والتروِّي في الأمْر، لا ما يَحضُر العينَ، أو يُنال بمُجرَّدِ الرُّؤيةِ(٢).

- ولقد جاء التَّشبيه بديعًا؛ إذ جَعَل حالَ المُسلِم، بعد أن صار إلى الإسلامِ، كحالِ مَن كان عديمَ الخيرِ، عديمَ الإفادَةِ كالميِّت، وهو في ظُلمةٍ لو أفاق لم يَعْرِفْ أين ينصَرِفُ، فإذا هداه اللهُ إلى الإسلامِ تَغَيَّرَ حالُه، فصار يُمَيِّزُ بين الحقِّ والباطِلِ، ويعلَمُ الصَّالِحَ من الفاسِدِ، فصار كالحيِّ، وصار يسعى إلى ما فيه الصَّلاحُ، ويتنكَّبُ عن سبيلِ الفسادِ، فصار في نورٍ يمشي به في النَّاسِ(٣).

- والهمزة في قوله: ﴿أَوَمَنْ﴾ للاستفهامِ المستعمَلِ في إنكارِ تماثُلِ الحالتينِ: **فالحالةُ الأولى:** حالةُ الَّذين أَسْلَموا بعد أنْ كانوا مُشركينَ، وهي المشَبَّهة

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٤٦، ١٤٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ٢١٦)
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٤٤).

بحالِ من كان مَيْتًا مُودَعًا في ظلماتٍ، فصار حَيًّا في نورٍ واضحٍ، وسار في الطَّريقِ الموصِلَة للمَطْلوبِ بين النَّاسِ، والحالة الثانية: حالةُ المُشرِك، وهي المشبَّهة بحالةِ مَن هو في الظُّلماتِ ليس بخارجٍ منها؛ لأنَّه في ظُلُماتٍ[1].

- قوله: ﴿يَمْشِي بِهِ﴾ الجملةُ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشَأَ من الكلامِ؛ كأنَّه قيل: فماذا يصنعُ بذلك النُّورِ؟ فقيل: يمشي به[2].

- قوله: ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ التَّمثيلَ المذكورَ قَبْلَها يُثيرُ في نفسِ السَّامِعِ سؤالًا؛ أن يقول: كيف رَضُوا لأنفُسِهم البقاءَ في هذه الضَّلالاتِ، وكيف لم يَشْعُروا بالبَوْن بين حالِهم وحالِ الَّذين أَسْلَموا؟ فكان حقيقًا بأن يُبَيَّنَ له السَّببُ في دوامِهم على الضَّلالِ، وهو أنَّ ما عَمِلوه كان تُزَيِّنُه لهم الشَّياطينُ[3].

٢- قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ فيه تَشبيهٌ؛ حيث شبَّه أكابِرَ المجرمينَ مِن أَهْلِ مكَّةَ في الشِّرْك بأكابِرِ المجرمينَ في أَهْلِ القُرى في الأُمَم الأخرى[4].

- وقوله: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ اعتراضٌ على سبيلِ الوَعدِ لرسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، والوعيدِ للكَفَرةِ[5]، وقد جيء بصيغَةِ القَصْرِ؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم لا يَلْحَقُه أذًى ولا ضُرٌّ مِن صَدِّهم النَّاسَ عن اتِّباعِه، ويلحَقُ الضُّرُّ الماكرينَ؛ في الدُّنيا: بعذابِ القَتْلِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨٠)- يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٤٦ - ٤٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨٢).

والأَسْرِ، وفي الآخرة: بعذابِ النَّارِ إن لم يؤمِنوا؛ فالضُّرُّ انحصَرَ فيهم على طريقةِ القَصْرِ الإضافيِّ، وهو قَصْرُ قلبٍ[١].

- وفيه تسليةٌ لرَسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، إذ حالُه في أنْ كان رؤساءُ قومِه يُعادونَه كما كان في كلِّ قريةٍ مَن يعانِدُ الأنبياءَ، وفيه تقديمُ مَوعِدٍ بالنُّصْرَةِ عليهم[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ لَمَّا ذَكَرَ اسمَ الجلالةِ في قوله: ﴿رُسُلُ اللَّهِ﴾ إيذانًا بعظيمِ ما اجترَؤوا عليه؛ لِعَماهم عمَّا للرُّسُلِ من الجلالِ الذي يخضَعُ له شوامِخُ الأنوفِ؛ أعادَها أيضًا تهويلًا للأَمْرِ، وتنبيهًا على ما هناك من عظيمِ القَدْرِ، فقال ردًّا عليهم: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ...﴾ الآية[٣].

- قوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ فيه: استئنافٌ للرَّدِّ والإنكارِ عليهم بأنَّ النبوَّةَ ليست بالنَّسَبِ والمالِ، وإنَّما هي اصطِفاءٌ من اللهِ تَعالى؛ يخصُّ الله سبحانه وتعالى بها من يشاءُ مِن عباده، فيَجْتبي لرسالاتِه مَن عَلِمَ أنَّه يَصْلُح لها، وهو أعلَمُ بالمكانِ الذي يَضَعُها فيه منهم[٤].

وفيه: تعريضٌ بأنَّ أمثالَهم ليسوا بأهْلٍ لحملِ الرِّسالة[٥].

٤- قوله: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ﴾ استئنافٌ ناشئٌ عن قولِه: ﴿لِيَمْكُرُوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٣)، وينظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٥٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٨١)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٥٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٥٤).

فِيهَا﴾ وهو وعيدٌ لهم على مَكْرِهم(١).

- وفيه: إظهارٌ في مقامِ الإضمارِ في قوله: ﴿الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ لأنَّ مُقتَضى الظَّاهِرِ أن يُقالَ: سيُصيبهم صَغارٌ، وإنَّما خُولِفَ مُقتَضى الظَّاهِر، فأُتِيَ بالموصولِ؛ للإشعارِ بأنَّ إصابةَ ما يُصيبُهم؛ لإجرامِهم المستَتْبِعِ لجميعِ الشُّرورِ والقبائحِ، أي: إنَّما أصابَهم صَغارٌ وعَذابٌ لإجرامِهم(٢).

- والسِّينُ في قوله: ﴿سَيُصِيبُ﴾ للتَّأكيدِ(٣).

- وعَلَّقَ الإصابةَ بِمَن أجرَمَ؛ ليَعُمَّ الأكابِرَ وغَيرَهم(٤).

٥- قوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾

فيه إتْباعُ الضِّيقِ بالحَرَجِ؛ لتأكيدِ معنى الضِّيقِ؛ لأنَّ في الحَرَجِ من معنى شِدَّةِ الضِّيقِ ما ليس في (ضَيِّق)(٥).

- وفي قوله: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ تشبيهٌ تمثيليٌّ؛ مُثِّلَ حالُ المُشرِك حين يُدْعَى إلى الإسلامِ، أو حين يخلو بنَفْسِه، فيتأمَّل في دعوةِ الإسلامِ، بحالِ الصَّاعِد؛ فإنَّ الصَّاعِدَ يَضِيقُ تنفُّسُه في الصُّعودِ، فشَبَّهَه مُبالغةً في ضِيقِ صَدْره بمَن يُزاوِلُ ما لا يَقدِرُ عليه؛ فإنَّ صُعودَ السماءِ مَثَلٌ فيما يَبعُدُ عن الاستطاعةِ، ونبَّه به على أنَّ الإيمان يمتنعُ منه كما يَمتنعُ الصُّعودُ(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٥٥).

(٢) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٥٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٦٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ٢٢٠-٢٢١).

٦- قوله: ﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ تذييلٌ لِمَا قَبْلَه؛ فلذلك فُصِلَ[1]، ووُضِعَ الموصولُ مَوْضِعَ المُضمَر في قوله: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ للإشعارِ بأنَّ جَعْلَه تعالى مُعَلَّلٌ بما في حَيِّزِ الصِّلَة من كمالِ نُبُوِّهم عن الإيمانِ، وإصرارِهم على الكُفْرِ[2].

- وجيء بالمضارعِ في قوله: ﴿يَجْعَلُ﴾ لإفادةِ التجدُّدِ في المستقبلِ؛ أي: هذه سُنَّةُ اللهِ في كُلِّ من ينصَرِفُ عن الإيمانِ، ويُعْرِضُ عنه[3].

٧- قوله: ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ تمثيلٌ لحالِ هَدْيِ القُرآنِ بالصِّراطِ المستقيمِ، الذي لا يُجْهِدُ مُتَّبِعَه، وتمثيلُ الإسلامِ بالصِّراطِ المستقيمِ يتضَمَّنُ تمثيلَ المسلمِ بالسَّالِك صِراطًا مستقيمًا[4].

- وإضافَةُ الصِّراطِ إلى الرَّبِّ في قوله: ﴿صِرَاطُ رَبِّكَ﴾ لتعظيمِ شَأْنِ المُضافِ، فيُعْلَم أنَّه خيرُ صراطٍ[5].

- وإضافَةُ الرَّبِّ إلى ضميرِ الرَّسولِ في قولِه: ﴿صِرَاطُ رَبِّكَ﴾ فيه: تشريفٌ للمُضافِ إليه، وترضيةٌ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم بما في هذا السَّنَنِ مِن بقاءِ بَعضِ النَّاسِ غَيْرَ مُتَّبِعينَ دِينَه[6].

- وقوله: ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ حالٌ مِنْ ﴿صِرَاطُ﴾ مؤكِّدةٌ لمعنى إضافَتِه إلى اللهِ[7].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٦١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ٦٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٦٢).

٨- قوله: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ استئنافٌ، وفذلَكةٌ لِمَا تَقَدَّم[١].

٩- قوله: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ الجملةُ إمَّا مُستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ الثَّناءَ عليهم بأنَّهم فُصِّلَت لهم الآياتُ، ويتَذَكَّرون بها؛ يثيرُ سؤالَ من يسألُ عن أثَرِ تَبْيينِ الآياتِ لهم، وتذَكُّرِهم بها، فقيل: لهم دارُ السَّلامِ، وإمَّا صِفَةٌ ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾[٢].

- والعدولُ عن إضافَةِ قَولِه: ﴿عِنْدَ﴾ لضَميرِ المتكَلِّم إلى إضافَتِه للاسْمِ الظَّاهِرِ في قوله: ﴿رَبِّهِمْ﴾ لقَصْدِ تشريفِهم بأنَّ هذه عطِيَّةُ مَن هو مولاهُم[٣].

- وقوله: ﴿دارُ السَّلامِ﴾ أي: دارُ الله، يعني الجنَّة؛ أضافَها إلى نَفْسِه تعظيمًا لها، أو دار السَّلامَة من كلِّ آفةٍ وكَدَرٍ[٤].

- وتقديمُ المجرورِ في قوله: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ﴾ لإفادَةِ الاختصاصِ للقومِ الَّذين يذَّكَّرون لا لِغَيْرِهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٦٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ٦٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٨٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٦٣).

الآيات (١٢٨-١٣١)

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَـٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿يَا مَعْشَرَ﴾: المعشَرُ: كلُّ جماعةٍ أمرُهم واحدٌ، وأصْلُ (عشر): يدلُّ على مُداخَلَة ومخالَطَةٍ[١].

﴿مَثْوَاكُمْ﴾: أي: مَنْزِلُكم، وأصْل الثَّواء: الإقامةُ مع الاستقرارِ، يُقال: ثوَى يثوي ثواءً[٢].

﴿نُوَلِّي﴾: أي: نَجعلُ بعضَهم لبعضٍ وليًّا على الكُفرِ بالله، وأصْل (ولي) يدلُّ على القُرْب، سواءٌ من حيث: المكان، أو النِّسبة، أو الدِّين، أو الصَّداقة، أو النُّصرة، أو الاعتقاد، وكلُّ مَن وَلِي أمرَ آخَرَ فهو وَليُّه[٣].

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٢٧،٣٢٤)، ((الكليات)) للكفوي (١/ ٨٠٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٥٨، ٥٥٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩).

﴿يَقُصُّونَ﴾: يُخبِرونكم، والقَصَص: الأخبارُ المتتبَّعَةُ، والأثَرُ؛ وأصْلُ القصِّ: تتبُّعُ الأثَرِ أو الشَّيءِ[1].

﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾: أي: أصابتْ غِرَّتَهم، ونالَتْ منهم ما تريدُه، وخَدَعتْهم عن الأخْذِ بنَصيبِهم من الآخِرَةِ حتى أتتْهم المنِيَّةُ، والغِرَّةُ: غفلةٌ في اليقَظَة، وأصلُ ذلك من الغُرِّ، وهو الأثَرُ الظاهر مِن الشَّيْءِ، وأَصْلُ (غرر) يدلُّ أيضًا على النُّقْصانِ[2].

المعنى الإجماليُّ:

اذكُرْ- يا مُحمَّدُ- يومَ يَحْشُر اللهُ هؤلاء المشركينَ مع أوليائِهم مِن شَياطينِ الجِنِّ؛ فيقولُ اللهُ تعالى للجِنِّ: قد استكثَرْتُم من إضلالِ الإنسِ وإغوائِهم، وقال أولياءُ الجِنِّ مِنَ الإنْسِ: ربَّنا تمتَّعَ بعضُنا ببعضٍ؛ فالجنيُّ تمتَّعَ بطاعةِ الإنسيِّ له، وعبادَتِه وتعظيمِه، والإنسيُّ تمتَّعَ بخِدمةِ الجنيِّ له، وتلبيةِ بعض أغراضِه وشَهَواتِه، وبَلَغْنا الوقتَ الذي وَقَّتَّه لنا يا رَبَّنا. قال اللهُ لهم: إنَّ النَّارَ هي مُستَقَرُّكم، خالدينَ فيها إلَّا ما شاءَ الله؛ إنَّ ربَّك- يا مُحمَّدُ- حكيمٌ عليمٌ، وكذلك يُوَلِّي اللهُ جلَّ وعلا بعضَ الظَّالِمينَ بعضًا بما كانوا يَكْسِبونَ.

ثم أخبَرَ تعالى أنَّه يقولُ يومئذٍ: يا مَعْشَرَ الجِنِّ والإنسِ، ألَمْ يَأْتِكم رسُلٌ منكم يتلُونَ عليكم آياتي، ويُنْذِرونكم لقاءَ يومِكم هذا؟ قالوا: أَقْرَرْنا بأنَّها جاءَتنا فكذَّبْناها وجَحَدْناها، وبَيَّنَ تعالى أنَّ الحياةَ الدُّنيا غَرَّتْهم وخَدَعَتْهم، وشَهِدُوا على أنفُسِهم أنَّهم كانوا كافرينَ.

وأخبر أنَّ ذلك الإنذارَ والإعذارَ مِن قِبَل الرُّسُل في الدُّنيا واقِعٌ؛ مِن أجْلِ أنَّ

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٣- ٦٠٤).

الله تعالى لم يكُنْ لِيُهْلِكَ القرى بسبَبِ كُفْرِها ومعاصِيها، مع كونِهم لم يُنَبَّهُوا برسولٍ ولا كتابٍ.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بيَّنَ حالَ مَن يَتَمَسَّكُ بالصِّراط المستقيم؛ بَيَّنَ بَعْدَه حالَ من يكونُ بالضِّدِّ من ذلك؛ لِتكُونَ قِصَّةُ أهلِ الجنَّة مُرْدَفةً بقصَّةِ أهل النَّارِ، ولِيَكونَ الوعيدُ مذكورًا بعد الوعدِ[(١)].

وأيضًا لَمَّا اشتمَلَ سياقُ الآياتِ السَّابقةِ لهذه الآياتِ على وعيدٍ بما أعَدَّ اللهُ من العذابِ للمُجرمينَ، ووعْدٍ بالنَّعيم في دارِ السَّلامِ للمؤمنينَ في إثْرِ بيانِ أحوالِهم وأعمالِهم التي استحَقَّ بها كلٌّ منهما جزاءَه- رَبَطَ ذلك بحقيقةِ الجزاءِ في الآخِرَةِ على الكَسْبِ في الدُّنيا بعد النِّذارَةِ والبِشَارة؛ فقَفَّى بذِكْر الحَشْرِ، وبعْضِ ما يكون في يوْمِه من الحِسابِ، وإقامةِ الحُجَّةِ على الكُفَّار[(٢)]، فقال تعالى:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾.

أي: واذكرْ- يا مُحمَّدُ- يومَ يَحْشُرُ الله عزَّ وجلَّ هؤلاءِ المشركينَ مع أوليائِهم من الشَّياطينِ الَّذين كانوا يعبدونَهم في الدُّنيا، ويَعُوذون بهم ويُطيعُونهم، ويُوحي بعضُهم إلى بعضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غرورًا؛ لِيُجادِلوا به المؤمنينَ، فيَجْمَعُهم سبحانه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٤٢٨)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٢٠٦).
(٢) يُنظر: ((تفسر المنار)) (٨/ ٥٥)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٢٠٦).

وتعالى جميعًا في موقِفِ القيامةِ(١).

ثم يقولُ الله تعالى مُوَبِّخًا للجِنِّ الَّذين أضَلُّوا الإنسَ، وزَيَّنوا لهم الشَّرَّ، وأزُّوهُم إلى المعاصِي:

﴿يَـٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ﴾.

أي: قد استكثرتم أيُّها الشَّياطينُ من إضلالِ الإنسِ، وإغوائِهم، وصَدِّهِم عن سبيلِ الله، فأَضْلَلْتُم منهم أعدادًا طائلةً(٢).

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٠-٦٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠].

﴿وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٢٧-٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٩٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٢٩-٢٣١).

قال الشنقيطيُّ: (والتحقيقُ: أنَّ الله يكلِّم الكفَّار كلامَ توبيخ وتقريع، الذي هو من جنسِ العذابِ، كقولِه لَمَّا قالوا: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ * قَالَ اخْسَؤُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٧، ١٠٨] لأنَّ هذا التكليمَ لهم ليس تكليمَ تشريفٍ، إنَّما هو تكليمُ توبيخٍ وتقريعٍ، وهو مِن أنواعِ عذابِه لهم، ولا مانعَ منه) ((العذب النمير)) (٢/ ٢٢٩).

أي: وقال أولياءُ الجِنِّ مِن الإنْسِ، وهم الَّذين كانوا يتَّبِعون تشريعَ الشَّياطينِ لهم في الدُّنيا، أو يطاوِعُونهم فيما زَيَّنوا لهم من الكُفْرِ وأنواعِ المعاصي: يا رَبَّنا، قد تمتَّعَ وانتفَعَ بعضُنا ببعضٍ في الدُّنيا؛ فالجنيُّ يستمتِعُ بطاعةِ الإنسيِّ له وعبادَتِه، وتعظيمِه، واستعاذَتِه واستعانَتِه به، وإعانَةِ الإنسيِّ على إضلالِ النَّاسِ، والإفسادِ في الأرضِ؛ والإنسيُّ يتمتَّعُ بخدمة الجنيِّ له، وتلبيةِ بعضِ أغراضِه وشهواتِه[1].

﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾.

أي: استمتَعَ بعْضُنا ببعضٍ أَيَّامَ حياتِنا الدُّنيا إلى أنْ بَلَغْنا الوَقْتَ الذي وُقِّتَ لِمَوتِنا[2].

﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

أي: قال اللهُ لأولياءِ الجِنِّ مِنَ الإِنْسِ: نارُ جهنَّمَ هي المحلُّ الذي تقيمونَ فيه أبدًا، إلَّا من شاءَ الله عَدَمَ خُلودِه، وهم العصاةُ من المؤمنينَ الموحِّدينَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٥٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٨٠-٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٦٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٤٣-٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٤٤).

والقولُ بأنَّ الأجلَ هو الموتُ، هو اختيارُ ابن جريرٍ في ((تفسيره)) (٩/ ٥٥٦)، والقرطبيِّ في ((تفسيره)) (٧/ ٨٤)، والشنقيطي في ((العذب النمير)) (٢/ ٢٤٤)، وهو قول السدِّيِّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٥٦).

والقول بأنَّ الأجل هو البعثُ والقيامة، هو اختيارُ الواحديِّ في ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٣٢٣)، وهو ظاهرُ اختيارِ السعدي في ((تفسيره)) (ص: ٢٧٣)، وابنِ عاشورٍ في ((تفسيره)) (٨-أ/ ٧٠).

وذهب ابنُ القيِّم إلى حملِ الآيةِ على كلا القولينِ فقال: (...﴿وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾ [الأنعام: ١٢٨]. وهو يتناولُ أجلَ الموتِ، وأجلَ البعثِ. فكلاهما أجلٌ أجلَّه الله تعالى لعبادِه) ((إغاثة اللهفان)) (٢/ ٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٣٩) (٤/ ٣٥١-٣٥٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٤٤).

وقيل في معنى الاستثناءِ هنا أقوالٌ أخرى. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٥٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٤٥-٣٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٧١). =

﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان هذا الحُكمُ في قولِه تعالى: ﴿النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ مِن مُقتَضى حِكْمَته وعِلمِه- ناسَبَ ذلك خَتْمُ الآيةِ بقَوْلِه سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ فكما أنَّ عِلْمَه وَسِعَ الأشياءَ كُلَّها وعَمَّها، فحِكْمَتُه الغائيَّةُ شَمِلَت الأشياءَ وعَمَّتْها ووَسِعَتْها[1].

﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: إنَّ ربَّك- يا محمَّدُ- حكيمٌ، يَضَعُ الأمورَ في مواضِعِها اللَّائقةِ، ويُوقِعُها في مواقِعِها الصَّحيحة، ومن ذلك أنَّه لا يُعَذِّبُ إلَّا مَن يستَحِقُّ، وقد وَسِعَ عِلْمُه وشَمِلَ الأشياءَ كُلَّها؛ ومن ذلك عِلْمُه بالأشخاصِ والأحوالِ المستحِقَّة للعقابِ[2].

= قال ابنُ عاشورٍ: (ولك أن تجعَلَ (ما) على هذا الوجهِ مَوصولةً، فإنَّها قد تُستعمَلُ للعاقِلِ بكثرةٍ. وإذا جُعِلَ قَولُه: ﴿خَالِدِينَ﴾ مِن جُملةِ المَقولِ في الحَشرِ، كان تأويلُ الآيةِ: أنَّ الاستثناءَ لا يُقصَدُ به إخراجُ أوقاتٍ ولا حالةٍ، وإنما هو كنايةٌ، يُقصَدُ منه أنَّ هذا الخُلودَ قَدَّرَه اللهُ تعالى، مُختارًا لا مُكرَهَ له عليه، إظهارًا لتمامِ القُدرةِ ومَحضِ الإرادةِ، كأنَّه يقولُ: لو شِئتُ لأبطَلْتُ ذلك. وقد يُعَضِّدُ هذا بأنَّ اللهَ ذَكَر نظيرَه في نعيمِ أهلِ الجَنَّةِ، في قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ * وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٦، ١٠٨] فانظُرْ كيف عَقَّبَ قَولَه: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ في عِقابِ أهلِ الشَّقاوةِ، بِقَولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾! وكيف عَقَّبَ قَولَه: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ في نَعيمِ أهلِ السَّعادةِ بِقَولِه: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾، فأبطَلَ ظاهِرَ الاستثناءِ بقَولِه: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ فهذا معنى الكنايةِ بالاستثناءِ، ثمَّ المصيرُ بعد ذلك إلى الأدلَّةِ الدَّالةِ على أنَّ خُلودَ المُشركينَ غَيرُ مَخصوصٍ بزَمَنٍ ولا بحالٍ، ويكون هذا الاستثناءُ مِن تأكيدِ الشَّيءِ بما يُشبِهُ ضِدَّه) ((التحرير والتنوير)) (٨-أ/ ٧٢).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٧٢-٧٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٥٢-٢٥٥).

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّه وَلَّى الكَفَرةَ من ظالِمي الجنِّ، ظالِمي الإنسِ، وسَلَّطَهم عليهم؛ أخبَرَ تعالى أنَّ هذا عَمَلُه مع كلِّ ظالمٍ مِن أيِّ قبيلٍ كان، سواءٌ كان كافرًا أو لا(١).

وأيضًا لَمَّا حَكَم تعالى على الجنِّ والإنسِ أنَّ بعضَهم يتولَّى بعضًا؛ في قوله: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ...﴾ بَيَّنَ أنَّ ذلك إنَّما يحصُلُ بتقديرِه وقضائِه سبحانه؛ فقال(٢):

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾.

قيل: المعنى: وكما جعَلْنا بعضَ هؤلاءِ المشركينَ من الجِنِّ والإِنْسِ أولياءَ، كذلك نولِّي كلَّ ظالمٍ ظالِمًا مِثلَه، يَؤُزُّه إلى الشَّرِّ، ويُزَهِّدُه في الخَيْرِ؛ بسببِ ما كانُوا يعملونَه منَ المعاصِي(٣).

وقيل: المعنى: وكما وَلَّيْنا هؤلاءِ الخاسرينَ من الإِنْسِ تلك الطَّائفةَ التي أغْوَتْهم من الجِنِّ فاستمتَعَ بعضُهم ببعضٍ، كذلك نفعَلُ بالظَّالمينَ، فنُسَلِّط بعضَهم على بعضٍ، ونُهْلِك بعضَهم ببعضٍ؛ جزاءً على ظُلْمِهم(٤).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٤٩).

(٣) واختار هذا المعنى: ابنُ جريرٍ في ((تفسيره)) (٩/ ٥٥٩)، والواحديُّ في ((الوجيز)) (ص: ٣٧٥)، والسعديُّ في ((تفسيره)) (ص: ٢٧٣-٢٧٤). وهو مرويٌّ عن قتادة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٥٨).

(٤) واختار هذا المعنى: ابنُ كثيرٍ في ((تفسيره)) (٣/ ٣٤٠). ورُوِي نحوه عن ابنِ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٥٩).

ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٧٣-٧٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٥٦-٢٦٠).

﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ (١٣٠) ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا انقضت المحاورةُ السَّابقةُ وما أنتجَتْه من بغيضِ الموالاةِ والمجاورةِ، وكان حاصِلُها أنَّها موالاةُ مَن ضَرَّت مُوالاتُه؛ أتبَعَها سبحانه بمحاورةٍ أخرى حاصِلُها معاداةُ مَن ضَرَّت معاداتُه، فذَكَر كُفْرَهم به تعالى، وشهادَتَهم على أنفُسِهم بذلك[(١)]، فقال:

﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي ﴾.

أي: يقولُ الله تعالى يومئذٍ: ألم يأتِكم أيُّها الإنسُ والجِنُّ رسلٌ منكم[(٢)] يقْرَؤونَ عليكم آياتي التي أُنْزِلَت، ويُبيِّنون لكم ما فيها من الأدلَّةِ على توحيدِ الله تعالى، وصِدْق رُسُلِه، وصِحَّة ما جاؤُوا به مِن عِنده، ويُبيِّنون ما فيها من أحكامٍ، ووعدٍ ووعيدٍ[(٣)].

﴿ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ ﴾.

أي: ويحذِّرونكم الأهوالَ والعذابَ الواقِعَ في يومِكم هذا، وعقابي على

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٧١).

(٢) قال الشنقيطي: (الذي عليه جماهيرُ العلماء، خلفًا وسَلَفًا، أنَّ الرُّسُل جميعَهم إنَّما هم مِنَ الإنس، وإنَّما قال: ﴿رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ لمجموع الإنسِ والجنِّ؛ نظرًا إلى أنَّ العرب تطلِقُ المجموع وتريد بَعْضَه. أي: مِن مجموعِكم الصَّادق بالإنْسِ دون الجنِّ. وهو كثيرٌ في القرآن، وفي كلام العرب) ((العذب النمير)) (٢/ ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٥٩-٥٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٦٧-٢٧١).

كُفْرِكم وشِرْكِكم بي، ومعصيتِكم لي؛ كي تنتهوا عن ذلك(١).

﴿قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾.

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا وبَّخَهم الله هذا التوبيخَ، وقَرَّعَهم هذا التقريعَ، أقرُّوا نادمينَ حيث لا ينفَعُ النَّدَمُ؛ فقال الله تعالى عنهم(٢):

﴿قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾.

أي: قالوا: أقْرَرْنا بأنَّ رُسُلَك قد أَتَتْنا بآياتِك، وحَذَّرَتْنا لقاءَ يومِنا هذا، فكَذَّبْناها، وجَحَدْنا رِسالَتَها، ولم نَتَّبِعْ آياتِك، ولم نؤمِنْ بها(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ * فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠-١١].

ثم بيَّن اللهُ تعالى السَّبَبَ الذي كذَّبوا به الرُّسُلَ، ولم يَعْتَنوا بالإنذارِ؛ فقال(٤):

﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾.

أي: وغَرَّتْ هؤلاءِ المشركينَ وأولياءَهم من الجِنِّ زينةُ الحياةِ الدنيا وزُخْرُفُها وشَهَواتُها، وطَلَبُ الرِّياسةِ فيها، والمنافسةُ عليها، فَرَضُوا واطمَأَنُّوا بها، وألْهَتْهم عن العَمَلِ للدَّارِ الآخِرةِ(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٧٤).

(٤) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٧٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٧٤).

﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾.

أي: وشَهِدَ هؤلاء المشركونَ في يومِ القيامة أنَّهم كانوا في الدُّنيا كافرينَ باللهِ تعالى وبِرُسُلِه؛ لتَتِمَّ حجَّةُ الله عليهم بإقرارِهم على أنفُسِهم بما يُوجِبُ عليهم عُقوبَتَه، ويَعْلَم حينئذ كلُّ أحدٍ، حتى هم أنفسُهم، عَدْلَ اللهِ تعالى فيهم[1].

﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ ١٣١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ الله تعالى أنَّه ما عَذَّبَ الكفَّارَ إلَّا بعد أن بَعَثَ إليهم الأنبياءَ والرُّسُلَ؛ بَيَّنَ بهذه الآيةِ أنَّ هذا هو العدْلُ والحقُّ والواجِبُ[2]، فقال تعالى:

﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ ١٣١﴾.

أي: ذلك الإنذارُ والإعذارُ على ألْسِنَة الرُّسُلِ في دارِ الدُّنيا واقعٌ؛ من أجل أنَّ ربَّك- يا محمَّد- لم يكُنْ لِيُهْلِكَ القرى بكُفْرِها ومعاصِيها، والحالُ أنَّهم غافِلونَ، لم يُنبَّهوا برسولٍ ولا بكتابٍ، بل لابدَّ من إزالةِ الغَفْلَةِ أولًا بإرسالِ الرُّسُلِ، وإنزال الكُتُبِ[3].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٧٥).
قال الشنقيطي: (ونصَّ على شهادتهم في دار الدنيا بالكُفْرِ أيضًا؛ حيث قال في سورة التوبة: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ [التوبة: ١٧] وهذه الشهادةُ؛ قيل: هي شهادةُ لسانِ الحال، وقيل أيضًا: شهادةُ مَقالٍ) ((العذب النمير)) (٢/ ٢٧٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٥٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٣-٥٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٤١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٧٩).

وقال سبحانه: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

الفَوائِد التربويَّة:

١- مِن سنَّة الله تعالى أنَّه يُولِّي كلَّ ظالمٍ ظالِمًا مِثلَه؛ يَؤُزُّه إلى الشَّرِّ ويَحثُّه عليه، ويُزَهِّده في الخير ويُنَفِّرُه عنه، وذلك من عقوباتِ الله العظيمةِ، الشَّنيعِ أثرُها، البليغِ خَطَرُها، والذَّنبُ ذنبُ الظالم؛ فهو الذي أدخَلَ الضَّرَر على نفسِه، وعلى نَفسِه جَنَى؛ قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(١).

٢- ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ الآيةُ تدلُّ على أنَّ الرَّعِيَّةَ متى كانوا ظالمينَ؛ فالله تعالى يُسَلِّطُ عليهم ظالِمًا مِثْلَهم؛ فإنْ أرادوا أن يتخَلَّصوا من ذلك الأميرِ الظَّالم، فلْيَتْركوا الظُّلْمَ(٢).

٣- قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ المقصودُ من الآيةِ الاعتبارُ والموعظةُ، والتَّحذيرُ من الاغترارِ بولايةِ الظَّالمينَ، وتوَخِّي الأَتْباعِ صلاحَ المتبوعينَ، وبيانُ سنَّةٍ مِن سُنَنِ اللهِ في العالَمينَ(٣).

٤- قولُ الله تعالى: ﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ فيه الحَذَرُ من الاغترارِ بالحياةِ الدُّنيا واللَّذات الحاضرةِ؛ فإنَّما قال ذلك تحذيرًا للسَّامعينَ مثلَ حالِهم(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٤٩).

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قَوْلِه تعالى: ﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ اقتصَرَ على حكايةِ جوابِ الإنسِ؛ لأنَّ النَّاسَ المشركينَ هم المقصودُ مِنَ الموعِظَةِ بهذه الآيةِ[١].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ لَمَّا كان من المقرَّر أنَّه لا تمامَ لِمُلك من يجِبُ عليه شيءٌ، ويَلْزَمُه بإيجابٍ أو إلزامِ غَيرِه، بحيث لا يَقْدِرُ على الانفكاكِ عنه؛ بَيَّنَ سبحانه أنَّ مُلْكَه ليس كذلك، بل هو على غايةِ الكَمالِ، لا يجِبُ عليه شيءٌ إلا ما أوجَبَه على نَفْسِه، بل كلُّ فِعْلِه جميلٌ، وجميعُ ما يبدو منه حَسَنٌ، فعَلَّقَ دوامَ عذابِهم على المشيئةِ[٢].

٣- قَولُه تعالى: ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ﴾، هذه الآيةُ الكريمةُ يُفهَمُ منها كَونُ عَذابِ أهلِ النَّارِ غيرَ باقٍ بقاءً لا انقطاعَ له أبدًا، ونظيرُها قَولُه تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١٠٦-١٠٧]، وقولُه تعالى: ﴿لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾[النبأ: ٢٣]، وقد جاءت آياتٌ تدُلُّ على أنَّ عذابَهم لا انقطاعَ له، كَقولِه: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾.

والجوابُ عن هذا مِن أوجُهٍ:

أحدُها: أنَّ قَولَه تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ﴾ معناه: إلَّا مَن شاءَ اللهُ عَدَمَ خلودِه فيها مِن أهلِ الكبائرِ مِنَ المُوحِّدينَ، وقد ثبت في الأحاديثِ الصَّحيحةِ أنَّ بَعضَ أهلِ النَّارِ يَخرُجونَ منها، وهم أهلُ الكبائرِ مِنَ المُوحِّدينَ، ونظيرُه في القُرآنِ: ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٦٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٦٩)، وهذا على أحدِ الأوجهِ في الاستثناءِ.

الثاني: أنَّ المُدَّةَ التي استثناها اللهُ هي المُدَّةُ التي بين بَعثِهم مِن قُبورِهم واستقرارِهم في مَصيرِهم.

الثالث: أنَّ قَولَه: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ﴾ فيه إجمالٌ، وقد جاءت الآياتُ والأحاديثُ الصَّحيحةُ مُصَرِّحةً بأنَّهم خالدونَ فيها أبدًا، وظاهِرُها أنَّه خُلودٌ لا انقطاعَ له، والظُّهورُ مِن المُرَجِّحاتِ، فالظَّاهِرُ مُقَدَّمٌ على المُجمَلِ كما تقَرَّرَ في الأصولِ[1].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ يدلُّ على تكليفِ الجِنِّ، وتعلُّقِ الأَمْرِ والنَّهيِ بهم، وكذلك تعلُّق الثَّوابِ والعقابِ بهم، كالإِنْسِ[2].

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ يدلُّ أنَّه لا يُعَذَّبُ أحدٌ حتى يُبعَثَ إليه رسولٌ، فتَبْلُغه الرِّسالةُ، وتقوم الحُجَّة عليه، فمن لم تَبْلُغْه الرسالةُ جملةً لم يُعَذِّبْه رأسًا، ومن بلَغَتْه جملةً دون بعضِ التَّفصيلِ لم يُعَذِّبْه إلا على إنكارِ ما قامت عليه الحُجَّة الرِّساليَّةِ[3].

٦- قوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ... وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ لَمَّا كان حالُ هؤلاء الجنِّ والإِنْسِ في التمَرُّد على الله، ونَبْذ العَمَل الصَّالح ظِهْرِيًّا، والإعراضِ عن الإيمانِ؛ حالَ مَن لم يَطْرُقْ سَمْعَه أمرٌ بمعروفٍ ولا نهيٌ عن منكرٍ- جيءَ في تقريرِهم على بَعثةِ الرُّسُلِ إليهم بصيغَةِ الاستفهامِ عن نفيِ مجيءِ الرُّسُل إليهم، حتى إذا لم يَجِدوا لإنكارِ مجيءِ الرُّسُل مَساغًا، واعترفوا بمجيئهم؛ كان ذلك أحرى لأخْذِهم بالعقابِ[4].

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (١ / ٣٦).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٧٩)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤٢٠).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٢/ ٤٩٣)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤١٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٧٥، ٧٦).

٧- في قَوْلِه تعالى: ﴿وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ لَمَّا كان اللقاءُ يومَ الحَشْرِ يتضمَّنُ خيرًا لأهلِ الخيرِ، وشَرًّا لأهلِ الشَّرِّ، وكان هؤلاء المخاطَبون قد تمحَّضوا للشرِّ- جَعَلَ إخبارَ الرُّسُل إيَّاهم بلقاءِ ذلك اليومِ إنذارًا؛ لأنَّه الطَّرَفُ الذي تحقَّقَ فيهم مِن جملةِ إخبارِ الرُّسُل إيَّاهم ما في ذلك اليومِ وشَرِّه(١).

٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ كَرَّرَ ذِكْرَ شَهادَتِهم على أنفُسِهم؛ لاختلافِها باختلافِ المَشْهودِ به: فالأُولى: شهادَتُهم بتبليغِ الرُّسُل إليهم، والثَّانية: شهادَتُهم بكُفْرِهم(٢).

٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ لا تَنافيَ بينه وبين الآياتِ التي تدلُّ على إنكارِهم؛ كقولِه تعالى حكايةً عن قولِهم: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ لاحتمالِ أن يكونَ ذلك من طوائِفَ: طائفةٌ تَشهَدُ، وطائفة تُنكِرُ، أو من طائفةٍ واحدةٍ؛ لاختلافِ الأحوالِ ومواطِنِ القيامةِ في ذلك اليومِ المتطاوِلِ: فيُقِرُّون في بعضٍ، ويجحدونَ في بعضٍ، وذلكَ يدلُّ على شدَّةِ خَوفِهم، واضطرابِ أحوالِهم؛ فإنَّ مَنْ عَظُمَ خَوفُه كَثُرَ الاضطرابُ في كَلامِه(٣).

١٠- قال تعالى: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ هذه الآيةُ تدلُّ على أنَّه لا وجوبَ ولا تكليفَ قبل وُرودِ الشَّرْعِ(٤).

١١- قوله: ﴿لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ فيه شأنٌ عظيمٌ مِن شُؤونِ الله تعالى، وهو شَأْنُ عَدْلِه ورَحْمَتِه، ورضاه لعبادِه الخيرَ والصَّلاحَ، وكراهِيَته سوءَ أعمالِهم، وإظهارِه أثَرَ ربوبيَّتِه إيَّاهم؛ بهدايَتِهم إلى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٧٨).
(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ١٧٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٤٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٤٣٧).

سُبُلِ الخيرِ، وعَدَمِ مُباغَتَتِهم بالهلاكِ قبل التقَدُّمِ إليهم بالإنْذارِ والتَّنبيهِ(١).

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ قرئَ بنونِ العَظَمةِ على الالتفاتِ؛ لتهويلِ الأمرِ(٢)، وفيه: تأكيدٌ عامٌّ(٣).

٢- قوله: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ فيه: إيجازٌ بالحذف؛ إذ إنَّ الجملة مقولٌ لقولٍ محذوفٍ يدلُّ عليه أسلوبُ الكلامِ، والتقديرُ: نقولُ أو قائلينَ(٤)، ونداؤهم نداءُ شهرةٍ وتوبيخٍ على رؤوسِ الأشهادِ(٥).

وفيه: تعريضٌ بتوبيخِ الإنسِ الَّذين اتَّبَعوهم وأَطاعُوهم، وأَفْرَطوا في مَرْضاتهم، ولم يسمَعوا مَن يدعوهم إلى نَبْذِ مُتابَعَتِهم(٦).

- وقوله: ﴿قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ فيه إيجازٌ بحذفِ مضافٍ، تقديرُه: منْ إضلالِ الإنس(٧)، وفيه: التوبيخُ والتقريعُ للجِنِّ والإنكارُ عليهم، أي: كان أكثرُ الإنسِ طَوْعًا لكم(٨).

٣- قوله: ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ﴾ فيه: استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نَشَأَ من حكايةِ كَلامِهم؛ كأنَّه قيل: فماذا قالَ الله تعالى حينئذٍ؟ فقيل: قال: ﴿النَّارُ مَثْوَاكُمْ﴾(٩).

- وقوله: ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ﴾ فيه: مجيءُ القولِ بصيغةِ الماضي؛ للتَّنبيهِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٨١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٤٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٦٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٤٤).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٦٨).
(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ٦٧).
(٨) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٦٨).
(٩) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨٥).

على تحقيقِ وُقوعِه، وهو مُستقبَلٌ؛ بقرينَةِ قولِه: ﴿يَحْشُرُهم﴾[(١)].

٤- قوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ مِن أشَدِّ الوعيدِ، مع تهكُّمٍ بالموعدِ؛ لخروجِه في صورةِ الاستثناءِ الذي فيه إطماعٌ[(٢)].

٥- قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ فيه: تذييلٌ للاعتراضِ، وتأكيدٌ للمقصودِ من المشيئةِ مِن جَعْل استحقاقِ الخلودِ في العذابِ مَنُوطًا بالمُوافاةِ على الشِّرْكِ[(٣)].

٦- قوله: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ هذا النِّداءُ أيضًا يومَ القيامَةِ، والهمزةُ الداخِلَةُ على نَفْي إتيانِ الرُّسُلِ في قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ للإنكارِ التَّقريريِّ، وللتَّوبيخِ والتقريعِ[(٤)]، حيث أعذَرَ اللهُ إليهم بإرسالِ الرُّسُلِ، فلم يَقْبَلوا منهم[(٥)].

- وقوله: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ فيه تبكيتُ المشركينَ، وتحسيرُهم على ما فَرَطَ منهم في الدُّنيا من عبادَةِ الجِنِّ، أو الالتجاءِ إليهم[(٦)].

٧- قوله: ﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نَشَأَ من الكلامِ السَّابقِ؛ كأنَّه قيل: فماذا قالوا عند ذلك التَّوبيخِ الشَّديدِ؟ فقيل: ﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا﴾[(٧)].

٨- قوله: ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ اعتراضٌ لبيانِ ما أدَّاهم في الدُّنيا إلى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٧٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٧٢-٧٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٤٧-٦٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٧٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٤٧).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٧٧).
(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨٦).

ارتكابِهم للقَبائِحِ التي ارتَكَبوها، وألجَأَهم بعد ذلك في الآخِرَةِ إلى الاعترافِ بالكُفْرِ، واستيجابِ العذابِ[1].

٩- قوله: ﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ يحتملُ أن يكون استئنافَ إخبارٍ من الله تعالى بإقرارِهم على أنفُسِهم بالكُفْرِ[2].

- قوله: ﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ خبرٌ مستعمَلٌ في التَّعجُّبِ مِن حالِهم[3].

١٠- قوله: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ، تهديدٌ وموعظةٌ، وعِبرةٌ بتفريطِ أهْلِ الضَّلالةِ في فائدةِ دعوةِ الرُّسُلِ، وتنبيهٌ لجدوى إرسالِ الرُّسُل إلى الأُمَمِ؛ ليُعِيدَ المشركونَ نظرًا في أَمْرِهم، وإنذارٌ باقترابِ نُزُولِ العذابِ بهم[4].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٧٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ٨٠).

الآيات (١٣٢-١٣٥)

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٍۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾.

غريب الكلمات:

﴿وَيَسْتَخْلِفْ﴾: أي: يأتِ بخَلْقٍ وأُمَمٍ يَخْلُفونَ غيرَهم في الأرضِ، والخِلافةُ النِّيابةُ عن الغَيرِ؛ يقال: خَلَفَ فلانٌ فلانًا: قام بالأمْرِ عنه، إمَّا معه وإمَّا بَعدَه، وأَصْلُ (خلف): مجيءُ شيءٍ بعدَ شيء يقومُ مقامَه[١].

﴿مَكَانَتِكُمْ﴾: أي: مكانِكم، أو مواضِعكم، أو ناحِيَتِكم، أو ما أنتم عليه[٢].

﴿يُفْلِحُ﴾: أي: يظْفَرُ ويُدرِكُ بُغْيتَه؛ فأصل الفَلاحِ: الظَّفَرُ، وإدراكُ البُغية، والبقاءُ[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يخبِرُ تعالى أنَّ لكُلِّ النَّاسِ منازِلَ ومراتِبَ في الآخِرَةِ، يستحقُّونها بحَسَبِ أعمالِهم؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شَرًّا فشَرٌّ، ولا يخفى على اللهِ من أعمالِ البَشَرِ شيءٌ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٥)، ((مقاييس اللغة)) (٢/ ٢١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١/ ٣٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٤٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨).

ثم خاطب اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم؛ قائلًا له: وربُّك- يا مُحمَّدُ- هو الغنيُّ ذو الرَّحمةِ؛ إنْ يَشَأْ يُذْهِبْكم- أيُّها النَّاسُ- ويستخلِفْ مِن بَعْدِكم قومًا آخرينَ، يعملونَ بطاعَتِه؛ كما أوجَدَكم مِن نَسْلِ قومٍ آخرينَ كانوا قَبلَكم.

ثم بَيَّنَ تعالى أنَّ ما يتوعَّدُ به عزَّ وجلَّ المشركينَ مِن العذابِ؛ فإنَّه آتٍ لا محالةَ، وما هم بمُعجزينَ.

ثم أمَرَ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم أن يُخبِرَ قَومَه مِن مُشْركي قريشٍ إذا دعاهم إلى اللهِ فلم يَنْقادُوا لدَعْوَتِه: أنْ يَعْمَلوا ما هم عامِلونَ على حالَتِهم التي هُم عليها، وارتَضَوْها لأنفُسِهم، وأنَّه عامِلٌ بما أمَرَه ربُّه، وأنَّهم سَوْفَ يعلمونَ عند نزولِ نِقْمةِ اللهِ بهم، أيُّهم أصابَ طريقَ الهُدى، فتكون له العاقبةُ الحسَنةُ في الدُّنيا والآخرة؛ أهمُ المؤمنونَ، أم المشركونَ، فإنَّه لا يُفلِحُ الظَّالمونَ.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ (١٣٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا شَرَحَ تعالى أحوالَ أهلِ الثَّوابِ والدَّرجاتِ، وأحوالَ أهلِ العقابِ والدَّركات، في الآياتِ السَّابقة؛ ذكر كلامًا كليًّا، فقال[1]:

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ﴾.

أي: ولكُلِّ النَّاسِ: كافرينَ ومُؤمنينَ، طائعينَ وعاصينَ؛ منازِلُ ومراتِبُ في الآخرةِ، يستحِقُّونها بحسَبِ أعمالِهم؛ يُبَلِّغُهم اللهُ تعالى إيَّاها، ويُثيبُهم بها؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، وإن شَرًّا فشَرٌّ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٤)، ((جامع رسائل)) لابن تيمية (١/ ١١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص:٢٧٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٩٨).

قال تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١].

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

أي: وكلُّ ما يعمَلُه النَّاسُ - يا مُحمَّدُ - لا يخفى على ربِّك؛ فهو يعلَمُ أعمالَهم، ويُحْصِيها عليهم، ويُثْبِتُها لهم عِنْدَه؛ ليُجازِيَهم بها يومَ القيامةِ، وذلك بحَسَب أعمالِهم ومقاصِدِهم من خيرٍ أو شرٍّ(١).

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ تعالى ثَوابَ أصحابِ الطَّاعاتِ، وعقابَ أصحابِ المعاصي والمحرَّمات، وذَكَرَ أنَّ لكلِّ قومٍ درجةً مخصوصةً، ومرتبةً مُعيَّنةً - بيَّنَ أنَّ تخصيصَ المُطيعينَ بالثَّوابِ، والمُذنبينَ بالعذابِ؛ ليس لأجْلِ أنَّه مُحتاجٌ إلى طاعةِ المُطيعينَ، أو ينتقِصُ بمعصيةِ المُذنبينَ، فطَلَبُ العبادةِ للائتمارِ والانتهاءِ ربَّما أوهَمَ الحاجَةَ إليها؛ لنَفْعٍ في الطَّاعَةِ، أو ضَرَرٍ يلحَقُه سبحانه من المعْصِيَةِ، وكان الإمهالُ مع المبارَزَة ربَّما ظُنَّ أنَّه عن عجزٍ، فقال تعالى مُرَغِّبًا مُرَهِّبًا(٢):

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾.

أي: وربُّك - يا مُحمَّد - غنيٌّ عن عبادِه، وعن أعمالِهم وعبادَتِهم إيَّاه؛ فلا تنفَعُه طاعةُ الطَّائعينَ، كما لا تَضُرُّه معصيةُ العاصينَ، وهم الفقراءُ المحتاجونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٩٩-٣٠٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٥٣، ١٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٧٥).

إليه؛ فلم يخْلُقْهم، ولم يأمُرْهم بما أمَرَهم به، وينْهَهم عمَّا نهاهم عنه؛ لحاجةٍ إليهم وإلى أعمالِهم، ولكنْ ليتَفضَّلَ عليهم برَحْمَتِه، ويُثيبَهم على إحسانِهم إنْ أَحْسَنوا[1].

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٥-١٧].

وعن أبي ذرٍّ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، فيما روى عن اللهِ تبارك وتعالى أنَّهُ قال: ((... يا عبادِي، إنَّكم لن تبلُغُوا ضُرِّي فتَضُرُّوني، ولن تبْلُغوا نَفْعِي فتنفَعوني. يا عبادي، لو أنَّ أوَّلَكم وآخِرَكم، وإنْسَكم وجِنَّكم؛ كانوا على أتقى قَلْبِ رجلٍ واحدٍ منكم؛ ما زاد ذلك في مُلْكي شيئًا. يا عبادي، لو أنَّ أوَّلَكم وآخِرَكم، وإنْسَكم وجِنَّكم؛ كانوا على أفجَرِ قلبِ رجلٍ واحدٍ؛ ما نقص ذلك مِن مُلْكِي شيئًا...))[2].

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾.

أي: إنْ يشَأْ يُذْهِبْكم- أيُّها النَّاسُ- بإهلاكِكم وإفنائِكم إذا خالَفْتُم أمْرَه، ويستخْلِفْ مِن بَعْدِكم قومًا آخرينَ؛ يعملونَ بطاعَتِه، فهو قادِرٌ على ذلك سبحانه[3].

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٤-٥٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٠٠-٣٠٥).

(٢) رواه مسلم (٢٥٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٨٨).

الْحَمِيدُ * إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٥-١٧].

﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾.

أي: كما أوجَدَكم مِن نَسْلِ خَلْقٍ آخرينَ كانوا قبْلَكم؛ فكما أذْهَبَ القرونَ الأُولَى، وأتى بالتي بَعْدَها؛ كذلك هو قادرٌ على إذهابِكم، والإتيانِ بآخَرينَ[(١)].

﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (١٣٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

أنَّ الله تعالى بعدَ أنْ أنذَرَهم عذابَ الدُّنيا وهلاكَهم فيها؛ أنذَرَهم عذابَ الآخرةِ، على سُنَّةِ القرآنِ في الجمْعِ بينهما[(٢)]، فقال تعالى:

﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾.

أي: إنَّ الذي يُوعِدُكم به ربُّكم- أيُّها المشركون- من العذابِ والتَّنكيلِ على كُفْرِكم؛ واقعٌ بكم لا مَحالةَ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٠٨).

قال القرطبيُّ: (قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾ يَحتمِل أن يكون مِن« أَوْعَدْت» في الشَّرِّ، والمصدر الإيعادِ. والمراد عذابُ الآخرة. ويحتَمِل أن يكون مِن« وَعَدْت» على أن يكون المرادُ السَّاعة التي في مجيئِها الخيرُ والشَّرُّ، فغُلِّبَ الخيرُ) ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٨٨).

وقال ابن عاشور: (ومِن بديعِ الفصاحةِ اختيارُ بنائِه للمجهول؛ ليصْلُحَ لفظُه لحال المؤمنين والمشركين، ولو بُنِيَ للمعلومِ لتَعَيَّن فيه أحدُ الأمرينِ: بأن يقال: إنَّ ما نَعِدُكم، أو إنَّ ما نُوعِدُكم، وهذا من بديعِ التوجيهِ المقصودِ منه أن يأخُذَ منه كلُّ فريقٍ من السَّامعينَ ما يليقُ بحالِه، ومعلومٌ أنَّ وعيدَ المشركينَ يَستلزِمُ وعدًا للمؤمنين، والمقصودُ الأهَمُّ هو وعيدُ المشركين؛ فلذلك عُقِّبَ الكلامُ بقوله: ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾، فذلك كالتَّرشيحِ لأحد المحتَمَلينِ من الكلامِ الموجَّه) ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٨٨).

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾.

أي: ولن تُعجِزوا اللهَ تعالى هربًا منه في الأرضِ؛ فتَفُوتُوه، بل أنتم في قَبْضَتِه، وتحت قَهْرِه وسُلطانِه، وهو قادرٌ على أن يُنفِذَ فيكم ما يشاءُ مِن وَعيدِه(١).

﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ (١٣٥)﴾.

﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ﴾.

أي: قل- يا مُحمَّدُ- لقومِك مِن مُشرِكي قريشٍ إذا دعَوْتَهم إلى اللهِ، وبَيَّنْتَ ما لهم وما عليهم من حُقوقِه، فامتَنَعُوا من الانقيادِ لأمْرِه، واتَّبَعوا أهواءَهم، واستَمَرُّوا على شِرْكِهم: اعملوا- يا قومي- ما أنتم عامِلونَ، على حالَتِكم التي أنتم عليها، ورَضِيتُموها لأنفُسِكم؛ فإنِّي عامِلٌ ما أنا عامِلُه مِمَّا أَمَرَني به ربِّي، ومُتَّبِعٌ لمراضِيه؛ فاستَمِرُّوا على طريقِكم وناحِيَتِكم، إن كُنْتم تظنُّونَ أنَّكم على هُدًى، وأنا مستمِرٌّ على طريقَتي ومنهَجي، ولا يَضُرُّني تصميمُكم على ما أنتم عليه(٢).

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾.

أي: فسوف تَعْلَمونَ- أيُّها الكُفَّارُ- عند نزولِ نِقْمةِ الله بكم: أيُّنا كان المحِقَّ في عَمَلِه، والمصيبَ طريقَ الهدى، فتكون له العاقبةُ الحَسَنَة في الدُّنيا والآخرةِ، أتكونُ لنا نحن المؤمنينَ، أو لكم أيُّها المشركونَ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٩١-٩٣).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥١-٥٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٣-١٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

أي: إنَّه لا ينجَحُ ولا يفوزُ بحاجَتِه عند الله، مَن عَمِلَ بخلافِ ما أمَرَه به في الدُّنيا؛ فكُلُّ ظالمٍ وإن تَمَتَّع في الدُّنيا بما تمتَّعَ به، فنهايَتُه إلى زوالٍ واضمحلالٍ[1].

والمراد: ستكونُ عُقبى الدَّارِ للمُسلمينَ، لا لكم؛ لأنَّكم ظالِمونَ[2].

عن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إنَّ اللهَ لَيُمْلِي للظَّالمِ[3]، حتى إذا أخَذَه لم يُفْلِتْهُ. قال: ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٩٣).
(٣) أي: يُمهِلُه ويؤخِّرُه حتى يكثُرَ منه الظُّلْمُ. والإملاءُ: الإمهالُ والتَّأخيرُ، وإطالةُ العُمُرِ؛ مأخوذٌ =

رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾))[١].

الفَوائد التربويَّة:

قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ﴾ يبُثُّ التَّثبيتَ والطُّمأنينةَ والثِّقَةَ في قلوبِ العُصبَةِ المُسْلِمَة، التي تلْقَى العَنَت مِن كَيْد الشَّياطينِ ومَكْرِهم، ومِن أذى المجرمينَ وعدائِهم؛ فهؤلاء هم في قبضَةِ اللهِ، ضعافٌ حتى وهم يتجبَّرون في الأرضِ ويمكُرونَ[٢].

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾ استدَلَّ به من قال: إنَّ الجِنَّ يدخُلونَ الجنَّةَ ويُثابونَ[٣].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾ فيه أنَّ الخيرَ والشَّرَّ درجاتٌ؛ فالكُفْرُ والفُسوقُ والمعاصي درجاتٌ، كما أنَّ الإيمانَ والعَمَلَ الصَّالِحَ درجاتٌ[٤].

٣- في قَوْلِه تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾ غلَّب لفظَ ﴿دَرَجَاتٍ﴾ بدلًا عن دَرَكاتٍ؛ لِنُكتةِ الإشعارِ ببِشارَةِ المؤمنينَ بعد نِذارَةِ المُشركينَ[٥].

٤- قولُه تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ﴾ ناسَبَ قولَه ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾؛ فقد كان يجوزُ أنْ يَظُنَّ ظانٌّ أنَّه وإن كان ذا الرَّحمةِ إلَّا أنَّ لرَحْمَتِه مَعْدِنًا مخصوصًا، وموضعًا مُعَيَّنًا؛ فبَيَّنَ تعالى أنَّه قادِرٌ على وضْعِ

= مِنَ المُلاوَةِ، وهي الحِينُ من الدَّهرِ. ومنه (المَلِيُّ) الزَّمانُ الطَّويلُ، و(المَلَوانِ) اللَّيل والنَّهارُ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ٣٦٣)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٢٠٠).

(١) رواه البخاري (٤٦٨٦).

(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٢١٠).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٨٦)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٢١).

(٤) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ١٣٣)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٨٤).

الرَّحمةِ في هذا الخَلْقِ، وقادِرٌ على أن يخلُقَ قومًا آخرينَ، ويضَعَ رَحْمَته فيهم، وعلى هذا الوجهِ يكون الاستغناءُ عن العالَمينَ أكملَ وأتمَّ(١).

٥- قوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ﴾ فيه التَّحذيرُ مِن بَطْشِ اللهِ في التَّعجيلِ بذلك(٢).

٦- وصْفُ قومٍ بـ ﴿آخَرِينَ﴾ للدَّلالةِ على المغايرةِ؛ أي: قَوم لَيْسُوا من قبائِلِ العَربِ، وذلك تنبيهٌ على عظيمِ قُدرةِ الله تعالى؛ أن يُنْشِئ أقوامًا من أقوامٍ يخالِفُونَهم في اللُّغَة والعوائِدِ والمواطِنِ، وهذا كنايةٌ عن تباعُدِ العُصورِ، وتسلسُلِ الْمُنْشَآت؛ لأنَّ الاختلافَ بينَ الأُصولِ والفُروعِ لا يحدُثُ إلَّا في أزمنةٍ بعيدةٍ، فشتَّانَ بين أحوالِ قَومِ نوحٍ، وبين أحوالِ العَرَبِ المخاطَبينَ، وبين ذلك قرونٌ مختلفةٌ متباعِدَةٌ(٣).

٧- قوله: ﴿يَا قَوْمِ﴾ في هذا النِّداءِ ضَرْبٌ من الاستمالةِ للكفَّار الَّذين خُوطِبوا بالدَّعوة أوَّلًا، بما يُذَكِّرُهم بأنَّهم قومُ الرَّسولِ الَّذين يحبُّهم، ويحرِصُ على خَيرِهم ومنفَعَتِهم، بباعِثِ الفِطرةِ والتَّربيةِ والمنافِعِ المشترَكَة، وقد كانتِ النَّعْرَةُ القوميَّةُ عند العَرَبِ أَقْوَى منها عند المَعروفِ حالُهم اليومَ مِن سائِرِ الأُممِ، فكان نداؤُهم بِقَوْلِه: ﴿يَا قَوْمِ﴾ جديرًا بأنْ يحرِّكَ هذه العاطِفَةَ في قُلوبِهم، فتَحْمِلَ المستعِدَّ على الإصغاءِ لِمَا يقولُ، والتأمُّلِ فيه(٤).

٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ أي: فسوف تعرفونَ الفريقَ الذي تكونُ له

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٥٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٥٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٨٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٠٣).

العاقبةُ الحُسنى التي خَلَقَ اللهُ هذه الدارَ الدُّنيا لها، وهذا طريقٌ من الإنذارِ لطيفُ المسلكِ: فيه إنصافٌ في المقالِ، وأدبٌ حَسَنٌ مع تضمُّنِ شِدَّةِ الوعيدِ والوثوقِ بأنَّ المنذِرَ مُحِقٌّ، وأن المُنذَرَ مُبطِلٌ[1].

٩- قوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ يُوهِمُ أنَّ الكافِرَ ليست له عاقبةُ الدارِ، وذلك مُشكِلٌ، فكيف الجوابُ عنه؟ الجواب: العاقِبَةُ تكونُ على الكافِرِ، ولا تكون له كما يقال: له الكثرةُ ولهم الظَّفَرُ، وفي ضِدِّه يقال: عليكُمُ الكَثْرَةُ والظَّفَرُ[2].

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾

- في قَوْلِه تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ احتراسٌ على قوله: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ﴾؛ للتنبيهِ على أنَّ الصَّالحينَ مِن أَهْلِ القرى الغالِبِ على أهلِها الشِّرْكُ والظُّلْمُ؛ لا يُحرَمونَ جزاءَ صَلاحِهم[3].

- قوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ فيه: تعريضٌ بالوعيدِ للمُشْركينَ[4].

٢- قوله: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ فيه: كنايةٌ عن غِناه تعالى عن إيمانِ الـمُشْركينَ وموالاتِهم، وكنايةٌ عن رَحمَتِه؛ إذ أمهَلَ المشركينَ، ولم يُعَجِّلْ لهم العذابَ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٠٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٥٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٨٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ٨٤).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ٨٥).

- وفيه: إظهارٌ في مقامِ الإضمارِ؛ إذ مقتضى الظَّاهِرِ أن يقال: (وهو الغنيُّ ذو الرَّحمةِ)، فخُولِفَ مقتضى الظَّاهِرِ؛ لِمَا في اسمِ الرَّبِّ من دَلالةٍ على العِنايةِ بصلاحِ المربوبِ، ولتكونَ الجملةُ مستقلَّةً بنَفْسِها، فتسيرُ مَسْرَى الأَمْثالِ والحِكَمِ[1].

- وفيه الحصرُ أو القصْرُ، أي: وربُّك هو الغنيُّ الكامِلُ الغِنى، وذو الرَّحْمَةِ الكاملةِ الشَّامِلَة، التي وَسِعَتْ كلَّ شيءٍ[2].

٣- قوله: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ﴾ فيه: استئنافٌ لتَهْديدِ المشركينَ الَّذين كانوا يُكَذِّبون الإنذارَ بعذابِ الإهْلاكِ[3].

- وفيه إيجازٌ بالحَذْفِ؛ إذ إنَّ مفعولَ: ﴿يَشَأْ﴾ محذوفٌ على طريقَتِه المألوفةِ في حذْفِ مفعولِ المشيئةِ[4].

- والسينُ والتَّاءُ في قوله: ﴿وَيَسْتَخْلِفْ﴾ للتأكيدِ[5].

- وفيه: تعريضٌ بإهلاكِ المشركينَ، ونجاةِ المؤمنينَ من العذابِ[6].

- وقوله: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ الجملةُ الشرطيَّةُ استئنافٌ مقرِّرٌ لمَضْمونِ ما قَبْلَها مِنَ الغِنى والرَّحمةِ[7].

٤- قوله: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾ فيه: استئنافٌ بيانيٌّ؛ جوابًا عن أن يقولَ سائلٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٨٥).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٧٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٩٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٨٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ٨٧).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨٧).

من الـمُشركينَ: إذا كنَّا قد أُمْهِلْنا وأُخِّرَ عنا الاستئصالُ، فقد أفْلَتْنا مِنَ الوعيدِ، ولعلَّه يَلْقاه أقوامٌ بَعْدَنا، فوَرَدَ قَوْلُه: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾[١].

- والتأكيدُ بـ(إنَّ) مناسِبٌ لمقامِ المتَرَدِّدِ الطَّالبِ، وزيادةُ التأكيدِ بلامِ الابتداءِ في ﴿لَآتٍ﴾؛ لأنَّهم متوَغِّلونَ في إنكارِ تحقُّقِ ما أُوعِدُوا به من حصولِ الوعيدِ واستسخارِهم به[٢].

- قوله: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾ فيه: إيثارُ صيغةِ الفاعلِ (آتٍ) على المستقبَل (سيأتي)؛ للإيذانِ بكمالِ قُرْبِ الإتيانِ، وقال هنا: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾ ولم يقل: ﴿لواقِعٌ﴾؛ لبيان كمالِ سرعةِ وقوعِه، بتصويرِه بصورةِ طالبٍ حثيثٍ لا يفوته هاربٌ، حسَبَما يُعرِبُ عنه قولُه تعالى: ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: بفائتينَ ذلك، وإن ركِبتُم في الهربِ متنَ كلِّ صَعْبٍ وذَلولٍ[٣].

٥- قوله: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ المرادُ منه بيانُ دوامِ انتفاءِ الإعجازِ، لا بيانُ انتفاءِ دوامِ الإعجازِ؛ فإنَّ الجملةَ الاسميَّةَ كما تدلُّ على دوامِ الثُّبوتِ، تدلُّ بمعونَةِ المقامِ- إذا دخل عليها حرفُ النَّفيِ- على دوامِ الانتفاءِ، لا على انتفاءِ الدَّوامِ[٤].

٦- قوله: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ بعد قولِه: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾ فإنَّ المقصودَ الأوَّلَ منه هو وعيدُ الـمُشركينَ، فأعقبَه بما تمحَّضَ لوعيدِهم: وهو الأمرُ المستعمَلُ في الإنذارِ والتَّهديدِ[٥]، والتهديدُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٩٠).

بصيغةِ الأمر مبالغةٌ في الوعيدِ(١).

- وفيه إيجاز بالحذفِ؛ حيث حُذِفَ مفعولُ ﴿اعْمَلُوا﴾؛ لأنَّ الفعلَ نُزِّلَ منزلةَ اللازمِ؛ أي: اعملوا عَمَلَكُم المألوفَ الذي هو دَأْبُكم، وهو الإعراضُ والتَّكذيبُ بالحَقِّ(٢).

- قوله: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ المكانةُ كنايةٌ عن الحالَةِ؛ لأنَّ أحوالَ المرءِ تَظْهَر في مَكانِه ومَقَرِّه(٣).

- وفيه- مع النَّصيحةِ- تخويفٌ شديدٌ؛ لأنَّ تهديدَ الحاضِرِ على لسانِ الغيرِ مع الإعراضِ أشَدُّ من مواجَهَتِه بالتَّهديدِ(٤).

٧- **قوله:** ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ فيه إيجازٌ بحذفِ متعلَّق ﴿عامِلٌ﴾ للتَّعميمِ مع الاخْتِصارِ(٥).

٨- **قوله:** ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ صريحٌ في التَّهديدِ؛ لأنَّ إخبارَهم بأنَّهم سَيَعْلمونَ يفيدُ أنَّه يعلَمُ وقوعَ ذلك لا محالةَ، وتصميمُه على أنَّه عامِلٌ على مكانَتِه، ومخالِفٌ لعَمَلِهم يدلُّ على أنَّه مُوقِنٌ بحُسْنِ عُقباه، وسوءِ عُقْباهم، ولولا ذلك لعَمِلَ عَمَلَهم؛ لأنَّ العاقِلَ لا يرضى الضُّرَّ لنَفْسِه، فدل قولُه: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ على أنَّ عِلْمَهم يقَعُ في المُستقبَلِ، وأمَّا هو فعالمٌ مِن الآن(٦).

- قوله: ﴿فَسَوْفَ﴾ حرفُ التَّنفيسِ مُرادٌ منه تأكيدُ الوُقوعِ؛ لأنَّ حَرْفَيِ التَّنفيسِ

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٥١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٩١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ٩٠).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٧٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٩١).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ٩٢).

يؤكِّدانِ المستقبَلَ، كما تؤكِّدُ (قد) الماضِيَ[١].

٩- **قوله:** ﴿**إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ**﴾ فيه: تذييلٌ للوعيدِ يَتَنَزَّل منزلةَ التَّعليلِ[٢]، والغَرَضُ منه بيانُ أنَّ قولَه: ﴿اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ تهديدٌ وتخويفٌ، لا أنَّه أمرٌ وطَلَبٌ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٥٧).

الآيات (١٣٦-١٤٠)

﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ
بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ
وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ
(١٣٦) وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ
شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ
فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١٣٧) وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا
مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً
عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ (١٣٨) وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ
ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ
شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩) قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ
أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا
كَانُواْ مُهْتَدِينَ (١٤٠) ﴾.

غريب الكلمات:

﴿ذَرَأَ﴾: أَي خلَق؛ يُقالُ: ذَرَأَ اللَّهُ الخَلْقَ يذْرَؤُهُم ذَرْأً وَذَرْوًا: إذا خَلَقَهُمْ، وأصْلُه من قولهم: ذَرَأْنا الأرضَ، أي: بَذَرْناها[١].

﴿الْحَرْثِ﴾: الزَّرع، والبَساتين والمَزارِع، وأصْلُه: إلقاءُ البَذْرِ في الأَرْضِ وتهيئَتُها للزَّرعِ، والكَسبُ والجَمْعُ[٢].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١/ ٨٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ١٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (١/ ١٢٠ و ١/ ١٦٢).

﴿نَصِيبًا﴾: أي حظًّا وقِسْمًا وجُزْءًا، والنَّصيبُ: الحظُّ المنصوبُ، أي: المعَيَّنُ، وأَصْلُ (نصب): إقامةُ شيءٍ، وإهدافٌ في استواءٍ(١).

﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾: أي: ليُهْلِكوهم، والرَّدى: الهلاكُ، وأَصْل (ردي) يَدُلُّ على رمْيٍ أو ترامٍ، وما أشبَهَ ذلك(٢).

﴿حِجْرٌ﴾: أي حرامٌ، وَأَصْلُ (حجر): المنعُ والإحاطةُ على الشَّيءِ(٣).

﴿خَالِصَةٌ﴾: أي: حَلالٌ أو خاصَّةٌ، وأَصْلُ (خلص): تَنقِيَةُ الشَّيءِ وتهذِيبُه(٤).

﴿سَفَهًا﴾: أي: جَهْلًا، وأصل السَّفهِ: الجَهْلُ، والخِفَّةُ في البَدنِ والعَقْلِ، والضَّعْفُ والحُمْقُ، واستُعمِلَ في خِفَّة النَّفسِ؛ لنُقصانِ العَقْلِ(٥).

مُشْكِلُ الإعْرابِ:

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾

﴿زَيَّنَ﴾: يُقْرَأ بفَتْحِ الزَّاي والياءِ على البناءِ للمعلوم، وفاعلُه: ﴿شُرَكَاؤُهُمْ﴾، والمفعولُ ﴿قَتْلَ﴾ و﴿أَوْلَادِهِم﴾ مجرورٌ بإضافةِ ﴿قَتْلَ﴾ إليه مِن إضافةِ المصدرِ إلى مَفعولِه.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٠٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٣٨)، (تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٣).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٤٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٦).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥١).

ويُقرأ: ﴿زُيِّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلُ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَائِهِمْ﴾[1] بضَمِّ الزَّاي، وكسْرِ الياءِ على البناءِ لِـما لم يُسَمَّ فاعِلُه. و﴿قَتْلُ﴾ بالرَّفع على أنَّه نائبٌ عن الفاعِل، و﴿أَوْلَادَهُمْ﴾ بالنَّصبِ على أنَّه مفعولُ المَصْدرِ ﴿قَتْلُ﴾، و(شُرَكَائِهِمْ) بالجرِّ على إضافَةِ ﴿قَتْلُ﴾ إليه من إضافَةِ الْمَصدَرِ إلى فَاعِلِه، وقد فُصِلَ بينهما بالمفعولِ، والمَعْنى على هذه القراءةِ: أنَّ مُزيِّنًا زَيَّنَ لكثيرٍ من المشركينَ أن يقتُل شركاؤُهم أولادَهم؛ وإسنادُ القتلِ إلى الشُّركاءِ؛ إمَّا لأنَّ الشُّرَكاء سببُ القتلِ إذا كان القَتْلُ قِربانًا للأصنامِ، وإمَّا لأنَّ الَّذين شرَعوا لهم القَتْلَ هم القائمونَ بدِيانة الشِّركِ؛ مثل عمرِو بنِ لُحَيٍّ ومَن بَعدَه[2].

---

(١) وهذه قِراءةُ ابنِ عامرٍ - رحمه اللهُ تعالى - وهو أعلى القُرَّاءِ السَّبعَةِ سنَدًا، من كبارِ التَّابعينَ الذين أَخَذُوا عن الصَّحَابة؛ كعثمانَ بنِ عفَّانَ، وأبي الدَّرداءِ، ومُعاوِيَةَ، وفضالة بنِ عبيدٍ، وهو مع ذلك عربيٌّ صريحٌ مِن صَميمِ العَرَب، وكلامُه في اللُّغةِ حجَّةٌ وقولُه دليلٌ؛ لأنَّه كان قبلَ أنْ يُوجَدَ اللَّحْنُ؛ فكيف وقد قرأ بما تلَقَّى، وتلَقَّنَ وسَمِعَ ورأى؟!

وهي قراءةٌ متواترةٌ صحيحةٌ، وموافِقَةٌ لرَسْمِ المصحَفِ الشَّامي الذي أرسله عثمانُ رضِي اللهُ عنه، ولقواعِدِ اللُّغَةِ العربيَّةِ نثرًا ونَظْمًا؛ وقد تجرَّأ بعضُ النحاة، وأنكَرَ هذه القِراءةَ؛ لأنَّه فُصِل فيها بين المضافِ (قَتْلُ) والمضافِ إليه (شُرَكَائِهِمْ) بالمفعولِ (أَوْلَادَهُمْ)؛ ورُدَّ إِنْكارُهم هذا بما مضى، وبأنَّ العَرَبَ قد استعملَتْ ذلك كثيرًا في كلامِها؛ ومن ذلك قَوْلِهم: (هو غلامُ إنْ شاءَ اللهُ أخيكَ) يريدون: هو غلامُ أخيكَ؛ فَلَأنْ يُفْصَلَ بالمفردِ أسهَلُ. وسَمِعَ الكسائيُّ قَوْلَ بَعْضِهم: (إنَّ الشَّاةَ لتَجْترُّ فتسمَعُ صوتَ واللهِ ربِّها) أي: صَوْتَ رَبِّها واللهِ، ففُصِلَ بالقَسَمِ، وهو في قُوَّةِ الجملةِ، وقال الشَّاعِرُ:

فَزَجَجْتُهَا بِمَزَجَّةٍ   زَجَّ الْقَلُوصَ أَبِي مَزَادَهْ

والتقديرُ: زَجَّ أبي مَزَادَةَ القَلُوصَ، ففصل بين المضاف والمضاف إليه بالقلوص، وهو مفعول. وعليه؛ فقراءةُ ابن عامرٍ صحيحةٌ من حيث اللُّغةُ، كما هي صحيحةٌ من حيثُ النَّقْلُ. ويُنظَرُ في أوجُهِ الاعتراضِ والجوابِ عنها: ((الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين)) لأبي البركات الأنباري (٢/ ٣٤٩-٣٥٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ١٦٢-١٧٥).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٧١-٢٧٢)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٤٠-٥٤١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ١٦١-١٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨/ ١٠٢).

المعنى الإجماليُّ:

يخبِرُ تعالى أنَّ المشركينَ جَعَلوا لله مِمَّا خَلَقَ من الزُّروعِ والثِّمارِ والأنعامِ جُزءًا، وجعلوا لشركائِهم جزءًا كذلك، فإنْ وَصَلَ شيءٌ مِمَّا خَصَّصُوه لآلِهَتِهم إلى ما جعلوه للهِ رَدُّوه إلى مَحَلِّه من نصيبِ آلِهَتِهم، وإنِ اختَلَطَ شيءٌ مِمَّا خَصَّصوه للهِ بما جَعَلُوه لآلِهَتِهم تركوه فلم يَرُدُّوه إلى مَحَلِّه، ولم يهتمُّوا بذلك، ساءَ ما يحكمونَ!

كذلك زَيَّنَت الشَّياطينُ لكثيرٍ من المشركينَ قَتْلَ أولادِهم؛ ليُهْلِكوهم ويَخْلِطوا عليهم دينَهم، ولو شاء اللهُ ما فعلوا ذلك، ثم أمَرَ اللهُ نَبِيَّه أن يَدَعَهم وما يفتَرونَ.

وقال هؤلاءِ المشركونَ: هذه الأنعامُ وهذا الزَّرعُ حرامٌ، لا يجوزُ لأحدٍ أن يأكُلَ منه، إلَّا مَن أَذِنُوا له، وهذا بحَسَبِ ادِّعائِهم الذي لا مُستَنَدَ له ولا حُجَّةَ، وحَرَّمَ هؤلاءِ المشركونَ ظُهورَ بعضِ الأنعامِ فَلم يُحِلُّوا ركُوبَها، وبعضٌ من الأنعامِ لا يذكرونَ اسْمَ اللهِ عليها، سَيَجْزِيهم اللهُ بما كانوا يَفْتَرونَ.

وقال هؤلاءِ المشركونَ: ما في بُطُونِ هذه الأنعامِ مِن لَبَنٍ وأجِنَّةٍ؛ حلالٌ لذُكُورنا، وحرامٌ على إناثِنا، هذا إن خَرَجَتِ الأجِنَّةُ أحياءً، وإن يَكُنْ ما في بُطونِها مَيْتَةً، فهو حلالُ الأَكْلِ للذُّكورِ والإناثِ، وهم شُرَكاءُ فيه، ثم توَعَّدَ اللهُ تعالى أنَّه سَيَجْزي هؤلاءِ المُفْتَرينَ عليه الكَذِبَ حين وَصَفُوا ما أحَلَّه بأنَّه حرامٌ، وما حَرَّمَه بأنَّه حلالٌ، وَنَسَبوا كَذِبَهم ذلك إلى اللهِ تعالى؛ إنَّه تعالى حكيمٌ عليمٌ.

ثم يخبِرُ تعالى أنَّه قد خَسِرَ هؤلاء المشركونَ الَّذين قَتَلُوا أولادَهم سَفَهًا بغيرِ عِلْمٍ، وحَرَّموا ما رَزَقَهم الله تعالى؛ كذبًا وافتراءً عليه، قد انحَرَفوا عن الطَّريقِ القويمِ، ولم يُوَفَّقوا للصَّوابِ.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦) ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ تعالى قُبْحَ طريقَتِهم في إنكارِهم البَعثَ والقيامةَ؛ ذَكَرَ عَقيبَه أنواعًا من جَهالاتِهم، ورَكاكاتِ أقْوالِهم؛ تنبيهًا على ضَعْفِ عقولِهم، وقِلَّة مَحْصولِهم، وتنفيرًا للعُقلاءِ عنِ الالتِفاتِ إلى كَلِماتِهم[1]، فقال تعالى:

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا ﴾.

أي: وجَعَلَ المشركونَ مِمَّا خَلَقَ الله مِنَ الزُّروعِ والثِّمارِ والأنعامِ قِسْمًا وجُزءًا له تعالى، وجَعَلوا لشُركائِهم مع الله تعالى نصيبًا من ذلك، والحالُ أنَّ اللهَ تعالى هو الذي ذَرَأَه للعبادِ، وأوجَدَه رِزقًا، وهؤلاءِ الشُّركاءُ لم يرزُقُوهم، ولم يُوجِدوا لهم شيئًا من ذلك[2].

﴿ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ ﴾.

أي: فَإنْ وَصَلَ شيءٌ مِمَّا جَعَلوه لآلِهَتِهم إلى ما جَعَلوه للهِ سبحانه؛ رَدُّوه إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٨-٥٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٤).

قال ابن جرير: (وجَعَلوا مِثْلَه لشُرَكائهم، وهم أوثانُهم بإجماعٍ مِن أَهْلِ التَّأويلِ عليه) ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٧٣).

مَحَلِّه مع نصيبِ أَوْثانِهم، فحَفِظوه واعتَنَوْا به، وإن اختَلَطَ شيءٌ مِمَّا جَعَلوه للهِ تعالى بما جَعَلوه لآلِهَتِهم؛ تَرَكوه فيه ولم يَرُدُّوه إلى مَحَلِّه، ولم يُبَالوا ويهتمُّوا بذلك[1].

﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾.

أي: قد أساؤُوا في حُكْمِهم؛ إذ أَخَذُوا مِن نصيبِ اللهِ تعالى لِشُرَكائِهم، ولم يجْعَلوا له سبحانه شيئًا مِنْ نصيبِ شُرَكائِهم، فجَعَلوا ما للمَخْلوقِ يُجتهَدُ فيه ويُحفَظُ، أكثرَ مما يُفعَلُ بحقِّ اللهِ عزَّ وجلَّ، الذي هو ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكُه وخالِقُه، وكلُّ شيءٍ تحت قُدرَتِه ومَشيئَتِه، سبحانه وتعالى[2].

﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ لِيُرۡدُوهُمۡ وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡۖ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ١٣٧﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ لِيُرۡدُوهُمۡ وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡ﴾.

أي: وكما حسَّنَت الشَّياطينُ لهؤلاءِ المشركينَ أن يَجْعَلوا للهِ مِمَّا ذَرَأَ من الحَرْثِ والأنعامِ نصيبًا، كذلك حسَّنوا لهم قَتْلَ أولادِهم خَشيَةَ الإملاقِ، ووَأْدَ البناتِ خَشيةَ العارِ، وكلُّ هذا مِن خُدَعِ الشَّياطينِ، الَّذين يريدونَ أن يُهلِكوهم، وأن يَخْلِطوا عليهم دينَهم فيلتَبِس، فيَضِلُّوا ويَهْلِكوا بأفعالٍ في غايةِ القُبحِ؛ تُزَيَّنُ لهم فتكونُ لديهم من الأمورِ الحَسَنة الجميلةِ، والخِصالِ الحميدَةِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٤٤-٣٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٥).

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨-٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٣١].

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾.

أي: ولو شاءَ اللهُ عزَّ وجلَّ لَمَنَعَ هؤلاءِ المشركينَ، وحَالَ بينهم وبين قَتلِ أَوْلادِهم، ولكنَّ اللهَ تعالى بحَسَبِ ما اقتضَتْه حِكْمَتُه، خلَّى بينهم وبين أفعالِهم، وخَذَلَهم عن الهُدى والحَقِّ، فأطاعوا الشَّياطينَ التي أغوَتْهم، وقتَلُوا أولادَهم. وكلُّ هذا واقعٌ بمشيئَتِه تعالى، وله الحِكمةُ التامَّةُ في ذلك، فدَعْهُم - يا مُحمَّدُ - وما يختلقونَ ويتقوَّلونَ على الله تعالى مِنَ الكذبِ، ولا تحزَنْ عليهم؛ فإنَّهم لن يضُرُّوا اللهَ تعالى شيئًا؛ فسَيَحْكُمُ اللهُ بينك وبينهم؛ فهو لهم بالمِرْصادِ؛ يستدْرِجُهم، ويُمْهِلُهم(١).

﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٥).

وقيل المعنى: ولو شاءَ الله تعالى لَمَنَع الشركاءَ عن تزيينِ القتلِ لأتباعِهم المشركينَ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٠٤-١٠٥).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تعالى إقدامَهم على ما دلَّ النَّقلُ على قُبحِه- مع قبحِه في العَقْلِ- مِن قَتْلِ الأولادِ؛ أتبعَه إِحْجامَهم عما حَسَّنه الشَّرْعُ مِن ذَبحِ بعضِ الأنعامِ لِنَفْعِهم، وضَمَّ إليه جملةً مِمَّا منعوا أنفُسَهم منه، ودانوا به لمجرَّدِ أهوائِهم[1]، فقال تعالى:

﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ﴾.

أي: وقال هؤلاءِ المشركونَ: هذه الأنعامُ وهذا الزَّرعُ حرامٌ لا يجوزُ أن يأكُلَ منه أحَدٌ، إلَّا مَنْ أذِنَّا له، وهذا بحَسَبِ أهوائِهم وادِّعائِهم الذي لا مُستَنَدَ له ولا حُجَّةَ[2].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩].

وقال سبحانه: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣].

﴿وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾.

أي: وحرَّم هؤلاءِ الجهلَةُ من المشركينَ ركوبَ ظُهُورِ بعضِ أنْعامِهم[3].

﴿وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ﴾.

أي: وحرَّموا مِن أنعامِهم صِنفًا آخَرَ لا يَحجُّون عليها، ولا يَذْكُرونَ اسمَ الله عليها إنْ رَكِبوها، أو حَلَبُوها أو حَمَلوا عليها أو ذَبَحوها، وهذا كَذِبٌ منهم على

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٧٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٠٧).

اللهِ تعالى؛ إذ لم يأذَنْ لهم بذلك(١).

﴿سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾.

أي: سيُجازِيهم اللهُ عزَّ وجلَّ بسَبَبِ اختلاقِهم الكَذِبَ عليه، وتحريمِهم ما أحَلَّه سبحانه من الأكْلِ والمنافِعِ(٢).

﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩)﴾.

﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾.

أي: وقال هؤلاءِ المشركونَ: جميعُ ما في بُطونِ تلك الأنعامِ مِن لَبَنٍ وجَنينٍ، فهو حلالٌ لذُكُورِنا وحرامٌ على إناثِنا. هذا إذا خَرَجَت الأجنَّةُ أحياءً(٣).

﴿وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ﴾.

أي: وإنْ يكُنْ ما في بطونِ تلك الأنعامِ قد وُلِدَ مَيْتًا فهو حلالٌ للذُّكورِ والإناثِ، وهُم شُركاءُ في أكْلِه، لا يُحَرِّمونه على أحَدٍ منهم(٤).

﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٨٢-٥٨٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٨٦-٥٨٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٨٨-٥٨٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٦).

أي: سيجازي اللهُ تعالى هؤلاءِ المفترينَ عليه الكَذِبَ حين وَصَفُوا ما أحلَّه بأنَّه حرامٌ، ووَصَفوا ما حَرَّمَه بأنَّه حلالٌ، ونَسَبُوا كَذِبَهم في ذلك إلى اللهِ تعالى(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].

﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى حكيمٌ في أفعالِه وأقوالِه وشَرْعِه وقَدَرِه، ومن ذلك أنَّه حكيمٌ في مجازاةِ أولئك المُشْركينَ على قَوْلِهم الكَذِبَ عليه سبحانَه، حكيمٌ في إمهالِه لهم، وتمكينِهم ممَّا هم فيه مِن الضَّلالِ، وهو عليمٌ بأعمالِ عبادِه خَيْرِها وشَرِّها، ومن ذلك عِلْمُه بأولئك المُشْركينَ، وبما قالوه عليه وافْتَرَوه، وسَيَجْزِيهم على ذلك أتَمَّ الجَزاءِ(٢).

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ۝١٤٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ تعالى- فيما تقَدَّمَ- قَتْلَهم أولادَهم، وتحريمَهم ما رَزَقَهم اللهُ، جَمَعَ هَذَينِ الأَمْرَينِ في هذه الآيةِ، وبَيَّنَ ما لَزِمَهم على هذا الحُكْمِ، وهو الخُسرانُ، والسَّفاهةُ، وعَدَمُ العِلْمِ، وتحريمُ ما رَزَقَهم اللهُ، والافتراءُ على اللهِ، والضَّلالُ، وعدمُ الاهتداءِ؛ فهذه أمورٌ سبْعَةٌ، وكلُّ واحدٍ منها سببٌ تامٌّ في حُصُولِ الذَّمِّ(٣)، فقال تعالى:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٦١).

﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ﴾.

أي: قد هَلَكَ هؤلاءِ المشركونَ الَّذين قَتَلوا أولادَهم، وحرَّموا ما أَحَلَّه اللهُ تعالى مِن أنعامِهم، وجَعَلَه رِزْقًا لهم، وخَسِروا في الدُّنيا والآخرةِ، ففي الدُّنيا خَسِروا أولادَهم بِقَتْلِهم، وَضَيَّقُوا عليهم في أموالِهم، بما حَرَّموا مِن أشياءَ ابْتَدَعوها، وفي الآخرةِ يَصيرونَ إلى شَرِّ المَنازِلِ بكَذِبِهم على اللَّه، وقد فَعَلوا ذلك جهالةً منهم، صادرةً عن نَقْصِ عقولٍ، وضَعْفِ أحلامٍ، وقِلَّةِ فَهْمٍ بعاجِلِ ضَرَرِ ذلك وآجِلِه؛ وذلك كَذِبًا عليه سبحانه وتعالى(١).

عن عياضٍ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قال ذاتَ يومٍ في خُطبتِه: ((ألَا إنَّ ربِّي أَمَرَني أنْ أُعلِّمَكم ما جَهِلْتُم، مِمَّا علَّمَني يومِي هذا: كلُّ مالٍ نَحَلْتُه عبدًا حَلالٌ، وإنِّي خلقْتُ عبادي حُنَفَاءَ كُلَّهم، وإنَّهم أَتَتْهُمُ الشَّياطينُ فاجْتالَتْهُم(٢) عن دِينِهم، وحرَّمَتْ عليهم ما أَحْلَلْتُ لهم، وأَمَرَتْهُم أنْ يُشْرِكوا بي ما لَمْ أُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا...)) الحديث(٣).

﴿ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾.

أي: قد انحَرَفوا عن طريقِ الحَقِّ، ولم يكونوا موفَّقينَ للصَّوابِ(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٩٠-٥٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١١٤-١١٥).
(٢) فاجْتالَتْهم: أي: اسْتَخَفَّتْهم، فجَالوا معهم في الضَّلال. يُقالُ: جال واجْتال: إذا ذهب وجاء. ومنه الجَوَلان في الحربِ، واجتال الشَّيءَ إذا ذَهَب به وساقَه. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٣١٧)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٩٧).
(٣) رواه مسلم (٢٨٦٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١١٥).

عنِ ابنِ عباسٍ رضي اللهُ عنهما، قال: ((إذا سرَّكَ أن تَعلَمَ جهْلَ العَرَبِ، فاقرَأْ ما فوقَ الثَّلاثينَ ومِئةٍ مِن سورةِ الأَنْعامِ: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ إلى قولِه ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾))(١).

الفوائدُ التربويَّة:

١- الغُلُوُّ يُخْرِجُ أصحابَه إلى أن يَجْعَلوا البَشَرَ مثلَ الإلهِ، بل أفضَلَ من الإلهِ في بعضِ الأمورِ، كما ذَكَرَ اللهُ عن المشركينَ؛ قال: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾(٢) [سورة الأنعام: ١٠٨].

٢- قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ مِثْلُ هذا كثيرٌ؛ فالفاعِلُ للذَّنْبِ لو جَزَمَ بأنَّه يحصُلُ له به الضَّررُ الرَّاجِحُ لم يفعَلْه، لكنَّه يُزَيِّنُ له ما فيه من اللذَّةِ التي يظُنُّ أنَّها مصلحةٌ، ولا يَجْزِم بوقوعِ عُقوبَتِه، بل يرجو العفْوَ بحَسَناتٍ أو توبةٍ، أو بعفوِ اللهِ ونحو ذلك، وهذا كلُّه مِن اتِّباعِ الظَّنِّ وما تهوى الأَنْفُسُ، ولو كان له عِلْمٌ كامِلٌ لَعَرَف به رُجْحانَ ضَرَرِ السَّيِّئة، فأوجَبَ له ذلك الخشيَةَ المانِعَةَ له من مُواقَعَتِها(٣).

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قَوْلِه تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ...سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ عَدَّدَ تبارك وتعالى شيئًا مِن خُرافاتِهم؛ ليُنَبِّه بذلك على ضلالِهم والحَذَرِ منهم، وأنَّ معارَضَةَ أمثالِ

(١) رواه البخاري (٣٥٢٤).

(٢) يُنظر: ((منهاج السنة)) لابن تيمية (٢/ ٣٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن رجب الحنبلي)) (٢/ ١٢٨).

هؤلاءِ السُّفَهاءِ للحَقِّ الذي جاء به الرَّسولُ؛ لا تَقْدَحُ فيه أصلًا؛ فإنَّهم لا أهلِيَّةَ لهم في مقابَلَةِ الحَقِّ[1].

٢- الأصلُ في العباداتِ التَّوقيفُ، فلا يُشْرَعُ منها إلا ما شَرَعَه اللهُ تعالى؛ ولهذا ذَمَّ المشركينَ الَّذين شَرَعوا من الدِّينِ ما لم يأذَنْ به، وحَرَّموا ما لم يُحَرِّمْه؛ قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ...﴾ إلى قَوْلِه: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، فلا حَرامَ إلا ما حَرَّمَه اللهُ تعالى، ولا دِينَ إلَّا ما شَرَعَه[2].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ قَرَنَ الأوَّلَ بالزَّعْمِ الذي يُعَبَّر به غالبًا عن قَوْلِ الكَذِب والباطِلِ على ما فيه من البِرِّ والخيرِ، دون الثاني الذي هو شَرٌّ محْضٌ؛ وذلك لمناسَبَةٍ حَسَنةٍ: أنَّ الأوَّلَ وحْده هو الذي يُمكِن أن يَسْتَحْسِنَه المؤمنُ أو العاقِلُ وإن لم يكُنْ مُؤْمِنًا، فاحْتِيجَ إلى قَرْنِه بكونِه زعمًا مُختَرَعًا لهم، لا دينًا مُشْتَرَعًا لله تعالى، فكان بهذا باطلًا في نَفسِه، فوقَ كَوْنِه مقرونًا بالشِّرْكِ؛ إذ جَعَلوا مِثْلَه لِمَا اتَّخذوا للهِ من الأنْدادِ[3].

٤- في قَوْلِه تعالى: ﴿فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ﴾ قد يستَشْكِلُ بعضُهم، فيقول: أليسَت جميعُ الأشياءِ لله، فكيف نُسِبُوا إلى الكَذِبِ في قولهم: هذا للهِ؟ الجواب: أنَّ إفرازَهم النَّصِيبينِ؛ نصيبًا لله ونصيبًا للشَّيطانِ هو الكَذِبُ[4].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا... سَاءَ مَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٥).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٩/ ١٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٠٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٥٧).

يَحْكُمُونَ﴾ المقصودُ من حكايةِ أمثالِ هذه المذاهِبِ الفاسِدةِ أنْ يعرِفَ النَّاسُ قِلَّةَ عُقُولِ القائلينَ بهذه المذاهِبِ، وأنْ يصيرَ ذلك سببًا لتَحْقيرِهم في أعيُنِ العُقَلاءِ، وألَّا يَلْتفِتَ إلى كلامِهم أحدٌ البتَّةَ[١].

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾ سمَّى المُزَيِّنينَ لهم ذلك مِنْ شياطينِ الإنسِ- كالسَّدَنَةِ- أو الجنِّ؛ شُرَكاءَ، وإن لم يُسَمُّوهم هم آلهةً أو شُرَكاءَ؛ لأنَّهم أطاعوهم طاعةَ إذعانٍ دينيٍّ في التَّحليلِ والتَّحريمِ، وهو خاصٌّ بالرَّبِّ المعبودِ[٢].

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾، لَمَّا كان المُزَيِّن لخِسَّتِه أهلًا لِأَنْ لا يُقْبَلَ تزيينُه، ولا يُلْتَفَتَ إليه، فكان امتثالُ قولِه غريبًا، وكان الإقدامُ على فِعْلِ الأَمْرِ المُزَيَّنِ أشدَّ غرابةً- قدَّمَ قَوْلَه ﴿قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ﴾ تنبيهًا على ذلك[٣].

٨- كلُّ من أطاعَ غيرَ الله في تشريعٍ مُخالِفٍ لِمَا شَرَعَه اللهُ؛ فقد أشْرَكَ به مع اللهِ، كما يدُلُّ لذلك قَوْلُه: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾ فسمَّاهم شركاءَ لَمَّا أَطاعُوهم في قَتْلِ الأَوْلادِ[٤].

٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ يدلُّ على أنَّ كلَّ ما فعَلَه المُشركونَ هو بِقَدَرِ اللهِ تبارك وتعالى[٥].

١٠- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾، لَمَّا كان ذَمُّهم على مجرَّدِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٥٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٠٩).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٨٢).
(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٤٥٨).

التَّحريمِ لا على كونِه من مُعَيَّنٍ، بُنِيَ للمَجْهولِ[1].

١١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا﴾ استدَلَّ به مالكٌ رَحِمَه الله على أنَّه لا يجوزُ الوَقْفُ على أَوْلادِ الذُّكورِ دُونَ البَناتِ، وأنَّ ذلك الوَقْفَ يُفْسَخُ ولو بَعْدَ موتٍ؛ لأنَّ ذلك مِن فِعْلِ الجاهليَّةِ. واستدلَّ به بعضُ المالكيَّةِ على مِثْلِ ذلك في الهِبَةِ[2].

١٢- فائدةُ تأنيثِ ﴿خَالِصَةٌ﴾ المُبالغةُ في خُلوصِ ما في بُطونِ الأنعامِ الَّتي كانوا حَرَّمُوا ما في بُطونِها على أزواجِهم، لذُكورِهم دونَ إناثِهم، وذلك مِثْلُ قَوْلِهم: رجلٌ نسَّابَة وعلَّامةٌ، إذا أُريدَ بها المُبَالغةُ في وَصْفِ مَن كان ذلك مِن صِفَتِه، وقيل غيرُ ذلك[3].

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ فيه: تأخيرُ قولِه: ﴿نَصِيبًا﴾ عن المجرورينِ (لله- مما)؛ اهتمامًا بالمقدَّمِ، والتَّشويقِ إلى المؤخَّرِ[4].

٢- قوله: ﴿فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ﴾ فيه: مبالغةٌ في صَوْنِه من أن يُعطَى لِمَا للهِ؛ لأنَّه إذا كان لا يَصِلُ فهو لا يُتْرَكُ إذا وَصَلَ بالأَوْلى[5].

٣- قوله: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ فيه: استئنافٌ لإنْشاءِ ذَمِّ شرائِعِهم[6].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٨٤).
(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٢٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٩٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٨٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٩٧).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٤- قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ﴾

معنى اللام في قوله: ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾ إن كان التَّزيينُ مِنَ الشَّياطينِ؛ فهي على حقيقةِ التعليلِ، وإن كان من السَّدَنَة فعلى معنى الصَّيرورةِ[1].

٥- قوله: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ (ذَرْهُمْ) أمرٌ فيه تهديدٌ ووعيدٌ[2].

٦- قوله: ﴿سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ فيه: استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ الافتراءَ على الخالِقِ أمرٌ شنيعٌ عند جميعِ الخَلْقِ، فالإخبارُ به يُثيرُ سُؤالَ من يَسألُ عمَّا سيلقَوْنَه مِن جزاءِ افترائِهم، فأُجيبَ بأنَّ اللهَ سيجزيهم بما كانوا يَفْترونَ[3].

- وقد أبهَمَ الجزاءَ للتَّهويلِ؛ لتَذْهَبَ النُّفوسُ كُلَّ مذهَبٍ مُمْكِنٍ في أنواعِ الجزاءِ على الإثمِ[4]، وفيه: تهديدٌ شديدٌ ووعيدٌ[5].

٧- قوله: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ تذييلٌ جُعِلَ فذلكةً للكلامِ السَّابِقِ[6].

٨- قوله: ﴿افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ﴾ فيه: إظهارُ الاسمِ الجليلِ في موقِعِ الإضمارِ- حيث لم يَقُلْ: (عليه)- لإظهار كَمالِ عُتوِّهم وطُغيانِهم[7].

٩- قوله: ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ لزيادةِ النِّداءِ على تحقُّقِ ضَلالِهم[8].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٥٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٠٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٠٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٦٠).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١١٣).
(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٩١).
(٨) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١١٥).

- فائدةُ قوله: ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ بعد قوله: ﴿قَدْ ضَلُّوا﴾ أنَّهم بعدما ضلُّوا، لم يهتدوا مرَّة أُخرى[١]، وهذا نهايةُ المبالغةِ في الذَّمِّ[٢].

- زيادةُ قَوْلِه: ﴿كَانُوا﴾ هنا لتحقيقِ النَّفيِ؛ مثل موقِعِها مع لامِ الجُحُودِ[٣].

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ١٧٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٤٦٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١١٦).

الآيتان (١٤١-١٤٢)

﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٤١ وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ١٤٢ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿جَنَّاتٍ﴾: أي: بَسَاتِينَ، جمْعُ جَنَّةٍ، وهي كلُّ بُستانٍ ذي شَجَرٍ، يَستُرُ بأَشْجارِه الأَرْضَ، ومنه الجنَّةُ التي يصيرُ إليها المُسلِمونَ في الآخِرَةِ، وأَصْلُ (جنن): السَّتْرُ وَالتَّستُّرُ(١).

﴿مَعْرُوشَاتٍ﴾: أي: مَرْفوعاتٍ على مَا يَحمِلهَا، وهو مَا عَرَشَ النَّاسُ، وبَنَوْا له العريشَ من العنبِ، والعَرْشُ في الأَصْلِ: شيءٌ مسقَّفٌ(٢).

﴿أُكُلُهُ﴾: أي: ثَمَرُه، وَمَا يُؤْكَل مِنه، وسُمِّي الثمرُ أُكُلًا؛ لأنَّه يُؤْكَلُ، وأصْلُ (أكل): التَّنَقُّصُ(٣).

﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾: أي: لا تُفْرِطوا، والسَّرَف: تجاوُزُ الحدِّ في كلِّ فِعلٍ يفعَلُه الإِنْسانُ، وأَصْلُه: تعدِّي الحَدِّ، والإِغْفالُ للشَّيءِ أَيْضًا(٤).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٩٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٥٣)، =

﴿حَمُولَةً﴾: الحَمُولةُ هي الكبيرةُ، كالإبلِ التي يُحمَلُ عليها الأثقالُ[1].

﴿وَفَرْشًا﴾: الفَرْشُ: صِغارُ الإبلِ التي لم تُدرِكْ أن يُحمَلَ عليها، وأصلُ (فرش): يَدُلُّ على تَمهيدِ الشَّيءِ، وبَسْطِه[2].

مُشْكِلُ الإعْرابِ:

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾

﴿حَمُولَةً﴾: منصوبةٌ على أنَّها مَعْطوفةٌ على مَفعولِ ﴿أَنْشَأَ﴾، وهو ﴿جَنَّاتٍ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾، أي: وأنشَأَ منَ الأنعامِ حمولةً وفَرْشًا، مع ما أنشَأَ مِنَ الجنَّاتِ المعروشاتِ وغيرِ المعروشاتِ؛ فيكون العَطْفُ مِن قَبيلِ عَطْفِ المفرداتِ. ويجوزُ أن يكونَ الجارُّ والمجرورُ ﴿مِنَ الْأَنْعَامِ﴾ متعلِّقًا بفِعلٍ مُقَدَّرٍ تقديرُه: أَنْشَأَ، و﴿حَمُولَةً﴾ مفعولًا به لهذا الفِعْلِ المُقَدَّرِ، وحينئذٍ تكون جملةُ (وَأَنْشَأَ) المقَدَّرة معطوفةً على جملة ﴿أَنْشَأَ﴾ السَّابِقِ في الآيةِ؛ فيكونُ العَطْفُ مِنْ قَبيلِ عَطْفِ الجُمَلِ[3].

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ تعالى أنَّه هو الذي خَلَقَ بساتين من أَشْجارٍ متنوِّعةٍ، ونباتاتٍ مختلفةٍ؛ منها ما له عروشٌ تُنشَرُ عليها، وتُعاوِنُها على النُّهوضِ، ومنها ما ليس لها عُرُوشٌ

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣١).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٠٦، ١٠٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦١٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٨)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٧٤-٢٧٥)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٤٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ١٩٠)، ((المجتبى من مشكل إعراب القرآن)) للخراط (١/ ٢٩٩).

فتَنبُت على ساقٍ، أو تَنْفَرِشُ على الأَرْضِ، وأيضًا خَلَقَ اللهُ النَّخْلَ والزَّرعَ مختلفًا أُكُلُه، والزَّيتونَ والرُّمانَ مُتَشابهًا في شَجَرِه وورقِه، وغيرَ مُتَشابِهٍ في ثَمَرِه وطَعْمِه، وأمَرَهم جلَّ وعلا أن يَأْكُلوا مِن ثَمَره إذا أَثْمَرَ، وأن يُخرِجوا زكاتَه يومَ حَصادِه، ونهاهم عن الإسْرافِ؛ فإنَّه تعالى لا يُحِبُّ من كان مُسْرِفًا.

ثم بيَّن تعالى أنَّه خَلَقَ من الأَنْعامِ ما يَصْلُحُ للحَمْلِ عليه كالإبِلِ، ومنها ما هو مهَيَّأٌ لغَيْرِ الحَمل كالغَنَم، وأمَرَهم سبحانه أن يَأْكُلوا مِمَّا رَزَقَهم سبحانه، وأباحَ لهم أكْلَه، ونهاهم أن يسلكوا طُرُقَ الشَّيطانِ؛ فإنَّه لهم عدُوٌّ ظاهِرُ العَداوةِ.

تفسيرُ الآيتين:

﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿١٤٢﴾ ﴾.

مناسَبةُ الآيتينِ لِمَا قَبْلَهما:

أنَّ الله تعالى لَمَّا جعَلَ مدارَ هذا الكتابِ الشَّريفِ على تقريرِ التَّوحيدِ والنبوَّةِ والمَعَاد، وإثباتِ القَضاءِ والقَدَر، وأنَّه تبارَكَ وتعالى بالَغَ في تقريرِ هذه الأُصُولِ، ثُمَّ شَرَحَ أحوالَ السُّعَداءِ والأَشْقياءِ، وانتقَلَ إلى تَهْجينِ طريقةِ مُنْكري البَعثِ، ونَبَّه على ضَعْفِ عُقُولهم، وتنفيرِ النَّاسِ عن الالْتِفاتِ إلى قَوْلِهم، والاغْتِرارِ بشُبُهاتهم- عاد بعدها إلى المقصودِ الأَصْليِّ، وهو إقامةُ الدَّلائلِ على تقريرِ التَّوحيدِ[1]:

وأيضًا لَمَّا أخبرَ تعالى عنهم أنَّه حَرَّموا أشياءَ مِمَّا رَزَقَهم اللهُ، أخذَ يذكُرُ تعالى ما امتَنَّ به عليهم مِنَ الرِّزقِ الذي تصرَّفوا فيه بغيرِ إذْنِه تعالى؛ افتراءً منهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٤٦٦).

عليه واختلاقًا، فذَكَرَ نوْعَيِ الرِّزقِ، وهما النباتيُّ والحيوانيُّ، فبدأ بالنباتيِّ؛ كما بدأ به في الآيَةِ المشْبِهَة لهذا وهي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩]، واستطرَدَ منه إلى الحيوانيِّ؛ إذ كانوا قد حَرَّموا أشياءَ مِنَ النَّوعينِ، فقال[1]:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعۡرُوشَٰتٍ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٍ﴾.

أي: وربُّكم- أيُّها النَّاسُ- هو الذي خَلَقَ وأوجَدَ بساتينَ تَحوي أنواعًا من الأَشْجارِ المتنوِّعةِ، والنباتاتِ المختلفَةِ، سواءٌ كانت لها عروشٌ تنتشِرُ عليها الأَشْجارُ، وأعمِدَةٌ تَرْفَعُها، وتُعاوِنُها على النُّهوضِ عن الأَرْضِ، أو كانت خاليةً من تلك العُروشِ، فيُنْبِتُها اللهُ تعالى على ساقٍ، أو تنفَرِشُ منبسطةً على وَجْهِ الأَرْضِ[2].

﴿وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ﴾.

أي: وخَلَقَ اللهُ عزَّ وجلَّ النَّخلَ والزَّرعَ، والحالُ أنَّ ما يخرُجُ منه ممَّا يُؤكَل من ثِمَارِه وحُبوبِه؛ أنواعٌ مختلفةٌ[3].

﴿وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾.

أي: وخَلَقَ اللهُ عزَّ وجلَّ الزَّيتونَ والرُّمَّان مُتشابهًا في مَنظرِ شَجَرِه ووَرَقِه، وغيرَ مُتشابِهٍ في شكلِ ثَمَرِه وطَعْمِه[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٦٦)، وينظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١١٧-١١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٦).

(٤) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾.

مناسَبَتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ تعالى كيفيَّةَ خَلْقِه لهذه الأَشْياءِ؛ ذَكَرَ ما هو المقصودُ الأصليُّ مِن خَلْقِها، وهو انتفاعُ المُكَلَّفينَ بها، فقال[1]:

﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾.

أي: ولكم أنْ تأكُلوا مِن ثَمَراتِ النَّخيلِ والزُّروعِ عند إِثْمارِها وظُهُورِها[2].

﴿وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾.

أي: وأَعْطُوا زكاةَ ما يخرُجُ مِنَ النَّخيلِ والزُّروعِ من الثِّمارِ والحُبوبِ يَوْمَ جَذاذِها وقَطْعِها[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٩٤)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (٧-١٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٦).

قال ابنُ جريرٍ: (وأولى الأقوالِ في ذلك عندي بالصوابِ، قولُ مَن قال: كان ذلك فرضًا فرَضه الله على المؤمنين في طعامِهم وثمارِهم التي تخرجُها زروعُهم وغروسُهم، ثم نسَخه الله بالصدقةِ المفروضةِ، والوظيفةِ المعلومةِ من العُشرِ ونصفِ العُشرِ) ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦١١).

وقال ابنُ كثيرٍ: (وقال آخرون: هذا كلُّه شيءٌ كان واجبًا، ثم نَسَخَه الله بالعُشْرِ ونِصْفِ العشر. حكاه ابن جريرٍ عن ابن عباس، ومحمد ابن الحنفية، وإبراهيم النخعي، والحسن، والسُّدِّي، وعطية العوفي. واختاره ابن جرير، رحمه الله. قلتُ: وفي تسميةِ هذا نسْخًا نظرٌ؛ لأنه قد كان شيئًا واجبًا في الأصل، ثم إنَّه فصَّل بيانَه، وبيَّنَ مقدار المَخْرج وكميته. قالوا: وكان هذا في السَّنة الثانية من الهجرة، فالله أعلم) ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٤٩)، وممن اختار هذا القولَ أيضًا، وهو أن هذه الآيةَ غيرُ منسوخةٍ، ولكنها مخصَّصة ومبيَّنة بآياتٍ أخرى، وبما يُبيِّنه النبيُّ صلَّى الله عليه وسلم: ابن عاشور في ((تفسيره)) (٨-أ/ ١٢٠-١٢٢).

وقال الشِّنقيطي: (قوله: ﴿يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ فيه للعلماء إشكالٌ- على أنَّه الزكاة- لأنَّه يوم الحصاد لم يكن تمرًا يابسًا، ولم يكن زبيبًا يابسًا، والزكَّاةُ إنما تُخرَجُ منه بعد أن يكون تمرًا يابسًا، أو =

وقد ذمَّ اللهُ تعالى الذي يَحصدون ولا يتصدَّقون، وقصَّ علينا سوءَ فعلِهم وانتقامَه منهم، حيث قال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَثْنُونَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ * فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ * أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ * فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ * أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ﴾ [القلم: ١٧ - ٢٤].

﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

أي: ولا تَتجاوَزُوا حدَّ الاعْتِدالِ في الأَكْلِ؛ فاللهُ تعالى لا يُحبُّ كلَّ مَن كان مُسرِفًا في ذلك وفي غيرِه مِنَ الأَعْمالِ[1].

= زبيبًا يابسًا. قالوا: المرادُ بيومِ الحصاد: أنَّ المرادَ به عند حصادِه، ويُراد: أنَّ زمنَ الحصادِ قد يطُولُ إلى أنْ يَصِحَّ يُبْسُهُ من زبيبٍ وتمرٍ، ونحو ذلك، وهذا يُوجَدُ في كلامِ العرب، يقول: افعلْه عندَ كذا، ويُريدُ به الاتِّساعَ في الوقت، كما تقول: لقيتُ زيدًا سنةَ كذا، وتقول: لقيتُه في يوم أول منها، ويكون جميع السَّنة بعده لم تلقَه فيه، هذا يُمْكنُ في كلام العرب) ((العذب النمير)) (٢/ ٣٣٠-٣٣١).

(١) اختار ابنُ كثير وابنُ عاشور والشنقيطيُّ هذا القَولَ، على أنَّ النهيَ متعلِّقٌ بقولِه تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ فيكونُ النَّهيُ عن الإسرافِ عائدًا إلى الأكْلِ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٢٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٣١-٣٣٢).

واختار الواحديُّ أنَّ المعنى: لا تُجاوِزوا الحَدَّ في الإعطاءِ بحيثُ تُبالِغونَ في إخراجِ ما يزيدُ على الواجبِ بما يضرُّ أنفُسَكم أو أَهْلِيكم. يُنظر: ((الوجيز)) (ص: ٣٧٨)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٢٣).

واختار أبو حيان والسعديُّ حَمْلَ الآيةِ على كِلا المعنيَيْنِ. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٦).

وقال ابنُ جَريرٍ: (والصَّوابُ مِن القَولِ في ذلك عندي، أن يُقالَ: إنَّ اللهَ تعالى ذِكرُه نهى بِقَولِه: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأنعام:١٤١] عن جَميعِ معاني الإسرافِ، ولم يُخصِّصْ منها معنًى دون معنًى. وإذ كان ذلك كذلك، وكان الإسرافُ في كلامِ العَربِ: الإخطاءَ بإصابةِ الحَقِّ في العَطيَّةِ؛ إمَّا بتَجاوُزِ حَدِّه في الزِّيادةِ، وإمَّا بتَقصيرٍ عَن حَدِّه الواجِبِ- كان معلومًا أنَّ المُفَرِّقَ مالَه مُباراةً، والباذِلَه للنَّاسِ حتى أجحَفَت به عَطيَّتُه؛ مُسرِفٌ بتجاوُزِه حَدَّ اللهِ إلى ما [ليس] له، وكذلك =

كما قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

وعن عبدِ الله بنِ عمرٍو رضي الله عنهما، أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((كُلوا واشْرَبوا، والْبَسوا وتصدَّقوا، في غيرِ إسرافٍ ولا مَخِيلةٍ))(١).

﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ كيفيَّةَ إنعامِه على عبادِه بالمَنافِعِ النباتيَّة؛ أتبَعَها بذِكرِ إنعامِه عليهم بالمنافِعِ الحيوانيَّة؛ فقال(٢):

﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾.

أي: وخلَقَ اللهُ عزَّ وجلَّ مِنَ الأَنْعامِ ما هو مهيَّأٌ للحَملِ عليه؛ لكِبَرِه وارْتِفاعِه،

= المُقَصِّرُ في بَذلِه فيما ألزَمَه اللهُ بَذلَه فيه، وذلك كمَنْعِه ما ألزَمَه إيتاءَه منه أهلَ سُهمانِ الصَّدقةِ إذا وجَبَت فيه، أو مَنْعِه مَن ألزَمَه اللهُ نَفقَته مِن أهلِه وعيالِه ما ألزَمَه منها، وكذلك السُّلطانُ في أخذِه مِن رَعِيَّتِه ما لم يأذَنِ اللهُ بأخذِه. كلُّ هؤلاءِ فيما فعلوا من ذلك مُسرفونَ، داخلونَ في معنى مَن أتى ما نهى اللهُ عنه مِنَ الإسرافِ بقَولِه: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأنعام: ١٤١] في عَطيَّتِكم مِن أموالِكم ما يُجحِفُ بكم؛ إذ كان ما قبلَه مِن الكلامِ أمرًا مِن اللهِ بإيتاءِ الواجِبِ فيه أهلَه يومَ حَصادِه، فإنَّ الآيةَ قد كانت تنزِلُ على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بسببٍ خاصٍّ مِن الأمورِ، والحُكمُ بها على العامِّ، بل عامَّةُ آيِ القُرآنِ كذلك، فكذلك قَولُه: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١]) ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦١٧- ٦١٨).

(١) أخرجه ابن ماجة (٣٦٠٥)، والنسائي (٢٥٥٩)، وأحمد (٦٦٩٥)، وعلقه البخاري في الصحيح (٧/ ١٤٠)

حسَّنَه ابنُ حجرٍ في ((الأمالي المطلقة)) (٣٢)، والألباني في ((صحيح ابن ماجة)) (٢٩٢٠)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في ((تعليقه على مسند أحمد)) (١٠/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٦٥).

كالإبل، ومنها ما هو مهيَّأٌ لغَيْرِ الحَمْلِ؛ لصِغَرِه وقُرْبِه من الأرضِ، كالغَنَم(١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٢٢-٦٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٢٥-١٢٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٣٣-٣٣٧).

قال ابن كثيرٍ: (قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الحَمولةُ: ما تركبونَ، والفَرْش: ما تأكلونَ وتَحْلِبون، شاة لا تَحْمِل، تأكلونَ لَحْمَها، وتتَّخِذون مِن صُوفِها لحافًا وفَرْشًا. وهذا الذي قاله عبدُ الرحمنِ في تفسيرِ هذه الآيَة الكريمةِ حَسَنٌ؛ يشهَدُ له قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧١، ٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ * وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ﴾ إلى أن قال: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾ [النحل: ٦٩ - ٨٠]) ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥٠).

وقال ابنُ عاشـور: (الفَرْشُ: اختُلِفَ في تفسيرِه في هذه الآيةِ؛ فقيل: الفَرْشُ ما لا يُطيقُ الحَمْلَ مِنَ الإبِلِ؛ أي: فهو يُرْكَبُ كما يُفْرَشُ الفَرْشُ، وهذا قولُ الرَّاغِب. وقيل: الفَرْشُ: الصِّغارُ من الإبِلِ أو من الأنعامِ كُلِّها؛ لأنَّها قريبةٌ مِنَ الأرْضِ، فهي كالفَرْشِ، وقيل: الفَرْشُ: ما يُذْبَحُ؛ لأنَّه يُفْرَش على الأرْضِ حين الذَّبحِ أو بَعْدَه؛ أي: فهو الضَّأنُ والمَعْزُ والبَقَرُ؛ لأنَّها تُذبَح. وفي «اللِّسان» عن أبي إسحاق: أجمَعَ أهلُ اللُّغَة على أنَّ الفَرْشَ هو صِغارُ الإبِلِ. زاد في «الكشَّاف»: «أو الفَرْش: ما يُنْسَجُ مِنْ وَبَرِه وصُوفِه وشَعَره الفَرْشُ» يريدُ أنَّه كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾ [النحل: ٨٠]. وقال: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ [النحل: ٥ - ٧] الآية، ولأنَّهم كانوا يَفْتَرِشون جلودَ الغَنَمِ والمَعْزِ للجُلُوسِ عليها.

ولفْظُ (فَرْشًا) صالحٌ لهذه المعاني كُلِّها، ومَحامِلُه كُلُّها مناسِبَةٌ للمَقامِ، فينبغي أن تكونَ مقصودةً من الآيَةِ، وكأنَّ لَفْظَ الفَرْشِ لا يُوازِنُه غيرُه في جَمْعِ هذه المعاني، وهذا من إعجازِ القُرآنِ مِن جانِبِ فَصاحَتِه، فالحَمُولَةُ الإبِلُ خاصَّةً، والفَرْشُ يكونُ مِنَ الإبِلِ والبَقَرِ والغَنَمِ على اختلافِ معاني اسْمِ الفَرْشِ الصَّالحةِ لكلِّ نَوعٍ مع ضَمِيمَتِه إلى كلمة (مِن) الصَّالحةِ للابتداءِ. فالمعنى: وأنْشَأَ من الأنعامِ ما تَحْمِلون عليه وتَرْكَبونه، وهو الإبِلُ الكبيرةُ، والإبِلُ الصَّغيرةُ، وما تأكلونَه، وهو البَقَرُ والغَنَم، وما هو فَرْشٌ لكم وهو ما يُجَزُّ منها، وجُلودُها) ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٢٥-١٢٦).

وقال الشنقيطيُّ: (﴿حَمُولَةً﴾ أي: ما يَحْمِلون عليه أثقالَهم كالإبِل، وربَّما دَخَلَ البَقَرُ في بَعْضِ الأقطارِ. =

﴿كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾.

أي: كُلُوا ممَّا أباحَه اللهُ تعالى لكم مِنَ الثِّمارِ والزُّروعِ والأَنْعامِ؛ فكُلُّها قد خَلَقَها اللهُ تعالى، وجَعَلَها رِزقًا لكم(١).

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

أي: لا تَسْلُكوا طُرُقَ الشَّيطانِ، التي منها تحريمُ بعضِ ما رَزَقَكم اللهُ عزَّ وجلَّ،

= وقوله: ﴿وَفَرْشًا﴾ الفَرْشُ هنا فيه أقوالٌ متقاربَةٌ للعُلماءِ: حَكَى الفَرَّاءُ إجماعَ أَهْلِ اللُّغَةِ على أنَّ الفَرْشَ صِغارُ الإبِلِ، وهي الفُصْلانُ. وقال بعضُ العلماءِ: الفَرْشُ: الغَنَمُ.

والتَّحقيقُ: أنَّ الآيَةَ تَشْمَلُ كلَّ ذلك، وأنَّ الأنعامَ منها رَكُوبةٌ كالإبِلِ، ومنها فَرْشٌ، وهو ما يُؤْكَل، ويُشْرَبُ مِن لَبَنِه، مع أنَّه ليس صالحًا للرُّكُوب، فيدخُلُ في الفَرْشِ: الغَنَم، وفِصالُ الإبِلِ، وعَجاجيلُ البَقَر؛ لأنَّ وَلَدَ البَقَرَة يقال له: عِجْلٌ. ويُجمَع على: عَجاجِيلَ، على غير قياسٍ، فالغَنَمُ، وفِصالُ الإبِل، وعجاجيلُ البَقَر؛ كلُّها يَدْخُلُ في الفَرْشِ. قيل: وإنَّما سُمِّيَتْ هذه الصِّغارُ: (فَرْشًا) لقُرْبِها مِنَ الفِراشِ والمِهادِ الذي هو التُّراب؛ لأنَّها صغيرةٌ قِصارٌ قريبةٌ من الأَرْضِ. هكذا قالوا، واللهُ أعلَمُ.

وعلى كلِّ حالٍ؛ فجميعُ الأقوالِ راجِعَةٌ إلى أنَّ اللهَ أَنْشَأَ الأنعامَ، وجَعَلَ فيها مِنَّةَ الرَّكوبِ والأَكْل. أمَّا قَوْلُ من قال: (فَرْشًا) فإنَّه لا يتناوَلُ إلَّا ما يُصْنَعُ منه الفِراشُ؛ كالضَّأنِ الذي يُصْنَعُ من صُوفِها الفِرَاشُ، والمَعْزِ الذي يُصْنَع من بعْضِ شَعَرِها الفِرَاش، ونحو ذلك، وأنَّ الفَرْشَ هو ما يستمِدُّه الخَلْقُ من جلودِ الأَنعامِ، وأصوافِها، وأَشْعارِها، وأَوْبارِها- كما يأتي في سُورةِ النَّحل- فهذا قولٌ غيرُ مُتَّجِه؛ لأنَّ المنَّةَ تكون بمجَرَّدِ الأَصواف، والأَوْبار، والأَشْعار، والجُلُود، لا بنَفْسِ الأنعام، والمعروفُ في القُرآنِ- وإنْ ذُكِرَ المنَّةُ بالأصوافِ والأوبارِ، والأشْعارِ والجُلُود في قولِه: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا﴾ [النحل: ٨٠] وفي قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ الآية [النحل: ٨٠]؛ إلَّا أنَّ المرادَ هنا: الامتنانُ بها جميعًا، وأَعْظَمُ أنواعِه: الأكْلُ منها، وهذا المعروفُ في القرآنِ؛ كقولِه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧١، ٧٢] ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل: ٥] ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [غافر: ٧٩] إلى غيرِ ذلك من الآياتِ؛ فتَبَيَّنَ أنَّ المنَّة في الرَّكُوبِ وغَيْرِه من الأكْلِ، وغيرِ ذلك مِنَ النِّعَم؛ يعني: هذا الذي أَنْشَأَ لكم الأنعامَ- حَمُولَتَها وفَرْشَها- هو اللهُ جلَّ وعلا)) ((العذب النمير)) (٢/ ٣٣٥-٣٣٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥١).

كما اتَّبَعها المشْرِكونَ الَّذين حَرَّموا ما رَزَقَهم اللهُ تعالى؛ فالشَّيطانُ لكم- أيُّها النَّاسُ- عدُوٌّ بيِّنٌ ظاهِرُ العَدَاوةِ، لا يأمُرُكم إلَّا بما فيه ضَرَرُكم وشقاؤُكم الأبَدِيُّ[1].

الفَوائِد التربويَّة:

١- قولُه: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ...﴾ فيه التَّذكيرُ بمِنَّةِ اللهِ تعالى على النَّاسِ بما أنشَأَ لهم في الأَرْضِ مِمَّا ينفَعُهم[2].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ فيه التَّحذيرُ من الإِسْرافِ، وهو مجاوزَةُ الحَدِّ، والاعتداءُ كذلك، وذلك إمَّا شرعيٌّ، كتَجَاوُزِ الحَلالِ من الطَّعامِ والشَّرابِ وما يتعلَّق بهما إلى الحَرامِ، وإمَّا فطريٌّ طَبَعِيٌّ، وهو تجاوُزُ حَدِّ الشِّبَعِ إلى البِطْنَةِ الضَّارَّة[3].

٣- قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ المقصودُ منه الزَّجرُ؛ لأنَّ كُلَّ مُكَلَّفٍ لا يحبُّه اللهُ تعالى فهو من أهْلِ النَّارِ؛ والدَّليلُ عليه قولُه تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ [المائدة: ١٨] فدلَّ هذا على أنَّ كلَّ مَن أحَبَّه اللهُ فليس هو مِن أهْلِ النَّارِ، وذلك يُفيدُ مِن بعضِ الوُجوهِ أنَّ مَن لم يحِبَّه اللهُ فهو مِن أَهْلِ النَّارِ[4].

الفوائِدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال اللهُ تعالى في آيةٍ سابقةٍ: ﴿انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ [الأنعام: ٩٩] فأمَرَ تعالى هناك بالنَّظَرِ في أحوالِها والاستدلالِ بها على وجودِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٣٧-٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٢١-١٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٦٥).

الصَّانِعِ الحكيمِ، وذَكَرَ في هذه الآيَةِ: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ فأذِنَ في الانتفاعِ بها، وأَمَرَ بصرفِ جزءٍ منها إلى الفُقراءِ؛ فالذي حَصَل به الامتيازُ بين الآيتينِ: أنَّ هناك أَمَرَ بالاستدلالِ بها على الصَّانِعِ الحكيمِ، وهاهنا أَذِنَ في الانتفاعِ بها، وذلك تنبيهٌ على أنَّ الأمرَ بالاسْتِدلالِ بها على الصَّانِعِ الحكيم مُقَدَّمٌ على الإِذْنِ في الانتفاعِ بها؛ لأنَّ الحاصِلَ من الاستدلالِ بها سعادةٌ روحانيَّةٌ أبديَّة، والحاصِل من الانتفاعِ بهذه سعادةٌ جُسمانيَّةٌ سريعةُ الانقضاءِ، والأَوَّلُ أَوْلى بالتقديمِ؛ فلهذا السَّبَبِ قَدَّمَ اللهُ تعالى الأمْرَ بالاسْتِدلالِ بها على الإِذْنِ بالانتفاعِ بها[1].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ أُعيدَ في هذه الآيَةِ غالبُ ما ذُكِرَ في نظيرَتِها المتقَدِّمَةِ في قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ [الأنعام: ٩٩]، لكِنْ لَمَّا كان المقصودُ من الآيَةِ الأُولى في التَّرتيبِ ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ...﴾ [الأنعام: ٩٩]، الاستدلالَ على أنَّه الصَّانِعُ، وأنَّه المنفرِدُ بالخَلْقِ، فكيف يُشْرِكونَ به غيرَه؛ ذَيَّلَها بِقَوْلِه: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩]، وعَطَفَ عليها قولَه: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ [الأنعام: ١٠٠] الآيات، ولَمَّا كان المقصودُ من هذه: الامتنانَ وإبطالَ ما ينافي الامتنانَ؛ ذُيِّلَتْ هذه بِقَوْلِه: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾[2].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ يُفيدُ أنَّ أَوَّلَ وقتِ إباحةِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٦٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١١٧).

الأَكْلِ وَقْتَ إِطْلاعِ الشَّجَرِ الثَّمَرَ، والزَّرْعِ الحَبَّ؛ لئلَّا يُتَوَهَّم أنَّه لا يُباحُ إلَّا إذا أدرَكَ وأينَعَ؛ فشَجَرُ العِنَبِ يُنتفَعُ بثَمَرِه حِصْرِمًا فعِنَبًا فزَبيبًا، والنَّخْلُ يُؤكَلُ ثَمَرُه بُسْرًا فرُطَبًا فتَمْرًا، والقَمْحُ يُؤكَل حَبُّه فَرِيكًا قبل يُبْسِه، وأَكْلِه بُرًّا مَطبوخًا، أو طَحْنِه وجَعْلِه خُبْزًا[1].

٤- تمسَّكَ بعضُهم بِقَوْلِه: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِه إِذَا أَثْمَرَ﴾ بأنَّ الأَصْلَ في المنافِعِ الإباحةُ والإطْلاقُ؛ لأنَّ قولَه: ﴿كُلُوا﴾ خطابٌ عامٌّ يتناوَلُ الكُلَّ، فصار هذا جاريًا مَجْرى قولِه تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[2] [البقرة: ٢٩].

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾، استدَلَّ به مَن أَوْجَبَ الزَّكاةَ في كلِّ زرْعٍ وثَمَرٍ؛ خصوصًا الزيتونَ والرُّمانَ المنصوصَ عليهما[3].

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾، تقديمُ ذِكْرِ الأَكلِ على التَّصدُّقِ؛ لبيانِ أنَّ رعايةَ النَّفْسِ متقدِّمةٌ على الغَيرِ، ولبيانِ أنَّ الابتداءَ بالنِّعمةِ كان مِن فَضْلِه تعالى قبلَ التَّكليفِ[4].

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ الاقترانَ لا يُفيدُ التَّسويةَ في الأَحْكام؛ فاللهُ تعالى قَرَنَ الأكلَ - وليس بواجبٍ اتِّفاقًا - بالإيتاءِ المذكورِ، وهو واجِبٌ اتِّفاقًا[5].

٨- قولُه تعالى: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ فيه دليلٌ على وجوبِ الزَّكاةِ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١١٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٦٣).
(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٢٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٩٩)، ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٤٧٠).
(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٢٢).

الثِّمارِ، وأنَّه لا حَوْلَ لها، بل حَوْلُها حَصادُها في الزُّروعِ، وجَذاذُ النَّخيلِ، وأنَّه لا تتكَرَّرُ فيها الزَّكاةُ، لو مَكَثَت عند العبدِ أحوالًا كثيرةً، إذا كانت لغَيرِ التِّجارةِ؛ لأنَّ اللهَ لم يأمُرْ بالإخراجِ منه إلَّا وَقْتَ حَصادِه[1].

٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ أمْرٌ بإيتاءِ حَقِّه يومَ الحصادِ؛ ليهتَمَّ به المُكَلَّفُ حينئذٍ؛ حتَّى لا يُؤَخِّرَه عن أوَّلِ وَقتٍ يُمكِنُ فيه الإيتاءُ[2].

١٠- في قَوْلِه تعالى: ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ اقتصَرَ على الأَمْرِ بالأَكْلِ؛ لأنَّه المقصودُ من السياقِ؛ إبطالًا لتحريمِ ما حَرَّموه على أنفُسِهم، وتمهيدًا لقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ فالأمرُ بالأَكْلِ هنا مستعمَلٌ في النَّهيِ عن ضِدِّه، وهو عَدَمُ الأَكْلِ مِن بَعْضِها؛ أي: لا تُحَرِّموا ما أُحِلَّ لكم منها؛ اتِّباعًا لتغريرِ الشَّيطانِ بالوَسْوسةِ لزُعَماءِ المُشْركينَ الَّذينَ سَنُّوا لهم تلك السُّنَنَ الباطِلَةَ، وليس المرادُ بالأمرِ الإباحةَ فقط[3].

١١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ التعبيرُ بخُطُواتِ الشَّيطانِ يدلُّ على أنَّ شرائِعَه سريعةُ الاندراسِ، فلَوْلَا مزيدُ الاعتناءِ مِنَ الفَسَقَة بالتَّتبُّعِ في كلِّ خُطوةٍ حالَ تأثيرِها؛ لبادَرَ إليها المحوُ؛ لبُطلانِها في نَفْسِها، فلا أمْرَ مِنَ الله يُحييها، ولا كِتابَ يُبْقِيها[4].

بلاغة الآيتين:

١- قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ﴾ الظَّاهِرُ دخولُ قولِه: ﴿وَالنَّخْلَ﴾ وما بَعْدَه في قولِه: ﴿جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٥٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٢٦).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٩٣).

وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ فاندرَجَ في جنَّاتٍ، وخُصَّ بالذِّكرِ وجُرِّدَ؛ تعظيمًا لمنفَعَتِه، والامتِنانِ به[1].

- وتعريفُ المُسنَد في قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي﴾ يفيدُ الاختصاصَ؛ أي: هو الذي أنشَأَ لا غيرُه، والمقصودُ مِن هذا الحَصْرِ إبطالُ أن يكونَ لغَيرِه حظٌّ فيها؛ لإبطالِ ما جَعَلوه مِنَ الحَرْثِ والأنعامِ مِن نَصيبِ أنصابِهم؛ مع أنَّ اللهَ أنشَأَه[2].

٢- قوله: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ غيَّرَ أُسلوبَ الحِكايةِ عَن أحوالِ المُشْركينَ، فأقبَلَ على خطابِ المؤمنينَ بهذه المِنَّة وهذا الحُكْمِ، فهذه الجُمَلُ مُعترِضَةٌ، وهي تعريضٌ بتسفيهِ أحلامِ المُشركينَ؛ لِتَحريمِهم على أنفُسِهم ما مَنَّ اللهُ به عليهم[3].

- وتقديمُ المجرورِ ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ﴾ على المفعولِ ﴿حَمُولَةً﴾ الذي هو أَوْلى بالتَّقديمِ في ترتيبِ المتعَلِّقاتِ؛ لقَصْدِ الاهتمامِ بأمْرِ الأَنعامِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٦٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١١٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ١١٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ١٢٥).

الآيتان (١٤٣-١٤٤)

﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾.

غريب الكلمات:

﴿وَصَّاكُمْ﴾: الوصيَّةُ: التقدُّمُ إلى الغَيرِ بما يَعمَلُ به، والوصيَّةُ مِن اللهِ هي الأمرُ المؤكَّدُ، والتَّوصيَةُ تُعرِبُ عن تأكيدِ الأَمرِ، والاعتناءِ بشأنِ المأمورِ به، وأَصْلُ (وصي): يدلُّ على وصْلِ شيءٍ بشَيءٍ؛ يقال: وَطِئْنَا أرضًا واصِيةً، أي: إنَّ نَبْتَها متَّصِلٌ قد امتَلَأتْ منه، ومنه الوصِيَّة؛ كأنَّه كلامٌ يُوصَى؛ أي: يُوصَلُ[١].

مُشكلُ الإعراب:

قوله تعالى: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾

﴿ثَمَانِيَةَ﴾: منصوبٌ، على أنَّه بدلٌ مِنْ ﴿حَمُولَةً وفَرْشًا﴾، أو بإضمارِ فِعلٍ؛ تقديرُه (أَنْشَأَ).

﴿اثْنَيْنِ﴾ منصوبٌ، وفي نَصْبِه وجهانِ؛ أحَدُهما: أنَّه بَدَلٌ مِن ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾، والثاني: أنَّه منصوبٌ بـ (أَنْشَأَ) مُقدَّرًا[٢].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٨٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٢).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٧٤-٢٧٥)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٤٣-٥٤٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ١٩٠-١٩٣).

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تعالى أنَّه خَلَقَ من الأَنْعامِ ثمانِيَةَ أزواجٍ: مِنَ الضَّأنِ الذَّكَرَ والأُنثى، ومِنَ المَعْزِ كذلك الذَّكَرَ والأُنثى، ثم أمَرَ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم أن يقولَ لِمَن حَرَّموا ما رَزَقَهم اللهُ، بتَحْريمهم بعضًا من الأَنْعامِ دونَ بعضٍ، أو بتَحْريمِهم بعضَ تلك الأَنعامِ على إناثِهم دونَ ذكورِهم؛ أمَرَه أن يُخاطِبَهم مُلزِمًا لهم بأنَّه لا فَرْقَ بين ما حَرَّموا وما أباحُوا: أَحَرَّمَ ربِّي الذَّكَرينِ: ذَكَرَ المَعْزِ والضَّأْنِ، أم حَرَّمَ الأُنْثَيين منهما، أم كان التَّحريمُ لِمَا اشتَمَلَتْ عليه أرحامُ الأُنْثَيَينِ؟ وهم لا يقولونَ بواحدٍ من هذه الأقوالِ، فإذا كان ذلك كذلك فلِمَ حَرَّموا بَعْضًا منها، وأحَلُّوا بعضًا آخَرَ؟ وأَمَرَه تعالى أن يَطْلُبَ منهم إخبارَهُ بيقينٍ وعِلْمٍ عن الفَرْقِ بين ما حَرَّموا وأحَلُّوا إنْ كانوا صادقينَ.

ثم ذَكَرَ اللهُ بقيَّةَ الأَزْواجِ الثَّمانِيَةِ بعد أنْ ذَكَرَ أربعةً منها؛ فذَكَرَ هنا مِنَ الإبِلِ اثنينِ: الذَّكَرَ والأُنثى، ومن البَقَرِ اثنينِ كذلك: الذَّكَرَ والأنثى، ثم أمَرَ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم أن يُعيدَ عليهم نَفْسَ الحُجَّة، فيقول لِمَن حَرَّموا ما رَزَقَهم اللهُ، وذلك بتَحْريمهم بعضًا من الأنعامِ دون بعضٍ، أو بتَحْريمِهم بعضَ تلك الأنعامِ على الإناثِ دونَ الذُّكورِ؛ أَمَرَه أن يخاطِبَهم؛ مُلْزِمًا لهم بأنَّه لا فَرْقَ بين ما حَرَّموا وبين ما أباحوا: أَحَرَّمَ ربِّي الذَّكَرينِ: ذَكَرَ الإبِلِ والبَقَرِ، أم حَرَّمَ الأنثيين منهما، أمْ ما اشْتَمَلَتْ عليه أرحامُ الأُنْثَيَينِ؟ وهم لا يقولونَ بواحدٍ من هذه الأَقْوالِ، فإذا كان ذلك كذلك، فلِمَ حَرَّموا بعضًا منها، وأحَلُّوا بعضًا آخَرَ؟ أم أنَّهم كانوا شُهَداءَ حين وصَّاهم اللهُ بهذا الذي يتَقَوَّلونَه عليه؟ وهذا كذلك باطِلٌ، ثم أخبَرَ تعالى أنَّه لا أحَدَ أشَدُّ ظُلمًا مِمَّنْ كَذَبَ على اللهِ تعالى؛ ليُضِلَّ النَّاسَ بغيرِ عِلمٍ، واللهُ تعالى لا يُوَفِّقُ للحَقِّ القَومَ الظَّالِمينَ.

تفسيرُ الآيتين:

﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾.

مناسبةُ الآيتينِ لِمَا قَبْلَهما:

أنَّ الله تعالى لَمَّا رَدَّ دِينَ المشركينَ وأثبَتَ دِينَه، وكانوا قد فَصَّلوا الحُرمةَ بالنِّسبةِ إلى ذُكورِ الآدميِّ وإناثِه؛ ألزَمَهم تفصيلَها بالنِّسبةِ إلى ذُكورِ الأَنْعامِ وإناثِه، ففَصَّلَ أَمْرَها في أُسْلوبٍ أبانَ فيها أنَّ فِعْلَهم بعيدٌ من قانونِ الحكمةِ، فهو موضِعٌ للاستهزاءِ، وأهلٌ للتهكُّمِ(١)، فقال تعالى:

﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾﴾.

﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾.

أي: وخَلَقَ اللهُ تعالى مِنَ الأَنعامِ- التي امتنَّ بها على عبادِه، وجَعَلَها كلَّها حلالًا طيِّبًا- ثمانيةَ أزواجٍ، ومنها الذَّكَرُ والأنثى من الضَّأنِ والمعْزِ، فمِنَ الضَّأْنِ الكَبْشُ والنَّعجةُ، ومن المَعْزِ التَّيْسُ والعَنْزُ(٢).

كما قال تعالى: ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٩٤)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٢١٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ١٩٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٣٧-٣٤٠).

وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾ [الشورى: ١١].

وقال سبحانه: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ [الزمر: ٦].

﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾.

أي: قُلْ- يا مُحمَّدُ- لهؤلاءِ الَّذينَ حَرَّموا ما رَزَقَهم اللهُ تعالى؛ اتِّباعًا للشَّيطانِ، فيُحَرِّمونَ من الأنعامِ شيئًا دونَ شَيءٍ، أو يُحَرِّمونَ بَعْضَها على الإناثِ دُونَ الذُّكورِ، فقل مُلْزِمًا لهم بعَدَمِ وُجودِ الفَرْقِ بين ما أباحوا منها وما حَرَّموا: أحَرَّمَ اللهُ الذَّكرينِ؛ ذَكَرَ المعْزِ والضَّأنِ؟ فليس هذا قَوْلَكم، أم حَرَّمَ أُنثَيَيْهما؟ فليس هذا بِقَوْلِكم أيضًا. فلَسْتُم تقولونَ بتحريمِ الذُّكورِ الخُلَّصِ، ولا الإناثِ الخُلَّصِ من الضَّأْنِ والمَعْز. أم تُحَرِّمون ما اشتَمَلَت عليه أرحامُ أنثى الضَّأنِ وأنثى المَعْزِ، من غيرِ فَرْقٍ بين ذَكَرٍ وأنثى؟ فلستُم تقولونَ أيضًا بهذا القَولِ. فإذا كُنْتم لا تقولونَ بأحدِ هذه الأقوالِ الثَّلاثةِ؛ فإنَّ تَفريقَكم بينَ بعضِ الذُّكورِ وبَعْضِ الإناثِ، وبعضِ ما في بُطُونِ الأنعامِ بأنْ تُحِلُّوا بعضَ هذا، وتُحَرِّموا بعضَه؛ تفريقٌ باطِلٌ(١)؟!

﴿نَبِّـُٔونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

أي: قُلْ لهم يا مُحمَّدُ: أخبِروني عن يقينٍ وعِلمٍ بصِحَّةِ هذا الذي حَرَّمْتُم،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٤٧-٣٤٨).

قال الشِّنقيطيُّ: (تفريقُكم بين بَعضِ الذُّكورِ وبَعضِ الإناثِ، وبعضِ ما في بُطونِ الأنعامِ؛ بأنْ تُحِلُّوا بعضَ هذا، وتُحَرِّموا بَعضَه، إن كانت العِلَّةُ في تحريمِ الذَّكَرِ الذُّكُورةَ، فكان اللَّازِمُ أن يَحرُمَ كلُّ ذَكَرٍ؛ لاطِّرادِ العِلَّةِ، وإن كانت الأنوثةَ لَزِمَ أن تَحرُمَ كُلُّ أنثى؛ لاطِّرادِ العِلَّة، وإن كان كَونَه في البُطونِ- مُشتَمِلةً عليه الرَّحِمُ- لَزِمَ أن يَحرُمَ كُلُّ مولودٍ مِن ذَكَرٍ وأنثى، وكلُّ لَبَنٍ؛ لأنَّ الكُلَّ اشتمَلَت عليه الرَّحِمُ!!

فكأنَّه يقولُ: تفريقُكم هذا باطِلٌ؛ لأنَّه لو كانت العِلَّةُ الذُّكورةَ لَحَرُمَ ذَكَرُ الضَّأنِ والمَعزِ معًا، وأنثاهما كُلًّا، ولو كانت التَّخَلُّقَ في الرَّحِمِ لَحَرُمَ ما اشتمَلَت عليه الرَّحِمُ مُطلقًا، فلِمَ حَرَّمتُم بعضَ هذا، وحلَّلتُم بعضَ هذا؟! وما الفارِقُ بين ما حَلَّلتم وحَرَّمتُم؟) ((العذب النمير)) (٢/ ٣٤٨).

وهذا الذي أَحْلَلْتم؛ ما وَجْهُ تحريمِكم لِهذا، وتحليلِكم لِذَاك مع استواءِ الجميعِ؛ إن كنتم صادقينَ في دعواكم هذه[1]؟

﴿وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

انتقَلَ مِن تَوبيخِهم بنَفْيِ عِلْمِهم بذلك إلى تَوبيخِهم بنَفْيِ شَهادَتِهم؛ لأنَّ مُدْرَكَ الأشياءِ المعقولُ والمحسوسُ، فإذا انتفَيا فكيفَ يُحْكَم بتحليلٍ أو بتحريمٍ؟ وكيفيَّةُ انتفاءِ الشَّهادةِ منهم واضحةٌ، وكيفيَّةُ انتفاءِ العِلْمِ بالعَقْلِ أنَّ ذلك مستنِدٌ إلى الوَحْيِ، وكانوا لا يُصَدِّقونَ بالرُّسُلِ، ومع انتفاءِ هَذَينِ كانوا يقولون: إنَّ اللهَ حَرَّمَ كذا؛ افتراءً عليه[2].

﴿وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِ﴾.

أي: وخَلَقَ الله تعالى من الأنعام- التي امتنَّ بها على عبادِه، وجَعَلَها كُلَّها حلالًا طَيِّبًا- ثمانيةَ أزواجٍ، ومنها الذَّكَرُ والأُنثى من الإبِلِ والبَقَرِ؛ فمن الإبِلِ: الجَمَلُ والنَّاقة، ومن البَقَرِ: الثَّورُ والبَقَرة[3].

﴿قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لهؤلاءِ الَّذينَ حَرَّموا ما رَزَقَهم اللهُ تعالى؛ اتِّباعًا للشَّيطانِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٢٤، ٦٢٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ١٩٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٤٦).

فيُحَرِّمونَ من الأنعامِ شيئًا دون شيءٍ، أو يُحَرِّمونَ بَعْضَها على الإناثِ دُون الذُّكورِ، فقل مُلْزِمًا لهم بعَدَمِ وُجودِ الفَرْقِ بين ما أباحوا منها وحَرَّموا: أحَرَّمَ اللهُ الذَّكَرينِ؛ ذَكَرَ الإبلِ والبَقَرِ؟ فليس هذا قَوْلَكم. أم حَرَّمَ أُنثَيَيْهما؟ فليس هذا بِقَوْلِكم أيضًا. فلَسْتُم تقولونَ بتحريمِ الذُّكورِ الخُلَّصِ، ولا الإناثِ الخُلَّصِ من الإبِلِ والبَقَرِ. أم تُحَرِّمون ما اشتَمَلَت عليه أرحامُ أنثى الضَّأنِ وأنثى المَعْزِ، من غيرِ فَرْقٍ بين ذَكَرٍ وأنثى؟ فلستُم تقولونَ أيضًا بهذا القَولِ. فإذا كُنْتم لا تقولونَ بأحدِ هذه الأقوالِ الثَّلاثةِ؛ فإنَّ تَفريقَكم بينَ بعضِ الذُّكورِ وبَعْضِ الإناثِ، وبعضِ ما في بُطُونِ الأنعامِ بأنْ تُحِلُّوا بعضَ هذا، وتُحَرِّموا بعضَه؛ تفريقٌ باطِلٌ(١).

فلَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى بُطلانَ قَوْلِهم وفسادَه، قال لهم قولًا لا حِيلةَ لهم في الخُروجِ مِن تَبِعَتِه؛ حيثُ أَمَرَ نَبِيَّه محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّم أن يقولَ لهؤلاءِ الجَهَلَةِ من المشركينَ الَّذين أَخْبَر عنهم في الآياتِ السَّابقة(٢).

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا﴾.

أي: أم كنتم- أيُّها المشركونَ- حاضرينَ حين وصَّاكم الله تعالى بهذا الذي تقولونَ عليه سبحانه(٣)؟ فهذا باطِلٌ أيضًا(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٢٥، ٦٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٤٧-٣٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٧).

(٣) بيَّنَ اللهُ تعالى بُطلانَ قَولِهم هذا على طَريقةِ السَّبرِ والتقسيمِ، وهي حصرُ الأوصافِ في الأصلِ؛ للإبقاءِ على الصوابِ، وإلغاءِ الباطِلِ منها، فالكفَّار لَمَّا حرَّموا ذكورَ الأنعامِ تارةً، وإناثَها أُخرى ردَّ عليهم بالسَّبرِ والتقسيمِ، وطريقُه: أنَّ علةَ الحرمةِ إمَّا الذُّكورة أو الأُنوثة، أو اشتمالُ الرَّحم عليهما، أو التعبدُ عن اللهِ، وذلك إمَّا بوحيٍ، أو إرسالِ رسولٍ، أو سماعِ كلامِه بلا واسطةٍ، فهذه وجوهُ التحريمِ لا غيرُ، فالأوَّل يستلزمُ حرمةَ جميعِ الذُّكورِ، والثاني: حرمةَ جميعِ الإناثِ، والثالث: حرمةَ الصنفين معًا، والأخذُ عن الله باطلٌ، ولم يدَّعوه، وكذلك بواسطةِ رسولٍ؛ لأنَّه لم يأتِ إليهم قبلَ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وإذا بطَل الجميعُ ثبَت المدَّعى، وهو أنَّ ما قالوه افتراءٌ وضلالٌ. يُنظر: ((مفاتيح التفسير)) لأحمد الخطيب (ص: ٥٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٢٩-٦٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٤٩).

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

أي: لا أَحَدَ أشدُّ ظُلمًا مِمَّنْ كَذَبَ على الله تعالى، بقَصْدِ إضلالِ عبادِ اللهِ عن سبيلِ الله بغيرِ بيِّنةٍ منه ولا بُرهانٍ(١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى لا يُوَفِّقُ للحَقِّ الظَّالِمينَ(٢)، ومِن جُمْلَتِهم مَنِ افترَى عليه الكَذِبَ، فأضافَ إليه تحريمَ ما لم يُحَرِّمْه سبحانَه(٣).

الفوائِدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قولِه تعالى: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ قيل: قدَّمَ الضَّأْنَ على المَعْزِ لغلاءِ ثَمَنِه، وطِيبِ لَحْمِه، وعِظَمِ الانتفاعِ بِصُوفِه(٤).

٢- في قولِ اللهِ تعالى: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ﴾، تفصيلُ ما ذُكِرَ من الذُّكورِ والإناثِ وما في بُطونِها؛ للمبالغةِ في الرَّدِّ عليهم بإيرادِ الإنكارِ على كلِّ مادَّةٍ من موادِّ افترائِهم، فيَظْهَر للمُتفكِّرِ فيه منهم أنَّه لا وَجْهَ يُعْقَلُ لقَوْلِهم(٥).

٣- قال تعالى: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ.... ﴾ لَمَّا كانوا قد حَرَّموا في الجاهليَّةِ بَعْضَ الغَنَم، ومنها ما يُسمَّى بالوصيلةِ، وبعض

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٧).

(٢) قال ابنُ عطيةَ في قولِه تعالى: ﴿واللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:٢٥٨]: (عمومٌ معناه الخصوصُ فيمَن حتَّم كفرُه وموافاتُه عليه، ويحتملُ أن يريدَ الإخبارَ عن أنَّ الظَّالمَ في ظُلمِه ليس على هدًى مِن الله، فتجيءُ الآيةُ عامةً تامةَ العمومِ) ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٣٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٧٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٢٤-١٢٥).

الإبِلِ كالبَحِيرةِ والوَصيلةِ أيضًا، ولم يُحرِّموا بعضَ المَعْزِ ولا شيئًا من البَقَر، ناسَبَ أنْ يُؤتَى بهذا التقسيمِ قبل الاستدلالِ؛ تمهيدًا لتحَكُّمِهم إذ حَرَّموا بعضَ أفرادٍ من أنواعٍ، ولم يُحَرِّموا بعضًا مِن أنواعِ أخرى، وأسبابُ التَّحريمِ المزعومةُ تتأتَّى في كلِّ نوعٍ؛ فهذا إبطالٌ إجماليٌّ لِمَا شَرَعُوه، وأنَّه ليس مِن دينِ الله، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[1] [النساء: ٨٢].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ استدَلَّ به بعضُ المالكيَّةِ على أنَّ الضَّأْنَ والمَعْزَ صنفانِ لا يُجْمَعانِ في الزَّكاةِ، كما أنَّ الإبِلَ والبَقَرَ كذلك[2].

٥- في قَوْلِه تعالى: ﴿نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ﴾ لَمَّا كانوا عاجزينَ عن الإنباءِ؛ دَلَّ ذلك على أنَّهم حَرَّموا ما حرَّموه بجهالةٍ وسُوءِ عَقلٍ لا بِعِلْمٍ، وشأنُ مَن يتصَدَّى للتَّحريمِ والتَّحليلِ أن يكون ذا علمٍ[3].

٦- يُستفادُ مِن قَوْلِه تعالى: ﴿لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أنَّه مِنَ الظُّلْمِ أنْ يُقْدِمَ أحَدٌ على الإفتاءِ في الدِّينِ ما لم يَكُنْ قد غَلَبَ على ظَنِّهِ أنَّه يُفْتي بالصَّوابِ الذي يُرضِي اللهَ، وذلك إنْ كان مجتهدًا فبالِاستنادِ إلى الدَّليلِ الذي يَغْلِبُ على ظَنِّه مصادَفَتُه لمرادِ الله تعالى، وإن كان مُقَلِّدًا؛ فبالاستنادِ إلى ما يَغْلِبُ على ظَنِّه أنَّه مَذْهَبُ إمامِه الذي قَلَّدَه[4].

بلاغة الآيتين:

١- قوله: ﴿قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ أمَرَه اللهُ تعالى أنْ يقولَ لهم تبكيتًا،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٢٩).
(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٢٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٣٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ١٣٥).

وإظهارًا لانقطاعِهم عن الجوابِ[١]: ﴿آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ﴾، والهمزةُ في قَولِه: ﴿آلذَّكَرَيْنِ﴾ للاستفهامِ الإنكاريِّ، وللتَّوبيخِ والتَّقريعِ؛ حيث نَسَبُوا ما حَرَّموه إلى اللهِ تعالى[٢]، المقصودُ في الموضعينِ إبطالُ تحريمِ ما حَرَّمَ المشركونَ أَكْلَه، ونفيُ نِسبَةِ ذلك التَّحريمِ إلى الله تعالى[٣].

٢- قوله: ﴿نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ وقدْ فَصَلَ بهذه الجُملة المعترِضةِ بين المتعاطفَينِ على سَبيلِ التَّقريعِ لهم والتَّوبيخِ؛ حيثُ لم يَسْتَنِدوا في تَحريمِهم إلَّا إلى الكَذِبِ البَحْتِ والافتراءِ[٤]، وفيه: تهكُّمٌ؛ لأنَّه لا يُطلَب تلقِّي عِلْمٍ منهم، وهذا التَّهكُّم تابعٌ لصورةِ الاستفهامِ وفرعٌ عنها[٥].

- وفيه: تكريرٌ للإلزامِ، وتثنيةٌ للتَّبكيتِ والإفحامِ[٦].

٣- قوله: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا﴾ معنى الهمزةِ الإنكارُ والتَّوبيخُ[٧]، وقد خَصَّ بالإنكارِ حالةَ المشاهَدَة، تهكُّمًا بهم؛ لأنَّهم كانوا يُكَذِّبونَ الرَّسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم[٨].

- في قوله: ﴿وَصَّاكُمُ﴾ أُطْلِقَ الإيصاءُ على ما أَمَرَ اللهُ به؛ لأنَّ النَّاسَ لم يُشاهِدوا اللهَ حين فِعْلِهم ما يأمُرُهم به، فكان أَمْرُ اللهِ مؤكَّدًا، فعَبَّرَ عنه بالإيصاءِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٣١-١٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٧٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٣٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٩٣).

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٣٤).

(٨) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٣٤).

تنبيهًا لهم على الاحترازِ مِنَ التَّفويتِ في أوامِرِ اللهِ[1].

٤- قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ الفاءُ لترتيبِ ما بَعدَها على ما سَبَقَ من تَبكيتِهم، وإظهارِ كَذِبِهم وافْتِرائِهم[2].

٥- قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ فيه: تهديدٌ ووعيدٌ لهم إنْ لم يُقْلِعوا عمَّا هُم فيه؛ بأنَّ اللهَ يَحْرِمُهم التَّوفيقَ، ويَذَرُهم في غَيِّهِم وعَمَهِهم[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٣٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٩٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٣٦).

الآيات (١٤٥-١٤٧)

﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿دَمًا مَسْفُوحًا﴾: أي سائلًا مصبوبًا مهراقًا، وأصْلُ السَّفْحِ: إراقةُ الشَّيءِ[١].

﴿رِجْسٌ﴾: أي: قَذَرٌ مُنْتِنٌ، وأَصْلُ (رجس): يَدُلُّ على اختِلاطٍ، ومنه الرِّجْسُ: بمعنى القَذَر؛ لأنَّه لَطْخٌ وخَلْطٌ[٢].

﴿أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾: أي: ذُكِر عندَ ذبحِه غيرُ اسمِ الله، أو ما ذُبِحَ لغَيرِ الله؛ وإنَّما قيلَ ذلك؛ لأنَّه يُذكَرُ عند ذَبْحِه غيرُ اسْمِ اللهِ فيُظْهَرُ ذلك، أو يُرفَع الصوتُ به، والإهلالُ: رَفْعُ الصَّوتِ عند رُؤيَةِ الهِلالِ، ثمَّ استُعْمِلَ لكلِّ صَوتٍ، وأَهَلَّ بالحَجِّ، أي: رَفَعَ صَوْتَه بالتَّلبِيَةِ، وأَصْلُ (هلل): يدلُّ على رَفْعِ صَوْتٍ[٣].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢١١).

﴿اضْطُرَّ﴾: أُلجِئَ وأُحْوِجَ، وأصل الاضطرارِ: فِعلُ ما لا يَتهيَّأُ له الامتناعُ منه(١).

﴿غير بَاغٍ﴾: غيرَ طالبٍ ما ليْسَ له طَلَبُه(٢).

﴿وَلَا عَادٍ﴾: ولا ظالمٍ، والاعتداءُ: التَّجاوُزُ، ومُنافاةُ الالتئامِ(٣).

﴿الَّذِينَ هَادُوا﴾: أَي: اليهودُ، وَيُقَال: كَانَت الْيَهُودُ تُنْسَبُ إِلَى يهوذاء بن يَعْقُوب، ويُقال هَادَ فُلان: إذا تحرَّى طريقةَ اليَهُودِ في الدِّينِ(٤).

﴿الْحَوَايَا﴾: الحَوَايَا: جمع حَوِيَّة، وهي الأمعاءُ، وأصله من: حَوَيْتُ كذا حَيًّا وحَوَايَةً، وأَصْلُ (حوي): جَمَعَ(٥).

﴿بِبَغْيِهِمْ﴾: بتَجاوُزِهم الحقَّ إلى الباطِل، وأصل البَغي: طلبُ الشَّيءِ، وجِنسٌ من الفَسَادِ، والظُّلمُ، والترفُّع والعُلُوُّ، ومجاوزةُ المقْدار(٦).

مُشْكِلُ الإعْرابِ:

١- قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾

---

(١) يُنظر: ((التبيان)) لابن الهائم (١/ ١٠٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦٨).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١٣).

(٦) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥١ - ٢٥٢).

قَولُه ﴿أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً﴾ في محلِّ نصبٍ على الاستثناءِ بـ﴿إِلَّا﴾، وهذا الاستثناءُ مُنقَطِعٌ؛ لأنَّ المُستثنى كَوْنٌ مسبوكٌ من ﴿أَنْ يَكُونَ﴾ وليس مَيْتَةً، وذلك ليس مِن جِنْسِ الطَّعامِ، وقيل: هو استثناء متَّصِلٌ مِنْ عُمومِ الأكوانِ التي دلَّ عليها وقوعُ النَّكرةِ في سياقِ النَّفيِ؛ أي: لا أجِدُ كائنًا مُحَرَّمًا إلَّا الكائِنَ مَيتةً.

﴿فِسْقًا﴾ منصوبٌ على أنَّه مَعطوفٌ على ﴿لَحْمَ خِنْزِيرٍ﴾، وجُملةُ ﴿فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ اعتراضٌ بينَ المُتعاطِفَينِ، والتقديرُ: إلَّا أنْ يَكونَ لَحْمَ خِنزيرٍ - فإنَّه رِجسٌ- أو إلَّا أنْ يكونَ فِسقًا[1].

٢- قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ﴾

﴿ذلك﴾: اسمُ إشارةٍ مبنيٌّ، وفي مَحَلِّه ثلاثةُ أقوالٍ: أحَدُها: الرَّفعُ على أنَّه خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، أي: الأمرُ ذلك. الثاني: الرَّفْعُ على أنَّه مبتدأٌ، والخبرُ ما بعده، والعائِدُ محذوفٌ، أي: ذلك جَزَيْناهُمُوه. الثالث: النَّصْبُ على أنَّه مفعولٌ ثانٍ قُدِّمَ على عامِلِه؛ لأنَّ (جزى) يتعدَّى لاثنينِ، والتَّقديرُ: جزيناهم ذلكَ التحريمَ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم أن يقولَ لهؤلاءِ المُشركينَ الَّذين حَرَّموا ما رَزَقَهم اللهُ تعالى افتراءً عليه: إنَّه لا يجِدُ فيما أَوْحاه اللهُ تعالى إليه شَيئًا مُحَرَّمًا أَكْلُه- مِمَّا زَعَمُوا أنَّ اللهَ حَرَّمَه- إلَّا أنْ يكونَ مَيْتةً أو دمًا مَسفوحًا، أو لَحْمَ خِنْزيرٍ؛ فإنَّ هذه الأشياءَ الثَّلاثةَ خَبَث ونَجَسٌ مُستَقْذَر، وإلَّا أنْ يَكونَ

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٧٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٤٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ١٩٦-١٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٣٨)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٨/ ٣١١).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٧٧)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٤٧-٥٤٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٢٠٧).

مِمَّا ذُبِحَ لغَيرِ الله؛ فإنَّه خُروجٌ عن طاعَةِ اللهِ إلى مَعْصِيَته والكُفْرِ به، فمَنْ أَلْجَأَتْه الضَّرورةُ لأكْلِ إحدى هذه المُحَرَّماتِ، وهو غيرُ مريدٍ لِأكْلِها تلذُّذًا مِن غَيرِ اضْطرارٍ، ولا متجاوِزٍ ما أباحَه اللهُ منها، فهذا لا حَرَجَ عليه في الأكْلِ منها؛ فإنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ.

وأخبَرَ تعالى أنَّهُ حَرَّمَ على اليهودِ أكْلَ كُلِّ حيوانٍ مِن ذَوِي الأظْفارِ، وحَرَّمَ عليهم شُحُومَ البَقَرِ والغَنَمِ، إلَّا ما عَلِقَ بِظَهْرَيْهما من الشُّحومِ؛ فإنَّها مُباحَةٌ لهم، وتُباحُ لهم أيضًا الشُّحومُ التي تَحمِلُها الأمعاءُ، وما جرى مَجراها مِمَّا كان مُدَوَّرًا في البَطْنِ؛ كالمَصَارينِ ونحوها، وما اختَلَطَ مِنَ الشُّحومِ بالعِظامِ كشَحمِ الأَلْيةِ، ثم ذَكَرَ تعالى أنَّ ذلك التَّحريمَ والتَّضييقَ كان جزاءَ كُفْرِهم وظُلْمِهم، وأنَّه تعالى صادِقٌ في كُلِّ ما يقولُ ويفعلُ ويَحْكُمُ.

ثم خاطَبَ اللهُ تعالى نَبِيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم قائلًا له: إنْ كَذَّبُوك فَقُلْ لهم: إنَّ رَبَّهُم ذو رحمةٍ واسِعَةٍ لِمَن أطاعَه؛ فَلْيُسارِعوا إلى رَحْمَتِه بِفِعْلِ أَسْبابِها، كما أنَّ مِن رَحْمَتِه بهم إمهالَه لهم، وعدَمَ إعجالِهم بالعِقابِ، وأَمَرَه أن يقولَ لهم أيضًا: إنَّ سَطْوَتَه تعالى ونَكالَه وعَذَابَه لا يَرُدُّه شيءٌ عَنِ القَومِ المجْرمينَ.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ ﴾.

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ تعالى ذمَّ المشركينَ على ما حَرَّمُوا من الحلالِ، ونَسَبُوه إلى الله، وأبْطَلَ قَوْلَهم- أَمَرَ تعالى رَسُولَه أن يُبَيِّنَ للنَّاسِ ما حَرَّمَه اللهُ عليهم؛ ليَعْلَموا

أنَّ ما عدا ذلك حلالٌ؛ فمَنْ نَسَبَ تحريمَه إلى الله تعالى فهو كاذِبٌ مُبْطِلٌ؛ لأنَّ التَّحريمَ لا يكون إلَّا مِن عِند اللهِ على لِسانِ رسولِه، فقال[1]:

﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ ﴾.

أي: قل- يا مُحمَّد- لهؤلاءِ الَّذين حَرَّموا ما رَزَقَهم اللهُ افتراءً على اللهِ: لا أجِدُ فيما أَوْحاه اللهُ تعالى إليَّ شَيئًا مُحَرَّمًا على آكلٍ يأكُلُه مِمَّا تذكُرونَ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ حرَّمَه[2].

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((ماتَتْ شَاةٌ لِسَوْدَةَ بِنْتِ زَمْعَةَ، فقالت: يا رسولَ اللهِ، ماتَتْ فلانةُ؛ يعني: الشَّاةَ، فقال: فَلَوْلا أَخَذْتُم مَسْكَها[3]، فقالَتْ: نَأْخُذُ مَسْكَ شاةٍ قد ماتَتْ؟ فقال لها رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم: إنَّما قالَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ﴾ فإنَّكم لا تَطْعَمونَه؛ إنْ تَدْبُغوه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٧).

قال ابنُ كثيرٍ: (قيل: معناه: لا أَجِدُ شيئًا ممَّا حَرَّمتم حرامًا سوى هذه. وقيل: معناه: لا أَجِدُ من الحيوانات شيئًا حرامًا سوى هذه. فعلى هذا يكونُ ما ورد من التَّحريماتِ بعد هذا في سورة «المائدة»، وفي الأحاديثِ الواردة، رافعًا لمفهوم هذه الآية. ومن النَّاسِ من يسمِّي ذلك نَسْخًا، والأكثرون من المتأخِّرينَ لا يُسَمُّونَه نسخًا؛ لأنَّه من بابِ رَفْعِ مباحِ الأَصْلِ، والله أعلم) ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥٢). ويرى ابنُ تيميَّة أنَّها ليست منسوخةً. يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٦/ ٢٢٥).

وقال القرطبيُّ: (الآيَةُ مَكِّيَّةٌ، ولم يَكُنْ في الشَّريعة في ذلك الوَقْتِ مُحرَّمٌ غَيْرُ هذه الأشياءِ، ثُمَّ نزلَتْ سورةُ المائِدَةِ بالمدينةِ، وزِيد في المحرَّماتِ؛ كالمنخَنِقَة والموقُوذةِ والمترَدِّيَةِ والنَّطيحةِ والخمرِ وغيرِ ذلك، وحَرَّم رسولُ اللَّه صلَّى اللَّهُ عليه بالمدينةِ أكلَ كلِّ ذي نابٍ مِن السِّباعِ وكلِّ ذي مخلبٍ مِن الطَّير). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١١٥).

(٣) المَسكُ- بفتحِ المِيمِ-: الجِلْد؛ لأنَّه يُمسَكُ فيه الشَّيءُ إذا جُعِل سِقاءً. يُنظر: ((غريب الحديث)) للحربي (٢/ ٥٦٨)، ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ٣٣١).

فَتَنْتَفِعوا به، فأَرْسَلَت إليها فسَلَخَتْ مَسْكَها فدَبَغَتْه فأَخَذَتْ منه قِرْبَةً حتى تَخَرَّقَتْ عندها))(١).

﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ﴾.

أي: إلَّا أن يكونَ المطعومُ مَيْتَةً، قد ماتَتْ بغيرِ ذكاةٍ شَرعيَّةٍ، أو دَمًا مُنْصَبًّا مُسالًا، كالذي يخرُجُ من الذَّبيحةِ عند ذَكاتِها(٢)، أو إلاَّ أن يكونَ لَحْمَ خِنزيرٍ - ويدخُل فيه شَحْمُه بالإجماعِ - فإنَّ هذه الأشياءَ الثَّلاثةَ، خَبَثٌ ونَجَسٌ ونَتَنٌ مُستقْذَرٌ(٣).

﴿أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾.

أي: لا أجِدُ أيضًا فيما أَوْحاه اللهُ تعالى إليَّ شَيئًا مُحَرَّمًا أكلُه - إضافة إلى ما سبق من كونِه مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ - إلَّا أن يكونَ مَذْبوحًا ذُبِحَ لغَيرِ

---

(١) أخرجه أحمد (٣٠٢٧)، وأبو يعلى (٢٣٣٤)، والطحاوي في ((شرح معاني الآثار)) (٢٧١٣)، وابن حبان (١٢٨٠)، والطبراني (١١/ ٢٨٩) (١١٧٦٥).
صحَّح إسناده ابنُ جرير الطبري في ((مسند ابن عباس)) (٢/ ٧٩٩)، والنووي في ((المجموع)) (١/ ٢١٨)، وابن تيمية كما في ((نيل الأوطار)) للشوكاني (١/ ٧٧)، وصححه الذهبي في ((المهذب)) (١/ ٢٠)، وصحح إسناده ابن كثير في ((إرشاد الفقيه)) (١/ ٣٧٠)، وابن الملقن في ((البدر المنير)) (١/ ٥٨٣)، وأحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٥/ ١٣).
والحديث أخرجه البخاريُّ (٦٦٨٦) بنحوه مختصرًا دون ذكرِ الآية؛ من حديث سودةَ بنت زمعة رضي الله عنها.

(٢) قال الشنقيطيُّ: (الدمُ المسفوح: هو الذي صُبَّ من شيءٍ حي، كفصدِ عِرقِ الدابةِ، أو جَرحها فيسيلُ منها دَمٌ، أو هو الذي يَسِيلُ عِنْدَ التَّذْكِيَةِ، كأن تُذْبَح فيَسِيل من عروقِها، أو عندَ العَقرِ كأن يرمِيَها بالنَّبلِ، فيسيل الدَّمُ، هذا هو الدَّمُ المسفوحُ) ((العذب النمير)) (٢/ ٣٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (٢/ ٢١٧-٢١٨).
قال الشنقيطي: (واللهُ جلَّ وعلا كأنَّه علَّله، قال: ﴿إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ وقَدْ تَقَرَّر في الأصول، في مَسْلَكِ النَّصِّ، وفي مسلَكِ الإيماءِ والتَّنبيه: أنَّ الفاءَ مِن حُروفِ العِلَّةِ) ((العذب النمير)) (٢/ ٣٧٩).

اللهِ، فذُكِرَ عليه غيرُ اسْمِه سبحانه؛ فإنَّه خروجٌ عن طاعَةِ الله تعالى إلى مَعْصِيَته والكُفْرِ به(١).

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: فمَنْ ألجَأَته الضَّرورةُ إلى أكْلِ شَيءٍ مِن هذه المحَرَّماتِ الأربعةِ، بأنْ لم يكُنْ لَدَيه شَيءٌ حلالٌ يَطْعَمُه، وخاف على نَفْسِه الموتَ فأكَلَ منها، غيرَ مُريدٍ التلذُّذَ بأكلِها، ولا عادٍ في أكْلِها بتجاوُزِ ما أباحَه اللهُ له، فيأكُلُ بِقَدْرِ ما يَدْفَعُ عنه الهلاكَ، ولا يأكُلُ زيادةً عن حاجَتِه؛ فمَنْ كانت هذه حالَه فلا حَرَجَ عليه في الأكْلِ منها حِينَئذٍ؛ فإنَّ رَبَّكَ غفورٌ لِما فَعَلَ من ذلك، يتجاوَزُ عنه ويرفَعُ الإثمَ عنه، ويستُرُ عليه بتَرْكِه عُقوبَتَه على ذلك، ولو شاءَ لَعاقَبَه عليه، رحيمٌ بإباحَتِه أكْلَ ذلك عند الضَّرورةِ، ولو شاء لَحَرَّمه عليه(٢).

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾.

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ جلَّ وعلا أشياءَ حَرَّمَها على هذه الأُمَّةِ على لِسانِ نَبِيِّه صلَّى الله

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٣١-٦٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٣٧-١٣٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٥٧-٣٨٠).
وليس المقصودُ في الآيةِ حصرَ المحرَّمات في هذه الأربعةِ، وإنما المقصودُ منها الردُّ على مزاعمِ المشركين، وذلك أنَّ الكفَّار- كما قال الشافعيُّ- لَمَّا حرَّموا ما أحلَّ الله، وأحلُّوا ما حرَّمه اللهُ، وكانوا على المضادَّةِ والمحادَّةِ، جاءت الآيةُ مُناقضةً لغرضِهم، فكأنَّه قال سبحانَه: لا حلالَ إلا ما حرَّمتموه، ولا حرامَ إلا ما أحْلَلْتموه. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (١/ ١٠٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٣٧-٦٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٨٠-٣٨٣).

عليه وسلَّم، وكان قد حَرَّمَها عليهم لمصالِحَ مَعْلُومةٍ عنده جلَّ وعلا؛ بيَّنَ أنَّهُ حَرَّمَ على اليهودِ بَعْضَ الأشياءِ؛ مؤاخذةً لهم، وجزاءً لهم باجْتِرامِهم السَّيِّئاتِ(١).

وأيضًا لَمَّا كان قولُه تعالى: ﴿طَاعِمٍ﴾- نَكِرَة في سياقِ النَّفْيِ - يعُمُّ كُلَّ طاعِمٍ مِن أهْلِ شَرْعِنا وغَيْرِهم، وكان سبحانَه قد حَرَّمَ على اليهودِ أشياءَ غيرَ ما تَقَدَّم؛ فذَكَرَها هنا؛ مُبَيِّنًا لإحاطَةِ عِلْمِه، وتكذيبًا لليهودِ في قَوْلِهم: لَمْ يُحَرِّمِ اللهُ علينا شيئًا، إنَّما حَرَّمْنَا على أنفُسِنا ما حَرَّمَ إسرائيلُ على نَفْسِه(٢).

وقيل: إنَّ ذلك بيانٌ مِنَ اللهِ تعالى لِمَا حَرَّمَه على بني إسرائيلَ خاصَّةً- عقوبةً لهم لا على أنَّه مِنْ أُصُولِ شَرْعِه على ألسِنَةِ رُسُلِه قَبْلَهم أو بَعْدَهم- إلحاقًا بالمسْتَثْنى في الآيةِ السَّابِقَةِ بالعَطْفِ عليه، فإنَّه بعد نَفْيِه تعالى تحريمَ أيِّ طعامٍ على أيِّ طاعِمٍ، استثنى من هذا العامِّ ما حَرَّمَه تحريمًا عامًّا مُؤَبَّدًا على غيرِ المضْطَرِّ، ثم ما حرَّمَه تحريمًا عارِضًا على قومٍ مُعَيَّنِينَ لسببٍ خاصٍّ(٣).

وقيل: لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ التَّحريمَ إنَّما يَستَنِدُ للوَحْيِ الإلهيِّ، أخْبرَ أنَّه حَرَّمَ على بعضِ الأُمَمِ السَّابِقَةِ أشياءَ، كما حَرَّمَ على أهْلِ هذه المِلَّةِ أشياءَ مِمَّا ذكَرَها في الآيةِ قَبْلُ؛ فالتَّحريمُ إنَّما هو راجعٌ إلى الله تعالى في الأُمَمِ جَميعِها(٤)، فقال تعالى:

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾.

أي: وحرَّمْنا على اليهودِ أكْلَ كُلِّ حيوانٍ مِنْ ذَواتِ الأَظْفارِ (أي مِمَّا له ظُفُرٌ في أُصْبُعِه)، كالنَّعامة والبَعيرِ والإوَزِّ والبَطِّ(٥).

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٨٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٧٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٣٨، ٦٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٨٨-٣٨٩).

﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا﴾.

أي: وحَرَّمنا على اليهودِ شُحُومَ البَقَرِ والغَنَمِ(١).

عن جابرِ بنِ عبد اللهِ رضي الله عنه، أنَّهُ سَمِعَ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يقول عامَ الفَتْحِ، وهو بمكةَ: ((إنَّ اللهَ ورسولَه حرَّمَ بيعَ الخَمرِ والمَيْتةِ والخِنزيرِ والأَصْنامِ. فقيل: يا رسولَ اللهِ! أرأيتَ شُحُومَ المَيْتةِ؛ فإنَّهُ يُطْلَى بها السُّفُنُ، ويُدْهَنُ بها الجلودُ، ويَسْتَصْبِحُ بها الناسُ؟ فقال: لا؛ هو حرامٌ. ثم قال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم عند ذلك: قاتَلَ اللهُ اليهودَ؛ إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لَمَّا حرَّمَ عليهم شُحُومَها؛ أَجْمَلوهُ(٢) ثم باعوهُ، فأكَلُوا ثَمَنَه))(٣).

﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾.

أي: ما عدا ما عَلِقَ بِظَهْرِ البَقَرِ والغَنَم من الشُّحُومِ؛ فإنَّها مُباحةٌ لهم(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٨).

قال الشنقيطي: (التحقيقُ: أنَّ الشُّحومَ المحرَّمةَ عليهم مِن البَقَرِ والغَنَم مقصورةٌ على الثُّروب، وشحمِ الكُليتين.

والثُّروب: جمع ثَرْب؛ وهو الغِطَاءُ- الغِشَاءُ- من الشَّحْمِ الرَّقِيقِ الذي يغطي الجوفَ فيكون على الكَرِشِ والمصَارِين، هذا وشَحمُ الكُلَى هو الحرامُ عليهم، أمَّا غيره فيدخُلُ في الاستِثناءاتِ الآتية) ((العذب النمير)) (٢/ ٣٨٩).

وقال ابنُ عاشورٍ: (وقد أباح اللهُ لليَهودِ أكْلَ لُحومِ البَقَرِ والغَنَم، وحَرَّمَ عليهم شُحومَهما إلَّا ما كان في الظَّهرِ. و﴿الْحَوَايَا﴾ معطوفٌ على ﴿ظُهُورُهُمَا﴾، فالمقصودُ العَطفُ على المُباحِ، لا على المُحَرَّمِ؛ أي: أو ما حَمَلَتِ الحوايا، وهي جَمعُ حَوِيَّةٍ، وهي الأكياسُ الشَّحميَّةُ التي تحوي الأمعاءَ. ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ هو الشَّحمُ الذي يكونُ مُلتَفًّا على عَظمِ الحَيوانِ مِنَ السِّمَنِ، فهو مَعفُوٌّ عنه؛ لِعُسرِ تَجريدِه عن عَظمِه، والظَّاهِرُ أنَّ هذه الشُّحومَ كانت مُحرَّمةً عليهم بشريعةِ موسى عليه السَّلامُ) ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٤٢).

(٢) أَجْمَلوهُ: أي أذابُوه، والضَّميرُ راجعٌ إلى الشَّحْمِ المفهومِ من الشُّحومِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١١/ ٦)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٥/ ١٨٩٦).

(٣) رواه البخاري (٢٢٣٦)، ومسلم (١٥٨١) واللفظ له.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٤٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٨٩).

﴿ أَوِ ٱلْحَوَايَآ ﴾.

أي: أو ما حَمَلَتْه الحوايا وهي الأمعاءُ، وما جرى مَجْرَاها مِنْ كُلِّ ما كان مُدَوَّرًا في البَطْنِ كالمَصارينِ ونحو ذلك، فالمتَعَلِّقُ بهذا من الشَّحْمِ لا يَحْرُمُ عليهم أيضًا(١).

﴿ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ﴾.

أي: وما اختَلَطَ من الشُّحُومِ بالعِظامِ، كشَحْمِ الأَلْيةِ وغيرِه؛ حلالٌ لهم أيضًا(٢).

﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾.

أي: ذلك التَّضييقُ والتَّحريمُ على اليَهودِ إنَّما فَعَلْناه بهم عقوبةً لهم؛ بسبَبِ كُفْرِهم، وظُلْمِهم، ومُخالَفَتِهم أوامِرَنا، وتَعَدِّيهم في حقوقِ اللهِ، وحُقوقِ عبادِه، وإنَّا لَصادِقونَ في كُلِّ ما نقولُ ونفعَلُ ونَحْكُم به، ومن ذلك ما ذَكَرْنا مِن تَحْريمنا عليهم ما حَرَّمْنا، وما جَزَيْناهم به(٣).

كما قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا * وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٠-١٦١].

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٤٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٨٩-٣٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٩١).
وشحمُ الأَلْية داخلٌ فيما اختلط بعظم بالإجماع.
قال الواحديُّ: (﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ يعني: شحمَ الأليةِ في قول جميعِهم) ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٣٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥٥-٣٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٩١-٣٩٤).

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾.

أي: فإنْ كَذَّبَك- يا مُحمَّدُ- مخالِفُوكَ مِنَ المُشْركينَ واليهودِ، وتمرَّدوا؛ فَقُلْ لهم ترغيبًا وتَرْهيبًا وجَمْعًا بين الوَعْدِ والوَعيدِ: ربُّكم الذي أنشأَكُم وأوجَدَكُم، ذو رحمةٍ واسِعَةٍ لِمَن أطَاعَهُ، فيَرْحَمُه ويُدْخِلُه جَنَّته؛ فسارِعُوا إلى رَحْمَتِه بأسبابِها، التي رَأْسُها تصديقُ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم فيما جاءَ به، وقد رَحِمَكُم ربُّكم؛ حيثُ أَمْهَلَكم، ولم يُعاجِلْكم بعُقُوبَتِه، وأَغْدَقَ عليكم نِعَمَه، وأنتم تُكذِّبونَ رُسُلَه، وتتمَرَّدونَ عليه[1].

﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾.

أي: ولكِنْ سَطْوَتُه ونَكَالُه وعَذابُه، لا يَرُدُّه شَيءٌ عَنِ الَّذين اكتَسَبوا الذُّنوبَ العَظيمةَ، إذا أَحَلَّه عليهم؛ فاحذَرُوا الجرائِمَ الموصِلَةَ لعِقابِه، والتي أعْظَمُها ورَأْسُها تكذيبُ مُحَمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ[2].

الفَوائِد التربويَّة:

١- الظلمُ سببٌ للعُقوباتِ وتحريمِ بعضِ الطيِّباتِ، كما وقعَ لليهودِ، حيث قال سبحانه: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾ إلى قَوْلِه ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ﴾ فحَرَّم تعالى على اليَهودِ طائِفَةً من الطَّيِّباتِ، ولم يُحِلَّها لهم في حالٍ من الأحوالِ عقوبةً لهم، وفي ذلك أَتَمُّ تحذيرٍ لهذه الأُمَّةِ مِنْ أنْ يَبْغُوا؛ فيُعاقَبُوا كما عُوقِبَ مَن قَبْلَهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٠٣-٤٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٠٧-٤٠٩).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٢/ ٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٠٩).

٢- قال الله تعالى: ﴿فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ فقُلْ ربُّكم ذو رحمةٍ واسِعَةٍ بِمَنْ كان مؤمِنًا مِن عبادِه، وبِغَيْرِهم مِن خَلْقِه؛ فرَحْمَتُه تعالى تَسَعُ المُحْسِنَ والمُسِيءَ، وهو لا يَعْجَلُ على مَنِ استَحَقَّ العقابَ؛ حِلْمًا منه ورحمةً؛ فإنَّ بعضَهم قد يتُوبُ إلى الله تعالى. ولكِنَّ بأسَهُ شديدٌ لا يَرُدُّه عن المُجْرمينَ إلَّا حِلْمُه، وما قَدَّرَه مِن إمْهالِهم إلى أجَلٍ مَرْسومٍ؛ وهذا القَوْلُ فيه مِنَ الإطْماعِ في الرَّحمةِ بِقَدْرِ ما فيه مِنَ الإرْهابِ بالبَأْسِ، واللهُ الذي خَلَقَ قُلوبَ البَشَرِ يُخاطِبُها بهذا وذاك؛ لعَلَّها تهتَزُّ وتتلَقَّى وتستجيبُ(١).

٣- ينبغي ألَّا يغتَرَّ أحدٌ في سُوءِ أعمالِه وتحقيقِ ضَلالِه، بإمهالِ اللهِ تعالى له؛ يُرْشِدُنا إلى ذلك قولُ الله تعالى: ﴿فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾، فلمَّا أخبَرَ عن رحْمَتِه، نوَّهَ بعظيمِ سَطْوَتِه(٢).

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ﴾ استُدِلَّ بهذه الآيةِ على أنَّه إنَّما حُرِّمَ مِنَ المَيْتَةِ أكْلُها، وأنَّ جِلْدَها يَطْهُرُ بالدِّباغِ(٣).

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً﴾ ظاهِرُ الآية- مع عَطْفِ ما حَرَّمَ على بني إسرائيلَ عليها- أنَّ حَصْرَ مُحَرَّماتِ الأطعِمَةِ في الأنواعِ الأربعةِ أَصْلٌ من أصولِ شَرائِعِ جَميعِ رُسُلِ اللهِ تعالى(٤).

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٢٢٦).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣١٠).
(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٢٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٣١).

٣- تقييدُ الدَّمِ بـ (المَسْفُوح) للتَّنبيهِ على العَفْوِ عن الدَّمِ الذي يَنِزُّ مِنْ عُرُوقِ اللَّحْمِ عند طبْخِهِ؛ فإنَّه لا يُمْكِنُ الاحترازُ عنه[1].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾، لم يَقُلْ: (أو خِنْزيرًا)؛ لِيُفيدَ تحريمَ لَحْمِه على كلِّ حالٍ سواءٌ ذُبِحَ أم لا، ولو قيل: (أو خِنزيرًا) لاحتمَلَ أنْ يُرادَ تحريمُ ما أُخِذَ منه حيًّا فقط[2].

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ لَمَّا ذَكَرَ المحَرَّم لِعَيْنِه، ذَكَرَ المحَرَّم لعارِضٍ، فقال مبالغًا في النَّفْيِ عنه:﴿أَوْ فِسْقًا﴾، وهو ما ذُبِحَ لغَير اللهِ، وسَمَّاه اللهُ (فِسْقًا)، فجَعَلَه كأنَّه بِعَيْنِه هو عينُ الفِسْقِ الذي وَقَعَ النَّهيُ لأجْلِه؛ وذلك لتَوَغُّلِه في الفِسْقِ[3].

٦- قوله: ﴿أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ﴾ صفةٌ أو بيانٌ لـ﴿فِسْقًا﴾، وفي هذا تنبيهٌ على أنَّ تحريمَ ما أُهِلَّ لغَيرِ اللهِ به ليس لأنَّ لَحْمَه مُضِرٌّ؛ بل لأنَّ ذلك كُفْرٌ باللهِ[4].

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ بُنِيَ للمَفعولِ؛ لأنَّ المعْتَبَر حصولُ الاضطرارِ، لا كَوْنُه مِن مُعَيَّنٍ[5].

٨- أُخِذَ مِنَ التَّعبيرِ بالاضطرارِ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ حُرْمَةُ ما زادَ على سَدِّ الرَّمَقِ؛ لأنَّه حِينئذٍ لا يكونُ مُضْطَرًّا[6].

٩- قولُ الله تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٣٨).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٩٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق))، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٧٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٣٩).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٢٩٩).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فيه رحمةُ اللهِ تعالى بهذه الأُمَّةِ؛ حيث أَحَلَّ لها الخبائِثَ عند الضَّرورةِ رحمةً بها، وأزال عنها في تلك الحالَةِ ضُرَّها(١).

١٠- في قَوْلِه تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا...﴾لم يَذْكُرِ اللهُ تحريمَ لَحْمِ الخِنزيرِ، مع أنَّه مِمَّا شَمِلَه نصُّ التَّوراةِ؛ لأنَّه إنَّما ذَكَرَ هنا ما خُصُّوا بتحريمِه مِمَّا لم يُحَرَّمْ في الإسلامِ، أي: ما كان تحريمُه مُوَقَّتًا(٢).

١١- في قولِه: ﴿حَرَّمْنَا﴾ تكذيبُ اليَهودِ في قولِهم: إنَّ اللهَ لمْ يُحَرِّمْ علينا شيئًا، وإنَّما حَرَّمْنا على أنفُسِنا ما حَرَّمَه إسرائيلُ على نَفْسِه(٣).

١٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾ استدلَّ به الشَّافعيُّ على أنَّ مَن حَلفَ لا يأكُلُ الشَّحْمَ، حنَث بأكلِ ما على الظَّهْرِ؛ لأنَّه تعالى استثناه من جُملةِ الشُّحومِ(٤).

١٣- في قولِ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ذُكِرَ في الجوابِ سَعَةُ رَحْمَتِه تعالى، مع أنَّ المَحَلَّ مَحَلُّ عقوبةٍ؛ وذلك لمناسبةٍ حسنةٍ؛ أن يكونَ ذلك نفيًا للاغترارِ بِسَعَةِ رَحْمَتِه في الاجتراءِ على مَعْصِيَتِه، وذلك أبلَغُ في التهديدِ؛ فمعناه: لا تغْتَرُّوا بسَعَةِ رَحْمَتِه، فإنَّه مع ذلك لا يُرَدُّ عذابُه عنكم(٥).

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٠٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٤٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٧٦).
(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٢٣).
(٥) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:١٧٩).

مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ نشَأَ عن إبطالِ تحريمِ ما حَرَّمَه المشركونَ؛ إذ يتوجَّهُ سؤالُ سائلٍ مِنَ المسلمينَ عن المحَرَّماتِ الثَّابتةِ؛ إذ أُبْطِلَتِ المُحَرَّماتُ الباطِلَةُ[(١)].

- وفيه: مبالغةٌ في بيانِ انحصارِها في ذلك المذكورِ[(٢)].

٢- تقديمُ المجرورِ على متعلَّقِه في قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا﴾ لإفادةِ الاختصاصِ؛ أي: عليهم لا على غَيرِهم من الأُمَم[(٣)].

٣- قوله: ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا﴾ الإضافةُ في قوله: ﴿شُحُومَهُمَا﴾ تدلُّ على تأكيدِ التَّخصيصِ والرَّبْطِ[(٤)].

- وتقديمُ المجرورِ على عامِلِه في قوله: ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ﴾ للاهتمامِ ببيانِ ذلك[(٥)]، ولبيانِ الحَصْرِ، فالمعنى: ومِنَ البَقَرِ والغَنَمِ- دون غَيْرِهما- حَرَّمْنا عليهم ما ذُكِرَ[(٦)].

٤- قوله: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ﴾ تذييلٌ يُبيِّنُ علَّةَ تحريمِ ما حُرِّمَ عليهم[(٧)].

٥- قوله: ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ تذييلٌ للجملةِ التي قبلها؛ قصدًا لتحقيقِ أنَّ اللهَ حَرَّمَ عليهم ذلك[(٨)]، وفيه: إخبارٌ يتضَمَّنُ التَّعريضَ بِكَذِبِهم في قولِهم: ما حَرَّمَ اللهُ علينا شَيئًا، وإنَّما اقتدَيْنا بإسرائيلَ فيما حَرَّمَ على نَفْسِه، ويتضَمَّنُ إدحاضَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٣٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٩٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٤٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٧٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٤٣).
(٦) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٥٢).
(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٤٣).
(٨) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ١٤٤).

قَوْلِهم، ورَدَّه عليهم[١].

٦- قوله: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ تفريعٌ على الكلامِ السَّابقِ الذي أبطَلَ تحريمَ ما حَرَّموه، ابتداءً مِن قوله: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ...﴾ الآيات[٢].

- وفي قوله: ﴿فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ تنبيهٌ لهم بأنَّ تأخيرَ العذابِ عنهم هو إمهالٌ داخِلٌ في رَحمةِ اللهِ رحمةً مُؤَقَّتةً؛ لعلَّهم يُسلِمونَ. وعليه يكون معنى فِعْلِ: ﴿كَذَّبُوكَ﴾ الاستمرارَ؛ أي: إنِ اسْتَمَرُّوا على التَّكذيبِ بعد هذه الحُجَجِ[٣].

- وأَتَتْ جُملةُ: ﴿رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ اسميَّةً، وجملة ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ فعليَّةً؛ تنبيهًا على مبالغةِ سَعَةِ الرَّحمةِ؛ لأنَّ الجملةَ الاسميَّة أدَلُّ على الثُّبوتِ والتَّوكيدِ مِنَ الفِعْليةِ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٨٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٤٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ١٤٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٨/ ٤٩٦).

الآيات (١٤٨-١٥٠)

﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿الْحُجَّةُ البَالِغةُ﴾: الحجةُ: البُرهانُ والسُّلطانُ، والدَّلالةُ المُبيِّنةُ للمَحجَّة، والبالِغةُ: هي التي تبلغُ مرادَه في ثبوتِها على مَنْ احتجَّ بها عليه مِن خلقِه، وقطعِ عذرِه إذا انتهَتْ إليه، وأَصْلُ (حجج) يدلُّ على القَصْدِ؛ ومنه اشتُقَّت الحُجَّة؛ لأنَّها تُقْصَد، أو بها يُقْصَد الحقُّ المطلوبُ. وأَصْلُ (بلغ): الوُصولُ إلى الشَّيءِ[1].

﴿هَلُمَّ﴾ أَي: أقبِلْ، وهَلُمَّ دعاءٌ إلى الشَّيءِ، وقيل أَصْلُهَا: (هَلْ أَؤُمُّ)، كلامُ مَن يُريدُ إتيانَ الطَّعامِ، ثم كَثُرَتْ حتى تكَلَّم بها الدَّاعي، وتُستعمَلُ لازِمةً؛ نحو: هَلُمَّ إلَينا، أي: أَقبِلْ، ومتعَدِّيةً؛ نحو: هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمْ، أي: أَحْضِرُوهُمْ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يخبِرُ تعالى أنَّ الَّذين أشْرَكوا سيقولونَ: لو أرادَ اللهُ، ما وَقَعَ منَّا ولا مِن آبائِنا

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠١) و(٢/ ٢٩- ٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٤)، ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٦٤٠).

الشِّرْكُ، ولا حَرَّمْنا مِن شيءٍ، فلَمَّا لم يَفعَلْ دَلَّ ذلك على رِضاه بذلك، ثم بَيَّنَ تعالى أنَّ هؤلاءِ المشركينَ كَذَّبوا بنفْسِ الطَّريقةِ التي كَذَّب بها الَّذين مِن قَبْلِهم، والَّذين لم يَزَلِ التَّكذيبُ دَأْبَهم؛ حتى ذاقُوا بأْسَ الله، ثم أمَرَ اللهُ نَبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم أن يسأَلَ هؤلاءِ المُشركينَ: هل عِندَهم مِن عِلْمٍ يقينيٍّ بأنَّ اللهَ راضٍ عنهم؛ فلْيُظْهِروه ولْيُبيِّنوه، ولْيَقُلْ لهم إنَّهم لا يَتَّبِعون إلَّا مُجَرَّدَ ظُنونٍ، وإنْ هم إلَّا يتَقَوَّلونَ على اللهِ الباطِلَ، ويَكْذِبونَ عليه فيما يَدَّعونَه. ولْيَقُلْ لهم: إنَّ للهِ الحُجَّةَ القاطِعَةَ؛ فلو أرادَ لهَداهُم أجمعينَ. ولْيَطْلُبْ منهم أن يُحْضِروا شُهداءَهم الَّذين يَشْهَدونَ أنَّ اللهَ حَرَّمَ عليهم هذا الذي حَرَّموه؛ افتراءً على الله، ونهاه تعالى أن يَشْهَدَ معهم إنْ شَهِدوا، كما نهاه أن يَتَّبِعَ أهواءَ الَّذين كذَّبُوا بآياتِ اللهِ، وكَفَروا باليومِ الآخِرِ، وهم مع ذلك يُشْرِكونَ باللهِ تعالى.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا حَكى اللهُ تعالى عن أهْلِ الجاهليَّةِ إقدامَهم على الحُكْمِ في دِينِه بغيرِ حُجَّةٍ ولا دليلٍ؛ حكى سبحانه شُبْهَةً يقولونَها؛ اعتذارًا عن كُلِّ ما يُقْدِمونَ عليه مِنَ الكُفْرِيَّاتِ، ثم أبْطَلَها فقال(١):

﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖ ﴾.

أي: سيقولُ المُشركونَ- احتجاجًا بالقَضاءِ والقَدَرِ على عَدَمِ إذْعانِهم للحَقِّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٧٢، ١٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣١٠).

لَمَّا تَبيَّنَ لهم-: لو أرادَ اللهُ- المطَّلِعُ على ما نحْنُ عليه مِنَ الشِّرْك، والتَّحريم لِمَا حَرَّمناه- أن نُؤْمِنَ به ونُفْرِدَه بالعبادَةِ، وأن نُحلِّل ما حَرَّمْنا؛ لفَعَلَ، ولَمَا جعَلْنا له شريكًا، ولا آباؤُنا مِن قبلِنا، ولا حرَّمنا ما نحرِّمُه مِن هذه الأشياءِ التي نحن على تحريمِها مقيمونَ؛ لأنَّه قادِرٌ على أنْ يُلهِمَنا الإيمانَ، أو يَحُولَ بَيننا وبين الكُفْرِ والعِصيانِ، فلمَّا لم يفعَلْ دَلَّ على رضاه بما نحن عليه مُقيمونَ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ * وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف: ١٩-٢٠].

﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا﴾.

أي: كما كذَّب هؤلاءِ المشركونَ ما جئتَهم به- يا محمَّدُ- مِن عِنْد اللهِ؛ مِنَ النَّهْيِ عن عبادَةِ شيءٍ غيرِ الله تعالى، وتحريمِ غيرِ ما حرَّم اللهُ سبحانه؛ كذلك كذَّب مَن قَبْلَهم مِنَ فسقةِ الأُمَمِ الماضِيَةِ ما جاءَتْهم به أنبياؤُهم مِن آياتِ اللهِ، وواضحِ حُجَجِه، ولم يَزَلْ هذا التَّكذيبُ دَأْبَهم حتى أحْلَلْنا بهم عقابَنا، فذاقوا طَعْمَ ألمِ العذابِ والنَّكالِ(٢).

﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٤٩-٦٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥٧-٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٥٤٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٥٠-٦٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٢٨-٤٢٩).

أي: قُلْ- يا محمَّد- لهؤلاءِ المشركينَ: هل عِندَكم مِن علْمٍ وبرهانٍ يقينيٍّ بأنَّ الله تعالى راضٍ عنكم فيما أنتم فيه؛ فتُظْهِروه وتبيِّنوه لنا[(١)]؟

﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾.

أي: قلْ لهم- يا مُحمَّدُ: ما أنتم في ذلك كُلِّه إلَّا تتقوَّلونَ على اللهِ تعالى الباطِلَ، وتَكْذِبونَ عليه فيما ادَّعَيْتُموه وَفْقًا لظُنونٍ منكم، بغيرِ عِلمٍ، ولا بُرهانٍ يقينيٍّ[(٢)].

﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾.

﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾.

أي: قل- يا مُحمَّدُ- لهؤلاء المُشركينَ: فللَّهِ وَحْدَه الحُجَّةُ القاطِعَةُ التي تُظْهِرُ الحَقَّ، وتقطَعُ العُذْرَ؛ فلا تُبقِي لأحدٍ منهم عُذرًا[(٣)].

﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

أي: فلو شاءَ اللهُ تعالى هدايَتكم لوَفَّقكم أجمعينَ لاتِّباعِ الحَقِّ، ولكِنَّه لم يَشَأْ ذلك، فخالَفَ بين خَلْقِه؛ فمنهم كافرٌ، ومنهم مؤمِنٌ[(٤)].

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ [الأنعام: ٣٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٢٩-٤٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٨-٢٧٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٣٠-٤٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٥٢-٦٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٣٦-٤٣٧).

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]

﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١٥٠)﴾.

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أبطَلَ اللهُ تعالى على الكُفَّارِ جميعَ أنواعِ حُجَجِهم؛ بَيَّنَ أنَّه ليس لهم على قَوْلِهم شهودٌ البَتَّةَ(١)، فقال تعالى:

﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾.

أي: قل- يا مُحمَّدُ- لهؤلاءِ المفْترينَ على ربِّهم، الزَّاعمينَ أنَّ اللهَ حَرَّمَ عليهم ما هم مُحَرِّموه: أحْضِروا شُهَداءَكم الَّذين يَشْهَدون على اللهِ أنَّه حَرَّمَ عليكم هذا الذي حَرَّمتُموه، وافترَيْتم فيه على اللهِ عزَّ وجلَّ(٢).

﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾.

أي: فإنْ جاؤُوك- يا مُحمَّد- بِشُهَداءَ يَشْهَدون أنَّ الله حَرَّمَ ما يَزْعُمونَ أنَّ اللهَ حَرَّمَه عليهم؛ فلا تَشْهَدْ معهم؛ لأنَّهم كَذَبةٌ فَجَرةٌ، وشُهودُ زورٍ في شَهادَتِهم(٣).

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٣٩).

أي: ولا تتَّبِعْ أهواءَ هؤلاءِ القَوْمِ الَّذين كذَّبوا بوَحْيِ الله تعالى وتَنْزِيلِه في تحريمِ ما حَرَّمَ، وتحليلِ ما أحَلَّ، وكَفَروا باليومِ الآخِرِ، وهُم بالإضافةِ إلى ذلك يُشْرِكون به، فيَجْعلونَ له عديلًا ونظيرًا يُساوونَه به[1].

الفَوائِد التربويَّة:

١- على العبدِ أن يَتْبَعَ أمْرَ اللهِ تعالى، وليس له أن يتعَلَّقَ بمشيئَتِه؛ فإنَّ مَشيئَتَه لا تكون عُذرًا لأحدٍ؛ يُرْشِدُ إلى ذلك قولُه تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾[2].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ فيه المُطالَبَةُ بالعِلْمِ، والذَّمُّ لِمَن يَتَّبِعُ الظَّنَّ، وما عنده عِلْمٌ؛ إذِ الظَّنُّ حَزْرٌ وتَخمينٌ، لا يُمكِنُ أن يستَقِرَّ عنده الحُكْمُ[3].

٣- الإيمانُ بالآخرةِ- دارِ الجزاءِ- مانِعٌ مِنَ الاجتراءِ على الفُجُورِ؛ يُرْشِدُ إلى ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾[4].

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٥٤-١٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٣٩-٤٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٥٧).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ١٥٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٥٦).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣١٥)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٥٧).

﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، فيه ردٌّ على من احتَجَّ على تعطيلِ الأَمْرِ والنَّهْيِ بالقَدَرِ(١).

٢- قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ مِنْ مُعْجِزاتِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لأنَّه أَخْبَرَ فيها عن أمرٍ غَيْبٍ، سيقولونَه في المستقبَلِ، ثم تحقَّقَ ذلك الغيبُ، ووَقَعَ كما قال، وطِبقًا لِمَا ذُكِرَ؛ وقد بيَّنه في (النحل) و (الزخرف)؛ حيث قال في (النحل): ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ [النحل: الآية ٣٥] وقال في (الزخرف): ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاء الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ [الزخرف: الآية ٢٠] فتحَقَّقَ ما قال أنَّهم سيقُولونَه(٢).

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ لَمَّا وَصَفَهم بالتَّكذيبِ، أَتْبَعَه الوَصْفَ بعَدَمِ الإيمانِ، ودَلَّ بالنَّسَقِ بالواوِ على العَراقَةِ في كُلٍّ مِنَ الوَصْفينِ(٣).

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لو شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكنَا وَلَا آبَاؤُنا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ استئنافٌ رَجَعَ به الكلامُ إلى مجادَلَةِ المُشركينَ بَعْدَ أن اعتَرَضَ بِقَوْلِه: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(٤)، وفيه: إظهارٌ في مقامِ الإضمارِ؛ حيث قال: ﴿الَّذين أشركوا﴾

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ١١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٤٨).
(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٠٩).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣١٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٤٦).

لزيادَةِ تفظيعِ أقوالِهم[١]. وتنصيصًا عليهم، وتبكيتًا لهم[٢].

- وقد قال هنا ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لو شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكنَا وَلَا آبَاؤُنا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾، وقال في النحل: ﴿لَو شَاءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شيءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيء﴾ فكَرَّرَ ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ مرَّتينِ، مع زيادةِ ﴿نَحْنُ﴾؛ لأنَّ الإشراك يدلُّ على إثباتِ شريكٍ لا يجوز إثباتُه، وعلى تحريمِ أشياءَ مِن دون الله، فلم يحتَجْ إلى ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ فحُذِفَ، وتبعَهُ في الحذفِ ﴿نَحْنُ﴾ طردًا للتَّخفيفِ. بخلافِ العبادةِ؛ فإنَّها غيرُ مستنكَرةٍ، وإنَّما المستنكَرُ عبادةُ شيءٍ مع اللهِ، ولا يدلُّ لفظُها على تحريمِ شَيْءٍ، كما دلَّ عليه «أَشْرَك» فلم يكنْ بُدٌّ مِن تقييدِه بِقَوْلِه: ﴿مِنْ دُونِهِ﴾، وناسَبَ استيفاءُ الكلامِ فيه زيادةَ «نحنُ» وظاهرٌ أنَّ زيادةَ ذِكْرِ التَّحريمِ في آية ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكْنَا﴾ تصريحٌ بما أفادَه لفظُ «أَشْرَكْنا»[٣].

٢- قوله: ﴿حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ إضافةُ البَأْسِ إلى ضميرِ الله تعالى؛ لتَعْظِيمه وتَهويلِه[٤].

٣- الاستفهامُ في قَوْلِه: ﴿هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ﴾ على معنى التهَكُّمِ بهم، وهو إنكارٌ؛ أي: ليس عِنْدَكم مِن عِلْمٍ تَحْتَجُّونَ به فتُظْهِرونَه لنا، ما تَتَّبعونَ في دعاواكم إلَّا الظَّنَّ الكاذِبَ الفاسِدَ[٥]، فأظْهَرَ لهم مِنَ القَوْلِ ما يُظْهِرُه المُعجَب بِكَلامِهم. وقرينةُ التهكُّمِ باديَةٌ؛ لأنَّه لا يُظَنُّ بالرَّسولِ عليه الصَّلاة والسَّلام والمؤمنينَ أن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣١٠).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ١٧٩-١٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٤٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٨٢).

يَطْلُبوا العِلْمَ مِنَ المشركينَ، كيف وهو يصارِحُهم بالتَّجهيلِ والتَّضليلِ صَباحَ مَسَاءَ[(١)]؟!

٤- قوله: ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ جملةٌ مُستأنَفَةٌ؛ لأنَّها ابتداءُ كلامٍ بإضرابٍ عَنِ الكَلامِ الذي قَبْلَه، فبَعْدَ أنْ تَهَكَّم بهم؛ جَدَّ في جوابِهم، فقال: ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾[(٢)].

٥- قوله: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ...﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ للانتقالِ مِن طَريقَةِ الجَدَلِ والمناظَرَةِ في إبطالِ زَعْمِهم، إلى إِبْطالِه بطريقةِ التَّبيينِ[(٣)].

- قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾ إضافَةُ الشُّهَداءِ إليهم تدُلُّ على أنَّهم غيرُهم، وهذا أمْرٌ على سبيلِ التَّعجيزِ، أي: لا يُوجَدُ مَن يَشْهَدُ بذلك شهادَةَ حَقٍّ؛ لأنَّها دَعْوى كاذِبَةٌ[(٤)]، وإضافَةُ الشُّهَداءِ إليهم ووَصْفُهم بـ(الَّذين) دليلٌ على أنَّهم مَعروفونَ مَوْسومونَ بنُصْرَةِ مَذْهَبِهم بالباطِلِ، ولو قال: (شُهَداء) من غيرِ إضافةٍ، لأَفْهَمَ أنَّ المَطْلوبَ مَنْ يَشْهَدُ بالحَقِّ، وليس كذلك؛ لأنَّه أُقِيمَ الدَّليلُ العَقليُّ على أنَّه لا حُجَّةَ لهم، وأنَّ الحُجَّةَ لله على خِلافِ ما ادَّعَوْه؛ فبَطَلَ قَطْعًا أنْ يكونَ أحَدٌ يَشْهَدُ على ذلك بِحَقٍّ[(٥)].

٦- قوله: ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ فيه: كِنَايَةٌ عن تَكذيبِهم؛ لأنَّ الذي يُصَدِّقُ أحدًا يُوافِقُه في قَوْلِه، فاستُعْمِلَ النَّهيُ عن موافَقَتِهم في لازِمِه، وهو التَّكذيبُ[(٦)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٥٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ١٥٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٨٣).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣١٤).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٥٤).

٧- قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ وُضِعَ المُظْهَر مَوْضِعَ المُضْمَرِ؛ إذ لم يقُلْ: (ولا تتَّبِعْ أهواءَهم)؛ تعميمًا، وتعليقًا للحكمِ بالوصفِ، وللدَّلالةِ على أنَّ مُكَذِّبَ الآياتِ مُتَّبِعٌ الهَوى لا غيرُ، وأنَّ مُتَّبِعَ الحُجَّةِ لا يكون إلَّا مُصَدِّقًا بها[1].

٨- قوله: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ فيه: تقديمُ المجرورِ على المبتدأِ ﴿الْحُجَّةُ﴾؛ لإفادةِ الاختصاصِ؛ أي: للهِ لا لكم، ففُهِمَ منه أنَّ حُجَّتَهم داحِضَةٌ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٥١).

الآيات (١٥١-١٥٣)

﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ
إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا
الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ
ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ
يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا
قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ
تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ
عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿إِمْلَاقٍ﴾: فَقْرٍ وجُوعٍ، وأصلُ الإمْلاقِ: إتلَافُ المَالِ حَتَّى يُحْوِجَ؛ يُقال: أَمْلَقَ الرَّجُلُ، فهو مُملِق: إذا افتقَر، وقيل: اشتقاقُه مِن (المَلَقات)، وهي الحجارةُ العِظامُ الملسُ السُّود، وأملق: لم يبقَ تحتَ يدِه إلَّا الجبالُ والصُّخورُ العظامُ التي لا يَقدِرُ أن يحصِّلَ منها شيئًا، وأصلُ (ملق) يَدُلُّ على تَجَرُّدٍ في الشَّيءِ ولِينٍ[1].

﴿الْفَوَاحِشَ﴾: جمعُ فاحِشَةٍ: وهي الفعْلَةُ المتناهِيَةُ في القُبْحِ والشَّناعَةِ، والفَحْشاءُ: ما عظُم قُبْحُه وفَحُشَ؛ مِن الأفعالِ والأقوالِ، وأصلُ الفُحْشِ: كلُّ شيءٍ مُستقْبَح ومُسْتَشْنَع؛ من قولٍ أو فِعْلٍ[2].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٥١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٨٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٦٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٣٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٣٨- ٦٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٠١).

﴿يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾: أي: يتناهَى في الثَّبَاتِ إلى حدِّ الرِّجالِ، أو يبلغُ مُنْتَهى شَبابه وقُوَّتِه، والأَشُدُّ قيل: جمعٌ لا واحدَ له، وقيل: مفردُه شَدٌّ، وأَصْلُ (شدد): يدلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ(١).

﴿وُسْعَهَا﴾: أي: طاقَتَها وقُدْرَتَها؛ فالوُسْعُ: الجِدَةُ وَالطَّاقةُ، وأَصْلُ (وسع): يدلُّ على خِلافِ الضِّيقِ والعُسْرِ(٢).

مُشْكِلُ الإعرابِ:

١- قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا...﴾

﴿ما﴾: موصولةٌ بمعنى الذي في محلِّ نصبٍ؛ مفعولٌ به، والعائِدُ محذوفٌ؛ أي: الذي حرَّمَه. و﴿عَلَيْكُمْ﴾ من بابِ التَّنازُعِ؛ فيجوز أن تتعلَّقَ بـ﴿حَرَّمَ﴾، أو بـ﴿أَتْلُ﴾.

﴿أَلَّا تُشْرِكُوا﴾: فيه أوجُهٌ؛ الأول: أنَّ (أنْ) في قوله ﴿أَلَّا﴾ تَفْسيريَّة؛ لأنَّه تقدَّمها ما هو بمعنى القَوْلِ دون حُرُوفِه، وهو ﴿أَتْلُ﴾ و(لا) ناهِيَةٌ، و﴿تُشْرِكُوا﴾ مجزومٌ بها. الثاني: أنْ تكونَ (أنْ) مصدريَّةً ناصِبَةً للفعلِ بعدَها، وهي وما في حيِّزها في محلِّ نَصْبٍ؛ بدَلٌ مِن ﴿مَا﴾، أو مِنَ العائِدِ المحذوف في ﴿حَرَّمَ﴾؛ إذ التقدير: ما حَرَّمَه، و(لا) على هذين الوجهينِ زائدةٌ؛ لئَلَّا يَفْسُدَ المعنى. الثالث: أنْ تكونَ (أن) النَّاصِبَةَ وما في حيِّزِها منصوبةً على الإغراءِ بـ﴿عَلَيْكُمْ﴾، و (لا) نافِيَة، ويكون الكلامُ الأوَّلُ قد تمَّ عند قَوْلِه: ﴿رَبُّكُمْ﴾، ثم ابتدَأَ فقال: عليكم ألَّا تُشركوا، أي: الْزَموا ترْكَ الشِّرْكِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٨٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٠).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٧٧)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري =

٢- قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي﴾: (أنَّ) واسمُها وخَبَرُها مصدرٌ مُؤوَّلٌ في مَحلِّ نصبٍ أو جَرٍّ على تَقديرِ لامِ لِلعِلَّةِ محذوفةٍ مُتعلِّقةٍ بالفعل ﴿اتَّبِعُوهُ﴾؛ أي: ولأجْلِ استقامَتِه فاتَّبِعوه، كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، أي: ولِأَنَّ المساجِدَ للهِ فلا تَدْعُوا مع اللهِ أحدًا، ويُقوِّي هذا الوجهَ قراءةُ: ﴿وَإِنَّ هَذَا﴾ بِكَسْرِ الهَمزةِ على الاستئنافِ المفيد للتَّعليلِ. وقيل: إنَّ المَصْدَر المؤوَّل في محلِّ نصبٍ بالعَطْفِ على ﴿مَا﴾ في قَوْلِه: ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ﴾، أي: أتْلُ ما حَرَّمَ، وأَتْلُ أنَّ هذا صِرَاطي. وقيل غيرُ ذلك[1].

المعنى الإجماليُّ:

أَمَرَ اللهُ نَبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم أن يَطْلُبَ من هؤلاءِ المُشركينَ أن يُقبِلُوا إليه؛ ليُخْبِرَهم بما حَرَّمَه اللهُ عليهم يقينًا، وليس ظنًّا كقَوْلِهم على اللهِ الكَذِبَ، أَوْصاهم ألَّا يُشْرِكوا به شيئًا، وأنْ يُحْسِنُوا إلى الوالِدَينِ، وألَّا يَقتُلوا أولادَهم بسبَبِ الفَقْرِ؛ فإنَّ اللهَ هو من يَرْزُقُهم ويرزُقُ أَوْلادَهم، ونهاهم عَنْ قِربانِ الفَواحِشِ ما كان منها علانِيَةً أو كان سِرًّا، وألَّا يَقْتُلوا النَّفْسَ التي حَرَّمَ اللهُ عليهم قَتْلَها إلَّا بالطَّريقِ الحَقِّ الموجِبِ لقَتْلِها شَرْعًا، ذلك وصَّاهم به اللهُ تعالى؛ لعَلَّهُم يَعْقِلونَ.

ونَهاهم سُبحانَه وتَعالى عن قِرْبانِ مالِ اليَتيمِ إلَّا بِما يكونُ أَصْلَحَ له، حَتَّى يبْلُغَ أَشُدَّه فيَدْفعُوا له مالَه، وأَمَرَهم بإيفاءِ الكَيْلِ والميزانِ بالعَدْلِ، لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إلَّا وُسْعَها، وأَمَرَهم تعالى بالعَدْلِ في القَوْلِ، ولو كان على ذي قَرابَةٍ، وأن

= (١/ ٥٤٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٢١٣-٢١٨).

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٧٧)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٤٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٢٢٣).

يُوْفُوا بعَهْدِ اللهِ تعالى، ذلك وَصَّاهم به تعالى؛ لعَلَّهم يتَذَكَّرونَ.

وبيَّنَ جلَّ وعلا أنَّ هذا الذي وصَّاهم به هو طريقُه القَويمُ، ودِينُه المُوصِلُ إليه، فلْيَتَّبِعْه العبادُ، ولا يَتَّبِعوا الطُّرُقَ المخالِفَةَ لهذا الطَّريقِ؛ فتُضِلَّهم عنه، ذَلِك وصَّاهم اللهُ به؛ لعَلَّهم يتَّقونَ.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى فيما قَبْلَ هذه الآياتِ حُجَّتَه البالِغَةَ على المشركينَ الَّذين حَرَّموا على أنفُسِهم ما لم يُحَرِّمْه عليهم ربُّهُم، ودَحَض شُبْهَتَهم التي احتَجُّوا بها على شِرْكِهم به، وافترائِهم عليه؛ بَيَّنَ في هذه الآياتِ أُصُولَ المُحَرَّماتِ ومَجامِعَها في الأعمالِ والأقوالِ، وما يُقابِلُها من أصولِ الفَضائِلِ والبِرِّ[١]، فقال تعالى:

﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾.

أي: قل- يا مُحمَّدُ- لهؤلاءِ المشركينَ: هلمُّوا وأَقْبِلوا أُخْبِرْكم بما حَرَّمَ ربُّكم عليكم حَقًّا، يَقينًا لا ظَنًّا، كَقَوْلِكم على اللهِ الكَذِبَ، بل وحيًا منه إليَّ، وتنزيلًا أنزَلَه عليَّ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٦١). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٤٥-٤٥٠).

﴿ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾.

أي: أَوْصاكم أَلَّا تُشْرِكوا بالله شيئًا مِن خَلْقِه لا قليلًا ولا كَثيرًا، وأَوْصاكم وأَمَرَكم أن تُحْسِنوا إلى الوالدينِ إحسانًا(١).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣].

وقال تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

وقال سبحانه: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤].

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾.

مُناسَبَتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا أَوْصَى تعالى بِبِرِّ الآباءِ والأَجْدادِ؛ عَطَفَ على ذلك الإحسانَ إلى الأَبْناءِ والأَحْفادِ(٢). وأيضًا لَمَّا أوصى بالسَّبَبِ في الوجودِ: الوالِدَينِ، نهى عن التَّسَبُّب في الإعدامِ، وهو القَتْلُ، وبدأ بأشَدِّه: قتلِ الوَلَدِ(٣)، فقال تعالى:

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾.

أي: ولا تَقْتُلوا أَوْلادَكم ذُكورًا وإناثًا؛ بسَبَبِ فَقْرِكم الحاصِلِ، وضِيقِكم مِن رِزْقِهم؛ فقد تَكَفَّلْنا برِزْقِ الجَميعِ، فلَسْتُم الَّذينَ تَرْزُقونَ أَوْلادَكم، بل ولا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٥٦-٦٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٦٠-٣٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٥٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٦١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣١٧).

أَنْفُسَكم؛ فليس عليكم إذَنْ منهم ضِيقٌ[(١)].

﴿وَلَا تَقْرَبُوا ٱلْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾.

أي: تَبَاعَدُوا عن ارْتِكابِ كُلِّ خَصْلةٍ سُوءٍ مُتَناهِيَةٍ في القُبْحِ مِنْ كُلِّ مَعصيَةٍ خَسِيسةٍ، واجْتَنِبوا مُقدِّماتِها ووسائِلَها المُوصِلَةَ إليها، سواءٌ كان ذلك عَلَنًا يراه النَّاسُ، أو سِرًّا مِن غَيْرِ اطِّلاعِهم[(٢)].

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

وعن المُغيرَةِ بنِ شُعبَةَ، أنَّ سَعْدَ بنَ عُبادةَ قال: ((لو رأيتُ رَجُلًا مَعَ امرَأتي لضَرَبْتُه بالسَّيْفِ غيرَ مُصْفِحٍ[(٣)] عنه، فبَلَغَ ذلك رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال: أتَعْجبونَ مِنَ غَيْرَةِ سعدٍ؟ فواللهِ! لَأنَا أغْيَرُ منه، واللهُ أغْيَرُ مني، من أجلِ غَيْرَةِ اللهِ حرَّمَ الفواحِشَ ما ظَهَرَ منها وما بَطَنَ، ولا شَخْصَ أغيَرُ مِنَ اللهِ...)) الحديث[(٤)].

﴿وَلَا تَقْتُلُوا ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٥٧-٦٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٥٧-٦٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٩-٢٨٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٨٢-٤٨٣).

قال السعدي: (﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ﴾ وهي: الذُّنُوب العِظَام المُسْتَفْحِشَة، ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ أي: لا تَقرَبوا الظَّاهِرَ منها والخَفِيَّ، أو المتعَلِّق منها بالظَّاهِر، والمتعَلِّق بالقَلْبِ والباطن) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٧٩-٢٨٠).

(٣) مُصْفِح أي: غيرَ ضاربٍ بِصَفْحِ السَّيفِ؛ وهو جانِبُه، بل أضرِبُه بحَدِّه؛ مِن صَفْحِ السَّيفِ أي: عَرْضُه وحَدُّه، فالضَّارِبُ مُصفِحٌ. والسَّيفُ مُصفَحٌ؛ فمن فتَحَ (الفاء) جعله وصفًا للسَّيفِ حالًا منه، ومَن كَسَر جَعَلَه وصفًا للضَّارِبِ وحالًا عنه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٠/ ١٣١)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٥/ ٢١٦٤).

(٤) رواه مسلم (١٤٩٩).

أي: ولا تَقْتُلوا النَّفْسَ التي حَرَّمَ اللهُ عليكم قَتْلَها؛ بأنْ جَعَلَها معصومةً مِن مؤمِنٍ أو كافرٍ معاهَدٍ أو ذِمِّيٍّ؛ فلا تَقْتُلوهَا إلَّا بالطَّريقِ الحَقِّ، المُوجِبَة لقَتْلِها شَرْعًا عندَ الله[١].

عن عبد الله بنِ مسعودٍ رضي الله عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((لا يَحِلُّ دمُ امرئٍ مُسْلِمٍ، يشهدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنِّي رسولُ اللهِ، إلَّا بإحْدى ثلاثٍ: النَّفْسُ بالنَّفْسِ، والثيِّبُ الزَّاني، والمُفارِقُ لدِينِه، التَّارِكُ للجَماعةِ))[٢].

وعن عبدالله بن عمرٍو رضي الله عنهما، أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((مَن قَتَلَ مُعاهَدًا لم يَرَحْ[٣] رائحةَ الجنَّةِ، وإنَّ ريحَها توجدُ من مَسيرةِ أربعينَ عامًا))[٤].

وعن عرفَجَةَ بنِ أسعَدَ رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((مَنْ أتاكُم، وأَمْرُكُم جميعٌ على رجلٍ واحدٍ، يريدُ أن يَشُقَّ عصاكُم، أو يُفَرِّقَ جَماعَتَكُم، فاقتُلُوهُ[٥]))[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٦١-٦٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٨٨-٤٨٩).

(٢) رواه البخاري (٦٨٧٨) واللفظ له، ومسلم (١٦٧٦).

(٣) لم يَرَحْ: أي: لم يَشَمَّ رائحةَ الجنَّةِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٢٧٢)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٦/ ٢٢٦١).

(٤) رواه البخاري (٣١٦٦).

(٥) قال الشِّنقيطي بعد أنْ ذَكَر نصوصًا لأفعالٍ يُقتَل أصحابُها، واختلافَ أهْلِ العِلمِ في العَمَل بها: (فهذه أشياءُ دَلَّتْ عليها نصوصٌ أُخَر اختَلَف فيها العلماءُ، فمَن يقول: إنَّ صاحِبَها يُقتل. يقول: هي داخِلَةٌ في قوله: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾. ومن يقول: إنَّ صاحِبَها لا يُقتَل. يقول: لم تَدْخُل في قَوْلِه: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ لأنَّها عارَضَها ما هو أقوى منها، وهو حديثُ ابنِ مَسعودٍ المُتَّفَق عليه: «لا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ...» الحديث) ((العذب النمير)) (٢/ ٤٩٩-٥٠٠).

(٦) رواه مسلم (١٨٥٢).

﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

أي: هذه الأُمورُ المذكورةُ في الآيةِ قد عَهِدَ بها إليكم ربُّكم؛ لأَجْلِ أن تَعْقِلوا عنه وَصِيَّتَه هذه، فتَقُوموا بها(١).

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا كان المالُ عَديلَ الرُّوحِ، مِن حيثُ إنَّه لا قِوامَ لها إلا به؛ ابتدَأَ هذه الآيةَ بالأموالِ بعد أنْ خَتَمَ الآيةَ التي قَبْلَها بالنَّهْيِ عن إزهاقِ الرُّوحِ، ولَمَّا كان أعظَمَ الأموالِ خَطَرًا وحُرْمَةً مالُ اليتيمِ؛ لِضَعْفِه، وقِلَّةِ ناصِرِه، ابتدأ به، فنَهَى عن قُرْبِه فضلًا عن أكْلِه أو شُرْبِه(٢)، فقال تعالى:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾.

أي: ولا تَقْرَبوا مالَ اليتيمِ إلَّا بما يكونُ أَصْلَحَ له وأنفَعَ؛ بالمحافَظَةِ عليه، وتَنْمِيَتِه وتَثْميرِه في الوُجوهِ المأمونةِ التي يَغْلِبُ على الظَّنِّ- بِحَسَبِ العادَةِ- أنْ لا خَسارةَ فيها، وذلك إلى وَقْتِ بُلوغِه، فإذا بَلَغَ وآنسْتُم منه رُشْدًا، وحُسْنَ تَصَرُّفٍ، فادْفَعُوا إليه مالَه(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥٠٠-٥٠٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٦٢-٦٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥٠٦-٥١٢).

فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: ٦].

﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾.

أي: وأَوْفُوا الكَيْلَ والميزانَ، فلا تَبْخَسُوا النَّاسَ الكَيْلَ إذا كِلْتُموهم، ولا تَبْخَسُوهم الوَزْنَ إذا وَزَنْتُموهم، ولكِنْ أَوْفُوهم حُقُوقَهم تامَّةً بالعَدْلِ في الأَخْذِ والإِعْطاءِ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٥].

﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

مُناسَبَتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان قَوْلُه: ﴿بِالْقِسْطِ﴾ قد يَشُقُّ بعضَ الأحيانِ؛ لأنَّ الإنسانَ قد يَفُوتُه أن يُوَفِّيَ الكَيلَ أو الوَزْنَ أحيانًا؛ أعقَبَ ذلك بقَوْلِه(٢):

﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

أي: مَنِ اجتَهَدَ في أداءِ الحَقِّ، وأَخَذَه بالعَدْلِ، وحَرَصَ على الإيفاءِ في الكَيْلِ والوَزْنِ، فأخطَأَ أو وَقَعَ منه نقْصٌ وتقصيرٌ بعد استفراغِ وُسْعِه، وبذْلِ جُهْدِه في ذلك؛ فلا حَرَجَ عليه(٣).

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٥٤٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥١٣-٥١٧).

(٢) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥١٧).

وإذا حَكَمْتُم بين النَّاسِ فتكَلَّمْتُم، فقُولوا الحَقَّ بينهم، واعْدِلوا وأَنْصِفوا ولا تَجُوروا، ولو كان الذي يتَوَجَّهُ الحَقُّ والحُكْمُ عليه ذا قَرابَةٍ لكم[1].

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥].

﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾.

أي: وبوصيَّةِ اللهِ التي أَوْصاكم بها فأَوْفُوا، وذلك بطاعَتِه سبحانه فيما أَمَرَكم به، واجتنابِ ما نَهاكم عنه، سواء فيما يتعَلَّقُ بحقُوقِ اللهِ تعالى، أو بحُقُوقِ العبادِ[2].

﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

أي: هذا[3] الذي بيَّنَه لكم مِنَ الأَحْكامِ فأَمَرَكم به، ونهاكم عنه، عَهِدَ إليكم به لتَتَذَكَّروه وتَأْخُذوا به، وتتَذَكَّروا عواقِبَ أَمْرِكم، وخَطَأَ ما أنتم عليه، فتَنْزَجِروا عن ذلك، وتَقُوموا بأَحكامِ ربِّكم[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٥٤٧).
ومن المفسِّرين من عمَّمَ ذلك ولم يَقْصُرْهُ على الحُكْم كالشنقيطي. يُنظر: ((العذب النمير)) (٢/ ٥١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥٢٠-٥٢١).

(٣) ذهب ابنُ جريرٍ إلى أنَّ الموصى به هنا عائدٌ إلى ما في هذه الآية والَّتي قبلها. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٦٧).
وذهب ابن عاشور والشنقيطي إلى أنَّ المراد ما في هذه الآية فحسب. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥٢٢-٥٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٦٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥٢٢-٥٢٣).
قال ابنُ عاشور: (جاء مع هذه الوَصِيَّة بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾؛ لأنَّ هذه المطالِبَ الأربعةَ =

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٥٣﴾.

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ تعالى في الآيتَيْنِ المُتَقَدِّمَتَينِ ما وَصَّى به؛ أجْمَلَ في آخِرِه إجمالًا يقتضي دُخولَ ما تقَدَّمَ فيه، ودخولَ سائِرِ الشَّريعةِ فيه؛ فقال[1]:

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُ﴾.

أي: وهذا الذي وصَّاكم به ربُّكم - أيُّها النَّاسُ - وأمَرَكم بالوَفاءِ به، هو طريقُه ودِينُه المُوصِلُ إليه، وإلى دارِ كَرامَتِه؛ الذي ارْتَضاه لعبادِه، وجَعَلَه مختَصَرًا معتَدِلًا قويمًا لا اعْوِجاجَ به عن الحَقِّ، فاسْلُكوه[2].

عن عبدِ اللهِ بن مسعودٍ رَضِيَ الله عنه قال: ((خَطَّ لنا رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم خطًّا ثم قال: هذا سبيلُ اللهِ؛ ثم خَطَّ خُطوطًا عن يمينِه وعن شِمالِه؛ ثم قال: هذه سُبُلٌ - قال يزَيدُ: مُتَفَرِّقةٌ - على كُلِّ سبيلٍ منها شيطانٌ يدعو إليه، ثم قرأ ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]))[3].

= عُرِفَ بين العَرَبِ أنَّها محامِدُ، فالأمرُ بها والتحريضُ عليها تذكيرٌ بما عَرَفوه في شَأْنِها، ولكِنَّهم تناسَوْه بغَلَبَةِ الهوى وغشاوَةِ الشِّرْكِ على قُلُوبِهم)) ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ١٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٠).

(٣) أخرجه أحمد (٤١٤٢) واللفظ له، والدارمي (٢٠٢)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١١١٧٤)، وابن حبان (٧).

قال البزارُ في ((البحر الزخار)) (٥/ ٢٥١): وهذا الكلامُ قد رُوِي عن عبد الله من غيرِ وجه نحوه أو قريبًا منه، وقال ابن القيِّم في ((طريق الهجرتين)) (١٥٢): ثابتٌ، وصحَّح إسناده أحمدُ شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٦/ ٨٩)، وصحَّحه ابنُ باز في ((مجموع فتاواه)) (٤/ ٢٨١)، والألباني في ((شرح الطحاوية)) (٥٢٥).

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾.

أي: ولا تتَّبِعوا الطُّرُقَ المخالِفةَ لهذا الطَّريقِ؛ فتُضِلَّكم عنه، وتُفرِّقكم وتُشتِّتكم عن طَريقِه، ودِينِه الذي شَرَعَه، وارْتَضاه لكم(١).

﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

أي: هذا الذي أمَرَكم به ربُّكم مِن اتِّباع سَبيلِه، ونهاكم عن اتِّباعِ غَيْرِه؛ عَهِدَ به إليكم؛ كي تَتَّقُوا اللهَ عزَّ وجلَّ(٢).

الفَوائِد التربويَّة:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ أمرٌ لنبيِّه عليه السَّلامُ بأَنْ يَدْعُوَ المَعْنيِّينَ بالخِطابِ إلى سَماعِ تلاوةِ ما حَرَّمَ اللهُ تبارك وتعالى، وهكذا يجبُ على العُلماءِ أن يُبَلِّغوا النَّاسَ، ويُبَيِّنوا لهم ما حُرِّمَ عليهم مِمَّا أُحِلَّ(٣).

٢- القاعدةُ التي يجبُ أن تقومَ أوَّلًا قبل الدُّخُولِ في الأوامِرِ والنَّواهي، وقبْلَ الدُّخُولِ في التَّكاليفِ والفَرائِضِ: أن يَعْتَرِفَ النَّاسُ بربوبيَّةِ الله وَحْدَه لهم في حياتِهم؛ كما يَعْتَرفونَ بألوهِيَّتِه وَحْدَه في عقيدَتِهم، فلا يُشْرِكونَ معه تعالى أحَدًا في ألوهِيَّتِه، ولا يُشْرِكونَ معه أحَدا في رُبُوبيَّتِه كذلك؛ يُبَيِّنُ ذلك قولُه تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾(٤).

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ يُرشِدُ إلى الإحْسانِ بهما إحْسانًا تامًّا كاملًا لا يَدَّخِرُ فيه وُسْعًا، وهذا يستلْزِمُ تَرْكَ الإساءَةِ وإن صَغُرَتْ، فكيف

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٦٩-٦٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٣١).

(٤) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٢٢٩).

بالعُقوقِ المقابِلِ لغايةِ الإحسانِ، وهو مِن أكبَرِ كبائِرِ المُحَرَّماتِ[١]؟

٤- الواجِبُ على الوالِدِ القيامُ بحَقِّ الوَلَدِ وتربيتِه، والاتِّكالُ في أمْرِ الرِّزْقِ على اللهِ تعالى؛ فقد قال الله تعالى: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾[٢].

٥- في قَوْلِه: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ دقيقةٌ، وهي: أنَّ الإنسانَ إذا احترَزَ عن المعْصِيَةِ في الظَّاهِرِ، ولم يحتَرِزْ عنها في الباطِنِ؛ دَلَّ ذلك على أنَّ احترازَه عنها ليسَ لأَجْلِ عبودِيَّةِ اللهِ وطاعَتِه، ولكِنْ لأجْلِ الخَوْفِ من مذَمَّةِ النَّاسِ، وذلك باطِلٌ؛ لأنَّ من كان مَذَمَّةُ النَّاسِ عنده أعظَمَ وقْعًا من عقابِ اللهِ ونحوِه؛ فإنَّه يُخشَى عليه مِنَ الكُفْرِ؛ ومَنْ تَرَكَ المَعْصِيةَ ظاهرًا وباطنًا دلَّ ذلك على أنَّه إنَّما تَرَكَها؛ تعظيمًا لِأَمْرِ اللهِ تعالى، وخَوفًا مِن عذابِه، ورغبةً في عبودِيَّتِه[٣].

٦- ليس على المُكَلَّفِ- المبنيِّ أمْرُه على العَجْزِ للضَّعْفِ- إلَّا الجُهدُ والوُسْعُ، وما وراءَ الوُسْعِ مَعْفُوٌّ عنه؛ يُبَيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[٤].

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ يُرشِدُنا إلى العَدْلِ في القَوْلِ، سواءٌ في شَهادةٍ أو حُكمٍ على أحدٍ، ولو كان المَقولُ في حَقِّه ذلك القَوْلُ صاحِبَ قرابةٍ مِنَّا، فالعدْلُ واجِبٌ في الأقوالِ كما أنَّه واجِبٌ في الأفعالِ؛ لأنَّه هو الذي تَصْلُحُ به شُؤونُ النَّاسِ؛ فهو رُكْنُ العُمرانِ، وأَساسُ المُلْكِ، وقُطْبُ رَحَى النِّظامِ للبَشَرِ في جميعِ أُمُورِهم الاجتماعيَّة، فلا يجوزُ لمُؤْمِنٍ أن يحابِيَ فيه أحدًا لقرابَتِه ولا لِغَيْرِ ذلك[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٦٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٥٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٧٨).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣١٩).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٣١٩-٣٢٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٦٩).

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال تعالى: ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾ ولم يقُلْ: ما حَرَّمَ اللهُ؛ لأنَّ الرَّبَّ هنا أنسَبُ؛ حيثُ إنَّ الرَّبَّ له مُطْلَقُ التَّصَرُّف في المربوبِ، والحكمُ عليه بما تَقْتضيه حِكْمَتُه[1].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾، بدَأَ بالتَّوحيدِ في صريحِ البراءَةِ من الشِّرْكِ؛ إشارةً إلى أنَّ التَّخلِّيَ عن الرَّذائِلِ يكونُ قبل التَّحلي بالفَضائِلِ[2].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، قَرَنَ بالتَّوحيدِ البِرَّ بالوالِدَينِ؛ وذلك لمناسَبَةٍ حسنةٍ: أنَّه مِن بابِ شُكْرِ المُنْعِم، فبَعْدَ أنْ وَصَّى بأوَّلِ واجِبٍ للمُنْعِمِ الأَوَّلِ المُوجِدِ مِنَ العَدَمِ؛ أتبَعَه ما لأَوَّلِ مُنْعِمٍ بعده بالتَّسبُّبِ في الوُجودِ، فنهى عن الإساءةِ إليهما في صورةِ الأَمْرِ بالإحسانِ بهما[3].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ الإِحْسانُ يتعَدَّى بـ (الباء) و (إلى) فيُقال: أحْسَنَ به، وأحْسَنَ إليه، والأُولَى أَبْلَغُ، فهُو بالوالِدَينِ وذِي القُرْبى أَلْيَقُ؛ لأنَّ مَن أحْسَنْتَ بِه هو مَن يتَّصِلُ به بِرُّكَ وحُسْنُ مُعامَلَتِك، ويلتصِقُ به مباشرةً على مَقْرُبةٍ منك، وعَدَمِ انفصالٍ عنك[4].

٥- هذه الآياتُ تَدلُّ على أنَّ الإنسانَ لا ينبغي له أنْ يَسْتَثْقِلَ كثرةَ الأولادِ؛ خوفًا من الجوعِ والفَقْرِ؛ لأنَّ خالِقَ السَّمواتِ والأرضِ يرزُقُ الجميعَ، وهذه مِن أَوْضَحِ الآياتِ على أنَّ ما يَتلاعَبُ به الشَّيطانُ على من يَدْعُونَ إلى (تحديد

---

(١) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٦٣).

النَّسْل)؛ أنَّه جَهْلٌ واقتفاءٌ- في الجملة- لأهل الجاهليَّة؛ فهم مُشْتَرِكونَ في العِلَّة؛ لأنَّ اللهَ تعالى صَرَّحَ بأنَّ أهل الجاهليَّةَ إنَّما قَتَلُوهم مِن خَشْيَةِ الإملاقِ، وهؤلاء يُريدونَ تقليلَ عَدَدِهم مِن خَشْيَةِ الإملاقِ؛ فالعلَّة هي العلَّة، وكأنَّ قوله: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم﴾ ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ لم يَطْرُقْ أسماعَهم أبدًا، فضمانُ خالِقِ السَّمواتِ والأرضِ لأرزاقِ الجَميعِ، كأنَّهم لم يَسْمَعوه، وكأنَّهم في جاهليَّةٍ جَهْلاءَ، وظُلْمةٍ ظَلماءَ؛ لأنَّ اللهَ ضامِنٌ رِزْقَ الجَميعِ، وكُلَّما كَثُرَ النَّسْلُ، وكَثُرَت الأيدي العامِلَةُ كَثُرَ الإنتاجُ، وكَثُرَت خيراتُ الله وأرزاقُه؛ لأنَّ الله يُنْزِلُ رِزْقَه بعَدَدِ خَلْقِه، وصَرَّحَ بهذا، وهو لا يُخْلِفُ الميعادَ ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم﴾ ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾[1].

٦- في قول اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ بعدَ أن بدأ بالتَّوحيدِ في صريحِ البراءةِ مِن الشِّرك، وقَرَن به البرَّ، أولاه القتلَ الذي هو أكبرُ الكبائرِ بعدَ الشِّرك، وبدأه بقَتْلِ الوَلَدِ؛ لأنَّه أفحَشُ القَتْلِ، وأفحَشُ مِن مُطْلَقِه فِعْلُه خَوْفَ القِلَّةِ[2].

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ﴾ عَظَّمَ أمْرَ الفواحِشِ بالنَّهْيِ عن قُرْبِها، فضلًا عن الغِشْيانِ؛ لأنَّها ذاتُ إغراءٍ وجاذِبيَّةٍ، فنَهَى عن مجرَّدِ الاقترابِ؛ سدًّا للذَّرائِعِ، واتِّقاءً للجاذِبيَّة التي تَضْعُف معها الإرادةُ[3].

٨- قولُه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ﴾ لم يَقُلْ: لا تَأْتُوا؛ لأنَّ النَّهْيَ عن القُرْبِ أَبْلَغُ من النَّهْيِ عن الإتيانِ؛ لأنَّ النَّهْيَ عن القُرْبِ نَهْيٌ عنها، وعمَّا يكون ذريعةً إليها؛ ولذلك حَرَّمَ على الرَّجُلِ أن ينْظُرَ إلى المرأةِ الأجنبيَّةِ، وأنْ يَخْلُوَ بها، وأنْ تُسافِرَ المرأةُ بِلا مَحْرَمٍ؛ لأنَّ ذلك يُقَرِّبُ مِنَ الفَواحِشِ[4].

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٧٢، ٤٧٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٣١٧-٣١٨)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٢٣١).

(٤) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٣٨).

٩- لا شكَّ أنَّ قَتْلَ النَّفْسِ التي حرَّمَ اللهُ؛ داخِلٌ في الفواحِشِ؛ إنْ فَعَلَه عَلَنًا أمامَ النَّاسِ فهو داخِلٌ فيما ظَهَرَ، وإن قَتَلَه غِيلَةً من حيثُ لا يراهُ النَّاسُ؛ فهو داخِلٌ فيما بطَنَ؛ لأنَّ قَتْلَ النَّفْسِ من الفواحِشِ، واللهُ جلَّ وعلا خصَّه مع أنَّه داخِلٌ في العُمومِ، وفي ذلك حِكْمتانِ:

الأولى: تفظيعُ القَتْلِ وتهويلُ أَمْرِه؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: آية ٩٣].

الثانية: لأنَّه لا يتأتَّى الاستثناءُ بقولِه: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إلَّا مِن القتلِ، لا مِن عمومِ الفواحشِ، فالقَتْلُ منه ما هو بِحَقٍّ، فلا بدَّ أن يُستَثْنى بقولِه: ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: آية ١٥١] والاستثناءُ الذي هو ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ لا يُمكِنُ حتى يُخرَجَ القَتْلُ من عمومِ الفَواحِشِ ما ظَهَرَ منها وما بَطَنَ(١).

١٠- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ﴾ خَتَمَ كُلَّ آيةٍ مِنَ الثَّلاثِ الآياتِ بالوَصِيَّةِ؛ وذلك لِيَكونَ آكَدَ في القَوْلِ؛ فيكونَ أَدْعَى للقَبُولِ(٢).

١١- قولُه تعالى: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ في هذا دليلٌ على أنَّ هذه الأُمورَ إذا التَزَمَ بها الإنسانُ، فهو عاقِلٌ رَشيدٌ، وإذا خالَفَها فهو سَفِيهٌ ليس بعاقِلٍ؛ وقد تَضَمَّنَتْ هذه الآيَةُ خَمْسَ وصايا: الأولى: تَوحيدُ الله، الثانية: الإحسانُ بالوالدين، الثالثة: ألَّا نَقْتُلَ أَوْلادَنا، الرابعة: ألَّا نَقرَبَ الفواحِشَ، الخامسة: ألَّا نَقْتُلَ النَّفْسَ التي حَرَّمَ الله إلَّا بالحَقِّ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٧٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٨٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٨٧، ٤٨٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٣٩).

١٢- قولُه تعالى: ﴿وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ دلَّتِ الآيةُ على أنَّه بحَسَبِ عَقْلِ العَبْدِ يكونُ قيامُه بما أَمَرَ اللهُ به(١).

١٣- قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ الحُسْنُ هنا يشمَلُ: الحُسْنَ الدُّنيويَّ، والحُسْنَ الدِّينيَّ؛ فالحُسْنُ الدُّنيويُّ؛ كإذا لاحَ للوَلِيِّ تَصَرُّفانِ أَحَدُهما أكثَرُ رِبحًا، فالواجِبُ عليه أن يأخُذَ بما هو أكثَرُ رِبحًا؛ لأنَّه أحْسَنُ، والحُسْنُ الدِّينيُّ مِثْلُ إذا لاح تَصَرُّفانِ أحَدُهما أكثَرُ رِبحًا، وفيه رِبًا، والآخَرُ أقَلُّ ربحًا، وهو أسْلَمُ مِنَ الرِّبا، فنُقَدِّمُ الأخيرَ؛ لأنَّ الحُسْنَ الشَّرعيَّ مُقَدَّمٌ على الحُسْنِ الدُّنيويِّ الماديِّ(٢).

١٤- قولُه تعالى: ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ فيه دلالةٌ على أنَّ اليَتيمَ- قبل بُلُوغِ الأَشُدِّ - مَحْجورٌ عليه، وأنَّ وَلِيَّه يتصَرَّفُ في مالِه بالأَحَظِّ، وأنَّ هذا الحَجْرَ ينتهي ببلوغِ الأَشُدِّ(٣).

١٥- قولُه تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ فيه تذكيرٌ لهم بالسَّخاءِ الذي يَتَمادَحون به؛ كأنَّه قيل لهم: أين سَخاؤُكم الذي تَتَنافَسونَ فيه؛ فهَلَّا تُظْهِرُونَه إذا كِلْتُم أو وَزَنْتُم؛ فتَزيدوا على العَدْلِ بأنْ تُوَفِّروا للمُكتالِ كَرَمًا؛ فضلًا عَنْ أن تَسْرِقوه حَقَّه. وهذا تنبيهٌ لهم على اختلالِ أَخْلاقِهم وعَدَمِ تَوازُنِها(٤).

١٦- قولُه تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ استدلَّ الأُصوليُّونَ بهذا على أنَّ الله لا يكلِّفُ أحدًا ما لا يُطيقُ، وعلى أنَّ مَنِ اتَّقَى اللهَ فيما أَمَرَ، وفَعَلَ ما يُمْكِنُه من ذلك، فلا حَرَجَ عليه فيما سِوَى ذلك(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٠).
(٢) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٤٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٦٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٠).

١٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ خُصَّ العَدْلُ بالقَوْلِ، مع أنَّ الفِعْلَ إلى العدْلِ أحْوَجُ- فإنَّ الضَّرَرَ النَّاشِئَ مِنَ الجَوْرِ الفِعْليِّ أَقْوى مِنَ الضَّرَرِ النَّاشِئِ مِنَ الجَوْرِ القَوْليِّ- وذلك ليُعْلَمَ وُجوبُ العَدْلِ في الفِعْلِ بالأَوْلى، كما في قَوْلِه تعالى: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾[1] [الإسراء: ٢٣].

١٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ وحَّدَ سبيلَه لأنَّه في نَفْسِه واحِدٌ، لا تعَدُّدَ فيه، وجَمَعَ السُّبُلَ المخالِفَةَ؛ لأنَّها كثيرةٌ مُتَعَدِّدةٌ[2].

١٩- في قَوْلِه تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ جَعَلَ اللهُ الرَّجاءَ للتَّقْوى؛ لأنَّ هذه السَّبيلَ تَحْتَوي على تَرْكِ المُحَرَّمات، وتَزيدُ بما تَحْتَوي عليه مِن فِعْلِ الصَّالحاتِ، فإذا اتَّبَعَها السَّالِكُ فقد صار مِنَ المُتَّقِينَ؛ أي: الَّذين اتَّصَفوا بالتَّقْوى بمعناها الشَّرعيِّ؛ كقَوْلِه تعالى: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾[3] [البقرة: ٢].

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿**قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ**﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ للانتقالِ مِنْ إبْطالِ تحريمِ مَا ادَّعَوْا تَحْريمَه مِنْ لُحُومِ الأَنْعامِ، إلى دَعْوَتِهم لِمَعْرِفَةِ المحرَّمات، التي عِلْمُها حَقٌّ، وهو أَحَقُّ بأنْ يَعْلَمُوه مِمَّا اختَلَقُوا مِنِ افْتِرائِهم، ومَوَّهوا بِجَدَلِهم[4].

٢- **قوله**: ﴿**وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا**﴾ وَضَعَه موضِعَ النَّهْيِ عن الإساءَةِ إليهما؛ للمبالغَةِ، وللدَّلالَةِ على أنَّ تَرْكَ الإساءَةِ في شَأْنِهما غيرُ كافٍ بخلافِ غَيْرِهما،

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:١٨١).
(٢) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (١/ ١٧٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٧٤، ١٧٥).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ١٥٥).

وللإيذانِ بأنَّ الإساءَةَ إليهما ليس مِن شَأْنِها أن تَقَعَ، فيُحْتاجَ إلى التَّصريحِ بالنَّهْيِ عنها؛ لأنَّها خِلافُ ما تَقْتَضي الفِطْرَةُ السَّليمةُ، والآدابُ المَرْعِيَّة عِنْد جَميعِ الأُمَمِ، وإنَّما عَدَلَ عن النَّهْيِ عنِ الإساءَةِ إلى الأَمْرِ بالإحسانِ اعتناءً بالوالِدَينِ؛ لأنَّ اللهَ أرادَ بِرَّهُما، والبِرُّ إحسانٌ، والأَمْرُ به يتضَمَّنُ النَّهْيَ عن الإساءَةِ إليهما بطَريقِ فَحْوى الخِطابِ(١).

٣- **قوله: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾** بدأ هنا جلَّ وعلا برِزْقِ الوالِدَينِ، وفي سورةِ الإِسْراءِ بَدَأَ برِزْقِ الأَوْلادِ، والحكمةُ في ذلك أنَّه قال هنا: ﴿مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ فالإملاقُ حاصِلٌ، فبَدَأَ بِذِكْرِ رِزْقِ الوَالِدَينِ اللَّذَينِ أَمْلَقَا، أي: ولا تَقتُلوهم مِن فَقْرِكم الحاصِلِ؛ ولهذا قال تعالى بعدَها: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ فبَدَأَ برِزقِ المُخاطَبينَ؛ لأنَّه الأَهَمُّ هاهنا، وهناك قال: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ [الإسراء: ٣١] أي: خشيةَ حُصُولِ فقرٍ في الآجِلِ، فهما غَنِيَّانِ، لكن يَخْشَيانِ الفَقْرَ، فبَدَأَ برِزْقِ الأَوْلادِ قبلَ رِزْقِ الوَالِدَينِ؛ للاهتمامِ بهم، أي: لا تَخافوا مِن فَقْرِكم بِسَبَبِهم، فرِزْقُهم على الله(٢).

- وفي قولِه ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾: استئنافٌ مَسُوقٌ لتَعْليلِ النَّهْيِ عن قَتْلِهم، وإبْطالِ سَبَبِيَّةِ ما اتَّخَذُوه سَبَبًا(٣).

٤- **قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾** فيه: نَهْيٌ عن اقترافِ الآثامِ، وقد نهى عن القُرْبِ منها، وهو أبلَغُ في التَّحذيرِ مِنَ النَّهْيِ عن مُلابَسَتِها؛

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٥٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٦٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٥٤٤)، ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٥٩).

للمبالَغَةِ في الزَّجْرِ عنها[١].

٥- قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ فيه: تَوجيهُ النَّهْيِ إلى قِرْبانِه؛ لِمَا مَرَّ مِنَ المُبالَغَةِ في النَّهْيِ عن أَكْلِه؛ ولإخراجِ القِرْبانِ النَّافعِ عن حُكْمِ النَّهْيِ بطريقِ الاستِثْناءِ[٢].

٦- قوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا ولو كانَ ذَا قُرْبَى﴾ قوله: ﴿وَلَوْ﴾ وصْلِيَّةٌ تفيدُ المبالغَةَ في الحالِ التي مِنْ شَأْنِها أنْ يَظُنَّ السَّامِعُ عَدَمَ شُمُولِ الحُكْمِ إيَّاها؛ لاخْتِصَاصِها مِن بينِ بَقِيَّةِ الأَحْوالِ التي يَشْمَلُها الحُكْمُ[٣].

٧- قوله: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ فيه: تقديمُ المجرورِ على عامِلِه ﴿أَوْفُوا﴾؛ للاهتمامِ بِأَمْرِ العَهْدِ، وصَرْفِ ذِهْنِ السَّامِعِ عنده؛ ليتَقَرَّرَ في ذِهْنِه ما يَرِدُ بَعْدَه مِنَ الأَمْرِ بالوَفَاءِ[٤].

٨- قوله: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ﴾ استئنافٌ جِيءَ به تجديدًا للعَهْدِ وتأكيدًا له[٥]، وقد كَرَّرَ التَّوْصِيَةَ على سَبيلِ التَّوْكِيدِ[٦].

- وقد خَتَمَ الآيَةَ الأُولى بِقَوْلِه: ﴿تَعْقِلُونَ﴾، والثانيةَ بقولِه: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾، والثَّالثَةَ بِقَوْلِه: ﴿تَتَّقُونَ﴾؛ وذلك لمناسبَةٍ حَسَنَةٍ؛ فالآيَةُ الأولى اشتَمَلَتْ على خمسةِ أشياءَ عِظامٍ، والوصيَّةُ فيها أَبْلَغُ منها في غَيْرِها، فخَتَمَها بما في الإِنسانِ مِن أَعْظَمِ السَّجَايا، وهو «العَقْل» الذي امتازَ به على سائِرِ الحيوانِ. والثانية: اشتَمَلَتْ على خَمْسَةِ أشياءَ يَقْبُحُ ارتكابُها، والوصيَّةُ فيها تَجْري

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٥٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٩٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٦٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ١٧٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٩٩- ٢٠١).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٩٢).

مَجْرى الزَّجْر والوَعْظِ، فختَمَها بِقَوْلِه: ﴿تَذَكَّرونَ﴾ أي: تَتَّعِظونَ. والثالثة: اشتَمَلَتْ على ذِكْرِ الصِّراطِ المستقيم، والتَّحريضِ على اتِّباعِه واجتنابِ مُنافِيه، فختَمَها بالتَّقْوى التي هي مِلاكُ العَمَلِ، وخَيْرُ الزَّادِ[1].

وقيل: لعلَّ السَّبَبَ في ذلك أنَّ الخِلالَ الخَمْسَ المذكورةَ في الآيةِ الأُولى أمورٌ ظاهِرةٌ جليَّةٌ، يُدرِكُ العَقْلُ قُبْحَها شَرعًا؛ فأُتْبِعَت بترجِّي التعقُّلِ، لأنَّ السَّلامةَ منها لا تكونُ مع وضوحِ أَمْرِها إلَّا بتوفيقِ اللهِ تعالى، في حين أنَّ الخَمْسَ التَّاليةَ لها خفيَّةٌ وغامضةٌ، لا بدَّ فيها مِنَ الاجتهادِ والفِكْرِ حتى يقِفَ المرءُ على موضِعِ الاعتدالِ فيها؛ إذ هي مما تُؤَثِّرُ فيه الشَّهواتُ والأهواءُ، وذلك مما يُعْمِي وَيُصِمُّ؛ ولذا أُتبِعَتْ برجاءِ التذكُّرِ؛ لأنَّ مَن تذكَّرَ أبصَرَ فعَقِلَ فامتَنَع، ولَمَّا كان مجموعُ هذه المُرتكَباتِ العَشْرِ ممَّا اتَّفقت عليه الشرائِعُ، ولم تُنسَخْ في ملَّةٍ مِنَ المِلَلِ، وأنَّ مَن أخَذَ بها كان سالكًا الصِّراطَ المستقيمَ الذي لا عِوَجَ فيه ولا أمْتَ- عَقَّبَ بقَوْلِه تعالى:﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾؛ إذ إنَّ الأمرَ فيه عامٌّ لكافَّةِ الخَلْقِ، ثمَّ قال تعالى:﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ وأتبَعَه بقوله: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ وقد ترتَّبَ حاصلًا مِن مضمونِ الآياتِ الثلاثِ أنَّه مَن عَقِلَ وتذكَّرَ اتَّقى[2].

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ١٨١-١٨٢).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (١/ ١٧٤).

الآيات (١٥٤-١٥٩)

﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ
وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ
وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن
كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ
فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ
وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾
هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى
بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا
قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ
أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿تَمَامًا﴾: أي: أَتْمَمْناه إتمامًا كَامِلًا، جَامِعًا لِجَمِيعِ مَا يُحتَاجُ إِلَيْهِ فِي شَرِيعَتِه، وتَمامُ الشَّيءِ: انتهاؤُه إلى حدٍّ لا يُحتاجُ إلى شيءٍ خارجٍ عنه، وأَصْلُ (تمم): دَلِيلُ الكَمالِ؛ يُقَالُ: تَمَّ الشَّيْءُ، إِذَا كَمَلَ[(١)].

﴿وَتَفْصِيلًا﴾: أي: تَبْيِينًا، وأَصْلُ (فصل): يدلُّ على تمييزِ الشَّيْءِ مِنَ الشَّيءِ وإبانَتِه عنه[(٢)].

﴿طَائِفَتَيْنِ﴾: أي: جماعَتَينِ، والطَّائِفَةُ: جماعةٌ من النَّاسِ، وأَصْلُ (طوف): دَوَرانُ الشَّيءِ على الشَّيءِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٣٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٦٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٠٥).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٣١).

﴿دِرَاسَتِهِمْ﴾: أي: قِراءَتِهم الكُتُبَ وعِلمِهم بها، أو تِلاوَتِهم، وأَصْلُ (درس): يَدُلُّ عَلَى خَفَاءٍ وَخَفْضٍ وَعَفَاءٍ(١).

﴿بَيِّنَةٌ﴾: أي: بصيرةٌ ودَلالةٌ، ويقينٌ، وحُجَّةٌ وبُرهانٌ، وأَصْلُ (بين): يدلُّ على الانْكِشافِ(٢).

﴿وَصَدَفَ﴾: أي: أعْرَضَ، وعَدَل عَن الْحَقِّ، والصُّدُوف: الإعراضُ عن الشَّيءِ؛ يُقال: صَدَفَ عن الشَّيء، أي: أَعْرَضَ عنه إعْراضًا شديدًا، يَجري مَجْرى الصَّدَفِ، أي: الميلِ في أرجُلِ البَعيرِ، وأَصْل (صدف) يدلُّ على المَيْلِ(٣).

﴿يَنْظُرُونَ﴾: أي: يَنْتَظِرونَ؛ فالنَّظَرُ يأتي بمعنى الانتظارِ، وأصْلُ (نظر): تأمُّلُ الشَّيءِ ومُعايَنَتُه، ومنه: نَظَرْتُه، أي: انتَظَرْته، كأنَّه يَنْظُرُ إلى الوَقْتِ الذي يأتي فيه(٤).

مشكلُ الإعراب:

١- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾

- ﴿تمامًا﴾ منصوبٌ، وفي نَصْبِه أوجُهٌ: أحدُها: أنْ يكونَ مفعولًا مِنْ أَجلِه؛ أي: لأَجْلِ تمامِ نِعْمَتِنا. الثاني: أن يكونَ مصدرًا في موضِعِ الحالِ: إمَّا مِن الكِتابِ: أي تامًّا، أو مِن (نا العَظَمةِ) في ﴿آتَيْنَا﴾؛ أي: مُتَمِّمينَ. الثالث: أن

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٣)، (مقاييس اللغة)) (٢/ ٢٦٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٥٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٤٣٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٧).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٣١).

يكون مفعولًا مطلقًا نائبًا عن المَصدرِ؛ لأنَّه نَوعُه؛ أي: آتَيْناه إيتاءَ تمامٍ لا نُقصانٍ، أو لأنَّه اسمُ المَصدَرِ على تقديرِ آتيناه، أي: أتمَمْناه تمامًا[1].

- ﴿عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾: ﴿أَحْسَنَ﴾ بفتحِ النُّونِ: فِعْلٌ ماضٍ واقعٌ صلةً للموصولِ، وفاعِلُه ضميرٌ مستَتِرٌ يعودُ على ﴿مُوسَى﴾. وقيل: الضَّميرُ يَعودُ على كُلِّ مَن أحسَنَ، والموصولُ ﴿الَّذِي﴾ مرادٌ به الجِنْسُ. وقيل: ﴿الَّذِي﴾ هنا مصدريَّةٌ، وليسَتْ موصولةً، و﴿أَحْسَنَ﴾ فعلٌ ماضٍ صِلَتُها، وفاعِلُ ﴿أَحْسَنَ﴾ ضميرٌ مُستتِرٌ يعودُ على ﴿موسى﴾؛ أَيْ: تمامًا على إحسانِ موسى بطاعَتِنا، وقيامِه بأمْرِنا ونَهْيِنا. وقُرِئ: (أحْسَنُ) بضَمِّ النونِ على أنَّه اسْمٌ؛ خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، وجُملَتُه صِلَةٌ؛ أي: على الذي هو أحسَنُ، فحُذِفَ العائِدُ (هو). وقيل غيرُ ذلك[2].

٢- قوله تعالى:﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾

- ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾: ﴿نَفْسًا﴾ مفعولٌ به مُقَدَّمٌ منصوبٌ. ﴿إِيمَانُهَا﴾ فاعِلٌ مؤخَّرٌ مرفوعٌ، ﴿لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ جملةٌ في محلِّ نصبٍ نعتٌ لـ﴿نَفْسًا﴾[3].

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٧٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٢٢٦-٢٢٧)، ((الجدول في إعراب القرآن)) (٨/ ٣٣٤).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٧٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٩٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٢٢٧-٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٨٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٠٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٢٣٣-٢٣٥).

قال أبو حيان- رحمه الله تعالى: (وجازَ الفَصلُ بالفاعِلِ بين الموصوفِ وصِفَتِه؛ لأنه ليس بأجنبيٍّ؛ إذ قد اشترك الموصوفُ- الذي هو المفعول- والفاعِلُ في العامِلِ، فعلى هذا يجوز: ضربَ هندًا غلامُها التَّميميَّةَ، ومَن جَعَلَ الجملةَ حالًا [مِنْ (ها) في ﴿إيمانِها﴾] أبعَدَ، ومَنْ =

المعنى الإجماليُّ:

يُخْبِرُ تعالى أنَّه آتى مُوسَى التوراةَ كاملةً، جامعةً لجميعِ ما يحتاجُ إليه في شريعتِه؛ جزاءً على إحسانِه في العملِ وطاعتِه، وإتمامًا لنِعْمَتِه عليه، وتَوْضِيحًا لكلِّ شَيْءٍ يَحتاجُ إليه قَوْمُه مِنْ أَمْرِ دِينِهم، وهدايةً لهم، ورحمةً؛ وحتى يُؤْمِنوا بلِقاءِ اللهِ تعالى يَوْمَ القِيامَةِ.

وبيَّن اللهُ تعالى أنَّه أَنْزَلَ هذا القرآنَ مُبارَكًا، فيه الخَيْرُ الكثيرُ، والعِلْمُ الغَزيرُ، وأَمَرَ العبادَ أَنْ يَتَّبِعوه، وأَنْ يَتَّقُوا رَبَّهم؛ لَعَلَّهم يُرْحَمونَ.

ثم أَخْبَرَ سبحانه أنَّه أَنْزَلَ هذا الكِتابَ قَطْعًا لحُجَّةِ مُشْرِكي قُرَيْشٍ، من أنْ يَحْتَجُّوا بأنَّ الكتابَ إنَّما أُنْزِلَ على طائِفَتينِ مِن قَبْلِهم: هم اليَهُودُ والنَّصارى، وهم لا عِلْمَ لهم به ولا معرفةَ، ولا يَفْقَهونَ اللِّسانَ الذي جاء به ولم يُؤْمَرُوا بما فيه. كذلك كانَ إنزالُه الكتابَ قَطْعًا لتَعَلُّلِهم من أنْ يقولوا: لو أنَّا أُنْزِلَ إلينا الكتابُ كما أُنْزِلَ على اليَهودِ والنَّصارى لكُنَّا أَهْدَى منهم؛ فبَيَّنَ تعالى أنَّه قد جاءَهم القُرآنُ حُجَّةً واضِحَةً بَيِّنَةً، وهُدًى لهم ورحمةً، وأَوْضَحَ أنَّه لا أحَدَ أشَدُّ ظُلْمًا مِمَّنْ كَذَّبَ بآياتِ اللهِ وأَعْرَضَ عنها بعد أنْ جَاءتْه، وتَوَعَّدَ الَّذين يُعْرِضونَ عن آياتِه بأنَّ لهم سُوءَ العَذابِ؛ جزاءَ ذلك الإعراضِ.

فهل ينتَظِرُ هؤلاءِ المُشْركونَ إلَّا أن تَأْتِيَهم الملائِكَةُ فتَقْبِضَ أَرْواحَهُم على الكُفْرِ، أو يَأْتِيَهم اللهُ في مَوْقِفِ يومِ القِيامَةِ لفَصْلِ القَضاءِ بَيْنَ الخَلْقِ، أو أنْ تَطْلُعَ عليهم الشَّمْسُ من مَغْرِبِها؛ فإنَّها إذا طَلَعَتْ مِن مَغْرِبِها لا يَنْفَعُ أَحَدًا الإيمانُ إذا لم يَكُنْ قد آمَنَ مِن قَبْلِ ذلك، ولا تُقْبَلُ توبةُ عاصٍ، ولا عَمَلٌ صالِحٌ مِن أَحَدٍ لم

= جَعَلَها مستأنفةً فهو أبعَدُ. [والقائِلُ بذلك أبو البقاءِ العكبريُّ في التِّبيانِ] (١/ ٥٥٢). ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٠٠).

يكن عامِلًا به قبلَ طُلُوعِها مِن مَغْرِبها، وأَمَرَ نَبِيَّهم أن يقولَ لهم: انْتَظِروا أحَدَ تلك الأشياءِ، ونحن مُنْتَظِرونَ كذلك.

ثم أخبَرَ تعالى أنَّ الَّذين اختَلَفوا في دينِ الله وفارَقُوه، أو أَصْبَحوا فِرَقًا وأَحْزابًا؛ فإنَّ نَبِيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم بَرِيءٌ منهم وممَّا هم فيه، إنَّما أَمْرُهم ومَصِيرُهم إلى اللهِ، ثم يُخْبِرُهم تعالى يومَ القيامَةِ بما عَمِلُوه في الدُّنيا، ويُجازِيهم عليه.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾.

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لما ذكر الله تعالى الصِراطَ المُستقيم في قوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾، أتْبَعه بالحديثِ عن كتابِ موسَى عليه السلام تكملةً للحديثِ السَّابق عن هذا الصراطِ؛ للإيحاءِ بأنَّ هذا الصِّراطَ مُمْتَدٌّ مِن قَبْلُ في رسالاتِ الرُّسُل - عليهم الصَّلاة والسَّلام - وشرائِعِهم. وأقرَبُ شريعةٍ كانت شريعةَ موسى عليه السَّلامُ، وقد أعطاه اللهُ كتابًا فَصَّلَ فيه كُلَّ شَيءٍ، وجَعَلَه هُدًى ورحمةً[1]، فقال تعالى:

﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ ﴾.

أي: ثمَّ آتَيْنا مُوسى التَّوراةَ[2] كاملةً جامعةً لجميعِ ما يُحتاجُ إليه في شريعتِه[3]؛

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٢٣٦).

(٢) قال أبو حيان: (الكتابُ هنا التوراةُ بلا خلافٍ) ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٦٨-٣٦٩).

جزاءً على إحْسانِه في العَمَلِ، وقيامِه بأوامِرِنا وطاعَتِنا، وتمامًا لنِعَمِنا عليه، وكمالًا لإحْسانِنا إليه، زيادةً على ما أنْعَمْنا به عليه مِنْ قبلُ[١].

﴿ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾.

أي: وتبيينًا لكلِّ شيءٍ يحتاجُ قَوْمُه وأتْباعُه إلى تَفْصيلِه مِن أَمْرِ دِينِهم؛ مِنَ الأحكامِ والعَقائِد وغيرِ ذلك[٢].

﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾.

أي: وهدايةً لهم إلى الصِّراطِ المُستقيمِ، ورحمةً بهم، تَحْصُلُ لهم بها السَّعادةُ والنَّجاةُ من الضَّلالةِ[٣].

﴿ لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾.

أي: آتَينا موسَى التَّوراةَ؛ كي يُؤمِنَ قَوْمُه بالبَعْثِ، ويُصدِّقوا بالثَّوابِ والعِقابِ؛ فيَسْتَعِدُّوا لذلك[٤].

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى أنَّه أنزَلَ الكُتُبَ رَحمةً منه- لأنَّ غايَتَها الدَّلالةُ على مُنْزِلِها، فتُمْتَثَل أوامِرُه، وتُتَّقَى مَناهيه وزَواجِرُه- بيَّنَ أنَّه لم يَخُصَّ تلك الأُمَمَ بذلك، بل أنْزَلَ على هذه الأُمَّةِ كتابًا، ولم يَرْضَ لها كَوْنَه مثلَ تلك الكُتُبِ، بل جعَلَه أعْظَمَها بَرَكةً، وأبْيَنَها دَلالةً[٥]، فقال تعالى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٧٣-٦٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨١).

(٣) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٧٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨١).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٢٩).

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ ﴾.

أي: وهذا القرآنُ الذي أَنْزَلناه إلى نَبِيِّنا محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم فيه الخيرُ الكثيرُ، والعِلْمُ الغزيرُ، وهو الذي تُسْتَمَدُّ منه سائِرُ العلومِ، ويُمَيَّز به بين الحَسَنِ والقَبيحِ، والنَّافِعِ والضَّار، والباطِلِ والحَقِّ، فمن تَعَلَّمَهُ وعَمِلَ به؛ غَمَرَتْه الخيراتُ والبَرَكاتُ في الدُّنْيا والآخِرَةِ(١).

﴿فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾.

أي: فاجْعَلوه إمامًا تَتَّبِعونَه، وتَعْمَلونَ بما فيه - أيُّها النَّاسُ - فيما يأمُرُ به ويَنْهَى عنه، وابْنُوا أُصُولَ دِينِكم وفُرُوعَه عليه، واتَّقُوا اللهَ تعالى، فلا تُخالِفُوا أَمْرَه، ولا تَسْتَحِلُّوا مَحارِمَه؛ لتُرْحَموا، فتَنْجُوا مِنْ عَذابِ اللهِ عزَّ وجلَّ(٢).

﴿ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ ﴾.

﴿ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا ﴾.

أي: أَنْزَلْنا إليكم هذا الكِتابَ المُبارَكَ - يا كُفَّارَ قُرَيشٍ - قَطْعًا لحُجَّتِكم وعُذْرِكم؛ لِئَلَّا تَقُولوا: لم يُنَزَّلْ علينا كتابٌ فنَتَّبِعَه، ولم نُؤْمَرْ ولم نُنْهَ، فليس علينا حُجَّةٌ فيما نَأْتي ونَذَرُ؛ إذْ لم يَأْتِ مِنَ اللهِ كتابٌ ولا رسولٌ، وإنَّما الحُجَّةُ على طائِفَتَي اليهودِ والنَّصارَى اللَّتَينِ أُنْزِلَ عليهما التَّوراةُ والإنجيلُ(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥٢٥-٥٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦-٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥٥٣-٥٥٤).

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ٤٧].

﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾.

أي: والكُتُبُ التي أنْزَلْتَها عليهم، ليس لَنا بها عِلْمٌ ولا مَعْرِفَةٌ؛ فلا ندري ما هي، ولا نَعْلَمُ ما يَقْرَؤون؟ فليس هو بِلِسانِنا؛ فنَفْهَمَ ما يقولونَ؛ فهم كانوا أَهْلَه دُوننا، ولم نُؤْمَرْ بما فيه(١).

﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ (١٥٧)﴾.

﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾.

أي: وقَطَعْنا تَعَلُّلَكم؛ لئلَّا تَقُولوا: لو أنَّا أُنْزِلَ علينا كتابٌ- كما أُنْزِلَ على اليَهُودِ والنَّصارى- لَكُنَّا أَشَدَّ منهم استقامةً على طريقِ الحَقِّ، واتِّباعًا للكِتابِ، وأَحْسَنَ عَمَلًا بما فيه(٢).

﴿فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾.

أي: فقَدْ جاءَكم كتابٌ مِنَ اللهِ تعالى على لِسانِ مُحَمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم بِلِسانٍ عَرَبيٍّ مُبينٍ؛ حُجَّةٌ عليكم واضِحَةٌ بَيِّنَةٌ، فيه بيانٌ للحَقِّ، وفُرقانٌ بَينَ الصَّوابِ والخَطَأ، وهُدًى من الضَّلالَةِ، ورحمةٌ مِنَ اللهِ لِمَنْ عَمِلَ به واتَّبَعَه؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥٥٤-٥٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥٥٥).

تَحْصُلُ لهم بها السَّعادةُ في دُنياهم وأُخْراهم[1].

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا قامتْ عليهم الحجَّةُ، وبيَّن الله ما يُوجِب الانقيادَ لأحكامِ هذا القرآنِ، والإيمانَ بأخبارِه- حسُن وقوعُ تحذيرِ التقريرِ، وأنَّ مَن لم يرفعْ بهذا القرآن رأسًا، وكذَّب به، فإنَّه أظلمُ الظَّالمين[2]، فقال تعالى:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾.

أي: فمَنْ أَخْطَأُ فِعْلًا، وأَشَدُّ تَجاوُزًا وعُدْوانًا مِمَّنْ كذَّبَ بِحُجَجِ اللهِ وأَدِلَّتِه، وأَعرضَ عنها بعدَ ما جاءَتْه، فلم يُؤْمِنْ بها، وصَرفَ النَّاسَ وصَدَّهُم عنها؟

﴿سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ﴾.

أي: سَيُجَازِي اللهُ تعالى الَّذين يُعْرِضونَ عن آياتِه، ويَصُدُّونَ النَّاسَ عنها؛ العذابَ السَّيِّئَ، والعِقابَ الشَّديدَ[3].

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البقاعي)) (٧/ ٣٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥٥٧).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ أنَّه إنَّما أَنْزَلَ الكِتابَ؛ إزالَةً للعُذْرِ، وإزاحةً للعِلَّةِ؛ بيَّنَ أنَّهم لا يُؤْمِنونَ البتَّةَ، وشَرَحَ أحوالًا تُوجِبُ اليَأْسَ عَن دُخُولِهم في الإيمانِ، فقال[1]:

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾.

أي: هل ينتَظِرُ هؤلاءِ المُشْركونَ إلَّا أنْ تَأْتِيَهم الملائكَةُ بالمَوْتِ، فتَقْبِضَ أَرْواحَهم على الكُفْرِ، أو أنْ يَأْتِيَهم ربُّكَ- يا مُحمَّد- في مَوْقِفِ القِيامَةِ؛ لفَصْلِ القَضاءِ بَين العِبادِ، أو أنْ تَطلُعَ الشَّمْسُ مِن مَغْرِبها[2]؟

﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾.

أي: إذا طَلَعَت الشَّمْسُ مِن مَغْرِبها، فلا يُقْبَلُ إيمانُ كافِرٍ، لم يَكُنْ مُؤْمِنًا من قَبْلِ طُلُوعِها، ولا تُقْبَلُ توبةٌ مِن عاصٍ، ولا يُقبَل عملٌ صالحٌ مِن أحَدٍ لم يكن عاملًا به قبل طُلوعِها[3].

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((لا تقومُ السَّاعةُ حتَّى تطلُعَ الشَّمسُ مِنْ مَغْرِبِها، فإذا طَلَعَتْ فرآها النَّاسُ آمَنُوا أجمعونَ، فذلك حين: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾))[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥٦٠-٥٦٢).

قال الرازيُّ: (أجمعوا على أنَّ المرادَ بهذه الآياتِ علاماتُ القيامةِ) ((تفسير الرازي)) (١٤/ ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٣، ٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٧١، ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨١-٢٨٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥٨٩-٥٩٠).

(٤) رواه البخاري (٦٥٠٦) واللفظ له، ومسلم (١٥٧).

وعن أبي ذَرٍّ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قالَ يومًا: ((أتَدْرُونَ أينَ تذهبُ هذهِ الشَّمسُ؟ قالوا: اللَّهُ ورسولُهُ أعلمُ، قالَ: إنَّ هذهِ الشَّمسَ تجري حتَّى تنتَهيَ تحتَ العَرْشِ فتخِرُّ ساجدةً، فلا تزالُ كذلِكَ حتَّى يقالَ لَها: ارتَفِعي، ارْجِعي من حيثُ جِئْتِ، فتُصبحُ طالعةً مِنْ مَطلَعِها، ثمَّ تجري حتَّى تنتَهيَ إلى مستقَرِّها ذاك تحتَ العرشِ، فتخرُّ ساجدةً، ولا تزالُ كذلِكَ حتَّى يقالَ لَها: ارتَفِعي، ارجِعي من حيثُ جِئْتِ، فتَرْجعُ فتُصْبِحُ طالعةً من مَطْلِعِها، ثمَّ تجري لا يستنكرُ النَّاسُ منها شيئًا، حتَّى تنتَهيَ إلى مُستقرِّها ذاكَ تحتَ العَرشِ، فيقالُ لَها: ارتفِعي، أَصبِحي طالعةً مِن مَغْربِكِ، فتُصْبِحُ طالعةً مِن مَغْربِها؛ فقالَ رسولُ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: أَتَدْرُونَ متى ذاكُم؟ ذاكَ حينَ ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾))[1].

﴿قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٥٨)﴾.

أي: قلْ- يا محمَّدُ- لهؤلاء المشركينَ: انتَظِرُوا أنْ تَأْتِيَكم الملائكةُ بالمَوتِ، فتَقْبِضَ أَرْواحَكم، أو أنْ يَأْتِيَ رَبُّكَ لفَصْلِ القَضَاء في مَوْقِفِ القيامة، أو أَنْ يَأْتيَكم طُلُوعُ الشَّمْسِ مِن مَغْرِبها، فتُطوى صحائِفُ الأعمالِ، ولا يَنْفَعُكم إيمانُكم حينئذٍ إنْ آمَنْتُم، فتَعْلَمون حينئذٍ المُحِقَّ مِنَّا مِنَ المُبْطِلِ، وتَتَبيَّنون عند ذلك مَنِ النَّاجي منَّا ومنكم، ومَنِ الهالكُ؟ إنَّا مُنتَظِرون ذلك، فيُجْزِل الله لنا ثَوابَه، ويُنْزِل بكم عَذابَه[2].

قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ [محمد: ١٨].

(١) رواه مسلم (١٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦٠١).

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ تعالى أنَّ صِراطَه مُستقيمٌ، ونَهَى عَنِ اتِّباعِ السُّبُلِ، وذَكَرَ مُوسى عليه السَّلامُ وما أُنْزَلَ عليه، وذَكَرَ القُرآنَ، وأَمَرَ باتِّباعِه، وذَكَرَ ما يَنْتَظِرُ الكُفَّارَ مِمَّا هو كائِنٌ بهم- انتَقَلَ إلى ذِكْرِ مَنِ اتَّبَعَ السُّبُلَ، فتَفَرَّقَت به عن سَبيلِ الله؛ لِيُنَبِّهَ المؤمنينَ على الائتلافِ على الدِّينِ القَويمِ، ولِئَلَّا يَختَلِفوا كما اخْتَلَفَ مَنْ قَبْلَهم مِنَ الأُمَمِ، بَعْدَ أنْ كانوا مُتَّفِقينَ على الشَّرائِعِ التي بُعِثَ أَنْبياؤُهم بها[1]، فقال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَوْلِه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُم﴾ قراءتانِ:

١- قراءةُ ﴿فَارَقُوا﴾ أي: زَايَلوا دِينَهم، وتَرَكوه، وانْصَرَفوا عنه[2].

٢- قراءَةُ ﴿فَرَّقُوا﴾ مِنَ التَّفْريقِ[3].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٠٠).

(٢) قرأ بها حمزة والكسائي. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٥١).
ويُنظر: لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٧٨)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١٥٢).
وفي القراءة بـ (فَارَقُوا) وجهٌ آخر أن (فاعَلَ) بمعنى (فَعَّل) نحو: ضاعَفْتُ الحساب وضعَّفْتُه. يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٢٣٥).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٥١).
ويُنظر: لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٧٨)، ((تفسير القرآن العظيم)) (٦/ ٣٢٦).

أي: إنَّ الَّذين اختلَفوا في دِينِ الله تعالى وفارَقُوه، أو تَشَتَّتوا فيه؛ فأصْبَحوا فِرَقًا وأَحْزابًا وأَدْيانًا؛ كلٌّ منها يزعُمُ أنَّه الحَقُّ؛ تَبَعًا للأَهْواءِ والضَّلالاتِ- فأنت بريءٌ منهم، يا محمَّدُ، وممَّا هم فيه(١).

قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ * فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ * فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ * أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٢-٥٦].

وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾.

أي: إنَّ أَمْرَ هؤلاءِ- الَّذين فارَقوا دِينَهم وفرَّقوه، فكانوا فيه شِيَعًا- ومَصِيرَهم إلى اللهِ تعالى وَحْدَه، ثمَّ يخبِرُهم سبحانه إذا جاؤوه يومَ القيامَةِ بالَّذي كانوا يَعْمَلونه في الدُّنيا، فيَجِدُونَ كُلَّ ما عَمِلوه في كتابٍ، لا يُغَادِرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلَّا أَحْصاها، ويُجازيهم بأَعْمالِهم(٢).

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠-٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦٠١-٦٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٤٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦٠٧).

الفَوائِد التربويَّة:

١- القُرآنُ هُدًى ورحمةٌ؛ فعَلَيْنا اتِّباعُ ما هَدَى إليه، واتِّقاءُ ما نَهى عنه وحَذَّرَ؛ لِتكونَ رَحْمَتُه تعالى مرْجُوَّةً لنا في الدُّنيا والآخِرَة؛ فأكبرُ سَبَبٍ لِنَيْلِ رَحمةِ اللهِ اتِّباعُ هذا القرآنِ، عِلْمًا وعملًا، قال الله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[1].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ فيه تَحْذيرُ المؤمنين مِن الإعْراضِ عن الأعمالِ الصَّالِحَةِ[2].

٣- الإنسانُ يكتَسِبُ الخيرَ بإيمانِه؛ فالطَّاعَةُ والبِرُّ والتَّقْوى إنَّما تَنْفَعُ وتَنْمُو إذا كان مع العَبْدِ الإيمانُ، فإذا خلا القَلْبُ من الإيمانِ لم يَنْفَعْه شَيءٌ مِن ذلك؛ يُرْشِدُ إلى ذلك قَوْلُ اللهِ تعالى: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا﴾[3].

٤- قولُ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ دليلٌ على أنَّ الدِّينَ يَأْمُرُ بالاجْتِماع والائْتِلافِ، ويَنْهى عن التَّفَرُّقِ والاختلافِ في أهْلِ الدِّينِ، وفي سائِرِ مَسائِلِه الأُصُوليَّةِ والفروعِيَّة[4]، فالله تعالى ذكر التفرُّقَ في سِياقِ الذَّمِّ، فيُؤْذِنُ ذلك بأنَّ اللهَ يُحَذِّرُ المُسلمينَ مِن ذلك[5].

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- جَرَتِ العادَةُ أنَّ اللهَ يُنَوِّهُ بالتَّوراةِ والقُرآنِ معًا؛ لأنَّهما أعظَمُ الكُتُبِ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٨٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٨٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٢٨١).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٩٣).

المنزَّلة؛ لأنَّه قبل نُزُولِ القُرآنِ كانت التَّوراةُ أعْظَمَ الكُتُبِ المُنزَّلةِ، وأجمَعَها للأحكام؛ كما قال اللهُ: ﴿وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾، فلمَّا نَزَلَ القُرآنُ كان أشْمَلَ كتابٍ وأَعْظَمَه؛ لأنَّه جَمَعَ اللهُ فيه عُلُومَ الأوَّلينَ والآخِرينَ، وزادَ فيه أَشْياءَ لم تُنْزَلْ على غيرِه؛ ولِذا لَمَّا نَزَلَت التَّوراةُ في قوله: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِيَ أَحْسَنَ﴾ نوَّه بالقُرآنِ العَظيمِ بَعْدَه، فقال: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ ومِثْلُ هذا يَتكَرَّرُ في القُرآنِ، كقَوْلِه في التَّوراةِ: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١] ثم قال: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأنعام: ٩٢] فأَتْبَعَ التَّنويهَ بالتَّوراةِ التَّنويهَ بالقُرآنِ؛ كَقَوْله: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا﴾ يعني: القُرآنَ ﴿كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [هود: ١٧] وكقَولِه: ﴿قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِن قَبْلُ﴾ [القصص: ٤٨] والجِنُّ الَّذين استَمَعوا القرآنَ قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[1] [الأحقاف: ٣٠].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا﴾ لَمَّا أَمَرَ باتِّباعِ الكِتابِ، وكان الإنسانُ رُبَّما تَبِعَه في الظَّاهِرِ، أَمَرَ بإيقاعِ التَّقْوى المُصَحِّحةِ للباطِنِ إيقاعًا عامًّا؛ ولذلك حُذِفَ الضَّميرُ، فقال: ﴿وَاتَّقُوا﴾ أي: ومع ذلك فأَوْقِعوا التَّقْوى[2].

٣- ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * أَنْ تَقُولُوا

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥٢٤، ٥٢٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٢٩).

إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾ في هذه الآياتِ دليلٌ على أنَّ عِلْمَ القُرآنِ أَجَلُّ العُلومِ وأَبْرَكُها وأَوْسَعُها، وأنَّه به تَحْصُل الهِدايَةُ إلى الصِّراطِ المستقيمِ؛ هدايةً تامَّةً لا يُحتاجُ مَعَها إلى تَخَرُّصِ المتكَلِّمينَ، ولا إلى أَفْكارِ المتفَلْسِفينَ، ولا لغيرِ ذلك مِنْ عُلومِ الأَوَّلينِ والآخِرينَ[١].

٤- استُدِلَّ على أنَّ المجوسَ لَيسُوا مِن أَهْلِ الكِتابِ بقَوْلِ اللهِ تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ أي: اليهودِ والنَّصارى؛ فتَبَيَّنَ أنَّه تعالى أَنْزَلَ القرآنَ؛ كراهةَ أنْ يَقُولوا ذلك، ومَنْعًا لأنْ يَقُولوا ذلك، فلو كان قَدْ أُنْزِلَ على أكثَرَ مِنْ طَائِفَتَينِ لكانَ هذا القَوْلُ كَذِبًا، فلا يحتاجُ إلى مانِعٍ مِن قَولِه[٢].

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾، هذا التَّقْسيمُ والتَّنويعُ نَصٌّ صَريحٌ في معناه، فلا يَحْتَمِلُ تأويلَ إتيانِ الرَّبِّ جَلَّ جلالُه بإتيانِ مَلائِكَتِه أو آياتِه[٣].

٦- في قَوْلِه تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ لَمَّا كان هذا وعيدًا للمُكَذِّبينَ بالرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم مُنتظَرًا، وهم يَنْتَظِرونَ بالنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وأَتْباعِهِ قَوارِعَ الدَّهْرِ ومَصائِبَ الأُمورِ؛ قال ﴿قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ فسَتَعْلمونَ أيُّنا أحَقُّ بالأَمْنِ[٤]؟

٧- قولُه تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ فيه دليلٌ لمذْهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ والجماعةِ في إثباتِ الأفعالِ الاختياريَّةِ لِلَّهِ تعالى؛ كالاستواءِ والنُّزولِ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨١).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٢/ ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٣٢٩-٣٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٢).

والإتيانِ لله تبارك وتعالى؛ مِن غيرِ تشبيهٍ له بصِفاتِ المخْلوقينَ[(١)].

٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾، لا يُعارِضُه آيةُ سُورَةِ النِّساءِ: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء: ١٨]؛ لأنَّ مَحْمَلَ آيةِ النِّساءِ على تَعيينِ وَقْتِ فواتِ التَّوبةِ بالنِّسبة للأَحْوالِ الخاصَّةِ بآحادِ النَّاسِ، ومَحْمَلَ آيةِ سُورَةِ الأنعامِ تَعْيينُ وَقْتِ فَواتِ التَّوبَةِ بالنِّسبَةِ إلى النَّاسِ كافَّةً، وهي حالةُ يأسِ النَّاسِ كُلِّهم مِنَ البَقَاءِ[(٢)].

٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ يدلُّ على أنَّ الإيمانَ يَنْفَعُ إذا كان إيمانًا بالغَيْبِ، وكان اختيارًا مِنَ العبدِ، فأمَّا إذا وُجِدَتِ الآياتُ صار الأَمْرُ شهادةً، ولم يَبْقَ للإيمانِ فائدةٌ؛ لأنَّه يُشْبِه الإيمانَ الضَّروريَّ، كإيمانِ الغَريقِ والحَريقِ ونَحْوِهما، مِمَّن إذا رأى الموتَ أقلَعَ عمَّا هو فيه[(٣)].

١٠- كُلُّ مُبتدِعٍ خالَفَ سُنَّةَ رَسُولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، وكَذَّبَ ببعْضِ ما جاءَ به مِنَ الحَقِّ، وابتَدَعَ من الباطِلِ ما لم تَشْرَعْه الرُّسُلُ - فالرَّسولُ بَريءٌ مِمَّا ابتَدَعَه وخالَفَه فيه؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾[(٤)].

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٩٠-١٩١).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٢٨١).
(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٧/ ٣٧١).

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ فيه: تقديمُ المجرورِ على عامِلِه ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ للاهتِمامِ بأَمْرِ البَعْثِ والجَزاءِ(١).

٢- قوله: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

- تَنكير ﴿كِتَابٌ﴾ للتَّعظيمِ، أي: وهذا القرآنُ الذي يُتْلَى عليكم كِتابٌ عظيمُ القَدْرِ(٢).

- قدَّمَ الوصْفَ بالإنزالِ على الوصفِ بالبَركة؛ لأنَّ الكلامَ مع مَن يُنكِرُ رسالةَ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، ويُنكِرُ إنزالَ الكتُبِ الإلهيَّةِ، وكونه مُباركًا عليهم هو وصفٌ حاصلٌ لهم منه، متراخٍ عن الإنزالِ؛ فلذلك تأخَّر الوصْفُ بالبَركة، وتقدَّم الوصفُ بالإنزالِ(٣).

- وكان الوَصْفُ بالفِعْلِ المُسنَد إلى نونِ العَظَمَةِ ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ أَوْلى مِنَ الوَصْفِ بالاسْمِ؛ لِما يَدُلُّ الإسْنادُ إلى اللهِ تعالى مِنَ التَّعْظيمِ والتَّشريفِ، وليس ذلِك في الاسمِ لو كانَ التركيبُ (مُنزَلٌ)، أو (مُنْزَلٌ منَّا)(٤).

- في قَوْلِه: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ وَعْدٌ على اتِّباعِ القُرآنِ الكَريم، وتَعْريضٌ بالوعيدِ بِعَذابِ الدُّنْيا والآخِرَةِ إنْ لم يَتَّبِعوه(٥).

٣- قوله: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ تنوين ﴿بَيِّنَةٌ﴾ للتفخيمِ، وفي التعرُّضِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٧٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ١٨٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٩٤- ٦٩٥).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٦٩٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٧٩).

لِوَصْفِ الربوبيَّة مع الإضافةِ إلى ضَميرِهم في قوله: ﴿رَبِّكُمْ﴾ مزيدُ تأكيدٍ لإيجابِ الاتِّباعِ(١).

٤- قوله: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ تنوينُهما أيضًا للتفخيم؛ عبَّر عن القرآنِ بالبيِّنةِ؛ إيذانًا بكمالِ تَمَكُّنِهم مِن دِراسَتِه، ثمَّ بالهدى والرَّحمةِ؛ تنبيهًا على أنَّه مُشْتَمِلٌ على ما اشتَمَلَت عليه التَّوراةُ مِن هدايةِ النَّاسِ ورَحْمَتِهم(٢).

٥- قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ فيه: وَضْعُ الموصولِ مَوْضِعَ ضميرِهم بطريقِ الالتفاتِ؛ تنصيصًا على اتِّصافهم بما في حَيِّزِ الصِّلَةِ، وإشعارًا بعلَّةِ التَّحكيمِ، وإسقاطًا لهم عن رُتْبَةِ الخِطابِ، والمعنى إنكارُ أنْ يكونَ أحَدٌ أظْلَمَ مِمَّنْ فَعَلَ ذلك أو مُساويًا له(٣).

٦- قوله: ﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا﴾ فيه: وَضْعُ الموصولِ مَوْضِعَ المُضْمَرِ- حيث لم يَقُلْ: سَنَجْزِيهم- لتَحقيقِ مَناطِ الجَزاءِ(٤).

٧- قولُه: ﴿بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ (كَان) هنا مفيدةٌ لِلاسْتِمرارِ، أي: بِصَدْفِهم وإعراضِهم عن الآياتِ إعراضًا مُستمِرًّا(٥).

٨- قوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ...﴾ ﴿هَلْ﴾ للاستِفهامِ الإنكاريِّ، أي: ما يَنظُرون إلَّا أنْ تأتيَهم الملائكةُ...إلخ. والآية استئنافٌ بَيانيٌّ نشأ في قوله قَبْلَه: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٠٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٨٣).

بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾، وهذا الاستئنافُ يَحتمِلُ الوعيدَ والتهديدَ، ويَحتمِلُ التَّهكُّمَ؛ فإنْ كان وعيدًا وتَهديدًا فهو ناشئٌ عن جملة: ﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا﴾؛ لإثارتِه سُؤالَ سائلٍ يقول: متى يكون جزاؤُهم؟ فقيل: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ...﴾.

وإنْ كان تَهكُّمًا بِهم على صَدْفِهم عن الآياتِ التي جاءتْهم، وتَطلُّعهم إلى آياتٍ أعظمَ منها في اعتقادِهم؛ فهو ناشئٌ عن جملة: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾؛ لأنَّه يُثيرُ سؤالَ سائلٍ يقول: ماذا كانوا يَترقَّبون من الآياتِ فوقَ الآياتِ التي جاءتْهم؟ فقيل: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ...﴾[1]!

٩- **قوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾** التَّعبيرُ عنها بالبَعْضِ؛ للتَّهويلِ والتَّفْخيمِ[2].

- وإضافَةُ الآياتِ في الموضِعَينِ إلى اسْمِ الرَّبِّ في قَوْلِه: ﴿آيَاتِ رَبِّكَ﴾ مُنْبِئٌ عن المالِكِيَّة الكُلِّيَّة لذلك، وإضافتُه إلى ضَمِيره صلَّى الله عليه وسلَّم للتَّشْريفِ[3].

١٠- **قوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾** فيه: استئنافٌ بيانيٌّ؛ تذكيرًا لهم بأنَّ الانتظارَ والتَّريُّثَ عن الإيمانِ وَخِيمُ العاقِبَةِ[4].

- قولُه: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ فيه: تَقديمُ المفعولِ في قوله: ﴿نَفْسًا إِيمَانُهَا﴾ ليَتِمَّ الإيجازُ في عَوْدِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٨٣- ١٨٥)، وينظر أيضًا: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٠٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٠٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٨٦).

الضَّمِيرِ[١]، ووَقَعَ في الكلام إيجازُ حَذْفٍ؛ اعتمادًا على القَرينةِ الواضِحَةِ. والتقديرُ: لا ينفَعُ نفسًا غيرَ مؤمنةٍ إيمانُها، أو نفسًا لم تكنْ كسَبَتْ خيرًا في إيمانِها مِن قَبْلُ كَسْبُها[٢].

١١- قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ فيه: استئنافٌ لبيانِ أَحْوالِ أهْلِ الكِتابَيْنِ إِثْرَ بيانِ حَالِ المُشركينَ[٣]، وقد جاء الاستئناف عَقِبَ الوعيدِ كالنَّتيجةِ والفَذْلكة[٤].

١٢- قوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ﴾ فيه: استئنافٌ بيانيٌّ[٥]، وصيغَةُ القَصْرِ؛ لقَلْبِ اعتقادِ السَّائِلِ المترَدِّد؛ أَيْ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ لَا إِلَى الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم ولَا إلى غَيْرِه، وَهذا إِنْذارٌ شَدِيدٌ[٦]، وفيه تَعْزِيةٌ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم[٧].

١٣- قولُه: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ عَبَّرَ عن إظهارِه بالتَّنْبِئَة؛ لِمَا بيْنَهما مِنَ المُلابَسَةِ في أنَّهما سَببانِ للعِلْمِ؛ تنبيهًا على أنَّهم كانوا جاهِلِينَ بحالِ ما ارْتَكَبوه، غافِلِينَ عن سُوءِ عاقِبَتِه[٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٨٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ١٨٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٠٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٩١).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ١٩٢).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٧) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٥٠).
(٨) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٠٦).

الآيات (١٦٠-١٦٥)

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿قِيَمًا﴾: مُسْتقيمًا، أو ثابتًا، أو مُقَوِّمًا لأمورِ مَعاشِهم ومَعادِهم، وأَصْلُ (قوم): يدُلُّ على انْتِصابٍ أو عَزْمٍ(١).

﴿مِلَّةَ﴾: أي: دينَ، وطريقةَ، مشتقَّة من أَمْلَلْتُ (أي أَمْلَيْتُ)؛ لأنَّها تُبنَى على مسموعٍ ومتلوٍّ؛ فإذا أُريدَ الدِّينُ باعتبارِ الدُّعاءِ إليه؛ قيل: (مِلَّة)، وإذا أُريدَ باعتبارِ الطَّاعةِ والانقيادِ له؛ قيل: (دين)(٢).

﴿وَنُسُكِي﴾: وذَبْحي، والنُّسُكُ: العِبادةُ، والذَّبائِحُ، وأَصْلُ (نسك): يدُلُّ على عبادةٍ وتقَرُّبٍ إلى اللهِ تعالى؛ ومنه قيل للعابِدِ: ناسِكٌ(٣).

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٣، ٧٧٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٤٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٤).

﴿رَبًّا﴾: الرَّبُّ: السيِّدُ، والمالِك، والمُصْلِح، والصَّاحِبُ، والمُرَبِّي، والخالِق، والمعبود، وأصْلُه: إصلاحُ الشَّيْءِ والقيامُ عليه(١).

﴿وِزْرَ﴾: الوِزْرُ هو الإثمُ والذَّنْب، والثِّقْلُ والحِمْل أيضًا، وقيل: الوِزْرُ: هو الحِمْلُ الثَّقيلُ مِن الإثمِ، وهو الإثمُ العَظيمُ، وأصلُ (وزر): يدلُّ على مَا حمَلَه الإنسانُ، وعلى الثِّقل في الشَّيء؛ ومنه سُمِّيت الآثامُ أوزارًا؛ لأنَّها أحمالٌ مُثقِلةٌ(٢).

﴿خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾: أي: سُكَّانَ الأرضِ، يَخلُفُ بَعضُكم بَعْضًا، واحِدُهم خَليفَة، والخِلافَةُ النِّيابةُ عن الغَير، خَلَفَ فلانٌ فلانًا: قام بالأَمْرِ عنه، وأَصْلُ (خلف): مجيءُ شَيءٍ بعدَ شيءٍ يقومُ مَقامَه(٣).

﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾: أي: لِيَختبرَكم ولِيَمتحنكم، ويكونُ البلاءُ في الخَيرِ والشَّرِّ، وأَصلُ (بلي) من الامتحانِ، وهو الاخْتبارُ(٤).

مُشْكِلُ الإعْرابِ:

١- قوله ﴿فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾

قولُه تعالى: ﴿فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِها﴾ إنَّما ذكَّر العددَ ﴿عَشْرُ﴾ مع أنَّ المَعْدودَ ﴿أَمْثال﴾ مذكَّر- والقاعدةُ أنَّ العَدَدَ من ثلاثةٍ إلى عشرةٍ يُخالِفُ المعدودَ في

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٨١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٣٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٦٥).

(٢) يُنظر: ((العين)) للخليل بن أحمد (٧/ ٣٨٠)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٩)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٣/ ١٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١/ ٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٤٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٩٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (١/ ١١٢).

التَّذكيرِ والتَّأنيثِ- فلم يَقُلْ: (عَشَرَةُ)؛ وذلك لأوجهٍ؛ منها: أنَّ المذكَّرَ ﴿أَمْثَال﴾[1] اكتَسَبَ من المؤَنَّثِ ﴿ها﴾ التأنيثَ؛ فأُعْطِيَ حُكْمَ المؤَنَّث، ومنها: أنَّه راعَى الموصوفَ المَحذوفَ، والتقديرُ: فله عَشْرُ حَسَناتٍ أمثالِها، ثم حَذَفَ الموصوفُ (حَسَنات) وأقامَ صِفَتَه﴿أمثالها﴾ مقامَه؛ تاركًا العَدَدَ على حالِه[2].

٢- قوله: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾

﴿إلى صِرَاطٍ﴾: جارٌّ ومجرورٌ في مَحلِّ نَصْبٍ: مفعولٌ به ثانٍ لـ (هدى).

﴿دينًا﴾: منصوبٌ على أنَّه بدَلٌ مِنْ محلِّ ﴿إِلَى صِرَاطٍ﴾؛ لأنَّه في مَحَلِّ نَصْبٍ.

﴿قِيَمًا﴾ نَعْتٌ لـ ﴿دِينًا﴾، والقِيَم: مصدرٌ بمعنى القيامِ، وُصِفَ به الدِّينُ مبالغةً؛ كقولنا: رجلٌ عَدْلٌ.

﴿مِلَّةَ﴾ مَنْصُوبةٌ على أنَّها بَدَلٌ مِنْ ﴿دينًا﴾[3].

المعنى الإجمالي:

يخبِرُ تعالى أنَّه من جاءَ يَوْمَ القِيامَةِ بالحَسَنةِ فله عَشْرُ أَمْثالِها، ومَن جاء بالسَّيِّئةِ فلا يُجْزَى إلَّا مِثْلَها، ولا أحَدَ يُظْلَمُ عند الله شيئًا.

ثم أَمَرَ اللهُ نَبِيَّه أن يُعْلِنَ قائِلًا: إنِّي هداني ربِّي إلى طريقٍ واضِحٍ قويمٍ؛ دينًا مستقيمًا قائمًا ثابتًا معتدِلًا، هو شريعةُ إبراهيمَ، المستقيمِ على الحَقِّ، والمائِلِ عن سُبُلِ الضَّلالةِ، وما كان إبراهيمُ عليه السَّلامُ مِنَ المشركينَ.

---

(١) العِبرةُ في المعدودِ بِمُفْرَدِه، ومفرد (أمثال) (مَثَل) وهو مذكَّر.

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٧٨-٢٧٩)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٥٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٢٣٦-٢٣٧).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٧٩)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٥٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٢٣٨).

قل- يا مُحمَّد: إنَّ صَلاتي وذَبْحي وحياتي ومَماتي لِلَّهِ وَحْدَه، لا شَريكَ له، وبِذَلك أُمِرْتُ وأنا أوَّلُ المُسْلمينَ. وقُل أيضًا لهؤلاءِ المُشركينَ: أَغيرَ اللهِ أَتَّخِذُ رَبًّا، وهو جَلَّ وعلا ربُّ كُلِّ شَيءٍ، وما يَكْسِبُ كُلُّ شَخصٍ من الآثامِ فهو عليه، لا يَتَعَدَّى إلى غَيْرِه شيءٌ منه، ولا تَحْمِل نَفْسٌ عن نَفْسٍ شيئًا من الآثامِ، بل كلٌّ يتحَمَّلُ ما ارتَكَبَه من إثْمٍ، ثمَّ إلى اللهِ مَرْجِعُ النَّاسِ أَجمعينَ فيُخْبِرُهم تعالى بما كانوا فيه يَخْتَلِفون.

وهو جلَّ وعلا الذي جعَلَكم خلائِفَ في الأَرْضِ بعد أُمَمٍ أَهْلَكَهم، ورَفَعَ بَعْضَكم فَوْقَ بعضٍ دَرَجاتٍ؛ لِيَختَبِرَكم فيما مَنَحَكم مِن فَضْلِه، وأَوْلاكم مِن نِعَمِه، فيَنْظُرَ كيف تَعملونَ؟ إنَّ رَبَّك سريعُ العِقابِ، وإنَّه لَغفورٌ رحيمٌ.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا أَمَرَ اللهُ تعالى الخَلْقَ بسلوكِ صِراطِه المستقيمِ، ونَهاهم عنِ اتِّباعِ السُّبُل؛ لِئَلَّا تَتَفَرَّقَ بهم عن سَبيلِه، ثم بَيَّنَ أنَّ بَعْضًا منهم لم يَمْتَثِلوا ذلك، بل اتَّبَعوا السُّبُلَ، فتَفَرَّقَت بهم عن سَبيلِه في قولِه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾- بيَّنَ أنَّه جلَّ وعلا بالنِّسبةِ إلى مَن عصاه، فاتَّبَعَ تلك السُّبُل الضَّالَّة، وبالنِّسبةِ إلى مَن أَطاعَه، فاتَّبَعَ ذلك الصِّراطَ المُستقيمَ، أنَّ مُعامَلَتَه للمُحسنينَ في غايةِ الإكرامِ والتَّمامِ والكَمالِ، وللمُسِيئينَ في غايةِ الإنصافِ والعَدَالةِ[1].

وأيضًا على عادةِ القُرآنِ أنَّه إذا أَنْذَر أعقب الإنذارَ بِبشارةٍ لمَن لا يَحِقُّ عليه ذلك الإنذارُ، وإذا بَشَّر أعقب البِشارَة بنذارةٍ لمَن يَتَّصِفُ بضِدِّ ما بُشِّرَ عليه- أنه

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦٠٨).

لَمَّا أَنْذَرَ تعالى وحَذَّرَ من التَّرَيُّث في اكتسابِ الخَيرِ، قبل أن يأتِيَ بَعْضُ آياتِ الله القاهِرَةِ، بقَوْلِه: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ فحَدَّ لهم بذلك حَدًّا هو مِن مَظاهِرِ عَدْلِه، أَعْقَبَ ذلك بِبُشْرى مِن مظاهِرِ فَضْلِه وعَدْلِه، وهي الجزاءُ على الحَسَنَةِ بعَشْرِ أمثالها، والجزاءُ على السَّيِّئةِ بمِثْلِها(١).

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾.

أي: مَنْ وَافَى ربَّه يومَ القيامَةِ بالخَصْلَةِ الحَسَنَةِ التي تُرْضِي اللهَ تعالى، والتي كان يَعْمَلُها في دارِ الدُّنيا؛ سواءٌ كانت حسنَةً قَوْليَّةً أو فِعْليَّةً، ظاهرةً أو باطنةً، متعلِّقةً بحَقِّ الله سبحانه أو حَقِّ خَلْقِه- فَلَه مِنَ الثَّوابِ على أَقَلِّ التَّقديراتِ عَشْرُ حَسَناتٍ؛ كُلُّ حَسَنَةٍ منها مِثْلُ حَسَنَتِه التي جاءَ بها(٢).

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾.

أي: ومَنْ وَافى رَبَّه سبحانه يَوْمَ القيامَةِ بالخَصْلَةِ السَّيِّئةِ التي تَسُوءُ صاحِبَها، فجَزاؤُه سَيِّئةٌ واحِدَةٌ مِثْلُها مِن غَيْرِ مُضاعَفَتِها عليه(٣).

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

أي: والجميعُ لا يُظْلَمون، فلا يُزادُ في سيِّئاتِ المُسيءِ، ولا يُنقَصُ مِن حَسَناتِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٩٤، ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦٠٨-٦٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦-٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦٠٩).

المُحْسِن، وهذا من تمامِ عَدْلِه سبحانَه وإحسانِه، فلا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ[(١)].

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٦١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى انقِسامَ الخَلْقِ إلى مُهْتَدٍ وضَالٍّ، ومُفَرِّقينَ دِينَهم شِيَعًا ومُهْتدينَ- أَمَرَ نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يُصَرِّحَ عَلى رُؤُوسِ الأَشْهادِ أنَّه لم يَتَّبع السُّبُلَ الزَّائغَةَ، ولا الطُّرُقَ الضَّالَّةَ، وأنَّه على الهُدى المستقيمِ، والمَحَجَّة البيضاءِ التي هداه إليها ربُّه؛ فقال سبحانه[(٢)]:

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

أي: قُلْ مُعْلِنًا- يا مُحمَّدُ: إنَّني قد أَنْعَمَ عليَّ رَبِّي؛ بأَنْ أَرْشَدَني ووَفَّقَني لسُلُوكِ الطَّريقِ الواضِحِ القَويمِ، الذي لا اعْوِجاجَ فيه ولا انْحِرافَ[(٣)].

﴿دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٦١﴾.

أي: هداني رَبِّي إلى صراطٍ مُستقيم، وهو دينٌ قائمٌ ثابتٌ معتدلٌ، يتضَمَّنُ العقائِدَ النَّافِعَةَ، والأعمالَ الصَّالِحَةَ، والأَمْرَ بكُلِّ حَسَنٍ، والنهيَ عن كُلِّ قَبيحٍ، ألا وهو شريعةُ إبراهيمَ المستقيمِ على طَريقِ الحَقِّ، والمائِلِ عن طُرُقِ الضَّلالَةِ، مِن أديانِ أَهْلِ الانحرافِ؛ كاليَهودِ والنَّصارى، وما كان مِنَ المشركينَ باللهِ، صَلواتُ اللهِ وسلامُه عليه[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦١٢-٦١٣).

(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦١٣-٦١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤-٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦١٤-٦١٨).

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لما عرَّفه رَبُّه الدِّينَ المستقيمَ، عرَّفه كيف يقومُ به ويُؤَدِّيه[١]، فقال تعالى:

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢)﴾.

أي: قُلْ - يا مُحمَّد - للمشركينَ: إنَّ صلاتي وذَبْحي[٢]، وحياتي ووفاتي[٣]، كلُّ ذلك لله خالِقِ العالَمينَ ومَالِكِهم ومُدَبِّرِهم؛ فهو وَحْدَه المستحِقُّ لِأَنْ يُفْرَدَ له ذلك[٤].

﴿لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)﴾.

أي: لا شَريكَ له في شيءٍ مِن ذلك مِنْ خَلْقِه، بل هو وحدَه الذي له الإخلاصُ في جميعِ ذلك كلِّه، وبذلك الإخلاصِ أَمَرَني ربِّي، وأنا عبدٌ مأمورٌ، عليَّ امتثالُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ١٩١).

(٢) واختار أنَّ النُّسك هنا بمعنى الذَّبح: ابنُ جريرٍ في ((تفسيره)) (١٠/ ٤٦)، وابنُ كثير في ((تفسيره)) (٣/ ٣٨١)، والسعديُّ في ((تفسيره)) (ص: ٢٨٢)، وابن عثيمين في ((تفسير سورة الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٣٢)، ونسبه الشنقيطيُّ لجمهورِ العلماءِ. يُنظر: ((العذب النمير)) (٢/ ٦٢٧).
وقيل: النُّسك هنا أعمُّ، فهو بمعنى العبادةِ، ويدخلُ فيه الذبحُ. يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦٢٧-٦٢٨).

(٣) اختلف المفسِّرون في معنى (مَحْيَايَ وَمَمَاتِي) على أقوال:
فقيل المعنى: أنَّ الذي يحييني ويميتني هو اللهُ تعالى، وأنَّه هو الذي يدبِّر أمري حيًّا وميتًا. وهو في الجملةِ اختيارُ الواحديِّ في ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٣٤٤)، والسعديِّ في ((تفسيره)) (ص: ٢٨٢)، وابنِ عثيمين في ((مجموع الفتاوى والرسائل)) (٩/ ٢٠٨).
وقيل: ﴿وَمَحْيَايَ﴾ أي: ما أعملُه في حياتي، ﴿وَمَمَاتِي﴾ أي: ما أُوصي به بعدَ وفاتي. وهو اختيارُ القرطبيِّ في ((تفسيره)) (٧/ ١٥٢).
وقيل غير ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٢٠١-٢٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٥-٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨١-٣٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٢٠٣).

أَمْرِه، وأنا أوَّلُ المُقِرِّينَ المُذْعِنينَ الخاضِعينَ مِن هذه الأُمَّة لرَبِّه سبحانه[١].

عن عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم ((كان إذا قام إلى الصَّلاةِ، قال: وجَّهتُ وَجْهِيَ للَّذي فطَرَ السَّمواتِ والأَرضَ حنيفًا، وما أنا مِنَ المُشركينَ. إنَّ صَلاتي ونُسُكي ومَحيايَ ومَماتي لله ربِّ العالَمينَ، لا شَريكَ له، وبذلك أُمِرْتُ، وأنا من المسلِمينَ. اللهمَّ أنت الملِكُ، لا إلهَ إلَّا أنت، أنت ربِّي، وأنا عبدُك، ظَلَمْتُ نَفْسي، واعترفتُ بذنبي، فاغْفِرْ لي ذنوبي جميعًا؛ إنَّه لا يغْفِرُ الذُّنُوبَ إلا أنت، واهْدِني لأَحْسَنِ الأخلاقِ، لا يَهْدي لأَحْسَنِها إلا أنت، واصْرِفْ عني سيِّئَها، لا يَصْرِفُ عني سيِّئَها إلَّا أنت، لبَّيك! وسعدَيك! والخيرُ كلُّه في يدَيك، والشرُّ ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركْتَ وتعالَيتَ، أستغْفِرُك وأتوبُ إليك))[٢].

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١٦٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا أَمَرَ تعالى محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّم بالتوحيد المحضِ، وهو أن يقول: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي..﴾ إلى قوله: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ..﴾ أَمَرَه بأن يَذْكُرَ ما يجري مَجْرى الدَّليلِ على صِحَّةِ هذا التوحيدِ، فقال[٣]:

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

أي: قل - يا مُحمَّدُ - لهؤلاءِ المشركينَ: أَسِوَى اللهِ أَتَّخِذُ ربًّا يَسُودُني ويَحْفَظُني

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦٢٩).

(٢) رواه مسلم (٧٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ١٩١).

ويَكْلَؤُني، ويُدَبِّرُ أمري، وهو خالِقُ ومالِكُ ومدَبِّرُ كُلِّ شيءٍ؟ والمعنى: لا يمكِنُ أن أفعَلَ ذلك، فأطلُبَ ربًّا غَيْرَه؛ فهو رَبُّ كُلِّ شيءٍ، وغيرُه مخلوقٌ مَربوبٌ مَملوكٌ له سبحانه وتعالى(١).

﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ﴾.

أي: ما يكسِبُه المرءُ من الآثامِ لا يتعَدَّى منه شيءٌ إلى غيره، فلا تَجْني نفسٌ ذنبًا إلَّا أُخِذَتْ به هي دونَ غيرِها(٢).

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾.

أي: ولا تَحمِلُ نَفْسٌ عن نَفْسٍ شيئًا من الآثامِ، بل كلٌّ يتحَمَّلُ آثامَ نَفْسِه(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ [فاطر: ١٨].

وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [العنكبوت: ١٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦٣٠-٦٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٢٠٦-٢٠٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٨-٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٢٠٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦٣٢).

قال ابنُ جريرٍ: (وإنَّما يعني بذلك المشركينَ الذين أَمَرَ اللهُ نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يقول هذا القَوْلَ لهم، يقول: قل لهم: إنَّا لَسْنَا مأخوذينَ بآثامِكم، وعليكم عقوبةُ إجرامِكم، ولنا جزاءُ أعمالِنا. وهذا كما أمَرَه اللهُ جلَّ ثناؤه في موضِعٍ آخَرَ؛ أن يقول لهم: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]) ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٨-٤٩). وإلى هذا ذهب ابنُ عاشور في ((تفسيره)) (٨-أ/ ٢٠٦-٢٠٧)، والشنقيطي في ((العذب النمير)) (٢/ ٦٣١).

قال السعدي: (كلٌّ عليه وِزرُ نفسِه، وإن كان أحدٌ قد تسبَّب في ضلالِ غيرِه ووزرِه، فإنَّ عليه وزرَ التسبُّبِ مِن غيرِ أن ينقصَ مِن وزرِ المباشِرِ شيءٌ). ((تفسير السعدي)) (٢٨٢).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨].

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

أي: ثمَّ رجوعُكم- أيُّها النَّاسُ- إلى اللهِ تعالى وَحْدَه يومَ القيامَةِ، فيُخْبِرُكم فيه إخبارَ مُجازاةٍ بالذي كُنتم تختلفونَ فيه: مَن كانوا منكم شِيَعًا، وفرَّقوا دينَهم، واتَّبعوا الأهواءَ والضَّلالاتِ، ومن كانوا على الصِّراطِ المستقيمِ، مرجعُهُم جميعًا إلى اللهِ تعالى، فيُبيِّنُ الضَّالَّ من المهْتدِي، ويعامِلُهم بحَسَبِ ما كانوا عليه من هدًى وضلالٍ؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشرٌّ[1].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ * قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبأ: ٢٤ - ٢٦].

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٥)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٩-٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٢-٢٨٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦٣٥).

قال ابن عاشور: (ثمَّ للترتيب الرُّتْبي. وهذا الكلامُ يحتمِلُ أن يكونَ مِن جملةِ القولِ المأمورِ به، فيكون تعقيبًا للمتاركَةِ بما فيه تهديدُهم ووعيدُهم، فكان موقِع ثمَّ؛ لأنَّ هذا الخبَرَ أهَمّ. فالخطابُ في قوله: ﴿إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ﴾ خطابٌ للمُشركينَ، وكذلكِ الضَّميرانِ في قوله: ﴿بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ والمعنى: بما كُنتُم فيه تختلفونَ مع المسلمينَ؛ لأنَّ الاختلافَ واقِعٌ بينهم وبين المُسلمينَ، وليس بينَ المُشركينَ في أنفُسِهم اختلاف. فأدمَجَ الوعيدَ بالوعيد. وقد جعلوا هذه الجملة مع التي قبلها آيَةً واحدةً في المصاحف. ويَحتمِلُ أن يكون المقولُ قد انتهى عند قوله: ﴿وِزْرَ أُخْرَى﴾ فيكون قوله: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ﴾ استئنافَ كلامٍ من الله تعالى خطابًا للنبي صلى الله عليه وسلم، وللمعاندينَ له. و﴿ثُمَّ﴾ صالحة للاستئنافِ؛ لأنَّ الاستئنافَ مُلائِمٌ للترتيب الرُّتْبي، والكلام وعيدٌ ووعد أيضًا، ولا ينافي ذلك أن تكونَ مع التي قبلها آيَةً واحدةً) ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٢٠٨).

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: واللهُ تعالى أهْلَكَ مَن كان قَبْلَكم مِنَ الأُمَم، ثُمَّ أنشأكم مِن بَعْدِهم، فجَعَلَكم خلائِفَ في الأَرْضِ، تَخْلُفونهم فيها، جيلًا بعدَ جيلٍ، وقرنًا بعدَ قَرْنٍ[١].

﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾.

أي: وخالَفَ بين أَحْوالِكم، وفاوَتَ بينكم، فجَعَلَ بَعْضَكم فوقَ بعضٍ، في الأرزاقِ والأخلاقِ، والقوَّة والعافِيَة، والمَحاسِن والمساوِئ، والأشكالِ والألوانِ وغيرها، وله الحِكْمَةُ في ذلك[٢].

﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾.

أي: لِيَخْتَبِرَكم فيما خوَّلكم مِن فَضْلِه، ومَنَحَكم مِن نِعَمِه؛ فينظُرَ كيف تعملونَ[٣].

عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إنَّ الدُّنيا حُلوةٌ خَضِرةٌ[٤]، وإنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكم فيها، فينظُر كيف تعملونَ، فاتَّقُوا الدُّنيا، واتَّقُوا النِّساءَ؛ فإنَّ أوَّلَ فتنةِ بني إسرائيلَ كانت في النِّساءِ))[٥].

﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾.

مُناسَبَتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الغالِبُ على فواصِلِ الآياتِ قَبْلَها هو التَّهديدَ؛ بَدَأَ بِقَوْله[٦]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠-٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٥).

(٤) حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ: أي: غَضَّةٌ ناعِمةٌ طيِّبةٌ، مُزَيَّنةٌ في عُيونِكم وقُلوبِكم، وإنَّما وَصَفَها بالخَضِرَة؛ لأنَّ العَرَبَ تُسَمِّي الشَّيءَ النَّاعِمَ خَضِرًا، أو لتَشَبُّهِها بالخضْرَواتِ في سُرعةِ زَوالِها. يُنظر: ((المعلم بفوائد مسلم)) للمازري (٢/ ٣٣)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٥/ ٢٠٤٤).

(٥) رواه مسلم (٢٧٤٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٠٥).

﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾.

أي: إنَّ ربَّك- يا مُحمَّدُ- سريعٌ عقابُه لِمَن عَصاه، وخالَفَ رُسُلَه، وكذَّب بآياتِه[١].

﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: وإنَّه لساتِرٌ للذُّنوبِ، متجاوِزٌ عن العُيُوبِ لِمَن آمَنَ به، واتَّبَع رُسُلَه، وعَمِلَ صالحًا، وتاب، وإليه أناب، رحيمٌ به سبحانه[٢].

الفَوائِد التربويَّة:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ فيه أنَّ الجزاءَ على الأعمالِ في الآخِرَةِ يكون على السَّيِّئةِ بِمِثْلِها، وعلى الحَسَنةِ بعَشْرِ أمثالِها؛ فضلًا من الله ونعمةً، جل ثناؤه، وعَظُمَت نَعْماؤه، فيا خَسارةَ مَن غَلَبَت سيِّئاتُه حسناتِه المضاعَفَةَ[٣]!

٢- الإسلامُ دينُ التَّوحيدِ والإخلاصِ لله وَحْدَه في العبادَةِ، بالتجَرُّدِ الكامِلِ لله تعالى بكُلِّ خالِجَةٍ في القَلْبِ، وبكُلِّ حركةٍ في الحياة والممات، بالشَّعائِرِ التعبُّديَّة، وبالحياةِ الواقعيَّة، وبالمَماتِ وما وراءه؛ يُرْشِدُ إلى ذلك قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ * قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ إنَّه الإسلامُ الكامِلُ الذي لا يَسْتَبْقي في النَّفْسِ ولا في الحياةِ بَقِيَّةً لا يُعَبِّدُها للهِ تعالى[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢٥٢).

(٤) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٢٤٠-١٢٤١).

٣- قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يدلُّ على أنَّ الدِّينَ لا بدَّ أنْ يُؤدَّى مع الإخلاصِ، وأكَّدَه بقَوْلِه جلَّ وعلا: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ وهذا يدلُّ على أنَّه لا يَكْفي في العباداتِ أن يُؤْتَى بها كيفَ كانت، بل يجبُ أنْ يُؤتى بها مع تمامِ الإخلاصِ[(١)].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ موقِعُ هذه الآيةِ عَقِبَ قولِه: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ﴾ فيه تذكيرٌ بالنِّعمةِ بعد الإنذارِ بِسَلْبِها، وتحريضٌ على تدارُكِ ما فات، وهو يَفْتَحُ أَعْيُنَهم للنَّظَرِ في عواقِبِ الأُمَمِ، وانقراضِها وبقائِها[(٢)].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ فيه تذكيرٌ بنعمةٍ تتضَمَّنُ عبرةً وموعظةً: وذلك أنَّه لَمَّا جَعَلَهم خلائِفَ غَيْرِهم فقد أنشَأَهم وأَوْجَدَهم على حينِ أَعْدَم غيرَهم، فهذه نعمةٌ؛ لأنَّه لو قَدَّرَ بقاءَ الأُمَم التي قَبْلَها لَمَا وُجِدَ هؤلاء، وفيه تذكيرٌ بعظيمِ صُنْعِ اللهِ ومِنَّتِه لاستدعاءِ الشُّكْرِ، والتَّحذيرِ مِنَ الكُفْرِ[(٣)].

٦- أنَّ للهِ تعالى سُنَنًا في اسْتِخلافِ الأُمَمِ واختبارِهم بالنِّعَمِ والنِّقَم؛ ليُظْهِرَ أيُّهم أحسَنُ عملًا، فيترتَّبَ عليه الجزاءُ في الدَّارينِ؛ يُبَيِّنُ ذلك قولُه تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، فرَفَعَ بَعْضَهم فوقَ بعضٍ دَرَجاتٍ: في الخَلْقِ والخُلُقِ، والغِنى والفَقْر، والقُوَّةِ والضَّعْف، والعِلْمِ والجَهْلِ، والعِزِّ والذُّلِّ؛ ليَخْتَبِرَهم فيما أَعْطاهم، ليَظْهَرَ المطيعُ منهم والعاصي[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ١٩١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٢١٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢٢١-٢٢٢).

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ مُفَصِّلَةٌ لِمَا أُجْمِلَ في الآيةِ الأخرى، وهي قوله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾[1] [النمل: ٨٩].

٢- قولُه تعالى في سورةِ النِّساءِ: ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾ الآية [النساء: ٤٠]، لم يُبَيِّنْ في هذه الآيةِ الكريمةِ أَقَلَّ ما تُضاعَفُ به الحسَنةُ ولا أكثَرَه، ولكِنَّه بَيَّنَ في هذا الموضِعِ من سورةِ الأنعامِ أنَّ أَقَلَّ ما تُضاعَفُ به عَشْرُ أمثالِها، وهو قولُه: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾. وبَيَّنَ في موضعٍ آخَرَ أنَّ المضاعَفَةَ ربَّما بَلَغَتْ سَبْعَمائةِ ضِعْفٍ إلى ما شاءَ الله، وهو قولُه: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[2] [البقرة: ٢٦١].

٣- قال تعالى: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ مِن هنا يَتَبيَّن أنَّ ما يَجْرِي على أَلْسِنَةِ العامَّةِ: أنَّ السَّيِّئاتِ تُضاعَفُ في مكَّةَ كما تُضاعَفُ الحَسَناتُ؛ أنَّ ذلك الإطلاقَ لا يجوزُ؛ لأنَّ مُضاعَفَةَ السَّيِّئاتِ ممنوعةٌ قطعًا؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ وهو نصٌّ صريحٌ قرآنيٌّ في أنَّ السَّيِّئاتِ لا تُضَاعَفُ، ولكِنَّ السَّيِّئَةَ في حَرَمِ مكَّةَ مثلًا تَعْظُمُ؛ لأنَّ السَّيِّئة تَعْظُم بِحَسَب عِظَمِ الزَّمانِ والمَكانِ، فإذا عَظُمَتِ السَّيئةُ عَظُمَ جَزاؤُها؛ لأنَّ الجَزاءَ بِحَسَبِ الذَّنْبِ: إذا عَظُمَ الذَّنْبُ عَظُمَ الجَزاءُ، وإذا صَغُرَ الذَّنْبُ صَغُرَ الجَزاءُ، فهو مِن عِظَمِ الذَّنْبِ؛ وعِظَمُ الجزاءِ يكونُ تبعًا لعِظَمِ الذَّنْبِ لا من المضاعَفَةِ؛ لأنَّ السَّيئاتِ لا تُضاعَفُ، ولكنَّها تَعْظُمُ، وتكونُ أكبَرَ في زمانٍ من زمانٍ، وفي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٧٨).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٤١).

مَحلٍّ مِن مَحلٍّ؛ ولذا قال في حَرَمِ مكَّةَ: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: آية ٢٥] وقال في الأشهر الحرم: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة: آية ٣٦] مع أنَّ ظُلْمَ النَّفْسِ في غَيْرِهِنَّ حرامٌ[1].

٤- قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فيه إيذانٌ بانتهاءِ السُّورَةِ؛ لأنَّ الواعِظَ والمُناظِرَ؛ إذا أشْبَعَ الكلامَ في غَرَضِه، ثم أخَذَ يُبَيِّنُ ما رَضِيَه لنَفْسِه وما قَرَّ عليه قَرارُه؛ عَلِمَ السَّامِعُ أنَّه قد أخَذَ يَطْوِي سِجِلَّ المُحاجَّةِ؛ ولذلك غَيَّرَ الأُسْلوبَ، فأَمَرَ الرَّسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم بأنْ يَقولَ أشياءَ يُعْلِنُ بها أصولَ دِينِه، وتَكَرَّرَ الأمرُ بالقَوْلِ ثلاثَ مَرَّاتٍ؛ تَنْويهًا بالمَقولِ[2].

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾، عبَّرَ بملَّةِ إبراهيمَ؛ لأنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلام هو النبيُّ المُرسَل الذي أجمَعَ على الاعترافِ بفَضْلِه، وصِحَّة دِينِه، وحُسْنِ هَدْيِه؛ العَرَبُ ومَنْ حَوْلَهم؛ مِنْ أَهْلِ الكتابِ مِنَ اليهودِ والنَّصارى، وكلٌّ يدَّعِي الاهتداءَ بِهُداه؛ ففي ذِكْرِه استمالةٌ للعَرَبِ، ثمَّ لأَهْلِ الكِتابِ إلى الإسلامِ؛ ببيانِ أنَّ أساسَه، وقواعِدَ عقائِدِه، ودعائِمَ فضائِلِه، هي ما كان عليه إبراهيمُ المتَّفَقُ على هُداه وجلالَتِه[3].

٦- قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هذا عمومٌ، ثم خَصَّصَ سبحانه من ذلك أشْرَفَ العباداتِ، فقال: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ أي: ذَبْحي، وذلك لشَرَفِ هاتينِ العِبادَتَينِ وفَضْلِهما، ودلالَتِهما على مَحَبَّةِ اللهِ تعالى، وإخلاصِ الدِّينِ له، والتَّقَرُّبِ إليه بالقَلْبِ واللِّسانِ والجَوارِحِ، وبالذَّبْح

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦١٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٩٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢١٢).

الذي هو بَذْلُ ما تُحِبُّه النَّفْسُ من المالِ؛ لِمَا هو أحَبُّ إليها، وهو الله تعالى، ومَن أَخْلَصَ في صلاتِه ونُسُكِه؛ استَلْزَمَ ذلك إخلاصَه لله في سائِرِ أعمالِه(١).

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ فيه عَدَمُ نفوذِ تَصْريفِ شخْصٍ على آخَرَ إلَّا ما قام عليه الدَّليلُ(٢).

٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ يُبيِّنُ أنَّ الجزاءَ عند الله تعالى على الأعمالِ مبنيٌّ على عَدَمِ انتفاعِ أحدٍ أو مؤاخَذَتِه بعملِ غَيْرِه، وذلك مِمَّا يهْدِمُ أساسَ الشِّرْكِ الذي هو الاتِّكالُ على الوُسَطاءِ بينَ اللهِ والنَّاسِ في غُفرانِ ذُنُوبِهم، وقضاءِ حاجَتِهم(٣).

٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ أصلٌ في أنَّه لا يُؤخَذُ أحدٌ بِفِعْلِ أحَدٍ(٤)، وهي قاعدةٌ مِن أُصُولِ دِينِ الله تعالى الذي بَعَثَ به جميعَ رُسُلِه، وهي مِنْ أَعْظَمِ أركانِ الإصلاحِ للبَشَر في أفرادِهم وجَماعاتِهم؛ لأنَّها هادِمَةٌ لأساسِ الوَثَنِيَّة، وهاديَةٌ للبَشَرِ إلى ما تتوقَّفُ عليه سعادَتُهم الدُّنْيويَّة والأُخْرويَّة، (وهو عَمَلُهم)(٥).

١٠- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ لا يُعارِضُه قولُه: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾؛ فالآيةُ الأولى محمولةٌ على من لم يَتَسَبَّبْ في الفِعْلِ بِوَجْهٍ، وما عداها محمولٌ على من تَسَبَّبَ فيه بوجْهٍ؛ كالأَمْرِ به(٦).

١١- قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٢).
(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٢٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢١١).
(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٢٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢١٧).
(٦) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ١٨٢).

بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يَظهَرُ أنَّ هذا دليلٌ على إمكانِ البَعْثِ، وعلى وُقُوعِه؛ لأنَّ الذي جَعَلَ بعضَ الأَجيالِ خلائِفَ لِمَا سَبَقَها، فعَمَروا الأَرْضَ جِيلًا بعدَ جيلٍ، لا يُعْجِزُه أن يَحْشُرَها جميعًا بعد انقضاءِ عالَمِ حياتِها الأُولى، ثمَّ إنَّ الذي دَبَّرَ ذلك وأتقَنَه لا يليقُ به ألَّا يُقيمَ بينهم ميزانَ الجزاءِ على ما صَنَعوا في الحياةِ الأُولى؛ لئلَّا يَذْهَبَ المعتَدُونَ والظَّالِمونَ فائزينَ بما جَنَوْا، وإذا كان يُقيمُ ميزانَ الجزاءِ على الظَّالِمينَ، فكيف يَترُكُ إثابَةَ المحسنينَ؟! وقد أشارَ إلى الشِّقِّ الأَوَّلِ قَوْلُه: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ﴾، وأشار إلى الشِّقِّ الثَّاني قَوْلُه: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتاكُمْ﴾. ولذلك أعقبه بتذييلِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1].

١٢- مناسبةُ ختمِ الآيةِ بقولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ العِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ هو أنه لَمَّا كان الابتلاءُ يَظْهَرُ به المسيءُ والمحسِنُ، والطَّائِعُ والعاصي؛ لذا ذَكَرَ هذينِ الوَصْفَينِ، وخَتَمَ بهما[2].

بلاغة الآيات:

١- قوله: **﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾** استئنافٌ ابتدائيٌّ، مُبَيِّنٌ لمقاديرِ أَجْزِيَةِ العاملينَ، وقد صُدِّرَ ببيانِ أجزِيَةِ المحسنينَ المدلولِ عليهم بذِكْرِ أضدادِهم[3]، والكلامُ تذييلٌ جامِعٌ لأحوالِ الفريقينِ اللَّذينِ اقتضاهما قَوْلُه: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِها خَيْرًا﴾. وهذا بيانٌ لبعْضِ الإجمالِ الذي في قوله: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا...﴾[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٢٠٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٠٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٩٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٩٥).

٢- قوله: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ إنَّما قال في جانِبِ السَّيِّئةِ: ﴿فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ بصيغَةِ الحَصْرِ؛ لأجْلِ ما في صِيغَتِه مِن تَقْديمِ جانِبِ النَّفيِ، اهتمامًا به؛ لإظهارِ العَدْلِ الإلهيِّ؛ فالحَصْرُ حقيقيٌّ[1].

٣- قوله: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ للانتقالِ مِن مجادَلَةِ المشركينَ، وما تَخَلَّلَها، إلى فَذْلَكَةِ ما أَمَرَ به الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم في هذا الشَّأنِ، غَلْقًا لبابِ المجادَلَةِ مع المُعْرِضينَ[2].

- وفيه: تصديرُ الجملةِ بقوله: ﴿إنني﴾؛ لإظهارِ كَمالِ الاعتناءِ بِمَضْمونِها. والتعَرُّضُ لعُنوانِ الربوبيَّةِ مع الإضافَةِ إلى ضَميرِه صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لِمَزيدِ تَشْريفِه[3].

- وقد أسنَدَ الهدايةَ إلى رَبِّه في قَوْلِه: ﴿هَدَانِي رَبِّي﴾ ليدُلَّ على اختصاصِه بعبادَتِه إيَّاه[4]، وتعريضًا بالمُشركينَ الَّذين أضَلَّهم أربابُهم، ولو وَحَّدُوا الرَّبَّ الحقيقَ بالعبادَةِ لهَداهم[5].

- وقوله: ﴿هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا﴾ شُبِّهَتْ هيئةُ الإرشادِ إلى الحَقِّ المبَلِّغِ إلى النَّجاة بهيئةِ مَنْ يَدُلُّ السَّائِرَ على الطَّريقِ المبَلِّغةِ للمقصودِ[6]، والمناسبةُ بين الهدايةِ وبَيْنَ الصِّراطِ تامَّةٌ؛ لأنَّ حقيقةَ الهدايةِ التَّعريفُ بالطَّريقِ، وحقيقةَ الصِّراطِ الطَّريقُ الواسِعَةُ[7].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٩٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ١٩٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٠٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٠٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٩٨).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قوله: ﴿قِيَمًا﴾ مصدرٌ نُعِتَ به مبالغةً؛ فهو وصْفٌ للدِّينِ بمصدَرِ القيامِ، المقصود به كفايةُ المصلحةِ[1].

٤- قوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ استئنافٌ يتنزَّلُ منزلةَ التفريعِ عن الأوَّلِ، إلَّا أنَّه استُؤْنِفَ للإشارةِ إلى أنَّه غَرَضٌ مُستقِلٌّ مهِمٌّ في ذاتِه، وإن كان متفرِّعًا عن غيره، وحاصِلُ ما تضمَّنه هو الإخلاصُ لله في العبادَةِ[2].

- وقيل افتُتِحَتْ جملةُ المقولِ بحرفِ التوكيدِ في قوله: ﴿إِنَّ صَلَاتِي﴾ للاهتمامِ بالخبَرِ ولتحقيقِه[3].

- وجَعَلَ صلاتَه لله دون غيرِه في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ تعريضًا بالمشركينَ؛ إذ كانوا يسجُدونَ للأصنامِ[4].

٥- قوله: ﴿وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾ تقديمُ الجارِّ والمجرورِ للاهتمامِ بالمشارِ إليه[5].

٦- قوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾ استئنافٌ مفتَتَحٌ بالأمْرِ بالقَوْلِ، يتنزَّلُ منزلةَ النتيجةِ لِمَا قبله[6]، والاستفهامُ في قوله: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ﴾ إنكارٌ عليهم؛ لأنَّهم يرغبونَ أن يَعتَرِفَ بربوبيَّةِ أصنامِهم[7].

- وقد قُدِّمَ المفعولُ ﴿غَيْرَ﴾ على فِعْلِه ﴿أَبْغِي﴾؛ لأنَّه المقصودُ من الاستفهامِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ١٩٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٢٠٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ٢٠١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ٢٠٤).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-أ/ ٢٠٥).
(٧) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٢٠٦).

الإنكاريِّ، لأنَّ محلَّ الإنكارِ هو أن يكونَ غيرُ الله يُبتغَى له ربًّا[١].

٧- قوله: ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ جملةُ حالٍ، مؤكِّدةٌ للإنكارِ[٢].

٨- قوله: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ على القولِ بأن هذا الكلامَ من جملةِ القَوْلِ المأمورِ به، فيكون تعقيبًا للمُتاركةِ بما فيه تهديدُهم ووعيدهم[٣].

- قوله: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ﴾ تلوينٌ للخِطابِ، وتوجيهٌ له إلى الكُلِّ؛ لتأكيدِ الوَعْدِ، وتشديدِ الوعيد[٤].

٩- قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ جاء قولُه: ﴿خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ بلفظِ التَّعريفِ بالإضافَةِ هنا، وقال في «فاطر» ﴿خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالتَّنكيرِ؛ وذلك أنَّ آيَةَ الأنعامِ هنا تقَدَّمَها ما هو مِن سياقِ النِّعَم عليهم؛ من قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ فناسَبَ الخطابَ لهم في ذلك بلَفْظِ التَّعريفِ الدَّالِّ على أنَّهم خُلفاؤها المالكونَ لها، وفيه من التَّفخيمِ لهم ما ليس في آيَةِ فاطِرٍ؛ لأنَّه ورد في آية فاطر نكرةً، فقال: خلائِفَ فيها، فليس فيه من التمَكُّنِ والتصَرُّفِ ما في قَوْلِه تعالى: ﴿خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾[٥].

١٠- قوله: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ فيه: الكنايةُ عن الشَّرَفِ والفَضْلِ، وهذا التفاوُتُ ليس ناشئًا عن عَجْزٍ عن المساواةِ بينهم، ولكنْ للابتلاءِ والامتحانِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٢٠٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٠٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-أ/ ٢٠٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٠٧).
(٥) يُنظر: ((كشف المعاني في المتشابه من المثاني)) لابن جماعة (ص: ٣٠٣).
(٦) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ٢٩١).

- وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ فيه: تجريدُ الخطابِ لرَسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، مع إضافَةِ اسمِ الرَّبِّ إلى ضميرِه صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لإبرازِ مزيدِ اللُّطْفِ به صلَّى الله عليه وسلَّم[(١)].

١١- قَالَ سبحانه هنا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ بلامٍ واحدةٍ في كلمةِ ﴿لَغَفُورٌ﴾، وقال في سورةِ الأعرافِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وإنَّه لَغَفُورٌ رحيمٌ﴾ باللَّامِ في الجملتينِ؛ لأنَّ ما هنا وَقَعَ بعد قوله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾، وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾؛ فأتى باللَّامِ المؤكِّدة في الجملةِ الثَّانية فقط؛ ترجيحًا للغُفرانِ على سُرعةِ العِقابِ. وما هناك وَقَعَ بعد قَوْلِه: ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾، وقوله: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ فأتى باللَّامِ في الجُملَةِ الأولى؛ لمناسَبَةِ ما قبلها، وفي الثَّانيةِ تَبَعًا للَّامِ في الأولى[(٢)].

وقيل: الفَرْقُ بينَ هذه الآيةِ وآيةِ الأعرافِ- حيثُ أتى هناك باللَّامِ، فقال ﴿لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ دون ما هنا- أنَّ اللَّامَ تُفيدُ التَّوكيدَ، فأفادَتْ هناك تأكيدَ سُرعةِ العِقابِ؛ لأنَّ العِقابَ المذكورَ هناك عقابٌ عاجِلٌ، وهو عقابُ بني إسرائيلَ بالذُّلِّ والنِّقْمةِ، وأداءِ الجِزْيَةِ بعد المَسْخِ؛ لأنَّه في سِياقِ قَوْلِه: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [الأعراف: ١٦٧]، فتأكيدُ السُّرعةِ أفادَ بيانَ التَّعجيلِ، وهو مناسِبٌ، بخلافِ العِقابِ المذكورِ هنا؛ فإنَّه آجِلٌ بدليلِ قَوْلِه: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٤] فاكتفى فيه بتأكيدِ (إنَّ)، ولَمَّا اختُصَّتْ آيةُ الأعرافِ بزيادةِ العذابِ عاجلًا اختُصَّتْ بزيادةِ التَّأكيدِ لَفْظًا بـ «اللَّامِ»[(٣)].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ١٨٣-١٨٤).

(٣) يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٤/ ٦٥).

تمَّ بحمدِ الله المجلَّدُ الخامسُ
ويليه المجلَّدُ السَّادسُ، وأوَّلُه
تفسيرُ سورةِ الأعرافِ

الفهرس

الفهرس

سُورةِ الأنعام ٧
أسماءُ السُّورة ٧
فَضائِلُ السُّورةِ وخصائِصُها ٧
بيانُ المَكيِّ والمَدنيِّ ٧
مَقاصِدُ السُّورةِ ٨
موضوعاتُ السُّورةِ ٨
الآيات (١ - ٣) ١١
غريبُ الكَلِماتِ ١١
المَعنَى الإجماليُّ ١٢
تفسير الآيات ١٢
الفَوائِدُ التَّربويَّة ١٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف ١٦
بَلاغةُ الآياتِ ٢١
الآيات (٤ - ٦) ٢٨
غريبُ الكَلِماتِ ٢٨
مُشكِلُ الإعرابِ ٢٩
المَعنَى الإجماليُّ ٣٠
تَفسيرُ الآياتِ ٣١
الفَوائِدُ التَّربويَّة ٣٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف ٣٦
بَلاغةُ الآياتِ ٣٩
الآيات (٧ - ١١) ٤٢
غريبُ الكَلِماتِ ٤٢
مُشكِلُ الإعرابِ ٤٣
المَعنَى الإجماليُّ ٤٣
تَفسيرُ الآياتِ ٤٤
الفَوائِدُ التَّربويَّة ٤٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف ٤٩
بَلاغةُ الآياتِ ٥٤
الآيتان (١٢ - ١٣) ٥٧
غريبُ الكَلِماتِ ٥٧
مُشكِلُ الإعرابِ ٥٧
المَعنَى الإجماليُّ ٥٧
تَفسيرُ الآيتين ٥٨
الفَوائِدُ التَّربويَّة ٦٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف ٦٢
بَلاغةُ الآيتينِ ٦٥
الآيات (١٤ - ١٦) ٧١
غريبُ الكَلِماتِ ٧١
مُشكِلُ الإعرابِ ٧٢
المَعنَى الإجماليُّ ٧٣
تَفسيرُ الآياتِ ٧٣
الفَوائِدُ التَّربويَّة ٧٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف ٧٨
بَلاغةُ الآياتِ ٨٠
الآيات (١٧ - ١٩) ٨٤
غريبُ الكَلِماتِ ٨٤
مُشكِلُ الإعرابِ ٨٥

المَعنَى الإجماليُّ.................... ٨٥
تَفسيرُ الآياتِ ٨٦
الفَوائِدُ التَّربويَّة.................... ٩٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف ٩٣
بَلاغةُ الآياتِ.................... ٩٦
الآيات (٢٠ – ٢٤) ١٠١
غريبُ الكَلِماتِ.................... ١٠١
مُشكِلُ الإعرابِ ١٠٢
المَعنَى الإجماليُّ.................... ١٠٣
تَفسيرُ الآياتِ ١٠٤
الفَوائِدُ التَّربويَّة.................... ١٠٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف ١١٠
بَلاغةُ الآياتِ.................... ١١٤
الآيتان (٢٥-٢٦).................... ١٢٠
غريبُ الكَلِماتِ.................... ١٢٠
المَعنَى الإجماليُّ.................... ١٢١
تَفسيرُ الآيتين.................... ١٢١
الفَوائِدُ التَّربويَّة.................... ١٢٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف ١٢٦
بَلاغةُ الآيتينِ ١٢٨
الآيات (٢٧ – ٣٢).................... ١٣٢
غريبُ الكَلِماتِ.................... ١٣٢
مُشكِلُ الإعرابِ ١٣٣
المَعنَى الإجماليُّ.................... ١٣٦
تَفسيرُ الآياتِ ١٣٧
الفَوائِدُ التَّربويَّة.................... ١٤٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف ١٤٥
بَلاغةُ الآياتِ.................... ١٤٩
الآيات (٣٣ – ٣٥).................... ١٦٠
غَريبُ الكَلِماتِ.................... ١٦٠
المعنى الإجماليُّ.................... ١٦١
تفسيرُ الآياتِ ١٦٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ.................... ١٦٧
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ١٦٩
بلاغةُ الآياتِ.................... ١٧٥
الآيات (٣٦ – ٣٩).................... ١٨٢
غَريبُ الكَلِماتِ.................... ١٨٢
المعنى الإجماليُّ.................... ١٨٣
تفسيرُ الآياتِ ١٨٣
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ.................... ١٩٠
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ١٩١
بلاغةُ الآياتِ.................... ١٩٥
الآيات (٤٠ – ٤٥).................... ٢٠٣
غَريبُ الكَلِماتِ.................... ٢٠٣
مُشْكِل الإعراب ٢٠٤
المعنى الإجماليُّ.................... ٢٠٥
تفسيرُ الآياتِ ٢٠٦
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ.................... ٢١٥
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٢١٩
بلاغةُ الآياتِ.................... ٢٢٥
الآيات (٤٦ – ٥٠).................... ٢٣٢
غَريبُ الكَلِماتِ.................... ٢٣٢

المعنى الإجماليُّ ٢٣٣
تفسيرُ الآياتِ ٢٣٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٢٤٠
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٤٣
بلاغةُ الآياتِ ٢٥٢
الآيات (٥١ - ٥٥) ٢٦٣
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٦٣
مشكل الإعراب ٢٦٤
المعنى الإجماليُّ ٢٦٦
تفسيرُ الآياتِ ٢٦٧
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٢٧٦
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٧٧
بلاغةُ الآياتِ ٢٨٣
الآيات (٥٦ - ٥٨) ٢٩٠
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٩٠
المعنى الإجماليُّ ٢٩٠
تفسيرُ الآياتِ ٢٩١
الفَوائِد التربويَّة ٢٩٧
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٩٧
بلاغةُ الآياتِ ٢٩٩
الآيات (٥٩ - ٦٢) ٣٠٤
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٠٤
مشكل الإعراب ٣٠٥
المعنى الإجماليُّ ٣٠٥
تفسيرُ الآياتِ ٣٠٦
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٣١٣
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٣١٥
بلاغةُ الآياتِ ٣٢١
الآيات (٦٣ - ٦٧) ٣٢٦
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٢٦
المعنى الإجماليُّ ٣٢٧
تفسيرُ الآياتِ ٣٢٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٣٣٤
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٣٥
بلاغةُ الآياتِ ٣٣٧
الآيات (٦٨ - ٧٠) ٣٤١
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٤١
مُشكِلُ الإعرابِ ٣٤٢
المعنى الإجماليُّ ٣٤٣
تَفْسيرُ الآياتِ ٣٤٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٣٤٧
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٤٩
بلاغةُ الآياتِ ٣٥١
الآيات (٧١ - ٧٣) ٣٥٥
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٥٥
مشكل الإعراب ٣٥٦
المعنى الإجماليُّ ٣٥٦
تفسيرُ الآياتِ ٣٥٧
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٣٦١
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٦٣
بلاغَةُ الآياتِ ٣٦٥
الآيات (٧٤ - ٧٩) ٣٧٠

غَريبُ الكَلِماتِ.................. ٣٧٠
المعنى الإجماليُّ.................. ٣٧١
تفسيرُ الآياتِ ٣٧٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ.................. ٣٨٠
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٨٠
بلاغَةُ الآياتِ.................. ٣٨٤
الآيات (٨٠ - ٨٣).................. ٣٨٨
غَريبُ الكَلِماتِ.................. ٣٨٨
مُشْكِلُ الإعرابِ ٣٨٩
المعنى الإجماليُّ.................. ٣٩٠
تفسيرُ الآياتِ ٣٩٠
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ.................. ٣٩٥
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٩٥
بلاغَةُ الآياتِ.................. ٣٩٩
الآيات (٨٤ - ٩٠).................. ٤٠٦
غَريبُ الكَلِماتِ.................. ٤٠٦
المعنى الإجماليُّ.................. ٤٠٧
تفسيرُ الآياتِ ٤٠٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ.................. ٤١٦
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٤١٧
بلاغَةُ الآياتِ.................. ٤٢٤
الآيتان (٩١-٩٢) ٤٢٩
غَريبُ الكَلِماتِ.................. ٤٢٩
المعنى الإجماليُّ.................. ٤٣٠
تفسيرُ الآيتينِ.................. ٤٣٠
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ.................. ٤٣٤
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٣٥
بلاغَةُ الآيتينِ.................. ٤٣٧
الآيتان (٩٣-٩٤) ٤٤٢
غَريبُ الكَلِماتِ.................. ٤٤٢
مُشْكِلِ الإعرابِ ٤٤٣
المعنى الإجماليُّ.................. ٤٤٣
تفسيرُ الآيتينِ.................. ٤٤٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ.................. ٤٤٩
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٥٠
بلاغَةُ الآيتينِ.................. ٤٥٢
الآيات (٩٥-٩٩).................. ٤٥٨
غَريبُ الكَلِماتِ.................. ٤٥٨
مُشْكِلِ الإعرابِ ٤٦٠
المعنى الإجماليُّ.................. ٤٦١
تفسيرُ الآياتِ ٤٦٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ.................. ٤٧١
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٧٢
بلاغَةُ الآياتِ.................. ٤٧٧
الآيات (١٠٠-١٠٣) ٤٨٧
غَريبُ الكَلِماتِ.................. ٤٨٧
مُشْكِلِ الإعرابِ ٤٨٨
المعنى الإجماليُّ.................. ٤٨٨
تفسيرُ الآياتِ ٤٨٩
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ.................. ٤٩٤
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٩٤
بلاغَةُ الآياتِ.................. ٤٩٦

الآيات (١٠٤-١٠٧) ٥٠٣
غَريبُ الكَلِماتِ.................. ٥٠٣
المعنى الإجماليُّ.................. ٥٠٣
تفسيرُ الآيات ٥٠٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ.................. ٥١٠
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٥١١
بلاغَةُ الآياتِ.................. ٥١٤
الآيات (١٠٨-١١٠) ٥١٦
غَريبُ الكَلِماتِ.................. ٥١٦
مُشْكِلُ الإعرابِ ٥١٧
المعنى الإجماليُّ.................. ٥١٨
تفسيرُ الآياتِ ٥١٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ.................. ٥٢٣
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٥٢٥
بلاغَةُ الآياتِ.................. ٥٢٨
الآيات (١١١-١١٣) ٥٣١
غريب الكلِمات.................. ٥٣١
مُشْكِلُ الإعْرابِ ٥٣٢
المعنى الإجماليُّ.................. ٥٣٢
تفسيرُ الآياتِ ٥٣٣
الفَوائِد التربويَّة.................. ٥٤٠
الفوائِدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ ٥٤١
بلاغة الآيات.................. ٥٤٢
الآيات (١١٤-١١٧) ٥٤٦
غريب الكلِمات.................. ٥٤٦
مُشْكِلُ الإعْرابِ ٥٤٦
المعنى الإجماليُّ.................. ٥٤٧
تفسيرُ الآياتِ ٥٤٨
الفوائدُ التربويَّة.................. ٥٥٢
الفوائِدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ ٥٥٣
بلاغة الآيات.................. ٥٥٣
الآيات (١١٨-١٢١) ٥٥٨
غريب الكلِمات.................. ٥٥٨
مُشْكِلُ الإعْرابِ ٥٥٨
المعنى الإجماليُّ.................. ٥٥٩
تفسيرُ الآياتِ ٥٥٩
الفَوائِد التربويَّة.................. ٥٦٤
الفوائِدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ ٥٦٥
بلاغة الآيات.................. ٥٦٧
الآيات (١٢٢-١٢٧) ٥٧٠
غريب الكلِمات.................. ٥٧٠
مُشْكِلُ الإعْرابِ ٥٧٢
المعنى الإجماليُّ.................. ٥٧٢
تفسيرُ الآياتِ ٥٧٣
الفَوائِد التربويَّة.................. ٥٨٢
الفوائِدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ ٥٨٣
بلاغة الآيات.................. ٥٨٨
الآيات (١٢٨-١٣١) ٥٩٤
غريب الكلِمات.................. ٥٩٤
المعنى الإجماليُّ.................. ٥٩٥
تفسيرُ الآياتِ ٥٩٦
الفَوائِد التربويَّة.................. ٦٠٤

الفوائِدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ ٦٠٥
بلاغة الآيات.................. ٦٠٨
الآيات (١٣٢-١٣٥) ٦١١
غريب الكلمات.................. ٦١١
المعنى الإجماليُّ.................. ٦١١
تفسيرُ الآياتِ ٦١٢
الفَوائِد التربويَّة.................. ٦١٨
الفوائِدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ ٦١٨
بلاغة الآيات.................. ٦٢٠
الآيات (١٣٦-١٤٠) ٦٢٥
غريب الكلمات.................. ٦٢٥
مُشْكِلُ الإِعْرابِ ٦٢٦
المعنى الإجماليُّ.................. ٦٢٨
تفسيرُ الآياتِ ٦٢٩
الفوائدُ التربويَّة.................. ٦٣٦
الفوائِدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ ٦٣٦
بلاغة الآيات.................. ٦٣٩
الآيتان (١٤١-١٤٢) ٦٤٢
غريب الكلمات.................. ٦٤٢
مُشْكِلُ الإِعْرابِ ٦٤٣
المعنى الإجماليُّ.................. ٦٤٣
تفسيرُ الآيتين.................. ٦٤٤
الفَوائِد التربويَّة.................. ٦٥١
الفوائِدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ ٦٥١
بلاغة الآيتين ٦٥٤
الآيتان (١٤٣-١٤٤) ٦٥٦
غريب الكلمات.................. ٦٥٦
مُشْكِلُ الإعرابِ ٦٥٦
المعنى الإجماليُّ.................. ٦٥٧
تفسيرُ الآيتين.................. ٦٥٨
الفوائِدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ ٦٦٢
بلاغة الآيتين ٦٦٣
الآيات (١٤٥-١٤٧) ٦٦٦
غريب الكلمات.................. ٦٦٦
مُشْكِلُ الإِعْرابِ ٦٦٧
المعنى الإجماليُّ.................. ٦٦٨
تفسيرُ الآياتِ ٦٦٩
الفَوائِد التربويَّة.................. ٦٧٦
الفوائِدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ ٦٧٧
بلاغة الآيات.................. ٦٧٩
الآيات (١٤٨-١٥٠) ٦٨٢
غريب الكلمات.................. ٦٨٢
المعنى الإجماليُّ.................. ٦٨٢
تفسيرُ الآياتِ ٦٨٣
الفَوائِد التربويَّة.................. ٦٨٧
الفوائِدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ ٦٨٧
بلاغة الآيات.................. ٦٨٨
الآيات (١٥١-١٥٣) ٦٩٢
غريب الكلمات.................. ٦٩٢
مُشْكِلُ الإعرابِ ٦٩٣
المعنى الإجماليُّ.................. ٦٩٤
تفسيرُ الآياتِ ٦٩٥

الفَوائِد التربويَّة.............. ٧٠٣
الفوائِدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ ٧٠٥
بلاغة الآيات.................. ٧٠٩
الآيات (١٥٤-١٥٩) ٧١٣
غريب الكلمات................ ٧١٣
مشكلُ الإعرابِ ٧١٤
المعنى الإجماليُّ.................. ٧١٦
تفسيرُ الآياتِ ٧١٧
الفَوائِد التربويَّة.............. ٧٢٦
الفوائِدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ ٧٢٦
بلاغة الآيات.................. ٧٣٠
الآيات (١٦٠-١٦٥) ٧٣٤
غريب الكلمات................ ٧٣٤
مُشْكِلُ الإِعْرابِ ٧٣٥
المعنى الإجماليُّ.................. ٧٣٦
تفسيرُ الآياتِ ٧٣٧
الفَوائِد التربويَّة.............. ٧٤٥
الفوائِدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ ٧٤٧
بلاغة الآيات.................. ٧٥٠

التفسير المحرر

للقرآن الكريم

سورة الأعراف

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر، مصر

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد السادس

الدرر السنية
www.dorar.net

التفسير المحرر

للقرآن الكريم

٦

ⓒ مؤسسة الدرر السنية للنشر - ١٤٣٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مؤسسة الدرر السنية - القسم العلمي

التفسير المحرر - سورة الأعراف - المجلد السادس/ مؤسسة الدرر السنية - القسم العلمي - الظهران، ١٤٣٧هـ

٨٣٢ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٦-٣٦-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن - سورة الأعراف - تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٣٧/٦٧٦٤

رقم الإيداع: ١٤٣٧/٦٧٦٤

ردمك: ٦-٣٦-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

الدرر السنية
www.dorar.net

مؤسسة الدرر السنية - المملكة العربية السعودية
ص. ب ٣٩٣٦٤ الظهران ٣١٩٤٢ - جوال: ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠
ت: ٠١٣٨٦٨٠١٢٣/٠ فاكس: ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨٠ - بريد إلكتروني nashr@dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسِيرُ

سُورَةِ الأعراف

(١)

سُورةُ الأعرافِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَتْ هذه السُّورةُ بِسُورةِ الأعرافِ(١):

- فعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها: ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم قَرَأَ في صلاةِ المَغرِبِ بسورةِ الأعرافِ؛ فَرَّقَها في رَكعتَينِ))(٢).

- وعَن زَيدِ بنِ ثابتٍ: أنَّه قال لِمَروانَ بنِ الحَكَمِ: ((ما لي أَراكَ تَقرَأُ في المَغرِبِ بِقِصارِ السُّوَرِ، وقد رأيتُ رَسُولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم يقرأُ فيها بأطوَلِ الطُّولَيَينِ؟ قال مروانُ: قُلتُ: يا أبا عبدِ اللهِ، ما أطوَلُ الطُّولَيَينِ؟ قال: الأعرافُ))(٣).

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ الأعرافِ مَكِّيَّةٌ(٤)؛ ونقَلَ غيرُ واحدٍ الإجماعَ على ذلك(٥).

---

(١) وجْهُ تَسميتِها بهذا الاسمِ: هو ذِكْرُ لَفظِ الأعرافِ، وشأنِ أهلِ الأعرافِ فيها دُونَ غيرِها مِنَ السُّورِ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزآبادي (١/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٥).

(٢) أخرجه النسائي في ((السنن الكبرى)) (٩٩١)، والطبراني في ((مسند الشاميين)) (٣٣٦٢)، والبيهقي في ((السنن الكبرى)) (٤٠٣٧).
حسَّن إسنادَه النووي في ((المجموع)) (٣/ ٣٨٣)، وابنُ الملقن في ((البدر المنير)) (٣/ ١٨٣)، وقال ابنُ القيِّم في ((تهذيب السنن)) (٣/ ١٠٩): إسنادُه صحيحٌ، وأصلُه في الصحيح. وصحَّحه الشوكاني في ((نيل الوطار)) (٢/ ٢٥٨)، والألباني في ((صحيح النسائي)) (٩٩٠).

(٣) أخرجه البخاري (٧٦٤) وليس فيه التصريح بقراءة الأعراف، والنسائي (٩٩٠) واللفظ له.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٧٢)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ١٩٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٨).

(٥) ممن نقلَ الإجماعَ على ذلك الفيروزآبادي، ومحمد رشيد رضا. يُنظَر ((بصائر ذوي التميز)) للفيروزآبادي (١/ ٢٠٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢٦٠).
وقيل: إنَّها مكيَّةٌ غيرَ ثماني آياتٍ، مِن قولِه تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ﴾ إلى قَولِه تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ﴾. وقيل: إنَّها مكيَّةٌ إلَّا خَمسَ آياتٍ، مِن قَولِه تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ﴾ إلى =

مقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ المقاصِدِ التي تضَمَّنَتْها سورةُ الأعرافِ:

١- تَسليةُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم في تَكذيبِ الكفَّارِ إيَّاه(١).

٢- بَيانُ أُصُولِ العقائِدِ، وكُلِّياتِ الدِّينِ(٢).

٣- بَيانُ رِحلةِ البشَرِيَّةِ مِن لَدُنْ خَلْقِ آدَمَ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم إلى قيامِ السَّاعةِ(٣).

٤- إنذارُ مَن أعرَضَ عمَّا دعا إليه الكِتابُ في السُّوَرِ الماضِيَةِ(٤).

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

من أبرَزِ مَوضوعاتِ سُورةِ الأعرافِ:

١- التَّنويهُ بِعَظَمةِ الكِتابِ الكَريمِ.

٢- النَّهيُ عن اتِّخاذِ الشُّركاءِ مِن دُونِ اللهِ، وإنذارُ المُشركينَ مِن سُوءِ عاقِبةِ الشِّركِ في الدُّنيا والآخرةِ، ووَصْفُ ما حَلَّ بالمُشركينَ والَّذينَ كَذَّبوا الرُّسُلَ؛ مِن سُوءِ العَذابِ في الدُّنيا، وما سيحُلُّ بهم في الآخِرةِ، وإقامةُ الأدلَّةِ على وحدانيةِ الله.

٣- ذِكْرُ وَزنِ الأعمالِ يَومَ القيامةِ، وتذكيرُ النَّاسِ بِنعمةِ خَلقِ الأرضِ،

= آخِرِ الخَمسِ. وقيل: إنَّها مكيَّةٌ غيرَ ثلاثِ آياتٍ، مِن قَولِه تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ﴾ إلى آخِرِ الثَّلاثِ الآياتِ. وقيل: إنَّها مكيَّةٌ إلَّا آيةً واحدةً، وهي قَولُه تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ...﴾ إلى آخِرِها.

يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٦٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٥)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٦٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٠٩)، ((تفسير الماوردي)) (٢/ ١٩٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢١٣)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزآبادي (١/ ١٠٣).

(١) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزآبادي (١/ ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٤٧).

وتمكينِ النَّوعِ الإنسانيِّ مِن خَيراتِ الأرضِ، وبنعمةِ اللهِ على هذا النَّوعِ بخَلْقِ أصْلِه وتفضيلِه.

٤- ذِكرُ خَلقِ آدَمَ، وإباء إبليسَ مِنَ السَّجدةِ لآدَمَ، ووسوسَته لهما للأكْلِ مِنَ الشَّجَرةِ، وما نشَأَ مِن عَداوةِ جِنسِ الشَّيطانِ لِنَوعِ الإنسانِ، وتحذيرُ النَّاسِ مِنَ التَّلَبُّسِ ببقايا مَكرِ الشَّيطانِ؛ مِن تَسويلِه لهم حِرمانَ أنفُسِهم الطَّيِّباتِ، ومِنَ الوُقوعِ فيما يَزُجُّ بهم في العذابِ في الآخرةِ.

٥- وصفُ أهوالِ يَومِ الجَزاءِ للمُجرمينَ، وكراماتِه للمُتَّقينَ.

٦- ذِكرُ قِصَّةِ أصحاب الأعرافِ، والتذكيرُ بالبَعثِ، وتقريبُ دَليلِه.

٧- النَّهيُ عن الفسادِ في الأرضِ التي أصلَحَها اللهُ لفائدةِ الإنسانِ، والتَّذكيرُ ببَديعِ ما أوجَدَه اللهُ لإصلاحِها وإحيائِها.

٨- ذِكرُ أحوالِ الرُّسُلِ مع أقوامِهم المُشركينَ، وما لاقَوْه مِن عنادِهم وأذاهم، بدأً بِقِصَّةِ نوحٍ والطُّوفانِ، ثم ذِكْرِ هُودٍ وهلاكِ عادٍ، ثمَّ حديثِ صالحٍ وقَهرِ ثَمودَ، ثمَّ خبَرِ لُوطٍ وقَومِه، ثمَّ خبَرِ شُعَيْبٍ وأهلِ مَدْيَنَ.

٩- تَخويفُ الآمنينَ مِن مَكرِ اللهِ، وإنذارُهم بعَدَمِ الاغترارِ بإمهالِ اللهِ النَّاسَ، قبل أن يُنزِلَ بهم العذابَ؛ إعذارًا لهم أن يُقلِعُوا عن كُفْرِهم وعِنادِهم؛ فإنَّ العَذابَ يأتِيهم بغتةً بعد ذلك الإمهالِ.

١٠- تَفصيلُ أَحوالِ موسى وفِرعونَ والسَّحَرةِ، واستغاثةُ بني إسرائيلَ، وذِكرُ الآياتِ المُفَصَّلاتِ، وحديثُ خِلافةِ هارونَ، وميقاتُ موسى، وقصَّةُ عِجْل السَّامِريِّ في غَيبَةِ موسى، ورجوعُ موسى إلى قَومِه، ومُخاطَبَتُه لأَخيه هارونَ.

١١- ذِكرُ بِشارةِ اللهِ بِبَعثةِ مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم، وصِفَة أُمَّتِه، وفَضْل دِينِه.

١٢- الإشارةُ إلى ذِكرِ الأَسباطِ، وقصَّةِ أَصحابِ السَّبْتِ.

١٣- مَوعظةُ المشركينَ كيف بدَّلُوا الحنيفيَّةَ، وتقَلَّدوا الشِّركَ، وضَرَبَ لهم مَثلًا بمَن آتاه اللهُ الآياتِ، فوَسْوَس له الشَّيطانُ، فانسلَخَ عن الهُدى.

١٤- وَصْفُ حالِ أهلِ الضَّلالةِ، ووَصْفُ تكذيبِهم بما جاء به الرَّسولُ، ووَصْفُ آلِهَتِهم بما يُنافي الإلهيَّةَ، وأنَّ لله الصِّفاتِ الحُسنى، صفاتِ الكَمالِ.

١٥- أمْرُ اللهِ لِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم والمُسلمينَ؛ بِسَعةِ الصَّدرِ، والمُداومةِ على الدَّعوةِ، وتَحذيرُهم مِن مَداخِلِ الشَّيطانِ؛ بِمُراقبةِ اللهِ بذِكْرِه سِرًّا وجَهرًا، والإقبالِ على عبادَتِه.

١٦- الحديثُ عن العهدِ الذي أخَذه الله على البشرِ؛ بأنْ يعبدُوه، ولا يُشْركوا به شيئًا، والحضُّ على التفكُّرِ والتدبُّر في ملكوتِ السمواتِ والأرضِ.

الآيات (١-٣)

﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿حَرَجٌ﴾: الحَرَج: الضِّيقُ، وأصلُ (حرج): تجمُّعُ الشَّيءِ وضِيقُه، ومنه الحَرَجُ: جمْعُ حَرَجةٍ: وهي الشَّجَرةُ المُلتَفُّ بها الأشجارُ، لا يدخُلُ بينها وبينها شَيءٌ؛ لشِدَّةِ التفافِها بها[١].

﴿لِتُنْذِرَ﴾: أي: لتُخَوِّفَ، أو لتُعْلِمَ بما تُحذِّرُ منه، وأصلُ الإنْذارِ: إخبارٌ فيه تخويفٌ، أو الإبْلاغُ[٢].

﴿وَذِكْرَى﴾: أي: تذكِرَةً ومَوعِظَةً، وأصلُ الذِّكر: خِلافُ النِّسيانِ[٣].

المَعْنى الإجماليُّ:

افتُتِحَت هذه السُّورةُ العظيمةُ بالحُروفِ المُقطَّعةِ؛ للإشارة إلى إعجازِ القُرآنِ؛ إذ تشير إلى عجزَ الخَلْقِ عن معارَضَتِه بالإتيانِ بشيءٍ مِن مِثلِه، مع أنَّه مُركَّبٌ من هذه الحُروفِ العربيَّةِ التي يتحدَّثونَ بها!

ثم خاطبَ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، بأنَّ هذا القرآنَ كتابٌ أنزَلَه

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١/ ١٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٤٤، ٥٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٦٤).

إليه، وأمره ألا يَضيقَ صدرُه من إبلاغِه، والإنذارِ به، وألا يكونَ لديه شَكٌّ أنَّه مُنزَّلٌ مِن عندِ الله تباركَ وتعالى؛ أنزَلَه إليه ليُخَوِّفَ به الكافرينَ، وموعظةً للمؤمنينَ.

ثم أمرَ اللهُ تعالى النَّاسَ أن يتَّبعوا القرآنَ المُنَزَّلَ مِن عندِه، ونهاهم أن يتَّبعوا مِن دُونِه أولياءَ، وأخبرَ تعالى أنَّ النَّاسَ قليلًا ما يتَّعِظونَ ويعتَبِرون، فيُراجِعونَ الحَقَّ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿الٓمٓصٓ (١)﴾.

تقدَّم الكلامُ على هذه الحروفِ المقطَّعةِ في تفسيرِ أوَّلِ سُورةِ البَقَرةِ[1].

﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ (٢)﴾.

﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾.

أي: هذا القرآنُ- يا محمَّدُ- كِتابٌ أنزَلَه اللهُ تعالى إليك[2].

﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾.

أي: فلا يَضِقْ صدرُك- يا محمَّدُ- مِن إبلاغِ القُرآنِ، والإنذارِ به، ولا يكُنْ لديكَ شكٌّ واشتباهٌ في أنَّه مُنزَّلٌ مِن عندِ الله تبارك وتعالى، فلْيَنشرِحْ له صَدرُك ويتَّسِعْ، ولْتطمَئِنَّ به نفسُك، واصبِرْ على ما كُلِّفْتَ به مِن أثقالِ النُّبوَّةِ، وتَحمَّلِ الأذى، ولا تخشَ لائمًا، ولا مُعارِضًا[3].

﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾

(١) يُنظر ما تقدَّم في (١/ ٦٤) من هذا الكتاب.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٨-١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٤-٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٣-١٦).

أي: هذا كتابٌ أنزلناه إليك- يا محمَّدُ- لِتخوِّفَ به الكافرينَ، وموعظةً للمُؤمنينَ(١).

قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ [مريم: ٩٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّه أنزَلَ هذا الكتابَ العظيمَ على هذا النبيِّ الكريمِ؛ ليُنذِرَ به ويُذَكِّرَ- أَمَرَ من ذُكِّروا وأُنذِروا بما ينبغي أن يفعلوا تجاه ذلك الإنذارِ والتَّذكيرِ، الذي بعَث به رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال(٢):

﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾.

أي: اتَّبِعوا- أيُّها النَّاسُ- القُرآنَ الذي جاءكم مِن عندِ اللهِ الذي خلَقَكم، وهو مالِكُكم ومُدَبِّرُكم(٣).

﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾.

أي: ولا تتَّبعوا شيئًا غيرَ ما أنزَلَ إليكم ربُّكم؛ فتَخرُجوا عن الحَقِّ الذي جاءكم به الرَّسولُ إلى غيرِه، فتكونوا قد عدَلتُم بذلك عن حُكمِ اللهِ إلى حُكمِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٦-١٨).

(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٠)، ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٠-٣٤).

آخَرينَ تتولَّونَهم، وتتَّبِعون أهواءَهم[(١)].

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

أي: تَذكُّرُكم تذكُّرٌ قليلٌ لا يُجدي شيئًا، فقليلًا ما تتَّعظون وتَعْتَبرون، فتُراجعونَ الحقَّ[(٢)].

الفوائدُ التربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ في هذه الآيةِ الكريمةِ وأمثالِها مِن الآياتِ زَواجِرُ عَظيمةٌ، ينبغي لنا أن نعتبِرَها؛ لأنَّ خالِقَنا جلَّ وعلا بَيَّن لنا أنَّه أنزلَ على نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم هذا الكتابَ؛ لِيُخوِّفَ به الخَلقَ مِن عقوباتِ خالقِ السَّموات والأرضِ وسَخَطِه؛ فإنَّه الجبَّارُ الأعظَمُ، الذي إذا سَخِطَ عاقَبَ العقوبةَ المُهلِكةَ المُستأصِلةَ، فبهذا يجِبُ علينا أن نتأمَّلَ في معاني القرآنِ، ونعرِفَ أوامِرَ رَبِّنا التي أمَرَنا بها فيه، ونواهِيَه التي نهانا عنها، ونخافَ مِن هذا الإنذارِ والتَّهديدِ، الذي أُنزِلَ هذا القرآنُ على الرَّسولِ ليفعَلَه بمن لم يعمَلْ بهذا القرآنِ العَظيمِ؛ فالإنسانُ يجِبُ عليه أن يتدبَّرَ هذا القرآنَ العظيمَ، وينظُرَ أوامِرَه، وينظُرَ نواهِيَه، فيُحِلَّ حلالَه، ويُحرِّمَ حَرامَه، ويعتقِدَ عقائِدَه، ويعمَلَ بمُحكَمِه، ويؤمِنَ بمُتشابِهِه، ويعتبِرَ بما فيه مِن الأمثالِ، ويَلينَ قَلبُه لِما فيه من المواعِظِ، وضُروبِ الأمثالِ، فهذا الإنذارُ لا ينبغي للمُسلمِ أن يُهمِلَه، ويُعرِضَ عنه صَفحًا[(٣)].

٢- قَولُه تعالى ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ المتبادِرُ هنا مِنَ النَّهيِ عَنِ اتِّباعِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٤-٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٧).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٧).

الأولياءِ مِن دُونِه تعالى؛ هو النَّهيُ عن طاعةِ كُلِّ أحدٍ مِنَ الخَلْقِ في أمْرِ الدِّينِ؛ غَير ما أنزَلَ اللهُ مِن وَحْيِه، كما فعلَ أهلُ الكِتابِ في طاعةِ أحبارِهم ورُهبانِهم؛ فيما أحَلُّوا لهم، وزادوا على الوَحْيِ مِنَ العباداتِ، وما حَرَّمُوا عليهم مِنَ المباحاتِ، وكلُّ مَن أطاع أحدًا طاعةً دِينيَّةً في حُكمٍ شَرعيٍّ لم يُنْزِلْه رَبُّه إليه؛ فقد اتَّخذه رَبًّا، قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾[1] [التوبة: ٣١].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ فبَناه لِمَا لم يُسَمَّ فاعِلُه، ولم يَقُل: (أنزَلَ اللهُ)، أو: (أنزلناه)؛ إيجازًا مُؤذِنًا بأنَّ الـمُنزِلَ مُستغنٍ عَنِ التَّعريفِ، وعن إسنادِه إلى الضَّميرِ أو الاسمِ الصَّريحِ؛ فإنَّ هذا الكتابَ البديعَ، لا يمكِنُ أن يكون إلَّا مِن فوقِ ذلك العَرشِ الرَّفيعِ[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾ دلالةٌ على أنَّ اللهَ تعالى رَفَعَ الحرجَ عن الصدور بكتابِه، وكانت قبلَ إنزالِ الكتابِ في أعظمِ الحرجِ والضِّيقِ؛ فلما أنزل كتابَه ارتفعَ به عنها ذلك الحرجُ، وبقي الحرجُ والضيقُ على مَن لم يُؤمِن به، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾[3] [الأنعام: ١٢٥].

٣- قال الله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ استَدلَّ به بعضُهم على أنَّ المباحَ مأمورٌ به؛ لأنَّه من جملةِ ما أنزَلَ اللهُ، وقد أَمَرَنا باتِّباعِه[4].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، قال: ﴿أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾،

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢٧٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ٢٦٩).
(٣) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٤/ ١٥١٨).
(٤) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص:١٢٦).

وإنَّما أُنزِلَ على الرَّسولِ؛ ليُفيدَ أنَّه مُنَزَّلٌ على الكُلِّ، بمعنى أنَّه خِطابٌ للكُلِّ(١).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أمرٌ باتباع ما أَنزلَ اللهُ على رسوله، ونهيٌ عن اتِّباعِ غيره، فما هو إلَّا اتِّباعُ المُنزَّلِ؛ أو اتِّباعُ أولياء مِن دونه، فإنَّه لم يجعلْ بينهما واسطةً، فكلُّ مَن لا يَتَّبِعُ الوحيَ؛ فإنما يَتَّبِعُ الباطلَ، واتَّبَعَ أولياءَ مِن دونِ اللهِ(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾ فيه النَّهيُ في اللَّفظِ- في قوله: ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾- للحَرَجِ، والمرادُ المخاطَبُ؛ مبالغةً في النهيِ عن ذلك، كأنَّه قيل: لا تتسبَّبْ في شيءٍ ينشَأُ منه حَرَجٌ، وهو من بابِ «لَا أَرَيَنَّك هاهنا»؛ فالنَّهيُ في اللَّفظِ للمُتكلِّم، والمرادُ المخاطَبُ، أي: لا تكُنْ بحَضرتي فأراكَ، ومثلُه: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا﴾(٣).

- والتنكيرُ في قولِه: ﴿كِتَابٌ﴾ نَوعيٌّ؛ لدَفعِ الاستِبْعادِ، أي: استبعادِ المُشركينَ، وإنكارِهم أنْ يكونَ القُرآنُ مِن عندِ اللهِ، فذَكَّرَهم اللهُ بأنَّه كتابٌ مِن نَوعِ الكُتُبِ المُنَزَّلةِ على الأنبياءِ، فكَما نزَلَت صُحُفُ إبراهيمَ، وكتابُ موسى، كذلك نَزَل هذا القُرآنُ. أو أُريدَ بالتَّنكيرِ التَّعظيمُ، أي: هو كِتابٌ عظيمٌ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ١٩٧).

وفيه وجهٌ آخرُ: أنَّ الإسنادَ في كِلتا الحالتَينِ - ﴿كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾، و﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾- للاختصاصِ والتَّكريمِ، والتَّحضيضِ والاستجاشةِ؛ فالذي يُنزِلُ له ربُّه كتابًا، ويختارُه لهذا الأمرِ، ويتفَضَّلُ عليه بهذا الخَيرِ؛ جديرٌ بأن يتذكَّرَ، وأن يشكُرَ، وأن يأخُذَ الأمرَ بقوَّةٍ، ولا يَستحسِرَ. يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٥).

تَنويهًا بشَأنِه، فصار التَّنكيرُ في معنى التَّوصيفِ. أو أُريد بالتَّنكيرِ التَّعجيبُ مِن شأنِ هذا الكِتابِ في جميعِ ما حفَّ به مِنَ البلاغةِ والفَصاحة والإعجازِ والإرشادِ(١).

٢- قوله: ﴿لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه إيجازٌ بحَذفِ مُتعَلِّقِ ﴿لِتُنْذِرَ﴾؛ لظُهورِ تقديرِ المَحذوفِ مِن ذِكرِ مُقابِله المذكورِ في قَولِه: ﴿وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، والتَّقديرُ: لِتُنذِرَ به الكافرينَ(٢).

- وصرَّحَ بمتعَلِّقِ الذِّكرى دون مُتعَلِّقِ ﴿لِتُنْذِرَ﴾؛ تنويهًا بشأنِ المؤمنينَ، وتَعريضًا بتحقيرِ الكافرينَ تِجاهَ ذِكرِ المُؤمنينَ، ولأنَّ المُؤمِنينَ هم الذين ينتفعونَ بالمواعِظِ، وللإيذانِ باختِصاصِ الإنذارِ بالكَفرةِ، أي: لتُنذِرَ به المشرِكين، وتُذكِّر المؤمنينَ(٣).

- وجُعِلَ الإنذارُ بالكِتابِ مُقَدَّمًا في التَّعليلِ على الذِّكرى؛ لأنَّه أهمُّ بحسَبِ المقامِ؛ لأنَّه الغَرَضُ الأهمُّ لإبطالِ ما عليه المشركونَ مِن الباطِلِ، وما يُخلِّفُونَه في النَّاسِ مِنَ العَوائِدِ الباطِلةِ، التي تُعانَى إزالَتُها مِنَ النَّاسِ بعدَ إسلامِهم(٤).

٣- قوله: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ خُوطِبَ به كافَّةُ المُكَلَّفينَ بِطَريقِ التَّلوينِ، وكُلٌّ مأمورٌ باتِّباعِ ما أُنزِلَ إليه، والمقصودُ الأجدَرُ هُم المُشركونَ؛ تعريضًا بأنَّهم كَفَروا بنِعمةِ رَبِّهم(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٥).

- قولُه: ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ في التَّعَرُّضِ لوَصفِ الرُّبوبيَّةِ مع الإضافَةِ إلى ضميرِ المُخاطَبينَ: مزيدُ لُطفٍ بهم، وتَرغيبٌ لهم في الامتثالِ بما أُمِرُوا به، وتأكيدٌ لوُجُوبِه(١).

- قولُه: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَولِيَاءَ﴾ المقصودُ مِن هذا النَّهيِ بعدَ الأمرِ بالاتِّباعِ؛ تأكيدُ مُقتضَى الأمرِ باتِّباعِ ما أُنزِلَ إليهم؛ اهتمامًا بهذا الجانِبِ مِمَّا أُنزِلَ إليهم، وتسجيلًا على المشركينَ، وقطعًا لمعاذيرِهم أنْ يَقُولوا: إنَّنا اتَّبَعْنا ما أُنزِلَ إلينا، وما نرى أولياءَنا إلَّا شُفَعاءَ لنا عندَ اللهِ، فما نعبُدُهم إلَّا لِيُقَرِّبونا إلى اللهِ زُلفَى، فإنَّهم كانوا يُمَوِّهونَ بِمثلِ ذلك (٢).

- وقد أفاد مجموعُ قولِه: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَولِيَاءَ﴾ مَفادَ صِيغةِ قَصرٍ؛ كأنَّه قال: لا تَتَّبِعوا إلَّا ما أَمَرَ به ربُّكم، أي: دُونَ ما يأمُرُكم به أولياؤُكم، فعَدَل عن طَريقِ القَصرِ؛ لتكون جملةُ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِه أَوْلِيَاءَ﴾ مُستقِلَّةً صريحةَ الدَّلالةِ؛ اهتمامًا بمضمونِها(٣).

- وقولُه: ﴿قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ مَسوقٌ لتَقبيحِ حالِ المُخاطَبينَ(٤).

- و﴿مَا﴾ مزيدةٌ لتَوكيدِ القِلَّةِ، أي: تذكُّرًا قليلًا، أو زمانًا قليلًا(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٤-١٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٨).

الآيات (٤-٩)

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧﴾ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿بَأْسُنَا﴾: أي: عذابُنا، وأصلُ (بأس) الشِّدَّة وما ضاهاها[1].

﴿بَيَاتًا﴾: أي: ليلًا، أو وَقتَ بَياتٍ، واشتغالٍ بالنَّومِ، وأصلُ البيت: مَأْوَى الإنسانِ باللَّيلِ؛ لأنَّه يقال: بَاتَ، أي: أقامَ باللَّيلِ[2].

﴿قَائِلُونَ﴾: أي: نائِمون نِصفَ النَّهَارِ في وَقْتِ القائِلَةِ[3].

﴿فَلَنَقُصَّنَّ﴾: أي: فلنُخبِرَنَّ، والقَصَصُ: الأخبارُ المتتبَّعةُ، والأثَرُ، وأصْل القصِّ: تتبُّعُ الأثَرِ أو الشَّيءِ[4].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٣٨).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٥).

المَعْنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه كثيرًا ما أهلكَ أهلَ القُرى مِنَ الأُمَمِ السَّابقةِ؛ الذين عَبَدوا غيرَه، وكذَّبوا رُسُلَه، فأتَتْهم عُقوبَتُه التي أستأصَلَتْهم على غِرَّةٍ منهم، وهم غافلونَ؛ فبعضُهم جاءَتهم العُقوبةُ في بيوتِهم ليلًا قبل أن يُصبِحُوا، وبعضُهم نهارًا في وقتِ القَيلولةِ، فما كان قولُهم حين جاءَهم العذابُ إلَّا أنِ اعترَفوا أنَّهم كانوا ظالِمينَ.

ثمَّ بيَّنَ تعالى أنَّه سيَسأَلُ الأُمَمَ التي أرسَل إليهم رُسُلَه سؤالَ توبيخٍ عمَّا عَمِلَت فيما جاءَتها به الرُّسُل، هل أطاعوا الله، وأجابوا الرُّسُلَ، أم عَصَوه وكذَّبُوهم، وسيَسأَلُ الـمُرسَلينَ عن تبليغِهم للرِّسالة، وعمَّا أُجِيبُوا، وأخبَرَ تعالى أنَّه سيقُصُّ على العبادِ يومَ القيامةِ عنْ علمٍ بما قالوا، وبما عَمِلوا في الدُّنيا، وما كان سبحانَه غائبًا في وقتٍ مِنَ الأوقاتِ عنهم، وعن أفعالِهم؛ فهو على كلِّ شيءٍ شَهيدٌ.

وأخبَرَ اللهُ تعالى أنَّ الوَزنَ يومَ القيامةِ لأعمالِ الخلائقِ يكونُ بالعَدلِ؛ فمَن ثَقُلَت موازينُ عَمَلِه الصَّالِحِ فأولئك هم الفائزونَ، ومَن خفَّتْ موازينُ أعمالِه الصَّالحة، فرَجَحَت سيِّئاتُه، فأولئك الذين خَسِروا أنفسَهم؛ نتيجةَ تكذيبِهم وجَحدِهم بآياتِ اللهِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ رَسولَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالإنذارِ والتَّبليغِ، وأمرَ القَومَ بالقَبولِ والـمُتابعة؛ ذَكرَ في هذه الآيةِ ما في تَركِ المُتابعَةِ والإعراضِ عنها مِنَ الوَعيدِ[1]، فقال تعالى:

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ١٩٨).

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾

أي: كثيرًا ما أهلَكْنا أهلَ القُرى مِنَ الأُمَم السَّابقةِ، الذين عَصَوني، وكذَّبوا رُسُلي، وعَبَدوا غيري(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام: ١٠].

وقال سبحانه: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ [محمد: ١٠].

وقال سبحانه: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا * فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ [الطلاق: ٨ - ٩].

﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾

أي: فجاءَتهم عُقوبَتُنا المُستأصِلةُ لهم، فدمَّرنا بعضَهم في بُيوتِهم ليلًا قبل أن يُصبِحوا، وجاء العذابُ بعضَهم نهارًا في وقتِ القَيلولةِ، فاحذَروا تكذيبَ رَسُولي محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لئلَّا أُنزِلَ بكم مِثلَ ما أنزَلتُ بتلك الأُمَمِ السَّالفةِ مِنَ العذابِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٧-٣٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢).

كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧-٩٨].

وقال سبحانه: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ٤٥-٤٧].

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾.

أي: فما كان قَولُ أهلِ القُرى التي أهلكْناها حين مَجيءِ العَذابِ إلَّا اعترافَهم بظُلمِ أنفُسِهم، وإقرارَهم بالإساءةِ إليها، ولم يَقدِرُوا على رَدِّ العذابِ عنهم[1].

كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ * لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١١-١٥].

﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

في مُناسَبةِ هذه الآيةِ لِما قَبلَها وجهانِ:

الوجهُ الأوَّلُ: لَمَّا أمَرَ اللهُ الرُّسُلَ في الآيةِ الـمُتقَدِّمة بالتَّبليغِ، وأمَرَ الأُمَّةَ بالقَبولِ والمُتابَعة، وذَكَر التَّهديدَ على تَركِ القَبولِ والمُتابعة بذِكرِ نُزُولِ العَذابِ في الدُّنيا؛ أتبَعَه بنوعٍ آخَرَ مِنَ التَّهديدِ، وهو أنَّه تعالى يَسأَلُ الكُلَّ عن كيفيَّةِ أعمالِهم، يومَ القيامةِ.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦١-٦٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٤٩)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ١٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٨).

الوجهُ الثَّاني: لَمَّا قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾؛ أتْبَعَه بأنَّه لا يقَعُ يومَ القيامةِ الاقتصارُ على ما يكونُ مِنهم مِن الاعترافِ، بل ينضافُ إليه أنَّه تعالى يَسألُ الكُلَّ عن كيفيَّة أعمالِهم، وبيَّنَ أنَّ هذا السُّؤالَ لا يختَصُّ بأهلِ العِقابِ، بل هو عامٌّ في أهلِ العِقابِ، وأهلِ الثَّوابِ [1]، والمرسلين كذلك، كلٌّ بحسبِه، فقال تعالى:

﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ﴾.

أي: فلَنَسألَنَّ الأمَمَ الذين أرسَلْتُ إليهم رُسُلي سُؤالَ تَوبيخٍ، لا سُؤالَ استعلامٍ: ماذا عَمِلوا فيما جاءَتَهم به الرُّسُلُ مِن أمرِي ونَهْيِي، هل أطاعوني وأجابوا رُسُلي، أم أنَّهم عَصَوني وكَذَّبوا رُسُلي؟[2].

كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥].

وقال سبحانه: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣].

وعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه قال: ((ألَا كُلُّكم راعٍ، وكلُّكم مَسؤولٌ عَن رَعِيَّتِه، فالأميرُ الذي على النَّاسِ راعٍ، وهو مَسؤولٌ عَن رَعِيَّتِه، والرَّجُلُ راعٍ على أهلِ بَيتِه، وهو مسؤولٌ عنهم، والمرأةُ راعيةٌ على بيتِ بَعلِها ووَلَدِه، وهي مسؤولةٌ عنهم، والعبدُ راعٍ على مالِ سَيِّدِه، وهو مَسؤولٌ عنه، ألَا فكُلُّكم راعٍ، وكلُّكم مسؤولٌ عن رَعِيَّتِه))[3].

وعن أبي بَرْزةَ الأسلميِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٤)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ١٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦٠-٦١).

(٣) رواه البخاري (٨٩٣)، ومسلم (١٨٢٩).

وسلَّم: ((لا تَزولُ قَدَمَا عبدٍ يومَ القِيامةِ حتى يُسأَلَ عَن عُمُرِه فيمَ أفناه، وعن عِلْمِه فيمَ فَعَل، وعن مالِه مِن أينَ اكتسَبَه وفيمَ أنفَقَه، وعن جِسمِه فيمَ أبلاه))[١].

﴿وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾.

أي: ولنَسألَنَّ الرُّسُلَ الذين أرسلتُهم إلى الأُمَم عن تبليغِهم لرِسالاتِ رَبِّهم، وعمَّا أجابَتْهم به أمَمُهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٩].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦].

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ۝٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان السُّؤالُ في الآيةِ السَّابقةِ يُوهم خَفاءَ المَسؤولِ عنه على السَّائل؛ سَبَّبَ عن ذلك ما يُزيلُ هذا الوَهمَ بِقَولِه، مُؤذِنًا بأنَّه أعلمُ مِنَ المسؤولينَ عَمَّا سألَهم عنه[٣]:

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾.

أي: فلَنُخبِرَنَّ العبادَ يومَ القيامةِ عَن علمٍ بما قالوا، وبما عَمِلوا في الدُّنيا[٤].

﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤١٧)، والدارمي (٥٣٧).
صحَّحه الترمذي، وابنُ باز في ((مجموع فتاواه)) (٣٠/ ٣٠١)، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٤١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٥)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ١٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٩).

أيْ: وما كنَّا غائبينَ في أيِّ وقتٍ مِنَ الأوقاتِ عنهم، وعن أفعالِهم التي كانوا يفعَلونها؛ فاللهُ تعالى شهيدٌ على كلِّ شيءٍ، لا يغيبُ عنه شيءٌ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى في الآيةِ الأُولى أنَّ مِن جُملةِ أحوالِ القِيامةِ السُّؤالَ والحِسابَ؛ بَيَّنَ في هذه الآيةِ أنَّ مِن جُملةِ أحوالِ القِيامةِ أيضًا وزنَ الأعمالِ[(٢)]، فقال تعالى:

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾.

أي: والوزنُ يومَ القيامةِ لأعمالِ الخَلقِ: الحَسناتِ مِنها والسَّيِّئاتِ؛ يكونُ بالعَدلِ، ولا يَظلِمُ اللهُ تعالى أحدًا[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٠٢).

وقال ابنُ عاشور: (عطف جملة: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ على جملةِ: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ﴾ لِما تضمَّنَته المعطوفُ عليها مِنَ العِلمِ بحَسَناتِ النَّاسِ وسَيِّئاتِهم، فلا جرَمَ أشعرَت بأنَّ مَظهَرَ ذلك العِلمِ وأثرَه، هو الثَّوابُ والعِقابُ، وتفاوتُ دَرَجاتِ العاملينَ ودَرَكاتِهم تفاوتًا لا يُظلَمُ العامِلُ فيه مثقالَ ذَرَّةٍ، ولا يفوتُ ما يستحِقُّه إلَّا أن يتفَضَّل اللهُ على أحدٍ؛ برَفعِ دَرَجةٍ أو مغفرةِ زَلَّةٍ؛ لأجلِ سلامةِ قَلبٍ، أو شفاعةٍ، أو نحوِ ذلك، مِمَّا اللهُ أعلَمُ به مِن عبادِه؛ فلذلك عُقِّبَت جملةُ: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ﴾ بجملةِ: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾، فكأنَّه قيل: فلنقُصَّنَّ عليهم بعِلمٍ، ولَنُجازِيَنَّهم على أعمالِهم جزاءً لا غَبْنَ فيه على أحدٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٣). =

كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ [القارعة: ٦-١١].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ * فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١-١٠٣].

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾

مُناسَبَتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا أخبرَ اللهُ تعالى أنَّ العِبرةَ بالمِيزانِ على وجهٍ يُظهِرُ أنَّه لا حَيفَ فيه بوَجهٍ؛ جاء قولُه [1]:

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾

أي: فمَن ثَقُلَت موازينُ عَمَلِه الصَّالِحِ، بأنْ رَجَحَتْ كِفَّةُ حَسَناتِه على سَيِّئاتِه؛

= وقال الواحديُّ: (عامَّةُ المُفَسِّرين على أنَّ المُرادَ بهذا الوَزنِ أعمالُ العبادِ). ((التفسير البسيط)) (٩/ ٢٣).

وقال ابن عطيَّةَ: (قال جمهورُ الأمَّةِ: إنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ أراد أن يَعرِضَ لعبادِه يومَ القيامةِ تحريرَ النَّظَرِ، وغايةَ العَدلِ بأمرٍ قد عَرَفوه في الدُّنيا، وعَهِدَته أفهامُهم؛ فميزانُ القيامةِ له عمودٌ وكِفَّتانِ على هيئةِ موازينِ الدُّنيا). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٧٦)، ويُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٧١).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٦٠).

فأولئك هم النَّاجُونَ الفائِزونَ[1].

عن أبي الدَّرداءِ رَضِيَ الله عنه، قال: سمِعْتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقول: ((ما مِن شَيءٍ يُوضَعُ في الميزانِ أثقَلُ مِن حُسْنِ الخُلُقِ، وإنَّ صاحِبَ حُسْنِ الخُلُقِ لَيَبلُغُ به درجةَ صاحِبِ الصَّومِ والصَّلاةِ))[2].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((كَلِمَتانِ خَفِيفتانِ على اللِّسانِ، ثَقيلتانِ في المِيزانِ، حَبيبتانِ إلى الرَّحمنِ: سُبحانَ اللهِ وبِحَمدِه، سُبحانَ اللهِ العظيمِ))[3].

﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٧٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٤). قال ابنُ كثيرٍ: (﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: الذينَ فازُوا فنَجَوْا منَ النَّارِ، وأُدخِلُوا الجنَّةَ. وقال ابنُ عبَّاسٍ: أولئك الذينَ فازُوا بما طَلَبوا، ونَجَوْا مِن شَرِّ ما منه هَرَبوا). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩٦).

قال الشِّنقيطيُّ: (الفلاحُ في جميعِ القُرآنِ مُحتَمِلٌ للمَعنيينِ المذكُورينِ:

الأوَّل: الفوزُ بالمطلوبِ الأكبَرِ.

الثاني: الدَّوامُ والبقاءُ السَّرمديُّ في النَّعيمِ، فكلُّ مَن كان له دوامٌ وبقاءٌ في النَّعيمِ، تقول العَرَبُ: نال الفلاحَ، وهذا المعنى معروفٌ في كلامهم). ((العذب النمير)) (٣/ ٨٣)، ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٨٤).

قال أبو عُبيدٍ: (الفلاحُ أصلُه البقاءُ، وإنَّما قيل لأهلِ الجنَّة: مُفلِحونَ؛ لِفَوزِهم ببقاءِ الأبَدِ في الجنَّةِ). ((غريب الحديث)) (٤/ ٣٨) باختصار وتصَرُّف.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٩٩)، والترمذي (٢٠٠٣) واللفظ له، وأحمد (٢٧٥٥٧).

قال الترمذي: غريبٌ مِن هذا الوجهِ، وحسَّنَ إسنادَه البزَّارُ في ((البحر الزخَّار)) (١٠/ ٣٦)، وقال الخطيبُ في ((أوهام الجمع والتفريق)) (١/ ٣٦١): طريقُه مَرضيٌّ، وقال ابنُ العربيِّ في ((عارضة الأحوذي)) (٤/ ٣٥٧): معنًى صحيحٌ جدًّا، تُعَضِّدُه الأحاديثُ والأُصولُ، وصَحَّحه ابنُ دقيق العيد في ((الاقتراح)) (١٢٧)، وصحَّحَه الألبانيُّ في ((صَحيحِ سُنَنِ الترمذي)) (٢٠٠٣).

(٣) رواه البخاري (٦٦٨٢) ومسلم (٢٦٩٤).

﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم ﴾.

أي: ومَنْ خفَّتْ مَوازينُ أعمالِه الصَّالحةِ، بأنْ رَجَحَت سيِّئاتُه، وصار الحُكمُ لها، ولم تَثْقُلْ بالإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ؛ فأولئك الذين أضاعوا حَظَّ أنفُسِهم مِن ثَوابِ اللهِ وكَرامَتِه(١).

﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ﴾.

أي: خَسِرُوا أنفُسَهم؛ لأنَّهم كذَّبوا وجَحَدوا بآياتِ اللهِ سُبحانه وتعالى(٢).

الفوائدُ التربويَّةُ:

لا يَنبغي للعاقِلِ أنْ يأمَنَ صَفوَ اللَّيالي، ولا مُواتاةَ الأيَّامِ، ولا يَغترَّ بالرَّخاءِ؛ فيَعُدَّه آيةً على الاستحقاقِ له، الذي هو مَظِنَّةُ الدَّوامِ، بل يلزَم التَّذكُّرَ والحَذرَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٧٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٣٧٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٨٩).

قال ابن جرير: (بما كانوا بحُجَجِ اللهِ وأدِلَّتِه يَجحَدون، فلا يُقِرُّونَ بِصِحَّتِها، ولا يُوقِنونَ بحَقيقَتِها). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٧٣).

وقال الواحدي: (﴿بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ بجُحودِهم بما جاء به محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٣٥٠).

وقال ابن عطية: («الآيات» هنا البَراهينُ والأوامِرُ والنَّواهي، و﴿يَظْلِمُونَ﴾ أي يَضَعونَها في غيرِ مَواضِعِها بالكُفرِ والتَّكذيبِ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٧٧).

وقال الشنقيطيُّ: (فإذا عَلِمْتُم أنَّ الآيةَ في اللُّغةِ تُطلَقُ على العلامةِ، وعلى الجَماعةِ؛ فهي في القرآنِ العظيمِ باستقراءِ القُرآنِ العَظيمِ تُطلَقُ إطلاقينِ:
أحدُهما: الآيةُ الكونيَّةُ القدَريَّة، وهي ما نَصَبَه اللهُ جَلَّ وعلا؛ ليدُلَّ به خَلقَه على أنَّه الواحِدُ الأحَدُ الأعظَمُ الصَّمَدُ، المستحِقُّ لِأن يُعبَدَ وَحدَه... وتُطلَقُ الآيةُ في القُرآنِ إطلاقًا آخَرَ: ومعناها: الآيةُ الشَّرعيَّةُ الدينيَّةُ، كآياتِ هذا القُرآنِ العظيم، ومنه قولُه هنا: ﴿بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ لأنَّه قال: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: آية ٣] وذلك الذي أُنزِلَ إليهم مِن رَبِّهم، أعظَمُه الآياتُ السَّماويَّةُ القُرآنيَّةُ التي تُتلَى، وآياتُ الكُتُب، فلمَّا ظَلَمُوا بها وجَحَدوا بها كانوا ظالِمينَ ودَخَلوا النَّارَ). ((العذب النمير)) (٣/ ٩١-٩٢).

والتَّوقِّيَ والاحتياطَ؛ قال الله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾(١).

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- لقائِلٍ أن يقولَ: قولُه: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ يقتضي أن يكونَ الإهلاكُ مُتقدِّمًا على مجيءِ البأسِ، وليس الأمرُ كذلك؛ فإنَّ مجيءَ البأسِ مُقَدَّمٌ على الإهلاكِ. والإجابةُ عن هذا السؤالِ من وجوهٍ:

الأول: المرادُ بقولِه: ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ أي: حَكَمْنا بهلاكِها فجاءَها بأسُنا.

وثانيها: كم مِن قريةٍ أَرَدْنا إهلاكَها فجاءَها بأسُنا، كقوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة: ٦].

وثالثها: أنْ يكونَ التَّرتيبُ تَرتيبَ تَفصيلٍ على جملةٍ؛ ذَكَرَ الإهلاكَ ثمَّ فَصَّلَه بنوعينِ؛ أحدُهما: مجيءُ البأسِ بياتًا، أي: ليلًا. والثَّاني: مجيئُه وقتَ القائِلةِ(٢).

٢- قوله: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾ فيه الإتيانُ بِقَولِه: ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ في مَوضِعِ (أَرَدْنَا إِهْلاكَها) بقرينةِ ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾- على أحدِ الأقوالِ في الآيةِ- والإتيانُ بحرفِ التَّعقيبِ بعدَ ذلك؛ للدَّلالَةِ على عدمِ التَّرَيُّثِ، فدلَّ الكلامُ كلُّه: على أنَّه تعالى يُريدُ فيخلُقُ أسبابَ الفعلِ المرادِ، فيحصلُ الفعلُ، كُلُّ ذلك يَحْصُلُ كالأشْياءِ الـمُتَقارِنَةِ، والغرضُ مِنْ ذلك تَهْديدُ السَّامِعينَ المعانِدينَ، وتَحْذيرُهم مِنْ أنْ يَحُلَّ غَضَبُ الله عليهم، فيُريد إهلاكَهم، فضَيَّقَ عليهم المهلةَ؛ لِئلَّا يتباطَؤُوا في تدارُكِ أمْرِهم، والتَّعجيلِ بالتَّوبةِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ١٩٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢٧٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ١٩٨، ١٩٩)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٩٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠-٢١)

٣- قول الله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ * فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ فيه لطيفةٌ، حيث أُجْرِيَ الضَّميرانِ في قولِه: ﴿أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا﴾ على الإفرادِ والتأنيثِ؛ مُراعاةً للفظِ (قَرية)؛ ليَحصُلَ التماثُلُ بين لفظِ الـمُعادِ ولفظِ ضَميرِه في كلامٍ مُتَّصلِ القُربِ، ثم أُجريتْ ضمائرُ القرية على صِيغة الجمعِ في الجملةِ الـمُفرَّعةِ عن الأُولى في قوله: ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ * فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ﴾؛ لحُصولِ الفَصلِ بينَ الضَّميرِ ولفظِ مُعادِه بجُملةٍ فيها ضميرُ مُعادِه غير لَفظِ القرية، وهو ﴿بَأْسُنَا بَيَاتًا﴾؛ لأنَّ (بياتًا) مُتحمِّلٌ لضميرِ البأسِ، أي: مُبيِّتًا لهم، وانتقَل منه إلى ضميرِ القرية باعتبارِ أَهلِها، فقال: ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ * فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ﴾[(١)].

٤- قوله تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ يدُلُّ على أنَّ اللهَ يسألُ جَميعَ النَّاسِ يومَ القيامةِ، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٣]، وقولُه: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾[الصفات: ٢٤]، وقولُه: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥]، وقد جاءَتْ آياتٌ أُخَرُ تدُلُّ على خلافِ ذلك؛ كقوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩]، وكقوله: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨]، والجوابُ عن هذا من ثلاثةِ أوجُهٍ:

الأوَّل- وهو أوجَهُها؛ لدَلالةِ القُرآنِ عليه- هو: أنَّ السُّؤالَ قِسمانِ: سؤالُ تَوبيخٍ وتقريعٍ، وأداتُه غالبًا: (لِمَ)، وسؤالُ استخبارٍ واستعلامٍ، وأداتُه غالبًا: (هَل)، فالـمُثبَتُ هو سؤالُ التَّوبيخِ والتَّقريعِ، والمنفيُّ هو سُؤالُ الاستخبارِ والاستعلامِ، وجهُ دلالةِ القرآنِ على هذا: أنَّ سؤالَه لهم المنصوصَ في كُلِّه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩).

توبيخٌ وتقريعٌ، كقوله: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾، وقوله: ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾، وكقوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾، إلى غيرِ ذلك مِنَ الآياتِ.

الوجه الثاني: أنَّ في القيامةِ مواقِفَ مُتعدِّدةً؛ ففي بعضِها يُسألونَ، وفي بعضها لا يُسألونَ.

الوجه الثالث: أنَّ إثباتَ السُّؤالِ مَحمولٌ على السُّؤالِ عَنِ التَّوحيدِ، وتَصديقِ الرُّسلِ، وعدمَ السُّؤالِ مَحمولٌ على ما يستلزِمُه الإقرارُ بالنُّبوَّاتِ مِن شرائِعِ الدِّينِ وفُروعِه[1]، وقيل غير ذلك[2].

٥- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ الفائدةُ في سُؤالِ الرُّسُلِ مع العِلمِ بأنَّه لم يصدُرْ عنهم تقصيرٌ ألبتَّةَ: أنَّهم إذا أثبَتُوا أنَّه لم يَصدُرْ عنهم تقصيرٌ ألبتَّةَ، التحَقَ التَّقصيرُ بكُلِّيَّته بالأمَّةِ، فيتضاعَفُ إكرامُ اللهِ في حَقِّ الرُّسُلِ؛ لظُهورِ بَراءَتِهم عن جميعِ مُوجباتِ التَّقصيرِ، وتتضاعَفُ أسبابُ الخِزي والإهانةِ في حقِّ الكُفَّارِ؛ لِمَا ثبت أنَّ كُلَّ التقصيرِ كان منهم[3].

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ﴾ يدلُّ على أنَّه تعالى عالِمٌ بالعِلمِ، وهو صِفَةٌ له، قائِمٌ بذاتِه، وأنَّ قَولَ مَن يقولُ: (إنَّه لا عِلمَ لله) قولٌ باطِلٌ[4].

٧- قولُ الله تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ إنْ قيل: الميزانُ واحِدٌ، فما وجهُ الجَمعِ؟ فالجوابُ: أنَّ العَربَ

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٠٠-١٠١).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن عادل)) (٩/ ٢٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٣)، ويُنظر أيضًا: ((شرح العقيدة الواسطية)) للهراس (ص: ١٢٠).

قد تُوقِعُ لفظَ الجَمعِ على الواحِدِ تفخيمًا له. وقيل: إنَّه يُنصَبُ لكُلِّ عبدٍ مِيزانٌ. وقيل: جُمِعَ لاختلافِ الموزوناتِ، وتعَدُّدِ الجَمعِ، فهو جمعُ مَوزونٍ أو ميزانٍ فالميزانُ واحدٌ، وأُطلق عليه اسمُ الجمعِ؛ لكثرةِ ما يُوزن فيه مِن أنواعِ الأعمالِ، وكثرةِ الأشخاصِ العاملين، الموزونةِ أعمالُهم[1].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ دلالةٌ على أنَّ الحَسَناتِ هي مِن أسبابِ مَحْوِ الذُّنُوبِ، وزوالِ العُقُوبةِ[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ هذا الخبرُ مُستعمَلٌ في التَّهديدِ للمُشركينَ، الذين وُجِّهَ إليهم التعريضُ في الآيةِ الأولى[3]، وقد خَصَّ بالذِّكرِ إهلاكَ القُرى، دون ذِكرِ الأُمَمِ؛ لأنَّ المُواجَهينَ بالتَّعريضِ هم أهلُ مَكَّةَ، وهي أمُّ القرى؛ فناسَبَ أن يكونَ تهديدُ أهلِها بما أصابَ القُرى وأهلَها، وأيضًا لأنَّ تعليقَ فِعلِ ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ بالقريةِ دون أهلِها؛ لِقَصدِ الإحاطةِ والشُّمولِ، فهو مُغنٍ عن أدواتِ الشُّمولِ، فالسَّامِعُ يعلَمُ أنَّ الـمُرادَ مِنَ القريةِ أهلُها؛ لأنَّ العِبرةَ والموعِظةَ إنَّما هي بما حَصَل لأهلِ القَريةِ[4].

- والتَّعبيرُ عن إرادةِ الفِعلِ بذِكرِ الصِّيغةِ التي تدُلُّ على وقوعِ الفِعلِ في قولِه: ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾؛ لإفادةِ عَزمِ الفاعِلِ على الفِعلِ عزمًا لا يتأخَّرُ عنه العَمَلُ، بحيث يُستعارُ اللَّفظُ الدَّالُّ على حُصولِ المرادِ للإرادةِ؛ لتَشابُهِهما[5]. وهذا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٧٦)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٤٩٩).

(٢) يُنظر: ((مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية)) للبعلي (ص: ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٢٠).

على أحدِ الأوجهِ في التفسيرِ.

- وقولُه: ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ فيه مبالغةٌ في تصويرِ غَفْلتِهم، وأمْنِهم مِن العذابِ، وخُصَّ مَجيءُ البَأسِ بهَذينِ الوَقتينِ؛ لأنَّهما وقتانِ للسُّكونِ والدَّعَةِ والاستراحةِ، على عادتِه سُبحانَه في أخْذِ الظَّالِمِ في وَقتِ بُلوغِ آمالِه وفَرَحِه ورُكونِه إلى ما هو فيه؛ فمَجيءُ العذابِ فيهما أقطَعُ وأشَقُّ، ولأنَّه يكونُ المجيءُ فيه على غَفلةٍ مِنَ المُهلَكينَ، فهو كالمجيءِ بَغتةً، كما أنَّ التَّذكيرَ بالعذابِ فيهما يُنَغِّصُ على المُكَذِّبين تَخَيُّلَ نَعيمِ الوَقتينِ، وفي هذا التَّقسيمِ تهديدٌ؛ حتَّى يكونوا على وَجَلٍ في كلِّ وقتٍ، لا يَدْرُون مَتَى يَحُلُّ بِهم العذابُ، بحيثُ لا يَأْمَنون في وقتٍ ما[1].

٢- قوله: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ فيه حَصْرٌ، ومعناه: أنَّهم لم يَستغيثوا اللهَ ولا توَجَّهوا إليه بالدُّعاءِ، ولكنَّهم وَضَعوا الاعترافَ بالظُّلمِ مَوضِعَ الاستغاثةِ؛ فلذلك استثناه اللهُ مِنَ الدَّعوى[2]. هذا على القولِ بأنَّ الاستثناءَ متَّصلٌ.

- والتَّوكيدُ بـ(إنَّ) في قولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾؛ لتحقيقِ الخَبرِ للنَّفسِ أو للمُخاطَبينَ[3].

٣- قوله: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ المرادُ من هذا السؤالِ توبيخُ الكفَرَةِ وتقريعُهم[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١١-١٢)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢- ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢١٢).

- والذينَ أُرسِلَ إليهم هُم أُمَمُ الرُّسُل، وعبَّرَ عنهم بالموصولِ ﴿الَّذِينَ﴾؛ لِمَا تَدُلُّ عليه الصِّلةُ ﴿أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ مِنَ التَّعليلِ، فإنَّ فائدةَ الإرسالِ هي إجابةُ الرُّسُلِ(١).

- وفي قوله: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ﴾ وقوله: ﴿وَلَنَسْأَلَنَّ﴾ التأكيدُ بلامِ القَسمِ ونُونِ التَّوكيدِ؛ لإزالةِ الشَّكِّ في ذلك، ولأنَّ الـمُخاطَبينَ مِنَ العَرَبِ في أوَّلِ الدَّعوةِ كانوا يُنكِرونَ البَعثَ والجَزاءَ، ولتأكيدِ الخَبرِ تأثيرٌ في الأنفُسِ، ولا سيَّما خَبرُ الـمَشهورِ بالأمانةِ والصِّدقِ، كالنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فقد كانوا يُلَقِّبونَه قبل البَعثةِ بالأمينِ(٢).

- وقدَّمَ ذِكرَ سُؤالِ الأمَمِ على ذِكرِ الرُّسُلِ؛ لأنَّ المقصودَ الأهَمَّ مِنَ السُّؤالِ هو الأمَمُ؛ لإقامَةِ الحُجَّةِ عليهم في استحقاقِ العِقابِ(٣).

٤- قوله: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ هذا مِن أعظَمِ التَّوبيخِ والتَّقريعِ؛ حيث يُقِرُّونَ بالظُّلمِ، وتَشهَدُ عليهم أنبياؤُهم، ويَقُصُّ اللهُ عليهم أعمالَهم(٤).

- وتَنكيرُ قَولِه: ﴿بِعِلْمٍ﴾ يدلُّ على إرادةِ التَّفصيلِ، أي: عالِمينَ بأحوالِهم الظَّاهِرةِ والباطِنةِ، وأقوالِهم وأفعالِهم، وتَنوينُه للتَّعظيمِ، أي: بعلمٍ عَظيمٍ(٥).

- وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ تذييلٌ مُقَرِّرٌ لِما قبلَه(٦)، والغائِبُ ضِدُّ الحاضِرِ، وهو هنا كنايةٌ عن الجاهِلِ؛ لأنَّ الغَيبةَ تستلزِمُ الجهالةَ عُرفًا، أي: الجَهالة بأحوالِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢٧٩-٢٨٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٨٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٧).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٧)

المَغيبِ عنه؛ فإنَّها ولو بلَغَتْه بالإخبارِ، لا تكونُ تامَّةً عنده مثلَ الـمُشاهِد[(١)].

٥- **قولُه:** ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾: فيه اسمُ الإشارةِ ﴿أُولَئِكَ﴾ وما فيه مِن مَعنى البُعدِ؛ للإيذانِ بعُلوِّ طَبَقَتِهم، وبُعدِ منزلَتِهم في الفَضلِ والشَّرَفِ[(٢)].

- وضَميرُ الفَصلِ (هُمْ) في قوله: ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾؛ لقَصدِ الانحصارِ، أي: هُم الذين انحصَرَ فيهم تحقُّقُ المُفلِحينَ، أي: إن عَلِمْتَ جماعةً تُعرَفُ بالمُفلحينَ فَهُمْ هُمْ[(٣)].

- وتعريفُ ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّهم النَّاسُ الذين بلغَك أنَّهم مُفلِحون في الآخِرَةِ، أو إشارةٌ إلى ما يَعرِفُه كلُّ أحدٍ مِن حقيقةِ المُفلحينَ، وخصائِصِهم[(٤)].

٦- **قوله:** ﴿بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ صِيغةُ المضارِعِ في قوله: ﴿يَظْلِمُونَ﴾؛ لحكايةِ حالِهم في تجدُّدِ الظُّلمِ فيما مضَى[(٥)].

- وتقديمُ المجرورِ في قوله: ﴿بِآيَاتِنَا﴾ على عامِلِه، وهو ﴿يَظْلِمُونَ﴾؛ للاهتمامِ بالآياتِ[(٦)].

- الجَمعُ بين صِيغَتَي الماضي والمُستقبَل (كَانوا... يَظلمون)؛ للدَّلالةِ على استمرارِ الظُّلمِ في الدُّنيا[(٧)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢١٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٣١).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢١٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٣٢).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢١٤).

الآيات (١٠-١٨)

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾
وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ
إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ
خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ
إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾
قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ
خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا
مَّدْحُورًاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿مَكَّنَّاكُمْ﴾: أي: وطَّأْنا لكم الأرضَ، أو جعَلْناها قرارًا لكم، وأصلُ (مكن): الموضِعُ الحاوي للشَّيءِ(١).

﴿مَعَايِشَ﴾: أي: أسبابًا تعيشونَ بهَا مِن مَطاعِمَ ومَشارِبَ، مُفرَدُها مَعِيشةٌ، وَهِي مَا يُعاشُ بِهِ مِنَ النَّباتِ والحيوانِ وغيرِ ذلك، والعَيْشُ: أخصُّ مِنَ الحَياةِ(٢).

﴿صَوَّرْنَاكُمْ﴾: أي: صَوَّرْنا أباكُم آدَمَ بَشَرًا سَوِيًّا، وقيل: صَوَّرْنا الذُّرِّيَّةَ، وصُورةُ كُلِّ مَخلوقٍ: هَيئةُ خِلْقَتِه، وما يَتميَّزُ به عن غيره(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٧٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٩٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣١٧-٣٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩١)، ((مقاييس اللغة)) (٣/ ٣٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٧).

﴿إِبْلِيسَ﴾: هو أبو الشَّياطينِ، وأصلُ الإبلاسِ: اليَأسُ، والحُزنُ المعترِضُ مِن شِدَّةِ اليأسِ، ومنه اشتُقَّ إبليسُ، وقيل: هو اسمٌ أعجميٌّ؛ ولذلك لم يَنصرِفْ(١).

﴿الصَّاغِرِينَ﴾: أي: الـمُهانِينَ، أو الـمُبعَدينَ، جمْعُ صاغرٍ، والصَّغَارُ: الذِّلَّةُ، وأصلُ (صغر): يدُلُّ على قِلَّةٍ وَحَقَارَةٍ(٢).

﴿أَنْظِرْنِي﴾: أي: أخِّرْني وأجِّلْني، وأصلُ (نظر): تأمُّلُ الشَّيءِ ومعاينتُه، ومنه: نَظَرْتُه، أي: انتَظَرْتُه، كأنَّه ينظُرُ إلى الوَقتِ الذي يأتي فيه(٣).

﴿أَغْوَيْتَنِي﴾: أي: أضْلَلْتَني، والغَيُّ: جَهلٌ مِن اعتقادٍ فاسدٍ، وأصلُ (غوي): يدُلُّ على خِلافِ الرُّشدِ، وإظْلامِ الْأَمْرِ، ويدلُّ على فَسادٍ في شَيْءٍ(٤).

﴿مَذْؤُومًا﴾: أي: مَذمومًا بأبلَغِ الذَّمِّ، أو مَلُومًا، وأَصْل (ذأم): يدلُّ على كَرَاهَةٍ وَعَيْبٍ(٥).

﴿مَدْحُورًا﴾: أي: مُقْصًى مطرودًا مُبْعَدًا؛ يُقَال: ادْحَرْ عنكَ الشَّيطانَ، أي: أَبعِدْه، وأصل الدَّحْرِ: الطَّردُ والإبعادُ(٦).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٣)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٠١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٨).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٩٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٣).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٣٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٦).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٦، ٢٥٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٨).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ﴾

﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾: في هذه الباءِ وَجهانِ؛ أحدُهما: أنْ تكونَ للقَسَمِ، أي: فأُقسِمُ بإغوائِكَ لأقعُدَنَّ. والثاني: أن تكون سَببيَّةً، تعلَّقَتْ بفعلِ القَسَمِ المحذوفِ، تقديرُه: فبما أغوَيتَني أُقسِمُ باللهِ لأَقعُدَنَّ، أي: فبسَبَبِ إغوائِك أُقسِمُ.

﴿صِراطَكَ﴾: (صِراطَ) مَنصوبٌ على نزْعِ الخافِضِ (على)، والتقديرُ: لأقعُدَنَّ لهم على صراطِك، أو منصوبٌ على أنَّه مفعولٌ به للفِعل ﴿أَقْعُدَنَّ﴾ على تَضمينِ الفِعلِ (قعَدَ) معنَى فِعلٍ مُتعدٍّ، والتقديرُ: لألزَمَنَّ صراطَك المستقيمَ بقُعودِي عليه، وقيلَ غيرُ ذلك[1].

المَعْنى الإجماليُّ:

يمتَنُّ اللهُ على عبادِه بأنْ هيَّأَ لهم الأرضَ، وأقدَرَهم على الانتفاعِ بما فيها، ويَسَّرَ لهم فيها ما يعيشونَ به في حياتِهم، ومع ذلك فإنَّ قليلًا منهم مَن يَشكُرُه تعالى على نِعَمِه.

ثم خاطَبَ اللهُ بني آدَمَ قائلًا لهم إنَّه خلَقَ أباهم آدَمَ، ثمَّ صَوَّرَه بَشَرًا سَوِيًّا في أحسَنِ تَقويمٍ، ثمَّ قال للملائكةِ: اسجُدُوا لآدَمَ، فكُلُّهم امتَثَلَ الأمرَ وسجَدَ؛ إلَّا إبليسَ؛ استكبَرَ ورفَضَ السُّجودَ.

فسأله اللهُ تعالى عمَّا منعَه مِنَ السُّجودِ حين أمَرَه، فأجاب أنَّ ما منعَه مِن ذلك هو أنَّه أفضَلُ مِن آدَمَ؛ إذ خلَقَه اللهُ تعالى مِن نارٍ، بينما خلَقَ آدَمَ مِن طينٍ.

فأمَرَه اللهُ تعالى حينَها أن يَهبِطَ مِنَ الجنَّةِ؛ فليس له أن يتكبَّرَ فيها، وأمره أن

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٨٤)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٥٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٢٦٦-٢٦٨).

يخرُجَ مِنَ الجنَّةِ، فهو من الذين قد نالهم مِن الله الصَّغارُ والذلُّ والمَهانةُ.

فطلب إبليسُ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ أن يُمهِلَه إلى يومِ بَعثِ الخَلائِقِ، فأخبَرَه أنَّه مِنَ الـمُمهَلينَ. فأقسَمَ إبليسُ لِرَبِّه إنَّه بسبَبِ إغوائِه له، ليَلْزَمَنَّ لبني آدَمَ الطَّريقَ القَويمَ، ويَصُدُّهم عنه، مُزَيِّنًا لهم طريقَ الباطِلِ، وإنَّه سيَأتِيهم مِن جَميعِ الوُجوهِ، ومِن مُختَلِف الطُّرُق؛ لِيَصُدَّهم عن الحَقِّ، ولن يجِدَ تعالى أكثَرَهم شاكرينَ له.

فأمَرَه اللهُ أن يَخرُجَ مِنَ الجنَّةِ مَذمومًا مَمقوتًا مَطرودًا مِن رحمتِه، وأقسَم أنَّ مَن اتَّبعه مِن بني آدمَ، أنْ يملأَ جهنَّمَ مِن جميعِهم: مِن الكفرةِ أتباعِ إبليسَ، ومِنه وذرِّيتِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أمَرَ الخَلقَ بمتابَعةِ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ، وبقَبولِ دَعوَتِهم، ثمَّ خَوَّفَهم بعذابِ الدُّنيا، ثمَّ خَوَّفَهم بعذابِ الآخِرَةِ- رغَّبَهم في قَبولِ دَعوةِ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ في هذه الآيةِ بطَريقٍ آخَرَ، وهو أنَّه كَثُرَت نِعَمُ اللهِ عليهم، وكَثرةُ النِّعَمِ تُوجِبُ الطَّاعةَ(١).

وأيضًا لَمَّا كان الدِّينُ الذي أمَرَ تعالى باتِّباعِ التَّنزيلِ فيه، هو دينَ الفِطرةِ، الـمُبَيِّنَ لكُلِّ ما يُوصِلُها إلى كمالِها، والنَّاهيَ لها عن كُلِّ ما يَحُولُ بينها وبين هذا الكَمالِ، وكان افتتانُ النَّاسِ بأمْرِ المَعيشةِ مِن أسبابِ إفسادِ الفِطرةِ، بالإسرافِ في الشَّهَواتِ، مِن حيثُ إنَّه يجِبُ أن تكونَ نِعَمُ اللهِ عليهم بما يحتاجونَ إليه مِن أمرِ المَعيشةِ، سببًا لإصلاحِها بشُكرِ اللهِ عليه، الموجِبِ للمَزيدِ منه - لَمَّا كان الأمرُ كذلك، ذكَّرَ سبحانه النَّاسَ في هذه الآيةِ بنِعَمِه عليهم في التَّمكينِ في

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٣٣).

الأرضِ، وخَلْقِ أنواعِ المعايشِ فيها[١]، فقال:

﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾

أي: ولقد هيَّأْنا لكم الأرضَ - أيُّها النَّاسُ - وأقدَرْناكم عليها، وجَعَلْناها لكم قرارًا تستَقِرُّونَ فيها، وفِراشًا تفتَرِشونَها، وأبَحْنا لكم منافِعَها[٢].

﴿وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾

أي: ويسَّرْنا لكم في الأرضِ ما تعيشونَ به أيامِ حياتِكم؛ مما يخرُجُ مِنَ الأشجارِ والنَّباتاتِ، ومِنَ المعادِنِ والحيواناتِ، والصَّنائِعِ والتِّجاراتِ، وغيرِ ذلك مِن أسبابِ المعيشةِ[٣].

﴿قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾

أي: وأنتم مع ذلك قليلٌ شكرُكم على هذه النِّعَمِ التي أنعَمْتُها عليكم[٤].

كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٧٣)، ((تفسير البغوي)) (١/ ٣٣٠).

قال السمعاني: (أمَّا الكُفَّارُ فلا يشكُرونَ، وأمَّا المؤمنونَ فلم يبلُغُوا غايةَ الشُّكرِ). ((تفسير السمعاني)) (١/ ٢٤٦).

وقال ابنُ عاشور: (الخِطابُ للمُشركينَ خاصَّةً؛ لأنَّهم الذين قلَّ شُكرُهم لله تعالى؛ إذ اتَّخذوا معه آلهةً، ووَصفُ قليلٍ يستعمَلُ في معنى المَعدومِ، ويجوز أن يكون على حقيقَتِه، أي: إنَّ شُكرَكم اللهَ قليلٌ؛ لأنَّهم لَمَّا عرفوا أنَّه رَبُّهم، فقد شَكَروه، ولكنَّ أكثَرَ أحوالِهم هو الإعراضُ عن شُكرِه، والإقبالُ على عبادةِ الأصنامِ وما يَتبَعُها). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٣٥).

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (١١)﴾.

مناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر سبحانَه ما منَحَ العبادَ مِنَ التَّمكينِ؛ ذكَّرَهم بنعمةِ الإيجادِ، وهي نعمةُ عنايةٍ، بعد ما كانوا عليه مِنَ العَدَمِ، وذكَرَ تفضيلَه لهم؛ حيث خلَقَ أباهم آدَمَ، وأمَرَ الملائكةَ بالسُّجودِ له؛ فإنَّ الإنعامَ على الأبِ يَجرِي مَجرى الإنعامِ على الابنِ، ثمَّ ذكَرَ لهم أنَّ أباهم لَمَّا خالفَ الأمرَ أهبَطَه مِنَ الجنَّةِ؛ وفي ذلك تحذيرٌ لذُرِّيتِه(١).

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾.

أي: ولقد خَلَقْنا أباكم آدَمَ عليه السَّلامُ، ثمَّ صَوَّرْناه بشرًا سَوِيًّا في أحسَنِ تَقويمٍ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٣٥-٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٤).

واختار كونَ المرادِ بقَولِه: ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾ و﴿صَوَّرْنَاكُمْ﴾ آدَمَ عليه السَّلامُ: ابنُ جريرٍ، وابنُ كثيرٍ، والسَّعديُّ، وابنُ عاشور، والشِّنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٣٦-٣٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٠٢-١٠٩).

قال ابنُ كثير: (وإنَّما قيل ذلك بالجَمعِ؛ لأنَّه أبو البَشَر، كما يقول اللهُ تعالى لبني إسرائيلَ الذينَ كانوا في زَمَنِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ والمراد: آباؤُهم الذين كانوا في زَمَنِ موسى عليه السَّلامُ). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩١). =

﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾.

أي: لَمَّا خَلَقْنا آدمَ وصَوَّرناه، قُلْنا للملائكةِ ابتلاءً منَّا واختبارًا لهم: اسجُدُوا لآدَمَ؛ إكرامًا له، وإظهارًا لفَضْلِه عليه السَّلامُ[1].

﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾.

أي: فسجَدَ الملائكةُ كُلُّهم إلَّا إبليسَ، لم يكُنْ مِنَ السَّاجدينَ لآدَمَ عليه السَّلامُ؛ تكبُّرًا عليه، وإعجابًا بنفسِه[2].

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ (١٢)﴾.

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾.

أي: قال اللهُ تعالى لإبليسَ: ما منَعك مِن السُّجودِ، فأحوجَك ألَّا تسجدَ لآدَمَ

= وقال ابنُ عاشور: (ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ أي: حَمَلْنا أصولكم، وهُمُ الذينَ كانوا مع نوحٍ، وتناسَلَ منهم النَّاسُ بعد الطُّوفانِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٣٦-٣٧).

وقد ذهَبَ بعضُ السَّلَفِ إلى أنَّ المعنى: ولقد خَلَقْناكم في ظَهرِ آدَمَ- أيُّها النَّاسُ- ثمَّ صَوَّرْناكم في أرحامِ النِّساءِ.

وقال بعضُهم: معنى ذلك: ولقد خَلَقْناكم في أصلابِ آبائِكم، ثمَّ صَوَّرْناكم في بُطُونِ أُمَّهاتِكم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٧٥، ٧٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

وقد اختلف أهلُ العِلمِ في إبليسَ: هل كان مِنَ الملائكةِ أو لم يكُنْ منهم، على قولين:

القول الأول: أنَّه كان مِنَ الملائكةِ، وهو قولُ الجُمهورِ، واختارَه ابنُ جريرٍ، والبَغَويُّ، وابن عطيةَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٤٢)، ((تفسير البغوي)) (١/ ١٠٤)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٢٤).

القول الثاني: أنَّه لم يكُنْ مِنَ الملائكةِ، وهو قولُ الحَسَن البصريِّ، واختاره ابنُ كثيرٍ، وابنُ عاشور، والشِّنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٣٠) و(٥/ ١٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٤١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٩٠).

حين أمَرْتُك بالسُّجُودِ له[١]؟

﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾.

أي: قال إبليسُ لله سبحانه: منعني من السُّجودِ له أنَّني أفضَلُ منه؛ لأنَّك خَلَقْتَني مِن النَّارِ، وخَلَقْتَه مِن الطِّينِ، والنَّارُ أفضَلُ مِنَ الطِّينِ، فكيف أسجُدُ له[٢]؟

كما قال تعالى: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩٢).

قال الشنقيطي: (في (لا) هنا وجهان: أحدُهما: أنَّ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ مضمَّنةٌ معنى فِعل [آخر، هو ألجأ] و (لا) في بابها ليسَتْ زائدة، أي: ما ألجأكَ وأحوَجَك إلى أنْ لا تسجُدَ؟ [أي:] ما المانِعُ الذي ألجأَك وأحوَجَك إلى أن لا تسجُدَ؟! وتضمينُ الفِعلِ معنى فعلٍ، معروفٌ، قال به عامَّةُ عُلماءِ النَّحو من البَصريين. وأظهَرُ القولين في هذا: أنَّ (لا) هنا جيءَ بها لتأكيدِ النَّفيِ؛ لأنَّ (منعك) في معنى الجُحودِ والنَّفيِ، وإتيانُ (لا) زائدةً في الكلامِ الذي فيه معنى الجَحدِ، مطَّرِدٌ،... ومن أساليبِ اللُّغة العربية زيادةُ لَفظِ (لا) لتوكيدِ الكلام). ((العذب النمير)) (٣/ ١١٢، ١١٤). ويُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٢٦٣).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٤١-٤٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١١٩-١٢١).

قال الشنقيطي: (قولُه تعالى: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ ذُكِرَ في هذه الآيةِ الكَريمةِ: أنَّ إبليسَ لعَنَه اللهُ خُلِقَ مِن نارٍ، وعلى القولِ بأنَّ إبليسَ هو الجانُّ الذي هو أبو الجِنِّ، فقد زاد في مواضِعَ أُخَرَ أوصافًا للنَّارِ التي خلَقَه منها؛ من ذلك أنَّها نارُ السَّمُومِ، كما في قوله: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر:٢٧]، ومِن ذلك أنَّها خُصوصُ المارِجِ، كما في قوله: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ [الرحمن:١٥]، والمارِجُ أخَصُّ مِن مُطلَقِ النَّارِ؛ لأنَّه اللَّهَب الذي لا دُخانَ فيه. وسُمِّيَت نارَ السَّمومِ؛ لأنَّها تَنفُذُ في مسامِّ البَدَنِ؛ لشِدَّةِ حَرِّها). ((أضواء البيان)) (٢/ ١٠).

وقال الشنقيطي أيضًا: (قولُه جلَّ وعلا حكايةً عن إبليسَ: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ كأنَّ اللهَ لَمَّا سألَ إبليسَ- وهو عالِمٌ؛ لأنَّه جلَّ وعلا أعلَمُ بالموجِبِ الذي بسبَبِه امتنَعَ إبليسُ من السجود- قال له: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ وهو أعلَمُ، فأجاب إبليسُ- عليه لعائن الله- بما كان يُضمِرُه مِنَ الكِبرِ، وكأنَّه اعترَض على ربِّه، وواجه ربَّه جلَّ وعلا بأنَّ تكليفَه إيَّاه أمرٌ لا ينبغي ولا يصلُحُ!! فخَطَّأَ ربَّه جلَّ وعلا، سبحانَه وتعالى عن ذلك عُلُوًّا كبيرًا! وجعل ذلك ذريعةً له ومُبَرِّرًا في زَعمِه الباطِلِ لعَدَمِ السُّجود). ((العذب النمير)) (٣/ ١١٩).

أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [ص: ٧٥-٧٦].

وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((خُلِقَتِ الملائكةُ من نورٍ، وخُلِقَ الجانُّ مِن مارجٍ مِن نارٍ، وخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لكم))(١).

﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾.

أي: قال اللهُ تعالى لإبليسَ: فاهبِطْ مِنَ الجنَّةِ؛ بسبَبِ عصيانِك لأمري، وخُروجِك عن طاعَتي؛ فليس لك أن تستكبِرَ في الجَنَّةِ عن طاعتي وأمري(٢).

﴿فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾.

أي: فاخرُجْ مِنَ الجنَّةِ؛ إنَّك مِنَ الذَّليلينَ الحَقيرينَ(٣).

﴿ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

---

(١) رواه مسلم (٢٩٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩٣).

وقد اختلف المُفَسِّرون: هل المرادُ الهبوطُ مِنَ الجنَّة أو الهبوطُ مِنَ السَّماء أو مِنَ المنزِلَة والمكانةِ؟ على أقوال:

الأوَّل: أنَّ المعنى: فاهبِطْ مِنَ الجنَّة؛ فليس لك أن تستكبِرَ في الجنَّة. اختاره ابنُ جرير وابن عطية والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٨٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٤). ويُنظر أيضًا: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٨).

الثاني: أنَّ المعنى: فاهبِطْ من السَّماءِ؛ فليس لك أن تستكبِرَ في السَّماءِ. اختاره الواحدي والقرطبي. يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٧٣).

الثالث: أنَّ المرادَ المنزلةُ التي كان فيها في المَلَكوتِ الأعلى. ذكره ابنُ كثير احتمالًا. ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩٣).

أي: قال إبليسُ: أخِّرْني وأمهِلْني إلى أن يُبعَثَ الخَلقُ يومَ القِيامةِ(١).

﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝١٥﴾.

أي: قال اللهُ لإبليسَ: إنَّك مِنَ المؤخَّرينَ الذين لا يُميتُهم اللهُ إلَّا وَقتَ النَّفخةِ الأولى، حين يموتُ الخَلقُ كُلُّهم(٢).

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝١٦﴾.

أي: قال إبليسُ مُخاطبًا رَبَّه: فبسَبَبِ إضلالِك لي، أُقسِمُ بك لألزَمَنَّ الجلوسَ لذُرِّيَّةِ آدَمَ على طريقِكَ الحَقِّ القَويمِ، المُوصِلِ إلى الجنَّة- وهو الإسلامُ وشرائِعُه- فأَصُدُّهم عن عبادَتِك وطاعَتِك، وأُزَيِّنُ لهم الباطِلَ؛ لئلَّا يُوَحِّدوك ويَعبُدوك(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٩٠)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٤٧)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٠٦).

قال الشنقيطي: (قولُه تعالى: ﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ لم يُبَيِّنْ هنا في سُورةِ الأعرافِ الغايةَ التي أنظَرَه إليها، وقد ذَكَرَها في «الحِجْر» و«ص»، مُبَيِّنًا أنَّ غايةَ ذلك الإنظارِ هو يومُ الوَقتِ المَعلومِ؛ لِقَولِه: في سورة «الحِجر» و «ص»: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ فقد طلَبَ الشَّيطانُ الإنظارَ إلى يومِ البَعثِ، وقد أعطاه اللهُ الإنظارَ إلى يَومِ الوَقتِ المَعلومِ. وأكثَرُ العُلَماءِ يقولون: المُرادُ به وَقتُ النَّفخةِ الأولى، والعِلمُ عندَ اللهِ تعالى). ((أضواء البيان)) (٢/ ١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٩٠-٩١)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ١٨٢-١٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٧٣-١٧٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٩١، ٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩٣-٣٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٤٦-٤٧).

قال ابن القيم: (أفضَلُ ما يُقَدِّرُ اللهُ لعَبدِه وأجَلُّ ما يَقسِمُه له: الهُدى، وأعظَمُ ما يبتليه به ويُقَدِّرُه عليه: الضَّلالُ، وكلُّ نعمةٍ، دونَ نِعمةِ الهدى، وكلُّ مُصيبةٍ، دُونَ مُصيبةِ الضَّلالِ، وقد اتَّفَقت رُسُلُ اللهِ مِن أوَّلِهم إلى آخِرِهم، وكُتُبُه المُنَزَّلةُ عليهم، على أنَّه سبحانه يُضِلُّ مَن يشاءُ، ويَهدي مَن يشاء، وأنَّه مَن يَهْدِه اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضلِلْ فلا هادِيَ له، وأنَّ الهُدى والإضلالَ بيَدِه لا بيَدِ العَبدِ، وأنَّ العَبدَ هو الضَّالُّ أو المُهتدي؛ فالهدايةُ والإضلالُ فِعلُه سبحانه وقَدَرُه، والاهتداءُ والضَّلالُ فِعلُ العَبدِ وكَسْبُه). ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٦٥).

كما قال تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢-٨٣].

وعن سَبْرَةَ بنِ أبي فاكِهٍ رَضِيَ الله عنه، قال: سمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقول: ((إنَّ الشَّيطانَ قعَدَ لابنِ آدَمَ بأطرُقِه، فقعد له بِطَريقِ الإسلامِ، فقال له: أتُسلِمُ وتَذَرُ دِينَك، ودينَ آبائِك، وآباءِ أبيك؟! قال: فعصاه، فأسلَمَ، ثمَّ قعَدَ له بطريقِ الهِجرةِ، فقال: أتُهاجِرُ وتَذَرُ أرضَك، وسماءَك؟! وإنَّما مَثَلُ المُهاجِرِ كمَثَلِ الفَرَسِ في الطِّوَلِ[1]، قال: فعَصَاه فهاجَرَ، قال: ثمَّ قعَدَ له بِطَريقِ الجِهادِ، فقال: هو جَهْدُ النَّفسِ والمالِ، فتُقاتِلُ فتُقتَلُ، فتُنكَحُ المرأةُ، ويُقسَمُ المالُ، قال: فعصاه فجاهَدَ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: فمَن فعَلَ ذلك منهم فمات، كان حقًّا على اللهِ أن يُدخِلَه الجنَّةَ، أو قُتِلَ كان حَقًّا على اللهِ أن يُدخِلَه الجنَّةَ، وإن غَرِقَ كان حقًّا على اللهِ أن يُدخِلَه الجنَّةَ، أو وَقَصَتْه[2] دابَّةٌ كان حقًّا على اللهِ أن يُدخِلَه الجنَّةَ))[3].

﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ١٧ ﴾.

﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ ﴾.

---

(١) الطِّوَل: هو الحَبلُ الذي يُشَدُّ أحَدُ طَرَفيهِ في وَتِدٍ، والطَّرَفُ الآخَرُ في يَدِ الفَرَسِ، وهذا من كلامِ الشَّيطانِ، ومقصودُه: أنَّ المُهاجِرَ يصيرُ كالمُقَيَّدِ في بلادِ الغُربةِ؛ لا يدورُ إلَّا في بَيتِه، ولا يُخالِطُه إلَّا بعضُ مَعارِفِه، فهو كالفَرَسِ في طِوَلٍ، لا يدورُ ولا يرعى إلَّا بقَدْرِه، بخِلافِ أهلِ البِلادِ في بلادِهم؛ فإنَّهم مَبسوطونَ لا ضِيقَ عليهم، فأحَدُهم كالفَرَسِ المُرسَلِ. يُنظر: ((حاشية السِّندي على سنن النسائي)) (٦/ ٢٢).

(٢) الوَقْصُ: كَسْرُ العُنُقِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٢١٤)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ٢٠٦).

(٣) أخرجه النسائي (٣١٣٤) واللفظ له، وأحمد (١٦٠٠٠)، وابن حبان (٤٥٩٣).

قال المِزِّي في ((تهذيب الكمال)) (٧/ ٤٩): في إسنادِه اختلافٌ، وذكر أنَّ له متابعةً، وصحَّحَ إسنادَه العراقيُّ في ((تخريج الإحياء)) (٣/ ٣٥)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن النسائي)) (٣١٣٤).

أي: ثمَّ لآتِينَّ بني آدَمَ مِن جَميعِ الوُجوهِ، ومُختَلِفِ الطُّرُق، فأصُدُّهم عن الحَقِّ، وأُحَسِّنُ لهم الباطِلَ(١).

﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾.

مُناسَبَتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا عَلِمَ الخبيثُ إبليسُ أنَّهم ضُعفاءُ، قد تغلِبُ الغفلةُ على كثيرٍ منهم، وكان جازمًا ببَذلِ مجهودِه على إغوائِهم- ظَنَّ وصَدَّق ظَنَّه، فقال(٢):

﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾.

أي: ولا تجِدُ أكثَرَ بني آدَمَ شاكرينَ لك، بل يُشرِكونَ بك، ولا يُوَحِّدونَك، ويعصُونَك، ولا يُطيعونَك(٣).

وقولُ إبليسَ هذا إنَّما هو ظنٌّ منه وتوَهُّم، وقد وافَقَ في هذا الواقِعَ، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾(٤) [سبأ: ٢٠-٢١].

﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ﴾.

أي: قال اللهُ عزَّ وجلَّ لإبليسَ: اخرُجْ مِنَ الجنَّةِ مَذمومًا ممقوتًا، مطرودًا مِن رحمةِ اللهِ سبحانه(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٠١)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٨١)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٠١-١٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٥)، ((أضواء =

كما قال تعالى: ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [ص: ٧٧-٧٨].

﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

أي: أُقسِمُ على أنَّ مَنِ اتَّبَعك مِن بَنِي آدمَ أنْ أَملأَ نارَ جهنَّمَ يومَ القيامةِ منهم ومِنك ومِن ذُرِّيتِك(١).

كما قال تعالى: ﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا * وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٣-٦٥].

وقال سبحانه: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٤-٨٥].

الفوائدُ التربويَّةُ:

١- في التَّعقيبِ بهذه الآيةِ: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ على آيةِ: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ إيماءٌ إلى أنَّ إهمالَ شُكْرِ

= البيان)) للشنقيطي (٢/ ١١).

وتقدَّمَ قريبًا في تفسيرِ قَولِه تعالى: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأعراف:١٣] خلافُ المفسِّرين في عَودِ الضَميرِ في قولِه: ﴿منها﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٥).

قال النحَّاس: (قال أبو إسحاقَ: من قرأ ﴿لَمَنْ تَبِعَكَ﴾ بفَتحِ اللَّامِ؛ فهي عِندَه لامُ قَسمٍ، وهي موطِئةٌ لِقَولِه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾، وقال غيرُه: ﴿لَمَنْ تَبِعَكَ﴾ هي لامُ توكيدٍ، ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ لامُ قسمٍ، الدليلُ على هذا أنَّه يجوزُ في غيرِ القُرآنِ حَذفُ اللامِ الأولى، ولا يجوزُ حَذفُ الثَّانيةِ). ((إعراب القرآن)) (٢/ ٤٧).

النِّعمةِ يُعَرِّضُ صاحِبَها لِزَوالِها، وهو ما دلَّ عليه قَولُه: ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾(١).

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ...﴾ فيه التَّذكيرُ بنِعمةِ الإيجادِ؛ ليشكُرُوا مُوجِدَهم(٢).

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ فيه تنبيهٌ وإيقاظٌ إلى عَداوةِ الشَّيطانِ لِنَوعِ الإنسانِ مِنَ القِدَمِ؛ ليكون ذلك تحذيرًا مِن وَسوَسَتِه وتَضليلِه، وإغراءً بالإقلاعِ عمَّا أوقَعَ فيه النَّاسَ مِن الشِّركِ والضَّلالةِ(٣).

٤- جعْلُ امتثالِ أمْرِ الرَّبِ تعالى مشروطًا باستحسانِ العَبدِ له، ومُوافَقَتِه لرَأيِه وهواه؛ هو رفضٌ لطاعةِ الرَّبِّ، وترَفُّعٌ عن مرتبةِ العبد(٤)، فعندما يُوجَدُ النَّصُّ القاطِعُ، والأمرُ الجازِمُ مِنَ اللهِ تعالى؛ ينقَطِعُ النَّظَرُ، ويَبطُلُ التفكُّرُ، وتتعَيَّنُ الطَّاعةُ، ويتحَتَّمُ التَّنفيذُ؛ نستفيدُ ذلك مِن قَولِ الله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾(٥).

٥- في قَولِه تعالى عن إبليسَ: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ العُجْبَ هو الذي أهلَكَه(٦).

٦- الاحتجاجُ على فضلِ الإنسانِ على غيرِه بفضلِ أصْلِه على أصلِه حَجَّةٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٣٥)
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٣٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٣٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢٩٣).
(٥) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٢٦٦).
(٦) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٥٧).

فاسِدَةٌ، احتجَّ بها إبليسُ حيثُ قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾، وهي حجَّةُ الَّذين يفخرونَ بأنسابِهم، وقد قال النَّبي صلَّى اللَّه عليه وسلَّم: ((مَن بطَّأ به عملُه لم يُسرِعْ به نَسَبُه))(١).

٧- التكبُّرُ على اللهِ تعالى يوجِبُ العِقابَ الشَّديدَ، والإخراجَ مِن زُمرةِ الأولياءِ، والإدخالَ في زُمرةِ المَلْعونينَ؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾(٢).

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّه ليس لِمَن في الجنَّةِ أنْ يتكبَّرَ، وأنَّ التكبُّرَ لا يليقُ بأهلِ الجنَّةِ والسَّماءِ، وأنَّه تعالى إنَّما طرَدَ إبليسَ لتكبُّرِه، لا لمجرَّدِ المعصيةِ، وكما في الحديثِ: ((لا يَدخُلُ الجنَّةَ مَن كان في قَلْبِه مثقالُ ذرَّةٍ مِن كِبْرٍ))(٣).

٩- قال الله تعالى: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ حكمةُ إنظارِ اللهِ تعالى لإبليسَ- وإن كان ذلك سَببًا للغَوايةِ والفِتنةِ- أنَّ في ذلك ابتلاءَ العبادِ بمُخالَفَتِه وطَواعِيَتِه، وما يترتَّبُ على ذلك مِن إعظامِ الثَّوابِ بالمُخالفةِ، وإدامةِ العِقابِ بالطَّواعِيَةِ(٤).

١٠- قال تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٦).
والحديث أخرجه مسلم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة.
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٠٩).
(٣) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٥/ ٣١٤)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٦٥).
والحديثُ أخرجه مسلم في ((صحيحه)) (٩١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا.
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٩).

أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ إنَّما نَبَّهَنا اللهُ تعالى على ما قال إبليسُ وعَزَم على فِعْلِه؛ لِنأخُذَ منه حِذْرَنا، ونستَعِدَّ لعَدُوِّنا، ونحترزَ منه بعِلْمِنا بالطَّريقِ التي يأتي منها، ومَداخِلِه التي ينفُذُ منها[1].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ إشارةٌ إلى منزلةِ الشُّكرِ؛ حيث إنَّ ابليسَ لَمَّا عَرَفَ قدْرَ مقامِ الشُّكرِ، وأنَّه مِن أجَلِّ المقاماتِ وأعلاها، جَعَلَ غايَتَه أنْ يسعَى في قَطْعِ النَّاسِ عنه[2].

١٢- قَولُه تعالى: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمانِهِمْ وَعَنْ شَمائِلِهِمْ﴾ فيه بيانُ السَّبَبِ في قِلَّةِ الشُّكرِ المَذكورِ في قَولِه تعالى: ﴿وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ﴾ وكشْفُ الدَّافِعِ الحقيقيِّ الخفِيِّ؛ مِن حَيلولةِ إبليسَ دُونَه، وقُعودِه على الطَّريقِ إليه! ليستيقظَ البَشَرُ للعَدُوِّ الكامِنِ الذي يدفَعُهم عن الهُدى، ولِيأخُذُوا حِذْرَهم حين يَعرِفونَ مِن أينَ هذه الآفةُ التي لا تجعَلُ أكثَرَهم شاكرينَ[3]!

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ إثباتُ الصِّفاتِ الاختياريَّةِ للهِ تعالى - كصِفةِ الكَلامِ هنا- فهذا بيِّنٌ في أنَّه إنَّما أَمَرَ الملائكةَ بالسُّجودِ بعد خَلْقِ آدمَ، ولم يَأمُرْهُم في الأزَلِ[4].

٢- قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ استُدلَّ به على أنَّ صِيغةَ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٢٨٤).
(٢) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١١٧).
(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٢٦٧).
(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٢٢٢).

(افْعَلْ) تأتي -في أصلِ وضعِها- للوُجوبِ، وكذلك قولُه: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ مُطلَقَ الأمرِ يدلُّ على الوُجوبِ؛ لذمِّ إبليسَ على امتناعِه مِنَ السُّجُودِ، ولو لم يَدُلَّ على الوُجوبِ لم يَستوجِبِ الذَّمَّ والتوبيخَ(١).

٣- استُدِلَّ بقَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ على تفضيلِ النبيِّ على المَلَك؛ لأنَّ اللهَ أَمَرَ الملائكةَ بالسُّجودِ لآدَمَ على سبيلِ التَّكريمِ له؛ حتى قال إبليسُ: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾(٢) [الإسراء: ٦٢].

٤- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ مُطلَقَ الأمرِ يدلُّ على الفَورِ؛ لِذَمِّ إبليسَ على امتناعِه مِنَ السُّجودِ في الحالِ، ولو لم يدُلَّ على الفَورِ لم يستوجِبِ الذَّمَّ في الحالِ(٣).

٥- قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ قال الله هنا في سورةِ الأعرافِ: ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ وفي سورةِ الحِجر ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَالَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ وقال في سورةِ ص: ﴿أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ واختلافُ العباراتِ عندَ الحكايةِ يدلُّ على أنَّ اللعينَ قد أَدْرج في معصيةٍ واحدةٍ ثلاثَ معاصٍ: مخالفةُ الأمرِ، ومفارقةُ الجماعةِ، والاستكبارُ معَ تحقيرِ آدمَ، وقد وُبِّخ على كلِّ واحدةٍ منها، لكن اقتصر عندَ الحكايةِ في كلِّ موطنٍ على ما ذكر فيه؛ اكتفاءً بما ذكر في موطنٍ آخرَ(٤).

٦- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ القِياسَ في مَورِدِ النَّصِّ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٠٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١١٥).

(٢) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/ ٣٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٠٧-٢٠٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٨).

(٤) ((فتح البيان في مقاصد القرآن)) لمحمد صديق خان (٤/ ٣١٠).

فاسِدٌ[١]، فقد كانت حُجَّةُ إبليسَ باطلة؛ لأنَّه عارضَ النصَّ بالقِياسِ[٢].

٧- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ﴾ أصلٌ في ثُبُوتِ الحَقِّ لأهلِ المحَلَّةِ أن يُخرِجُوا مِن مَحَلَّتِهم مَن يُخشَى مِن سِيرَتِه فُشُوُّ الفَسادِ بينهم[٣].

٨- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ أفاد التَّأكيدُ بـ (إنَّ) والإخبارُ بصيغةِ (مِنَ المُنْظَرِينَ) أنَّ إنظارَه أمرٌ قد قضاه اللهُ وقَدَّرَه مِن قَبلِ سُؤالِه؛ أي: تحقَّقَ كَونُك مِن الفَرِيقِ الذين أُنظِرُوا إلى يومِ البَعثِ، وأنَّ اللهَ ليس بمُغَيِّرٍ ما قدَّرَه له، فجوابُ اللهِ تعالى لإبليسَ إخبارٌ عن أمرٍ تحَقَّقَ، وليس إجابةً لطَلِبَةِ إبليسَ[٤]؛ لأنَّه أهونُ على اللهِ مِن أن يُجيبَ له طلبًا، وهذه هي النُّكتةُ في العدولِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٥).

وقال ابن تيمية: (ويظهرُ فسادُها بالعقلِ مِن وُجوهٍ خمسةٍ: أحدُها: أنَّه ادَّعَى أنَّ النارَ خَيرٌ مِن الطينِ، وهذا قد يُمنعُ؛ فإنَّ الطِّينَ فيه السَّكينَةُ والوَقارُ والاستقرارُ والثَّباتُ والإمساكُ ونحوُ ذلك، وفي النارِ الخِفَّةُ والحِدَّةُ والطَّيْشُ، والطينُ فيه الماءُ والتُّرابُ. الثاني: أنَّه وإن كانت النارُ خَيرًا مِن الطينِ، فلا يَجِبُ أن يَكونَ المخلوقُ مِن الأفضلِ أفضلَ؛ فإنَّ الفرعَ قد يختصُّ بما لا يكونُ في أصْلِه، وهذا التُّرابُ يُخْلَقُ منه مِن الحيوانِ والمعادنِ والنَّباتِ ما هو خيرٌ منه. الثالثُ: أنَّه وإن كان مخلوقًا من طينٍ، فقد حَصَل له بنفخِ الروحِ المقدَّسةِ فيه ما شُرِّف به، فلهذا قال: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ فعُلِّق السُّجودُ بأن ينفُخَ فيه مِن روحِه، فالموجِبُ للتَّفضيلِ هذا المعنَى الشَّريفُ، الَّذي ليس لإبليسَ مِثلُه. الرابعُ: أنَّه مخلوقٌ بيدَي اللَّهِ تعالَى، كما قال تعالَى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾. الخامسُ: أنَّه لو فُرِضَ أنَّه أفضلَ فقد يُقالُ: إكْرامُ الأفضلِ للمفضولِ ليس بمُستنكَرٍ). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٥) بتصرف.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٤٤).

(٤) قال ابنُ جريرٍ: (فإنْ قال قائلٌ: فإنَّ اللَّه قد قال له إذْ سأَله الإنظارَ إلى يوم يُبْعَثونَ: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ في هذا الموضعِ، فقد أجابَه إلى ما سَأل؟ قِيل له: ليس الأمرُ كذلك، وإنَّما كان مُجيبًا له إلى ما سأل لو كان قال له: إنَّك مِنَ المُنظَرينَ إلى الوقتِ الَّذي سألتَ، أو إلى يومِ البعثِ، أو إلى يومِ يُبعثون، أو ما أشْبَه ذلك ممَّا يدلُّ على إجابتَه إلى ما سأَلَ مِنَ النَّظِرَةِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٩٠).

عَن أن يكونَ الجوابُ: أنظَرْتُك، أو أجبْتُ لك؛ ممَّا يدُلُّ على تكرُمةٍ باستجابةِ طَلَبِه، ولكنَّه أعلَمَه أنَّ ما سألَه أمرٌ حاصِلٌ، فسؤالُه تحصيلُ حاصلٍ[١].

٩- إن قال قائل: فهل أحَدٌ مُنْظَرٌ إلى ذلك اليومِ سِوى إبليسَ، فيُقال له: (إنك منهم)؟

قيل: نعم، مَنْ لم يقبضِ الله رُوحَه مِن خلقِه إلى ذلك اليومِ، ممَّن تقومُ عليه الساعةُ، فهم مِن المنظرين بآجالِهم إليه، ولذلك قِيل لإبليسَ: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾، بمعنى: إنَّك ممَّن لا يميتُه الله إلا ذلك اليومَ[٢].

١٠- قال تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ..﴾ استخدَمَ لفظَ القُعودِ؛ لأنَّ المرادَ مِنَ الآيةِ أنَّه يُواظِبُ على الإفسادِ مُواظبةً لا يفتُرُ عنها، فإنَّ مَن أراد أن يبالِغَ في تكميلِ أمرٍ مِنَ الأمورِ، قعدَ حتى يصيرَ فارغَ البالِ، فيُمكِنه إتمامُ المقصودِ[٣].

١١- قولُه تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ يدلُّ على أنَّ إبليسَ عَلِمَ أنَّ اللهَ خلَقَ البَشَر للصَّلاحِ والنَّفعِ، وأنَّه أودَعَ فيهم معرفةَ الكَمالِ، وأعانهم على بلوغِه بالإرشادِ، وبهذا الاعتبارِ كان إبليسُ عَدُوًّا لبني آدمَ؛ لأنَّه يطلُبُ منهم ما لم يُخلَقوا لأجلِه، وما هو مُنافٍ للفِطرةِ التي فطرَ اللهُ عليها البشَرَ[٤].

١٢- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٤٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٩٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢١٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٤٨).

هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّ إبليسَ كان عالِمًا بالدِّينِ الحقِّ، والمنهجِ الصَّحيحِ؛ لأنه قال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ وصراطُ اللهِ المستقيمُ هو دِينُه الحقُّ، ودلَّ أيضًا على أنَّ إبليسَ كان عالِمًا بأنَّ الذي هو عليه مِنَ المذهَبِ والاعتقادِ هو مَحضُ الغَوايةِ والضَّلالِ؛ لأنَّه لو لم يكن كذلك لَمَا قال: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾(١).

١٣- قال اللهُ تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ في هذا بيانٌ واضِحٌ على فسادِ ما يقولُ القَدَريَّةُ مِن أنَّ كُلَّ مَن كفَرَ أو آمَنَ فبِتَفويضِ اللهِ أسبابَ ذلك إليه، وأنَّ السَّبَبَ الذي به يَصِلُ المؤمِنُ إلى الإيمانِ، هو السبَبُ الذي به يصِلُ الكافِرُ إلى الكُفرِ، وذلك أنَّ ذلك لو كان كما قالوا لكان الخَبيثُ قد قال بقَولِه: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ فبما أصلَحْتَني، إذ كان سببُ الإغواءِ هو سببَ الإصلاحِ، وكان في إخبارِه عن الإغواءِ إخبارٌ عَنِ الإصلاحِ، ولكِنْ لَمَّا كان سَبَباهما مختلفينِ، وكان السَّبَبُ الذي به غوى وهلك، مِن عندِ اللهِ؛ أضاف ذلك إليه فقال: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾(٢)، فخالف القَدَريَّة وغيرُهم شيخَهم إبليسَ الذي طاوَعُوه في كلِّ ما زَيَّنَه لهم، ولم يطاوِعوه في هذه المسألةِ، ويقولون: أخطأ إبليسُ، وهو أهلٌ للخَطَأ؛ حيث نسَبَ الغَوايَةَ إلى ربِّه، تعالى اللهُ عَن ذلك. فيُقال لهم: وإبليسُ وإن كان أهلًا للخطأِ، فما تصنعونَ في نَبيٍّ مُكَرَّمٍ مَعصومٍ، وهو نوحٌ عليه السَّلامُ؛ حيث قال لِقَومِه: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(٣) [هود: ٣٤].

١٤- وَجهُ جَمعِ اليَمينِ والشِّمالِ في قَولِه تعالى عن إبليسَ: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ أنَّه جاءَ في مُقابلةِ كَثرةِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢١٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٩٢، ٩٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٧٥).

مَن يريدُ إغواءَهم، فكأنَّه أَقسمَ أنْ يأتيَ كلَّ واحدٍ مِن بَينِ يَدَيه ومِن خَلْفِه، وعن يمينِه وعَن شِمالِه، ولا يحسُنُ هنا عن يَمينِهم وعن شِمالِهم، بل الجمعُ هنا مِن مُقابلةِ الجُملةِ بالجملةِ، المقتضي توزيعَ الأفرادِ، ونظيرُه: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾(١).

١٥- ذكَرَ اللهُ تعالى عن آدمَ عليه السَّلامُ أنَّه لَمَّا فعَلَ ما فَعَل، قال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، وعن إبليسَ أنه قال: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، فمَن تاب أشبَهَ أباه آدَمَ، ومن أصَرَّ واحتَجَّ بالقَدَرِ، أشبَهَ إبليسَ(٢).

١٦- كان إبليسُ أوَّلَ مَن قَدَّمَ القَدَرَ على الأمرِ، وعارَضَه به، وقال: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، وقال: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ فرَدَّ أمرَ اللهِ بقَدَرِه، واحتَجَّ على ربِّه بالقَدَرِ(٣).

١٧- قَولُه تعالى: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ دلَّ على أنَّ ذلك الوَصْفَ لا يُغتفَرُ منه؛ لأنَّ النَّفيَ بصيغةِ (ما يكونُ لك كذا) أشَدُّ مِنَ النَّفيِ بـ (ليس لك كذا)، وهو يستلزِمُ هنا نهيًا؛ لأنَّه نفاه عنه مع وقوعِه(٤).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((مجموعة الرسائل والمسائل)) لابن تيمية (٥/ ١٣٤)، ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٤٤).

- قوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ فيه تأكيدُ الخبَرِ باللَّامِ و (قد) المفيدِ للتَّحقيقِ؛ تنزيلًا للمقصودِينَ مِنَ الخطابِ مَنزلةَ مَن يُنكِرُ مَضمونَ الخَبَرِ؛ لأنَّهم لَمَّا عَبَدوا غيرَ اللهِ كان حالُهم كحالِ مَن يُنكِرُ أنَّ الله هو الذي مكَّنَهم مِنَ الأرضِ، أو كحالِ مَن يُنكِرُ وُقوعَ التَّمكينِ مِن أصلِه[1].

- قوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ فيه تقديمُ ﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ على المفعولِ به ﴿مَعَايِشَ﴾ مع أنَّ الأصلَ أنْ يُقَدَّمَ المفعولُ به على غَيرِه مِن مُتعَلَّقاتِ الفِعلِ؛ لأنَّ القاعدةَ في تَقديمِ بعضِ الكَلامِ على بعضٍ، هي أن يُقَدَّمَ المقصودُ بالذَّاتِ، والأهَمُّ فالأهَمُّ منه؛ فهَاهُنا ثلاثةُ أشياءَ: المعايِشُ، وكونُها في الوَطَنِ الذي يعيش فيه المَرءُ، وكَونُ المرءِ مالكًا لها، ومُتَصرِّفًا فيها، ولا مُشاحَّةَ في أنَّ الأهمَّ عند كلِّ إنسانٍ: أن يكون مالكًا لِمَا يَعيشُ به، ويتلوه أن يكونَ ذلك في وَطَنِه، ويتلوه أنواعُه وأن تكونَ كثيرةً، وهو ما أفاده تركيبُ الكَلِماتِ في الآيةِ، ولا تَجِدُ هذه الدِّقَّةَ في تقديمِ ما ينبغي وتأخيرِ ما ينبغي، مُطَّرِدةً إلَّا في كتابِ الله تعالى[2].

- قولُه: ﴿قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ تذييلٌ مَسوقٌ لِبيانِ سوءِ حالِ المُخاطَبينَ، وتَحذيرِهم[3]، ويجوز أنْ تكون القِلَّةُ كنايةً عَنِ العَدَمِ على طريقَةِ الكَلامِ المُقتَصَد؛ استنزالًا لتذَكُّرِهم[4].

٢- قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ تصديرُ جُملةِ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٣٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢٩٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٣٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٣٣).

بالقَسَمِ وحرفِ التَّحقيقِ؛ لإظهار كَمالِ العِنايةِ بِمَضمونِهما[١].

- وفيه نُسِبَ الخلقُ والتَّصويرُ إلى المُخاطَبينَ مع أنَّ المُرادَ بهما خَلْقُ آدَمَ عليه السَّلامُ وتَصويرُه؛ توفيةً لِمَقامِ الامتنانِ حَقَّه، وتأكيدًا لِوُجوبِ الشُّكرِ عَليهم[٢].

- وعُطِفَتْ جُملةُ ﴿صَوَّرْنَاكُمْ﴾ على ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾ بحَرفِ (ثُمَّ) الدالِّ على تراخي رُتبةِ التَّصويرِ عن رُتبةِ الخَلقِ؛ لأنَّ التَّصويرَ حالةُ كَمالٍ في الخَلقِ[٣].

- قوله: ﴿لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ في اختيارِ الإخبارِ عن نَفيِ سُجُودِه بجَعْلِه مِن غَيرِ السَّاجدينَ: إشارةٌ إلى أنَّه انتَفَى عنه السُّجودُ انتفاءً شديدًا؛ لأنَّ قَولَك: (لم يكُنْ فُلانٌ مِن المُهتدينَ) يفيدُ مِنَ النَّفيِ أشَدَّ مِمَّا يُفيدُه قولُك: (لم يكُنْ مُهتَديًا) [٤]، وأيضًا فنفيُ كَونِ إبليسَ مِنَ السَّاجدينَ أخصُّ مِن نَفيِ السُّجودِ عنه؛ لأنَّ نَفيَ الكونِ يقتَضي نفيَ الأهليَّةِ والاستعدادِ، فهو أبلغُ في الذَّمِّ مِن أنْ يُقالَ: لم يسجُدْ[٥].

٣- ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾

- قوله: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ للجَوابِ عَن سؤالٍ نَشأَ مِن حكايةِ عَدَمِ سُجُودِه؛ كأنَّه قيل: فماذا قال اللهُ تعالى حينئذٍ؟ وكان مقتضى الظَّاهِرِ أن يُقال: (قُلْنا)، فكان العدولُ إلى ضميرِ الغائبِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢١٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٣٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٣٩).
(٥) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٥٧).

الْتِفاتًا نُكتتُه تحويلُ مَقامِ الكَلامِ؛ إذ كان المقامُ مَقامَ أمرٍ للمَلائكةِ ومَن في زُمرَتِهم، فصار مقامَ تَوبيخٍ لإبليسَ خاصَّةً(١).

- والاستفهامُ في قولِه: ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ للتَّوبيخِ، ولإظهارِ معانَدَتِه وكُفْرِه، وكِبْرِه، وافتخارِه بأصلِه، وازدرائِه بأصلِ آدَمَ، وأنَّه خالَفَ أمرَ رَبِّه معتقدًا أنَّه غيرُ واجبٍ عليه، لَمَّا رأى أنَّ سُجودَ الفاضِلِ للمَفْضولِ خارجٌ مِنَ الصَّوابِ(٢).

- و(لا) في قوله: ﴿أَلَّا تَسْجُدَ﴾ مَزيدةٌ للتَّأكيدِ والتَّحقيقِ، ولا تُفيدُ نَفيًا؛ لأنَّ الحرفَ المَزيدَ للتَّأكيدِ لا يُفيدُ معنًى غيرَ التَّأكيدِ؛ كأنَّه قيل: ما منَعَك أن تُحقِّقَ السُّجودَ وتُلزِمُه نَفسَك إذْ أَمَرْتُكَ؟ لأنَّ أمري لك بالسُّجودِ أُوجِبُه عليك إيجابًا، وأُحَتِّمُه عليك حَتمًا لا بدَّ لك منه(٣)، وذلك على أحدِ القولينِ في (ألاَّ).

- قولُه تعالى حاكيًا عن إبليسَ أنَّه قال: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَارٍ﴾ قوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ مَسوقٌ مَساقَ التَّعليلِ للامتناعِ، وجُملةُ: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ﴾ بيانٌ لِجُملةِ: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾؛ فلذلك فُصِلَتْ-أي: لم تُعطَفْ بالواوِ(٤).

- وفيه مناسبةٌ حسنةٌ، حيث قال تعالى هنا في سورةِ الأعراف: ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ من غيرِ نِدائِه باسِمه، وقال تعالى في سورةِ الحِجر: ﴿قَالَ يَاإِبْلِيسُ مَا لَكَ﴾ [الحجر: ٣٢]، وقال في سُورة ص: ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ﴾ [ص: ٧٥] بزيادةِ ﴿يَا إِبْلِيسُ﴾ فيهما؛ وذلك لأنَّ خِطابَه ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ﴾ قَرُبَ مِن ذِكرِه في هذه السُّورةِ، وهو قولُه: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾؛ فحَسُنَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٣٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٨٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٨٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٤٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٤١).

حذْفُ حرْفِ النِّداء والمُنادَى، ولم يقرُبْ في سورةِ ص قُربَه منه في هذِه السُّورةِ؛ لأنَّه قال في ص: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [ص: ٧٤] بزيادةِ ﴿اسْتَكْبَرَ﴾؛ فزادَ حرْف النِّداءِ والمنادَى فقال: ﴿يَا إِبْلِيسُ﴾، وكذلك في الحِجر؛ فإنَّ فيها: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾[1] [الحجر: ٣١].

وقيل: إنَّه لَمَّا تَقدَّم في الأعرافِ ذِكرُ خَلْق الإنسانِ وتصويرِه مِن غيرِ ذِكرِ المادَّة التي خُلِق منها، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، والخِطاب لبَنِي آدم، ولم يُذْكَر خَلْقُ غيرِهم مِن مَلَك أو جِن، ثم إنَّ الأمرَ بالسُّجود ورَد للملائكةِ، ولم يرِدْ إشعارٌ بأنَّ إبليسَ مِن غيرهم، فسَبَق من ظاهِرِ الكلامِ أنَّه منهم ومأمورٌ معهم؛ فناسَبَ هذا قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ﴾؛ لأنَّه مأمورٌ بظاهرِ ما تقدَّم، وناسَب ذلك أيضًا وعضَّدَه قولُه تعالى: ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾، أمَّا آيةُ الحِجرِ فقدْ تقدَّم قَبْلَها قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦]، وقال في سُورة ص: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾ [ص: ٧١]، فلمَّا لم يكُن في أصلِ الخِلقةِ والمادَّة منهم، وكان الأمرُ بظاهِرِ العِبارةِ لهم، وإنْ كان مُرادًا أنَّه معهم، فبحسَبِ ذلك استُؤنِفَ نِداؤُه، فقِيل: ﴿يَا إِبْلِيسُ﴾؛ فنُودي باسمِه المشعِرِ بطَرْدِه ومغايرتِه لهم[2]. وقيل: ذلك الاختلافُ تَفنُّنٌ؛ جريًا على عادةِ العربِ في تَفنُّنهم في الكلامِ[3].

- وأيضًا قال تعالى هنا في سُورةِ الأعرافِ: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١١٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:١٨٧).
(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٧٧-١٧٨).
(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:١٨٧).

إِذْ أَمَرْتُكَ﴾، وقال تعالى في سُورةِ الحجر: ﴿أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣٢]، فلم يَذكُرِ المعيَّةَ في سورة الأعراف وذَكَرَها في الحِجرِ؛ وذلك لمُناسَبةٍ حسَنةٍ؛ فإنَّه لَمَّا تقدَّم في الأعرافِ ذِكرُ خَلقِ الإنسانِ وتَصويرِه من غيرِ ذِكرِ المادَّة التي خُلِق منها، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ ولم يَذكُر خَلْق غيرِهم مِن مَلَك أو جِنٍّ، ثم إنَّ الأمرَ بالسُّجودِ ورَدَ للملائكةِ، ولم يَرِدْ إشعارٌ بأنَّ إبليس مِن غيرهم؛ فسَبَق من ظاهرِ الكلامِ أنَّه منهم، ومأمورٌ معهم، فناسَب هذا قولُه: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾؛ لأنَّه مأمورٌ بظاهرِ ما تَقدَّم. أمَّا آيةُ الحجرِ فقدْ تقدَّم قبلها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ إلى قوله: ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٦- ٢٩]؛ فأشارتِ الآياتُ بظاهرِها إلى أنَّ إبليسَ لم يَكُن في أصلِ الخِلقةِ والمادَّةِ من الملائكةِ، وكان الأمرُ بظاهرِ العبارةِ لهم، وإنْ كان مرادًا أنَّه معهم؛ فبحَسَبِ هذا وردتِ المعيةُ في قولِه: ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾[1] [الحجر: ٣٢].

- وأيضًا قال تعالى هنا في سُورة الأعرافِ، وكذا في سورة ص: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢، ص: ٢٨]، فاستُوفِيَ ذِكرُ المادَّتين: الطِّين والنار، وقال في سُورةِ الحجر: ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٣٣]، فلم يَذكُرِ النَّارَ؛ وذلك لمُناسَبةٍ حَسنةٍ؛ إذ إنَّه لم يقَعْ ذِكرٌ لخَلقِ غيرِ الآدميِّين في سورة الأعراف؛ فناسَبَ ذلك ما ذَكَره سبحانه عن إبليس من قولِه: ﴿أَنَا خَيْرٌ

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٧٧-١٧٨).

مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ فاسْتُوفي ذِكرُ المادَّتَينِ، وبَنَى على ذلِك إبليسُ ما توهَّم مِن فَضلِ النَّارِ على الطِّينِ(١).

٤- **قوله: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾** الفاءُ في ﴿فَما يَكُونُ...﴾ للسَّببيَّةِ والتَّفريعِ؛ تعليلًا للأمرِ بالهُبوطِ، وهو عُقوبةٌ خاصَّةٌ: عُقوبةُ إبعادٍ عَنِ المَكانِ المُقَدَّسِ؛ لأنَّه قد صار خُلُقُه غيرَ ملائمٍ لِمَا جَعَلَ اللهُ ذلك المكانَ له(٢).

- قَولُه: ﴿فَاخْرُجْ﴾ فيه تأكيدٌ لجُملةِ ﴿فَاهْبِطْ﴾ بِمُرادِفِها، وأُعيدَتِ الفاءُ مع ﴿فَاخْرُجْ﴾؛ لزيادةِ تأكيدِ تَسَبُّبِ الكِبرِ في إخراجِه مِنَ الجنَّةِ(٣).

- وجملةُ: ﴿إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ واقعةٌ مَوقِعَ التَّعليلِ للإخراجِ، على طَريقةِ استعمالِ (إنَّ) في مِثلِ هذا المَقامِ استعمالَ فاءِ التَّعليلِ، وقوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ أشَدُّ في إثباتِ الصَّغارِ له مِن نحو: (إنَّك صاغِرٌ)، أو (قد صَغُرْتَ)(٤).

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ، حيثُ قال تعالى هنا في سُورةِ الأعراف: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾، وقال في سورةِ الحجر: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا﴾ [الحجر: ٣٤]؛ وذلك لأنَّ ما ورَدَ في سورة الحجر مِن تَبيينِ خَلْقِ إبليسَ مِن النارِ، وفَصْله عن الملائكةِ أَعْقَبَ به قولَه تعالى: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [الحجر: ٣٤]، أمَّا في آية الأعراف- ﴿فاهْبِطْ مِنْهَا﴾- فلمْ يَتقدَّم فيها أنَّ إبليس ليس من الملائكةِ، كالذي تَقدَّم في سورة الحجر، بل ظاهرُ ما في الأعرافِ أنَّه منهم، فجرَى الأمرُ مناسبًا لهذا

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٤٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٤٤-٤٥).

الظاهِرِ فعَبَّر بالهُبوط، ولَمَّا تَقدَّم في الحِجرِ أنَّه ليس مِن الملائكةِ لخَلْقِه من نارِ السَّموم، وأَشعرَ ذلك بشَرِّ المادَّة؛ ناسَبه قولُه: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا﴾، وإتْباعُ ذلك بما يُلائِمُه من الوصفِ ويُناسِبه من قوله: ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾، ثم بما كُتِب عليه مِن الطَّردِ واللَّعنةِ، ولم يَرِدْ في الأعرافِ هكذا، بل رُوعي فيه مُناسَبةُ ما تَقدَّم؛ ولئلَّا يَتنافَرَ الكلامُ ويَتنافرَ المعنى؛ فقيل: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾[1] [الأعراف: ١٣].

٥- قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾

- قولُه تعالى حاكيًا عن إبليسَ أنَّه قال: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي...﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سُؤالٍ نشأ مِمَّا قَبلَه؛ كأنَّه قيل: فماذا قال اللَّعينُ بعدَما سَمِعَ هذا الطَّردَ المُؤَكَّد؟، فقيل: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي...﴾[2].

- وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حسنةٌ، حيثُ قال تعالى هنا في سُورةِ الأعراف: ﴿أَنْظِرْنِي﴾، وقال في سورةِ الحجر وسورة ص: ﴿فَأَنْظِرْنِي﴾ [الحجر: ٣٦، ص: ٧٩]؛ ووجه هذه المناسبةِ: أنَّ قوله: ﴿أَنْظِرْنِي﴾ في سورةِ الأعراف ورَد مُستأنفًا، غيرَ مقصودٍ به عطفٌ على ما يَقعُ به هذا السؤالُ عقيبَه؛ فلم يُحْتَجْ إلى الفاءِ، وأمَّا في الآيتين في سورتي الحجر وص فإنَّ قولَه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي﴾ [الحجر: ٣٦، ص: ٧٩] جاءَ بعدَ إخبارِ اللهِ تعالى بلَعْنِه إبليسَ، فكأنَّه قال: يا ربِّ إنْ لعَنْتَني وآيَسْتَني من الجنَّةِ فأَخِّرْ أَجلي إلى يومِ يُبعثون؛ فاقتَضى إضمارَ (إنْ لعَنْتَني يا ربِّ) أن يأتي بالفاءِ[3]. وقيل: حَذْف الفاء في

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢١٧).

(٣) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٥٧٦-٥٧٧).

الأعرافِ؛ موافقةً لحَذفِ ﴿يَا إِبْلِيسُ﴾، وقال في الحجر و ص بذِكرِها؛ موافقةً لذِكرِه قبلُ[(١)]. وقيل: قال في الحجر وص بذِكر الفاءِ؛ لِمَا تَضمَّنه النداءُ في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ﴾ مِن أَدعوك وأُناديك، كما في قوله تعالى ﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾[(٢)] [آل عمران: ١٩٣].

- وأيضًا قال تعالى هنا في سُورةِ الأعراف: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي﴾ مِن غير ذِكر كلمة (رَبِّ)، وقال في سورةِ الحجر وسورة ص: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي﴾ [الحجر: ٣٦، ص: ٧٩] بذِكرِها؛ وذلك لمُناسبةٍ حَسنةٍ؛ فإنَّه سبحانه لَمَّا اقتصرَ في السؤالِ على الخِطابِ دون صريحِ الاسم في هذه السُّورة في قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ اقتصَر في الجوابِ أيضًا على الخِطابِ دون ذِكرِ المُنادَى[(٣)].

- وأيضًا قال تعالى هنا في سُورةِ الأعراف: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ مِن غير فاءٍ في ﴿إِنَّكَ﴾، وفي السُّورتينِ الحجر وص: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ [الحجر: ٣٧، ص: ٨٠] بفاء؛ وذلك لأنَّ الجوابَ يُبنَى على السُّؤال، ولَمَّا خلَا سؤالُه ﴿أَنْظِرْنِي﴾ في هذه السُّورةِ عن الفاءِ، خلا الجوابُ عنه، ولَمَّا ثَبتتِ الفاءُ في السُّؤالِ ﴿فَأَنْظِرْنِي﴾ في السُّورتَينِ ثَبتَتْ في الجوابِ[(٤)].

- وقيل في كلِّ ما مَضَى مِن زِياداتٍ في آيتَيِ الحِجر وص لم تَرِدْ في الأعراف: إنَّه قُصِدَ في سورة الأعرافِ إيجازُ الأخبارِ في القِصَّة، وقُصِدَ في السُّورتَينِ الإطنابُ؛ ليحصُلَ مِن ذلك الاطِّلاعُ على البَلاغةِ وجلالةِ النَّظمِ وعلى فَصاحتِه

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:١٨٨).
(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١١٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:١٨٨).
(٣) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١١٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص:١١٨).

في طرَفَي الإيجازِ والإطنابِ، ويُشيرُ إلى هذا الغرضِ: أنَّ مجموعَ الكلمِ الواقع مِن لدن قولِه في سورة الأعراف: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾ [الأعراف: ١١]- وهو ابتداءُ القِصَّة- إلى قولِه: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الأعراف: ١٤] بِضعٌ وأربعونَ كلمةً، والواردَ في الحِجرِ مِن لَدُن قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ [الحجر: ٢٦] إلى قولِه: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي﴾ [الحجر: ٣٦] بِضعٌ وسَبعون كلمةً، وفي سورةِ ص من لَدُن قوله: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ [ص: ٧١] إلى آخِرِ الآياتِ بِضعٌ وسِتُّون كلمةً؛ فقدْ وضَحَ ما قُصِد في الأعراف مِن إيجازِ الأخبارِ في القِصَّة، وما في السُّورتَينِ بَعدُ مِن الإطنابِ[1].

٦- **قوله تعالى حاكيًا عن إبليسَ أنَّه قال: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾** اللام في قَولِه: ﴿لَأَقْعُدَنَّ﴾ لامُ القَسَمِ؛ قَصَدَ اللَّعينُ تأكيدَ حُصُولِ ذلك، وتحقيقَ العَزمِ عليه[2].

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ، حيثُ قال تعالى هنا في سُورةِ الأعراف: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾، وقال في سورةِ الحجر: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ [الحجر: ٣٩]؛ فزادَ هنا في هذه السُّورةِ الفاءَ في قوله: ﴿فَبِمَا﴾ وحَذَفها في الحِجر؛ وذلِك لأنَّ الفاءَ في الأعرافِ مُتسبِّبةٌ عمَّا قَبْلها؛ فهي للعطفِ ليكونَ الثاني مربوطًا بالأوَّلِ، ومُوافقًا له في الاقتصارِ على الخِطابِ دونَ النِّداءِ، ولم تَدخُل الفاءُ في سورة الحِجرِ؛ لوقوعِ النِّداءِ، والنداءُ يُوجِبُ القطعَ، واستئنافَ الكلامِ، لا سيَّما في قِصَّةٍ لا يَقتضيها ما قَبْلَها؛ فلمْ يَحسُنْ مجيءُ الفاءِ[3].

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٤٦).

(٣) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٥٨٣)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١١٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:١٨٩).

- وأيضًا قال هنا في سُورةِ الأعراف: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، وقال في سورةِ الحِجرِ: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩]، فاختَلَف التعبيرُ في المَوضِعين؛ وذلك لمناسبةٍ حَسنةٍ بحسَب ما تَقدَّم في كلِّ واحدةٍ مِن السُّورتَين؛ فإنَّه لـمَّا تَقدَّم في الأعرافِ قولُه تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٣]، والإشارةُ إلى القرآنِ بأنَّه يُوضِّح الصِّراطَ المستقيمَ، والإشارةُ بهذا إلى المنزلِ قُرآنًا أنَّه مُبيِّنٌ للصِّراطِ المستقيمِ الذي طَمِع اللَّعينُ في الاستيلاءِ عليه، فقِيل عِبارة عن غَرَضِه مِن ذلك: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. ولَمَّا كان قد ورَدَ في سُورةِ الحِجر مَنْعُه، ومَنْعُ جُنودِه عن تَعرُّف خبَرِ السَّماءِ، واستراقِ السَّمعِ في قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ * وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ * إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ [الحجر: ١٦- ١٨]، وصُدَّ مِن هذه الجِهةِ، عدَل إلى الأُخرى فقال: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩]، أي: رجعتُ إلى إغوائِهم مِن جِهةٍ لم تَمنعْني عنها؛ فلأَجْلِ اختلافِ المتقدِّمِ في كلٍّ مِن السُّورَتين، اختَلَفَ المبنيُّ عليه مِن المحكيِّ عن إبليسَ مِن طَمَعِه، ووَرَدَ كلٌّ على ما يُناسِبُ[1].

٧- قولُه تعالى حاكيًا عن إبليسَ أنَّه قال: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ في هذه الآيَةِ فَنُّ المُخالَفةِ بينَ حَرفَيِ الجَرِّ؛ فقد ذَكَرَ الجِهاتِ الأربَعَ؛ لأنَّها هي التي يأتي منها العَدُوُّ عَدُوَّه؛ ولهذا ترَكَ جِهةَ الفَوقِ والتَّحتِ، وعَدَّى الفِعلَ إلى الجِهَتينِ الأُولَيَينِ بـ (مِن)، وإلى الأُخرَيَينِ بـ

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٧٩-١٨٠).

(عن)؛ لأنَّ الغالِبَ فيمَن يأتي مِن قُدَّام وخَلْف أنْ يكون مُتوجِّهًا بكُلِّيته، والغالِبَ فيمَن يأتي مِن جِهَةِ اليَمينِ والشِّمال أن يكونَ مُنحرِفًا، فناسب في الأوَّلَينِ التَّعديَةَ بحرْفِ الابتداء (مِن)، وفي الآخَرَينِ التَّعديَةَ بحَرْفِ المُجاوَزة (عَن)[1].

٨- قوله: ﴿لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فيه التأكيدُ بقوله: ﴿أَجْمَعِينَ﴾؛ للتَّنصيصِ على العُمومِ؛ لئلَّا يُحمَلَ على التَّغليبِ؛ وذلك أنَّ الكَلامَ جَرى على أمَّةٍ بعُنوانِ كَونِهم أتباعًا لواحدٍ[2].

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٥٢).

الآيات (١٩-٢٥)

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

غريبُ الكَلماتِ:

﴿فَوَسْوَسَ﴾: فألقى وحَدَّث، والوَسْوَسَةُ: الخَطْرةُ الرَّديئةُ، وحَديثُ النَّفسِ والشَّيطانِ بِمَا لَا نفْعَ فيه؛ مِنَ الوَسْوَاسِ، وهو صَوتُ الحُلِيِّ، والهَمْسُ الخَفيُّ، أو القَوْلُ الْخَفيُّ لِقَصدِ الإضلالِ، وأصل (وسوس): يدُلُّ عَلَى صَوْتٍ غَيْرِ رَفِيعٍ(١).

﴿وُورِيَ﴾: أي: سُتِرَ أو غُطِّي، وأصلُ (وري): سَتر(٢).

﴿سَوْآتِهِمَا﴾: أي: عَوْراتِهما، أو كنايةٌ عَنِ الفَرْج، وسُمِّيَت العورةُ سوأةً؛ لأنَّه يَسوءُ صاحِبَها انكشافُها مِن جَسَدِه، وأصلُ (سوء): كلُّ ما يَقبُحُ(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٧٦)، ((المفردات)) للراغب (ص:٨٦٩)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ١١١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٤١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٧٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١١٩، ١٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص:٤٤١، ٤٤٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢١).

﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾: أي: حَلَف لهما، وأصلُه مِنَ القَسامَةِ، وهي أيمانٌ تُقْسَمُ على أولياءِ المَقتولِ، ثم صار اسمًا لكلِّ حَلِفٍ(١).

﴿فَدَلَّاهُمَا﴾: أي: فخَدَعَهما، أو أوْقَعَهما في الهلاكِ، أو جَرَّأهما على المعصيةِ، ويُقال لكُلِّ مَن ألقى إنسانًا في بليَّةٍ: قد دلَّاه في كذا، مأخوذٌ من تَدْليةِ الرجلِ العطشانِ في البِئرِ؛ لِيَرْوَى مِن مائِها، فلا يجِدُ فيها ماءً؛ فيكونُ مُدَلًّى فيها بغُرورٍ؛ فوُضِعَتِ التَّدليةُ مَوضِعَ الإطماعِ فيما لا يُجْدي نفعًا، وأصلُ (دلي): يدُلُّ على مُقارَبةِ الشَّيءِ، ومُداناتِه بسُهولَةٍ ورِفقٍ(٢).

﴿بِغُرُورٍ﴾: الغُرور- بضمِّ الغينِ- مصدر غَرَّه يغرُّه غُرورًا، أي: أصاب غِرَّتَه، أي: غفلتَه في اليَقَظةِ، ونال منه ما يُريد، حتَّى يُدخِلَه مِن معصيةِ اللهِ فيما يستوجِبُ به عُقوبتَه، وأصلُ (غرر) يدلُّ على النُّقْصانِ(٣).

﴿وَطَفِقَا﴾: أي: أقبَلَا وجعَلَا، وظَلَّا وأخذَا، وفِعلُ (طفق) يُستعمَلُ في الإيجابِ دون النَّفيِ، فلا يُقال: ما طَفِقَ(٤).

﴿يَخْصِفَانِ﴾: أي: يَرْقَعان، ويُلزِقان، أو يَجعلان وَرَقةً على وَرَقةٍ، أو يَصِلانِ الوَرَقَ بَعضَه ببعضٍ، ويُلصقانِ بعضَه على بعضٍ، ومنه يقال: خَصَفْتُ نَعلِي: إذا

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١١٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩٧)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٣٨/ ٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص:٦٠٣-٦٠٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٧)، ((الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية)) للجوهري (٤/ ١٥١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢١).

طبَّقْتَ عليها رُقعةً، وأصل (خصف): اجْتِمَاعُ شَيْءٍ إلى شَيْءٍ(١).

﴿مُسْتَقَرٌّ﴾: أي: موضِعُ استقرارٍ؛ قرارٌ تستقرُّونَه، وفراشٌ تَمتهِدونه، وأصل (قر): يدلُّ على تَمَكُّنٍ(٢).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ﴾: (إنْ) حرْفُ شَرطٍ، وقَبْلَه لامُ التَّوطئةِ للقَسَمِ مُقدَّرة، والتقديرُ: (لَئِنْ)، وقوله: ﴿لَنَكُونَنَّ﴾ جوابُ القَسمِ المُقدَّرِ الذي وطَّأتْ له اللامُ، وجوابُ الشَّرطِ محذوفٌ؛ لدلالةِ جَوابِ القَسمِ عليه؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ﴾(٣) [المائدة: ٧٣].

المَعْنَى الإجماليُّ:

أمرَ اللهُ تعالى آدَمَ وزوجَه حوَّاءَ أن يسكُنا الجنَّةَ، ويأكُلا مِن حيثُ أرادا منها، وألَّا يَقْرَبا شجرةً مُعَيَّنةً حَدَّدَها لهما تعالى، فيكونا مِنَ الظَّالِمينَ.

فوَسْوَس الشَّيطانُ لآدَمَ وحوَّاءَ؛ ليخدَعَهما، فيُظهِرَ لهما ما سُتِرَ مِن عَوْراتِهما، زاعمًا لهما كذِبًا أنَّ الله تعالى لم يَنْهَهما عن أكلِ ثَمَرِ هذه الشَّجَرةِ، إلَّا كراهةَ أن يكُونا مِن جِنسِ الملائكةِ، أو يكونَا مِنَ الخالِدينَ، وأقسَمَ لهما باللهِ إنَّه ناصِحٌ لهما في ذلك.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١١٧)، مقاييس اللغة (٥/ ٧).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٨٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٢٨٥).

فخَدَعَهما وغَرَّهما وجَرَّأَهما على الأكلِ مِن تلك الشَّجَرةِ، فلمَّا أكَلَا منها انكشَفَت عَوْرَاتُهما، فجَعلا يَشُدَّانِ على جَسَدَيهما مِن وَرَقِ الجنَّةِ؛ ليستُرا ما ظهَرَ مِن عَوْرَاتِهما، وناداهما ربُّهما معاتبًا لهما: ألَمْ أنهَكُما عن تلك الشَّجرةِ، وأُخبِرْكما أنَّ الشَّيطانَ عدوٌّ لكما ظاهِرُ العَداوةِ.

فاعترَفا بالعِصْيانِ، وقالا: رَبَّنا ظَلَمْنا أنفُسَنا، وإنْ لم تَغفِرْ لنا وتَرْحَمْنا لنكونَنَّ مِنَ الهالكينَ.

فأمر اللهُ تعالى آدَمَ وحوَّاءَ وإبليسَ بالهُبوطِ إلى الأرضِ، بعضُهم لبعضٍ عَدُوٌّ، هم وذُرِّيَّتُهم، ولهم في الأرضِ مكانٌ يَستقِرُّونَ فيه على ظَهْرِها في حياتِهم، وفي بَطنِها بَعد مَوتِهم، ولهم فيها مَتاعٌ يَستَمتِعونَ به إلى أن يأتِيَهم الموتُ، وأخبَرَهم تعالى أنَّهم في الأرضِ يَعيشونَ، وفيها يَموتونَ، ومنها يُخرَجونَ مِن قُبورِهم لِيومِ الجَزاءِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩ ﴾.

﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا ﴾.

أي: قال اللهُ تعالى لآدَمَ عليه السَّلامُ بعد أن أخرَجَ إبليسَ مِنَ الجنَّةِ: اتَّخِذْ أنت وزَوجُك حوَّاءُ الجنَّة مَنزِلًا، وكُلَا مِن أيِّ مكانٍ فيها، مِن جَميعِ ثِمارِها[1].

﴿ وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٠٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٥).

أي: ولا تَأكُلا من هذه الشَّجَرةِ؛ فتَصِيرا مِمَّنْ ظَلَم نفسَه بمُخالَفةِ أمرِ رَبِّه[١].

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ (٢٠) ﴾.

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا ﴾.

أي: فألقى إبليسُ لآدَمَ وحوَّاءَ قَولًا[٢] ليخدَعَهما به، فيُظهِرَ[٣] لهما ما ستَرَه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٠٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥١٣).
قال ابنُ عطية: (وهذه الشَّجرةُ، الظَّاهِرُ أنَّه أشار إلى شخصِ شَجَرةٍ واحدةٍ مِن نوعٍ وأرادَها، ويَحتَمِل أن يشيرَ إلى شجرةٍ مُعيَّنةٍ، وهو يريدُ النَّوعَ بجُملَتِه). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٨٢).
وقال السعدي: (عيَّن لهما شجرةً، ونهاهما عن أكْلِها، واللهُ أعلمُ ما هي، وليس في تعيينِها فائدةٌ لنا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٥).

(٢) قال ابنُ جرير: (يعني جلَّ ثناؤه بقَولِه: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٠]: فوَسوسَ إليهما، وتلك الوسوسةُ كانت قولَه لهما: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠]، وإقسامَه لهما على ذلك. وقيل: (وَسوسَ لهما)، والمعنى ما ذكَرْتُ، كما قيل: غَرِضْتُ له، بمعنى: اشتقْتُ إليه، وإنَّما يعني: غَرِضْتُ من هؤلاء إليه، فكذلك معنى ذلك: فَوَسْوَس مِن نَفسِه إليهما الشَّيطانُ بالكَذِبِ مِنَ القِيلِ ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا﴾، ومعنى الكلام: فجَذَبَ إبليسُ إلى آدَمَ حوَّاءَ، وألقى إليهما: ما نهاكما ربُّكما عن أكلِ ثَمَر هذه الشَّجَرةِ إلَّا أن تكونا مَلَكينِ، أو تكونَا مِنَ الخالِدِينَ). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٠٦-١٠٧).
وقال الشنقيطيُّ في قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾: (أي: كَلَّمَه كلامًا خَفِيًّا فسَمِعَه منه آدَمُ وفَهِمَه. والدليلُ على أنَّ الوسوسةَ المذكورةَ في هذه الآيةِ الكريمةِ كلامٌ مِن إبليسَ سَمِعَه آدمُ وفَهِمَه أنَّه فَسَّرَ الوسوسةَ في هذه الآيةِ بأنَّها قولٌ، وذلك في قوله: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾، فالقولُ المذكورُ هو الوسوسةُ المذكورة. وقد أُوضح هذا في سورة «الأعراف» وبيَّنَ أنَّه وَسْوَسَ إلى حوَّاءَ أيضًا مع آدَمَ، وذلك في قَولِه: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ إلى قولِه: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾؛ لأنَّ تصريحه تعالى في آية «الأعراف» هذه بأنَّ إبليسَ قاسَمَهما أي: حلَفَ لهما على أنَّه ناصِحٌ لهما فيما ادَّعاه مِنَ الكَذِبِ؛ دليلٌ واضِحٌ على أنَّ الوَسْوسةَ المذكورةَ كلامٌ مَسموعٌ). ((أضواء البيان)) (٤/ ١١٠).

(٣) اللامُ في قولِه: ﴿لِيُبْدِيَ﴾ لامُ الصَّيرورةِ والعاقبةِ؛ وذلك لأنَّ الشيطانَ لم يقصِدْ بالوسوسةِ =

اللهُ عنهما مِن عَوْراتِهما(١).

﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾.

أي: وقال لهما كَذِبًا وافتراءً: ما نهاكُما ربُّكما عن أكلِ ثَمَرِ هذه الشَّجَرةِ، إلَّا كراهةَ أن تكونَا ملَكينِ مِن جِنسِ الملائكةِ، أو تكونَا مِنَ الخالِدينَ في الجنَّةِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾ [طه: ١٢٠].

﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾.

أي: وحَلَفَ لهما باللهِ إنِّي ناصِحٌ لكما في الأكلِ مِن ثَمَرِ هذه الشَّجَرةِ التي نهاكما اللهُ عنها(٣).

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾.

= ظهورَ عوراتِهما، ولم يعلمْ أنَّهما إنْ أكلَا مِن الشَّجرةِ بدَتْ عوراتُهما، وإنَّما كان قصدُه أن يحملَهما على المعصيةِ، فكانت عاقبةُ تلك الوسوسةِ أن بدَتْ لهما سوآتُهما.

ويجوزُ أن تكونَ لامَ التعليلِ، بحَسَبِ قَصدِ إبليسَ إلى حَطِّ مَرتَبتِهما، وإلقائِهما في العقوبةِ، وربَّما يكونُ علِم بعقوبةِ ذلك فقصَد إليه.

يُنظر: ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٨٤)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢١٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٥٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٠٦-١٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٥).

قال القرطبي: (سُمِّيَ الفَرجُ عَورةً؛ لأنَّ إظهارَه يَسوءُ صاحِبَه. ودلَّ هذا على قُبحِ كَشْفِها، فقيل: إنَّما بَدَت سوءاتُهما لهما لا لغيرِهما). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٠٧)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ١١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩٧).

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾.

أي: فخَدَعَهما وأطمَعَهما بالقَولِ الباطِلِ، وجرَّأهما على الأكلِ مِن تلك الشَّجَرةِ، فنزَّلَهما عن رُتبَتِهما العاليةِ، التي هي البُعدُ عن المعاصي إلى التَّلوُّثِ بها[1].

﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾.

أي: فلمَّا طَعِمَ آدمُ وحوَّاءُ ثَمَرَ الشَّجرةِ، انكشَفَتْ عورةُ كُلٍّ منهما، بعد ما كانت مَستورةً[2].

﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾.

أي: خَجِلا، وجَعَلا يشُدَّانِ على جَسَدِهما مِن وَرَقِ الجنَّةِ؛ ليستُرا به عَوْراتِهما[3].

﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾.

أي: وقال اللهُ لآدَمَ وحوَّاءَ، مُوَبِّخًا ومُعاتِبًا لهما: ألم أنْهَكما عن أكلِ ثَمَرِ تلك الشَّجَرةِ[4]؟

﴿وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

أي: وأُعْلِمْكما أنَّ إبليسَ عدوٌّ بيِّنُ العَداوةِ لكما؛ فلِمَ اقترَفْتُما ما نهيتُكما عنه،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١١٠)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٤/ ١٢١-١٢٢)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١١٠، ١١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١١٤)، تفسير القرطبي (٧/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٥).

وأطَعْتُما عدوَّكُما(١)؟!

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾.

أي: قال آدمُ وحوَّاءُ اعترافًا بالعِصيانِ(٢): يا رَبَّنا أسأْنا إلى أنفُسِنا، وأضْرَرْنا بها بمَعصِيَتِك، وبِطاعَتِنا عَدُوَّنا وعَدُوَّك(٣).

﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

أي قالَا في تَوبَتِهما: وإنْ لم تستُرْ علينا ذَنْبَنا، وتتجاوَزْ عن عُقوبَتِنا، وتَرحَمْنا بقَبولِ تَوبَتِنا، والمُعافاةِ مِن هذه الخَطايا، لنكونَنَّ مِنَ الهالكينَ(٤).

وقد قَبِلَ اللهُ تعالى هذه التَّوبةَ، كما قال: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه:١٢١-١٢٢].

﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾.

أي: قال اللهُ لآدَمَ وحوَّاءَ وإبليسَ(٥): اهبِطوا مِنَ السَّماءِ إلى الأرضِ، بعضُكم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١١٤)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ١٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٥).

قال ابن عباس: (بيِّنُ العداوةِ؛ حيث أبى السُّجودَ، وقال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف:١٦]). ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٧٢).

(٢) قال ابنُ جرير: (عن الضَّحَّاك، في قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا﴾ الآية، قال: «هي الكَلِماتُ التي تلقَّاها آدَمُ مِن رَبِّه»). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١١٥-١١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٥).

(٥) قال ابنُ كثير: (قيل: المرادُ بالخِطابِ في ﴿اهْبِطُوا﴾ آدَمُ، وحَوَّاءُ، وإبليسُ، والحيَّة. ومنهم =

لبعضٍ عَدُوٌّ أنتم وذُرِّيَّتُكم[1].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٨، ١٦٩].

﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

أي: ولَكم أنتم وذُرِّيَّتِكم في الأرضِ قرارٌ، تَستقِرُّونَه في حياتِكم على ظَهْرِها، وبعد وَفاتِكم في بَطنِها، ولكم فيها مَتاعٌ تَستَمتِعونَ به حتى يأتِيَكم الموتُ[2].

﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

أي قال اللهُ: في الأرضِ تَعيشونَ أيَّامَ حَياتِكم، وتكونُ فيها وفاتُكم، ثم

= من لم يذكُرِ الحيَّةَ، والله أعلمُ. والعُمدةُ في العداوةِ آدَمُ وإبليسُ؛ ولهذا قال تعالى في سورة «طه» قال: ﴿اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [الآية: ١٢٣] وحوَّاءُ تبَعٌ لآدَمَ. والحيَّةُ- إن كان ذِكْرُها صحيحًا- فهي تبَعٌ لإبليسَ). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩٩).

وضعَّف ابنُ القيِّم القولَ بأنَّ الخطابَ لهم وللحيةِ؛ لأنَّه يحْتاجُ الى نقلٍ ثابتٍ؛ إذ لا ذكرَ للحيَّةِ في شيءٍ مِن قصةِ آدمَ عليه السلام، ولا في السِّياقِ ما يدلُّ عليها. يُنظر: ((حادي الأرواح)) (ص: ٢٨)، ((مفتاح دار السعادة)) (١/ ١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١١٦)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٥).

قال ابنُ تيميَّةَ: (هذا خبَرٌ عمَّا سيكونُ مِن عداوةِ بعضِهم بعضًا). ((مجموع الفتاوى)) (٨/ ٤٩٣).

وقال ابن عاشور: (يحتمِلُ أن يرادَ بالبعضِ بعضَ الأنواعِ، وهو عداوةُ الإنسِ والجِنِّ، ويحتمل أن يُرادَ عداوةُ بعضِ أفرادِ نوعِ البَشَرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١١٧، ١١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٥).

يُخرِجُكم منها رَبُّكم مِن قُبورِكم أحياءً يومَ القيامةِ؛ ليُجازِيَ كلًّا بعَمَلِه[(١)].

كما قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه:٥٥].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ * يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق:٤٣-٤٤].

الفوائدُ التربويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا...﴾ ممَّا يُستفادُ مِن قِصَّةِ آدَمَ وحوَّاءَ وإبليسَ: أنَّه ينبغي لنا أن نَعرِفَ أنفُسَنا بغرائِزِها واستعدادِها للكَمالِ، وما يَعرِضُ لها دُونَه مِن الموانِعِ، فيصرِفُها عنه إلى النَّقائِصِ، وأنَّ أنفَعَ ما يُعينُنا على تَربيَتِها عَهدُ اللهِ إلينا بأنْ نَعبُدَه وَحدَه، وألَّا نعبُدَ معه الشَّيطانَ ولا غَيرَه، وأنْ نَذكُرَه ولا ننساه؛ فننسى أنفُسَنا، ونَغفُلَ عَن تزكِيَتِها، وصَقْلِها بصِقالِ التَّوبةِ، كلَّما عَرَضَ لها مِن وِسواسِ الشَّيطانِ ما يُلَوِّثُها؛ فإنَّه إن يُترَكْ صار صَدَأً وطَبْعًا مُفسِدًا لها، وما أفسَدَ أنفُسَ البَشَرِ ودسَّاها إلَّا غفلةُ عُقُولِهم وبصائِرِهم عنها، وترْكُها كالرِّيشةِ في مهابِّ أهواءِ الشَّهواتِ، ووساوسِ شَياطينِ الضَّلالاتِ، فعلى العاقِلِ أن يعرِفَ قِيمَتَها، ويحرِصَ عليها أشَدَّ مِن حِرصِه على ما عساه يملِكُ مِن نفائِسِ الجواهِرِ، وأعلاقِ الذَّخائِرِ[(٢)].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ النَّهيُ عن قُربِ الشَّيءِ أبلَغُ مِنَ النَّهيِ عنه؛ فهو يَقتضي البُعدَ عن مواردِ الشُّبُهاتِ التي تُغرِي به، وتُفضِي إليه، وَرَعًا واحتياطًا؛ فإنَّ مَن حام حَولَ الحِمَى أوشَكَ أن يُواقِعَه؛ فقولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ أشَدُّ في التَّحذيرِ مِن أن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٣١٥).

يَنهى عن الأكلِ مِنَ الشَّجَرةِ، لأنَّ النَّهيَ عن قِربانِها سَدٌّ لذريعةِ الأكلِ منها[(١)].

٣- قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا﴾ المعصيةُ تَهتِكُ سِترَ ما بين اللهِ والعَبدِ، فلمَّا عصَيَا انهتَكَ ذلك السِّترُ، فبَدَت لهما سوآتُهما، فالمعصيةُ تُبدِي السَّوأةَ الباطِنَةَ والظَّاهِرةَ، فإنَّ الله سبحانه أنزَلَ لِباسَينِ: لباسًا ظَاهرًا يوارِي العورةَ ويَسترُها، ولباسًا باطِنًا مِنَ التقوى، يُجَمِّلُ العبدَ ويَستُرُه، فإذا زالَ عنه هذا اللِّباسُ انكشَفَتْ عَورَتُه الباطنةُ، كما تنكشِفُ عَورَتُه الظَّاهِرةُ بنَزْعِ ما يستُرُها[(٢)].

٤- الحَذَرُ مِن خداعِ إبليسَ، بإظهارِه النُّصحَ، وإبطانِه الغِشَّ؛ يُرشِدُنا إلى ذلك قولُ الله تعالى: ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾[(٣)].

٥- قولُ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ..﴾ إلى قَولِه تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ..﴾ يُرشِدُنا إلى أنَّ مَن خالَفَ أمرَه تعالى، ثُلَّ عَرشُه، وهُدِمَ عِزُّه، وإن كان في غايةِ المَكِنَةِ، ونهايةِ القُوَّةِ، كما أخرَجَ مَن أعظَمَ له المَكِنَةَ بإسجادِ مَلائِكَتِه، وإسكانِ جَنَّتِه، وإباحَةِ كلِّ ما فيها غيرَ شَجَرةٍ واحدةٍ[(٤)].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ إشارةٌ إلى الأدبِ في دُعاءِ اللهِ تعالى؛ حيث نسبَ آدمُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم المعصيةَ إلى نَفسِه؛ ولم يقُلْ: ربِّ قَدَّرْتَ عليَّ، وقَضَيتَ عليَّ ذلك[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٥٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ١١١-١١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٦).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٧١).

(٥) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٣٦٠).

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ دلالةٌ على أنَّ تَعرُّضَ الشَّيطانِ للأنبياءِ، لا يَقدَحُ في نبوَّتِهم عليهم السَّلامُ[(١)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ دلالةٌ على أنَّه ليس مِن شَرطِ المُوَسوِسِ أنْ يكون مُستترًا عن البَصَرِ- بل قد يُشاهَدُ- فالكلامُ هنا هو كلامُ مَن يُعْرَفُ قائلُه، ليس شيئًا يُلقى في القَلبِ، لا يُدرى ممَّن هو[(٢)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ حكايةٌ لابتداءِ عَمَلِ الإنسانِ لِسَترِ نقائِصِه، وتحَيُّلِه على تجنُّبِ ما يكرَهُه، وعلى تَحسينِ حالِه بحَسَبِ ما يُخَيِّلُ إليه خيالُه، وهذا أوَّلُ مَظهرٍ مِن مظاهِرِ الحضارةِ[(٣)].

٤- قولُ الله تعالى: ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾ تأخَّرَ نداءُ الرَّبِّ إيَّاهما إلى أن بدَتْ لهما سَوآتُهما، وتحيَّلَا لِسَترِ عَوْراتِهما؛ ليَكونَ للتَّوبيخِ وَقعٌ مَكينٌ مِن نُفوسِهما، حين يقَعُ بعد أن تظهَرَ لهما مفاسِدُ عِصْيانِهما، فيعلَمَا أنَّ الخَيرَ في طاعةِ اللهِ، وأنَّ في عِصيانِه ضُرًّا[(٤)].

٥- قولُ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ

---

(١) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٨/ ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٥٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٦٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٦٥).

عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ دلَّ على أنَّ كَشْفَ العَورةِ مِنَ المُنكَراتِ(١).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ دلالةٌ على أنَّ العُريانَ يلزَمُه سَترُ عَورتِه، فإنْ لم يجِدْ إلَّا حَشيشًا أو وَرَقًا يربِطُه عليه؛ فإنَّه يلزَمُه السَّترُ به؛ لأنَّه مُغطٍّ للبَشَرةِ مِن غَيرِ ضَررٍ، فأشبَهَ الجُلودَ والثِّيابَ(٢).

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَناداهُما رَبُّهُما أَلَمْ أَنْهَكُما عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُما إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُما عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ فيه نُكتةٌ لَطيفةٌ، وهي أنَّه لَمَّا كان وَقتُ الهَناءِ شُرِّفَ بالتَّصريحِ باسْمِه في النِّداءِ، فقيلَ: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ﴾، وحين كان وَقْتُ العِتابِ أخبَرَ أنَّه ناداه، ولم يُصَرِّحْ باسْمِه(٣).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾ دلالةٌ على أنَّ اللهَ تعالى لم يَزَلْ مُتَكَلِّمًا إذا شاءَ، وهو يتكَلَّمُ بمَشِيئَتِه وقُدرَتِه، فيتكَلَّمُ بشيءٍ بعدَ شيءٍ، ووجهُ ذلك: أنَّه سُبحانه ناداهما حين أكَلَا منها، ولم ينادِهما قبلَ ذلك(٤).

٩- يُستفادُ مِن قَولِه تعالى عن آدَمَ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وقَولِه عن إبليسَ: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أنَّ مَن تاب أشبهَ أباه آدمَ، ومَن أَصَرَّ واحتجَّ بالقَدَر على المعاصِي أشبهَ إبليسَ(٥).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((شرح العمدة - كتاب الصلاة)) لابن تيمية (ص: ٣٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٨).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٢/ ٥٨٨).

(٥) يُنظر: ((مجموعة الرسائل والمسائل)) لابن تيمية (٥/ ١٣٤).

مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ دلالةٌ على أنَّ الاعترافَ بالذَّنبِ يتضَمَّنُ طلبَ المغفرةِ؛ فإنَّ الطَّالبَ السَّائلَ تارةً يَسألُ بصيغةِ الطَّلَبِ؛ وتارةً يَسألُ بصيغةِ الخَبَرِ - إمَّا بوصْفِ حالِه، وإمَّا بِوَصفِ حالِ المَسؤولِ، وإمَّا بوَصفِ الحالَينِ -، وأيضًا الإخبارُ عَنِ اللهِ تعالى أنَّه إنْ لم يغفرْ لهما ويَرحَمْهما خَسِرَا؛ يتضَمَّنُ سُؤالَ المَغفرةِ كذلك[1]، فقوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ فيه دلالةٌ على أنَّ السُّؤالَ والطَّلَبَ قد يكون بصيغةِ الشَّرطِ[2].

١١- إنَّما كَمُلَتْ فضائِلُ آدَمَ باعترافِه على نَفسِه، فقال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ فكُلَّما أوقَدَ إبليسُ نارَ الحَسَدِ لآدَمَ، فاح بها رِيحُ طِيبِ آدَمَ، واحترَقَ إبليسُ بحَسَدِه[3].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ دلالةٌ على جوازِ وُقوعِ الصَّغائِرِ مِنَ الأنبياءِ، وإنَّما ابتلى اللهُ الأنبياءَ بالذُّنوبِ؛ رفعًا لدَرَجاتِهم بالتَّوبةِ، وتبليغًا لهم إلى مَحَبَّتِه وفَرَحِه بهم؛ فإنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوابِينَ، ويُحِبُّ المُتَطَهِّرينَ، ويَفرَحُ بتَوبةِ التَّائبِ أشَدَّ فَرَحٍ، فالمقصودُ كَمالُ الغايةِ، لا نَقصُ البِدايةِ؛ فإنَّ العَبدَ يكونُ له الدَّرجةُ لا يَنالُها إلَّا بما قَدَّرَه اللهُ له مِنَ العَمَلِ أو البَلاءِ[4].

١٣- قال تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ طوى القرآنُ هنا ذِكرَ التَّوبةِ على آدَمَ؛ لأنَّ المقصودَ مِن القِصَّةِ في هذه السُّورةِ: التَّذكيرُ بِعَداوةِ الشَّيطانِ، وتحذيرُ النَّاسِ مِن اتِّباعِ وَسْوَسَتِه، وإظهارُ ما يُعقِبُه اتِّباعُه مِنَ الخُسرانِ والفَسادِ، ومقامُ هذه الموعظةِ يقتضي

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٥٧).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ٨٩).

الإعراضَ عن ذِكرِ التَّوبةِ؛ للاقتصارِ على أسبابِ الخَسارةِ[(١)].

١٤- قولُه تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ ذكَر فيه الإهباطَ بلفظِ الجمعِ ﴿اهْبِطُوا﴾، وتارةً يذكرُه بلفظِ التثنيةِ ﴿اهْبِطَا﴾ [طه: ١٢٣]، وتارةً بلفظِ الإفرادِ (اهْبِطْ)، فحيث ورَد بصيغة الجمعِ فهو لآدمَ وزوجِه وإبليسَ؛ إذ مدارُ القصةِ عليهم، وحيثُ ورَد بلفظ التثنيةِ فإمَّا أن يكونَ لآدمَ وزوجِه؛ إذ هما اللذان باشَرا الأكلَ مِن الشَّجرةِ، وأقْدَما على المعصيةِ، وإمَّا أن يكونَ لآدمَ وإبليسَ؛ إذ هما أبَوَا الثَّقلينِ، وأصْلَا الذُّريةِ، فذكَر حالَهما ومآلَ أمرِهما؛ ليكونَ عظةً وعبرةً لأولادهما، ولم يذكُرِ الزوجةَ؛ لأنَّها تبعٌ لآدمَ، وجاء الإهباطُ بالإفرادِ في قولِه تعالى لإبليسَ: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾[(٢)] [الأعراف: ١٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- **قولُه: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾** فيه: تصديرُ الكلامِ بالنِّداءِ؛ للتَّنبيهِ على الاهتمامِ بتلَقِّي المأمورِ به. وتَخصيصُ الخِطابِ به عليه السَّلامُ؛ للإيذانِ بأصالَتِه في تلَقِّي الوَحْيِ، وتعاطِي المأمورِ به[(٣)].

- وقوله: ﴿اسْكُنْ أَنْتَ﴾ فيه الإتيانُ بالضَّميرِ المنفصِلِ بعدَ الأمرِ؛ لقَصدِ زِيادةِ التَّنكيلِ بإبليسَ؛ لأنَّ ذِكْرَ ضَميرِه في مقامِ العَطفِ يُذَكِّرُ غيرَه بأنَّه ليس مِثلَه؛ إذ الضَّميرُ، وإن كان مِن قَبيلِ اللَّقَبِ، وليس له مفهومُ مخالفةٍ؛ فإنَّه قد يُفيدُ الاحترازَ عَن غَيرِ صاحبِ الضَّميرِ بالقَرينةِ على طريقةِ التَّعريضِ[(٤)].

٢- **قوله: ﴿فَوَسْوَسَ﴾** تجسيدٌ حَيٌّ، وتصويرٌ بليغٌ لدَأَبِ إبليسَ على الإغواءِ،

(١) يُنظر: تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٦٨).
(٢) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٣٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٢٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٥٣).

وإجهادِه نَفْسَه لِحَمْلِها على أن تَزِلَّ بهما القَدَمُ، ويرتَطِما في مزالِقِ الشَّرِّ؛ فهو يُوسوِسُ إليهما المرَّةَ بعد المرَّةِ؛ فإنَّه كُلَّما تكَرَّرَتِ الحروفُ في اللَّفظِ الواحِدِ، كان ذلك إيذانًا بتكريرِ العَمَلِ[1].

٣- قوله: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ جاءتْ ﴿قَاسَمَهُمَا﴾ على زِنَةِ المُفاعلة للمُبالغةِ؛ ليدُلَّ على أنَّه حَصَلت بينهما في ذلك مُراوغاتٌ ومُحاولاتٌ بُذِلَ فيها الجُهدُ، وفيه تأكيدُ إخبارِ إبليسَ عَن نَفسِه بالنُّصحِ لآدَمَ وزَوجِه بثلاثِ مُؤَكِّداتٍ- إنَّ واللَّامُ في ﴿لَمِنَ﴾ والجُملة الاسميَّة- مِمَّا يَدُلُّ على مَبلَغِ شَكِّهِما في نُصحِه لَهما، وما رأى عَلَيهما مِن مَخائِلِ التَّرَدُّدِ في صِدْقِه[2].

٤- قولُه: ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ فيه تمثيلُ حالِ مَن يطلُبُ شَيئًا مِن مَظِنَّتِه فلا يجِدُه، بِحالِ مَن يُدَلِّي دَلْوَه أو رِجْلَيه في البِئرِ؛ ليَسْتَقيَ مِن مائِها فلا يَجِدُ فيها ماءً، فيُقال: دلَّى فلانٌ، كما يُقالُ: أَدْلَى[3].

٥- قوله تعالى: ﴿وَناداهُما رَبُّهُما أَلَمْ أَنْهَكُما عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُما إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُما عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ عَطَفَ جُملةَ: ﴿وَأَقُلْ لَكُمَا﴾ على جملةِ: ﴿أَنْهَكُمَا﴾؛ للمبالغةِ في التَّوبيخ؛ لأنَّ النَّهيَ كان مشفوعًا بالتَّحذيرِ مِنَ الشَّيطانِ الذي هو المُغْرِي لهما بالأكلِ مِنَ الشَّجَرةِ، فهُما قد أضاعَا وَصِيَّتَينِ[4].

- والاستفهامُ في قَولِه: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا﴾ للتَّقريرِ والتَّوبيخ، وأُولِيَ هذا الاستِفهامُ حرْفَ النَّفيِ زيادةً في التَّقريرِ؛ لأنَّ نَهيَ اللهِ إيَّاهما واقِعٌ، فانتفاؤُه مُنتَفٍ، فإذا

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٣/ ٣٢٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٧٣)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٦٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٦١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٦٧).

أُدخِلَتْ أداةُ التَّقريرِ، وأَقَرَّ المُقَرِّرُ بضِدِّ النَّفيِ، كان إقرارُه أقوى في المؤاخَذةِ بِمُوجِبِه؛ لأنَّه قد هُيِّئَ له سَبيلُ الإنكارِ، لو كان يستطيعُ إنكارًا؛ ففِي هذا الاستفهامِ عِتابٌ مِنَ اللهِ تعالى وتوبيخٌ، وتنبيهٌ على الخَطإِ؛ حيثُ لم يَتحَذَّرا ما حَذَّرَهما اللهُ مِن عداوةِ إبليسَ(١).

٦- **قوله: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾** فيه تَقديمُ المَجْروراتِ الثَّلاثةِ (فيها - فيها - منها) على مُتَعَلِّقاتِها (تَحْيَون - تَمُوتون - تُخرَجون)؛ للاهتمامِ بالأَرضِ التي جُعِلَ فيها قَرارُهم ومتاعُهم؛ إذ كانتْ هي مَقَرَّ جَميعِ أحوالِهم(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٧١).

الآيات (٢٦-٣٠)

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ
ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ (٢٦) يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ
ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ
يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ (٢٧)
وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ
بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ (٢٨) قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ
وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ (٢٩)
فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ
ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ (٣٠) ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿وَرِيشًا﴾: الرِّيشُ المَتاعُ والأموالُ[1]، ويُطلَقُ على ما ظهَر مِنَ اللِّباسِ، ولِباسِ الزِّينةِ، وكلِّ ما سترَ الإنسانَ في جِسمِه ومَعيشَتِه، ورُبَّمَا اسْتُعْمِلَ فِي الثِّيابِ والكِسْوَةِ دونَ سائِرِ المَالِ، وأَصْلُ (ريش): يَدُلُّ على حُسْنِ الحالِ، وما يَكتَسِبُ الإنسانُ مِن خيرٍ[2].

﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ﴾: أي: لا يَخدَعَنَّكم، أو لا يَصْرِفَنَّكم، والفِتنةُ تُطلَق على: الشِّرْك

---

(١) قال ابنُ تيميَّةَ: (الصَّحيحُ أنَّ «الرِّيشَ» هو الأثاثُ والمتاعُ ... وبعضُ المفسِّرينَ أطلَقَ عليه لفظَ المال، والمرادُ به مالٌ مخصوصٌ، قال ابن زيد: جَمالًا؛ وهذا لأنَّه مأخوذٌ مِن رِيشِ الطَّائِرِ، وهو ما يَرُوش به، ويدفَعُ عنه الحَرَّ والبردَ، وجَمالُ الطَّائِرِ رِيشُه، وكذلك ما يبيتُ فيه الإنسانُ مِنَ الفَرشِ، وما يَبسُطُه تحته، ونحو ذلك). ((مجموع الفتاوى)) (١٢/ ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٢٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٩)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٠٩).

والكُفر، والشَّرِّ والعَذابِ، وهي في الأصلُ: الاختِبارُ والابتلاءُ والامتِحانُ، مأخوذةٌ مِنَ الفَتْنِ: وهو إدخالُ الذَّهَبِ النَّارَ؛ لتظهَرَ جودَتُه مِن رَداءتِه(١).

﴿يَنْزِعُ﴾: نزْعُ الشَّيءِ: جذْبُه مِن مَقرِّه، وفَصلُه عنه أو اقتِلاعُه، وأصلُ (نزع): يَدُلُّ على قلْعِ شيءٍ(٢).

﴿وَقَبِيلُهُ﴾: أي: أصحابُه وجُندُه، وجِيلُه وأمَّتُه، وصِنْفُه وجِنسُه الَّذي هو منه، وهم الجِنُّ، وقَبيلُ القَومِ: عَريفُهم؛ وسُمِّيَ بذلك؛ لأنَّه يُقبِل عليهم يَتعرَّفُ أُمورَهم، وأصل (قبل): يدلُّ على مُواجهةِ الشَّيءِ للشَّيءِ(٣).

﴿فَاحِشَةً﴾: أي: فِعلةً مُتناهِيةً في القُبحِ، وأصلُ (فحش) يدلُّ على قُبحٍ في شَيءٍ وشَناعةٍ(٤).

﴿الضَّلَالَةُ﴾: أي: الضَّلالُ، وهو العُدولُ عن الطَّريقِ المُستقيمِ، وأصل (ضلل): ضَياعُ الشَّيءِ، وذَهابُه في غيرِ حقِّه(٥).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١ / ٧٦، ١٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢ - ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١ / ٢٩، ١٣٩ - ١٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٨)، ((تفسير الراغب الأصفهاني)) (٢/ ٤٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٣٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٥١، ٥٣).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١ / ٣٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤ / ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٠١).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٥٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٧٦).

التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾

﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾: قُرِئ بالرَّفْع ﴿ولِبَاسُ التَّقْوَى﴾ وقُرِئ بالنَّصبِ ﴿وَلِبَاسَ التَّقْوَى﴾، فعلى قراءةِ الرَّفْعِ فقولُه: ﴿لِبَاسُ﴾ مُبتدأٌ مرفوعٌ، و﴿ذَلِكَ﴾ مُبتدأٌ ثانٍ، و﴿خَيْرٌ﴾ خبرُ المبتدأِ الثاني، والمبتدأُ الثَّاني وخبرُه ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ خبرٌ للمُبتدأِ الأوَّل ﴿لِبَاسُ﴾، والرابطُ هنا اسمُ الإشارةِ. أَوْ يكونُ ﴿لِبَاسُ﴾ مبتدأً، و﴿ذَلِكَ﴾ بدَلًا منه، أو عَطْفَ بيانٍ له، ويكونُ ﴿خَيْرٌ﴾ خبرًا لـ﴿لِبَاسُ﴾، وقِيلَ غيرُ ذلك. وأمَّا على قِراءةِ النَّصبِ ﴿وَلِبَاسَ التَّقْوَى﴾، فهو حِينئذٍ معطوفٌ على ﴿لِبَاسًا﴾، أي: أَنْزَلْنا لِباسًا يُوارِي سَوآتِكم، وأَنْزَلْنا أيضًا لِبَاسَ التَّقْوى، وعلى هذا الوَجهِ فجُملةُ ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ استئنافيَّةٌ لا مَحَلَّ لها من الإعرابِ، أو حالٌ مِن ﴿لِبَاسًا﴾ وما عُطِفَ عليه[1].

المَعْنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تعالى بني آدَمَ أنَّه خلقَ لهم لباسًا يستُرُ عَوراتِهم، ورَزَقَهم الأثاثَ واللِّباسَ الفاخِرَ الذي يتزيَّنونَ به، وأعلَمَهم أنَّ لِباسَ التَّقوى خيرٌ مِن ذلك، وأخبَرَ أنَّ ما مَنَّ به مِن ذلك عليهم هو مِن آياته التي خَلَقَها لهم؛ لعَلَّهم يتذكَّرونَ.

ثم حذَّرَ اللهُ بني آدَمَ مِن أن يخدَعَهم الشَّيطانُ بتَزيينِه المعاصِيَ لهم، كما خدَعَ أبَوَيهم آدَمَ وحوَّاءَ، فكان سببًا في خروجِهما مِنَ الجنَّةِ؛ ينزِعُ عنهما لِباسَهما؛ لِيُرِيَهما عَوْراتِهما التي كانت مستترةً، وأعلَمَهم تعالى أنَّ الشَّيطانَ يَراهم هو وذُرِّيتُه مِن حيثُ لا يرونَهم هم، وأنَّه جعلَ الشَّياطينَ أولياءَ للَّذين لا يؤمنون.

وإذا فعل الكُفَّارُ ما يُستفحَشُ ويُستقبَحُ- كَطَوافِهم عُراةً- اعتذروا أنَّهم

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٨٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٦٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٢٨٧-٢٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٧٥).

وَجَدوا آباءَهم كذلك يفعلونَ، واللهُ أمَرَهم به، فأمَرَ اللهُ نَبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُبيِّنَ لهم أنَّ الله لا يأمُرُ بالفَحشاءِ، أيقولونَ على اللهِ ما لا يعلمونَ، وأمَرَه أن يقولَ لهم إنَّ رَبَّه جَلَّ وعلا أمَرَ بالعَدلِ، وليتوجَّهوا في صلاتِهم إلى اللهِ وحده، في أيِّ مسجدٍ كانوا، ولْيَدعوه مُخلصينَ له الدِّينَ، ثمَّ ذكَّر الله تعالى بالمبدأ والنهايةِ، وأنَّه كما خَلَقَكم أوَّلَ مَرَّةٍ بعد أن كُنتم عَدمًا، فكذلك ستَعودونَ إليه يومَ القيامةِ.

فريقًا منهم هداهم الله، وفريقًا وجَبَتْ عليهم الضَّلالة، هؤلاء الذين وَجَبَت عليهم الضَّلالةُ اتَّخذوا الشَّياطينَ أولياءَ مِن دُونِ الله، ويظنُّون أنَّهم مُهتدونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦ ﴾.

مُناسبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بيَّنَ أنَّه أمر آدَمَ وحوَّاءَ بالهُبوطِ إلى الأرضِ، وجعَلَ الأرضَ لهما مُستقرًّا؛ بَيَّنَ بَعده أنَّه تعالى أنزَلَ كلَّ ما يحتاجونَ إليه في الدِّينِ والدُّنيا، ومن جُملَتِها اللِّباسُ الذي يُحتاجُ إليه في الدِّينِ والدُّنيا(١).

وأيضًا لَمَّا ذكر تعالى واقعةَ آدَمَ في انكشافِ العَورةِ أنَّه كان يخصِفُ الوَرَقَ عليها؛ أتبَعَه بأن بَيَّنَ أنَّه خَلقَ اللِّباسَ للخَلقِ؛ ليستُرُوا به عَورَتَهم، ونَبَّه به على المِنَّةِ العظيمةِ على الخَلقِ؛ بِسَبَب أنَّه أقدَرَهم على التستُّرِ(٢)، فقال تعالى:

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٧٨).

أي: يا بني آدَمَ، قد خَلَقْنا لكم ورَزَقْناكم ما تَلْبَسون مِنَ الثِّيابِ(١).

﴿ يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ ﴾.

أي: لباسًا يَستُرُ عَوْراتِكم(٢).

﴿وَرِيشٗا ﴾.

أي: وخَلَقْنا لكم ورَزَقْناكم الأثاثَ واللِّباسَ الفاخِرَ الذي تتزَيَّنونَ وتتجَمَّلونَ به(٣).

﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١١٩، ١٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٥).

وتفسيرُ ﴿أَنزَلۡنَا﴾ بمعنى خلَقْنا، هو اختيارُ ابنِ جريرٍ والشوكانيِّ، وهو مذكورٌ عن سعيدِ بنِ جبيرٍ، وذلك كقولِه: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖ﴾ أي: خلَق. يُنظر: ((التفسير البسيط)) للواحدي (٩/ ٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٨٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٢٤).

قال الرازي: (فإنْ قيل: ما معنى إنزالِ اللِّباسِ؟ قلنا: إنَّه تعالى أنزَلَ المطَرَ، وبالمَطَرِ تتكوَّنُ الأشياءُ التي منها يحصُلُ اللِّباسُ، فصار كأنَّه تعالى أنزَلَ اللِّباسَ، وتحقيقُ القَولِ أنَّ الأشياءَ التي تحدُثُ في الأرض لَمَّا كانت مُعَلَّقةً بالأمورِ النَّازلةِ من السَّماءِ؛ صار كأنَّه تعالى أنزَلَها مِنَ السَّماءِ). ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٢١).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (امتَنَّ سبحانه عليهم بما ينتفِعونَ به من الأنعامِ في اللِّباسِ والأثاثِ، وهذا- والله أعلم- معنى إنزالِه؛ فإنَّه يُنزِلُه مِن ظُهورِ الأنعامِ، وهو كسوةُ الأنعامِ مِنَ الأصوافِ والأوبارِ والأشعارِ، وينتفِعُ به بنو آدَمَ مِنَ اللِّباسِ والرِّياشِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٢/ ٢٥٥-٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٣٠، ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩٩-٤٠٠).

قال ابنُ جريرٍ: (إنَّما ابتدأ اللهُ الخبَرَ عن إنزالِه اللِّباسَ الذي يواري سَوآتِنا والرِّياشَ؛ توبيخًا للمشركين الذين كانوا يتجرَّدون في حالِ طَوافِهم بالبيتِ، ويأمُرُهم بأخذِ ثِيابِهم والاستتارِ بها في كلِّ حالٍ، مع الإيمانِ به واتِّباعِ طاعَتِه، ويُعلِمُهم أنَّ كُلَّ ذلك خيرٌ مِن كلِّ ما هم عليه مُقيمونَ؛ مِن كُفرِهم باللهِ وتعرِّيهم). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٢٣)، ((الصحاح)) للجوهري (٣/ ١٠٠٨)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ١٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٧٥).

القراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ قراءتان:

١- قراءةُ ﴿وَلِبَاسَ﴾ عطفًا على ﴿رِيشًا﴾، والمعنى: قد أنزَلْنا عليكم لباسًا يُوارِي سوآتِكم وريشًا، وأنزَلْنا لباسَ التَّقوى[١].

٢- قراءة ﴿وَلِبَاسُ﴾ مبتدأٌ و(ذلك) بدلٌ منه، أو عَطفُ بيانٍ له، و(خَيْرٌ) خبرُه، والمعنى: لباسُ التقوى ذلك الذي قد عَلِمْتُموه خيرٌ لكم يا بني آدَمَ مِن لِباسِ الثِّيابِ التي تُوارِي سَوْآتِكم، ومِنَ الرِّياشِ التي أنزَلْناها إليكم؛ فالبَسُوه[٢].

﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾.

أي: واستشعارُ النُّفوسِ تقوى اللهِ: بالإيمانِ والعَمَلِ الصَّالِحِ، والحياءِ وخَشيةِ اللهِ، والسَّمتِ الحَسَنِ؛ خيرٌ لصاحِبِه من اللِّباسِ والرِّياشِ الذي يُتجَمَّلُ به[٣].

---

(١) قرأ بها المدنيان وابن عامر والكسائي. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٥٦).
ويُنظَر لِمَعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٢٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٢٨٧).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٥٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٢٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٣٠)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٨٢-٨٣)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ١٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٠٠-٤٠١).
قال ابنُ جرير: (مَن اتَّقى اللهَ كان به مؤمنًا، وبما أمَرَه به عاملًا، ومنه خائفًا، وله مُراقِبًا، ومِن أن يُرى عند ما يَكرَهُه مِن عبادِه مُستَحيِيًا، ومَن كان كذلك ظَهَرَت آثارُ الخَيرِ فيه، فحَسُنَ سَمتُه وهَدْيُه، ورُئِيَتْ عليه بهجةُ الإيمانِ ونُورُه). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٣٠).
وقال السَّعدي: (﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ مِنَ اللِّباسِ الحِسِّيِّ؛ فإنَّ لِباسَ التَّقوى يستمِرُّ مع العبدِ، ولا يبلى ولا يَبيدُ، وهو جمالُ القَلبِ والرُّوحِ، وأمَّا اللِّباسُ الظَّاهريُّ، فغايَتُه أن يستُرَ العورةَ الظَّاهرةَ، في وقتٍ مِنَ الأوقاتِ، أو يكونَ جمالًا للإنسانِ، وليس وراءَ ذلك منه نفعٌ، وأيضًا، فبتقديرِ عَدَمِ هذا اللِّباسِ، تنكَشِفُ عَورَتُه الظَّاهرةُ، التي لا يضرُّه كَشفُها، مع الضَّرورةِ، وأمَّا بتقديرِ عَدَمِ لِباسِ التَّقوى، فإنَّها تنكَشِفُ عَورَتُه الباطِنةُ، وينالُ الخِزيَ والفضيحةَ). =

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾.

أي: ذلك اللِّباسُ والرِّياشُ مِن آياتِ اللهِ الدَّالَّةِ على رَحمَتِه بعبادِه؛ خَلَقَه لهم لكي يعرِفوا عَظيمَ النِّعمة فيه، ولِيَتَّعِظوا ويعتَبِروا في صُنعِه، فيُوحِّدوه سبحانه، ويُنيبوا إلى الحَقِّ، ويترُكوا الباطِلَ(١).

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٣-٦].

وقال سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ * وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ [غافر: ٧٩-٨١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧].

﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ ﴾.

أي: يا بني آدَمَ؛ لا تُمكِّنوا الشَّيطانَ مِن خِداعِكم بتزيينِه المعاصِيَ لكم، كما خدَعَ

= ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٥).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٣٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٣٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٥٩)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٨٥).

أباكم آدَمَ وأُمَّكُم حوَّاءَ، فأطاعاه وعَصَيا ربَّهما، فأخرَجَهما بمَكْرِه مِنَ الجنَّةِ(١).

﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ﴾.

أي: نزع الشَّيطانُ عن آدمَ وحَوَّاءَ ما رزَقَهما اللهُ مِنَ اللِّباسِ؛ ليكشف عَورةَ كُلِّ واحدٍ منهما بعد أن كانَتْ مُستَترةً، ويُظهِرَها لأعيُنِهما(٢).

﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾.

أي: إنَّ الشَّيطانَ يراكم هو وذُرِّيَّتُه، وأنتم لا تَرونَهم(٣).

﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

أي: إنَّا سلَّطْنا الشَّياطينَ على الكفَّارِ، فيزيدونَهم ضلالًا(٤).

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ *

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٣٢)، ((الاستقامة)) لابن تيمية (٢/ ١٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٧٧).

وقال ابن عاشور: (الأبوانِ تثنيةُ الأبِ، والمرادُ بهما الأبُ والأمُّ على التَّغليبِ، وهو تغليبٌ شائعٌ في الكلامِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٣٢)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ١٨٦).

قال الشنقيطي: (أسنَدَ جلَّ وعلا إبداءَ ما وُورِيَ عنهما مِن سوءاتِهما إلى الشَّيطانِ في قوله: ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا﴾، كما أسنَدَ له نزعَ اللِّباسِ عنهما في قولِه تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾؛ لأنَّه هو المتسبِّبُ في ذلك بوَسوَسَتِه وتَزيينِه). ((أضواء البيان)) (٤/ ١١٤)، ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٨٤).

وقال ابنُ تيمية: (لَمَّا نَزَعَ عن الأبوين لباسهما، فكذلك قد ينزِعُ عن الذريَّةِ لباسَ التَّقوى ولِباسَ البَدَنِ). ((الاستقامة)) (٢/ ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٣٦)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٣٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٨٠).

وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٣٦-٣٧].

وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل:٩٩-١٠٠].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ [الأنعام:١٢١].

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٢٨)﴾.

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾.

أي: وإذا فعَلَ الكُفَّارُ ما يُستفحَشُ ويُستقبَحُ مِنَ الأفعالِ؛ مثل طوافِهم بالبَيتِ عُراةً[1].

﴿قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾.

أي: قالوا وَجَدْنا آباءَنا يفعلونَ هذا، فنحنُ نقتدي بهم، واللهُ أمَرَنا به، فنحن نتَّبِعُ أمْرَه[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٣٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢١/ ٢٧٦)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٢/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٦).
قال ابن عاشور: (غلبَتِ الفاحِشةُ في الأفعالِ الشَّديدةِ القُبحِ، وهي التي تنفِرُ منها الفِطرةُ السَّليمةُ، أو ينشأُ عنها ضُرٌّ وفسادٌ، بحيث يأباها أهلُ العُقولِ الرَّاجحةِ، ويُنكِرُها أولو الأحلامِ، ويستحيي فاعِلُها مِنَ النَّاسِ، ويتستَّرُ مِن فِعلِها، مثل البغاءِ والزِّنا والوَأْدِ والسَّرقة، ثم تَنهى عنها الشَّرائعُ الحقَّةُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٦). =

﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾.

أي: قُلْ- يا مُحمَّدُ- لِمَن ادَّعى ذلك: إنَّ اللهَ لا يأمُرُ عبادَه بقبائِحِ الأفعالِ، ولا يليقُ ذلك بكَمالِه وحِكمَتِه، كهذا التَّعرِّي الذي تصنَعونَه، وتزعمونَ أنَّ اللهَ سبحانه أمَرَكم به(١).

﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

أي: أتَزعمونَ أنَّ اللهَ أمَرَكم بالفاحشةِ- مثلَ زَعمِكم أنَّه أمَرَكم بالتَّعرِّي في الطَّوافِ- وأنتم لا تَعلمونَ أنَّه أمَرَكم بذلك(٢).

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ﴾.

أي: قُل- يا مُحمَّدُ- لهؤلاءِ الذين يَزعمونَ أنَّ اللهَ أمَرَهم بالفَحشاءِ: ما أمَرَ رَبِّي بما تَزعُمونَ، بل أمَرَ بالعَدلِ في العِباداتِ بتَوحيدِه، وفي المُعاملاتِ بأداءِ حُقوقِ عِبادِه(٣).

﴿ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾.

= قال ابنُ تيميَّةَ: (كان أولياءُ الشَّيطانِ إذا فعلوا هذه الفاحِشةَ- وهي إبداءُ السَّوءاتِ في الطَّوافِ- يحتجُّونَ بشَيئينِ: يقولون: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾، وهذا هو الرُّجوعُ إلى العادةِ، والتَّقليدُ للأسلافِ، ويقولون: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، وهذا قولٌ بغيرِ عِلمٍ). ((الاستقامة)) (٢/ ١٧٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٣٨)، ((الاستقامة)) لابن تيمية (٢/ ١٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٨٤-٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٣٩)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٨٩)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٦).

أي: تَوَجَّهوا في صلاتِكم إلى اللهِ وَحدَه، في أيِّ مَسجدٍ كُنتم، واجتَهِدوا في إقامَةِ الصَّلاةِ ظاهِرًا وباطِنًا وَفقَ ما شَرَعه اللهُ تعالى(١).

كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ [الروم: ٣٠].

وقال سبحانه: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩].

وعن عليِّ بنِ أبي طالِبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان إذا قام إلى الصَّلاةِ، قال: ((وجَّهْتُ وَجهِيَ لِلَّذي فطَرَ السَّمواتِ والأرضَ حنيفًا، وما أنا مِنَ المُشركينَ، إنَّ صَلاتي ونُسُكي، ومَحْياي ومماتي، لله رَبِّ العالَمينَ، لا شريكَ له، وبذلك أُمِرْتُ، وأنا مِنَ المُسلمينَ))(٢).

وعن البَراء بنِ عازبٍ رَضِيَ الله عنهما، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أوصى رجلًا، فقال: ((إذا أرَدْتَ مَضجَعَك فقل: اللهُمَّ أسلَمْتُ نَفْسي إليك، وفوَّضْتُ أمري إليك، ووجَّهْتُ وَجْهي إليك، وألجَأْتُ ظَهري إليك؛ رغبةً ورهبةً إليك، لا ملجَأَ ولا منجا منك إلَّا إليك، آمنْتُ بكتابِك الذي أنزَلْتَ، وبنبِيِّكَ الذي أرسَلْتَ؛ فإنْ مُتَّ مُتَّ على الفِطرةِ))(٣).

﴿وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾

أي: وادْعُوا اللهَ، واعبُدُوه وَحدَه لا شريكَ له(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٤١)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٨٨)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٥/ ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٦).
(٢) رواه مسلم (٧٧١).
(٣) رواه البخاري (٦٣١٣) ومسلم (٢٧١٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٦).

﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾.

أي: كما خَلَقَكم اللهُ أوَّلَ مَرَّةٍ، فجَعَلكم أحياءً بعد أنْ كُنتم عَدَمًا؛ فكذلك تَعودونَ إليه يومَ القِيامةِ، فيبعَثُكم مِن قُبُوركم أحياءً بعد مَوتِكم(١).

كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨-٧٩].

وعنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: ((إنَّكم مَحشُورونَ حُفاةً عُراةً غُرْلًا، ثمَّ قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]))(٢).

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۝٣٠﴾.

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/١٤٦، ١٤٨)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٩٢، ٢٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/٨٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/١٣).

(٢) رواه البخاري (٣٣٤٩) ومسلم (٢٨٦٠).

أي: طائفةً منكم وفَّقَها اللهُ تعالى، ويسَّرَ لها أسبابَ الهِدايةِ، وطائفةً وَجَبتْ عليها الضَّلالةُ، ولَزِمَتْها بعد أن بَيَّنَ لها الهُدى، فلم تَقبَلْ به، وعَمِلَتْ بأسبابِ الغَوايةِ(١).

كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ﴾ [الزمر: ٣٦-٣٧].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.

أي: إنَّ الفَريقَ الذي ثبَتَتْ عليهم الضَّلالةُ إنَّما ضَلُّوا بسبَبِ اتِّخاذِهم الشَّياطينَ أنصارًا وأعوانًا يتولونهم مِن دُونِ اللهِ، فأطاعوهم فيما يخالفُ ما شرعَه، فطابَتْ نُفوسُهم بوَسْوَسَتِهم، وأْتَمَروا بأمرِهم(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٤٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٤٨-١٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٠٥)، ((فتح البيان)) للقنوجي (٤/ ٣٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٩١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٣).

سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥-٢٦].

﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

أي: ويظنُّ أولئك الضَّالُّون أنَّهم على الهُدى(١).

كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٥].

وقال سُبحانه: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [فاطر: ٨].

الفوائدُ التربويَّةُ:

١- قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ فيه إيماءٌ إلى عُلُوِّ رُتبةِ لِباسِ التَّقوى، وحُسنِ عاقِبَتِه؛ لكونِه أهمَّ اللِّباسَينِ؛ لأنَّ نَزعَه يكون بكَشفِ العَورةِ الحِسِّيَّةِ والمعنويَّة، فلو تجمَّلَ الإنسانُ بأحسَنِ المَلابِسِ، وهو غيرُ مُتَّقٍ؛ كان كلُّه سَوْءاتٍ، ولو كان مُتَّقيًا وليس عليه إلَّا خُريقةٌ تُواري عَوْرَتَه، كان في غايةِ الجَمالِ والسِّترِ والكَمالِ(٢).

٢- أنعَمَ على عبادِه بزينتَينِ ولِباسَينِ: زينةٌ تُجَمِّلُ ظواهِرَهم، وزينةٌ مِنَ التَّقوى تُجَمِّلُ بواطِنَهم؛ قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٤٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٧٩).

سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾[1]، فكلاهما لباسٌ؛ هذا يسترُ عَوْراتِ القَلْبِ ويُزَيِّنُه، وذاك يسترُ عَوْراتِ الجِسمِ ويُزَيِّنُه، وهما مُتلازمانِ، فعَن شُعورِ التَّقوى للهِ والحياءِ منه ينبثِقُ الشُّعورُ باستقباحِ عُرْيِ الجَسَدِ، والحياءِ منه، ومَن لا يَستَحِي مِنَ اللهِ ولا يتَّقيه لا يُهِمُّه أن يتعرَّى، وأن يدعُوَ إلى العُرْيِ[2].

٣- في قولِه تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ﴾ شَبَّه الفُتُونَ الصَّادِرَ مِنَ الشَّيطانِ للنَّاسِ، بفَتْنِه آدَمَ وزَوجَه؛ إذ أقدَمَهما على الأكلِ مِنَ الشَّجرةِ المنهيِّ عنها، فأخرَجَهما مِن نعيمٍ كانا فيه- تذكيرًا للبَشَرِ بأعظَمِ فِتنةٍ فَتَنَ الشَّيطانُ بها نوعَهم؛ إذ حَرَمَهم مِنَ النَّعيمِ الذي كان يتحَقَّقُ لهم لو بَقِيَ أبَواهم في الجنَّةِ وتناسَلا فيها، وفيه أيضًا تذكيرٌ بأنَّ عَداوةَ البَشَرِ للشَّيطانِ مَوروثةٌ، فيكونُ أبعَثَ لهم على الحَذَرِ مِن كَيدِه[3].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ فيه أنَّ الشَّيطانَ أقدَرُ على فِتنةِ بني آدَمَ بوسائِلِه الخفيَّةِ؛ فهم مُحتاجونَ إلى شِدَّةِ الاحتياطِ، وإلى مُضاعَفةِ اليَقَظة، وإلى دَوامِ الحَذَر، كي لا يأخُذَهم على غِرَّةٍ[4]، قال مالكُ بنُ دينار: (إنَّ عَدُوًّا يراك ولا تَراه؛ لَشديدُ المَئُونةِ، إلَّا مَن عَصَم اللهُ)[5].

٥- عدمُ الإيمانِ هو الموجِبُ لعَقدِ الوِلايةِ بين الإنسانِ والشَّيطانِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾[6].

---

(١) يُنظر: ((الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة)) لابن القيم (٤/ ١٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٦)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٢٨٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٢/ ١٨٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٦).

٦- قولُه تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ فيه الأمرُ بالعَدلِ والاعتدالِ في الأمورِ كُلِّها؛ في العباداتِ والمعاملاتِ، وتركِ الظلمِ والجَورِ، والبُعدِ عَنِ الفُحشِ والتَّجاوُزِ[١].

٧- قولُه: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ فيه الأمرُ بالتوجهِ لله، والاجتهادِ في تكميلِ العباداتِ، خصوصًا الصلاة، وإقامتِها ظاهرًا وباطنًا، وتنقيتِها مِن كلِّ نقصٍ ومفسدٍ[٢].

٨- يُرشِدُنا قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ إلى تجريدِ التَّوحيدِ مِن كلِّ شائبةٍ، والإخلاصِ للهِ في العبادةِ[٣].

٩- في قولِه تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ تذكيرٌ بالبعثِ والجَزاءِ على الأعمالِ، ودعوةٌ إلى الإيمانِ به، في إثْرِ بيانِ أصْلِ الدِّينِ، ومَناطِ الأمْرِ فيه، والنَّهيِ الوارِدِ في سياقِ أصلِ تَكوينِ البَشَرِ، واستعدادِهم للإيمانِ والكُفرِ والخَيرِ والشَّرِّ، وما للشَّيطانِ في ذلك مِن إغواءِ الكَافرينَ الذينَ يتَوَلَّونَه، وعدم سُلطانِه على المؤمنينَ الذين يتولَّونَ اللهَ ورسولَه[٤].

١٠- في قولِه تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ هذا كُلُّه إنذارٌ مِنَ الوُقوعِ في الضَّلالةِ، وتحذيرٌ مِن اتِّباعِ الشَّيطانِ، وتَحريضٌ على تَوَخِّي الاهتداءِ الذي هو مِنَ الله تعالى؛ فالفريقُ المُفلِحُ هو الفريقُ الذين هداهم اللهُ تعالى، والفريقُ الخاسِرُ هم الذين حَقَّتْ عليهم الضَّلالةُ، واتَّخذوا الشَّياطينَ أولياءَ مِن دُونِ اللهِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٦)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٢٨١).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٣٣٤)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٢٨١).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٣٣٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٩٠).

١١- الهِدايةُ تكونُ بِفَضلِ اللهِ تعالى، ومَنِّه على العَبدِ، والضَّلالةُ تكون بخِذْلانِه للعبدِ، إذا تولَّى- بجَهلِه وظُلمِه- الشَّيطانَ، وتسبَّبَ لنَفسِه بالضَّلالِ، وأنَّ مَن حَسِبَ أنَّه مهتدٍ وهو ضالٌّ، فإنَّه لا عُذرَ له؛ لأنَّه متمَكِّنٌ مِنَ الهدى، وإنمَّا أتاه حُسبانُه مِن ظُلمِه بتَركِ الطَّريقِ المُوصِلِ إلى الهُدى، يُرشِدُنا إلى ذلك قولُه تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾[1].

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا﴾ خاطَبَ اللهُ تعالى بني آدَمَ في هذه الآيةِ وأمثالِها بالنِّداءِ الذي يُخاطَبُ به البعيدُ؛ لِمَا كان عليه عَرَبُهم وعَجَمُهم عند نُزُولِ هذه السُّورةِ في مَكَّةَ مِنَ البُعدِ عَنِ الفِطرةِ السَّليمةِ، والشِّرعةِ القَويمةِ؛ تنبيهًا للأذهانِ بما يقرَعُ الآذانَ، فامتَنَّ عليهم- بعد أنْ أنبَأَهم بما كان مِن عُرْيِ سَلَفِهم الأوَّلِ- بما أنعَمَ به عليهم مِنَ اللِّباسِ على اختلافِ دَرَجاتِه وأنواعِه، مِنَ الأدنى الذي يستُرُ السَّوءةَ عن أعيُنِ النَّاسِ، إلى أنواعِ الحُلَلِ التي تُشبِهُ رِيشَ الطَّيرِ في وِقايةِ البَدَنِ مِنَ الحَرِّ والبَردِ بسَترِ جَميعِ البَدَنِ[2].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا﴾ امتنانُ اللهِ تعالى على بَني آدَمَ بِلِباسِ الزِّينةِ يدُلُّ على استحبابِها[3]، وأنَّ الزِّينةَ غَرَضٌ صَحيحٌ[4].

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٢٨٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٣١٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ٣٢٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٢٢).

٣- قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا﴾ فيه امتنانُ الله على عبادِه بما يسَّرَ لهم مِنَ اللِّباسِ الضروريِّ، واللباسِ الذي المقصودُ منه الجمالُ، وبيانُ أنَّ هذا ليس مقصودًا بالذات، وإنَّما أنزله الله ليكونَ معونةً لهم على عبادتِه وطاعتِه، ولهذا قال: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ من اللباسِ الحسيِّ، فإنَّ لباسَ التقوَى يستمرُّ مع العبدِ، ولا يبلَى ولا يبيدُ، وهو جمالُ القلبِ والرُّوح(١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ دلالةٌ على جَوازِ إطلاقِ الثِّيابِ على العَمَلِ، ومِنه قولُه تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ٤] على أحدِ الأقوالِ فيها(٢).

٥- اللِّباسُ مِن أصلِ الفِطرةِ الإنسانيَّةِ، وهو ممَّا كَرَّمَ اللهُ به الإنسانَ منذُ ظُهُورِه في الأرضِ، والعُرْيُ والتكشُّفُ عَمَلٌ مِن أعمالِ الفِتنةِ الشَّيطانيَّةِ؛ قال الله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾(٣).

٦- قولُ الله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾ استُدِلَّ به على وُجوبِ سَترِ العَورةِ(٤).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الشَّيطانَ كما نَزَعَ عن الأبوَينِ لباسَهما بمعصيةِ اللهِ وطاعةِ الشَّيطانِ؛ فكذلك قد يَنزِعُ عن الذُّرِّيَّةِ لِباسَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ٣٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٧٤)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٢٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٩/ ٦٧).

التَّقوى، ولباسَ البَدَنِ؛ لِيُرِيَها سَوْآتِها[١].

٨- استُدِلَّ بقَولِه تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ﴾ على أنَّ الجدَّ يُسمَّى أبًا[٢].

٩- لَمَّا سُلِّطَ إبليسُ وجُنودُه على بني آدَمَ هذا التَّسليطَ العظيمَ الذي لا يكادُ يَسلَمُ معه أحدٌ؛ قال الله تعالى- مُخَفِّفًا لأمرِهم، مُوهِيًا في الحقيقةِ لكَيدِهم- ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، أي: وأمَّا أولياؤُنا الذين مَنَعناهم بقُوَّتِنا منه، أو فتنَّاهم يسيرًا بهم، ثمَّ خَلَّصْناهم بلُطْفِنا منهم؛ فليسوا لهم بأولياءَ[٣].

١٠- في قولِ الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ دليلٌ على أنَّ الأوامِرَ والنَّواهيَ الإلهيَّةَ تابعةٌ للحِكمةِ والمصلحةِ؛ حيث ذكر تعالى أنَّه لا يُتصَوَّر أن يأمُرَ بما تستفحِشُه وتُنكِرُه العُقولُ، وأنَّه لا يأمُرُ إلَّا بالعدلِ والإخلاصِ[٤].

١١- حُصِرَت جميعُ الواجباتِ في قولِه تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾، فالواجِبُ كُلُّه محصورٌ في حقِّ الله وحَقِّ عِبادِه؛ وحَقُّ اللهِ على عِبادِه أن يعبُدوه ولا يُشرِكوا به شيئًا، وحقوقُ عبادِه العَدلُ[٥].

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ يدلُّ على أنَّ الكافِرَ- الذي يظُنُّ أنَّه في دينِه على الحقِّ- والجاحِدَ المعانِدَ؛ سواءٌ[٦].

---

(١) يُنظر: ((الاستقامة)) لابن تيمية (٢/ ١٧٠).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٩/ ١٩٩).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٨٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٢٨٦).
(٥) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٦/ ٤١٥).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٩/ ٨٧).

١٣- قال تعالى: ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ هذا مِن أبيَنِ الدَّلالةِ على خطأِ قَولِ مَن زَعَمَ أنَّ اللهَ لا يُعَذِّبُ أحدًا على معصيةٍ رَكِبَها، أو ضلالةٍ اعتَقَدها؛ إلَّا أن يأتِيَها بعد عِلمٍ منه بصوابِ وَجهِها فيَركَبها عنادًا منه لرَبِّه فيها؛ لأنَّ ذلك لو كان كذلك، لم يكُنْ بَينَ فَريقِ الضَّلالةِ- الذي ضَلَّ وهو يحسَبُ أنَّه [مهتدٍ]- وفريقِ الهُدى؛ فَرْقٌ، وقد فَرَّقَ اللهُ بين أسمائِهما وأحكامِهما في هذه الآيةِ(١).

١٤- قولُ الله تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ضمَّن (تقولونَ) معنَى (تكذِبون) أو معنى (تتقوَّلونَ)، فلذلك عُدِّي بـ(على)، وكان حقُّه أن يعدَّى بـ(عن) لو كان قولًا صحيحَ النِّسبةِ(٢).

١٥- في قوله تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ إذا كان التوبيخُ وارِدًا على أن يَقولوا على اللهِ ما لا يَعلمونَ؛ كان القولُ على اللهِ بما يتحقَّقُ عدَمُ ورُودِه مِنَ اللهِ أحرَى(٣).

١٦- قال الله تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾، عَطْفُ جُملةِ: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ على جملة: ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، واعتبارُهما سواءً في الإخبارِ عَنِ الفَريقِ الذين حَقَّتْ عليهم الضَّلالةُ؛ لِقَصدِ الدَّلالةِ على أنَّ ضَلالَهم حاصِلٌ في كُلِّ واحدٍ مِنَ الخَبَرينِ؛ فوِلايةُ الشَّياطينِ ضَلالةٌ، وحِسْبانُهم ضَلالَهم هُدًى، ضلالةٌ أيضًا، سواءٌ كان ذلك كُلُّه عن خطأٍ أو عَن عِنادٍ؛ إذ لا عُذرَ للضَّالِّ في ضَلالِه بالخَطَأ؛ لأنَّ اللهَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٤٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٨٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

نَصَبَ الأدلَّةَ على الحَقِّ، وعلى التَّمييزِ بَينَ الحَقِّ والباطِلِ(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا**﴾ فيه تكريرُ النِّداءِ؛ للإيذانِ بكَمالِ الاعتناءِ بمَضمونِ ما صُدِّرَ به، وقد ابتُدِئَ الخِطابُ بالنِّداءِ؛ ليقعَ إقبالُهم على ما بَعدَه بِهِمَمِ قُلوبِهم(٢).

- وكان لاختيارِ استحضارِهم عند الخِطابِ بعنوانِ (بني آدم) مرَّتينِ وَقْعٌ عَجيبٌ بعدَ الفَراغِ مِن ذِكرِ قِصَّةِ خَلقِ آدَمَ، وما لَقِيَه مِن وَسوَسةِ الشَّيطان؛ وذلك أنَّ شأنَ الذريَّةِ أن تَثْأَرَ لآبائِها، وتُعادِيَ عَدُوَّهم، وتحترِسَ مِنَ الوُقوعِ في شَرَكِه(٣).

- وفيه: تعريضٌ بالمُشركينَ؛ إذ جَعلوا مِن قُرُباتِهم نَزعَ لِباسِهم بأن يحُجُّوا عُراةً(٤).

٢- قوله: ﴿**وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ**﴾ أُطلِقَ على تقْوى الله وخَشيَتِه اسمُ اللِّباسِ؛ تَشبيهًا لمُلازَمةِ تقوى اللهِ بملازَمةِ اللَّابِسِ لِباسَه(٥).

- واسمُ الإشارةِ ﴿ذَلِكَ﴾- على القَولِ بأنَّه مُبتدأٌ ثانٍ- استُعمِلَ مكانَ الضَّميرِ في الرَّبطِ، وجُعِلَتْ جملةُ ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ خبرًا لِقَولِه: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾؛ فدلَّ على تأكيدِ مَضمُونِها بتكرارِ الإسنادِ(٦)، وأيضًا في الفَصْلِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٩٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٧٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٧٤).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٧٥).
(٦) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٣٢١).

باسمِ الإشارةِ ﴿ذَلِكَ﴾ المُقتَرِن بأداةِ البُعدِ؛ إيماءٌ إلى عُلُوِّ رُتبةِ لِباسِ التَّقوى، وحُسنِ عاقِبَتِه[١].

٣- قوله: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ فيه التفاتٌ مِنَ الخطابِ إلى الغَيبةِ؛ إذ كان مُقتضى الظَّاهِرِ أن يُقال: (لعلَّكم تَذكَّرون)، وفي هذا الالتفاتِ تَعريضٌ بمَن لم يتذكَّرْ مِن بني آدم، فكأنَّه غائِبٌ عن حَضرةِ الخِطابِ[٢].

٤- قوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾ نُهُوا عن أن يفتِنَهم الشَّيطانُ، أي: لا تُمكِّنوا الشَّيطانَ من أنْ يَفتِنكم، والمعنى النَّهيُ عن طاعتِه، وهذا مِن مبالغةِ النَّهيِ؛ فالمعنى: لا تُطيعوا الشَّيطانَ في فَتْنِه فيفتِنكم، ومثلُ هذا كنايةٌ عن النَّهيِ عن فِعلٍ، والنَّهيِ عن التعرُّضِ لأسبابِه[٣].

- وقوله: ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ استئنافٌ لتَعليلِ النَّهيِ، وتأكيدِ التَّحذيرِ منه[٤]، والتَّعبيرُ عمَّا مضَى بالفِعلِ المُضارعِ في قوله: ﴿يَنْزِعُ﴾؛ لاستحضارِ الصُّورةِ العَجيبةِ مِن تمكُّنِه مِن أنْ يترُكَهما عُرْيانَينِ، ونزْعُ اللِّباسِ تَمثيلٌ لحالِ التَّسبُّب في ظُهورِ السَّوءةِ[٥].

٥- قولُه: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هو وَقَبِيلُهُ﴾ فيه تأكيدُ الخَبَرِ بحَرَفِ التَّوكيد ﴿إِنَّ﴾ لتنزيلِ المُخاطَبينَ في إعراضِهم عن الحذَرِ مِنَ الشَّيطانِ وفِتنَتِه منزلةَ مَن يتردَّدون في أنَّ الشَّيطانَ يراهم، وفي أنَّهم لا يَرونَه[٦].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٧٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٧٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٧٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٢٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٧٨).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٧٩).

- وجملة: ﴿إِنَّه يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ﴾ واقعةٌ موقِعَ التَّعليلِ للنَّهيِ عن الافتتانِ بفِتنةِ الشَّيطانِ، والتحذيرِ من كيدِه؛ لأنَّ شأنَ الحَذِرِ أن يَرصُدَ الشَّيءَ المَخُوفَ بنَظَرِه؛ ليحترِسَ منه إذا رأى بوادِرَه، فأخبَرَ اللهُ النَّاسَ بأنَّ الشَّياطينَ ترى البَشَرَ، وأنَّ البَشَرَ لا يرونَها، إظهارًا للتَّفاوُتِ بين جانِبِ كَيدِهم، وجانِبِ حَذَرِ النَّاسِ؛ فإنَّ جانِبَ كيدِهم قَوِيٌّ متمَكِّنٌ، وجانِبَ حَذَرِ النَّاسِ منهم ضعيفٌ؛ لأنَّهم يأتون المَكيدَ مِن حيثُ لا يدري[1].

٦- **قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَولِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾** جملةٌ مستأنفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا؛ قُصِدَ منه الانتقالُ إلى أحوالِ المُشركينَ في ائتِمارِهم بأمرِ الشَّيطانِ؛ تَحذيرًا للمؤمنينَ مِن الانتظامِ في سِلكِهم، وتنفيرًا مِن أحوالِهم[2]، وهي تعليلٌ آخَرُ للنَّهيِ، وتأكيدٌ للتَّحذيرِ إثْرَ تَحذيرٍ[3].

- وفيه: تأكيدُ الخَبَرِ بحَرفِ التَّأكيدِ (إنَّ)؛ للاهتمامِ بالخَبَرِ بالنِّسبة لِمَن يَسمَعُه مِنَ المؤمنينَ[4].

٧- **قوله: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾** فيه إيجازٌ؛ إذ المفهومُ أنَّهم إذا فَعَلوا فاحشةً فأنكَرْتَ عليهم أو نُهُوا عنها؛ قالوا: وَجَدْنا عليها آباءَنا...[5].

- وجاء الشَّرطُ بحَرْفِ ﴿إِذَا﴾ الذي مِن شَأنِه إفادةُ اليَقينِ بوُقوعِ الشَّرطِ؛ ليُشِيرَ إلى أنَّ هذا حاصِلٌ منهم لا محالةَ[6].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٨٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٨٣).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٨٢).

٨- قولُه: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ الاستفهامُ في قولِه: ﴿أَتَقُولُونَ﴾ إنكاريٌّ، وفيه تَوبيخٌ لهم على كَذِبِهم، وتَوقيفٌ على ما لا عِلْمَ لهم به، ولا رِوايةَ لهم فيه، بل هي دَعْوَى واختلاقٌ[١].

٩- قوله: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾

- فُصِلَتْ جُملةُ ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ عن التي قبلَها، ولم يُعطَفِ القَولُ على القَولِ، ولا المَقولُ على المَقولِ؛ لأنَّ في إعادةِ فِعلِ القَولِ، وفي تَركِ عَطفِه على نظيرِه؛ لَفْتًا للأذهانِ إليه[٢].

- وقولُه: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ إقامةُ الوُجوهِ تمثيلٌ لِكَمالِ الإقبالِ على عِبادةِ اللهِ تعالى في مواضِعِ عِبادَتِه، بحالِ المُتَهيِّئِ لمُشاهَدةِ أمرٍ مُهِمٍّ حين يوجِّه وَجهَه إلى صَوْبِه، لا يلتفِتُ يَمنةً ولا يَسرةً[٣].

- وقوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ ﴿كَمَا﴾ مُركَّبةٌ من الكاف و(ما)؛ فالكافُ لِتَشبيهِ عَودِ خَلْقِهم ببَدئِه، و(ما) مصدريةٌ، والتقديرُ: تَعودونَ عَودًا جديدًا كبَدْئِه إيَّاكم، وقَدَّمَ المُتعَلِّقَ الدَّالَّ على التَّشبيهِ، على فِعلِه ﴿تَعُودُونَ﴾؛ للاهتمامِ به[٤].

١٠- قوله: ﴿فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٩٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٨٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٨٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٨٩).

أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾

- فيه تَقديمُ ﴿فَرِيقًا﴾ الأوَّلِ والثَّاني على عامِلَيهِما؛ للاهتمامِ بالتَّفصيلِ(١).

- قوله: ﴿فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ﴾، فيه مناسبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا في سُورةِ الأعراف: ﴿فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ﴾، بينما قال في سُورةِ النَّحل: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٣٦]؛ وذلك لوجهينِ: لفظي ومعنوي؛ أمَّا اللَّفظيُّ: فهو أنَّ الحروفَ الحواجزَ بينَ الفِعلِ والفاعِلِ في قوله: ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ﴾ أكثرُ منها في قولِه: ﴿حَقَّتْ عَلَيْهِ﴾ والحذفُ مع كثرةِ الحواجزِ أحسنُ. وأمَّا المعنويُّ: فإنَّ (مَن) في قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ﴾ واقعةٌ على الأمَّةِ والجماعةِ، وهي مؤنَّثةٌ لفظًا؛ فإنَّه قال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ ثمَّ قال: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ﴾، أي: مِن تِلك الأُممِ أممٌ حقَّتْ عليهم الضلالةُ، ولو قال بدَلَ ذلك: (ضلَّت) لتعيَّنتِ التاءُ، ومعنى الكلامين واحد، وإذا كان معنى الكلامينِ واحدًا كان إثباتُ التاءِ أحسنَ مِن ترْكِها؛ لأنَّها ثابتةٌ فيما هو في معنى الكلامِ الآخَرِ. وأمَّا: ﴿فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ﴾ فالفريقُ مُذكَّر، ولو قال: (فريقًا ضلُّوا) لكان بغيرِ تاءٍ، وقوله: ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ﴾ في معناه؛ فجاءَ بغيرِ تاءٍ، وهذا أسلوبٌ لطيفٌ من أساليبِ العربيَّةِ؛ فإنَّ العرَبَ تدَعُ حُكمَ اللَّفظِ الواجبِ له في قِياسِ لُغتها إذا كان في مَعنَى كلمةٍ لا يجبُ لها ذلك الحُكمُ؛ كقولهم: (هو أحسنُ الفتيانِ وأجملُه)؛ لأنَّه في معنى هو أحسنُ فتًى وأجملهُ، وأحسنُ مِن هذا أنْ يُقال: إنَّهم أرادوا (أحسن شيءٍ وأجمله)، فجَعَلوا مكانَ (شيء)

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٩٠).

قولهم: (الفتيان)؛ تنبيهًا على أنَّه أحسنُ شيءٍ من هذا الجِنس، فلو اقتَصروا على ذِكرِ شيءٍ، لم يَدُلَّ على الجِنس المفضَّلِ عليه؛ فإذا حَسُنَ الحملُ على المعنَى فيما كان القياسُ لا يُجوِّزه؛ فكيفَ الظنُّ فيما يُجوِّزُه القياسُ والاستِعمالُ[1]؟!

– وقوله: ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أولِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ...﴾ استئنافٌ مُرادٌ به التَّعليلُ لجُملة ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾[2].

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيِّم (١/ ١٢٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٩١).

الآيتان (٣١-٣٢)

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿نُفَصِّلُ﴾: أي: نُبيِّنُ ونميِّزُ، والتفصيلُ التبيينُ، وقيل: نَأْتِي بِهَا شَيْئًا بعد شَيءٍ، وَلَا نُنَزِّلُها جُمْلَةً مُتَّصِلَةً، وأصلُ (فصل): يدلُّ على تَمييزِ الشَّيءِ مِنَ الشَّيءِ، وإبانَتِه عنه[1].

المَعْنَى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ تعالى بني آدَمَ أن يأخُذُوا زينَتَهم مِنَ اللِّباسِ الحَسَنِ، منظرًا ومخبرًا، ساترًا للعورة عند جَميعِ المساجِدِ، وفي جميعِ الصَّلَواتِ، وأن يأكُلُوا ويَشْرَبوا مِمَّا أحَلَّه لهم، ولا يُسرِفوا بالإفراطِ في الأكلِ والشُّربِ فوق ما يَكفِيهم، أو بتجاوُزِ حُدودِ اللهِ بتحريمِ ما أحَلَّه، أو بتناوُلِ ما حَرَّمَه مِنَ المأكولاتِ والمَشروباتِ؛ فاللهُ تعالى لا يُحِبُّ المُسرفينَ.

ثم أمَرَ اللهُ نبيَّه أن يقولَ لجَهَلةِ العَرَبِ الذين يتعَرَّونَ عند طَوافِهم بالبَيتِ، ويُحَرِّمونَ على أنفُسِهم ما أحلَّه اللهُ لهم؛ أمَرَه أن يقولَ لهم، مُنكِرًا عليهم: مَنِ الذي حَرَّمَ زينةَ اللهِ التي أخرَجَها لعبادِه، كاللِّباسِ الذي خَلَقَه لهم، ومَنِ الذي حَرَّمَ الطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزقِ، وأمَرَه أن يقولَ لهم: إنَّ الزِّينةَ والطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزقِ هي للَّذينِ آمنوا في الدُّنيا، ويُشارِكُهم فيها الكُفَّارُ، لكنَّها خالصةٌ لهم يومَ القيامةِ، لا

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٤٣٧)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٤/ ١٩٤).

يشارِكُهم فيها أحدٌ مِنَ الكَفَرة، كذلك يُفَصِّلُ اللهُ الآياتِ لقومٍ يَعلمونَ.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى بالقِسطِ في الآيةِ الأُولى، وكان مِن جُملةِ القِسْطِ أمرُ اللِّباسِ، وأمرُ المأكولِ والمَشروبِ؛ لا جَرَمَ أتبَعَه بذِكْرِهما، وأيضًا لَمَّا أمَرَ بإقامةِ الصَّلاةِ في قوله: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ وكان سَترُ العَورةِ شَرطًا لصِحَّةِ الصَّلاةِ؛ لا جَرَمَ أتبَعَه بذِكرِ اللِّباسِ[1]، فقال تعالى:

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾.

سببُ النُّزولِ:

عنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كانَتِ المرأةُ تَطوفُ بالبَيتِ وهي عُريانةٌ، فتقولُ: مَنْ يُعيرُني تِطوافًا[2]؟ تجعلُه على فَرجِها، وتقول:

اليومَ يَبدُو بعضُه أو كُلُّهْ ... فما بَدا مِنْه فلا أُحِلُّهْ

فنزلَتْ هذه الآيةُ: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]))[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٢٨).

(٢) التِّطْوافُ: ثَوبٌ تَلبَسُه المرأةُ تَطوفُ به. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ١٦٢)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٢٤/ ١٠٧).

(٣) رواه مسلم (٣٠٢٨).

قال ابنُ رجب الحنبلي: (نَزَلَتْ بسبَبِ طَوافِ المُشركينَ بالبَيتِ عُراةً، وقد صحَّ هذا عنِ ابنِ عَبَّاسٍ، وأجمع عليه المُفَسِّرونَ من السَّلَفِ بعده). ((فتح الباري)) (٢/ ٣٣٤).

وروى البخاري (١٦٦٥) ومسلم (١٢١٩) عن عُروةَ بنِ الزُّبير قال: (كان النَّاسُ يطوفون =

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾.

أي: يا بني آدَمَ خُذوا زينَتَكم مِنَ اللِّباسِ الحَسَن، واستُروا عَوْراتِكم به عند جميعِ المساجِدِ، في الصَّلواتِ كُلِّها؛ فَرضِها ونَفْلِها، وفي الطَّوافِ والاعتكافِ، وغيرِ ذلك[1].

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ أبا بكرٍ الصِّديقَ رَضِيَ الله عنه، بَعَثَه في الحَجَّةِ التي أمَّرَه عليها رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم، قبل حَجَّةِ الوَداعِ يومَ النَّحرِ، في رَهْطٍ يُؤَذِّنُ في النَّاسِ: ((ألَا لا يحُجُّ بعد العامِ مُشرِكٌ، ولا يطوفُ بالبَيتِ عُريانٌ))[2].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لا يُصَلِّي أحدُكم في الثَّوبِ الواحِدِ، ليس على عاتِقَيهِ مِنه شَيءٌ))[3].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لا يدخُلُ الجنَّةَ مَن كان في قَلبِه مِثقالُ ذَرَّةٍ مِن كِبرٍ. قال رجل: إنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ

= في الجاهليَّة عُراةً إلَّا الحُمْسَ، والحُمْسُ: قُريشٌ وما وَلَدَت، وكانت الحُمْسُ يحتسبونَ على النَّاسِ؛ يعطي الرَّجُلُ الرَّجُلَ الثِّيابَ يطوفُ فيها، وتُعطي المرأةُ المرأةَ الثِّيابَ تَطوفُ فيها، فمَن لم يُعطِه الحُمْسُ طاف بالبَيتِ عُريانًا). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٨٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٦/ ٢٢٢).

قال ابنُ كثيرٍ: (كانت العربُ- ما عدا قُرَيْشًا- لا يَطُوفون بالبيتِ في ثِيابِهم الَّتي لَبِسوها، يَتَأوَّلون في ذلك أنَّهم لا يَطُوفون في ثيابٍ عَصَوُا اللَّه فيها، وكانت قُرَيْشٌ- وهم الحُمْس- يَطُوفون في ثيابِهم، ومَن أعارَه أَحْمَسِيٌّ ثوبًا طَاف فيه، ومن معه ثوبٌ جَديدٌ طاف فيه، ثُمَّ يُلقيه فلا يتملَّكُه أحدٌ، فمن لم يَجِدْ ثوبًا جديدًا، ولا أعارَه أَحْمَسِيٌّ ثَوبًا، طافَ عريانًا). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٠٢)، ويُنظر: ((أخبار مكة)) للأزرقي (١/ ١٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٤٩)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٢/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٩٤).

(٢) رواه البخاري (١٦٢٢) ومسلم (١٣٤٧).

(٣) رواه البخاري (٣٥٩) ومسلم (٥١٦).

أن يكونَ ثَوبُه حَسَنًا، ونَعْلُه حَسَنةً، قال: إنَّ اللهَ جَميلٌ يُحِبُّ الجَمالَ؛ الكِبرُ بَطَرُ الحَقِّ(١)، وغَمْطُ النَّاسِ(٢)))(٣).

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾.

أي: وكُلُوا واشرَبُوا مِمَّا أحلَلْتُه لكم مِنَ الطَّيباتِ، ولا تُفرِطُوا في الأكلِ والشُّربِ بالزِّيادةِ على القَدرِ الكافي، ولا تتجاوَزوا حُدودَ اللهِ؛ فتُحَرِّموا ما أحَلَّ اللهُ مِنَ الأطعمةِ والأشرِبَةِ، أو تتناوَلوا ما حَرَّمَه منها(٤).

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].

وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الأنعام: ١٤١-١٤٢].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ٨٧-٨٨].

---

(١) بَطَرُ الحَقِّ: أي: دَفعُه وإنكارُه؛ ترفُّعًا وتجبُّرًا. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ٩٠).

(٢) غَمْطُ النَّاسِ: أي: احتقارُهم. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ٩٠).

(٣) رواه مسلم (٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٤٩)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٥/ ١٤٦٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٩٣)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٩٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٦٥-١٦٧).

﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾.

أي: إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المجاوِزينَ أمْرَه، الغالينَ فيما أحلَّ أو حرَّم، المُستكثِرينَ ممَّا لا ينبغي الاستكثارُ منه؛ مِنَ الطَّعامِ والشَّرابِ وغيرِ ذلك[1].

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان مِنَ المعلومِ أنَّ ما كانوا ألِفُوه واتَّخذوه دِينًا يستعظمونَ تَرْكَه؛ لأنَّ الشَّيطانَ يُوسْوِسُ لهم بأنَّه توسُّعٌ في الدُّنيا، والتَّوسُّعُ فيها ممَّا ينبغي الزُّهدُ فيه، كما دعا إليه كثيرٌ مِنَ الآياتِ- أكَّدَ سُبحانَه الإذنَ في ذلك بالإنكارِ على مَن حَرَّمَه، مُعْلِمًا أنَّ الزُّهدَ الممدوحَ ما كان مع صِحَّةِ الاعتقادِ في الحلالِ والحرامِ، وأمَّا ما كان مع تبديلِ شَيءٍ مِنَ الدِّينِ، بتحليلِ حرامٍ، أو عَكْسِه؛ فهو مذمومٌ[2].

وأيضًا لَمَّا حَرَّمَتِ العَرَبُ في جاهِلِيَّتِها زينةَ اللِّباسَ في الطَّوافِ تعبُّدًا وقُربةً، وحَرَّمَ بعضُهم أكْلَ بعضِ الطَّيِّباتِ مِنَ الأدْهانِ وغَيرِها في حال الإحرامِ بالحَجِّ كذلك، وحَرَّموا مِنَ الحَرْثِ والأنعامِ ما بيَّنه تعالى في سورة الأنعام. وحَرَّمَ غَيرُهم مِنَ الوَثَنِيِّينَ وأهلِ الكِتابِ كثيرًا مِنَ الطَّيِّباتِ والزِّينةِ كذلك- جاء دينُ الفِطرةِ الجامِعُ بين مصالِحِ البَشَرِ في معاشِهم ومَعَادِهم، المُطَهِّرُ المُرَبِّي لأرواحِهم وأجسادهم، يُنكِرُ هذا التحَكُّمَ والظُّلمَ للنَّفْسِ[3]، فقال تعالى:

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٥٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٧٨)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٨٨-٣٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٣٤٥).

أي: قُلْ- يا نبيَّ اللهِ- لجَهَلةِ العَرَبِ الذين يتعَرَّونَ عند طَوافِهم بالبَيتِ، ويُحرِّمونَ على أنفُسِهم- بآرائِهم الفاسِدَةِ- ما أحلَلْتُ لهم: مَنِ الَّذي حرَّمَ عليكم زينةَ اللهِ التي أبرَزَها مِنَ العَدَمِ إلى الوُجودِ، ويسَّرَ أسبابَ تَناوُلِها، كاللِّباسِ الذي خَلَقَه اللهُ لعِبادِه؟ ومَنْ حرَّمَ الطَّيِّباتِ مِن كُلِّ ما يُستلَذُّ ويُشتَهى مِن أنواعِ المأكولاتِ والمَشروباتِ وغيرِ ذلك، مِمَّا أحَلَّه اللهُ تعالى لعباده[(١)]؟!

عن أنَسٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ نَفَرًا مِن أصحابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، سألوا أزواجَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن عَمَلِه في السِّرِّ؟ فقال بعضُهم: لا أتزوَّجُ النِّساءَ، وقال بعضُهم: لا آكُلُ اللَّحمَ، وقال بعضُهم: لا أنامُ على فِراشٍ، فحَمِدَ اللهَ وأثنى عليه، فقال: ما بالُ أقوامٍ قالوا كذا وكذا؟ لكِنِّي أُصَلِّي وأنامُ، وأصومُ وأُفطِرُ، وأتَزَوَّجُ النِّساءَ؛ فمَن رَغِبَ عن سُنَّتِي فليس مِنِّي))[(٢)].

﴿ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ ﴾.

أي: قُل- يا نَبِيَّ اللهِ- لهؤلاءِ المُشركينَ الذين يُحَرِّمونَ ما أحَلَّ اللهُ عزَّ وجلَّ: إنَّ الزِّينةَ والطَّيباتِ مِنَ الرِّزقِ، قد خَلَقَها اللهُ في الدُّنيا للَّذين آمَنوا باللهِ ورَسولِه، ويُشارِكُهم فيها مَن كَفَرَ باللهِ ورَسولِه، ولكنَّها خالصةٌ للمُؤمنينَ في الآخِرَةِ، لا يشارِكُهم فيها أحَدٌ مِنَ الكُفَّارِ يومَئذٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٥٦)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٠٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٦٨، ١٦٩).
وقال الرازي: (يدخُلُ تحت الزِّينةِ جميعُ أنواعِ التَّزيينِ، ويدخُلُ تحتَها تنظيفُ البَدَنِ مِن جميعِ الوُجوه، ويدخُلُ تحتَها المركوبُ، ويدخُلُ تحتها أيضًا أنواعُ الحُليِّ؛ لأنَّ كُلَّ ذلك زينةٌ، ولولا النصُّ الواردُ في تحريمِ الذَّهَبِ والفِضَّةِ والإبريسَمِ على الرِّجالِ؛ لكان ذلك داخلًا تحت هذا العمومِ، ويدخُلُ تحت الطَّيباتِ مِنَ الرِّزقِ كلُّ ما يُستلَذُّ ويُشتَهى من أنواعِ المأكولاتِ والمَشْروبات، ويدخل أيضًا تحتَه التمتُّعُ بالنِّساءِ وبالطِّيبِ). ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٣٠).
(٢) رواه البخاري (٥٠٦٣) ومسلم (١٤٠١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن =

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

أي: كهذا التَّفصيلِ الواضِحِ الذي فصَّلْنا لكم به الحلالَ والحَرامَ، وبَيَّنَّا لكم به حُرمةَ كَشْفِ العَوْراتِ، ولُزُومَ سَتْرِها، وإباحةَ الزِّينةِ والطَّيِّبات مِنَ الرِّزقِ؛ نُوَضِّحُ دائمًا في هذا القرآنِ جَميعَ ما يَحتاجُ إلى بيانٍ، وذلك للَّذين يفهمونَ عَنِ اللهِ آياتِه، وينتفعونَ بها [1].

كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

وقال سبحانه: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨].

الفوائِدُ التربويَّةُ:

١- أمَرَ اللهُ بقَدرٍ زائدٍ على سَترِ العَورةِ في الصَّلاةِ، وهو أخذُ الزِّينةِ؛ فقال تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ فعَلَّقَ الأمرَ بأخذِ الزِّينةِ، لا بِسَترِ العَورةِ؛ إيذانًا بأنَّ العَبدَ ينبغي له أن يلبَسَ أزيَنَ ثيابِه، وأجمَلَها في الصَّلاةِ، وكان لبَعضِ السَّلَفِ حُلَّةٌ بمبلغٍ عظيمٍ مِنَ المالِ، وكان يلبَسُها وقتَ الصَّلاةِ، ويقولُ: (ربِّي أحَقُّ مَن تجمَّلْتُ له في صلاتِي). ومعلومٌ أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى يُحِبُّ أن يرى أثَرَ نِعمَتِه على عَبدِه، لا سيَّما إذا وقَفَ بين يَدَيه، فأحسَنُ ما وَقَف بين يديه

= عاشور)) (٨-ب/ ٩٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٦٩ - ١٧١).

وقال ابن عاشور: (المعنى: ما هي بحرام، ولكنَّها مباحةٌ للَّذين آمنوا، وإنَّما حَرَمَ المشركون أنفُسَهم من أصنافٍ منها في الحياةِ الدُّنيا كُلِّها، مثل البَحِيرة والسَّائِبة والوَصِيلة والحامِي، وما في بُطونها، وحَرَم بعضُ المشركين أنفُسَهم من أشياءَ في أوقاتٍ مِنَ الحياة الدُّنيا، ممَّا حَرَّموه على أنفُسِهم مِنَ اللِّباسِ في الطَّوافِ، وفي مِنًى، ومِن أكْلِ اللُّحومِ والوَدَكِ والسَّمْن واللَّبَن، فكان الفَوزُ للمؤمنينَ؛ إذ اتَّبَعوا أمرَ اللهِ بتحليلِ ذلك كُلِّه في جميعِ أوقاتِ الحياةِ الدُّنيا). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٧٢).

بملابِسِه ونِعمَتِه التي ألبَسَه إيَّاها ظاهرًا وباطنًا[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ فيه النهيُ عن الإسرافِ؛ فإنَّ السَّرَفَ يُبغِضُه الله، ويَضُرُّ بَدنَ الإنسانِ ومَعيشَتَه[٢].

٣- في قَوْلِه تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ إرشادٌ عالٍ، فيه صَلاحٌ للبَشَرِ في دِينِهم ومَعاشِهم ومَعادِهم، لا يَستغنُونَ عنه في وَقتٍ مِنَ الأوقاتِ، ولا عَصْرٍ مِنَ الأعصارِ، وكلُّ ما بَلَغُوه مِن سَعَةِ العِلمِ في الطِّبِّ وغَيرِه، لم يُغْنِهم عنه، بل هو يُغني المُهتديَ به في أمْرِه ونَهْيِه عَن مُعظَمِ وصايا الطِّبِّ لِحفظِ الصِّحَّةِ[٣]، قال عليُّ بنُ الحُسَينِ بنِ واقِدٍ: (جَمَعَ اللهُ الطِّبَّ في نِصفِ آيةٍ، فقال: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾)[٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ استنكارُ تَحريمِ الزِّينةِ التي أخرَجَها اللهُ لعبادِه، وتحريمِ الطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزقِ؛ فمِنَ المُستنكَرِ أن يُحَرِّمَ أحَدٌ- برَأيِه- ما أخرَجَه اللهُ للنَّاسِ مِنَ الزِّينةِ أو مِنَ الطَّيباتِ؛ فتحريمُ شَيءٍ أو تحليلُه لا يكونُ إلا بِشَرعٍ مِنَ اللهِ[٥].

٥- التَّوسيعُ مِنَ الله لعبادِه بالطَّيِّباتِ؛ جَعَلَه لهم ليَسْتعينوا به على عِبادَتِه، فلم يُبِحْه إلَّا لعبادِه المؤمنينَ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، أي: لا تَبِعَةَ عليهم فيها، ومفهومُ الآيةِ أنَّ مَن لم يؤمِنْ بالله، بل استعانَ بها على مَعاصِيه، فإنَّها غيرُ خالصةٍ له، ولا مُباحةٍ، بل

---

(١) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ٣٢٦)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٣٦٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص:٢٨٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٣٤٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٢٤).
(٥) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٢٨٢).

يُعاقَبُ عليها وعلى التنعُّمِ بها، ويُسألُ عنِ النَّعيمِ يومَ القيامةِ(١).

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ جمعَتْ هذه الآيةُ أصُولَ أحكامِ الشَّريعةِ كُلَّها، فجَمَعتِ الأمرَ والنَّهيَ، والإباحةَ والخَبَرَ(٢).

٢- قال الله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ لهذه الآيةِ وما ورَدَ في معناها مِنَ السُّنَّة، يُستحَبُّ التجمُّلُ عند الصَّلاةِ- ولا سيَّما يومُ الجُمُعة، ويومُ العِيدِ- والطِّيبُ؛ لأنَّه مِنَ الزِّينةِ، والسِّواكُ؛ لأنَّه مِن تمامِ ذلك(٣).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ الأمرُ بسَترِ العَوراتِ عندَ المساجِدِ، فدخلَ في ذلك الطَّوافُ، والصَّلاةُ، والاعتكافُ، وغيرُ ذلك(٤).

٤- دلَّ قولُه تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ على أنَّ الصَّلاةَ في الثَّوبِ الحَسَنِ غَيرُ مَكروهةٍ، إلَّا أنْ يُخشَى منه الالْتِهاءُ عن الصَّلاةِ، أو حُدوثُ الكِبْرِ(٥).

٥- قولُ الله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ مُطلَقٌ يتناوَلُ الأوقاتَ والأحوالَ، ويتناوَلُ جميعَ المطعوماتِ والمَشروباتِ؛ دلَّ ذلك على أنَّ الأصلَ في الملابِسِ وأنواعِ التَّجَمُّلات والمطاعِمِ؛ الإباحةُ، إلَّا ما ورَدَ النَّصُّ بخِلافِه(٦).

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن رجب الحنبلي)) (١/ ٤٧٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٨٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٣٠)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٧٢).

الرِّزْقِ﴾ فيه ردٌّ على مَن يتورَّعُ عن أكلِ المُستَلَذَّاتِ، ولُبسِ المَلابِسِ الرَّفيعةِ؛ فإنَّ الاستفهامَ المرادُ منه تقريرُ الإنكارِ، والمبالغةُ فيه[1].

٧- قولُ الله تعالى: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: الزِّينةُ والطَّيِّباتُ هي لهم بالأصالةِ، والكَفَرةُ وإن شارَكُوهم فيها فتَبَعٌ؛ ولذا لم يَقُلْ تعالى: (لِلَّذِينَ آمنوا وغَيرِهم)[2].

بلاغة الآيتين:

١- قولُه تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ هذه الجُملةُ تتنزَّلُ مِنَ التي بَعدَها، وهي قوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ﴾ منزلةَ النَّتيجةِ مِنَ الجَدَلِ، فقُدِّمَتْ على الجَدَلِ، فصارَتْ غَرَضًا بمنزلةِ دَعوى، وجُعِلَ الجدلُ حجَّةً على الدَّعوى[3].

٢- قوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

- قوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ استئنافٌ مُعتَرِضٌ بين الخِطاباتِ المحكيَّةِ والمُوجَّهة، وهو موضِعُ إبطالِ مَزاعِمِ أهلِ الجاهِليَّةِ فيما حرَّموه من اللِّباسِ والطَّعامِ، وهي زيادةُ تأكيدٍ لإباحةِ التسَتُّرِ في المساجِدِ، فابتُدِئَ الكلامُ السَّابِقُ بأنَّ اللِّباسَ نِعمةٌ مِنَ اللهِ[4].

- والاستفهامُ في قَولِه: ﴿مَنْ حَرَّمَ﴾ إنكاريٌّ، قُصِدَ به التهكُّم؛ إذ جَعَلَهم

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٣٠)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٢٨).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٨٩)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٧٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٩٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٩٥).

بمنزلةِ أهلِ عِلمٍ يُطلَبُ منهم البيانُ والإفادةُ، وقرينةُ التهَكُّمِ إضافةُ الزِّينةِ إلى اسمِ اللهِ في قوله: ﴿زِينَةَ اللَّهِ﴾، وتعريفُها بأنَّها أخرَجَها اللهُ لعِبادِه، ووصْفُ الرِّزقِ بالطَّيِّباتِ، وذلك يقتَضي عَدَمَ التَّحريمِ؛ فالاستفهامُ يَؤُولُ أيضًا إلى إنكارِ تَحريمِها، وتوبيخِ مُحَرِّمِيها[1].

- قوله: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فيه تعريضٌ بجَهلِ وضَلالِ عُقولِ المُشركينَ الذين استَمَرُّوا على عنادِهم وضَلالِهم، رغمَ ما فُصِّلَ لهم مِنَ الآياتِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٩٩).

الآيتان (٣٣-٣٤)

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿سُلْطَانًا﴾: أي: حُجَّةً، وأصْلُ السُّلطانِ: القوَّةُ والقَهرُ، مِنَ التَّسلُّطِ؛ ولذلك سُمِّيَ السُّلطانُ سُلطانًا(١).

﴿أُمَّةٍ﴾: أي: جماعةٍ، أو قَرْنٍ وجِيلٍ، وتُطلَقُ الأمَّةُ على المِلَّةِ والسُّنَّةِ والدِّينِ والحِينِ(٢).

﴿أَجَلٌ﴾: أي: وَقْتٌ لِحُلولِ الهَلاكِ، والأجَلُ غايةُ الوَقتِ في مَحِلِّ الدَّينِ وغَيرِه، والمدَّةُ المضروبةُ للشَّيءِ، كالمُدَّة المضروبةِ لحياةِ الإنسانِ؛ فيُقال: دنا أجَلُه، وهو عبارةٌ عن دُنوِّ المَوتِ، واستيفاءُ الأجَلِ، أي: مدَّةُ الحياةِ(٣).

﴿سَاعَةً﴾: أي: وقتًا قليلًا مِنَ الزَّمانِ، وأصل (سوع): يدلُّ على استمرارِ الشَّيءِ ومُضيِّه(٤).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣ / ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٧، ٤٢٠، ٧٢٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨١،٢٠٢، ١٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٣، ٣٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠ / ١٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١ / ٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣٤).

المَعْنى الإجماليُّ:

أمَرَ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنْ يخبِرَ المُشركينَ أنَّه عزَّ وجلَّ إنَّما حرَّمَ الذُّنوبَ التي تناهَتْ في القُبحِ، ما ظهرَ منها وما خَفِيَ، وحرَّمَ المعاصِيَ التي تتعلَّقُ بمن عصى نفسَه، وحرَّمَ التعدِّيَ على الغيرِ بغيرِ حقٍّ، وحرَّمَ أن يُتَّخَذ معه شريكٌ في عبادَتِه، لم يجعَلِ اللهُ معه حُجَّةً تدلُّ على إشراكِه، وحرَّمَ عزَّ وجلَّ القَولَ عليه بلا علمٍ.

وأخبرَ تعالى أنَّ لكلِّ أمَّةٍ مُكَذِّبةٍ وقتًا محددًا لحُلولِ العُقوبةِ عليهم، فإذا جاءَ الوقتُ الذي وقَّتَه اللهُ لإهلاكِهم هَلَكوا، ولا يتأخَّرونَ عنه ساعةً، ولا يتقدَّمونَ.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بَيَّنَ في الآيةِ الأولى أنَّ الذي حرَّمَه المشركونَ مِن الزِّينةِ وغَيرِها مِنَ الطَّيِّباتِ، ليس بحرامٍ، وانتهى من تَفنيدِ هذا الباطِلِ الذي يدَّعُونه ويَفتَرونَه- بَيَّنَ في هذه الآيةِ أنواعَ المُحَرَّمات، فحَرَّمَ أوَّلًا الفواحِشَ، وثانيًا الإثمَ[1]، فقال:

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾.

أي: قُلْ- يا نبيَّ اللهِ- لهؤلاءِ المُشركينَ: إنَّ ربِّي لم يُحَرِّمْ ما تُحَرِّمونَه، وإنَّما حرَّمَ الذُّنُوبَ التي تناهَتْ في القُبحِ، ما كان منها علانِيَةً، وما كان منها في خفاءٍ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٠٠)، ((العذب =

كما قال تعالى: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٠].

وقال عزَّ جلَّ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لا أحَدَ أغيَرُ مِنَ الله؛ ولذلك حَرَّمَ الفواحِشَ ما ظهَرَ منها وما بَطَنَ))[(١)].

﴿وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾.

أي: وحرَّمَ ربِّي الإثمَ، وهو المعاصِي المتعلِّقةُ بالفاعِلِ نَفسِه، وحرَّمَ البَغيَ، وهو التَّعدِّي على النَّاسِ في دمائِهم وأموالِهم وأعراضِهم[(٢)].

﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾.

أي: وحرَّمَ ربي اتِّخاذَ شَريكٍ له في عبادَتِه، لم يجعَلِ اللهُ معه حجَّةً تَدلُّكم على إشراكِه[(٣)].

= النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٧٣- ١٧٥).

وقيل: إنَّ ظاهرَ الإثمِ ما يفعلُه بالجوارحِ، وباطنَه ما يعتقدُه بالقلبِ، واختاره الماورديُّ، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٢/ ١٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٧).

(١) رواه البخاري (٤٦٣٧) ومسلم (٢٧٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٧).

قال الشِّنقيطيُّ: (قوله: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ لا يكونُ بغيٌ بحَقٍّ أبدًا؛ فكلُّ بغيٍ بغيرِ حَقٍّ لا شَكَّ، كما قال تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ ومعلومٌ أنَّ النَّبيِّينَ لا يُقتلونَ بحَقٍّ أبدًا، فهو كالتوكيدِ، كقوله: ﴿وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨] ﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ٧٩]. وقال بعضُ العُلَماءِ: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ كقولِه: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] لأنَّ مَن بُغِيَ عليه ثم انتَقَم، قد يسمَّى هذا بغيًا، كقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ وكما سمَّى الانتقامَ اعتداءً، في قوله: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤] سمَّى جزاءَ الاعتداءِ: اعتداءً، وجزاءَ السَّيئةِ: سيئةً، وإن كان الانتقامُ ليس سيِّئةً، وليس اعتداءً). ((العذب النمير)) (٣/ ١٧٥). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) =

﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

أي: وحرَّمَ ربي عليكم القَولَ عليه بلا علمٍ؛ في أسمائِه وصفاتِه، وأفعالِه وشَرعِه[1].

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا نعى اللهُ على المشركينَ ضلالَهم وتمرُّدَهم- بعد أنْ دعاهم إلى الإيمانِ- وإعراضَهم عنه، بالمجادلةِ والتَّوبيخِ، وإظهارِ نقائِصِهم بالحُجَّة البيِّنةِ، وكان حالُهم حالَ مَن لا يُقلِعُ عمَّا هم فيه- أعقَبَ ذلك بإنذارِهم ووعيدِهم؛ إقامةً للحُجَّةِ عليهم، وإعذارًا لهم قبل حُلولِ العَذابِ بهم[2].

وأيضا لَمَّا بَيَّنَ الله تعالى الحلالَ والحَرامَ، وأحوالَ التَّكليفِ، بَيَّنَ أنَّ لكُلِّ أحدٍ أجلًا مُعَيَّنًا لا يتقَدَّمُ ولا يتأخَّرُ، والغَرَضُ منه التَّخويفُ؛ ليَجِدَّ المرءُ في القيامِ بالتَّكاليفِ كما ينبغي[3]، فقال تعالى:

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾.

= (ص: ٢٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٠١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٧٥).
قال الشِّنقيطيُّ: (الإشراكُ باللهِ لا يُنَزِّلُ به سُلطانٌ ألبتَّة، كقوله: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ [المؤمنون: آية ١١٧] فمعلومٌ أنَّ الإلهَ الثَّانيَ لا يكونُ به برهانٌ ألبتَّةَ، وقد تقرَّرَ في علمِ الأصُولِ أنَّ النَّصَّ مِنَ الكِتابِ والسنَّةِ إذا جاء مُبَيِّنًا للحقيقةِ الواقعةِ لا يكون له مفهومُ مُخالفةٍ، والواقِعُ أنَّهم يُشركونَ باللهِ ما لم يُنَزِّلْ به سلطانًا، فجاءت الآيةُ مُبَيِّنةً للحقيقةِ الواقعةِ؛ ليكون النَّهيُ واقعًا على بيانِ الحقيقةِ الواقِعةِ). ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٧٦)، وينظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٤/ ٢٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٣٤).

أي: ولكُلِّ أمَّةٍ مُكَذِّبةٍ وقتٌ محدَّدٌ لحلولِ العذابِ[١].

﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾.

أي: فإذا جاء الوَقتُ الذي وقَّتَه اللهُ تعالى لهلاكِهم، هَلَكوا، ولا يتأخَّرونَ بالبَقاءِ في الدُّنيا عن ذلك الوَقتِ ساعةً، ولا يتقدَّمونَ عنه ساعةً[٢].

الفوائدُ التربويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فذكَر المُحَرَّماتِ التي اتَّفَقَتْ على تحريمِها الشَّرائِعُ والأديانُ، ولا تُباحُ بحالٍ، بل لا تكونُ إلا مُحَرَّمةً، وليسَتْ كالمَيتةِ والدَّمِ ولحْمِ الخِنزيرِ، الذي يباحُ في حالٍ دُونَ حالٍ. فإنَّ المُحَرَّماتِ نوعانِ: مُحَرَّمٌ لِذاتِه لا يُباحُ بحالٍ، ومُحَرَّمٌ تحريمًا عارِضًا في وقتٍ دونَ وقتٍ؛ قال الله تعالى في المُحَرَّمِ لِذاتِه: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾، ثم انتقَلَ منه إلى ما هو أعظَمُ منه، فقال: ﴿وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، ثُمَّ انتقلَ منه إلى ما هو أعظَمُ منه، فقال: ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَالَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾، ثمَّ انتقَلَ منه إلى ما هو أعظَمُ منه، فقال: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، فهذا أعظَمُ المُحَرَّماتِ عند اللهِ، وأشَدُّها إثمًا، ولهذا ذُكِرَ في المرتَبةِ الرَّابعةِ مِنَ المُحَرَّمات المذكورةِ في هذه الآيةِ؛ فإنَّه يتضَمَّنُ الكَذِبَ على اللهِ، ونِسبتَه إلى ما لا يليقُ به، وتغييرَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٦٥)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ١١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٠٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٨٥).

وقيل: المرادُ: لكلِّ قَرْنٍ وجيلٍ مِيقاتُه المُقَدَّر لانتهائِه. واختاره ابنُ كثيرٍ والسعديِ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٠٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٨٨- ١٨٩).

دِينِه وتَبديلَه، ونَفيَ ما أثبَتَه، وإثباتَ ما نفاه، وتحقيقَ ما أبطَلَه، وإبطالَ ما حَقَّقَه، وعداوةَ مَن والاه، ومُوالاةَ مَن عاداه، وحُبَّ ما أبغَضَه، وبُغضَ ما أحَبَّه، ووصْفَه بما لا يليقُ به في ذاتِه وصِفاتِه وأقوالِه وأفعالِه؛ فليس في أجناسِ المُحَرَّماتِ أعظَمُ عند اللهِ منه، ولا أشَدُّ إثمًا، وهو أصلُ الشِّركِ والكُفرِ، وعليه أُسِّسَتِ البِدَعُ والضَّلالاتُ، فكُلُّ بِدعةٍ مُضِلَّةٍ في الدِّينِ أساسُها القَولُ على الله بلا عِلمٍ[1].

٢- قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فهذه الأنواعُ الأربعةُ هي التي حَرَّمَها تحريمًا مُطلقًا؛ فالفواحِشُ متعلِّقةٌ بالشَّهوةِ، والبَغيُ بغَيرِ الحَقِّ يتعلَّقُ بالغَضَبِ، والشِّركُ باللهِ فَسادُ أصلِ العَدلِ؛ فإنَّ الشِّركَ ظُلمٌ عَظيمٌ، والقَولُ على الله بلا علمٍ فَسادٌ في العِلمِ، فقد حَرَّمَ سبحانه هذه الأربعةَ؛ وهي: فَسادُ الشَّهوةِ، والغَضَبِ، وفسادُ العَدْلِ، والعِلمِ[2].

٣- دخَلَ في قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ تحريمُ كُلِّ فاحِشةٍ ظَاهِرةٍ وباطِنةٍ، وكُلِّ ظُلمٍ وعُدوانٍ في مالٍ أو نَفْسٍ أو عِرْضٍ، وكُلِّ شِركٍ باللهِ، وإنْ دَقَّ؛ في قولٍ أو عَمَلٍ أو إرادةٍ، بأن يَجعلَ للهِ عَدْلًا بِغَيرِه في اللَّفظِ أو القَصدِ أو الاعتقادِ، وكلِّ قولٍ على الله، لم يأتِ به نَصٌّ عنه ولا عن رسولِه؛ في تحريمٍ أو تحليلٍ، أو إيجابٍ أو إسقاطٍ، أو خبرٍ عنه باسْمٍ أو صِفةٍ، نفيًا أو إثباتًا، أو خبرًا عن فِعلِه؛ فالقَولُ عليه بلا عِلمٍ حرامٌ في أفعالِه وصِفاتِه ودِينِه[3].

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٧٨).
(٢) يُنظر: ((الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)) لابن تيمية (٦/ ٣٣).
(٣) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ٢٥٢).

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- النَّظَرُ إلى العَوْراتِ حَرامٌ داخِلٌ في قولِه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ﴾ فإنَّ الفواحِشَ وإن كانَتْ ظاهرةً في المُباشَرةِ بالفَرجِ أو الدُّبُرِ وما يتبَعُ ذلك مِنَ المُلامَسةِ والنَّظَرِ وغيرِ ذلك، وكما في قِصَّةِ لوط: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠]، وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾[الإسراء: ٣٢]، فالفاحشةُ أيضًا تتناوَلُ كشْفَ العَورةِ وإن لم يكُنْ في ذلك مُباشرةٌ، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾ [الأعراف: ٢٨]، وهذه الفاحِشَةُ هي طَوافُهم بالبيتِ عُراةً(١).

٢- قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ﴾ دليلٌ على أنَّها فواحِشُ في نَفسِها، لا تَستَحسِنُها العُقولُ؛ فتعلَّقَ التحريمُ بها لفُحْشِها، فإنَّ ترتيبَ الحُكْمِ على الوَصفِ المُناسِبِ المُشتَقِّ؛ يدلُّ على أنَّه هو العلَّةُ المُقتَضِيةُ له، والعلَّةُ يجبُ أنْ تُغايِرَ المَعلولَ، فلو كان كونُه فاحِشةً هو معنى كَونِه مَنهِيًّا عنه؛ كانت العلَّةُ عينَ المعلولِ! وهذا مُحالٌ(٢).

٣- في قَولِه تعالى:﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فيه بيانُ أُصولِ المُحَرَّماتِ العامَّةِ التي حَرَّمَها لضررٍ ثابتٍ لازمٍ لها، لا لعلَّةٍ عارضةٍ، وكلُّها مِن أعمالِهم الكَسبيَّةِ، لا مِن مواهِبِه ونِعَمِه الخِلقيةِ؛ ليُعلَمَ أنَّه- له الحمدُ والشُّكرُ- لم يُحَرِّمْ على النَّاسِ إلَّا ما هو ضارٌّ بهم، دون ما هو نافِعٌ لهم(٣).

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٣٥١).

٤- قولُ الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾، إنَّما ذُكِرَت (السَّاعة) وإن كان دُونَها كذلك؛ لأنَّها كانت أقلَّ اسمٍ للأوقاتِ في العُرفِ(١).

٥- قولُ الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾، ذِكرُ عُمومِ الأُمَمِ في هذا الوعيدِ- مع أنَّ المقصودَ هم المُشركونَ مِنَ العَرَبِ الذين لم يُؤمنوا- إنَّما هو مبالغةٌ في الإنذارِ والوعيدِ، بتقريبِ حُصُولِه كما حصَلَ لِغَيرِهم مِنَ الأُمَمِ؛ على طريقةِ الاستشهادِ بشواهِدِ التَّاريخِ في قياسِ الحاضِرِ على الماضي، فيكونُ الوَعيدُ خَبَرًا معضودًا بالدَّليلِ والحُجَّةِ(٢).

٦- قولُ الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ ذَكَرَ (الأجل) هنا، دون أن يقولَ (لكُلِّ أمَّةٍ عذابٌ أو استئصالٌ)؛ إيقاظًا لعُقُولِهم من أن يَغُرَّهم الإمهالُ، فيحسَبُوا أنَّ اللهَ غيرُ مُؤاخِذِهم على تكذيبِهم(٣).

بلاغة الآيتين:

١- قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ فيه قصرٌ إضافيٌّ؛ لأنَّه لَمَّا كانَتِ المُحَرَّماتُ المذكورةُ في الآيةِ غيرَ محصورةٍ في هذه الأشياءِ؛ دلَّ ذلك على أنَّ القَصرَ المفاد مِن ﴿إِنَّمَا﴾ قَصرٌ إضافيٌّ، مَفادُه أنَّ اللهَ حَرَّمَ الفَواحِشَ وما ذُكِرَ معها، لا ما حَرَّمْتُموه مِنَ الزِّينةِ والطَّيِّباتِ، فأفاد إبطالَ اعتقادِهم، ثم هو يُفيدُ بطَريقِ التَّعريضِ أنَّ ما عَدَّه اللهُ مِنَ المُحَرَّماتِ الثَّابتِ تحريمُها قد تلبَّسوا بها؛ لأنَّه لَمَّا عدَّ أشياءَ، وقد عَلِمَ النَّاسُ أنَّ المُحَرَّماتِ ليستْ محصورةً فيها؛ عَلِمَ السَّامِعُ أنَّ ما عيَّنَه مقصودٌ به تعيينُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٣٤)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٧٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٠٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ما تلبَّسوا به، فحَصَل بصيغةِ القصرِ ردٌّ عليهم مِن جانبَيْ ما في صِيغة (إنَّمَا) من إثباتٍ ونفيٍ(١).

- وقوله: ﴿وَالْإِثْمَ﴾ هو كُلُّ ذَنبٍ، فهو أعَمُّ مِنَ الفَواحِشِ؛ فيكون ذِكرُ الفَواحِشِ قَبلَه للاهتمامِ بالتَّحذيرِ منها قبلَ التَّحذيرِ مِن عُمومِ الذُّنوبِ؛ فهو مِن ذِكرِ الخاصِّ قبلَ العامِّ للاهتمام، كذِكرِ الخاصِّ بعد العامِّ، إلَّا أنَّ الاهتمامَ الحاصِلَ بالتَّخصيصِ مع التَّقديمِ أقوى؛ لأنَّ فيه اهتمامًا مِن جِهَتينِ(٢).

- وعطفُ البَغيِ على الإثمِ في قولِه: ﴿وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ مِن عَطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ للاهتمامِ به؛ لأنَّ البغيَ كان دأْبَهم في الجاهليَّةِ(٣).

- قوله: ﴿وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، أي الظُّلمُ أو الكِبرُ؛ أُفرِدَ بالذِّكرِ؛ للمُبالغةِ في الزَّجرِ عنه(٤).

- وقوله: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ متعلِّقٌ بالبَغي مُؤَكِّدٌ له معنًى(٥).

٢- قوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾

- قُدِّم الظَّرفُ في قوله: ﴿وَلِكُلِّ﴾ على عامِلِه ﴿أَجَلٌ﴾؛ للاهتمامِ به؛ ليتأكَّدَ بذلك التقديمِ معنى التَّعليقِ(٦).

- وفي قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أظهرَ لفْظ (أَجَل) في قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾، ولم يَكتفِ بضَميرِه؛ لزيادةِ تقريرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٩٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٠٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٠١).
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٢٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١١).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٠٥).

الحُكمِ عليه، ولتكونَ هذه الجملةُ مُستقلَّةً بنفسِها، غيرَ مُتوقِّفةٍ عن سماعِ غيرها؛ لأنَّها بحيثُ تَجرِي مَجرَى المَثَل، وإرسالُ الكلامِ الصَّالِحِ لأنْ يَكونَ مَثَلًا طريقٌ من طُرُقِ البلاغة[1]، والإضافةُ إلى الضَّميرِ؛ لإفادةِ أكملِ التَّمييز، أي: إذا جاءَها أجلُها الخاصُّ بها[2].

- والسين والتاء في قوله: ﴿يَسْتَأْخِرُونَ﴾، و﴿يَسْتَقْدِمُونَ﴾ للتأكيدِ؛ إذ هما بمعنى: يَتأخَّرون ويَتقدَّمون؛ مِثل اسْتَجاب[3].

- وفي هذِه الآيةِ مُناسَبةٌ حسنة؛ حيثُ قال تَعالى هنا في سُورةِ الأعراف: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾، وكذلك في سُورة النَّحل: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ ...﴾ [النحل: ٦١]، فعَطَفَ بالفاءِ، وأمَّا في سورة يونس فقال: ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩]؛ وذلك لأنَّ ما هنا في سورةِ الأعرافِ وكذلك ما في سُورةِ النَّحلِ: جُملةٌ عُطِفتْ على جملةٍ أُخرى مصدَّرةٌ بالواوِ بينهما اتِّصالٌ وتَعقيب؛ فكان الموضعُ موضِعَ الفاء، فحسُنَ الإتيانُ بالفاءِ الدَّالَّةِ على التعقيبِ، بخِلافِ ما في يُونَس[4].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٠٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٢٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٠٥).
(٤) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١١٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ١٩١-١٩٢).

الآيات (٣٥-٣٩)

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ (٣٥) وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٣٦) فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ (٣٧) قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ (٣٨) وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ (٣٩)﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿افْتَرَى﴾: أي: كذَبَ واختلَق؛ والافتراءُ: الاختِلاقُ، وهو ما عظُم مِن الكَذبِ، ومنه قيل: افترَى فلانٌ على فلانٍ، إذا قذَفَه بما ليسَ فيه، ويُستعمَل في القُرآنِ في الكَذِبِ والشِّركِ والظُّلمِ، وأصلُ (فري) قَطْعُ الشَّيءِ، ومِن ذلك: فَرَيت الشيءَ أفْريه فَرْيًا، وهو قطعُه لإصلاحِه، وأفريتَه: إذا أنت قطعتَه للإفسادِ، والافتِراءُ فيهما، وفي الإفسادِ أكثرُ[1].

﴿يَنَالُهُمْ﴾: أي: يَصِلُ إليهم، والنَّوالُ: ما يَنالُه الإنسانُ مِنَ الصِّلة، وأصلُ (نيل): يدُلُّ على إعطاءٍ[2].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١، ١٢٨، ٢٨٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٢، ٤٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٤ - ٦٣٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٣٠).

﴿نَصِيبُهُمْ﴾: أي: حظُّهم المنصوبُ، أي: المعيَّنُ، وأصل (نصب): إقامةُ شيءٍ، وإهدافٌ في استواء[1].

﴿ادَّارَكُوا﴾: أي: تَتابعوا فيها واجتَمعوا، أو لَحِق كلٌّ بالآخَر، وأصل (درك): لحوقُ الشَّيءِ بالشَّيءِ، ووصولُه إليه[2].

﴿ضِعْفًا﴾: أي: مُضاعَفًا، وضِعفُ الشَّيءِ: مِثلُه مرةً، وأصل (ضعف): يدلُّ على أنْ يُزادَ الشيءُ مِثلَه[3].

﴿تَكْسِبُونَ﴾: أي: تَعمَلون وتَجترِحونَ مِنَ المعاصي، والكَسبُ: ما يَتحرَّاه الإنسانُ ممَّا فيه اجتلابُ نفعٍ، وتحصيلُ حظٍّ، وأيضًا: الجمعُ والتَّحصيلُ، وأصلُ (كسب): ابتغاءٌ وطَلَبٌ وإصابةٌ[4].

المَعْنى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ اللهُ بني آدَمَ أنَّه إن جاءَهم رُسُلٌ مِن جِنسِهم البَشَريِّ، يتلونَ عليهم آياتِ كِتابِه، فمَنِ اتَّقى فترَكَ المُحَرَّماتِ، وعَمِلَ الطَّاعاتِ؛ فلا خوفٌ عليهم ممَّا يَستقبِلونَ، ولا هم يحزَنونَ على ما مضى، والَّذين كذَّبوا بآياتِه، واستكبَرُوا عن التَّصديقِ بها، والعَمَلِ بما فيها؛ أولئك هم أصحابُ النَّارِ، ماكِثونَ فيها، لا يخرجونَ منها أبدًا.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٦٩). ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٦٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٠٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٦٩).

ثم أخبَرَ تعالى أنَّه لا أحَدَ أشنَعُ ظُلمًا مِمَّنِ اختَلَق على اللهِ الكَذِبَ، أو كذَّبَ بآياتِه التي أنزَلَها، أولئك ينالُهم نصيبُهم المكتوبُ في اللَّوحِ المحفوظِ؛ مِنَ الأرزاقِ والأعمالِ والآجالِ، والخيرِ والشَّرِّ، إلى أن تأتِيَهم الملائكةُ؛ لتقبِضَ أرواحَهم، فتقولُ لهم الملائكةُ: أين ما كنتم تَدعونَ مِن دونِ اللهِ؟ فيقولون: ضَلُّوا عَنَّا، ويُقِرُّون على أنفُسِهم أنَّهم كانوا كافرينَ.

فيأمُرُهم اللهُ تعالى أن يَدخُلوا في جملةِ أمَمٍ أمثالِهم في الكُفرِ، قد سَلَفَت مِن قَبلِهم مِنَ الجِنِّ والإنسِ، فيدخلونَ جميعًا في النَّارِ، كلَّما دخَلَت أمَّةٌ مِن تلك الأُمَمِ في النَّارِ لَعَنَت أُختَها، حتى إذا اجتمَعَ الأوَّلونَ والآخِرونَ جميعًا في النَّارِ، قالت أُخْراهم لأُولاهم: ربَّنا هؤلاءِ الَّذينَ اتَّبَعْناهم في الدُّنيا، هم من أضَلَّنا عن سبيلِك؛ فأَعْطِهم ضِعفًا مِن عَذابِ النَّارِ، فيُجيبُهم اللهُ تعالى، أنَّه لكُلٍّ ضِعفٌ، ولكِنْ لا تعلمونَ.

وقالَتْ أُولاهم لأُخراهم: لم تكُنْ لكم مَزِيَّةٌ علينا، فيقولُ الله لهم جميعًا: فذُوقوا العذابَ بما كَسَبتُم مِنَ الكُفرِ والمعاصي.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بَيَّنَ أحوالَ التَّكليفِ، وبيَّنَ أنَّ لكُلِّ أحدٍ أجلًا مُعَيَّنًا لا يتقدَّمُ ولا يتأخَّرُ- بيَّنَ أنهم بعد الموتِ إن كانوا مُطيعينَ، فلا خوفٌ عليهم ولا حُزنٌ، وإن كانوا متمَرِّدينَ، وقعوا في أشَدِّ العَذابِ(١)، فقال تعالى:

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٣٥).

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي ﴾.

أي: يا أولادَ آدَمَ- الذي أخرَجَه الشَّيطانُ بوَساوِسِه مِنَ الجنَّةِ، إلى دارِ البَلاءِ والمِحَنِ- إنْ أتاكُم رُسُلي الَّذين أُرسِلُهم إليكم مِن جِنسِكُم البشريِّ، يتلونَ عليكم آياتِ كُتُبي، ويُبيِّنونَ لكم ما فيها من عقائِدَ وأحكامٍ وأخبارٍ(١).

﴿ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾.

أي: فمَنِ اتَّقى اللهَ منكم، فترَكَ المُحَرَّماتِ، وأصلَحَ أعمالَه فعَمِلَ الطَّاعاتِ؛ فلا خوفٌ عليهم ممَّا يستقبِلونَ، ولا هم على ما مضى يَحزَنونَ(٢).

﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٦ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ ﴾.

أي: والَّذين كذَّبوا منكم بآياتي التي جاءَت بها رُسُلي، واستكبَروا فأعرَضُوا عن التَّصديقِ بأخبارِها، والعَمَلِ بأحكامِها(٣).

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٦٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٠٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٩٥).
والقولُ بأنَّ المرادَ بـ ﴿منكم﴾ أي: مِن بني آدَمَ، هو اختيارُ ابنِ عاشور، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٠٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٩٣-١٩٤).
وقال ابن جرير: (﴿منكم﴾ يعني: من أنفُسِكم، ومِن عشائِرِكم وقبائِلِكم). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٦٦)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٠٩)، ((تفسير السعدي (ص: ٢٨٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٩٥-٢٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١١١).

أي: أولئك المُكَذِّبونَ بآياتي، المُستكبِرونَ عَن طاعَتي؛ هم أهلُ النَّارِ المُلازِمونَ لها، ماكثونَ فيها، لا يخرجونَ منها أبدًا(١).

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ﴾.

أي: لا أحدَ أشنعُ ظُلمًا ممَّنِ افترَى الكَذِبَ على اللهِ، كمن يدَّعي أنَّ لله ولدًا وشريكًا، ويزعُمُ أنَّ اللهَ يأمُرُ بالفواحِشِ، أو كذَّبَ بآياتِ اللهِ التي أنزَلَها على رُسُلِه(٢).

كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٣٢].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾.

أي: أولئك الكاذِبونَ على اللهِ، المُكَذِّبون بآياتِه، ينالُهم نَصيبُهم المكتوبُ في اللَّوحِ المَحفوظِ؛ مِنَ الأرزاقِ والأعمالِ والآجالِ، والخَيرِ والشَّرِّ(٣).

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٥٩٢) و (١٠/ ١٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٦٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١١٢).

(٣) وهذا القولُ اختاره في الجملةِ: ابنُ جريرٍ، والقرطبيُّ، والسعدي، والشنقيطي، وقوَّاه ابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٦٧) و (١٠/ ١٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢١١).

فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩-٧٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٣-٢٤].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

أي: ينالُهُم ما كُتِبَ لهم في الدُّنْيا إلى أنْ تأتِيَهم الملائكةُ لِقَبضِ أرواحِهم، فإذا جاؤوهم قالوا لهم: أين الَّذين كُنتم تعبدونَهم مع اللهِ؛ فإنَّهم لم يحضُروا لِيُنقذِوكم ممَّا أنتم فيه؟ فهلَّا أغاثوكم مِن هذا الكَربِ الذي حلَّ بكم[1]!

﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾.

أي: قال الكُفَّارُ لملائكةِ المَوتِ: ذهَبَ عنَّا أولياؤُنا الذين كنَّا نَدعُو مِن دُونِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢١٤).

قال الشنقيطي: (هذه الرُّسلُ هي: مَلَكُ المَوتِ وأعوانُه، يقبضونَ أرواحَهم، واعلموا أنَّ اللهَ أسنَدَ قَبضَ الرُّوحِ في آيةٍ إلى نفسِه جلَّ وعلا؛ حيث قال عن نفسِه: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] وأسنَدَه في آيةٍ لمَلَكٍ واحدٍ، وهي قولُه في السَّجدةِ: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١] وأسنَدَه في آياتٍ كثيرةٍ لملائكةٍ كثيرةٍ مُرسلينَ لذلك، كقولِه هنا: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٣٧]... ولا إشكالَ في الآياتِ؛ لأنَّ إسنادَ التَّوفِّي إلى اللهِ؛ لأنَّ كُلَّ شَيءٍ بمَشيئتِه وقضائِه وقَدَرِه، فلا تقعُ وفاةُ أحدٍ إلَّا بمَشيئتِه جلَّ وعلا، كمَّا صرَّحَ به في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥]، وإسنادُه لمَلَك الموتِ؛ لأنَّه هو الرَّئيسُ المُوظَّفُ بقَبضِ الأرواحِ، وإسنادُه لملائكةٍ كثيرينَ؛ لأنَّ لمَلَكِ الموتِ أعوانًا كثيرينَ يَقبِضونَ معه أرواحَ النَّاسِ بأمْرِه. قال بعضُ أهلِ العلمِ: يَقبِضُ أعوانُه الرُّوحَ حتى تبلُغَ الحُلقومَ، فيأخُذُها مَلَكُ الموتِ. والآياتُ دلَّتْ على أنَّ له أعوانًا كثيرةً مِنَ الملائكةِ يقبضونَ معه الأرواحَ). ((العذب النمير)) (٣/ ٢١٢- ٢١٣).

اللهِ، وغابوا وتركُونَا، فلم ينفَعُونا[١].

﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾.

أي: وأقرَّ الكُفَّارُ واعترَفوا على أنفُسِهم عند مُعايَنةِ المَوتِ: أنَّهم كفَرُوا من قبلُ باللهِ[٢].

﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ٣٨﴾.

﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِ﴾.

أي: يقولُ اللهُ يومَ القيامةِ للكافِرينَ: ادخُلُوا في زُمرةِ جَماعاتٍ على شاكِلَتِكم وصِفَاتِكم مِنْ أهلِ المِلَلِ الكافِرةِ مِنَ الجنِّ والإنسِ، الذين مَضَوا في أزمانٍ سَبَقَتْكم، فادخُلوا أنتم وهم في النَّارِ[٣].

﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَا﴾.

أي: كُلَّما دخلَتِ النَّارَ جماعةٌ مِن أهلِ تلك الأديانِ الكافِرةِ، شَتَمَتْ جماعةً أخرى مِن أهلِ دينِها، قد سبقَتْها في دُخولِ النَّارِ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ١١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ١١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٧٦ - ١٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١١٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٢١).

قال السُّدِّيُّ فيما يرويه ابن جرير بسندِه عنه: (كلَّما دخلَتْ أهلُ ملَّةٍ لعنوا أصحابَهم على =

كما قال اللهُ تعالى حاكيًا عن الخليل عليه السَّلامُ: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا﴾.

أي: حتى إذا اجتمَعَ في النَّارِ الأوَّلونَ مِن أهلِ الأديانِ الكافِرةِ، والآخِرونَ مِنهم(١).

﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ﴾.

أي: قالت أُخرَاهم دُخولًا النَّارِ- وهم الأتباعُ- لأُولاهم- وهُمُ القادَةُ المَتبُوعونَ؛ لأنَّهم أشَدُّ جُرمًا مِن أتباعِهم، فدَخَلوا النَّارَ قَبلَهم(٢).

= ذلك الدِّينِ؛ يلعَنُ المشركونَ المُشركينَ، واليهودُ اليهودَ، والنَّصارى النَّصارى، والصابئونَ الصَّابئينَ، والمجوسُ المجوسَ؛ تلعَنُ الآخِرَةُ الأولى). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٧٧).

قال ابن عاشور: (وسبَبُ اللَّعنِ أنَّ كُلَّ أمَّةٍ إنَّما تدخُلُ النَّارَ بعد أن يتبَيَّنَ لهم أنَّ ما كانوا عليه مِنَ الدِّينِ هو ضَلالٌ وباطِلٌ، وبذلك تقَعُ في نفوسِهم كراهِيَةُ ما كانوا عليه، فإذا دخَلُوا النَّارَ فرَأَوُا الأمَمَ التي أُدخِلَتِ النَّارَ قبلَهم؛ عَلِمُوا أنَّهم أُدخِلُوا النَّارَ بذلك السَّبَبِ، فلَعَنُوهم؛ لكراهِيَةِ دِينِهم ومَنِ اتَّبَعوه). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٢٠ - ١٢١).

وقال الشنقيطي: (وإنَّما لَعَنَتها؛ لأنَّ بَعضَ الأممِ تبقى سُنَنُهم في الضَّلالِ والكُفرِ، فيَقتَدِي بها مَن جاء بَعدَهم مِنَ الأُمَمِ، فيلعَنونَهم لذلك). ((العذب النمير)) (٣/ ٢٢٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٢١).

(٢) وهذا قولُ مُقاتِلٍ، واختاره القرطبيُّ وابنُ كَثيرٍ والشوكاني والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل)) (٢/ ٣٦)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١١٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٣٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٤٠).

قال ابنُ عاشور: (المراد: بـ﴿أُخْرَاهُمْ﴾: الآخِرةُ في الرُّتبة، وهم الأتباعُ والرعِيَّة مِن كلِّ أمَّةٍ مِن تلك الأُمَمِ، لأنَّ كُلَّ أمَّةٍ في عصرٍ لا تخلو مِن قادةٍ ورَعاعٍ، والمراد بـ(الأولى): الأولى في المرتبةِ والاعتبارِ، وهم القادةُ والمتبوعونَ مِن كُلِّ أمَّةٍ أيضًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٢٢).

وقيل: المعنى: قال آخِرُ أهلِ كُلِّ ملَّةٍ كافرةٍ لأُولاهم، الذينَ سَبَقُوهم في الدُّنيا، وشَرَعُوا =

﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾.

أي قالوا: يا ربَّنا، هؤلاءِ الَّذين اتَّبَعْناهم في الدُّنيا، هم الَّذين أضَلُّونا عن سبيلِكَ، فضاعِفْ لهم العذابَ؛ عذابًا على الضَّلالِ، وعذابًا على الإضلالِ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٧– ٦٨].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣١-٣٣].

﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾.

أي: قال اللهُ للأتباعِ، الذين يَدعُونَه أن يُضاعِفَ العَذابَ على قادَتِهم الذين

= لهم ذلك الدِّينَ، وهذا قَولُ السُّدِّي، واختاره ابنُ جريرٍ وابنُ عطيةَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٩٩)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١١٨).

وأفاد كلا القَولينِ في تفسيرِ هذه الجملةِ مِن الآيةِ: أنَّ الأتباعَ قالوا ذلك لِمَتبوعِيهم ورؤسائِهم. قال الواحدي: (يعني بالأُخرى: آخِرَ الأُمَمِ، وبالأولى: أوَّلَ الأمَمِ، وبيانه ما قاله السُّدي: ﴿أُخْرَاهُمْ﴾ يعني: الذين كانوا في آخِرِ الزَّمان، ﴿لِأُولَاهُمْ﴾ يعني: الذين شَرَعوا لهم ذلك الدِّينَ. وقال مقاتل: ﴿أُخْرَاهُمْ﴾ يعني: آخِرَهم دخولًا النَّارَ، وهم الأتباعُ، ﴿لِأُولَاهُمْ﴾ دخولًا وهم القادةُ. وتأويلُ هذا راجِعٌ إلى معنى القَولِ الأوَّلِ؛ لأنَّ آخِرَهم دخولًا النَّارَ هم الأتباع، والأولى هم القادةُ، فالمعنى على القولينِ جميعًا: قالت الأتباعُ للقادةِ: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا﴾). ((البسيط)) (٩/ ١٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٧٨)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ١٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٢٧).

أَضَلُّوهم: لكلٍّ منكم ومنهم زيادةُ عذابٍ(١)، ولكِنَّكم لا تعلمونَ مِقدارَ ما أعَدَّ اللهُ مِنَ العَذابِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ

---

(١) قال ابنُ عاشور: (فأمَّا مُضاعفةُ العَذابِ للقادَةِ؛ فلأنَّهم سَنُّوا الضَّلالَ أو أيَّدُوه ونَصَروه وذبُّوا عنه بالتَّمويه والمُغالطاتِ فأضَلُّوا، وأمَّا مُضاعَفَتُه للأتباعِ؛ فلأنَّهم ضَلُّوا بإضلالِ قادَتِهم، ولأنَّهم بطاعَتِهم العمياءِ لقادَتِهم، وشُكرِهم إيَّاهم على ما يَرسُمون لهم، وإعطائِهم إيَّاهم الأموالَ والرِّشَى؛ يزيدونَهم طُغيانًا وجَراءةً على الإضلالِ، ويُغْرُونَهم بالازديادِ منه). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٢٣).

وقال الشنقيطي: (مُضاعفةُ العَذابِ للضُّعَفاءِ الأتباعِ؛ ففيها إشكالٌ، وكثيرٌ مِنَ المُفَسِّرين لا يتعرَّضونَ لهذا الإشكالِ؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] وهم لم يُضِلُّوا. وهذا إشكالٌ معروفٌ في هذه الآيةِ، وهو مُضاعفةُ العَذابِ للأتباعِ. فقال بعضُهم: إنَّهم، وإن كانوا أتباعًا، فلا بدَّ لهؤلاءِ الأتباعِ مِن ضُعَفاءَ أُخَرَ، فالواحِدُ يكون تَبَعًا لرئيسِه في الضَّلالة، ولكنَّه يُضِلُّ امرأتَه وأولادَه وبعضَ أقارِبِه، فمعهم هم أيضًا رئاسةٌ في الضَّلالِ قليلةٌ ؛كلٌّ بحَسَبِه، ويضاعَفُ العَذابُ لكلٍّ بحَسَبِه. وقال بعضُ العلماء: مضاعفةُ العَذابِ للرُّؤساءِ بإضلالهم وضَلالِهم، ومضاعَفَتُه للأتباعِ بتقليدِهم الأعمى، وتعصُّبِهم للكُفر، وعدمِ نظَرِهم في المُعجِزات البَيِّناتِ، والأدلَّة الواضِحات التي جاءت بها الرُّسُل، مع الكُفر؛ فقد جمعوا بين التقليدِ الأعمى، والإعراضِ عن سماعِ الحَقِّ، مع الكُفرِ الذي ارتكَبوه. هكذا قاله بعضُ العلماء). ((العذب النمير)) (٣/ ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٧٨، ١٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٢٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٢٨).

قال ابنُ جرير: (يقول: ولكِنَّكم- يا معشَرَ أهلِ النَّارِ- لا تعلمونَ ما قَدْرُ ما أعَدَّ اللهُ لكم مِنَ العذابِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٨٠).

وقال ابنُ عاشور: (والمعنى: أنَّكم لا تعلمونَ الحَقائِقَ، ولا تشعرونَ بخفايا المعاني؛ فلذلك ظَنَنْتم أنَّ مُوجِبَ مُضاعَفةِ العذابِ لهم دُونكم، هو أنَّهم عَلَّمُوكم الضَّلالَ، ولو عَلِمْتُم حَقَّ العِلمِ، لاطَّلَعْتم على ما كان لِطَاعَتِكم إيَّاهم مِنَ الأثَرِ في إغرائِهم بالازديادِ مِنَ الإضلالِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٢٣).

وقال الشنقيطي: (ولكنَّكم لا تعلمونَ قَدرَ ما ينالونَه مِنَ العَذابِ المُهينِ، وشِدَّتِه وهَولِه وألَمِه). ((العذب النمير)) (٣/ ٢٢٩).

الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

وقال اللهُ تبارك وتعالى عن جميعِ أهلِ النَّارِ: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٣٠].

وقال الله سبحانه: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: آية ٩٧].

﴿وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٣٩)﴾.

﴿وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾.

أي: قال المَتبوعونَ للأتباعِ: لم تكُنْ لكم مَزِيَّةٌ علينا مِن إيمانٍ وتَقوى، تُوجِبُ أن يكونَ عذابُنا أشَدَّ مِن عذابِكم؛ فنحن وأنتم مُتشارِكونَ في الكُفرِ، وفي استحقاقِ العذابِ، فأيُّ فضلٍ لكم علينا[(١)]؟

كما قال سبحانه: ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ﴾ [سبأ: ٣٢].

﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

أي: فذُوقوا عذابَ جَهنَّمَ؛ بسبَبِ ما كَسَبْتُم في الدُّنيا مِنَ الكُفرِ والمعاصي[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٨٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ١٩١)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٨٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٤١).
ذكر عددٌ مِنَ المُفَسِّرينَ أنَّ هذا الكلامَ يحتمِلُ أن يكونَ مِن كلامِ القادةِ، ويحتمِلُ أن يكونَ مِن قولِ اللهِ تعالى لهم جميعًا. ومنهم: الرَّازي، وابنُ عطيةَ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٢٤)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٣٩). ويُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٣١٧). واختار ابنُ جريرٍ الاحتمالَ الثاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٨٠).

الفوائدُ التربويَّةُ:

التَّقوى تنأى ببني آدَمَ عن الآثامِ والفواحِشِ، وتقودُهم إلى الطيِّباتِ والطَّاعاتِ، وتنتهي بهم إلى الأمنِ مِنَ الخَوفِ، والرِّضا عن المصيرِ؛ يُرشِدُنا إلى ذلك قولُ الله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ إنَّما قال: ﴿مِنْكُمْ﴾؛ لأنَّ كَونَ الرَّسولِ منهم، أقطَعُ لعُذرِهم، وأبيَنُ للحُجَّةِ عليهم مِن جهاتٍ: أحدُها: أنَّ مَعرِفتَهم بأحوالِه وبطَهارَتِه تكونُ مُتقَدِّمةً. وثانيها: أنَّ مَعرِفتَهم بما يليقُ بقُدرَتِه تكونُ مُتقَدِّمةً، فلا جَرَمَ لا يقَعُ في المُعجزاتِ التي تظهَرُ عليه شَكٌّ وشُبهةٌ في أنَّها حَصَلت بقدرةِ الله تعالى لا بقُدرَتِه؛ فلهذا السَّبَبِ قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٩]. وثالثها: ما يحصُلُ مِنَ الأُلفةِ وسُكونِ القَلبِ إلى أبناءِ الجِنسِ، بخلافِ ما لا يكونُ مِنَ الجِنسِ، فإنَّه لا يحصُلُ معه الأُلفةُ[2].

٢- وقولُه: ﴿رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ يدلُّ على أنَّه قد يُوجَدُ رُسُلٌ آخرونَ ليسُوا مِنَّا، وهو كذلك؛ لأنَّ مِنَ الملائكةِ رُسلًا، والملائكةُ لَيسُوا مِن جِنسِنا؛ كما قال الله: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥] وقال: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ﴾ الآية[3] [فاطر: ١].

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٢٨٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٩٤).
(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٩٥).

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ جملةُ: ﴿فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ﴾ جوابُ الشَّرط، وعدَلَ عن جعلِ الجوابِ اتِّباعَ الرُّسُلِ إلى جَعْلِه التَّقوى والصَّلاحِ، إيماءً إلى حِكمةِ إرسالِ الرُّسُلِ، وتحريضًا على اتِّباعِهم بأنَّ فائِدَتَه للأُمَمِ لا للرُّسُلِ(١).

٤- في قَولِه تعالى عَمَّنِ اتَّقى وأصلَحَ: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لم يقُلْ سُبحانَه: (لا يخافُونَ)؛ فهم لا خوفٌ عليهم، وإن كانوا يخافونَ اللهَ، ونفى عنهم أن يَحزَنُوا؛ لأنَّ الحُزنَ إنَّما يكون على ماضٍ، فهم لا يحزنونَ بحالٍ؛ لا في القَبرِ، ولا في عَرَصاتِ القِيامةِ، بخلافِ الخَوفِ، فإنَّه قد يحصُلُ لهم قبل دُخولِ الجنَّةِ(٢).

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ الفاسِقَ مِن أهلِ الصَّلاةِ، لا يبقى مُخلَّدًا في النَّارِ؛ لأنَّه تعالى بيَّنَ أنَّ المُكَذِّبينَ بآياتِ اللهِ، والمُستكبِرينَ عَن قَبُولِها؛ هم الذين يبقَونَ مُخَلَّدينَ في النَّارِ، فكلمةُ ﴿هُمْ﴾ تفيدُ الحصرَ، وذلك يقتضي أنَّ مَن لا يكونُ موصوفًا بذلك التَّكذيبِ والاستكبارِ، لا يبقى مُخلَّدًا في النَّارِ(٣).

٦- يُستفادُ مِن قَولِه تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أنَّ جَميعَ الرُّسُلِ قد بلَّغُوا أمَمَهم أنَّ اتِّباعَهم في اتِّقاءِ ما يُفسِدُ فِطرَتَهم مِنَ الشِّركِ وخُرافاتِه، والرَّذائلِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٠٩).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٦١).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٣٥).

والمعاصي، وفي إصلاحِ أعمالِهم بالطَّاعاتِ- يترتَّبُ عليه الأمنُ مِنَ الخَوفِ مِن كُلِّ ما يُتَوَقَّعُ، والحزنِ على كلِّ ما يقَعُ، وأنَّ تكذيبَ ما جاؤوا به من آياتِ اللهِ، والاستكبارَ عَن اتِّباعِها- يتَرَتَّبُ عليه الخلودُ في النَّارِ، فوق ما بَيَّنَ في آياتٍ أخرى مِن سُوءِ الحالِ في الدُّنيا، وقد سكَتَ عن الجزاءِ الدُّنيويِّ هنا؛ لأنَّ الآيَةَ تدلُّ عليه، ولأنَّه لا يظهَرُ للنَّاسِ في كُلِّ وَقتٍ[١].

٧- تضمَّنَ قولُه تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ ذِكْرَ الصِّنفَينِ المُبطِلَينِ؛ أحدُهما: مُنْشِئُ الباطِلِ والفِرْيَةِ، وواضِعُها، وداعي النَّاسِ إليها، والثاني: مُكَذِّبٌ بالحَقِّ، فالأوَّلُ: كُفْرُه بالافتراءِ، وإنشاءِ الباطِلِ. والثَّاني: كُفْرُه بجُحودِ الحَقِّ، وهذان النَّوعانِ يَعرِضانِ لكُلِّ مُبطِلٍ[٢].

٨- دلَّ قولُه تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ﴾ على أنَّ الجنَّ كانوا مُكلَّفينَ في الشَّرائِعِ الماضيةِ قبل بَعثةِ نَبِيِّنا صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأمَّا شَريعَتُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فأجمَعَ المُسلمونَ على أنَّه بُعِثَ إلى الجِنِّ والإنسِ، وأنَّه يجِبُ على الجِنِّ طاعَتُه؛ لأنَّ الإخبارَ عن دُخولِ كُفَّارِ الجنِّ في النَّارِ، إنَّما يكونُ بعد إقامةِ الحُجَّةِ عليهم بالرِّسالةِ[٣].

٩- دلَّ قولُه تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ﴾ على أنَّ كفَّارَ الجنِّ يدخُلونَ النَّارَ، وقد اتَّفقَ العُلَماءُ على ذلك[٤].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ دلالةٌ على أنَّ سائِرَ أنواعِ المُكَذِّبينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٣٦٦).
(٢) يُنظر: ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٤٧).
(٣) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤١٧).
(٤) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ١٠٠٩).

بآياتِ الله؛ مُخَلَّدونَ في العذابِ، مُشتَرِكونَ فيه وفي أصلِه- وإن كانوا مُتفاوِتينَ في مقدارِه بحَسَبِ أعمالِهم، وعنادِهم، وظُلْمِهم وافترائِهم- وأنَّ مَوَدَّتَهم التي كانت بينهم في الدُّنيا تنقَلِبُ يومَ القيامةِ عداوةً ومُلاعَنةً[١].

بلاغةُ الآيات:

١- قوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

- قوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ فيه إعادةُ النِّداء في صَدْرِ هذه الجُملةِ؛ للاهتمامِ[٢].

- وقوله: ﴿رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ فيه تنبيهٌ لبَنِي آدَمَ بأنَّهم لا يَترقَّبون أنْ تَجيئَهم رُسلُ اللهِ مِن الملائكةِ؛ لأنَّ المُرسَلَ يكونُ مِن جِنسِ مَن أُرْسِلَ إليهم، وفي هذا تعريضٌ بالجَهلةِ مِن الأُممِ الذين أنكروا رسالةَ الرُّسلِ؛ لأنَّهم مِن جِنسِهم[٣].

- وفيه: تلوينٌ للخِطابِ، وتوجيهٌ له إلى كافَّةِ النَّاسِ؛ اهتمامًا بشأنِ ما في حيِّزه[٤].

- و(ما) في قوله: ﴿إِمَّا﴾ زائدة مُؤكِّدة، وهي تُفيدُ مع التأكيدِ عُمومَ الشَّرطِ[٥].

- قوله: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بناءُ الخبرِ الفِعليِّ ﴿يَحْزَنُونَ﴾ على المُسنَدِ إليه ﴿هُمْ﴾ المتقدِّمِ عليه؛ يُفيدُ تَخصيصَ المسنَدِ إليه بذلك الخَبرِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٩٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق))(٨-ب/ ١٠٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٢٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٠٨).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١١٠).

٢- قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أفادت هذه الآيةُ تحقيقَ أنَّهم صائِرون إلى النَّارِ بطريقِ قَصرِ مُلازمةِ النَّارِ عليهم في قوله: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾؛ لأنَّ لفظ ﴿أَصْحَابُ﴾ مُؤذِنٌ بالملازمةِ، وبما تدلُّ عليه الجملةُ الاسميَّةُ مِن الدَّوامِ والثَّباتِ في قوله: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(١).

- وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ الاستكبارُ مُبالغةٌ في التكبُّر؛ فالسِّينُ والتاءُ في قوله: ﴿وَاسْتَكْبَرُوا﴾ للمُبالغةِ(٢).

٣- قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾

- قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ...﴾ الاستفهامُ إنكاريٌّ مُستعمَلٌ في تهويلِ ظُلم هذا الفريقِ، المعبَّر عنه بمَن افترَى على اللهِ كذبًا، أي: لا أحَدَ أظلمُ ممَّن هذا وصْفُه(٣).

- وقولُه: ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا ناشئًا عن الاستفهامِ في قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾؛ لأنَّ التهويلَ المستفادَ مِن الاستفهامِ يَسترعي السَّامعَ أن يسألَ عمَّا سيُلاقونَه مِن اللهِ تعالى الذي افترَوا عليه، وكَذَّبوا بآياتِه(٤).

- قولُه: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١١١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١١٤).

اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ الكلامُ الواقعُ هنا بعدَ ﴿حتَّى﴾ فيه تهويلُ ما يُصيبهم عندَ قَبْضِ أرواحِهم، وهو أدخلُ في تهديدِهم وتَرويعِهم وموعظتِهم، مِن الوعيدِ المتعارَفِ(١).

- وقولُه: ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الاستفهامُ في قوله: ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾؛ للتَّوبيخِ والتَّقريرِ، ومُستعمَلٌ في التهكُّمِ والتَّأييسِ(٢).

- قوله: ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ استئنافٌ وقَعَ جوابًا عن سؤالٍ نشَأَ مِن حِكايةِ سؤالِ الرُّسُلِ؛ كأنه قيل: فماذا قالوا عندَ ذلك؟ فقيل: قالوا: ﴿ضَلُّوا عَنَّا﴾(٣).

٤- قوله: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا...﴾

- قوله: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ﴾ استئنافُ كلامٍ نَشأَ بمناسبةِ حِكايةِ حالِ المشركينَ حين أوَّلِ قُدومِهم على الحياةِ الآخِرةِ، وهي حالةُ وفاةِ الواحدِ منهم، وفيه تذكيرٌ لهم بما حاقَ بأُولئك الأُممِ من عذابِ الدُّنيا، وتعريضٌ بالوعيدِ بأنْ يَحُلَّ بهم مِثلُ ذلك، وتصريحٌ بأنَّهم في عذابِ النَّارِ سواءٌ(٤).

- قولُه: ﴿قَالَ ادْخُلُوا﴾ الإتيانُ بفِعلِ القولِ بصِيغةِ الماضي في قولِه: ﴿قَالَ﴾؛ للتنبيهِ على تَحقيقِ وقوعِه، والأمرُ في قولِه: ﴿ادْخُلُوا﴾ مُستعمَلٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١١٨).

للوعيدِ، فيتأخَّر تنجيزُه إلى يومِ القِيامةِ[١].

– قولُه: ﴿مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ قَدَّمَ الجِنَّ؛ لأنَّهم الأصلُ في الإغواءِ والإضلالِ[٢].

– قوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾ جملةٌ مُستأنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا؛ لوصفِ أحوالِهم في النَّار، وتَفظيعِها للسَّامعِ؛ ليتَّعِظَ أمثالُهم، ويستبشرَ المؤمنون بالسَّلامةِ ممَّا أصابَهم؛ فتكونُ جملةُ ﴿حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا﴾ داخلةً في حيِّزِ الاستئنافِ[٣].

– وقوله: ﴿أُمَّةٌ﴾ نكرةٌ وقعَتْ في حيِّزِ عُمومِ الأَزمنةِ، فتُفيدُ العمومَ، أي: كلُّ أُمَّةٍ دخَلَتْ[٤].

٥- قول الله تعالى: ﴿وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾

– صِيغةُ الأمْرِ ﴿فَذُوقُوا﴾ مُستعمَلَةٌ في الإهانةِ والتَّشفِّي، والتشفي منهم فيما نالَهم مِن عذابِ الضِّعفِ تَرتَّب على تحقُّقِ انتفاءِ الفَضلِ بَينهم في تَضعيفِ العذابِ، الذي أوضَحه بقولِه: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٥].

– وفي هذِه الآيةِ مُناسبةٌ حَسنةٌ، حيثُ قال تعالى هنا في سُورةِ الأعراف: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾، وورد في سُورةِ الأنفالِ أنَّ عَذابَهم بكُفرِهم، حيث قال: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٥]؛ وذلك لأنَّ آيةَ الأعرافِ وردَتْ في أخلاطٍ مِن الأُممِ وأصنافٍ مِن المُكذِّبينَ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١١٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٩٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٢٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٢٤).

تَنوَّعَ كُفرُهم وتَكذيبُهم ضُروبًا مِن المخالفاتِ، وافْتَرَوْا على اللهِ سبحانه، فلِشَتَّى مُجترحاتِ هؤلاءِ، واتِّساعِ مُرْتَكَباتِهم، وأنَّهم ضلُّوا وأَضلُّوا؛ ناسَب ما وقَعَ جزاؤُهم عليه ذِكْرَ الاكتسابِ، أمَّا آيةُ الأنفال ففي قومٍ بأعيانِهم، وهم كُفَّارُ قريش مِن أهل مَكَّة، وحالهم معلومةٌ أنَّهم كانوا عَبَدَةَ أوثانٍ، ولم تَتكرَّرْ فيهم الرُّسُلُ، ولا كَفروا بغيرِ التَّكذيبِ به صلَّى الله عليه وسلَّم، وبتَصميمِهم على عِبادةِ آلهتِهم[1].

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٨١).

الآيتان (٤٠-٤١)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿يَلِجَ﴾: أيْ: يَدخُلَ، والوُلُوجُ: الدُّخولُ في مَضِيقٍ، وأَصلُ (ولج): يدُلُّ على دُخولِ شَيْءٍ(١).

﴿سَمِّ الْخِيَاطِ﴾: أيْ: ثَقْبِ الإِبْرَةِ، والسَّمُّ والسُّمُّ: كلُّ ثَقْبٍ ضيِّقٍ كخَرْقِ الإبرَةِ، وأصلُه يدلُّ على مَدْخَلٍ في الشَّيءِ، والخِياطُ: الإبرةُ التي يُخاطُ بها(٢).

﴿مِهَادٌ﴾: أيْ: فِراشٌ وقَرارٌ، والمَهْدُ: ما يُهيَّأُ للصَّبيِّ، وأصلُ المِهَادِ: المكانُ المُمهَّدُ المُوطَّأُ(٣).

﴿غَوَاشٍ﴾: أي: ما يَغشاهُم مِنَ النَّارِ، وهي لُحُفٌ تَغْشاهم وتُحيطُ بِهِم مِنْ فوقِهِم، أوْ ما يُغطِّيهم مِن أنواعِ العَذابِ، وغَواشٍ جمعُ غاشِيَةٍ، وهي الغِطاءُ، وأصلُ (غشي): يَدُلُّ على تَغطيةِ شيءٍ بشَيءٍ(٤).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١ / ١١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (١ / ١٠٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٩٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٧).

المَعْنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تَعالى أنَّ المُكذِّبينَ بآياتِه، والَّذِينَ استَكْبَروا عَنْها لا يَصْعَدُ عمَلُهُم إلى اللهِ، ولا يُجابُ لهم دُعاءٌ، ولا تُنزَّلُ عَلَيهِم بَرَكاتٌ ولا رَحَماتٌ، وإذا مَاتُوا لا تُفَتَّحُ لأَرْواحِهِم أبوابُ السَّماءِ، ولا يَدْخُلونَ الجَنَّةَ أبَدًا، كَما أنَّ الجمَلَ لا يَدْخُلُ في ثَقْبِ الإِبْرةِ، وبمِثْلِ هذا العِقابِ يُعاقِبُ اللهُ مَن أجْرَمَ؛ لَهُم مِنَ النَّارِ فِراشٌ تَحتَهُم، ومِن فَوقِهِم غِطاءٌ مِنَ النَّارِ يَغْشاهُم، وكَذَلِك يَجْزي اللهُ الظَّالِمينَ.

تَفسيرُ الآيتَيْنِ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ ﴾.

أي: إنَّ الَّذينَ كَذَّبوا بآياتِيَ الَّتي جاءَتْ بها رُسُلي، وأَعْرَضوا عَنِ التَّصْديقِ بأَخْبارِها، والعَمَلِ بأَحْكامِها لا يَصْعَدُ لَهم في حَيَاتِهِم إلى اللهِ قولٌ ولا عَملٌ، ولا يُجابُ لهم دُعاءٌ، ولا تُنَزَّلُ إليهم برَكاتٌ ورَحَماتٌ، ولا تُفتَّحُ لأَرْواحِهم إذا مَاتوا أَبْوابُ السَّماءِ(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٨٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٢/ ٣٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١١١).

قال الشِّنقيطي: (في عَدَمِ فَتحِ أبوابِ السَّماءِ لهم أقوالٌ متقارِبةٌ مَعروفةٌ، لا يُكَذِّب بعضُها بعضًا، وهي كلُّها حَقٌّ، قال بعضُ العُلَماءِ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ فيُرفَعَ لهم منها عمَلٌ صالِحٌ؛ لأنَّ أعمالَهم مردودةٌ إلى الله، كما قال الله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: آية ١٠] والكُفَّارُ ليس عندهم عملٌ صالِحٌ يَرفَعُ كَلِمَهم، وليس عندهم كَلِمٌ طَيِّبٌ، وقال بعضُ العُلَماءِ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ لاستجابةِ دَعَواتِهم؛ لأنَّ دَعَواتِهم مردودةٌ ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [الرعد: آية ١٤]، وقال بعضُ العُلَماءِ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ أي: لا تَنزِلُ إليهم البَرَكاتُ والرَّحماتُ مِنَ اللهِ؛ لكُفرِهم. وكلُّ هذه الأقوالِ حَقٌّ، وذهَبَ جماهيرُ مِنَ المُفَسِّرينَ أنَّ معنى: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ﴾ لأرواحِهم عند الموتِ، والآية =

عن البَراءِ بنِ عازِبٍ رَضِي اللهُ عنه، قال: ((خَرَجْنا معَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عَلَيه وسلَّم، في جِنَازةِ رَجُلٍ مِن الأَنْصارِ، فانتَهَيْنا إلى القَبْرِ ولَمَّا يُلْحَدْ[1]، فجَلَسَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عَلَيه وسلَّم، وجَلَسْنا حَوْلَه، كأنَّ عَلى رُؤوسِنا الطَّيْرَ، وفي يَدِه عُودٌ يَنْكُتُ في الأرضِ[2]، فرَفَع رَأْسَه، فقال: اسْتَعِيذُوا باللهِ مِنْ عَذابِ القَبْرِ. مَرَّتَينِ أو ثَلاثًا.

ثمَّ قالَ: إنَّ العبْدَ المؤمِنَ إذا كانَ في انْقِطاعٍ مِنَ الدُّنيا، وإقْبالٍ مِنَ الآخِرَةِ، نزَلَ إليه مَلائكةٌ مِنَ السَّماءِ بِيضُ الوُجوهِ، كأنَّ وُجوهَهُمُ الشَّمْسُ، معَهُم كَفَنٌ مِن أكْفانِ الجَنَّةِ، وحَنُوطٌ[3] مِن حَنُوطِ الجَنَّةِ، حتَّى يَجْلِسوا مِنه مَدَّ البَصَرِ[4]، ثمَّ يَجيءُ مَلَكُ المَوْتِ علَيه السَّلامُ، حتَّى يَجْلِسَ عندَ رَأْسِه، فيَقُولُ: أيَّتُها النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، اخْرُجي إلى مَغْفرةٍ مِنَ اللهِ ورِضْوانٍ. فتَخْرُجُ تَسِيلُ كَما تَسِيلُ القَطْرةُ مِن فِي السِّقَاءِ، فيَأْخُذُها، فإذا أخَذَها لم يَدَعُوها في يَدِه طَرْفةَ عينٍ حتَّى يَأْخُذوها، فيَجْعَلوها في ذَلِك الكَفَنِ، وفي ذَلِك الحَنُوطِ، ويَخْرُجُ مِنها كأَطْيبِ نَفْحةِ[5] مِسْكٍ وُجِدَت على وَجْهِ الأَرْضِ. فيَصْعَدونَ بها، فَلا يَمُرُّونَ بها على مَلَأٍ مِنَ المَلائِكَةِ، إلَّا قَالُوا: ما هذا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟! فيَقُولُونَ: فُلانُ بنُ فُلانٍ؛ بأحْسَنِ أسمائِه الَّتي كانوا يُسمُّونَه بها في الدُّنيا، حتَّى يَنْتَهوا بها إلى السَّماء الدُّنيا، فيَسْتَفتِحون له، فيُفْتَحُ لهم، فيُشَيِّعُه مِن كُلِّ سَماءٍ مُقَرَّبوها إلى السَّماءِ الَّتي تَلِيها،

= تشمَلُ هذا كُلَّه). ((العذب النمير)) (٣/ ٢٤٢).

(١) يُلحَدْ: أي: يُدفَنْ في اللَّحدِ. ينظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٤).

(٢) يَنكُتُ في الأرضِ: أي يضرِبُ الأرضَ بطَرَف العودِ؛ فِعلَ المتفكِّرِ المهمومِ. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ١١٣)، ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٣/ ١١٧٦).

(٣) الحَنوطُ: ما يُخلَطُ مِن الطِّيبِ لأكفانِ الموتى وأجسادِهم. ينظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٣/ ١١٧٦).

(٤) مَدَّ البَصَرِ: أي: مَداه، وهي الغايةُ التي ينتهي إليها البَصَرُ. ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (١/ ٢١٣).

(٥) النَّفحةُ: المرَّةُ مِن نَفحِ الطِّيبِ، أي: رائحتِه. ينظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٥).

حتَّى يُنْتَهى به إلى السَّماء السَّابِعَةِ، فيَقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: اكْتُبوا كِتابَ عَبْدي فِي عِلِّيِّينَ[١]، وأَعيدُوه إلى الأَرْضِ؛ فإنِّي مِنها خلَقْتُهم، وفيها أُعيدُهم، ومِنْها أُخرِجُهم تارَةً أُخْرى.

فتُعادُ رُوحُه في جَسَدِه، فيَأْتيه مَلَكانِ، فيُجْلِسانِه، فيَقُولانِ له: مَن رَبُّك؟ فيَقولُ: رَبِّيَ اللهُ، فيَقولانِ له: ما دِينُك؟ فيَقولُ: دِينيَ الإسلامُ، فيَقولانِ له: ما هذا الرَّجُلُ الَّذي بُعِث فيكُم؟ فيَقُولُ: هو رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عَلَيه وسلَّم، فيَقولانِ له: وما عِلْمُك؟ فيَقولُ: قَرَأْتُ كِتابَ اللهِ، فآمَنْتُ به وصَدَّقتُ، فيُنادي مُنادٍ في السَّماءِ: أنْ صَدَق عَبْدي، فأَفْرِشوه مِنَ الجنَّةِ، وألبِسُوه مِن الجَنَّةِ، وافْتَحوا له بابًا إلى الجنَّةِ. فيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِها[٢] وطِيبِها، ويُفْسَحُ[٣] له في قَبْرِه مَدَّ بَصَرِه. ويَأْتيه رجُلٌ حسَنُ الوَجهِ، حَسنُ الثِّيابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، فيَقولُ: أَبْشِرْ بالَّذي يَسُرُّك؛ هذا يَومُك الَّذي كنتَ تُوعَدُ، فيَقولُ له: مَن أنتَ؛ فوَجهُك الوَجهُ يَجيءُ بالخَيرِ؟ فيَقولُ: أَنا عمَلُكَ الصَّالحُ، فيَقولُ: رَبِّ أَقِمِ السَّاعةَ حتَّى أرجِعَ إلى أَهْلي ومالي.

وإنَّ العبدَ الكافِرَ إذا كان في انْقِطاعٍ مِنَ الدُّنيا، وإقبالٍ مِنَ الآخِرَةِ، نَزَل إليه مِن السَّماءِ مَلائكةٌ سُودُ الوُجوهِ، مَعَهمُ المُسُوحُ[٤]، فيَجْلِسونَ منه مَدَّ البَصَرِ، ثُمَّ يَجيءُ مَلَكُ المَوتِ حتَّى يَجْلِسَ عِندَ رَأْسِه، فيَقولُ: أَيَّتُها النَّفْسُ الخبيثةُ، اخْرُجي إلى سَخَطٍ مِن اللهِ وغَضَبٍ! فتَفَرَّقُ في جسَدِه، فيَنتَزِعُها كَما يُنتزع السَّفُّودُ[٥] مِنَ الصُّوفِ المَبْلولِ، فيَأْخُذُها، فإذا أخَذَها لَم يَدَعُوها في يَدِه طَرْفةَ عينٍ حتَّى يَجْعَلوها في تِلك المُسوحِ، ويَخْرُج مِنها كأَنْتَنِ رِيحِ جِيفةٍ وُجِدَت على وَجهِ

(١) عِلِّيِّينَ: هو دِيوانُ المُقَرَّبينَ. ينظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٦).
(٢) مِن رَوْحِها (بفتح الراء): أي: مِن نَسيمِها. ينظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٧).
(٣) يُفسَحُ: أي: يُوسَّعُ له. ينظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٧).
(٤) المُسوحُ: جمعُ المِسحِ: وهو اللِّباسُ الخَشِن. ينظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٣/ ١١٧٩).
(٥) السَّفُّودُ: الحديدةُ التي يُشوى عليها اللَّحمُ. ينظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٨).

الأرضِ. فيَصْعَدونَ بها، فَلا يَمُرُّون بها على مَلأٍ مِنَ الملائكةِ إلَّا قالوا: ما هذا الرُّوحُ الخبيثُ؟! فيَقولونَ: فُلانُ بنُ فلانٍ؛ بأقبَحِ أسمائِه الَّتي كان يُسمَّى بها في الدُّنيا، حتَّى يُنتَهى به إلى السَّماءِ الدُّنيا، فيُستَفتَحُ له، فلا يُفتَحُ له، ثمَّ قرَأ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عَلَيه وسلَّم: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾. فيَقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: اكْتُبوا كِتابَه في سِجِّينٍ في الأَرضِ السُّفْلى، فتُطْرَحُ روحُه طَرحًا. ثمَّ قرَأ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

فتُعادُ رُوحُه في جَسَدِه، ويَأْتيه مَلَكانِ، فيُجْلِسانِه، فيَقُولانِ له: مَن ربُّك؟ فيَقولُ: هاهْ هاهْ! لا أَدْري، فيَقولانِ له: ما دينُك؟ فيقول: هاهْ هاهْ! لا أَدْري، فيَقولانِ له: ما هذا الرَّجُلُ الَّذي بُعِثَ فيكم؟ فيقول: هاهْ هاهْ! لا أَدْري، فيُنادي مُنادٍ مِن السَّماءِ: أنْ كَذَب، فافْرُشوا له مِنَ النَّارِ، وافْتَحوا له بابًا إلى النَّارِ، فيَأتيهِ مِنْ حَرِّها، وسَمُومِها، ويُضيَّقُ عليه قَبرُه حتَّى تَختَلِفَ فيه أَضلاعُه، ويَأتيه رجلٌ قَبيحُ الوَجْهِ، قبيحُ الثِّيابِ، مُنتِنُ الرِّيحِ، فيَقولُ: أَبْشِرْ بالَّذي يَسوؤُك! هذا يَومُك الَّذي كُنتَ تُوعَدُ، فيَقولُ: مَن أنتَ؟ فوَجْهُك الوَجهُ يَجيءُ بالشَّرِّ، فيَقولُ: أنا عمَلُك الخَبيثُ، فيَقولُ: رَبِّ لا تُقِمِ السَّاعةَ))(1).

﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾

أيْ: ولا يَدْخُلُ هَؤلاءِ الَّذين كَذَّبوا بآياتِنا واستكْبَروا عَنْها الجَنَّةَ أبَدًا، كَما لا

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في ((المصنف)) (١٢٠٥٩)، وأحمد (١٨٥٣٤)، والحاكم في ((المستدرك)) (١٠٧) بألفاظٍ مُتقاربةٍ.
صحَّحَ إسنادَه الطَّبريُّ في ((مسند ابن عمر)) (٢/ ٤٩٤)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (١/ ٣٠٠)، وقال ابن تيمية في ((تلبيس الجهمية)) (٦/ ١٨٢): مشهورٌ، وصحَّحَ الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح الترغيب)) (٣٥٥٨)، وحسَّنه المنذريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (٤/ ٢٨٠).

يَدخُلُ البَعيرُ في ثَقْبِ الإبْرةِ[1].

كَما قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢].

وقال سُبْحانَه: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ * الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [الأعراف: ٥٠-٥١].

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

أيْ: ومِثْلَ هذا العِقابِ الَّذي وَصَفْنا- مِن عدَمِ تَفَتُّحِ أَبْوابِ السَّماءِ للأَرْواحِ والأَعْمالِ وغَيرِ ذَلك، والحِرْمانِ مِن دُخولِ الجَنَّةِ- نُعاقِبُ الَّذين كَفَروا، فكَذَّبوا بآياتِنا، واستكْبَروا عَنِ الإيمانِ بِها[2].

﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ (٤١)﴾.

﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾.

أيْ: لِهؤلاءِ الَّذين كَذَّبوا بآياتِنا، واستكْبَروا عنها فِراشٌ مِنَ النَّارِ مِن تَحْتِهم، ومِن فَوقِهم غِطاءٌ مِن النَّارِ يَغْشاهُم، وتُحيطُ بِهِمُ النَّارُ مِن كلِّ جَوانِبِهِم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٨٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٩٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٦٧)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٢٠)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٤١)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٣٧/ ٣٥١ - ٣٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٢٨).

قال الزجاج: (المجرمونَ- والله أعلم - هاهنا: الكافرونَ؛ لأنَّ الذي ذُكِرَ مِن قِصَّتِهم التكذيبُ بآياتِ اللهِ، والاستكبارُ عنها). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٢/ ٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٩٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٦٨)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦].

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أيْ: ومِثْلَ هذا الَّذي وصَفْنا مِنَ العَذابِ نُعاقِبُ مَن ظَلَمَ نفْسَه، فجَلَب سخَطَ اللهِ عَلَيها بالكُفْر به، ووضَعَ العِبادَةَ في غيرِ مَوضِعِها باتِّخاذِ شَريكٍ مَعَ اللهِ فيها[1].

الفوائدُ التربويَّةُ:

١- قال تَعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾، الاستِكْبارُ هو طلَبُ التَّرفُّعِ بالباطِلِ، وهذا اللَّفْظُ في حَقِّ البشَرِ يَدُلُّ عَلى الذَّمِّ؛ قال تَعالى في صِفَةِ فِرْعونَ: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾[2] [القصص: ٣٩].

٢- يُستفادُ مِن قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ أنَّ الجزاءَ مِن جِنسِ العَمَلِ؛ فكما أنَّهم كذَّبوا بآياتِ اللهِ، فلَم يُؤمِنوا بها- مع أنَّها آياتٌ بيِّناتٌ- واستكبَروا عنها فلم يَنقادُوا لأحكامِها، بل كذَّبوا وتَوَلَّوا- فهم حينئذٍ آيِسونَ مِن كُلِّ خَيرٍ، فلا تُفَتَّحُ أبوابُ السَّماءِ لأرواحِهم إذا ماتوا وصَعِدَت تُريدُ العُروجَ إلى الله، كما لم تصعَدْ في الدُّنيا إلى الإيمانِ باللهِ ومَعرِفَتِه ومَحَبَّتِه؛ فكذلك لا تصعَدُ بعدَ الموتِ[3].

= السعدي)) (ص: ٢٨٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٩٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٦٨)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٤١)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٣٧/ ٣٥١ - ٣٥٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٩).

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَوْلُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ يَدُلُّ على أنَّ الأَرْواحَ إنَّما تَكونُ سَعيدةً إمَّا بأن يُنَزَّلَ عَليها مِن السَّماءِ أنواعُ الخَيْراتِ، وإمَّا بأَنْ تَصعد أعمالُ تِلك الأَرْواحِ إلى السَّمَواتِ؛ وذَلك يَدُلُّ على أنَّ السَّمواتِ مَوْضعُ بَهجةِ الأَرْواحِ، وأماكِنُ سَعاداتِها، ومنها تُنَزَّلُ الخَيراتُ والبَرَكاتُ، وإليها تَصْعَدُ الأَرْواحُ حالَ فَوزِها بكَمَالِ السَّعاداتِ؛ ولَمَّا كان الأَمْرُ كذَلِك كان قولُه: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ مِن أعظَمِ أنواعِ الوَعيدِ والتَّهْديدِ(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ دلالةٌ على أنَّ المؤمنينَ تُفَتَّحُ لهم أبوابُ السَّماءِ؛ يعني: لأرواحِهم عند المَوتِ(٢)، فمفهومُ الآيةِ أنَّ أرواحَ المؤمنينَ المُنقادينَ لأمرِ اللهِ، المُصَدِّقينَ بآياته، تُفَتَّحُ لها أبوابُ السَّماءِ حتى تعرُجَ إلى اللهِ، وتَصِلَ إلى حيثُ أراد اللهُ مِنَ العالَمِ العُلويِّ، وتبتهِجَ بالقُربِ مِن رَبِّها والحُظوةِ برِضوانِه(٣).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ مناسبةٌ في أنَّ أبوابَ السَّماءِ لَمَّا لم تُفتَحْ لأعمالِهم بل أُغلِقَت عنها؛ كذلك لم تُفتَحْ لأرواحِهم عند المُفارَقةِ وأُغلِقَت عنها، وكذلك أهلُ الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ؛ لَمَّا كانت أبوابُ السَّماءِ مفتوحةً لأعمالِهم، حتى وَصَلَت إلى اللهِ سُبحانه؛ فإنَّها فُتِحَت لأرواحِهم، حتى وصَلَتْ إليه تعالى، وقامَتْ بين يَدَيه؛ فرَحِمَها وأمرَ بكتابةِ اسْمِها في عِلِّيِّينَ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٤٠).
(٢) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٩٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٩).
(٤) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٧٤).

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾، وذَكَر (سَمَّ الخِيَاطِ)؛ لأنَّه يُضرَبُ به المثَلُ في ضِيقِ المَسْلَكِ(١).

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ﴾ فيهِ جَوازُ فَرْضِ المُحالِ، والتَّعْليقُ عَليه؛ كَما يقَعُ كَثيرًا للفُقَهاءِ(٢).

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾، المرادُ مِن هذِه الآيَةِ الإِخْبارُ عَن إِحاطَةِ النَّارِ بهِم مِن كُلِّ جانِبٍ: فلَهُم مِنْها غِطاءٌ ووِطَاءٌ، وفِرَاشٌ ولِحافٌ(٣).

٧- قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ * لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾؛ أفادَتِ الآيَتانِ أنَّ المُجْرِمينَ والظَّالِمينَ- الرَّاسِخِينَ في صِفَتَيِ الإِجْرامِ والظُّلمِ- هُمُ الكافِرونَ، وأنَّ المُؤْمِنينَ لا يَكُونُونَ كَذَلِك؛ كَما قال: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وهذا تَحْقيقُ القُرْآنِ والنَّاسُ في غَفْلَةٍ عَنه؛ ولِذلِكَ خَالَفُوه في عُرْفِه(٤).

بَلاغةُ الآيتَين:

١- قولُه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥١).
(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٢٩).
(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٦٨)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٤١).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٣٧٣).

- قولُه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ استئنافٌ ابتِدائيٌّ مَسوقٌ لتَحْقيقِ خُلودِ الفَريقَينِ في النَّارِ(١).

- وقَد أكَّدَ الخبَرَ بقَولِه: ﴿إِنَّ﴾ لِتَأييسِهم مِن دُخولِ الجنَّةِ؛ لدَفْعِ تَوهُّمِ أن يَكونَ المُرادُ مِن الخُلودِ المُتقدِّمِ ذِكرُه الكِنايَةَ عَن طُولِ مُدَّةِ البَقاءِ في النَّارِ؛ فإنَّه ورَدَ في مَواضِعَ كَثيرةٍ مُرادًا به هذا المعنى(٢).

- وفي قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ...﴾ وقَعَ الإظهارُ في مَقامِ الإضْمارِ، حيثُ لم يقُل: (إنَّهم لا تُفتَّح لهم..)؛ تَعميمًا، ونَعْليقًا للحُكمِ بالوَصْفِ؛ لِدَفعِ احْتِمالِ أن يَكونَ الضَّميرُ عائِدًا إلى إحْدى الطَّائفتَينِ المُتَحاوِرَتَينِ في النَّارِ، واختِيرَ مِن طرُقِ الإظْهارِ طَريقُ التَّعريفِ بالمَوصولِ؛ إيذانًا بِما تُومِئُ إلَيْه الصِّلةُ مِن وَجْهِ بِناءِ الخبَرِ، أي: إنَّ ذلك لأجْلِ تكذيبِهم بآياتِ اللهِ واسْتِكبارِهم عنها(٣).

- وقولُه: ﴿لَا تُفَتَّحُ﴾ بضَمِّ التَّاءِ الأُولى، وفَتحِ الفاءِ والتَّاءِ الثَّانيةِ مُشدَّدةً، وهو مُبالَغةٌ في (فَتَحَ)؛ فيُفيدُ تَحقيقَ نَفْيِ الفَتحِ لَهم، أو أُشيرَ بِتلك المُبالَغةِ إلى أنَّ المنفيَّ فتحٌ مَخصوصٌ وهو الفَتحُ الَّذي يُفتَحُ للمُؤمِنينَ، وهو فتحٌ قويٌّ، فتكونُ تلك الإشارةُ زيادةً في نِكايَتِهم(٤).

- قولُه: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾، بعدَ أنْ حقَّقَ خُلودَهم في النَّارِ بتأكيدِ الخَبرِ كُلِّه بحَرْفِ التَّوكيدِ؛ زِيدَ تأكيدًا بطَريقِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٢٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٢٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٢٧).

تأكيدِ الشَّيءِ بِما يُشبهُ ضِدَّه، المشتَهِرِ عِندَ أَهْلِ البَيانِ بتَأكيدِ المَدْحِ بِما يُشبهُ الذَّمَّ؛ إذْ هو نفيٌ مُغَيًّا بمُسْتَحيلٍ؛ وهو أن يَلِجَ الجَمَلُ في سَمِّ الخِياطِ؛ أي: لو كان لانتِفاءِ دُخولِهِمُ الجنَّةَ غايةٌ لكَانَت غايَتُه وُلوجَ الجَملِ في سَمِّ الخِياطِ، وهو أمرٌ لا يَكونُ أبَدًا[1].

- وخَصَّ (الجمَلَ) بالذِّكْر مِنْ بينِ سائرِ الحيَواناتِ؛ لأنَّه أكبَرُ الحيَواناتِ جِسْمًا عِندَ العرَبِ، وثَقْبُ الإبرةِ أضيقُ المنافِذِ، فكان وُلوجُ الجَملِ في تلك الثُّقبة الضَّيقةِ مُحالًا[2].

- قولُه: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ تَذْييلٌ يُؤْذِنُ بأنَّ الإجرامَ هو الَّذي أوقَعَهم في ذلك الجزاء[3].

٢- قولُه: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ فيه: كِنايةٌ عَنِ انتِفاءِ الرَّاحةِ لهم في جَهنَّمَ؛ فإنَّ المرءَ يحتاجُ إلى المِهادِ والغاشِيَةِ عندَ اضْطِجاعِه للرَّاحةِ، فإذا كان مِهادُهم وغاشِيتُهم النَّارَ فقَدِ انْتَفَتْ راحَتُهم، وهَذا ذِكْرٌ لعذابِهم السُّوءِ بعْدَ أنْ ذَكَرَ حِرْمانَهم مِنَ الخَيرِ[4].

- وقولُه: ﴿وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ صرَّحَ في هذا بالفَوقيَّةِ، بَينَما لم يُصرِّح بالتَّحتيةِ في المهادِ؛ لأنَّ المِهادَ كالصَّريحِ فيه، ولأنَّ (الغاشِيةَ) ربَّما كانَتْ عن يَمينٍ أو شِمالٍ، أو كانَت بمعنَى مُجرَّدِ الوُصولِ والإدْراكِ، ولَعلَّه حذَفَ الأوَّلَ؛ لأنَّ الآيةَ مِن الاحْتِباكِ: فذَكَر جَهنَّمَ أوَّلًا دَليلًا على إرادَتِها ثانيًا،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٢٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٤٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٢٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٢٩).

وذكَرَ الفَوْقَ ثانيًا دَليلًا على إرادَةِ (التَّحْتِ) أوَّلًا[١].

- قولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ وقولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ عَبَّر عنهم بالمُجرِمينَ تارَةً وبالظَّالِمينَ أُخْرى؛ إشْعارًا بأنَّهم بتكذيبِهم الآياتِ اتَّصَفوا بكلٍّ واحدٍ مِن ذَينِكَ الوَصْفَينِ القَبيحَينِ، وذكَر الجُرْمَ مَعَ الحِرْمانِ مِن دُخولِ الجنَّةِ، والظُّلْمَ مَع التَّعذيبِ بالنَّارِ؛ لِلتَّنبيهِ عَلى أنَّه أَعظَمُ الجَرائمِ والجَرائرِ[٢].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٠٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٢٨).

الآيتان (٤٢-٤٣)

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤٢) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿غِلٍّ﴾: أيْ: عَداوةٍ وشَحْناءَ، والغِلُّ: الضِّغْنُ يَنْغَلُّ في الصَّدرِ، والْحَسَدُ أيضًا، وأصلُ (غلل): يَدُلُّ على تخلُّلِ شيءٍ، وثَباتِ شيءٍ[1].

المَعْنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تَعالى أنَّ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ- وَلا يُكلِّفُ سُبحانَه نَفسًا إلَّا ما تَستَطيعُه- هم أهلُ الجنَّةِ، ماكِثونَ فيها أبدًا.

كما يُخبِرُ تَعالى أنَّه نزَعَ مِن صُدورِ أهلِ الجَنَّةِ الأحقادَ والبَغْضاءَ والكَراهيةَ والحسَدَ، تَجْري مِن تَحتِهِمُ الأنهارُ، وقَالوا: الحَمْدُ للهِ الَّذي وفَّقَنا للإيمانِ والعَملِ الصَّالحِ الَّذي أوصَلَنا لِهذا النَّعيمِ المُقيمِ، وما كُنَّا لِنُوفَّقَ لَولا توفيقُه تَعالى لَنا، ولَقَد جاءَت رسُلُ ربِّنا بالحَقِّ، ويُنادَى أهلُ الجنَّةِ: أنَّ هذه الجَنَّةَ أُورِثتُموها بسَببِ إيمانِكُم وعمَلِكُمُ الصَّالحِ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤٢)﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٧٦، ٣٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٠).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا استَوْفى اللهُ تعالى الكَلامَ في الإِنْذارِ والوَعيدِ للمُكذِّبينَ؛ أعقَبَه بالبِشارَةِ والوَعدِ لِلمُؤمِنينَ المُصدِّقينَ؛ وذَلك عَلى عادَةِ القُرْآنِ في تَعقيب أحَدِ الغرَضَينِ بالآخَرِ(١)، فقال تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤٢) ﴾.

أي: والَّذين صدَّقوا وأقرُّوا وانقادوا لِمَا وجَب عليهِمُ الإيمانُ به، وعَمِلوا ما أمَرَهمُ اللهُ تعالى به، وتَركوا ما نَهاهُم عنه- ونَحنُ لَا نُكلِّفُ أحَدًا شَيئًا مِنَ الاِعْتِقاداتِ والأَعْمالِ إلَّا مَا يَقْدِرُ عَليهِ ولا يَعْجِزُ عَنه- هُم أَهلُ الجنَّةِ دُونَ غَيرِهم، وهُم فيها يُنعَّمونَ، ماكِثونَ أبَدًا لا يَخرُجونَ(٢).

كَما قال اللهُ تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقال تَبارك وتعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ [الطلاق: ٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

وقال سُبحانه: ﴿يُرِيدُ الله بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٩٧)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ١٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٥٨).

قال الواحديُّ: (وُسعُ الإنسانِ: ما يقدِرُ عليه، وليس معنى الوُسعِ بذلُ المجهودِ وأقصى الطَّاقة، واللهُ تعالى لم يكَلِّفِ العبادَ ما يشُقُّ ويتعَذَّرُ عليهم، ولكِنَّه كلَّفَهم ما يُطيقونَ، ولا يعجِزونَ عنه). ((الوسيط)) (٢/ ٣٦٨).

وقال الرازي: (معنى الوُسعِ ما يَقدِرُ الإنسانُ عليه في حالِ السَّعةِ والسُّهولة، لا في حالِ الضِّيقِ والشِّدَّة.. وأما أقصى الطَّاقة يُسمَّى جُهدًا لا وُسعًا). ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٤٢).

وقالَ تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)﴾.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾.

أيْ: قَلَعْنا وأزَلْنا مِن صُدورِ أَهْلِ الجنَّةِ الأَحْقادَ والبَغْضاءَ والكَراهِيَةَ والحسَدَ الَّذي كان بَينَهم في الدُّنيا؛ حتَّى يَكونوا في الجنَّةِ إخْوانًا مُتَحابِّينَ، ومَع أنَّ مَنازِلَهم فيها مُتفاوِتةٌ، إلَّا أنَّه لا يَحْسُدُ أحَدٌ مِنهم أحَدًا على ارتِفاعِ مَنزِلتِه عَليه[1].

قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

وعن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رَضِي الله عنه، قال: قالَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عَلَيه وسلَّم: ((يَخْلُصُ المؤمنونَ مِنَ النَّارِ، فيُحْبَسونَ على قَنطَرةٍ[2] بينَ الجنَّةِ والنَّارِ، فيُقَصُّ[3] لبَعضِهم مِن بَعضٍ مَظالِمُ كانت بينَهم في الدُّنيا، حتَّى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذِنَ لهم في دُخول الجنَّةِ، فوَالَّذي نَفسُ محمَّدٍ بيَدِه، لأحَدُهم أهدى بمَنزِلِه في الجنَّةِ مِنه بمَنزِلِه كان في الدُّنيا))[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١٩٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٦٨)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٤٢ - ٢٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٦١).

(٢) القَنطرةُ: الصِّراطُ المَمدودُ. ينظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٨/ ٣٥٦٢).

(٣) فيُقَصُّ: يُقَالُ: أَقصَّه الحاكمُ يُقِصُّه إذا مَكَّنه مِنْ أخذِ القِصاص، وهو أنْ يفعلَ به مِثْلَ فِعْله. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ٧٢).

(٤) رواه البخاري (٦٥٣٥).

﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾.

أيْ: تَجْري أَنهارُ الجنَّةِ بينَ أَيْديهِم، وهُم يرَوْنها مِنْ عُلْوٍ، تَجري مِن تَحتِ بَساتينِهم وقُصورِهم[1].

﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ﴾.

أيْ: وقالَ أهلُ الجنَّةِ حينَ أُدخِلوا الجنَّةَ، ورَأَوُا النَّعيمَ، وما صُرِفَ عَنهُم مِنَ العَذابِ المُهينِ: الحَمْدُ للهِ الَّذي وفَّقَنا للإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ الَّذي أكسَبَنا هذا النَّعيمَ، وما كُنَّا لِنُوفَّقَ لذَلِك لَولا أنْ وفَّقَنا اللهُ تَعالى إليه بفَضلِه ورَحمتِه[2].

كَما قال تَعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٤-٣٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْه، قال: قالَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عَلَيه وسلَّم:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٥٥)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٣٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٣٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٠٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٦٦).
قال ابنُ عاشور: (وهذا القَولُ يَحتمِلُ أن يكونوا يقولونَه في خاصَّتِهم ونُفوسِهم، على معنى التقَرُّبِ إلى الله بِحَمدِه، ويحتمِلُ أن يكونوا يقولونَه بينهم في مجامِعِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٣٢).

((كلُّ أهلِ الجنَّةِ يَرى مَقْعدَه مِنَ النَّارِ فيَقولُ: لَولا أنَّ اللهَ هَدَاني! فيَكُونُ له شُكرًا، وكُلُّ أَهلِ النَّارِ يَرى مَقعَدَه مِنَ الجنَّةِ فيَقولُ: لو أنَّ اللهَ هَداني! فيَكونُ له حَسْرةً))[1].

وعَن أبي هُريرةَ رَضِي اللهُ عَنْه، قال: قالَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عَلَيه وسلَّم: ((لَن يُنجِّيَ أحَدًا مِنكُم عمَلُه. قالوا: ولا أنتَ يا رَسولَ اللهِ؟ قال: وَلا أنا، إلَّا أن يتغمَّدَني اللهُ برَحمةٍ))[2].

﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾.

أيْ: يَقولُ أهلُ الجنَّةِ حِينَ يرَوْنَ عِيانًا ما وعَدَهم به الرُّسلُ: لقَد جاءَتْنا في الدُّنيا رُسلُ ربِّنا بالحَقِّ الثَّابتِ الَّذي لا شَكَّ فيه ولا مِرْيةَ[3].

﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

أيْ: ويُقالُ لأَهلِ الجنَّةِ[4]: هذه الجنَّةُ أُوتيتُموها مِيراثًا مِنَ الكُفَّارِ؛ بسَببِ إيمانِكُم وكُفرِهم، وطاعَتِكم وعِصْيانِهم، فنِلْتُم بذلك رَحمةَ اللهِ فأدخَلَكم جنَّتَه، وبوَّأكم فيها مَنازِلَ الكُفَّارِ الَّتي كانَت مِن نَصيبِهم، لو أنَّهم آمَنوا وعَمِلوا

---

(١) أخرجه النسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٣٩٠)، وأحمد (١٠٦٥٢)، وابن أبي الدنيا في ((صفة النار)) (٢٥٨)، والحاكم في ((المستدرك)) (٣٦٢٩).

قال الحاكم في ((المستدرك)) (٣٦٢٩): صحيح على شرط الشيخين، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (١٠/ ٤٠٢)، رجاله رجال الصحيح، وحسنه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٤٥١٤).

(٢) رواه البخاري (٦٤٦٣) ومسلم (٢٨١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٠٢)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٦٧).

(٤) قال الرازي: (ذلك النداءُ إمَّا أن يكونَ مِنَ اللهِ تعالى، أو أن يكونَ مِنَ الملائكةِ، والأولى أن يكونَ المُناديَ هو الله سبحانه). ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٤٤).

الصَّالِحاتِ(١)، أَعْطاكُمُوها اللهُ عَطِيَّةً هَنيئةً، لا تَعَبَ فيها ولا مُنازعةَ(٢)، ويُبْقيكم فيها في أكمَلِ نَعيمٍ وسُرورٍ خالدين، كما يبقَى على الوارِثِ مالُ المَوروثِ(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤].

وقال سُبحانه: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠ - ١١].

وعَن أبي هُريرةَ رَضِي اللهُ عنه، قال: قالَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عَلَيه وسلَّم: ((ما مِنكُم مِن أحَدٍ إلَّا له مَنزِلانِ: مَنزِلٌ في الجنَّةِ، ومنزِلٌ في النَّارِ، فإذا ماتَ فدَخَلَ النَّارَ، وَرِثَ أهلُ الجنَّةِ مَنزِلَه، فذَلِك قولُه تَعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠]))(٤).

الفوائدُ التربويَّةُ:

١ - الجامِعونَ بينَ الإيمانِ والأَعمالِ الَّتي تَصلُح بها نَفسُ الإنسانِ، وتَزْكُو

(١) وهذا القَولُ اختيارُ ابنِ جريرٍ، والواحديِّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٠٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٦٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٩).
قال الرازي: (أُورِثْتُموها فيه قولانِ: القَولُ الأوَّلُ: وهو قولُ أهلِ المعاني: أنَّ معناه: صارَتْ إليكم كما يصيرُ الميراثُ إلى أهلِه، والإرثُ قد يُستعمَلُ في اللُّغةِ، ولا يُرادُ به زَوالُ المُلكِ عن الميِّتِ إلى الحيِّ، كما يُقالُ: هذا العمَلُ يُورِثُك الشَّرَفَ، ويُورِثُك العارَ؛ أي: يُصَيِّرُك إليه، ومنهم مَن يقولُ: إنَّهم أُعْطُوا تلك المنازِلَ مِن غَيرِ تَعَبٍ في الحالِ، فصار شبيهًا بالميراثِ. والقولُ الثاني: أنَّ أهلَ الجنَّةِ يُوَرَّثونَ منازِلَ أهلِ النَّارِ). ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٤٤).

(٢) وهذا اختيارُ ابنِ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٣٤).

(٣) وهذا اختيارُ الشِّنقيطيِّ. يُنظر: ((أضواء البيان)) (٣/ ٤٧١-٤٧٢).

(٤) أخرجه ابن ماجه (٤٣٤١)، والبيهقي في ((البعث والنشور)) (٢٤١).
صحح إسناده القرطبي في ((التذكرة)) (٤٣٥)، وابن حجر في ((فتح الباري)) (١١/ ٤٥١)، وقال البوصيري في ((مصباح الزجاجة)) (٤/ ٢٦٦): إسناده صحيح على شرط الشيخين، وصحح الحديث الألباني في ((صحيح الجامع)) (٥٧٩٩).

فتكونُ أهْلًا لِلنَّعيمِ والرِّضْوانِ، هم أصحابُ الجنَّةِ الَّذين يُخلَّدونَ فيها أبَدًا؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(١).

٢- يُنبِّه تعالى على أنَّ الإيمانَ والعملَ به سَهلٌ؛ لأنَّه تعالى قال: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾(٢)، وأنَّ الجنَّةَ- معَ عِظَمِ مَحلِّها- يُوصَلُ إليها بالعمَلِ السَّهلِ مِن غَيرِ تحمُّلِ الصَّعبِ(٣)، فقولُه تعالى: ﴿لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾؛ أيْ: بمِقْدارِ ما تَسَعُه طاقَتُها، ولا يَعْسُرُ على قُدرتِها، فَعليها في هذه الحالِ أن تتَّقيَ اللهَ بحسَبِ استِطاعَتِها، وإذا عَجَزَت عن بعضِ الواجِباتِ الَّتي يَقدِرُ عليها غيرُها سقَطَت عَنها(٤).

٣- لا سبَبَ في الوُصولِ إلى نَعيمِ اللهِ تَعالى غيرُ فَضلِه وكرَمِه في الأُولى والأُخْرى، فالمُهْتدِي مَن هَداه اللهُ تَعالى، وإنْ لَم يَهْدِه اللهُ تَعالى لَم يَهْتَدِ، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾(٥).

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾: لَمَّا كان لفْظُ (الصَّالِحاتِ) عامًّا يَشمَلُ جميعَ الصَّالحاتِ الواجِبةِ والمستَحبَّةِ، وقد يَكونُ بعضُها غيرَ مَقدورٍ للعَبدِ؛ قال تعالى: ﴿لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، ففي هذه الجملةِ المعترضةِ رَفْعُ تَوَهُّمِ السَّامعِ أنَّ المكلَّفينَ عَمِلوا جميعَ الصَّالحاتِ؛ المَقدورِ عليها والمَعجوزِ عنها- كما يُجوِّزُهُ أصحابُ تكليفِ ما لا

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٢٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٠٢).

يُطاقُ- فرُفِعَ هذا التوهُّمُ بجملةِ: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ واعتُرِضَ بها بينَ المبتدأِ وخَبَرِه بما يُزيلُ الإشكالَ، ونظيرُه قَولُه تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام١٥٢] ومن ذلك قَولُه تعالى: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾(١) [النساء٨٤].

٢- نَستفيدُ مِن قولِ اللهِ تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أنَّه لا واجِبَ معَ العَجْزِ، ولا مُحرَّمَ معَ الضَّرورةِ(٢).

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا﴾ قال: ﴿تِلْكُمْ﴾؛ لأنَّهم وُعِدوا بِها في الدُّنيا، فكأنَّه قِيل لهم: هذه تِلْكُمُ الَّتي وُعِدتُّم بها(٣).

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا﴾، التَّعبيرُ بالإيراثِ يَدُلُّ على أنَّها عَطيَّةٌ بدونِ قَصدِ تَعاوُضٍ ولا تَعاقُدٍ، وأنَّها فَضلٌ محضٌ مِن اللهِ تعالى(٤).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قيل: أُضيفَ العَمَلُ إليهم وشُكِرُوا عليه؛ لَمَّا اعترَفوا لله بنِعمَتِه عليهم بالجنَّةِ وبأسبابِها مِن الهِدايةِ، وحَمِدُوا اللهَ على ذلك كُلِّه(٥).

---

(١) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (١/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص:٢٨٩).
قال الرازي: (أكثرُ أصحابِ المعاني على أنَّ قَولَه تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ اعتراضٌ وقَعَ بين المبتدأِ والخبَرِ، والتقديرُ: (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أولئك أصحابُ الجنَّة هم فيها خالِدونَ)، وإنَّما حَسُنَ وقوعُ هذا الكلامِ بين المبتدأِ والخبَرِ؛ لأنَّه مِن جِنسِ هذا الكلامِ؛ لأنه لَمَّا ذكَرَ عَمَلَهم الصَّالحَ، ذكر أنَّ ذلك العمَلَ في وُسعِهم غيرُ خارجٍ عن قُدرَتِهم). ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٤٢). ويُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٦٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٢٨٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٣٤).
(٥) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٤/ ٣٩٨).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ دلالةٌ على أنَّ الجنَّةَ والعَمَلَ؛ كِلاهما مِن فضْلِ اللهِ ورَحْمَتِه على عبادِه المؤمنينَ[(١)].

بَلاغةُ الآيتَين:

١- قولُه: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ خَبَرٌ عَن ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾، وقولُه: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ جملةٌ مُعترِضةٌ بين المسنَدِ إليه والمسنَدِ على طَريقةِ الإدْماجِ، وفائدَةُ هذا الإدْماجِ الارتِفاقُ بالمؤمنِينَ؛ لِأنَّه لَمَّا بَشَّرَهم بالجَنَّةِ على فِعلِ الصَّالحاتِ طَمْأنَ قُلوبَهم بأنْ لَا يُطْلَبوا مِنَ الأَعْمالِ الصَّالحةِ بما يَخرُجُ عَنِ الطَّاقةِ، وأيضًا لِلتَّرغيبِ في اكْتِسابِ النَّعيمِ المُقيمِ بِما يَكونُ في وُسْعِهم، ويَسهُلُ عَليهم، وهو الإمكانُ الواسِعُ غيرُ الضَّيِّقِ مِنَ الإيمانِ والعَملِ الصَّالحِ[(٢)].

٢- قولُه: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ دلَّ على قَصْرِ مُلازَمةِ الجنَّةِ عَليهِم دونَ غَيرِهم؛ ففيه تأييسٌ آخَرُ للمُشرِكينَ بحَيثُ قَوِيَت نصِّيَّةُ حِرمانِهم مِن الجنَّةِ ونَعيمِها[(٣)].

٣- قولُه: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾ فيه التَّعبيرُ عَنِ المستَقْبَلِ بلَفظِ الماضي ﴿وَنَزَعْنَا﴾؛ للتَّنبيهِ على تَحقُّقِ وُقوعِه؛ أيْ: ونَنزِعُ ما في صُدورِهم مِن غلٍّ[(٤)].

(١) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٤/ ٣٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٣٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٣١).

- واتِّساقُ النَّظْمِ يقتَضِي أن تكونَ جُملةُ: ﴿وَنَزَعْنَا﴾ مُعترِضةً بينَ جُملةِ: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٤٢]، وجُملَةِ: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ اعتِراضًا بُيِّنَ به حالُ نُفوسِهم في المُعامَلةِ في الجنَّةِ؛ لِيُقابِلَ الاعتِراضَ الَّذي أُدمِجَ في أَثْناءِ وَصْفِ عذابِ أهلِ النَّارِ، والمبيَّن به حالُ نُفوسِهم في المعامَلةِ بقَولِه: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ اعتراضًا بينَ قولِه: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ﴾ وقولِه: ﴿حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا﴾(١).

٤- **قولُه: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾**: فيه حذف المَفعولِ الثَّاني لكلٍّ من الفِعلينِ ﴿نَهْتَدِي﴾ و﴿هَدَانَا﴾؛ لِظُهورِ المُرادِ، أو لإرادَةِ التَّعْميمِ(٢).

- وفي قولِه: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ﴾ تَوكيدُ النَّفيِ باللَّامِ(٣).

٥- **قولُه: ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾** جملةٌ مُستأنَفةٌ استِئْنافًا ابتدائيًّا؛ لصُدورِها عنِ ابتِهاجِ نُفوسِهم واغتِباطِهم بما جاءَتْهم به الرُّسلُ، فجَعَلوا يتَذكَّرون أسبابَ هِدايتِهم، ويَعتَبِرون بذلك ويَغْتَبِطون(٤).

- وتأكيدُ الفِعلِ بلَامِ القسَمِ وبـ(قَدْ) في قولِه: ﴿لَقَدْ﴾ معَ أنَّهم غيرُ مُنكِرينَ لِمَجيءِ الرُّسلِ: إمَّا لأنَّه كِنايةٌ عَنِ الإعجابِ بِمُطابَقةِ ما وعَدَهم به الرُّسلُ مِنَ النَّعيمِ لِمَا وجَدوه، وإمَّا لأنَّهم أرادوا بقَولِهم هذا الثَّناءَ على الرُّسلِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٣١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٢٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٠٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٢٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٣٣).

والشَّهادةَ بصِدْقِهم جَمْعًا مع الثَّناءِ على اللهِ، فأَتَوْا بالخبَرِ في صورةِ الشَّهادةِ المؤكَّدةِ الَّتي لا تَردُّدَ فيها[1].

٦- قولُه: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيه تَشْبيهُ أهلِ الجنَّةِ وأهلِ النَّارِ بالوارِثِ والمَوْروثِ عنه؛ لأنَّ اللهَ خلَقَ في الجنَّةِ مَنازلَ لِلكُفَّارِ، بتَقْديرِ إيمانِهم، فمَنْ لم يُؤمِنْ مِنهم جُعِلَ مَنزلُه لأهلِ الجنَّةِ، أو لأنَّ دُخولَ الجنَّةِ لا يَكونُ إلَّا برَحْمةِ اللهِ تَعالى لا بعَملٍ، فأشبَهَ الميراثَ[2].

- وباءُ السَّبَبيَّةِ في قولِه: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ اقتَضَتِ الَّذي أَعْطاهُم مَنازِلَ الجنَّةِ؛ أَرادَ به شُكرَ أَعْمالِهم وثَوابَها مِن غَيرِ قَصدِ تَعاوُضٍ ولا تَقابُلٍ، فجَعَلها كالشَّيءِ الَّذي استَحقَّه العامِلُ عِوضًا عن عمَلِه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٣٣).
(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ١٩٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٣٥).

الآيات (٤٤-٤٩)

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم
مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ (٤٤) ٱلَّذِينَ
يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ (٤٥) وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى
ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا
وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ (٤٦) ۞ وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ
ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٤٧) وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ
جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ (٤٨) أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ
ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ (٤٩)﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿يَصُدُّونَ﴾: أي: يُعرِضون وينصرَفون، ويصرفون غيرَهم، والصَّدُّ قد يكونُ انصرافًا عن الشَّيء وامتناعًا؛ إذا كان لازمًا غير مُتعدٍّ، وقد يكونُ صرفًا ومنعًا؛ إذا كان مُتعدِّيًا بمعنى يصَدُّون غيرَهم. وأصل (صدد): إعراضٌ وعدولٌ[1].

﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾: أي: يُحاولونَ أن يُغيِّروا سَبيلَ الله، ويُبَدِّلُوها عنِ الاستقامَةِ الَّتي جعلَها اللهُ لها، وأصلُ (بغي) طَلَبُ الشَّيءِ، ومنه: بَغَيْتُ الشَّيءَ أبغيه: إذا طلبتَه، و﴿عِوَجٗا﴾: أيْ: زَيغًا وتَحْريفًا، واعْوِجاجًا في الدِّينِ، وأصلُ (عوج): الميلُ في الشَّيءِ[2].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١) و(٤/ ١٧٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٩٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٤٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (١/ ١٢٦).

﴿حِجَابٌ﴾: أي: سُورٌ، والحِجابُ: كلُّ ما يَستُرُ المَطلوبَ، ويمنعُ مِنَ الوُصولِ إليه، وأصلُ (حجب): المنعُ(١).

﴿الْأَعْرَافِ﴾: جمْعُ عُرْفٍ، وهو سورٌ بينَ الجنَّةِ والنَّارِ؛ سُمِّي بذَلِك لارتِفاعِه، وكلُّ مرتفِعٍ عندَ العرَبِ: عُرْفٌ(٢).

﴿بِسِيمَاهُمْ﴾: أي: بعَلاماتِهم، والسِّيما: العلامةُ التي يُميَّزُ بها الشيءُ عن غيرِه؛ وأصلُ الوَسْمِ: الأثرُ والمَعْلَمُ(٣).

﴿صُرِفَتْ﴾: أيْ: وُجِّهَت، والصَّرفُ: ردُّ الشَّيءِ مِن حالةٍ إلى حالةٍ، أو إبدالُه بغَيرِه، وأصلُ (صرف): يدُلُّ على رجْعِ الشَّيءِ(٤).

﴿تِلْقَاءَ﴾: أيْ حِيالَ، أو تُجاهَ، أو نَحْوَ، واللِّقاءُ: مُقابلَةُ الشَّيءِ ومُصادَفتُه مَعًا، وأصلُ (لقي): تَوافِي شيئَيْنِ(٥).

المَعْنى الإجماليُّ:

ونادى أهلُ الجنَّةِ أهلَ النَّارِ بعدَ استِقْرارِ كلٍّ مِنهم في مَنازِلِهم، قائِلينَ لهم: إنَّهم قد وجَدوا ما وعَدَهم ربُّهم مِن إثابةِ أهلِ طاعتِه حقًّا، وسَألوهم: هل وجَدوا

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٨) ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٤٣).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٨٩).

(٤) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٢)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦١).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١١).

هم ما وعَدَ ربُّهم حقًّا، قالوا: نعَم، فنادى مُنادٍ بصوتٍ عالٍ بينَ أصحابِ الجنَّةِ وأَصْحابِ النَّارِ: أنْ لعنةُ اللهِ عَلى الظَّالِمينَ، الَّذين كانوا في الدُّنيا يُعْرِضونَ عَنِ الإسلامِ، ويَمنَعون غيْرَهم مِنِ اتِّباعِه، ويَسْعَونَ لإظْهارِ دينِ الإسلامِ أعوَجَ غيرَ مُستقيمٍ، وهُم بالآخِرةِ لا يُؤمِنونَ.

وأخبَرَ تعالى أنَّ بينَ الجنَّةِ والنَّارِ حاجزًا يَمنَعُ مِن وُصولِ أهلِ النَّارِ إلى الجنَّةِ، وعَلى هذا السُّورِ المرتفِعِ الَّذي يَحْجِزُ بينَهما رِجالٌ استوَتْ حسَناتُهُم معَ سيِّئاتِهم، يَعرِفون كُلًّا مِن أهلِ الجنَّةِ وأَهلِ النَّارِ بعَلاماتِهم، ونادَوْا أصحابَ الجنَّةِ أنْ سَلامٌ علَيكم، ولَم يَدخُلوا الجنَّةَ بَعدُ، لَكنَّهم يَطمَعون في دُخولِها، وإذا صَرَفَ اللهُ عُيونَهم تُجاهَ أهلِ النَّارِ، فأبصَروا ما هم فيه، قالوا: ربَّنا لا تَجْعَلْنا مَع القومِ الظَّالِمينَ في النَّارِ.

ونادَوْا رِجالًا مِمَّن هُم في النَّارِ مِن رُؤَساءِ الكُفَّارِ والمُشركينَ، عرفوهم في الدُّنيا بأعيانِهم، ويَعرِفونَهم في النَّارِ بعَلاماتِ أهلِها، قالوا لهم: ماذا نَفَعَكم ما كُنتُم تَجْمَعونَه في الدُّنيا، وماذا أفادَكم استِكْبارُكم فيها، أهَؤلاءِ الضُّعفاءُ الَّذينَ أدخَلَهمُ اللهُ الجنَّةَ هُمُ الَّذينَ أقسَمتُم أنَّ اللهَ لَن يَنالَهم برَحمةٍ؟! ويُقالُ لِهؤلاءِ الواقِفينَ عَلى السُّورِ الحاجزِ بينَ الجنَّةِ والنَّارِ: ادخُلوا الجنَّةَ، لا خَوْفٌ علَيكُم مِمَّا هو آتٍ، ولا أنتُم تَحزَنونَ على ما فاتَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا شرَح اللهُ تعالى وَعيدَ الكُفَّارِ، وثَوابَ أهلِ الإيمانِ والطَّاعاتِ، أتبعَه بذِكْرِ

المناظَراتِ الَّتي تَدور بينَ الفَريقينِ[١]، فقال تعالى:

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾.

أي: ونادى أهلُ الجنَّةِ أهلَ النَّارِ بعدَ استِقْرارِ كُلٍّ مِنهم في مَنازِلِهم[٢].

﴿أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ﴾.

أي: فقال أهلُ الجنَّةِ لهم: يا أهلَ النَّارِ، قد وَجَدْنا ما وعَدَنا ربُّنا على ألسِنَةِ رُسلِه مِنَ الثَّوابِ على الإيمانِ والعمَلِ الصَّالحِ حقًّا، فهَل وجَدتُّم ما وعَدَكم ربُّكم مِنَ العَذابِ على الكُفرِ والمَعاصي حقًّا؟ فقالوا: نعَم، قد وجَدْناه حقًّا[٣].

﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أيْ: فنادى مُنادٍ[٤]، وأعْلَمَ بصوتٍ عالٍ بينَ أهلِ النَّارِ وأهلِ الجنَّةِ قائلاً: لَعنةُ اللهِ مُستقِرَّةٌ على الكفَرةِ الَّذين كانوا يضَعونَ العِبادَةَ في غَيرِ مَوضعِها[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٠٥)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٧١- ٢٧٢).
قال الشنقيطي: (وهذا النِّداءُ للعُلماءِ فيه سؤالاتٌ: هل نادى جميعُ أهلِ الجنَّةِ جميعَ أهلِ النَّارِ؟ أو نادى بعضُهم بعضًا؟ وظاهِرُ القرآنِ أنَّه نداءٌ عامٌّ. وقال بعضُ العلماء: كلُّ ناسٍ من المؤمنينَ يُنادون مَن كانوا يَعرفونَهم في الدُّنيا مِنَ الكُفَّار). ((العذب النمير)) (٣/ ٢٧١-٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٣٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٧٢).

(٤) قال القرطبي: (﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ﴾ أي: نادى وصوَّتَ، يعني من الملائكةِ). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٠٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٣٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٧٥ - ٢٧٦).
قال ابنُ عاشور: (وهذا التأذينُ إخبارٌ باللَّعنِ، وهو الإبعادُ عن الخيرِ، أي إعلامٌ بأنَّ أهلَ النَّارِ مُبعَدون عن رحمةِ الله؛ زيادةً في التأييسِ لهم، أو دعاءٌ عليهم بزيادةِ البُعدِ عن الرَّحمة، بتضعيفِ العَذابِ أو تحقيقِ الخُلود). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٣٧ - ١٣٨).

﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾.

أي: الَّذين كانوا في الدُّنيا يُعرِضون عَنِ الإسلامِ، ويَمنَعون النَّاسَ مِن اتِّباعِه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣].

وقال سُبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا﴾ [سبأ: ٣٣].

﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا ﴾.

أيْ: ويَطلُبون ويُحاوِلون إظهارَ دينِ الإسلامِ أعوَجَ غيرَ مُستقيمٍ؛ حتَّى لا يَتَّبعَه أحَدٌ؛ كأَنْ يَختَلِقوا له نَقائصَ يُموِّهون بها على النَّاسِ تَنفيرًا عنه، أو بإلقاءِ الشُّكوكِ والشُّبهاتِ حَولَه[2].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٣٨).
قال ابنُ عاشور: (المرادُ بالصَّدِّ عن سبيلِ الله: إمَّا تَعَرُّض المُشركينَ للرَّاغبينَ في الإسلامِ بالأذى والصَّرفِ عن الدُّخولِ في الدِّينِ بوجوهٍ مختلفةٍ- وسبيلُ اللهِ ما به الوصولُ إلى مَرضاتِه، وهو الإسلامُ- وإمَّا إعراضُهم عن سَماعِ دعوةِ الإسلامِ وسَماعِ القُرآنِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٣٩- ١٤٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٧٧- ٢٧٨).

لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [سبأ: ٤٣].

وقال سُبحانه: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر: ١٨ - ٢٥].

﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾.

أيْ: وهُم بيَومِ القيامةِ جاحِدونَ مُكَذِّبون(١).

كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٣٨].

وقال سُبحانه: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ [السجدة: ١٠].

﴿وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ٤٦﴾.

﴿وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞ﴾.

أيْ: وبينَ الجنَّةِ والنَّارِ حاجزٌ يمنَع مِن وُصولِ أهلِ النَّارِ إلى الجنَّةِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣].

﴿وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٣٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٨٣ - ٢٨٤).

أيْ: وعَلى هذا السُّورِ المرتَفِعِ رِجالٌ قد استوَتْ حسَناتُهم معَ سيِّئاتِهم(١).

﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾.

أي: الرِّجالُ الَّذينَ على الأَعرافِ يَعرِفون أهلَ الجنَّةِ بعَلامتِهم الَّتي يتَميَّزون بها، وهي بَياضُ وحُسنُ وُجوهِهم، ويَعرِفون أهْلَ النَّارِ بسَوادِ وقُبحِ وُجوهِهم(٢).

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

وقال سُبحانه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨-٤١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦-٢٧].

﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٠٩، ٢١٦)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٨٨).
قال ابنُ كثير: (اختلفت عباراتُ المُفَسِّرين في أصحابِ الأعرافِ مَن هم، وكلُّها قريبةٌ ترجِعُ إلى معنًى واحدٍ، وهو أنهم قومٌ استوَت حسناتُهم وسَيِّئاتهم؛ نصَّ عليه حذيفةُ، وابنُ عباس، وابن مسعود، وغيرُ واحدٍ مِنَ السَّلَف والخلف، رحمهم الله). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤١٨).
وقال ابن عاشور: (والذي ينبغي تفسيرُ الآيةِ به: أنَّ هذه الأعرافَ جَعَلَها اللهُ مكانًا يُوقَفُ به مَن جَعَله اللهُ مِن أهلِ الجنَّةِ قبل دُخُوله إيَّاها، وذلك ضربٌ مِنَ العِقابِ خَفيفٌ، فجعل الداخلينَ إلى الجنَّة متفاوتينَ في السَّبقِ تفاوتًا يعلمُ اللهُ أسبابَه ومقاديرَه). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٤٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٨٩).
قال ابنُ الجوزي: (السِّيما: العلامةُ، وإنَّما عَرَفوا النَّاسَ؛ لأنهم على مكانٍ عالٍ يُشرفونَ فيه على أهلِ الجنَّةِ والنَّار). ((زاد المسير)) (٢/ ١٢٤).

أيْ: ونادَى الرِّجالُ الَّذينَ عَلى الأعرافِ أهلَ الجنَّةِ بالتَّحيَّةِ قائلينَ لهم: سَلامٌ عَليكُم؛ أيْ: سَلِمتُم مِن كلِّ الآفاتِ، وصِرْتُم في مأمَنٍ مِن جَميعِ المؤذِياتِ[1].

﴿ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾.

أيْ: إنَّ أهلَ الأعرافِ لَم يَدْخُلوا الجنَّةَ بَعدُ، لكنَّهم يَطمَعونَ في دُخولِها برَحمةِ اللهِ تعالى[2].

﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٤٧) ﴾.

أيْ: وإذا صَرَفَ اللهُ عُيونَ أصحابِ الأعرافِ إلى جِهةِ أصحابِ النَّارِ، فأبصَروا ما هم فيه مِن العَذابِ، دعَوُا اللهَ قائِلينَ: يا ربَّنا لا تَجعَلْنا معَ الكُفَّارِ في النَّارِ[3].

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨) ﴾.

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ ﴾.

أيْ: ونادى أُولئك الرِّجالُ الَّذين على الأعرافِ رِجالًا مِن رُؤَساءِ الكُفَّارِ والمُشرِكينَ مِن أهلِ النَّارِ عرَفوهم في الدُّنيا بأعيانِهم، ويَعرِفونَهم في النَّارِ بعَلاماتِ أهلِها[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٨٩).

قال ابن عاشور: (ونداؤُهم أهلَ الجنَّةِ بالسَّلامِ يُؤذِنُ بأنَّهم في اتصالٍ بعيدٍ مِن أهلِ الجنَّة، فجعل اللهُ ذلك أمارةً لهم بحُسنِ عاقِبَتِهم ترتاحُ لها نفوسُهم، ويعلمونَ أنَّهم صائرونَ إلى الجنَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٢٥)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣٨٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٣٢٩ - ٣٣٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢١٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٩٣ - ٢٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٢٩ - ٢٣٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٧٢)، ((تفسير =

﴿قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾.

أي: قال أصحابُ الأعرافِ لعُظماءِ المُشرِكينَ: ماذا نفَعَكم ما كُنتُم تَجمَعونَه في الدُّنيا مِنَ الأَمْوالِ والأولادِ والجُنودِ والأَتْباعِ، واستِكْبارُكم في الدُّنيا عَلى الخَلْقِ، وتَكبُّرُكم عَنِ اتِّباعِ الحَقِّ؟![1].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ [الليل: ١١].

وقال سُبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الجاثية: ١٠].

وقال سُبحانه حاكِيًا قولَ مَن يَدخُلُ النَّارَ مِنَ الأغنياءِ المُستكبِرين: ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٨-٢٩].

﴿أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

= ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٤٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٠١).
قال مقاتل بن سليمان: (﴿يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ يعني: بسَوادِ الوُجوهِ، مِنَ القادةِ والكُبَراء). ((تفسير مقاتل)) (٢/ ٣٩). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٩٧).
وقال ابنُ عاشور: (السِّيما هنا يتعيَّنُ أن يكونَ المرادُ بها المشَخِّصات الذاتيَّة التي تتميَّزُ بها الأشخاص، وليسَتِ السِّيما التي يتميَّزُ بها أهلُ النَّار كلُّهم، كما هو في الآية السَّابقة). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٤٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٢٩)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٥١)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٤٥ - ١٤٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٩٧ - ٢٩٩).

﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍ ﴾.

أيْ: يَقولُ أهلُ الأعرافِ لأُولئكَ الكُفَّارِ: أهَؤلاءِ الضُّعَفاءُ الَّذين أدخَلَهمُ اللهُ الجنَّةَ همُ الَّذين أقسَمْتُم في الدُّنيا على أنَّ اللهَ لَن يَعبأَ بهِم فيُدخِلَهُم جَنَّتَه (١)؟!

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ * أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ﴾ [ص: ٦٢-٦٣].

﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴾.

أيْ: يُقالُ لأهلِ الأعرافِ: ادخُلوا الجنَّةَ، لا خَوفٌ عَليكُم مِن آتٍ، ولا أنتُم تَحْزَنون على ما فاتَ(٢).

---

(١) وهو قول الواحديِّ والرَّازي وابنِ القيِّم والشوكانيِّ والسعدي وابنِ عاشورٍ والشنقيطيِّ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٧٢)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٥١)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣٨٣، ٣٨٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٤٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٠١ - ٣٠٢).

وقيل: إنَّ أصحابَ الأعرافِ إذا عَيَّروا الكفَّارَ، وأخبَروهم أنَّهم لم يُغْنِ عنهم جمعُهم واستكبارُهم، عَيَّرَهم الكفَّارُ بتخَلُّفِهم عن الجنَّةِ، وأقسموا أنَّ اللهَ لا ينالُهم برحمةٍ؛ لِمَا رأَوْا مِن تَخَلُّفِهم عن الجنَّةِ، وأنَّهم يصيرونَ إلى النَّارِ، فتقول لهم الملائكةُ حينئذٍ: ﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٩]. وهو قول مقاتل بن سليمان. يُنظر: ((تفسير مقاتل)) (٢/ ٣٩). واختاره الواحديُّ في ((الوجيز)) (ص: ٣٩٦)، وجعَلَه ابنُ القيِّم قولًا قَويًّا تحتمِلُه الآيةُ. يُنظر: ((طريق الهجرتين)) (ص: ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٣٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٠٦)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٠).

قيل: القائِلُ هو الله تعالى، وقيل: هم الملائكة: يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٧٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٩٦).

وذهب الشنقيطيُّ إلى أنَّ هذا القولَ صادِرٌ مِنَ اللهِ تعالى لأهلِ الجنَّةِ الذين أقسَمَ الكُفَّارُ أنْ لَا ينالُهم اللهُ تعالى برحمةٍ. فقال: (اختُلِفَ في قائلِ هذا القولِ، فظاهِرُ القرآنِ أنَّه مِن بقيَّةِ كلامِ أصحابِ الأعرافِ؛ يُوَبِّخونَ رُؤساءَ أهلِ النَّارِ، ويقولون لهم: أهؤلاءِ الضُّعفاءُ المساكينُ الذين كنتم تسخَرونَ مِنهم في الدُّنيا، وتَستهزِئونَ بهم، وتضحكونَ منهم، وتقولونَ: اللهُ أعظَمُ =

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال الله تَعالى: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾، إنَّما أُضيفَت كلمةُ (السبيلِ) إلى اللهِ؛ لأنَّه هو الذي شَرَّعَهَا، وَبَيَّنَ مَعَالَمَهَا، ولأنَّها السَّبيلُ الَّتي أمَرَ بسُلوكِها، ووعَد بالثَّوابِ مَن سَلكها، ونَهى عن عدَمِ سُلوكِها، ووعَد بالعِقابِ مَن لَم يَسلُكْها[١].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾، عبَّر بالطَّمَعِ؛ لأنَّه لا سبَبَ للعِبادِ إلى اللهِ مِن أنفُسِهم، وإن كانَت لهم أَعْمالٌ، فَضلًا عَن هؤلاءِ المَذْكورينَ الَّذين لا أعمالَ لهم تُبلِّغُهم[٢].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾، ظاهرُ القُرآنِ أنَّهم كُلَّهم ذُكورٌ؛ لأنَّه قال: ﴿رِجَالٌ﴾، ولَم يَقُلْ: (نِسَاءٌ). والمقرَّرُ في الأُصولِ: أنَّ لَفْظَةَ (الرِّجالِ) لا يَدْخُلُ فيها النِّساءُ. وقال بعضُ العُلماءِ: إذا ذُكِرَ الرِّجالُ فلا مانِعَ مِن دُخولِ النِّساءِ بحُكْمِ التَّبَعِ. واستَأنَسوا لِهَذا بأنَّ العرَبَ تُسمِّي المرأةَ (رَجُلَةً)، وتَسمِيةُ المرأةِ (رَجُلَةً) لُغةٌ صحيحةٌ مَعروفةٌ في كلامِ العرَبِ[٣].

= مِن أن يعبأَ بهؤلاءِ، واللهُ لا يُدخِلُهم جَنَّةً، ولا يُدخِلُهم نعيمًا أبدًا، ﴿أَهَؤُلَاءِ﴾ الضُّعفاءُ المَساكينُ الذين كُنتم تستهزِئونَ بهم في الدُّنيا وتسخَرونَ مِنهم، وتُقسمونَ- تحلفونَ باللهِ- ﴿لَا يَنَالُهُمُ اللهُ بِرَحْمَةٍ﴾ ماذا قال لهم الله؟ قال لهم: ﴿ادْخُلُوا الجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾. ((العذب النمير)) (٣/ ٣٠١).

وقال ابنُ جَريرٍ: (وأمَّا قَولُه: ﴿ادْخُلُوا الجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾، فخبَرٌ مِنَ اللهِ عَن أمْرِه أهلَ الجَنَّة بدُخُولِها). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٣٤).

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٩٩)، (٣/ ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٠٦).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٨٨)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٤١).

٤- قال تَعالى: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ﴾، بيَّنَ اللهُ أنَّ أصحابَ الأعرافِ ربَّما نظَروا تارةً إلى الجنَّةِ، ورُبَّما أُجبِروا على النَّظرِ إلى أهلِ النَّارِ؛ لأنَّ منظَرَ النَّارِ فظيعٌ جدًّا، لا يَنظُرُ إليه أحَدٌ باختِيارِه[١]؛ لذا قال ﴿صُرِفَتْ﴾ فبَناه للمَفْعولِ، إشارةً إلى أنَّهم لا يَنظُرون إلى أهلِ النَّارِ إلَّا نَظرًا شَبيهًا بفِعْلِ مَن يَحمِلُه على الفِعْلِ حامِلٌ، وليسَ عَن إرادةٍ مِنهم[٢].

٥- دلَّ صريحُ قَولِه تعالى: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ على أنَّ أهلَ الأعرافِ مِن بني آدَمَ؛ ولَيسُوا مِنَ الملائكةِ[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ دلالةٌ على أنَّ أصحابَ الأعرافِ بمكانٍ مرتَفِعٍ بين الجنَّةِ والنَّارِ[٤].

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، لَفظةُ (رَبَّنا) مُشعِرةٌ بوَصفِه تَعالى بأنَّه مُصلِحُهم وسيِّدُهم، وهُم عَبيدُه، فبالدُّعاءِ به طلَبُ رحمتِه، واستِعْطافُ كرَمِه[٥].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ نَذارةٌ ومَوعظةٌ لِجَبابرةِ المُشركينَ مِنَ العَرَبِ، الذين كانوا يَحقِرُونَ المُستَضعفينَ مِنَ المُؤمنينَ، وفيهم عَبيدٌ وفُقراءُ، فإذا سَمِعوا بِشاراتِ القُرآنِ للمُؤمنينَ بالجنَّةِ، سكتوا عمَّن كان مِن أحرارِ المُسلمينَ وسادَتِهم، وأنكروا أن يكون أولئك الضِّعافُ والعَبيدُ مِن أهْلِ الجَنَّةِ،

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٨٩).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٤٤).
(٣) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣٨٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٩).

وذلك على سبيلِ الفَرضِ، أي: لو فَرَضُوا صِدقَ وُجودِ جَنَّةٍ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ﴾ في التَّعْبيرِ عَنْهم بأصْحابِ الجنَّةِ دونَ ضميرِهم: تَوطِئةٌ لِذِكْرِ نِداءِ أصحابِ الأعرافِ، ونِداءِ أصحابِ النَّارِ؛ لِيُعبِّرَ عَنْ كلِّ فَرِيقٍ بعُنوانِه، ولِيكونَ مِنْه مُحسِّنُ الطِّباقِ في مُقابَلَتِه بِقولِه: ﴿أَصْحَابَ النَّارِ﴾، وهذا النِّداءُ خِطابٌ مِنْ أصْحابِ الجنَّةِ، عبَّرَ عنه بالنِّداءِ كِنايَةً عَن بُلُوغِه إلَى أَسْماعِ أَصْحابِ النَّارِ مِن مَسَافَةٍ سَحِيقَةِ البُعْدِ؛ فإنَّ سَعَةَ الجنَّةِ وسَعةَ النَّارِ تقتَضِيانِ ذلك لا سيَّما قولُه: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾[٢].

- وفي قولِه: ﴿وَنَادَى﴾ عَبَّرَ بالماضِي عَنِ المُسْتقبَلِ؛ لجَعْلِ المُستقبَلِ في تَحقُّقِ وُقوعِه كالَّذي وقَع بالفِعْلِ، وفي هذا النِّداءِ تَقريعٌ وتَوْبيخٌ، وتَوْقيفٌ على مآلِ الفريقَيْنِ، وزيادَةٌ في كَرْبِ أهلِ النَّارِ بأن شُرِّفوا عليهم[٣].

٢- قولُه: ﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾

- في قوله: ﴿مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ خاطَبَهم الله بهذا الوَعْدِ، وكَوْنُهم مُخاطَبينَ مِن قِبَلِ اللهِ تَعالى بهذا الوَعدِ يُوجِبُ مَزيدَ التَّشريفِ، ومَزيدُ التَّشريفِ لائقٌ بحالِ المؤمنينَ[٤].

- وقوله: ﴿فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ فِيه إيجَازٌ بِحَذفِ المَفْعولِ مِنَ الفِعلِ الثَّاني ﴿مَا وَعَدَ﴾ حيث لم يقُل: (وعَدَكم)؛ إسْقاطًا لَهمْ عَنْ رُتْبَةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٤٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٣٥- ١٣٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٣٧٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٠٤).

التَّشرِيفِ بِالخِطَابِ عِنْدَ الوَعْدِ، وقيل: لأنَّ ما ساءَهم مِن الموعودِ لم يَكُن بأَسْرِه مخصوصًا بهم وعدًا، كالبَعثِ والحِسابِ ونَعيمِ أهلِ الجَنَّةِ؛ فإنَّهم قد وَجَدوا جَميعَ ذلك حقًّا، وإنْ لم يَكُنْ وعْدُه مخصوصًا بهم[1].

- قولُه: ﴿فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ هذا الاستِفْهامُ مُستَعْمَلٌ في تَوقِيفِ المخاطَبِينَ على غَلَطِهِم، وإثارَةِ نَدامَتِهم وغَمِّهم على مَا فَرَطَ مِنْهُم، والشَّماتَةِ بِهِم في عَوَاقِبِ عِنادِهم؛ لأَنَّ أَصْحابَ الجَنَّةِ يَعلَمونَ أنَّ أَصْحابَ النَّارِ وَجَدوا وَعْدَه حَقًّا[2]، فهو سؤالُ توبيخٍ وتقريعٍ وشَماتةٍ[3].

- وفي التَّعبيرِ بالوَعْدِ دونَ الوَعيدِ معَ أهلِ النَّارِ تَهكُّمٌ بِهِم[4].

٣- قولُه: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ عبَّرَ في الفِعلينِ ﴿يَصُدُّونَ﴾ و﴿يَبْغونَهَا﴾ بالمُضارِعِ الَّذي مِن شأنِه الدَّلالةُ عَلى حدَثٍ حاصلٍ في زمَنِ الحالِ، مع أنَّهُم في زمَنِ التَّأذينِ لم يَكونوا مُتَّصِفينَ بالصَّدِّ عَن سَبيلِ اللهِ، ولا بِبَغْيِ عِوَجِ السَّبيلِ؛ ذَلك لِقَصدِ ما يُفيدُه المُضارِعُ مِن تَكرُّرِ حُصولِ الفِعْلِ تَبعًا لِمَعنى التَّجدُّدِ، والمعنى وَصفُهم بتكرُّرِ ذلك مِنهُم في الزَّمنِ الماضي[5].

- والإِخْبَارُ بالمَصْدَرِ في قَولِه: ﴿عِوَجًا﴾ لِلمُبَالَغَةِ[6].

- وقولُه: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ فيه تقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿بِالْآخِرَةِ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٢٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٣٦).
(٣) ينظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٧٢).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٠٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٣٨).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٣٩).

على مُتعلَّقِه ﴿كَافِرُونَ﴾؛ لِلاهتِمامِ به؛ فإنَّ أَصْلَ كُفرِهم قد عُلِم مِمَّا قَبلَه، وهذا النَّوعُ مِن الكُفرِ له تأثيرٌ خاصٌّ في إصْرارِهم على ما أُسنِدَ إليهِم[1].

- ووصَفَهم باسْمِ الفاعِلِ ﴿كَافِرُونَ﴾؛ لِلدَّلالةِ على ثَباتِ الكُفرِ فيهِم، وتَمكُّنِه مِنهم[2].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ؛ حيث قال تعالى هنا في سُورةِ الأعراف: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾، وقالَ في سُورة هودٍ: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [هود: ١٩]؛ فزِيدَ في هذه الآيةِ ضميرُ الفَصلِ، ولم يُزَدْ في سورة الأعرافِ؛ وذلك لمناسبةٍ حسنةٍ، وهي أنَّ ابتداءَ الإخبارِ في سورةِ الأعرافِ بحالِ هؤلاء الملعونينَ في الآيتينِ هو قولُه تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، وابتداءَ الإخبارِ عنهم في سُورةِ هود قولُه تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨]؛ ففي هذا إطنابٌ، وورودُ الظاهرِ في موضِع المضمَرِ من قولِه: ﴿عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، ولم يقُل: (عليهم)، ناسَب ذلك زِيادةُ ضَميرِ الفَصلِ (هم)، وفي آية الأعراف إيجازٌ ناسَبَه سقوطُه[3].

وقيل: لم يذكرْ ضمير الفصلِ في الأعرافِ، وذكره في هود؛ لأنَّ ما في الأعرافِ جاءَ على أصْلِه غيرَ مزيدٍ فيه ما يَجري مجرَى التوكيدِ، والذي في سُورة هودٍ جاء بعدَ قوله: ﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ [هود: ١٨]؛ فأشير إليهم، ثمَّ قال: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾؛ فأَظْهَر ذِكرَ الظَّالِمين في موضعِ الإضمارِ، فلمَّا عبَّر عنهم بالظالمين، الْتَبَس أنَّهم

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٣٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٨٢-١٨٢).

هم الذين كَذَبوا على ربِّهم أم غيرهم، فقال: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾؛ ليُعلَمَ أنَّهم هم المذكورون لا غيرُهم، فلمَّا لم يَصرِفِ الخبرَ الثاني في سورة الأعراف مَصرفَ ما ليس هو بالأوَّل، لم يُحْتَجْ إلى توكيدِه، ولَمَّا عدَل في سُورة هود عن إعادةِ الضَّميرِ إلى الأوَّل، ووضَع مكانه ظاهرًا يحتملُ أنْ يكونَ غيرَ الأوَّل، وعَنَى (هم) أنَّهم هم، كان الموضعُ موضِعَ توكيدٍ؛ لتحقيقِ الخبرِ عنهم بالكُفر[١].

٤- قَولُه: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ فِيه: تَقْدِيمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿وَبَيْنَهُمَا﴾، وهو خَبَرٌ على المُبْتَدَأِ؛ للاهْتِمامِ بالمَكانِ المُتوسِّطِ بينَ الجنَّةِ وَالنَّارِ وما ذُكِرَ مِن شَأْنِه، وبهذا التَّقْديمِ صَحَّ تَصْحيحُ الابْتِداءِ بالنَّكِرةِ، والتَّنْكيرُ في قَوْله: ﴿حِجَابٌ﴾؛ للتَّعظِيمِ[٢].

٥- قولُه: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ جُملَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ للبَيانِ؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ يُثيرُ سُؤالًا يَبحَثُ عن كَوْنِهم صَائرينَ إلى الجنَّةِ أو إلى غَيرِها[٣].

٦- قولُه: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا﴾ فِيه: تَكْريرُ ذِكرِهم مَع كِفايَةِ الإِضْمارِ؛ لزِيادَة التَّقرِيرِ؛ فالتَّعبيرُ عَنهم هُنا بأصْحابِ الأعْرافِ إظْهارٌ في مَقامِ الإضْمارِ؛ إذْ كان مُقْتَضَى الظَّاهِرِ أن يُقالَ: (ونادَوْا رِجَالًا)، إلَّا أنَّه لَمَّا

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٥٨٥-٥٨٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:١٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٤٣).

تَعدَّدَ في الآيَةِ السَّابِقَةِ ما يَصلُحُ لعَودِ الضَّمائِرِ إليه وَقَعَ الإظْهارُ في مَقامِ الإضْمارِ؛ دَفعًا للالْتِباسِ(١).

– قولُه: ﴿قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿مَا﴾ الأُولى في قولِه: ﴿مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ إمَّا اسْتِفهامِيَّةٌ؛ للتَّوْبيخِ والتَّقْريعِ، أو نَافِيةٌ، والخَبَرُ مُستَعمَلٌ في الشَّماتَةِ والتَّوقِيفِ على الخَطأ(٢).

– و﴿مَا﴾ الثَّانيةُ في قولِه: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ مَصْدَرِيَّةٌ؛ أي: واسْتِكبارُكم الَّذي مَضَى في الدُّنيا، ووَجْهُ صَوغِه بصِيغَةِ الفِعْلِ دونَ المَصْدرِ- إذْ لَم يَقُل: اسْتِكْبارُكم-؛ لِيتَوسَّلَ بالفِعلِ إلى كَونِه مُضارِعًا؛ فيُفيدُ أنَّ الاستِكْبارَ كان دَأْبَهم، لا يَفْتُرونَ عَنْه(٣).

٧- قوله: ﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾

– قولُه: ﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ﴾ الاسْتِفْهامُ فِيه مُسْتَعمَلٌ في التَّقرِيرِ(٤).

– قولُه: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ فيه تَلْوينٌ لِلخِطابِ، وتَوْجِيهٌ له إلى أُولئكَ المَذكُورِينَ؛ أي: ادخُلوا الجَنَّةَ على رَغْمِ أُنوفِهم(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٤٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٣٠).

الآيات (٥٠-٥٣)

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿أَفِيضُوا﴾: يُقال: فاضَ الماءُ: إذا سالَ مُنصَبًّا، وأفاضَ إناءَه: إذا مَلأه حتَّى أسالَه، والإفاضَةُ التَّوسِعةُ، وأصْلُ (فيض): يَدُلُّ على جَرَيانِ الشَّيءِ بِسُهُولَةٍ(١).

﴿يَجْحَدُونَ﴾: أي: يُنكِرونَها بألْسِنَتِهم وهم لها مُسْتَيْقِنونَ، والجُحودُ: نَفْيُ ما في القَلْبِ إثْباتُه، وإثْباتُ ما في القلبِ نَفْيُه، وأصلُ (جحد): يَدُلُّ على قِلَّةِ الخَيرِ(٢).

﴿تَأْوِيلَهُ﴾: أي: تصديقَ مَا وُعِدوا به، والتَّأْويلُ: هو المصيرُ والمرجعُ والعاقبةُ، مِنَ الأَوْلِ؛ أي: الرُّجوعِ إلى الأصلِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧، ٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ١٣٧)، ((مقاييس اللغة)) للراغب (١/ ١٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٩٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١١)، ((التبيان)) لابن الجوزي (١/ ١١٩)، ((الكليات)) للكفوي (١/ ٣٢٠).

﴿شُفَعَاءَ﴾: جَمْعُ شَفيعٍ، وهو: النَّاصِرُ والمعينُ، والشَّفاعَةُ: الانْضِمامُ إلى آخَرَ نُصْرةً له، وسؤالًا عنه، وشَفَعَ لِفُلانٍ إذا جاءَ مُلْتَمِسًا مَطْلَبَه، ومُعينًا له؛ فأصلُ الشَّفْعِ: ضَمُّ الشَّيءِ إلى مِثْلِه(١).

المَعْنى الإجماليُّ:

ونَادى أَهلُ النَّارِ أَهلَ الجَنَّةِ طالِبينَ مِنهم أن يَسْقوهم مَاءً، أو يُعطوهُم مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ مِنَ الطَّعامِ، فأجابوهُم أَنَّ اللهَ حَرَّمَ ماءَ الجَنَّةِ وطَعَامَها على الكافِرينَ، الَّذينَ اتَّخذُوا دِينَهمُ الَّذي دُعُوا لاتِّباعِهِ سُخرِيةً ولَعِبًا، وخَدَعَتْهُمُ الحياةُ الدُّنيا، فأعْرَضوا عَنِ الآخِرَةِ، ويَقولُ اللَّهُ يومَ القِيامَةِ: إنَّه في هذا اليَومِ يَنْسَاهُم كَما نَسُوا لِقَاءِ يَومِهم هذا، ولأَنَّهم كانوا يَجْحَدونَ بآياتِه.

ويُخبِرُ تَعالَى مُقْسِمًا أَنَّه أَتَى هَؤلاءِ الكُفَّارَ بالقُرآنِ الَّذي بَيَّنَ فِيه جَميعَ ما يَحتاجُ النَّاسُ إلى بَيانِه، وهو سُبحانَه عالِمٌ بِما بيَّنَ فيه مِنَ الحَقِّ، فقد بَيَّنَهُ تَعالَى لأجْلِ أَنْ يَهتَدِيَ بِهِ المُؤمِنونَ ويَرْحَمَهم بسَبَبِ إيمانِهم به في الدُّنيا والآخِرَةِ.

ثُمَّ بيَّن الله تعالى عاقبةَ هؤلاءِ المكذِّبينَ بالقرآنِ قائلًا: هَلْ يَنْظُرُ الكُفَّارُ إلَّا حُصولَ ما أَخْبَرَ بِه القرآنُ مِن وُقوعِ البَعْثِ وقِيامِ الحِسَابِ، وحُلولِ العَذابِ بهم، ودُخولِ أهلِ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، وأَهْلِ النَّارِ النَّارَ، يَومَ يَقَعُ ذَلِك يَقولُ الَّذينَ تَرَكُوا العَمَلَ بالقُرْآنِ مُتَنَدِّمينَ: قَد ظَهَرَ لنا الآنَ أَنَّ رُسُلَ رَبِّنَا قَدْ جَاءَتْ بالحَقِّ، ونَحنُ كذَّبْنَاهُم، فهل لنا مِنْ شُفَعَاء فيَشْفَعوا لنا عِنْدَ رَبِّنا، أو نَرجِعُ للدُّنيَا فنَعْمَلَ صَالِحًا غَيْرَ الَّذي كُنَّا نَعْمَلُه مِنَ الكُفْرِ والمَعَاصِي؟! قَد خَسِرَ هؤلاءِ الكُفَّارُ أَنفُسَهُم، وغَابَ عنهم ما كانوا يَزْعُمونه كَذِبًا في الدُّنيا أَنَّهم شُرَكاءُ لِلَّهِ، أو لَهم آلِهَةٌ مِن دُونِ اللَّهِ تعالَى، فلم يَنْفعوهم بشيءٍ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٢٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٧).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

مناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن اللَّهُ تعالَى ما يَقولُه أصْحابُ الأعْرافِ لأهلِ النَّارِ؛ أَتْبَعَه بِذِكْرِ ما يَقولُه أَهلُ النَّارِ لِأَهْلِ الجَنَّةِ[1]، فقال تعالى:

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾.

أي: ونادَى أَهلُ النَّارِ أَهْلَ الجَنَّةِ، مُستَغيثين بِهم مِمَّا أَصابَهم مِن شِدَّةِ الجُوعِ وَالْعَطَشِ، فَقالوا: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ صُبُّوا علَينا مِنَ الْمَاءِ[2] أو[3] مِمَّا رَزَقكمُ اللَّهُ مِن مَآكِلِ الجَنَّةِ[4].

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٥٢).

(٢) قال ابنُ عاشور: (الفَيضُ في الآيةِ إذا حُمِلَ على حقيقَتِه كان أصحابُ النَّارِ طالبينَ مِن أصحابِ الجَنَّةِ أن يَصُبُّوا عليهم ماءً ليشرَبُوا منه، وعلى هذا المعنى حمَلَه المفسرون... وعلى هذا الوَجهِ تكون (مِن) بمعنى بعض، أو صفةً لموصوفٍ مَحذوفٍ، تقديرُه: شيئًا مِن الماءِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٤٨).

(٣) قال الشنقيطي: (أو هنا مانعةُ خُلُوٍّ، مُجَوِّزةُ جَمعٍ، يجوز أن يكونَ الماءُ وَحْدَه، أو ما رزَقَهم اللهُ، أو الجميع). ((العذب النمير)) (٣/ ٣٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٤٨- ١٤٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٠٥).

أي: قال أَهلُ الجنَّةِ لِأَهْلِ النَّارِ: إنَّ اللَّهَ حَكَمَ بِمَنْعِ مَاءِ الجَنَّةِ وطَعَامِها من الكَافِرينَ[1].

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ۝٥١﴾.

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾.

أي: يَقُولُ أَهْلُ الجنَّةِ لِأَهْلِ النَّارِ: إنَّ اللهَ مَنَعَ ماءَ الجَنَّةِ وطَعامَها من الكافِرينَ الَّذينَ اتَّخذُوا دِينَهمُ الَّذي دُعُوا إِلَيهِ، وأُمِروا بِه سُخْرِيَةً ولَعِبًا فاسْتَهْزَؤوا به وبكَلامِ اللهِ وبنَبِيِّه وبالمُؤمنينَ[2].

كما قال تَعالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ٥٧-٥٨].

﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾.

أي: وخَدَعَتْهُمُ الحياةُ الدُّنيا بزِينَتِها، فَرَضوا واطْمَأَنُّوا بِها، وأعْرَضوا عَنِ الآخِرَةِ[3].

كما قال تعالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٤٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٠٥-٣٠٦).
قال الشنقيطيُّ: (التحريمُ هنا تحريمٌ كونيٌّ قَدَريٌّ). ((العذب النمير)) (٣/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٣٦ - ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٤٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٠٨).

بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٧-٨].

﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾.

أي: يَقولُ اللَّهُ تعالى يَومَ القِيامَةِ: في هذا اليَومِ نَترُكُ الكُفَّارَ في عَذابِ جَهَنَّمَ عِطاشًا جِياعًا، كَما تَركُوا الإيمانَ والعَمَلَ الصَّالِحَ في الدُّنيا استِعدادًا لِلِقاءِ اللَّهِ يَومَ القِيامَةِ(١).

كَمَا قَالَ تعالَى: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٤].

وعَن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عنه، أنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم قال: ((يَلقى اللهُ العَبدَ فيقولُ: أي فُلُ(٢)، أَلَمْ أُكرِمْكَ، وأُسَوِّدْكَ، وأُزَوِّجْكَ، وأُسَخِّرْ لَكَ الخَيْلَ والإبِلَ، وأَذَرْكَ تَرْأَسُ وتَرْبَعُ(٣)؟ فيقولُ: بَلَى، فيقولُ: أَفَظَنَنْتَ أنَّك

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٣٧ - ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣١٣).

قال ابن كثير: (أي: نعامِلُهم مُعاملةَ مَن نَسِيَهم؛ لأنَّه تعالى لا يشِذُّ عن عِلمِه شيءٌ ولا ينساه، كما قال تعالى: ﴿فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ [طه:٥٢]، وإنَّما قال تعالى هذا مِن بابِ المُقابلة، كما قال: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧]، وقال: ﴿كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ [طه:١٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الجاثية: ٣٤]). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٤).

وقال الشنقيطي: (أي: نترُكُهم عن إرادةٍ وقَصدٍ يتقلَّبونَ في دَرَكاتِ النَّارِ، وأنواعِ العَذابِ. ﴿كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ أي: نِسيانًا كنِسيانِهم لقاءَ يَومِهم هذا؛ لأنَّ هذا اليومَ لم يَنسَوه، وإنَّما تَركوا العمَلَ له عمدًا وقَصدًا وعنادًا للرُّسلِ). ((العذب النمير)) (٣/ ٣١٣).

(٢) أي فُلُ، معناه: يا فُلانُ، وقيل: إنَّها ترخيمُها. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٩٢٣)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ١٠٣).

(٣) ترأَسُ أي: تكونُ رئيسًا على قَومِك. وتَربَعُ أي: تأخُذُ المِرباعَ، وهو ربُعُ الغَنيمةِ، وقيل: معناه تَركْتُك مُستريحًا، لا تحتاجُ إلى مَشقَّةٍ وتَعَبٍ؛ من قَولِهم: ارْبَعْ على نَفْسِك؛ أي: ارْفُقْ بها. =

مُلَاقِيَّ؟ فيَقولُ: لَا، فيَقولُ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كمَا نَسِيتَنِي، ثمَّ يَلْقَى الثَّانيَ فيَقولُ: أَيْ فُلُ، أَلَمْ أُكرِمْكَ، وأُسَوِّدْكَ، وأُزَوِّجْكَ، وأُسَخِّرْ لَكَ الخَيْلَ والإِبِلَ، وأَذَرْكَ تَرْأَسُ وتَرْبَعُ؟ فيَقولُ: بَلَى أَيْ ربِّ، فيقولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّك مُلَاقِيَّ؟ فيَقولُ: لَا، فيَقولُ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كمَا نَسِيتَنِي))[1].

﴿وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

أي: وَنَتْرُكُهم فِي النَّارِ لِكَونِهم أَيضًا جَحَدُوا بآيَاتِنَا فلَمْ يُصدِّقُوها[2].

﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّ اللَّهَ تَعالَى لَمَّا شَرَحَ أَحوالَ أَهْلِ الجَنَّةِ، وأَهْلِ النَّارِ، وأَهْلِ الأَعْرَافِ، ثمَّ شَرَحَ الكَلِمَاتِ الدَّائرَةَ بَين هَؤلاءِ الفِرَقِ الثَّلاثِ على وَجْهٍ يَصِيرُ سَماعُ تِلكَ المَناظَراتِ حَامِلًا للمُكَلَّفِ على الحَذَرِ والاحْتِرازِ، وداعِيًا له إلى النَّظَرِ والاسْتِدْلالِ- بَيَّنَ شَرَفَ هذا الكِتابِ الكَريمِ، ونِهايَةِ مَنفَعَتِه فقال[3]:

﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾.

أي: وأُقسِمُ لَقَدْ أَتَيْنا هَؤلاءِ الكفَّارَ بالقُرآنِ الَّذي بَيَّنَّا فِيه جَمِيعَ ما يَحتاجُ النَّاسُ إلَى بَيانِه، ونَحنُ عالِمينَ بِما بَيَّنَّا فِيه مِنَ الحَقِّ الَّذِي يُصلِحُ الخَلْقَ في كلِّ زَمَانٍ ومَكانٍ، وفِي أُمورِ دُنياهم وأُخْراهُم[4].

= والمعنى: أَلَمْ أجعَلْك رئيسًا مُطاعًا؛ لأنَّ المَلِكَ كان يأخُذُ الرُّبُعَ مِنَ الغَنيمةِ في الجاهِليَّةِ دونَ أصحابِه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ١٠٤). ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ١٨٦).

(١) أخرجه مسلم (٢٩٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٣٩)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ١٦٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٩٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٤٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ١٩٦)، ((زاد المسير)) =

كمَا قَالَ تعالَى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

وقَالَ سُبحانَه: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣].

وقَالَ تَبارَك وتَعالَى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

أي: فَصَّلنَا القُرآنَ لِأَجْلِ أَن يَهتَدِيَ بِه المؤمِنونَ، ويَرْحَمَهُم اللَّهُ تَعالَى في الدُّنيا والآخِرَةِ بِسَبَبِ إيمانِهم بِه، واتِّباعِهِم لَه(١).

كما قال تَعالَى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

وقالَ سُبحَانَه: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

وقَالَ عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ٧٧].

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

= لابن الجوزي (٢/ ١٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٥٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣١٥ - ٣١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٥٣).

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن اللَّهُ تعالَى أنَّ هذا القُرآنَ الْعَظِيمَ هُو الَّذي أَنْزَلَه، وهو الَّذي فَصَّلَه، وبَيَّن حَلالَه وحَرامَه وعَقائدَه ومواعِظَه وأمثالَه وآدابَه ومَكارِمَه، وأنَّه بَيَّنَ هذا بِعِلْمِه المحيطِ بكلِّ شَيءٍ- هَدَّدَ الكُفَّارَ الَّذينَ لَمْ يَعمَلوا به، فقال[1]:

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾.

أي: هَل يَنْتَظِرُ الكُفَّارُ إلَّا وُقوعَ مَا أَخبَرَ به القُرآنُ؛ مِن وُقوعِ البَعْثِ، وقِيامِ الحِسابِ، وحُلولِ العَذابِ بهم، ودُخولِ أَهْلِ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، ودُخولِ أهلِ النَّارِ النَّارَ[2]؟

كما قال تعالَى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ [يونس: ٣٩].

وقالَ عزَّ وجلَّ: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾.

أي: حينَ يَجِيءُ يَومُ القِيامَةِ، الَّذي تَتَحَقَّقُ فِيه مَواعيدُ القُرْآنِ؛ مِنَ الحسابِ والثَّوابِ والعِقابِ، يَقولُ الَّذين تَرَكوا العَمَلَ بِالقُرْآنِ في الدُّنْيا مُتَنَدِّمينَ: قَد تبيَّن

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٤٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (١/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٥/ ١٤٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٥٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٤٠).
قال الشنقيطي: (أي: ما تؤولُ إليه حقيقةُ ما كان يَعِدُ به، وينطِقُ به في دارِ الدُّنيا). ((العذب النمير)) (٣/ ٣٣٧).

لَنا الآنَ أَنَّ رُسُلَ رَبِّنا صادِقونَ في دَعْواهم، وقَد جاؤونا بالحَقِّ فكَذَّبْناهم[١].

﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾.

أي: يَقُولُ الكُفَّارُ يومَ القِيامَةِ: فهَل لَنا مِن شُفَعاءَ فيَشْفَعوا لَنا عِندَ رَبِّنا، فيُنقِذونا مِمَّا نَحن فِيهِ؟ أو هل لَنا أَن نَرجِعَ إِلَى الدُّنيا فنَعْمَلَ فيها صَالِحًا غَيرَ الَّذي كُنَّا نَعْمَلُه مِنَ الكُفْرِ والمعاصي[٢]؟

كمَا قَالَ تَعالَى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧-٢٨].

﴿قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾.

أي: قَد أَضاعَ الكُفَّارُ حَظَّ أَنْفُسِهم مِنَ الثَّوابِ، وَأَهلَكُوها بِالعَذَابِ[٣].

كما قال تَعالَى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ [الأنعام: ٣١].

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٤٢ - ٢٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٥٤- ١٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٤٤ - ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٥٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٤٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٥٧).
قال القرطبي: (أي: فلم ينتَفِعوا بها، وكلُّ مَن لم ينتَفِعْ بنَفْسِه فقد خَسِرَها، وقيل: خَسِرُوا النِّعَمَ وحَظَّ أنفُسِهم منها). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢١٨). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٥٤).

أي: وغابَ عَنهم الَّذين كانوا يَزْعُمونَ في الدُّنيا كَذِبًا أنَّهم شُرَكاءُ لِلَّهِ أَو آلِهَةٌ لهم مِن دُونِ اللَّهِ، ظنُّوا أنَّهم سَيَشْفَعونَ لَهم يَومَ القِيامَةِ، فلَم يَنْفَعُوهم بِشَيءٍ[1].

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أَعْلَمَ اللهُ تعالى أنَّ ابنَ آدَمَ غَيرُ مُستغنٍ عَنِ الطَّعامِ والشَّرابِ وإن كانَ مُعَذَّبًا[2].

٢- قولُ اللهِ تعالَى: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ إنَّما طَلَبوا الماءَ خَاصَّةً؛ لِشدَّةِ ما في بَوَاطِنِهم مِنَ الاحْتِرَاقِ واللَّهِيبِ بسَبَبِ شِدَّةِ حَرِّ جَهَنَّمَ[3]، فقَدَّموا طلَبَ الماءِ؛ لأنَّ مَن كانَ في سَمُومٍ وحَمِيمٍ يكونُ شُعورُه بالحاجَةِ إلَى الماءِ البَارِدِ أَشَدَّ مِن شُعورِه بالحَاجِةِ إلَى الطَّعامِ الطَّيِّبِ[4].

٣- قولُ اللهِ تعالَى: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ لَفظُ (أَفِيضُوا) أَمْكَنُ مِن (اسقُونا)؛ لأنَّها تَقتَضِي التَّوسِعَةَ، كمَا يُقالُ: أَفَاضَ اللهُ علَيهِ نِعَمَهُ؛ أي: وَسَّعَها[5].

٤- استُدِلَّ بِقولِ اللهِ تعالَى: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ أنَّ سَقيَ الماءِ مِن أَفضَلِ الأعمالِ[6].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٤٤ - ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٤١).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٧٢)

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٣٩٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٦١).

(٦) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢١٥).

قال ابنُ القيِّم: (وأفضلُ الصَّدقةِ ما صادفتْ حاجةً مِن المتصدَّق عليه، وكانت دائمةً مستمرةً، ومنه قولُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم: «أفضلُ الصَّدقةِ سقيُ الماءِ». وهذا في موضعٍ يقِلُّ فيه =

٥- قولُ الله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾، تَعليقُ الظَّرفِ بفِعلِ (نَنْساهُم) لِإظهَارِ أنَّ حِرْمانَهم مِنَ الرَّحْمَةِ كان في أَشَدِّ أوقاتِ احتِياجِهم إليها، فكانَ لِذِكْرِ (اليَومِ) أثَرٌ في إثارَةِ تَحَسُّرِهم ونَدَامَتِهم[1].

بلاغةُ الآيات:

١- قولُه: ﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ استِئنافٌ مَبنِيٌّ على السُّؤالِ؛ كَأنَّه قِيل: فماذا قَالُوا؟ فقِيلَ: قَالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[2].

٢- قولُه: ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾:

- دَلَّ مَعنى كافِ التَّشبيهِ في قولِه: ﴿كَمَا نَسُوا﴾ على أنَّ حِرْمانَهم مِن رَحْمَةِ اللهِ كانَ مُماثِلًا لإهْمالِهِمُ التَّصديقَ باللِّقاءِ، وهي مُماثَلَةُ جَزاءِ العَمَلِ للعَمَلِ، وهي مُماثَلَةٌ اعتِبارِيَّةٌ، وإنَّما التَّعليلُ مَعنًى يَتَوَلَّدُ مِنِ استِعمالِ الكافِ في التَّشبيهِ الاعتِبارِيِّ، ولَيس هذا التَّشبيهُ بِمَجازٍ، ولكِنَّه حَقِيقةٌ خَفِيَّةٌ لِخَفاءِ وَجْهِ الشَّبَهِ[3].

٣- قولُه: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ﴾ فيه تَأكِيدُ هذا الفِعلِ بـ(لَامِ القَسَمِ) و(قَد)؛ إمَّا باعتِبارِ صِفَةِ (كِتابٍ)، وهي جُملَةُ: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً﴾، فيكونُ التَّأكيدُ جارِيًا على مُقتَضَى الظَّاهِرِ؛ لأنَّ

= الماءُ، ويكثرُ فيه العطشُ، وإلَّا فسقيُ الماءِ على الأنهارِ والقنَى لا يكونُ أفضلَ مِن إطعامِ الطعامِ عندَ الحاجةِ. ((الروح)) (١/ ١٤٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٥١).

المُشرِكينَ يُنكِرونَ أن يَكون القُرآنُ مَوْصوفًا بِتِلك الأوصافِ، وإمَّا تَأكيدٌ لِفِعْلِ ﴿جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ﴾، وهو بُلوغُ الكِتابِ إلَيهم، فيكونُ التَّأكيدُ خارجًا على خِلافِ مُقْتَضَى الظَّاهِرِ(١).

- وتَنكِيرُ ﴿كِتَابٍ﴾ قُصِدَ بِه تَعظِيمُ الكِتابِ، أو قُصِدَ بِه النَّوعِيَّةُ؛ أي: ما هو إلَّا كِتابٌ كالكُتُبِ الَّتي أُنزِلَتْ مِن قَبْلُ(٢).

- قولُه: ﴿فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ تَنكِيرُ ﴿عِلْمٍ﴾ للتَّعظِيمِ؛ أي: عالِمِينَ أَعْظَمَ العِلْمِ، والعَظَمَةُ هُنا رَاجِعةٌ إلَى كمَالِ الجِنْسِ في حقيقَتِه، وأَعْظَمُ العِلْمِ هو العِلْمُ الَّذي لَا يَحتمِلُ الخَطَأَ(٣).

٤- **قولُه: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾** الجُملةُ مُستَأْنَفةٌ اسْتِئْنافًا بَيانِيًّا؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يُثيرُ سؤالَ مَن يَسأَلُ: فماذا يُؤخِّرُهم عَنِ التَّصديقِ بِهذا الكِتابِ المَوصُوفِ بتلك الصِّفاتِ؟ وهَلْ أَعظَمُ مِنه آيَةً على صِدقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عَلَيه وسلَّم؟ فكانَ قولُه: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ كالجَوابِ عَن هذا السُّؤالِ(٤).

- والاسْتِفهامُ في قولِه: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ إنْكارِيٌّ، أي: ما يَنظُرون إلَّا تأويلَه؛ ولِذلك جاءَ بعدَه الاسْتِثْناءُ، والاسْتِثْناءُ على حَقيقَتِه، وليس مِن تَأكيدِ الشَّيءِ بِما يُشبِهُ ضِدَّه، والقَصْرُ في (ما يَنظُرون إلَّا تأويلَه) إضافِيٌّ؛ أي: بالنِّسْبَةِ إلَى غَيرِ ذَلك مِن أَغراضِ نِسْيانِهم وجُحودِهم بالآياتِ(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٥٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٥٣).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٥٤).

٥- قولُه: ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ خَبَرٌ مُسْتَعمَلٌ في الإقْرارِ بخَطَئِهم في تَكذيبِ الرُّسُلِ، وإنْشاءٌ للحَسْرَةِ على ذلك[1].

٦- قولُه: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ الاسْتِفهامُ في قوله: ﴿فَهَلْ﴾ يَجوزُ أن يَكونَ حَقيقيًّا يَقولُه بعضُهم لِبَعضٍ، ويَجوزُ أن يكونَ الاستفهامُ مُستَعمَلًا في التَّمَنِّي، ويَجوزُ أن يكونَ مُسْتَعمَلًا في النَّفيِ؛ على مَعنى التَّحَسُّرِ والتَّنَدُّمِ[2].

- و﴿مِنْ﴾ في قولِه: ﴿مِنْ شُفَعَاءَ﴾ صلةٌ للتَّوكيدِ على جَميعِ التَّقاديرِ؛ فتُفيدُ تَوكيدَ العُمومِ في المُستَفهَمِ عَنه؛ لِيُفيدَ أنَّهم لا يَسألونَ عَمَّن تَوَهَّموهم شُفَعاءَ مِن أصنامِهم؛ إذ قَد يَئِسوا مِنهم؛ فإنَّهم يَتساءلُونَ عَن أيِّ شَفيعٍ يَشْفَعُ لَهم، ولو يَكون الرَّسولُ علَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ الَّذي نَاصَبُوه العَداءَ في الحَياةِ الدُّنيا[3].

٧- قولُه: ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ مُسْتَأْنَفَةٌ اسْتِئنافًا ابتِدائيًّا، تَذييلًا وخلاصَةً لِقصَّتِهم؛ أي: فكانَ حاصِلُ أَمرِهم أنَّهم خَسِرُوا أَنْفُسَهم مِنَ الآن، وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ[4].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٥٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٥٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٥٧).

الآيات (٥٤-٥٦)

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤) ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥) وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦)﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿اسْتَوَى﴾: أي: علَا واستقرَّ وارتَفَع، وأَصلُ (سوي): يدلُّ على استقامةٍ واعتدالٍ بينَ شيئينِ[١].

﴿الْعَرْشِ﴾: هو أعظَمُ المَخلوقاتِ، وسَقفُها، والعَرْشُ في الأصلِ: شَيءٌ مُسقَّفٌ، ومنه سَقْفُ البَيتِ، ويُطلَقُ العرشُ أيضًا على سَريرِ المَلِك، وعلى غير ذلك، وأصل (عرش): يدلُّ على ارتفاعٍ في شَيءٍ مبنيٍّ[٢].

﴿يُغْشِي﴾: أي: يُغَطِّي، والغِشاوةُ: الغِطاءُ، وأصلُ (غشي): يدلُّ على تَغطِيةِ شيءٍ بشيءٍ[٣].

﴿حَثِيثًا﴾: سَريعًا، والحثُّ: السُّرعةُ، وأصل (حثث): الحَضُّ على الشَّيءِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٤٥٦- ٤٥٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٢٠- ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) (٤/ ٤٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٧).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٩)، =

﴿مُسَخَّرَاتٍ﴾: أي: مُذلَّلاتٍ تَجري في فَلَكِها؛ لتَهْتدوا بها، والتَّسْخِيرُ: سياقةٌ إلى الغَرَضِ المختصِّ قَهرًا، وأصل (سخر): يدلُّ على احتقارٍ واستذلالٍ[١].

﴿تَبَارَكَ﴾: أي: تعاظَم وتعالى، وكثُرَ خيرُه، وعمَّ إحسانُه، أو ارتفَعَ وتقدَّسَ، مِنَ البرَكَة: وهي الزِّيَادَةُ والنَّماءُ، والكَثرةُ والاتِّساعُ[٢].

﴿الْعَالَمِينَ﴾: هم أَصنافُ الخلائِقِ أجمعينَ، جمْعُ (عالَم)، و(العالَم) جمعٌ لا واحدَ له مِن لَفْظِه، وهو اسْمٌ لأَصنافِ الأُمَمِ وسائرُ أجناسِ الخَلْق، وكلُّ صِنفٍ منها عالَم، وأهلُ كلِّ قَرنٍ مِن كلِّ صِنفٍ وجِنسٍ منها عالَمُ ذلك القَرْنِ وذلك الزَّمانِ[٣].

﴿تَضَرُّعًا﴾: أي: تذلُّلًا، واستكانةً لِطاعَتِه، يقال: ضَرَع الرجلُ ضَرَاعَةً: ضَعُفَ وذَلَّ، وتَضَرَّع: أظهَر الضَّراعَةَ، وأصلُ (ضرع): يَدُلُّ عَلَى لِينٍ فِي الشَّيْءِ[٤].

﴿وَخُفْيَةً﴾: أي: سِرًّا، وليس جِهارًا، يقال: خَفِيَ الشيءُ خُفْيَةً: استتر، وأصلُ (خفي): السَّتْرُ[٥].

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٨٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١١٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٩٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٤).

مُشكِلُ الإعراب:

١- قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾

﴿حَثِيثًا﴾: نَعتٌ لِمَصدرٍ مَحذوفٍ، أي: طلَبًا حثيثًا، ويجوزُ أن يكونَ حالًا مِن فاعِلِ ﴿يَطْلُبُهُ﴾، وهو الضَّميرُ المستَتِرُ فيه، أي: حاثًّا، أو مِن مَفعولِه (الهاء)، أي: مَحْثوثًا. ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ﴾ عَطْفٌ على ﴿السَّمَوَاتِ﴾.

﴿مُسَخَّرَاتٍ﴾ حالٌ مَنصوبةٌ مِنَ الألفاظِ الثَّلاثةِ ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ﴾، وعلامةُ النَّصبِ الكَسرةُ؛ لأنَّها جمعُ مُؤَنَّثٍ سالمٌ.

وقُرِئَ (والشَّمْسُ والقَمَرُ والنُّجُومُ مُسَخَّراتٌ) برَفْعِ (الشَّمسُ) على الابتداءِ، ورفْعِ (مُسخَّراتٌ) على أنَّها الخَبرُ(١).

٢- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾

﴿قَرِيبٌ﴾: إنَّما لم يُؤَنِّثْها وإن كانَتْ خبرًا عن المؤنَّثِ ﴿رَحْمَتَ﴾؛ لوجوهٍ؛ منها: أنَّها في مَعنى الغُفرانِ، فحُمِلَت عليه. ومنها: أنَّه أتى ﴿قَرِيبٌ﴾ بغيرِ هاءٍ؛ ليُفرَّقَ بين قُرْبِ النَّسَبِ وقُربِ المَكانِ؛ يُقال: فلانةٌ قريبةٌ منِّي، أي: في النَّسَبِ، وبعيدةٌ مني، أي: في النَّسَبِ، أمَّا إذا أُريدَ القُربُ في المكانِ، فإنَّه يجوزُ الوَجهانِ؛ فيُقالُ: فلانةٌ قريبةٌ وقريبٌ، وبعيدةٌ وبعيدٌ؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣]، وَقَالَ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]. وقيل غيرُ ذلك(٢).

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٩٤)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٧٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٣٤٢-٣٤٣).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٩٤)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري =

المعنى الإجماليُّ:

إنَّ ربَّكم- أيُّها النَّاسُ- هو اللهُ الذي خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ في سِتَّةِ أيَّامٍ، ثمَّ علا على العَرشِ، يُغَطِّي سبحانَه بظُلمةِ اللَّيلِ ضَوءَ النَّهارِ، ويغطِّي بضَوءِ النَّهارِ ظُلمةَ اللَّيلِ، وكلٌّ منهما يطلُبُ الآخَرَ طلبًا سريعًا، لا يتأخَّرُ عنه، وخلَقَ الشَّمسَ والقَمَرَ والنُّجومَ مُذَلَّلاتٍ بأمرِه وتدبيرِه لمنافِعِ الخَلقِ، ألَا له وَحدَه- عَزَّ وجَلَّ- الخَلقُ والأمرُ، عظُمَ سبحانَه وتقَدَّسَ، هو ربُّ العالَمينَ.

ثمَّ أمَرَ اللهُ النَّاسَ أن يدعوه أذِلَّةً خاشعينَ له، مُخْفِينَ دُعاءَهم فيما بينهم وبينَه؛ إنَّه سُبحانه لا يُحِبُّ المعتَدينَ.

ثم نهى سبحانَه النَّاسَ عن الإفسادِ في الأرضِ بعد إصلاحِها، وأمرهم أنْ يَدعُوه خائفينَ مِن غَضَبِه وعِقابِه، وطامعينَ في رِضاه وثَوابِه؛ إنَّ رَحمةَ اللهِ قَريبٌ مِنَ المُحسنينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤)﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

أي: إنَّ سيِّدَكم وخالِقَكم، ومالِكَكم ومُدَبِّرَ شُؤونِكم- أيُّها النَّاسُ- هو اللهُ المُستحِقُّ للعبادةِ، الذي خلق السَّمواتِ والأرضَ وما فيهما وما بينهما، في سِتَّةِ أيَّامٍ[1].

= (١/ ٥٧٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٣٤٤-٣٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٧٧)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٨٨١-٨٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٤٣). =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٣].

وقال سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٤-٥].

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾.

أي: ثمَّ علا اللهُ على العَرشِ[١] علوًّا يليقُ بجلالِه، بلا تكييفٍ، ولا تشبيهٍ، ولا تعطيلٍ[٢].

= قال ابنُ كثير: (الستَّةُ الأيَّام هي: الأحد، والاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٦).

وقال الشنقيطي: (العلماء يقولون: إنَّ هذه الأيَّامَ، المرادُ بها أوقاتُها؛ لأنَّه في ذلك الوقتِ لم يكُنْ هنالك يومٌ؛ لأنَّ اليومَ مِن طُلوعِ الشَّمسِ إلى غُروبِها، وإن لم يكن هنالك شَمسٌ لا يُعرَفُ اليومُ إلَّا أنَّ اللهَ قبل أن يخلُقَ الشَّمسَ والقَمَرَ، يعلم زمَنَ الأيَّامِ قبل وجودِ الشَّمسِ.. وهذه الأيامُ قال بعضُ العلماء: إنَّها كأيَّامِ الدُّنيا. وقال بعضُهم: اليومُ منها هو المذكورُ في قوله: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]. ((العذب النمير)) (٣/ ٣٤٤- ٣٤٥).

وقال ابنُ عاشور: (وظاهِرُ الآياتِ أنَّ الأيَّامَ هي المعروفةُ للنَّاسِ.. وقد قيل: إنَّ الأيَّامَ هنا جمعُ اليومِ مِن أيَّامِ الله تعالى، الذي هو مُدَّةُ ألفِ سَنةٍ، فستَّةُ أيَّامٍ عبارةٌ عن ستَّةِ آلافٍ مِنَ السِّنينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٦٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤١١)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ١٨٨)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ١٩٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٧٥ - ٣٨١).

(٢) قال ابن كثير: (يُسلَك في هذا المقامِ مَذهَبُ السَّلَفِ الصَّالِح: مالك، والأوزاعي، والثوري، والليث بن سعد، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وغيرهم من أئمَّة المسلمينَ قديمًا وحديثًا، وهو إمرارُها كما جاءَتْ مِن غَيرِ تكييفٍ ولا تشبيهٍ ولا تعطيلٍ، والظاهِرُ =

﴿يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾.

أي: يُغطِّي اللهُ تعالى بظُلمةِ اللَّيلِ ضَوءَ النَّهارِ، ويُغطِّي بضَوءِ النَّهارِ ظُلمةَ اللَّيلِ، وكلٌّ منهما يطلُبُ الآخَرَ طَلَبًا سريعًا، لا يتأخَّرُ عنه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ * وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٧- ٤٠].

وقال سبحانه: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [فاطر: ١٣].

وقال تبارك وتعالى: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ [الزمر: ٥].

﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾.

= المتبادِرُ إلى أذهانِ المُشَبِّهين، منفيٌّ عن الله؛ فإنَّ الله لا يُشبِهُه شيءٌ مِن خَلقِه، و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] بل الأمرُ كما قال الأئمَّة- منهم نُعَيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري-: «مَن شَبَّه اللهَ بخَلقِه، فقد كَفَر، ومن جَحَدَ ما وصَفَ اللهُ به نفسَه، فقد كَفَر». وليس فيما وصَفَ اللهُ به نفسَه ولا رسولُه، تَشبيهٌ، فمَن أثبَتَ لله تعالى ما ورَدَتْ به الآياتُ الصَّريحةُ والأخبارُ الصَّحيحةُ، على الوَجهِ الذي يليقُ بجلالِ اللهِ تعالى، ونفى عن الله تعالى النَّقائِصَ، فقد سلك سبيلَ الهدى). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٦ - ٤٢٧).

وقال الشوكاني: (مذهَبُ السَّلَفِ الصَّالح أنَّه استوى- سُبحانه- عليه، بلا كَيفٍ، على الوَجهِ الذي يليقُ به مع تنزُّهِه عمَّا لا يجوزُ عليه، والاستواءُ في لغة العرَبِ: هو العلوُّ والاستقرارُ). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٦٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٨١).

أي: وخلَقَ اللهُ عزَّ وجلَّ الشَّمسَ والقَمرَ والنُّجومَ مُذَلَّلاتٍ بأمرِ اللهِ، وتدبيرِه لمنافِعِ الخَلقِ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢].

﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾.

أي: ألَا لله تعالى وحْدَه صِفَةُ الخَلقِ؛ فهو الذي أوجَدَ جَميعَ المخلوقاتِ، وهو الذي يملِكُها ويتصَرَّفُ فيها، وله وَحدَه الأمرُ كلُّه، فيأمُرُ خَلقَه بما يشاءُ مِن أوامِرَ كونيَّةٍ وشرعيَّةٍ(٢).

كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨].

وقال تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وقال جلَّ وعلا: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ [الرعد: ٤١].

﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٦٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٦٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٩٢).

أي: عظُمَ المعبودُ سبحانه وتعالى، وتقدَّسَ وتنزَّه عن كلِّ نَقصٍ وعَيبٍ، وكَثُرَت بَركاتُه وخَيراتُه، هو خالِقُ كُلِّ شَيءٍ ومالِكُه، ومُدَبِّرُ شؤونِ جَميعِ خَلقِه[1].

كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨].

وقال سبحانه: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الجاثية: ٣٦-٣٧].

﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٥٥﴾.

﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾.

أي: ادْعُوا- أيُّها النَّاسُ[2]- خالِقَكم وسَيِّدَكم، ومُدَبِّرَ شُؤُونِكم، ادْعُوه وَحْدَه، أذلَّاءَ خاشِعينَ له وخاضعينَ، مُخفِينَ دُعاءَكم فيما بينكم وبينه، سواءٌ كان دُعاءَ مسألةٍ وطَلَبٍ، أو دُعاءَ عبادةٍ؛ كالصَّلاةِ وغَيرِها[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٤٧)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ١٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١-ب/ ١٧٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٩٧)، ((تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة)) (١/ ٩).

(٢) قال ابن عاشور: (الخطابُ بـ ﴿ادْعُوا﴾ خاصٌّ بالمُسلمينَ؛ لأنَّه تعليمٌ لأدَبِ دُعاءِ اللهِ تعالى وعبادَتِه، وليس المشركونَ بمُتَهَيِّئينَ لِمِثلِ هذا الخطابِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١-ب/ ١٧١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٩٧ - ٣٩٨).

لإخفاءِ الدُّعاءِ فَوائِدُ عَديدةٌ منها:

- أنَّه أعظَمُ إيمانًا؛ لأنَّ صاحِبَه يعلَمُ أنَّ اللهَ يسمَعُ دُعاءَه الخفيَّ.

- أنَّه أعظَمُ في الأدبِ والتعظيمِ؛ ولهذا لا تُخاطَبُ المُلوكُ ولا تُسألُ برَفعِ الأصواتِ، وإنَّما تُخفَضُ عِندَهم الأصواتُ، ولِلَّه المثَلُ الأعلَى، فإذا كان ربُّنا يسمَعُ الدُّعاءَ الخفيَّ، فلا يليقُ بالأدَبِ بين يدَيه إلَّا خَفضُ الصَّوتِ به.

- أنَّه أبلَغُ في التضرُّعِ والخُشوعِ، الذي هو رُوحُ الدُّعاءِ ولُبُّه ومقصودُه.

- أنَّه أبلَغُ في الإخلاصِ.

- أنَّه أبلَغُ في جمعيَّةِ القَلبِ على اللهِ في الدُّعاءِ؛ فإنَّ رَفعَ الصَّوتِ يُفرِّقُه ويُشتِّتُه. =

كما قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

وقال سُبحانَه عن نَبِيِّه زكريَّا عليه السَّلامُ: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣].

وعن أبي مُوسى الأشعريِّ رَضِيَ الله عنه، قال: كُنَّا مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في سَفَرٍ، فجعل النَّاسُ يجهَرونَ بالتَّكبيرِ، فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أيُّها النَّاسُ، ارْبَعُوا على أنفُسِكم[1]؛ إنَّكم ليس تَدْعُونَ أصَمَّ ولا غائبًا، إنَّكم تَدْعونَ سَميعًا قريبًا، وهو معكم))[2].

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

مُناسَبَتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا كان دُعاءُ التَّضَرُّعِ والخُفيَةِ يقابِلُ الاعتداءَ بعَدَمِ التضَرُّعِ والخُفيةِ؛ عقَّبَ ذلك بقَولِه تعالى[3]:

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

أي: إنَّ ربَّكم لا يُحِبُّ المُتجاوِزينَ للحُدودِ التي حدَّها لعبادِه، في الدُّعاءِ وغَيرِه مِنَ الأمورِ[4].

= - أنَّه دالٌّ على قُربِ صاحبِه مِن اللهِ، وأنَّه لاقترابِه منه، وشِدَّةِ حُضورِه يسألُه مسألةَ أقرَبِ شَيءٍ إليه.
- أنَّه أدعى إلى دوامِ الطَّلبِ والسُّؤالِ؛ فإنَّ اللِّسانَ لا يمَلُّ، والجوارِحَ لا تتعَبُ، بخلافِ ما إذا رفَعَ صَوتَه؛ فإنَّه قد يَكِلُّ لسانُه وتَضعُفُ بعضُ قُواه. يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٦-٨).

(١) ارْبَعُوا أي: ارفُقُوا بأنفُسِكم، واخفِضُوا أصواتَكم. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٢٦).
(٢) رواه البخاري (٢٩٩٢) ومسلم (٢٧٠٤).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٠٢- ٤٠٣). =

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

وعن أبي نعامة، ((أنَّ عبدَ اللهِ بنَ مُغَفَّلٍ سَمِعَ ابنًا له يقولُ: اللهمَّ إنِّي أسألُكَ القَصرَ الأبيضَ مِنَ الجنَّةِ إذا دخَلتُها عن يميني، فقال له: يا بُنَيَّ، سلِ اللهَ الجنَّةَ، وتعوَّذْه مِنَ النَّارِ؛ فإنِّي سَمِعتُ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يقولُ: سيكونُ بَعدِي قومٌ مِن هذه الأمَّةِ يَعتَدونَ في الدُّعاءِ والطُّهورِ))(١).

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أنبأَ الكلامُ السَّابِقُ في قَولِه تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ عَن عِنايةِ اللهِ بالمُسلمينَ وتَقريبِه إيَّاهم؛ إذ أمَرَهم بأن يَدْعُوه،

= قال ابنُ تيميَّةَ: (اللهُ لا يُحِبُّ المعتدينَ في كلِّ شَيءٍ: دعاءً كان أو غيرَه .. فيكونُ أمَرَ بدُعائِه وعبادَتِه، وأخبرَ أنَّه لا يُحِبُّ أهلَ العُدوانِ وهم يَدْعونَ معه غيرَه، فهؤلاء أعظَمُ المُعتدينَ عُدوانًا؛ فإنَّ أعظَمَ العُدوانِ الشِّركُ، وهو وَضعُ العبادةِ في غيرِ مَوضِعها، فهذا العُدوانُ لا بدَّ أن يكونَ داخلًا في قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾، ومِنَ العُدوانِ أن يَدْعُوَه غيرَ مُتضَرِّعٍ؛ بل دعاءُ هذا كالمُستغني المُدلِي على رَبِّه، وهذا مِن أعظَمِ الاعتداءِ؛ لِمُنافاتِه لدُعاءِ الذَّليلِ، فمَنْ لم يسألْ مسألةَ مِسكينٍ مُتضَرِّعٍ خائفٍ؛ فهو مُعْتدٍ، ومِنَ الاعتداءِ أن يَعبُدَه بما لم يُشَرِّعْ، ويُثنِيَ عليه بما لم يُثْنِ به على نَفسِه، ولا أَذِنَ فيه). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٢٣).

وقال الشوكاني: (مَن جاوَزَ ما أمَرَه اللهُ به في شيءٍ مِنَ الأشياءِ، فقد اعتدى، واللهُ لا يحِبُّ المُعتدينَ، وتدخُلُ المجاوَزةُ في الدُّعاءِ في هذا العُمومِ دُخولًا أوَّليًّا، ومِنَ الاعتداءِ في الدُّعاءِ: أن يسألَ الدَّاعي ما ليس له- كالخُلودِ في الدُّنيا، أو إدراكِ ما هو مُحالٌ في نَفسِه- أو يطلُبَ الوصولَ إلى منازِلِ الأنبياءِ في الآخِرةِ، أو يرفَعَ صَوتَه بالدُّعاءِ صارخًا به). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٤٣).

(١) أخرجه أبو داود (٩٦)، وابن ماجة (٣٨٦٤)، وأحمد (٢٠٥٥٤).

قال ابن كثير في ((التفسير)) (٣/ ٤٢٥): إسناده حسن لا بأس به، وصحح إسناده مغلطاي في ((شرح سنن ابن ماجه)) (١/ ٣٢٥)، وصحح الحديث ابن الملقن في ((البدر المنير)) (٢/ ٥٩٩)، والألباني في ((صحيح أبي داود)) (٩٦).

وشَرَّفَهم بذلك العُنوانِ العَظيمِ في قَولِه: ﴿رَبَّكُمْ﴾، وعَرَّضَ لهم بمَحَبَّتِه إيَّاهم دُونَ أعدائِهم المُعتَدينَ- أعقَبَه بما يحولُ بَينَهم وبينَ الإدلالِ على اللهِ؛ بالاسترسالِ فيما تُمليه عليهم شَهَواتُهم مِن ثَورانِ القُوَّتَينِ الشَّهْوِيَّةِ والغَضَبيَّة؛ فإنَّهما تَجنيانِ فَسادًا في الغَالِبِ، فذَكَّرَهم بتَرْكِ الإفسادِ؛ ليكونَ صَلاحُهم مُنَزَّهًا عن أن يُخالِطَه فَسادٌ[1]، فقال:

﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾.

أي: ولا تُفسِدوا- أيُّها النَّاسُ- في الأرضِ بالشِّركِ والمعاصي، وغيرِ ذلك مِن أنواعِ الفَسادِ، بعد أن أصلَحَ اللهُ تعالى الأرضَ؛ بإرسالِ الرُّسُلِ، وتقريرِ التَّوحيدِ، وبيانِ الشَّريعةِ، وعَمَلِ الطَّاعاتِ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١-١٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾.

أي: وادعُوا اللهَ عزَّ وجلَّ واعبُدُوه، مخلصينَ له في دُعائِكم وعِبادَتِكم، وأنتم في حالِ خَوفٍ مِن غَضَبِ اللهِ وعِقابِه، وطَمَعٍ في رضا اللهِ وثَوابِه[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٤٩ - ٢٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٠٤- ٤٠٦). وعزا ابنُ تيميَّة هذا المعنى لأكثرِ المُفَسِّرينَ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٥٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٦)، ((بدائع الفوائد)) =

﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

مُناسَبَتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا كان قولُه: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ مُشتمِلًا على جميعِ مَقاماتِ الإيمانِ والإحسانِ، وهي الحُبُّ والخَوفُ والرَّجاءُ- عَقَّبَها ببيانِ أنَّ مَن دعاه خوفًا وطمَعًا، فهو المُحسِنُ، والرَّحمةُ قَريبٌ منه؛ لأنَّ مَدارَ الإحسانِ على هذه الأصولِ الثَّلاثةِ، فقال سبحانه[1]:

﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

أي: إنَّ رحمةَ اللهِ في الدُّنيا والآخِرةِ مرجُوَّةُ الحُصُولِ للمُحسِنينَ في عبادةِ اللهِ، المُحسِنينَ إلى عِبادِ اللهِ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وقال سُبحانه: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠].

= لابن القيم (٣/ ١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٧٦).
قال السعدي: (الدُّعاء يَشملُ دعاءَ العبادة، فيَدخُل فيه كلُّ عِبادة أمَرَ الله بها ورسولُه، ودعاءُ المسألة، وهو: سؤالُ الله جلْبَ المنافع، ودفْعَ المضارِّ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٤٤)، ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٠).

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٥٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٨)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٧٧).
قال ابنُ تيمية: (واللهُ سُبحانه يُحِبُّ المُحسنينَ ويُبغِضُ مَن ليس مِنَ المُحسِنينَ، ومَن أحَبَّه اللهُ فرَحمَتُه أقرَبُ شيءٍ منه، ومَن أبغَضَه اللهُ فرَحمتُه أبعَدُ شَيءٍ منه). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٢٧).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يقولُ اللهُ عَزَّ وجلَّ: أنا عندَ ظَنِّ عَبدِي، وأنا معه حين يَذكُرُني، فإنْ ذَكَرَني في نفسِه ذَكَرْتُه في نفسِي، وإنْ ذَكَرَني في ملأٍ ذَكَرْتُه في ملأٍ خَيرٍ منه، وإنِ اقتَرَب إليَّ شِبرًا، تقرَّبْتُ إليه ذِراعًا، وإن اقتَرَب إليَّ ذِراعًا، اقتربتُ إليه باعًا، وإنْ أتاني يمشي أتيتُه هَرولةً))[1].

الفوائدُ التربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ﴾ لَمَّا نسَبَ تعالى نفسَه إلينا، سَمَّى نَفسَه في هذه الحالةِ بالرَّبِّ، وهو مُشعِرٌ بالتَّربيةِ وكثرةِ الفَضلِ والإحسانِ، فكأنَّه يقولُ: مَن كان له مُرَبٍّ مع كَثرةِ هذه الرَّحمةِ والفَضلِ، فكيف يليقُ به أن يشتغِلَ بعبادةِ غَيرِه[2]؟!

٢- في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ إنْ قِيل: وما الحكمةُ في خلقِها في ستةِ أيَّامٍ، وكان قادرًا على خلقِها في طرفةِ عينٍ؟ قِيل: لأنَّ خلقَها على التأنِّي أدلُّ على حكمتِه، ولُطفِ تدبيرِه، وفيه أيضًا تعليمُ النَّاس، وتنبيهُ العبادِ على التأنِّي في الأُمورِ، وأنَّ لكلِّ شيءٍ عندَه أجلًا[3].

٣- في قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ تنبيهٌ على ما في هذا العالَمِ مِنَ الخَيراتِ والنِّعَمِ، التي تُوجِبُ لله تعالى الشُّكرَ والعبادةَ على عبادِه، دون ما

(١) رواه البخاري (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٨٥).
(٣) ينظر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢١٩)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ١٨٨).

عَبَدُوه معه، وليس لهم مِنَ الخَلقِ ولا مِنَ الأمْرِ شَيءٌ[١].

٤- في قَولِ الله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ الحثُّ على الدُّعاءِ[٢].

٥- قولُه تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ فيه أن الدُّعاءَ الخفِيَّ أفضَلُ وأعظَمُ مِنَ الدُّعاءِ الذي هو جَهرٌ وعلانِيَةٌ؛ وذلك لأنَّ إخفاءَ الدُّعاءِ أبعَدُ مِنَ الرِّياءِ، ولأنَّه يدلُّ على ثِقَةِ العَبدِ بأنَّ رَبَّه عالِمٌ بما خَفِيَ وما ظَهَرَ، لا يخفى عليه شيءٌ[٣].

٦- قال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ المقصودُ مِنَ الدُّعاءِ أن يصيرَ العَبدُ مُشاهِدًا لحاجةِ نَفسِه، ولِعجزِ نَفسِه، ومُشاهِدًا لِكَونِ مَولاه مَوصوفًا بكمالِ العِلمِ والقُدرةِ والرَّحمةِ، فكلُّ هذه المعاني دخَلَتْ تحت قولِه: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا﴾ ثم إذا حَصَلَت هذه الأحوالُ على سبيل الخُلوصِ، فلا بُدَّ مِن صَونِها عنِ الرِّياءِ المبطِلِ لحقيقةِ الإخلاصِ، وهو المرادُ مِن قَولِه تعالى: ﴿وَخُفْيَةً﴾ والمقصودُ مِن ذِكرِ التَّضَرُّعِ تحقيقُ الحالةِ الأصليَّةِ المطلوبةِ مِنَ الدُّعاءِ، والمقصودُ مِن ذِكرِ الإخفاءِ صَونُ ذلك الإخلاصِ عن شَوائِبِ الرِّياءِ، وإذا عرَفْتَ هذا المعنى ظهَرَ لك أنَّ قولَه سبحانه: ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ مُشتمِلٌ على كلِّ ما يُرادُ تَحقيقُه وتحصيلُه في شرائِطِ الدُّعاءِ، وأنَّه لا يزيدُ عليه ألبتَّةَ بوجهٍ مِنَ الوُجوهِ[٤].

٧- قال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ مِنَ الاعتداءِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٠٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٧٣).
(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٩٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٨٠).

في الدُّعاءِ ما هو خاصٌّ باللَّفظِ، كالتكَلُّفِ والسَّجعِ، والمبالغةِ في رَفعِ الصَّوتِ؛ فقد صَحَّ النَّهيُ عن ذلك، ومنها ما هو خاصٌّ بالمعنى، وهو طلَبُ غيرِ المَشروعِ مِن وَسائِلِ المعاصي ومَقاصِدِها- كضرَرِ العِبادِ، وأسبابِ الفَسادِ- وطلَبُ المُحالِ الشَّرعيِّ أو العَقليِّ، كطلَبِ إبطالِ سُنَنِ اللهِ في الخَلقِ، وتبديلِها أو تَحويلِها، ومنه طلَبُ النَّصرِ على الأعداءِ مَع تَركِ وسائِله- كأنواعِ السِّلاحِ والنِّظام- والغِنى بدونِ كَسْبٍ، والمغفرةِ مع الإصرارِ على الذَّنبِ. واللهُ تعالى يقولُ: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾[1] [فاطر: ٤٣].

٨- دلَّ قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ عَقيبَ قَولِه: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ على أنَّ مَن لم يَدْعُه تضرُّعًا وخُفيةً فهو مِنَ المُعتدينَ الذين لا يُحِبُّهم سبحانه، فقَسَّمَتِ الآيةُ النَّاسَ إلى قِسمينِ: داعٍ للهِ تَضَرُّعًا وخُفيةً؛ ومُعتدٍ بتَرْكِ ذلك[2].

٩- يُستفادُ مِن قولِه تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أنَّ النَّفسَ التي تتضَرَّعُ وتخشَعُ خُفيةً للقَريبِ المُجيبِ؛ لا تعتدي كذلك، ولا تُفسِدُ في الأرضِ بعد إصلاحِها؛ فبَينَ الانفعالينِ اتِّصالٌ داخليٌّ وثيقٌ في تكوينِ النَّفسِ والمشاعِرِ[3].

١٠- قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ هذا نهيٌ عن إيقاعِ الفَسادِ في الأرضِ، وإدخالِ ماهِيَّته في الوجودِ، فيتعَلَّقُ بجميعِ أنواعِه؛ مِن إفسادِ النُّفوسِ والأنسابِ، والأموالِ والعُقولِ والأديانِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٠٨، ٤٠٩).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٤).

(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٢٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٧٠).

١١- قال الله تعالى: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ لَمَّا كان الدُّعاءُ مِنَ اللهِ بمكانٍ؛ كرَّرَه، فقال أوَّلًا: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ وهاتان الحالتانِ مِنَ الأوصافِ الظَّاهرةِ؛ لأنَّ الخُشوعَ والاستكانةَ وإخفاءَ الصَّوتِ، ليسَتْ مِنَ الأفعالِ القَلبيَّةِ، ثمَّ قال ثانيًا: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: وَجِلينَ مُشفِقينَ، وراجِينَ مُؤَمِّلينَ؛ فبدأ أوَّلًا بأفعالِ الجَوارِحِ، ثمَّ ثانيًا بأفعالِ القُلوبِ، وعطْفُ ﴿خَوْفًا﴾ على ﴿طَمَعًا﴾ يقتضي أن يكونَ الخَوفُ والرَّجاءُ مُتَساوِيَينِ؛ ليكونا للإنسانِ كالجَناحينِ للطَّائِرِ، يحمِلانِه في طريقِ استقامةٍ، فإنِ انفَرَدَ أحدُهما هلَكَ الإنسانُ[1].

١٢- اشتمَلَ قولُه تعالى: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ على جميعِ مقاماتِ الإيمانِ والإحسانِ، وهي: الحبُّ والخَوفُ والرَّجاءُ؛ ولذلك أعقَبَها بقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾، أي: إنما تَنالُ مَن دعاه خوفًا وطَمَعًا، الذي هو المحسنُ، والرَّحمةُ قريبٌ منه؛ لأنَّ مدارَ الإحسانِ على هذه الأصولِ الثَّلاثةِ[2].

١٣- اشتمَلَ قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ على آدابِ نَوعَيِ الدُّعاءِ- دُعاءِ العبادةِ، ودُعاءِ المسألةِ؛ فإنَّ الدُّعاءَ في القُرآنِ يُرادُ به هذا تارةً، وهذا تارةً، ويُرادُ به مجموعُهما، وهما مُتلازمانِ، فدعاءُ المسألةِ هو طلَبُ ما ينفَعُ الداعيَ، وطلبُ كَشْفِ ما يضرُّه أو دَفْعِه، وكلُّ مَن يملكُ الضُّرَّ والنَّفعَ، فهو المعبودُ حقًّا، فهو يُدعَى للنَّفعِ والضُّرِّ دُعاءَ المسألةِ، ويُدعى خوفًا ورجاءً دُعاءَ العِبادةِ، فعُلِمَ أنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٧٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٦).

النَّوعينِ مُتلازمانِ؛ فكلُّ دعاءِ عبادةٍ، مُستلزِمٌ لِدُعاءِ المسألةِ، وكُلُّ دعاءِ مَسألةٍ مُتضَمِّنٌ لدُعاءِ العبادةِ[١].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ تحريضٌ على الإحسانِ وترغيبٌ فيه، ووجهُ ذلك: أنَّ قُرْبَه تبارك وتعالى مِنَ المحسنينَ وقُرْبَ رَحمَتِه منهم؛ مُتلازمانِ، وقُرْبُ اللهِ تعالى من عبده هو غايةُ الأماني ونهايةُ الآمالِ؛ فإذا كانت رحمتُه قريبةً منهم، فهو أيضًا قريبٌ منهم- سبحانَه؛ بسبَبِ إحسانِهم، وكُلَّما كان العبدُ أكثَرَ إحسانًا، كان أقرَبَ إلى رحمةِ رَبِّه تعالى، وكان ربُّه قريبًا منه برَحمَتِه[٢].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ تنبيهٌ ظاهرٌ على أنَّ فِعْلَ هذا المأمورِ به هو الإحسانُ المطلوبُ منكم؛ وأنَّ مَطلوبَكم أنتم مِن اللهِ هو رحمَتُه؛ وأنَّ رحمتَه قريبٌ مِنَ المُحسنينَ، الذين فَعَلوا ما أُمِرُوا به مِن دعائِه خَوفًا وطمعًا؛ فقُرْبُ مطلوبِكم منكم- وهو الرَّحمةُ- يكون بحَسَبِ أدائِكم لِمَطلوبِه منكم- وهو الإحسانُ- الذي هو في الحقيقةِ إحسانٌ إلى أنفسِكم؛ فإنَّ اللهَ تعالى هو الغنيُّ الحميدُ، قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾[٣] [الإسراء: ٧].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ دلالةٌ على أنَّ الجزاءَ مِن جِنسِ العَمَلِ، فكما أحسَنُوا بأعمالِهم، أحسنَ اللهُ إليهم برَحْمَتِه[٤].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ دلالةٌ على بُطلانِ تأويلِ

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٢).
(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩١).
(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ١٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الاستواءِ بمعنى المُلْكِ؛ لأنَّه سبحانه أخبرَ أنَّه خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ في سِتَّةِ أيَّامٍ، ثم استوى على العَرشِ؛ وقد أخبرَ أنَّ العَرشَ كان موجودًا قبل خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ- كما دلَّ على ذلك الكِتابُ والسنَّةُ - وحينئذٍ فهو مِن حِينِ خلَقَ العرشَ مالكٌ له مُسْتَولٍ عليه؛ فكيف يكونُ الاستواءُ عليه مؤخَّرًا عن خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ؟! وأيضا فاللهُ مالكٌ لكُلِّ شَيءٍ، مُستَولٍ عليه؛ فكيف يُخصُّ العرشُ بالاستواءِ(١)؟!

٢- قولُه سبحانَه: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ فيه التمييزُ بين إرادةِ الله لما يخلقُه في عبادِه، وإرادتِه لما يأمرُ به عبادَه، وكثيرٌ مِن الناسِ تشتبهُ عليهم الحقائِقُ الأمريَّةُ الدِّينيَّةُ الإيمانيَّةُ بالحقائقِ الخلقِيَّةِ القدريَّةِ الكونِيَّةِ، فالله سبحانه خالقُ كلِّ شيءٍ وربُّه ومَليكُه، لا خالِقَ غيْرُه، ولا رَبَّ سواه، فكلُّ ما في الوجودِ مِن حركةٍ وسُكونٍ فبقضائِه وقَدَرِه، ومَشيئتِه وقُدْرَتِه وخَلْقِه، وكلُّ ما خلقَه فبإرادتِه خلَقَه، فما شاء الله كان، وما لم يشأْ لم يكُنْ، فما لم يكُنْ لم يُرِدْ أن يخلقَه، وما كان فقد أراد أن يخلقَه، وهو لا يريدُ أن يخلقَ إلا ما سبَق علمُه بأنَّه سيخلقُه، فإنَّ العلمَ يطابقُ المعلومَ، وهو سبحانَه أمَر بطاعتِه وطاعةِ رسلِه، ونَهَى عن معصِيَتِه ومعصيةِ رُسُلِه، فأمَر العبادَ بالحسناتِ التي تنفعُهم، ونهاهم عن السيئاتِ التي تضرُّهم، والحسناتُ محبوبةٌ لله مرضيةٌ، والسيئاتُ مكروهةٌ له يسخطُها، ويسخطُ على أهلِها، وإن كان الجميعُ مخلوقًا له(٢).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ فيه ردٌّ على القائلينَ بخَلقِ القُرآنِ؛ لأنَّه فرَّقَ بين المَخلوقاتِ وبَيْنَ الأمرِ؛ لأنَّ أمْرَه- عزَّ وجَلَّ- بكلامِه،

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٥ / ٢٢١)، ((الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان)) لابن تيمية (١ / ٢٤٥).

فكَلامُه غيرُ داخلٍ في خَلقِه(١).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ افتُتِحَتِ الجُملةُ بحَرفِ التَّنبيهِ (ألَا)؛ لتَعِيَ نفوسُ السَّامعينَ هذا الكلامَ الجامِعَ(٢).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ فيه أنَّ الإخفاءَ مُعتبَرٌ في الدُّعاءِ؛ فاللهُ تعالى أمَرَ بالدُّعاءِ مقرونًا بالإخفاءِ، وظاهِرُ الأمرِ للوُجوبِ، فإن لم يحصُلِ الوُجوبُ، فلا أقَلَّ مِن كَونِه نَدبًا(٣).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ دلالةٌ على جوازِ أنْ يشتكيَ المسلمُ إلى اللهِ ما نَزَلَ به مِن الضُّرِّ، وقد أجمَعَ المُسلمونَ على جوازِه(٤).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ وقَولِه: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ دلالةٌ على أنَّه سبحانه يُحبُّ أنْ يُسألَ، ويُرغَبَ إليه، ويُطلَبَ منه(٥).

٨- قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ فاللهُ أصلَحَ الأرضَ برَسولِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ودِينِه، وبالأمرِ بالتَّوحيدِ، ونهى عن فسادِها بالشِّركِ به، ومُخالَفةِ رَسُولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ومَن تدَبَّرَ أحوالَ العالَمِ وَجَدَ كلَّ صَلاحٍ في الأرضِ، فسَبَبُه توحيدُ اللهِ، وعبادَتُه، وطاعةُ رَسُولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وكُلَّ شَرٍّ في العالَمِ، وفِتنةٍ وبَلاءٍ، وقَحطٍ وتَسليطِ عَدُوٍّ، وغير ذلك؛ فسَبَبُه مُخالفةُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، والدَّعوةُ إلى غَيرِ اللهِ(٦).

٩- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ هذه الآيةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٧٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٩٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٦٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٨١).
(٤) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٤/ ٧٢).
(٥) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ١٠٢).
(٦) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٤-٢٥).

تدُلُّ على أنَّ الأصلَ في المَضارِّ الحُرمةُ، والمَنعُ على الإطلاقِ(١).

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ التَّصريحُ بالبَعْديَّةِ هنا، تسجيلٌ لِفَظاعةِ الإفسادِ بأنَّه إفسادٌ لِمَا هو حَسَنٌ ونافِعٌ، فلا مَعذِرةَ لِفاعِلِه، ولا مَساغَ لِفِعلِه عند أهلِ الأرْضِ(٢).

١١- قال الله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أعاد الأمرَ بالدُّعاءِ بعد أنْ وَسَّطَ بينهما النَّهيَ عن الإفسادِ؛ للإيذانِ بأنَّ مَن لا يعرِفُ نفسَه بالحاجةِ والافتقارِ إلى رَحمةِ رَبِّه الغنيِّ القَديرِ، وفَضلِه وإحسانِه، ولا يدعوه تضَرُّعًا وخُفيةً، ولا خَوفًا مِن عِقابِه، وطَمَعًا في غُفرانِه، أنَّه يكونُ أقرَبُ إلى الإفسادِ منه إلى الإصلاحِ(٣).

١٢- المناسبةُ في ذِكرِ الطَّمعِ- الذي هو الرَّجاءُ- في آيةِ الدُّعاءِ: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أنَّ الدُّعاءَ مبنيٌّ عليه، فإنَّ الدَّاعيَ ما لم يَطْمَعْ في سُؤالِه ومَطلوبِه، لم تتحَرَّكْ نفسُه لطَلَبِه؛ إذ طَلَبُ ما لا طَمَعَ فيه، مُمتنِعٌ(٤).

١٣- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ له دلالةٌ بِمَنطوقِه، ودَلالةٌ بإيمائِه وتعليلِه، ودَلالةٌ بمَفهومِه؛ فَدَلالَتُه بِمَنطوقِه: على قُربِ الرَّحمةِ مِن أهلِ الإحسانِ. ودَلالَتُه بإيمائِه وتَعليلِه: على أنَّ هذا القُربَ مُستَحَقٌّ بالإحسانِ، وهو السَّبَبُ في قُربِ الرَّحمةِ مِنهم. ودَلالَتُه بمَفهومِه: على بُعدِه مِن غيرِ المُحسنينَ؛ فهذه ثلاثُ دَلالاتٍ لِهذه الجُملةِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤١٠).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٢٧).

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أنَّه إذا كانت الرَّحمةُ الإلهيَّةُ قَريبةً مِنَ المحسنينِ، فالموصوفُ تبارك وتعالى أَوْلى بالقُربِ منهم، بل قُربُ رَحمَتِه تبَعٌ لِقُربِه هو- تبارك وتعالى- مِنَ المُحسنينَ(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ...﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ عادَ به التَّذكيرُ إلى صَدْرِ السُّورةِ في قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾(٢)، وفيه التأكيدُ بحرْف ﴿إِنَّ﴾(٣).

- قوله: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ فيه مِن بديعِ الإيجازِ، ورَشاقةِ التركيبِ: جَعْلُ اللَّيلِ والنَّهار مفعولَينِ لِفعلِ فاعلِ الإغشاءِ؛ فهما مفعولانِ، كِلاهما صالحٌ لأنْ يكونَ فاعل الغَشيِ؛ ولهذا استغنى بقوله: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ عن ذِكر عَكسِه، ولم يقُل: (والنَّهارَ اللَّيلَ)، وقد شَبَّه ظهورَ ظلامِ اللَّيل في الأُفق ممتدًّا مِن المشرِق إلى المغربِ عندَ الغُروبِ، واختفاءَ نُورِ النَّهار في الأفقِ ساقطًا من المشرِقِ إلى المغربِ؛ حتَّى يعمَّ الظلامُ الأفقَ بطَلبِ اللَّيلِ النَّهار، على طريقةِ التَّمثيل، وكذلك يُفهَمُ تشبيهُ امتدادِ ضَوءِ الفجرِ في الأُفقِ من المشرِقِ إلى المغربِ، واختفاءِ ظلامِ اللَّيل في الأُفقِ ساقطًا في المغربِ؛ حتَّى يَعُمَّ الضياءُ الأُفقَ: بطلبِ النَّهارِ اللَّيلَ على وجْهِ التَّمثيل(٤).

- قوله: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ مُستأنفةٌ استئنافَ التَّذييلِ للكلامِ السَّابق

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٣١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٥٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٦٧).

من قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾؛ لإفادةِ تَعميمِ الخَلْقِ[١].

- التَّعريفُ في ﴿الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ﴾ تعريفُ الجِنسِ؛ فتُفيدُ الجملةُ قَصْرَ جِنسِ الخَلْقِ وجِنسِ الأمْرِ على الكونِ في مِلكِ اللهِ تعالى؛ فليس لغيرِه شيءٌ مِن هذا الجِنسِ، وهو قصرٌ إضافيٌّ معناه: ليس لآلهتِهم شيءٌ مِن الخَلْقِ ولا مِن الأَمْرِ[٢].

- وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَهُ﴾ هنا؛ لتخصيصِه تَعالَى بالخَلْقِ والأمْرِ[٣].

٢- قوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ استئنافٌ جاءَ مُعترِضًا بين ذِكرِ دَلائلِ وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى بذِكرِ عظيمِ قُدرتِه على تكوينِ أشياءَ لا يُشارِكُه غيرُه في تكوينِها؛ فالجملةُ مُعترِضةٌ بينَ جُملة ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ وجُملةِ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾، جرَى هذا الاعتراضُ على عادةِ القُرآنِ في انتهازِ فُرَصِ تهيُّؤِ القُلوبِ للذِّكْرَى[٤].

- وقَولُه: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ﴾ فيه تعريفُ الربِّ بطريقِ الإضافةِ دون ضميرِ الغائبِ، مع وجودِ مُعادٍ قريبٍ في قوله: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ﴾، ودون ضَميرِ المُتكلِّم؛ لأنَّ في لَفْظِ الربِّ إشعارًا بتقريبِ المؤمنِين بصِلةِ المربوبيَّة، وليُتوسَّلَ بإضافةِ الربِّ إلى ضميرِ المخاطَبِينَ إلى تَشريفِ المؤمنِينَ، وعنايةِ الرَّبِّ بهم[٥].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ واقعةٌ موقِعَ التَّعليلِ للأمْرِ بالدُّعاءِ؛ إشارةً إلى أنَّه أمْرُ تَكريمٍ للمُسلِمينَ يَتضمَّنُ رِضا اللهِ عنهم، ولكن سَلَكَ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٦٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٧٠).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٧١).

التَّعليلِ طَريقَ إثباتِ الشَّيءِ بإبطالِ ضِدِّه؛ تَنبيهًا على قَصْدِ الأَمْرَينِ، وإيجازًا في الكلامِ(١).

- وبين قَولِه تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ وقولِه: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف: ٢٠٥] مُناسَبةٌ حَسنةٌ: حيثُ ذُكِرَ التضرُّعُ فيهما معًا، وهو التذلُّلُ والتَّمَسكُنُ والانكسارُ، وهو رُوحُ الذِّكرِ والدُّعاءِ، وخُصَّ الدُّعاءُ بالخُفيةِ؛ لِما لإخفاءِ الدُّعاءِ مِن حِكَمٍ وفوائدَ كثيرةٍ.

وخُصَّ الذِّكرُ بالخِيفةِ؛ لحاجةِ الذَّاكرِ إلى الخوفِ، فإنَّ الذِّكرَ يستلزِمُ المحبَّةَ ويُثمِرُها ولا بدَّ، والمحبَّةُ ما لم تُقرَن بالخوفِ، فإنَّها لا تنفَعُ صاحِبَها، بل قد تضُرُّه، فتأمَّلْ أسرارَ القُرآنِ وحِكمتَه في اقترانِ الخِيفةِ بالذِّكرِ، والخُفيةِ بالدُّعاءِ، مع دلالَتِه على اقترانِ الخيفةِ بالدُّعاءِ، والخُفيةِ بالذِّكرِ أيضًا؛ فإنه قال: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ فلم يحتَجْ بعدها أن يقولَ: (خُفيَة)، وقال في الدُّعاءِ: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ فلم يحتَجْ أن يقولَ في الأولى (ادعوا ربَّكم تضرُّعًا وخيفةً) فانتظمت كلُّ واحدةٍ مِن الآيتَينِ، للخُفيةِ والخِيفةِ والتَّضرُّعِ، أحسَنَ انتظامٍ، ودلَّت على ذلك أكملَ دَلالةٍ.

وذُكِرَ الطَّمعُ الذي هو الرَّجاءُ في آيةِ الدُّعاءِ؛ لأنَّ الدُّعاءَ مَبنيٌّ عليه، فإنَّ الداعيَ ما لم يطمَعْ في سؤالِه ومَطلوبِه لم تتحَرَّكْ نفسُه لِطَلَبِه؛ إذ طلَبُ ما لا طمَعَ فيه ممتنِعٌ، وذُكِرَ الخَوفُ في آيةِ الذِّكرِ؛ لشدَّةِ حاجةِ الخائِفِ إليه، فذُكِرَ في كلِّ آيةٍ ما هو اللَّائقُ بها والأَولى بها، مِن الخوفِ والطَّمعِ، فتبارَكَ مَن أنزَلَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٧٢).

كلامَه؛ شِفاءً لِمَا في الصُّدور، وهُدًى ورَحمةً للمُؤمنينَ(١).

٣- ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾:

- قولُه: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ في إيقاعِ هذا النَّهيِ عقِبَ قولِه: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ تعريضٌ بأنَّ المُعتدِين مُفسِدون في الأرضِ، وإرْباءٌ للمُسلِمينَ عن مُشابهتِهم، أي: لا يَليقُ بكم- وأنتم المقرَّبون مِن ربِّكم، المأذونُ لكم بدُعائِه- أنْ تكونوا مِثلَ المُبعَدِين منه المُبْغَضين(٢).

- وقولُه: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ فيه إيجازٌ بالحَذْفِ، والتَّقديرُ: وادْعُوه خوفًا وطمعًا وأحْسِنوا؛ بقرينةِ تَعقيبِه بقولِه: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾(٣).

- وقولُه: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فيه التَّأكيدُ بقولِه: ﴿إِنَّ﴾، وهي لمُجرَّدِ الاهتمامِ بالخبرِ، وقد سكَتَ عن ضدِّ المحسنين رِفقًا بالمؤمنين، وتعريضًا بأنَّهم لا يُظَنُّ بهم أنْ يُسِيئوا فتَبْعُد الرَّحمةُ عنهم(٤).

- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ إشارةٌ إلى قُرْبِ اللهِ تعالى مِن المُحسنينَ، وأيضًا قُرْبِ رَحمتِه منهم، ووجهُ ذلك: هو الإخبارُ عن الرَّحمةِ- وهي مؤنَّثةٌ بالتاءِ- بِقَولِه (قريبٌ) وهو مذكرٌ، وهذا مِن بابِ الاستغناءِ بأحَدِ المذكُورَينِ عن الآخَرِ؛ لكونه تبَعًا له ومعنًى مِن معانيه،

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ١٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٧٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٧٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٧٧).

فاستغنى بخَبَرِ المحذوفِ عن خبَرِ الموجودِ، وَسَوَّغَ ذلك ظهورُ المعنى؛ ففي حذف التاء هاهنا تنبيهٌ على هذه الفائدةِ العَظيمةِ الجليلةِ، ولو قال: إنَّ رحمةَ اللهِ قريبةٌ مِنَ المحسنينَ؛ لم يدُلَّ على قُربِه تعالى منهم؛ لأنَّ قُربَه تعالى أخَصُّ مِن قُربِ رَحمَتِه، والأعَمُّ لا يستلزِمُ الأخَصَّ، بخلافِ قُربِه؛ فإنَّه لَمَّا كان أخَصَّ استلزَمَ الأعَمَّ، وهو قُربُ رَحمَتِه[1].

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ١٨، ٣١).

الآيتان (٥٧-٥٨)

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧) وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (٥٨)﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿بُشْرًا﴾: أي: مُبَشِّراتٍ بالغَيثِ، والبُشرى تُطلَقُ على الإِخْبارِ بِمَا يَسُرُّ، وما يُعطَى للمُبَشِّرِ، وأصلُ (بشر): ظهورُ الشَّيءِ مع حُسْنٍ وجَمالٍ[1].

﴿أَقَلَّتْ﴾: أي: حمَلَتْ؛ يُقال: أقلَّ فلانٌ الشَّيْءَ واستقلَّ به: إذا أطاقَه وحمَلَه، وأَقْلَلْت كذا: وجدتَه قليلَ المحمَلِ أي: خفيفًا، وأصلُ (قلل): يدلُّ على نَزارةِ الشَّيءِ، وعلى الانزعاجِ الذي هو خِلافُ الاستقرارِ[2].

﴿خَبُثَ﴾: أي: رَدُؤَت تُرْبَتُه، ومَلُحَتْ مَشَارِبُه، والخُبْثُ والخَبيثُ: ما يُكرَهُ رداءةً وخَساسةً، مَحسوسًا كان أو معقولًا، وأصْل (خبث): يَدُلُّ على خِلافِ الطَّيِّبِ، وعلى الرَّدِيءِ[3].

﴿نَكِدًا﴾: قَلِيلًا عَسِرًا، أو عديمَ النَّفْعِ، والنكِدُ: كُلُّ شيءٍ خَرَجَ إلى طالِبِه بتعسُّرٍ[4].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص:٩١، ٩٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٩، ٤٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦١)، =

المَعْنَى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه هو الذي يُرسِلُ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ بنُزُولِ المَطَرِ، الذي يرحَمُ به خَلقَه، حتَّى إذا حمَلَت تلك الرِّياحُ سحابًا مُثقَلًا بالماءِ، ساقَه اللهُ لبَلَدٍ مَيِّتٍ، فأخرجَ به مِن جَميعِ الثَّمراتِ، فكَما يُحيِي هذا البَلَدَ المَيِّتَ بما يُنْزِلُ فيها مِنَ الماءِ، فيُخرِجُ به مِنَ الثَّمراتِ، بعد مَوتِه وجُدُوبَتِه وقُحُوطِ أهلِه، كذلك يُخرِجُ المَوتى مِن قُبورِهم أحياءً بعد فَنائِهم؛ لعَلَّكم - أيُّها النَّاسُ - تَعتَبِرونَ.

ثم أخبَرَ تعالى أنَّ الأرضَ الطَّيِّبةَ يخرُجُ نباتُها - بإذنِ اللهِ - سريعًا حَسَنًا طَيِّبًا، والأرضُ الرَّديئةُ لا يخرُجُ نَباتُها إلَّا خُروجًا عَسِرًا بطيئًا، مسلوبَ النَّفعِ والخَيرِ والبَرَكةِ، كذلك يُبيِّنُ اللهُ الآياتِ لِقَومٍ يَشكرونَ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لِتعَلُّقِ الآيةِ بما قَبلَها عِدَّةُ أوجُهٍ:

الأول: لما ذكَر اللهُ تعالى دلائلَ الإلهيَّة، وكمالَ العلمِ والقُدرة مِن العالمِ العُلوي، وهو السمواتُ والشَّمس والقمرُ والنُّجوم - أتبَعه بذكرِ الدَّلائلِ مِن بعضِ أحوالِ العالمِ السُّفلي(١).

الثاني: لَمَّا أقامَ اللهُ تعالى الدَّلالةَ في الآيةِ الأولى - والتي هي قَولُه تعالى:

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٨٦).

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾- على وُجُودِ الإلهِ القادِرِ العالِمِ، الحكيمِ الرَّحيمِ؛ أقام الدَّلالةَ في هذه الآيةِ على صِحَّةِ القَولِ بالحَشرِ والنَّشرِ والبَعثِ والقِيامةِ؛ ليحصُلَ بِمَعرفةِ هاتينِ الآيتينِ كُلُّ ما يُحتاجُ إليه في مَعرفةِ المَبدأِ والمَعَادِ[1].

الثالث: لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تعالى رَحمَتَه، وأنَّها قَريبٌ مِنَ المُحسنينَ، ذَكَّرَنا بما نغفلُ عنه كثيرًا مِنَ التفكُّرِ والتأمُّلِ في أظهَرِ أنواعِ رَحْمَتِه: وهو إرسالُ الرِّياحِ، وما فيها مِن مَنافِعِ الخَلقِ، وإنزالِ المَطَرِ، الذي هو مَصدَرُ الرِّزقِ، وسَبَبُ حياةِ كُلِّ حَيٍّ في هذه الأرضِ، وما فيه مِنَ الدَّلالةِ على قُدرَتِه تعالى على البَعثِ، وما يستحِقُّه عليه مِنَ الحَمدِ والشُّكرِ، فقال[2]:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿بُشْرًا﴾ قراءاتٌ؛ منها:

١- ﴿بُشْرًا﴾ جمعُ بَشيرٍ، مِنَ البِشارةِ، فالرِّيحُ تُبَشِّرُ بالمطَرِ[3].

٢- ﴿نُشُرًا﴾ جمع: ناشِرٍ، من النَّشْرِ، ضِد الطَّيِّ، وقيل: مِنَ النُّشُورِ بمعنى الإحياءِ، فجَعَلَ الرِّيحَ ناشِرةً للأرضِ، أي مُحْيِيةً لها؛ إذ تأتي بالمَطَرِ الذي يكونُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤١٣).

(٣) قرأ بها عاصم. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٥٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٥٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٨٦).

النَّباتُ به. وقيل (نُشُرًا) جمعُ: نشُورٍ، بمعنى: مَنشورٍ، أي: إنَّ الله تعالى أحيا الرِّيحَ؛ إذ بعَثَها لتأتِيَ بين يَدَيْ رَحْمَتِه، فهي ريحٌ منشورةٌ، أي مُحْياةٌ[1].

٣- ﴿نَشْرًا﴾ قيل: النَّشْرُ صِنْفٌ مِنَ الرِّيَاحِ الطَّيِّبَةِ اللَّيِّنةِ الَّتِي تُنشئُ السَّحَابَ، وقيل: مصدَرُ: نَشَرَت الرِّيحُ السَّحَابَ: نَشْرًا، فالمعنى: هو الذي يُرسِلُ الرِّياحَ ناشِرةً للسَّحابِ[2].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾.

أي: واللهُ الذي يُرسِلُ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ بنُزُولِ المَطَرِ، الذي يرحَمُ اللهُ به خَلْقَه[3].

كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ [الروم: ٤٦].

وقال سبحانه: ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾.

أي: حتَّى إذا حمَلَتْ هذه الرِّياحُ سَحابًا ثقيلةً، مِن كَثرةِ ما فيها مِنَ الماءِ؛ سُقْنا السَّحابَ إلى بَلَدٍ ذِي أرضٍ مَيِّتةٍ مُجدِبةٍ، لا نباتَ فيها، فأنزَلْنا فيها الماءَ يتقاطَرُ

(١) قرأ بها الحَرَميَّانِ وأبو عمرو. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٥٩).
ويُنظَرُ لِمَعنى هذه القراءة: ((الدر المصون)) (٥/ ٣٤٧) للسمين الحلبي، ((الكشف)) لمكي (١/ ٤٦٥).

(٢) قرأ بها حمزة والكسائي. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٥٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) ابن زنجلة (ص: ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٥٢ - ٢٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٨٠).

مِن ثُقُوبِ ذلك السَّحابِ، فأخرَجْنا بسبَبِه مِن كُلِّ أنواعِ الثَّمَراتِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٣].

وقال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ * لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٣٣ - ٣٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة: ٢٧].

﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

أي: كما أحيَيْنا البلَدَ المَيِّتَ بالماءِ، فأخرَجْنا به مِن كُلِّ الثَّمَراتِ؛ كذلك نُخرِجُ المَوتى مِن قُبورِهم أحياءً؛ لعلَّكم بما بَيَّنَّاه لكم تعتبرونَ، فتَستَدِلُّونَ به على قدرةِ اللهِ على البَعثِ، فإحياءُ الأمواتِ كإحياءِ الأرضِ بالنَّباتِ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٥٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤١٦ - ٤٢٤).
قال القرطبي: (يُقالُ: سُقْتُه لبلدِ كذا، وإلى بلدِ كذا. وقيلَ: لأجلِ بلدٍ مَيِّتٍ، فاللَّامُ لامُ أجلٍ). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٣٠).
قال ابن عاشور: (البلدُ الواحدُ يخرجُ ثمراتُه المعتادةُ فيه، فإذا نظرتَ إلى ذلك البلدِ خاصةً فاجعلِ استغراقَ كلِّ الثمراتِ استغراقًا عرفيًّا، أي مِن كلِّ الثمراتِ المعروفةِ في ذلك البلدِ، وحرفُ (مِن) للتبعيضِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٨٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٥٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٤٦)، ((الوسيط)) =

كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الزخرف: ١١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ * رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق: ٩-١١].

﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ هذه الآيةَ تضَمَّنَت تفصيلًا لمضمونِ جُملةِ: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾؛ إذ قد بيَّنَ فيها اختلافَ حالِ البَلَدِ الذي يُصيبُه ماءُ السَّحابِ، ودعا إلى هذا التَّفصيلِ أنَّه لَمَّا مَثَّلَ إخراجَ ثَمَراتِ الأرضِ بإخراجِ الموتى منها يومَ البَعثِ؛ تذكيرًا بذلك للمُؤمنينَ، وإبطالًا لإحالةِ البَعثِ عند المُشركينَ- مَثَّلَ هنا باختلافِ حالِ إخراجِ النَّباتِ مِنَ الأرضِ، اختلافَ حالِ النَّاسِ الأحياءِ في الانتفاعِ برحمةِ هُدى اللهِ(١)، فقال تعالى:

﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾.

أي: والأرضُ الطَّيِّبةُ تُربَتُها، يَخرُجُ نَباتُها- إذا أنزَلَ اللهُ المطَرَ- سريعًا حَسنًا

= للواحدي (٢/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٢٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٨٤).

طَيِّبًا، بإرادةِ اللهِ ومَشيئَتِه(١).

﴿وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾.

أي: والأرضُ الرَّديئةُ تُربَتُها، لا يخرُجُ نباتُها- إذا أنزَلَ اللهُ المَطَرَ- إلَّا خُروجًا عَسِرًا بَطيئًا، مسلوبًا منه النَّفعُ والخَيرُ، لا بَرَكةَ فيه(٢).

وعن أبي مُوسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، قال: ((إنَّ مَثَلَ ما بعثَني اللهُ به عزَّ وجلَّ مِنَ الهُدى والعِلمِ؛ كَمَثلِ غَيثٍ أصاب أرضًا، فكانت منها طائفةٌ طيِّبةٌ، قَبِلَتِ الماءَ، فأنبَتَتِ الكَلَأَ والعُشبَ الكثيرَ، وكان منها أجادِبُ(٣) أمسَكَتِ الماءَ، فنَفَعَ اللهُ بها النَّاسَ، فشَرِبوا منها وسَقَوْا ورَعَوْا، وأصابَ طائفةً منها أخرى، إنَّما هي قِيعانٌ(٤)؛ لا تُمسِكُ ماءً، ولا تُنبِتُ كَلَأً،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٥٦-٢٥٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٨٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٣٢).

قال ابن عاشور: (﴿والذي خَبُثَ﴾: حَمَلَه جميعُ المُفَسِّرينَ على أنَّه وَصفٌ للبَلَدِ، أي: البَلَدُ الذي خَبُثَ، وهو مقابِلُ البلدِ الطَّيِّبِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٨٥).

وروى ابنُ جريرٍ عن ابن عباس قال: (هذا مَثَلٌ ضَرَبه اللهُ للمُؤمِنِ؛ يقول: هو طَيِّبٌ، وعَمَلُه طَيِّبٌ، كما البلدِ الطَّيِّبِ ثَمَرُه طيِّبٌ، ثم ضربَ مَثَلَ الكافِرِ، كالبَلدةِ السَّبخةِ المالحةِ التي لا تَخرُجُ منها البركةُ، فالكافِرُ هو الخبيثُ، وعَمَلُه خبيثٌ). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٥٨).

وممَّن اختار ما ذهب إليه ابنُ عباس رضي الله عنهما: ابنُ جرير، وابنُ القيم، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٥٨)، ((إعلام الموقعين)) (١/ ١٠٨-١٠٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٣١-٤٣٢).

(٣) الأجادِبُ: الأرضُ الصُّلبةُ التي تُمسِكُ الماءَ؛ مِنَ الجَدْبِ، وهو القَحْطُ، سَمَّاها أجادِبَ؛ لأنَّها لِصَلابَتِها لا تُنبِتُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ٤٧)، ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٢٤٢)، ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (١/ ٢٣٤).

(٤) القِيعانُ: جمعُ قاعٍ، وهي الأرضُ المُستَوِيَةُ التي لا نَباتَ فيها. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ٤٧)، ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (١/ ٢٣٥).

فذلك مَثَلُ مَن فَقُه في دِينِ اللهِ، ونَفَعَه بما بعَثني اللهُ به، فعَلِمَ وعلَّم، ومَثَلُ مَن لم يَرفَعْ بذلك رأسًا، ولم يقبَلْ هُدى اللهِ الذي أُرسِلْتُ به))(١).

﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ﴾.

أي: ومِثلَما نوَّعْنا الآياتِ الدَّالَّةَ على إبطالِ الشِّركِ، وإثباتِ رُبوبيَّةِ اللهِ تعالى وألوهِيَّتِه، وعظيمِ قُدرَتِه على البَعثِ والنُّشورِ، وغير ذلك، ننوِّعُ أيضًا الآياتِ في كُلِّ ما يَحتاجُ إليه النَّاسُ، فنأتي بآيةٍ بعد آيةٍ، في أساليبَ مُختلفةٍ، لقومٍ يَشكرونَ اللهَ تعالى على نِعَمِه، معترفينَ بها ومُقِرِّينَ، ولله تعالى طائعينَ، فهم الذين ينتفعونَ بتلك الآياتِ، ويتَّعظونَ بالحُجَجِ والدَّلالاتِ(٢).

الفوائدُ التربويَّةُ:

١- الحِرصُ على التذكُّرِ والتفكُّرِ في آلاءِ اللهِ، والنَّظَرُ إليها بِعَينِ الاعتبارِ والاستدلالِ، لا بِعَينِ الغَفلةِ والإهمالِ؛ يُرشِدُنا إلى ذلك قَولُه تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(٣).

٢- قال تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ هذا مِثالٌ لِلقُلوبِ حينَ يَنزِلُ عليها الوَحيُ الذي هو مادَّةُ الحياةِ، كما أنَّ الغَيثَ مادَّةُ الحياةِ؛ فإنَّ القُلوبَ الطَّيبةَ حين يَجيئُها الوَحيُ، تَقبَلُه وتَعلَمُه، وتُنبِتُ بحَسَبِ طِيبِ أَصلِها، وحُسنِ

---

(١) رواه البخاري (٧٩) ومسلم (٢٢٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤١٤)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٣٧- ٤٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٢٩٢).

عُنصُرِها، وأمَّا القُلوبُ الخَبيثةُ التي لا خَيرَ فيها، فإذا جاءَها الوحيُ لم يجِدْ مَحَلًّا قابلًا، بل يجِدُها غافلةً مُعرِضةً، أو مُعارِضةً، فيكون كالمَطَرِ الذي يمُرُّ على السِّباخِ والرِّمالِ والصُّخورِ، فلا يؤثِّرُ فيها شيئًا، وهذا كَقَولِه تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا... ﴾ الآيات[1].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ ليس المقصودُ مُجَرَّدَ تفصيلِ أحوالِ الأرضِ بعد نُزولِ المَطَرِ؛ لأنَّ الغَرَضَ المسوقَ له الكلامُ يجمَعُ أمرينِ: العبرةَ بصُنعِ الله، والموعظةَ بما يماثِلُ أحوالَه، فكذلك يُخرِجُ اللهُ الموتى، وكذلك يَنتفِعُ برحمةِ الهُدى مَن خُلِقَت فِطرَتُه طيِّبةً قابلةً للهُدى، كالبلَدِ الطَّيِّبِ ينتَفِعُ بالمَطَرِ، ويُحرَمُ مِنَ الانتفاعِ بالهُدى مَن خُلِقَت فِطرَتُه خبيثةً، كالأرضِ الخبيثةِ لا تنتفِعُ بالمطرِ، فلا تُنبِتُ نباتًا نافعًا[2].

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ إجراءُ الرِّيحِ وانتشارُها من هاهنا وهاهنا أمامَ المَطَرِ مُبَشِّرةً به؛ مِن غرائِبِ صُنعِه عَزَّ وجَلَّ وعجائِبِه، ومن عظائِمِ نِعَمِه على خَلقِه، والمرادُ بالرَّحمةِ هنا: المطَرُ؛ لأنَّ المطَرَ رحمةُ اللهِ يرحَمُ بها عبادَه في الدُّنيا، فيكونونَ في جَدْبٍ وفي فَقرٍ، ومواشيهم على وشْكِ الهَلاكِ، فيُغيثُهم اللهُ بالمَطَرِ، فتَنْبُتُ زُرُوعُهم وثِمارُهم، وتَنعَمُ مواشِيهم؛ فتكثُرُ عندهم اللُّحومُ والأسمانُ والأزبادُ، وتتوفَّرُ عندهم الأشعارُ والأصوافُ والأوبارُ، يَنسِجونَ منها اللِّباسَ وغيرَه مِنَ الفُرُشِ والخِيامِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤١٥).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾ ريحُ المَطَرِ تكون لَيِّنةً؛ تجيءُ مرَّةً مِنَ الجَنوبِ، ومرَّةً مِنَ الشَّمالِ، وتتَفَرَّقُ في الجِهاتِ؛ حتى ينشَأَ بها السَّحابُ، ويتعَدَّدُ سحاباتٍ مبثوثةً؛ ومِن أجلِ ذلك عَبَّرَ عنها بصيغةِ الجَمعِ لتعَدُّدِ مَهابِّها[1].

٣- الإرسالُ المذكورُ في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ هو إرسالٌ كونيٌّ، ويقابلُه: الإرسالُ الدِّينيُّ، كما في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾[2] [الفتح: ٨].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ جاءت تَسمِيَةُ المَطَرِ بـالرَّحمةِ، على اعتبارِ أنَّ الرحمةَ أُضِيفَتْ إلى اللهِ تعالى هاهنا إضافةَ المفعولِ إلى فاعِلِه، لا إضافةَ الصِّفةِ إلى الموصوفِ، فهذه رحمةٌ مخلوقةٌ مضافةٌ إليه إضافةَ المخلوقِ بالرَّحمةِ إلى الخالِقِ تعالى، وعليه فلا يمتنعُ الدعاءُ المشهورُ بين النَّاسِ قديمًا وحديثًا، وهو قولُ الدَّاعي: «اللَّهُمَّ اجمَعْنا في مُستَقَرِّ رَحْمَتِكَ» والمقصودُ به الجنَّةُ[3].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ لَمَّا دَلَّ على العَظَمةِ بالجَمعِ في كلمةِ ﴿سَحَابًا﴾ وحَقَّقَ الأمرَ بالوَصفِ في قوله ﴿ثِقَالًا﴾- أفرَدَ اللَّفظَ، فقال ﴿سُقْنَاهُ﴾-ولم يقل: سُقْناها- وذلك دَلالةً على غايةِ العَظَمةِ بسَوقِه مُجتَمِعًا؛ كأنَّه قِطعةٌ واحدةٌ، لا يفترِقُ جُزءٌ منه عن سائِرِه؛ إذ لو تفرَّقَ لاختَلَّ أمرُه[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٧٩).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٢٦٩).
(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٨٣).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٢٢).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ دلالةٌ على إثباتِ الأسبابِ والطَّبائعِ؛ حيث أخبرَ سُبحانَه أنَّ الرِّياحَ تَحمِلُ السَّحابَ؛ فجعل هذا الجمادَ فاعلًا بطَبعِه(١).

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ نِسبةُ السَّوقِ إليه تعالى بنُونِ العَظَمةِ؛ التفاتًا لِمَا في المطَرِ مِن عَظيمِ المِنَّةِ؛ إذ هو مِن أجَلِّ النِّعَمِ وأحسَنِها أثَرًا(٢).

٨- اللَّامُ في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ لامُ العِلَّةِ؛ أي: لأجلِ بَلَدٍ مَيِّتٍ، وفي هذه اللَّامِ دَلالةٌ على العِنايةِ الرَّبانيَّةِ بذلك البَلَدِ؛ فلذلك عُدِلَ عَن تعدِيَةِ ﴿سُقْنَاهُ﴾ بِحَرفِ (إلى)(٣)، وهذا على أحدِ القولينِ في (اللامِ).

٩- لَمَّا كانَ ذلك موضِعَ قُربِ رَحمةِ اللهِ، وإظهارِ إحسانِه، ذكَرَ أخَصَّ الأرض وهو البَلَدُ؛ حيث مُجتَمَعُ النَّاسِ، ومكانُ استِقرارِهم، فقال: ﴿سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ﴾(٤).

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ الاستغراقُ في قَولِه ﴿كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ استغراقٌ حقيقيٌّ؛ لأنَّ البَلَدَ المَيِّتَ ليس مُعَيَّنًا، بل يشمَلُ كُلَّ بلدٍ مَيِّتٍ يَنزِلُ عليه المَطَرُ، فيحصُلُ مِن جميعِ أفرادِ البلَدِ المَيِّتِ جميعُ الثَّمَراتِ، قد أخرَجَها اللهُ بواسطةِ الماءِ(٥).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ١٩٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٢٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٨٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٧٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٨٣).

إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ بيانُ أنَّ إخراجَ النَّباتِ بالماءِ هو ممَّا يُتذكَّرُ به إخراجُ الموتى من قُبُورِهم(١).

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ أي: بِمَشيئَتِه وتَيسيرِه، وخُصَّ خروجُ نَباتِ الطَّيِّبِ بذلك، وإن كان كِلَا النَّباتَينِ يَخرُجُ بإذنِه تعالى؛ مدحًا وتشريفًا لنَباتِ الطَّيِّبِ، وتنبيهًا على كَثرَتِه وحُسْنِه وغزارةِ نَفعِه، وكذلك لِنِسبَةِ الإسنادِ الشَّريفةِ الطَّيِّبةِ إليه تعالى(٢).

١٣- قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ مَن استقَرَّ فيه وصْفُ الخَبيثِ يَبعُدُ عنه النُّزُوعُ إلى الخَيرِ(٣).

١٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ خَصَّ كَونَها آياتٍ بالقَومِ الشَّاكرينَ؛ لأنَّهم هم المُنتَفِعونَ بسَماعِ القُرآنِ(٤).

١٥- قال اللهُ تعالى: ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، ثمَّ قال في الآيةِ التي تليها: ﴿كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾، فعَبَّر بالشُّكرِ في الآيةِ التي مَوضوعُها الاهتداءُ بالعِلمِ والعَمَلِ والإرشادِ، وعَبَّر بالتَّذكيرِ في الآيةِ التي موضوعُها الاعتبارُ والاستدلالُ(٥).

(١) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ٣٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٧٩)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٨٣).
وقال ابنُ عاشورٍ: (أشار إلى طِيبِ نباتِه بأنَّ خُروجَه بإذنِ رَبِّه، فأُريدَ بهذا الإذنِ إذنٌ خاصٌّ، هو إذنُ عنايةٍ وتَكريمٍ، وليس المرادُ إذنَ التَّقديرِ والتَّكوينِ؛ فإنَّ ذلك إذنٌ مَعروفٌ، لا يتعلَّقُ الغَرَضُ ببيانِه في مثلِ هذا المقام). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٩٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٢٨).

بَلاغةُ الآيتَين:

١- قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ جملةٌ عُطِفتْ على جملةِ ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾، وقد حصَلتِ المناسبةُ بينَ آخِرِ الجُمَلِ المعترَضةِ ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ وبينَ الجملةِ المُعترَضِ بينها وبين ما عُطِفتْ عليه، بأنَّه لَمَّا ذَكَر قُرْبَ رحمتِه من المحسنِين ذَكَر بعضًا من رحمتِه العامَّة، وهو المطرُ(١).

- وفيه: تعريضٌ ببشارةِ المؤمنينَ بإغداقِ الغَيثِ عليهم، ونذارةِ المشرِكينَ بالقَحطِ والجُوعِ(٢).

- وقولُه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾ قُصِدَ منه تَقريعُ المشركينَ، وتفنيدُ إشراكِهم، ويَتْبعُه تذكيرُ المؤمنين، وإثارةُ اعتبارِهم؛ لأنَّ الموصولَ ﴿الَّذِي﴾ دلَّ على أنَّ الصِّلةَ ﴿يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾ معلومةُ الانتسابِ للموصولِ؛ لأنَّ المشركين يَعلمون أنَّ للرِّياحِ مُصرِّفًا، وأنَّ للمطرِ مُنزِلًا، غير أنَّهم يَذْهَلون أو يَتَذاهلون عن تَعيينِ ذلك الفاعِلِ؛ ولذلك يَجيئون في الكلامِ بأفعالِ نُزولِ المطرِ مَبنيَّةً إلى المجهولِ غالبًا، فيقولون: مُطِرْنا بنَوءِ كذا، فأخبر الله تعالى بأنَّ فاعِلَ تلك الأفعالِ هو اللهُ، وذلك بإسنادِ هذا الموصولِ إلى ضَميرِ الجلالةِ في قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾؛ فالخبرُ مسوقٌ لتعيينِ صاحبِ هذه الصِّلة، فهو بمنزلةِ الجوابِ عن استفهامٍ مقصودٍ منه طلبُ التَّعيينِ(٣).

- وفي قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٨١).

مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال تعالى هُنا في سُورةِ الأعراف: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ﴾ على لفْظِ المُستقْبَلِ (المضارِع)، وكذلك في سُورة الروم قال: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾ [الروم: ٤٨]، بَينما قال في سُورةِ الفرقان: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الفرقان: ٤٨]، على لَفْظِ الماضِي، وكذلِك في سُورةِ فاطِرٍ، حيث قال: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ﴾ [فاطر: ٩]؛ وذلك لأنَّ الآيَة التي هنا في سورةِ الأعرافِ جاءَ فيها ﴿يُرْسِلُ﴾ بلفظِ المُستقْبَلِ (المضارِع)؛ لأنَّ قَبْلَها: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: ٥٥- ٥٦]؛ فكان في ذلك بَعْثٌ على الدُّعاءِ والتضرُّع، وتعليقُ الخوفِ والطمعِ بما يكونُ منه مِن الرحمةِ وصنوفِ ما رَزَقَ اللهُ الخَلْقَ مِن النِّعم؛ فكان لفظُ المستقبَل أشْبهَ بموضِعِ الخوفِ والطَّمْعِ للدَّاعين، وأدْعى لهم إلى الدُّعاءِ(١).

وقيل: المناسبةُ أنَّ آيَةَ الأعرافِ لَمَّا تَقدَّمها قولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فذَكَر سُبحانَه ما تَقرَّر وتَحصَّل مِن خَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ ممَّا لا تَكرُّرَ فيه، فلمَّا ذَكَر تعالى مِن هذه الأفعالِ العَظيمةِ ما ذَكَر مِمَّا لا يَتكرَّر، أعْقَبَ سبحانه بما يَتكرَّرُ ويَتوالَى مِن إنعامِه على الخليقةِ، ممَّا به قِوامُ أحوالِهم ومصالِحِ عَيْشِهم؛ فقال سُبحانَه: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾، وأَمَرَ عِبادَه بالدُّعاءِ والتضرُّعِ إليه، وحذَّرَهم وذَكَّرهم باستصحابِ الخوفِ، ثم رجَّاهم بقُربِ رحمتِه ممَّن أحْسَن، ثم عادَ الكلامُ إلى التذكيرِ بجليلِ المتوالي مِن إنعامِه وعظيمِ ألْطافِه،

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٥٨٩-٥٩٠)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٢٠).

فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾؛ فانتظَمَ آخِرُ الكلامِ بأوَّلِه، وارتبَطَ عَودُه ببَدْئِه، وتناسَب أوضحَ تَناسُبٍ بما يُفْهِمُه الفِعلُ المضارِعُ مِن التَّكرُّرِ مِن حيثُ لا يمنع ذلك. وعلى هذا النحوِ جرَى الواردُ في سُورةِ الرُّوم في قوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾ [الروم: ٤٨]؛ فإنَّه جاءَ قَبْلَه قولُه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم: ٤٦]، ثمَّ اعترَض بقولِه تأنيسًا لرسولِه ووعدًا بنَصْرِه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، ثمَّ عادَ الكلامُ إلى إتمامِ ما تقدَّم ممَّا يُرسِلُ سبحانه به ولأجْلِه الرِّياحَ، فقال بصورةِ الاستئنافِ لأجْلِ آيةِ الاعتراضِ: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾ [الروم: ٤٨]، وأَوْردَ مِن النِّعمِ بها ما ذُكِر قبلُ، وجاءَ بلفظِ الاستقبالِ؛ لأنَّه مِن تَتْميم ما تَقدَّم وليناسبَه، ولو جاءَ بلفظ الماضِي لَمَا ناسَبَ[1].

أمَّا في سورةِ الفُرقانِ، فمجيءُ هذا اللَّفظِ فيها بلفظِ الماضي؛ فلأنَّ قبلَ الآيةِ قَوْلَه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا * ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٥ - ٤٧] ثم قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الفرقان: ٤٨]؛ فلمَّا عدَّدَ أنواعَ ما أَنْعَم به، كان إرسالُ الرِّياحِ مِن جُملةِ عَدِّه مع ما تَقدَّمه، وأخبر منه عمَّا فَعَلَه وأَوْجَدَه؛ فكان الماضِي أليَقَ به[2]. وأمَّا في سُورة فاطر، واختيارُ لفظِ الماضي فيها على المستقبَلِ؛ فلأنَّ أوَّلَها: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٥٩١)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٨٢-١٨٤).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٥٩٠)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٢٠).

رُسُلًا﴾ [فاطر: ١]، بمعنى: فَطَر وجَعَل، وهُما بمعنى الماضِي لا غيرُ، ولم يقعْ بعدَ هذا ذِكرٌ مقصودٌ به الاعتبارُ مِن مخلوقاتِه سبحانَه، ممَّا نَصَبَه دالًّا عليه إلَّا قوله: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ﴾ [فاطر: ٩]؛ فأَتْبَعَه ما كان مِن جِنسِه ممَّا فعل، فكان اختيارُ لفظ الماضي هاهنا لموافقةِ اسمِ الفاعلِ معنًى ومُناسبتِه، ولا يُناسِبُه المستقبلُ(١).

- ومِن المُناسَبةِ الحَسَنةِ كذلِك أنَّه قال تعالى هنا في سورةِ الأعراف: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾؛ فوصَف الرِّياحَ وأتْبعَها بقولِه: ﴿بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾، وكذلك وقَعَ في سورةِ الفُرقان: قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الفرقان: ٤٨]، ولم يَرِدْ ذلك في سُورتَي الروم وفاطر؛ وذلك لمناسبةٍ حَسَنةٍ؛ فآيةُ الأعراف قد تقدَّمها قولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ...﴾، ثمَّ قال: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ وقال: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ ثم قال: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾، وفي هذا كلِّه استلطافٌ، ونحوُه قولُه سبحانَه في سورة الفرقان: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٥]، ثمَّ قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٧]؛ فهذا أعظمُ استلطافٍ؛ فناسَب الواردَ في السُّورتَينِ مِن هذا قولُه تعالى عقِبَ إرسالِ الرِّياح: ﴿بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾، ولَمَّا لم يَرِدْ في سورةِ الرُّوم ولا في سُورةِ فاطِر مثلُ هذا الاستلطافِ ولا بَعضُه، لم يُتْبَعْ ذِكرُ إرسالِ الرِّياحِ بما أُتْبِع في آيتَي الأعراف والفرقان؛ إذ لم يكُنْ ذلك ليُناسِب، فجاءَ كلٌّ على ما يُناسِب(٢).

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٥٩١-٥٩٢)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٨٤-١٨٥).

٢- قولُه: ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ مُعترِضةٌ؛ استطرادًا للمَوعظةِ والاستدلالِ على تَقريبِ البَعثِ الذي يَستبْعِدونَه(١).

٣- قولُه: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾

- قولُه: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ المقصودُ مِن هذه الآيةِ التَّمثيلُ، وليس المقصودُ مُجرَّدَ تَفصيلِ أحوالِ الأرضِ بعدَ نُزولِ المطرِ، أي: كذلِكَ نُخرِجُ الموتَى، وكذلك يَنتفِعُ برَحمةِ الهُدَى مَن خُلقت فِطرتُه طيِّبةً قابلةً للهُدَى، كالبلدِ الطيِّبِ يَنتفِعُ بالمطرِ، ويُحرَم مِن الانتفاعِ بالهُدَى مَن خُلِقت فِطرتُه خَبيثةً، كالأرضِ الخبيثةِ لا تَنتفِعُ بالمطرِ؛ فلا تُنبِتُ نَباتًا نافعًا(٢).

- وفي هذِه الآيةِ احتِباكٌ؛ إذ لم يُذْكَرْ وصْفُ الطيِّبِ بعدَ نباتِ البَلَدِ الطيِّب، ولم تُذكَرِ الأرضُ الخَبيثةُ قبلَ ذِكرِ النَّباتِ الخبيثِ؛ لدَلالةِ كِلَا الضِّدَّينِ على الآخَر، والتقديرُ: والبلدُ الطيِّبُ يخرُج نباتُه طيِّبًا بإذنِ ربِّه، والنباتُ الذي خَبُثَ يَخرُج نَكِدًا مِن البَلدِ الخَبيثِ، وهذا صُنعٌ دَقيقٌ في الكلامِ البَليغِ(٣).

- قولُه: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ﴾ (الطيِّبُ) وصفٌ على وزن (فَيْعِل)، وهي صيغةٌ تَدلُّ على قُوَّةِ الوصفِ في الموصوفِ(٤).

- قولُه: ﴿وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ فيه حَصْرُ خُروجِ نَباتِ الذي خَبُثَ على حالةِ النكدِ؛ وهو مبالغةٌ شديدةٌ في كونِه لا يكونُ إلَّا هكذا، ولا يُمكِنُ أنْ يُوجَدَ إلَّا نَكِدًا(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٨٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٨٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٨٠).

الآيات (٥٩-٦٤)

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿الْمَلَأُ﴾: أي: أشرافُ النَّاسِ ووجُوهُهم؛ أو الجماعةُ يَجتمعونَ على رأيٍ، فيملؤون العيونَ منظرًا، والنُّفوسَ بهاءً وجلالًا، ويقالُ: فلانٌ ملءُ العيونِ، أي: معظَّمٌ عندَ مَن رآه، وأصلُ (ملأ) يدلُّ على المساواةِ، والكمالِ في الشَّيءِ[١].

﴿عَمِينَ﴾: أي: عَمِيَتْ قلوبُهم عَن مَعرفةِ اللهِ تعالى، والعَمُون جمعُ العَمِيِّ، وهو مَن قَلْبُه أعمَى، لا يعرِفُ الحقَّ، والعَمَى يُقالُ في افتِقادِ البَصَرِ والبَصيرةِ، وأصلُ (عمي): يدلُّ على السَّترِ والتَّغطِيةِ[٢].

المَعْنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه أرسَلَ نُوحًا إلى قَومِه؛ ليدعُوَهم إلى عبادةِ اللهِ وَحدَه، وتَرْكِ عبادةِ ما سِواه، فقال لهم: اعبُدُوا اللهَ وَحدَه، ليس لكم مَعبودٌ يستحِقُّ العبادة

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١ / ٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١ / ٤١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥ / ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٨٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٧٠).

غَيرُه، إنِّي أخافُ عليكم عذابَ يومِ القِيامةِ، فقالَ الرُّؤَساءُ المُتكَبِّرونَ مِن قَومِه: إنَّا لَنَراكَ- يا نوحُ- في ضلالٍ واضِحٍ بَيِّنٍ.

قال: يا قومِ لسْتُ ضالًّا حين دَعَوتُكم إلى التَّوحيدِ، ونَهَيتُكم عن الشِّركِ، ولكنِّي مُرسَلٌ إليكم مِن رَبِّ العالَمينَ، أبَلِّغُكم ما أرسَلَني ربِّي به، وأنصَحُ لكم، وأعلَمُ بما أوحى إليَّ رَبِّي ما لا تعلمونَه أنتم، وهل عَجِبْتُم مُستبعِدِينَ أنْ يأتِيَكم تذكيرٌ مِن رَبِّكم على رَجُلٍ مِنكم؛ لأجْلِ أنْ يُخَوِّفَكم مِن عُقوبةِ رَبِّكم على كُفْرِكم، ولكي تَتَّقُوا، ولعلَّكم تُرحَمونَ إن أطَعْتُم اللهَ ورسولَه.

ثم أخبَرَ الله تعالى أنَّهم كَذَّبوا نُوحًا، فأنجاه، وأنجى كلَّ الذين حمَلَهم معه على السَّفينةِ، وأغرَقَ الَّذينَ كَذَّبوا بآياتِه؛ إنَّهم كانوا قومًا قد عَمُوا عن رؤيةِ الحَقِّ، ولم يُبصِرُوه بقُلوبِهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تعالى في تقريرِ المَبدَأِ والمَعادِ دلائِلَ ظاهرةً، وبَيِّناتٍ قاهرةً، وبراهينَ باهرةً- أتبَعَها بذِكرِ قَصَصِ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ، وفيه فوائِدُ:

أحَدُها: التَّنبيهُ على أنَّ إعراضَ النَّاسِ عَن قَبُولِ هذه الدَّلائِلِ والبَيِّناتِ، ليس مِن خَواصِّ قَومِ محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، بل هذه العادةُ المَذمومةُ كانت حاصِلةً في جميعِ الأُمَمِ السَّالفةِ، والمُصيبةُ إذا عَمَّتْ خَفَّتْ، فكان ذِكْرُ قَصَصِهم، وحِكايةُ إصرارِهم على الجَهلِ والعِنادِ؛ يفيدُ تَسليةَ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وتخفيفَ ذلك على قَلْبِه.

ثانيها: أنَّه تعالى يَحكِي في هذا القَصَصِ أنَّ عاقِبَةَ أمرِ أولئك المُنكِرينَ كان إلى الكُفْرِ واللَّعنِ في الدُّنيا، والخَسَارةِ في الآخِرَةِ؛ وعاقِبَةَ أمْرِ المُحِقِّينَ إلى الدَّولةِ في الدُّنيا، والسَّعادةِ في الآخِرَةِ، وذلك يُقَوِّي قُلوبَ المُحِقِّينَ، ويَكسِرُ قُلوبَ المُبطِلِينَ.

ثالثها: التَّنبيهُ على أنَّه تعالى وإن كان يُمهِلُ هؤلاءِ المُبطِلِينَ، ولكِنَّه لا يُهمِلُهم، بل ينتَقِمُ منهم على أكمَلِ الوُجوهِ.

رابعها: بيانُ أنَّ هذه القصَصَ دالَّةٌ على نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لأنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كان أمِّيًّا، وما طالَعَ كِتابًا ولا تتلمذَ على أستاذٍ، فإذا ذَكَرَ هذه القصصَ على هذا الوَجهِ مِن غير تحريفٍ ولا خَطَأٍ؛ دلَّ ذلك على أنَّه إنَّما عَرَفَها بالوَحيِ مِنَ اللهِ، وذلك يدُلُّ على صِحَّةِ نُبُوَّتِه[1].

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾.

أي: أُقسِمُ على أنَّنا بَعَثْنا نوحًا عليه السَّلامُ إلى قَومِه المُشركينَ؛ ليدعُوَهم إلى عبادةِ اللهِ وَحدَه، وينهاهم عن عبادةِ غَيرِه، فقال لهم: يا قومِ اعبُدُوا اللهَ وَحدَه، ليس لكم معبودٌ يَستحِقُّ العبادةَ غَيرُه، فلا تُشرِكوا به شيئًا[2].

﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

أي: إنِّي أخافُ عليكم- إنْ لم تُوَحِّدُوا اللهَ وأشرَكْتُم في عِبادَتِه غَيرَه، ومُتُّمْ على ذلك- عذابَ يومِ القِيامةِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٦٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٤٣-٤٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٦٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٥١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود: ٢٥-٢٦].

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾.

أي: قال الأشرافُ والرُّؤساءُ المُتكبِّرونَ عَنِ الحَقِّ مِنْ قَومِ نُوحٍ، حين دَعاهم إلى إفرادِ اللهِ بالعِبادةِ: إنَّا لَنَعتقِدُ أنَّك- يا نوحُ- في خطأٍ، وذَهابٍ عَنِ الحَقِّ بيِّنٍ وواضحٍ؛ حيث تدعُونا إلى عبادةِ اللهِ وَحدَه، وتَرْكِ ما كان يعبُدُ آباؤُنا[1].

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾﴾.

أي: قال نوحٌ لِقَومِه: يا قومِ لستُ في حَيدةٍ عَن طَريقِ الحَقِّ حين دَعَوتُكم إلى توحيدِ اللهِ، ونَهَيتُكم عَنِ الشِّركِ به، ولكنِّي مُرسَلٌ إليكم مِنَ الذي خلَقَ كُلَّ شَيءٍ، وهو مالِكُه ومُدَبِّرُ شُؤونِه[2].

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا نَفى نُوحٌ عليه السَّلامُ عَن نَفسِه العَيبَ الذي وَصَفوه به، ووصَفَ نَفسَه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٦١)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٥٣).

قال السَّمينُ الحلبي: (والملأُ: الأشرافُ، سُمُّوا بذلك لأنَّهم يَملؤُون العُيونَ هَيبةً، أو المجالِسَ إذا حَضَروا، أو لأنَّهم مَليئونَ بما يُحتاجُ إليهم فيه. وقال الفرَّاء: الملأُ: الرِّجالُ، في كلِّ القُرآنِ، وكذلك القَومُ والرَّهطُ والنَّفَرُ). ((الدر المصون)) (٢/ ٥١٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤١٥)، ((تفسير القرطبي)) (٣/ ٢٤٣).

وقال ابنُ عاشور: (الرُّؤيةُ قلبيةٌ بمعنى العِلمِ، أي: إنَّا لَنُوقِنُ أنَّك في ضلالٍ مُبينٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٨٠).

بأشرَفِ الصِّفاتِ وأجَلِّها، وهو كَونُه رسولًا إلى الخَلقِ مِن ربِّ العالَمينَ- ذَكَرَ ما هو المقصودُ مِنَ الرِّسالةِ، وهو أمرانِ: الأول: تبليغُ الرِّسالةِ، والثاني: تقريرُ النَّصيحةِ(١)، فقال:

﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ ﴾.

أي: وَظيفَتي أن أُوصِلَ إليكم الرِّسالةَ التي أرسَلَني اللهُ بها، وهي أمْرُكم بتوحيدِه، ونَهيُكم عن الشِّركِ به، ودَعْوَتُكم لِطاعَتِه، وأنا أبغي لكم بذلك الخَيرَ في الدُّنيا والآخِرةِ(٢).

كما قال تعالى عن نُوحٍ عليه السَّلامُ: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [نوح: ٢ - ٤].

وقال سبحانه حاكيًا قَولَ نُوحٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠- ١٢].

﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

أي: وأعلَمُ- بما أَوْحى اللهُ إليَّ؛ مِن أسمائِه وصِفاتِه وأفعالِه، كمَغفِرَتِه

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٦٢)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٥٥، ٤٨٢).
قال أبو السعود: (وجَمَعَ ﴿رِسَالَاتِ﴾ لاختلافِ أوقاتِها، أو لتنَوُّعِ مَعانيها). ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٣٦).
وقال محمد رشيد رضا: (جَمعُ الرِّسالةِ باعتبارِ مُتعَلِّقِها وموضوعِها، وهو متعَدِّد: منه العقائِدُ، وأهمُّها التوحيدُ المُطلَق الذي بدأ به، ويَتلُوه الإيمانُ باليَومِ الآخِرِ، وبالوحيِ والرِّسالةِ، وبالملائكةِ والجنَّةِ والنَّارِ، وغيرِ ذلك، ومنه الآدابُ والحِكَمُ، والمواعِظُ والأحكامُ العَمَليَّةُ من عباداتٍ ومُعاملاتٍ). ((تفسير المنار)) (٨/ ٤٣٨). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٤٧).

للتَّائبينَ، وشِدَّةِ بأسِه على المُشركينَ، وعَدَمِ تأخيرِ عذابِه عنهم إذا جاءَ، وغيرِ ذلك- ما لا تعلَمُونَه(١).

كما قال تعالى عن نوحٍ عليه السَّلامُ: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح: ٢-٤].

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾.

أي: هل تعَجَّبتُم مُستبعِدينَ أن يَجيئَكم تذكيرٌ مِنَ اللهِ، أنزَلَه على رَجُلٍ مِنَ البَشَرِ، تعرفونَ نَسَبَه وصِدقَه؟ أي: فكيفَ تَعجَبونَ مِمَّا لا ينبغي العَجَبُ منه؟! فليس بعَجَبٍ أن يُوحِيَ اللهُ إلى رجُلٍ منكم؛ رحمةً بكم، وإحسانًا إليكم(٢).

كما قال الله تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٢٤- ٢٥].

﴿لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

أي: لأجْلِ أن يُخَوِّفكم عِقابَ اللهِ على كُفرِكم به، ولكي تَجعَلوا بينكم وبينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٦٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٣٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٣٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٦٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٩٩)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٥٨).

عِقابِه وقايةً؛ بتوحيدِه، وامتثالِ أوامِرِه، واجتنابِ نَواهِيه، ولكي يرحَمَكم ربُّكم إن أطَعتُم اللهَ ورَسُولَه(١).

كما قال تعالى عن نوحٍ عليه السَّلامُ: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [نوح: ٢ - ٤].

وقال سبحانه: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ (٦٤)﴾.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾.

أي: فتمادى قومُ نُوحٍ في تكذيبِ رَسُولِهم نوحٍ عليه السَّلامُ، فأنجيناه والَّذينَ حَمَلَهم معه في السَّفينةِ مِنَ المُؤمنينَ، ومِن كُلِّ ذَكَرٍ وأنثى مِن أصنافِ الحَيَواناتِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ* فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٤-١٥].

وقال سبحانه: ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٦٢ - ٢٦٣)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٥٨ - ٤٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٦٣)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٧-١٩٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٦٠-٧٦٧).

الْبَاقِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١١٩-١٢٢].

﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾.

أي: وأغرَقْنا بالطُّوفانِ جَميعَ الكُفَّارِ، الذين كذَّبوا بآياتِنا(١).

كما قال تعالى: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ [نوح: ٢٥].

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾.

أي: إنَّ الكُفَّارَ الذين كذَّبُوا نُوحًا، قد عَمُوا عَنِ الحَقِّ، فلم يُبصِرُوه بقُلوبِهم، ولم يَهْتدوا له(٢).

كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وقال سُبحانه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

الفوائدُ التربويَّةُ:

١- التَّوحيدُ أوَّلُ دَعوةِ الرُّسُلِ، وأوَّلُ مَنازِلِ الطَّريقِ، وأوَّلُ مَقامٍ يقومُ فيه السَّالِكُ إلى اللهِ تعالى؛ قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، وقال هودٌ لِقَومِه: ﴿اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٦٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٧٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٦٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٧٠).

غَيْرُهُ﴾، وقال صالحٌ لِقَومِه: ﴿اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، وقال شُعَيبٌ لِقَومِه: ﴿اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[(١)] [النحل: ٣٦].

٢- يُستفادُ مِن قوله تعالى: ﴿يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ﴾ أنَّه ليس لهم إلهٌ ما يستحِقُّ أن يُوَجَّهَ إليه نَوعٌ ما مِن أنواعِ العبادةِ، لا لِرجاءِ النَّفعِ، أو دَفعِ الضَّررِ منه لِذاتِه، ولا لأجلِ تَوَسُّطِه وشفاعَتِه عند اللهِ تعالى، بل الإلهُ الحَقُّ الذي يستحِقُّ أن تتوجَّهَ القلوبُ إليه بالدُّعاءِ وغَيرِه، هو اللهُ وَحدَه- سُبحانَه وبِحَمدِه[(٢)].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فائدةُ حَرفِ التَّرَجِّي التَّنبيهُ على أنَّ الرَّحمةَ مِنَ اللهِ تعالى مَحضُ تَفضلٍ، وأنَّ المُتَّقي ينبغي ألَّا يَعتمِدَ على تقواه، ولا يأمَنَ مِن عذابِ اللهِ[(٣)].

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ يُفيدُ أنَّ أوَّلَ الواجِباتِ التَّوحيدُ، وما عدا هذا مِن الأقوالِ، فخَطَأٌ، كقَولِ مَن يَقولُ: أوَّلُ الفُروضِ النَّظَرُ، أو القَصْدُ إلى النَّظَرِ، أو المعرفةُ، أو الشَّكُّ الذي يُوجِبُ النَّظَرَ. فكُلُّ هذه الأقوالِ خَطأٌ[(٤)].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ ذكَرَ أوَّلًا قولَه:

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٤١١)، وينظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ١٧٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٣٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٨٥).
(٤) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٥٤).

﴿اعْبُدُوا اللهَ﴾، وثانيًا قَولَه: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ وذلك لمناسَبةٍ حَسنةٍ؛ فالثَّاني كالعِلَّةِ للأوَّلِ؛ لأنَّه إذا لم يكُنْ لهم إلهٌ غيرُه، كان كلُّ ما حصَلَ عندهم مِن وُجوهِ النَّفعِ والإحسانِ، والبِرِّ واللُّطفِ؛ حاصلًا مِنَ اللهِ، ونهايةُ الإنعامِ تُوجِبُ نهايةَ التَّعظيمِ(١).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، وكذلك قولُه: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾، ناداهم بـ ﴿يَا قَوْمِ﴾ مُضافةً إليه؛ لتذكيرِهم بآصِرَةِ القَرابةِ، ليتحقَّقوا أنَّه ناصِحٌ، ومُريدٌ خَيرَهم، ومُشفِقٌ عليهم، وأنَّه لا يُريدُ بهم ولا لهم إلَّا الخَيرَ(٢). وقيل: عبَّر بذلك؛ لأنَّه لم يكنْ لهم اسْمٌ خاصٌّ مِن أسماءِ الأُمَمِ يُعرفونَ به، فالتَّعريفُ بالإضافةِ هنا؛ لأنَّها أخصَرُ طريقٍ في الدَّلالةِ على هذا المقصِدِ(٣).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ إنذارٌ مُستأنَفٌ عُلِّلَ به الأمرُ بعبادةِ اللهِ تعالى وَحدَه، المُستلزِمُ لِتَرْكِ أدنى شوائِبِ الشِّرك بها، وبيانٌ لعقيدةِ البَعثِ والجزاءِ، وهي الرُّكنُ الثَّاني مِن أركانِ الإيمانِ بعد التَّسليمِ بالرِّسالةِ(٤).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ حَكَموا بضَلالِ نُوحٍ- حاشاه ذلك عليه السَّلامُ- وأكَّدوه بالتَّعبيرِ بالرُّؤيةِ؛ كأنَّ كُلَّ واحدٍ منهم يعتقِدُ ذلك اعتقادًا، هو في الثِّقةِ به كالرُّؤيةِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٨٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٣٧).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٢٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٣٦).

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فيه التَّنبيهُ بِقَولِه ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على أنَّه تعالى هو المالِكُ لأمُورِهم، النَّاظِرُ لهم بالمَصلحةِ؛ فلأجْلِ ذلك وَجَّهَ إليهم رَسولًا يَدعُوهم إلى إفرادِه بالعِبادةِ[1].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، قال أوَّلًا: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾ وهذا مبدأُ أمرِه معهم، وهو التَّبليغُ، ثمَّ قال: ﴿وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾ أي أُخلِصُ لكم في تَبيينِ الرُّشدِ، والسَّلامةِ في العاقِبةِ، إذا عَبَدتُم اللهَ وَحدَه، ثمَّ قال: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ مِن بَطشِه بكم، وهو مآلُ أمرِكم إذا لم تُفرِدُوه بالعِبادة؛ ففي هذا التَّرتيبِ أحسَنُ سياقٍ؛ إذ نبَّه على مبدأِ أمرِه ومُنتَهاه معهم[2].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ﴾ قولُه: ﴿مِنْكُمْ﴾ أي: تَعرِفونَ نَسَبَه، فهو منكم نَسَبًا، وذلك لأنَّ كَونَه منهم يُزيلُ التَّعجُّبَ؛ لأنَّ المَرءَ بمَن هو مِن جِنسِه أعرَفُ، وبطهارةِ أحوالِه أعلَمُ، وبما يقتضي السُّكونَ إليه أبصَرُ[3].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بَيَّنَ تعالى ما لأجلِه يُبعَثُ الرَّسولُ، فقال: ﴿لِيُنْذِرَكُمْ﴾، وما لأجلِه يُنذِرُ، فقال: ﴿وَلِتَتَّقُوا﴾، وما لأجلِه يتَّقونَ، فقال: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، وهذا الترتيبُ في غايةِ الحُسنِ؛ فإنَّ المَقصودَ مِنَ البَعثةِ الإنذارُ، والمقصودَ مِنَ الإنذارِ التَّقوى عن كلِّ ما لا ينبغي، والمقصودَ مِنَ التَّقوى الفوزُ بالرَّحمةِ في دارِ الآخِرةِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٨٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٨٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٩٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٨٤).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾

- فيه ابتداءُ هذه القِصَّةَ بالقَسَمِ؛ لتأكيدِ خبَرِها لأوَّلِ مَن وُجِّهَ إليهم الخطابُ بها، وهم أهلُ مَكَّةَ ومَن وراءَهم مِنَ العَرَبِ؛ إذ كانوا يُنكِرونَ الرِّسالةَ والوَحيَ، على كونِهم أُمِّيِّينَ ليس عندهم مِن علومِ الأُمَمِ وقَصَصِ الرُّسُلِ شيءٌ، والقَسَمُ مَحذوفٌ دَلَّ عليه لامُه في بَدءِ الجُملةِ[(١)].

- وعطَفَ جُملةَ ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ على جُملةِ ﴿أَرْسَلْنَا﴾ بالفاءِ؛ إشعارًا بأنَّ ذلك القولَ صدَرَ منه بفورِ إرسالِه[(٢)]، ولم يَعطِفِ الجُملةَ المنفيَّةَ ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ بفاءٍ ولا غيرها؛ لأنَّها مَبنيَّةٌ ومُثبتةٌ على اختصاصِ اللهِ تعالى بالعبادةِ، ورَفْضِ ما سِواه؛ فكانتْ في غايةِ الاتِّصالِ بقولِه: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾[(٣)].

- قوله: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ استئنافٌ مسوقٌ لتعليلِ العبادةِ المذكورةِ[(٤)]، وقولُه: ﴿مِنْ إِلَهٍ﴾ يُفيدُ تأكيدَ النَّفيِ وعُمومَه[(٥)].

- قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ مستأنفةٌ ثانيةٌ بعدَ جُملة ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾؛ لقَصدِ التخويفِ والإنذارِ[(٦)].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٢٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٣٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٨٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٩/ ١٧٦).
(٤) يُنظر: يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٨٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٣٧).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٠).

- وفي هذه الآيةِ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيثُ قال هنا في الأعرافِ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ بغير واو، بَينما قال في سُورة هود والمؤمنون: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ [هود: ٢٥، المؤمنون: ٢٣] بواوٍ؛ وذلِك لأنَّ ما هنا مستأنفٌ لم يَتقدَّمه ذكرُ نبيٍّ، فلم يَكُن فيها ذِكرُ بَعثةِ نَبيٍّ، ومخالفةِ مَن كان له مِن عَدُوٍّ؛ فصارَ الكلامُ هنا كالأجنبيِّ مِن الأوَّل، فلم يُعطَفْ عليه، واستُؤنِفَ ابتداءُ الكلامِ؛ ليدلَّ على أنَّه في حُكمِ المنقطِعِ مِن الأوَّلِ. وأمَّا في سُورة هُود فقد تَقدَّمه ذِكرُ الأنبياء مرَّةً بعدَ أخرى؛ لأنَّ أوَّلها افتُتِح إلى أنْ انتَهَى إلى قِصَّةِ نُوح بما هو احتجاجٌ على الكُفَّارِ بآياتِ اللهِ، التي أَظْهَرَها على أَيدي أنبيائِه وألْسِنتِهم، صلواتُ اللهِ عليهم، وتَوعُّدٌ لهم على كُفرِهم، وذِكْرُ قِصَّة مِن قَصَصِ مَن تَقدَّمهم مِنَ الأنبياءِ الذين جَحَد بآياتِهم أُممُهم؛ فعُطِفتْ هذِه الآيةُ على ما قَبْلَها إذْ كانت مِثلَها. وما في سورة المؤمنون تَقدَّمه قولُه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢]، ثم قولُه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ [المؤمنون: ١٧]، ثمَّ انقطعتِ الآيُ إلى قولِه: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٢]، وكلُّها بالواو؛ فناسَبَ ذِكرها فِيهما؛ فدَخلتْ واوُ العطفِ في قِصَّةِ نُوحٍ عليه السَّلام في سورةِ المؤمنون للفْظَينِ المُتقدِّمَينِ، وهُما: ﴿وَلَقَدْ﴾ في رُؤوسِ الآيتَينِ، وللمَعْنى المقتضى مِن ذِكر الفُلْك الذي نَجَّى اللهُ عليه مَن جَعَله أصلَ الخَلْقِ، وبَذْرَ هذا النَّسلِ[١].

- وأيضًا مِن المُناسَبةِ الحَسنةِ أنَّه قال هنا في سُورةِ الأعراف: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، بَينما قالَ في سُورة هود: ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود: ٢٦]،

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٥٩٣-٥٩٧)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٢٠-١٢١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ١٩٥).

وفي سورة المؤمنون: ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣]؛ فاختلفتِ المَحكيَّاتُ والقِصَّةُ قِصَّةٌ واحدةٌ، وهذا الاختلافُ لا إشكالَ فيه؛ لأنَّه وقَعَ بحَسَبِ اختلافِ الأوقاتِ، وما يُناسِبُ كلَّ وقتٍ، وما يَجْري فيه ويُشاهَدُ مِن أقوالِ المَدْعوِّينَ وأحوالِهم؛ فإنَّ للأنبياءِ- صلواتُ اللهِ عليهم- مقاماتٍ مع أُممِهم، يُكرَّر فيها الإعذارُ والإنذارُ، ولا يكونُ دُعاؤُهم إلى الإيمانِ باللهِ في موقفٍ واحدٍ بلفظٍ واحدٍ لا يَتغيَّرُ عن حالِه، كذلك الجوابُ يَرِدُ مِن أقوامٍ يَكثُرُ عددُهم، ويَختلفُ كلامُهم ومقصدهم(١)، ومع هذا فإنَّ لهذا الاختلافِ مُناسبةً حسنةً؛ فإنَّه لَمَّا تَقدَّمَ ذِكرُ اليومِ الآخِرِ في غيرِ ما آيةٍ مِن أوَّل سورةِ الأعرافِ إلى ابتداءِ قِصَّة نوحٍ عليه السلام، وقد تَضمَّن ما ذُكِر مِن ذلك مِن أهوالِ ذلك اليومِ ما يَعظُم أَمْرُه كقولِه: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ...﴾ [الأعراف: ٨] الآية، وقوله: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ...﴾ [الأعراف: ٣٨] إلى قوله: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٣٩]، ومَا جرَى مجرَى ذلك إلى قولِه: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ...﴾ [الأعراف: ٥٠] الآية؛ فلمَّا تَقدَّم مِن أهوالِ هذا اليومِ ما لم يَتقدَّمْ في السُّورتَينِ الأُخريين؛ ناسَبه مِن مقالاتِ نُوحٍ لقومِه هنا في

---

(١) والقاعدةُ أنَّ (ما ورَد في القرآنِ حكايةً عن غيرِ أهلِ اللسانِ مِن القرونِ الخاليةِ، إنَّما هو مِن معروفِ معانيهم، وليس بحقيقةِ ألفاظِهم)، فالألفاظُ لها دلالاتٌ أصليَّة تحملُ أصلَ المعْنَى، وتنتهي إليها مقاصدُ المكلَّفين، وهذا النَّوعُ يشتركُ فيه جميعُ الألسنةِ، والنَّوعُ الثَّاني مِن الدَّلالات: الدلالاتُ التابعةُ، وهي التي يختصُّ بها لسانُ العربِ، وذلك بحسبِ المخبِر والمخبَر عنه والمخبَر به ونفسِ الإخبارِ، بالإضافةِ إلى نوعِ الأسلوبِ مِن الإيجازِ والإطنابِ وغيرِ ذلك، فمثلُ هذه التصرفاتِ التي يختلفُ معنَى الكلامِ الواحدِ بحسبِها ليست هي المقصودَ الأصليَّ، لكنَّها مِن مكمِّلاتِه ومتمِّماتِه، وبهذا النوعِ اختلَفتِ العباراتُ وكثيرٌ مِن أقاصيصِ القرآنِ؛ لأنَّه يأتي مساقُ القصَّة في بعضِ السُّورِ على وجهٍ، وفي بعضِها على وجهٍ آخرَ، وفي ثالثةٍ على وجهٍ ثالثٍ. يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (٢/ ٧٦٢).

سورة الأعراف: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

وأمَّا في سورة هود؛ فقولُه: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود: ٢٦] مُناسبٌ لقولِه تعالى على لِسان نبيِّنا عليه السلام لقومِه ممَّن خاطبَه وشافهَه: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: ٣]، وقولِه: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ [هود: ٨]، وقولِه: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧]؛ فتكرارُ ذِكرِ العذابِ يُناسِبُه ما خُتِمتْ به آيةُ دُعاءِ نُوحٍ عليه السلامِ مِن قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾(١).

٢- قوله: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾

- قولهم: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سُؤالٍ نشَأَ مِن حكايةِ قولِه عليه السَّلامُ، كأنَّه قِيل: فماذا قالوا له عليه السَّلامُ في مُقابلةِ نُصْحه؟ فقيل: قال الرُّؤساءُ مِن قومِه والأشرافُ: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(٢).

- وقدِ اقترَن جوابُهم ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ﴾ بحَرْفِ التَّأكيدِ (إنَّ واللَّام)؛ للدَّلالةِ على أنَّهم حقَّقوا وأكَّدوا اعتقادَهم أنَّ نُوحًا مُنغمِسٌ في الضَّلالةِ -حاشَاه ذلِك عليه السَّلامُ(٣).

- وظَرفيَّةُ ﴿فِي ضَلَالٍ﴾ فيها تعبيرٌ عن تَمكُّنِ وصْفِ الضَّلالِ مِن نُوحٍ- حاشاهَ ذلك عليه السَّلامُ- حتى كأنَّه مُحيطٌ به مِن جوانبِه إحاطةَ الظَّرفِ بالمظروفِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٥٩٨-٦٠٠)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩١).

- وفيه مناسبةٌ حسنةٌ، حيثُ قال هنا في سُورةِ الأعرافِ في قِصَّة نوح وهود: ﴿قَالَ الْمَلَأُ﴾ بلا فاءٍ، بَينما قاله في سورة هود والمؤمنون: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ﴾ [هود: ٢٧، المؤمنون: ٢٤] بالفاءِ؛ وذلِك لأنَّه في سُورةِ الأعرافِ خرَجَ مَخْرَجَ الابتداءِ، وإنْ تَضمَّن الجوابَ؛ لأنَّهم في جوابِهم صاروا كالمُبتدِئين له بالخِطابِ، غير سالِكينَ طَريقَ الجواب؛ لأنَّهم قالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾، فكان كلامُهم له كالكلامِ الذي يَبتدِئُ به الإنسانُ صاحبَه؛ فلذلك جاءَ بغيرِ فاءٍ مُخالِفًا طريقةَ ما الكلامُ بَعْدَه مبنيٌّ بِناءَ الجوابِ، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا﴾ بعدَ قوله: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ [العنكبوت: ٣٢]. وأمَّا في سُورة هود والمؤمنون فوقَعَ جوابًا لِمَا قبله؛ فناسبتْه الفاءُ؛ فالموضعانِ اللَّذانِ دَخلتْهما الفاءُ ما بَعدَهما ممَّا اقتضاه كلامُ النبيِّ ممَّا رآه الكفَّارُ جوابًا له؛ فكان بناءُ الجوابِ على الابتداءِ يُوجِبُ دُخولَ الفاءِ[1].

- وأيضًا في قوله: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ﴾ مناسبةٌ حسنَةٌ، حيث عدَلَ عن وصْفِ الملأِ بالكُفرِ هنا في سورة الأعراف، بَينما في سُورتَي هود والمؤمنون قال: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [هود: ٢٧، المؤمنون: ٢٤]، فوَصَفَ الملأَ بالكُفرِ في السُّورتين؛ وذلك لأنَّ اللهَ تعالى أَمَرَ رُسلَه عليهم السلام بالرِّفقِ في دُعاءِ الخلقِ، وحَضَّهم على التلطُّفِ بهم، والصَّبرِ على أذاهم، وعلى هذا جَرَى دُعاءُ الرُّسلِ أُممَهم في إخبارِ اللهِ تعالى عنهم، ثمَّ اختلفَ جوابُ الأممِ؛ فمِن مُسرعٍ في الإجابةِ بهدايةِ الله تعالى، ومِن مُبطئٍ، ومِن مُصمِّم على ضلالِه، ثم لكلِّ نبيٍّ مقاماتٌ ومقالاتٌ بحسَبِ اختلافِ الموطنِ والمجتمعاتِ، ولكلِّ مقامٍ مقالٌ يُناسُبه؛ فجرَى اختلافُ ما ورَدَ جوابًا

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٠١-٦٠٣)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١٢١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ١٩٥).

بِنِسبةِ ما وقَعَ الجوابُ عليه؛ فقومُ نوحٍ ذُكِر في سُورتي هود والمؤمنون إساءةٌ في جوابِهم لنبيِّهم، وإطالةٌ في المرتكَبِ حِين قالوا في سُورة هود: ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧]، فجَمَعوا في هذِه الإطالةِ تَوهُّمَهم مُساواتَه عليه السَّلام فيما رآه البادِي مِن البَشريةِ والصُّورةِ الإنسانيةِ إلى استرذالِ أتْباعِه، ومثلُ هذا قولُهم في آيةِ المؤمنون: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ إلى قولِهم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٢٤- ٢٥]؛ فلإساءتِهم فيما ذُكِر مِن الواردِ عنهم في الموضعينِ وُصِفوا بالكفرِ، فقال تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ [هود: ٢٧، المؤمنون: ٢٤]، وأمَّا آيةُ الأعراف فقولهم فيها: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ليس كجوابِهم في السُّورتَينِ الأُخريين لا مِن جِهةِ الطولِ، ولا مِن جِهةِ المعنى؛ فلمَّا لم يَكُنْ في الواردِ في سورةِ الأعرافِ مِن الإطالةِ في العِبارةِ والإبلاغِ فيما قَصَدوه مِن المعنى مِثلُ ما في السُّورتَينِ، ناسبَه الإيجازُ[١].

٣- قوله: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

- قوله: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ النِّداءُ في جوابِه إيَّاهم؛ للاهتمامِ بالخبرِ[٢].

- ولم يَرِدِ النَّفيُ مِن نوحٍ عليه السَّلامُ على لَفْظِ ما قالَه قومُه قبل ذلك: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾، فلم يأتِ التركيبُ: (لستُ في ضَلالٍ مبين)،

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٩٤-١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩١).

بل جاءَ في غايةِ الحُسنِ مِن نفي أن يَلتبسَ به ويختلطَ ضلالةٌ ما واحدةٌ، وإذا انتفَى عنه فرْدٌ واحدٌ مِن أفرادِ الضَّلالةِ فانتفاءُ غيرِه أنْفَى وأنْفَى، أي: ليس بي نوعٌ مِن أنواعِ الضَّلالةِ البتَّةَ؛ فكان هذا أبلغَ في عُمومِ السَّلبِ، فـ(الضَّلالة) في قوله: ﴿لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ أخصُّ من الضَّلالِ؛ فكانتْ أبلغَ في نفْي الضَّلالِ عن نفْسِه؛ كأنَّه قال: ليس بي شيءٌ مِن الضلالِ. وقيل: الضلالة أَدْنَى مِن الضَّلالِ وأقلُّ؛ لأنَّها لا تُطلَقُ إلَّا على الفَعلةِ الواحدةِ منه، وأمَّا الضلالُ فيُطلَقُ على القليلِ والكثيرِ مِن جِنسِه، ونَفْيُ الأدْنَى أبلغُ مِن نفْيِ الأعْلَى، لا مِن حيثُ كونُه أخصَّ، وهو مِن بابِ التنبيهِ بالأدْنَى على الأعْلَى[1]. وقيل: (الضَّلالة) مصدرٌ مِثلُ (الضلال)، وتأنيثُه لفظيٌّ محضٌ، والتَّخالُفُ بَينهما تفنُّنٌ في العِبارة؛ فلمَّا تَقدَّم لفظ (ضَلال) اسْتُحسِنَ أنْ يُعادَ بلفْظٍ يُغايرُه في السورةِ؛ دفعًا لِثقلِ الإعادةِ[2].

- وأفادَ تَنكيرُ ﴿ضَلَالَةٌ﴾ في سِياقِ النَّفيِ: المبالغةَ في النَّفيِ[3].

- والباءُ في قَولِه: ﴿بِي﴾ للمُصاحَبةِ أو المُلابسةِ، وهي تُناقِضُ معنى الظَّرفيَّةِ مِن قَولِهم في نُوحٍ عليه السَّلامُ: إنَّه ﴿فِي ضَلَالٍ﴾، فنَفَى أن يكونَ للضَّلالِ مُتَلبَّسٌ به[4]، وفي تَقديمِ هذا الظرفِ ﴿بِي﴾ تعريضٌ بضلالِهم[5].

- قوله: ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وقَع استدراكًا للانتفاءِ عن الضَّلالةِ؛ فكونُه رسولًا مِن الله، مُبلِّغًا رِسالاتِه، ناصحًا، في معنى كونِه على

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- مع الحاشية)) (٢/ ١١٣)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٩٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٨٢-٨٣)، ((العذب النمير)) (٣/ ٤٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٢٨-٤٢٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٣٨).

الصِّراطِ المستقيمِ؛ فصحَّ لذلك أنْ يكونَ استدراكًا للانتفاءِ عن الضلالةِ[١]، وهو استدراكٌ ممَّا قَبْلَه باعتِبارِ ما يَستلزِمه مِن كونِه في أقْصَى مَراتبِ الهداية؛ فإنَّ رَسالةَ ربِّ العالَمِين مستلزِمةٌ لهذا لا مَحالةَ، كأنَّه قيل: ليس بي شَيءٌ مِن الضَّلالِ، ولكنِّي في الغايةِ القُصْوى من الهِدايةِ[٢]، وهذا لرفْعِ مَا تَوهَّموه مِن أنَّه في ضلالٍ حيثُ خالَفَ دِينَهم، أي: هو في حالِ رِسالةٍ عن اللهِ تعالى، مع ما تَقْتضِي الرِّسالةُ من التبليغِ والنُّصحِ والإخبارِ بما لا يَعلمونه، وذلك ما حَسِبوه ضلالًا[٣].

- واختيارُ طريقِ الإضافةِ في تعريفِ المُرسَل بقوله: ﴿رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ لِمَا تُؤذِنُ به مِن تَفخيمِ المضافِ، ومِن وجوبِ طاعتِه على جميعِ النَّاسِ؛ تعريضًا بقومِه إذ عَصَوْه[٤]، و﴿مِن﴾ في قولِه: ﴿رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لابتداءِ الغايةِ مُتعلِّقةٌ بمحذوفٍ وقَع صِفةً لـ ﴿رسولٌ﴾، وهي مُؤكِّدةٌ لِمَا يُفيدُه التنوينُ مِن الفخامةِ الذَّاتيةِ بالفخامةِ الإضافيةِ، أيْ: رسولٌ وأيُّ رَسولٍ كائنٌ مِن ربِّ العالَمِين[٥].

٤- قوله: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

- قوله: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾ استئنافٌ على سَبيلِ البَيانِ لكونِه رسولًا، وهو مَسوقٌ لتَقريرِ رِسالتِه، وتفصيلِ أَحكامِها وأحوالِها، ويجوزُ أن تكونَ هذه الجملةُ في موضِع الصِّفة لـ﴿رَسُول﴾[٦]، والمقصودُ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١١٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٣٥- ٢٣٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٢- ١٩٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٩٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٣٦، ٢٣٨).
(٦) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٣٦).
=

منها إفادةُ التجدُّد، وأنَّه غيرُ تاركٍ التبليغَ مِن أَجْلِ تكذيبِهم؛ تأييسًا لهم مِن متابعتِه إيَّاهم، ولولا هذا المقصدُ لكان معنى هذِه الجملةِ حاصلًا مِن معنى قوله: ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ﴾(١).

- وقَولُه: ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ مِنَ التَّبليغِ، وهي بالتَّشديدِ؛ لإفادةِ مَعنى التَّدريجِ والتَّكرارِ، وذلك يناسِبُ قَولَه: ﴿رِسَالَاتِ﴾ بالجَمعِ؛ باعتبارِ مُتعَلقِها وموضوعِها(٢).

- قوله: ﴿رِسَالَاتِ رَبِّي﴾: جَمَع ﴿رِسَالَات﴾؛ لاختِلافِ أوقاتِها، أو لتنوُّعِ مَعانِيها مِن الأوامرِ والنَّواهِي، والمواعظِ والزَّواجِر، والبَشائِرِ والنَّذائر، أو لأنَّ كلَّ تَبليغٍ يَتضمَّنُ رسالةً بما بلَّغَه(٣).

- قولُه: ﴿رَبِّي﴾ فيه تَخصيصُ رُبوبيَّته تعالى بِه عليه الصَّلاةِ والسَّلام بعدَ بَيانِ عمومِها للعَالَمين بقوله: ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ للإشعارِ لعِلَّة الحُكمِ الذي هو تَبليغُ رِسالتِه تعالى إليهم؛ فإنَّ رُبوبيَّتَه تعالى له عليه الصَّلاة والسلامُ مِن موجباتِ امتثالِه بأمْره تعالى بتبليغِ رسالتِه تعالى إليهم(٤).

- ووَجهُ العُدولِ عَنِ الإضمارِ إلى الإظهارِ- حيثُ قال: ﴿رِسَالَاتِ رَبِّي﴾، ولم يَقُل: (رِسَالاتِه)- هو ما تُؤذِنُ به إضافةُ الرَّبِّ إلى ضَميرِ المُتكَلِّمِ مِن لُزومِ طاعَتِه، وأنَّه لا يَسَعُه إلَّا تبليغُ ما أمَرَه بتبليغِه، وإن كَرِهَ قَومَه(٥).

= وقال ابنُ عاشور: (ثمَّ إنِ اعتُبِرت جملة: ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ صِفةً، يَكُنِ العُدولُ عن ضميرِ الغَيبةِ إلى ضميرِ التكلُّمِ في قوله: ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ وقولِه: ﴿رَبِّي﴾ الْتِفاتًا، باعتبارِ كونِ الموصوفِ خبرًا عن ضَميرِ المتكلِّم، وإنِ اعتُبِرت استئنافًا؛ فلا الْتِفاتَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٣٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٤).

- قولُه: ﴿وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾ في الإتيانِ بالمضارعِ دَلالةٌ على تَجديدِ النُّصحِ لهم، وأنَّه غيرُ تاركِه مِن أجْلِ كراهيتِهم أو بَذاءتِهم[١].

- الأصلُ في معنى (يَنصَحُ) أنْ يَتعَدَّى إلى المفعولِ بنَفْسِه، وفي زِيادة اللَّامِ هنا- حيثُ قال: ﴿وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾ ولم يقُلْ: (وأَنْصَحُكم)- مبالغةٌ ودلالةٌ على إمحاضِ النَّصيحةِ، وأنَّها وقعَتْ خالصةً للمنصوحِ له، مقصودًا بها جانبُه لا غيرُ[٢].

- قَولُه تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ جاءَ بعدَ قولِه تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾؛ جمعًا لِمَعانٍ كثيرةٍ ممَّا تتضَمَّنُه الرِّسالةُ، وتأييدًا لِثَباتِه على دَوامِ التَّبليغِ والنُّصحِ لهم، والاستخفافِ بكراهِيَتِهم وأذاهم؛ لأنَّه يعلَمُ ما لا يَعلمونَه مِمَّا يَحمِلُه على الاستِرسالِ في عَمَلِه ذلك؛ فجاءَ بهذا الكلامِ الجامِعِ، ويَتضمَّنُ هذا الإجمالُ البديعُ أيضًا تهديدًا للمُخالِفين من قومِه بحلولِ عَذابٍ بهم في العاجِلِ والآجِلِ، وتَنبيهًا للتأمُّلِ فيما أَتاهم به، وفتحًا لبصائرِهم أن تتطلَّبَ العلمَ بما لم يكونوا يَعلمونه، وكلُّ ذلك شأنُه أنْ يَبعثَهم على تصديقِه، وقَبولِ ما جاءَهم به[٣].

٥- **قَولُه تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾** عبَّر بالاستفهامِ دُونَ أن يقولَ: (لا عَجَبَ)؛ إشارةً إلى أنَّ احتمالَ وُقوعِ ذلك منهم ممَّا يتردَّدُ فيه ظَنُّ العاقِلِ بالعُقلاءِ، فقَولُه: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾ بمنزلةِ المَنعِ لقضيَّةِ قَولِهم: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾؛ لأنَّ قَولَهم ذلك بمنزلةِ مُقَدِّمةِ دليلٍ على بُطلانِ ما يدعوهم إليه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١١٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٤- ١٩٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ١٩٥).

٦- قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾

- قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ فيه تَقديمُ الإخبارِ بالإنجاءِ على الإخبارِ بالإغراقِ، مع أنَّ مُقتضى مقامِ العِبرةِ تَقديمُ الإخبارِ بإغراقِ المُنكرينَ؛ وذلك للمسارعةِ إلى الإخبارِ به، والإيذانِ بسَبْقِ الرحمةِ، وللاهتمامِ بإنجاءِ المُؤمنينَ، وتعجيلًا لِمَسرَّةِ السَّامعينَ مِنَ المُؤمنينَ، بأنَّ عادةَ اللهِ إذا أهلَكَ المشركينَ أن يُنَجِّيَ الرسولَ والمُؤمنينَ؛ فذلك التقديمُ يفيدُ التَّعريضَ بالنِّذارة، وإلَّا فإنَّ الإغراقَ وقَعَ قبل الإنجاءِ؛ إذ لا يظهَرُ تحقُّقُ إنجاءِ نُوحٍ ومَن معه إلَّا بعد حُصولِ العَذابِ لِمَن لم يؤمِنوا به[1].

- وقوله: ﴿فِي الْفُلْكِ﴾ مُتعلق بمعنى قولِه: ﴿مَعَهُ﴾؛ لأنَّ تَقديرَه: استقرُّوا معه في الفُلك، بهذا التعليقِ عُلِم أنَّ اللهَ تعالى أمَرَه أنْ يَحمِلَ في الفُلكِ مَعشرًا، وأنَّهم كانوا مُصدِّقين له؛ فكان هذا التعليقُ إيجازًا بديعًا[2].

- والإتيانُ بالموصولِ (الَّذين) في قَولِه: ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ دونَ أن يقولَ: (وأغْرَقْنا سائرَهم)، أو (بقِيَّتَهم)؛ لِمَا تُؤذِن به الصِّلةُ من وجهِ تَعليلِ الخبرِ في قوله: ﴿وَأَغْرَقْنَا﴾، أي: أَغرقْناهم لأجْلِ تَكذيبِهم[3].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيث قال تعالى هنا في سُورةِ الأعراف: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾، وفي سُورة يونس قال: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ﴾ [يونس: ٧٣]؛ فاختلف نقْلُ الفِعل بالهمزةِ في الأُولى، وفي الثانية بالتَّضعيف، وفي الأولى قال: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾، وفي الثانية: ﴿وَمَنْ مَعَهُ﴾، فاختَلَف الموصولُ أيضًا؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٧-١٩٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٨).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٨).

لأنَّ قولَه: ﴿أَنْجَيْنا﴾ أَصلٌ في هذا البابِ؛ لأنْ (أفعلت) في باب النَّقل أصلٌ لـ(فعلت) وهو أكثرُ؛ فآية الأعراف جاءتْ على الأصلِ الأكثرِ، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ هو الأصلُ، و(مَنْ) تجيء بمعناها، وتكونانِ مشتركتَينِ في مَعانٍ، و(الذين) خالصةٌ للخبر، مخصوصةٌ بالصِّلة؛ فاستُعمِلَ الأصلُ في اللَّفظين، وهما: (أَنجينا) و(الذين)، ولَمَّا كُرِّرَ هذا الذِّكرُ كان العدولُ إلى اللَّفظين الآخَرين اللَّذين هما معناهما، وهما: (نَجَّينا) و(مَن) أشبهَ بطريقةِ الفصحاءِ وعادةِ البلغاءِ[1]. وقيل: لأنَّ (أَنْجينا) و(نجَّينا) للتعدِّي، لكنَّ التَّشديدَ يدلُّ على الكثرةِ والمبالَغة؛ فكان في يُونُس ﴿وَمَنْ مَعَهُ﴾ ولَفْظُ (مَن) يقعُ على كثرةٍ ما يَقعُ عليه (الذين)؛ لأنَّ (مَن) يَصلُح للواحِدِ والتثنيةِ والجمعِ، والمُذكَّر والمؤنَّث، بخِلاف (الذين) فإنَّه لجمْع المذكَّر فحسبُ؛ فكان التَّشديدُ مع (مَن) أَليقَ[2].

- قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ حرفُ (إنَّ) هنا لا يُقصَدُ به ردُّ الشكِّ والتردُّد؛ إذ لا شكَّ فيه، وإنَّما المقصودُ مِن الحرفِ الدَّلالةُ على الاهتمامِ بالخبرِ، ومِن شأن (إنَّ) إذا جاءت للاهتمامِ أنْ تَقومَ مقامَ فاء التَّفريعِ[3].

- وعبَّر عنهم بالصِّفةِ المُشَبَّهةِ ﴿عَمِينَ﴾؛ لِدَلالَتِها على ثُبوتِ الصِّفةِ، وتمكُّنِها بأن تكون سَجِيَّةً[4].

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٠٧-٦١٠)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٨).

الآيات (٦٥-٧٢)

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ
(٦٥) قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ
مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ
ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ
بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ
(٦٩) قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا
تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٧٠) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ
وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا
مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ (٧١) فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ
مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ (٧٢)﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿خُلَفَاءَ﴾: جَمعُ خَليفةٍ، والخِلافةُ هي النِّيابةُ عَنِ الغَيرِ؛ يُقال: خَلَف فلانٌ فلانًا: قام بالأمرِ عنه، إمَّا معه وإمَّا بَعدَه، وأصل (خلف): مجيءُ شَيءٍ بعدَ شيءٍ يقومُ مَقامَه[1].

﴿بَسْطَةً﴾: أي: سَعَةً، مِن بسطْتُ الشَّيءَ: إذا كان مجموعًا، ففَتَحْتَه ووسَّعْتَه، والبَسطةُ في كلِّ شيءٍ السَّعةُ؛ يقال: هو بسيطُ الجِسمِ والباعِ والعِلمِ، وأصل (بسط): امتدادُ الشَّيءِ[2].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١ / ٢٤٧).

﴿آلَاءَ﴾: أي: نِعَم، واحِدُها ألًى وإلًى[١].

﴿وَنَذَرَ﴾: أي: نترُكَ ونَدَعَ، مِن وَذِرَ يَذَرُ؛ يُقال: فلانٌ يَذَرُ الشَّيءَ، أي: يَقذِفُه لقلَّةِ اعتدادِه به[٢].

﴿وَقَعَ﴾: أي: وجَبَ، من الوُقوعِ وهو ثبوتُ الشَّيءِ وسُقوطُه، وأكثرُ ما جاءَ في القُرآن مِن لفظ (وقع) جاء في العذابِ الشَّديدِ[٣].

﴿رِجْسٌ﴾: أي: عَذَابٌ وسَخَطٌ، ويُطلَقُ الرِّجسُ على كلِّ ما استُقذِرَ مِنَ العمَلِ، وعلى العمَلِ المُؤَدِّي إلى العَذابِ والعِقابِ والغضَبِ، وأصل (رجس): النَّتن، ويَدُلُّ أيضًا على اختلاطٍ، ومنه القَذَرُ؛ لأنه لَطْخٌ وخَلْطٌ[٤].

﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ﴾: أي: أهلَكْناهم عَن آخِرِهم، وقطْعُ دابرِ الإنسانِ: هو إفناءُ نَوعِه، ، ودابرُ القومِ آخرُهم، وأصل (قطع): الفَصلُ، وَأصل (دبر): آخِرُ الشَّيْءِ وَخَلْفُهُ، خِلَافُ قُبُلِه[٥].

المَعْنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه أرسَلَ إلى قبيلةِ عادٍ أخاهم في النَّسَبِ هُودًا؛ لِيدعُوَهم إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٢٩)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٩).

(٢) يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٢/ ٨٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٩).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص:٨٨٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٨).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٦٥).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٧، ٦٧٨).

عِبادةِ اللهِ وَحدَه، وتَرْكِ عبادةِ ما سواه، فقال لهم: اعبُدُوا اللهَ وَحدَه، ليس لكم معبودٌ يستحِقُّ العبادةَ غَيرُه، أفلَا تتَّقونَ رَبَّكم، وتَخافونَ عَذابَه وسَخَطَه عليكم؟ فقال الرُّؤساءُ المُتكبِّرونَ مِن قَومِه: إنَّا لَنَراك في حُمقٍ وخِفَّةِ عَقلٍ، وإنَّا لنَظُنُّك مِنَ الكاذبينَ.

فقال لهم هودٌ: يا قومِ، ليس بي حُمقٌ ولا خِفَّةُ عَقلٍ، ولكِنِّي مُرسَلٌ مِن رَبِّ العالَمينَ، أُبَلِّغُكم ما أرسَلَني ربِّي به، وأنا لكم ناصِحٌ أمينٌ، وهل عَجِبْتُم مُستبعِدينَ أن يأتِيَكم تذكيرٌ مِن رَبِّكم على رَجُلٍ منكم؛ لأجْلِ أن يُخَوِّفَكم مِن عُقوبةِ رَبِّكم على كُفرِكم؟ واذكروا نِعمةَ اللهِ عليكم؛ إذ جَعَلَكم تخلُفونَ قومَ نُوحٍ بعد أن أهلَكَهم، وزادَكم في الطُّولِ وقُوَّةِ الأبدانِ، فاذكُروا نِعَمَ اللهِ عليكم؛ لعَلَّكم تَفوزونَ وتَسعَدونَ.

قالوا: أجِئتَنا لنَعبُدَ اللهَ وَحدَه، ونترُكَ ما كان يعبُدُه آباؤُنا؛ فأْتِنا يا هودُ بما تَعِدُنا مِنَ العذابِ إن كُنتَ صادِقًا. فقال لهم هُودٌ: قد وقَعَ عليكم مِن ربِّكم عذابٌ وغَضَبٌ لا محالةَ، أتُخاصِمُونَني في أصنامٍ سَمَّيتُموها أنتم وآباؤُكم، ما جعَلَ اللهُ لكم مِن حُجَّةٍ على عِبادَتِكم لها؟ فانتظِروا ما هو واقِعٌ بكم مِنَ العذابِ، وأنا معكم مُنتَظِرٌ.

ثم أخبَرَ اللهُ تعالى أنَّه أنجاه ومَن مَعه مِنَ المؤمنينَ برحمةٍ منه عَزَّ وجَلَّ، وأهلَكَ بالعذابِ الشَّديدِ الذين كذَّبوا بآياتِه، ولم يكونوا مُؤمنينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥)﴾.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾.

أي: ولقَدْ أرسَلْنا إلى قبيلةِ عادٍ أخاهم في النَّسَبِ هُودًا عليه السَّلامُ؛ لِيَدعُوَهم

إلى عبادةِ اللهِ وَحدَه، وينهاهُم عن عبادةِ غَيرِه، فقال لهم: يا قومِ، اعبُدُوا اللهَ وَحدَه ليس لكم معبودٌ يستحِقُّ العبادةَ غيرُه، فلا تُشرِكوا به شيئًا[1].

﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

أي: أفلا تتَّقونَ رَبَّكم، فتحذَرونه وتخافون سَخَطَه وعقابَه، إن أقمتم على ما أنتم عليه مِن عبادةِ غَيرِه[2].

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ (٦٦)﴾.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾.

أي: قال الأشرافُ والرُّؤساءُ، الكَفَرةُ المُتكَبِّرونَ عَنِ الحَقِّ مِن قَومِ هُودٍ حين دعاهم إلى إفرادِ اللهِ بالعبادةِ: إنَّا لنعتقِدُ أنَّك- يا هودُ- في ضلالٍ وحُمقٍ وخِفَّةِ عَقلٍ؛ حيث تدعُونا إلى عبادةِ اللهِ وَحدَه، وتركِ ما كان يعبُدُ آباؤُنا[3].

﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

أي: وإنَّا لنظُنُّ[4] أنَّك- يا هودُ- مِنَ الكاذبينَ في ادِّعائِك النُّبوَّةَ، ودَعوَتِك لنا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٧٣).

قال ابن عاشور: (الأخُ هنا مستعمَلٌ في مُطلَقِ القَريبِ، وقد كان هودٌ مِن بني عادٍ.. فالمرادُ أنَّ هُودًا كان مِن ذوي نَسَبِ قَومِه عادٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٦٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٨٠).

(٤) قال ابن عطية: (وقولهم: ﴿لَنَظُنُّكَ﴾ هو ظَنٌّ على بابِه؛ لأنَّهم لم يكن عندهم إلَّا ظُنونٌ =

إلى عبادةِ اللهِ وَحدَه(١).

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

أي: قال هودٌ لِقَومِه: يا قومِ، ليس بي حُمقٌ ولا خِفَّةُ عَقلٍ، حين دعوتُكم إلى توحيدِ اللهِ، ونَهَيتُكم عن الشِّركِ به، ولكِنِّي مُرسَلٌ إليكم مِنَ الذي خلَقَ كُلَّ شَيءٍ، وهو مالِكُه ومُدَبِّرُ شُؤونِه(٢).

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾.

أي: وظيفتي أنْ أُوصِلَ إليكم الرِّسالةَ التي أرسَلَني اللهُ بها، وهي أمْرُكم بتوحيدِه، ونَهيُكم عنِ الشِّركِ به، ودَعْوتُكم لطاعَتِه، وأنا أبغِي لكم بذلك الخيرَ في الدُّنيا والآخرةِ، فلا أغُشُّكم ولا أخدَعُكم، أمينٌ على ما ائتَمَنَني اللهُ عليه مِنَ الرِّسالةِ، فأبلِّغُها لكم كما أُمِرْتُ(٣).

كما قال تعالى حاكيًا قولَ هُودٍ عليه السَّلامُ: ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ * وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥١-٥٢].

= وتَخَرُّصٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤١٧).

وذهب ابن عاشور إلى أنَّ المرادَ بالظنِّ هاهنا اليقينُ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٦٤ - ٢٦٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٦٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٩٩)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٨٢).

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾.

أي: هل تعجَّبتم مستبعدينَ أن يَجيئَكم تذكيرٌ مِنَ اللهِ، أنزَلَه على رجُلٍ مِنَ البَشَرِ، تَعرِفونَ نَسَبَه وصِدقَه؛ لأجلِ أن يُخَوِّفَكم عقابَ اللهِ على كُفرِكم به؟ أي: فكيفَ تعجَبونَ مِمَّا لا ينبغي العَجَبُ منه؟! فليس بعجَبٍ أن يُوحِيَ اللهُ إلى رجلٍ منكم؛ رحمةً بكم، وإحسانًا إليكم[1].

كما قال سبحانه: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤].

﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾.

أي: واذكروا نعمةَ اللهِ عليكم، بأنْ جَعَلَكم تخلُفُونَ قَومَ نُوحٍ في الأرضِ مِن بعدِ هَلاكِهم؛ حيث أبدَلَكم بِهِم[2].

﴿وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾.

أي: واذكروا نعمةَ اللهِ عليكم بما خَصَّكم به على النَّاسِ؛ مِن زيادةٍ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٦٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٨٤).
وقال ابنُ عاشور: (عادٌ أوَّلُ أمَّةٍ اضطلعت بالحضارةِ بعد الطُّوفان.. وليس المرادُ أنهم خَلَفُوا قومَ نُوحٍ في ديارِهم؛ لأنَّ منازِلَ عادٍ غيرُ منازِلِ قَومِ نُوحٍ، عند المؤرِّخين). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠٥).

الطُّولِ، وقُوَّةٍ في الأبدانِ(١).

كما أخبر الله تعالى أنَّه لم يَخلقْ مثلَ قبيلةِ عادٍ في قوَّتِهم وشدَّتِهم وجبروتِهم(٢) بقولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر: ٨].

﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

أي: فاذكُروا نِعَمَ اللهِ الكثيرةَ عليكم، واشكُروه عليها؛ بِطاعَتِه وعبادَتِه وَحْدَه؛ كي تَفوزُوا وتَسعَدُوا، وتنالوا الخُلودَ في الجَنَّةِ(٣).

كما قال تعالى حاكيًا قولَ هُودٍ عليه السَّلامُ: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء: ١٣٢ - ١٣٤].

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠)﴾.

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾.

أي: قالتْ عادٌ قَومُ هُودٍ: أجِئتَنا- يا هودُ- كي نعبُدَ اللهَ وَحدَه، ونترُكَ ما كان يعبُدُ آباؤُنا مِن الأصنامِ، ونتبَرَّأَ منها(٤)؟

﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٦٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٦٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٨٨ - ٤٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٩١).

أي: لن نُوَحِّدَ اللهَ، ولن نترُكَ عبادةَ الأصنامِ، فهاتِ- يا هودُ- ما تعِدُنا به مِنَ العَذابِ على عبادةِ غَيرِ اللهِ، وتَرْكِنا توحيدَه، إن كنتَ مِن أهلِ الصِّدقِ فيما تقولُ مِن أنَّ العَذابَ واقِعٌ علينا[1].

كما حكى تعالى عنهم بِقَولِه: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٢].

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (٧١)﴾.

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾.

أي: قال هودٌ لِقَومِه: قد حلَّ بكم- لا محالةَ- عَذابٌ وغَضَبٌ مِن رَبِّكم[2].

﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾.

أي: كيف تُخاصِمُونَني وتُحاجِجونَني في هذه الأصنامِ التي سَمَّيتُموها أنتم وآباؤُكم آلهةً، زاعِمينَ أنَّها تُعبَدُ مع اللهِ، وهي مُجَرَّدُ أسماءٍ باطلةٍ اختَلَقْتُموها، ولا حقيقةَ لها، ولم يجعَلِ اللهُ لكم مُطلقًا حُجَّةً على عِبادَتِها[3]؟

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٧٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٠٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٨٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٨١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢١١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٩٤ - ٤٩٥).

كما قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ * هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٦-٧٠].

﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾.

أي: فانتَظِروا مُتَرَقِّبينَ وقوعَ عذابِ اللهِ، الذي وعَدْتُكم به، إنِّي أنتظِرُ وأترَقَّبُ معكم نُزُولَه بكم(١).

﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٧٢)﴾.

﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾.

أي: فأنجَينا هُودًا والَّذين معه مِنَ المؤمنينَ بِسَبَبِ رَحْمَتِنا العظيمةِ لهم(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود: ٥٨].

﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٨١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢١٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢١٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٩٥).

أي: وأهلَكْنا واستأصَلْنا بالعَذابِ الشَّديدِ جميعَ الكُفَّارِ المُكَذِّبينَ بآياتِنا مِن قَومِ هُودٍ، فلم نُبْقِ منهم أحدًا(١).

كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦-٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤١-٤٢].

وقال سُبحانه: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ * تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ [القمر: ١٨-٢٠].

﴿وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

أي: وما كان قَومُ هُودٍ مُؤمنينَ باللهِ، ولا بما جاءَهم به رسولُه هودٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٠٧).

قال أبو حيان: (جملةٌ مُؤَكِّدة لقوله: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ ويحتملُ أن يكونَ إخبارًا مِنَ الله تعالى أنَّهم ممَّن عَلِمَ اللهُ تعالى أنَّهم لو بَقُوا لم يؤمنوا، أي: ما كانوا ممَّن يقبلُ إيمانًا ألبتَّةَ، ولو عَلِمَ الله تعالى أنَّهم يؤمنونَ لأبقاهم، وذلك أنَّ المُكَذِّبَ بالآياتِ قد يؤمِنُ بها بعد ذلك، ويَحسُنُ حالُه، فأمَّا مَن خَتَمَ اللهُ عليه بالكُفرِ، فلا يؤمِنُ أبدًا). ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٩٠).

وقال الشِّنقيطي: (قوله: ﴿وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ تأكيدٌ، وما كانوا في عِلمِ اللهِ مُؤمنينَ أبدًا؛ لأنَّ اللهَ طَبَعَهم على الشَّقاوةِ، والعياذُ باللهِ جَلَّ وعَلا). ((العذب النمير)) (٣/ ٥٠٧).

كما قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٥٣].

وقال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٥٩-٦٠].

وقال عَزَّ وجَلَّ: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥].

الفوائِدُ التربويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى حكايةً عَنِ المَلَأ: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ...﴾ في إجابةِ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ مَن نَسَبَهم إلى الضَّلالةِ والسَّفاهةِ بما أجابُوهم؛ مِنَ الكلامِ الصَّادِرِ عنِ الحِلمِ والإغضاءِ، وتَرْكِ المُقابلةِ بما قالوا لهم، مع عِلْمِهم بأنَّ خُصومَهم أضَلُّ النَّاسِ، وأسْفَهُهم- أدبٌ حَسَنٌ، وخُلُقٌ عظيمٌ، وحكايةُ اللهِ عَزَّ وجلَّ عنهم ذلك؛ تعليمٌ لِعبادِه كيف يُخاطِبونَ السُّفَهاءَ، وكيف يُغْضُونَ عنهم، ويُسْبِلونَ أذيالَهم على ما يكونُ منهم[1].

٢- في قولِ هُودٍ عليه السَّلامُ لِقَومه: ﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ دليلٌ على أنَّ تَرْكَ الانتقامِ أَوْلى؛ فإنَّهم لَمَّا قالوا له: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ لم يُقابِلْ سَفاهَتَهم بالسَّفاهةِ، بل قابَلَها بالحِلمِ والإغضاءِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٠١).

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ إنَّما أمَرَهم بالذِّكْرِ؛ لأنَّ النَّفسَ تنسى النِّعَمَ فتكفُرُ المُنعِمَ، فإذا تذكَّرَتِ النِّعمةَ رأَتْ حَقًّا عليها أن تَشكُرَ المُنعِمَ؛ ولذلك كانت مسألةُ شُكرِ المُنعِمِ مِن أهَمِّ مَسائِلِ التَّكليفِ[١].

٤- ذكرُ آلاءِ الله تبارك وتعالى ونِعَمِه على عبدِه سببُ الفلاحِ والسَّعادة؛ لأنَّ ذلك لا يزيدُه الا محبةً لله وحمدًا وشكرًا وطاعةً وشهودَ تقصيرِه، بل تفريطِه في القليلِ مما يجبُ لله عليه، قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٢].

٥- إنْ قِيلَ: العبدُ في بعضِ الأحيانِ قد لا يكونُ عنده مَحَبَّةٌ تَبعَثُه على طلَبِ مَحبُوبِه، فأيُّ شَيءٍ يُحَرِّكُ القُلوبَ؟ قُلنا: يُحَرِّكُها شيئانِ: أحدُهما كثرةُ الذِّكرِ للمَحبوبِ؛ لأنَّ كَثرةَ ذِكرِه تُعَلِّقُ القلوبَ به؛ ولهذا أمَرَ اللهُ عزَّ وجَلَّ بالذِّكرِ الكَثيرِ، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ الآية. والثاني: مُطالعةُ آلائِه ونَعمائِه؛ قال الله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾. وقال تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ فإذا ذكَرَ العبدُ ما أنعَمَ اللهُ به عليه: مِن تسخيرِ السَّماءِ والأرضِ، وما فيها مِنَ الأشجارِ والحَيَوانِ، وما أسبَغَ عليه مِنَ النِّعَمِ الباطنةِ من الإيمانِ وغَيرِه؛ فلا بُدَّ أن يُثيرَ ذلك عنده باعثًا، وكذلك الخوفُ تُحَرِّكُه مُطالعةُ آياتِ الوَعيدِ والزَّجرِ، والعَرْضِ والحِسابِ ونحوِه، وكذلك الرَّجاءُ يُحَرِّكه مُطالعةُ الكَرَمِ والحِلمِ والعَفوِ، وما ورد في الرَّجاءِ[٣].

٦- قال تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ، وَنَذَرَ ما كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا﴾ هذا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٩٥، ٩٦).

مشهَدٌ بائِسٌ لاستعبادِ الواقِعِ المألوفِ للقُلوبِ والعُقول، هذا الاستعبادُ الذي يسلُبُ الإنسانَ خصائِصَ الإنسانِ الأصيلةَ: حُريَّةَ التدَبُّرِ والنَّظَرِ، وحريَّةَ التَّفكيرِ والاعتقادِ، ويَدَعُه عَبدًا للعادةِ والتَّقليدِ، وعَبدًا للعُرفِ والمألوفِ، وعبدًا لِمَا تفرِضُه عليه أهواؤُه وأهواءُ العبيدِ مِن أمثالِه، ويُغلِقُ عليه كلَّ بابٍ للمعرفةِ، وكلَّ نافذةٍ للنُّورِ، وهكذا استعجَلَ القَومُ العذابَ؛ فرارًا مِن مواجهةِ الحَقِّ، بل فرارًا مِن تدَبُّرِ تفاهةِ الباطِلِ الذي هم له عبيدٌ، وقالوا لنَبيِّهم النَّاصِحِ الأمينِ: ﴿فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[1].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أنَّ كُلَّ ما يتعَلَّقُ بعِبادَتِه لا يجوزُ أنْ يُؤخَذَ إلَّا مِمَّا أنزَلَه على رُسُلِه؛ إذ لا يَعلَمُ ما يُرضِيه ويصِحُّ عنده مِن عِبادَتِه إلَّا المُبَلِّغونَ عنه[2].

٨- قال تعالى: ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ هذه الثِّقةُ في موعودِ اللهِ هي مَناطُ القُوَّةِ التي يستشعِرُها صاحِبُ الدَّعوةِ إلى اللهِ؛ أن يكونَ على يقينٍ مِن هُزالِ الباطِلِ وضَعفِه، وخِفَّةِ وَزنِه مهما انتفَشَ ومهما استطالَ، كما أنَّه على يقينٍ مِن سُلطانِ الحَقِّ الذي معه، وقُوَّتِه بما فيه مِن سُلطانِ اللهِ[3].

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أي: في النَّسَبِ؛ لأنَّهم عنه أفهَمُ، وبحالِه في الثِّقةِ والأمانةِ أعرَفُ[4].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ لَمَّا عَطَفَ ذِكرَ هُودٍ على

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٣١١).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٤٤).
(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٣١٢).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٣٣).

نوحٍ- عليهما السلام- بَيَّنَه بِقَولِه: ﴿أَخَاهُمْ هُودًا﴾، ولم يُوصَفْ نُوحٌ بأنَّه أخٌ لِقَومِه؛ لأنَّ النَّاسَ في زَمَنِ نوحٍ لم يكونوا قد انقَسَموا شُعوبًا وقبائِلَ[1].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ دليلٌ على جوازِ تَسميةِ القَريبِ الكافِرِ (أخًا)[2].

٤- قال تعالى: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ قد شابَهَت دعوةُ هُودٍ قَومَه، دعوةَ نُوحٍ قَومَه في المُهِمِّ مِن كلامِها؛ لأنَّ الرُّسُلَ مُرسَلونَ مِنَ اللهِ، والحكمةُ مِنَ الإرسالِ واحدةٌ، فلا جَرَمَ أنْ تتشابَهَ دَعَواتُهم، وفي الحديثِ: ((الأنبياءُ أبناءُ عَلَّاتٍ))[3]، وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾[4].

٥- الغايةُ التي بُعِثَ مِن أجلِها الرُّسُلُ: إفرادُ اللهِ تعالى بالعبادةِ، والنَّهيُ عن جميعِ المُوبِقاتِ، مِن الكُفرِ والفُسوقِ والعِصيانِ؛ يُرشِدُنا إلى ذلك قولُه تعالى: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[5].

٦- قال اللهُ تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ قد تشابَهَتْ أقوالُ قَومِ هُودٍ، وأقوالُ قَومِ نُوحٍ في تكذيبِ الرَّسولِ؛ لأنَّ ضَلالةَ المُكَذِّبينَ مُتَّحدةٌ، وشُبُهاتِهم مُتَّحِدة، كما قال تعالى: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨] فكأنَّهم لَقَّنَ بَعضُهم بعضًا كما قال تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾[6].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠١).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٤١).
(٣) أخرجه البخاري (٣٤٤٢)، ومسلم (٢٣٦٥) من حديث أبي هريرة.
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠١، ٢٠٢).
(٥) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (١/ ٣٩).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠٣).

٧- يُستفادُ مِن قَولِه تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أنَّ الرِّسالةَ لا يُختارُ لها إلَّا أهلُ الحَصافةِ برُجحانِ العَقلِ، وسَعَةِ الحِلمِ، وكَمالِ الصِّدقِ، وإلَّا لفات ما يُقصَدُ بها مِنَ الحكمةِ، ولم تَقُمْ بها لله الحُجَّةُ(١).

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فيه مَدحٌ للنَّفسِ بأعظَمِ صِفاتِ المَدحِ؛ ومَدحُ الذَّاتِ الأصلُ فيه أنَّه غيرُ لائقٍ بالعُقلاءِ، لكن إنَّما فَعَلَ هُودٌ ذلك؛ لأنَّه كان يجِبُ عليه إعلامُ القَومِ بذلك، وذلك يدلُّ على أنَّ مَدْحَ الإنسانِ نَفسَه إذا كان في مَوضِعِ الضَّرورةِ؛ جائِزٌ(٢).

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ لَمَّا كانوا قد رَمَوْه- عليه السَّلامُ- بالسَّفَهِ الذي هو مِن غَرائِزِ النَّفسِ؛ لأنَّه ضِدُّ الحِلمِ والرَّزانة- عَبَّرَ عن مضمونِ الجُملةِ النَّافيةِ له بما يقتضي الثَّباتَ، فقال: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ﴾ أي: لم يزَلِ النُّصحُ من صفتي، ثابتٌ فيَّ ومتمَكِّنٌ منِّي(٣).

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أسنَدُوا الفِعلَ إلى ضَميرِه؛ تعريضًا بأنَّ ما تَوَعَّدَهم به هو شيءٌ مِن مُختَلَقاتِه، وليس مِن قِبَلِ اللهِ تعالى(٤).

١١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ عَقَّبوا كلامَهم بالشَّرطِ فقالوا: ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾؛ استقصاءً لمقدِرَتِه، قصدًا منهم لإظهارِ عَجْزِه عن الإتيانِ بالعذابِ، وجوابُ الشَّرطِ مَحذوفٌ دَلَّ عليه ما قبلَه، تقديره: أتيتَ به، وإلَّا فَلَسْتَ بصادقٍ(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٤٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٠١)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٨٦).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠٩).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

١٢- في قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ عَطفُ الغَضَبِ على الرِّجسِ لِبَيانِ أنَّ الرِّجسَ قد أُريدَ به الانتقامُ الحَتمُ، فلا يُمكِنُ رَفعُه(١).

١٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾، قوله ﴿نَزَّلَ﴾ هذا التفعيلُ يأتي بمعنى الفِعلِ المُجَدَّد، وبمعنى الفعل بالتَّدريجِ، فقَصَد النفيَ بكلِّ اعتبارٍ: سواءٌ كان تجديدًا أو تدريجًا، وإشارة إلى أنَّه لو نَزَلَ عليهم في الأمرِ بعبادَتِها شيءٌ واحِدٌ، لتوَقَّفوا فيه؛ لعَدَمِ فَهْمِهم لمعناه حتى يُكَرَّرَ عليهم الأمرَ فيه مَرَّةً بعدَ أخرى، فدلَّ ذلك قطعًا على أنَّ الأمرَ لهم بعبادةِ الأصنامِ إنَّما هو ظَلامُ الهوى؛ لأنَّه عَمًى محضٌ، مِن شأنِ الإنسانِ رُكوبُه بلا دليلٍ أصلًا(٢).

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ فَرْقٌ بين الانتظارَينِ؛ انتظارِ مَن يخشَى وُقوعَ العِقابِ، ومَن يَرجُو مِنَ اللهِ النَّصرَ والثَّوابَ؛ ولهذا فتَحَ اللهُ بين الفَريقينِ، فقال: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ﴾ أي: هودًا ﴿وَالَّذِينَ﴾ آمَنُوا ﴿مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ فإنَّه الذي هداهم للإيمانِ، وجعَلَ إيمانَهم سببًا ينالونَ به رَحمَتَه، فأنجاهم برَحمته، ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: استأصَلْناهم بالعَذابِ الشَّديدِ، الذي لم يُبقِ منهم أحدًا(٣).

١٥- قولُ الله تعالى: ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدَّابِرُ هو آخِرُ واحدٍ في الرَّكْبِ يتبَعُ أدبارَ القَومِ، ففي الآيةِ إعلامٌ منه تعالى أنَّ أخْذَه لهم كان على غيرِ أخْذِ المُلوكِ الَّذينَ يَعجِزونَ عن الاستقصاءِ في الطَّلَبِ، فتَفُوتُهم أواخِرُ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٤٤).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٤١-٤٤٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٤).

العَساكرِ، والمتفرقين مِن الجُنودِ والأتباعِ[1].

١٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ وَصْفُهم بالتَّكذيبِ بالفِعلِ الماضي لا يُفهِم دوامَهم على تكذيبِهم، بل لنَفْيِ احتمالِ أنَّهم آمَنُوا بعد التَّكذيبِ، وأنَّ أَخْذَهم إنَّما كان لمُطلَقِ صُدورِ التَّكذيبِ منهم، وأنَّهم لم يبادِروا إلى الإيمانِ قَبلَ التَّكذيبِ[2].

١٧- قول الله تعالى: ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ فائدة نَفْيِ الإيمانِ عنهم في قولِه: ﴿وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ مع إثباتِ التَّكذيبِ بآياتِ اللهِ، هو الإشارةُ إلى مَن آمَن منهم، ومَن نَجا مع هُودٍ عليه السَّلامُ، والتَّنبيهُ على أنَّ الفارقَ بَينَ مَن نَجَا وبَينَ مَن هلَك هو الإيمانُ، كأنَّه قال: وقَطَعْنا دابرَ الذين كذَّبوا منهم ولم يكونوا مِثلَ مَن آمَنَ منهم؛ ليُؤذِنَ أنَّ الهلاكَ خَصَّ المُكذِّبين، ونَجَّى اللهُ المؤمِنين[3].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾

- قوله: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هودًا﴾ فيه تقديمُ المجرورِ ﴿وَإِلَى﴾ على المفعولِ الأصليِّ ﴿هُودًا﴾؛ ليتأتَّى الإيجازُ بالإضمارِ؛ حيثُ أُريد وصْفُ هودٍ بأنَّه مِن إخوةِ عادٍ ومِن صميمِهم، مِن غير احتياجٍ إلى إعادةِ لفظ (عاد)، ومع تجنُّبِ عودِ الضَّميرِ على متأخر لفظًا ورُتبةً[4].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٠٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٤٢).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٤٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠٠).

- وقولُه: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ مِن حِكايةِ إرسالِه عليه السلام إليهم كأنَّه قيل: فماذا قال لهم؟ فقيل: قال قوله: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾[1].

- وفُصِلتْ جملةُ: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ﴾ ولم تُعطَفْ بالفاءِ- كما عُطِف نظيرُها المتقدِّمُ في قِصَّة نوح في قوله: ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، فعُطِفتْ بالفاءِ-؛ لأنَّ الحالَ اقتضَى هنا أنْ تكونَ مُستأنفةً استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ قِصَّةَ هُودٍ لَمَّا ورَدَتْ عقِبَ قِصَّة نوحٍ المذكورِ فيها دَعوتُه قَومَه، صار السامعُ مُترقِّبًا معرفةَ ما خاطَبَ به هودٌ قومَه، حيثُ بعَثَه اللهُ إليهم، فكان ذلك مثارَ سؤالٍ في نفْسِ السَّامعِ أن يقول: فماذا دعا هودٌ قومَه؟ وبماذا أجابوا؟ فيقع الجوابُ بأنَّه قال: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ...﴾؛ فقدْ فُصِلتْ الجُملةُ هنا وفيما يأتِي مِن سائرِ القصص، والفَرقُ المقتضي لذلك أنَّ العطف هُنالك في قِصَّة نوحٍ جاءَ على أصْلِه: وهو كونُ التبليغِ جاءَ عقِبَ الإرسالِ؛ لأنَّ التأخيرَ غيرُ جائزٍ، ولَمَّا صارَ هذا معلومًا كان مِن المناسبِ فيما بَعْدَه مِن القصصِ أنْ يجيءَ بأُسلوبِ الاستئنافِ[2].

- وجملةُ ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ استفهاميَّةٌ إنكاريةٌ معطوفةٌ بفاءِ التَّفريع على جُملةِ ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، والمرادُ بالتَّقوَى الحذرُ مِن عِقابِ اللهِ تعالى على إشراكِهم غيرَه في العِبادةِ، واعتقادِ الإلهيَّةِ، وفيه تعريضٌ بوعيدِهم إنِ استمرُّوا على ذلك[3].

- وإنَّما ابتدأَ بالإنكارِ عليهم؛ إغلاظًا في الدَّعوةِ، وتهويلًا لفظاعةِ الشِّرْك-

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٣٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٤١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠٢).

إنْ كان قال ذلك في ابتداءِ دَعوتِه(١).

٢- قَولُه تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ فيه تنكيرُ ﴿سَفَاهَةٍ﴾؛ لبيانِ نَوعِها، أو المبالغة بعِظَمِها، أي: قالوا: إنَّا لنراكَ في سَفاهةٍ غريبةٍ، أو تامَّةٍ راسخةٍ تُحيط بك مِن كلِّ جانبٍ، بأنَّك لم تَثبُتْ على دِينِ آبائِك وأجدادِك، بل قُمتَ تَدْعُو إلى دِينٍ جديدٍ(٢).

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ فيه تقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَكُمْ﴾ على عامِلِه؛ للإيذانِ باهتمامِه بما يَنفعُهم(٣).

٤- قوله: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾

- قوله: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ﴾ الهَمزةُ في قوله: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾ للإنكارِ والتَّوبيخِ، أي: هذا ممَّا لا يُعجَبُ منه؛ إذ له تعالى التصرُّفُ التامُّ بإرسالِ مَن يشاءُ لِمَن يشاءُ(٤).

- قوله: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ في هذا التذكيرِ تَصريحٌ بالنِّعمةِ، وتعريضٌ بالنِّذارةِ والوعيدِ بأنَّ قومَ نوحٍ إنَّما استأصلَهم وأبادَهم عذابٌ مِن اللهِ على شِركِهم؛ فمَن اتَّبعهم في صُنعِهم يُوشِكُ أنْ يَحُلَّ به عذابٌ أيضًا(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٢٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٩٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠٥).

٥- قوله: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أعادوا تكذيبَه بطريقِ الاستفهامِ الإنكاريِّ على دَعوتِه للتوحيدِ، وقَصَدوا ممَّا دلَّ عليه فِعلُ المجيءِ زِيادةَ الإنكارِ عليه، وتَسفيهَه على اهتمامِه بأمْرٍ مِثلِ ما دعاهم إليه، وهذا الجوابُ أقلُّ جفوةً وغِلظةً من جوابِهم الأوَّلِ؛ إذ قالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾، كأنَّهم قَصَدوا استنزالَ نَفْسِ هودٍ، ومحاولةَ إرجاعِه عمَّا دعاهم إليه؛ فلذلك اقْتَصروا على الإنكارِ، وذكَّروه بأنَّ الأمْرَ الذي أنكرَه هو دِينُ آباءِ الجميعِ؛ تعريضًا بأنَّه سَفَّه آباءَه، وهذا المقصدُ هو الذي اقْتَضى التعبيرَ عن دِينِهم بطريقِ الموصوليَّة في قولهم: ﴿مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾؛ إيماءً إلى وجْه الإنكارِ عليه، وإلى أنَّه حقيقٌ بمتابعةِ دِين آبائِه[1].

- واجتلابُ (كان) في قولهم: ﴿وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ لتدلَّ على أنَّ عبادَتَهم أمرٌ قديمٌ مَضَتْ عليه العُصورُ[2].

- والتعبير بالفِعل وكونه مُضارِعًا في قوله: ﴿يَعْبُدُ﴾؛ ليدلَّ على أنَّ ذلك مُتكرِّرٌ مِن آبائهم ومُتجدِّدٌ، وأنَّهم لا يَفتُرون عنه[3].

- وفي قولهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ أَسْنَدوا الفِعلَ إلى ضَميرِه؛ تعريضًا بأنَّ ما تَوعَّدهم به هو شيءٌ مِن مُختَلَقاتِه، وليس مِن قِبَلِ اللهِ تعالى[4].

٦- قوله: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠٧).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٠٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٢٠٩).

- قوله: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ﴾ فيه تقديمُ الظرفِ الأوَّل ﴿عَلَيْكُمْ﴾ على الثاني ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾، مع أنَّ مَبْدأَ الشيءِ متقدِّمٌ على مُنتهاه؛ للمُسارعةِ إلى بيانِ إصابةِ المكروهِ لهم، وتقديمهما على الفاعِل ﴿رِجْسٌ﴾؛ للاهتمامِ بتَعجيلِ ذِكرِ المغضوبِ والغاضِب، إيقاظًا لبصائرِهم؛ لعلَّهم يُبادِرونَ بالتوبةِ، ولأنَّ المَجرورَينِ مُتعلِّقانِ بالفِعلِ؛ فناسَب إيلاؤُهما إيَّاه، ولو ذُكِرَا بعدَ الفاعِلِ؛ لتُوهِّم أنَّهما صِفتانِ له، وقُدِّم المجرورُ الذي هو ضميرُهم، على الذي هو وصْفُ ربِّهم؛ لأنَّهم المقصودُ الأوَّلُ بالفِعلِ(١).

- قوله: ﴿قَدْ وَقَعَ﴾ فيه استعمالُ صِيغة المُضيِّ في مَعْنى الاستقبالِ؛ إشعارًا بتَحقيقِ وقوعِه، واقترانُ الفِعل ﴿وَقَعَ﴾ بـ﴿قَدْ﴾؛ للدَّلالةِ على تَقريبِ زَمنِ الماضي مِن الحال، مِثلُ: قد قامَتِ الصَّلاةُ(٢).

- قوله: ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ الاستفهامُ في قوله: ﴿أَتُجَادِلُونَنِي﴾ للإنكارِ؛ فهو إنكارٌ مِنه لِمُخاصمتِهم له فيما لا يَنبغي فيه الخِصامُ(٣).

- قوله: ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ صِيغةُ الأمْر ﴿فَانْتَظِرُوا﴾ للتَّهديدِ، والجُملةُ استئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ تَهديدَه إيَّاهم يُثيرُ سؤالًا في نُفوسِهم أنْ يقولوا: إذا كُنَّا ننتظرُ العذابَ؛ فماذا يكونُ حالُك؟ فبَيَّن أنَّه يَنتظِرُ معهم، وهذا مقامُ أَدبٍ معَ اللهِ تعالى(٤).

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَانْتَظِرُوا﴾ لتَفريعِ هذا الإنذارِ والتَّهديدِ السَّابق؛ لأنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢١٠-٢١١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢١٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٨٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢١٣).

وُقوعَ الغَضبِ والرِّجسِ عليهم، ومُكابرتَهم واحتجاجَهم لِمَا لا حُجَّةَ له؛ ينشأُ عن ذلك التَّهديدُ بانتظارِ العذابِ(١).

٧- قوله: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ كانَ مُقتضَى الظاهِرِ أنْ يَكونَ النَّظمُ هكذا: (فقطَعْنا دابرَ الذين كذَّبوا... وأنْجَينا هودًا...)، ولكن جَرَى النَّظمُ على خِلافِ مُقتضَى الظاهِرِ؛ للاهتمامِ بتَعجيلِ الإخبارِ بنَجاةِ هُودٍ ومَن آمَن مَعه(٢).

- قوله: ﴿بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ تَنكيرُ الرَّحمةِ للتَّعظيمِ، ووصفُها بأنَّها مِن اللهِ؛ للدَّلالةِ على كمالِها وأنَّها غيرُ مُنقطعةٍ عنهم(٣)، وقولُه: ﴿مِنَّا﴾، أي: مِن جِهتنا، مُتعلِّق بمحذوف هو نعتٌ لـ ﴿رَحْمَةٍ﴾ مُؤكِّدٌ لفخامتِها الذاتيَّةِ المنفهمةِ مِن تنكيرِها بالفَخامةِ الإضافيَّةِ(٤).

- قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ عَطفٌ على ﴿كَذَّبُوا﴾ في قولِه تعالى: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾؛ فهو مِن الصِّلةِ، وفائدةُ عَطفِه الإشارةُ إلى أنَّ كِلتَا الصِّلتينِ مُوجِبٌ لقَطعِ دابرِهم، وهما: التَّكذيبُ، والإشراك؛ تَعريضًا بمُشركِي قُريشٍ، ولموعظتِهم ذُكرتْ هذه القَصصُ(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢١٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢١٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٤٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢١٥).

الآيات (٧٣-٧٩)

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿بَيِّنَةٌ﴾: أي: بصيرةٌ ودَلالةٌ، ويقينٌ، وحُجَّةٌ وبُرهانٌ، وأصلُ (بين): الانْكِشاف[1].

﴿آيَةً﴾: الآيةُ تُطلَقُ على العلامةِ- يُقال: آيةُ كذا؛ أي: علامَتُه- وعلى العَجيبةِ، وتُطلق أيضًا على الجماعةِ، وسُمِّيت الآيةُ مِن القرآنِ بذلك: إمَّا مِن العلامةِ؛ لأنَّها علامةٌ على صدقِ مَن جاء بها، أو مِن الجماعةِ؛ لأنَّها جماعةٌ مِن كلماتِ القرآنِ مشتملةٌ على بعضِ ما اشتَمل عليه القرآنُ مِن الإعجازِ، والحلالِ

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٤٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٦٤).

والحرامِ، والعقائدِ(١).

﴿وَلَا تَمَسُّوهَا﴾: ولا تُصيبُوها ولا تَقتُلوها ولا تَنالوها بعَقْرٍ، والمسُّ يُقال في كلِّ ما يُصيبُ مِن أذًى، وأصل (مسس): جَسُّ الشَّيءِ باليَدِ(٢).

﴿وَبَوَّأَكُمْ﴾: أي: وأنزَلكم، وجَعَل لكم مَساكِنَ وأزواجًا، وأصل (بوأ): يَدُلُّ على الرُّجوعِ إلى الشَّيءِ، وعلى تساوِي الشَّيئينِ(٣).

﴿سُهُولِهَا﴾: السهْلُ هو المكانُ المنخفضُ المستوي، الذي لا وَعْرَ فيه، وأصل (سهل): اللِّينُ، وهو عَكسُ الحُزونةِ والصُّعوبةِ(٤).

﴿وَتَنْحِتُونَ﴾: أي: تَنقبُونَ، وأصل (نحت): يدلُّ على نَجْرِ شَيءٍ، وَتَسوِيَتِهِ بِحَديدةٍ(٥).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٠٤، ٥٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٦١).

قال الشنقيطيُّ: (والآيةُ في القرآنِ تُطلَق إطلاقَينِ: تُطلَقُ الآيةُ على الآيةِ الكونيَّةِ القدريَّةِ، وهي مِن الآيةِ بمعنى: العلامةِ، وهي ما نصَبه اللهُ جلَّ وعلا مِن آياتِه، جاعلًا لها علاماتٍ على كمالِ قُدرتِه، وأنَّه الربُّ وحدَه، المعبودُ وحدَه، كقولِه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ﴾ [آل عمران: آية ١٩٠] أي: لعلاماتٍ ودلالاتٍ واضحاتٍ على أنَّه الربُّ المستحِقُّ أنْ يُعبدَ وحدَه.

الإطلاقُ الثَّاني: تُطلَق الآيةُ في القرآنِ على الآيةِ الشرعيَّة الدينيَّةِ، كآياتِ هذا القرآنِ العظيمِ). ((العذب النمير)) (٤/ ٣٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٩٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣١٢).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٢٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٩٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٠٤).

﴿وَلَا تَعْثَوْا﴾: لَا تَطْغَوْا، وَلَا تَسْعَوْا بالمعاصِي، من عَثِيَ أو عَثَا، وفيه لغةٌ أخرى: أنَّه من عَاثَ يَعيثُ، والعَيثُ أشَدُّ الفَسادِ والإفساد. وأصلُ (عيث): الفَسادُ، والعَيثُ والعِثِيُّ مُتقاربانِ، إلَّا أنَّ العَيثَ أكثَرُ ما يُقالُ في الفَسادِ الذي يُدرَكُ حِسًّا، والعِثِيَّ فيما يُدْرَكُ حُكمًا[١].

﴿فَعَقَرُوا﴾: أي: فنَحَروا، أو فقَتَلوا، وأصل (عقر): يدلُّ على جُرحٍ أو ما يُشبِهُ الجُرحَ[٢].

﴿وَعَتَوْا﴾: أي: تكبَّروا وَتجبَّروا، والعُتُوُّ: النبوُّ عن الطَّاعةِ، وأصله: يدلُّ على الاستكبارِ[٣].

﴿الرَّجْفَةُ﴾: أي: الصَّيحةُ التي زَعزَعَتْهم وحرَّكَتْهم للهلاكِ، والرَّجفةُ: حَرَكَةُ الأَرْضِ، أو الزَّلزلةُ الشَّدِيدَةُ، والرَّجْفُ: الاضطرابُ الشَّديدُ، وأصلُ (رجف): يَدُلُّ على اضطرابٍ[٤].

﴿جَاثِمِينَ﴾: أي: جامِدينَ مَيِّتِينَ، واقعينَ بعضُهم على بعضٍ، أو: بارِكينَ على الرُّكَبِ أيضًا؛ مِن قَولِهم: جَثَمَ الطَّائرُ إذا قعَد ولَصِق بالأرضِ، وأصلُ (جثم) يَدُلُّ على تجمُّعِ الشَّيءِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٦).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٩٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٢) ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٤).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٥)، =

المَعْنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه أرسَلَ إلى قَبيلةِ ثَمودَ أخاهم في النَّسَبِ صالحًا؛ لِيَدعُوَهم إلى عبادةِ اللهِ وَحْدَه، وتَرْكِ عبادةِ ما سِواه، فقال لهم: اعبُدُوا اللهَ وَحْدَه؛ ليس لكم معبودٌ يستحِقُّ العبادةَ غَيرُه، قد أتَتْكم حُجَّةٌ واضحةٌ مِن رَبِّكم على صِدقِ ما جِئْتُ به، وهي هذه النَّاقةُ؛ جَعَلَها اللهُ بُرهانًا مُقنعًا لِتُطيعوني، فاتْرُكوها تأكُلْ في أرضِ اللهِ، ولا تتعَرَّضوا لها بسُوءٍ، فيأخُذَكم عذابٌ مُوجِعٌ، واذكروا نعمةَ اللهِ عليكم؛ إذ جعَلَكم تخلُفُون عادًا بعد أنْ أهْلَكَهم، وأسكَنَكم الحِجْرَ بين الحجازِ والشَّامِ، فتَبنُونَ قُصورًا في الأماكِنِ المُستَوِيةِ، وتَنحِتونَ الجبالَ؛ لتكونَ لكم فيها مساكِنُ أخرى، فاذكروا نِعَمَ اللهِ الكثيرةَ عليكم، ولا تَسْعَوا في الأرضِ بالفَسَادِ.

قال الرُّؤساءُ المُتكَبِّرونَ مِن قَومِه، للمستضعفين مِمَّن آمَنَ به: أتَعلمونَ مُستيقِنينَ أنَّ صالحًا رسولٌ مِنَ اللهِ، وأنَّه غيرُ كاذبٍ فيما يقولُ؟ قال المؤمنونَ مِنَ المُستضعفينَ: إنَّا بما أُرسِلَ به مُؤمِنونَ، فقال المُستكْبِرونَ: إنَّا بما آمَنْتُم به كافِرونَ، فقَتَلوا النَّاقةَ، واستكبَرُوا عن أمْرِ ربِّهم، وقالوا يا صالِحُ: ائْتِنا بِما تَعِدُنا مِنَ العَذابِ، إنْ كنتَ حقًّا مِنَ المُرسَلينَ، فأتاهم العَذابُ، وأخَذَتْهم الصَّيحةُ التي زلزَلَتِ الأرضَ مِن شِدَّتِها، فصاروا في بَلَدِتِهم صَرعى، مُنكَبِّينَ على وُجوهِهم، لاصقينَ بالأرضِ على رُكَبِهم، خامدينَ لا حياةَ فيهم.

فانصرَفَ عنهم صالحٌ عليه السَّلامُ، وقال موَبِّخًا لهم ومُعاتِبًا: يا قومِ، لقد أبلَغْتُكم ما أُرسِلْتُ به مِن رَبِّي، ونَصَحْتُ لكم، ولكِنَّكُم لا تُحبُّونَ النَّاصحينَ.

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٧).

تَفسيرُ الآيات:

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣)﴾.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾.

أي: ولقد أرسَلْنا إلى قبيلةِ ثَمودَ أخاهم في النَّسَبِ صالحًا عليه السَّلامُ؛ لِيدعُوَهم إلى عبادةِ اللهِ وَحدَه، وينهاهم عن عبادةِ غَيرِه، فقال لهم: يا قَومِ اعبُدُوا اللهَ وَحدَه، ليس لكم معبودٌ يَستحِقُّ العبادةَ غَيرُه، فلا تُشرِكوا به شيئًا[(١)].

﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ﴾.

أي: قال صالحٌ عليه السَّلامُ لِقَومِه: قد جاءَتْكم حجَّةٌ واضِحَةٌ مِن خالِقِكم ومالِكِكم، ومُدَبِّرِ شُؤُونِكم، على صِدْقِ ما جِئْتُكم به مِن إفرادِ اللهِ بالعبادةِ، وهذه الحُجَّةُ هي هذه النَّاقةُ الشَّريفةُ، التي جعَلَها اللهُ تعالى آيةً عظيمةً، مُقنِعةً لكم؛ لِتُطيعوني[(٢)].

﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٠)، ((تفسير المراغي)) (١٢/ ٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢١٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥١٢).

قال الرازي: (اعلَمْ أنَّ القُرآنَ قد دَلَّ على أنَّ فيها آيةً، فأمَّا ذِكرُ أنَّها كانت آيةً مِن أيِّ الوُجوهِ؛ فهو غيرُ مذكورٍ، والعِلمُ حاصِلٌ بأنَّها كانت مُعجزةً مِن وَجهٍ ما- لا محالةَ). ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٠٥).

أي: فاتْرُكوا النَّاقةَ تَرعَى في أرضِ اللهِ؛ فليس عليكم رِزْقُها، ولا تتعَرَّضوا لها بشَيءٍ مِنَ الأذى؛ فإنَّكم إنْ آذَيْتُموها بشَيءٍ، جاءكم عذابٌ مُؤلِمٌ(١).

كما قال تعالى حاكيًا قَولَ صالحٍ لِقَومِه: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥-١٥٦].

﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أمَرَهم ونهاهم، ذَكَّرَهم بِنِعَمِ اللهِ تعالى ترغيبًا مُشيرًا إلى ترهيبٍ(٢)، فقال:

﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾.

أي: واذكُروا نِعمةَ اللهِ عليكم؛ بأن جَعَلَكم تخلُفونَ عادًا- قومَ هودٍ- في الأرضِ مِن بَعدِ هلاكِهم، حيث أبدَلكم بهم(٣).

﴿وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٩٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٠٠)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢١٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٢٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٢٠).

أي: وأنزَلكم وأسكَنكم في الأرضِ- وهي الحِجْرُ بين الحِجازِ والشَّامِ- منازِلَ متنوِّعةً، فتَبنُونَ القُصُورَ العاليةَ في الأماكِنِ المُستَوِيةِ المُنخَفِضةِ وغَيرِ الوَعْرةِ، وتأخُذونَ مِن آجُرِّها وطِينِها، وتُؤَسِّسُونَها بالحِجارةِ، وتَنْقُبونَ صُخورَ الجبالِ، فتكونُ لكم فيها مساكِنُ أخرى[1].

كما حَكَى اللهُ تعالى قولَ صالحٍ لهم، فقال: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٩].

﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾.

أي: فاذْكُروا نِعَمَ اللهِ الكثيرةَ عليكم، واشكُرُوا اللهَ عليها؛ بطاعَتِه وعِبادَتِه وَحدَه[2].

﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

أي: ولا تُفسِدُوا في الأرضِ، ساعِينَ فيها بالشِّركِ والمعاصِي[3].

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٢٣).
وقال الشِّنقيطيُّ: (وكانوا في الصَّيفِ يسكُنونَ القُصورَ المبنيَّةَ مِنَ الآجُرِّ والطِّينِ؛ لأنَّها أشَدُّ بُرودةً... ومعنى نَحتِهم الجبالَ: أنَّهم يأخُذونَ آلاتِ حديدٍ... فيحفرونَ في الجَبَلِ... ثم يقطعونَ لها أبوابَها وطاقاتِها مِن نَفسِ الجَبَلِ، ثم تكونُ تلك الأبوابُ والغُرَفُ والطَّاقاتُ كُلُّها مِنَ الجِبالِ... إذا اشتَدَّ البَردُ زَمَنَ الشِّتاءِ دَخَلوها، فكانت لشِدَّةِ استدفائِها لا يُحِسُّونَ بالبَردِ شَيئًا، وهذا مِن نِعَمِ اللهِ عليهم). ((العذب النمير)) (٣/ ٥٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٨٨ - ٤٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٠)، ((البسيط)) للواحدي (٤/ ٧٨)، ((حاشية الخفاجي على تفسير البيضاوي)) (٧/ ٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٢٧).

ءَامَنَ مِنۡهُمۡ أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

أي: قال الأشرافُ والرُّؤَساءُ الكَفَرةُ، المُتكَبِّرونَ عَنِ الحَقِّ مِن قَومِ صالحٍ، للمُستَضعَفينَ المُحتقَرينَ المَساكينِ، مِنَ المؤمنينَ به: أتعْلَمونَ يَقينًا أنَّ صالحًا رَسولٌ مِنَ اللهِ إلينا، وأنَّه غيرُ كاذبٍ على اللهِ[(١)]؟

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾.

أي: قال الَّذينَ آمَنُوا بصالحٍ مِنَ المُستَضعفينَ: إنَّا بِما أَرسَلَ اللهُ به صالحًا مِنَ الحَقِّ، مُؤمنونَ، ونُوقِنُ أنَّه مِن عِندِ اللهِ، لا نَشُكُّ في ذلك[(٢)].

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

أي: قال المُتكَبِّرونَ مِن قَومِ صالحٍ للمُستضعفينَ مِن المُؤمنينَ: إنَّا بالذي آمَنْتُم به مِنَ الحَقِّ، وأنَّ صالحًا رَسولٌ مِنَ اللهِ إلينا، جاحِدونَ، لا نُصَدِّقُ بذلك[(٣)].

﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٢٨ - ٥٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٢٩).

أي: فقَتَلَتْ ثمودُ النَّاقةَ التي جعَلَها اللهُ لهم آيةً، والتي تَوَعَّدَهم- إنْ مَسُّوها بِسُوءٍ- أن يُصِيبَهم عذابٌ أليمٌ(١).

﴿وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾.

أي: واستكبَروا وتَمَرَّدوا عن امتثالِ أمرِ رَبِّهم، وغَلَوْا في باطِلِهم(٢).

﴿وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ٧٧﴾.

أي: وقال الكُفَّارُ المُتكَبِّرون مِن قَومِ صالحٍ: يا صالِحُ، ها نحنُ قد قتَلْنا ناقةَ اللهِ التي أتَتْنا، فعجِّلْ لنا بما تَعِدُنا مِن عَذابِ اللهِ، إن كُنتَ حقًّا مِن رُسُلِ الله؛ فإنَّ اللهَ ينصُرُ رُسُلَه على أعدائِهم(٣).

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ٧٨﴾.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٣٠).

وقال السَّعدي: (اعلَمْ أنَّ كَثيرًا مِنَ المُفَسِّرين يذكرونَ في هذه القِصَّةِ أنَّ النَّاقة قد خَرَجَتْ مِن صَخرةٍ صَمَّاءَ مَلْساءَ اقترَحوها على صالحٍ، وأنَّها تمخَّضَت تَمخُّضَ الحامِلِ، فخَرَجَت النَّاقةُ وهم ينظُرونَ، وأنَّ لها فصيلًا حين عَقَروها، رغى ثلاثَ رَغَياتٍ، وانفلَقَ له الجَبَلُ ودخل فيه، وأنَّ صالحًا عليه السَّلامُ قال لهم: آيةُ نُزُولِ العَذابِ بكم أن تُصبِحُوا في اليَومِ الأوَّلِ مِنَ الأيَّامِ الثَّلاثةِ ووجوهُكم مُصْفَرَّةٌ، واليوم الثاني: مُحمَرَّة، والثالث: مُسْوَدَّة، فكان كما قال. وكلُّ هذا مِنَ الإسرائيليَّاتِ التي لا ينبغي نَقْلُها في تفسيرِ كتابِ اللهِ، وليس في القُرآنِ ما يدلُّ على شيءٍ منها بِوَجهٍ مِنَ الوُجوهِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠١)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٥١)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٨٤)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٣١).

أي: فأخَذَتْ أولئك الكُفَّارَ الصَّيحةُ، التي تزلزَلَتِ الأرضُ مِن شِدَّتِها(١).

﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾.

أي: فصاروا في بَلدَتِهم لاصقينَ بالأرضِ على رُكَبِهم، ومُنكَبِّينَ على وُجُوهِهم، صَرْعَى، خامدينَ لا حياةَ فيهم، قد هَلَكوا مِن شِدَّةِ الصَّيحةِ(٢).

كما قال تعالى حاكيًا قَولَ صالحٍ لِقَومِه: ﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ * فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ * فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ * وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [هود: ٦٤ - ٦٧].

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي﴾.

أي: فانصَرَفَ صالحٌ- عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- عَن قَومِه بعدَ حُلُولِ العَذابِ بهم، وقال مُخاطِبًا لهم؛ توبيخًا وعتابًا: لقد أدَّيْتُ إليكم- يا قَومِي- جميعَ ما أمَرَني اللهُ تعالى بأدائِه إليكم(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٢)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢٧ - ٢٢٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٣٣).

(٣) اختارَ أنَّ التَّوليَ عنهم هنا ومُخاطبَتَهم بعد هلاكِهم: الواحديُّ، وابنُ كثير، والسَّعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٣٤). =

﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّٰصِحِينَ﴾.

أي: وأرَدْتُ لكم الخيرَ في الدُّنيا والآخِرَةِ، واجتَهَدْتُ في هِدايَتِكم، ولكِنَّكم تكرَهونَ النَّاصحينَ، فلا تُطيعونَهم؛ فلذا لم تنتَفِعوا بنُصحي[1].

كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [فصلت: ١٧-١٨].

الفوائدُ التربويَّةُ:

١- ينبغي تذكُّرُ نِعمةِ اللهِ، وشُكرُه عليها، والحَذَرُ مِن استبدالِ الكُفرِ بالشُّكرِ؛ نستفيدُ ذلك مِن قَولِ اللهِ تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ

= واختار أنَّ التَّولِّيَ عنهم ومخاطَبَتَهم قبل هلاكِهم: ابنُ جريرٍ، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٤٢).

قال القرطبيُّ: (يحتملُ أنَّه قال ذلك قبل مَوتِهم، ويحتملُ أنَّه قال بعد مَوتِهم، كَقَولِه عليه السَّلامُ لِقتلى بدر: «هل وَجَدْتُم ما وعَدَ رَبُّكم حَقًّا؟ فقيل: أتُكَلِّمُ هؤلاءِ الجِيَفَ؟ فقال: ما أنتم بأسمَعَ منهم، ولكِنَّهم لا يقدِرونَ على الجوابِ»). والأوَّلُ أظهَرُ؛ يدلُّ عليه ﴿وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾، أي: لم تَقْبَلوا نُصحي). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٤٢).

وقال الشِّنقيطيُّ: (وهذا التَّولي للعُلَماءِ فيه وجهانِ: أحدُهما: أنَّه تَولَّى عنهم لَمَّا تَحقَّقَ الهلاكَ وأنَّه نازِلٌ بهم، تولَّى راجعًا عنهم .. وبعضُ العُلماءِ يقولون: إنَّ نَبِيَّ اللهِ صالحًا لم يقُلْ لهم هذا إلَّا بعد أن نَزَلَ بهم عذابُ اللهِ، وصاروا موتى، وفارَقَت أرواحُهم أجسادَهم، جاء إلى جُثَثِهم ووبَّخَهم هذا التَّوبيخَ بعد أن ماتوا، وهذا الأخيرُ هو ظاهِرُ القُرآنِ؛ لأنَّ قولَه: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ مُرَتَّبٌ بالفاء على قوله: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ والفاء تقتضي التَّعقيبَ، فكونُه قال لهم هذا بعد أنْ ماتوا وأصبَحُوا في دارِهم جاثمينَ هو ظاهِرُ القرآنِ). ((العذب النمير)) (٣/ ٥٣٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٣٥).

مُفْسِدِينَ﴾ أي: فتتَصَرَّفوا في هذه النِّعَمِ تَصَرُّفَ عَثَيانٍ وكُفرٍ، بمخالفةِ ما يُرضِي اللهَ فيها(١).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ عَطَفَ نَهيَهم عَنِ الفَسادِ في الأرضِ، على الأمرِ بذِكرِ آلاءِ اللهِ؛ لِيُرشِدَ إلى أنَّ تذَكُّرَ الآلاءِ يَبعَثُ على الشُّكرِ والطَّاعةِ، وتَركِ الفَسادِ(٢).

٣- الإيمانُ باللهِ يسكُبُ القُوَّةَ في القُلوبِ، والثِّقةَ والاطمئنانَ في النُّفوسِ؛ فقد كان خِطابُ الملأِ للَّذينَ استُضعِفُوا يحمِلُ تهديدًا وتخويفًا، واستنكارًا لإيمانِهم به، وسُخريَةً مِن تصديقِهم له في دَعواه الرِّسالةَ مِن رَبِّه؛ ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ فكان جوابُهم: ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾، فالضِّعافُ لم يَعُودوا ضِعافًا؛ إنَّهم على يَقينٍ مِن أمْرِهم، فلا تُجدِي السُّخريةُ والاستنكارُ فيهم شيئًا(٣).

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ هذه الآيةُ مِن أعظَمِ ما يحتَجُّ به مَن قال: إنَّ الفَقرَ خَيرٌ مِنَ الغِنى؛ وذلك لأنَّ الاستكبارَ إنَّما يتولَّدُ مِن كَثرةِ المالِ والجاهِ، والاستضعافَ إنَّما يحصُلُ مِن قِلَّتِهما، فبَيَّنَ تعالى أنَّ كَثرةَ المالِ والجاهِ؛ حَمَلَهم على التَّمَرُّدِ والإباءِ، والإنكارِ والكُفرِ، وقِلَّةَ المالِ والجاهِ؛ حَمَلَهم على الإيمانِ والتَّصديقِ والانقيادِ، وذلك يدلُّ على أنَّ الفَقرَ خَيرٌ مِنَ الغِنى(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٨٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٤٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢١).
(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٣١٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٠٧).

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ﴾ في التَّذكيرِ بالقَرابةِ استعطافٌ لهم[1].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾، قولُه: ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ للإعلامِ بأنَّها لَيسَتْ مِن فِعلِ صالحٍ عليه السَّلامُ، ولا ممَّا ينالُها كَسْبُه، وكذلك سائِرُ ما يؤيِّدُ اللهُ تعالى به الرُّسُلَ مِن خَوارِقِ العاداتِ؛ ففي ذلك تنبيهٌ للجاهِلينَ الذين يظنُّونَ أنَّ الخوارِقَ مِمَّا يدخُلُ في كَسْبِ الصَّالحينَ الَّذين هم دُونَ الأنبياءِ[2].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾ أُضيفَتْ إلى اللهِ تعالى؛ تعظيمًا لها، وتفخيمًا لِشَأنِها؛ نحو: بيتُ اللهِ، ورُوحُ اللهِ، ولأنَّها جاءَتْ مِن عِندِ الله تعالى بلا وسائِطَ وأسبابٍ مَعهودةٍ، فقد خَلَقَها تعالى بغَيرِ واسطةِ ذَكَرٍ وأنثى، ولأنَّه لا مالِكَ لها غيرُه، ولأنَّها حُجَّةٌ على القَومِ، ولِمَا أُودِعَ فيها مِنَ الآياتِ[3].

٤- في قوله تعالى: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ لمَّا أضاف الناقةَ إلى اللهِ أضافَ محلَّ رعيِها إلى اللهِ؛ إذ الأرضُ أرضُ اللهِ، والنَّاقةُ ناقةُ اللهِ، فَذَرُوها تأكُلْ في أرضِ رَبِّها؛ فليسَتِ الأرضُ لكم، ولا ما فيها مِنَ النَّباتِ مِن إنْباتِكم[4].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾،

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٩٢)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٩٣).

قولُه: ﴿لَكُمْ﴾ خُصُّوا بذلك؛ لأنَّهم هم السَّائِلُوها، أو المنتفعونَ بها مِن بينِ سائِرِ النَّاسِ لو أطاعوا[١].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، تنكيرُ (سُوءٍ) في سِياقِ النَّهيِ يُفيدُ أنَّ الوعيدَ مُرَتَّبٌ على أيِّ أنواعِ الإيذاءِ لها، سَواءٌ في نَفْسِها، أو أكْلِها، أو شُربِها[٢].

٧- استُدِلَّ بقَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ على جَوازِ البِناءِ الرَّفيعِ، كالقُصورِ ونَحْوِها[٣]؛ إذْ محالٌ أن يذكِّرَهم آلاءَ الله في شيءٍ بنيانُه معصيةٌ، وقد قال: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾، ولو كان بناءُ القصورِ منكرًا لكان داخلًا في الفسادِ، لا في الآلاءِ[٤].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا ..﴾ الآية، وَصَفَ أولئكَ الكُفَّارَ بكَوْنِهم مُستكبرينَ- وهو فِعلٌ استوجَبُوا به الذَّمَّ، وكونُ المُؤمنينَ مُستَضعفينَ معناه: أنَّ غَيرَهم يَستضعِفُهم ويَستحقِرُهم، وهذا ليس فعلًا صادرًا عنهم، بل عن غيرِهم، فهو لا يكونُ صِفَةَ ذَمٍّ في حَقِّهم، بل الذَّمُّ عائدٌ إلى الَّذين يستحقِرونَهم ويَستضعِفونَهم[٥].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ الذي آمَنْتُم به: هو بمعنى بما أُرسِلَ به، لكنَّه مِن حيثُ اللَّفظُ أعَمُّ؛ قَصَدوا بذلك الرَّدَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٩/ ١٩٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٤٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٩/ ١٩٦).
(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (١/ ٤٣٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٠٧).

لِمَا جعله المؤمنونَ مَعلومًا، وأخَذُوه مُسَلَّمًا[١].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ لم يَقُولوا: (إنَّا بما أُرسِلَ به كافرونَ) لأنَّه يتضَمَّنُ إثباتَ أصلِ الرِّسالةِ لصالحٍ عليه السَّلامُ، ولو قالوه لكان شهادةً منهم على أنفُسِهم بأنَّهم جاحدونَ للحَقِّ على عِلمٍ؛ لِمَحْضِ الاستكبارِ[٢].

١١- قَولُه تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ فيه أنَّ الكِبْرَ يَحمِلُ صاحِبَه على عَدَمِ الانقيادِ للحَقِّ[٣].

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ الفاءُ للتَّعقيبِ لحكايةِ قَولِ الَّذين استكبَرُوا: ﴿إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ أي: قالوا ذلك فعَقَروا، والتَّعقيبُ في كلِّ شَيءٍ بِحَسَبِه، وذلك أنَّهم حين قالوا ذلك كانوا قد صَدَعوا بالتَّكذيبِ، وصَمَّموا عليه، وعَجَزوا عن المُحاجَّةِ والاستدلالِ، فعَزَموا على المصيرِ إلى النِّكايةِ، والإغاظةِ لصالحٍ عليه السَّلامُ، ومَن آمَنَ به، ورَسَموا لابتداءِ عَمَلِهم أن يعتَدُوا على النَّاقةِ[٤].

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ أكثَرُ ما يُستعمَلُ (العَقْرُ) في الفَسادِ، وأمَّا (النَّحْرُ) فيُستعمَلُ غالبًا في الانتفاعِ بالمنحورِ؛ لحمًا وجِلدًا وغَيرَهما، فلعَلَّ التعبيرَ به دون (النَّحرِ) إشارةٌ أيضًا إلى أنَّهم لم يقصِدُوا بنَحْرِها إلَّا إهلاكَها؛ عُتُوًّا على اللهِ، وعِنادًا وفِعلًا للسُّوءِ، ومخالَفةً لنهيِ صالحٍ عليه السَّلامُ[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٩٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٤٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢٤).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٤٨).

١٤- قَولُ الله تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ نُسِبَ (العَقْرُ) إلى الجميعِ، وإن كان صادرًا عن بعضِهم؛ وذلك لَمَّا كان عَقْرُها عن تمالُؤٍ واتِّفاقٍ منهم جميعًا، وعن رضاهم كلِّهم[1].

١٥- قَولُ الله تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أَمْرِ رَبِّهم: هو ما أمَرَهم به على لسانِ صالحٍ عليه السَّلامُ، مِن قَولِه: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾، فعبَّرَ عن النَّهيِ بالأمرِ؛ لأنَّ النَّهيَ عن الشَّيءِ مَقصودٌ منه الأمرُ بِفِعلِ ضِدِّه؛ ولذلك يقولُ عُلَماءُ الأصولِ: إنَّ النَّهيَ عن الشَّيءِ يَستلزِمُ الأمرَ بِضِدِّه، الذي يحصُلُ به تحقُّقُ الكَفِّ عن المنهيِّ عنه[2].

١٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ فَرَضوا كَونَه مِنَ المُرسلينَ بِحَرف (إنْ) الدَّالِّ على الشَّكِّ في حُصولِ الشَّرطِ، أي: إنْ كُنتَ مِنَ الرُّسُلِ عَنِ اللهِ؛ فالمرادُ بالمُرسلينَ: مَن صَدَقَ عليهم هذا اللَّقَبُ[3].

١٧- قَولُ الله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ الرَّجفةُ والجُثُومُ جزاءٌ مقابِلٌ للعُتُوِّ والتبجُّحِ: فالرَّجفةُ يُصاحِبُها الفَزَع، والجُثُوم مَشهدٌ للعَجزِ عَنِ الحِراكِ، وما أجدَرَ العاتيَ أن يرتجِفَ! وما أجدَرَ المُعتدِيَ أن يعجِزَ؛ جزاءً وِفاقًا في المصيرِ[4]!

١٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي﴾، جملةُ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ معترضةٌ بين جملةِ ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ وبين

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٠٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٩٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٣١٤).

جملةِ ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ -على القولِ بأنَّ خطابَه لهم في حياتِهم قبلَ حلولِ العذابِ- أُريد باعتراضِها التعجيلُ بالخبرِ عن نفاذِ الوعيدِ فيهم بعقبِ عتوِّهم، فالتعقيبُ عرفيٌّ، أي لم يكنْ بين العقرِ وبينَ الرجفةِ زمنٌ طويلٌ، كان بينهما ثلاثةُ أيَّام، كما ورد في آيةِ سورة هودٍ: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾[1].

١٩- قَولُ الله تعالى: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي﴾ لفظةُ (التَّولِّي) تقتضي اليأسَ مِن خَيرِهم، واليَقينَ في هَلاكِهم[2]، وذلك على القَولِ بأنَّ خطابَه لهم كان في حياتِهم قبلَ حلولِ العذابِ.

بلاغةُ الآياتِ:

١- ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾

- قوله: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾ استئنافٌ مسوقٌ لبيانِ البيِّنةِ، وإضافةُ الناقةِ إلى الاسمِ الجليلِ؛ لتَعظيمِها ولمجيئِها مِن جِهتِه تعالى بلا أسبابٍ معهودةٍ، ووسائطَ مُعتادةٍ[3].

- وعَبَّر باسمِ الإشارةِ ﴿هَذِهِ﴾ مُشيرًا إليها بعدَ تَكوينِها؛ تحقيقًا لها، وتعظيمًا لشَأنِها وشَأنِه؛ في عَظيمِ خَلْقِها، وسُرعةِ تَكوينِها لأجْلِه[4].

- وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَكُمْ﴾؛ للاهتمامِ بأنَّها كافيةٌ لهم على ما فيهم من عنادٍ[5].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٩٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٤٢).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٤٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢١٨).

- وتَنكيرُ (الآية)؛ للتَّعظيمِ والتَّفخيم، أي: آية عَظيمة القَدْر، ظاهِرة الدَّلالة على ما جِئتُكم به مِن الحقِّ[1].

٢- **قوله:** ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فيه النَّهي عن المسِّ الذي هو مُقدِّمةُ الإصابةِ بالسُّوءِ الجامعِ لأنواعِ الأذَى؛ مُبالغةً في الأمْرِ، وإزاحةً للعُذر[2].

- وفيه مُناسبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال تَعالى هنا في سُورةِ الأعراف: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وفي سُورةِ هُود قالَ: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود: ٦٤]، وفي سورة الشعراء ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٥٦]؛ فاختَلفَ الوصفُ المختومُ به في الآياتِ الثَّلاثِ؛ وهذا لأنَّه في آيةِ الأعرافِ بالَغَ في الوعظِ فبالَغ في الوعيدِ؛ فكان التحذيرُ للقومِ على طريق العمومِ، وأمَّا قوله تعالى في الآية الثانية: ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود ٦٤]؛ فإنَّه اختصَّ هذا المكانَ بـ(قَرِيب)؛ لِمَا بَعدَه من قوله: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥]، فقَدَّرَ المدَّةَ التي بَينَهم وبينَ هلاكِهم، وقُرْبَ ما توعَّدهم به مِن عذابِ الله لهم. وأمَّا الآية الثالثة واختصاصُها بقولِه: ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٦٥]؛ فلأنَّ قَبْلَها ذِكرَ اليومينِ المقسومينِ بينَ الناقةِ وبينهم، كأنَّه قال لهم: إنْ مَنعتُموها يومَها بعَقرٍ ولم تَتركوه لها، أَخذَكم عذابُ يومٍ عظيم؛ فيومٌ تُؤلِمُونَها فيه فيكون به يومٌ يُؤلِمُكم اللهُ فيه بعَذابِ الاستئصالِ، وهو يومٌ عظيمٌ عليكم، وكل ذلك بمعنًى واحدٍ- وهو أنَّهم إنْ عَقَروها عُوقِبوا- والألفاظُ المختلفةُ دائرةٌ على هذا المعنى، واختلافُها

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠).

لاختلافِ مواضعِها المقتضيةِ تغييرَ الألفاظِ فيها[١].

٣- قولُه: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ﴾ فيه توجيهُ الأمرِ بالذِّكرِ إلى الوَقْتِ دون ما وقَعَ فيه مِن الحوادثِ مع أنَّها المقصودةُ بالذَّاتِ؛ للمبالغةِ في إيجابِ ذِكرِها؛ لأنَّ إيجابَ ذِكرِ الوقتِ إيجابٌ لذِكرِ ما فيه بالطَّريقِ البُرهانيِّ[٢].

- وقوله: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ استئنافٌ مُبيِّنٌ لكيفيَّةِ التبوئةِ، أي: تَبْنُونَ في سُهولِها قُصورًا رفيعةً، أو تَبْنون من سُهولةِ الأرضِ بَما تَعلَمون منها مِن اللَّبِن والآجُرِّ[٣].

- وقوله: ﴿وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال الله تعالى هنا في سُورةِ الأعراف: ﴿وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾، وفي سورة الحِجر والشُّعراء قال: ﴿يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [الحجر: ٨٢، الشعراء: ١٤٩]، بـ(من) قبل (الجبال)؛ وذلك لأنَّ في الأعرافِ تَقدَّمه قولُه: ﴿مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ فاكْتَفَى بذلك[٤].

- قوله: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ فيه تكريرٌ للتَّذكيرِ؛ لزيادةِ التقريرِ، وتَعميمٌ إثْرَ تَخصيصٍ[٥]؛ فتفريعُ الأمرِ بذِكرِ آلاءِ اللهِ على

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦١٥-٦١٦)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١٢٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٣٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٤٢).
(٤) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١٢٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٣٩).

قوله: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ تفريعُ الأعمِّ على الأخصِّ؛ لأنَّه أَمَرَهم بذِكرِ نِعمتَينِ، ثمَّ أمَرَهم بذِكرِ جَميعِ النِّعَمِ التي لا يُحصونَها؛ فكان هذا بمنزلةِ التَّذييلِ(١).

- وقوله: ﴿مُفْسِدِينَ﴾ حالٌ مُؤَكِّدةٌ لِمَعنى ﴿تَعْثَوْا﴾، وهو وإنْ كانَ أعَمَّ مِن المؤَكَّد، فإنَّ التَّأكيدَ يحصُلُ ببعضِ مَعنى المؤَكِّد(٢).

٤- قوله: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ وصْفُهم بالذين استكْبَروا هنا؛ لتَفْظيعِ كِبْرِهم وتَعاظُمِهم على عامَّة قومِهم، واستذلالهم إيَّاهم، وللتَّنبيهِ على أنَّ الذين آمنوا بما جاءَهم به صالح عليه السلام هم ضعفاء قومه، واختيارُ طريقِ الموصوليَّةِ في وصْفِ المستكبِرينَ، ووصْفِ الآخَرين بالَّذين استُضعفوا؛ لِمَا تُومِئ إليه الصِّلةُ من وجهِ صُدورِ هذا الكلامِ منهم، أي: إنَّ استكبارَهم هو صارفُهم عن طاعةِ نَبيِّهم، وأنَّ احتقارَهم المؤمنين هو الذي لم يُسِغْ عندهم سَبْقَهم إيَّاهم إلى الخيرِ والهُدَى(٣).

- وبِناءُ الفِعلِ ﴿اسْتُضْعِفُوا﴾ للمفعولِ فيه دَليلٌ على أنَّهم في غايةِ الضَّعفِ بحيثُ يَستضعفُهم كلُّ أحدٍ(٤).

- قوله: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ الاستفهامُ في قولِه: ﴿أَتَعْلَمُونَ﴾ للتَّشكيكِ والإنكارِ، أي: ما نَظنُّكم آمنتُم بصالحٍ عليه السَّلامُ عن عِلمٍ بصِدقِه، ولكنَّكم اتَّبعتُموه عن عَمًى وضلالٍ غيرَ مُوقنِين، وقدْ بَدَؤُوهم بالإنكارِ صدًّا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٤٦).

لهم عن الإيمانِ، أو الاستفهامُ على جِهةِ الاستهزاءِ والاستخفاف(١).

- قوله: ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾، جيء هنا في جَوابِ الذين استُضْعِفوا بالجُملةِ الاسميَّةِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ الإيمانَ مُتمكِّنٌ منهم بمزيدِ الثَّباتِ؛ فلم يَترُكوا للذين استكبروا مَطْمَعًا في تَشكيكِهم، بَلْهَ صَرْفِهم عن الإيمانِ برَسولِهم، وفيها تأكيدُ الخبرِ بحرْف (إنَّ)؛ لإزالةِ ما توَهَّموه من شكِّ الذين استكْبروا في صِحَّةِ إيمانِهم(٢).

- وكان مُقتضَى مُطابقةِ الجوابِ للسُّؤالِ أنْ يقولوا: (نَعَمْ)، أو: (نَعلَمُ أنَّه مُرسَلٌ من ربِّه)، أو (إنَّا برِسالته عالمون)، ولكنَّهم أجابوا بما يَستلزِمُ هذا المعنى ويَزيد عليه: فقالوا: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾؛ فهُم آمنوا به، أي: علِموا بذلك علمًا يقينيًّا إذعانيًّا، له السُّلطان على عُقولِهم وقلوبِهم(٣)، والعدولُ في حِكايةِ جوابِ الذين استُضعِفوا عن أنْ يكونَ بـ(نعم) إلى أنْ يكون بالموصولِ وصِلتِه ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾؛ لأنَّ الصِّلةَ تتضمَّنُ إدماجًا بتَصديقِهم بما جاء به صالحٌ مِن نحو التوحيدِ وإثباتِ البَعثِ، والدَّلالةَ على تمكُّنِهم من الإيمانِ بذلك كلِّه بما تُفيدُه الجملةُ الاسميَّةُ مِن الثباتِ والدَّوام(٤).

- وأيضًا عُدولُهم عن قولِهم: (هو مُرْسَلٌ) إلى قولهم: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ في غايةِ الحُسنِ؛ فبِناءُ فِعل ﴿أُرْسِلَ﴾ للمَفعولِ يُشيرُ إلى تعميمِ التَّصديقِ، وإلى أنَّ كونَه مِن عند اللهِ أمرٌ مقطوعٌ به، معلومٌ واضحٌ لا يَدْخُلُه

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢٣).

رَيبٌ؛ فلا يحتاجُ إلى تَعيينِ رِسالتِه(١).

٥- **قوله:** ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ فيه تَقديمُ المجرورَينِ في قولِه: ﴿بِمَا أُرْسِلَ بِهِ﴾ و﴿بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ﴾ على عامليهِما؛ للاهتمامِ بمدلولِ الموصولَينِ(٢).

- ومُراجعةُ الَّذينَ استكبَرُوا بِقَولِهم: ﴿إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ تدلُّ على تصَلُّبِهم في كُفرِهم، وثَباتِهم فيه؛ إذ صِيغَ كَلامُهم بالجُملةِ الاسميَّةِ المُؤكَّدةِ(٣).

٦- **قَولُه تعالى:** ﴿وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ المرادُ بقَولِهم: ﴿بِمَا تَعِدُنَا﴾ العذابُ الذي توعَّدَهم به مُجملًا، وجيءَ بالموصولِ؛ للدَّلالةِ على أنَّهم لا يَخشَونَ شَيئًا ممَّا يُريدُه مِنَ الوَعيدِ المُجمَلِ(٤)، وأنزَلُوا الوعيدَ منزلةَ الوَعدِ والبِشارةِ؛ استخفافًا منهم، ومبالغةً في التَّكذيبِ، وتَهَكُّمًا منهم بصالحٍ عليه السَّلامُ، وإشارةً منهم إلى عدمِ قُدْرَتِه على ذلك(٥).

٧- **قوله:** ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيثُ قال الله تعالى هنا في سُورةِ الأعراف في قِصَّة صالحٍ: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾، وكذا في قِصَّة شُعيبٍ في السُّورةِ فيما بعدُ، وفي سُورة هود قال في قِصَّة صالحٍ: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ...﴾ [هود: ٦٥]، وقال في قِصَّةِ شُعَيبٍ في سورةِ هود أيضًا: ﴿وَأَخَذَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٩٤-٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٤٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٩/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٢٢٦).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٤٩).

الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [هود: ٦٧]؛ فورَد في هذه الآيةِ الأخيرةِ تَسميةُ عَذابِهم (بالصَّيحةِ)، وجمْع اسْم الدَّار، وفي الأخرى سَمَّى عَذابَهم (بالرَّجْفة) وأفرد اسمَ الدَّار؛ فأَفْرَدَ الدَّارَ في مَوضعٍ، وجَمَعها في موضعٍ، واختصاصُ مَوضعٍ بالإفرادِ، ومَوضعٍ بالجمعِ لمناسبةٍ حسنةٍ؛ وبيانُ ذلك أنَّ اسمَ (الدَّار) لفْظٌ يقَعُ على المنزلِ الواحدِ والمسكنِ المفردِ، ويَقَعُ على مَساكِنِ القبيلةِ والطائفةِ الكبيرةِ، وإنِ اتَّسعَتْ وافترقَتْ، وتعدَّدتْ مَساكِنُها ودِيارُها، إذا ضَمَّها إقليمٌ واحدٌ، واجتمعتْ في حُكمٍ أو مَذهبٍ؛ فأفْرَد (الدَّار) في كلِّ مكانٍ ذُكِر في ابتدائِه ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ [الأعراف: ٧٣، هود: ٦١]، ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: ٨٥، هود: ٨٤، العنكبوت: ٣٧] ولم يَذكُر إخراجَ النبيِّ ومَن آمَن معه مِن بينهم، فجَعَلهم بَنِي أبٍ واحد، وجعَلَهم لذلك أهلَ دارٍ واحدةٍ، ورجاءَ أيضًا أن يَصيروا بالإيمانِ فِرقةً واحدةً. وجَمَع (الدَّار) في كلِّ موضِعٍ أخْبَر عن تفرُّقِه بينهم، وإخراجِ النبيِّ ومَن آمَن منهم معَه، أخْبَر عنهم الإخبارَ الدالَّ على تفرُّقِ شملِهم، وتشتُّتِ أمرهم، وذَهابِ المعنى الذي كان يَجمُعُهم لأبٍ واحدٍ ودارٍ واحدةٍ، وأن يَصيروا مع المؤمنِينَ فِرقةً واحدةً، فقال: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا...﴾ الآيةَ إلى قوله: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [هود:٦٦-٦٧]؛ فالجَمْعُ حيثُ ذَكَر إخراجَه منهم مع المؤمنِينَ معه. وقيل: إنَّه حيثُ ذَكَر الرَّجفةَ- وهي الزَّلْزَلة- وحَّد الدَّار، وحيثُ ذَكَر الصَّيحة جَمَع؛ لأنَّ الزَّلْزلَةَ تَختصُّ بجزءٍ من الأرضِ، فناسَبَها الإفرادُ، ولأنَّ الصَّيحةَ كانتْ مِن السَّماءِ، وهي زائدةٌ على الرَّجْفةِ؛ فبُلوغُها أكثرُ وأبلغُ مِن الزلزلةِ؛ فناسَبَها الجَمعُ؛ فوجهُ اختيارِ لَفْظِ الجمعِ في الآيةِ من سُورة هود مناسبةُ ما اقْتَرنَ به مِن لفظ الصَّيحة، وهي عبارةٌ هنا عن العَذابِ مُطلقًا دون تقييدٍ بصفةٍ، وهو مِن

الألفاظِ الكُلِّيَّةِ؛ فإنْ لم يَكُن عامًّا فانتشارُ مواقعِه مِن حيثُ الكُلِّيَّةِ حاصلةٌ، وأمَّا الرَّجفة (الزلزلة) فلهذا اللَّفْظِ خُصوصٌ وهو جُزئيٌّ؛ فاتَّصَل كلٌّ واحدٍ بما هو لائقٌ به. ووجهُ تَخصيصِ سُورة هود بذِكرِ الصَّيحة وجمْع الدِّيار: ما وقَعَ فيها حيثُ ذُكِر قَبْلَها مِن مُرْتَكَباتِ قومِ شُعيبٍ وسُوءِ ردِّهم على نبيِّهم عليه السلام ما لم يَرِدْ مِثلُه في آيةِ سُورة الأعرافِ، كقولِهم له: ﴿قَالُوا يَاشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١]، ففي ردِّهم هذا استهزاءٌ وإساءةٌ وشنيعُ مُقابلةٍ لجليلِ وعْظِه عليه السَّلامُ لهم، ورأفتِه في دُعائِهم إيَّاهم بقوله: ﴿إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ [هود: ٨٤] وغيرِ ذلك مِن الآياتِ؛ مِمَّا يُوضِّحُ عظيمَ تلطُّفِ هذا النبي الكريمِ في دُعائِه إيَّاهم، وما أشْنَعَ ردَّهم عليه! فلهذا عَبَّر عن عذابِهم وأخْذهم بأعمَّ مِمَّا ورَد في غير هذه الآيةِ، ولَمَّا لم يَرِدْ في غيرِها مثلُ هذا في الدُّعاءِ والجوابِ، ناسَبَه اللَّفظُ الأخصُّ (الرَّجفة - الدَّار). أو يكونُ المرادُ أخْذُ قوم شُعَيبٍ بضُروبٍ مِن العذابِ؛ لقَبيحِ مُرتكبِهم وسُوءِ ردِّهم على نبيِّهم؛ وممَّا يُبيِّن ذلك قولُه تعالى في سورة الشُّعراء: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ [الشعراء: ١٨٩]، والظُّلَّةُ غيرُ الرَّجفةِ؛ لأنَّها زلزلة؛ فعلى هذا يكونونُ قد أُخِذوا بعذابِ الزَّلزلةِ وعذابِ الصَّيحةِ وعذابِ الظُّلَّةِ؛ فورَدَ ذلك على التَّدريجِ والتناسُبِ بحسَبِ ما ذُكِر قَبْلَ كلٍّ مِن هذا مِن مُرْتَكَباتِهم[1].

وقيل: وحَّدَ الدَّارَ في قوله: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾؛ لأنَّه أرادَ بالدَّار البَلدَ، وجمع في آية أخرى فقال: ﴿فِي دِيَارِهِمْ﴾ [هود: ٩٤]؛ لأنَّه أرادَ بالدَّارِ ما

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦١٧-٦٢٢)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٢٣)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٠٠-٢٠١)، ((فتح الرحمن)) لزكريا الأنصاري (١/ ١٩٧-١٩٨).

لكُلِّ واحدٍ منهم مِن منزِلِه الخاصِّ به[١].

٨- قوله: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ يَحتمِل أنْ يكونَ المرادُ بالتولِّي أنَّه فارَقَ دِيارَ قَومِه حِينَ عَلِم أنَّ العذابَ نازلٌ بهم، ويَحتمِل أنْ يكونَ يُرادُ به أنَّه أعْرَضَ عن النَّظرِ إلى القَريةِ بعدَ إصابتِها بالصَّاعقةِ، أو أعْرَضَ عن الحُزنِ عليهم، واشْتَغَل بالمؤمنِينَ، فعلَى الوجه الأوَّل يكونُ قوله: ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ...﴾ مُستعملًا في التوبيخِ لهم والتَّسجيلِ عليهم، وعلى الوجه الثاني- وهو أنَّ التولِّي كان بعدَ هلاكِهم ومُشاهدَةِ ما جرَى عليهم- يكونُ الخِطابُ والنِّداءُ مُستعملًا في التَّفجُّع عَليهم والتحسُّر، أو في التَّبرِّي منهم؛ فيكونُ النِّداءُ تَحسُّرًا؛ فلا يَقتضي كونَ أصحابِ الاسمِ المنادَى ممَّن يَعقِلُ النِّداءَ حينئذٍ[٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿رِسَالَةَ﴾ بالإفرادِ، وقاله في قِصَّة شُعيب بالجَمْع ﴿رِسَالَاتِ﴾؛ قيل: لأنَّ ما أمَر به شُعَيبٌ قومَه من التَّوحيدِ، وإيفاءِ الكيلِ، والنَّهيِ عن الصَّدِّ، والأَمْرِ بإقامةِ الوزنِ بالقِسطِ، أكثرُ ممَّا أمرَ به صالحٌ قومَه، والعربُ تُراعي في أجوبتِها ما نيَّتُها عليه مِن سُؤالٍ أو غيرِه، إنْ إطالةً فإطالةٌ، أو إيجازًا فإيجازٌ؛ فأجوبتُهم مُراعًى فيها المعنى، ملحوظٌ فيما وردتْ جوابًا له، ولَمَّا ورد في دُعاء شُعَيبٍ عليه السَّلام تفصيلٌ في الأمرِ والنهي والتَّحذيرِ، وورَد أيضًا في الكلامِ تعريفٌ بقَبيحِ ردِّهم، وشنيع مُرتَكبِهم في مُجاوبتِهم على أعظمِ اجترامٍ؛ فحَصَل في هذا مِن خِطابِه إيَّاهم وما رَدُّوا به وجاوَبوه عليه السَّلامُ إطنابٌ في العبارةِ وإمعانٌ فيما تَحتَها مِن المعاني في كِلا الضَّربينِ؛ فناسَب ذلك الجَمْع في قولِه: ﴿أَبْلَغْتُكُمْ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢٨).

رِسَالَاتِ رَبِّي﴾، وأمَّا قِصَّةُ صالح عليه السلامُ فلمْ يقَعْ فيها بعدَ أمْرِهم بالعبادةِ غيرُ تَعريفِهم بأمْرِ النَّاقةِ وأمْرِهم برَعْيِها، وتَذكيرهم بقومِ هُودٍ ولم تُفصَّل مكالمتُه إيَّاهم كتفصيلِ كلام شُعيب لقومه؛ فناسبَه الإفرادُ الواردُ في قولِه: ﴿أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي﴾[1].

– قولُه: ﴿لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ جاءَ على صِيغةِ المُضارِعِ؛ فإنْ كان في حالِ سَماعِهم قولَه؛ فهو للدَّلالةِ على التَّجديدِ والتَّكريرِ، أي: لم يَزَلْ هذا دَأبكم، فيكون ذلك آخِرَ علاجٍ لإقلاعِهم إنْ كانتْ فيهم بقيَّةٌ للإقلاعِ عمَّا هم فيه. وإنْ كان بَعدَ انقضاءِ سَماعِهم فالمضارعُ لحِكايةِ الحالِ الماضيةِ، أي: شأنُكم الاستمرارُ على بُغضِ النَّاصِحينَ وعَداوتُهم[2].

– وجاءَ لفظُ الناصحين عامًّا، أي: أيُّ شَخصٍ نَصَح لكم لم تَقْبَلوا في أيِّ شيءٍ نَصَح لكم؛ وذلك مبالغةٌ في ذَمِّهم[3].

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٢٣- ٦٢٦)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٠٢- ٢٠٤)، ((فتح الرحمن)) لزكريَّا الأنصاري (١/ ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٩٨).

الآيات (٨٠-٨٤)

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ
(٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ
(٨١) وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ
أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢) فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ (٨٣)
وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ (٨٤) ﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿الْفَاحِشَةَ﴾: أي: إِتْيَانَ الذُّكُورِ دُونَ الإناثِ، والفاحِشَةُ: هي الفِعلَةُ المُتناهِيَةُ في القُبحِ والشَّناعةِ؛ فأصلُ (فحش): يدُلُّ على قُبْحٍ في شيءٍ وشَناعةٍ[1].

﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾: أي: يَتنزَّهونَ عن إتيانِ الرِّجالِ في الأدبارِ، والتَّطَهُّرُ هو التنزُّه عَنِ الذَّمِّ وكُلِّ قَبيحٍ، وأصل (طهر): يدلُّ على نقاءٍ وزَوَالِ دَنَسٍ، ومن ذلك الطُّهْرُ، خلافُ الدَّنَسِ[2].

﴿الْغَابِرِينَ﴾: أي: الباقينَ قَبلَ الهَلاكِ، أو الباقينَ في عَذابِ اللهِ، أو الهَالِكينَ، وأصلُ (غبر): يدلُّ على البَقاءِ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١ / ٣٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤ / ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٤٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٨- ٣٠٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٣).

المَعْنى الإجماليُّ:

واذكُرْ- يا مُحَمَّدُ- نَبِيَّ اللهِ لوطًا عليه السَّلامُ، حين قال لِقَومِه: أتَفْعلونَ الخَصلةَ التي بلَغَتْ في القُبحِ والشَّناعةِ أقصاها، ما سَبَقَكم بفِعْلِها أحَدٌ مِنَ البَشَرِ؟! إنَّكم تَأتونَ الرِّجالَ في أدبارِهم؛ رغبةً منكم في ذلك، وتَتْرُكون النِّساءَ اللَّاتي خَلَقَهُنَّ اللهُ لكم، بل أنتم قَومٌ مُسرِفونَ.

فما كان رَدَّ قَومِه إلَّا أنْ قال بعضُهم لبَعضٍ: أخْرِجُوا لُوطًا وأهْلَه مِن قَريَتِكم؛ لأنَّهم أُناسٌ يتنَزَّهونَ عمَّا تَفعلونَه.

فأنجاهُ اللهُ وأهْلَه إلَّا امرأتَه الكافِرَةَ؛ كانت مِنَ الهالِكينَ البَاقِينَ في العَذابِ، وأمطَرَ اللهُ تعالى على الكُفَّارِ مِن قَومِ لُوطٍ مَطَرًا مِن حِجارةٍ، مِن طِينٍ شديدِ الحرارةِ، فانظُرْ- يا مُحمَّدُ- كيف هي نهايةُ المُجرمينَ؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ ﴾.

أي: واذكرْ- يا مُحمَّدُ- لوطًا عليه السَّلامُ، حين قال لِقَومِه: أتَفْعلونَ الفِعلةَ الشَّنيعةَ المُتَناهِيَةَ في القُبحِ، وهي إتيانُ الذُّكورِ في الأدبارِ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٣٩).

قال الواحدي في قوله: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾: (يعني: إتيانَ الذُّكرانِ، في قَولِ جَميعِ المُفَسِّرينَ). ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٣٨٥).

وقال الشنقيطي: (اختلَفَ العُلَماءُ في وجهِ نَصبِ (لُوطًا) في قوله: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ على وجهينِ مُتَقاربينِ: =

﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

أي: لم يأتِ هذه الفِعلَةَ الشَّنيعةَ أحدٌ مِنَ البَشَرِ قَبلَكُم[1].

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (٨١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أبهَمَ اللهُ تعالى الفاحِشةَ في الآيةِ السَّابقةِ؛ ليحصُلَ التشوُّفُ إلى مَعرِفَتِها؛ عيَّنَها[2] في قوله تعالى:

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ قراءتانِ:

١ - قراءة ﴿إِنَّكُمْ﴾ على الخَبَرِ، تفسيرًا للفاحِشَةِ المذكورةِ[3].

٢ - قراءة ﴿أَإِنَّكُمْ﴾ بالاستفهامِ؛ لتأكيدِ التَّوبيخِ لهم والتَّقريرِ[4].

= قال بعضُ العلماء: هو معطوفٌ على ما قَبْلَه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أي: وأرْسَلْنا هودًا إلى عادٍ ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ أي: وأرْسَلْنا صالحًا إلى ثمودَ، وأرسَلْنا لُوطًا أيضًا، فقال لِقَومِه كذا وكذا.

وبعضُ العُلَماءِ يقول: هو منصوبٌ بـ «اذكُرْ» محذوفًا، واذكر لوطًا حين قال لِقَومِه، وعليه يكون: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ بدلَ اشتمالٍ مِن قَوْلِه: (لُوطًا) كما قاله غيرُ واحدٍ. ((العذب النمير)) (٣/ ٥٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٤٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٥٥).

(٣) قرأ بها نافعٌ وأبو جعفرٍ وحفص. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (١/ ٣٧١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الكشف)) لمكي (١/ ٤٦٨).

(٤) قرأ بها الباقون، غيرَ أنَّ ابنَ كثير يُسَهِّل الثانية بين الهمزة والياء، وأبا عمرٍو يفعل كذلك ويُدخِلُ بين الهمزتين ألفًا فيَمُدُّ، وهشامًا يُدخِل بين الهمزتين ألفًا مع تخفيفهما. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (١/ ٣٧١-٣٧٢)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٤٦٨). =

﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ﴾.

أي: إنَّكم- أيُّها القومُ- تأتُونَ الرِّجالَ في أدبارِهم؛ رغبةً منكم في ذلك، وتَتْركونَ إتيانَ النِّساءِ اللَّاتي خَلَقَهنَّ اللهُ لكم(١).

كما قال تعالى حاكيًا قَولَ لُوطٍ لِقَومِه: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ [الشعراء: ١٦٥-١٦٦].

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾.

أي: بل أنتم أناسٌ تجاوَزْتُم الحلالَ إلى الحرامِ، وتجَرَّأتُم على مَحارِمِ الله؛ فجَعَلْتُم شَهوَتَكم في غيرِ مَحَلِّها ومَوضِعِها الصَّحيحِ(٢).

كما قال تعالى حاكيًا قَولَ لُوطٍ لِقَومِه: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٦].

وقال سُبحانه حاكيًا أيضًا قَولَ لُوطٍ لِقَومِه: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٥].

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أُفحِمُوا عن المجادلةِ في شَأنِ فاحِشَتِهم، ابتَدَرُوا بالتآمُرِ على إخراجِ لُوطٍ عليه السَّلامُ وأهْلِه مِنَ القَريةِ، فقال تعالى(٣):

= ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الكشف)) لمكي (١/ ٤٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٣١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٥)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٣٤).

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾.

أي: وما كان رَدَّ قومِ لُوطٍ على لُوطٍ عليه السَّلامُ، حين نهاهم عن هذه الفاحِشَةِ الشَّنيعةِ؛ سِوَى أنْ قال بعضُهم لِبعضٍ: أخرِجُوا لوطًا وأهْلَه مِن قَريَتِكم[1].

﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾.

أي: أَخرِجُوهم؛ لأَنَّهم يتنزَّهونَ عَمَّا نفعَلُه مِن إتيانِ الذُّكورِ في أدْبارِهِم[2].

﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

أي: فأنجَينا لُوطًا عليه السَّلامُ وأهْلَه المؤمنينَ به، إلَّا زوجَتَه الكافرةَ؛ كانت مِنَ الهالِكينَ الباقينَ في العذابِ[3].

كما قال سبحانه: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥-٣٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٦)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٥).

قال الشنقيطي: (بيَّنَ القُرآنُ أنَّ لُوطًا لم يؤمِنْ معه إلَّا أهْلُ بَيتِه فقط، وهم بناتُه. وزوجَتُه بيَّنَ القرآنُ أنَّها كافرةٌ، وأنَّها هَلَكَتْ مع الهالكينَ، في آياتٍ كثيرةٍ، والآيةُ التي دلَّتْ على أنَّه لم يؤمِنْ معه إلَّا أهلُ بَيتِه هي قولُه في الذَّاريَات: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦]). ((العذب النمير)) (٣/ ٥٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٨ - ٣٠٩)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١٠/ ٣٢٢٥)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٢٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٥ - ٤٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٣٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٦٦).

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٣٣-١٣٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠].

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٨٤)﴾.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾.

أي: وأمطَرْنا على الكُفَّارِ مِن قَومِ لُوطٍ مَطرًا مِن حجارةٍ، مِن طينٍ شديدِ الحرارةِ، فعَذَّبْناهم بها[1].

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ * مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٢-٨٣].

وقال سبحانه: ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ * مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ [الذاريات: ٣٢ - ٣٤].

وقال عَزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٤].

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾.

أي: فانظُرْ- يا مُحمَّدُ- إلى آخِرِ أمْرِ أولئك المُجرمينَ الَّذين كَفَروا باللهِ ورُسُلِه، كانت نهايتُهم أنْ أخزاهم اللهُ تعالى، وأهْلَكَهم بعذابٍ مُستأصِلٍ لهم[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) =

كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ * وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٧٤-٧٧].

الفوائدُ التربويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ في التَّقييدِ بالشَّهوةِ وَصْفُهم بالبهيميَّةِ الصِّرفةِ، وفيها أيضًا تنبيهٌ على أنَّ العاقِلَ ينبغي أن يكونَ الدَّاعِي له إلى المُباشَرةِ طَلَبَ الوَلَدِ وبقاءَ النَّوعِ، لا قضاءَ الوَطَرِ فحَسْبُ(١)، فقَصدُ الشَّهوةِ لِذاتِها يُفضِي إلى وَضْعِها في غَيرِ مَوضِعِها، وإنَّما مَوضِعُها الزَّوجةُ الشَّرعيةُ المُتَّخذةُ للنَّسلِ، وفي الحياةِ الزَّوجيَّةِ الشَّرعيةِ إحصانُ كُلٍّ مِنَ الزَّوجينِ الآخَرَ بقَصْرِ لَذَّةِ الاستمتاعِ عليه، وجَعْلِه وسيلةً للحياةِ الوالِدِيَّة التي تَنمو بها الأُمَّةُ، ويُحفَظُ النَّوعُ البَشَريُّ مِنَ الزَّوالِ(٢).

٢- إنَّ الإسرافَ والاسْتِرسالَ في الشَّهَواتِ قد يصِلُ بالمرءِ إلى أنْ لا يَشفِيَ شَهْوَتَه شيءٌ، لذلك وصَفَ اللهُ قَوْمَ لُوطٍ بالإسرافِ، فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ فالقَومُ لَمَّا تَمَكَّنَ منهم الإسرافُ في الشَّهَواتِ؛ اشتَهَوْا شهوةً غَريبةً، لَمَّا سَئِمُوا الشَّهَواتِ المعتادةَ(٣).

٣- مَن رضِي عملَ قومٍ حُشر معهم، كما حُشرت امرأةُ لوطٍ معهم، ولم تكنْ تعملُ فاحشةَ اللواطِ؛ فإنَّ ذلك لا يقعُ مِن المرأةِ، لكنَّها لما رضِيتْ فعلَهم عمَّها

= (٣/ ٤٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٣٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٣٢).

العذابُ معهم، قال تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾(١).

٤- الحَثُّ على الاعتبارِ بمآلِ مَن أجرَمَ مِن قَوْمِ نُوحٍ وهُودٍ، وصَالحٍ ولُوطٍ، وغَيرِهم مِنَ الأُمَمِ؛ لِمَا في ذلك مِن إيقاظٍ وازدجارٍ عَن سُلُوكِ مَسْلَكِهم؛ نستفيدُ ذلك مِن قَولِ اللهِ تعالى: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾(٢).

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى في قِصَّةِ نُوحٍ عليه السَّلامُ السَّابقةِ: ﴿أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾، ومِن بَعْدِه قال: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾، ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾، وعَدَلَ عن هذا الأُسلوبِ في قِصَّةِ لُوطٍ، فقال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ ولم يَقُلْ: (إِلَى أَهْلِ سَدُوم أخاهُم لوطًا) أو نحوَ ذلك؛ لأنَّ مِن أعظَمِ المقاصِدِ بسياقِ هذه القِصَص تسليةَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، في مُخالفةِ قَوْمِه له، وعَدَمِ استِجابَتِهم وشِدَّةِ أذاهم، وإنذارَ قومِه أن يَحُلَّ بهم ما حَلَّ بهذه الأُمَمِ مِنَ العَذاب، وقَصَصُ مَن عدا قَوْمَ لوطٍ مُشابِهةٌ لِقِصَّةِ قُريشٍ؛ في الشِّركِ باللهِ، والأذى لعبادِه المُؤمنينَ، وأمَّا قِصَّةُ قَومِ لُوطٍ، فزائدةٌ عن ذلك بأمرٍ فظيعٍ عَظيمِ الشَّناعةِ، شَديدِ العارِ والفُحْشِ؛ فعدَلَ عن ذلك النَّسَقِ؛ تنبيهًا عليه، تَهويلًا للأمر وتبشيعًا له، ليكونَ في التَّسليةِ أَشَدَّ، وفي استدعاءِ الحَمدِ والشُّكرِ أَتَمَّ(٣)، وقيل: ابتُدِئَتْ بذِكْرِ (لُوطًا) كما ابتُدِئَتْ قِصَّةُ نُوحٍ بذِكْرِ نُوحٍ؛ لأنَّه لم يكُنْ لِقَومِ لُوطٍ اسْمٌ يُعرَفونَ به، كما لم يكُنْ لِقَومِ نُوحٍ اسْمٌ يُعرَفونَ به(٤)، وقيل: إن قَومَ لُوطٍ كانوا خَليطًا مِنَ الكَنْعانِيِّينَ، ومِمَّنْ نَزَلَ حولَهم؛ ولذلك لم يُوصَفْ بأنَّه أخُوهم؛ إذ لم يكُنْ مِن قَبائِلِهم، وإنَّما

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٠٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢٩).

نزَلَ فيهم، واستوطَنَ دِيارَهم، وكان لوطٌ عليه السَّلامُ قد نزَلَ ببلادِ (سَدُوم) ولم يكُنْ بينهم وبينه قَرابةٌ[١].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ ذَكَرَها اللهُ باسْمِ الفاحشَةِ؛ لِيُبَيِّنَ أنَّها زنا، كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّه كَانَ فَاحِشَةً﴾[٢]، وقيل: فيه دليلٌ على أنَّه يجري مَجرَى الزِّنا: يُرجَمُ مَن أُحصِنَ، ويُجلَدُ مَن لم يُحصَنْ وفَعَلَه[٣].

٣- قَولُ اللهِ تعالى حكايةً لِقَولِ لُوطٍ: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ لَمَّا كان قَوْلُه: ﴿مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ ربَّما أوهَمَ إقامةَ عُذْرٍ لهم في عَدَمِ وِجدانِ النِّساءِ، أو عَدَمِ كِفَايَتِهِنَّ لهم، أضرَبَ عنه بقَولِه: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾[٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ تسميةُ هذا الفِعلِ الشَّنيعِ فاحشةً وإسرافًا؛ لأنَّه يشتمِلُ على مفاسِدَ كثيرةٍ: منها استعمالُ الشهوةِ الحيوانيَّةِ المغروزةِ في غيرِ ما غُرِزَت عليه؛ لأنَّ اللهَ خلَقَ في الإنسانِ الشَّهوةَ الحيوانيَّةَ؛ لإرادةِ بَقاءِ النَّوعِ بقانونِ التَّناسُلِ، حتى يكونَ الدَّاعي إليه قهريًّا ينساقُ إليه الإنسانُ بِطَبعِه، فقضاءُ تلك الشَّهوةِ في غيرِ الغَرَضِ الذي وَضَعَها اللهُ لأجله؛ اعتداءٌ على الفطرةِ وعلى النَّوعِ، ولأنَّه يُغَيِّرُ خُصُوصيَّةَ الرُّجْلةِ بالنِّسبة إلى المفعولِ به؛ إذ يصيرُ في غيرِ المنزلةِ التي وَضَعه اللهُ فيها بخِلْقَتِه، ولأنَّ فيه امتهانًا مَحضًا للمفعولِ به؛ إذ يُجعَلُ آلةً لقضاءِ شَهوةِ غَيرِه، على خلافِ ما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٩٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٥٥).

وَضَعَ اللهُ في نظامِ الذُّكورة والأنوثةِ؛ مِن قَضاءِ الشَّهوتينِ معًا، ولأنَّه مُفضٍ إلى قَطعِ النَّسلِ أو تقليلِه، ولأنَّ ذلك الفِعلَ يجلِبُ أضرارًا للفاعِلِ والمفعولِ؛ بسبَبِ استعمالِ مَحَلَّينِ في غيرِ ما خُلِقَا له(١).

٥- قال الله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ الإسرافُ الذي يَدمَغُهم به لوطٌ في هذه الآيةِ، هو الإسرافُ في تجاوُزِ مَنهَجِ اللهِ، المُمَثَّلِ في الفِطرةِ السَّوِيَّةِ. والإسرافُ في الطَّاقةِ التي وَهَبَهم اللهُ إيَّاها؛ لأداءِ دَوْرِهم في امتدادِ البَشَريَّةِ ونُمُوِّ الحياةِ، فإذا هم يُريقُونَها ويُبَعْثِرُونَها في غيرِ مَوضِعِ الإخصابِ؛ فهي مُجَرَّدُ شهوة شاذَّة؛ لأنَّ اللهَ جَعَلَ لذَّةَ الفِطرةِ الصَّادقة في تحقيقِ سُنَّةِ اللهِ الطَّبيعيَّةِ، فإذا وَجَدَت نفسٌ لَذَّتَها في نقيضِ هذه السُّنَّةِ، فهو الشُّذُوذ إذَن، والانحرافُ والفَسَادُ الفِطريُّ، قبل أن يكونَ فسادَ الأخلاقِ(٢).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ مع قَولِه تعالى:﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ في سورةِ الشُّعراء، وقوله تعالى:﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ في سورة النمل، مجموعُ الآياتِ يدلُّ على أنَّهم كانوا مُرزَئين بفسادِ العَقلِ والنَّفس، بجَمْعِهم بين الإسرافِ والعُدوان والجَهلِ؛ فلا هم يعقلونَ ضَرَرَ هذه الفاحشةِ في الجنايةِ على النَّسلِ، وعلى الصِّحَّة، وعلى الفَضيلةِ والآدابِ العامَّة، ولا غيرها مِن مُنكَراتِهم؛ فيَجتَنِبوها أو يجتَنِبوا الإسرافَ فيها، ولا هم على شيءٍ مِنَ الحياءِ وحُسنِ الخُلُقِ يصرِفُهم عن ذلك، والعِلمُ بالضَّرَرِ وَحدَه لا يصرِفُ عَن السُّوءِ والفسادِ، إذا حُرِمَ صاحِبُه الفضائِلَ ومكارِمَ الأخلاق، بل الفضائِلُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٣٢).
(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٣١٥).

الموهوبةُ بِسلامةِ الفطرةِ؛ عُرضةٌ للفسادِ بِسُوءِ القُدوةِ، إلَّا إذا رَسَخَت بالفضائِلِ المكسوبةِ بتربيةِ الدِّينِ[(١)].

٧- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ ابتَدَرُوا بالتَّآمُرِ على إخراجِ لُوطٍ عليه السَّلامُ وأهْلِه مِنَ القَريةِ؛ لأنَّ لُوطًا عليه السَّلامُ كان غَريبًا بينهم، وقد أرادوا الاستراحةَ مِن إنكارِه عليهم، شأنُ مَن يَشْعُرونَ بفَسادِ حالِهم، المَمْنُوعينَ بِشَهَواتِهم عن الإقلاعِ عَن سَيِّئاتِهم، المُصَمِّمينَ على مُداوَمةِ ذُنُوبِهم؛ فإنَّ صُدُورَهم تَضِيقُ عَن تحمُّلِ المَوعِظةِ، وأسماعَهم تَصَمُّ لِقَبُولِها، ولم يَزَلْ مِن شَأنِ المُنغَمِسينَ في الهَوى تَجَهُّمُ حُلُولِ مَن لا يُشارِكُهم بينهم[(٢)].

٨- قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ القَومُ لَمَّا تَمَرَّدوا على الفُسوقِ، كانوا يَعُدُّونَ الكمالَ مُنافِرًا لطِباعِهم، فلا يُطيقونَ مُعاشَرةَ أهلِ الكَمالِ، ويَذُمُّونَ ما لهم مِنَ الكَمالاتِ فيُسَمُّونها ثِقلًا؛ ولذا وَصَفُوا تنَزُّهَ لُوطٍ- عليه السَّلامُ- وآلِه تَطَهُّرًا، بصيغةِ التَّكَلُّفِ والتصَنُّعِ، ويجوز أن يكونَ حِكايةً لِمَا في كَلامِهم مِنَ التَّهَكُّم بلوطٍ- عليه السَّلامُ- وآلِه، وهذا مِن قَلْبِ الحقائِقِ؛ لأجْلِ مُشايَعةِ العَوائِدِ الذَّميمةِ، وأهلُ المُجُونِ والانخلاعِ يُسَمُّون المُتَعَفِّفَ عن سِيرَتِهم، بالتَّائِبِ أو نحوِ ذلك، فقَوْلُهم: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ قصَدُوا به ذَمَّهم[(٣)].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ استُدِلَّ به على تَحريمِ أدبارِ النِّساءِ، فعن مجاهد في قوله: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ قال: أي: عن أدبارِ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٢٣٥).

الرِّجال وأدبارِ النِّساء[١].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾، (فَأَنْجَيناه) مُقَدَّمٌ مِن تأخيرٍ، والتَّقديرُ: (فأمطَرْنا عليهم مَطرًا وأنجيناه وأهْلَه) فقدَّمَ الخبرَ بإنجاءِ لُوطٍ عليه السَّلامُ على الخَبَرِ بإمطارِهم مطرَ العَذابِ؛ لقَصدِ إظهارِ الاهتمامِ بأمرِ إنجاءِ لُوطٍ عليه السَّلامُ، ولتعجيلِ المَسَرَّةِ للسَّامعينَ مِنَ المُؤمنينَ، فتطمَئِنَّ قُلوبُهم لحُسنِ عَواقِبِ أسلافِهم مِن مُؤمِني الأُمَمِ الماضِيةِ، فيعلَمُوا أنَّ تلك سُنَّةُ اللهِ في عبادِه[٢].

١١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾، ضمَّن (أمطَرْنا) معنى أرْسَلْنا، فلذلك عَدَّاه بـ (على)[٣].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ العقابُ إمَّا أن يكونَ أثرًا طَبيعيًّا للذَّنبِ؛ كالتَّرَف والسَّرَف في الفِسقِ؛ يُفسِدُ أخلاقَ الأمَّةِ ويَذهَبُ ببَأسِها، أو يجعَلُه بينها شديدًا بتفَرُّقِ كَلِمَتِها واختلافِ أحزابِها وتعادِيهم، فيترَتَّبُ على ذلك تسَلُّطُ أمَّةٍ أخرى عليها؛ تستَذِلُّها بسَلْبِ استقلالِها، وتسخيرِها في منافِعِها، حتى تكونَ حَرَضًا، أو تكونَ مِنَ الهالكينَ بِذَهابِ مُقَوِّماتِها ومُشَخصاتِها، أو اندِغامِها في الأمَّة الغالِبَةِ، أو انقراضِها، وإمَّا أن يكونَ بما يحدُثُ بسُنَنِ الله تعالى في الأرضِ مِنَ الجوائِحِ الطبيعيَّةِ؛ كالزَّلازلِ والخَسْفِ، وإمطارِ النَّارِ، والموادِّ المُصطَهرةِ التي تقذِفُها البراكينُ مِنَ الأرضِ، والأوبئَةِ- أو الانقلابات الاجتماعيَّة، كالحُرُوبِ والثَّوْرات والفِتَن[٤].

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٦٠).

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾

- قوله: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ الاستفهامُ للإنكارِ والتَّعظيمِ، والتوبيخِ والتَّشنيعِ، والتَّوقيفِ على هذا الفِعل القبيحِ[1].

- وقولُه: ﴿أَتَأْتُونَ﴾ أي: أتعملونَ الفاحشةَ؟ وقد كُنِّي بالإتيانِ على العَملِ المَخْصوصِ، وهي كنايةٌ مَشهورةٌ[2].

- والألِف واللَّام في ﴿الْفَاحِشَةَ﴾ للتعريفِ؛ وذلك لكونِ هذا الفِعل معهودًا قُبحُه ومَركوزًا في العُقولِ فُحشُه؛ فأتى مُعرَّفًا بالألفِ واللَّامِ. أو تكونُ (أل) فيه للجِنسِ على سَبيلِ المبالغةِ؛ كأنَّه لشِدَّة قُبحِه جُعِلَ جَميعَ الفَواحِشِ، وذلك بخِلافِ الزِّنا؛ فإنَّه قال فيه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ [الإسراء: ٣٢]، فأتَى به مُنكَّرًا، أي: فاحشةً مِن الفواحِش، وبهذا يتبيَّنَ تفاوُتُ ما بَينهما، وأنَّه سُبحانَه نكَّرَ الفاحشةَ في الزِّنا، أي: هو فاحِشَةٌ مِنَ الفَواحِشِ، وعَرَّفَها في اللُّواطِ، وذلك يُفيدُ أنَّه جامِعٌ لمعاني اسمِ الفاحشةِ، كما تقولُ: زَيدٌ الرَّجلُ، ونِعمَ الرَّجُلُ زَيدٌ، أي: أتأتونَ الخَصلةَ التي استقَرَّ فُحْشُها عند كُلِّ أحدٍ؛ فهي لِظُهورِ فُحشِها وكمالِه غَنيَّةٌ عن ذِكْرِها، بحيثُ لا ينصَرِفُ الاسمُ إلى غَيرِها[3].

- قوله: ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ الجملةُ مستأنفةٌ، مسوقةٌ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٩٩)، ((الداء والدواء)) لابن القيم (ص: ١٧٠).

لتأكيدِ النَّكيرِ، وتَشديدِ التوبيخِ والتقريعِ؛ فإنَّ مباشرةَ القبيحِ واختراعَه أقبحُ، ولقدْ أنكر الله تعالى عليهم أولًا إتيانَ الفاحشةِ بقوله: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾، ثُمَّ وبَّخهم بأنَّهم أوَّلُ مَن عمِلها فقال: ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾؛ والمرادُ أنَّهم سابِقون لكلِّ مَنْ عداهم مِن العالَمين أي: أنتُم أوَّلُ مَن عمِلها؛ إذ إنَّ الجملةَ المنفيَّةَ تدلُّ على أنَّهم هم أوَّلُ مَن فَعَل هذه الفَعلةَ القَبيحةَ وأنَّهم مُبتكِروها. أو تكونُ الجملةُ مسوقةً جوابًا عن سُؤالٍ مقدَّرٍ، كأنَّه قيل مِن جِهتهم: لم لا نأتيها؟ فقيل بَيانًا للعِلَّةِ، وإظهارًا للزاجر: ما سَبَقكم بها أحدٌ لعِظَمِ قُبْحِها، وسُوءِ سَبيلها؛ فكيف تفعلونها[1]؟!

- قولُه: ﴿مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ فيه مبالغةٌ؛ فـ(مِنْ) صلةٌ لَتوكيدِ نَفْي الجِنسِ، وإفادةِ معنى الاستغراقِ لكلِّ البَشرِ، على الظاهرِ المتبادَر، وفيه مبالغةٌ أيضًا في الإتيانِ بعُمومِ العالَمينَ جمْعًا[2].

- وفيه مناسَبةٌ حَسنةٌ حيث قال هنا في سورة الأعراف: ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾، وقال في سُورةِ النمل: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [النمل:٥٤]؛ وذلك لأنَّ ذِكْر قِصَّةِ لُوطٍ وقومِه في سُورة الأعراف اشتملَتْ على تَبكيتِهم على الفاحشةِ، بالإخبارِ عن سَبْقِهم إلى هذه الفَعلةِ، وأمَّا في سُورة النَّملِ فالمذكورُ فيها صِفةٌ تَرجع إلى الفَعلةِ نفْسِها ﴿وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾؛ فإنَّهم لم يكونوا يَتكاتمون بها في مجالِسهم، ولَمَّا كان وصفُهم بأنَّهم لم يُسبَقوا إليها حقُّه أن يجيءَ بعدَ توفيةِ الفاحشةِ حقَّ وصْفِها في نفْسِها، أخَّرَ ذِكرَه إلى حِكايةِ القِصَّةِ في سورة

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٢٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٤٤-٢٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٤٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٥٣-٤٥٤).

الأعراف؛ إذ هي بعدَ سُورةِ النَّملِ في التَّرتيبِ نُزولًا(١).

- وأيضًا فإنَّ قولَه هنا في سُورةِ الأعراف: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾، وكذلك في سُورةِ النَّملِ: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾، الهمزةُ للاستفهامِ المقصودِ به الإنكارُ، والتعظيمُ في تَوبيخِهم على الفاحِشةِ الشَّنعاء، وجاءَ في سُورة العنكبوت: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ [العنكبوت: ٢٨] بالإخبارِ؛ وذلك لمناسَبةٍ حَسنةٍ؛ أنَّه لَمَّا تَقدَّم في الأعرافِ ذِكرُ الأممِ المكذِّبين، ومُرتَكَباتِهم السيِّئةِ، مِن مُعاندِتهم للرُّسُلِ وتكذيبِهم؛ ممَّا اسْتَوْجَبوا به العذابَ، وأَخْذَ كلِّ طائفةٍ بذَنبِها، ناسَب ذِكرَ الأُممِ المكذِّبين قَبْلَهم تقريعُ هؤلاء بكونِهم أوَّلَ مَن فَعَل تلك الشَّناعة، وأنَّهم لم يَسْبِقْهم بها أحدٌ من الأُمم السابقةِ لهم، فقِيل لهم: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ بالاستفهامِ، أمَّا في سورة العنكبوت فإنَّه لَمَّا تقدَّم في سورتَي الأعرافِ والنَّملِ تقريرُهم تقريعًا وتوبيخًا، وعُرِفوا بذلك مَرَّةً بعد مَرَّةٍ، وردتْ قصَّتُهم في العنكبوت مُؤكَّدةً بـ(إنَّ) واللام؛ لثُبوتها، فوردتْ موردَ ما يَجيءُ بعدَ القَسَم؛ إذ قد تَقدَّم تقريرُهم التَّوبيخي مرَّتينِ فجاءَ الإخبارُ بعدُ بِما به يُخبَر عن المتقرِّرِ الثابت، ولم يَكُن ليناسبَ العكس، وهذا على مُقتضَى الترتيبِ في السُّورِ والآي؛ فجاءَ كلٌّ على ما يجِبُ(٢).

٢- قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ لِتلك الفاحشةِ، وفي زيادةِ (إنَّ) واللام في قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ﴾ مَزيدُ توبيخٍ وتقريعٍ؛ كأنَّ ذلك أمرٌ لا يُتحقَّقُ صُدورُه عن أحدٍ، فيُؤكَّد تأكيدًا قويًّا، وفي إيرادِ لفْظ ﴿الرِّجال﴾ دُون الغِلمان والمردان ونحوهما مبالغةٌ في التوبيخِ كذلِك(٣).

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٣٧-٦٣٨).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٠٦-٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٤٥).

- وقوله: ﴿مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ فيه زيادةٌ في التَّفظيعِ، وقطعٌ للعُذرِ في فِعلِ هذه الفاحشةِ[1].

- وقوله: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ إضرابٌ عن الإنكارِ إلى الإخبارِ عن حالِهم التي أدَّتْ بهم إلى ارتكابِ أمثالِها، وهي اعتيادُ الإسراف في كلِّ شيء، أو إضرابٌ عن الإنكارِ عليها إلى الذمِّ على جميعِ مَعايبِهم، أو عن مَحذوفٍ، والتقديرُ: لا عُذْرَ لكم فيه، بل أنتم قومٌ عادتُكم الإسرافُ[2].

- و﴿مُسْرِفُونَ﴾ اسمُ فاعلٍ، وهو يدُلُّ على الثُّبوتِ؛ فلا يَزالُ صاحبُ هذا الفِعلِ يُعاوِدُه حتَّى يَكونَ مَلَكةً راسخةً له؛ فتكرارُ العملِ يُكوِّن المَلكةَ، والمَلَكةُ تَدْعو إلى تَكرارِ العَملِ والإصرارِ عليه، وهذا وجهُ إضرابِ الانتقالِ مِن إسنادِ إتيانِ الفاحشةِ إليهم بفِعلِ المضارعِ المفيدِ للتَّكرارِ والاستمرارِ إلى إسنادِ صِفةِ الإسرافِ إليهم بقوله: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾، أي: لستُم تأتون هذه الفاحشةَ المرَّةَ بعدَ المرَّةِ بعدَ نَدمٍ وتوبةٍ عقِبَ كلِّ مرَّةٍ، بل أنتُم مُسرِفون فيها وفي سائرِ أعمالِكم، لا تَقِفون عندَ حدِّ الاعتدالِ في عَمَلٍ مِن الأعمالِ[3].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ عبَّر هنا بلفظ السَّرفِ والاسمِ، وفي سورة النَّمل قال: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٥]، بلفظِ الجهلِ والفِعل؛ ووجه ذلك أنَّه يجوزُ أنْ يكونَ لوطٌ عليه السَّلامُ لَمَّا كانتْ له مع قومِه مَقاماتٌ قال في بعضِها هذا اللفظ، وفي بعضِها اللفظَ الآخَر؛ تكثيرًا للفائدةِ في التَّعبيرِ عن المرادِ بلفظيْن مُتساويَيْن معنًى؛ إذْ كلُّ سَرَفٍ جهلٌ، وبالعكسِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٠١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٥٤).

والمسرِفُ مُجهَّل بإسرافِه، والجاهِل مُسرِفٌ بأفعالِه؛ إذ الإسرافُ مجاوزةُ الحدِّ الواجبِ إلى الفسادِ. وأمَّا اختصاصُ ﴿مُسْرِفِينَ﴾ بسُورةِ الأعراف، فلأنَّ الآياتِ التي قَبْلها فواصلُها أسماءٌ جُمِعت هذا الجمع وهي: (مفسدين- مؤمنون- كافرون- العالمين- المرسلين- النَّاصحين... إلى آخرِها)، وهكذا إلى أنِ انْتَهى إلى هذه الآيةِ، فكانَ الاسمُ أحقَّ بالوضعِ في هذا المكانِ؛ لتَتساوَى الفواصلُ. وأمَّا في سورة النَّملِ فتقدَّم الآيةَ التي فاصلتُها: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٥] أفعالٌ، وهي: (يعلمون- يتقون- يبصرون)؛ فلمَّا تناسقتْ هذه الأفعالُ في هذه الفواصِلِ كان بناءُ قوله تعالى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٥] على ما قَبْلَها بلفظِ الفِعلِ أَوْلى بها، فجاءَ ﴿تَجْهَلُونَ﴾ في هذا الموضِع، و﴿مُسْرِفُونَ﴾ في الأوَّلِ لهذا من القَصْدِ[١].

وقيل: بلْ قَصَد بما ذَكَر في سُورةِ الأعراف الإشارةَ إلى التعريفِ بانهِماكهم في الجرائمِ، وقَبيحِ المُرتكباتِ؛ فنصَّ على أفحشِها، وحصَل الإيماءُ إلى ما وراءَ ذلك بما ذُكِر مِن إسرافِهم: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾، ولَمَّا قِيل في سورة النَّمل: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [النمل: ٥٤]، كان أهمُّ شيءٍ أنْ تُنفَى عنهم فائدةُ الأبصارِ؛ إذ لم تُغْنِ عنهم شيئًا، فأَعْقَب بقولِه: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٥]، أي: إنَّ مُرْتَكَبَكم مع عِلمكم بشنيعِ ما فيه مِن أقبحِ ما يَرتكِبُه الجُهَّالُ، ولم يَذكُرْ هنا إسرافَهم؛ إذ قدْ حصَل فيما ذُكِر في الأعراف[٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ أُخرَى حيثُ عَدَل في سُورةِ العنكبوتِ عن قوله: ﴿شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ الذي هنا في الأعرافِ إلى قولِه: ﴿وَتَقْطَعُونَ

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٣٢-٦٣٤)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١٢٤-١٢٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ١٩٩).
(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٠٨).

السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]؛ لقصدِ تفصيلِ ما أُشير إليه في الأعرافِ مِن شَنيعِ ما ارْتَكبوه مِن إسرافِهم، فقيل: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]؛ فورَد أوَّلًا- بحسَبِ التَّرتيبِ المتقرِّر عليه السورُ والآيات- في الأعرافِ ذِكرُ أفحشِ مُرتَكَباتِهم، ثم أَجْملَ القولَ في سائرِ جرائمِهم، ثم أتْبع في السُّورةِ الثانيةِ (سورة النمل) بشَنيعِ حالهم في تِلك الفَعلةِ المنصوصِ عليها مِن حيثُ بيانُ فُحشِها للأبصارِ والبصائرِ، ثمَّ أتْبَع ذلك في السورة الثالثةِ (سورة العنكبوت) بتَفصيلِ بعضِ قبائحِ أفعالِهم والتنصيصِ عليها، وجاءَ كلُّه على ما يَجِبُ، ولا يُمكن العكسُ فيما ورَدَ(١).

٣- قوله: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾

- فيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيثُ قاله هنا في الأعراف بالواوِ ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾، وقال فيما أَشْبَهه مِن سُورتَي النمل والعنكبوت: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ [النمل: ٥٦، العنكبوت: ٢٩] بالفاءِ؛ وذلِك لأنَّ ما هُنا في الأعراف تَقدَّمه اسمٌ هو: ﴿مُسْرِفُونَ﴾، والاسمُ لا يُناسبه التعقيبُ، وما في النَّمل تَقدَّمه فِعلٌ هو: ﴿تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٥]، وفي العنكبوت تَقدَّمه فِعلٌ أيضًا: ﴿تَقْطَعُونَ﴾ و﴿تَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، والفعلُ يُناسِبُه التعقيبُ، فناسبَ ذكرُ الفاءِ الدَّالة عليه(٢).

- وأيضًا قال الله تعالى هنا في سُورةِ الأعراف: ﴿أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾، وفي سورة النَّمل قال: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ﴾ [النمل: ٥٦]، وفي سُورة

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٣٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٠٠).

العنكبوت قال: ﴿قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]؛ وذلك لمناسَبةٍ حَسنةٍ؛ وهي أنَّه لَمَّا زِيد في تَعنيفِهم في النَّمل بقولِه: ﴿وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [النمل: ٥٧]، وتعريفِهم بإتيانِهم الفاحشةَ على عِلمٍ بها أو مع مُشاهَدةِ بعضِهم بعضًا، وعدمِ استخفائِهم بها، وذلك أقبحُ في المُرتكَب؛ زِيدَ في الإخراجِ التنصيصُ على الآلِ؛ لأنَّ قوله: ﴿آلَ لُوطٍ﴾ أنصُّ في إخراجِ جميعِ مَن للوطٍ عليه السلام مِن ذَويه وأهلِه مِن قوله: ﴿أَخْرِجُوهُمْ﴾، فكانتْ زيادةُ التنصيصِ الأعمِّ بإزاءِ الأزيدِ في التقريعِ. ولَمَّا عدَّد مِن قبائحِ مُرتكباتهم في سورةِ العنكبوت ما عدَّد بقوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، فكان تَعدادُ مُرتكباتِهم أشدَّ توبيخًا في تقريعِهم وأَنْكأ، كان مَظِنَّةَ تَهيجٍ، واشتعالٍ لسَيِّئ أخلاقِهم، وقبيحِ جوابِهم، فجاوبوا جوابَ مَن استحكَم حنْقُه، وطُبِع على قلبِه فقالوا: ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ﴾ [العنكبوت: ٢٩]؛ تحكيمًا وتحقيقًا لتكذيبِهم، وشاهدًا بتَصميمِهم على المعاندةِ والكُفرِ(١).

- وفي قولِه: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ جِيء بالخبرِ جُملةً فِعليَّةً مُضارعيَّةً ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾؛ لدَلالتِها على أنَّ التَّطهُّرَ مُتكرِّرٌ منهم ومُتجدِّد، وذلك أَدْعَى لمُنافرتِهم طِباعَهم والغضبِ عليهم، وتَجهُّم إنكارِ لوطٍ عليه السَّلام عليهم؛ فهم قدْ عَلِموا هذا التطهُّرَ مِن خُلُقِ لُوطٍ عليه السلام وأهلِه؛ لأنَّهم عاشَرُوهم، ورَأَوْا سِيرتَهم(٢).

٤- قوله: ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ قال: ﴿مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ ولم يقُل: (مِن الغابرات) مِن باب تَغليبِ الذُّكورِ إذا اجْتَمَعوا مع الإناثِ، ولبيانِ استِحقاقِها

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٠٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٣٥).

لِمَا يَستحقُّه المباشِرون للفاحشةِ. وجملةُ ﴿كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ استئنافٌ وقَعَ جوابًا عن سُؤالٍ نَشأَ عن استثنائِها مِن حُكمِ الإنجاءِ، كأنَّه قيل: فماذا كان حالُها؟ فقيل: كانتْ مِن الغابرينَ[1].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا في سُورةِ الأعراف: ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾، وقال في سورة النمل: ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [النمل: ٥٧]، وفي سُورة الحِجر قال: ﴿قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [الحجر: ٦٠]، ووجْهُ ذلك أنَّ اختصاصَ ﴿كَانَتْ﴾ بآيةِ الأعراف؛ مُناسِبٌ إيجازًا لقولِه: ﴿أَخْرِجُوهُمْ﴾، وقولَه في النَّمل: ﴿قَدَّرْنَاهَا﴾ مُناسِبٌ لقولِه: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ﴾، وقولَه في الحِجر: ﴿قَدَّرْنَا إِنَّهَا﴾ يَجري مع ما وُكِد قبلُ بـ(إنَّ) ويُناسِبه، كقوله: ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ * إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٥٨-٥٩]، فقيل مُناسبًا لذلك: ﴿قَدَّرْنَا إِنَّهَا﴾[2] [الحجر: ٦٠].

وقيل: إنَّ القِصَّةَ التي في سُورة النَّمل نازلةٌ قبلَ القِصَّة التي في سُورةِ الأعراف، بدليلِ الإضمارِ والإظهارِ؛ فلمَّا ذَكَر في الآيةِ المنزلةِ أوَّلًا قولَه: ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [النمل: ٥٧]، أحال في الثانية على الأُولى في البيانِ، فقال: ﴿كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾، أي: في تَقديرِ الله الذي قَدَّرَه لها، وأَخْبَر فيما قبلُ عن حُكمِه عليها[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٠٢)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٤٦).

قال ابنُ جرير: (وقيل: ﴿مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ ولم يَقُلْ: (الغَابِرَات)؛ لأنَّه يريدُ أنَّها مِمَّنْ بَقِيَ مع الرِّجالِ، فلما ضَمَّ ذِكرَها إلى ذِكْرِ الرِّجالِ، قيل: ﴿مِنَ الْغَابِرِينَ﴾). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٨). ويُنظر: ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢١٤)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢١٠).

(٣) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٣٧)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٢٥).

٥- قوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾

- تَنكيرُ ﴿مَطَرًا﴾ للتَّعظيمِ والتعجُّب، أي: مَطرًا عجيبًا مِن شأنِه أن يُهلِكَ القُرَى(١).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيث قال هنا في سُورةِ الأعراف: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾، وفي سُورةِ النَّملِ قال: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [النمل: ٥٨]، فاختَلفَ التعقيبُ في الآيتَينِ؛ لأنَّه لَمَّا تَقدَّم في الأعرافِ قوله: ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ حصَل منه أنَّ ارتكابَهم ما لم يَسْبِقْ إليه غيرُهم قد جَمَعَ إلى قَبيحِ الفُحشِ الاجترامَ، مِن حيثُ لم يَفعلْ تلك الفَعلةَ الشَّنعاءَ مَن تَقدَّمهم؛ فلمَّا أُجْمِع إلى الفُحشِ الاجترام أُعْقِب بقولِه: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾. ولَمَّا تقدَّم في سورة النَّمل قوله: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [النمل: ٥٤] حصَل منه تَعنيفٌ وإنذارٌ لم يقَعْ مِثلُه في الأعرافِ؛ إذ ليس موقعُ قولِه: ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠] في الإنذارِ والتعنيفِ كموقعِ تعريفِهم بعِلمهم بها، وشناعةِ مُعاينةِ بعضِهم بعضًا مِن ارتكابِها؛ فناسَب إنذارَهم بهذا ما أُعْقِب به مِن قولِه: ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [النمل: ٥٨]، ولو أُعْقِبتْ آيةُ الأعراف بهذا أو آيةُ النمل بما أُعقبتْ به آيةُ الأعراف لم يَكُن مُتناسِبًا(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢١٠).

الآيات (٨٥-٨٧)

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَلَا تَبْخَسُوا﴾: أي: لا تَنْقُصُوا، ولَا تَظلِموا، والبَخْسُ: نَقصُ الشَّيءِ على سَبيلِ الظُّلمِ، وأصلُ (بخس): يدلُّ على النَّقْصِ[1].

﴿تُوعِدُونَ﴾: أي: تَتوعَّدون وتُخوِّفونَ، والوَعدُ يكونُ في الخَيرِ والشَّرِّ، والوعيدُ في الشَّرِّ فقط، وأصلُ (وعد): يدلُّ على تَرجِيَةٍ بقولٍ[2].

﴿عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾: أي: آخرُ أمرِهم، والعاقِبةُ تختصُّ بالثَّوابِ إذا أُطلِقَتْ، وقد تُستعمَلُ في العُقوبةِ أو ما يؤدِّي إليه السَّبَبُ المتقدِّمُ إذا أُضيفَتْ، وأصل (عقب): تأخيرُ شيءٍ، وإتيانُه بعدَ غيرِه[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٠)، =

المَعْنَى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه أرسَلَ إلى قبيلةِ مَدْينَ أخاهم في النَّسَبِ شُعَيبًا؛ لِيدعُوَهم إلى عبادَةِ اللهِ وَحدَه، وتَرْكِ عبادةِ ما سِواه، فقال لهم: اعبُدُوا اللهَ وَحدَه؛ ليس لكم معبودٌ يستحِقُّ العبادةَ غَيرُه، قد أتَتْكُم حُجَّةٌ واضحةٌ مِن رَبِّكم، على صِدقِ ما جِئْتُ به، فأوفُوا الكَيلَ والميزانَ، ولا تنقُصُوا النَّاسَ حُقوقَهم، ولا تُفسِدُوا في الأرضِ بعد إصلاحِها، هذا الذي أُمِرْتُم به مِن إخلاصِ العِبادةِ لله، وإيفاءِ حُقوقِ النَّاسِ، وتَرْكِ الفَسادِ في الأرضِ؛ خَيرٌ لكم إن كنتم مُؤمنينَ، ولا تَجلِسُوا بكلِّ طَريقٍ تَتوَعَّدونَ النَّاسَ بالقَتلِ أو العَذابِ، وتَمنعونَ عن طاعةِ اللهِ مَن آمَنَ به، وتَصْرِفونَه عن اتِّباعِ نَبِيِّه، وتطلبونَ لِسَبيلِ اللهِ أنْ تكونَ مائلةً، واذكروا حين كُنتُم قليلًا في العَدَدِ فكَثَّرَكم اللهُ تعالى، وانظُرُوا كيف كان عاقبةُ المُفسدينَ، وإن كانت طائفةٌ منكم آمَنُوا بالذي أرسَلَني اللهُ به، وطائفةٌ لم يُؤمِنُوا؛ فاصبِرُوا حتى يحكُمَ اللهُ بيننا، وهو خَيرُ الحاكمينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۗ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٨٥﴾.

﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۗ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ﴾.

أي: وأَرْسَلْنا إلى قبيلةِ مَدْينَ أخاهم في النَّسَبِ شُعيبًا عليه السَّلامُ؛ لِيَدعُوَهم

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٠)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٥٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٥).

إلى عبادةِ اللهِ وَحْدَه، وينهاهم عَن عِبادَةِ غَيْرِه، وينهاهم عَنِ الفَسادِ في الأرضِ، فقال لهم: يا قَومِ، اعبُدُوا اللهَ وَحْدَه؛ ليس لكم معبودٌ يستحِقُّ العبادةَ غَيرُه، فلا تُشْرِكوا به شيئًا[١].

﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

أي: قال شُعَيبٌ لِقَومِه: قد جاءَتْكم حُجَّةٌ واضِحةٌ مِن خالِقِكم ومالِكِكم ومُدَبِّرِ شُؤونِكم، على صِدْقِ ما جِئْتُكم به مِن إفرادِ اللهِ بالعبادةِ، وتَرْكِ الفَسادِ في الأرضِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((ما مِنَ الأنبياءِ مِن نبيٍّ إلَّا قد أُعطِيَ مِنَ الآياتِ ما مِثْلُه آمَنَ عليه البَشَرُ، وإنَّما كان الذي أُوتِيتُ وَحيًا أوحَى اللهُ إليَّ، فأرجُو أن أكونَ أكثَرَهم تابعًا يومَ القِيامةِ))[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١١)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٧٨ - ٥٨٠).

قال ابنُ كثير: (﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي دلالةٌ وحُجَّةٌ واضحة، وبرهانٌ قاطِعٌ على صِدْقِ ما جِئتُكم به، وأنَّه أرسَلَني، وهو ما أجرى اللهُ على يَدَيه مِنَ المعجزاتِ التي لم تُنقَل إلينا تفصيلًا، وإن كان هذا اللَّفظُ قد دلَّ عليها إجمالًا). ((البداية والنهاية)) (١/ ٤٢٩). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣١٣).

(٣) رواه البخاري (٤٩٨١) ومسلم (١٥٢).

﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾.

أي: فأتِمُّوا للنَّاسِ حُقُوقَهم؛ بإتمامِ كَيلِ المِكيالِ، ووَزنِ المِيزانِ(١).

كما قال تعالى حاكيًا قَوْلَ شُعَيبٍ لِقَومِه: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ [الشعراء: ١٨١-١٨٢].

وقال سُبحانَه حاكيًا أيضًا قَولَ شُعَيبٍ لِقَومِه: ﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ * وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ [هود: ٨٤-٨٥].

﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾.

أي: ولا تَنقُصُوا النَّاسَ حُقُوقَهم(٢).

قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ١-٦].

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٠٢)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٩٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٨٦ - ٥٨٧).

قال الرازي: ((المرادُ أنَّه لَمَّا منَعَ قَومَه مِنَ البَخسِ في الكيلِ والوَزنِ؛ منَعَهم بعد ذلك من البَخْسِ والتنقيصِ بجَميعِ الوجوهِ، ويدخلُ فيه المنعُ مِنَ الغَصبِ والسَّرِقة، وأخذِ الرِّشوة وقطعِ الطَّريقِ، وانتزاعِ الأموالِ بطريقِ الحِيَلِ)). ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣١٣ - ٣١٤).

وقال القرطبي: (البخسُ: النَّقصُ، وهو يكونُ في السِّلعة بالتَّعييبِ والتَّزهيد فيها، أو المخادعةِ عَنِ القيمةِ، والاحتيالِ في التزيُّدِ في الكَيلِ والنقصان منه، وكلُّ ذلك مِن أكْلِ المالِ بالباطِلِ). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٤٨). ويُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٢/ ٣١٨).

أي: ولا تُفسِدُوا في الأرضِ بالشِّركِ والمعاصي وظُلْمِ النَّاسِ، بعد أنْ أصلَحَ اللهُ تعالى الأرضَ ببَعْثِ الرُّسُلِ، والأمرِ بالعَدْلِ(١).

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

مُناسَبَتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا تقَدَّمَ إليهم بالأمرِ والنَّهيِ؛ أشارَ إلى عَظَمةِ ما تضَمَّنَه ذلك؛ حثًّا لهم على امْتِثالِه، فقال(٢):

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

أي: هذا الذي أمَرْتُكم به؛ مِن إخلاصِ العِبادةِ للهِ، وإيفاءِ حُقُوقِ النَّاسِ، وتَرْكِ الفَسادِ في الأرضِ- أنفَعُ لكم في دُنياكم وآخِرَتِكم، إنْ كُنتُم حقًّا مُؤمنينَ باللهِ وبرَسولِه وباليَومِ الآخِرِ(٣).

كما قال تعالى حاكيًا قَولَ شُعَيبٍ لِقَومِه: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [هود:٨٦].

﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١٢)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٥٤)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ١٨٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢١٤)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١٢)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٢٦)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣١٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٠٥).

قال ابنُ عاشور في قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: (المرادُ بالتَّقييدِ نَفْيُ الخَيرِ الكامِلِ عن تلكَ الأعمالِ الصَّالحةِ، إن لم يكُنْ فاعِلُوها مؤمنينَ باللهِ حَقَّ الإيمانِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٤٦).

مُناسَبَةُ الآيةِ لِمَا قبْلَها:

لَمَّا كان للتَّعميمِ بعدَ التَّخصيصِ، والتَّفصيلِ بعد الإجمالِ؛ مِنَ الموقِعِ في النُّفوسِ ما لا يخفَى، وكان النَّهيُ عن الإفسادِ بالصَّدِّ عَن سَبيلِ اللهِ؛ هو المقصودَ بالذَّاتِ؛ لأنَّه يَنهى عن كُلِّ فسادٍ- خَصَّه بالذِّكْرِ؛ إشارةً إلى أنَّه زُبدةُ المرادِ بعد التَّعميمِ، فقال[1]:

﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ ﴾.

أي: ولا تَجلِسُوا بكُلِّ طَريقٍ تُهَدِّدونَ النَّاسَ بالقَتلِ أو العذابِ، إن لم يُعطُوكم أموالَهم[2]، أو إن أرادُوا الإيمانَ باللهِ، واتِّباعَ نَبيِّه شُعَيبٍ عليه السَّلامُ[3].

﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ ﴾.

أي: وتَمنعونَ عن طاعةِ اللهِ مَن آمَنَ باللهِ، وتَصرِفُونَهم عنِ اتِّباعِ نَبيِّ اللهِ[4].

﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٦١).

(٢) وممَّن اختارَ هذا المعنى: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٢٦-٤٢٧).

(٣) وممن اختار هذا المعنى: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٢٦ - ٤٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٤٨-٢٤٩).
وجمع الواحدي بين القولين. يُنظر: ((الوجيز)) (ص: ٤٠٢).
وقال الشوكاني: (أي: لا تقعُدُوا بكلِّ طَريقٍ تُوعِدُونَ النَّاسَ بالعذاب، قيل: كانوا يقعُدونَ في الطُّرقاتِ المُفضِيَةِ إلى شُعَيبٍ، فيتوعَّدونَ مَن أراد المجيءَ إليه. وقيل: المرادُ بالآية: النهيُ عن قَطعِ الطَّريقِ، وأخذِ السَّلبِ، وكان ذلك من فِعْلِهم، وقيل: إنَّهم كانوا عشَّارينَ يأخُذونَ الجِبايةَ في الطُّرُقِ مِن أموالِ النَّاسِ، فنُهُوا عن ذلك. والقولُ الأوَّلُ أقرَبُها إلى الصَّوابِ، مع أنَّه لا مانِعَ مِن حَملِ النَّهيِ على جميعِ هذه الأقوالِ المذكورة). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١٥)، ((تفسير الماوردي)) (٢/ ٢٣٩)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ١٩٧)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٦).

أي: تودُّونَ أن تكونَ سبيلُ اللهِ معوجَّةً، وتلتمسون لها الزيغَ؛ بإلقاءِ الشُّبَهِ أو بِوَصْفِها للنَّاسِ بالبطلان والضلال، وتُميلُونها اتِّباعًا لأهوائِكم(١).

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾.

أي: واذكُرُوا حينَ كُنتُم قليلًا عَدَدُكم، فكثَّركم اللهُ، فصِرْتُم أعِزَّةً أقوياءَ، فاشكُرُوه وأخْلِصُوا له العبادةَ(٢).

﴿وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾.

مُناسَبَتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا رَغَّبَهم اللهُ تعالى بالتَّذكيرِ بالنِّعمةِ؛ حَذَّرَهم بالتَّذكيرِ بأهْلِ النِّقمةِ، فقال(٣):

﴿وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾.

أي: وانظُرُوا إلى آخِرِ أمْرِ المُفسدينَ، الذين أفسَدُوا في الأرضِ بالشِّركِ والمعاصي، مِنَ الأُمَمِ قَبلَكم؛ فقد حَلَّ بهم العذابُ والخِزيُ والنَّكالُ(٤).

كما قال تعالى حاكيًا قَوْلَ شُعَيبٍ لِقَومِه: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٥٥)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٨٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١٦)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٦).

﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ﴾.

أي: وإن كانَتْ جماعةٌ منكم آمَنُوا بما أرسَلَني اللهُ به؛ مِن إفرادِه بالعبادةِ، وتَرْكِ الفَسادِ في الأرضِ، وجماعةٌ أخرى لم يُؤمِنُوا بذلك- فانتَظِروا حُكمَ اللهِ وقَضاءَه بيننا[1].

كما قال تعالى حاكيًا قَولَ شُعَيبٍ لِقَومِه: ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود: ٩٣].

﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾.

أي: واللهُ خَيرُ مَن يَحكُمُ بين عِبادِه المُخْتلِفينَ، فيُنجِّي المؤمنينَ، ويُهلِكُ الكافِرينَ[2].

الفوائِدُ التربويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ ﴿قَالَ يَا قَوْمِ﴾ دالٌّ على النَّصيحةِ والشَّفَقةِ مَع مَن يَدعُوهم، وذلك مِن خِلالِ تَذْكيرِهم بالقَرابةِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٥٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٥١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٩٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٥٩).

٢- في قوله تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ بدأ شعيبٌ عليه السَّلامُ بِدَعوَتِهم إلى عبادةِ اللهِ وَحدَه، وإفرادِه سُبحانَه بالألوهِيَّة، وإلى الدَّينونةِ له وَحدَه، وإفرادِه- مِن ثَمَّ- بالسُّلطانِ في أُمورِ الحياةِ كُلِّها؛ بدأ بهذه القاعدةِ التي يَعلَمُ أنَّه منها تنبثِقُ كُلُّ مناهِجِ الحياةِ، وكُلُّ أوضاعِها، كما أنَّ منها تنبَثِقُ قواعِدُ السُّلوكِ والخُلُق والتَّعامُل، ولا تستقيمُ كُلُّها إلَّا إذا استقامَتْ هذه القاعدةُ[1]، فبدأ شعيبٌ عليه السَّلامُ بِدَعوَتِهم إلى توحيدِ العبادةِ، وثنَّى بالأوامِرِ والنَّواهِي[2].

٣- عادةُ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ أنَّهم إذا رَأَوْا قَوْمَهم مُقْبِلينَ على نوعٍ مِن أنواعِ المفاسِدِ إقبالًا أكثَرَ مِن إقبالِهم على سائِرِ أنواعِ المفاسِدِ؛ بَدَؤُوا بمَنْعِهم عن ذلك النَّوعِ، وكان قَومُ شُعَيبٍ مَشغوفينَ بالبَخْسِ والتَّطفيفِ؛ فلهذا السَّبَبِ بدأ بذِكرِ هذه الواقعةِ، فقال: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾[3]، وعلى الدُّعاةِ أن يهتمُّوا بذلك، فقدوتُهم في ذلك الأنبياءُ، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

٤- تَرْكُ المعاصي- امتثالًا لأمرِ اللهِ تعالى، وتقَرُّبًا إليه- خيرٌ وأنفَعُ للعَبدِ مِن ارتكابِها المُوجِبِ لسَخَطِ الجَبَّارِ، وعذابِ النَّارِ؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[4].

٥- قال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ الإشارةُ بـ ﴿ذلكم﴾ إلى كُلِّ ما تَقَدَّمَ مِن أمرٍ ونَهيٍ، أي: هو خيرٌ لهم في دِينِهم ودُنياهم، لا تكليفُ

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٣١٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٦٨، ٤٧٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣١٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٦).

إعناتٍ، فاللهُ لا يأمُرُ إلَّا بما هو نافِعٌ، ولا ينهى إلَّا عما هو ضارٌّ، وهو على كلِّ حالٍ غَنِيٌّ عن العالَمِينَ، ولو شاء لأعنَتَهم، ولكِنَّه رحيمٌ لا يفعَلُ ذلك[1].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ دلالةٌ على أنَّ التَّوحيدَ واجتنابَ نَزَعاتِ الشِّركِ ترفَعُ قَدْرَ الإنسانِ، وتُطَهِّرُ عَقلَه ونَفْسَه مِنَ الخُرافاتِ والأوهامِ، وتَعتِقُ إرادَتَه من العبوديَّة والذِّلَّةِ لمخلوقٍ مِثلِه مُساوٍ له؛ في كَونِه مَخلوقًا مُسَخَّرًا لإرادةِ الخالِقِ وسُنَنِه، وإن فاقَه في عَظَمةِ الخَلقِ أو عِظَمِ المنفعةِ كالشَّمسِ، أو بعضِ الصِّفاتِ أو الخصائِصِ؛ كالأنبياءِ والملائكةِ، وغَيرِ ذلك مِمَّا عُبِدَ مِن دُونِ الله، أو في المُلكِ والسُّلطان، فالتَّوحيدُ في العبادةِ هو لمصلحةِ النَّاسِ وتَكريمِهم وإعلاءِ شَأنِهم، وكذلك سائِرُ العباداتِ وأحكامُ الحَظرِ والإباحةِ، كما أنَّه قد ثبت بالدَّلائلِ العقليَّةِ والنَّقليَّةِ والتجارِبِ الدَّقيقة أنَّ مَلَكاتِ الفَضائِلِ لا تنطبعُ في الأنفُسِ إلَّا بالتربيةِ الدِّينيةِ؛ ولذلك تَقِلُّ السَّرقةُ والخيانةُ في البلادِ التي يغلِبُ على أهلِها التَّدَيُّنُ الصَّحيحُ[2].

٧- المؤمِنُ يُثابُ على فِعلِه؛ لِبنائِه له على أساسِ الإيمانِ، والكافِرُ أعمالُه فاسدةٌ، فلا يكونُ فِعْلُه خيرًا له مِن جِهَةِ إسعادِه في الآخرةِ؛ لأنَّه لا ثوابَ له؛ يُبَيِّنُ ذلك قَولُه تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[3].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ دلالةٌ على أنَّ الواجِبَ هو الاحترامُ والتعظيمُ للسَّبيلِ التي نصَبَها اللهُ لعبادِه؛ لِيَسلُكُوها إلى مَرضاتِه ودارِ كَرامَتِه، ورَحِمَهم بها

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٧٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ٤٧١- ٤٧٤).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٦١).

أعظَمَ رحمةٍ، مع القيامِ بنُصْرَتِها والدَّعوةِ إليها والذَّبِّ عنها(١).

٩- تَذَكُّرُ كَثرةِ إنعامِ اللهِ تعالى، يحمِلُ على الطَّاعةِ، والبُعْدِ عَنِ المَعصيةِ؛ يُرشِدُنا إلى ذلك قَولُه تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾(٢).

١٠- تذكُّرُ عاقبةِ المُفسدينَ وما لَحِقَهم مِنَ الخِزيِ والنَّكالِ؛ زاجِرٌ عَنِ العِصيانِ والفَسادِ؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾(٣).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ حُسْنُ التلَطُّفِ في المحاوَرةِ مع المُخالِفِ؛ فهذا الكلامُ مِن أحسَنِ ما تُلُطِّفَ به في المحاورةِ؛ إذ برَزَ المتَحَقِّقُ في صورةِ المشكوكِ فيه، وذلك أنَّه قد آمَنَ به طائفةٌ بدليلِ قَوْلِ المُستكبرينَ عن الإيمانِ: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ﴾(٤).

١٢- حُكمُ اللهِ بَينَ عِبادِه نوعانِ: حُكمٌ شَرعيٌّ يُوحِيه إلى رُسُلِه، وحُكمٌ فِعليٌّ يَفصِلُ فيه بين الخَلقِ بمُقتَضى عَدْلِه وسُنَنِه، وهذا الثَّاني كما في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ) وإنَّما حَكَم تعالى بين الأُمَمِ بنَصرِ أقْرَبِها إلى العَدلِ والإصلاحِ في الأرضِ، وحُكْمُه هو الحَقُّ، ولا مُعَقِّبَ لِحُكْمِه، فلْيَعتَبِرِ المسلمونَ بهذا قبلَ كُلِّ أحدٍ، ولْيَعرِضوا حالَهم وحالَ دُوَلِهم على القُرآنِ وعلى أحكامِ اللهِ لهم وعليهم؛ لعَلَّهم يَثُوبونَ إلى رُشْدِهم، ويَتُوبونَ إلى ربِّهم، فيُعيدَ إليهم ما سُلِبَ منهم، ويَرفَعَ مَقْتَه وغَضَبَه عنهم(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣١٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٠٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٧٦-٤٧٧).

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قِصَّةِ قَومِ شُعَيبٍ شيءٌ من الإطالةِ، بالقياسِ إلى نظائِرِها في هذا الموضِعِ، ذلك أنَّها تتضمَّنُ غيرَ قضيَّةِ العَقيدةِ شيئًا عَنِ المُعاملاتِ(١).

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ غايةُ ما يُفيدُه القرآنُ: أنَّ اللهَ بعَثَ نَبِيَّه شُعيبًا إلى أهلِ مَدينَ، وذكَرَ اللهُ في سُوَرٍ أُخرَى أنَّ شُعَيبًا أُرسِلَ أيضًا إلى أصحابِ الأيْكةِ، كما في قَوْلِه تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٦] والعُلَماءُ مُختلِفونَ: هل أصحابُ الأيْكةِ هم مَدينُ أنفُسُهم، فيكون شُعَيبٌ أُرسِلَ إلى أمَّةٍ واحدةٍ، أو مَدينُ أمَّةٌ، وأصحابُ الأيكةِ أُمَّةٌ أخرى، فيكونُ شُعَيبٌ قد أُرسِلَ إلى أُمَّتَينِ؟ هذا خلافٌ مَعروفٌ بينَ العُلَماءِ، وأكثَرُ أهلِ العِلمِ على أنَّهم أمَّةٌ واحدةٌ، كانوا يَعبُدُونَ أيكةً، أي: شَجرًا مُلتفًّا، وأنَّ اللهَ سَمَّاهم مرَّةً بِنَسَبِهم (مَدْيَن) ومَرَّةً أضافَهم إلى الأيكةِ التي يعبُدونَها.

والذين قالوا: إنَّهما أمَّتانِ قالوا: في (مدين) قال إنَّه أخوهم؛ حيث قال: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ أمَّا أصحابُ الأيكةِ، فلم يقُلْ إنَّه أخوهم، بل قال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ [الشعراء: ١٧٦-١٧٧] ولم يقُلْ: أخوهم شعيبٌ.

وأُجيبَ عن هذا بأنَّه لَمَّا ذَكَرَ مَدينَ ذَكَرَ الجَدَّ الذي يشمَلُ القبيلةَ، ومِن جُملَتِها شُعيبٌ- ذَكَرَ أنَّه أخوهم مِنَ النَّسَبِ، أمَّا قَولُه: ﴿أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ فمعناه: أنَّهم يَعْبُدونَها، ولَمَّا ذكَرَهم في مقامِ الشِّركِ وعبادةِ غَيرِ اللهِ، لم يُدخِلْ معهم شُعَيبًا في ذلك، وهم أمَّةٌ واحدةٌ. والله أعلم(٢).

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٣١٧).

(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٧٢، ٥٧٣).

القولُ بأنَّ أصحابَ الأيكةِ هم أهلُ مدينَ هو قولُ أكثرِ أهلِ العلمِ، واختاره ابنُ جريرٍ وابنُ =

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ﴾ جاء تجريدُ الفِعلِ في: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ﴾ مِنَ الفاء هنا، فقيل: ذلك للدَّلالةِ على أنَّ كَلامَه هذا، ليس هو الذي فاتَحَهم به في ابتداءِ رِسالَتِه، بل هو مِمَّا خاطَبَهم به بعد أنْ دعاهم مِرارًا، وبعد أنْ آمَنَ به مَن آمَنَ منهم(١).

٤- ما جاءَ في هذا التَّشريعِ في قَولِه تعالى: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ هو أصلٌ مِن أُصولِ رَواجِ المعاملةِ بَينَ الأمَّةِ؛ لأنَّ المُعامَلاتِ تعتَمِدُ الثِّقةَ المتبادَلةَ بين الأمَّةِ، وإنَّما تحصُلُ بِشُيوعِ الأمانةِ فيها، فإذا حصَلَ ذلك نَشِطَ النَّاسُ للتَّعامُلِ؛ فالمُنتِج يزدادُ إنتاجًا وعَرْضًا في الأسواقِ، والطَّالِبُ من تاجرٍ أو مُستهلِكٍ يُقبِلُ على الأسواقِ آمنًا، لا يخشى غَبنًا ولا خديعةً ولا خِلابةً، فتتوفَّرُ السِّلَعُ في الأمَّةِ، وتستغني عن اجتلابِ أقواتِها وحاجِيَّاتِها وتَحسينيَّاتِها، فيقومُ نَماءُ المدينةِ والحضارةِ على أساسٍ مَتينٍ، ويعيشُ النَّاسُ في رخاءٍ وتحابُبٍ وتآخٍ، وبضِدِّ ذلك يختَلُّ حالُ الأمَّةِ بمقدارِ تَفَشِّي ضِدِّ ذلك(٢).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ في إضافةِ الأشياءِ إلى النَّاسِ دليلٌ على مِلْكِهم إيَّاها(٣).

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ

= كثيرٍ، وممن ذهب إليه مِن السَّلف: ابنُ عبَّاس وابنُ زيدٍ، يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٨)، ((البداية والنهاية)) لابن كثير (١/ ٤٣٨).
وذهب قتادةُ- كما في ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٧)- ومقاتلُ بنُ سليمانَ- كما في ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٣/ ٣٤٧)- وابنُ عاشورٍ في ((تفسيره)) (١٩/ ١٨٣) إلى أن مدينَ غيرُ أصحابِ الأيكةِ.
(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٣٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٢٤٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٠٥).

اللَّهِ﴾ لَمَّا كان طريقُ الدِّينِ أهَمَّ؛ خَصَّه بالذِّكرِ، فقال: ﴿وَتَصُدُّونَ﴾، أي: تُوقِعونَ الصَّدَّ- على سبيلِ الاستمرارِ- ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾[1].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ أخَّرَ النَّهيَ عن الصَّدِّ عن سبيلِ اللهِ، بعد جُملةِ ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ولم يجعَلْه في نَسَقِ الأوامِرِ والنَّواهِي الماضيةِ، ثم يُعقِبْه بِقَولِه: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ﴾؛ لأنَّه رَتَّبَ الكلامَ على الابتداءِ بالدَّعوةِ إلى التَّوحيدِ، ثمَّ إلى الأعمالِ الصَّالحةِ؛ لِمُناسَبةِ أنَّ الجَميعَ فيه صلاحُ المُخاطبينَ، فأعقَبَها ببيانِ أنَّها خَيرٌ لهم، إن كانوا مُؤمنينَ، فأعاد تَنبيهَهم إلى الإيمانِ، وإلى أنَّه شَرْطٌ في صلاحِ الأعمالِ، وبمُناسبةِ ذِكرِ الإيمانِ عاد إلى النَّهيِ عن صَدِّ الرَّاغبينَ فيه[2].

٨- جاء النَّهيُ الواردُ في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ من قِبَل شُعَيبٍ عليه السَّلامُ عَقِبَ النَّهيِ عَن قَطعِهم الطُّرُقَ على مَن يَغشى مَجلِسَه عليه السَّلامُ، ويَسمَعُ دَعوَتَه (على أحدِ الأقوالِ في التفسيرِ)، فقيل: ذلك لا لأنَّ اقترافَه دون اقترافِ التَّطفيفِ في الكَيلِ والميزانِ، وبَخْسِ الحُقوقِ؛ بل لأنَّه مُتأخِّرٌ عنها في الزَّمَنِ، فالدَّعوةُ قد وُجِّهَتْ أوَّلًا إلى أقرَبِ النَّاسِ إليه في بَلَدِه، ثمَّ إلى الأقرَبِ فالأقرَبِ منهم، وممَّن يزورُ أرضَهم، وقد كان الأقرَبونَ دارًا هم الأبعَدينَ استجابةً له في الأكثَرِ، وتلك سُنَّةُ اللهِ في الخَلقِ، فلمَّا رَأَوا غَيرَهم يَقبَلُ دَعوَتَه ويَعقِلُها ويَهتَدي بها؛ شَرَعُوا يَصُدُّونَ النَّاسَ عنه[3].

٩- حاصِلُ ما أمَرَ به شُعَيبٌ عليه السَّلامُ قَومَه، بعد الأمرِ بالتَّوحيدِ؛ ينحَصِرُ في

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٧٤).

ثلاثةِ أُصُولٍ: هي حِفظُ حُقوقِ المعاملةِ الماليَّةِ، وحِفظُ نظامِ الأمَّةِ ومَصالِحِها، وحِفظُ حُقوقِ حُرِّيَّةِ الاستهداءِ.

فالأصلُ الأوَّلُ يُؤخَذُ مِن قَولِه تعالى: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾، فإيفاءُ الكَيلِ والميزانِ يَرجِعُ إلى حِفظِ حُقوقِ المُشتَرِينَ، وأمَّا النَّهيُ عن بَخْسِ النَّاسِ أشياءَهم فيرجِعُ إلى حِفظِ حُقوقِ البائِعِ.

والأصلُ الثَّاني يُؤخَذُ مِن قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾.

والأصلُ الثَّالثُ يُؤخَذُ مِن قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ...﴾[1].

١٠- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ لَمَّا كانت أفعالُهم نَقْصَ النَّاسِ؛ إمَّا في الأموالِ بالبَخسِ، وإمَّا في الإيمانِ والنُّصرةِ بالصَّدِّ- ذَكَّرَهم أنَّ اللهَ تعالى فعَلَ معهم ضِدَّ ذلك مِنَ التَّكثيرِ بعد القِلَّةِ، فقال: ﴿فكَثَّرَكُم﴾ أي: كثَّرَ عَدَدَكم وأموالَكم، وكُلَّ شَيءٍ يُنسَبُ إليكم، فلا تُقابِلوا النِّعمةَ بِضِدِّها[2].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ مِن حِكَمِ تَذكيرِهم بهذه النِّعمةِ أنْ يُقابِلُوها باعتبارِ نِقمَتِه تعالى مِنَ الَّذينَ غَضِبَ عليهم؛ إذ استأصَلَهم بعد أن كانوا كثيرًا، فذلك مِن تَمايُزِ الأشياءِ بأضدادِها؛ فلذلك أعقَبَه بِقَولِه: ﴿وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾[3].

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ بَنَى ﴿أُرْسِلْتُ﴾ للمَفعولِ؛ إشارةً إلى أنَّ الفاعِلَ معروفٌ بما تقَدَّمَ مِنَ السِّياقِ، وأنَّه صار بحيث لا يتطَرَّقُ إليه شَكٌّ؛ لِمَا نَصَبَ مِنَ الدَّلالاتِ[4].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٤٣-٢٤٦).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٦٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٤٩).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٦٣).

١٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ إنَّما قال: ﴿خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ لأنَّه قد يُسمَّى بعضُ الأشخاصِ حاكِمًا، ولكن الحاكِم في الحقيقةِ هو اللهُ تعالى[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

- قوله: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ استِئنافٌ مبنيٌّ على سُؤالٍ نَشأَ عن حِكايةِ إرسالِه إليهم، كأنَّه قيل: فماذا قال لهم؟ فقيل: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾[2].

- قوله: ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ مُتعلِّق بـ﴿جَاءَتْكُمْ﴾، أو بمحذوفٍ هو صفةٌ لفاعِله، مُؤكِّدةٌ لفخامتِه الذاتيَّةِ المستفادَةِ مِن تنكيرِه بفخامتِه الإضافيةِ، أي: بيِّنةٌ عظيمةٌ ظاهرةٌ، كائنةٌ من ربِّكم ومالكِ أُمورِكم[3].

- قولُه: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ إنَّما خصَّ هذَينِ التَّحيُّلينِ بالأمرِ والنَّهي المذكورين؛ لأنَّهما كانا شائعَينِ عند مَدْيَن، ولأنَّ التحيُّلاتِ في المعاملةِ الماليةِ تَنحصِرُ فيهما، وعلى هذا فالنَّهيُ في قوله: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أفادَ معنًى غيرَ الذي أفادَه الأمرُ في قولِه: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾، وليس ذلك النهيُ جاريًا مجرَى العِلَّةِ للأمرِ، أو التأكيدِ لمضمونِه- كما فَسَّر به بعضُ المفسِّرين[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٩٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٤٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٤٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٤٤).

- والتَّنكيرُ في قولِه: ﴿خَيْرٌ﴾ للتعظيمِ والكمالِ؛ لأنَّه جامعٌ خَيرَيِ الدُّنيا والآخِرة[1].

٢- قوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾

- قوله: ﴿تُوعِدُونَ﴾ فيه حَذفُ المُوعَدِ به؛ لتذهَبَ النَّفْسُ فيه كُلَّ مَذْهَبٍ مِنَ الشَّرِّ[2].

- و(كُل) في قوله: ﴿بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ للعُمومِ، وهو عمومٌ عُرْفي، أي: كلِّ صِراطٍ مُبلِّغٍ إلى القريةِ، أو إلى منزلِ شُعَيبٍ عليه السَّلامُ[3].

- وقوله: ﴿وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ فيه التعبيرُ عن الإيمانِ بالفِعلِ الماضي في قَولِه: ﴿مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ عِوضًا عَنِ المُضارعِ- حيث المرادُ بمَن آمَنَ: قاصِدُ الإيمانِ-؛ لتَحقيقِ عَزمِ القاصِدِ على الإيمانِ، فهو لولا أنَّهم يَصُدُّونَه، لكان قد آمَنَ[4].

- قوله: ﴿وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ فيه تهديدٌ لهم، وتذكيرٌ بعاقِبَةِ مَن أَفْسدَ قَبْلَهم، وتمثيلٌ لهم بمَنْ حلَّ به العذابُ مِن قومِ نوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولوطٍ، وكانوا قريبي عهدٍ بما أجاب المُؤتَفِكةَ[5].

٣- قوله: ﴿فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٤٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٠٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٤٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٢٤٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٠٩).

- قوله: ﴿فَاصْبِرُوا﴾ أَمْرٌ فيه قوةُ التَّهديدِ والوعيدِ للكافِرين بانتقامِ الله تَعالَى منهم[1].

- وقوله: ﴿وَهُو خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ تذييلٌ بالثَّناءِ على اللهِ تعالى بأنَّ حُكمَه عَدْلٌ محضٌ، لا يَحتمِل الظُّلمَ عمدًا ولا خطأً[2].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٥١).

الآيات (٨٨-٩٣)

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩) وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ (٩٣)﴾.

غَريبُ الكلمات:

﴿مِلَّتِنَا﴾: أي: دِينِنا، وطريقتِنا، والمِلَّةُ مُشتقَّةٌ من (أَمْلَلْتُ)؛ لأنَّها تُبنَى على مَسموعٍ ومَتْلُوٍّ، وإذا أُريدَ الدِّينُ باعتبارِ الدُّعاء إليه قيل: (مِلَّة)، وإذا أُريدَ باعتبارِ الطَّاعةِ والانقيادِ له قيل: (دِين)[1].

﴿افْتَرَيْنَا﴾: أي: اخْتَلَقْنَا، وكَذَبْنا؛ والافتراءُ الاختلاقُ، ومنه قِيل: افترَى فلانٌ على فلانٍ، إذا قذَفَه بما ليسَ فيه، وأصلُ (فري) قَطْعُ الشَّيءِ؛ فالفَرْيُ: قطعُه لإصلاحِه، والإفراءُ: قطعُه للإفسادِ، والافتِراءُ فيهما، وفي الإفسادِ أكثرُ[2].

﴿تَوَكَّلْنَا﴾: التوكُّل هو تَفويضُ الأمرِ إلى مَن يُتوكَّلُ عليه، والاعتمادُ عليه،

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٧٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٣، ٧٧٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٤٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١، ١٢٨، ٢٨٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٢، ٤٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٤- ٦٣٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٤).

والثِّقةُ بِه، وأَصْلُ (وكل): يدُلُّ على اعتمادِ غَيرِكَ في أمْرِكَ(١).

﴿افْتَحْ﴾: أي: اقْضِ، أو احْكُمْ بَيْننا، وأَصْلُ الفَتْحِ: إزالةُ الإغلاقِ والإشكالِ(٢).

﴿لَمْ يَغْنَوْا﴾: أي: لَمْ يَعيشوا، أو لَمْ يَنزِلوا، وغَنِيَ القومُ في دارِهِمْ: أقاموا، كأنَّهم استغنَوْا بها، وأَصْلُ (غني): يدُلُّ على الكِفايةِ، والاسْتغناءِ عن الغَيرِ(٣).

﴿آسَى﴾: أي: أحْزَنُ، يُقَالُ: أَسِيتُ على الشَّيءِ آسَى أَسًى، أي: حَزِنْتُ عليه، وأصْلُ (أسي): الحزنُ(٤).

المعنى الإجماليُّ:

قال الرُّؤساءُ المُتكبِّرونُ من قوم شُعَيْبٍ: لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ، ومَنْ آمَنَ معك من قريتِنا، أو لَتَرْجِعُنَّ إلى دِينِنا، قال لهم شعيبٌ مُنْكِرًا عليهم: أَتُعيدوننا إلى دِينِكم حتَّى لو كُنَّا كارهينَ له؟! قدِ افْتَرَيْنا على اللهِ كَذِبًا إنْ رجَعْنا إلى دِينِكم بعَدْ أنْ نجَّانا اللهُ منه، وما يكون لنا الرُّجوعُ إليه إلَّا أنْ يشاءَ ربُّنا، وَسِعَ ربُّنا كُلَّ شيءٍ عِلْمًا، على الله اعتمَدْنَا في جميعِ أُمورِنا، ثم دعا ربَّه قائلًا: ربَّنا احْكُمْ بَيْننا وبين قومِنَا بحُكْمِكَ، وانصُرْنا عليهم، وأنتَ خَيْرُ الحاكمينَ.

وقال الرُّؤَساءُ الَّذين كَفَروا من قومِ شعيبٍ لِمَنْ هم دونَهم: لَئِنِ اتَّبعتُم شعيبًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٣٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٤)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٧).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٥).

إنَّكم إذًا لخاسِرونَ.

فأخَذَتِ الكفَّارَ من قوم شعيبٍ زلزلةٌ شديدةٌ، فصاروا في بَلْدَتِهم صَرْعَى مُنكبِّينَ على وُجوهِهم، لاصقينَ بالأرضِ على رُكَبِهِمْ، خامدينَ لا حياةَ فيهم.

الَّذين كذَّبوا شعيبًا قد هَلَكوا، وكأنَّهم لم يُقيموا قَطُّ في بلدِهم، ولم يَتمتَّعوا فيها، الَّذين كذَّبوا شعيبًا كانوا هُمُ الخاسرينَ.

فانصَرَفَ عنهم شعيبٌ، وقال: يا قومِ لقدْ أَبلغْتُكم ما أُرْسِلْتُ به من ربِّي، ونصَحْتُ لكم؛ فكيف يَشتدُّ حُزْني على قومٍ كافرينَ؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾.

أي: قال الأشرافُ والرُّؤساءُ الذين تكبَّروا عن الإيمانِ بشعيبٍ عليه السلامُ واتِّباعِه من قومِه: واللهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يا شعيبُ ومَنْ آمَنَ معك من مدينتِنا، أو لَتَرْجِعَنَّ أنتَ وهُمْ إلى دِينِنا[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٩٤، ٥٩٨).
في معنى قوله: ﴿لَتَعُودُنَّ﴾ إشكالٌ أُجيبَ عنه بعِدَّةِ أجوبةٍ واحتمالاتٍ ذكَرها كثيرٌ مِنَ المفسِّرينَ.
قال الشنقيطي: (وفي هذه الآيةِ الكريمةِ سؤالٌ معروفٌ مشهورٌ؛ لأن ظاهرَ القرآنِ هنا أن شعيبًا قد دَخَلَ في ملتهم سابقًا يومًا؛ لأنَّ قولَهم مخاطبونَ له: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ وقول شعيبٍ مُجيبًا لهم: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ يدلُّ بظاهرِه على أنه قد كان فيها سابقًا يومًا ما. وأكثرُ العلماءِ يقولونَ: إن الأنبياءَ- صلواتُ اللهِ وسلامُه =

= عليهم- معادنُ وَحْيٍ، ومحلُّ الخيرِ، واللهُ يقول: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. فلا يكفرونَ بالله؛ لأنَّ فِطْرَتَهم التي وُلدوا عليها لا يُبَدِّلُها اللَّهُ بالكفرِ لمكانتِهم عندَه، فبعضُ العلماءِ يقولُ: لو فَرَضْنا أنهم وقعَ منهم بعضُ الشركِ وأنابوا إلى اللَّهِ، [فإنهم يصيرونَ إلى مثلِ حالِهم] قبْلَه وصارَ كأنه لم يَكُنْ. وأكثرُ الأصوليين وعلماءِ التفسيرِ أن شعيبًا لم يكنْ كافرًا يومًا ما. ويجابُ عن ظاهرِ الآيةِ بجوابينِ:

أحدُهما: أن العربَ تطلقُ لفظةَ (عَادَ) إطلاقين:

أحدُهما: عَادَ إلى أمرٍ كان فيه سَابقًا.

والثاني: تقولُ العربُ: عَادَ كذا كذا. بمعنَى: صار إلى كذا من جَدِيدٍ.

الوجهُ الثاني: وبه قال غيرُ واحدٍ: أن نَبِيَّ اللَّهِ شُعَيْبًا كان معه جماعةٌ من قومِه آمنوا به، فالذين آمنوا به من قومِه كانوا كُفَّارًا على ملةِ قومِهم، وهم عددٌ كثيرٌ، وهو رجلٌ واحدٌ [فعُبِّرَ] باسمِ العددِ الكثيرِ، وَغَلَّبُوهُ على ذلك الواحدِ، والتزمَ معهم شعيبٌ في هذا الخطابِ تَغْلِيبًا لقومِه الأكثرين. وظاهرُ كلامِ ابنِ جريرٍ- رحمه الله- في تفسيرِ هذه الآيةِ الكريمةِ من سورةِ الأعرافِ ذَاهِبًا أن شعيبًا كان معهم- سابقًا- على مِلَّتِهم، وكذلك قال صَرِيحًا عن إبراهيمَ في قولِه: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦]. ونحنُ نقولُ: إن قولَه في الخليلِ إبراهيمَ غَلَطٌ مَحْضٌ، لا شَكَّ فيه؛ لأن الآياتِ القرآنيةَ صَرَّحَتْ بأن إبراهيمَ لم يكن من المشركين، فنفيُ هذا عن إبراهيمَ صريحٌ، ونفيُه عن شعيبٍ لم يَقُمْ دليلٌ عليه في الصراحةِ كإبراهيمَ). ((العذب النمير)) (٣/ ٥٩٥) بتصرف.

وقال الثعالبي: (للعربِ فعلٌ لا يقولُه غيرُهم. تقولُ: عاد فلانٌ شيخًا. وهو لم يكنْ قطُّ شيخًا، و: عادَ الماءُ آجنًا. وهو لم يكنْ كذلك. قال الهذليُّ:

أطَعتُ العِرْسَ في الشَّهواتِ حتَّى ... أعادَتْني أَسِيفًا عَبْدَ عَبْدِ.

وهو لم يكنْ قبلُ أسيفًا حتى يعودَ إلى تلك الحالِ، وفي كتاب الله عزَّ وجلَّ: ﴿يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ وهم لم يكونوا في نورٍ مِن قبلُ، ومثله قولُه تعالى: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ وهم لم يبلُغوا أرذلَ العمرِ فيُرَدُّوا إليه). ((فقه اللغة وسر العربية)) (ص: ٢٦٨).

ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٢٣١)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢١٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٢٨)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٣٨)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣١٦)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦-٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٩٦-٥٩٧).

وذهب ابنُ تيميَّةَ إلى أنَّ الآيةَ على ظاهرِها ولا إشكالَ فيها، فقال: (ظاهرُهُ دليلٌ على أنَّ شعيبًا والَّذين آمنوا معه كانوا على مِلَّةِ قومِهم؛ لقولِهم: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾، ولقولِ شعيبٍ: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ * قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٨-٨٩]، =

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [إبراهيم: ١٣].

﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾.

أي: قال شعيبٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لقومِهِ مُنْكِرًا عليهم: أَتُجبرونَنا على العَوْدةِ إلى مِلَّتِكم قَهْرًا، وإنْ كنَّا كارهينَ لها؛ لعِلْمِنا ببُطْلانِها[1]؟!

﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩)﴾.

﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾.

= فدَلَّ على أنَّهم كانوا فيها، ولقولِهِ: ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾، فدَلَّ على أنَّ اللهَ أنجاهم منها بعد التَّلوُّثِ بها، ولقولِهِ: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾، ولا يجوز أنْ يكونَ الضَّميرُ عائدًا على قومِهِ؛ لأنَّه صرَّحَ فيه بقولِهِ: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ﴾، ولأنَّه هو المُحاوِرُ له بقولِهِ: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ إلى آخِرِها، وهذا يجبُ أنْ يدخُلَ فيه المتكلِّمُ، ومِثْلُ هذا في سورةِ إبراهيمَ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [إبراهيم: ١٣]. ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٢٩).

وقال أيضًا: (التَّحقيقُ أنَّ اللهَ سبحانَه إنَّما يصطفي لرسالتِهِ مَنْ كان خِيارَ قومِهِ حتَّى في النَّسبِ كما في حديثِ هِرَقْلَ، ومَنْ نشأ بين قومٍ مشركين جُهَّالٍ لم يكنْ عليه نَقْصٌ إذا كان على مِثْلِ دِينِهم إذا كان معروفًا بالصِّدْقِ والأمانةِ وفِعْلِ ما يَعرِفون وجوبَهُ وتَرْكِ ما يعرفون قُبْحَهُ، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، فلَمْ يكنْ هؤلاءِ مُستوجِبينَ العذابَ، وليس في هذا ما يُنَفِّرُ عَنِ القَبولِ منهم؛ ولهذا لم يذكُرْهُ أحدٌ مِنَ المشركين قادحًا، وقد اتَّفقوا على جوازِ بَعْثَةِ رسولٍ لا يَعرِفُ ما جاءَتْ به الرُّسلُ قَبْلَهُ مِنَ النُّبوَّةِ والشَّرائعِ، وأنَّ مَنْ لم يُقِرَّ بذلك بَعْدَ الرِّسالةِ فهو كافرٌ). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٣٠). ويُنظر: ((تفسير آيات أشكلت)) لابن تيمية (١/ ١٦٠ – ٢٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٩٨).

أي: قال شعيبٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لقومِهِ الكافرينَ: قدِ اخْتَلَقْنا على اللهِ كَذِبًا إنْ نحن رجَعْنا إلى دِينِكم، الَّذي هو الكفرُ والشِّركُ، بعْدَ أنْ أنقَذَنا اللهُ منه، فَصِرْنا مؤمنينَ باللهِ، لا نُشرِكُ به شيئًا(١).

﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾.

أي: وما يصِحُّ لنا ولا ينبغي أبدًا أنْ نَرجِعَ إلى مِلَّتِكُمُ الباطلةِ، ونترُكَ دِينَ الحقِّ الَّذي هَدانا اللهُ إليه، إلَّا أنْ يكونَ قدْ سبَقَ في عِلْمِ اللهِ تعالى أنَّا نَعودُ إليها، فتمْضِي فِينَا حِينَئِذٍ مشيئةُ اللَّهِ، التابعةُ لعلمِه وحكمتِه؛ إذْ لا مَفَرَّ عمَّا شاءَ وقدَّرَ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ [الإنسان: ٣٠-٣١].

﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾.

أي: وَسِعَ عِلْمُ اللهِ كُلَّ شيءٍ، فلا يَخْفى عليه ما كان، ولا ما سيَكونُ(٣).

كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٩٩- ٦٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٥٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦٠٠).
وممَّنْ قال بنحوِ التَّفسيرِ المذكورِ مِنَ السَّلَفِ: السُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٥/ ١٥٢٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦٠٠).

أي: على اللهِ وَحْدَهُ نَعتمِدُ في جميعِ أُمورِنا(١).

كما قال تعالى حاكيًا قَوْلَ شعيبٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾.

أي: يا ربَّنا، احْكُمْ بَيْننا وبَيْنَ قومِنا الكفَّارِ بحُكْمِكَ الحقِّ، وانصُرْنا عليهم(٢).

﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾.

أي: وأنتَ- يا أللهُ- خيرُ الحاكمينَ؛ فحُكْمُكَ بين عبادِكَ عَدْلٌ، لا ظُلْمَ فيه أبدًا(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦٠٦).

قال الزَّجَّاجُ: (أي: أَظهِرْ أمْرَنا؛ حتَّى يَنفتِحَ ما بيننا وبين قومِنا ويَنكشِفَ، فجائزٌ أنْ يكونَ يَسألونَ بهذا أنْ يَنْزِلَ بقومِهم مِنَ العذابِ والهَلَكَةِ ما يَظهَرُ به أنَّ الحقَّ معهم). ((معاني القرآن)) (٢/ ٣٥٨).

وقال السعديُّ: (فسَألوا اللهَ أنْ يَفتَحَ بينهم وبين قومِهم بالحقِّ والعَدْلِ، وأنْ يُرِيَهُمْ من آياتِهِ وعِبَرِهِ ما يكون فاصلًا بين الفريقين). ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦٠٦).

قال السَّعديُّ: (وفَتْحُهُ تعالى لِعبادِهِ نوعانِ: فَتْحُ العِلْمِ، بتبيينِ الحقِّ مِنَ الباطلِ، والهُدى مِنَ الضَّلالِ، ومَنْ هو مِنَ المُستقيمينَ على الصِّراطِ ممَّنْ هو مُنحرِفٌ عنه. والنَّوعُ الثَّاني: فَتْحُه بالجَزاءِ وإيقاعِ العقوبةِ على الظَّالمينَ، والنَّجاةِ والإكرامِ للصَّالحينَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٧).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦].

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا يَئِسَ الملأُ مِن قومِ شعيبٍ- عليه السَّلامُ- مِن عَوْدتِهِ في مِلَّتِهم، وعَلِموا أنَّه ثابتٌ على مُقارَعَتِهم، خافوا أنْ يَكْثُرَ المُهتَدونَ به من قومِهم، فحذَّروهم ذلك بما حَكاهُ اللهُ تعالى عنهم في قولِهِ[1]:

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

أي: قال الأشرافُ والرُّؤَساءُ الكَفَرةُ من قومِ شعيبٍ عليه السَّلامُ؛ تحذيرًا لِمَنْ دونَهم مِنَ النَّاسِ مِنِ اتِّباعِهِ[2]: واللهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُم شعيبًا؛ فترَكْتُم دِينَكم وآمَنْتُم بما يَدعوكُم إليه، لَهَلَكْتُم وَشَقيتُم، وخَسِرْتُم مصالِحَكُمُ الدُّنيوِيَّةَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ١٠).

(٢) اختار أنَّ خطابَ المِلأ الذين كفروا موجَّهٌ إلى آخرينَ منهم مِن أتباعِهم: ابنُ جريرٍ في ((تفسيره)) (١٠/ ٣٢١)، وابن عطية في ((تفسيره)) (٢/ ٤٢٩)، والقرطبي في ((تفسيره)) (٧/ ٢٥١)، والشنقيطي في ((العذب النمير)) (٣/ ٦٠٧)، وابن عاشور في ((تفسيره)) (٩/ ١٣).

قال ابن عاشور: (والمخاطَبُ في قولِه: ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا﴾ هم الحاضرونَ حينَ الخطابِ لدَى الملإِ، فحُكِي كلامُ الملإِ كما صَدَر منهم، والسِّياقُ يُفَسِّرُ المعنيِّينَ بالخِطابِ، أعني عامَّةَ قومِ شعيبٍ الباقينَ على الكفرِ).

وظاهرُ قولِ الرازي في ((تفسيره)) (١٤/ ٣١٩) والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ٢٩٦) أنَّ خطاب الكفَّار هنا للمؤمنين بشعيبٍ عليه السَّلام.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٢٢)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢١٥)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦٠٧).

قال الشِّنقيطيُّ: (ومعنى خُسْرانِهم: يَزعُمونَ أنَّهم عِندَ ذلك يَشْتَرونَ الضَّلالةَ بالهُدى، زاعمينَ أنَّ الهُدى هو الكُفْرُ الَّذي كانوا عليه، وأنَّ اتِّباعَ نبيِّ اللهِ ضلالٌ، ومن خُسْرانِهم المزعومِ: أنَّهم كانوا يَنتفِعونَ بأموالِ النَّاسِ إذا أضلُّوهم وبَخَسوهُم أشياءَهم، وطفَّفوا لهم المِكيالَ والميزانَ، =

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾.

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾.

أي: فأَخَذَتْ[1] أولئكَ الكفَّارَ الزلزلةُ الشَّديدةُ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [هود: ٩٤].

وقال سُبحانَه: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩].

﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾.

أي: فصارَ الكفَّارُ في بَلَدِهم لاصقينَ بالأرضِ على رُكَبِهم، ومُنكبِّينَ على وُجوهِهم صَرْعى، خامِدينَ لا حياةَ فيهم[3].

= ونبيُّ اللهِ شعيبٌ يُضيِّقُ عليهم هذه المصالحَ الدُّنيويَّةَ، فيَخسَرونَ ما كانوا يأخُذونَه من أموالِ النَّاسِ ظُلمًا). ((العذب النمير)) (٣/ ٦٠٧- ٦٠٨).

(١) جعَلَ ابنُ عاشورٍ الفاءَ في قولِه سُبحانَه: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾ للتَّعقيبِ، فقال: (والفاءُ في: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ للتَّعقيبِ، أي: كان أخْذُ الرَّجفةِ إيَّاهم عَقِبَ قولِهم لقومِهم ما قالوا). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٣).
وجعَلَها الشِّنقيطيُّ للسَّببيَّةِ، فقال: (﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ أي: بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وإلحادِهم). ((العذب النمير)) (٣/ ٦٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦٠٨).
قال ابنُ كثيرٍ: (أصابَهم عذابُ يومِ الظُّلَّةِ، وهي سحابةٌ أظلَّتْهم، فيها شَرَرٌ من نارٍ ولَهَبٍ، ووَهَجٍ عظيمٍ، ثمَّ جاءَتْهم صيحةٌ مِنَ السَّماءِ، ورَجْفَةٌ مِنَ الأرضِ شديدةٌ من أسفلَ منهم). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٩). ويُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢٧- ٢٢٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٣٣).

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٢)﴾.

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾.

أي: الَّذين كذَّبوا شعيبًا عليه السَّلامُ قد هَلَكوا، وكأنَّهم لم يُقيموا قَطُّ في بَلَدِهم، ولم يَتمتَّعوا فيها(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٩٤-٩٥].

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾.

أي: لم يكُنِ الخاسِرُ مَنِ اتَّبَعَ شعيبًا عليه السَّلامُ، بل الَّذين كذَّبوه كانوا هُمُ الخاسرينَ الهالِكينَ؛ لأنَّهم خَسِروا دِينَهم وأنفُسَهم وأهْليهم يومَ القيامةِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ (٩٣)﴾.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾.

أي: فانْصَرَفَ شعيبٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عن قومِهِ بعْدَ حُلولِ العذابِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٢٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦١٢- ٦١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦١٥).

بهم(١)، وقال مُخاطِبًا لهم توبيخًا وعِتابًا(٢): لقدْ أَدَّيْتُ إليكم- يا قومي- جميعَ ما أَمَرني اللهُ تعالى بأدائِه إليكم(٣).

﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾.

أي: وأردْتُ لَكُمُ الْخَيْرَ في الدُّنيا والآخِرةِ، واجتهدْتُ في هِدايتِكم؛ فأَمَرْتُكم بما فيه خيرٌ لكم، ونَهَيْتُكُمْ عمَّا فيه شَرٌّ لكم، فلم تَقبَلوا نُصْحي، ولا انْقَدْتُم لإرشادي، بل طَغَيْتُم وتمَرَّدْتُم حتَّى أَهْلَكَكُمُ اللهُ(٤).

﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾.

أي: فكيف يَشتدُّ حُزني على قومٍ كَفَروا باللهِ عزَّ وجلَّ، وكذَّبوا رسولَهُ؟! فهُمْ لا خيرَ فيهم(٥).

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- أمْرُ الدِّينِ هو الأعظمُ عِند المؤمنِ، والمُؤثِّرُ في أمْرِ الدُّنيا؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ

---

(١) اختار أنَّ مُخاطَبتَهم كانت بعْدَ هلاكِهم وموتِهم: ابنُ كثيرٍ، والسعديُّ، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٥).
واختار أنَّ مُخاطَبتَهم كانت قَبْلَ هلاكِهم وموتِهم: ابنُ جريرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٢٦). ويُنظر ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦٢٠-٦٢١).

(٢) اختارَه ابنُ كثيرٍ في ((تفسيره)) (٣/ ٤٤٩)، والسعديُّ في ((تفسيره)) (ص: ٢٩٧).
وقيل: خاطَبَهم بذلك حزنًا، وحَسرةً وشفقةً عليهم، وهذا اختيارُ ابنِ جريرٍ، وابنِ عطيَّةَ، وابن عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦٢٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٢٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٥٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٧).

اللهِ تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ * قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ﴾؛ فشعيبٌ عليه السَّلامُ لم يُؤْثِرْ هو ومَنْ آمَنَ معه التَّمتُّعَ بالإقامةِ في وطَنِهم، ومُجاراةَ أَهْليهم في كُفرِهم ورَذائلِهم على مَرْضاةِ اللهِ تعالى[1].

٢- لم تَزَلِ الأنبياءُ والأكابرُ يخافونَ العاقبةَ، وانقلابَ الأمْرِ، فلو بلَغَ العبْدُ مِنَ الطَّاعةِ ما بلَغَ فلا ينبغي له أنْ يُفارِقَه هذا الحَذَرُ؛ يُرشِدُ إلى ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾[2].

٣- قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾، افْتَرَقَ طريقُ شعيبٍ عليه السَّلامُ- بعْدَ أنْ كان أخاهم- عن طريقِهم، فافترَق مَصيرُه عن مَصيرِهم، حتَّى لم يَعُدْ يَأْسَى على مَصيرِهم الأليمِ، وعلى ضَيْعَتِهم في الغابِرينَ: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾؛ إنَّه من مِلَّةٍ وهُمْ من مِلَّةٍ؛ فهو أُمَّةٌ وهم أُمَّةٌ، أمَّا صِلةُ الأنسابِ والأقوامِ فلا اعْتِبارَ لها في هذا الدِّينِ، ولا وزْنَ لها في ميزانِ اللهِ؛ فالوَشيجَةُ الباقيةُ هي وشيجةُ هذا الدِّينِ، والارتباطُ بين النَّاسِ إنَّما يكون في حَبْلِ اللهِ المتينِ[3].

٤- قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾، هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّ قومَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١١٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٤-٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣١٧).
(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٣٢٢).

الرَّجلِ إذا كانوا أعداءً للهِ، فأهلَكَهم اللهُ بذُنوبِهم، فلا ينبغي له أنْ يحزَنَ عليهم؛ لأنَّهم ليسوا أهلًا للحُزْنِ عليهم؛ لِعَداوتِهم للهِ ورسلِهِ(١).

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ التعبيرُ بصِيغةِ (استفعل) التي تدلُّ على الطَّلبِ ﴿اسْتَكْبَرُوا﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّهم أوْجَدوا الكِبْرَ إيجادَ مَنْ هو طالبٌ له بغايةِ الرَّغبةِ(٢).

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ﴾، خِطابُهم شعيبًا عليه السَّلامُ بالنِّداءِ- من غيرِ استعطافٍ ولا إجلالٍ- جارٍ على طريقةِ خِطابِ الغَضَبِ(٣).

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾، فيه ما يدُلُّ على صُعوبةِ مُفارَقةِ الوَطَنِ؛ إذْ قَرَنوا ذلك بالعَوْدِ إلى الكُفْرِ(٤).

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾، عُدِّيَ (عاد) بـ(في) الظَّرفيَّةِ، كأنَّ المِلَّةَ لهم بمنزلةِ الوِعاءِ المُحيطِ بهم(٥).

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾، فيه ما يُبطِلُ تأويلَ القَدَريَّةِ (المشيئة) في مِثْلِ ذلك بمعنى (الأمْرِ)، ومعلومٌ أنَّه مِنَ المُمتنِعِ على اللهِ أنْ يأمُرَ بالدُّخولِ في مِلَّةِ الكُفْرِ والشِّرْكِ به، ولكنِ

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦٢٥).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١١٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٩/ ٢١٥).

اسْتَثْنَوْا بمشيئتِهِ الَّتي يُضِلُّ بها مَنْ يشاءُ، ويَهدي مَنْ يَشاءُ، فالله تعالى له في خلقِه علمٌ محيطٌ، ومشيئتُه نافذةٌ وراءَ ما يعلمُه الخلائقُ، فامتناعُهم مِن العودِ فيها هو مبلغُ علومِهم ومشيئتِهم، ولله علمٌ آخرُ، ومشيئةٌ أُخرى وراءَ علومِهم ومشيئتِهم[١].

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾، قولُه: ﴿وَسِعَ﴾ فِعْلٌ ماضٍ يدُلُّ على أنَّه تعالى كان عالِمًا في الأَزَلِ بجميعِ الأشياءِ مِنَ الكُلِّيَّاتِ والجزئيَّاتِ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ استِئنافٌ مَبْنِيٌّ على سؤالٍ يَنساقُ إليه المَقالُ، كأنَّه قيل: فماذا قالوا بعدَما سمِعوا هذه المواعظَ من شعيبٍ عليه السَّلامُ؟، فقيل: ﴿قَالَ المَلَأُ...﴾[٣].

- وفي قولِهِ: ﴿لَتَعُودُنَّ﴾ تغليبُ الجَمعِ على الواحدِ؛ إذْ منهم شعيبٌ، ولم يكُنْ في مِلَّتِهم حتَّى يعودَ إليها، وكذا قولُ شعيبٍ: ﴿إِنْ عُدْنا في مِلَّتِكُمْ بعدَ إِذْ نجَّانَا اللَّهُ منهَا﴾، وهو يُريدُ عَوْدَ قومِهِ، إلَّا أنَّه نَظَمَ نفسَهُ في جُملتِهم، وإنْ كان بريئًا من ذلك؛ إجراءً لكلامِهِ على حُكْمِ التَّغليبِ[٤]، هذا على أحدِ أوجهِ تأويلِ الآيةِ.

- وقولُه: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا﴾ فيه تَوْسيطُ النِّداءِ باسمِهِ العَلَميِّ بينَ المعطوفَيْنِ؛ لزيادةِ التَّقريرِ، والتَّهديدِ النَّاشِئِ عن غايةِ الوَقاحةِ والطُّغيانِ مِن قومِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٦٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٤٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٢٩-١٣٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٤٨).

٢- قولُه: ﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ استئنافٌ، وفُصِلَتْ جُمْلَةُ ﴿قَالَ...﴾: أي لم تُعطَفْ بالواوِ على الجُملةِ قبلها؛ لِوُقوعِها فِي سِيَاقِ الـمُحاوَرَةِ[1].

- والهمزةُ في ﴿أَوَلَوْ﴾ للاستفهامِ، وهو مُسْتَعْمَلٌ فِي التَّعَجُّبِ؛ لإنكارِ الوُقوعِ، ونَفْيِه[2].

٣- قولُه: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾

- قولُه: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ يَحتمِلُ أنْ يكونَ كلامًا مُستأنَفًا، فيه معنى التَّعجُّبِ، كأنَّهم قالوا: ما أَكْذَبَنا على اللهِ إنْ عُدْنَا في الكفرِ بعدَ الإسلامِ! ويَحتمِلُ أنْ يكونَ قَسَمًا على تَقديرِ حذْفِ اللَّامِ، بمعنى: واللهِ لقدِ افْتَرَيْنا على اللهِ كَذِبًا[3].

- وانتصابُ ﴿كَذِبًا﴾ على المفعوليَّةِ المُطْلَقَةِ؛ تأكيدًا لـ﴿افْتَرَيْنَا﴾ بما هو مُساوٍ له، أو أَعَمُّ منه[4].

- قوله: ﴿إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ﴾ شَرْطٌ، وجوابُه محذوفٌ دَلَّ عليه قولُه: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا﴾، وهو بمعنى المستقبَلِ؛ لأنَّه لم يقَعْ، لكنَّهُ جُعِلَ كالواقعِ؛ للمُبالَغَةِ، وأُدْخِلَ عليه (قَدْ)؛ لتقريبِهِ مِنَ الحالِ[5].

- وقولُه: ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ فيه إيجازُ حذْفٍ، أو كِنايةٌ؛ إذ المعنى: بعدَ إذْ هَدانا اللهُ للدِّينِ الحقِّ الَّذي اتَّبَعْناهُ بالوحيِ، فنجَّانا مِنَ الكفرِ، وذَكَر

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٣٠)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٥/ ١١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٤).

الإنجاءَ؛ لدَلالتِه على الإهداءِ، والإعلانِ بأنَّ مُفارَقةَ الكُفْرِ نَجاةٌ[١].

٤- قوله: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾

- قولُه: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ تقييدٌ مقصودٌ منه التَّأدُّبُ، وتفويضُ العِلْمِ بالمستقبلِ إلى اللهِ، والكِنايةُ عن سُؤالِ الدَّوامِ على الإيمانِ مِنَ اللهِ تعالى[٢].

- وفي الإتيانِ بوَصْفِ الرَّبِّ وإضافتُه إلى ضميرِ المتكلِّمِ المشارِكِ ﴿رَبُّنَا﴾: تَعريضٌ بأنَّ اللهَ مَوْلى الَّذين آمَنوا[٣].

- وقولُه: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ فيه إعادةُ وَصْفِ الرُّبوبيَّةِ، وهو مِن الإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ؛ لزيادةِ إظهارِ وَصْفِهِ بالرُّبوبيَّةِ المُلْتَمَسِ بذِكْرِها فِعْلُ ما يَفعَلُ المُرَبِّي الشَّفيقِ، وتأكيدِ التَّعريضِ المتقدِّمِ؛ حتَّى يَصيرَ كالتَّصريحِ[٤].

- وفي قولِه: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ تَقديمُ الجارِّ والمجرورِ على الفِعْلِ؛ لإفادةِ الاختِصاصِ، أي: عليه تَوكَّلْنا لا على غَيرِهِ؛ تحقيقًا لمعنى التَّوحيدِ، ونَبْذِ غيرِ اللهِ تعالَى[٥].

- وإظهارُ الاسمِ الجليلِ ﴿اللَّهِ﴾ في موقِعِ الإضمارِ، يُفيدُ المبالَغَةَ في التَّضرُّعِ والجُؤَارِ إلى اللهِ تعالى[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٠).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٥١).

- وقولُه: ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ تذييلٌ مُقرِّرٌ لمضمونِ ما قَبْلَهُ[١].

٥- قولُه: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾: ذِكْرُ الملأِ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لِطولِ الفَصْلِ بينَ المُتعاطِفَينِ، وإنَّما وَصَفَ الملأَ بالموصولِ وصِلَتِهِ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ دونَ أنْ يقول: (الكافِرون) فيَكتفيَ بحَرفِ التَّعريفِ المُقتضي أنَّ الملأَ الثَّانيَ هو الملأُ المذكورُ قَبْلَه؛ لِقَصْدِ زيادةِ ذَمِّ الملأِ بوَصْفِ الكُفْرِ، كما ذُمَّ فيما سبَق بوَصْفِ الاستكبارِ[٢].

- و(إذًا) في قولِه: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ تفيدُ التَّوكيدَ[٣].

٦- قولُه: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ فيه مناسبةٌ حسنةٌ، حيثُ قالَ هنا ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾، وقال في سورَةِ هُودٍ: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [هود: ٩٤] وقال تعالى إخبارًا عنهم في سورَةِ الشُّعَراءِ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشُّعراء: ١٨٩]؛ فالله تعالى أخبَر في هذه السُّورةِ هنا أنَّهم أخذَتْهم الرَّجْفَةُ، كما أرجَفوا شُعَيْبًا وأصْحابَه، وتَوَعَّدوهم بالجَلاءِ، والمناسَبَةُ في ذِكرِ الصيحة في سورة هود أنَّهم لَمَّا تَهكَّموا بنَبِيِّ اللَّهِ شُعَيْبٍ في قَوْلِهم: ﴿أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧] فجاءت الصَّيْحَةُ فأسْكَتَتْهم. وأما في سورَةِ الشُّعَراءِ فقال: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشُّعراء: ١٨٩] وما ذاك إلَّا لأنَّهم قالوا له في سِياقِ القِصَّةِ: ﴿فَأَسْقِطْ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٥/ ١١٥).

عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الشُّعراء: ١٨٧] فأخْبَر أنَّه أصابَهم عذابُ يومِ الظُّلَّةِ، وقد اجْتَمَع عليهم ذلك كلُّه(١).

- وقوله: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ فيه مناسبةٌ حسنةٌ، حيثُ قالَ هنا ﴿دَارِهِمْ﴾ بالإفرادِ مرَّتَيْنِ، وكذلك قال في العَنكبوتِ ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٧] مرَّةً واحدةً، بينما قال في سورة هود: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [هود: ٦٧-٩٤] مرَّتَيْنِ بالجَمْعِ؛ لأنَّ ما في المواضعِ الأُوَلِ تَقدَّمَهُ ذِكْرُ الرَّجفةِ، أي: الزَّلزلةِ، وهي تَختصُّ بجُزْءٍ مِنَ الأرضِ، فناسَبَها الإفرادُ، وما في الأخيرَيْنِ تقدَّمَهُ ذِكْرُ الصَّيْحةِ، وكانتْ مِنَ السَّماءِ، وهي زائدةٌ على الرَّجفةِ، فناسَبَها الجَمْعُ(٢).

٧- قولُه: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾

- قوله: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ استئنافٌ؛ لبيانِ ابتلائِهم بشُؤْمِ قَوْلِهم فيما سبَق(٣).

- والتَّعْريفُ بالموصوليَّةِ في قولِه: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا﴾؛ للإيماءِ إلى وَجْهِ بِناءِ الخَبَرِ، وهو أنَّ اضمِحلالَهم وانقِطاعَ دابِرِهم كان جزاءً لهم على تكذيبِهم شعيبًا(٤)

- وقولُه: ﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ فيه تشبيهُ حالِ اسْتِئصالِهم، وعَفاءِ آثارِهِمْ بحالِ مَنْ لم تَسبِقْ لهم حياةٌ، ولم يُقيموا في هذا المكانِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٨).
(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ١٩٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٥٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٣).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٤).

- وقولُه: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ استئنافٌ آخَرُ؛ لبيانِ ابتلائِهم بعُقوبةِ قَوْلِهم الأخيرِ، وإعادةُ الموصولِ والصِّلَةِ ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا﴾ كما هي؛ لزِيادةِ التَّقريرِ، والإيذانِ بأنَّ ما ذُكِرَ في حَيِّزِ الصِّلَةِ هو الَّذي استوجَبَ العقوبتَيْنِ[1]. وفي هذا الاستئنافِ والابتداءِ وهذا التَّكريرِ: مبالَغَةٌ في رَدِّ مَقالةِ الملأِ لأشياعِهم، وتَسْفيهٌ لرأيِهم، واستهزاءٌ بنُصْحِهم لقومِهم، واستعظامٌ لِمَا جَرى عليهم، وإيقاظُ السَّامِعينَ- وهُمْ مُشرِكو العربِ-؛ ليتقُّوا عاقبةَ أمثالِهم في الشِّرْكِ والتَّكذيبِ على طريقةِ التَّعريضِ، ولتعظيمِ المَذَلَّةِ لهم، وتفظيعِ ما يَستحِقُّونَ مِنَ الجزاءِ على جَهْلِهم؛ فالعربُ تُكَرِّرُ مِثْلَ هذا في التَّفخيمِ والتَّعظيمِ[2].

- وضميرُ الفَصْلِ (هُم) في قولِهِ: ﴿كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ يُفيدُ القَصْرَ، وهو قَصْرٌ إضافيٌّ،، أي: هُمُ المخصوصونَ بالخُسْرانِ العظيمِ دونَ أَتْباعِ شُعيبٍ عليه السَّلامُ؛ وذلك لإظهارِ سَفَهِ قولِ الملأِ للعامَّةِ: ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾؛ توقيفًا للمُعتبِرينَ بهم على تهافُتِ أقوالِهم، وسفاهةِ رأيِهم، وتحذيرًا لأمثالِهم مِنَ الوُقوعِ في ذلك الضَّلالِ[3].

٨- قولُه: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾

- قوله: ﴿يَا قَوْمِ﴾ نِداءٌ، الغرضُ منه التَّحَسُّرُ، والتَّبرُّؤُ مِن عَمَلِهم[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٣١)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٥).

- قولُه: ﴿فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ وخاطَبَ به نَفْسَه؛ إذْ خَطَرَ له خاطِرُ الحُزنِ عليهم، فدَفَعَهُ عن نفسِهِ بأنَّهم لا يَستحِقُّونَ أنْ يُؤْسَفَ عليهم؛ لأَنَّهُمُ اخْتاروا ذلك لأنْفُسِهم، ولأنَّه لم يترُكْ من تحذيرِهم ما لو أَلْقاهُ إليهم لَأَقْلَعوا عمَّا هم فيه، فلم يَبْقَ ما يُوجِبُ أَسَفَهُ ونَدامتَهُ. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ الاستفهامُ الإنكاريُّ موجَّهًا إلى نفسِهِ في الظَّاهِرِ، والمقصودُ نَهْيُ مَنْ معه مِنَ المؤمنينَ عَنِ الأَسَى على قومِهِمُ الهالكينَ؛ إذْ يجوزُ أنْ يحصُلَ في نُفوسِهم حُزنٌ على هَلْكَى قومِهم، وإنْ كانوا قدِ اسْتحقُّوا الهلاكَ[1].

- وقوله: ﴿عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ فيه إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ- حيْثُ لم يَقُلْ: (عليهم)-؛ لِيَتَأَتَّى وَصْفُهم بالكُفرِ زِيادةً في تعزيةِ شعيبٍ عليه السَّلامُ نَفْسَه، وتَرْكِ الحُزنِ عليهم[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٩٤-١٠٠)

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ
يَضَّرَّعُونَ ٩٤ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا
ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٩٥ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ
وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا
كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٩٦ أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ٩٧
أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ٩٨ أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ
ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩٩ أَوَلَمۡ يَهۡدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ
ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ أَن لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡۚ وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ
لَا يَسۡمَعُونَ ١٠٠ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿بِالْبَأْسَاءِ﴾: البأساءُ اسمٌ للبُؤسِ، وهو المكروهُ والضَّررُ والشِّدَّةُ وسُوءُ الحالِ، وقيل: البأساءُ الفَقْرُ والفاقةُ، وهو مِن البُؤسِ، وأصل (بأس): الشِّدَّةُ وما ضاهاها. وقيل: البأساءُ ضرَّاءُ مَعها خوفٌ، وأصلُها مِن البأسِ، وهو الخَوفُ؛ يُقال: لا بَأسَ عليكَ، أي: لا خوفَ عليك[1].

﴿وَالضَّرَّاءِ﴾: أي: المَرَضِ والضُّرِّ، والضَّرَّاءُ كذلك: سوءُ الحالِ، والفَقْرُ والقَحْطُ، والضُّرُّ: خِلافُ النَّفْعِ[2].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٠، ٨١)، ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨)، ((الفروق اللغوية)) للعسكري (ص: ١٩٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١/ ٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٦٠)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٥٠٣، ٥٠٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (١/ ١٠٢، ١٢٩).

﴿عَفَوْا﴾: أي: كَثُروا، وزَادوا، وأَصْلُ العَفْوِ: تَرْكُ الشَّيءِ[1].

﴿مَسَّ﴾: أي: أصابَ، والمسُّ يُقالُ في كلِّ ما يَنالُ الإنسانَ مِن أَذًى، وأَصْلُ (مسس): جَسُّ الشيءِ باليَدِ[2].

﴿وَالسَّرَّاءُ﴾: أي: السُّرورُ والفرَحُ ورخاءُ العَيْشِ، والسَّراءُ أيضًا لذَّةٌ في القلبِ عِند حُصولِ نفْعٍ أو توقُّعِه، أو عِند رؤيةِ أمْرٍ يُعجِبُ[3].

﴿بَغْتَةً﴾: أي: فجأةً، وكلُّ ما جاءَ فجأةً فقد بَغَتَ، يقال: قد بَغَتَه الأمرُ يَبْغَتُه بغْتًا وبَغتةً، إذَا أتاه فجأةً، والبغتُ: مفاجأةُ الشَّيءِ من حيثُ لا يُحتَسَب[4].

﴿أَهْلَ الْقُرَى﴾: أي: سُكَّانَها؛ وأهلُ الرَّجُلِ في الأَصلِ: مَنْ يَجمعُه وإيَّاهم مَسْكَنٌ واحدٌ، والقَرْيَةُ: اسْمٌ للمَوْضِعِ الَّذي يَجتمِعُ فيه النَّاسُ، ويُقالُ للمَدينَةِ: قَرْيَةٌ؛ لاجْتِماعِ النَّاسِ فيها، مِنْ: قَرَيْتُ الماءَ، إذا جَمَعْتَه[5].

﴿بَأْسُنَا﴾: أي: عذابُنا، وأَصْلُ (بأس): يدلُّ على الشِّدَّةِ وما شابهها[6].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٩٢)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٣٢)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٧٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨١، ١٢٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٠٨).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٢٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٢).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥١).

(٦) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٢).

﴿بَيَاتًا﴾: أي: ليلًا، أو وَقْتَ بَياتٍ، واشتِغالٍ بالنَّوْمِ، وأَصْلُ البَيْتِ: مَأْوى الإنسانِ باللَّيلِ؛ لأنَّه يُقالُ: باتَ، أي: أقامَ باللَّيلِ[1].

﴿ضُحًى﴾: الضُّحَى: أوَّلُ اليوم، أو انبِساطُ الشَّمسِ وامتِدادُ النَّهارِ، وسُمِّيَ الوقتُ به، وأَصْلُهُ يدُلُّ على بُروزِ الشَّيءِ[2].

﴿أَصَبْنَاهُمْ﴾: أي: أَهْلَكْناهم وأخَذْناهم[3].

﴿وَنَطْبَعُ﴾: أي: ونَختِمُ، والطَّبْعُ: تصويرُ الشَّيءِ بصورةٍ ما، وهو مَثَلٌ على نِهايةٍ يَنتهي إليها الشَّيءُ، حتَّى يُخْتَمَ عِندَها[4].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه ما أرسَلَ في قريةٍ من نبيٍّ من أنبيائِهِ، فكذَّبَهُ المُرْسَلُ إليهم، إلَّا أخَذَهم بالفَقْرِ والأمراضِ؛ كي يتضرَّعوا إليه، ويَدْعوه أنْ يَكشِفَ عنهم، فلمَّا لم يُفِدْ ذلك معهم باستمرارِهم في الطُّغيانِ، بدَّلَ اللهُ حالَهم السَّيِّئَ إلى حالٍ حَسَنٍ، فعافى أبدانَهم، وأَجْرى عليهم الأرزاقَ، حتَّى كَثُروا وكَثُرَتْ أموالُهم وأولادُهم، وقالوا: قدْ أصابَ آباءَنا الضَّرَّاءُ والسَّرَّاءُ. فأخَذَهم اللهُ فجأَةً، وَهُمْ لا يَشعُرونَ.

ثمَّ يُبيِّنُ تعالى أنَّ أهْلَ القُرى لو آمَنوا واتَّقَوْا لَفَتَحَ عليهم بركاتٍ مِن السَّماءِ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٩)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٥٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٣١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥١).

والأرضِ، ولكنَّهم لم يَفعَلوا ذلك، بل كذَّبوا، فعاقَبَهم تعالى بما كَسَبوا مِن كُفْرٍ، واقترَفوا من موبِقاتٍ؛ أَبَعْدَ ذلك يَأْمَنُ أهلُ القُرى أنْ يَحِلَّ عليهم عذابُ اللهِ الشَّديدُ ليلًا، وهُمْ نائمون؟! أو هل يأمَنونَ أنْ يأتيَهم العذابُ أوَّلَ النَّهارِ، وهم يَلعبَونَ؟! أفأمِنوا مَكْرَ اللهِ؟! فلا يأمَنُ مَكْرَهُ تعالى إلا القومُ الخاسِرونَ.

أوَلم يتبيَّنْ للَّذينَ يُستخلَفونَ في الأرضِ من بعْدِ هلاكِ أَهْلِها أنَّ اللهَ يَقْدِرُ إذا شاءَ أنْ يُهلِكَهم بسَبَبِ ذُنوبِهم، ويَخْتِمَ على قلوبِهم؛ فهم لا يَسمَعونَ؟!

تَفسيرُ الآيات:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾.

مناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لمَّا عرَّفَنا اللهُ تعالى أحوالَ هؤلاءِ الأنبياءِ، وأحوالَ ما جَرى على أُمَمِهم، كان مِنَ الجائزِ أنْ يُظَنَّ أنَّه تعالى ما أنزَلَ عذابَ الاستِئصالِ إلَّا في زَمَنِ هؤلاءِ الأنبياءِ فقط، فبيَّنَ في هذه الآيةِ أنَّ هذا الجِنْسَ مِنَ الهلاكِ قد فَعَلَه بغَيْرِهم، وبيَّنَ العِلَّةَ الَّتي بها يَفعَلُ ذلك(١)، فقال تعالى:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾.

أي: إذا أرسَلْنا إلى أهلِ مدينةٍ نبيًّا، يَدعوهم إلى توحيدِ اللهِ، فكذَّبوه؛ عاقَبْناهم بشِدَّةِ الفَقْرِ والأمراضِ(٢).

﴿ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٢٨)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦٢٦).

أي: ابْتَلَيْناهم بالبأساءِ في أموالِهم، والضَّرَّاءِ في أَبْدانِهم؛ كيْ يَدْعوا ربَّهم أنْ يَكشِفَ ما حلَّ بهم مِنَ العذابِ، ويَخشَعوا له، ويُنِيبوا إليه بتَرْكِ الكفرِ به، وتكذيبِ أنبيائِه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ * فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢-٤٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦].

﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ ﴾.

أي: فلمَّا لم يُجْدِ معهم ذلك، واستمرَّ طُغيانُهم، حوَّلنا حالَهم مِنَ الشِّدَّةِ إلى الرَّخاءِ، فعافَيْنا أَبْدانَهم وأَجْرَيْنا عليهم الأرزاقَ، حتَّى كثُروا، وكَثُرَتْ أموالُهم وأولادُهم[2].

كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

﴿وَقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ ﴾.

أي: لم يتضرَّعْ أَهْلُ تلك القُرى إلى اللهِ تعالى حِينَ الشِّدَّةِ، ولم يَشْكروا اللهَ حِينَ النِّعمةِ، وقالوا: هذه أحوالٌ اعتياديَّةٌ قد جَرَتْ على آبائِنا مِنْ قَبْلِنا؛ فنالَهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٢٨)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٩- ٤٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦٢٧).

أحيانًا ما يَسوءُهم مِنَ الشَّدائِدِ والأمراضِ، وأصابَهم في أحيانٍ أُخرى ما يَسرُّهم مِنَ الرَّخاءِ والنِّعَمِ، فنحنُ مِثْلُهم، وليس لهذا الأمْرِ تعلُّقٌ بالموعظةِ والتَّذكيرِ والابتلاءِ، ونَحْوِ ذلك[1].

﴿ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾.

أي: فأَخَذْنا أهلَ تلك القُرى بالهلاكِ فجأةً، وهُمْ لا يَعلمونَ بمجيءِ العذابِ، ولم يَخْطُرْ ببالِهم[2].

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤].

﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى في الآيةِ السَّابقةِ أنَّ الَّذينَ عَصَوْا وتَمَرَّدوا أخَذَهم اللهُ بَغْتَةً؛ بيَّنَ في هذه الآيةِ أنَّهم لو أطاعوا لَفَتَحَ اللهُ عليهم أبوابَ الخيراتِ[3]، فقال:

﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾.

أي: ولو حَصَلَ أنَّ أهلَ القُرى المُهلَكاتِ صَدَّقوا بما جاءَتْهم به الرُّسلُ مِنَ الوحيِ والدَّلالاتِ، واتَّقَوُا اللهَ بِفِعْلِ الطَّاعاتِ، وتَرْكِ المُحرَّماتِ، لَفَتَحَ اللهُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٣٢)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٢١-٣٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص:٢٩٨).

عليهم مِنَ السَّماءِ والأرضِ البركاتِ؛ فأنزَلَ عليهم الأمطارَ، وأَنْبَتَ لهم الأرضُ أنواعَ الثِّمارِ والنَّباتاتِ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦].

وقال سُبحانَه حاكيًا قَوْلَ نُوحٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لقومِهِ: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠- ١٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: ٦٦].

وقال تَبارَكَ وتعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

﴿وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾.

أي: ولكنَّهم لم يُؤمِنوا ويتَّقوا، بل كذَّبوا رُسُلَهم وما جاؤوهم به مِنَ البراهينِ القاطِعاتِ؛ فعاقَبَهم اللهُ تعالى بأنواعِ العقوباتِ، ونَزْعِ البركاتِ؛ بسَبَبِ كُفْرِهم، واقترافِهم السَّيِّئاتِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦٢٩).

قال ابن عاشور: (قوله: ﴿مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ مرادٌ به حقيقتُهُ؛ لأنَّ ما يَنالُهُ النَّاسُ مِنَ الخيراتِ الدُّنيويَّةِ لا يَعْدو أنْ يكونَ ناشِئًا مِنَ الأرضِ، وذلك مُعْظَمُ المنافعِ، أو مِنَ السَّماءِ مثل ماءِ المطرِ وشعاعِ الشَّمسِ وضوءِ القمرِ والنُّجومِ والهواءِ والرِّياحِ الصَّالِحَةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦٣٠).

كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧)﴾.

أي: أَبَعْدَ ذلك يَظُنُّ أهلُ القُرى الكافرةِ أنَّهم آمِنونَ مِن حُلولِ عذابِنا الشَّديدِ عليهم ليلًا وهم نِيامٌ[١]؟!

﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨)﴾.

أي: أَوَيَظُنُّ أهلُ القُرى الكافرةِ أنَّهم في مَأْمَنٍ من أنْ يأتيَهم عذابُنا عليهم في أوَّلِ النَّهارِ وهم في لَهْوِهم وغَفْلتِهم[٢]؟!

﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩)﴾.

﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾.

أي: فهل أَمِنَ أهلُ القُرى الكافرةِ أنْ يَستدرِجَهم اللهُ بنِعَمِه، كما استدرَجَ

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٨).

قال الزمخشريُّ: (المعطوفُ عليه قولُه: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾، وقولُه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى﴾ إلى ﴿يَكْسِبُونَ﴾ وقَعَ اعتراضًا بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه، وإنَّما عطف بالفاء؛ لأنَّ المعنى: فعلوا وصنعوا ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾؛ أبَعْدَ ذلك أَمِنَ أهلُ القرى أنْ يأتيَهم بأسُنا بياتًا، وأَمِنوا أنْ يأتيَهم بأسُنا ضُحًى؟!). ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٣٤). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٢٠).

وقال الشِّنقيطيُّ: (ومعنى إنكارِه على أهلِ القرى: جَمْعُهم بين الكفرِ به وتكذيبِ رُسلِه، وعدمُ خوفِهم من بطشِه ونَكالِه، فهذا يدُلُّ على غايةِ الجهلِ باللهِ). ((العذب النمير)) (٤/ ٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٧).

الَّذينَ مِنْ قَبْلِهم، ثمَّ يأخُذَهم بعذابِه بَغْتَةً في حالِ سَهْوِهم وغَفْلَتِهم(١)؟!

كما قال سُبحانَه: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

أي: فَلا يأمَنُ أحدٌ مكْرَ اللهِ تعالى له باستِدراجِه بنِعَمِه، مع إقامتِه على الكُفْرِ، وإصرارِه على المعاصي، إلَّا القومُ الهالكونَ، الَّذينَ أضاعوا عقولَهم، وأَعْرَضوا عَنِ التَّفكُّرِ بها، ففَقَدوا ما ينفَعُهم، وجَلَبوا إلى أنفسِهم ما يَضُرُّها(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٢-١٨٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٣٤)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٨).

قال الشنقيطيُّ: (معنى مكرِ اللهِ: أنَّه جلَّ وعلا يستدرِجُهم ويُغدِقُ عليهم النِّعَمَ والصِّحَّةَ والعافيَةَ؛ حتَّى يكونوا أغفَلَ ما كانوا، ثمَّ يأخذُهم بغْتةً، ويُهلِكُهم في غايةِ الغفلةِ). ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٤).

وقال عبد الرحمن بن ناصر البرَّاك: (المكرُ والكيدُ: تدبيرٌ خفيٌّ يتضمَّن إيصالَ الضَّررِ من حيث يُظَنُّ النَّفعُ، فالَّذي يُريدُ أنْ يمكرَ يُظهِرُ المحبَّةَ، ويُظهِرُ الإحسانَ، وهو يتَّخذُ ذلك وسيلةً للإيقاعِ بخَصمِه وعدُوِّه، والمكرُ مِنَ النَّاسِ منه: المحمودُ، والمذمومُ، فإذا كان على وجهِ العدلِ فهو محمودٌ، وإذا كان على وجهِ الظُّلم والعُدوانِ فهو مذمومٌ... أمَّا مكرُ اللهِ فهو كلُّه محمودٌ، وعدلٌ، وحِكمةٌ، هو تعالى يمكر بالكافرين مكرًا حقيقيًّا، ويُدبِّر تدبيرًا خفيًّا يُوصِلُ به العِقابَ من حيث يُظَنُّ الإنعامُ). ((توضيح مقاصد العقيدة الواسطية)) (ص: ٩٢). ويُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٧-٨)، ((صفات الله عزَّ وجلَّ الواردة في الكتاب والسنة)) لعَلَوي السَّقَّاف (ص: ٣٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٣٤)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٤).

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى فيما تقدَّمَ مِنَ الآياتِ حالَ الكفَّارِ الَّذينَ أَهْلَكَهم اللهُ بالاستِئْصالِ مُجمَلًا ومُفصَّلًا- أَتْبَعَهُ ببيانِ أنَّ الغَرَضَ من ذِكْرِ هذه القَصصِ هو حُصولُ العِبْرَةِ لجميعِ المُكلَّفينَ؛ في مصالحِ أَدْيانِهم وطاعاتِهم[1].

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾.

أي: أَوَلَمْ يَتبيَّنْ ويَظهَرْ للَّذينَ يُستخلَفونَ في الأرضِ من بعْدِ هلاكِ أهلِها أنَّا نَقدِرُ- إذا شِئْنا- على إهلاكِهم؛ بسَبَبِ كُفرِهم ومعاصيهم، كما عاقَبْنا الَّذينَ من قبْلِهم ممَّنْ سار سيرَتَهم، وفعَلَ مِثْلَ صَنيعِهم[2]؟!

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة: ٢٦].

وقال سُبحانَه: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ * وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم: ٤٤-٤٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٣٤)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢١٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٧- ٣١).

مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].

وقال تبارَكَ وتعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ * كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ [المرسلات: ١٦- ١٨].

وقال جلَّ جلالُهُ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١].

﴿وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

أي: ونحن نَختِمُ على قلوبِهم، فيُؤدِّي ذلك بهم إلى عَدَمِ قَبولِ الهُدى، وعدمِ الاستجابةِ للحَقِّ(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٣٤)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣١، ٣٨).
قال الواحديُّ: (قال الزَّجَّاجُ: هذا مُستأنَفٌ مُنقطِعٌ عمَّا قبْلَه؛ لأنَّ قولَهُ ﴿أَصَبْنَا﴾ ماضٍ، و﴿وَنَطْبَعُ﴾ مستقبَلٌ، والمعنى: ونحن نَطبَعُ على قلوبِهم، قال ابنُ الأنباريِّ: ويجوز أنْ يكونَ معطوفًا على ﴿أَصَبْنَا﴾ إذا كان بمعنى نُصيبُ). ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٣٩٠).
وقال ابن عاشور: (وجملةُ: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ ليستْ معطوفةً على جملةِ: ﴿أَصَبْنَاهُمْ﴾ حتَّى تكونَ في حُكْمِ جوابِ ﴿لَوْ﴾؛ لأن هذا يُفْسِدُ المعنى؛ فإنَّ هؤلاءِ الَّذينَ وَرِثوا الأرضَ من بعْدِ أهلِها قد طُبِعَ على قلوبِهم؛ فلذلك لم تُجْدِ فيهم دَعوةُ مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُنْذُ بُعِثَ إلى زمنِ نُزولِ هذه السُّورةِ، فلو كان جوابًا لـ ﴿لَوْ﴾ لصارَ الطَّبعُ على قلوبِهم صِيغَ بصيغةِ المضارعِ؛ للدَّلالةِ على استمرارِ هذا الطَّبعِ، وازديادِهِ آنًا فآنًا، وإمَّا أنْ تُجْعَلَ (الواو) للاستئنافِ، والجُملة مُستأنَفة، أي: ونحن نَطْبَعُ على قلوبِهم في المستقبَلِ، كما طَبَعْنا عليها في الماضي، ويُعْرَفُ الطَّبعُ عليها في الماضي بأخبارٍ أُخْرى؛ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ...﴾ الآيةَ [البقرة: ٦]، فتكونُ الجملةُ تَذْييلًا لِتَنْهِيَةِ القِصَّةِ، ولكنَّ مَوْقِعَ الواوِ في أوَّلِ الجملةِ يُرجِّحُ الوجهَ الأوَّلَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٨- ٢٩).
واختار ابنُ عطيَّةَ أنَّ الواوَ في قولِه تعالى: ﴿وَنَطْبَعُ﴾ عاطفةٌ، فيكونُ الطَّبْعُ معطوفًا على المعاصي ومُتَوَعَّدًا به. =

كما قال سُبحانَه: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥].

وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

وقال جلَّ جلالُهُ: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ [البقرة: ٧].

وقال تبارَكَ وتعالى: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠١].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾، ممَّا ثبَتَ بالتَّجارِبِ وتقرَّرَ عِندَ علماءِ النَّفْسِ والأخلاقِ أنَّ الشَّدائِدَ ومَضايقَ الأُمورِ ممَّا يُربِّي النَّاسَ، ويُصْلِحُ من فسادِهم؛ فالمؤمنُ قد يَشْغَلُه الرَّخاءُ وهَناءُ العَيْشِ؛ فيُنْسيهِ ضَعْفَه وحاجتَه إلى ربِّه، والشَّدائدُ تُذَكِّرُه به، والكافرُ بالنِّعَمِ قد يَعرِفُ قيمتَها بفَقْدِها، فينقَلِبُ شاكرًا بعْدَ عَوْدِها، بل الكافرُ باللهِ عزَّ وجلَّ قد تُنَبِّه الشَّدائدُ والأهوالُ مَرْكَزَ الشُّعورِ بوُجودِ الرَّبِّ الخالِقِ المُدبِّرِ لأُمورِ الخَلْقِ في دِماغِهِ، وتُذكِّرُه بما أُودِعَ في فِطْرتِهِ من

= قال ابنُ عطيَّةَ: (﴿وَنَطْبَعُ﴾ عُطِفَ على المعاصي؛ إذِ المرادُ به الاستقبالُ، ويحتمِلُ أنْ يكونَ ﴿وَنَطْبَعُ﴾ مُنقطِعًا؛ إخبارًا عن وُقوعِ الطَّبْعِ لا أنَّه مُتوَعَّدٌ به). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٣٣). وهذا الَّذي جعَله ابنُ عطيَّةَ احتمالًا اختاره القرطبيُّ والشنقيطيُّ باعتبارِ أنَّ الواوَ استِئنافيَّةٌ، والمعنى: ونحن نَطْبَعُ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٥٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣١).

وُجودِ مَصْدَرٍ لنظامِ الكَوْنِ وأَقْدارِه، كما وقع كثيرًا، والآياتُ في هذا كثيرةٌ[(١)].

٢- المعاصي تَمْحَقُ بَركةَ الدِّينِ والدُّنيا، وما مُحِقَتِ البَركةُ مِنَ الأرضِ إلَّا بمعاصي الخَلْقِ، يُبيِّنُ ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[(٢)].

٣- إذا آمَنَ النَّاسُ واتَّقَوْا وأطاعُوا اللهَ تعالَى، أَغْدَقَ عليهم رِزْقَه؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾[(٣)].

٤- لا ينبغي للعَبْدِ أنْ يكونَ آمِنًا على ما عِندَه مِنَ الإيمانِ، بل لا يَزالُ خائفًا وَجِلًا أنْ يُبْتَلى ببَلِيَّةٍ تَسلُبُ ما عِندَه مِنَ الإيمانِ؛ قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾؛ فالمؤمنُ يعمَلُ بالطَّاعاتِ وهو مُشْفِقٌ وَجِلٌ خائفٌ، والفاجِرُ يعمَلُ بالمعاصي وهو آمِنٌ، كما قال بَعضُ السَّلَفِ[(٤)]، فهذه الآيةُ الكريمةُ فيها من التخويفِ البليغِ، على أنَّ العبدَ لا ينبغي له أن يكونَ آمِنًا على ما معه من الإيمانِ، بل لا يزالُ خائفًا وَجِلًا؛ أن يُبتلَى ببليَّةٍ تسلُبُ ما معه من الإيمانِ، وأنْ لا يزالُ داعيًا بِقَولِه: (يا مُقلِّبَ القلوبِ، ثَبِّتْ قلبي على دينِك) وأن يعمَلَ ويسعى في كلِّ سببٍ يخلِّصُه من الشَّرِّ، عند وقوعِ الفِتَنِ؛ فإنَّ العبدَ- ولو بلغَتْ به الحالُ ما بلغَتْ- فليس على يقينٍ من السَّلامةِ[(٥)].

٥- مَنْ أَوْضَحَ اللهُ له سُبُلَ الهُدى، وذَكَرَ له أمثالًا ممَّنْ أَهْلَكَهم تعالى بذُنوبِهم، وهو مع ذلك دائمٌ على غَيِّهِ لا يَرْعَوي، يَطْبَعِ اللهُ على قلبِهِ؛ فَيَنْبو سَمْعُه

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ١٤-١٥).

(٢) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص:٨٤).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦٢٩- ٦٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص:٢٩٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٨).

عن سَماعِ الحَقِّ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾[1].

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ﴾ تَخصيصُ القُرى بإرسالِ الرُّسلِ فيها دونَ البَوادي- كما أشارَتْ إليه هذه الآيةُ وغيرُها من آيِ القرآنِ، وشَهِدَ به تاريخُ الأديانِ- يُنْبِئُ أنَّ مُرادَ اللهِ تعالى من إرسالِ الرُّسلِ هو بَثُّ الصَّلاحِ لأصحابِ الحضارةِ الَّتي يَتطَرَّقُ إليها الخَلَلُ بسَبَبِ اجتماعِ الأصنافِ المختلِفةِ[2].

٢- قَوْلُ اللهِ تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾، في لَفْظِ ﴿مَكَانَ﴾ إشعارٌ بتَمَكُّنِ البأساءِ منهم، كأنَّه صارَ للشِّدَّةِ عِندهم مكانٌ[3].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا﴾، إنَّما جُعِلَ ذلك سَيِّئَةً؛ لأنَّه ممَّا يَسوءُ النَّاسَ، ولا تَسوءُهم الحَسَنَةُ، وهي الرَّخاءُ والنِّعمةُ، والسَّعةُ في المعيشةِ[4].

٤- قولُ اللهِ تَعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾، الحَسَنةُ اسْمٌ اعْتُبِرَ مؤنَّثًا؛ لتأويلِهِ بالحالةِ والحادثةِ، وكذلك السَّيِّئةُ، فهُمَا في الأصْلِ صفتانِ لموصوفٍ محذوفٍ، ثمَّ كَثُرَ حَذْفُ الموصوفِ؛ لِقلَّةِ جَدْوى ذِكْرِهِ، فصارَتِ الصِّفتانِ كالاسمَيْنِ؛ ولذلك عُبِّرَ عَنِ الحسنةِ في بعضِ الآياتِ بما يتلمَّحُ منه معنى وَصْفِيَّتِها[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٢١-١٢٢)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٣٣٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١١٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٢٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٨).

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ نَصٌّ في أنَّ كَذِبَهم وكُفْرَهم هو كَسْبُهم الَّذي حَرَمَهم البركاتِ، وعليه توعَّدَهم بالعقوباتِ؛ ففيه رَدٌّ على الجَبْرِيةِ(١).

٦- قولُ الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا﴾، ﴿أهلُ القُرى﴾ يُرادُ به الجِنْسُ، أي: الأُمَمُ، ويحتمِلُ أنْ يكونَ المرادُ به مَنْ ذُكِرَ حالُهم فيما تقدَّمَ؛ وضعًا للمُظْهَرِ فيه مَوْضِعَ المُضْمَرِ؛ ليدُلَّ على أنَّ مضمونَها ليس خاصًّا بأقوامٍ بأعيانِهم، بل هو قواعدُ عامَّةٌ في أحوالِ الأُمَمِ، فيُرادُ بالاسمِ المُظْهَرِ العُنوانُ العامُّ لها، لا آحادُ ما ذُكِرَ منها(٢).

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ فيه تَقريعٌ لهم بِنِسْبَتِهم إلى أنَّهم صِبيانُ العُقولِ، لا التِفاتَ لهم إلى غيرِ اللَّعِبِ(٣).

٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ فيه ذَكَرَ الله تعالى مكْرَه وَحْدَه، ولم يذْكُرْ مكْرَ عبْدِه، كما قال في موضعٍ آخَرَ: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، فذَكَرَ مكرَهم ومكرَهُ، وهنا ذَكَرَ مكرَه وحدَه؛ فقال: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾، والمكرُ صفةٌ أطلَقَها اللهُ على نفسِهِ، ولا يجوزُ إطلاقُها على اللهِ إلَّا في الموضِعِ الَّذي يُطلِقُها هو على نفسِهِ أو رسولُهُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقد أَجْمَعَ جميعُ العلماءِ أنَّه لا يجوزُ أنْ يُشْتَقَّ له منها اسْمٌ، فلا تَقُلْ: من أسمائِهِ الماكِرُ؛ لأنَّ ذلك لا يَجوزُ إجماعًا(٤).

---

(١) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٨/ ٤٩٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٢٤).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٣).
(٤) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٧، ٨).

٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ اسْتُدِلَّ به على أنَّ الأمْنَ من مَكرِ اللهِ مِنَ الكبائرِ(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- **قولُهُ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ﴾**، ﴿مِنْ﴾ صِلةٌ؛ للتَّنْصيصِ على العُمومِ المُستَفادِ من وُقوعِ النَّكِرَةِ في سِيَاقِ النَّفْيِ(٢).

٢- **قولُهُ: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾** فيه تأكيدُ مَعنَى البَغتَةِ بقولِه: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾؛ فهي حالٌ مُؤكِّدةٌ لمعنَى ﴿بَغْتَةً﴾؛ إذ مدلولُ ﴿بَغْتَةً﴾ يَقتضِي عَدمَ الشُّعورِ بأخْذِه إيَّاهم حِينَ يَقَعُ(٣).

٣- **قولُهُ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا﴾**، التَّعريفُ في القُرى تعريفُ العَهْدِ؛ فإضافةُ ﴿أَهْلَ﴾ إليه تُفيدُ عُمومَه بقَدْرِ ما أُضيفَ هو إليه(٤)، وهو تعريضٌ بإنذارِ الَّذينَ كذَّبوا مُحَمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم من أهلِ مكَّةَ، وتعريضٌ ببِشارَةِ أهلِ القُرى الَّذينَ يُؤمنونَ، كأهلِ المدينةِ(٥).

٤- **قولُهُ: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾**

- في قوله: ﴿أَفَأَمِنَ﴾ وقوله: ﴿أَوَأَمِنَ﴾ دَخَلَتْ الهَمْزةُ على (أَمِنَ)؛ للاستفهامِ على جِهَةِ التَّعجُّبِ، ومَحَلُّ التَّعجُّبِ هو تَواطُؤُهم على هذا الغُرورِ، أي:

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٦).

(٣) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٣٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٠) و(٢٥/ ٢٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

يَتَرَتَّبُ على حِكايَةِ تَكْذيبِهم وَأَخْذِهم اسْتِفْهامُ التَّعجُّبِ مِنْ غُرورِهم، وأَمْنِهم غَضَبَ القَادِرِ العَليمِ(١).

– وجِيءَ بقَوْلِه: ﴿يَأْتِيَهُمْ﴾ بصِيغَةِ المُضارِعِ؛ لأَنَّ المُرادَ حِكايَةُ أَمْنِهم الَّذي مَضَى مِنْ إِتْيانِ بَأْسِ اللهِ في مُسْتَقْبَلِ ذلك الوَقْتِ(٢).

– وتكرَّرَ لَفْظُ: ﴿أَهْلُ الْقُرَى﴾؛ لِمَا في ذلك مِنَ التَّسميعِ والإبلاغِ والتَّهديدِ والوَعيدِ بالسَّامِعِ ما لا يكون في الضَّميرِ لو جاء: (أَوَأَمِنوا)؛ فإنَّه متى قُصِدَ التَّفخيمُ والتَّعظيمُ والتَّهويلُ جِيءَ بالاسمِ الظَّاهِرِ(٣)، وفيه إنكارٌ بَعْدَ إنكارٍ؛ للمبالَغَةِ في التَّوبيخِ الشَّديدِ(٤).

– قولُه: ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ وقوله: ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ جاءَ ﴿نَائِمُونَ﴾ باسْمِ الفاعِلِ؛ لأَنَّها حالةُ ثُبوتٍ واستِقرارٍ للبائِتينَ، وجاءَ ﴿يَلْعَبُونَ﴾ بالمُضارِعِ؛ لأَنَّهم مُشتغِلونَ بأفعالٍ مُتَجَدِّدَةٍ شيئًا فشيئًا في ذلك الوَقْتِ(٥).

– وفي قولِه: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ جاءَ تَقييدُ التَّعجُّبِ من أَمْنِهم مَجيءَ البأْسِ بوَقْتَيِ البَياتِ والضُّحَى مِن بَيْنِ سائرِ الأوقاتِ، وبِحالَيِ النَّومِ واللَّعِبِ من بَيْنِ سائِرِ الأحوالِ؛ لأنَّ الوَقْتَيْنِ أَجْدَرُ بأنْ يُحْذَرَ حُلولُ العذابِ فيهما؛ لأَنَّهما وقتانِ للدَّعَةِ، فالبَياتُ للنَّومِ بعْدَ الفراغِ مِنَ الشُّغْلِ، والضُّحى لِلَّعِبِ قبلَ استقبالِ الشُّغْلِ، فكان شأْنُ أُولي النُّهى المُعرضينَ عن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٥/ ١٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٥٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٥/ ١٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٢-١٣).

دعوةِ رُسُلِ اللهِ ألَّا يَأْمَنوا عذابَه، بخاصَّةٍ في هذَيْنِ الوقتَيْنِ والحالَيْنِ، وفي هذا التَّعجُّبِ تَعريضٌ بالمشركينَ المكذِّبينَ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنْ يَحِلَّ بهم ما حَلَّ بالأُمَمِ الماضيةِ؛ فكان ذِكْرُ وقتِ البَياتِ ووقتِ اللَّعِبِ أشَدَّ مُناسَبَةً بالمعنى التَّعريضيِّ؛ تَهديدًا لهم بأنْ يُصيبَهم العذابُ بأفْظَعِ أحوالِهِ؛ إذ يكون حُلولُهُ بهم في ساعةِ دَعَتِهم، وساعةِ لَهْوِهِمْ؛ نِكايةً بهم[1].

٥- قولُه: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾، فيه تَكْرَار المكرِ مُضافًا إلى اللهِ؛ تحقيقًا لِوُقوعِ جزاءِ المَكْرِ بهم[2].

٦- قولُه: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾، الاستفهامُ في قولِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾ مُستعمَلٌ في التَّعْجبِ[3].

- وعبَّرَ عَنِ الإصابةِ بالماضي ﴿أَصَبْنَاهُمْ﴾؛ إشارةً إلى سرعةِ الإهلاكِ، وعَنِ الطَّبْعِ بالمضارِعِ ﴿وَنَطْبَعُ﴾؛ إيماءً إلى التَّجدُّدِ، بحيثُ لا يمُرُّ زَمَنٌ إلَّا كانوا فيه في طَبْعٍ جديدٍ[4]؛ فالتَّقديرُ: وطَبَعْنا على قلوبِهم، ولكنَّهُ صِيغَ بصِيغةِ المُضارِعِ؛ للدَّلالةِ على استِمرارِ هذا الطَّبْعِ، وازديادِهِ آنًا فآنًا، وإمَّا أنْ تكونَ (الواو) للاستئنافِ، والجُملة مُستأنَفةً، أي: ونَحنُ نَطْبَعُ على قُلوبِهم في المستقبَلِ كما طَبَعْنا عليها في الماضِي[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٢١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٦).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٩).

الآيات (١٠١-١٠٢)

﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا
كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَـٰفِرِينَ
(١٠١) وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَـٰسِقِينَ (١٠٢) ثُمَّ
بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ
عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ (١٠٣) ﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾: جَمْعُ بيِّنةٍ، وهي: الدَّلالةُ الواضحةُ أو الحُجَّةُ، وأَصْلُ (بين): اتِّضاحٌ وانْكِشافٌ[1].

﴿عَهْدٍ﴾: العَهْدُ: حِفْظُ الشَّيءِ ومُراعاتُهُ حالًا بعْدَ حالٍ، وأَصْلُهُ: الاحتِفاظُ بالشَّيءِ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ اللهُ نبيَّه مُحَمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قائلًا له: إنَّ تلك القُرى الَّتي سبَقَ ذِكْرُها، نَقُصُّ عليكَ من أخبارِها ما يَحْصُلُ به تَسْلِيَةٌ لك وللمؤمنينَ، وموعِظَةٌ للمُتَّعِظينَ، ورَدْعٌ وزَجْرٌ للكافرينَ، ولقدْ أَتى أهلَ القُرى رُسُلُهم بالأدلَّةِ الَّتي تدُلُّ على صِدْقِهم، فما كانوا ليؤمِنوا بما جاءَتْ به الرُّسلُ؛ وذلك بسببِ تَكْذيبِهم بالحَقِّ أوَّلَ ما وَرَدَ إليهم، كذلك يَخْتِمُ اللهُ على قلوبِ الكافرينَ؛ فلا يؤمِنونَ أبدًا.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨)، ((المفردات)) للراغب (١/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٦٧)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٥٩١).

ويُخبِرُ تعالى أنَّه لم يَجِدْ لِأَكْثَرِ الأُمَمِ الماضيةِ الَّتي أَهْلَكَها من وَفاءٍ والتِزامٍ بعَهْدٍ، وما وجَدَ أَكْثَرَهم إلَّا فاسقينَ.

ثمَّ أخبَرَ تعالى أنَّه بَعَثَ من بعْدِ الأنبياءِ الَّذينَ حكَى قصصَهم موسى بالأدلَّةِ والمعجزاتِ الَّتي تدُلُّ على صِدْقِ ما جاء به، إلى فرعونَ ومَلَئِه، فكَفَروا بها واستكْبَروا عنها، فوَقَعوا في الظُّلْمِ بسَببِ ذلك، ثمَّ أمَرَ اللهُ نبيَّهُ مُحَمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنْ يَنظُرَ كيف كانتْ نهايةُ القَوْمِ المُفسدينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ (١٠١)﴾.

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾.

أي: هذه القُرى المُهلكَةُ الَّتي سبَقَ ذِكْرُها- وهم قَوْمُ نُوحٍ وعادٌ وثَمودُ، وقومُ لُوطٍ، وأصحابُ مَدْيَنَ[١]- نَتْلو عليكَ- يا مُحَمَّدُ- في هذا القرآنِ الكريمِ مِن[٢] أخبارِ أهلِها ما يَحْصُلُ به تَسْلِيَةٌ لكَ وللمؤمنينَ، وفيه عِبْرَةٌ للمُعْتبِرينَ، وموعظةٌ للمتَّقينَ، وازْدِجارٌ للكافرينَ، ورَدْعٌ للظَّالمينَ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ

(١) قال أبو حيَّانَ: (والقُرى هي بِلادُ قومِ نوحٍ وهودٍ وصالحٍ وشعيبٍ بِلا خِلافٍ بَيْنَ المُفسِّرينَ). ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٢٣-١٢٤).

(٢) قال ابنُ عاشورٍ: (و«مِنْ» تبعيضيَّةٌ؛ لأنَّ لها أنباءً غيرَ ما ذُكِرَ هنا، ممَّا ذُكِرَ بعضُه في آياتٍ أُخرى، وطُوِيَ ذِكْرُ بعضِهِ؛ لِعَدَمِ الحاجةِ إليه في التَّبليغِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٤).

أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج: ٤٢-٤٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ * وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ * وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ [هود: ١٠٠-١٠٣].

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾.

أي: إنَّ أهلَ تلك القُرى المُهْلَكةِ، قد جاءَتْهم رُسُلُهم بالحُجَجِ، والمعجزاتِ الظَّاهرةِ الَّتي تدُلُّ على صِدْقِهم(١).

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠].

﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ﴾.

أي: يَمتنِعُ على أهلِ تلك القُرى المُهْلَكةِ أنْ يؤمِنوا بما جاءَتْهم به الرُّسلُ؛ وذلك بسببِ تكذيبِهم بالحقِّ أوَّلَ ما وَرَدَ عليهم(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٨).

(٢) هذا المعنى اختاره ابنُ كثيرٍ، والسعديُّ، والشَّنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٣).

ورجَّح ابنُ جرير أنَّ المعنى: أنَّهم لم يكونوا ليؤمنوا بما هم به مُكذِّبون في سابِقِ عِلمه قَبلَ مجيء الرُّسل، وعندَ مجيئِهم إليهم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٣٩). =

كما قال سُبحانَه: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩-١١٠].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾.

أي: مِثْلَمَا خَتَمَ اللهُ على قلوبِ كفَّارِ الأُمَمِ الماضيةِ بهذا الخَتْمِ الشَّديدِ المُحْكَمِ، يختِمُ أيضًا على قُلوبِ جميعِ الكافرينَ؛ فَلا تؤثِّرُ فيهم الآياتُ والنُّذُرُ، ولا يؤمنون أبدًا(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٦-٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥].

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَـٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾.

أي: وما عَلِمْنا لِأَكْثَرِ الأُمَمِ الماضيةِ الَّتي أهلَكْناها مِن وَفاءٍ والتزامٍ بالعهْدِ الَّذي وَصَّيْناهم به، مِن توحيدِ اللهِ عزَّ وجلَّ، واتِّباعِ رُسُلِه عليهم السَّلامُ(٢).

= وفي الآيةِ أقوالٌ أخرى. يُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٣٤)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٣)، ((تفسير السعدي)) =

﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾.

أي: وقدْ وجَدْنا أكثَرَ الأُمَمِ السَّابقةِ خارِجينَ عن طاعةِ اللهِ تعالى[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الصافات: ٧١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٦٧].

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾.

مناسبةُ الآيةِ لما قبلَها:

لمَّا قَصَّ اللهُ تعالى على نبيِّهِ أخبارَ نوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولوطٍ وشعيبٍ وما آلَ إليه أمْرُ قومِهم، وكان هؤلاءِ لم يَبْقَ منهم أَحَدٌ، أَتْبَعَ بقصصِ موسى وفرعونَ

= (ص: ٢٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٤).

قال ابنُ كثيرٍ: (والعهْدُ الَّذي أخَذَهُ عليهم هو ما جَبَلَهم عليه، وفَطَرَهم عليه، وأخَذَ عليهم في الأصلابِ أنَّه ربُّهم ومَليكُهم، وأنَّه لا إلهَ إلَّا هو، فأقرُّوا بذلك، وشَهِدوا على أنفُسِهم به، فخالَفوه وتَرَكوه وَراءَ ظُهورِهم، وعبَدوا مع اللهِ غيرَه بلا دَليلٍ ولا حُجَّةٍ، لا مِنْ عقْلٍ ولا شرْعٍ، وفي الفِطَرِ السَّليمةِ خِلافُ ذلك، وجاءَتِ الرُّسلُ الكِرامُ من أوَّلِهم إلى آخِرِهم بالنَّهيِ عن ذلك). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٣).

وقال ابنُ عاشورٍ: (العهْدُ هنا يجوزُ أنْ يُرادَ به الوَعْدُ الَّذي حقَّقَه الأُممُ لِرُسلِهم مثل قولِهم: ﴿فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٤]؛ فإنَّ معنى ذلك: إنْ أتَيْتَنا بآيةٍ صدَّقْناكَ، ويجوزُ أنْ يُرادَ به وَعدٌ وَثَّقَهَ أسلافُ الأُممِ من عهْدِ آدَمَ ألَّا يَعْبدوا إلَّا اللهَ، وهو المذكورُ في قولِهِ تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ الآيةَ [يس: ٦٠]، فكان لازِمًا لِأَعْقابِهم، ويجوز أنْ يُرادَ به ما وَعَدَتْ به أرواحُ البَشَرِ خالِقَها في الأَزَلِ، المَحْكِيُّ في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢]). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٢- ٣٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٧).

وبني إسرائيلَ؛ إذْ كانت مُعجِزاتُه من أعْظَمِ المعجزاتِ، وأُمَّتُه من أكثرِ الأُممِ تكذيبًا وتَعَنُّتًا واقتراحًا وجهلًا، وكان قد بَقِيَ من أَتْباعِه عالَمٌ وهم اليهودُ، فقَصَّ اللهُ علينا قصصَهم؛ لِنَعْتَبِرَ ونتَّعِظَ، ونَنْزَجِرَ عن أنْ نتشبَّهَ بهم[1]، فقال تعالى:

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ ﴾.

أي: ثمَّ أَرْسَلْنا من بعْدِ نوحٍ وهودٍ وصالِحٍ ولوطٍ وشعيبٍ عليهم السَّلامُ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، بالأدلَّةِ والمُعجِزاتِ الظَّاهرةِ الَّتي تدُلُّ على صِدْقِه، إلى مَلِكِ مِصْرَ، وأشرافِ قومِه، وكُبَراءِ رِجالِه[2].

﴿ فَظَلَمُواْ بِهَا ﴾.

أي: فكَفَرَ فرعونُ وقومُهُ بالمُعجِزاتِ الَّتي أرسَلْنا بها موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[3].

كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[النمل: ١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٤، ٣٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٩- ٦٠).
قال ابنُ عاشورٍ: (فرعونُ عَلَمُ جِنْسٍ لملِكِ مِصْرَ في القديمِ... وهذا الاسْمُ نظيرُ (كِسْرى) لملِكِ مُلوكِ الفُرْسِ القدماءِ، و(قَيْصَرَ) لملِكِ الرُّومِ، و (نُمْروذَ) لملِكِ كَنْعانَ، و(النَّجاشِيِّ) لملِكِ الحَبَشِ، و(تُبَّع) لملِكِ مُلوكِ اليَمَنِ، و(خانَ) لملِكِ التُّرْكِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٤١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٨).
وقال السَّمينُ الحَلَبيُّ: (يجوز أنْ يُضَمَّنَ (ظَلَموا) معنى كَفَروا؛ فيتعدَّى بالباءِ كتَعْديتِه... ويجوز أنْ تكونَ الباءُ سَبَبِيَّةً، والمفعولُ محذوفٌ، تقديرُه: فظَلَموا أنفُسَهم، أو ظَلَموا النَّاسَ بمعنى صَدُّوهُمْ عَنِ الإيمانِ بسببِ الآياتِ). ((الدر المصون)) (٥/ ٤٠٠). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٥-٣٦)، ((العذب النمير)) (٤/ ٦٢).

بِمُؤْمِنِينَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ * وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٢-١٣٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ * وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ [الزخرف: ٤٧- ٥٠].

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾.

أي: فانظُرْ- يا مُحَمَّدُ- إلى آخِرِ أَمْرِ أولئك الَّذينَ أَفْسَدوا في الأرضِ بالكُفْرِ والمعاصي، كانت نِهايتُهم أنْ أَخزاهُمُ اللهُ تعالى، وأهلَكَهم بالغَرَقِ[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

مَنْ لم يُمْسِكْ نَفْسَه على عهْدِه مع اللهِ تعالى، مُستقيمًا على طريقتِه، مُسترشِدًا بهُداهُ، فلا بُدَّ أنْ تَتفرَّقَ به السُّبُلُ، ولا بُدَّ أنْ ينحرِفَ، ولا بُدَّ أنْ يَفْسُقَ؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾؛ فأهلُ هذه القُرى لم يكُنْ لِأَكْثَرِهم عهْدٌ يَستمسِكونَ به، ويَثْبُتونَ عليه، إنَّما هو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٦-٣٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٦٥).
قال ابنُ عاشورٍ: (والخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمرادُ هو وَمَنْ يُبَلِّغُه، أو المخاطَبُ غيرُ مُعَيَّنٍ، وهو كُلُّ مَنْ يَتأتَّى منه النَّظَرُ والاعتبارُ عِنْدَ سماعِ هذه الآياتِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٦).

الهَوى المُتقلِّبُ، والطَّبيعةُ الَّتي لا تَصبِرُ على تكاليفِ العهْدِ، ولا تَستقيمُ[١].

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قولِ اللهِ تعالى: ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا﴾، لَمَّا تكرَّرَ ذِكْرُ القُرى الَّتي كَذَّبَ أهلُها رُسُلَ اللهِ بالتَّعْيينِ وبالتَّعْميمِ، صارَتْ للسَّامِعينَ كالحاضِرَةِ المُشاهَدَةِ، الصَّالِحَةِ لِأَنْ يُشارَ إليها، فجاءَ اسْمُ الإشارةِ ﴿تِلْكَ﴾ لزيادةِ إحضارِها في أذهانِ السَّامعينَ من قومِ مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لِيَعْتَبِروا حالَهم بحالِ أهلِ القُرى، فيَرَوْا أنَّهم سواءٌ؛ فيَفيئوا إلى الحقِّ[٢].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا﴾، لمَّا كان العاقِلُ مَنْ يَكْفيهِ أَدْنى شيءٍ، هَوَّلَ الأمْرَ بأنَّ أخبارَها تفوتُ الحَصْرَ، وأنَّ ما قَصَّ منها يَكْفي المُعْتَبِرَ، فقال: ﴿مِنْ أَنْبَائِهَا﴾، أي: أخبارِها العظيمةِ الهائلةِ المُطابِقةِ للواقعِ، شيئًا بعْدَ شيءٍ، كما يفعَلُ مَنْ يتتبَّعُ الأثَرَ[٣].

٣- في قولِهِ تعالى: ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ تَسْلِيَةٌ لِمُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّ ما لَقِيَهُ من قومِهِ هو سُنَّةُ الرُّسُلِ السَّابقينَ، وأنَّ ذلك ليس لتقصيرٍ منه، ولا لضَعْفِ آياتِهِ، ولكنَّهُ للخَتْمِ على قلوبِ كثيرٍ من قومِهِ[٤].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٣٤٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٩).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٢).

لَفَاسِقِينَ﴾ حُكْمٌ على الأكثرِ؛ لأنَّ بعضَهم قد آمَنَ، والتَزَمَ كُلَّ عهْدٍ عاهَدَ اللهَ عليه، أو تَعاهَدَ عليه مع النَّاسِ، ومنهم مَنْ كان يَفي ببعضِ ذلك حتَّى في حالِ الكُفْرِ، وهذا من دِقَّةِ القرآنِ في تَحديدِ الحقائقِ بالصِّدْقِ الَّذي لا تَشُوبُه شُبُهاتُ المُبالَغَةِ بما يَسْلُبُ أحدًا حقَّه، أو يُعْطي أحدًا غيرَ حقِّه(١).

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ يدُلُّ على أنَّ النَّبيَّ لا بُدَّ له من آيةٍ ومُعجِزةٍ، بها يَمتازُ عن غيرِه؛ إذْ لو لم يكُنْ مُخْتَصًّا بهذه الآيةِ، لم يكُنْ قَبولُ قولِه أَوْلَى من قَبولِ قولِ غيرِه(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُهُ: ﴿**تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ**﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ استئنافَ الفَذْلَكَةِ لِمَا قَبْلَها مِنَ القَصصِ، مِن قَولِه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحًا إلى قَوْمِهِ﴾ [الأعراف: ٥٩]، ثُمَّ قَولِه تعالى: ﴿وَما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ﴾ الآيَةَ [الأعراف: ٩٤]، مُنْبِئَةٌ عن غايةِ غَوايةِ الأُممِ المذكورةِ، وتَماديهم فيها بعدما أَتَتْهم الرُّسُلُ بالمعجزاتِ الباهرةِ(٣).

- وصيغةُ المضارِعِ ﴿نَقُصُّ﴾؛ للإيذانِ بعَدَمِ انقِضاءِ القِصَّةِ بَعْدُ(٤)، وأيضًا قال: ﴿نَقُصُّ﴾ لا (قَصَصْنَا)؛ لأنَّ هذه الآيَةَ نَزَلَتْ مع تِلك القَصَصِ لا بَعْدَها(٥).

- وجُملةُ: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ عَطْفٌ على جُملةِ: ﴿تِلْكَ الْقُرَى﴾؛ لمُناسَبةِ ما في كِلتَا الجُمْلتَيْنِ من قَصْدِ التَّنظيرِ بحالِ المُكذِّبينَ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٢٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٥٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٢٩).

بُمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وجَمْعُ (البيِّناتِ) يُشيرُ إلى تَكَرُّرِ البيِّناتِ مع كُلِّ رسولٍ(١).

- وقولُهُ: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ يُفيدُ مُبالَغَةَ النَّفْيِ بلامِ الجُحودِ الدَّالَّةِ على أنَّ حُصولَ الإيمانِ كان مُنافِيًا لحالِهم مِنَ التَّصَلُّبِ في الكُفْرِ(٢).

- وفيه مناسبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال تعالى هُنا في سورةِ الأعرافِ: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾، وقال في سورةِ يُونُسَ: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ [يونس: ٧٤]، فَسَقَطَ (به) في سورةِ الأعرافِ دونَ سورةِ يُونُسَ؛ وذلك لأنَّ سُقوطَ (به) في سورةِ الأعرافِ هو للبِناءِ على ما جُعِلَ صدرًا لهذه الآياتِ الَّتي نزَلَتْ في التَّرغيبِ والتَّرهيبِ، وهو: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، فقولُهُ: ﴿وَلَكِنْ كَذَّبُوا﴾ لم يُذْكَرْ له مَفعولٌ، وانساقَتِ الآياتُ بعْدَ التَّحذيرِ المُتوالِي بقولِهِ: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا﴾، ثمَّ خُتِمَتْ بقولِهِ: ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾، فالمُكذِّبونَ هُنا هم المُكذِّبونَ في قولِهِ: ﴿وَلَكِنْ كَذَّبُوا﴾. أمَّا في سورةِ يُونُسَ؛ فقدْ سُبِقَ بقولِهِ: ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [يونس: ٧٣]، فلمَّا جاءَ ذلك مُتعدِّيًا جاءَ قولُهُ: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ [يونس: ٧٤] مِثْلَهُ(٣).

٢- قولُهُ: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ فيه إظهارُ الاسْمِ الجَليلِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٠).
(٣) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٤١-٦٤٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٠١).

بطريقِ الالتفاتِ؛ لِتربيَةِ المَهابَةِ، وإدْخالِ الرَّوْعَةِ، ولِمَا في إسنادِ الطَّبْعِ إلى الاسْمِ العَلَمِ من صَراحةِ التَّنبيهِ على أنَّه طَبْعٌ رَهيبٌ، لا يُغادِرُ للهُدى مَنْفَذًا إلى قلوبِهم[١].

٣- قولُهُ: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ﴾ مع قولِهِ: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلوبِ الكَافِرِينَ﴾، فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث قالَه هُنا أوَّلًا بالنُّونِ، وإضمارِ الفاعِلِ ﴿ونَطْبَعُ﴾، وثانيًا بالياءِ وإظهارِ الفاعِلِ ﴿يَطْبَعُ اللَّهُ﴾، وقال في سورة يُونُس: ﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ [يونس: ٧٤] بالنُّونِ والإضمارِ فقط؛ لأنَّ الآيتَيْنِ هُنا تَقدَّمَهما الأمرانِ: الياءُ مع الإظهارِ مرَّتَيْنِ، والنُّونُ مع الإضمارِ؛ فالآيةُ في سورةِ الأعرافِ مَبْنِيَّةٌ على ما تَقدَّمَها مِنَ الآياتِ، وهي تَنتقِلُ مِنَ الإضمارِ إلى الإظهارِ، ومِنَ الإظهارِ إلى الإضمارِ في إخبارِ اللهِ عزَّ وجلَّ عن نفسِهِ، قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا﴾، و﴿أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى﴾، وقال بعْدَهُ: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾، فأَظْهَرَ ولم يَقُلْ: (أفأمِنوا مَكْرَنا)، فلمَّا وَقَعَ هذا الإخبارُ في هذا المكانِ، ثمَّ جاءَ بعْدَهُ: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾، فأَجْرى الفِعْلَ على إضمارِ فاعلِهِ، ثمَّ عاد إلى ذِكْرِ الطَّبْعِ، كان إجراؤُهُ على إظهارِ الفاعِلِ أَشْبَهَ بما بُنِيَتْ عليه الآياتُ المُتقدِّمةُ مِنَ الانتقالِ مِنَ الإضمارِ إلى الإظهارِ المُختارِ استعمالُه في المكانِ؛ فناسَبَ الجَمْعُ بَيْنَ الأمرَيْنِ هُنا.

وأمَّا الآيةُ هناك في يُونُس فتقدَّمَها النُّونُ مع الإضمارِ فقط؛ فما قَبْلَها جارٍ على حَدٍّ واحدٍ وهو إضمارُ الفاعِلِ، ففي قِصَّةِ نوحٍ قَبْلَهُنَّ، وهي من مُبتدَأ العَشْرِ: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ [يونس: ٧١]، إلى أنْ قال: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٢).

الْمُنْذَرِينَ * ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ﴾ [يونس: ٧٣-٧٤]، فقال بعْدَهُ: ﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ [يونس: ٧٤]؛ فناسَبَ الاقتِصارُ على النُّونِ مع الإضمارِ(١).

- ومن المناسبةِ الحَسنةِ في قولِ اللهِ تعالى هُنا في سورةِ الأعرافِ: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾، وقولِه في سورةِ يُونُسَ: ﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ [يونس:٧٤]: أنَّه جَعَلَ الطَّبْعَ على قلوبِ الكافرينَ في الأعرافِ، وعلى قلوبِ المُعتدينَ في يُونُسَ؛ وذلك لأنَّ الآياتِ الَّتي تَقدَّمَتْ في سورةِ الأعرافِ فيها ذِكْرُ مُكَذِّبي الأُممِ أنبياءَهم، وما ردُّوا عليهم وخاطَبوهم به؛ كقَوْلِ كفَّارِ قومِ صالحٍ عليه السَّلامُ لِمَنْ آمَنَ به منهم: ﴿إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٦]، وفيها وَصْفُ الكفَّارِ؛ فَلا يَحْذَرُ عِقابَ اللهِ ومجيئَه بَياتًا أو ضُحًى إلَّا الكفَّارُ، ولا يكون إطلاقُ الخاسرينَ إلَّا في الكافرين، فلمَّا وَقَعَ التَّصريحُ بصْفاتِ الكُفْرِ صَرَّحَ به عِنْدَ ذِكْرِ الطَّبْعِ، ولمَّا كانتِ الآيةُ في سورةِ يُونُسَ قد تقدَّمَها في وَصْفِ الكفَّارِ ما كان كالكِنايةِ عنهم، فقال: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [يونس: ٧٣]، وليس كُلُّ مُنْذَرٍ كافرًا، كَنَّى عَنِ الكفَّارِ بعْدَهُ عِندَ ذِكْرِ الطَّبْعِ بالمُعتدينَ، وليس كُلُّ مُعْتَدٍ كافرًا، فمُخالَفَةُ كُلِّ واحدةٍ مِنَ الآيتَيْنِ للأُخرى إنَّما هي لِموافقَةِ ما قَبْلَ كُلِّ واحدةٍ منهما من طَرْحِ الكلامِ، وقَصْدِ الالتِئامِ(٢).

٤- قولُهُ: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾

- في قولِهِ: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ﴾ أَسْنَدَ حُكْمَ النَّكْثِ إلى أكثَرِ

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٤٤-٦٤٥)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٢٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٤٦)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢١٣).

أهلِ القُرى؛ تَبْيينًا لِكَوْنِ ضَميرِ ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ جَرَى على التَّغْليبِ، ولعلَّ نُكْتَةَ هذا التَّصريحِ في خُصوصِ هذا الحُكْمِ أنَّه حُكْمُ مَذَمَّةٍ ومَسَبَّةٍ؛ فناسَبَتْ مُحاشاةُ مَنْ لم تَلْتَصِقْ به تلك المَسَبَّةُ(١).

- وفيه نَفْيُ وُجدانِ العَهدِ؛ لانتفاءِ سَببِه، وهو الوفاءُ بالعَهدِ، والتقديرُ: مِن إيفاءٍ بعهدٍ أو مِن التزامِ عهدٍ، و﴿عَهْدٍ﴾ اسمُ جِنسٍ، والإتيانُ به نكرةً في سِيَاقِ النَّفْيِ يَقتَضي انتِفاءَه بجَميعِ المعاني الصَّادِقِ هو عليها، وزِيادةُ ﴿مِنْ﴾ تَدلُّ أيضًا على الاستِغراقِ لجِنس العَهدِ(٢).

- وقولُه: ﴿وَإِنْ وَجَدْنا أَكْثَرَهُمْ لَفاسِقِينَ﴾ فيه إخبارٌ بأنَّ عدمَ الوَفاءِ بالعَهْدِ من أكثرِهم كان منهم عن عَمْدٍ ونَكْثٍ؛ ولِكَوْنِ ذلك معنًى زائدًا على ما في الجُملةِ الَّتي قَبْلَها عُطِفَتْ، ولم تُجْعَلْ تأكيدًا للَّتي قَبْلَها أو بيانًا؛ لأنَّ الفِسْقَ هو عِصيانُ الأمْرِ، وذلك أنَّهم كَذَّبوا فيما وَعَدوا عن قَصْدٍ للكُفْرِ(٣).

٥- قولُه: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾

قِصَّةُ موسى عليه السَّلامُ معطوفةٌ على جملةِ ما قَبلَها مِنَ القَصَص، مِن قَولِه تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ إلى قولِه: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ القصَّة، فهي نوعٌ، وهُنَّ نوعٌ آخرُ، والفَرقُ بين النوعينِ أنَّ تلك القَصَص مُتشابهةٌ في تكذيبِ الأقوامِ فيها لرُسُلِهم، ومُعانَدَتِهم إيَّاهم، وإيذائِهم لهم، وفي عاقبةِ ذلك بإهلاكِ الله تعالى إيَّاهم بعذابِ الاستئصالِ؛ ولذلك عَطَفَ كلَّ واحدةٍ منهنَّ على الأولى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٢٦)، ((البرهان)) للزركشي (٣/ ٣٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٣).

بدونِ إعادةِ ذِكرِ الإرسالِ؛ للإيذانِ بأنَّها نوعٌ واحدٌ، فقال: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾، ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ...﴾، ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ وقد أعاد في قِصَّةِ موسى ذِكرَ الإرسالِ للتَّفرقةِ، ولكِنْ بلفظِ البَعثِ، وهو أَخَصُّ وأبلَغُ مِن لَفظِ الإرسالِ؛ لأنَّه يفيدُ معنى الإثارةِ والإزعاجِ إلى الشَّيءِ المُهِمِّ، ولم يُذكَر في القرآنِ إلا في بَعثِ الموتى، وفي الرِّسالةِ العامَّة؛ أي: بَعْثِ عِدَّةٍ من الرُّسُل، وفي بَعثةِ نَبِيِّنا وموسى خاصَّةً، وكذا في بَعْثِ نُقَباءِ بني إسرائيل، وبَعْثِ مَن انتقَم منهم وعذَّبهم وسَبَاهم، حين أفسَدُوا في الأرض، فالتعبيرُ بلَفظِ البَعثِ هنا يؤكِّدُ ما أفادَتْه إعادةُ العامِلِ مِن التَّفرقةِ بين نوعَيِ الإرسالِ؛ أعني: أنَّ لَفظَه الخاصَّ مُؤكِّدٌ لِمَعناه العامِّ، كما يؤكِّدُها عطفُ هذه القِصَّة على أولئك بـ ﴿ثُمَّ﴾ التي تدلُّ على الفَصلِ والتَّراخي؛ إمَّا في الزَّمان، وإمَّا في النَّوعِ أو الرُّتبة، والأخيرُ هو المرادُ هنا، وبيانُه أنَّ هذا الإرسالَ وما ترتَّبَ عليه، وأعقَبَه في قومِ موسى، مخالِفٌ لجملةِ ما قبلَه مُخالفةَ تَضادٍّ؛ فقد أُنقِذَت به أمَّةٌ من عذابِ الدنيا، وهو تعبيدُ فرعونَ ومَلَئِه لها، وسَوْمُهم إيَّاها أنواعَ الخِزيِ والنَّكال، واهتَدَت إلى عبادةِ الله تعالى وَحدَه وإقامةِ شَرعِه، فأعطاها في الدُّنيا مُلكًا عظيمًا، وجعَلَ منها أنبياءَ وملوكًا، وأعدَّ بذلك المُهتدينَ منها لسعادةِ الآخرةِ الباقية، فأين هذا الإرسالُ مِن ذلك الإرسالِ، الذي أعقَبَ أقوامَ أولئك الرُّسُلِ في الدُّنيا عذابَ الاستئصالِ، وفي الآخرةِ ما هو أشدُّ وأبقى من الخِزيِ والنَّكال؟! وقد يظهَرُ للتَّراخي الزَّماني وجهٌ باعتبارِ كَونِ العَطفِ على قصَّةِ نُوحٍ؛ فإنَّ ما عُطِفَ عليها مِن قَصَصِ مَن بَعدَه قد جُعِلَ تابعًا ومُتمِّمًا لها بعَدَمِ إعادةِ العامِلِ ﴿أَرسَلْنا﴾(١).

- قولُه: ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى﴾ فيه تَقديمُ الجارِّ والمجرورِ على المفعولِ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٤، ٣٥).

الصَّريحِ؛ للاعتناءِ بالمُقدَّمِ، والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ(١).

- وفي قولِه: ﴿بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ قدَّمَ ذِكْرَ الآياتِ اهتمامًا بها؛ فهي الدَّليلُ على صِحَّةِ دَعْوى البَعْثِ(٢).

- وتخصيصُ (مَلَئِهِ) بالذِّكرِ مع عُمومِ رِسالتِه عليه السَّلامُ لقومِه كافَّةً؛ لأصالةِ الملأِ في الرأيِ، وتَدبيرِ الأمورِ، واتِّباعِ غيرِهم لهم في الورودِ والصُّدورِ(٣).

- وقِيل: إنَّما قال هنا: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ ولم يَقُلْ: (إلى فرعونَ وقومِه)؛ لأنَّ الملِكَ ورِجالَ الدَّولةِ هُمُ الَّذينَ كانوا مُستعبِدينَ لبني إسرائيلَ، وبِيَدِهِمْ أمْرُهم، وليس لسائرِ المِصْريِّينَ مِنَ الأمْرِ شيءٌ، ولأنَّهم كانوا مُستعبَدينَ أيضًا، ولكنَّ الظُّلْمَ على بَني إسرائيلَ كان أشدَّ، وإنَّما بَعَثَ اللهُ تعالى موسى؛ لإنقاذِ قومِهِ بني إسرائيلَ من فرعونَ ورِجالِ دولتِهِ، وإقامةِ دِينِ اللهِ تعالى بهم في بلادِ أجدادِهم، ولو آمَنَ فرعونُ ومَلَؤُهُ لآمَنَ سائرُ قومِهم؛ لأنَّهم كانوا تَبَعًا لهم، بل كان هذا شأْنَ جميعِ الأقوامِ مع مُلوكِهم المُستبِدِّينَ الجائرينَ(٤).

- وقولُهُ: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾؛ لَمَّا كان ما آلَ إليه أمْرُ فرعونَ ومَلَئِهِ حالةً عجيبةً، عُبِّرَ عنه بـ ﴿كَيْفَ﴾ الموضوعةِ للسُّؤالِ عن الحالِ، والاستفهامُ المُستفادُ من ﴿كَيْفَ﴾ يَقتضي تَقديرَ شيءٍ، أي: انظُرْ عاقبةَ المُفسِدينَ الَّتي يُسألُ عنها بـ(كيف)(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٥-٣٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٦).

- ﴿عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ فيه إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ - حيثُ لم يقُل: (عاقبتهم) مع أنَّ المُرادَ بالمفسدين فرعونُ ومَلَؤُهُ-؛ تنبيهًا على أنَّهم أُصيبوا بسُوءِ العاقبةِ؛ لِكُفْرهم وفَسادِهم، والكُفْرُ أعظَمُ الفَسادِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٦).

الآيات (١٠٤-١١٢)

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ
أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ
عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ
ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ
فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ
بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾.

غريب الكلمات:

﴿حَقِيقٌ﴾: أي: حَريصٌ، أو جديرٌ، وحقيقٌ عليَّ: أي حقٌّ وواجبٌ عليَّ، وأصْلُ (حقق): يدُلُّ على إحكامِ الشَّيءِ وصِحَّتِه[1].

﴿نَزَعَ﴾: أي: أَخْرَجَ وأَظْهَرَ[2].

﴿أَرْجِهْ﴾: أي: احبِسْهُ، وأَخِّرْ أمْرَه، أو أَمْهِلْه، وأَصْلُ الإرجاءِ: التَّأْخيرُ[3].

﴿الْمَدَائِنِ﴾: أي: الأَقاليمِ ومَعالِمِ مُلْكِكَ، وبلادِكَ وأمصارِ مِصْرَ[4].

﴿حَاشِرِينَ﴾: أي: جامِعينَ للنَّاسِ بأمْرِ السَّحَرَةِ، والحَشْرُ: إخراجُ الجَماعةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٤٢-٣٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥، ١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٥)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٠٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٦).

عن مَقَرِّهم، وإزعاجُهم عنه إلى الحَربِ ونَحْوِها، وَأَصْلُ (حشر): سَوْقٌ وبَعْثٌ[١].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ موسى عليه السَّلامُ قال لِفرعونَ: إنَّه مُرْسَلٌ إليه من ربِّ العالَمينَ، وإنَّه حقيقٌ على ألَّا يقولَ على اللهِ إلَّا الحَقَّ، وأنَّه قد جاءَهَ ببيِّنةٍ من ربِّه؛ فَلْيُرْسِلْ معه بني إسرائيلَ. فقال له فرعونُ: إنْ كُنْتَ أَتَيْتَ بآيةٍ فأَظْهِرْها، إنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ، فأَلْقى موسى عصاهُ؛ فإذا هي ثُعبانٌ عظيمٌ واضِحٌ لِمَنْ يَراهُ، وأَخْرَجَ يَدَهُ من جَيْبِهِ فإذا هي بيضاءُ لِكُلِّ مَنْ نَظَرَ إليها.

قال الملأُ من قومِ فرعونَ: إنَّ موسى لَساحِرٌ حاذِقٌ، عليمٌ بالسِّحْرِ، يُريدُ أنْ يُخرِجَكم من أرضِكم بسِحْرِهِ؛ فما الَّذي تَأْمرونَ به في شَأْنِهِ؟

قال الملأُ لفرعونَ: أَخِّرْ موسى وأَخاهُ، وأَرْسِلْ في مُدُنِ مملكتِكَ مَنْ يَحْشُدُ السَّحَرَةَ؛ فَيَجيئونَ لكَ بِكُلِّ ساحِرٍ ماهِرٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٠٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أنه لما لُخِّصَ في الآيةِ السَّابقةِ جميعُ القِصَّةِ على طولِها، فقال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾، فبَعْدَ هذا التَّشويقِ والتَّنبيهِ قَصَّ تعالى علينا ما كان مِن مَبْدَأِ أَمْرِ أولئك المُفسِدينِ، الَّذي انْتَهى إلى تلك العاقبةِ[٢]، فقال:

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٦-٣٧).

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٠٤)﴾.

أي: وقال موسى عليه السَّلامُ لَمَّا دخَلَ على مَلِكِ مِصْرَ: يا فِرعونُ، إنِّي رسولٌ إليكَ من مُرْسِلٍ عظيمٍ، وهو ربُّ جميعِ الخلائقِ، ومالِكُهم ومُدبِّرُ أُمورِهم[١].

﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (١٠٥)﴾.

﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

في قولِهِ تعالى: ﴿حَقِيقٌ عَلَى﴾ قراءتانِ:

١- قِراءة ﴿حَقِيقٌ عَلَيَّ﴾ بتشديدِ الياءِ، ومعناها: واجبٌ وحقٌّ عليَّ[٢].

٢- قِراءة ﴿حَقِيقٌ عَلَى﴾، قيل: معناها: جَديرٌ وخَليقٌ بألَّا[٣] أقولَ...، وقيل: معناها: حَريصٌ على[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٩).

قال ابن عاشور: (الظَّاهرُ أنَّ خِطابَ موسى فرعونَ بقوله: ﴿يَا فِرْعَوْنُ﴾ خطابُ إكرام؛ لأنَّه ناداه بالاسمِ الدَّالِّ على المُلكِ والسُّلطانِ بحسَبِ مُتعارَفِ أُمَّتِه، فليس هو بترفُّعٍ عليه؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال له ولهارونَ: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا﴾ [طه: ٤٤]). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٧).

(٢) قرأ بها نافعٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧٠).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٤٢- ٣٤٣)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٥٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٨٩).

(٣) قال الفرَّاء: (والعربُ تجعلُ الباءَ في موضعِ عَلَى: رميت عَلَى القوسِ، وبالقوسِ، و: جئت عَلَى حالٍ حسنةٍ، وبحالٍ حسنةٍ). ((معاني القرآن)) (١/ ٣٨٦)، ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٤٢).

(٤) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧٠).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٤٢- ٣٤٣)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٥٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٨٩).

﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾.

قيل: أي: أنا جديرٌ وخليقٌ بألَّا أكذِبَ على اللهِ، ولا أقولَ عليه إلَّا الحَقَّ(١).

وقيل: أي: أنا حريصٌ على ألَّا أقولَ على الله إلا الحقَّ(٢).

﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

---

(١) وممَّنِ اختار هذا القولَ: ابن عطيَّةَ، وأبو حيَّانَ، وابن تيميَّةَ، والقاسميُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٣٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٢٧)، ((الجواب الصحيح)) (١/ ١٤١)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ١٦٢).

وذكَرَه بعضُ المفسِّرين وجهًا في تفسيرِ الآيةِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٤٢)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٤).

قال ابنُ تيميَّةَ: (وفي القراءةِ المشهورةِ: يُخبِرُ أنَّه جديرٌ وحَرِيٌّ وثابتٌ ومستقِرٌّ على ألَّا يقولَ على اللهِ إلَّا الحقَّ، وعلى القِراءةِ الأخرى: أخبَرَ أنَّه واجبٌ عليه ألَّا يقولَ على اللهِ إلَّا الحقَّ). ((الجواب الصحيح)) (١/ ١٤١).

(٢) وممَّنِ اختار هذا القولَ: أبو عُبيدةَ مَعْمَرُ بن المُثنَّى، والقرطبيُّ. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ٢٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٥٦).

وذكَرَه بعضُ المفسِّرينَ وجهًا في تفسيرِ الآيةِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٤٢)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٤).

قال ابن عطيَّةَ: (وفي هذا القولِ بُعْدٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٣٥).

وقال الشنقيطيُّ: (وهذا القولُ مِنَ الأقوالِ الَّتي لا تَظهرُ؛ فلا يخلو عِندي من بُعْدٍ، واللهُ أعلَم). ((العذب النمير)) (٤/ ٦٨).

وفسَّرها بالقولَيْنِ محمد رشيد رضا، فقال: (جديرٌ بألَّا أقولَ على اللهِ إلَّا الحقَّ، وحَريصٌ على ذلك؛ فلَنْ أُخِلَّ به). ((تفسير المنار)) (٩/ ٣٨).

وذكَرَ الشَّنقيطيُّ قولًا آخَرَ، فقال: (إنِّي رسولٌ حقيقٌ، أي: رِسالتي لا شكَّ فيها... الوجه الَّذي يظهر أنَّه أصوبُ الأوجهِ، ولا ينبغي العدولُ عنه، وإنْ قلَّ مَنْ تنبَّه إليه من علماءِ التَّفسيرِ: هو أنَّ معنى الآيةِ الكريمةِ: ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * حَقِيقٌ﴾، وأمَّا قولُهُ: ﴿عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ [فيتعلَّقُ] بمعنى الرِّسالةِ المُشارِ إليها في الرَّسولِ...، أي: أرسلني ربِّي على شَرطٍ ووتيرةٍ معيَّنةٍ، وهي ألَّا أقولَ عليه إلَّا الحقَّ). ((العذب النمير)) (٤/ ٦٦- ٧٢).

ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٣٥).

أي: قال موسى عليه السَّلامُ لفرعونَ ومَلَئِهِ: قد جِئتُكم بحُجَّةٍ قاطعةٍ، ومعجزةٍ ظاهرةٍ من ربِّكم، تَدُلُّكم على صِدْقي(١).

﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

أي: فأَطْلِقْ- يا فرعونُ- ذُرِّيَّةَ النَّبيِّ يعقوبَ من أَسْرِكَ وقَهْرِكَ، وخَلِّهم يَخرُجُوا معي من مِصْرَ؛ لِنَعْبُدَ اللهَ تعالى حيث نَشاءُ(٢).

كما قال تعالى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ [طه: ٤٧].

﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾﴾.

أي: قال فرعونُ لموسى عليه السَّلامُ: إنْ كنتَ مُتمكِّنًا من إظهارِ حُجَّةٍ ومعجزةٍ تؤيِّدُ كلامَكَ، فهاتِها؛ لِنَرى إنْ كنتَ حقًّا مِنَ الصَّادقينَ فيما تَقولُ(٣).

كما قال تعالى: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الشعراء: ٣٠-٣٣].

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٤٣)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢١٨)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٤).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٧٣).

قال ابن عاشور: (تَقْييدُهُ بـ(معي)؛ لأنَّ المقصودَ من إخراجِهم من مِصرَ أنْ يكونوا مع الرَّسولِ؛ لِيُرشدَهم، ويُدبِّرَ شُؤونَهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٤٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٧٤).

أي: فألْقى موسى عصاهُ في الأرضِ؛ فانقلَبَتْ بإذنِ اللهِ ثُعبانًا عظيمًا واضحًا لِمَنْ يَراهُ(١).

﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ١٠٨ ﴾.

أي: وأَخْرَجَ موسى يَدَهُ من جَيْبِه، فظَهَرَتْ بيضاءَ لِكُلِّ مَنْ نَظَرَ إليها، وهذا البَياضُ مِن غيرِ بَرَصٍ(٢).

كما قال تعالى: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ [القصص: ٣٢].

﴿ قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ١٠٩ ﴾.

أي: قال الأشرافُ والسَّادةُ من قومِ فِرعونَ: إنَّ موسَى ساحرٌ حاذقٌ، عليمٌ بالسِّحرِ، ماهرٌ فيه، يُرِي الشَّيءَ بخِلافِ ما هو عليه، فيُخيِّلُ إلى النَّاسِ أنَّ عصاهُ تنقلِبُ حيَّةً، وأنَّ يَدَهُ تَصيرُ بيضاءَ من غيرِ سُوءٍ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٤٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٩).
قال البَغويُّ: (والثُّعبانُ: الذَّكَرُ العظيمُ من الحيَّاتِ، فإنْ قيل: أليس قد قال في موضعٍ آخَرَ: ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ [النمل: ١٠]، والجانُّ الحيَّةُ الصَّغيرةُ؟ قيل: إنَّها كانت كالجانِّ في الحركةِ والخفَّةِ، وهي في جُثَّتِها حيَّةٌ عظيمةٌ). ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٩).
قال الزَّجَّاجُ: (وقال في موضعٍ آخَرَ: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ﴾ [النمل: ١٢]، وفي موضِعٍ آخَرَ: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ [طه: ٢٢]، فهذا دليلٌ أنَّ معنى نَزْعِ يدِهِ إخراجُها من جيبِهِ، وإخراجُها من جَناحِهِ، وجَناحُ الرَّجلِ عَضُدُهُ، وقيل: جناح الرَّجلِ عِطْفُه، وتأويلُ الجَناحَيْنِ مِنَ الإنسانِ أنَّهما كالجَناحينِ مِنَ الطَّائرِ، وهما العَضُدانِ). ((معاني القرآن)) (٢/ ٣٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٤٧، ٣٤٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٩٢)، =

وقد حَكَى اللهُ عزَّ وجلَّ عن فرعونَ رَمْيَهُ موسى عليه السَّلامُ بهذه الفِرْيَةِ نَفْسِها، فقال: ﴿قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [القصص: ٣٦].

﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾﴾.

﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾.

أي: قال الأشرافُ والسَّادةُ من قومِ فِرعونَ(١): يُريدُ موسى بسِحْرِه أنْ يُخرجَكم مِن أرضِكم؛ مِصْرَ(٢).

= ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٩).

قال ابنُ عطيَّةَ: (السَّاحرُ كان عندهم في ذلك الزَّمنِ أعلى المراتبِ، وأعظمَ الرِّجالِ، ولكنَّ وصْفَهم موسى بذلك مع مُدافَعتِهم له عن النُّبوَّةِ ذمٌّ عظيمٌ وحطٌّ، وذلك قَصَدوا إذ لم يُمكنْهم أكثرُ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٣٧).

وقال ابنُ عاشور: (وهذا القولُ قد أعرَبَ عن رأيِ جميعِ أهلِ مجلسِ فرعونَ، فِفرعونُ كان مُشارِكًا لهم في هذا؛ لأنَّ القرآنَ حَكَى عن فرعونَ في غيرِ هذه السُّورةِ أنَّه قال للملأ حوله: إنَّ هذا لساحرٌ عليمٌ، وهذه المَعذرةُ قد انتحلوها وتواطؤوا عليها، تَبِعوا فيها مَلِكَهم أو تَبِعهم فيها، فكلُّ واحدٍ من أهلِ ذلك المجلسِ قد وطَّنَ نفسَه على هذا الاعتذارِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٤٢).

(١) قال ابن عاشور: (قالوا هذا الكلامَ على وجهِ الشُّورى مع فرعونَ واستنباطِ الاعتذارِ لأنفسِهم عن قِيامِ حُجَّةِ موسى في وجوههم؛ فاعتلُّوا لأنفسِهم بعضُهم لبعضٍ بأنَّ موسى إنَّما هو ساحرٌ... ولذلك فالخِطابُ في قوله: ﴿يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ خِطابُ بعضِهم لبعضٍ، وهو حاصلٌ من طوائفِ ذلك الملأِ لطوائفَ يُردِّدونه بينهم، ويقوله بعضُهم لبعضٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٤٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٠٦)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢١٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٤٢).

وقال ابنُ عاشور: (وجهُ استفادتِهم أنَّ موسى يُريدُ إخراجَهم من أرضِهم، إمَّا أنَّهم قاسوا ذلك عن قولِ موسى: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ بقاعدةِ ما جاز على المِثلِ يجوزُ على المُماثِلِ، =

كما قال تعالى عن فِرعونَ: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء: ٣٤-٣٥].

﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾.

أي: فما الَّذي تَأمرونَ به في شأنِ مُوسَى(١)؟

﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾﴾.

= يَعنونَ أنَّه ما أظهَرَ إخراجَ بني إسرائيلَ إلَّا ذريعةً لإخراجِ كلِّ مَنْ يؤمِنُ به؛ ليتَّخذَهم تَبَعًا، ويُقيمَ بهم مُلكًا خارجَ مِصرَ، فزعموا أنَّ تلك مكيدةٌ من موسى؛ لِثَلْمِ مُلكِ فرعونَ. وإمَّا أنْ يكونَ ملأُ فرعونَ محتويًا على رجالٍ من بني إسرائيلَ كانوا مُقرَّبينَ عِند فرعونَ ومن أهلِ الرَّأيِ في المملكةِ، فهُمُ المقصودُ بالخِطابِ، أي: يُريدُ إخراجَ قومِكم من أرضِكم الَّتي استوطنتموها أربعةَ قرونٍ، وصارتْ لكم موطنًا، كما هي للمِصريِّينَ، ومقصِدُهم من ذلك تذكيرُهم بحُبِّ وطنِهم، وتقريبُهم من أنفسِهم، وإنساؤُهم ما كانوا يلقَوْنَ من اضطهادِ القِبطِ واستذلالِهم؛ شُعورًا منهم بحراجةِ الموقفِ. وإمَّا أنَّهم علِموا أنَّه إذا شاعَ في الأُمَّةِ ظُهورُ حُجَّةِ موسى وعجْزِ فرعونَ وملئِهِ، أدخَلَ ذلك فِتنةً في عامَّةِ الأمَّةِ فآمَنوا بموسى، وأصبح هو الملِكَ على مِصر؛ فأخرج فرعونَ وملأَهُ منها. ويجوز أنْ يكونَ الملأُ خاطَبوا بذلك فرعونَ، فجرَتْ ضمائرُ الخطابِ في قوله: ﴿أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ على صيغةِ الجمعِ؛ تعظيمًا للمُلكِ؛ كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٩]، وهذا استعمالٌ مُطَّرِدٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٤٢-٤٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٤٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٦٤)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٩).

اختار ابنُ جرير، والزَّجَّاج، والواحدي، والبغوي، والقرطبي، أنَّ القائلَ هو فرعونُ، يُخاطِبُ بذلك ملأَه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٤٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٢/ ٣٦٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٠٦)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢١٩)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٥٧).

وقيل: هو مِن كلامِ الملأ بعضِهم إلى بعضٍ يتشاورون فيما بينهم ما يَفعلون بموسى عليه السَّلامُ. وهذا اختيارُ ابن عَطيَّةَ، وظاهر اختيار السعدي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٩).

وقال القرطبيُّ: (أي: قال فِرعونُ: فماذا تأمرون؟ وقيل: هو من قولِ الملأ، أي: قالوا لفرعونَ وحدَهُ: فماذا تأمرون؟ كما يخاطَبُ الجبَّارون والرُّؤساء: ما ترون في كذا؟ ويجوز أن يكونَ قالوا له ولأصحابِه). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٥٧).

﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ﴾.

أي: قال الملأُ لفرعونَ: أخِّرْ موسى وأخاهُ هارونَ، وأمهِلْهما[1].

﴿وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾.

أي: وابعَثْ- يا فرعونُ- في مُدُنِ مملكتِكَ أُناسًا[2] يَحشُدونَ منها السَّحرةَ[3].

﴿يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ١١٢﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قولِهِ تعالى: ﴿سَٰحِرٍ﴾ قِراءتانِ:

١- قِراءة ﴿سَحَّارٍ﴾ على وَزْنِ (فَعَّالٍ)، وهو مِن أبنيةِ المُبالَغةِ، فـ(سحَّار) أشدُّ مُبالَغةً في الوَصْفِ من (ساحر)؛ إذْ تدُلُّ على بُلوغِهِ النِّهايةَ في عِلْمِ السِّحرِ، وتدُلُّ على تَكريرِ الفِعْلِ، وعلى أنَّ ذلك ثابتٌ لهم فيما مَضَى مِنَ الزَّمانِ[4].

٢- قِراءة ﴿سَٰحِرٍ﴾، وهي اسْمُ فاعلٍ من سَحَرَ[5].

﴿يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ١١٢﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٩).

(٢) قال الماورديُّ: (قال ابنُ عبَّاسٍ: «هُمْ أصحابُ الشُّرَطِ»، وهو قولُ الجماعةِ). ((تفسير الماوردي)) (٢/ ٢٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٩).

(٤) قرأ بها حمزةُ والكسائيُّ وخلَف. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤١٦)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٦٠)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٩١)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٤٧١-٤٧٢).

(٥) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧٠).
ويُنظر: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤١٦)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٤٧١-٤٧٢).

أي: يَجيئوا لك من سائرِ البِلادِ بالسَّحَرةِ المَهَرَةِ الَّذين بلَغوا النِّهايةَ في فَنِّ السِّحْرِ؛ ليُعارِضوا ما جاءَ به موسى[1].

كما قال تعالى حاكيًا قولَ فرعونَ لِموسى عليه السَّلامُ: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى * فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ﴾ [طه: ٥٧-٥٨].

الفوائدُ العِلْمِيَّةُ واللَّطائفُ:

١- حِكمةُ بَدءِ قِصَّةِ موسى عليه السلام بذِكرِ نَتيجَتِها، والعبرةِ المقصودةِ منها، في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ هي أن تكونَ مُتَّصلةً بما يُناسِبُها من العِبرةِ في القَصَص التي قَبلَها، مِن حيثُ إهلاكُ مُعاندي الرُّسُل- عليهم السَّلامُ- جُحودًا واستكبارًا، وقد ذُكِرَت هذه العبرةُ بعد جملةِ تلك القَصَص؛ لتَشابُهِها مبدأً وغايةً، وقصَّةُ موسى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم طويلةٌ، فهي تُساويها في هذا من حيثُ رسالتُه إلى فِرعونَ ومَلَئِه فقط، وفيها عِبَرٌ أخرى فيما تُشابِهُ به أمْرَ خاتَمِ الرُّسُل صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن حيث إرسالُه إلى بني إسرائيلَ، وإرسالُ محمَّدٍ خاتَمِ النبيِّينَ إلى العَربِ وسائِر البَشرِ، وتوفيقُ اللهِ قومَهما للإيمانِ، ونَشر شَريعَتِهما فيمن أُرسِلا إليهم، إلى غيرِ ذلك؛ ولذلك ذكَرَ في أواخِرِها تبشيرَ موسى، وكذا عيسى، بالنبيِّ الأمِّيِّ الخاتَمِ محمَّدٍ، صلواتُ اللهِ عليهم أجمعينَ[2].

٢- شأْنُ الرُّسلِ ألَّا يَبتَدئوا بإظهارِ المعجزاتِ؛ صَوْنًا لِمَقامِ الرِّسالةِ عن تعريضِه للتَّكذيبِ، يُبيِّنُ ذلك قوْلُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٨).

رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾؛ فأَظْهَرَ موسى- عليه السَّلامُ- الاستعدادَ للتَّبيينِ على ذلك الصِّدْقِ بالبراهينِ أو المعجزةِ، شريطَةَ أنْ يطلبَها فرعونُ(١).

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وفي اختيارِ صِفةِ رَبِّ العالَمينَ في الإعلامِ بالمُرْسِلِ عِدَّةُ لَطائِفَ:

منها: أنَّ مَنْ كان مُرْسَلًا مِنْ جِهَةِ مَنْ هو رَبُّ العالَمينَ أَجمَعينَ فهو حَقيقٌ بالقَبولِ لِمَا جاءَ به، كما يَقولُ مَنْ أَرْسَلَهُ المَلِكُ في حاجةٍ إلى رَعِيَّتِهِ: أنا رسولُ الملِكِ إليكم، ثمَّ يَحْكي ما أُرْسِلَ به؛ ففي ذلك مِن تَربيةِ المَهابةِ، وإدخالِ الرَّوْعَةِ ما لا يُقادَرُ قَدْرُه(٢).

ومنها: الإبطالُ لاعتقادِ فرعونَ أنَّه رَبُّ مِصْرَ وأَهْلِها؛ فإنَّه قال لهم: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، فلمَّا وَصَفَ موسى مُرْسِلَه بأنَّه ربُّ العالَمِينَ شَمِلَ فِرعونَ وأهلَ مملكتِهِ؛ فتَبْطُلُ دَعْوى فِرعونَ أنَّه إلهُ مِصْرَ بطريقِ اللُّزومِ، ودخَلَ في ذلك جميعُ البِلادِ والعِبادِ الَّذينَ لم يكُنْ فِرعونُ يَدَّعي أنَّه إلهُهُم؛ مِثْلُ الفُرْسِ والآشوريِّينَ(٣).

ومنها: أنَّ ربَّ العالَمين هو مُرَبِّي جَميعِ خَلْقِهِ بأنواعِ التَّدابيرِ الإلهيَّةِ، الَّتي من جُمْلتِها أنَّه لا يترُكُهم سُدًى، بل يُرسِلُ إليهم الرُّسلَ مُبشِّرينَ ومُنذرينَ، وهو الَّذي لا يَقْدِرُ أَحَدٌ أنْ يتجرَّأَ عليه، ويَدَّعِيَ أنَّه أرْسَلَه ولم يُرْسِلْه(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٦٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٩).

٤- في قول موسى عليه السَّلامُ: ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ إيماءٌ إلى أنَّهم مَرْبوبونَ، وأنَّ فرعونَ ليس ربًّا ولا إلهًا، وإلى أنَّ البيِّنةَ ليسَتْ من كَسْبِ موسى، ولا ممَّا يَستقِلُّ به عليه السَّلامُ(١).

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾، ما أَعْجَبَ أمْرَ هذَيْنِ الخارقَيْنِ! أحدُهما في نفسِهِ وذلك اليَدُ البيضاءُ، والآخَرُ في غيرِ نفسِهِ وهي العصا، وجمَعَ بِذَيْنِكَ تَبَدُّلَ الذَّواتِ وتبدُّلَ الأعراضِ، فكانا دالَّيْنِ على جوازِ الأمرَيْنِ، وأنَّهما كِلاهما ممكِنُ الوُقوعِ(٢).

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾، في ذِكْرِ ﴿لِلنَّاظِرِينَ﴾- أي: للنُّظَّارِ- تنبيهٌ على عِظَمِ بَياضِ يدِهِ عليه السَّلامُ؛ لأنَّه لا يَعْرِضُ لها للنُّظَّارِ إلَّا إذا كان بَياضُها عجيبًا، خارجًا عَنِ العادةِ، يَجتمِعُ النَّاسُ إليه، كما يَجتمِعُ النُّظَّارُ للعجائبِ(٣).

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ يدُلُّ على أنَّ السَّحَرةَ كانوا كثيرينَ في ذلك الزَّمانِ(٤).

٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ دلَّ على أنَّ مُعْجِزَةَ كُلِّ نَبِيٍّ في زَمانِه كانت بما يُناسِبُ أهلَ ذلك الزَّمانِ فَمُوسَى عليه السَّلامُ كانت مُعْجِزَتُه مِمَّا يُناسِبُ أهلَ زمانِه، وكانوا سَحَرَةً أذكِياءَ، فبُعِثَ بآياتٍ بَهَرَتِ الأبصارَ، وخَضَعَتْ لها الرِّقابُ، ولمَّا كانَ السَّحَرَةُ خَبيرينَ بفُنونِ السِّحْرِ، وما يَنْتَهي إليه، وعايَنوا ما عايَنوا مِن الأمرِ

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٩/ ٢٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٣١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ١٣٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٣٢).

الباهرِ الهائلِ، الَّذي لا يُمْكِنُ صدورُه إلَّا عمَّن أيَّدَه اللَّه وأجرَى الخارِقَ على يَدَيْه تصديقًا له أسْلَموا سِراعًا، ولم يتَلَعْثَموا[1].

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ كلامٌ مبتدأٌ مسوقٌ لتفصيلِ ما أُجمل فيما قَبْلَه من كيفيَّةِ إظهارِ الآياتِ، وكيفيَّةِ عاقبةِ المفسِدِين[2].

- وفيه مناسبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ فعطَف هنا بالواو، ولم يَفصِلْ أو يعطِف بالفاءِ كما في سُورة طه؛ حيثُ قال بعدَ أمْرِ موسى بالذَّهابِ مع أخيه هارونَ إلى فِرعونَ، وتَبليغِه الدَّعوةَ، مُبيِّنًا كيف كان امتثالُهما للأمرِ:﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [طه: ٤٨]؛ فجاء به مفصولًا على وجهِ الاستئنافِ البيانيِّ غيرَ مَوصولٍ بالواو، ولا بـ«أو» ولا بالفاءِ، ووجهُ العَطفِ بالواوِ هنا: أنَّه قد قفَّى في قِصَّةِ موسى هنا على ذِكرِ إرسالِه إلى فِرعون وملئه بذِكرِ نتيجةِ هذا الإرسالِ وعاقبتِه بالإجمالِ، وهو قوله تعالى: ﴿فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾، وبُدِئتِ القصةُ بَعدَه بتفصيل ذلك الإجمالِ ومُقدِّمات تِلك النتيجة، فكان المناسبُ أن يُعطَف عليها، لا أنْ يُستأنَف استئنافًا بيانيًّا؛ لِمَا هو ظاهرٌ مِن الاشتراكِ بين المقدِّمات والنتيجةِ، أو بين التفصيلِ والإجمالِ، وأنْ يكون العطفُ بالواوِ لا بالفاء؛ لأنَّ الفاءَ تدلُّ على التعقيبِ والترتيبِ، وهو لا يناسبُ هنا؛ لأنَّه يَقتضي أن تكونَ المقدِّماتُ متأخِّرةً عن النتيجةِ، وذلك باطلٌ بالبداهةِ؛ فتعيَّن أن يكونَ العطفُ بالواوِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٣٣)، ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٢/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٧).

- وقوله: ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فيه حِكاية كلام موسى بِصِيغةِ التأكيدِ بحَرْفِ (إنَّ)؛ لأنَّ المُخاطَب مَظنَّةُ الإنكارِ، أو التردُّد القويِّ في صِحَّةِ الخبرِ(١).

٢- قوله: ﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾

- قولُه: ﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ فيه تضمينٌ، حيث ضُمِّنَ ﴿حَقِيقٌ﴾ مَعْنَى (حَرِيص)؛ ليُفيدَ أنَّه مَحْقوقٌ بقولِ الحقِّ، وحريصٌ عليه(٢). وذلك على أحدِ أوجهِ التأويلِ.

- قولُه: ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ استئنافٌ مُقرِّرٌ لما قبله، من كونه رسولًا من ربِّ العالمين، وكونِه حقيقًا بقولِ الحقِّ، وفيه تعريضٌ بأنَّ فرعون ليس ربًّا لهم، بل ربهم هو الذي جاء موسى بالبيِّنةِ مِن عِندَه(٣).

- وتنكيرُ (بيِّنةٍ) للتَّفخيمِ والتَّعظيمِ، أي: قد جِئْتُكم ببيِّنةٍ عظيمةِ الشَّأنِ، ظاهرةِ الحُجَّةِ في بيانِ الحَقِّ(٤).

- و﴿مِنْ﴾ على القولِ بأنَّها مُتعلِّقةٌ بمَحذوفٍ وقَعَ صِفةً لـ(بيِّنةٍ)؛ فإنَّها مُفيدةٌ لفخامتِها الإضافيَّةِ المؤكِّدةِ لفخامتِها الذاتيَّة، المستفادَة من التنوينِ التفخيميِّ(٥).

- وإضافةُ اسمِ الربِّ إلى المخاطَبين بعد إضافتِه فيما قبله إلى (العالَمين)؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٨).
(٢) يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٣٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٥/ ١٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٥٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٥٨).

لتأكيدِ وجوبِ الإيمان به(١).

٣- قوله: ﴿قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ استئنافٌ وقَع جوابًا عن سؤال يَنساقُ إليه الكلامُ؛ كأنه قيل: فماذا قال فرعونُ له عليه السَّلام حِين قال له ما قال؟ فقيل: ﴿قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ...﴾(٢).

٤- قوله: ﴿قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ فيه مناسبةٌ حسنة، حيثُ قال هنا في الأعراف: ﴿قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ فنسَبَ القَولَ للمَلأِ، وقال في سورةِ الشُّعَراءِ: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء: ٣٤] فنَسَبه لفِرعون، فأخبَرَ في الأولى أنَّ قائلَ ذلك الملأُ من قومِه، وفي الثَّانيةِ أنَّ فرعونَ هو القائلُ ذلك لملئِه؛ ووجهُ ذلك: أنَّ قولَ الملأِ فيما حَكاهُ اللهُ تعالى في سورةِ الأعرافِ قولُ فرعونَ، أدَّاهُ عنه رؤساءُ قومِهِ إلى عامَّةِ أصحابِهِ، وإنَّما اخْتَصَّتْ سورةُ الأعرافِ بحكايةِ ما قال الملأُ، وسورةُ الشُّعَراءِ بما قالَهُ فرعونُ؛ لأنَّ أوَّلَ مَنْ رَدَّ قولَ موسى عليه السَّلامُ فرعونُ، ثمَّ مالأَهُ عليه مَلَؤُهُ، وهو ما حَكاهُ اللهُ تعالى في سورةِ الشُّعَراءِ واقْتَصَّ حالَهُ، حيث أخبَرَ عنه بما قاله: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٨]، إلى أنِ انتهتِ الآياتُ إلى القِصَّةِ المودَعةِ ذِكْرَ السَّحَرَةِ، فقال فرعونُ للملأِ حَوْلَهُ ما أدَّوْهُ عنه إلى غيرِهم، وسورةُ الشُّعَراءِ مكِّيَّةٌ كسُورةِ الأعرافِ، وترتيبُ الاقتصاصِ يَقتضي أنْ تكونَ قَبْلَها، وفي السُّورةِ الثَّانيةِ أخبَرَ عمَّا أدَّاهُ عنه ملؤُهُ إلى النَّاسِ الَّذينَ أجابوهُ بأنْ ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾، فكان قولُ فرعونَ للملأِ حَوْلَهُ سابقًا قولَ الملأِ الَّذينَ أدَّوْا إلى غيرِهم قولَهُ، فذُكِر حيثُ قُصِدَ اقتِصاصُ أوَّلِ مَن دَعاه موسى عليه السَّلامُ إلى طَاعةِ اللهِ تعالى(٣). وقيل: لَمَّا تَقدَّم في سُورة الأعراف قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٤٧-٦٤٩)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٢٦-١٢٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٢٠٣).

مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾، فوقَعَ ذِكرُ الملأ مبعوثًا إليهم مع فِرعون؛ ناسَبَ ذلك أنْ يُذكَروا في الجوابِ؛ حتى يكونَ في قُوَّة أنْ لو قيل: بعث إليهم وخُوطِبوا فقالوا، ولم يكُن ليُناسِبَ: بعث إليهم فقال فرعون. ولَمَّا تَقدَّم في سُورة الشعراء قولُه: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ﴾، ثم جرَى ما بعدَ المحاورةِ ومراجعةِ الكلام بَينَ موسى عليه السلام وفرعون، ولم يقعِ الملأُ هنا ناسَبَ ذلك نِسبةُ القولِ لِفرعونَ؛ لأنَّه هو الذي راجَع وخُوطِب؛ فجاء كلٌّ على ما يُناسِب[1].

٥- قوله: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ فيه مناسبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال اللهُ تعالى هُنا في سورةِ الأعرافِ: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾، وقال في سورةِ الشُّعَراءِ: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ﴾ [الشعراء: ٣٥]، بزيادة ﴿بِسِحْرِهِ﴾؛ وذلك لأنَّه لَمَّا أَسْنَدَ الفِعْلَ في سورةِ الشُّعَراءِ إلى فِرعونَ، وحَكى ما قالَهُ، وأنَّه قال للملأِ حولَهُ من قومِهِ: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء: ٣٤]، وكان فرعونُ أشدَّهم تمرُّدًا، وأوَّلَهم تجبُّرًا، وأبلغَهم فيما يُرَدُّ به الحقُّ، كان في قوله: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ [الشعراء: ٣٥] ذِكْرُ السَّبَبِ الَّذي يَصِلُ به إلى الإخراجِ، وهو: ﴿بِسِحْرِهِ﴾، فأَشْبَعَ المَقالَ بعْدَ قولِهِ: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء: ٣٤] بأنْ ذَكَرَ ﴿بِسِحْرِهِ﴾. وأمَّا في الأعرافِ فلم يذكُرْ فيه ﴿بِسِحْرِهِ﴾ لأنَّه مِن قولِ الملأِ، حيثُ قال: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾، والملأُ لم يبلُغوا مَبْلَغَ فرعونَ في إبطالِ ما أَوْرَدَهُ موسى عليه السَّلامُ، ولم يَجْفوا في الخِطابِ جَفاءَهُ، فتناولَتِ الحِكايةُ ما قاله فرعونُ على جِهتِه بتكريرِ لَفْظِ السِّحْرِ من فِعْلِهِ بعدما أخرَجَه بصِفتِه، حيثُ قال: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾[2].

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢١٤- ٢١٥).
(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٥١-٦٥٣)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢١٥-٢١٦).

وقيل: إنَّ المُناسَبةَ أنَّ آيةَ الأعرافِ بُنِيَتْ على الاقتصارِ، ولأنَّ لَفْظَ السَّاحِرِ في قوله قَبْلَ الآيةِ هنا: ﴿لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ يدلُّ على السِّحْرِ بخِلافِ الآيةِ في سُورةِ الشُّعراءِ[1].

٦- قوله: ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حاشِرِين﴾ فيه مناسبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال اللهُ تعالى هُنا في سورةِ الأعرافِ: ﴿وَأَرْسِلْ﴾، وقال في سورةِ الشُّعَراءِ: ﴿وَابْعَثْ﴾ [الشعراء:٣٦]؛ قيل: هذا الاختِلافُ في التعبيرِ مَبْنِيٌّ على التَّرتيبِ الَّذي استقرَّ عليه المصحَفُ، فـ(أَرْسِلْ) أخصُّ في بابِ الإرسالِ مِنَ البَعْثِ؛ إذْ لا يُقالُ: (أَرْسِلْ) إلَّا فيما كان توجيهًا فيه معنى الانتقالِ، أمَّا (بَعَثَ) فأَوْسَعُ؛ فإنَّه يقَعُ بمعنى الإرسالِ وبمعنى الإحياءِ؛ ففيه اشتراكٌ، فلمَّا كان الإرسالُ أخصَّ وَقَعَ الإخبارُ به أوَّلًا، ثمَّ وَقَعَ ثانيًا بالبَعْثِ؛ تَنويعًا للعِبارةِ، وعلى التَّرتيبِ في مَوْضِعِ اللَّفظِ المُطَّرِدِ مِنَ القرآنِ، ولا يُمكِنُ على ما تقرَّرَ من ذلك العَكْسُ[2]. وقيل: إنَّ (أَرْسِل) و(ابْعَثْ) بمعنًى واحدٍ؛ وإنَّما عُبِّر بكلٍّ واحدٍ في مَوضِعٍ؛ تَكثيرًا للفائدةِ في التَّعبيرِ عن المرادِ بلَفظَيْنِ متساويَيْنِ معنًى[3].

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٢٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٢٠٣).
(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٥٤-٦٥٥)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢١٦).
(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٢٠٤).

الآيات (١١٣-١١٦)

﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ﴿١١٦﴾ ﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾: أي: أرْهبوهم، أو أخافوهم، أو استَدْعَوْا رَهبتَهم، وهي الخوفُ، والرَّهبةُ: مَخافةٌ مع تَحَرُّزٍ واضْطِرابٍ، وأَصْلُ (رهب): يدُلُّ على خَوْفٍ[1].

مُشْكِلُ الإعرابِ:

قولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾

﴿إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾: (أنْ) في الموضعَينِ حَرْفٌ مَصدريٌّ. و﴿أَنْ تُلْقِيَ﴾ مَصْدَرٌ مُؤَوَّلٌ، وما بَعدَه معطوفٌ عَلَيهِ، وفي محلِّ ﴿أَنْ تُلْقِيَ﴾ الإعرابيِّ ثلاثةُ أَوْجُهٍ: الأوَّلُ: النَّصْبُ بِفِعْلٍ مُقدَّرٍ، أي: اخترْ إمَّا إلقاءَك وإمَّا إلقاءَنا. الثَّاني: الرَّفعُ على أنَّه خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ، والتقديرُ: أَمْرُكَ إمَّا إلقاؤُك وإمَّا إلقاؤُنا. الثَّالثُ: أنْ يكونَ مبتدأً خبرُهُ مَحذوفٌ، والتَّقديرُ: إمَّا إلقاؤُك مَبدوءٌ به، وإمَّا إلقاؤُنا مبدوءٌ به[2].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٥).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٩٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٩٢-٥٩٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٤١٥).

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ السَّحَرَةَ الَّذينَ جُمِعوا مِنَ المدائنِ، لَمَّا جاؤوا فرعونَ قالوا له: هل ستُعْطينا أجْرًا إنْ نحن غَلَبْنا موسى، قال لهم: نَعَمْ، وستكونون أيضًا مِنَ المُقرَّبينَ منِّي.

فتوجَّهوا بالخِطابِ إلى موسى فخيَّروه بَيْنَ أنْ يُلْقِيَ عصاه، أو يكونوا هُمْ أوَّلَ مَنْ يُلقي، فأَمَرهم موسى أنْ يَبدؤوا هُمْ بالإلقاءِ، فلمَّا ألقَوْا سَحَروا أَعْيُنَ النَّاسِ، وأخافوهم، وجاؤوا بسِحْرٍ عظيمٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ قراءتانِ:

١- قراءة ﴿إِنَّ﴾ على لَفْظِ الخبرِ، والمُرادُ به الإلزامُ؛ وذلك أنَّهم ألزموا فرعونَ أنْ يجعلَ لهم أجْرًا إنْ غلَبوا، وقيل: إنَّهم قَطَعوا ذلك لأنفسِهم في حُكْمِهم إنْ غلَبوا[(١)].

٢- قراءة ﴿أَإِنَّ﴾ استفهامٌ، على معنى الاستخبارِ، أي: استَخْبَروا فرعونَ: هل يجعلُ لهم أجرًا إنْ غلَبوا، أو لا يجعلُ ذلك لهم[(٢)]؟

(١) قرأ بها نافعٌ وابنُ كثيرٍ وأبو جعفرٍ وحفصٌ. يُنظر: ((الكشف)) لمكي (١/ ٤٧٢)، ((النشر)) لابن الجزري (١/ ٣٧٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤١٦-٤١٧)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٤٧٢).

(٢) قرأ بها الباقون، إلَّا أنَّ أبا عمرو يُلين الثانية، ويُدخل بين الهمزتين ألِفًا، وهشام يُحقِّق =

﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ ﴾.

أي: وجاء السَّحَرةُ الَّذينَ جُمِعوا مِنَ المُدُنِ إلى فرعونَ، فلمَّا حضَروا عِنده سألوه: هل ستَمنَحُنا عطاءً عظيمًا إنْ تغلَّبْنا على موسى[1]؟

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ [الشعراء: ٤١].

﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾.

أي: قال فرعونُ للسَّحرةِ: نَعَمْ، لكم منِّي ذلك، ولكم أيضًا فَوقَ ما سألْتُم؛ أنْ أَجعلَكم مِنَ الَّذينَ أُقرِّبُهم منِّي[2].

﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾.

أي: قال السَّحرةُ: يا موسى، اختَرْ إمَّا أنْ تُلقيَ عصاكَ أوَّلًا، أو نُلقيَ قَبْلَكَ ما معنا مِنَ العِصيِّ والحِبالِ[3].

= الهمزتين، ويدخل بين الهمزتين ألفًا. يُنظر: ((الكشف)) لمكي (١/ ٤٧٢)، ((النشر)) لابن الجزري (١/ ٣٧٢).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤١٦-٤١٧)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٤٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٥٢)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٢٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٥٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٤١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٤٥- ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٥٥)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٤٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٥٥)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٧٦).=

كما قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ [طه: ٦٥].

﴿ قَالَ أَلْقُوا۟ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ﴾.

﴿ قَالَ أَلْقُوا۟ ﴾.

أي: قال موسى للسَّحَرةِ: أَلْقوا أنتم أوَّلًا ما ستُلقونَه[1].

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ [يونس: ٨٠].

﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ ﴾.

أي: فلمَّا أَلْقى السَّحرةُ حِبالَهم وعِصيَّهم، خَيَّلوا إلى الأبصارِ بسِحْرِهم أنَّها حيَّاتٌ تسعَى في الحقيقةِ[2].

= قال السعدي: (فلمَّا حضَروا مع موسى بحَضْرةِ الخَلْقِ العظيمِ ﴿قَالُوا﴾ على وجه التَّألِّي وعدمِ المبالاةِ بما جاء به موسى: ﴿يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ﴾ ما مَعَك ﴿وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾). ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٩- ٣٠٠).

وقال الشنقيطيُّ: (يَعْنونَ: إنْ أَلْقَيْتَ قَبْلَنا غلَبْناكَ، وإنْ أَلْقَينا قَبْلَكَ غلَبْناكَ، فإنْ شئتَ فتقدَّمْ، وإنْ شئتَ فتأخَّرْ). ((العذب النمير)) (٤/ ٧٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٥٦)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٤٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٧٩).

قال ابن تيميَّةَ: (هذا يَقتضي أنَّ أَعْيُنَ النَّاسِ قد حصَلَ فيها تغيُّرٌ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤-١٥]، فقدْ عَلِموا أنَّ السِّحرَ يُغيِّرُ الإحساسَ، كما يوجِبُ المرضَ والقتلَ، وهذا كلُّه من جنسِ مقدورِ الإنسِ؛ فإنَّ الإنسانَ يَقدِرُ أنْ يفعلَ في غيرِهِ ما =

كما قال تعالى: ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤].

﴿وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾.

أي: وأخافَ السَّحرةُ النَّاسَ، وأفزعوهم بما خَيَّلوا إلى أعيُنِهم مِنَ الحيَّاتِ الكثيرةِ الضَّخمةِ الَّتي تَسْعى(١).

﴿وَجَاءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾.

أي: وجاءَ السَّحرةُ بتخييلِ عظيمِ الشَّأنِ عِند مَنْ يَراهُ مِنَ النَّاسِ، ذي تأثيرٍ كبيرٍ في أَعْيُنِهم، وقد أدخَلَ الخوفَ الشَّديدَ في نُفوسِهم(٢).

= يُفسِدُ إدراكَه، وما يُمرِضُه ويقتله، فهذا مع كونِهِ ظلمًا وشرًّا هو من جنسِ مقدورِ البشَرِ). ((النبوات)) (٢/ ١٠٥٣).

وقال الشنقيطي: (دلَّ قوله: ﴿أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ على أنَّ سحرَهم من جنسِ الشَّعْبَذاتِ؛ لأنَّهم جاؤوا بسحرٍ أخَذَ بعُيونِ النَّاسِ حتَّى صارتْ ترى تخييلاتٍ ليستْ بحقيقيَّةٍ، وترى العِصِيَّ والحبالَ تظنُّها حيَّاتٍ- ثعابينَ- من أضخم الحيَّاتِ، بالمئاتِ والآلافِ مُكَدَّسَةٍ كالجبالِ، يركَبُ بعضُها بعضًا، حتَّى خافَ الخَلْقُ منها خوفًا شديدًا، فقوله هنا: ﴿أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ يدُلُّ على أنَّه تخييلٌ بالنِّسبةِ للعَينِ لا حقيقةٌ). ((العذب النمير)) (٤/ ٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٥٦)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٢٨٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٨٠).

قال ابن عاشور: (والاسترهابُ: طلَبُ الرَّهَبِ، أي: الخوفِ، وذلك أنَّهم عزَّزوا تخيُّلاتِ السِّحرِ بأمورٍ أُخْرى تُثيرُ خوفَ النَّاظرينَ؛ لِتزدادَ تمكُّنُ التَّخيُّلاتِ من قلوبِهم، وتلك الأمورُ أقوالٌ وأفعالٌ توهِمُ أنْ سيقَعَ شيءٌ مُخيفٌ كأنْ يقولوا للنَّاسِ: خُذوا حِذْرَكم وحاذِروا، ولا تقتربوا، وسيقع شيءٌ عظيمٌ، وسيحضُرُ كبيرُ السَّحرةِ، ونحوِ ذلك مِنَ التَّمويهاتِ، والخُزعبِلاتِ، والصِّيَاحِ، والتَّعجيبِ، ولك أنْ تجعلَ السِّينَ والتَّاءَ في ﴿وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ للتَّأكيدِ، أي: أرْهبوهم رهبًا شديدًا، كما يُقَالُ: استكبَرَ، واستجابَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٥٦)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٢٨١)، ((تفسير المراغي)) (٩/ ٢٩).

قال الشنقيطي: (فإنْ قيل: قوله في طه: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ﴾ [طه: ٦٦]، وقوله في =

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- السِّحرُ لا يؤثِّرُ بقلبِ الأعيانِ إلى أعيانٍ أُخرَى[١]، مما يدلُّ على ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ فلو كان السَّحرةُ قادرينَ على قلبِ الأعيانِ، لَمَا احتاجوا إلى طلَبِ الأجْرِ والمالِ من فرعونَ؛ لأنَّهم لو قَدَروا على قلبِ الأعيانِ فلِمَ لم يَقلِبوا التُّرابَ ذهَبًا؟! ولِمَ لَمْ يَنقُلوا مُلكَ فرعونَ إلى أنفُسِهم، ولِمَ لَمْ يجعلوا أنفُسَهم مُلوكَ العالَمِ، ورؤساءَ الدُّنيا[٢]؟!

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ يدُلُّ على أنَّ كُلَّ الخَلْقِ كانوا عالِمينَ بأنَّ فرعونَ كان عبْدًا ذليلًا مَهينًا عاجِزًا، وإلَّا لَمَا احتاجَ إلى الاستعانةِ بالسَّحرةِ في دَفْعِ موسى عليه السَّلامُ[٣].

٣- ليس في أمْرِ موسى عليه السَّلامُ إيَّاهم بالتَّقدُّمِ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ أَلْقُوا﴾ ما يَقتضي تسويغَ مُعارَضةِ دعوةِ الحقِّ؛ لأنَّ القومَ كانوا مَعروفينَ بالكُفْرِ بما جاء به موسى، فليس في مُعارَضَتِهم إيَّاهُ تجديدُ كُفْرٍ، ولأنَّهم جاؤوا مُصمِّمينَ على مُعارَضَتِهِ، فليس الإذْنُ لهم تسويغًا، ولكنَّهم خيَّروه في التَّقدُّمِ

= الأعراف: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾، الدَّالَّانِ على أنَّ سحْرَ سَحَرةِ فرعونَ خيالٌ لا حقيقةَ له، يُعارِضُهما قوله في الأعراف: ﴿وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾؛ لأنَّ وصْفَ سِحرِهم بالعِظَمِ يدُلُّ على أنَّه غيرُ خيالٍ، فالَّذي يَظهر في الجوابِ- والله أعلم- أنَّهم أخَذوا كثيرًا مِنَ الحبالِ والعِصيِّ، وخيَّلوا بسِحرِهم لأعيُنِ النَّاسِ أنَّ الحبالَ والعصيَّ تسعى، وهي كثيرةٌ، فظنَّ النَّاظرونَ أنَّ الأرضَ مُلِئَتْ حيَّاتٍ تسعى؛ لكثرةِ ما ألقَوْا مِنَ الحبالِ والعِصيِّ، فخافوا من كثرتِها، وبتَخْييلِ سَعْيِ ذلك العددِ الكثيرِ، وَصَفَ سحرَهم بالعِظَمِ)). ((أضواء البيان)) (٤/ ٣٦).

(١) يُنظر: ((الفصل في الملل والأهواء والنحل)) لابن حزم (١/ ٨٨) (٥/ ٢)، ((تفسير البغوي)) (١/ ١٤٨)، ((القول المفيد)) لابن عثيمين (١/ ٤٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٣٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أو أن يتقدَّموا، فاختار أنْ يتقدَّموا؛ لِحِكْمَةٍ إلهيَّةٍ تَزيدُ المعجزةَ ظُهورًا، ولأنَّ في تقديمِهِ إيَّاهم إبلاغًا في إقامةِ الحُجَّةِ عليهم، ولعلَّ اللهَ أَلْقى في نفسِهِ ذلك، وفي هذا دليلٌ على جوازِ الابتداءِ بتقريرِ الشُّبهةِ للَّذي يَثِقُ بأنَّه سيدفَعُها[1]. ومِن الحِكْمةِ في أمْرِه لهم بالتَّقدُّمِ - والله أعلم - لِيَرى النَّاسُ صَنيعَهم ويتأمَّلوه، فإذا فُرِغَ من بَهْرَجِهِم، جاءَهم الحقُّ الواضحُ الجَلِيُّ بعْدَ التَّطلُّبِ له، والانتظارِ منهم لمجيئِه، فيكون أَوْقَعَ في النُّفوسِ، وكذا كان[2].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ فيه ما يدُلُّ على رغبتِهم في أنْ يُلقوا قَبْلَه من تأكيدِ ضَميرِهم المُتَّصِلِ بالمُنْفَصِلِ وتعريفِ الخبرِ، أو تعريفِ الخبرِ وإقحامِ الفَصْلِ، وقد سوَّغَ لهم موسى ما تَراغَبوا فيه؛ ازدِراءً لِشأنِهم، وقِلَّةَ مُبالاةٍ بهم، وثِقَةً بما كان بصَدَدِهِ مِنَ التَّأييدِ السَّماوِيِّ، وأنَّ المعجزةَ لنْ يغلِبَها سِحْرٌ أبدًا[3].

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ * قَالَ أَلْقُوا﴾، أَعادَ كلمةَ ﴿أَلْقُوا﴾ وحدَها؛ للإيذانِ بعدمِ مُبالاتِهِ، فهذه الكلمةُ الواحدةُ تبدو فيها قِلَّةُ المُبالاةِ، وتُلْقي ظِلَّ الثِّقةِ الكامنةِ وراءَها في نَفْسِ موسى[4].

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾

- قوله: ﴿قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، منوطٌ بسُؤالٍ نَشأَ مِن حِكايةِ مجيءِ السَّحرةِ، كأنَّه قيل: فماذا قالوا له عندَ مجيئِهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٤٧-٤٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٤٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٥٧)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٣٤٩).

فِرعونَ، وحين مُثُولِهم بينَ يَدَيْهِ؟ فقيل: ﴿قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا...﴾؛ ولذلك لم يقُل: (وجاءَ السَّحرةُ فرعون فَقالوا)؛ لأنَّه على تَقديرِ سائِلٍ سأَلَ: ما قالوا إذ جاؤوه؟ فأُجيب بقولِه: ﴿قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا...﴾[١].

- وتنكيرُ الأجرِ في قولِه: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ للتَّعظيم[٢].

- وقوله: ﴿إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ فيه تأكيدٌ لضمير (كنَّا) بالضَّمير (نحن)؛ إشعارًا بجدارتِهم بالغَلبِ، وثِقتِهم بأنَّهم أعلمُ النَّاسِ بالسِّحرِ؛ فأكَّدوا ضميرَهم؛ لزيادةِ تقريرِ مدلولِه[٣].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيثُ قال اللهُ تعالى هُنا في سورةِ الأعرافِ: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا﴾، وقال في سورة الشُّعَراءِ: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ﴾ [الشعراء: ٤١]؛ وذلك لأنَّه لَمَّا تقدَّم في سورةِ الشُّعراءِ ما شرْحُه أكثَرُ، وما في سورةِ الأعرافِ أَوْجَزُ وأَخْصَرُ، كان قولُه في الأعرافِ: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾ بمعنى ما كان بإزائِهِ في سورةِ الشُّعَراءِ: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ﴾ [الشعراء: ٤١]، فَلَمْ يَحْتَجْ في جوابِ (لَمَّا) إلى (فاء) ولا إلى (واو)، وكذلك هُنا في سورةِ الأعرافِ، لَمَّا قَصَدَ هذا المعنى دَلَّ بحَذْفِ العاطِفِ على هذا القَصْدِ، فكأنَّه قال: فلمَّا جاء السَّحَرةُ فرعونَ قالوا: أَئِنَّ لنا لأجرًا[٤].

٢- قولُه: ﴿قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ فيه مناسبة حسنة، حيث حَكَى اللهُ تعالى هُنا في سورةِ الأعرافِ قولَ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٤٦).

(٤) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٥٩-٦٦٠)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٢٧).

فِرعونَ بقولِه: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾، وفي سورةِ الشُّعَراءِ بقولِه: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٤٢]، بزيادةِ ﴿إِذًا﴾ في الشُّعَراءِ؛ ووجهُ ذلك: أنَّ (إذًا) تقَعُ جوابًا وجزاءً، والمعنى في السُّورتَيْنِ مقصودٌ به الجزاءُ، فوَقَعَ الاكتفاءُ في الأعرافِ بقولِهِ تعالى: ﴿نَعَمْ﴾، والمعنى: نَعَمْ، لكم ما أردْتُم مِنَ الأجْرِ، وزيادةُ التَّقريبِ والحُظْوَةِ، ولا شكَّ أنَّ المعنى: إنْ غلَبْتُم فلَكُم ذلك، فالمعنى على ذلك، ثمَّ وَرَدَ في سورةِ الشُّعَراءِ مُفْصَحًا بالأداةِ المُحْرِزَةِ له، وهي: (إذًا)؛ لِيُناسِبَ بزيادتِها ما مضَتْ عليه سورةُ الشُّعَراءِ مِنَ الاستيفاءِ والإطنابِ، وناسَبَ سُقوطُها في الأعرافِ مقصودَ الإيجازِ في هذه القِصَّةِ[1].

٣- **قوله: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾** استئنافٌ بيانيٌّ؛ كأنه قيل: فماذا فَعَلوا بعد ذلك؟ فقيل: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى...﴾[2].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال اللهُ تعالى هُنا في سُورةِ الأعرافِ: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾، وقال في سورةِ طه: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ [طه: ٦٥]، والمعنى واحدٌ؛ لأنَّ كُلَّ واحدةٍ مِنَ الآيتَيْنِ جَرَتْ على وَفْقِ فواصِلِ تِلك السُّورةِ، ورُؤوسِ آياتِها، فالعكسُ لا يُناسِبُ؛ فاختُصَّتْ كُلُّ سورةٍ بما وَرَدَ فيها[3].

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٢٧-١٢٨)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢١٧-٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٦٠).

(٣) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٦٣-٦٦٤)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢١٨).

الآيات (١١٧-١٢٦)

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ
ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ
ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ
فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟
مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ
رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿تَلْقَفُ﴾: أي: تأكُلُ وتَلْتَهِمُ، وتَلْقَمُ وتَبْتَلِعُ؛ يُقالُ: لَقِفَ الشيءَ وألْقَفَه، وتَلَقَّفَه: تناوَلَه بالحِذْقِ، سواءٌ في ذلك تناوُلُه بالفَمِ أو اليَدِ(١).

﴿يَأْفِكُونَ﴾: أي: يَكذِبونَ ويُزوِّرونَ، والإفْكُ: الكَذِبُ، وأصلُ (أفك): يَدُلُّ على قَلْبِ الشَّيْءِ، وصَرْفِهِ عن جِهَتِه(٢).

﴿وَانْقَلَبُوا﴾: أي: رجَعوا، وانصرَفوا، يُقالُ لِمَنْ كان على شيءٍ ثمَّ رجَع عنه: قدِ انْقَلَبَ على عَقِبِه، وأَصْلُ (قلب): صَرْفُ الشَّيءِ عن وجْهٍ إلى وجْهٍ، أو ردُّه من جِهَةٍ إلى جِهةٍ؛ كقَلْبِ الثَّوْبِ(٣).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦١)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨١).

﴿صَاغِرِينَ﴾: أي: أذلَّاءَ مُهانينَ، أو مُبْعَدينَ؛ فالصَّغارُ: الذِّلَّةُ والـمَهانَة، وأصلُ (صغر): يَدُلُّ على قِلَّةٍ وحَقارةٍ(١).

﴿لَمَكْرٌ﴾: أي: لَصَنيعٌ فيما بَيْنَكم وبَيْن موسى، وأَصْلُ (مكر): الاحْتيالُ والخِداعُ(٢).

﴿مِنْ خِلَافٍ﴾: الخِلافُ: المُخالَفَةُ، والمرادُ بالقَطعِ مِن خِلافٍ: أنْ يُخالِفَ بينَ العُضوينِ في القَطعِ، وذلِك بقَطْعِ اليَدِ اليُمنى والرِّجلِ اليُسرى، أو قَطْعِ اليدِ اليُسرَى والرِّجلِ اليُمنى(٣).

﴿تَنْقِمُ﴾: أي: تَكْرَهُ مِنَّا، وتُنْكِرُ وتَعيبُ؛ يقال: نَقَمَ الشَّيءَ، إذا أنكره؛ إمَّا باللِّسانِ، وإمَّا بالعقوبةِ، وأَصْلُ (نقم): يدُلُّ على إنكارِ شَيءٍ وعَيْبِه(٤).

﴿أَفْرِغْ﴾: أي: أَنزِلْ واصبُبْ علينا؛ كما يُفرَغُ الدَّلْوُ، أي: يُصَبُّ ما فيه، وأصل (فرغ): يَدُلُّ على خُلُوٍّ، وَسَعَةِ ذَرْعٍ(٥).

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه أَوْحى إلى موسى بأنْ يُلْقِيَ عصاهُ بعدَما أَلْقى السَّحرةُ حِبالَهم وعِصِيَّهم، فإذا هي ثُعبانٌ حقيقيٌّ يأكُلُ ما كان أَلْقاهُ السَّحَرةُ ممَّا أَوْهَموا النَّاسَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٠١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٤، ١١٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٣)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٦٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٦١).

كَذِبًا أنَّها حيَّاتٌ، فظَهَرَ حينَها الحقُّ، وبَطَلَ ما كانوا يَعمَلونَ، فغُلِبَ عِندَ ذلك الجَمْعِ السَّحَرةُ وفرعونُ وقومُه، وانصرفوا أذِلَّاءَ حقيرينَ، وسجَدَ السَّحرةُ لرَبِّهم بعَدْ أنْ رَأَوْا عظيمَ قُدْرتِه، وقالوا: آمَنَّا برَبِّ العالَمينَ، ربِّ موسى وهارونَ.

قال فرعونُ للسَّحرةِ: آمَنْتُم له قَبْلَ أنْ أُعطيَكم الإذْنَ بذلك؟! إنَّ هذا الَّذي فعلتُموهُ حيلَةٌ اتَّفَقْتُم مع موسى عليها؛ لِتُخْرِجوا أهلَ هذه المدينةِ منها، فسوف تعلَمونَ ما سأفعَلُ بكم مِنَ العذابِ، لَأُقَطِّعَنَّ من كُلِّ ساحرٍ منكم يدَه ورِجْلَه من جِهتَيْنِ مختلِفتَيْنِ، ثمَّ لَأُصَلِّبَنَّكم كُلَّكم. قال السَّحرةُ الَّذينَ آمَنوا: إنَّا إلى رَبِّنا لَراجِعونَ، وما تُنْكِرُ منَّا يا فرعونُ إلَّا أنَّنا آمَنَّا بآياتِ ربِّنا لَمَّا أَتَتْنا، ثمَّ دعا السَّحرةُ ربَّهم فقالوا: ربَّنا أنزِلْ علينا صَبْرًا، وأَمِتْنا مُسلِمينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾.

أي: وأوحينا إلى موسى بعْدَ أنْ ألْقى السَّحرةُ حبالَهم وعِصِيَّهم: أنْ ألْقِ عصاكَ[1].

كما قال تعالى لموسى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ [طه: ٦٩].

﴿فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قولِه تعالى: ﴿تَلْقَفُ﴾ قراءتانِ:

١- قراءة ﴿تَلْقَفُ﴾، من لَقِفْتُ الشَّيءَ أَلْقَفُهُ لَقْفًا، قيل: هو أَخْذُ الشَّيءِ بحِذْقٍ في الهواءِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٤٩).

(٢) قرأ بها حفص. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧١). =

٢- قراءة ﴿تَلَقَّفُ﴾، قيل: معناه: تَلتَهِمُ العِصِيَّ والحِبالَ الَّتي تُخُيِّلَتْ بِسِحرِ السَّحَرَةِ أنَّها حيَّاتٌ، وقيل: أَصْلُ الكلمةِ: تَتَلَقَّفُ، أي: تُبالِغُ وتتكلَّفُ اللَّقْفَ(١).

﴿فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾.

أي: فألْقى موسى عصاهُ، فانقلَبَتْ في الحقيقةِ ثُعبانًا عظيمًا، يأكُلُ ويبتَلِعُ بسرعةٍ هائلةٍ جميعَ ما ألْقاهُ السَّحرةُ مِنَ الحِبالِ والعِصِيِّ، الَّتي أَوْهَموا النَّاسَ كَذِبًا وافتراءً أنَّها حَيَّاتٌ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه: ٦٩].

﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾﴾.

﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾.

أي: فلمَّا جَرَى ذلك ظهَرَ الحقُّ، وتبيَّنَ لجَميعِ الحاضرينَ أنَّ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ رسولٌ من عِندِ اللهِ ربِّ العالَمينَ(٣).

﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

أي: واضْمَحَلَّ وزالَ ما كان يَقُومُ به السَّحرةُ مِنَ الخِداعِ والكَذِبِ والتَّخْييلِ(٤).

= ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤١٨).

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٤٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٨٢، ٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥٠، ٥١)، ((العذب =

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ * وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٨١- ٨٢].

﴿ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) ﴾.

﴿ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ ﴾.

أي: فغُلِبَ فرعونُ وقومُهُ والسَّحرةُ عِند ذلك الجَمْعِ[1].

﴿وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴾.

أي: وانصَرَفَ فرعونُ وقومُه والسَّحَرةُ[2] أذِلاَّءَ حقيرينَ، بعْدَ أنْ غَلَبَهم موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[3].

﴿ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) ﴾.

= النمير)) للشنقيطي (٤/ ٨٦).

وقال ابن عطيَّةَ: (و﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لفظٌ يَعُمُّ سِحرَ السَّحرةِ وسعْيَ فرعونَ وشِيعتِهِ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦١)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٩٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٨٦- ٨٧).

قال ابن عاشور: (وقد عُطِفَ عليه جُملةُ ﴿فَغُلِبُوا﴾ بالفاءِ؛ لِحُصولِ المغلوبيَّةِ إثْرَ تَلَقُّفِ العَصا لإفْكِهم، و﴿هُنَالِكَ﴾ اسْمُ إشارةِ المكانِ، أي: غُلِبوا في ذلك المكانِ؛ فأفادَ بَداهَةَ مغلوبيَّتِهم وظُهورَها لِكُلِّ حاضِرٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥١).

(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٨٧).

قال ابنُ عطيةَ: (وفي قولِه: ﴿وَانْقَلَبُوا صاغِرِينَ﴾ إن قدَّرنا انقلابَ الجمعِ قبلَ إيمانِ السَّحرة فهم في الضميرِ، وإن قدَّرناه بعد إيمانِهم فليسوا في الضميرِ، ولا لحِقهم صغارٌ يصِفُهم الله به؛ لأنَّهم آمَنوا واستُشْهِدوا رضِي الله عنهم). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٨٧).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا كان الضَّميرُ قَبْلُ في قولِهِ: ﴿فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾ ضَميرًا مُشتركًا، جُرِّدَ المؤمنونَ وأُفْرِدوا بالذِّكْرِ(١).

﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ١٢٠﴾.

أي: ولم يتمالَكِ السَّحرةُ أنفُسَهم بعدَ أنْ رَأَوْا عظيمَ قُدْرَةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وعرَفوا صِدْقَ موسى عليه السَّلامُ، فسقَطوا على وُجوهِهم ساجِدينَ لربِّهم(٢).

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٢١﴾.

أي: قال السَّحرةُ: آمَنَّا بخالِقِ ومالِكِ ومُدبِّرِ كُلِّ شيءٍ، فلا نعبُدُ غيرَه(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٨٤).

قال ابن عطيَّةَ: (قوله تعالى: ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ...﴾ الآياتِ، لمَّا رأى السَّحرةُ من عظيمِ القُدرةِ، وما تيقَّنوا به نُبوَّةَ موسى آمَنوا بقلوبِهم، وانضافَ إلى ذلك الاستِهوالُ والاستِعظامُ والفزعُ من قدرةِ اللهِ تعالى؛ فخرُّوا سجَّدًا للهِ تعالى مُتطارِحينَ وآمَنوا نُطقًا بألسنتِهم). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٤٠).

وقال الشنقيطي: (هُمْ وقتُ إلقائِهم ساجدينَ ليسوا بسَحرةٍ، بل إنَّما هُمْ من عبادِ اللهِ المُكرَمينَ المؤمنينَ الأفاضلِ، ولكنَّه سمَّاهم سَحرةً؛ نظرًا لحالِهم الماضيةِ كما سمَّى البالِغينَ (يتامى)؛ نظرًا لهم في حالِهم الماضيةِ في قوله: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: ٢] كما هو معروفٌ). ((العذب النمير)) (٤/ ٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٦٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٨٨).

قال الشَّوكانيُّ: (وجملةُ ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ مُستأنَفةٌ، جوابُ سؤالٍ مُقدَّرٍ، كأنَّه قيل: ماذا قالوا عِند سجودِهم أو في سجودِهم؟). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٦٥).

وقال ابن عاشور: (وجملةُ: ﴿قَالُوا﴾ بَدَلُ اشتِمالٍ من جُملةِ: ﴿أُلْقِيَ السَّحَرَةُ﴾؛ لأنَّ الهَوِيَّ للسُّجودِ اشتَمَلَ على ذلك القولِ، وهُمْ قصَدُوا من قولِهم ذلك الإعلانَ بإيمانِهم باللهِ؛ لئلَّا =

﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَروا أنَّهم آمَنوا بربِّ العالَمينَ، خصُّوا مَنْ هَداهُمُ اللهُ على أَيْديهما؛ تصريحًا بالمُرادِ، وتشريفًا لهما، فقالوا[1]:

﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾.

أي: ربُّنا الَّذي آمَنَّا به هو ربُّ الرَّسولَيْنِ الكريمَيْنِ موسى وهارونَ، اللَّذَيْنِ أيَّدَهما بهذه المعجزةِ العظيمةِ، الدَّالَّةِ على صِدْقِهما[2].

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَـٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾.

أي: قال فرعونُ للسَّحرةِ لَمَّا أَعْلَنوا إيمانَهم باللهِ عزَّ وجلَّ: أآمَنْتُمْ بموسى قَبْلَ أنْ أمنَحَكم الإذْنَ بذلك؟! فهذا سوءُ أدَبٍ منكم، وتجرُّؤٌ عليَّ[3]!

= يظنَّ النَّاسُ أنَّهم سجَدوا لفرعونَ؛ إذْ كانت عادةُ القِبْطِ السُّجودَ لفرعونَ؛ ولذلك وصَفوا اللهَ بأنَّه ربُّ العالَمينَ بالعُنوانِ الَّذي دعا به موسى- عليه السَّلامُ-، ولعلَّهم لم يكونوا يَعرِفونَ اسْمًا عَلَمًا للهِ تعالى؛ إذ لم يكنْ للهِ اسْمٌ عِندهم، وقد عُلِمَ بذلك أنَّهم كفَروا بإلهيَّةِ فرعونَ، وزادوا هذا القَصْدَ بيانًا بالإبدالِ من ﴿بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قولَهم: ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾؛ لئلَّا يُتَوهَّمَ المبالَغةُ في وصْفِ فرعونَ بأنَّه ربُّ جميعِ العالَمينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٠).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٢٨٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٦٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٨٩).

قال الأزهري: (مَنْ قَرَأَ ﴿آمَنْتُمْ﴾ بوزن (عَامَنتُم) فلفظُه لفظُ الخبرِ، ومعناه للاستفهامِ، إلَّا أنَّه حَذَفَ إحدى الهمزتَيْنِ). ((معاني القراءات)) (١/ ٤١٩). =

كما قال تعالى: ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [طه: ٧١].

﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾.

أي: قال فرعونُ للسَّحرةِ: إنَّ ما فعلتموه[1] خُدْعَةٌ وحيلَةٌ اتَّفَقْتُمْ أنتُمْ وموسى عليها؛ لتكونَ لكم الرِّياسةُ في مدينتِنا هذه، وتُخرِجوا منها أهلَها القِبْطَ، وتُسكِنوا فيها بني إسرائيلَ[2].

= وقال مَكي: (وقرأ حفصٌ... بهمزةٍ واحدةٍ، بعدَها ألِفٌ، على لفظِ الخبرِ الَّذي معناه الاستفهامُ). ((الكشف)) (١/ ٤٧٣).

وقال ابن عاشور: (وقوله: ﴿آمَنْتُمْ﴾ قرأه الجمهورُ بصيغةِ الاستفهامِ- بهمزتين-... وقرأه حفصٌ عن عاصمٍ بهمزةٍ واحدةٍ، فيجوزُ أنْ يكونَ إخبارًا، ويجوز أنْ تكونَ همزةُ الاستفهامِ محذوفةً وما ذلك ببِدْعٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥٣).

(١) قيل: الإشارةُ في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ﴾ راجعةٌ إلى إيمانِهم باللهِ تعالى، وسجودِهم له، وتصديقِهم لموسى عليه السَّلامُ. وممَّن اختار هذا القول: ابنُ جرير، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦٢)، ((العذب النمير)) (٤/ ٨٩).

وقيل: الإشارةُ راجعةٌ إلى تغلُّبِ موسى على السَّحرةِ، أي: إنَّ ذلك كان عن تَشاوُرٍ وتراضٍ بين الطَّرفينِ. وممَّن اختار هذا القول: ابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٨٩).

قال ابن عاشور: (وقولُ فرعونَ هذا يحتملُ أنَّه قاله موافِقًا لظنِّهِ على سبيلِ التُّهمةِ لهم؛ لأنَّه لم يكن له عِلْمٌ بدقائقِ عِلْمِ السِّحرِ حتَّى يُفرِّقَ بينه وبين المعجزةِ الخارقةِ للعادةِ، فظنَّ أنَّها مَكيدةٌ دبَّرها موسى مع السَّحرةِ، وأنَّه لكونِهِ أعلمَهم أو معلِّمَهم أمَرَهم فأتمروا بأمْرِه، كما في الآيةِ الأخرى: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [الشعراء: ٤٩]. ويحتملُ أنَّه قاله تمويهًا وبُهتانًا؛ ليصرِفَ النَّاسَ عن اتِّباعِ السَّحرةِ، وعن التَّأثُّرِ بغَلَبَةِ موسى إيَّاهم، فيُدخِلُ عليهم شكًّا في دلالةِ الغلبةِ واعترافِ السَّحرةِ بها، وأنَّ ذلك مواطَأةٌ بين الغالبِ والمغلوبِ؛ لغايةٍ مقصودةٍ، وهو موافِقٌ في قوله هذا لِمَا كان أشارَ به). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥٤).

وقال الشنقيطي: (وهذا فعلَه فرعونُ مكرًا منه وخِداعًا، وخوفًا منه أنْ تتَّبعَ النَّاسُ السَّحرةَ؛ فيؤمِنوا بموسى). ((العذب النمير)) (٤/ ٨٩).

ثم قال فرعونُ مُهدِّدًا السَّحرةَ الَّذينَ آمَنوا:

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

أي: فسوف تَعلَمون ما أفعَلُ بكم مِنَ العذابِ(١).

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤)﴾.

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ﴾.

أي: قال فرعونُ مُبيِّنًا ما سيُعذِّبُ به السَّحرةَ الَّذينَ آمَنوا: أُقْسِمُ لأُقطِّعنَّ من كلِّ ساحرٍ منكم يدَهُ ورِجْلَه من جِهتَيْنِ مُختلِفتَيْنِ؛ فيقطَعُ اليَدَ اليُمنى والرِجْلَ اليُسرى أو بالعكْسِ(٢).

﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

أي: ثمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ كُلَّكُم- أيُّها السَّحرةُ- على جُذوعِ النَّخْلِ(٣).

كما قال تعالى: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٩٠).

قال الشنقيطي: (يقطَعُ اليدَ اليُمنى من شِقٍّ؛ فيضعُفُ ذلك الشِّقُّ باليدِ، ويقطَعُ الرِّجْلَ اليُسرى من الشِّقِّ الآخَرِ؛ فيكون كلٌّ من الشِّقَّين قد ضعُفَ). ((العذب النمير)) (٤/ ٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥٥).

قال ابن عاشور: (وَالتَّصْليبُ: مبالغةٌ في الصَّلْبِ. والصَّلْبُ: ربطُ الجسمِ على عُودٍ مُنتَصِبٍ أو دَقُّه عليه بمساميرَ... والمبالغَةُ راجِعَةٌ إلى الكيفِيَّةِ أيضًا بشِدَّةِ الدَّقِّ على الأعوادِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٦٥).

﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ١٢٥﴾.

أي: قال السَّحرةُ الَّذينَ آمَنوا بعْدَ أنْ توعَّدَهم فرعونُ بالعذابِ والقتلِ: إنَّا إلى ربِّنا الرَّحيمِ الكريمِ راجِعونَ، فنجِدُ لَدَيْهِ مِنَ النَّعيمِ ما يُنْسينا كُلَّ بلاءٍ ومحنةٍ في الدُّنيا، فلا نُبالي بعِقابِكَ - يا فرعونُ -، ولَنَصْبِرَنَّ على عذابِكَ في الدُّنيا؛ لِنَنْجُوَ من عذابِ اللهِ في الآخرةِ[١].

كما قال تعالى: ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ * إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٥٠- ٥١].

وقال سُبحانَه: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧٢- ٧٣].

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ١٢٦﴾.

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾.

أي: وما الَّذي تُنكِرُه وتكرَهه منَّا، وتَعيبُه علينا - يا فرعونُ -؛ حتَّى تجعَلَهُ سببًا لعذابِنا وتقتيلِنا إلَّا أنَّنا صدَّقْنا وأَقْرَرْنا بحُجَجِ ربِّنا وأدلَّتِهِ حين جاءتْنا دالَّةً على رسولِهِ[٢]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٦١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٤٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٩٣).

ثم دعا السَّحرةُ ربَّهم، فقالوا:

﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾.

أي: ربَّنا أنزِلْ علينا صَبْرًا عظيمًا عِند تعذيبِ فرعونَ لنا؛ حتَّى نَثبُتَ على دِينِكَ(١).

﴿وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ﴾.

أي: أَمِتْنَا- يا ربَّنا- ونحن ثابتونَ على الإسلامِ؛ حتَّى نلقاكَ وأنتَ عنَّا راضٍ(٢).

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- النَّفسُ البشريَّةُ حين تُسْتَعْلَنُ فيها حقيقةُ الإيمانِ تستَعْلي على قوَّةِ الأرضِ، وتَستهينُ ببأسِ الطُّغاةِ، وتنتصِرُ فيها العقيدةُ على الحياةِ، وتَحتقِرُ الفَناءَ الزَّائلَ إلى جِوارِ الخُلودِ المُقيمِ، يبيِّن ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ * وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾، فلمَّا تمكَّنَ الإيمانُ من قلوبِهم علِموا أنَّ عقوبةَ الدُّنيا أسهلُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٩٤، ٩٧).

قال ابن كثير: (قال ابنُ عبَّاسٍ، وعُبَيْدُ بن عُمَيْرٍ، وقَتادةُ، وابن جُرَيْجٍ: كانوا في أوَّلِ النَّهارِ سحرةً، وفي آخِرِه شهداءُ). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٩). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠).

وقال ابن عاشور: (والقرآنُ لم يتعرَّضْ هنا، ولا في سورةِ الشُّعراءِ، ولا في سورة طه، للإخبارِ عن وُقوعِ ما توعَّدهم به فرعونُ؛ لأنَّ غرَضَ القصصِ القرآنيَّةِ هو الاعتبارُ بمحلِّ العِبرةِ، وهو تأييدُ اللهِ موسى، وهدايةُ السَّحرةِ وتصلُّبهم في إيمانِهم بعد تعرُّضهم للوعيدِ بنفوسٍ مطمئنَّةٍ، وليس من غرَضِ القرآنِ معرفةُ الحوادثِ؛ كما قال في سورةِ النَّازعاتِ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ﴾ [النازعات: ٢٦]، فاختِلافُ المفسِّرينَ في البحثِ عن تحقيقِ وعيدِ فرعونَ زيادةٌ في تفسيرِ الآيةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥٦).

من عقوبةِ الآخرةِ وأقلُّ بقاءً، وأنَّ ما يحصُلُ لهم في الآخرةِ مِنْ ثوابِ الإيمانِ أعظَمُ وأنفَعُ وأكثَرُ بقاءً[١].

٢- قال تعالى على لِسانِ السَّحرةِ الَّذينَ آمَنوا: ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾، دَعَوْا لأنفُسِهم بالوفاةِ على الإسلامِ؛ إيذانًا بأنَّهم غيرُ راغبينَ في الحياةِ، ولا مُبالينَ بوعيدِ فرعونَ، وأنَّ هِمَّتَهم لا تَرْجو إلَّا النَّجاةَ في الآخرةِ، والفَوزَ بما عِندَ اللهِ[٢].

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿تَلَقَّفُ﴾ بحذْفِ إحدى التَّاءَيْنِ مِنَ الأصلِ، أي: تَلْتَقِمُ التقامًا حقيقيًّا شديدًا سريعًا جدًّا بما دَلَّ عليه حذْفُ التَّاءِ[٣]، على إحدى القراءتين.

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ دَلَّ على كثرةِ ما صَنَعوا بقولِهِ: ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾، أي: يُجدِّدونَ- حين إلقائِهم- في تَزْويرِه وقَلْبِه عن وَجْهِه[٤].

٣- قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ هذه الحادثةُ الخارقةُ للعادةِ فيها إثباتُ الصانعِ، وإثباتُ نبوةِ أنبيائِه، فإنَّ حدوثَ هذا الحادثِ على هذا الوجهِ في مثلِ ذلك المقامِ يُوجبُ علمًا ضروريًّا أنَّه مِن القادرِ المختارِ لتصديقِ موسَى عليه السَّلامُ، ونصْرِه على السَّحرةِ؛ فقلبُ الأعيانِ إلى ما ليس في طبعِها الانقلابُ إليه، كمصيرِ الخَشبِ حيوانًا حسَّاسًا متحرِّكًا بالإرادةِ، يبلعُ عصيًّا وحبالًا، ولا يتغيَّرُ- ليس هذا مِن جنسِ مقدورِ

---

(١) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٤/ ١٣٨٩)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١٣/ ١٣٥١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥٦).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

البشرِ، لا معتادًا ولا نادرًا، ولا يحصلُ بقُوَى نفسٍ أصلًا، ولهذا لمَّا رأى سحرةُ فرعونَ ذلك علموا أنَّه خارجٌ عن طريقةِ السِّحرِ[1].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ دلَّ بـ(كان) والمضارعِ على أنَّهم- مع بُطلانِ ما عمِلوا- نَسوا عِلْمَهم، بحيث إنَّه انسدَّ عليهم بابُ العملِ بعْدَ أنْ كان لهم به مَلَكَةٌ كمَلَكَةِ ما هو كالجِبلَّةِ[2].

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، لم يُعبِّرْ عنه بالسِّحرِ؛ إشارةً إلى أنَّه كان سِحرًا عجيبًا تكلَّفوا له، وأَتَوْا بمُنتهى ما يَعرِفونَه[3].

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَغُلِبُوا هُنَالِكَ﴾، لم يَقُلْ: (فغَلَبَهم موسى)؛ لأنَّ ذلك لم يكنْ بكَسْبِه وصُنْعِه عليه السَّلامُ[4].

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾، لم يتأخَّروا عَنِ السُّجودِ حتَّى كأنَّهم خرُّوا من غيرِ اختيارٍ[5]، فعَبَّر بقولِهِ: ﴿وَأُلْقِيَ﴾ كأنَّ إنسانًا أَمْسَكَهم وأَلْقاهم ساجِدينَ بالقُوَّةِ؛ لِقوَّةِ البُرهانِ الَّذي رَأَوْا به الحَقَّ[6].

٨- أنَّه قد يكونُ الشَّيءُ الخَسيسُ الحقيرُ وفيه بعضُ النَّفْعِ؛ لأنَّ عِلْمَ السِّحرِ من أَخَسِّ العُلومِ وأَقْبَحِها، وقد صرَّحَ اللهُ جلَّ وعلا في المُحْكَمِ المُنَزَّلِ في سورةِ البقرةِ أنَّ تعلُّمَه يَضُرُّ ولا ينفَعُ، فهو ضَررٌ مَحْضٌ لا نَفْعَ فيه، كما قال تعالى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ [البقرة: ١٠٢]، ولكنَّ اللهَ قد نَفَعَ هؤلاءِ القومَ بهذا العِلْمِ الخسيسِ الخبيثِ، فتبيَّنَ أنَّ قولَهُ: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا

(١) يُنظر: ((الصفدية)) لابن تيمية (١/ ١٣٨).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥١).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٦١).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٩).
(٦) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٨٤).

يَنفَعُهُمْ﴾ [البقرة: ١٠٢] من جميعِ الحَيْثِيَّاتِ غيرِ هذه الحَيْثِيَّةِ وهو انتفاعُهم به أَنَّهم كانوا عالِمينَ بالسِّحرِ، عارِفينَ بحُدودِه الَّتي يَنتهي إليها، فلمَّا جاءتِ العصا والْتَقَمَتْ جميعَ الحِبالِ والعِصِيِّ، ولم يَجِدوا حبلًا ولا عصا، عرَفوا أنَّ هذا مِنَ اللهِ؛ لأنَّهم يَعرِفونَ السِّحرَ، ويَعرِفونَ مدى تأثيرِه، فمعرفتُهم بالسِّحرِ كانت نَفْعًا لهم؛ بأنْ عرَفوا أنَّ العصا ليسَتْ من جِنْسِ السِّحرِ، فلو كانوا جاهِلينَ بالسِّحرِ لظنُّوا أنَّ عصا موسى من جنْسِ السِّحرِ والشَّعوذةِ، وهُمْ لَمَّا عرَفوا السِّحرَ تمامًا عرَفوا أنَّ البُرهانَ خارجٌ عن طَوْرِ السِّحرِ، وأنَّه لا يدخُلُ فيه، وأنَّه أمْرٌ إلهيٌّ[(١)].

٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾، وقولُهُ: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ يدُلُّ على أنَّ فِعْلَ العبْدِ لا يحصُلُ إلَّا بتخليقِ اللهِ وقضائِه[(٢)].

١٠- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ ظُهورَ الآيةِ موجِبٌ للإيمانِ عِند مَنْ ظهرتْ له، ولو أنَّ الرَّسولَ غيرُ مُرْسَلٍ إليه[(٣)].

١١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾، لماذا خصَّهما اللهُ بالذِّكرِ، وهما يدخُلانِ في جُملةِ العالَمينَ؟ للعلماءِ في ذلك وُجوهٌ:

الوجْهُ الأوَّلُ: خصَّهما بالذِّكرِ بعْدَ دُخولِهما في جُملةِ العالَمينَ؛ لأنَّ فيه معنى الَّذي دعا إلى الإيمانِ به موسى وهارونُ[(٤)].

الوجْهُ الثَّاني: خصَّهما بالذِّكرِ تفضيلًا وتشريفًا؛ كقولِه: ﴿وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٨٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٣٧، ٣٤٠).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٠).
(٤) يُنظر: ((التفسير البسيط)) للواحدي (٩/ ٢٨٦).

وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾[1] [البقرة: ٩٨].

الوجْهُ الثَّالثُ: أنَّ السَّحَرةَ لم يَكتفوا بقولِ: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، حتَّى قالوا: ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾؛ لئلَّا يتوَّهمَ مُتوهِّمٌ من قومِ فرعونَ المقِرِّينَ بإلَهيَّتِه أنَّ السُّجودَ له[2].

الوجْهُ الرَّابعُ: تخصيصُهما بإضافةِ رُبوبيَّةِ اللهِ تعالى لهما؛ لأنَّ ربوبيَّةَ موسى وهارونَ لها اختِصاصٌ زائدٌ على الرُّبوبيَّةِ العامَّةِ للخَلْقِ؛ فإنَّ مَنْ أَعْطاه اللهُ مِنَ الكمالِ أكثَرَ ممَّا أَعْطى غيرَهُ فقدْ ربَّه وربَّاه رُبوبيَّةً وتربيةً أكمَلَ من غيرِهِ[3].

١٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾، لَمَّا خافَ فرعونُ أنْ يكونَ إيمانُ السَّحرةِ حُجَّةَ قومِهِ أَلْقى في الحالِ نوعَيْنِ مِنَ الشُّبَهِ؛ أحدُهما: أنَّ هذا تواطُؤٌ منهم لا أنَّ ما جاء به حقٌّ. والثَّاني: أنَّ ذلك طَلَبٌ منهم للمُلْكِ[4].

١٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾، قولُ فرعونَ: ﴿قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾؛ لِيُخَوِّفَهم من خطَرِ المُخالَفةِ له بما رجَّاهم فيه من إذْنِه[5].

١٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ...﴾ إلى قولِه: ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، طوَّلَ الكلامَ؛ تَبْيينًا لِمَا أرادوا، وتَنْسيَةً لخاطِرِ الإيمانِ[6].

---

(١) يُنظر: ((التفسير البسيط)) للواحدي (٩/ ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((فتح القدير)) للشوكاني (٢/ ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ١٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٤١).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٠).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

١٥- قولُ اللهِ تعالى على لسانِ فرعونَ: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، لَمَّا ظهرتِ الحُجَّةُ عادَ إلى عادةِ مُلوكِ السُّوءِ- إذا غُلِبوا- وهي تَعذيبُ مَنْ ناوَأَهم، وإنْ كان مُحِقًّا[١].

١٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ فيه أنَّ الدِّينَ عِند اللهِ الإسلامُ في كُلِّ زمانٍ ومكانٍ[٢].

١٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ استدَلَّ به مَنْ قال: إنَّ الإيمانَ والإسلامَ واحدٌ؛ فإنَّهم قالوا أوَّلًا: ﴿آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾، ثمَّ قالوا ثانيًا: ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ[٣]﴾.

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ فيه التعبيرُ عن الماضِي بصِيغةِ المضارعِ؛ للدَّلالةِ على التَّجديدِ والتَّكريرِ، مع استحضارِ صُورةِ اللَّقفِ الهائلةِ[٤].

٢- قوله: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أَتَى بقولِه: ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، بعْدَ قولِهِ: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ﴾، مع تضمُّنِه معناه؛ لِتقريرِ مَضمونِ جُملةِ: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ﴾ لتَسجيلِ ذَمِّ عَمَلِهم، والنِّداءِ بِخَيْبَتِهم؛ تأنيسًا للمُسلِمينَ، وتهديدًا للمشركينَ، وللكافرينَ أمثالها[٥].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ فيه مناسبةٌ حسنةٌ، حيثُ قال اللهُ تعالى هُنا في سورةِ الأعرافِ: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ *

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٤١).
(٢) يُنظر: ((الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)) لابن تيمية (٢/ ١٢٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٤٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٤٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥١).

رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾، وقال في سورةِ الشُّعراءِ مِثْلَه: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الشعراء: ٤٧- ٤٨]، وقال في سورةِ طه: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ [طه: ٧٠]، كرَّرَ ذِكْرَ ﴿رَبِّ﴾ في السُّورتَيْنِ، ولم يُكرِّرْه في سورةِ طه؛ لأنَّه إذا قيل: ﴿بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فقدْ دخَلَ فيهم موسى وهارونُ، وهما دَعَوَا إلى ربِّ العالَمينَ لَمَّا قالَا: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦]، إلَّا أنَّه كرَّر في السُّورتَيْنِ: ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾؛ ليدُلَّ بتَخصيصِهما بعْدَ العُمومِ على تَصديقِهم بما جاءَا به عليهما السَّلامُ عن اللهِ تبارَكَ وتعالى، فكأنَّهم قالوا: آمَنَّا برَبِّ العالَمينَ، وهو الَّذي يَدْعو إليه موسى وهارونُ.

وأمَّا في سورةِ طه فَلَمْ يذكُرْ: ﴿بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ لأنَّه هنا تتمة للآيةِ رعايةً للفواصلِ، كما في السُّورتَيْنِ، فيكونُ مَقْطَعُ الآيةِ فاصلةً مُخالِفةً للفواصلِ الَّتي بُنِيَتْ عليها سورةُ طه، فقال تعالى: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ [طه: ٧٠]، وربُّهما هو ربُّ العالَمينَ، وكان القَصْدُ حِكايةَ المعنى، لا أداءَ اللَّفْظِ(١).

٤- قولُه: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿آمَنْتُمْ بِهِ﴾ بهمزةٍ واحدةٍ إمَّا على الإخبارِ المحضِ المتضمِّنِ للتوبيخِ، أو على الاستفهامِ التوبيخيِّ بحذفِ الهمزةِ، ومعناه الإنكارُ والاستبعادُ(٢).

- وفيه مناسبةٌ حسنةٌ، حيثُ قال اللهُ تعالى هُنا في سورةِ الأعرافِ: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾، وقال في سورتَيْ طه والشُّعراءِ: ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ [طه: ٧١، الشعراء: ٤٩]، فأَظهرَ اسْمَ فرعونَ- لَعَنه اللهُ- في سورةِ الأعرافِ في هذا اللَّفظِ، وأَضمَرَه في مِثلِه من سورتَيْ طه والشُّعراءِ؛

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٦٦-٦٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٦١).

وذلك لأنَّ إظهارَ اسْمِ فرعونَ في سورةِ الأعرافِ؛ لأنَّه جاء في الآيةِ العاشرةِ من الآيِ الَّتي أَضْمَرَ فيها ذِكرَه، وهي قولُه: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾، وجاء في الآيةِ العاشرةِ من هذه السُّورةِ: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ﴾، ولم يَبْعُدْ هذا الذِّكْرُ في الآيتَيْنِ اللَّتَيْنِ في سورةِ طه والشُّعراءِ؛ لأنَّ فرعونَ مذكورٌ في سورةِ طه في جُملةِ قومِهِ الَّذينَ أَخْبَرَ عنهم بقولِه: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى﴾ [طه: ٥٧] وبعْدَه: ﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى * قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى﴾ [طه: ٦٠- ٦١]، وهذا خِطابُه لِفرعونَ وقومِه، وضَميرُهم مُنْطَوٍ على ضميرِه إلى قولِه: ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾ [طه: ٦٤].

والذِّكرُ في قولِه: ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ﴾ [طه: ٧١] إنَّما هو السَّابعُ من الآيِ الَّتي جَرى ذِكْرُه فيها، وكذلك في سورةِ الشُّعراءِ لم يَبْعُدِ الذِّكْرُ بعْدَه كما في سورةِ الأعرافِ، ألا ترى أنَّ آخِرَ ما ذَكَرَ فيما اتَّصلَ بهذه الآيةِ قولُه تعالى: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٤٢]، وذَكَرَهُ بعْدَ ذلك في الآيةِ الثَّامنةِ من الآيِ الَّتي جَرى ذِكْرُه فيها، فلمَّا بَعُدَ الذِّكرُ في سورةِ الأعرافِ خِلافَ بُعْدِهِ في السُّورتَيْنِ؛ إذْ كان في إحْداهما في السَّابعةِ، وفي الأُخْرى في الثَّامنةِ، وفي الأعرافِ في العاشرةِ أُعيدَ ذِكْرُه الظَّاهرُ لذلك[1].

- ومن المُناسَبةِ الحَسنةِ أيضًا أنَّه قال تعالى هُنا في سورةِ الأعرافِ: ﴿آمَنْتُمْ بِهِ﴾، وقال في الموضعَيْنِ الآخَرَيْنِ: ﴿آمَنْتُمْ لَهُ﴾ [طه: ٧١، والشعراء: ٤٩]؛ ووجهُ ذلك: أنَّ الباءَ في سورة الأعراف في قولِه: ﴿آمَنْتُمْ بِهِ﴾ واللَّامَ في ﴿آمَنْتُمْ لَهُ﴾ في طه والشعراء مُحتاجٌ إلى كلِّ واحدةٍ منهما من حيث

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٦٨-٦٧٠)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢١٩-٢٢٠).

إنَّ التَّصديقَ والانقيادَ معنيانِ يُحتاجُ إليهما؛ فالباءُ تُحْرِزُ التَّصديقَ، واللَّامُ تُحْرِزُ الانقيادَ والإذعانَ، فبُدِئَ بالباءِ المُعْطِيةِ معنى التَّصديقِ، وهي أخصُّ بالمقصودِ من اللَّامِ، فاقتضى التَّرتيبُ تقديمَها، ثمَّ أُعْقِبَ في السُّورتَيْنِ بَعْدُ باللَّامِ، حتَّى كأنْ قد قيل لهم: أصدَّقْتُموه مُنقادينَ له في دعائِه إيَّاكم إلى الإيمانِ بما جاء من عِندِ اللهِ؟! فحصَلَ المقصودُ على أكملِ ما يُمكِنُ[(١)].

وقيل: إنَّ وجْهَ ذلك أنَّ الهاءَ في قولِه: ﴿آمَنْتُمْ بِهِ﴾ غيرُ الهاءِ في قوله: ﴿آمَنْتُمْ لَهُ﴾ [طه: ٧١، والشعراء: ٤٩]، وكلُّ واحدةٍ تَعودُ إلى غيرِ ما تَعودُ إليه الأُخْرى؛ فالَّتي في ﴿آمَنْتُمْ بِهِ﴾ تعودُ إلى ربِّ العالَمينَ؛ لأنَّه تعالى حَكى عنهم أنَّهم: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وهو الَّذي دعا إليه موسى عليه السَّلامُ، وأمَّا الهاءُ في قولِه: ﴿آمَنْتُمْ لَهُ﴾ في طه والشعراء تعودُ إلى موسى عليه السَّلامُ. وقيل: يجوز أنْ يكونَ الهاءُ في ﴿آمَنْتُمْ بِهِ﴾ ضمير موسى عليه السَّلامُ؛ لأنَّه يُقالُ: آمَنَ بالرَّسولِ، أي: أظهرْتُم تصديقَه، وأقدمْتُم على خِلافي قبْلَ أنْ آذَنَ لكم فيه، وهذا مكرٌ مَكَرْتُموه، وسِرٌّ أَسْرَرْتُموه؛ لِتقلبوا النَّاسَ عليَّ؛ فاقتَضَى هذا الموضعُ الَّذي ذُكِرَ فيه المكرُ إنكارَ الإيمانِ به، فأمَّا الإيمانُ له في الموضعَيْنِ الآخَرَيْنِ؛ فاللَّامُ تُفيدُ معنى الإيمانِ من أَجْلِه، ومن أَجْلِ ما أَتى به من الآياتِ، فكأنَّه قال: آمَنْتُم بربِّ العالَمينَ لِأَجْلِ ما ظهَرَ لكم على يَدَيْ موسى عليه السَّلامُ من آياتِه، والموضعُ الَّذي ذُكِرَ فيه (له)، أي: مِنْ أَجْلِه، وعُبِّرَ عنه باللَّامِ، هو الموضعُ الَّذي قَصَدَ فيه إلى الإخبارِ بـ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [طه:٧١، والشعراء: ٤٩]؛ فلذلك خُصَّ باللَّامِ، والأوَّلُ خُصَّ بالباءِ، وقد تدُلُّ اللَّامُ على الاتباعِ؛ فيكونُ المعنى: اتَّبعتُموه؛ لأنَّهُ كبيرُكم في عَمَلِ السِّحرِ، وقد يُؤمِنُ بالخبرِ مَنْ لا يعملُ عليه، ولا يتَّبِعُ الدَّاعيَ إليه[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٧١-٦٧٢).

- وقولُه: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وعيدٌ ساقَه بطريقِ الإجمالِ؛ للتهويلِ، ثمَّ عقَّبه بالتَّفصيلِ(١).

٥- قولُه تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾

فيه مناسبةٌ حسنةٌ، حيثُ قال اللهُ تعالى هُنا في سورةِ الأعرافِ: ﴿فَسَوْفَ تَعْمَلُونَ﴾، وقال في سورةِ طه: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ﴾ [طه: ٧١]، وقال في سورةِ الشُّعراءِ: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ﴾ [الشعراء: ٤٩]، فقال في سورةِ الأعرافِ: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، ولم يَقُلْهُ في سورةِ طه، وإنَّما أَدْخَلَ الفاءَ على قولِه: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ﴾ [طه: ٧١]، وأمَّا في سورةِ الشُّعراءِ فإنَّه أتى بـ(سَوْفَ تَعْلَمُونَ) مع اللَّامِ فقال: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الشعراء: ٤٩]؛ وذلك لأنَّ قولَه تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ من الوعيدِ المُبْهَمِ، وهذا النَّوْعُ من الوعيدِ أَبْلَغُ مِنَ الإفصاحِ بقَدْرِه، على أنَّه قد قَرَنَ إليه بيانَه، وهو: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ﴾ الآيَةَ، فنَطَقَ القرآنُ بحكايةِ التَّعريضِ بالوعيدِ، والإفصاحِ بالتَّهديدِ معًا. وأمَّا اختصاصُ سورةِ الشُّعراءِ بقولِه: ﴿فَلَسَوْفَ﴾ وزيادةِ اللَّامِ؛ فلتقريبِ ما خوَّفَهم به من اطِّلاعِهم عليه وقُرْبِه منهم، حتَّى كأنَّه في الحالِ موجودٌ؛ إذِ اللَّامُ للحالِ، فالجَمْعُ بينها وبين (سوف) الَّتي للاستقبالِ إنَّما هو لتحقيقِ الفِعْلِ، وإدنائِه مِنَ الوُقوعِ، وقد بيَّنَّا أنَّ سورةَ الشُّعراءِ أَكْثَرُ اقتصاصًا لأحوالِ موسى عليه السَّلامُ في بَعْثِه، وابتداءِ أمْرِه، وانتهاءِ حالِه مع عدُوِّه، فجَمَعَتْ لفظَ الوعيدِ المُبْهَمِ مع اللَّفظِ المُقرِّبِ له، المُحَقِّقِ وُقوعَه، إلى اللَّفظِ المُفصِحِ بمعناه، ثمَّ وقَعَ الاقتصارُ في السُّورةِ الَّتي لم يُقْصَدْ فيها من اقتصاصِ الحالِ ما قُصِدَ في سورةِ الشُّعراءِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥٤).

على ذِكْرِ بعضٍ ما هو في مَوْضِعِ التَّفصيلِ والشَّرْحِ، وهو التَّعريضُ بالوَعيدِ مع الإفصاحِ به. وأمَّا في سورةِ طه فإنَّه اقتصر على التَّصريحِ بما أَوْعَدَهم به، وتَرَكَ: (فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)، وقال: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ﴾ [طه: ٧١]، إلَّا أنَّه جاء بَدَلَ هذه الكلمةِ ما يُعادِلُها ويُقارِبُ ما جاء في سورةِ الشُّعراءِ الَّتي هي مِثْلُها في اقتصاصِ أحوالِه من ابتدائِها إلى حين انتهائِها، وهو قولُه بَعْدَهُ: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧١]، فاللَّامُ والنُّونُ في: (لَتَعْلَمُنَّ) للقَسَمِ، وهما لتحقيقِ الفعْلِ وتوكُّدِه، كما أنَّ اللَّامَ في قولِه: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الشعراء: ٤٩] لإدناءِ الفعْلِ وتقريبِه، فقدْ تجاوَزَ ما في السُّورتَيْنِ المقصودَ فيهما إلى اقتصاصِ الحالِ من إعلاءِ الحقِّ وإزهاقِ الباطلِ(١).

- وقولُه تعالى: ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فيه مناسبةٌ حسنةٌ، حيثُ قال اللهُ تعالى هُنا في سورةِ الأعرافِ: ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، وقال في سورتَيْ طه والشُّعراءِ: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ [طه: ٧١، والشعراء: ٤٩]، فاخْتَصَّتْ ما في سورةِ الأعرافِ بـ(ثُمَّ) والأُخْرَيَيْنِ بالواوِ، والمُتوعَّدُ به واحدٌ في الموضعَيْنِ؛ فإنَّ السُّورتَيْنِ اللَّتَيْنِ اختصَّتا بالواوِ هما المَبْنِيَّتانِ على الاقتصاصِ الأكثرِ، والتَّفصيلِ الأوْسَعِ، والواوُ أشبَهُ بهذا المعنى؛ لأنَّه يجوز أنْ يكونَ ما بعْدَها مُلاصِقًا لِمَا قبْلَها، كالتَّعقيبِ الَّذي يُفادُ بالفاءِ، ويجوز أنْ يكونَ مُتراخيًا عنه، كالمُهْلَةِ الَّتي تُفادُ بـ(ثمَّ)، لا، بَلْ يجوز أنْ يكونَ ما بعْدَها مُقدَّمًا على ما قبْلَها، ومُجامِعًا لها؛ إذْ هي موضوعةٌ للجَمْعِ، ولا ترتيبَ فيها، فكانت الواوُ أَشْبَهَ بهذَيْنِ المكانَيْنِ، و(ثم) تختصُّ بأحَدِ المواضعِ الَّتي تَصْلُحُ الواوُ لجميعِها، فلمَّا كانت مُقْتَصَرًا بها على بعضِ ما وُضِعَتْ له الواوُ، استُعْمِلَتْ

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٧٤-٦٧٨)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٢٠).

حيث اخْتُصِرَتِ الحالُ، فاقتَرَنَ بكُلِّ مكانٍ ما يَليقُ بالمقصودِ فيه[1].

وقيل: لأنَّ (ثمَّ) تدُلُّ على أنَّ الصَّلْبَ يقَعُ بعْدَ التَّقطيعِ، وإذا دلَّ في الأولى عُلِمَ في غيرِها، ولأنَّ موضِعَ الواوِ تصلُحُ له (ثمَّ)[2].

وقيل: إنَّ (ثمَّ) للتَّبايُنِ والتَّراخي في الزَّمانِ، وتكون للتَّبايُنِ في الصِّفاتِ والأحكامِ، وغيرِ ذلك مما يُحْمَلُ به ما بعْدَها على ما قبْلَها من غيرِ قصْدِ مُهْلَةٍ زمانيَّةٍ، بل لِيُعْلَمَ موقعُ ما يُعْطَفُ بها وحالُه، وأنَّه لو انفرَدَ لكان كافيًا فيما قُصِدَ به، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢]، فَلَمْ يُقْصَدْ في هذا ترتيبٌ زمانيٌّ، بل تعظيمُ الحالِ فيما عُطِفَ، وموقعُه ومكانتُه، وتحريكُ النُّفوسِ لاعتبارِه، ولَمَّا تقدَّمَ في الأعرافِ تهويلُ الواقعِ من فِعْلِ السَّحرةِ وموقعُه من نُفوسِ الحاضرينَ؛ آنَسَ سُبحانَه نبيَّه موسى عليه السَّلامُ بقولِه: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ [طه: ٦٨]، ووقَعَ التَّعبيرُ عما ذكَرْنا بقولِه: ﴿وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاؤُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾، فناسَبَه- رَعْيًا لفظيًّا وتقابُلًا نَظْميًّا- تهويلُ ما توعَّدهم به فرعونُ، فعُطِفَ بـ(ثُمَّ)؛ لِتَحَرُّزِ ما قَصَدَ فرعونُ من تعظيمِ موقِعِ ما توعَّدهم به ثانيًا في قولِه: ﴿لَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ عليهم، وأيضًا فإنَّ فرعونَ وملأَه حين رَأَوْا ما جاءت به السَّحرةُ، ووَقَعَ منهم موقعًا أَطْمَعَهم، وتعلَّقَ به رجاؤُهم، ثمَّ لَمَّا وقَعَ ما أَبْطَلَه، وأَوْضَحَ كيْدَهم فيه وباطِلَهم الخياليَّ وجَدَ الملأُ لذلك، واستشعرَ فِرعونُ ما حلَّ به وبملئِه، فهَوَّلَ في توعُّدِهم ومقالِه؛ تجلُّدًا وتصبُّرًا، أو تعزيةً لنفسِه عمَّا نَزَلَ به، فأَرْعَدَ وأَبْرَقَ في تهويلِه ما توعَّد به السَّحرةُ، فقال: ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾، فقدْ تناسَبَ المُتقابِلانِ لفظًا ومعنًى، ولَمَّا ضُمَّ الواقعُ في سورةِ الشُّعراءِ لم يُحْتَجْ إلى هذا الرَّعْيِ، فعُطِفَ بالواوِ، ولم يكُنْ على ما تقرَّر لِيُمْكِنَ العكْسُ[3].

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٧٨-٦٧٩).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٢١).

٦- قوله: ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ استئنافٌ مسوقٌ للجوابِ عن سُؤالٍ ينساقُ إليه الذِّهنُ، كأنَّه قيل: فماذا قال السَّحَرةُ عندما سَمِعوا وعيدَ فِرعونَ؛ هل تأثَّروا به أمْ تَصلَّبوا فيما هم فيه مِن الدِّين؟ فقيل: ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾[1].

- وفيه مناسبةٌ حسنةٌ، حيثُ قال اللهُ تعالى هنا في سورةِ الأعرافِ: ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾، وقال في سورةِ الشُّعراءِ: ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٥٠]، بزيادةِ قولِه: ﴿لَا ضَيْرَ﴾ على ما ذُكَرَ في سُورةِ الأعرافِ؛ وذلك لأنَّ السَّحرةَ قابَلوا وعيدَ فرعونَ بما يُهَوِّنُه، ويُزيلُ أَلَمَه من انتقالِهم إلى ثوابِ ربِّهم، مع التَّحقُّقِ من مُنْقَلَبِ مُعَذِّبِهم فِرعونَ، فجاء في سورةِ الشُّعراءِ- وهي الَّتي قُصِدَ بها الاقتصاصُ الأكبرُ-: ﴿لَا ضَيْرَ﴾ [الشعراء: ٥٠]، أي: لا ضَرَرَ علينا؛ فإنَّ مُنْقَلَبَنا إلى جزاءِ ربِّنا؛ فنَنْعَمُ أبدًا، وتُعَذَّبُ أنتَ أبدًا، فالضَّررُ الَّذي تُحاوِلُ إنزالَه بنا بكَ نازِلٌ، وعليك مُقيمٌ، ونحن نَألَمُ ساعةً لا يُعْتَدُّ بها مع دوامِ النَّعيمِ بعْدَها، وفي سورةِ الأعرافِ وقَعَ الاقتصارُ على قولِه: ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾، وفيه كِفايةٌ وإبانةٌ عن هذا المعنى، ودَلالةٌ على ما قُصِدَ فيها ممَّا بُيِّنَ وشُرِحَ في سواها[2].

وقيل: إنَّ قولَه: ﴿لَا ضَيْرَ﴾ [الشعراء: ٥٠] مُقابَلٌ به ما تقدَّمَ من قولِه: ﴿وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾ [الشعراء: ٤٤]؛ لِمَا اعتقدوه أوَّلًا أنَّ له عِزَّةً، ونَسَبوها إليه، فظنُّوا أنَّه يَقْدِرُ على ما يُريدُه، ويستبِدُّ بفعلِه، ثمَّ لَمَّا وَضَحَ لهم الحقُّ، ورجَعُوا عن اعتقادِهم، وعلِموا أنَّ القُدرةَ والعِزَّةَ لله سُبحانَه، وسلَّموا لخالِقِهم، ولم يُبالوا بفِرعونَ وملئِه، فقالوا: ﴿لَا ضَيْرَ﴾، أي: لا ضَرَرَ، ولا خوفَ من فرعونَ؛ إذ العِزَّةُ للهِ وحْدَه، ولَمَّا لم يقَعْ من قولِهم في الأعرافِ أوَّلًا مِثْلُ الواقعِ هنا، لم يَجيئوا في الجوابِ بما

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٨٠-٦٨١).

جاؤوا هنا، فافترَقَ الموضعانِ، وجاء كلٌّ على ما يُناسِبُه[١].

٧- قوله: ﴿وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ فيه تأكيدُ المدحِ بِما يُشبِهُ الذمَّ، أو المدحُ في مَعرِض الذَّمِّ، حيثُ استثنَى مِن صِفةِ الذَّمِّ المنفيَّةِ عن الشَّيءِ، وهي: ﴿وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا﴾، صِفةَ مَدْحٍ لذلك الشَّيءِ بتقديرِ دُخولِها في صِفة الذمِّ فقال: ﴿إِلَّا أَنْ آمَنَّا...﴾، وهو نوعٌ طريفٌ مِن أنواع البَلاغةِ[٢].

- وقولُهم: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أَكْمَلُ مِن أنْ يقولوا: (أنزِلْ علينا صبرًا)؛ لأنَّ إفراغَ الإناءِ هو صَبُّ ما فيه بالكُلِّيَّةِ، فكأنَّهم طلَبوا مِنَ اللهِ تعالى كُلَّ الصَّبْرِ لا بعضَه[٣]، والمقصودُ مِن ذلك: الكنايةُ عن قُوَّةِ الصَّبرِ؛ لأنَّ إفراغَ الإناءِ يستلزِمُ أنَّه لم يَبْقَ فيه شيءٌ ممَّا حواه؛ لأنَّه لَمَّا كان وعيدُ فِرعونَ ممَّا لا تُطيقُه النُّفوسُ، سألوا اللهَ تعالى أنْ يَجعلَ لنُفوسِهم صبرًا قويًّا، يفوقُ المتعارَفَ[٤].

- وتَنكيرُ الصَّبرِ في قولِه: ﴿صَبْرًا﴾ مُفصِحٌ عن التَّفخيمِ، وفيه مِن الجَزالةِ ما لا يَخفَى، حيثُ يدلُّ على الكَمالِ والتَّمامِ، أي: صبرًا كاملًا تامًّا[٥].

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٢١-٢٢٢).
(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٣/ ٤٢٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٤٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٢٤٤).

الآيات (١٢٧-١٢٩)

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿قَاهِرُونَ﴾: أي: غالِبونَ، أو عالُونَ، والقَهْرُ: الغَلَبةُ والتَّذليلُ معًا، وأَصْلُ (قهر): يَدُلُّ على غَلَبةٍ وَعُلُوٍّ[(١)].

﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ﴾: أي: يَجعلَكم تَخْلُفونَ مَن قَبْلَكم، والخِلافةُ: النِّيابةُ عن الآخَرِ، وخَلَفَ فلانٌ فلانًا: قام بالأمْرِ عنه، إمَّا معه وإمَّا بَعدَه، وأصْلُه: مجيءُ شيءٍ بعْدَ شيءٍ يقوم مَقامَه[(٢)].

المعنى الإجماليُّ:

وقال الأشرافُ من قومِ فِرعونَ له: أتترُكُ موسى وقومَه المؤمنين من بني إسرائيلَ ليُفسِدوا في الأرضِ، ويترُكَ عِبادتَك، وعِبادةَ آلهتِك؟! قال فِرعونُ مُجيبًا لهم: سنُقَتِّلُ أبناءَهم، ونَستحيي نِساءَهم، وإنَّا عالُون فوْقَهم.

قال موسى لقومِه: استعينوا باللهِ واصبِروا؛ إنَّ الأرضَ للهِ يُورِثُها مَنْ يشاءُ من

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٠)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٢٩٤).

عِبادِه، والعاقبةُ المحمودةُ تكون لِمَنِ اتَّقى اللهَ تعالى.

قال بنو إسرائيلَ لموسى: آذانا فرعونُ وقومُه مِنْ قَبْلِ أنْ تأتِيَنا، ومن بَعْدِ مَجيئِك بالرِّسالةِ أيضًا، قال لهم موسى: عسى ربُّكم أنْ يُهلِكَ عدُوَّكم فرعونَ وقومَه، ويجعلَكم خُلفاءَ في الأرضِ مِنْ بَعْدِ هلاكِهم، فينظُرَ كيف سيكون عَمَلُكم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾.

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: وقال الأشرافُ من قومِ فرعونَ وكُبراءِ رجالِه له: أتترُكُ موسى وقومَه المؤمنين مِن بني إسرائيلَ مِن غيْرِ أنْ تُعاقِبَهم، وتضرِبَ على أيدِيهم، فيُفسِدوا عليك رَعيَّتَك في أرضِ مِصْرَ بعبادةِ اللهِ وحْدَه من دونِكَ، والدَّعوةِ إليه، وإلى التَّمسُّكِ بالفضائلِ ومكارمِ الأخلاقِ[1]؟!

﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾.

أي: أتترُكُ موسى وقومَه يُفسِدون في الأرضِ، والحالُ أنَّه يَترُكُ عِبادتَك- يا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦٥)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٩٧- ٩٨).
قال ابن عاشور: (والإفسادُ عِندهم هو إبطالُ أصولِ دياناتِهم، وما ينشأ عن ذلك من تفريقِ الجماعةِ، وحثِّ بني إسرائيلَ على الحرِّيَّةِ، ومُغادَرةِ أرضِ الاستعبادِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥٨).
وقال الشِّنقيطي: (معنى إفسادِهم في الأرضِ: أنَّهم يَزعمون أنَّهم يؤمنون بموسى، ويكونون معه، ويَكونون حَرْبًا على القِبْطِ؛ [فيُخرجونهم] من بلادِ مصرَ، هذا معنى إفسادِهم في الأرضِ المزعومِ). ((العذب النمير)) (٤/ ٩٨).

فرعونُ- وعِبادةَ آلِهتِك[١]، ويَنهى النَّاسَ عنكَ وعن عِبادتِها[٢]؟!

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ * فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٥- ٤٧].

﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ﴾.

أي: قال فرعونُ مُجيبًا لملئِه: سنُقتِّلُ الأبناءَ الذُّكورَ من أولادِ بني إسرائيلَ[٣].

---

(١) قال الشنقيطي: (وقراءةُ الجمهورِ: ﴿وَآلِهَتَكَ﴾، ويذرك فلا يَعْبُدك، ويَذر آلهتَك فلا يعبدها، وقراءةُ ابنِ عبَّاسٍ: «وَيَذَرَكَ وَإِلَاهَتَكَ»، أي: وعِبادتَك، وهي قراءةٌ شاذَّةٌ). ((العذب النمير)) (٤/ ٩٩).

قال ابن عاشور: (كان القِبطُ مُشرِكين يَعبدون آلهةً متنوِّعةً من الكواكبِ والعناصرِ، وصوَّروا لها صورًا عديدةً مختلِفةً باختلافِ العصورِ والأقطارِ... وكان أعظمُ هذه الأصنامِ هو الَّذي يَنتسِب فرعونُ إلى بُنُوَّتِه وخِدْمتِه، وكان فرعونُ معدودًا ابنَ الآلهةِ، وقد حلَّتْ فيه الإلهيَّةُ على نحوِ عقيدةِ الحُلولِ، ففرعونُ هو المنفِّذُ للدِّينِ، وكان يُعَدُّ إلهَ مصرَ، وكانت طاعتُه طاعةً للآلهةِ كما حَكَى اللهُ تعالى عنه: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥٨- ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦٥- ٣٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٩٩).

قال ابن تيميَّةَ: (ومن لم يعبُدِ اللهَ أصلًا كفرعونَ ونحوِه ممَّن قال الله فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، فهؤلاء مُعطِّلةٌ، وهم شرُّ الكفَّارِ، ومع هذا يكون لهم ما يعبدونه دونَ اللهِ، كما قال تعالى في قومِ فرعونَ: ﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾، فقال غيرُ واحدٍ من السَّلفِ: «كان له آلهةٌ يعبُدُها»). ((الرد على المنطقيين)) (ص: ٢٩٢).

وللواو في قوله تعالى: ﴿وَيَذَرَكَ﴾ وجهانِ من الإعرابِ:

الأوَّلُ: أنَّها واوُ الحالِ. وهذا اختيار ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦٦).

الثَّاني: أنَّها واو العطفِ، فيكون قولُه سبحانه: ﴿وَيَذَرَكَ﴾ معطوفًا على ﴿لِيُفْسِدُوا﴾، وهذا اختيارُ ابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥٨).

وحَكَى ابنُ كثير الوجهينِ، ولم يُرجِّحْ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٩- ٤٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٠)، ((تفسير السعدي)) =

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: ٢٥].

﴿وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾.

أي: ونَستبقي الإناثَ منهم، فلا نقتُلُهُنَّ[١].

﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾.

أي: قال فِرعونُ: وإنَّا عالون على بني إسرائيلَ مُذلِّلون لهم؛ فلا خُروجَ لهم عن حُكْمِنا[٢].

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾.

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟﴾.

أي: قال موسى لقومِه من بني إسرائيلَ: اطْلُبوا العَوْنَ من اللهِ تعالى على فِرعونَ وقومِه، واصْبِروا على ما يَحِلُّ بكم من المَكارِهِ في أنفُسِكم وأبنائِكم

= (ص: ٣٠٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٩٩).

قال الرازيُّ: (اتَّفَقَ المفسِّرون على أنَّ هذا التهديدَ وقع في غيرِ الزَّمانِ الأوَّلِ). ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٤٢). ويعني بالزَّمانِ الأوَّلِ: زمنَ وِلادةِ موسى عليه السَّلامُ. يُنظر: ((الإجماع في التفسير)) لعمَّار الجُماعي (ص: ٣٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٩٩).

قال السعديُّ: (أي: نَسْتَبْقيهنَّ فلا نقتلهنَّ، فإذا فعَلْنا ذلك أَمِنَّا من كثرتِهم، وكنَّا مُستخدِمينَ لباقيهم، ومُسخِّرينَ لهم على ما نشاءُ من الأعمالِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠).

وقال ابن عاشور: (الغَرَضُ من استبقاءِ النِّساءِ أنْ يتَّخِذوهُنَّ سراريَّ وخَدَمًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٩٩).

ونسائِكم؛ حتَّى يُنجِّيَكم اللهُ بفضْلِه من ظُلْمِهم[1].

﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾.

أي: قال موسى لقومِه: إنَّ الأرضَ كُلَّها للهِ، وليسَتْ لفرعونَ ولا لقومِه، يُقدِّرُ اللهُ تعالى لِمَنْ يشاءُ من العِبادِ مِلْكَ شيءٍ منها، ثمَّ ينزِعُه منه، ويُداوِلُه بين النَّاسِ، وَفْقَ مشيئتِه وحِكْمتِه[2].

كما قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

أي: والحالُ الحَسنةُ المَحمودةُ في الدُّنيا والآخِرةِ تكون في آخِرِ الأمرِ للَّذين يتَّقونَ اللهَ عزَّ وجلَّ؛ بفِعْلِ أوامِره، واجتنابِ نواهيه[3].

كما قال سُبحانَه: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: ١٣٢].

وقال تعالى للمؤمنينَ: ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٠٠-١٠١).

يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وقال تعالى عن إنجائِه يُوسُفَ عليه السَّلامُ من كَيْدِ إخْوَتِه وغيرِهم: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ * قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٨٩-٩٠].

﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٢٩﴾.

﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَا﴾.

أي: قال بنو إسرائيلَ لموسى: آذانَا فرعونُ وقومُه بقتْلِ أبنائِنا، واستحياءِ نسائِنا، وإذْلالِنا مِنْ قَبْلِ مجيئِكَ برسالتِكَ- يا موسى- ومِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنا كذلك[1].

﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ﴾.

أي: قال موسى لقومِه: أَرْجو لكم مِن خالِقِكم ومُدبِّرِ شُؤونِكم أنْ يُهلِكَ عدُوَّكم فرعونَ وقومَه[2].

﴿وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: وأنْ يَجعَلَكم خُلفاءَ في أرضِهم مِنْ بَعْدِ إهلاكِهم، فيُمَكِّنكم فيها[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٠١- ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٠)، ((تفسير السعدي)) =

﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

أي: فيَرى اللهُ عزَّ وجلَّ ما تَعمَلونه حينذاكَ من خيرٍ وشرٍّ، وشُكرٍ وكُفرٍ، فيُجازِيَكم عليه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ * ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٣-١٤].

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ إنَّه ليس لأصحابِ الدَّعوةِ إلى ربِّ العالَمينَ إلَّا مَلاذٌ واحدٌ، وهو المَلاذُ الحَصينُ الأمينُ، وإلَّا وَلِيٌّ واحدٌ، وهو الوَلِيُّ القويُّ المَتينُ، وعليهم أنْ يَصبِروا حتَّى يَأْذَنَ الوليُّ بالنُّصرَةِ في الوقتِ الَّذي يُقدِّرُه بحِكْمتِه وعِلْمِه، وألَّا يَعْجَلوا؛ فهم لا يَطَّلِعونَ الغَيْبَ، ولا يَعلمون الخيرَ، وإنَّ الأرضَ للهِ، وما هؤلاءِ الطَّواغيتُ إلَّا نُزَلاءُ فيها، واللهُ يُورِثُها مَنْ يشاء من عِبادِه- وَفْقَ سُنَّتِه وحِكْمتِه-، فلا ينظُرِ الدَّاعونَ إلى ربِّ العالَمينَ إلى شيءٍ من ظواهِرِ الأُمورِ الَّتي تُخيِّلُ للنَّاظرينَ أنَّ الطَّاغوتَ مَكينٌ في الأرضِ، غيرُ مُزَحْزَحٍ عنها؛ فصاحِبُ الأرضِ ومالِكُها هو الَّذي يُقرِّرُ متى يَطْرُدُهم منها، وإنَّ العاقبةَ للمتَّقينَ، طال الزَّمنُ أو قَصُرَ؛ فلا يُخالِجْ قلوبَ الدَّاعينَ إلى

= (ص: ٣٠١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٠٢).

قال القرطبيُّ: (وقد استُخلِفوا في مِصرَ في زمانِ داودَ وسليمانَ عليهما السَّلامُ، وفَتَحوا بَيْتَ المَقْدِسِ مع يُوشَعَ بنِ نُونٍ). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٦٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٣- ٣٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١).

ربِّ العالَمينَ قَلَقٌ على المَصيرِ، ولا يُخايِلْ لهم تقلُّبُ الَّذينَ كَفَروا في البلادِ، فيَحسَبوهم باقين(١).

٢- قولُه تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ كُلَّ مَنِ اتَّقى اللهَ تعالى وخافَه فاللهُ يُعينُه في الدُّنيا والآخرةِ(٢).

٣- عُلِمَ من قولِه: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أنَّ مَنْ يشاء اللهُ أنْ يُورِثَهم الأرضَ هُمُ المتَّقونَ إذا كان في النَّاسِ مُتَّقونَ وغيرُهم، وأنَّ تمليكَ الأرضِ لغيرِهم إمَّا عارِضٌ، وإمَّا لاستواءِ أهلِ الأرضِ في عدمِ التَّقْوى(٣).

٤- قال تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾، المتَّقونَ بمنزِلةِ مَنْ أكَلَ الطَّعامَ النَّافعَ، واتَّقى الأطعمةَ المُؤذيةَ؛ فَصَحَّ جِسمُه، وكانت عاقبتُه سَليمةً، وغيرُ المتَّقي بمنزِلةِ مَنْ خَلَطَ مِنَ الأطعمةِ؛ فإنَّه وإنِ اغْتَذَى بها لكنَّ تلك التَّخاليطَ قد تُورِثُه أمراضًا إمَّا مؤذيةً؛ وإمَّا مُهْلِكَةً(٤).

٥- قال تعالى: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾، هذه الآيةُ الكريمةُ فيها وعيدٌ شديدٌ، وتخويفٌ عظيمٌ، لِمَنِ اسْتَخْلَفَه اللهُ في الأرضِ- بَعْدَ عدُوِّه الَّذي كان يُقاوِمُه- وبَسَطَ يَدَهُ بالأرضِ، فإذا كان عِنده عَقْلٌ فإنَّه يخافُ من نَظَرِ اللهِ إليه كيف يَفْعَلُ؛ فيُطيعُ اللهَ في كُلِّ ما يفعَلُ، كما لا يَخفى، فهذه من أعظمِ المواعظِ وأكبرِها الَّتي يَعِظُ اللهُ بها الَّذينَ يُسْتَخْلَفونَ في الأرضِ بعْدَ الَّذينَ كانوا فيها(٥).

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٣٥٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٤٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦١).
(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ١٣٦-١٣٧).
(٥) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٠٢).

٦- قوله تعالى: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ يدُلُّ على أنَّ المُسْتَخْلَفينَ في الأرضِ لم يُسْتَخْلَفوا فيها لأَجْلِ الإنعامِ بها عليهم، بل كُلُّ ذلك للابتلاءِ والامتحانِ، فيَنظُرُ اللهُ تعالى هل يُطيعونَه فيما اسْتَخْلَفَهم فيه أو يَعْصونَه(١).

الفَوائِدُ العِلْمِيَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾، في وَعْدِ موسى تبشيرٌ لقومِه بالنَّصرِ وحُسْنِ الخاتمةِ؛ فنتيجةُ طَلَبِ الإعانةِ توريثُ الأرضِ لهم، ونتيجةُ الصَّبرِ العاقبةُ المحمودةُ، والنَّصرُ على مَنْ عاداهم؛ فلذلك كان الأمرُ بشيئَيْنِ يَنْتِجُ عنهما شيئانِ(٢).

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ جِيءَ فيه بلفظَيْنِ عامَّينِ، وهما: ﴿مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ و(المتَّقينَ)؛ لِتكونَ الجُملتانِ تَذْييلًا للكلامِ، ولِيَحْرِصَ السَّامعونَ على أنْ يكونوا مِنَ المتَّقينَ(٣).

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾، عبَّرَ بـ(عَسَى) ولم يَقْطَعْ بالوَعْدِ؛ لئلَّا يُكذِّبوه؛ لِضَعْفِ أنفُسِهم بما طالَ عليهم مِنَ الذُّلِّ والاسْتِخذاءِ لفرعونَ وقومِه، واستعظامِهم لِمُلْكِه وقُوَّتِه(٤).

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾، لا تَنافِيَ بين هذا الرَّجاءِ وبين قولِه: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ من حيثُ

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٠٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٤٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦١).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٧٢).

إنَّ الرَّجاءَ غيرُ مقطوعٍ بحُصولِ مُتعَلَّقِه، والإخبارَ بأنَّ العاقبةَ للمُتَّقين واقِعٌ لا مَحالةَ؛ لأنَّ العاقبةَ إنْ كانت في الآخرةِ فظاهِرٌ عَدَمُ التَّنافي، وإنْ كانت في الدُّنيا فليس فيها تصريحٌ بعاقبةِ هؤلاءِ القومِ المخصوصين؛ فسَلَكَ موسى طريقَ الأدَبِ مع اللهِ، وساقَ الكلامَ مَساقَ الرَّجاءِ(١).

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾، وهو سُبحانَه يَعلمُ ماذا سيكون قبْلَ أنْ يكونَ، ولكنَّها سُنَّةُ اللهِ وعَدْلُه ألَّا يُحاسِبَ البَشَرَ حتَّى يقَعَ منهم في العِيَانِ ما هو مكشوفٌ مِنَ الغَيْبِ؛ لِعِلْمِه القديمِ، فهو سبحانه لا يُجازِيهم على ما يَعلَمه منهم من خَطيئاتِهم الَّتي يعلَمُ أنَّهم عامِلوها لا مَحالةَ، إنَّما يُجازيهم على ما وقَعَ منهم(٢).

بلاغة الآيات:

١- قولُه: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾

- جُملةُ: ﴿قَالَ الْمَلَأُ﴾ عَطْفٌ على جُملةِ: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ﴾، أو على جُملةِ: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾، وإنَّما عُطِفَتْ ولم تُفْصَلْ؛ لِأنَّها خارِجةٌ عَنِ المُحاوَرَةِ الَّتي بَيْنَ فرعونَ ومَنْ آمَنَ مِنْ قومِهِ بموسى وآياتِه؛ لأنَّ أولئك لم يُعَرِّجوا على ذِكْرِ ملأِ فرعونَ، بل هي مُحاوَرَةٌ بَيْنَ ملأِ فرعونَ وبَيْنه في وقتٍ غيرِ وقتِ المُحاوَرَةِ الَّتي جَرَتْ بين فرعونَ والسَّحرةِ(٣).

- والاستفهامُ في قولِهم: ﴿أَتَذَرُ مُوسَى﴾ مُستعمَلٌ في الإغراء بإهلاكِ موسى وقومِه، والإنكارِ على الإبطاءِ بإتْلافِهم(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٦٧)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٣٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٥٨).

- وقولهم: ﴿لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ اللام في قوله: ﴿لِيُفْسِدُوا﴾ لامُ التعليل، وهو مبالغةٌ في الإنكار؛ إذ جَعَلوا تَرْكَ موسى وقومِه مُعلَّلًا بالفسادِ، وهذه اللام تُسمَّى لامَ العاقبة[١].

٢- قوله: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ تشديدُ التاءِ في ﴿سَنُقَتِّلُ﴾ للمبالغةِ في القَتْلِ مُبالغةَ كَثرةٍ واستيعابٍ، والاستحياء مبالغةٌ في الإحياءِ؛ فالسِّينُ والتاءُ في ﴿وَنَسْتَحْيِي﴾ للمُبالغةِ أيضًا[٢].

٣- قوله: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾

- قوله: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ﴾ كرَّرَ لفظ الجلالة، وأظهرَه في موضعِ الإضمارِ؛ تذكيرًا بالعَظَمَةِ، وتصريحًا، وتبركًا[٣].

- قوله: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ تذييلٌ وتعليلٌ للأمْر بالاستعانةِ بالله، وفيه كنايةٌ عن ترقُّبِ زَوالِ استِعْبادِ فِرعونَ إيَّاهم، قُصِدَ منها صرفُ اليأسِ عن أنفسِهم النَّاشئِ عن مُشاهدةِ قُوَّةِ فِرعونَ وسُلطانِه[٤].

- وقوله: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ تذييلٌ بمنزلةِ تَعليلٍ ثانٍ للأمرِ بالاستعانةِ والصَّبرِ، وبهذا الاعتبارِ أُوثِرَ العطفُ بالواوِ على فَصْلِ الجُملةِ، مع أنَّ مُقتضَى التذييلِ أنْ تَكونَ الجملةُ مَفصولةً غير مَعطوفةٍ[٥]. وفيه وعدٌ لبَني إسرائيلَ بالنُّصرةِ على القِبطِ، وتذكير لِمَا وعَدَهم من إهلاكِ القبطِ، وتوريثِهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٥٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أرضَهم ودِيارَهم، وتحقيقٌ له(١).

٤- **قوله: ﴿قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾** فيه تصريحٌ بما رَمَز إليه مِن البِشارةِ قَبلُ، وكشفٌ عنه، وهو إهلاكُ فِرعونَ، واستخلافُهم بعدَه في أرضِ مِصرَ(٢). وعَبَّر بـ(عَسَى) التي تدلُّ على الرجاء والطَّمعِ والإشفاقِ، ومِثلُ هذا الكلام إذا صَدَر من الأنبياءِ يُقوِّي قلوبَ أتْباعِهم، فيَصبرون إلى وُقوعِ مُتعلَّقِ الرَّجاءِ(٣).

- قوله: ﴿فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ جُملةٌ تَجرِي مجرَى البعثِ والتحريضِ على طاعةِ اللهِ تعالى(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٤٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٣٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٤٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٤٢- ٣٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٤٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٤٦).

الآيات (١٣٠-١٣٣)

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ
﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن
مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا
بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ
وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿أَخَذْنَا﴾: أي: أَصَبْنا، أو اخْتبَرْنَا، أو كِنايةٌ عَنِ القَهْرِ، وأصل (أخذ): يدلُّ على حَوزِ الشَّيءِ وجَمْعِه(١).

﴿بِالسِّنِينَ﴾: جَمْعُ سَنَةٍ، وهي: الجَدْبُ والقَحْطُ؛ وأكثرُ ما تُستعمَلُ السَّنَةُ في الحولِ الذي فيه الجدبُ، يُقالُ: أَسْنَتَ القَومُ: إذا أَجْدَبوا، وأَصْلُ (سنه): يَدُلُّ على زَمانٍ(٢).

﴿يَطَّيَّروا﴾: أي: يَتَشاءَموا به، وأَصْلُ (طير): التَّفاؤُلُ بالطَّيْرِ، ثمَّ اسْتُعمِلَ في كلِّ ما يُتَفاءَلُ به ويُتَشاءَمُ(٣).

﴿طَائِرُهُمْ﴾: أي: شُؤْمُهم، أو حَظُّهم الَّذي قضاه اللهُ تعالى لهم مِنَ الخيرِ والشَّرِّ، فهو لازِمٌ عُنُقَهم(٤).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٨، ٩٩٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٦).

(٤) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٨، ٥٢٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٦).

﴿الطُّوفَانَ﴾: أي: المَطَرَ الكثيرَ، أو الماءَ الكثيرَ، والسَّيلَ العظيمَ، ويُطلَقُ الطُّوفانُ على كُلِّ حادِثَةٍ مُحيطَةٍ بالإنسانِ، فصار مُتعارَفًا في الماءِ المتناهي في الكَثْرَةِ، وأصل (طوف): يَدُلُّ على دَورانِ الشَّيءِ على الشَّيءِ، وأن يُحَفَّ به، ثُمَّ يُحمَلَ عليه(١).

﴿وَالْقُمَّلَ﴾: السُّوس يقَعُ في الحِنْطَةِ، أو صغار الجَرادِ الَّذي لا أجنِحَةَ له، وقيل: صِغارُ الذُّبابِ، وأصل (قمل): يَدُلُّ على حَقارَةٍ وقَمَاءةٍ(٢).

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تعالى أَنَّه ابْتَلى آلَ فرعونَ بالجَدْبِ والقَحْطِ وقِلَّةِ الثِّمارِ؛ لعلَّهم يَذَّكَّرونَ، وأَخْبرَ أَنَّهم إذا جاءَهم الخِصْبُ والرِّزْقُ قالوا: هذه النِّعَمُ الكثيرةُ لنا، ولم يَشكروا اللهَ عليها، وإذا جاءهم الجَدْبُ والقَحْطُ تشاءموا بموسى ومَنْ معه مِنَ المؤمنينَ، إلَّا أنَّ ما أصابَهم من شَرٍّ هو مُقَدَّرٌ عليهم عقوبةً لهم، وليس من عِند موسى والمؤمنين معه، ولكنَّ أكثرَهم لا يَعلمون.

وقال آلُ فرعونَ لموسى: مهما تأتِنا بمعجزةٍ لِتَصْرِفَنا بها عن دِينِنا، فَلَنْ نؤمِنَ لك.

فأرسَلَ اللهُ عليهم الماءَ الكثيرَ الَّذي أَغْرَقَ بُيوتَهم ومزارعَهم، والجرادَ، والقُمَّلَ، والضَّفادِعَ، والدَّمَ، آياتٍ واضحاتٍ تدُلُّ على صِحَّةِ نُبوَّةِ موسى عليه السَّلامُ، وفَصَلَ كُلَّ عقوبةٍ عَنِ الأُخْرى؛ فكان بعضُها يأتي في إِثْرِ بعضٍ، فاسْتكبروا، وكانوا قومًا مُجرِمينَ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٦)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٤٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٨١، ٥٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٨٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٦).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا حَكَى اللهُ تعالى عن موسى عليه السَّلامُ أنَّه قال لقومِه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾، بدأ هاهنا بذِكْرِ ما أنزله بفرعونَ وبقومِه مِنَ المِحَنِ حالًا بعْدَ حالٍ، إلى أنْ وَصَلَ الأمْرُ إلى الهلاكِ؛ تنبيهًا للمكلَّفينَ على الزَّجْرِ عَنِ الكُفْرِ والتَّمسُّكِ بتكذيبِ الرُّسلِ؛ خوفًا من نُزولِ هذه المِحَنِ بهم، فقال[1]:

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ ﴾.

أي: ولقد ابتلَيْنا فِرعونَ وقومَه، واختبَرْناهم بالجَدْبِ والقَحْطِ، وعدمِ نُزولِ المطرِ[2].

﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾.

أي: وابتليناهم بقِلَّةِ ثِمارِهم، فلا تُثْمِرُ أشجارُهم إلَّا قليلًا[3].

﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾.

أي: إنَّما ابتلَيْناهم واختبَرْناهم بالجَدْبِ وقِلَّةِ الثِّمارِ؛ لِيَتَّعِظوا فينزجِروا عن

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٠٣، ١٠٤).

قال ابنُ عاشور: (ليس قولُه تعالى: ﴿بِالسِّنِينَ﴾ دليلًا على أنَّها طالت أعوامًا؛ لأنَّ السِّنينَ هنا جَمْعُ سَنَةٍ بمعنى الجَدْبِ لا بمعنى الزَّمنِ المُقدَّرِ من الدَّهرِ؛ فالسَّنَةُ في كلامِ العربِ إذا عُرِّفَتْ باللَّامِ يُرادُ بها سَنَةُ الجَدْبِ والقَحْطِ... فـ(السِّنين) في الآيةِ مُرادٌ بها القُحوطُ، وجَمْعُها باعتبارِ كثرةِ مَواقِعِها، أي: أصابَهم القَحْطُ في جميعِ الأَرَضِينَ والبُلدانِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٠٤).

كُفْرِهم، ويَرجِعوا إلى ربِّهم(١).

كما قال تعالى عنهم: ﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٤٨].

﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣١)﴾.

﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾.

أي: فإذا جاءَتْ آلَ فرعونَ الحالُ الحَسَنةُ؛ مِنَ العافيةِ والرَّخاءِ، وكَثْرَةِ الأمطارِ، وكثرةِ الثِّمارِ، قالوا: هذه النِّعَمُ الكثيرةُ لنا؛ لأنَّنا نَستحِقُّها، وجَديرون بها، ولم يَشْكروا اللهَ عليها(٢).

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾.

أي: وإنْ تُصِبْهُمْ حالٌ سيِّئةٌ في بعضِ الأوقاتِ؛ مِنَ الجَدْبِ والقَحْطِ، وقِلَّةِ الأرزاقِ، ومجيءِ الأمراضِ؛ يَتشاءَموا بموسى ومَنْ معه مِنَ المؤمنين، ويقولوا: هذا البَلاءُ جاءَنا بسَبَبِ موسى والَّذينَ آمَنوا بدينِه(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٠٥).
قال ابن عاشور: (لأنَّ المصائبَ والأضرارَ المُقارِنَةَ لتذكيرِ موسى إيَّاهم بربِّهم، وتسريحِ عَبيدِه، مِن شأنِها أنْ يكونَ أصحابُها مَرْجُوًّا منهم أنْ يَتذكَّروا بأنَّ ذلك عِقابٌ على إعراضِهم وعلى عدمِ تذكُّرِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٦)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٠٦).
قال الشنقيطيُّ: (المرادُ بالحسنةِ هنا- بإجماعِ المفسِّرين- هو ذاك الخِصْبُ، وكثرةُ المطرِ، وكثرةُ الأرزاقِ، والعافيةُ). ((العذب النمير)) (٤/ ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٦)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ٢٣٢)، =

﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

أي: إنَّ ما يُصيبُ فِرعونَ وقومَه من شرٍّ إنَّما هو مُقَدَّرٌ عليهم من عِند اللهِ تعالى؛ عُقوبةً لهم بسَبَبِ كُفْرِهم، وليس هو مِن عِندِ موسى والمؤمِنينَ معه(١).

= ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٠٦).

قال الرازيُّ: (والتَّطَيُّرُ التَّشاؤُمُ في قولِ جميعِ المفسِّرين). ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٤٤).

(١) واختار أنَّ المرادَ بالطائرِ هنا شُؤْمُهم وما يَحُلُّ بهم من مصائبَ: الواحديُّ، والسعديُّ، وابنُ عاشور، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((الوجيز)) (ص: ٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٠٩).

وممن قال بهذا القولِ مِن السَّلف ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٧).

وقيل: المرادُ بالطَّائرِ ما قُدِّرَ عليهم من خيرٍ وشرٍّ. وهذا اختيارُ ابن جريرٍ، والبَغَوي، والرازي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٧)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٢٣)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٤٥).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلف ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، والضحَّاك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٥/ ١٥٤٣).

قال ابنُ تيميَّةَ: (فسَّروا «الطَّائرَ» بالأعمالِ وجزائِها؛ لأنَّهم كانوا يقولون: إنَّما أصابَنا ما أصابَنا من المصائبِ بذُنوبِ الرُّسلِ وأتباعِهم؛ فبيَّنَ اللهُ سبحانه: أنَّ طائرَهم- وهو الأعمالُ وجزاؤُها- هو عِندَ اللهِ، وهو معهم؛ فهو معهم لأنَّ أعمالَهم وما قُدِّرَ من جزائِها معهم، كما قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٣]، وهو من اللهِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قدَّرَ تلك المصائبَ بأعمالِهم؛ فمِن عِندِه تتنزَّلُ عليهم المصائبُ جزاءً على أعمالِهم، لا بسببِ الرُّسلِ وأتباعِهم). ((مجموع الفتاوى)) (١٤/ ٢٥٣). ويُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٦٥)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ٢٣٢).

وقال ابن القيِّم: (هاتانِ النِّسبتانِ نظيرُ هاتين النِّسبتين في هذه الآيةِ، وهي نِسبةُ السَّيِّئةِ إلى نفسِ العبدِ، ونسبةُ الحسنةِ والسَّيِّئةِ إلى أنَّهما مِن عندِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فتأمَّلِ اتِّفاقَ القرآنِ، وتصديقَ بعضِه بعضًا؛ فحيث جعَلَ الطَّائرَ معهم، والسَّيِّئةَ من نفسِ العبدِ، فهو على وجهةِ السَّببِ والموجِبِ، أي: الشَّرُّ والشُّؤْمُ الَّذي أصابَكم هو منكم ومعكم؛ فإنَّ أسبابَه قائمةٌ بكم، كما تقول: شَرُّكَ منك، وشُؤْمُكَ فيك، يُرادُ به العملُ، وطائرُكَ معك، وحيثُ جعَلَ ذلك كلَّه من عنده فهو لأنَّه الخالِقُ له، المجازي به عدلًا وحكمةً، فالطَّائرُ يُرادُ به العملُ وجزاؤه، فالمضافُ إلى العبدِ العملُ، والمضافُ إلى الرَّبِّ الجزاءُ، فطائرُكُم معكم طائرُ العملِ، وطائرُكُم عند اللهِ الجزاءُ، فما جاءت به الرُّسلُ ليس سببًا لشيءٍ من المصائبِ، ولا تكون طاعةُ اللهِ ورسولِه =

كما قال تعالى في شأنِ المكذِّبين بمُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أي: ولكنَّ أكثرَ قَومِ فِرعونَ لا يَعلمون أنَّ ما يُصيبُهم من شرٍّ إنَّما هو عقوبةٌ لهم مِن عِندِ اللهِ تعالى بسببِ كُفْرِهم، لا مِن عِندِ موسى وأتباعِه(١).

كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

وقال سُبحانَه: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢)﴾.

= سببًا لمصيبةٍ قَطُّ، بل طاعةُ اللهِ ورسولِه لا توجِبُ إلَّا خيرًا في الدُّنيا والآخرةِ، ولكنْ قد يُصيبُ المؤمنين باللهِ ورسولِه مصائبُ؛ بسببِ ذُنوبِهم، وتقصيرِهم في طاعةِ اللهِ ورسولِه). ((شفاء العليل)) (ص: ١٦٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٩٨)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٢٣)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١).

قال ابن عاشور: (الضَّميرُ في قولِه: ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ عائدٌ إلى الَّذينَ ﴿قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾، وإنَّما نُفِيَ العِلمُ عن أكثرِهم؛ تنبيهًا على أنَّ قليلًا منهم يعلمون خِلافَ ذلك، ولكنَّهم يُشايِعونَ مَقالةَ الأكثرين). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٧).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا حَكَى اللهُ تعالى عن آلِ فرعونَ في الآيةِ الأُولى أنَّهم- لِجَهْلِهم- أسندوا حوادِثَ هذا العالَمِ لا إلى قَضاءِ اللهِ تعالى وقَدَرِه؛ حَكَى عنهم في هذه الآيةِ نوعًا آخَرَ من أنواعِ الجَهالةِ والضَّلالةِ، وهو أنَّهم لم يُميِّزوا بين المعجزاتِ وبين السِّحرِ، وجَعَلوا جُملةَ الآياتِ- مِثلَ انقلابِ العصا حيَّةً- من بابِ السِّحرِ منهم، وقالوا لموسى: إنَّا لا نَقْبَلُ شيئًا منها البتَّةَ[1].

﴿ وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٣٢ ﴾.

أي: وقال آلُ فرعونَ لموسى: مهما تَجِئْنا- يا موسى- بمُعجزةٍ؛ لتصرِفَنا بها عن دِينِنا، جَزَمْنا بأنَّها سِحرٌ؛ فلن نُؤمنَ بك، ولا بما جِئْتَنا به[2].

﴿ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ١٣٣ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بارَزوا اللهَ تعالى بتِلك الأفعالِ العَظميةِ المذكورةِ فيما سبَق، استحقُّوا النَّكالَ، فَسُبِّبَ عن ذلك قولُه تعالى[3]:

﴿ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ ﴾.

أي: فبسَبَبِ كُفْرِهم بَعَثْنا عليهم الماءَ الكثيرَ، الَّذي دخَلَ بُيوتَهم، وأَغْرَقَ مزارِعَهم[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١١١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٠).

(٤) وهذا المعنى المذكورُ للطُّوفانِ هو اختيارُ السعدي، وابنِ عاشورٍ، والشنقيطي، ونَسَبَه للجمهورِ. =

كما قال اللهُ تعالى عن قومِ نوحٍ: ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤].

﴿وَٱلْجَرَادَ﴾.

أي: وبَعَثْنا عليهم الجرادَ، فأكَلَ زُروعَهم وثِمارَهم(١).

﴿وَٱلْقُمَّلَ﴾.

أي: وبعَثْنا عليهم القُمَّلَ(٢)، وهو شيءٌ مِن خلقِ اللهِ سلَّطه الله عليهم فعذَّبهم

= يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١١٢-١١٣).

وممن قال بهذا القولِ مِن السَّلف ابنُ عبَّاس في روايةٍ عنه، وأبو مالكٍ، والضحَّاك، وقتادةُ، وسعيدُ بنُ جُبيرٍ، والسُّديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٥/ ١٥٤٤).

وقال ابنُ جريرٍ دونَ جزمٍ بتحديدِه: (والصَّوابُ من القولِ... أنَّه أمْرٌ من اللهِ طاف بهم، وأنَّه مصدرٌ من قولِ القائلِ: طاف بهم أمْرُ اللهِ يَطوفُ طوفانًا... وإذا كان ذلك كذلك جاز أن يكونَ الَّذي طاف بهم المطرَ الشَّديدَ، وجاز أنْ يكونَ الموتَ الذَّريعَ). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٨٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ ابنُ عبَّاس في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٨١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٩).

واختلَف السَّلفُ في تفسيرِ القمَّل:

فقال بعضُهم: هو الدَّبَى (الجرادُ الذي ليس له أجنحةٌ)، وممن رُوي عنه هذا القولُ منهم: ابنُ عبَّاس، والسُّديُّ، وقتادةُ، ومجاهدٌ، وسعيدُ بنُ جبيرٍ في روايةٍ عنه، وعطاءٌ الخراسانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٨٣).

وقال بعضُهم: القمَّل هي البراغيثُ، وممن رُوي عنه هذه القولَ ابنُ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٨٤).

وقال بعضُهم: إنَّها دوابُّ سودٌ صغارٌ، وممن رُوي عنه هذا القولُ مِن السَّلف الحسنُ، وسعيدُ بنُ جبيرٍ في روايةٍ عنه، وقيل غير ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٨٥)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٤٨). =

به، وآذاهم إيذاءً كثيرًا[١].

﴿وَٱلضَّفَادِعَ﴾.

أي: وبَعَثْنا عليهم الضَّفادِعَ، فامتلأَتْ منها بُيوتُهم وآنيتُهم، وآذَتْهم إيذاءً عظيمًا[٢].

﴿وَٱلدَّمَ﴾.

أي: وبَعَثْنا عليهم الدَّمَ، فصار ماؤُهم الَّذي يَشرَبونَه ويَستعمِلونَه دَمًا[٣].

﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾.

أي: بَعَثْنا على قومِ فرعونَ هذه العقوباتِ، الَّتي جعَلْناها علاماتٍ تدُلُّ بوضوحٍ على صِحَّةِ نُبوَّةِ موسى عليه السَّلامُ[٤]، وفصَلْنا كلَّ عُقوبةٍ عن العقوبةِ الأخرى؛ فكان بعضُها يأتي في إِثْرِ بعضٍ[٥].

= قال الشنقيطي: (والحاصلُ أنَّ القمَّل هنا فيه أقوالٌ متقاربةٌ) ثم ذكَر هذه الأقوالَ، وقال: (هذه أقوالٌ فيه لا يكذِّبُ بعضُها بعضًا، وعلى كلِّ حالٍ فهو شيءٌ مِن خلقِ الله، سلَّطه الله عليهم، فعذَّبهم به، وآذاهم إيذاءً كثيرًا، حتى ضجُّوا، وزعموا أنَّهم يتوبونَ). ((العذب النمير)) (٤/ ١١٨).

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٩- ٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٢١).

وهذا قولُ الجمهورِ كما قال ابن الجوزي: (وفي الدَّمِ قولانِ؛ أحدُهما: أنَّ ماءهم صار دمًا، قاله الجمهورُ. والثَّاني: أنَّه رُعافٌ أصابهم، قاله زيدُ بنُ أَسْلَمَ). ((زاد المسير)) (٢/ ١٤٨). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١).

(٤) وهذا المعنى لـ ﴿مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ هو اختيارُ السعديِّ، وابنِ عاشورٍ، والشنقيطيِّ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٢٣).

وممن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلف مجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٩٨).

(٥) وهذا المعنى هو اختيارُ ابنِ جريرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٩٧)، وحكاه عددٌ مِن المفسِّرين. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٢٤).=

كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ [الزخرف: ٤٨].

﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾.

أي: فتكبَّرَ آلُ فرعونَ تكبُّرًا شديدًا عن الإيمانِ باللهِ عزَّ وجلَّ، وطاعةِ رسولِه موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، مع رُؤيتِهم لتِلك الآياتِ العظيمةِ، الدَّالَّةِ على صِدْقِه وصِحَّةِ رسالتِه(١).

كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾.

أي: وكانوا مِنْ قَبْلِ استكبارِهم قومًا يُصِرُّونَ على معصيةِ اللهِ سُبحانَه(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ [الزخرف: ٤٩-٥٠].

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- سنةُ اللهِ في الأُمَمِ أنْ يَبتلِيَها بالنِّقَمِ؛ ليَزدجِروا، ويتذكَّروا بذلك ما كانوا فيه مِنَ النِّعَمِ؛ فإنَّ الشِّدَّةَ تَجْلِبُ الإنابةَ والخشيةَ، ورِقَّةَ القلبِ، والرُّجوعَ إلى طلَبِ لُطفِ اللهِ وإحسانِه؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ

= وممن قال بهذا القولِ مِن السَّلف ابنُ عبَّاس، وابنُ جريج، وابنُ إسحاقَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٩٨)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٣/ ٥٢٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٩٨)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٢٥).
قال الشنقيطي: (المجرِمُ هو مرتكِبُ الجريمةِ، والجريمةُ: الذَّنبُ الَّذي يَستحِقُّ صاحبُه التَّنكيلَ والعذابَ). ((العذب النمير)) (٤/ ١٢٥).

بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[1].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾، في هذه الآيةِ تنبيهٌ للأُمَّةِ للنَّظرِ فيما يُحيطُ بها من دلائلِ غَضَبِ اللهِ؛ فإنَّ سَلْبَ النِّعمةِ للمُنْعَمِ عليهم تنبيهٌ لهم على استِحقاقِهم إعراضَ اللهِ تعالى عنهم[2].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ التَّطيُّرُ والتَّشاؤُمُ من صِفاتِ الكفَّارِ، وعلى المُسلِمينَ اجتنابُه، وأنْ يتوكَّلوا على اللهِ، ولا يَنبغي لهم أنْ يَجْزَعوا مِنَ التَّطيُّرِ، ولْيُعلَمْ أنَّ الأُمورَ بيدِ اللهِ، وأنَّ الشُّؤْمَ الحقيقيَّ الَّذي يَستجلِبُ كُلَّ الضَّرَرِ هو مُخالَفةُ ربِّ العالَمينَ جلَّ وعلا، أمَّا كُلُّ فِعْلٍ لم يُخالَفْ به اللهُ فهذا لا ضَرَرَ فيه ولا طِيَرَةَ؛ لأنَّ اللهَ ما أباحَه إلَّا لأنَّه لا ضَررَ فيه، وعلى المُسلِمِ أنْ يَتَحَرَّزَ من هذا كُلِّه، ولا يَتشاءمَ بشيءٍ، وأنْ يبنيَ الأُمورَ على التَّوكُّلِ على اللهِ، ومُراعاةِ أوامِره ونواهيه[3].

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا﴾ إنَّما سَمَّوها آيةً، ثم قالوا: ﴿لِتَسْحَرَنَا بِهَا﴾؛ لأنهم ما سَمَّوها آيةً لاعتقادِهم أنَّها آيةٌ، وإنَّما سمَّوها اعتبارًا لتَسميةِ مُوسى عليه السَّلامُ، وقَصَدوا بذلك الاستهزاءَ والتلهِّي[4].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حُكْمٌ بنَفْيِ العِلْمِ عن

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٤٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٤٦)

أكثرِهم؛ لأنَّ القليلَ منهم عَلِمَ؛ كمؤمنِ آلِ فرعونَ، وآسيةَ امرأةِ فرعونَ[1].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ﴾، ذَكَرَ أوَّلًا: ﴿الطُّوفَانَ﴾، ولَمَّا كان ذلك ربَّما أخْصَبَتْ به الأرضُ أَخْبَرَ أنَّه أَرْسَلَ ما يُفسِدُ ذلك، فقال: ﴿وَالْجَرَادَ﴾، ولَمَّا كان الجرادُ ربَّما طار، وقد أَبْقى شيئًا أَخْبرَ بما يَستمِرُّ لازقًا في الأرضِ حتَّى لا يَدَعَ بها شيئًا، فقال: ﴿وَالْقُمَّلَ﴾، ولَمَّا ربَّما كان عِندَهم شيءٌ مَخْزونٌ لم يَصِلْ إليه ذلك، أَخْبرَ بما يُسْقِطُ نَفْسَهُ في الأكْلِ؛ فيُفسِدُه أو يَنْقُصُه، فقال: ﴿والضَّفَادِعَ﴾، ولَمَّا تَمَّ ما يَضُرُّ بالمَأْكَلِ أَتْبعَه ما أَفْسَدَ المِشْرَبَ، فقال: ﴿وَالدَّمَ﴾[2].

بلاغة الآيات:

١- قولُه: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾: فيه تنكيرُ ﴿نَقْصٍ﴾؛ للتكثير؛ فنُكِّر ﴿نَقْص﴾ ولم يُضَفْ إلى ﴿الثَّمَرَاتِ﴾؛ لئلَّا تفوتَ الدَّلالةُ على الكثرةِ[3].

٢- قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ عرَّف الحَسنةَ، وذَكَّرها مع أداةِ التَّحقيقِ (إذا)؛ لكَثرةِ وُقوعِها، ونَكَّرَ السيِّئةَ، وأتَى بها مع حرْف الشكِّ (إنْ)؛ لأنَّ السَّيِّئةَ لا تَقعُ إلَّا في النُّدرة، ولا يقعُ إلَّا شيءٌ منها، ولعدمِ القَصدِ إليها إلَّا بالتَّبع[4]؛ فجِيءَ في جانب الحَسَنة بـ(إذا) الشرطيَّةِ؛ لأنَّ الغالبَ في (إذا) الدَّلالةُ على اليقين بوقوع الشَّرْط، أو ما يَقرُب من اليقين؛ ولذلك غلَب أنْ يكونَ فِعلُ الشرطِ مع (إذا) فعلًا ماضيًا؛ لكونِ الماضي

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٤٤- ١٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٣٠).

أقربَ إلى اليقينِ في الحُصولِ من المستقبَلِ، وجِيءَ في جانبِ السيِّئةِ بحَرْف (إنْ)؛ لأنَّ الغالب أن تدُلَّ (إنْ) على التردُّد في وقوعِ الشَّرْط، أو على الشكِّ؛ ولكون الشيءِ النادرِ الحصولِ غيرَ مجزومٍ بوقوعه، ومشكوكًا فيه، جِيءَ في شرْطِ إصابةِ السيئةِ بحرْفِ (إن)؛ لنُدرةِ وقوعِ السيِّئاتِ، أي: المكروهاتِ عليهم، بالنسبة إلى الحَسنات، أي: النِّعم، وفي ذلك تعريضٌ بأنَّ نِعمَ اللهِ كانتْ مُتكاثرةً لدَيهم، وأنَّهم كانوا مُعرِضين عن الشُّكرِ، وتعريضٌ بأنَّ إصابتَهم بالسيِّئاتِ نادرةٌ، وهم يَعدُّونَ السيِّئاتِ مِن جرَّاءِ موسى ومَن آمَن معه؛ فهم في كِلتا الحالتين بين كافِرين بالنِّعمة، وظالِمين لموسَى ومَن معه[1].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ﴾: لتَفريعِ هذا الخبرِ على جُملةِ ﴿أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾، والمعنى: فلم يَتذكَّروا، ولكنَّهم زادوا كُفرًا وغُرورًا[2].

- وفي قولِه: ﴿فَإِذا جاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ﴾ وقولِه: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ عبَّر في جانِبِ الحَسنةِ بالمجيءِ؛ لأنَّ حُصولَها مرغوبٌ؛ فإنَّها تُترقَّبُ كما يُترقَّبُ الجائي، وعبَّر في جانبِ السيِّئةِ بالإصابةِ؛ لأنَّها تحصُل فجأةً، مِن غيرِ رغبةٍ ولا ترقُّب[3].

٣- قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّما طائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ جملةٌ معترضةٌ؛ ولذلك فُصلت، ولم تُعطَف على التي قَبْلَها بالواوِ[4].

- والقصرُ المستفادُ مِن ﴿إِنَّمَا﴾ إضافيٌّ، أي: سُوءُ حالِهم عِقابٌ مِن اللهِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٦٤- ٦٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٦٧).

لا مِن عندَ موسى ومَن مَعَه[١].

- وفي قوله: ﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الاستدراكُ المستفادُ مِن (لكن) عَمَّا يُوهِمُه الاهتمامُ بالخبرِ الذي قبْلَه؛ لقرنِه بأداةِ الاستفتاحِ، واشتمالِه على صِيغةِ القَصرِ، مِن كون شأنِه ألَّا يجهلَه العقلاءُ؛ فاستدرَكَ بأنَّ أكثرَ أولئك لا يَعلمونَ[٢].

٤- قولُه: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ جُمْلَةُ ﴿فَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ تفيدُ المبالغةَ في القطعِ بانتفاءِ إيمانهم بموسى؛ لأنَّهم جاؤوا في كلامِهم بما حَوتْه الجملةُ الاسميَّةُ التي حَكتْه من الدَّلالةِ على ثُبوتِ هذا الانتفاءِ ودوامِه، وبما تُفيدُه الباءُ مِن توكيدِ النَّفي، وما يُفيدُه تقديمُ مُتعلِّق (مُؤْمِنِينَ) مِن اهتمامِهم بموسى في تعليقِ الإيمانِ به المنفيِّ باسمِه[٣].

٥- قوله: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ فيه صياغةُ الخبرِ عن إجرامِهم بصِيغةِ الجملةِ الاسميَّةِ؛ للدَّلالةِ على ثَباتِ وصْفِ الإجرامِ فيهم، وتَمكُّنِه منهم، ورُسوخِه فيهم مِن قَبلِ حُدوثِ الاستكبارِ، وفي ذلك تنبيهٌ على أنَّ وصفَ الإجرامِ الرَّاسخِ فيهم هو عِلَّةٌ للاستكبارِ الصادرِ مِنهم، فـ(كان) دالَّةٌ على استمرارِ الخبرِ، وهو وصفُ الإجرامِ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٦٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٧١).

الآيات (١٣٤-١٣٧)

﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (١٣٥) فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ (١٣٦) وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ (١٣٧) ﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿الرِّجْزُ﴾: العذابُ والسَّخَطُ، وأَصْلُ (رجز): الاضْطِرابُ(١).

﴿بَالِغُوهُ﴾: أي: واصِلونَ إليه، والبُلوغُ والبَلاغُ: الانتهاءُ إلى أقْصى المَقْصِدِ والمُنْتهى، تَقولُ: بَلَغَ المَكانَ، إذا وَصَلَ إليه، وأَصْلُ (بلغ): الوُصولُ إلى الشَّيْءِ(٢).

﴿يَنْكُثُونَ﴾: أي: يَنقُضونَ عَهْدَهم، والنكثُ نقضُ ما أُبْرِم، ويُستعملُ في الأجسامِ وفي المعاني، وأصلُ (نكث) يَدُلُّ عَلَى نَقْضِ شَيْءٍ(٣).

﴿الْيَمِّ﴾: أي: البَحْرِ، أو النِّيلِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٩٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٨٩)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٣٤١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٥) ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٧)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٩٣).

﴿يَعْرِشُونَ﴾: أي: يَبْنونَ، والعُروشُ: البُيوتُ والسُّقوفُ، والعَرْشُ في الأصل: شَيءٌ مُسَقَّفٌ، وأصْلُ (عرش) يَدُلُّ على ارْتِفاعٍ في شَيْءٍ مَبْنِيٍّ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه لَمَّا وقَعَ على آلِ فرعونَ العذابُ عقوبةً لهم، طَلَبوا من موسى أنْ يَدْعوَ اللهَ بما أوْصاه أن يدعوَ به حتى يَكُفَّ عنهم هذا العذابَ، ووَعَدوه مُقْسِمينَ له: لَئِنْ كَشَفَ عنهم هذا العذابَ لَيُؤْمِنُنَّ له، ولَيُرسِلُنَّ معه بني إسرائيلَ، فلمَّا كَشَفَ اللهُ عنهم هذا العذابَ، وأَمْهَلَهم إلى الوقتِ المُقدَّرِ لهلاكِهم، إذا بهم يَنْكُثونَ العَهْدَ الَّذي التَزَموه؛ فانتقم اللهُ منهم، فأَغْرَقهم في البحرِ؛ لكَوْنِهم كذَّبوا بآياتِه، وكانوا عنها غافلين.

وأَوْرَثَ اللهُ بني إسرائيلَ، الَّذين كانوا يُقهَرونَ ويُستعبَدونَ، مشارِقَ الأرضِ ومَغارِبَها الَّتي جَعَلَ اللهُ فيها البرَكةَ، ووَفَّى الله تعالى بما وَعَدَ به بني إسرائيلَ مِن إهلاكِ عدوِّهم، وتمكينِهم في الأرضِ؛ لِكَوْنِهم صَبَروا، ودمَّرَ ما كان يَصْنَعُ فرعونُ وقومُه، وما كانوا يَبنونه ويرفعونه مِنَ المباني والقُصورِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ ﴾.

﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٨).

أي: ولَمَّا نزَلَ بآلِ فرعونَ العذابُ(١) عقوبةً بَعْدَ أُخْرى(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(٣) [الزخرف: ٤٨].

﴿قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾.

أي: فَزِعوا إلى موسى قائلين(٤): يا موسى، ادعُ لنا ربَّكَ بالَّذي أَوْصاكَ أنْ

---

(١) اختلف المفسِّرون في المرادِ بالرِّجزِ هاهنا، فقيل: المرادُ به ما أُرسِلَ عليهم من الطُّوفانِ والجرادِ والقُمَّلِ والضَّفادعِ والدَّمِ. وهذا القولُ اختاره الواحديُّ وابنُ عاشورٍ والشنقيطيُّ، وذهب أبو حيَّان وابنُ عطيَّة إلى أنَّه ظاهرُ الآيةِ. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٢٥).
وممَّن رُوِي عنه مِن السَّلف أنَّ المرادَ به ما أُرسِلَ عليهم مِن الطُّوفانِ والجرادِ والقُمَّلِ والضَّفادعِ والدَّمِ: ابنُ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠١)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٤٩).
وقيل: المرادُ به الطَّاعونُ، وهذا قولٌ ذَكَرَه السعدي وابنُ عاشورٍ احتمالًا. ونسَبَ السعدي القولَ به إلى كثيرٍ من المفسِّرين. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧١).
وممَّن قال مِن السَّلف: إنَّه الطاعونُ، ابنُ عبَّاس، وسعيدُ بنُ جبيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٩٩)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٤٩).
وذهب ابنُ جريرٍ إلى أنَّه عذابٌ عُذِّبوا به دون تحديدٍ لماهيَّتِه. قال ابن جرير: (جائزٌ أنْ يكونَ ذلك الرِّجزُ كان الطُّوفانَ والجرادَ والقُمَّلَ والضَّفادعَ والدَّمَ؛ لأنَّ كلَّ ذلك كان عذابًا عليهم، وجائزٌ أنْ يكونَ ذلك الرِّجزُ كان طاعونًا. ولم يُخبِرْنا اللهُ أيَّ ذلك كان، ولا صَحَّ عن رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم بأيِّ ذلك كان خبرٌ فنُسلِّمَ له. فالصَّوابُ أنْ نقولَ فيه كما قال جلَّ ثناؤه: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ﴾، ولا نتعدَّاه إلَّا بالبيانِ الَّذي لا تَمانُعَ فيه بين أهلِ التَّأويلِ، وهو لِمَا حَلَّ بهم عذابُ اللهِ وسَخَطُه). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠١).
وممن قال من السَّلف أنَّه العذابُ مجاهدٌ، وقتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٩٩)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٧٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٥٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٢٥).

(٣) قال الشنقيطي: (الرِّجزُ المذكورُ في «الأعرافِ» هو بِعَيْنِه العذابُ المذكورُ في آيةِ «الزُّخْرُفِ» هذه). ((أضواء البيان)) (٧/ ١٢٢).

(٤) رجَّح أبو حيَّانَ أنَّ سؤالَهم موسى عليه السَّلامُ جاء بعْدَ وُقوعِ جميعِها- أي: الطُّوفانِ =

تَدْعوَه به[١]؛ لِيَكُفَّ عنَّا هذا العذابَ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٨، ٤٩].

﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾.

أي: نُقْسِمُ لك- يا موسى- لَئِنْ رَفَعْتَ عنَّا هذا العذابَ بدعائِكَ ربَّكَ، لنُصَدِّقَنَّكَ، ولنؤمِننَّ بما جِئْتَ به[٣].

= والجرادِ والقُمَّلِ والضَّفادعِ والدَّم- لا بعْدَ وُقوعِ نوعٍ منها. وذهب الشنقيطيُّ إلى أنَّ سؤالَهم موسى قد تكرَّرَ فلجؤوا إليه عَقِبَ وُقوعِ كلِّ نوعٍ من تلك الأنواعِ على حِدَةٍ. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٥٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٢٥).

(١) هذا المعنى للعَهْدِ هو اختيارُ ابنِ جرير، والواحدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠١)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (٩/ ٣١٦).

وقريبٌ منه اختيارُ القرطبيِّ وابنِ عاشور.

قال القرطبيُّ: (أي: بما استودَعك من العِلْمِ، أو بما اختصَّكَ به فنبَّأَكَ). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٧١).

وقال ابنُ عاشور: (أي: بما عرَّفك وأودَع عندك من الأسرارِ... أي: ادْعُه بما علَّمك ربُّك من وسائلِ إجابةِ دعائِك عِند ربِّك). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٢-٧٣).

وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٧١- ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٢).

قال ابن عاشور: (ليس قولُهم: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ بإيمانٍ باللهِ ورسالةِ موسى، ولكنَّهم كانوا مُشركين، وكانوا يُجوِّزونَ تعدُّدَ الآلهةِ، واختصاصَ بعضِ الأُمَمِ وبعضِ الأقطارِ بآلهةٍ لهم، فهُمْ قد خامَرَهم من كثرةِ ما رَأَوْا من آياتِ موسى أنْ يكونَ لموسى ربٌّ له تصرُّفٌ وقُدرةٌ، وأنَّه أصابَهم بالمصائبِ؛ لأنَّهم أضرُّوا عَبيدَه، فسألوا موسى أنْ يَكُفَّ عنهم ربَّه، ويكونَ جزاؤه الإذْنَ لبني إسرائيلَ بالخُروجِ من مِصْرَ؛ ليعبُدوا ربَّهم... وقد كان عَبَدَةُ الأربابِ الكثيرين يُجَوِّزُ أنْ تَغْلِبَ بعضُ الأربابِ على بعضٍ؛ مِثْلُ ما يحدُثُ بين الملوكِ... وقد انْبَرَمَ حالُ موسى على فرعونَ، فَلَمْ يَدْرِ أهو رسولٌ من إلهٍ غيرِ آلهةِ القِبْطِ؛ فلذلك قال له: ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾، أي: بما عرَّفك وأودَع عِندك من الأسرارِ، وهذه عِبارةُ مُتحَيِّرٍ في الأمرِ، مُلْتَبِسَةٍ عليه الأدلَّةُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠١- ٤٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٧١)، ((تفسير =

﴿وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

أي: ولنُخَلِّيَنَّ بني إسرائيلَ كما طلَبْتَ- يا موسى- فنترُكُهم معك، وتذهَبُ بهم حيثُ تَشاءُ(١).

كما قال تعالى حاكيًا قولَ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الأعراف: ١٠٥].

وقال سُبحانَه حاكيًا أيضًا قولَ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الدخان: ١٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ [طه: ٤٧].

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾.

أي: فلَمَّا رَفَعَ اللهُ عن قومِ فِرعونَ العذابَ، وأَمْهَلَهم إلى الوقتِ الَّذي قدَّرَه لهلاكِهم، إذا بهم يَنقُضونَ عُهودَهم؛ فلَمْ يُؤمِنوا، ولم يُرسِلوا بني إسرائيلَ مع

= السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٢٥).
قال السعدي: (هُمْ في ذلك كَذَبَةٌ، لا قَصْدَ لهم إلا زوالُ ما حَلَّ بهم من العذابِ، وظَنُّوا إذا رُفِعَ لا يُصيبُهم غيرُه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١).
وقال ابن عاشور: (وَعْدُهم بالإيمانِ لموسى وَعْدٌ بالإيمانِ بأنَّه صادقٌ في أنَّه مُرسَلٌ من ربِّ بني إسرائيلَ؛ ليُخرِجَهم من أرضِ مصرَ، وليس وعدًا باتِّباعِ الدِّينِ الَّذي جاء به موسى عليه السَّلامُ؛ لأنَّهم مُكذِّبونَ به في ذلك، وزاعِمون أنَّه ساحرٌ يُريدُ إخراجَ النَّاسِ من أرضِهم؛ ولذلك جاء فِعْلُ الإيمانِ مُتعلِّقًا بموسى لا باسمِ اللهِ، وقد جاء هذا الوعدُ على حسَبِ ظنِّهم أنَّ الرَّبَّ الَّذي يدعو إليه موسى هو ربٌّ خاصٌّ به وبقومِه، كما دلَّ عليه قولُه: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾، وقد وضَّحوا مُرادَهم بقولِهم: ﴿وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٢)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣١٦)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ١٧٢).

موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ [الزخرف: ٤٩-٥٠].

﴿ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ١٣٦ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أَخْبَرَ اللهُ تعالى عن إهلاكِه فرعونَ عَطَفَ عليه ما صَنَع ببني إسرائيلَ؛ تصديقًا لقولِ موسى عليه السَّلامُ: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾، فكان كما تَرَجَّى، فأَغْرَقَ أعداءَهم في اليَمِّ، واسْتَخْلَفَ بني إسرائيلَ في الأرضِ(٢).

﴿ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ ﴾.

أي: فلمَّا نَقَضوا العُهودَ، وأصرُّوا على الكُفْرِ انْتَقَمْنا منهم، بأنْ أغرقْناهم جميعًا في البحرِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٢)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٥٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٤٠٢)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١).
قال ابن عاشور: (هذا مَحَلُّ العِبرةِ من القِصَّةِ، فهو مُفَرَّعٌ عليها تفريعَ النَّتيجةِ على المقدِّماتِ... وكان إغراقُهم انتقامًا من الله لذاتِه؛ لأنَّهم جَحَدوا انفرادَ اللهِ بالإلهيَّةِ، أو جَحَدوا إلهيَّتَه أصلًا، وانتقامًا أيضًا لبني إسرائيلَ؛ لأنَّ فِرعونَ وقومَه ظلموا بني إسرائيلَ وأذلُّوهم واستعبَدوهم باطلًا. واليَمُّ: البحرُ، والنَّهرُ العظيمُ... والمرادُ به هنا بَحْرُ القُلْزُمِ... وهو البحرُ الأحمرُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٤، ٧٥).

كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ * فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ * فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ * وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٥٢-٦٧].

وقال سُبحانَه: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الزخرف: ٥٥].

﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾.

أي: أغرقْنا فِرعونَ وقومَه؛ بسَبَبِ تكذيبِهم بآياتِنا(١).

﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾.

أي: وكانوا مُعْرِضينَ عن آياتِنا الدَّالَّةِ على صِدْقِ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فَلَمْ يَتفكَّروا فيها، ولم يَعْتَبِروا بها(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٣)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٤٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٥).
قال أبو حَيَّانَ: (والآياتُ هي المعجزاتُ الَّتي ظهرَتْ على يَدِ موسى عليه السَّلامُ). ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٣-٤٠٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٧١)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٥).
واختلف المفسِّرون في عَوْدِ الضَّميرِ في قوله تعالى: ﴿عَنْهَا﴾، فذَهب كثيرٌ منهم إلى أنَّه عائدٌ على الآياتِ، وهذا اختيارُ الزَّجَّاج، وابن عطيَّة، وابن كثير، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٧١)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٥).
قال ابنُ جرير: (فلو قال قائلٌ: هي كِنايةٌ من ذِكْرِ الآياتِ، ووجهُ تأويلِ الكلامِ إلى: وكانوا =

﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧)﴾.

﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾.

أي: وملَّكْنا بني إسرائيلَ(١) الَّذينَ كان فِرعونُ وقومُه يَقهرونهم ويَستعبِدونهم، ويُذبِّحونَ أبناءَهم، ويَستحيون نِساءَهم- ملَّكْناهم جميعَ جِهاتِ شرْقِ أرضِ الشَّامِ، وجِهاتِ غرْبِها(٢).

= عنها مُعرِضينَ، فجعل إعراضَهم عنها غُفولًا منهم إذ لم يقبلوها كان مذهبًا). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٣-٤٠٤).

ولكنَّ ابن جرير رجَّح أنَّ الضميرَ يعود على النِّقمةِ الَّتي حلَّتْ بهم؛ فكانوا غافلين عمَّا يُرادُ بهم من الغَرَقِ في البحرِ. واختار هذا القولَ القرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) ١٠/ ٤٠٣-٤٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٧٢).

(١) قال الشنقيطي: (قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ﴾ هُمْ بنو إسرائيلَ بإجماعِ العلماءِ). ((العذب النمير)) (٤/ ١٢٥-١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٩/ ٣١٩- ٣٢٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٦).

واختار أنَّ المرادَ بالأرضِ هنا أرضُ الشَّامِ: ابنُ جرير، والواحديُّ، وابنُ عطية، وابنُ تيمية، وابنُ عاشور، ولم يَحْكِ ابنُ كثير عن السَّلفِ قولًا غيرَه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤١٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٤٦)، ((مجموع الفتاوى)) (٢٧/ ٤٤، ٥٠٥، ٥٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٦).

وقال به مِن السَّلف: الحسنُ وقَتادةُ وزيدُ بنُ أسلمَ وسفيانُ الثوريُّ. يُنظر: ((تفسير سفيان الثوري)) (ص: ١١٣)، ((تفسير عبد الرزاق)) (٢/ ٨٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٤-٤٠٥)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٣/ ٥٢٧).

قال ابن عطيَّةَ: (الَّذي يَليقُ بمعنى الآيةِ... لا سيَّما بوصْفِه الأرضَ بأنَّها الَّتي بارَكَ فيها، ولا يَتَّصِفُ بهذه الصِّفةِ، وينفرِدُ بها أكثَرَ من غيرِها إلَّا أرضُ الشَّامِ؛ لِمَا بها من الماءِ والشَّجرِ والنِّعَمِ والفوائدِ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٤٦).

وقيل: المرادُ بالأرضِ: الشَّامُ، ومِصْرُ. وممَّن اختار هذا القولَ: القرطبي، والشوكاني. يُنظر: =

﴿ٱلَّتِي بَـٰرَكۡنَا فِيهَا﴾.

أي: الأرضَ الَّتي جعَلْنا فيها الخيرَ ثابتًا، مُستمِرًّا، وكثيرًا، فأخرَجْنا لهم منها الزُّروعَ والثِّمارَ، والعُيونَ والأنهارَ، ونَحْوَ ذلك من خيراتِ الأرضِ[1].

﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَـٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ﴾.

أي: وقد وَفَّى ربُّكَ- يا مُحَمَّدُ- بما وَعَدَ به بني إسرائيلَ[2] من إهلاكِ عدُوِّهم، وتمكينِهم في الأرضِ؛ وذلك بسببِ صَبْرِهم على أَذَى فرعونَ وقومِه[3].

= ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٧٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٧٣- ٢٧٤).
وهذا القولُ مرويٌّ عن ابن عبَّاسٍ بسندٍ واهٍ، من طريقِ السُّدِّيِّ الصَّغيرِ، عن الكَلْبِيِّ، عن أبي صالحٍ، عن ابن عبَّاسٍ، وهذا أَوْهى الطُّرقِ عن ابن عبَّاسٍ، وتُسمَّى سلسلةَ الكَذِبِ، ينظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٤/ ٢٣٩)، وقد جَزَمَ الثَّعلبيُّ بهذا التَّفسيرِ من غيرِ أنْ ينسُبَه لأحدٍ، ونسَبَه تلميذُه الواحديُّ لابن عبَّاسٍ، وقد ذكَرَ هذا القولَ ابن الجوزيِّ ولم ينسُبْه لأحدٍ، وربَّما فيه إشارةٌ إلى عدمِ شُهرةِ هذا القولِ.
وذكَرَ ابنُ الجوزي والرازي قولًا ثالثًا في الآيةِ، وهو أنَّ المرادَ جُملةُ الأرضِ، ويوجد قولٌ رابعٌ، وهو أنَّ المرادَ مِصْرُ، وهو قولُ اللَّيثِ بنِ سعدٍ، وبه فسَّر السعديُّ الآيةَ.
والقولُ الأوَّلُ- وهو أنَّ المرادَ مشارقُ أرضِ الشَّامِ ومغاربُها- هو القولُ المشهورُ عن السَّلفِ، وعليه أكثرُهم. والله أعلم. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٩/ ٣٢٠)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٥٠)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٤٩)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٣/ ٥٣١)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٤/ ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٩/ ٣٢١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٢٨).

(٢) ذهب كثيرٌ من المفسِّرين إلى أنَّ هذه الكلمةَ الحُسنى هي قولُه تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥-٦]. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٦)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٩). ونسَب الشنقيطيُّ ذلك إلى جماهيرِ العلماءِ. يُنظر: ((العذب النمير)) (٤/ ١٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٦)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٢١)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٣/ ٢٥٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٢٨). =

كما قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥، ٦].

وقال سُبحانَه: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٨-١٢٩].

﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾.

أي: وأَهْلَكْنا، وخرَّبْنا خرابًا شديدًا[١] ما كان يُشيِّدُه فرعونُ وقومُه من العِماراتِ، ويَبْنُونَه من المَزارعِ[٢].

﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾.

= قال ابن عاشور: (الحُسنى: صفةٌ لـ﴿كَلِمَتُ﴾، وهي صِفةُ تشريفٍ كما يُقالُ: الأسماءُ الحُسنى، أي: كلمةُ ربِّك المنزَّهةُ عن الخُلْفِ، ويحتمِلُ أنْ يكونَ المرادُ حُسْنَها لبني إسرائيلَ، وإنْ كانت سيِّئةً على فرعونَ وقومِه؛ لأنَّ العدلَ حَسَنٌ، وإنْ كان فيه إضرارٌ بالمحكومِ عليه). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٨).

(١) قال محمد رشيد رضا: (التَّدميرُ: إدخالُ الهلاكِ على السَّالمِ، والخرابِ على العامرِ). ((تفسير المنار)) (٩/ ٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٢٩).
وممَّن اختار هذا المعنى لـ﴿يَصْنَعُ﴾: ابنُ جريرٍ، وابنُ الجوزيِّ، وابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٧)، ((زاد المسير)) (٢/ ١٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٦).
وقيل: ما كان يَصنعونه من التَّدبيرِ في أمْرِ موسى عليه السَّلامُ وإخمادِ كلمته؛ كالمكايد السِّحريَّة والصِّناعيَّة الَّتي كان يصنعها السَّحرةُ؛ لإبطال آياتِه أو التَّشكيكِ فيها، كما قال تعالى لموسى عليه السَّلامُ: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ﴾ [طه: ٦٩]. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٥٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٨٨).

أي: وخرَّبْنا أيضًا ما كان يَبنيه، ويرفُعُه فرعونُ وقومُه، من المبانِي والقُصورِ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ [غافر: ٣٦- ٣٧].

الفَوائدُ التربويَّةُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٧١)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٢٩).

وهذا المعنى المذكور لـ﴿يَعْرِشُونَ﴾ هو في الجملةِ اختيارُ ابن جرير، وابن الجوزي، والواحديِّ، وأبي حيان. وحكاه ابنُ كثير عن بعض السَّلفِ ولم يَحْكِ سواه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٧)، ((زاد المسير)) (٢/ ١٥٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٦)، وقد جعَلَه ابن عاشور ممَّا تَحتمِلُه الآيةُ، فقال: (ويجوز أن يكونَ ﴿يَعْرِشُونَ﴾ بمعنى يرفعون، أي: يُشيِّدونَ من البِناءِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٩).

وقال الشنقيطيُّ: (وقال بعضُهم: عَرَشَه: إذا رفَع بِناءَه، والعَرْشُ أصْلُه السَّقفُ، وعُروش الأبنيةِ: سُقوفُها. يعني: ودمَّرْنا ما كانوا يرفعونه من البناء؛ كصَرْحِ هامانَ المشهورِ، ونَحْوِ ذلك). ((العذب النمير)) (٤/ ١٢٩). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٤٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلف ابنُ عبَّاس، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٥/ ١٥٥٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٧)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٣/ ٥٣٢).

وقيل: ﴿يَعْرِشُونَ﴾: أي يُنشِئون الجنَّاتِ ذاتَ العرايشِ، فيجعلون للعنب العريشَ؛ ليمتدَّ عليه، كما قال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ [الأنعام: ١٤١]. وهذا اختيارُ محمَّد رشيد رضا، وابن عاشور.

قال محمَّد رشيد رضا: (العَرْشُ: رفْعُ المباني والسَّقائفِ للنَّباتِ والشَّجرِ المتسلِّقِ؛ كعرائش العنب، ومنه عَرْشُ الملكِ). ((تفسير المنار)) (٩/ ٨٨).

وقال ابنُ عاشور: (و﴿يَعْرِشُونَ﴾ يُنشِئونَ من الجنَّاتِ ذاتِ العرايشِ، والعرايش: ما يُرْفَعُ من دوالِي الكُرومِ، ويُطلَقُ أيضًا على النَّخلاتِ العديدةِ تُربَّى في أصْلٍ واحِدٍ، ولعلَّ جنَّاتِ القِبْطِ كانت كذلك كما تَشهَدُ به بعضُ الصورِ المرسومةِ على هياكلِهم نَقْشًا ودَهْنًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٨).

وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾، العِبرةُ في هذه الآياتِ أنْ يَتفكَّرَ تالي القرآنِ في تأثيرِ الإيمانِ والوحيِ في موسى وهارونَ عليهما السَّلامُ؛ إذ تَصَدَّيا لأعظمِ مَلِكٍ في الأرضِ، فَدَعَواهُ إلى الرُّجوعِ عن الكُفرِ والظُّلمِ والطُّغيانِ، وتعبيدِ بني إسرائيلَ، وأَنْذَراه وهدَّداه، وما زالا يُكافِحانِه بالحُجَجِ والآياتِ البيِّناتِ حتَّى أَظْفَرَهما اللهُ تعالى به، وأَنْقَذا قومَهما من ظلمِه وظلمِ قومِه، فجديرٌ بالمؤمنين باللهِ تعالى ورُسلِه أنْ يَنتقِلوا من التَّفكُّرِ في هذا إلى التَّفكُّرِ في وَعْدِ اللهِ تعالى للمؤمنين بالنَّصرِ، كما وعَدَ المرسَلين إذا هُمْ قاموا بما أمَرَهم تعالى به على ألسنتِهم، وألَّا يَستعظِموا في هذه السَّبيلِ قُوَّةَ ظالمٍ، فإنَّ قوَّةَ الحقِّ الَّتي نَصَرَها اللهُ تعالى برجُلٍ أو رجُلين على أعظمِ الدُّوَلِ لا تُغْلَبُ إذا نَصَرْناها ونحن مئاتُ الملايينِ(١).

٢- الصَّابرُ صائرٌ إلى النَّصرِ، وتحقيقِ الأملِ؛ يُرْشِدُ إلى ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾، فقوله: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ الباءُ سببيَّةٌ، و(ما) مصدريَّةٌ، أي: بسببِ صَبْرِهم على الأذى في ذاتِ الإلهِ، وفي ذلك تنبيهٌ على فائدةِ الصَّبرِ، وتنويهٌ بفَضيلتِه وحُسنِ عاقبتِه، وأنَّه سببٌ للفرَجِ ؛ فمَنْ قابَلَ البلاءَ بالجَزَعِ وَكَلَه اللهُ إليه، ومَنْ قابلَه بالصَّبرِ وانتظارِ النَّصرِ ضَمِنَ اللهُ له الفرَجَ(٢).

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، لم يقولوا: (ربَّنا)؛ كِبْرًا وعُتُوًّا(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٧، ٧٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٠٨).

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا﴾ عبَّر بالفاءِ دلالة على قُرْبِ الإجابةِ[1].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ إلى قولِه ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾، السِّيَاقُ هنا يَختصِرُ حادِثَ الإغراقِ، ولا يُفصِّلُ أحداثَه كما يُفصِّلُها في مواضِعَ أخرى من السُّوَرِ؛ فالجوُّ هنا هو جوُّ الأخْذِ الحاسِمِ بعْدَ الإمهالِ الطَّويلِ، فلا يَعْرِضُ لشيءٍ من التَّفصيلِ، والحَسْمُ السَّريعُ هنا أَوْقَعُ في النَّفسِ وأَرْهَبُ للحِسِّ، ﴿فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ ضَرْبَةً واحدةً، فإذا هُمْ هالِكون، ومن التَّعالي والتَّطاوُلِ والاستكبارِ إلى الهَوِيِّ في الأعماقِ والأغوارِ؛ جزاءً وِفاقًا[2].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾، المشارِقُ والمغارِبُ جَمْعٌ باعتبارِ تعدُّدِ الجِهاتِ؛ لأنَّ الجهةَ أمْرٌ نسبيٌّ تتعدَّدُ بتعدُّدِ الأمكِنةِ المفروضةِ، والمرادُ بهما إحاطةُ الأمكنةِ[3].

٥- قول الله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى...﴾ إلى آخِرِ الآيةِ، استدلَّ به بعضُ السَّلفِ على أنَّه لا ينبغي أنْ يُخْرَجَ على مُلوكِ السُّوءِ، وإنَّما ينبغي أنْ يُصْبَرَ عليهم، فإنَّ اللهَ تعالى يُدمِّرُهم[4].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- ﴿لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ جملةٌ مُستأنفَةٌ استئنافًا

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٣٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٤٧).

بيانيًّا؛ لأنَّ طلبَهم مِن موسى الدُّعاءَ بكَشفِ الرِّجز عنهم مع سابقيَّةِ كُفرِهم به يُثير سؤالَ موسى أنْ يقولَ: فما الجزاءُ على ذلِك[(١)]؟

- وقوله: ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ فيه دلالةٌ على أنَّه طلَب منهم الإيمانَ، كما أنَّه طلَب منهم إرسالَ بني إسرائيل، وقدَّموا الإيمانَ؛ لأنَّه المقصودُ الأعظمُ الناشِئ منه الطواعيةُ، وفي إسنادِ الكَشْفِ إلى موسى حَيدةٌ عن إسنادِه إلى اللهِ تعالى؛ لعدمِ إقرارِهم بذلك[(٢)].

- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ﴾، كُرِّرَ (الرِّجْز) تصريحًا وتهويلًا[(٣)].

- وقولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾، قولُه: ﴿هُمْ بَالِغُوهُ﴾ صِفةٌ لـ ﴿أَجَلٍ﴾، والوَصْفُ بهذه الجملةِ أَبْلَغُ من وصفِه بالمفرَدِ؛ لتكرُّرِ الضَّميرِ المؤذِنِ بالتَّفخيمِ[(٤)].

٢- قوله: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ فيه العدولُ عن تَعريفِهم بطريقِ الإضافةِ إلى تَعريفِهم بطريق الموصوليَّة؛ لنُكتَتين: أُولاهما: الإيماءُ إلى عِلَّة الخبرِ، أي: إنَّ الله مَلَّكهم الأرضَ، وجعَلَهم أُمَّةً حاكمةً؛ جزاءً لهم على ما صَبَروا على الاستعبادِ، غَيرةً مِن اللهِ تعالى على عَبيدِه. الثانية: التعريضُ ببشارةِ المؤمِنينَ بمُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّهم ستكونُ لهم عاقبةُ السلطانِ، كما كانتْ لبني إسرائيلَ؛ جزاءً على صبْرِهم على الأذَى في اللهِ، ونذارة المشرِكينَ بزوالِ سُلطانِ دِينهم[(٥)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٥٢).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٩/ ٢٨٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٦).

٣- قوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ الخِطابُ في قولِه: ﴿رَبِّكَ﴾ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أُدْمِجَ في ذِكْرِ القصَّةِ؛ إشارةً إلى أنَّ الَّذي حقَّقَ نصْرَ موسى وأُمَّتِه على عدُوِّهم هو ربُّك؛ فسينصُرُكَ وأُمَّتَكَ على عدُوِّكم؛ لأنَّه ذلك الربُّ الَّذي نَصَرَ المؤمنين السَّابقين، وتلك سُنَّتُه وصُنْعُه[1].

- وفي قولِه: ﴿عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾: عُدِّيَ فِعلُ التمام بـ(على)؛ للإشارةِ إلى تَضمينِ (تمَّت) معنى الإنعامِ[2].

٤- قوله: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ فِعل (كان) في الصِّلتَينِ- ﴿مَا كَانَ يَصْنَعُ﴾ و﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾- دالٌّ على أنَّ ذلك دَأْبَه وهِجِّيراه، أي: ما عُنِي به مِن الصَّنائِعِ والجنَّات، وصِيغةُ المضارِعِ في الخَبرينِ عن (كان)- ﴿يَصْنَعُ﴾ و﴿يَعْرِشُونَ﴾-؛ للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ والتكرُّرِ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٣٨-١٤١)

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ﴾: أي: يُقيمونَ عليها مُعَظِّمين، ويَعبُدُونَها مِن دُونِ اللَّهِ، والعُكوفُ: الإقبالُ على الشَّيءِ، وملازَمتُه على سبيلِ التَّعظيمِ له(١).

و﴿أَصْنَامٍ﴾: جَمْعُ صَنَمٍ، والصَّنمُ: جُثَّةٌ مُتَّخَذَةٌ من فِضَّةٍ، أو نُحاسٍ، أو خشبٍ، أو غير ذلك، كانوا يَعبدونها مُتقرِّبينَ بها إلى اللهِ تعالى(٢).

﴿مُتَبَّرٌ﴾: أي: مُهْلَكٌ أو هَالِكٌ، والتَّبْرُ: الكَسْرُ والإهلاكُ(٣).

﴿أَبْغِيكُمْ﴾: أي: أَلْتَمِسُ لكم وأطْلُبُ، وأصل (بغى): يدلُّ على طَلَبِ الشَّيءِ(٤).

﴿يَسُومُونَكُمْ﴾: أي: يُولُونَكُمْ؛ يُقالُ: فلانٌ يَسومُكَ خَسْفًا؛ أي: يُولِيكَ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص:١١٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣١٤)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٤٩٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٤٧).

إذلالًا واستِخفافًا، أو يُريدونه منكم ويَطلُبونه، أو يَبْغُونَكُمْ، يُقالُ: سامَه: كلَّفَه العَمَلَ الشَّاقَّ، وقيل: يُرسِلون عليكم، مِن إرْسالِ الإبِلِ المَرْعى، والسَّوْمُ أصْلُه: الذَّهابُ في ابتِغاءِ الشَّيءِ وطَلَبِه[(١)].

﴿وَيَسْتَحْيُونَ﴾: أي: ويَسْتَبقُون فلا يَقتُلونَ، والاستِحياءُ: الإبقاءُ حيًّا، و(استفعل) فيه بمَعنَى (أفعل)، وأصلُ (حيي): خِلافُ المَوتِ[(٢)].

﴿بَلَاءٌ﴾: أي: اختبارٌ، وأَصْلُ البَلاء: الاختبارُ، ثمَّ صار يُطلَقُ على المكروهِ والشِّدَّةِ[(٣)].

مُشْكِلُ الإعرابِ:

قولُه تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾

﴿كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾: الكافُ في ﴿كَمَا﴾ حرفُ جرٍّ وتشبيهٍ، وهو مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ وقَعَ صفةً لـ ﴿إِلَهًا﴾، أي: إلهًا مماثِلًا لإلهِهم، و(مَا) فيها ثلاثةُ أوجُهٍ: الأوَّلُ: أن تكونَ مَوصولةً، و﴿لَهُمْ﴾ شِبْهُ جملةٍ متعلِّقٌ بمحذوفٍ تقديرُه (استقرَّ)، وهو صِلَةُ (ما)، و﴿آلِهَةٌ﴾ بَدَلٌ مِن الضَّميرِ في (استقرَّ) المحذوفِ، والتَّقديرُ: كالَّذي استقرَّ هو لهم آلهةٌ. الثَّاني: أنْ تكونَ كافَّةً لعَمَلِ حرفِ الجرِّ (الكاف)، وهي جملةٌ مِن خبرٍ مُقدَّمٍ ﴿لَهُمْ﴾، ومبتدأٍ مُؤخَّرٍ: ﴿آلِهَةٌ﴾. الثَّالثُ:

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٥٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٩٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٤٩-٢٥٠، ٢٥٣).

أن تكونَ (ما) مصدريَّةً- أي: موصولًا حرفيًّا-، وصِلتُها محذوفةٌ، والتَّقديرُ: كما ثبَتَ لهم آلهةٌ، فـ ﴿آلهةٌ﴾ على هذا الوجْهِ فاعِلٌ بـ (ثبَتَ) المحذوفِ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه جاوز ببني إسرائيلَ البحرَ بعْدَ أنْ أَغْرقَ عدُوَّهم فرعونَ وقومَه، فمرُّوا على قومٍ مشركين، مُلازِمين أصنامًا لهم، يعبدونها مِن دونِ اللهِ، فقالوا لموسى عليه السَّلامُ: اجْعَلْ لنا إلهًا كما لهؤلاءِ آلهةٌ يعبدونها، فقال لهم موسى: إنَّكم قومٌ تَجْهَلونَ، إنَّ هؤلاءِ المشركين محكومٌ على ما هم فيه بالدَّمارِ، وزائلٌ ما كانوا يَعملونه من عبادةِ الأصنامِ؛ فلا يَنتفِعون بها.

وقال لهم موسى مُنْكِرًا عليهم طَلَبَهم ومُتعجِّبًا منه: أَغَيْرَ اللهِ أَطْلُبُ لكم إلهًا، وهو الَّذي فضَّلكم على العالَمين؟!

ثمَّ قال اللهُ تعالى مُذكِّرًا بني إسرائيلَ بنعمتِه العظيمةِ عليهم: واذْكروا حين أنجيناكم من آلِ فرعونَ، الَّذينَ كانوا يُذيقونكم سُوءَ العذابِ، ويُنكِّلونَ بكم؛ يُقتِّلونَ أبناءَكم الذُّكورَ، ويُبْقون إناثَكم أحياءً؛ لِيَقُمْنَ بخِدْمتِهم، ولِيَعْتَدوا على أعراضِهِنَّ، وفي ذلك امتحانٌ واختبارٌ عظيمٌ من اللهِ لكم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ١٣٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى أنواعَ نِعَمِه على بني إسرائيلَ بإهلاكِ عدُوِّهم، أَتْبَعَ بالنِّعمةِ

---

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٨٧-٥٨٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٤٤٢-٤٤٣).

العُظْمى مِنْ إرَاءَتِهم هذه الآيةَ العظيمةَ، وقَطْعِهم البحرَ مع سلامتِهم[1]، فقال تعالى:

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾.

أي: وقَطَعْنا ببني إسرائيلَ البحرَ؛ فتَخَطَّوْهُ بعْدَ أنْ أغرقْنا عدُوَّهم فرعونَ وقومَه، ورَأَوْا من آياتِ اللهِ ما رَأَوْا[2].

﴿فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾.

أي: فمَرَّ بنو إسرائيلَ على مُشرِكين مُلازِمينَ أصنامًا لهم، يَعبُدونَها مِن دونِ اللهِ سُبحانَه[3].

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾.

أي: قال بَنو إسرائيلَ لنبيِّهم موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: يا موسى، اصْنَعْ لنا صَنَمًا نتَّخِذْهُ إلهًا كما لهؤلاءِ القومِ أصنامٌ يَعبُدونها[4]!

عن أبي واقِدٍ اللَّيْثِيِّ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لَمَّا خرَجَ إلى حُنَيْنٍ مَرَّ بشجرةٍ للمشركين يُقالُ لها: ذاتُ أَنْواطٍ، يُعلِّقونَ عليها أسلحتَهم، فقالوا: يا رسولَ اللهِ، اجعَلْ لنا ذاتَ أنواطٍ كما لهم ذاتُ أنواطٍ! فقال

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٣٠).

قال ابن عاشور: (المجاوَزةُ: البُعْدُ عن المكانِ عَقِبَ المرورِ فيه... معنى قولِه هنا: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾ قدَّرنا لهم جوازَه ويسَّرْناه لهم. والبحرُ هو بحرُ القُلْزُمِ- المعروفُ اليومَ بالبحر الأحمر... والمعنى: أنَّهم قطَعوا البحرَ وخرَجوا على شاطئِه الشَّرقيِّ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٧٩- ٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٨- ٤٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٣٢- ١٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٣٣).

النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((سُبحانَ اللهِ! هذا كما قال قومُ موسى: ﴿اجْعَل لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾، والَّذي نَفْسي بيدِه لتَرْكَبُنَّ سُنَّةَ مَنْ كان قَبْلكم))[١].

﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾.

أي: قال موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لقومِه: إنَّكم قومٌ تَجْهَلونَ عظمةَ اللهِ، ووُجوبَ إفرادِه بالعِبادةِ وحْدَهُ لا شريكَ له[٢].

ثُمَّ أَعْلَمَهم موسى بفَسادِ حالِ أولئك القومِ؛ لِيَزولَ ما استحسَنوه من حالِهم، فقال لهم[٣]:

﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا اسْتُفيدَ من كلامِه السَّابقِ لهم غايةُ الإنكارِ عليهم، ذَكَرَ هنا ما علَّل به هذا الإنكارَ[٤].

وأيضًا بَعْدَ أنْ ذكَّرهم بسُوءِ حالِهم مِن جهلِهم وسَفاهةِ أنفُسِهم، بيَّنَ لهم فسادَ ما طلبوه في نفسِه؛ عسى أنْ تستعِدَّ عقولُهم لِفَهْمِه، واستبانةِ قُبْحِه[٥]، فقال:

---

(١) أخرجه الترمذي (٢١٨٠)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١١١٢١)، وأحمد (٢١٨٩٧)، وابن حبان في ((الصحيح)) (٦٧٠٢).
قال الترمذيُّ: حسنٌ صحيحٌ، وقال ابنُ القيِّم في ((إغاثة اللهفان)) (٢/ ٤١٨): ثابتٌ، وصحَّح إسنادَه ابنُ باز في ((مجموع فتاواه)) (٣٣٧/ ٣)، والألبانيُّ في ((تخريج أحاديث المشكاة)) (٥٣٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٤٨).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٧٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٩٧).

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ ﴾.

أي: إنَّ هؤلاءِ المشركين سيُدمِّرُ اللهُ تعالى تلك الأصنامَ التي يعبدونها، ويُهلِكُ ما هُمْ فيه من الشِّرْكِ، ويُعذِّبهم[1].

كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٦].

﴿ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾.

أي: وزائلٌ ما كانوا يَعمَلونه من عِبادةِ الأصنامِ؛ فلَنْ يَنتفِعوا بها[2].

كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ * إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣-١٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

﴿ قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٤٠ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن أنَّ هذه الأصنامَ الَّتي مَرُّوا عليها لا تَصْلُحُ لِأَنْ تُعْبَدَ، كان ذلك غيرَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤١١)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢-٨٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٣٤).

كافٍ لهم؛ لِمَا تقرَّرَ من جَهلِهم، فربَّما ظَنُّوا أنَّ غيرَها ممَّا سِوى اللهِ تجوزُ عِبادتُه، فأنْكَرَ أنْ يُتَأَلَّهَ غيرُه تعالى، وحَصَرَ الأمْرَ فيه[1].

﴿ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا ﴾.

أي: قال موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مُنكِرًا على قومِه ومُتعجِّبًا من طَلَبِهم: أأطلُبُ لكم إلهًا غيرَ اللهَ العظيمِ، المعبودِ بحقٍّ، الكاملِ في ذاتِه وصِفاتِه وأفعالِه[2]؟!

﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

أي: أفأطلُبُ لكم معبودًا لا يَنفَعُكم ولا يَضُرُّكم، وتَترُكون عِبادةَ اللهِ تعالى، والحالُ أنَّه هو الَّذي فضَّلكم على عالَمِي زمانِكم، وأُمَمِ عَصْرِكم[3]؟!

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٧١-٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٣٥).

قال ابن عطيَّة: (والعالَمينَ لفظٌ عامٌّ يُراد به تخصيصُ عالَـمي زمانِهم؛ لأنَّ أُمَّةَ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم أفضلُ منهم بإجماعٍ، ولقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، اللَّهمَّ إلَّا أنْ يُرادَ بالفضلِ كثرةُ الأنبياءِ منهم؛ فإنَّهم فُضِّلوا في ذلك على العالَمينَ بالإطلاقِ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٤٨).

وقال ابنُ عاشور: (وظاهرُ صَوْغِ الكلامِ على هذا الأُسلوبِ أنَّ تفضيلَهم على العالَمين كان معلومًا عندهم؛ لأنَّ ذلك هو المناسِبُ للإنكارِ، ويحتملُ أنَّه أراد إعلامَهم بذلك، وأنَّه أمرٌ محقَّقٌ... وتفضيلهم عليهم بأنَّهم ذُرِّيَّةُ رسولٍ وأنبياءَ، وبأنَّ منهم رُسلًا وأنبياءَ، وبأنَّ اللهَ هداهم إلى التَّوحيدِ والخَلاصِ من دِينِ فرعونَ بعد أن تخبَّطوا فيه، وبأنَّه جعَلَهم أحرارًا بعد أنْ كانوا عبيدًا، وساقَهم إلى امتلاكِ أرضٍ مُبارَكةٍ، وأيَّدَهم بنصْرِه وآياتِه، وبعَثَ فيهم رسولًا، ليُقيمَ لهم الشَّريعةَ، وهذه الفضائلُ لم تَجتمِعْ لأُمَّةٍ غيرِهم يومئذٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨٤).

وقال الشنقيطي: (ومِن تفضيلِه لكم: أنْ أهلَكَ عدوَّكم، وأنجاكم وأنقذَكم من هذا الطَّاغيةِ العظيمِ، وهم في ذلك الوقت جميعُ النَّاسِ كَفَرَةٌ، وهم عندَهم إيمانٌ؛ فهُمْ أحسنُ الموجودين على ما كان منهم ممَّا لا يَنبغي). ((العذب النمير)) (٤/ ١٣٥).

﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى يُبيِّنُ أنَّه هو الَّذي أنْعَمَ عليهم بهذه النِّعمةِ العَظيمةِ؛ فكيف يَليقُ بهم الاشتغالُ بعبادةِ غيرِه تعالى[1]؟!

﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قولِه تعالى: ﴿أَنْجَيْنَاكُمْ﴾ قِراءتانِ:

١- قِراءة ﴿أَنْجَاكُمْ﴾ على أنَّها من إخبارِ موسى عليه السَّلامُ عن اللهِ سُبحانَه وتعالى بـ(نون) التَّعظيمِ[2].

٢- قِراءة ﴿أَنْجَيْنَاكُمْ﴾ على أنَّها من إخبارِ اللهِ تعالى عن نفْسِه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٥١).

(٢) قرأ بها ابن عامر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧١).

وهذا المعنى هو اختيارُ ابن خالويه، وظاهرُ اختيار مكيٍّ، واختاره أبو حيان.

قال ابن خالويه: (﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ﴾ يُقرأ بإثبات الياء والنون وبحذفهما... والحُجَّة لمَنْ حذفها: أنَّه من إخبار النَّبيِّ عليه السَّلامُ عن الله، والفاعل مُستتِرٌ في الفعل، و(إذ) في أوَّلِ الكلام متعلِّقةٌ بِفِعْلٍ دليلُه قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ﴾ [الأنفال: ٢٦]). ((الحجة في القراءات السبع)) (ص: ١٦٢- ١٦٣). ويُنظر: ((الكشف)) لمكي (١/ ٤٧٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٥٩).

وذَهب الأزهريُّ إلى أنَّها إخبارٌ من الله تعالى عن نفْسِه؛ فمعنى القراءتين لديه واحدٌ، حيثُ قال: (ومعنى ﴿أنجيناكم﴾ و﴿أنجاكم﴾ واحدٌ؛ لأنَّ الإنجاءَ لله جلَّ وعزَّ). ((معاني القراءات)) (١/ ٤٢٢).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧١).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٦٢- ١٦٣)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٩٤)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٤٧٥).

﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾.

أي: قال اللهُ مُذكِّرًا بني إسرائيلَ نِعمتَه العظيمةَ عليهم(١): واذْكُروا حينَ أَنجيناكُم من فِرعونَ وقومِه(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩].

﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾.

أي: كانوا يُذيقونكم- يا بني إسرائيلَ- ويُكلِّفونكم أَقْبَحَ العذابِ وأفظَعَه(٣).

ثمَّ بيَّن اللهُ تعالى العَذابَ الَّذي كانوا يُسامونَ سُوءَهُ، فقال(٤):

---

(١) قال ابنُ جرير: (واذكروا مع قِيلِكم هذا الَّذي قُلْتُموه لموسى بعدَ رُؤيتِكم من الآياتِ والعِبَرِ، وبعدَ النِّعَمِ التي سَلَفَتْ منِّي إليكم، والأيادي التي تقدَّمَتْ فعلَكم ما فعلْتُم). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤١٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٣٥).
وذَهَب ابنُ جرير وابنُ عاشور إلى أنَّ المخاطَبين بذلك هم اليهودُ الذين كانوا في زمن محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، والمرادُ أسلافُهم الذين كانوا مع موسى عليه السَّلامُ، أي: واذكروا إذ أَنجَيْنا أسلافَكم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤٨٩). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٧٥).
ورجَّح ابنُ عطية أنَّ هذه الآيةَ خاطَبَ بها موسى عليه السَّلامُ مَنْ حضَره من بني إسرائيلَ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٣٦).
قال ابنُ عاشور: (﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ حالٌ من آل فرعون يَحصُل بها بيانُ ما وقَعَ الإنجاءُ منه، وهو العذابُ الشَّديدُ الذي كان الإسرائيليُّون يُلاقونه من معاملة القِبط لهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤٩٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٣٦).

﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾.

أي: يُكثِرون مِن قَتْلِ أبنائِكم الذُّكورِ[١].

﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾.

أي: ويُبقون إناثَكم أحياءً؛ لِيَقُمْنَ بخِدْمتِهم، ويَعْتَدوا على أعراضِهِنَّ[٢].

﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

أي: وفي سَوْمِ آلِ فرعونَ لكم سُوءَ العذابِ مِحنةٌ واختبارٌ مِنَ اللهِ لكم عظيمٌ[٣].

وقيل: وفي إنجائِنا لكم مِن عذابِ آلِ فرعونَ نِعمةٌ من اللهِ لكم عَظيمةٌ[٤].

الفَوائدُ التربويَّةُ:

١- كفَى بأيِّ أُمَّةٍ خِسَّةَ عُقولٍ أنْ تَعُدَّ القبيحَ حَسَنًا، وأنَّ تتَّخِذَ المظاهرَ المُزَيَّنَةَ قُدوةً لها، وأنْ تنخلِعَ عن كمالِها في اتِّباعِ نقائِصِ غيرِها؛ يُرشِدُ إلى ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[٥].

٢- يجِبُ على الدَّاعيةِ أنْ يصبِرَ على الالتواءاتِ والانحرافاتِ، وثِقْلَةِ الطَّبائعِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤١٣)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٢٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤٩٢- ٤٩٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٣٦- ١٣٨).

(٣) وهذا اختيارُ ابنِ جريرٍ، وابنِ عطيةَ، وابنِ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤٩٣) (٩/ ٨٥).

(٤) وهو اختيارُ السعديِّ، وفسَّر به ابنُ جريرٍ نظيرَ هذه الآيةِ في سورةِ البقرةِ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٥٢-٦٥٣). ويُنظر أيضًا: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٣٩- ١٤٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨١).

وتفاهةِ الاهتماماتِ، ويجب أنْ يصبِرَ على الانتكاسِ الَّذي يُفاجِئُه في النُّفوسِ المدعُوَّةِ بعْدَ كلِّ مرحلةٍ، والاندفاعِ إلى الجاهليَّةِ عند أوَّلِ بادِرةٍ، يُرشِدُ إلى ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾(١).

الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾، ﴿وَجَاوَزْنَا﴾، أي: قَطَعْنا بما لنا مِن العَظَمةِ، فساقَه على طريقِ المفاعَلةِ؛ تعظيمًا له تعالى(٢).

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ﴾ سَمَّوُا الصَّنمَ إلهًا؛ لجهلِهم؛ فهُمْ يَحسَبونَ أنَّ اتِّخاذَ الصَّنمِ يُجْدي صاحِبَه، كما لو كان إلهَه معه، وهذا يدُلُّ على أنَّ بني إسرائيلَ قد انخلعوا في مُدَّةِ إقامتِهم بمصرَ عن عَقيدةِ التَّوحيدِ، وحَنيفيَّةِ إبراهيمَ ويعقوبَ الَّتي وصَّى بها في قولِه: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]؛ لأنَّهم لَمَّا كانوا في حالِ ذُلٍّ واستِعبادٍ ذهب عِلْمُهم، وتاريخُ مَجْدِهم، واندمَجوا في دِيانةِ الغالِبين لهم؛ فلم تَبْقَ لهم مِيزَةٌ تُميِّزُهم إلَّا أنَّهم خَدَمَةٌ وعَبيدٌ(٣).

٣- الفائدةُ في وصْفِ الأصنامِ بأنَّها ﴿لَهُمْ﴾، وعدمِ الاقتصارِ على قوله: ﴿أَصْنَامٍ﴾ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ﴾، زِيادةُ التَّشنيعِ، والتَّنبيهُ على جَهلِهم وغَوايتِهم في عِبادتِهم ما هو مِلْكٌ لهم عليهم أَشَدُّ(٤).

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾، لم يَصْدُرْ

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٣٦٥).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٦٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (٢/ ٢٤٧).

هذا القولُ من جميعِهم؛ فإنَّه كان فيهم السَّبعونَ المُختارونَ ومَنْ لا يَصْدُرُ منه هذا السُّؤالُ الباطلُ، لكنَّه نَسَبَ ذلك إلى بني إسرائيلَ؛ لِمَا وقَعَ من بعضِهم، على عادةِ العربِ في ذلك(١).

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، ما أَحْسَنَ ما خاطَبَهم موسى عليه السَّلامُ! بدأهم أوَّلًا بنِسبتِهم إلى الجهلِ، ثمَّ ثانيًا أخبرهم بأنَّ عُبَّادَ الأصنامِ ليسوا على شيءٍ، بل مآلُ أمْرِهم إلى الهلاكِ، وبُطلانِ العملِ، وثالثًا أنكَرَ وتعجَّبَ أنْ يقَعَ هو عليه السَّلامُ في أنْ يَبْغِيَ لهم غيرَ اللهِ إلهًا، أي: أَغَيْرَ المُستحِقِّ للعبادةِ والألوهيَّةِ أَطْلُبُ لكم معبودًا، وهو الَّذي شرَّفكم واخْتَصَّكم بالنِّعَمِ الَّتي لم يُعطِها مَنْ سَلَفَ من الأُمَمِ، لا غَيرُه؛ فكيف أَبْغِي لكم إلهًا غيرَه(٢)؟!

٦- الانحرافُ عن التَّوحيدِ إلى الشِّرْكِ إنَّما ينشأ من الجهلِ والحماقةِ، والعِلْمُ والتَّعقُّلُ يَقودُ كِلاهما إلى اللهِ الواحِدِ، يُبيِّن ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾(٣).

٧- قال اللهُ تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾، كان جوابُ موسى عليه السَّلامُ بعُنْفٍ وغِلظةٍ بقولِه: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾؛ لأنَّ ذلك هو المناسِبُ لحالِهم(٤).

٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾، وَصَفَهم فيه بالجهلِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨٣).

(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٣٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨١).

المُطلَقِ، غيرَ مُتعلِّقٍ بشيءٍ؛ لِيَشْمَلَ كلَّ ما يصلُحُ له من الجهلِ الَّذي هو فَقْدُ العِلْمِ، والجهلِ الَّذي هو سَفَهُ النَّفسِ، وطَيْشُ العقلِ، وأهمُّه المناسِبُ للمَقامِ جَهْلُ التَّوحيدِ، وما يجب من إفرادِ الرَّبِّ تعالى بالعبادةِ من غيرِ واسطةٍ(١).

٩- الاشتغالُ بعبادةِ غيرِ اللهِ مُتبَّرٌ وباطلٌ وضائعٌ؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٢).

١٠- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أُسلوبُ استئنافٍ مُفيدٌ للتَّعليلِ والدَّليلِ؛ ليُبيِّنَ لهم فسادَ ما طَلبوه في نفْسِه؛ عسى أنْ تستعِدَّ عُقولُهم لِفَهْمِه، واستبانةِ قُبْحِه(٣).

١١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ﴾، لَمَّا كان الشَّيءُ قد يَهلِكُ في الدُّنيا أو في الآخرةِ عُبِّر بالجُملةِ الاسميَّةِ؛ إشارةً إلى أنَّه الآنَ كذلك، وإنْ رُئِيَ بخِلافِه(٤).

١٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، أنْكَرَ أنْ يُتَألَّهَ غيرُه، وحَصَرَ الأمْرَ فيه، ثمَّ بيَّنَه بقولِه: ﴿وَهُوَ﴾، أي: والحالُ أنَّه هو وحْدَهُ ﴿فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، أي: لو لم يكُنْ لوجوبِ اختصاصِهم له بالعِبادةِ سببٌ سوى اختصاصِه لهم بالتَّفضيلِ لكان كافيًا(٥).

١٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، فَغَيْرُ اللهِ أَعَمُّ الألفاظِ الدَّالَّةِ على المُحْدَثاتِ؛ فهو يشمَلُ أَخَسَّ المخلوقاتِ وأَعْجَزَها عن النَّفعِ والضُّرِّ؛ كالأصنامِ، ويشمَلُ أفضلَها وأكملَها؛

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٩٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٥٠-٣٥١).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٩٧).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٧١).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ٧٢).

كالملائكةِ والنَّبيِّينَ عليهم السَّلامُ؛ لِيُثْبِتَ أنَّه لا يوجد مخلوقٌ يَستحِقُّ العبادةَ مع اللهِ تعالى(١).

١٤- قولُ اللهِ تعالى عن مُوسَى عليه السَّلام: ﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي فضَّلَهم بفضائلَ لم تجتمِعْ لأُمَّةٍ غيرِهم يَومئذٍ، ومِن جُملةِ العالَمين هؤلاءِ القومُ الذين أَتَوْا عليهم، ورأوهم يَعكُفون على أصنامٍ لهم، وذلك كِنايةٌ عن إنكارِ طَلَبِهم اتِّخاذَ أصنامٍ مِثْلَهم؛ لأنَّ شأْنَ الفاضلِ ألَّا يُقَلِّدَ المفضولَ؛ لأنَّ اقتباسَ أحوالِ الغَيْرِ يتضمَّنُ اعترافًا بأنَّه أَرْجَحُ رأْيًا وأَحْسَنُ حالًا في تلك النَّاحيَةِ(٢).

١٥- قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾، إنَّما جُعِلَتِ النَّجاةُ من آلِ فرعونَ، ولم تُجْعَلْ من فرعونَ، مع أنَّه الآمِرُ بتعذيبِ بني إسرائيلَ؛ تعليقًا للفعلِ بمَنْ هو مِن متعلِّقاتِه على طريقةِ الحقيقةِ العقليَّةِ، وتنبيهًا على أنَّ هؤلاءِ المكلَّفين ببني إسرائيلَ كانوا يَتجاوَزون الحَدَّ المأمورَ به في الإعناتِ على عادةِ المُنفِّذينَ؛ فإنَّهم أقلُّ رحمةً، وأَضْيَقُ نُفوسًا من وُلاةِ الأُمورِ(٣).

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾

- قوله: ﴿عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ﴾: فيه اختيارٌ لطريقِ التَّنكيرِ في ﴿أَصْنَامٍ﴾، ووصْفُها بأنَّها لهم؛ ليُتوسَّل به إلى إرادةِ تحقيرِ الأصنامِ وأنَّها مجهولةٌ؛ لأنَّ التنكيرَ يستلزِمُ خفاءَ المعرفةِ(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٩٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٨٠).

- والتَّشبيهُ في قولِه: ﴿كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ أرادوا به حَضَّ موسى على إجابةِ سؤالِهم، وابتِهاجًا بما رَأَوْا من حالِ القومِ الَّذينَ حَلُّوا بَيْنَ ظَهْرَانَيهم(١).

- قوله: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾: خبرٌ مُستعمَلٌ في مَعنَيَيهِ- الصَّريحِ والكِنايةِ- مُكنًّى به عن التعجُّبِ مِن فداحةِ جَهلِهم(٢).

- ووصْفُهم بالجَهلِ المُطلَق، ومَجيئُه بصِيغة المضارِع ﴿تَجْهَلُونَ﴾ يُشيرُ إلى أنَّ الجهلَ كأنَّه معهم في الحالِ والمستقبلِ لا يُفارقهم(٣).

- وإسنادُ الجهلِ إلى القومِ في قوله: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ أبلَغُ من إسنادِه إلى ضَميرِ المخاطَبين؛ لأنَّه حُكْمٌ على جماعتِهم بما هو كالمتحقِّقِ المعروفِ من حالِهم، الَّذي هو عِلَّةٌ لمقالِهم، يدخُلُ فيه الَّذينَ سألوه ذلك منهم دُخولًا أوَّليًّا(٤).

٢- قوله: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

- قوله: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ﴾ جملةٌ تَعليليَّةٌ لمضمونِ جُملة ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾؛ فلذلِكَ فُصِلتْ، ولم تُعطَفْ عليها، وأُكِّدتْ وجُعِلتِ اسميَّةً(٥).

- وقولُه تعالى: ﴿مُتَبَّرٌ﴾ أي: مُكَسَّرٌ مُفَتَّتٌ مُهْلَكٌ على وجهِ المبالَغةِ(٦).

- وفي إيقاع ﴿هؤُلاءِ﴾ اسمًا لـ ﴿إِنَّ﴾، وتَقديمِ خَبرِ المبتدأ ﴿مُتَبَّرٌ﴾ مِن الجملة الواقعةِ خبرًا لها؛ وسْمٌ لعَبَدةِ الأصنامِ بأنَّهم هم المُعرَّضون للتَّبارِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٨٢).
(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٣٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٩٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨٢).
(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٧١).

أي: الهَلاكِ، وأنَّه لا يَعْدُوهم البتَّةَ، وأنَّه لهم ضربةُ لازِبٍ؛ ليُحَذِّرهم عاقبةَ ما طَلَبوا، ويُبغِّض إليهم ما أحبُّوا[١].

- وقوله: ﴿وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: الإخبار بالباطِل هنا كالإخبارِ بالمصدرِ؛ يُفيدُ المبالغةَ في بُطلانِه؛ لأنَّ المَقامَ مقامُ التوبيخِ، والمبالغةِ في الإنكارِ[٢].

٣- ﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ إعَادَةُ لَفْظِ ﴿قَالَ﴾ مُسْتَأْنَفًا في حِكايةِ تكملةِ جوابِ موسَى عليه السَّلامُ؛ لأنَّه يُعادُ في حِكايةِ الأقوال إذا طال المقولُ، أو لأنَّه انتقالٌ مِن غرَضِ التوبيخِ على سؤالِهم إلى غرَضِ التَّذكيرِ بنِعمةِ الله عليهم، وأنَّ شُكرَ النِّعمةِ يَقتضي زَجْرَهم عن مُحاولةِ عِبادةِ غيرِ المنعِم[٣].

- والاستفهامُ في قوله: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ﴾: للإنكارِ والتعجُّبِ مِن طَلِبَتِهم- مع كونِهم مَغمورِينَ في نِعمةِ اللهِ- عِبادةَ غيرِ الله، وقدْ أُولي المستفْهَم عنه الهمزةُ؛ للدَّلالةِ على أنَّ مَحَلَّ الإنكارِ هو اتخاذُ غيرِ الله إلهًا؛ فتقديمُ المفعولِ الثاني للاختصاصِ؛ للمبالغةِ في الإنكارِ، أي: اختصاص الإنكارِ ببَغيِ غير الله إلهًا[٤].

- وقوله: ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ فيه مَجيءُ المُسنَدِ ﴿فَضَّلَكُمْ﴾ فعليًّا؛ ليُفيدَ تقديمُ المسنَدِ إليه عليه تخصيصَه بذلك الخبرِ الفِعلي، أي: وهو فَضَّلَكم، لم تُفضِّلْكم الأصنامُ؛ فكان الإنكارُ عليهم تحميقًا لهم في أنَّهم مغمورونَ في نِعمة اللهِ ويَطلُبون عِبادةَ ما لا يُنعِم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٥٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨٤).

٤- **قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾** فيه انتقالٌ إلى كَلامِه تعالى عن نَفْسِه؛ خاطَبَ به مَنْ أَنْزَلَ إليهم هذا الوحيَ مِن خَلْقِه؛ تَنبيهًا لهم بتَلوينِ الكَلامِ، وبما في مُخاطَبَةِ الرَّبِّ لهم كِفاحًا مِنَ التَّأثيرِ الخاصِّ إلى كَوْنِه هو المُسْدِي لهذا الإنعامِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ١٠١).

الآيتان (١٤٢-١٤٣)

﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢) وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣) ﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿مِيقَاتُ﴾: المِيقَاتُ مِفعالٌ مِن الوَقْتِ، وهو الوقتُ المضروبُ للشَّيءِ، والوَعْدُ الَّذي جُعِلَ له وَقْتٌ، أو: هو القدرُ المحدَّدُ للفعلِ مِن الزَّمانِ أو المكانِ، وأصْلُ (وقت): يَدُلُّ عَلَى حَدِّ شَيْءٍ وَكُنْهِه؛ فِي زَمانٍ وَغَيْرِه[1].

﴿اخْلُفْنِي﴾: أي: قُمْ مَقامي، والخِلافةُ: النِّيابةُ عن الآخَرِ؛ يقال: خَلَفَ فلانٌ فلانًا، أي: قامَ بالأمْرِ عنه، إمَّا معه وإمَّا بَعدَه، وأصْلُه: مجيءُ شيءٍ بعْدَ شيءٍ يقوم مَقامَه[2].

﴿تَجَلَّى﴾: أي: ظَهَر وبانَ، أو ظَهَرَ من أَمْرِه ما شاء، وأصْلُ الجَلْو: الكَشْفُ الظَّاهِرُ، وكذلك انْكِشافُ الشَّيْءِ وبُروزُه[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٩)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٢/ ٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٠)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٠٩).

﴿دَكًّا﴾: أي: مَدكوكًا أو مُنْدَكًّا، أو: مستويًا مع وجهِ الأرضِ، أو: مُلصقًا بالأرضِ، والدَّكُّ: الأرضُ اللَّيِّنةُ السَّهلةُ، ويُقالُ: ناقةٌ دَكَّاءُ: إذا لم يَكُنْ لها سَنامٌ، وأصْلُ (دكك): تَطامُنٌ وانْسِطاحٌ[١].

﴿وَخَرَّ﴾: أي: سَقَط، وأصْلُ (خرر): اضْطِرابٌ وسُقوطٌ مَعَ صَوْتٍ[٢].

﴿صَعِقًا﴾: أي: مَغْشِيًّا عليه مع صِياحٍ، وشِدَّةِ صَوْتٍ، وكذلك يقال: صَعِقَ، إذا ماتَ[٣].

مُشْكِلُ الإعرابِ:

قولُه تعالى: ﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾

﴿أَرْبَعِينَ﴾: مَنصوبةٌ على أنَّها حالٌ، أي: تَمَّ كاملًا، أو بالغًا هذا العددَ. أو على أنَّها مَفعولٌ به لـ ﴿تَمَّ﴾، على تَضْمينِ «تَمَّ» معنى «بَلَغَ». أو على أنَّها ظَرْفٌ؛ لأنَّها عَددُ أزمنةٍ. أو على أنَّها تمييزٌ محوَّلٌ عن الفاعلِ، والأصْلُ: فتمَّ أربعونَ مِيقاتِ رَبِّه، ثمَّ أُسْنِدَ التَّمامُ إلى ميقاتٍ، وانتصَب ﴿أَرْبَعِينَ﴾ على التَّمييزِ؛ كقولِه تعالى: ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾[٤] [مريم: ٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٦).

(٣) يُنظر: (غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٦، ٥٦٢).

(٤) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣٠١)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٩٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٤٤٧-٤٤٨).

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه واعَدَ موسى ثلاثين ليلةً، يرتقِبُ بعْدَها مُناجاةَ ربِّهِ، وإنزالَ التَّوراةِ عليه، وأتممَها عزَّ وجلَّ بعَشْرِ ليالٍ، فتَمَّ ميقاتُ ربِّه أربعين ليلةً، وأمَرَ موسى أخاه هارونَ- لَمَّا أراد الذَّهابَ لمناجاةِ اللهِ- أنْ يخلُفَه في قومِه، وأنْ يُصلِحَ كلَّ ما يحتاجُ إلى صلاحٍ من أَمْرِهم، ونهاه أنْ يَتَّبِعَ طريقَ المفسدينَ.

ولَمَّا جاء موسى للموعِدِ الَّذي حدَّده له اللهُ عزَّ وجلَّ ليُناجيَه، ويُعطيَه التَّوراةَ، وكَلَّمَهُ عزَّ وجلَّ بلا واسطةٍ، طلَب موسى مِن ربِّه أنْ يراه، فأخبره تعالى أنَّه لن يقدِرَ على رُؤيتِه في الدُّنيا، وأمره أنْ ينظُرَ إلى الجبلِ فإنِ استقرَّ في مكانِه بعْدَ أنْ يتجلَّى له اللهُ، فسوف يرَى موسى ربَّه، فلمَّا ظهَرَ اللهُ للجبلِ جعله دكًّا، وسقَطَ موسى مَغْشِيًّا عليه مِن شِدَّةِ دَكِّ الجبلِ، فلمَّا أَفاقَ قال: سُبحانَكَ! تُبْتُ إليك، وأنا أوَّلُ المؤمنين.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ (١٤٢)﴾.

﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾.

أي: وواعَدْنا[1] موسى انقضاءَ ثلاثين ليلةً ينتظِرُ، ويترقَّب بعْدَها مُناجاتَنا، وإنزالَ التَّوراةِ عليه، وأَتْمَمْنا الثَّلاثينَ بعَشْرِ ليالٍ أُخْرى[2].

(١) يرَى الواحديُّ والشنقيطيُّ أنَّ المدَّةَ المضروبةَ لموسى عليه السلام إنما جُعلتْ؛ ليصوم أيَّامها، ويتعبَّد فيها قَبْلَ المناجاةِ. يُنظر: ((التفسير الوسيط)) (٩/ ٣٣٠)، ((العذب النمير)) (٤/ ١٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤١٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٤٠، ١٤٣).=

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ [البقرة: ٥١].

﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾.

أي: فكمَلَ بذلك الوقتُ الَّذي واعَدَ اللهُ موسى أنْ يُناجيَه فيه، ويُنزِلَ عليه التَّوراةَ، أربعين ليلةً[1].

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ﴾.

أي: وقال موسى لأخيه النَّبيِّ هارونَ عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ، لَمَّا أراد أنْ يذهبَ إلى جبلِ الطُّورِ؛ لمناجاةِ اللهِ: كُنْ- يا هارونُ- خليفتي في بَني إسرائيلَ إلى أنْ أرجعَ إليكم، وأَصْلِحْ كُلَّ ما يحتاجُ إلى الإصلاحِ من أَمْرِهم[2].

قال سُبحانَه: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ [طه: ٨٣، ٨٤].

﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

أي: وأَوْصى موسى عليه السَّلام أخاه هارونَ عليه السَّلامُ قائلًا له: ولا تَسْلُكْ طريقَ الَّذينَ يُفسِدون في الأرضِ بالمعاصِي[3].

= قال ابنُ كثير: (وقد اختلف المفسِّرون في هذه العَشْرِ ما هي؛ فالأكثرون على أنَّ الثلاثين هي ذو القَعدةِ، والعشر عَشْرُ ذي الحِجَّةِ. قاله مجاهد، ومسروق، وابن جريج. ورُوِيَ عن ابن عبَّاس. فعلى هذا يكون قد كمَل الميقاتُ يومَ النَّحرِ، وحصَل فيه التَّكليمُ لموسى عليه السلام). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤١٥)، ((تفسير المراغي)) (٩/ ٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤١٦)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤١٧)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٣١)، ((تفسير السعدي)) =

﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾.

﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾.

أي: ولَمَّا جاءَ موسى إلى جَبلِ الطُّورِ في الوقتِ الَّذي حدَّدْناه له؛ لنُناجيَه، ونُعطيَه التَّوراةَ، وكلَّمه ربُّه عزَّ وجلَّ من غير واسطةٍ، قال موسى: يا ربِّ، أَرِني نفْسَكَ؛ لأنظُرَ إليك[1].

﴿ قَالَ لَن تَرَىٰنِى ﴾.

أي: قال الله مُجيبًا موسى: لن تَقدِرَ على رُؤيتي في الدُّنيا[2].

= (ص: ٣٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٤٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤١٨)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٣٢)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٩٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤١٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٤٧).

قال الشنقيطيُّ: (والمعنى: أنت أضعَفُ- يا موسى- من أن تقدِرَ على رؤية خالقِ السَّمواتِ والأرضِ؛ لأنَّ شأنَه أعظمُ، وأمْرَه أكبرُ وأجلُّ من أن يقدر على رؤيته أحدٌ في الدنيا؛ لأنَّ الناسَ في الدنيا مُركَّبون تركيبًا لا يبلغ غايةَ القوَّةِ، مُعرَّضون للموت والهلاكِ، فأنت بهذه الدَّارِ لا تَقدِر أنْ ترى ربَّ السَّموات والأرضِ). ((العذب النمير)) (٤/ ١٤٧).

وقال السعدي: (الله تبارك وتعالى أنشأ الخلْقَ في هذه الدار على نشأةٍ لا يقدِرون بها، ولا يثبُتون لرؤيةِ اللهِ، وليس في هذا دليلٌ على أنَّهم لا يَرَوْنَهُ في الجنَّةِ، فإنه قد دلَّت النصوص القرآنيَّةُ والأحاديث النبويَّة على أن أهلَ الجنةِ يَرَوْنَ ربهم تبارك وتعالى، ويتمتَّعون بالنظرِ إلى وجهه الكريمِ، وأنه يُنشِئهم نشأةً كاملةً، يقدِرون معها على رؤيةِ اللهِ تعالى؛ ولهذا رتَّبَ اللهُ الرؤيةَ في هذه الآيةِ على ثُبوت الجبلِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٨).

عن أبي موسى الأشعريِّ رضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قام فينا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم بخَمسِ كَلِماتٍ، فقال: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لا ينامُ، ولا ينبغي له أنْ ينامَ، يَخفِضُ القِسْطَ ويرفعُه، يُرفَعُ إليه عملُ اللَّيلِ قبلَ عملِ النَّهارِ، وعملُ النَّهارِ قبلَ عملِ اللَّيلِ، حِجابُه النُّورُ- وفي روايةِ أبي بكرٍ: النَّارُ- لو كشَفَه لأَحْرَقَتْ سُبُحاتُ وجْهِه[١] ما انتهى إليه بصرُه مِن خَلْقِه))[٢].

ثمَّ بيَّنَ اللهُ تعالى لموسى عدمَ استطاعتِه رُؤيتَه في الدُّنيا، فقال مُقْنِعًا له بذلك[٣]:

﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِي﴾.

أي: ولكن انظُرْ إلى الجبلِ- يا موسى- فإنْ تجلَّيْتُ له، وثَبَتَ مكانَه فسَوف تَراني، وإذا لم يَثْبُتْ مَكانَه- وهو أقوى منك، وأَشَدُّ صَلابةً- فإنَّك لن تُطيقَ رُؤيتي من بابٍ أَوْلى؛ فأنتَ أضعَفُ مِن أنْ تتحمَّلَ ذلك[٤].

﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

في قولِه تعالى ﴿دَكّٗا﴾ قراءتانِ:

١- قِراءة ﴿دَكَّاءَ﴾، أي: جعَلها أرضًا دكَّاءَ، وهي الأرضُ المُستَوِيَةُ[٥].

---

(١) سبحاتُ وجهِه: أي: نورُه وجلالُه وبهاؤُه. ينظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ١٣).

(٢) رواه مسلم (١٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٦١)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٤٧).

(٥) قرأ بها حمزة، والكسائي. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧٢).

قال ابن زنجلة: (قرأ حمزة والكسائي: ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ بالمد والهمز، قال الأخفش: قوله تعالى: ﴿دَكَّاءَ﴾ أي: جعله مِثْلَ دكَّاءَ، ثم حُذِفَ المضافُ وأُقيمَ المضافُ إليه مُقامَه كما =

٢- قِراءة ﴿دَكًّا﴾، أي: جعلها أرضًا مدكوكةً، أي: مُفَتَّتةً كالتُّرابِ(١).

﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾.

أي: فلمَّا ظهر اللهُ تعالى وبانَ للجبلِ جعله اللهُ مُفَتَّتًا، مستويًا بالأرضِ(٢).

﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾.

أي: وسقَطَ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مَغْشِيًّا عليه من شِدَّةِ دكِّ الجبلِ(٣).

عن أبي سعيدٍ رضي الله عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((النَّاسُ

= قال: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي﴾ [يوسف: ٨٢]، والعربُ تقول: ناقةٌ دكاء، أي: لا سِنام لها، وقال قطرب: قوله: ﴿دَكَّاءَ﴾ صفة، التقدير: جعله أرضًا دكَّاءَ، أي: ملساء، فأُقيمَتِ الصِّفةُ مُقامَ الموصوفِ، وحُذِفَ الموصوفُ ودلَّ عليه الصفة؛ كما قال سبحانه: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، أي: قولًا حَسَنًا). ((حجة القراءات)) (ص: ٢٩٥). ويُنظر: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٦٣)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤٢٢)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٣٧).

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧٢).

قال ابنُ زنجلة: (قرأ الباقون: ﴿دَكًّا﴾ مُنوَّنًا، جعَلوا دكًّا مصدرًا من دككتُ الشَّيءَ إذا كسَّرْتَه وفتَّتَه، فتأويله: جعَلَه مُفتَّتًا كالتراب، وحُجَّتهم قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ [الفجر: ٢١]، المعنى: فلمَّا تجلَّى ربُّه للجبل جعَله مدكوكًا، فكأنَّه دكَّه، فيُجعل قوله: ﴿دَكًّا﴾ مصدرًا صَدَرَ عن معنى الفعل لا عن لفظِه). ((حجة القراءات)) (ص: ٢٩٥). ويُنظر: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٦٣)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤٢٢)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٣٧).

وقال الشنقيطيُّ: (وعلى كلِّ حالٍ فالله جلَّ وعلا لمَّا تجلَّى للجبل دكَّ الجبلَ وأزاله وكسَّره، وصار رُفاتًا؛ لعَظَمَةِ خالق السمواتِ والأرضِ على القراءتين: ﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾ ﴿جعله دكَّاء﴾). ((العذب النمير)) (٤/ ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٢٧)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٣٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٣٣)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٩٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٤٨، ١٥٤).

يَصعَقونَ يَوْمَ القِيامةِ، فأكونُ أوَّلَ مَنْ يُفيقُ، فإذا أنا بموسى آخِذٌ بقائِمةٍ من قَوائمِ العَرْشِ؛ فلا أدْري أَفاقَ قَبْلي، أم جُوزيَ بصَعْقةِ الطُّورِ))(١).

وقال سليمانُ بنُ حَرْبٍ: حدَّثَنا حمَّادُ بن سَلَمَةَ، عن ثابتٍ، عن أنسٍ رضِيَ اللهُ عنه، ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: قرأ هذه الآيةَ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣]- قال حمَّادٌ: هكذا، وأمْسَكَ سليمانُ بطَرَفِ إبهامِه على أُنْمُلَةِ إصْبَعِه اليُمنى، قال:- فساخَ الجبلُ ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾))(٢).

﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ﴾.

أي: فلمَّا أفاق موسى من غَشْيَتِه قال: أُنزِّهُك- يا ألله- تنزيهًا عمَّا لا يَليقُ بكمالِك وجلالِك وعَظمتِك، ومن ذلك أنْ يَتحمَّلَ أحدٌ رؤيتَكَ في الدُّنيا ثمَّ يَعيشَ(٣).

﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٣٣٩٨) ومسلم (٢٣٧٤).

(٢) أخرجه الترمذيُّ (٣٠٧٤)، وأحمد (١٣١٧٨)، وابن أبي عاصم في ((السنة)) (٤٨٠)، وابن مَندَة في ((الرد على الجهمية)) (٢٦).
قال الترمذيُّ: حسنٌ غريبٌ صحيح. وصحَّح أبو محمَّد الخلَّال إسنادَه كما في ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٦٧)، وقال ابنُ القيم في ((مدارج السالكين)) (٣/ ٤٢١): إسنادُه على شرْط مسلم. وقال الشوكاني في ((فتح القدير)) (٢/ ٣٤٥): صحيحٌ على شرط مسلم. وصحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح الترمذي)) (٣٠٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٣٢)، ((شمس العلوم)) لنشوان الحميري (٨/ ٥٢٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٩٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٥٥).
قال ابنُ عاشور: (وسُبحانَك مصدرٌ جاء عِوَضًا عن فعْلِه، أي: أُسبِّحك، وهو هنا إنشاءُ ثناءٍ على الله، وتنزيهٍ عمَّا لا يليق به؛ لمناسَبةِ سؤاله منه ما تبيَّن له أنه لا يليقُ به سؤالُه دونَ استئذانه، وتحقُّقِ إمكانه؛ كما قال تعالى لنوحٍ: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [هود: ٤٦] في سورة هود). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٩٤).

أي: قال موسى: إنِّي تُبْتُ إليك- يا ربِّ-؛ فلَنْ أعودَ إلى طَلَبِ رؤيتِكَ في الدُّنيا[١].

كما قال نوحٌ عليه السَّلامُ: ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧].

﴿وَأَنَاْ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: قال موسى: وأنا أوَّلُ المؤمنينَ بأنَّه لا يَراكَ أحدٌ في الدُّنيا إلَّا هَلَكَ[٢].

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

١- جَمَعَ موسى لهارونَ في وصيَّتِه مِلاكَ السِّيَاسةِ بقولِه: ﴿وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾؛ فإنَّ سياسةَ الأُمَّةِ تدور حوْلَ مِحورِ الإصلاحِ، وهو جَعْلُ الشَّيءِ صالحًا، فجميعُ تصرُّفاتِ الأُمَّةِ وأحوالِها يجب أن تكونَ صالحةً، وذلك بأنْ تكونَ الأعمالُ عائدةً بالخيرِ والصَّلاحِ لفاعِلِها ولغيرِه، فإنْ عادت بالصَّلاحِ عليه وبِضِدِّه على غيرِه لم تُعْتَبَرْ صلاحًا، ولا تلبَثُ أنْ تؤولَ فسادًا على مَنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٣٢)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((الرد على الجهمية والزنادقة)) لأحمد بن حنبل (ص: ٨١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٣٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٧٤)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٢).

وهذا المعنى هو اختيارُ الإمامِ أحمدَ، وابنِ جرير، والزَّجَّاج، واستحسنه ابنُ كثير، إلَّا أنَّ ابن جرير قيَّدَ هذه الأوَّليَّةَ ببني إسرائيلَ، أي: أنا أوَّلُ مَنْ آمَنَ من قومي بأنَّك لا تُرى في الدُّنيا. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن ذهب مِن السَّلف إلى أنَّ المعنى: أولُ المؤمنين بأنَّه لا يراك أحدٌ مِن خلقِك في الدُّنيا؛ ابنُ عبَّاس- في أحدِ قولَيْه- وأبو العاليةِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٣٣، ٤٣٤)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٥٢)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٣/ ٥٤٧).

وقال قتادة في قَوْله: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أنَّه لن تراك نفسٌ فتحيا. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٣/ ٥٤٧).

لاحَتْ عِنده صلاحًا، ثمَّ إذا تردَّدَ فعْلٌ بين كونِه خيرًا من جِهةٍ، وشرًّا من جِهةٍ أخرى وَجَبَ اعتبارُ أقوى حالتَيْه، فاعْتُبِرَ بها إنْ تعذَّرَ العُدولُ عنه إلى غيرِه، ممَّا هو أوفَرُ صلاحًا، وإنِ استوى جهتاه أُلْغِيَ إنْ أَمْكَنَ إلغاؤُه وإلَّا تخيَّرَ، وهذا أمْرٌ لهارونَ جامِعٌ لِمَا يتعيَّنُ عليه عملُه من أعمالِه في سياسةِ الأُمَّةِ[1].

٢- أَمَرَ اللهُ بالصَّلاحِ، ونَهَى عنِ الفَسادِ، وبَعَثَ رُسلَه بتَحصيلِ المصالحِ وتكميلِها، وتَعطيلِ المفاسدِ وتقليلِها؛ يُبيِّن ذلك قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾[2].

٣- لِكَوْنِ المسلِمِ للمُسلِمِ ناصحًا، والنَّصيحةُ حقٌّ وواجبٌ للمسلِمِ على المسلمِ؛ نَصَحَ موسى أخاه هارونَ، مع أنَّه يَعلَمُ أنَّه نبيٌّ مُرْسَلٌ من ربِّه معه؛ قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾[3].

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾، واعَدَ اللهُ تعالى موسى ثَلاثين ليلةً، وأَتَمَّها بعشْرٍ، فصارتْ أربعين ليلةً؛ ليستعِدَّ موسى ويتهيَّأَ لوعْدِ اللهِ، ويكونَ لنُزولِ التَّوراةِ موقِعٌ كبيرٌ لديهم، وتشوُّقٌ إلى إنزالِها[4].

٢- قوله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ سُمِّيَتْ زيادةُ اللَّيالي العشْرِ إتمامًا؛ إشارةً إلى أنَّ اللهَ تعالى أراد أنْ تكونَ مُناجاةُ موسى أربعين ليلةً، ولكنَّه لَمَّا أَمَرَه بها أمَرَه بها مُفرَّقةً؛ إمَّا لحِكْمةِ الاستيناسِ، وإمَّا لتكونَ تلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨٧، ٨٨).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (٣١/ ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٣٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢).

العَشْرُ عبادةً أخرى؛ فيتكرَّرَ الثَّوابُ، والمرادُ اللَّيالي بأيامِها فاقْتُصِرَ على اللَّيالي؛ لأنَّ المُواعَدَةَ كانت لأجْلِ الانقطاعِ للعبادةِ وتلقِّي المناجاةِ، والنَّفسُ في اللَّيلِ أكثرُ تجرُّدًا للكمالاتِ النَّفسانيَّةِ، والأحوالِ الملكيَّةِ منها في النَّهارِ[1].

٣- قوله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ...﴾، قال بعضُ العلماءِ: هذه الآيةُ الكريمةُ يُؤْخَذُ منها: أنَّ ضَرْبَ التَّأجيلِ، وتحديدَ المدَّةِ للميعادِ ونَحْوِه- أنَّه أمْرٌ مَعروفٌ قديمٌ، فيدُلُّ على ضرْبِ الأجَلِ والتَّحديدِ بثَلاثين أو أربعين لموعِدٍ ونحوِ ذلك، كَدَيْنٍ أو غيرِه ممَّا يحتاجُ إلى الآجالِ[2].

٤- قوله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ...﴾، قال بعضُ العلماءِ: هذه الآيةُ من سُورةِ الأعرافِ دلَّتْ على أنَّ التَّأْريخَ باللَّيالي لا بالأيَّامِ، وذلك هو المقرَّرُ في فنِّ العربيَّة كما دلَّتْ عليه هذه الآيةُ أنَّ التَّأْريخَ باللَّيالي لا بالأيَّامِ، فتقول: وقَعَ هذا لكذا وكذا ليلةً، ولا تقولُ: لكذا يومًا، فالتَّأْريخُ باللَّيالي؛ لأنَّ اللَّياليَ أوائلُ الشُّهورِ وهي سابقةٌ للأيَّامِ، فالتَّأْريخُ بها لا بالأيَّامِ، وهذه الآيةُ نَصٌّ صريحٌ في ذلك؛ لأنَّ اللهَ قال: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾، ولم يقُلْ: ثلاثين يومًا، وقال: ﴿وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾، حَذَفَ منها التَّاءَ ولم يقُلْ: (بعشَرة)؛ لأنَّ اللَّياليَ مُؤنَّثةٌ، ولو أرادَ الأيَّامَ لقال: (بعشَرة) بالتَّاء، كما هو معروفٌ في محلِّه[3].

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ فيه أمْرُه إيَّاه بالصَّلاحِ، ونَهْيُه عن اتِّباعِ سبيلِ المفسِدين هو على سَبيلِ التَّأكيدِ، لا لِتَوَهُّمِ أنَّه يقَعُ منه خِلافُ الإصلاحِ واتِّباعُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨٦).
(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٤٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

تِلك السَّبيلِ؛ لأنَّ مَنْصِبَ النُّبوَّةِ مُنزَّهٌ عن ذلك(١).

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾، لَمَّا تعلَّق النَّهْيُ بسُلوكِ طريقِ المفسِدين، كان تحذيرًا من كُلِّ ما يُسْتَرْوَحُ منه مآلٌ إلى فسادٍ؛ لأنَّ المفسِدينَ قد يَعْملون عملًا لا فَسادَ فيه؛ فنُهِي عن المشارَكةِ في عَملِ مَنْ عُرِفَ بالفسادِ؛ لأنَّ صُدورَه عن المعروفِ بالفَسادِ كافٍ في توقُّعِ إفضائِه إلى فسادٍ؛ ففي هذا النَّهْيِ سَدُّ ذريعةِ الفسادِ، وسَدُّ ذرائعِ الفَسادِ من أُصولِ الإسلامِ(٢).

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾، ممَّا يُؤْذِنُ بأنَّ التَّكليمَ هو الَّذي أَطْمَعَ موسى عليه السَّلامُ في حُصولِ الرُّؤيةِ جَعْلُ جُملةِ: ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ شرطًا لحرفِ (لَمَّا)؛ لأنَّ (لَمَّا) تدُلُّ على شِدَّةِ الارتباطِ بين شَرْطِها وجوابِها؛ فلذلك يَكْثُرُ أنْ يكونَ عِلَّةً في حُصولِ جوابِها(٣).

٨- قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي﴾، تعلَّقَ نُفاةُ الرُّؤيةِ بظاهرِ هذه الآيةِ، وقالوا: قال اللهُ: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾، و(لن) تكون للتَّأبيدِ، ولا حُجَّةَ لهم فيها، ومعنى الآيةِ: لن تراني في الدُّنيا أو في الحالِ؛ لأنَّه كان يَسأل الرُّؤيةَ في الحالِ، و(لن) لا تكون للتَّأبيدِ؛ كقولِه تعالى: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ [البقرة: ٩٥]، إخبارًا عن اليهودِ، ثمَّ أخبر عنهم أنَّهم يَتمنَّوْنَ الموتَ في الآخرةِ؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، و﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ [الحاقة: ٢٧]، والدَّليلُ عليه أنَّه لم يَنسُبْه إلى الجهلِ بسؤالِ الرُّؤيةِ، وأنَّه لم يَقُلْ: إنِّي لا أُرى،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٦١).
(٢) ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨٨).
(٣) ينظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٩١).

حتَّى تكونَ لهم حُجَّةً، بل علَّقَ الرُّؤيةَ على استقرارِ الجبلِ، واستقرارُ الجبلِ عِند التَّجلِّي غيرُ مستحيلٍ إذا جعل اللهُ تعالى له تلك القوَّةَ، والمعلَّقُ بما لا يَستحيلُ لا يكون مُحالًا(١).

٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾، نبَّه تعالى بذلك على أنَّ الجبلَ مع شِدَّتِه وصلابتِه إذا لم يَستقرَّ فالآدميُّ مع ضَعْفِ بِنيَتِهِ أَوْلى بألَّا يستقِرَّ، وهذا تسكينٌ لقلبِ موسى، وتخفيفٌ عنه مِنْ ثِقَلِ أعباءِ المنْعِ(٢).

١٠- قوله سُبحانَه وتعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾، وهذا مِن أَبْيَنِ الأدلَّةِ على جوازِ رُؤيتِه تبارَك وتعالى؛ فإنَّه إذا جازَ أنْ يَتجلَّى للجَبلِ الَّذي هو جمادٌ، لا ثَوابَ له، ولا عِقابَ عليه، فكيف يمتَنِعُ أنْ يتجلَّى لأنبيائِه ورُسلِه وأوليائِه في دارِ كرامتِهم، ويُريَهم نفْسَه؟! فأَعْلَمَ سُبحانَه وتعالى موسى أنَّ الجبلَ إذا لم يَثْبُتْ لرؤيتِه في هذه الدَّارِ فالبشرُ أَضْعَفُ(٣).

١١- قال تعالى: ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾، رأى محمَّدٌ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما رأى في ليلةِ الإسراءِ، وهو ثابتُ الجأْشِ، حاضرُ القلبِ، لم يَفْنَ عن تلقِّي خِطابِ ربِّه وأوامرِه، ومراجعتِه في أمْرِ الصَّلاةِ مِرارًا، ولا رَيْبَ أنَّ هذا الحالَ أكمَلُ من حالِ موسى الكليمِ صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهما؛ فإنَّ موسى خرَّ صَعِقًا، وهو في مَقامِه في الأرضِ، لَمَّا تجلَّى ربُّه للجبلِ، والنَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قَطَعَ تلك المسافاتِ، وخَرَقَ تلك الحُجُبَ، ورأى ما رأى، وما زاغَ بَصَرُهُ وما طَغى، ولا اضْطَرَبَ فؤادُه ولا صَعِقَ صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه، ولا

(١) ينظر: ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٢٩).

(٢) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٦٤).

(٣) ينظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٨٧)، وينظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٥٦).

ريبَ أنَّ الوِراثةَ المحمَّديَّةَ أكمَلُ مِنَ الوِراثةِ الموسويَّةِ[١].

١٢- قولُه: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾، تَعبيرُه بالإيمانِ في غايةِ المناسَبةِ لعَدمِ الرُّؤيةِ؛ لأنَّ شرطَ الإيمانِ أنْ يكونَ بالغَيبِ[٢].

بلاغة الآيتين:

١- قولُه تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ إنَّما قال: ﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ مع أنَّه قد عُلِم ذلِك عند انضمامِ العَشْرِ إلى الثَّلاثينَ؛ لوُجوهٍ: أحدُها: أنَّه للتَّأكيدِ والإيضاحِ. الثَّاني: ليدُلَّ أنَّ العشْرَ ليالٍ لا ساعاتٌ. الثَّالثُ: ليَنفيَ تمامَ الثَّلاثينَ بالعشْر أنْ تكونَ من جُملةِ الثَّلاثينَ؛ ولرَفْعِ توهُّم أنَّ العَشرَ داخلةٌ في الثَّلاثين، بمَعنَى أنَّها كانتْ عِشرينَ ليلةً فأُتِمَّتْ بعشْرٍ[٣].

- وإِضَافَةُ الميقات إِلَى رَبِّهِ في قولِه: ﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ﴾؛ لِلتَّشْرِيفِ[٤].

٢- قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾: فيه التَّحذيرُ مِن الفَسادِ بأبلغ صِيغةٍ؛ لأنَّها جامعةٌ بين نَهيٍ، وبين تعليقِ النَّهيِ باتِّباعِ سَبيلِ المُفسِدين[٥].

٣- قوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا﴾ معنى اللَّام في ﴿لِمِيقَاتِنَا﴾ الاختِصاصُ، فكأنَّه قيل: واختصَّ مَجيئُه بمِيقاتِنا[٦].

---

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣٢٣، ٣٢٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٧٩).

(٣) يُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٦١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٢٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٨٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٨٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٥١).

الآيتان (١٤٤-١٤٥)

﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿اصْطَفَيْتُكَ﴾: أي: اخترْتُكَ، وأَصْلُ (صفو): يدُلُّ على خُلوصٍ من كُلِّ شَوْبٍ(١).

﴿مَوْعِظَةً﴾: الموعظةُ هي التَّخويفُ، أو الزَّجْرُ المُقترِنُ بتخويفٍ، وهي أيضًا تذكيرٌ بالخيرِ وما يَرِقُّ له القلبُ(٢).

مُشكلُ الإعرابِ:

قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾

﴿مِنْ كُلِّ﴾ جارٌّ ومجرورٌ متعلِّقٌ بمحذوفٍ، حالٌ مِن ﴿مَوْعِظَةً﴾، و﴿مَوْعِظَةً﴾ مفعولٌ به منصوبٌ بالفعلِ (كتب)، و﴿تَفْصِيلًا﴾ معطوفٌ على ﴿مَوْعِظَةً﴾ منصوبٌ، والتقديرُ: كتبْنا له في الألواح موعظةً مِن كُلِّ شَيءٍ وتَفصيلًا، ويجوزُ أن يكونَ ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ في محلِّ نصبٍ، مفعولَ ﴿كَتَبْنَا﴾ ، وعليه فـ ﴿مَوْعِظَةً﴾ بَدَلٌ مِن محلِّ الجارِّ والمجرورِ، و﴿تفصيلًا﴾ معطوفٌ منصوبٌ، والمعنى: كَتَبْنا له كلَّ شيءٍ كان بنو إسرائيلَ يَحْتاجون إليه في دينِهم؛ مِن المواعِظِ، وتَفصيلِ الأحكامِ، وقيل: مفعولُ ﴿كَتَبْنا﴾ محذوفٌ دَلَّ عليه الفِعلُ، تقديرُه: وكَتَبْنا له مكتوبًا مِن كُلِّ شَيءٍ(٣)، وانتصَبَ ﴿مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً﴾ على

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٠).

(٣) وقدَّر أبو حيَّان المحذوفَ كلمةَ: (أشياءَ) أي: كتبْنا له أشياءَ مِن كلِّ شَيءٍ. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٧٠).

المفعولِ مِن أجلِه، أي: كَتَبْنا له ذلك المكتوبَ للاتِّعاظِ وللتَّفصيلِ، أو انتصَبَ ﴿مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا﴾ على الحالِ مِن الضَّميرِ المرفوعِ في قَولِه: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ﴾ أي: واعظِينَ ومُفَصِّلينَ. وقيل غيرُ ذلك(١).

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه قال لموسى: إنَّه اختارَه وفضَّلَه على أهلِ زمانِه، بإرسالِه إلى بني إسرائيلَ، وتكْليمِه إيَّاه بلا واسِطةٍ، وأمَرَه أنْ يأخُذَ ما آتاه من التَّوراةِ ويتمسَّكَ بها، وأنْ يكونَ من الشَّاكرينَ.

وأخبرَ تعالى أنَّه كتَبَ له في الألواحِ المُشتمِلةِ على التَّوراةِ كُلَّ شيءٍ تحتاج إليه أُمَّتُه في دِينِها، موعظةً، وتفصيلًا لكلِّ شيءٍ ممَّا يُحتاجُ إلى تَبْيينِه، وأمَرَه أنْ يتمسَّكَ بما كُتِبَ له بقوَّةٍ، وأنْ يأمُرَ قومَه أنْ يَتمسَّكوا بأحسنِ ما في التَّوراةِ، ثم قال تعالى: سَأُرِيكُمْ دارَ من عصاني، وخالف أمري.

تَفسيرُ الآيتَيْنِ:

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا طلَبَ موسى عليه السَّلامُ الرُّؤيةَ ومُنِعَها، عدَّدَ عليه تعالى وُجوهَ نِعَمِه العظيمةِ عليه، وأمَرَه أنْ يَشتغِلَ بشُكْرِها، وهذه تَسليةٌ منه تعالى له(٢).

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٧٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٤٥٢-٤٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨/ ٢٨٠-٢٨١)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٩/ ٧٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٥٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٦٩).

القراءاتُ ذاتُ الأَثَرِ في التَّفسيرِ:

في قولِه تعالى: ﴿بِرِسَالَاتِي﴾ قراءتانِ:

١- قراءة ﴿بِرِسَالَتِي﴾، قيل: على معنى أنَّ اللهَ تعالى أرسَلَه مرَّةً واحدةً بكلامٍ كثيرٍ(١).

٢- قراءة ﴿بِرِسَالَاتِي﴾، قيل: على معنى أنَّه تعالى أَوْحى إليه مرَّةً بَعْدَ أُخْرى(٢).

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾.

أي: قال اللهُ: يا موسى، إنِّي اخترْتُكَ وفضَّلْتُكَ على أهلِ زمانِكَ بسببِ إرْسالي لك إلى بني إسرائيلَ، وتَكْليمي إيَّاكَ بلا واسطةٍ، دونَ غيرِكَ مِنَ النَّاسِ(٣).

---

(١) قرأ بها نافعٌ وابنُ كثيرٍ وأبو جعفرٍ المدني ورَوح. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٦٣- ١٦٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٩٥)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٤٧٦)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٩٥).
وقال ابنُ عطية: (وقرأ ابن كثير ونافع: (بِرِسَالَتِي) على الإفراد الذي يُرادُ به الجَمْعُ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٥٢) فـ(رسالة) مفردٌ مضافٌ إلى معرفةٍ (الضمير) فهو بمعنَى الجمعِ.

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٦٣- ١٦٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٩٥)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٤٧٦)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٨٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٤٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٥٦- ١٥٧).
قال البغوي: (فإنْ قيل: فما معنى قوله: ﴿اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي﴾ وقد أُعْطِيَ غيرُه الرسالةَ؟ قيل: لَمَّا لم تكن الرسالةُ على العُموم في حقِّ النَّاسِ كافَّةً استقام قوله: ﴿اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ وإنْ شارَكه فيه غيرُه، كما يقولُ الرجلُ: خصصْتُك بمشورتي، وإنْ شاوَرَ غيرَه، إذا لم تكن المشورةُ على العموم يكون مستقيمًا). ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٣١).
وقال الرازي: (فإنْ قيل: كيف اصطفاه على النَّاس برِسالاتِه مع أنَّ كثيرًا من الناسِ قد ساواه في الرسالةِ؟ قُلْنا: إنَّه تعالى بيَّنَ أنَّه خصَّهُ من دونِ الناسِ بمجموعِ الأمرين وهو الرِّسالة مع =

كما قال سُبحانَه: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ [طه: ١٣].

﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾.

أي: فَخُذْ ما أعطيْتُكَ من التَّوراةِ، وتمسَّكْ بها- يا موسى- واعمَلْ بما فيها مِنَ الأوامِرِ والنَّواهي(١).

﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

أي: وكُنْ- يا موسى- مِنَ الشَّاكرينَ(٢) للهِ تعالى بطاعتِه على ما آتاكَ مِنَ الرِّسالةِ، وخَصَّكَ به من الكلامِ، ومَنَحَكَ من النِّعَمِ(٣).

﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ تعالى أنَّه خَصَّ موسى عليه السَّلامُ بالرِّسالةِ، ذكَرَ في هذه الآيةِ

= الكلامِ بغيرِ واسطةٍ، وهذا المجموعُ ما حَصَلَ لغيرِه؛ فثَبَتَ أنَّه إنَّما حصَلَ التَّخصيصُ هاهنا؛ لأنَّه سمِع ذلك الكلامَ بغيرِ واسطةٍ). ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٥٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٥٧).

(٢) قال الشنقيطيُّ: (الشُّكر في لغة العربِ: الظُّهورُ... و(الشَّكيرُ): الغُصْنُ الذي يَظْهَرُ في الجِذْعِ الذي كان مقطوعًا، كما هو معروفٌ). ((العذب النمير)) (٤/ ١٥٧).

قال القرطبيُّ: (﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾، أي: من المظهِرين لإحساني إليك، وفَضْلي عليك، يُقالُ: دابَّةٌ شَكورٌ إذا ظهَرَ عليها مِنَ السِّمَنِ فوق ما تُعْطى من العَلَفِ). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٣٦)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٥٧).

قال الرازي: (﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾، يعني: فخُذْ هذه النِّعمةَ، ولا يَضيقُ قلبُك بسببِ منْعِك الرُّؤيةَ، واشتغِلْ بشُكرِ الفَوْزِ بهذه النِّعمةِ، والاشتِغالُ بشُكرِها إنما يكونُ بالقيامِ بلوازِمِها عِلْمًا وعملًا. والله أعلم). ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٥٩). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٤).

تفصيلَ تلك الرِّسالةِ، فقال[١]:

﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾.

أي: وكتبْنا لموسى في ألواحِه[٢]- المُشتمِلةِ على التَّوراةِ[٣]- كلَّ شيءٍ تحتاجُ إليه أُمَّتُه في دينِها[٤].

عن أبي هُرَيْرَةَ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((احتجَّ آدمُ وموسى، فقال موسى: يا آدمُ، أنتَ أبونا، خيَّبْتَنا وأخرجْتَنا منَ الجنَّةِ، فقالَ لَهُ آدمُ: أنتَ موسَى، اصطفاكَ اللهُ بِكَلامِهِ، وخطَّ لَكَ بيدِه، أتلومُني على أمْرٍ قدَّرَهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٥٩).

(٢) قال القرطبيُّ: (أصلُ اللُّوح: (لَوْحٌ)- بفتْح اللامِ- ؛ قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١-٢٢]، فكأنَّ اللَّوْحَ تَلوحُ فيه المعاني). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٨١).

(٣) ذهب الواحديُّ، والرَّازي، والقرطبيُّ، وابنُ تيميةَ، وابنُ كثيرٍ، والشنقيطيُّ، وابنُ عثيمينَ، إلى أنَّ المرادَ بهذه الألواحِ: التَّوراةُ. يُنظر: ((الوجيز)) (ص: ٤١٢)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٨١)، ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٤)، ((العذب النمير)) (٢/ ٣٩٢) (٤/ ١٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٧٧).

قال ابنُ كثير: (كانت هذه الألواحُ مُشتمِلةً على التَّوراة التي قال الله تعالى فيها: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ [القصص: ٤٣]، وقيل: الألواحُ أُعْطِيَها موسى قبْلَ التَّوراةِ، فالله أعلم. وعلى كلِّ تقديرٍ كانت كالتَّعويضِ له عمَّا سأل من الرُّؤية ومُنِعَ منه، والله أعلم). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٤).

وقال الرازيُّ: (واعلَمْ أنه ليس في لفظ الآيةِ ما يدُلُّ على كيفيَّةِ تلك الألواحِ، وعلى كيفيَّة تلك الكتابةِ، فإنْ ثبَتَ ذلك التَّفصيلُ بدليلٍ مُنفصِلٍ قويٍّ وجَبَ القولُ به وإلَّا وجب السُّكوتُ عنه). ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٣٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤١٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٥٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٤٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٩٧).

وذهب ابن عاشور إلى أنَّ ﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ تبعيضيَّةٌ، أي: كتَبْنا له أشياءَ من كلِّ شيءٍ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٩٧).

اللهُ عليَّ قبلَ أنْ يخلُقَني بأربعينَ سنةً؟! فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم: فحَجَّ آدمُ موسى، فحجَّ آدمُ موسى))، وفي حديثِ ابنِ أبي عُمَرَ وابنِ عَبْدَةَ: ((قالَ أحدُهما: خَطَّ، وقالَ الآخَرُ: كتبَ لَكَ التَّوراةَ بيدِهِ))[1].

وفي روايةٍ أُخرى عن أبي هريرةَ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((احتجَّ آدمُ وموسى عليهما السَّلامُ عِندَ ربِّهما، فحجَّ آدمُ موسى، قال موسى: أنتَ آدمُ الَّذي خلقَكَ اللهُ بيدِه، ونفخَ فيكَ من رُوحِهِ، وأَسْجَدَ لَكَ ملائِكَتَهُ، وأسكنَكَ في جنَّتِهِ،ثمَّ أَهْبَطْتَ النَّاسَ بخطيئتِكَ إلى الأرضِ، فقال آدمُ: أنتَ موسى الَّذي اصطفاكَ اللهُ برسالتِهِ، وبكَلامِهِ، وأعطاكَ الألواحَ فيها تِبيانُ كلِّ شيءٍ، وقرَّبَكَ نجيًّا، فبِكَمْ وجدْتَ اللهَ كتَبَ التَّوراةَ قبْلَ أن أُخْلَقَ؟ قال موسى: بأربعينَ عامًا، قال آدمُ: فَهَل وجدْتَ فيها: وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى؟ قالَ: نَعَمْ، قال: أفتلومُني على أنْ عَمِلْتُ عملًا كتبَهُ اللهُ عليَّ أنْ أعمَلَهُ قبْلَ أنْ يخلُقَني بأربعينَ سنةً؟! قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: فَحجَّ آدمُ موسى))[2].

﴿مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾.

أي: كتَبْنا لموسى في التَّوراةِ من كلِّ شيءٍ؛ تذكيرًا وتحذيرًا، وترغيبًا وترهيبًا لقومِه، ومَن أُمِر بالعملِ بما كُتِب في الألواحِ، وتبيينًا لكلِّ شيءٍ مِن الأمرِ والنَّهي، والحلالِ والحرامِ، والحدودِ، والأحكامِ، والعقائدِ، والأخلاقِ، والآدابِ[3].

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٤].

---

(١) رواه مسلم (٢٦٥٢).

(٢) رواه مسلم (٢٦٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٣٧)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٣٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٥٨)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣).

﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾.

أي: فقُلْنا: يا موسى، تَمَسَّكْ بما كتَبْنا لك في الألواحِ بِجِدٍّ واجتهادٍ، وصبرٍ وعزمٍ، ونشاطٍ على إقامةِ ما فيها(١).

﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾.

أي: وَأْمُرْ- يا موسى- قومَكَ بني إسرائيلَ بأنْ يتمسَّكوا بأحسَنِ ما يجِدونَ في التَّوراةِ، فيعملوا بأوامِرِها، ويَترُكوا نواهيَها، ويتدبَّروا مواعِظَها(٢).

ثمَّ توعَّدَ اللهُ مَنْ يُضيعُ العملَ بالتَّوراةِ من بني إسرائيلَ، فقال لهم مُهدِّدًا(٣):

﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٨١)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣).

قال ابنُ الجوزي: (إنْ قيل: كأنَّ فيها ما ليس بحَسَنٍ، فعنه جوابان؛ أحدُهما: أنَّ المعنى: يأخذوا بحَسَنِها، وكلُّها حَسَنٌ... والثَّاني: أنَّ بعضَ ما فيها أحْسَنُ من بعضٍ. ثم في ذلك خمسةُ أقوالٍ؛ أحدُها: أنهم أُمِروا فيها بالخير، ونُهوا عن الشَّرِّ، ففِعْلُ الخيرِ هو الأحسنُ. والثاني: أنها اشتملت على أشياءَ حسنةٍ بعضُها أحسنُ من بعضٍ؛ كالقِصاصِ والعفوِ والانتصارِ والصَّبرِ، فأُمِروا أن يأخذوا بالأحسنِ. ذَكَرَ القولين الزجاجُ. فعلى هذا القولِ يكون المعنى: أنهم يتَّبعون العزائمَ والفضائلَ، وعلى الذي قَبْلَه يكون المعنى: أنهم يتَّبعون الموصوفَ بالحُسْن، وهو الطاعة، ويَجتنِبون الموصوفَ بالقُبْح وهو المعصية. والثالث: أحسنها: الفرائضُ والنوافلُ، وأدونها في الحُسْن: المباح. والرابع: أن يكون للكلمة معنيان أو ثلاثة، فتُصْرَفَ إلى الأشْبَهِ بالحقِّ. والخامس: أنَّ أحسنَها: الجمعُ بين الفرائضِ والنوافلِ). ((زاد المسير)) (٢/ ١٥٣).

وهذا القول الخامس هو اختيار السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٠١).

وقيل: يحتمِلُ أن يكون كلامًا مُنفصِلًا عمَّا قَبْلَه، فيكونَ استئنافًا ابتدائيًّا: هو وَعْدٌ له بدُخولِهم الأرضَ الموعودةَ، وفَتْحِ بلادِهم. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٠١).

أي: سأُريكم دارَ(١) مَن عَصاني وخالَفَ أَمْري(٢).

(١) اختلف المفسِّرون في المرادِ بقولِه: ﴿دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾.
فقيل: ﴿دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ هي: جَهنَّمُ، والمعنى: سأُريكم في الآخِرةِ دارَ الفاسِقين. وهذا اختيارُ ابنِ جريرٍ، والواحديِّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤١)، ((الوجيز)) (ص: ٤١٢).
وممن رُوي عنه هذا القولُ من السَّلف مجاهدٌ، والحسنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤١).
وقيل: هذا وعدٌ من الله لبني إسرائيلَ بأنَّه سيُريهم في الدُّنيا دارَ الفاسقين، وهي الأرض المقدَّسةُ التي كان يسكُنُها الجبابرةُ المشركون. واختاره القاسميُّ، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٥/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٠١).
وممن رُوي عنه هذا القولُ من السَّلف قتادةُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤٢)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٥٤)
قال ابنُ عاشور: (والمرادُ بالفاسقين المشرِكون، فالكلامُ وعْدٌ لموسى وقومِه بأنْ يفتحوا ديارَ الأممِ الحالَّةِ بالأرض المقدَّسةِ التي وعَدَهم اللهُ بها... ويُؤيِّده ما رُوِيَ عن قَتادةَ أنَّ دارَ الفاسقين هي دارُ العمالقةِ والجبابرةِ، وهي الشامُ، فمِن الخطأ تفسيرُ مَن فسَّروا دارَ الفاسقين بأنَّها أرضُ مصرَ؛ فإنهم قد كانوا بها وخرجوا منها ولم يرجِعوا إليها). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٠١-١٠٢).
وقيل: هي مصر (دارُ فرعونَ وقومِه)، واختاره الزمخشري، وابن جزي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٥٨)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٠١).
وممن قال بذلك مِن السَّلف عطيةُ العوفيُّ، وقتادةُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٥٤)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٣/ ٥٦٢).
وقيل: هي الأرضُ المقدَّسةُ ومِصرُ، واختاره ابن تيمية. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (١٨/ ٢٨٣).
وقيل: هي منازِلُ القرونِ الذين أُهْلِكوا؛ كعادٍ وثمودَ وقومِ لوطٍ ومدينَ وقومِ فرعونَ، فيُمُرُّون عليها إذا سافَروا. وهو قول الكَلْبِيِّ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٤٨).
وقيل: الدَّارُ: الهلاكُ، أي: سأُريكم هلاكَ الفاسقين. وهو قولُ سفيانَ الثوري. يُنظر: ((تفسير سفيان الثوري)) (ص: ١١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٧٨).
قال القرطبيُّ مُبيِّنًا معنى هذا القولِ: (وقيل: الدَّارُ: الهلاكُ، وجمعُه أدوارٌ، وذلك أن اللهَ تعالى لمَّا أغرق فرعونَ أوحى إلى البحر أن اقذِفْ بأجسادهم إلى الساحِل، قال: ففَعَلَ، فنظَرَ إليهم بنو إسرائيلَ؛ فأراهم هَلاكَ الفاسقين). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٨٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣).

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُه تعالى: ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾، أمْرُ اللهِ تعالى لموسى بأَخْذِ ما آتاه، والشُّكرِ على الاصطفاءِ والعطاءِ، هو أمْرُ التَّعليمِ والتَّوجيهِ لِمَا ينبغي أنْ تُقابَلَ به نِعمةُ اللهِ. والرُّسلُ- صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهم- قُدوةٌ للنَّاسِ، وللنَّاسِ فيهم أُسْوَةٌ، وعلى النَّاسِ أنْ يأخُذوا ما آتاهم اللهُ بالقَبولِ والقَناعةِ والرِّضا بعَطاءِ اللهِ والشُّكرِ عليه؛ استِزادةً من النِّعمةِ، وإصلاحًا للقلبِ، وتحرُّزًا من البَطَرِ، واتِّصالًا باللهِ، فقولُه تعالى: ﴿فَخُذْ ما آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ فيه تأديبٌ وتقنيعٌ، وحَمْلٌ على جادَّةِ السَّلامةِ، ومثالٌ لكلِّ أحدٍ في حالِه، فإنَّ جميعَ النِّعَمِ من عِندِه بمقدارٍ، وكُلَّ الأمورِ بمَرْأى من اللهِ ومَسْمَعٍ[1].

٢- الكتابُ الإلهيُّ يجِبُ أخْذُه بقوَّةٍ وإرادةٍ وجِدٍّ وعزيمةٍ؛ لتنفيذِ ما هَدَى إليه من الإصلاحِ، وتكوينِ الأُمَّةِ تكوينًا جديدًا صالحًا، ويتأكَّدُ ذلك في الدَّاعي إليه، والمُنفِّذِ له بقولِه وعملِه؛ ليكونَ لقومِه فيه أُسوةٌ حَسَنةٌ؛ يُرْشِدُ إلى ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾[2].

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾، الاصطِفاءُ: الاجتِباءُ، أي: فضَّلْتُك، ولم يَقُلْ: على الخَلْقِ؛ لأنَّ من هذا الاصطفاءِ أنَّه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٦٩)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ١٦٧).

كلَّمَه، وقد كلَّمَ الملائكةَ، وأرسَلَه وأرسَلَ غيرَه، فالمرادُ: ﴿عَلَى النَّاسِ﴾ المرسَلِ إليهم(١).

٢- قال الله تعالى: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ لم يُعَدَّ فِعْلُ الأَخْذِ بالباءِ في قولِه: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾؛ لأنَّه مُستعمَلٌ في معنى التَّلقِّي والحِفْظِ؛ لأنَّه أَهَمُّ من الأخْذِ بمعنى التَّمسُّكِ والعملِ؛ فإنَّ الأوَّلَ حَظٌّ وَلِيِّ الأمْرِ، والثَّانِيَ حَظٌّ جميعِ الأُمَّةِ(٢).

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾: الإراءَةُ مِن (رأى) البَصَرِيَّةِ؛ لأنَّها عُدِّيَتْ إلى مَفعولَيْنِ فقط، وأُوثِرَ فِعْلُ: ﴿سَأُرِيكُمْ﴾ دونَ نَحْوِ: (سَأُدْخِلُكم)؛ لأنَّ اللهَ مَنَعَ مُعظَمَ القومِ الَّذينَ كانوا مع موسى مِن دُخولِ الأرضِ المقدَّسةِ لَمَّا امتَنَعوا من قِتالِ الكَنْعَانِيِّينَ(٣) وذلك على أحدِ أوجهِ التأويلِ في هذه الآيةِ.

بلاغةُ الآيتَين:

١- قوله: ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾

- قوله: ﴿يَا مُوسَى﴾ النِّداءُ فيه للتأنيسِ، وإزالةِ الرَّوعِ(٤).

- وقوله: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ﴾: فيه تأكيدُ الخبرِ للاهتمامِ به؛ إذ ليسَ محلًّا للإنكارِ؛ والاصطفاءُ افتعالٌ مبالغةً في الإصفاءِ أيضًا(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٨٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٠٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٠٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٩٥).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- والإخبارُ عن ﴿كُنْ﴾ بقولِه: ﴿مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾: أبلغُ مِن أنْ يُقال: (كن شاكرًا)؛ لأنَّ هذه الصِّيغةَ تُفيدُ كونَه مَعدودًا في زُمرةِ الشَّاكِرينَ، ومَعروفًا إسهامُه لهم في الشُّكرِ[١].

- وحذف مُتعلَّق الشُّكْرِ في قولِه تعالى: ﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ يدُلُّ على عُمومِه، كما أنَّ صِيغةَ الصِّفةِ منه تدُلُّ على التَّمكُّنِ منه والرُّسوخِ فيه، والمعنى: كُنْ من الرَّاسِخينَ في الشُّكرِ لِنعمتي بها عليك وعلى قومِكَ[٢].

٢- قوله: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾

- ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ﴾ عرَّفَ (الألواحَ) لِعَظَمَتِها؛ تَنْبيهًا على أنَّها لجَلالةِ ما اخْتَصَّتْ به كأنَّها المُخْتَصَّةُ بهذا الاسمِ[٣].

- قوله: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾

- قوله: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ فيه تمثيلٌ لحالةِ العزمِ على العملِ بما في الألواحِ، بمنتهَى الجدِّ والحِرص دون تأخيرٍ ولا تساهُلٍ، ولا انقطاعٍ عند المشقَّةِ ولا مَللٍ- بحالةِ القويِّ الذي لا يَستعصي عليه عملٌ يُريده[٤].

- وفي قوله: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ جُزِمَ الفِعلُ ﴿يَأْخُذُوا﴾ جوابًا لقولِه: ﴿وَأْمُرْ﴾ تَحقيقًا لحُصولِ امتثالِهم عندَما يأمرُهم[٥].

- وقوله: ﴿بِأَحْسَنِهَا﴾ وصْفٌ مَسلوبُ المفاضَلةِ، مقصودٌ به المبالغةُ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٦٣- ٢٦٥) و(٩/ ٩٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ١١٢).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٨٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٠٠).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الحُسنِ؛ فإضافتُها إلى ضَميرِ الألواحِ على معنَى اللام، أي: بالأحسنِ الذي هو لها، وهو جميعُ ما فيها؛ لظُهورِ أنَّ ما فيها من الشرائع ليس بَينَه تفاضُلٌ بين أحسن ودُون الأحسن، بل كلُّه مَرتبةٌ واحدةٌ فيما عُيِّن له[1]، وهذا على أحدِ الأوجهِ في هذه الآيةِ.

- قوله: ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ فيه تلوينٌ للخِطابِ، وتوجيهٌ له إلى قَومِه- عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- بطريقِ الالتفاتِ؛ لاستِرعاءِ الاهتمامِ، وحملًا لهم على الجِدِّ في الامتثالِ بما أُمِروا به؛ إمَّا على نهجِ الوعيدِ والترهيبِ على أنَّ المرادَ بـ﴿دَارَ الفَاسِقِينَ﴾ دِيارُ عادٍ وثمودَ وأضرابِهم؛ فإنَّ رُؤيتَها- وهي الخاليةُ عن أهلِها- خاوية على عُروشِها، موجبةٌ للاعتبارِ والانزجارِ عن مِثلِ أعمالِ أهلِها؛ كيلَا يَحُلَّ بهم ما حَلَّ بأولئك. وإمَّا على نهجِ الوَعدِ والتَّرغيبِ على أنَّ المرادَ بـ﴿دَارَ الفَاسِقِينَ﴾ إمَّا أرضُ مصرَ خاصَّةً، أو مع أرضِ الجَبابرةِ والعمالقةِ بالشَّامِ[2]، وهذا على أحدِ أوجهِ تأويلِ هذه الآيةِ.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٧١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) للدرويش (٣/ ٤٥٣).

الآيتان (١٤٦-١٤٧)

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ
كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ
سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾
وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْأٓخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا
مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿سَأَصْرِفُ﴾: أي: سأَرُدُّ، والصَّرفُ: رَدُّ الشَّيءِ من حالةٍ إلى حالةٍ، أو إبدالُه بغيرِه، وأصْلُ (صرف): يدُلُّ على رجْعِ الشَّيءِ(١).

﴿الْغَيِّ﴾: أي: الانهماكِ في الباطلِ والضَّلالِ، والجهلِ بالأمْرِ مِن اعتقادٍ فاسدٍ، وأصْلُ الغَيِّ: خِلافُ الرُّشْدِ(٢).

﴿غَافِلِينَ﴾: أي: ساهِينَ لاهِينَ، والغَفْلةُ: سَهْوٌ يَعْتري الإنسانَ مِن قِلَّةِ التَّحفُّظِ والتَّيقُّظِ، وأَصْلُ (غفل): ترْكُ الشَّيءِ سَهْوًا، وربَّما كان عن عَمْدٍ(٣).

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه سيُبْعِدُ عن آياتِه الَّذينَ يَتكبَّرونَ في الأرضِ بغيرِ الحقِّ، وإنْ يَرَوْا كُلَّ حُجَّةٍ تدُلُّ على أنَّ اللهَ هو مَنْ يَستحِقُّ العِبادةَ لا يُؤمِنوا بها، وإنْ يَرَوْا طَرِيقَ الهُدى والاستقامةِ لا يَسلُكوه، وإنْ يَرَوْا سَبيلَ الضَّلالِ يَسلُكوه؛ ذلك

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٢).
(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٩٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٩).

بأنَّهم كذَّبوا بآياتِ اللهِ، وكانوا عنها غافلين.

ثُمَّ بيَّنَ تعالى أنَّ الَّذينَ كذَّبوا بآياتِه، وأنْكَروا البَعْثَ بعْدَ الموتِ، ولقاءَه في الآخرةِ، بَطَلَتْ أعمالُهم، ولا يُجْزَوْنَ إلَّا بما يَستحِقُّونَ من العِقابِ على أعمالِهم السَّيِّئةِ.

تَفسيرُ الآيتَيْنِ:

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ (١٤٦) ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تعالى في الآيةِ المتقدمةِ قولَه: ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾، ذَكَرَ ما يعاملُهم به، وما يَفْعَلُ بهم مِنْ صَرْفِه إيَّاهم عن آياتِه؛ لِفِسْقِهم وخُروجِهم عن طَوْرِهم إلى وَصْفٍ ليس لهم، ثُمَّ ذَكَرَ تعالى من أحوالِهم ما استحقُّوا به اسْمَ الفِسْقِ(١)، فقال:

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾.

أي: سأَمْنَعُ وأَصُدُّ عن فَهْمِ آياتِ كُتبي المُنزَّلةِ، وعن التَّفكُّرِ في آياتي الكَوْنيَّةِ الدَّالَّةِ على عَظَمَتي، الَّذينَ يُعجَبونَ بأنفُسِهم؛ فيَرُدُّونَ الحقَّ، ويَحتقِرونَ الخَلْقَ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤٣-٤٤٤)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٥٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٥٤)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٨٣)، ((الاستقامة)) لابن تيمية (٢/ ٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٤- ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٠٤).

حِجَابًا مَسْتُورًا * وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥-٤٦].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ * أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ * وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤-١٢٧].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لا يدخُلُ الجنَّةَ مَنْ كان في قلبِه مِثقالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ، قال رجُلٌ: إنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أنْ يكونَ ثوبُه حَسَنًا، ونَعْلُه حسنةً، قال: إنَّ اللهَ جميلٌ يُحِبُّ الجمالَ؛ الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ(١)، وغَمْطُ النَّاسِ(٢)))(٣).

﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا﴾.

أي: وإنْ يرَ هؤلاءِ المتكبِّرون كُلَّ حُجَّةٍ للهِ تدُلُّ على أنَّه المُستحِقُّ للعبادةِ

(١) بَطَرُ الحَقِّ: أي: دَفعُه وإنكارُه؛ ترفُّعًا وتجبُّرًا. ينظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ٩٠).
(٢) غَمْطُ النَّاسِ: أي: احتقارُهم. ينظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ٩٠).
(٣) رواه مسلم (٩١).

وحْدَه، لا يُؤمِنوا بها، سواءٌ كانت آيةً مُنزَّلةً، أو آيةً كَوْنيَّةً، أو معجزةً خارقةً(١).

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ * وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٢- ١٥].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١].

﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾.

أي: وإنْ يرَ هؤلاءِ المتكبِّرونَ طريقَ الهُدى ظاهرًا لهم، لا يسلُكوه، ولا يَرْغَبوا فيه(٢).

﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤٤)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٣٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣).
قال ابنُ عاشور: (والرُّشْدُ: الصَّلاحُ، وفعْلُ النَّافعِ... والمرادُ به هنا: الشيءُ الصَّالحُ كلُّه من الإيمان والأعمالِ الصَّالحةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٠٥).

أي: وإنْ يرَ هؤلاءِ المتكبِّرونَ طريقَ الضَّلالِ ظاهرًا لهم، يَسلُكوه، ويَرْغَبوا فيه[1].

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾.

أي: صرْفُنا المتكبِّرينَ عن فَهْمِ آياتِنا الشَّرعيَّةِ والكَوْنيَّةِ، هو عُقوبةٌ منَّا لهم بسببِ تكذيبِهم بها[2].

﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾.

أي: وكان الكافرون مُعْرِضينَ عن تلك الآياتِ، لا يَتدبَّرونها، ولا يتفكَّرون فيها[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣).
قال ابنُ عاشور: (والغَيُّ: الفساد والضَّلالُ... فالمعنى: إنْ يُدرِكوا الشَّيءَ الصَّالحَ لم يعملوا به؛ لغلبةِ الهوَى على قُلوبِهم، وإن يُدْرِكوا الفسادَ عَمِلوا به لغَلَبةِ الهوَى). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٥).
قال ابنُ عاشور: (معنى ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أنَّهم ابتدؤوا بالتكذيبِ، ولم ينظروا، ولم يهتمُّوا بالتأمُّل في الآيات، فداموا على الكِبْر وما معه، فصرَفَ الله قلوبَهم عن الانتِفاع بالآيات، وليس المرادُ الإخبارَ بأنَّهم حصَلَ منهم التكذيبُ؛ لأنَّ ذلك قد عُلِمَ من قوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤٥)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٥)،((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٠٧).
ذهب أبو حيَّان، والسعديُّ إلى أنَّ قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ معطوفٌ على ما قَبْلَه؛ فيكون سببُ الصَّرْفِ عن فَهْمِ الآياتِ هو التَّكذيبَ بها والغفلةَ عنها. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣).
وقيل: يَحتمِلُ أن الصَّرْفَ سببُه التكذيبُ، ويكون قولُه: ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ استئنافَ إخبارٍ منه تعالى عنهم، أي: مِن شأنِهم أنَّهم كانوا غافلين عن الآيات وتدبُّرِها؛ فأَوْرَثَتْهم الغفلةُ التكذيبَ بها. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٧٤ - ١٧٥).

كما قال تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١ - ٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَـٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ الله تعالى ما لِأَجْلِه صَرَفَ المتكبِّرينَ عن آياتِه بقولِه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾، بيَّنَ حالَ أولئك المكذِّبينَ، فقد كان يجوزُ أنْ يُظَنَّ أنهم يَختلِفونَ في بابِ العِقابِ؛ لأنَّ فيهم مَنْ يعمَلُ بعضَ أعمالِ البِرِّ؛ فبيَّنَ تعالى حالَ جميعِهم، سواءٌ كان مُتكبِّرًا أو مُتواضِعًا، أو كان قليلَ الإحسانِ أو كثيرَ الإحسانِ، فبيَّنَ تعالى أنَّ أعمالَهم مُحْبَطَةٌ[1].

﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَـٰلُهُمۡ ﴾.

أي: والَّذينَ كذَّبوا بحُجَجِنا وأدِلَّتِنا، وأنْكَروا البَعْثَ بعْدَ الموتِ، ولِقاءَنا في الآخرةِ، واستمرُّوا على ذلك إلى مماتِهم؛ بَطَلَتْ أعمالُهم وفَسَدَتْ، وذهبَتْ كأنَّها لم تَكُنْ[2].

﴿هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤٦)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣).

أي: لا نُجازي المكذِّبينَ بآياتي ولِقائي إلَّا بما يَستحِقُّونَ من العِقابِ على أعمالِهم السَّيِّئةِ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣٣].

وقال سُبحانَه: ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين: ٣٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٧].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ * ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ٢٧-٢٨].

وقال تبارَكَ وتعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِلطَّاغِينَ مَآبًا * لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا * لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا * جَزَاءً وِفَاقًا * إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا * وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا * وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا * فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٢١-٣٠].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

القلبُ لا يَدخُلُه حَقائقُ الإيمانِ إذا كان فيه ما يُنجِّسُه مِنَ الكِبْرِ والحَسَدِ؛ فإنَّ مِن شأنِ الكِبْرِ أنْ يَصرِفَ أهلَه عن النَّظرِ والاستدلالِ على الحقِّ والهُدى لِأَجْلِ اتِّباعِه؛ يُرْشِدُ إلى ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤٦)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٥٣)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٠٨).

فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾؛ فالَّذينَ يتكبَّرونَ مُعْجَبونَ بأنفُسِهم، يَعُدُّونَ أنفُسَهم عُظَماءَ؛ فلا يأتمِرونَ لآمِرٍ، ولا ينتصِحونَ لناصِحٍ[1].

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قولِ اللهِ تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ إشعارٌ بأنَّ الصَّرْفَ سببُه هذا التكبُّرُ، وفي قولِه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا﴾ إعْلامٌ بأنَّ ذلك الصَّرْفَ سببُه التَّكذيبُ، والجَمْعُ بينهما أنَّ التَّكبُّرَ سببٌ أوَّلُ، نَشَأَ عنه التَّكذيبُ؛ فنِسْبَةُ الصَّرْفِ إلى السَّببِ الأوَّلِ وإلى ما تَسَبَّبَ عنه[2].

٢- قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، زيادةُ قولِه: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾؛ لِتَفْضِيحِ تكبُّرِهم، والتَّشهيرِ بهم بأنَّ كِبْرَهم مظروفٌ في الأرضِ، أي: ليس هو خَفِيًّا مُقتصِرًا على أنفُسِهم، بل هو مَبْثوثٌ في الأرضِ، أي: مَبْثوثٌ أَثَرُه، فهو تكبُّرٌ شائعٌ في بِقاعِ الأرضِ؛ كقولِه: ﴿يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [يونس: ٢٣]، وقولِه: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٧]، وقولِه: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾[3] [الإسراء: ٣٧].

٣- قال تعالى: ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾، الغفلةُ انصرافُ العقلِ والذِّهْنِ عن تذكُّرِ شيءٍ بقَصْدٍ أو بغيرِ قَصْدٍ، وأكثرُ استعمالِه في القُرآنِ فيما كان عن قَصْدٍ بإعراضٍ وتشاغُلٍ، والمذمومُ منها ما كان عن قَصْدٍ، وهو مَناطُ التَّكْليفِ والمؤاخَذةِ، فأمَّا الغفلةُ عن غيرِ قَصْدٍ فلا مؤاخَذةَ عليها، وهي المقصودُ من قولِ عُلماءِ أصولِ الفِقهِ: يَمْتَنِعُ تكليفُ الغافِلِ[4].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٠٤- ١٠٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٠٧).

بَلاغةُ الآيتَينِ:

١- قوله: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ على احتمالِ أنَّ هذِه الآيةَ تَكملةٌ لِمَا خاطَبَ اللهُ به موسَى وقومَه، فجملةُ ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ ...﴾ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ بَني إسرائيلَ كانوا يَهابون أولئك الأقوامَ ويَخشونَ، فكأنَّهم تساءَلوا: كيف تُرينا دارَهم، وتَعِدُنا بها؟! وهو مَسوقٌ لتحذيرِهم عن التكبُّرِ الموجِبِ لعدمِ التفكُّرِ في الآياتِ، أو تكونُ الجُملةُ جوابًا لسؤالِ مَن يقول: إذا دَخَلْنا أرضَ العدوِّ فلعلَّهم يُؤمِنونَ بهَدْيِنا، ويتَّبعون دِينَنا؛ فلا نحتاجُ إلى قِتالهم، فأُجيبوا بأنَّ اللهَ يَصرِفُهم عن اتِّباعِ آياتِه؛ لأنَّهم جُبِلوا على التكبُّر في الأرضِ، والإعراضِ عن الآياتِ. وعلى احتمالِ أنْ تكونَ جملةُ ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ﴾ مِن خِطابِ اللهِ تعالى لرسولِه مُحمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فتكونُ الجملةُ مُعترضةً في أثناءِ قِصَّةِ بني إسرائيل، بمُناسَبةِ قولِه: ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾؛ تعريضًا بأنَّ حال مُشرِكي العربِ كحالِ أولئك الفاسِقينَ، وتصريحًا بسببِ إدامتِهم العنادَ والإعراضَ عن الإيمانِ؛ فتكونُ الجملةُ مُستأنَفةً استئنافًا ابتدائيًّا[١].

- وتقديمُ المجرورِ ﴿عَنْ آيَاتِيَ﴾ على مَفعولِ ﴿سَأَصْرِفُ﴾؛ للاهتمامِ بالآياتِ، ولأنَّ ذِكْرَه عقبَ الفعلِ المتعلِّقِ هو به أَحسنُ[٢].

- وتعريفُ المصروفِينَ عن الآياتِ بطريقِ الموصوليَّةِ ﴿الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ...﴾؛ للإيماءِ بالصِّلةِ إلى عِلَّةِ الصَّرْف، وهي ما تَضمَّنَتْه الصِّلاتُ المذكورةُ؛ لأنَّ مَن صارتْ تِلك الصفاتُ حالاتٍ له لا يَنصُرُه اللهُ، أو لأنَّه إذا صارَ ذلك حالَه رِينَ على قَلْبِه؛ فصُرِفَ قَلبُه عن إدراكِ دَلالةِ الآياتِ، وزالتْ منه الأهليَّةُ لذلك الفَهْمِ الشَّريفِ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٠٣- ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وقوله: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ جاءَ لتشنيعِ التَّكبُّرِ بذِكرِ ما هو صِفةٌ لازمةٌ له، وهو مُغايَرةُ الحقِّ، أي: باطل، وهي حالٌ لازمةٌ للتكبُّرِ، كاشِفةٌ لوصْفِه؛ إذ التكبُّرُ لا يكونُ بحقٍّ في جانبِ الخَلْقِ، وإنَّما هو وصْفٌ لله بحقٍّ؛ لأنَّه العظيمُ على كلِّ موجودٍ(١).

٢- قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا، واجْتُلِبت (أنَّ) الدالة على المصدريَّة والتوكيدِ؛ لتحقيقِ هذا التسبُّبِ وتأكيدِه؛ لأنَّه محلُّ غرابةٍ(٢).

- وصِيغَ الإخبارُ عنهم بصِيغةِ ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على استمرارِ غَفلتِهم، وللتنبيهِ على أنَّ غَفلتَهم عن قصْدٍ، وكونِها دَأبًا لهم، وإنَّما تكون كذلك إذا كانوا قد الْتَزَموها، فأمَّا لو كانتْ عن غيرِ قَصدٍ؛ فإنَّها قد تَعترِيهم وقد تُفارِقُهم(٣).

٣- قوله: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ هذه الجملةُ مُستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا، جَوابًا عن سؤالٍ ينشأُ عن قوله: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾؛ إذ قدْ يقولُ سائلٌ: كيف تَحبَطُ أعمالُهم الصالحةُ؟ فأُجيبَ بأنَّهم جُوزوا كما كانوا يَعملون، والاستفهامُ بـ﴿هَلْ﴾ مُشرَبٌ معنى النَّفي(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٠٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٠٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٠٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٠٨).

الآيتان (١٤٨-١٤٩)

﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿حُلِيِّهِمْ﴾: الحُلِيُّ جَمْعُ الحَلْيِ، وهو اسمٌ لكلِّ ما يُتَزَيَّنُ به مِن مَصاغِ الذَّهَبِ والفِضَّة، وأصْلُ (حلي): تحسينُ الشيءِ[1].

﴿خُوَارٌ﴾: أي: صوتُ البَقَرِ، وقد يُستعارُ للبَعيرِ، وأَصْلُ (خور): يَدُلُّ عَلَى صَوْتٍ[2].

﴿سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾: أي: نَدِموا، يُقالُ: سُقِطَ في يَدِ فُلانٍ، إذا نَدِمَ، وأصْلُ (سقط): يَدُلُّ على الوقوعِ[3].

المعنى الإجماليّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ قومَ موسى صَنَعوا بعْدَ ذَهابِه لِميقاتِ ربِّه من حُلِيِّهم عِجْلًا جَسَدًا لا رُوحَ فيه، له صَوْتُ البقَرِ، فعبَدوه مِن دونِ اللهِ؛ ألم يَرَ هؤلاءِ القومُ أنَّ هذا العِجْلَ الَّذي عبَدوه لا يُكلِّمُهم، ولا يُرشِدُهم إلى خيرٍ؟! اتَّخذوه وكانوا ظالِمين.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٤)، ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٤٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٢٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢١).

ولَمَّا نَدِمَ بنو إسرائيلَ نَدَمًا شديدًا على اتِّخاذِهم العِجْلَ معبودًا مِن دونِ اللهِ، بعْدَ عَوْدَةِ موسى عليه السَّلامُ إليهم، ورَأَوْا أنَّهم قد انحرَفوا عن الطَّريقِ القويمِ؛ قالوا: لَئِنْ لم يرحمْنا ربُّنا ويغفِرْ لنا ذُنوبَنا لَنَكُونَنَّ من الخاسِرين.

تَفسيرُ الآيتَيْن:

﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ (١٤٨) ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تعالى فيما تقدَّمَ قِصَّةَ المُناجاةِ، وما حصَلَ فيها من الآياتِ والعِبَرِ، ذَكَرَ في هذه الآيةِ ما كان من قَومِ موسى في مُدَّةِ مَغِيبِه في المناجاةِ من الإشْراكِ؛ لِمَا بَيْنَ السِّيَاقَيْنِ مِنَ العَلاقةِ والاشتراكِ في الزَّمَنِ[1]، فقال تعالى:

﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا ﴾.

أي: وصَنَعَ بنو إسرائيلَ مِن بعْدِ ذَهابِ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلى مِيقاتِ ربِّه، صَنَعوا مِن مَصُوغِهِمُ الَّذي يَتزيَّنونَ به عِجْلًا، وهو وَلَدُ البقرةِ، فعبَدوه مِن دونِ اللهِ سُبحانَه وتعالى[2]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤٦)، ((المخصص)) لابن سيده (١/ ٣٦٦)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٥٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٥- ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣).

قال الشنقيطيُّ: (أصْلُ هذا الحُلِيِّ للقِبْطِ... فاتَّخذ السامريُّ العجلَ من ذلك الحُلِيِّ، وهنا قال: ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾، قال بعضُ العلماء: لأنَّ اللهَ أورَثَهم أموالَهم بعدَهم، كما في قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩]؛ ولذا أضافَه إليهم بعد هلاكِ فرعونَ وقومِه. وقال بعضُ العلماءِ: الإضافةُ تقَعُ بأدْنى مُلابَسةٍ، فلمَّا كان تحتَ أيديهم عاريَّةً عِندهم أضافَه إليهم بهذه الملابسةِ، وقد بيَّن في «طه» أنَّه مِن زينةِ قومٍ آخرين كما ذَكَر عن الإسرائيليين أنَّهم =

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ [البقرة: ٥١].

وقال سُبحانَه حاكيًا قولَ بني إسرائيلَ: ﴿وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ * فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ [طه: ٨٧-٨٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى * قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٣-٨٥].

﴿جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾.

أي: كان العِجْلُ الَّذي عبَدَه قومُ موسى جِسْمًا، لا رُوحَ فيه، له صَوتُ البقرِ[١].

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾.

= قالوا: ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ﴾ [طه: ٨٧]، وهي حُلِيُّ القِبْطِ). ((العذب النمير)) (٤/ ١٦٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣).

قال ابنُ كثير: (وقد اختلف المفسِّرون في هذا العجلِ: هل صار لحمًا ودمًا له خُوارٌ، أو استمرَّ على كونه من ذَهَبٍ إلَّا أنه يَدخُلُ فيه الهواءُ فيُصوِّتُ كالبقرِ؛ على قولَيْنِ، والله أعلم). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٦). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٦٥-١٦٦).

وقال ابنُ عاشور: (المراد أنَّه كجِسمِ العجلِ في الصُّورة والمقدارِ، إلَّا أنه ليس بحيٍّ، وما وقَعَ في القصص أنَّه كان لحمًا ودمًا ويأكُلُ ويَشرَبُ؛ فهو مِن وَضْعِ القصَّاصين، وكيف والقرآن يقول: ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾، ويقول: ﴿لَهُ خُوَارٌ﴾؟!). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٠). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٥٥).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا اتَّخذَ قومُ موسى العِجلَ، بيَّن اللهُ تعالى لهم صِفاتِ النَّقْصِ الَّتي تُنافي الألوهيَّةَ، فقال[1]:

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾.

أي: ألم يَرَ هؤلاء القومُ الَّذينَ عبَدوا العِجلَ المصْنوعَ من حُلِيِّهم أنَّه لا يستطيع أنْ يتحدَّثَ إليهم، ولا يُرشِدَهم إلى أيِّ خيرٍ؟! فكيف اتَّخذوه إلهًا، ومِن صِفاتِ المعبودِ الحقِّ أنَّه يتكلَّمُ ويَهدي[2]؟!

كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا * وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي * قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ [طه: ٨٩- ٩١].

﴿اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾.

أي: اتَّخذَ قومُ موسى العِجلَ إلهًا، وكانوا بعِبادتِهم له ظالِمين لأنفُسِهم؛ حيثُ جعلوا العِبادةَ لمخلوقٍ، فوَضعوها في غيرِ مَوْضِعِها[3].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤].

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٦٧- ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤٧)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٦٠)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٦٨-١٦٩).

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾.

﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ ﴾.

أي: ولمَّا نَدِمَ بنو إسرائيلَ ندمًا شديدًا على عِبادتِهم العِجلَ بعْدَ رُجوعِ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إليهم(١).

﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا ﴾.

أي: وعَلِمَ قومُ موسى أنَّهم قدِ انحرَفوا عن طَريقِ الحقِّ(٢).

﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾.

أي: قالوا حينذاكَ تائبينَ إلى اللهِ تعالى من عِبادةِ العِجلِ: واللهِ لَئِنْ لم يَتداركْنا ربُّنا برحمتِه؛ بالتَّوبةِ، والتَّوفيقِ للأعمالِ الصَّالحةِ، ويَغفِرْ لنا ذُنوبَنا، لَنكُونَنَّ من الهالِكينَ(٣).

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ ولا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ فيه دليلٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤٨)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٦٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٦٩، ١٧٢).
قال الرازي: (اتَّفقوا على أنَّ المرادَ من قوله: ﴿سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ أنَّه اشتدَّ نَدَمُهم على عبادةِ العجلِ). ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤٨)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١١- ١١٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٧٢).

على أنَّ مَنْ أنْكَر كلامَ اللهِ فقدْ أنْكَرَ خصائِصَ إلهيَّةِ اللهِ تعالى؛ لأنَّ اللهَ ذَكَرَ أنَّ عدمَ الكلامِ دَليلٌ على عدمِ صلاحيةِ الَّذي لا يتكلَّمُ للإلهيَّةِ(١)، وفيه دليلٌ أيضًا على أنَّ عدمَ التَّكلُّمِ وعدمَ الهِدايةِ نَقْصٌ، وأنَّ الَّذي يَتكلَّمُ ويَهدي أَكْمَلُ ممَّنْ لا يتكلَّمُ ولا يَهدي، والرَّبُّ أحَقُّ بالكمالِ(٢).

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾، سَلَبَ تعالى عنه هَذَيْنِ الوَصْفَيْنِ دونَ باقي أوصافِ الإلهيَّةِ؛ لأنَّ انتِفاءَ التَّكليمِ يَستلزِمُ انتِفاءَ العِلْمِ، وانتِفاءَ الهِدايةِ إلى سبيلٍ يَستلزِمُ انتفاءَ القُدرةِ، وانتفاءَ هذَيْنِ الوصفَيْنِ- وهما العِلْمُ والقُدْرةُ- يَستلزِمانِ باقيَ الأوصافِ؛ فلذلك خُصَّ هذانِ الوَصْفانِ بانتفائِهما(٣).

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾،كان مُقتضى الظَّاهِرِ في ترتيبِ حِكايةِ الحوادثِ أنْ يتأخَّرَ قولُه: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ...﴾ الآيَةَ، عن قولِه: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾؛ لأنَّهم ما سُقِطَ في أيديهم إلَّا بعْدَ أنْ رجَعَ موسى، ورَأَوْا فَرْطَ غضبِه، وسمِعوا توبيخَه أخاه وإيَّاهم، وإنَّما خُولِفَ مُقتضى التَّرتيبِ؛ تعجيلًا بِذِكْرِ ما كان لاتِّخاذِهم العجلَ من عاقبةِ النَّدامةِ وتَبيُّنِ الضَّلالةِ؛ موعظةً للسَّامعين؛ لكيلَا يَعْجَلوا في التَّحوُّلِ عن سُنَّتِهم حتَّى يتبيَّنوا عواقِبَ ما هُمْ مُتحوِّلونَ إليه(٤).

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٨١- ٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص:٣٠٢).
(٢) يُنظر: ((الرسالة الأكملية في ما يجب لله من صفات الكمال)) لابن تيمية (ص: ١٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٧٧).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١١).

الْخَاسِرِينَ﴾، لَمَّا كان السِّيَاقُ في ذِكْرِ إسراعِهم في الفِسْقِ، لم يُذْكَرْ قَبولُ توبتِهم كما في سُورةِ البقرةِ[١].

بلاغة الآيتين:

١- قوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾

- قوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ﴾ مستأنفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا؛ لبيانِ فَسادِ نظرِهم في اعتقادِهم، والاستفهامُ للتقريرِ وللتعجُّبِ مِن حالِهم[٢]. وفيه تَقريعٌ لهم على فَرْطِ ضَلالِهم، وإفراطِهم بالنَّظرِ؛ لأنَّ هذا العجلَ لا يُمكِنُه أن يَتكلَّمَ بصوابٍ، ولا يَهدِي إلى رَشَدٍ، ولا يَقدِر على ذلك، ومَن كان كذلك كان ناقصًا عاجزًا لا يَصلُحُ أنْ يُعبَدَ[٣].

- وقوله: ﴿اتَّخَذُوهُ﴾ مؤكِّدٌ لجُملةِ ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى﴾؛ فلذلك فُصِلَت، ولم تُعطَفْ عليها، والغَرَضُ من التوكيدِ في مِثلِ هذا المقامِ هو التَّكريرُ لأجْلِ التعجُّبِ[٤].

٢- قوله: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ فيه كِنايةٌ عن اشتِدادِ نَدمِهم؛ فإنَّ النَّادمَ المتحسِّرَ على شيءٍ يَعضُّ يدَه غمًّا فتَصيرُ يدُه مسقوطًا فيها؛ لأنَّ فاهَ قدْ وقَعَ فيها[٥]. وقيل معناها: سَقَط في يدِه ساقطٌ فأَبطلَ حركةَ يدِه؛ إذ المقصودُ أنَّ حركةَ يدِه تعطَّلت بسببٍ غيرِ معلومٍ، إلَّا بأنَّه شيءٌ دخَلَ في يدِه فصيَّرها عاجزةً عن العملِ، وذلك كنايةٌ عن كونِه قد فَجَأَه ما أوجبَ حيرتَه في أمْرِه، واستُعمِلَ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٦٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٣٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٣/ ٤٥٩).

في الآيةِ في معنى النَّدمِ، وتبيُّنِ الخطأِ لهم[١].

٣- قولُهم: ﴿لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنا رَبُّنا وَيَغْفِرْ لَنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ﴾ فيه تأكيدُ التَّعليقِ الشرطيِّ بالقَسَمِ الذي وطَّأته اللام؛ لأنَّهم قد علِموا أنهم أخطؤوا خطيئةً عظيمة، وقدَّموا الرحمةَ على المغفرةِ؛ لأنَّها سببُها، ومجيءُ خبرِ (كان) مقترنًا بحَرْف ﴿مِن﴾ التبعيضيَّة؛ لأنَّ ذلك أقوَى في إثباتِ الخَسارةِ مِن (لنكوننَّ خاسرين)[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١١٣).

الآيات (١٥٠-١٥٣)

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ ﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿أَسِفًا﴾: أي: حزينًا، وقيل: شديدَ الغَضَبِ، يُقالُ: آسَفَني فأَسِفْتُ، أي: أغضبَني فغَضِبْتُ، والأَسَفُ: حزنٌ مَعَ غضَبٍ، وأَصْلُ (أسف): يدُلُّ على الفَوتِ والتَّلَهُّفِ(١).

﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ﴾: أي: فلا تَسُرَّهم بما أَكْرَهُ؛ فالشَّماتَةُ: السُّرورُ بمكارِه الأَعداءِ، والفَرَحُ بِبَلِيَّةِ مَنْ تُعادِيه ويُعاديكَ(٢).

﴿وَذِلَّةٌ﴾: الذِّلَّةُ: الصَّغَارُ والهوانُ، وأَصْلُ الذُّلِّ: الخُضوعُ، والاستِكانةُ، واللِّينُ، وهو ضِدُّ العِزِّ(٣).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٠٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٣١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٤٥)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٣٣٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (١/ ٧٨).

مُشْكِلُ الإعرابِ:

قولُه تعالى: ﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي﴾

﴿ابْنَ أُمَّ﴾: في إعرابِها وجهانِ؛ الأوَّلُ: أنَّه مُنادًى مبنيٌّ على الضَّمِّ المُقدَّرِ، في محلِّ نصْبٍ، ومَنَعَ من ظُهورِ الضَّمِّ على آخِرِه حَركةُ البِناءِ الأصليِّ، وهو فتْحُ الجُزأينِ؛ فهو تركيبٌ أشْبَهَ تركيبَ خَمْسَةَ عَشَرَ. الثَّاني: أنَّ ﴿ابْنَ﴾ مُنادًى منصوبٌ، وهو مُضافٌ، و﴿أُمَّ﴾ مُضافٌ إليه مجرورٌ بالكَسرةِ المُقدَّرةِ على الألفِ المحذوفةِ المنقلِبةِ عن الياءِ، وقدْ دَلَّ على الألفِ المحذوفةِ الفتحةُ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه لَمَّا رجَعَ موسى من مُناجاةِ ربِّه جلَّ وعلا إلى قومِه، وهو شديدُ الغضَبِ حزينًا؛ لأنَّ اللهَ قد أخبَرَه أنَّ قومَه عبَدوا العِجْلَ مِنْ بعْدِه، قال لهم: بِئْسَ الخِلافةُ الَّتي خَلَفْتُموني مِنْ بَعْدِي؛ أَسْتَعْجَلْتُمْ مَجيئي إليكم من مُناجاةِ اللهِ قبْلَ الوقتِ الَّذي قدَّرَه اللهُ تعالى لِتَمامِ المَوْعِدِ؟! ورَمَى موسى عليه السَّلامُ الألواحَ، وأَخَذَ يَجُرُّ شَعْرَ أخيه هارونَ بشِدَّةٍ وغَضَبٍ، فقال له هارونُ: يا ابنَ أُمِّي، إنَّ القومَ الَّذينَ عبَدوا العِجْلَ استَضْعَفوني، وأَوْشَكوا أنْ يقتُلوني، فلا تُشْمِتْ بي الأعداءَ عَبَدَةَ العَجلِ بضَرْبي وإهانَتي، ولا تجعَلْني مع القومِ الظَّالمينَ.

قال موسى عليه السَّلام: ربِّ اغفِرْ لي ولأخي ذُنوبَنا، وأدخِلْنا في رحمتِكَ، وأنتَ أرحَمُ الرَّاحمينَ.

ثمَّ أخبَرَ تعالى أنَّ الَّذينَ اتَّخذوا العجلَ سيُصيبُهم غضَبٌ مِنَ اللهِ، وهوانٌ في الحياةِ الدُّنيا، وكذلك يَجزي سُبحانَه المفترين، والَّذينَ عمِلوا السَّيِّئاتِ، ثمَّ أنابوا

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن لمكي)) (١/ ٣٠٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٩٥- ٥٩٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٤٦٧)، ((إعراب القرآن الكريم)) للدعاس (١/ ٣٩٧).

إلى ربِّهم، ونَدِموا وأَقْلَعوا عنها، وآمَنوا، سيَغفِرُ اللهُ لهم مِنْ بَعْدِها ويرحمُهم؛ فإنَّه غَفورٌ رَحيمٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥٠﴾.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا﴾.

أي: ولَمَّا رجَعَ موسى من مُناجاةِ اللهِ إلى قومِه بني إسرائيلَ، وهو شديدُ الغضَبِ حزينًا، بعْدَ أنْ أعلَمَه اللهُ بعبادةِ قومِه العِجْلَ، عَقِبَ انصِرافِه عنهم(١).

كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى * قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ * فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ [طه: ٨٣-٨٦].

﴿قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٣).
قال الواحديُّ: (اختلَفوا في معنى الأسِفِ؛ فقيل: الأسِفُ: الشَّديدُ الغضَبُ، وهو قول أبي الدرداء، و...ابن عباس، واختيار الزجاج، واحتجُّوا بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥]، أي: أغضبونا، واختاره ابن قُتَيْبَةَ... وقال ابنُ عباس والسُّدِّيُّ والحسن: الأسِفُ: الحزينُ... والقولان مُتقارِبان؛ لأن الغضبَ من الحزن، والحزن من الغضب، فإذا جاءك ما تَكرَه ممَّن هو دونَك غضِبتَ، وإذا جاءك ممَّن هو فوقَك حزِنتَ، يُسمَّى أحدُهما: حزنًا، والآخَرُ: غضبًا، وأصْلُهما أنْ يُصيبَك ما تكرَه). ((البسيط)) (٩/ ٣٦٥- ٣٦٦). ويُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٧٨)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٥٦).

أي: بِئْسَ الحالُ والفِعْلُ الَّذي قُمْتُمُوه مَقامي بعِبادتِكم العجلَ بعْدَ انصِرافي عنكم! وقدْ كنْتُ آمُرُكم بتوحيدِ اللهِ، وأُحَذِّرُكم من الشِّرْكِ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٨-١٤٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ * وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ * وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٦- ٨].

﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾.

أي: هل استعجلتُم مَجيئي إليكم من مُناجاةِ اللهِ قبْلَ الوقتِ الَّذي قدَّرَه اللهُ تعالى لِتَمامِ هذا الموعِدِ، ولم تَنتظِروني، فعبَدْتُم العِجلَ، ولم تُحافظوا على ما وصَّيْتُكم به من عِبادةِ اللهِ حتَّى أرجِعَ إليكم بالخيرِ الَّذي أتَيْتُكم به مِن عِندِ اللهِ تعالى[2]؟!

كما قال تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٥٠)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (١/ ٥٥٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٥٧)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٣٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٧٩- ١٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤١).

رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي﴾ [طه: ٨٦].

﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ﴾.

أي: ورَمى موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ الألواحَ في الأرضِ؛ غَضَبًا على قومِه حينَ رآهم يَعبُدونَ العِجلَ(١).

عن ابنِ عبَّاسٍ رضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ليس الخَبَرُ كالمُعايَنَةِ، إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أخبرَ موسى بما صَنَعَ قومُه في العِجلِ، فَلَمْ يُلْقِ الألواحَ، فلمَّا عايَنَ ما صَنَعوا أَلْقى الألواحَ))(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٥١، ٤٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٥).

قال الرازيُّ: (ليس في القرآن إلَّا أنَّه ألقى الألواحَ، فأمَّا أنَّه ألقاها بحيثُ تَكسَّرَتْ فهذا ليس في القُرآن). ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٧٢).

وقال ابنُ عاشور: (وقَعَ في التَّوراةِ أنَّ الألواحَ تكسَّرَتْ حين ألقاها، وليس في القرآنِ ما يدُلُّ على ذلك سِوى أنَّ التعبيرَ بالإلقاء الذي هو الرَّمْيُ، وما رُوِيَ من أنَّ الألواح كانت من حَجَرٍ، يقتضي أنها اعتراها انكسارٌ، ولكنَّ ذلك الانكسارَ لا يُذهب ما احتوتْ عليه من الكتابة، وأمَّا ما رُوِيَ أنها لمَّا تكسَّرت ذهب سِتَّةُ أسباعِها، أو ذهب تفصيلُها وبَقِيَتْ موعظتُها، فهو مِن وَضْعِ القصَّاصين، والله تعالى يقول: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤]). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٥-١١٦).

وقال الشنقيطيُّ: (وكثيرٌ من المفسِّرين يقولون: إنَّه ألقاها إلقاءً قويًّا حتى تكسَّرت، وأنه رُفِعَ شيءٌ منها مع المكسَّرِ منها. وكلُّ هذا لا دليلَ عليه، ولم يَقُمْ عليه دليلٌ صحيحٌ لا في كتاب ولا من سُنَّةٍ، وظاهرُ القرآنِ أنَّها لم تتكسَّرْ، ولم يَضِعْ منها شيء؛ لأنه قال: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ﴾ [الأعراف: آية ١٥٤]، و(أل) هنا عَهْدِيَّةٌ، وهي الألواح المعهودةُ التي ألقاها). ((العذب النمير)) (٤/ ١٨١- ١٨٢).

(٢) أخرجه أحمد (٢٤٤٧)، وعبد الله بن أحمد في ((السنة)) (١١١٤)، وابن حبان في ((الصحيح)) (٦٢١٣).

قال ابنُ حجر في ((موافقة الخبر الخبر)) (٢/ ١٣٩): له شاهدٌ. وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر =

﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾.

أي: وأَمْسَكَ موسى بشَعْرِ رأسِ أخيه هارونَ، وجعَلَ يَسحَبُه بشِدَّةٍ؛ غَضَبًا عليه(١).

كما قال تعالى: ﴿قَالَ يَاهَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ [طه: ٩٢-٩٣].

﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي﴾.

أي: قال هارونُ مُستعطِفًا موسى عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ: يا ابنَ أُمِّي، إنَّ الَّذينَ عبَدوا العِجلَ اعتقدوا أنِّي ضَعيفٌ واحتقَروني؛ فَلَمْ يُطيعوني عندما نَهَيْتُهم عن عِبادتِه(٢).

كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي * قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ [طه: ٩٠-٩١].

﴿وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي﴾.

= في ((مسند أحمد)) (٤/ ١٤٧). وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح الجامع)) (٥٣٧٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٥).

قيل: غضِبَ موسى من هارونَ؛ لتَرْكِه اللَّحاقَ به إلى الطُّور، وإقامتِه مع بني إسرائيلَ بعد عبادتِهم العِجلَ. وهذا قول ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٥٧).

وقيل: خَشْيَةَ أن يكونَ قد قَصَّرَ في نَهْيِهم. وهذا قولُ ابنِ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٧).

وقيل: هذا تأنيبٌ لهارونَ على عدمِ أخْذِه بالشِّدَّةِ على عَبَدَةِ العِجلِ، واقتصارِه على تغييرِ ذلك عليهم بالقول. وهو قولُ ابنِ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٤).

أي: وقال هارونُ لأخيه موسى عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ مُبيِّنًا عُذْرًا آخَرَ: وقد أَوْشَكَ بنو إسرائيلَ على قَتْلي حين نَهَيْتُهم عن عبادةِ العِجلِ؛ فلا تَظُنَّ بي تقصيرًا[1].

﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ﴾.

أي: قال هارونُ لموسى ناهيًا له عن استمرارِه في أَخْذِه بشَعْرِه: فلا تَسُرَّ أعدائي عَبَدَةَ العِجلِ بضَرْبي وإهانَتي[2].

كما قال تعالى: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه: ٩٤].

﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

أي: ولا تَجعلْني في غضَبِكَ عليَّ، وعُقوبتِكَ لي، مع الَّذينَ عبَدوا العِجلَ، وفي عِدادِهم، والحالُ أنَّني لم أَعْصِ أمْرَكَ كما فعلوا[3].

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا اعْتَذَرَ هارون إلى موسى عليهما السلام، وتَحَقَّقَ مُوسَى عليه السَّلامُ براءةَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٤).

قال الشوكاني: (أي: إني لم أُطِقْ تغييرَ ما فَعَلوه؛ لهذينِ الأمرينِ: استضعافِهم لي، ومقاربتِهم لقتْلي). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٨٣). ويُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٧- ١١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦١)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٨).

ساحَتِه، وتبيَّنَ له عُذْرُه، وعَلِمَ أنَّه لم يُفرِّطْ في الواجبِ الَّذي كان عليه- دعا[(١)]، فقال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي﴾؛ لِيُرْضيَ أخاه، ويُظهِرَ لأهلِ الشَّماتَةِ رِضاه عنه؛ فلا يَتِمَّ لهم شَماتتُهم، واستغفَرَ لنفسِه ممَّا فَرَطَ منه إلى أخيه، ولِأخيه أنْ عسَى فَرَّطَ في حِين الخِلافةِ، وطَلَبَ ألَّا يتفرَّقا عن رحمتِه، ولا تَزالَ مُتضمِّنَةً لهما في الدُّنيا والآخرةِ[(٢)].

﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي ﴾.

أي: قال موسى داعيًا ربَّه: ربِّ اغفِرْ لي ذَنْبي فيما فعلْتُ بأخِي، وبَدَرَ منِّي من غضَبٍ وحِدَّةٍ عليه، واغفِرْ لأخِي هارونَ[(٣)].

﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾.

أي: وارحمْنا برَحمتِكَ الواسِعةِ، واجعَلْها مُحيطَةً بنا من كُلِّ جانِبٍ، وأنتَ أرحَمُ بعبادِكَ من كلِّ راحِمٍ[(٤)].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦٢)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٨).

قال ابنُ عطية: (استغفَرَ موسى من فِعْلِه مع أخيه، ومن عَجَلَتِه في إلقاءِ الألواحِ، واستغفَرَ لأخيه من فِعْلِه في الصَّبرِ لبني إسرائيلَ، ويُمكِنُ بأنَّ الاستغفارَ كان لغيرِ هذا ممَّا لا نعلمُه، والله أعلم). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٥٨).

وذهب الرازيُّ، وابنُ عاشور إلى أنَّ طلب موسى المغفرةَ لأخيه كان لِمَا عسى أن يكونَ قد ظهَر من هارونَ مِن تَفريطٍ أو تساهُلٍ في ردْعِ عَبَدَةِ العِجلِ عن ذلك. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٨).

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ ﴾.

أي: إنَّ الَّذينَ اتَّخذوا العِجلَ إلهًا سيُصيبُهم غضَبٌ من اللهِ(١)، فلم يقبلِ اللهُ تعالى لهم توبةً، حتى قتلَ بعضُهم بعضًا(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤].

وقيل: غَضَبُ اللهِ هو عذابُه في الآخرةِ لِمَنْ لم يَتُبْ منهم من عِبادةِ العِجلِ(٣).

﴿وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾.

أي: وسَيَنالُ الَّذينَ عبَدوا العِجلَ هوانٌ في حَياتِهم الدُّنيا، فيَصيرونَ مَغلوبينَ؛ عقوبةً من اللهِ لهم بسببِ كُفرِهم(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦٢)، ((شمس العلوم)) لنشوان الحميري (١٠/ ٦٨١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٩).

(٢) ممَّن اختارَ هذا المعنى: ابنُ جرير، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦٢- ٤٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٧).

قال الشوكاني: (والأَوْلَى أنْ يُقيِّدَ الغضَبُ والذِّلَّةُ بالدُّنيا؛ لقوله: ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، وإنَّ ذلك مُخْتَصٌّ بالمُتَّخِذين للعِجلِ إلهًا لا لِمَنْ بعدَهم من ذَرَارِيِّهِمْ، ومُجرَّدُ ما أُمِروا به مِن قتْلِ أنفسِهم هو غضَبٌ من الله عليهم، وبه يَصيرون أذِلَّاءَ، وكذلك خروجُهم من دِيارهم هو مِن غضَبِ الله عليهم، وبه يصيرون أذِلَّاءَ). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٨٤- ٢٨٥).

(٣) ممَّن اختار هذا المعنى: الواحدي، والبغوي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤١٣)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦٢- ٤٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٨٤).

قال ابنُ عاشور: (الذِّلَّةُ: خضوعٌ في النَّفسِ، واستِكانةٌ مِن جرَّاءِ العَجْزِ عن الدَّفعِ، فمعنى نَيْلِ الذِّلَّة إيَّاهم: أنَّهم يَصيرون مغلوبين لِمَنْ يغلِبُهم؛ فقد يكون ذلك بتسليط العدُوِّ عليهم، أو بسَلْبِ الشجاعةِ من نُفوسِهم، بحيث يكونون خائفين العدُوَّ، ولو لم يُسَلَّطْ عليهم، أو ذِلَّةُ الاغترابِ؛ =

﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾.

أي: وكما جَزَيْتُ أولئك الَّذينَ عبَدوا العِجلَ بالغَضَبِ والذِّلَّةِ، نَجزي كُلَّ مَنْ كَذَبَ على اللهِ؛ فعبَدَ غيرَه، وشَرَعَ ما لم يأذَنْ به سُبحانَه[1].

﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تعالى المُصِرِّينَ على المعصيةِ؛ عَطَفَ عليه التَّائبينَ؛ تَرغيبًا في

= إذْ حَرَمَهم اللهُ مُلْكَ الأرضِ المقدَّسةِ؛ فكانوا بلا وَطَنٍ طول حياتِهم حتَّى انقرَضَ ذلك الجيلُ كلُّه، وهذه الذِّلَّةُ عقوبةٌ دُنيويَّةٌ قد لا تمحوها التوبةُ، فإن التوبةَ إنما تقتضي العفوَ عن عقابِ التكليفِ، ولا تَقتضي تَرْكَ المؤاخَذةِ بمصائبِ الدُّنيا؛ لأنَّ العقوباتِ الدُّنيويَّةَ مُسَبَّباتٌ تنشأُ عن أسبابِها، فلا يَلْزَمُ أن ترفَعَها التوبةُ إلا بعنايةٍ إلهيَّةٍ خاصَّةٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٩).

وقال الشِّنقيطيُّ: (قال جماعةٌ من العلماء: هذه الآيةُ من سورة الأعرافِ في طائفةٍ من بني إسرائيلَ أُشْرِبَتْ قلوبُهم حُبَّ العِجلِ، ولم يتوبوا فيمَن تاب، بل بَقُوا غيرَ تائبين، وَعَدَهم اللهُ هذا الوعيدَ، وهدَّدَهم هذا التَّهديدَ، وهذا هو الأظْهَرُ؛ لأنَّ المعروفَ أنَّ أكثرَ الإسرائيليِّين تاب من عبادةِ العِجلِ تلك التوبةَ العظيمةَ، حيث قدَّموا أنفُسَهم للقتل تائبين إلى الله، الواحدُ منهم يَجُودُ بنفسِه فيُقتَلُ مرضاةً للهِ، وإنابةً إليه). ((العذب النمير)) (٤/ ١٨٤).

وذهَب بعضُ المفسِّرين إلى أن المرادَ بالذِّلَّة هاهنا: الجزيةُ، وهذا اختيارُ الواحديِّ. يُنظر: ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٤١٣).

قال ابنُ عطية: (وقال بعض المفسِّرين: الذِّلَّةُ: الجِزْيَةُ، ووَجْهُ هذا القولِ أن الغضَبَ والذِّلَّةَ بَقِيَتْ في عَقِبِ هؤلاء المقصودين بها أوَّلًا، وكأنَّ المرادَ سيَنالُ أعقابَهم). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٥٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦٣- ٤٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٨).

وممن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلف أبو قلابةَ، وسفيانُ بنُ عيينةَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦٤)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٥٧).

مِثْلِ حالِهم، فقال تعالى[1]:

﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٥٣﴾ ﴾.

أي: والَّذينَ عمِلوا الأعمالَ السَّيِّئةَ من الشِّرْكِ والكُفْرِ والمعاصي، ثمَّ نَدِموا وأَقْلَعوا عن ذلك، وعَزَموا على ألَّا يعودوا إليه، وآمَنوا بما أَوْجَبَ اللهُ تعالى الإيمانَ به، إنَّ ربَّكَ- يا مُحَمَّدُ- مِن بعْدِ ارتكابِهم للسَّيِّئاتِ[2] لَساتِرٌ عليهم أعمالَهم السَّيِّئةَ، ومُتَجاوِزٌ عن مؤاخَذتِهم بها، ورَحيمٌ بهم بقَبولِ توبتِهم، وتوفيقِهم للأعمالِ الصَّالحةِ[3].

كما قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٩].

وقال تبارَك وتعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٩٢).

(٢) وهذا المعنى- وهو عَوْدُ الضَّميرِ في قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِهَا﴾ على السَّيِّئاتِ وفِعْلِها- هو اختيارُ ابنِ جرير، والقرطبيِّ، وابنِ كثيرٍ، وابن عاشورٍ، والشنقيطيِّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٢٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٨٥).

وقيل: الضَّميرُ عائدٌ على التَّوبةِ من السَّيِّئاتِ. وهذا اختيارُ الواحديِّ، والسعدي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦٥- ٤٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٢١).

وقال الشنقيطيُّ: (﴿لَغَفُورٌ﴾، أي: كثيرُ المغفرةِ والرَّحمةِ لعبادِه). ((العذب النمير)) (٤/ ١٨٥).

وعن أَنَسِ بنِ مالكٍ رضِيَ اللهُ عنه، قال: سمِعْتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقول: ((قال اللهُ تبارَكَ وتعالى: يا ابنَ آدمَ، إنَّكَ ما دَعَوْتَني ورَجَوْتَني غَفَرْتُ لك على ما كان فيك ولا أُبالي، يا ابنَ آدمَ، لو بَلَغَتْ ذُنوبُكَ عَنانَ[1] السَّماءِ ثمَّ اسْتَغْفَرْتَني غَفَرْتُ لك ولا أُبالي، يا ابنَ آدمَ، إنَّكَ لو أَتَيْتَني بقُرابِ الأرضِ[2] خَطايا ثمَّ لَقِيتَني لا تُشْرِكُ بي شيئًا لأَتَيْتُكَ بقُرابِها مَغْفِرَةً))[3].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ السَّيِّئاتِ بِأَسْرِها- صغيرِها وكبيرِها- مشتركةٌ في التَّوبةِ، وأنَّ اللهَ تعالى يَغفِرُها جميعًا بفَضْلِه ورحمتِه، وهذا مِن أعظَمِ ما يُفيدُ البِشارةَ والفَرَحَ للمُذنِبينَ التَّائبينَ[4].

٢- الإيمانُ هو الأساسُ الَّذي لا يُقْبَلُ عمَلٌ لم يُبْنَ عليه، يُبيِّنُ ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[5].

---

(١) العَنانُ (بفتح العين): السَّحابُ، والواحِدةُ (عَنانةٌ). ينظر: ((غريب الحديث)) للقاسم بن سلام (٤/ ٨٤)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢٢٠).

(٢) بقُراب الأرضِ: أي: بما يُقارِبُ مِلأَها. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ٣٤) ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٤٩٦).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٥٤٠)، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٤٣٠٥)، وابن شاهين في ((الترغيب في فضائل الأعمال)) (١٧٩).
صحَّحه ابنُ القيِّم في ((مدارج السالكين)) (٢/ ٢٢٥). وقال ابنُ رجب في ((جامع العلوم)) (٢/ ٤٠٠): إسنادُه لا بأسَ به، وحسَّنه الألباني في ((السلسلة الصحيحة)) (١٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٢٠).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٩٢).

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ فيه مِن اللَّطائفِ: أنَّه عبر هنا بالعجلةِ، ولم يُعبِّر بالسرعةِ؛ لأنَّه أنسبُ لفِعلِهم؛ فالعَجلةُ: التقدُّمُ بالشيءِ قبلَ وقْتِه، والسُّرعةُ: عملُه في أقلِّ أوقاتِه[1].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾، موسى صلواتُ اللهِ عليه لم يكُنْ ليُلْقيَ ألواحًا كتبَها اللهُ تعالى، فيها كلامُه مِن على رأسِه إلى الأرضِ اختيارًا منه لذلك، ولا كان فيه مَصلحةٌ لبني إسرائيلَ، وكذلك جَرُّهُ هارونَ بلحيتِه ورأسِه وهو أخوه، وإنَّما حَمَلَه على ذلك الغَضَبُ؛ فعَذَرَه اللهُ سُبحانَه به، ولم يَعتِبْ عليه بما فَعَلَ؛ إذ كان مصدرُه الغضَبَ الخارجَ عن قُدْرةِ العبْدِ واختيارِه؛ فالمُتَوَلِّدُ عنه غيرُ منسوبٍ إلى اختيارِه ورِضاه به[2].

٣- كلُّ مُفترٍ على اللهِ، كاذبٍ على شَرْعِه، مُتَقَوِّلٍ عليه ما لم يَقُلْ؛ له نَصيبٌ من الغَضَبِ من اللهِ، والذُّلِّ في الحياةِ الدُّنيا، يُبيِّنُ ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾[3].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾، جَمَعَ ﴿السَّيِّئَاتِ﴾؛ إعلامًا بأنَّه لا يَتَعاظَمُه ذَنْبٌ، وإنْ عَظُمَ وكَثُرَ[4].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي﴾

(١) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٢/ ٢٦٣).
(٢) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (ص: ٣٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٠٣).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٩٢).

- قوله: ﴿أَسِفًا﴾ بدون مدٍّ صِيغةُ مبالغةٍ للآسِفِ (بالمدِّ)، الذي هو اسمُ فاعلٍ للذي حلَّ به الأسفُ[١].

- وزِيادةُ ﴿مِنْ بَعْدِي﴾ عَقِب ﴿خَلَفْتُمُونِي﴾؛ للتذكيرِ بالبَون الشاسعِ بينَ حال الخَلَف وحال المخلوفِ عنه، تصويرًا لفظاعةِ ما خَلَفوه[٢].

٢- قوله: ﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾

- قوله: ﴿ابْنَ أُمَّ﴾ مُنادًى بحذْفِ حرْف النِّداء، والنداء بهذا الوصفِ للتَّرقيقِ والاستشفاعِ، ولم يقُلْ: يا ابنَ أَبي، وهما لأبٍ واحدٍ وأُمٍّ واحدةٍ؛ استِعطافًا له على نفسِه بِرَحِمِ الأُمِّ، وحُذِفَ حرفُ النِّداءِ؛ لإظهارِ ما صاحَبَ هارونَ مِن الرُّعبِ والاضطرابِ، أو لأنَّ كلامَه هذا وقَع بعدَ كلامٍ سبَقَه فيه حرفُ النِّداء[٣].

- وقوله: ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي﴾ فيه تأكيدُ الخبرِ بـ(إنَّ)؛ لتحقيقِه لدَى موسى، لأنَّه بحيثُ يُتردَّدُ فيه قَبْلَ إخبارِ المُخبِر به، والتأكيدُ يَستدعيه قَبولُ الخَبرِ للتردُّدِ مِن قِبَلِ إخبارِ المخبِر به، وإنْ كان المخبِرُ لا يُظَنُّ به الكذبُ، أو لئلَّا يُظنَّ به أنَّه توهَّم ذلك مِن حالِ قومِه، وكانتْ حالُهم دونَ ذلك[٤].

٣- قوله: ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ تذييلٌ، والواو للحالِ أو اعتراضيَّة، وفيه مُبالَغةٌ؛ فإنَّ ﴿أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ هو الأشدُّ رحمةً مِن كلِّ راحمٍ[٥].

٤- قوله: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٦)
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٧).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١١٨).

- قوله: ﴿مِنْ بَعْدِهَا﴾ تأكيدٌ لمفادِ المُهلة التي أفادَها حرف ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ تَابُوا﴾، وهذا تعريضٌ للمشرِكينِ بأنَّهم إنْ آمَنوا يُغْفَرْ لهم، ولو طالَ أَمَدُ الشِّرْكِ عليهم(١).

- وفي قولِه: ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا﴾ عُطِفَ الإيمانُ على التوبةِ- مع أنَّ التوبةَ تَشملُه مِن حيثُ إنَّ الإيمانَ توبةٌ مِن الكُفر-؛ إمَّا للاهتمامِ به؛ لأنَّه أصلُ الاعتدادِ بالأعمالِ الصالحةِ عند الله تعالى، ولِئَلَّا يُظَنَّ أنَّ الإشراكَ لخُطورتِه لا تُنْجي منه التَّوبةُ، وإمَّا أنْ يُرادَ بالإيمانِ إيمانٌ خاصٌّ، وهو الإيمانُ بإخلاصٍ، فيَشمَلُ عمَلَ الواجباتِ(٢).

- وقولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ فيه تعريفُ المسنَدِ إليه (رب) بالإضافةِ؛ للتوسُّلِ إلى تَشريفِ المضافِ إليه بأنَّه مربوبٌ للهِ تعالى، وفي ذِكر وصْفِ الرُّبوبية هنا تمهيدٌ لوصْفِ الرَّحمةِ، وتأكيدُ الخبر بـ(إنَّ) ولامِ التوكيدِ وصِيغَتي المبالغةِ في ﴿لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؛ لمزيدِ الاهتمامِ به؛ وترغيبًا للعُصاةِ في التوبةِ، وطردًا للقُنوطِ من نفوسِهم، وإنْ عظُمتْ ذُنوبُهم(٣).

- وضميرُ: ﴿مِنْ بَعْدِهَا﴾ الثاني في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ مُبالغةٌ في الامتنانِ بقَبولِ تَوبتِهم بعدَ التملِّي من السيِّئاتِ، وحُذِفَ مُتعلَّقُ (غَفُور رَحِيم)؛ لظهورِه من السِّياقِ، والتقديرُ: لغفورٌ رحيمٌ لهم، أو لكلِّ مَن عَمِلَ سيِّئةً وتابَ منها(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٢١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٥٤-١٥٧)

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤) وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ (١٥٥) ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ
(١٥٦) ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (١٥٧) ﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾: أي: سَكَنَ، وأَصْلُ (سكت): يَدُلُّ على خِلافِ الكَلامِ(١).

﴿نُسْخَتِهَا﴾: أي: المنسوخِ فيها، وهو المكتوبُ فيها مِن التوراةِ مِن كلامِ ربِّ العالمينَ، والنَّسْخُ: نَقْلُ ما في كتابٍ إلى كتابٍ آخَرَ، وأَصْلُ (نسخ): تحويلُ شيءٍ إلى شيءٍ(٢).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢٤)، =

﴿يَرْهَبُونَ﴾: يَخافونَ، وأَصْلُ الرَّهْبَةِ والرَّهَبِ: مَخافةٌ مع تَحَرُّزٍ واضْطِرابٍ(١).

﴿السُّفَهَاءُ﴾: جمْعُ سَفيهٍ، وهو الجاهلُ، والسَّفَهُ: الجَهْلُ، وخِفَّةُ العقلِ، والضَّعْفُ والحُمْقُ(٢).

﴿هُدْنَا﴾: أي: تُبْنا، والهَودُ: الرُّجوعُ برفق، وأَصْلُ (هود): يَدُلُّ على إرواد (رفق) وسُكونٍ(٣).

﴿الْأُمِّيَّ﴾: أي: الذي لا يكتبُ ولا يقرأُ مِن كتابٍ، قيل: هو منسوبٌ إلى الأُمَّةِ الَّذينَ لم يَكتُبوا؛ لِكَوْنِه على عادتِهم؛ مثل عامِّيٍّ؛ لكونِه على عادةِ العامَّةِ، وقيل: سُمِّيَ بذلك لِنِسْبَتِه إلى أمِّ القُرَى، وقيل: نسبةٌ إلى الأُمِّ، والمعنَى أنَّه باقٍ على حالتِه التي وُلِد عليها لا يكتبُ ولا يقرأُ المكتوبَ، وأَصْلُ (أمم): الأَصْلُ والمَرجِعُ(٤).

﴿الطَّيِّبَاتِ﴾: الحلال، أو ما اسْتَطابَتْه العرَبُ ممَّا لم يُحَرَّمْ، وأَصْلُ الطَّيِّبِ: ما تَستلِذُّه الحواسُّ، وما تَستلِذُّه النَّفسُ، وأَصْلُ (طيب): يَدُلُّ على خِلافِ الْخَبيثِ(٥).

= ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٩)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٩٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٩٠).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٤٧)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٣٦٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٢٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (١/ ٥١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٨٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٨٨).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٩، ١١٩).

﴿الْخَبَائِثَ﴾: أي: الحرام، أو: ما لا يُوافِقُ النَّفسَ من المحظوراتِ، والخُبْثُ والخَبيثُ: ما يُكْرَهُ رَداءَةً وخَساسَةً، محسوسًا كان أو معقولًا، وأصْلُه الرَّديءُ الجارِي مَجْرى خَبَثِ الحديدِ، وكذلك يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ الطَّيِّبِ [(١)].

﴿إِصْرَهُمْ﴾: أَي: مَا عُقِدَ مِن عَقْدٍ ثقيلٍ عليهم؛ مِثلُ: قتْلِ أنفُسِهم وما أشْبَهَ ذلك، وأصلُ (أصر): يدُلُّ على العَهْدِ، أو عَقْدِ الشَّيءِ، وحَبْسِه بقَهْرٍ [(٢)].

﴿وَالْأَغْلَالَ﴾: أي: والشَّدائِدَ، أو الفرائِضَ المانِعَةَ لهم مِنْ أشياءَ رُخِّصَ فيها لِأُمَّةِ مُحَمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، والغُلُّ مُخْتَصٌّ بما يُقيَّدُ به فَيُجْعَلُ الأعضاءُ وَسَطَه، وغُلَّ فلانٌ: قُيِّدَ به، وأَصْلُ (غلل): يَدُلُّ عَلَى تَخَلُّلِ شَيْءٍ، وثَباتِ شيءٍ [(٣)].

﴿وَعَزَّرُوهُ﴾: أي: وعَظَّموه ونصَروه، أو أعانوه، والتَّعزيرُ: التَّعظيمُ، أو النُّصرةُ مع التَّعظيمِ [(٤)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قولُه تعالى: ﴿لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤١، ١٧٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣١١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦١).

اللَّامُ في قولِه: ﴿لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ فيها أوجُهٌ؛ أحدُها: أنَّها زائدةٌ للتَّقويةِ[(١)] - لأنَّ المعمولَ (ربهم) لَمَّا قُدِّمَ على عامِلِه ﴿يَرْهَبُونَ﴾ ضعُفَت تعديتُه إليه، فجِيءَ باللَّام لتقويةِ التَّعديةِ -، وعلى هذا فـ(ربهم) مجرورٌ لفظًا، منصوبٌ محلًّا، مفعولٌ به مقدَّمٌ لـ﴿يَرْهَبُونَ﴾. وقيل: إنَّ اللَّامَ في ﴿لِرَبِّهِمْ﴾ لامٌ أصليَّةٌ للعلَّةِ، ومَفعولُ ﴿يَرْهَبُونَ﴾ على هذا محذوفٌ؛ أي: يرهبونَ عِقابَه لأجلِه. وقيلَ غيرُ ذلك[(٢)].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾

﴿قَوْمَهُ﴾: منصوبٌ على نَزْعِ الخافِضِ، وهو في رُتبةِ المَفعولِ الثَّاني - لأنَّ أصلَ الفِعلِ (اختارَ) أنَّه يتعدَّى إلى مَفعولِه الثَّاني بـ(مِن)، فحُذِفَت (مِن)، فتعدَّى الفعلُ إليه بنفسِه فنُصِبَ - والتقديرُ: واختارَ موسَى سبعينَ رجلًا مِن قَوْمِه، و﴿سَبْعِينَ﴾ مَفعولٌ به منصوبٌ بالياءِ، و﴿رَجُلًا﴾ تمييزٌ منصوبٌ لـ﴿سَبْعِينَ﴾[(٣)].

---

(١) لامُ التَّقويةِ: هي التي تجيءُ لِتقويةِ عاملٍ ضَعيفٍ؛ إما بسبَبِ تأخُّره عن معمولِه، نحو: قوله تعالى هُنا: ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾، وإمَّا بسبَبِ أنَّه فرعٌ مأخوذٌ مِن غيرِه - كالفُروعِ المشتقَّةِ - مثل قوله تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾، وقوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾؛ فأصلُ الكلامِ في الآيتَينِ الأُولَيَينِ: إن كنتُم تعبرونَ الرُّؤيا، يَرهبونَ ربَّهم، فلمَّا تقدَّم كلٌّ من المفعولينِ على فِعلِه، ضَعُفَ الفعلُ بسبَبِ تأخيرِه عن معمولِه «مَفعولِه»، فجاءت اللَّامُ لِتَقويتِه، وأصلُ الكلامِ في الآيتينِ الأخيرتينِ: فعَّالٌ ما يريدُ، مُصدِّقًا ما مَعهم، فكلمة: «فعَّالٌ» صيغةُ مبالغةٍ متعدِّيةٌ، تعمَلُ عمَلَ فِعلِها، ولكنَّها أضعَفُ منه، وكذلك كلمةُ: «مصدِّقًا» وهي اسمُ فاعلٍ. فجاءت اللَّامُ لتَقويتِهما. يُنظر: ((مغني اللبيب)) لابن هشام (ص: ٢٨٦-٢٨٧)، ((النحو الوافي)) لعباس حسن (٢/ ١٨٤) و(٢/ ٤٧٥).

(٢) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٩٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٤٧٢- ٤٧٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٩٠-١٩١)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٩/ ٨٨).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣٠٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٩٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٤٧٣-٤٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٢٣).

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه لَمَّا سكَنَ غضَبُ موسى عليه السَّلامُ أخَذَ الألواحَ الَّتي كان ألْقاها، وفي نُسْخَتِها هِدايةٌ من الضَّلالةِ، ورحمةٌ من العذابِ للَّذينَ هُمْ يخافون ربَّهم ويخشَوْنَه.

واختارَ موسى من قومِه سَبعينَ رجُلًا لِميقاتٍ وَقَّتَهُ اللهُ لهم، فلَمَّا أَخَذَتْ هؤلاءِ السَّبعينَ الزَّلزَلةُ الشَّديدةُ، قال موسى لربِّه: يا ربِّ، لو شِئْتَ لأَهْلَكْتَهم مِن قَبْلُ، وأَهْلَكْتَني معهم، أتُهْلِكُنا بِما فَعَلَه السُّفهاءُ منَّا بعبادتِهم العِجلَ؟! وما عبادةُ هؤلاءِ السُّفهاءِ للعِجلِ إلَّا ابتلاءٌ منك لهم؛ تُضِلُّ بِه مَنْ تشاء، وتَهدي مَنْ تشاء، أنتَ ناصِرُنا ومُتَوَلِّي أُمورِنا، فاغفِرْ لنا، وارحَمْنا، وأنتَ خيرُ مَنْ غفَرَ، واكتُبْ لنا في الحياةِ الدُّنيا حالةً حسنةً، وفي الآخرةِ، إنَّا تُبْنا إليك.

قال تعالى مُجيبًا موسى عليه السَّلام: عَذابي في الدُّنيا أُصيبُ به مَنْ أشاء، ورَحمتي في الدُّنيا وَسِعَتْ كُلَّ خَلْقي، فسأكتُبُها للَّذينَ يتَّقونَ، ويُعْطونَ الزَّكاةَ المفروضةَ عليهم، والَّذينَ يُؤمنون بآياتي، الَّذينَ يتَّبِعون مُحَمَّدًا الرَّسولَ النَّبيَّ، الَّذي لا يَقرأ ولا يَكتُبُ، الَّذي يَجِدونَه مذكورًا عِندهم في التَّوراةِ والإنجيلِ بصِفاتِه الواضحةِ، يأمُرُهم بالمعروفِ، ويَنْهاهم عَنِ المنكَرِ، ويُحِلُّ لهم الطَّيِّباتِ، ويُحَرِّمُ عليهم الخبائِثَ، ويُذهِبُ عنهم التَّكاليفَ الشَّاقَّةَ الَّتي كانت عليهم، فالَّذينَ آمَنوا به وعظَّموه ونصَروه، واتَّبَعوا القرآنَ الَّذي أنزَلَه اللهُ إليه، فأولئك هُمُ المفلِحونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤) ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى ما كان من موسى عليه السَّلامُ مع الغَضَبِ، بَيَّنَ في هذه الآيةِ ما كان مِنه عِنْدَ سُكوتِ الغضَبِ[(1)]، فقال:

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ ﴾.

أي: ولَمَّا سَكَنَ عن موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ غَضَبُه[(2)].

﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ﴾.

أي: أخَذَ موسى الألواحَ الَّتي أَلْقاها[(3)].

﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾.

أي: وفي المَكْتوبِ في الألواحِ وما نُقِلَ منها هُدًى من الضَّلالةِ، ورحمةٌ من العَذابِ[(4)].

﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾.

أي: فيها هُدًى ورحمةٌ للَّذينَ يخافون اللهَ سُبحانَه وتعالى ويخشَوْنَه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٨٩).

قال الشنقيطيُّ: (وذلك باعتذارِ أخيه حتَّى عرَف صِدقَ عُذرِه، وبتوبةِ الذين عبَدوا العِجلَ حتى قدَّموا أنفسَهم للموتِ طائعين؛ مَرضاةً لربِّهم). ((العذب النمير)) (٤/ ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦٧)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٩٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٢٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٩٠).

ويخضَعون له؛ فيعمَلون بما فيها[1].

﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ (١٥٥) ﴾.

﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ﴾.

أي: واختارَ مُوسى من قَومِه سَبعينَ رجُلًا لوقتٍ وقَّته اللهُ لهم؛ ليَحضُروا فيه إلى مكانٍ مُعيَّنٍ[2].

﴿ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾.

أي: فلمَّا أصابَتِ الزَّلزلةُ الشَّديدةُ السَّبعينَ الَّذينَ مع مُوسَى، فصَعِقوا أو ماتوا[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٩١- ١٩٥).

ذهَب ابن جرير، والسعدي إلى أنَّ سَببَ اختيارِهم لهذا الميقاتِ هو التوبةُ من فِعل سُفهائِهم الذين عبَدوا العِجلَ، والاعتذارُ لقومِهم عند ربِّهم سُبحانَه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٤).

قال ابنُ الجوزي: (في هذا الميقاتِ أربعةُ أقوالٍ؛ أحدُها: أنَّه الميقاتُ الذي وقَّته اللهُ لموسى؛ ليأخذَ التوراةَ، أُمِرَ أن يأتيَ معه بسَبعين... والثاني: أنَّه ميقاتٌ وقَّته الله تعالى لموسى، وأمَرَه أن يختارَ من قومه سبعين رجلًا؛ ليدعوا ربَّهم... والثالث: أنَّه ميقاتٌ وقَّته الله لموسى؛ لأنَّ بني إسرائيلَ قالوا له: إنَّ طائفةً تزعُم أن اللهَ لا يُكلِّمك، فخُذْ معك طائفةً منَّا؛ ليسمَعوا كلامَه، فيؤمنوا، فتَذهبَ التُّهمةُ... والرابع: أنَّه ميقاتٌ وقَّته الله لموسى ليلقاه في ناسٍ من بني إسرائيلَ، فيعتذِرَ إليه من فِعلِ عبَدَةِ العِجلِ). ((زاد المسير)) (٢/ ١٥٨).

وقال الشنقيطيُّ: (أقوالٌ كثيرةٌ من هذا النَّمَطِ لا دليلَ عليها... وعلى كلِّ حالٍ، فهُمْ سبعون رجُلًا من خِيَارِ الإسرائيليِّين، [اختارَهم] موسى لميقاتٍ وقَّته اللهُ له). ((العذب النمير)) (٤/ ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٧٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٩٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٨٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٩٤). =

﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰيَ﴾.

أي: قال موسى مُتَضَرِّعًا لربِّه: يا ربِّ، لو شِئْتَ إهلاكَ هؤلاءِ السَّبعينَ لأهْلَكْتَهم مِن قَبْلِ هذا الوقتِ، وأمَتَّني معهم، وذلك على مَرْأى من قَومِنا؛ حتَّى لا يتَّهموني؛ فماذا أقولُ لبَني إسرائيلَ إذا لَقيتُهم وقد أَهْلَكْتَ خِيارَهم؟! فإنَّ إهلاكَهم في هذا الوقتِ أَدْعى لاتِّهامِهم لي وإيذائي[1].

﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾.

أي: سَأَلَ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ربَّه سؤالَ استِعلامٍ مع تذلُّلٍ واستعطافٍ[2]: أتُصيبُنا بالهلاكِ بسببِ ما فعَلَه ضُعفاءُ العُقولِ منَّا بعِبادتِهم العِجلَ[3]؟!

= قال ابنُ الجوزي: (فأمَّا الرَّجفةُ فهي الحركةُ الشَّديدةُ، وفي سببِ أخذِها إيَّاهم أربعةُ أقوالٍ؛ أحدُها: أنه ادِّعاؤهم على موسى قتْلَ هارونَ... والثاني: اعتداؤهم في الدُّعاءِ... والثالث: أنهم لم يَنهَوْا عَبَدَةَ العِجلِ ولم يَرضَوا... والرابع: أنهم طلبوا سماعَ الكلامِ من اللهِ تعالى، فلمَّا سمِعوه قالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]). ((زاد المسير)) (٢/ ١٥٨-١٥٩).

وقال الشنقيطيُّ بعْدَ حكايتِه عِدَّةَ أقوالٍ: (هذه أقوالُ المفسِّرين، وفيها غيرُ هذا، ولا شيءَ يقوم عليه الدَّليلُ القاطعُ منها، واللهُ تعالى أعلمُ). ((العذب النمير)) (٤/ ١٩٤).

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٩٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٨٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٩٥).

(٢) قال السعديُّ: (اعتَذر بأنَّ المتجرِّئين على الله ليس لهم عُقولٌ كاملةٌ تَردَعُهم عمَّا قالوا وفَعلوا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٧٦-٤٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٢٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٩٥-١٩٦).

واختارَ أن المرادَ بالسُّفهاءِ هنا هم عبَدَةُ العِجلِ: ابنُ جرير، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٢٦).

وقال الشنقيطيُّ: (المرادُ بهم هنا: الذين فعلوا الموجِبَ الذي أخذَتْهم الرَّجفةُ بسببِه، سواء قلنا: إنه قولُهم: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣]، ولا سَفَهَ أكبرُ من ذلك، أو عبادتُهم العِجلَ، أو عدمُ نَهْيِهم مَنْ عبَدَ العجلَ، إلى غير ذلك). ((العذب النمير)) (٤/ ١٩٥).

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾.

أي: قال موسى مُعْتَذِرًا لربِّه: ما عبادةُ قَومِي للعِجلِ إلَّا ابتِلاءٌ واختِبارٌ منك لهم، قدَّرْتَه عليهم؛ لِيَتَبيَّنَ الضَّالُّ منهم مِن المُهتدي(١).

كما قال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٥].

﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ﴾.

أي: قال موسى: تُضِلُّ بسَبَبِ هذه الفتنةِ مَنْ تشاءُ مِن عبادِك ممَّن خالَفَ الرُّسلَ، وتَهدي بها مَنْ تشاء ممَّن اتَّبَعَهم؛ فلا يَفتِنونَ ولا يَضِلُّونَ(٢).

كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [فاطر: ٨].

وقال سُبحانَه: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٢٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٩٧).
قال ابنُ تيمية: (﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾، أي: مِحنتُك واختبارُك وابتلاؤُك، كما ابتلَيْتَ عبادَك بالحسناتِ والسَّيِّئاتِ؛ ليتبيَّنَ الصَّبَّارُ الشَّكورُ مِن غيره، وابتليتهم بإرسال الرُّسلِ وإنزالِ الكُتبِ؛ ليتبيَّنَ المؤمنُ من الكافرِ، والصَّادقُ من الكاذبِ، والمنافقُ من المخلِصِ؛ فتجعلَ ذلك سببًا لضلالةِ قومٍ، وهُدَى آخَرين). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ١٨٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٩٦)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (١/ ٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٢٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٩٧).

أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [الروم: ٢٩].

وقال تبارَك وتعالى: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾.

أي: أنتَ وحْدَك- يا ربَّنا- ناصرُنا، ومُتولِّي أُمورِنا(١).

﴿فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا﴾.

أي: فاستُرْ ذُنوبَنا، ولا تُعاقِبْنا عليها، وتَعطَّفْ علينا برحمتِك(٢).

﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾.

أي: وأنتَ- يا ربَّنا- خيرُ مَنْ يَستُرُ الذُّنوبَ، ويَتجاوَزُ عن المؤاخَذةِ بالنَّقائصِ والعُيوبِ(٣).

﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٧٨)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٧٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٢٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٨١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٩٩).

قال ابنُ كثير: (والرحمةُ إذا قُرِنَتْ مع الغَفرِ يُرادُ بها: ألَّا يُوقِعَه في مِثْلِه في المستقبَلِ). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٩٩).

قال الرازيُّ: (معناه: أنَّ كُلَّ مَن سِواكَ فإنَّما يتجاوَز عن الذَّنبِ إما طلبًا للثَّناء الجميلِ أو للثَّواب الجزيلِ... وبالجُملةِ فذلك الغُفرانُ يكون لطلبِ نفعٍ أو لدفْعِ ضَررٍ، أمَّا أنت فتغفِرُ ذنوبَ عبادِك لا لطلبِ عِوَضٍ وغرضٍ، بل لمَحضِ الفضلِ والكرمِ؛ فوجَبَ القطْعُ بكونه خيرَ الغافرين). ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٧٨).

وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦)﴾.

﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾.

أي: دعا موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ربَّه لِبَني إسرائيلَ، فقال: واجعلْنا ممَّن كتبْتَ له وقدَّرْتَ له في الدُّنيا الحالةَ الحَسَنةَ؛ مِن العِلمِ النَّافعِ، والعملِ الصَّالِحِ، والرِّزقِ الواسِعِ، والتَّوفيقِ والعافيةِ، والحياةِ الطَّيِّبةِ، واكتُبْ لنا في الآخرةِ حسنةً؛ بمغفرةِ الذُّنوبِ والسَّيِّئاتِ، ودُخولِ الجنَّاتِ(١).

﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾.

أي: إنَّا تُبْنا، ورَجَعْنا إليك، يا ربَّنا(٢).

﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾.

أي: أجابَ اللهُ موسى فقال: عَذابي في الدُّنيا أُصيبُ به مَنْ أشاءُ ممَّنْ يَستحِقُّه مِن خَلْقي، كما أَصَبْتُ هؤلاءِ السَّبعينَ مِن قومِك بالرَّجفةِ(٣).

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٧٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٢٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٢٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٠٠- ٢٠١).
قال الواحديُّ: (قال جميع المفسِّرين وأهلِ المعاني: تُبْنا ورجَعْنا إليك بتوبتِنا). ((البسيط)) (٩/ ٣٩٢).
وقال الخازن: (﴿إِنَّا هُدْنا إِلَيْكَ﴾، قال ابنُ عبَّاسٍ معناه: إنَّا تُبْنا إليك، وهذا قولُ جميعِ المفسِّرين). ((تفسير الخازن)) (٢/ ٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٢٩).

أي: ورحمتي عمَّتْ في الدُّنيا جميعَ خَلْقي(١).

كما قال اللهُ تعالى حاكيًا قولَ حَمَلَةِ العَرْشِ مِن الملائكةِ: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

وعن أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ لله مِئةَ رحمةٍ، أنزَلَ منها رحمةً واحدةً بين الجنِّ والإنسِ، والبهائمِ والهَوامِّ؛ فبها يتعاطَفون، وبها يتراحَمون، وبها تَعطِفُ الوَحْشُ على ولدِها، وأخَّرَ اللهُ تسعًا وتسعين رحمةً، يرحَمُ بها عبادَه يومَ القيامةِ))(٢).

وعن سَلْمَانَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ خَلَقَ يومَ خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ مِئةَ رحمةٍ، كُلُّ رحمةٍ طِباقُ ما بين السَّماءِ والأرضِ(٣)، فجعَلَ منها في الأرضِ رحمةً، فبها تَعطِفُ الوالدةُ على ولدِها، والوَحْشُ والطَّيْرُ بعضُها على بعضٍ، فإذا كان يومُ القيامةِ أكْمَلَها بهذه الرَّحمةِ))(٤).

﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أَعْلَمَ اللهُ تعالى أنَّ رحمتَه واسعةٌ، وقُدرتَه شاملةٌ، وكان ذلك مُوَسِّعًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٠٢).

قال ابنُ جرير: (عن الحسن، وقَتادةَ، في قوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾، قالا: وسعتْ في الدُّنيا البَرَّ والفاجرَ، وهي يومَ القيامةِ للذين اتَّقَوْا خاصَّةً). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٨٦).

(٢) رواه مسلم (٢٧٥٢).

(٣) طِباقُ ما بينَ السَّماءِ والأرضِ: أي: مِلءُ ما بَينَهما. ينظر: ((التيسير بشرح الجامع الصغير)) للمناوي (١/ ٢٥٣).

(٤) رواه مسلم (٢٧٥٣).

للطَّمَعِ؛ سَبَّبَ عن ذلك قولَه، ذاكِرًا شرْطَ إتمامِ تلك الرَّحمةِ؛ ترهيبًا لِمَنْ يَتَوانى عن تحصيلِ ذلك الشَّرطِ(١):

﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾.

أي: فسأُوجِبُ حُصولَ رحْمتي الَّتي وَسِعَتْ كُلَّ شيءٍ للَّذينَ يَمتثِلونَ ما أَمَرْتُ به، ويَجتنِبونَ ما نَهَيْتُ عنه(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤].

وعن أبي هُرَيْرَةَ رضِيَ اللهُ عنه، قال: سمِعْتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقول: ((إنَّ اللهَ كَتَبَ كِتابًا قَبْلَ أنْ يخلُقَ الخَلْقَ: إنَّ رحمتي سَبَقَتْ غضَبي، فهو مكتوبٌ عِندَه فَوْقَ العَرْشِ))(٣).

﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾.

أي: وأَجْعَلُ رحمتي للَّذينَ يُعطونَ الزَّكاةَ المَفروضةَ في أموالِهم لِمُستحِقِّيها(٤).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٠٢-٢٠٤).

(٣) رواه البخاري (٧٥٥٤) ومسلم (٢٧٥١).

(٤) وتفسيرُ الزكاةِ هنا بزَكاةِ الأموالِ المفروضةِ هو اختيارُ ابنِ جريرٍ، وابنِ عطيةَ، والشوكانيِّ، والسعدي، ونسَبَه الشنقيطيُّ إلى أكثرِ العُلماء. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٦١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٠٤).

وقال ابنُ كثير: (قيل: زكاةُ النُّفوسِ. وقيل: زكاةُ الأموالِ. ويحتمِلُ أن تكونَ عامَّةً لهما؛ فإنَّ الآيةَ مَكِّيَّةٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٨٣). ويُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٠٤).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾.

أي: وأَجْعَلُ رحمتي للَّذينَ يؤمِنون بآياتي، المُنزَّلةِ على رُسُلي[١]، فيتَّبِعونها[٢].

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ * قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧-٥٨].

وقال سُبحانَه: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٣- ٦].

---

(١) خصَّ ابنُ عاشورٍ الآياتِ هنا بآياتِ القرآنِ الكريم. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٠٥).

قال الشنقيطيُّ: (ويَشمَلُ ذلك عِند بعضِهم: ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الكَونيَّةِ القَدَريَّةِ، كما نَصَبْنا من العلاماتِ على قُدْرتِنا، وأنِّي أنا المُستحِقُّ العبادةَ وحدَه، يُؤمنون بذلك؛ فيَعلمون أنَّها دالَّةٌ على رُبوبيَّةِ مَنْ نَصَبَها، واستحقاقِه للعبادةِ وحدَه). ((العذب النمير)) (٤/ ٢٠٥).

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (١٥٧) ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى أنَّ مِن صِفةِ مَنْ تُكتَبُ له الرَّحمةُ في الدُّنيا والآخرةِ: التَّقْوى، وإيتاءَ الزَّكاةِ، والإيمانَ بالآياتِ؛ ضَمَّ إلى ذلك أنْ يكونَ مِن صِفتِه اتِّباعُ النَّبيِّ الأُمِّيِّ الَّذي يَجِدونه مكتوبًا عِندهم في التَّوراةِ والإنجيلِ(١).

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ﴾.

أي: الَّذينَ كتبْتُ لهم رحمتي هُمُ الَّذينَ يتَّبِعونَ مُحَمَّدًا الرَّسولَ النَّبيَّ(٢)، الَّذي لا يَقرأُ مِن كتابٍ ولا يَكتُبُ(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٨٠).

(٢) قال الخازن: (أَجمَعَ المفسِّرون على أنَّ المرادَ بالرَّسولِ مُحَمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وَصَفَه بكونِه رسولًا؛ لأنَّه الواسطةُ بين اللهِ وبين خَلْقِه، المُبلِّغُ رسالتَه وأوامرَه ونواهيَه وشرائعَه إليهم، ثم وصفه بكونه نبيًّا، وهذا أيضًا من أعلى المراتبِ وأشرفِها). ((تفسير الخازن)) (٢/ ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٠٦).

قال ابنُ جرير: (هُمْ أُمَّةُ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنه لا يُعْلَمُ للهِ رسولٌ وُصِفَ بهذه الصِّفةِ -أعني الأُمِّيَّ- غير نبيِّنا محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٨٨).

وقال ابنُ عاشور: (هو إشارةٌ إلى اليهودِ والنَّصارى الكائنين في زَمنِ البَعثةِ وبعدَها؛ لقوله: ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٣١).

وقال سُبحانَه: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

﴿ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾.

أي: يَجِدونَ مُحَمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مَذكورًا بصِفاتِه الواضحةِ في التَّوراةِ الَّتي أنزَلَها اللهُ على موسى، وفي الإنجيلِ الَّذي أنزَلَه اللهُ على عِيسى عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ[1].

كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

وعن عَطاءِ بنِ يَسارٍ، قال: لَقيتُ عبدَ اللهِ بنَ عمرِو بنِ العاصِ رضِيَ اللهُ عنهما، قلْتُ: أخبِرْني عن صِفةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في التَّوراةِ، قال: ((أَجَلْ، واللهِ إنَّه لموصوفٌ في التَّوراةِ ببعضِ صِفتِه في القرآنِ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥]، وحِرْزًا للأُمِّيِّينَ[2]، أنتَ عَبْدي ورسولي، سمَّيْتُك المُتوكِّلَ، ليس بفَظٍّ ولا غَليظٍ، ولا سخَّابٍ في الأسواقِ، ولا يدْفَعُ بالسَّيِّئةِ السَّيِّئةَ، ولكنْ يَعْفو ويَغفِرُ، ولنْ يَقبِضَه اللهُ حتَّى يُقيمَ به المِلَّةَ العوجاءَ، بأنْ يقولوا: لا إلهَ إلَّا اللهُ، ويَفتَحَ بها أَعْيُنًا عُميًا، وآذانًا صُمًّا، وقلوبًا غُلْفًا))[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٠٧).

(٢) وحِرْزًا للأُمِّيِّينَ: أي: حافِظًا لدِينِهم، والمرادُ العَرَبُ، وسُمُّوا بالأُمِّيِّينَ؛ لأنَّ الكتابةَ كانت فيهم قليلةً. ينظر: ((عمدة القاري)) للعيني (١١/ ٢٤٣).

(٣) رواه البخاري (٤٨٣٨).

وقد أخبَرَ اللهُ في القرآنِ بأنَّ عيسى عليه السَّلامُ بَشَّرَ بمُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الصف: ٦].

﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾.

أي: يأمُرُهم الرَّسولُ محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالمعروفِ، وهو كلُّ خيرٍ أمَرَ به الشَّرعُ من الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ، ويَنْهاهم عن المنكَرِ، وهو كلُّ شرٍّ أنكَرَه الشَّرعُ من الشِّركِ والمعاصِي(١).

﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾.

أي: ويُحِلُّ لهم مُحَمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ الأطعِمةَ والأشربةَ النَّافعةَ، الَّتي تَستطيبُها الأذْواقُ السَّليمةُ ممَّا حُرِّمَ على اليهودِ مِنْ قَبْلُ في التَّوراةِ، أو حرَّمَه العربُ على أنفُسِهم في جاهليَّتِهم(٢).

كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٩٣)، ((شرح العقيدة الأصفهانية)) لابن تيمية (ص: ١٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٠٩).

قال ابنُ القيِّم: (أَمَرَهم بالمعروف الذي تَعرِفه العُقولُ وتُقِرُّ بحُسْنِه الفِطَرُ، فأمَرَهم بما هو مَعْروفٌ في نفسه عِند كلِّ عقلٍ سليمٍ، ونهاهم عمَّا هو مُنْكَرٌ في الطِّباع والعقولِ، بحيث إذا عُرِضَ على العُقولِ السَّليمةِ أنكرَتْه أشدَّ الإنكارِ، كما أنَّ ما أَمَرَ به إذا عُرِضَ على العقل السَّليمِ قَبِلَه أعظمَ قَبولٍ، وشهِد بحُسْنِه). ((مفتاح دار السعادة)) (٢/ ٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٩٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٨١)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٣٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٠٩- ٢١١).

اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾ [المائدة: ٤- ٥].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٥- ١٤٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣].

﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾.

أي: ويُحرِّمُ عليهم مُحَمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ الأطعِمةَ والأشرِبةَ، والأفعالَ الضَّارَّةَ، الَّتي تَستخبِثُها النُّفوسُ السَّليمةُ ممَّا يَستحِلُّه بعضُ النَّاسِ؛ كلَحْمِ الخِنزيرِ، والمَيتةِ، والدَّمِ، والخمْرِ، والزِّنا، والرِّبا، والرِّشوةِ، وأكْلِ أموالِ النَّاسِ بالباطِلِ(١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٩٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤١٦)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٦٣)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٦١)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥).
قال شيخ الإسلام ابن تيميَّةَ: (والخبائثُ نوعان: ما خُبْثُه لِعَيْنِه؛ لمعنًى قام به؛ كالدَّمِ والميتةِ ولحمِ الخنزيرِ، وما خُبْثُه لكَسْبِه؛ كالمأخوذِ ظُلمًا أو بعَقْدٍ مُحرَّمٍ؛ كالرِّبا والميسِرِ). ((مجموع الفتاوى)) (٢٠/ ٣٣٤).

كما قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣].

وقال سُبحانَه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٤].

﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾.

أي: ويُبطِلُ مُحَمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ويُزيلُ عن الَّذين يتَّبِعونَه من أهلِ الكتابِ العَهْدَ الثَّقيلَ، الَّذي أخَذَه اللهُ عليهم؛ مِن العَملِ بما في التَّوراةِ من الواجباتِ الثَّقيلةِ، والمُحرَّماتِ الشَّديدةِ، الَّتي كانتْ كالقُيودِ على أعناقِهم(١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٩٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٨١)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٦٣)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٨٨-٤٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٣٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢١٢).

قال القرطبيُّ: (الأغلالُ عِبارةٌ مُستعارةٌ لتلك الأثقالِ، ومن الأثقالِ ترْكُ الاشتِغالِ يومَ السبْتِ... ولم يكن فيهم الدِّيَةُ، وإنما كان القِصاصُ، وأُمِروا بقَتْلِ أنفسِهم علامةً لتوبتِهم، إلى غير ذلك، فشُبِّهَ ذلك بالأغلالِ). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٠٠). =

كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

وقال سُبحانَه: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وعنِ ابنِ عبَّاسٍ رضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((لَمَّا نزلَتْ هذه الآيةُ: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، قال: دخَلَ قلوبَهم منها شيءٌ لم يدخُلْ قلوبَهم من شيءٍ، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: قولوا: سمِعْنا وأطعْنا وسلَّمْنا، قال: فألْقى اللهُ الإيمانَ في قلوبِهم، فأنزَلَ اللهُ تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قال: قدْ فَعَلْتُ. ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] قال: قدْ فَعَلْتُ. ﴿وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] قال: قدْ فَعَلْتُ))(١).

وعن أبي هُرَيْرَةَ رضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ اللهَ تجاوَزَ عن أُمَّتي ما حدَّثَتْ به أنفُسَها، ما لم تعمَلْ أو تتكلَّمْ))(٢).

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾.

= وقال ابنُ تيميَّة: (الآصارُ: ترجِعُ إلى الإيجاباتِ الشَّديدةِ، والأغلالُ: هي التَّحريماتُ الشَّديدةُ؛ فإنَّ الإصْرَ: هو الثِّقْلُ والشِّدَّةُ، وهذا شأنُ ما وَجَبَ، والغُلُّ: يَمنَعُ المغلولَ من الانطِلاقِ، وهذا شأنُ المحظورِ). ((اقتضاء الصراط المستقيم)) (١/ ٣٢٤).

(١) رواه مسلم (١٢٦).

(٢) رواه البخاري (٥٢٦٩) ومسلم (١٢٧).

أي: فالَّذينَ صدَّقوا وأقرُّوا بأنَّ مُحَمَّدًا رسولُ اللهِ، وعظَّموه، وأعانوه على أعدائِه، الَّذينَ ظَلَموه وكذَّبوه(١).

﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾.

أي: واتَّبَعوا القرآنَ الَّذي أنزَلَه اللهُ على مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مع نُبوَّتِه(٢).

كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

وقال سُبحانَه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٣٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢١٣- ٢١٤).
وممَّن اختار أنَّ [عَزَّرُوهُ] بمعنى عظَّموه وبجَّلوه ووقَّروه: ابنُ كثير، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥).
وممن رُوي عنه ذلك مِن السَّلف: ابنُ عبَّاس. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٣/ ٥٨٣).
وقال ابنُ جرير: وقَّروه وعظَّموه، وحَمَوْه مِن النَّاس. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٩٧).
واختار ابنُ عاشورٍ أنَّ المراد بـ(عَزَّرُوهُ): أيَّدوه وقَوَّوْهُ؛ قال ابنُ عاشور: (معنى عَزَّرُوهُ أيَّدوه وقَوَّوْهُ، وذلك بإظهارِ ما تضمَّنَتْه كُتُبُهم من البِشارةِ بصفاتِه، وصفاتِ شريعتِه، وإعلانِ ذلك بين النَّاسِ، وذلك شيءٌ زائدٌ على الإيمانِ به، كما فَعَلَ عبدُ اللهِ بن سَلَامٍ، وكقولِ ورقة بن نوفل: «هذا النَّاموسُ الذي أُنزِلَ على موسى»، وهو أيضًا مُغايِرٌ للنَّصرِ؛ لأنَّ النَّصرَ هو الإعانةُ في الحربِ بالسِّلاحِ؛ ومِن أجْلِ ذلك عُطِفَ عليه: ﴿وَنَصَرُوهُ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٣٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٩٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢١٤).
قال أبو السُّعود: (﴿أُنزِلَ مَعَهُ﴾، أي: مع نُبوَّتِه، وهو القرآنُ، عُبِّرَ عنه بالنُّورِ المُنبِئِ عن كونِه ظاهرًا بنفسِه، ومُظهِرًا لغيرِه، أو مُظهِرًا للحقائقِ، كاشِفًا عنها). ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٨٠).

وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٤-١٧٥].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾ [التغابن: ٨].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾.

أي: فالَّذينَ آمَنوا بالرَّسولِ وعظَّموه ونصَروه واتَّبعوا القرآنَ الَّذي أُنْزِلَ معه هُمْ وَحْدَهم الفائِزونَ، الظَّافِرونَ بالخيراتِ والخُلودِ في الجنَّاتِ، والنَّاجونَ من الشُّرورِ والمكروهاتِ[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- ما مِن مُسلمٍ ولا كافرٍ ولا مُطيعٍ ولا عاصٍ في الدُّنيا إلَّا وهو مُتقلِّبٌ في نِعمةِ اللهِ تعالى؛ يُبيِّنُ ذلك قولُه تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾؛ فرحمةُ اللهِ أَوْسَعُ من ذلك الكَوْنِ الهائلِ الَّذي خَلَقَه، والَّذي لا يُدرِكُ البشَرُ مَداه[2].

٢- أَصْلُ كلِّ خيرٍ في الدُّنيا والآخرةِ الخوفُ من اللهِ تعالى، يُبيِّنُ ذلك قولُه تعالى: ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾؛ فليس كُلُّ أَحَدٍ يَقْبَلُ هُدى اللهِ ورحمتَه، وإنَّما يَقبَلُ ذلك ويَنقادُ له، ويَتلقَّاه بالقَبولِ الَّذينَ يَخافونَ من اللهِ تعالى ويخشَوْنَه، وأمَّا مَنْ لم يَخَفِ اللهَ، ولا المُقامَ بين يدَيْه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٩٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٩/ ٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢١٦-٢١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٢٢)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٣٧٨).

فإنَّه لا يَزدادُ بها إلا عُتُوًّا ونُفورًا، وتقوم عليه حُجَّةُ اللهِ فيها[1].

٣- لا سعادةَ ولا فلاحَ إلَّا باتِّباعِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ظاهرًا وباطنًا في أصولِ الدِّينِ وفُروعِه؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[2].

٤- لا بُدَّ أنْ يُفتَنَ النَّاسُ، فيَمتحِنَهم اللهُ تعالى ويَبتليَهم ويَختبِرَهم؛ يُبيِّنُ ذلك قولُه تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾[3].

٥- قوله: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾ فيه تَعليمٌ لكيفيَّةِ اتِّباعِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وبيانٌ لعُلوِّ رُتبةِ مُتَّبعيه، واغتنامِهم مَغانمَ الرَّحمةِ الواسعةِ في الدَّارينِ إثرَ بيانِ نُعوتِه الجليلةِ، والإشارةُ إلى إرشادِه عليه الصَّلاةُ والسلامُ إيَّاهُم بالأمْرِ بالمعروفِ، والنهيِ عن المنكرِ، وإحلالِ الطيباتِ، وتَحريمِ الخبائثِ، أي: فالَّذين آمنوا بنُبوَّتِه وأطاعوه في أوامِرِه ونواهِيه[4].

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ خَصَّهم بالذِّكرِ؛ لأنَّهم هُمُ المُنتفِعونَ به، وجَرَتِ العادةُ في القرآنِ أنَّ اللهَ يَخُصُّ المنتفعين، كما قال: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ [يس: ١١]، وهو مُنْذِرٌ للأسودِ والأحمرِ، ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا﴾ [النازعات: ٤٥]، وهو مُنذِرٌ للجميعِ، ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]، وهو مذكِّرٌ لِمَنْ يخاف ومَنْ لا يخاف كما هو معلومٌ[5].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٩/ ٩٧)، ((منهاج السنة)) لابن تيمية (٢/ ٤٤٥).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٨٠).

(٥) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٩٠).

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ﴾ المرادُ منه الألواحُ المذكورةُ سابقًا في قولِه تعالى: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ﴾، وظاهرُ هذا يدُلُّ على أنَّ شيئًا منها لم يَنكسِرْ ولم يَبْطُلْ(١).

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا﴾، الاختيارُ يكونُ من فاعِلٍ مُخْتارٍ، وشيءٍ مختارٍ منه، فيتعدَّى للثَّاني بـ(من)، وكأنَّ نُكْتَةَ حَذْفِ (من): الإشارةُ إلى كَوْنِ أولئك السَّبعينَ خِيَارَ قومِه كلِّهم لا طائفةً منهم(٢).

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾، السُّفهاءُ هم الَّذينَ عبَدوا العِجلَ، وسُمِّيَ شِركُهم سَفَهًا؛ لأنَّه شِرْكٌ مَشوبٌ بِخِسَّةِ عقلٍ؛ إذ جعلوا صورةً صَنَعوها بأنفُسِهم إلهًا لهم(٣).

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾، كأنَّ موسى عليه السَّلامُ عبَّرَ بهذه العِبارةِ المُقْتَضِيَةِ لإهلاكِ الجميعِ؛ لأنَّه جوَّزَ أنَّه كما أَهْلَكَ هؤلاءِ يُهْلِكُ غيرَهم لتقصيرٍ آخَرَ بسببِ ذلك؛ كعدمِ الجهادِ- مثلًا- حتَّى يَعُمَّهم الهلاكُ(٤).

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾، من الحُجَجِ الظَّاهرةِ على القَدَريَّةِ الَّتي لا يَبقى لهم معها عُذْرٌ(٥).

٧- قال اللهُ تعالى على لسانِ موسى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ الَّذي جرَّأَ موسى على أنْ يُضيفَ الفِتنةَ إلى اللهِ هو أنَّ اللهَ قال له: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٥]؛ فأَسْنَدَ اللهُ هذه الفتنةَ لنفسِه بقولِه: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٧٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ١٨٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٢٥).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٠٢).
(٥) يُنظر: ((التفسير البسيط)) للواحدي (٩/ ٣٩١)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٧٧)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص:٤٤).

قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ﴾، فجرَّأ ذلك موسى على أنْ يقولَ: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾[١].

٨- القَصْدُ من جُملةِ: ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا﴾ الاعتِرافُ بالانقطاعِ لعِبادةِ اللهِ تعالى؛ تمهيدًا لِمَطْلَبِ المغفرةِ والرَّحمةِ؛ لأنَّ شأنَ الوَلِيِّ أنْ يَرحَمَ مَوْلاه وينصُرَه[٢].

٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾، عَطَفَ جُملةَ: ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾؛ لأنَّه خبرٌ في معنى طلبِ المغفرةِ العظيمةِ، فعُطِفَ على الدُّعاءِ، كأنَّه قيل: (فاغفِرْ لنا وارحمْنا واغفِرْ لنا جميعَ ذُنوبِنا)؛ لأنَّ الزِّيادةَ في المغفرةِ من آثارِ الرَّحمةِ[٣].

١٠- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ * وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ دفْعَ الضَّررِ مُقدَّمٌ على تحصيلِ النَّفعِ؛ إذ بدأ بطَلَبِ دَفْعِ الضَّررِ، وهو قولُه: ﴿فَاغْفِرْ لَنَا﴾، ثمَّ أتْبَعَه بطَلَبِ تحصيلِ النَّفعِ[٤].

١١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾، أي: قد كان مِنْ سَبْقِ رحمتي غضَبي: أنْ أَجْعلَ عذابي خاصًّا؛ أُصيبُ به مَنْ أشاء من الكفَّارِ والعُصاةِ المجرمين، وأمَّا رحمتي فقدْ وَسِعَتْ كُلَّ شيءٍ من العالَمينَ؛ فهي من صِفاتي القديمةِ الأَزَليَّةِ الَّتي قام بها أمْرُ العالَمِ مُنْذُ خَلَقْتُه، والعذابُ ليس من صِفاتي، بل من أفعالي المترتِّبةِ على صِفة العَدْلِ؛ ولهذا عبَّر عن التَّعذيبِ بالفِعْلِ المضارِعِ، وعن تعلُّقِ الرَّحمةِ بالفعلِ الماضي[٥].

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٩٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٢٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٢٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٠٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ١٩٢).

١٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾، خَصَّ الزَّكاةَ بالذِّكْرِ دونَ الصَّلاةِ وما دونَها من الطَّاعاتِ؛ لأنَّ فتنةَ حُبِّ المالِ تقتضي- بنظَرِ العقلِ والاختبارِ بالفعلِ- أنْ يكونَ المانِعونَ للزَّكاةِ أكثَرَ من التَّاركينَ لغيرِها من الفرائضِ، وفيه إشارةٌ إلى شِدَّةِ حُبِّ اليهودِ للدُّنيا، وافتِتانِهم بجَمْعِ المالِ، ومَنْعِ بَذْلِه في سبيلِ اللهِ(١).

١٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾، الرَّسولُ- في اصْطِلاحِ الشَّرعِ- أَخَصُّ من النَّبيِّ، فكُلُّ رسولٍ نَبِيٌّ، وما كُلُّ نبيٍّ رسولٌ؛ ولذلك جَعَلَ بعضُ المفسِّرين نُكْتَةَ تقديمِ الرَّسولِ على النَّبيِّ هنا كَوْنَه أَهَمَّ وأَشْرَفَ، أو أنَّهما ذُكِرا هنا بمعناهما اللُّغويِّ(٢).

١٤- قال تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾، المرادُ من الطَّيِّباتِ الأشياءُ المُستطابةُ بحسَبِ الطَّبْعِ؛ وذلك لأنَّ تناوُلَها يُفيدُ اللَّذَّةَ، والأَصْلُ في المنافعِ الحِلُّ؛ فكانتْ هذه الآيةُ دالَّةً على أنَّ الأصلَ في كلِّ ما تَستطيبُه النَّفسُ ويَستلِذُّه الطَّبْعُ: الحِلُّ، إلَّا لدليلٍ مُنفصِلٍ، ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ كُلُّ ما يَستخبِثُه الطَّبْعُ وتَستقذِرُه النَّفسُ كان تناولُه سببًا للألمِ، والأصْلُ في المَضارِّ الحُرْمَةُ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٩٤).

والفرقُ بينَ النبيِّ والرسولِ، أنَّ النبيَّ هو الذي ينبِّئه الله، وهو ينبِّئُ بما أنبأ الله به؛ فإن أُرسِل مع ذلك إلى مَن خالَف أمرَ الله؛ ليبلغَه رسالةً مِن الله إليه؛ فهو رسولٌ، وليس مِن شرطِ الرسولِ أن يأتيَ بشريعةٍ جديدةٍ، وأمَّا إذا كان إنما يعملُ بشريعةِ مَن قبلَه، ولم يُرسل هو إلى أحدٍ يبلغُه عن الله رسالةً؛ فهو نبيٌّ، وليس برسولٍ، فالأنبياءُ يأتيهم وحيٌ مِن الله بما يفعلونه، ويأمرون به مَن آمَن بهم، وقيل: الرسول: مَن أُنزل إليه كتابٌ مستقلٌ، كمحمدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وموسى عليه السلامُ، والنبيُّ: مَن أُمِر بأن يتعبَّد بكتابٍ منزَّلٍ على غيرِه، كأنبياءِ بني إسرائيلَ الذين يُؤمرون بالتعبُّدِ بما في التوراةِ. يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٧١٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٠٥).

فكان مُقتضاه أنَّ كلَّ ما يَستخبِثُه الطَّبْعُ فالأصْلُ فيه الحُرْمَةُ إلَّا لدليلٍ مُنفصِلٍ[١].

١٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ يدُلُّ على أنَّ الأصلَ في المَضارِّ ألَّا تكونَ مشروعةً؛ لأنَّ كلَّ ما كان ضررًا كان إِصْرًا وغُلًّا، وظاهِرُ هذا النَّصِّ يَقتضي عدمَ المشروعيَّةِ[٢].

١٦- دِينُ الإسلامِ سَهْلٌ سَمْحٌ مُيَسَّرٌ، لا إِصْرَ فيه ولا أغلالَ، ولا مَشقَّاتِ ولا تَكاليفَ ثِقالٌ، يُبيِّنُ ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[٣].

١٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فيه تنويهٌ بعَظيمِ فَضْلِ أصحابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ورضِيَ اللهُ عنهم، ويَلْحَقُ بهم مَنْ نصَرَ دينَه بعْدَهم[٤].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾ فيه تنزيلُ الغَضبِ الحاملِ له عَلَى ما صَدَرَ عنْهُ من الفعل والقول مَنزلةَ الآمِرِ بذلك، المُغرِي عليه بالتحكُّمِ والتشديدِ؛ حتَّى عبَّر عن سُكونِه بالسُّكوتِ؛ فشُبِّهَ ثَوَرانُ الغضبِ في نفْسِ موسى عليه السَّلامُ المُنشِئُ خواطِرَ العقوبةِ لأخيه ولقومِه، وإلْقاءَ الألواحِ، بكلامِ شخص يُغريه بذلك، وحَسَّن هذا التَّشبيهَ أنَّ الغضبانَ يجيش في نفسه حديثٌ للنَّفسِ يَدفَعُه إلى أفعالٍ يُطفِئ بها ثورانَ غضبه، فإذا سَكَن غضبُه وهدأتْ نفْسُه كان ذلك بمنزلةِ سُكوتِ المغري؛ فلذلك أَطلقَ عليه السُّكوتَ، وهذا يَستلزِمُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٨١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٣٨٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٠٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٣٩).

تشبيهَ الغضبِ بالناطقِ المغري على طريقةِ المكنيَّة[١].

٢- قوله: ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾

- قوله: ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾ تمهيدٌ للتعريضِ بطَلَبِ العفوِ عنهم الآن، وهو المقصودُ مِن قولِه: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾، أي: إنَّك لم تشأْ إهلاكَهم حين تَلبَّسوا بعِبادةِ العِجل، فلا تُهلِكْهم الآن[٢].

- والاستفهامُ في قوله: ﴿أَتُهْلِكُنَا﴾ مُستعمَلٌ في التفجُّع، أي: أخشَى ذلك؛ لأنَّ القَومَ استحقُّوا العذابَ، ويُخشَى أنْ يَشملَ عذابُ اللهِ مَن كان مع القومِ المستحقِّين، وإنْ لم يُشارِكهْم في سببِ العذابِ، وجملة: ﴿أَتُهْلِكُنَا﴾ مُستأنفةٌ على طريقةِ تقطيعِ كلامِ الحزينِ الخائفِ السَّائِل[٣]. وقد جاء الرَّجاءُ بصِيغةِ الاستفهامِ؛ زيادةً في طلبِ استِبعادِ الهلاكِ، أي: رَبِّ، إنَّه لَمُستبعَدٌ على رَحمتِك أنْ تُهلكَنا بما فَعَلَ السُّفهاءُ منا[٤].

٣- قولُه: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾

- الخبرُ في وقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ...﴾ الآيةَ، مُستعمَلٌ في إنشاءِ التَّمجيدِ بسَعَةِ العِلمِ والقُدرةِ، والتعريضِ بطَلَبِ استبقائِهم وهِدايتِهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٢٦- ١٢٧).

(٤) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٣٧٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٢٦-١٢٧).

- وقولُه: ﴿فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾، في التَّذييلِ بقولِه: ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ حَذَفَ ذِكْرَ الرَّحمةِ؛ استِغناءً عنه بذِكْرِ المغفرةِ؛ فإنَّ ترتيبَ التَّذييلِ في الثَّناءِ عليه تعالى على طَلَبِ مغفرتِه ورحمتِه معًا يَقتضي أنْ يكونَ هذا الثَّناءُ بهما معًا، فاكْتَفى بذِكْرِ الأُولى؛ لدَلالتِها على الثَّانيةِ قطْعًا، فهو مِن الإيجازِ المُسَمَّى في عِلمِ البديعِ (الاكتِفاء)[1].

٤- **قولُه: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾** قوله: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لتعليلِ الدُّعاءِ وطَلَبِ الْغُفْرَانِ والحَسَنَةِ؛ لأنَّ التوبةَ والإنابةَ والرُّجوعَ إليه من الأسبابِ الَّتي يكتُبُ اللهُ بها حسنةَ الدُّنيا وحسنةَ الآخِرةِ، وتَصديرُها بحرْف التَّحقيقِ؛ لإظهارِ كمالِ النَّشاطِ والرَّغبةِ في التوبةِ[2].

٥- **قوله: ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾**

- قوله: ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ...﴾ استئنافٌ وَقَع جوابًا عن سؤال ينساقُ إليه الكلامُ، كأنَّه قيلَ فماذَا قالَ الله تعالى عند دعاءِ مُوسى عليه السَّلامُ؟ فقيل: قال: ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾[3].

- وقوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ مقابلُ قولِ مُوسَى: ﴿فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾، وهو وعدُ تعريضٍ بحُصولِ الرَّحمةِ المسؤولةِ له، ولِمَن مَعَه مِن المُختارِين؛ لأنَّها لَمَّا وَسِعتْ كلَّ شيءٍ، فهُمْ أرْجى الناسِ بها، وأنَّ العاصِين هم أيضًا مَغمورونَ بالرَّحمةِ؛ فمنها رحمةُ الإمهالِ والرِّزْقِ، ولكنْ رحمةُ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٧٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٧٨).

اللهِ عبادَه ذاتُ مَراتِبَ متفاوتةٍ[(١)].

- وقولُه: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ تفريعٌ على سَعةِ الرَّحمةِ؛ لأنَّها لَمَّا وَسِعتْ كلَّ شيءٍ كان منها ما يُكتَب، أي: يُعطَى في المستقبَلِ للذين أُجرِيتْ عليهم الصِّفاتُ، ويَتضمَّنُ ذلك وعدًا لموسى ولصُلحاءِ قومِه؛ لتحقُّقِ تِلك الصِّفاتِ فيهم[(٢)].

- وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ فيه تَكريرُ الموصولِ (الَّذين)، مع أنَّ المرادَ به عينُ ما أُريدَ بالموصولِ الأوَّلِ في قوله: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾- دون أنْ يُقالَ: (يُؤمنون بآياتنا) عَطفًا على ﴿يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ كما عُطِفَ ﴿يُؤْتُونَ﴾ على ﴿يَتَّقُونَ﴾ للقَصْرِ بتَقديمِ الجارِّ والمجرورِ؛ أي: هُم بجميعِ آياتِنا يُؤمِنونَ لا ببَعضِها دُون بَعضٍ[(٣)].

وقيل: نُكتةُ إعادةِ الموصولِ (الذين) مع الضَّمير (هم)؛ إمَّا جَعْلُ الموصولِ الأوَّلِ عامًّا لقومِه الَّذينَ دعا لهم- مَن استمرُّوا على التزامِ التَّقوى، وأداءِ الزَّكاةِ منهم-، وجَعْلُ الثَّاني خاصًّا بمَنْ يُدرِكونَ بَعْثَةَ خاتَمِ الرُّسلِ عليه السَّلامُ ويتَّبِعونَه، كما يُعْلَمُ ممَّا بعْدَه، وإمَّا لِبيانِ الفَصْلِ بين مَفهومِ الإسلامِ ومفهومِ الإيمانِ، والتَّعريضِ بأنَّ الَّذينَ طَلَبوا من موسى أنْ يجعَلَ لهم آلهةً، والَّذينَ عبَدوا العِجلَ، والَّذينَ قالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، لم يكونوا مؤمِنين بآياتِ اللهِ العامَّةِ ولا الخاصَّةِ الَّتي جاء بها نبيُّهم؛ إذْ لم يكونوا يَعقِلونها، بل كانوا مُتَّبِعينَ له؛ لإنقاذِهم مِن ظُلمِ المِصْريِّينَ، وبيانِ أنَّ كتابةَ الرَّحمةِ الخاصَّةِ إنَّما تكون لِمَنْ جَمَعوا بين الإسلامِ- وهو اتِّباعُ الرُّسلِ بالفِعْلِ- والإيمانِ الصَّحيحِ بالآياتِ الإلهيَّةِ المفيدةِ لليقينِ المانعِ من العودةِ إلى الشِّركِ بمِثْلِ عبادةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٧٨).

العِجلِ، والمُقْتَضِي لاتِّباعِ مَنْ يأتي مِنَ الرُّسلِ بمِثْلِ هذه الآياتِ[1].

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ تَعريضٌ بهم وبكُفرِهم بالآياتِ العِظامِ التي جاءَ بها موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وبما سيَجيءُ بعدَ ذلك مِنَ الآياتِ البيِّناتِ، كتَظليلِ الغمامِ، وإنزالِ المنِّ والسَّلْوى، وغيرِ ذلك[2].

٦- ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

- قوله: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ فيه تقديمُ وصْفِ الرَّسولِ؛ لأنَّه الوصفُ الأخصُّ الأهمُّ، ولأنَّ في تقديمِه زِيادةَ تَسجيلٍ لتحريفِ أهلِ الكِتاب، حيثُ حَذَفوا هذا الوصفَ؛ ليَصيرَ كلامُ التوراةِ صادِقًا بمَن أتى بعدَ مُوسَى من أنبياءِ بَني إسرائيلَ[3].

- وفي قولِه: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ لم يَعْطِفْ؛ لئلَّا يُوهِمَ تَعدادَ الموصوفِ[4].

- وجاءَ بقولِه: ﴿عِندَهُمْ﴾ لزِيادةِ التقريرِ، وأنَّ شأنَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ حاضرٌ عِندَهم لا يَغيبُ عنهم أصلًا[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٣٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٠٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٧٩).

- قولُه: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ فيه تشبيهُ حالِ المُزالِ عنه ما يُحرِجُه مِن التَّكاليفِ، بحالِ مَن كان مُحمَّلًا بثِقلٍ فأُزيلَ عن ظَهرِه ثِقلُه[١].

- قوله: ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾ فيه تَشبيهُ حالِ المُقتَدِي بهَدْيِ القرآنِ، بحالِ السَّاري في اللَّيلِ إذا رَأى نُورًا يَلوحُ له اتَّبعَه؛ لعِلمِه بأنَّه يجِدُ عِندَه مَنجاةً مِن المخاوفِ، وأضرارِ السَّيرِ[٢].

- وقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الإتيانُ باسمِ الإشارةِ ﴿أُولَئِكَ﴾ وما فيه مِن مَعْنى البُعدِ؛ للإيذانِ بعُلوِّ دَرجتِهم، وسُموِّ طبقتِهم في الفضلِ والشَّرفِ، أي: أولئك المنعوتُون بتِلك النُّعوتِ الجليلةِ هُمُ المُفْلِحُونَ، لا غيرُهم مِن الأُممِ، ففيه تنويهٌ بشَأنِهم، ودَلالةٌ على أنَّ المُشارَ إليهم بتِلك الأوصافِ صارُوا أحرياءَ بما يُخبَرُ به عنهم بعدَ اسمِ الإشارةِ[٣].

- والقصرُ المستفادُ مِن تَعريفِ المُسنَد ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾ ومِن ضَميرِ الفَصلِ ﴿هُمْ﴾ قَصرٌ إضافيٌّ، أي: هُم الذين أفلحوا، أي: دُونَ مَن كَفَر به، بقَرينةِ المقامِ، ويجوزُ أنْ يكونَ القصرُ ادعائيًّا دالًّا على معنى كمالِ صِفةِ الفلاحِ للَّذينَ يتَّبعونَ النبيَّ الأُمِّيَّ؛ ففلاحُ غيرِهم من الأُممِ المفلِحين الذين سَبَقوهم كلا فَلاحٍ إذا نُسِب إلى فلاحِهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٣٨).

الآية (١٥٨)

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾.

المعنى الإجمالي:

يأمرُ اللهُ نَبيَّه محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يقولَ للنَّاسِ جَميعِهم: يا أيُّها النَّاسُ، إنِّي رسولُ اللهِ إليكم كُلِّكم، الذي له وحدَه مُلكُ السَّمواتِ والأرضِ وما فيهما، لا معبودَ بِحقٍّ إلَّا هو وحدَه، بيَدِه وحدَه إحياءُ الخَلقِ وإماتَتُهم، فآمِنوا- أيُّها النَّاسُ- باللهِ ورَسولِه مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، النَّبيِّ الأمِّيِّ، الذي يؤمِنُ باللهِ وكَلِماتِه، واتَّبعوه؛ لعلَّكم تهتدونَ.

تَفسيرُ الآية:

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكر اللهُ تعالى لموسى- عليه السلام- صفةَ مُحمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأخبَرَ أنَّ مَن أدرَكَه وآمَنَ به، أفلح- أمَرَ تعالى نبيَّه بإشهارِ دَعوَتِه ورسالَتِه إلى النَّاسِ كافَّةً، والدُّعاءِ إلى الإيمانِ باللهِ ورسولِه وكَلِماتِه، واتِّباعِه[1].

وأيضًا لَمَّا دعا أهلَ التَّوراةِ مِن بني إسرائيلَ إلى اتِّباعِه، وكان ربَّما توهَّم

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٩٦).

مُتوهِّمٌ أنَّ الحُكمَ مَقصورٌ عليهم- أتى بما يدلُّ على العُمومِ(١).

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ الرَّسولَ الأمِّيَّ، استطرَدَ بتذكيرِ بني إسرائيلَ بما وعَدَ اللهُ به موسى عليه السَّلام، وإيقاظًا لأفهامِهم بأنَّ محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هو مِصداقُ الصِّفاتِ التي علَّمَها اللهُ موسى(٢).

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾.

أي: قلْ- يا مُحمَّدُ- للنَّاسِ كُلِّهم: يا أيُّها النَّاسُ، إنِّي مُرسَلٌ مِن اللهِ إلى جَميعِكم؛ مِن العَرَب وغَيرِهم، ولم أُرسَلْ إلى بعضِكم دونَ بَعضٍ(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ [آل عمران: ٢٠].

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضيَ اللهُ عنهما، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أُعطيتُ خمسًا لم يُعطَهنَّ أحدٌ مِنَ الأنبياءِ قَبلي: نُصِرتُ بالرُّعبِ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٩٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٤/ ٢٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢١٨).

قال ابنُ كثيرٍ: (هذا خطابٌ للأحمَرِ والأسوَدِ، والعربيِّ والعَجَميِّ: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ أي: جميعِكم، وهذا مِن شَرَفِه وعَظَمَتِه؛ أنَّه خاتَم النبيِّينَ، وأنَّه مبعوثٌ إلى النَّاسِ كافَّةً... وهو معلومٌ مِن دِينِ الإسلامِ ضرورةً؛ أنَّه- صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه- رسولُ اللهِ إلى النَّاسِ كُلِّهم). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٨٩).

مَسيرةَ شَهرٍ، وجُعِلَت لي الأرضُ مسجدًا وطَهورًا، وأيُّما رجلٍ مِن أمَّتي أدركَتْه الصَّلاةُ فلْيُصَلِّ، وأُحِلَّت لي الغنائِمُ، وكان النبيُّ يُبعَثُ إلى قَومِه خاصَّةً، وبُعِثتُ إلى النَّاسِ كافَّةً، وأُعطِيتُ الشَّفاعةَ))(١).

وعن أبي هُريرةَ رَضيَ اللهُ عنه، عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: ((والذي نَفسُ محمَّدٍ بِيَدِه، لا يسمَعُ بي أحدٌ مِن هذه الأمَّةِ؛ يهوديٌّ، ولا نصرانيٌّ، ثم يموتُ ولم يؤمِنْ بالذي أُرسِلْتُ به، إلَّا كان من أصحابِ النَّارِ))(٢).

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: إنِّي رسولُ مَن له وَحدَه سُلطانُ السَّمَواتِ والأرضِ وما فيهما، وله وَحدَه تدبيرُ ذلك، والقيامُ بتَصريفِه(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧].

وقال سبحانه: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١].

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: لا معبودَ بحَقٍّ إلَّا اللهُ، وحدَه دونَ ما سواه(٤).

كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ

---

(١) رواه البخاري (٤٣٨) ومسلم (٥٢١).

(٢) رواه مسلم (١٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٩٨ - ٤٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢١٩).

وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾.

أي: هو وَحدَه الذي بيَدِه إحياءُ الخَلقِ وإماتَتُهم(١).

كما قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ [الملك: ٢].

وقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [غافر: ٦٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ [القيامة: ٣٦-٤٠].

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ﴾.

مُناسبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا صَدَّرَ الأمرَ بخطابِ جَميعِ البَشَرِ، وكان فيهم مَن لا يؤمنُ بالله، وفيهم مَن يؤمِنُ باللهِ ولا يؤمِنُ بالنَّبيِّ الأمِّيِّ- جمعَ بين الإيمانِ باللهِ والإيمانِ بالنَّبيِّ الأمِّيِّ في طَلَبٍ واحدٍ؛ ليكونَ هذا الطَّلبُ مُتوجِّهًا للفِرَق كُلِّهم، ليجمَعوا في إيمانِهم بين الإيمانِ باللهِ والنبيِّ الأمِّيِّ، مع قضاءِ حَقِّ التأدُّبِ مع الله بجَعلِ الإيمانِ به مُقَدَّمًا على طلَبِ الإيمانِ بالرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ للإشارةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢١٩ - ٢٢٠).

إلى أنَّ الإيمانَ بالرَّسولِ إنَّما هو لأجْلِ الإيمانِ بالله(١)، فقال تعالى:

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ﴾.

أي: فآمِنُوا- أيُّها النَّاسُ- باللهِ تعالى، الذي تلك صِفَتُه، وآمِنوا برَسولِه محمَّدٍ النَّبيِّ الذي لا يكتُبُ ولا يقرأُ مِن كتابٍ(٢).

﴿ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾.

أي: الذي يؤمِنُ بالله، ويوحِّدُه في عبادَتِه، ويؤمِنُ بكَلِماتِ اللهِ، التي منها جميعُ كُتُبِه التي أنزَلَها على رُسُلِه صَلواتُ اللهِ وسَلامُه عليهم(٣).

كما قال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٨٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢١٩ - ٢٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٩٩ - ٥٠٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٢١).

قال الشّنقيطي: (والتحقيقُ: أنَّ كَلِماتِ اللهِ أعَمُّ مِن كُتُبِه، وأنّها لا يُحصِيها إلَّا هو جَلَّ وعلا، كما نوَّه عنها في أُخرَياتِ الكَهفِ وأُخرياتِ لُقمانَ، في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧]، وكلماتُ اللهِ لا يعلَمُها إلَّا اللهُ جلَّ وعلا، ولو كانت البُحورُ مِداداً لكلماتِه لنَفِدَت البُحورُ وتلاشَت، قبل أن تنفَدَ كلماتُه جلَّ وعلا). ((العذب النمير)) (٤/ ٢٣٩).

أي: واقتَدُوا- أيُّها النَّاسُ- بهذا الرَّسولِ، وأطيعوه؛ لأجلِ أن تهتَدُوا إلى الحَقِّ(١).

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣١-٣٢].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

الفَوائِد التربويَّة:

١- قال تعالى: ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ مَن كان يحيي ويميتُ، فهو الذي يُخافُ منه غايةَ الخَوفِ؛ لأنَّه لا يقَعُ على الإنسانِ في هذه الدَّارِ الدُّنيا حادِثٌ أعظَمُ مِن الموتِ، الذي يقطَعُه عن كُلِّ شيءٍ، ولا شيءَ أعظَمُ- مِن التصَرُّفات- مِن إحياءِ الإنسانِ بعدَ مَوتِه، والإتيانِ به حيًّا بعد أن صار عِظامًا رَميمًا- سبحانَ رَبِّنا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٢٢).

قال الرَّازي: (المتابعةُ تتناوَلُ المتابعةَ في القَولِ وفي الفِعلِ؛ أمَّا المتابعةُ في القَولِ فهو أن يمتثِلَ المكَلَّفُ كُلَّ ما يقولُه في طرفَي الأمرِ والنَّهي، والتَّرغيب والتَّرهيب. وأمَّا المتابعةُ في الفِعلِ فهي عبارةٌ عن الإتيانِ بمِثلِ ما أتى المتبوعُ به، سواءٌ كان في طَرَف الفِعلِ أو في طَرَف التَّركِ، فثبت أنَّ لفظَ ﴿وَاتَّبِعُوهُ﴾ يتناوَلُ القِسمينِ). ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٨٦).

قال الشَّنقيطي: (ومعنى اتِّباعه: هو الاقتداءُ به فيما جاء به مِن عقائِدَ وأفعالٍ وأقوالٍ). ((العذب النمير)) (٤/ ٢٢٢).

وخالِقِنا، ما أعظَمَه! وما أعظَمَ قُدرَتَه جلَّ وعلا! وما أظهَرَ براهينَ تَوحيدِه[(١)]!

٢- الدَّعوةُ لا بُدَّ أن يسبِقَها إيمانُ الدَّاعي بحقيقةِ ما يدعو إليه، ووضوحُه في نَفسِه، ويقينُه منه؛ يُرشِدُ إلى ذلك قَولُه تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾، فجاء وصفُ النبيِّ المُرسَل إلى النَّاسِ جميعًا بأنَّه ﴿الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾[(٢)].

٣- قال الله تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ليس هناك رجاءٌ في أن يهتديَ النَّاسُ بما يَدعوهم إليه رسولُ اللهِ- صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- إلَّا باتِّباعِه فيه، ولا يكفي أن يُؤمِنوا به في قُلوبِهم ما لم يَتْبَعِ الإيمانَ الاتِّباعُ العَمَليُّ، وهو الإسلامُ، إنَّ هذا الدِّينَ يُعلِنُ عن طبيعَتِه، وعَن حَقيقَتِه في كلِّ مُناسبةٍ، إنَّه ليس مجرَّدَ عقيدةٍ تَستكِنُّ في الضَّميرِ، كما أنَّه كذلك ليس مجرَّدَ شعائِرَ تُؤدَّى وطقُوسٍ، إنَّما هو الاتِّباعُ الكامِلُ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما يُبلِّغُه عن رَبِّه، وفيما يَشرَعُه ويَسُنُّه، والرَّسولُ لم يأمُرِ النَّاسَ بالإيمانِ باللهِ ورَسولِه فحَسبُ، ولم يأمُرْهم كذلك بالشَّعائِرِ التعبُّديَّة فحسْبُ، ولكنَّه أبلَغَهم شريعةَ اللهِ في قَولِه وفِعلِه، ولا رجاءَ في أن يهتديَ النَّاسُ إلَّا إذا اتَّبَعوه في هذا كُلِّه، فهذا هو دينُ اللهِ، وليس لهذا الدِّينِ مِن صورةٍ أخرى إلَّا هذه الصُّورةُ التي تُشيرُ إليها هذه اللَّفتةُ: ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ بعد الأمرِ بالإيمانِ باللهِ ورَسولِه، ولو كان الأمرُ في هذا الدِّينِ أمرَ اعتقادٍ وكَفى، لكانَ في قَولِه: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الكفايةُ[(٣)]!

٤- على الخلقِ كلِّهم اتباعُ محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم فلا يعبدونَ إلا اللهَ،

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٢٠).
(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٣٨٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ويعبدونَه بشريعةِ محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم لا بغيرِها، قال تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[1].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال تعالى: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ المقصودُ مِن ذِكرِ هذه الأوصافِ الثَّلاثة: تذكيرُ اليَهودِ، ووَعظُهم؛ حيث جحَدوا نبوَّةَ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وزعموا أنَّه لا رسولَ بعد موسى، واستعظَموا دعوةَ مُحمَّدٍ، فكانوا يعتقدونَ أنَّ موسى لا يُشبِهُه رَسولٌ، فذُكِّروا بأنَّ اللهَ مالِكُ السَّمواتِ والأرضِ، وهو واهِبُ الفَضائِلِ، فلا يُستعظَمُ أن يُرسِلَ رَسولًا، ثم يُرسِلَ رَسولًا آخَرَ؛ لأنَّ المُلكَ بيَدِه، وبأنَّ اللهَ هو الذي لا يُشابِهُه أحدٌ في ألوهِيَّتِه، فلا يكونُ إلَهانِ للخَلقِ، وأمَّا مَرتبةُ الرِّسالةِ فهي قابلةٌ للتعَدُّدِ، وبأنَّ اللهَ يحيي ويُميتُ، فكذلك هو يُميتُ شريعةً ويُحيي شريعةً أخرى، وإحياءُ الشَّريعةِ إيجادُها بعد أنْ لم تكُنْ؛ لأنَّ الإحياءَ حَقيقَتُه إيجادُ الحياةِ في الموجودِ، ثم يحصُلُ مِن هذه الصِّفاتِ إبطالُ عقيدةِ المُشركينَ بتعَدُّدِ الآلهةِ وبإنكارِ الحَشرِ[2].

٢- قوله تعالى: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ دلَّ على أنَّه لا يُشرِّعُ للخلقِ، ويأمرُهم وينهاهم، ويحرِّم عليهم إلا الملكُ، الذي هو نافذُ التصرُّفِ نفوذًا مطلقًا، وله الكلمةُ العليا، وهو فوقَ كلِّ شيءٍ[3].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ لَمَّا أثبَتَ تعالى هذه الأصولَ المذكورةَ بهذه الدَّلائِلِ المذكورةِ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ٣١٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤٠).
(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٢٨).

في هذه الآيةِ، ذكَرَ بَعدَه قولَه: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، وهذا التَّرتيبُ في غايةِ الحُسنِ؛ وذلك لأنَّه لَمَّا بيَّنَ أوَّلًا أنَّ القَولَ ببَعثةِ الأنبياءِ والرُّسُلِ- عليهم السَّلامُ- أمرٌ جائزٌ مُمكِنٌ، أردَفَه بذِكرِ أنَّ مُحمَّدًا رسولٌ حَقٌّ مِن عندِ الله؛ لأنَّ مَن حاولَ إثباتَ مَطلوبٍ، وجبَ عليه أن يُبيِّنَ جوازَه أوَّلًا، ثمَّ حصولَه ثانيًا[1].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾ لَمَّا كان الإيمانُ باللهِ هو الأصلَ يتفَرَّعُ عنه الإيمانُ بالرَّسولِ والنبيِّ، بدأ به، ثم أتبَعَه بالإيمانِ بالرَّسولِ، ثم أتبَعَ ذلك بالإشارةِ إلى المُعجِزِ الدَّالِّ على نبوَّتِه، وهو كونُه أميًّا، وظهر عنه من المُعجِزاتِ في ذاتِه ما ظهَرَ مِن القُرآنِ الجامِعِ لعُلومِ الأوَّلينَ والآخِرينَ، مع نشأتِه في بلدٍ عارٍ مِن أهلِ العِلمِ، لم يقرأْ كتابًا ولم يخُطَّ، ولم يصحَبْ عالِمًا، ولا غابَ عن مكَّةَ غَيبةً تقتضي تعلُّمًا[2].

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾ الإيمانُ باللهِ: الإيمانُ بأعظَمِ صِفاتِه، وهي الإلهيَّةُ المتضمِّنُ إيَّاها اسمُ الذَّاتِ، والإيمانُ بالرَّسولِ: الإيمانُ بأخَصِّ صِفاتِه، وهو الرِّسالةُ، وذلك معلومٌ مِن إناطةِ الإيمانِ بوَصفِ الرَّسولِ دونَ اسمِه العَلَمِ[3].

٦- قال الله تعالى: ﴿الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ كلماتُ اللهِ تشمَلُ كُتُبَه ووحيَه للرُّسُلِ، وأوثِرَ هنا التعبيرُ بكَلِماتِه، دون كُتُبِه؛ لأنَّ المَقصودَ الإيماءُ إلى إيمانِ الرَّسولِ- عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- بأنَّ عيسى كَلِمةُ الله، أي: أثَرُ كَلِمَتِه، وهي أمرُ التَّكوينِ؛ إذ كان تكَوُّنُ عيسى عن غيرِ سَبَبِ التكَوُّنِ المُعتادِ، بل كان تكَوُّنُه بِقَولِ اللهِ: كُن، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٨٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٩٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤١).

مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]، فاقتضى أنَّ الرَّسولَ- عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- يُؤمِنُ بعيسى، أي: بِكَونِه رَسولًا مِن الله، وذلك قَطعٌ لِمَعذرةِ النَّصارى في التردُّدِ في الإيمانِ بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، واقتضى أنَّ الرَّسولَ يُؤمِنُ بأنَّ عيسى كلمةُ الله، وليس ابنَ اللهِ، وفي ذلك بيانٌ للإيمانِ الحَقِّ، ورَدٌّ على اليهودِ فيما نسَبُوه إليه، ورَدٌّ على النَّصارى فيما غَلَوْا فيه[1].

بلاغةُ الآيةِ:

١- **قولُه تعالى: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾** تأكيدُ الخَبَرِ بـ (إنَّ) باعتبارِ أنَّ في جملةِ المُخاطَبينَ مُنكِرينَ ومُتَردِّدينَ، استقصاءً في إبلاغِ الدَّعوةِ إليهم[2].

- وتأكيدُ ضَميرِ المُخاطبينَ في (إليكم) بوَصْفِ ﴿جميعًا﴾ الدَّالِّ نصًّا على العُمومِ؛ لرَفعِ احتمالِ تَخصيصِ رِسالَتِه بغيرِ بني إسرائيلَ؛ فإنَّ مِن اليهودِ فريقًا كانوا يزعمونَ أنَّ مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم نبيٌّ، ويزعمونَ أنَّه نبيُّ العَرَبِ خاصَّةً[3].

٢- وتقديمُ المَجرورِ ﴿لَهُ﴾ في **قَولِه: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾** للقَصرِ، أي: لا لِغَيرِه ممَّا يعبُدُه المُشركون، فهو قَصرٌ إضافيٌّ؛ للرَّدِّ على المُشركينَ[4].

٣- **قَولُه: ﴿لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾** حالٌ مِن اسمِ الجلالةِ، في قُوَّةِ (مُتفَرِّدًا بالإلهيَّةِ)، وهذا قَصرٌ حَقيقيٌّ؛ لتحقيقِ صِفةِ الوَحدانيَّةِ، لا لقَصدِ الرَّدِّ على المُشركينَ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٣٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٤٠).

٤- قوله تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ ...﴾ فيه التفاتٌ؛ حيث عَدَل عن الضَّميرِ - فلم يقُل (فآمِنُوا باللهِ وبي)- إلى الاسمِ الظَّاهِرِ؛ لتجريَ عليه الصِّفاتُ التي أُجرِيَت عليه، ولِما في طريقةِ الالتفاتِ من البلاغةِ، وليُعلِمَ أنَّ الذي يجِبُ الإيمانُ به، واتِّباعُه، هو هذا الشَّخصُ المُستقلُّ بأنَّه النبيُّ الأميُّ، الذي يؤمِنُ باللهِ وكلماتِه كائنًا مَنْ كان، أنا أو غيري؛ إظهارًا للنَّصَفةِ، وتفاديًا مِنَ العصبيَّةِ لِنَفسِه[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٩٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٤٨٤).

الآيتان (١٥٩-١٦٠)

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ۝١٥٩ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ
أَسْبَاطًا أُمَمًاۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ
ٱلْحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًاۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْۚ
وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا
رَزَقْنَٰكُمْۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝١٦٠﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ﴾: أي: فرَّقْناهم، وأصلُ (قطع): يدلُّ على صَرمٍ، وإبانةِ شَيءٍ مِن شيءٍ(١).

﴿أَسْبَاطًا﴾: أي: قبائِلَ، وأصلُ (سبط): يدلُّ على امتدادِ شَيءٍ(٢).

﴿اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ﴾: أي: طلَبُوا السُّقيا، والاستِسقاءُ: طلَبُ السَّقيِ، وأصلُ (سقي): إشرابُ الشَّيءِ الماءَ، وما أشبَهَه(٣).

﴿فَانْبَجَسَتْ﴾: أي: انفَجَرت، والبَجسُ: انشقاقٌ في قِربةٍ، أو حَجرٍ، أو أرضٍ يَنبُع منها ماءٌ(٤).

﴿عَيْنًا﴾: العينُ هاهنا إشارةٌ إلى المكانِ الذي ينبُعُ أو يسيلُ منه الماءُ، لا إلى الماءِ بعَينِه، وأصلُ (عين): يدلُّ على عضوٍ به يُبصَر ويُنظَر، ثم يُشتَقُّ منه، وإنَّما

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٠١)، ((الكليات)) لأبي البقاء الكفوي (ص: ٧٤٠).

(٢) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٤)، ((الكليات)) لأبي البقاء الكفوي (ص: ٤٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٨).

(٣) يُنظر: ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٩٩).

سُمِّيَتْ العَيْنُ الجاريَةُ النَّابِعَةُ مِنْ عُيونِ الماءِ عَيْنًا؛ تَشْبيهًا لها بالعَيْنِ النَّاظِرَةِ؛ لصَفائِها ومائِها (١).

﴿مَشْرَبَهُمْ﴾: أي: مَوضِعَ شُربِهم، وهو مَفعَلٌ مِن الشَّرابِ، يكونُ للمَصدَرِ والزَّمانِ والمكانِ(٢).

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾: أي: جَعَلْناه يُظلِّلُكم، والظِّلُّ: ما أظلَّك مِن سحابٍ ونَحوِه. وأصلُ (ظلل): يدلُّ على سَترِ شَيءٍ لشَيءٍ(٣).

﴿الْغَمَامَ﴾: جمعُ غمامةٍ، وهو سحابٌ أبيضُ، سُمِّي بذلك لأنَّه يغمُّ السَّماءَ، أي يستُرُها، وأصلُ الغَمِّ: سَترُ الشَّيءِ، وكُلُّ شيءٍ غطَّيتَه فقد غمَّمتَه(٤).

﴿الْمَنَّ﴾: شيءٌ حُلوٌ كان يسقُطُ على شَجَرِهم، فيجتَنونَه فيأكلونَه، وقيل: المنُّ مصدرٌ يَعُمُّ جميعَ ما مَنَّ اللَّه به على عبادِه مِن غيرِ تَعَبٍ ولا زَرْعٍ، وأصلُ (منن): اصطِناعُ خَيْرٍ(٥).

﴿وَالسَّلْوَى﴾: طائِرٌ يُشبِهُ السُّمانَى، لا واحِدَ له مِن لفظِه، واشتقاقُ السَّلوى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٩٩) ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦١، ٥٩٩).

(٢) يُنظر: ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤٨).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٦١)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ١٩٦) ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٥٣٥).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٥-١٠٦)، ((الكليات)) لأبي البقاء الكفوي (ص: ٦٧١).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٧)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٧٧٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١/ ٤٠٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٧).

من السَّلوةِ؛ لأنَّه لطِيبِه يُسلِّي عن غَيرِه[1].

مشكل الإعراب:

قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾

﴿اثْنَتَيْ﴾ مَنصوبٌ، على أنَّه حالٌ مِن مفعولِ ﴿قَطَّعْنَاهُمْ﴾، أي: فَرَّقْناهم معدودِينَ بهذا العددِ. أو يكون ﴿قَطَّعْنا﴾ متضمِّنًا معنى (صَيَّرنا)، فيَكونُ ﴿اثْنَتَيْ﴾ مَفعولًا ثانيًا، وتمييزُ ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ﴾ محذوفٌ لِفَهمِ المعنى، وتقديره: اثنتَي عَشرةَ فرقةً أو أمَّةً، و﴿أَسْبَاطًا﴾ بدلٌ مِن ذلك التَّمييزِ، و﴿أُمَمًا﴾: نَعتٌ لـ ﴿أَسْبَاطًا﴾، أو بَدَلٌ مِنها بعدَ بدلٍ. ولم تُعرَبْ ﴿أَسْبَاطًا﴾ تمييزًا؛ لوَجهينِ؛ أحدُهما: أنَّ المعدودَ ﴿أَسْبَاطًا﴾ مُذكَّرٌ؛ لأنَّ أسباطًا جمعُ سِبْطٍ، فكان التَّركيبُ يكون (اثْنَيْ عَشَرَ). والثاني: أنَّ تمييزَ العَدَدِ المركَّب- وهو من أحدَ عَشَر إلى تسعةَ عشَرَ- مفردٌ منصوبٌ، و﴿أسباطًا﴾ جَمْعٌ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ الله تعالى أنَّ هناك جماعةً مِن قومِ موسى يهتدونَ بالحَقِّ الذي أنزلَه اللهُ، وبالعَدلِ يَحكمونَ، فلا يَظلمونَ النَّاسِ.

ويُخبِرُ تعالى أنَّه قسَّم قومَ مُوسى إلى اثنتي عشرةَ قبيلةً، تشمَلُ كلُّ قبيلةٍ جماعةً كثيرةً، وأوحى إلى موسى- لَمَّا طلب منه قَومُه أن يسقِيَهم، وهم في التِّيهِ- أنْ يَضرِبَ بعصاه الحَجَرَ، فانفجَرَت منه اثنتا عشرةَ عينًا مِن الماء، قد عَلِمَ كلُّ قبيلةٍ مِن تلك القبائِلِ العينَ التي تخصُّهم، فيشربونَ منها لا يشارِكُهم فيها

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٥).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن لمكي)) (١/ ٣٠٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥٩٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٤٨٤-٤٨٧).

غيرُهم، وظلَّلَ اللهُ عليهم السَّحابَ في التِّيهِ يقيهِم حرَّ الشَّمسِ، وأنزل عليهم المَنَّ والسَّلوى، وأمَرَهم بالأكلِ مِن طيباتِ الرِّزقِ، فخالفوا أمر الله وعصَوه سبحانه، وَمَا ظَلَمُوا الله تعالى بفعلِهم ذلك؛ لأنَّ اللهَ لا تضرُّه معصيةُ العاصينَ، وإنما ظَلَموا بذلك أنفُسَهم.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أمر اللهُ تعالى بالإيمانِ باللهِ ورسولِه، وأمر باتِّباعِه، ذكر أنَّ مِن قَومِ موسى مَن وُفِّقَ للهدايةِ، وعَدَلَ ولم يَجُرْ، ولم تكن له هِدايةٌ إلَّا باتِّباعِ شريعةِ موسى قبل مَبعَثِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وباتِّباعِ شَريعةِ رَسولِ اللهِ بعد مَبعَثِه، فهذا إخبارٌ عمَّن كان مِن قَومِ موسى بهذه الأوصافِ(١).

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾.

أي: ومِن أتباعِ موسى- عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- مِن بني إسرائيلَ، جماعةٌ يهتدونَ بالحقِّ الذي شَرَعَه اللهُ عزَّ وجلَّ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠١)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٨٢)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٦٥)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٦١)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٢٢، ٢٤٢، ٢٤٣).

وتفسير ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ بمعنى: يهتدونَ به فيستقيمونَ عليه، ويعملون به. هو اختيارُ ابنِ جريرٍ، وابنِ عطيةَ، وابنِ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠١)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩١).

وقيل معناه: يرشدونَ النَّاسَ إليه. وهذا اختيارُ الزَّجاجِ، والبغويِّ، والقرطبيِّ، والسَّعدي، وابنِ عاشورٍ، والشنقيطيِّ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٨٢)، ((تفسير البغوي)) =

كما قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣-١١٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩].

وقال جلَّ جلاله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة: ١٢١].

وقال تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ * أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [القصص: ٥٢-٥٤].

﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾.

أي: وبالحقِّ الذي أنزله الله تعالى يحكمونَ، وبالعَدلِ يقومونَ، فلا يظلمونَ النَّاس(١).

= (٢/ ٢٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٢٢، ٢٤٢، ٢٤٣).

قال ابنُ عاشور: (وقَومُ مُوسى هم أتباعُ دِينِه مِن قَبلِ بَعثةِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلم، فمَن بَقِيَ متمسِّكًا بدِينِ مُوسى بعد بلوغ دَعوةِ الإسلامِ إليه، فليس مِن قَومِ موسى، ولكِن يقال: هو مِن بني إسرائيل، أو مِن اليهودِ؛ لأنَّ الإضافةَ في قومِ موسى تؤذِنُ بأنَّهم مُتَّبِعو دينِه الذي من جملةِ أصولِه ترقُّبُ مَجيءِ الرَّسولِ الأُمِّيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠١)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٨٢)، ((تفسير =

﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٠)﴾.

﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾.

أي: وقسَّمنا قومَ موسى - عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- اثنتَي عَشرةَ قبيلةً، كلُّ قبيلةٍ عبارةٌ عن جماعةٍ كثيرةٍ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾.

أي: وقُلْنا لنبيِّنا موسى حينَ طلَب منه قَومُه أن يسقِيَهم ماءً، وهم في التِّيهِ: اضرِبْ بعصاك الحجَرَ[(٢)].

= البغوي)) (٢/ ٢٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩١).
قال السعدي: (وكأنَّ الإتيانَ بهذه الآيةِ الكريمةِ فيه نوعُ احترازٍ ممَّا تقدَّم؛ فإنَّه تعالى ذكَر فيما تقدَّمَ جملةً مِن معايبِ بني إسرائيلَ، المُنافية للكمالِ، المُناقِضة للهدايةِ، فربَّما توهَّمَ مُتوهِّمٌ أنَّ هذا يعمُّ جميعَهم، فذكر تعالى أنَّ منهم طائفةً مستقيمةً، هاديةً مَهديَّةً). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠٢ - ٥٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٤٨).
قال الرازي: (والمرادُ أنَّه تعالى فرَّق بني إسرائيلَ اثنتي عشرةَ فِرقةً؛ لأنَّهم كانوا مِن اثنَي عشَر رجلًا مِن أولادِ يعقوبَ، فميَّزَهم، وفعل بهم ذلك؛ لئلَّا يتحاسَدوا، فيقَعَ فيهم الهَرج والمَرج). ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠٤)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٥٣). =

كما قال تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ [البقرة: ٦٠].

﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗا﴾.

أي: فانفجَرَت مِن الحَجَرِ الذي ضرَبَه موسى بعصاه اثنتا عشرةَ عينًا مِن الماء(١).

كما قال تعالى: ﴿فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: ٦٠].

﴿قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡ﴾.

أي: قد عرَف كُلُّ سِبطٍ- وهم بنو أبٍ واحدٍ- عينَهم التي تخرُجُ مِن الحَجَرِ، فيَشربونَ منها، ولا يشارِكُهم فيها غيرُهم مِن الأسباطِ(٢).

﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ﴾.

أي: وسَتَرْنا قومَ موسى بالسَّحابِ، يقيهم مِن حَرِّ الشَّمسِ، وهم في التِّيهِ(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ [البقرة: ٥٧].

= قال السعدي: (يحتملُ أنَّه حجَرٌ مُعَيَّن، ويحتملُ أنَّه اسمُ جنسٍ، يشمَلُ أيَّ حجرٍ كان). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦). ويُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٥٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠٤)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٤٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠٤)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٤١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٥٦).

قال السَّعدي: (أي: قد قَسَمَ على كلِّ قبيلةٍ من تلك القبائِلِ الاثنتَي عشرةَ، وجَعَلَ لكلٍّ منهم عينًا، فعَلِموها، واطمأنُّوا، واستراحوا من التَّعَبِ والمُزاحمة والمُخاصَمة، وهذا مِن تَمامِ نعمةِ اللهِ عليهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٩٨) و(١٠/ ٥٠٤)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٥٧).

﴿وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ﴾.

أي: وأنزَلْنا على قَومِ موسى، وهم في التِّيهِ، رِزقًا طيِّبًا سَهلًا، يحصُلون عليه بلا كُلفةٍ، ولا مشقَّةٍ، وهو المَنُّ: الذي قيل: إنَّه كل ما امتنَّ الله تعالى به عليهم مِن الطَّعامِ والشَّرابِ، ممَّا ليس في تحصيلِه كلفةٌ ولا مشقَّةٌ. قيل: هو التُّرَنجَبين، وهو شيءٌ أبيضُ ينزِلُ على الشَّجَرِ كالنَّدى، حُلوٌ، يُشبِه العَسَلَ الأبيض، والسَّلوى: وهو طائر، قيل: هو السُّمَانَى، وقيل: يُشبِه السُّمَانَى[1].

كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ٥٧].

وعن سعيدِ بنِ زَيدٍ رَضيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((الكَمْأةُ مِن المَنِّ[2]))[3].

﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ﴾.

أي: وقُلنا لقومِ موسى: كُلُوا مِن حَلالِ المُستلَذَّاتِ التي رزَقْناكم[4].

﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٧٠٤) و (١٠/ ٥٠٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (١/ ١٣٨)، ((المفردات)) للراغب الأصفهاني (ص: ٧٧٨)، ((تفسير الشوكاني)) (١/ ١٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٥٧).

(٢) الكَمأةُ: نَباتٌ لا وَرَقَ لها ولا ساقَ، تُوجَدُ في الأرضِ مِن غَيرِ أن تُزرَعَ، وتُعرَف عندَ بعضِ الناسِ بالفقع.
والمَنُّ: هو الذي أُنزِلَ على بني إسرائيلَ، وشَبَّهَ به الكَمأةَ؛ بجامِعِ ما بَينَهما من وجودِ كُلٍّ منهما عَفوًا بغيرِ عِلاجٍ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ١٦٣)، ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٦/ ٧١٠).

(٣) رواه البخاري (٤٤٧٨) ومسلم (٢٠٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١/ ٤٠٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٩١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٥٨ - ٢٥٩).

أي: فعَصَوني، ولم يشكُروا نِعمَتي عليهم، وما أدخَلوا علينا بذلك نقصًا في مُلكِنا، ولم يضرُّونا، ولكن كانوا يَنقُصونَ أنفُسَهم حُظوظَها مِن الخَيرِ، ويضرُّونها بتعريضِها لاستحقاقِ عِقابي(١).

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

المُكَلَّفُ إذا أقدَمَ على المعصيةِ، فهو ما أضَرَّ إلَّا نَفسَه؛ حيث سعى في صيرورةِ نَفسِه مُستحِقَّةً للعِقابِ العَظيمِ؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(٢).

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ فالأمَمُ العظيمةُ لا تخلو مِن أهلِ الحَقِّ والعَدلِ، فهذا مِن بَيانِ القرآنِ للحَقائِقِ، وعَدْلِه في الحُكم على الأمَمِ(٣).

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ لَمَّا وصَفَهم بهذه الكثرةِ في قَولِه: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾، وكان ذلك مجرى لِذِكرِ الإنعامِ عليهم بالكِفايةِ في الأكلِ والشُّربِ؛ ذكَرَ نعمةً خارقةً للعادةِ في الماءِ، وبدأ به؛ لأنَّه الأصلُ في الحياةِ(٤).

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠٥)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١/ ٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٨٨، ٣٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٠٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٣٣).

الْحَجَرَ﴾، التعبيرُ بالقَومِ إشارةٌ إلى تبكيتِهم بكَونِهم أهلَ قُوَّةٍ، ولم يتأسَّوا بموسى عليه السَّلامُ، في الصَّبرِ إلى أن يأتيَ اللهُ- الذي أمَرَهم بهذا المسيرِ- بالفَرَجِ(١).

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ لَمَّا أتمَّ تبريدَ الأكبادِ، أتبعَه غذاءَ الأجسادِ(٢).

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ هنا قَولٌ مُقَدَّرٌ يكثُرُ مِثلُه في التَّنزيلِ وكلامِ العَرَبِ، أي: (وقُلْنا لهم: كُلُوا من طيِّباتِ ما رَزَقْناكم)، فوُضِعَ هذا الوصفُ للمَنِّ والسَّلوى موضِعَ الضَّميرِ؛ لتعظيمِ شأنِ المنَّةِ بهما(٣).

بلاغة الآيتين:

١- **قوله:** ﴿**وَمِنْ قَوْمِ مُوسى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ**﴾ فيه تَخصيصٌ لظاهِرِ العُمومِ الَّذي في قَولِه: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى...﴾ قُصِدَ به الاحتراسُ؛ لِئلَّا يُتوهَّمَ أنَّ ذلك قد عَمِلَه قومُ موسى كلُّهم، وللتَّنبيهِ على دفعِ هذا التوهُّمِ، قَدَّمَ ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾ على متعَلَّقِه. وفيه إشارةٌ إلى التَّقليلِ، وأنَّ مُعظَمَهم لا يهدي بالحَقِّ، ولا يَعدِلُ به، وهم إلى الآن كذلك؛ دخَل في الإسلامِ مِن النَّصارى عالَمٌ لا يعلَمُ عددَهم إلَّا اللهُ تعالى، وأمَّا اليَهودُ فقليلٌ مَن آمَنَ مِنهم(٤).

- وتقديمُ المجرورِ في قَولِه: ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ للاهتمامِ به ولرعايةِ الفاصِلةِ؛ إذ لا مُقتضيَ لإرادةِ القَصرِ، بقرينة قَولِه: ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ حيث لم يُقدِّمِ المجرورَ(٥).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٣٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ١٣٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣١١).
(٤) يُنظر: ((البحر المحيط)) (٥/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤٢).

- وجاء قولُه: ﴿يَهْدُونَ﴾ و﴿يَعْدِلُونَ﴾ بصيغةِ المضارعِ المفيدِ الاستمرارَ؛ لتصويرِ الماضي في صورة الحاضِرِ(١).

٢- قوله: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

- جيءَ باسمِ العَدَدِ بصيغةِ التأنيثِ في قولِه: ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾؛ لأنَّ السبطَ أُطلِقَ هنا على الأُمَّة، فحذفَ تمييز العددِ؛ لدلالةِ قولِه: ﴿أُمَمًا﴾ عليه(٢).

- وتعريفُ الحَجَرِ؛ لتعظيمِ جِرمِه(٣).

- قَولُه ﴿فَانْبَجَسَتْ﴾ عطفٌ على مقدَّرٍ ينسحبُ عليه الكَلامُ قد حُذِفَ؛ أي: فضَرَب فانبجَسَت؛ تعويلًا على كَمالِ الظُّهورِ، وإيذانًا بغايةِ مُسارَعَتِه عليه السَّلامُ إلى الامتثالِ، وسُرعةِ التأثيرِ عن ضَربه، وتنبيهًا على كَمالِ سرعةِ الانبجاسِ- وهو الانفجارُ، كأنَّه حصل إثرَ الأمرِ قبلَ تحقُّقِ الضَّربِ(٤).

- وقولُه هنا في سورةِ الأعرافِ: ﴿فَانْبَجَسَتْ﴾، وفي سورةِ البقرةِ: ﴿فَانْفَجَرَتْ﴾ فيه مناسبةٌ حسنةٌ، فالانبجاسُ ابتداءُ الانفجارِ، والانفجارُ بعدَه غايةٌ له، فلما كان الواقعُ في الأعرافِ طلبَ بني إسرائيلَ مِن موسَى عليه السلامُ السُّقيا؛ قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ﴾، ولما كان الواردُ في

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٠٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤٢، ١٤٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٠٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٨٢)، ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٣٣)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٢٧).

سورةِ البقرةِ طلبَ موسَى عليه السلامُ مِن ربِّه، قال تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ فطلبُهم ابتداءٌ، فناسَبه الابتداءُ، وطلبُ موسَى عليه السلامُ غايةٌ لطلبِهم؛ لأنَّه واقعٌ بعدَه، ومرتَّبٌ عليه، فناسب الابتداءُ الابتداءَ، والغايةُ الغايةَ، فقيل جوابًا لطلبِهم: ﴿فَانْبَجَسَتْ﴾، وقيل إجابةً لطلبِه: ﴿فَانْفَجَرَتْ﴾ وتناسَب ذلك، وجاء على ما يجِبُ، ولم يكنْ ليناسبَ العكسُ[1]، وأيضًا لأنَّ الانفجارَ أبلغُ في كثرةِ الماءِ، فناسَبَ سِياقَ ذِكْرِ النِّعَمِ في سورةِ البقرةِ التعبيرُ به[2].

- قولُ اللهِ تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ إسنادُ الرِّزقِ إلى ضميرِ جَمعِ العَظَمةِ تأكيدٌ؛ للتَّنبيه والتَّذكيرِ بما يجِبُ مِن شُكرِه تعالى على ذلك[3].

- قَولُه: ﴿ولكن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ تقديمُ المفعولِ ﴿أَنْفُسَهُمْ﴾ لإفادةِ القصْرِ الذي يقتضيه النفيُ السَّابقُ، وفيه ضَربٌ مِن التهكُّمِ بهم. والجمعُ بين صِيغَتي الماضي والمستقبَلِ؛ للدَّلالةِ على تمادِيهم فيمَا هُم فيهِ من الظُّلمِ والكُفرِ[4].

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل)) للغرناطي (١/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٨٢-٢٨٣).

الآيتان (١٦١-١٦٢)

﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿ حِطَّةٌ ﴾: أي: طَلَبُنا أن تحُطَّ عنَّا ذنوبَنا، وأصلُ الحطِّ: إنزالُ الشَّيءِ مِن علوٍّ[(١)].

﴿ سُجَّدًا ﴾: أي: رُكَّعًا، والسُّجودُ أصلُه: التَّطامُن والتَّذلُّل، وجُعِلَ ذلك عبارةً عن التَّذلُّلِ لله، وعبادَتِه، وهو عامٌّ في الإنسانِ والحيواناتِ والجَماداتِ[(٢)].

﴿ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ﴾: جمعُ خطيئةٍ، وهي فعيلةٌ مِن الخطأِ، وهو العُدولُ عن القَصدِ والجِهةِ؛ يقال: خَطِئَ الرجلُ يَخْطَأُ خِطْأً: إذا تعمَّدَ الذَّنبَ[(٣)].

المعنى الإجماليُّ:

واذكرُ- يا محمَّدُ- إذ قال اللهُ لِقَومِ موسى: اسكُنوا بيتَ المَقدِس، وكُلوا مِن ثِمارِها وحُبوبِها ونَباتِها في أيِّ مكانٍ شِئتُم منها، وقولوا: مسألَتُنا يا ربَّنا أن تحُطَّ ذُنوبَنا، وادخُلوا بابَ القريةِ ركَّعًا متواضعينَ خاضعينَ للهِ، نَغْفِرْ لكم ذُنوبَكم، وسنزيدُ المُحسنينَ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١/ ٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٣)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٢٤٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١/ ١٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٧).

فغَيَّرَ الذين ظَلَموا مِن قَومِ موسى قولًا غيرَ الذي أُمِرُوا أن يقولوه، فأرسَلَ اللهُ عليهم عذابًا مِن السَّماءِ؛ بسبَبِ ظُلمِهم لأنفُسِهم بالمعاصي.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكرَ اللهُ تعالى ما حَباهم في القِفارِ؛ أتبَعَه إنعامَه عليهم عند الوُصولِ إلى الدَّارِ، فقال سبحانه[1]:

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ﴾.

أي: واذكُرْ- يا مُحمَّدُ- حين قال اللهُ تعالى لقَومِ موسى لَمَّا خَرَجوا مِن مِصرَ: اسكنُوا مدينةَ بيتِ المَقدِس، واستوطِنُوها[2].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ * يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ * قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦).
قال الشنقيطيُّ: (وأكثرُ المفسِّرين على أنَّ هذه القريةَ هي بيتُ المقدسِ، وبعضُ المفسِّرين يقولُ: هي أَرِيحا. وبعضُهم يقولُ غيرَ ذلك، فهي قريةٌ في فلسطينَ مِن قُرَى الشَّامِ). ((العذب النمير)) (٤/ ٢٦٠).

مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ [المائدة: ٢٠-٢٢].

﴿وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾.

أي: قال الله لِقَومِ موسى: وكُلُوا مِن ثِمارِ هذه القَريةِ وحُبوبِها ونَباتِها، في أيِّ مكانٍ شِئتُم منها[١].

﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾.

أي: وقولوا: طَلَبُنا ومسألَتُنا- يا ربَّنا- أن تحُطَّ ذُنوبَنا[٢].

﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾.

أي: وادخُلوا بابَ القَريةِ رُكَّعًا مُنحَنينَ مُتواضِعينَ، وخاضِعينَ لله تعالى[٣].

﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ﴾.

أي: إذا قُمتم بما أمَرَكم اللهُ تعالى به فقُلتم: حِطَّةٌ، ودخَلْتُم بابَ القَريةِ ساجِدينَ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٨٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠٥)، ((تفسير السمعاني)) (١/ ٨٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦).

اختار أنَّ السُّجودَ هنا بمعنى الانحناءِ تواضعًا وخضوعًا لله تعالى: مقاتلُ بن سليمان، والسمعاني، وابنُ تيميةَ، وابنُ القيِّم، وابنُ عاشورٍ، ونسَبَ ابنُ جريرٍ لابنِ عبَّاس أنَّه انحناءُ ركوعٍ، ولم يحْكِ قولًا سواه. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٦٩)، ((تفسير السمعاني)) (١/ ٨٣)، ((مجموع الفتاوى)) (٢٣/ ١٣٧)، ((الفتاوى الكبرى)) (١/ ٣٥٨)، ((زاد المعاد)) (٤/ ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥١٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٧١٤).

وقيل: بل هو سُجودُ شُكرٍ لله تعالى، وهذا ظاهِرُ اختيارِ ابنِ كثيرٍ، واختاره الشِّنقيطي، وابنُ عثيمينَ، في تفسيرِهم لنظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ البَقَرة. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٧٤)، ((العذب النمير)) (١/ ١١٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة البقرة)) (١/ ١٩٩-٢٠٠).

فإنَّنا نستُرُ جميعَ ذُنوبِكم، ونتجاوَزُ عن مؤاخَذَتِكم بها(١).

﴿سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

أي: سنزيدُ المُطيعينَ لله، الذين أحسَنوا أعمالَهم، وأتقَنوها بمراقبةِ اللهِ تعالى فيها، فعَبَدوه كأنَّهم يَرونَه؛ سنزيدُهم على مَغفِرَتِنا لذُنوبهم، ثوابًا مِن خيرِ الدُّنيا والآخِرة(٢).

كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

وقال سبحانه: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ [النحل: ٣٠].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وقال تبارك وتعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ [الشورى: ٢٠].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ [الشورى: ٢٣].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بارزًا يومًا للنَّاسِ، فأتاه جبريلُ، فقال: ما الإحسانُ؟ قال: أن تعبُدَ اللهَ كأنَّك تراه، فإنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (١/ ١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦).

ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١/ ٤١٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٦٤-٢٦٦).

لم تكُنْ تراه فإنَّه يراك))[1].

﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ ﴾.

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾.

أي: فغيَّر الظَّالمون مِن قَومِ موسى ما أمَرَهم اللهُ أن يَقولوه ليغفِرَ لهم ذُنوبَهم، فقالوا بدَلَ حِطَّة: حَبَّةٌ في شَعرةٍ[2]!!

عن أبي هريرةَ رَضيَ الله عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((قيل لبني إسرائيلَ: ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ [البقرة: ٥٨] فبدَّلوا، فدَخَلوا يزحَفونَ على أسْتاهِهم، وقالوا: حبَّةٌ في شَعرة))[3].

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

أي: فبَعَثْنا على الذين بدَّلوا ما أمَرَهم الله به، عذابًا نزَلَ عليهم من السَّماءِ؛ إمَّا الطَّاعونَ، وإمَّا غيرَه[4].

كما قال تعالى: ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ٥٩].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٤].

وعن أسامةَ بنِ زيدٍ رَضيَ اللهُ عنهما، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه

(١) رواه البخاري (٥٠) ومسلم (٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠٦)، ((الوسيط)) للواحدي (١/ ١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٧٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦).

(٣) رواه البخاري (٤٦٤١)، واللفظ له، ومسلم (٣٠١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠٦)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦).

وسلَّم: ((الطَّاعونُ رِجزٌ أو عذابٌ أُرسِلَ على بني إسرائيلَ، أو على مَن كان قَبلَكم، فإذا سَمِعتُم به بأرضٍ، فلا تَقدَمُوا عليه، وإذا وقَعَ بأرضٍ وأنتم بها، فلا تَخرُجوا فرارًا منه))[1].

﴿بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾.

أي: أرسَلْنا على قومِ موسى العذابَ؛ بسبَبِ ظُلمِهم لأنفسِهم بمعصيةِ اللهِ[2].

الفَوائد التربويَّة:

قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ العبرةُ فيه أن نتَّقيَ الظُّلمَ والفِسقَ، ونَعلَمَ أنَّ اللهَ يُعاقِبُ الأمَمَ على ذُنوبِها في الدُّنيا قبل الآخرةِ، وأنَّه قد عاقب بني إسرائيلَ بظُلمِهم، ولم يَحُلْ دون عقابِه ما كان لهم مِن المزايا والفضائِلِ، وكثرةِ وُجودِ الأنبياءِ فيهم[3].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ عبَّر هنا بالمجهولِ في ﴿قيل﴾ أي: مِن أيِّ قائلٍ كان، وبأيِّ صيغةٍ ورَدَ القَولُ، وعلى أيِّ حالةٍ كان؛ وذلك إعراضًا عن تلذيذِهم بالخِطابِ؛ إيذانًا بأنَّ هذا السِّياقَ للغَضَبِ عليهم؛ بتساقُطِهم في الكُفرِ، وإعراضِهم عن الشُّكرِ، وإظهارًا للعَظَمةِ؛ حيث كانت أدنى

---

(١) رواه البخاري (٦٩٧٤) ومسلم (٢٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٠٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦).

قال أبو السُّعود: (﴿بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ بسبَبِ ظُلمِهم المستمِرِّ السَّابِقِ واللَّاحِقِ، حسَبَما يفيدُه الجَمعُ بين صيغَتَي الماضي والمستقبَل، لا بسبَبِ التَّبديلِ فقط). ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣١٥-٣١٦).

إشارةٍ منه كافيةً في سُكناهم في البِلادِ، واستقرارِهم فيها، قاهِرينَ لأهلِها الذين مَلؤُوا قلوبَهم هيبةً(١).

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ﴾ جُمِعَ ﴿خَطِيئَاتِكُمْ﴾ جمعَ قِلَّةٍ؛ للإشارةِ إلى أنَّها قليلٌ في جَنبِ عَفوِه تعالى(٢).

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ لَمَّا كان مِن المعلومِ أنَّ القائِلَ مَن له إلزامُهم، بنى الفِعلَ للمَجهولِ في قَولِه ﴿قِيلَ لَهُمْ﴾(٣).

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ لم يُفصِّلْ نوعَ العَذابِ الذي أصابَهم؛ لأنَّ غَرَضَ القصَّةِ يتمُّ بدون تعيينِه، فالغَرَضُ هو بيانُ عاقبةِ المعصيةِ عن أمرِ اللهِ، وتحقيقُ النُّذْرِ، ووقوعُ الجزاءِ العادِلِ الذي لا يُفلِتُ منه العُصاةُ(٤).

بلاغة الآيتين:

- هاتان الآيتان (١٦١-١٦٢) من سورةِ الأعرافِ، نظيرُ ما في سورةِ البَقَرةِ، وهو قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٨- ٥٩]، وفِيهما مُناسَباتٌ حَسنةٌ من وجوهٍ، وبيانُ ذلك على النحو التالي(٥):

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٣٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ١٣٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ١٣٧).
(٤) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٣٨٢).
(٥) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٣٦- ٤٠)، ((أسرار التكرار في القرآن)) =

- عبَّر هنا في سورة الأعرافِ بقَولِه: ﴿اسْكُنُوا﴾، وفي سورةِ البَقَرةِ بقَولِه: ﴿ادْخُلُوا﴾ لأنَّ القَولينِ قيلَا لهم، أي قيل لهم: ادخُلوا واسكُنوها. وقيل: إنَّ أمْرَهم بدخولِ القَريةِ مُغايِرٌ مِن حيث المعنى لأمْرِهم بسُكناها، وإن كان الأمرُ بدُخولِهم قد يُشيرُ بما نُسِقَ معه إلى سُكناها، لكنْ ليس نصًّا، بل ولا هو ظاهِرٌ، وإنَّ آيةَ الأعراف بيَّنَتْ ذلك، وأوضحتِ المقصودَ، وحصَل الأمرُ بالدُّخول والسُّكنى، وتبيَّنَ وجهُ ورودِ العِبارَتينِ على الترتيبِ.

- وقال هنا: ﴿وَكُلُوا﴾ وفي سُورةِ البقرة قال: ﴿فَكُلُوا﴾ بَحرْفِ التعقيبِ؛ لأنَّ الأكلَ لا يكونُ إلَّا بعد الدُّخولِ، ولا يكونُ قَبلَه ولا معه، وإنَّما يكونُ مرتَّبًا عليه، ولأنَّ الدُّخولَ سَريعُ الانقِضاءِ فيتبَعُه الأكلُ؛ فجيءَ بالحرفِ الذي يُبيِّنُ ذلك المعنى، ويُفيدُ أنَّه على التعقيبِ مِن غيرِ مُهلة. وأمَّا قولُه: ﴿وَكُلُوا﴾ هنا في سورة الأعراف؛ فلأنَّ السَّكَنَ مُنجرٌّ معه الأكلُ ومُساوِقٌ له، ولا يمكِنُ أن يكونَ مُرتَّبًا عليه؛ فجاء بالحَرفِ الصَّالح لذلك المعنى، وهو الواو، والمعنى: أقيموا فيها، وذلك ممتَدٌّ؛ فذُكِرَ بالواو، أي: اجمَعوا بين الأكلِ والسُّكونِ؛ فقيلَ في البقرة بما يُرادِفُ فاءَ التعقيبِ؛ لأنَّ التعقيبَ معنًى زائدٌ على مُطلَقِ الجَمعِ، الذي تفيدُه واو العَطفِ في سورة الأعرافِ.

- وردَ قَولُه: ﴿رَغَدًا﴾ في البقرة، ولم يَرِدْ في الأعراف؛ وذلك لأنَّ مفهومَ السُّكنى الوارد في الأعرافِ، مع الأمرِ بالأكلِ حيث شاؤوا، مع انضمامِ معنى الامتنانِ والإنعامِ المقصودِ في الآيةِ؛ كلُّ ذلك مُشعِرٌ ومعرِّفٌ بتمادي الأكلِ، وقوَّةُ السِّياقِ مانعةٌ مِن التَّحجير والاقتصارِ؛ فحصل معنى الرَّغَد، فوقَع الاكتفاءُ بهذا المفهومِ الحاصِل قطعًا من سياقِ آيةِ الأعرافِ، ولو لم

= للكرماني (ص: ٧٢- ٧٤)، ((البرهان)) للزركشي (١/ ١٢٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٢٥- ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤٤-١٤٦).

يَرِد في سورةِ البَقَرة لم يُفهَم من سياقِ الآية كفَهمِه مِن سياقِ آية الأعرافِ، وأيضًا ذَكَرَ ﴿رَغَدًا﴾ في سورةِ البقرة؛ لأنَّ زيادةَ المنَّة أدخَلُ في تقويةِ التَّوبيخِ، وأيضًا لأنَّه سبحانه أسنَدَه إلى ذاتِه بلَفظِ التَّعظيمِ، وهو قولُه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ بخلافِ ما في الأعراف؛ فإنَّ فيه ﴿وَإِذ قِيلَ﴾.

- واقتُصِرَ هنا على حِكايةِ أنَّه قيل لهم، وكانت آيةُ البقرةِ أَوْلى بحكايةِ ما دلَّت عليه فاءُ التَّعقيبِ؛ لأنَّ آيةَ البقرةِ سيقَت مَساقَ التَّوبيخِ، فناسَبَها ما هو أدَلُّ على المنَّةِ، وهو تعجيلُ الانتفاعِ بخَيراتِ القَريةِ، وآياتُ الأعرافِ سِيقَت لمجرَّدِ العبرةِ بقصَّةِ بني إسرائيلَ، ولأجْلِ هذا الاختلافِ مُيِّزَت آيةُ البَقَرة بإعادةِ الموصولِ وصِلَتِه في قَولِه: ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا﴾، وعُوِّضَ عنه هنا بضميرِ ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾؛ لأنَّ القَصدَ في آيةِ البَقَرة بيانُ سببِ إنزالِ العَذابِ عليهم مرَّتين، أُشيرَ إلى أولاهما بما يومِئُ إليه الموصولُ مِن علَّةِ الحُكم، وإلى الثَّانية بحرف السببيَّةِ، واقتصَرَ هنا على الثاني.

- وقد وقع في سورة البَقَرة لفظ ﴿فَأَنْزَلْنَا﴾، ووقع هنا لَفظُ ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾ ولَمَّا قُيِّدَ كِلاهما بقوله: ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ كان مفادُهما واحدًا، فالاختلافُ لمجرَّدِ التفنُّنِ بين القصَّتينِ، أو لأنَّ لَفظَ الرَّسولِ والرِّسالة كَثُر في الأعرافِ، فجاء ذلك وَفقًا لِما قَبلَه، وليس كذلك في سورةِ البقرةِ.

- وعبَّر هنا ﴿بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ وفي البقرة ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾؛ لأنَّه لَمَّا اقتضى الحالُ في القِصَّتينِ تأكيدَ وَصْفِهم بالظُّلم، وأُدِّي ذلك في البقرة بقَولِه: ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾- استُثقِلت إعادةُ لَفظِ الظُّلمِ هنالك مرةً ثالثةً، فعدَلَ عنه إلى ما يُفيدُ مفادَه، وهو الفِسقُ، وهو أيضًا أعَمُّ، فهو أنسبُ بتذييلِ التَّوبيخِ، وجِيء هنا بلَفظِ ﴿يَظْلِمُونَ﴾؛ لئلَّا يفوتَ تسجيلُ الظُّلمِ عليهم مرةً ثالثةً، فكان تذييلُ آيةِ البَقَرة أنسبَ بالتَّغليظِ في ذمِّهم؛

لأنَّ مقامَ التَّوبيخِ يَقتضيه. وقيل: إنَّ وجهَ ذلك: أنَّه لَمَّا وُصِفَ اعتداؤُهم نِيطَت بهم أوَّلًا صفةُ الظُّلمِ، ومِن المعلومِ أنَّ مَواقِعَه تتَّسِعُ، ثُم لَمَّا ذَكَر من اعتدائِهم وسُوءِ مُرتَكَبِهم غيرَ ما تَقَدَّم، وتضاعَفَ مُوجِبُ وَبيلِ جَزائِهم- وُصِفوا بالفِسقِ المُنبئِ عن حالٍ أوبَقَ من الظُّلم، فالفِسقُ نقيضُ الإيمانِ، وفي طَرَفٍ منه؛ كما في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾، والظُّلمُ قد يقعُ على أضعَفِ المعاصي، ولوقوعِه على مُختَلفاتِ المآثِمِ، ومُطابَقتِه لِما قَلَّ أو كثُرَ منها، وُصِفَ بالعِظَمِ حين أُريدَ به الشِّركُ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾. وإذا تقرَّرَ هذا، فسياقُ آياتِ البَقَرة مِن لَدُن قولِه تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ إلى ذِكرِ وَصْفِهم بتظليلِهم بالغمام؛ ذُكروا فيه أولًا بالظُّلم، فقال تعالى عَقِبَ ذِكرِ تظليلِهم بالغَمامِ: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، ثم أردفَ ذِكرَ اعتدائِهم في تبديلِهم قولًا غيرَ الذي قيل لهم، وأعقَبَ بقولِه: ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾، وجَعَلَ الفِسقَ ختامَ وصفِهم الجاري؛ جزاءً على مُرتَكَباتِهم، ولم يقَعْ بعده ذِكرُ علَّةٍ مَنوطةٍ بجزاءِ ما وقعَ منهم، وأمَّا آيةُ الأعراف فهي جاريةٌ على منهجِ ما ورد في سورة البَقَرةِ، وأنَّ أوَّلَ وَصفِهم جزاءً على مُرتكَباتِهم قَولُه: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾، ثم قال تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾؛ فطابَقَ هذا ما ورَدَ في البقرةِ مِن تَقَدُّم وصفِهم أوَّلًا بالظُّلم، ثم بعد ذلك بالفِسقِ، ووضَحَ الاتِّفاقُ في ختامِ القِصَّة في السُّورتينِ مِن غيرِ اختلافٍ فيهما.

- ووقع في هذه الآية ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ ولم يقَعْ لَفظُ ﴿مِنْهُمْ﴾

في سورةِ البَقَرة، ووجهُ زيادَتِها هنا: التصريحُ بأنَّ تبديلَ القَولِ لم يصدُرْ مِن جَميعِهم، وأجمَلَ ذلك في سورة البقرة؛ لأنَّ آيَةَ البقرة لَمَّا سِيقَت مساقَ التَّوبيخ ناسَب إرهابَهم بما يُوهِمُ أنَّ الذين فعلوا ذلك هم جميعُ القَومِ؛ لأنَّ تَبِعاتِ بعض القبيلةِ تُحمَلُ على جماعَتِها؛ لأنَّ آيَةَ البَقَرة يُفهَم منها أنَّها ليست على عُمومِها، فزادت آيةُ الأعراف تخصيصًا سمعيًّا بما يعطيه حرفُ التَّبعيضِ في قولِه تعالى: ﴿مِنْهُمْ﴾، وآيةُ الأعراف مخَصِّصةٌ للعموم البادي من آيةِ البقرة؛ ولهذا القَصدِ من التَّخصيصِ ورد أيضًا في سورة البَقَرة: ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ ولم يَرِدْ فيها (فأنزَلْنا عليهم)؛ لأنَّه لو ورد كذلك لكان يتناوَلُ المتقدِّمَ ذكرُهم على التَّعميمِ، وليس مقصودًا، فناسب: ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنَّ المُعَذَّب هو الظَّالم ممَّن تَقدَّم، وجاء في الأعراف: ﴿عَلَيْهِمْ﴾؛ لتخصيصِ ذِكرِ الظَّالمِ بقَولِه: ﴿مِنْهُمْ﴾ فجاء كلٌّ على ما يجِبُ.

- وقدَّم في سورةِ البَقَرة قَولَه: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ على قَولِه: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ وعَكَسَ هنا في الأعرافِ؛ لأنَّ قَولَهم: (حِطَّةٌ) دعاءٌ أُمِروا به في سُجودِهم، فلو ورد في السُّورتينِ على حدٍّ سواءٍ، لأوهَم من حيث مقتضى الواو من الاحتمالِ، أنَّهم أُمِروا بالسُّجودِ والقَولِ منفصلينِ غيرَ مُساوِقٍ أحدُهما للآخَرِ، على أحدِ مُحتمَلاتِ الواو في عدمِ الرُّتبة، فقَدَّمَ وأخَّرَ في السُّورتين؛ ليُحرِزَ المجموعُ أنَّ المرادَ بهذا القَولِ أن يكونَ في حالِ السُّجودِ لا قَبلَه ولا بَعدَه وتعيَّن بهذا معنى المعيَّةِ مِن محتَمَلات الواوِ، وتحرَّرَ المقصودُ، وأنَّ المراد: وادخلوا البابَ سجَّدًا قائلينَ في سجودكم: حِطَّةٌ، فاكتفى بتقلُّبِ الورودِ عن الإفصاحِ بمعنى المعيَّة؛ إيجازًا جليلًا، وبلاغةً عظيمةً، وقدَّم في البقرةِ الأمرَ بالسُّجودِ؛ لأنَّ ابتداءَ السُّجودِ يتقدَّمُ ابتداءَ الدُّعاءِ، ثمَّ يتساوَقُ

المطلوبانِ، فجاء ذلك على التَّرتيبِ الثَّابتِ في السُّور والآياتِ.

ومن عادة العَرَب في كلامِهم: أنَّهم يقَدِّمونَ ما بيانُه أهَمُّ لهم، وهم به أعْنَى؛ فقولُه تعالى: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ مقتضاه على ما تمهَّدَ الابتداءُ بأوَّلِ الأمرَينِ، فلا يمكنُ تحصيلُ ذلك في الآيتين إلَّا بالمساوَقةِ، وكونِهما معًا في حالةٍ واحدةٍ. وقيل: هو اختلافٌ في الإخبارِ لمُجرَّد التفنُّنِ؛ فإنَّ كِلا القولينِ واقعٌ، قُدِّم أو أُخِّر.

- وأمَّا الاختلافُ في جمعِ خطيئة في السُّورتين؛ فإنَّها تُجمَع من حيثُ ثبوتُ تاء التأنيث في الواحدةِ منها بالألفِ والتاءِ، وتُجمَع أيضًا جمع تكسيرٍ، وورد جمعُها في البقرة جمعَ تكسيرٍ؛ ليُناسِبَ ما بُنِيَت عليه آياتُ البقرة من تَعدادِ النِّعَم والآلاءِ، لأنَّ جموعَ التَّكسير- ما عدَا الأربعةَ الأبنيةِ التي هي: (أفعُل وأفعال وأفعِلة وفِعْلة)- إنما ترِدُ في الغالِبِ للكثرة؛ فطابق الوارِدُ في البَقَرة ما قُصِدَ من تكثيرِ الآلاءِ والنِّعَم، وأمَّا الجمعُ بالألف والتَّاء فبابُه القِلَّةُ في الغالِبِ أيضًا ما لم يقتَرِنْ به ما يبَيِّنُ أنَّ المرادَ به الكثرةُ؛ فناسَب ما ورد في الأعرافِ من حيثُ لم تُبْنَ آياتُها على قَصدِ تَعدُّد النِّعَم، على ما بُنيَت عليه آياتُ البَقَرة، ولأنَّ صِيغةَ الجَمعِ الكثيرِ ومَغفِرَتَها في قوله: ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾، أليقُ في آيةِ البقرةِ بإسنادِ الفِعلِ إلى نفْسِه سبحانَه؛ فجاء كلٌّ على ما يناسِبُ.

- وأيضًا قولُه: ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ فيه وعدٌ بشيئينِ: بالغُفرانِ، وبالزِّيادةِ، وطَرحُ الواو لا يُخلُّ بذلك؛ لأنَّه استئنافٌ مُرتَّبٌ على تقديرِ قَولِ القائِلِ: وماذا بعد الغُفرانِ؟ فقيل له: ﴿سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾[١].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٧٠).

الآيات (١٦٣-١٦٦)

﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾: أي قريبةً مِن شاطِئِه، وأصلُ (حضر) إيرادُ الشَّيءِ، ووُرودُه ومُشاهَدَتُه(١).

﴿يَعْدُونَ﴾: أي: يتعَدَّون ويُجاوِزونَ ما أُمِروا به، أو يظلمونَ؛ يقال: عَدَوْتُ على فلانٍ: إذا ظَلَمْتَه، والاعتِداءُ: مُجاوزةُ الحقِّ(٢).

﴿حِيتَانُهُمْ﴾: الحوتُ: السمكُ، وقيل: العَظيمُ مِنه، وهو مُضطرِبٌ أبدًا غيرُ مُستقِرٍّ، ويقال: حاوَتَني فلانٌ، أي: راوَغَني مُراوغةَ الحُوتِ، وأصله: مِن الاضطرابِ والرَّوغانِ(٣).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٠)، ((الكليات)) لأبي البقاء الكفوي (ص: ٤١٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١١).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١١٤)، ((المحكم والمحيط الأعظم)) لابن سيده (٣/ ٤٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦١)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٨٣).

﴿شُرَّعًا﴾: أي: ظاهرةً، واحِدُها شارعٌ، وأصلُ (شرع): شيءٌ يُفتَح في امتدادٍ يكونُ فيه(١).

﴿لا يَسْبِتُونَ﴾: أي: لا يَفعَلونَ سَبتَهم، أو لا يَدَعونَ العَمَلَ في السَّبتِ، وقيل: معناه: لا يقطعونَ العَمَل، وقيل: لا يكونونَ في السَّبتِ، وأصلُ السَّبتِ: القَطعُ(٢).

﴿نَبْلُوهُمْ﴾: أي: نَختبرُهم ونمتَحِنُهم(٣).

﴿يَفْسُقُونَ﴾: أي: يَخرُجونَ عَنِ الطَّاعةِ، وذلك مِن قولِهم: فسَقَ الرُّطَبُ، إذا خرجَ عَن قِشرِه، والفُسوق: خروجٌ مِن الطَّاعةِ إلى المعصيةِ، وخروجٌ من الإيمانِ إلى الكُفرِ(٤).

﴿تَعِظُونَ﴾: أي: تَنْهونَ وتَزجُرونَ(٥).

﴿مَعْذِرَةً﴾: أي: لِنُعذَرَ فيهم، والعُذْرُ: تحرِّي الإنسانِ ما يمحو به ذنوبَه؛ فهو مَصدَرُ (عَذَرْت)، كأنَّه قيل: أطلُبُ منه أن يَعذِرَني(٦).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١/ ٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٤٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٩٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (١/ ١١٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٣).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٤١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٦)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٨٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٠).

(٦) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٥٣، ٢٥٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٠).

﴿بَئِيسٍ﴾: أي: شَدِيدٍ، والبُؤْسُ والبَأْسُ والبَأْسَاءُ: الشدَّةُ والمَكروهُ، إلَّا أنَّ البُؤسَ في الفَقرِ والحَربِ أكثَرُ، والبأسُ والبأساءُ في النِّكايةِ، وأصلُ الكَلِمةِ مِن الشِّدَّة[(١)].

﴿عَتَوْا﴾: أي: تكبَّروا وتجبَّروا، والعُتُوُّ: النبُوُّ عن الطَّاعةِ، وأَصلُه يدُلُّ على استكبارٍ[(٢)].

﴿خَاسِئِينَ﴾: أي: صاغِرينَ ذليلينَ، أو باعِدينَ ومُبعَدينَ أيضًا، والخسوءُ: الصَّغارُ والطَّردُ، ويقال: خَسَأْتُ الكَلبَ فَخَسَأَ، أي: زَجَرتُه مستهينًا به فانزجَرَ[(٣)].

المعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يسألَ اليَهودَ الذين بحَضرتِه، عن القريةِ التي على شاطئِ البَحرِ، وأن يستفسِرَهم عن اعتداءِ أهلِها يومَ السَّبتِ، ومُخالَفَتِهم لأمرِ اللهِ؛ بتعظيمِ ذلك اليومِ، والانقطاعِ للعبادةِ، وتركِ الاصطيادِ فيه، حين كانت تأتيهم الحيتانُ يومَ السَّبتِ كثيرةً ظاهرةً ومُقبلةً، وفي بقيَّةِ الأيَّامِ غَيرِ السَّبتِ لا تأتيهم، كذلك يختبِرُهم اللهُ بما كانوا يفسُقونَ.

واذكر- يا محمَّدُ- حين قالت جماعةٌ مِن أهلِ تلك القريةِ لِمَن كان يعِظُ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (٣/ ١٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((العين)) للخليل (٢/ ٢٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٠٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٢)، ((الكليات)) لأبي البقاء الكفوي (ص: ٤٣٨).

المُعتدينَ منهم: لِمَ تنهَونَ المُستحِلِّينَ للصَّيدِ يومَ السَّبتِ، واللهُ تعالى مُهلِكُهم، أو مُعذِّبُهم عذابًا شديدًا، فأجابوهم: نفعلُ ذلك مَعذِرةً إلى رَبِّكم فيما أخَذ علينا مِن الأمرِ بالمعروفِ، والنَّهي عن المُنكَر، ولعلَّ هؤلاء المُعتدينَ يتَّقونَ اللهَ، ويجتنبونَ المعصيةَ، فلمَّا ترَكَ المعتدونَ ما ذُكِّروا به، ولم يَقبَلوا نصيحةَ الواعظينَ؛ أنجى اللهُ الذين ينهونَ عَن المعصيةِ، وأخذَ الذينَ ظَلَموا أنفسَهم بمعصِيَتِهم لله، بعذابٍ شديدٍ نتيجةَ فِسقِهم.

فلمَّا تَمَرَّدوا وتجاوَزوا ما نُهوا عنه، وتمادَوْا في صَيدِ السَّمَكِ يومَ السَّبتِ، قال اللهُ لهم: صِيرُوا قردةً حَقيرينَ، مَطرودينَ مِن الخَيرِ.

تَفسيرُ الآيات:

﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾.

﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ﴾.

أي: واسأَلْ- يا محمَّدُ- اليهودَ الذين بحَضرَتِك، عن خَبرِ المدينة التي كانت على شاطئِ البحرِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠٦)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٤٠٨)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٩٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٤١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٤٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٧٤).

قال الشنقيطي: (قصةُ هذه القريةِ كان يُخفِيها اليهودُ؛ لأنَّها سُبَّةٌ عليهم، وإخبارُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لهم بها، وسؤالُهم عنها مع أنَّه نبيٌّ أُميٌّ- مِن مُعجِزاتِه وأدلَّةِ نُبُوَّتِه؛ لأنَّه ما عَلِمَها إلَّا عن طريقِ الوَحيِ). ((العذب النمير)) (٤/ ٢٧١). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٠٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣١٦). =

﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾.

أي: اسألِ اليَهودَ عن اعتداءِ أهلِ تلك القريةِ في يومِ السَّبتِ، ومُخالَفَتِهم ما أمَرَهم اللهُ به مِن تعظيمِ يومِ السَّبتِ بالانقطاعِ للعِبادةِ، وتَركِ العَمَلِ، والاصطيادِ فيه(١).

كما قال سبحانه: ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾ [النساء: ١٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ * فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٥-٦٦].

﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾.

أي: اسْألْهم حينَ اعتدى أهلُ تلك القريةِ عندما كانت الأسماكُ الكثيرةُ تَجيءُ إليهم في يَومِ السَّبتِ مُقبلةً ظاهرةً، وكثيرةً على وَجهِ البَحرِ(٢).

= وقال ابنُ عاشور: (هذه القصَّةُ ليست مما كُتِب في توراةِ اليَهودِ، ولا في كُتُبِ أنبيائِهم، ولكنَّها ممَّا كان مرويًّا عن أحبارِهم، ولذلك افتُتِحَت بالأمرِ بسُؤالِهم عنها؛ لإشعارِ يهودِ العَصرِ النبويِّ بأنَّ اللهَ أطلعَ نبيَّه- عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- عليها، وهم كانوا يكتُمونَها.. وهذه القريةُ قيل: (أيْلَة)، وهي المسمَّاةُ اليومَ (العَقَبة)، وهي مدينةٌ على ساحِلِ البَحرِ الأحمرِ، قُربَ شِبهِ جزيرة طور سِينا، وهي مبدأُ أرضِ الشَّامِ مِن جِهةِ مِصرَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤٦ - ١٤٧). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠٩)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٨٤)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٤٠٩)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٠٩)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٨٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٧٥).

قال الرازي: (قوله: ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ﴾ معناه: يومَ تَعظيمِهم أمرَ السَّبتِ). ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٩١). وقال البيضاوي: (مصدَرُ (سَبَتَتِ اليهودُ): إذا عظَّمت سَبتَها بالتجَرُّدِ للعبادةِ، وقيل: اسمٌ لليومِ، والإضافةُ لاختصاصِهم بأحكامٍ فيه). ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٣٩). ويُنظر: ((البسيط)) =

﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾.

أي: وفي سائِرِ الأيَّامِ غير يومِ السَّبتِ لا تأتيهم الحِيتانُ(١).

﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

أي: مِثلَ ذلك الابتلاءِ العَظيمِ الذي وصَفْنا؛ نختَبِرُهم؛ بسبَبِ خُروجِهم عن طاعةِ اللهِ(٢).

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لا تَرتَكِبوا ما ارتكَبَت اليهودُ، فتستحِلُّوا محارِمَ اللهِ بأدنى الحِيَل))(٣).

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤)﴾.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾.

أي: واذكُرْ(٤)- يا مُحمَّدُ- حينَ قالت جماعةٌ مِن أهلِ تلك القَريةِ لِمَن كان

= للواحدي (٩/ ٤١١)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٧٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥١٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٢٠)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٢٢٥)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥١٠)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٥٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٧٥).

(٣) رواه ابن بطة في كتابه ((إبطال الحيل)) (ص: ٤٦).

جوَّد إسناده ابن تيمية في ((بيان الدليل)) (٨٦)، وابن القيم في ((إغاثة اللهفان)) (١/ ٥١٣)، وابن كثير في ((تفسير القرآن)) (٣/ ٤٩٢)، وصححه ابن باز في ((مجموع فتاوى ابن باز)) (١٩/ ٢٣٠).

(٤) قدَّر المحذوف هاهنا بـ(اذكر): ابنُ جرير، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥١١)، ((العذب النمير)) (٤/ ٢٧٩). =

يعِظُ المُعتَدينَ منهم: لِماذا تَنهَونَ المُستحِلِّينَ للصَّيدِ في يَومِ السَّبتِ، واللهُ سيُهلِكُهم في الدُّنيا بعذابٍ يستأصِلُهم(١)؟!

﴿أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ﴾.

أي: أو سيعذبهم الله بعذابٍ شديدٍ(٢).

= وقدَّره بـ(اسأل): أي: اسألْ بني إسرائيلَ: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٥٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٨٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٥٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٧٩ - ٢٨٠).

قال ابنُ كثيرٍ: (يُخبِرُ تعالى عن أهلِ هذه القَريةِ أنَّهم صاروا إلى ثلاثِ فِرَقٍ: فِرقةٌ ارتكَبَت المحذورَ، واحتالوا على اصطيادِ السَّمَك يومَ السبت، .. وفرقةٌ نَهَت عن ذلك، وأنكَرَت واعتزَلَتْهم. وفرقةٌ سَكَتَت فلم تَفعَلْ ولم تَنهَ، ولكنَّها قالت للمُنكِرة: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا﴾؟ أي: لم تَنهَونَ هؤلاءِ، وقد عَلِمتُم أنَّهم هَلَكوا واستحَقُّوا العقوبةَ مِن اللهِ؟ فلا فائدةَ في نَهيِكم إيَّاهم). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٤). والقَولُ بأنَّهم افترَقوا ثلاثَ فِرَقٍ هو قولُ جُمهورِ المُفَسِّرينَ، كما نسبَه إليهم القُرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٠٧).

وقال الرازي: (قوله: ﴿أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ﴾ أي: جماعةٌ مِن أهلِ القَريةِ- مِن صُلحائِهم الذين رَكِبوا الصَّعبَ والذَّلولَ في مَوعظةِ أولئك الصيَّادينَ، حتى أيِسُوا مِن قَبولِهم- لأقوامٍ آخَرينَ ما كانوا يُقلِعونَ عَن وَعظِهم. وقوله: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ﴾ أي: مُختَرِمُهم، ومُطَهِّرُ الأرضِ منهم ﴿أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا﴾ لِتماديهم في الشَّرِّ، وإنَّما قالوا ذلك لِعِلمِهم أنَّ الوَعظَ لا ينفَعُهم). ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥١١)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٣/ ٩٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٣٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٠٨ - ٢٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٨٥).

قال أبو السعود: (﴿أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا﴾ دونَ الاستئصالِ بالمرةِ). ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٨٥).

وقال الشوكانيُّ: (قالوا ذلك على غلبةِ الظنِّ لما جرتْ به عادةُ الله مِن إهلاكِ العصاةِ، أو تعذيبِهم مِن دونِ استئصالٍ بالهلاكِ). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٩٣).

وقال أبو حيان: (يحتملُ أن يكونَ العذابُ في الدُّنيا، ويحتملُ أن يكونَ في الآخرةِ). ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٠٨ - ٢٠٧).

وذهب بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ المرادَ بالعذابِ هنا عذابُ الآخرةِ. وهو اختيارُ ابنِ جريرٍ، =

كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [الإسراء: ٥٨].

وقال سبحانه: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا * فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [الطلاق: ٨-١٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٦].

وقال جلَّ جلاله: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٧].

﴿قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾.

أي: قال الذين يَنهونَ المُعتَدينَ عن مَعصيةِ اللهِ: نحن نعِظُهم مِن أجلِ أن نُعذَرَ عند اللهِ فيما فَرَضَ علينا مِن الأمرِ بالمعروفِ، والنَّهيِ عن المُنكَرِ، فلا يؤاخِذنا بالتَّقصيرِ في ذلك[1].

﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

أي: ونَعِظُهم أيضًا رجاءَ أن تُؤَثِّرَ فيهم موعِظَتُنا، فيمتَثِلوا أوامِرَ اللهِ تعالى،

= والزجاجِ، وابنِ عطيَّة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥١١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٢/ ٣٨٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٨٠).

قال ابنُ عاشور: (ومعنى اعتذرَ: أظهر العُذْر، والعذرُ السببُ الذي تبطلُ به المؤاخذةُ بذنبٍ أو تقصيرٍ، فهو بمنزلةِ الحجةِ التي يُبديها المؤاخَذُ بذنبٍ؛ ليظهرَ أنَّه بريءٌ مما نُسِب إليه، أو متأوِّلٌ فيه). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٥٢).

ويجتَنِبوا نواهِيَه، فيكفُّوا عن اقترافِ هذا الجُرمِ العَظيمِ، وهو مخالفةُ نَهيِ اللهِ تعالى عن صَيدِ السَّمكِ يَومَ السَّبتِ[1].

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾.

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾.

أي: فلما تَرَكَ المُعتَدونَ ما أمَرَهم اللهُ تعالى به مِن تَعظيمِ يَومِ السَّبتِ، ولم يَقبَلوا نصيحةَ الواعظينَ[2].

﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾.

أي: أنجَينَا مِن العَذابِ، الذين كانوا يَنهَونَ المُعتَدينَ عن ارتكابِ السيِّئاتِ، واستحلالِ المُحرَّماتِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٢٤ - ٢٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧).

قال ابنُ كثير: (نصَّ على نجاةِ النَّاهينَ، وهلاكِ الظَّالِمينَ، وسكَتَ عن السَّاكِتينَ؛ لأنَّ الجَزاءَ مِن جِنسِ العَمَلِ؛ فهم لا يستحقُّونَ مدحًا فيُمدَحوا، ولا ارتكَبوا عظيمًا فيُذَمُّوا). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٤).

قال الشِّنقيطيُّ: (أشكَلَ على ابنِ عبَّاسٍ أمْرُ الفِرقةِ السَّاكتة التي لم ترتَكِبْ ما نُهِيَت عنه، مِن اليهودِ، هل عُذِّبُوا أو نَجوا، حتى بيَّنَ له مولاه عكرمةُ دُخولَهم في النَّاجِينَ دُونَ المُعَذَّبينَ، وهذا هو الحَقُّ؛ لأنَّه سبحانَه قال عن السَّاكتين: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ فأخبرَ أنَّهم أنكَروا فِعلَهم، وغَضِبوا عَليهم، وإنْ لم يواجِهوهم بالنَّهيِ، فقد واجَههم به مَن أدَّى الواجِبَ عنهم؛ فإنَّ الأمرَ بالمَعروفِ والنَّهيَ عن المُنكَرِ، فَرضُ كفايةٍ؛ فلما قام به أولئك سَقَط عن الباقِينَ، فلم يكونوا ظالِمينَ بِسُكوتِهم. وأيضًا فإنَّه سبحانَه إنَّما =

﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾.

أي: وأخَذْنا الذين ظَلَموا أنفُسَهم بمعصِيةِ الله، بعذابٍ شَديدٍ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

أي: عذَّبناهم بسبَبِ خُروجِهم عن طاعةِ اللهِ(٢).

﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٦)﴾.

﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ﴾.

أي: فلمَّا تَمَرَّدوا وتجاوَزوا ما نُهوا عنه، وتمادَوْا في صَيدِ السَّمَكِ يومَ السَّبتِ(٣).

= عذَّبَ الذين نَسُوا ما ذُكِّرُوا به، وعَتَوا عمَّا نُهُوا عنه، وهذا لا يتناوَلُ السَّاكتينَ قَطعًا). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٢٢). ويُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٧٣).

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٤٣١)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٥٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٨٢ - ٢٨٣).
قال ابنُ جريرٍ في معنى ﴿بَئِيسٍ﴾: (أهلُ التَّأويلِ أجمَعوا على أنَّ مَعناه: شَديد). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٢٧).
وقال ابنُ عاشور: (وقد أُجمِلَ هذا العَذابُ هنا، فقيل: هو عذابٌ غَيرُ المَسخِ المَذكورِ بَعدَه، وهو عذابٌ أُصيبَ به الذين نَسُوا ما ذُكِّروا به... أي: أنَّ اللهَ أعذَرَ إليهم، فابتَدَأهم بعذابِ الشدَّةِ، فلمَّا لم يَنتَهوا وعَتَوا، سلَّط عليهم عذابَ المَسخِ. وقيل: العَذابُ البَئيسُ هو المَسخُ، فيكونُ قَولُه: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ﴾ بيانًا.. بمنزلةِ التَّأكيدِ لِقَولِه: ﴿فَلَمَّا نَسُوا﴾، صِيغَ بهذا الأسلوبِ؛ لتَهويلِ النِّسيانِ والعُتوِّ، ويكونُ المعنى: أنَّ النِّسيانَ- وهو الإعراضُ- وقع مقارِنًا للعتوِّ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٥٣). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٧٣)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٩٣)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٧٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٥٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٨٣ - ٢٨٤).

(٣) وهو اختيارُ ابنِ جريرٍ، والنحاسِ، والقرطبيِّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٢٨)، =

وقيل: فلمَّا تكبَّروا عن تَركِ ما نهاهم اللهُ عنه[1].

قال تعالى: ﴿بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ [الملك: ٢١].

وقال سبحانه: ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١].

وقال عز وجل: ﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ [الأعراف: ٧٧].

﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾.

أي: فلما تمرَّدوا وتكبَّروا، قُلنا لهم: صِيرُوا قردةً حَقيرينَ، مَطرودينَ مِن الخَيرِ[2].

كما قال سبحانَه: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ * فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٥-٦٦].

وقال تعالى: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [النساء: ٤٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

= ((إعراب القرآن)) للنحاس (٢/ ٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٠٩).

وممن قال بهذا القولِ مِن السَّلف قتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٢٩).

(١) وهو اختيارُ الواحديِّ، والزمخشريِّ، والرازي، وابنِ جزيٍّ، والشنقيطيِّ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٩/ ٤٢٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٧٣)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٩٣)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣١١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٨٥).

وممَّن قال بنحوِ هذا مِن السَّلَفِ عكرمةُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٥/ ١٦٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٦ - ٦٧)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٢/ ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٨٥ - ٢٨٦).

الفَوائد التربويَّة:

١- مَن أطاعَ اللهَ تعالى خفَّفَ اللهُ عنه أحوالَ الدُّنيا والآخرةِ، ومَن عصاه ابتلاه بأنواعِ البَلاءِ والمِحَنِ؛ يُبيِّنُ ذلك قَولُ الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ ففِسقُهم هو الذي أوجَبَ أن يبتَلِيَهم اللهُ تعالى، وأن تكونَ لهم هذه المِحنةُ، وإلَّا فلو لم يَفسُقوا، لعافاهم الله، ولَما عَرَّضَهم للبلاءِ والشَّرِّ(١).

٢- واجِبُ الأمرِ بالمَعروفِ والنَّهيِ عن المُنكَرِ، والتَّخويفِ مِن انتهاكِ الحُرُماتِ، فائِدَتُه أن نُبلِغَ إلى اللهِ تعالى عُذرَنا، ويَعلمَ أنْ قد أدَّيْنا واجِبَنا، ثمَّ لعلَّ النُّصحَ يؤثِّرُ في تلك القُلوبِ العاصيةِ، فيُثيرُ فيها وِجدانَ التَّقوى؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾(٢).

٣- العقوبةُ إذا نزلَت نجا منها الآمِرونَ بالمعروفِ، والنَّاهونَ عَن المنكَرِ؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾(٣).

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ يدلُّ على أنَّ الحِيَلَ في تحليلِ الأمورِ التي حرَّمَها الشَّارِعُ، مُحرَّمةٌ؛ كنِكاحِ المُحَلِّلِ، وما أشبَهَه مِن الحِيَلِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص:٣٠٦).
(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٣٨٤-١٣٨٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٠٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٩/ ٣٦٠).

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ زاد في تَبكيتِهم بالإشارةِ إلى المُسارعةِ في الكُفرِ، بالإضافةِ في قَولِه: ﴿حِيتَانُهُمْ﴾ إيماءً إلى أنَّها مخلوقةٌ لهم، فلو صَبَروا نالوها وهم مُطيعونَ[1].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ....﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ انقسَمَ سكَّانُ القريةِ الواحدةِ إلى ثلاثِ أُممٍ: أمَّةٌ عاصيةٌ مُحتالةٌ، وأمَّةٌ تَقِفُ في وجهِ المَعصيةِ والاحتيالِ وقفةً إيجابيَّةً؛ بالإنكارِ والتَّوجيهِ والنَّصيحةِ، وأمَّةٌ تَدَعُ المُنكَرَ وأَهلَه، وتَقِفُ موقِفَ الإنكارِ السَّلبيِّ، ولا تَدفَعُه بعَمَلٍ إيجابيٍّ، وهي طرائِقُ مُتعدِّدةٌ مِن التصوُّرِ والحركةِ، تجعَلُ الفِرَقَ الثَّلاثَ أمَمًا ثلاثًا!

فلمَّا لم يُجْدِ النُّصحُ، ولم تنفَعِ العِظَةُ، وسَدَر السَّادرونَ في غَيِّهم، حقَّت كَلِمةُ اللهِ، وتحقَّقَت نُذُرُه، فإذا الذينَ كانوا يَنهَونَ عَنِ السُّوءِ، في نَجوةٍ مِن السُّوءِ، وإذا الأُمَّةُ العاصيةُ يحُلُّ بها العذابُ الشَّديدُ، فأمَّا الفِرقةُ الثَّالثة- أو الأمَّةُ الثَّالثةُ- فقد سكَتَ النَّصُّ عنها، ربَّما تهوينًا لِشَأنِها- وإن كانَتْ لم تُؤخَذْ بالعذابِ- إذ إنَّها قعَدَت عن الإنكارِ الإيجابيِّ، ووقَفَت عند حدودِ الإنكارِ السَّلبيِّ، فاستحَقَّتِ الإهمالَ، وإن لم تستحِقَّ العَذابَ[2].

٤- قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٣٨٥).

جاء فيها بيانُ حِكمَتينِ مِن حِكَمِ الأمرِ بالمَعروفِ والنَّهيِ عَنِ المُنكَرِ؛ لأنَّ استقراءَ القُرآنِ دَلَّ على أنَّ الأمرَ بالمَعروفِ والنَّهيَ عن المُنكَرِ، له حِكَمٌ ثلاثٌ، تضمَّنَت هذه الآيةُ مِن تلك الحِكَمِ الثَّلاثِ اثنتينِ، أمَّا الحِكَمُ الثَّلاثُ:

فالأولى منها: أن يُقيمَ الإنسانُ عُذرَه أمامَ رَبِّه، ويَخرُجَ بذلك الأمرِ مِن عُهدةِ التَّقصيرِ في الأمرِ بالمَعروفِ؛ لِئلَّا يدخُلَ في قَولِه: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٩] وهذه الحكمةُ أشاروا لها بِقَولِهم: ﴿مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ﴾.

الحكمةُ الثَّانيةُ: هي رَجاءُ انتفاعِ المُذَكَّرِ، كما قال هنا عنهم: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

الحكمةُ الثَّالثةُ مِن حِكَمِ الأمرِ بالمعروفِ التي لم تُذكَرْ في هذه الآيةِ الكريمةِ: هي إقامةُ الحُجَّةِ لله على خَلقِه في أرضِه نيابةً عَن رُسُلِه؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] فأهلُ العِلمِ يُقيمونَ حُجَّةَ اللهِ على خَلقِه بإقامةِ الحُجَّةِ، والأمرِ بالمَعروفِ والنَّهيِ عَن المُنكَرِ، نيابةً عن الرُّسُلِ في ذلك[١].

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ مَسَخَهم اللَّه إلى صورَةِ القِرَدةِ، وهي أشبهُ شيءٍ بالأناسِيِّ في الشَّكْلِ الظَّاهِرِ، وليست بإنسانٍ حقيقَةً، فكذلك أعمالُ هؤلاء وحِيَلُهم لـمَّا كانت مُشابهةً للحقِّ في الظَّاهِرِ، وَمُخالِفَةً له في الباطنِ، ولما كان الذَّنبُ الذي فعلُوه صورتُه صورةُ المباحِ، ولكنَّ حقيقتَه غيرُ مباحٍ، كَانَ جَزاؤُهم مِن جنسِ عَملِهم، فمُسِخوا قردةً، لما مسَخوا دينَ الله بحيثُ لم يتمسَّكوا إلا بما يشبهُ الدِّينَ في بعضِ ظاهرِه، دونَ حقيقتِه[٢].

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٨١).

(٢) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٦/ ٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين: الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٣١).

بلاغة الآيات:

١- قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾

- ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ﴾ هذا السُّؤالُ معناه التَّقريرُ، والتَّقريعُ بقديمِ كُفْرِهم وتجاوُزِهم حدودَ اللهِ، والإعلامُ بأنَّ هذا مِن عُلومِهم التي لا تُعلَمُ إلَّا بكِتابٍ أو وَحيٍ، فإذا أعلَمَهم به مَن لم يَقرأْ كِتابَهم، عُلِمَ أنَّه مِن جِهةِ الوَحيِ[1].

- قَولُه تعالى: ﴿يَعْدُونَ﴾ اختيارُ صِيغةِ المُضارِعِ؛ للدَّلالةِ على تكرُّرِ ذلك منهم[2].

- وقَولُه: ﴿سَبْتِهِمْ﴾ أضيفَ إلى ضَميرِهم؛ لاختصاصِه بهم بما أنَّهم يهود، تعريضًا بهم لاستحلالِهم حُرمةَ السَّبتِ[3].

- قوله: ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ﴾ مُستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا لجوابِ سُؤالِ مَن يَقولُ: ما فائدةُ هذه الآيةِ مع عِلمِ اللهِ بأنَّهم لا يَرعَوُونَ عَن انتهاكِ حُرمةِ السَّبتِ[4].

٢- قَولُه: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ الاستفهامُ هنا إنكاريٌّ في معنى النَّفيِ، فيدلُّ على انتفاءِ جَميعِ العِلَلِ التي مِن شَأنِها أن يُوعَظَ لِتَحصيلِها، وذلك يُفضي إلى اليَأسِ مِن حُصولِ اتِّعاظِهم[5].

- واسما الفاعِلِ في قَولِه: ﴿مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ﴾ مُستَعملانِ في مَعنى

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٤٩-١٥٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٥٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٥١).

الاستقبالِ، بِقَرينةِ المقامِ، وبقرينةِ التَّردُّدِ بين الإهلاكِ والعَذابِ؛ فإنَّها تُؤذِنُ بأنَّ أحدَ الأمرينِ غَيرُ مُعَيَّنِ الحُصولِ، لأنَّه مُستقبَلٌ، ولكِنْ لا يخلو حالُهم عن أحَدِهما[١].

٣- قَولُه: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ بيانٌ لإجمالِ العَذابِ البَئيسِ- على القَولِ بأنَّ العذابَ البَئيسَ هو المَسخُ- وهو بمنزلةِ التَّأكيدِ لِقَولِه: ﴿فَلَمَّا نَسُوا...﴾ صِيغَ بهذا الأُسلوبِ لِتَهويلِ النِّسيانِ والعُتُوِّ، ويكون المعنى أنَّ النِّسيانَ- وهو الإعراضُ- وقع مُقارِنًا للعُتُوِّ؛ وما ذُكِّروا به وما نُهُوا عنه معناهما شَيءٌ واحدٌ، فكان مقتضى الظَّاهِرِ أن يُقالَ: (فلمَّا نَسُوا وعَتَوا عمَّا نهُوا عنه وذُكِّرُوا به قُلنَا لهم...)، فعدل عن مُقتضى الظَّاهِرِ إلى هذا الأسلوبِ مِن الإطنابِ؛ لتَهويلِ أمرِ العَذابِ، وتكثيرِ أشكالِه، ومقامُ التَّهويلِ مِن مُقتَضياتِ الإطنابِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٥١-١٥٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٥٣-١٥٤).

الآيات (١٦٧-١٧٠)

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٦٧) وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨) فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ۗ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦٩) وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠)﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿تَأَذَّنَ﴾: أي: أعْلَمَ، وهو من آذَنْتُك بالأمرِ، والتأذُّنُ: مِن قَولِك: لأفعلَنَّ كذا، تريدُ به إيجابَ الفِعلِ، أي: سأفعَلُه لا محالةَ، وأصلُ (أذن): العِلمُ[١].

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾: أي: جاءَ بَعدَهم، والخَلْف: الرَّدِيءُ مِن النَّاسِ ومِنَ الكلامِ، وأصلُ (خلف): مجيءُ شيءٍ بعدَ شيءٍ يقومُ مقامَه[٢].

﴿عَرَضَ هذا الْأَدْنَى﴾: أي: ما يَعرِضُ لهم مِنَ الدُّنيا، وقيل: الرِّشوةُ في الحُكمِ، والعَرَضُ: ما لا يكونُ له ثباتٌ، و﴿الْأَدْنَى﴾ الأمرُ الأقربُ، وهي الدُّنيا[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٠) ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٧٧)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٧٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٠)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٢٩٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١١).

(٣) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٠)، ((الكليات)) لأبي البقاء الكفوي (ص: ٦٥٩).

﴿مِيثَاقُ﴾: الميثاقُ: عَقدٌ مُؤكَّدٌ بِيَمينٍ وعَهدٍ، أو العَهدُ المُحكَم، وأصله: العَقدُ والإحكامُ[1].

﴿وَدَرَسُوا﴾: أي: قَرَؤُوا، وأصلُه مِن: دَرَس العِلمَ، أي: تناوَلَ أثَرَه بالحِفظِ، ولَمَّا كان تناوُلُ ذلك بمداومةِ القِراءةِ، عبَّرَ عن إدامةِ القِراءةِ بالدَّرسِ[2].

﴿يُمَسِّكُونَ﴾: أي: يسْتَمْسكون ويعملونَ به، أو: يعتصمونَ به ويَقتَدونَ بأوامِرِه، ويتركونَ زواجِرَه، وأصلُ (مسك) يدلُّ على حَبسِ الشَّيءِ أو تحبُّسِه[3].

المعنى الإجماليُّ:

واذكُرْ- يا مُحمَّدُ- حين أعلمَ ربُّك اليهودَ بما قَضاه عليهم، مِمَّا هو واقِعٌ بهم لا محالةَ، وذلك أنَّه سيُسَلِّطُ عليهم مَن يُذيقُهم أشَدَّ العذابِ، إنَّ ربَّك لَسريعُ العِقابِ، وإنَّه لغفورٌ رَحيمٌ.

ويخبِرُ تعالى أنَّه مَزَّقَ بني إسرائيلَ، فجَعَلَهم أمَمًا متفرِّقةً في أنحاءِ الأرضِ، منهم الصَّالحونَ، ومنهم دونَ ذلك، واختبَرَهم بالأحوالِ الحَسَنةِ والأحوالِ السيِّئةِ؛ لعلَّهم يرجعونَ، فجاء مِن بَعدِهم جيلُ سُوءٍ لا خيرَ فيهم، وَرِثُوا الكتابَ عَمَّن تقدَّمَهم، يأخذونَ المالَ الحرامَ، وأضاعوا العملَ بالتَّوارة، ويقولونَ اغترارًا: سيَغفِرُ اللهُ لنا، وإن يأتِهم كَسْبٌ حرامٌ مِثلُ الأوَّلِ، يأخُذوه أيضًا؛ إصرارًا منهم على ذُنوبِهم، ألم يأخُذِ اللهُ على هؤلاءِ العَهدَ المؤكَّدَ في التَّوارةِ، بألَّا يَقولُوا على اللهِ إلَّا الحَقَّ، وقَرَءُوا ما فيها وفَهِموها، والدَّارُ الآخرةُ خَيرٌ للَّذينَ يتَّقونَ،

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٥)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٨٥٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٦٨)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٣١١)، ((غريب القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٢٠)، ((غريب القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ٨٨).

أفلا يعقِلُ هؤلاء الذينَ يأخُذونَ الحَرامَ، ويُخالِفونَ كِتابَ اللهِ.

ثم أخبَرَ تعالى أنَّ الذين يعتصِمونَ بكتابِ اللهِ، ويَعملونَ بما فيه، وأقاموا الصَّلاةَ، هم مِن المُصلحين، واللهُ تعالى لن يُضِيعَ أجرَ المُصلحينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى قُبحَ فِعالِهم، واستعصاءَهم؛ أخبَرَ تعالى أنَّه حكَمَ عليهم بالذُّلِّ والصَّغارِ إلى يومِ القِيامةِ[1]، فقال تعالى:

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ ﴾.

أي: واذكُرْ- يا مُحمَّدُ- حين أعلَمَ ربُّك اليهودَ بما قضاه عليهم، ممَّا هو واقعٌ بهم لا محالةَ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا * إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا * عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٥٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٩٠).

وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٤ - ٨].

﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾.

أي: أعلَمَهم مُؤكِّدًا لهم بأنَّه سيُرسِلُ ويُسَلِّطُ عليهم في الدُّنيا إلى يومِ القِيامةِ مَن يُذيقُهم(١) أشدَّ العَذابِ(٢) بسبَبِ كُفرِهم وعِصيانِهم، واحتيالِهم على المَحارِمِ(٣).

---

(١) قال القرطبي: (قيل: المرادُ بُختنصَّر. وقيل: العرب. وقيل: أمَّةُ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو أظهَرُ؛ فإنَّهم الباقونَ إلى يومِ القيامةِ. والله أعلم). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٠٩).
وقال ابنُ عطية: (الصَّحيحُ أنَّها عامَّةٌ في كلِّ مَن حالُ اليَهودِ معه هذه الحالُ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٧١).
وقال ابنُ كثيرٍ: (يقالُ: إنَّ موسى- عليه السَّلامُ- ضَرَبَ عليهم الخَراجَ سَبْعَ سِنينَ. وقيل: ثلاثَ عَشرةَ سَنةً، وكان أوَّلَ مَن ضرَبَ الخَراجَ. ثم كانوا في قَهرِ الملوكِ مِن اليُونانيِّينَ والكشدانيِّينَ والكلدانيِّينَ، ثم صاروا إلى قَهرِ النَّصارى، وإذلالِهم إيَّاهم، وأخذِهم منهم الجزيةَ والخَراجَ، ثم جاء الإسلامُ ومحمَّدٌ- عليه أفضَلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ- فكانوا تحت قَهرِه وذِمَّتِه يؤدُّونَ الخَراجَ والجزيةَ... ثم آخِرُ أمرِهم أنَّهم يَخرُجونَ أنصارًا للدَّجَّالِ، فيقتُلُهم المسلمونَ مع عيسى ابنِ مريمَ- عليه السَّلامُ- وذلك آخِرَ الزَّمانِ). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٨).
(٢) ذهَبَ بعضُ المُفسِّرينَ إلى أنَّ العذابَ المذكورَ هنا مرادٌ به: الجزيةُ والإذلالُ. منهم: ابنُ عطيةَ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٧١). ويُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٢٢).
وممَّن رُوِي عنه هذا القَولُ مِنَ السَّلَفِ ابنُ عَبَّاسٍ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، والسُّدِّي، ومجاهِدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٥/ ١٦٠٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٣٠)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٣/ ٥٩٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٣٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٩٠).
قال ابن عاشور: (ومعنى البَعثِ الإرسالُ.. وهو يُؤذِنُ بأنَّ ذلك في أوقاتٍ مُختلفةٍ، وليس ذلك مُستمِرًّا يومًا فيومًا، ولذلك اختيرَ فِعل: ﴿لَيَبْعَثَنَّ﴾ دون نحو: (لَيُلزِمنَّهم)، وضُمِّن معنى التَّسليط فعُدِّي بعلى؛ كقوله: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا﴾ [الإسراء: ٥]، وقولِه: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾ [الأعراف: ١٣٣]. و﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ غايةٌ لِما في القَسَمِ مِن معنى الاستقبالِ... أي: أنَّ اللهَ يُسَلِّطُ عليهم ذلك في خِلالِ المُستقبَلِ كُلِّه، والبَعثُ مُطلَقٌ لا عامٌّ... والآيةُ تُشيرُ إلى وَعيدِ اللهِ إيَّاهم بأن يُسَلِّطَ عليهم عَدُوَّهم كلَّما نقَضُوا ميثاقَ اللهِ تعالى، وقد تكرَّر هذا الوعيدُ مِن عَهدِ موسى عليه السَّلامُ إلى هلُمَّ جَرًّا ... وأوَّلُ مَن سُلِّط عليهم بختنصَّر ملك بابل، =

كما قال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٢].

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾.

أي: إنَّ ربَّك- يا مُحمَّدُ- يعاقِبُ الكُفَّارَ والعصاةَ بلا تأخيرٍ، إذا حلَّ وقتُ عَذابِهم(١).

﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: وإنَّ ربَّك كثيرُ المغفرةِ لِعبادِه التَّائبينَ، فيستُرُ ذُنوبَهم، ولا يعاقِبُهم بها، رحيمٌ بهم؛ إذ يَقبَلُ توبتَهم، ويتقبَّل طاعاتِهم، ويُثيبُهم عليها(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢].

= ثم توالت عليهم المصائِبُ، فكان أعظمَها خرابُ (أورشليم)... ولم تَزَل المصائِبُ تنتابهم، ويُنَفَّسُ عليهم في فَتَراتٍ معروفةٍ في التَّاريخ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٥٥ - ١٥٦).

وقال الشنقيطيُّ: (وفي هذه الآيةِ مِن سورة الأعراف تأذَّنَ اللهُ وأعلَمَ أنَّه سَلَّط عليهم مَن يَسومُهم سُوءَ العَذابِ، إلَّا أنَّهم يَرُدُّ اللهُ لهم الكرَّةَ حتى يجتمِعُوا ويكونوا أمَّةً؛ لأنَّهم لو بَقُوا مُقَطَّعينَ في الأرضِ، لن تقومَ لهم قائمةٌ -كما قال: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾ [الأعراف: آية ١٦٨]- ولم يكُنِ العذابُ والهلاكُ، ولم يجِدْ موقعًا يقعُ عليه، فصار مِن عادةِ اللهِ أن يرُدَّ لهم الكرَّةَ، ويجعَلَهم أمَّةً حتى يكونوا أمَّةً فيُسَلِّطَ عليهم مَن يُعَذِّبُهم؛ ليكونَ العَذابُ واقعًا مَوقِعَه). ((العذب النمير)) (٤/ ٢٩٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٣٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٥٦-١٥٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٩٣).

﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا أخبَرَ الله تعالى بالتأذُّنِ، كان كأنَّه قيل: (فأسرَعْنا في عقابِهم بذنوبِهم، وبعثْنا عليهم مَن سامَهم سوءَ العذابِ بالقتل والسبيِ)، فعَطَف عليه قولَه: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ﴾- أي: بسبَبِ ما حصل لهم مِن السَّبيِ المترتِّبِ على العذابِ- تقطيعًا كثيرًا، بأنْ أكثَرْنا تَفريقَهم(١).

﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ﴾.

أي: ومزَّقْنا بني إسرائيلَ في أقطارِ الأرضِ، إلى جماعاتٍ مُتفَرِّقةٍ؛ بحيثُ لا تَخلو ناحيةٌ من الأرضِ مِنهم(٢).

﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ﴾.

أي: مِن بني إسرائيلَ الصَّالحونَ الذين يُؤمِنونَ باللهِ ورُسُلِه، ومنهم مَن انحطَّت رُتبَتُهم عن مَرتبةِ الصَّلاحِ، فكانوا عُصاةً مُذنبين، أو كَفرةً مُجرمينَ(٣).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٥٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٩٥).

قال ابنُ جرير: (وإنَّما وَصَفَهم اللهُ جلَّ ثناؤه بأنَّهم كانوا كذلك، قبلَ ارتدادِهم عن دِينِهم وقبلَ كُفرِهم بربِّهم، وذلك قبلَ أن يُبعَثَ فيهم عيسى بنُ مريمَ صَلواتُ اللهِ عليه). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٣٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٧١).

وقال الشنقيطي: (﴿مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ﴾ منهم قَومٌ صالِحونَ مُطيعونَ للهِ، وهمُ الذين كانوا =

كما قال تعالى: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦].

وقال سبحانه: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣-١١٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ * أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [القصص: ٥٢-٥٤].

﴿وَبَلَوْنَاهُم بِٱلْحَسَنَاتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾.

أي: واختبَرْنا بني إسرائيلَ بالأحوالِ الحَسَنةِ؛ كالرَّخاءِ والخِصبِ والعافيةِ تارةً، وبالأحوالِ السيِّئةِ؛ كالشِّدَّةِ والجَدْبِ والأمراضِ تارةً أخرى[1].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ * ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٤-٩٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

= على شَرعِ موسى بنِ عِمرانَ، لم يُغَيِّروا ولم يُبَدِّلوا حتى ماتوا على ذلك، أو أدركُوا محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلم فآمَنُوا به، كعبدِ اللهِ بنِ سَلامٍ). ((العذب النمير)) (٤/ ٢٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٩٥ - ٢٩٦).
قال ابن عاشور: (أي أظهَرْنا مختَلِفَ حالِ بني إسرائيلَ في الصَّبرِ والشُّكرِ، أو في الجَزَعِ والكُفرِ؛ بسبَبِ الحَسَناتِ والسَّيِّئاتِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٥٨).

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

أي: اختبَرْنا بني إسرائيلَ بالخَيرِ والشَّرِّ؛ ليتُوبُوا ويَرجِعوا عن مَعصيةِ اللهِ عزَّ وجلَّ إلى طاعَتِه(١).

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦٩) وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠)﴾.

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾.

أي: فجاء بعد أولئكَ القَومِ - الَّذينَ كان منهم صالِحونَ، ومِنهم دونَ ذلك - جيلُ سُوءٍ لا خير فيه، قد أخَذُوا التَّوراةَ مِن أسلافِهم، وعَلِمُوا ما فيها مِن الأحكامِ(٢).

﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾.

أي: إنَّ خَلْفَ السُّوءِ - الَّذين وَرِثُوا التَّوراة - يأخذونَ المالَ الحَرامَ؛ مِن الرِّشوةِ وغَيرِها مِن مَتاعِ الدُّنيا الزَّائلِ، وأضاعوا العَمَلَ بالتَّوراةِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٩٦ - ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٣٤)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٩٦-٢٩٧).
ظاهِرُ كلامِ ابنِ جَريرٍ، واختيارُ ابن كثير؛ أنَّ المرادَ بِقَولِه تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: مِن بعدِ الجِيلِ الذينَ منهم الصَّالحون، ومنهم دونَ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٨).
وقيل بل المرادُ: مِن بَعدِ القَومِ الصَّالحينَ مِن بني إسرائيلَ، وهذا اختيارُ الرازي، والشنقيطيِّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٩٥)، ((العذب النمير)) (٤/ ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٣٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٩٨-٢٩٩). =

كما قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ * وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٩-٨٠].

﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾.

أي: ويقولُ هؤلاءِ الَّذينَ يأخُذونَ المالَ الحَرامَ، ويُخالِفونَ كِتابَ اللهِ تعالى، يقولونَ- اغترارًا وتمنِّيًا على اللهِ الباطِلَ-: سيغفِرُ اللهُ لنا ذُنوبَنا هذه[1].

﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾.

أي: وإن جاء أولئك اليهودَ كَسبٌ حرامٌ مِن متاعِ الدُّنيا الزائِلِ، مِثل الكَسبِ السَّابِقِ؛ استحَلُّوه، وتناوَلُوه مَرَّةً ثانيةً؛ إصرارًا منهم على ذُنوبِهم، فهم مُنهَمِكونَ في أخذِ الحَرامِ، ومع هذا يزعُمونَ أنَّ اللهَ تعالى يَغفِرُ لهم[2]!

﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾.

أي: ألم يأخُذِ اللهُ على أولئك اليَهودِ- الذينَ وَرِثُوا التَّوراةَ، وأكلوا تلك

= قال ابنُ عاشورٍ: (والعَرَض- بفتح العين وفتح الراء- الأمرُ الذي يَزولُ ولا يدومُ، ويُرادُ به المالُ، ويُراد به أيضًا ما يَعرِضُ للمرءِ مِن الشَّهواتِ والمنافِعِ، والأدنى: الأقربُ مِن المكانِ، والمرادُ به هنا الدُّنيا). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٣٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٠١).

قال السَّعدي: (هذا قولٌ خالٍ مِن الحقيقةِ؛ فإنَّه ليس استغفارًا وطلبًا للمَغفرةِ على الحقيقةِ. فلو كان ذلك لنَدِموا على ما فَعَلوا، وعَزَموا على ألَّا يعودوا، ولكنَّهم- إذا أتاهم عَرَضٌ آخَرُ، ورِشوةٌ أخرى- يأخذونَه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٠١).

المكاسِبَ الخبيثةَ- العهدَ المؤكَّدَ في التَّوراةِ بأن يُبيِّنوا الحقَّ للنَّاسِ، ولا يَكذِبوا على اللهِ سُبحانَه[1]؟!

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾.

أي: والحالُ[2] أنَّهم قد قَرَؤوا كتابَ اللهِ، وعَلِموا ما فيه، وفَهِموا معانِيَه[3].

﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

أي: وما أعدَّه اللهُ تعالى في الآخرةِ مِن ثوابٍ ونعيمٍ، خيرٌ للَّذين يمتَثِلون ما أمرَ اللهُ تعالى به، ويجتنبونَ ما نهى عنه، من هذا الحُطامِ الدُّنيويِّ الفاني،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٦٢ - ١٦٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٠٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٢).

(٢) هذا اختيارُ الشَّوكاني والسَّعدي؛ أنَّ الجملةَ حاليَّةٌ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧).

وذهب الزمخشريُّ، وابنُ عطية، وابنُ عاشور إلى أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ معطوفٌ على ﴿يُؤْخَذْ﴾ مِن قَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ﴾، فيكون المعنى: ألم يؤخَذْ عليهم... وألم يَدرُسوا ما فيه. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٧٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٦٣). ويُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٣/ ٤٨٨).

وقال ابنُ جرير: (وأمَّا قَولُه: ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ فإنَّه مَعطوفٌ على قَولِه: ﴿وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ ومعناه: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾، ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٤٠).

قال ابنُ عطيَّةَ مُعَقِّبًا: (وفي هذا نظَرٌ؛ لِبُعدِ المعطوفِ عليه؛ لأنَّه قوله: ﴿وَدَرَسُوا﴾ يزولُ منه معنى إقامةِ الحُجَّةِ بالتقديرِ الذي في قَولِه: ﴿أَلَمْ﴾). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٤٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٠٣).

أفلا يكونُ لكم عَقلٌ- يا من تأخُذونَ الحرامَ، وتُخالِفونَ كِتابَ الله- تنظرونَ به إلى العَواقِبِ، فتعلمونَ أنَّ ما عِندَ الله خيرٌ مِن هذا العَرَضِ القَليلِ الزَّائلِ الذي تستعجِلونَه في الدُّنيا، وترتَدِعونَ به عن التَّهافُتِ على هذا الكَسبِ الحَرامِ المُورِث لخزي الدُّنيا والآخرةِ[1]؟!

كما قال تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [القصص: ٦٠].

وقال سبحانَه: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٧].

﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ (١٧٠) ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

وقعَت جملةُ: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ...﴾ إلى آخِرِها عقِبَ التي قَبلَها؛ لأنَّ مَضمونَها مُقابِلُ حُكمِ التي قَبلَها؛ إذ حصل مِن التي قَبلَها أنَّ هؤلاءِ الخَلْفَ الذين أخَذُوا عَرَض الأدنى، قد فرَّطوا في مِيثاقِ الكِتابِ، ولم يكونوا مِن المتَّقينَ، فعقَّبَ ذلك ببشارةِ مَن كانوا ضِدَّ أعمالِهم، وهم الآخِذونَ بمِيثاقِ الكِتابِ، والعامِلونَ ببِشارَتِه بالرُّسُل، وآمَنوا بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأولئك يستكمِلونَ أجرَهم؛ لأنَّهم مُصلِحونَ[2].

﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧).

قال ابنُ عاشور: (وجملةُ: ﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ حاليَّةٌ مِن ضميرِ ﴿يَأْخُذُونَ﴾ أي: يأخذونَ ذلك، ويَكذِبونَ على اللهِ، ويُصِرُّونَ على الذَّنبِ، ويَنبِذونَ مِيثاقَ الكِتابِ، على علمٍ، في حالِ أنَّ الدَّارَ الآخرةَ خَيرٌ مِمَّا تعجَّلوه). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٦٤).

أي: والَّذينَ يعتَصِمونَ بكِتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ويَعملونَ بما فيه[١].

﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

أي: وحافَظُوا على الصَّلاةِ، وأقامُوها بحدُودِها[٢].

﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾.

أي: فمَن تمسَّك بالكِتابِ، وأقام الصَّلاةَ، فهو مِن المُصلحينَ، الذين يُصلِحونَ أنفُسَهم وأعمالَهم، ويُصلِحونَ غيرَهم، ونحنُ لا نُضيعُ ثوابَهم[٣].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ * لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٢٩-٣٠].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧).

قال السمعاني: (قيل: هذا في أمَّة مُحَمَّد. وَقيل: هو فيمَن أسلَمَ من اليَهودِ، يُمَسِّكونَ بالقرآنِ، وأقاموا الصَّلاةَ). ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٢٢٩).

وقال ابنُ عاشور: (فالمرادُ مِن هؤلاءِ هم مَن آمَنَ مِن اليهودِ بعيسى في الجُملةِ، وإن لم يتَّبِعوا النَّصرانيَّةَ؛ لأنَّهم وجدوها مُبدَّلةً مُحرَّفةً، فبَقُوا في انتظارِ الرَّسولِ المُخَلِّص الذي بشَّرَت به التوراةُ والإنجيلُ، ثمَّ آمنوا بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حين بُعث: مثل عبد الله بن سَلَام، ويحتمِلُ أنَّ المرادَ بالَّذين يُمسِّكونَ بالكِتابِ: المسلمونَ؛ ثناءً عليهم بأنَّهم الفائزونَ في الآخِرةِ، وتبشيرًا لهم بأنَّهم لا يَسلُكونَ بكِتابِهم مَسلَكَ اليَهودِ بكِتابِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٦٤ - ١٦٥). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

الفَوائِد التربويَّة:

١- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قلَّما ذكَرَ اللهُ عذابَ الفاسِقينَ المُفسدينَ، إلَّا وقَرَنه بذِكرِ المغفرةِ والرَّحمةِ للتَّائبينَ المُحسنينَ، حتى لا ييأسَ صالحٌ مُصلحٌ مِن رَحمَتِه بذَنبٍ عَمِلَه بجهالةٍ، ولا يأمَنَ مُفسِدٌ مِن عِقابِه؛ اغترارًا بِكَرمِه وعَفوِه، وهو مُصِرٌّ على ذَنبِه(١).

٢- قال الله تعالى: ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ المتابعةُ بالابتلاءِ رحمةٌ مِن اللهِ تعالى بالعِبادِ، وتذكيرٌ دائِمٌ لهم، ووقايةٌ مِن النِّسيانِ المؤدِّي إلى الاغترارِ والبَوارِ(٢).

٣- قال الله تعالى: ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ كلٌّ واحدٍ مِن الحَسَناتِ والسيِّئاتِ يدعو إلى الطَّاعةِ، أمَّا النِّعَمُ فلأجْلِ التَّرغيبِ، وأمَّا النِّقَمُ فلأجلِ التَّرهيبِ(٣).

٤- ما أعَدَّه اللهُ في الآخرةِ للَّذينَ يتَّقونَ الرَّذائِلَ والمعاصيَ، خيرٌ مِن الحُطامِ الفاني مِن عَرَضِ الدُّنيا؛ يُرشِدُ إلى ذلك قَولُ الله تعالى: ﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾(٤).

٥- قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ هذه الآيةُ وإن كانَت في اليهودِ، فكُلُّ مَن فَعَل فِعلَهم فهو أخُوهم،

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٢٢).
(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٣٨٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٩٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٢٣).

ينالُه مِن وَعيدِها وعذابِها ما نالَهم، فيجِبُ على المُسلمِ إذا كان في مَنصِبٍ يُوصَلُ فيه الحقُّ لصاحِبِه بإنابةِ مَن بَسَط اللهُ يَدَه، ألَّا يُغَيِّرَ أحكامَ اللهِ، ويأخُذَ الرِّشا بدلًا منها؛ فإنَّه إن أخذَ الرِّشوةَ وغَيَّرَ وبدَّلَ، فهو أخو اليَهودِ، وهو مِن هذا الخَلْفِ السَّيِّئِ القبيحِ[1].

٦- إذا ما وُجدَ مُسلِمٌ أو من يَدَّعي أنَّه مُسلِمٌ، ينتَهِكُ حُرُماتِ اللهِ، ويُصِرُّ ويثِقُ بالمغفرةِ؛ فاعلَمْ أنَّه مغرورٌ، وأنَّه أخو اليهودِ؛ قال تعالى عنهم: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾[2].

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ قَد عُلِمَ من الآيةِ أنَّ الطَّمَعَ في متاعِ الدُّنيا هو الذي استحوَذَ على بني إسرائيلَ، فأفسَدَ عليهم أمْرَهم، ولا يزالُ هذا التَّفاني فيه أخَصَّ صفاتِهم، وقد سرى شيءٌ كثيرٌ مِن هذا الفَسادِ إلى المُسلمينَ، حتى أولئك الذين وَرِثُوا الكتابَ الكَريمَ، والقرآنَ الحَكيمَ، ودَرَسوا ما فيه، غَلَب على كثيرٍ منهم الطَّمَعُ في حُطامِ الدُّنيا القليلِ، وعَرَضِها الدَّنيءِ، والغُرورُ بالنِّسبةِ إلى الإسلامِ والتَّحلِّي بلَقَبِه، والتعَلُّلُ بأماني المغفرةِ، مع الإصرارِ على الذَّنبِ، والاتِّكالِ على المُكَفِّراتِ والشَّفاعات، وهم يَقرَؤونَ ما في الكتابِ مِن النَّهيِ عن الأمانيِّ والأوهامِ، ومِن نَوْطِ الجزاءِ بالأعمالِ، والمغفرةِ بالتَّوبةِ والإصلاحِ، وكَونِ الشَّفاعةِ لا تقَعُ إلَّا بإذنِ اللهِ لِمَن رَضِيَ عنه، بل ما قَصَّ اللهُ علينا مِثلَ هذه الآياتِ مِن أخبارِ بني إسرائيلَ إلَّا لنَعتبِرَ بأحوالِهم، ونتَّقِيَ الذُّنوبَ التي أخَذَهم

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٢٩٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٣٠١).

بها، ولكِنَّا مع هذا كُلِّه اتَّبَعْنا سُنَنَهم شبرًا بشِبرٍ، وذراعًا بذِراعٍ [(١)].

٨- قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ التمسُّكُ بالكتابِ في جِدٍّ وقُوَّةٍ وصرامةٍ، وإقامةُ الصَّلاةِ- أي شَعائِرِ العبادةِ- هما طَرَفَا المنهجِ الرَّبانيِّ لصلاحِ الحياةِ، والتمسُّكُ بالكتابِ في هذه العبارةِ مَقرونًا إلى الشَّعائِرِ يعني مدلولًا مُعيَّنًا؛ إذ يعني تحكيمَ هذا الكتابِ في حياةِ النَّاسِ؛ لإصلاحِ هذه الحياةِ، مع إقامةِ شَعائِرِ العبادةِ؛ لإصلاحِ قُلوبِ النَّاسِ، فهما طرفانِ للمَنهجِ الذي تصلُحُ به الحياةُ والنُّفوسُ، ولا تصلُحُ بِسِواه[(٢)].

٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾ أي: يُمسِكونَ إمساكًا شديدًا يتجَدَّدُ على وجهِ الاستمرارِ، وهو إشارةٌ إلى أنَّ التمَسُّكَ بالسُّنَّةِ في غاية الصعوبةِ، لا سيَّما عند ظُهورِ الفَسادِ[(٣)].

١٠- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ يدلُّ على أنَّ اللهَ بعَثَ رُسُلَه- عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ- بالصَّلاحِ لا بالفَسادِ، وبالمنافِعِ لا بالمضارِّ، وأنَّهم بُعِثوا بصلاحِ الدَّارَينِ، فكلُّ من كان أصلَحَ، كان أقرَبَ إلى اتِّباعِهم[(٤)].

١١- في التعبيرِ بقولِه: ﴿الْمُصْلِحِينَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ تَمْسيكَهم للكتابِ يتجاوزُ الإمساكَ إلى الدعوةِ إليه[(٥)].

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٢٣).

(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٣٨٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٠٧).

(٥) يُنظر: ((زهرة التفاسير)) لأبي زهرة (٦/ ٣٠٠١).

هَذَا ...﴾ المقصودُ هو ذَمُّ الخَلْفِ بأنَّهم يأخُذُونَ عَرَضَ الأدنى، ويقولونَ سيُغفَرُ لنا، ومَهَّدَ لذلك بأنَّهم وَرِثُوا الكتابَ؛ ليَدُلَّ على أنَّهم يفعلونَ ذلك عَن عِلمٍ لا عَن جهلٍ، وذلك أشَدُّ مَذمَّةً[1].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ لَمَّا كان النَّافِعُ الغفرانَ مِن غَيرِ نَظَرٍ إلى مُعيَّنٍ، بنَوُا الفِعلَ للمَفعولِ، ومن غيرِ شَكٍّ[2].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ﴾ بنى الفِعلَ للمَفعولِ؛ إشارةً إلى أنَّ العَهدَ يَجِبُ الوفاءُ به على كلِّ حالٍ[3].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ لَمَّا كان مِن تَمسيكِهم بالكتابِ عند نُزولِ هذا الكلامِ انتقالُهم عن دِينِهم إلى الإسلامِ؛ عَبَّر عن إقامةِ الصَّلاةِ المعهودةِ لهم بلَفظِ الماضي دونَ المُضارِعِ؛ لِئلَّا يَجعلُوه حجَّةً في الثَّباتِ على دينِهم، فيُفيدَ ضِدَّ المرادِ[4].

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

- قوله: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لِبَيانِ ما يَصنَعونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٦٠).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٤٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ١٤٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ١٤٩).

بالكِتابِ بَعدَ وِراثَتِهم إيَّاه، أي: يأخُذونَ حُطامَ هذا الشَّيءِ الأدنى، أي: الدُّنيا(١).

- قَولُه: ﴿عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ في اسمِ الإشارةِ إيماءٌ إلى تَحقيرِ هذا العَرَضِ الذي رَغِبُوا فيه(٢).

- قوله: ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ معطوفةٌ على جُملةِ ﴿يَأْخُذُونَ﴾ لأنَّ كِلَا الخَبَرينِ يُوجِبُ الذَّمَّ، واجتماعُهما أشَدُّ في ذلك(٣).

- قَولُه: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ﴾ الاستفهامُ للتَّقريرِ المقصودِ منه التَّوبيخُ(٤).

- قوله: ﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ كنايةٌ عَن كَونِهم خَسِروا خيرَ الآخرةِ بأخذِهم عَرَضَ الدُّنيا بتلك الكيفيَّةِ؛ لأنَّ كَونَ الدَّارِ الآخرةِ خَيرًا مِمَّا أَخَذُوه، يستلزِمُ أن يكونَ ما أَخَذُوه قد أفات عليهم خَيرَ الآخرةِ(٥).

- وفي جَعْلِ الآخرةِ خيرًا للمُتَّقينَ كنايةٌ عن كَونِ الذين أَخَذُوا عَرَضَ الدُّنيا بتلك الكيفيَّةِ لم يكونوا مِن المتَّقينَ؛ لأنَّ الكنايةَ عَن خسرانِهم خَيرَ الآخرةِ، مع إثباتِ كَونِ خَيرِ الآخرةِ للمُتَّقينَ، تستلزِمُ أنَّ الذينَ أضاعوا خَيرَ الآخرةِ لَيسُوا من المتَّقينَ(٦).

- قَولُه: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الاستفهامُ هنا إنكاريٌّ، وفي (تَعْقِلُونَ) التفاتٌ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٨٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٦١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٦٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٦٣، ١٦٤).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الغَيبةِ إلى الخطابِ؛ ليكونَ أوقَعَ في توجيهِ التَّوبيخِ إليهم مُواجهةً[١].

٢- قولُه: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ خصَّ الصَّلاةَ بالذِّكرِ، مع دُخُولِها فيما قبلَهَا، فالتمسُّكُ بالكتابِ يشتَمِلُ على كلِّ عبادةٍ، ومنها إقامةُ الصَّلاةِ؛ إظهارًا لعُلُوِّ مَرتَبَتِها؛ لكونِها عمادَ الدِّينِ، وأعظَمَ العباداتِ بعد الإيمانِ، وناهيةً عن الفحشاءِ والمُنكَرِ، ولِكَونِها ميزانَ الإيمانِ، وإقامَتِها داعيةً لإقامةِ غَيرِها مِن العِباداتِ[٢].

- قوله: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ خبرٌ عن ﴿الَّذِينَ يُمَسِّكُونَ﴾، والمُصلِحونَ هم، والتقديرُ: إنَّا لا نُضيعُ أجرَهم؛ لأنَّهم مُصلِحونَ، فطُوِيَ ذِكرُهم؛ اكتفاءً بشُمولِ الوَصفِ لهم، وثناءً عليهم، على طريقةِ الإيجازِ البَديعِ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٧٥)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٣٩٦-٣٩٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٢١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٦٤).

الآيات (١٧١-١٧٤)

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١) وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤)﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿نَتَقْنَا الجَبَلَ﴾: أي: قَلَعْناه مِن أَصلِه، ورَفَعْناه فوقَهم، أو زعزَعْناه؛ يُقالُ: نَتَقَ الشيءَ: جذبَه، ونزَعَه حتى يسترخِيَ[١].

﴿ظُلَّةٌ﴾: الظُّلَّة: مَا غطَّى وستَر، وأصلُ (ظلل) يدلُّ على سَترِ شَيءٍ لِشيءٍ[٢].

﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾: الذُّرِّيَّة: الأولادُ وأولادُ الأولادِ، و(ذُرِّيَّة) مأخوذةٌ مِن (ذَرَأَ)، أي: خَلَق؛ لأنَّ الذُّرِّيَّة خَلْقُ اللهِ؛ يُقال: ذَرَأَ اللهُ الخَلْقَ، أي: خَلَقَهم فهو يَذْرَؤُهم، وتُرِكتِ الهَمزةُ فيها؛ لكثرةِ ما يُتكلَّم بِها[٣].

﴿الْمُبْطِلُونَ﴾: أي: الآخِذونَ بالباطِلِ. والبَاطِلُ: نقيضُ الحقِّ، وهو ما لا

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٦١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٢٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٢)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٣٢٧)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ١٥٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٢).

ثباتَ له عند الفَحصِ عنه، وأصلُه: ذهابُ الشَّيءِ، وقِلَّةُ مُكثِه ولُبثِه[١].

المعنى الإجماليُّ:

واذكُر - يا محمَّدُ - حين اقتلَعْنا الجبلَ، فرَفَعْناه فوقَ بني إسرائيلَ كأنَّه سحابةٌ تُظِلُّهم، وظنُّوا أنَّه ساقِطٌ عليهم، وقُلْنا لهم: اعمَلوا بما آتيناكم في التَّوراةِ بجِدٍّ واجتهادٍ، واذكروا ما فيه، لعلَّكم تتَّقونَ اللهَ ربَّكم بالعَملِ به.

واذكُرْ - يا محمَّدُ - حين استخرجَ ربُّك من ظهورِ بني آدمَ ذُرِّيَّتَهم، وأشهَدَهم على أنفُسِهم، فقال لهم: ألستُ بربِّكم؟ قالوا: بلى شَهِدْنا، وكان إشهادُهم على أنفُسِهم كراهةَ أن يُنكِروا يومَ القيامةِ، ويقولوا: إنَّه لا عِلمَ لنا بأنَّ اللهَ هو الرَّبُّ المعبودُ بحَقٍّ وَحدَه لا شريكَ له، أو يقولوا: إنَّما حصل الشِّركُ مِن آبائنا قبل زَمانِنا، وكنَّا ذريَّةً من بَعدِهم، فاقتدَينا بهم عن جَهلٍ، أفتُهلِكُنا بما فعل آباؤُنا الذين أتَوا بالباطِلِ، وترَكوا التَّوحيدَ؟!

ثم بيَّنَ تعالى أنَّه كما وضَّحَ هذه الآياتِ، يوضِّحُ أيضًا غيرَها من آياتِ القُرآنِ الكريمِ؛ لكي يهتديَ بها النَّاسُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾.

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾.

أي: واذكُر - يا مُحمَّد - حين اقتَلَعْنا جبلَ الطُّورِ، فرَفَعْناه فوقَ بني إسرائيلَ، كأنَّه سحابةٌ تُظِلُّهم[٢].

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٩ - ١٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٧٠).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٤٢)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٤٤٠)، ((تفسير القرطبي)) =

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣].

وقال سبحانه: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٤].

﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمۡ﴾.

أي: وغلَبَ على ظَنِّهم أنَّ الجَبلَ ساقِطٌ عليهم(١).

﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾.

أي: وقُلْنا لهم: خُذوا ما أعطيناكم في التَّوراةِ، فاقبَلوه، واعمَلُوا به بجِدٍّ واجتهادٍ، من غيرِ تقصيرٍ ولا تفريطٍ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥].

﴿وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾.

أي: وقُلْنا لهم: واذكروا ما في التَّوراةِ مِن العقائِدِ والأوامِرِ والنَّواهي، وتدارَسُوها؛ كي تتَّقوا ربَّكم بالعَمَل بها(٣).

= (٧/ ٣١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٦٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٠٥).

قال السعدي: (﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾حين امتنعوا مِن قَبول ما في التَّوراة، فألزَمَهم اللهُ العمل، ونتَقَ فوق رؤوسهم الجبل). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٨).

(١) يُنظَر: ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٤٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٩٨).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٤٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٠٦).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٤٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٠٧ - ٣٠٨).

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ (١٧٢)﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾.

أي: واذكُرْ - يا مُحمَّدُ - حين استخرجَ ربُّك ذريَّةَ بني آدَمَ، بَعضَهم من ظهورِ بَعضٍ، وأخرَجَ جميعَ ذلك من صُلبِ آدَمَ في صورةِ الذَّرِّ؛ ليأخُذَ عليهم العَهدَ(١).

---

(١) وممَّن اختار هذا المعنى: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ، والقرطبيُّ، والشوكانيُّ، والشنقيطيُّ، ونسبه إلى جمهورِ السَّلف. يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/٥٤٦، ٥٥٢- ٥٦١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٩٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣١٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٣).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلف ابنُ عبَّاس، وعبدُ الله بنُ عمرٍو، وأبيُّ بنُ كعبٍ، وسعيدُ بنُ جُبيرٍ، وعطاءٌ، ونضرُ بنُ عربي، والضحَّاكُ، والسُّديُّ. ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٤٧، ٥٦٠).
قال الواحدي: (قال أبو بكر بن الأنباري: مذهبُ أصحاب الحديثِ، وكبراءِ أهلِ العِلمِ في هذه الآيةِ؛ هو: أنَّ الله عزَّ وجلَّ أخرج ذريَّاتِ آدمَ مِن صُلبِه وأصلابِ أولادِه، وهم في صُوَرِ الذَّرِّ، وأخذ عليهم الميثاقَ أنَّه خالِقُهم وأنَّهم مصنوعونَ، فاعترفوا بذلك وقَبِلوا، وذلك بعد أن ركَّبَ فيهم عقولًا، عرَفوا بها ما عَرَضَ عليهم). ((البسيط)) (٩/ ٤٤٨).
وقال الرازي: (ظاهِرُ الآيةِ يدلُّ على أنَّه تعالى أخرج الذَّرَّ مِن ظُهورِ بني آدمَ، فيُحمَلُ ذلك على أنَّه تعالى يعلَمُ أنَّ الشَّخصَ الفُلانيَّ يتولَّدُ منه فلانٌ، ذلك الفلانُ فلانٌ آخر، فعلى الترتيبِ الذي عَلِمَ دخولَهم في الوجودِ يُخرِجُهم، ويميِّزُ بَعضَهم من بعض، وأمَّا أنَّه تعالى يُخرِجُ كلَّ تلك الذريَّة مِن صُلبِ آدَمَ، فليس في لفظِ الآيةِ ما يدلُّ على ثُبوتِه، وليس في الآيةِ أيضًا ما يدلُّ على بُطلانِه، إلَّا أنَّ الخبَرَ قد دلَّ عليه، فثبت إخراجُ الذريَّةِ مِن ظهورِ بني آدَمَ بالقرآن، وثبت إخراجُ الذريَّةِ مِن ظَهرِ آدمَ بالخَبرِ، وعلى هذا التقديرِ: فلا منافاةَ بين الأمرينِ ولا مدافعةَ، فوجب المصيرُ إليهما معًا). ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٠٢).
وقال البغوي: (فإن قيل: ما معنى قَولِه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾ وإنَّما أخرَجَهم مِن ظهرِ آدَمَ؟ قيل: إنَّ الله أخرجَ ذريَّةَ آدمَ بَعضَهم من ظهورِ بَعضٍ، على نحو ما يتوالَدُ الأبناءُ مِن الآباءِ في الترتيبِ، فاستُغنيَ عن ذكرِ ظَهرِ آدمَ؛ لِما عُلِم أنَّهم كُلَّهم بَنُوه وأُخرِجوا مِن ظَهْرِه). ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٤٧). ويُنظَر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣١٧).
وقيل: معنى الآية: واذكُرْ حين استخرجَ ربُّك ذريَّةَ آدمَ مِن أصلابِ آبائِهم، وجعَلَهم يتناسلونَ في الدُّنيا قرنًا بعد قَرنٍ. وممَّن اختار هذا القَولَ: ابنُ تيميَّة، وابنُ القَيِّم، وابنُ كثيرٍ، والسَّعدي. =

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لَمَّا خلَقَ اللهُ آدمَ مَسحَ ظَهرَه، فسقَطَ مِن ظَهرِه كُلُّ نَسَمةٍ هو خالِقُها مِن ذُرِّيَّتِه إلى يومِ القيامةِ))(١).

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((أخذ اللهُ تبارك وتعالى الميثاقَ مِن ظَهرِ آدمَ بـ (نَعمان)- يعني عرفة- فأخرج مِن صُلبِه كلَّ ذريَّةٍ ذرأَها، فنثَرهم بين يديه كالذَّرِّ، ثمَّ كلَّمَهم قُبُلًا، قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾))(٢).

= يُنظَر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٨/ ٤٨٧)، ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (٢/ ١٠٥٨)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٢، ١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٨).

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٧٦)، والبزار (٨٨٩٢)، والفريابي في ((القدر)) (٢٠)، والحاكم في ((المستدرك)) (٤١٣٢).

قال الترمذي: حسن صحيح، وصحَّحه ابن بطال في ((شرح البخاري)) (٣/ ٣٧٠)، وابن العربي في ((أحكام القرآن)) (٢/ ٣٣٣)، والألباني في ((صحيح الترمذي)) (٣٠٧٦).

(٢) أخرجه أحمد (٢٤٥٥)، وابن أبي عاصم في ((السنة)) (٢٠٢)، والفريابي في ((القدر)) (٥٩)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١١١٢٧).

قال الشوكاني في ((فتح القدير)) (٢/ ٣٧٠): إسنادُه لا مَطعَنَ فيه. وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في ((مسند أحمد)) (٤/ ١٥١)، والألباني في ((تخريج مشكاة المصابيح)) (١١٧).

وقال ابن حجر في ((تحفة النبلاء)) (١٣٤): وقفُه أصَحُّ.

قال الواحدي: (وقال صاحب النظم: ليس بين قَولِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلم: ((إنَّ اللهَ مسحَ ظَهرَ آدمَ، فأخرج منه ذُرِّيَّته)) وبين الآيةِ اختلافٌ- بحَمدِ اللهِ؛ لأنَّه- عزَّ وجَلَّ- إذا أخَذَهم من ظَهرِ آدمَ فقد أخَذَهم من ظهورِ ذُريَّتِه؛ لأن ذرِّيَّةَ آدمَ ذرِّيَّةٌ لذريَّتِه، بعضُهم مِن بَعضٍ. قال: وحاصلُ الفائدةِ بهذا الفَصلِ، أنَّه قد أثبت الحجَّةَ على كلِّ مَنفوسٍ- ممَّن بُلِّغ، وممَّن لم يُبَلَّغ- بالميثاقِ الذي أخَذَه عليهم، وزاد على من بُلِّغَ منهم الحُجَّة بالآياتِ والدَّلائلِ التي نصَبَها في نفسِه وفي العالَم، وبالرُّسُلِ المُنْفَذةِ إليهم، مُبَشِّرينَ ومُنذِرينَ، وبالمواعِظِ والمَثُلات المنقولةِ إليهم أخبارُها). ((البسيط)) (٩/ ٤٤٩).

﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾.

أي: قَرَّرَهم على توحيدِه، حين أخرجَهم مِن صُلبِ آدمَ في صُورةِ الذَّرِّ، فقال لهم: ألسْتُ أنا خالِقَكم ومَعبُودَكم[1]؟

(١) وممَّن اختار هذا القولَ: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ، والقرطبي، والشوكاني، والشنقيطي. يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٤٦، ٥٥٢، ٥٥٢- ٥٦١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٩٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣١٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٣).

قال ابنُ جُزيٍّ: (في معناها قولان: أحدُهما: أنَّ اللهَ لَمَّا خلق آدمَ أخرَجَ ذريَّتَه من صُلبِه، وهم مِثلُ الذَّرِّ، وأخذ عليهم العَهدَ بأنَّه ربُّهم، فأقرُّوا بذلك والتَزموه؛ رُوِيَ هذا المعنى عن النبيِّ- صلَّى اللهُ تعالى عليه وآلِه وسلَّم- مِن طُرُقٍ كثيرةٍ، وقال به جماعةٌ من الصحابةِ وغَيرِهم. والثاني: أنَّ ذلك من بابِ التَّمثيلِ، والأول هو الصَّحيحُ؛ لتواتُرِ الأخبارِ به، إلَّا أنَّ ألفاظَ الآيةِ لا تُطابِقُه بظاهِرِها، فلذلك عَدَلَ عنه من قال بالقَولِ الآخَرِ، وإنَّما تُطابِقُه بتأويلٍ: وذلك أنَّ أخْذَ الذرِّيَّة إنَّما كان مِن صُلبِ آدَمَ، ولفظُ الآية يقتضي أنَّ أخْذَ الذرِّيَّة من بني آدَمَ، والجمعُ بينهما أنَّه ذَكَرَ بني آدَمَ في الآيةِ، والمرادُ آدمُ؛ كقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ [الأعراف: ١١]). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣١٢). ويُنظَر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٩٠).

وقال الشوكاني: (وقيل: المرادُ ببني آدَمَ هنا: آدمُ نَفسُه؛ كما وقع في غَيرِ هذا الموضِعِ. والمعنى: أنَّ الله سُبحانه لَمَّا خلَقَ آدمَ مَسحَ ظَهرَه فاستخرجَ منه ذرِّيَّته، وأخذ عليهم العَهدَ، وهؤلاء هم عالَمُ الذَّرِّ، وهذا هو الحقُّ الذي لا ينبغي العدولُ عنه، ولا المصيرُ إلى غيره؛ لثبوته مرفوعًا إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وموقوفًا على غيرِه من الصَّحابة، ولا مُلجِئَ للمصيرِ إلى المجازِ، وإذا جاء نَهرُ اللهِ بطَلَ نَهرُ مَعقِلٍ). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٩٩).

وقال ابنُ عبد البر: (ومعنى الآيةِ والحديثِ: أنَّه أخرج ذرِّيَّةَ آدم مِن ظَهرِه كيف شاء ذلك، وألهَمَهم أنَّه ربُّهم، فقالوا: بلى؛ لِئلَّا يقولوا يومَ القيامةِ إنَّا كنَّا عن هذا غافلينَ، ثم تابَعَهم بحجَّةِ العَقلِ عند التَّميِيزِ، وبالرُّسُلِ بعد ذلك؛ استظهارًا بما في عقولِهم من المنازعةِ إلى خالقٍ مُدَبِّرٍ حكيمٍ، يُدَبِّرُهم بما لا يتهيَّأُ لهم، ولا يُمكِنُهم جَحدُه، وهذا إجماعُ أهلِ السُّنَّة، والحمد لله). ((التمهيد)) (١٨/ ٨٩، ٩٥، ٩٦).

وقيل: أي: خَلَقَهم حين وُلِدوا على الفِطرةِ مُقِرِّينَ بأنَّ اللهَ رَبُّهم، فِفِطَرُهم شاهدةٌ عليه، ويكونُ سبحانه بذلك قد أشهَدَهم على أنفُسِهم وقرَّرَهم، وممَّن اختار هذا القولَ: ابنُ تيميَّةَ، وابنُ القيِّم، وابنُ كثيرٍ، والقاسميُّ، والسعديُّ. يُنظَر: ((جامع الرسائل لابن تيمية)) (١/ ١١، ١٢)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٨/ ٤٨٢ - ٤٩١)، ((الروح)) لابن القيم =

﴿قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾.

أي: قال بنو آدمَ: قد أقرَرْنا بأنَّك ربُّنا[1].

﴿أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾.

أي: أشهَدْناكم على أنفُسِكم بأنَّ اللهَ ربُّكم؛ لِئَلَّا تقولوا يومَ القيامةِ: إنَّه لا عِلمَ لنا بأنَّ اللهَ هو الرَّبُّ المعبودُ بحَقٍّ، وَحْدَه لا شريكَ له[2].

﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾.

= (ص: ١٦٣-١٧١)، ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (٢/ ٩٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٠٠)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٨).

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٦٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣١٨)، ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ١١، ١٢)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٦٣ - ١٧١)، ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (٢/ ٩٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٠٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٩٩)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣١٥ - ٣١٦).

اختلف المُفَسِّرونَ تبعًا للاختلافِ السَّابِقِ، هل أقرُّوا بذلك بِلِسانِ المَقالِ أم بلسانِ الحالِ. يُنظَر: المصادر السابقة.

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٦٥)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٤٥١-٤٥٢)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٨/ ٤٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٠٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٠٠).

وممَّن اختار أنَّ الإشارةَ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا﴾ تعودُ إلى معرفةِ الخالقِ وتوحيدِه سبحانه: ابنُ جرير، وابنُ تيمية، وابنُ كثير، والشوكاني. يُنظَر: المصادر السَّابقة.

قال ابنُ عطية: (المعنى في هذه الآياتِ أنَّ الكَفَرة لو لم يُؤخَذْ عليهم عَهدٌ، ولا جاءَهم رسولٌ مُذَكِّرٌ بما تضمَّنَه العهدُ من توحيدِ اللهِ وعبادتِه، لكانت لهم حُجَّتانِ؛ إحداهما: كنَّا غافلين، والأخرى: كنَّا أتباعًا لأسلافِنا، فكيف نُهلَك، والذَّنبُ إنَّما هو لِمَن طَرَّقَ لنا وأضَلَّنا؟! فوقعت شهادةُ بَعضِهم على بعضٍ، أو شهادةُ الملائكةِ عليهم؛ لتنقَطِعَ عنهم هذه الحُجَجُ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٧٦).

﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾.

أي: وَلِئلَّا تعتذِرُوا يومَ القيامةِ، فتقولوا: إنَّما أشرَكَ آباؤُنا مِن قَبلِ زَمانِنا، فنَقَضوا الميثاقَ، وكُنَّا ذرِّيَّةً أتينا مِن بَعدِهم، فاقتَدَينا بهم عن جَهلٍ منَّا[1].

﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾.

أي: أتُعامِلُنا بغيرِ ما فَعَلْنا، فتُعَذِّبَنا بِشِرْكِ آبائِنا الذين أتَوْا بالباطِلِ، وتركوا التَّوحيدَ[2]؟!

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤)﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾.

أي: وكما بيَّنَّا هذه الآياتِ[3] ووضَّحْناها، نبيِّنُ أيضًا غيرَها من آياتِ القُرآنِ الكَريمِ[4].

كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢].

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٦٥)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٤٥٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٨).
قال الشوكاني: (أي: فعَلْنا ذلك كراهةَ أن تعتَذِروا بالغَفلةِ، أو تنسُبوا الشِّركَ إلى آبائِكم دونَكم... بيَّنَ اللهُ سبحانَه في هذه الحِكمةِ التي لأجْلِها أخرَجَهم من ظَهرِ آدَمَ وأشهَدَهم على أنفُسِهم، وأنَّه فعَلَ ذلك بهم؛ لئلَّا يقولُوا هذه المقالةَ يومَ القيامةِ، ويعتَلُّوا بهذه العِلَّةِ الباطلةِ، ويعتَذِروا بهذه المَعذِرةِ السَّاقطةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٠٠).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٦٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٢٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣١٧ - ٣١٨).

(٣) ذهب ابنُ جَريرٍ إلى أنَّ المعنيَّ آياتُ هذه السُّورةِ الكريمةِ. يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٦٦).
وذهب الواحديُّ إلى أنَّ المرادَ أمرُ الميثاقِ الذي تقدَّمَ ذِكرُه. يُنظَر: ((التفسير البسيط)) (٩/ ٤٥٩).
وذهب الشِّنقيطيُّ إلى أنَّ المرادَ: أخبارُ الأمَمِ، وما جرى عليها، وسبَبُ إهلاكِ مَن هلَكَ منها، ونجاةُ مَن نجا منها. يُنظَر: ((العذب النمير)) (٤/ ٣١٨).

(٤) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٦٦)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٤٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣١٨).

وقال سبحانه: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨].

﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

أي: ووضَّحْنا الآياتِ؛ لكي يهتَديَ بها النَّاسُ فيرجِعوا عن الشِّركِ والمعاصي إلى التَّوحيدِ والطَّاعةِ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٧- ٢٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

الفَوائدُ التربويَّةُ:

١- الجِدُّ وقوَّةُ العَزمِ في إقامةِ الدِّينِ، يُهذِّبُ النَّفسَ ويُزكِّيها، والتَّهاوُنُ والإغماضُ فيه، يُدَسِّيها ويُغويها؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(٢).

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٦٦)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٤٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٠٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣١٨/٤).

قال الواحدي في قوله: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: (وقيل: إلى ما أُخِذَ عليهم من الميثاقِ في التوحيدِ، والرُّجوعُ إلى ذلك الميثاقِ رجوعٌ إلى التوحيدِ). ((التفسير البسيط)) (٩/ ٤٥٩).

وقال السَّعدي: (﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إلى ما أودَعَ اللهُ في فِطَرِهم، وإلى ما عاهَدوا اللهَ عليه، فيرتدعونَ عن القبائحِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٨).

(٢) يُنظَر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٢٥).

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ يُفهَمُ مِن هذه الآيةِ أنَّه يَجِبُ على مَن خُوطِبَ بأوامِرِ اللهِ في كُتُبِه المُنَزَّلة، أن يلتَزِمَها بقوةٍ ونَشاطٍ واجتهاد، فلا يضعُف فيها، ولا يُفرِّط فيها؛ لأنَّها لا تُمتثَلُ على الوجهِ الأكمَلِ إلَّا بالقوَّةِ والجِدِّ والاجتهادِ[1].

٣- النَّفسُ بِفِطرتِها إذا تُرِكَت كانت مُقِرَّةً لله بالإلهيَّة، مُحبَّةً له، تعبُدُه لا تُشرِكُ به شيئًا؛ يُبَيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ هذه آيةٌ أظهَرَها اللهُ لهم تخويفًا لهم؛ لتكونَ مُذَكِّرةً لهم، فيَعقُب ذلك أخذُ العَهدِ عليهم بعزيمةِ العَمَلِ بالتَّوراةِ[3].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ عَرَّفَ ﴿الْجَبَلَ﴾ لمَعرِفَتِهم به، وعبَّرَ به لدَلالةِ لفظِه على الصُّعوبةِ والشِّدَّة، دونَ (الطُّورِ) كما في البَقَرةِ؛ لأن السِّياقَ لبيانِ نَكَدِهم بإسراعِهم في المعاصي الدَّالَّةِ على غِلظِ القَلبِ[4].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ أصلٌ في الإقرارِ[5].

٤- شأنُ الذرِّيَّةِ الاقتداءُ بالآباءِ، وإقامةُ عوائِدِهم؛ يُبَيِّنُ ذلك قَولُ اللهِ تعالى:

(١) يُنظَر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٠٧).
(٢) يُنظَر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٢٩٦).
(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٦٥).
(٤) يُنظَر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٥٠).
(٥) يُنظَر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٦٧).

﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾(١).

٥- لا يُعاقِبُ اللهُ تعالى أحدًا بِذَنبِ غَيرِه؛ يُبَيِّنُ ذلك قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ فأخبرَ سُبحانه أنَّه استخرَجَ ذُرِّياتِهم، وأشهَدَهم على أنفُسِهم؛ لئلَّا يقولوا: ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ أتى بنونِ العَظَمةِ في ﴿نَتَقْنَا﴾ لزيادةِ التَّرهيبِ(٣).

- في قَولِه ﴿وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ عُدِّيَ ﴿وَاقِعٌ﴾ بالباءِ؛ للدَّلالةِ على أنَّهم كانوا مُستقرِّينَ في الجبلِ، فهو إذا ارتفَعَ وقَعَ ملابسًا لهم ففتَّتَهم، فهم يرَونَ أعلاه فوقَهم، وهم في سَفْحِه، وهذا وجهُ الجمعِ بين قولِه ﴿فَوْقَهُمْ﴾ وبين باءِ المُلابسةِ. وقيل: إنَّ الباءَ بِمَعنى (على)(٤).

٢- قوله ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾

- في قَولِه: ﴿أَخَذَ رَبُّكَ﴾ إيثارُ الأخذِ على الإخراجِ؛ للإيذانِ بالاعتناءِ

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٧٠).

(٢) يُنظَر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٣/ ٢٣٥).

(٣) يُنظَر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٥٠).

(٤) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٦٥).

بِشَأنِ المأخوذِ؛ لِما فيه من الإنباءِ عن الاجتباءِ والاصطفاء، هو السببُ في إسنادِه إلى اسمِ الربِّ بطريق الالتفات، مع ما فيه من التمهيد للاستفهام الآتي[1]، وقِيل: إنَّ إيثارَ الأخذِ على الإخراجِ؛ لمناسبةِ ما تضمَّنته الآيةُ مِن الميثاقِ؛ فإنَّ الذي يناسبُه هو الأخذُ دونَ الإخراجِ، وإضافتُه إلى ضميره صلَّى اللهُ عليه وسلَّم للتشريف[2].

- وقولُه تعالى: ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾ بدلٌ من ﴿بَنِي آدَمَ﴾ بدل البَعضِ بتكريرِ الجارِّ، وفيه مزيدُ تقريرٍ؛ لابتنائِه على البيانِ بعد الإبهامِ، والتفصيلِ بعد الإجمالِ[3].

- والاستفهامُ في قَولِه: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ تقريريٌّ، وجملة: ﴿قَالُوا بَلَى﴾ جوابٌ عَنِ الاستفهامِ التَّقريريِّ، وفُصِلَت؛ لأنَّها جاءَت على طريقةِ المُحاورةِ، وقوله: ﴿شَهِدْنَا﴾ تأكيدٌ لِمَضمونِ ﴿بلى﴾، والشَّهادةُ هنا أيضًا بمعنى الإقرارِ[4].

- قوله: ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ فيه تحويلٌ مِن خِطابِ الرَّسولِ في قَولِه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ إلى خطابِ قَومِه؛ تصريحًا بأنَّ المقصودَ مِن قِصَّةِ أخْذِ العَهدِ تذكيرُ المُشركينَ بما أودَعَ اللهُ في الفِطرةِ مِن التَّوحيدِ، وهذا الأسلوبُ هو مِن تَحويلِ الخِطابِ عن مخاطَبٍ إلى غيرِه، وليس مِن الالتفاتِ؛ لاختلافِ المُخاطبينَ[5].

- والإشارةُ بـ ﴿هَذَا﴾ إلى مَضمونِ الاستفهامِ وجَوابِه، وهو الاعترافُ

(١) يُنظَر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٨٩).
(٢) يُنظَر: ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٩٤).
(٣) يُنظَر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٨٩).
(٤) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٦٨-١٦٩).
(٥) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٦٩).

بالربوبيَّةِ لله تعالى، على تقديرِه بالمذكورِ[(١)].

٣- والاستفهامُ في قوله: ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ إنكاريٌّ[(٢)].

٤- قولُه: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ فيه شَبَّه الإقلاعَ عن الحالةِ التي هم متلبِّسونَ بها، بِتَركِ مَن حَلَّ في غيرِ مَقَرِّه، الموضِعَ الذي هو به؛ ليرجِعَ إلى مَقَرِّه، وهذا التشبيهُ يقتضي تشبيهَ حالِ الإشراكِ بمَوضِعِ الغُربةِ؛ لأنَّ الشِّركَ ليس مِن مُقتضى الفِطرةِ، فالتلبُّسُ به خروجٌ عن أصلِ الخِلقةِ، كخُروجِ المُسافِرِ عن مَوطِنِه، ويقتضي أيضًا تشبيهَ حالِ التَّوحيدِ بمحَلِّ المَرءِ وحَيِّه الذي يأوِي إليه، وهو تعريضٌ بالعَرَبِ؛ لأنَّهم المُشركونَ مِن عَقِبِ إبراهيمَ[(٣)].

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٦٩).

(٢) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٧٠).

(٣) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٧١).

الآيات (١٧٥-١٧٨)

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ ﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿نَبَأَ﴾: النَّبأُ: خَبَرٌ له شَأنٌ، وفائدةٌ عظيمةٌ، يحصُلُ به عِلمٌ أو غَلَبةُ ظَنٍّ، وأصلُ (نبأ): الإتيانُ مِن مكانٍ إلى مكانٍ[(١)].

﴿فَانْسَلَخَ﴾: أي: خرَجَ مِن العَمَلِ بها، وأصلُ (سلخ): إخراجُ الشَّيءِ عَن جِلدِه[(٢)].

﴿فَأَتْبَعَهُ﴾: أي أدرَكَه ولَحِقَه، يقال: أتبعتُ القَومَ: إذا لحِقتُهم، وَأصل (تبع): يدلُّ على التُلُوِّ والقَفْوِ[(٣)]

﴿الْغَاوِينَ﴾: أي: الضَّالِّينَ أو الهالِكينَ، والغَيُّ: جَهلٌ مِن اعتقادٍ فاسدٍ، وأصلُ (غوي): يدلُّ على خِلافِ الرُّشدِ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٧٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٠)، ((تذكرة =

﴿أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾: أي: اطمأنَّ إليها، ولزِمها، أو ركَن إلى الدُّنيا وسكَنَ؛ ظانًّا أنَّه يخلدُ فيها، وأصلُ (خلد): يدلُّ على الثَّباتِ والمُلازمةِ(١).

﴿تَحْمِلْ عَلَيْهِ﴾: أي: تَزجُرْه، أو تَطرُدْه، وأصلُ (حمل): يَدُلُّ عَلَى إِقْلَالِ الشَّيْءِ، يُقَالُ: حَمَلْتُ الشَّيْءَ أَحْمِلُه حَمْلًا(٢).

﴿يَلْهَثْ﴾: أي: يُخرجْ لِسانَه من حرٍّ أو عطَشٍ، واللَّهَثُ يقال للإعياءِ وللعَطشِ جميعًا(٣).

﴿سَاءَ﴾: أي: قَبُحَ، والسُّوءُ: اسمٌ جامِعٌ للآفاتِ، ثم استُعمِلَ في كلِّ ما يُستقبَحُ. وهو أيضًا كلُّ ما يغمُّ الإنسانَ(٤)

﴿الْخَاسِرُونَ﴾: أي: الهالكونَ والمَغبونونَ، والخُسرُ والخُسرانُ: انتقاصُ

= الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢١).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٠٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢١).

قال ابنُ عاشورٍ: (مَعْنَى ﴿إِنْ تَحْمِلْ عليه﴾ إِنْ تُطارِدْه وتُهاجِمْه. مُشتَقٌّ مِنَ الحَمَلِ الَّذي هو الهجومُ على أحدٍ لِقتالِه، يقالُ: حَمَل فلانٌ على القومِ حملَةً شعواءَ أو حملةً منكرةً. وقد أغفل المُفَسِّرون توضيحَه، وأغفل الرَّاغِبُ في «مُفرداتِ القرآنِ» هذا المعْنَى لهذا الفعلِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٧٨)

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٣)، ((المفردات)) للراغب (١ / ٤٤١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٣).

رأسِ المالِ، ويستعمَلُ في نُقصان العقل والإيمان، والثواب، وأصلُ (خسر) يدلُّ على النَّقصِ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ تعالى نبيَّه أن يتلُوَ على قَومِه قصَّةَ الرَّجُلِ الذي عَلَّمَه اللهُ- عزَّ وجَلَّ- آياتِه، فتبرَّأ منها وفارَقَها، فلَحِقَه الشَّيطانُ، وجَعَله له تابعًا، فصار مِن أهلِ الضَّلالِ والغَوايةِ، ولو شاء اللهُ لرَفَعه بها، ولكنَّه سكَنَ إلى الأرضِ وزِينَتِها، واتَّبَع ما تميلُ إليه نَفسُه مِن الباطِلِ، فمَثَلُه كمَثَلِ الكَلبِ؛ إنْ تَطرُدْه أو تترُكْه لا يزالُ لاهثًا، ذلك مَثَلُ القَومِ المكَذِّبينَ بآياتِ اللهِ، ثم أمر اللهُ نبيَّه أن يَقصُصَ على قَومِه وعلى اليهودِ القَصَصَ؛ لعَلَّهم يتفكَّرونَ.

قَبُحَ هذا المثَلُ الذي شُبِّه به المكَذِّبونَ بآياتِ اللهِ تعالى، والظَّالِمونَ لأنفُسِهم، مَن يَهدِ اللهُ تعالى فهو المُوفَّقُ، ومن يُضْلِلْه فأولئك الذينَ خَسِروا الدُّنيا والآخرةَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان تعالى قد ذكَرَ أخْذَ الميثاقِ على توحيدِه تعالى، وتقريرِ رُبوبيَّتِه، وذكَرَ إقرارَهم بذلك، وإشهادَهم على أنفُسِهم- ذكَرَ حالَ مَن آمن به، ثم بعد ذلك من كَفَر، كحالِ اليهودِ؛ حيث كانوا مُقِرِّينَ مُنتظِرينَ بَعثةَ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨١- ٢٨٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٣).

وسلَّم؛ لِما اطَّلَعوا عليه مِن كُتُبِ اللهِ المُنَزَّلةِ وتَبشيرِها به، وذِكْرِ صفاتِه، فلمَّا بُعِثَ كفروا به، فذُكِّروا أنَّ ما صدَرَ منهم هو طريقةٌ لأسلافِهم اتَّبعوها(١).

وأيضًا مناسَبةُ هذه الآيةِ للتي قَبلَها أنَّها إشارةٌ للعبرةِ مِن حالِ أحدِ الَّذينَ أخَذَ اللهُ عليهم العَهدَ بالتَّوحيدِ والامتثالِ لأمرِ الله، وأمَدَّه اللهُ بعِلمٍ يُعينُه على الوفاءِ بما عاهدَ اللهَ عليه، وما أودعَ في فطرتِه، ثمَّ لم ينفَعْه ذلك كلُّه حين لم يُقَدِّرِ اللهُ له الهُدى المُستَمِرَّ(٢).

﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا ﴾.

أي: واقرأ- يا مُحمَّدُ- على قَومِك قِصَّةَ الرَّجُلِ الذي عَلَّمْناه آياتِنا(٣).

---

(١) يُنظَر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٢٠-٢٢١).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٧٣).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٦٦، ٥٧٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣١٨).

قيل: إنَّ المرادَ بالآياتِ هي الآياتُ الشَّرعيَّةُ المُنَزَّلة، وممَّن اختار ذلك: السعديُّ، والشنقيطيُّ. يُنظَر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٨)، ((العذب النمير)) (٤/ ٣٢٤).

وقيل: المرادُ بالآياتِ هنا: حُجَجُ التَّوحيدِ وفَهمُ أدلَّتِه. وممَّن اختار هذا: الواحدي، وابن عاشور. يُنظَر: ((الوسيط)) (٢/ ٤٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٧٥).

وفي معنَى قولِه: ﴿آيَاتِنَا﴾ أقوالٌ أخرى، وذهب ابنُ جريرٍ إلى عدم تحديدِ مَعناها؛ لعَدَمِ وُجودِ دلالةٍ ثابتةٍ على ذلك. يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٦٦، ٥٧٤-٥٧٥).

قال ابنُ كثير: (عن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما في قَولِه: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ قال: هو صاحِبُكم أميَّةُ بن أبي الصَّلتِ. وقد رُوِيَ من غيرِ وجهٍ عنه، وهو صحيحٌ إليه، وكأنَّه إنما أراد أنَّ أميَّةَ بنَ أبي الصَّلت يُشبِهُه، فإنَّه كان قد اتَّصلَ إليه علمٌ كثيرٌ مِن عِلم الشَّرائِعِ المتقدِّمة، ولكنَّه لم ينتفِعْ بعِلمِه؛ فإنَّه أدرك زمانَ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وبلَغَتْه أعلامُه وآياتُه ومُعجزاتُه، وظَهَرَت لكلِّ مَن له بصيرةٌ، ومع هذا اجتمَعَ به ولم يتَّبِعْه، وصار إلى مُوالاةِ المُشركين ومناصَرتِهم وامتداحِهم، ورثى أهلَ بَدرٍ من المشركينَ بمَرثاةٍ بليغةٍ- قبَّحَه اللهُ تعالى). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٠٧). وقال ابنُ عاشورٍ: (ذهب كثيرٌ مِن المُفَسِّرينَ إلى أنَّها نَزَلتْ في رجلٍ مِن الكنعانيِّينَ، وكان في زمنِ موسى عليه السَّلامُ، يقال له: بلعامُ بنُ =

﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾.

أي: فخرَج من تلك الآياتِ التي علَّمَه اللهُ تعالى إيَّاها، وتبرَّأَ منها وفارَقَها، ولم يَعْلَقْ به منها شيءٌ(١).

عن حُذيفةَ بنِ اليَمانِ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ مِمَّا أتخَوَّفُ عليكم لَرجُلًا قرأَ القرآنَ، حتى إذا رُئِيَت بهجَتُه عليه، وكان ردءًا للإسلامِ، اعتراه إلى ما شاءَ الله، انسلَخَ منه، ونبَذَه وراءَ ظَهرِه، وسعى على جارِه بالسَّيفِ، ورماه بالشِّرْكِ، قلتُ: يا نبيَّ الله، أيُّهما أَوْلى بالشِّرْكِ: المرميُّ أو الرَّامي؟ قال: بل الرَّامي))(٢).

﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾.

أي: فلَحِقَه الشَّيطانُ وأدرَكَه، وجعَلَه له تابعًا يُطيعُ أمْرَه، فصار من الضالِّين

= باعور، وذكروا قصَّتَه فخَلَطوها وغيَّروها واختَلَفوا فيها... فلا ينبغي الالتفاتُ إلى هذا القَولِ؛ لاضطرابِه واختلاطِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٧٥).

وقال ابنُ جرير: (والصوابُ مِن القَولِ في ذلك أن يقالَ: إنَّ اللهَ- تعالى ذِكْرُه- أمَرَ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يتلوَ على قَومِه خَبَرَ رجلٍ كان اللهُ آتاه حُجَجَه وأدلَّتَه، وهي الآياتُ... وجائزٌ أن يكونَ الذي كان اللهُ آتاه ذلك بلعم، وجائزٌ أن يكونَ أُمَيَّةَ، ولا خبَرَ بأيِّ ذلك المرادُ، وأيُّ الرَّجُلينِ المعنيُّ- يُوجِبُ الحُجَّةَ، ولا في العَقلِ دلالةٌ على أنَّ ذلك المعنيَّ به مِن أيٍّ، فالصوابُ أن يُقالَ فيه ما قال اللهُ، ويُقَرُّ بظاهِرِ التَّنزيلِ على ما جاء به الوَحيُ مِن اللهِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٧٤، ٥٧٥).

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٧٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٢٤).

(٢) أخرجه البزار (٢٧٩٣)، والطحاوي في ((شرح مشكل الآثار)) (٨٦٥)، وابن حبان في الصحيح (٨١)، وأبو نعيم في ((معرفة الصحابة)) (١٨٥٩).

حسَّن إسنادَه البزَّارُ كما في ((البحر الزخار)) (٧/ ٢٢٠)، والهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (١/ ١٩٢)، وجوَّدَ إسنادَه ابنُ كثير في ((تفسير القرآن)) (٣/ ٥٠٩)، وحسَّن الحديثَ الألباني في ((السلسلة الصحيحة)) (٣٢٠١).

الذين لا يَعملونَ بعِلْمِهم(١).

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان قَولُه تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ مُوهمًا لِمَن لم يرسخْ قَدَمُه في الإيمانِ أنَّ الشيطانَ له تأثيرٌ مُستقِلٌّ في الإغواءِ- نفى ذلك؛ غيرةً على هذا المقامِ في مَظهَرِ العظمةِ، فقال(٢):

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ﴾.

أي: ولو شِئْنا لرَفَعْنا قَدْرَه ومنزِلتَه في الدُّنيا والآخرةِ، بتوفيقِنا له للعَمَلِ بآياتِنا(٣).

﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾.

أي: ولكنَّه سكَنَ إلى الحياةِ الدُّنيا، ومال إلى زِينَتِها، وآثَرَ لذَّاتِها وشَهَواتِها

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٧٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٢١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٦٢٥)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٧٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٢٤، ٣٢٦).

(٢) يُنظَر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٥٩).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٧٦، ٥٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٢١)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٧٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٢٧).

قال ابنُ القَيِّم: (مضمونُ قَولِه: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا...﴾ أنَّه لم يتعاطَ الأسبابَ التي تقتضي رَفعَه بالآياتِ؛ من إيثارِ اللهِ ومَرضاتِه على هواه، ولكنَّه آثَرَ الدُّنيا، وأخلدَ إلى الأرضِ، واتَّبعَ هواه). ((إعلام الموقعين)) (١/ ١٣٠).

على الآخرةِ، واتَّبعَ ما تميلُ إليه نَفسُه مِن الباطِلِ، وخالَفَ أمرَ اللهِ(١).

﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾.

أي: فمَثَلُ هذا الذي آتيناه آياتِنا فانسلَخَ منها؛ في عَدَمِ اتعاظِه، وعَدَمِ تَركِه الحِرصَ على الدُّنيا بحالٍ- مَثَلُ الكَلْبِ الذي لا يترُكُ اللَّهَثَ بحالٍ، سواءٌ زَجَرتَه وطَرَدْتَه، أم تَركْتَه؛ فهذا الذي ترك العَمَلَ بكتابِ اللهِ، إن وعَظْتَه فهو على ضلالِه لا يتَّعِظُ، وإن تركْتَه فهو مستمِرٌّ في ضلالِه، لا يترُكُ في جميعِ الأحوالِ ما هو عليه من الكُفرِ، واللَّهَفِ على الدُّنيا(٢).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٦-٧].

وقال سبحانه: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٣].

﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾.

أي: ذلك المثَلُ المضروبُ لِتَشبيهِ المُنسلِخِ مِن آياتِنا، بالكَلْبِ الذي يلهَثُ

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٧٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٢٧).
قال الواحدي: (فسَّروا ﴿الْأَرْضِ﴾ في هذه الآيةِ بالدُّنيا، وذلك لأنَّ الدُّنيا هي الأرضُ؛ لأنَّ ما فيها مِن العَقارِ والرِّباعِ والضِّياعِ كُلُّها أرضٌ، وسائِرُ مَتاعِها يُستخرَجُ مِن الأرضِ، فالدُّنيا كلُّها هي الأرضُ، فصَلَح أن يعبَّرَ عنها بالأرضِ؛ لأنَّها هي). ((البسيط)) (٩/ ٤٦٧).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٨٦، ٥٨٨)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٤٧١)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (ص: ١٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١١، ٥١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٢٧-٣٢٩).

في جميعِ الأحوالِ؛ هو مَثَلُ جميعِ المُكَذِّبينَ بآياتِنا[1].

﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

أي: فاسْرُدْ- يا مُحمَّدُ- على قَومِك مِن قُريشٍ، وعلى اليَهودِ، ما قصَصْتُه عليك في القُرآنِ من أخبارِ الأُمَمِ السَّابقة؛ ليتفَكَّروا فيها، فيعتَبِروا ويتوبوا إلى ربِّهم، وليعلَمَ أهلُ الكِتابِ صِحَّةَ نبوَّتِك، فيُؤمِنوا بك[2].

﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾.

﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾.

أي: بِئسَ وقَبُحَ هذا المَثَلُ الذي شُبِّه به المكَذِّبونَ بآياتِنا[3].

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ليس لنا مَثَلُ السَّوءِ[4]؛ الذي يعودُ في هِبَتِه كالكَلبِ يَرجِعُ في قَيئِه))[5].

﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾.

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٨٨)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٤٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٣٠).
قال القرطبي: (وهذا المثَلُ في قولِ كَثيرٍ مِن أهلِ العِلمِ بالتَّأويلِ؛ عامٌّ في كلِّ مَن أُوتِيَ القُرآنَ، فلم يعمَلْ به). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٢٣).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٧٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٣٠).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٧٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٣٠).
قال ابن كثير: (أي: ساءَ مَثَلُهم أن شُبِّهوا بالكلابِ التي لا همَّةَ لها إلَّا في تحصيلِ أكلةٍ أو شهوةٍ، فمَن خرج عن حَيِّزِ العِلمِ والهُدى، وأقبل على شَهوةِ نَفْسِه، واتَّبَع هواه؛ صار شبيهًا بالكَلْبِ، وبِئسَ المثَلُ مثَلُه). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٢).

(٤) مَثَلُ السَّوءِ: أي: الصِّفةُ الذَّميمةُ. يُنظَر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٥/ ٢٠٠٨).

(٥) رواه البخاري (٢٦٢٢) ومسلم (١٦٢٢)، واللفظ للبخاري.

أي: والَّذين كذَّبوا بآياتِنا، لم يظلِمْهم اللهُ سبحانه، بل كانوا يَظلِمونَ أنفُسَهم بنَقْصِها مِن الخَيرِ الذي ينفَعُها، وتعريضِها لعذابِ اللهِ(١).

﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا وصَفَ الله تعالى الضَّالِّينَ بالوَصفِ المذكورِ فيما تقَدَّمَ مِن الآياتِ، وعرَّفَ حالَهم بالمَثَلِ المذكورِ؛ بيَّنَ في هذه الآيةِ أنَّ الهِدايةَ مِن اللهِ تعالى، وأنَّ الضَّلالَ مِن اللهِ تعالى(٢)، فقال:

﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ﴾.

أي: مَن يَهْدِه اللهُ فهو الموفَّقُ لاتِّباعِ الحَقِّ، ولا مُضِلَّ له(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ﴾ [الزُّمَر: ٣٧].

﴿وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾.

أي: ومَن يُضْلِلْه اللهُ ويَخذُلْه، ولا يُوفِّقْه لطاعَتِه؛ فأولئك هم الذينَ خَسِروا الدُّنيا والآخرةَ(٤).

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٨٠).

(٢) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٠٧).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٣١).

(٤) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٢٨)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٣١).

وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٨٨].

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ فالرِّفعةُ عند اللهِ تعالى ليست بمجَرَّدِ العِلمِ- فإنَّ هذا كان مِن العُلَماءِ- وإنَّما هي باتِّباعِ الحَقِّ وإيثارِه، وقَصدِ مرضاةِ اللهِ تعالى، فإنَّ هذا كان مِن أعلَمِ أهلِ زَمانِه، ولم يرفَعْه اللهُ بعِلمِه، ولم ينفَعْه به، وفي الآيةِ أنَّه هو سبحانه الذي يرفَعُ عَبْدَه- إذا شاء- بما آتاه اللهُ مِن العِلمِ، وإنْ لم يرفَعْه اللهُ، فهو موضوعٌ لا يرفَعُ أحدٌ به رأسًا؛ فإنَّه سبحانه هو الخافِضُ الرَّافِعُ؛ وقد خَفَضَه اللهُ سبحانه، ولم يَرْفَعْه[1].

٢- قال الله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ هَذَا مَثَلُ عَالمِ السُّوءِ، الَّذِي يعمَلُ بخِلافِ عِلمِه، وقد تضمَّنَت هذه الآيةُ ذَمَّه مِن عِدَّة وجوهٍ:

أحدُها: أنَّه ضلَّ بعد العِلمِ، واختار الكُفرَ على الإيمانِ، عمدًا لا جَهلًا.

ثانيها: أنَّه فارقَ الإيمانَ مُفارقةَ مَن لا يعودُ إليه أبدًا؛ فإنَّه انسلخَ مِن الآياتِ بالجُملةِ، كما تنسلِخُ الحيَّةُ مِن قِشرِها، ولو بَقِيَ معه منها شيءٌ، لم ينسلِخْ منها.

ثالثُها: أنَّ الشَّيطانَ أدركَه ولَحِقَه بحيث ظَفِرَ به وافترَسَه؛ ولهذا قال: ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ ولم يقُلْ تَبِعَه؛ فإنَّ في معنى أتبَعَه: أدركَه ولَحِقَه، وهو أبلَغُ مِن تَبِعَه لفظًا ومعنًى.

رابعُها: أنَّه غَوى بعد الرُّشدِ، والغَيُّ: الضَّلالُ في العِلمِ والقَصدِ، وهو أخَصُّ بفسادِ القَصدِ والعَمَلِ، كما أنَّ الضَّلالَ أخَصُّ بفسادِ العِلمِ والاعتقادِ، فإذا أُفرِدَ

(١) يُنظَر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٢٩).

أحدُهما دخل فيه الآخَرُ، وإن اقترَنا فالفَرْقُ ما ذُكِرَ.

خامسُها: أنَّه سبحانَه لم يَشَأْ أن يَرفَعَه بالعِلمِ، فكان سببَ هلاكِه؛ لأنَّه لم يُرفَعْ به، فصار وَبالًا عليه، فلو لم يكُنْ عالِمًا، كان خيرًا له، وأخَفَّ لِعذابِه.

سادسُها: أنَّه سبحانه أخبَرَ عن خِسَّةِ هِمَّتِه، وأنَّه اختار الأسفَلَ الأدنى على الأشرَفِ الأعلى.

سابعُها: أنَّ اختيارَه للأدنى لم يكُنْ عن خاطرٍ وحديثِ نَفْسٍ، ولكنَّه كان عن إخلادٍ إلى الأرضِ، ومَيلٍ بكُلِّيَّتِه إلى ما هناك، وأصلُ الإخلادِ اللُّزومُ على الدَّوامِ، وعبَّرَ عن مَيلِه إلى الدُّنيا بإخلادِه إلى الأرضِ؛ لأنَّ الدُّنيا هي الأرضُ وما فيها، وما يُستخرَجُ منها مِن الزِّينةِ والمَتاعِ.

ثامنُها: أنَّه رغِبَ عن هُداه، واتَّبَع هواه، فجَعلَ هواه إمامًا له، يقتَدي به ويتَّبِعُه.

تاسعُها: أنَّه شبَّهَه بالكَلبِ الذي هو أخَسُّ الحيواناتِ هِمَّةً(١)، وأسقَطُها نَفْسًا وأبخَلُها، وأشَدُّها كَلَبًا، ولهذا سُمِّيَ كَلْبًا.

عاشرُها: أنَّه شَبَّه لهَثَه على الدُّنيا وعدَمَ صَبْرِه عنها، وجَزَعَه لفَقْدِها وحِرصَه

(١) قال ابنُ القيِّم: (شَبَّه- سبحانَه- مَن آتاه كتابَه، وعلَّمَه العلمَ الذي منَعَه غيرَه، فترَكَ العمَلَ به واتَّبَع هواه، وآثَرَ سخَطَ اللهِ على رضاه، ودُنياه على آخِرتِه، والمخلوقَ على الخالقِ؛ بالكَلبِ الذي هو مِن أخبَثِ الحيواناتِ، وأوضَعِها قَدْرًا، وأخبَثِها نَفسًا، وهِمَّتُه لا تتعدَّى بطنَه، وأشَدُّها شَرَهًا وحِرصًا، ومِن حِرصِه أنَّه لا يمشي إلَّا وخَطْمُه في الأرضِ؛ يتشَمَّم ويتروَّح حِرصًا وشَرَهًا، ولا يزالُ يشَمُّ دُبُرَه دون سائرِ أجزائِه، وإذا رَمَيتَ له بحجَرٍ رجَعَ إليه ليَعَضَّه مِن فَرطِ نَهْمتِه، وهو من أمهَنِ الحيواناتِ، وأحمَلِها للهَوانِ، وأرضاها بالدَّنايا، والجِيَفُ المُروَّحةُ أحَبُّ إليه من اللَّحمِ الطَّرِيِّ، والعَذِرةُ أحَبُّ إليه من الحلوى، وإذا ظَفِرَ بمَيتةٍ تكفي مئةَ كلبٍ، لم يدَعْ كلبًا يتناوَلُ معه منه شيئًا إلَّا هَرَّ عليه وقَهرَه؛ لِحِرصِه وبُخلِه وشَرَهِه، ومِن عجيبِ أمْرِه وحِرصِه أنَّه إذا رأى ذا هيئةٍ رثَّةٍ، وثيابٍ دَنيَّةٍ، وحالٍ زَرِيَّةٍ، نبَحَه، وحمَلَ عليه، كأنَّه يتصوَّرُ مُشارَكتَه له، ومُنازَعتَه في قُوتِه، وإذا رأى ذا هيئةٍ حَسَنةٍ، وثيابٍ جَميلةٍ ورياسةٍ، وضَعَ له خَطْمَه بالأرضِ، وخضَعَ له، ولم يرفَعْ إليه رأسَه). ((إعلام الموقعين)) (١/ ١٢٧).

على تحصيلِها، بلَهَثِ الكَلْبِ في حالتَي ترْكِه، والحَمْلِ عليه بالطَّردِ، وهكذا هذا؛ إن تُرِكَ فهو لَهْثانُ على الدُّنيا، وإن وُعِظَ وزُجِرَ فهو كذلك؛ فاللَّهَثُ لا يُفارِقُه في كلِّ حالٍ، كلَهَثِ الكَلْبِ، وهذا التَّمثيلُ لم يقَعْ بكلِّ كَلْبٍ، وإنما وقعَ بالكَلْبِ اللَّاهِثِ، وذلك أخَسُّ ما يكونُ وأشنَعُه(١).

٣- اتِّباعُ الإنسانِ لِهَواه، بتَحَرِّيه وتشَهِّيه ما تَميلُ إليه نفسُه في كلِّ عَمَلٍ مِن أعماله، دونَ ما فيه المصلحةُ والفائدةُ له؛ مِن حيث هو جَسَدٌ وروحٌ- يُضِلُّه عن سبيلِ اللهِ، المُوصِلةِ إلى سعادةِ الدُّنيا والآخرة، ويتعَسَّفُ به في سُبُلِ الشَّيطانِ المُرديَةِ المُهلِكة؛ يُبيِّنُ ذلك قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾(٢).

٤- قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ هذه الآيةُ مِن أشَدِّ الآيِ على أصحابِ العِلمِ؛ وذلك أنَّ اللهَ تعالى أخبرَ أنَّه آتاه آياتِه، فاستوجَبَ بالسُّكونِ إلى الدُّنيا واتِّباعِ الهوى، تغييرَ النِّعمةِ عليه، والانسلاخَ عنها، ومَنِ الذي سَلِمَ من هاتين الخَلَّتينِ، إلَّا مَن عَصَمَه اللهُ(٣)!

٥- من كانت نِعَمُ اللهِ تعالى في حَقِّه أكثَرَ، كان بُعْدُه عن اللهِ- إذا أعرَضَ عنه- أعظَمَ وأكبَرَ؛ يُبيِّنُ ذلك قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا... وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾(٤).

٦- لا يغتَرَّ أحدٌ بما أوتِيَ من المعارِف، وما حاز من المفاخِرِ واللَّطائِفِ؛ فإنَّ العِبرةَ بالخواتيمِ، يُبيِّنُ ذلك قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ

(١) يُنظَر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٠١، ١٠٢).
(٢) يُنظَر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٤١).
(٣) يُنظَر: ((التفسير البسيط)) للواحدي (٩/ ٤٦٨).
(٤) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٠٥).

إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾[١].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ عبرةٌ للمُوفَّقينَ؛ ليَعلَموا فَضلَ اللهِ عليهم في توفيقِهم[٢].

٨- قال الله تعالى: قال تعالى ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أي: سكَن إليها، ونزَل بطبعِه إليها، فكانت نفسُه أرضيةً سفليةً، لا سماويةً علويةً، وبحسبِ ما يخلدُ العبدُ إلى الأرضِ يهبطُ مِن السَّماءِ[٣].

٩- قالَ الله تعالَى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ المُرادُ بهذا المثلِ: أنَّ منْ لم يزجرْه علمُه عن القبيحِ، صارَ القبيحُ عادةً له، ولم يؤثِّرْ فيه علمُه شيئًا، فيصيرُ حالُه كحالِ الكلبِ اللاهثِ فإنَه إنْ طُرِدَ لَهِثَ، وإنْ ترِكَ لَهِثَ، فالحالتانِ عنده سواءٌ. وهذا أخسُّ أحوالِ الكلبِ وأبشعُهَا، فكذلكَ من يرتكبُ القبائح مع جهلِهِ ومع علمِهِ، فلا يؤَثِّرُ علمُه شيئًا، وكذلكَ مثلُ مَنْ لا يرتدعُ عن القبيحِ بوعظٍ ولا زجرٍ ولا غيرِهِ، فإنَّ فعلَ القبيحِ يصيرُ عادةً، ولا ينزجِرُ عنه بوعظٍ ولا تأديبٍ ولا تعليمٍ، بل هو متبعٌ للهَوى على كلِّ حالٍ، فهذا حالُ كلِّ مَن اتَبعَ هواه، ولم ينزجِرْ عنه بوعظٍ ولا غيرِهِ، وسواءٌ كانَ الهَوى المُتبعُ داعيًا إلى شهوةٍ حسيةٍ، كالزِّنا والسرقةِ وشربِ الخمرِ، أو إلى غضبٍ وحقدٍ وكبرٍ وحسدٍ، أو إلى شُبهةٍ مضلَّةٍ في الدِّينِ، وأشدُّ ذلكَ: حالُ من اتَّبع هواهُ في شبهةٍ مضلةٍ، ثمَّ من اتبع هواهُ في غضبٍ وكبرٍ وحقدٍ وحسدٍ، ثم

(١) يُنظَر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٦٠).
(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٧٦).
(٣) يُنظَر: ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ١٩٤)

من اتَّبع هواهُ في شهوةٍ حسيةٍ(١).

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يدلُّ على تعظيمِ شَأنِ ضَربِ الأمثالِ في تأثيرِ الكَلامِ، وكونِه أقوى مِن سَوقِ الدَّلائلِ والحُجَجِ المجَرَّدةِ، ويدلُّ على تعظيمِ شأنِ التفكُّرِ، وكونِه مبدأَ العِلمِ، وطَريقَ الحَقِّ(٢).

١١- ما يحصُلُ بالقَلبِ مِن العِلمِ، وإن كان بكَسْبِ العَبدِ ونَظَرِه، واستدلالِه واستماعِه ونحو ذلك؛ فإنَّ الله تعالى هو الذي أثبَتَ ذلك العِلمَ في قَلْبه، وهو حاصِلٌ في قَلْبه بفَضلِ اللهِ وإحسانِه وفِعْلِه؛ قال الله تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾(٣).

١٢- قال تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ فيه تنويهٌ بشأنِ المُهتَدينَ، وتلقينٌ للمُسلمينَ؛ للتَّوجُّهِ إلى اللهِ تعالى بطَلَبِ الهِدايةِ منه، والعِصمةِ مِن مَزالِقِ الضَّلالِ(٤).

١٣- قال تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ العبدُ فقيرٌ إلى اللهِ في كُلِّ شَيءٍ، يحتاجُ إليه في كلِّ شَيءٍ، لا يستغني عن اللهِ طَرفةَ عَينٍ؛ فمَن يَهْدِه اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضلِلْ فلا هادِيَ له. فإذا ثبَتَتْ هاتانِ المُقَدِّمتانِ، فنقول: إذا أُلهِمَ العبدُ أن يسألَ اللهَ الهدايةَ، ويستعينَه على طاعَتِه؛ أعانه وهداه، وكان ذلك سببَ سَعادَتِه في الدنيا والآخرةِ، وإذا خُذِلَ العَبدُ فلم يعبُدِ اللهَ، ولم يستعِنْ به، ولم يتوكَّلْ عليه؛ وُكِلَ إلى حَولِه وقُوَّتِه، فيُوَلِّيه الشَّيطانَ، وصُدَّ عن السَّبيلِ، وشَقِيَ في الدُّنيا والآخرةِ(٥).

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن رجب الحنبلي)) (١/ ٨٨، ٨٩).
(٢) يُنظَر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٤٢).
(٣) يُنظَر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٩/ ٣٠).
(٤) يُنظَر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٩/ ٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٨٠).
(٥) يُنظَر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٢٣٦، ٢٣٧).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ دلَّت على مَنعِ التَّقليدِ لِعالِمٍ إلَّا بحجَّةٍ يُبيِّنُها؛ لأنَّ الله تعالى أخبَرَ أنَّه أعطى هذا آياتِه فانسلَخَ منها، فوجب أن يُخافَ مثلُ هذا على غَيرِه، وألَّا يُقبَلَ منه إلَّا بحُجَّةٍ[1].

٢- الآياتُ مِن شأنِها أن تكونَ سَببًا للهدايةِ والتَّزكيةِ؛ يُبيِّنُ ذلك قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾[2].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ التعبيرُ بالانسلاخِ المُستعمَلِ عند العَرَبِ في خروجِ الحَيَّاتِ والثَّعابينِ أحيانًا مِن جُلودِها؛ يدلُّ على أنَّه كان متمَكِّنًا منها ظاهرًا، لا باطنًا[3].

٤- قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ قولُه: ﴿آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ أخبرَ سبحانه أنَّه هو الذي آتاه آياتِه؛ فإنَّها نعمةٌ، واللهُ هو الذي أنعَمَ بها عليه، فأضافَها إلى نفسِه، ثمَّ قال: ﴿فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ أي: خرجَ منها، كما تنسَلِخُ الحيَّةُ مِن جِلْدِها، وفارَقَها فِراقَ الجِلدِ ينسَلِخُ عن اللَّحمِ، ولم يقُلْ: (فسلخْناه منها)؛ لأنَّه هو الذي تسبَّبَ إلى انسلاخِه منها؛ باتِّباعِ هواه[4].

٥- قال تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ فقد كان محفوظًا مَحروسًا بآياتِ اللهِ، محمِيَّ الجانِبِ بها مِن الشَّيطانِ، لا يَنالُ منه شيئًا إلَّا على غِرَّةٍ وخَطفةٍ؛ فلمَّا انسلَخَ من آياتِ اللهِ، ظَفِرَ به الشَّيطانُ ظَفَرَ الأسَدِ بفَريسَتِه، فكان مِن الغاوينَ العامِلينَ بخِلافِ عِلمِهم، الذينَ يعرِفونَ الحَقَّ ويعملونَ

---

(١) يُنظَر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٢٣).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٧٦).

(٣) يُنظَر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٤٠).

(٤) يُنظَر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٢٩).

خِلافَه، كعُلَماءِ السُّوءِ[١].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ في هذا التعبيرِ تَعليمٌ للأدَبِ؛ في إسنادِ الخَيرِ إلى اللهِ، والشَّرِّ إلى غَيرِه، وإن كان الكُلُّ خَلْقَه[٢].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ في تشبيهِ مَن آثَرَ الدُّنيا وعاجِلَها على اللهِ والدَّارِ الآخرةِ- مع وُفورِ عِلمِه- بالكَلْبِ في لَهَثِه؛ سِرٌّ بديعٌ، وهو: أنَّ الذي حالُه ما ذَكَرَه اللهُ؛ مِن انسلاخِه مِن آياتِه، واتِّباعِه هواه- إنَّما كان لشِدَّةِ لَهَفِه على الدُّنيا؛ لانقطاعِ قَلْبِه عن اللهِ والدَّارِ الآخِرةِ، فهو شديدُ اللَّهَفِ عليها، ولهَفُه نظيرُ لَهَثِ الكَلْبِ الدَّائِمِ في حالِ إزعاجِه وتَرْكِه[٣].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الاقتصارُ في الإخبارِ عَمَّن هَدى اللهُ بالمهتدي؛ تعظيمٌ لشَأنِ الاهتداءِ، وتَنبيهٌ على أنَّه في نفسِه كمالٌ جَسيمٌ، ونَفعٌ عَظيمٌ، لو لم يحصُلْ له غيرُه لَكَفاه، وأنَّه المُستلزِمُ للفوزِ بالنِّعَمِ الآجِلةِ، والعنوانُ له[٤].

٩- أفضلُ ما يُقدِّر الله لعبدِه، وأجلُّ ما يقسِمُه له الهدَى، وأعظمُ ما يَبتَليه به، ويُقدِّرُه عليه الضَّلالُ، وكلُّ نعمةٍ دونَ نعمةِ الهدَى، وكلُّ مصيبةٍ دونَ مصيبةِ الضَّلالِ، قال تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[٥].

---

(١) يُنظَر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٢٩).

(٢) يُنظَر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٥٩).

(٣) يُنظَر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٢٨).

(٤) يُنظَر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٣٧).

(٥) يُنظَر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٦٥).

١٠- اتَّفقتْ رسلُ الله- مِن أوَّلِهم إلى آخرِهم- وكتبُه المنزلةُ عليهم على أنَّه سبحانَه يُضلُّ مَن يشاءُ، ويهدي مَن يشاءُ، وأنَّه مَن يهدِهِ الله فلا مُضلَّ له، ومَن يُضلِلْ فلا هاديَ له، وأنَّ الهدَى والإضلالَ بيدِه لا بيدِ العبدِ، وأنَّ العبدَ هو الضالُّ أو المهتدي، فالهدايةُ والإضلالُ فعلُه سبحانه وقدرُه، والاهتداءُ والضلالُ فعلُ العبدِ وكسبُه، قال تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾(١).

بلاغةُ الآيات:

١- قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾

- في قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ عظَّمَ ما أعطاه بمَظهرِ العَظَمةِ، ولَفْظِ الإيتاءِ، بعدما عَظَّمَ خَبَرَه بلَفْظِ الإنباءِ(٢).

- قوله: ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ ﴿فَأَتْبَعَهُ﴾ مِن (أتْبع) رُباعيًّا، أي: لَحِقه وصارَ معه، وهي مُبالغةٌ في حقِّه؛ إذ جُعِلَ كأنَّه هو إمامٌ للشَّيطانِ يَتبَعُه، وكذلك قولُه تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾(٣) [الصافات: ١٠].

٢- ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾

- قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ فيه تمثيلٌ

---

(١) يُنظَر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٦٥). ويُنظَر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٢٣٦)، ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٢٩٠).

(٢) يُنظَر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٥٦).

(٣) يُنظَر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٢٢).

لحالِ المتلَبِّسِ بالنَّقائصِ والكُفرِ، بعدَ الإيمانِ والتَّقوى؛ بحالِ مَن كان مُرتفعًا عن الأرضِ، فنزَلَ من اعتلاءٍ إلى أسفَل، فبِذِكرِ (الأرض) عُلِمَ أنَّ الإخلادَ هنا ركونٌ إلى السُّفلِ، أي: تلبُّسٌ بالنَّقائصِ والمفاسِدِ[١].

– وقوله: ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ جاءَ الاستدراكُ هنا تَنبيهًا على السَّببِ الذي لأجْلِه لم يُرفَعْ ولم يُشرفْ، كما فُعِل بغيرِه ممَّن أُوتِي الهُدَى فآثَرَه واتَّبعَه[٢]؛ فعبر بقولِه: ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ ولم يقُل: (ولكنَّه أعْرَض عنها)؛ مُبالغةً وتنبيهًا على ما حَمَله عليه، وأنَّ حُبَّ الدُّنيا رأسُ كلِّ خطيئةٍ[٣].

– قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ فيه تَشبيهُ المكذِّبينَ بالآياتِ- حيثُ أُوتوها وجاءتْهم واضحاتٍ تَقتضي التَّصديقَ بها، فقابَلُوها بالتكذيبِ، وانْسَلخوا منها- كما شُبِّهَ وصْفُ المُؤتَى الآياتِ المنسلخِ منها بالكَلبِ في أخسِّ حالاتِه، و﴿ذَلِكَ﴾ يَحتمِلُ أنْ يكونَ إشارةً لِمَثَل المنسلِخ، وأنْ يكونَ إشارةً لوصفِ الكَلبِ، ويَحتمِلُ أنْ تكونَ أداةُ التَّشبيهِ مَحذوفةً مِن ﴿ذَلِكَ﴾، أي: صِفةُ ذلِك صِفةُ الذين كذَّبوا، ويَحتمِلُ أنْ تكونَ مَحذوفةً مِن ﴿مَثَلُ الْقَوْمِ﴾، أي: ذلك الوصْفُ وصْفُ المنسلِخ، أو وصفُ الكَلبِ كمَثَل الذين كذَّبوا بآياتِنا، ويَكون أبلغَ في ذمِّ المكذِّبين حيثُ جُعِلوا أصلًا، وشُبِّهَ بهم[٤].

– وجملةُ ﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ جملةٌ مُبيِّنةٌ لجُملةِ: ﴿وَاتْلُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٢٥).

عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا...﴾، أي: ذلك التمثيلُ مَثَلٌ للمُشركينَ المُكَذِّبينَ بالقُرآنِ، وهو تَشبيهٌ بليغٌ؛ لأنَّ حالةَ الكَلبِ المُشبَّه شَبيهةٌ بحالِ المُكَذِّبين، وليستْ عَينَها[١].

- قولُه: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ تذييلٌ للقِصَّةِ المُمَثَّلِ بها، يشمَلُها وغَيرَها مِن القَصَص التي في القُرآن؛ فإنَّ في القَصَصِ تفكُّرًا ومَوعظةً، فيُرجى منه تفكُّرُهم ومَوعِظَتُهم[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾

- قوله تعالى: ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ هذه الجُملةُ تأكيدٌ للجُملةِ السَّابقةِ[٣]، وهي جملةٌ مُستأنفةٌ؛ لأنَّها جُعِلَت إنشاءَ ذَمٍّ لهم، بأنْ كانوا في حالةٍ شَنيعةٍ، وظَلَموا أنفُسَهم[٤].

- قوله: ﴿وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ فيه تقديمُ المَفعولِ ﴿أَنْفُسَهُمْ﴾ للاختصاصِ، كأنَّه قِيل: وخَصُّوا أنفُسَهم بالظُّلمِ، وما تَعدَّى أثرُ ذلك الظُّلمِ عنهم إلى غيرِهم[٥].

- وقولُه: ﴿كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ أقْوَى في إفادةِ وَصْفِهم بالظُّلمِ مِن أن يُقالَ: وظَلموا أنفُسَهم[٦].

٤- قوله: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٧٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٢٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٧٩-١٨٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٧٩)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٠٦).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٨٠).

تذييلٌ للقِصَّةِ والمَثَلِ وما أُعقِبا به من وَصْفِ حالِ المُشركينَ؛ فإنَّ هذه الجُملةَ تُحصِّلُ ذلك كُلَّه، وتجري مجرى المَثَلِ، وذلك أعلى أنواعِ التَّذييلِ[١].

- والقَصرُ المُستفادُ مِن تعريفِ جُزأيِ الجُملةِ ﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِي﴾ قَصرٌ حقيقيٌّ ادِّعائيٌّ، باعتبارِ الكَمالِ، واستمرارِ الاهتداءِ إلى وفاةِ صاحِبِه. وكذلك القَولُ في ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ وزِيدَ في جانِبِ الخاسرينَ الفَصلُ باسمِ الإشارةِ (أُولَئِكَ)؛ لزيادةِ الاهتمامِ بتَمييزِهم بعنوانِ الخُسرانِ تحذيرًا منه، فالقَصرُ فيه مؤكَّدٌ. وقد عُلِمَ مِن مُقابلةِ الهِدايةِ بالإضلالِ، ومُقابلةِ المهتدي بالخاسِرِ أنَّ المُهتديَ فائِزٌ رابحٌ، فحُذِفَ ذِكرُ رِبحِه إيجازًا[٢].

- وجاء الإفرادُ في الأوَّلِ ﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِي﴾، والجَمعُ في الثَّاني ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ باعتبارِ اللَّفظِ والمعنى لـ﴿مَنْ﴾؛ تنبيهًا على أنَّ المُهتَدينَ كواحِدٍ، لاتِّحادِ طَريقتِهم، بخلافِ الضَّالِّينَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٨٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٨٢).
(٣) يُنظَر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٣٧).

الآيات (١٧٩-١٨٣)

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩) وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠) وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٨١) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣)﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿ذَرَأْنَا﴾: أي: خلقنا، وأصلُ (ذرأ) البَذْرُ والزَّرعُ[(١)].

﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾: أي: لا يَفهمونَ، والفقه هو مطلقُ الفهمِ، أو: فهمُ الأشياءِ الدقيقةِ، يُقال: فقهتُ الكلامَ. إذا فهمتَه حقَّ الفهمِ، والفقهُ التوصُّلُ إلى علمٍ غائبٍ بعلمٍ شاهدٍ، فهو أخصُّ مِن العلمِ[(٢)].

﴿وَذَرُوا﴾: أي: اترُكوا ودَعُوا، وفلانٌ يَذَرُ الشَّيءَ، أي: يَقذِفُه لقلَّةِ اعتدادِه به[(٣)].

﴿يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾: أي: يَجُورونَ فيها عن الحَقِّ ويَعْدِلونَ، وذلك بتَسمِيَتِهم آلهتَهم بأسمائِه تعالى، فاشتقُّوا اللَّاتَ مِن (اللهِ) والعُزَّى من (العزيزِ)،

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٦٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٢)، ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ٢٣١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٩).

وأصلُ (لحد): يدلُّ على مَيلٍ عن استقامةٍ[(١)].

﴿أُمَّةٌ﴾: أي: جماعةٌ، وأصلُ (أَمَّ): الأصلُ والمرجِعُ، والجماعةُ والدِّينُ[(٢)].

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾: أي: سنأخُذُهم قليلًا قليلًا، درجةً فدرجةً، ولا نُباغِتُهم، وأصلُ (درج): يدلُّ على مُضِيِّ الشَّيءِ، والمُضيِّ في الشَّيءِ[(٣)].

﴿وَأُمْلِي﴾: أي: أؤخِّرُهم وأُمْهِلُهم؛ مأخوذٌ مِن المُلاوةِ، وهي الحينُ[(٤)].

﴿كَيْدِي﴾: أي: مَكْرِي أو أَخْذِي، والكيدُ: ضربٌ من الاحتيالِ، وقد يكونُ مَذمومًا وممدوحًا، وإن كان يستعمَلُ في المذمومِ أكثَرَ، وأصلُ (كيد) يدلُّ على معالجةٍ لِشَيءٍ بِشِدَّةٍ[(٥)].

﴿مَتِينٌ﴾: أي: شديدٌ، وأصلُ (متن) يدلُّ على صلابةٍ في الشَّيءِ[(٦)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥، ٢٤٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٣٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٢، ٣٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٣، ٣٤٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٣).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٨٨).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧٧).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧٧).

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه خلَقَ لجهنَّمَ كثيرًا من الجِنِّ والإنسِ، لهم قلوبٌ لا يَفهمونَ بها الحقَّ، ولهم أعيُنٌ لا يُبصرونَ بها آياتِ اللهِ وأدلَّتَه، ولهم آذانٌ لا يَسمعونَ بها كتابَ اللهِ سَماعَ تَدبُّرٍ وتفَكُّرٍ، أولئك كالأنعامِ التي لا تفهَمُ شيئًا، بل هم أضَلُّ منها، أولئك هم الغافلونَ عن آياتِ اللهِ وذِكرِه، وعمَّا ينفَعُهم من الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ.

ويخبِرُ تعالى أنَّ له الأسماءَ الحُسنى، ويأمُرُ عبادَه أن يدعُوه بها، ويتركُوا الذين يميلونَ في أسمائِه عن الحَقِّ الواجِبِ لها؛ فإنَّه تعالى سيُجازيهم بما كانوا يَعملونَ؛ مِن الكُفرِ والإلحادِ في أسمائِه.

ويخبِرُ تعالى أنَّ مِمَّن خَلَق جماعةً مِن المُسلمينَ، يهتدونَ بالحَقِّ، ويُرشِدونَ النَّاسَ إليه، وبه يعدِلونَ بينهم، والذين جَحَدوا بآياتِه- عزَّ وجَلَّ- سيستدرِجُهم إلى ما يُهلكُهم ويُضاعفُ عقابَهم مِن حيثُ لا يعلمون، فيمهِلُهم، ويطيلُ أعمارَهم، ولا يعاجِلُهم بالعقوبةِ؛ ليتمادَوا في الكُفرِ والعِصيانِ؛ إنَّ كيدَه- عزَّ وجلَّ- قويٌّ شديدٌ، لا يُمكِنُ الإفلاتُ منهُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّه هو الهادي وهو المُضِلُّ؛ أعقَبَه بذِكْرِ مَن خُلِقَ للخُسرانِ

والنَّارِ، وذكَرَ أوصافَهم فيما ذَكَر، وفي ضِمنِه وعيدُ الكُفَّار[١].

وأيضًا فهذه الآيةُ عطفٌ على جملةِ: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ والمناسبةُ أنَّ صاحبَ القصَّة المعطوفِ عليها انتقَل مِن صورةِ الهدَى إلى الضَّلال؛ لأنَّ الله لما خلَقَه خلَقَه ليكونَ مِن أهلِ جهنَّمَ، مع ما لها- أيضًا- مِن المناسبةِ للتذييلِ الذي خُتِمت به القصةُ، وهو قولُه: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي ...﴾[٢].

وأيضًا لَمَّا انقضَتْ تلك القَصَصُ، فأسفَرَت عن أنَّ أكثَرَ الخَلقِ هالكٌ، صَرَّحَ بذلك هنا[٣]، فقال:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾.

أي: ولقد خَلَقْنا وبثَثْنا لنارِ جَهنَّم كثيرًا مِن الجِنِّ والإنسِ؛ ليصيرُوا إليها يومَ القِيامةِ، فهم لطَريقِها سالكونَ، وبعَملِ أهلِها عاملونَ[٤].

عن عائشةَ أمِّ المُؤمنينَ رَضِيَ اللهُ عنها، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ اللهَ خلقَ للجنَّةِ أهلًا، خلَقَهم لها، وهم في أصلابِ آبائِهم، وخلَقَ للنَّارِ أهلًا، خَلَقَهم لها، وهم في أصلابِ آبائِهم))[٥].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: سمعْتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، يقولُ: ((كتبَ اللهُ مَقاديرَ الخَلائقِ، قبلَ أن يخلُقَ

---

(١) يُنظَر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٢٧).
(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٨٢).
(٣) يُنظَر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٧٢).
(٤) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٩١)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٨٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٤٤، ٣٤٦).
قال القرطبي: (أخبر تعالى أنَّه خلقَ للنَّارِ أهلًا بعَدْلِه). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٢٤).
(٥) رواه مسلم (٢٦٦٢).

السَّمواتِ والأرضَ بخَمسينَ ألفَ سنةٍ، قال: وعَرشُه على الماءِ))(١).

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾.

أي: لهؤلاءِ- الذين خلَقْناهم لجهنَّمَ- قلوبٌ لا يَفهمونَ بها الحَقَّ الذي جاء مِن عندِ اللهِ، ولا يتفكَّرونَ فيه(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢].

﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾.

أي: ولهم أعينٌ لا يَنظرونَ بها إلى آياتِ اللهِ وأدِلَّتِه، فيتأمَّلُوها ويعلَموا الحَقَّ(٣).

كما قال سُبحانه: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي﴾ [الكهف: ١٠١].

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الْبَقَرَةِ: ١٨]

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الْبَقَرَةِ: ١٧١]

﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾.

---

(١) رواه مسلم (٢٦٥٣).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٩٢، ٥٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٩)؛ ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٤٧).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٤٨).

أي: ولهم آذانٌ لا يَسمَعونَ بها آياتِ كتابِ اللهِ سَماعَ تَدَبُّرٍ وتفكُّرٍ في معانيها، فيهتَدُوا بها إلى الحَقِّ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

وقال سُبحانه: ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: ١٠١].

وقال عز وجل: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣].

﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾.

أي: أولئك- الَّذينَ ذرَأْنا لجهنَّم، الَّذينَ لا يَسمعونَ الحَقَّ ولا يَعُونَه ولا يُبصِرونَه، إنما همُّهم من الدُّنيا الأكلُ والتمتُّعُ بالشَّهواتِ- مِثْلُ البَهائِم التي لا تفهَمُ الحقَّ، بل هم أضلُّ منها؛ لأنَّ الأنعامَ تُبصِرُ منافِعَها ومضارَّها، وتتْبَعُ مالِكَها، وتُستعمَل فيما خُلِقَت له، بخلافِ أولئك القَومِ الضَّالينَ(٢).

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٨٣، ١٨٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٤٨).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٩٤، ٥٩٥)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٢٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٢٤، ٣٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٥٠).

قال ابنُ عاشور: (وجهُ كَونِهم أضَلَّ مِن الأنعامِ: أنَّ الأنعامَ لا يبلُغُ بها ضلالُها إلى إيقاعِها في مَهاوي الشَّقاءِ الأبدي؛ لأنَّ لها إلهامًا تتفصَّى به عن المهالِك، كالتردِّي من الجبالِ والسُّقوط في الهُوَّات). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٨٤).

وقال سبحانه: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾.

أي: هؤلاءِ الكفَّارُ- الَّذين لم ينتفِعوا بعُقولِهم ولا بأعيُنِهم ولا بآذانِهم- همُ الذينَ غَفَلوا غفلةً كاملةً عن آياتِ اللهِ وذِكرِه، وعمَّا ينفَعُهم من الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ[1].

كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [النحل: ١٠٨].

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّه ذرأ كثيرًا من الجنِّ والإنسِ للنَّارِ؛ ذكَرَ نوعًا منهم، وهم الذينَ يُلحِدونَ في أسمائِه[2]. ولَمَّا بيَّنَ في الآيةِ السَّابقةِ حالَ المَخلوقينَ لجَهنَّمَ؛ في عدَمِ استعمالِ عُقولِهم وحَواسِّهم في الاعتبارِ بآياتِ اللهِ، والتفقُّهِ في تزكيةِ أنفُسِهم بالعِلمِ الصَّحيحِ، الذي يترتَّبُ عليه العمَلُ الصَّالِحُ، وأنَّ ذلك الإهمالَ أعقبَهم الغفلةَ التَّامةَ عَن أنفُسِهم، وما فيه صَلاحُها؛ من ذِكرِ الله تعالى وشُكرِه، والثَّناءِ عليه بما هو أهلُه مِن صفاتِ الكَمالِ- قفَّى على ذلك بدَواءِ هذه الغَفلةِ، فأمرَ سُبحانه بذِكرِه، فقال: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾، وهذا كالتَّنبيهِ

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٩٥)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (٤/ ٢٦٤٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٣٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٤٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٥١).

(٢) يُنظَر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٣٠).

على أنَّ المُوجِبَ لدُخولِ جهنَّمَ، هو الغفلةُ عن ذِكرِ اللهِ، والمُخَلِّصَ من عذابِ جهنَّمَ هو ذِكرُ اللهِ تعالى(١).

وأيضًا لَمَّا أنتَجَ ما سبَقَ أنَّ للمُشركينَ الأسماءَ السُّوأى، ولِمَعبوداتِهم أسوأَ منها؛ عطَفَ عليه الآيةَ هنا؛ دفعًا لِوَهْم من يتوهَّمُ- بالحُكمِ بالضَّلالِ، والذَّرْءِ لِجَهنَّمَ- ما لا يليقُ بالله تعالى(٢).

وأيضًا لَمَّا كان أفظَعُ أحوالِ المَعدودينَ لجهنَّمَ هو حالَ إشراكِهم باللهِ غَيرَه؛ لأنَّ فيه إبطالًا لأخَصِّ الصِّفاتِ بمعنى الإلهيَّةِ: وهي صِفةُ الوحدانيَّةِ، وما في معناها مِن الصِّفاتِ؛ نحو: الفَرْدِ الصَّمَدِ، وينضوي تحتَ الشِّركِ تعطيلُ صِفاتٍ كَثيرةٍ، مع إنكارِ أهلِ الشِّركِ صِفةَ الرَّحمنِ- فعُقِّبَت الآياتُ التي وصَفَت ضلالَ إشراكِهم، بتَنبيهِ المُسلمينَ للإقبالِ على دُعاءِ اللهِ بأسمائِه الدَّالَّةِ على عظيمِ صِفاتِ الإلهيَّةِ، والدَّوامِ على ذلك، وأن يُعرِضوا عن شَغْبِ المُشرِكينَ وجِدالِهم في أسماءِ اللهِ تعالى(٣)، فقال تعالى:

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾.

أي: ولله أحسَنُ الأسماءِ الدالَّةِ على صفاتِ كمالِه، فادعُوا اللهَ وَحْدَه بتلك الأسماءِ العظيمةِ(٤).

---

(١) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤١٢).

(٢) يُنظَر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٧٥).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٨٥).

(٤) يُنظَر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٥١، ٣٥٢).

قال القرطبي: (سمَّى اللهُ سُبحانه أسماءَه بالحُسنى؛ لأنَّها حَسَنةٌ في الأسماعِ والقُلوبِ، فإنَّها تدلُّ على توحيدِه وكَرَمِه، وَجُودِه ورَحمتِه وإفضالِه). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٢٦).

وقال الشنقيطي: (﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ فادْعُوه بتلك الأسماءِ؛ كأن تقولَ: يا رحمنُ ارحَمْنا، يا رحيمُ ارحَمْني. قال بعضُ العلماءِ: تقولُ: يا رحيمُ ارحَمْني، يا رازقُ ارزُقْني، يا حكيمُ احكُمْ لي. =

كما قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [طه: ٨].

وقال سبحانه: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الحشر: ٢٤].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ للهِ تسعةً وتِسعينَ اسمًا- مئةً إلَّا واحدًا- مَن أحصاها دخَلَ الجنَّةَ))(١).

﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾.

أي: واترُكوا الذينَ يَميلونَ في أسماءِ اللهِ، عن الحقِّ الواجبِ لها، كأنْ يُسَمُّوا بها آلهتَهم، أو يزيدُوا فيها، أو ينقُصوا منها، أو يُنكِروا بَعضَها(٢).

= ولا تقولُ: يا حكيمُ اغفِرْ لي، أو: يا رزاقُ ارحَمْني. والتحقيقُ أنَّ هذا كلَّه جائزٌ؛ لأنَّ أسماءَ اللهِ مُتلازمةٌ، كلُّ صفةٍ في واحدٍ منها تستلزِمُ جميعَ الصِّفاتِ الأخرى لعَظَمةِ صِفاتِه جلَّ وعلا، واستلزامُ كُلِّ واحدةٍ منها غايةُ الكَمالِ والجلالِ). ((العذب النمير)) (٤/ ٣٥٢).

(١) رواه البخاري (٢٧٣٦) ومسلم (٢٦٧٧).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٢٨)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٦٩، ١٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٥٦، ٣٥٧).

قال ابنُ القيِّم: (وحقيقةُ الإلحادِ فيها: العُدولُ بها عن الصَّوابِ فيها، وإدخالُ ما ليس مِن معانيها فيها، وإخراجُ حقائقِ معانيها عنها... فالإلحادُ إمَّا بجَحْدِها وإنكارِها، وإمَّا بجَحدِ معانيها وتعطيلِها، وإمَّا بتَحريفِها عن الصَّوابِ، وإخراجِها عن الحَقِّ بالتَّأويلاتِ الباطلةِ، وإمَّا بجَعلِها أسماءً لهذه المخلوقاتِ المصنوعاتِ). ((مدارج السالكين)) (١/ ٥٤).

قال ابنُ عُثيمين: (وقد ذكَرَ أهلُ العِلمِ للإلحادِ في أسماءِ اللهِ تعالى أنواعًا، يَجمَعُها أن نقولَ: هو المَيلُ بها عمَّا يجِبُ اعتقادُه فيها، وهو على أنواعٍ:

النوع الأول: إنكارُ شَيءٍ مِن الأسماءِ، أو ما دلَّت عليه مِن الصِّفاتِ.

النوع الثاني: أن يُسمِّيَ اللهَ- سبحانه وتعالى- بما لم يُسَمِّ به نفسَه. =

﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

أي: سيُجازي اللهُ أولئك الذين يُلحِدونَ في أسمائِه، على جميع ما كانوا يعمَلونَ مِن الكُفرِ والإلحادِ في أسمائِه[1].

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى مَن ذرَأَ للنَّارِ، ذكَرَ هنا مُقابِلَهم[2]، فقال:

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾.

أي: ومِنَ الذين خَلَقْنا، جماعةٌ مِن المُسلمينَ، يهتدونَ بالحَقِّ الذي أنزَلَه اللهُ، ويُرشِدونَ النَّاسَ إليه[3].

كما قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ - ٣].

وقال سبحانه: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

= النوع الثالث: أن يَعتقِدَ أنَّ هذه الأسماءَ دالَّةٌ على أوصافِ المَخلوقينَ، فيجعَلَها دالَّةً على التَّمثيلِ.

النوع الرابع: أن يَشتَقَّ مِن أسماءِ اللهِ- تعالى- أسماءً للأصنامِ، كاشتقاقِ اللَّاتِ مِن الإلهِ، والعُزَّى من العزيزِ، ومناةَ مِن المنَّانِ. هذه أنواعُ الإلحادِ في أسماءِ اللهِ تعالى). ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١/ ١٥٨).

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٩٠).

(٢) يُنظَر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٣٢).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٩٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٥٩).

وعن ثوبانَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لا تزالُ طائفةٌ مِن أمَّتي ظاهرينَ على الحقِّ، لا يضُرُّهم مَن خَذَلهم، حتى يأتيَ أمرُ اللهِ وهم كذلك))(١).

﴿وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾.

أي: وبالحَقِّ يعدلونَ بين النَّاسِ ويُنصِفونَهم(٢).

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى حال الهادينَ المَهديِّينَ، وكان أصلُ السِّياقِ الضَّالِّينَ المُضلِّين؛ أتبَعَه بقيَّةَ الحديثِ عنهم على وجهٍ مُلَوِّحٍ بأنَّ عِلَّةَ الهدايةِ التَّوفيقُ(٣).

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٢﴾.

أي: والَّذينَ جَحَدوا آياتِنا ورَدُّوها، سنُقرِّبُهم إلى هلاكِهم بالتَّدريجِ، درجةً درجةً، فنُغدِقُ عليهم مِن نِعَمِنا، ونفتَحُ لهم أبوابَ رِزقِنا، حتى يغترُّوا بما هم فيه، فيزدادوا انهماكًا في الفَسادِ، وتماديًا في البَطَرِ والغَفلةِ والعِنادِ، وهم لا يَعلمونَ حقيقةَ ما يُرادُ بهم، حتى يأخُذَهم اللهُ تعالى بعذابِه على غِرَّةٍ(٤).

---

(١) رواه البخاري (٣٦٤٠) ومسلم (١٩٢٠).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٥٩).

وهذا المعنى المذكور هو اختيارُ ابنِ جريرٍ، والسعدي. يُنظَر: المصادر السابقة.

وقال الشِّنقيطي: (﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ يعملونَ هم في أنفُسِهم؛ لأنَّ مَن عَمِلَ به عدَلَ وأصابَ العدالةَ، وتنحَّى عن طرَفِ الإفراطِ والتَّفريطِ؛ لأن العدالةَ هي التوسُّطُ بين الأمرينِ، والتَّجافي عن طَرَفِ الإفراطِ وطرَفِ التَّفريطِ). ((العذب النمير)) (٤/ ٣٥٩).

(٣) يُنظَر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٧٨).

(٤) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٩١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٦٢ - ٣٦٤). =

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٤-٤٥].

وقال سُبحانه: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ * أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٤- ٥٦].

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣)﴾.

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾.

أي: وأُمهِلُ الذين كذَّبوا بآياتي، فأُطيلُ أعمارَهم، ولا أعاجِلُهم بالعُقوبةِ؛ ليتمادَوْا في الكُفرِ، ويزدادُوا عصيانًا، فتزيدَ عقوبَتُهم، ويتضاعَفَ عذابُهم[1].

عن أبي موسى رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ لَيُملي للظَّالِمِ حتَّى إذا أخَذَه لم يُفلِتْه. ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[هود: ١٠٢]))[2].

﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾.

أي: إنَّ كَيْدي قَويٌّ شديدٌ لا يُمكِنُ الإفلاتُ منه[3].

= قال ابنُ جريرٍ: (وأصلُ الاستدراجِ: اغترارُ المُستَدرَجِ بلُطفٍ، مِن حيثُ يرى المُستدرَجُ أنَّ المُستَدرِجَ إليه مُحسِنٌ، حتى يورِّطَه مَكروهًا). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٠٠-٦٠١).
قال الشِّنقيطي: (يظنُّونَ أنَّ تلك النِّعَمَ مُسابَقةٌ لهم في الخَيراتِ، وأنَّهم ينالونَ بعد ذلك أحسَنَ منه). ((العذب النمير)) (٤/ ٣٦٤).

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٠١)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٤٨٧)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤١٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٩١، ١٩٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٦٤).

(٢) رواه البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٦)، ((تفسير السعدي)) =

قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥ - ١٧].

الفَوائدُ التربويَّةُ:

١ - لِلأنعامِ استعداداتٌ فِطريَّةٌ تَهديها، أمَّا الجِنُّ والإنسُ فقد زُوِّدوا بالقَلبِ الواعي، والعَينِ المُبصِرةِ، والأذُنِ المُلتَقِطة؛ فإذا لم يفتَحُوا قلوبَهم وأبصارَهم وأسماعَهم ليُدرِكوا، إذا مرُّوا بالحياةِ غافلينَ لا تلتقِطُ قلوبُهم معانيَها وغاياتِها، ولا تلتقِطُ أعينُهم مَشاهِدَها ودلالاتِها، ولا تلتقِطُ آذانُهم إيقاعاتِها وإيحاءاتِها؛ فإنَّهم يكونونَ أضَلَّ مِن الأنعامِ الموكولةِ إلى استعداداتِها الفِطريَّةِ الهادية؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[1].

٢ - مِن أعظَمِ الأسبابِ التي يُحرَمُ بها العبدُ خَيرَ الدُّنيا والآخرةِ، ولذَّةَ النَّعيمِ في الدَّارينِ، ويَدخُلُ عليه عدوٌّ منها: الغفلةُ المُضادَّةُ للعِلمِ، وقد ذَمَّ اللهُ تعالى أهلَها، فقال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[2].

٣- الدُّعاةُ إلى الحَقِّ لا يسكُتونَ عن الدَّعوةِ به وإليه، ولا يتقَوقعونَ على أنفُسِهم، ولا يَنْزَوونَ بالحَقِّ الذي يعرفونَه، ولكنَّهم يَهدُونَ به غيرَهم؛ يُرشِدُ إلى ذلك قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ فهذه أمَّةٌ

= (ص: ٣١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٩٢، ١٩٣).

(١) يُنظَر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٤٠١).

(٢) يُنظَر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١١٢).

فاضِلةٌ كاملةٌ في نَفسِها، مُكمِّلةٌ لِغَيرِها، يهدونَ أنفُسَهم وغيرَهم بالحقِّ، فيعلمونَ الحقَّ ويعملونَ به، ويُعلِّمونَه، ويدعونَ إليه وإلى العمَلِ به(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ لَمَّا كانوا لا يتدبَّرونَ شيئًا مِن الآياتِ، ولا ينظرونَ إليها نظَرَ اعتبارٍ، ولا يسمعونَها سماعَ تفكُّرٍ، جُعِلوا كأنَّهم فَقَدوا الفِقهَ بالقُلوبِ، والإبصارَ بالعيونِ، والسَّماعَ بالآذانِ، وليس المرادُ نفيَ هذه الإدراكاتِ عن هذه الحواسِّ، وإنَّما المرادُ نفيُ الانتفاعِ بها فيما طُلِبَ منهم من الإيمانِ(٢).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ يدلُّ على أنَّ كُفَّارَ الجِنِّ في النَّارِ(٣).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ تقديمُ المجرورِ على المفعولِ في قَولِه: ﴿لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا﴾ لِيَظهرَ تعلُّقُه بـ﴿ذَرَأْنَا﴾(٤).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ قدَّمَ ذكرَ الجِنِّ على الإنسِ في الآيةِ، والعلَّةُ في ذلك:

قيل: لَمَّا كانوا يُعَظِّمونَ الجِنَّ ويخافونَهم ويَضِلُّون بهم، بدأ بالجِنِّ(٥).

وقيل: لعلَّ تقديمَهم هنا في الذِّكرِ على الإنسِ أنَّهم أكثرُ أهلِ جَهنَّم؛ لأنَّهم

(١) يُنظَر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٤٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص:٣١٠).
(٢) يُنظَر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٢٨).
(٣) يُنظَر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص:٤١٧).
(٤) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٨٣).
(٥) يُنظَر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٧٣).

أجدَرُ وأعرَقُ في الصِّفاتِ المذكورةِ عَقِبَ هذه الجملةِ في الآيةِ، والتي هي سببُ استحقاقِها[1].

وقيل: بل قدَّمَ الجِنَّ على الإنسِ في الذِّكرِ؛ ليتعيَّنَ كونُ الصِّفاتِ الواردةِ مِن بعدُ صِفاتٍ للإنسِ، وبقرينةِ قَولِه: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ﴾[2].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ فيه دليلٌ على أنَّ القَلبَ آلةٌ للفِقهِ والعِلمِ، كما أنَّ العينَ آلةٌ للإبصارِ، والأُذُنَ آلةٌ للسَّماعِ[3].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ لَمَّا كان السِّياقُ للتفكُّرِ، بدأ بالقُلوبِ[4].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ أبلَغُ مِن أن يُقالَ: (ليس لهم قلوبٌ يفقهونَ بها)؛ لأنَّ إثباتَ خلقِ القُلوبِ لهم، هو موضِعُ قيامِ الحُجَّةِ عليهم، والتعبيرُ الآخَرُ يَصدُقُ بأمرينِ: بعَدَمِ وجودِ القُلوبِ لهم بالمرَّةِ، وبوجودِ قلوبٍ لا يفقهونَ بها، وفي الحالةِ الأولى لا تقومُ عليهم حجَّةٌ؛ لأنَّهم لم يُؤتَوا آلةَ التَّكليفِ، وهو العَقلُ والوِجدانُ، فلا تكونُ العبارةُ نصًّا في قيامِ الحُجَّةِ؛ لاحتمالِها عدمَ التَّكليفِ. وإنَّما قال: ﴿لَا يَفْقَهُونَ بها﴾، ولم يقُل: (لا تفقَهُ)؛ لبيانِ أنَّهم هم المؤاخَذونَ بعَدمِ تَوجيهِ إرادتِهم لِفقهِ الأمورِ، واكتناهِ الحَقائقِ، ويقالُ مثلُ هذا وما قبلَه فيما بَعدَه، وهو: ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾[5].

---

(١) يُنظَر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٥٠).
(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٨٣).
(٣) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٢٨).
(٤) يُنظَر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٧٣).
(٥) يُنظَر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٥٦).

٨- السَّمعُ والعَقلُ هما أصلُ العِلمِ، وبهما يُنالُ؛ يُبيِّنُ ذلك قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾(١).

٩- قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ ليس في تقديمِ الأعيُنِ على الآذانِ مُخالَفةٌ لِما جرى عليه اصطلاحُ القُرآنِ، مِن تقديمِ السَّمعِ على البَصرِ؛ لتَشريفِ السَّمعِ بتلقِّي ما أمرَ اللهُ به، كما في قولِه تعالى: ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ [البقرة: ٧] لأنَّ التَّرتيبَ في آيةِ سُورةِ الأعرافِ هذه، سلك طريقَ الترقِّي مِن القُلوبِ التي هي مقَرُّ المُدرَكاتِ، إلى آلاتِ الإدراكِ: الأعيُنِ، ثم الآذانِ؛ فللآذانِ المرتبةُ الأولى في الارتقاءِ(٢).

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ وقع هنا التدرُّجُ في وَصفِهم بهذه الأوصافِ: مِن نَفيِ انتفاعِهم بمَدارِكهم، ثم تَشبيهِهم بالأنعامِ، ثم الترقِّي إلى أنَّهم أضَلُّ مِن الأنعامِ، ثمَّ قَصرِ الغَفلةِ عليهم(٣).

١١- قال اللهُ تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ وجهُ كونِهم أضلَّ مِن الأنعامِ: أنَّها تَنقادُ لأربابِها، وتعرِفُ مَن يُحسِنُ إليها، وتجتنِبُ ما يضرُّها، وهؤلاءِ لا يَنقادونَ لِرَبِّهم، ولا يَعرفونَ إحسانَه إليهم، من إساءةِ الشَّيطانِ الذي هو عدوُّهم(٤)!

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ فأسماءُ اللهِ ليسَت إلَّا لِلَّهِ،

(١) يُنظَر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٥٩).
(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٨٤).
(٣) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٨٥).
(٤) يُنظَر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢١١، ٢١٢).

والصِّفاتُ الحُسنى ليسَت إلَّا للَّهِ، فيجِبُ كَونُها موصوفةً بالحُسنِ والكَمالِ؛ فهذا يفيدُ أنَّ كلَّ اسمٍ لا يُفيدُ في المسمَّى صفةَ كمالٍ وجلالٍ، فإنَّه لا يجوزُ إطلاقُه على اللهِ سُبحانه[1].

١٣- قَولُه تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ دلَّت الآيةُ على أنَّ اللهَ- عزَّ وجلَّ- لا يُخلِي الدُّنيا في وقتٍ مِن الأوقاتِ مِن داعٍ يدعو إلى الحَقِّ[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾

- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ فيه تأكيدٌ بلامِ القَسَمِ وبـ(قَد)؛ لقَصدِ تحقيقِ الخَبَرِ؛ لأنَّ غرابتَه تُنَزِّلُ سامِعَه خاليَ الذِّهنِ منه منزلةَ المُتردِّدِ في تأويلِه، ولأنَّ المُخبَرَ عنهم قد وُصِفوا بـ ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ إلى قَولِه: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾، والمعنيُّ بهم المُشركونَ، وهم يُنكِرونَ أنَّهم في ضلالٍ، ويحسَبونَ أنَّهم يُحسِنونَ صُنعًا، وكانوا يحسَبونَ أنَّهم أصحابُ أحلامٍ وأفهامٍ[3].

- قولُه: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ مستأنفةٌ لابتداءِ كلامٍ بتفظيعِ حالِهم، فجُعِلَ ابتداءَ كلامٍ؛ ليكونَ أدعى للسَّامِعينَ، وعُرِّفوا بالإشارةِ ﴿أُولَئِكَ﴾؛ لزيادةِ تَميِيزِهم بتلك الصِّفاتِ، وللتنبيهِ على أنَّهم بسبَبِها أحْرِياءُ

---

(١) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤١٤).

(٢) يُنظَر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٢٩).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٨٢).

بما سيُذكَرُ مِن تَسويَتِهم بالأنعامِ، أو جَعلِهم أضلَّ مِن الأنعامِ[1].

- قَولُه: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ تعليلٌ لِكَونِهم أضلَّ مِن الأنعامِ، وهو بلوغُهم حدَّ النِّهايةِ في الغَفلةِ، وبلوغُهم هذا الحدَّ أُفيدَ بِصيغةِ القَصرِ الادِّعائيِّ؛ إذِ ادُّعِيَ انحصارُ صِفةِ الغَفلةِ فيهم، بحيث لا يُوجدُ غافلٌ غيرُهم؛ لعدمِ الاعتدادِ بغَفلةِ غَيرِهم، فكلُّ غفلةٍ في جانبِ غَفلَتِهم كَلَا غفلةٍ؛ لأنَّ غَفلةَ هَؤلاءِ تعلَّقَت بأجدَرِ الأشياءِ بألَّا يُغفَلَ عنه، وهو ما تُفضي الغفلةُ عنه بالغافِلِ إلى الشَّقاءِ الأبديِّ، فهي غفلةٌ لا تدارُكَ منها[2].

٢- ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

- قولُه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ تقديمُ المجرورِ المسنَدِ على المسنَدِ إليه؛ لمجرَّدِ الاهتمامِ المُفيدِ تأكيدَ استحقاقِه إيَّاها، المُستفاد من اللَّامِ، والمعنى أنَّ اتِّسامَه بها أمرٌ ثابتٌ[3].

- والتَّفريعُ في قَولِه: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ تفريعٌ عَن كَونِها أسماءً له، وعن كونِها حُسنى، أي: فلا حَرجَ في دعائِه بها؛ لأنَّها أسماءٌ مُتعدِّدةٌ لمسمًّى واحِدٍ، لا كما يزعُمُ المُشركون، ولأنها حُسنى فلا ضيرَ في دعاءِ الله تعالى بها[4].

- وجملةُ: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ تتنزَّلُ منزلةَ التَّعليلِ للأمرِ بتَركِ المُلحِدينَ، و(ما) موصولةٌ عامَّةٌ، أي: سيُجزَونَ بِجَميعِ ما يَعمَلونَه مِن الكُفرِ، ومِن جملة ذلك إلحادُهم في أسمائِه، والسينُ للاستقبالِ، وهي تفيدُ التَّأكيد[5].

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٨٤).
(٢) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٨٥).
(٣) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٨٦).
(٤) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٨٧).
(٥) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٩٠).

- وقيل: ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ دونَ أن يُقالَ (ما عَمِلوا) أو (ما يعملونَ)؛ للدَّلالةِ على أنَّ ذلك العمَلَ سنةٌ لهم، ومتجَدِّدٌ منهم[1].

٣- قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الاستدراجُ: استفعالٌ من درَجَ بمعنى (صعِد)، ثم اتُّسِع فيه، فاستُعمِلَ في كلِّ نقلٍ تدريجيٍّ، سواءٌ كان بطريقِ الصُّعودِ أو الهبوطِ أو الاستقامةِ، ثم استُعيرَ لطَلَبِ كُلِّ نَقلٍ تدريجيٍّ مِن حالٍ إلى حالٍ، من الأحوالِ المُلائمةِ للمُنتَقِلِ، المُوافِقةِ لِهَواه، بحيث يزعُم أنَّ ذلك ترقٍّ في مراقي منافِعِه، مع أنَّه في الحقيقة تَرَدٍّ في مهاوي مصارعِه، فاستدراجُه- سُبحانَه- إيَّاهم: أن يواتِرَ عليهم النِّعَمَ مع انهماكِهم في الغَيِّ، فيحسَبوا أنَّها لُطفٌ لهم منه تعالى، فيَزدادوا بَطرًا وطغيانًا، لكِنْ لا على أنَّ المطلوبَ تدرُّجُهم في مراتِبِ النِّعَمِ، بل هو تدرُّجُهم في مدارجِ المعاصي إلى أن يحِقَّ عليهم كلمةُ العذابِ على أفظَعِ حالٍ وأشنَعِها[2].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ (إنَّ وما بَعدَها) في موضِعِ العِلَّةِ للجُملَتينِ قبلها؛ فإنَّ الاستدراجَ والإملاءَ ضَربٌ مِن الكَيدِ[3].

- والمغايرةُ بين فعلَيْ (نستَدرِج) و(أُملي)- في كونِ ثانيهما بهمزةِ المتكَلِّم، وأوَّلِهما بنونِ العَظَمةِ- مغايرةٌ اقتضَتْها الفصاحةُ، مِن جِهةِ ثِقلِ الهَمزةِ بين حرفينِ مُتماثِلَين في النُّطقِ في ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾، وللتفنُّنِ والاكتفاءِ بحُصولِ معنى التعظيمِ الأوَّلِ[4].

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٩٠).
(٢) يُنظَر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٩٧).
(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٩٢).
(٤) يُنظَر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٨٤-١٨٦)

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١٨٤) أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥) مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٦) ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿جِنَّةٍ﴾: أي: جُنونٍ، وَأَصلُ (جنن): السَّترُ والتستُّر[١].

﴿مَلَكُوتِ﴾: أي: مُلْكِ، وزيدَت فيه الواوُ والتاءُ، وبُنِي بناءَ جَبَروتٍ، وهو مختَصٌّ بمُلكِ اللهِ تعالى[٢].

﴿طُغْيَانِهِمْ﴾: أي: عُتُوِّهِمْ وتكبُّرِهم، أو غَيِّهم وكُفْرِهم، وأصلُ الطُّغيانِ: مجاوزةُ الحدِّ[٣].

﴿يَعْمَهُونَ﴾: أي: يتَحيَّرون ويجورونَ عَن الطَّريقِ، وأصلُ العَمهِ: التردُّدُ في الأمْرِ، مِن التحيُّرِ[٤].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص:٢١٣، ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١ / ١٥٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١ / ٤١٤)، ((المفردات)) للراغب (١ / ٧٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١ / ٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (١ / ١٥٨)، ((الكليات)) للكفوي (١ / ٨٨٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١/ ٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٣٢١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٨٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٢).

المَعنى الإجماليُّ:

أوَلم يتفكَّرْ هؤلاءِ المكذِّبونَ بآياتِ اللهِ، فيما جاءهم به مُحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فإنَّهم لا يخفى عليهم حالُه، فيعلَمُوا أنَّه ليس به جُنونٌ، وما هو إلَّا نذيرٌ مُبينٌ.

أوَلم ينظُرْ هؤلاءِ المكَذِّبونَ بآياتِ اللهِ نظَرَ تأمُّلٍ واعتبارٍ، في ملكوتِ السَّمَواتِ والأرضِ، وفي جميعِ ما خلقَ اللهُ تعالى فيهما، فيعلَمُوا أنَّ خالِقَ ذلك كلِّه ومُدبِّرَه، هو المستحِقُّ وَحْدَه للعبادةِ، وينظرُوا في آجالهم التي عسَى أن تكونَ قد قربَتْ، فيَحذَروا ويُبادِرُوا إلى التَّوبةِ، فبأيِّ حديثٍ بعد القرآنِ يُصَدِّقونَ ويَنْقادون.

وأخبَرَ تعالى أنَّ مَن يَكتُب عليه الضَّلالةَ فلن يهْديَه أحدٌ، ويتركُهم اللهُ تعالى في كُفرِهم وضلالِهم يتحيَّرونَ، فلا يهتَدونَ للحَقِّ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا كان تكذيبُ المُشركينَ بالآياتِ مُنبعِثًا عن تكذيبِهم مَن جاء بها، وناشئًا عن ظَنٍّ أنَّ آياتِ اللهِ لا يجيءُ بها البشَرُ، وأنَّ مَن يدَّعي أنَّه مُرسَلٌ مِن الله مجنونٌ- عقَّبَ الإخبارَ عن المُكَذِّبينَ ووعيدِهم، بدَعوتِهم للنَّظَرِ في حالِ الرَّسولِ، وأنَّه ليس بمجنونٍ كما يزعمونَ[1].

وأيضًا لَمَّا بالغَ اللهُ تعالى في تهديدِ المُعرضينَ عن آياتِه، الغافلينَ عن التأمُّلِ في دلائِلِه وبيِّناتِه- عاد إلى الجوابِ عن شُبُهاتِهم[2]، فقال تعالى:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٩٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤١٩).

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ﴾.

أي: أوَلم يُعمِلْ أولئك المكذِّبونَ بآياتِنا فِكرَهم فيما جاءَهم به مُحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، الذي خالَطوه وعرَفوه، ولا يخفى عليهم شيءٌ مِن حالِه، فيعلَمُوا أنْ ليس به أيُّ جنونٍ(١)؟!

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

وقال سبحانه: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطور: ٢٩].

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا نفى أن يكونَ به شَيءٌ ممَّا نَسَبوه إليه وافتَرَوْه عليه، فثبَتَت رسالتُه- حصَرَ أمْرَه في النِّذارةِ؛ لأنَّها النَّافِعةُ لهم(٢)، فقال:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾.

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٠٢)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤١٩)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٣٠)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٨/ ٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٦٦).
و(ما) في قوله: ﴿مَا بِصَاحِبِهِمْ﴾ نافيةٌ، ويجوزُ أن تكونَ استفهاميةً، ويجوز أن تكونَ موصولةً، بمعنى (الذي)، وتقديره: (أو لم يتفكَّروا في الذي بصاحبِهم)، وعلى هذا يكونُ الكلامُ خرَجَ على زعمِهم. ينظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٥٢٥).
(٢) يُنظَر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٨٠).

أي: ما محمَّدٌ إلا نذيرٌ يخوِّفُ الكفَّارَ مِن عِقابِ اللهِ إن لم يُؤمِنوا، يُبينُ ما يُنذِرُهم به؛ ليكونَ إنذارًا واضحًا جليًّا، لا لَبْسَ فيه ولا شَكَّ، ولا عُذرَ معه[1].

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا حضَّهم اللهُ تعالى على التفكُّرِ في حالِ الرَّسولِ، وكان مُفرَّعًا على تقريرِ دليلِ التَّوحيدِ؛ أعقبَ بما يدلُّ على التَّوحيدِ، ووجودِ الصَّانِعِ الحَكيمِ[2]، فقال تعالى:

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾.

أي: أوَلم ينظُرِ المُكذِّبونَ بآياتِ اللهِ نظَرَ تأمُّلٍ واعتبارٍ في مُلكِ اللهِ الواسِعِ، وسُلطانِه العظيمِ، في السَّمواتِ وفي الأرضِ، وفيما خلَقَ مِن الأشياءِ كُلِّها، فيتفكَّروا في كلِّ ذلك، فيعلَموا أنَّ خالِقَ ذلك ومُدبِّرَه هو المُستحِقُّ للعبادة وَحْدَه، فيؤمِنوا به ويُصَدِّقوا رسولَه[3]؟

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٩٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٦٨، ٣٧٠).
قال الشِّنقيطي: (المبينُ: اسمُ فاعلِ (أبان يُبين)، قال بعضُ العلماءِ: هو مِن (أبان) المتعديةِ. وعليه فالمفعولُ محذوفٌ لعمومِه، والمعنى: مُبينٌ نذارتَه، مصرحٌ لكم في غايةِ البيانِ بما ينذركم الله به، ويحذِّركم منه. وأكثرُ العلماءِ على أنَّ قولَه: ﴿مُّبِينٌ﴾ صفةٌ مشبهةٌ، هي الوصفُ مِن: (أبان) اللازمةِ ... فعلى القولِ الأولِ ﴿مُّبِينٌ﴾: أي: مُبينٌ ما ينذِرُكم ويُحَذِّرُكم به، موضِّحٌ له بالتَّفصيلِ. وعلى الثَّاني: أنَّه الصِّفةُ المُشَبَّهة مِن: (أبانَ) اللَّازمةِ، فمعنى (مُبِينٍ): نذيرٌ بَيِّنُ الإنذارِ واضِحُه، لا إشكالَ في إنذارِه). ((العذب النمير)) (٤/ ٣٧٠). ويُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٩٥).
(٢) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٢٠)، (تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٣٥).
(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٠٣)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٤٩١)، ((تفسير ابن =

﴿ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ﴾.

أي: وينظُروا في احتمالِ دنُوِّ وَقتِ مَوتِهم وهم على كُفْرِهم، فيَحْذَروا ويبادِرُوا إلى التَّوبةِ قبل أن يصيروا إلى عذابِ اللهِ[1].

﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾.

أي: فبأيِّ تخويفٍ وتحذيرٍ بعد القرآنِ يُصَدِّقون، إن لم يُصَدِّقوا بهذا الكتابِ الذي جاءَهم به مُحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، مِن عندِ الله تعالى[2]؟

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦].

وقال سبحانه: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣].

﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٦) ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكر اللهُ تعالى إعراضَهم عن الإيمانِ، ذكرَ علَّةَ ذلك: فضَلالُهم أمْرٌ قَدَّرَ

= عطية)) (٢/ ٤٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٧٠، ٣٧١).

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٠٣)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٨٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٧١).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٧٢، ٣٧٣).
وممَّن اختار أنَّ الضَّميرَ في ﴿بَعْدَهُ﴾ يعودُ على القرآنِ: ابنُ جَريرٍ، وابنُ كثيرٍ، والسعديُّ، والشِّنقيطي. يُنظَر: المصادر السابقة.
وقيل: هو عائِدٌ على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقيل: عائدٌ على الأجَلِ، وقيل غيرُ ذلك. يُنظَر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٨٣)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٧٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٥٢٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٠٩).

اللهُ دوامَه، فلا طمَعَ لأحدٍ في هَدْيِهم (١)، فقال تعالى:

﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ ﴾.

أي: مَن كتبَ اللهُ عليه الضَّلالةَ، فلن يهدِيَه أحدٌ مِن بعدِ اللهِ (٢).

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١].

وقال سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

وقال جلَّ جلاله: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٣٦].

وقال تبارك وتعالى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٨٨].

﴿ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾.

أي: ويترُكُهم اللهُ في تمادِيهم في كفْرِهم وضلالِهم، يتحَيَّرون ويتردَّدونَ، فلا يهتدونَ إلى الحقِّ (٣).

كما قال تعالى: ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [يونس: ١١].

---

(١) يُنظَر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٩٩).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٧٣).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٠٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٧٥).

وقال جل جلاله: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ [النمل: ٤].

الفَوائدُ التربويَّةُ:

١- الحَثُّ على الفِكرِ والتأمُّلِ والتدبُّرِ، والتَرَوِّي لطَلَبِ معرفةِ الأشياءِ كما هي، عِرفانًا حقيقيًّا تامًّا؛ يُرشِدُ إلى ذلك قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾[١].

٢- يجِبُ على العاقِلِ المُبادرةُ إلى التفكُّرِ والاعتبارِ، والنَّظرِ المؤدِّي إلى الفَوزِ والنَّعيمِ الدَّائمِ؛ قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾[٢].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ النَّظرُ بالقَلبِ المفتوحِ والعَينِ المُبصِرةِ، في هذا الملكوتِ الواسِعِ الهائِلِ العَظيمِ؛ يكفي وَحْدَه لانتفاضِ الفِطرةِ مِن تحتِ الرُّكامِ، وتفَتُّحِ الكينونةِ البَشَريَّةِ لإدراكِ الحقِّ الكامِنِ فيه، والإبداعِ الذي يَشهَدُ به، والإعجازِ الذي يَدلُّ على البارئِ الواحِدِ القَديرِ. والنَّظَرُ إلى ما خلَقَ اللهُ مِن شَيءٍ- وكم في ملكوتِ السَّمواتِ والأرضِ مِن شَيءٍ- يُدهِشُ القَلبَ، ويُحيِّرُ الفِكْرَ، ويلجِئُ العَقلَ إلى البحثِ عَن مَصدرِ هذا كلِّه، وعن الإرادةِ التي أوجَدَت هذا الخَلقَ على هذا النِّظامِ المقصودِ المَشهورِ[٣].

---

(١) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤١٩).

(٢) يُنظَر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٤٢).

(٣) يُنظَر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٤٠٥).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ نبَّهَ على الفِكرِ في اقترابِ الأجَلِ؛ لعلَّهم يُبادِرونَ إليه، وإلى طلَبِ الحَقِّ وما يُخَلِّصُهم من عذابِ الله، قبل مُقانَصةِ الأجَلِ[1].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ حَذفُ مَعمولِ التفكُّرِ يؤذِنُ بعُمومِ ما يدلُّ عليه المقامُ ممَّا تقتضيه الحالُ[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ دليلٌ على أنَّ مُحمَّدًا خاتَمُ الرُّسُلِ، وأنَّ الوَحيَ ينقطِعُ بعد القُرآنِ[3].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ فيه أنَّ الهُدى والضَّلالَ مِن اللهِ تعالى[4].

بلاغةُ الآياتِ:

١- ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾

- قوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ كلامٌ مبتدأٌ مَسوقٌ لإنكارِ عَدمِ تفكُّرِهم في شأنِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وجَهلِهم بحقيقةِ حالِه، المُوجِبةِ للإيمانِ به وبما أُنزِلَ عليه مِن الآياتِ التي كذَّبوا بها، والهمزةُ في ﴿أَوَلَمْ﴾ استفهاميَّةٌ للإنكارِ والتَّعجيبِ والتَّوبيخِ[5].

- ودخولُ (مِن) على النَّكرةِ في قولِه: ﴿مِنْ جِنَّةٍ﴾؛ لتوكيدِ العمومِ في

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن حيان)) (٥/ ٢٣٥).
(٢) يُنظَر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٨١).
(٣) يُنظَر: ((التفسير البسيط)) للواحدي (٩/ ٤٩٢).
(٤) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٢٢).
(٥) يُنظَر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٩٨).

النَّفي(١)، فيوجب ألَّا يكونَ به نوعٌ مِن أنواعِ الجنونِ(٢).

- والتَّعبيرُ عنه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بصاحِبِهم؛ للإيذانِ بأنَّ طولَ مُصاحَبتِهم له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ممَّا يُطْلِعُهم على نزاهَتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن شائبةِ ما ذُكِرَ، ففيه تأكيدٌ للنَّكيرِ، وتشديدٌ له(٣).

- وقَولُه تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ جملةٌ مُقَرِّرةٌ لِمَضمونِ ما قَبلَها، ومبيِّنةٌ لحقيقةِ حالِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ أي: ما هو إلَّا مُبالغٌ في الإنذارِ، مُظهِرٌ له غايةَ الإظهارِ؛ إبرازًا لكمالِ الرَّأفةِ، ومبالغةً في الإعذارِ(٤).

- القَصرُ المُستفادُ مِن النَّفيِ والاستثناءِ في قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ قَصرُ مَوصوفٍ على صفةٍ، وهو يقتضي انحصارَ أوصافِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في النِّذارةِ والبَيانِ، وذلك قَصرٌ إضافيٌّ، هو قَصرُ قَلبٍ، أي هو نذيرٌ مُبينٌ، لا مجنونٌ كما يزعمونَ، وفي هذا استغباءٌ أو تسفيهٌ لهم بأنَّ حالَه لا يلتبِسُ بحالِ المَجنونِ؛ لِلْبَونِ الواضحِ بين حالِ النِّذارةِ البيِّنةِ، وحال هَذَيانِ المجنونِ؛ فدعواهم جُنونَه: إمَّا غباوةٌ منهم، بحيث التبَسَت

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٩٣)، ويُنظر أيضًا: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٧٧).

(٢) يُنظر: ((التفسير البسيط)) للواحدي (٩/ ٤٩٠).

(٣) يُنظَر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٩٨).

قال محمد رشيد رضا: (وقد عَبَّر عنه في هاتينِ الآيَتَيْنِ، وفي آيةِ التَّكويرِ بالصَّاحِبِ لهم؛ لتَذْكيرِهم بأنَّهم يعرفونه مِن أوَّلِ نشأتِه إلى أنْ تَجاوَزَ الأربعين مِن عُمْرِه، فما عليهم إلَّا أنْ يَتفَكَّروا حَقَّ التَّفكُّرِ في سيرَتِه الشَّريفةِ المعقولةِ؛ ليعلموا أنَّ الشُّذوذَ ومجافاةَ المعقولِ ليس مِن دَأْبِه، ولا ممَّا عُهِدَ عنه، وكذلك الكذبُ كما قال بعضُ زعمائِهم مِنْ أهلِ مَكَّةَ: إنَّ مُحَمَّدًا لم يكذبْ قط على أحدٍ مِنَ الناسِ أفيكذِبُ على الله؟ وقد قال تعالَى في أُولئك الزعَماءِ: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]. ينظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٨١).

(٤) يُنظَر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٩٨-٢٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٩٥).

عليهم الحقائقُ المتمايزةُ، وإمَّا مكابرةٌ وعنادٌ وافتراءٌ على الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[1].

٢- ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾

- قولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ ترَقٍّ في الإنكارِ والتَّعجيبِ مِن حالِهم في إعراضِهم عن النَّظرِ في حالِ رَسولِهم، إلى الإنكارِ والتَّعجيبِ مِن إعراضِهم عن النَّظَرِ فيما هو أوضَحُ من ذلك وأعَمُّ، وهو مَلَكوتُ السَّمواتِ والأرضِ، وما خلَقَ اللهُ مِن شَيءٍ ممَّا هو آياتٌ مِن آياتِ وحدانيَّة اللهِ تعالى، التي دعاهم الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى الإيمانِ بها[2].

- وعُدِّيَ فِعلُ النَّظرِ ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا﴾ إلى مُتعلِّقه بحَرفِ الظَّرفيَّةِ (في)؛ لأنَّ المرادَ التأمُّلُ بتدبُّرٍ، وهو التفكُّرُ، فدلَّ بحَرفِ الظَّرفيَّةِ على أنَّ هذا التفكُّرَ عَميقٌ مُتغلغِلٌ في أصنافِ الموجوداتِ[3].

- قَوْلُه: ﴿وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ معطوفٌ على ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ وصِيغَ الكلامُ على هذا النَّظمِ؛ لإفادةِ تَهويلِ الأمرِ عليهم وتخويفِهم، بجَعْلِ متعلَّقِ النَّظرِ مِن معنى الإخبارِ؛ للدَّلالةِ على أنَّه أمرٌ مِن شأنِه أن يخطُرَ في النُّفوسِ، وأن يتحدَّثَ به النَّاسُ، وأنَّه قد صار حديثًا وخَبرًا، فكأنَّه أمرٌ مُسلَّمٌ مُقرَّرٌ[4].

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٩٥-١٩٦).

(٢) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٩٦).

(٣) يُنظَر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٩٧).

- قَولُه ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ استفهامٌ تعجيبيٌّ، مَشوبٌ باستبعادٍ للإيمانِ بما أبلَغَ إليهم اللهُ بلِسانِ رَسولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وما نصَبَ لهم من الآياتِ في أصنافِ المَخلوقاتِ؛ فإنَّ ذلك كُلَّه قد بلغ مُنتهى البَيانِ قَولًا ودلالةً، بحيث لا مَطمَعَ أن يكونَ غيرُه أدلَّ منه[1].

٣- قولُه: ﴿مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾ هذه الجملةُ تعليلٌ للإنكارِ في قَولِه: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ لإفادةِ أنَّ ضَلالَهم أمرٌ قَدَّرَ اللهُ دوامَه، فلا طَمَعَ لأحدٍ في هَدْيِهم[2].

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٩٨).

(٢) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ١٩٩).

الآيتان (١٨٧-١٨٨)

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾: أي: متى إِقَامَتِهَا وإثباتها ومُستقَرُّها، ويُسألُ بأيَّانَ عن الزَّمانِ المُستقبَلِ، وأصلُ (رسو): يدلُّ على الثَّبات(١).

﴿لَا يُجَلِّيهَا﴾: أي: لا يُظهِرُها، يقال: جلَّى لي الخَبَرَ: أي كشَفَه وأوضَحَه، وأصلُ (جلو): يدلُّ على انكشافِ الشَّيءِ وبُروزِه(٢).

﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: أي: خَفِيَ عِلمُ السَّاعة على أهلِ السَّمواتِ والأرضِ، وإذا خَفِيَ الشَّيءُ ثَقُلَ، أو ثَقُلَ وقوعُها على أهل السَّمواتِ والأرضِ، وأصل (ثقل) ضِدُّ الخفَّةِ(٣).

﴿حَفِيٌّ﴾: أي: مُلِحٌّ في طَلَبِ عِلْمِها، مُستَقْصٍ السُّؤالَ عنها. يقال: أحفى فلانٌ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٢٢، ٢٢٥، ٨٨١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣١). ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٦٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٨٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٣).

في المسألةِ: إذا ألَحَّ فيها وبالَغَ، وأصلُ (حفي): يدلُّ على استقصاءٍ في السُّؤالِ[١].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قال تَعالَى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾

﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ﴾: ﴿ما﴾ اسمٌ مَوصولٌ مبنيٌّ في محلِّ نَصبٍ على الاستثناءِ المتَّصِلِ مِن مَجموعِ النَّفعِ والضَّرِّ- على تقديرِ أنَّه يملِكُ من ذلك ما ملَّكَه اللهُ- أي: إلَّا ما شاءَ اللهُ تمكيني منه، فإنِّي أملِكُه، وقيل: الاستثناءُ مُنقطِعٌ- لأنَّ المخلوقَ لا يملِكُ لنَفسِه نفعًا ولا ضَرًّا بحالٍ- والتَّقديرُ: لكنْ ما شاء اللهُ مِن ذلك كائِنٌ[٢].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى لنبيِّه مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: يسألُك النَّاسُ متى يحُلُّ يومُ القيامةِ، قل لهم: إنَّما عِلمُ ذلك عند ربِّي، لا يُظهِرُه في وقتِه إلَّا هو وَحدَه، خفِي علمُ وقتِها على أهلِ السمواتِ والأرضِ، لا تأتيكم إلَّا فجأةً، يَسألونَك عنها يا مُحمَّدُ، وكأنَّك قد أكثَرْتَ السُّؤالَ عنها حتى عَلِمْتَ وَقتَها، قلْ لهم: لا عِلمَ لي بوَقتِها، إنَّما عِلمُ ذلك عند اللهِ، ولكِنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يعلمونَ.

قلْ لهم: لا أملِكُ أنْ أجلِبَ لنفسي النَّفعَ، ولا أدفَعَ عنها الضُّرَّ، إلَّا ما شاء اللهُ، ولو كنتُ أعلَمُ الغيبَ لفعَلتُ الأسبابَ التي أعلَمُ أنَّها تُنتِجُ لي الكثيرَ مِن المصالِحِ، ولَتجنَّبتُ الشَّرَّ قبل أن يقَعَ، ما أنا إلَّا مُنذِرٌ ومُبَشِّرٌ لِقَومٍ يُؤمنونَ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١٠، ٤١٣).

(٢) يُنظَر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٦٠٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٥٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٢)، ((الرد على الإخنائي)) لابن تيميَّة (ص: ١٤٧). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٠٨).

تفسيرُ الآيتين:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٧) ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

في مُناسَبةِ الآيةِ لِما قَبلَها وجهان:

الوجهُ الأول: لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى التوحيدَ والنبوَّةَ والقضاءَ والقدَرَ؛ أتبعَ ذلك بذِكرِ المَعادِ.

الوجه الثاني: لَمَّا تقدَّمَ قَولُه تعالى: ﴿وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ وكان ذلك باعثًا للمبادرةِ إلى التَّوبةِ والإصلاحِ، قال بعده: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾؛ ليتحقَّقَ في القُلوبِ أنَّ وقتَ السَّاعةِ مكتومٌ عن الخَلقِ، فيصيرَ ذلك حاملًا للمُكلَّفينَ على المسارعةِ إلى التَّوبةِ وأداءِ الواجباتِ [1].

سببُ النُّزولِ:

عن طارقِ بنِ شِهابٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان لا يزالُ يَذكُرُ مِن شأنِ السَّاعةِ، حتى نزلَت: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾[2].

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٢٢).

(٢) أخرجه النسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٥٨١)، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (٨/ ٣٢٢) (٨٢١٠)، وأبو نعيم في ((معرفة الصحابة)) (٣٩٤٥).
قال ابنُ كثير في ((تفسير القرآن)) (٣/ ٥٢٦)، والحكمي في ((معارج القبول)) (٢/ ٦٨٧): إسنادُه جيِّدٌ قويٌّ.

أي: يسألُكَ النَّاسُ[1]- يا مُحمَّدُ- عن يومِ القيامةِ متى يحُلُّ وَقتُه[2].

كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣].

وقال سُبحانه: ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الذاريات: ١٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ * يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾ [القيامة: ٥-٦].

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: قلْ- يا مُحمَّد- للَّذينَ يسألونَك عن وَقتِ وُقوعِ يَومِ القيامةِ: إنَّما عِلمُ ذلك عند خالِقي ومُدَبِّر شُؤوني، لا عندي، لا يُظهِرُها ولا يوجِدُها في وَقتِها الذي قُدِّرَ أنَّها تقومُ فيه، إلَّا اللهُ وحده[3].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤].

وقال سبحانه: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [فصلت: ٤٧].

---

(١) قال ابنُ كثير: (يقول تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾ [الأحزاب: ٦٣]، قيل: نزلت في قريشٍ. وقيل: في نفَرٍ مِن اليهودِ. والأوَّلُ أشبَهُ؛ لأنَّ الآيةَ مكيَّةٌ، وكانوا يسألونَ عن وقتِ السَّاعة؛ استبعادًا لوقوعِها، وتكذيبًا بوجودِها؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: ١٨]) يُنظَر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٨).
وقال الشِّنقيطي: (والذين سألوه: قال بعضُ العُلَماءِ: هم كفَّارُ مكَّةَ. وقال بعضُ العُلماء: نفرٌ مِن اليهودِ، ولا مانعَ مِن أن يكون كلٌّ منهم سألوه عنها). ((العذب النمير)) (٤/ ٣٧٥-٣٧٦).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٧٥، ٣٧٦).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٧٧ - ٣٧٩).

﴿ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: خَفِيَتِ السَّاعةُ عَلَى أَهْلِ السَّمواتِ والأرضِ، وثقلُ علمُها عليهم، واشتدَّ خَوفُهم منها؛ لِما سيكونُ فيها من الأهوالِ(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: ١٥].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ * يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: ١٧-١٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١].

وقال تبارك وتعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا * السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾ [المزمل: ١٧-١٨].

﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾.

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٠٩)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٧٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٣٤١)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٠٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٧٩).
وممَّن اختار أنَّ معنى ثقُلَت: خَفِيَ عِلْمُها: ابنُ جرير، وابنُ تيميَّة، وابنُ كثير.
وممَّن رُوي عنه هذا القولُ مِن السَّلف السُّدِّي. ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٠٨) وروي نحوه عن قتادة، ينظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٥/ ١٦٢٧).
وممَّن اختار أنَّ المراد: عَظُمَ خَطبُها، واشتدَّ خَوفُ الخلائقِ مِن أهوالِها: ابنُ عاشور، والشِّنقيطي.
وممَّن رُوي عنه نحو هذا القول مِن السَّلف الحسنُ، وابنُ جريجٍ، يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٠٩)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٥/ ١٦٢٧).
وجمع السعدي بين المعنيين. يُنظَر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١١)، وينظر أيضًا: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٧٥).
وقال ابنُ كثيرٍ بعد اختيارِه القَولَ الأوَّلَ: (ولا ينفي ذلك ثِقَلَ مجيئِها على أهلِ السَّموات والأرضِ، واللهُ أعلمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥١٩).

أي: لا تجيءُ السَّاعةُ إلَّا فجأةً، وأنتم لا تَشعرونَ بِمَجيئِها[1].

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام: ٣١].

وقال سبحانه: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الزخرف: ٦٦].

وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ * فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٤٨-٥٠].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لا تَقومُ السَّاعةُ حتى تَطلُعَ الشَّمسُ مِن مَغرِبِها، فإذا طلَعَت فرآها النَّاسُ آمَنُوا أجمعونَ، فذلك حين: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]، ولَتَقومَنَّ السَّاعةُ وقد نشر الرَّجُلانِ ثَوبَهما بينهما فلا يَتَبايعانِه، ولا يَطْويانِه، ولَتَقومَنَّ السَّاعةُ وقد انصرَفَ الرَّجُلُ بِلَبَنِ لِقحَتِه[2] فلا يطعَمُه، ولَتَقومَنَّ السَّاعةُ وهو يَليطُ حَوضَه[3] فلا يَسقي فيه، ولَتَقومَنَّ السَّاعةُ وقد رفَعَ أحدُكم أُكلَتَه إلى فيه فلا يطعَمُها))[4].

وعن أبي هُريرة رَضِيَ اللهُ عنه، قال: كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بارِزًا

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦١٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٨١).

(٢) اللِّقحةُ (بكَسرِ اللامِ): النَّاقةُ الحَلوبُ. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (٢٣/ ٩٢).

(٣) يَليطُ حَوضَه: أي: يُطَيِّنُه ويُصلِحُه. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (٢٣/ ٩٢)، ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٨/ ٣٤٠٧).

(٤) رواه البخاري (٦٥٠٦) واللفظ له، ومسلم (١٥٧) و (٢٩٥٤).

يومًا للنَّاسِ، فأتاه جبريلُ... قال: متَى السَّاعةُ؟ قال: ((ما المَسؤولُ عنها بأعلَمَ مِن السَّائِلِ))(١).

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: سَمِعتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ قبلَ أن يموتَ بِشَهرٍ: ((تَسألوني عن السَّاعةِ؟! وإنَّما عِلْمُها عندَ اللهِ، وأُقسِمُ باللهِ ما على الأرضِ مِن نفسٍ مَنفوسةٍ تأتي عليها مئةُ سَنةٍ))(٢).

﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾.

أي: يَسألُك النَّاسُ عن وقتِ وُقوعِ القيامةِ، وكأنَّك- يا مُحمَّدُ- قد أكثَرْتَ وبالغتَ في السُّؤالِ عنها حتى علِمتَ وقتَها(٣)!!

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾.

أي: قلْ- يا مُحمَّد- لِمَن يسألُك عن مَوعدِ وقوعِ القيامةِ: لا عِلمَ لي بِوَقتِها، ولا يعلَمُ وَقتَها إلَّا اللهُ وَحدَه(٤).

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أي: ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يعلمونَ أنَّ وَقتَ وُقوعِ يومِ القيامةِ لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ وَحدَه(٥).

---

(١) رواه البخاري واللفظ له، (٥٠) ومسلم (٩).

(٢) رواه مسلم (٢٥٣٨).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦١٤)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٥٠٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٠٤، ٢٠٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٨٢).

(٤) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٨٢).

قال الشِّنقيطي: (﴿قُلْ﴾ لهم يا نبيَّ اللهِ: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ كرَّرَ رَدَّ عِلمِها إلى اللهِ؛ ليعلَمَ الخَلْقُ أنَّها لا يعلمُها إلَّا اللهُ). ((العذب النمير)) (٤/ ٣٨٢).

(٥) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦١٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٢٤)، ((تفسير أبي =

﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨ ﴾.

﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾.

أي: قلْ - يا مُحمَّد - لِسَائليك عن وَقتِ قيامِ السَّاعةِ: أنا لا أقدِرُ على جَلبِ نَفعٍ إلى نفسي، ولا دفْعِ ضَرٍّ عنها، إلَّا ما أقدرَني اللهُ عليه بمشيئتِه، فيعينُني عليه[1].

﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ ﴾.

أي: وقل - يا مُحمَّدُ - لِمَن يسألُك عن وقتِ قيامِ السَّاعةِ: ولو كنتُ أعلَمُ ما هو كائنٌ في المستقبَلِ، لأعدَدْتُ الكثيرَ ممَّا ينفعُني من المالِ وغَيرِه[2].

﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ ﴾.

= حيان)) (٥/ ٢٣٩)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٢٣٢).

قال أبو السعود: (أي: لا يعلمونَ ما ذُكِرَ مِن اختصاصِ عِلمِها به تعالى؛ فبعضُهم ينكرونَها رأسًا فلا يعلمونَ شَيئًا ممَّا ذُكِرَ قَطعًا، وبعضُهم يعلمونَ أنَّها واقعةٌ البتَّةَ، ويزعمونَ أنَّك واقِفٌ على وَقتِ وُقوعِها فيسألونَك عنه جهلًا، وبعضُهم يدَّعونَ أنَّ العِلمَ بذلك من موجِبِ الرِّسالةِ فيتَّخِذونَ السُّؤالَ عنه ذريعةً إلى القَدحِ في رسالتِك). ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٢).

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦١٥- ٦١٦)، ((تفسير الماوردي)) (٢/ ٢٨٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٨٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٨٤).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٨٥، ٣٨٦).

قال الشِّنقيطي: (المرادُ بالخيرِ في هذه الآيةِ الكريمة قيل: المالُ، ويدلُّ على ذلك كثرةُ ورودِ الخَيرِ بمعنى المالِ في القرآنِ، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨]، وقولِه: ﴿إِن تَرَكَ خَيۡرًا﴾ [البقرة: ١٨٠]، وقولِه: ﴿قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ﴾ [البقرة: ٢١٥]، إلى غيرِ ذلك من الآياتِ. وقيل: المرادُ بالخَيرِ فيها العملُ الصَّالحُ، كما قاله مجاهِدٌ وغيره، والصَّحيحُ الأوَّلُ؛ لأنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مستكثِرٌ جِدًّا من الخيرِ الذي هو العمَلُ الصَّالِحُ؛ لأنَّ عمَلَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان دِيمةً، وفي روايةٍ: كان إذا عَمِلَ عملًا أثبَتَه). ((أضواء البيان)) (٢/ ٤٦).

أي: ولو كنتُ أعلَمُ الغَيبَ لاحتَرَستُ ممَّا يُفضي إلى المكروهِ، ولكنِّي لا أعلَمُ الغيبَ؛ ولهذا يصيبُني ما قدَّر اللهُ لي[1].

﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

أي: ما أنا إلَّا مُنذِرٌ عقابَ اللهِ مَن عصاه، ومُبَشِّرٌ بثوابِه مَن أطاعَه، وإنذاري وتبشيري إنَّما ينتفِعُ به المؤمنونَ[2].

كما قال سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [فاطر: ١٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: ١١].

الفَوائدُ التربويَّةُ:

قال الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يجِبُ على المؤمنينَ أن يخافوا ذلك اليومَ، وأن يحمِلَهم الخوفُ على مُراقبةِ الله تعالى في أعمالِهم،

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦١٦)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٨٦).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦١٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٨٦، ٣٨٨).

قال ابنُ جُزيٍّ: (﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يجوزُ أن يتعَلَّقَ ببشير ونذير معًا، أي: أُبَشِّرُ المؤمنينَ وأُنذِرُهم، وخَصَّ بهم البِشارةَ والنِّذارةَ؛ لأنَّهم هم الذين ينتفعونَ بها، ويجوز أن يتعلَّقَ بالبشارةَ وَحدَها، ويكون المتعَلِّقُ بنذير محذوفًا، أي: نذيرٌ للكافرينَ، والأوَّلُ أحسَنُ). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣١٥). وهذا الذي استحسَنه ابنُ جُزيٍّ، ذهب إليه الواحديُّ، وابنُ عاشور، والشِّنقيطي. يُنظَر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٠٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٨٨).

فيلتَزِموا فيها الحقَّ، ويتحَرَّوا الخيرَ، ويتَّقُوا الشَّرَّ والمعاصيَ، ولا يجعَلوا حَظَّهم مِن أمْرِ السَّاعةِ الجِدالَ، والقيلَ والقالَ(١).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ في السُّؤالِ عن زَمَنِ وُقوعِها بكلمةِ (الإرساءِ)- الدَّالةِ على استقرارِ ما شأنُه الحركةُ والجَرَيانُ، أو المَيَدانُ والاضطرابُ- نكتةٌ دقيقةٌ: وهو أنَّ قيامَ السَّاعةِ عبارةٌ عن انتهاءِ أمْرِ هذا العالَمِ، وانقضاءِ عُمُرِ هذه الأرضِ التي تدورُ بمَن فيها من العوالِمِ المتحَرِّكة المُضطربةِ، فعبَّرَ بإرسائِها عن منتهى أمْرِها، ووقوفِ سَيرِها. والسَّاعةُ زمَنٌ، وهو أمرٌ مُقدَّرٌ، لا جسمٌ سائِرٌ أو مُسَيَّرٌ، وما يقع فيها ويعبَّرُ بها عنه فهو حركةُ اضطرابٍ وزلزالٍ، لا رَسْوَ ولا إرساءَ، وهو أمرٌ مُستقبَلٌ لا حاصلٌ، ومتوقَّعٌ لا واقِعٌ، فلم يبقَ لإرسائِها معنًى إلَّا إرساءُ حركةِ هذا العالَم فيها، وإنَّه لتعبيرٌ بليغٌ، لم يُعهَدْ له في كلامِ البُلَغاءِ نَظيرٌ(٢).

٢- قال الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ وقال بَعدَها: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ فأجابَ عن الأوَّلِ بِقَولِه: ﴿إِنَّما عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ وعن الثَّاني بقولِه: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ فذكَرَ في الثَّاني اسمَ الجلالةِ؛ للإشعارِ بأنَّه ممَّا استأثَرَ بعِلمِه لِذاتِه، كما أنَّ ذِكرَه للرَّبِّ في الأوَّلِ أشعَرَ بأنَّه مِن شُؤونِ رُبوبيَّتِه، وكلٌّ منهما ممَّا يستحيلُ على خَلقِه(٣).

بلاغةُ الآيَتين:

١- قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي

---

(١) يُنظَر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٩١).

(٢) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٣٨٨).

(٣) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٣٩٢).

لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

- قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ، يَذكرُ به شيئًا مِن ضلالِهم ومحاولةِ تعجيزِهم النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، بتعيينِ وَقتِ السَّاعةِ. ومناسبةُ هذا الاستئنافِ هي التعرُّضُ لتوقُّعِ اقترابِ أجَلِهم في قَولِه: ﴿وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾(١).

- وقد أُطلِقَ الإرساءُ هنا؛ تشبيهًا لوقوعِ الأمرِ الذي كان مترقَّبًا أو متردَّدًا فيه بوصولِ السَّائرِ في البرِّ أو البحرِ، إلى المكان الذي يريدُه(٢).

- وذَكَرَ السَّاعةَ أوَّلًا، والاستفهامَ عن زمَنِ وُقوعِها ثانيًا؛ على قاعدةِ تَقديمِ الأهَمِّ، وهو المقصودُ بالذَّاتِ(٣).

- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ فيه حصرٌ حقيقيٌّ؛ لأنَّه الأصلُ: أنَّ عِلمَ السَّاعةِ بالتَّحديدِ مقصورٌ على اللهِ تعالى، والتَّعريفُ بوَصفِ الرَّبِّ وإضافَتِه إلى ضميرِ المتكلِّمِ إيماءٌ إلى الاستدلالِ على استئثارِ اللهِ تعالى بعِلمِ وَقتِ السَّاعةِ دون الرَّسولِ المسؤولِ؛ ففيه إيماءٌ إلى خَطئِهم، وإلى شُبهةِ خَطئِهم(٤).

- وفُصِلَت جُملةُ: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ لأنَّها تتنزَّلُ مِن ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ منزلةَ التَّأكيدِ والتقريرِ، وقدَّمَ المجرورَ، وهو ﴿لِوَقْتِهَا﴾، على فاعِلِ ﴿يُجَلِّيها﴾ الواقعِ استثناءً مفرَّغًا؛ للاهتمامِ به، تنبيهًا على أنَّ تَجليةَ

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٠٠).
(٢) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٠٢).
(٣) يُنظَر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٨٩).
(٤) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٠٢).

أَمْرِها تكونُ عند وقتِ حُلولِها؛ لأنَّها تأتي بغتةً[١].

- جملةُ: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ مؤكِّدةٌ لجملةِ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾، ومُبَيِّنة لكيفيَّةِ سؤالِهم فلِذَينِكَ فُصِلَت، وحُذِفَ مُتعَلَّقُ السُّؤالِ؛ لعِلمِه مِن الجملةِ الأولى[٢].

وقيل: السُّؤالُ الأوَّلَ عن وقتِ قيامِ السَّاعة، والثَّاني عن كُنهِ ثِقلِ السَّاعةِ وشِدَّتِها ومهابَتِها، وقيل: ذُكِرَ الثَّاني للتَّأكيدِ، ولِما جاء به من زيادةِ قَولِه: ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾[٣].

- قولُه: ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ أي: كأنَّك عالمٌ بها. وحقيقتُه: كأنَّك بليغٌ في السُّؤالِ عنها؛ لأنَّ من بالغَ في المسألةِ عن الشَّيءِ والتنقيبِ عنه، استحكَمَ عِلمُه فيه ورصَنَ، وهذا التركيبُ معناه المبالغةُ[٤].

٢- قوله: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

- قولُه تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ، قُصِدَ منه الاهتمامُ بمضمونِه؛ كي تتوجَّهَ الأسماعُ إليه، ولذلك أعيدَ الأمرُ بالقَولِ مع تقدُّمِه مرَّتينِ في قَولِه: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ و﴿قُلْ إِنَّما عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ للاهتمامِ باستقلالِ المَقولِ، وألَّا يندرِجَ في جملةِ المقُولِ المحكيِّ قَبلَه[٥].

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٠٢).
(٢) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٠٤).
(٣) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٢٥)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٤٣).
(٤) يُنظَر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٨٤)
(٥) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٠٧).

- وقال اللهُ تعالى هنا في سورةِ الأعرافِ: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ وقال في سورة يونس: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [يونس:٤٨-٤٩]، فقدَّمَ النَّفعَ على الضَّرِّ في الأُولى، وأخَّره عنه في الأُخرى، وذلك لمناسبةٍ حسنةٍ؛ أنَّه هنا في الأعرافِ لَمَّا تقدَّمَ سُؤالُ المشركينَ عن السَّاعةِ، وتكرَّر في قولِه: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾، وكان ظاهِرُ السِّياقِ يُشيرُ إلى أنَّهم كانوا يظنُّونَ أنَّه- عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- يعلَمُها، فطَلَبوا تعريفَهم بها، وأن يخُصَّهم بذلك، ولا شَكَّ أنَّ العِلمَ بالشَّيءِ نَفعٌ لصاحِبِه، فعَرَّفَهم أنَّه لا يملِكُ لنَفسِه نفعًا ولا ضَرًّا، فتقدَّمَ ذِكرُ النَّفعِ؛ لأنَّه مُشيرٌ إلى ما ظَنُّوه أنَّه عِندَه مِن عِلمِها، فأعلَمَهم أنَّه سبحانَه استأثَرَ بعِلمِها، وأنَّه- عليه الصَّلاةُ والسَّلام- لا يملِكُ من ذلك شيئًا إلَّا ما شاء اللهُ له ممَّا عدا عِلمَ السَّاعةِ؛ لانفرادِه سبحانه عن خَلقِه بعِلمِها، ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، ثم تأكَّدَ هذا الغَرَضُ بِقَولِه تعالى على لسانِ نبيِّه- عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ-: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ وهذا كلُّه بيِّنُ التناسُبِ.

وأمَّا الآيةُ في سورةِ يونُسَ فإنَّها فيما كان يستعجِلُه الكُفَّارُ مِن عذابِ اللهِ تعالى، وقَبلَها ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٤٦]، ويقولُ الكُفَّارُ: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨] قلْ: لا أملِكُ ما وعدَكم اللهُ مِن هذا العذابِ، ولا أن أدفَعَ عنكم سُوءَ العِقابِ، كما لا أملِكُ لنفسي ضرًّا ولا نفعًا إلَّا ما شاء اللهُ أن يملِّكَنيه منهما، فتقديمُ (الضَّرِّ) على (النَّفعِ) في هذه الآيةِ؛ لخروجِها عن ذكرِ

العذابِ الذي قال اللهُ تعالى فيه بَعدَها: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾(١) [يونس: ٥١].

- وإنَّما عَطفَ قَولَه: ﴿ولا ضرًّا﴾ مع أنَّ المرءَ لا يتطَلَّبُ إضرارَ نَفسِه؛ لأنَّ المقصودَ تَعميمُ الأحوالِ، إذ لا تعدو أحوالُ الإنسانِ عن نافعٍ وضارٍّ، فصار ذِكرُ هَذينِ الضِّدَّينِ مثلَ ذِكرِ المساءِ والصَّباحِ، وذِكرِ اللَّيلِ والنَّهارِ، والشَّرِّ والخَيرِ(٢).

- وجملة ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ فيها الاستدلالُ على انتفاءِ عِلمِه بالغَيبِ، بانتفاءِ الاستكثارِ مِن الخَيرِ، وتجنُّبِ السُّوءِ؛ وهو استدلالٌ بأخَصِّ ما لو عَلِمَ المرءُ الغَيبَ لعَلِمَه أولَ ما يعلَمُ، وهو الغيبُ الذي يُهِمُّ نفسَه، ولأنَّ اللهَ لو أراد إطلاعَه على الغيبِ، لكان القَصدُ من ذلك إكرامَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فيكونُ إطلاعُه على ما فيه راحتُه أوَّلَ ما ينبغي إطلاعُه عليه، فإذا انتفى ذلك كان انتفاءُ غيرِه أَولى. ودليلُ التَّالي في هذه القضيَّةِ الشَّرطيَّةِ، هو المُشاهَدةُ مِن فواتِ خَيراتٍ دُنيويَّةٍ لم يتهيَّأْ لتَحصيلِها، وحصولِ أسواءٍ دُنيويَّةٍ، وفيه تعريضٌ لهم؛ إذ كانوا يتعرَّضونَ له- صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- بالسُّوءِ(٣).

- قوله: ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ مِن تمامِ القَولِ المأمورِ به، وهي مُستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا، ناشئًا عن التبرُّؤِ مِن أن يملِكَ لنَفسِه نَفعًا أو ضَرًّا(٤).

(١) يُنظَر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٨٢-٦٨٥)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٢٢-٢٢٣).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٠٧).

(٣) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٠٨).

(٤) يُنظَر: ((المصدر السابق)).

- وخصَّ اللهُ تعالى المؤمنينَ بالذِّكرِ في قوله: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ لأنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وإن كان نذيرًا وبشيرًا للكُلِّ، إلَّا أنَّ المُنتفِعَ بتلك النِّذارةِ والبِشارةِ هم المؤمنونَ[1].

(١) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٢٦)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٤١٠).

الآيات (١٨٩-١٩٣)

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا
تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا
صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ
ءَاتَىٰهُمَا فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾
وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا
يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾.

غريبُ الكَلماتِ:

﴿لِيَسْكُنَ﴾: أي: ليأوِيَ. وأصلُ (سكن): يدلُّ على خلافِ الاضْطرابِ والحَركةِ[١].

﴿تَغَشَّاهَا﴾: أي: جامَعَها، وأصلُ (غشي): يدلُّ على تغطيةِ شَيءٍ بِشَيءٍ[٢].

﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾: وذلك أوَّل الحَمْلِ، لا تجِدُ المرأةُ له ألَمًا، والخَفِيفُ: بإزاءِ الثَّقيلِ[٣].

﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾: أي: استمَرَّت به، وقعَدَت وقامَت، ولم يُثقِلْها الحَملُ[٤].

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٤).

﴿أَثْقَلَتْ﴾: أَيْ: صارت ذات ثِقلٍ بكِبَرِ الولَدِ في بَطنِها، وأصلُ (ثقل): ضِدُّ الخِفَّةِ(١).

المَعنى الإجماليُّ:

اللهُ الذي خَلَقكم- أيُّها النَّاسُ- مِن نَفسٍ واحدةٍ: هي آدَمُ، وخلقَ مِن آدَمَ زَوجَه حَوَّاءَ- عليهما السَّلامُ؛ ليأوِيَ إليها، فلما جامَعَها حمَلَت في رَحِمِها حملًا خفيفًا عليها، وذلك في أوَّلِه، فاستمَرَّتْ بذلك الحَملِ الخفيفِ تقومُ وتقعدُ مِن دُونِ أن يُثقِلَها الحَملُ، فلمَّا كبِرَ الجنينُ في بَطنِها وصار حَمْلُها ثقيلًا، دعا آدمُ وحوَّاءُ ربَّهما لَئِن آتيتَنا ولدًا سَوِيَّ الخِلقةِ لنكونَنَّ ممَّن يشكُرُ نِعمَك، فلما آتاهما ما طلبَا جعَل أولادُهما لله شُركاءَ، فتنزَّه جل وعلا عمَّا يُشركونَ.

أيعبُدُ المُشركونَ مع اللهِ ما لا يقدِرُ على خَلْقِ شَيءٍ، وهم مخلوقونَ مَصنوعونَ، ولا يستطيعونَ نصْرَ مَن يعبُدُهم، ولا أن ينصُروا أنفُسَهم ممَّن أراد بهم سُوءًا.

وإن تدْعُوا- أيُّها المُشركونَ- هذه الأصنامَ إلى طريقِ الحَقِّ، لا يستجيبوا لكم؛ لأنَّها جماداتٌ لا تعقِلُ، ولا تسمَعُ الدُّعاءَ، وسواءٌ عليكم أدعَوْتُموهم أم صَمَتُّم عن ذلك، فإنَّها لا تتَّبِعُكم ولا تسمَعُكم، فكيف تعبدونَ مَن هذه صِفتُه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا تقدَّمَ سؤالُ الكُفَّارِ عن السَّاعةِ ووَقتِها، وكان فيهم من لا يُؤمِنُ بالبعثِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٥).

ذكَرَ ابتداءَ خَلقِ الإنسانِ وإنشائِه؛ تنبيهًا على أنَّ الإعادةَ مُمكِنةٌ، كما أنَّ الإنشاءَ كان مُمكِنًا، وإذا كان إبرازُه مِن العَدَمِ الصِّرْفِ إلى الوجودِ واقعًا بالفِعلِ، فإعادَتُه أحرى أن تكونَ واقعةً بالفِعلِ[١].

وأيضًا لَمَّا أمرَ تعالى بالنَّظَرِ في الملكوتِ الدَّالِّ على الوحدانيَّة، وقسَّمَ خَلْقَه إلى مؤمنٍ وكافرٍ، ونفى قُدرةَ أحدٍ مِن خَلْقِه على نَفعِ نَفسِه أو ضَرِّها؛ رجع إلى تقريرِ التَّوحيدِ[٢]، فقال تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾.

أي: اللهُ هو الذي خَلَقكم- أيُّها النَّاسُ- من آدَمَ، عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [الأنعام: ٩٨].

﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾.

أي: وخلقَ اللهُ- عزَّ وجلَّ- حوَّاءَ مِن آدَمَ، عليهما السَّلامُ[٤].

---

(١) يُنظَر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٤٤).

(٢) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٢٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٤٤).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٠٤).

(٤) يُنظَر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦١٧)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٤).

والقولُ بأنَّ حواءَ مخلوقةٌ مِن آدمَ هو قولُ جمهورِ المفسِّرين، كما نسبه إليهم ابنُ الجوزيِّ، وهو قولُ مقاتلِ بنِ سليمانَ، وابنِ جريرٍ، وابنِ تيميةَ، وابنِ جزيٍّ، وابنِ القيِّم، وابنِ كثيرٍ، والشوكانيِّ. يُنظَر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦١٧)، ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٣/ ١٦٥)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣١٦)، ((مفتاح دار السعادة)) (١/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣١٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلف قتادةُ، والضحَّاك، ومقاتلُ بنُ حيَّان. ينظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٥/ ١٦٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦١٧).

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١].

وقال تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الزمر: ٦].

وعن أبي هُريرة رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((اسْتَوْصوا بالنِّساءِ، فإنَّ المرأةَ خُلقت من ضِلَعٍ، وإنَّ أعوجَ شيءٍ في الضلعِ أعلاه، فإن ذهبْتَ تُقيمه كسرْتَه، وإن تركتَه لم يزلْ أعوجَ، فاستوصوا بالنِّساءِ))(١).

﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾.

أي: خلَقَ اللهُ حوَّاءَ؛ لأجْلِ أن يأوِيَ إليها آدَمُ، ليقضِيَ وطَرَه ولَذَّتَه، ويأنَسَ بها، ويطمَئِنَّ إليها(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾.

أي: فلمَّا جامَعَها حَمَلت في رَحِمِها حملًا يخِفُّ عليها، وذلك في أوَّلِه(٣).

---

(١) رواه البخاري (٣٣٣١) واللفظ له، ومسلم (١٤٦٨).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦١٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤١٣-٤١٤).
قال القُرطبي: (﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ ليأنَسَ بها ويطمئِنَّ، وكان هذا كلُّه في الجنَّةِ، ثم ابتدأ بحالةٍ أخرى هي في الدُّنيا بعد هبوطِهما فقال: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ كنايةً عَن الوِقاعِ). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٣٧). ويُنظَر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٤٥).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤١٤).
قال الشنقيطي: (﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ أي: جامَعها ﴿حَمَلَتْ﴾ مِن ذلك الجماعِ ﴿حَمْلًا خَفِيفًا﴾ إنَّما وُصف الحملُ بأنَّه خفيفٌ؛ لأنَّ المرأةَ في أوَّل حبلِها، ما دام حبلُها نطفةً فعلقةً فمضغةً، يكونُ خفيفًا، كأنَّها ليس في بطنِها شيءٌ، تذهبُ وتجيءُ، ولا تجدُ ثقلًا له إلى حوالي خمسةِ =

﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾.

أي: فاستمَرَّتْ بذلك الحَملِ الخَفيفِ تقومُ وتقعُدُ، مِن غَيرِ أن يُثقِلَها الحَملُ[1].

﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾.

أي: فلما صار حَملُها ثقيلًا؛ لِكِبَرِ الجَنينِ في بطنِها، ودُنُوِّ وِلادَتِها[2].

﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

أي: نادى آدَمُ وحوَّاءُ إلهَهما وربَّهما قائِلَينِ: نُقسِمُ بك- يا ربَّنا- لئِنْ رَزَقْتَنا ولدًا سَوِيَّ الخِلقةِ صحيحًا لا عيبَ فيه[3] لنكونَنَّ ممَّن يشكُرُك على نِعَمِك[4].

= أشهرٍ، فبعدَ ستةِ أشهرٍ يعظمُ الجنينُ في بطنِها، وتثقلُ، وتكونُ الحركةُ ثقيلةً). ((العذب النمير)) (٤/ ٤١٤).

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦١٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤١٤).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤١٤).

(٣) ممَّن اختار هذا المعنى: ابنُ كثيرٍ، والسعديُّ، والشنقيطيُّ. يُنظَر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤١٤).

وممن رُوِي عنه نحوُ هذا القولِ مِن السَّلف: ابنُ عبَّاس، وأبو البَختري، وأبو صالحٍ، وسعيدُ بنُ جُبيرٍ، والسُّدِّي، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٥/ ١٦٣٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٢٠).

وذهب ابنُ جريرٍ إلى القَولِ بعُمومِ معنى الصَّلاحِ، فقال: (الصَّلاحُ قد يشمَلُ معانيَ كثيرةً؛ منها الصلاحُ في استواءِ الخَلقِ، ومنها الصَّلاحُ في الدِّينِ، والصَّلاحُ في العَقلِ والتَّدبير، وإذ كان ذلك كذلك، ولا خبَرَ عن الرَّسولِ يُوجِبُ الحجَّةَ بأنَّ ذلك على بعضِ معاني الصَّلاحِ دونَ بَعضٍ، ولا فيه من العَقلِ دليلٌ، وجبَ أن يعُمَّ كما عَمَّه اللهُ، فيقال إنَّهما قالا: لَئِن آتيتَنا صالحًا بجميعِ معاني الصَّلاحِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٢٢).

(٤) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦١٩، ٦٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤١٤).

﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ ﴾.

﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ﴾.

أي: فلمَّا رزَقَهما اللهُ ولدًا صالحًا كمَا سألاه، جعَلَ أهلُ الكُفرِ مِن بني آدَمَ[١] لله شُرَكاءَ فيما رزَقَهم[٢]، سبحانَه[٣].

---

(١) قال الشنقيطي: (جرتِ العادةُ في القرآنِ أن يُسندَ فعلَ الآباءِ إلى الأولادِ، وربما أسنَد فعلَ الأولادِ إلى الآباءِ، وأنَّ الفعلَ هنا أُسنِد لآدمَ وحواءَ (جعلا) بألفِ التثنيةِ الواقعةِ على آدمَ وحوَّاء، والمرادُ ذريتُهما التي أعطاها الله التناسلَ، يخرجُ هذا بشرًا سويًّا، ويخرجُ بسلامٍ، ومع ذلك يكفرونَ بالله- جلَّ وعلا- ويعبدونَ غيرَه، والدليلُ على أنَّه أطلَق آدمَ وحواءَ وأراد ذريتَهما مِن القرآنِ، أنَّه قال بعده: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، ثم قال: ﴿أَيُشْرِكُونَ﴾ بصيغة الجمع ﴿مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ ثمَّ ذكَر علاماتِ الأصنامِ التي يُشرك بها أولادُهم كما هو واضحٌ. وهذا القولُ أرجحُ، واختارَه غيرُ واحدٍ مِن المحقِّقين؛ لدلالةِ القرآنِ عليه). ((العذب النمير)) (٤/ ٤١٩).

وقال الرازي: (التَّقديرُ: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا﴾ ولدًا صالحًا سويًّا ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ﴾ أي: جعَلَ أولادُهما له شركاءَ، على حذفِ المُضافِ وإقامةِ المُضافِ إليه مقامَه، وكذا ﴿فِيمَا آتَاهُمَا﴾ أي: فيما آتى أولادَهما، ونظيرُه قوله: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] أي: واسأل أهلَ القَريةِ. فإن قيل: فعلى هذا التَّأويلِ ما الفائدةُ في التثنيةِ في قوله: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ﴾؟! قلنا: لأنَّ ولَده قسمانِ: ذكرٌ وأنثى، فقولُه: ﴿جَعَلَا﴾ المرادُ منه الذَّكرُ والأنثى، مرةً عبَّر عنهما بلفظِ التَّثنيةِ؛ لكونِهما صِنفَينِ ونوعين، ومرةً عبَّر عنهما بلفظِ الجَمعِ، وهو قولُه تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾). ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٢٨، ٤٢٦).

(٢) قال السعدي: (﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ أي: جعلا لله شركاءَ في ذلك الولدِ الذي انفَرد الله بإيجاده، والنعمةِ به، وأقرَّ به أعينَ والديه، فعَبَّداه لغيرِ الله، إمَّا أن يُسمِّياه بعبدِ غيرِ الله ... أو يُشركا بالله في العبادةِ، بعدما منَّ الله عليهما بما منَّ مِن النِّعمِ التي لا يُحصيها أحدٌ مِن العبادِ، وهذا انتقالٌ مِن النَّوعِ إلى الجنسِ، فإنَّ أولَ الكلامِ في آدمَ وحواءَ، ثم انتقَل إلى الكلامِ في الجنسِ، ولا شكَّ أنَّ هذا موجودٌ في الذريةِ كثيرًا، فلذلك قرَّرهم الله على بطلانِ الشركِ، وأنَّهم في ذلك ظالمون أشدَّ الظُّلمِ، سواء كان الشركُ في الأقوالِ، أم في الأفعالِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٢).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) =

= (٣/ ٥٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤١٧- ٤٢٠).
اختار المعنى المذكور الزَّمخشري، والرَّازي، والقُرطبي، وابن جُزَي، وابنُ القيم، وابنُ كثير، والقاسمي، ومحمد رشيد رضا، والسَّعدي، والشُّنقيطي. يُنظَر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٨٧)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٢٧، ٤٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣١٦)، ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٧، ٥٢٨)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٢٣٥، ٢٣٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤١٧- ٤٢٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٦).
وممَّن رُوي عنه نحوُ هذا القولِ مِن السَّلف الحسنُ. ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٢٩).
وقيل: المرادُ بهما آدَمُ وحوَّاءُ- عليهما السَّلامُ؛ كان لا يعيشُ لهما ولدٌ، فأتاهما الشَّيطانُ فقال: إنْ سَرَّكُما أن يعيشَ لكما ولدٌ فسَمِّيَاه عبدَ الحارثِ، فأشْرَكَا في التَّسميةِ، ولم يُشرِكا في العبادةِ، واختاره ابنُ جريرٍ، والواحديُّ، والسمعانيُّ، ونسبه ابنُ الجوزي إلى الجمهور. يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٢٤-٦٣٠)، ((الوجيز)) (ص: ٤٢٦)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٢٤٠)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٧٨).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: سمرةُ بنُ جندبٍ، وابنُ عبَّاس، وأُبيُّ بنُ كعبٍ، وقتادةُ، ومجاهدٌ، وسعيدُ بنُ جبيرٍ. ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٢٣)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٣/ ٦٢٣).

قال ابن كثير: (وقد تلقَّى هذا الأثرَ عن ابنِ عبَّاسٍ جماعةٌ من أصحابِه؛ كمجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، ومن الطبقة الثانية: قتادة، والسُّدِّي، وغيرُ واحد مِن السَّلَفِ، وجماعةٌ من الخَلَف، ومِن المفسِّرين من المتأخرينِ جماعاتٌ لا يُحصَوْنَ كثرةً، وكأنَّه- والله أعلم- أصلُه مأخوذٌ مِن أهلِ الكتابِ؛ فإنَّ ابنَ عبَّاسٍ رواه عن أُبيِّ بنِ كعبٍ، كما رواه ابنُ أبي حاتم.. وهذه الآثارُ يظهَرُ عليها- واللهُ أعلم- أنَّها من آثارِ أهلِ الكِتابِ، وقد صحَّ الحديثُ عن رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: ((إذا حدَّثكم أهلُ الكتابِ، فلا تُصَدِّقوهم ولا تُكَذِّبوهم)). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٨).
وقال الرَّازي: (واعلَمْ أنَّ هذا التَّأويلَ فاسِدٌ، ويدلُّ عليه وجوهٌ: الأوَّل: أنَّه تعالى قال: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وذلك يدلُّ على أنَّ الذين أتَوْا بهذا الشِّرْكِ جماعةٌ. الثاني: أنَّه تعالى قال بعده: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١]، وهذا يدلُّ على أنَّ المَقصودَ مِن هذه الآيةِ الرَّدُّ على مَن جعَلَ الأصنامَ شُرَكاءَ لله تعالى، وما جرى لإبليسَ اللَّعينِ في هذه الآيةِ ذِكرٌ. الثالث: لو كان المرادُ إبليسَ لقال: أيُشرِكونَ مَن لا يخلُقُ شيئًا، ولم يقُلْ: ﴿مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾؛ لأنَّ العاقِلَ إنما يُذكَرُ بِصيغةِ «مَن» لا بصيغةِ «ما»... فثبت بهذه =

﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

أي: فتنزَّه اللهُ وتعاظَمَ عن شِركِ الذين يُشرِكونَ باللهِ، بأقوالِهم أو أفعالِهم[1]!!

كما قال تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

وقال سبحانه: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٣].

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾.

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا﴾.

أي: أيعبُدُ المُشركونَ مع اللهِ ما لا يقدِرُ على خلْقِ شَيءٍ[2]؟!

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج: ٧٣].

﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾.

أي: وهؤلاءِ الذينَ يعبدونَهم مع اللهِ- مِن الأصنامِ وغَيرِها- مخلوقونَ مَصنوعونَ[3].

كما قال الله تعالى حاكيًا قولَ إبراهيمَ الخليلِ- عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥-٩٦].

= الوجوهِ أنَّ هذا القَولَ فاسِدٌ، ويجب على العاقِلِ المُسلِمِ ألَّا يلتَفِتَ إليه). ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٢٧). ويُنظَر: ((تفسير ابن جُزي)) (١/ ٣١٦).

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٣١)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٢).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٤١)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣١٣).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٣٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣١٣).

﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ ﴾.

﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا ﴾.

أي: ولا يستطيعُ هؤلاءِ الذين يعبدونَهم مع اللهِ، أن ينصرُوا عابِدِيهم(١).

كما قال تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ﴾ [الشعراء: ٩٢-٩٣].

﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾.

أي: ولا هؤلاءِ المعبودونَ مع اللهِ، يستطيعونَ أن ينصُروا أنفُسَهم ممَّن أرادَهم بسُوءٍ، فكيف يكونونَ آلهةً، وهم لا يملِكونَ لأنفُسِهم جلبَ نفْعٍ، ولا دفْعَ ضُرٍّ؟! ومَن عجَز عن نَصرِ نَفسِه فهو عن نَصرِ غَيرِه أعجَزُ(٢).

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أثبتَ اللهُ تعالى بالآيةِ المتقدِّمةِ أنَّه لا قُدرةَ لهذه الأصنامِ على أمْرٍ مِن الأمورِ؛ بيَّنَ بهذه الآيةِ أنَّه لا عِلمَ لها بشيءٍ مِن الأشياءِ(٣)، فقال:

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ﴾.

أي: وإن تَدْعُوا- أيُّها المُشركون- هذه الأصنامَ إلى طَريقِ الحقِّ، لا يستجيبوا

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٣٣)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٢١).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٣٣)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣١٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٢١).

(٣) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٣١).

لكم؛ لأنَّها جماداتٌ لا تعقِلُ، ولا تسمَعُ دعاءَ مَن دعاها[١].

كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا﴾ [الأعراف: ١٩٨].

﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾.

أي: سواءٌ عليكم- أيُّها المُشركونَ- أدعوتُم هذه الأصنامَ، أم أنتم ساكتونَ عن دُعائِها؛ فإنَّها لا تتَّبِعُكم ولا تسمَعُكم، فكيف تعبدونَ مَن هذه صِفتُه وحالُه[٢]؟!

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

١- قولُه تعالى: ﴿تَغَشَّاهَا﴾ أي: أتاها، كغَشِيَها، ويزيدُ ما تُعطيه صيغةُ التَّفعُّل مِن جُهدٍ، وهو كنايةٌ نزيهةٌ عن أداءِ وظيفةِ الزَّوجيَّة، تشيرُ إلى أنَّ مُقتضى الفِطرةِ وأدبَ الشَّريعةِ فيها، السَّترُ[٣].

٢- إيتاءُ الصَّالِحِ مِن الوَلَدِ نِعمةٌ مِن اللهِ على والِدَيه، فينبغي الشُّكرُ عليها؛ إذ هي مِن أجَلِّ النِّعَم؛ يُبيِّنُ ذلك قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ فأقسَمَا على أنَّهما يكونانِ مِن الشَّاكرينَ إنْ آتاهما صالحًا[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- عِلَّةُ سُكونِ الرَّجُلِ إلى امرأتِه كَونُها مِن جِنسِه وجوهَرِه؛ قال اللهُ تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ فالجِنسُ

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٢٢).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٢٢).

(٣) يُنظَر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٤٣٢).

(٤) يُنظَر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٤٦).

إلى الجنسِ أميَلُ، وبه آنَسُ[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ احتُجَّ به على أنَّ العَبدَ غَيرُ مُوجِدٍ ولا خالقٍ لأفعالِه، خلافًا للمعتزلةِ القائلينَ بخلقِ الإنسانِ أفعالَ نفسِه؛ وذلك لأنَّ الله تعالى طعنَ في إلهيَّةِ الأجسامِ؛ بسببِ أنَّها لا تخلقُ شَيئًا، وهذا يقتضي أنَّ كلَّ مَن كان خالقًا كان إلهًا، فلو كان العبدُ خالقًا لأفعالِ نَفسِه، كان إلهًا، ولَمَّا كان ذلك باطلًا، عَلِمْنا أنَّ العبدَ غَيرُ خالقٍ لأفعالِ نَفسِه[٢].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أشار إلى الأصنامِ في ﴿يُخْلَقُونَ﴾ بضميرِ العُقَلاءِ مِن قَبيلِ الحكايةِ؛ لاعتقادِ المُشركينَ فيها ما يعتَقِدونَه في العُقَلاءِ، أو لأنَّهم مُختَلِطونَ بمَن عُبِدَ مِن العقلاءِ؛ كالمَسيحِ وعُزيرٍ[٣].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ لَمَّا كان المصنوعُ لا يكونُ صانعًا، اكتفى بالبناءِ للمَفعولِ، فقال: ﴿يُخْلَقُونَ﴾[٤]، والتعبيرُ بالفِعلِ المُضارعِ ﴿يُخْلَقُونَ﴾؛ لِتصويرِ حُدوثِ خَلْقِهم، وكونِ مِثلِه ممَّا يتجَدَّدُ فيهم وفي أمثالِهم مِن المُشركين، وهذا أسوأُ فضائِحِهم في الشِّركِ[٥].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ لعلَّه عبَّر بصيغةِ العاقِلِ عن الأصنامِ؛ إشارةً إلى أنَّهم لو كانوا يَعقِلونَ، وكانوا بهذه الصِّفاتِ

---

(١) يُنظَر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٤٥)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ٢٤٧).

(٢) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٣١)، ((التوضيح عن توحيد الخلاق)) لسليمان آل الشيخ (ص: ٦٨).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن عادل)) (٩/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢١٦).

(٤) يُنظَر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٩٢).

(٥) يُنظَر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٤٣٨).

الخَسيسةِ؛ ما أهَّلُوهم لِأنْ يكونوا أحبابَهم، فضلًا عن أن يجعَلوهم أربابَهم(١).

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ الظَّاهِرُ أنَّ تَخصيصَ النَّصرِ مِن بين الأعمالِ التي يتخيَّلونَ أن تقومَ بها الأصنامُ؛ مقصودٌ منه تنبيهُ المُشركينَ على انتفاءِ مَقدرةِ الأصنامِ على نَفعِهم؛ إذ كان النَّصرُ أشَدَّ مرغوبٍ لهم، لأنَّ العَرَبَ كانوا أهلَ غاراتٍ وقتالٍ وَتِراتٍ، فالانتصارُ مِن أهَمِّ الأمورِ لَدَيهم، وأنَّ اللهَ أعلَمَ المسلمينَ بذلك؛ تعريضًا بالبشارةِ بأنَّ المُشركينَ سيُغلبونَ(٢).

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ جُعِلَ الأمرانِ سواءً على المُخاطَبينَ، ولم يُجعَلا سواءً على المدْعُوِّينَ: فلم يقُل (سواءٌ عليهم)، وإن كان ذلك أيضًا سواءً عليهم؛ لأنَّ المقصودَ مِن الكلامِ هو تأييسُ المُخاطبينَ مِن استجابةِ المَدعُوِّينَ إلى ما يَدعُونَهم إليه، لا الإخبارُ، وإن كان المعْنَيانِ مُتَلازِمَينِ(٣).

بلاغة الآيات:

١- قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾

- قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ...﴾ جملةٌ مُستأنفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا، عاد بها الكلامُ إلى تقريرِ دليلِ التَّوحيدِ، وإبطالِ الشِّركِ(٤).

---

(١) يُنظَر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٩٢).
(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢١٧).
(٣) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢١٩).
(٤) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢١٠).

- وإيقاعُ الموصولِ خبَرًا في قَولِه: ﴿هُوَ الَّذِي﴾ لِتَفخيمِ شأنِ المبتدأِ، أي: هو ذلك العظيمُ الشَّأنِ الذي خلقَكم جميعًا وحدَه مِن غَيرِ أن يكونَ لِغيرِه مدخلٌ في ذلك بوجهٍ مِن الوجوهِ(١).

- قولُه: ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ تعليلٌ لِما أفادَتْه (مِن) التبعيضيَّة، أي: جعَلَ مِن نوعِ الرَّجُلِ زَوجَه ليألَفَها، ولا يجفُوَ قُربَها، ففي ذلك منَّةُ الإيناسِ بها، وكثرةُ ممارَستِها؛ لينساقَ إلى غِشْيانِها(٢).

- قوله: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ التغشِّي: كنايةٌ عن الجِماعِ، وصِيغَت هذه الكنايةُ بالفِعلِ (تغشَّى) الدَّالِّ على التكَلُّفِ- لأنَّه بزِنةِ تفعَّلَ- لإفادةِ قُوَّةِ التمَكُّنِ مِن ذلك؛ لأنَّ التكَلُّفَ يقتضي الرَّغبةَ(٣).

- وقد سلَكَ في وصفِ تَكوينِ النَّسلِ مَسلَكَ الإطنابِ؛ لِما فيه من التَّذكيرِ بتلك الأطوارِ الدَّالةِ على دقيقِ حِكمةِ اللهِ وقُدرتِه، وبِلُطفِه بالإنسانِ(٤).

- وإجراءُ صِفةِ ﴿رَبَّهُمَا﴾ المؤذِنةِ بالرِّفقِ والإيجادِ، في قَولِه: ﴿دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا﴾؛ للإشارةِ إلى استحضارِ الأبوَينِ هذا الوَصفَ عند دُعائِهما اللهَ، أي: يذكُرُ أنَّه باللَّفظِ أو ما يُفيدُ مَفادَه(٥)

٢- قوله: ﴿**جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا**﴾ مرادٌ منه مع الإخبارِ التَّعجيبُ مِن سَفَهِ آرائِهم؛ إذ لا يَجعَلُ رشيدُ الرَّأيِ شريكًا لأحدٍ في مُلكِه وصُنعِه بدونِ حَقٍّ؛ فلذلك عُرِّفَ المشروكُ فيه بالموصوليَّةِ، فقيل ﴿فِيمَا آتَاهُمَا﴾ دونَ الإضمارِ،

(١) يُنظَر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٣).
(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢١١).
(٣) يُنظَر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢١٢).
(٤) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢١٢).
(٥) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢١٣).

بأن يقال: (جعَلا له شُركاءَ فيه)؛ لِما تؤذِنُ به الصِّلةُ مِن فَسادِ ذلك الجَعلِ، وظُلْمِ جاعِلِه، وعدمِ استحقاقِ المَجعولِ شَريكًا لِما جُعِلَ له، وكُفرانِ نِعمةِ ذلك الجاعِلِ؛ إذ شكَرَ لِمَن لم يُعطِه، وكفَرَ مَن أعطاه، وإخلافِ الوَعدِ المؤكَّدِ. وجعْلُ الموصولِ (ما) دون (مَن) باعتبارِ أنَّه عطيَّةٌ، أو لأنَّ حالةَ الطُّفولةِ أشبَهُ بغَيرِ العاقِلِ(١).

٣- قوله: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لتوبيخِ المُشركينَ، واستقباحِ إشراكِهم على الإطلاقِ، وإبطالِه بالكُلِّيَّةِ، والاستفهامُ مُستعمَلٌ في التَّعجيبِ والإنكارِ، وصيغةُ المُضارِعِ في (يُشْرِكُونَ) دالَّةٌ على تجدُّدِ هذا الإشراكِ منهم. ونفيُ المضارعِ في قَولِه: ﴿مَا لَا يَخْلُقُ﴾ للدَّلالةِ على تجدُّدِ نفيِ الخالقيَّةِ عنهم(٢).

- و (ما) في قَولِه تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ لِما لا يَعقِلُ، ولَفظُها مفردٌ، وهو مِن صِيَغِ العُمومِ، فأُفرِدَ الضَّميرُ في ﴿يَخْلُقُ﴾ مراعاةً لِلَّفظِ، ثمَّ جُمِعَ في ﴿يُخْلَقُونَ﴾ مُراعاةً للمَعنى(٣).

٤- وتقديمُ المَفعولِ في ﴿وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ للاهتمامِ بنَفيِ هذا النَّصرِ عنهم؛ لأنَّه أدَلُّ على عجزِ تلك الآلهةِ؛ لأنَّ مَن يُقصِّرُ في نَصرِ غَيرِه لا يُقصِّرُ في نَصرِ نَفسِه لو قَدَر(٤).

٥- قولُه: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢١٣-٢١٤).
(٢) يُنظَر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢١٥).
(٣) يُنظَر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٤٣٨).
(٤) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢١٧).

- الخطابُ للمُشركينَ، بطريقِ الالتفاتِ المُنبِئِ عَن مَزيدِ الاعتناءِ بأمْرِ التَّوبيخِ والتَّبكيتِ(١).

- قوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ استئنافٌ مقرِّرٌ لمضمونِ ما قَبلَه، ومُبَيِّنٌ لكيفيَّةِ عدمِ الاتِّباعِ؛ فهو مؤكِّدُ لجُملةِ ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ فلذلك فُصِلَ(٢).

- وعَطْفُ الجُملةِ الاسميَّةِ ﴿أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ على الفِعليَّةِ ﴿أَدَعَوْتُمُوهُمْ﴾ لفائدةٍ وحِكمةٍ، وهي أنَّ صيغةَ الفِعلِ مُشعِرةٌ بالتجَدُّدِ والحُدوثِ حالًا بعد حالٍ، وصيغةُ الاسمِ مُشعِرةٌ بالدَّوامِ والثَّباتِ والاستمرارِ، فهؤلاءِ المُشركونَ كانوا إذا وقَعوا في مُهِمٍّ وفي معضلةٍ تضرَّعوا إلى تلك الأصنامِ، وإذا لم تَحدُثْ تلك الواقعةُ بَقُوا ساكِتينَ صامِتينَ، فقِيل لهم: لا فرقَ بينَ إحداثِكم دعاءَهم، وبينَ أن تستمرُّوا على صَمتِكم وسُكوتِكم(٣).

(١) يُنظَر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٥).
(٢) يُنظَر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢١٨).
(٣) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٣١).

الآيات (١٩٤-١٩٨)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٩٤ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ١٩٥ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ١٩٧ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ١٩٨ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿يَبْطِشُونَ﴾: البَطْشُ: تناوُلُ الشَّيءِ بِصَولةٍ، وأصلُه: أخذُ الشَّيءِ بقَهرٍ وغَلَبةٍ وقوَّةٍ(١).

﴿تُنْظِرُونِ﴾: أي: تُؤَخِّرونِ، والنَّظَرُ: الانْتِظَارُ. يقال: نَظَرتُه وانتظَرتُه وأنْظَرتُه، أي: أخَّرْتُه(٢).

المَعنى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ اللهُ المُشركين قائلًا لهم: إنَّ الذينَ تعبُدونَهم مِن دونِ اللهِ هم عِبادٌ أمثالُكم، فادعُوهم، وليُجِيبوا دُعاءَكم، إن كُنتُم صادقينَ في أنَّها تستحِقُّ العبادةَ.

ألِهَؤلاءِ الأصنامِ أرجُلٌ يمشونَ بها، أم لهم أيدٍ يأخُذونَ ما أرادُوا بها بشِدَّةٍ وينصُرونكم بها، أم لهم أعيُنٌ يُبصِرونَ بها، قلْ لهم يا مُحمَّدُ: ادعُوا شُركاءَكم ثم اجتَمِعوا أنتم وهم على إيقاعِ السُّوءِ والمكروهِ بي عاجلًا، ولا تُمهِلوني،

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣١).

وقلْ لهم: إنَّ الذي يتولَّاني فينصُرُني ويحفَظُني، هو الله الذي نزَّلَ القُرآنَ، وهو سبحانه يتولَّى الصَّالحينَ. وقلْ لهم أيضًا: إنَّ الذين تعبُدونَهم مِن دونِ اللهِ مِن الأصنامِ لا يَقدِرونَ على نَصرِكم، ولا يَستطيعونَ نَصرَ أنفُسِهم ممَّن أرادَهم بسُوءٍ، وإن تدعُوا- أيُّها المُشركونَ- هؤلاءِ الأصنامَ إلى الحَقِّ، لا يسمَعُوا، وترى- يا مُحمَّدُ- هذه الأصنامَ المنحوتةَ تُقابِلُك بعيونٍ مُصَوَّرةٍ، كأنَّها تنظُرُ إليك، بينما هي لا تُبصِرُ في الحقيقةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٩٤ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ هذه الجُملةَ ورَدَت على سبيلِ التَّوكيدِ لِما قَبلَها في انتفاءِ كَونِ هذه الأصنامِ قادرةً على شيءٍ مِن نَفعٍ أو ضَرٍّ[1].

وأيضًا ورَدَت بيانًا وتعليلًا لِجُملةِ ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٣]، أي: لأنَّهم عبادٌ، أي: مخلوقونَ[2].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ ﴾.

يقولُ اللهُ تعالى مُوبِّخًا المُشركينَ على عِبادتِهم ما لا يضُرُّهم ولا ينفَعُهم مِن الأصنامِ: إنَّ الذينَ تعبدونَ ممَّا سِوى اللهِ وتَدعونَهم، هم مملوكونَ للهِ، كما أنَّكم مماليكُ للهِ سُبحانَه، لا فَرْقَ بينكم وبينَهم[3].

(١) يُنظَر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٤٩).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٢٠-٢٢١).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٣٥)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٥٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٢).

﴿فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

أي: فادعُوا أصنامَكم، ولْتُجِبْ دُعاءَكم إن كُنتُم صادقينَ في أنَّها تضرُّ وتنفَعُ، وأنَّها تستحِقُّ العبادةَ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ * إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣-١٤].

وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ [الأحقاف: ٥].

﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ (١٩٥)﴾.

﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا﴾.

أي: ألهؤلاءِ الأصنامِ أرجُلٌ يَمشونَ بها، كما لكم- أيُّها المُشركون- أرجُلٌ تَمشونَ بها(٢)؟!

﴿أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا﴾.

أي: أمْ لهؤلاءِ الأصنامِ أيدٍ يأخُذونَ بها ما يريدونَ أخْذَه وتناوُلَه بشِدَّةٍ، وينصرونكم بها، كما لكم أيُّها المُشرِكونَ(٣)؟!

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٢٥).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٣٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٢٦).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٣٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣١٦).

﴿أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ﴾.

أي: أمْ لهؤلاءِ الأصنامِ أعيُنٌ يُعايِنونَ بها الأشياءَ، كما لكم[(١)]؟!

﴿أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾.

أي: أمْ لِهَؤلاءِ الأصنامِ آذانٌ يَسمعونَ بها، كما لكم؟! فكيف تَعبدونَها، وأنتم أفضَلُ وأقدَرُ منها[(٢)]؟!

﴿قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾.

أي: قُلْ- يا مُحمَّدُ- متحدِّيًا هؤلاءِ المُشركينَ: استنصِرُوا عليَّ بأصنامِكم التي تزعُمونَ أنَّها آلهةٌ مع اللهِ، ثم عجِّلوا أنتم وهِي بالكَيدِ لي، والمَكرِ بي، فلا تُمهِلوني[(٣)].

﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى في الآياتِ المُتقدِّمة أنَّ هذه الأصنامَ لا قدرةَ لها على النَّفعِ والضَّرِّ؛ بيَّنَ بهذه الآيةِ أنَّ الواجِبَ على كلِّ عاقلٍ عبادةُ اللهِ تعالى؛ لأنَّه هو الذي

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٣٦)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٨٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣١٦).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٣٦)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣١٦/٢).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٣٦)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٥٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (٣٤٣/٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٢٣).

قال ابن جرير: (يُعلِمُه جلَّ ثَناؤُه بذلك أنَّهم لم يضُرُّوه، وأنَّه قد عَصَمه منهم، ويُعرِّفُ الكَفَرةَ به عجْزَ أوثانِهم عن نُصرةِ مَن بَغى أولياءَهم بِسُوءٍ). ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٣٦).

يتولَّى تحصيلَ منافِعِ الدِّينِ والدُّنيا(١).

وأيضًا لَمَّا أحالَهم صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على الاستنجادِ بآلِهَتِهم في ضَرِّه، في قولِه تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ﴾ وأراهم أنَّ اللهَ هو القادِرُ على كلِّ شَيءٍ- عقَّبَ ذلك بالاستنادِ إلى اللهِ تعالى والتوكُّلِ عليه، والإعلامِ أنَّه تعالى هو ناصِرُه عليهم(٢)، فقال:

﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾.

أي: قُلْ- يا مُحمَّدُ- للمُشركينَ: إنَّ نَصيري الذي ينصُرُني عليكم ويحفَظُني، ويعصِمُني منكم؛ هو اللهُ الذي نزَّل عليَّ القُرآنَ(٣).

كما قال سبحانه: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [الزمر: ٣٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [آل عمران: ٢، ٣].

وعن جابرِ بنِ عَبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((غَزَوْنا مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم غزوةَ نَجدٍ، فلما أدرَكَتْه القائلةُ، وهو في وادٍ كَثيرِ العِضاهِ(٤)، فنزل تحتَ شَجَرةٍ واستظَلَّ بها وعلَّق سيفَه، فتفَرَّقَ النَّاسُ في الشَّجرِ يستظِلُّونَ،

---

(١) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٣٣).
(٢) يُنظَر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٥٣).
(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٢٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٣٠).
(٤) العِضَاه: كُلُّ شَجرٍ عَظيمٍ له شَوكٌ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٦/ ٣٣٧).

وبينا نحن كذلك إذ دعانا رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فجِئْنا، فإذا أعرابيٌّ قاعِدٌ بين يدَيه، فقال: إنَّ هذا أتاني وأنا نائِمٌ، فاختَرَط سيفي[(١)]، فاستيقظتُ وهو قائِمٌ على رأسي، مُختَرِطٌ صَلتًا[(٢)]، قال: من يمنَعُك مني؟ قلتُ: اللهُ، فشامَه[(٣)] ثم قعَدَ، فهو هذا. قال: ولم يعاقِبْه رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم))[(٤)].

﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾.

أي: وهو سُبحانَه ينصُرُ ويحفَظُ الذين صلَحَت نيَّاتُهم وأعمالُهم وأقوالُهم، فآمَنُوا باللهِ تعالى، وامتَثَلوا ما أمَرَ به، واجتَنَبوا ما نهى عنه[(٥)].

كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج: ٣٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ قال: مَن عادَى لي وليًّا فقد آذنْتُه بالحَربِ، وما تقرَّبَ إليَّ عَبدِي بشيءٍ أَحَبَّ إليَّ ممَّا افترضْتُ عليه، وما يزالُ عبدي يتقَرَّبُ إليَّ بالنَّوافِلِ حتى أحِبَّه، فإذا أحبَبْتُه كنتُ سَمعَه الذي يسمَعُ به، وبصَرَه الذي يُبصِرُ به، ويَدَه التي يبطِشُ

(١) فاختَرَط سيفي: أي: سَلَّه. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٦/ ٣٣٧).

(٢) صَلْتًا: أي: مُجَرَّدًا من غِمْدِه. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٦/ ٣٣٧).

(٣) فشَامَه: أي: غَمَدَه. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٦/ ٣٣٧).

(٤) رواه البخاري (٤١٣٩) واللفظ له، ومسلم (٨٤٣).

(٥) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٢٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٣٢).

بها، ورِجلَه التي يمشي بها، وإن سألَني لأُعطِيَنَّه، ولئن استعاذَني لأُعيذَنَّه))(١).

وعن ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كنتُ خَلفَ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومًا، فقال: يا غُلامُ، إنِّي أعَلِّمُك كلماتٍ، احفَظِ اللهَ يَحفَظْك، احفَظِ اللهَ تَجِدْه تُجاهَك))(٢).

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٧)﴾.

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ﴾.

أي: وقُل- يا مُحمَّدُ- للمُشركينَ: والذينَ تعبدونَهم وتَدعُونَهم مِن دونِ اللهِ تعالى لا يَقدِرونَ على نَصرِكم على عَدُوِّكم، ولا أن يدفَعُوا عنكم ظُلمًا أو عذابًا حلَّ بكم(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ * لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٧٤-٧٥].

وقال سبحانه: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ * وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود: ١٠٠-١٠١].

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد (٢٦٦٩)، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٥٤١٧).
صححه الترمذي، والألباني في ((صحيح الترمذي)) (٢٥١٦)، وابن باز في ((مجموع فتاوى ابن باز)) (١/ ١٦٠)، وقال الوادعي في ((الصحيح المسند)) (٦٩٩): صحيح لغيره، وحسنه ابن رجب في ((جامع العلوم والحكم)) (١/ ٤٥٩)، وابن حجر في ((موافقة الخبر الخبر)) (١/ ٣٢٧). وصحح إسناده أحمد شاكر في ((مسند أحمد)) (٤/ ٢٣٣).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٣٢).

﴿وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾.

أي: ولا تلك الأصنامُ- مع عَجْزِهم عن نُصرَتِكم- يقدرونَ على نُصرةِ أنفُسِهم ممَّن أرادَهم بسُوءٍ[1].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ * لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨-٩٩].

وقال سبحانه: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٢-٢٣].

وقال عزَّ وجلَّ ذاكرًا فعلَ إبراهيمَ عليه السَّلام حينَ كسَر أصنامَ قومِه: ﴿فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ * فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٩١-٩٣].

وقال تعالى حاكيًا قولَ إبراهيمَ عليه الصلاةُ والسَّلامُ: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٧-٥٨].

﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ١٩٨﴾.

﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْ﴾.

أي: وقُلْ- يا مُحمَّدُ- للمُشركينَ: وإنْ تَدْعُوا أصنامَكم إلى الحَقِّ، لا يَسمَعوا دُعاءَكم؛ لأنَّها جماداتٌ لا تَسمَعُ[2].

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٣٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٣٥)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٥٩)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٣١)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٢٤١).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٣٧)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٥٣٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٥٥)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٢٤١).

﴿وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ﴾.

أي: وترى- يا مُحمَّدُ- آلهةَ المُشركينَ المنحوتةَ، تُقابِلُك بعيونٍ مُصَوَّرةٍ، كأنَّها تنظُرُ إليك، وهي لا تُبصِرُ شيئًا في الحقيقةِ؛ لأنَّها جماداتٌ لا تُبصِرُ(١).

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ المؤمنونَ الصَّالِحونَ لَمَّا توَلَّوا ربَّهم بالإيمانِ والتَّقوى، ولم يتوَلَّوا غيرَه مِمَّن لا ينفَعُ ولا يضُرُّ؛ تولَّاهم اللهُ ولَطفَ بهم، وأعانَهم على ما فيه الخَيرُ والمصلحةُ لهم، في دِينِهم ودُنياهم، ودفَعَ عنهم بإيمانِهم كُلَّ مَكروهٍ(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ أطلَقَ الدُّعاءَ على العبادةِ؛ إشارةً إلى أنَّه لا تصِحُّ عبادةُ مَن ليس فيه قابليَّةٌ أن يُدعى(٣).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ فيه أنَّه قد يُطلَقُ لَفظُ (العَبد) على المخلوقاتِ كُلِّها؛ الذي يعقِلُ والذي لا يَعقِلُ(٤).

٣- قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ إنَّما أطلَقَ على الأصنامِ اسمَ العِبادِ، وعبَّرَ عنها بضمائِرِ العُقَلاءِ؛ لأنَّ الكُفَّارَ يَصِفونَها بصفاتِ مَن هو خيرٌ مِن مُطلَقِ العُقَلاءِ: أنَّها مَعبوداتٌ، وأنَّها تشفَعُ وتُقرِّبُ إلى الله زُلفَى، فبهذا الاعتبارِ أجرى عليها ضمائِرَ العُقَلاءِ، وعبَّرَ عنها بالعبادِ، ووجهُ

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٣٧، ٦٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٢٥).

(٢) يُنظَر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣١٢).

(٣) يُنظَر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٩٤-١٩٥).

(٤) يُنظَر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٤٤).

مُماثَلتِهم هنا: أنَّ الكُفَّارَ العابِدينَ، والأصنامَ المعبوداتِ؛ كلُّهم مَخلوقاتٌ لله، لا تَقدِرُ أن تجلِبَ لِنَفسِها نفعًا، ولا أن تدفَعَ عنها ضرًّا، فهم مِن قَبيلِ تسخيرِ اللهِ لهم، وخَلْقِه للجَميعِ، وقُدرتِه على الجَميعِ، بهذا الاعتبارِ هم سواءٌ؛ ولذا قال: ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾[1].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا﴾ لَمَّا كان دعاءُ الجماعةِ أقرَبَ إلى السَّماعِ مِن دُعاءِ الواحِدِ، نسَقَ على ما قَبلَه قَولَه: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ﴾[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ...﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ، انتقل به إلى مُخاطبةِ المُشرِكينَ؛ ولذلك صُدِّرَ بحَرفِ التَّوكيدِ؛ لأنَّ المُشرِكينَ يُنكِرونَ مساواةَ الأصنامِ إيَّاهم في العبوديَّةِ[3].

- قَولُه تعالى: ﴿فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ تحقيقٌ لِمَضمونِ ما قَبلَه بتَعجيزِهم وتَبكيتِهم، أي: فادعُوهم في جَلبِ نَفعٍ أو كَشْفِ ضُرٍّ[4]

٢- قوله: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ﴾

- قوله تعالى: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ

---

(١) يُنظَر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٢٥).

(٢) يُنظَر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ١٩٩).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٢٠-٢٢١).

(٤) يُنظَر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٢٢).

يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ تبكيتٌ إِثْرَ تبكيتٍ، مؤكِّدٌ لِما يفيدُه الأمرُ التَّعجيزي مِن عَدمِ الاستجابةِ، ببيانِ فُقدانِ آلاتِها بالكليَّةِ[١].

- والاستفهامُ في ﴿أَلَهُمْ﴾ وما بَعدَه؛ إنكاريٌّ، وتقديمُ المُسنَدِ على المُسنَد إليه؛ للاهتمامِ بانتفاءِ المِلْك الذي دَلَّت عليه اللَّامُ[٢].

- وقد وُجِّهَ الإنكارُ إلى كُلِّ واحدةٍ من هذه الآلاتِ الأربعِ على حِدَةٍ؛ تكريرًا للتَّبكيتِ، وتثنيةً للتَّقريعِ، إشعارًا بأنَّ انتفاءَ كلِّ واحدةٍ منها بِحِيالِها كافٍ في الدَّلالةِ على استحالةِ الاستجابةِ[٣].

- ووصفُ الأرجُلِ بـ ﴿يَمْشُونَ﴾، والأيدي بـ﴿يَبْطِشُونَ﴾، والأعيُنِ بـ ﴿يُبْصِرُونَ﴾، والآذانِ بـ ﴿يَسْمَعُونَ﴾: إمَّا لزيادةِ تسجيلِ العَجزِ عليهم فيما يَحتاجُ إليه النَّاصِرُ، وإمَّا لأنَّ بَعضَ تلك الأصنامِ كانت مجعولةً على صورِ الآدَميِّينَ، وخَصَّ الأرجُلَ والأيديَ والأعيُنَ والآذانَ؛ لأنَّها آلاتُ العِلمِ والسَّعيِ والدَّفعِ للنَّصرِ[٤].

- والأمرُ والنَّهيُ في قولِه تعالى: ﴿كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونَ﴾ للتَّعجيزِ[٥]

- وقولُه: ﴿فَلَا تُنْظِرُونِ﴾ تفريعٌ على الأمرِ بالكَيدِ، أي: فإذا تمكَّنْتُم مِن إضراري، فأعجِلُوا، ولا تؤَجِّلوني[٦].

- وفي هذا التحدِّي تعريضٌ بأنَّه سيبلغُهم، وينتصرُ عليهم، ويستأصلُ آلهتَهم[٧].

---

(١) يُنظَر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٦).
(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٢٢).
(٣) يُنظَر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٦).
(٤) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٢٢).
(٥) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٢٣).
(٦) يُنظَر: ((المصدر السابق)).
(٧) يُنظَر: ((المصدر السابق)).

٣- **قولُه تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾** هذا مِن المأمورِ بِقَولِه أيضًا، وفُصِلَت هذه الجُملةُ عَن جُملةِ ﴿ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾؛ لِوُقوعِها مَوقِعَ العلَّةِ لِمَضمونِ التَّحدِّي في قَولِه ﴿ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ الذي هو تحقُّقُ عَجْزِهم عن كَيدِه[1].

- وإجراءُ الصِّفةِ لاسْمِ اللهِ بالموصوليَّةِ ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾؛ لِمَا تدُلُّ عليه الصِّلةُ مِن عَلاقاتِ الوِلايةِ؛ فإنَّ إنزالَ الكِتابِ عليه وهو أمِّيٌّ، دليلُ اصطفائِه وتوَلِّيه[2].

- والتَّعريفُ في الكتابِ للعَهدِ، أي: الكتابَ الَّذي عَهِدتُموه وسَمِعتُموه، وعَجَزتُم عن مُعارَضتِه، وهو القُرآنُ[3].

- ومَجيءُ المُسنَدِ ﴿يَتَوَلَّى﴾ فعلًا مُضارعًا؛ لقَصدِ الدَّلالةِ على استمرارِ هذا التَّولِّي وتجدُّدِه، وأنَّه سُنَّةٌ إلهيَّةٌ، فكما توَّلى النبيَّ يتولَّى المؤمنينَ أيضًا، وهذه بِشارةٌ للمُسلمينَ المُستَقيمينَ على صِراطِ نَبيِّهم صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنْ يَنصُرَهم اللهُ، كما نصَرَ نبيَّه وأولياءَه[4].

- وقولُه: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ تذييلٌ مقرِّرٌ لِمَضمونِ ما قَبلَه[5].

٤- **قولُه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾** عَطْفٌ على جملةِ: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ﴾ وسلوكُ طَريقِ المَوصوليَّة في التَّعبيرِ عن الأصنامِ؛ للتَّنبيهِ على خَطأِ المُخاطَبينَ في دُعائِهم إيَّاها مِن دُونِ اللهِ، مع ظُهورِ عَدمِ استِحقاقِها للعِبادةِ؛

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٢٤).

(٢) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٢٤).

(٣) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٢٤).

(٤) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٢٤).

(٥) يُنظَر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٧).

بِعَجزِها عن نَصرِ أتباعِها، وعن نَصرِ أنفُسِها[١].

٥- **قولُه تعالى:** ﴿**وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ**﴾ تشبيهٌ بليغٌ، أي: تَراهم كأنَّهم يَنظُرونَ إلَيك؛ لأنَّ صُوَرَ كَثيرٍ مِن الأصنامِ كان على صُوَرِ الأناسيِّ، وقد نحتوا لها أمثالَ الحِدَقِ النَّاظِرةِ إلى الواقِفِ أمامَها[٢].

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٢٤).
(٢) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٢٥).

الآيات (١٩٩-٢٠٢)

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾.

غريبُ الكَلماتِ:

﴿الْعَفْوَ﴾: أي: الميسورَ مِن أخلاقِ النَّاسِ، والعفوُ يُطلق على ضدِّ الجهدِ، فكلُّ شيءٍ متيسرٍ، لا مجهودَ فيه يسمَّى عفوًا، وأصلُ العَفْوِ: القَصدُ لِتَناوُلِ الشَّيءِ[1].

﴿بِالْعُرْفِ﴾:أي: المَعْرُوف مِن الإحسانِ، وأصلُ (عرف) يدلُّ على السُّكونِ والطُّمأنينةِ، ومنه العُرفُ والمعروفُ، سُمِّي بذلك؛ لأنَّ النُّفوسَ تسكُنُ إليه[2].

﴿يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾: أي: يستَخِفَّنَّك منه خِفَّةٌ وغضَبٌ وعَجَلةٌ، أو يُحَرِّكنَّك بِالشَّرِّ. وأصلُ (نزغ): يدلُّ على إفسادٍ بينَ اثنَينِ[3].

﴿مَسَّهُمْ﴾: أي: أصابَهم، أو ألَمَّ بِهم، والمسُّ يقالُ في كلِّ ما يَنالُ الإنسانَ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٨١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦١٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٤٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٥).

مِن أذًى، وأصلُ (مس): جَسُّ الشَّيءِ باليَدِ[١].

﴿طَائِفٌ﴾: أي: عارِضٌ أو وَسْوَسةٌ مِن الشَّيطانِ، وأصلُ (طيف): يَدُلُّ على دَوَرانِ الشَّيءِ على الشَّيءِ[٢].

﴿يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ﴾: أي: يُزَيِّنونَه لهم، أو يُطِيلونَ لهم فيه، وأصلُ (مَدَّ): يدلُّ على جَرِّ شيءٍ في طُولٍ. والغَيُّ: خِلافُ الرُّشدِ، والانهماكُ في الباطِلِ[٣].

﴿لَا يُقْصِرُونَ﴾: أي: لا يَسأَمونَ، وأصلُ (قصر): كفٌّ مع القُدرةِ عليه[٤].

﴿اجْتَبَيْتَهَا﴾: أي: تقوَّلْتَها مِن نَفْسِك؛ مِن اجتَبيتُ الشَّيءَ: إذا اختَرعتَه وارتجَلْتَه واختَلقْتَه والاجتباءُ: الجَمعُ على طريقِ الاصْطفاءِ[٥].

﴿بَصَائِرُ﴾: أي: حُجَجٌ ظاهِرةٌ بَيِّنة، واحدتُها بَصِيرة، وأصلُ (بصر): العِلمُ بالشَّيءِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٤٦)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٧٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٣١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٩٩ و٥/ ٢٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٣٥).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٥٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٠٣)، ((المفردات)) للراغب (١/ ١٨٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٥، ١٢٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٣، ٢١٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٧٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢١)، ((مقاييس =

المَعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ نبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يَقبَلَ ما تيسَّرَ مِن أخلاقِ النَّاسِ، وأن يأمُرَ بالمَعروفِ الذي يُقِرُّه الشَّرعُ، وأن يُعرِضَ عمَّن جَهِلَ عليه.

ويأمُرُه إن ناله مِن الشَّيطانِ وَسوسةٌ ما أو غَضَبٌ أو غيرُ ذلك، أن يَستعيذَ باللهِ؛ إنَّه هو السَّميعُ العَليمُ.

ويخبِرُ تعالى أنَّ الذينَ اتَّقَوا إذا أصابَتْهم وسْوَسةٌ مِن الشَّيطانِ أو غضَبٌ أو غيرُ ذلك، تذكَّرُوا؛ فإذا هم يُبصِرونَ بقُلوبِهم هُدى الله، فيَنتَهونَ عن مَعصيتِه.

كما يخبِرُ تعالى أنَّ إخوانَ الشَّياطينِ- وهُم كَفَرةُ الإنْسِ وفجَرَتُهم- تُزَيِّنُ لهم الشَّياطينُ الضَّلالَ، وتُعينُهم على الكُفرِ والمعاصي، ثمَّ لا يسأمُ الشَّياطينُ ولا يَفتُرونَ عن ذلك، كما أنَّ أولياءَهم مِن الإنسِ لا يُقصِرونَ في ارتكابِ تلك السَّيئاتِ.

ويُخاطِبُ اللهُ نَبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قائلًا له: وإذا لم تأتِ المُشركينَ بآيةٍ وَفْقَ ما يَطْلبونَ، قالوا: هلَّا أتيتَ بها مِن تِلقاءِ نَفسِك، قل لهم- يا مُحمَّد: إنَّما أتَّبِعُ ما يُوحيه إليَّ ربِّي، وهذا القُرآنُ عَلاماتٌ واضحة للهُدى، وحُجَجٌ قاطعةٌ على الحَقِّ مِن الله سبحانَه وتعالَى، ومُرشِدٌ إلى الصِّراطِ المُستقيمِ، ورحمةٌ في الدُّنيا والآخرةِ للمُؤمنينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ١٩٩ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لما أشبعتِ السُّورة مِن أفانينِ قوارعِ المشركين، وعظِتِهم، وإقامةِ الحجَّةِ عليهم، وفضحِ ضلالِهم، وفسادِ معتقدِهم، والتشويهِ بشركائِهم، وقد تخلَّل ذلك

= اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٥).

كلَّه التسجيلُ بمكابرتِهم، والتعجيبُ منهم كيفَ ينأَوْن بجانبِهم، وكيف يصمُّون أسماعَهم، ويغمضونَ أبصارَهم عما دُعوا إلى سماعِه وإلى النَّظر فيه، إلى غيرِ ذلك، وإذ قد كان مِن شأنِ ذلك أن يثيرَ في أنفسِ المسلمين كراهيةَ أهلِ الشِّرك، ويحفزَهم للانتقامِ منهم، ومجافاتِهم، والإعراضِ عن دعائِهم إلى الخيرِ - لا جرمَ شرَع في استئنافِ غرضٍ جديدٍ، يكونُ ختامًا لهذا الخوضِ البديعِ، وهو غرضُ أمرِ الرَّسول والمؤمنين بقلَّةِ المبالاةِ بجفاءِ المشركينَ وصلابتِهم، وبأن يَسَعوهم مِن عفوِهم، والدأبِ على محاولةِ هديِهم، والتبليغِ إليهم[(١)].

وأيضًا لَمَّا بَيَّن اللهُ تعالى أنَّه هو الذي يتولَّى رَسولَه، وأنَّ الأصنامَ وعابِدِيها لا يَقدِرونَ على الإيذاءِ والإضرارِ؛ بَيَّن في هذه الآيةِ ما هو المَنهَجُ القَويمُ والصِّراطُ المُستقيمُ في مُعاملةِ النَّاسِ[(٢)]، فقال تعالى:

﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ ﴾.

أي: اقبَلْ ما تيسَّرَ مِن أخلاقِ النَّاسِ، وما سَمَحت به أنفُسُهم، ولا تُغلِظْ عليهم، فإنْ وَجدْتَ منهم خُلُقًا طَيِّبًا فاقبَلْه، وما جاءَك مِن غَيرِ ذلك فاصفَحْ عنه وتجاوَزْه، واترُكْ ما لك من الحَقِّ عليهم[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٢٦-٢٢٧).

(٢) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٣٤).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٤٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٢٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٣٩).

قال ابنُ عطيَّة: (وصيةٌ مِن اللهِ عَزَّ وجَلَّ لنَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تَعُمُّ جميعَ أمَّتِه، وأخْذٌ بجَميعِ مَكارِمِ الأخلاقِ... معناه: اقبَلْ مِن النَّاسِ في أخلاقِهم وأقوالِهم ومُعاشَرتِهم، ما أتى عَفْوًا دونَ تكَلُّفٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٩٠).

الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤-٣٥].

وعن عبدِ اللهِ بنِ الزُّبَيرِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: (أمَرَ اللهُ نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يأخُذَ العَفْوَ مِن أخلاقِ النَّاسِ)(١).

﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾.

أي: وأْمُرِ النَّاسَ- يا مُحمَّد- بالمَعروفِ الذي يُقِرُّه الشَّرعُ؛ مِن كُلِّ قَولٍ وفِعلٍ تَعرِفُ حُسنَه ونَفعَه العُقولُ والفِطَرُ السَّليمةُ، وتطمئِنُّ إليه النُّفوسُ المُستقيمةُ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾.

أي: وأعرِضْ عمَّن جَهِلَ عليك، فإذا سَفِهَ عليك، وأساءَ إليك، فلا تؤاخِذْه بزَلَّتِه(٣).

---

(١) رواه البخاري (٤٦٤٤).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٤٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٢٧)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٤٦)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ١٤٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٢٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٣٩).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٤٥)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٤٢).

قال الرَّازي: (المقصودُ منه أمرُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنْ يصبِرَ على سُوءِ أخلاقِهم، وألَّا يُقابِلَ أقوالَهم الرَّكيكةَ ولا أفعالَهم الخَسيسةَ بأمثالِها، وليس فيه دَلالةٌ على امتناعِه مِن القتالِ؛ لأنَّه لا يمتنِعُ أن يُؤمَرَ عليه السَّلامُ بالإعراضِ عن الجاهلينَ مع الأمرِ بقِتالِ المُشركينَ.. فحينئذ لا حاجةَ إلى التزامِ النَّسخِ، إلَّا أنَّ الظَّاهريَّةَ مِن المُفَسِّرينَ مَشغوفونَ بتكثيرِ النَّاسِخِ والمنسوخِ مِن غيرِ ضرورةٍ ولا حاجةٍ). ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٣٥). ويُنظَر: ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((قَدِمَ عُيينةُ بنُ حِصنِ بنِ حُذيفةَ، فنزل على ابنِ أخيه الحُرِّ بنِ قيسٍ، وكان مِن النَّفَرِ الذين يُدنِيهم عُمَرُ، وكان القُرَّاءُ أصحابَ مجالسِ عمرَ ومُشاورتِه، كهولًا كانوا أو شبَّانًا، فقال عُيينةُ لابنِ أخيه: يا ابنَ أخي، هل لك وجهٌ عندَ هذا الأميرِ؟ فاستأذِنْ لي عليه، قال: سأستأذِنُ لك عليه، فاستأذَنَ الحرُّ لِعُيَينةَ، فأذِنْ له عُمرُ، فلما دخَل عليه قال: هِيْ[1] يا ابنَ الخطَّابِ، فواللهِ ما تُعطينا الجَزلَ[2] ولا تَحكمُ بيننا بالعَدلِ! فغضِبَ عُمرُ حتى همَّ أن يوقِعَ به، فقال له الحرُّ: يا أميرَ المؤمنين، إنَّ اللهَ تعالى قال لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ وإنَّ هذا مِن الجاهِلينَ. واللهِ ما جاوَزها عمرُ حينَ تلاها عليه، وكان وقَّافًا عندَ كتابِ اللهِ))[3].

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لما كان الشيطانُ بعداوتِه لبني آدمَ مجتهدًا في التنفيرِ من هذه المحاسنِ

= ابن جرير)) (١٠/ ٦٤٥)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٢٧).

وقال ابنُ القيِّم: (ليس المرادُ إعراضَه عمَّن لا عِلمَ عِندَه، فلا يُعَلِّمُه ولا يُرشِدُه، وإنَّما المرادُ إعراضُه عن جَهلِ مَن جَهِلَ عليه، فلا يُقابِلُه ولا يُعاتِبُه). ((مفتاح دار السعادة)) (١/ ١٠١).

(١) هِيْ: كَلمةٌ للزَّجرِ وطَلَبِ الكَفِّ، كما يُقال: إيهِ عنَّا، أي: كُفَّ. ينظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/ ٢٥٩).

(٢) الجَزْل: العَطاء الكثير. يُنظر: ((الكواكب الدراري)) للكرماني (٢٥/ ٣٧).

(٣) رواه البخاري (٤٦٤٢).

المذكورةِ في قولِه تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ والترغيبِ في أضدادِها- شرَع لأُمتِه ما يعصمُهم منه عندَ نزغِه، مخاطبًا له بذلك؛ ليكونَ أدعَى لهم إلى القبولِ، وأجدرَ باشتدادِ الخوفِ المقتضي للفرارِ، المثمرِ للنَّجاة[1].

وأيضًا لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى في الآيةِ السَّابقةِ أفضَلَ ما يُعامِلُ البَشَرُ به بعضُهم بعضًا، ولو عَمِلَ النَّاسُ بهذه الوصايا لصَلَحَت أحوالُهم، ولم يجِدِ الفَسادُ إليهم سبيلًا- قفَّى عليها بالوصيَّةِ باتِّقاءِ إفسادِ الشَّيطانِ[2].

وأيضًا أنَّه عندَ الأمرِ بالعُرفِ ربَّما يَهيجُ سَفيهٌ ويُظهِرُ السَّفاهةَ، فعند ذلك أمرَ تعالى نبيَّه بالسُّكوتِ عن مُقابَلتِه، فقال: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ ولَمَّا كان مِن المَعلومِ أنَّه عند إقدامِ السَّفيهِ على السَّفاهةِ يَهيجُ الغَضَبُ والغَيظُ، ولا يبقى الإنسانُ على حالةِ السَّلامةِ، وعند تلك الحالةِ يَجِدُ الشَّيطانُ مَجالًا في حَملِ ذلك الإنسانِ على ما لا ينبغي- لا جرَمَ بيَّن تعالى ما يَجري مَجْرى العلاجِ لهذا الغَرَضِ، فقال[3]:

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ ﴾.

أي: وإن نالَك مِن الشَّيطانِ وَسوسةٌ ما أو غَضَبٌ أو غيرُ ذلك؛ لِيُثبِّطَك عن الخيرِ، أو يَحُثَّك على الشَّرِّ والفَسادِ، أو يحمِلَك على الغَضَبِ، ومُجازاةِ مَن جَهِلَ عليك- فالتجِئْ إلى اللهِ، واطلُبْ منه أن يحفَظَك مِن الشَّيطانِ[4].

---

(١) يُنظَر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٠٣، ٢٠٤).

(٢) يُنظَر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٤٥٠).

(٣) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٣٥-٤٣٦).

(٤) يُنظَر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٤٥، ٦٤٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٢٩، ٢٣٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٤٤). =

عن سُلَيمانَ بنِ صُرَدٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: كنتُ جالسًا مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ورجلانِ يَستبَّانِ، فأحَدُهما احمَرَّ وَجهُه، وانتفخَتْ أوداجُه(١)، فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنِّي لأعلَمُ كَلمةً لو قالَها، ذهب عنه ما يَجِدُ، لو قال: أعوذُ باللهِ مِن الشَّيطانِ، ذهَبَ عنه ما يجِدُ))(٢).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عنه، قال رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يأتي الشيطانُ أحدَكم فيقولُ: مَن خلَق كذا؟ مَن خلَق كذا؟ حتى يقولَ: مَن خلَق ربَّك؟ فإذا بلَغه فليستعِذْ بالله ولْيَنْتَهِ))(٣).

﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ الذي تستعيذُ به مِن نَزغِ الشَّيطانِ، سَميعٌ لِدُعائِك، ولِوَسْوسةِ الشَّيطانِ، ولكلِّ صوتٍ، عليمٌ باستعاذَتِك، وبِوَسْوسةِ الشَّيطانِ، ولا يخفَى عليه شيءٌ؛ فهو الذي بيَدِه إنجاؤُك منه، وحمايَتُك مِن نَزَغاتِه(٤).

كما قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

= قال ابن عطية: (النزغُ حركةٌ فيها فسادٌ، وقلَّما تُستعمَلُ إلَّا في فعلِ الشَّيطانِ؛ لأنَّ حركاتِه مسرعةٌ مفسدةٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٩١).

وقال ابنُ عاشور: (وهذا الأمرُ مرادٌ به رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ابتداءً، وهو شامِلٌ لأمَّتِه... وحَظُّ المؤمنينَ منه أقوى؛ لأنَّ نَزغَ الشَّيطانِ إيَّاهم أكثَرُ؛ فإنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُؤيَّدٌ بالعِصمةِ، فليس للشَّيطانِ عليه سبيلٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٢٩، ٢٣٠).

(١) أوداجُه: جَمعُ وَدَجٍ: وهو عِرقٌ في الحَلقِ في المَذبحِ. وانتفاخُ الأوداجِ كنايةٌ عن شِدَّةِ الغَضَبِ. ينظر: ((عمدة القاري)) للعيني (١٥/ ١٧٥).

(٢) رواه البخاري (٣٢٨٢)، واللفظ له، ومسلم (٢٦١٠).

(٣) رواه البخاري (٣٢٧٦)، ومسلم (١٣٤).

(٤) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٤٥).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس: ١- ٦].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَـٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بَيَّنَ تعالى في الآيةِ السَّابِقةِ أنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قد ينزَغُه الشَّيطانُ، وبيَّنَ أنَّ علاجَ هذه الحالةِ الاستعاذةُ بالله؛ بيَّنَ هنا في هذه الآيةِ أنَّ حالَ المتَّقينَ يَزيدُ على حالِ الرَّسولِ في هذا البابِ [(١)]، فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَـٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ﴾.

أي: إنَّ الَّذينَ اتَّقَوا اللهَ تعالى بفِعلِ الواجِباتِ، وتَرْكِ الشِّرْكِ والسَّيِّئاتِ، إذا أصابَتْهم وَسْوسةٌ مِن الشَّيطانِ، أو غضَبٌ أو غيرُ ذلك، فَهَمُّوا بتَرْكِ طاعةِ اللهِ، أو اقترافِ مَعصيَتِه- تذَكَّروا عَظَمةَ اللهِ تعالى، وما يَعلَمونَه مِن عِقابِه وثَوابِه، وما أمَرَهم به مِن الاستعاذةِ مِن الشَّيطانِ[(٢)].

---

(١) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٣٦-٤٣٧).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٤٦ - ٦٥١)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٥٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٣٤)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٢٤٣).

قال ابنُ تيميَّةَ: (الشَّيطانُ إذا زيَّنَ المَعصيةَ يجعَلُ في القَلبِ ظُلمةً، ويُضعِفُ نورَ الإيمانِ، ولهذا سمَّاه طائفًا، أي: يَطيفُ بالقَلبِ مثلَ ما يَطيفُ الخيالُ بالنَّائم، ويغيبُ عن القلبِ حينئذٍ مِن أمرِ اللهِ ونَهيِه ووَعْدِه ووَعيدِه ما يُناقِضُ ذلك، فإذا كان العَبدُ مُتَّقيًا للهِ أمَدَّه اللهُ تعالى بنورِ الإيمانِ، فذكرَ ما في الذَّنبِ مِن عذابِ اللهِ وسَخَطِه، وما يَفوتُه به مِن كرامةِ اللهِ وثَوابِه). ((جامع المسائل)) (٥/ ٢٥٦).

وقال مُحمَّد رشيد رضا: (﴿تَذَكَّرُوا﴾ أنَّ هذا مِن عَدُوِّهم الشَّيطانِ وإغوائِه، وما أمرَ اللهُ =

كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾.

أي: فإذا المُتَّقونَ بِسَببِ ذلك التذكُّرِ يُبصِرونَ بقُلوبِهم هُدى اللهِ، ومكائِدَ الشَّيطانِ، ومَواطِنَ الزَّلَلِ، فيَنتَهونَ عَن مَعصِيَتِه سُبحانه[١].

عن حُذيفةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((تُعرَضُ الفِتَنُ على القُلوبِ كالحَصيرِ عُودًا عُودًا، فأيُّ قَلبٍ أُشْرِبَها، نُكِتَ فيه نُكتةٌ[٢] سَوداءُ، وأيُّ قَلبٍ أنكَرَها، نُكِتَ فيه نُكتةٌ بَيضاءُ، حتى تصيرَ على قَلبينِ؛ على أبيضَ مِثلِ الصَّفَا[٣]، فلا تَضُرُّه فتنةٌ ما دامَتِ السَّمَواتُ والأرضُ، والآخَرُ أسوَدُ مُرْبادًّا[٤] كالكُوزِ مُجَخِّيًا[٥]، لا يَعرِفُ مَعروفًا، ولا يُنكِرُ مُنكرًا، إلَّا ما أُشْرِبَ مِن هَواه))[٦].

= تعالى به في هذه الحالِ مِن الاستعاذةِ به، والالتجاءِ إليه في الحِفظِ منه، وقال بعضُهم: تذكَّروا ما أمَرَ اللهُ تعالى به ونهى عنه، وقال آخَرونَ: تذكَّروا عِقابَ اللهِ لِمَن أطاع الشَّيطانَ وعصى الرَّحمنَ، وجزيلَ ثوابِه لِمَن عصى الشَّيطانَ وأطاع الرَّحمنَ، وقال بعضُهم: تذكَّروا وَعدَه ووعيدَه، ومآلُ الأقوالِ كُلِّها واحدٌ، وهو يَعُمُّها كما تُفيدُه قاعدةُ حَذفِ المَفعولِ). ((تفسير المنار)) (٩/ ٤٥٣).

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٥٠)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٣٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٤٦).

(٢) نُكِتَ فيه نُكتةٌ: أي: نُقِطَتْ وَأُثِّرَتْ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٨/ ٣٣٧٨)

(٣) الصَّفا: الحَجَر الأملَس؛ من غايةِ البَياضِ والصَّفاءِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٨/ ٣٣٧٨).

(٤) مُربادًّا: أي: صار كلَونِ الرَّمادِ؛ مِنَ الرُّبدةِ: لونٌ بين السَّوادِ والغُبرةِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ١٨٣)، ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٨/ ٣٣٧٨).

(٥) كالكُوزِ مُجَخِّيًا: أي: كالكوزِ المائِلِ المنكوسِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٨/ ٣٣٧٨).

(٦) رواه مسلم (١٤٤).

﴿ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (٢٠٢) ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّها عَطفٌ على جُملةِ ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾ عطفَ الضِّدِّ على ضِدِّه؛ فإنَّ الضِّدِّيَةَ مُناسَبةٌ يحسُنُ بها عَطفُ حالِ الضِّدِّ على ضِدِّه، فلمَّا ذَكَر شَأنَ المتَّقينَ في دَفْعِهم طائِفَ الشَّياطينِ، ذكَرَ شَأنَ أضدادِهم مِن أهْلِ الشِّركِ والضَّلالِ[1]، فقال:

﴿ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ﴾.

أي: وإخوانُ الشَّياطينِ- وهم كَفَرةُ الإنسِ وفَجَرتُهم- تُزيِّنُ لهم الشَّياطينُ الضَّلالَ، وتُساعِدُهم على الكُفرِ والمعاصي[2].

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣].

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٣٣).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٥٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٩٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٩١)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٥١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٣٤)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٤٧).

وهذا القولُ- وهو أنَّ إخوانَ الشَّياطِينِ يَمُدُّهُم الشَّياطينُ في الغيِّ- هو قَولُ جُمهورِ المُفَسِّرينَ. ينظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٩٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٥٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٣٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلف: ابنُ عبَّاس، والسُّدِّي، ومجاهدٌ، وقتادةُ، وعبدُ الله بنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٥/ ١٦٤١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٥١)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٣/ ٦٣٣).

وقيل: وإخوانُ الشَّياطينِ- وهُم كَفَرةُ الإنسِ- يَمُدُّونَ الشَّياطينَ في الغَيِّ بإغواءِ النَّاسِ. هذا ما استظهَرَه الرَّازي. يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٣٨).

وقال سبحانه: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾ [الأنعام: ١٢٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ [الإسراء: ٢٧].

﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾.

أي: إنَّ الشَّياطينَ لا تَسأمُ ولا تَفترُ مِن إمدادِ أوليائِهم مِن الإنسِ بالضَّلالِ، ولا تتوقَّفُ عن تَزيينِ الكُفرِ والمعاصي لهم، وكذلك أولياؤُهم مِن الإنسِ لا يُقصِرونَ أيضًا في ارتكابِ تلك السَّيِّئاتِ، فهم دائمًا في ازديادٍ مِن الآثامِ[(١)].

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٣)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ شياطينَ الجِنِّ والإنسِ لا يُقصِرونَ في الإغواءِ والإضلالِ؛ بيَّنَ في هذه الآيةِ نوعًا مِن أنواعِ الإغواءِ والإضلالِ، وهو: أنَّهم كانوا يَطلُبونَ آياتٍ مُعَيَّنةً، ومعجزاتٍ مَخصوصةً على سبيلِ التعنُّتِ[(٢)]، فقال تعالى:

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾.

أي: وإذا لم تأتِ المُشركينَ- يا مُحمَّدُ- بآيةٍ وَفقَ ما يطلُبونَ، قالوا: هلَّا أتيتَ بها، وافتعلتَها مِن تلقاءِ نفسِك[(٣)].

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٥٠، ٦٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٤٧).
واختار أنَّ قولَه: ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ يشملُ الشياطينَ وأولياءَهم مِن الإنسِ: ابنُ جريرٍ والسعديُّ، وذكَر ابنُ كثيرٍ القولينِ، واختار الشنقيطيُّ أنَّ المقصودَ به الشَّياطين.

(٢) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٣٨).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٥٤، ٦٥٦)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٨٢)، =

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١].

وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٣].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ [العنكبوت: ٥٠].

وقال عز وجل: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ [يونس: ١٥].

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾.

= ١٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٣٦، ٢٣٧).

المرادُ بالآيةِ هنا قيل: المعجزةُ الخارقةُ ممَّا يقتَرِحونَ عليه- عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ. وقيل: المرادُ: آيةٌ يتلوها عليهم مِن غَيرِ ما أُنزِلَ إليه. ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٣٦-٢٣٧).

وقال الشِّنقيطي: (﴿اجْتَبَيْتَهَا﴾ أصلُ الاجتباءِ معناه المشهورُ في لغة العَرَبِ: الاختيارُ والاصطفاءُ. هذا أشهَرُ معانيه المعروفةِ... وقالت جماعةٌ مِن المفسِّرين: العربُ تقول: اجتبيتُ الكلامَ: إذا اختلقْتَه واخترعتَه مِن وَقتِه، ولم يكُن عندكَ فيما سبق... ﴿قَالُواْ لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ هلَّا جِئتَ بها مُختَرَعةً مُختلَقةً في عَجَلةٍ؛ لأنَّهم يَزعمونَ أنَّ كلَّ القُرآنِ اختلاقٌ... وذهبت جماعةٌ أخرى مِن أهلِ التَّأويلِ إلى أنَّ الآيةَ المطلوبةَ هنا آيةٌ كونيَّةٌ قَدَريَّةٌ، كما قال: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا﴾ [الإسراء: آية ٩٠]... وعلى أنَّ الآيةَ المطلوبةَ هنا كونيَّةٌ قَدَريَّةٌ، قال بعضُ العُلماءِ: معنى ﴿لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ هلَّا اقترحتَها وتَلقَّيتَها مِن تلقاءِ رَبِّك؛ لأنَّك تزعُمُ أنَّ كُلَّ ما سألتَ منه يُعطيك إيَّاه). ((العذب النمير)) (٤/ ٤٥٠-٤٥١).

أي: قُلْ- يا مُحمَّدُ- للمُشركينَ الذينَ يَطلبونَ مِنك الآياتِ: ليس لي ذلك، وهو ليس مِن شأني، إنَّما أنا عبدٌ مأمورٌ، لا أتَّبِعُ إلَّا ما يُوحيه إليَّ ربِّي[1].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ [الأنعام: ٥٠].

وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٠-٥١].

﴿هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا حكى اللهُ تعالى قَولَ المُشركينَ: ﴿لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾؛ بَيَّنَ لهم أنَّ هذا القُرآنَ العظيمَ أعظَمُ آيةٍ، لا ينبغي للإنسانِ أن يطلُبَ آيةً غَيرَه[2]، فقال تعالى:

﴿هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾.

أي: هذا القُرآنُ العظيمُ عَلاماتٌ للهُدى بَيِّناتٌ، وحُجَجٌ على الحَقِّ قاطعاتٌ، وأنوارٌ للقُلوبِ ساطعاتٌ مِن ربِّكم سبحانه وتعالى[3].

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

أي: وهذا القُرآنُ مُرشِدٌ إلى الصِّراطِ المُستقيمِ، ورحمةٌ في الدُّنيا والآخرةِ

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٥١).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (٢/ ٢١٧-٢١٨).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٥٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٥٣).

للمُؤمنينَ الذين يعملونَ بما فيه[1].

كما قال تعالى: ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٢٠].

وقال سبحانه: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

وقال جلَّ جلاله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

الفَوائدُ التربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ هذه الآيةُ مِن ثلاثِ كلماتٍ، تضمَّنَت قواعِدَ الشَّريعةِ في المأموراتِ والمنهيَّاتِ؛ فَقولُه: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ دخل فيه صلةُ القاطعينَ، والعَفوُ عن المُذنِبينَ، والرِّفقُ بالمؤمنينَ، وغيرُ ذلك من أخلاقِ المُطيعينَ، ودخَلَ في قولِه: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ صِلةُ الأرحامِ، وتَقْوى اللهِ في الحَلالِ والحرامِ، وغضُّ الأبصارِ، والاستعدادُ

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٣٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٥٦).

لدارِ القَرارِ، وفي قولِه: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ الحَضُّ على التعلُّقِ بالعِلمِ، والإعراضُ عن أهلِ الظُّلمِ، والتنَزُّهُ عن مُنازعةِ السُّفَهاءِ، ومُساواةِ الجَهَلةِ الأغبياءِ، وغيرُ ذلك من الأخلاقِ الحميدةِ، والأفعالِ الرَّشيدةِ[1].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ فيه جِماعُ الأخلاقِ الكريمةِ، وقد تضمَّن الحثَّ على حُسنِ المعاشرةِ مع الخلقِ، وأداءَ حقِّ الله فيهم، والسلامةَ مِن شرِّهم، فلو أخَذ النَّاس كلُّهم بهذه الآيةِ لكفَتْهم وشَفَتْهم؛ فإنَّ الإنسانَ مع النَّاسِ مأمورٌ أن يأخُذَ منهم ما يحِبُّ، ما سَمَحوا به، ولا يُطالِبَهم بزيادةٍ؛ فإنَّ العفوَ ما عفا مِن أخلاقِهم، وسمحَتْ به طبائعُهم، ووسِعهم بذلُه مِن أموالِهم وأخلاقِهم، فهذا ما منهم إليه. وأمَّا ما يكونُ منه إليهم فأمرُهم بالمعروفِ، وهو ما تشهدُ به العقولُ، وتعرفُ حسنَه، وهو ما أمَر الله به. وإذا فعَل معه جاهلُهم ما يَكرَهُ فإنَّه يُعرِضُ عنه، ويتركُ الانتقامَ لنفسِه والانتصارَ لها، فأيُّ كمالٍ للعبدِ وراءَ هذا؟ وأيُّ معاشرةٍ وسياسةٍ لهذا العالمِ أحسنُ مِن هذه المعاشرةِ والسياسةِ؟ فلو فكَّر الرجلُ في كلِّ شرٍّ يلحقُه مِن العالمِ- أي الشرِّ الحقيقيِّ الذي لا يوجبُ له الرفعةَ والزلفَى مِن الله- وجَد سببَه الإخلالَ بهذه الثلاثِ أو بعضِها، وإلا فمع القيامِ بها فكلُّ ما يحصلُ له مِن النَّاس فهو خيرٌ له، وإن كان شرًّا في الظاهرِ[2].

٣- قَولُه تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ * وَإِمَّا

---

(١) يُنظَر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٤٤).

(٢) يُنظَر: ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص:٧٥)، ويُنظَر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٠/ ٣٧٠، ٣٧١).

قال بعضُ العُلَماءِ: النَّاسُ رَجُلانِ: فرَجُلٌ مُحسِنٌ، فخُذ ما عفا لك من إحسانِه، ولا تُكَلِّفْه فوقَ طاقَتِه ولا ما يُحرِجُه. وإمَّا مُسيءٌ، فمُرْه بالمعروفِ، فإنْ تمادى على ضَلالِه واستعصى عليك، واستمَرَّ في جَهلِه؛ فأعرِضْ عنه، فلعَلَّ ذلك أن يَرُدَّ كَيدَه. ينظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٣٢).

يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وقولُه تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ * وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٦-٩٨]، وقولُه تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٤-٣٦] هذه الآياتُ الثَّلاثُ- في «الأعرافِ» و«المؤمنون» و«فُصِّلَت»- لا رابعَ لهنَّ، فإنَّه تعالى يُرشِدُ فيهنَّ إلى مُعاملةِ العاصي من الإنسِ بالمَعروفِ، والتي هي أحسَنُ؛ فإنَّ ذلك يكُفُّه عمَّا هو فيه مِن التَّمرُّدِ بإذنه تعالى؛ ولهذا قال: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ ثم يُرشِدُ تعالى إلى الاستعاذةِ به من شيطانِ الجانِّ؛ فإنَّه لا يكفُّه عنك الإحسانُ، وإنَّما يُريدُ هَلاكَك ودَمارَك بالكُلِّيَّةِ؛ فإنَّه عَدوٌّ مُبينٌ لك ولأبيك مِن قَبلِك(١).

٤- قال الله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ الأمرُ بالاستعاذةِ قد عُلِّلَ بعلَّتينِ:

أولاهما: أنَّ الاستعاذةَ باللهِ مَنجاةٌ للرَّسولِ- عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- مِن نَزغِ الشَّيطانِ.

والثانية: أنَّ في الاستعاذةِ باللهِ مِن الشَّيطانِ تَذكُّرَ أنَّ الواجِبَ مُجاهدةُ الشَّيطانِ، والتيقُّظُ لِكَيدِه، وأنَّ ذلك التيقُّظَ سُنَّةُ المُتَّقينَ؛ فالرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مأمورٌ بِمُجاهدةِ الشَّيطانِ؛ لأنَّه مُتَّقٍ، ولأنَّه يبتهِجُ بمُتابعةِ سِيرةِ سَلَفِه مِن المتَّقينَ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٣٢، ٥٣٣).

كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[1] [الأنعام: ٩٠].

٥- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ لا شيءَ أقوى على طَردِ الشَّيطانِ مِن ذِكرِ اللهِ تعالى بالقَلبِ، ومُراقَبتِه في السِّرِّ والجَهرِ؛ فذِكرُ اللهِ تعالى بأيِّ نَوعٍ مِن أنواعِه يُقَوِّي في النَّفسِ حُبَّ الحقِّ، ودواعيَ الخَيرِ، ويُضعِفُ فيها المَيلَ إلى الباطِلِ والشَّرِّ، حتى لا يكونَ للشَّيطانِ مَدخلٌ إليها[2].

٦- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ المتَّقونَ إذا أصابَهم هذا الطَّيفُ الذي يَطيفُ بِقُلوبِهم، يتذَكَّرونَ ما عَلِمُوه قبل ذلك، فيزولُ الطَّيفُ، ويُبْصِرونَ الحَقَّ الذي كان معلومًا، ولكِنَّ الطَّيفَ يمنَعُهم عن رُؤيَتِه[3].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّ مَن تمادى مع الشَّيطانِ عَمِيَ، وأنَّ مَسَّ الشَّيطانِ يُعمِي ويَطمِسُ ويُغلِقُ البصيرةَ[4].

٨- القرآنُ العظيمُ يُستبصَرُ به في جميعِ المَطالِبِ الإلهيَّةِ، والمقاصِدِ الإنسانيَّةِ؛ يُبيِّنُ ذلك قَولُ اللهِ تعالى: ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[5].

٩- ذَكَرَ اللهُ في غيرِ مَوضعٍ مِن كِتابِه أنَّ الرَّحمةَ تَحصُلُ بالقرآنِ، كقَولِه تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال هنا

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٣١).

(٢) يُنظَر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٤٥٣).

(٣) يُنظَر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٣٤٧، ٣٤٨).

(٤) يُنظَر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٠٦)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٤٢٠).

(٥) يُنظَر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣١٣).

في سورةِ الأعرافِ: ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ الأمرُ يشمَلُ النَّهيَ عَن الضِّدِّ؛ فإنَّ النَّهيَ عَن المُنكَرِ أمرٌ بالمعروفِ، والأمرَ بالمَعروفِ نَهيٌ عن المُنكَرِ؛ لأنَّ الأمرَ بالشَّيءِ نَهيٌ عَن ضِدِّه، وإنَّما اقتصَرَ على الأمرِ بالعُرفِ هنا؛ لأنَّه الأهَمُّ في دَعوةِ المُشركينَ، لأنَّه يدعوهم إلى أصولِ المَعروفِ واحدًا بعد واحدٍ[٢].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ أشار إلى مَزيدِ اعتنائِهم بالإغواءِ، ومُثابَرتِهم على الإضلالِ والإغراءِ بأداةِ التَّراخي، فقال: ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ أي: لا يتركُونَ إغواءَهم ولو لحظةً؛ لِجَهلِهم وشَرِّهم[٣].

٣- قال تعالى ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ فإخوانُ الشَّياطينِ تَمُدُّهم الشَّياطينُ في غَيِّهم ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ لا تُقصِرُ الشَّياطينُ عَن المَدَد والإمدادِ، ولا الإنسُ عن الغَيِّ، فلا يُبصِرونَ مع ذلك الغَيِّ ما هو معلومٌ لهم مُستقِرٌّ في فِطَرِهم، لكِنَّهم يَنسَونَه؛ ولِهذا كانت الرُّسُل إنَّما تأتي بتَذكيرِ الفِطرةِ ما هو معلومٌ لها، وتقويَتِه وإمدادِه، ونَفيِ المُغَيِّر للفِطرةِ، فالرسُلُ بُعِثوا بتقريرِ الفِطرةِ وتكميلِها، لا بِتَغييرِ الفِطرةِ وتَحويلِها، والكمالُ يَحصُلُ بالفِطرةِ المُكَمَّلة بالشِّرعةِ المُنَزَّلة[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾

---

(١) يُنظَر: ((الاستقامة)) لابن تيمية (١/ ٣٩٦).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٢٨).

(٣) يُنظَر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٠٧).

(٤) يُنظَر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٣٤٧، ٣٤٨).

- التَّعريفُ في ﴿الْعَفْوَ﴾ تعريفُ الجِنسِ؛ فهو مُفيدٌ للاستغراقِ[١].

- والاجتزاءُ بالأمرِ بالعُرفِ عنِ النَّهيِ عن المُنكَرِ مِن الإيجازِ[٢].

- وحُذِفَ مَفعولُ الأمرِ في قَولِه: ﴿وَأْمُرْ﴾ لإفادةِ عُمومِ المأمورينَ، فأمَرَ اللهُ رسولَه بأن يأمُرَ النَّاسَ كُلَّهم بكلِّ خَيرٍ وصلاحٍ، فيدخُلُ في هذا العمومِ المُشركونَ دُخولًا أوَّليًّا؛ لأنَّهم سببُ الأمرِ بهذا العُمومِ[٣].

٢- قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

- جملة: ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ في موقِعِ العلةِ للأمرِ بالاستعاذةِ بالله مِن الشَّيطانِ[٤].

- وقال اللهُ تعالى هنا: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وقال في سُورةِ فُصِّلَت: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦]، فجاء في الآيةِ هنا ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ على لفظِ النَّكرةِ، وفي سورةِ فُصِّلَت مُعرَّفتينِ بالألفِ واللَّامِ، مُؤَكَّدَتينِ بـ (هو)، وذلك لمناسبةٍ حسنة؛ أنَّ التي هنا وقع في فاصلةِ ما قَبلَها من الفواصِلِ أفعالُ جماعةٍ، وأسماءٌ مأخوذةٌ من الأفعالِ: نحوُ قَولِه تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، وبَعْدَه ﴿يُخْلَقُونَ﴾، و ﴿يَنْصُرُونَ﴾، و ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾، و﴿الْجَاهِلِينَ﴾، فأُخرِجَت هذه الفاصلةُ بأقربِ ألفاظِ الأسماءِ المُؤدِّيةِ معنى الفِعلِ، وهي النَّكِرةُ، وكان المعنى: استعِذْ باللهِ إنَّه يسمَعُ استعاذتَك، ويعلَمُ استجارَتَك.

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٢٦).

(٢) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٢٨).

(٣) يُنظَر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٣١).

والتي في سورة فُصِّلَت: قبلها فواصِلُ سلك بها طريقَ الأسماءِ، وهي ما في قَولِه تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥]. فقولُه: ﴿وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ ليس من الأسماءِ التي يُرادُ بها الأفعالُ، وكذلك قَولُه: ﴿ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ ليس ذو حَظٍّ بمعنى فِعلٍ، فأُخرِجَ ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ بعد الفواصِلِ التي هي على سَنَنِ الأسماءِ على لفظٍ يَبعُدُ عَن اللَّفظِ الذي يؤدِّي معنى الفِعلِ، فكأنَّه قال: إنَّه هو الذي لا يَخفى عليه مسموعٌ ولا معلومٌ، فليس القصدُ الإخبارَ عن الفِعلِ، كما كان في الأولى: إنَّه يَسمَعُ الدُّعاءَ، ويعلَمُ الإخلاصَ، فهذا فَرقُ ما بين المَكانَينِ(١).

وفيه وجهٌ آخَرُ: وهو أنَّ آيةَ فُصِّلَت تَقدَّمَ قَبلَها قولُه تعالى ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥] فكان مُؤَكَّدًا بالتَّكرارِ، وبالنَّفيِ والإثباتِ، فبالغَ في قَولِه: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦] بزيادة ﴿هُوَ﴾ وبالألفِ واللَّامِ، ولم يكُنْ في الأعرافِ هذا النَّوعُ مِن الاتِّصالِ، فأتى على القِياسِ: المُخبَرُ عنه معرفةٌ، والخَبَرُ نَكرةٌ(٢).

وقيل: سِرُّ ذلك- والله أعلم- أنَّه حيث اقتصَرَ على مجرَّدِ الاسمِ، ولم يؤكِّدْه، أُريدَ إثباتُ مُجرَّدِ الوَصفِ الكافي في الاستعاذةِ، والإخبارُ بأنَّه سبحانه يسمَعُ ويَعلَمُ، فيسمَعُ استعاذتَك فيُجيبُك، ويَعلَمُ ما تستعيذُ منه فيدفَعُه عنك، فالسَّمعُ لكلامِ المُستعيذِ، والعِلمُ بالفِعلِ المُستعاذِ منه، وبذلك يحصُلُ مَقصودُ الاستعاذةِ، وهذا المعنى شامِلٌ للمَوضِعَينِ، وامتاز المذكورُ في سورة فُصِّلت بمزيدِ التأكيدِ والتَّعريفِ والتَّخصيصِ؛ لأنَّ سياقَ ذلك بعد إنكارِه سُبحانه على الذين شَكُّوا في سَمْعِه لِقَولِهم وعِلْمِه بهم، كما جاء في الصَّحيحينِ مِن

(١) يُنظَر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٨٧ - ٦٨٨).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢٢).

حديثِ ابنِ مَسعودٍ، قال: ((اجتمَعَ عند البيتِ ثلاثةُ نفَرٍ: قُرشيَّانِ وثَقَفيٌّ، أو ثَقَفيَّانِ وقُرَشيٌّ، كثيرٌ شَحمُ بُطونِهم، قليلٌ فِقهُ قُلوبِهم، فقالوا: أترَونَ اللهَ يسمَعُ ما نقولُ؟ فقال أحدُهم: يسمَعُ إن جَهَرْنا، ولا يسمَعُ إن أخفَينا، فقال الآخَرُ: إن سَمِعَ بعضَه، سَمِعَ كلَّه، فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ إلى قَولِه: ﴿فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٢ - ٢٣]))(١).

فجاء التوكيدُ في قَولِه: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦] في سياقِ هذا الإنكارِ، أي: هو وَحدَه الذي له كمالُ قُوَّةِ السَّمعِ وإحاطةِ العِلمِ، لا كما يظُنُّ به أعداؤُه الجاهلونَ: أنَّه لا يسمَعُ إنْ أخْفَوا، وأنَّه لا يعلَمُ كثيرًا ممَّا يعملونَ، وحَسَّنَ ذلك أيضًا: أنَّ المأمورَ به في سورةِ فُصِّلَت دفْعُ إساءتِهم إليه بإحسانِه إليهم، وذلك أشَقُّ على النُّفوسِ مِن مجرَّدِ الإعراضِ عنهم؛ ولهذا عقَّبه بقَولِه: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥] فحَسُنَ التأكيدُ لحاجةِ المُستعيذِ.

وأيضًا فإنَّ السِّياقَ هاهنا لإثباتِ صِفاتِ كَمالِه وأدلَّةِ ثُبوتِها، وآياتِ رُبُوبيَّتِه وشواهِدِ تَوحيدِه؛ ولهذا عقَّبَ ذلك بقَولِه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ [فصلت: ٣٧] وبِقَولِه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ [فصلت: ٣٩] فأتى بأداة التَّعريفِ الدَّالَّةِ على أنَّ مِن أسمائِه «السَّميع العليم» كما جاءت الأسماءُ الحُسنى كلُّها مَعرفةً، والذي في الأعرافِ في سياقِ وعيدِ المُشركين وإخوانِهم مِن الشَّياطينِ، ووعْدِ المستعيذِ بأنَّ له ربًّا يسمَعُ ويعلَمُ، وآلهةُ المُشرِكين التي عَبَدوها من دونِه ليس لهم أعيُنٌ يُبصِرون بها، ولا آذانٌ يَسمَعونَ بها؛ فإنَّه سميعٌ عليمٌ، وآلهتُهم لا تسمَعُ ولا تُبصِرُ ولا تَعلَمُ، فكيف تُسَوُّونَها به في العبادةِ؟!

(١) أخرجه البخاري (٤٨١٧)، ومسلم (٢٧٧٥).

فعُلِمَ أنَّه لا يليقُ بهذا السِّياقِ غيرُ التَّنكيرِ، كما لا يليقُ بذلك غيرُ التعريفِ، واللهُ أعلَمُ بأسرار كلامِه.

وختَم الآيةَ هنا، وفي سورةِ فُصِّلت بصِفتي السَّمعِ والعِلم، وختَمها في سورةِ غافر بقوله: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ لأنه لَمَّا كان المُستعاذُ منه في سورة غافر هو شَرَّ مجادلةِ الكُفَّارِ في آياتِه، وما ترتَّبَ عليها من أفعالِهم المرئيَّةِ بالبَصرِ في قوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ فلَمَّا كان المستعاذُ منه كلامَهم وأفعالَهم المُشاهَدةَ عِيانًا، قال: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦]، وهنا المُستعاذُ منه غيرُ مُشاهَدٍ لنا؛ فإنَّه يَرانا هو وقَبيلُه من حيثُ لا نراه. بل هو معلومٌ بالإيمانِ، وإخبارِ اللهِ ورَسولِه[1].

٣- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾

هذا تأكيدٌ وتقريرٌ لِما تقدَّمَ مِن وُجوبِ الاستعاذةِ باللهِ عند نَزغِ الشَّيطانِ، فتتنَزَّلُ جُملةُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ إلى آخِرِها، مَنزلةَ التَّعليلِ للأمرِ بالاستعاذةِ مِن الشَّيطانِ إذا أحسَّ بِنَزغِ الشَّيطانِ[2].

- والطَّائِفُ هو النَّازِلُ بالمكانِ قبل دُخولِه المكانَ، أُطلِقَ هنا على الخاطِرِ الذي يخطُرُ في النَّفسِ، يبعَثُ على فِعلِ شَيءٍ نهى اللهُ عن فِعلِه؛ شَبَّه ذلك الخاطِرَ في مَبدأِ جَوَلانِه في النَّفسِ بِحُلولِ الطَّائِفِ قبل أن يستقِرَّ[3].

- في كَلمةِ (إذا) مِن قَولِه: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾ مع

(١) يُنظَر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٩٦).
(٢) يُنظَر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٣١).
(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٣٢).

التعبيرِ بِفعلِ ﴿مَسَّهُمْ﴾ الدَّالِّ على إصابةٍ غيرِ مَكينةٍ- إشارةٌ إلى أنَّ الفَزَعَ إلى اللهِ مِن الشَّيطانِ، عند ابتداءِ إلمامِ الخواطِرِ الشَّيطانيَّةِ بالنَّفسِ؛ لأنَّ تلك الخواطِرَ إذا أُمهِلَت لم تلبَثْ أن تصيرَ عَزمًا ثم عملًا[1].

- والفاءُ في ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ لتفريعِ الإبصارِ على التذكُّرِ، وأكَّدَ معنى (فاء) التَّعقيبِ بـ(إذا) الفُجائيَّةِ الدَّالةِ على حُصولِ مَضمونِ جُملَتِها دفعةً بدونِ تَريُّثٍ، أي: تذكَّروا تذكُّرَ ذوي عَزْمٍ، فلم تتريَّثْ نفوسُهم أن تَبيَّنَ لها الحقُّ الوازِعُ عن العَمَلِ بالخواطِرِ الشَّيطانيَّةِ، فابتعَدَت عنها، وتمسَّكَت بالحَقِّ، وعَمِلَت بما تذكَّرَت[2].

- ووصْفُهم باسمِ الفاعِلِ ﴿مُبْصِرُونَ﴾ دونَ الفِعلِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ الإبصارَ ثابِتٌ لهم مِن قَبلُ، وليس شيئًا مُتجدِّدًا، ولذلك أخبَرَ عنهم بالجملةِ الاسميَّةِ الدَّالةِ على الدَّوامِ والثَّباتِ[3].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ عطفٌ على جُملةِ ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾ عطفَ الضِّدِّ على ضِدِّه[4].

٥- قولُه: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

- قوله: ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ مُستأنفةٌ

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٣٢-٢٣٣).

(٢) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٣٣).

قال البقاعي: (لَمَّا كانوا بإسراعِ التذكُّرِ كأنَّهم لم يَمسَّهم شيءٌ مِن أمْرِه؛ أشار إلى ذلك بالجُملةِ الاسميَّةِ مُؤكِّدًا لسرعةِ البَصرِ بإذا الفُجائيَّة) ((نظم الدرر)) (٨/ ٢٠٦).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٣٣).

(٤) يُنظَر: ((المصدر السابق)).

لابتداءِ كَلامٍ في التَّنويهِ بشأنِ القُرآنِ، مُنقطعةٌ عَن المَقولِ؛ للانتقالِ مِن غَرَضٍ إلى غرَضٍ، بمنزلةِ التَّذييلِ لِمَجموعِ أغراضِ السُّورةِ، والخطابُ للمُسلمين. ويجوزُ أن تكونَ مِن تمامِ القَولِ المأمورِ بأن يجيبَهم به صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فيكون الخِطابُ للمُشركينَ، ثمَّ وقع التخلُّصُ لِذكرِ المُؤمنينَ بِقَوله: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(١).

- وجمَعَ (البصائِرَ)؛ لأنَّ في القرآنِ أنواعًا مِن الهدى على حسَبِ النَّواحي التي يَهدِي إليها(٢)، وأفرَدَ (الهدى والرحمة)؛ لأنَّهما جِنسانِ عامَّانِ يَشملانِ أنواعَ البَصائِرِ؛ فالهُدى يُقارِنُ البَصائِرَ، والرَّحمةُ غايةٌ للبصائِرِ(٣).

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٣٧).

(٢) مِن تنويرِ العَقلِ في إصلاحِ الاعتقادِ، وتسديدِ الفَهمِ في الدِّينِ، ووضعِ القَوانينِ للمُعاملاتِ والمعاشرةِ بين النَّاسِ، والدَّلالةِ على طُرُقِ النَّجاحِ والنَّجاةِ في الدنيا، والتَّحذيرِ مِن مهاوي الخُسرانِ. يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٣٨).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٣٨).

الآيات (٢٠٤-٢٠٦)

﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤) وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ (٢٠٥) إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ (٢٠٦) ﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿وَأَنْصِتُوا﴾: الإنصاتُ: السُّكوتُ للاستماعِ، مع ترْكِ الكَلامِ، وَأصلُ (نصت) يدُلُّ على السُّكوتِ[١].

﴿وَخِيفَةً﴾: أي: خوفًا مِن اللهِ، وأصلُه يدلُّ على الذُّعرِ والفَزَعِ[٢].

﴿بِالْغُدُوِّ﴾: جمع غَدَاةٍ: وهي أولُ النَّهارِ، وأصْلُ (غدو): يَدُلُّ عَلَى زَمَانٍ[٣].

﴿وَالْآصَالِ﴾: جمعُ أُصُلٍ، والأُصُل: جمعُ أصيلٍ: وهو آخِرُ النَّهارِ[٤].

﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾: أي: لا يتكبَّرونَ، والاستكبارُ: أن يتشبَّعَ الإنسانُ فيُظهِرَ مِن نَفْسِه ما ليس له، وأصلُ (كبر): يدلُّ على خلافِ الصِّغَرِ[٥].

﴿وَيُسَبِّحُونَهُ﴾: أي: يُعظِّمونَه ويُنزِّهونَه عن كلِّ سُوءٍ، وأصل (سبح): يدلُّ

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٥٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٥٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٧).

على جِنسٍ مِن العبادةِ[١].

المَعنى الإجماليُّ:

يأمرُ اللهُ عبادَه في حالِ تِلاوةِ القُرآنِ أن يستمِعُوا له ويُنصِتوا؛ لعلَّهم يُرحَمونَ بذلك.

وأمرَ اللهُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يذكُرَه بلِسانِه في نفسِه بحيث لا يشعُرُ بذلك أحدٌ، مُتخَشِّعًا متذلِّلًا لله، وخائفًا منه عزَّ وجلَّ، ومن عقابِه، وأن يذكُرَه أيضًا بلِسانِه مِن غَيرِ رَفعِ الصَّوتِ أوَّلَ النَّهارِ وآخِرَه، ونهاه أن يكونَ مِن الغافلينَ.

وأخبَرَ تعالى أنَّ الذينَ عِندَه مِن الملائكةِ، لا يتكبَّرونَ عن عبادَتِه سُبحانه، ويُنزِّهونَه عن كُلِّ سُوءٍ، وله وَحْدَه يَسجُدونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكرَ اللهُ تعالى أنَّ القُرآنَ بَصائِرُ وهُدًى ورحمةٌ؛ أمرَ باستماعِه إذا شُرِعَ في قراءتِه، وبالإنصاتِ- وهو السُّكوتُ مع الإصغاءِ إليه؛ إعظامًا له واحترامًا، ولأنَّ ما اشتمَلَ على هذه الأوصافِ مِن البَصائِرِ والهُدى والرَّحمةِ، حَريٌّ بأن يُصغى إليه؛ حتى يحصُلَ منه للمُنصِتِ هذه النَّتائِجُ العَظيمةُ، وينتفِعَ بها فيستبصِرَ مِن العَمى، ويهتديَ مِن الضَّلالِ، ويُرحَمَ بها[٢].

﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٣٩).

(٢) يُنظَر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٦١)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٣٦).

أي: وإذا قُرِئَ عليكم القرآنُ فأَصْغُوا له سَمعَكم، وأحضِرُوا قلوبَكم؛ لِتتفهَّموا آياتِه، واصمُتُوا حينَ تسمَعونَه لِتتدبَّروه[1].

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

أي: استَمِعوا للقُرآنِ وأنصِتوا له؛ لِيرحَمَكم اللهُ تعالى[2].

﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه بعد أن أُمِرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الآيةِ السَّابقة بما أُمِرَ بتبليغِه مِن الآياتِ المتقَدِّمةِ، وأُمِرَ النَّاسُ باستماعِ القُرآنِ، كان ذلك يستلزِمُ أمْرَ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بقراءةِ القُرآنِ عليهم قراءةً جَهريَّةً يَسمعونَها، بصوتٍ عالٍ رفيعٍ؛ لِيحصلَ المقصودُ مِن تبليغِ الوحيِ والرِّسالةِ، ثم إنَّه تعالى أردَفَ ذلك الأمرَ، بأن أمَرَه في هذه الآيةِ بأن يذكرَ ربَّه في نفسِه، وهو التذكُّرُ الخاصُّ به، فأمَرَه بأن يذكُرَ اللهَ ما استطاع، وكيفما تسنَّى له، وفي أوقاتِ النَّهارِ المختلفةِ[3].

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٥٨)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٥٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٣٦).

قال ابنُ تيميَّةَ: (قال الإمامُ أحمدُ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾: أجمعَ النَّاسُ أنَّها نزلت في الصَّلاةِ. وقد قيل: في الخُطبةِ، والصَّحيحُ أنَّها نزلت في ذلك كُلِّه). ((الفتاوى الكبرى)) (٥/ ٣٥٥). ويُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٦٧).

وقال السَّعدي: (هذا الأمرُ عامٌّ في كلِّ مَن سَمِعَ كِتابَ اللهِ يُتلَى؛ فإنَّه مأمورٌ بالاستماعِ له والإنصاتِ، والفَرقُ بين الاستماعِ والإنصاتِ: أنَّ الإنصاتَ في الظَّاهِرِ بتَركِ التحَدُّثِ، أو الاشتغالِ بما يَشغَلُ عن استماعِه. وأمَّا الاستماعُ له: فهو أن يُلقِيَ سَمعَه، ويُحضِرَ قَلبَه ويتدبَّرَ ما يستمِعُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٤). ويُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٣٩).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٥٨)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣١٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٤).

(٣) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٤١-٤٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٤١).

وأيضًا لَمَّا أمَرَهم تعالى بالاستماعِ والإنصاتِ إذا شُرِعَ في قراءةِ القُرآنِ، ارتقى مِن أمْرِهم إلى أمْرِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يذكُرَ ربَّه في نَفسِه، أي: بحيثُ يراقِبُه ويذكُرَه في الحالةِ التي لا يَشعُرُ بها أحَدٌ، وهي الحالةُ الشَّريفةُ العُليا(١)، فقال تعالى:

﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ ﴾.

أي: واذكُرِ اللهَ تعالى بلسانِك فيما بينك وبينَه(٢)، مِن حيثُ لا يشعُرُ بذلك أحَدٌ، متذكِّرًا ومُستحضِرًا بقَلْبِك عظَمَته وصِفاتِه، وثوابَه وعقابَه، ونحوَ ذلك(٣).

---

(١) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٦٢).

(٢) قال الرازي: (قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ وإن كان ظاهِرُه خطابًا مع النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، إلَّا أنَّه عامٌّ في حَقِّ كُلِّ المُكَلَّفين). ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٤٥)، وينظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٤).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٦٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٣-٣٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٦٢-٢٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٤١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٦١، ٤٦٣).

وممَّن ذهب إلى أنَّ هذا الذِّكرَ في النَّفسِ يكونُ باللِّسانِ: ابنُ تيميَّةَ، وابنُ عاشور. يُنظَر: ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ١٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٤١)، ونسبه ابنُ عطيَّةَ للجُمهورِ، فقال: (والجُمهورُ على أنَّ الذِّكرَ لا يكونُ في النَّفسِ، ولا يراعى إلَّا بحركةِ اللِّسانِ، ويدلُّ على ذلك مِن هذه الآيةِ قولُه: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ فهذه مَرتبةُ السِّرِّ والمخافتةِ باللَّفظِ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٩٤).

وقال ابنُ عاشور: (وذلك يشمَلُ قراءةَ القُرآنِ وغيرِ القُرآنِ؛ مِن الكلامِ الذي فيه تمجيدُ الله وشُكرُه ونحوُ ذلك، مثلُ كلمةِ التَّوحيدِ، والحَوقَلةِ، والتَّسبيحِ والتَّكبيرِ، والدُّعاءِ ونحوِ ذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٤١).

وقيل المرادُ بالذِّكرِ هنا: الذِّكرُ النَّفسانيُّ بالقَلبِ بالتدبُّرِ والاعتبارِ، والتفكُّرِ في عظمةِ الله تعالى وأسمائِه وصفاتِه وآياتِه دونَ تَحريكِ اللِّسانِ، وممَّن ذهب إلى ذلك: أبو حيان، والشِّنقيطي. يُنظَر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٦٣)، ((العذب النمير)) (٤/ ٤٦١). ويُنظَر أيضًا: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٨٤).

وقال ابن تيمية: (قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ فأمَرَ بذِكرِ اللهِ في نَفسِه، فقد يقال: هو ذِكرُه في قَلبِه =

كما قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٢].

وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٥].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: أنا عندَ ظنِّ عَبدِي بي، وأنا مَعَه حين يذكُرُني، إنْ ذَكَرَني في نفسِه، ذكَرتُه في نَفسي، وإنْ ذَكَرَني في ملأٍ، ذَكَرتُه في ملأٍ هم خيرٌ منهم))(١).

﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾.

أي: اذكُرِ اللهَ تعالى، وأنت مُتخشِّعٌ متذلِّلٌ، متواضِعٌ مُستكينٌ لله، وخائفٌ وَجِلُ القَلبِ من اللهِ تعالى، ومن عقابِه- سُبحانه(٢).

= بلا لسانِه؛ لقولِه بعد ذلك: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ وقد يُقالُ- وهو أصَحُّ-: بل ذِكرُ اللهِ في نَفسِه باللِّسانِ مع القَلبِ، ونظيرُ قَولِه: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ قولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما رَوى عن ربِّه: «مَن ذكَرَني في نفسِه ذَكَرتُه في نفسي، ومن ذكَرَني في ملأٍ ذَكَرتُه في ملأٍ خَيرٍ منه»، وهذا يدخُلُ فيه ذِكرُه باللِّسانِ في نَفسِه، فإنَّه جعَلَه قسيمَ الذِّكرِ في المَلأِ، وهو نظيرُ قَولِه: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾، والدَّليلُ على ذلك أنَّه قال: ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾، ومعلومٌ أنَّ ذِكرَ اللهِ المشروعَ بالغُدوِّ والآصالِ في الصَّلاةِ وخارجِ الصَّلاة؛ هو باللِّسانِ مع القلبِ، مثل: صلاتَيِ الفَجرِ والعَصرِ، والذِّكرِ المَشروعِ عَقِبَ الصَّلاتينِ، وما أمر به النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وعلَّمَه وفَعَلَه مِن الأذكارِ، والأدعِيَةِ المأثورةِ مِن عَمَلِ اليومِ واللَّيلة المشروعةِ طرفَيِ النَّهارِ بالغُدوِّ والآصالِ. وقد يدخُلُ في ذلك أيضًا ذِكرُ اللهِ بالقَلبِ فقط؛ لكنْ يكونُ الذِّكرُ في النَّفسِ كاملًا وغيرَ كامل؛ فالكامِلُ باللِّسانِ مع القلبِ، وغيرُ الكامِلِ بالقَلبِ فقط). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٣٣- ٣٥). وأيضًا (٧/ ١٣٥).

(١) رواه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) واللفظ له.

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٩٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٦١).

قال الشِّنقيطي: (﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ قيل: هما مفعولانِ لأجلِهما، أي: لأجْلِ التضرُّعِ. والتضرُّعُ معناه: التذلُّل والتخشُّع والتَّواضُع؛ أي: لأجلِ التَّذلُّلِ والتخشُّعِ والتواضُعِ لِرَبِّ العالمين. =

﴿ وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾.

أي: اذكُرِ اللهَ - عزَّ وجلَّ - بلسانِك، في خفاءٍ من القَولِ، من غيرِ رفعٍ للصَّوتِ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠].

وعن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كنَّا مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فكنَا إذا أشرَفْنا على وادٍ هَلَّلْنا وكَبَّرْنا، ارتفَعَت أصواتُنا، فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: يا أيُّها النَّاسُ، ارْبَعُوا(٢) على أنفُسِكم؛ فإنَّكم لا تَدْعُونَ أصَمَّ ولا غائبًا، إنَّه معكم، إنَّه سَميعٌ قريبٌ))(٣).

﴿ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴾.

أي: اذكُرِ اللهَ في أوَّلِ النَّهارِ، وفي آخِرِه مِن العَصرِ إلى المَغرِبِ(٤).

كما قال تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٥].

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٢].

= وقال بعضُ العلماء: ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ مصدرانِ مُنكَّرانِ بمعنى الحال، أي: في حالِ كَونِك مُتضَرِّعًا خائفًا، والكُلُّ مُحتَمَلٌ. ((العذب النمير)) (٤/ ٤٦١). ويُنظَر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٦٣).

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٦٣).

(٢) ارْبَعوا (بهمزة وصل وفتح الباء): أي ارفُقُوا ولا تُجهِدوا أنفُسَكم. ينظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ١٨٨).

(٣) رواه البخاري (٢٩٩٢) ومسلم (٢٧٠٤)، واللفظ للبخاري.

(٤) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٥٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٦٤).

﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾.

أي: وأكثِرْ مِن ذِكرِ اللهِ تعالى، ولا تكُنْ مِن الغافِلينَ عن ذِكرِه- سُبحانَه[1].

كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وقال سبحانه: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩].

وقال جلَّ جلاله: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ (٢٠٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا رغَّبَ اللهُ تعالى رسولَه في الذِّكرِ، وفي المواظبةِ عليه، ذكَرَ عَقيبَه ما يقَوِّي دواعيَه، فبيَّنَ أنَّ الملائكةَ- مع نهايةِ شَرَفِهم، وغايةِ طَهارَتِهم، وعِصمَتِهم وبراءَتِهم عن بواعثِ الشَّهوةِ والغَضبِ، وحوادثِ الحقدِ والحَسَد- لَمَّا كانوا مُواظِبينَ على العبوديَّةِ والسُّجودِ والخُضوعِ والخُشوعِ؛ فالإنسانُ- مع

(١) يُنظَر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٦٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٤٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٦٤).

قال الشنقيطي: (معلوم أنه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يغفلُ عن ذكرِ ربِّه، ولكنه يُؤمر ويُنهى ليشرعَ لأُمَّتِه على لسانِه). ((العذب النمير)) (٤/ ٤٦٤).

كَونِه مُبتلًى بظُلُماتِ عالَم الجُسمانيَّاتِ، ومُستعِدًّا للَّذَّاتِ البشريَّةِ والبواعِثِ الإنسانيَّةِ- أولى بالمُواظبةِ على الطَّاعةِ(١).

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ ﴾.

أي: إنَّ الملائكةَ الَّذين عند اللهِ تعالى، لا يتكبَّرونَ عن عبادتِهِ سُبحانَه؛ فهم خاضِعونَ لِرَبِّهم، مُتذلِّلونَ له، ومُنقادونَ لأوامِره سُبحانه(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩].

وقال سُبحانه: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٤٩-٥٠].

﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾.

أي: والملائكةُ ينزِّهونَ اللهَ عزَّ وجلَّ عن كلِّ سُوءٍ(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ٥].

وقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [غافر: ٧].

---

(١) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٤٥).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٧١)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٦٥).

قال القرطبي: (يعني الملائكةَ، بإجماعٍ). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٥٦).

(٣) يُنظَر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٦٦).

وقال جلَّ جلاله: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: ٧٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: ١٦٥-١٦٦].

﴿وَلَهُ يَسْجُدُونَ ۩﴾.

أي: وله- وَحْدَه لا شريكَ له- يَسجُدونَ سُجودَ تذلُّلٍ وخُضوعٍ، وتواضُعٍ له تعالى، ويخصُّونه بأشرفِ عبادةٍ[١].

عن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((إنِّي أرى ما لا تَرَونَ، وأسمَعُ ما لا تَسمعونَ: أَطَّتِ[٢] السَّماءُ، وحُقَّ لها أن تَئِطَّ؛ والَّذي نفسي بيَدِه، ما فيها موضِعُ أربعةِ أصابعَ، إلَّا ومَلَكٌ واضعٌ جَبهتَه، ساجِدٌ للهِ...))[٣].

الفَوائدُ التربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ مَن لازَمَ على الاستماعِ والإنصاتِ حين يُتلَى كتابُ اللهِ؛ فإنَّه ينالُ خيرًا كثيرًا،

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٦٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٦٦).

(٢) أطَّتِ: أي: صوَّتَت وأنَّت، وسُمِعَ لها أطيطٌ. والأطيطُ: هو صريرُ الرَّحْلِ على البَعيرِ، إذا كان الحِملُ ثقيلًا. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٨/ ٣٣٥٠)، ((شرح الأربعين النووية)) للعثيمين (ص: ٤٢).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٣١٢)، وابن ماجة (٤١٩٠)، وأحمد (٢١٥١٦).
قال الترمذي: حسن غريب، وصححه ابن العربي في ((عارضة الأحوزي)) (٥/ ١٥٢)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح الترمذي)) (٢٣١٢).

وعِلمًا غَزيرًا، وإيمانًا مُستمِرًّا مُتجدِّدًا، وهدًى مُتزايدًا، وبصيرةً في دينِه؛ ولهذا رتَّبَ اللهُ حُصولَ الرَّحمةِ عليهما، فدلَّ ذلك على أنَّ مَن تُلِيَ عليه الكتابُ، فلم يستمِعْ له ويُنصِتْ، أنَّه مَحرومُ الحَظِّ مِن الرَّحمةِ، قد فاته خيرٌ كثيرٌ[1].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ قال بعضُهم: الرَّحمةُ أقرَبُ شَيءٍ إلى مُستمِعِ القُرآنِ؛ لهذه الآيةِ[2].

٣- الترغيبُ في الإكثارِ مِن ذِكرِ اللهِ آناءَ اللَّيلِ والنَّهارِ، خصوصًا طرَفَيِ النَّهارِ، والتَّحذيرُ مِن الغفلةِ؛ يُرشِدُ إلى ذلك قَولُ الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾[3].

٤- لا يريدُ اللهُ تعالى أن يتكثَّرَ بعبادةِ الخَلقِ مِن قِلَّةٍ، ولا ليتعزَّزَ بها من ذِلَّةٍ، وإنَّما يريدُ نَفعَهم، وأن يربَحوا عليه أضعافَ أضعافَ ما عَمِلوا؛ فإنَّ لله تعالى عبادًا مُستديمينَ لعبادتِه، مُلازمينَ لِخدمَتِه، وهم الملائكةُ، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾[4].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ استدلَّ به من قال: إنَّ المأمومَ إذا سَمِعَ قراءةَ الإمامِ يستمِعُ لها، ويُنصِتُ لا يقرأُ بالفاتحةِ ولا غَيرِها، وإذا لم يسمَعْ قراءتَه بها، يقرأ الفاتحةَ وما زاد[5].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ

(١) يُنظَر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣١٤).
(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣١٩).
(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص:٣١٤).
(٤) يُنظَر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣١٤).
(٥) يُنظَر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ٢٠).

الْقَوْلِ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ المَشروعَ في الذِّكرِ كُلِّه؛ المخافتةُ، إلَّا أن يكونَ هناك سببٌ يُشرَعُ له الجَهرُ[1]، أو ما دلَّ دليلٌ خاصٌّ على مشروعيةِ الجهرِ به.

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ فيه دقيقةٌ، وهي أنَّ سَماعَ لَفظِ (الرَّبِّ) يُوجِبُ الرَّجاءَ، وسَماعَ لَفْظِ (التضَرُّع) و(الخِيفةِ) يوجِبُ الخوفَ، فلمَّا وقع الابتداءُ بما يُوجِبُ الرَّجاءَ، عَلِمْنا أنَّ جانِبَ الرَّجاءِ أقوى[2].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ خَصَّ (الغُدُوَّ) و(الآصالَ) بهذا الذِّكرِ؛ والحكمةُ فيه:

قيل: إنَّ عند الغُدوةِ انقلب الإنسانُ مِن النَّومِ- الذي هو كالموتِ- إلى اليقظةِ التي هي كالحياةِ، والعالَمُ انقلب من الظُّلْمة- التي هي طبيعةٌ عَدَميَّةٌ- إلى النُّورِ الذي هو طبيعةٌ وُجوديَّة. وأمَّا عند الآصالِ، فالأمرُ بالضِّدِّ؛ لأنَّ الإنسانَ ينقلِبُ فيه من الحياةِ إلى الموتِ، والعالَمُ ينقلِبُ فيه من النُّورِ الخالصِ إلى الظُّلمةِ الخالصةِ، وفي هذينِ الوَقتينِ يحصُلُ هذان النَّوعانِ مِن التَّغييرِ العَجيبِ القويِّ القاهِرِ، ولا يقدِرُ على مِثلِ هذا التَّغييرِ إلَّا الإلهُ الموصوفُ بالحِكمةِ الباهرةِ، والقُدرةِ غيرِ المُتناهية؛ فلهذه الحِكمةِ العَجيبةِ خَصَّ اللهُ تعالى هذينِ الوَقتينِ بالأمرِ بالذِّكرِ.

وقيل: إنَّما خُصَّا بالذِّكرِ؛ لأنَّ الصَّلاةَ بعد صلاةِ الصُّبحِ، وبعد صلاةِ العَصرِ مكروهةٌ، واستُحِبَّ للعبدِ أن يذكُرَ اللهَ تعالى فيهما؛ ليكونَ في جميعِ أوقاتِه مُشتغِلًا بما يقرِّبُه إلى اللهِ تعالى، مِن صلاةٍ وذِكرٍ.

وقيل: إنَّ أعمالَ العِبادِ تَصعَدُ أوَّلَ النَّهارِ وآخِرَه، فيصعَدُ عَمَلُ اللَّيلِ عند

---

(١) يُنظَر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ٤٦٨).

(٢) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٤٣).

صلاةِ الفَجرِ، ويصعَدُ عَملُ النَّهارِ بعد العَصرِ إلى الغُروبِ، فاستُحِبَّ له الذِّكرُ فيهما؛ ليكونَ ابتداءُ عَمَلِه بالذِّكرِ، وختامُه بالذِّكرِ.

وقيل: خَصَّ هذينِ الوَقتينِ لِشَرفِهما، والمرادُ دَوامُ الذِّكرِ لله(١).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ لَمَّا كان رُبَّما أوهمَ هذا الخُصوصَ بهَذينِ الوَقتينِ ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ وإن كان ظاهِرًا في الدَّوامِ، قال مُصَرِّحًا: ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ أي: في وَقتٍ غَيرِهما، بل كُن ذاكِرَه في كلِّ وَقتٍ، على كلِّ حالٍ(٢).

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ ذكرَ مِن طاعاتِهم أوَّلًا: كونَهم يُسبِّحونَ، والتَّسبيحُ عبارةٌ عن تنزيهِ اللهِ تعالى مِن كلِّ سُوءٍ، وذلك يرجِعُ إلى المعارفِ والعُلومِ، ثمَّ لَمَّا ذكَرَ التَّسبيحَ أردَفَه بذِكرِ السُّجودِ، وذلك يرجِعُ إلى أعمالِ الجَوارِحِ، وهذا الترتيبُ يدلُّ على أنَّ الأصلَ في الطَّاعةِ والعبوديَّةِ أعمالُ القلوبِ، ويتفرَّعُ عليها أعمالُ الجَوارِحِ(٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- **قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾** ذِكرُ اسْمِ (القُرآنِ) هنا إظهارٌ في مقامِ الإضمارِ؛ لأنَّ القرآنَ تقدَّمَ ذِكرُه بواسطةِ اسمِ الإشارةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ فنكتةُ هذا الإظهارِ: التَّنويهُ بهذا الأمرِ، وجَعْلُ جُملَتِه

(١) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٤٤)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٥٠-٥٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٢٠).

(٢) يُنظَر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢١١-٢١٢).

(٣) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٤٦).

مُستقلَّةً بالدَّلالةِ غَيرَ مُتوقِّفةٍ على غَيرِها، وهذا من وجوهِ الاهتمامِ بالكَلامِ، ومِن دواعي الإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ(١).

– والاستماعُ: الإصغاءُ. وصيغةُ الافتعالِ دالَّةٌ على المُبالغةِ في الفِعلِ(٢).

٢- قولُه: ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ أشَدُّ في الانتفاءِ وفي النَّهيِ مِن نحوِ: (ولا تَغفُلْ)؛ لأنَّه يَفرِضُ جماعةً يحِقُّ عليهم وصفُ الغافلينَ، فيُحَذِّرُ مِن أن يكونَ في زُمرَتِهم، وذلك أبيَنُ للحالةِ المنهيِّ عنها(٣).

٣- قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ يتنزَّلُ مَنزلةَ العِلَّة للأمرِ بالذِّكرِ؛ ولذلك صُدِّرَ بـ (إنَّ) التي هي لمجرَّدِ الاهتمامِ بالخَبَر، لا لرَدِّ تردُّدٍ أو إنكارٍ؛ لأنَّ المخاطَبَ مُنَزَّهٌ عن أن يتردَّدَ في خبرِ الله تعالى، فحَرفُ التوكيد في مثل هذا المقامِ يُغني غَناءَ فاءِ التَّفريعِ، ويُفيدُ التَّعليلَ، وفيها تعريضٌ بالمُشركينَ المُستكبرينَ عن عبادةِ الله، بأنَّهم مُنحطُّونَ عن تلك الدَّرَجاتِ(٤).

– وجهُ العُدولِ عن لفظِ الملائكةِ إلى الموصوليَّةِ في قَولِه: ﴿الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ ما تُؤذِنُ به الصِّلةُ مِن رِفعةِ مَنزِلَتِهم، فيتذرَّعُ بذلك إلى إيجادِ المُنافَسةِ في التخَلُّقِ بأحوالِهم(٥).

– قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ ليس المقصودُ به التَّنويهَ بِشأنِ الملائكةِ؛ لأنَّ التَّنويهَ بهم يكونُ بأفضَلَ مِن ذلك، وإنَّما أريدَ به التَّعريضُ

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٣٩).
(٢) يُنظَر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٤٢).
(٤) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٤٣).
(٥) يُنظَر: ((المصدر السابق)).

بالمُشركينَ، وأنَّهم على النَّقيضِ مِن أحوالِ الملائكةِ المُقرَّبينَ؛ فخليقٌ بهم أن يكونوا بُعَداءَ عَن مَنازِلِ الرِّفعةِ، والمقصودُ هو قَولُه: ﴿وَيُسَبِّحُونَهُ﴾ أي: يُنزِّهونَه بالقَولِ والاعتقادِ عن صِفاتِ النَّقصِ، وهذه الصِّلةُ هي المقصودةُ مِن التَّعليلِ للأمرِ بالذِّكرِ(١).

- وتقديمُ المعمولِ في قَولِه: ﴿وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ للدَّلالةِ على الاختصاصِ، أي: ولا يَسجُدونَ لِغَيره، وهذا أيضًا تَعريضٌ بالمُشركينَ الذين يَسجُدونَ لِغَيرِه، وصيغةُ المُضارِعِ تُفيدُ الاستمرارَ(٢).

تمَّ بحمدِ اللهِ المجلدُ السادسُ

ويليه المجلدُ السابعُ، وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ الأنفالِ

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٤٣-٢٤٤).

(٢) يُنظَر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٤٤).

الفهرس

الفهرس

سُورةُ الأعرافِ ٧
أسماءُ السُّورةِ ٧
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ٧
مقاصِدُ السُّورةِ ٨
مَوضوعاتُ السُّورةِ ٨
الآيات (١-٣) ١١
غريبُ الكَلِماتِ ١١
المَعْنَى الإجماليُّ ١١
تَفسيرُ الآياتِ ١٢
الفوائِدُ التربويَّةُ ١٤
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٥
بلاغةُ الآياتِ ١٦
الآيات (٤-٩) ١٩
غريبُ الكَلِماتِ ١٩
المَعْنَى الإجماليُّ ٢٠
تَفسيرُ الآياتِ ٢٠
الفوائِدُ التربويَّةُ ٢٨
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٩
بلاغةُ الآياتِ ٣٢
الآيات (١٠-١٨) ٣٦
غريبُ الكَلِماتِ ٣٦
مُشكِلُ الإعرابِ ٣٨
المَعْنَى الإجماليُّ ٣٨
تَفسيرُ الآياتِ ٣٩
الفوائِدُ التربويَّةُ ٤٨
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٥١
بلاغةُ الآياتِ ٥٦
الآيات (١٩-٢٥) ٦٨
غريبُ الكَلِماتِ ٦٨
مُشكِلُ الإعرابِ ٧٠
المَعْنَى الإجماليُّ ٧٠
تَفسيرُ الآياتِ ٧١
الفوائِدُ التربويَّةُ ٧٧
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٧٩
بلاغةُ الآياتِ ٨٢
الآيات (٢٦-٣٠) ٨٥
غريبُ الكَلِماتِ ٨٥
مُشكِلُ الإعرابِ ٨٦
المَعْنَى الإجماليُّ ٨٧
تَفسيرُ الآياتِ ٨٨
الفوائِدُ التربويَّةُ ٩٨
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٠١
بلاغةُ الآياتِ ١٠٥
الآيتان (٣١-٣٢) ١١١
غريبُ الكَلِماتِ ١١١
المَعْنَى الإجماليُّ ١١١
تَفسيرُ الآيتينِ ١١٢
الفوائِدُ التربويَّةُ ١١٧

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١١٩
بلاغة الآيتين ١٢٠
الآيتان (٣٣-٣٤) ١٢٢
غريبُ الكَلِماتِ................ ١٢٢
المَعْنَى الإجماليُّ................ ١٢٣
تَفسيرُ الآيتين................ ١٢٣
الفوائِدُ التربويَّةُ................ ١٢٦
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٢٨
بلاغة الآيتين ١٢٩
الآيات (٣٥-٣٩)................ ١٣٢
غريبُ الكَلِماتِ................ ١٣٢
المَعْنَى الإجماليُّ................ ١٣٣
تَفسيرُ الآياتِ ١٣٤
الفوائِدُ التربويَّةُ................ ١٤٣
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٤٣
بلاغةُ الآياتِ................ ١٤٦
الآيتان (٤٠-٤١) ١٥١
غريبُ الكَلِماتِ................ ١٥١
المَعْنَى الإجماليُّ................ ١٥٢
تَفسيرُ الآيتَيْنِ................ ١٥٢
الفوائِدُ التربويَّةُ................ ١٥٧
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٥٨
بَلاغةُ الآيتَينِ ١٥٩
الآيتان (٤٢-٤٣) ١٦٣
غريبُ الكَلِماتِ................ ١٦٣
المَعْنَى الإجماليُّ................ ١٦٣
تَفسيرُ الآيتَينِ................ ١٦٣
الفوائِدُ التربويَّةُ................ ١٦٨
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٦٩
بَلاغةُ الآيتَينِ ١٧١
الآيات (٤٤-٤٩)................ ١٧٤
غريبُ الكَلِماتِ................ ١٧٤
المَعْنَى الإجماليُّ................ ١٧٥
تَفسيرُ الآياتِ ١٧٦
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٨٤
بلاغةُ الآياتِ................ ١٨٦
الآيات (٥٠-٥٣)................ ١٩١
غريبُ الكَلِماتِ................ ١٩١
المَعْنَى الإجماليُّ................ ١٩٢
تَفسيرُ الآياتِ ١٩٣
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٠٠
بلاغةُ الآياتِ................ ٢٠١
الآيات (٥٤-٥٦)................ ٢٠٤
غريبُ الكَلِماتِ................ ٢٠٤
مُشكِلُ الإعرابِ ٢٠٦
المَعْنَى الإجماليُّ................ ٢٠٧
تَفسيرُ الآياتِ ٢٠٧
الفوائِدُ التربويَّةُ................ ٢١٦
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٢٠
بلاغةُ الآياتِ................ ٢٢٤
الآيتان (٥٧-٥٨) ٢٢٩
غريبُ الكَلِماتِ................ ٢٢٩

المَعْنَى الإجماليُّ.................. ٢٣٠
تَفسيرُ الآيتَينِ.................. ٢٣٠
الفوائِدُ التربويَّةُ.................. ٢٣٦
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٣٧
بَلاغةُ الآيتَينِ.................. ٢٤١
الآيات (٥٩-٦٤).................. ٢٤٦
غريبُ الكَلِماتِ.................. ٢٤٦
المَعْنَى الإجماليُّ.................. ٢٤٦
تَفسيرُ الآياتِ ٢٤٧
الفوائِدُ التربويَّةُ.................. ٢٥٣
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٥٤
بلاغةُ الآياتِ.................. ٢٥٧
الآيات (٦٥-٧٢).................. ٢٦٩
غريبُ الكَلِماتِ.................. ٢٦٩
المَعْنَى الإجماليُّ.................. ٢٧٠
تَفسيرُ الآياتِ ٢٧١
الفوائِدُ التربويَّةُ.................. ٢٧٩
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٨١
بلاغةُ الآياتِ.................. ٢٨٥
الآيات (٧٣-٧٩).................. ٢٩١
غريبُ الكَلِماتِ.................. ٢٩١
المَعْنَى الإجماليُّ.................. ٢٩٤
تَفسيرُ الآياتِ ٢٩٥
الفوائِدُ التربويَّةُ.................. ٣٠١
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٠٣
بلاغةُ الآياتِ.................. ٣٠٧
الآيات (٨٠-٨٤).................. ٣١٧
غريبُ الكَلِماتِ.................. ٣١٧
المَعْنَى الإجماليُّ.................. ٣١٨
تَفسيرُ الآياتِ ٣١٨
الفوائِدُ التربويَّةُ.................. ٣٢٣
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٢٤
بلاغةُ الآياتِ.................. ٣٢٩
الآيات (٨٥-٨٧).................. ٣٣٨
غريبُ الكَلِماتِ.................. ٣٣٨
المَعْنَى الإجماليُّ.................. ٣٣٩
تَفسيرُ الآياتِ ٣٣٩
الفوائِدُ التربويَّةُ.................. ٣٤٥
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٤٩
بلاغةُ الآياتِ.................. ٣٥٣
الآيات (٨٨-٩٣).................. ٣٥٦
غَريبُ الكلماتِ.................. ٣٥٦
المعنى الإجماليُّ.................. ٣٥٧
تَفسيرُ الآياتِ ٣٥٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ.................. ٣٦٦
الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ ٣٦٨
بلاغةُ الآياتِ.................. ٣٦٩
الآيات (٩٤-١٠٠).................. ٣٧٦
غريب الكلمات.................. ٣٧٦
المعنى الإجماليُّ.................. ٣٧٨
تَفسيرُ الآياتِ ٣٧٩
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ.................. ٣٨٧

الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ ٣٨٩
بلاغةُ الآياتِ.................. ٣٩١
الآيات (١٠١-١٠٣) ٣٩٤
غريبُ الكلماتِ................. ٣٩٤
المعنى الإجماليُّ.................. ٣٩٤
تَفسيرُ الآياتِ ٣٩٥
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ................. ٤٠٠
الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ ٤٠١
بلاغةُ الآياتِ.................. ٤٠٢
الآيات (١٠٤-١١٢) ٤١٠
غريب الكلمات................. ٤١٠
المعنى الإجماليُّ.................. ٤١١
تَفسيرُ الآياتِ ٤١١
الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ ٤١٩
بلاغة الآيات.................. ٤٢٢
الآيات (١١٣-١١٦) ٤٢٧
غريبُ الكلماتِ................. ٤٢٧
مُشْكِلُ الإعرابِ ٤٢٧
المعنى الإجماليُّ.................. ٤٢٨
تَفسيرُ الآياتِ ٤٢٨
الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ ٤٣٢
بلاغة الآيات.................. ٤٣٣
الآيات (١١٧-١٢٦) ٤٣٦
غريبُ الكلماتِ................. ٤٣٦
المعنى الإجماليُّ.................. ٤٣٧
تَفسيرُ الآياتِ ٤٣٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ................. ٤٤٦
الفوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ ٤٤٧
بلاغة الآيات.................. ٤٥١
الآيات (١٢٧-١٢٩) ٤٦٠
غريبُ الكلماتِ................. ٤٦٠
المعنى الإجماليُّ.................. ٤٦٠
تَفسيرُ الآياتِ ٤٦١
الفَوائِدُ التربويَّةُ................. ٤٦٦
الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٦٨
بلاغة الآيات.................. ٤٦٩
الآيات (١٣٠-١٣٣) ٤٧٢
غريبُ الكلماتِ................. ٤٧٢
المعنى الإجماليُّ.................. ٤٧٣
تَفسيرُ الآياتِ ٤٧٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ................. ٤٨١
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٨٢
بلاغة الآيات.................. ٤٨٣
الآيات (١٣٤-١٣٧) ٤٨٦
غريبُ الكلماتِ................. ٤٨٦
المعنى الإجماليُّ.................. ٤٨٧
تَفسيرُ الآياتِ ٤٨٧
الفَوائِدُ التربويَّةُ................. ٤٩٦
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ ٤٩٧
بَلاغةُ الآياتِ.................. ٤٩٨
الآيات (١٣٨-١٤١) ٥٠١
غريبُ الكلماتِ................. ٥٠١

مُشْكِلُ الإعرابِ ٥٠٢
المعنى الإجماليُّ................... ٥٠٣
تَفسيرُ الآياتِ ٥٠٣
الفَوائِدُ التربويَّةُ................. ٥١٠
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ ٥١١
بَلاغَةُ الآياتِ................. ٥١٤
الآيتان (١٤٢-١٤٣) ٥١٨
غريبُ الكلماتِ................. ٥١٨
مُشْكِلُ الإعرابِ ٥١٩
المعنى الإجماليُّ................... ٥٢٠
تَفسيرُ الآيتين................... ٥٢٠
الفَوائِدُ التربويَّةُ................. ٥٢٦
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ ٥٢٧
بلاغة الآيتين ٥٣١
الآيتان (١٤٤-١٤٥) ٥٣٢
غريبُ الكلماتِ................. ٥٣٢
مُشكلُ الإعرابِ ٥٣٢
المعنى الإجماليُّ................... ٥٣٣
تَفسيرُ الآيتَيْنِ................... ٥٣٣
الفَوائدُ التَّربويَّةُ................. ٥٤٠
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٥٤٠
بلاغةُ الآيتَينِ.................. ٥٤١
الآيتان (١٤٦-١٤٧) ٥٤٤
غريبُ الكلماتِ................. ٥٤٤
المعنى الإجماليُّ................... ٥٤٤
تَفسيرُ الآيتَيْنِ................... ٥٤٥
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ................. ٥٥٠
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٥٥١
بَلاغةُ الآيتَينِ.................. ٥٥٢
الآيتان (١٤٨-١٤٩) ٥٥٤
غريب الكلمات................. ٥٥٤
المعنى الإجماليُّ................... ٥٥٤
تَفسيرُ الآيتَيْنِ................... ٥٥٥
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٥٥٨
بلاغة الآيتين ٥٦٠
الآيات (١٥٠-١٥٣) ٥٦٢
غريبُ الكلماتِ................. ٥٦٢
مُشْكِلُ الإعرابِ ٥٦٣
المعنى الإجماليُّ................... ٥٦٣
تَفسيرُ الآياتِ ٥٦٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ................. ٥٧٣
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٥٧٤
بَلاغَةُ الآياتِ................. ٥٧٤
الآيات (١٥٤-١٥٧) ٥٧٧
غريبُ الكلماتِ................. ٥٧٧
مُشْكِلُ الإعرابِ ٥٧٩
المعنى الإجماليُّ................... ٥٨١
تَفسيرُ الآياتِ ٥٨١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ................. ٥٩٨
الفوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٥٩٩
بَلاغةُ الآياتِ................. ٦٠٣
الآية (١٥٨)...................... ٦٠٩

المعنى الإجماليُّ ٦٠٩
تَفسيرُ الآية ٦٠٩
الفَوائِد التربويَّة ٦١٤
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٦١٦
بلاغةُ الآيةِ ٦١٨
الآيتان (١٥٩-١٦٠) ٦٢٠
غَريبُ الكَلِماتِ ٦٢٠
مشكل الإعراب ٦٢٢
المعنى الإجماليُّ ٦٢٢
تَفسيرُ الآيتين ٦٢٣
الفَوائِدُ التربويَّةُ ٦٢٨
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٦٢٨
بلاغة الآيتين ٦٢٩
الآيتان (١٦١-١٦٢) ٦٣٢
غَريبُ الكَلِماتِ ٦٣٢
المعنى الإجماليُّ ٦٣٢
تَفسيرُ الآيتين ٦٣٣
الفَوائِد التربويَّة ٦٣٧
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٦٣٧
بلاغة الآيتين ٦٣٨
الآيات (١٦٣-١٦٦) ٦٤٤
غَريبُ الكَلِماتِ ٦٤٤
المعنى الإجماليُّ ٦٤٦
تَفسيرُ الآياتِ ٦٤٧
الفَوائِد التربويَّة ٦٥٥
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٦٥٥
بلاغة الآيات ٦٥٨
الآيات (١٦٧-١٧٠) ٦٦٠
غَريبُ الكَلِماتِ ٦٦٠
المعنى الإجماليُّ ٦٦١
تَفسيرُ الآياتِ ٦٦٢
الفَوائِد التربويَّة ٦٧٢
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٦٧٤
بلاغة الآيات ٦٧٥
الآيات (١٧١-١٧٤) ٦٧٨
غريبُ الكَلِماتِ ٦٧٨
المَعنى الإجماليُّ ٦٧٩
تَفسيرُ الآياتِ ٦٧٩
الفَوائِدُ التربويَّةُ ٦٨٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٦٨٧
بلاغةُ الآياتِ ٦٨٨
الآيات (١٧٥-١٧٨) ٦٩١
غريبُ الكَلِماتِ ٦٩١
المَعنى الإجماليُّ ٦٩٣
تَفسيرُ الآياتِ ٦٩٣
الفَوائِدُ التربويَّةُ ٧٠٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٧٠٥
بلاغةُ الآياتِ ٧٠٧
الآيات (١٧٩-١٨٣) ٧١١
غريبُ الكَلِماتِ ٧١١
المَعنى الإجماليُّ ٧١٣
تَفسيرُ الآياتِ ٧١٣

الفَوائِدُ التربويَّةُ.......... ٧٢٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٧٢٤
بلاغةُ الآياتِ.......... ٧٢٧
الآيات (١٨٤-١٨٦) ٧٣٠
غريبُ الكَلِماتِ.......... ٧٣٠
المَعنى الإجماليُّ.......... ٧٣١
تَفسيرُ الآياتِ ٧٣١
الفَوائِدُ التربويَّةُ.......... ٧٣٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٧٣٧
بلاغةُ الآياتِ.......... ٧٣٧
الآيتان (١٨٧-١٨٨) ٧٤١
غريبُ الكَلِماتِ.......... ٧٤١
مُشكِلُ الإعرابِ ٧٤٢
المَعنى الإجماليُّ.......... ٧٤٢
تَفسيرُ الآيتينِ.......... ٧٤٣
الفَوائِدُ التربويَّةُ.......... ٧٤٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٧٥٠
بلاغةُ الآيتينِ.......... ٧٥٠
الآيات (١٨٩-١٩٣) ٧٥٦
غريبُ الكَلِماتِ.......... ٧٥٦
المَعنى الإجماليُّ.......... ٧٥٧
تَفسيرُ الآياتِ ٧٥٧
الفَوائِدُ التربويَّةُ.......... ٧٦٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٧٦٥
بلاغةُ الآياتِ.......... ٧٦٧
الآيات (١٩٤-١٩٨) ٧٧١
غريبُ الكَلِماتِ.......... ٧٧١
المَعنى الإجماليُّ.......... ٧٧١
تَفسيرُ الآياتِ ٧٧٢
الفَوائِدُ التربويَّةُ.......... ٧٧٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٧٧٩
بلاغةُ الآياتِ.......... ٧٨٠
الآيات (١٩٩-٢٠٣) ٧٨٤
غريبُ الكَلِماتِ.......... ٧٨٤
المَعنى الإجماليُّ.......... ٧٨٦
تَفسيرُ الآياتِ ٧٨٦
الفَوائِدُ التربويَّةُ.......... ٧٩٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٨٠٢
بلاغةُ الآياتِ.......... ٨٠٢
الآيات (٢٠٤-٢٠٦) ٨٠٩
غريبُ الكَلِماتِ.......... ٨٠٩
المَعنى الإجماليُّ.......... ٨١٠
تَفسيرُ الآياتِ ٨١٠
الفَوائِدُ التربويَّةُ.......... ٨١٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٨١٨
بلاغةُ الآياتِ.......... ٨٢٠
الفهرس ٨٢٦

التفسير المحرر

للقرآن الكريم

سورة الأنفال

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر / قنا

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد السابع

الدرر السنية
www.dorar.net

التفسير المحرر

للقرآن الكريم

٧

ⓗ مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٣٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مؤسسة الدرر السنية – القسم العلمي

التفسير المحرر – سورة الأنفال – المجلد السابع/ مؤسسة الدرر السنية –:

القسم العلمي – الظهران، ١٤٣٧هـ

٣٣٦ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٣-٤٠-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن – سورة الأنفال – تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٣٧/١٠٥٤٩

رقم الإيداع: ١٤٣٧/١٠٥٤٩

ردمك: ٣-٤٠-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م

الدرر السنية
www.dorar.net

مؤسسة الدرر السنية – المملكة العربية السعودية
ص. ب ٣٩٣٦٤ الظهران ٣١٩٤٢ – جوال: ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠
ت: ٠١٣٨٦٨٠١٢٣/٠ فاكس: ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨/٠ – بريد إلكتروني nashr@dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسِيرُ
سُورَةِ الأَنْفَالِ

سُورة الأنفالِ

أسماءُ السُّورة:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بِسُورةِ الأنفالِ(١).

فعن سعيدِ بنِ جبيرٍ، قال: (قلتُ لابن عباس: سورةُ الأنفالِ، قال: نزلتْ في بدرٍ)(٢).

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ الأنفالِ مَدَنيَّةٌ(٣) بَدْريَّةٌ(٤)، وحُكِي الإجماعُ على ذلك(٥).

مَقاصِدُ السُّورة:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ سُورةِ الأنفالِ:

---

(١) سُمِّيَت بذلك لِذكْرِ لَفظِ الأنفالِ في أوَّلِها، ولم يُذكَر في سورةٍ غيرِها، ولأنَّها بَيَّنَت حُكمَ الأنفالِ، وهي الغنائِمُ. يُنظَر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٢٢)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٢٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٤٥).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٤٥)، ومسلم (٣٠٣١).

(٣) يُنظَر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٣)، ((تفسير الثعالبي)) (٤/ ٣٢٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٤٩).

وقيل: سورةُ الأنفالِ مَدَنيَّةٌ إلَّا سبْعَ آياتٍ، مِن قَولِه: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى آخِرِ سَبعِ آياتٍ؛ فإنَّها نزلت بمكَّةَ. وقيل: غير آيةٍ، وهي قَولُه: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. وقيل: مَدنيَّةٌ غيرَ قَولِه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ فإنَّها نزَلَت بالبيداءِ في غَزوةِ بَدرٍ قبل القِتالِ.

يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٢٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٩٦)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٤٧).

(٤) يُنظَر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٦٠).

(٥) ممَّن حكَى الإجماعَ على ذلك ابنُ الجوزيِّ، والفيروزابادي، والبِقاعي. يُنظَر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ١٨٦)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٢٢)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ١٤٤).

بيانُ أسبابِ النصرِ، وبعضِ أحكامِ الجهادِ[١].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

من أبرَزِ مَوضوعاتِ سُورةِ الأنفالِ:

١- بَيانُ أحكامِ الأنفالِ- وهي الغَنائِمُ- وقِسمَتِها ومصارِفِها، والأمرُ بتَقوى اللهِ في ذلك وغَيرِه، والأمرُ بطاعةِ اللَّهِ ورَسولِه في أمرِ الغَنائِمِ وغَيرِها، وأمرُ المُسلمينَ بإصلاحِ ذاتِ بَينِهم، وأنَّ ذلك مِن مُقَوِّماتِ معنى الإيمانِ الكامِلِ.

٢- وصفُ المؤمنينَ الصادقينَ، وتبشيرُهم بالدرجاتِ الرفيعةِ والمنازِلِ العاليةِ.

٣- ذِكرُ الخُروجِ إلى غزوةِ بَدرٍ، وكراهيةِ فريقٍ مِن المؤمنينَ لذلك، وما لَقُيه المؤمنون في هذه الغزوةِ مِن نَصرٍ وتأييدٍ مِن الله، ولُطفِه بهم، وامتنانِه عليهم، والأمرِ بالاستعدادِ لِحَربِ الأعداءِ، والأمرِ باجتماعِ الكَلِمةِ، والنَّهيِ عن التَّنازُعِ، والأمرِ بأن يكونَ قَصدُ النُّصرةِ للدِّينِ نُصْبَ أعيُنِهم، ووصْفِ السَّبَبِ الذي أخرَجَ المسلمينَ إلى بدرٍ، ومَواقِعِ الجيشَينِ، وصفاتِ ما جرى مِن القِتالِ.

٤- توجيهُ عدةِ نداءاتٍ لِلمُؤمنينَ؛ وإرشادُهم في كلِّ واحدٍ منها إلى ما فيه خَيرُهم وفَلاحُهم.

٥- تذكيرُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بنِعمةِ اللهِ عليه؛ إذ أنجاه مِن مَكرِ المُشركينَ به بمكَّةَ.

٦- ذكرُ ما عليه المشركون مِن جهلٍ وعنادٍ.

٧- بيان أنَّ مُقامَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بمكَّةَ كان أمانًا لأهْلِها، فلمَّا فارَقَهم فقد حَقَّ عليهم عذابُ الدُّنيا؛ بما اقتَرفوا مِن الصَّدِّ عن المسجِدِ الحَرامِ.

---

(١) يُنظَر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٢٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢١٤)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي(٢/ ١٤٦)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٢٥١).

٨- دعوةُ المشركينَ للانتهاءِ عَن مُناوأةِ الإسلامِ، وإيذانُهم بالقتالِ، والتَّحذيرُ مِن المُنافِقينَ.

٩- تفصيلُ أمرِ الغنائِمِ، وبيانُ ما أُجمِلَ في أوَّلِ السُّورةِ.

١٠- ذكرُ أحكامِ العَهدِ بين المُسلمين والكُفَّارِ، وما يترتَّبُ على نَقضِهم العهدَ، ومتى يَحسُنُ السَّلْمُ.

١١- بيانُ أحكامِ الأسْرَى، وأحكامِ المُسلِمينَ الذين تخلَّفُوا في مكَّةَ بعد الهِجرةِ، ووَلايَتِهم، وما يترتَّبُ على تلك الوَلايةِ.

الآيات (١-٤)

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ
بَيْنِكُمْۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ١ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ
إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ
يَتَوَكَّلُونَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ٤﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْأَنفَالِ﴾: أي: الغَنائِم، واحِدُها نَفَل؛ والنَّفْل الزِّيادَة، والأنفالُ مِمَّا زَاد الله هذه الأُمَّةَ في الحلالِ؛ لأنَّه كان مُحرَّمًا على مَن كان قبلَهم، وأصلُ (نفل): يدلُّ على إعطاءٍ[1].

﴿ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾: أَي: الحالَ التي بَينكم، أو الأحوالَ التي تجمَعُكم مِن القَرابةِ والوُصلةِ والمَودَّةِ، وأصلُ (بين): موضوعٌ للخَلالةِ بين الشَّيئَينِ ووسْطَهما[2].

﴿وَجِلَتْ﴾: أي: خافَت وفَرِقَت، والوَجَلُ: استشعارُ الخَوفِ[3].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: يسألُك- يا محمَّدُ- أصحابُك عن حُكمِ الغَنائِمِ- وخاصَّةً غنائِمَ بَدرٍ، ولِمَن هي، وكيف تُقسَمُ؟ فقل لهم: أمرُ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٦).
(٢) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٦-١٥٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٥٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٦٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٦).

الغنائِمِ إلى اللهِ تعالى الذي يملِكُها، وإلى رسولِ اللهِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الذي يقسِمُها، فاتَّقُوا اللهَ وأصلِحوا الحالَ بينكم، وأطيعُوا اللهَ ورسولَه، وامتَثِلوا أمرَهما إنْ كنتم حقًّا مُؤمنينَ.

إنَّما المُؤمنونَ حَقًّا مَن إذا ذُكِرَ اللهُ فَزِعَت قلوبُهم وخافوا منه، وإذا قُرِئَت عليهم آياتٌ مِن كتابِه، ازداد تصديقُهم ويقينُهم، وعلى ربِّهم وَحْدَه يتوكَّلونَ، الذينَ يُقيمونَ الصَّلاةَ على أكمَلِ وَجهٍ، وممَّا رزَقَهم اللهُ يُنفِقونَ، أولئك هم المُؤمِنونَ حقًّا، لهم منازِلُ ومراتِبُ عاليةٌ عند ربِّهم، ومغفرةٌ، ورزقٌ كريمٌ في الجنَّةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١﴾.

أسبابُ النُّزولِ:

١- عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِي اللهُ عنهما، قال: ((قالَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّمَ يومَ بدرٍ: مَن فعلَ كذا وكَذا، فلَهُ منَ النَّفَلِ كذا وكَذا. قالَ: فتقدَّمَ الفِتيانُ، ولزِمَ المشيَخةُ الرَّاياتِ فلم يبرَحُوها، فلمَّا فتحَ اللَّهُ عليهم قالت المشيخةُ: كنَّا رِدءًا[1] لَكُم، لوِ انهزمتُم فِئتُم[2] إلينا، فلا تَذهَبونَ بالمَغنمِ ونبقى، فأبى الفِتيانُ، وقالوا: جعلَهُ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّمَ لَنا، فأنزلَ اللَّهُ تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ * قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ إلى قولِهِ: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ يقولُ: فكانَ ذلِكَ خيرًا لَهُم، فكَذلِكَ

(١) رِدْءًا: أي: عَونًا. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٢١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٠).
(٢) فِئتُم: أي: رَجَعْتم. وأصلُ الفَيءِ: الرُّجوعُ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٤٨٢)، ((غريب الحديث)) لابن قتيبة (١/ ٢٢٨).

أيضًا فأطيعوني؛ فإنِّي أعلمُ بِعاقبةِ هذا منكُم))[(١)].

٢- عَن سعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ قال: ((نزلَتْ فيَّ أربعُ آياتٍ: أَصَبْتُ سيفًا، فأتى به النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: يا رسولَ اللهِ، نَفِّلْنيه[(٢)] فقال: ضَعْه. ثم قام، فقال له النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ضَعْه من حيثُ أخَذْتَه. ثم قام، فقال: نَفِّلْنيه يا رسولَ الله، فقال: ضَعْه. فقام، فقال: يا رسولَ اللهِ، نَفِّلْنيه، أؤُجعَلُ كمَن لا غَناءَ له؟ فقال له النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ضَعْه مِن حيث أخَذْتَه. قال: فنزَلت هذه الآيةُ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ١]))[(٣)].

النَّاسِخُ والمَنسوخُ:

هذه الآيةُ مَنسوخةٌ بآيةِ ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ...﴾ الآية[(٤)] [الأنفال: ٤١].

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٧٣٧)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١١١٣٣)، وابن حبان في ((الصحيح)) (٥٠٩٣).

صححه ابن دقيق العيد في ((الاقتراح)) (١٠٣)، والألباني في ((صحيح أبي داود)) (٢٧٣٧)، وصحح إسناده العيني في ((نخب الأفكار)) (١٢/ ٢٧٩).

(٢) نَفِّلْنِيه: أي: أعْطِنِيه واجْعَلْه لي نَفَلًا- أي: غنيمةً. يُنظر: ((غريب الحديث)) لابن قتيبة (١/ ٢٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٠).

(٣) رواه مسلم (١٧٤٨).

(٤) ممَّن ذهب إلى ذلك: أبو عُبَيد القاسم بن سلَّام، والواحديُّ، والشنقيطي، ونسبه النَّحاس والقرطبيُّ إلى جمهورِ العُلَماء. يُنظر: ((الأموال)) (ص: ٣٨٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٩-٥٠، ٥٧)، ((الناسخ والمنسوخ)) للنحاس (ص: ٤٥١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢).

قال أصحابُ هذا القولِ: لأنَّ قولَه: ﴿قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ يقتضي أن تكونَ الغنائمُ كلُّها للرسولِ، فنسخَها الله بآياتِ الخُمسِ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٤٩).

وممن قال بهذا القولِ مِنَ السَّلفِ ابنُ عبَّاس، ومجاهدٌ، وعكرمةُ، والضحَّاك والشعبيُّ والسُّديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢١، ٢٢)، ((الناسخ والمنسوخ)) للنحاس (ص: ٤٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٩).

وقيل: هي مُحكَمةٌ[1].

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾.

أي: يسألُك أصحابُك- يا مُحَمَّدُ- عن الغنائِم[2]- وخاصَّةً غنائِمَ غَزوةِ بَدرٍ

(١) ذهب ابنُ جريرٍ إلى ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ ابنُ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٩).

ومعنى الآيةِ على هذا القولِ: ﴿قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾، وهي لا شكَّ للهِ- مع الدُّنيا بما فيها والآخرةِ- وللرسولِ يضعُها في مواضعِها التي أمرَه الله بوضعِها فيه، وقد بيَّن الله مصارفَها في قولِه: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ...﴾ الآية. ينظر ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣)، ((تفسير الثعالبي)) (٤/ ٣٢٦).

(٢) قال الزَّجاج: (وإنما يَسْألونَ عنها؛ لأنَّها فيما رُوِيَ كانت حَرامًا على من كانَ قَبلَهم). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٢/ ٣٩٩).

قال ابنُ كثير: (شاهِدُ هذا في الصحيحينِ عن جابرٍ: أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلم قال: «أُعطِيتُ خمسًا لم يُعطَهُنَّ أحَدٌ قبلي» فذكرَ الحديث، إلى أن قال: «وأُحِلَّت لي الغنائِمُ ولم تُحَلَّ لأحدٍ قَبلي»). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٩).

وممن اختار أنَّ المرادَ بالأنفال: الغنائِمُ: أبو عُبيدٍ القاسمُ بن سلَّام، والواحدي، وابنُ عطيةَ، وابنُ تيميَّة، والسعديُّ، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((الأموال)) (ص: ٣٨٣، ٣٨٧)، ((الوسيط)) (٢/ ٤٤٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٩٦)، ((مجموع الفتاوى)) (٢٨/ ٢٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥)، ((العذب النمير)) (٤/ ٤٧٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وعكرمةُ، ومجاهدٌ، والضحَّاكُ، وعبدُ الرحمنِ ابنُ زيدِ بنِ أسلمَ، وعطاءٌ، ومقاتلُ بنُ حيانَ، وقتادةُ، والحسنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٨٧).

واختار ابنُ جريرٍ أنَّ المرادَ بالأنفالِ: الزياداتُ على الغنيمةِ التي تُقسَم، وهي ما يُعطاه الرَّجُلُ على البلاءِ والغَناءِ عن الجَيشِ على غيرِ قِسمةٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٠-١١).

ويرى ابنُ عاشورٍ أنَّ معنى الأنفالِ يَشمَلُ كلا المَعنَيينِ المتقدِّم ذكرُهما، فكلاهما داخِلٌ لَدَيه في مُسمَّى المغانِم. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٤٩).

التي غَنِمُوها من كفَّارِ قُريشٍ[1]- عن حُكمِها، ولِمَن هي، وكيف تُقسَم[2]؟

﴿قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾.

أي: قُلْ لهم- يا محمَّدُ- جوابًا عن سُؤالِهم: إنَّما أمْرُ الغنائِمِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، الذي يملِكُها، وإلى مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، الذي يَقسِمُها، وهما يتصرَّفانِ في شَأنِها، ويَضَعانِها حيث شاءا، فارضَوْا بحكمِهما، وسلِّموا الأمرَ إليهما[3].

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا حكمَ بأنَّ الأنفالَ مِلكٌ لله ورَسولِه، أو بأنَّ أمْرَ قِسْمَتِها موكولٌ لله، فقد وقع ذلك على كراهةِ كثيرٍ منهم، ممَّن كانوا يحسَبونَ أنَّهم أحقُّ بتلك الأنفالِ ممَّن أعطِيَها؛ تبعًا لعوائِدِهم السَّالِفةِ في الجاهليَّةِ، فذكَّرَهم اللهُ بأنْ قد وجب الرِّضا بما يقسِمُه الرَّسولُ مِنها[4]، فقال تعالى:

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡ﴾.

(١) قال ابنُ عطيَّةَ: (لا خلافَ في هذه السورةِ أنَّها نزلت في يومِ بَدرٍ وأمْرِ غنائِمِه). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٩٦). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٦٨).
وقال الشنقيطي: (والتحقيقُ الذي عليه الجُمهور: أنَّها نزلت في اختلافِ الصَّحابةِ في غنائِمِ بَدرٍ). ((العذب النمير)) (٤/ ٤٧٢).
وقال ابنُ تيميَّةَ: (نزلت عَقيبَ بَدرٍ بالاتِّفاقِ). ((منهاج السنة النبوية)) (٧/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٢)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٤٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢١، ٢٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٥٢، ٢٥٣).

أي: فامتَثِلوا ما أمَرَكم اللهُ تعالى به، واجتَنِبوا ما نهاكم عنه، وأصلِحُوا الحالَ الواقعةَ بينكم في شأنِ تنازُعِكم في الأنفالِ، فلا تتخاصَمُوا ولا تتشاجَرُوا، ولا تتشاحَنُوا ولا تتدابَرُوا(١).

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

أي: وانتَهُوا- أيُّها الطَّالبونَ الأنفالَ- إلى أمرِ اللهِ تعالى، وأمْرِ رَسولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فاقبَلوا ما أُمِرْتم به في شأنِ الأنفالِ وفي غيرِها، وامتَثِلوه وسلِّموا لحُكمِهما، إن كنتم حقًّا تؤمنونَ برَسولِ اللهِ فيما آتاكم به من عندِ ربِّكم؛ فإنَّ الإيمانَ يُوجِبُ القَبولَ لِحُكمِهما، ويدعو إلى طاعَتِهما(٢).

ثم وصَفَ اللهُ تعالى المؤمنينَ ذوي الإيمانِ الكامِلِ، فقال(٣):

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢)﴾.

مُناسبةُ الآيةِ لما قبلَها:

لَمَّا قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ واقتضى ذلك كونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٤، ٢٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٧٤).
قال ابنُ عاشور: (والإصلاحُ: جَعلُ الشَّيءِ صالحًا، وهو مُؤذِنٌ بأنَّه كان غيرَ صالحٍ؛ فالأمرُ بالإصلاحِ دلَّ على فسادِ ذاتِ بَينِهم، وهو فَسادُ التَّنازُعِ والتَّظالُم). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٦-٢٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٠٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٧٦).

الإيمانِ مُستلزِمًا للطَّاعةِ؛ شرحَ ذلكَ في هذهِ الآيةِ مزيدَ شَرحٍ وتفصيلٍ(١)، فقال:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

أي: إنَّما المؤمنونَ حَقًّا، الكامِلُون في إيمانِهم كمالًا كما ينبغِي؛ مَن إذا ذُكِرَ اللهُ وعَظَمتُه وقُدرَتُه، وخُوِّفُوا به سبحانَه؛ فَزِعَت قلوبُهم، وخافوا منه عزَّ وجلَّ، فخَضَعوا له بفِعلِ أوامِره، وتَرْكِ نَواهِيه(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾.

أي: وإذا قُرِئَتْ عليهم آياتٌ مِن كِتابِ الله سبحانه، ازدادَ تصديقُهم ويقينُهم(٣)، وإذعانُهم وانقيادُهم.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١٩-٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٧٦-٤٧٧).
قال الواحدي (وفيه إشارةٌ إلى إلزامِ أصحابِ بَدرٍ بطاعةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما يرى من قِسمةِ الغَنائِمِ). ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٤٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٧٧).
وقال بهذا المعنى من السَّلف: ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما، والضحَّاك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٧)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٨٨).
وقال ابنُ تيميةَ: (وهذه زيادةٌ إذا تُلِيتْ عليهم الآياتُ، أي: وقتَ تُليت، ليس هو تصديقُهم بها عندَ النُّزولِ، وهذا أمرٌ يَجِدُه المؤمِنُ: إذا تُلِيَت عليه الآياتُ زاد في قَلبِه بفَهمِ القُرآنِ ومَعرفةِ مَعانيه مِن عِلمِ الإيمانِ ما لم يَكُن؛ حتى كأنَّه لم يَسمَعِ الآيةَ إلَّا حينئذٍ، ويحصُلُ في قَلبِه مِن الرَّغبةِ في الخَيرِ، والرَّهبةِ مِن الشَّرِّ ما لم يكُنْ؛ فزادَ عِلمُه باللهِ ومحبَّتُه لطاعَتِه، وهذه زيادةُ الإيمانِ). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٢٢٨).

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

أي: وعلى مَن خَلَقَهم ويَملِكُهم، ويدبِّرُ شُؤونَهم، يعتَمِدون، وبه يَثِقونَ في جَلْبِ مصالِحِهم ودَفْعِ مَضارِّهم، لا يرجونَ غَيرَه، ولا يرهبونَ سواه، ولا يقصِدونَ مَن دُونَه، ولا يلوذونَ إلَّا بجنابه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩].

ثمَّ نبَّه سبحانه على أعمالِهم، بعدَ ما ذكَر اعتقادَهم، فقال[2]:

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

أي: ومِن صفاتِهم أنَّهم يؤدُّونَ الصَّلاةَ- التي هي حقٌّ خالصٌ لله تعالى- بحُدودِها وشُروطِها، وأوقاتِها وأعمالِها: الظَّاهِرةِ والباطنةِ، فيأتونَ بها على الوَجهِ المَطلوبِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) ٤/ ١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٨٠).

قَصَرَ ابنُ جريرٍ الصَّلاةَ هنا على المفروضةِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٠)، وعمَّمَها السَّعدي، فجَعَلها شاملةً للفرائِضِ والنَّوافِلِ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥).

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

أي: ومِن صِفاتِهم أنَّهم يُنفِقونَ ممَّا رزَقَهم اللهُ مِن الأموالِ، النَّفَقاتِ الواجبةَ والمستحبَّةَ؛ نفعًا للعبادِ، وأداءً لحُقوقِهم(١).

ثم حقَّق اللهُ تعالى لهم الإيمانَ، فقال(٢):

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾.

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾.

أي: أولئك الذينَ يَفعلونَ تلك الأفعالَ الجَليلةَ، ويتَّصِفونَ بتلك الصِّفاتِ العظيمةَ هم وَحدَهم المؤمنون حقَّ الإيمانِ، إيمانًا لا يعتريه شكٌّ(٣).

ثم ذكَرَ ثوابَ هؤلاءِ المُؤمنين الذي وصَفَهم، فقال(٤):

﴿لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

أي: لهم مراتِبُ ومنازِلُ عالياتٌ، يرتَقونَها في الجنَّاتِ، بحسَبِ عُلوِّ أعمالِهم الصَّالحاتِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٨٠).
وتفسيرُ النَّفقةِ هنا بالواجبةِ والمُستحبَّةِ هو اختيارُ ابنِ كثيرٍ، والسعدي، والشنقيطي. وقصَرَها ابنُ جريرٍ على النَّفَقةِ الواجبة. يُنظر: المصادر السابقة.

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (٢/ ٢١٧-٢١٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣١)، ((التفسير الوسيط)) =

كما قال سبحانه: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١].

وعن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رضي الله عنه، أنَّ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ أهل الجنَّة يَتَراءونَ أهلَ الغرفِ من فوقهم، كما تَتَراءَونَ الكوكبَ الدُّرِّيَّ الغابرَ(١) في الأُفُقِ، من المشرقِ أو المغربِ، لِتَفاضُلِ ما بينهم. قالوا: يا رسولَ اللهِ تلك منازلُ الأنبياءِ لا يَبْلُغُها غيرُهم، قال: بلى، والذي نفسي بيَدِهِ، رجالٌ آمَنُوا باللَّهِ وَصَدَّقُوا المُرْسَلِينَ))(٢).

﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾.

أي: ولهم سَترٌ لذُنُوبِهم، وتجاوزٌ عنها(٣).

﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

أي: ولهم في الجنَّةِ رزقٌ أعدَّه الله تعالى لهم فيها؛ مِن المآكِلِ والمشارِبِ وهَنيءِ العَيشِ، ممَّا لا عينٌ رأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَت، ولا خطَرَ على قلبِ بَشَرٍ(٤).

= للواحدي، (٢/ ٤٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٨٠-٤٨١).

(١) الكوكب الدُّرِّي الغابر: أي: الكوكب العظيم، سُمِّيَ دُرِّيًّا لِصفاءِ لَونِه، وخُلوصِ نُورِه، وشدَّةِ إضاءَتِه. والغابِر: الباقي في الأُفُقِ بعد انتشارِ ضَوءِ الفَجرِ. يُنظر: ((شرح البخاري)) للقسطلاني (٥/ ٢٨٥-٢٨٦)، ((الميسر في شرح مصابيح السنة)) للتوربشتي (٤/ ١٢١٧).

(٢) رواه البخاري (٣٢٥٦) واللفظ له، ومسلم (٢٨٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٨١).

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

١- التَّقوى زِمامُ القُلوبِ، الذي يمكِنُ أن تُقادَ منه طائعةً ذَلولةً، في يُسرٍ وفي هَوادةٍ، وبهذا الزِّمامِ يقودُ القرآنُ هذه القلوبَ إلى إصلاحِ ذاتِ بَينِها، وإلى طاعةِ اللهِ ورَسولِه؛ قال اللهُ تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾(١).

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ فيه أمرٌ للمُؤمنينَ أن يُصلِحوا ما بَينَهم مِن التَّشاحُنِ والتَّقاطُعِ والتَّدابُرِ، بالتوادُدِ والتَّحابِّ والتَّواصُلِ؛ فبذلك تجتمِعُ كَلِمتُهم، ويزولُ ما يحصُلُ- بسبَبِ التَّقاطُعِ- من التَّخاصُمِ والتَّشاجُرِ والتَّنازُعِ، ويدخُلُ في إصلاحِ ذاتِ البَينِ تحسينُ الخُلُقِ لهم، والعَفوُ عن المُسيئينَ منهم؛ فإنَّه بذلك يزولُ كثيرٌ ممَّا يكونُ في القُلوبِ مِن البَغضاءِ والتَّدابُرِ(٢).

٣- الإيمانُ يَدعو إلى طاعةِ اللهِ ورَسولِه، كما أنَّ مَن لم يُطِعِ اللهَ ورسولَه فليس بمؤمِنٍ، ومَن نَقَصت طاعتُه للهِ ورَسولِه، فذلك لنَقْصِ إيمانِه؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(٣).

٤- المؤمِنُ إنما يكون مؤمنًا حقًّا إذا حقَّقَ إيمانَه بالأعمالِ الصَّالحة؛ يقولُ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾(٤).

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٤٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١٤٤).

ذِكْرُ اللهِ تعالى: بِذِكرِ اسمِه، وذِكرِ عِقابِه وعَظَمتِه، وذِكرِ ثوابِه ورَحمتِه- يحصُلُ معه الوَجَلُ في قُلوبِ كُمَّلِ المُؤمنينَ؛ لأنَّه يحصُلُ معه استحضارُ جَلالِ اللهِ، وشِدَّةِ بأسِه، وسَعةِ ثَوابِه، فينبعِثُ عن ذلك الاستحضارِ توقُّعُ حُلولِ بَأسِه، وتوقُّعُ انقطاعِ بَعضِ ثوابِه أو رَحمَتِه، وهو وجَلٌ يبعَثُ المؤمِنَ إلى الاستكثارِ من الخَيرِ، وتوقِّي ما لا يُرضِي الله تعالى[1].

٦- قلبُ المؤمِنِ يجِدُ في آياتِ القُرآنِ ما يزيدُه إيمانًا، وما ينتهي به إلى الاطمئنانِ؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾[2].

٧- الإيمانُ يَزيدُ ويَنقُصُ؛ يزيدُ بِفعلِ الطَّاعةِ، وينقُصُ بِضِدِّها؛ فينبغي للعبدِ أن يتعاهدَ إيمانَه ويُنمِّيَه؛ يُرشِدُنا إلى ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾[3]، وقد استدلَّ البخاريُّ وغيرُه مِن الأئمَّةِ بهذه الآيةِ وأشباهِها، على زيادةِ الإيمانِ وتفاضُلِه في القلوبِ، كما هو مذهَبُ جُمهورِ الأمَّةِ، بل قد حكى الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ من الأئمَّة؛ كالشَّافعيِّ، وأحمدَ ابنِ حَنبلٍ، وأبي عُبَيد[4].

٨- قال اللهُ تعالى: ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ التوكُّلُ هو الحامِلُ للأعمالِ كُلِّها، فلا تُوجَدُ ولا تَكمُلُ إلَّا به، قال سعيدُ بنُ جُبَير: التوكُّلُ على اللهِ جِماعُ الإيمانِ[5].

٩- قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ قرَنَ تعالى بين

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٥٦).
(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٤٧٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥).

الصَّلاةِ والزَّكاةِ، وأثنى على فاعِلِيهما؛ لأنَّ مَدارَ النَّجاةِ عليهما، ولا فلاحَ لِمَن أخلَّ بهما[١].

١٠- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ فليس الإيمانُ بالتمنِّي، ولا بالتحلِّي، ولكنَّه بما وقَر في الصُّدورِ، وصدَّقتْه الأعمالُ، كما قال الحسنُ، فإذا ذاق العَبدُ حَلاوةَ الإيمانِ، ووجَدَ طَعمَه وحلاوَتَه، ظهَرَت ثَمرةُ ذلك على لِسانِه وجَوارِحِه، فاستحلى اللِّسانُ ذِكرَ اللهِ وما والاه، وسَرُعتِ الجَوارِحُ إلى طاعةِ اللهِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ عُطِفَ ﴿والرَّسُولِ﴾ على اسمِ اللهِ؛ لأنَّ المقصودَ: الأنفالُ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، يَقسِمُها، فذُكِرَ اسمُ اللهِ قبل ذلك؛ للدَّلالةِ على أنَّها ليست حقًّا للغُزاةِ، وإنَّما هي لِمَن يُعَيِّنُه اللهُ بوَحيِه، فذِكْرُ اسمِ الله لفائِدَتينِ:

أولاهما: أنَّ الرَّسولَ إنَّما يتصرَّفُ في الأنفالِ بإذْنِ اللهِ توقيفًا أو تفويضًا.

والثانية: لِتَشمَلَ الآيةُ تَصرُّفَ أمراءِ الجُيوشِ في غَيبةِ الرَّسولِ، أو بعد وفاتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّ ما كان حقًّا لله كان التصَرُّفُ فيه لخُلَفائِه[٣].

٢- لَمَّا كان الإيمانُ: إيمانًا كاملًا يترتَّبُ عليه المَدحُ والثَّناءُ والفَوزُ التَّامُّ، وإيمانًا دونَ ذلك- ذَكَرَ الإيمانَ الكامِلَ، فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ فالألِفُ واللَّامُ للاستغراقِ لشَرائِعِ الإيمانِ[٤].

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٧٣).
(٢) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٢٢٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٥١).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥).

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ...﴾ فهذه الآيةُ أثبَت فيها الإيمانَ لهؤلاء، ونفاه عن غيرِهم، والشَّارعُ دائمًا لا ينفِي المسمَّى الشَّرعيَّ إلَّا لانتفاءِ واجِبٍ فيه(١).

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ قدَّمَ تعالى أعمالَ القُلوبِ؛ لأنَّها أصلٌ لأعمالِ الجَوارِحِ، وأفضَلُ منها(٢).

٥- قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ وقال في آيةٍ أخرى ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ٢٨]، ولا مُنافاةَ بينهما؛ لأنَّ الوَجَلَ هو خوفُ العقابِ، والاطمئنانَ إنَّما يكونُ مِن اليَقينِ، وشَرحِ الصَّدرِ بمعرفةِ التَّوحيدِ، وهذا مقامُ الخَوفِ والرَّجاءِ، وقد اجتمَعَا في آيةٍ واحدةٍ، وهي قولُه تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣] عند رجاءِ ثَوابِ اللهِ(٣).

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ فيه عَدُّ التوكُّلِ مِن شُعَبِ الإيمانِ(٤).

٧- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ٢٦٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٥٣)، ويُنظر أيضًا: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٧٩).
(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٣٤).

يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ فيه دليلٌ عَلَى دُخولِ الأعمالِ في الإيمانِ[١].

٨- في قولِه تَعالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ إنْ قيل: إذا كان المؤمنُ حقًّا هو الفاعِلَ للواجباتِ، التَّارِكَ للمحَرَّماتِ: فقد قالَ: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ ولم يَذْكُرْ إلَّا خمسةَ أشياءَ، فالجوابُ أَنْ مَا ذَكَرَ يستلزم مَا تَرَك؛ فإنَّه ذَكَرَ وَجَلَ قلوبِهم إذا ذُكِرَ اللَّهُ، وزيادةَ إيمانِهم إذا تُلِيَتْ عليهم آياتُه، مَعَ التَّوَكُّلِ عليه، وإقامِ الصَّلاةِ على الوجهِ المأمورِ به بَاطنًا وَظاهِرًا، وكذلك الإنفاقُ مِن المالِ والمنافعِ؛ فكان هذا مستلزمًا للباقي؛ فمَن قامَ بهذه الخمسِ كما أُمِر لَزِم أنْ يأتيَ بسائرِ الواجباتِ؛ فإنَّ وَجلَ القلبِ عندَ ذِكْرِ اللَّهِ يقتضي خشيتَه وَالخوفَ منه، وذلك يدعُو صاحبَه إلى فعلِ المأمورِ وتركِ المحظورِ، بل الصَّلاةُ نفسُها إذا فعلَها كما أُمِر، فهي تنهَى عن الفحشاءِ[٢].

٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ فيه دليلٌ على أنَّه ليس لكُلِّ أحدٍ أن يصِفَ نفسَه بكَونِه مُؤمِنًا حَقًّا؛ لأنَّ اللهَ تعالى إنَّما وصَفَ بذلك أقوامًا مَخصُوصينَ على أوصافٍ مَخصوصةٍ، وكلُّ أحدٍ لا يتحقَّقُ وجودَ تلك الأوصافِ فيه[٣].

١٠- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ لَمَّا كانت صِفاتُهم الخَمسُ المذكورةُ في الآياتِ المُشتمِلةِ على الأخلاقِ والأعمالِ، لها تأثيراتٌ في تصفيةِ القُلوبِ، وتنويرِها بالمعارِفِ الإلهيَّةِ، وكلَّما كان المؤثِّرُ أقوى كانت التأثيراتُ أعلى؛ فلما كانت هي درجاتٍ كان جزاؤُها كذلك، فلهذا

(١) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ١٠٤).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٩/ ٤٤٩-٤٥٠).

قال سبحانه تعالى ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ﴾[1].

١١- في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ إلى قولِه سبحانه: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ رَدٌّ على المرجئةِ مِن وجوهٍ:

أحدُها: أنَّه ذَكَر عامَّةَ الأعمالِ الصالحةِ- الظاهرةِ والباطنةِ- وجعَلَها مِن الإيمانِ؛ وذلك أنَّه ذَكَر قبلَ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ التقوى، وإصلاحَ ذاتِ البَيْنِ، ثم نَسَقَ في هذه الآيةِ عملًا بعدَ عملٍ، وذَكَرَ فيها التوكلَ، وهو باطنٌ.

الثاني: أنَّه ذَكَر زيادةَ الإيمانِ- بتلاوةِ الآياتِ عليهم- وهم ينكرونه!

الثالثُ: أنه لم يُثبتْ لهم حقيقةَ الإيمانِ إلَّا باجتماع خصالِ الخيرِ مِن الأعمال الظاهرة والباطنة؛ وهم يُثبتون حقيقتَه بالقولِ وحدَه!

الرابعُ: أنَّه سبحانَه قال بعدَ ذلك كلِّه: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ﴾ وقد أثبتَ لهم الإيمانَ بشرائطِه وحقيقتِه؛ وهم لا يجعلونَ للمؤمنِ في إيمانِه إلَّا درجةً واحدةً! ولا يجعلونَ للإيمانِ أجزاءً! فكيف يستقيمُ أنْ يُسمَّى المرءُ بالإقرارِ وحدَه مستكملَ الإيمانِ؛ وقد سمّى اللهُ تعالى كلَّ ما حَوَتْه الآيةُ إيمانًا[2]!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

- مجيءُ الفِعلِ بصيغةِ المُضارِعِ في قَولِه: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ دالٌّ على تكرُّرِ السُّؤالِ، إمَّا بإعادتِه المرَّةَ بعدَ الأُخرَى مِن سائِلينَ مُتعدِّدينَ، وإمَّا بكثرةِ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((النُّكتُ الدّالّة على البيان)) للقَصّاب (١/ ٤٦١).

السَّائلينَ عن ذلك حينَ المُحاورةِ في مَوقفٍ واحدٍ[١].

– وتفريعُ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ على جملةِ ﴿الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾؛ لأنَّ في تلك الجملةِ رَفعًا للنِّزاعِ بينهم في استحقاقِ الأنفالِ، أو في طلَبِ التَّنفيلِ[٢].

– قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ قدَّم الأمرَ بالتَّقوى؛ لأنَّها أصلٌ للطَّاعات، ثمَّ بإصلاحِ ذاتِ البَينِ؛ لأنَّ ذلك أهمُّ نتائجِ التقوى في ذلك الوَقتِ، الذي تشاجَروا فيه، ثم أمَرَ بطاعَتِه وطاعةِ رَسولِه، فيما أمرَ به مِن التَّقوى والإصلاحِ وغيرِ ذلك[٣].

– وليس الإتيانُ في الشَّرطِ بـ (إنْ) في قَولِه: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ تعريضًا بضَعفِ إيمانِهم، ولا بأنَّه ممَّا يَشُكُّ فيه مَن لا يَعلَمُ ما تُخفي صُدورُهم، بناءً على أنَّ شَأنَ (إنْ) عدمُ الجَزمِ بوُقوعِ الشَّرطِ، بخلافِ (إذا)، ولكِنَّ اجتلابَ (إنْ) في هذا الشَّرطِ؛ للتَّحريضِ على إظهارِ الخِصالِ التي يتطلَّبُها الإيمانُ، وهي: التَّقوى الجامعةُ لخصالِ الدِّين، وإصلاحُ ذاتِ بَينِهم، والرِّضا بما فعَلَه الرَّسولُ، فالمقصودُ التَّحريضُ على أن يكونَ إيمانُهم في أحسَنِ صُوَرِه ومظاهِرِه؛ ولذلك عقَّبَ هذا الشَّرطَ بجُملةِ القَصرِ في قَولِه: ﴿إِنَّما الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ...﴾[٤].

٢ – قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٥٢-٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٧٠)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٥٤).

- قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ...﴾ جملةٌ مُستأنفةٌ، مَسوقةٌ لِبَيانِ مَن أُريدَ بالمؤمنينَ، بذِكرِ أوصافِهم الجليلةِ المُستتبِعةِ لِما ذُكِرَ مِن الخِصالِ الثَّلاثِ، وفيه مزيدُ تَرغيبٍ لهم في الامتثالِ بالأوامِرِ المذكورةِ[١].

- وفي قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ...﴾ قصرٌ ادِّعائيٌّ؛ بتنزيلِ الإيمانِ الذي عَدِمَ الواجِباتِ العظيمةَ مَنزلةَ العَدَمِ[٢].

- قوله: ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ إسنادُ فِعلِ زيادةِ الإيمانِ إلى آياتِ اللهِ؛ لأنَّها سبَبُ تلك الزِّيادةِ للإيمانِ، باعتبارِ حالٍ مِن أحوالِها، وهو تِلاوتُها، لا اعتبارِ مُجَرَّد وجودِها في صَدرِ غَيرِ المتلوَّةِ عليه[٣].

- قوله: ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ اختيارُ صيغةِ المُضارعِ في ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على تكرُّرِ ذلك منهم، وتقديمُ المجرورِ إمَّا للرِّعايةِ على الفاصلةِ، فهو مِن مُقتضياتِ الفَصاحةِ، مع ما فيه من الاهتمامِ باسْمِ الله، وإمَّا للتَّعريضِ بالمُشركينَ؛ لأنَّهم يتوكَّلونَ على إعانةِ الأصنامِ[٤].

٣- قوله: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ جيءَ بالفعلينِ المُضارعين في ﴿يُقِيمُونَ﴾ و ﴿يُنْفِقُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على تكرُّرِ ذلك وتجَدُّدِه[٥].

٤- قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾

- قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ جملةٌ مُؤَكِّدةٌ لِمَضمونِ جُملةِ: ﴿إِنَّمَا

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٥٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٥٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٥٩).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٦٠).

الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ﴾ وَلِذَلِكَ فُصِلَتْ(١).

- وعُرِّفَ المسنَدُ إليه ﴿أُولَئِكَ﴾ بالإشارةِ؛ لوقوعِه عَقِبَ صفاتٍ، لتدُلَّ الإشارةُ على أنَّهم أحرِياءُ بالحُكمِ المُسنَدِ إلى اسمِ الإشارةِ؛ مِن أجلِ تلك الصِّفاتِ، فكأنَّ المُخبَرَ عنهم قد تميَّزوا للسَّامِعِ بتلك الصِّفاتِ، فصاروا بحيث يُشارُ إليهم، وفي هذه الجملةِ قَصرٌ آخَرُ؛ حيث قُصِرَ الإيمانُ مرَّةً أخرى على أصحابِ تلك الصِّفاتِ، ولكنَّه قُرِنَ هنا بما فيه بيانُ المَقصورِ، وهو أنَّهم المؤمنونَ الأحِقَّاءُ بوصفِ الإيمانِ(٢).

- قوله: ﴿حَقًّا﴾ مصدرٌ مؤكِّدٌ لِمَضمونِ جُملةِ ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: ثبوتُ الإيمانِ لهم حقٌّ لا شُبهةَ فيه، وهو تحقيقٌ لمَعنى القَصرِ بما هو عليه مِن معنى المُبالغةِ(٣).

- قوله: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ﴾ تنوينُ ﴿دَرَجَاتٌ﴾ للتَّعظيمِ؛ لأنَّها مراتِبُ مُتفاوتةٌ(٤).

- قوله: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ متعلِّقٌ بمَحذوفٍ: صفةٌ لـ ﴿دَرَجَاتٌ﴾ مُؤَكِّدةٌ لِما أفاده التنوينُ مِن الفَخامةِ الذَّاتيَّة بالفخامةِ الإضافيَّة، أي: دَرَجاتٌ كائنةٌ عندَه تعالى(٥).

- وفي إضافةِ الظَّرفِ ﴿عِنْدَ﴾ إلى الرَّبِّ المضافِ إلى ضميرِهم؛ مزيدُ تَشريفٍ ولُطفٍ لهم، وإيذانٌ بأنَّ ما وُعِدَ لهم مُتيقَّنُ الثُّبوتِ والحصولِ، مأمونُ الفَواتِ(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٦٢)، ويُنظر أيضًا: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٦٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٥).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٥-٨)

﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ٦ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٨﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يُجَادِلُونَكَ﴾: أي: يُنازِعونَك، والجِدالُ: المفاوضةُ على سبيلِ المُنازعةِ والمُغالبةِ، وأصلُه يدلُّ على امتدادِ الخُصومةِ، ومُراجعةِ الكَلامِ[1].

﴿وَتَوَدُّونَ﴾: أي: وتتمَنَّونَ، وتُحِبُّون، والودُّ: محبةُ الشيءِ، وتمنِّي كونِه، وأصلُ (ودد): يدلُّ على محبَّةٍ[2].

﴿ذَاتِ الشَّوْكَةِ﴾: أي: ذاتِ الحَدِّ والسِّلاحِ؛ مِن السَّيفِ والسِّنانِ والنِّصالِ، واشتقاقُها مِن الشَّوكِ: وهو النَّبتُ الذي له حِدَّةٌ، وأصلُ (شوك): يدلُّ على خُشونةٍ، وحِدَّةِ طَرَفٍ في الشَّيءِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٩٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٦).

﴿يُحِقَّ الْحَقَّ﴾: أي: يُثبِتهُ ويُعلِيه، وأصلُ (الحقِّ) يدلُّ على إحكامِ الشَّيءِ، وصِحَّتِه[1].

﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾: أي: يجْتَثَّ أصْلَهم، ويستأصِلَهم عن آخِرِهم، وقطْعُ دابرِ الإنسان: هو إفناءُ نوعِه، ودابِرُ القومِ: آخرُهم، وأصلُ (قطع): يدلُّ على إبانةِ شَيءٍ مِن شَيءٍ، وأصلُ (دبر): آخِرُ الشَّيءِ وخَلْفُه[2].

المَعنى الإجماليُّ:

كما وكَلَك اللهُ- يا مُحمَّدُ- بأمرِ قِسمةِ الغَنائِمِ، وقد كَرِه بعضُ أصحابِك كيفيَّةَ قِسمَتِك لها، فكَذلك أخرَجَك مِن بَيتِك؛ لِمُلاقاة مُشركي قُريشٍ، وقد كره ذلك فَريقٌ مِن المُؤمنينَ، يُجادلونك في الحقِّ الذي أراده اللهُ بعدما ظهَرَ وتبَيَّنَ، كأنَّ حالَهم- لِشدَّةِ كُرهِهم للقِتالِ- كمَن يُساقُ إلى المَوت وهو يَنظُر.

واذكرُوا- أيُّها المؤمنونَ- إذ يعِدُكم اللهُ بأنْ تظفَرُوا بإحدى الفِرقَتينِ؛ إمَّا العِيرِ أو النَّفيرِ، ووَدِدْتُم لو ظَفِرتُم بالعِيرِ؛ إذ هي لا مَنعةَ لها، ولا سِلاحَ، واللهُ يريدُ أنْ يجمَعَكم بالنَّفيرِ؛ ليُظفِرَكم بهم، ويُظهِرَ الإسلامَ ويُعلِيَه، بأمْرِه لكم بقتالِهم، ويريدُ سبحانه أن يستأصِلَ الكفَّارَ ويُهلِكَهم، فلا يبقى منهم أحدٌ؛ مِن أجلِ أن يُعِزَّ الإسلامَ ويُظهِرَه، ويُبطِلَ الشِّركَ والكُفرَ، ولو كَرِه المجرمونَ ذلك.

تَفسيرُ الآيات:

﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٦ - ٢٤٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢٤) و(٥/ ١٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٧ - ٦٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٧).

أنَّه لَمَّا كان تَرْكُ الدُّنيا شديدًا على النَّفسِ، شرَعَ يذكُرُ لهم ما كانوا له كارِهينَ، ففَعَلَه بهم، وأمَرَهم به- لعِلْمِه بالعواقِبِ- فحَمِدوا أثَرَه؛ ليكونَ أدعَى لتسليمِهم لأمْرِه، وازدجارِهم بزَجرِه، فشَبَّه حالَ كَراهَتِهم لِتَركِ مُرادِهم في الأنفالِ، بحالِ كراهَتِهم لخُروجِهم معه، ثم بحالِ كراهَتِهم لِلِقاءِ الجَيشِ دُونَ العِيرِ، ثمَّ إنَّهم رأَوْا أحسَنَ العاقِبةِ في كِلَا الأمرَينِ(١).

﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥﴾.

أي: كما أنَّ اللهَ تعالى وكَلَك- يا مُحمَّدُ- بأمْرِ قِسمةِ الغَنائِمِ يومَ بَدرٍ، وجعَلَه حقًّا ثابتًا لك- وكان بعضُ أصحابِك قد كَرِه واعتَرَض على كيفيَّةِ قِسمَتِك لها- فكذلك أخرجك مِن بَيتِك؛ لأخْذِ المالِ مِن عِيرِ كُفَّارِ قُريشٍ، فجاءها نفيرٌ، وكَرِهَ بعضُ أصحابِك مُلاقاتَه؛ فحالُهم في الأنفالِ كحالِهم في كراهةِ القِتالِ يومَ بَدرٍ، فامضِ لأمرِ اللهِ في الغنائِمِ، كما مَضَيتَ لأمْرِه في الخُروجِ وهم له كارِهونَ، وكلاهما حَقٌّ وخيرٌ مِن عندِ الله تبارك وتعالى(٢).

كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٢٢-٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٩٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٨٣).

وهذا المعنى هو في الجملة اختيارُ الزَّجَّاج، والواحدي، والشِّنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

وفي الآيةِ أقوالٌ أخرى كثيرةً. يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٥٥٩-٥٦٣).

قال الشِّنقيطي: (فالذي كَرِهوه مِن قَسْم غَنائِمِ بدرٍ، هو الذي لهم فيه مصلحةُ الدُّنيا والآخرةِ، والذي كَرِهوه من خروجِ رَسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم بهم، الذي آلَ إلى قتالِ جَيشِ قُريشٍ؛ كرهوه وهو أيضًا خيرٌ لهم في دينِهم ودنياهم، فاللهُ تبارك وتعالى كأنَّه أشار بالتَّشبيهِ على هذا القَولِ إلى أنَّه أعلَمُ بمَصالِحِهم مِن خَلقِه، وأنَّ خَلقَه يكرهونَ شيئًا، والمصلحةُ لهم فيما يختارُه لهم ربُّهم؛ كما قال جلَّ وعلا: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦] هذا أقرَبُ الأقوالِ، وكثيرٌ مِن الأقوالِ ساقِطٌ سقوطًا بيِّنًا، وهذا أقرَبُها، واختاره غيرُ واحدٍ). ((العذب النمير)) (٤/ ٤٨٣).

وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ٦﴾.

﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ﴾.

أي: إنَّ المُؤمنينَ الذين كَرِهوا لقاءَ كُفَّارِ قُريشٍ يَومَ بَدرٍ، يجادلونك- يا محمَّدُ- في الحقِّ الذي أرادَه اللهُ تعالى ورَضِيَه لنُصرةِ دِينِه، وإعلاءِ كلِمَتِه، مِن بَعدِ ما وضَحَ وظَهَرَ، فخُروجُك خروجُ حَقٍّ مصحوبٌ بالوَعدِ مِن اللهِ بالنَّصرِ والظَّفَرِ؛ إمَّا بالعِيرِ وإمَّا بالنَّفيرِ، ومع هذا قالوا: لم نعلَمْ أنَّا سنلقَى العدُوَّ فنتهيَّأَ لقتالِهم، ونأخُذَ أُهْبَةَ الحَربِ، وإنَّما خرَجْنا طلبًا للغَنائمِ مِن عِيرِ قُريشٍ دون حَربٍ نَخوضُ غِمارَها، فلو يُرخَّصُ لنا في تَركِ القِتالِ[1].

﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ﴾.

أي: هؤلاءِ الذينَ يُجادِلونَك- يا محمَّدُ- في لِقاءِ العَدُوِّ، كأنَّ حالَهم- لشِدَّةِ كَراهَتِهم للقتالِ إذا دُعُوا إليه- كحالِ من يُقدَّمُ إلى الموتِ، وهو يراه عِيانًا[2].

﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٨٧).
قال السَّعدي: (هذا، وكثيرٌ مِن المُؤمنين لم يَجْرِ منهم من هذه المجادلةِ شَيءٌ، ولا كَرِهوا لقاءَ عَدُوِّهم، وكذلك الذين عاتَبَهم الله، انقادوا للجهادِ أشَدَّ الانقيادِ، وثبَّتَهم الله، وقيَّضَ لهم من الأسبابِ ما تطمئِنُّ به قلوبُهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦).
وقال الشنقيطي: (... الصَّحابةُ تبايَنَتْ مواقِفُهم؛ فما كَرِهوا كلُّهم هذا الخروجَ، بل بعضُهم رَغِبَ فيه وحبَّذَه، وصرَّحَ بالإعانةِ عليه). ((العذب النمير)) (٤/ ٤٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٦٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٨٨-٤٨٩).

تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾.

واذكُرُوا- أيُّها المُؤمِنونَ- حين أوحَى اللهُ إلى رسولِه يعِدُه الظَّفَرَ بغنيمةِ إحدى الفِرقَتينِ؛ إمَّا العيرِ أو النَّفيرِ[1].

﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾.

أي: وتُحِبُّونَ أن تكونَ لكم الطَّائفةُ الأُخرى التي ليسَتْ لها مَنعةٌ، ولا معها سِلاحٌ، فلا يُمكِنُها أن تُحارِبَ وتقاتِلَ، وهي العِيرُ[2].

﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾.

أي: ويُريدُ اللهُ تعالى أن يجمَعَ بينكم وبينَ الطَّائفةِ الأُخرَى ذاتِ الشَّوكةِ؛ ليُظفِرَكم بهم، فيُظهِرَ دينَ الإسلامِ، ويُعليَه على الأديانِ كلِّها، وذلك بأمْرِه لكم- أيُّها المؤمنونَ- بقِتالِ تلك الطَّائفةِ مِن كُفَّارِ قُريشٍ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦).
قال الشِّنقيطي: (المرادُ بالطَّائِفَتينِ هنا -كما أطبَقَ عليه عامَّةُ المُفَسِّرين- هما العِيرُ والنَّفيرُ؛ العِير: الإبِلُ تَحمِلُ المتاعَ، والنَّفيرُ: الجيشُ في سِلاحِه وعَدَدِه وعُدَدِه). ((العذب النمير)) (٤/ ٤٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٢٤-٥٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦-١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٢٥).
اختار ابنُ جريرٍ أنَّ قَولَه تعالى: ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾ هنا، يعني: أمْرَه للمؤمنينَ بقِتالِ الكُفَّارِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٩).
واختار الواحديُّ أنَّ المرادَ بها: كَلِماتُ الآياتِ التي وعدَ فيها المؤمنينَ بالنَّصرِ يومَ بَدرٍ. يُنظر: ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٤٤٥).
ويُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٢٥-٥٢٧).

﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

أي: ويريدُ أن يستأصِلَ الكُفَّارَ[١]، ويُهلِكَهم عن آخِرِهم، فلا يبقَى منهم أحدٌ[٢].

﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾.

أي: ويريدُ اللهُ تعالى قَطعَ دابِرِ الكافِرينَ؛ مِن أجلِ أن يُعِزَّ الإسلامَ، ويُظهِرَه ويُعليَ شَأنَه، ويُبطِلَ عبادةَ غيرِ الله، فيزول الشركُ، ولا تبقَى إلَّا عبادةُ اللهِ تعالى وَحدَه، ولو كَرِه ذلك المُشركونَ الذين أجرَموا، فاكتَسَبوا المآثِمَ والأوزارَ، التي يستحقُّونَ عليها العقابَ، وحُلولَ العَذابِ[٣].

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

الجِدالُ مَحلُّه وفائِدتُه عند اشتباهِ الحَقِّ، والْتباسِ الأمرِ، فأمَّا إذا وضَحَ الحَقُّ وبان، فليس إلَّا الانقيادُ والإذعان؛ قال الله تعالى: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾ أضاف تعالى ذلك الخروجَ إلى نفسِه، وهذا يدلُّ على أنَّ فِعلَ العَبدِ بخَلقِ اللهِ تعالى[٥].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ عبَّر بقولِه ﴿فَرِيقًا﴾؛

(١) قال الواحدي: (يعني: كفَّارَ العَرَبِ). ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٤٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٢٧-٥٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٢٨-٥٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٥٧).

لأنَّ آراءَهم كانت تؤولُ إلى الفُرقةِ[(١)].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ يؤخَذُ منه حُكمُ مؤاخَذةِ المُجتَهِدِ، إذا قصَّر في فَهمِ ما هو مدلولٌ لأهلِ النَّظَرِ[(٢)].

٤- قوله: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ﴾ فيه بنَى الفعلَ للمفعولِ؛ لأنَّ المكروهَ إليهم السوقُ، لا كونُه مِن معينٍ، أي: يسوقُهم سائقٌ لا قدرةَ لهم على ممانعتِه[(٣)].

٥- لا يصُدُّ مرادَ اللهِ تعالى ما للمُعاندين مِن قُوَّةٍ؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾[(٤)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾

- فيه تشبيهُ حالٍ بحالٍ، وهو متَّصِلٌ بما قبلَه: إمَّا بتَقديرِ مُبتدأٍ مَحذوفٍ، هو اسمُ إشارةٍ لِمَا ذُكِرَ قبلَه، تقديره: هذا الحالُ كحالِ ما أخرَجَك ربُّك مِن بَيتِك بالحَقِّ، ووجهُ الشَّبَه: هو كراهِيةُ المُؤمنينَ في باديِٕ الأمرِ لِمَا هو خيرٌ لهم في الواقِعِ، وإمَّا بتَقديرِ مَصدرٍ لِفعلِ الاستقرارِ الذي يقتَضيه الخَبرُ بالمَجرورِ في قَولِه ﴿الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾؛ إذ التَّقديرُ: استقَرَّت للهِ والرَّسولِ استقرارًا، ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾، أي: فيما يَلوحُ إلى الكَراهِيةِ والامتعاضِ في باديِٕ الأمرِ، ثم نَوالِهم النَّصرَ والغَنيمةَ في نهايةِ الأمرِ، فالتَّشبيهُ تَمثيليٌّ، وليس مُراعًى فيه تشبيهُ بعضِ أجزاءِ الهَيئةِ المُشبَّهةِ ببعضِ أجزاءِ الهَيئةِ المُشبَّهِ بها،

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٢٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٦٧).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٢٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٧٣).

أي: أنَّ ما كَرِهتُموه مِن قِسمةِ الأنفالِ على خلافِ مُشتَهاكم، سيكونُ فيه خيرٌ عَظيمٌ لكم، حسَبَ عادةِ اللهِ تعالى بهم في أمْرِه ونَهْيِه(١).

- قولُه: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ تأكيدُ خَبرِ كراهيةِ فَريقٍ مِن المؤمنينَ بـ (إنَّ) و(لامِ الابتداءِ) مستعملٌ في التَّعجيبِ مِن شَأنِهم بتنزيلِ السَّامِعَ غيرِ المُنكِرِ لوقوعِ الخَبرِ، منزلةَ المُنكِرِ(٢).

٢- قَولُه تعالى: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾

- صيغةُ المُضارِعِ ﴿يُجَادِلُونَكَ﴾ لحكايةِ حالِ المُجادلةِ؛ زيادةً في التعجيبِ منها(٣).

- وقولُه: ﴿بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ لومٌ لهم على المُجادلةِ في الخُروجِ الخاصِّ، وهو الخروجُ للنَّفيرِ، وتَركُ العيرِ؛ لأنَّ مَن جادلَ في شيءٍ لم يتَّضِحْ كان أخفَّ عَتْبًا، أمَّا مَن نازع في أمرٍ واضحٍ فهو جديرٌ باللَّومِ والإنكارِ(٤).

- قوله: ﴿كَأَنَّما يُساقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ شبَّه حالَهم في فَرْطِ فَزَعِهم، وهم يُسارُ بهم إلى الظَّفَر والغنيمةِ، بحالِ مَن يُساقُ على الصَّغارِ إلى الموتِ، وهو مُشاهِدٌ لأسبابِه، ناظِرٌ إليها، لا يشكُّ فيها(٥).

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٦٣-٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٦٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٩٩).

- قوله: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ﴾ خطابٌ للمُؤمنينَ بطَريقِ التَّلوينِ والالتفاتِ[١].

- وفيه تذكيرُ الوَقتِ- إذ التَّقديرُ: اذكُروا وقتَ وعدِ اللهِ إيَّاكم إحدى الطَّائِفَتين- مع أنَّ المقصودَ تَذكيرُ ما فيه مِن الحوادِثِ؛ لِما فيها من المبالغةِ في إيجابِ ذِكرِها، ولأنَّ إيجابَ ذِكرِ الوقتِ، إيجابٌ لِذِكرِ ما وقع فيه بالطَّريقِ البُرهانيِّ[٢].

- وصيغةُ المُضارعِ ﴿يَعِدُكُمُ﴾ لحكايةِ الحالِ الماضيةِ؛ لاستحضارِ صُورتِها[٣].

- وقولُه تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ آكَدُ في الوَعدِ مِن مِثلِ: (وإذ يعِدُكم اللهُ أنَّ إحدى الطَّائفتينِ لكم)؛ لأن هذا إثباتٌ بعد إثباتٍ: إثباتٌ للشَّيءِ في نَفسِه، وإثباتٌ له في بَدَلِه؛ لأنَّ ﴿أَنَّهَا لَكُمْ﴾ في تأويلِ مَصدَرٍ؛ بدلُ اشتمالٍ مِن ﴿إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ﴾[٤].

- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ عبَّر بهذا التَّعبيرِ؛ للتَّعريضِ بكراهَتِهم للقتالِ، وطَمَعِهم في المالِ[٥].

- قولُه: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾ جمعٌ مُعَرَّفٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والطريق البرهاني: هو قياسٌ استثنائيٌّ استُدِلَّ فيه بنفيِ اللازمِ، البيِّنِ انتفاؤُه، على نفيِ الملزومِ، كما يُقالُ: هل زيدٌ في البلدِ؟ فتقولُ: لا؛ إذ لو كان فيها لحضَرَ مجلسَنا، فيستدلُّ بعدمِ الحضورِ على عدمِ كونِه في البلدِ.

أو: هو ما يلزمُ مِن نفْيِ مِثلِ مِثلِه نفيُ مثلِه. يُنظر: ((حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع)) (١/ ٤٥٢)، ((التقرير والتحبير)) لابن أمير الحاج (٢/ ٢٣)، ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٧/ ٤٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٦-٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) (٩/ ٤٩٩-٥٠٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٥٠٠).

بالإضافةِ، وهو يُفيدُ العُمومَ، والباءُ فيها للسَّببيَّةِ، وذِكرُ هذا القَيدِ للتَّنويهِ بإحقاقِ هذا الحَقِّ، وبيانِ أنَّه ممَّا أراده اللهُ ويَسَّرَه وبيَّنَه للنَّاسِ من الأمرِ؛ ليقومَ كُلُّ فَريقٍ مِن المأمورينَ بما هو حَظُّه مِن بَعضِ تلك الأوامِرِ، وللتَّنبيهِ على أنَّ ذلك واقِعٌ لا محالةَ؛ لأنَّ كَلِماتِ اللهِ لا تتخَلَّفُ(١).

٤- قوله: ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾

- جملةٌ مُستأنفةٌ سِيقَت لِبَيانِ الحِكمةِ الدَّاعيةِ إلى اختيارِ ذاتِ الشَّوكةِ، ونَصْرِهم عليها مع إرادَتِهم لِغَيرِها(٢).

- وقَولُه ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ تقديرُه: لِيُحِقَّ الحقَّ، ويُبطِلَ الباطِلَ فعَلَ ذلك، ما فعَلَه إلَّا لهما، وليس هذا تكريرًا لِقَولِه في الآيةِ السَّابِقةِ: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾؛ لأنَّ المَعنَيينِ مُتباينانِ، وذلك أنَّ الأوَّلَ تمييزٌ بين الإرادَتينِ، وهذا بيانٌ لِحكمتِه فيما فعَلَ مِن اختيارِ ذاتِ الشَّوكةِ على غيرِها لهم، ونُصرَتِهم عليها، وأنَّه ما نصرَهم ولا خذَلَ أولئك إلَّا لهذا الغَرَضِ الذي هو سيِّدُ الأغراضِ، ويجِبُ أن يقدَّرَ المحذوفُ مُتأخِّرًا حتَّى يُفيدَ معنى الاختصاصِ(٣).

وقيل: أُريدَ بالأوَّلِ: ما وعدَ اللهُ به في هذه الواقعةِ؛ مِن النَّصرِ والظَّفَرِ بالأعداءِ، بقرينةِ قَولِه عَقِبَه: ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾. وبالثَّاني: تقويةُ الدِّينِ، ونُصرةُ الشَّريعةِ، بقرينةِ قَولِه عَقِبَه: ﴿وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٧٠-٢٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٠٠).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢١٦).

الآيات (٩-١١)

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَسْتَغِيثُونَ﴾: أي: تَستجيرونَ، وتدعون بالنَّصرِ، والاستغاثةُ: طَلَبُ الغَوثِ والمَعُونةِ والنَّصرِ[١].

﴿مُرْدِفِينَ﴾: أي: مُتَتابِعينَ، وأصلُ (ردف): يدلُّ على اتِّباعِ الشَّيءِ[٢].

﴿يُغَشِّيكُمُ﴾: أي: يُلقِي عليكم. والغشاوةُ: الغطاءُ والساترُ، وأصلُ (غشي) يدلُّ على تغطيةِ شَيءٍ بِشَيءٍ[٣].

﴿النُّعَاسَ﴾: أي: النَّومَ القليلَ، أو أوَّلَ النَّومِ، وهو ما كان مِنَ العينِ، وهو فُتورٌ يَعتري الإنسانَ، ولا يفقِدُ معَه عقلَه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٧)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٩-٣٥٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٧).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٤)، =

﴿أَمَنَةً﴾: أي: أمنًا وأمانًا، وأصلُ الأمنِ: طمأنينةُ النفسِ، وزوالُ الخوفِ، وسكونُ القلبِ[1].

﴿رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾: أي: وساوِسَه، وأصلُ الرِّجْزِ: الاضطرابُ[2].

﴿وَلِيَرْبِطَ﴾: أي: لِيشُدَّ، وأصلُ (ربط) يدلُّ على شَدٍّ وثَباتٍ[3].

المعنى الإجماليُّ:

اذكُروا- أيُّها المؤمنونَ- حين طَلَبتُم الغَوثَ مِنَ اللهِ بأن ينصُرَكم على عدُوِّكم، فاستجابَ لكم، ووعَدَكم بأن يُمِدَّكم بألفٍ مِن الملائكةِ، يأتونَ مُتتابعينَ للقِتالِ معكم، وما جعَلَ الله هذا الإمدادَ إلَّا ليكونَ بِشارةً لكم بالنَّصرِ، ولِتَسكُنَ قلوبُكم بمَقْدَمِها، وما النَّصرُ إلَّا مِن عند اللهِ، إنَّ اللهَ عزيزٌ حَكيمٌ.

واذكروا حين ألقى اللهُ عليكم النُّعاسَ؛ أمانًا لقُلوبِكم، وأنزلَ عليكم مِن السَّماءِ مَطرًا؛ ليُطَهِّرَكم به من الأحداثِ والجَناباتِ، ويُذهِبَ عنكم وساوِسَ الشَّيطانِ، ولِيشُدَّ على قلوبِكم، ويُثبِّتَ بالمطَرِ أقدامَكم، بتَلبيدِه الأرضَ، فلا تغوصُ فيها.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾.

= ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٨١)، ((تفسير القرطبي)) (٣/ ٢٧٢)، ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٦١٣).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٩٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٨٩) (٣/ ١٨٤، ٢٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٣٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٦).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى في الآيةِ السَّابقةِ أنَّه يُحِقُّ الحقَّ، ويُبطِلُ الباطِلَ؛ بيَّنَ أنَّه تعالى نصَرَهم عند الاستغاثةِ(١).

وأيضًا لَمَّا عَلِمُوا أنَّه لا بدَّ مِن القِتالِ؛ شَرَعوا في طلَبِ الغَوثِ مِن اللهِ تعالى(٢).

سببُ النُّزولِ:

عن عُمرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا كان يومُ بدرٍ، نظَرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى المشركينَ وهم ألفٌ، وأصحابُه ثلاثُمئةٍ وتسعةَ عشَرَ رجلًا، فاستقبَلَ نبيُّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم القِبلةَ، ثم مدَّ يدَيه فجعَلَ يهتِفُ بربِّه؛ اللهمَّ أَنجِزْ لي ما وعدْتَني، اللهمَّ آتِ ما وعدتَني، اللهمَّ إنْ تَهلِكْ هذه العصابةُ مِن أهلِ الإسلامِ لا تُعبَدْ في الأرضِ، فما زال يهتِفُ بربِّه، مادًّا يدَيه، مستقبِلَ القِبلةِ، حتى سقطَ رداؤُه عن مَنكِبَيه، فأتاه أبو بكرٍ، فأخذَ رداءَه فألقاه على مَنكِبَيه، ثم التزَمَه مِن ورائِه، وقال: يا نبيَّ اللهِ، كفاكَ مُناشَدتُك ربَّك؛ فإنَّه سيُنجِزُ لك ما وعَدَك، فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾))(٣).

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾.

أي: إذ(٤) تدعونَ ربَّكم، وتَطلُبونَ منه أن يُعينكم، وينصُرَكم على العدوِّ؛

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٥٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٧٨).
(٣) رواه مسلم (١٧٦٣).
(٤) قال الشنقيطيُّ: (قوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ﴾ قال بعضُ العلماءِ: (إذ) منصوبٌ بـ (اذكر) مقدرًا، وقد ذكرنا أنَّه يكثرُ في القرآنِ نصبُ الظرفِ الذي هو (إذ) بلفظةِ (اذكر) كقولِه: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ﴾ [الأحقاف: الآية ٢١] ﴿وَاذْكُرُواْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً﴾ [الأعراف: الآية ٨٦] ﴿وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ﴾ [الأنفال: الآية ٢٦] ونحو ذلك. قال بعضُ العلماءِ: (إذ) =

لقلَّتِكم(١).

﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾.

أي: فأجاب اللهُ تعالى دعاءَكم، بأنَّني مُقوِّيكم بألفٍ مِن الملائكةِ(٢)، يأتونَ

= في قولِه: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ﴾ بدلٌ مِن (إذ) في قولِه: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ﴾ [الأنفال: الآية ٧]. ((العذب النمير)) (٤/ ٥٣٠)، ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٠٤).

وذهب ابنُ جريرٍ إلى أنَّ «إذ» متعلقةٌ بـ«يبطل»، والمعنى: ويُبْطِلَ الباطِلَ حِينَ تَسْتَغيثونَ ربَّكم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦).

(٢) واختَلف أهلُ العلمِ هل كان المددُ يومَ بدرٍ ألفًا فقط، أو كان خمسةَ آلافٍ، على قولينِ:

القولُ الأولُ: أنَّ الله أمدَّ المؤمنين يومَ بدرٍ بخمسةِ آلافٍ؛ لقولِه تعالى في سورةِ آل عمران: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ * بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤، ١٢٥] قالوا: لأنَّ القصةَ في آل عمران هي قصةُ بدرٍ، وهي المذكورةُ في سورةِ الأنفال، والسياقُ واحدٌ؛ لأنه قال هنا: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأنفال: ١٠] وقال في آل عمران: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦] وقال هنا: ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال: ٧] وقال في آل عمران: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٢٧] فالسياقُ هو السياقُ. وأما التَّنصِيصُ على الألفِ هاهنا فلا يُنافي الثلاثةَ الآلافَ فما فوقَها، وقد أشارت آيةُ الأنفالِ إلى أنَّ المددَ مِن الملائكةِ لا يقتصرُ على الألفِ؛ لأنَّ قولَه: ﴿مُرْدِفِينَ﴾ على قراءة الجمهور معناه: يتبعُ بعضُهم بعضًا، مِن: أردف الرجلُ الرجلَ، إذا كان وراءَه رِدْفًا له، فدلَّ على أنَّهم وراءَهم شيءٌ أُردِفوا به، ويوضِّح هذا المعنى قراءةُ نافع: ﴿مُرْدَفين﴾ بصيغةِ اسمِ المفعولِ، معناه: مردَفين بغيرهم، أنَّهم متبوعون بغيرِهم. وهذا قولُ ابنِ عباسٍ، ومجاهدٍ، وقتادةَ، والروايةُ الأُخرى عن عِكرمةَ، واختاره جماعةٌ مِن المفسِّرين.

القولُ الثاني: أنَّهم أُمِدُّوا يومَ بدرٍ بألفٍ، ولم يُمدُّوا بخمسةِ آلافٍ، إنما كان الوعدُ بالإمدادِ- في قولِه: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ * بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾- كان يومَ أُحُدٍ، وكان إمدادًا معلَّقًا على شرطٍ، فلمَّا فات شرطُه، فات الإمدادُ، قالوا: لأنَّ القصةَ في سياقِ أُحُدٍ، وإنَّما أدخل ذِكر بدرٍ اعتراضًا في أثنائِها، ثم عاد الى قصةِ =

إليكم مُتتابِعينَ للقِتالِ معكم، بعضُهم في إثرِ بَعضٍ[١].

عن ابنِ عبَّاس رضِي الله عنهما، قال: ((بينما رجلٌ من المسلمين يومئذٍ يشتدُّ في أثرِ رجلٍ[٢] من المشركين أمامَه، إذ سمع ضربَةً بالسوطِ فوقَه، وصوتُ الفارسِ يقول: أقْدِم حَيزومُ، فنظر إلى المشركِ أمامه فخرَّ مُستلقيًا، فنظر إليه فإذا هو قد خُطِم[٣] أنفُه، وشُقَّ وجهُه كضربةِ السوطِ، فاخضرَّ ذلك أجمعُ[٤]، فجاء الأنصاريُّ فحدَّثَ بذلك رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: صدقْتَ، ذلك مددٌ السماءِ الثالثةِ، فقتلوا يومئذٍ سبعين، وأسَروا سبعين))[٥].

وعن رفاعةَ بنِ رافعٍ رضي الله عنه، قال: ((جاء جبريلُ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقال: ما تعُدُّون أهلَ بدرٍ فيكم؟ قال: من أفضلِ المسلمين. أو كلمةً

= أُحُد، وهذا قولُ الضحَّاك ومُقاتل، وإحدَى الرِّوايتين عن عكرمةَ. يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ١٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٣٦)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٤٠٥).

وتوقَّف ابنُ جرير، وذهَب إلى أنَّ في القرآنِ دلالةً على أنَّهم قد أُمِدُّوا يومَ بدرٍ بألفٍ مِن الملائكةِ، وأنَّه لا دلالة في آيةِ آل عمران على أنَّهم أُمِدُّوا بالثلاثةِ آلافٍ ولا بالخمسةِ آلافٍ، ولا على أنَّهم لم يُمَدُّوا بهم، ولا صحَّ خبرٌ يُثبتُ أنَّهم أُمِدُّوا بذلك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠- ٥٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٣٤-٥٣٥، ٥٣٩).

(٢) يشتدُّ في أثرِ رجلٍ: أي: يُسرِعُ ويَعدُو في عَقِبِ رَجُلٍ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٩/ ٣٧٨٢).

(٣) خُطِمَ (بضم الخاء): أي: جُرِحَ، وظَهرَ عليه أثَرُ الضَّربِ. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (٦/ ٢١٠)، ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٩/ ٣٧٨٢).

(٤) فاخضَرَّ ذلكَ أَجْمَعُ: أي: اسودَّ أثَرُ تلك الضَّربة كلِّه؛ فإنَّ الخُضرةَ قد تُستعمَلُ بمعنى السَّوادِ، كعكسِه، للمُبالغةِ. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (٦/ ٢١٠)، ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٩/ ٣٧٨٢).

(٥) رواه مسلم (١٧٦٣).

نحوَها، قال: وكذلك من شَهِد بدرًا من الملائكةِ))[١].

﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ ﴾.

أي: وما جعل اللهُ تعالى هذا الإمدادَ إلَّا ليكونَ بِشارةً لكم بالنَّصرِ[٢].

﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ﴾.

أي: وأمدَّكم بالملائكةِ؛ لِتسكُنَ قُلوبُكم بمَقْدَمِها إليكم، ويزولَ عنها القَلَقُ والانزعاجُ والمخاوِفُ، وتُوقِنَ بنَصرِ اللهِ لكم[٣].

﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾.

أي: لن تُنصَروا على عَدُوِّكم إلَّا أن ينصُرَكم اللهُ تعالى عليهم؛ لأنَّ الأمرَ كُلَّه له، والنَّصرَ بِيَدِه وَحْدَه، فلا تظنُّوا- إن أنزَلْتُ عليكم ألفًا من الملائكةِ- أنَّ النَّصرَ بأيديهم[٤].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.

إنَّ اللهَ الذي ينصُرُكم، عزيزٌ: لا يقهَرُه شيءٌ، ولا يغلِبُه غالِبٌ، بل يَقهَرُ كلَّ شَيءٍ، ويَغلِبُه فيَخذُلُ مَن بَلَغوا من الكثرةِ وقُوَّةِ العَدَدِ والآلاتِ ما بَلَغوا، حكيمٌ:

(١) رواه البخاري (٣٩٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٨/ ٢٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٣٩-٥٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٠٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٤١).

يُقدِّرُ الأمورَ بأسبابِها، ويضَعُ الأشياءَ مواضِعَها، ومِن ذلك شَرْعُه قتالَ الكفَّارِ، مع قُدرَتِه على دمارِهم وإهلاكِهم، حكيمٌ في تدبيرِه وفي نصرِه مَن نَصَر، وخِذلانِه مَن خَذَل، ولا يدخُلُ تدبيرَه وَهَنٌ ولا خلَلٌ(١).

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّه استجاب دعاءَهم، ووعَدَهم بالنَّصرِ، فقال: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾- ذكرَ عَقيبَه وُجوهَ النَّصرِ(٢)، فقال:

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴾.

أي: واذكُروا حينَ ألقى اللهُ تعالى عليكم النُّعاسَ؛ لأجلِ أن تكونُوا آمنينَ، ليس في قلوبِكم خوفٌ ولا جزعٌ مِن عَدُوِّكم(٣).

وهذا قد وقع يومَ أحدٍ أيضًا، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ...﴾ [آل عمران: ١٥٤].

﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٨-٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٤١-٥٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٩-٦١)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٢- ٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٥٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٤٤).
واختلف أهلُ العِلمِ في وقتِ وُقوعِ هذا النُّعاسِ، فقيل: كان في ليلةِ الغَزوةِ، وقيل: في النَّهارِ وقتَ التِحامِ الصَّفَّينِ. يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٤٤-٥٤٦).

أي: وينزِّل اللهُ تعالى عليكم مِن السَّماءِ مَطرًا؛ ليُطهِّرَكم به مِن الأحداثِ والجَنابات[1].

﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾.

أي: وأنزَلَ ذلك المطرَ؛ ليُذهِبَ عنكم وساوِسَ الشَّيطانِ، وخَواطِرَه السَّيئة[2].

﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾.

أي: وأنزلَ عليكم المطرَ؛ لِيُقَوِّيَ قلوبَكم، ويشُدَّها فتثبُتَ، ولا تضطرِبَ بوساوِسِ الشَّيطانِ، وتمتلئَ باليقينِ والنَّصرِ، وتقوَى على الصَّبرِ، والإقدامِ على مُقاتلةِ الأعداءِ[3].

﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾.

أي: وأنزل عليكم المطرَ ليلبِّدَ[4] لكم الأرضَ؛ فتَثبُتَ عليها أرجُلُكم، ولا تغوصَ فيها[5].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٧-٦٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٤٦-٥٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٤٧).

(٤) ليلبِّدَ لكم الأرضَ: أي: يجعَلَها قويَّةً لا تسوخُ فيها الأقدامُ. يُنظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٣/ ٣٨٦)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٩/ ١٣٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٤٧).
وقال ابنُ كثير: (﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ أي: بالصَّبرِ والإقْدامِ على مُجالدةِ الأعداءِ، وهو شجاعةُ الباطنِ، ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾ وهو شجاعةُ الظَّاهرِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤).

الفَوائدُ التربويَّةُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ يدلُّ على أنَّ مَنِ استَغاثَ باللهِ كانت استغاثَتُه بالله سببًا للإجابةِ، وإزالةِ المَكروهِ عنه؛ فالفاءُ سببيَّةٌ، والإجابةُ مُسبَّبَةٌ عن الاستغاثةِ باللهِ(١).

٢- الواجِبُ على المُسلِمِ ألَّا يتوكَّلَ إلَّا على اللهِ تعالى في جميعِ أحوالِه، ولا يثِقَ بِغَيرِه؛ فإنَّ اللهَ تعالى بيَدِه النَّصرُ والإعانةُ؛ يُرشِدُ إلى ذلك قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٢).

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ أي: يُثَبِّتَها؛ فإنَّ ثَباتَ القَلبِ أصلُ ثَباتِ البَدَنِ(٣).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قد أثنى اللهُ جلَّ وعلا على نَبِيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وعلى أصحابِه، بالتجائِهم إليه وَقتَ الكَربِ يومَ بَدرٍ، في قَولِه تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ فنَبِيُّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان هو وأصحابُه إذا أصابهم أمرٌ أو كربٌ التجَؤوا إلى اللهِ، وأخلَصُوا له الدُّعاءَ(٤).

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ فيه سرعةُ إجابةِ الله لهم، دلَّ على ذلك قَولُه: ﴿فَاسْتَجَابَ﴾ أي: فأوجَدَ الإجابةَ إيجادَ مَن هو طالِبٌ لها، شَديدُ الرَّغبةِ فيها(٥).

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٣٤، ٥٣٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٥٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦).
(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤١٠).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٣١).

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ يُفيدُ أنَّ ما عِندَه تعالى ليس مُنحصِرًا في الإمدادِ بالملائكةِ؛ فالنَّصرُ وإن كان بها، فليس مِن عِندِها، فلا تعتَمِدوا على وُجودِها، ولا تَهِنُوا بفَقْدِها، واعتَمِدوا عليه سُبحانه خاصَّةً؛ فإنَّ ما عنده مِن الأسبابِ لا يُحاطُ به عِلمًا، هذا إذا أراد النَّصرَ بالأسبابِ، وإن أرادَ بغَيرِ ذلك فعَلَ، فكان التعبيرُ بـ (عند) لإفهامِ ذلك[1].

٤- تخصيصُ النُّعاسِ بأنَّه مِن اللهِ تعالى في قوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ﴾ مع أنَّ كلَّ نَومٍ ونُعاسٍ لا يحصُلُ إلَّا مِن قِبَلِ اللهِ تعالى؛ لا بُدَّ فيه مِن مَزيدِ فائدةٍ، فقيل في بيانِها: إنَّ الخائِفَ مِن عَدُوِّه خوفًا شَديدًا، لا يأخُذُه النَّومُ، فصار حصولُ النَّومِ في وَقتِ الخَوفِ الشَّديدِ دليلًا على زَوالِ الخَوفِ، وحُصولِ الأمنِ.

وفيه وجهٌ آخَرُ: أنَّهم خافوا مِن جِهاتٍ كثيرةٍ: قِلَّةِ المُسلمينَ، وكثرةِ الكُفَّارِ، وكثرةِ الأُهْبةِ والآلةِ والعُدَّةِ للكافِرينِ، والعَطَشِ الشَّديدِ، فلولا فضلُ الله ثم حصولُ النُّعاسِ، وحُصولُ الاستراحةِ حتى تمكَّنُوا في اليومِ الثَّاني من القِتالِ؛ لَمَّا تمَّ الظَّفَرُ.

وفيه وجهٌ آخَرُ: أنَّ النُّعاسَ غَشِيَهم دَفعةً واحدةً مع كَثرَتِهم، وحصولُ النُّعاسِ للجَمعِ العَظيمِ على الخَوف الشَّديدِ؛ أمرٌ خارِقٌ للعادةِ[2].

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾ هذا أصلُ الطَّهارةِ بالماءِ في الأحداثِ والنَّجاساتِ[3].

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ كلمةُ (على) تفيدُ الاستعلاءَ،

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٣٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٩/ ٤٦٧-٤٦٨).
(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٣٤).

فالمعنى أنَّ القلوبَ امتلأَتْ مِن ذلك الرَّبطِ، حتى كأنَّه علا عليها، وارتفَعَ فوقَها(١).

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ أعاد اللَّامَ؛ إشارةً إلى أنَّه المقصِدُ الأعظَمُ، وما قبله وسيلةٌ إليه(٢).

٨- قَولُه تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ توقيفٌ على أنَّ الأمرَ كُلَّه لله، وأن تكَسُّبَ المرءِ لا يُغني إذا لم يُساعِدْه القَدَرُ، وإن كان مطلوبًا بالجِدِّ، كما ظاهرَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بين دِرعَينِ(٣) وهذه القصَّةُ كُلُّها من قصَّةِ الكفَّارِ وغَلَبَةِ المُؤمنينَ لهم، تليقُ بها مِن صِفاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ، العِزَّةُ والحكمةُ إذا تُؤُمِّلَ ذلك(٤).

بلاغة الآيات:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾

- صيغةُ الاستقبالِ في ﴿تَسْتَغِيثُونَ﴾ لحكايةِ الحالِ الماضِيةِ؛ لاستحضارِ صُورَتِها العجيبةِ(٥).

- والسين والتاء في ﴿فَاسْتَجَابَ﴾ للمُبالغةِ في تحقيقِ المَطلوبِ(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٦٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٣٧).

(٣) ظاهَرَ بين دِرعَينِ: أي: عاون بينهما في التحصُّنِ، فلبس واحدًا على آخَرَ ليتوقَّى بهما. والدِّرعُ: قميصٌ مِن الحَديدِ المُتشابِك كان يُلبَسُ وِقايةً مِن سلاحِ العَدُوِّ. يُنظر: ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (٢/ ٢٥٩)، ((مطالع الأنوار)) لابن قرقول (٣/ ٢٣)، ((معجم اللغة العربية المعاصرة)) لأحمد مختار عمر (١/ ٧٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٠٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٧٤).

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

هو كلامٌ مُستأنَفٌ، سِيقَ لِبيانِ أنَّ الأسبابَ الظَّاهرةَ بمَعزِلٍ مِن التأثيرِ، وإنَّما التأثيرُ مختَصٌّ به عزَّ وجلَّ؛ ليَثِقَ به المؤمنونَ، ولا يقنَطُوا من النَّصرِ عند فُقدانِ أسبابِه[1].

- وقال تعالى هنا: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وقال في آلِ عِمرانَ: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦] فزاد ﴿لَكُمْ﴾ في آيةِ آلِ عِمرانَ، وقدَّمَ القُلوبَ على المجرورِ، فقال: ﴿قُلُوبُكُمْ بِهِ﴾، وأخَّرها هنا فقال: ﴿بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾، واستأنَفَ تأكيدَ الإخبارَ بالصِّفَتينِ العَلِيَّتينِ هنا بـ «إنَّ»، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، ولم تَرِدَا جارِيَتينِ على اسمِ اللهِ سبحانَه كما هناك؛ حيث قال: ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾؛ وذلك لِمُناسباتٍ حَسنةٍ، بيانُها على النَّحوِ التَّالي:

- حَذَفَ ﴿لَكُمْ﴾ هنا؛ دفعًا لِتكريرِ لَفظِه؛ لِسَبقِ كَلمةِ ﴿لَكُمْ﴾ قَريبًا في قَولِه: ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾، فعَلِمَ السَّامِعُ أنَّ البُشرى لهم، فأغنَت ﴿لَكُمْ﴾ الأولى بِلَفظِها ومعناها، عَن ذِكرِ ﴿لَكُمْ﴾ مرَّةً ثانيةً؛ ولأنَّ آيةَ آلِ عِمرانَ سِيقَت مَساقَ الامتنانِ والتَّذكيرِ بِنعمةِ النَّصرِ في حينِ القِلَّةِ والضَّعفِ، فكان تقييدُ ﴿بُشْرَى﴾ بأنَّها لأجْلِهم، زيادةً في المنَّةِ، أي: جعلَ الله ذلك بُشرَى لأَجْلِكم. وأمَّا آيةُ الأنفالِ هنا، فهي مَسوقةٌ مَساقَ العِتابِ على كراهِيَةِ الخُروجِ إلى بَدرٍ في أوَّلِ الأمرِ، وعلى اختيارِ أن تكونَ الطَّائِفةُ التي تُلاقيهم

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨).

غيرَ ذاتِ الشَّوكةِ، فجَرَّدَ ﴿بُشْرَى﴾ عن أن يُعَلَّقَ به ﴿لَكُمْ﴾؛ إذ كانت البُشرى للنَّبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ومَن لم يتردَّدوا مِن المُسلِمينَ.

- تقديمُ المجرورِ هنا في قَولِه: ﴿بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ وهو يفيدُ الاختصاصَ، فيكونُ المعنى: ولتطمئِنَّ به قلوبُكم، لا بِغَيرِه، وفي هذا الاختصاصِ تعريضٌ بما اعترَاهم مِن الوَجَلِ مِن الطَّائفةِ ذاتِ الشَّوكةِ، وقناعَتِهم بغَنْمِ العُروضِ التي كانت مع العِيرِ.

- أمَّا قولُه: ﴿الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ في صيغةِ النَّعتِ في آلِ عِمرانَ، وجَعْلُهما هنا في صيغةِ الخَبرِ المؤكَّدِ؛ إذ قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فلِأنَّه نَزَّلَ المُخاطَبينَ- هنا- مَنزلةَ مَن يتردَّدُ في أنَّه تعالى مَوصوفٌ بهاتينِ الصِّفَتينِ: وهما العِزَّةُ- المقتَضِيةُ أنَّه إذا وعد بالنَّصرِ لم يُعجِزْه شَيءٌ- والحكمةُ: فما يَصدُرُ مِن جانِبِه يجِبُ غَوصُ الأفهامِ في تَبَيُّنِ مُقتضاه، فكيف لا يهتدونَ إلى أنَّ اللهَ لَمَّا وعَدَهم الظَّفَرَ بإحدى الطَّائِفَتينِ، وقد فاتَتْهم العِيرُ، أنَّ ذلك آيِلٌ إلى الوَعدِ بالظَّفَرِ بالنَّفيرِ(١).

- وجملةُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ مُستأنفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا، جُعِلَت كالإخبارِ بما ليس بمعلومٍ لهم، وهي تعليلٌ لِما قَبلَها مُتضَمِّنٌ للإشعارِ بأنَّ النَّصرَ الواقِعَ على الوَجهِ المذكورِ، مِن مقتَضياتِ الحِكَمِ البالغةِ(٢).

٣- قولُه تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٧٦-٢٧٧).
ويُنظر ما تقدَّم في تفسيرِ سورةِ آل عمرانَ من هذا التفسير المحرَّر (٢/ ٤٩٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٧٧).

- قوله: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ﴾ صيغةُ المُضارِعِ في ﴿يُغَشِّيكُمُ﴾ لاستحضارِ الحالةِ(١).

- قولُه: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ إسنادُ هذا الإنزالِ إلى اللهِ تعالى؛ للتَّنبيهِ على أنَّه أكرَمَهم به؛ وذلك لِكَونِه نزَلَ في وقتِ احتياجِهم إلى الماءِ(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٧٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٧٩).

الآيات (١٢-١٤)

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ
الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ
(١٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ
شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٣) ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (١٤)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿الرُّعْبَ﴾: أي: الجزَعَ والهَلَع والخوفَ، وقيل: الرُّعب هو الخوفُ الذي يملأُ الصَّدرَ والقلبَ، وقيل: إنَّه أشدُّ الخوفِ، وأصلُ الرُّعب: يدلُّ على الخوفِ، والملءِ، والقَطعِ[1].

﴿بَنَانٍ﴾: أي: أطرافِ أصابعِ اليَدينِ والرِّجلَينِ، واشتِقاقُه مِن قَولِهم: أبَنَّ بالمكانِ: إذا أقام، فالبَنانُ به يُعْتَمَدُ كلُّ ما يكونُ للإقامَةِ والحَياةِ[2].

﴿شَاقُّوا﴾: أي: حَاربُوا، أو خَالَفُوا وجانبوا، وأصلُ (شقق): يدلُّ على انصداعٍ في الشَّيءِ[3].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٦)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٢/ ٥٠٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٩١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٢).

﴿ذلكم فَذُوقُوهُ﴾: يجوزُ في ﴿ذَلِكُمْ﴾ عدةُ أوجُهٍ؛ أحدُها: أن يكونَ خبرًا لِمُبتدأٍ محذوفٍ، أي: العِقابُ ذَلِكم، أو الأمرُ ذلِكم. الثاني: أن يكون مبتدأً، والخبرُ محذوفٌ، أي: ذلِكم واقعٌ أو مُستحَقٌّ، أو ذَلِكم العِقابُ. الثالث: أن يكون مفعولًا به لفعلٍ محذوفٍ، يُفَسِّره ما بعده، أيْ: ذُوقُوا ذلكم، وهو على هذا من بابِ الاشتِغالِ.

﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾: (أنَّ) واسمُها وخبَرُها مصدرٌ مُؤولٌ، في إعرابِه أوجُهٌ؛ منها: أنَّه في محلِّ رَفعِ مُبتدأٍ، والخبرُ محذوفٌ، تقديرُه: حَتْمٌ، أي: كونُ عذابِ النَّارِ للكافرينَ حتْمٌ. والثاني: أنَّه خبرُ مُبتدأٍ محذوفٍ، أي: الواجِبُ كونُ عذابِ النَّارِ للكافرينَ. وجملةُ المصدرِ المؤوَّلِ معطوفةٌ على جُملةِ ﴿ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ﴾. وقيل غيرُ ذلك.

- وقُرِئ ﴿وإنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النارِ﴾ بكسرِ همزةِ ﴿إنَّ﴾ على أنَّها جملةٌ استئنافِيَّة، لا محلَّ لها من الإعرابِ(١).

المَعنى الإجماليُّ:

اذكُرْ- يا مُحمَّدُ- حينَ أوحَى رَبُّك إلى الملائكةِ أنَّه معهم، وأمرَهم أن يُثبِّتوا الذينَ آمنوا، وأعلَمَهم تعالى أنَّه سيُلقي في قلوبِ الكُفَّار الخوفَ الشَّديدَ، وأمَرَهم أن يضرِبوا فوقَ أعناقِ المُشركينَ، ويَضرِبوا كلَّ طَرَفٍ ومَفصِلٍ مِن أطرافِ أصابعِ أيديهم وأرجُلِهم.

وذلك بسببِ أنَّهم خالفوا أمرَ اللهِ ورسولِه، وحارَبُوهما، ومَن يفعلْ ذلك، فإنَّ اللهَ يُعاقِبُه، وهو سبحانه شديدُ العِقابِ.

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣١٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٦١٩-٦٢٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٥٨١-٥٨٣)، ((المجتبى من مشكل إعراب القرآن)) للخرَّاط (١/ ٣٦٤).

هذا العذابُ والنَّكالُ، فذوقوه أيُّها الكافرونَ مُعجَّلًا في الدُّنيا، وأيقِنُوا أنَّ لكم ولِغَيرِكم مِن الكَفَرةِ عذابَ النَّارِ مُؤجَّلًا في الآخرةِ.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾.

﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ﴾.

أي: اذكُرْ- يا مُحمَّدُ- وقتَ أن أوحَى رَبُّك إلى الملائكةِ[1]- الذينَ أمدَّ بهم حِزبَه المؤمنين- أنِّي مَعَكم بِالعَونِ والنَّصرِ والتَّأييدِ[2].

﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

أي: فقَوُّوا عزمَ المُؤمنينَ يومَ بَدرٍ، وصَحِّحوا نيَّاتِهم في قتالِ عَدُوِّهم، وجَرِّئوهم عليهم، وألْقُوا في قلوبِهم الأمنَ والطُّمأنينةَ، وأعينُوهم على القتالِ، وبَشِّروهم بالنَّصرِ[3].

﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾.

أي: سأُرعِبُ قلوبَ الذينَ كفَروا بي، فخالَفُوا أمري، وكذَّبُوا رسولي، وأملَؤُها

(١) قيل: يُمكِنُ أن يكونَ وَحيَ إلهامٍ، ويمكِنُ أن يكونَ وَحيَ إعلامٍ. يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦).

وقيل: العاملُ في ﴿إِذْ﴾، «يُثبِّت» أي يُثبِّت به الأقدامَ ذلك الوقتَ. وقيل: العاملُ «ليربط» أي: وليربط إذ يُوحِي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٧٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٢/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٤٨-٥٤٩).

خوفًا شديدًا حتى ينهزموا[١].

كما قال تعالى في سياقِ الحديثِ عن غَزوةِ أُحُدٍ: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران:١٥١].

وقال سبحانه: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ [الأحزاب: ٢٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ [الحشر: ٢].

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((أُعطِيتُ خمسًا، لم يُعطَهنَّ أحدٌ منَ الأنبياءِ قَبلي: نُصِرتُ بالرُّعبِ مَسيرةَ شَهرٍ[٢]...)) الحديث[٣].

﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾.

أي: فاضربوا أيُّها الملائكةُ[٤] رؤوسَ المُشركينَ، فحُزُّوها، وأعناقَهم فاقْطَعُوها[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٤٩).

(٢) نُصِرتُ بالرُّعبِ مَسيرةَ شَهرٍ: أي: أنَّ الأعداءَ يَخافونَني ويقَعُ في قُلوبِهم الفَزَعُ وبيني وبينهم مسيرةُ مَسافةِ شهرٍ. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (٦/ ٩١)، ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (٣/ ٤١).

(٣) رواه البخاري (٤٣٨)، ومسلم (٥٢١).

(٤) هذا اختيارُ الواحديِّ، والقرطبيِّ، وابنِ عاشورٍ، والشنقيطيِّ. يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٨٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٥٠).

وقيل: هذا الأمرُ مِن اللهِ تعالى موجَّهٌ إلى المؤمنينَ، يُعَلِّمُهم كيفيَّةَ قَتلِ المُشركينَ وضَربِهم. وهذا اختيارُ ابنِ جريرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٧١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٧١)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٨)، ((تفسير ابن =

قال تعالى للمؤمنين: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ [محمد: ٤].

﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾.

أي: واضرِبُوا مِن المُشركينَ كُلَّ طَرَفٍ ومَفصِلٍ مِن أطرافِ أصابعِ أيديهم وأرجُلِهم(١).

= كثير)) (٤/ ٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٥٠-٥٥٣).

واختلف المفسِّرون في معنى قولِه تعالى: ﴿فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ فقيل: معناه: اضرِبوا الرُّؤوسَ. وهذا اختيارُ الواحديِّ. يُنظر: ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٤٤٨).

وممن ذهب إليه مِن السَّلف عكرمةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٧١).

وقيل معنى: ﴿فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ أي: على الأعناقِ، وهي الرِّقابُ. وهذا اختيارُ ابنِ عاشورٍ، والسعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٨٣). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥).

وممَّن ذهب من السَّلف إلى أنَّ المعنى اضْرِبوا الأعناقَ عَطِيَّةُ والضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٧٠).

ورجَّحَ ابنُ جريرٍ القَولَ بالعُموم، وأنَّ المُرادَ: الرُّؤوسُ والأعناقُ. فقال: (قَولُه: ﴿فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ مُحتَمِلٌ أن يكونَ مرادًا به الرُّؤوسُ، ومُحتَمِلٌ أن يكونَ مُرادًا به فوقَ جِلدةِ الأعناقِ، فيكون معناه: على الأعناقِ، وإذا احتمَلَ ذلك صَحَّ قَولُ مَن قال: معناه الأعناقُ، وإذا كان الأمرُ مُحتَمِلًا ما ذكَرْنا من التَّأويلِ، لم يكُنْ لنا أن نُوجِّهَه إلى بعضِ معانيه دون بعضٍ إلَّا بحُجَّةٍ يجِبُ التَّسليمُ لها، ولا حُجَّةَ تَدُلُّ على خُصوصِه، فالواجِبُ أن يُقالَ: إنَّ اللهَ أمَرَ بِضَربِ رُؤوسِ المُشركينَ وأعناقِهم وأيديهم وأرجُلِهم، أصحابَ نَبِيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم، الذين شَهِدوا معه بَدرًا). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٧١).

وقال الزمخشري: (أراد أعاليَ الأعناقِ التي هي المذابحُ؛ لأنَّها مفاصلُ، فكان إيقاعُ الضربِ فيها حزًّا وتطييرًا للرؤوس). ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٠٤).

وقال ابنُ عطيةَ: (ويحتملُ عندي أن يريدَ بقولِه: ﴿فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ وصفَ أبلغِ ضرباتِ العنقِ وأحكمِها، وهي الضربةُ التي تكونُ فوقَ عظمِ العنقِ، ودونَ عظمِ الرأسِ في المفصلِ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٠٨).

وقال الشنقيطيُّ: (وأظهَرُ الأقوالِ وأقرَبُها للصَّوابِ ما قالَه بعضُ العُلَماءِ: أنَّ اللهَ علَّمَ الملائكةَ أو أصحابَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلم حَزَّ الرُّؤوسِ، وبيَّنَ لهم مَفصِلَ الرَّأسِ الذي يُطيرُ الرَّأسَ عن الجُثَّةِ، وأنَّه فَوقَ الأعناقِ؛ لأنَّ الرَّقبةَ المحِلُّ الذي تُركَّبُ منه في الرأسِ هو مَفصِلٌ للحَزِّ، إذا ضَرَبَه الإنسانُ طار الرَّأسُ بِسُرعةٍ، وكان ذلك أهونَ لإبانةِ الرَّأسِ). ((العذب النمير)) (٤/ ٥٥٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٧١-٧٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٣)، ((تفسير السعدي)) =

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ هذا تعليلٌ لِتسليطِ اللهِ تعالى المؤمنينَ على المُشركينَ(١).

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾.

أي: هذا الفِعلُ مِن ضَربِ هؤلاءِ المُشركينَ فَوقَ الأعناقِ، وضَربِ كُلِّ بنانٍ منهم، وتسليطِ أوليائِه عليهم، وإلقاءِ الرُّعبِ في قُلوبِهم- إنَّما هو جزاءٌ وعقابٌ لهم؛ لأنَّهم فارَقُوا أمرَ اللهِ ورسولِه، وحارَبُوهما وخالَفُوهما، فساروا في شِقٍّ، وتَركوا الحَقَّ في شِقٍّ آخَرَ(٢).

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾.

أي: ومَن يخالِفْ أمرَ اللهِ وأمْرَ رَسولِه، ويفارِقْ طاعَتَهما؛ فإنَّ اللهَ يُعاقِبُه، وهو سبحانَه شَديدُ العقابِ لِمَن أراد عِقابَه، ومِن ذلك تسليطُ أوليائِه عليه في الدُّنيا(٣).

﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ أنَّه مَن يُشاقِقِ اللهَ ورَسولَه فإنَّ اللهَ شديدُ العِقابِ؛ بيَّنَ مِن بَعدِ ذلك

= (ص: ٣١٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٥٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٨٣-٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٧٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٣)، ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٥٤-٥٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٥٥-٥٥٦).

صِفةَ عِقابِه، وأنَّه قد يكونُ مُعجَّلًا في الدُّنيا، وقد يكون مؤجَّلًا في الآخرةِ(١)، فقال:

﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ ﴾.

أي: هذا هو العذابُ والنَّكالُ الذي جعَلْتُه لكم- أيُّها الكافِرونَ المُشاقُّونَ للهِ ورَسولِه- فذوقوه مُعجَّلًا في الدُّنيا(٢).

﴿وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾.

أي: واعلموا أنَّ لكم ولِغَيرِكم مِن الكفَّارِ أيضًا عذابًا مُؤجَّلًا في النَّارِ، في الدَّارِ الآخِرةِ(٣).

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

١- مِن لُطفِ اللهِ بعبدِه أن يُسهِّلَ عليه طاعَتَه، ويُيَسِّرَها بأسبابٍ داخليَّةٍ وخارجيَّةٍ؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾(٤).

٢- العَبدُ لا يستَغني عن تثبيتِ اللهِ له طَرْفةَ عَينٍ، فإنْ لم يُثبِّتْه وإلَّا زالت سماءُ إيمانِه وأرضِه عن مَكانِهما، وقد قال تعالى لأكرَمِ خَلْقِه عليه؛ عَبدِه ورَسولِه: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤] وقال تعالى لأكرَمِ خَلقِه: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٧٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٧٤)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦).

فالخَلقُ كُلُّهم قِسمانِ: مُوَفَّقٌ بالتَّثبيتِ، ومخذولٌ بتَركِ التَّثبيتِ[١].

٣- مِن سُنَنِ اللهِ تعالى أنَّه حيثما انطلَقَت العُصبةُ المُسلِمةُ في الأرضِ؛ لِتَقريرِ ألوهيَّةِ اللهِ وَحدَه، وإقامةِ مَنهجِ اللهِ وَحدَه، ثم وقَفَ منها عدوٌّ لها موقِفَ المُشاقَّةِ لله ورسولِه- كان التثبيتُ والنَّصرُ للعُصبةِ المُسلمةِ، وكان الرُّعبُ والهزيمةُ للَّذينَ يشاقُّونَ اللهَ ورَسولَه، ما استقامَتِ العُصبةُ المُسلِمةُ على طريقِ اللهِ، واطمأنَّتْ إلى ربِّها، وتوكَّلَت عليه وَحدَه، وهي تقطَعُ الطَّريقَ، قال الله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾[٢].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ التَّصريحُ بسبَبِ الانتقامِ تعريضٌ للمُؤمنينَ؛ لِيَستزيدوا مِن طاعةِ اللهِ ورَسولِه؛ فإنَّ المُشاقَّةَ لَمَّا كانت سبَبَ هذا العِقابِ العَظيمِ، فيُوشِكُ ما هو مخالفةٌ للرَّسولِ بدونِ مُشاقَّةٍ، أن يوقِعَ في عذابٍ دون ذلك، وخليقٌ بأن يكون ضِدُّها- وهو الطَّاعةُ- مُوجِبًا للخَيرِ[٣].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- ما يحصُلُ في القَلبِ مِن العِلمِ والقوَّةِ ونَحوِ ذلك، قد يجعَلُه اللهُ بواسطةِ فِعلِ الملائكةِ، كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾[٤].

٢- قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٣٦).
(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٤٨٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٨٤).
(٤) يُنظر: ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٥٠٧).

هذه نِعمةٌ خَفيَّةٌ أظهَرَها اللهُ تعالى لهم؛ ليشكُرُوه عليها(١).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إن قيل: ما الحِكمةُ في قتالِ الملائكةِ مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، مع أنَّ جِبريلَ قادِرٌ على أن يَدفَعَ الكُفَّارَ بريشةٍ مِن جَناحِه؟! فالجوابُ: أنَّ ذلك وقع لإرادةِ أن يكونَ الفِعلُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابِه، وتكونَ الملائكةُ مَدَدًا على عادَةِ مَدَدِ الجيوشِ؛ رعايةً لِصورةِ الأسبابِ وسُنَّتِها التي أجراها اللهُ تعالى في عبادِه، والله تعالى هو فاعِلُ الجَميعِ(٢).

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ لم يُسنِدْ إلقاءَ الرُّعبِ في قلوبِ الذينَ كَفَروا إلى الملائكةِ، بل أسنده الله إلى نفسه وحده؛ لأنَّ أولئك الملائكةَ المخاطبينَ كانوا ملائكةَ نصرٍ وتأييدٍ، فلا يليقُ بقواهم إلقاءَ الرُّعبِ(٣).

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ فيه أنَّ كُلَّ ما يَقَعُ في العالَم هو من تقديرِ اللهِ على حسَبِ إرادَتِه(٤).

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ التَّعبيرُ بإلقاءِ الرُّعبِ في القَلبِ أبلَغُ مِن التَّعبيرِ بـ (رَعَبْتُه) أو (أرعَبْتُه)؛ لِما في التَّعبيرِ بإلقاءِ الرُّعبِ مِن الإشعارِ بأنَّه يُصَبُّ في القلوبِ دَفعةً واحدةً(٥).

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ لَمَّا كان العُنُقُ يُستَرُ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٧/ ٣١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٨٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٥٠٩).

الحَربِ غالبًا، عبَّر بقولِه: ﴿فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ أي: الرُّؤوسَ أو أعاليَ الأعناقِ منهم؛ لأنَّها مفاصِلُ ومذابِحُ(١).

٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ عبَّر بالمضارعِ ندبًا إلى التوبةِ بتقييدِ الوعيدِ بالاستمرارِ(٢).

٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ إنَّما قَالَ ذَلِك مُبَالغَةً في التعذيبِ والانتقامِ، والعربُ تَقولُ للعَدوِّ إذا أصابه المكروهُ: ذُقْ(٣)، وقيل: سمَّاه ذَوقًا؛ لأنَّ الذَّائِقَ أشدُّ إحساسًا بالطَّعمِ مِن المُستمِرِّ على الأكلِ، فكأنَّ حالهم أبدًا حالُ الذَّائِقِ، في إحساسِهم العَذابَ(٤)، وقيل: لَمَّا كان ما وقَعَ للمُشركينَ في وقعةِ بَدرٍ مِن القَتلِ والأسْرِ والقَهرِ، يَسيرًا جدًّا بالنِّسبةِ إلى ما لهم في الآخرةِ- سمَّاه ذَوقًا؛ لِأَنَّ الذَّوْقَ يُعْرَفُ بِهِ طَعْمُ اليسيرِ؛ لِيُعرَفَ به حالُ الكَثيرِ، فعاجلُ ما حصَل لهم مِن الآلامِ في الدُّنيا كالذَّوقِ القليلِ بالنسبةِ إلى الأمرِ العظيمِ المعدِّ لهم في الآخرةِ(٥).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾

- تعريفُ اللهِ باسْمِ الرَّبِّ، وإضافَتِه إلى ضَميرِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٣٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٢٥٣).
(٤) يُنظر: ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (١/ ٥٥٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٣٩).

في قَولِه: ﴿رَبُّكَ﴾؛ فيه تنويهٌ بِقَدْرِ نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وإشارةٌ إلى أنَّه فَعلَ ذلك لُطفًا به، ورَفعًا لشأنِه(١).

- وعُرِّفَ المُثبَّتونَ بالموصولِ في قَولِه: ﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ لما تُومِئُ إليه الصِّلةُ ﴿آمَنُوا﴾ مِن كَونِ إيمانِهم هو الباعِثَ على هذه العِنايةِ، فتكونُ الملائكةُ بِعِنايةِ المُؤمنينَ؛ لأجْلِ وَصفِ الإيمانِ(٢).

- قولُه: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ جملةٌ مُستأنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا؛ إخبارًا لهم بما يقتضي التَّخفيفَ عليهم في العَملِ الذي كلَّفَهم اللهُ به(٣).

- قوله: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ فيه تكريرُ الأمرِ بالضَّربِ؛ لِمَزيدِ التَّشديدِ، والاعتناءِ بأمرِه(٤).

- قوله: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ خُصَّتِ الأعناقُ والبَنانُ؛ لأنَّ ضَرْبَ الأعناقِ إتلافٌ لأجسادِ المُشركينَ، وضَربَ البنانِ يُبطِلُ صلاحيَّةَ المضروبِ للقِتالِ، لأنَّ تَناوُلَ السِّلاحِ إنما يكونُ بالأصابِعِ(٥).

٢- قولُه تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

- تعليلٌ لِما قبله؛ لأنَّ الباءَ في ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ باءُ السَّببيَّةِ، فهي تفيدُ معنى التَّعليلِ؛ ولِهذا فُصِلَت الجُملةُ(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٨٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٨١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٨٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١١).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٨٣).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٨٣-٢٨٤).

- قولُه: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ تذييلٌ يَعُمُّ كلَّ مَن يُشاقِقُ اللهَ، ويعُمُّ أصنافَ العَقائِدِ[١].

- وفيه إظهارٌ في موضعِ الإضمارِ- حيث لم يقُل: ومَن يُشاقِقْهما- لتربيةِ المَهابةِ، وإظهارِ كمالِ شَناعةِ ما اجترَؤوا عليه، والإشعارِ بعلَّةِ الحُكمِ[٢].

- قولُه: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ المراد منه الكنايةُ عَن عِقابِ المُشاقِّينَ، وبذلك يظهَرُ الارتباطُ بين الجزاءِ والشَّرطِ، باعتبارِ لازِمِ الخَبَرِ، وهو الكنايةُ عن تعَلُّقِ مَضمونِ ذلك الخبَرِ بمَن حصَلَ منه مَضمونُ الشَّرطِ[٣].

٣- قَولُه تعالى: ﴿ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾

- الخطابُ فيه مَع الكَفَرةِ على طريقةِ الالتفاتِ[٤].

- وتفريعُ ﴿فَذُوقُوهُ﴾ على جُملةِ: ﴿ذَلِكُمْ﴾ بما قُدِّرَ فيها؛ تفريعٌ للشَّماتةِ على تحقيقِ الوَعيدِ؛ فصيغةُ الأمرِ مُستعمَلةٌ في الشَّماتةِ والإهانةِ[٥].

- قولُه: ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ وُضِعَ فيه الظَّاهِرُ موضِعَ الضَّميرِ- حيثُ لم يَقُلْ: وأنَّ لَكُم- لِتَوبيخِهم بالكُفرِ، وتَعليلِ الحُكمِ به[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٨٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٨٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٨٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٠٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٨٥).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١١).

الآيتان (١٥-١٦)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ
(١٥) وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ
بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ (١٦) ﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿زَحْفًا﴾: أي: متقاربًا بعضُكم إلى بعضٍ، والزَّحفُ تقارُبُ القَومِ إلى القَومِ في الحَربِ، أو الدُّنوُّ قليلًا قليلًا، وأَصلُ (زحف): يدلُّ على الاندفاعِ، والمُضِيِّ قُدُمًا[1].

﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾: أي: لا تَفِرُّوا مِنهم، وتُعْطوهم ظُهورَكم، ويقال: وَلَّاه دُبُرَه: إذا انهزم، والتولِّي: الإعراضُ بعدَ الإقبالِ، وأصْل الدُّبر: آخِرُ الشيءِ وخلفُه، ضد القُبلِ[2].

﴿مُتَحَرِّفًا﴾: أي: مائلًا لأجلِ القِتالِ، لا مائلًا هزيمةً؛ بأنْ يُرِيَهم الفَرَّةَ مكيدةً، وهو يريدُ الكَرَّةَ، وأصلُ (حرف): يدل على العُدُولِ، والانحرافِ عن الشَّيءِ[3].

﴿مُتَحَيِّزًا إلى فِئَةٍ﴾: أي: مُنضمًّا إلى جماعةٍ، وأصلُ (حوز) يدلُّ على الجَمعِ والتجمُّعِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٧٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (١ / ٧٩)، ((الكليات)) للكفوي (١ / ٢٨).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٢)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ١٣٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٧٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٧).

﴿بَاءَ﴾: أي: رجَع، وانصَرف، ولا يُقالُ: باء إلَّا موصولًا إمَّا بخيرٍ وإمَّا بشَرٍّ، وأَصلُ (بوأ): يدلُّ على الرُّجوعِ إلى الشَّيءِ(١).

﴿وَمَأْوَاهُ﴾: أي: مصيرُه، ومقامُه، والمأوى مصدرُ أَوَى، يُقال: أَوَى إلى كذا، أي: انضمَّ إليه يأوي أويًا ومأوًى، وأصْلُه: التَّجمُّع(٢).

المَعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ المؤمنين إذا ما قابَلوا الكفَّارَ للقتالِ، فاقتَرَب بعضُهم من بعضٍ، ألَّا يُولُّوهم ظُهورَهم فِرارًا منهم، فينهَزِموا عنهم، ولكِن لِيثبُتُوا، وتوعَّدَ مَن يولِّيهم ظَهْرَه في ذلك الوقتِ بأنَّه يرجِعُ بغضَبٍ مِن اللهِ- عزَّ وجلَّ- ومصيرُه جهنَّمُ، وبئس المصيرُ، إلَّا أنْ تكونَ تولِيَتُه ظَهْرَه خِداعًا للعدُوِّ، ومكيدةً له، ثم يكِرُّ عليه، أو يكونَ مِن أجلِ أن يتنحَّى إلى حيِّزِ جماعةٍ أخرى من المُسلمينَ، يُريدونَ العودةَ إلى القتالِ، فيعودُ معهم فيعاوِنُهم ويُعاوِنونَه، فيجوزُ له ذلك حينَها.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ١٥ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى أنَّه سيُلقِي الرُّعبَ في قُلوبِ الكُفَّارِ، وأمَرَ مَن آمنَ بالضَّربِ فَوقَ أعناقِهم وبَنانِهم؛ حرَّضَهم على الصَّبرِ عند مُكافحةِ العَدُوِّ، ونهاهم عن الانهزامِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٧) (١١/ ٨٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس(١/ ٣١٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٠ - ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٩٢).

وأيضًا لَمَّا قرَّرَ تعالى إهانةَ المُشركينَ في الدُّنيا والآخرةِ؛ حسُنَ أن يُتبعَ ذلك نهيَ مَن ادَّعى الإيمانَ عَن الفِرارِ منهم، وتهديدَ منَ نكَصَ عنهم بعد هذا البيانِ، وهو يَدَّعي الإيمانَ(١).

وأيضًا لَمَّا ذكَّرَ اللهُ المُسلمينَ بما أيَّدَهم يومَ بَدرٍ بالملائكةِ والنَّصرِ مِن عِندِه، وأكرَمَهم بأنْ نَصَرَهم على المُشركينَ الذينَ كانوا أشدَّ منهم، وأكثَرَ عَددًا وعُدَدًا، وأعقَبَه بأنْ أعلَمَهم أنَّ ذلك شأنُه مع الكافرينَ به- اعترَضَ في خلالِ ذلك بتحذيرِهم مِن الوَهَنِ، والفِرارِ منهم(٢)، فقال تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا ﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنونَ، إذا قابَلْتم الكفَّارَ، وقد دَنَوْا إليكم لِقتالِكم، ودَنَوتُم إليهم لقِتالِهم، فاقترَب بعضُكم مِن بَعضٍ(٣).

﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾.

أي: فحِينذاك لا تُولُّوهم ظُهورَكم فرارًا منهم، فتَنهَزِموا عنهم، ولكنِ اثبُتُوا لقتالِهم(٤).

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾ [الأنفال: ٤٥].

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٧٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٧٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٧).

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ ﴾.

أي: ومَن يُوَلِّ الكُفَّارَ ظَهْرَه في ذلك الوَقتِ[1].

﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ ﴾.

أي: إلَّا مَن يُوَلِّيهم ظَهْرَه، فينعطِفُ وينحَرِفُ عن اتِّجاهِه؛ ليخدَعَ عَدُوَّه ويُوهِمَه- مكيدةً له ومَكرًا به- أنَّه قد فرَّ منه، وخاف وانهزَمَ، ثم يكِرُّ عليه، فيكونُ ذلك أمكنَ له في قِتالِه، أو أنكى لعَدُوِّه، فلا بأسَ عليه في ذلك[2].

﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ ﴾.

أي: أو إلَّا مَن يُوَلِّيهم ظَهْرَه؛ ليتنحَّى إلى حيِّزِ جماعةٍ أخرى مِن المُسلِمينَ، يريدونَ العودةَ إلى القِتالِ، فيعودُ معهم فيعاونُهم ويعاونونَه، فيجوزُ له ذلك[3].

﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾.

أي: مَن ولَّاهم الدُّبُرَ بعد الزَّحفِ لقتالٍ، مُنهَزِمًا- بغيرِ نيَّةِ إحدى الخَلَّتينِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٧٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٧٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٧٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٨-٤٤٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٣٤٣-٣٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧).

قال السَّعدي: (فإن كانت الفئةُ في العَسكرِ، فالأمرُ في هذا واضِحٌ، وإن كانت الفِئةُ في غيرِ مَحلِّ المعركةِ كانهزامِ المسلمينَ بين يدي الكافرينَ، والتجائِهم إلى بلدٍ مِن بُلدانِ المُسلِمينَ، أو إلى عسكرٍ آخَرَ مِن عسكَرِ المُسلمين، فقد ورد مِن آثارِ الصَّحابةِ ما يدُلُّ على أنَّ هذا جائزٌ، ولعل هذا يُقَيَّدُ بما إذا ظَنَّ المسلمونَ أنَّ الانهزامَ أحمَدُ عاقبةً، وأبقَى عليهم. أمَّا إذا ظنُّوا غلَبَتَهم للكُفَّارِ في ثباتِهم لقتالِهم، فيَبعُدُ- في هذه الحالِ- أن تكونَ مِن الأحوالِ المُرخَّصِ فيها، لأنَّه- على هذا- لا يُتَصَوَّرُ الفِرارُ المنهيُّ عنه، وهذه الآيةُ مُطلَقةٌ، وسيأتي في آخِرِ السورةِ تَقييدُها بالعَدَدِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٧).

اللَّتينِ أباح اللهُ التَّوليَةَ بهما- فقد رَجَعَ بِغَضبٍ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ(١).

﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ﴾.

أي: ومَصيرُه الذي يصيرُ إليه يومَ القِيامةِ، ومُنقَلَبُه ومَقَرُّه؛ نارُ جَهنَّمَ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٨١-٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٧).

قال الواحدي: (وأكثَرُ المُفَسِّرينَ على أنَّ هذا الوعيدَ خاصٌّ فيمَن انهزَمَ يومَ بَدرٍ، ولم يكُنْ لهم أن ينحازُوا؛ لأنَّه لم يكُن يومَئذٍ في الأرضِ فِئةٌ للمُسلمينَ، فأمَّا بعد ذلك فإنَّ المُسلمينَ بعضُهم فئةٌ لبعضٍ). ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٤٤٩).

وقال ابنُ كثير: (وقد ذهب ذاهبونَ إلى أنَّ الفِرارَ إنَّما كان حرامًا على الصَّحابة؛ لأنَّه- يعني الجهادَ-كان فرضَ عَينٍ عليهم. وقيل: على الأنصارِ خاصَّةً؛ لأنهم بايَعُوا على السَّمعِ والطَّاعة في المَنشَطِ والمَكْرَه. وقيل: إنَّما المرادُ بهذه الآيةِ أهلُ بدرٍ خاصَّةً... وحُجَّتُهم في هذا: أنَّه لم تكن عِصابةٌ لها شَوكةٌ يَفيئونَ إليها سوى عِصابَتِهم تلك، كما قال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: «اللهمَّ إنْ تَهلِكْ هذه العِصابةُ، لا تُعبَدْ في الأرضِ»؛ ولهذا قال عبدُ الله بن المبارك، عن مبارك بن فضالة، عن الحسَن في قوله: ﴿وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ﴾ قال: ذلك يومَ بدرٍ، فأمَّا اليومَ: فإنِ انحازَ إلى فئةٍ أو مصرٍ- أحسَبُه قال- فلا بأسَ عليه... وهذا كلُّه لا ينفي أن يكونَ الفِرارُ مِن الزَّحفِ حرامًا على غيرِ أهلِ بَدرٍ، وإن كان سببُ النُّزولِ فيهم، كما دلَّ عليه حديثُ أبي هُريرةَ المتقَدِّمُ، من أنَّ الفِرارَ مِن الزَّحفِ مِن المُوبِقاتِ، كما هو مَذهَبُ الجماهيرِ، والله تعالى أعلم). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩-٣٠).

وقال ابنُ جرير: (وأولى التأويلينِ في هذه الآيةِ بالصَّوابِ عندي قَولُ من قال: حُكمُها مُحكَمٌ، وأنَّها نزلت في أهلِ بَدرٍ، وحُكمُها ثابِتٌ في جميعِ المؤمنين، وأنَّ اللهَ حَرَّمَ على المؤمنينَ إذا لَقُوا العَدُوَّ أن يُوَلُّوهم الدُّبُرَ مُنهَزِمينَ، إلَّا لتحَرُّفٍ لقتالٍ، أو لتحيُّزٍ إلى فئةٍ مِنَ المؤمنينَ، حيث كانت من أرضِ الإسلامِ، وأنَّ مَن ولَّاهم الدُّبُرَ بعد الزَّحفِ لقتالٍ مُنهَزِمًا- بغيرِ نِيَّةٍ إحدى الخَلَّتينِ اللَّتينِ أباح اللهُ التَّوليَةَ بهما- فقد استوجَبَ مِن اللهِ وَعيدَه، إلَّا أن يتفضَّلَ عليه بِعَفوِه). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٧).

قال الواحدي: (قَولُه: ﴿وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ﴾ لا يدلُّ على التَّخليدِ، ومعناه: أنَّ مَرجِعَه إليها إلى وقتِ الرَّحمةِ والشَّفاعةِ). ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٤٥٠). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٨٤).

﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

أي: وبِئسَ الموضِعُ الذي يصيرُ إليه(١).

وقال تعالى عمَّن ولَّى من المسلمين دُبرَه فرارًا مِن المشركينَ، يومَ تلاقَى الفريقانِ بأُحُدٍ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((اجتَنِبوا السَّبعَ المُوبقاتِ. قالوا: يا رسولَ اللهِ: وما هُنَّ؟ قال: الشِّركُ باللهِ، والسِّحرُ، وقتلُ النَّفسِ الَّتي حرَّم اللهُ إلَّا بالحقِّ، وأكلُ الرِّبا، وأكلُ مالِ اليَتيمِ، والتَّولِّي يومَ الزَّحفِ، وقذفُ المُحصَناتِ المؤمناتِ الغافلاتِ))(٢).

الفَوائدُ التربويَّةُ:

في قولِه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾ نهيٌ عن توليةِ العَدُوِّ الأدبارَ، وتضَمَّنَ هذا النَّهيُ الأمرَ بالثَّباتِ والمُصابَرة(٣).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قولِ الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ عبَّر بلَفظِ توليةِ الدُّبُرِ في وعيدِ كلِّ فَردٍ، كما عبَّر به في نهيِ الجَماعةِ؛ لتأكيدِ حُرمةِ جريرةِ الفرارِ مِن الزَّحفِ، وكونِ الفَردِ فيها كالجماعةِ(٤).

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٨٢).
(٢) رواه البخاري (٢٧٦٦) واللفظ له، ومسلم (٨٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٩٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٥١٣).

فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ فيه تحريمُ الفِرارِ مِن الزَّحفِ، وأنَّه مِن الكبائِرِ(١).

٣- قولُه تعالى: ﴿فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ فيه رَدٌّ على الجهميَّةِ في إنكارِهم الغضبَ(٢).

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ كأنَّ المُنهزِمَ أراد أن يأوِيَ إلى مكانٍ يأمَنُ فيه من الهَلاكِ، فعُوقِبَ على ذلك بجَعْلِ عاقِبَتِه التي يصيرُ إليها دارَ الهَلاكِ، والعَذابِ الدَّائِمِ، وجُوزِيَ بضِدِّ غَرَضِه مِن مَعصيةِ الفِرارِ(٣).

بلاغةُ الآيتَين:

١- قولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾ خِطابٌ لِلمُؤمنينَ بحُكمٍ كُلِّيٍّ جارٍ فيما سيقَعُ مِن الوقائِعِ والحروبِ، جِيءَ به في تضاعيفِ القِصَّةِ؛ إظهارًا للاعتناءِ بِشَأنِه، ومبالغةً في حَضِّهم على المُحافظةِ عليه(٤)

- وأُطلِقَ على مَشيِ المُقاتِلِ إلى عَدُوِّه في ساحةِ القِتالِ (زَحفٌ)؛ لأنَّه يَدنُو إلى العدُوِّ باحتراسٍ، وترَصُّدِ فُرصةٍ، فكأنَّه يزحَفُ إليه(٥).

- وعبَّرَ عن حالِ لِقائِهم بالمصدَرِ مبالغةً في التَّشبيهِ، فقال: ﴿زَحْفًا﴾ أي: حالَ كَونِهم زاحفينَ مُحارِبينَ، وهم مِن الكَثرةِ بحيثُ لا يُدرَكُ مِن حَرَكتِهم- وإن كانَت سَريعةً- إلَّا مِثلُ الزَّحفِ(٦).

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٣٤).
(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٤٦٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٥١٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٨٦).
(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٤٠).

٢- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾

- (توليةُ الأدبارِ) كنايةٌ عن الفِرارِ مِن العَدُوِّ بِقَرينةِ ذِكرِه في سياقِ لقاءِ العَدُوِّ؛ فهو مُستعمَلٌ في لازِمِ معناه مع بعضِ المعنى الأصليِّ[1].

- وعَدلَ عن لَفظِ (الظُّهورِ) إلى لَفظِ (الأدبارِ) في قَولِه: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾؛ تقبيحًا لِفِعلِ الفارِّ، وتبشيعًا لانهزامِه[2].

- قوله: ﴿فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ ﴿مِنَ اللَّهِ﴾صِفةٌ لـ ﴿غَضَبٍ﴾ مؤكِّدةٌ لِما أفادَه التَّنوينُ مِن الفخامةِ والهَولِ بالفخامةِ الإضافيَّةِ، أي: بغضَبٍ كائِنٍ منه تعالى[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٨٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٩٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣).

الآيات (١٧-١٩)

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧) ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (١٨) إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩)﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿وَلِيُبْلِيَ﴾ أَي: ولِيُنْعِمَ، والبلاءُ: النِّعْمَةُ، وأيضًا: الاختبارُ، والمكروهُ والشِّدَّةُ، والبلاءُ يكونُ في الخيرِ والشَّرِّ، يُقال: أبلاه بالنِّعمةِ، وبلاه بالشِّدةِ، وقد يدخلُ أحدُهما على الآخرِ، فيقال: بلاه بالخيرِ، وأبلاه بالشَّرِّ، وأصلُ (بلي) الاختبارُ والامتحانُ(١).

﴿مُوهِنُ﴾: أي: مُضعِفُ، والوَهْنُ: ضعفٌ مِن حيثُ الخَلْق، أو الخُلُق، وأصلُ (وهن): يَدلُّ على ضَعْفٍ(٢).

﴿تَسْتَفْتِحُوا﴾: أي: تَستَنصِروا، أو: تَسْتحكموا، أو: تسألوا الفَتحَ، وأصل (فتح): يَدلُّ على خِلافِ الإغلاقِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٨٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٨٩)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٧).

المَعنى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ اللهُ نَبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمؤمنينَ الذينَ شَهِدوا معه بَدرًا: أنَّه ليس بِحَولِكم وقُوَّتِكم - أيُّها المؤمنونَ- قَتَلتُم أعداءَكم المُشركينَ يومَ بَدرٍ، ولكنَّ الذي قتَلَهم على الحقيقةِ، ونَصَرَكم عليهم هو اللهُ، وما رمَيتَ- يا محمَّدُ- حينَ رَمَيتَ وجوهَ المُشركينَ بِقَبضةٍ مِن حَصباءَ أو تُرابٍ، ولكِنَّ اللهَ هو مَن رَمى، ولكي يُنعمَ على المؤمِنينَ بعَطاءٍ حَسَنٍ يَشكرونَه عليه قتَل المُشركينَ، ورماهم بما رماهم به يومَ بَدرٍ؛ إنَّ اللهَ سميعٌ عليمٌ، ذلكم وأنَّ اللهَ سيُضعِفُ كلَّ مَكرٍ وكيدٍ يكيدُ به الكفَّارُ للإسلامِ وأهلِه.

ثم يُخاطِبُ اللهُ المُشركينَ الذينَ حارَبوا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابَه يومَ بَدرٍ: إنْ كُنتُم طَلَبتُم مِن اللهِ يومَ بَدرٍ أن يحكُمَ بينكم وبينَ المُؤمنينَ؛ بأن يُوقِعَ عذابَه بالمُعتَدينَ الظَّالِمين منكم ومنهم- فقد جاءَكم ما سألتُم؛ بأنْ نَصَرَ اللهُ المظلومَ على الظَّالمِ، والمُحِقَّ على المُبطِلِ، بأنْ أوقَعَ بكم يومَ بَدرٍ، وإن تنتَهُوا- يا كفَّارَ قُريشٍ- عمَّا أنتم عليه، فهو خيرٌ لكم، وإن تَعودُوا إلى حَربِ مُحمَّدٍ وقتالِه وقِتالِ أتباعِه المؤمِنينَ؛ نَعُدْ عليكم بالهزيمةِ والقَتلِ والأسْرِ، ولن ينفَعَكم جمعُكم شيئًا ولو كثُرَ عَدَدُهم، وأنَّ اللهَ مع المؤمنينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا نهى اللهُ تعالى المؤمنينَ عن التَّولِّي بالأدبارِ انهزامًا عند قتالِ الكُفَّارِ- وصل هذا النَّهيَ بما هو حُجَّةٌ على جَدارَتِهم بالانتهاءِ عنه، كأنَّه يَقولُ: يا أيُّها

المؤمنونَ، لا تُوَلُّوا الكُفَّارَ ظُهورَكم في القِتالِ أبدًا؛ فأنتم أَوْلى منهم بالثَّباتِ والصَّبرِ، ثم بنَصرِ الله تعالى، فها أنتم أولاءِ قد انتصَرتُم عليهم على قِلَّةِ عَدَدِكم وعُدَدِكم، وكَثرَتِهم واستعدادِهم، وإنَّما ذلك بتأييدِ اللهِ تعالى لكم، ورَبْطِه على قُلوبِكم، وتثبيتِ أقدامِكم، وإلقائِه الرُّعبَ في قلوبِ أعدائِكم، فلم تَقتُلوهم ذلك القَتلَ الذَّريعَ بِمَحضِ قُوَّتِكم، واستعدادِكم المادِّيِّ(١).

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾.

أي: ليس بحَولِكم وقُوَّتِكم- أيُّها المؤمنونَ- قتَلْتُم أعداءَكم المُشركينَ يومَ بَدرٍ، ولكِنَّ الذي قتَلَهم على الحقيقةِ وأظفَرَكم بهم، ونَصَركم عليهم، هو اللهُ تعالى وَحدَه؛ فهو من تسبَّبَ بِقَتلِهم، حيث أمَرَكم بقِتالِهم، وأعانكم على ذلك، ورَبَط على قُلوبِكم(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥-٢٦].

وقال سبحانه: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤٩].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٥١٥-٥١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٨٢- ٨٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٧).

قال ابنُ تيميَّةَ: (فإنَّ قَتْلَهم حصلَ بأمورٍ خارجةٍ عن قُدرَتِهم؛ مِثل: إنزالِ الملائكةِ، وإلقاءِ الرُّعبِ في قُلوبِهم). ((مجموع الفتاوى)) (٨/ ١٨).

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾.

سَببُ النُّزولِ:

عن حكيمِ بنِ حِزامٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا كان يومُ بدرٍ أمَرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، فأخذَ كفًّا من الحَصباءِ فاستقبَلَنا به، فرمانا بها، وقال: شاهتِ الوجوهُ، فانهزَمْنا، فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلِكَنَّ اللَّهَ رَمَى﴾))[1].

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾.

أي: وما أوصلتَ الرمْيَ- حين رميتَ وجوهَ المُشركينَ بقبضةٍ مِن حَصباءَ، أو حفنةٍ مِن ترابٍ- فأنت حذَفْتَهم ورَمَيْتَهم بذلك فحَسْبُ، ولكن الذي تولَّى إيصالَها إليهم، هو اللهُ تعالى، بقُوَّتِه وقُدرَتِه، لا أنت[2].

﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى قتَلَ المُشركينَ، ورماهم بما رماهم به يومَ بَدرٍ؛ لأجْلِ هَزيمَتِهم، وأيضًا لِيُنعِمَ على المُؤمنينَ بِعَطاءٍ حَسَنٍ عظيمٍ، يَشكرونَه عليه، مِن

(١) أخرجه ابن جرير في ((تفسيره)) (١٥٨٢٢)، وابن أبي حاتم في ((التفسير)) (٨٩٠٦)، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (٣/ ٢٠٣) (٣١٢٨) واللفظ له.
حسَّن إسنادَه الهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٦/ ٨٧)، وقال الوادعيُّ في ((صحيح أسباب النزول)) (١١٣): حسن لغيره.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٨٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٤)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٣٩٤- ٣٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٧).
قال ابنُ تيميَّةَ: (وكذلك الرَّميُ، لم يكُن في قُدرَتِه أنَّ التُّرابَ يُصيبُ أعينَهم كلِّهم، ويُرعِبُ قُلوبَهم؛ فالرَّميُ الذي جعَلَه اللهُ خارجًا عن قُدرةِ العَبدِ المعتادِ، هو الرَّميُ الذي نفاه اللهُ عنه). ((مجموع الفتاوى)) (٨/ ١٨).
وقال أيضًا: (المنفيُّ هو وُصولُ الرَّميِ إلى الكُفَّارِ وتأثيرُه فيهم، والمُثبَتُ هو الحَذفُ الذي فَعَلَه الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلم). ((الرد على البكري)) (١/ ٤٣٩).

النَّصرِ والظَّفَرِ بالغَنائِمِ في الدُّنيا، والأجرِ والثَّوابِ على جِهادِهم في الآخِرةِ(١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: إنَّ الله سميعٌ لِدُعاءِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ومُناشَدَتِه ربَّه لإهلاكِ المُشركينَ يَومَ بَدرٍ؛ سَميعٌ لأقوالِ جَميعِ خَلقِه، عليمٌ بذلك كُلِّه، وبِنِيَّاتِهم وبما فيه صَلاحُهم، عليمٌ بمَن يستحِقُّ منهم النَّصرَ، ويعلَمُ غيرَ ذلك مِن الأشياءِ، فيُقَدِّرُ على العبادِ أقدارًا مُوافِقةً لِعلمِه وحِكمَتِه، ويَجزيهم بحسَبِ نيَّاتِهم وأعمالِهم(٢).

﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ١٨﴾.

أي: ذلك الفِعلُ؛ مِن قَتلِ المُشركينَ ورَمْيِهم حتى انهزَمُوا، والإنعامِ عليكم- أيُّها المؤمنونَ- بالظَّفَرِ بهم، والانتصارِ عليهم، ذلك هو فِعْلُنا الذي فَعَلْنا، وثَمَّ بِشارةٌ أخرى مع ما حصَلَ مِن هذا النَّصرِ لكم، وهي أنَّ اللهَ تعالى سيُضعِفُ- فيما يُستقبَلُ- كُلَّ مَكرٍ وكَيدٍ يَكيدُ به الكُفَّارُ للإسلامِ وأهلِه، وسيجعَلُ مَكرَهم مُحِيقًا بهم(٣).

﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٩﴾.

﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٨٧-٨٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥١١)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٩٦).

قال الخازن: (أجمع المُفسِّرونَ على أنَّ البلاءَ هنا: بمعنى النِّعمةِ). ((تفسير الخازن)) (٢/ ٣٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٨٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٨٨- ٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٧).

أي: إنْ تَستَحكِموا اللهَ- أيُّها المُشركونَ- ليفصِلَ بينكم وبينَ أعدائِكم المُؤمنينَ، فتَستَقضوه على أقطَعِ الحِزبَينِ للرَّحِم، وأظلَمِ الفِئَتينِ منكم، وتستنصِروه؛ لِيُوقِعَ عذابَه على المُعتَدينَ الظَّالِمينَ منكم- فقد جاءكم ما سألْتُم مِن حُكمِ اللهِ؛ بنَصرِه المظلومَ على الظَّالمِ، والمحِقَّ على المُبطِلِ، وذلك حين أوقَعَ بكم عِقابَه يومَ بَدرٍ[1].

﴿وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾.

أي: وإن تَنْتَهوا- يا كفَّارَ قُريشٍ- عن الشِّركِ والكُفرِ باللهِ، والتَّكذيبِ لِرَسولِه، وقتالِ نَبِيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمؤمنينَ به؛ فهو خيرٌ لكم في الدُّنيا والآخرةِ[2].

﴿وَإِن تَعُودُواْ نَعُدۡ﴾.

أي: وإن تَعودُوا إلى ما كُنتُم فيه مِن الكُفرِ والضَّلالِ، وإلى حَربِ مُحمَّدٍ وقتالِه، وقِتالِ أتباعِه المؤمنينَ؛ نَعُدْ عليكم بمِثلِ الواقعةِ التي أُوقِعَتْ بكم يومَ بَدرٍ، بالهزيمةِ والقَتلِ والأسْرِ[3].

﴿وَلَن تُغۡنِيَ عَنكُمۡ فِئَتُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَوۡ كَثُرَتۡ﴾.

أي: وإنْ عُدتُم- أيُّها المُشركونَ- فحينَها لن يُغنِيَ عنكم جَمعُكم مِن جُنودِكم وأعوانِكم أيَّ شيءٍ، ولن يَدفَعوا عنكم شيئًا البتَّةَ، ولو كَثُر عددُهم[4].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٨٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٤)، ((الرد على البكري)) لابن تيمية (١/ ١٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٩٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٩٥-٩٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٩٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٧).

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التفسيرِ:

في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قراءتان:

١- قراءة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ على أنَّها تعليلٌ للجملةِ قبلَها[١].

٢- قراءة ﴿وَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ على أنَّها جملةٌ استئنافيةٌ، منقطعةٌ عمَّا قبلَها[٢].

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

أي: ولأنَّ اللهَ تعالى مع مَن آمَنَ به على مَن كَفَر به وأشرَكَ، فلن تُغنِيَ عنكم فِئَتُكم شيئًا ولو كَثُرت؛ فهو سبحانَه معهم بالعونِ، والنصرِ على أعدائِهم، كما أظْهَرهم يومَ بدرٍ على المشركينَ، ومَن كان اللهُ عزَّ وجلَّ معه فلا غالِبَ له، وإن كان ضعيفًا، قليلَ العَدَد والعُدَّةِ[٣].

---

(١) قرأ بها المدنيانِ (نافعٌ وأبو جعفرٍ)، وابنُ عامرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤٣٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣١٠).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤٣٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٩٥- ٩٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٧).
قال السَّعدي: (وهذه المعيَّةُ التي أخبرَ اللهُ أنَّه يُؤَيِّدُ بها المؤمنين، تكونُ بحَسَبِ ما قاموا به من أعمالِ الإيمانِ، فإذا أُدِيلَ العَدُوُّ على المؤمنين في بعضِ الأوقاتِ، فليس ذلك إلَّا تفريطًا مِن المؤمنينَ، وعدَمَ قيامٍ بواجِبِ الإيمانِ ومُقتضاه، وإلَّا فلو قاموا بما أمَرَ الله به مِن كُلِّ وَجهٍ، لَمَا انهزَمَ لهم رايةٌ انهزامًا مُستقِرًّا، ولا أُدِيلَ عليهم عَدُوُّهم أبدًا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٧-٣١٨).

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ فيه أثبتَ اللهُ سُبحانه لنَبيِّه الرَّميَ، مع نَفيِ تأثيرِه عنه، وإثباتِه لِمَن إليه تُرجَعُ الأمورُ؛ تأديبًا منه سُبحانه لهذه الأمَّةِ، أي: لا ينظُرْ أحدٌ إلى شيءٍ مِن طاعَتِه؛ فإنَّا قد نَفَينا هذا الفِعلَ العَظيمَ عن أكمَلِ الخَلقِ، مع أنَّه عالـمٌ مُقِرٌّ بأنَّه مِنَّا، فلْيَحذرِ الذي يرى له فِعلًا، مِن عظيمِ سَطواتِنا، ولكن لِينسُبْ جَميعَ أفعالِه الحَسَنةِ إلى اللهِ تعالى، كما نُسِبَ الرَّميُ إليه بِقَولِه: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾[1].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ جرى هذا مَجرى التَّحذيرِ والتَّرهيبِ؛ لئلَّا يغترَّ العبدُ بظواهِرِ الأمورِ، ولِيَعلمَ أنَّ الخالِقَ تعالى يطَّلِعُ على ما في الضَّمائِرِ والقُلوبِ[2].

٣- الكَثرةُ لا تكونُ سَببًا للنَّصرِ، إلَّا إذا تساوَتْ مع القِلَّةِ في الثَّباتِ والصَّبرِ، والثِّقةِ باللهِ عزَّ وجلَّ، قال تعالى: ﴿وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[3].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ فيه ردٌّ على القَدَريَّةِ[4]؛ لأنَّه جَلَّ ثناؤُه أضافَ قَتلَهم إلى نَفسِه، ونفاه عن المُؤمنين به، الذين قاتَلُوا المُشركين؛ إذ كان جلَّ ثَناؤُه هو مُسَبِّبَ قَتلِهم، وعَن أمْرِه كان قتالُ المُؤمنينَ إيَّاهم، وكذلك سائِرُ أفعالِ الخَلقِ المُكتَسَبةِ: مِن اللهِ الإنشاءُ والإنجازُ بالتَّسبيبِ،

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٢٩٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٦٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٥١٩).
(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٣٤).

ومن الخَلقِ الاكتسابُ بالقُوى(١).

٢- نفَى الله تعالى ما صرَّح بإثباتِه في قولِه: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾- ولم يُصرِّحْ في قولِه: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ بِقَولِه: (إِذْ قَتلتُموهم)؛ لأنَّ الرميَ كان أمرًا خارقًا للعادةِ، مُعجزًا، وآيةً مِن آياتِ اللهِ(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ قدَّمَ المُسنَدَ إليه على المُسنَدِ الفِعليِّ في قَولِه: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ دون أن يُقالَ: (ولكنْ قتَلَهم اللهُ)؛ لمجَرَّدِ الاهتمامِ لا الاختصاصِ؛ لأنَّ نَفيَ اعتقادِ المُخاطَبينَ أنَّهم القاتِلونَ قد حصل مِن جُملةِ النَّفيِ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾، فصار المُخاطَبونَ مُتطلِّبينَ لِمَعرفةِ فاعِلِ قَتلِ المُشركينَ، فكان مُهِمًّا عندهم تعجيلُ العِلمِ به(٣).

- وتجريدُ الفعلِ (رمى) عن المفعولِ به في قَولِه: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾؛ لأنَّ المقصودَ الأصليَّ بيانُ حالِ الرَّميِ نفيًا وإثباتًا؛ إذ هو الذي ظهَرَ منه ما ظهَرَ، وأيضًا للدَّلالةِ على عُمومِه(٤).

٢- قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾

- الإشارةُ بـ ﴿ذَلِكُمْ﴾ إلى البلاءِ الحَسَنِ، وهذه الإشارةُ لِمُجرَّدِ تأكيدِ المَقصودِ مِن البَلاءِ الحَسَنِ، وأن ذلك البلاءَ عِلَّةٌ للتَّوهينِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٥١٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٩٧).

٣- قوله تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

- قوله: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ خطابٌ لأهلِ مكَّةَ على سبيلِ التَّهَكُّمِ بهم، وفيه الْتِفاتٌ مِن الغَيبةِ الذي اقتضاه قَولُه: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾[1].

- وصِيغَ ﴿تَسْتَفْتِحُوا﴾ بصيغةِ المُضارِعِ، مع أنَّ الفِعلَ مضى؛ لِقَصدِ استحضارِ الحالةِ مِن تكريرِهم الدُّعاءَ بالنَّصرِ على المُسلِمينَ[2].

- قوله: ﴿وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ وعيدٌ فيه بِشارةٌ أنَّ النَّصرَ الحاسِمَ سيكونُ للمُسلمينَ، وهو نصرُ يومِ فَتحِ مَكَّةَ[3].

- وجملةُ: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ زيادةٌ في تأيِيسِ المُشركينَ مِن النَّصرِ، وتنويهٌ بِفَضلِ المؤمنينَ، بأنَّ النَّصرَ الذي انتَصَروه هو مِن الله لا بأسبابِهم؛ فإنَّهم دون المشركينَ عَددًا وعُدَّةً[4].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٣٠٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٢٠-٢٣)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾: أي: ولا تُعرِضوا عنه، ولا تتركوا طاعته، فالفِعل (ولي)، إذا عُدِّي بـ (عن) لفظًا، أو تقديرًا، اقتَضى معنى الإعراضِ والتَّركِ، وإذا عُدِّي بنَفْسِه اقتَضى معنى الوَلايةِ والقُرْبِ[١].

﴿الصُّمُّ﴾: أي: الذين يَصَمُّونَ عَن الحَقِّ. والصَّمَمُ: فقدانُ حاسَّةِ السَّمعِ، وبه يُوصَف مَن لا يُصغِي إلى الحقِّ ولا يَقبَلُه، وأصلُ (صمم) يدلُّ على تضامِّ الشَّيءِ[٢].

﴿الْبُكْمُ﴾: أي: الَّذين لا يتكلَّمونَ بالحَقِّ، جمع أَبْكَم، وهو الأخرسُ الذي لا يتكلَّمُ، وقيل: هو الذي يُولَد أخرس، والبَكَمُ: آفةٌ في اللِّسانِ، مانعةٌ مِن الكَلامِ[٣].

المَعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ عِبادَه المؤمنينَ بأن يُطيعوه ويُطيعوا رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولا يُعرِضوا عن طاعَتِهما، وهم يَسمعونَ ما نَزَل مِن القُرآن.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٩٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (١ / ٥٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١ / ١٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١ / ٢٨٤)، ((المفردات)) للراغب (١ / ١٤٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١ / ١٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (١ / ٥٣).

ونهاهم أن يكونُوا كالمُشركينَ، الذين إذا سَمِعوا كتابَ اللهِ قالوا: قد سَمِعْنا، ولكِنَّهم لا يعتَبِرونَ بما يَسمَعونَه، فهُم بمنزلةِ مَن لم يسمَعْ، وأخبرَ تعالى أنَّ شَرَّ الدَّوابِّ عنده- عزَّ وجَلَّ- الكُفَّارُ، الذين هم صُمٌّ عن سَماعِ الحَقِّ، بُكْمٌ عن التكَلُّمِ به، لا يَعقِلونَ عن اللهِ مَواعِظَه، ولا أمْرَه ونَهيَه، ولو عَلِمَ اللهُ فيهم خيرًا بقَصدِهم الحَقَّ، وصلاحِيَّتِهم لِقَبولِ ما يُورِدُه عليهم مِن آياتِه، لأمكَنَهم مِن فَهْمِها، ولو فُرِضَ أنَّه أفهَمَهم آياتِه، لابتَعَدوا عنها، وهم مُعرِضونَ عن قَبُولِها بالكُلِّيَّةِ.

تَفسيرُ الآيات:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أرى اللهُ المؤمِنينَ آياتِ لُطفِه، وعِنايَتِه بِهم، ورأَوْا فوائِدَ امتثالِ أمْرِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالخُروجِ إلى بَدرٍ، وقد كانوا كارِهينَ الخُروجَ- أعقَبَ ذلك بأنْ أمَرَهم بطاعةِ اللهِ ورَسولِه؛ شُكرًا على نِعمةِ النَّصْرِ، واعتبارًا بأنَّ ما يأمُرُهم به خيرٌ عواقِبُه، وحذَّرَهم مِن مُخالفةِ أمْرِ اللهِ ورَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وفي هذا رُجوعٌ إلى الأمرِ بالطَّاعةِ الذي افتُتِحَت به السُّورةُ(١).

وأيضًا لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى أنَّه مع المُؤمنينَ، أمَرَهم أن يَقومُوا بمقتضى الإيمانِ الذي يُدرِكونَ به مَعِيَّتَه(٢)، فقال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنونَ، امتَثِلوا أمْرَ اللهِ- تعالى- وأمْرَ رَسولِه، واجتَنِبوا نَهْيَهما(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٠٢-٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٨).

﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾.

أي: ولا تُعرِضوا عن طاعةِ رسولِه؛ بمُخالفةِ أمرِه، وارتكابِ نهيِه، وأنتم تَسْمَعونَ أمرَه إيَّاكم ونَهْيَه، وتعلمونَ ما دَعاكُم إليه(١).

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه تعالى لما نَهَى عن التولِّي عن رسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم؛ زاد في تَشويهِ التَّولِّي عنه، بالتَّحذيرِ مِن التَّشبُّهِ بفِئةٍ ذَميمةٍ، يقولونَ للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: سَمِعْنا، وهم لا يُصَدِّقونَه ولا يَعمَلونَ بما يأمُرُهم ويَنهاهم(٢).

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١)﴾.

أي: ولا تكونُوا- أيُّها المُؤمنونَ- بإعراضِكم عَن طاعةِ اللَّهِ، وطاعةِ رَسولِه، كالمُشركينَ الذينَ إذا سَمِعوا بآذانِهم كِتابَ اللهِ يُتلى عليهم، قالوا: قد سَمِعْنا، لكنَّهم في الحقيقةِ لا يَعتَبِرونَ بما يَسمَعونَ، ولا فيه يتفَكَّرونَ، ولا ينتَفِعونَ به ولا يتَّعِظونَ؛ فهُم بمنزلةِ مَن لم يَسمَعْها، فلا تكتَفُوا- مِثلَهم- بمجَرَّدِ الدَّعاوى الخاليةِ التي لا حقيقةَ لها(٣).

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٩٨-٩٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٨).

ذهَب ابنُ جريرٍ إلى أنَّ المرادَ بالَّذين قالوا: سَمِعنا وهم لا يَسْمعونَ: المُشركونَ. وقيل: بل المرادُ بهم المُنافقون. يُنظر: المصادر السابقة.

لَمَّا كانت حالُ الكُفَّارِ مُشابِهةً لِحالِ الأصَمِّ في عدَمِ السَّماعِ؛ لِعَدمِ الانتفاعِ به، والأبكَمِ في عدَمِ كَلامِه؛ لِعَدمِ تَكَلُّمِه بما ينفَعُ، والعادِمِ للعَقلِ في عدَمِ عَقلِه؛ لِعَدمِ انتفاعِه به- قال مُعَلِّلًا للنَّهيِ في قَولِه: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ مُعَبِّرًا بأنسَبِ الأشياءِ لِما وصَفَهم به(١):

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: إنَّ شرَّ ما دبَّ على الأرضِ مِن خَلْقِ اللهِ عِندَ اللهِ تعالى، هؤلاءِ الكُفَّارُ(٢) الذين لم ينتَفِعوا بالآياتِ والنُّذُرِ؛ فهم صُمٌّ عن سَماعِ الحَقِّ، بُكمٌ عن التَّكلُّمِ به، لا يَعقِلونَ عَن اللهِ مَواعِظَه، ولا أمْرَه ونَهْيَه(٣).

وقد شَبَّهَهم اللهُ تعالى بالأنعامِ في قَولِه: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

بل جَعَلَهم أضَلَّ مِن الأنعامِ، فقال سُبحانه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٤٨).

(٢) قيل: المراد بهم مُشرِكو قُريشٍ، وقيل: المُنافقون. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٠٢-١٠٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤).

قال ابن كثير: (قيل: المرادُ بهؤلاءِ المَذكورينَ نَفَرٌ مِن بني عبدِ الدَّارِ مِن قُريشٍ. رُوِيَ عن ابنِ عَبَّاسٍ ومجاهِدٍ، واختاره ابنُ جرير، وقال محمَّدُ بن إسحاقَ: هم المُنافِقونَ. قلتُ: ولا منافاةَ بينَ المُشركينَ والمُنافقينَ في هذا؛ لأنَّ كُلًّا منهم مسلوبُ الفَهمِ الصَّحيحِ، والقَصدِ إلى العَمَلِ الصَّالِحِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٩٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣-٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٨).

قال ابنُ كثير: (فهؤلاءِ شَرُّ البريَّةِ؛ لأنَّ كُلَّ دابَّةٍ مِمَّا سِواهم مُطيعةٌ للَّهِ- عَزَّ وجَلَّ- فيما خلَقَها له، وهؤلاءِ خُلِقوا للعبادةِ، فكَفَروا). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤).

وقال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُم مُّعْرِضُونَ (٢٣)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه أخبَرَ تعالى بأنَّ عدَمَ سَماعِهم وهُداهم، إنَّما هو بما عَلِمَه تعالى مِنهم، وسَبَقَ مِن قَضائِه عليهم[١].

﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾.

أي: ولو عَلِمَ اللهُ أنَّ في أولئك القَومِ خَيرًا؛ بقَصدِهم الحَقَّ، وصَلاحِيَّتِهم لِقَبولِ ما يُورِدُه عليهم من آياتِه- لأمكَنَهم مِن فَهمِها، ولكِنَّه قد عَلِمَ أنَّه لا خيرَ فيهم، وأنَّهم ممَّن كُتِبَ لهم الشَّقاءُ، فلم يُفهِمْهم[٢].

﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا أخبَرَ عنهم بانتفاءِ تَعلُّمِهم الحكمةَ والهُدَى؛ فلذلك انتَفَى عنهم الاهتداءُ- ارتَقَى بالإخبارِ في هذا المَعنى بأنَّهم لو قَبِلوا فَهْمَ المَوعِظةِ والحِكمةِ فيما يَسمَعونَه مِن القُرآنِ، وكَلامِ النُّبوَّةِ، لغَلَبَ ما في نُفوسِهم مِن التخَلُّقِ بالباطِلِ، على ما خالَطَها من إدراكِ الخَيرِ، فحالَ ذلك التخَلُّقُ بينهم وبين العَمَلِ بما عَلِموا، فتَوَلَّوا وأعرَضُوا[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٠٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥١- ٤٥٢)، ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٦٥٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٠-١٢) و(١٧/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٠٨).

﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

أي: ولو فُرِضَ أنَّه أفهَمَهم آياتِه مع هذه الحالِ التي هُم عليها، لابتَعَدوا عنها وانصَرَفوا، وهم مُعرِضونَ عَن قَبولِها إعراضًا كُلِّيًّا، لا يلتَفِتونَ إليها بوجهٍ مِن الوُجوهِ؛ قصدًا منهم، وعِنادًا للحَقِّ بعد ظُهورِه، والعِلمِ به[1].

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾؛ قوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ المقصودُ مِن هذا الحالِ: تشويهُ التَّولِّي المنهيِّ عنه؛ فإنَّ العِصيانَ مع توفُّرِ أسبابِ الطَّاعةِ أشَدُّ منه في حينِ انخرامِ بَعضِها[2].

٢- لا ينبغي الاكتفاءُ بمجَرَّدِ الدعوى الخاليةِ التي لا حقيقةَ لها؛ فإنَّها حالةٌ لا يرضاها اللهُ تعالى، فليس الإيمانُ بالتمَنِّي والتحَلِّي، ولكِنَّه ما وقَرَ في القلوبِ، وصَدَّقَته الأعمالُ، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾[3].

٣- مِن النَّاسِ مَن يسمَعُ الآياتِ، ويَفهَمُها فَهمًا تَفصيليًّا، ولكنَّه يَجعَلُها بِمَعزِلٍ عن نفسِه، ويتصَوَّرُ أنَّ الكلامَ كُلَّه لِغَيرِه وفي غيرِه، ويقولُ: هذه الآيةُ نزلَت في الكافرينَ أو المُنافِقينَ، لا في أمثالي مِن المؤمنينَ، وإن كان مُتَّصِفًا بما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٠٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣١١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٠٧).

قال ابنُ تيميَّةَ: (فقد فَسَدَت فِطرَتُهم فلم يَفهَمُوا، ولو فَهِمُوا لم يَعمَلوا، فنفى عنهم صِحَّةَ القُوةِ العِلميَّةِ، وصِحَّةَ القُوَّةِ العَمَليَّةِ). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٨).

تنهَى عنه، وتتوعَّدُ عليه مِن صِفاتِهم وأعمالِهم؛ فصاحِبُها يَصدُقُ عليه بِوَجهٍ ما أنَّه مِن الذينَ قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾[1].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ إنَّما كان هؤلاءِ شَرًّا عند اللهِ مِن جَميعِ الدَّوابِّ؛ لأنَّ اللهَ تعالى أعطاهم أسماعًا وأبصارًا وأفئدةً؛ ليَستَعمِلوها في طاعَته، فاستَعمَلوها في معاصِيه، وعَدِموا- بذلك- الخيرَ الكَثيرَ، فإنَّهم كانوا بصَددِ أن يكونوا مِن خِيارِ البريَّةِ، فأَبَوْا هذا الطَّريقَ، واختارُوا لأنفُسِهم أن يكونوا مِن شَرِّ البريَّةِ[2].

٥- قَولُه تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ الله تعالى لا يمنَعُ الإيمانَ والخيرَ، إلَّا ممَّن لا خَيرَ فيه[3].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ السَّمعُ الذي نفاه اللهُ عنهم، سَمْعُ المعنى المؤَثِّرُ في القَلبِ، وأمَّا سَمعُ الحُجَّةِ، فقد قامَت حجَّةُ اللهِ تعالى عليهم بما سَمِعوه مِن آياتِه[4].

٢- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ دلالةٌ على أنَّ اسمَ الدَّوَابِّ يقعُ على الناسِ، كما يقعُ على البهائمِ؛ لأنَّ كلَّ ماشٍ دَابٌّ[5].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٥٢٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٥٢١).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصَّاب (١/ ٤٦٦).

لم يَصِفْهم هنا بالعَمى- كما وَصَفَهم في آيةِ الأعرافِ وآيتَيِ البَقَرةِ- لأنَّ المَقامَ هنا مَقامُ التَّعريضِ بالذين ردُّوا دَعوةَ الإسلامِ، ولم يَهتَدُوا بِسَماعِ آياتِ القُرآنِ(١).

٤- في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ دلالةٌ على إجازةِ تسميةِ السَّامعِ الناطقِ: «أَصَمُّ؛ أَبْكَمُ» إذا تباعَد عمَّا أُريد منه مِن السماعِ والنُّطقِ؛ وامتنَع مِن استماعِ الموعظةِ والنطقِ بما تأمرُه به، وإنْ كان ناطقًا سامعًا في كلِّ شيءٍ سواها(٢).

٥- قولُه: ﴿خَيْرًا﴾ نكرةٌ في سياقِ الشَّرطِ، فهي تعمُّ، والمعنى: أنَّ الله لا يعلمُ في قلوبِهم خيرًا أبدًا في وقتٍ مِن الأوقاتِ، كائنًا ما كان، ولا زَمَنٍ مِن الأزمانِ(٣).

٦- في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ دلالةٌ على أنَّه سبحانَه يَعْلَمُ الشيءَ قبلَ كَوْنِه(٤).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ فيه افتتاحُ الخطابِ بالنِّداءِ؛ للاهتمامِ بما سيُلقَى إلى المخاطبينَ، قَصدًا لإحضارِ الذِّهنِ لِوَعيِ ما سيُقالُ لهم(٥).

- والتَّعريفُ بالموصوليَّةِ في قَولِه: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ المَوصوفينَ بهذه الصِّلةِ مِن شَأنِهم أن يتقَبَّلوا ما سيُؤمَرونَ به، وأنَّه كما كان الشِّركُ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٥٢١).
(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٤٦٦).
(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٠٧).
(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٤٦٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٠٣).

مُسَبِّبًا لِمُشاقَّةِ اللهِ ورَسولِه، فخَليقٌ بالإيمانِ أن يكونَ باعِثًا على طاعةِ اللهِ ورَسولِه(١).

- وإفرادُ الضَّميرِ المجرورِ بـ (عن) في قَولِه: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ دون أن يُقالَ: (ولا توَلَّوا عنهما)؛ لأنَّه يَعودُ على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فإنَّ المرادَ مِن الآيةِ الأمرُ بطاعَتِه، والنَّهيُ عن الإعراضِ عنه، وذِكرُ طاعةِ اللهِ لِلتَّوطئةِ والتَّنبيهِ على أنَّ طاعةَ اللهِ في طاعةِ الرَّسولِ؛ لأنَّ طاعةَ اللهِ وطاعةَ الرَّسولِ، شَيءٌ واحِدٌ، فكأنَّ رُجوعَ الضَّميرِ إلى أحَدِهما كرُجوعِه إليهما(٢)، وقيل غير ذلك(٣).

- قوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ جملةٌ حاليَّةٌ واردةٌ لِتأكيدِ وُجوبِ الانتهاءِ عَن التَّولِّي مُطلقًا، لا لتَقييدِ النَّهيِ عنه بحالِ السَّماعِ(٤).

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قالُوا سَمِعْنا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾

- تقريرٌ للنَّهيِ السَّابِقِ ﴿وَلَا تَوَلَّوْا...﴾، وتحذيرٌ عن مُخالَفَتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالتَّنبيهِ على أنَّها مُؤدِّيةٌ إلى انتظامِهم في سِلكِ الكَفَرةِ، بكَونِ سَماعِهم كَلَا سَماعٍ(٥).

- وفيه تعريضٌ بأهلِ هذه الصِّلةِ مِن الكافرينَ أو المُنافِقينَ(٦).

- قوله: ﴿قالُوا سَمِعْنا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ جاءتِ الجُملةُ النَّافيةُ ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٠٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٥٤).
(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢١٧-٢١٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٤).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ١٥).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٠٤).

على غَيرِ لَفظِ المُثبَتة ﴿سَمِعْنَا﴾- إذْ لم تأتِ: (وهُم ما سَمِعوا)- لأنَّ لَفظَ المضِيِّ لا يدلُّ على استمرارِ الحالِ ولا دَيمومَتِه، بخلافِ نَفيِ المُضارِعِ، فكما يدلُّ إثباتُه على الدَّيمومةِ كذلك يجيءُ نَفيُه، وجاء حرفُ النَّفيِ (لا)؛ لأنَّها أوسَعُ في نفيِ المُضارِعِ مِن (ما)، وأدلُّ على انتفاءِ السَّماعِ في المُستقَبلِ، أي: هُم ممَّن لا يَقبَلُ أن يَسمَعَ(١).

- وتقديمُ المُسنَدِ إليه على المُسنَدِ الفِعليِّ في قَولِه: ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾؛ للاهتمامِ بِه، ليتقَرَّرَ مفهومُه في ذِهنِ السَّامِعِ، فيرسَخَ اتِّصافُه بمفهومِ المُسنَدِ، وهو انتفاءُ السَّمعِ عَنهم(٢).

٣- قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾

- جملةٌ استئنافيَّةٌ، مَسوقةٌ لِبَيانِ كَمالِ سُوءِ حالِ المُشَبَّهِ بهم؛ مبالغةً في التَّحذيرِ، وتقريرًا للنَّهيِ إثرَ تقريرٍ(٣).

- وقَولُه ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ قَيدٌ أُريدَ به زيادةُ تَحقيقِ كَونِهم أشَرَّ الدَّوابِّ، بأنَّ ذلك مُقَرَّرٌ في عِلمِ اللهِ، وليس مُجرَّدَ اصطلاحٍ ادِّعائيٍّ(٤)، وقيل: لما كان لهم مَن يُفضِّلُهم، وكانت العبرةُ بما عندَه سبحانه، قال تعالى: ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾(٥).

- ووُصِفُوا بالصَّمَمِ والبَكَمِ؛ لأنَّ ما خُلِقَ له الأُذنُ واللِّسانُ، سماعُ الحَقِّ والنُّطقُ به، وحيثُ لم يُوجَدْ فيهم شيءٌ من ذلك، صاروا كأنَّهم فاقِدونَ للجارِحَتينِ رأسًا؛ وتقديمُ ﴿الصُّمُّ﴾ على ﴿الْبُكْمُ﴾ لِما أنَّ صَمَمَهم مُتقدِّمٌ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٩٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٠٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٠٦).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٤٨).

على بَكَمِهم؛ فإنَّ السُّكوتَ عَن النُّطقِ بالحَقِّ مِن فُروعِ عدمِ سَماعِهم له، كما أنَّ النُّطقَ به مِن فُروعِ سماعِه(١).

- قوله: ﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ وَصَفَهم بعَدَمِ التَّعقُّلِ؛ تحقيقًا لِكَمالِ سُوءِ حالِهم، فإنَّ الأصمَّ الأبكَمَ إذا كان له عَقلٌ، ربَّما يَفهَمُ بعضَ الأمورِ، ويُفهِمُه غيرُه بالإشارةِ، ويهتدي بذلك إلى بَعضِ مَطالبِه، وأمَّا إذا كان فاقِدًا للعَقلِ أيضًا، فهو الغايةُ في الشَّرِّيةِ، وسُوءِ الحالِ(٢).

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾

- وقعَتِ الكنايةُ عن عَدَمِ استعدادِ مَدارِكِهم للخَيرِ، بعِلمِ اللهِ عَدمَ الخَيرِ فيهم. ووقع تشبيهُ عَدمِ انتفاعِهم بِفَهمِ آياتِ القُرآنِ بِعَدمِ إسماعِ اللهِ إيَّاهم؛ لأنَّ الآياتِ كَلامُ اللهِ، فإذا لم يَقبَلوها فكأنَّ اللهَ لم يُسمِعْهم كلامَه، فالمرادُ انتفاءُ الخَيرِ الجبليِّ عنهم، وهو القابليَّةُ للخَيرِ(٣).

- قوله: ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ صَوغُ هذه الجُملةِ بِصيغةِ الجُملةِ الاسميَّةِ؛ للدَّلالةِ على تمكُّنِ إعراضِهم، أي: إعراضًا لا قَبولَ بعده، وهذا يُفيدُ أنَّ مِن التَّولِّي ما يعقُبُه إقبالٌ، وهو تولِّي الذين تولَّوا، ثمَّ أسلَمُوا بعد ذلك(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٠٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٣١١).

الآيات (٢٤-٢٦)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥) وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَحُولُ﴾: أي: يَحجُز، وأصلُ الحَوْلِ: تغيُّرُ الشَّيءِ، وانفصالُه عن غَيرِه[1].

﴿يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾: أي: يأخُذونكم بِسُرعةٍ، ويَستَلِبونكم، ويقتلُونكم، والخَطفُ: أَخذُ الشَّيءِ بِسُرعةٍ واستِلابٍ[2].

﴿فَآوَاكُمْ﴾: أي: جعَلَ لكم مَأوًى تأوون إليه، وأصْلُه: يدلُّ على التَّجمُّعِ[3].

﴿وَأَيَّدَكُمْ﴾: أي: قَوَّاكم وأعانَكم، والأَيْدُ: القُوَّةُ الشَّديدةُ، وأصلُ (أيد): يدلُّ على القوَّةِ والحِفظِ[4].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٧)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١١٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٩٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١ / ١٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٩٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٦٣)، =

المَعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ عِبادَه المُؤمنينَ أن يَستَجيبوا بالطَّاعةِ للهِ وللرَّسولِ، إذا دعاهم الرَّسولُ إلى ما فيه صَلاحٌ وحياةٌ لِأبدانِهم وأرواحِهم في الدُّنيا والآخرةِ، وأن يَعلَموا أنَّ اللهَ يحجُزُ بين المَرءِ وقَلبِه إذا شاء، وأنَّه إليه تعالى مَصيرُهم يومَ القِيامةِ.

وأمَرَهم أن يَحذَرُوا بلاءً يأتيهم مِن رَبِّهم، لا يختَصُّ وقوعُه بِمَن ظَلَم نفسَه بارتكابِ المعاصي، بل يعُمُّ المُسيءَ وغَيرَه، مِمَّن رأى المُنكَرَ يُرتكَبُ ولم يَنْهَ عنه، ولم يُغَيِّرْه، إن كان قادرًا على ذلك، وأن يَعلموا أنَّه سُبحانَه شَديدُ العِقابِ.

وأمَرَهم أن يَذكُروا إذ هم قَليلٌ عَدَدُهم، يستضعِفُهم أعداؤُهم، يخافونَ أن يَستَلِبَهم الكُفَّارُ، فيأخُذوهم بِسُرعةٍ واحدًا تِلوَ الآخَرِ، فيقتُلوهم، فآواهم اللهُ، وقَوَّاهم وأعانَهم، حتى انتَصَروا على أعدائِهم، ورَزَقهم من الطَّيِّباتِ؛ لعلَّهم يَشكُرونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾.

أي: يا أيُّها المؤمِنونَ أجيبُوا اللهَ ورَسولَه بِطاعَتِهما، والمُبادرةِ إلى الانقيادِ لِأمْرِهما، واجتنابِ نَهْيِهما[1].

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٢٥).

(١) يُنظر: ((صحيح البخاري)) (٦/ ٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٠٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣١٢).

﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾.

أي: إذا دعاكم الرَّسولُ إلى ما فيه صلاحٌ لكم، وحياةٌ طيبةٌ نافعةٌ لأبدانِكم وأرواحِكم؛ في الدُّنيا والآخرةِ، كالدَّعوةِ إلى الجِهادِ[1]، والدَّعوةِ إلى تدبُّرِ القُرآنِ والعَمَلِ به، وغَيرِ ذلك مِن كُلِّ ما دعا اللهُ ورَسولُه إليه ظاهِرًا وباطِنًا[2].

كما قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ

---

(١) قال ابنُ القيِّم: (قَالَ الواحديُّ والأكثرونَ على أنَّ معنَى قولِه: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ هو الجهادُ، وهو قولُ ابنِ إسحاقَ، واختيارُ أكثرِ أهلِ المعاني). ((الفوائد)) (ص: ٨٨)، ويُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥٢).

(٢) يُنظر: ((صحيح البخاري)) (٦/ ٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٠٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥٢)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٨٨-٨٩)، ((إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان)) لابن القيم (١/ ٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣١٢).

ونسَبَ ابنُ عطيَّةَ إلى مجاهِدٍ والجُمهورِ القَولَ بأنَّ المرادَ بما يُحيي المؤمنينَ: الطَّاعةُ، وما تضمَّنَه القرآنُ مِن أوامِرَ ونَواهٍ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥١٤).

وذكر ابنُ القيِّم عباراتِ السَّلف في معنَى قولِه: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، ومنها: للحقِّ- القرآنِ- الإسلامِ- الحربِ والجهادِ، ثم قال: (وهذه [كُلُّها] عباراتٌ عن حقيقةٍ واحدةٍ، وهي القيامُ بما جاء به الرَّسولُ ظاهِرًا وباطِنًا). وقال أيضًا: (والآيةُ تتناوَلُ هذا كُلَّه؛ فإنَّ الإيمانَ والإسلامَ والقُرآنَ والجهادَ، يُحيي القُلوبَ الحياةَ الطَّيبةَ، وكَمالُ الحياةِ في الجنَّةِ، والرَّسولُ داعٍ إلى الإيمانِ وإلى الجنَّةِ، فهو داعٍ إلى الحياةِ في الدُّنيا والآخرةِ). ((الفوائد)) (ص: ٨٨-٨٩).

وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩ - ١٧١].

وشبَّه سبحانه مَن لا يستجيبُ لرسولِه بأصحابِ القبورِ، فقال: ﴿إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾(١) [فاطر: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤].

وعن أبي سعيدِ بنِ المعلَّى رضي الله عنه، قال: ((كنتُ أُصلِّي في المسجدِ، فدعاني رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فلمْ أُجِبْهُ، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، إني كنتُ أُصلِّي، فقالَ: ألم يقلِ اللهُ ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾. ثم قال لي: لأُعلِّمنَّكَ سورةً هي أعظمُ السوَرِ في القرآنِ، قبل أن تخرجَ منَ المسجدِ. ثمَّ أخَذ بيدي، فلما أراد أن يخرجَ، قلتُ لهُ: ألم تقلْ: لأُعلِّمنَّكَ سورةً هي أعظمُ سورةٍ في القرآنِ. قال: ﴿الحمدُ للهِ ربِّ العالمِينَ﴾: هي السبعُ المثاني، والقرآنُ العظيمُ الذي أوتيتُهُ))(٢).

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا أمَرَهم اللهُ تعالى بالاستجابةِ له ولرسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم؛ حذَّرهم من التَّخلُّفِ والتأخُّرِ عن الاستجابةِ، الَّذِي يكونُ سَببًا لِأنْ يحولَ بينَهم وبينَ قُلوبِهم(٣)، فقال:

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾

(١) قال ابنُ القَيِّم: (هذا مِن أحسَنِ التَّشبيهِ؛ فإنَّ أبدانَهم قُبورٌ لِقُلوبِهم، فقد ماتت قُلوبُهم وقُبِرَت في أبدانِهم). ((إغاثة اللهفان)) (١/ ٢٢).

(٢) رواه البخاري (٤٤٧٤).

(٣) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٨).

أي: واعلَموا- أيُّها المؤمنونَ- أنَّ اللهَ تعالى يحجُزُ بين العَبدِ وقَلبِه إذا شاء، فلا يستطيعُ المَرءُ أن يُدرِكَ ويعِيَ به شيئًا مِن حقٍّ أو باطلٍ، إلَّا بإذنِ اللهِ تعالى، فقُلوبُكم بيَدِ خالِقِكم سُبحانه، يُصَرِّفُها ويُقَلِّبُها كيف يشاءُ؛ يُصَرِّفُها مِن الهُدى إلى الضَّلالةِ، ومِن الضَّلالةِ إلى الهُدى، فإيَّاكم أن تردُّوا أمْرَ اللهِ حين يأتِيكم، أو تتثاقَلُوا وتتباطَؤُوا عن الاستجابةِ له، فلا تأمَنُوا حينَها أن يُحالَ بينَكم وبينَ قُلوبِكم، فلا تَقْدِروا على الاستجابةِ بعد ذلك إذا أردْتُموها(١).

كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

وقال تعالى: ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١١٢ - ١١٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥٢)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٩٠)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٥٧).
وهذا المعنى المذكورُ هو في الجُملةِ اختيارُ ابنِ جرير، والواحديِّ، والسعديِّ، والشنقيطيِّ. ونسبَه ابنُ القَيِّم إلى جمهورِ المُفَسِّرين. يُنظر: المصادر السابقة.
وممن رُوي عنه هذا القولُ مِن السَّلفِ: السُّديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١١١).
وثمَّ معنًى آخرُ ذكره الزَّجاج، وذكره الواحدي عن قتادة، وذكره ابنُ القَيِّم، ورآه أنسبَ للسياقِ، وهو أنَّ اللهَ تعالى قريبٌ مِن قَلبِ العَبدِ، وأقرَبُ إليه مِن قَلْبِه، لا يخفَى عليه شيءٌ أظهَرَه أو أسَرَّه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٢/ ٤٠٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٩٢)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٩٠).

وقد أثنَى الله عزَّ وجلَّ على عبادِه الراسخينَ في العلمِ بأنَّهم يقولونَ: ﴿آمَنَّا بِهِ﴾ [آل عمران:٧] إلى أن قال عنهم: ﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾(١) [آل عمران: ٨].

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُكثِرُ أن يقولَ: يا مقلِّبَ القُلوبِ! ثبِّتْ قَلبي علَى دينِك، فقلتُ: يا نبيَّ اللهِ! آمنَّا بك وبما جئتَ بهِ، فهل تخافُ علَينا؟! قال: نعَم؛ إنَّ القُلوبَ بين أُصبعَينِ من أصابعِ اللهِ، يقلِّبُها كيف يشاءُ))(٢).

وعن النوَّاسِ بنِ سمعانَ رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم يقولُ: ((ما مِن قلبٍ إلَّا وهو بينَ أُصبعينِ مِن أصابعِ ربِّ العالمينَ، إن شاء أن يُقيمَه أقامه، وإن شاء أن يُزيغَه أزاغه. وكان يقولُ: يا مُقلِّبَ القلوبِ ثبِّتْ قلوبَنا على دينِك))(٣).

﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

أي: واعلَمُوا- أيُّها المؤمنونَ- أيضًا مع العِلمِ بأنَّ اللهَ يَحولُ بينَ المرءِ وقَلْبِه، أنَّ إلى اللهِ تعالى مَصيرَكم ومَرجِعَكم يومَ القيامةِ، فتُجمَعون إليه وَحْدَه، فيُوفِّيكم جزاءَ أعمالِكم؛ إنْ خَيرًا فخيرٌ، وإنْ شَرًّا فشَرٌّ، فاحذروا مِن تَرْكِ

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٥٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٢١٤٠)، وابن ماجة (٣٨٣٤)، وأحمد (١٢١٠٧)، والبزار (٧٥٠٨). حسنه الترمذي، وقال الذهبي في ((الميزان)) (٢/ ٣٤٣): صحيح غريب. وقال المناوي في ((تخريج أحاديث المصابيح)) (١/ ١١٢): رجاله رجال مسلم في الصحيح. وصححه الألباني في ((صحيح الترمذي)) (٢١٤٠).

(٣) أخرجه ابن ماجه (١٩٩)، وأحمد (١٧٦٣٠) واللفظ له، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (٧٧٣٨). أخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (٩٤٣)، وقال ابنُ منده في ((الرد على الجهمية)) (٨٧): ثابتٌ، رواه الأئمةُ المشاهيرُ ممن لا يمكنُ الطعنُ على واحدٍ منهم، وجوَّد إسنادَه بنحوه العراقي في ((تخريج الإحياء)) (٣/ ٥٦)، وصححه الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (١٦٦).

الاستجابةِ لِرَسولِه إذا دعاكم لِما يُحيِيكم[1].

كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة: ٢٠٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٧٢].

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه عقَّبَ التَّحريضَ على الاستجابةِ، المُستلزِمَ التَّحذيرَ مِن ضِدِّها، بتَحذيرِ المُستجيبينَ مِن إعراضِ المُعرِضينَ؛ لِيَعلَموا أنَّهم قد يلحَقُهم أذًى مِن جرَّاءِ فِعلِ غَيرِهم، إذا هم لم يُقَوِّمُوا عِوَجَ قَومِهم؛ كيلا يحسَبُوا أنَّ امتثالَهم كافٍ إذا عصى دَهْماؤُهم، فحَذَّرَهم فتنةً تَلحَقُهم، فتعُمُّ الظَّالمَ وغيرَه[2]، فقال:

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾.

أي: احْذَروا- أيُّها المؤمنونَ- مِن بلاءٍ يأتيكم مِن اللهِ، لا يختَصُّ وقوعُه بمَن ظَلَم نَفسَه بارتكابِ المعاصي، بل يعُمُّ المسيءَ وغَيرَه، ممَّن يرى المُنكَر يُرتكَبُ، ولا ينهَى عنه، أو يُغيِّرُه مع قدرتِه على ذلك، فحينَ لا تُدفَعُ ولا تُرفَعُ تلك المعاصي الظَّاهرةُ بالنَّهيِ عنها، وقَمْعِ أهلِها، وعدَمِ تَمكينِهم منها، حينَها يعُمُّ اللهُ تعالى الجميعَ بعقابٍ يَحُلُّ بهم[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١١٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١١٣)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٩٢-٣٩٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٣٨٢-٣٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧-٣٨)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨-٧٩].

وعن زينبَ بنتِ جَحشٍ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((استيقَظَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن النَّومِ مُحمَرًّا وجهُه، يقول: لا إلهَ إلَّا اللهُ، ويلٌ للعَرَبِ من شرٍّ قد اقترَب، فُتِحَ اليومَ من ردْمِ(١) يأجوجَ ومأجوجَ مثلُ هذه. وعقَدَ سُفيانُ تسعينَ أو مِئةً(٢)، قيل: أنَهلِكُ وفينا الصَّالِحونَ؟ قال: نعم، إذا كثُرَ الخبَثُ(٣)))(٤).

وعن النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَثَلُ القائمِ على حُدودِ اللَّهِ والواقِعِ فيها، كمَثَلِ قومٍ استهَمُوا على سفينةٍ، فأصابَ بعضُهم أعلاها وبعضُهم أسفَلَها، فكانَ الَّذينَ في أسفَلِها إذا استَقَوا منَ الماءِ مرُّوا على مَن فَوقَهم، فقالوا: لو أنَّا خَرَقْنا في نَصيبِنا خَرقًا ولم نُؤذِ مَن فَوْقَنا، فإن يترُكوهم وما أرادُوا هلكوا جميعًا، وإن أخَذُوا على أيدِيهم نَجَوْا، ونَجَوْا جميعًا))(٥).

= السعدي)) (ص: ٣١٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٥٨-٦٠). ونسَب الشنقيطيُّ هذا القولَ إلى جمهورِ المفسِّرينَ.

قال ابنُ كثيرٍ: (والقَولُ بأنَّ هذا التَّحذيرَ يعُمُّ الصَّحابةَ وغيرَهم- وإن كان الخطابُ معهم- هو الصَّحيحُ، ويدلُّ على ذلك الأحاديثُ الواردةُ في التَّحذيرِ مِن الفِتَنِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٨).

(١) الرَّدْمُ: السَّدُّ، وهو سدٌّ بناه ذو القَرنينِ في وجهِ يأجوجَ ومأجوجَ؛ كي لا يخرجوا مِن مواطِنِهم في الأرضِ. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (٥/ ٣٢٢).

(٢) عَقدُ التِّسعينَ: وهو أنْ تَجْعَلَ رأسَ الأصْبعِ السَّبَّابةِ في أصلِ الإبهامِ، وتَضُمُّها حتَّى لا يَبِينَ بينَهما إلَّا خَلَلٌ يَسِيرٌ، وعَقدُ المئةِ مِثلُ عَقدِ التِّسعينَ، لكن بالخِنصَرِ اليُسرى. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٢١٦)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/ ١٠٨).

(٣) الخَبَثُ: المرادُ به الفُسوقُ والفجورُ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/ ١٠٩).

(٤) رواه البخاري (٧٠٥٩)، واللفظ له، ومسلم (٢٨٨٠).

(٥) رواه البخاري (٢٤٩٣).

وعن قَيسِ بنِ أبي حازمٍ، قال: ((قال أبو بكرٍ، بعد أن حَمِدَ اللهَ، وأثنَى عليه: يا أيُّها النَّاسُ، إنَّكم تَقرَؤونَ هذه الآيَةَ، وتَضعونَها على غيرِ مَوضِعِها: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾، وإنَّا سَمِعْنا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: إنَّ النَّاسَ إذا رأَوُا الظَّالمَ فلَم يأخُذوا على يدَيْه؛ أوشَكَ أن يعُمَّهم اللهُ بعقابٍ))(١).

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾.

أي: واعلَمُوا- أيُّها المُؤمنونَ- أنَّ رَبَّكم شديدٌ عقابُه لِمَن تعرَّض لمساخطِه، وجانَب رِضاه، بتَركِه امتثالَ أوامِرِه، واجتنابَ نواهِيه(٢).

﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٢٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ سُبحانه قَولَه: ﴿أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وكان مِن أشَدِّ العِقابِ الإذلالُ؛ حَذَّرَهموه بالتَّذكيرِ بما كانوا فيه مِن الذُّلِّ(٣).

وأيضًا لما أمر الله تعالى بالاستجابةِ له ولرسولِه؛ ذكَّر المُؤمنينَ بنعمتِه عليهم بالعِزَّةِ والنَّصرِ، بعد الضَّعفِ والقِلَّةِ والخَوفِ؛ لِيَذكُروا كيف يَسَّرَ اللهُ لهم أسبابَ النَّصرِ مِن غَيرِ مظانِّها، حتى أوصَلَهم إلى مُكافحةِ عَدُوِّهم، وأنْ يتَّقيَ أعداؤُهم

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٣٨) واللفظ له، والترمذي (٢١٦٨) (٣٠٥٧)، وأحمد (١/ ٢٠٨).
قال الترمذي (حسن صحيح)، والطحاوي في ((شرح مشكل الآثار)) (٣/ ٢٠٨)، وابنُ العربيِّ في ((الناسخ والمنسوخ)) (٢/ ٢٠٥)، والألباني في ((صحيح أبي داود)) (٤٣٣٨)، وصحح إسناده النووي في ((الأذكار)) (٤١٢)، وأحمد شاكر في ((مسند أحمد)) (١/ ٣٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٦١).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٥٩).

بأسَهم، فكيف لا يستجيبونَ لله فيما بعدَ ذلك، وهم قد كَثُروا وعَزُّوا وانتصَرُوا[١]؟!

﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: واذكُروا- أيُّها المؤمنونَ- حين كان عَدَدُكم قليلًا جدًّا، أثناءَ مُقامِكم بأرضِ مَكَّةَ، يراكم أعداؤُكم ضُعَفاءَ، ويَقْهَرونَكم، ويُؤذُونكم بسبَبِ إيمانِكم[٢].

﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾.

أي: تَخافونَ أن يستَلِبَكم الكُفَّارُ[٣]، فيأخُذوكم بسرعةٍ، واحدًا تِلوَ الآخَرِ، فيقتلوكم؛ إذ لم تكُنْ لديكم مَنَعةٌ بكثرةٍ ولا بِقُوَّةٍ[٤].

﴿فَـَٔاوَىٰكُمۡ﴾.

أي: فجعَلَ لكم بلدًا تَأْوُونَ إليه مِنهم، وهي المدينةُ: دارُ الهِجرةِ[٥].

﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ﴾.

أي: وقوَّاكم وأعانكم بأهلِ المَدينةِ؛ الأنصارِ، فتَمَكَّنتُم مِن الانتصارِ على أعدائِكم بِبَدرٍ وغَيرِها[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٦٢).

(٣) اختار ابنُ جريرٍ أنَّ المرادَ بالنَّاسِ هنا: مُشرِكو قريشٍ، وذهب ابنُ كثيرٍ إلى أنَّ المُرادَ بهم مَن يُعادِيهم مِن النَّاسِ مِن سائِرِ بلادِ اللهِ؛ مِن مُشرِكٍ ومَجوسيٍّ وروميٍّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١١٧، ١١٩، ١٢٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٦٢-٥٦٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١١٧، ١٢٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٦٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١١٧، ١٢٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥٣)، =

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾.

أي: وأطعَمَكم الغنائِمَ حلالًا طيِّبًا، كما رزَقَكم غنائِمَ يومَ بَدرٍ(١).

كما قال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٩].

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

أي: تذكَّروا هذا الإنعامَ والإحسانَ التَّامَّ؛ لأجْلِ أن تَشكُروا المُنعِمَ سُبحانَه على ذلك، فتُطيعوه وتَعبُدوه وَحدَه؛ حيث كُنتُم قليلينَ فكَثَّركم، وأذلَّةً مُستضعَفينَ خائِفينَ، فأعَزَّكم وقوَّاكم ونَصَركم، وفُقراءَ عالةً فأغناكم ورَزَقكم(٢).

قال عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].

وقال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل: ١١٤].

وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا

= ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٦٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١١٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١١٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٦٢، ٥٦٤، ٥٦٥).

قال الشنقيطي: (شُكْرُ العَبدِ لِرَبِّه. قال بعضُ العُلَماءِ: ضابِطُه المُنطَبِقُ على جُزئيَّاتِه: هو أن يَستعمِلَ جميعَ نِعَمِ الله فيما يُرضِي اللهَ). ((العذب النمير)) (٤/ ٥٦٤).

مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ١٥].

الفَوائدُ التربويَّةُ:

١- حياةُ القَلبِ والرُّوحِ تكونُ بالعبوديَّةِ لله تعالى، ولُزومِ طاعَتِه وطاعةِ رَسولِه على الدَّوامِ، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، فقَولُه: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ وصفٌ مُلازِمٌ لكُلِّ ما دعا اللهُ ورَسولُه إليه، وبيانٌ لِفائِدَتِه وحِكمَتِه[1].

٢- قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ الحياةُ النَّافعةُ إنَّما تحصُلُ بالاستجابةِ لِلَّهِ ورَسولِه، فمَن لم تحصُلْ له هذه الاستجابةُ، فلا حياةَ له، وإن كانت له حياةٌ بَهيميَّةٌ مُشتَركةٌ بينه وبين أرذَلِ الحيواناتِ؛ فالحياةُ الحقيقيَّةُ الطَّيبةُ هي حياةُ مَن استجابَ للهِ والرَّسولِ ظاهرًا وباطنًا، فهؤلاءِ هم الأحياءُ وإن ماتوا، وغيرُهم أمواتٌ وإن كانوا أحياءَ الأبدانِ؛ ولهذا كان أكمَلُ النَّاسِ حياةً أكمَلَهم استجابةً لِدَعوةِ الرَّسولِ، فإنْ كان ما دعا إليه فيه الحياةُ، فمَن فاتَه جُزءٌ منه فاتَه جزءٌ مِن الحياةِ، وفيه من الحياةِ بحَسَبِ ما استجابَ للرَّسولِ[2].

٣- اللهُ تعالى هو القادِرُ على الحَيلولةِ بينَ الإنسانِ وبين ما يَشتَهيه قَلبُه؛ فهو بيَدِه تعالى مَلكوتُ كُلِّ شَيءٍ وزِمامُه، قال اللهُ تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾، وفي ذلك حَضٌّ على المُراقبةِ والخوفِ منه تعالى، والبِدارِ إلى الاستجابةِ له[3].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي: إلى اللهِ تعالى تُحشَرونَ لا

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٨).
(٢) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٨٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٠٢).

إلى غَيرِه، فيُجازيكم بأعمالِكم، ولا تُترَكونَ مُهمَلينَ مُعَطَّلينَ، وفي ذلك ترغيبٌ شَديدٌ في العَملِ، وتحذيرٌ عن الكَسَلِ والغَفلةِ[1].

٥- قوله: ﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ الله شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ قولُه: ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ فيه تحذيرٌ شديدٌ، وتخويفٌ لمن يُقصِّرُ في امتثالِ أمرِه، واجتنابِ نهيِه، فليس للمسلمِ أن يُقصِّر في الأمرِ بالمعروفِ، والنهيِ عن المنكرِ ما وجَد إلى ذلك سبيلًا[2].

٦- في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ دليلٌ على وجوب المراعاةِ، وأَخْذِ الحذرِ، والاحتراسِ مِن الفتنِ قبلَ وقوعِها[3].

٧- النُّقلةُ مِن الشِّدَّةِ إلى الرَّخاءِ، ومِن البَلاءِ إلى النَّعماءِ والآلاءِ؛ تُوجِبُ الاشتغالَ بالشُّكرِ والطَّاعةِ؛ يُرشِدُنا إلى ذلك قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[4].

٨- في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ دليلٌ على وجوب تَذَكُّرِ النِّعَمِ؛ والفِكْرِ في حُسْنِ صنيعِ اللهِ[5].

٩- في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٧٣)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٦٤).

(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٦١).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٤٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٧٤).

(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٤٦٩).

تَشْكُرُونَ﴾ دليلٌ على أنَّ تَذَكُّرَ النِّعَم يَستخرِجُ الشكرَ مِن العبدِ؛ فإذا أغفلها أغفلَ الشُّكرَ معها(١).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ إعادةُ حَرفِ الجَرِّ بعد واو العَطفِ في قَولِه: ﴿وَلِلرَّسُولِ﴾؛ للإشارةِ إلى استقلالِ المَجرورِ بالتَّعَلُّقِ بفِعلِ الاستجابةِ؛ تَنبيهًا على أنَّ استجابةَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أعَمُّ مِن استجابةِ اللهِ؛ لأنَّ الاستجابةَ لِلَّهِ لا تكونُ إلَّا بمعنى الطَّاعةِ، بخلافِ الاستجابةِ للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ فإنَّها بالمعنى الأعَمِّ- وهو استجابةُ نِدائه، والطَّاعةُ- فأُريدَ أمْرُهم بالاستجابةِ للرَّسولِ بالمعنَيَينِ كُلَّما صَدَرَت منه دعوةٌ تقتضي أحَدَهما(٢).

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ يقتضي الأمرَ بالامتثالِ لِما يَدعُو إليه الرَّسولُ، سواءٌ دعا حقيقةً بطَلَبِ القُدومِ، أم طَلَبَ عَملًا من الأعمالِ؛ فلذلك لم يكُن قَيدُ ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ مقصودًا لتقييدِ الدَّعوةِ ببَعضِ الأحوالِ، بل هو قَيدٌ كاشِفٌ؛ فإنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يَدعُوهم إلَّا وفي حُضُورِهم لديه حياةٌ لهم(٣).

٣- ليس قولُه: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ قيدًا للأمرِ باستجابةٍ، ولكنَّه تنبيهٌ على أنَّ دعاءَه إيَّاهم لا يكونُ إلَّا إلى ما فيه خيرٌ لهم، وإحياءٌ لأنفسِهم(٤)، وقيل: هو تنبيهٌ على وُجوبِ اتِّباعِ الرَّسولِ في كلِّ ما يدعو إليه، وحكمةُ الإتيانِ به:

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٤٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣١٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣١٢)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٠٣-١٠٤).

الإعلامُ بأنَّه ما ترك خيرًا إلَّا دعا إليه[1].

٤- لَمَّا كان صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يدعوهم لا محالةَ، لأنَّ الله تعالى أمَره بدعائِهم، وكان لا يَدْعوهم إلَّا إلى ما أمَره الله به، وكان سبحانَه لا يَدْعو إلَّا إلى صلاحٍ ورشدٍ؛ عبَّر بأداةِ التحقيقِ ﴿إِذَا﴾ ووحَّد الضميرَ ﴿دَعَاكُمْ﴾وشوَّق بإثمارِ الحياةِ ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[2].

٥- لَمَّا كان اجتِناءُ ثَمرةِ الطَّاعةِ في غايةِ القُربِ؛ نَبَّه على ذلك باللَّامِ دُونَ (إلى)، فقال: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[3].

٦- في قولِه تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ لَمَّا كان وجودُ مُطلَقِ الاستضعافِ دالًّا على غايةِ الضَّعفِ؛ بنى للمَفعولِ قَولَه: ﴿مُسْتَضْعَفُونَ﴾[4].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾

- تكريرُ النِّداءِ مع وَصْفِهم بنَعتِ الإيمانِ؛ لِتَنشيطِهم إلى الإقبالِ على الامتثالِ بما يَرِدُ بَعدَه من الأوامِرِ، وتنبيهِهم على أنَّ فيهم ما يُوجِب ذلك[5]، أي: إنَّ الإيمانَ هو الذي يقتضي أن يَثِقُوا بعنايةِ اللهِ بهم، فيمتَثِلوا أمْرَه إذا دعاهم[6].

- ووحَّدَ الضَّميرَ في قَولِه: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾؛ لأنَّ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٥٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ٢٥١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) .
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ٢٥٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٦).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣١١).

الدُّعاءَ مِن فِعلِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُباشرةً، ولأنَّ استجابةَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كاستجابَتِه تعالى[(١)].

- والسِّينُ والتَّاءُ في ﴿اسْتَجِيبُوا﴾ للتَّأكيدِ[(٢)].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾

- افتُتِحَت الجملةُ بـ (اعْلَمُوا)؛ للاهتمامِ بما تتضَمَّنُه، وحَثِّ المُخاطَبينَ على التأمُّلِ فيما بَعدَه[(٣)].

- وفيه تعريضٌ غالبًا بغَفلةِ المُخاطَبِ عن أمرٍ مُهِمٍّ؛ فمِنَ المَعروفِ أنَّ المُخبِرَ أو الطَّالِبَ، ما يُريدُ إلَّا عِلمَ المُخاطَبِ، فالتَّصريحُ بالفِعلِ الدَّالِّ على طلَبِ العِلمِ مَقصودٌ للاهتمامِ[(٤)].

- قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ فيه تَصويرٌ لتَمَلُّكِه سُبحانَه على العَبدِ قَلبَه، بحيثُ يَفسَخُ عَزائِمَه، ويُغَيِّرُ نِيَّاتِه ومَقاصِدَه، ويَحولُ بينه وبينَ الكُفرِ إن أرادَ سَعادتَه، ويُبَدِّلُه بالأمْنِ خَوفًا، وبالذِّكرِ نِسيانًا، وما أشبَهَ ذلك من الأمورِ المُعتَرِضة المُفَوِّتةِ للفُرصةِ. والمقصودُ مِن هذا تَحذيرُ المُؤمنينَ مِن كُلِّ خاطِرٍ يخطُرُ في النُّفوسِ: مِنَ التَّراخي في الاستجابةِ إلى دَعوةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والتنصُّلِ منها، أو التسَتُّرِ في مُخالَفتِه، والحثُّ على المُبادرةِ بالامتثالِ، وعَدَمِ إرجاءِ ذلك إلى وَقتٍ آخَرَ؛ خَشيةَ أن تعتَرِضَ المرءَ موانِعُ مِن تَنفيذِ عَزمِه على الطَّاعةِ[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣١٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٣١٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣١٥).

- وقوله: ﴿يَحُولُ﴾ جيء به بصيغةِ المُضارعِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ ذلك يتجَدَّدُ ويستمِرُّ[١].

- قولُه: ﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ تقديمُ مُتعَلِّقِ ﴿تُحْشَرُونَ﴾ عليه؛ لإفادةِ الاختصاصِ، أي: إليه لا إلى غَيرِه تُحشَرونَ، وهذا الاختصاصُ للكنايةِ عَن انعدامِ ملجأٍ أو مخبأٍ تلتجِؤونَ إليه مِن الحَشرِ إلى اللهِ؛ فكنَّى عن انتفاءِ المكانِ بانتفاءِ مَحشورٍ إليه غيرِ اللهِ، بأبدَعِ أُسلوبٍ[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

- جيءَ بالجُملةِ ﴿أَنْتُمْ قَلِيلٌ﴾ اسميَّةً؛ للدَّلالةِ على ثَباتِ وَصفِ القِلَّةِ والاستضعافِ فيهم[٣].

- وجملة: ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ إدماجٌ بذِكرِ نِعمةِ تَوفيرِ الرِّزقِ في خلالِ المِنَّةِ بنِعمةِ النَّصرِ، وتوفيرِ العَدَدِ بعدَ الضَّعفِ والقِلَّةِ؛ فإنَّ الأمنَ ووَفرةَ العَددِ يَجلِبانَ سَعةَ الرِّزقِ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣١٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٣١٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٣١٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٣٢٠).

الآيات (٢٧-٢٩)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فُرْقَانًا﴾: أي: فَصلًا وفَرْقًا بَينَ الحَقِّ والباطِلِ، وأصلُه مِن الفَرْقِ، وهو الانفصالُ، والتَّمييزُ بين شَيئَينِ[1].

﴿وَيُكَفِّرْ﴾: أي: يَمحُ ويَستُرْ، وأصلُ (كفر) يدلُّ على السَّترِ والتَّغطيةِ[2].

المَعنى الإجماليُّ:

نَهى اللهُ عبادَه المُؤمنينَ عَن خِيانةِ اللهِ ورَسولِه، وعن خيانةِ كُلِّ ما اؤتُمِنوا عليه، وهم يَعلمونَ بكَونِها أمانةً يجِبُ الوفاءُ بها.

ثمَّ أمَرَهم أن يَعلَموا أنَّ أموالَهم وأولادَهم ابتلاءٌ واختبارٌ مِن اللهِ تعالى لهم؛ لِينظُرَ هل يؤدُّونَ حقَّ اللهِ تعالى فيها، أم سوفَ تَحمِلُهم محبَّتُها على تقديمِ هَوى أنفُسِهم، وأمَرَهم أن يَعلَموا أنَّ اللهَ عِندَه ثوابٌ عَظيمٌ لِمَن امتثَلَ أمْرَه.

وبيَّن لِعبادِه المؤمنينَ أنَّهم إن يتَّقوه بامتثالِ أمْرِه واجتنابِ نَهْيِه، فسيجعَلُ لهم علمًا، يُفرِّقُون به بينَ الحقِّ والباطلِ، ومَخرجًا مِن كُروبِ الدُّنيا ونجاةً، ونصرًا

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٣-٤٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٢-٦٣٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢، ١٢٨، ٢٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧١٤).

وتأييدًا، وسيمحو عنهم ما تقدَّمَ مِن ذُنوبِهم، ويستُرُها، ويتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها، واللهُ ذو الفَضلِ العَظيمِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ختَمَ الله تعالى الآيَةَ السَّابِقةَ بما هو في غايةِ النَّصيحةِ مِنه تعالى لهم؛ من الإيواءِ والنَّصرِ، والرِّزقِ الطَّيِّبِ المُشارِ به إلى الامتنانِ بإحلالِ المَغنَمِ، وختم ذلك بالحَثِّ على الشُّكرِ؛ نهى عن تضييعِ الشُّكرِ في ذلك بالخيانةِ في أوامِرِه بالغُلولِ أو غَيرِه[1].

وأيضًا بعدَ أنْ أمَرَ اللهُ تعالى المُؤمنينَ بالطَّاعةِ والاستجابةِ للَّه ولِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ حَذَّرَهم من أن يُظهِروا الطَّاعةَ والاستجابةَ في ظاهِرِ أمْرِهم، ويُبطِنوا المَعصيةَ والخِلافَ في باطِنِه، فقال تعالى[2]:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾.

أي: يا أيُّها المُؤمِنون لا تَنقُصُوا[3] ما ينبغي عليكم حِفظُه وأداؤُه تامًّا مِن

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٢١).

(٣) قال ابن عاشور: (الخَونُ والخيانةُ: إبطالُ ونَقضُ ما وقع عليه تعاقُدٌ مِن دونِ إعلانٍ بذلك النَّقضِ، قال تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨] والخيانةُ ضِدُّ الوفاءِ. قال الزمخشري: «وأصلُ معنى الخَونِ: النَّقصُ، كما أنَّ أصلَ الوَفاءِ التَّمامُ، ثم استُعمِلَ الخَونُ في ضِدِّ الوفاءِ؛ لأنَّك إذا خُنتَ الرَّجُلَ في شيءٍ فقد أدخَلْتَ عليه النُّقصانَ فيه» أي: واستُعمِلَ الوَفاءُ في الإتمامِ بالعَهدِ؛ لأنَّ مَن أنجَزَ بما عاهد عليه فقد أتَمَّ عَهدَه، فلذلك يقال: أوفى بما عاهَدَ عليه، فالإيمانُ والطَّاعة لله ورَسولِه عَهدٌ بين المؤمِنِ وبين اللهِ ورَسولِه، =

حُقوقِ اللهِ تعالى عليكم، وذلك بِتَركِ فرائِضِه، وانتهاكِ حُرُماتِه، ولا تنقُصُوا حقوقَ رَسولِه بِتَركِ طاعَتِه واتِّباعِه[1]، ولكِنْ أطيعُوا الله ورسولَه بامتثالِ الأمرِ، واجتنابِ النهيِ، دونَ تقصيرٍ في ذلك[2].

عن عليِّ بن أبي طالبٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((بَعثَني رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأبا مَرثَدٍ الغنَويَّ والزُّبيرَ بنَ العوَّامِ، وكلُّنا فارِسٌ، قال: انطلِقوا حتى تأتُوا روضةَ خاخٍ؛ فإنَّ بها امرأةً مِن المُشرِكينَ، معها كتابٌ مِن حاطبِ ابنِ أبي بلتَعةَ إلى المُشرِكينَ، فأدرَكْناها تسيرُ على بَعيرٍ لها، حيثُ قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقُلْنا: الكتابَ، فقالتْ: ما مَعَنا كتابٌ، فأنَخْناها، فالتَمَسْنا فلم نَرَ كِتابًا، فقُلْنا: ما كذَبَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، لتُخرِجِنَّ الكتابَ أو لنُجَرِّدنَّكِ، فلما رأتِ الجِدَّ أهوتْ إلى حُجْزَتِها[3]، وهي مُحتَجِزةٌ بكِساءٍ، فأخرَجَتْه، فانطلَقْنا بها إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال عمرُ:

= فكما حُذِّروا من المعصيةِ العَلَنيَّةِ، حُذِّروا من المعصيةِ الخَفيَّةِ، وتشمَلُ الخيانةُ كُلَّ مَعصيةٍ خَفيَّةٍ، فهي داخلةٌ في (لا تخونوا)؛ لأنَّ الفِعلَ في سياقِ النَّهيِ يَعُمُّ، فكلُّ مَعصيةٍ خَفيَّةٍ، فهي مرادٌ من هذا النَّهيِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٢٢). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٢٦).

(١) قال ابنُ عاشور: (روى جُمهورُ المُفَسِّرينَ وأهلُ السِّيَرِ... أنَّها نزلَت في أبي لُبابةَ بنِ عبدِ المُنذِرِ الأنصاريِّ، لَمَّا حاصرَ المُسلمونَ بني قُريظةَ... وهذا الخبَرُ لم يثبُتْ في الصَّحيحِ، ولكنَّه اشتَهَر بين أهلِ السِّيَرِ والمُفَسِّرينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٢١).
قال ابنُ جريرٍ: (أولى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ أنْ يُقالَ: إنَّ اللهَ نهى المؤمنينَ عَن خِيانَتِه وخيانةِ رَسولِه وخيانةِ أماناتِه، وجائِزٌ أن تكونَ نَزَلت في أبي لُبابة، وجائِزٌ أن تكون نزَلَت في غَيرِه، ولا خبَرَ عندنا بأيِّ ذلك كان، يجِبُ التَّسليمُ له بصِحَّتِه). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٢٢-١٢٣).
وقال ابنُ كثيرٍ: (الصَّحيحُ أنَّ الآيةَ عامَّةٌ، وإن صحَّ أنَّها وردت على سببٍ خاصٍّ؛ فالأخذُ بِعُمومِ اللَّفظِ لا بخُصوصِ السَّببِ عند الجماهيرِ مِن العُلَماءِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٢٠، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٦٦-٥٦٧).

(٣) حُجْزَتِها: أي: مَعقِد الإزار. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٦/ ٢٥٦).

يا رسولَ اللهِ، قد خان اللهَ ورسولَه والمؤمنينَ، فدعْني فلْأَضرِبْ عُنقَه. فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ما حمَلَك على ما صنعْتَ؟ قال حاطِبٌ: واللهِ ما بي ألَّا أكونَ مُؤمِنًا باللهِ ورسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أردتُ أن يكونَ لي عند القومِ يدٌ، يدفَعُ اللهُ بها عن أهلي ومالي، وليسَ أحدٌ مِن أصحابِك إلَّا له هناك مِن عَشيرَتِه مَن يَدفَعُ اللهُ به عن أهلِه ومالِه. فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: صدَقَ، ولا تقولوا له إلَّا خَيرًا. فقال عمرُ: إنَّه قد خان اللهَ ورسولَه والمؤمنينَ، فدعْني فلْأضرِبْ عُنقَه. فقال: أليسَ مِن أهلِ بَدْرٍ؟ فقال: لعلَّ اللهَ اطَّلَعَ إلى أهلِ بدرٍ، فقال: اعمَلُوا ما شئتُم؛ فقد وجَبَتْ لكم الجنَّةُ، أو فقد غَفَرْتُ لكم. فدمَعَت عينَا عُمرَ، وقال: اللهُ ورسولُه أعلمُ))(١).

﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾.

أي: ولا تخونوا ما اؤتُمِنتُم عليه(٢).

قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

---

(١) رواه البخاري (٣٩٨٣)، ومسلم (٢٤٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٢٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢١٣)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٢٠٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٠٧)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٢٧٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٥٣٤-٥٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٢٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٦٦-٥٦٧).

قال القرطبي: (الأماناتُ: الأعمالُ التي ائتَمَنَ اللهُ عليها العبادَ، وسُمِّيَت أمانةً؛ لأنَّها يُؤمَنُ معها مِن مَنْعِ الحقِّ، مأخوذٌ مِن الأمْنِ). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٩٥).

وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨].

وقال تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

وعن حذيفة رضي الله عنه، قال: ((حدَّثَنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حديثَينِ، رأيتُ أحدَهما، وأنا أنتظِرُ الآخَرَ: حدَّثَنا: أنَّ الأمانةَ نزَلَتْ في جَذرِ[١] قلوبِ الرجالِ، ثم علِموا منَ القرآنِ، ثم علِموا منَ السُّنَّةِ. وحدَّثَنا عن رفعِها قال: ينامُ الرجلُ النومةَ فتُقبَضُ الأمانةُ من قلبِه، فيظَلُّ أثرُها مثلَ أثرِ الوَكتِ[٢]، ثم ينامُ النومةَ فتُقبَضُ فيَبقى فيها أثرُها مثلَ أثرِ المَجْلِ[٣]، كجمرٍ دحرَجتَه على رِجلِك فنفِط[٤]، فترَاه مُنتَبِرًا[٥]، وليس فيه شيءٌ، ويُصبِحُ الناسُ يتبايَعونَ، فلا يَكادُ أحدٌ يؤدِّي الأمانةَ، فيُقالُ: إنَّ في بني فلانٍ رجلًا أمينًا، ويُقالُ للرجلِ: ما أعقَلَه! وما أظرَفَه! وما أجلَدَه! وما في قلبِه مِثقالُ حبةِ خَردَلٍ من إيمانٍ، ولقد أتى عليَّ زمانٌ، ولا أُبالي أيُّكم بايَعتُ، لئن كان مسلمًا ردَّه عليَّ الإسلامُ، وإن كان نصرانيًّا ردَّه عليَّ ساعيه، وأما اليومَ: فما كنتُ أُبايِعُ إلا فلانًا وفلانًا))[٦].

وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه، أنَّ رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مِن

(١) الجَذرُ: الأصلُ مِن كلِّ شَيء. يُنظر: ((إكمال المعلم بفوائد مسلم)) للقاضي عياض (١/ ٤٤٨).

(٢) الوَكت: الأثرُ اليسيرُ، وقيل: هو سوادٌ يسيرٌ، وقيل: هو لونٌ يحدثُ مخالفٌ للونِ الذي كان قبلَه. يُنظر: ((مشارق الأنوار)) للقاضي عياض (٢/ ٢٨٥)، ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ١٦٨).

(٣) المَجْلُ: هو التنَفُّطُ الذي يصيرُ في اليَدِ مِن العمَلِ بفأسٍ أو نحوِها، ويصيرُ كالقبَّة فيه ماءٌ قليلٌ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ١٦٩).

(٤) نَفِطَ، أي: ظهَرَ برِجْلِه نفطةٌ، أي: بَثرةٌ مُجَوَّفةٌ. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (٥/ ٣٤٨).

(٥) مُنتَبِرًا: أي: مُرتَفِعًا. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ١٦٩).

(٦) رواه البخاري (٧٠٨٦) واللفظ له، ومسلم (١٤٣).

علاماتِ المنافقِ ثلاثةٌ: إذا حدَّث كذَب، وإذا وعَد أخْلَف، وإذا ائتُمنَ خانَ))[(١)].

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

أي: والحالُ أنَّكم تعلمونَ عِلمًا لا لَبْسَ فيه أنَّها أماناتٌ يجِبُ الوفاءُ بها، وعَدَمُ تَعمُّدِ التَّفريطِ فيها، وتعلمونَ مَفاسِدَ خِيانَتِها، وقُبْحَ ذلك[(٢)].

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان الدَّاعي إلى الإقدامِ على الخِيانةِ هو حُبَّ الأموالِ والأولادِ؛ نبَّهَ تعالى على أنَّه يجِبُ على العاقِلِ أن يَحترِزَ عن المضارِّ المُتولِّدةِ من ذلك الحُبِّ، فقال تعالى[(٣)]:

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾.

أي: واعلَمُوا- أيُّها المُؤمِنونَ- أنَّ أموالَكم التي رزَقَكم اللهُ تعالى إيَّاها، وأولادَكم الذين وهَبَهم اللهُ لكم- اختبارٌ يَبتليكم اللَّهُ به؛ لِينظُرَ هل تؤدُّونَ حَقَّ اللهِ عليكم فيها: بامتثالِ أمْرِه واجتنابِ نَهْيِه فيها، وهل تَشْكُرونَه عليها، أم تَحمِلُكم محبَّةُ ذلك على تقديمِ هَوى أنفُسِكم على أداءِ ما ائتَمَنكم عليه، وتَشتغِلون بها عنه سبحانَه[(٤)].

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ

(١) رواه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٢٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٦)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٧٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٥٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٢٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٦٧).

فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٤-١٦].

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾.

أي: واعلَموا أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ عِندَه ثوابٌ عظيمٌ، وهو خيرٌ لكم من الأموالِ والأولادِ؛ فآثِرُوا فَضْلَه العظيمَ الباقيَ، على لذَّةٍ صَغيرةٍ فانيةٍ مُضمحِلَّةٍ(١).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه تعالى لَمَّا حذَّرَ عن الفِتنةِ بالأموالِ والأولادِ؛ رغَّبَ في التَّقوى التي تُوجِبُ تَركَ المَيلِ والهَوى في محبَّةِ الأموالِ والأولادِ(٢)، فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنونَ، إن تتَّقوا اللهَ بامتثالِ أوامِرِه، واجتنابِ نَواهِيه، وترْكِ خيانَتِه، وخيانةِ رَسولِه، وخيانةِ أماناتِكم؛ يجعَلْ لكم علمًا، تُفَرِّقُون به بينَ الحقِّ والباطلِ، ومَخرجًا لكم مِن كُروبِ الدُّنيا ونجاةً، ونصرًا وتأييدًا(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٦٧-٥٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٧٦)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٢٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٢-٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٦٨-٥٦٩). =

قال الله سبحانه: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢].

﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾.

أي: ويمحُ عَنكم ما تقَدَّمَ مِن ذُنوبِكم(١).

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾.

أي: ويستُرْ ذُنوبَكم عن النَّاسِ، ويتجاوَزْ عن مؤاخَذتِكم بها(٢).

﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

أي: واللهُ- الذي يمنَحُكم كلَّ هذه الهِباتِ والمَكرُماتِ- صاحِبُ الأجرِ العَظيمِ، والثَّوابِ الجزيلِ لِمَن اتَّقاه، وله- وحدَه- الفَضلُ العظيمُ عليكم، وعلى غَيرِكم مِن خَلْقِه، فاكتفوا بطلبِه منه دونَ غيرِه(٣).

الفَوائدُ التربويَّةُ:

١- قولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾ خِطابٌ لجميعِ المؤمنينَ إلى يومِ القيامةِ، وهو يجمعُ أنواعَ الخياناتِ كلِّها؛ قليلَها وكثيرَها(٤).

= قال الشنقيطيُّ في تفسيرِ قولِه: ﴿فُرْقَانًا﴾: (معناه: يجعلْ لكم مخرجًا، وقال بعضُ العلماءِ: ﴿فُرْقَانًا﴾: نصرًا وتأييدًا؛ وقال بعضُ العلماءِ: فرقانًا: فَتْحًا. وقال بعضُ العلماءِ: يجعلِ الله لكم بسببِ تقوَى الله فُرْقَانًا، أي: علمًا تُفَرِّقُون به بينَ الحقِّ والباطلِ، والحسنِ والقبيحِ. والأقوالُ متقاربةٌ). ((العذب النمير)) (٤/ ٥٦٨) بتصرف، ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٢٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٢٧- ١٢٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥١٧).

٢- الفِتنةُ لا تكونُ بالشدَّةِ وبالحرمانِ وحْدَهما، بل تكونُ كذلك بالرَّخاءِ وبالعطاءِ أيضًا، ومِن الرَّخاءِ والعطاءِ هذه الأموالُ والأولادُ؛ قال الله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾(١).

٣- سعاداتُ الآخرةِ خَيرٌ مِن سعاداتِ الدُّنيا؛ فهي أعظَمُ في الشَّرفِ، وأعظَمُ في الفَوزِ، وأعظَمُ في المدَّةِ؛ لأنَّها تبقَى بقاءً لا نهايةَ له؛ يُبَيِّن ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ بعد أنْ ذَكرَ الأموالَ والأولادَ(٢).

٤- امتثالُ العبدِ لِتقوى ربِّه، عُنوانُ السَّعادةِ، وعلامةُ الفلاحِ؛ فقد رتَّب اللهُ على التَّقوى مِن خيرِ الدُّنيا والآخرةِ شَيئًا كثيرًا؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾(٣).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فيه أنَّ ما خَفِيَ حُكمُه، فالجَهلُ له عُذرٌ؛ إذا لم يكُن ممَّا عُلِمَ مِن الدِّينِ بالضَّرورةِ، أو ممَّا يُعلم ببداهةِ العَقلِ، أو استفتاءِ القَلبِ(٤).

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ جُعِلَ نَفسُ الأموالِ والأولادِ فتنةً؛ لكثرةِ حُدوثِ فِتنةِ المَرءِ مِن جرَّاءِ أحوالِهما، مبالغةً في التَّحذيرِ مِن تلك الأحوالِ وما ينشَأُ عنها، فكأنَّ وُجودَ الأموالِ والأولادِ نفسُ الفِتنةِ(٥).

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٤٩٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٧٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٥٣٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٢٥).

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ فيه بيانُ ارتباطِ الخيرِ والشَّرِّ بالعَملِ؛ فقد رتَّبَ اللهُ سُبحانَه حُصولَ الخَيراتِ في الدُّنيا والآخرةِ، وحصولَ السُّرورِ في الدُّنيا والآخرةِ في كتابِه، على الأعمالِ، ترتُّبَ الجزاءِ على الشَّرطِ، والمعلولِ على العِلَّة، والمسبَّبِ على السَّبَبِ[1].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ تنكيرُ الفُرقانِ؛ للتَّنويعِ التَّابعِ لأنواعِ التقوى: كالفَتْنِ في السِّياسةِ والرِّياسةِ، والحَلالِ والحرامِ، والعَدلِ والظُّلمِ؛ فكلُّ مُتَّقٍ للهِ في شيءٍ، يؤتيه فرقانًا فيه[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

- استئنافُ خِطابٍ للمُؤمنينَ يُحذِّرُهم مِن العِصيانِ الخفيِّ[3].

- قَولُه: ﴿وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾ فيه عُدولٌ عن ذكرِ المَفعولِ الأصليِّ، إلى ذِكرِ المفعولِ المتَّسَعِ فيه؛ لِقَصدِ تَبشيعِ الخيانةِ بأنَّها نَقضٌ للأمانةِ؛ فإنَّ الأمانةَ وَصفٌ مَحمودٌ مَشهورٌ بالحُسنِ بين النَّاسِ، فما يكونُ نقضًا له يكونُ قَبيحًا فظيعًا؛ ولأجلِ هذا لم يَقُلْ: (وتخونُوا النَّاسَ في أماناتِهم) فهذا حذفٌ مِن الإيجازِ[4].

- وقوله: ﴿وَتَخُونُوا﴾ عطفٌ على قَولِه: ﴿لَا تَخُونُوا﴾ فهو في حَيِّزِ النَّهيِ، والتَّقديرُ: (ولا تَخونوا أماناتِكم) وأُعيدَ فِعلُ (تَخونُوا) ولم يُكتفَ بحَرفِ

(١) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٥٣٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٢١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٣٢٣).

العَطفِ الصَّالِحِ للنِّيابةِ عَن العامِلِ في المعطوفِ؛ للتَّنبيهِ على نوعٍ آخَرَ مِن الخيانةِ؛ فإنَّ خيانَتَهم اللهَ ورَسولَه نقضُ الوفاءِ لهما بالطَّاعةِ والامتثالِ، وخيانةَ الأمانةِ نقضُ الوفاءِ بأداءِ ما اؤتُمِنوا عليه[1].

- وجملة ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ في موضِعِ الحالِ مِن ضميرِ ﴿تخونوا﴾، وهي حالٌ كاشِفةٌ، والمقصودُ منها تشديدُ النَّهيِ، أو تشنيعُ المنهيِّ عنه؛ لأنَّ النَّهيَ عن القَبيحِ في حالِ مَعرفةِ المنهيِّ أنَّه قبيحٌ، يكونُ أشَدَّ، ولأنَّ القبيحَ في حالِ عِلمِ فاعِلِه بقُبحِه، يكونُ أشنَعَ، وليس المُرادُ تقييدَ النَّهيِ عن الخيانةِ بحالةِ العِلمِ بها؛ لأنَّ ذلك قليلُ الجدوى، فإنَّ كلَّ تكليفٍ مَشروطٌ بالعِلمِ، وكونُ الخيانةِ قَبيحةً أمرٌ مَعلومٌ[2].

٢- قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

- جيءَ في الإخبارِ عن كَونِ الأموالِ والأولادِ فِتنةً بطريقِ القَصرِ قَصرًا ادعائيًّا؛ لِقَصدِ المبالغةِ في إثباتِ أنَّهم فِتنةٌ[3].

- وقَدَّمَ الأموالَ؛ لأنَّها مَظِنَّةُ الحَملِ على الخيانةِ في هذا المقامِ، وعُطِفَ الأولادُ على الأموالِ؛ لاستيفاءِ أقوى دواعي الخِيانةِ؛ فإنَّ غَرَضَ جمهورِ النَّاسِ في جَمعِ الأموالِ أن يَترُكوها لأبنائِهم مِن بَعدِهم[4].

٣- قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾

- قولُه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فيه تكريرُ الخطابِ والوَصفِ بالإيمانِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٢٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٣٢٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٣٢٤-٣٢٥).

لإظهارِ كمالِ العنايةِ بما بَعدَه، والإيذانِ بأنَّه مما يقتضي الإيمانُ مُراعاتَه والمُحافظةَ عليه[1].

– وفعلُ الشَّرطِ ﴿تَتَّقُوا﴾ مرادٌ به الدَّوامُ؛ فإنَّهم كانوا مُتَّقِينَ، ولكنَّهم لَمَّا حُذِّروا مِن المخالفةِ والخيانةِ، ناسبَ أن تُفرَضَ لهم الطَّاعةُ في مُقابِلِ ذلك[2].

– واختيارُ (الفُرقان) في قَولِه: ﴿يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ هنا؛ لقَصدِ شُمولِه ما يصلُحُ لِلمقامِ مِن معانِيه، لأنَّه اللَّفظُ الذي لا يؤدِّي غيرُه مُؤدَّاه في هذا الغَرَضِ، وذلك من تمامِ الفَصاحةِ[3].

– وقوله: ﴿لكم﴾ يُشعِرُ أنَّ الفُرقانَ شَيءٌ نافِعٌ لهم، فالظَّاهِرُ أنَّ المُرادَ منه كلُّ ما فيه مَخرجٌ لهم ونجاةٌ مِن الْتباسِ الأحوالِ، وارتِباكِ الأمورِ، وانبِهامِ المقاصد، فيَؤُولُ إلى استقامةِ أحوالِ الحياةِ[4].

– قولُه: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ تذييلٌ وتكميلٌ، وهو كنايةٌ عن حصولِ منافِعَ أخرى لهم مِن جرَّاءِ التَّقوى[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٢٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٣٢٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٣٢٧).

الآيات (٣٠-٣٥)

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَمْكُرُ﴾: المَكْرُ: صرفُ الغيرِ عمَّا يقصدُه بحيلةٍ، وأصلُ المكرُ: الاحتيالُ والخداعُ(١).

﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾: أي: لِيَحبِسوك ويَسجِنوك. وأصلُ (ثبت) يدلُّ على دوامِ الشَّيءِ(٢).

﴿أَسَاطِيرُ﴾: أي: أباطيلُ وتُرَّهات؛ جمعُ أُسطورةٍ، وهي: ما سُطِرَ مِن أخبارِ الأوَّلينَ وكَذِبِهم(٣).

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٥)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٧٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٣٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٢)، ((مقاييس اللغة)) (١/ ٣٩٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٦).

﴿أَوْلِيَاءَهُ﴾: الأولياءُ جمعُ وليٍّ، وأصلُ (ولي): يدلُّ على القُرْب، سواء مِن حيثُ: المكانُ، أو النِّسبةِ، أو الدِّينِ، أو الصَّداقةِ، أو النُّصرةِ، أو الاعتقادِ، وكلُّ مَن وَلِي أمرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه(١).

﴿مُكَاءً﴾: أي: صَفيرًا، وأصلُ (مكا) يدلُّ على شَيءٍ مِن الأصواتِ(٢).

﴿وَتَصْدِيَةً﴾: أي: تصفيقًا، وهو أن يضْربَ بإحدَى يَدَيْه على الأُخرَى، فيخرجَ بينهمَا صَوتٌ، وقيل للتَّصفيقِ: تَصِديةٌ؛ لأنَّ اليدَينِ تَتصافقانِ، فيُقابِلُ صَفْقُ هذه صَفْقَ الأُخرى، وصَدُّ هذه صَدَّ الأُخرَى، وهما وَجْهاها(٣).

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: واذكُرْ- يا مُحمَّدُ- حين تمالأَ عليك كُفَّارُ قُريشٍ؛ لِيَسجُنوك أو يَقتُلوك أو يُخرِجوك مِن مكَّة، ويكيدونَ بك في خفاءٍ، ويكيدُ اللهِ بهم، فأنقَذَك اللهُ منهم وأهلَكَهم، واللهُ خيرُ مَن يُجازي بالسيئةِ العُقوبةَ، فيمكُرُ بمن كفَرَ به وعصاه، فيجازيهم بما يستحقُّونَه.

وإذا تُتلَى على هؤلاءِ الكُفَّارِ مِن قُريشٍ آياتُ القُرآنِ، قالوا: قد سَمِعْناها، ولو نَشاءُ لَقُلنا مِثلَ هذا، ما هذا القُرآنُ إلَّا أكاذيبُ سَطَرَها الأقدَمونَ مِن الأُمَمِ الماضيةِ.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٦١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٩)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٥/ ٥٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٨).

واذكُر- يا مُحمَّدُ- حين قال كُفَّارُ قُريشٍ: اللهُمَّ، إن كان ما يقولُه مُحمَّدٌ حَقًّا، فأنزِلْ علينا مِن السَّماءِ حِجارةً مُتتابِعةً، أو عَذِّبْنا في الدُّنيا بعذابٍ مُوجِعٍ.

وما كان اللهُ لِيُعذِّبَهم وأنت فيهم- يا محمَّدُ- وما كان اللهُ مُعَذِّبَهم لو أنَّهم كانوا يَستغفرونَ اللهَ مِن كُفرِهم وذُنوبِهم، لكِنَّهم لا يفعلونَ، وما يمنَعُ أولئك الكُفَّارَ مِن أن يُعَذِّبَهم اللهُ وهم يمنَعونَ المُسلمينَ مِن الوُصولِ إلى المَسجدِ الحَرامِ، وما كانوا أولياءَ هذا المسجدِ الحرام، فأولياؤُه هم المُتَّقونَ، ولكِنَّ أكثَرَهم لا يَعلمونَ.

ثم أخبَرَ تعالى أنَّه ما كان صلاةُ كُفَّارِ قُريشٍ عند البَيتِ إلَّا صَفيرًا وتَصفيقًا، ثمَّ وجَّهَ الله تعالى الخِطابَ إلى كفَّارِ قُريشٍ قائلًا: فذُوقوا ألمَ العَذابِ بِسَببِ كُفرِكم.

تَفسيرُ الآيات:

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَّرَ اللهُ تعالى المؤمنينَ نِعَمَه عليهم بِقَولِه: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ﴾؛ فكذلك هنا: ذكَّرَ رسولَه نِعَمَه عليه، وهو دَفعُ كَيدِ المُشرِكينَ، ومَكرِ الماكرينَ عنه(١).

وأيضًا لَمَّا وعَدَ سُبحانَه في الآيةِ السَّابقةِ المُؤمنينَ بالفَضلِ العظيمِ، ذكَّرَهم من أحوالِ داعِيهم وقائِدِهم وهادِيهم- عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- بما يدعوهم إلى مُلازمةِ أسبابِه في سياقِ المُخاطَبةِ له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ تذكيرًا بنِعمَتِه، وإشارةً إلى دوامِ نُصرَتِه(٢)، فقال تعالى:

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٧٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٠٩).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٦٧).

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾.

أي: واذكُرْ- يا مُحمَّدُ- نِعمَتي عليك حين كان كفَّارُ قُريشٍ يَكيدونَ لك، ويتآمَرونَ عليك في الخفاءِ؛ ليُقيِّدوك ويَسجِنوك، أو يَقتلُوك، أو يُخرِجوك مِن مكَّةَ(١).

قال تعالى: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ [التوبة: ١٣].

وقال سبحانه: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد: ١٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠].

وقال سبحانه: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم: ١٣].

وقال سبحانه: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٣١، ١٤١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٧١ - ٥٧٣).
قال الشنقيطي: (قال بعضُ العُلَماءِ: هذه الآيةُ مِن سورةِ الأنفالِ مكيَّةٌ، مع أنَّ الأنفالَ مَدنيَّةٌ. والأظهَرُ أنَّ هذه الآيةَ كغَيرِها من سورةِ الأنفالِ مَدَنيَّةٌ؛ وذلك أنَّ الله لَمَّا فتح على نبيِّه، ونَصَره يومَ بَدرٍ، وأنزل سورةَ الأنفال في وقعةِ بَدرٍ؛ ذكَّر نبيَّه بنِعَمِه الماضيةِ عليه في مكَّةَ قبل هِجرَتِه منها، وعرَّفَه إنعامَه عليه؛ حيث أنجاه مِن مَكرِ أعدائه). ((العذب النمير)) (٤/ ٥٧١).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾.

أي: ويكيدُ بك كفَّارُ مكَّةَ في الخفاءِ، ويكيدُ اللهُ بهم أيضًا مِن حيثُ لا يَشعرونَ، فاسْتَنْقَذ نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم منهم، وأهلَكهم(١).

﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾.

أي: واللهُ تعالى هو أفضَلُ مَن يُجازي بالسَّيئةِ العُقوبةَ، فيمكُرُ بمن كفَرَ به وعصاه، فيُجازيهم بما يستحقُّونَه، ولا أحدَ أقدرُ على ذلك مِنه(٢).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥-١٦].

وقال عزَّ وجلَّ عن اليهودِ الذين أرادوا المكرَ بنبيِّه عيسَى عليه السلامُ: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ * إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران: ٥٤-٥٥].

وقال سبحانه: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٤٢].

وقال تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٤١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٤٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٧٣، ٥٧٨).
قال الشنقيطي: (﴿وَاللَّهُ﴾ جلَّ وعلا ﴿خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ مكَر لك بهم، وأخرَجك، ونجَّاك، وأظْفَرك بهم يومَ بدرٍ حتى قتلتَهم وأسرتَهم). ((العذب النمير)) (٤/ ٥٧٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٤١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٧٨). وقد تقدَّم تفسيرُ نظيرِ هذه الآيةِ من هذا التفسير المحرر (٢/ ٢٣٣)، الآية (٥٤).

وبيَّن بعضَ مكرِ قومِ صالحٍ، بقوله: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [النمل: ٥٠-٥٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣].

وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر: ١٠].

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا حكى اللهُ تعالى مَكْرَ المُشركينَ في ذاتِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- حكى مَكْرَهم في دِينِه[1]، فقال:

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ﴾.

أي: وإذا تُتلَى على هؤلاءِ الكُفَّارِ مِن قُريشٍ آياتُ كِتابِنا، قالوا قولًا يَغُرُّونَ به أنفُسَهم، ومَن اتَّبَعَهم على باطِلِهم؛ تمرُّدًا وعِنادًا منهم للحَقِّ، قالوا: قد سَمِعْناها، ولو نشاءُ لَقُلْنا مثلَ هذا الذي تُلِيَ علينا[2].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٤١)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٢٠٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٠)، =

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢١ - ٢٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣].

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾.

أي: يقولُ الكفَّارُ إذا سَمِعوا القُرآنَ: ما هذا القرآنُ إلَّا أكاذيبُ، سَطَرَها الأقدمونَ مِن الأُمَم الماضيةِ في كُتُبِهم(١).

كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥].

وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥].

﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾.

= ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٢٩).

قال ابنُ عطيَّة: (والذي تواتَرَت به الرِّواياتُ عن ابنِ جُرَيج والسُّدِّي وابنِ جُبَير: الذي قال هذه المقالةَ هو النَّضرُ بنُ الحارث، وذلك أنَّه كان كثيرَ السَّفَرِ إلى فارس والحِيرةِ، فكان قد سَمِعَ مِن قَصصِ الرُّهبانِ والأناجيلِ، وسَمِعَ من أخبارِ رُستُم وإسفنديار، فلما سَمِعَ القُرآنَ، ورأى فيه من أخبارِ الأنبياءِ والأُمَم، قال: لو شِئْتُ لَقُلْتُ مثلَ هذا!). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٢٠). ويُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٤١، ١٤٢)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٨١).

أي: واذكُر- يا مُحمَّدُ- حين قال كُفَّارُ قُريشٍ[1]: اللَّهمَّ، إن كان ما يقولُه مُحمَّدٌ حَقًّا، مُنَزَّلًا مِن عِندِك؛ فأنزِلْ علينا مِن السَّماءِ حِجارةً مُتابعةً كما ينزِلُ المَطَرُ، أو عَذِّبْنا في الدُّنيا بعذابٍ مُؤلمٍ مُوجِعٍ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٣].

وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ * مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾ [المعارج: ١-٣].

وعن أنَسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (قال أبو جهلٍ: اللهُمَّ، إن كانَ هذا هو الحَقَّ مِن عِندِك؛ فأمطِرْ علينا حجارةً مِن السَّماءِ، أو ائتِنا بعذابٍ أليمٍ، فنزَلَت: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَمَا

---

(١) قال الواحديّ: (وجميعُ المُفَسِّرينَ على أنَّ هذا مِن قَولِ النَّضرِ بنِ الحارِثِ، ورُوِيَ في الصَّحيحينِ أنَّ هذا من قولِ أبي جهلٍ- لعَنَهما اللهُ). ((الوسيط)) (٢/ ٤٥٧).
وقال محمد رشيد رضا: (ولا ينافي ذلك ما في الصَّحيحِ؛ لاحتمالِ أن يكونَا قالاه، ولكِنَّ نِسبَتَه إلى أبي جَهلٍ أَوْلَى). ((تفسير المنار)) (٩/ ٥٤٥).
وقال ابنُ عاشور: (وقائِلُ هذه المقالةِ هو النَّضرُ بنُ الحارِثِ صاحِبُ المقالةِ السَّابقة، وقالها أيضًا أبو جهلٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٣١).
وقال ابن عطية: (وترتُّبُ أن يقولَ النَّضرُ بن الحارث مقالةً، وينسُبَها القرآنُ إلى جميعِهم؛ لأنَّ النَّضرَ كان فيهم موسومًا بالنُّبلِ والفَهمِ، مسكونًا إلى قَولِه، فكان إذا قال قَولًا قاله منهم كثيرٌ، واتَّبَعوه عليه حَسَبَما يفعَلُه النَّاسُ أبدًا بعُلَمائِهم وفُقَهائِهم). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٢٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٤٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤١١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٣٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٨٣).
وقد أتاهم الله عزَّ وجلَّ بعذابٍ أليمٍ، قال ابنُ جريرٍ: (وكان ذلك العَذابُ قَتْلَهم بالسَّيفِ يومَ بَدرٍ). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٤٤).

لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ...﴾ الآية)[1].

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣)﴾.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾.

أي: وما كان اللهُ لِيُعذِّبَ كفَّارَ قُريشٍ، وأنت مُقيمٌ بين أظهُرِهم- يا محمَّدُ؛ لأنِّي لا أُهلِكُ أهْلَ بلدةٍ وفيها نبيُّهم، حتى يَخرُجَ منها[2].

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

أي: وما كان اللهُ مُعذِّبَ أولئك الكُفَّارِ لو أنَّهم كانوا يستغفرونَ اللهَ مِن كُفرِهم وذُنوبِهم، لكنَّهم لا يَفعلونَ، وهم على ضَلالِهم مُصِرُّونَ، فهُم للعذابِ مُستحِقُّونَ[3].

---

(١) رواه البخاري (٤٦٤٩)، ومسلم (٢٧٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٠).

قال ابنُ عطيةَ: (أجمعَ المتأوِّلونَ على أنَّ معنى قَولِه: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ أنَّ الله عَزَّ وجلَّ لم يُعَذِّبْ قَطُّ أمَّةً ونبيُّها بين أظهُرِها، فما كان لِيُعَذِّبَ هذه وأنت فيهم، بل كرامَتُك لديه أعظَمُ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٢١).

وقال ابنُ كثيرٍ: (ولهذا لَمَّا خرج من بينِ أظهُرِهم، أوقَعَ الله بهم بأسَه يومَ بَدرٍ، فقُتِلَ صناديدُهم، وأُسِرَت سَراتُهم). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٥٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ١٢٥، ١٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٨٧).

قال ابنُ تيميةَ: (فأخبَرَ أنَّه لا يُعَذِّبُ مُستغفِرًا؛ لأنَّ الاستغفارَ يمحو الذَّنبَ الذي هو سبَبُ العَذابِ، فيندفِعُ العذابُ). ((مجموع الفتاوى)) (٨/ ١٦٣).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (وأمَّا العذابُ المدفوعُ فهو يعُمُّ العذابَ السَّماويَّ، ويعمُّ ما يكونُ من العباد؛ وذلك أنَّ الجميعَ قد سمَّاه الله عذابًا، كما قال تعالى في النَّوعِ الثاني: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٩] وقال =

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

هذه الآيةُ عَطفٌ على قَولِه: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾، وهو ارتقاءٌ في بيانِ أنَّهم أحِقَّاءُ بتعذيبِ اللهِ إيَّاهم؛ بيانًا بالصَّراحةِ(١).

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾.

أي: أيُّ شَيءٍ يمنَعُ أولئك المُشركينَ مِن أن يُعَذِّبهم اللهُ تعالى، والحالُ أنَّهم فعلوا ما يُوجِبُ عذابَهم، وهو مَنعُهم المسلمينَ من الوصولِ إلى المسجِدِ الحرامِ للصَّلاةِ فيه، والطَّوافِ، والعبادةِ(٢)؟!

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٤].

= تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٤] وكذلك: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ [التوبة: ٥٢] إذ التَّقديرُ بعذابٍ مِن عِندِه أو بعذابٍ بأيدينا، كما قال تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٤٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٥٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٣٦).

﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓ﴾.

أي: وما كان كفَّارُ قُريشٍ أولياءَ المسجدِ الحرامِ، ولا أهلَه(١).

كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ [التوبة: ١٧].

وقال سبحانه: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٧].

﴿إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ﴾.

أي: ما أولياءُ هذا البيتِ في الحقيقةِ إلَّا المؤمنونَ بالله، المُتَّقونَ للشركِ والمعاصي(٢).

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٨٩).

وممَّن اختارَ عوْدَ الضَّميرِ على المسجِدِ الحرامِ: الواحديُّ، وابنُ كثيرٍ، والشنقيطيُّ. ونسبَه ابنُ الجوزيِ للجُمهورِ. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٨٩)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٢٠٨).

وممن قال بهذا القولِ مِن السَّلف الحسنُ. يُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٢٠٨).

وممن اختار عودَ الضَّميرِ ﴿أَوْلِيَاءَهُ﴾ على اللهِ تعالى: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٥٩).

وجمع ابنُ تيميَّةَ بين المعنيين. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (١١/ ١٦٤).

وقال ابنُ عطية: (والضَّميرُ في قَولِه: ﴿أَوْلِيَاءَهُ﴾ عائدٌ على اللهِ عزَّ وجلَّ مِن قَولِه: ﴿يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ أو على ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، كلُّ ذلك جَيِّدٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٢٢). ويُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٢٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٨٩).

أي: ولكنَّ أكثَرَ مُشركي قُريشٍ لا يَعلمونَ أنَّ ولايةَ بيتِ الله لمَن هو مطيعٌ لله، لا مَن هو عاصٍ له، فلذلك ادَّعَوْا لأنفسِهم أمرًا، غيرُهم أولَى به[1].

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا قال اللهُ تعالى في حَقِّ الكفَّارِ: إنَّهم ما كانوا أولياءَ البَيتِ الحرامِ، وقال: ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾- بيَّنَ بعده ما به خَرَجوا من أن يكونُوا أولياءَ البَيتِ، وهو أنَّ صَلاتَهم عند البَيتِ، وتَقرُّبَهم وعبادَتَهم إنَّما كان بالمُكاءِ والتَّصديةِ[2]، فقال:

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾.

أي: وما كان صلاةُ كفَّارِ قُريشٍ عند الكعبةِ إلَّا صفيرًا وتَصفيقًا[3].

﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٢٢)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٢٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٨٩).

قال الشنقيطي: (قال بعضُ العلماءِ: عبَّرَ هنا بالأكثَرِ عن الجميعِ، والعرَبُ تعبِّرُ بالأكثَرِ عن الجميعِ، وبالقِلَّةِ عن لا شَيءٍ، وهو أسلوبٌ معروفٌ. وقال بعض العلماء: الأكثرُ على ظاهِرِه؛ لأنَّ بَعضَهم يعلَمُ أنَّ وِلايةَ بَيتِ اللهِ لِمَن هو مطيعٌ لله، لا مَن هو عاصٍ له). ((العذب النمير)) (٤/ ٥٨٩). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٨٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٦١)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ٣٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٠).

قال ابنُ عطية: (المُكاءُ والتَّصديةُ كان مِن فِعلِ العرب قديمًا قبل الإسلامِ، على جهةِ التقَرُّب به والتشَرُّع.. وعلى هذا يستقيمُ تَعييرُهم وتنقُّصُهم بأنَّ شَرْعَهم وصلاتَهم وعبادتَهم، لم تكُن رَهبةً ولا رغبةً، إنما كانت مُكاءً وتَصديةً مِن نوعِ اللَّعِب، ولكنَّهم كانوا يتزيَّدونَ فيها وقتَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لِيَشغَلوه وأمَّتَه عن القِراءةِ والصَّلاةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٢٤، ٥٢٥). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤١٢)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٨١)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٢٤٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٩٠).

أي: قال اللهُ تعالى لِمُشركي قُرَيشٍ: فاطْعَموا[١] ألَمَ العَذابِ[٢] بسبَبِ كُفرِكم[٣].

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ دلَّت هذه الآيةُ على أنَّ الاستغفارَ أمانٌ وسلامةٌ مِن العذابِ[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾، ولم يَقُلْ: (ويَمكُرونَ بك)؛ لِيُبيِّنَ حالَتَهم العامَّةَ الدَّائمةَ في مُعامَلتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هو ومَن اتَّبَعه مِن المُؤمنينَ، أي: وهكذا دأْبُهم معك، ومع مَن اتَّبَعك مِن المُؤمِنينَ؛ يمكرونَ بكم، ويمكُرُ اللهُ لكم بهم، كما فَعَلَ مِن قبلُ إذ أحبَطَ مَكْرَهم، وأخرجَ رَسولَه مِن بَينِهم إلى حيثُ مَهَّدَ له في دارِ الهِجرةِ، ووطَنِ السُّلطانِ والقُوَّةِ[٥].

---

(١) قال ابنُ جرير: (ليس بِذَوقٍ بفَمٍ، ولكنَّه ذَوقٌ بالحِسِّ، ووجودُ طَعمِ ألَمِه بالقُلوبِ). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٦٨).

(٢) ذهب ابنُ جريرٍ وابنُ عاشورٍ إلى أنَّ المرادَ بالعَذابِ هاهنا: ما حلَّ بالمُشركينَ يومَ بَدرٍ؛ مِن قَتلٍ وأسْرٍ ونحوِ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٣٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ إسحاقَ، وابنُ جريجٍ، والضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٥/ ١٦٩٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٦٩).

وقال الرازي: (قيل: يقالُ لهم في الآخرة: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾). ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٨١).

وقال الشَّوكاني: (والمرادُ به: عذابُ الدُّنيا كيومِ بَدرٍ، وعذابُ الآخرةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٨٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٥٤١).

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ تدُلُّ على أنَّ لكُفَّارِ مكَّةَ أمانَينِ، يدفَعُ اللهُ عنهم العذابَ بِسَبَبِهما:

أحدُهما: كونُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيهم.

والثاني: استِغفارُهم اللهَ، لكِنَّ قَولَه تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ يدلُّ على خلافِ ذلك، والجوابُ عن ذلك مِن عِدَّةِ أوجُهٍ؛ أظهَرُها وجهانِ:

الأول: أنَّ الأمانينِ مُنتَفيانِ؛ فالنبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خرَجَ مِن بينِ أظهُرِهم مُهاجِرًا، واستِغفارُهم مَعدومٌ؛ لإصرارِهم على الكُفرِ، وبعد انتفاءِ الأمرَينِ عَذَّبَهم بالقَتلِ والأسْرِ يومَ بدرٍ، كما يُشيرُ إليه قَولُه تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ [السجدة: ٢١].

الثاني: أنَّ المُرادَ بقَولِه: ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾ استغفارُ المُؤمنينَ المُستضعَفينَ بمكَّةَ، وعليه فالمعنى أنَّه بعد خُروجِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان استغفارُ المؤمنينَ سَببًا لِرَفعِ العَذابِ الدُّنيويِّ عن الكُفَّارِ المُستَعجِلينَ للعذابِ بِقَولِهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ...﴾ الآية، وعلى هذا القَولِ فقد أسنَدَ الاستغفارَ إلى مجموعِ أهلِ مَكَّةَ، الصَّادِقِ بخُصوصِ المؤمنينَ منهم(١).

٣- اتِّخاذُ التَّصفيقِ والغِناءِ والمزاميرِ قربةً وطاعةً وطريقًا إلى اللهِ، هذا مِن جِنسِ دِينِ المُشركينَ الذين قال اللهُ فيهم: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ والمُكاءُ: هو التَّصويتُ بالفَمِ، كالصَّفيرِ والغِناءِ، والتَّصديةُ: التَّصفيقُ باليَدِ، فذمَّ اللهُ هؤلاءِ المُشركينَ الذين يجعلونَ هذا قائمًا مقامَ الصَّلاةِ(٢)،

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٠٤).
(٢) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (١/ ٩٠).

فالتَّصفيق والتَّصفير ليسا من العبادةِ في شَيءٍ، وبه يُعلَمُ أنَّ ما يفعَلُه كثيرٌ مِن الجَهَلةِ المُدَّعينَ للتَّصوُّفِ كَذِبًا؛ مِن الرَّقصِ والتَّصفيقِ والصُّراخِ، زاعمينَ أنَّه عِبادةٌ- أنَّ ذلك مِن الخِذلانِ، وتَلبيسِ الشَّيطانِ، وأنَّ ذلك لا يكونُ عبادةً أبدًا، بل أوَّلُ مَن رَقَص وصَفَّقَ في شيءٍ يَظُنُّه عبادةً، هم عَبَدةُ العِجلِ، وكان ذلك مِن أفعالِ الكُفَّارِ؛ فالنبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلم وأصحابُه كانوا في مجالِسِهم كأنَّما على رُؤُوسِهم الطَّيرُ، فالذينَ يُصَفِّقونَ ويَضربونَ بالمَعازِفِ، ويزعمونَ أنَّ هذا دِينٌ وأحوالٌ ووِجْدان؛ هم في غُرورٍ مِن الشَّيطان، فلا ينبغي أن يُغتَرَّ بهم(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾

- أُسنِدَ المَكرُ إلى جميعِ الكافرينَ- وإن كان الذينَ تَوَلَّوا المكرَ هُم سادةَ المُشرِكينَ وكُبَراءَهم- لأنَّ البَقيَّةَ كانوا أتباعًا للزُّعَماءِ؛ يأتَمِرونَ بأمْرِهم(٢).

- والإتيانُ بالمُضارِعِ ﴿يَمْكُرُ﴾ في مَوضِعِ الماضي، الذي هو الغالِبُ مع ﴿إِذْ﴾؛ لاستحضارِ الحالةِ التي دبَّرُوا فيها المَكرَ(٣).

- والتَّعبيرُ بالمضارعِ في ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾، و﴿يَقْتُلُوكَ﴾، و﴿يُخْرِجُوكَ﴾؛ لأنَّ تلك الأفعالَ مُستقبَلةٌ بالنِّسبةِ لفِعلِ المَكرِ؛ إذْ غايةُ مَكرِهم تحصيلُ واحدٍ مِن هذه الأفعالِ(٤).

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٩٢-٥٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٢٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٣٢٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

- دُعاؤُهم على أنفُسِهم كنايةٌ منهم عَن كَونِ القُرآنِ ليسَ كما يُوصَفُ به؛ للتَّلازُمِ بين الدُّعاءِ على أنفُسِهم، وبين الجَزمِ بانتفاءِ ما جَعَلوه سبَبَ الدُّعاءِ، بحسَبِ عُرفِ كَلامِهم واعتقادِهم، والمرادُ منه التهَكُّم، وإظهارُ اليَقينِ والجزمُ التَّامُّ على كونِه باطلًا(١).

- وتَعليقُ الشَّرطِ بحَرفِ (إنْ) في ﴿إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ﴾ لأنَّ الأصلَ فيها عدَمُ اليَقينِ بوقوعِ الشَّرطِ؛ فهم غَيرُ جازمينَ بأنَّ القُرآنَ حَقٌّ، ومُنَزَّلٌ مِن اللهِ، بل هم موقنونَ بأنَّه غيرُ حَقٍّ، واليقينُ بأنَّه غيرُ حَقٍّ أخَصُّ مِن عَدمِ اليَقينِ بأنَّه حَقٌّ(٢).

- والضميرُ (هو) ضميرُ فَصلٍ؛ فهو يقتضي تقَوِّي الخبَرِ، أي: إن كان هذا حقًّا، ومِن عِندِك بلا شَكٍّ(٣).

- وتعريفُ المُسنَدِ﴿الْحَقَّ﴾ بلامِ الجِنسِ، يقتَضي الحَصرَ، فاجتمَعَ في التركيبِ تقَوٍّ وحصرٌ(٤).

- وقَولُهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ذَكَروا عذابًا خاصًّا وهو مَطرُ الحِجارةِ، ثم عَمَّموا فقالوا: ﴿أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ويريدونَ بذلك كُلِّه عذابَ الدُّنيا؛ لأنَّهم لا يُؤمِنونَ بالآخرةِ(٥).

- وتَقييدُه بِقَولِه: ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ مع أنَّ الإمطارَ لا يكونُ إلَّا منها؛ لإزالةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢١٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٣٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٣٣٣).

وَهمِ مَن يتوهَّمُ أنَّ الإمطارَ مَجازٌ عن مُطلَقِ الرَّجمِ، وأنَّه إنَّما ذُكِرَ لِبَيانِ أنَّ الحِجارةَ المَرجومَ بها في الكثرةِ، مِثلُ المَطَرِ[١]، وقيل غير ذلك[٢].

- ووصفوا العذابَ بالأليمِ؛ زيادةً في تحقيقِ يَقينِهم بأنَّ المَحلوفَ عليه بهذا الدُّعاءِ ليس مُنَزَّلًا من عندِ الله؛ فلذلك عَرَّضُوا أنفُسَهم لخَطَرٍ عظيمٍ، على تقديرِ أن يكونَ القُرآنُ حَقًّا، ومُنَزَّلًا مِن عندِ الله[٣].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾

- لَمَّا كانت كينونَتُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيهم سببًا لانتفاءِ تَعذيبِهم، جعَلَ خَبَرَ كان الإرادةَ المنفِيَّةَ- أي: ما كان الله مُرِيدًا لِتَعذيبِهم- وانتفاءُ الإرادةِ للعَذابِ أبلَغُ مِن انتفاءِ العَذابِ. ولَمَّا كان استِغفارُهم دونَ تلك الكَينونةِ الشَّريفةِ، لم يؤكِّدْ باللَّامِ، بل جاء قولُه ﴿مُعَذِّبَهُمْ﴾ خبَرَ كان ، فشتَّانَ ما بينَ استِغفارِهم وكَينونَتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيهم[٤].

- وقَولُه: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ كنايةٌ عن استحقاقِهم العذابَ، وإعلامٌ بكرامةِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عِندَه؛ لأنَّه جعَلَ وُجودَه بين ظَهرانَيِ المُشرِكينَ مع استحقاقِهم العقابَ سببًا في تأخيرِ العَذابِ عنهم[٥].

- وتوجيهُ الخِطابِ بهذا إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، واجتلابُ ضَميرِ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٧٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣١١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٣٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣١٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٣٣-٣٣٤).

خِطابِه بِقَولِه: ﴿وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ لطيفةٌ مِن التَّكرِمةِ؛ إذْ لم يقُل: (وما كان اللهُ لِيُعذِّبَهم وفيهم رَسولُه)[1].

– وقَولُه: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ فيه تعريضٌ بأنَّه يُوشِكُ أن يُعَذِّبَهم إن لم يستغفِرُوا، وهذا مِن الكِنايةِ العُرْضِيَّةِ[2].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

– (مَا) في قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ...﴾ استفهاميَّةٌ، والاستِفهامُ إنكاريٌّ، والتَّقديرُ: ما الذي ثبَت لهم لِأنْ ينتفِيَ عنهم عذابُ اللهُ، والمعنى: لم يثبُتْ لهم شيءٌ[3].

– ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ حالٌ مِن ضَميرِ ﴿يَصُدُّونَ﴾، مفيدةٌ لِكمالِ قُبحِ ما صَنَعوا من الصَّدِّ؛ فإنَّ مُباشَرتَهم للصَّدِّ عنه مع عَدمِ استحقاقِهم لولايةِ أمرِه؛ في غايةِ القُبحِ، وهو ردٌّ لِما كانوا يقولونَ: نحنُ ولاةُ البيتِ والحَرَمِ، فنصُدُّ مَن نشاءُ، ونُدخِلُ مَن نَشاءُ[4].

– وجملةُ: ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ تَعيينٌ لأوليائِه الحقِّ، وتقريرٌ لِمَضمونِ ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ مع زيادةِ ما أفادَه القَصرُ مِن تَعيينِ أوليائِه، فهي بمنزلةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٣٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٣٣٥).

والكِنايةُ العُرْضيَّةُ: هي المَسوقةُ لأجْلِ موصوفٍ غيرِ مَذكورٍ، كما يُقال في عُرْضِ مَن يُؤذي المُؤمِنين: المؤمِنُ هو الذي يُصلِّي ويُزكِّي، ولا يُؤذِي أخاه المسلمَ، ويُتوصَّلُ بذلك إلى نفْيِ الإيمانِ عن المؤذِي، ومتى كانتِ الكنايةُ عُرْضيَّةً كان إطلاقُ اسمِ التَّعريضِ عليها مناسبًا. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤١٠- ٤١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٠).

الدَّليلِ على نَفيِ وِلايةِ المُشركينَ؛ ولِذلك فُصِلَت[(١)].

- قولُه: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ نفى العِلمَ عن أكثَرِهم دونَ أن يُقالَ: (ولكنَّهم لا يعلمونَ) فاقتضى أنَّ منهم من يعلَمُ أنَّهم ليسُوا أولياءَ المسجِدِ الحرامِ، وهم من أيقَنوا بصِدقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم واستَفاقُوا من غَفلَتِهم القديمةِ، ولكِن حمَلَهم على المُشايَعةِ للصَّادِّينَ عن المسجِدِ الحرامِ، العنادُ وطَلَبُ الرِّئاسة، وموافقةُ الدَّهماءِ على ضلالِهم[(٢)].

٥- قَولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾

- مَساقُ هذه الجُملةِ؛ لتَقريرِ استحقاقِهم العذابَ، أو عدمِ وِلايتِهم للمَسجِد؛ فإنَّها لا تليقُ بمن هذه صلاتُه[(٣)].

- قوله: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ الأمرُ هنا للتَّوبيخِ والتَّغليظِ[(٤)].

- وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ... فَذُوقُوا﴾ فيه التفاتٌ إلى مُخاطبةِ الكُفَّار؛ تهديدًا لهم، ومبالغةً في إدخالِ الرَّوعةِ في قُلوبِهم[(٥)].

- قوله: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أُتِيَ بخبَرِ (كان) جملةً مُضارعيَّةً ﴿تَكْفُرُونَ﴾ فأفادَتِ الاستمرارَ والعادةَ[(٦)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٣٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٣٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٣٣٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٤٩).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٤٠).

الآيتان (٣٦-٣٧)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿حَسْرَةً﴾: أي: ندامةً واغتمامًا. وأصلُ (حسر): يدلُّ على كَشْفِ الشَّيءِ، فالحسرةُ انكشافٌ عن حالِ النَّدامةِ(١).

﴿لِيَمِيزَ﴾ أي: لِيَفصِلَ ويُخَلِّصَ. وأصلُ (ميز) يدلُّ على انفصالِ شَيءٍ مِن شَيءٍ(٢).

﴿فَيَرْكُمَهُ﴾: أي: فيَجمَعَه، ويَضُمَّ بَعضَه إلى بعضٍ، والرُّكامُ: ما يُلقى بعضُه على بعضٍ. وأصل (ركم) يدلُّ على تجمُّعِ الشيءِ(٣).

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ الذينَ كفَروا يُنفِقونَ أموالَهم؛ ليتَقَوَّوا بها على قِتالِ المُسلمينَ، ولِيَصرِفوا النَّاسَ عن دينِ الله، هذه الأموالُ سَيُنفِقونَها، ثم تكونُ عليهم حَسرةً وندامةً، حين تذهَبُ بلا فائِدةٍ، ثمَّ يُهزَمونَ ويُقهَرونَ، والذينَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٢٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٢)، ((تفسير الرازي)) (٤/ ١٨٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٣) .

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩١).

كَفَروا يحشُرُهم اللهُ إلى جهنَّمَ؛ ليتعذَّبوا فيها، لِيَفصِلَ اللهُ بين المؤمنينَ الطَّيبينَ وبَين الكافرينَ الخبيثينَ؛ فالمؤمنونَ في الجنَّةِ، والكفَّارُ في النَّارِ، ويجعَلُ اللهُ الكفَّارَ الخَبيثينَ بعضَهم فوقَ بعضٍ حتى يتراكَموا، فيجعَلهم كلَّهم في جهنَّمَ، وأولئك هم الذينَ خَسِروا أعظَمَ الخسرانِ في الدُّنيا والآخرةِ.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى مِن شرْحِ أحوالِ الكفارِ في الطَّاعاتِ البدنيَّةِ، وهي صلاتُهم- شرَحَ حالَهم في الطَّاعاتِ الماليَّةِ، وهي إنفاقُهم أموالَهم للصَّدِّ عن سبيلِ اللهِ[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى صَدَّهم المُسلمينَ عن المَسجِدِ الحرامِ، الموجِبَ لِتَعذيبِهم- عقَّبَ بذِكرِ مُحاوَلتِهم استئصالَ المُسلمينَ، وصَدِّهم عن الإسلامِ[2]، فقال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾.

أي: إنَّ الكفَّارَ مِن مُشرِكي قُرَيشٍ، يُنفِقونَ أموالَهم لِيتقَوَّوا بها على قتالِ المُسلمينَ، ولِيَصرِفوا النَّاسَ عن دِينِ اللهِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٨١)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٦٩، ١٧٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٩٤).
قال ابن جرير: (جائزٌ أن يكونَ عنى المُنفِقينَ أموالَهم لِقِتالِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابِه بأُحُدٍ، وجائزٌ أن يكونَ عَنى المُنفِقينَ منهم ذلك ببَدرٍ، وجائزٌ أن يكونَ عَنى =

﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾.

أي: فَسيُنفِقُ الكفَّارُ أموالَهم لمحاربةِ المُسلمينَ، وصَدِّ النَّاسِ عن دينِ اللهِ، ثمَّ تَصيرُ نَفَقتُهم ندامةً شديدةً عليهم، حين تذهَبُ أموالُهم سُدًى بلا طائلٍ، فلا يظفَرونَ بما كانوا فيه يَطمَعونَ، وهم في آخِرِ الأمرِ يُغلَبونَ ويُقهَرونَ(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ * كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢٠-٢١].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٢].

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا أخبرَ تعالى بما آلَ إليه حالُ الكُفَّارِ في الدُّنيا، مِن حَسرَتِهم، وكَونِهم

= الفريقينِ، وإذا كان ذلك كذلك فالصَّوابُ في ذلك أن يَعُمَّ كما عمَّ جَلَّ ثناؤه الذين كَفَروا من قُريشٍ). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٧٤).

وقال الشنقيطي: (الذي عليه جُمهورُ العُلَماءِ مِن المُفَسِّرين وأصحاب المغازي والتَّاريخ: أنَّ هذه الآيةَ مِن سُورةِ الأنفال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ نزلت في قضيَّةِ قُريشٍ مع عيرِ أبي سُفيانَ؛ لأنَّ عِيرَ أبي سُفيانَ لَمَّا نجَتْ، وقُتِلَ مَن قُتِلَ من أشرافِهم يَومَ بَدرٍ، اجتمَعَ أشرافُ قُريشٍ، وطلَبُوا كلَّ مَن كانت له تجارةٌ في تلك العيرِ أن يَمنَحَهم ذلك المالَ؛ لِيَستعِينوا به، ويَستَعْدُوا على حربِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، طالبِينَ منهم إدراكَ الثَّأرِ، فكانت إمكانيَّاتُ أحُدٍ هي من أموالِ تجاراتِ تلك العيرِ، وأنَّ ذلك هو معنى إنفاقِهم لِيَصُدُّوا عن سبيلِ اللهِ. هذا هو الأصوَبُ إن شاء الله، وعليه جماهيرُ العُلَماءِ). ((العذب النمير)) (٤/ ٥٩٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٩٥، ٥٩٦).

مَغلوبينَ- أخبَرَ بما يَؤُولُ إليه حالُهم في الآخرةِ، مِن حَشْرِهم إلى جَهنَّمَ(١).

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ﴾.

أي: والكُفَّارُ يجمَعُهم اللهُ تعالى يومَ القِيامةِ إلى نارِ جَهنَّمَ؛ ليُعذَّبوا فيها(٢).

﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ فَيَرۡكُمَهُۥ جَمِيعٗا فَيَجۡعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٣٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى حَشْرَ الكافِرينَ، ذكَرَ عِلَّتَه، فقال(٣):

﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾.

أي: يحشُرُ اللهُ الكفَّارَ الخَبيثينَ إلى جهنَّم؛ ليُفرِّقَ بينهم وبين المؤمنين الطيِّبينَ، فيكونَ الكفَّارُ في جهنَّم، والمؤمنونَ في الجنَّةِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٦٠٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٧٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٤٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٦٠١).
وممَّن اختار هذا المعنى: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ، والسعديُّ، وابنُ عاشورٍ، والشنقيطيُّ. يُنظر: المصادر السابقة.
وقال ابنُ كثيرٍ: (وقولُه تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾... يحتملُ أن يكونَ هذا التميزُ في الآخرةِ، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم: ١٤]، وقال في الآية الأخرى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩]. ويحتملُ أن يكونَ هذا التَّميزُ في الدُّنيا، بما يظهرُ مِن أعمالِهم للمُؤمنينَ، وتكونَ اللَّامُ معلِّلةً لِما جَعلَ اللهُ للكُفَّارِ مِن مالٍ يُنفِقونَ في الصَّدِّ عن سبيل الله، أي: إنَّما أقدَرْناهم على ذلك؛ ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ أي: مَن يُطيعُه بقِتالِ أعدائِه الكافرين، أو يَعصيه =

﴿وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ﴾.

أي: ويجعَلَ اللهُ الكُفَّارَ الخبيثينَ بعضَهم فوقَ بَعضٍ، فيجمَعَهم جميعًا؛ حتى يتَراكَموا ويَكثُروا، فيجعَلَهم كلَّهم في نارِ جَهنَّمَ(١).

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

أي: أولئك الكفَّارُ الخبيثونَ، الذين يُجمعون كلُّهم، فيُركَمون في جهنَّمَ، هم الذين خسِروا أنفسَهم وأهْليهم يومَ القيامةِ، وخسِروا الدُّنيا والآخرةَ، وذلك هو الخسرانُ المبينُ(٢).

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ

= بالنُّكولِ عَن ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٦، ١٦٧] الآية، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩] الآية، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، ونظيرَتُها في براءة أيضًا. فمَعنى الآيةِ على هذا: إنَّما ابتَلَيناكم بالكُفَّارِ يُقاتِلونكم، وأقدَرْناهم على إنفاقِ الأموالِ وبَذْلِها في ذلك؛ ليتميَّزَ الخبيثُ من الطيِّبِ، فيُجعَلَ الخبيثُ بعضُه على بعضٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤). ويُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٦٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٧٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٦٠٢).

قال ابن عاشور: (وجَعْلُ الخَبيثِ بَعضَه على بعضٍ: عِلَّةٌ أخرى لِحَشرِ الكافرينَ إلى جهنَّم؛ ولذلك عُطِفَ بالواو، فالمقصودُ جَمعُ الخبيثِ- وإن اختلَفَت أصنافُه- في مَجمَعٍ واحدٍ؛ لزيادةِ تَمييزِه عن الطَّيِّب، ولتشهيرِ مَن كانوا يُسِرُّون الكُفرَ ويُظهِرونَ الإيمانَ، وفي جَمعِه بهذه الكيفيَّةِ تَذليلٌ لهم وإيلامٌ؛ إذ يُجعَلُ بعضُهم على بعضٍ حتى يصيرُوا ركامًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٦٠٢).

الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

الفَوائدُ التربويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هكذا هو دَيدَنُ أعداءِ هذا الدِّينِ؛ إنَّهم يُنفِقونَ أموالَهم، ويَبذُلونَ جُهودَهم، ويَستنفِدونَ كَيدَهم، في الصَّدِّ عن سبيلِ الله، وفي إقامةِ العَقَباتِ في وجهِ هذا الدِّينِ، وفي حربِ العُصبةِ المُسلِمة في كلِّ أرضٍ وفي كلِّ حينٍ، إنَّ المعركةَ لن تَكُفَّ، وأعداء هذا الدِّينِ لن يَدَعُوه في راحةٍ، ولن يترُكوا أولياءَ هذا الدِّينِ في أمنٍ. واللهُ سبحانه يُنذِرُ الكُفَّارَ الذين يُنفِقونَ أموالَهم لِيَصُدُّوا عن سبيل اللهِ بأنَّها ستَعودُ عليهم بالحَسرةِ، إنَّهم سيُنفِقونَها لِتَضيعَ في النِّهايةِ، ولِيُغلَبوا هم، وينتصِرَ الحقُّ في هذه الدُّنيا، وسيُحشَرونَ في الآخرةِ إلى جهنَّمَ، فتتِمُّ الحَسرةُ الكُبرى(١).

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ مِن العِبرةِ في هذا للمُؤمنينَ أنَّهم أَوْلى مِن الكفَّارِ ببَذلِ أموالِهم وأنفُسِهم في سبيلِ الله؛ لأنَّ لهم بها مِن حيثُ جُملَتُهم سعادةَ الدَّارينِ، ومن حيثُ أفرادُهم الفَوزَ بإحدى الحُسنيَينِ، هكذا كان في كلِّ زمانٍ قام المسلمونَ فيه بحقوقِ الإسلامِ والإيمانِ، وهكذا سيكونُ إذا عادُوا إلى ما كان عليه سَلَفُهم الصَّالحون، فالكفَّارُ في هذا الزَّمانِ يُنفِقونَ القناطيرَ المُقنطَرةَ مِن الأموالِ؛ للصَّدِّ عن الإسلامِ، وفتنةِ الضُّعفاءِ مِن العوامِّ(٢)!

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ هذا من

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٥٠٦، ١٥٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٥٥٠).

إخبارِ القُرآنِ بالغُيوبِ؛ لأنَّه أخبَرَ بما يكونُ قبلَ أن يكونَ، فكان كما أخبَرَ(١).

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ عبَّرَ بعبارةٍ ظاهرةٍ في مَضرَّتِها، فقال: ﴿عَلَيْهِمْ﴾، وأبلَغَ في ذلك بأنْ أوقَعَ عليها المَصدرَ، فقال: ﴿حَسْرَةً﴾ أي: لضياعِها وعَدمِ تأثيرِها(٢).

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ قولُه: ﴿فَيَرْكُمَهُ﴾ عطفُ تَفسيرٍ، يؤكِّدُ الذي قَبلَه في إرادةِ الحقيقةِ، مع إفهامِ شِدَّةِ الاتِّصالِ، حتى يصيرَ الكُلُّ كالشَّيءِ الواحِدِ، كالسَّحابِ المرَكومِ(٣).

بلاغة الآيتين:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾

- أتى بِصيغةِ المُضارِعِ في ﴿يُنْفِقُونَ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ ذلك دأْبُهم، وأنَّ الإنفاقَ مُستمِرٌّ؛ لإعدادِ العُدَدِ لِغَزوِ المُسلمينَ، فإنفاقُهم حصلَ في الماضي، ويحصُلُ في الحالِ والاستقبالِ، وأشعَرَت لامُ التعليلِ في ﴿لِيَصُدُّوا﴾ بأنَّ الإنفاقَ مُستمِرٌّ؛ لأنَّه مَنوطٌ بعلَّةٍ ملازِمةٍ لِنُفوسِهم، وهي بُغضُ الإسلامِ، وصَدُّهم النَّاسَ عنه(٤).

- والفاءُ في ﴿فَسَيُنْفِقُونَهَا﴾ تَفريعٌ على العلَّةِ؛ لأنَّهم لَمَّا كان الإنفاقُ دَأبَهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٢٥).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٧٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ٢٧٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٤٠).

لتلك العِلَّةِ المذكورةِ، كان ممَّا يتفرَّعُ على ذلك تكَرُّرُ هذا الإنفاقِ في المُستقَبلِ، أي: ستكونُ لهم شَدائِدُ مِن بأسِ المُسلمينَ تَضطرُّهم إلى تكريرِ الإنفاقِ على الجُيوشِ؛ لِدفاعِ قُوَّةِ المُسلمينَ[1].

- قوله: ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ جعَلَ ذاتَ الأموالِ حَسرةً- وهي عاقبةُ إنفاقِها- مُبالغةً[2].

- قَولُه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ فيه عُدولٌ عن الإضمارِ إلى الإظهارِ- فلم يَقُلْ: (وإلى جهنَّمَ يُحشَرونَ)؛ للإفصاحِ عن التَّشنيعِ بهم في هذا الإنذارِ، حتى يُعادَ استحضارُ وَصْفِهم بالكُفرِ بأصرَحِ عبارةٍ[3].

- وعُرِّفوا بالمَوصوليَّةِ: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ إيماءً إلى أنَّ عِلَّةَ استِحقاقِهم الأمرَينِ في الدُّنيا والآخِرةِ، هو وَصفُ الكُفرِ، فيُعلَمُ أنَّ هذا يحصُلُ لِمَن لم يُقلِعوا عن هذا الوَصفِ قبل حُلولِ الأمرَينِ بهم[4].

٢- قولُه تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾

- ﴿لِيَمِيزَ﴾ مُتعَلِّقٌ بـ ﴿يُحْشَرُونَ﴾ لبيانِ أنَّ مِن حِكمةِ حَشْرِهم إلى جهنَّمَ أنْ يتميَّزَ الفريقُ الخَبيثُ مِن النَّاسِ، من الفَريقِ الطَّيِّبِ، في يومِ الحَشرِ[5].

- وقَولُه: ﴿وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ﴾ المقصودُ منه جمعُ الخَبيثِ، وإن اختلَفَت أصنافُه في مجمعٍ واحدٍ؛ لزيادةِ تَمييزِه عن الطيِّبِ، ولتشهيرِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٤١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٤١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٤٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مَن كانوا يُسِرُّونَ الكُفرَ، ويُظهِرونَ الإيمانَ، وفي جَمعِه بهذه الكيفيَّةِ تذليلٌ لهم وإيلامٌ؛ إذ يُجعَلُ بَعضُهم على بعضٍ، حتى يصيرُوا رُكامًا[١].

– قولُه: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾: الإشارةُ بـ ﴿أُولَئِكَ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ استحقاقَهم الخبرَ الواقعَ عن اسمِ الإشارةِ، كان بسبَبِ الصِّفاتِ التي ذُكِرَت قبل اسمِ الإشارة؛ فإنَّ من كانت تلك حالَه، كان حقيقًا بأنَّه قد خسِرَ أعظَمَ الخُسرانِ، لأنَّه خَسِرَ منافِعَ الدُّنيا، ومنافِعَ الآخرةِ[٢].

– وصيغةُ القَصرِ في قَولِه: ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ هي للقَصرِ الادِّعائيِّ؛ للمُبالغةِ في اتِّصافِهم بالخُسرانِ، حتى يُعَدَّ خُسرانُ غَيرِهم كَلَا خُسرانٍ، وكأنَّهم انفَرَدوا بالخُسرانِ مِن بينِ النَّاسِ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٤٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٣٨-٤٠)

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿سَلَفَ﴾: أي: مضَى، والسَّلَفُ: المتقدمُ، وأصلُ (سلف): تَقَدُّم وَسَبْق[١].

المَعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ نَبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُخبِرَ الذين كفَروا مِن قريشٍ أنَّهم إنْ يَنتَهوا عن الكُفرِ، وقتالِ المُؤمنينَ، يَغفِرِ اللهُ لهم ما تقدَّمَ، وإن يَعودُوا فقد سبقَت طريقَتُه في إهلاكِ كُفَّارِ قريشٍ يومَ بَدرٍ، وإهلاكِ غَيرِهم مِن الأُمَمِ المُكَذِّبةِ.

وأمرَ اللهُ عبادَه المُؤمنينَ أن يُقاتِلوا الكفَّارَ؛ حتى لا يكونَ في الأرضِ شِركٌ يُفتَنُ بِسَببِه النَّاسُ، ويكونَ الدِّينُ كُلُّه خالصًا لله، فإنِ انتَهى الكُفَّارُ فإنَّ اللهَ بما يَعمَلونَ بَصيرٌ، وإن أعرَضُوا وأصَرُّوا على الكُفرِ والقتالِ، فلْيُوقِنِ المُؤمِنونَ أنَّ اللهَ وَلِيُّهم وسَيِّدُهم، الذي يُعينُهم وينصُرُهم عليهم، هو سُبحانَه نِعمَ المُعينُ لأوليائِه، ونِعمَ النَّاصِرُ لهم على أعدائِهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢ / ٤٨٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٩).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بيَّنَ ضلالَ الكافِرينَ في عِباداتِهم البَدَنيَّةِ، وعِباداتِهم الماليَّةِ؛ أرشَدَهم إلى طريقِ الصَّوابِ(١).

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ تعالى ما يحُلُّ بالكافرينَ مِن حَشْرِهم إلى النَّارِ، وجَعْلِهم فيها، وخُسْرِهم- تلطَّفَ بهم، وأنَّهم إذا انتَهَوا عن الكُفرِ وآمَنوا، غُفِرَت لهم ذُنوبُهم السَّالِفةُ(٢).

وأيضًا لَمَّا بيَّنَ تعالى حالَ الكُفَّارِ الذين يُصِرُّونَ على كُفرِهم، وصَدِّهم عن سَبيلِ الله، وقتالِ رَسولِه والمؤمنينَ، وما لهم في الدُّنيا والآخرةِ- قفَّى عليه ببيانِ حُكمِ الذينَ يَرجِعونَ عنه، ويَدخُلونَ في الإسلامِ؛ لأنَّ الأنفُسَ صارت تتشَوَّفُ إلى هذا البَيانِ(٣)، فقال:

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾.

أي: قُل- يا مُحمَّدُ- لكُفَّارِ قُريشٍ: إنْ يَترُكوا الكُفرَ، وقِتالَ المؤمنينَ، يَغفِرِ اللهُ لهم ما قد تقدَّمَ مِن كُفرِهم ومَعاصيهم(٤).

كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٨٢)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٥٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٧٦، ١٧٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ١٤٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥).

قال ابنُ تيميةَ: (قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ يتناولُ كلَّ كافرٍ). ((مجموع الفتاوى)) (٢٢/ ٤٧).

وعَن عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال له: ((أَمَا عَلِمْتَ أنَّ الإسلامَ يَهدِمُ ما كان قَبلَه))[1].

﴿وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

أي: وإنْ يَعُدْ هؤلاءِ المُشركونَ مِن قُريشٍ إلى قتالِك، ويستمِرُّوا على كُفرِهم؛ فقد مَضَت طريقَتُنا في إهلاكِ كُفَّارِ قُريشٍ في يومِ بَدرٍ، وإهلاكِ غَيرِهم مِن الأُمَمِ الماضيةِ[2].

كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا * أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فاطر: ٤٣-٤٤].

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بيَّنَ أنَّ هؤلاءِ الكفَّارَ إن انتَهَوا عن كُفرِهم، حصَلَ لهم الغُفرانُ، وإن عادُوا فهم مُتوَعَّدونَ بسُنَّةِ الأوَّلينَ- أتبَعَه بأنْ أمَرَ بقتالِهم إذا أصَرُّوا[3].

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾.

---

(١) رواه مسلم (١٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٧٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٢٧)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٢١٠)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٤٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦، ٧).

قال ابنُ عطيةَ: (والتخويفُ عليهم بقصَّة بدرٍ أشدُّ؛ إذ هي القريبةُ منهم والمعايَنة عندَهم). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٨٣)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٧٠).

أي: وقاتِلوا- أيُّها المُؤمِنونَ- الكُفَّارَ؛ حتَّى لا يكونَ في الأرضِ شِركٌ يُفتَنُ بِسَبَبِه النَّاسُ[١].

عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((أُمِرتُ أن أقاتِلَ النَّاسَ حتى يَشهَدُوا أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ مُحمَّدًا رسولُ اللهِ، ويُقيمُوا الصَّلاةَ، ويُؤتُوا الزَّكاةَ، فإذا فَعَلوا ذلك عَصَموا منِّي دِماءَهم وأموالَهم إلَّا بحَقِّ الإسلامِ، وحِسابُهم على اللهِ))[٢].

وعنِ ابنِ عُمرَ رَضِيَ اللهُ عنهما أيضًا، (أنَّه أتاه رَجُلانِ في فتنةِ ابنِ الزُّبيرِ، فقالا: إنَّ النَّاسَ صَنَعوا وأنت ابنُ عُمرَ، وصاحِبُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فما يمنَعُك أن تخرُجَ؟! فقال: يمنَعُني أنَّ اللهَ حرَّمَ دمَ أخي. فقالا: ألمْ يقُلِ اللهُ: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾؟! فقال: قاتَلْنا حتَّى لم تكُنْ فِتنةٌ، وكان الدِّينُ لله، وأنتم تريدونَ أن تُقاتِلوا حتى تكونَ فِتنةٌ، ويكونَ الدِّينُ لِغَيرِ الله!)[٣].

﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾.

أي: وقاتِلوا الكفَّارَ حتى تكونَ الطَّاعةُ والعبادةُ كُلُّها خالصةً لله وَحدَه، وينتشِرَ الإسلامُ، فلا يُعبَد إلَّا اللهُ وَحدَه لا شَريكَ له[٤].

عن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((سئِلَ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن الرَّجُلِ يُقاتِلُ شَجاعةً، ويُقاتِلُ حَمِيَّةً، ويقاتِلُ رِياءً، أيُّ ذلك في سبيلِ اللهِ؟ فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: مَن قاتَلَ لِتكونَ كَلِمةُ اللهِ هي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٤٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٧، ٨).

(٢) رواه البخاري (٢٥) واللفظ له، ومسلم (٢٢).

(٣) رواه البخاري (٤٥١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٧٨)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٢٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٨).

العُليا فَهو في سبيلِ اللهِ))[١].

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾.

أي: فإن انتَهى الكُفَّارُ عن الشِّركِ وأسلَموا؛ فإنَّ اللهَ لا يخفى عليه ما يَعمَلونَ في الظَّاهِرِ والباطِنِ، فيُجازيهم عليه، فكُفُّوا عن قِتالِهم، وإنْ لم تعلَموا بواطِنَهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥].

وعن أُسامةَ بنِ زَيدٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((بعَثَنا رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في سَرِيَّةٍ، فصَبَّحْنا الحُرُقاتِ[٣] مِن جُهَينةَ، فأدركْتُ رجلًا، فقال: لا إلهَ إلَّا اللهُ، فطَعَنْتُه فوقَعَ في نفسي مِن ذلك، فذَكَرْتُه للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أقالَ: لا إلهَ إلَّا اللهُ وقَتَلْتَه؟! قال: قلتُ: يا رسولَ اللهِ، إنَّما قالها خوفًا مِن السِّلاحِ، قال: أفَلَا شقَقْتَ عن قَلْبِه، حتى تعلَمَ أقالَها أم لا؟! فما زالَ يكرِّرُها عليَّ حتى تمنَّيتُ أنِّي أسلَمْتُ يومَئِذٍ))[٤].

﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٤٠﴾.

﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡ﴾.

---

(١) رواه البخاري (١٢٣) ومسلم (١٩٠٤)، واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٨٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ١٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٢٩٢، ٢٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٨).

(٣) فصَبَّحْنا الحُرُقاتِ: أي: أتوهم وهَجَموا عليهم صباحًا، قبلَ أنْ يَشْعُروا بهم. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٦)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١٢/ ١٩٥).

والحرقات: قبيلةٌ مِن جهينةَ، والظاهرُ أنَّه جمعُ حرقة، واسمُه: جهيشُ بنُ عامرٍ، قيل: سُمِّي الحرقة؛ لأنَّه حرقَ قومًا بالنبلِ فبالَغ في ذلك. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (١٧/ ٢٧١).

(٤) رواه البخاري (٤٢٦٩) ومسلم (٩٦)، واللفظ له.

أي: وإنْ أعرَضَ الكُفَّارُ عن الإيمانِ، وأصَرُّوا على الكُفرِ والقتالِ، فقاتِلوهم، وأيقِنُوا أنَّ اللهَ وليُّكم وسيِّدُكم، الذي يُعينُكم، ويَنصُرُكم عليهم(١).

﴿نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾.

أي: الله عزَّ وجلَّ هو نِعْمَ المُعينُ لأوليائِه، ونِعْمَ النَّاصِرُ لهم، الذي ينصُرُهم على أعدائِهم(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٤٥].

وقال سبحانه: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

مَن كان في حمايةِ اللهِ تعالى وفي حِفظِه وكِفايتِه، كان آمِنًا من الآفاتِ، مَصونًا عن المُخالفاتِ، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾(٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- مِن لُطفِ اللهِ تعالى بعبادِه أنَّه لا يمنَعُه كُفرُ العبادِ، ولا استمرارُهم في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٨٣)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٢٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٨).

قال ابنُ عطيةَ: (وقولُه تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا...﴾ الآيةَ، معادلٌ لقولِه: ﴿فَإِنِ انْتَهَوْا﴾، والمعنى: فإنِ انْتَهوا عن الكفرِ، فاللهُ مجازيهم... وإن تولَّوْا، ولم ينتهوا، فاعلموا أنَّ الله ينصرُكم عليهم، وهذا وعدٌ محضٌ بالنصرِ والظَّفرِ، أي: فجدُّوا). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٨٣)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٢١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٧٠).

العنادِ، مِن أن يَدعُوَهم إلى طريقِ الرَّشادِ والهُدى، وينهاهم عما يُهلِكُهم من أسبابِ الغَيِّ والرَّدَى؛ قال الله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾(١).

٢- الإسلامُ يَهدِمُ ما كان قَبلَه بنَصِّ الكتابِ العزيزِ؛ قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنتَهُوا يُغَفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾(٢).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ احتجَّ به أبو حنيفةَ رحمه الله، على أنَّ المُرتَدَّ إذا أسلَمَ لا يلزَمُه قَضاءُ العِباداتِ المتروكةِ في حالِ الرِّدَّةِ وقبلَها(٣).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ فيه حُجَّةٌ لِمَن رأى الاستتابةَ واجِبةً؛ فقد أمرَ اللهُ رَسولَه أن يُخبِرَ جَميعَ الذين كفَروا أنَّهم إن انتَهَوا غُفِرَ لهم ما سلفَ، وهذا معنى الاستِتابةِ، والمرتَدُّ مِن الذين كَفَروا، والأمرُ للوُجوبِ، فعُلِمَ أنَّ استتابةَ المُرتَدِّ واجبةٌ، ولا يقالُ: فقد بلَغَهم عُمومُ الدَّعوةِ إلى الإسلامِ؛ لأنَّ هذا الكُفرَ أخصُّ من ذلك الكفرِ، فإنَّه يُوجِبُ قَتلَ كُلِّ مَن فَعَله، ولا يجوزُ استبقاؤُه وهو لم يُستتَبْ مِن هذا الكُفرِ(٤).

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ فيه دليلٌ على قَبولِ توبةِ الزِّنديقِ؛ فإنَّ قَولَه: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يتناوَلُ جمَيعَ أنواعِ الكُفرِ، فإنْ قيلَ: الزِّنديقُ لا يُعلَمُ مِن حالِه أنَّه هل انتَهى مِن زَندقَتِه أم لا؟

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٢١).

(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٤/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣١٩)، ويُنظر أيضًا: ((شرح مختصر الطحاوي)) للجصاص (١/ ٧٣٥) (٦/ ١٤٠)، ((بدائع الصنائع)) للكاساني (٢/ ١١٧).

(٤) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٣٢٢).

فالجوابُ: أحكامُ الشَّرعِ مَبنيَّةٌ على الظَّواهِرِ، فلما رجَعَ وجَبَ قَبولُ قَولِه فيه[1].

٦- الكُفرُ الذي يَعقُبُه الإيمانُ الصَّحيحُ، لا يَبقى على صاحِبِه منه ذَمٌّ، هذا معلومٌ بالاضطرارِ مِن دِينِ الإسلام، بل مِن دِينِ الرُّسُلِ كُلِّهم، كما قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾[2].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ فيه أنَّ الحَربيَّ إذا أسلَمَ لم يُؤخَذْ بِشَيءٍ ممَّا عَمِلَه في الجاهليَّة: لا مِن حُقوقِ اللهِ، ولا مِن حُقوقِ العبادِ[3].

٨- قَوْله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ هذه لطيفةٌ مِنَ اللهِ سُبحانَه مَنَّ بها على الخَليقةِ؛ وذلك أنَّ الكُفَّارَ يقتَحِمونَ الكُفرَ والجرائِمَ، ويَرتكبونَ المعاصِيَ، ويَرتكبونَ المآثِمَ، فلو كان ذلك يُوجِبُ مُؤاخذَتَهم لَما استدرَكوا أبدًا توبةً، ولا نالَتْهم مغفرةٌ، فيسَّرَ اللهُ عليهم قَبولَ التَّوبةِ عند الإنابةِ، وبذَلَ المَغفرةَ بالإسلامِ، وهَدَمَ جَميعَ ما تقَدَّمَ؛ ليكونَ ذلك أقرَبَ إلى دخولِهم في الدِّينِ، وأدعَى إلى قَبولِهم كلمةَ الإسلامِ، وتأليفًا على المِلَّةِ، وترغيبًا في الشَّريعةِ؛ فإنَّهم لو عَلِموا أنَّهم يُؤاخَذونَ لَما أنابوا ولا أسلَموا[4].

٩- أُطلِقَت الوَلايةُ في القُرآنِ بالنِّسبةِ إلى الله جلَّ وعلا إطلاقَينِ:

أُطلِقَ المولى بمعنى الوَلايةِ الخاصَّةِ، وهي: النَّصرُ والتَّمكينُ والتَّوفيقُ، كقوله هنا: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ﴾ وقولِه: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ﴾ [التحريم: الآية ٤] وهذا كثيرٌ في القُرآنِ؛ ولذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٨٣).

(٢) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٨/ ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ١٥٣).

(٤) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٢/ ٣٩٨).

وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴾ [محمد: الآية ١١] أي: لا مَولى لهم وَلايةَ نَصرٍ وتَمكينٍ.

وأُطلِقَ المولى بمعنَى ولايةِ خَلقٍ وقُدرةٍ ورُبوبيَّةٍ ومِلكٍ، وهو في قَولِه: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ﴾ [الأنعام: ٦٢] وهي في الكفَّارِ؛ لأنَّه مولى الكُفَّارِ ولايةَ مِلكٍ وتصرُّفٍ ونُفوذٍ وقُدرةٍ، ومولى المؤمنينَ ولايةَ نَصرٍ وتمكينٍ وثوابٍ[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾

هذا كلامٌ جارٍ على عادةِ القُرآنِ في تَعقيبِ التَّرهيبِ بالتَّرغيبِ، والوعيدِ بالوَعدِ، والعَكسِ، فأنذَرَهم بما أنذَرَ، وتوعَّدَهم بما تَوعَّد، ثم ذكَّرَهم بأنَّهم مُتمَكِّنونَ مِن التَّدارُكِ، وإصلاحِ ما أفسَدُوا، فأمَرَ اللهُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأن يَقولَ لهم ما يفتَحُ لهم بابَ الإنابةِ[2].

- وقَولُه: ﴿وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ تَعريضٌ بالوعيدِ بأنَّهم سيَلقَونَ ما لَقِيَه الأوَّلونَ، والقَرينةُ على إرادةِ التَّعريضِ بالوعيدِ أنَّ ظاهِرَ الإخبارِ بمُضِيِّ سُنَّةِ الأوَّلينَ، وهو من الإخبارِ بِشَيءٍ مَعلومٍ للمُخبَرينَ به، وبهذا الاعتبارِ حَسُنَ تأكيدُه بـ(قد)؛ إذ المرادُ تأكيدُ المعنى التَّعريضي[3].

٢- قوله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٤٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٣٤٦).

- عَمَّمَ الخِطابَ في قوله ﴿وَقَاتِلُوهُمْ﴾ لزيادةِ تَرغيبِ المؤمنينَ في القِتالِ[1].

- وقولُه: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ كنايةٌ عن حُسنِ مُجازاتِه إيَّاهم؛ لأنَّ القادِرَ على نَفعِ أوليائِه ومُطيعِيه لا يحولُ بينه وبين إيصالِ النَّفعِ إليهم إلَّا خفاءُ حال مَن يُخلِصُ إليه، فلما أُخبِرُوا بأنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ على انتهائِهم عن الكُفرِ إنِ انتَهَوا عنه، وكان ذلك لا يُظَنُّ خلافُه؛ عُلِمَ أنَّ المقصودَ لازِمُ ذلك[2].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾

- افتتاحُ جُملةِ جوابِ الشَّرطِ بـ ﴿فَاعْلَمُوا﴾؛ لقَصدِ الاهتمامِ بهذا الخَبرِ وتحقيقِه[3].

- وقولُه: ﴿نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ جملةٌ مُستأنفةٌ؛ لأنَّها إنشاءُ ثناءٍ على اللهِ، فكانت بمَنزلةِ التَّذييلِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٣٤٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيتان (٤١-٤٢)

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿غَنِمْتُمْ﴾: المَغنَمُ والغنيمةُ: ما أُصيبَ مِن أموالِ المُحاربينَ قهرًا. وأصلُ (غنم) يدلُّ على إفادةِ شَيءٍ لم يُملَك مِن قَبلُ[1].

﴿بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾: أي: بِجانب الوادي ممَّا يلي المدينةَ. وأصلُ (عدو) يدلُّ على تَجاوُزٍ في الشَّيءِ[2].

﴿بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾: أي: بالجانِبِ الأبعدِ مِن المدينةِ. وأصلُ (قصو) يدلُّ على بُعدٍ وإبعادٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٨٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٠٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٨)، ((غريب القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ٩٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٤، ٦٧٣). ((غريب القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ٩٠).

﴿وَالرَّكْبُ﴾: أي: راكِبو الإبِلِ، والمقصودُ عِيرُ أبي سفيانَ أي: ركبُ التجارةِ. وَأصلُ (ركب): يدلُّ على عُلوِّ شيءٍ شَيئًا[1].

﴿بَيِّنَةٍ﴾: أي: حُجَّةٍ. والبيِّنةُ كذلك: الدَّلالةُ الواضِحةُ؛ يقالُ: بان الشيءُ وأبان، إذا اتَّضَحَ وانكَشَفَ[2].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾

﴿أَنَّمَا غَنِمْتُمْ﴾: (ما) في ﴿أنَّما﴾ اسمُ أنَّ، وهي موصولةٌ بمعنى (الذي)، و﴿غَنِمْتُمْ﴾ صِلَتُها، وعائِدُها محذوفٌ، أي: غَنِمتُموه. و﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ جارٌّ ومجرورٌ مُتعَلِّقٌ بمحذوفٍ، حالٌ مِن عائِدِ الصِّلةِ، والتقديرُ: ما غَنِمتُموه كائنًا من شَيءٍ، أي: قليلًا أو كثيرًا. ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾: الفاءُ داخلةٌ تشبيهًا للموصولِ بالشَّرطِ، و(أنَّ) وما عَمِلَتْ فيه في محلِّ رفعٍ، خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ، تقديرُه: فحُكمُه أنَّ لِلَّه خُمُسَه، والجملةُ مِن هذا المبتدأِ والخَبرِ في محَلِّ رَفعٍ، خَبرُ (أنَّ). و﴿أنَّما غَنِمْتُمْ﴾ وما بعدَها سدَّ مسدَّ مفعولَي ﴿اعْلَمُوا﴾[3].

المَعنى الإجماليُّ:

اعلَموا- أيُّها المؤمنونَ- أنَّ ما تظفرونَه مِن الكُفَّارِ غنيمةً بعدَ انتِصارِكم عليهم؛ فحُكمُه أنَّ لله خُمُسَه، وللرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولِقرابَتِه مِن بني هاشمٍ وحُلفائِهم من بني المطَّلبِ، ولليتامى والمساكينِ، وللمُسافِرِ الذي يحتاجُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٤).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣١٥). ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٦٢٣-٦٢٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٦٠٥-٦٠٦).

المالَ في سَفَرِه، وأمَّا بقيةُ الأخماسِ الأربعةِ فهي للمقاتلينَ، إن كُنتم آمَنتُم باللهِ تعالى، وما أنزَلَ على عبدِه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن آياتِ القرآنِ، يومَ فَرَقَ اللهُ بين الحقِّ والباطِلِ، وذلك يوم التقى جمعُ المسلمينَ وجمعُ الكفَّار ببدرٍ، واللهُ على كلِّ شَيءٍ قديرٌ حيثُ نصَركم أيُّها المسلمونَ على قلةِ عددِكم، وخذَل الكفارَ على كثرتِهم.

فاذكروا - أيُّها المُؤمنونَ- حين كنتم على جانِبِ وادي بدرٍ الأقرَبِ للمدينةِ، وهم على الجانِبِ الأبعَدِ، وأصحابُ الإبِلِ الذين معهم تجارةُ المُشركينَ أسفَلَ منكم ممَّا يلي ساحِلَ البَحرِ، ولو تواعَدْتُم- أنتم والمشركونَ- على مكانٍ وزمانٍ تتقاتلونَ فيه، لَما اجتمَعتُم في ذلك المَوعِدِ، ولكنَّ الله دبَّر لهذا التلاقي لِيَقضيَ أمرًا مُقَدَّرًا لا بدَّ مِن وقوعِه، لِيَهلِكَ مَن هلكَ باستمرارِه على الكُفرِ بعد قيامِ الحجَّةِ عليه، ويؤمِنَ مَن آمنَ بعد ظهورِ الحُجَّة له، وإنَّ اللهَ لَسميعٌ عليمٌ.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أمَرَ بالمُقاتلةِ في قَولِه: ﴿وَقَاتِلُوهُمۡ﴾ وكان مِن المَعلومِ أنَّ عند المُقاتلةِ قد تحصُلُ الغنيمةُ؛ لا جرَمَ ذَكَرَ تعالى حُكمَ الغنيمةِ[1].

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٨٤).

أي: واعلَمُوا[١]- أيُّها المؤمنونَ الغانِمونَ- أنَّ أيَّ مالٍ تأخذونَه مِن الكفَّارِ قَهرًا، إذا انتصَرتُم عليهم[٢]، فحقُّه أنَّ للَّهِ خُمُسَه، يُصرَفُ فيما أمَرَ اللهُ به[٣].

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((قَدِمَ وَفدُ عبدِ القَيسِ على رسولِ اللهِ

---

(١) قال الشنقيطي: (﴿وَاعْلَمُوا﴾ معناه: تيقَّنُوا؛ لأنَّ العِلمَ إذا أُطلِقَ في القرآنِ: معناه اليَقينُ في جميعِ القرآنِ، وقد جاء في حَرفٍ في سورة الممتحنة إطلاقُ العِلمِ مُرادًا به الظنُّ الغالِبُ، وهو قولُه تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ﴾ [الممتحنة: ١٠] أي: غلَبَ على ظَنِّكم ظَنًّا قويًّا مُزاحِمًا لليَقينِ، ولا يكادُ العِلمُ في غيرِ هذا الموضِعِ يُطلَقُ في القرآنِ إلا مُرادًا به اليقينُ الجازِمُ، الذي لا يُخالِجُه ظَنٌّ ولا وَهْمٌ ولا شَكٌّ). ((العذب النمير)) (٥/ ١٢) بتصرف يسير.

(٢) قال الكِيا الهراسيُّ: (واعلَمْ أنَّ الاتِّفاقَ حاصِلٌ على أنَّ المُرادَ بقَولِه: ﴿غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾: مالُ الكُفَّارِ، إذا ظهرَ به المسلمونَ على وَجهِ الغَلَبةِ، ولا تقتضي اللُّغةُ هذا التَّخصيصَ، ولكِنَّ عُرفَ الشَّرعِ قيَّدَ اللَّفظَ بهذا النَّوعِ). ((أحكام القرآن)) (٣/ ١٥٦).

وقال القُرطبي: (لم يختلِفِ العُلَماءُ أنَّ قَولَه: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ ليس على عُمومِه، وأنَّه يدخُلُه الخصوصُ، فمِمَّا خَصَّصوه بإجماعٍ أنْ قالوا: سَلَبُ المقتولِ لِقاتِلِه إذا نادى به الإمامُ. وكذلك الرِّقابُ- أعني الأُسارى- الخِيَرةُ فيها إلى الإمامِ بلا خلافٍ). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٨٤، ١٨٧)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٤/ ٢١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٦، ٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٣، ١٦).

قال الشِّنقيطي: (التَّحقيقُ أنَّ نَصيبَ اللهِ جلَّ وعلا، ونصيبَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ واحدٌ، وذِكْرُ اسمِه جلَّ وعلا استفتاحُ كلامٍ للتَّعظيمِ). ((أضواء البيان)) (٢/ ٥٩). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٩١).

وعزاه البغويُّ إلى أكثرِ المفسِّرين والفقهاءِ، وقال: (وهو قولُ الحسنِ وقتادةَ وعطاء وإبراهيمَ والشعبيِّ، قالوا: سهمُ الله وسهمُ الرسولِ واحدٌ، والغنيمةُ تُقسَمُ خمسةَ أخماسٍ، أربعةُ أخماسٍ لمَن قاتَل عليها، وخُمسٌ لخمسةِ أصنافٍ، كما ذكَر الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾). ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٩٢).

وقال ابنُ عاشورٍ: (الابتداءُ باسمِ اللهِ تعالى للإشارةِ إلى أنَّ ذلك الخُمُسَ حَقُّ اللهِ يَصرِفُه حيث يشاءُ، وقد شاء فوكَّلَ صَرْفَه إلى رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولِمَن يَخْلُف رسولَه من أئمَّةِ المُسلمينَ، وبهذا التَّأويلِ يكونُ الخُمُسُ مَقسومًا على خمسةِ أسهُمٍ، وهذا قولُ عامَّةِ عُلَماءِ الإسلامِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٨).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقالوا: يا رسولَ اللهِ، إنَّا- هذا الحيَّ- مِن ربيعةَ، وقد حالتْ بينَنا وبَينَك كُفَّارُ مُضَرَ، فلا نَخلُصُ إليك إلَّا في شَهرِ الحرامِ، فمُرْنا بأمرٍ نَعمَلُ به، وندعو إليه مَن وَراءَنا، قال: آمُرُكم بأربَعٍ، وأنهاكم عن أربَعٍ: الإيمانُ باللهِ، ثمَّ فَسَّرَها لهم فقال: شهادةُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ، وإقامُ الصَّلاةِ، وإيتاءُ الزَّكاةِ، وأنْ تُؤَدُّوا خُمُسَ ما غَنِمْتُم))(١).

وعن عبدِ اللهِ بنِ شَقيقٍ، عن رجُلٍ مِن بُلقينَ، قال: ((أتيتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو بوادي القُرى، وهو يَعرِضُ فَرَسًا، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، ما تقولُ في الغنيمةِ؟ فقال: لِلَّه خُمُسُها، وأربعةُ أخماسٍ للجَيشِ. قلتُ: فما أحدٌ أَوْلَى به مِن أحَدٍ؟ قال: لا، ولا السَّهمُ تَستخرِجُه مِن جَنبِك، ليس أنت أحَقَّ به مِن أخيك المُسلِمِ))(٢).

﴿وَلِلرَّسُولِ﴾.

أي: ولِمُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ يتصَرَّفُ فيما جعَلَه اللهُ له من الخُمُسِ بما شاء في مصالِحِه ومصالِحِ المُسلمين(٣).

---

(١) رواه البخاري (٨٧) ومسلم (١٧)، واللفظ له.

(٢) أخرجه أبو يعلى في ((المسند)) (٧١٧٩)، والطحاوي في ((شرح معاني الآثار)) (٥١٩٨)، والبيهقي في ((السنن الكبرى)) (١٨٠١٢).

قوَّى إسنادَه النوويُّ في ((المهذب)) (٧/ ٣٥٨٤)، وصحَّح إسنادَه ابنُ كثيرٍ في ((إرشاد الفقيه)) (٢/ ٣٢٨)، والهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (١/ ٥٣)، والألباني في ((إرواء الغليل)) (٥/ ٦٠)، وقال البوصيريُّ في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (١/ ٩٧): إسنادُه رجالُه ثقاتٌ.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٤).

قال ابنُ تيميةَ: (الرسولُ مبلغٌ عن الله أمرَه ونهيَه، فالمالُ المضافُ إلى الله ورسولِه هو المالُ الذي يصرفُ فيما أمَرَ الله به ورسولُه مِن واجبٍ ومستحبٍّ، بخلافِ الأموالِ التي ملَّكها الله لعبادِه، فإنَّ لهم صرفَها في المباحاتِ... فالأنفالُ لله والرسولِ؛ لأنَّ قسمتَها إلى الله والرسولِ ليست كالمواريثِ التي قسَمها الله بينَ المستحقِّين)) (٤/ ٢١١). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٢).=

عن عمرِو بنِ عَبَسةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: صلَّى بنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى بَعيرٍ مِن المَغنمِ، فلمَّا سلَّم أخَذَ وَبرةً مِن جَنبِ البَعيرِ، ثمَّ قال: ((ولا يحِلُّ لي مِن غَنائِمِكم مِثلُ هذا إلَّا الخُمُسُ، والخُمُسُ مَردودٌ فيكم))[1].

﴿وَلِذِي الْقُرْبَى﴾.

أي: ولقرابةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن بني هاشمٍ وبني المطَّلِبِ[2].

= قال الشِّنقيطي: (والتَّحقيقُ: أنَّ نَصيبَ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن الخُمُسِ، كان يَرُدُّه على مصالِحِ المُسلمينَ لا يأخُذُ منه شيئًا؛ لأنَّه كان يأخُذُ خَلَّتَه الضَّروريَّةَ مِن فَيءِ بني النَّضيرِ، وربَّما أخَذ منه بعضًا مِن فيءِ قُريظةَ، وأنَّ نَصيبَه إنَّما يجعَلُه في مصالِحِ المُسلمينَ). ((العذب النمير)) (٥/ ٤٤).

وقال ابنُ عاشور: (عند الجمهورِ أنَّ سَهمَ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَخلُفُه فيه الإمامُ؛ يبدأُ بنَفَقتِه ونَفَقةِ عيالِه بلا تقديرٍ، ويَصرِفُ الباقيَ في مصالِحِ المُسلمينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٢). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٦٠، ٦١).

وقال ابنُ جرير: (والصَّوابُ مِنَ القول في ذلك عندنا: أنَّ سَهمَ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مَردودٌ في الخُمُسِ، والخُمُسُ مقسومٌ على أربعةِ أسهُمٍ على ما رُوِيَ عن ابنِ عبَّاسٍ: للقرابةِ سَهمٌ، ولليتامى سَهمٌ، وللمَساكينِ سَهمٌ، ولابنِ السَّبيلِ سَهمٌ؛ لأنَّ اللهَ أوجَبَ الخُمسَ لأقوامٍ مَوصوفينَ بِصفاتٍ، كما أوجَبَ الأربعةَ الأخماسِ الآخَرينَ). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٩٩).

(١) أخرجه أبو داود (٢٧٥٥)، والطبراني في ((مسند الشاميين)) (٨٠٥)، والبيهقي في ((السنن الكبرى)) (١٢٩٤٣).

صحَّحه ابنُ دقيق العيدِ في ((الاقتراح)) (١٠٠)، ووثَّق رجالَه الشوكانيُّ في ((نيل الأوطار)) (٨/ ٨٨)، وصحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح أبي داود)) (٢٧٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٥).

ونَسبَ ابنُ كثيرٍ القَولَ بأنَّ قَرابَته هم بنو هاشمٍ وبنو المطَّلِبِ، إلى جمهورِ العُلماء. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٤).

وقال ابنُ كثيرٍ: (وأمَّا سَهمُ ذوي القُربى فإنَّه يُصرَفُ إلى بني هاشمٍ وبني المُطَّلِبِ؛ لأنَّ بني المطَّلِبِ وازَرُوا بني هاشمٍ في الجاهليَّةِ وفي أوَّلِ الإسلامِ، ودخلوا معهم في الشِّعبِ غضبًا لِرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وحمايةً له: مُسلِمُهم طاعةً لله ولِرَسولِه، وكافِرُهم حَميَّةً =

عن جُبَيرِ بنِ مُطعِمٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((مَشَيتُ أنا وعثمانُ بنُ عُفَّانَ إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقُلنا: يا رسولَ اللهِ، أعطيتَ بني المُطَّلِب وتركتَنا، ونحنُ وهم منكَ بِمَنزلةٍ واحدةٍ! فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنَّما بنو المُطَّلِبِ وبنو هاشمٍ شَيءٌ واحِدٌ)). ولم يقسِمِ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لبني عبدِ شَمسٍ، ولا لبني نَوفَل، قال ابنُ إسحاقَ: عبدُ شمسٍ وهاشمٌ والمُطَّلِبُ: إخوةٌ لأُمٍّ، وأمُّهُم عاتكةُ بنتُ مُرَّةَ، وكان نَوفَل أخاهم لأبيهم[1].

﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾.

أي: ولِيَتامى المُسلمينَ، الذين مات آباؤُهم وهم أطفالٌ[2].

﴿وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾.

أي: وللمُحتاجينَ مِن المُسلِمينَ[3].

﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

أي: وللمُسافِرِ المُحتاجِ للمالِ في سَفَرِه[4].

= للعشيرةِ، وأنَفةً وطاعةً لأبي طالبٍ عمِّ رَسولِ اللهِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٣).
وقال القاسمي: ((أجمَعوا على أنَّ المُرادَ بـ (ذوي القُربى) قرابتُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم)). ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٢٩٧).

(١) رواه البخاري (٣١٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٠٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢١).
قال الواحديُّ: (قال أهلُ المعاني: كلُّ من مات أبوه وهو صَغيرٌ، فهو يتيمٌ، ولا يُتْمَ بعد البُلوغِ، وكلُّ ولدٍ يتيمٌ مِن قِبَلِ أُمِّه إلَّا الإنسانَ فإنَّه يتيمٌ مِن قِبَلِ أبيه). ((البسيط)) (١٠/ ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢١).

﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾.

أي: امتَثِلوا- أيُّها المؤمنونَ- ما شَرَعْناه لكم في قِسمةِ الغَنائِمِ، إن كُنتُم آمَنتُم باللهِ تعالى، وآمَنتُم بما أنزَلْنا على عَبدِنا محمَّدٍ، مِن آياتِ كِتابِنا(١)، يومَ فرَقَ اللهُ بين الحَقِّ والباطِلِ، يومَ الْتَقى جمعُ المُسلمينَ وجَمعُ الكُفَّارِ بِبَدرٍ(٢).

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: واللهُ على كلِّ شَيءٍ قديرٌ، لا يُعجِزُه شَيءٌ، ومِن ذلك قُدرَتُه على نَصرِ المُؤمنينَ على الكافرينَ، وإن كانوا قِلَّةً أذلَّةً، كما وقع يومَ بَدرٍ(٣).

---

(١) قال الشنقيطيُّ: (إن كُنتُم آمَنتُم باللهِ، وآمَنتُم بالذي أنزَلْنا على عَبْدِنا مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ من هذه الآياتِ القُرآنيَّةِ؛ لأنَّ اللهَ أنزَلَها عليكم، ونَصَرَكم عندَ نُزولِها، وأمَرَكم فيها بأداءِ الخُمُسِ). ((العذب النمير)) (٥/ ٥٤).

قال ابنُ عاشورٍ: (والإنزالُ: هو إيصالُ شَيءٍ مِن عُلوٍ إلى سُفلٍ... فيجوز أن يكونَ هذا المُنَزَّل من قَبيلِ الوَحيِ، أي: والوحيِ الذي أنزَلْناه على عَبدِنا يومَ بَدرٍ... ويجوزُ أن يكونَ مِن قَبيلِ خَوارِقِ العاداتِ، والألطافِ العَجيبةِ، مثل إنزال الملائكةِ للنَّصرِ، وإنزالِ المطَرِ عند حاجةِ المُسلمين إليه، لتعبيدِ الطَّريقِ، وتثبيتِ الأقدامِ، والاستِقاءِ... ولا مانِعَ من إرادةِ الجَميعِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٤). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٠٠)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٢١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٤).

قال ابن عطية: (ويومُ الفُرقانِ: معناه يومُ الفَرْقِ بين الحقِّ والباطِلِ، بإعزازِ الإسلامِ وإذلالِ الشِّركِ، والفُرقانُ مصدَرٌ: مِن فَرَقَ يَفرُقُ، والجَمْعانِ: يريدُ جَمعَ المُسلِمينَ، وجمعَ الكُفَّارِ، وهو يومُ الوقعةِ التي قُتِلَ فيها صناديدُ قُريشٍ ببَدرٍ، ولا خلافَ في ذلك، وعليه نصَّ ابنُ عبَّاسٍ ومجاهدٌ ومِقْسَمٌ، والحسنُ بن علي وقتادةُ وغيرهم). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٢).

وقال ابنُ عاشور: (كان يومُ بَدرٍ فارقًا بين الحَقِّ والباطِلِ؛ لأنَّه أوَّلُ يوم ظَهرَ فيه نصرُ المُسلمين الضُّعفاءِ على المُشركينَ الأقوياءِ، وهو نَصرُ المُحِقِّينَ الأذلَّةِ على الأعزَّةِ المُبطِلينَ، وكفى بذلك فُرقانًا وتَمييزًا بين مَن هم على الحَقِّ، ومَن هم على الباطِلِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٠٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ١٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦١).

﴿ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢) ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ لهم يومَ مُلتَقاهم، صوَّرَ لهم حالَتَهم الموضِّحةَ للأمرِ، المُبيِّنةَ لِمَا كانوا فيه مِن اعترافِهم بالعَجزِ؛ تذكيرًا لهم بذلك، رَدعًا عن المُنازَعةِ، وردًّا إلى المُطاوَعةِ، فقال[١]:

﴿ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ ﴾.

أي: فرَقَ اللهُ بينَ الحَقِّ والباطِلِ حينَ[٢] كُنتم نازلينَ بِضَفَّةِ وادي بَدرٍ، التي هي أقرَبُ إلى المدينةِ، ومُشرِكو قُريشٍ نازِلونَ بِضَفَّةِ وادي بَدرٍ، التي هي أبعَدُ من المدينةِ، وأصحابُ الإبِلِ الذين معهم تجارةُ المُشركينَ؛ في موضعٍ أسفَلَ منكم ممَّا يلي ساحِلَ البَحرِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٦).
وقيل: إنَّ ﴿إِذْ﴾ بدَلٌ مِن ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ وممَّن قال بهذا: الزَّمخشريُّ والشِّنقيطيُّ. وقيل: إنَّه منصوبٌ بـ (اذكروا) مُقَدَّرًا، وهو قَولُ الزَّجَّاجِ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٢٣)، ((الدر المصون)) للسَّمين الحلبي (٥/ ٦٠٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٠٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ١٦٦، ١٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٢).
قال ابنُ عطيَّةَ: (وادي بدرٍ آخِذٌ بين الشَّرقِ والقِبلةِ، مُنحَرِفٌ إلى البَحرِ الذي هو قريبٌ مِن ذلك الصُّقعِ، والمدينةُ مِن الوادي مِن مَوضِعِ الوقعةِ منه في الشَّرقِ، وبينهما مرحلتانِ... والركبُ بإجماعٍ مِن المفسِّرينَ عِيرُ أبي سُفيانَ، ولا يقال: ركْبٌ إلا لرُكَّابِ الإبِلِ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٢).=

﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾.

أي: ولو اتَّفَقتُم- أيُّها المؤمنونَ- مع المُشركينَ على القتالِ في مكانٍ وزمانٍ مُحَدَّدينِ؛ لَمَا اجتمَعْتُم في ذلك المَوعِد(١).

﴿وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾.

أي: ولكِن جَمَعَكم اللهُ ببدرٍ على غيرِ ميعادٍ بينكم وبينهم؛ لِينصُرَ اللهُ المؤمنينَ ويُعِزَّهم، ويُهلِكَ الكافرينَ ويُذِلَّهم، وكان ذلك قضاءً مُقدَّرًا لا بدَّ مِن وُقوعِه(٢).

عن كعبِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (إنَّما خرج رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمُسلمونَ، يريدونَ عيرَ قُريشٍ، حتى جمَعَ اللهُ بينهم وبين عَدُوِّهم على غيرِ مِيعادٍ)(٣).

= وقال الشِّنقيطي: (ومعنى كَونِه أسفَلَ: أنَّ وادي بدرٍ ذاهِبٌ إلى جِهةِ البَحرِ؛ فكُلُّ ما قرُبَ من البَحرِ منه فهو أسفَلُ، وما بَعُدَ منه فهو أعلى). ((العذب النمير)) (٥/ ٦٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٨، ١٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٥).
قال السعديُّ: (﴿لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ أي: لا بدَّ مِن تقدُّم أو تأخُّر أو اختيارِ منزلٍ، أو غيرِ ذلك، مما يعرِضُ لكم أو لهم، يصدفُكم عن ميعادِكم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٢).
وقال ابنُ عاشورٍ: (والمعنَى: لو تواعدتُم لاختلفتُم في الميعادِ، أي: في وقتِ ما تواعَدْتُم عليه؛ لأنَّ غالبَ أحوالِ المتواعِدَينِ ألَّا يستويَ وفاؤُهما بما تواعَدَا عليه في وَقتِ الوفاءِ به، أيْ: في وقتٍ واحدٍ؛ لأنَّ التَّوقيتَ كان في تلك الأزمانِ تَقريبًا يُقَدِّرونَه بأجزاءِ النَّهارِ، كالضُّحى والعَصرِ والغروبِ؛ لا ينضَبِطُ بالدَّرَجِ والدَّقائقِ الفلكيَّة، والمعنى: فبالأحرَى وأنتم لم تتواعَدُوا). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٩).
وقال الشِّنقيطي: (﴿لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ أي: لخافَ بعضُكم مِن بَعضٍ، وجبُنَ بعضُكم عن بعضٍ، ولَمَا اتَّفقتم ليحصُلَ ما حصل). ((العذب النمير)) (٥/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٠٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ١٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٦).

(٣) رواه البخاري (٣٩٥١) ومسلم (٢٧٦٩)، واللفظ له.

﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾.

أي: جمعَ اللهُ بين المؤمنينَ والكافرينَ ببَدرٍ، ونصَرَ المؤمنينَ عليهم؛ وفرَق بين الحقِّ والباطِلِ؛ من أجلِ أن يستمِرَّ في الكُفرِ مَن استمَرَّ فيه بعد قيامِ الحُجَّةِ عليه، ووضوحِ الأمرِ ببطلانِ الكُفْرِ، فلا يبقَى له عذرٌ عندَ الله، ويؤمِنَ مَن آمنَ بعد ظُهورِ الحجَّةِ له، ووضوحِ الأمرِ بما لا شكَّ فيه أنَّ الإسلامَ حقٌّ(١).

كما قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: وإنَّ اللهَ لَسَميعٌ لِجَميعِ الأصواتِ، ومِن ذلك أنه سميعٌ لدُعائِكم، وتَضَرُّعِكم، واسْتِغاثَتِكم به، عليمٌ بكُلِّ شَيءٍ؛ فيعلمُ الظواهرَ والضمائرَ والسرائرَ، والغيبَ والشهادةَ، وكلِّ ما يفعلُه خلقُه، لا تخفَى عليه خافِيةٌ، ومِن ذلك علمُه أنَّكم تستحِقُّون النَّصْرَ على أعدائِكم الكفرةِ المعانِدينَ، فاتَّقوا ربَّكم في منطِقِكم أنْ تنطِقوا بغيرِ حَقٍّ، وفي قُلوبِكم أنْ تعتقِدوا فيها غيرَ الرَّشَدِ(٢).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- ليس الإيمانُ بالتمنِّي، ولكنْ ما وقَرَ في القلبِ وصَدَّقَه العَمَلُ، ولا بدَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٨، ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٧).

قال الواحدي: (أكثرُ أهلِ العِلمِ على أنَّ المُرادَ بالهلاكِ هاهنا: الكُفرُ والضَّلالُ، وبالحياةِ: الاهتداءُ والدِّينُ، والمعنى: لِيَكفُرَ مَن كَفَرَ بعد حُجَّةٍ قامت عليه، فقَطَعَت عُذرَه، ويؤمِنَ مَن آمَنَ على مِثلِ ذلك). ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٤٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٧).

لِقيامِه مِن قَبولِ ما شَرَعَ الله، وتحقيقِه في واقِعِ الحياة، وهذا نُموذجٌ من التقريراتِ الصَّريحةِ الواضحةِ الجازمةِ مِن قَولِ الله سبحانه: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ لقد نزع اللهُ مِلكيَّةَ الغنيمةِ ممَّن يجمعونَها في المعركةِ، وردَّها إلى اللهِ والرَّسولِ- في أوَّلِ السورة- ليَخلُصَ الأمرُ كلُّه لله والرسولِ، وليتجَرَّد المجاهدونَ مِن كلِّ مُلابسةٍ مِن ملابساتِ الأرضِ، وليُسَلِّموا أمرَهم كلَّه- أوَّلَه وآخِرَه- لله ربِّهم، وللرَّسول قائِدِهم، بلا تعقيبٍ ولا اعتراضٍ، فهذا هو الإيمانُ، حتى إذا استسلَموا لأمر الله وارتَضَوا حكمَه ذاك، فاستَقَرَّ فيهم مدلولُ الإيمانِ؛ عاد ليَرُدَّ عليهم أربعةَ أخماسِ الغَنيمةِ، ويستبقي الخمُسَ على الأصلِ- لِلَّهِ والرَّسولِ- يتصرَّفُ فيه رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، وقد استقرَّ في نفوسِهم أنَّهم لا يَملِكونَها ابتداءً بحَقِّ الغَزوِ والفتحِ، فهم إنما يَغزونَ لله ويَفتَحونَ لِدينِ اللهِ، إنَّما هم يستحِقُّونها بمَنحِ اللهِ لهم إيَّاها، وعاد كذلك ليُذَكِّرَهم بأنَّ الاستسلامَ لهذا الأمرِ الجديدِ هو مقتضَى الإيمانِ، فقال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ...﴾[1].

٢- قال الله تعالى: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ الغَرَضُ مِن التَّقييدِ بهذا الوَقتِ وبتلك الحالةِ: إحضارُها في ذِكرِهم؛ لأجلِ ما يلزَمُ ذلك من شُكرِ نِعمةِ الله، ومِن حُسنِ الظَّنِّ بوَعدِه، والاعتمادِ عليه في أمورِهم؛ فإنَّهم كانوا حينئذٍ في أشَدِّ ما يكونُ فيه جيشٌ تِجاهَ عَدُوِّه؛ لأنَّهم يعلمونَ أنَّ تلك الحالةَ كان ظاهِرُها مُلائمًا للعَدُوِّ؛ إذ كان العدوُّ في شَوكةٍ، واكتمالِ عُدَّةٍ، وقد تمهَّدَت له أسبابُ الغَلَبةِ بحُسنِ مَوقِعِ جيشِه؛ إذ كان بالعُدوةِ التي فيها الماءُ لِسُقياهم، والتي أرْضُها مُتوسِّطةُ الصَّلابةِ، فأمَّا

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٥٢٠).

جَيشُ المسلمينَ فقد وَجَدوا أنفُسَهم أمامَ العَدُوِّ في عُدوةٍ تَسوخُ في أرضِها الأرجُلُ؛ مِن لِينِ رَملِها، مع قِلَّةِ مائِها، وكانت العِيرُ قد فاتت المسلمينَ، وحلَّتْ وراءَ ظُهورِ جَيشِ المُشركينَ، فكانت في مأمَنٍ مِن أن ينالَها المُسلمونَ، وكان المُشركونَ واثِقينَ بتَمكُّنِهم مِنَ الذَّبِّ عن عِيرِهم، فكانت ظاهرةُ هذه الحالةِ ظاهرةَ خَيبةٍ وخَوفٍ للمُسلمينَ، وظاهرةَ فَوزٍ وقُوَّةٍ للمُشركينَ، فكان مِن عجيبِ عِنايةِ اللهِ بالمُسلمينَ أنْ قَلَبَ تلك الحالةَ رأسًا على عَقِبٍ، فأنزل مِن السَّماءِ مَطَرًا تعبَّدَت به الأرضُ لِجَيشِ المُسلمينَ، فساروا فيها غيرَ مَشقوقٍ عليهم، وتطَهَّروا وسَقَوا، وصارت به الأرضُ لِجَيشِ المُشركينَ وَحلًا يثقُلُ فيها السَّيرُ، وفاضت المياهُ عليهم[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ﴾ فيه أنَّ تخليةَ الخُمُس للأصنافِ الخمسةِ مِنَ الإيمانِ[2].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ استدَلَّ بعُمومِه مَن قال باستحقاقِ الأغنياءِ مِن الأربعةِ المَذكورينَ أو بَعضِهم، كالفُقَراءِ، ومَن قال باستواءِ ذَكَرِهم وأُنثاهم[3].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ استُدِلَّ بإضافةِ الغَنيمةِ لهم، على أنَّ الغانِمينَ مَلَكوها بمجَرَّدِ الغَنيمةِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧، ١٨)، ويُنظر: أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٢٣).
(٢) يُنظر: ((شعب الإيمان)) للبيهقي (٦/ ١٦٩)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٣٥).
(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٣٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٣٥).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ دلَّ على جوازِ قسمةِ الغنائمِ في دارِ الحربِ، كما هو قولُ الشافعيِّ رحمه الله؛ لأنَّ قوله: ﴿فأنَّ لله خمسه وللرسول ولذي القربى...﴾ يقتضي ثبوتَ الملكِ لهؤلاء في الغنيمةِ، وإذا حصَل الملكُ لهم فيه، وجَب جوازُ القسمةِ؛ لأنَّه لا معنًى للقسمةِ على هذا التقديرِ إلا صرفُ الملكِ إلى المالكِ، وذلك جائزٌ بالاتفاقِ(١).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ افتتاحُه بِقَولِه: ﴿وَاعْلَمُوا﴾ للاهتمامِ بِشَأنِه، والتَّنبيهِ على رعايةِ العَمَلِ به؛ فإنَّ المقصودَ بالعِلمِ تَقَرُّرُ الجَزمِ بأنَّ ذلك حُكمُ اللهِ، والعَمَلُ بذلك المَعلومِ(٢).

٦- قال الله تعالى: ﴿وَلِذِي الْقُرْبَى﴾ وهم قَرابةُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، مِن بَني هاشِمٍ وبني المُطَّلِب، وأضافَه اللهُ إلى القرابةِ دليلًا على أنَّ العِلَّةَ فيه مُجَرَّدُ القَرابةِ، فيستوي فيه غَنِيُّهم وفَقيرُهم، ذَكَرُهم وأُنثاهم(٣).

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَالْيَتَامَى﴾ جعَلَ اللهُ لهم خُمُسَ الخُمُسِ رحمةً بهم؛ حيث كانوا عاجزينَ عن القِيامِ بمَصالِحِهم، وقد فُقِدَ مَن يقومُ بمَصالِحِهم(٤).

٨- قولُه تعالى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ أضاف اللهُ الغنيمةَ إلى الغانمينَ، وأخرَج منها خُمسَها، فدلَّ على أنَّ الباقيَ لهم، يُقسَمُ على ما قَسَمه رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: للراجلِ سهمٌ، وللفارسِ سهمانِ لفرسِه، وسهمٌ له، وأمَّا هذا الخُمسُ، فيُقسَمُ خمسةَ أسهمٍ؛ سهمٌ للهِ ولرسولِه، يُصرفُ في مصالحِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٨٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

المسلمينَ العامةِ، مِن غيرِ تعيينٍ لمصلحةٍ؛ لأنَّ الله جعَله له ولرسولِه، واللهُ ورسولُه غنيَّانِ عنه، فعُلِم أنَّه لعبادِ الله. فإذا لم يُعيِّنِ الله له مصرفًا، دلَّ على أنَّ مصرفَه للمصالحِ العامةِ، والخمسُ الثاني: لذي القربَى، والخمسُ الثالثُ لليتامَى، والخمسُ الرابعُ للمساكينِ، والخمسُ الخامسُ لابنِ السبيلِ[1].

٩- قَولُه تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ جَرَت العادةُ بِذِكرِه قُدرَتَه عند نَصْرِه الضِّعافَ مِن عبادِه المتمَسِّكينَ بِدينِه، كما قال في الأحزابِ: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٧]. وقال في الحُدَيبيةِ: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الفتح:٢١] كلُّ هذه الآياتِ على وتيرةٍ واحدةٍ، معناها: إنْ كُنتُم ضعافًا عاجزينَ، فهو- جلَّ وعَلا- قادِرٌ قَوِيٌّ، لا يَعجِزُ عن شَيءٍ؛ فإنَّه ينصُرُ أولياءَه ويُقَوِّيهم ويُقْدِرُهم على مَن هو أقوى مِنهم[2].

بَلاغةُ الآيتين:

١- قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيه الانتقالُ لبيانِ ما أُجمل مِن حُكمِ الأنفالِ، الذي افتُتِحتْ به السُّورةُ؛ ناسَبَ الانتقالَ إليه ما جَرَى مِنَ الأمْرِ بقِتالِ المشركينَ إنْ عادوا إلى قِتالِ المُسلِمينَ. والافتتاحُ بـ﴿واعْلَمُوا﴾؛ للاهتِمامِ بشأنِه، والتَّنبيهِ على رِعايةِ العَملِ به؛ فإنَّ المقصودَ بالعِلمِ تَقرُّرُ الجزمِ بأنَّ ذلك حُكمُ اللهِ، والعملُ بذلك المعلومِ؛ فيكونُ ﴿واعْلَمُوا﴾ كنايةً مُرادًا به صريحُه ولازمُه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢١).
(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٠، ٦١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥).

- وقولُه: ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ بيانٌ لعُمومِ (ما)؛ لئلَّا يُتوهَّمَ أنَّ المقصودَ غنيمةٌ مُعيَّنةٌ خاصَّةٌ(١).

- وفيه أيضًا: حُسنُ تَركيبٍ؛ حيثُ أفْرَد كَينونةَ الخُمْسِ لله، وفَصَل بين اسمِه تعالى وبين المعاطيفِ بقولِه: ﴿خُمُسَهُ﴾؛ ليَظْهَرَ انفرادُه تعالى بكينونةِ الخُمُسِ له، ثمَّ أَشْرَكَ المعاطيفَ معه على سَبيلِ التَّبعيَّةِ له، ولم يأتِ التركيبُ (فأنَّ للهِ خُمُسه وللرَّسولِ ولذي القُربى واليتامى والمساكين وابن السبيل خُمُسه)(٢).

- وإعادةُ اللامِ في ﴿وَلِذِي الْقُرْبَى﴾ دون غيرِهم مِن الأصنافِ الثَّلاثةِ؛ لدَفْعِ تَوهُّمِ اشتراكِهم في سَهمِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لمزيدِ اتِّصالِهم به عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ(٣).

- وفي قولِه: ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ﴾ جِيءَ في الشَّرطِ بحرفِ (إنْ) التي شأنُ شَرطِها أن يكونَ مشكوكًا في وقوعِه؛ زيادةً في حثِّهم على الطاعةِ، حيثُ يَفرِضُ حالَهم في صُورةِ المشكوكِ في حُصولِ شَرْطِه؛ إلهابًا لهم؛ ليَبْعثَهم على إظهارِ تحقُّقِ الشَّرطِ فيهم(٤)؛ فهو من بابِ خِطابِ التَّهييجِ(٥).

- إضافةُ (يوم) إلى (الفُرقانِ) في قولِه: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ إضافةُ تنويهٍ به، وتشريفٍ(٦).

- قولُه: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ اعتراضٌ بتذييل الآياتِ السَّابقةِ، وهو

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٧).
(٢) يُنظر:((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٢٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٣).
(٥) يُنظر: ((البرهان)) للزركشي (٢/ ٢٤٧).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥).

مُتعلِّقٌ ببعضِ جُمْلةِ الشَّرْطِ في قولِه: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾؛ فإن ذلك دليلٌ على أنَّه لا يَتعاصَى على قُدرتِه شيءٌ[١].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيثُ خَتَم بصِفةِ القُدرةِ ﴿قَدِيرٌ﴾؛ لأنَّه تعالى نصَرَ المؤمنينَ على قِلَّتِهم على الكافرينَ على كَثْرتِهم ذلك اليومَ[٢].

٢- قوله: ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَـكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

- ﴿كَانَ﴾ تدلُّ على تحقُّقِ ثُبوتِ معنى خَبرِها لاسمِها من الماضي؛ فمعنى ﴿كَانَ مَفْعُولًا﴾ أنَّه ثَبَتَ له في عِلْمِ اللهِ أنَّه يُفعَل[٣]، وعبَّر بقولِه: ﴿مَفْعُولاً﴾ لتَحقُّقِ كَوْنه[٤].

- وتَنكيرُ ﴿أَمْرًا﴾ هنا؛ للتَّعظيمِ[٥].

- وقولُه: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ فيه دخولُ لامِ التَّعليلِ على فِعْل ﴿لِيَهْلِكَ﴾ وهو تأكيدٌ لِلَّامِ الدَّاخِلةِ على ﴿لِيَقْضِيَ﴾ في الجُملةِ المُبدَل منها[٦].

- ودلَّ معنى المجاوزةِ الذي في ﴿عَنْ﴾ على أنَّ المعنى أنْ يكونَ الهلاكُ والحياةُ صادرَينِ عن بيِّنةٍ، وبارزَينِ منها[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٢٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٢٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٢١).

- قولُه: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ تذييلٌ يشيرُ إلى أنَّ الله سميعُ دُعاءِ المسلمين طلبَ النَّصْرِ، وسميعُ ما جرَى بينهم مِن الحوارِ في شأنِ الخروجِ إلى بَدْرٍ، ومِن مودَّتهم أن تكونَ غيرُ ذاتِ الشَّوكةِ هي إحْدى الطائفتَينِ التي يُلاقونها، وغير ذلك، وعليمٌ بما يجولُ في خواطِرهم من غير الأمورِ المسموعةِ، وبما يَصْلُح بهم، ويُبْنى عليه مَجْدُ مُستقبلِهم[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١).

الآيتان (٤٣-٤٤)

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤٣) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤٤)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَلَتَنَازَعْتُمْ﴾: أي: وَلاختَلَفتُم، والتَّنازُع: التَّجاذُبُ والتَّخاصُمُ والتَّجادُلُ، وأصلُ (نزع) يدُلُّ على قَلعِ شَيءٍ[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ* وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾

﴿يُرِيكَهُمُ﴾: (يُري)[2] فِعلٌ مُضارعٌ مَرفوعٌ، والكاف في محلِّ نَصبٍ، مَفعولٌ به أوَّلُ. و(هم) في محلِّ نَصبٍ مَفعولٌ به ثانٍ، و﴿قَلِيلًا﴾ حالٌ- على القَولِ بأنَّ الرُّؤيا المناميَّةَ تتعدَّى لمفعولٍ به واحدٍ، كالرُّؤيةِ البَصَريَّةِ- أو مفعولٌ به

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢١٨، ٤١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٢).

(٢) أصلُه (رأى - يَرى)، وعند دخولِ هَمزةِ التَّعديةِ أصبح (أرَى - يُري)، فإن كان الفِعلُ متعديًا لمفعولٍ به واحدٍ (وهو رأى البَصَرية) تعدَّى بالهمزةِ إلى مفعولينِ، وإن كان متعديًا إلى مفعولينِ كـ(رأى) العِلميَّةِ، أو الحُلميَّةِ- على رأيٍ- تعدَّى بالهمزةِ إلى ثلاثةِ مَفاعيلَ، وأبطَلَ (أبو حيان) تعدِّيَها إلى ثلاثةِ مَفاعيلَ بجوازِ حَذفِ الثَّالِثِ في هذا البابِ اقتصارًا- أي مِن غَيرِ دَليلٍ- تقولُ: رأيتُ زيدًا في النَّومِ، وأراني اللهُ زيدًا في النَّومِ، ولو كانت تتعدَّى لثلاثةٍ لِمَا حُذِفَ اقتصارًا؛ لأنَّه خبرٌ في الأصلِ. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٣٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٦١٥).

ثالثٌ- على القَولِ بأنَّ الرُّؤيا المناميَّةَ تتعدَّى لاثنينِ كالرُّؤيةِ العِلميَّةِ، و﴿كَثِيرًا﴾ كـ﴿قَلِيلًا﴾ إعرابًا.

﴿يُرِيكُمُوهُمْ﴾: الرُّؤيةُ هنا بصريَّةٌ لا غيرُ؛ لأنَّها كانت في اليَقَظةِ. وعلى ذلك فالكافُ في محلِّ نصبٍ، مفعولٌ به أوَّلُ، والميمُ للجَمعِ، وقد أُشبِعَت ضَمَّتُها إلى الواوِ، و (هم) في محلِّ نَصبٍ مَفعولٌ به ثانٍ. و﴿قَلِيلًا﴾ حالٌ لا غيرُ(١).

المَعنى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ اللهُ تعالى نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قائلًا له: اذكُر- يا مُحمَّدُ- حين أراك اللهُ في نَومِك جيشَ الكُفَّارِ في بَدرٍ قليلًا، فأعلَمْتَ أصحابَك بما رأيتَ، فَقَوِيتْ قُلوبُهم على قتالِ الكُفَّارِ، ولو أراكهم اللهُ في نَومِك كثيرًا، فأخبَرْتَ المُسلمينَ بذلك؛ لَجَبُنوا وتنازَعوا في قتالِ المُشركينَ، ولكِنَّ اللهَ سلَّم من ذلك؛ إنَّه عليمٌ بذاتِ الصُّدورِ.

وتأكيدًا لما حصَل مِن بُشرَى الرُّؤيا فقد أراكم الله في الواقعِ جيشَ الكفَّارِ قليلًا؛ لتتشَجَّعوا على قِتالِهم، وقلَّلَكم في أعيُنِهم لِيَستَهينوا بقتالِكم؛ لِيقضيَ اللهُ أمرًا مُقدَّرًا لا بدَّ مِن وُقوعِه؛ مِن قتالِ بعضِكم بعضًا يومَ بَدرٍ، وانتصارِ المسلمينَ، وإهلاكِ الكافرينَ، وإلى الله وَحدَه تُرجَعُ الأمورُ.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾﴾

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري))، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٣٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٦١٥)، ((إعراب القرآن الكريم)) للدعَّاس (١/ ٤٣١).

أي: اذكُر حين(١) أراكَ اللهُ في نَومِك- يا مُحمَّدُ- جيشَ الكافرينَ في بدرٍ، وهم قليلٌ، فأخبَرتَ المُسلمينَ برؤياك، فقَوِيَت قُلوبُهم على قتالِ الكافرينَ(٢).

﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾.

أي: ولو أراكَ اللهُ عَددَ الكافرينَ في منامِك كثيرًا، وأخبرتَ المُسلمينَ بذلك؛ لَجَبُنوا وخافوا، واختَلَفوا في قتالِ المُشركينَ(٣).

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾.

أي: ولكنَّ اللهَ سلَّم المسلمينَ مِن الفَشَلِ والتَّنازُعِ؛ بسبَبِ ما أراك في نَومِك مِن قِلَّةِ عَددِ الكافرينَ، فقَوِيَت قلوبُهم، وتجرَّؤوا على قتالِ عَدُوِّهم(٤).

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

أي: إنَّ اللهَ عليمٌ بما تُخفيه الصُّدورُ؛ مِن الإيمانِ والكُفرِ، والوساوسِ وغيرِ ذلك، لا يخفَى عليه شيءٌ سُبحانَه(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٠٨، ٢٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٧٠، ٧١).

قال ابنُ عطية: (تظاهرت الرِّواياتُ أنَّ هذه الآيةَ نزلتْ في رُؤيا رآها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، رأى فيها عددَ الكُفَّارِ قليلًا، فأخبَرَ بذلك أصحابَه، فقَوِيَت نفوسُهم، وحَرَصوا على اللِّقاءِ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٧١، ٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٠٩، ٢١١)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ١٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٧٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ تعالى ما نشأ عن رُؤيَتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن قِلَّتِهم، وما كان ينشأُ عن رؤيتِه الكثرةَ لو وقَعَت؛ أتبَعَه ما فعل مِن اللُّطفِ في رؤيتِهم بأنفُسِهم يقظةً[١].

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾.

أي: واذكروا حين[٢] أراكُم اللهُ في اليقظةِ- أيُّها المؤمنونَ- جيشَ الكافرينَ قليلًا عندَ اللقاءِ؛ لِتَتشجَّعوا على قتالِهم[٣].

عن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (لقد قُلِّلوا في أعيُنِنا يومَ بَدرٍ، حتى قُلْتُ لرَجُلٍ إلى جانِبي: تُراهم سبعينَ؟ قال: لا، بل هم مئةٌ، حتى أخَذْنا رجُلًا منهم فسَألْناه، قال: كنَّا ألفًا)[٤].

= (٤/ ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٧٢).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٧٢، ٧٣).
قال ابنُ عطية: (هذه الرُّؤيةُ هي في اليَقَظةِ بإجماعٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٥).
وقال الشِّنقيطي: (هذا رأيٌ في العينِ تَصديقًا لِرُؤياه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((العذب النمير)) (٥/ ٧٢).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٦٦٩٨)، وابن جرير في ((التفسير)) (٦٦٩٠)، وابن أبي حاتم في ((التفسير)) (٥/ ١٧١٠)، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (١٠/ ١٤٧) (١٠٢٦٩).
قال ابنُ حجر في ((المطالب العالية)) (٤/ ٣٨٧): (إسنادُه صحيحٌ، إن كان أبو عبيدةَ سَمِعَه من أبيه). وقال ابنُ رجب: (وأبو عبيدة، وإن لم يسمَعْ من أبيه، إلا أنَّ أحاديثه عنه صحيحةٌ، تلقَّاها عن أهلِ بَيتِه الثِّقات العارفين بحديث أبيه: قاله ابنُ المديني وغيره). ((فتح الباري)) (٧/ ٣٤٢).

﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعْيُنِهِمْ﴾.

أي: وقَلَّلكم في أعيُنِ الكافرينَ؛ لِيَروكم أقَلَّ ممَّا أنتم عليه، فيَستَهينوا بقتالِكم(١).

﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾.

أي: خيَّل اللهُ لكُلِّ فَريقٍ قِلَّةَ الفَريقِ الآخَرِ؛ لأجلِ أن يقَعَ ما قدَّره مِن قتالِ بَعضِهم بعضًا في بدرٍ، وانتصارِ المُسلمينَ، وإهلاكِ الكافرينَ(٢).

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

أي: وإلى اللهِ تعالى وَحدَه تَصيرُ جَميعُ أمورِ الخَلائقِ، فيحكُم فيهم بحُكمِه العَدلِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦).

قال ابن كثير: (ومعنى هذا أنَّه تعالى أغرى كُلًّا من الفريقينِ بالآخَرِ، وقلَّله في عَينِه؛ ليَطمَعَ فيه، وذلك عند المواجَهةِ، فلما الْتَحَم القتالُ وأيَّدَ اللهُ المؤمنينَ بألفٍ مِن الملائكةِ مُردِفينَ، بقِيَ حزبُ الكفَّارِ يرى حزبَ الإيمانِ ضِعفَيه، كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣]، وهذا هو الجمعُ بين هاتينِ الآيتين؛ فإنَّ كلًّا منها حقٌّ وصِدقٌ، ولله الحمدُ والمنة). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢١٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ١٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٧٣).

قال الشنقيطي: (﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ﴾ بذلك ﴿أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ في عِلمِه، وأزَلِه، مُنَفَّذًا في وَقْتِه لا محالةَ؛ لأنَّ اللهَ جَلَّ وعلا يقضي ويُقَدِّرُ، فيُقَدِّرُ كُلَّ ما شاء ثمَّ يقضيه مُنجَزًا في أوقاتِه، في أماكِنِه، على هَيئَتِه وصُوَرِه التي سبَقَ بها عِلْمُه). ((العذب النمير)) (٥/ ٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢١٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٧٣، ٧٤).

قال الشنقيطي: (وقد صار إليه هذا الأمرُ، وآل إليه، فنفذَ فيه مشيئته وقُدرَته، وهيَّأ الأسبابَ، حتى هَزَمَ الكفرةَ، وقَتَلَ صناديدَهم ورؤساءَهم، وكسَرَ شَوكتَهم على أيدي أوليائِه المسلمين، =

كما قال تعالى: ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

في قول الله تعالى: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ تنبيهٌ على أنَّ أمورَ الدُّنيا غيرُ مَقصودةٍ، وإنَّما المرادُ منها ما يَصلُحُ أن يكونَ زادًا لِيَومِ المَعادِ(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَوله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ إذا قيل: كيف يريهم الله قليلًا في منامه، ورؤيا الأنبياءِ حَقٌّ، والنبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يعلَمُ أنَّهم حوالَي ألف؟ والجوابُ: أنَّ رُؤيا النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حقٌّ، وتأويلَها حَقٌّ؛ لأنَّ معنى رؤياه أنَّ اللهَ قَلَّلَ كُلًّا مِن الطَّائِفَتينِ في عينِ الأُخرَى في اليَقظةِ، وهو معنى قَولِه: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾(٢).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ لَمَّا كان الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مَحميًّا مِن الفَشلِ، معصومًا مِن النَّقائِصِ؛ أسنَدَ الفَشلَ إلى من يُمكِنُ ذلك في حَقِّه، فقال تعالى: ﴿لَفَشِلْتُمْ﴾(٣).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ فيه أنَّ القَضاءَ والقَدَرَ قائمانِ بسُنَنِه تعالى في الأسبابِ والمُسَبَّبات، فهو لو شاء لخَلَقَ في القلوبِ والأذهانِ ما أراده بتأثيرِ مَنامِ الرَّسولِ، وبتقليلِ كُلٍّ مِن الجَمعينِ في أعيُنِ الآخَرِ، مِن غيرِ أن يُرَتِّبَهما على

= ونصَرَ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابَه، وأيَّدَهم بنَصرِه، وهذا قضاؤُه وقَدَرُه جلَّ وعلا، واللهُ يُهيِّئُ الأسبابَ، ولو شاء فعَلَ بلا سببٍ، إلَّا أنَّه اقتضت حِكمَتُه أن يُرتِّبَ المسبَّباتِ على أسبابٍ، ويُسبِّبَ للأشياءِ جلَّ وعلا، سبحانه وتعالى). ((العذب النمير)) (٥/ ٧٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٨٨).

(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حبان)) (٥/ ٣٣٠).

هذينِ السَّبَبينِ، ولكنَّه ناط كلَّ شَيءٍ بِسَببٍ، وخلقَ كلَّ شَيءٍ بِقَدَرٍ[١].

٤ - قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ هذا مِن بَديعِ صُنعِ اللهِ تعالى؛ إذ جعَلَ للشَّيءِ الواحِدِ أثَرينِ مُختَلِفينِ، وجعَلَ للأثَرينِ المُختَلِفينِ أثَرًا مُتَّحِدًا، فكان تخيُّلُ المسلمينَ قِلَّةَ المشركينَ مُقَوِّيًا لِقُلوبِهم، وزائدًا لِشَجاعَتِهم، ومُزيلًا للرُّعبِ عنهم، فعَظُم بذلك بأسُهم عند اللِّقاء؛ لأنَّهم ما كان لِيَفُلَّ من بأسِهم إلَّا شُعورُهم بأنَّهم أضعَفُ مِن أعدائِهم عَددًا وعُددًا، فلمَّا أُزيلَ ذلك عنهم بِتَخييلِهم قِلَّةَ عَدُوِّهم، خَلُصَت أسبابُ شِدَّتِهم ممَّا يُوهِنُها، وكان تخيُّلُ المُشركينَ قِلَّةَ المسلمين - أي كَونَهم أقَلَّ ممَّا هم عليه في نَفسِ الأمرِ - بَردًا على غَلَيانِ قُلوبِهم مِن الغَيظِ، وغارًّا إيَّاهم بأنَّهم سيَنالونَ التغَلُّبَ عليهم بأدنى قِتالٍ، فكان صارِفًا إيَّاهم عن التأهُّبِ لِقتالِ المُسلِمينَ، حتى فاجأهم جَيشُ المُسلمينَ، فكانت الدَّائرةُ على المُشرِكينَ، فنتج عن تخيُّلِ القِلَّتَينِ انتصارُ المُسلمينَ[٢].

٥ - جميعُ الأمورِ مَرجِعُها لله وَحدَه؛ يُصَرِّفُها بسُلطانِه، ويُوقِعُها بإرادتِه، ولا تنِدُّ عن قُدرتِه وحُكمِه، ولا ينفذُ شيءٌ في الوجودِ إلَّا ما قضاه وأجرى به قَدَره، قال تعالى: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾[٣].

بَلاغةُ الآيتين:

١ - قَولُه تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

- قوله: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ أُسنِدَت الإراءةُ إلى اللهِ تعالى؛

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦).

(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٥٢٧).

لأنَّ رُؤيا النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وحيٌ بمَدْلولِها[١].

- وفي قولِه: ﴿يُرِيكَهُمُ﴾ جاء التعبيرُ بصِيغة المُضارِع؛ لاسْتِحضارِ حالةِ الرُّؤيا العجيبةِ[٢].

- قولُه: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ مفعولُ ﴿سَلَّمَ﴾ ومُتعلَّقُه محذوفانِ إيجازًا؛ إذ دلَّ عليه قولُه: ﴿لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ﴾ والتَّقديرُ: سَلَّمَكم من الفَشلِ والتَّنازُعِ بأنْ سلَّمكم مِن سببِهما، وهو إراءتُكم واقعَ عددِ المشركينَ[٣].

- وقولُه: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ فيه وضْعُ الظَّاهِر موضِعَ المُضمَرِ - حيثُ لم يَقُلْ: (ولكنَّه سلَّم)-؛ وذلك لقَصْدِ زِيادةِ إسنادِ ذلك إلى اللهِ، وأنَّه بعنايته، واهتمامًا بهذا الحادثِ[٤].

- قولُه: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ تذييلٌ للمِنَّةِ، أي: أَوْحى إلى رَسولِه بتلك الرُّؤيا الرَّمزيَّةِ؛ لعِلْمِه بما في الصُّدورِ البشريَّةِ من تأثُّر النُّفوسِ بالمشاهداتِ والمحسوساتِ أكْثرَ ممَّا تتأثَّر بالاعتقاداتِ[٥].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ فيه تَكرارُ قوله: ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ حيثُ ذَكَره في الآيةِ المتقدِّمةِ: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢]، وليس ذلك محضَ تَكرارٍ؛ فالمقصودُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٢٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٢٥).

مِن ذِكرِه في الآيةِ المُتقدِّمةِ هو أنَّه تعالى فَعَل تِلك الأفعالَ ليَحصُلَ استيلاءُ المؤمنين على المشرِكينَ، على وجهٍ يكونُ مُعجزةً دالَّةً على صِدقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمقصودُ مِن ذِكرِه هاهنا: أنَّه تَعالَى قلَّلَ عَددَ المؤمِنِينَ في أعينِ المُشرِكين؛ فبيَّن هاهنا أنَّه إنَّما فَعَل ذلِك ليَصيرَ ذلك سببًا لئلَّا يُبالِغَ الكُفَّارُ في تَحصيلِ الاستعدادِ والحذَرِ؛ فيصيرُ ذلك سببًا لانكسارِهم(١).

- قوله: ﴿الْتَقَيْتُمْ﴾ الالتقاءُ افتعالٌ من اللِّقاءِ، وصيغةُ الافتعالِ فيه دالَّة على المُبالَغةِ(٢).

- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ خُولِفَ الأسلوبُ في حكايةِ إراءةِ المُشركينَ، وحكايةِ إراءةِ المُسلمينَ؛ لأنَّ المُشركينَ كانوا عددًا كثيرًا، فناسب أن يَحكيَ تقليلَهم بإراءَتِهم قليلًا، المؤذنة بأنَّهم ليسُوا بالقَليلِ. وأمَّا المُسلمونَ فكانوا عددًا قليلًا بالنِّسبةِ لعَدُوِّهم، فكان المناسِبُ لِتَقليلِهم: أن يُعَبَّر عنه بأنَّه (تقليلٌ)، المؤذِن بأنَّه زيادةٌ في قِلَّتِهم(٣).

- قولُه: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ تَذييلٌ معطوفٌ على ما قَبْلَه عطفًا اعتراضيًّا، وهو اعتراضٌ في آخِرِ الكلامِ(٤)، وفي هذا التَّذييلِ تنبيهٌ على أنَّ الحَوْلَ بأجمعِه للهِ تعالى، وأنَّ كلَّ أمرٍ فله وإليه(٥).

- والتعريفُ في قولِه: ﴿الْأُمُورُ﴾ للاستغراقِ، أي: جميعُ الأشياءِ(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٨٧)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٧٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٢٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٥).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨).

الآيات (٤٥-٤٧)

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾.

غَريبُ الكَلمات:

﴿رِيحُكُمْ﴾: أي: قُوَّتُكم وغَلَبَتُكم ودَولَتُكم(١).

﴿بَطَرًا﴾: أي: دفعًا للحقِّ، وفَخرًا وبَغيًا، وأَصلُ (بطر) يدلُّ على الشَّقِّ(٢).

﴿وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾: أي: ليَراهم النَّاسُ، ومُفاخرةً، وتكبرًا عليهم، راءَى فلانٌ يُرائي، وفعَلَ ذلكَ رِئاءَ النَّاسِ، وهو أنْ يفعلَ شيئًا ليَراه النَّاسُ، وأصلُه مِن الرُّؤيةِ(٣).

المَعنى الإجماليُّ:

يأمرُ اللهُ عبادَه المؤمنينَ إذا لَقُوا جماعةً مِن أعدائِهم مُحاربينَ لهم؛ أن يَثبُتوا في قتالِهم، ويَذكرُوا اللهَ كثيرًا؛ لعلَّهم يُفلِحونَ.

ويأمُرُهم أن يُطيعوه ويُطيعوا رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولا يختَلِفوا فيما

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٢).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٢).

بينهم فيَفشَلوا، وتخورَ قواهم، وتنحَلَّ عزائِمُهم، وأمَرَهم أن يَصبِروا؛ فإنَّه تعالى مع الصَّابرينَ.

ونهاهم أن يكونوا مثلَ كفَّارِ قُريشٍ، الذين خرجوا مِن منازلهم ردًّا للحَقِّ، ودَفعًا له، ولِيَفتَخِروا على النَّاسِ، ويَتَباهَوا بجَمعِهم، ويمنَعوا النَّاسَ مِن الدُّخولِ في الإسلامِ، واللهُ بما يعملونَ مُحيطٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا عَرَّفهم اللهُ تعالى بنِعَمِه ودلائِلِ عِنايتِه، وكشفَ لهم عن سرٍّ مِن أسرارِ نَصرِه إيَّاهم، وكيف خذل أعداءَهم، وصرَفَهم عن أذاهم، فاستتَبَّ لهم النَّصرُ مع قِلَّتِهم، وكثرةِ أعدائِهم- أقبلَ في هذه الآيةِ على أنْ يأمُرَهم بما يهيِّئُ لهم النَّصرَ في المواقِعِ كُلِّها، ويستدعي عنايةَ الله بهم وتأييدَه إيَّاهم، فجمع لهم في هذه الآيةِ ما به قِوامُ النَّصرِ في الحُروبِ[1].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ ﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنونَ، إذا لَقِيتُم جماعةً مُحاربينَ لكم مِن أعدائِكم، فاثبُتُوا لقتالِهم، ولا تتَزَعزعوا ولا تَفِرُّوا منهم[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢١٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ١٨١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٧٥).

عن أبي هُريرةَ رَضيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لا تَمَنَّوا لقاءَ العَدُوِّ، فإذا لَقيتُموهم فاصبِروا))(١).

وعن أبي النَّضرِ، عن كتابِ رجلٍ مِن أسلمَ مِن أصحابِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، يقال لهُ عبدُ اللهِ بنُ أبي أَوفَى، فكتب إلى عمرَ بنِ عُبيدِ اللهِ، حين سار إلى الحَروريَّةِ، يخبرُه أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان في بعضِ أيَّامِه التي لقيَ فيها العدوَّ، ينتظرُ حتى إذا مالتِ الشمسُ قام فيهم، فقال: ((يا أيُّها الناسُ، لا تتمَنَّوا لقاءَ العدوِّ، واسألوا اللهَ العافيةَ، فإذا لَقِيتُموهم فاصبِروا، واعلموا أنَّ الجنةَ تحتَ ظِلالِ السُّيوفِ، ثم قام النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وقال: اللَّهم مُنْزِلَ الكتابِ، ومُجْرِيَ السَّحابِ، وهازمَ الأحزابِ، اهْزِمْهم وانصُرْنَا عليهم))(٢).

﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾.

أي: واذكُروا اللهَ تعالى عند لقاءِ العَدُوِّ ذكرًا كثيرًا؛ بقُلوبِكم وألسِنَتِكم؛ لِتُدرِكوا ما تَطلبونَ مِن الانتصارِ على عَدُوِّكم(٣).

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦﴾.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٣٠٢٦) ومسلم (١٧٤١).

(٢) رواه البخاري (٢٩٦٥)، ومسلم (٢٥٠٩) واللفظ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٧٥).
قال ابنُ عطيةَ: (وهذا ذِكرٌ خَفِيٌّ؛ لأنَّ رَفعَ الأصواتِ في مَوطِنِ القِتالِ رَديءٌ مَكروهٌ، إذا كان إلغاطًا، فأمَّا إن كان مِنَ الجَمعِ عند الحَمْلةِ، فحَسَنٌ فاتٌّ في عَضُدِ العَدُوِّ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٦).

أي: وأطيعُوا اللهَ ورَسولَه- أيُّها المؤمنونَ- بامتثالِ أمْرِهما، واجتنابِ نَهْيِهما(١).

﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا﴾.

أي: ولا تَختَلفوا فيما بينكم، فتَضعُفوا، وتجبُنوا عن قتالِ عَدُوِّكم(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وعن أبي موسى الأشعريِّ رَضيَ الله عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعَثَه ومُعاذًا إلى اليَمنِ فقال: ((يَسِّرا ولا تُعَسِّرا، وبشِّرا ولا تُنفِّرا، وتطاوَعا ولا تختَلِفا))(٣).

﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾.

أي: وتَخورَ قُواكم، وتنحَلَّ عَزائِمُكم، فلا تَنتَصِروا بسببِ تَنازُعِكم(٤).

﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

أي: واصبِروا عند لقاءِ عَدُوِّكم؛ إنَّ اللهَ مع الصَّابرين، بالنَّصرِ والتَّأييدِ(٥).

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٢).

قال ابنُ كثيرٍ: (في حالِهم ذلك). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٢).

وقال السعدي: (في جميعِ الأحوالِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٨١).

(٣) رواه البخاري (٣٠٣٨) ومسلم (١٧٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢١٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢١٤، ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٨٨).

عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٤٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه بعد أنْ أمَرَ الله تعالى عبادَه المؤمنينَ بما أمَرَ به؛ من جلائِلِ الصِّفاتِ، وأحاسِنِ الأعمالِ، التي جرَتْ سُنَّتُه بأنْ تكونَ سببَ الظَّفَر في القتالِ، ونهاهم عن التَّنازُع- نهاهم عمَّا كان عليه خُصومُهم مِن مُشركي مكَّةَ حين خرجوا لحمايةِ العِيرِ؛ من الصِّفاتِ الرديئةِ، وذكر لهم بعضَ أحوالِهم القَبيحةِ[1]، فقال:

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾.

أي: ولا تكونوا- أيُّها المؤمنونَ- مِثلَ كُفَّارِ قُريشٍ[2] الذين خرَجُوا مِن مَنازِلهم ردًّا للحَقِّ، ودفعًا له، غيرَ شاكرينَ لنِعَمِ الله تعالى عليهم، وليَفتَخِروا على النَّاسِ، ويتباهَوا بجَمعِهم[3].

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال:

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٢٤).

(٢) قال ابنُ عطيةَ: (﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ...﴾ الآية، آية تتضمنُ الطعنَ على المشارِ إليهم، وهم كفارُ قريش، وخرَج ذلك على طريقِ النَّهي عن سلوكِ سبيلِهم، والإشارةُ هي إلى كفارِ قريشٍ بإجماعٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢١٦، ٢٢٠)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٩٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٣).

قال ابنُ كثير: (يقول تعالى بعد أمْرِه المُؤمنينَ بالإخلاصِ في القِتالِ في سبيلِه، وكَثرةِ ذِكْرِه، ناهيًا لهم عن التشبُّه بالمُشركينَ في خُروجِهم من ديارِهم ﴿بَطَرًا﴾ أي: دفعًا للحَقِّ، ﴿وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ وهو: المُفاخَرةُ والتكبُّرُ عليهم، كما قال أبو جهل- لَمَّا قيل له: إنَّ العيرَ قد نجا فارجِعوا- فقال: لا واللهِ، لا نرجِعُ حتى نَرِدَ ماءَ بَدرٍ، وننحَرَ الجُزُرَ، ونشرَبَ الخَمرَ، وتعزِفَ علينا القِيانُ، وتتحَدَّثُ العَرَبُ بمكانِنا فيها يومَنا أبدًا). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٢).

((الكِبرُ: بَطَرُ الحقِّ[١]، وغَمْطُ النَّاسِ[٢]))[٣].

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

أي: وخَرَجوا لِيَمنَعُوا النَّاسَ مِن الدُّخولِ في الإسلامِ[٤].

﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

أي: واللهُ عالِمٌ بما يعمَلُ أولئك المُشركونَ؛ مِن الرِّياءِ، والصَّدِّ عن سبيلِ اللهِ، وغيرِ ذلك، لا يخفَى عليه شيءٌ من أعمالِهم الظَّاهِرة والباطنةِ[٥].

الفَوائد التربويَّة:

١ - قولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ أمَرَ فيه المجاهدينَ بخمسةِ أشياءَ، ما اجتمعَتْ في فئةٍ قَطُّ إلَّا نُصِرَت، وإن قَلَّتْ وكَثُر عَدُوُّها؛ أحدها: الثَّبات. الثاني: كثرةُ ذِكرِه سبحانه وتعالى. الثالث: طاعَتُه وطاعةُ رسولِه. الرابع: اتِّفاقُ الكَلِمةِ وعَدمُ التَّنازُعِ الذي يوجِبُ الفَشَلَ والوَهَنَ. الخامس: مِلاكُ ذلك كلِّه وقِوامُه وأساسُه، وهو الصَّبرُ. فهذه خمسةُ أشياءَ تُبتَنى عليها قُبَّةُ النَّصرِ، ومتى زالت أو بعضُها زال مِن النَّصرِ بحسَبِ ما نقَصَ منها، وإذا اجتمَعَت قَوَّى بعضُها بعضًا، وصار لها أثرٌ عَظيمٌ في النَّصرِ، ولَمَّا اجتمَعَت في الصَّحابةِ، لم تقم لهم أمَّةٌ مِن الأمَمِ، وفَتَحوا الدُّنيا،

---

(١) بَطَرُ الحَقِّ: أي: دَفعُه وإنكارُه؛ ترفُّعًا وتَجبُّرًا. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ٩٠).

(٢) غَمْطُ النَّاسِ: أي: احتِقارُهم والاستهانةُ بهم. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٣٨٧).

(٣) رواه مسلم (٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٢٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٦٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٢٠)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٣).

ودانت لهم البلادُ، ولَمَّا تفرَّقَت فيمن بعدَهم وضَعُفَت، آلَ الأمرُ إلى ما آلَ(١).

٢- قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾ أمَرَ بالثَّباتِ عند قتالِ الكفَّارِ، كما في الآيةِ قَبلَها النَّهيُ عن الفِرارِ عنهم، وهي قولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾ فالتقى الأمرُ والنَّهيُ على سواءٍ، وهذا تأكيدٌ على الوقوفِ للعَدُوِّ والتجَلُّدِ له(٢).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فيه إشعارٌ بأنَّ على العبدِ ألَّا يَفتُرَ عن ذِكرِ ربِّه أشغَلَ ما يكون قلبًا، وأكثَرَ ما يكونُ هَمًّا، وأن تكونَ نَفسُه مُجتَمِعةً لذلك، وإن كانت مُتَوزِّعةً عن غيرِه(٣)، فقد أمر الله تعالى بالإكثارِ مِن ذِكرِه في أضيَقِ الأوقاتِ- وهو وقتُ الْتحامِ القتالِ- ففي ذلك دليلٌ واضِحٌ على أنَّ المُسلِمَ ينبغي له الإكثارُ مِن ذِكرِ اللهِ على كلِّ حالٍ، ولا سيَّما في وقتِ الضِّيقِ(٤).

٤- قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ السِّلاحُ الأكبرُ في ميادينِ القِتالِ هو ذِكرُ اللهِ جلَّ وعلا، وطاعَتُه وامتثالُ أمرِه؛ لأنَّه هو الذي منه النَّصرُ والمَدَدُ(٥).

٥- قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ تدُلُّ على أنَّ الذين إذا لَقُوا فئةً مِن فئاتِ الكفَّارِ في ميدانِ القِتالِ، ولم يَثبُتوا، أو لم يَذكُروا اللهَ كثيرًا؛ أنَّهم لا يُفلِحونَ(٦).

---

(١) يُنظر: ((الفروسية)) لابن القيم (ص: ٥٠٥، ٥٠٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٢٦).
(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٠٢).
(٥) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٧٨).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٨٠).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الثَّباتَ في القِتالِ، هو من أسبابِ النَّصرِ المَعنويَّةِ، التي يحصُلُ بها ما يُعبَّرُ عنه في عُرفِ العَصرِ بالقُوَّةِ الرُّوحيَّةِ[(١)].

٧- الجهادُ لا ينفَعُ إلَّا مع التمسُّكِ بسائِرِ الطَّاعات؛ يبيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بعد قَولِه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾[(٢)].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ فيه ذَمُّ الاختلافِ، والنَّهيُ عن التفَرُّقِ والتَّنازُعِ[(٣)].

٩- قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا﴾، أكبَرُ أسبابِ النِّزاعِ: تقديمُ المصالحِ الشَّخصيَّةِ والأغراضِ الدُّنيويةِ على المصالِحِ العامَّةِ، وهذه أكبَرُ البلايا التي يأتي مِن قِبَلِها الشَّرُّ للمُسلمين؛ لأنَّه قد يخالِفُ بعضُ المسلمينَ، فتكونُ العقوبةُ عامَّةً للجميعِ[(٤)].

١٠- التَّنازُعُ يُفضي إلى التفرُّقِ، وهو يُوهِنُ أمرَ الأمَّةِ؛ لذا قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[(٥)].

١١- قولُه تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ فيه دلالةٌ على وجوبِ الصَّبرِ، وكَونِه أعظَمَ أسبابِ النَّصرِ؛ ولذلك عَظَّمَ اللهُ تعالى شأنَه بِقَولِه بعد الأمرِ بطاعَتِه وطاعةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٨٩).

(٣) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٩٧).

(٤) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٨٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٣٢).

رَسولِه وبِذِكْرِه: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾، وأيُّ بيانٍ لِفائدةِ الصَّبرِ أبلَغُ مِن إثباتِ مَعيَّةِ اللهِ تعالى لأهلِه(١)؟!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قولِ الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾ إن قيل: هذه الآيةُ تُوجِبُ الثَّباتَ على كلِّ حالٍ، وهذا يوهِمُ أنَّها ناسخةٌ لآيةِ التحَرُّفِ والتحيُّزِ، فالجوابُ: أنَّ هذه الآيةَ تُوجِبُ الثَّباتَ في الجملةِ، والمرادُ مِن الثَّباتِ الجِدُّ في المحاربةِ، وآيةُ التَّحرُّفِ والتحيُّزِ لا تقدَحُ في حصولِ الثَّباتِ في المحاربةِ، بل كان الثَّباتُ في هذا المقصودِ، لا يحصُلُ إلَّا بذلك التحرُّفِ والتَّحيُّزِ(٢).

٢- في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ قَرنَ الذِّكرَ بالجِهادِ، فأمَرَ بذِكرِه عند مُلاقاةِ الأقرانِ ومُكافحةِ الأعداءِ، والمُحِبُّون يفتخِرونَ بذِكرِ مَن يُحِبُّونه في هذه الحالِ، وهذا كثيرٌ في أشعارِ العَرَبِ، وهو ممَّا يدُلُّ على قُوَّةِ المحبَّةِ؛ فإنَّ ذِكْرَ المُحِبِّ مَحبوبَه في تلك الحالِ التي لا يُهِمُّ المرءَ فيها غيرُ نَفسِه، يدُلُّ على أنَّه عنده بمنزلةِ نَفسِه أو أعَزُّ منها، وهذا دليلٌ على صِدْقِ المحبَّةِ(٣).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ لَمَّا كان التَّنازُعُ مِن شَأنِه أن ينشَأَ عن اختلافِ الآراءِ، وهو أمرٌ مُرتكِزٌ في الفِطرةِ- بسَطَ القرآنُ القَولَ فيه ببيانِ سَيِّئِ آثارِه، فجاء بالتَّفريعِ بالفاءِ في قَولِه: ﴿فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾؛ فحَذَّرهم أمرينِ مَعلومًا سُوءُ مَغَبَّتِهما: وهما الفَشَلُ وذَهابُ الرِّيحِ(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٢٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٨٩).
(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٣٩٩، ٤٠٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٣١).

٤- في قولِه تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ دليلٌ على أنَّه لا يَصْلُحُ في الحرب إلَّا مُدَبِّرٌ واحدٌ؛ وأنَّ منازعتَه، والخلافَ عليه داعٍ إلى الفشلِ، وتشويش الأمر، والصبرُ- واللهُ أعلمُ- في الآية جامعٌ للثباتِ، ولزومِ طاعةِ الأمير في تدبير الحرب[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فيه تَصديرُ الخِطابِ بحَرْفَيِ النِّداءِ والتَّنبيهِ؛ إظهارًا لكَمالِ الاعْتِناء بمضمونِ ما بعدَه[2]؛ فافتُتِحتْ هذه الوصايا بالنِّداءِ اهتمامًا بها، وجُعِلَ طريقُ تعريفِ المُنادى طريقَ الموصوليَّة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ لِمَا تُؤذِنُ به الصِّلةُ من الاسْتِعدادِ لامتثالِ ما يَأمرُهم به اللهُ تعالى؛ لأنَّ ذلك أَخصُّ صِفاتِهم تِلْقاءَ أوامِر الله تعالى[3].

- وقولُه: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ فيه تَرْكُ وَصْفِ الفِئةِ إيجازًا؛ لأنَّ المؤمنِينَ ما كانوا يَلْقَون إلَّا الكُفَّار؛ فالمرادُ: فئةٌ كافرةٌ، وحُذِفتْ؛ لأنَّ الخِطابَ للمُؤمنِينَ، وهم لا يُحارِبونَ إلَّا فِئةً مِن المشرِكين، أو الباغين، فحُذِفَ للإيجازِ مِن غيرِ إخلالٍ بالمعنى[4].

٢- قوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٤٧١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٩).
(٤) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ١٨١)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٣١).

- قولُه: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ فيه تَتْميمٌ في الوصيَّة، وعِدَةٌ مُؤنِسةٌ؛ وذلك أنَّ كمالَ أمْر الجِهادِ مبنيٌّ على الصَّبر؛ فأمَرَهم بالصَّبر[١].

- وقوله: ﴿وَاصْبِرُوا﴾ بمنزلةِ التَّذييلِ؛ لأنَّ الصَّبرَ هو تَحمُّلُ المكروهِ، وما هو شديدٌ على النَّفْسِ، وتلك المأموراتُ كلُّها تحتاجُ إلى تَحمُّلِ المكارِهِ؛ فالصَّبرُ يَجمَعُ تَحمُّلَ الشَّدائدِ والمصاعِب[٢].

- وجملةُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ قائمةٌ مقامَ التعليلِ للأمْرِ ﴿وَاصْبِرُوا﴾؛ لأنَّ حَرْف التَّأكيدِ ﴿إِنَّ﴾ في مِثلِ هذا قائمٌ مقامَ فاءِ التَّفريع[٣].

٣- قولُه: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾

- قولُه: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ...﴾ جِيءَ في نَهْيِهم عن البَطَر والرِّئاء بطَريقةِ النَّهيِ عن التشبُّهِ بالمشركين؛ إدماجًا للتَّشنيعِ بالمشركين وأحوالِهم، وتَكريهًا للمُسلِمينَ تلك الأحوالَ؛ لأنَّ الأحوالَ الذَّميمةَ تتَّضِح مذمَّتُها، وتَنكشِف مزيدَ الانكشاف إذا كانت من أحوالِ قومٍ مذمومين عند آخَرينَ، وذلك أبلغُ في النَّهي، وأكْشَفُ لقُبْح المنهيِّ عنه[٤]، وتَضمَّن هذا الأسلوبُ الطَّعنَ على المُشارِ إليهم، وهم كفَّارُ قريشٍ، وخرَج ذلك على طَريقِ النَّهي عن سُلوكِ سبيلِهم[٥].

- قولُه: ﴿بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فيه ذِكرُ البَطرِ والرِّئاءِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٧)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٩٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٣٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٧).

بِصِيغةِ الاسمِ، وذِكرُ الصَّدِّ عن سَبيلِ اللهِ تعالى بِصِيغةِ الفِعلِ؛ لأنَّ المشرِكين كانوا مَجبولِينَ على البَطرِ والمفاخرةِ والعُجبِ، وأمَّا صدُّهم عن سَبيلِ اللهِ فإنَّما حصَلَ في الزَّمانِ الذي بُعِث فيه النبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ فوَصَفَهم بالمَصدرِ؛ للمُبالغةِ في تمكُّن الصِّفتين منهم؛ لأنَّ البَطَرَ والرِّياءَ خُلُقانِ مِن خُلُقهم، فالتعبيرُ عنهما بالاسمِ فيه إشارةٌ إلى الثَّباتِ، وجاء الفِعْلُ ﴿يَصُدُّونَ﴾ بِصِيغةِ الفِعْلِ المضارعِ؛ للدَّلالةِ على حُدوثِ صَدِّهم النَّاسَ عن سَبيلِ الله، وتَجدُّدِه[1].

- وصِيغةُ المُفاعَلةِ في ﴿وَرِئَاءَ﴾؛ للمُبالغةِ أيضًا، أي: بالَغَ في إراءة النَّاس عمَلَه؛ مَحبَّةَ أن يَروه ليَفخرَ عليهم[2].

- قوله: ﴿وَاللَّهُ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ خِتامُ هذه الآيةِ فيه وعيدٌ وتهديدٌ لِمَن بَقِي من الكُفَّار، ونفوذُ القَدَر فيمَنْ مَضَى بالقَتْل؛ إذ الإنسانُ ربَّما أَظْهَر من نَفْسه أنَّ الحاملَ له والدَّاعي إلى الفِعلِ المخصوصِ طلبُ مَرضاةِ اللهِ تعالى، مع أنَّه لا يكونُ الأمرُ كذلك في الحَقيقةِ؛ فبيَّن اللهُ سبحانه أنَّه عالمٌ ومحيطٌ بما في دواخِلِ القلوبِ، وذلك كالتَّهديد والزَّجرِ عن الرِّئاءِ والتصنُّعِ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٧)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٩١)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٣٣).

الآيتان (٤٨-٤٩)

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٤٨) إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٩)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿جَارٌ لَّكُمْ﴾: أي: مُجِيرٌ لكم، ومانعُكم منهم[١].

﴿تَرَاءَتِ﴾: أي: تقابَلَت وتَلاقَت. وتراءى القَومُ: إذا رأى بعضُهم بعضًا، وأصلُ (رأى): يدلُّ على نظَرٍ وإبصارٍ بِعَينٍ[٢].

المَعنى الإجماليُّ:

واذكُرْ- يا مُحمَّدُ- حين زيَّنَ الشَّيطانُ لكُفَّارِ قُريشٍ أعمالَهم القبيحةَ، وقال لهم: لن يستطيعَ أحدٌ أن يَغلِبَكم اليومَ، وإنِّي مُجيرٌ لكم، فلمَّا تقابلَ المُسلمونَ والكُفَّارُ، ونظَرَ بعضُهم إلى بعضٍ؛ قال الشَّيطانُ لكُفَّارِ قُريشٍ: إنِّي بريءٌ منكم، إنِّي أخشى اللهَ، واللهُ شَديدُ العقابِ.

ثم قال تعالى: اذكُرْ حين يقولُ المُنافِقونَ والذين في قُلوبِهم شَكٌّ: غرَّ المُسلمين دينُهم حتى تكلَّفوا قِتالَ قُريشٍ، وهم أكثرُ وأشَدُّ قوَّةً منهم! ومَن يُفَوِّضْ أمْرَه لله فإنَّ اللهَ عزيزٌ حكيمٌ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٢٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧٢- ٤٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٠).

تَفسيرُ الآيتين:

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ الله تعالى فَسادَ أعمالِ المشركينَ لفسادِ نِيَّاتِهم؛ تنفيرًا منها- زاد في التَّنفيرِ بذِكرِ العَدُوِّ المُبين، والتنبيهِ على أنَّ كُلَّ ما يأمُرُ به، إنَّما هو خيالٌ لا حقيقةَ له[(١)].

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

أي: واذكُرْ[(٢)]- يا مُحمَّدُ- حين حسَّن إبليسُ لكفَّارِ قُريشٍ أعمالَهم القبيحةَ[(٣)] في أعيُنِهم وقُلوبِهم[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٦٠).
وقال ابن جرير: (فتأويلُ الكَلامِ: وإنَّ اللهَ لَسميعٌ عَليمٌ في هذه الأحوالِ، وحينَ زَيَّنَ لهم الشيطانُ خُروجَهم إليكم- أيُّها المؤمنونَ- لِحَربِكم وقِتالِكم، وحسَّنَ ذلك لهم، وحَثَّهم عليكم). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٢٥).

(٣) قال ابن الجوزي: (وفي المرادِ بأعمالهم هاهنا ثلاثةُ أقوالٍ: أحدها: شِرْكُهم. والثاني: مَسيرُهم إلى بدرٍ. والثالث: قتالُهم لرسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((زاد المسير)) (٢/ ٢١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٩٤).
قال أبو حيان: (الجمهورُ على أنَّ إبليسَ تصوَّر لهم). ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٣٤). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٣).
وقال الشنقيطي: (اللهُ هنا في هذه الآيةِ مِن سورةِ الأنفالِ صرحَّ بأنَّ الشَّيطانَ (قال) ولم يقُل: (وسوس)، فصرَّحَ بالقولِ ولم يذكُرِ الوسوسةَ). ((العذب النمير)) (٥/ ٩٩). =

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: (جاء إبليسُ يومَ بَدرٍ في جُندٍ مِن الشَّياطين، معه رايتُه، والشَّيطانُ في صورةِ رَجُلٍ من بني مُدلِجٍ، في صورةِ سُراقةَ بنِ مالكِ بنِ جُعْشُمٍ، فقال الشَّيطانُ للمُشركينَ: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾ فلمَّا اصطفَّ النَّاسُ، أخذ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قبضةً مِن التُّرابِ، فرمى بها في وُجوهِ المُشركينَ، فوَلَّوا مُدبرين. وأقبل جبريلُ إلى إبليسَ، فلما رآه، وكانت يدُه في يدِ رَجُلٍ مِن المشركينَ، انتزعَ إبليسُ يَدَه، فولَّى مُدبِرًا هو وشيعَتُه، فقال الرَّجلُ: يا سراقةُ، تزعُمُ أنَّك لنا جارٌ؟ قال: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وذلك حين رأى الملائكةَ)(١).

﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾.

أي: وقال إبليسُ لكفَّارِ قُريشٍ: لا يُطيقُ أحدٌ من النَّاسِ اليومَ أن يتغلَّبَ عليكم؛ لِكَثرتِكم وقوَّتِكم(٢).

﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾.

= وقال ابن تيمية: (قد يتمثَّل الجنيُّ في صورةِ الإنسيِّ، حتى يظُنَّ الظانُّ أنَّه الإنسيُّ، وهذا كثيرٌ؛ كما تصوَّرَ لقُريشٍ في صورة سراقةَ بنِ مالكِ بنِ جُعشُمٍ). ((النبوات)) (٢/ ١٠٥٣).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في ((التفسير)) (٥/ ١٧١٥)، وابن جرير في ((تفسيره)) (١٦١٨٣)، مِن طريقِ عليِّ بن أبي طلحة عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما.
وعليٌّ لم يسمعْ من ابنِ عبَّاس، لكن الواسطة بينه وبين ابن عباس مجاهدٌ؛ حيث أخذ تفسيرَه منه.
قال الحافظ في ((التهذيب)): ((بعد أن عُرِفت الواسطة، وهو ثقة (يعني مجاهدًا)؛ فلا ضير في ذلك)).
وقال الإمام أحمد: ((بمصرَ صحيفةٌ في التفسير رواها علي بن أبي طلحة، لو رحل فيها رجلٌ إلى مصر قاصدًا ما كان كثيرًا)) اهـ.

(٢) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٢٥)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٣).

أي: وإنِّي مُجيرٌ لكم، وحافظٌ لكم من أن يَأتيَكم أحدٌ تَخشَونَه، فأنتم في ذِمَّتي وحِمايَ(١).

وكلُّ ذلك منه، كما قال الله تعالى عنه: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

﴿فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾.

أي: فلمَّا نظر كلُّ فريقٍ إلى الآخَرِ- حِزب الله، وحِزب الشَّيطان- يومَ بَدرٍ؛ رجعَ إبليسُ القَهقرى(٢) هاربًا(٣).

﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ﴾.

أي: وقال إبليسُ لكفَّارِ قُريشٍ عندما فرَّ وخَذَلهم: إنِّي أتبرَّأُ منكم(٤).

كما قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٢٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٦٥)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٣).
قال أبو حيان: (يحتمِلُ أن يكونَ قَولُه: ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾ معطوفًا على ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ﴾، ويحتمِلُ أن تكونَ الواوُ للحالِ، أي: لا أحَدَ يَغلِبُكم، وأنا جارٌ لكم، أُعِينُكم وأنصُرُكم بنفسي وبِقَومي). ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٣٤).
وقال السعدي: (﴿وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾ مِن أن يأتِيَكم أحدٌ مِمَّن تَخشَونَ غائِلتَه؛ لأنَّ إبليسَ قد تبدَّى لِقُريشٍ في صورةِ سُراقةَ بنِ مالكِ بنِ جُعشُم المُدْلِجيِّ، وكانوا يخافونَ مِن بني مُدْلِجٍ؛ لعداوةٍ كانت بينهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٣). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٦٠).
(٢) القَهْقَرَى: الرُّجوعُ إلى خَلْفٍ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢٦١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٢٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٦٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٠٠، ١٠١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٠٠).

وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾.

أي: قال إبليسُ لكفَّارِ قُريشٍ مبيِّنًا سببَ خِذلانِه لهم، وفِرارِه عنهم: إنِّي أرى الملائكةَ الَّتي نزَلَت لتأييدِ المُسلمينَ، وأنتم لا ترَونَهم[1].

﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾.

أي: إنِّي أخافُ أن يعاقِبَني اللهُ في الدُّنيا، فأهلِكَ معكم[2].

﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

أي: واللهُ شديدُ التَّنكيلِ بمن خالَفَه، وكفَرَ به[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٤٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٠٢).

قال ابنُ عطيةَ: (قيل: إنَّ هذه مَعذِرةٌ منه كاذِبةٌ، ولم تَلْحَقْه قطُّ مَخافةٌ، قاله قتادةُ وابنُ الكلبيِّ. وقال الزجَّاجُ وغيرُه: بل خاف ممَّا رأى مِن الأمْرِ وهَوْلِه، وأنَّه يَوْمُه الذي أُنظِرَ إليه، ويُقَوِّي هذا أنَّه رأى خَرْقَ العادةِ، ونُزولَ الملائكةِ للحَرْبِ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٩).

وقال ابنُ القيِّمِ: (صَدَقَ في قَولِه: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾، وكذَبَ في قَولِه: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾، وقيل: كان خَوفُه على نفسِه أن يَهلِكَ معهم، وهذا أظهَرُ). ((زاد المعاد)) (٣/ ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٧٥)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٣٠٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٠٢).

قال الواحدي: (وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ يجوزُ أن يكونَ مُتَّصلًا بما أخبَرَ به عن إبليسَ، ويجوز أن ينقطِعَ كلامُه عند قوله: ﴿أَخَافُ اللَّهَ﴾، فقال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾). ((البسيط)) (١٠/ ١٩٢).

﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٩) ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

مُناسَبةُ ذِكرِ هذا الخبَرِ عَقِبَ قَولِه تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ..﴾ هي أنَّ كِلا الخبَرَينِ يتضمَّنُ قُوَّةَ جيشِ المُشركينَ، وضَعفَ جَيشِ المُسلمين، ويقينَ أولياءِ الشَّيطانِ بأنَّ النَّصرَ سيكونُ للمُشركينَ على المُسلمينَ[1].

﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ ﴾.

أي: اذكُرْ[2]- يا مُحمَّدُ- حينَ قال المُنافِقونَ الذين يُبطِنونَ الكُفرَ، ويُظهِرونَ الإسلامَ، والذين في قُلوبِهم شَكٌّ[3]: غرَّ الإسلامُ هؤلاءِ المُسلمينَ وخدَعهم، حتى تكلَّفوا قتالَ قُريشٍ، وهم أكثَرُ منهم، وأشَدُّ قُوَّةً، فلا طاقةَ لهم بذلك[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٣٧).

(٢) قال الشنقيطي: (قولُه: ﴿إِذْ﴾ ظرفٌ، بدلٌ مِن «إذ» قبلَه، أو منصوبٌ بـ (اذكر) مقدرًا. اذكرْ إذ يقولُ المنافقونَ). ((العذب النمير)) (٥/ ١٠٣). وفي العاملِ في ﴿إِذْ﴾ أقوالٌ أخرَى، يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٣٥).

(٣) قيل: المرادُ بالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ نفسُ المنافقينَ، وهو مِن عطفِ الصِّفاتِ، وهي لموصوفٍ واحدٍ، ويُؤيِّد هذا القولَ: أنَّ الله وصَف المنافقينَ بأنَّ في قلوبِهم مرضًا في قولِه: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠] وهي في المنافقين بلا نزاع.
وقيل: هم قومٌ تكلَّموا بكلمةِ الإسلامِ في مكةَ، وأبوا أن يُهاجروا، ففي قلوبِهم إيمانٌ ضعيفٌ، جاءوا مع كفارِ قريشٍ، فلما رأوا قلةَ المسلمينَ ارتابوا وقالوا ذلك، وكان الله قلَّل المسلمينَ في أعينِ الكفارِ، والكفارَ في أعينِ المسلمينَ. وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٢١٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٣٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٦١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٣٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٣)، ((العذب =

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

مناسبتُها لما قبلها:

المناسبةُ بينها وبينَ الجملةِ الَّتي قبلَها: أنَّها كالعِلَّةِ لخيبةِ ظُنونِ المشركين ونُصَرائِهم، أيْ أنَّ اللَّه خَيَّب ظُنونَهم؛ لأنَّ المسلمينَ تَوَكَّلوا عليه، وهو عزيزٌ لا يُغْلَبُ، فمَنْ تمَسَّك بالاعتمادِ عليه نصَره، وهو حكيمٌ يُكوِّنُ أسبابَ النَّصرِ مِن حيثُ يجهَلُها البشرُ[1]، قال الله تعالى:

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

أي: ومَن يُفَوِّض أمْرَه إلى اللهِ، ويعتَمِدْ عليه، ويَثِقْ به؛ فإنَّ اللهَ يُعِزُّه ويحفَظُه وينصُرُه؛ لأنَّ الله عزيزٌ، لا يَغلبُه ولا يقهَرُه شيءٌ، حكيمٌ في تدبيره، فلا يدخُلُه خلَلٌ، ويضَعُ كلَّ شيءٍ مَوضِعَه اللَّائِقَ به، فينصُرُ مَن يستحِقُّ النَّصرَ، ويعذِّبُ مَن يستحِقُّ العذابَ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣].

الفَوائد التربويَّة:

١- مَبدأُ الاعتقادِ الباطِلِ، والإرادةِ الفاسِدةِ: مِن لَمَّةِ[3] الشَّيطانِ؛ قال الله

= النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٠٣، ١٠٤، ١٠٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٢٩)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٠٨).

(٣) قال ابنُ تيميةَ: (ولَمَّةُ الشَّيطانِ هو تكذيبٌ بالحقِّ وإيعادٌ بالشَّرِّ، وهو ما كان مِنْ جنسِ إرادةِ الشَّرِّ، وظَنِّ وجودِه: إمَّا معَ رجائِه إنْ كان معَ هوَى نفسٍ، وإمَّا معَ خوفِه إنْ كان غيرَ محبوبٍ لها). ((مجموع الفتاوى)) (٤/ ٣٣).

تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾(١).

٢- مِن كَيدِ الشَّيطانِ للإنسانِ: أنَّه يُورِدُه المواردَ التي يُخَيِّلُ إليه أنَّ فيها مَنفَعتَه، ثم يُصدِرُه المصادِرَ التي فيها عطَبُه، ويتخلَّى عنه ويُسْلِمُه، ويقِفُ يَشمَتُ به، ويضحَكُ منه؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾(٢).

٣- في قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ دَلالةٌ على أنَّ النصرَ إنَّما يكونُ بالتوكُّلِ على اللهِ سُبحانه، لا بالكثرةِ ولا بالعُدَدِ؛ فاللهُ عزيزٌ لا يُغالَبُ، حكيمٌ ينصرُ مَن يستحقُّ النصرَ- وإنْ كان ضعيفًا- فعزَّتُه وحكمتُه أوجبَت نَصرَ الفئةِ المتوكِّلةِ عليه(٣).

٤- مَن يُسلِّمْ أمرَه إلى اللهِ ويَثِقْ بفَضلِه، ويُعَوِّلْ على إحسانِه؛ فإنَّ اللهَ حافِظُه وناصِرُه؛ لأنَّه عزيزٌ لا يَغلِبُه شَيءٌ، حكيمٌ يُوصِلُ العذابَ إلى أعدائِه، والرَّحمةَ والثَّوابَ إلى أوليائِه؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٤).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٣٤).
(٢) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ١٠٨).
(٣) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ١٦٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٩٣).

﴿الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ﴾ دلالةٌ على أنَّ الشَّيطانَ يَعِدُ أولياءَه ويُمَنِّيهم، وقال تعالَى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾(١) [النساء: ١٢٠].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ﴾ دلالةٌ على أنَّ الجنَّ يتصوَّرونَ في صُورِ الإنسِ وغَيرِهم(٢)، وهذا على القولِ بأنَّ إبليسَ تصوَّر لهم.

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ دلالةٌ على أنَّ الشَّياطينَ إذا رأَت ملائكةَ اللهِ- التي يُؤَيِّدُ بها عبادَه- هربتْ منهم(٣).

٤- في قَولِه تعالى مُخبِرًا عن الشَّيطانِ: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ دلالةٌ على أنَّ الجنَّ مشاركونَ للإنسِ في جِنسِ التَّكليفِ بالأمرِ والنَّهيِ والتَّحليلِ والتَّحريم، وأنَّ أهلَ الكُفرِ والفُسوقِ والعِصيانِ منهم، مُستحِقُّونَ لِعَذابِ النَّارِ- كما يدخلُها مِن الآدميِّينَ- فقد أخبَرَ سبحانَه عن الشَّيطانِ أنَّه يخافُ اللهَ، والعقوبةُ إنَّما تكون على تَرْكِ مأمورٍ أو فِعْلِ محظورٍ(٤).

٥- في قولِه تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ... وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ حُجةٌ على المعتزلة والقَدَريّة الذين يجعلون الشَّرَّ مِن الشيطان على الحقيقة بقوةٍ وسلطانٍ له فيه! وقد أنبأ الشيطانُ عن نفسه في هذا الموضع بأنه لا يَقْدِرُ على ضُرِّ أحدٍ ولا نفْعِه؛ وأنَّ تزيينَه غرورٌ؛ وقولَه كذبٌ لا حقيقةٌ(٥).

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٢٠٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٤٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٢٣٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٢٣٣).
(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٤٧٢).

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ لم تدخُلِ الواوُ في قولِه: ﴿إِذْ يَقُولُ﴾ ودخلَت في الآيةِ قَبلَها، وهي قَولُه تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾؛ لأنَّ قَولَه: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ﴾ فيه عطْفُ هذا التَّزيينِ على حالِهم وخُروجِهم بطرًا ورِئاءً، وأمَّا هنا وهو قوله: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ﴾ فليس فيه عطفٌ لهذا الكلامِ على ما قَبلَه، بل هو كلامٌ مُبتدأٌ مُنقطِعٌ عمَّا قَبلَه(١).

٧- قال الله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ النِّفاقُ أخَصُّ مِن مَرَضِ القلبِ؛ لأنَّ مرَضَ القَلبِ مُطلَقٌ على الكافِرِ، وعلى من اعترَضتْه شُبهةٌ، وعلى مَن بينهما(٢).

بلاغةُ الآيتين:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

- قوله: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ خُوطِبَ به النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بطَريقِ تلوينِ الخِطابِ، أي: واذكُر وقتَ تزيينِ الشَّيطانِ أعمالَهم في مُعاداةِ المؤمِنين وغيرِها، بأنْ وَسْوَس إليهم(٣).

- وجملةُ ﴿وَإِذْ زَيَّنَ...﴾ عَطفٌ على جُملةِ: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا ...﴾ وما بينهما اعتِراضٌ، رُتِّب نَظْمُه على أُسلوبِه العجيبِ؛ ليقعَ هذا الظَّرْفُ عقِبَ تلك الجُمل المُعترِضة، فيكونَ له إتمامُ المناسبةِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٩٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٦).

بحكايةِ خُروجِهم وأحوالِه، وليقَع قولُه: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ عَقِبَ أَمْرِ المسلِمينَ بما يَنْبغي لهم عند اللِّقاءِ؛ ليَجْمعَ لهم بين الأمرِ بما ينبغي، والتَّحذيرِ ممَّا لا ينبغي، وتَرْكِ التَّشبُّهِ بمَن لا يُرْتضَى؛ فيتمَّ هذا الأسلوبُ البديعُ المُحكَمُ الانتظامِ(١).

- قولُه: ﴿نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ قولُه: ﴿عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ مُؤكِّدٌ لمعنى ﴿نَكَصَ﴾؛ إذ النُّكوصُ لا يكونُ إلَّا على العَقِبينِ(٢).

- قولُه: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ بيانٌ لقولِه: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ أي: أخاف عِقابَ اللهِ فيما رأيتُ من جُنودِ اللهِ(٣).

- وقولُهُ: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ﴾ فيه مُبالغةٌ في الخِذلانِ والانْفِصالِ عنهم؛ حيثُ لم يَكتفِ بالفعلِ حتَّى أكَّد ذلك بالقول(٤).

٢- قَولُه تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

- إسنادُ الغُرورِ إلى الدِّين في قولِهم: ﴿غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ باعْتِبار ما فيه مِن الوعدِ بالنَّصر(٥).

- وقولُه: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ خِتامٌ حَسَنٌ؛ حيثُ تَضمَّنَ الردَّ على مَن قال: ﴿غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ فكأنَّه قيل: هؤلاء في لِقاءِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٣٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٣٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٣٨).

عدُوِّهم هم مُتوكِّلون على الله؛ فهم الغالِبونَ، ومَنْ يتوكَّلْ على الله يَنْصُرْه ويُعِزَّه؛ فإنَّ اللهَ عزيزٌ لا يُغالَبُ بقوَّةٍ ولا بكَثْرة، حَكيمٌ يَضَعُ الأشياءَ مواضعَها، أو حاكِم بنَصْرِه مَن يتوكَّلُ عليه، فيُديل القليلَ على الكَثيرِ(١).

- وجُعِلَ قولُه: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ جوابًا للشَّرطِ في ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ باعْتِبارِ لازِمِه، وهو عِزَّةُ المتوكِّلِ على اللهِ تعالى، وإلْفائِه مُنجِيًا مِن مَضيقِ أمْرِه؛ فهو كِنايةٌ عن الجوابِ، وهذا مِن وجوهِ البَيانِ(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٣٩).

الآيات (٥٠-٥٤)

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿كَدَأْبِ﴾: الدَّأْبُ: العادةُ المُستمرَّة والشَّأنُ، وأصلُ (دأب): يدلُّ على المُلازَمة والدَّوامِ(١).

المعنى الإجماليُّ:

يَقولُ اللهُ تعالى لِنَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ولو عايَنْتَ- يا مُحمَّدُ- حين تنزِعُ الملائكةُ أرواحَ الكفَّارِ من أجسادِهم، وهم يَضرِبونَ وُجوهَ الكُفَّارِ وأدبارَهم، لَرأيتَ أمرًا عظيمًا فظيعًا، ويقولُ لهم الملائكةُ: ذوقوا عذابَ الحَريقِ؛ ذلك بما كسَبَت أيديكم مِن الكُفرِ والمعاصي، وبأنَّ اللهَ لا يظلِمُ أحدًا مِن خَلقِه.

ثُمَّ بيَّن تعالى أنَّ عادةَ هؤلاءِ المُشركينَ مِن قُريشٍ في كُفرِهم، كعادةِ قَومِ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٣٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٩).

فِرعونَ والأُمم المكَذِّبةِ مِن قَبلِهم؛ كَفَروا بآياتِ اللهِ فأهلَكَهم اللهُ بسبَبِ كُفرِهم ومعاصيهم، إنَّه تعالى قويٌّ شديدُ العقابِ، ذلك العذابُ إنَّما وقع عليهم؛ لأنَّهم بدَّلوا نعمةَ الله كُفرًا، فاللهُ تعالى لا يُغَيِّرُ نعمةً أنعَمَها على قومٍ إلَّا بسبَبِ تَغييرِهم ما بأنفُسِهم؛ بالوُقوعِ في الكُفرِ، أو ارتكابِ السَّيِّئاتِ. وأنَّ اللهَ سَميعٌ عليمٌ.

ثمَّ ذكَر تعالى أنَّ عادةَ هؤلاء المُشركينَ مِن قُريشٍ، كعادةِ آلِ فِرعونَ والَّذين مِن قَبلِهم؛ كذَّبوا بآياتِ اللهِ لَمَّا جاءَتْهم، فأهلَكَهم اللهُ بِذُنوبِهم، وأغرَقَ آلَ فِرعونَ، وكُلُّ الذينَ أهلَكَهم اللهُ مِن السَّابقينَ، ومِن كفَّارِ قُريشٍ، كانوا ظالِمينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لمَّا قال سبحانَه قبلَ ذلك بإجمالٍ: ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾؛ بيَّن بعدَ ذلك بعضَ ما يتضمَّنُه هذا الإجمالُ مِن عقابِ الكفارِ(١)، فقال تعالى:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾.

أي: ولو عايَنْتَ- يا مُحمَّدُ(٢)- حينَ تَنزِعُ الملائكةُ أرواحَ الكُفَّارِ مِن أجسادِهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٣١).

(٢) ممَّن اختار أنَّ الخِطابَ في الآيةِ مُوجَّهٌ إلى محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ابنُ جريرٍ، وابنُ كثيرٍ، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١١١).

وقال ابنُ عاشور: (ابتُدِئَ الخبرُ بـ ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ مُخاطبًا به غيرُ مُعَيَّنٍ، ليعُمَّ كلَّ مُخاطبٍ، أي: لو ترَى أيُّها السامع؛ إذ ليس المقصودُ بهذا الخبرِ خُصوصَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حتى يُحمَلَ الخطابُ على ظاهِرِه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٤٠).

وهُم يَضرِبونَ وجوهَهم وأستاهَهم[(١)]؛ لَرَأيتَ أمرًا عَظيمًا فَظيعًا[(٢)]!

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وقال سبحانه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٧].

﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾.

أي: ويقولُ الملائكةُ للكفَّارِ: ذُوقوا عذابَ النَّارِ التي تَحرِقُكم[(٣)].

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ۝٥١﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾.

---

(١) الأَسْتاهُ: جمع اسْتٍ: وهو العَجُزُ، وقد يُرادُ به حَلقةُ الدُّبُرِ. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ١٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١١١).
قال ابن كثير: (هذا السِّياقُ- وإن كان سبَبُه وقعةَ بَدرٍ- ولكنَّه عامٌّ في حقِّ كلِّ كافرٍ؛ ولهذا لم يخصُصْه تعالى بأهلِ بدرٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٧).
واختار ابنُ جريرٍ أنَّ قولَ الملائكةِ هذا للمشركينَ الذين قُتِلوا ببَدرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١١٣).
قال الشنقيطي: (قال بعضُ العلماء: ذَوْقُ عذابِ الحريقِ عند الاحتضارِ؛ لأنَّ المقامِعَ التي يضربونَهم بها تلتهِبُ عليهم نارًا، وقال بعضُ العلماء: يُبشِّرونَهم بالحريقِ يومَ القيامةِ، ولا مانِعَ مِن وقوعِ الكُلِّ). ((العذب النمير)) (٥/ ١١٤). يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣٢)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٢١٧).

أي: ويقولُ الملائكةُ للكفَّارِ حين يَضرِبونَهم[١]: هذا الجزاءُ بسبَبِ ما عَمِلتُم من الكُفرِ والمعاصي في حياتِكم الدُّنيا، جازاكم اللهُ بها هذا الجزاءَ[٢].

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾.

أي: وأنَّ اللهَ لا يَظلِمُ أحدًا مِن خَلقِه؛ فقد أرسَلَ إليهم رُسُلَه، وأنزَلَ عليهم كُتُبَه، وأقام عليهم الحجَّةَ[٣].

عن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما روى عن اللهِ تبارك وتعالى، أنَّه قال: ((يا عبادِي، إنِّي حرَّمتُ الظُّلمَ على نفسي، وجعلتُهُ بينكم مُحرَّمًا، فلا تظَالَموا))[٤].

---

(١) ممَّن ذهب إلى أنَّ هذا مِن قَولِ الملائكةِ: ابنُ جريرٍ، والشِّنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١١٦).
وقال ابنُ عطية: (قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ يحتملُ أن يكونَ مِن قَولِ الملائكةِ في وقتِ توفِّيهم لهم على الصُّورةِ المذكورةِ، ويحتملُ أن يكونَ كلامًا مُستأنَفًا؛ تقريعًا مِن الله عزَّ وجلَّ للكافرينَ حيِّهم وميِّتِهم). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣١، ٢٣٢)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٣).
وقال الشنقيطي: (المراد ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ ما كَسَبتُم من المعاصي والكُفرِ، سواءٌ كان الذي اجترَمَته القلوبُ، أو الألسنةُ، أو الأيدي). ((العذب النمير)) (٥/ ١١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٦٣).
ذهب ابنُ جرير إلى أنَّ هذه الجملةَ تَعُدُّ سببًا ثانيًا لِذَوقِهم عذابَ الحريقِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣٢)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٦٣).
وقال الواحدي: (الصَّحيحُ أنَّ قولَه: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ ابتداءُ كلامٍ لا يعودُ معناه إلى ما قَبلَه مِن قولِه: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ﴾؛ لأنَّ قَولَه: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ ليس بتعليلٍ للعذابِ ولا موجِبٍ له؛ لأنَّ معناه: نَفيُ الظُّلمِ، وإيجابُ الحُكمِ بالعدلِ، لا أنَّه سببُ تَعذيبِهم، فقوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ سبَبٌ أوجبَ الحُكمَ بالتَّعذيبِ، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ نعتٌ لهذا الحُكمِ أنَّه عَدلٌ، وأنَّه ليس بجَورٍ). ((البسيط)) (١٠/ ١٩٩).

(٤) رواه مسلم (٢٥٧٧).

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى ما أنزَلَه بأهلِ بَدرٍ مِن الكُفَّارِ؛ أتبَعَه بأنْ بيَّنَ أنَّ هذه طريقَتُه وسُنَّتُه ودَأْبُه في الكُلِّ[1]، فقال:

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

أي: عادةُ وصَنيعُ هؤلاءِ المُشركينَ مِن قُريشٍ في كُفرِهم وتكذيبِهم، كعادةِ وصَنيعِ قَومِ فِرعونَ والأُمَمِ المُكذِّبةِ برُسُلِ اللهِ[2] مِن قَبلِهم[3].

ثمَّ فسَّرَ تعالى دأْبَ آلِ فِرعونَ ومَن قَبلَهم، وبيَّن عادَتَهم، فقال[4]:

﴿كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾.

أي: جحَد الكفَّارُ الأوَّلونَ آياتِ اللهِ التي أنزَلَها على رُسُلِه، والمُعجزاتِ التي

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٩٥).

(٢) قال ابنُ عطيةَ: (ويحتملُ أن يكونَ المرادُ كعادةِ الله فيهم، فأضاف العادةَ إليهم؛ إذ لهم نسبةٌ إليها، يضافُ المصدرُ إلى الفاعلِ وإلى المفعولِ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٤٠).
قال ابنُ كثيرٍ: (فعَلَ هؤلاءِ المشركونَ المكذِّبونَ بما أُرسِلتَ به يا محمدُ، كما فَعَلَ الأُمَمُ المكذِّبةُ قبلَهم، ففعَلْنا بهم ما هو دَأْبُنا، أي: عادتُنا وسُنَّتُنا في أمثالِهم مِن المكذِّبينَ مِن آلِ فرعونَ ومَن قبلَهم مِنَ الأُممِ المكذِّبةِ بالرُّسلِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٤٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١١٨).
قال الشنقيطي: (لم يبيِّنْ هنا مَن هؤلاء الذين مِن قبلِهم، وما ذنوبُهم التي أخَذهم الله بها، وبيَّن في مواضعَ أُخَرَ أنَّ منهم قومَ نوحٍ، وقومَ هودٍ، وقومَ صالحٍ، وقومَ لوطٍ، وقومَ شعيبٍ؛ وأنَّ ذنوبَهم التي أخَذهم بها هي الكفرُ باللهِ، وتكذيبُ الرسل وغيرُ ذلك مِن المعاصي، كعقرِ ثمودَ للناقةِ، وكلواطِ قومِ لوطٍ، وكتطفيفِ قومِ شعيبٍ للمكيالِ والميزانِ، وغيرِ ذلك كما جاء مفصلًا في آياتٍ كثيرةٍ). ((أضواء البيان)) (١/ ١٩٧).

(٤) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٢٠).

أيَّدَهم بها، فعاقَبَهم اللهُ تعالى وأهلكَهم؛ بسبَبِ كُفرِهم ومعاصيهم[١].

كما قال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ * وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ * فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٨-٤٠].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

أي: إنَّ اللهَ لا يَغلِبُه أحدٌ، ولا يُعجِزُه شيءٌ، شديدُ النَّكالِ لِمَن كفَرَ به، وكذَّب رُسلَه[٢].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٣)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

ذَكَرَ تعالى هنا في هذه الآيةِ ما يَجري مَجرى العِلَّةِ في العِقابِ، الذي ذَكَرَ أنَّه أنزَلَه بهم[٣].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

أي: ذلك العذابُ الذي أهلك اللهُ به كُفَّارَ قُريشٍ ومُشركي الأُمَمِ الماضيةِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٩٦).

إنَّما وقع عليهم لأنَّهم بدَّلُوا نعمةَ اللهِ كُفرًا، واللهُ تعالى لا يُغيِّرُ نعمةً دينيَّةً أو دُنيويَّةً أنعَمَ بها على قومٍ، فيَسْلُبُها منهم، ويُحِلُّ مَحَلَّها النِّقَمَ والعُقوباتِ، إلَّا بِسَببِ تَغييرِهم ما بأنفُسِهم؛ بالوقوعِ في الكُفرِ، أو ارتكابِ السَّيِّئاتِ(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة: ٢١١].

وقال جلَّ جَلالُه: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

وقال سبحانه: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ * وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [النحل: ١١٢-١١٣].

﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٤٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٢٢، ١٢٤).
قال ابنُ عطيةَ: (ومثالُ هذا: نعمةُ اللهِ على قُريشٍ بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فكفَروا... فغيَّرَ اللهُ تلك النِّعمةَ بأن نقَلَها إلى غيرِهم من الأنصارِ، وأحَلَّ بهم عُقوبتَه). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٤١).

وقال ابنُ تيميةَ: (هذا التَّغييرُ نَوعانِ: أحدهما: أن يبدوَ ذلك، فيبقى قولًا وعملًا يترتَّبُ عليه الذَّمُّ والعقاب. والثاني: أن يُغيِّروا الإيمانَ الذي في قلوبهم بضِدِّه من الرَّيبِ والشَّك والبُغضِ، ويَعزِموا على تَركِ فِعلِ ما أمَرَ اللهُ به ورسولُه، فيستحقُّونَ العذابَ هنا على تَركِ المأمورِ، وهناك على فِعلِ المحظورِ. وكذلك ما في النَّفسِ ممَّا يُناقِضُ محبَّةَ اللهِ والتوكُّلَ عليه، والإخلاصَ له والشُّكرَ له، يعاقَبُ عليه؛ لأنَّ هذه الأمورَ كلَّها واجبةٌ، فإذا خُلِّيَ القلبُ عنها، واتَّصَف بأضدادِها، استحَقَّ العذابَ على تَرْكِ هذه الواجباتِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٤/ ١٠٩).

أي: وذلك العذابُ الذي أهلَكَهم اللهُ تعالى به قد وقع عليهم؛ لأنَّ اللهَ سَميعٌ لكلامِ جَميعِ خَلْقِه، عليمٌ بما يُظهِرُونَه ويُسِرُّونه، لا يخفى عليه شيءٌ، فهو يجازيهم بما يستحقُّونَه(١).

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

أي: عادةُ وصنيعُ هؤلاءِ المُشركينَ مِن قُريشٍ في كُفرِهم، كعادةِ وصَنيعِ قَومِ فِرعونَ والأُمَمِ المُكذِّبةِ مِن قَبلِهم(٢).

﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾.

أي: كذَّبوا بآياتِ اللهِ لَمَّا جاءَتْهم، فسُلِبوا تلك النِّعَمَ التي أُسدِيَت إليهم، وأهلكناهم بسبَبِ ذُنوبِهم، وأغرَقْنا قومَ فِرعونَ في البَحرِ(٣).

كما قال تعالى: ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٤٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٠٤)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٠١)، ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٨).
قال الواحدي: (قولُه تعالى: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ يجوزُ أن تكونَ الكافُ مُتعلِّقةً بمَحذوفٍ قَبلَها، كما ذَكَرْنا في الأولى، ويجوزُ أن تتعَلَّقَ بما بَعْدَها، وهو قولُه: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ يعني: أهلُ مكَّةَ كَذَّبوا بآياتِ رَبِّهم، كصَنيعِ آلِ فِرعَونَ في التكذيبِ بما جاء به موسى). ((البسيط)) (١٠/ ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٤٦).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ * وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ * كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٣ - ٢٨].

وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ * كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٦-١٩].

﴿وَكُلٌّ كَانُوا ظَٰلِمِينَ ﴾.

أي: كلُّ الذين أهلَكْناهم مِن السَّابقينَ ومِن كُفَّارِ قُريشٍ، كانوا ظالِمينَ لأنفُسِهم بكُفرِهم وتكذيبِهم(١).

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١ - مِن عُقوباتِ الذُّنوبِ: أنَّها تُزيلُ النِّعَمَ، وتُحِلُّ النِّقَمَ، فما زالت عن العَبدِ نِعمةٌ إلا بذَنبٍ، ولا حَلَّت به نِقمةٌ إلَّا بذَنبٍ؛ قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ فأخبَرَ الله تعالى أنَّه لا يُغيِّرُ نِعَمَه التي أنعَمَ بها على أحدٍ، حتى يكونَ هو الذي يغيِّرُ ما بنفسِه، فيُغَيِّر طاعةَ اللهِ بمَعصيتِه، وشُكرَه بكُفرِه، وأسبابَ رِضاه بأسبابِ سَخَطِه، فإذا غيَّرَ غُيِّرَ عليه؛ جزاءً وفاقًا، وما ربُّك بظلَّامٍ للعبيدِ، فإنْ غيَّرَ المعصيةَ بالطَّاعةِ، غيَّرَ اللهُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٤٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٢٧).

عليه العُقوبةَ بالعافيةِ، والذُّلَّ بالعِزِّ(١).

٢- قَولُه تعالى: ﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ﴾ من جانبٍ يُقَرِّرُ عَدْلَ اللهِ في معاملةِ العِبادِ، فلا يَسلُبُهم نعمةً وهَبَهم إيَّاها إلَّا بعد أن يُغَيِّروا نواياهم، ويُبَدِّلوا سُلوكَهم، ويَقلِبوا أوضاعَهم، ومن الجانِبِ الآخَرِ يُكَرِّمُ هذا المخلوقَ الإنسانيَّ أكبَرَ تكريمٍ، حين يجعَلُ قَدَرَ اللهِ به يَنفُذُ، ويجري عن طريقِ حَرَكةِ هذا الإنسانِ وعَمَلِه، ويجعَلُ التَّغييرَ القَدَريَّ في حياةِ النَّاسِ مَبنيًّا على التَّغييرِ الواقعيِّ في قُلوبِهم ونواياهم وسُلوكِهم، وعَمَلِهم وأوضاعِهم التي يَختارونَها لأنفُسِهم، ومن الجانِبِ الثَّالِثِ يُلقِي تبعةً عَظيمةً تُقابِلُ التَّكريمَ العَظيمَ على هذا الكائِنِ، فهو يملِكُ أن يستبقِيَ نِعمةَ اللهِ عليه ويملِكُ أن يُزادَ عليها، إذا هو عَرَف فشَكَر، كما يملِكُ أن يُزيلَ هذه النِّعمةَ عنه، إذا هو أنكرَ وبَطِر، وانحرَفَت نواياه فانحرَفَت خُطاه(٢).

الفَوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- عَذابُ البَرزَخِ أوَّلُه يومُ القَبضِ والموتِ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ فهذه الإذاقةُ هي في البَرزَخِ، وأوَّلُها حين الوفاةِ(٣).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ يُبيِّنُ أنَّ اللهَ تعالى لا يكِلُ النَّاسَ إلى فلَتاتٍ عابرةٍ، ولا إلى جُزافٍ لا ضابِطَ له، إنَّما هي سُنَّتُه يمضي بها قَدَرُه؛ فما أصاب المشركينَ في

---

(١) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص:٧٤)، ويُنظر أيضًا: ((النكت الدالة على البيان)) للقصَّاب (١/ ٤٧٣).

(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٥٣٥).

(٣) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٤٣).

يوم بَدرٍ، هو ما يصيبُ المُشركينَ في كُلِّ وقتٍ، وقد أصاب آلَ فِرعونَ والَّذين مِن قَبلِهم[١].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ وصفُ النِّعمةِ بِقَولِه: ﴿أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ﴾ للتَّذكيرِ بأنَّ أصلَ النِّعمةِ مِن اللهِ[٢].

٤- الظَّاهِرُ مِن قَولِه: ﴿عَلَى قَوْمٍ﴾ العمومُ في كلِّ مَن أنعَمَ اللهُ عليه؛ مِن مُسلِمٍ وكافِرٍ، وبَرٍّ وفاجرٍ، وأنَّه تعالى متى أنعَمَ على أحدٍ فلم يَشكُرْ، بدَّلَه عنها بالنِّقمةِ[٣].

٥- في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ دليلٌ على أنَّ اللهَ تعالى قد يَسْلبُ النِّعَمَ بِفِعْلِ المعصيةِ عقوبةً لفاعليها[٤].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ إن قيل: فما كان مِن تَغييرِ آلِ فِرعونَ ومُشركي مكَّةَ، حتى غيَّرَ اللهُ تعالى نِعمَتَه عليهم، ولم تكُن لهم حالٌ مَرضِيَّةٌ فيُغَيِّروها إلى حالٍ مَسخوطةٍ؟!

أُجيبَ: بأنَّه تعالى كما يُغَيِّرُ الحالَ المَرضيَّةَ إلى المسخوطةِ، يُغَيِّرُ الحالَ المسخوطةَ إلى أسخَطَ منها، وأولئك كانوا قبلَ بَعثةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كفرةً، عبَدةَ أوثانٍ، فلمَّا بُعِث إليهم بالآياتِ البيِّناتِ، فكذَّبوه وعادَوْه،

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٥٣٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٤٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٣٧).
(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٤٧٣).

وتحزَّبوا عليه ساعِينَ في إراقةِ دَمِه؛ غَيَّروا حالَهم إلى أسوأَ ممَّا كانت عليه، فغيَّرَ اللهُ تعالى ما أنعَمَ به عليهم من الإمهالِ، وعاجَلَهم بالعذابِ(١).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ لَمَّا أشارَ بالتَّعبيرِ ﴿رَبِّهِمْ﴾ إلى أنَّه غَرَّهم مُعامَلَتُه بالعَطفِ والإحسانِ، قال: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ أي: جميعًا ﴿بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا﴾ فأتى بنونِ العَظَمة؛ إشارةً إلى أنَّه أتاهم بما أنساهم ذلك البِرَّ، وإشارةً إلى أنَّهم نَسُوا أنَّ الرَّبَّ كما أنَّه يتَّصِفُ بالرَّحمةِ، فلا بدَّ أن يتَّصِفَ بالعَظَمةِ والنِّقمةِ، وإلَّا لم تتِمَّ رُبوبيَّتُه(٢).

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ بيَّنَ تعالى أنَّه أهلَكَهم بعد التَّكذيبِ بآياتِه، ولم يُهلِكْهم قَبلَها سُبحانه- مع أنَّهم كانوا كافرينَ- لأنَّ هذه سُنَّتُه ورَحمَتُه ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾(٣) [الإسراء:١٥].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾

- قولُه: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ﴾ فيه حذفُ جوابِ (لو) الشَّرطيَّة؛ والحَذفُ بليغٌ في مِثْل هذا؛ لأنَّه يدلُّ على التَّعظيمِ، أي: لرأيتَ أمرًا عجيبًا، وشأنًا هائلًا(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٧٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٠٧).

(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٥٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٣٦). =

- وتقديمُ المفعولِ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ على الفاعلِ ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾؛ للاهْتِمامِ به[١].

- قولُه: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ على القَولِ بأنَّ المرادَ بالذين كَفروا: مُشركو يَومِ بَدْر، وذلك قدْ مضَى؛ فيكونُ أتى بالمضارعِ (ترى- يَتوفَّى) في المَوضِعَين مَكانَ الماضي؛ لقَصْدِ اسْتِحضارِ تِلك الحالةِ العجيبةِ، وهي حالةُ ضَرْبِ الوجوهِ والأدبارِ؛ ليُخيِّلَ للسامعِ أنَّه يُشاهِد تِلكَ الحالةَ[٢].

- وذِكرُ الوجوهِ والأدبارِ في قولِه: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾؛ للتَّعميمِ، أي: يَضربونَ جَميعَ أجسادِهم، كقَولِ العربِ: ضَربتُه الظهرَ والبطنَ؛ كِنايةً عمَّا أَقبلَ وما أَدبرَ، أي: ضربتُه في جميعِ جَسدِه[٣]، أوْ خَصُّوهما بالضَّربِ؛ لأنَّ الخِزيَ والنَّكالَ في ضَربِهما أشدُّ[٤].

- وقَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ فيه يتحوَّلُ السِّياقُ من صيغةِ الخَبَرِ إلى صيغةِ الخِطابِ: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾؛ ليَرِدَ المشهدُ حاضِرًا، كأنَّه اللحظةَ مَشهودٌ، وكأنَّما جهنَّمُ بنارِها وحريقِها في المشهَدِ، وهم يُدفَعونَ إليها دَفعًا مع التَّأنيبِ والتَّهديدِ[٥].

٢- ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾

= والقاعدةُ: أنَّ حذفَ جوابِ الشرطِ يدلُّ على تعظيمِ الأمرِ وشدتِه في مقاماتِ الوعيدِ. يُنظر: ((قواعد التفسير)) لخالد السبت (١/ ٣٧٢).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٤٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٢٩).

(٥) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٥٣٤).

- جملةُ: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ مُستأنَفةٌ؛ لقَصدِ التَّنكيلِ والتشفِّي، وجِيءَ بإشارةِ البَعيد ﴿ذَلِكَ﴾؛ لتعظيمِ ما يُشاهِدونَه مِن الأهوالِ[1].

- وعبَّر بالأيدي دونَ غَيرِها في قَولِه تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾؛ لأنَّ أكثَرَ الأفعالِ تُزاوَلُ بها[2].

- وجملةُ: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ، مُقرِّرٌ لمضمونِ ما قَبْلَها[3]، على أحدِ الأوجهِ في الآيةِ.

- ونفيُ الظَّلَّاميةِ في قولِه تعالى: ﴿لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ لا يُفيدُ إثباتَ ظُلمٍ غيرِ قويٍّ؛ فصِياغَتُه بصِيغةِ الكثرةِ باعتبارِ تعلُّقِ الظُّلمِ المنفيِّ- لو قُدِّرَ ثبوتُه- بالعبيدِ الكثيرينَ، وعبَّر بالمبالغةِ عن كَثرةِ أعدادِ الظُّلمِ باعتبارِ تعدُّدِ أفرادِ معمولِه[4]، وقيل: لأنَّ العذابَ مِن العِظَمِ بحيث لولا الاستحقاقُ لكان المعذِّبُ بمثلِه ظلَّامًا بليغَ الظُّلمِ، فنفَى المبالغةَ بهذا الاعتبارِ، ومعناها نفيُ الفعلِ مِن أصلِه[5]، وقيل: إنَّه نفَى الظُّلمَ الكثيرَ؛ لِينتفيَ القليلُ ضرورةً؛ لأنَّ الَّذي يظلِمُ، إنَّما يظلِمُ لانتفاعِه بالظُّلمِ، فإذا ترَكَ الكثيرَ معَ زيادةِ نفعِه، فلأَنْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٤٢).
وقيل: إنَّ (ظَلَّام) هنا لا تصِحُّ للمُبالغةِ التي تدلُّ على الكثرةِ، إنَّما المرادُ بها النِّسبةُ، وهي تشمَلُ الكثرةَ والقلَّةَ؛ وذلك لأنَّه لو قيل: إنَّ المرادَ بذلك صيغةُ المبالغةِ، لكان المنفيُّ كثرةَ الظُّلمِ، مع أنَّ اللهَ تعالى لا يَظلِمُ مِثقالَ ذرَّةٍ، وعلى ذلك فمَعنى قَولِه تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ أي: ليس بذي ظُلمٍ، كما نقولُ: فلانٌ ليس نجَّارًا، يعني: ليس بذِي نِجارةٍ، أي: ليس منسوبًا للنجَّارِينَ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (ص: ٤٩٧).
وحكَى ابنُ مالكٍ هذا الوجهَ عَنِ المُحقِّقينَ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٦٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٢٩)، قال الشنقيطيُّ: (وهذا الوجهُ حسنٌ جدًّا، إلا أنَّ فيه دقةً). ((العذب النمير)) (٥/ ١١٧).

يترُكَ القليلَ أولَى، وقيل: لأنَّ أقلَّ القليلِ لو وَرَد منه تعالَى لكانَ كثيرًا، وقيل: إنَّه قَصَد التَّعريضَ بأنَّ ثمَّ ظَلَّامًا للعبيدِ من ولاةِ الجورِ، وقِيل غيرُ ذلك[١].

٣- قَولُه تعالى: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

- جُملةُ ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ...﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لبيانِ أنَّ ما حَلَّ بهم من العذابِ بسَببِ كُفْرِهم، لا بشيءٍ آخَرَ من جِهةِ غيرِهم؛ بتشبيهِ حالِهم بحالِ المعروفينَ بالإهلاكِ بسببِ جَرائمِهم؛ لزيادةِ تَقبيحِ حالِهم، وللتَّنبيهِ على أنَّ ذلك سُنَّةٌ مُطَّرِدةٌ فيما بَينَ الأُممِ المُهلَكةِ[٢].

- وإنَّما خُصَّ آلُ فِرعونَ بالذِّكرِ، وذُكِر الذي أُهلِكوا به، وهو إغراقُهم؛ لأنَّه انضمَّ إلى كُفرِهم دَعْوَى الإلهيَّةِ والرُّبوبيَّة لغيرِ الله تعالى؛ فكان ذلك أَشنعَ الكُفرِ وأفظعَه[٣].

- وقولُه: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ اعتراضٌ مُقرِّرٌ لمضمونِ ما قَبْلَه من الأخْذ، وتكملةٌ له[٤]، مع ما فيه من تأكيدِ الخَبَرِ بـ(إنَّ) واسميَّةِ الجملةِ.

٤- قَولُه تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً...﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لتَعليلِ ما يُفيدُ النَّظمُ الكريمُ مِن كونِ ما حَلَّ بهم من العذابِ منوطًا بأعمالِهم السيِّئةِ، غيرَ واقعٍ بلا سابقةٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٦٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٣٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٤٤).

- ونفْيُ الكونِ بصِيغةِ المضارِعِ في قولِه: ﴿لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً﴾ يَقتضي تجدُّدَ النفيِ ومَنفيِّه[1].

- وقَولُه: ﴿لَمْ يَكُ﴾ حُذِفَت نون (يكن) إرشادًا إلى أنَّ هذه الموعظةَ خليقةٌ بأن يُوجَزَ بها غايةَ الإيجازِ، فيُبادَرَ إلى إلقائِها لِمَا في حسنِ تلقِّيها من عظيمِ المنفعةِ؛ لأنَّ منَ خالَفَها جديرٌ بتعجيلِ الانتقامِ[2].

٥- قَولُه تعالى: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ...﴾ تكريرٌ لقولِه: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ...﴾ المذكورِ قَبْلَه؛ لقَصدِ التَّأكيدِ والتَّسميعِ، وهو تَقريرٌ؛ للإنذارِ والتَّهديد، وخُولِفَ بين الجُملتين تفنُّنًا في الأسلوبِ، وزيادةً للفائدةِ بذِكرِ التَّكذيبِ هنا بعدَ ذِكرِ الكُفرِ هناك، وهُما سببانِ للأخْذِ والإهلاكِ[3]. ومِن وجوهِ تكريرِه أيضًا: أنَّ الثانيَ جرَى مَجرَى التَّفصيلِ للأوَّلِ؛ لأنَّ في ذلك ذِكرَ إجرامِهم، وفي هذا ذِكرَ إغراقِهم، وأُريدَ بالأوَّلِ ما نزَلَ بهم من العُقوبةِ حالَ الموتِ، وبالثَّاني ما نزَل بهم من العذابِ في الآخِرةِ، وفي الأوَّلِ: ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ إشارةٌ إلى إنكارِ دَلائلِ الإلهيَّةِ، وفي الثَّاني: ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ إشارةٌ إلى إنكار نِعَم مَن رَبَّاهم، ودلائلِ تربيتِه وإحسانِه على كَثْرتِها وتواليها، وفي الأوَّل: اللازِمُ منه الأخذُ، وفي الثَّاني: اللازمُ منه الهلاكُ والإغراقُ[4].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٤٥).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٠٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٤٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٣٨).
وقيل: قولُه في الآيةِ الأُولَى: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ قد قالَ قبلَه: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا =

- في قولِه: ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ زيادةُ دَلالةٍ على كُفرانِ النِّعمِ، وجُحودِ الحقِّ[(١)].

- وذِكرُ وصْفِ الربوبيَّة دون الاسمِ العَلَمِ في قولِه: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾؛ لزيادةِ تَفظيعِ تكذيبِهم؛ لأنَّ الاجتراءَ على اللهِ مع مُلاحظةِ كَونِه ربًّا للمُجترِئ يَزيدُ جَراءتَه قُبحًا؛ لإشعارِه بأنَّها جَراءةٌ في موضعِ الشُّكرِ؛ لأنَّ الرَّبَّ يَستحِقُّ الشُّكرَ[(٢)].

- قَولُه تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ عُبِّرَ بالإهلاكِ عِوَضَ الأخذِ المتَقَدِّمِ ذِكرُه؛ ليُفَسَّرَ الأخذُ بأنَّه آلَ إلى الإهلاكِ، وزِيدَ الإهلاكُ بيانًا بالنِّسبةِ إلى آلِ فِرعونَ بأنَّه إهلاكُ الغَرَقِ[(٣)].

- قَولُه تعالى: ﴿وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ جُمِعَ الضَّميرُ في: (كانُوا)، وجُمِعَ: (ظالِمينَ) مراعاةً لمعنى (كُل)؛ لأنَّ (كُلًّا) متى قُطِعَت عن الإضافةِ جاز مراعاةُ لَفظِها تارةً، ومعناها أخرى. وإنما اختيرَ هنا مراعاةُ المعنى؛ لأجلِ الفَواصِلِ، ولو رُوعِيَ اللَّفظُ فقيل مثلًا (وكلٌّ كان ظالِمًا)، لم تتَّفِقِ الفَواصِلُ[(٤)].

= الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ فذكَر في الآيةِ الأُولَى تمثيلًا لعذابِهم بعدَ الموتِ فقال: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ فإنَّ أخذَه يتضمَّنُ أخذَهم ليَصِلوا بعدَ الموتِ إلى العذابِ.

أمَّا في الآيةِ الثانيةِ فقد قال قبلَها: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ فذكَر تمثيلًا لزوالِ النِّعمِ عنهم لما كذَّبوا بآياتِه، فقال: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ فقال: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ ولفظُ الهلاكِ يَقْتضي هلاكَهم في الدُّنيا، وزَوالَ النِّعمةِ عنهم، وحلولَ النقمةِ بهم. يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ١٣٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٩/ ٥٤٥).

الآيات (٥٥-٥٩)

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿تَثْقَفَنَّهُمْ﴾: أي: تَجِدَنَّهم، وتظفَرَنَّ بهم، وأصلُ (ثقف): يدلُّ على الحِذقِ في إدراكِ الشَّيءِ، وفِعلِه[١].

﴿فَشَرِّدْ بِهِمْ﴾: أي: فنكِّلْ بهم، وافعَلْ بهم فعلًا من العقوبةِ يتفرَّقُ به مَن وراءَهم، وأصلُ (شرد): يدلُّ على تنفيرٍ وإبعادٍ[٢].

﴿فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ﴾: أي: فاطرَحْ إليهم عَهدَهم، وأصلُ (نبذ) يدلُّ على طَرحٍ وإلقاءٍ[٣].

مُشكِلُ الإعراب:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٢٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٢).

في إعرابِ هذه الآيةِ وُجوهٌ؛ بيانُها على النَّحوِ التَّالي:

- أنَّ فاعِلَ ﴿يَحْسَبَنَّ﴾ هو النبيُّ عليه الصلاةُ والسَّلامُ، و﴿الَّذِينَ﴾ مفعولُ ﴿يَحْسَبَنَّ﴾ الأوَّلُ.

وجملةُ ﴿سَبَقُوا﴾ في مَحلِّ نَصبٍ، مفعولٌ ثانٍ، فيكون تخريجُها مثلَ قراءةِ التَّاءِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا﴾ بِتَوجيهِ الخِطابِ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

- أنَّ الفاعِلَ مُضمَرٌ تقديرُه: (أحَدٌ) أو (حاسِبٌ) أو (مَن خَلفَهم)، و﴿الَّذِينَ﴾ و﴿سَبَقُوا﴾ هما مَفعولَا ﴿تَحْسَبَنَّ﴾ أيضًا.

- أنَّ الفاعِلَ ﴿الَّذينَ﴾، والمفعولُ الأوَّلُ محذوفٌ، أي: أنفُسَهم، والمفعولُ الثَّاني ﴿سَبَقُوا﴾ والتَّقديرُ: ولا يَحسبَنَّ الذينَ كَفَروا أنفُسَهم سَبَقوا.

قولُه: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ جملة مُستأنفةٌ لا محلَّ لها من الإعرابِ. وقُرِئَ بالفتحِ (أَنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ على حَذْفِ لامِ العِلَّةِ، أي: لأَنَّهم لا يُعْجِزون[1].

المعنى الإجماليُّ:

يُبَيِّنُ اللَّه تعالى أنَّ أكثَرَ الدَّوابِّ التي تدبُّ على وجهِ الأرضِ شَرًّا في حكمِه وقضائِه، هم الذينَ كَفَروا، وقد سبَقَ في علمِ الله تعالى أنَّهم لا يُؤمنونَ، الذين أخذَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم العَهدَ عليهم، بأن يُسالِمَهم ويُسالِموه، ثم ينقضونَ عَهدَهم كلمَّا عاهدوه، وهم لا يتَّقونَ، ثمَّ يأمُرُ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي بن أبي طالب (١/ ٣١٨-٣١٩)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٦٢٩-٦٣٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٦٢٣-٦٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤٣-١٤٤).

عليه وسلَّم أن يُنكِّلَ بهم، ويُعاقِبَهم عقوبةً غليظةً إنْ لاقاهم في الحَربِ؛ حتى يكونَ ذلك عبرةً وتشريدًا لغَيرِهم من الأعداءِ، لعلَّهم يذَّكَّرونَ.

أمَّا القومُ الذين بينَه وبَينَهم عهدٌ، ويخافُ أن يَغدِروا به فينقُضوا عَهدَه- وذلك لظهورِ علاماتٍ له تدلُّ على غدرِهم- فيأمره حينئذٍ أن يُلقِيَ إليهم عَهدَهم؛ حتى يكونَ الطَّرفانِ مُستوِيَينِ في العِلمِ أنْ لا عهدَ باقٍ بينهما، فيبرَأ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن الغَدرِ بهم، إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ مَن يَغدِرُ ويخونُ عهده.

ثمَّ قال الله تعالى: لا يظنَّنَّ الذين كَفَروا أنفُسَهم أفلَتُوا من أن يُظفَرَ بهم، وأنَّهم قد فاتُونا بأنفُسِهم فلا نقدِرُ عليهم، إنَّهم لا يُمكِنُهم الإفلاتُ مِن اللهِ تعالى، ولا الهَرَبُ منه؛ فهو قادِرٌ عليهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٥٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا وصفَ اللهُ تعالى كلَّ الكُفَّارِ بِقَولِه: ﴿وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾؛ أفرَدَ بَعضَهم بمزيَّةٍ في الشَّرِّ والعنادِ(١).

وأيضًا لَمَّا وصَفَهم اللهُ تعالى بالظُّلمِ في الآيةِ السَّابقة، علَّلَ اتِّصافَهم ذلك بأنَّهم كَفَروا بآياتِ رَبِّهم الذي تفرَّدَ بالإحسانِ إليهم(٢)، فقال تعالى:

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٥٥﴾.

أي: إنَّ أكثَرَ الدَّوابِّ التي تدبُّ على وجهِ الأرضِ شَرًّا عند اللهِ، هم الذين كَفَروا بربِّهم، وتغلغَلَ الكُفرُ في نُفوسِهم، فهم مُستمِرُّونَ على كُفرِهم، قد سبَقَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٩٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٠٨).

في علمِ الله تعالى أنَّهم لا يُؤمنونَ[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢، ٢٣].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

ثمَّ ذكَرَ تعالى صفةً أخرى من صفاتِهم[٢]، فقال:

﴿الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾.

أي: الَّذين أخذتَ عليهم العَهدَ- يا مُحمَّدُ- وأخَذُوا عليك العَهدَ؛ بأن يُسالِموك وتُسالِمَهم، فلا يحارِبوك ولا تُحارِبَهم، ثمَّ ينقُضونَ عَهدَهم كلَّما عاهَدوك[٣].

﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٣٢).
قال ابنُ عطيةَ: (أجمع المتأوِّلونَ أنَّ الآيةَ نَزَلت في بني قُرَيظةَ، وهي بعدُ تَعُمُّ كُلَّ مَن اتَّصفَ بهذه الصِّفةِ، إلى يومِ القيامةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٤٢).

أي وهؤلاءِ الكُفَّارُ الذين ينقُضونَ عَهدَهم، ليست لهم تَقوى مِن الله تعالى تَحمِلُهم على الالتزامِ بفِعلِ أوامِره، واجتنابِ نواهِيه، ولا يخافونَ عند نَقضِهم للعَهدِ في كُلِّ مَرَّةٍ، أن يَحُلَّ بهم عذابُ اللهِ(١).

﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ ﴾.

أي: فإنْ تلْقَيَنَّ- يا مُحمَّدُ- أولئك الكُفَّارَ، الذينَ ينقُضونَ العَهدَ مَرَّةً بعدَ مَرَّةٍ، وتَظفَرْ بهم في حالِ مُحارَبتِهم، بحيثُ لا يكونُ لهم عهدٌ معك- فنكِّلْ بهم، وعاقِبْهم عقوبةً غليظةً، تكونُ عِبرةً وتشريدًا لِغَيرِهم من الأعداءِ، فيتفرَّقوا عنك، ويخافوا منك، ولا يجترِئُوا عليك بعد ذلك(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٣٣).

قال ابنُ عاشورٍ: (ووقوعُ فِعلِ ﴿يَتَّقُونَ﴾ في حَيِّزِ النَّفيِ، يعُمُّ سائِرَ جِنسِ الاتِّقاءِ، وهو الجِنسُ المُتَعارَف منه، الذي يتهَمَّمُ به أهلُ المُروءاتِ والمُتَدَيِّنونَ، فيعُمُّ اتِّقاءَ اللهِ، وخشيةَ عِقابِه في الدُّنيا والآخرةِ، ويعُمُّ اتِّقاءَ العارِ، واتِّقاءَ الْمَسَبَّةِ، واتِّقاءَ سُوءِ السُّمعةِ، فإنَّ الخَسيسَ بالعَهدِ والغَدْرِ، مِن القبائِحِ عند جميعِ أهلِ الأحلامِ، وعند العَرَبِ أنفُسِهم؛ ولأنَّ مَن عُرِفَ بنَقْضِ العهدِ عَدِمَ مَن يَركَنُ إلى عَهدِه وحِلْفِه، فيبقى في عُزلةٍ مِن النَّاسِ، فهؤلاء الذين نقَضُوا عَهْدَهم، قد غلَبَهم البُغضُ في الدِّينِ، فلم يعبَؤُوا بما يَجُرُّه نقضُ العهدِ مِن الأضرارِ لهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٤٢)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٠)، ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٨، ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٣٤).

قال ابن عاشور: (المعنى: فاجعَلْهم مَثلًا وعِبرةً لغيرِهم من الكفَّارِ، الذينَ يترقَّبونَ ماذا يجتني هؤلاءِ مِن نقضِ عهدِهم، فيفعلونَ مِثلَ فِعْلِهم؛ ولأجلِ هذا الأمرِ نكَّل النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بقُريظةَ حين حاصَرَهم، ونزلوا على حُكمِ سَعدِ بنِ مُعاذٍ رَضِي اللهُ عنه، فحَكَم بأن تُقتَلَ المقاتِلةُ وتُسبَى الذُّرِّيَّةُ، فقتَلَهم رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالمدينةِ، وكانوا أكثرَ =

﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

أي: لعلَّ مَن خَلْفَهم مِن الكُفَّارِ الذين يعلمونَ بما فعَلْتَ بناقِضي العَهدِ، يتَّعِظونَ فيَحذَروا مِن نَقضِ ما بينك وبينهم مِن عهدٍ؛ لئلَّا يُصيبَهم ما أصاب غَيرَهم مِن ناقِضي العُهودِ(١).

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾.

أي: وإمَّا تَخافَنَّ- يا مُحمَّدُ- مِن قَومٍ بينك وبينهم عَهدٌ، أن يَغدِروا بك، فينقُضُوا عَهدَهم معك، بما يظهَرُ مِن قرائِنَ تَدُلُّك على ذلك، من غيرِ تَصريحٍ منهم بالخيانةِ(٢)، فاطرَحْ إليهم عَهدَهم عَلَنًا؛ حتى تستويَ أنت وهم في العِلمِ بأنَّه

= مِن ثمانِمئةِ رجلٍ، وقد أمرَ اللهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في هذا الأمرِ بالإغلاظِ على العدوِّ؛ لِما في ذلك مِن مصلحةِ إرهابِ أعدائِه؛ فإنَّهم كانوا يَستضعِفونَ المسلمين، فكان في هذا الإغلاظِ على النَّاكثينَ تحريضٌ على عقوبتِهم؛ لأنَّهم استحقُّوها، وفي ذلك رحمةٌ لغيرِهم؛ لأنَّه يصدُّ أمثالَهم عن النَّكثِ، ويكفي المؤمنينَ شرَّ النَّاكثينَ الخائِنينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٤٣)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٣٤).

(٢) قال ابنُ جرير: (فإن قال قائلٌ: وكيف يجوزُ نقضُ العهدِ بخوفِ الخيانةِ، والخوفُ ظنٌّ لا يقينٌ؟! قيل: إنَّ الأمرَ بخلافِ ما إليه ذهبْتَ، وإنَّما معناه: إذا ظهَرَت آثارُ الخيانةِ مِن عَدُوِّك، وخِفتَ وُقوعَهم بك؛ فألْقِ إليهم مَقاليدَ السَّلْمِ، وآذِنْهم بالحَربِ). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣٩).
وقال الرازي: (قال أهلُ العلم: آثارُ نَقضِ العَهدِ إذا ظهَرَت: فإمَّا أن تظهَرَ ظُهورًا مُحتمَلًا، أو ظهورًا مقطوعًا به؛ فإن كان الأوَّلُ وجب الإعلامُ- على ما هو مذكورٌ في هذه الآيةِ- وذلك لأنَّ قُرَيظةَ عاهدوا النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ثم أجابوا أبا سُفيانَ ومَن معه مِن المُشركينَ إلى مُظاهَرتِهم على رَسولِ اللهِ، فحصَلَ لرسولِ اللهِ خَوفُ الغَدرِ منهم به وبأصحابِه، فهاهنا يجبُ على الإمامِ أن ينبِذَ إليهم عُهودَهم على سواءٍ، ويُؤذِنَهم بالحربِ. أمَّا إذا ظهَرَ نَقضُ العَهدِ ظهورًا مَقطوعًا به، فهاهنا لا حاجةَ إلى نبذِ العَهدِ، كما فعلَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم =

لا عهدَ بينَك وبينَهم، وأنَّ بعضَكم مُحارِبٌ لبعضٍ، فتبرَأْ بذلك من الغَدرِ بهم[1].

عن سُلَيم بنِ عامرٍ، قال: ((كان بين مُعاويةَ وبين أهلِ الرُّومِ عَهدٌ، وكان يَسيرُ في بلادِهم، حتى إذا انقضَى العَهدُ أغار عليهم، فإذا رجلٌ على دابَّةٍ أو على فَرَسٍ، وهو يقولُ: اللهُ أكبَرُ، وفاءٌ لا غَدرٌ، وإذا هو عَمرُو بنُ عَبَسةَ، فسأله معاويةُ عن ذلك، فقال: سَمِعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقول: مَن كان بينه وبين قَومٍ عهدٌ، فلا يَحُلَّنَّ عهدًا، ولا يَشُدَّنَّه حتى يَمضِيَ أمَدُه، أو ينبِذَ إليهم على سَواءٍ، قال: فرجَعَ معاويةُ بالنَّاسِ))[2].

وعن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رَضيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لكُلِّ غادرٍ لِواءٌ يومَ القيامةِ، يُرفَعُ له بِقَدرِ غَدرِه، ألا ولا غادِرَ أعظَمُ غَدرًا مِن أميرِ عامَّةٍ))[3].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾.

أي: إنَّ الله لا يُحبُّ الذين يَغدِرونَ بمَن عاهَدَهم وأمِنَهم، ويخونونَ في

= بأهلِ مكَّةَ؛ فإنَّهم لَمَّا نقَضُوا العهدَ بقَتلِ خُزاعةَ- وهم مِن ذِمَّةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- وصل إليهم جيشُ رسولِ اللهِ بمَرِّ الظَّهرانِ، وذلك على أربعةِ فراسِخَ من مكَّةَ. ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٩٨). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٠٩، ٢١٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٤٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١، ٣٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٦٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٤٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٧٥٩)، والترمذي (١٥٨٠)، والنسائي في ((الكبرى)) (٨٦٧٩)، وأحمد (١٧٠١٥)، وابن حبان في ((الصحيح)) (٤٨٧١).

قال الترمذي: (حسنٌ صحيحٌ). وصححه ابن دقيق العيد في ((الاقتراح)) (١٢٠)، والألباني في ((صحيح الترمذي)) (١٥٨٠).

(٣) رواه مسلم (١٧٣٨).

عُهودِهم وغيرِها(١).

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ۝٥٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى ما يفعَلُ الرَّسولُ في حقِّ مَن يَجِدُه في الحَربِ، ويتمَكَّنُ منه، وذكَرَ أيضًا ما يجِبُ أن يفعَلَه فيمَن ظهَرَ منه نقضُ العَهدِ- بيَّنَ هنا حالَ مَن فاتَه في يومِ بَدرٍ وغَيرِه؛ لئلَّا يبقَى حَسرةً في قَلبِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فقد كان فيهم مَن بلَغَ في أذيَّةِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مَبلغًا عظيمًا(٢).

وأيضًا لمَّا كان نبذُ العهدِ مَظِنَّةُ الخوفِ مِن تكثيرِ العدوِّ وإيقاظِه، وكان الإيقاعُ أولَى بالخوفِ، أتبَع سبحانَه ذلك ما يُسلِّي عن فوتِ مَن هرَب مِن الكفَّار في غزوةِ بدر، فلم يُقتَلْ، ولم يُؤْسَرْ(٣)، فقال تعالى:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ قراءتان:

١- قِراءةُ ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ قيل: على معنى: لا يحسبنَّ النبيُّ، أو لا يحسبَنَّ أحدٌ، أو لا يحسبَنَّ الَّذين كَفَروا(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣٨، ٢٣٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣١٣).

(٤) قرأ بها حفصٌ وابنُ عامرٍ وحمزةُ وأبو جعفرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧٧).
ويُنظر: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤٤١، ٤٤٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣١٢)، ((الكشف عن وجوه القراءات السبع)) لمكي بن أبي طالب (١/ ٤٩٣، ٤٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤). =

٢- قِراءةُ ﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ﴾ على أنَّ الخطابَ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم(١)، وقيل: ولا تَحْسِبَنَّ يا سامعُ(٢).

﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ﴾.

أي: لا يظُنَّ الذين كَفَروا أنفُسَهم(٣) أفلَتُوا من أن يُظفَرَ بهم، وأنَّهم قد فاتُونا بأنفُسِهم فلا نقدِرُ عليهم(٤).

﴿إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ﴾.

أي: إنَّ الكافرينَ لا يُمكِنُهم الإفلاتُ مِن اللهِ تعالى في الدُّنيا ولا في الآخرةِ، ولا يَقدِرونَ على الهَرَبِ منه؛ فهو قادِرٌ عليهم سبحانَه(٥).

كما قال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [النور: ٥٧].

= ذكر الشنقيطيُّ أنَّ هذه القراءةَ سبعيةٌ متواترةٌ، لا وجهَ للطعنِ فيها، وذكر أن تفسيرَها مشكلٌ، قال: (لأنَّه لا يُدرَى أين مفعولَا (حَسِب)، ولا يُدرَى الفاعلُ أينَ هو؟! وللعلماءِ فيها أقوالٌ متقاربةٌ لا يُكذِّبُ بعضُها بعضًا). ((العذب النمير)) (٥/ ١٤٥- ١٤٦).

(١) قرأ بها الباقون، وقرأ شعبةُ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٣٦، ٢٧٧). ويُنظر: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤٤١، ٤٤٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣١٢)، ((الكشف)) لمكي بن أبي طالب (١/ ٤٩٣، ٤٩٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٦٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية))، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٦٥)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٣١٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٤٤)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٤٩).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤].

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- إنَّ الإسلامَ يُعاهِدُ لِيَصونَ عَهْدَه، فإذا خاف الخيانةَ مِن غَيرِه نبَذَ العَهدَ القائِمَ جَهرةً وعلانِيةً، ولم يَخُنْ ولم يَغدِرْ، ولم يَغُشَّ ولم يَخدَعْ، وصارح الآخرينَ بأنَّه نقَضَ يدَه مِن عَهدِهم، فليس بينه وبينهم أمانٌ، وبذلك يرتفِعُ الإسلامُ بالبشريَّةِ إلى آفاقٍ مِن الشَّرفِ والاستقامةِ، وإلى آفاقٍ مِن الأمنِ والطُّمأنينةِ، إنَّه لا يُبَيِّتُ الآخرينَ بالهُجومِ الغادِرِ الفاجِرِ، وهم آمِنونَ مطمَئِنُّونَ إلى عهودٍ ومواثيقَ لم تُنقَضْ ولم تُنبَذْ، ولا يُروِّعُ الذين لم يأخُذوا حِذْرَهم، حتى وهو يخشى الخيانةَ مِن جانِبِهم، فأمَّا بعد نَبْذِ العَهدِ، فالحَربُ خُدعةٌ؛ لأنَّ كُلَّ خَصمٍ قد أخذ حِذْرَه، فإذا جازَتِ الخُدعةُ عليه، فهو غيرُ مَغدورٍ به، إنَّما هو غافِلٌ! وكلُّ وسائِلِ الخُدعةِ حينئذٍ مُباحةٌ؛ لأنَّها ليست غادرةً، إنَّ الإسلامَ يريدُ للبَشريَّةِ أن ترتفِعَ، ويريدُ للبشريَّةِ أن تَعِفَّ، فلا يُبيحُ الغَدرَ في سبيلِ الغَلَبِ، وهو يُكافِحُ لأسمى الغاياتِ، وأشرَفِ المقاصِدِ، ولا يَسمَحُ للغايةِ الشَّريفةِ أن تستخدِمَ الوسيلةَ الخَسيسةَ، إنَّ الإسلامَ يَكرَهُ الخيانةَ، ويحتقِرُ الخائنينَ الذين ينقُضونَ العُهودَ، ومن ثَمَّ لا يُحِبُّ للمُسلِمينَ أن يخونوا أمانةَ العَهدِ في سبيلِ غايةٍ، مهما تكُنْ شريفةً؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾[1].

٢- الإسلامُ لا يبيحُ لأهلِه الخيانةَ مطلقًا؛ فالخيانةُ مبغوضةٌ عندَ الله بجميعِ صُورِها ومظاهِرِها، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾[2].

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٥٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٥).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وصَفَهم بشَرِّ الدَّوابِّ؛ لأنَّ دَعوةَ الإسلامِ أظهَرُ مِن دَعوةِ الأديانِ السَّابقةِ، ومُعجزةَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أسطَعُ، ولأنَّ الدَّلالةَ على أحقيَّةِ الإسلامِ دَلالةٌ عَقليَّةٌ بيِّنةٌ، فمن يَجحَدْه فهو أشبَهُ بما لا عَقلَ له[1]، ولإفادةِ أنَّهم ليسوا من شرارِ البَشَرِ فقط، بل هم أضَلُّ مِن عَجْماواتِ الدَّوابِّ؛ لأنَّ فيها منافِعَ للنَّاسِ، وهؤلاء لا خَيرَ فيهم، ولا نَفْعَ لِغَيرِهم منهم، فإنَّهم لشِدَّةِ تعصُّبِهم لجِنْسِهم قد صاروا أعداءً لِسائِرِ البَشَرِ[2].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فائدةُ قَولِه: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بعد ذِكرِ ما قَبلَه: أنْ يُبيِّنَ أنَّ شَرَّ الدوابِّ هم الذين كَفَروا، واستمَرُّوا على كُفرِهم إلى وقتِ مَوتِهم[3].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ * فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ دلَّ تقييدُ هذه العُقوبةِ ﴿فِي الْحَرْبِ﴾ على أنَّ الكافِرَ- ولو كان كثيرَ الخيانةِ سَريعَ الغَدرِ- أنَّه إذا أُعطِيَ عَهدًا لا يجوزُ خيانَتُه وعُقوبتُه[4].

٤- قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ إنَّما قال: ﴿يَنْقُضُونَ﴾ بفِعلِ الاستقبالِ، مع أنَّهم كانوا قد نَقَضوه قبلَ نُزولِ الآيةِ؛ لإفادةِ استمرارِهم على ذلك، وأنَّه لم يكُنْ هَفوةً رَجَعوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٢).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٤).

عنها، ونَدِموا عليها، بل أنَّهم ينقُضونَه في كلِّ مَرَّةٍ، وإن تكَرَّر[١].

٥- الذين جَمَعوا هذه الخِصالَ الثَّلاثَ: الكُفرَ، وعدمَ الإيمانِ، والخيانةَ؛ هم شَرُّ الدوابِّ عند اللهِ، فهم شَرٌّ مِن الحَميرِ والكلابِ وغَيرِها؛ لأنَّ الخيرَ مَعدومٌ منهم، والشَّرَّ مُتوقَّعٌ فيهم؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾[٢].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ إنَّه لَتعبيرٌ عَجيبٌ، يرسُمُ صُورةً للأخذِ المُفزِعِ، والهَولِ المُرعِبِ، الذي يكفي السَّماعُ به للهَرَبِ والشُّرودِ، فما بالُ مَن يحُلُّ به هذا العَذابُ الرَّعيبُ؟ إنَّها الضربةُ المُروِّعةُ، يأمُرُ الله تعالى رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يأخُذَ بها هؤلاء الذين مَرَدُوا على نقضِ العَهدِ، وانطلَقُوا من ضوابِطِ الإنسانِ؛ لِيُؤَمِّنَ المعسكَرَ الإسلاميَّ أوَّلًا، ولِيُدَمِّرَ هَيبةَ الخارجينَ عليه أخيرًا، ولِيَمنعَ كائنًا من كان أن يَجرؤَ على التَّفكيرِ في الوقوفِ في وجه المدِّ الإسلاميِّ مِن قَريبٍ أو من بعيدٍ، إنَّها طبيعةُ هذا المنهجِ، التي يجِبُ أن تستقِرَّ صُورتُها في قلوبِ العُصبةِ المسلمةِ، إنَّ هذا الدِّينَ لا بدَّ له من هَيبةٍ، ولا بُدَّ له من قوَّةٍ، ولا بدَّ له مِن سَطوةٍ[٣].

٧- قال الله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ﴾ ولا تُخالِفُ هذه الشدَّةُ كَونَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أُرسِلَ رحمةً للعَالِمينَ؛ لأنَّ المرادَ أنَّه رَحمةٌ لِعُمومِ العالَمينَ، وإن كان ذلك لا يخلو مِن شِدَّةٍ على قليلٍ منهم، كقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾[٤] [البقرة: ١٧٩].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٢٤).
(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٥٤٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥٠).

٨- مِن فوائِدِ العُقوباتِ والحدودِ المرتَّبةِ على المعاصي، أنَّها سببٌ لازدجارِ مَن لم يعمَلِ المعاصيَ، بل وسببُ زجرٍ لِمَن عَمِلَها ألَّا يُعاوِدَها؛ قال الله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[١].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ رتَّبَ نبْذَ العَهدِ على خوفِ الخيانةِ دونَ وُقوعِها؛ لأنَّ شُؤونَ المُعامَلاتِ السياسيَّةِ والحربيَّةِ تجري على حسَبِ الظُّنونِ ومخائِلِ الأحوالِ، ولا يُنتظَرُ تحقُّقُ وُقوعِ الأمرِ المَظنونِ؛ لأنَّه إذا تريَّثَ وُلاةُ الأمورِ في ذلك يكونونَ قد عرَّضُوا الأمَّةَ للخَطرِ، أو للتَّورُّطِ في غَفلةٍ وضياعِ مصلحةٍ، ولا تُدارُ سِياسةُ الأمَّةِ بما يُدارُ به القَضاءُ في الحُقوقِ؛ لأنَّ الحُقوقَ إذا فاتَتْ كانت بَليَّتُها على واحدٍ، وأمكَنَ تدارُكُ فائِتِها، ومصالِحُ الأمَّةِ إذا فاتت تمكَّنَ منها عَدُوُّها؛ فلذلك علَّقَ نبْذَ العَهدِ بتوقُّعِ خِيانةِ المُعاهَدينَ مِن الأعداءِ[٢].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ فيه إباحةُ نَبذِ العَهدِ لِمَن تُوُقِّعَ منهم غائلةُ مَكرٍ، وأنْ يُعلِمَهم بذلك؛ لئلَّا يُشَنِّعوا بنَصبِ الحَربِ مع العَهدِ[٣].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ يَدلُّ على أنَّه إذا وُجِدَت الخيانةُ المُحقَّقةُ منهم، لم يُحتَجْ أن يُنبَذَ إليهم عَهدُهم؛ لأنَّه لم يُخَفْ منهم، بل عُلِمَ ذلك، ولِعَدمِ الفائدةِ، ولِقَولِه: ﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾ وهنا قد كان معلومًا عند الجميعِ غَدرُهم[٤].

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥٢).
(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٣٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٤).

دلَّ مفهومُه أيضًا على أنَّه إذا لم يُخَفْ منهم خيانةٌ- بأن لم يُوجَدْ منهم ما يدُلُّ على ذلك- أنَّه لا يجوزُ نَبذُ العهدِ إليهم، بل يجِبُ الوفاءُ إلى أن تتِمَّ مُدَّتُه(١).

بلاغةُ الآيات:

١- ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ، انتَقَل به مِن الكلامِ على عُمومِ المشركينَ إلى ذِكرِ كُفَّارٍ آخَرينَ، هم الذين بيَّنهم بقولِه: ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ﴾(٢).

- قولُه: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فيه تَقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿فَهُمْ﴾ على الخَبرِ الفِعلي المنفيِّ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ مع عَدمِ إيلاءِ المسنَدِ إليه حرْفَ النَّفي؛ لقَصْدِ إفادةِ تقويةِ نفْيِ الإيمان عنهم، أي: الذين يَنْتفي الإيمانُ عنهُم في المستقبلِ انتفاءً قويًّا؛ فهم بُعداءُ عنه أشدَّ الابتعادِ(٣).

٢- قَولُه تعالى: ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾

- قولُه: ﴿ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ﴾ فيه التعبيرُ بصِيغةِ الاستِقبالِ (المضارِع) ﴿يَنْقُضُونَ﴾؛ تَنبيهًا على أنَّ مِن شأنهم نَقضَ العهدِ مَرَّةً بعدَ مرَّة، وفيه دَلالةٌ على تجدُّد النَّقضِ وتعدُّدِه، وكونِهم على نِيَّته في كلِّ حالٍ، أي: يَنْقُضون عَهْدَهم الذي أَخَذْته منهم؛ فهو تعريضٌ بالتأييسِ من وَفائِهم بعَهْدِهم(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٤٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٤٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٤٨).

٣- قَولُه تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ﴾ فيه مَجيءُ الشَّرطِ بحرْفِ (إنْ) وبعدها (ما)؛ لإفادةِ تأكيدِ وقوعِ الشَّرطِ؛ وبذلك تَنْسلِخُ (إنْ) عن الإشعارِ بعدَمِ الجَزمِ بوقوعِ الشَّرطِ، وزِيدَ التأكيدُ باجتلابِ نُونِ التوكيدِ في ﴿تَثْقَفَنَّهُمْ﴾[1].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾

- في هذه الآيةِ ما يُعرَفُ بالإشارةِ[2]، وبعضُهم يُدرِجُه في بابِ الإيجازِ؛ لأنَّه مُتفرِّعٌ عنه، فقولُه تعالى: ﴿فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ يشيرُ إلى الأمرِ بالمقاتلةِ بنَبذِ العَهدِ، كما نبَذُوا عَهْدَك، مع ما يدُلُّ عليه الأمرُ بالمساواةِ في الفِعلِ مِنَ العَدلِ، فإذا أضفْتَ إلى ذلك ما تشيرُ إليه كَلِمةُ ﴿خِيَانَةً﴾ مِن وُجودِ مُعاهدةٍ سابِقةٍ؛ تَبيَّنَ لك ما انطوَت عليه هذه الإشاراتُ الخفيَّةُ من دَلالاتٍ كأنَّها أخذةُ السِّحرِ[3].

- قولُه: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ﴾ فيه مَجيءُ ﴿قَوْمٍ﴾ نَكِرةً في سِياقِ الشَّرطِ؛ لإفادةِ العُمومِ، أي: كلُّ قومٍ تَخافُ مِنهم خيانةً[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٤٩).

(٢) هو أن يكونَ اللَّفظُ القَليلُ دالًّا على المعنى الكثيرِ، حتى تكونَ دَلالةُ اللَّفظِ على المعنى كالإشارةِ باليَدِ، فإنَّها تُشيرُ بحركةٍ واحدةٍ إلى أشياءَ كثيرةٍ، لو عُبِّرَ عنها بأسمائِها احتاجَت إلى عبارةٍ طويلةٍ وألفاظٍ كثيرةٍ. والفَرقُ بينه وبين الإيجازِ: أنَّ الإيجازَ بألفاظِ المعنى الموضوعةِ له، وألفاظُ الإشارةِ لَمحةٌ دالَّةٌ؛ فدَلالةُ اللَّفظِ على الإيجازِ دَلالةُ مُطابَقةٍ، ودَلالةُ اللَّفظِ في الإشارةِ إمَّا دَلالةُ تَضمينٍ، أو دَلالةُ التزامٍ. يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٤/ ٣٠).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيان)) لمحيي الدين درويش (٤/ ٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥١).

- قولُه: ﴿فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ وصْفُ النَّبذِ أو النابِذ بأنَّه على سواءٍ تمثيلٌ بحالِ الماشي على طَريقٍ جادَّةٍ، لا التواءَ فيها؛ فلا مُخاتَلةَ لصاحِبها[1].

- قولُه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ يَحتمِلُ أنْ تكونَ هذه الجملةُ تعليلًا معنويًّا للأمْرِ بنَبْذِ العَهدِ على عَدلٍ- وهو إعلامُهم-؛ فهي تعليلٌ للأمرِ بالنَّبذِ، والنَّهيِ عن مُناجزةِ القِتالِ المدلولِ عليه بالحالِ على طريقةِ الاستئنافِ. ويَحتملُ أنْ تكونَ مستأنفةً سِيقَتْ لِذَمِّ مَنْ خان رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ونَقَضَ عَهْدَه[2]؛ فعلى وجْهِ التعليلِ تكونُ الجملةُ تَذييلاً لِمَا اقتضتْه جملةُ: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ...﴾ تصريحًا واستلزامًا، والمعنى: أنَّ اللهَ لا يُحبُّهم؛ لأنَّهم مُتَّصِفون بالخيانةِ؛ فلا تَستمِرَّ على عَهدِهم، فتكونَ معاهدًا لِمَن لا يُحِبُّهم اللهُ، ومَوقِعُ (إنَّ) فيه مَوقِعُ التَّعليلِ للأمرِ بردِّ عهدِهم، ونَبْذِه إليهم؛ فهي مُغنِيةٌ غَناءَ فاءِ التَّفريعِ، وهذا من نُكَتِ الإعجازِ[3].

- وقولُه: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ تعليلٌ للنَّهيِ على طريقةِ الاستئنافِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٤١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٦٢٢).

وقال أبو السُّعود: (﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ تعليلٌ للأمْرِ بالنبذِ؛ إمَّا باعتبار استلزامِه للنهي عن المناجزة، التي هي خيانةٌ؛ فيكونُ تحذيرًا لرسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم منها، وإمَّا باعتبار استتباعِه للقتال بالآخِرة؛ فيكونُ حثًّا له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على النبذ أولًا، وعلى قِتالهم ثانيًا، كأنه قيل: وإمَّا تعلَمنَّ من قومٍ خيانةً فانبذْ إليهم، ثم قاتِلْهم؛ إنَّ الله لا يُحِبُّ الخائنين، وهم مِن جُملتِهم؛ لِمَا علمتَ مِن حالِهم). ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣١). أو على حذفِ لامِ العلةِ في قراءةِ ابنِ عامرٍ، بفتحِ الهمزةِ في ﴿أَنَّهُمْ﴾. ويُنظر: ((إتحاف فضلاء البشر)) للبنَّاء (ص: ٢٩٩).

الآيات (٦٠-٦٣)

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾.

غَريبُ الكَلمات:

﴿رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾: أي: ربطُها وحَبْسُها، واقتِناؤُها للجهادِ في سبيلِ اللهِ تعالى(١)، وقيل: الرباط هي الخَيل التي تُربَطُ في سَبيلِ اللهِ، وقيل: الرباطُ جمعُ ربيطٍ، وفرسٌ ربيطٌ: أي: مربوطٌ في سبيلِ الله، وأصلُ المرابطةِ والرِّباطِ: أن يربطَ هؤلاء خيولَهم، ويربطَ هؤلاء خيولَهم في الثَّغرِ، كلٌّ يُعِدُّ لصاحبِه، وأصلُ (ربط): يدلُّ على شَدٍّ وثَباتٍ، والخيلُ معروفٌ، وقيل: هي في الأصلِ اسمٌ للأفراسِ والفرسانِ جميعًا(٢).

﴿جَنَحُوا لِلسَّلْمِ﴾: أي: مالُوا إلى الصُّلحِ؛ مِن قولهم: جَنَحتِ السَّفينةُ، أي:

---

(١) قال الواحديُّ: (وأكثرُ المفسرين على أنَّ المرادَ برباطِ الخيلِ هاهنا: ربطُها واقتناؤُها للغزوِ). ((البسيط)) (١٠/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٣٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٢)، ((لسان العرب)) لابن منظور (٧/ ٣٠٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٥٧).

مالَت إلى أحَدِ جانِبَيها، وأصلُ (جنح): يدلُّ على مَيلٍ، والسَّلمُ: الصلحُ[1]، وتركُ الحربِ[2].

﴿حَسْبَكَ اللَّهُ﴾: أي: كافيكَ، وأصْلُ (حسب): كفايةٌ[3].

﴿وَأَلَّفَ﴾: أي: جمَع، وأوْقَع الإلفَ بينَ القلوبِ، وأصلُ (ألف): اجتماعٌ معَ التئامٍ، ويدلُّ كذلك على انضمامِ الشيءِ إلى الشيءِ[4].

المعنى الإجماليُّ:

يأمُر اللهُ عِبادَه أن يُعِدُّوا لأعدائِهم الكفَّارِ ما استطاعوا مِن قُوَّةٍ رادعة، ومِن الخَيلِ المربوطةِ المُعَدَّةِ للقتالِ عليها في سبيلِ الله تعالى؛ يُخيفونَ بها عدوَّ الله وأعداءَهم، وآخرينَ لا يَعلَمونَهم، لكنَّ اللهَ يَعلَمُهم، وبيَّن لهم أنَّ ما يُنفِقونَه مِن شَيءٍ في سبيلِه تعالى، فإنَّه يُعطِيهم ثوابَه يومَ القِيامةِ وافيًا غيرَ مَنقوصٍ.

ثم أمرَ اللهُ نبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يَميلَ للمُصالحةِ، إنْ مال الكُفَّارُ المُحارِبونَ لها، وأنْ يُفوِّضَ أمْرَه إلى اللهِ؛ إنَّه هو السَّميعُ العليمُ، وأعلَمَه أنَّهم إن يُريدُوا خِداعَه بِطَلَبِهم الصُّلحَ؛ فإنَّ اللهَ- وَحدَه- كافِيه وناصِرُه عليهم، هو سُبحانه الذي أيَّدَه بنَصرِه وبأصحابِه الذين آمَنوا، وجمَعَ بين قلوبِهم، لو أنفقَ

(١) وقيل: أصلُ (سلم) مِن الانقيادِ، وسُمِّي الصلحُ سلمًا؛ لأنَّ عندَ الصلحِ ينقادُ كلُّ واحدٍ لصاحبِه، ولا ينازعُه فيه. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٥/ ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٩).

رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما في الأرضِ جميعًا؛ لِيَجمَعَ بين قُلوبِهم- ما استطاعَ، ولكنَّ اللهَ فعل ذلك؛ إنَّه عزيزٌ حَكيمٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أوجَبَ على رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُشَرِّدَ مَن صَدَرَ منه نقضُ العَهدِ، وأن يَنبِذَ العَهدَ إلى مَن خاف منه النَقضَ- أمَرَه في هذه الآيةِ بالإعدادِ لهؤلاءِ الكُفَّارِ(١).

وأيضًا لَمَّا اتَّفَقَ في قصَّةِ بَدرٍ أنْ قَصَدوا الكُفَّارَ بلا تكميلِ آلةٍ ولا عُدَّةٍ، وأمَرَه تعالى بالتَّشريدِ وبِنَبذِ العَهدِ للنَّاقضينَ، كان ذلك سببًا للأخذِ في قتالِه، والتَّمالُؤ عليه- فأمَرَه تعالى والمؤمنينَ بإعدادِ ما قَدَروا عليه من القُوَّةِ للجهادِ(٢).

وأيضًا لَمَّا كان ربَّما أدَّى الاعتمادُ على الوَعدِ الصَّادِقِ المُؤَيِّدِ بما وقع لهم في بَدرٍ مِن عظيمِ النَّصرِ، مع نَقصِ دَعوى العِدَّة والعُدَّة، إلى تركِ المُناصبة والمُحارَبة والمُغالبةِ- أتبعَه ما يُبَيِّنُ أنَّ اللَّازِمَ ربطُ الأسبابِ بِمُسَبَّباتِها، ولِيَتبيَّنَ الصَّادِقُ في دعوى الإيمانِ مِن غَيرِه(٣).

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٩٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن حيان)) (٥/ ٣٤٣).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣١٤-٣١٥).

أي: وأعِدُّوا- أيُّها المُسلِمونَ- لأعدائِكم الكُفَّارِ- الذين يَسعَونَ في هلاكِكم- كُلَّ ما أمكَنَكم أنْ تُعِدُّوه لِقتالِهم، مِن جميعِ أنواعِ الأسلحةِ، والرأيِ والتَّدبيرِ[1].

عن عُقبةَ بنِ عامرٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سمِعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو على المنبرِ، يقول: ((﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾، ألَا إنَّ القُوَّةَ الرَّميُ، ألَا إنَّ القُوَّةَ الرَّميُ، ألَا إنَّ القُوَّةَ الرَّميُ))[2].

﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾.

أي: وأعِدُّوا للكُفَّارِ ما تَستطيعونَ إعدادَه مِن الخَيلِ المربوطةِ، المُعَدَّةِ للقتالِ عليها في سبيلِ الله تعالى[3].

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((الخَيلُ لثلاثةٍ: لِرَجلٍ أجرٌ، ولرَجُلٍ سِترٌ، وعلى رَجُلٍ وِزرٌ؛ فأمَّا الذي له أجرٌ: فرجُلٌ رَبَطها في سبيلِ اللهِ، فأطال في مَرْجٍ[4] أو رَوضةٍ، فما أصابَت في طِيَلِها[5] ذلك من المَرجِ أو الرَّوضةِ، كانت له حَسَناتٍ، ولو أنَّها قَطَعَت طِيَلَها فاستنَّتْ شَرَفًا أو شَرَفينِ[6]، كانت أرواثُها وآثارُها حسناتٍ له، ولو أنَّها مَرَّت بنهرٍ فشَرِبتْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٤٤، ٢٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٤).

(٢) رواه مسلم (١٩١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٥٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢١٨)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٠٦)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٥٧، ١٥٨).

(٤) المَرْجُ: مَوضِعُ الكَلأ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٥/ ٧٤).

(٥) طِيَلِها: هو الحَبلُ الذي تُربَطُ به، ويُطَوَّلُ لها لِتَرعى، ويقالُ له (طِوَلٌ) أيضًا. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٦٤).

(٦) فاستنَّتْ شَرَفًا أو شَرَفينِ: عَدَتْ بمَرَحٍ ونَشاطٍ، شوطًا أو شَوطينِ، فبَعُدت عن الموضِعِ الذي ربَطَها صاحِبُها فيه ترعى، ورَعَت في غَيرِه. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٤١٠)، ((شرح البخاري)) للقسطلاني (٥/ ٧٤).

منه، ولم يُرِدْ أن يَسقِيَها، كان ذلك حسناتٍ له، ورجلٌ رَبَطَها فخرًا ورِئاءً، ونِواءً[١] لأهلِ الإسلامِ؛ فهي وِزرٌ على ذلك))[٢].

وعن عُروةَ البارقيِّ رَضيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((الخَيلُ مَعقودٌ في نَواصيها الخَيرُ إلى يومِ القِيامةِ: الأجرُ والمَغنَمُ))[٣].

﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾.

أي: تُخيفونَ باستعدادِكم للجهادِ الذين تَعلمونَهم مِن أعداءِ اللهِ تعالى، وأعدائِكم مِن الكُفَّار[٤].

﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾.

أي: وتُخيفونَ باستعدادِكم للجِهادِ أعداءً لكم آخرينَ، لا تَعلمونَهم، لكِنَّ اللهَ يَعلَمُهم[٥].

---

(١) نِواء: مُعاداةً. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٥/ ٧٤)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٦٥).

(٢) رواه البخاري (٢٨٦٠) واللفظ له، ومسلم (٩٨٧).

(٣) رواه البخاري (٢٨٥٢)، ومسلم (١٨٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٥٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٩٩، ٥٠٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٨٢، ٨٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٥٨).

قيل: المرادُ بهم: المُنافقون. وهذا اختيارُ الرازي، وابنِ جُزي، وأبي حيانَ، وابنِ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٠٠)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٨٢، ٨٣).

قال ابنُ كثير: (ويَشهدُ له قولُه: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [التوبة: ١٠١]).

وقيل: المرادُ بـ ﴿وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ﴾: الجِنُّ، وهذا اختيارُ ابنِ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٤٩-٢٥٠).

وقيل غيرُ ذلك. واختار القرطبيُّ التوقُّفَ؛ لأنَّ اللهَ تعالى صرَّحَ بأنَّ المؤمنينَ لا يعلمونَهم، =

﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا أمرَ اللهُ تعالى بإعدادِ القوَّةِ المُستطاعةِ كائنةً ما كانت، وكان إعدادُها يحتاجُ إلى مادَّةٍ- رغَّبَ سبحانَه المؤمنينَ في الإنفاقِ في سبيلِه؛ لِيُنفِقوا، ويُعينوا على إعدادِ القُوَّةِ، فقال تعالى[1]:

﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

أي: وما تُعطُوه- أيُّها المؤمنونَ- مِن نفقاتٍ قليلةً كانت أو كثيرةً، في جهادِ أعداءِ الله، يُعطِكم اللهُ ثوابَه يومَ القيامةِ، وافيًا غيرَ مَنقوصٍ[2].

كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦١، ٢٦٢].

وقال سُبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾.

= وإنَّما الذي يعلَمُهم هو الله تعالى وَحدَه، ولم يَرِدْ في بيانِ ذلك حديثٌ يصِحُّ عن النبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٥٩).

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٥٩).
وقال ابنُ عاشور: (وتدُلُّ التَّوفيَةُ على أنَّه يشملُ الأجرَ في الدُّنيا مع أجرِ الآخِرَةِ، ونُقِل ذلك عن ابنِ عبَّاسٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥٨).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بيَّنَ ما يُرهَبُ به العَدوُّ مِن القوَّةِ؛ بيَّنَ بعدَه أنَّهم عند هذا الإرهابِ إذا مالوا إلى المُصالحةِ، فالحُكمُ قَبولُ المُصالحةِ(١).

وأيضًا لَمَّا كان ضَمانُ النَّصرِ والخَلَفِ في النَّفقةِ مُوجِبًا لِدَوامِ المُصادمةِ، والبُعدِ مِن المُسالَمةِ؛ أتبَعَه الأمرَ بالاقتصادِ في ذلك(٢).

وأيضًا لَمَّا كان السَّلمُ هو المقصودَ الأوَّلَ- كما أفاد مفهومُ الآيةِ السَّابقةِ- أكَّدَه بمنطوقِ الآيةِ اللَّاحقةِ، فقال جلَّتْ حِكمَتُه، وسبقَت رَحمَتُه(٣):

﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾.

أي: وإنْ مال الكفَّارُ المُحارِبونَ إلى المُصالحةِ والمُسالَمةِ فأجِبْهم- يا مُحمَّدُ- إليها(٤).

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٠٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٦١).

قال ابنُ كثير: (وقولُ ابنِ عبَّاسٍ، ومجاهِدٍ، وزيدِ بنِ أسلَمَ، وعطاءٍ الخراسانيِّ، وعكرمةَ، والحسنِ، وقتادةَ: إنَّ هذه الآيةَ منسوخةٌ بآيةِ السَّيفِ في براءة: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ...﴾ الآيةَ [التوبة: ٢٩] - فيه نظرٌ؛ لأنَّ آيةَ براءة فيها الأمرُ بقِتالِهم إذا أمكَنَ ذلك، فأمَّا إذا كان العدوُّ كثيفًا، فإنَّه تجوزُ مُهادَنتُهم، كما دلَّت عليه هذه الآيةُ الكريمةُ، وكما فعل النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومَ الحُدَيبية، فلا منافاةَ، ولا نَسخَ، ولا تخصيصَ. واللهُ أعلم). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٨٤). وهذا الذي ذهب إليه ابنُ كثيرٍ- أنَّ هذه الآيةَ غيرُ منسوخةٍ- هو اختيارُ ابنِ جريرٍ والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٥٣، ٢٥٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٦٣).

أي: صالِحْهم، وفَوِّضْ أَمرَك إلى اللهِ، ولا تخَفْ ممَّا قد يدبِّرونَه مِن مَكرٍ وغَدرٍ في مُدَّةِ المُصالحةِ(١).

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

أي: إنَّ الله الذي تتوكَّلُ عليه، هو السَّميعُ لأقوالِك، وأقوالِ أعدائِك، العليمُ بما في قُلوبِكم، لا يَخفَى عليه شيءٌ، فإن كان الأعداءُ يُضمِرونَ المَكرَ والغَدرَ بك- يا مُحمَّدُ- أثناء مدَّةِ المُصالحةِ؛ فهو سبُحانه لن يَفوتَه شيءٌ ممَّا يَنوُونَ ويقولونَ ويُدَبِّرون؛ لأنَّه مُطَّلِعٌ عليهم، وسيَكفيكَهم(٢).

﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أمَر الله تعالى في الآيةِ المتقدمةِ بالصُّلحِ، وكان طلَبُ السَّلمِ والهُدنةِ من العَدُوِّ، قد يكونُ خديعةً حربيَّةً؛ لِيَغُرُّوا المُسلمينَ بالمُصالحة، ثم يأخذوهم على غِرَّةٍ؛ ذكَر في هذه الآيةِ حكمَ الصُّلح، إن صالحوا على سبيلِ المخادعةِ، وأنَّه يجبُ قبولُ ذلك الصلحِ، وأن يأخُذَ الأعداءَ على ظاهرِ حالِهم، ويحمِلَهم على الصِّدقِ؛ لأنَّه الخُلُقُ الإسلاميُّ، وشأنُ أهلِ المُروءةِ، ولا تكونُ الخَديعةُ بمِثلِ نَكْثِ العهدِ، فإذا بَعثَ العَدُوَّ كُفْرُهم على ارتكابِ مثلِ هذا التسَفُّلِ؛ فإنَّ اللهَ تكفَّلَ للوفيِّ بِعَهدِه، أن يَقِيَه شَرَّ خيانةِ الخائنينَ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٨٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٦١).

﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ﴾.

أي: وإنْ يُرِدِ الكُفَّارُ خِداعَك بطَلَبِ الصُّلحِ - يا مُحمَّدُ - بأن يُظهِروا المُسالَمةَ، ويُبطِنوا الخِيانةَ والغَدرَ؛ ليتمَكَّنوا في مدَّةِ المُصالحةِ مِن تَدبيرِ المكائِدِ؛ لِيَضُرُّوك بها؛ فإنَّ اللهَ وَحدَه كافيك، وناصِرُك عليهم(١).

كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩].

وقال سبحانه: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦].

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

أي: اللهُ هو الَّذي قوَّاك بنَصرِه إيَّاك على الكفَّارِ، وقوَّاك بأصحابِك(٢).

﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٣﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٦٣، ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٤٨)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٧/ ٢٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٦٤، ١٦٥).

وقصَرَ بعضُ المفَسِّرينَ المرادَ بالمؤمنينَ المذكورينَ على الأنصارِ، وممَّن اختار ذلك: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ، وابنُ عطيةَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٥٥)، ((الوسيط)) (٢/ ٤٦٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٤٨).

وممَّن ذهَب إلى أنَّهم المهاجرونَ والأنصارُ: ابنُ تيميةَ، وابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) (٧/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٨٤).

قال ابنُ عطيةَ: (تظاهَرَت أقوالُ المُفَسِّرينَ أنَّها في الأَوْسِ والخَزْرجِ... ولو ذُهِبَ إلى عمومِ المُؤمِنينَ في المُهاجِرينَ والأنصارِ، وجُعِلَ التَّأليفُ ما كان مِن جَميعِهم من التَّحابِّ، حتى تكونَ أُلفةُ الأوسِ والخزرجِ جزءًا مِن ذلك- لساغ ذلك). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٤٨).

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾.

أي: واللهُ تعالى هو الذي جمعَ بين قُلوبِ أصحابِك المؤمنينَ على الحَقِّ، إيمانًا به ومناصرةً له، فأصبَحوا بنِعمَتِه إخوانًا مُتحابِّينَ مُؤتَلِفينَ، بعد أن كانوا أعداءً مُتنافرينَ مُتفرِّقينَ[(١)].

﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾.

أي: لو بَذَلْتَ- يا مُحمَّدُ- جميعَ ما في الأرضِ؛ مِن ذهبٍ وفِضَّةٍ وأموالٍ وغَيرِ ذلك؛ لِتَجمَعَ بينَ قلوبِ أصحابِك- لَما استطَعْتَ أبدًا أن تجمَعَ بينها؛ لِشدَّةِ العَداواتِ التي كانت مُستحكِمةً بينهم، ولكِنَّ اللهَ بقُدرَتِه الباهرةِ- وَحْدَه- جمَعَ بينهم على الهُدى[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٤٨، ٥٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٦٥، ١٦٦).
قال القرطبي: (﴿وأَلَّفَ بين قُلوبِهم﴾ أي: جمَعَ بين قُلوبِ الأوسِ والخَزرَجِ... وقيل: أراد التَّأليفَ بين المهاجرينَ والأنصارِ. والمعنى مُتقارِبٌ). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٤٢).
وقال الشَّوكاني: (ظاهِرُه العمومُ، وأنَّ ائتلافَ قُلوبِ المؤمنينَ هو من أسبابِ النَّصرِ التي أيَّدَ اللهُ بها رَسولَه. وقال جمهورُ المُفَسِّرين: المراد: الأوسُ والخَزرجِ؛ فقد كان بينهم عصبيَّةٌ شديدةٌ، وحروبٌ عظيمةٌ، فألَّفَ اللهُ بين قلوبِهم بالإيمانِ برَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وقيل: أراد التَّأليف بين المُهاجرين والأنصار. والحَملُ على العمومِ أَوْلى؛ فقد كانت العرَبُ قبل البَعثةِ المُحمديَّةِ يأكُلُ بعضُهم بعضًا، ولا يَحترِمُ مالَه ولا دَمَه، حتى جاء الإسلامُ، فصاروا يدًا واحدةً، وذهب ما كان بينهم من العصبيَّةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٦٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٥٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٦٦).

فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وعن عبدِ اللهِ بنِ زَيدٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لَمَّا فتح حُنينًا قسَمَ الغَنائِمَ، فأعطى المؤلَّفةَ قُلوبُهم، فبلَغَه أنَّ الأنصارَ يُحبُّونَ أن يُصيبوا ما أصاب النَّاسُ، فقام رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فخطَبَهم، فحَمِدَ اللهَ وأثنى عليه، ثمَّ قال: يا مَعشَرَ الأنصارِ، ألم أجِدْكم ضُلَّالًا فهداكم اللهُ بي؟ وعالةً فأغناكم الله بي؟ ومُتَفرِّقينَ فجَمَعَكم الله بي؟ ويقولون: اللهُ ورسولُه أمَنُّ، فقال: ألا تجيبوني؟! فقالوا: اللهُ ورَسولُه أمَنُّ، فقال: أمَا إنَّكم لو شِئتُم أن تقولوا كذا وكذا، وكان من الأمر كذا وكذا- لأشياءَ عَدَّدَها-، فقال: ألَا تَرضَونَ أن يذهَبَ النَّاسُ بالشَّاءِ والإبِلِ، وتذهبونَ برَسولِ اللهِ إلى رِحالِكم؟! الأنصارُ شِعارٌ[١] والنَّاسُ دثارٌ[٢] ولولا الهجرةُ لكُنتُ امرأً مِن الأنصارِ، ولو سلَكَ النَّاسُ واديًا وشِعبًا، لسلكْتُ واديَ الأنصارِ وشِعبَهم، إنَّكم ستَلْقونَ بعدي أثَرةً[٣]، فاصبِرُوا حتى تلقَوني على الحَوضِ))[٤].

﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ الذي ألَّف بقُدرتِه بين قلوبِ المُؤمنينَ، عزيزٌ لا يقهَرُه ولا يَغلِبُه شيءٌ، ولا يَرُدُّ قَضاءَه أحدٌ، ومن ذلك قَهرُه للكُفَّارِ الجانحينَ للسَّلمِ، الذين يُريدونَ بذلك الخِداعَ، حكيمٌ في أفعالِه وشَرعِه وتدبيرِ خَلقِه، فيضَعُ الأشياءَ في مواضِعِها

---

(١) الشِّعَارُ: هو الثَّوبُ الذي يلي شَعْرَ البَدَنِ. والمعنى أنَّ الأنصارَ أقربُ النَّاسِ إليه- صلى الله عليه وسلم- مَرتبةً وأولاهم منه مَنزِلةً. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٩/ ٤٠٠٩).

(٢) الدِّثارُ: هو الثَّوبُ الذي فَوقَ الشِّعارِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٩/ ٤٠٠٩).

(٣) أَثَرَةً: أَي: استِئثارًا؛ يستأثِرُ عليكم أُمَراؤُكم بأمورِ الدُّنيا مِنَ المَغانِمِ والفَيءِ ونَحوِهما. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٩/ ٤٠٠٩).

(٤) رواه البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١)، واللفظ له.

اللَّائقةِ بها، ومن ذلك تأليفُه قلوبَ المؤمنينَ؛ لِيَجتمِعوا على نُصرةِ الحقِّ[١].

الفَوائِد التربويَّة:

١- قَوْله تَعَالَى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ أمَرَ اللهُ سبحانه وتعالى بإعدادِ القُوَّةِ للأعداءِ، مع أنَّ الله تعالى لو شاءَ لَهَزَمهم، ولكنَّه أراد أنْ يُبلِيَ بعضَ النَّاسِ ببَعضٍ، بِعِلمِه السَّابِقِ وقَضائِه النَّافِذِ؛ فأمَرَ بإعدادِ القُوى والآلةِ في فُنونِ الحَربِ، التي تكونُ لنا عُدَّةً، وعليهم قُوَّةً، ووعَدَ على الصَّبرِ والتَّقوى بأمدادِ الملائكةِ العُليا[٢].

٢- إذا طلبت الصُّلح والإصلاحَ بينَ قومٍ لا تتوسَّل إلى ذلك إلَّا بالتَّوكُّل، قال الله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فاجنح لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى الله﴾[٣].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ نبَّه اللهُ تعالى بِقَولِه: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ على الزَّجرِ عن نَقضِ العَهدِ؛ لأنَّه عالِمٌ بما يُضمِرُ العبدُ، سميعٌ لِما يقولُه[٤].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ فيه أنَّ النَّصرَ يُنالُ بالأسبابِ، وأنَّ ذلك يتوقَّفُ على التآلُفِ والاتِّحادِ، وكلُّ ذلك بفَضلِ مُقَدِّرِ الأسبابِ، ورَحمتِه بالعبادِ[٥].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ هذا بيانٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٢/ ٤٢١).

(٣) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٢/ ٣١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٩/ ٥٥٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٦١).

عمَّا ينبغي أن يكونَ عليه المُحِقُّ مِن الثِّقةِ باللهِ- إذا خاف مَكرَ المُبطِلِ به- في أن يَكفِيَه شَرَّ كَيدِه؛ لئلَّا يضطرِبَ أمرُه في تدبيرِه[١].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ يدلُّ على أنَّ الاستعدادَ للجهادِ- بالنَّبْلِ والسِّلاحِ، وتعليمِ الفُروسيَّةِ والرَّميِ، وكلِّ ما يحصلُ به تخويفُ العدوِّ وردعُه مِن مستحدثاتِ الأسلحةِ بأنواعِها الجويةِ والبريةِ والبحريةِ وغيرِها- فريضةٌ، إلَّا أنَّه مِن فُروضِ الكِفاياتِ[٢].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ دخلَ فيه كُلُّ ما يدخُلُ تحت قُدرةِ النَّاسِ اتِّخاذُه مِن العُدَّةِ، فاتِّخاذُ السُّيوفِ والرِّماحِ والأقواسِ والنِّبالِ، مِن القُوَّةِ في جُيوشِ العُصورِ الماضيةِ، واتِّخاذُ الدَّبَّاباتِ والمدافِعِ والطَّيَّاراتِ والصَّواريخِ، مِن القُوَّةِ في جُيوشِ عَصْرِنا[٣].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ يدلُّ على جَوازِ وَقفِ الخَيلِ والسِّلاحِ، واتِّخاذِ الخَزائِنِ والخُزَّانِ لها؛ عُدَّةً للأعداءِ[٤].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ أصلٌ في المُناضَلةِ[٥]، والمُسابقةِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٩/ ٥٥٤).

(٥) المُناضَلةُ: الرَّميُ. يُقال: ناضَلَه مُناضَلةً ونِضالًا ونِيضالًا: باراهُ في الرَّميِ. وتناضَلَ القَومُ: تَرامَوْا للسَّبْقِ. يُنظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١١/ ٦٦٥)، ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٦١٠).

(٦) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٣٦).

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ التَّقييدُ لإعدادِ المُستَطاعِ مِن القُوَّةِ، ومِن رباطِ الخَيلِ، بقَصدِ إرهابِ الأعداءِ المُجاهرينَ، والأعداءِ المُستَخْفِينَ وغيرِ المَعروفينَ؛ دليلٌ على تفضيلِ جَعلِه سببًا لِمَنعِ الحَربِ، على جَعلِه سببًا لإيقادِ نارِها، فهو يقولُ: استَعِدُّوا لها لِيَرهَبَكم الأعداءُ؛ عسى أن يمتَنِعوا عن الإقدامِ على قتالِكم، وهذا عينُ ما يُسمَّى في عُرفِ دُوَلِ هذه الأيَّامِ بـ (السَّلام المُسَلَّح)، بناءً على أنَّ الضَّعفَ يُغرِي الأقوياءَ بالتَّعدِّي على الضُّعَفاءِ(١).

٦- قوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ التحرُّزَ، وأعمالَ الواسِطاتِ غيرُ مُؤثِّرةٍ في توكُّلِ المُؤمِنينَ، ألَا ترى أنَّه جلَّ جَلالُه قد قال في هذه السُّورةِ بعَينِها: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾، ثم أمَرَ بإعدادِ القُوَّةِ؛ لإرهابِ العَدُوِّ(٢).

٧- قال الله تعالى: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ الكُفَّارُ إذا عَلِموا كَونَ المُسلمينَ مُتأهِّبينَ للجِهادِ، ومُستعِدِّينَ له مُستكمِلينَ لِجَميعِ الأسلحةِ والآلاتِ؛ خافُوهم، وذلك الخَوفُ يُفيدُ أمورًا كثيرةً:

أوَّلُها: أنَّهم لا يَقصِدونَ دُخولَ دارِ الإسلامِ.

ثانيها: أنَّه إذا اشتَدَّ خَوفُهم فربَّما التَزَموا مِن عند أنفُسِهم جزيةً.

ثالثها: أنَّه ربما صار ذلك داعيًا لهم إلى الإيمانِ.

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٥٧).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٤٧٣).

رابعُها: أنَّهم لا يُعينونَ سائِرَ الكُفَّارِ(١).

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِباطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ لَمَّا كان إعدادُ العُدَّةِ يقتضي أموالًا، وكان النِّظامُ الإسلاميُّ كلُّه يقومُ على أساسِ التَّكافُلِ، فقد اقترَنت الدَّعوةُ إلى الجهادِ بالدَّعوةِ إلى إنفاقِ المالِ في سبيلِ اللهِ(٢)، ففي قَولِه تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ بَعدَ قَولِه سُبحانه: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ إرشادٌ إلى إنفاقِ المالِ في سَبيلِ اللهِ لإعدادِ ما ذُكِرَ؛ إذ لا يتِمُّ بدونِ المالِ شَيءٌ منه(٣).

٩- دلَّ قولُه تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ على تَفضيلِ السَّلْمِ على الحَربِ- إذا جنَحَ العَدُوُّ لها- إيثارًا لها على الحَربِ التي لا تُقصَدُ لِذاتِها، بل هي ضَرورةٌ مِن ضَروراتِ الاجتماعِ تُقَدَّرُ بِقَدَرِها(٤).

١٠- قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: أجِبْهم إلى ما طَلَبوا متوكِّلًا على ربِّك؛ فإنَّ في ذلك فوائِدَ كثيرةً:

منها: أنَّ طلَبَ العافيةِ مَطلوبٌ كُلَّ وَقتٍ، فإذا كانوا هم المُبتدِئينَ في ذلك، كان أَوْلى لإجابَتِهم.

ومنها: أنَّ في ذلك إجمامًا لِقُوى المؤمنينَ، واستعدادًا منهم لقتالِهم في وقتٍ آخَرَ، إن احتيجَ لذلك.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٩٩).

(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٥٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٢٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ومنها: أنَّهم إذا اصطلَحُوا، وأمِنَ بعضُهم بعضًا، وتمكَّنَ كلٌّ مِن معرفةِ ما عليه الآخَرُ؛ فإنَّ الإسلامَ يعلو ولا يُعلَى عليه، فكلُّ مَن له عقلٌ وبصيرةٌ إذا كان معه إنصافٌ، فلا بدَّ أن يُؤثِرَه على غيرِه من الأديانِ؛ لِحُسنِه في أوامِرِه ونواهيه، وحُسنِه في معامَلتِه للخَلقِ والعَدلِ فيهم، وأنَّه لا جَورَ فيه، ولا ظُلمَ بوجهٍ، فحينئذٍ يكثُرُ الرَّاغبونَ فيه، والمُتَّبِعونَ له، فصار هذا السَّلْمُ عونًا للمُسلمينَ على الكافرينَ، ولا يُخافُ مِن السَّلمِ إلَّا خَصلةٌ واحدةٌ، وهي أن يكونَ الكُفَّارُ قَصدُهم بذلك خَدْعُ المُسلمينَ، وانتهازُ الفُرصةِ فيهم، فأخبَرَهم اللهُ أنَّه حَسبُهم وكافيهم خِداعَهم، وأنَّ ذلك يعودُ عليهم ضَرَرُه(١).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ بُرهانٌ على أنَّ الإسلامَ دينُ السَّلامِ- لكِنْ عن قُدرةٍ وعِزَّةٍ، لا عن ضَعفٍ وذِلَّةٍ- لأنَّه لَمَّا كان جنوحُ العَدُوِّ للسَّلمِ قد يكون خديعةً لنا لنكُفَّ عن القتالِ- رَيثَما يستعِدُّون هُم له، أو لغيرِ ذلك من ضروبِ الخِداعِ- وكان من المصلحةِ في هذه الحالِ ألَّا نَقبَلَ الصُّلحَ منهم ما لم نستَفِدْ كلَّ ما يُمَكِّنُنا منه تَفوُّقُنا عليهم- لم يَعُدَّ الشَّارِعُ احتمالَ ذلك مانعًا من ترجيحِ السَّلمِ(٢).

١٢- قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ إن قيل: لَمَّا قال: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ﴾ فأيُّ حاجةٍ مع نَصرِه إلى المؤمنينَ حتى قال: ﴿وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾؟! قلنا: التأييدُ ليس إلَّا مِن اللهِ، لكنَّه على قِسمينِ: أحدهما: ما يحصُلُ مِن غَيرِ واسطةِ أسبابٍ مَعلومةٍ مُعتادةٍ. والثاني: ما يحصُلُ بواسطةِ أسبابٍ معلومةٍ مُعتادةٍ. فالأوَّلُ: هو المرادُ مِن قَولِه: ﴿أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ﴾ والثَّاني:

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٢٦).

هو المرادُ من قَولِه: ﴿وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾(١).

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ يدلُّ على أنَّ أحوالَ القُلوبِ؛ مِن العقائِدِ والإراداتِ والكَراهاتِ، كُلُّها مِن خَلْقِ اللهِ تعالى(٢).

١٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ فيه ثناءٌ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ على صحابةِ رَسولِه، تُفَنِّدُ مطاعِنَ الرَّافضةِ الضَّالةِ الخاسِرةِ فيهم(٣).

١٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ حرفُ الاستعلاءِ في هذا مُعلِمٌ بأنَّه يفعَلُ مع المُتوكِّلِ فِعلَ الحامِلِ لِما وُكِلَ إليه، المُطيقِ لِحَملِه(٤).

١٦- قال الله تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ أعلَمَ اللهُ عزَّ وجلَّ أنَّ تأليفَ قُلوبِ المُؤمنينَ، مِن الآياتِ العِظامِ؛ وذلك أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بُعِثَ إلى قومٍ أَنَفَتُهم شديدةٌ، ونُصرةُ بَعضِهم بعضًا ومعاونَتُه، أبلغُ نُصرةٍ ومُعاونةٍ؛ كان يُلطَمُ مِن القبيلةِ لَطمةً، فيُقاتَلُ عنه حتى يُدرَكَ ثأرُه، فألَّفَ الإيمانُ بين قُلوبِهم، حتى قاتَلَ الرَّجُلُ أباه وأخاه وابنَه، فأعلَمَ اللهُ عزَّ وجلَّ أنَّ هذا ما تولَّاه منهم إلَّا هو سُبحانَه(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٠١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٥٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسر المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٦٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣١٦).

(٥) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٤٢).

١٧- في قوله تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ حجةٌ على قَبُولِ الإجماعِ، ولزومِه لزومَ نصِّ القرآنِ؛ إذ مُحالٌ أنْ تتفقَ الألْسُنُ على شيءٍ إلَّا وقد ائتلفتْ قلوبُ الناطقينَ به- لأنَّ الألْسِنَةَ مترجِمةٌ عن الضمائرِ ما حَوَتْها- وقد أخبر اللهُ تعالى أنه مُؤَلِّفُها[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾

- عطفُ جملةِ ﴿وَأَعِدُّوا...﴾ على جملةِ ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ﴾ أو على جملةِ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا﴾ تُفيدُ مَفادَ الاحتراسِ عن مُفادِها، لأنَّ قولَه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا﴾ يفيدُ توهينًا لشأنِ المشركينَ، فتعقيبُه بالأمرِ بالاستعدادِ لهم؛ لئلا يحسبَ المسلمونَ أنَّ المشركينَ قد صاروا في مُكنتِهم، ويلزمُ مِن ذلك الاحتراسِ أنَّ الاستعدادَ لهم هو سببُ جعلِ الله إيَّاهم لا يُعجزونَ الله ورسولَه؛ لأنَّ الله هيَّأ أسبابَ استئصالِهم ظاهرَها وباطنَها[2].

- وقوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾، قولُه: ﴿مِنْ قُوَّةٍ﴾ يعمُّ كُلَّ مَا يُتقوَّى بِهِ عَلَى حَرْبِ الْعَدُوِّ[3]، وعَطْفُ ﴿رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ على القُوَّةِ، وهو مِن عَطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ للاهتمامِ بذلك

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٤٧٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٤٣).

الخَاصِّ(١)، والتنصيصِ على فضله؛ إذ إنَّ رباطَ الخيلِ هي أصلُ الحُروبِ، والخيرُ معقودٌ بنواصيها، وهي مراكبُ الفرسانِ الشُّجعانِ(٢).

- والرِّباطُ صِيغةُ مُفاعَلة؛ أُتي بها هنا للمُبالغةِ؛ لتدلَّ على قَصْد الكثرة مِن رَبْط الخيل للغزوِ، أي: احتباسِها ورَبْطِها؛ انتظارًا للغزوِ عليها(٣).

- وقولُه: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ مُستأنَفٌ استئنافًا بيانيًّا ناشئًا عن تَخصيصِ الرِّباطِ بالذِّكرِ بعدَ ذِكر ما يَعمُّه- وهو القوَّةُ- أو في مَوضِعِ الحالِ من ضَميرِ ﴿وَأَعِدُّوا﴾(٤).

- وفيه ذِكْرُ ﴿عَدُوَّ اللَّهِ﴾ أولًا؛ تَعظيمًا لِمَا هم عليه من الكُفْر، وتقويةً لذَمِّهم، وأنَّه يجِبُ لأجْلِ عَداوتِهم للهِ أنْ يُقاتَلوا ويُبغضَوا، ثم قال: ﴿وَعَدُوَّكُمْ﴾ على سَبيلِ التَّحريضِ على قِتالِهم؛ إذ في الطَّبْعِ أن يُعادِيَ الإنسانُ مَن عاداه، وأنْ يُريدَ له الغوائِلَ(٥).

- وفي قولِه: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ تَعريضٌ بالتَّهديدِ لهؤلاء الآخَرين- فالخبرُ هنا مُستعمَلٌ في معناه الكِنائيِّ، وهو تَعقُّبُهم والإغراءُ بهم- وتَعريضٌ بالامتنانِ على المسلِمينَ بأنَّهم بمَحلِّ عِنايةِ اللهِ؛ فهو يُحصي أعداءَهم، ويُنبِّهُهم إليهم(٦).

- قوله: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ أيضًا فيه تقديمُ المسنَدِ إليه ﴿اللَّهُ﴾ على الخبرِ الفِعليِّ ﴿يَعْلَمُهُمْ﴾- حيثُ لم يَقُل: (يَعْلَمُهُمُ اللَّهُ)-؛ للتقوِّي، أي: لتَحقيقِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٤٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥٥).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٥٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٤٥).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥٧).

الخَبَر وتأكيدِه، والمقصودُ تأكيدُ لازم معناه، أمَّا أصل المعنى فلا يحتاج إلى التأكيد؛ إذ لا يُنكِرُه أحدٌ[1].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

- عبَّرَ عن جُنوحِهم بـ (إنْ) التي يُعبَّرُ بها عن المَشكوكِ في وُقوعِه، أو ما مِن شأنِه ألَّا يقَعَ؛ للإشارةِ إلى أنَّهم لَيسُوا أهلًا لاختيارِه لِذَاتِه، وأنَّه لا يُؤمَنُ أن يكونَ جُنوحُهم إليه كيدًا وخِداعًا[2].

- اللَّامُ في قولِه: ﴿لِلسَّلْمِ﴾ واقعةٌ موقِعَ (إلى)؛ لتقويةِ التَّنبيهِ على أنَّ مَيْلَهم إلى السَّلمِ مَيلُ حقٍّ، أي: وإنْ مالوا لأجْلِ السَّلمِ، ورغبةً فيه، لا لغَرَضٍ آخَرَ غيرِه[3].

- وإنَّما قال: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ ولم يَقُلْ: (وإنْ طَلَبوا السَّلْم فأَجِبْهم إليه)؛ للتَّنبيهِ على أنَّه لا يُسعِفُهم إلى السَّلمِ حتَّى يَعلمَ أنَّ حالَهم حالُ الرَّاغبِ؛ لأنَّهم قد يُظهِرون المَيلَ إلى السَّلمِ كيدًا[4].

- قولُه: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ صِيغةُ قَصْرٍ، وطَريقُ القَصرِ فيه أفادَ قَصْرَ معنى الكَمالِ في السَّمعِ والعِلمِ، أي: فهو سميعٌ منهم ما لا تَسمعُ، ويَعلمُ ما لا تَعلمُ، وقصرُ هذَينِ الوَصفينِ بهذا المعنى على اللهِ تعالى عَقِبَ الأمرِ بالتوكُّلِ عليه، يُفضي إلى الأمرِ بقَصرِ التوكُّلِ عليه، لا على غيرِه[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسر المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾

- قوله: ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ أُريد منه الكِنايةُ عن عَدمِ مُعاملتِهم بهذا الاحتِمالِ، وألَّا يَتوجَّسَ مِن هذا الاحتِمالِ خِيفةً، وأنَّ ذلك لا يَضرُّه، وتَأكيدُ الخبر بـ(إنَّ) مُراعًى فيه تأكيدُ معناه الكِنائيِّ؛ لأنَّ معناه الصَّريحَ ممَّا لا يَشكُّ فيه أحدٌ[1].

- قولُه: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ﴾ مُستأنفٌ مَسوقٌ مساقَ الاستدلالِ على أنَّه حَسْبُه، وعلى المعنى التعريضيِّ، وهو عدمُ التحرُّجِ من احتمالِ قَصدِهم الخيانةَ، والتوجُّسِ مِن ذلك الاحتِمالِ خِيفةً، أي: فإنَّ اللهَ قد نَصرَك مِن قبلُ، وأنت أضعفُ مِنكَ اليومَ، فنَصرَك على العَدوِّ وهو مُجاهِرٌ بعُدوانِه؛ فنَصْرُه إيَّاكَ عليهم مع مُخاتلتِهم، ومع كَونِك في قُوَّةٍ من المؤمنِينَ الذين معَكَ، أَوْلَى وأقربُ[2].

- وقولُه: ﴿بِنَصْرِهِ﴾ في إضافةِ النَّصرِ إلى اللهِ تَنبيهٌ على أنَّه نصْرٌ خارقٌ للعادةِ[3].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّه ناشئٌ عن مَساقِ الامتِنانِ بهذا الائتلافِ، أي: لو حاولتَ تأليفَهم ببذلِ المالِ العَظيمِ، ما حَصَل التآلُفُ بينهم، وهو مُقرِّرٌ لِمَا قَبْله، ومُبيِّنٌ لعزَّة المَطْلَب، وصعوبةِ المأخَذِ، أي: تَناهي التَّعادِي فيما بينَهم[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٦٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٦٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٦٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٦٤).

- وقولُه: ﴿مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ فيه مبالغةٌ حَسَنةٌ؛ لوقوعِها مع حَرْفِ (لو) الدَّالِّ على عدمِ الوقوعِ(١).

- والتَّأكيدُ بـ(إنَّ) في قولِه: ﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ لمجرَّدِ الاهتمامِ بالخَبَرِ، باعتبارِ جعْلِه دليلًا على بديعِ صُنْعِ الله تعالى(٢).

- ومَوقِعُ الاستدراكِ في قَولِه: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ لأجلِ ما يُتوَهَّمُ مِن تعذُّرِ التَّأليفِ بينهم، في قَولِه: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: ولكنَّ تكوينَ اللهِ يَلينُ به الصُّلبُ، ويحصُلُ به المتعَذِّرُ(٣).

- ولَمَّا كان هذا التَّكوينُ صُنعًا عَجيبًا، ذيَّلَ اللهُ الخبَرَ عنه بِقَولِه: ﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: قَوِيُّ القُدرةِ، فلا يُعجِزُه شَيءٌ، مُحكِمُ التَّكوينِ، فهو يُكَوِّنُ المُتَعذِّر، ويجعَلُه كالأمرِ المَسنونِ المألوفِ(٤).

- وقيل: بل خَتَم اللهُ تعالى هذه الآيةَ بِقَولِه: ﴿إِنَّه عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؛ لأنَّه تعليلٌ لِكفايةِ اللهِ لِرَسولِه شَرَّ خِداعِ الأعداءِ، وتأييدِه بِنَصرِه وبالمؤمنينَ، لا للتَّأليفِ بين المؤمنينَ وَحدَه؛ إذْ لو كان تعليلًا للتَّأليفِ بين المؤمنينَ وَحدَه، لكانَ الأنسَبُ أن يُعَلَّلَ بِقَولِه: (إِنَّهُ رَؤوفٌ رحيمٌ)، على أنَّ هذا التَّأليفَ في هذا المقامِ، ما كان إلَّا بِعزَّةِ اللهِ وحِكمَتِه في إقامةِ هذا الدِّينِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٦٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٦٣).

الآيات (٦٤-٦٦)

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٤) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (٦٥) الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦)﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿حَرِّضِ﴾: أي: حُضَّ، وحُثَّ، والتَّحريضُ: الحثُّ على الشَّيءِ، وتَسهيلُ الخَطبِ فيه؛ كأنَّه في الأصلِ إزالةُ الحَرَضِ: وهو ما لا يُعتَدُّ به، ولا خيرَ فيه[1].

﴿يَفْقَهُونَ﴾: أي: يَفهَمونَ حَقَّ الفَهْمِ، والفِقهُ: هو التوصُّلُ إلى عِلمٍ غائبٍ بعِلمٍ شاهِدٍ. وأصلُ (فقه) يدلُّ على إدراكِ الشَّيءِ، والعِلمِ به[2].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

﴿حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: ﴿حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ مُبتدأٌ وخَبَرٌ. ﴿وَمَنِ﴾ اسمٌ موصولٌ، وفي إعرابِه أوجهٌ؛ أحدها: أن يكونَ في محلِّ جرٍّ، عطفًا على الكافِ في ﴿حَسْبُكَ﴾ مِن العَطفِ على الضَّميرِ المَجرورِ، دونَ إعادةِ الجارِّ، وهو جائزٌ. أي: اللهُ وَحدَه كافيك، وكافي أتباعِك. الثاني: أن يكونَ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٦١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٧٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٠).

محلِّ نصبٍ، عطفًا على محلِّ الكافِ؛ لأنَّ الكافَ مخفوضٌ في محلِّ نَصبٍ؛ فإنَّ ﴿حَسْبَكَ﴾ في معنى «كافِيك»، أي: اللهُ يكفيكَ، ويكفي مَنِ اتَّبعَك. والثالث: أن يكونَ في محلِّ رفعٍ، مبتدأً، والخبَرُ محذوفٌ، أي: ومَن اتَّبعَك من المؤمنينَ فحسبُهُم اللهُ أيضًا، فيكونُ مِن بابِ عَطفِ الجُمَلِ(١).

المعنى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ اللهُ نَبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قائلًا له: يا أيُّها النبيُّ، اللهُ- وَحْدَه- هو كافيك وكافي أتباعِك مِن المُؤمِنينَ.

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣١٩). ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٦٣١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٦٣٢-٦٣٤). ((إعراب القرآن)) للدعَّاس (١/ ٤٣٧-٤٣٨).

وأمَّا القَولُ بأنَّ (مَنْ) في محلِّ رفعٍ، عَطفًا على اسمِ الجَلالةِ ﴿اللَّهُ﴾؛ فغَلَطٌ مِن حيثُ المعنى؛ إذ يصيرُ المعنى: حَسْبُك اللهُ والمُؤمنونَ؛ وذلك لأنَّ الحَسْبَ والكفايةَ لِلَّهِ وَحدَه، فهو كافي نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وكافي كذلك مَن اتَّبعَه من المؤمنينَ؛ والآياتُ القُرآنيَّةُ تدُلُّ على تعيينِ هذا المعنى، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٥٩]، فجعَلَ الإيتاءَ للَّه ورَسولِه، وجَعَلَ الحَسْبَ له وَحدَه، فلم يَقُلْ: (وقالوا حَسْبُنا اللهُ ورَسولُه)، بل جعَلَ الحَسْبَ مُختَصًّا به تعالى. وقال: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦] فخصَّ الكِفايةَ التي هي الحَسْبُ به وَحدَه، وتمَدَّحَ تعالى بذلك في قَولِه: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢] ففرَّقَ بين الحَسْبِ والتَّأييدِ، فجعل الحَسْبَ له وَحدَه، وجعَلَ التأييدَ له بِنَصرِه وبعِبادِه، وأثنى اللهُ سُبحانه على أهلِ التَّوحيدِ والتوَكُّلِ مِن عِبادِه؛ حيث أفرَدُوه بالحَسْبِ، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]. ولم يقولوا: (حَسْبُنا اللهُ ورَسولُه)، فإذا كان هذا قَولَهم، ومَدَحَ الرَّبُّ تعالى لهم بذلك، فكيف يقولُ لِرَسولِه: (اللهُ وأتباعُك حَسْبُك)، وأتباعُه قد أفرَدُوا الرَّبَّ تعالى بالحَسْبِ، ولم يُشرِكوا بينه وبين رسولِه فيه، فإذا لم يَجُزْ أن يكونَ اللهُ ورَسولُه حَسْبَ المُؤمِنِ، كيف يكونُ المؤمنونَ مع اللهِ حَسْبًا لِرَسولِه. هذا مِن أمْحَلِ المُحالِ، وأبطَلِ الباطِلِ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ١٠٧-١٠٨)، ((منهاج السنة النبوية)) له أيضًا (٧/ ٢٠٥)، ((زاد المعاد)) لابن القيِّم (١/ ٣٧، ٣٨)، ((أضواء البيان)) للشِّنقيطي (٢/ ١٠٤).

يا أيُّها النبيُّ، حُثَّ المؤمنينَ على القِتالِ حثًّا شديدًا، فلْيَصبِروا عند لِقاءِ العَدُوِّ، ولْيَثبُتوا في قِتالِهم، فإنَّهم إن يوجدْ منهم عشرونَ رجلًا صابرونَ، يغلِبُوا مِئتينِ مِن الكافرينَ، وإن يُوجدْ منهم مئةٌ يغلِبوا ألفًا منهم، وذلك بسببِ أنَّ هؤلاء الكافرينَ قومٌ جهلةٌ بثوابِ الله، وما أعدَّ للمجاهدينَ في سبيلِه.

ثمَّ نسخ الله ذلك الحُكمَ الذي تقدَّمَ؛ تخفيفًا منه سبحانه، فقال: الآن خفَّفَ اللهُ عنكم- أيُّها المؤمنونَ- وعَلِمَ أنَّ فيكم مَن يَضعُفُ بَدنُه عن قتالِ عَشرةٍ مِن الكفَّارِ، فأوجَب عليكم أن يثبتَ الواحدُ منكم أمامَ اثنينِ مِن أعدائِكم بدلًا مِن عشرةٍ، معَ البشارةِ بأنَّه إن يكُن مِنكم مِئةٌ صابرةٌ، يَغلِبوا مِئتينِ، وإن يكُن منكم ألفٌ يَغلِبوا ألفينِ، بمَعونةِ الله لهم، واللهُ مع الصَّابرينَ.

تَفسيرُ الآيات:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا وعَدَ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالنَّصرِ عند مُخادَعةِ الأعداءِ؛ وَعَدَه بالنَّصرِ والظَّفَرِ في هذه الآيةِ مُطلقًا[1].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

أي: يا أيُّها النبيُّ، اللهُ- وَحدَه- هو كافيك، وكافي مَنِ اتَّبَعَك مِن المؤمنينَ، ما يُهِمُّكم من أمورِ الدِّينِ والدُّنيا والآخرةِ، ومن ذلك تأييدُكم ونَصرُكم على أعدائِكم، وإن كَثُروا، وقَلَّ عَدَدُكم[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٥٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٦/ ١٥٨)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٦٩، ١٧٠).

كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩].

وقال سُبحانه: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((حَسْبُنا اللهُ ونِعمَ الوكيلُ، قالها إبراهيمُ عليه السَّلامُ حين أُلقِيَ في النَّارِ، وقالها محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حين قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]))[١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا وعَدَ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالكفايةِ والنَّصرِ، وكان ذلك مشروطًا بالاجتهادِ بحسبِ الطاقةِ، وبذلِ النَّفسِ والمالِ في المُجاهدةِ؛ أمَرَه بأن يأمرَهم بالجِدِّ في القتالِ، وعدمِ الهيبةِ للأبطالِ، في حالٍ مِن الأحوالِ، فليس عليه إلا أن يُحَرِّضَ المؤمنينَ على القتالِ؛ فإنه تعالى إنَّما يكفيه[٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾.

أي: يا أيُّها النبيُّ، حُثَّ أتباعَك المؤمنينَ حثًّا شديدًا على قتالِ الأعداءِ؛ ففي قتالِهم خَيرٌ في الدُّنيا والآخرةِ[٣].

(١) رواه البخاري (٤٥٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٠٣-٥٠٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٦١)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٢٣)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٣/ ١٦٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٤٤)، =

كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وعن أَنَسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((انطلَقَ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابُه حتى سبقُوا المُشرِكينَ إلى بدرٍ، وجاء المُشرِكونَ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: قُوموا إلى جنَّةٍ عَرْضُها السَّمَواتُ والأرضُ، يقولُ عُميرُ بنُ الحُمَامِ الأنصاريُّ: يا رسولَ اللهِ، جَنَّةٌ عَرْضُها السَّمواتُ والأرضُ؟! قال: نعم، قال: بَخٍ بَخٍ، فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ما يَحمِلُك على قَولِك: بَخٍ بَخٍ؟! قال: لا واللهِ يا رسولَ اللهِ، إلَّا رَجاءةَ[1] أن أكونَ مِن أهْلِها، قال: فإنَّك مِن أهْلِها، فأخرَجَ تَمَراتٍ مِن قَرَنِه[2]، فجعَلَ يأكُلُ مِنهنَّ، ثم قال: لَئِنْ أنا حَيِيتُ حتى آكُلَ تَمَراتي هذه، إنَّها لحياةٌ طَويلةٌ. قال: فرمى بما كان معه مِن التَّمرِ، ثم قاتَلَهم حتى قُتِلَ))[3].

﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

النَّاسِخُ والمَنسوخُ:

هذه الآيةُ مَنسوخةٌ، وناسِخُها الآيةُ التي بَعدَها، وهي قَولُه تعالى: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ

= ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٨٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٧٤).

(١) (رجاءة) بالمدِّ ونصبِ التاءِ، ومعناه: واللهِ ما فعلتُه لشيءٍ إلا لرجاءِ أن أكونَ مِن أهلِها. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٣/ ٤٥).

(٢) قَرَنِه: أي: جَعبة السِّهام، تُصنعُ مِن جلدٍ. يُنظر: ((مطالع الأنوار)) لابن قرقول (٥/ ٣٤٧).

(٣) رواه مسلم (١٩٠١).

وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ﴾[١].

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: (لَمَّا نزَلَت: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ شقَّ ذلك على المُسلمين، حين فُرِضَ عليهم ألَّا يفِرَّ واحدٌ مِن عَشرةٍ، فجاء التَّخفيفُ فقال: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ فلمَّا خفَّفَ اللهُ عنهم من العِدَّةِ، نقَصَ مِن الصَّبرِ بِقَدرِ ما خَفَّف عنهم)[٢].

﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

أي: إن يكُنْ منكم- أيُّها المؤمنونَ- عِشرونَ رَجُلًا، صابرونَ عندَ لِقاءِ العَدُوِّ، محتسِبونَ، ثابِتونَ، يَغْلِبُوا مِئَتَيْنِ من عدوِّهم ويقهرُوهم، وإن يكُن منكم- أيُّها المؤمنونَ- مِئةٌ صابرةٌ محتسبةٌ ثابتةٌ يغلبوا ألفًا مِن الكافرينَ[٣].

---

(١) قال ابن كثير: (عن ابنِ عبَّاسٍ، قال: لَمَّا نزَلَت هذه الآيةُ ثَقُلت على المسلمينَ، وأعظَموا أن يُقاتِلَ عِشرونَ مِئَتينِ، ومِئةٌ ألفًا، فخَفَّفَ اللهُ عنهم، فنسَخَها بالآيةِ الأخرى، فقال: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا...﴾ الآية، فكانوا إذا كانوا على الشَّطرِ مِن عَدُوٍّ لهم لم ينبَغِ لهم أن يَفِرُّوا مِن عَدُوِّهم، وإذا كانوا دون ذلك، لم يجِبْ عليهم قتالُهم، وجاز لهم أن يتحَوَّزوا عنهم... قال ابنُ أبي حاتم: ورُوِيَ عن مجاهد، وعطاء، وعكرمة، والحسن، وزيد بن أسلم، وعطاء الخراساني، والضحاك نحوُ ذلك). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٨٧).

وممَّن ذهَب مِن المفسِّرين إلى أنَّها منسوخةٌ: ابنُ جرير، وابنُ عطيةَ، وابنُ كثيرٍ، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٨٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٤٨).

(٢) رواه البخاري (٤٦٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٦١، ٢٦٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٤٥)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٠٨)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٦).

وهذه الآيةُ وإن ورَدت بصيغةِ الخبرِ إلَّا أنَّ المرادَ بها الأمرُ بالصبرِ، وثباتِ الجماعةِ منهم =

﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾.

أي: يَغلِبُ المؤمنونَ الصَّابرونَ الكافرينَ الأكثَرَ منهم عددًا؛ بسَبَبِ أنَّ الكافرينَ قَومٌ لا يفهمونَ عن الله شيئًا، ولا فقهَ عندَهم، ولا يرجونَ ثوابَ الله في قتالِهم، فلا علمَ عندهم بما أعدَّ الله للمجاهدينَ في سبيلِه؛ لذا لا يَثبُتون في القتالِ خَشيةَ أن يُقتَلوا[1].

﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾.

أي: الآنَ[2] خفَّفَ اللهُ عنكم - أيُّها المؤمنونَ- ما أوجَبَه عليكم مِن مُصابَرةِ العِشرينَ المِئَتينِ، ومُصابرةِ المِئةِ الألفَ، وقد عَلِمَ اللهُ من قبلُ أنَّ فيكم مَن يَضعُفُ بَدَنُه عن قتالِ عَشرةٍ مِن الكافرينَ[3].

= لعشرةِ أمثالِهم، وممَّن ذهَب إلى ذلك: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ، والبغويُّ، والرازي، وابن كثيرٍ، والسَّعديُّ. يُنظر: المصادر السابقة.

قال ابنُ الجوزيِّ: (ومعنى الكلامِ: إن يكُن منكم عِشرونَ صابِرونَ يَثبُتونَ عند اللِّقاءِ، يَغلِبوا مِئَتين؛ لأنَّ المؤمنينَ يَحتَسِبونَ أفعالَهم، وأهل الشِّرك يُقاتِلون على غير احتسابٍ، ولا طلبِ ثوابٍ). ((زاد المسير)) (٢/ ٢٢٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٦١، ٢٦٢)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٧٥، ١٧٦).

(٢) قال ابنُ عاشور: (والوقتُ المُستحضَرُ بِقَولِه: ﴿الْآنَ﴾ هو زمنُ نُزولِها... فمعنى قَولِه: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ﴾ أنَّ التَّخفيفَ المُناسِبَ لِيُسرِ هذا الدِّينِ رُوعِيَ في هذا الوقتِ، ولم يُراعَ قَبلَه لمانعٍ منَعَ مِن مُراعاتِه، فرجَحَ إصلاحُ مَجموعِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٦٢)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٠٨)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٠٦)، ((تفسير النسفي)) (١/ ٦٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٥)، ((تفسير =

﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

أي: فإنْ يكُن منكم- أيُّها المؤمنونَ- مِئةٌ، صابرةٌ، ثابتةٌ عندَ القتالِ، يغلبوا مِئَتين من الكافرينَ، وإن يكُنْ منكم ألفٌ صابرونَ كذلك، يغلِبوا ألفينِ مِن الكافرينَ بمعونةِ الله تعالى لهم(١).

﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

أي: واللهُ يُؤيِّدُ الصَّابرينَ، وينصُرُهم ويُعينُهم ويُوفِّقُهم(٢).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا وعدٌ مِن الله لعبادِه المؤمنينَ المتَّبِعينَ لِرَسولِه، بالكفايةِ والنُّصرةِ على الأعداءِ، فإذا أتَوْا بالسَّبَبِ الذي هو الإيمانُ والاتِّباعُ، فلا بدَّ أن يكفِيَهم ما أهمَّهم من أمورِ الدِّينِ والدُّنيا، وإنَّما تتخلَّفُ الكفايةُ بتخلُّفِ شَرْطِها(٣).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ يدُلُّ على أنَّ مِن شأنِ المُؤمنينَ أن يكونوا أعلَمَ مِن الكافرينَ، وأفقَهَ بكُلِّ عِلمٍ وفَنٍّ يتعلَّقُ بحياةِ البَشَرِ، وارتقاءِ الأُمَمِ(٤).

= السعدي)) (ص: ٣٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٦٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٤٧)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٦٢)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٠٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٦٧).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ... وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ فيه الحثُّ على الصَّبرِ(١).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ فيه تحذيرٌ لِلمُؤمنينَ مِن الغُرورِ بدينِهم؛ لِئلَّا يَظُنُّوا أنَّ الإيمانَ وَحدَه يقتضي النَّصرَ والغَلَبَ، وإن لم يَقتَرِنْ بصفاتِه اللَّازمةِ لِكَمالِه، ومن أعظَمِها الصَّبرُ والفِقه(٢).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿واللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ ولم يَقلْ: (معكم)؛ ليُفيدَ أنَّ مَعونَته إنَّما تُمِدُّهم إذا صار الصَّبرُ وصفًا لازمًا لهم(٣).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ ليس هذا تكريرًا لِما قَبلَه؛ فإنَّ الأوَّلَ ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ مُقيَّدٌ بإرادةِ الخَدْعِ، فهذه كفايةٌ خاصَّةٌ، وفي قَولِه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ كفايةٌ عامَّةٌ غيرُ مُقيَّدةٍ، أي: حسْبُك اللهُ في كلِّ حالٍ(٤).

٢- قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ ﴿صَابِرُونَ﴾ أي: عُرِفوا بالصَّبرِ، والمَقدِرةِ عليه، وذلك باستيفاءِ ما يقتَضيه مِن أحوالِ الجَسدِ، وأحوالِ النَّفسِ، وفيه إيماءٌ إلى توخِّي انتقاءِ الجَيشِ، فيكونُ قيدًا للتَّحريضِ، أي: حَرِّضِ المؤمنينَ الصَّابرينَ الذين لا يَتزلزَلونَ، فالمقصودُ ألَّا يكونَ فيهم مَن هو ضَعيفُ النَّفسِ، فيفشَلَ الجَيشُ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٧١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٦٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٤٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٦٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٦٧).

٣- في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ تهوينٌ لِشأنِ الكُفَّارِ في القتالِ- الذي هو مُقتضى تلك الصِّفاتِ والأحوالِ- بِجَعلِ المؤمنينَ المُستكمِلي صِفاتِ الإيمانِ يَغلِبونَ ضِعفَيهم إلى عَشرةِ أضعافِهم مِن الكُفَّارِ[1].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ذُكِرَ في جانِبِ جَيشِ المُسلمينَ في المرَّتَينِ عددُ العِشرينَ وعَددُ المِئة، وفي جانبِ جيشِ المُشركينَ عَددُ المِئَتين وعددُ الألفِ؛ إيماءً إلى قِلَّةِ جيشِ المُسلمينَ في ذاتِه، مع الإيماءِ إلى أنَّ ثَباتَهم لا يختَلِفُ باختلافِ حالةِ عَددِهم في أنفُسِهم؛ فإنَّ العادةَ أنَّ زيادةَ عددِ الجَيشِ تقَوِّي نفوسَ أهلِه، ولو مع كونِ نِسبةِ عَددِهم من عددِ عَدُوِّهم غيرَ مُختلفةٍ، فجعَلَ اللهُ الإيمانَ قُوَّةً لنفوسِ المُسلمينَ، تَدفَعُ عنهم وَهَنَ استشعارِ قِلَّةِ عَددِ جَيشِهم في ذاتِه[2].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ اختيارُ لَفظِ العِشرينَ للتَّعبيرِ عن مرتبةِ العَشَراتِ دونَ لَفظِ العشرةِ. قيل إنَّ وَجهَه: أنَّ لَفظَ العِشرينَ أسعَدُ بتقابُلِ السَّكَناتِ في أواخِرِ الكَلِم؛ لأنَّ لِلَفْظةِ مِئَتينِ من المناسَبةِ بِسَكَناتِ كَلِماتِ الفَواصِلِ من السورة؛ ولذلك ذَكَرَ المِئةَ مع الألفِ؛ لأنَّ بَعْدَها ذِكرَ مُمَيِّزِ العَددِ بألفاظٍ تُناسِبُ سكَناتِ الفاصلةِ، وهو قَولُه: ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾، فتعَيَّنَ هذا اللَّفظُ؛ قَضاءً لحقِّ الفَصاحةِ[3]. وقيل فيه وجهٌ آخر: أنَّه ابتُدِئَ في العشراتِ بثاني عُقودِها،

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٢١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٦٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وفي المئاتِ والآلاف بأوَّلِها؛ لأنَّ الأصلَ الابتداءُ بأوَّلِ العُقودِ، لكِنْ لو قيلَ: (إنْ يكنْ منكم عَشرةٌ صابرةٌ يغلبوا مئةً) لربَّما تُوُهِّمَ أنَّه لا تجبُ مصابرةُ الواحِدِ للعَشرةِ إلَّا عند بلوغِ المؤمنينَ هذا العَقدَ، فعَدَلَ إلى الابتداءِ بثاني عقودِ هذه المرتبةِ؛ لينتفِيَ هذا المحذورُ، فلمَّا انتفَى، وعُلِمَ أنَّه يجِبُ مُصابرةُ كُلِّ واحِدٍ لِعَشرةٍ، ذَكَرَ باقيَ المراتِبِ في الباقي، على الأصلِ المُعتادِ[1].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ فيه أنَّ الكُفرَ سَببٌ في انتفاءِ الفَقاهةِ؛ فالكُفرُ مِن شَأنِه إنكارُ ما ليس بمَحسوسٍ، فصاحِبُه ينشأُ على إهمالِ النَّظَرِ، وعلى تعطيلِ حَركاتِ فِكرِه، فهم لا يُؤمِنونَ إلَّا بالأسبابِ الظَّاهريَّةِ، فيحسَبونَ أنَّ كَثرَتَهم تُوجِبُ لهم النَّصرَ على الأقلِّينَ؛ ولأنَّهم لا يُؤمِنونَ بما بعد الموتِ مِن نعيمٍ وعذابٍ، فهم يَخشَونَ الموتَ، فإذا قاتلوا ما يُقاتِلونَ إلَّا في الحالةِ التي يكونُ نَصرُهم فيها أرجَحَ، والمؤمنونَ يُعوِّلونَ على نصرِ الله، ويَثْبُتونَ للعدُوِّ رجاءَ إعلاءِ كَلمةِ الله، ولا يَهابُونَ الموتَ في سبيلِ الله؛ لأنَّهم مُوقِنونَ بالحياةِ الأبديَّةِ المُسِرَّةِ بعد الموتِ[2].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ نصَّ تعالى على سبَبِ الغَلَبةِ، بأنَّ الكُفَّار قومٌ لا يَفقهونَ، والمعنى أنَّهم قومٌ جَهَلةٌ؛ يُقاتِلونَ على غيرِ احتسابٍ، وطلبِ ثوابٍ، كالبهائمِ، فتُفَلُّ نِيَّاتُهم، ويَعدَمونَ لِجَهلِهم باللهِ نُصرتَه، فهو تعالى يخذُلُهم، وذلك بخلافِ مَن يُقاتِلُ على بصيرةٍ، وهو موعودٌ مِن اللهِ بالنَّصرِ والغَلَبةِ[3].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٢٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٦٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٥٠).

٨- قوله: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ﴾ فيه سِرٌّ لطيفٌ عَظيمٌ، وتعليمٌ سماويٌّ هائلٌ، يَفهَمُ به المسلمونَ أنَّ أوَّلَ شَيْءٍ من الأساسيَّاتِ للاستعدادِ للمَيدانِ هو الفِقْهُ والفَهْمُ عن الله، فيَجِبُ كُلَّ الوجُوبِ أن يُعلَّمَ العَسْكَرِيُّونَ عَنِ اللهِ حَتَّى يَفْقَهُوا؛ لأنهم إذا كانوا فَاهِمِين عَنِ الله، عارفين بِنُبْلِ المَبْدَأ الذي يُقاتِلونَ عليه؛ كانوا شُجَعانًا وصابِرينَ، لا يَرجِعونَ القَهقَرَى، ولا يُهزَمونَ، كما سَجَّلَهُ التاريخُ لأوائِلِ هذه الأمَّةِ. وإن كانوا لا يَفقَهونَ عن الله شيئًا، جَهَلَةً كالأنعامِ، لا مبدأَ لهم يُقاتِلونَ عليه، فهم ليسُوا بأساسٍ، ولا مُعَوَّلَ عليهم، يُهزَمونَ مع كلِّ ناعقٍ، كما بيَّنَتْه هذه الآيةُ العظيمةُ الكريمةُ مِن سورةِ الأنفالِ[1].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ وقولُه: ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ دَلالةٌ على أنَّ ثَباتَ الواحدِ مِن المُسلمينَ للعَشرةِ مِن المشركينَ، كان وجوبًا وعزيمةً، وليس نَدبًا، خلافًا لِما نُقِلَ عن بعضِ العُلَماءِ؛ لأنَّ المندوبَ لا يَثقُلُ على المكَلَّفينَ، ولأنَّ إبطالَ مشروعيَّةِ المندوبِ لا يُسمَّى تَخفيفًا، ثمَّ إذا أُبطِلَ النَّدبُ لَزِمَ أن يصيرَ ثَباتُ الواحِدِ للعَشرةِ مُباحًا، مع أنَّه تعريضُ الأنفُسِ للتَّهلُكةِ[2].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ فيه وجوبُ مُصابَرةِ الضِّعفِ مِن العَدُوِّ، وتحريمُ الفِرارِ، ما لم يَزِدْ عددُ الكُفَّارِ مِثلَيْنا[3].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ فيه الرَّدُّ على مَن اعتبَرَ

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٧٠).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٣٦-١٣٧).

الكَثرةَ في السِّلاحِ والقُوَّةِ، دونَ العَدَدِ(١).

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ فيه الرَّدُّ على مَن منعَ نَسخَ الأثقَلِ بالأخَفِّ(٢).

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وَصفُ المئةِ في آيةِ التَّخفيفِ بالصَّابرةِ؛ لأنَّ الصَّبرَ شَرطٌ لا بُدَّ منه في كُلِّ حالٍ وكلِّ عددٍ، مع عَدمِ وَصفِ المئةِ في الأولى؛ لِئَلَّا يُتوَهَّمَ أنَّه شَرطٌ في العددِ القَليلِ كالعِشرينَ، دونَ الكثيرِ كالمِئةِ والألفِ، ولم يَذكُرْه في الألْفِ استغناءً بما قَبلَه(٣).

بلاغةُ الآيات:

١- قَولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

- قَولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ﴾ فيه تَصديرُ الجُملةِ بحَرْفي النِّداءِ والتَّنبيهِ ﴿يَا أَيُّهَا﴾؛ للتَّنبيهِ على مَزيدِ الاعتِناءِ بمَضمونِها، وإيرادُهُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعُنوانِ النبوَّةِ؛ للإشعارِ بعِلِّيَّتِها للحُكمِ(٤).

٢- قَولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾

- قولُه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه تَكريرُ الخِطابِ على الوَجهِ

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٣٦-١٣٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٧١).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٣).

المذكورِ؛ لإظهارِ كَمالِ الاعتناءِ بشَأنِ المأمورِ به[١].

- وجملةُ: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ مُستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ ولذلك فُصِلتْ، ولم تُعطَفْ على التي قَبْلها[٢]، وفيها وَعْدٌ كريمٌ منه تعالى بتَغليبِ كلِّ جماعةٍ من المؤمنِينَ على عَشرةِ أَمْثالِهم بطريقِ الاستئنافِ بَعدَ الأمرِ بتَحريضِهم[٣].

- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هذا أمرٌ في صُورةِ الخَبَرِ، وفي إتيانِه بِلَفظِ الخَبَرِ نكتةٌ بديعةٌ، لا تُوجَدُ فيه إذا كان بِلَفظِ الأمرِ، وهي تقويةُ قُلوبِ المؤمنينَ، والبِشارةُ بأنَّهم سيَغلِبونَ الكافِرينَ[٤].

- قَولُ الله تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ إجراءُ نَفيِ الفَقاهةِ صِفةً لـ ﴿قَوْمٌ﴾ دونَ أن يُجعَلَ خبرًا، فيقال: (ذلك بأنَّهم لا يَفقَهونَ)؛ لِقَصدِ إفادةِ أنَّ عدَمَ الفَقاهةِ صِفةٌ ثابتةٌ لهم، ومِن مقوِّماتِ قوميَّتِهم وخصائِصِها؛ لِئَلَّا يُتوهَّمَ أنَّ نَفيَ الفقاهةِ عنهم في خُصوصِ هذا الشَّأنِ[٥].

٣- قولُه تعالى: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾

- قوله: ﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٦٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٢٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٦٨).

يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ﴾ فيه ذِكْرُ الصَّبر في أُولَى جُمْلَتي التَّخفيفِ فقط، وحذْفُه من الثَّانيةِ لدَلالةِ السَّابقةِ عليه؛ وذلِك لأنَّ الصبرَ شديدُ المطلوبيَّةِ(١).

- قَولُ الله تعالى: ﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ﴾ أُعيدَ وَصفُ مِئةِ المُسلمين بـ ﴿صَابِرَةٌ﴾؛ لأنَّ المقامَ يقتضي التَّنويهَ بالاتِّصافِ بالثَّباتِ، ولم تُوصَفْ مِئةُ الكُفَّارِ بالكُفرِ، وبأنَّهم قومٌ لا يفقهونَ؛ لأنَّه قد عُلِمَ، ولا مُقتضِيَ لإعادَتِه(٢).

- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ إذنُ اللهِ حاصِلٌ في كِلتا الحالَتينِ: المَنسوخةِ والنَّاسِخةِ، وإنَّما صرَّحَ به هنا، دونَ ما سبَقَ؛ لأنَّ غَلَبَ الواحِدِ لِلعَشرةِ أظهَرُ في الخَرقِ للعادةِ، فيُعلَمُ بَدءًا أنَّه بإذنِ اللهِ، وأمَّا غلَبُ الواحِدِ الاثنينِ، فقد يُحسَبُ ناشِئًا عن قوَّةِ أجسادِ المُسلِمينَ، فنبَّهَ على أنَّه ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾؛ لِيُعلَمَ أنَّه مُطَّرِدٌ في سائِرِ الأحوالِ(٣).

- قولُه: ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ اعتراضٌ تَذييليٌّ مُقرِّرٌ لمضمونِ ما قَبْله(٤)، والخِتامُ به مُبالغةٌ في شِدَّة المطلوبيَّةِ للصَّبرِ(٥).

- وفي الآيتَينِ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حَيثُ كُرِّر المعنى الواحدُ- وهو مقاومةُ الجماعةِ لأَكْثَرَ منها- مرَّتينِ؛ قَبلَ التخفيفِ وبَعدَه؛ للدَّلالةِ على أنَّ الحالَ مع القِلَّةِ والكثرةِ واحدةٌ لا تتفاوتُ؛ لأنَّ الحالَ قد تتفاوتُ بين مُقاومةِ العِشرين المِئتين والمِئةِ الأَلْفَ، وكذلك بين مُقاومةِ المئةِ المئتَينِ والألفِ الألفينِ(٦).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٤٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٧١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٧٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٤٩).
(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٣٥).

الآيات (٦٧-٧١)

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿يُثْخِنَ﴾: أي: يُبالِغَ في قتلِ المُشرِكينَ ويَقهَرَهم، والإثخانُ في كلِّ شَيءٍ: قُوَّتُه وشِدَّتُه. وأصلُ (ثخن): يدلُّ على رزانةِ الشَّيءِ في ثِقَلٍ؛ فإثخانُ القَتلِ: الشِّدَّةُ والمُبالغةُ فيه حتى يُترَكَ القَتيلُ مُثقَلًا، لا حِراكَ به[1].

المعنى الإجماليُّ:

يُبَيِّنُ تعالى أنَّه ما كان ينبغي لنبيٍّ أن يتَّخِذَ أسرَى من الكُفَّارِ المُحاربينَ، حتى يبالِغَ في قَتلِهم ويَغلِبَهم، فلا يَقوونَ بعدَ ذلك على قتالِ المؤمنينَ، وخاطبَ المؤمنينَ قائلًا لهم: تريدونَ نَيلَ متاعٍ دُنيويٍّ زائلٍ بأسْرِ الكُفَّارِ المُنهَزمينَ يومَ بَدرٍ؛ لأخْذِ الفِديةِ منهم، واللهُ يريدُ لكم ثوابَ الآخرةِ، واللهُ عَزيزٌ حكيمٌ، لولا قضاءٌ مِن اللهِ سبَقَ، لنالكم بسبَبِ أخْذِكم الفِداءَ مِن كُفَّارِ قُريشٍ عذابٌ عظيمٌ.

وأمَرَهم أن يأكُلوا ممَّا غَنِمُوا حَلالًا طَيِّبًا، وأن يتَّقُوا اللهَ، إنَّ اللهَ غَفورٌ رَحيمٌ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٧٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٢)، ((أساس البلاغة)) للزمخشري (١/ ١٠٥)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٣/ ٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٩).

ثم أمَرَ اللهُ نبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُخاطِبَ مَن أسَرُوهم يومَ بَدرٍ، وأخَذُوا منهم الفديةَ لإطلاقِهم، فيقولَ لهم: إنْ يَعلَمِ اللهُ في قلوبِكم إسلامًا وإيمانًا صحيحًا يُعطِكم مِن خَيرِ الدُّنيا والآخرةِ أفضَلَ ممَّا أخَذَه المُسلمونَ منكم، ويستُرْ ذُنوبَكم ولا يُؤاخِذْكم بها، واللهُ غَفورٌ رحيمٌ.

ثم قال لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنَّهم إن يُريدُوا خيانَتك فقد خانوا اللهَ مِن قَبلُ، فأقدَرَ المؤمنينَ عليهم فأسَرُوهم، واللهُ عليمٌ حَكيمٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

خَتَمَ اللهُ تعالى سياقَ القِتالِ في هذه السُّورةِ بأحكامٍ تتعَلَّقُ بالأَسرى؛ لأنَّ أُمورَها يُفصَلُ فيها بعد القِتالِ في الغالِبِ(١).

سَببُ النُّزولِ:

عن أبي زُمَيْلٍ سِماكٍ الحنفيِّ، قال: حدَّثني عبدُ اللهِ بنُ عبَّاسٍ قال: حدَّثني عُمَرُ بنُ الخطَّابِ قال: ((لَمَّا كان يومُ بَدرٍ نظر رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى المُشركينَ وهم ألفٌ، وأصحابُه ثلاثُمئةٍ وتِسعةَ عَشرَ رَجلًا، فاستقبلَ نبيُّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم القِبلةَ، ثمَّ مدَّ يَدَيه، فجعَلَ يهتِفُ بِربِّه: اللهُمَّ أنجِزْ لي ما وعَدْتَني، اللهُمَّ آتِ ما وعَدْتَني، اللهمَّ إن تَهْلِكْ هذه العِصابةُ مِن أهلِ الإسلامِ، لا تُعبَدْ في الأرضِ، فما زالَ يهتِفُ بربِّه، مادًّا يَدَيه مُستقبِلَ القِبلةِ، حتى سقَطَ رِداؤُه عن مَنكِبَيه، فأتاه أبو بكرٍ، فأخذَ رداءَه، فألقاه على مَنكِبَيه، ثم التَزَمه

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٧٢).

مِن ورائِه، وقال: يا نبيَّ الله، كفاكَ مُناشَدتُك ربَّك؛ فإنَّه سيُنجِزُ لك ما وعَدَك! فأنزل الله عزَّ وجَلَّ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩] فأمدَّه اللهُ بالملائكةِ، قال أبو زُمَيلٍ: فحدَّثني ابنُ عبَّاسٍ قال: بينما رجلٌ مِن المُسلمين يومَئذٍ يَشتَدُّ في أَثَرِ رجُلٍ مِن المُشركينَ أمامَه، إذ سَمِعَ ضَربةً بالسَّوطِ فَوقَه، وصَوتَ الفارِسِ يقولُ: أقدِمْ حَيزومُ، فنظَرَ إلى المُشرِكِ أمامَه فخَرَّ مُستلقِيًا، فنظر إليه فإذا هو قد خُطِمَ[١] أَنفُه، وشُقَّ وجهُه، كضربةِ السَّوطِ، فاخضَرَّ ذلك أجمَعُ[٢]! فجاء الأنصاريُّ فحَدَّث بذلك رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: صَدَقْتَ، ذلك من مَدَدِ السَّماءِ الثَّالثةِ، فقَتَلوا يومَئذٍ سَبعينَ، وأَسَرُوا سبعينَ، قال أبو زُمَيلٍ: قال ابنُ عبَّاسٍ: فلمَّا أَسَرُوا الأُسارى، قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لأبي بكرٍ وعُمَرَ: ما تَرَونَ في هؤلاءِ الأُسارى؟ فقال أبو بكرٍ: يا نبيَّ الله، هم بنو العَمِّ والعشيرةِ، أرى أن تأخُذَ منهم فِديةً، فتكونَ لنا قُوَّةً على الكُفَّارِ، فعسى اللهُ أن يَهدِيَهم للإسلامِ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ما ترى يا ابنَ الخطَّابِ؟ قلتُ: لا واللهِ يا رسولَ اللهِ، ما أرى الذي رأى أبو بكرٍ، ولكنِّي أرى أن تُمكِّنَّا فنضرِبَ أعناقَهم، فتُمَكِّنَ عليًّا مِن عَقيلٍ، فيضرِبَ عُنُقَه، وتمكِّنِّي من فلانٍ- نَسيبًا لِعُمَرَ- فأضرِبَ عُنقَه؛ فإنَّ هؤلاءِ أئمَّةُ الكُفرِ وصناديدُها، فهَوِيَ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما قال أبو بكرٍ، ولم يَهْوَ ما قُلتُ، فلمَّا كان من الغَدِ جِئتُ، فإذا رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأبو بكرٍ قاعِدَينِ يَبكيانِ، قُلتُ: يا رسولَ اللهِ، أخبِرْني من أيِّ شَيءٍ تبكي أنت وصاحِبُك؟! فإن وَجَدْتُ بكاءً بكيتُ، وإن لم أجِدْ بُكاءً تباكَيتُ لِبُكائِكما، فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أبكي للَّذي عَرَضَ عليَّ أصحابُك مِن

---

(١) الخطمُ: الأثرُ على الأنفِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٢/ ٨٦).

(٢) فاخضرَّ ذلك أجمعُ: أي: صار موضعُ الضربِ كلُّه أخضرَ أو أسودَ؛ فإنَّ الخضرةَ قد تُستعملُ بمعنَى السوادِ، كعكسِه؛ للمبالغةِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا القاري (٩/ ٣٧٨٢).

أخْذِهم الفِداءَ، لقد عُرِضَ علي عذابُهم أدنى مِن هذه الشَّجرةِ- شَجرةٍ قريبةٍ مِن نبيِّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- وأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ: (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ) إلى قَولِه: (فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا) فأحلَّ اللهُ الغنيمةَ لهم))[1].

وعن ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، قال: قال عُمَرُ: ((وافقتُ ربِّي في ثلاثٍ: في مقامِ إبراهيمَ، وفي الحِجابِ، وفي أُسارى بَدرٍ))[2].

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: ما ينبغي لنبيٍّ أن يـأسِرَ أحدًا مِن الكُفَّارِ المُحارِبين، فيحبِسَهم لأخْذِ فداءٍ ماليٍّ منهم، في مُقابِلِ إطلاقِ سَراحِهم، ما ينبغي أن يفعَلَ ذلك قبل أن يُبالِغَ في قَتلِهم ويَغلِبَهم، ويتمَكَّنَ في الأرضِ[3].

---

(١) رواه مسلم (١٧٦٣).

(٢) رواه مسلم (٢٣٩٩).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (١/ ٤١٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٧٠، ٢٧١)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٥/ ١٧٣٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٥٤ - ٢٥٦)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٨٠).

وقال القرطبي: (هذه الآيةُ نزلتْ يومَ بدرٍ، عتابًا مِن الله عزَّ وجلَّ لأصحابِ نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم، والمعنَى: ما كان ينبغي لكم أن تفعلوا هذا الفعلَ الذي أوجَب أن يكونَ للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم أسرَى قبلَ الإثخانِ، ولهم هذا الإخبارُ بقولِه: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾، والنبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم لم يأمرْ باستبقاءِ الرِّجالِ وقتَ الحربِ، ولا أراد قطُّ عرضَ الدُّنيا، وإنَّما فعلَه جمهورُ مباشري الحربِ، فالتوبيخُ والعتابُ إنَّما كان متوجهًا بسببِ مَن أشار على النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بأخذِ الفديةِ، هذا قولُ أكثرِ المفسِّرين، وهو الذي لا يصحُّ غيرُه، وجاء ذكرُ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم في الآيةِ حينَ لم ينهَ عنه حينَ رآه مِن العريشِ، وإذ كره سعدُ بنُ معاذٍ وعمرُ بنُ الخطَّابِ وعبد الله بنُ رواحةَ، ولكنَّه عليه السلامُ شغَله بغتُ الأمرِ، ونزولُ النَّصر، فترَك النهيَ عن الاستبقاءِ، ولذلك بكَى هو وأبو بكرٍ حينَ نزَلت الآياتُ. والله أعلم). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٤٥). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٧٤).

كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤].

﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾.

أي: تُريدونَ- أيُّها المؤمنونَ- نَيلَ مَتاعِ الدُّنيا الزَّائلةِ بأسْرِ الكُفَّارِ المُنهَزمينَ يَومَ بَدرٍ؛ لأخْذِ الفِديةِ منهم، واللهُ يُريدُ لكم ثوابَ الآخرةِ بإثخانِهم؛ إعزازًا لِدينِه، ونُصرةً لِعبادِه، وإعلاءً لكَلِمتِه سُبحانَه وتعالى[1].

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

أي: واللهُ عزيزٌ لا يُغلَب ولا يُقهَرُ، فإنْ أرَدْتُم بجهادِكم الآخرةَ، نَصَرَكم اللهُ على عَدُوِّكم، وهو حكيمٌ في تدبيرِ شؤونِ خَلْقِه ومَصالِحِهم، ولو شاء أن ينتَصِرَ مِن الكُفَّارِ دون قتالٍ لَفَعَل، لكِنَّ حِكمَتَه تقتضي أنْ يبتَلِيَ بَعضَكم ببعضٍ[2].

﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾.

أي: لولا قضاءٌ من الله سبَقَ لكم- يا أهلَ بَدرٍ- في اللَّوحِ المَحفوظِ بأنَّ اللهَ مُحِلٌّ لكم الغَنائِمَ، وأخْذَ الفِداءِ مِنَ الكُفَّارِ، وبأنَّه لا يُعذِّبُ أحدًا إلَّا بعد قيامِ الحُجَّةِ عليه، وأنَّه لا يعذِّبُ أحدًا شَهِدَ بدرًا مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- لَنالَكم بسبَبِ أخْذِكم الفِداءَ مِن كفَّارِ قُريشٍ، عذابٌ عَظيمٌ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٧١)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٥٢، ٥٥٣)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٧٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٨١).
قال الرازي: (أجمَعَ المُفَسِّرونَ على أنَّ المرادَ مِن عَرَض الدُّنيا هاهنا، هو أخْذُ الفِداءِ). ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٧١)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٧٦، ٢٨٢، ٢٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٥٠)، ((شفاء =

﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٦٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا تضَمَّنَ قَولُه تعالى: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ امتنانًا عليهم بأنَّه صرَفَ عنهم العذابَ؛ فرَّعَ على الامتنانِ الإذنَ لهم بأن ينتَفِعوا بمالِ الفِداءِ في مصالِحِهم، ويتوسَّعُوا به في نَفَقاتِهم، دونَ نَكَدٍ ولا غُصَّةٍ، فإنَّهم استغنَوْا به مع الأمْنِ مِن ضُرِّ العَدُوِّ بفَضْلِ اللهِ، فتلك نِعمةٌ لم يَشُبْها أذًى[1].

﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾.

أي: قد أحلَلْتُ لكم- أيُّها المؤمنونَ- أخْذَ الغَنائِمِ والفِديةِ مِن الكُفَّارِ، فكُلوا ممَّا غَنِمتُم مِن أموالِهم حالَ كَونِه حلالًا قد أحلَّه الله لكم، هنيئًا مُستلذًّا، لا خُبثَ فيه[2].

= العليل)) لابن القيم (ص: ٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٩٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٧٩، ٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٧٩).

قال الرازي: (أجمَعُوا على أنَّ المرادَ بِقَولِه: ﴿أَخَذْتُمْ﴾ ذلك الفِداءُ). ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٠٩).

وقال ابن عاشور: (العذابُ يجوزُ أن يكونَ عذابَ الآخرةِ، ويجوز أن يكونَ العَذابُ المنفيُّ عذابًا في الدُّنيا، أي: لولا قَدَرٌ من الله سبَقَ مِن لُطفِه بكم، فصَرَفَ بلُطفِه وعنايَتِه عن المؤمنينَ عذابًا، كان مِن شَأنِ أخْذِهم الفداءَ أن يُسَبِّبَه لهم، ويُوقِعَهم فيه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٧٧، ٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٨٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٥٤)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١٢)، ((تفسير النسفي)) (١/ ٦٥٧، ٦٥٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٧).

قال أبو حيان: (﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ أي: ممَّا [غَنِمتُموه]، ومنه ما حصل بالفِداءِ الذي أقرَّه الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم... وليس هذا الأمرُ مُنشِئًا لإباحةِ الغَنائِمِ؛ إذ قد سبق تحليلُها قبل يومِ بَدرٍ، ولكنَّه أمرٌ يُفيدُ التَّوكيدَ، واندراجَ مالِ الفداءِ في عُمومِ ما غَنِمتم؛ إذ كان قد وقع العِتابُ في المَيلِ للفِداءِ، ثمَّ أقرَّه الرَّسولُ). ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٥٤).

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لم تَحِلَّ الغَنائِمُ لأحدٍ مِن قَبلِنا؛ ذلك بأنَّ اللهَ تبارك وتعالى رأى ضَعْفَنا وعَجْزَنا، فطَيَّبَها لنا))(١).

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضيَ اللهُ عنهما، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أُعطيتُ خَمسًا لم يُعطَهنَّ أحَدٌ مِن الأنبياءِ قَبلي: نُصِرتُ بالرُّعبِ مَسيرةَ شَهرٍ، وجُعِلَت لي الأرضُ مَسجِدًا وطَهورًا، وأيُّما رَجُلٍ مِن أمَّتي أدرَكَتْه الصَّلاةُ فليُصَلِّ، وأُحِلَّت لي الغنائِمُ، وكان النبيُّ يُبعَثُ إلى قَومِه خاصَّةً، وبُعِثتُ إلى النَّاسِ كافَّةً، وأُعطِيتُ الشَّفاعةَ))(٢).

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾.

أي: واتَّقوا اللهَ- أيُّها المؤمنونَ- بِفعلِ ما أمَرَ، واجتنابِ ما نهى، فلا تَفعَلوا في دينِكم شيئًا لم يأذَنِ اللهُ لكم به(٣).

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

أي: إنَّ الله غفورٌ لذُنوبِ المُؤمنينَ، فيَستُرُها عليهم، ويتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها؛ ولِهذا لم يُعاقِبْهم على أخذِهم الفداءَ، وهو رحيمٌ بهم، ومِن رَحمتِه أن أحَلَّ لهم الغنائِمَ، وأخْذَ الفِداءِ(٤).

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا

(١) رواه البخاري (٣١٢٤)، ومسلم (١٧٤٧)، واللفظ له.
(٢) رواه البخاري (٤٣٨) واللفظ له، ومسلم (٥٢١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٥٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٨٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٧).

يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا أُخِذَ الفِداءُ مِن الأُسارى، وشَقَّ عليهم أخذُ أموالِهم، ذكَرَ اللهُ تعالى هذه الآيَةَ؛ استمالةً لهم[1]، فقال:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾.

أي: يا أيُّها النبيُّ، قلْ لِمَن أسَرْتُموهم في غَزوةِ بَدرٍ، وأخَذْتُم منهم الفِديةَ لِإطلاقِهم: إنْ يَعلَمِ اللهُ في قُلوبِكم إسلامًا وإيمانًا صحيحًا، يُعطِكم في الدُّنيا مالًا، وفي الآخرةِ ثَوابًا أفضَلَ ممَّا أخَذَه المسلمونَ مِنكم[2].

عن أنَسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ رِجالًا من الأنصارِ استَأذَنوا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقالوا: ائذَنْ لنا فلْنَترُكْ لابنِ أُختِنا عَبَّاسٍ فِداءَهُ، قال: واللَّهِ لا تَذَرونَ منهُ دِرهَمًا))[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٩٣، ١٩٤).
قال الرازي: (واختلف المُفَسِّرون في أنَّ الآيَةَ نازلةٌ في العبَّاسِ خاصَّةً، أو في جُملةِ الأُسارى. قال قومٌ: إنَّها في العبَّاسِ خاصَّةً، وقال آخرون: إنَّها نزلَتْ في الكُلِّ، وهذا أَوْلى؛ لأنَّ ظاهِرَ الآيةِ يقتضي العُمومَ مِن ستَّةِ أوجُهٍ... فما الموجِبُ للتَّخصيصِ؟! أقصى ما في البابِ أنْ يُقالَ: سَبَبُ نزولِ الآيةِ هو العبَّاسُ، إلَّا أنَّ العِبرةَ بِعُمومِ اللَّفظِ لا بخُصوصِ السَّبَب). ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١٣). وممَّن رأى عمومَ نُزولِ الآيةِ في أُسارى بدر: الشنقيطي. يُنظر: ((العذب النمير)) (٥/ ١٨٢، ١٨٣).
وجَعَلَها السَّعديُّ في أُسارى بدرٍ الذينَ ادَّعَوا الإسلامَ لَمَّا طُلِبَ منهم الفِداءُ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٧).

(٣) رواه البخاري (٤٠١٨).

﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

أي: ويَغفِرْ لكم ذُنوبَكم فيَستُرْها عليكم، ولا يؤاخِذْكم بها، واللهُ غَفورٌ لذُنوبِ عِبادِه التَّائبينَ، رحيمٌ بهم، ومِن رَحمتِه ألَّا يُعاقِبَهم بعد تَوبتِهم[1].

﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٧١﴾.

﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ﴾.

أي: وإن يُرِدْ هؤلاءِ الأسرَى الغَدرَ بك، وخِداعَك- يا مُحمَّدُ- بإظهارِهم أقوالًا خلافَ ما يُبطِنونَ[2]، فيَرجِعوا إلى إظهارِ الكُفرِ، وقِتالِ المُسلمينَ، والإعانةِ عليه؛ فقد كَفَروا باللهِ وعَصَوه مِن قَبلِ يَومِ بَدرٍ، فأقدَرَ اللهُ المؤمنينَ عليهم، فأسَرُوهم[3].

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

أي: واللهُ عليمٌ بكُلِّ شَيءٍ، ومن ذلك ما يُضمِرُونَه في قُلوبِهم من إخلاصٍ أو خيانةٍ، حكيمٌ في جَميعِ أقوالِه وأفعالِه، يَضعُ الأشياءَ في مَواضِعِها اللَّائقةِ بها،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٩٤).

(٢) قال الشنقيطي: (كانوا يَقولونَ: آمَنَّا بك، وشَهِدْنا أنَّك رَسولُ اللهِ، واللهِ لَنَنصَحَنَّ لك على قَومِك، ولنكونَنَّ معَك). ((العذب النمير)) (٥/ ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٨٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٦٣)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٨١-٨٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٩٥، ١٩٦).

قال ابن عاشور: (فكَمُلَ ذلك الإذنُ والتَّطيبُ بالتهنئةِ والطَّمأنة بأنْ ضَمِنَ لهم- إنْ خانَهم الأسرى بعد رُجوعِهم إلى قَومِهم، ونكَثوا عَهدَهم، وعادوا إلى القتالِ- بأنَّ اللهَ يُمكِّنُ المسلمينَ منهم مرَّةً أخرى، كما أمكَنَهم منهم في هذه المرَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٨١).

ومن ذلك مُجازاةُ الخائنينَ(١).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ختم الآيةَ بِقَولِه: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، فهو سُبحانه وتعالى يُحِبُّ للمؤمنينَ أن يكونوا أعِزَّةً غالِبينَ ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾، كما يُحِبُّ لهم أن يَكونوا حُكماءَ ربَّانيِّينَ، يضعونَ كلَّ شَيءٍ في مَوضِعه، وإنَّما يكونُ هذا بتقديمِ الإثخانِ في الأرضِ، والسِّيادةِ فيها، على المنافِعِ العَرضيَّةِ، بمِثلِ فِداءِ أسرى المُشركينَ، وهم في عُنفوانِ قُوَّتِهم وكَثرتِهم(٢).

٢- اللهُ تعالى لا يريدُ ما يُفضي إلى السَّعاداتِ الدُّنيويَّةِ التي تَعرِضُ وتَزولُ، وإنَّما يريدُ ما يُفضي إلى السَّعاداتِ الأُخرويَّةِ الدَّائمةِ الباقيةِ المَصُونة عن التَّبديلِ والزَّوالِ؛ يُبيِّنُ ذلك قولُه تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾(٣).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ فيه تحذيرٌ مِن التَّوغُّلِ في إيثارِ الحُظوظِ العاجلةِ(٤).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ فيه بيانُ مُؤاخَذةِ اللهِ تعالى النَّاسَ على الأعمالِ النَّفسيَّةِ وإرادةِ السُّوءِ، بعد تَنفيذِها بالعَملِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٩٧، ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٧٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٨٣).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أمَرَ تعالى بِتَقواه؛ لأنَّ التَّقوى حامِلةٌ على امتثالِ أمرِ اللهِ، وعَدمِ الإقدامِ على ما لم يتقَدَّمْ فيه إذْنٌ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ فيه أنَّه ما دام للكُفَّارِ شَرٌّ وصَولةٌ، فالأوفَقُ ألَّا يُؤسَروا، فإذا أُثخِنُوا، وبَطَل شَرُّهم، واضمحَلَّ أمرُهم؛ فحينئذٍ لا بأسَ بأخذِ الأَسرَى منهم، وإبقائِهم[٢]، فكلمةُ ﴿حَتَّى﴾ لانتهاءِ الغايةِ، فقَولُه: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ يدلُّ على أنَّ بعدَ حُصولِ الإثخانِ في الأرضِ له أن يُقدِمَ على الأسْرِ[٣].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ لعلَّه عبَّر بوَصفِ النبوَّةِ؛ لِيُفيدَ مع العُمومِ أنَّ كُلًّا مِن رِفعةِ القَدْرِ، والإخبارِ مِن اللهِ، يمنَعُ مِن الإقدامِ على فِعلٍ بدونِ إذنٍ خاصٍّ[٤].

٣- قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ الإثخانُ في الأرضِ ليس مَضبوطًا بضابطٍ مَعلومٍ مُعَيَّنٍ، بل المقصودُ منه إكثارُ القَتلِ، بحيث يُوجِبُ وُقوعَ الرُّعبِ في قلوبِ الكافرينَ، وألَّا يَجترِئوا على مُحاربةِ المُؤمنينَ؛ وبلوغُ القَتلِ إلى هذا الحَدِّ المُعيَّنِ لا شكَّ أنَّه يكونُ مُفَوَّضًا إلى الاجتهادِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٥٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١١).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٣٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٠٩).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ سمَّى منافِعَ الدُّنيا ومتاعَها عَرَضًا؛ لأنَّه لا ثباتَ له ولا دَوامَ، فكأنَّه يَعرِضُ ثمَّ يزولُ(١).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ إنَّما ذَكرَ مع الدُّنيا المُضافَ فقال: ﴿عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ ولم يَحذِفْ؛ لأنَّ في ذكرِه إشعارًا بعُروضِه، وسُرعةِ زوالِه(٢).

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فيه بيانُ مِنَّةِ اللهِ تعالى على أهلِ بَدرٍ: أنَّه لم يُعذِّبْهم فيما أَخَذوا بسوءِ الإرادةِ، أو بغيرِ حَقٍّ، وفي هذه المنَّةِ بعد الإنذارِ الشَّديدِ خَيرُ تَربيةٍ لأمثالِهم مِن الكاملينَ، تربأُ بأنفُسِهم عن مِثلِ ذلك الاستشرافِ، لا أنَّها تُجَرِّئهم عليه، كما توهَّم بعضُ النَّاسِ(٣).

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يدلُّ على أنَّ لِلَّه حُكمًا في كلِّ حادثةٍ، وأنَّه نصَبَ على حُكمِه أمارةً، هي دليلُ المُجتَهِد، وأنَّ مُخطِئَه مِن المُجتهدينَ لا يأثَمُ، بل يُؤجَرُ.

٨- في قولِه تعالى: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ رَدٌّ على المعتزلةِ والقَدَرِيَّة فيما يُنكرون مِن الكتابِ السَّابقِ(٤).

٩- لَمَّا تقَدَّمَ الأمرُ بالإثخانِ في قَولِه تعالى: ﴿فَشَرِّدْ بِهِمْ﴾ ثمَّ بإعدادِ القُوَّةِ، ثمَّ التَّحريضِ على القِتالِ بعد الإعلامِ بالكِفايةِ، ثمَّ إيجابِ ثَباتِ الواحِدِ لِعَشرةٍ، ثمَّ إنزالِ التَّخفيفِ إلى اثنينِ- كان ذلك مُقتَضيًا للإمعانِ في الإثخانِ، فحَسُنَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٨٣).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٤٧٥).

عِتابُ الأحباب في اختيارِ غَيرِ ما أفهَمَه هذا الخِطاب؛ لِكَونِ ذلك أقعَدَ في الامتنانِ عليهم بالعَفوِ والغُفرانِ، بسبَبِ أنَّ أكثَرَهم مالَ إلى فِداءِ الأُسارى(١).

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ عبَّر عن الانتفاعِ الهنيءِ بالأكلِ؛ لأنَّ الأكلَ أقوى كيفيَّاتِ الانتفاعِ بالشَّيءِ؛ فإنَّ الآكِلَ يَنعَمُ بلذاذةِ المأكولِ، وبِدَفعِ ألَمِ الجُوعِ عن نفسِه، ودفعُ الألمِ لَذاذةٌ، ويُكسِبُه الأكلُ قُوَّةً وصِحَّةً، والصِّحَّةُ مع القُوَّةِ لَذاذةٌ أيضًا(٢).

١١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ذكَّرَهم اللهُ تعالى بِتَقواه، وهو يَذكُرُ لهم رَحمَته ومَغفِرتَه؛ لِتَتوازنَ مَشاعِرُهم تجاهَ رَبِّهم، فلا تَغُرَّهم المغفرةُ والرَّحمةُ، ولا تُنسيَهم التَّقوى والتَّحرُّجَ والمخافةَ(٣).

١٢- في قولِه تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ دليلٌ على أنَّ المفاداةَ بالمال جائزةٌ؛ لأنَّ اللهَ تعالى- وإنْ كان أنكرَ الإبقاءَ على الأسرى قَبْلَ الإثخانِ- فقد أباح لهم ما أخَذوا مِن المالِ بالفداءِ، وسمَّاه غنيمةً، فقال: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾(٤).

١٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾ أقبل على نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالأمرِ بِمُخاطَبَتِهم؛ تنبيهًا على أنَّهم لَيسُوا بأهلٍ لِخِطابِه سبحانَه،

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٢٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٧٩).
(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٥٥٣).
(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٤٧٥).

بما أبعَدُوا أنفُسَهم عنه؛ مِن اختيارِهم الكَونَ في زُمرةِ الأعداءِ، على الكَونِ في عِدادِ الأولياءِ[١].

١٤- قال الله تعالى: ﴿إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ يدلُّ على أنَّ محلَّ نَظرِ اللهِ مِن عَبدِه، إنَّما هو القُلوبُ، كما جاء بذلك حديثُ أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ اللَّهَ لا ينظُرُ إلى صُوَرِكم وأموالِكم، ولكِنْ ينظُرُ إلى قُلوبِكم وأعمالِكم))[٢]؛ لأنَّ القَلبَ هو الذي ينظُرُ اللهُ إليه، فيَعلَمُ فيه الخيرَ والشَّرَّ؛ ولذا قال: ﴿إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾[٣].

١٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ يُؤخَذُ مِن الآيتينِ ما يجِبُ على المُؤمنينَ مِن تَرغيبِ الأَسرى في الإيمانِ، وإنذارِهم عاقِبةَ خِيانَتِهم إذا ثَبَتُوا على الكُفرِ والطُّغيانِ، وعادوا إلى البَغيِ والعُدوانِ[٤].

١٦- لا يُوصَفُ اللهُ بالخيانةِ مُطلَقًا؛ لأنَّ الخيانةَ صِفةُ نَقصٍ مُطلَقٍ؛ والخيانةُ معناها: الخديعةُ في مَوضِعِ الائتمانِ، وهذا نَقصٌ؛ ولهذا قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ ولم يَقُلْ: فخَانَهم[٥].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٣٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٤).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٩٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٥٨).

- قولُه: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ(١).

- قولُه: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ هذه الجملةُ واقعةٌ مَوقِعَ العِلَّة للنَّهي الذي تَضمَّنه قولُه: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾؛ فلذلك فُصِلتْ، ولم تُعْطَفْ عليها؛ لأنَّ العِلَّة بمنزلةِ الجُمْلةِ المبيِّنة، ويَجوزُ أنْ يكونَ هذا الخبرُ مُستعملًا في معنى الاستفهامِ الإنكاريِّ(٢).

- قوله: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ فيه تَعليقُ فِعلِ الإرادةِ بذاتِ الآخرةِ، والمقصودُ نفْعها؛ بقرينةِ قولِه: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ فحُذِف المضاف (ثواب) للإيجازِ، وقيل التقديرُ: يُريدُ عمَلَ الآخِرَة، أي: المؤدِّي إلى الثوابِ في الآخِرَة(٣).

٢- قوله تعالى: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ﴾ جملةٌ مُستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ الكلامَ السابقَ يُؤذِن بأنَّ مُفاداةَ الأسرى أمرٌ مَرْهوبٌ تُخشَى عواقِبُه، فيستثيرُ سُؤالًا في نُفوسِهم عمَّا يُترقَّب من ذلك، فبيَّنه قولُه: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ...﴾(٤).

٣- قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٧٢-٧٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٧٥- ٧٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٣٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٧٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٧٧).

- قوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ الأَمْر في ﴿فَكُلُوا﴾ مُستعمَلٌ في المِنَّة، وذُيِّل بالأمرِ بالتَّقوى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾؛ لأنَّ التَّقْوى شُكرُ اللهِ على ما أَنْعَم مِن دفْعِ العذابِ عنهم[1].

- وجملةُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ تعليلٌ للأمْر بالتقوى، وتَنبيهٌ على أنَّ التقوى شُكرٌ على النِّعمة؛ فحرْفُ التأكيدِ (إنَّ) للاهْتِمام، وهو مُغنٍ غَناءَ فاءِ التفريع[2].

٤- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ...﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ، وهو إقبالٌ على خِطابِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بشيءٍ يتعلَّقُ بحالِ سَرائرِ بعضِ الأَسْرى، بعدَ أنْ كان الخِطابُ مُتعلِّقًا بالتَّحريضِ على القِتالِ وما يَتْبعه[3].

- وفيه تأكيدُ الوعدِ بالمغفرةِ ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ بِما بَعدَه ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ مِن الاعتراضِ التَّذييليِّ؛ فقولُه: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ تذييلٌ؛ للإيماءِ إلى عِظَم مغفرتِه التي يَغْفِر لهم، لأنَّها مَغفرةُ شديدِ الغُفْرانِ، رحيم بعبادِه، فمِثال المبالغةِ وهو ﴿غَفُورٌ﴾ المُقتضي قوَّة المغفرةِ وكَثْرتِها مُستعمَلٌ فيهما باعتبارِ كَثْرةِ المُخاطَبين، وعِظَمِ المغفرةِ لكلِّ واحد منهم[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٨١).

٥- قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

- قوله: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ كلامٌ مَسوقٌ من جِهتِه تعالى؛ لتَسليتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بطَريقِ الوَعدِ له، والوَعيدِ لهم[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٧).

الآيات (٧٢-٧٥)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٞ (٧٢) وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٞ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ (٧٣) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٞ وَرِزْقٞ كَرِيمٞ (٧٤) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمُۢ (٧٥)﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿مِيثَاقٌ﴾: الميثاقُ: العقدُ المؤكَّدُ بيمينٍ، أو العهدُ المُحكَم، وأصل (وثق): عقدٌ وإحكامٌ(١).

﴿آوَوْا﴾: أي: ضَمُّوا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمُهاجرينَ إليهم، وأعْطَوهم المَأوى. والمَأوى: المَثوى والمَسكَنُ، وأصْلُ (أوى): يدلُّ على التَّجمُّعِ(٢).

المعنى الإجماليُّ:

إنَّ المُهاجرينَ الذين آمَنوا بكُلِّ ما يجِبُ عليهم الإيمانُ به، وترَكَوا أوطانَهم وقَومَهم، وأنفَقُوا أموالَهم لِنُصرةِ دينِ الله، وجاهَدوا بأنفُسِهم في سبيلِه،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١ / ١٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٣)، ((غريب القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ٩٠).

والأنصارَ الذينَ ضَمُّوا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابَه المُهاجرينَ، فأسكَنُوهم مَنازِلَهم، ونَصَرُوهم على أعدائِهم- بعضُهم أولياءُ بعضٍ، وأمَّا الذينَ آمَنوا لكِنَّهم لم يُفارِقوا أوطانَهم إلى بلادِ الإسلامِ، ما لكم- أيُّها المؤمنونَ- مِن وَلايتِهم مِن شَيءٍ، حتى يفارِقُوا دارَ الكُفرِ إلى دارِ الإسلامِ، لكنْ إن طَلَبَ منكم هؤلاء- الذينَ آمَنوا ولم يُهاجِروا- النَّصرَ في الدِّينِ، فعَليكم نصرَهم، إلَّا إذا طلَبوا منكم أن تَنصُروهم على قومٍ مِن الكُفَّارِ، بينكم وبينهم عَهدٌ مُؤَكَّدٌ على تَركِ الحَربِ، فلا تَغدِرُوا بالكُفَّارِ بنقضِ ذلك العَهدِ، واللهُ بَصيرٌ بما تَعملونَ، مُطَّلِعٌ عليه، فلا تُخالِفوا أمرَه.

ثم يُخبِرُ تعالى أنَّ الكُفَّارَ بَعضُهم أولياءُ بَعضٍ، ويخاطِبُ المُؤمِنينَ أنَّهم إن لم يَفعَلُوا ذلك- مِن تَوَلِّي بعضِهم بعضًا، وتَرْكِ مُوالاةِ الكُفَّارِ- فإنَّه ستقَعُ فِتنةٌ عظيمةٌ في الأرضِ، وفسادٌ كبيرٌ.

والمؤمنونَ المُهاجِرونَ الذين جاهَدُوا في سبيلِ اللهِ، والأنصارُ الذين ضَمُّوا مَن هاجَرَ إليهم ونَصَرُوهم ونَصَروا دينَ اللهِ، أولئك هُم المؤمِنونَ حَقًّا، لهم مَغفِرةٌ مِن اللهِ ورِزقٌ كَريمٌ.

والذينَ آمنُوا مِن بعدِ بَيانِ أمْرِ تَوَلِّي المُهاجرين والأنصارِ بعضِهم بعضًا، وانقِطاعِ وَلايَتِهم مِمَّن آمَن ولم يُهاجِرْ حتَّى يُهاجِرَ، وهاجَرُوا من دارِ الكُفرِ إلى دارِ الإسلامِ، وجاهدوا في سبيلِ اللهِ؛ فأولئك معكم- أيُّها المُهاجِرونَ والأنصارُ- وذَوُو القراباتِ أَوْلى بالتَّوارُثِ بينهم في كتابِ اللهِ؛ إنَّ اللهَ بكُلِّ شَيءٍ عَليمٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم

مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى للأَسْرى أنَّ الخيرَ الذي لم يَطَّلِعْ عليه من قُلوبِهم غيرُ اللهِ، لا يَنفَعُهم في إسقاطِ الفِداءِ عنهم- لأنَّه لا دليلَ عليه، وكُلُّ ما لا دليلَ عليه فحُكمُه حُكمُ العَدَمِ؛ لأنَّ مَبنى الشَّرعِ على ما يُمكِنُ المُكَلَّفَ مَعرِفَتُه وهو الظَّواهِرُ- وخَتَمَ بصِفَتَي العِلمِ والحِكمةِ؛ شَرَع يُبيِّنُ الخَبَرَ الذي يُفيدُ القُربَ الذي تنبني عليه المُناصَرةُ وكُلُّ خَيرٍ[١].

النَّاسِخُ والمَنسوخُ:

قيل: هذه الآيةُ مُحكَمةٌ[٢].

وقيل: بل هيَ مَنسوخةٌ بِقَولِه تعالى في سورة الأحزاب: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [الأحزاب: ٦]، أو قَولِه في آخِرِ سُورةِ الأنفالِ: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[٣] [الأنفال: ٧٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٣٦).

(٢) وهو قولُ ابنِ جرير، وقوَّاه الرَّازي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٠٠)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١٦، ٥١٧).

(٣) هو قَولُ أكثرِ المفسِّرينَ، ونقله الواحديُّ عن جميعِهم. يُنظر: ((الناسخ والمنسوخ)) للقاسم بن سلَّام (١/ ٢٢٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٦٤، ٢٦٦)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٢٨٣)، ((نواسخ القرآن)) لابن الجوزي (ص: ١٥٢).

قال ابنُ كثير: (آخى رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بين المُهاجرين والأنصارِ، كلُّ اثنينِ أخوانِ، فكانوا يتوارَثونَ بذلك إرثًا مُقدَّمًا على القرابةِ، حتى نسَخَ الله تعالى ذلك بالمواريثِ؛ ثبَت =

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، أنَّه قال في قَولِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾ قال: (فكانَ الأعرابيُّ لا يرِثُ المهاجرَ، ولا يرِثُه المهاجرُ، فنَسختْها، فقالَ: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾)(١).

وعن ابنِ عبَّاسٍ أيضًا، قال: (كان المُهاجرونَ حين قَدِموا المدينةَ يَرِثُ الأنصاريُّ المُهاجريَّ دونَ ذَوي رَحِمِه؛ لِلأُخوَّةِ التي آخى النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بينهم)(٢).

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾.

أي: إنَّ المُهاجرينَ الذينَ آمَنوا بكُلِّ ما وجَبَ عليهم الإيمانُ به، وهجَروا قَومَهم، وتَركوا دُورَهم، وخَرَجوا من أوطانِهم، وأنفَقوا أموالَهم؛ لِنُصرة دينِ اللهِ، وبالَغُوا في إتعابِ أنفُسِهم وبَذلِها في حَربِ الكافرينَ؛ لإعلاءِ كَلِمةِ الله تعالى(٣).

= ذلك في ((صحيح البخاري))، عن ابنِ عبَّاس، ورواه العوفيُّ، وعليُّ بنُ أبي طلحةَ، عنه، وقاله مجاهدٌ، وعكرمةُ، والحسنُ، وقتادةُ، وغيرُهم). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٩٥).

تنبيه: أكثرُ القائلين بنَسخِ هذه الآيةِ ذَكَروا أنَّ الآيةَ الناسخةَ لها هي قولُه تعالى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٥]، [الأحزاب: ٦] ولم يُعَيِّنوا آيةَ الأنفالِ أو آيةَ الأحزابِ، ولفظُ الآيتين واحدٌ، وبعضُهم نصَّ على أنَّ المرادَ آيةُ الأحزاب، منهم قتادةُ، وعِكرمةُ، والنَّحاسُ. يُنظر: ((الناسخ والمنسوخ)) لقتادة (ص: ٤٣)، ((الناسخ والمنسوخ)) للنحاس (ص: ٤٧٥). ومنهم من نصَّ على أن المرادَ آيةُ الأنفالِ، منهم: الزُّهري، وابنُ حزم. يُنظر: ((الناسخ والمنسوخ)) للزهري (ص: ٢٧)، ((الناسخ والمنسوخ)) لابن حزم (ص: ٣٩).

(١) أخرجه أبو داود (٢٩٢٤)، والقاسم بن سَلَّام في ((الأموال)) (٥٢٧)، والبيهقي في ((السنن الكبرى)) (١٢٥٢٨)، والضياء في ((المختارة)) (٣٥٧).
قال الألباني في ((صحيح أبي داود)) (٢٩٢٤): (حسنٌ صحيحٌ).

(٢) رواه البخاري (٦٧٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٨٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن عطية)) =

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾.

أي: والأنصارَ أهلَ المدينةِ، الذينَ ضمُّوا إليهم النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأصحابَه المهاجرين، فأسكَنُوهم منازِلَهم، وواسَوْهم بأموالِهم، ونَصَرُوهم على أعدائِهم[1].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾.

قيل: معناها: يَرِثُ بَعضُهم بعضًا دون قَراباتِهم مِن المُشركينَ، على القولِ بأنَّها منسوخةٌ[2].

وقيل: المعنى: أولئك المُهاجِرونَ والأنصارُ، بعضُهم أنصارُ بعضٍ، وأعوانٌ على مَن سِواهم مِن المُشركينَ، وذلك على القولِ بأنَّها محكمة[3].

= (٢/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٠٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٨٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٦٤)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٠٤).

(٢) وهو قَولُ ابنِ عبَّاسٍ، ومجاهدٍ، وعِكرمةَ، والحسنِ، وقتادة، وجمهورِ المفسرين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٨٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٤)، ((تفسير الماوردي)) (٢/ ٣٣٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٦٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٩٥)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٧٥).

قال ابنُ عاشور: (حَمَلَها ابنُ عبَّاسٍ على ما يشمَلُ الميراثَ... وهذا قولُ مُجاهدٍ وعِكرمةَ وقتادة والحَسَن، ورُوِيَ عن عُمَرَ بن الخطَّابِ، وابنِ مَسعود، وهو قولُ أبي حنيفة وأحمدَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٨٥).

(٣) وهو قولُ ابنِ جريرٍ، والرازي، وأبي حيان. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٨٩)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١٦، ٥١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٥٧).

قال ابنُ عاشور: (قال كثيرٌ مِن المُفَسِّرين: هذه الوَلايةُ هي في المُوالاة والمُؤازرة والمُعاونة دُونَ الميراثِ؛ اعتدادًا بأنَّها خاصَّةٌ بهذا الغَرَضِ، وهو قولُ مالك بن أنس، والشافعي، ورُوِي عن =

كما قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١].

وعن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: ((المؤمِنُ للمُؤمِنِ كالبُنيانِ؛ يَشُدُّ بَعضُه بَعضًا، وشبَّك بينَ أصابِعِه))(١).

وعن النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَثَلُ المؤمنينَ في تَوادِّهم وتَراحُمِهم وتَعاطُفِهم، مَثَلُ الجَسَدِ؛ إذا اشتكى منه عُضوٌ تداعى له سائِرُ الجَسَدِ بالسَّهَرِ والحُمَّى))(٢).

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾.

أي: والمُؤمنونَ الذين لم يُفارِقُوا بعدُ بلادَ الكُفرِ إلى بلادِ الإسلامِ؛ فَلَستُم- أيُّها المؤمنونَ- مكلَّفينَ بِحِمايتِهم ونُصرَتِهم، ولا إرْثَ بينكم، وليسَ لهم في المغانِمِ نَصيبٌ، حتى يُهاجِروا مِن دارِ الكُفرِ إلى دارِ الإسلامِ(٣).

وعن بُريدةَ رَضِيَ الله عنه، قال: كان رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا أَمَّرَ أميرًا على جيشٍ أو سَرِيَّةٍ، أوصاه في خاصَّتِه بِتَقوى اللهِ، ومَن مَعَه من المسلمينَ خَيرًا، ثم قال: ((اغْزُوا باسمِ اللهِ في سبيلِ اللهِ، قاتِلُوا مَن كَفَر باللهِ، اغْزُوا ولا تَغُلُّوا، ولا تَغدِرُوا، ولا تَمْثُلُوا(٤)، ولا تَقتُلوا وَليدًا، وإذا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِن المُشركين، فادْعُهم إلى ثلاثِ خِصالٍ- أو خِلالٍ- فأيَّتُهنَّ ما أجابوكَ فاقبَلْ

= أبي بكر الصِّديق، وزيدِ بنِ ثابت، وابنِ عُمرَ، وأهلِ المدينةِ)). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٨٥).

(١) رواه البخاري (٢٤٤٦) واللفظ له، ومسلم (٢٥٨٥).

(٢) رواه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦)، واللفظ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٩٣، ٢٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٩٦)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٨٥)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٣٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٠٧).

(٤) مَثَلَ به يَمثُلُ: إذا نكَّلَ به، وقَطَعَ أطرافَه. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢٩٠)، ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٦/ ٢٥٢٨).

منهم، وكُفَّ عنهم، ثم ادْعُهم إلى الإسلامِ، فإنْ أجابوك فاقبَلْ منهم، وكُفَّ عنهم، ثمَّ ادعُهم إلى التَّحَوُّلِ مِن دارِهم إلى دارِ المُهاجِرينَ، وأخبِرْهم أنَّهم إن فَعَلُوا ذلك فلَهم ما للمُهاجرينَ، وعليهم ما على المُهاجرينَ، فإن أبَوْا أن يتحَوَّلوا منها فأخبِرْهم أنَّهم يكونونَ كأعرابِ المُسلِمينَ؛ يَجري عليهم حُكمُ اللهِ الذي يجري على المُؤمنينَ، ولا يكونُ لهم في الغَنيمةِ والفَيءِ شَيءٌ، إلَّا أن يُجاهِدوا مع المُسلمينَ، فإنْ هُم أبَوْا فسَلْهُم الجِزيةَ، فإنْ هم أجابوك فاقبَلْ منهم، وكُفَّ عنهم، فإن هُم أبَوْا فاستَعِنْ باللهِ وقاتِلْهم))[١].

﴿وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ﴾.

أي: وإن طلَبَ منكم هؤلاءِ- الذينَ آمَنوا ولم يُهاجِروا- أن تَنصُروهم على الكُفَّارِ في قتالٍ دينيٍّ؛ لأنَّكم إخوانُهم في الدِّينِ- فعليكم نَصرُهم، ولا تَخذُلوهم[٢].

﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌۗ﴾.

أي: إلَّا إذا طلَبوا منكم أن تَنصُروهم على قومٍ مِن الكُفَّارِ بينكم وبينهم عهدٌ مؤكَّدٌ على تَركِ الحَربِ، فلا تَغدِروا بالكُفَّارِ بِنَقضِ ذلك العَهدِ[٣].

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾.

---

(١) رواه مسلم (١٧٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٩٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٧٥)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٣٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٨٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٩٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٦٧)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٧).

أي: واللهُ مُطَّلِعٌ على ما تَعملونَ- أيُّها المُؤمِنونَ- بصيرٌ به، لا يَخفى عليه شَيءٌ مِن أعمالِكم، فلا تُخالِفوا ما أمَرَكم به؛ لئلَّا يَحِلَّ بكم عِقابُه(١).

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى أنَّ المُؤمِنينَ بَعضُهم أولياءُ بَعضٍ، قطَعَ المُوالاة بينهم وبين الكُفَّارِ؛ فالمُؤمِنونَ أحَقُّ أن يواليَ بَعضُهم بعضًا، ويترُكوا مُوالاةَ الكافرينَ وإن كانوا أقارِبَ، فقال تعالى(٢):

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾.

أي: والكُفَّارُ بَعضُهم أعوانُ بَعضٍ؛ يَرِثُ بَعضُهم بعضًا، ويتَناصَرونَ فيما بَينَهم على قتالِ المُسلمينَ(٣).

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١].

وقال سُبحانه: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٩٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢١٠).
وقال السعدي: (﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يعلَمُ ما أنتم عليه من الأحوالِ، فيَشرَعُ لكم من الأحكامِ ما يَليقُ بكم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٩٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢١٠ - ٢١٢).

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٩].

وعن أُسامةَ بنِ زَيدٍ رَضِيَ الله عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((لا يَرِثُ المُسلِمُ الكافِرَ، ولا الكافِرُ المُسلِمَ))(١).

﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾.

أي: إن لم تَفعَلوا- أيُّها المؤمِنونَ- ما أمَرْتُكم به مِن تَوَلِّي بعضِكم بعضًا، وتَرْكِ مُوالاةِ الكافرينَ(٢)؛ تقَعْ في الأرضِ فتنةٌ عظيمةٌ بينَ النَّاسِ، وفَسادٌ عَريضٌ في الدِّينِ والدُّنيا(٣).

(١) رواه البخاري (٦٧٦٤) واللفظ له، ومسلم (١٦١٤).

(٢) قال ابنُ جُزي: (﴿إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ﴾ (ألا) هنا مركَّبةٌ مِن (إنِ الشَّرطية) و (لا النَّافية)، والضَّميرُ في ﴿تَفْعَلُوهُ﴾ لِولايةِ المُؤمِنينَ ومُعاوَنَتِهم، أو لِحِفظِ المِيثاقِ الذي في قَولِه: ﴿إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾، أو النَّصرِ الذي في قَولِه: ﴿فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٣٠). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٥٩).

قال الشنقيطي: (والتَّحقيقُ الذي لا شَكَّ فيه- إن شاء اللهُ- أنَّ الضَّميرَ (الهاء) في قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ عائِدٌ إلى ما ذكَرَه الله جلَّ وعلا مِن وَلايةِ المُسلِمينَ بَعضِهم بعضًا، ومُقاطَعَتِهم للكُفَّارِ، ووَلايةِ الكُفَّارِ بعضِهم بعضًا). ((العذب النمير)) (٥/ ٢١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٩٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٩٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢١٤ - ٢١٦).

قال ابنُ عطية: (الفتنةُ: المِحنةُ بالحَربِ، وما انجَرَّ معها من الغاراتِ والجلاءِ والأَسْر، والفسادُ الكبير: ظهورُ الشِّركِ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٥٧).

وقال الزمخشري: (لأنَّ المسلمينَ ما لم يصيروا يدًا واحدةً على الشِّركِ، كان الشِّركُ ظاهِرًا، والفَسادُ زائدًا). ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٤٠).

وذهَب ابنُ كثيرٍ، والسعدي، والشنقيطي إلى أنَّ المرادَ اختلاطُ المؤمِنِ بالكافِرِ وما ينتُجُ عنه من الْتِباسِ الحَقِّ بالباطِلِ، وأضرارٍ أُخرَى كثيرةٍ نتيجةَ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢١٥) (٥/ ٢١٦).

وقال ابن الجوزي: (إذا لم يتوَلَّ المؤمنُ المؤمنَ توليًا حَقًّا، ويتبرَّأْ مِن الكافِرِ جِدًّا؛ أدى =

كما قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ

= ذلك إلى الضَّلالِ والفَسادِ في الدِّينِ). ((زاد المسير)) (٢/ ٢٢٨).

وقال الشَّنقيطي: (وهذا المُشاهَدُ الآن؛ فإنَّ مَن يُسَمَّونَ بالمُسلمينَ تَوَلَّوا الكفَّارَ وقاطعوا المُسلمين، وصار هذا الكافِرُ وهذا المُسلِمُ يزعُمانِ أنَّهما أخوانِ، وأنَّهما تجمَعُهما العَصَبيَّةُ الفُلانيَّة، أو القوميَّةُ الفلانيَّة، وأنَّ هذه الدَّولة الكافرة صَديقةٌ، وأنَّ هَذينِ الشَّعبينِ شَقيقانِ وما جرى مجرى ذلك! فلم يفعلوا ما أمَرَ الله بأن يَفعَلوه، فكانت فتنةٌ في الأرضِ وفسادٌ كبيرٌ، ومِن عظم هذه الفتنةِ اختلاطُ الحابِلِ بالنَّابِلِ؛ لأنَّ المُسلمين إذا صادَقوا الكفَّارَ أعانوهم على أذيَّةِ المسلمينَ، وقَتلِهم، وكُلِّ ما يريدونَه بهم، وأطلَعُوهم على عَوْراتِهم، إلى غير ذلك، فانتشَرَ في الدُّنيا الفسادُ العريضُ العظيمُ، وانتشرت الفتنةُ، وهذا مُشاهَدٌ يجب على المؤمنينَ أن يعتَبِروا بهذا، فيقطَعُوا وَلايَتَهم من جميعِ الكُفَّارِ، ويَصْدُقوا وَلايةَ بعضِهم لبعضٍ؛ لِئَلَّا تتمادى بهم هذه الفِتنةُ والفسادُ الكبير... ووصْفُ هذا الفسادِ بالكبيرِ؛ لأنَّه ضياعُ دِينٍ، وضَعْفُ إسلامٍ، وقُوَّةُ كُفَّارٍ، واطِّلاعُهم على عَوْراتِ المُسلمين بواسطةِ مَن يُصادِقُهم ويُواليهم مِن المسلمينَ، إلى غير ذلك من البلايا). ((العذب النمير)) (٥/ ٢١٦، ٢١٨).

وقال محمد رشيد رضا: (الأظهَرُ أنَّ الفِتنةَ في الأرضِ: اضطهادُهم المسلمينَ، وصَدُّهم عن دينِهم... وهي مِن لوازِمِ قُوَّةِ الكُفرِ وسُلطانِ أهلِه... كذلك الفسادُ الكبيرُ مِن لوازِمِ ضَعْفِ الإسلامِ الذي يوجِبُ على أهله تولِّي بعضِهم لبعضٍ في التَّعاوُنِ والنُّصرةِ، وعَدَمِ تولِّي غيرِهم مِن دُونِهم... ومَن وقَفَ على تاريخ الدُّوَلِ الإسلاميَّةِ التي سقَطَت وبادَتْ، والتي ضعُفَت بعد قوَّةٍ؛ يرى أنَّ السَّبَبَ الأعظَمَ لِفَسادِ أَمْرِها، تَرْكُ تلك الوَلايةِ، أو استبدالُ غيرِها بها). ((تفسير المنار)) (١٠/ ١٠٠).

مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٤ - ٥٧].

وقال تبارك وتعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا تقَدَّمَت أنواعُ المؤمنينَ: المهاجِرُ والنَّاصِرُ والقاعِدُ، وذكَرَ أحكامَ مُوالاتِهم- أخذَ يبيِّنُ تفاوُتَهم في الفَضْلِ(١)، فقال تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾.

أي: والمؤمِنونَ المُهاجِرونَ الذين قاتَلوا الكُفَّارَ؛ لإعلاءِ كَلِمةِ اللهِ، والأنصارُ الذين ضمُّوا مَن هاجَرَ إليهم، ونَصَرُوهم، ونَصَروا دينَ اللهِ- أولئك هم الكامِلونَ في الإيمانِ، الذين حقَّقوا إيمانَهم بِفعلِ ما يقتضيه مِن الهِجرةِ، والنُّصرةِ، والجهادِ في سَبيلِ اللهِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٤٧)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٩٩)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣١٣)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٢٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٢٤).

﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى حُكمَ المُؤمِنينَ في الدُّنيا، عطَفَ بذِكرِ ما لهم في الآخِرَةِ، فقال(١):

﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

أي: للمُهاجِرينَ والأنصارِ مَغفرةٌ تامَّةٌ مِن اللهِ تعالى، فيستُرُ ذُنوبَهم، ويتجاوَزُ عن مؤاخَذَتِهم بها، ولهم رزقٌ حسنٌ كثيرٌ، هَنيءٌ طَيِّبٌ(٢).

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٥)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا حصَرَ اللهُ تعالى المؤمنينَ حقًّا في الموصوفينَ؛ بيَّنَ أنَّ مَن ترَك ما هو عليه مِن لُزومِ دارِ الكُفرِ، والقُعودِ عن الجِهادِ؛ لَحِقَ بمُطلَقِ دَرَجتِهم، وإنْ كانوا فيها أعلى منه(٣).

وأيضًا بعدَ أن مَنَع اللّه ولايَةَ المسلِمينَ للَّذينَ آمنوا ولم يهاجروا بالصَّراحَةِ، ابْتِداءً، ونَفَى عن الَّذين لم يُهاجِروا تحقيقَ الإيمانِ، وكان ذلك مُثيرًا في نُفوسِ السَّامِعينَ أن يتَساءَلوا: هل لأولئك تمَكُّنٌ مِن تَدارُكِ أمرِهم برأبِ هذه الثُّلْمَةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٩٩، ٣٠٠)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٩٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٢٧).

ذهَب ابنُ جريرٍ، والرازي وابنُ كثيرٍ، والشِّنقيطي وغيرُهم إلى أنَّ الرِّزقَ الكريمَ لهم في الآخرةِ، وذهَب السعدي إلى ذلك إلَّا أنَّه قال: (وربما حصَلَ لهم من الثَّوابِ المُعَجَّلِ ما تَقَرُّ به أعينُهم، وتطمئِنُّ به قلوبُهم). وأمَّا الشوكاني فاختار أنَّ الرِّزقَ الكريمَ لهم في الدُّنيا. يُنظر: المصادر السابقة.

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٤٨).

عنهم، ففَتَح اللَّه بابَ التَّدارُكِ بهذه الآيةِ[١]، فقال:

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْ ﴾.

أي: والَّذِينَ آمنوا مِن بَعدِ بَيانِ أمْرِ تَوَلِّي المُهاجرين والأنصارِ بعضِهم بعضًا، وانقِطاعِ وَلايَتِهم مِمَّن آمَن ولم يُهاجِرْ حتَّى يُهاجِرَ[٢]، وهاجَروا مِن دار الكُفرِ إلى دارِ الإسلامِ، وجاهَدوا في سبيلِ اللهِ معكم- أيُّها المهاجرونَ والأنصارُ- فأولئك منكم في الوَلايةِ؛ فلهم ما لكم، وعليهم ما عليكم، مِن حَقِّ النُّصرةِ وغَيرِها، وهم معكم في الآخرةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٠٠).

قال أبو حيان: (معنى: ﴿مِنۢ بَعْدُ﴾ مِن بعدِ الهِجرةِ الأولى، وذلك بعد الحُديبيَّة، قاله ابنُ عبَّاسٍ... وذلك أنَّ الهجرةَ مِن بعدِ ذلك كانت أقَلَّ رُتبةً مِن الهجرةِ قبلَ ذلك، وكان يُقالُ لها: الهجرةُ الثَّانية؛ لأنَّ الحَربَ وَضَعَت أوزارَها نحو عامينِ، ثمَّ كان فتحُ مكَّةَ. وبه قال عليه السلام: «لا هِجرةَ بعدَ الفَتحِ». وقال ابن جرير: من بعدِ ما بيَّنْتُ حُكمَ الوَلايةِ، فكان الحاجِزُ بين الهجرتينِ نُزولَ الآيةِ، فأخبَرَ تعالى في هذه الآيةِ أنَّهم من الأوَّلِينَ في المُؤازرةِ وسائِرِ أحكامِ الإسلامِ، وقيل: مِن بَعدِ يَومِ بَدرٍ، وقال الأصم: مِن بعدِ الفَتحِ). ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٦٠). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٥٧)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٢٨).

وقال ابنُ عاشورٍ: (قولُه: ﴿مِنۢ بَعْدُ﴾ قَرينةٌ على أنَّ المُرادَ: إذا حَصلَ منهم ما لم يَكُنْ حاصلًا في وقتِ نُزولِ الآياتِ السَّابقَةِ، ليكونَ أصحابُ هذه الصِّلَةِ قِسْمًا مُغايِرًا للأقسامِ السَّابِقَةِ. فليس المَعْنَى أنَّهم آمَنُوا مِنۢ بَعْدِ نزولِ هذه الآيةِ، لأنَّ الَّذين لم يكونوا مؤمنينَ ثُمَّ يؤمِنونَ مِن بعدُ لا حاجةَ إلى بيانِ حُكْمِ الاعتدادِ بإيمانِهم، فإنَّ مِن المعلومِ أنَّ الإسلامَ يَجُبُّ ما قبلَه، وإنَّما المقصودُ: بيانُ أنَّهم إنْ تَدارَكوا أمرَهُم بأن هاجروا قُبِلوا وصاروا مِن المؤمِنينَ المُهاجِرينَ، فيتعَيَّنُ أنَّ المضافَ إليه المحذوفَ الَّذي يشيرُ إليه بناءُ ﴿بَعْدُ﴾ على الضَّمِّ أنَّ تقديرَه: مِن بعدِ ما قُلْناه في الآياتِ السَّابقةِ، وإلَّا صار هذا الكلامُ إعادةً لبعضِ ما تقَدَّم، وبذلك تسقطُ الاحتِمالاتُ الَّتي تَرَدَّدَ فيها بعضُ المفسِّرينَ في تقديرِ ما أُضيفَ إليه ﴿بَعْدُ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٩٠).

وقال القاسمي: (وهل المرادُ مِن قولِه ﴿مِنۢ بَعْدُ﴾ هو مِن بعدِ الهجرةِ الأُولَى، أو مِن بعدِ الحديبيةِ، وهي الهجرةُ الثانيةُ، أو مِن بعدِ نزولِ هذه الآيةِ، أو مِن بعدِ يوم بدرٍ؟ أقولُ: اللفظُ الكريمُ يعمُّها كلَّها، والتخصيصُ بأحدِهما تخصيصٌ بلا مخصِّصٍ). ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٣٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٣٢).

كما قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وقال سبحانه: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

وعن ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((المَرءُ مع مَن أحَبَّ))[١].

﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾.

أي: وذَوُو القَراباتِ أَوْلى بالتَّوارُثِ بينهم[٢] في حُكمِ اللَّه وشَرْعِه[٣].

(١) رواه البخاري (٦١٦٨)، ومسلم (٢٦٤٠).

(٢) قال أبو حيان: (من قال: إنَّ قولَه في المؤمنينَ المهاجرينَ والأنصارِ: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ في المواريثِ بالأخوَّةِ التي كانت بينهم، قال: هذه في المواريثِ، وهي نَسْخٌ للميراثِ بتلك الأُخُوَّةِ، وإيجابُ أن يَرِثَ الإنسانُ قَريبَه المؤمِنَ وإن لم يكُن مهاجرًا، واستدلَّ بها أصحابُ أبي حنيفةَ على توريثِ ذوي الأرحامِ، وقالت فِرقةٌ- منهم مالكٌ-: ليست في المواريثِ، وهذا فِرارٌ عن توريثِ الخالِ والعَمَّةِ ونحوِ ذلك، وقالت فِرقةٌ: هي في المواريثِ إلَّا أنَّها نَسَخَتْها آيةُ المواريثِ المبيَّنةُ). ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٦٠).

وقال الرازي: (الذين فَسَّروا تلك الآيةَ بالنُّصرةِ والمحبَّةِ والتعظيمِ، قالوا: إنَّ تلك الوَلايةَ لَمَّا كانت مُحتمِلةً للوَلايةِ بسبَبِ الميراثِ، بيَّن الله تعالى في هذه الآيةِ أنَّ وَلايةَ الإرْثِ إنَّما تحصُلُ بسبَبِ القَرابةِ، إلَّا ما خصَّه الدَّليلُ، فيكون المقصودُ مِن هذا الكلامِ إزالةَ هذا الوَهمِ، وهذا أَوْلى؛ لأنَّ تكثيرَ النَّسْخِ من غيرِ ضَرورةٍ ولا حاجةٍ، لا يجوزُ). ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٩٩، ١٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٨)، ((العذب =

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىۡءٍ عَلِيمٌ ﴾.

أي: إنَّ اللَّهَ عالِمٌ بكُلِّ شَيءٍ، ومن ذلك عِلمُه بما يَصلُحُ لِعِبادِه؛ فكُلُّ ما شَرَعَه لهم فهو مُوافِقٌ للحِكمةِ، كتَوريثِه بعضِهم مِن بَعضٍ بِسَبَبِ القَرابةِ والنَّسَبِ(١).

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيه تَحذيرٌ لِلمُسلمينَ؛ لِئلَّا يَحمِلَهم العَطفُ على المُسلمينَ، على أن يُقاتِلوا قَومًا بينهم وبينهم مِيثاقٌ، وفي هذا التَّحذيرِ تَنويهٌ بِشَأنِ الوَفاءِ بالعَهدِ، وأنَّه لا يَنقُضُه إلَّا أمرٌ صَريحٌ في مُخالَفتِه(٢).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾ دَلالةٌ على وُجوبِ إغاثةِ المَلهوفِ، ونَصْرِ المظلومِ، وإنْ كان بعيدًا(٣).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ في قَولِه ﴿بَصِيرٌ﴾ إشارةٌ إلى العِلمِ بما يكونُ من ذلك خالِصًا أو مَشوبًا؛ ففيه مزيدُ حَثٍّ على الإخلاصِ(٤).

٤- تركُ موالاةِ المؤمنينَ، ومعاداةِ الكافرينَ يحصل به من الشَّرِّ ما لا ينحصِرُ؛

= النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٣٢ - ٢٣٦).

ومَّن اختار أنَّ المُرادَ بكتاب الله هنا: حُكمُه وشَرْعُه: ابنُ كثيرٍ، والسعدي، والشَّنقيطي، ونسبه لجُمهورِ العُلَماء. يُنظر: المصادر السابقة.

واختار ابنُ جرير أنَّ المرادَ به: اللَّوحُ المحفوظُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٠١).

واختار أبو حيَّان أنَّ المرادَ به: القُرآنُ الكريمُ. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٠١)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٢٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٨٧).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٤٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٨٥).

مِن اختلاطِ الحَقِّ بالباطِلِ، والمؤمِنِ بالكافِرِ، وعَدَمِ كثيرٍ من العِباداتِ الكِبارِ- كالجِهادِ والهِجرة- وغيرِ ذلك مِن مقاصِدِ الشَّرعِ والدِّينِ؛ قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾(1).

٥- قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾، فإذا لم يتوَلَّ المؤمِنُ المؤمِنَ تولِّيًا حقًّا، ويتبرَّأْ مِن الكافِرِ جِدًّا، أدَّى ذلك إلى الضَّلالِ والفَسادِ في الدِّينِ، فإذا هجَرَ المُسلِمُ أقارِبَه الكُفَّارَ، ونَصَرَ المُسلمينَ، كان ذلك أدْعَى لأقارِبِه الكُفَّارِ إلى الإسلامِ، وتَرْكِ الشِّركِ(2).

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ هذه السَّعاداتُ العالية إنَّما حصَلَت؛ لأنَّهم أعرَضوا عن اللَّذَّاتِ الجُسمانيَّة، فتركوا الأهلَ والوَطَنَ، وبَذَلوا النَّفْسَ والمالَ(3).

٧- قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ لَمَّا بيَّنَ اللهُ هنا وَصْفَهم، بيَّن ما حَباهم به بِقَولِه- دالًّا على أنَّ الإنسانَ محَلُّ النُّقصانِ؛ فهو وإن اجتهَدَ حتى كان من القِسمِ الأعلى، لا ينفَكُّ عن مُواقعةِ ما يَحتاجُ فيه إلى الغُفرانِ-: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ أي: لِزَلَّاتِهم وهَفَواتِهم؛ لأنَّ مبنى الآدميِّ على العَجزِ اللَّازِمِ عنه التَّقصيرُ وإن اجتهَدَ، والدِّينُ مَتينٌ، فلن يُشادَّه أحَدٌ إلَّا غَلَبَه(4).

٨- أوجَبَ اللهُ تعالى مُوالاةَ المُؤمِنينَ بَعضِهم لبعضٍ؛ يُبيِّنُ ذلك قَولُه تعالى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٤٧).

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ﴾[١].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ عُلِّقَت أولويَّةُ الأرحامِ بأنَّها كائنةٌ في كتابِ اللهِ، أي: في حُكمِه، فهذا الاعتناءُ مُؤذِنٌ بما لِوَشائِجِ الأرحامِ من الاعتبارِ في نظَرِ الشَّريعةِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هؤلاء موصوفونَ بهذه الصِّفاتِ الأربَعِ:

أولها: أنَّهم آمَنُوا باللهِ ومَلائِكَتِه وكُتُبِه ورُسُلِه واليَومِ الآخِرِ، وقَبِلوا جميعَ التَّكاليفِ التي بلَّغَها محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولم يتمَرَّدوا.

والصفة الثانية: قولُه: ﴿وَهَاجَرُوا﴾ يعني: فارَقوا الأوطانَ، وتَركوا الأقارِبَ والجيرانَ؛ في طَلَبِ مرضاةِ الله، ومعلومٌ أنَّ هذه الحالةَ حالةٌ شديدةٌ.

والصفة الثالثة: قَولُه: ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أمَّا المجاهدةُ بالمالِ، فلأنَّهم لَمَّا فارقوا الأوطانَ، فقد ضاعَت دُورُهم ومَساكِنُهم وضِياعُهم ومزارِعُهم، وبَقِيَت في أيدي الأعداءِ، وأيضًا فقد احتاجُوا إلى الإنفاقِ الكثيرِ؛ بسبَبِ تلك العزيمةِ، وأيضًا كانوا يُنفِقونَ أموالَهم على تلك الغَزَواتِ، وأمَّا المُجاهدةُ بالنَّفسِ فلأنَّهم كانوا أقدَموا على مُحارَبةِ بَدرٍ مِن غيرِ آلةٍ ولا أُهْبةٍ ولا عِدَّةٍ، مع الأعداءِ الموصوفينَ بالكثرةِ والشِّدَّةِ، وذلك يدلُّ على أنَّهم أزالوا أطماعَهم عن الحياةِ، وبَذَلوا أنفُسَهم في سبيلِ الله.

وأمَّا الصفة الرابعة: فهي أنَّهم كانوا أوَّلَ النَّاسِ إقدامًا على هذه الأفعالِ، والتزامًا لهذه الأحوالِ، ولهذه السَّابقةِ أثَرٌ عَظيمٌ في تقويةِ الدِّينِ. قال تعالى:

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ٤١٨-٤١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٩٢).

﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ [الحديد: ١٠] وقال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠] وإنما كان السَّبقُ مُوجِبًا للفَضيلةِ؛ لأنَّ إقدامَهم على هذه الأفعالِ يُوجِبُ اقتداءَ غَيرِهم بهم، فثبَتَ أنَّ حُصولَ هذه الصِّفاتِ الأربَعِ للمُهاجرينَ الأوَّلِينَ، يدلُّ على غايةِ الفَضيلةِ ونهايةِ المَنقبةِ، وأنَّ ذلك يُوجِبُ الاعترافَ بِكَونِهم رُؤساءَ المُسلِمينَ وسادةً لهم[١].

٢- الهِجرةُ لا تنقطِعُ أبدًا، إلَّا أنَّ الهِجرةَ المخصوصةَ التي كانت إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابِه بالمدينةِ، هي التي انقطَعَت بفتحِ مكَّةَ؛ لانتشارِ الإسلامِ في جزيرةِ العَرَبِ، قال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لا هِجرةَ بعد الفَتحِ، ولكِنْ جِهادٌ ونِيَّةٌ))[٢]، أمَّا الهجرةُ التي لا تنقطِعُ، فهي أنَّ كلَّ إنسانٍ تُعُرِّضَ له في دينِه، وصار لا يقدِرُ على إقامةِ شَعائِرِ دِينِه في محَلٍّ، فواجِبٌ عليه- بإجماعِ العُلَماءِ- أن ينتقِلَ من هذا المحَلِّ، ويبذُلَ في ذلك كلَّ مَجهودٍ، حتى يصِلَ إلى محَلٍّ يتمكَّن فيه من إقامةِ شَعائِرِ دِينِه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾[٣].

٣- في قَولِ الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قدَّم الأموالَ على الأنفسِ، وفي ذلك أوجهٌ:

الأول: أنَّ الأموالَ كانت في غايةِ العِزَّةِ في أوَّلِ الأمرِ[٤].

الثاني: أنَّ الجهادَ بالمالِ أخفُّ على النفوسِ مِن الجهادِ بالنفس، فسلَك في

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١٥، ٥١٦).

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٨٣)، ومسلم (١٣٥٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٠٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٣٧)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢٧٨).

ذلك مسلكَ الترقِّي مِن الأدنَى إلى الأعلَى(١).

الثالث: أنَّ الأموالَ قوامُ الأنفسِ، فمَن بذَل مالَه كلَّه لم يبخَلْ بنفسِه؛ لأنَّ المالَ قوامُها(٢).

الرابع: حرصُ الكثيرِ عليها، حتى أنَّهم يُهلكون أنفسَهم بسببِها، فالنَّاس يُقاتِلون دونَ أموالِهم؛ فإنَّ المجاهِدَ بالمالِ قد أخرجَ مالَه حقيقةً لله، أمَّا المجاهدُ بنَفسِه لله فإنَّه يرجو النَّجاةَ، ولهذا أكثرُ القادرينَ على القتالِ يَهونُ على أحَدِهم أنْ يُقاتِلَ؛ ولا يَهونُ عليه إخراجُ مالِه(٣).

الخامس: أنَّها هي التي يُبدأُ بها في الإنفاقِ، والتجهُّزِ إلى الجهادِ، فرتَّب الأمرَ كما هو نفسُه(٤).

السادس: أنَّ ضرورةَ الجهادِ بالمالِ أكثرُ مِن ضرورتِها بالنفسِ، حتى أنَّ الذي يجاهدُ بنفسِه محتاجٌ إلى المالِ، فما الذي يُوصله إلى ميدانِ القتالِ إلا الأموالُ(٥).

٤- قَوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ يُوهِمُ أنَّهم لَمَّا لم يُهاجِرُوا مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سقطَت وَلايَتُهم مُطلقًا، فأزال اللهُ تعالى هذا الوَهمَ بِقَولِه: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾ يعني: أنَّهم لو هاجَرُوا لعادَتْ تلك الوَلايةُ وحصَلَت، والمقصودُ منه الحَملُ على المُهاجرةِ والتَّرغيبُ فيها؛ لأنَّ المُسلِمَ متى سمِعَ أنَّ اللهَ تعالى يقولُ: إنْ قَطَعَ المُهاجَرةَ انقطَعَت الوَلايةُ بينه وبين المُسلمينَ، ولو هاجَرَ حَصَلت تلك الوَلايةُ، وعادَتْ على أكمَلِ الوُجوهِ- فلا شَكَّ أنَّ هذا يصيرُ مُرَغِّبًا له في الهجرةِ، والمقَصودُ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (٢/ ٣٢٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٨/ ٢٣٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٣١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٦٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (١/ ٣٨).

المُهاجَرةِ كَثرةُ المُسلِمينَ واجتماعُهم، وإعانةُ بَعضِهم لبعضٍ، وحصولُ الأُلفةِ والشَّوكةِ وعدَمُ التَّفرقةِ(١).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾ دَلالةٌ على أنَّ المخلوقَ يجوزُ له أنْ يَطلُبَ مِن المَخلوقِ ما يَقْدِرُ عليه مِن الأُمورِ- دونَ ما لا يَقْدِرُ عليه إلَّا اللهُ؛ فإنَّه لا يُطْلَبُ إلَّا مِنه سُبحانَه(٢).

٦- إذا أراد العَدُوُّ الهُجومَ على المُسلِمينَ؛ فإنَّه يصيرُ دَفعُه واجبًا على المقصودينَ كلِّهم، وعلى غيرِ المَقصودينَ لإعانَتِهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾، وأمَر النَّبيُّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم بنصرِ المسلمِ، وهذا يجبُ بحسبِ الإمكانِ على كلِّ أحدٍ بنَفْسِه ومالِه، مع القلَّةِ والكثرةِ، والمشيِ والرُّكوبِ(٣).

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ استدَلَّ به بعضُ العُلَماءِ على أنَّ الكُفَّارَ في المُوارَثةِ- مع اختلافِ مِلَلِهم- كأهلِ مِلَّةٍ واحدةٍ؛ فالمجوسيُّ يَرِثُ الوَثَنيَّ، والنَّصرانيُّ يرِثُ المجوسيَّ(٤).

٨- قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ هذه العبارةُ ترغيبٌ وتحريضٌ، وإقامةٌ لنفوسِ المؤمنينَ، كما تقولُ لِمَن تُريدُ تحريضَه: عدُوُّك مُجتَهِدٌ، أي: فاجتَهِدْ أنت(٥).

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١٧).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ١٠٣، ١٠٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٥٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٥٦)، ((تفسير الثعالبي)) (٣/ ١٥٨).

آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ ليس بتكرارٍ لِما سبَقَ في قَولِ الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٢]؛ وذلك لأنَّه تعالى ذَكَرَهم أوَّلًا لِيُبَيِّنَ حُكمَهم- وهو وَلايةُ بَعضِهم بعضًا- ثم إنَّه تعالى ذَكَرَهم هاهنا؛ لِبَيانِ تَعظيمِ شَأنِهم، وعُلُوِّ دَرَجتِهم؛ وبيانُه مِن وَجهينِ:

الأول: أنَّ الإعادةَ تدُلُّ على مَزيدِ الاهتمامِ بِحالِهم، وذلك يدُلُّ على الشَّرَفِ العَظيمِ.

والثاني: وهو أنَّه تعالى أثنى عليهم هاهنا، وشرَحَ حالَهم في الدُّنيا وفي الآخرة، أمَّا في الدُّنيا فقد وَصَفَهم بِقَولِه: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ وأمَّا في الآخرةِ فالمَقصودُ إمَّا دَفعُ العِقابِ، وإمَّا جَلبُ الثَّوابِ؛ أمَّا دَفعُ العِقابِ فهو المرادُ بِقَولِه: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ وأمَّا جَلبُ الثَّوابِ فهو المرادُ بِقَولِه: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾(١).

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ هذه الشَّهادةُ المَقرونةُ بهذا الجزاءِ العَظيمِ تُرغِمُ أنوفَ الرَّوافِضِ، وتُلقِمُ كلَّ نابحٍ بالطَّعنِ في أصحابِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، الحَجَرَ، ولا سيَّما زَعمُهم بأنَّ أكثرَهم- رَضِيَ اللهُ عنهم وأرضاهم- قد ارتَدُّوا بعده صلَّى اللهُ عليه وسلَّم(٢).

١١- في قولِه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ رَدٌّ على المرجئةِ؛ حيث أضافَ سبحانَه الهجرةَ والجهادَ والنصرةَ والإيواءَ إلى الإيمانِ، وقد شَهِدَ لقوم في أولِ السورةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٠١).

تحقيقَه؛ ولم يَذْكُرْ هذه الشرائطَ، وذَكَرَ لأولئك شرائطَ لم يذكرها لهؤلاء؛ فدلَّ على أنَّ الإيمانَ ذو أجزاءٍ[١].

١٢- في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ بيانُ أنَّ كلَّ خيرٍ يفعلُه المؤمنُ متقرِّبًا به إلى الله فهو مِن الإيمان- فرضًا كان أو تطوعًا- فالجهادُ والنصرةُ والإيواءَ قد يكونا نافلةً في بعض الأوقاتِ- إذا لم يكن المنصورُ والمُؤْوَى مضطهدًا- والجهادُ إذا قامتْ به طائفةٌ فهو للباقي فضيلةٌ لا فريضةٌ[٢].

١٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ﴾ يدلُّ على أنَّ مَرتبةَ هؤلاءِ دُونَ مَرتبةِ المُهاجِرينَ السَّابقينَ؛ لأنَّه ألحَقَ هؤلاء بهم، وجَعَلَهم منهم في مَعْرِضِ التَّشريفِ، ولولا كَونُ القِسمِ الأوَّلِ أشْرَفَ، وإلَّا لَمَا صَحَّ هذا المعنى[٣].

١٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ استدَلَّ به مَن ورَّثَ ذَوي الأرحامِ[٤].

١٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ استدَلَّ به مَن قال: إنَّ القَريبَ أَوْلَى بالصَّلاةِ على الميِّتِ مِن الوالي[٥].

١٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ قَولُه: ﴿أَوْلَى﴾- هو صِيغةُ تَفضيلٍ- يُفيدُ أنَّ الوَلايةَ بين ذَوِي الأرحامِ لا تُعتبَرُ

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٤٧٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٦٠).
(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٣٧).

إلَّا بالنِّسبةِ لِمَحلِّ الوَلايةِ الشَّرعيَّةِ، فأُولو الأرحامِ أَوْلى بالوَلايةِ ممَّن ثبَتَت لهم وَلايةٌ تامَّةٌ أو ناقِصةٌ، كالذينَ آمَنوا ولم يُهاجِروا في وَلايةِ النَّصرِ في الدِّينِ، إذا لم يَقُم دُونَها مانِعٌ مِن كُفرٍ أو تَرْكِ هِجرةٍ، فالمؤمنونَ بَعضُهم لبعضٍ أولياءُ وَلايةَ الإيمانِ، وأولو الأرحامِ منهم بعضُهم لبعضٍ أولياءُ وَلايةَ النَّسَبِ[1].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ هذه الآيةُ استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ للإعلامِ بأحكامِ مُوالاةِ المسلِمين للمُسلِمين الذين هاجَروا، والذين لم يُهاجروا، وعدمِ مُوالاتِهم للذين كَفروا[2].

- وفيها حُسْنُ ترتيبٍ، حيثُ بَدَأ بالمهاجرين؛ لأنَّهم أَصْلُ الإسلامِ، وأوَّلُ مَن استجابَ للهِ تعالى، وكانوا قُدوةً لغيرهم في الإيمانِ، وسببَ تقويةِ الدِّين، وثَنَّى بالأنصارِ؛ لأنَّهم ساوَوْهُم في الإيمانِ، وفي الجهادِ بالنَّفسِ والمالِ، لكِنَّه عادَلَ الهِجرةَ الإيواءُ والنَّصرُ، وانفرَد المهاجِرون بالسَّبقِ، وذَكَر ثالثًا مَن آمن ولم يُهاجِر ولم يَنْصُر؛ ففاتَهم هاتانِ الفضيلتانِ[3]، فهؤلاءِ بسبَبِ إيمانِهم لهم فَضلٌ وكرامةٌ، وبسبَبِ تَركِ الهِجرةِ لهم حالةٌ نازِلةٌ، وذلك هو أنَّ الوَلايةَ تكون منفيَّةً عنهم، إلَّا أنَّهم يكونونَ بحيثُ لو استَنصَروا المؤمنينَ واستعانوا بهم، نَصَروهم وأعانوهم، وأمَّا الكُفَّارُ فليس لهم البتَّةَ ما يُوجِبُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٩٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٨٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٥٧).

شيئًا مِن أسبابِ الفضيلةِ، فوجَبَ كَونُ المُسلمين مُنقَطعينَ عنهم مِن كُلِّ الوُجوهِ، فلا يكونُ بينهم وَلايةٌ ولا مُناصرةٌ بوجهٍ مِن الوجوهِ(١).

- وقولُه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فيه مُناسَبة حَسنةٌ، حيثُ قدَّم هنا في سُورةِ الأنفال ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ على قولِه: ﴿فِي سَبيلِ اللهِ﴾ وَعَكَسَ في سورةِ التَّوبةِ فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٢٠]؛ ووجهُ هذه المناسبةِ: أنَّ الآيةَ الأُولَى في سُورةِ الأنفالِ جاءتْ عَقيبَ ما أنْكره اللهُ تعالى على مَن قال لهم: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، وهم أصحابُ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم لَمَّا أَسَرُوا المشركين، ولم يَقْتلوهم طَمعًا في الفِداءِ، فقال تعالى: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، أي: فيما أَخذتُم من هؤلاء الأَسْرى من الفِداءِ، ثم قال تعالى لَمَّا غفَر لهم ما كان منهم مِن تَرْكِ قَتْلِ الأَسْرى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾، أي: اسْتَمتِعوا بما نِلْتُم من أموالِ المشركين، وبما أَخذتُم من فِدائهم، فعقَّبَ ذلك بهذِه الآيةِ التي مَدَح فيها مَن أَنْفَق أموالَه في سبيلِ الله، لا مَن يُجاهدُ طلبًا للنَّفعِ العاجلِ، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ فقدَّم ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ على قوله: ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ ليَعْلموا أنَّ ذلك يَجِب أنْ يكونَ أهمَّ لهم، وأَوْلى بتقديمِه عِنْدهم، صَرفًا لهم عما حرَصوا عليه من فائدةِ الفِداء، بخِلاف الآيةِ التي في سُورةِ التوبةِ، حيثُ قال في إبطالِ ما أَتى به المشركون من عِمارةِ المسجدِ الحرامِ، وسِقايةِ الحاجِّ من المقامِ على الكُفْر: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١٨).

وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٩]؛ فكان المندوبُ إليه في هذه الآيةِ بعدَ الإيمان باللهِ الجهادَ في سَبيلِ الله، فقال سبحانه بَعْده مادحًا لِمَن تلقَّى بالطاعةِ أَمْرَه: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ [التوبة: ٢٠]، ثُمَّ ذَكَر ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾، فقُدِّمَ ذِكْرُ ما اقْتَضى المَوضِعُ تقديمَه، وجُعِلَ المالُ والنَّفْسُ أَهمَّ إليهم مِن غيرِهما، وخالَفَ هذا المكانُ قولَه في سُورةِ الأنفالِ، فقُدِّم فيه ما أُخِّر هناك لِذلك[1].

وقيل: لأنَّ سُورةَ الأنفالِ مقصودٌ فيها مع المِدْحةِ تعظيمُ الواقعِ منهم من الإيمانِ والهجرةِ، والجِهادِ بالأموالِ والأنفسِ، وتَغبيطُهم بما مَنَّ اللهُ عليهم به مِن ذلك، وتفخيمُ فِعْلِهم المُوجِبِ لموالاةِ بعضِهم بعضًا؛ فقُدِّم ذِكْرُ الأموالِ والأنفُسِ؛ للتَّعريف بمَوقِعِ ذلك من النُّفوسِ، وأنهم بادَروا بها على حُبِّها، وشُحِّ الطِّباعِ بها، وليس تأخيرُ هذا المجرورِ كتقديمِه؛ لأنَّه إنَّما يُقدَّمُ حيثُ يُقصَدُ اعتناءٌ وتخصيصٌ وتنبيهٌ على مَوقِعِه؛ فإنَّما قُدِّمَ هذا تغبيطًا لهم، وإعظامًا لِفعلهم، أمَّا آيةُ سُورةِ التوبةِ فتعريفٌ بأمرٍ قدْ وقَع، مبنيٌّ على التعريفِ بالمُفاضَلةِ بين سِقايةِ الحاجِّ وعِمارةِ المسجدِ الحرامِ، وبَين مَن آمَن وهاجَر، وجاهَدَ في سبيلِ الله بمالِه ونَفْسه؛ بقَصْد رَدِّ مَن ظنَّ أنَّ السِّقايةَ وعِمارةَ المسجدِ الحرامِ أفضلُ، وعَرَف أنَّ الإيمانَ وما ذُكِر معه أعظمُ درجةً عند اللهِ؛ فلم يَعرِضْ هنا داعٍ إلى تَقديمِ ما قُدِّم في الأُخرَى، فتَمخَّضت فضيلةُ ذلك المجرورِ هنا فأُخِّر، والقَصْد تَخصيصُ كنايةِ الإخلاصِ، والتَّخصيصُ مقصودٌ في آيةِ الأنفال، ولم يُقصَد ذلك في آيةِ التوبةِ، ولا وقَع المجرورُ فيها خبرًا؛ فوَجَب بمقتضى اللِّسانِ أنْ يُقدَّم في آيةِ الأنفال قولُه: ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ ويُؤخَّرَ في سورة التوبةِ،

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل)) للإسكافي (٢/ ٦٩٦- ٦٩٨).

وقدْ وقَع في كلِّ واحدةٍ من الآيتينِ في كلٍّ مِن السُّورتين ما استدعَى اتصالَ ما بَعْده به، فنَاسَبَ ما ذُكِر، ولم يُناسِب العَكْس؛ وظَهَر وجهُ تَخصيصِ ما وَقَع في كلٍّ من السُّورتَين بموضعِه(١).

وقيل: لأنَّ ما هنا في الأنفال تَقدَّمه ذِكرُ المالِ والفِدَاءِ وَالغنيمَةِ، في قولِه تعالى: ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾، وقولِه: ﴿لَوْلَا كتابٌ من اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فيمَا أَخذتُم﴾، أي: من الفِداء، وقولِه: ﴿فكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ فَقدَّم ذِكرَ المَال، وما في سورة التوبةِ تَقدَّمه ذِكرُ الْجِهَاد، وهو قولُه: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ﴾ [التوبة: ١٦]، وقولُه: ﴿كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٩]؛ فَقدَّم ذِكرَ الجِهادِ في هذه الآي في هذه السُّورَة ثَلاثَ مَرَّات، فأوْرَد في الأُولى: ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، وحَذَف من الثَّانيَة ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾؛ اكْتِفاءً بما في الأُولى، وحذَف مِن الثَّالِثةِ ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾، وزادَ حذْفَ ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ اكْتِفاءً بما فِي الآيَتَيْنِ قبلَها؛ فناسبَ ذلك تَقديمَ ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ هنا في الأنفالِ، وتَقديمَ ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هناك في التَّوبةِ(٢).

- قولُه: ﴿أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ فيه مجيءُ اسمِ الإشارةِ ﴿أُولَئِكَ﴾؛ لإفادةِ الاهْتِمامِ بتَمييزِهم للإخبارِ عنهم، وللتَّعريضِ بالتَّعظيمِ لشأنِهم؛ ولذلك لم يُؤتَ بمِثْله في الإخبارِ عن أحوالِ الفِرَقِ الأُخْرى(٣).

- قولُه: ﴿وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ خُصَّ الاسْتِنصارُ بالدِّينِ؛ لأنَّ الاستِنصارَ

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٣٢ - ١٣٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٣٢٣-٣٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٨٥).

بالحَميَّةِ والعَصبيَّةِ في غيرِ الدِّين منهيٌّ عنه(١).

- وفي قولِه: ﴿فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾ قُدِّم الخَبرُ ﴿فَعَلَيْكُمُ﴾؛ للاهْتِمامِ به(٢).

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا﴾ جملةٌ مُعترِضةٌ بينَ قولِه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾، وقولِه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا﴾، والواوُ اعتراضيَّةٌ؛ للتَّنويهِ بالمهاجِرينَ والأنصارِ، وبيانِ جَزائهم وثَوابِهم، بعدَ بَيانِ أحكامِ ولايةِ بعضِهم لبعضٍ(٣).

- قولُه: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ جِيءَ باسمِ الإشارةِ ﴿أُولَئِكَ﴾؛ لإفادةِ الاهْتِمامِ بتَمييزِهم للإخبارِ عنهم، وللتَّعريضِ بالتَّعظيمِ لشأنِهم(٤).

- وصِيغةُ ﴿هُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ صِيغةُ قَصْرٍ، وأفادتْ قَصْرَ الإيمانِ عليهم دونَ غيرِهم ممَّن لم يُهاجِروا، والقَصْرُ هنا مُقيَّدٌ بالحالِ في قولِه: ﴿حَقًّا﴾، والمعنى: أنَّهم مُحقِّقون لإيمانهم بأنْ عضَّدوه بالهِجرةِ من دارِ الكُفْر، وليس الحقُّ هنا بمعنى المقابِل للباطلِ، حتَّى يكونَ إيمانُ غيرِهم ممَّن لم يُهاجِروا باطلًا؛ لأنَّ قرينةَ قولِه: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا﴾ مانعةٌ من ذلك؛ إذ قدْ أثْبتَ لهم الإيمانَ، ونفَى عنهم اسْتِحقاقَ وَلايةِ المؤمنين(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٥٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٨٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٨٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وقَولُه: ﴿حَقًّا﴾ يفيدُ المبالغةَ في وَصفِهم بِكَونِهم مُحِقِّينَ، مُحَقِّقينَ في طريقِ الدِّينِ(١).

- وتنكيرُ لَفظِ المَغفرةِ في قولِه: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ يدُلُّ على الكمالِ، والمعنى: لهم مغفرةٌ تامَّةٌ كاملةٌ عن جميعِ الذُّنوبِ والتَّبِعاتِ(٢).

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ تَذييلٌ مُؤذِنٌ بالتعليلِ؛ لتقريرِ أولويَّة ذوي الأرحامِ بَعضِهم ببعضٍ فيما فيه اعتدادٌ بالوَلايةِ(٣).

- وخَتْمُ هذِه السُّورةِ بقولِه: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ في غايةِ البَراعةِ والحُسْنِ؛ إذ قد تَضمَّنتْ أحكامًا كثيرةً في مهمَّاتِ الدِّينِ وقِوامِه، وتفصيلًا لأحوالٍ؛ فصِفةُ العِلْمِ تَجمَعُ ذلك كلَّه، وتُحيط بمبادئه وغاياتِه(٤).

تمَّ بحمدِ الله المجلدُ السابعُ

ويليه المجلدُ الثامنُ، وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ التوبةِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٦٠).

الفهرس

أسماءُ السُّورةِ.......... ٧
المَكِّيُّ والمَدَنيُّ.......... ٧
مَقاصِدُ السُّورةِ.......... ٧
مَوضوعاتُ السُّورةِ.......... ٨
الآيات (١-٤).......... ١٠
غَريبُ الكَلِماتِ.......... ١٠
المَعنى الإجماليُّ.......... ١٠
تَفسيرُ الآياتِ.......... ١١
الفَوائِدُ التربويَّةُ.......... ٢٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ.......... ٢٢
بلاغةُ الآياتِ.......... ٢٥
الآيات (٥-٨).......... ٢٩
غَريبُ الكَلِماتِ.......... ٢٩
المَعنى الإجماليُّ.......... ٣٠
تَفسيرُ الآياتِ.......... ٣٠
الفَوائِدُ التربويَّةُ.......... ٣٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ.......... ٣٤
بلاغةُ الآياتِ.......... ٣٥
الآيات (٩-١١).......... ٣٩
غَريبُ الكَلِماتِ.......... ٣٩
المَعنى الإجماليُّ.......... ٤٠
تَفسيرُ الآياتِ.......... ٤٠
الفَوائِدُ التربويَّةُ.......... ٤٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ.......... ٤٧

بلاغةُ الآياتِ ٤٩
الآيات (١٢-١٤) ٥٣
غَريبُ الكَلِماتِ ٥٣
مُشكِلُ الإعرابِ: ٥٣
المَعنى الإجماليُّ........ ٥٤
تَفسيرُ الآياتِ ٥٥
الفَوائِدُ التربويَّةُ ٥٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٦٠
بلاغةُ الآياتِ ٦٢
الآيتان (١٥-١٦)........ ٦٥
غَريبُ الكَلِماتِ ٦٥
المَعنى الإجماليُّ........ ٦٦
تَفسيرُ الآيتينِ ٦٦
الفَوائِدُ التربويَّةُ ٧٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٧٠
بلاغةُ الآيتَينِ........ ٧١
الآيات (١٧-١٩) ٧٣
غَريبُ الكَلِماتِ ٧٣
المَعنى الإجماليُّ: ٧٤
تَفسيرُ الآياتِ........ ٧٤
الفَوائِدُ التربويَّةُ ٨٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٨٠
بلاغةُ الآياتِ ٨١
الآيات (٢٠-٢٣) ٨٣
غَريبُ الكَلِماتِ ٨٣
المَعني الإجماليُّ........ ٨٣

تَفسيرُ الآياتِ ٨٤
الفَوائِدُ التربويَّةُ ٨٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٨٩
بلاغةُ الآياتِ ٩٠
الآيات (٢٤-٢٦) ٩٤
غَريبُ الكَلِماتِ ٩٤
المَعنى الإجماليُّ ٩٥
تَفسيرُ الآياتِ ٩٥
الفَوائِدُ التربويَّةُ ١٠٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٠٧
بلاغةُ الآياتِ ١٠٨
الآيات (٢٧-٢٩) ١١١
غَريبُ الكَلِماتِ ١١١
المَعنى الإجماليُّ ١١١
تَفسيرُ الآياتِ ١١٢
الفَوائِدُ التربويَّةُ ١١٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١١٩
بلاغةُ الآياتِ ١٢٠
الآيات (٣٠-٣٥) ١٢٣
غَريبُ الكَلِماتِ ١٢٣
المَعنى الإجماليُّ ١٢٤
تَفسيرُ الآياتِ ١٢٥
الفَوائِدُ التربويَّةُ ١٣٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٣٥
بلاغةُ الآياتِ ١٣٧
الآيتان (٣٦-٣٧) ١٤٢

غَريبُ الكَلِماتِ ١٤٢
المَعنى الإجماليُّ........ ١٤٢
تَفسيرُ الآيتين ١٤٣
الفَوائِدُ التربويَّةُ ١٤٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٤٧
بلاغة الآيتين........ ١٤٨
الآيات (٣٨-٤٠) ١٥١
غريب الكلمات ١٥١
المَعنى الإجماليُّ........ ١٥١
تَفسيرُ الآياتِ ١٥١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ١٥٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٥٦
بلاغة الآيات ١٥٩
الآيتان (٤١-٤٢)........ ١٦١
غَريبُ الكَلِماتِ ١٦١
مُشكِلُ الإعرابِ ١٦٢
المَعنى الإجماليُّ........ ١٦٢
تَفسيرُ الآيتينِ ١٦٣
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ١٧١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٧٣
بَلاغةُ الآياتِ ١٧٥
الآيتان (٤٣-٤٤)........ ١٧٩
غَريبُ الكَلِماتِ ١٧٩
مُشكِلُ الإعرابِ ١٧٩
المَعنى الإجماليُّ........ ١٨٠
تَفسيرُ الآيتينِ ١٨٠

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ١٨٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٨٤
بَلاغةُ الآياتِ ١٨٥
الآيات (٤٥-٤٧) ١٨٨
غَريبُ الكَلِماتِ ١٨٨
المَعنى الإجماليُّ ١٨٨
تَفسيرُ الآياتِ ١٨٩
الفَوائِد التربويَّة ١٩٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٩٦
بلاغةُ الآياتِ ١٩٧
الآيتانِ (٤٨-٤٩) ٢٠٠
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٠٠
المَعنى الإجماليُّ ٢٠٠
تَفسيرُ الآيتين: ٢٠١
الفَوائِد التربويَّة ٢٠٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٠٧
بلاغةُ الآياتِ ٢٠٩
الآيات (٥٠-٥٤) ٢١٢
غَريبُ الكَلِماتِ ٢١٢
المعنى الإجماليُّ ٢١٢
تَفسيرُ الآياتِ ٢١٣
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٢٢٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٢١
بَلاغةُ الآياتِ ٢٢٣
الآيات (٥٥-٥٩) ٢٢٩
غريبُ الكَلِماتِ ٢٢٩

مُشكِلُ الإعرابِ ٢٢٩
المعنى الإجماليُّ ٢٣٠
تَفسيرُ الآياتِ ٢٣١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٢٣٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٣٩
بلاغةُ الآياتِ ٢٤٢
الآيات (٦٠-٦٣) ٢٤٥
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٤٥
المعنى الإجماليُّ ٢٤٦
تَفسيرُ الآياتِ ٢٤٧
الفَوائِد التربويَّة ٢٥٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٥٧
بلاغة الآيات ٢٦٢
الآيات (٦٤-٦٦) ٢٦٧
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٦٧
مُشكِلُ الإعرابِ ٢٦٧
المعنى الإجماليُّ ٢٦٨
تَفسيرُ الآياتِ ٢٦٩
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٢٧٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٧٥
بلاغةُ الآياتِ ٢٧٩
الآيات (٦٧-٧١) ٢٨٢
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٨٢
المعنى الإجماليُّ ٢٨٢
تَفسيرُ الآياتِ ٢٨٣
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٢٩١

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٩٢
بلاغةُ الآياتِ ٢٩٥
الآياتُ (٧٢-٧٥) ٢٩٩
غريب الكلمات ٢٩٩
المعنى الإجماليُّ ٢٩٩
تَفسيرُ الآياتِ ٣٠٠
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٣١٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣١٥
بَلاغةُ الآياتِ ٣٢١

التفسير المحرر للقرآن الكريم

سورة التوبة

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر سابقا

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الثامن

الدرر السنية
www.dorar.net

التفسير المحرر

للقرآن الكريم

٨

ⓒ مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٣٨هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مؤسسة الدرر السنية – القسم العلمي

التفسير المحرر – سورة التوبة – المجلد الثامن/ مؤسسة الدرر السنية – القسم العلمي – الظهران، ١٤٣٨هـ

٧٠٤ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٠-٤١-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن – سورة التوبة – تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٣٨/٩٦٥

رقم الإيداع: ١٤٣٨/٩٦٥

ردمك: ٠-٤١-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م

الدرر السنية
www.dorar.net

مؤسسة الدرر السنية – المملكة العربية السعودية

ص. ب ٣٩٣٦٤ الظهران ٣١٩٤٢ – جوال: ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

ت: ٠١٣٨٦٨٠١٢٣/ فاكس: ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨ – بريد إلكتروني nashr@dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسِيرُ

سُورَةِ التوبة

سورةُ التَّوبةِ

أسماءُ السُّورةِ:

مِن أسماءِ هذه السُّورةِ(١): التَّوبةُ(٢)، وبراءةٌ(٣)، والفاضِحةُ(٤).

فعن سعيدِ بنِ جُبَيرٍ، قال: (قُلتُ لابنِ عبَّاسٍ، رَضِيَ اللهُ عنهما: سورةُ التَّوبةِ؟ قال: التَّوبةُ: الفاضِحةُ)(٥).

وعن البَراءِ رَضِيَ الله عنه، قال: (آخِرُ سُورةٍ نَزَلت سورةُ بَراءة)(٦).

وعن زيدِ بنِ ثابتٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (فتتبَّعْتُ القُرآنَ حتى وجَدْتُ آخِرَ سُورةِ التَّوبةِ مع أبي خُزيمةَ الأنصاريِّ رَضِيَ اللهُ عنه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ حتى خاتِمةِ سُورةِ البراءةِ)(٧).

---

(١) وذُكر للسُّورةِ أسماء أُخرَى، يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٣٠)، ((الإتقان)) للسيوطي (١/ ١٩٢).

(٢) وَجهُ تَسمِيَتِها بالتَّوبةِ: ذِكرُ لَفظِ التَّوبةِ فيها أكثَرَ مِن مَرَّةٍ، ولأنَّها ذَكَرَت توبةَ اللهِ تعالى على الثَّلاثةِ الذين خُلِّفوا عن غَزوةِ تَبوك. يُنظَر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٤١)، ((بصائر ذوي التميز)) للفيروزابادي (١/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٩٥).

(٣) وَجهُ تَسمِيَتِها ببراءة: ذِكرُ لَفظِ ﴿بَرَاءَةٌ﴾ في أوَّلِها، ولأنَّها ذَكَرَت البراءةَ مِن المُشرِكينَ وعُهودِهم. يُنظَر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٤١)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٩٥).

(٤) ووجهُ تسميتِها بالفاضِحةِ أنَّها فضَحت المنافقين، وأنبأتْ بما في قلوبِهم مِن الكفرِ وسوءِ النِّيَّاتِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٣٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٣١).

(٥) أخرجه البخاري (٤٨٨٢)، ومسلم (٣٠٣١).

(٦) أخرجه البخاري (٤٣٦٤)، ومسلم (٤٣٦٤).

(٧) أخرجه البخاري (٧٤٢٥).

فَضلُ السُّورةِ وخَصائصُها:

١- حَثُّ الصَّحابةِ على تعَلُّمِها:

كتب عُمَرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ الله عنه: (تعلَّمُوا سورةَ براءة، وعَلِّمُوا نساءَكم سُورةَ النُّور)(١).

٢- أنَّها مِن أواخِرِ ما نزَلَ من القرآنِ:

عن البَراءِ بنِ عازِبٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال: (آخِرُ سُورةٍ أُنزِلَت: براءة)(٢).

٣- لا يُبدأُ فيها بـ(بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ) نقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ(٣).

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سُورةُ التَّوبةِ مَدَنيَّةٌ، ونقَلَ غيرُ واحدٍ الإجماعَ على ذلك(٤).

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور في ((التفسير)) (١٠٠٣).
وثَّق رجالَه الألبانيُّ في ((سلسلة الأحاديث الضعيفة)) (٨/ ٣٣٧).

(٢) تقدَّم تخريجُه.

(٣) ممن نقَل الإجماعَ على ذلك: مكِّي، وأبو طاهرٍ المقرئُ، وابن الباذِش، وابنُ الجزري، والشِّربيني. يُنظر: ((التبصرة)) لمكي (ص ٢٤٨)، ((العنوان في القراءات السبع)) للمقرئ (ص: ٦٥)، ((الإقناع في القراءات السبع)) لابن الباذش (ص: ٥٣)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (١/ ٢٦٤)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥).
ونقَل ابنُ الباذشِ أنَّه رُوي عن أبي بكرٍ عن عاصمٍ أنَّه كان يكتبُ بينَ الأنفالِ والتوبةِ التَّسميةَ، وأنَّه يُروى ذلك عن زرٍّ عن ابنِ مسعودٍ، وأنَّه أثبَته في مصحفِه، ثم قال: (ولا يُؤخَذُ بهذا).
فائدة:
قال ابنُ كثيرٍ: (وإنَّما لا يُبسمَلُ في أوَّلِها؛ لأنَّ الصَّحابةَ لم يكتُبوا البَسملةَ في أوَّلِها في المُصحَفِ الإمامِ، والاقتداءُ في ذلك بأميرِ المُؤمِنينَ عُثمانَ بنِ عَفَّانَ، رَضِيَ اللهُ عنه وأرضاه). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٠١). ويُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٣١٤)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢٠/ ٢٧٧).

(٤) ممَّن نقَلَ الإجماعَ على ذلك القرطبيُّ، والفيروزآبادي، والبِقاعي، والقاسميُّ، ومحمد رشيد =

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ سُورةِ التَّوبةِ:

١- رسمُ المنهاجِ الذي يجبُ أن يسلكَه المؤمنون في علاقاتِهم مع المشركينَ، ومعَ أهلِ الكتابِ، ومعَ المنافقينَ(١).

٢- كشفُ الغطاءِ عن المنافقينَ وأصنافِهم وأوصافِهم، وفضحُ أفاعيلِهم في المجتمعِ المسلمِ(٢).

٣- بيانُ كثيرٍ مِن الأحكامِ والإرشاداتِ التي تحتاجُ إليها الدولةُ الناشئةُ(٣).

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ التي تناولتْها سُورةُ التَّوبةِ:

١- البَراءةُ مِن المُشرِكينَ، والأمرُ بقِتالِهم، ونبذُ عُهودِهم، ومَنعُهم من دخولِ المَسجِدِ الحرامِ، والنَّهيُ عن مُوالاتِهم، ولو كانوا ذَوي قُربى.

= رضا. يُنظَر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٦١)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٢٧)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ١٥١)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٣٤٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٣١).

لكن قال ابنُ الجوزي؛ قال: (هي مدنيَّةٌ بإجماعِهم، سوى الآيتينِ اللَّتينِ في آخِرِها ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ فإنَّها نزَلَت بمكَّةَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٣٠).

وقيل: إنَّها مَدَنيَّةٌ إلَّا قَولَه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا ...﴾. يُنظَر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٢١)، ((الإتقان)) للسيوطي (١/ ٨٨).

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٥٦٥، ١٥٦٦، ١٥٦٧)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (٦/ ١٩١)).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٤٦٦) (٢٨/ ٤٣٧)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٥٦٧)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (٦/ ١٩١).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (٦/ ١٩٣).

٢- الإشارةُ إلى وَقعةِ حَربِ حُنَينٍ، وتربيةُ نُفوسِ المؤمنينَ بِصِدقِ التَّوكُّلِ على اللهِ تعالى.

٣- إعلانُ الحَربِ على أهلِ الكِتابِ مِن العَرَبِ؛ حتى يُعطُوا الجِزيةَ، وأنَّهم ليسُوا بَعيدًا مِن أهلِ الشِّركِ، وأنَّ الجَميعَ لا تنفَعُهم قُوَّتُهم ولا أموالُهم، وتقبيحُ قَولِ اليَهودِ والنَّصارى في حَقِّ عُزَيرٍ وعِيسى عليهما السَّلامُ، وتأكيدُ رِسالةِ الرَّسولِ الصَّادِقِ المُحِقِّ، وعيبُ أحبارِ اليَهودِ في أكْلِهم الأموالَ بالباطِلِ.

٤- حُرمةُ الأشهُرِ الحُرُمِ، وضَبطُ السَّنَةِ الشَّرعيَّةِ، وإبطالُ النَّسيءِ الذي كان عند الجاهليَّةِ.

٥- الحَثُّ على الجِهادِ والنَّفيرِ العامِّ في سبيلِ اللهِ بالأموالِ والأنفُسِ، وعَدَمُ الرُّكونِ إلى الدُّنيا وزِينَتِها.

٦- نُصرةُ الله سبحانه وتعالى لنبيِّه مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وصاحِبِه الصِّدِّيقِ، وحِفظُه لهما مِن أعيُنِ الكُفَّارِ.

٧- ذِكرُ أوصافِ المُنافِقينَ، ودسائسِهم الماكِرةِ، وذِكرُ أذاهُم للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالقَولِ والفِعلِ، وأيمانِهم الكاذِبةِ، وأمرِهم بالمُنكَر ونَهيِهم عن المَعروفِ، وكَذِبِهم في عُهودِهم وسُخرَيتِهم بضُعَفاءِ المُؤمنينَ، والأمر بجِهادِهم، والنَّهي عن الاستعانةِ بهم، ونَهْيِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن الاستغفارِ لأحيائِهم، وعن الصَّلاةِ على أمواتِهم، وعَيب المُقَصِّرينَ على اعتذارِهم بالأعذارِ الباطلةِ.

٨- ذَمُّ الأعرابِ في صلابَتِهم، وتمسُّكِهم بالدِّينِ الباطِلِ، ومَدحُ بَعضِهم بصَلابَتِهم في دِينِ الحَقِّ.

٩- ذِكرُ السَّابِقينَ مِن المهاجِرينَ والأنصارِ، وفَضلِهم، وذِكرُ المُعتَرِفينَ

بِتَقصيرِهم، وقَبولِ الصَّدَقاتِ مِن الفُقَراءِ، وقَبول تَوبةِ التَّائبينَ.

١٠- ذِكرُ بِناءِ مَسجِدِ الضِّرارِ للغَرَضِ الفاسِدِ، ومَكرِ المُنافِقينَ بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابه.

١١- ذِكرُ بناءِ مَسجِدِ قُباءٍ على الطَّاعةِ والتَّقوى، وأنَّه أولى أن يقومَ فيه النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

١٢- مُبايعةُ الحَقِّ تعالى عَبيدَه باشتِراءِ أنفُسِهم وأموالِهم، ومُعاوَضتهم عن ذلك بالجنَّة.

١٣- النَّهيُ عن الاستغفارِ للمُشركينَ.

١٤- قَبولُ تَوبةِ المُتخَلِّفينَ عن غَزوةِ تَبوك.

١٥- النَّفيرُ لِطَلَبِ العِلمِ والتَّفقُّهِ في دينِ الله تعالى، وتَبليغِ الدِّينِ.

١٦- الامتنانُ على المسلمينَ بأن أرسَلَ فيهم رسولًا منهم، جَبَلَه على صِفاتٍ فيها كلُّ خَيرٍ لهم، وأمْرُ اللهِ نَبِيَّه بالتوكُّلِ عليه في جَميعِ أحوالِه.

الآيتان (١ - ٢)

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿بَرَاءَةٌ﴾: أي: تَبَرُّؤٌ وقَطعٌ للمُوالاةِ والعِصمةِ والأمانِ، وأصلُ (برء): يدلُّ على التباعُدِ مِن الشَّيءِ ومُزايَلتِه(١).

﴿فَسِيحُوا﴾: أي: فَسِيروا واذهَبُوا، وأصلُ (سيح): يدلُّ على استمرارِ شَيءٍ وذَهابِه(٢).

المعنى الإجماليُّ:

يَقولُ اللهُ تعالى: هذه بَراءةٌ مِن اللهِ ورَسولِه إلى جميعِ المُشركينَ الذين عاهَدتُموهم، أيُّها المُسلِمونَ فنقضوا عهدهم، فَسِيرُوا- أيُّها المُشرِكونَ- في الأرضِ أربعةَ أشهُرٍ- هي مدةُ الإمهالِ- أينَما شِئتُم آمِنينَ، لا يَنالُكم مِن المُسلِمينَ سُوءٌ، واعلَمُوا أنَّكم لن تُعجِزوا اللهَ، ولن تَفُوتوا مِن عِقابِه إن أرادَه بكم، واعلَمُوا أنَّ اللهَ مُذِلُّ الكافرينَ.

تَفسيرُ الآيتَين:

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٣٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢٣).

أي: هذه بَراءةٌ مِن اللهِ ورَسولِه إلى جميعِ المُشركينَ الذين عاهَدتُموهم، أيُّها المُسلِمونَ[(١)].

﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢﴾.

﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ﴾.

أي: فَسِيرُوا واذهَبُوا- أيُّها المُشرِكونَ- في أرضِ اللهِ أينَما شِئتُم، آمِنينَ مُدَّةَ أربعةِ أشهُرٍ، لا يَنالُكم فيها مِن المُسلِمينَ سُوءٌ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٠٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٤٥).
قال ابنُ جريرٍ: (العهودُ بين المُسلِمينَ والمُشركينَ على عهدِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يكُن يتولَّى عَقدَها إلَّا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أو من يَعقِدُها بأمرِه، ولكنَّه خاطَبَ المؤمنينَ بذلك لِعلمِهم بمعناه، وأنَّ عُقودَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على أمَّتِه كانت عُقودَهم؛ لأنَّهم كانوا لكُلِّ أفعالِه فيهم راضينَ، ولعقوده عليهم مُسَلِّمين، فصار عَقْدُه عليهم كعُقودِهم على أنفُسِهم؛ فلذلك قال: ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ لِمَا كان مِن عَقدِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وعَهدِه). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٠٣، ٣٠٤)، ويُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٢/ ٤٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣١٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤، ٥)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٢٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٠٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٥٠).
قال ابنُ عطية: (وأوَّلُ هذا الأجَلِ: يومُ النَّحرِ، وآخِرُه: يومُ العاشِرِ مِن ربيعٍ الآخرِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤-٥)، وممَّن اختار هذا القولَ: ابنُ تيميَّةَ، وابنُ القيِّم. يُنظر: ((أحكام أهل الذمة)) (٢/ ٨٨١-٨٨٢).
وقال الشنقيطي: (محلُّ ذلك إنَّما هو في أصحابِ العُهودِ المُطلَقةِ غيرِ المُوَقَّتةِ بوقتٍ مُعَيَّنٍ، أو من كانت مُدَّةُ عَهدِه المُوَقَّتِ أقَلَّ مِن أربعة أشهُرٍ، فتَكمُلُ له أربعةُ أشهرٍ، أمَّا أصحابُ العُهودِ المُوَقَّتةِ الباقي مِن مُدَّتِها أكثرُ مِن أربعةِ أشهُرٍ، فإنَّه يجِبُ لهم إتمامُ مُدَّتِهم). ((أضواء البيان)) (٢/ ١١٣). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٠٢).

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ﴾.

أي: واعلَمُوا- أيُّها المُشرِكونَ- أنَّكم إن اختَرْتُم الاستمرارَ على الكُفرِ في مُدَّةِ عَهْدِكم- وأنتم آمِنونَ فيها مِن المُسلِمينَ- غيرُ فائِتينَ مِن عِقابِ اللهِ إن أرادَه بكم؛ فأنتُم على أرضِه وفي سُلطانِه، وتَحتَ قُدرَتِه، فبادِرُوا بالتَّوبةِ[1].

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

أي: واعلَمُوا- أيُّها المُشرِكونَ- أنَّ اللهَ مُذِلُّ الكافرينَ في الدُّنيا والآخِرةِ[2].

الفوائِدُ التَّربويَّةُ:

قَولُه تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ فيه ضَمانٌ مِن اللهِ عزَّ وجَلَّ بِنَصرِه المُؤمِنينَ على الكافِرينَ[3].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ افتُتِحَت السُّورةُ- كما تُفتَتَحُ العُهودُ وصُكوكُ العُقودِ- بأدَلِّ كَلِمةٍ على الغَرَضِ الذي يُرادُ منها، كما في قَولِهم: هذا ما عَهِدَ به فلانٌ، وهذا ما اصطَلَحَ عليه فُلانٌ وفُلانٌ، وقَولِ المُوَثِّقينَ: باع أو وكَّل أو تزوَّجَ، وذلك هو مقتضى الحالِ في إنشاءِ الرَّسائِلِ والمواثيقِ ونَحوِها[4].

٢- قال الله تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٢٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٧٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٨).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٠٢).

الْمُشْرِكِينَ﴾ أعلَنَ اللهُ لِهَؤلاء هذه البَراءَةَ؛ لِيَأخُذوا حِذْرَهم، وفي ذلك تضييقٌ عليهم إن داموا على الشِّركِ؛ لأنَّ الأرضَ صارَت لأهلِ الإسلام، كما دلَّ عليه قولُه تعالى بَعدُ: ﴿فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾[1] [التوبة: ٣].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ لَمَّا كان الأمرُ بهذا السَّيرِ مُفرَّعًا على البراءةِ مِن العَهدِ، ومُقرِّرًا لِحُرمةِ الأشهُرِ الحُرُم؛ عُلِمَ أنَّ المُرادَ السَّيرُ بأمنٍ دُونَ خَوفٍ في أيِّ مكانٍ مِن الأرضِ، وليس هو سَيرَهم في أرضِ قَومِهم؛ دلَّ على ذلك إطلاقُ السِّياحةِ وإطلاقُ الأرضِ، فكان المعنى: فَسِيحُوا آمِنينَ حيثُما شِئتُم من الأرضِ[2].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ أنذَرَ المُعاهَدينَ في مُدَّةِ عَهدِهم، أنَّهم وإن كانوا آمِنينَ، فإنَّهم لن يُعجِزوا اللهَ ولن يَفُوتُوه، وأنَّه مَن استمَرَّ منهم على شِركِه فإنَّه لا بُدَّ أن يُخزِيَه، فكان هذا ممَّا يَجلِبُهم إلى الدُّخولِ في الإسلامِ، إلَّا مَن عاند وأصَرَّ، ولم يُبالِ بوَعيدِ اللهِ له[3].

٥- المقصودُ مِن قَولِه تعالى: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ أمورٌ: الأولُ: أن يتفكَّروا لأنفُسِهم ويَحتاطوا في هذا الأمرِ. والثاني: لئلَّا يُنسَبَ المُسلِمونَ إلى نكثِ العَهدِ. والثالث: أراد اللهُ أن يعُمَّ جميعَ المُشرِكينَ بالجهادِ، فعَمَّ الكُلَّ بالبراءةِ، وأجَّلَهم أربعةَ أشهُرٍ؛ وذلك لقُوَّةِ الإسلامِ، وتخويفِ الكُفَّارِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٨).

ولا يصِحُّ ذلك إلَّا بنَقْضِ العُهودِ. والرابع: أراد النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يحُجَّ في السَّنةِ الآتيةِ، فأمَرَ بإظهارِ هذه البَراءةِ؛ لئلَّا يُشاهِدَ العُراةَ(١).

٦- في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ لَمَّا كانت السِّياحةُ تُطلَقُ على غَيرِ السَّيرِ، حقَّقَ المعنى بِقَولِه: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾(٢).

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ لَمَّا كان الإسلامُ قد ظهَرَ بعد أن كان خَفِيًّا، وقَوِيَ بعد أن كان ضعيفًا، افتتَحَ تعالى وَعْظَهم بالكلمةِ التي تُقالُ أوَّلًا لِمَن يُرادُ تَقريعُ سَمْعِه وإيقاظُ قَلْبِه، وتَنبيهُه على أنَّ ما بَعدَها أمرٌ مُهِمٌّ، ينبغي مَزيدُ الاعتناءِ به، فقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ﴾(٣).

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

- قولُه: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ﴾ فيه إيثارُ الجُملةِ الاسميَّة على الفِعليَّة- فلم يُعبَّر بالجُملةِ الفِعليَّة، كأنْ يُقال: (قد بَرِئ اللهُ ورسولُه من الذين .. أو نحوُ ذلك)-؛ للدَّلالةِ على دَوامِ هذه البَراءةِ واستمرارِها، وللتَّوسُّل إلى تَهويلِها بالتنوينِ التَّفخيميِّ(٤).

٢- قَولُه تعالى: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ﴾ فيه تلوينُ الخِطابِ بصَرْفه عن المُسلِمينَ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٢٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٧١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٤٠).

وتَوجيهِه إلى المُشرِكينَ مع حُصولِ المقصودِ بصِيغةِ أَمْرِ الغائبِ (فَلْيَسيحوا) أيضًا؛ للمُبالغةِ في الإعلامِ بالإمهالِ حسْمًا لمادةِ تَعلُّلهم بالغفلةِ، وقطعًا لشأفةِ اعْتِذارهم بعدمِ الاستعدادِ(١)، وهو التفاتٌ من غَيْبة إلى خطابٍ، وفي ضِمنِه تهديدٌ(٢).

- وإيثارُ صيغةِ الأمرِ في قولِه: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ﴾ مع تَسنِّي إفادةِ ذلك المعنى بطريقِ الإخبارِ أيضًا- كأن يُقال مثلًا: فلكم أنْ تَسيحوا، أو نحو ذلك-؛ لإظهارِ كَمالِ القُوَّةِ والغَلَبةِ، وعَدمِ الاكْتِراثِ لهم ولاستعدادِهم، فكأنَّ ذلك أمْرٌ مَطلوبٌ منهم(٣).

- وذُكِر ﴿فِي الْأَرْضِ﴾؛ لقَصْدِ التَّعميمِ لأقطارِ الأرضِ من دارِ الإسلامِ وغيرِها(٤).

- قولُه: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ فيه وضْعُ الاسمِ الجَليلِ مَوضِعَ المُضْمَر- حيثُ لم يَقُل: (وأنَّه)-؛ لتربيةِ المهابةِ، وتَهويلِ أمْرِ الإخزاءِ، وهو الإذلالُ بما فيه فضيحةٌ وعارٌ، وإيثارُ الإظهارِ على الإضمارِ أيضًا في قولِه: ﴿مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾- حيثُ لم يَقُلْ: (وأنَّ اللهَ مُخْزيكم)-؛ لذمِّهم بالكفرِ بعدَ وصْفِهم بالإشراكِ، والإشعارِ بأنَّ عِلَّةَ الإخزاءِ هي كُفرُهم(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٤٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٦٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٤٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٤١).

الآيتان (٣ - ٤)

﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَأَذَانٌ﴾: أي: إعلامٌ، وأصلُ (أذن): يدلُّ على العِلمِ والإعلامِ[١].

﴿يُظَاهِرُوا﴾: أي: يُعاوِنوا ويُعِينوا، والظَّهيرُ: العَوْنُ، وأصلُ (ظهر): يدلُّ على قوَّةٍ وبُروزٍ[٢].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾

﴿وَرَسُولُهُ﴾: مرفوعٌ على أنَّه مَعطوفٌ على الضَّميرِ في ﴿بَرِيءٌ﴾ وجاز ذلك العَطفُ للفَصلِ بـ﴿مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾؛ فهو مسوِّغٌ للعَطفِ؛ لأنه يقومُ مقَامَ التَّوكيدِ، أو مَرفوعٌ على أنه مُبتَدأٌ، والخَبرُ مَحذوفٌ، أي: ورَسولُه بَريءٌ، وإنَّما

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢١).

حُذِفَ للدَّلالةِ عليه. وقيل غيرُ ذلك(١).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى: وهذا إعلامٌ مِن اللهِ ورَسولِه إلى جميعِ النَّاسِ مُسلِمِهم وكافِرِهم، يومَ النَّحرِ بأنَّ اللهَ بَريءٌ مِن عُهودِ المُشرِكينَ، ورسولُه كذلك بريءٌ منها، فإن تُبتُم- أيُّها المُشرِكونَ- فهو خيرٌ لكم، وإن أعرَضْتُم فاعلَمُوا أنَّكم لن تُعجِزوا اللهَ، ولن تَفُوتوا مِن عقابِه، وبَشِّرْ- يا مُحمَّدُ- الكافرينَ بعَذابٍ مُوجِعٍ.

ثمَّ استثنى اللهُ ممَّا بَرِئَ منه هو ورَسولُه مِن عُهودِ الكُفَّارِ بعضَ المُعاهَدينَ الذين عاهَدَهم المُؤمِنونَ، ثمَّ وَفَوْا بعُهودِهم مع المُؤمِنينَ، ولم ينقُصوهم شيئًا من ذلك، وأمَرَ المؤمنينَ أن يُؤَدُّوا إليهم عَهدَهم إلى أنْ تَنتهِيَ المُدَّةُ التي اتَّفَقوا عليها؛ إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُتَّقينَ الذين يَفُونَ بعُهودِهم ولا يَنقُضونَها.

تَفسيرُ الآيتَين:

﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ﴾.

أي: وهذا إعلامٌ مِنَ اللهِ ورَسولِه إلى جميعِ النَّاسِ مُسلِمِهم وكافِرِهم، يومَ

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣٢٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٦٣٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٧).

النَّحرِ[1] بأنَّ اللهَ بريءٌ من عهودِ المُشركين، ورسولُه بريءٌ منها كذلك[2].

عن حُميد بنِ عبدِ الرَّحمنِ بنِ عَوفٍ، أنَّ أبا هريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: ((بعثَني أبو بكرٍ في تلك الحَجَّةِ في مؤذِّنِينَ بَعَثَهم يومَ النَّحرِ يُؤَذِّنونَ بمِنًى: ألَّا يُحَجَّ بعد العامِ مُشرِكٌ، ولا يَطوفَ بالبَيتِ عُريانٌ، قال حُميدُ بنُ عبدِ الرَّحمنِ: ثمَّ أردَفَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعليِّ بنِ أبي طالِبٍ، وأمَرَه أن يُؤَذِّنَ ببَراءةَ، قال أبو هريرةَ: فأذَّنَ معنا عليٌّ يومَ النَّحرِ في أهلِ مِنًى ببَراءةَ، وألَّا يحُجَّ بعد العامِ مُشرِكٌ، ولا يطوفَ بالبَيتِ عُريانٌ))[3].

---

(١) قال ابنُ جريرٍ: (وأولى الأقوالِ في ذلك بالصِّحةِ عندنا: قولُ من قال: ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ يومُ النَّحرِ؛ لتَظاهرِ الأخبارِ عن جماعةٍ مِن أصحابِ رسولِ اللَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّ عَليًّا نادَى بما أرسَلَه به رسولُ اللَّه صلَّى الله عليه وسلَّم مِنَ الرِّسالَةِ إلى المشركينَ، وتَلا عليهم براءَةَ يومَ النَّحْرِ. هذا معَ الأخبارِ الَّتي ذكَرْناها عن رسولِ اللَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال يومَ النَّحْرِ: أتدرونَ أيُّ يومٍ هذا؟ هذا يومُ الحجِّ الأكبرِ. وبعدُ: فإنَّ اليومَ إنَّما يضافُ إلى معنَى الَّذي يكونُ فيه، و... يومُ الحجِّ، يومٌ يحجُّونَ فيه. وإنَّما يَحُجُّ النَّاسُ ويَقْضونَ مَناسكَهم يومَ النَّحرِ؛ لأنَّ في ليلةِ نهارِ يومِ النَّحرِ الوقوفَ بعرفةَ كان إلى طلوعِ الفجرِ، وفي صَبيحتِها يُعْمَلُ أعمالُ الحجِّ، ... والحجُّ كُلُّه يومَ النَّحرِ). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٣٦).

وقال ابنُ جرير أيضًا: (الحجُّ الأكبَرُ: الحَجُّ؛ لأنَّه أكبَرُ من العمرة؛ بزيادةِ عَمَلِه على عَمَلِها... وأمَّا الأصغَرُ فالعُمرةُ؛ لأنَّ عَمَلَها أقلُّ مِن عَمَلِ الحَجِّ). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٣٩).

وقيل في معنَى الحجِّ الأكبرِ، وسببِ تسميتِه غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٢٠، ٣٢١، ٣٣٦، ٣٣٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٤٧٦، ٤٧٧)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٠٣).

قال السعدي: (أمَرَ النَّبيُّ مُؤَذِّنَه أن يُؤذِّنَ يومَ الحَجِّ الأكبَرِ، وهو يومُ النَّحرِ، وقتَ اجتماعِ النَّاسِ مُسلِمِهم وكافِرِهم، من جميعِ جزيرةِ العَرَبِ، أن يُؤذِّنَ بأنَّ اللهَ بريءٌ ورسولُه مِن المشركينَ، فليس لهم عنده عهدٌ وميثاقٌ، فأينما وُجِدوا قُتِلوا، وقيل لهم: لا تَقرَبوا المسجِدَ الحَرامَ بعد عامِكم هذا، وكان ذلك سنةَ تِسعٍ من الهجرةِ، وحجَّ بالنَّاسِ أبو بكرٍ الصِّديقُ رضي الله عنه، وأذَّنَ ببَراءةَ- يومَ النَّحرِ- ابنُ عَمِّ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عليُّ بنُ أبي طالبٍ رَضِيَ الله عنه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٨).

(٣) رواه البخاري (٤٦٥٥) واللفظ له، ومسلم (١٣٤٧).

﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

أي: فإن تُبتُم مِن كُفرِكم - أيُّها المُشرِكونَ - فهو خيرٌ لكم في الدُّنيا والآخرةِ(١).

﴿وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾.

أي: وإن أعرَضْتُم - أيُّها المُشرِكونَ - عن الإيمانِ وطاعةِ اللهِ ورَسولِه، وثبتُّم على كُفرِكم؛ فأيقِنُوا أنَّكم غيرُ فائتينَ مِن عِقابِ اللهِ؛ فأنتم تحتَ قَهرِه وقُدرَتِه(٢).

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

أي: وبَشِّرْ - يا مُحمَّدُ - الكافِرينَ بعذابٍ مُؤلمٍ مُوجِعٍ، يُصيبُهم في الدُّنيا والآخرةِ(٣).

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أعلَمَهم اللهُ تعالى بالبَراءةِ، وبالوَقتِ الذي يؤَذَّنُ بها فيه، وكان معنى البَراءةِ منهم أنَّه لا عَهدَ لهم؛ استثنى بعضَ المُعاهَدينَ(٤)، فقال تعالى:

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٠٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٥٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٧٩).

أي: هذه البراءةُ التَّامَّةُ المُطلَقةُ مِن جَميعِ المُشرِكينَ إلَّا مَن عاهَدْتُموهم[1]- أيُّها المُؤمِنونَ- ثمَّ لم يَنقُصوكم شيئًا ممَّا عاهَدْتُموهم عليه، ولم يُعِينوا عليكم أحدًا مِن أعدائِكم[2].

﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ﴾.

أي: فأَوفُوا- أيُّها المؤمنونَ- إلى هؤلاء المُشرِكينَ، العَهدَ الذي بينكم وبَينَهم ولا تَنقُضُوه، إلى انتهاءِ المُدَّةِ التي اتَّفقتُم عليها[3].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يُحِبُّ الذين يتَّقونَه، فيَمتَثِلونَ أوامِرَه ويجتَنِبونَ مَعاصِيَه، ومن ذلك أنَّهم يُوفُونَ بعُهودِهم ولا يَنقُضونَها[4].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ التَّرغيبُ في التَّوبةِ، والإقلاعِ

---

(١) قال ابنُ كثير: (هذا استثناءٌ مِن ضَربِ مُدَّةِ التَّأجيلِ بأربعةِ أشهُرٍ، لِمَن له عهدٌ مُطلَقٌ ليس بمؤقَّتٍ، فأجَلُه أربعةُ أشهُرٍ، يسيحُ في الأرضِ، يذهَبُ فيها لينجوَ بنَفسِه حيث شاء، إلَّا مَن له عهدٌ مُؤَقَّتٌ، فأجَلُه إلى مُدَّتِه المضروبةِ التي عُوهِدَ عليها). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٤١)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٩١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٦٠).

قال الرازي: (اعلَمْ أنَّه تعالى وَصَفَهم بأمرَينِ: أحدُهما: قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ﴾ والثاني: قولُه: ﴿وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ والأقرَبُ أن يكونَ المرادُ مِن الأوَّلِ أن يُقْدِموا على المُحارَبةِ بأنفُسِهم، ومن الثَّاني: أن يُهيجُوا أقوامًا آخَرينَ ويَنصُروهم ويُرَغِّبوهم في الحَربِ). ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٢٧).

(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٦٠).

عن الشِّركِ الموجِبِ لِكَونِ اللهِ ورَسولِه مَوصُوفَينِ بالبراءةِ منه[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ علَّقَ الوَفاءَ بالعَهدِ بتَقوى اللهِ وحُبِّه سبحانَه للمُتَّقينَ؛ فجعَل هذا الوفاءَ عِبادةً لله تعالى وتَقوى يُحبُّها مِن أهلِها[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ ليس تَكرارًا لِقَولِه السَّابِق: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وذلك مِن وُجوهٍ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ المَقصودَ مِن الكَلامِ الأوَّلِ الإخبارُ بثُبوتِ البَراءةِ. والمقصودَ مِن هذا الكَلامِ إعلامُ جَميعِ النَّاسِ بما حصَلَ وثَبَت.

الوجهُ الثَّاني: أنَّ المُرادَ مِن الكلامِ الأوَّلِ البَراءةُ مِن العَهدِ. ومِن الكلامِ الثَّاني البراءةُ التي هي نقيضُ المُوالاةِ الجاريةِ مَجرى الزَّجرِ والوَعيدِ، والذي يدلُّ على حصولِ هذا الفَرقِ أنَّ في البراءةِ الأولى: بَرِيء إليهم، وفي الثَّانية: بَرِيء منهم.

الوجهُ الثَّالِثُ: أنَّه تعالى في الكَلامِ الأوَّلِ أظهَرَ البراءةَ مِن المشركينَ الذين عاهَدُوا ونَقَضوا العَهدَ، وفي هذه الآيةِ أظهَرَ البراءةَ من المُشركينَ مِن غيرِ أنْ يصِفَهم بوصفٍ مُعَيَّنٍ؛ تنبيهًا على أنَّ المُوجِبَ لهذه البراءةِ كُفرُهم وشِركُهم[٣].

٢- إضافةُ الأذانِ إلى اللهِ ورَسولِه دون المُسلِمينَ في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ﴾؛ لأنَّه تَشريعٌ وحُكمٌ في مَصالِحِ الأمَّةِ، فلا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٢٧)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٨٩).
(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٦٠١).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٢٦).

يكونُ إلَّا مِن اللهِ على لسانِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[١].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ لَمَّا كان المقصودُ الإبلاغَ الذي هو وظيفةُ الرَّسولِ، عدَّاه بحرفِ الانتهاءِ فقال: ﴿إِلَى النَّاسِ﴾ أي: كُلِّهم[٢].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ جاء بَعدَه قَولُه تعالى: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وليسَ بِتَكرارٍ؛ لأنَّ الأوَّلَ للمَكانِ، والثَّاني للزَّمانِ، وَقد تقدَّم ذِكرُهما في قَولِه تعالى: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾[٣].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ﴾ الآيةُ تدُلُّ على أنَّ العَهدَ المؤقَّتَ لا يجوزُ نَقضُه إلَّا بانتهاءِ وَقتِه، وأنَّ شَرْطَ وُجوبِ الوَفاءِ به علينا، مُحافظةُ العَدُوِّ المُعاهِدِ لنا عليه بحذافِيره؛ مِن نَصِّ القَولِ وفَحواه ولَحْنِه، فإنْ نقضَ شيئًا ما مِن شُروطِ العَهدِ، وأخَلَّ بِغَرَضٍ ما من أغراضِه، عُدَّ ناقِضًا له؛ إذ قال: ﴿ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا﴾ ولفظُ شَيءٍ أعَمُّ الألفاظِ، وهو نكرةٌ في سياقِ النَّفيِ، فيَصدُقُ بأدنى إخلالٍ بالعَهدِ[٤].

٦- مِن شُروطِ العَهدِ التي ينتقِضُ بالإخلالِ بها، عَدَمُ مُظاهرةِ أحدٍ مِن أعدائِنا وخُصومِنا علينا، قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ﴾، وقد صرَّحَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٠٨).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٧٢).
(٣) يُنظر: ((البرهان في توجيه متشابه القرآن)) للكرماني (ص: ١٣٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٣٨).

بهذا للاهتمامِ به، فهو يدخُلُ في عُمومِ ما قَبلَه[١].

بلاغةُ الآيَتين:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

- قولُه: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ عُلِّقَتِ البراءةُ بالذين عُوهِدوا من المشركينَ، وعُلِّق الأذانُ بالنَّاسِ؛ لأنَّ البَراءةَ مُختصَّةٌ بالمعاهَدين والناكِثين منهم، وأمَّا الأذانُ فعامٌّ لجميعِ النَّاسِ؛ مَن عاهَد ومَن لم يُعاهِدْ، ومَن نكَث من المعاهَدين ومَن لم يَنكُثْ[٢].

- وجاء التَّصريحُ بفعلِ البراءةِ مَرَّةً ثانيةً دونَ إضمارٍ ولا اختصارٍ- بأن يُقال: (وأذانٌ إلى النَّاس بذلك، أو بها، أو بالبراءة)- لأنَّ المقامَ مَقامُ بَيانٍ وإطنابٍ؛ لأجلِ اختلافِ أفهامِ السَّامعين فيما يَسمَعونَه؛ ففيهم الذَّكيُّ والغبيُّ، ففي الإطنابِ والإيضاحِ قَطعٌ لمعاذيرِهم، واستِقصاءٌ في الإبلاغِ لهم[٣].

- قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ بعد قوله: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ فيه التِفاتٌ من الغَيبةِ إلى الخِطابِ؛ لزِيادةِ التَّهديدِ والتَّشديدِ[٤].

- قولُه: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ جُعِل الإنذارُ بِشارةً على سَبيلِ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٣٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٤٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٠٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٤٢).

الاسْتِهزاء بهم، وفي هذا وعيدٌ عظيمٌ بما يَحِلُّ بهم[١].

- وقولُه: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أيضًا فيه تَلوينٌ للخطابِ، وصَرْفٌ له عنهم إلى رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّ البِشارةَ بعذابٍ أليمٍ، وإنْ كانتْ بطريقِ التهكُّمِ، إنَّما تليقُ بمَن يقِفُ على الأَسرارِ الإلهيَّةِ[٢].

٢- قَولُه تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾

- قولُه: ﴿ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا﴾ فيه ذِكْرُ كَلِمة ﴿شَيْئًا﴾؛ للمُبالغةِ في نفْيِ الانْتِقاصِ؛ لأنَّ كلمة (شَيء) نَكِرةٌ عامَّةٌ، فإذا وقعتْ في سِياقِ النَّفيِ أفادتِ انتفاءَ كلِّ ما يَصدُقُ عليه أنَّه موجودٌ[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ تذييلٌ في معنى التَّعليلِ للأمرِ بإتمامِ العَهدِ إلى الأجَلِ بأنَّ ذلك من التَّقوى، أي: مِن امْتِثالِ الشَّرعِ الذي أَمَرَ اللهُ به؛ لأنَّ الإخبارَ بمحبَّةِ اللهِ المتقين عقِبَ الأمرِ كنايةٌ عن كونِ المأمورِ به من التَّقوى[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٧٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٤٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١١٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيتان (٥ - ٦)

﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝٦ ﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿انْسَلَخَ﴾: أي: انقَضَى ومَضَى وخرَجَ، وأصلُ (سلخ): يدلُّ على إخراجِ الشَّيءِ عَن جِلدِه؛ مِن: سَلَخْتُ جِلدَ الشَّاةِ سَلخًا[1].

﴿وَاحْصُرُوهُمْ﴾: أي: احبِسُوهم، وامنَعوهم، وأصلُ (حصر): يدلُّ على حبسٍ ومَنعٍ[2].

﴿مَرْصَدٍ﴾: أي: طَريقٍ ومَرقَبٍ، وأصلُ (رصد): يدلُّ على التَّهيُّؤِ لمُراقَبةِ شَيءٍ على مَسلَكِه[3].

﴿فَخَلُّوا﴾: أي: اترُكوهم، ولا تتعَرَّضوا لَهُم، وأصلُ (خلو): يدلُّ على تعَرِّي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٢، ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٣٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٥).

الشَّيءِ من الشَّيءِ[١].

﴿اسْتَجَارَكَ﴾: أي: استأمَنَك، وسأَلَ جِوارَك، أي: أمانَك وذِمامَك[٢].

﴿مَأْمَنَهُ﴾: أي: دارَ قَومِه، والموضِعَ الذي يأمَنُ فيه، وأصلُ الأمنِ: يدلُّ على طُمأنينةِ النَّفسِ، وزوالِ الخَوفِ[٣].

المَعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ عِبادَه أن يَقتُلوا المُشرِكينَ في أيِّ مَكانٍ وَجَدوهم، بعد أن تَنقَضيَ الأشهُرُ الحُرُمُ، وأن يأخُذُوهم أسرَى، ويُضَيِّقُوا عليهم، ويمنعوهم مِن الانتشارِ في الأرضِ، والدخولِ إليهم، ويُحاصِرُوهم، ويَقعُدوا لِقَتلِهم وأسْرِهم بكلِّ طَريقٍ يَمُرُّونَ به، فإن تابُوا وأَدَّوُا الصَّلاةَ المفروضةَ على وَجهِها الأكمَلِ، وأعطَوُا الزَّكاةَ لِمُستحقِّيها، فأمَرَ اللهُ عبادَه المؤمنينَ أن يترُكوهم، ولا يتعَرَّضوا لهم؛ إنَّ اللهَ غَفورٌ رَحيمٌ.

ثم أمَرَ اللهُ نَبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُعطِيَ الأمانَ كُلَّ مَن أستأمَنَه مِن المُشرِكينَ الذين أُمِرَ بِقتالِهم، حتى يسمَعَ القُرآنَ، ثمَّ إنْ لم يُسلِمْ فَلْيترُكْه يرجِعْ إلى بلَدِه ودِيارِه التي يأمَنُ فيها؛ ذلك بأنَّهم قَومٌ لا يَعلمونَ.

تَفسيرُ الآيتَين:

﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٧٥)، ((غريب القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ٩٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٦).

(٣) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٩١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٢).

وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا قرَّرَ اللهُ تعالى أمْرَ البراءةِ مِن المُشركينَ إثباتًا ونفيًا؛ أمَرَ بما يُصنَعُ بعد ما ضَرَبَه لهم مِن الأجَلِ [1]، فقال تعالى:

﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾.

الناسخُ والمنسوخُ:

قيل: هذه الآيةُ منسوخةٌ بقولِه تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ [محمد: ٤]، وقيل: هي محكمةٌ [2].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٨٠).

(٢) قال النحَّاس: (للعُلَماءِ في هذه الآيةِ ثلاثةُ أقوالٍ؛ فمنهم من قال: هي منسوخةٌ، وقال: لا يحِلُّ قَتلُ أسيرٍ صَبرًا، وإنَّما يُمَنُّ عليه أو يُفادى، وقالوا: الناسِخُ لها قَولُه تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ [محمد: ٤] فمِمَّن قال هذا: الحسَنُ... وهذا قولُ الضحَّاك، والسُّدِّي... وهو قولُ عطاء... ومِن العلماءِ من قال: لا يجوز في الأُسارى من المشركين إلَّا القتلُ، ولا يجوز أن يؤخَذَ منهم فِداءٌ، ولا يُمَنُّ عليهم، وجعَلوا قولَه تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] ناسخًا لقولِه تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ [محمد: ٤] وهذا قولُ قتادة ومرويٌّ عن مجاهد... والقول الثالث: أنَّ الآيتين جميعًا مُحكَمتانِ، وهو قولُ ابنِ زيد، وهو قول صحيحٌ بيِّنٌ؛ لأنَّ إحداهما لا تنفي الأُخرَى، قال جلَّ وعز: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] أي: وخُذوهم أَسرى للقتلِ أو المَنِّ أو الفِداء، فيكونُ الإمامُ ينظرُ في أمورِ الأُسارى على ما فيه الصَّلاحُ؛ مِن القتل أو المَنِّ أو الفِداء، وقد فعل هذا كلَّه رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم في حروبِه). ((الناسخ والمنسوخ)) (ص: ٤٩٣- ٤٩٤)، ويُنظر: ((نواسخ القرآن)) لابن الجوزي (٢/ ٤٦٤-٤٦٥).

وهذه الآيةُ هي آيةُ السَّيفِ، فمن أهلِ العلمِ مَن ذهب إلى أنَّها ناسخةٌ لجميعِ الآياتِ التي فيها الصَّفحُ والكَفُّ عمَّن لم يقاتِلْ من المشركين، ومنهم من ذهب إلى أنَّها ليست ناسخةً، ولكنَّ الأحوالَ تختلفُ، فإذا قوِيَ المسلمون وصارت لهم السُّلطة والقُوَّة والهيبة استعمَلوا آيةَ السيفِ وما جاء في معناها وعمِلوا بها، وإذا ضَعُفَ المسلمون ولم يقوَوا على قتالِ الجميعِ، =

﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾.

أي: فإذا انقَضَتِ الأشهُرُ الحُرُمُ[١]، فاقتُلوا المُشرِكينَ[٢] أينَما لَقِيتُموهم من الأرضِ[٣].

= فلا بأسَ أن يقاتِلوا بحسَبِ قُدرتِهم، ويكُفُّوا عمَّن كفَّ عنهم إذا لم يستطيعوا ذلك، فيكون الأمرُ إلى وليِّ الأمرِ؛ إن شاء قاتَلَ، وإن شاء كفَّ، وإن شاء قاتَلَ قومًا دون قومٍ، على حسب القوَّة والقدرة والمصلحة للمسلمين، لا على حسَبِ هواه وشَهوتِه، ولكنْ ينظُرُ للمسلمين وينظرُ لحالهم وقوَّتِهم.

قال ابن باز: (وهذا القولُ أظهرُ وأبينُ في الدليلِ؛ لأنَّ القاعدةَ الأصوليَّةَ أنَّه لا يُصارُ إلى النسخِ إلَّا عند تعذُّرِ الجمعِ بين الأدلَّة، والجمعُ هنا غيرُ متعَذِّر). ((مجموع فتاوى ابن باز)) (٣/ ١٩٤). ويُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٢٢١).

(١) قيل: المُرادُ بالأشهُرِ الحُرُمِ: الأشهُرُ التي جعَلَها اللهُ لِلمُشركينَ يَسيحونَ في الأرضِ آمنينَ، لا يُقاتِلُهم المُسلِمونَ فيها، وأوَّلُها: يومُ إعلامِهم بالبَراءةِ؛ يوم النَّحرِ: العاشِرِ مِن ذي الحِجَّةِ مِن السَّنةِ التَّاسعةِ، وآخِرُها: العاشِرُ مِن ربيعٍ الآخر من السَّنة العاشرةِ للهجرةِ.

وممَّن اختار ذلك: ابنُ تيميةَ، وابنُ القيِّم، وابنُ كثيرٍ، والسعديُّ والشنقيطيُّ. ونسبه ابنُ تيميَّة إلى جمهورِ العلماءِ. يُنظر: ((الصفدية)) (٢/ ٣٢٠)، ((الجواب الصحيح)) (١/ ١٧٥)، ((زاد المعاد)) (٣/ ١٤٤، ١٤٥)، ((أحكام أهل الذمة)) (٢/ ٨٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٠، ١١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٩)، ((دفع إيهام الاضطراب)) (ص:١١٠).

قال الشنقيطي: (وهو قولُ ابنِ عبَّاسٍ في روايةِ العوفِيِّ عنه وبه قال مجاهدٌ وعمرُو بنُ شعيبٍ ومحمدُ بنُ إسحاقَ وقتادةُ والسُّدِّيُّ وعبدُ الرَّحمنِ بنُ زيدِ بنِ أسلمَ). ((دفع إيهام الاضطراب)) (ص:١١٠).

قال أبو حيان: (الظَّاهِرُ أنَّ هذه الأشهُرَ هي التي أُبيحَ للنَّاكثينَ أن يَسيحوا فيها، ووُصِفَت بالحُرُمِ؛ لأنَّها مُحرَّمٌ فيها القِتالُ). ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٧١).

وقيل: المرادُ بالأشهُرِ الحُرُمِ: ذو القَعدةِ وذو الحِجَّة ومُحَرَّم، والمعنى: فإذا انقضى شَهرُ مُحَرَّم فاقتلوا المُشركينَ حيث لَقِيتُموهم، وهذا اختيارُ ابن جرير، يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٤٣).

(٢) قوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ عامٌّ في كلِّ مُشرِكٍ، لكنَّ السُّنَّةَ خصَّت منه المرأةَ والراهبَ والصبيَّ وغيرَهم. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٤٢، ٣٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٧٢)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١١). =

﴿وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾.

أي: وخُذوا- أيُّها المُؤمِنونَ- الكُفَّارَ أسرَى، وضيِّقوا عليهم، وامنعوهم مِن الانتشارِ في الأرضِ، والدخولِ إليكم، وحاصِروهم إن تحَصَّنوا، واقعُدوا لِقَتلِهم أو أسْرِهم على كلِّ طَريقٍ يَمُرُّونَ منه[1].

﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾.

أي: فإن رجَعَ المُشرِكونَ عن الكُفرِ إلى الإيمانِ، وأدَّوا ما فرَضَ اللهُ عليهم من الصَّلَواتِ؛ بالإتيانِ بها على وجهِها الأكمَلِ، وأعطَوُا الزَّكاةَ مُستحقِّيها؛ فاترُكوا- أيُّها المُسلِمونَ- طَريقَهم، لا تقعُدُوا عليها، ودَعُوهم يذهبونَ حيثما يَشاؤونَ، دون أن تتعَرَّضوا لهم[2].

عن ابنِ عُمَرَ رضِيَ الله عنهما، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((أُمِرتُ أن أُقاتِلَ النَّاسَ حتى يَشهَدوا أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ مُحمَّدًا رسولُ اللهِ، ويُقيموا

= قال ابنُ كثير: (هذه الآيةُ الكريمةُ هي آيةُ السَّيفِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٢).
وقد اختلف العلماءُ في هذه الآيةِ الكريمةِ هل هي ناسخةٌ لقولِه تعالى: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ [البقرة: ١٩١] على قولين:
فذهب الجمهورُ، ومنهم ابنُ جريرٍ، إلى أنَّ آيةَ السيفِ ناسخةٌ لآيةِ البقرةِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٢٩٨)، ((الناسخ والمنسوخ)) للنحاس (ص: ١١١)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٦٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٦٦).
وقيل: الآيةُ محكمةٌ، وممن ذهَب إلى ذلك: ابنُ الجوزي- ونسَبه إلى مجاهدٍ والمحققين- والقرطبيُّ، ونسَبه لطاوس وأبي حنيفةَ وأصحابِه. يُنظر: ((نواسخ القرآن)) (١/ ٢٥١- ٢٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ٣٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٤٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٣٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٧٣، ٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٤٣، ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٧٦).

الصَّلاةَ، ويُؤتوا الزَّكاةَ، فإذا فعَلوا ذلك عَصَموا منِّي دماءَهم وأموالَهم إلَّا بحقِّ الإسلامِ، وحِسابُهم على اللهِ))[1].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: إنَّ الله غَفورٌ لِمَن تاب مِن عِبادِه، فيستُرُ ذُنوبَهم، ويتجاوَزُ عن مؤاخَذتِهم بها، رحيمٌ بهم، ومِن رَحمتِه أنْ وفَّقَهم للتَّوبةِ، وقَبِلَها منهم، ولا يُعاقِبُهم بعدها[2].

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾.

أي: وإنِ استأمَنَك- يا محمَّدُ- أحدٌ مِن المُشرِكينَ الذين أمرتُك بقِتالِهم، فأمِّنْه حتى[3] تتلوَ عليه القرآنَ، ويسمعَه، ويفهمَ ما أُنزِل عليك؛ ليكونَ على بصيرةٍ مِن أمرِه، وتقومَ عليه حُجَّةُ اللَّهِ[4].

---

(١) رواه البخاري (٢٥) واللفظ له، ومسلم (٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٧٨).

(٣) ذهب بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنَى (إلى)، أي: إلى أن يَسمَعَ كلامَ الله تعالى. ومنهم: الزجَّاج، وابن عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن)) (٢/ ٤٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١١٩).

وبعضُهم جعَلَها للتَّعليلِ. أي: لكي يسمَعَ كلامَ الله تعالى. ومنهم: ابن جرير، والقرطبي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٩).

قال الرازي: (ليس في الآيةِ ما يدُلُّ على أنَّ مِقدارَ هذه المُهلةِ كم يكونُ، ولعَلَّه لا يُعرَفُ مِقدارُه إلَّا بالعُرفِ، فمتى ظهَرَ على المُشرِك علاماتُ كَونِه طالِبًا للحَقِّ، باحثًا عن وجهِ الاستدلالِ، أُمهِلَ وتُرِكَ، ومتى ظهَرَ عليه كونُه مُعرِضًا عن الحَقِّ، دافعًا للزَّمانِ بالأكاذيبِ، لم يُلتَفَتْ إليه. والله أعلم). ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٤٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٣١)، ((تفسير =

﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾.

أي: ثم إنْ لم يُسلِمْ، فاترُكْه يرجِعْ إلى بلَدِه ودِيارِه التي يأمَنُ فيها(١).

= القرطبي)) (٨/ ٧٥)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (١/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٩).

قال ابن عاشور: (لم يُبَيِّنْ سبَبَ الاستجارةِ؛ لأنَّ ذلك مُختلِفُ الغَرَضِ، وهو موكولٌ إلى مقاصِدِ العُقَلاءِ؛ فإنَّه لا يستجيرُ أحَدٌ إلَّا لغَرَضٍ صحيحٍ. ولمَّا كانت إقامةُ المُشرِك المستجيرِ عند النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسلامُ لا تخلو من عَرْضِ الإسلام عليه، وإسماعِه القُرآنَ- سواءٌ كانت استجارتُه لذلك أم لِغَرَضٍ آخَرَ؛ لِما هو معروفٌ من شأنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن الحِرصِ على هُدَى النَّاسِ- جُعِل سَماعُ هذا المُستجيرِ القُرآنَ غايةً لإقامَتِه الوقتيَّةِ عند الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فدلَّت هذه الغايةُ على كلامٍ محذوفٍ إيجازًا، وهو ما تشتَمِلُ عليه إقامةُ المستجيرِ مِن تفاوُضٍ في مُهِمٍّ، أو طلَبِ الدُّخولِ في الإسلامِ، أو عَرْضِ الإسلام عليه، فإذا سَمِعَ كَلامَ الله فقد تمَّت أغراضُ إقامَتِه؛ لأنَّ بَعضَها من مَقصِدِ المُستجيرِ وهو حَريصٌ على أن يبدأ بها، وبعضَها مِن مَقصِدِ النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وهو لا يترُكُه يعودُ حتى يعيدَ إرشادَه، ويكونَ آخِرَ ما يدورُ معه في آخِرِ أزمانِ إقامَتِه إسماعُه كلامَ اللهِ تعالى). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١١٨، ١١٩).

وقال ابن كثير: (ومِن هذا كان رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُعطي الأمانَ لِمَن جاءَه مُسترشِدًا أو في رسالةٍ، كما جاءَه يومَ الحُدَيبيَةِ جماعةٌ مِن الرُّسُلِ مِن قُريشٍ؛ منهم: عُروةُ بن مسعودٍ، ومِكْرَزُ بنُ حَفصٍ، وسُهيلُ بنُ عَمرٍو، وغيرُهم واحدًا بعد واحِدٍ، يتردَّدونَ في القضيَّةِ بينه وبين المشركين، فرَأَوْا من إعظامِ المُسلِمينَ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما بَهَرَهم، وما لم يُشاهِدوه عند مَلِكٍ ولا قَيصرٍ، فرَجَعوا إلى قَومِهم فأخبَرُوهم بذلك، وكان ذلك وأمثالُه من أكبَرِ أسبابِ هِدايةِ أكثَرِهم... والغرَضُ أنَّ مَن قَدِمَ من دار الحَربِ إلى دار الإسلامِ في أداءِ رِسالةٍ أو تجارةٍ، أو طلَبِ صُلحٍ أو مُهادنةٍ، أو حمْلِ جِزيةٍ، أو نحوِ ذلك من الأسبابِ، فطَلَبَ مِنَ الإمامِ أو نائِبِه أمانًا؛ أُعطِيَ أمانًا ما دام متردِّدًا في دار الإسلامِ، وحتى يرجِعَ إلى مأمَنِه ووطَنِه. لكِن قال العلماءُ: لا يجوزُ أن يُمكَّنَ مِن الإقامةِ في دارِ الإسلامِ سَنةً، ويجوزُ أن يُمكَّنَ من إقامةِ أربعةِ أشهُرٍ، وفيما بين ذلك فيما زاد على أربعةِ أشهُرٍ ونقَصَ عن سنةٍ قولانِ، عن الإمامِ الشافعيِّ وغيرِه من العُلَماءِ- رَحِمَهم الله). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٣- ١١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٣).

قال ابنُ عاشور: (معنى ﴿أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ أمْهِلْه ولا تُهيِّجْه، حتى يبلُغَ مأمَنَه، فلمَّا كان تأمينُ النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إيَّاه سببًا في بلوغِه مأمَنَه، جعَلَ التأمينَ إبلاغًا، فأمر به النبيَّ عليه الصَّلاةُ =

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾.

أي: أعطِ- يا مُحَمَّدُ- المُشركينَ الأمانَ، حتى يسمَعُوا القرآنَ؛ مِن أجلِ أنَّهم قومٌ جَهَلةٌ لا يَعلمونَ دِينَ اللهِ وثَوابَه وعِقابَه، فيحصُلَ لهم العِلمُ بِسَماعِه، وتقومَ عليهم حُجَّةُ الله على عبادِه[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ عمَّ جميعَ المُشرِكينَ، وعمَّ البِقاعَ والأماكِنَ مِن حِلٍّ وحَرَمٍ إلَّا ما خصَّصَتْه الأدلَّةُ مِن الكِتابِ والسُّنَّةِ[2].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ فيه أنَّه يجوزُ الأسْرُ بَدَلَ القَتلِ، والتَّخييرُ بينهما[3].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ فيه جوازُ حِصارِهم والإغارةِ عليهم وبَياتِهم[4].

٤- كلمةُ (كُلَّ) في قَولِ الله تعالى: ﴿وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ مُستعملةٌ في تعميمِ المراصِدِ المظنونِ مُرورُهم بها؛ تحذيرًا للمُسلِمينَ مِن إضاعَتِهم الحراسةَ في المراصِدِ، فيأتيَهم العدُوُّ منها، أو مِن التَّفريطِ في بعضِ مَمارِّ العَدُوِّ،

= والسَّلامُ، وهذا يتضمَّنُ أمرَ المُسلِمينَ بألَّا يتعرَّضوا له بسوءٍ حتى يبلُغَ بلادَه التي يأمَنُ فيها، وليس المرادُ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يتكلَّفُ تَرحيلَه، ويبعَثُ مَن يُبلِّغُه، فالمعنى: اترُكْه يبلغْ مَأمَنَه. ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٤٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١١٥).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٣٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فينطلِقَ الأعداءُ آمنين فيَستخِفُّوا بالمُسلمينَ، ويتَسامَعَ جماعاتُ المُشرِكينَ أنَّ المُسلِمينَ ليسُوا بِذَوي بأسٍ ولا يَقَظةٍ، فيؤُولُ معنى (كُلَّ) هنا إلى معنى الكَثرةِ؛ للتَّنبيهِ على الاجتهادِ في استقصاءِ المراصِدِ[١].

٥- التعبيرُ بالقُعودِ في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ للإرشادِ إلى التأنِّي[٢].

٦- في الترصُّدِ والاستقرارِ والتمَكُّنِ وإيصالِ الفِعلِ إلى الظَّرفِ في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾؛ إشارةٌ إلى أن يشغَلوا في الترصُّدِ كُلَّ جُزءٍ مِن أجزاءِ كُلِّ مَرصدٍ، إن قَدَروا على ذلك، بخلافِ ما لو عبَّرَ بـ(في كُلِّ مَرصدٍ) فإنَّه إنما يدلُّ على شغلِ كُلِّ مَرصدٍ الصَّادِقُ بالكَونِ في موضعٍ واحدٍ منه، أيُّ موضعٍ كان[٣].

٧- الأمرُ في قولِه: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ للإذنِ والإباحة باعتبارِ كلِّ واحدٍ من المأموراتِ على حِدَةٍ، أي: فقد أُذِن لكلٍّ في قتْلِهم وفي أخْذِهم، وفي حِصارِهم، وفي مَنْعِهم مِنَ المرورِ بالأرضِ الَّتي تحتَ حكمِ الإسلامِ، وقدْ يَعْرِضُ الوجوبُ إذا ظَهَرتْ مصلحَةٌ عَظيمَةٌ[٤].

٨- قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ هذه الآيةُ دالَّةٌ على أنَّ مَن قال: قد تُبتُ، أنَّه لا يُجتزَأُ بقَولِه حتى ينضافَ إلى ذلك أفعالُه المُحقِّقَةُ للتَّوبةِ؛ لأنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ شَرَطَ هنا مع التَّوبةِ إقامَ الصَّلاةِ وإيتاءَ الزَّكاةِ؛ ليُحَقِّقَ بهما التَّوبة. وقال في آيةِ الرِّبا: ﴿وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١١٥).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٨١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١١٥).

[البقرة: ٢٧٩]. وقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا﴾[١] [البقرة: ١٦٠].

٩- في قولِه تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ دلالةٌ على أنَّ التوبةَ مِن الشركِ تُسمَّى توبةً، كما تُسمَّى مِن الذنبِ؛ لأنَّ معناها الرجوعُ عما كان عليه[٢].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ لم يُكتَفَ في تخليةِ السَّبيلِ بالتَّوبةِ مِن الشِّركِ، حتى يُقيمُوا الصَّلاةَ ويُؤتُوا الزَّكاةَ، فاستدَلَّ به من قال بقَتلِ تارِكِ الصَّلاةِ، وقتالِ مانِعِ الزَّكاةِ، واستدَلَّ به من قال بتكفيرِهما[٣].

١١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ الآيةُ تُفيدُ دَلالةَ إقامةِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ، على الإسلامِ، وتوجِبُ لِمَن يُؤدِّيهما حُقوقَ المُسلمينَ؛ مِن حِفظِ دَمِه ومالِه، إلَّا بما يُوجِبُه عليه شَرعُه من جنايةٍ تقتضي حدًّا مَعلومًا، أو جريمةٌ تُوجِبُ تَعزيرًا أو تغريمًا[٤].

١٢- قولُه تعالى: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فيه لطيفةٌ، وهو أنَّه تعالى ضيَّقَ عليهم جميعَ الخَيراتِ، وألقاهم في جميعِ الآفاتِ، ثم بيَّنَ أنَّهم لو تابوا عن الكُفرِ، وأقاموا الصَّلاةَ، وآتَوُا الزَّكاةَ، فقد تخلَّصوا عن كلِّ تلك الآفاتِ في الدُّنيا، فنرجو مِن فَضلِ اللهِ أن يكونَ الأمرُ كذلك يومَ القيامةِ[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٧٥).
(٢) يُنظر: ((النُّكتُ الدّالّة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٤٨٠).
(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٣٨)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٢٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٥٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٢٩).

١٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ يدلُّ على أنَّ المقصودَ مِن شَرعِ القتلِ قَبولُ الدِّينِ، والإقرارُ بالتَّوحيدِ(١).

١٤- الخطابُ بِقَولِه: ﴿اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾ يدلُّ على أنَّ أمانَ السُّلطانِ جائزٌ(٢).

١٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ فيه إشارةٌ إلى وجوبِ الدَّعوةِ قبل القِتالِ(٣).

١٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ فيه حُجَّةٌ صَريحةٌ لِمَذهَبِ أهلِ السنَّةِ والجماعةِ، القائلينَ بأنَّ (القُرآنَ كَلامُ اللهِ غيرُ مَخلوقٍ)؛ لأنَّه تعالى هو المتكَلِّمُ به، وأضافه إلى نفسِه إضافةَ الصِّفةِ إلى موصوفِها، وبُطلانُ مذهَبِ المُعتَزلةِ ومَن أخذَ بِقَولِهم: إنَّ القُرآنَ مَخلوقٌ(٤).

١٧- قولُه تعالى: ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ نصٌّ صريحٌ في أنَّ هذا الذي نَقرؤُه ونَتلُوه، هو بِعَينِه كلامُ الله، فالصَّوتُ صَوتُ القارِئِ، والكلامُ كَلامُ البارِئِ؛ لأنَّ اللهَ صرَّح بأنَّ هذا المُشرِكَ المُستجيرَ يَسمَعُ كَلامَ اللهِ، يتلوه عليه نبيُّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. فهذا المحفوظُ في الصُّدورِ، المقروءُ في الألسِنةِ، المكتوبُ في المصاحِفِ؛ هو كلامُ اللهِ جَلَّ وعلا، بمعانيه وألفاظِه(٥).

١٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ في الكلامِ تَنويهٌ بمعالي

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٢٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٧٥).
(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٣٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٢٩).
(٥) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٨٠).

أخلاقِ المُسلِمينَ، وغَضٌّ من أخلاقِ أهلِ الشِّركِ، وأنَّ سبَبَ ذلك الغَضِّ الإشراكُ الذي يُفسِدُ الأخلاقَ؛ ولذلك جُعِلوا (قومًا لا يَعلمونَ) دونَ أن يُقالَ (بأنَّهم لا يَعلمونَ)؛ للإشارةِ إلى أنَّ نَفيَ العِلمِ مُطَّرِدٌ فيهم، فيشيرُ إلى أنَّ سبَبَ اطِّرادِه فيهم هو نَشأتُه عن الفِكرةِ الجامعةِ لأشتاتِهم، وهي عقيدةُ الإشراكِ(١).

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ فيه وضْعُ المُظهَرِ مَوضِعَ المُضمَرِ -حيثُ لم يَقُل: (فإذا انسلخَتْ فاقْتُلوا...)-؛ ليكون ذريعةً إلى وَصْفِها بالحُرمةِ؛ تأكيدًا لِمَا يُنبِئ عنه إباحةُ السِّياحةِ من حُرْمةِ التعرُّضِ لهم، مع ما فيهِ من مَزيدِ الاعتناءِ بشأنِها(٢).

- قولُه: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ هذا المُركَّبُ مُستَعمَلٌ هنا تَمثيلًا في عدمِ الإضرارِ بهم ومُتاركتِهم(٣)، وهو كِنايةٌ عن الكفِّ عنهم، وإجرائِهم مجرَى المسلمين في تصرُّفاتهم حيثُما شاؤوا(٤).

- قولُه تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيثُ قال تعالى هنا في سُورةِ التوبةِ: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٢٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٤٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١١٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٧٣).

الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾، وقال بَعدَه في التَّوبةِ أيضًا: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾؛ فالشَّرطُ فيهما واحدٌ، لكنِ اختَلَف الجوابُ؛ ووجهُ هذه المُناسَبةِ أنَّ قولَه: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ ورَدَ بعدَ الأمْرِ بقَتلِ المشركين؛ فناسَبَ أن يكونَ جوابُ الشرطِ فيها الأمرَ بتَرْكِه، وهو قوله تعالى: ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾، أمَّا قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾، فورَدَ بعدَ إثباتِ رُسوخِ المشركين في كُفرِهم وضَلالِهم، وصَدِّهم عن سَبيلِ الله، وكونِه هو الباعثَ لهم على قِتالِ المؤمنِينَ ابتداءً، ثم على نَقْضِ عُهودِهم؛ فناسَبَ أنْ يُذكَرَ في جوابِ شَرطِها ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾؛ لأنَّ هذِه أجلبُ لقُلوبِهم، وأشدُّ استمالةً لهم إلى الإسلامِ[1].

- وجُملةُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ تذييلٌ أُريدَ به حثُّ المسلِمينَ على عَدمِ التعرُّضِ بالسُّوءِ للذين يُسْلِمونَ من المُشركينَ، وعدَم مُؤاخذتِهم لِمَا فَرَط منهم؛ فالمعنى: اغْفِروا لهم؛ لأنَّ الله غَفَر لهم، وهو غَفورٌ رحيمٌ[2].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ عطْفٌ على جملةِ: ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾؛ لتَفصيلِ مَفهومِ الشَّرْطِ، أو عطْفٌ على جُملة ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾؛ لتَخصيصِ عُمومِه، أي: إلَّا مُشرِكًا استجارَك لمصلحةٍ؛ للسِّفارةِ عن قَومِه، أو لمعرفةِ شرائعِ الإسلامِ، وصِيغَ الكلامُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٢٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١١٧).

بطَرِيقةِ الشَّرْطِ؛ لتأكيدِ حُكْمِ الجوابِ، وللإشارةِ إلى أنَّ الشأنَ أنْ تقَعَ الرَّغبةُ في الجِوارِ مِن جانبِ المشركين[1].

– وجِيءَ بحرْفِ (إن) التي شأنُها أنْ يكونَ شَرْطُها نادرَ الوقوعِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ هذا شَرْطٌ فَرْضيٌّ؛ لكيلَا يزعمَ المشرِكون أنَّهم لم يَتمكَّنوا من لِقاءِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فيتَّخِذوه عُذرًا للاستمرارِ على الشِّركِ إذا غَزاهُم المسلِمون[2].

– وجِيءَ بلَفْظِ ﴿أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ دونَ لِفْظِ (مُشْرِكٍ)؛ للتَّنصيصِ على عُمومِ الجِنْسِ[3].

– وتَقديمُ ﴿أَحَدٌ﴾ على ﴿اسْتَجَارَكَ﴾؛ للاهْتِمامِ بالمُسنَدِ إليه؛ ليكونَ أوَّلَ ما يَقرعُ السَّمعَ، فيَقع المُسنَدُ بعدَ ذلك من نَفْسِ السَّامعِ مَوقِعَ التمكُّنِ[4].

– وجُملةُ: ﴿ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ في مَوضِعِ التَّعليلِ؛ لتأكيدِ الأَمْرِ بالوَفاءِ لهم بالإجارةِ إلى أن يَصِلوا دِيارَهم؛ فلذلك فُصِلتْ عن الجُملةِ التي قَبْلها، ولم تُعطَف عليها[5].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١١٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ١١٨).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ١٢٠).

الآيتان (٧ - ٨)

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا الَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ فَمَا اسْتَقَٰمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿يَرْقُبُوا﴾: أي: يَحفَظُوا ويُراعُوا، وأصلُ (رقب): يدلُّ على انتصابٍ لِمُراعاةِ شَيءٍ[1].

﴿إِلًّا﴾: الإلُّ: الحِلْفُ والقَرابةُ والعهد والعقد، ويأتي أيضًا بمعنى الله، وأصلُ (ألل) هنا يدلُّ على السَّبَبِ يُحافَظُ عليه[2].

﴿ذِمَّةً﴾: الذِّمَّةُ: العَهدُ والمِيثاقُ، وما يجِبُ أن يُحفَظَ ويُحمى، وأصلُ (ذمم): خلافُ الحَمدِ، وسُمِّي العَهْدُ ذِمامًا؛ لأنَّ الإنسانَ يُذَمُّ على إضاعتِه منه[3].

المعنى الإجماليُّ:

يقول الله تعالى: كيف يكونُ للمُشرِكينَ عهدُ أمانٍ عندَ اللهِ وعندَ رَسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم؟ هذا أمرٌ مُستبعَدٌ، إلَّا الذينَ عاهَدْتُم- أيُّها المُؤمِنونَ-

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٢٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٥٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٥٥- ٣٥٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٤٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٧٥).

عند المسجِدِ الحرامِ يومَ الحُدَيبيَة، فما دامُوا مُستقيمينَ لكم على ما تعاهَدْتُم عليه، فاستَقيموا لهم كذلك، إلى انتهاءِ مُدَّةِ العَهدِ، ولا تَبدَؤُوهم بنَقضِه؛ إنَّ اللهَ يُحِبُّ المتَّقينَ.

كيف يكونُ للمُشرِكينَ عَهدُ أمانٍ، وهم إن يغلِبُوكم- أيُّها المُؤمِنونَ- لا يَرحَموكم، ولا يُراعُوا فيكم اللهَ ولا قَرابةً ولا عَهدًا؟ يقولونَ لكم بألسِنَتِهم كلامًا طيِّبًا يُرضِيكم، ولكِنَّ قُلوبَهم تَمتنِعُ أن تُوافِقَ ما يتكَلَّمونَ به، وأكثَرُهم فاسِقونَ.

تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا قال تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، وقال: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، وقال: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ فلعلَّ بعضَ قبائِلِ العَرَبِ مِنَ المشركينَ يتعجَّبُ مِن هذه البراءةِ، ويسألُ عن سَبَبِها، وكيف أُنهِيَت العُهودُ، وأُعلِنَتِ الحَربُ؟! فكان المقامُ مقامَ بيانِ سَبَبِ ذلك، والحِكمةِ المُوجِبةِ لِأن يتبَرَّأَ اللهُ ورَسولُه مِن المُشرِكينَ، وأنَّه حُكمٌ واقعٌ في مَحلِّه، وأنَّ نَبْذَ العُهودِ إلى المُشرِكينَ أمرٌ في غايةِ الإحكامِ والصَّوابِ(١).

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ﴾.

أي: كيف يكونُ للمُشرِكينَ برَبِّهم عهدُ أمانٍ عندَ اللهِ وعندَ رَسولِه مُحمَّدٍ صلَّى

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٩).

اللهُ عليه وسلَّم؟! هذا أمرٌ مُستبعَدٌ؛ فهؤلاءِ قَومٌ يُضمِرونَ الغَدرَ، والواجبُ على المؤمنينَ قَتلُهم أينَما وَجَدُوهم؛ لِكُفرِهم باللهِ ورسولِه، ومُحارَبتِهم أولياءَه[١].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾.

أي: لا ينبغي أن يكونَ للمُشرِكينَ عَهدٌ يأمَنونَ به عَدا الذينَ عاهَدْتُموهم[٢]- أيُّها المُؤمِنونَ- يومَ الحُدَيبيَةِ عند المسجِدِ الحرامِ، وهم مُوفُونَ بعَهدِهم، مُستقيمونَ عليه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٤٩، ٣٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٨٥).
وقال الشنقيطي: (المعنى: أنَّ نَبذَ عُهودِهم إليهم حُكمٌ في غايةِ الصَّوابِ، واقِعٌ في موقِعِه، موضوعٌ في موضِعِه؛ لأنَّهم أهلُ خُبث، وأهلُ عَداوةٍ ومكرٍ للإسلام، يستحِقُّونَ نَبذَ عُهودِهم إليهم، وأن يكونوا حَربًا، إلَّا الطَّائفةَ الذين ثَبَتوا. وهذا معنى قَولِه: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ يأمنونَ به على أنفُسِهم وأموالِهم ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ يأمُرُ نَبيَّه بالوفاء به ﴿وَعِنْدَ رَسُولِهِ﴾ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يعمَلُ لهم بمُقتضاه). ((العذب النمير)) (٥/ ٢٨٥).
(٢) قال ابنُ إسحاق: (هي قبائِلُ بني بكرٍ، الذين كانوا دخَلُوا في عقدِ قُريشٍ وعَهدِهم يومَ الحُدَيبيَة إلى المدَّةِ التي كانت بين رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وبين قُريش، فلم يكن نَقَضَها إلا هذا الحيُّ من قريشٍ وبنو الديل من بكر، فأُمِرَ بإتمامِ العهد لِمَن لم يكن نقَضَ عَهْدَه من بني بكرٍ إلى مُدَّتِه). رواه ابن جرير (١١/ ٣٥١). يُنظر: ((سيرة ابن هشام)) (٢/ ٥٤٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٥٣، ٣٥٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٠١ - ٣٠٣).
وقال الشنقيطي: (أربعُ قبائِلَ مِن كِنانةَ بنِ مُدرِكةَ كانوا أهلَ عَهدٍ مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مع قريشٍ، ثم نقض العهدَ منهم بنو الدِّيلِ بنِ بكرِ بنِ عبدِ مَناةَ بن كِنانةَ، بأن عَدَوْا على خُزاعةَ، ونقَضَ معهم قريشٌ؛ حيث أعانوهم على الخُزاعيِّينَ، وبَقِيَ بنو ضَمْرةَ، وبنو جُذَيمةَ بنِ عامرٍ، وبنو مُدلجٍ على عهدِهم، لم ينقُضوا، وهم الذين استَثْناهم اللهُ، وهذه المُعاهدةُ وقع عهدُها في الحُدَيبيَةِ كما عليه جَميعُ المؤرِّخينَ. والله جلَّ وعلا ذكَرَ أنَّها في المسجِدِ الحرام، والتَّحقيقُ أنَّ الحُدَيبيَةَ بعضُها في الحِلِّ وبعضُها في الحرم. وهذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّ مُعاهَدةَ الحُدَيبيَةِ وقعت في الطَّرَف منها الذي هو مِن الحَرَمِ؛ لأنَّه جرت العادةُ أنَّ الله ربما أطلق المسجِدَ الحَرامَ وأراد به جميعَ الحَرَمِ، فالمرادُ به هنا: إلَّا الذين عاهَدْتم في حَرَمِ اللهِ عند الحُدَيبيَةِ). ((العذب النمير)) (٥/ ٢٨٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) =

﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾.

أي: فما دامَ المُشرِكونَ مُستَقيمينَ لكم- أيُّها المُؤمِنونَ- على ما تعاهَدْتُم عليه، متمسِّكينَ بما عاقَدْتُموهم عليه، فاستَقيموا لهم كذلك إلى انتهاءِ مُدَّةِ العَهدِ، وأوْفُوا لهم بعهدِهم، ولا تَبدَؤُوهم بنَقضِه[1].

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يُحِبُّ الذين يتَّقونَ اللهَ، فيَمتَثِلونَ أوامِرَه، ويجتَنِبونَ نَواهِيَه، ومن

= (ص: ٣٢٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٨٥، ٢٨٦).

قال ابنُ القيم: (هؤلاءِ- والله أعلم- هم المُستَثنَونَ في تلك الآية، وهم الذين لهم عَهدٌ إلى مُدَّةٍ؛ فإنَّ هؤلاء لو كان عَهدُهم مُطلقًا لَنُبِذَ إليهم، كما نُبِذَ إلى غيرهم، وإن كانوا مُستقيمين كافِّينَ عن قتاله، فإنَّه نُبِذَ إلى جميعِ المشركين؛ لأنه لم يكن لهم عَهدٌ مُؤجَّلٌ يستحِقُّونَ به الوفاءَ، وإنَّما كانت عهودُهم مُطلقةً غيرَ لازمةٍ، كالمُشاركة، والوَكالة، وكان عهدُهم لأجل المصلحة، فلمَّا فَتَحَ اللهُ مكَّةَ، وأعزَّ الإسلامَ، وأذلَّ أهلَ الكُفرِ، لم يبقَ في الإمساكِ عن جِهادِهم مصلحةٌ، فأمَرَ اللهُ به، ولم يأمُرْ به حتى نَبَذَ إليهم على سواءٍ؛ لِئَلَّا يكون قتالُهم قبل إعلامِهم غَدرًا). ((أحكام أهل الذمة)) (٢/ ٨٨٤).

وقال أيضًا: (النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم أرسل أبا بكرٍ، وأردَفَه بعليٍّ رَضِيَ الله عنهما يؤذِّنُ بسورةِ «براءة»، فنبذ العهودَ إلى جميعِ المُشركينَ مُطلقًا، لم ينبِذْها إلى مَن نقَضَ دونَ مَن لم ينقُضْ. وأيضًا فالقرآنُ نبَذَها إلى المشركين، وإنَّما استثنى مَن كان له مُدَّةٌ ووفاءٌ، فمن كان فيه هذانِ الشَّرطانِ لم يُنبَذْ إليه. وأيضًا فإنَّه سُبحانه قال: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ [التوبة: ٧] فجعل نَفسَ الشِّركِ مانعًا مِن العَهدِ إلَّا الذين لهم عَهدٌ مُؤقَّتٌ، وهم به مُوفونَ). ((أحكام أهل الذمة)) (٢/ ٨٨٧).

وقال ابنُ عاشور: (ليس المرادُ كُلَّ مَن عاهد عند المَسجِدِ الحرامِ كما قد يتوهَّمُه المتوهِّمُ؛ لأنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يكُنْ مأذونًا بأنْ يُعاهِدَ فريقًا آخَرَ منهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٥٠، ٣٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٨٧).

ذلك أنَّهم يُوفُونَ بالعُهودِ، ولا يَغدِرونَ[١].

﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا أنكَرَ سُبحانَه أن يكونَ للمُشرِكينَ غَيرِ المُستَثنَينَ عَهدٌ؛ بيَّن السَّبَبَ المُوجِبَ للإنكارِ[٢]، فقال تعالى:

﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾.

أي: كيفَ يكونُ للمُشرِكينَ عَهدُ أمانٍ، والحالُ أنَّهم إن يغلِبُوكم- أيُّها المُؤمِنونَ- لا يَرحَموكم، ولا يُراعُوا فيكم اللهَ، ولا قَرابةً، ولا عَهدًا[٣]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٥٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٠٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٥٤، ٣٥٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٩/ ١٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٢٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٨٨-٢٨٩).

وممَّن ذهب إلى أنَّ الإلَّ هنا بمعنى القَرابةِ، والذِّمَّةَ بمعنى العَهدِ: الواحديُّ، وابنُ تيمية، وابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((الوسيط)) (٢/ ٤٧٩)، ((مجموع الفتاوى)) (٢٩/ ١٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٥).

وممَّن قال مِن السَّلَفِ بأنَّ الإلَّ هي القرابةُ: ابنُ عبَّاسٍ، والضحَّاك، والسُّدِّي، ومقاتل. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ١٧٥٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٥٥، ٣٥٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٣٨).

وممَّن قال مِن السَّلَفِ بأنَّ الذِّمَّةَ هي العَهدُ: ابنُ عبَّاسٍ، والضحَّاك في أحدِ قولَيه، وسعيدُ بن جُبير، وقتادة، ومجاهدٌ في إحدى الرِّوايات عنه. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ١٧٥٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٥٥، ٣٥٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٣٩).

وقال ابنُ جريرٍ: (والإلُّ: اسمٌ يشتَمِلُ على معانٍ ثلاثةٍ: وهي العَهدُ والعَقدُ، والحِلفُ، والقَرابةُ، وهو أيضًا بمعنى (الله). فإذ كانت الكَلِمةُ تَشمَلُ هذه المعانيَ الثَّلاثةَ، ولم يكُنِ اللهُ خَصَّ =

﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ سُبحانَه حالَهم مع المُؤمِنينَ إن ظَهَروا عليهم، ذَكَرَ حالَهم معهم إذا كانوا غيرَ ظاهِرينَ، فقال تعالى[1]:

﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾.

أي: يَقولُ لكم المُشرِكونَ بألسِنَتِهم كلامًا طَيِّبًا يُرضيكم- أيُّها المُؤمِنونَ- لكِنَّ قُلوبَهم تمتَنِعُ أن تُوافِقَ ما يَنطِقونَ به؛ فهي مُنطَوِيةٌ على بُغضِكم وعَداوَتِكم، والامتناعِ عَن محبَّتِكم، والدُّخولِ في دِينِكم[2].

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ * هَاأَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا

= من ذلك معنًى دونَ معنًى، فالصَّوابُ أن يَعُمَّ ذلك، كما عَمَّ بها جَلَّ ثَناؤُه معانيَها الثَّلاثةَ، فيُقال: لا يَرقُبونَ في مؤمِنٍ اللهَ، ولا قرابةً، ولا عهدًا ولا ميثاقًا). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٥٨).

وقال الشِّنقيطي عن اختيارِ ابنِ جَريرٍ: (وهذا الذي ذهَبَ إليه هو مِن حَملِ المُشتَرَكِ على مَعانيه، وحَملُ المُشتَرَكِ على مَعنَيَيه أو مَعانيه، ممَّا اختلفَ فيه علماءُ الأصولِ، والذي حرَّرَه المُحَقِّقونَ مِن أصوليِّي أصحابِ المذاهِبِ الأربعةِ: هو جوازُ حَملِ المُشتَرَكِ على مَعنَيَيه أو معانيه). ((العذب النمير)) (٥/ ٢٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٥٩)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٣٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٧٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٩٤).

يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [آل عمران: ١١٨-١٢٠].

﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَسِقُونَ ﴾.

أي: وأكثَرُ أولئك القَومِ خارِجونَ عَن طاعةِ الله، ناقِضونَ للعُهودِ، لا ديانةَ لهم، ولا مُروءةَ[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

الوفاءُ بالعَهدِ مِن أخلاقِ المُتَّقينَ؛ يُرشِدُ إلى ذلك قَولُ الله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ﴾.
في وَصفِهم بالمُشركينَ إيماءٌ إلى عِلَّةِ الإنكارِ على دوامِ العَهدِ مَعَهم[٣].

٢- دلَّ قولُه تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ على أنَّ مَن كانت حالُه أنَّه إذا ظهَرَ لم يَرقُبْ ما بيننا وبينه مِن العَهدِ- لم يكُنْ له عَهدٌ؛ لأنَّ مَن جاهَرَنا بالطَّعنِ في دينِنا، كان ذلك دليلًا على أنَّه لو ظهر لم يَرقُبِ العَهدَ الذي بيننا وبينه؛ فإنَّه إذا كان مع وُجودِ العَهدِ والذِّلَّةِ يفعلُ هذا، فكيف يكونُ مع العِزَّةِ والقُدرةِ؟! خلافًا لِمَن لم يُظهِر لنا مثلَ هذا الكَلامِ؛ فإنَّه يجوزُ أنْ يَفيَ لنا بالعَهدِ لو ظَهَرَ[٤].

٣- قال تعالى: ﴿يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٥٩)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٩٥، ٢٩٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٧٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٢١).
(٤) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ١٣).

إن قيلَ: إنَّ الموصوفينَ بهذه الصِّفةِ كُفَّارٌ، والكُفرُ أقبَحُ وأخبَثُ مِن الفِسقِ، فكيفَ يَحسُنُ وَصفُهم بالفِسقِ في مَعرِضِ المبالغةِ في الذَّمِّ، وأيضًا الكُفَّارُ كلُّهم فاسِقونَ، فلا يبقى لِقَولِه: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾ فائدةٌ؟ فالجَوابُ: أنَّ الكافِرَ قد يكونُ عَدلًا في دِينِه، له حفظٌ لمراعاةِ الحالِ الحسنةِ مِن التعفُّفِ عمَّا يثلمُ العِرضَ، فلا ينقُضُ العَهدَ، وقد يكونُ فاسِقًا خبيثَ النَّفسِ في دينِه، لا مروءةَ تردعُه، ولا طباعَ مرضيةٌ تزَعُه، فينقُضُه، فالمرادُ بالفِسقِ هنا نَقضُ العَهدِ، وكان في المُشرِكينَ مَن وَفَى بِعَهدِه؛ فلهذا قال: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾، أي: إنَّ هَؤلاءِ الكُفَّارَ- الذين مِن عادَتِهم نَقضُ العَهدِ- أكثَرُهم فاسِقونَ في دِينِهم وعند أقوامِهم، وذلك يُوجِبُ المُبالغةَ في الذَّمِّ[١]، وقيل: التعبيرُ بقولِه: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾ لأنَّ منهم مَن قضَى الله له بالإيمانِ[٢]، وقيل: المرادُ بالأكثريةِ: الكلُّ، فمعنَى ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾: وكلُّهم فاسقونَ[٣].

بلاغةُ الآيتين:

١- قَولُه تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾

- قولُه تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، نَشأ عن قولِه: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، ثُمَّ عن قَولِه: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وعن قولِه: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾، التي كانتْ تَدرُّجًا في إبطالِ ما بينهم وبين المسلمينَ من عُهودٍ سابقةٍ؛ لأنَّ ذلك يُثيرُ سؤالًا في

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٣٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٧٨)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٧٨).

نُفوسِ السَّامعينَ من المسلِمينَ الذين لم يَطَّلِعوا على دَخيلةِ الأَمْرِ؛ فلعَلَّ بعضَ قَبائلِ العربِ من المشركين يَتعجَّب من هذه البَراءةِ، ويسأَلُ عن سببِها؛ فكان المقامُ مَقامَ بيانِ سَببِ ذلك، وأنَّه أمران: بُعدُ ما بين العقائدِ، وسَبْقُ الغَدْرِ(١).

- قولُهُ: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ اسْتِفهامٌ بمَعْنى الإنكارِ، والاسْتِبعادِ لِأنْ يكونَ لهم عَهْدٌ ولا يَنْكُثوه مع ضِغنِ صُدورِهم وعَداوتِها، وتوقُّدِها من الغيظِ، أو لأنْ يَفيَ اللهُ تعالى ورسولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالعَهْدِ، وهم نَكَثوه(٢).

- وفي قولِهِ: ﴿كَيْفَ يَكُونُ﴾ تَوجيهُ الإنكارِ إلى كيفيَّةِ ثُبوتِ العَهْدِ، وفيه من المُبالَغةِ ما ليس في تَوجيهِهِ إلى ثُبوتِهِ؛ لأنَّ كلَّ موجودٍ يَجِبُ أنْ يكونَ وجودُهُ على حالٍ من الأحوالِ قَطْعًا(٣).

- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ المقصودُ مِن تَخصيصِهم بالذِّكرِ؛ التَّنويهُ بخَصلةِ وَفائِهم بما عاهَدُوا عليه(٤).

٢- قَولُه تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾

- قولُه: ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ ...﴾ ﴿كَيْفَ﴾ هذه مُؤكِّدةٌ لـ﴿كَيْفَ﴾ التي في الآيةِ قَبْلها، وفي إعادةِ الاسْتِفهامِ إشعارٌ بأنَّ جُملةَ الحالِ لها مزيدُ تَعلُّقٍ بتوجُّه الإنكارِ على دَوامِ العهدِ للمُشركينَ، حتَّى كأنَّها مُستَقِلَّةٌ بالإنكارِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٢٠-١٢١).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٧٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٤٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٢١).

لا مجرَّدُ قيدٍ للأَمْرِ الذي تَوجَّه إليه الإنكارُ ابتداءً؛ فهي تَكرارٌ لاسْتِبعادِ ثَباتِهم على العَهْدِ، أو بقاءِ حُكْمه، مع التَّنبيهِ على العِلَّةِ[1].

- وفي قوله: ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ﴾ أيضًا استأنَفَ هذا الكلامَ، أي: حالُهم في الظَّاهرِ يُخالِفُ باطِنَهم، وهذا كلُّه تَقريرٌ واسْتِبعادٌ لثَباتِ قلوبِهم على العَهْد[2].

- ونِسبةُ الإرضاءِ إلى الأفواهِ في قولِه: ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾؛ للإيذانِ بأنَّ كلامَهم مُجرَّدُ ألفاظٍ يَتفوَّهون بها، مِن غيرِ أنْ يكونَ لها مِصداقٌ في قلوبِهم[3].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٢٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٧٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٤٦).

الآيات (٩ - ١٢)

﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿نكثُوا﴾: أي: نَقَضوا، وأصلُ (نكث): يدلُّ على نَقضِ شَيءٍ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ المُشرِكينَ استبدَلوا بآياتِ اللهِ شَيئًا قليلًا مِن عَرَضِ الدُّنيا، فصَدُّوا أنفسهم عن قبولِ الحقِّ واتباعِه، وصدُّوا غيرَهم من النَّاسِ عن الدُّخولِ في الإسلامِ، وحاولوا ردَّ مَن أسلَمَ عن اتِّباعِ الحَقِّ، إنَّهم ساء ما كانوا يعملونَ؛ لا يُراعُونَ في مؤمِنٍ قَدَرُوا عليه اللهَ ولا قَرابةً ولا عَهدًا، وأولئك هم المُعتَدونَ.

ثم يُخاطِبُ المؤمنينَ قائِلًا لهم: فإنْ تاب المُشرِكونَ، وأدَّوُا الصَّلاةَ المفروضةَ على وجهِها الأكمَلِ، وأعطَوُا الزَّكاةَ الواجِبةَ لِمُستحِقِّيها، فهم إخوانُكم في الإسلامِ، ونُبَيِّنُ الآياتِ لِقَومٍ يَعلمونَ، وإنْ نَقَضوا عُهودَهم من بعدِ ما عاهَدُوكم، وقَدَحوا في دينِكم وانتَقَصوه، فقاتِلُوا رُؤَساءَ الكُفرِ؛ إنَّهم لا عُهودَ لهم صادقةً يُوفونَ بها؛ لعلَّهم يَنتَهونَ عَن الكُفرِ والضَّلالِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٢، ٥٠٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٧).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ اَشْتَرَوْا بِـَٔايَـٰتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِۦٓۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩) ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا كشَفَ تعالى سرائِرَهم؛ شرعَ سبحانه يُقيمُ لهم الدَّليلَ على فِسقِهم وخِيانَتِهم، بتَذكيرِهم ما بدا مِن بَعضِهم مِن النَّقضِ، بعد أن أثبَتَ فيما مضى أنَّهم شَرعٌ واحِدٌ(١)، بعضُهم أولياءُ بَعضٍ(٢).

وأيضا فهذا بيانٌ مُستأنَفٌ لِمَن عساه يستغرِبُ غَلَبَةَ الفِسقِ، والخُروجَ مِن دائرةِ الفَضائِلِ الفِطريَّةِ والتقليديَّةِ على أكثَرِهم، حتى مُراعاة اللهِ والقَرابةِ والوفاءِ بالعَهدِ الممدوحَينِ عِندَهم، ويسألُ عن سبَبِه، وجَوابُه(٣):

﴿ اَشْتَرَوْا بِـَٔايَـٰتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾.

أي: استبدَلَ أولئك المُشرِكونَ، بآياتِ القُرآنِ شَيئًا قليلًا مِن عَرَضِ الدُّنيا، ومَتاعِها الفاني، فتَركوا اتِّباعَها لذلك، واتَّبَعوا أهواءَهم(٤).

---

(١) أي: سواء، لا يفوقُ بعضُهم بعضًا. يُنظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٨/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٩٧، ٢٩٨).

قال ابنُ عاشور: (هؤلاءِ الذين بَقُوا على الشِّركِ مِن العَرَبِ بعد فتح مكَّةَ وظهورِ الإسلامِ على مُعظَمِ بلادِ العَرَبِ، ليس لهم امتراءٌ في صِحَّةِ الإسلام ونُهوضِ حُجَّتِه، ولكنَّهم بَقُوا على الشِّركِ لِمَنافِعَ يَجتَنُونَها من عوائِدِ قَومِهم؛ مِن غاراتٍ يَشُنُّها بعضُهم على بعضٍ، ومحبَّة الأحوالِ الجاهليَّة مِن خَمرٍ ومَيسرٍ وزِنًا، وغير ذلك مِن المذمَّات واللذَّات الفائتة، وذلك شيءٌ قليلٌ، آثَروه على الهدى والنَّجاة في الآخرة، فلِكَونِ آياتِ صِدقِ القُرآنِ أصبحت ثابتةً عندهم جُعِلت مثلَ مالٍ بأيديهم، بذَلُوه وفرَّطوا فيه لأجلِ اقتناءِ منافِعَ قليلةٍ؛ فلذلك مثَّل حالَهم بحالِ =

﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾.

أي: فتسبَّبَ عن ضَلالِهم قيامُهم بإضلالِ غَيرِهم، فمَنَعوا أنفسهم من قبولِ الحقِّ واتِّباعِه، ومنعوا غيرَهم مِن الدُّخولِ في الإسلامِ، وحاوَلوا رَدَّ المُسلِمينَ عن اتِّباعِ الحَقِّ[1].

﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

أي: بِئسَ ما كان يعمَلُه أولئك المُشرِكونَ؛ مِن استبدالِهم الكُفرَ بالإيمانِ، وصَدِّهم النَّاسَ عن سبيلِ الرَّحمنِ[2].

﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أخبَرَ تعالى بعَراقَتِهم في الفِسقِ، دلَّ عليه بأنَّ خِيانَتَهم ليست خاصَّةً

= مَن اشترى شيئًا بشَيءٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٢٥).

واستبعَدَ الشنقيطيُّ جِدًّا ما قاله جماعةٌ مِن العُلَماءِ: أنَّ هذه الآيةَ نزَلَت في قومٍ مِن الأعرابِ كانوا عاهَدُوا النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فدعاهم أبو سفيانَ بنُ حَربٍ، وأطعَمَهم أكلةً، ونقَضُوا العهودَ بسبَبِ ذلك. قال: (لأنَّ هذه الآيةَ مِن براءةَ نزَلَت بعد إسلامِ أبي سفيانَ؛ لأنَّ أبا سفيانَ أسلَمَ عامَ الفَتحِ عامَ ثَمانٍ، وهذه نزلَتْ عامَ تِسعٍ). ((العذب النمير)) (٥/ ٢٩٧).

وقال الشنقيطي أيضًا: (واختلَفَ العلماءُ بالمراد بهذا الثَّمَنِ القَليل ... والتَّحقيقُ - إن شاء اللهُ تعالى - أنَّ المعنى: أنَّ الكُفَّار تبَدَّلوا من آياتِ اللهِ والعمَلِ بما جاء عن اللهِ ثَمنًا قَليلًا مِن مَتاعِ الحياةِ الدُّنيا، وهو -مَثلًا- عدَمُ التقيُّدِ بالشَّرعِ، وبقاؤُهم على ما كانوا عليه، واتِّباعُهم أهواءَهم، كما قال جلَّ وعلا: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٩٠] فتعَوَّضوا من هذا اتِّباعَهم هواهم، وبقاءَهم على ما كانوا عليه؛ لأنَّه أحَبُّ إليهم. وهذا شيءٌ تافِهٌ تعَوَّضوا منه سَعادةَ الدُّنيا والآخِرةِ). ((العذب النمير)) (٥/ ٢٩٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣١٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٢٠).

بالمُخاطَبينَ، بل عامَّةٌ لكُلِّ مَن اتَّصَف بصِفةِ الإيمانِ[1]، فقال تعالى:

﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾.

أي: لا يُراعي أولئك المُشرِكونَ في أيِّ مُؤمنٍ قَدَرُوا عليه اللهَ ولا قَرابةً ولا عَهدًا[2].

﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴾.

أي: وأولئك المُشرِكونَ هم المُجاوِزونَ حُدودَ اللهِ، الظَّالِمونَ لِعبادِ اللَّهِ[3].

﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى حالَ مَن لا يَرقُبُ في اللهِ إلًّا ولا ذِمَّةً، وينقُضُ العَهدَ، وينطوي على النِّفاقِ، ويتعَدَّى ما حُدَّ له؛ بيَّنَ مِن بعدُ أنَّهم إن أقاموا الصَّلاةَ وآتَوُا الزَّكاةَ كيف حُكمُهم[4]، فقال تعالى:

﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ﴾.

أي: فإن رجَعَ المُشرِكونَ عن كُفرِهم إلى الإيمانِ باللهِ، وأدَّوُا الصَّلواتِ المفروضةَ، وأعطَوُا الزَّكاةَ الواجبةَ مُستحِقِّيها؛ فهُم إخوانُكم- أيُّها المُسلِمونَ-

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦٠)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٣/ ١٨٦، ١٨٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣١٠، ٣١١)، ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦١)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣١١)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٢٩١)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٣٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٣٣).

في الإسلام(١).

﴿ وَنُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾.

أي: ونُبَيِّنُ آياتِ القُرآنِ لِقَومٍ يَعقِلونَ عن اللهِ بَيانَه وآياتِه، فيَفهمُونَها، ويتفَكَّرونَ فيها، وينتَفِعونَ بها(٢).

كما قال تعالى: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣].

﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

مَناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا استوفى اللهُ تعالى بيانَ أصنافِ المُشرِكينَ، الذين أمَرَ اللهُ بالبراءةِ مِن عَهدِهم، والذينَ أمَرَ بإتمامِ عَهدِهم إلى مُدَّتِهم ما استقاموا على العَهدِ، والذين يَستجيبونَ- عطَفَ على أولئك بيانَ الذين يُعلِنونَ بِنَكْثِ العَهدِ، ويُعلِنونَ بما يُسخِطُ المُسلِمينَ(٣)، فقال تعالى:

﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ ﴾.

أي: وإن نقَضَ أولئك المُشرِكونَ عُهودَهم مِن بعدِ ما عاهَدُوكم على ألَّا يُقاتِلوكم، ولا يُظاهِروا عليكم أحدًا مِن أعدائِكم(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٠٢). =

﴿وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾.

أي: وقدحوا في دينِكم الإسلامِ، وعابُوه وانتقَصُوه[1].

﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾.

أي: فقاتِلوا- أيُّها المُؤمِنونَ- رؤساءَ الكُفرِ[2] الذين نقَضُوا العُهودَ، وطَعَنوا في الإسلامِ[3].

= قال الشنقيطي: (﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ الأيمانُ: جمعُ يمينٍ. قال بعضُ العلماء: هي العهودُ. وقال بعض العلماء: هي الأيمانُ التي تؤكِّدُ بها العهودُ؛ لأنَّهم إذا أُخِذَت عليهم العُهودُ، أكَّدُوها بالأيمانِ). ((العذب النمير)) (٥/ ٣٠٢).

ولكِن ردَّ ابنُ تيميَّةَ هذا القولَ، فقال: (واليَمينُ هنا المرادُ بها العُهودُ لا القَسَمُ باللهِ- فيما ذَكَره المفَسِّرونَ- وهو كذلك؛ فالنبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يقاسِمْهم باللهِ عامَ الحُدَيبيَةِ، وإنما عاقَدَهم عقدًا، ونسخةُ الكِتابِ معروفةٌ ليس فيها قَسَمٌ؛ وهذا لأنَّ اليمينَ يقال: إنَّما سُمِّيَت بذلك؛ لأنَّ المُعاهِدَينِ يمُدُّ كُلٌّ منهما يمينَه إلى الآخَرِ، ثم غُلِّبَت حتى صار مجرَّدُ الكلامِ بالعَهدِ يُسمَّى يمينًا، ويقال: سُمِّيت يمينًا؛ لأنَّ اليمينَ هي القوَّةُ والشِّدَّةُ... فلما كان الحِلْفُ معقودًا مشَدَّدًا سُمِّيَ يمينًا، فاسمُ اليمينِ جامِعٌ للعَقدِ الذي بين العَبدِ وبين ربِّه، وإن كان نَذْرًا... وللعَهدِ الذي بين المخلوقينَ، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ والنَّهيُ عن نقضِ العُهودِ وإن لم يكُن فيها قَسَمٌ، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ﴾ وإنما لفظُ العهدِ: «بايعناك على ألَّا نَفِرَّ» ليس فيه قَسَمٌ، وقد سمَّاهم مُعاهِدينَ لله). ((الصارم المسلول)) (ص: ١٧- ١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦٢، ٣٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٠).

قال السعدي: (ويدخُلُ في هذا جميعُ أنواعِ الطَّعنِ المُوجَّهةِ إلى الدِّينِ، أو إلى القُرآنِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٠).

(٢) قال الشنقيطي: (ما جرى على ألسِنةِ كثيرٍ مِن العُلَماءِ هنا أنَّهم: أبو جهلٍ وأميَّةُ بنُ خَلفٍ وسُهَيلُ بن عمرٍو، إلى أشرافِ المذكورينَ في غزوةِ بَدرٍ، فهو خلافُ الظَّاهِرِ؛ للإجماعِ على تأخُّرِ هذه الآياتِ كثيرًا إلى عامِ تِسعٍ، أو إلى أنَّها نزلت قبل الفَتحِ عامَ ثَمانٍ). ((العذب النمير)) (٥/ ٣٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٣٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٠٤).

﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿لَا إِيمَانَ﴾ قيل: على معنى أنَّهم لا إسلامَ لهم ولا دينَ، فهم كفَّارٌ. وقيل: المرادُ معنى الأمنِ، أي: لا أمانَ لهم، فقد بطَلَ الأمانُ الذي أعطَيتُموهم؛ لأنَّهم قد نقَضُوا عَهْدَهم(١).

٢- قِراءةُ ﴿لَا أَيْمَانَ﴾ على معنى أنَّه لا عَهْدَ لهم، أي: هم لا يُوفُونَ بعُهودِهم ومَواثيقِهم(٢).

﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾.

أي: إنَّ رُؤَساءَ الكُفرِ لا عُهودَ لهم صادقةً يُوفُونَ بها(٣).

﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾.

أي: قاتِلُوهم؛ كي ينتَهُوا عن الكُفرِ والضَّلالِ(٤).

(١) قرأ بها ابن عامر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧٨).
ويُنظر: لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٧٤)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤٤٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣١٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٠٥).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧٨).
ويُنظر: لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٧٤)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤٤٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣١٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٠٦، ٣٠٧).
وممَّن فسَّر قولَه تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ بأنَّ معناه انتهاؤُهم عن الكُفر: الواحديُّ، وابنُ =

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- دلَّ قولُه تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ على ذمِّ قطيعةِ الرَّحِمِ، ونَقْضِ الذِّمَّةِ(١).

٢- قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ هذه الأُخوَّةُ أوَّلُ مَزيَّةٍ دُنيويَّةٍ للإسلامِ؛ فإنَّ المُشرِكينَ كانوا مَحرومينَ مِن هذه الأُخوَّةِ العظيمةِ، بعضُهم حَربٌ لِبَعضٍ في كلِّ وَقتٍ، إلَّا ما يكونُ مِن عَهدٍ أو جِوارٍ، قلَّما يفي به القَويُّ للضَّعيفِ دائمًا(٢).

٣- قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ أي: لِيكُنْ غَرَضُكم في

= كثير، وابنُ عاشور. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٣١).

وممن فسَّره بأنه: الانتهاءُ عن الطَّعنِ في الدِّين، والمظاهرةِ على المسلمين: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦٣).

وممَّن فسَّره بأنَّه: انتهاؤُهم عن الكُفرِ وعن الطَّعنِ في الإسلامِ، فجمَع بينَ المعنيينِ: السعديُّ، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٠٦، ٣٠٧).

وذهب ابن تيميَّةَ إلى أنَّ المُرادَ: الانتهاءُ عن نقضِ العَهدِ، والطَّعنِ في الدِّينِ. يُنظر: ((الصارم المسلول)) (ص: ٣٩٢).

وردَّ ابنُ عاشورٍ أن يكونَ المرادُ بالانتهاءِ: الانتهاءُ عن نقضِ العَهدِ، أو الطَّعنِ في الدِّينِ. فقال: (لم يُذكَر مُتعَلَّق فعل ﴿يَنتَهُونَ﴾ ولا يُحتَمَلُ أن يكونَ الانتهاءُ عن نكْثِ العَهدِ؛ لأنَّ عَهدَهم لا يُقبَلُ بعد أن نكَثوا؛ لِقَولِ الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾، ولا أن يكونَ الانتهاءُ عن الطَّعنِ في الدِّينِ؛ لأنَّه إن كان طعْنُهم في دينِنا حاصلًا في مدَّةِ قِتالِهم، فلا جَدْوى لِرَجاءِ انتِهائِهم عنه، وإن كان بعد أن تضَعَ الحَربُ أوزارَها، فإنَّه لا يستقيمُ؛ إذ لا غايةَ لِتَنهيةِ القَتلِ بين المُسلِمينَ وبينهم، فتعيَّنَ أنَّ المُرادَ: لعلَّهم ينتهونَ عن الكُفرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٣١).

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٩/ ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٦٩).

مُقاتَلتِهم- بعد ما وُجِدَ منهم من العظائِم ما وُجِد- انتهاءَهم عمَّا هم فيه، وهذا مِن كَرَمِه سبحانَه وفَضلِه، وعَوْدِه على المُسيءِ بالرَّحمةِ(١).

٤- ممَّا امتاز به الإسلامُ على جميعِ شَرائعِ الأُمَمِ وقَوانينِها: جَعلُ الحَربِ ضَرورةً مُقَيَّدةً بإرادةِ مَنعِ الباطِلِ، وتقريرِ الحَقِّ والفضائِلِ؛ يُبيِّنُ ذلك قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ أي: قاتِلوهم راجينَ بِقِتالِكم إيَّاهم أن يَنتَهوا عن كُفرِهم وشِركِهم، وما يحمِلُهم عليه مِن نَكْثِ أيمانِهم، ونَقضِ عُهودِهم، والضَّراوةِ بِقتالِكم كلَّما قَدَرُوا عليه، وهو يتضَمَّنُ النَّهيَ عن القتالِ اتِّباعًا لِهَوى النَّفسِ أو إرادةِ منافِعِ الدُّنيا؛ مِن سَلبٍ وكَسْبٍ، وانتقامٍ مَحضٍ بالأَوْلى(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بيَّنَ عَراقَتَهم في القبائِحِ وأنَّها في جِبِلَّتِهم، بِذِكرِ الكَونِ، فقال: ﴿كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، أي: يُجَدِّدونَ عَمَلَه في كلِّ وَقتٍ(٣).

٢- قَولُه تعالى: ﴿فِي مُؤْمِنٍ﴾ إعلامٌ بأنَّ عَداوَتَهم إنَّما هي بحسَبِ الإيمانِ فقط، وقَولُه أوَّلًا: ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ﴾ [التوبة: ٨] كان يحتمِلُ أن يظُنَّ ظانٌّ أنَّ ذلك للإحَنِ التي وقعَت، فزال هذا الاحتمالُ بِقَولِه: ﴿فِي مُؤْمِنٍ﴾(٤).

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ هذه الآيةُ دليلٌ على أنَّ الصَّلاةَ والزَّكاةَ مَقرونتانِ بالشَّهادةِ، في كَفِّ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٨١).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٧٢).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٨٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٠).

السَّيفِ وحَقنِ الدَّمِ، ودليلٌ على أنَّ المُؤاخاةَ بالإسلامِ بين المُسلِمينَ مَوقوفةٌ على فِعلِ الصَّلاةِ والزَّكاةِ جَميعًا؛ لأنَّ اللهَ تعالى شَرَطَهما في إثباتِ المُؤاخاةِ، ومَن لم يكُنْ مِن أهلِ وُجوبِ الزَّكاةِ وجَبَ عليه أن يُقِرَّ بحُكمِها، فإذا أقَرَّ بحُكمِها دخل في الصِّفةِ التي تجِبُ بها الأُخُوَّةُ[1].

٤- في قولِ الله تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ علَّقَ الأُخُوَّةَ في الدِّينِ على التَّوبةِ مِن الشِّركِ، وإقامِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ؛ والمُعَلَّقُ بالشَّرطِ ينعَدِمُ عند عَدَمِه، فمَن لم يفعلْ ذلك فليس بأخٍ في الدِّينِ، ومَن ليس بأخٍ في الدِّينِ فهو كافِرٌ؛ لأنَّ المؤمنينَ إخوةٌ- رغم قيامِ الكبائِرِ بهم- بدليلِ قَولِه تعالى في آيةِ المُقتَتِلين: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وهذا مع أنَّه قد سمَّى قتالَ المؤمِنِ كُفرًا[2].

٥- دلَّ قولُه تعالى: ﴿وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾ على أنَّ عَهدَ المُشرِكِ ينتقِضُ بذلك؛ فإنَّه حتى لو كان مُستقيمًا فيه بدونِ نَكثٍ؛ فإنَّ مُجاهَرَتَنا بالشَّتيمةِ، والوقيعةِ في رَبِّنا ونَبِيِّنا وكتابِنا ودِينِنا، يقدحُ في الاستقامةِ، كما تقدَحُ مُجاهَرتُنا بالمحاربةِ، في العَهدِ، بل ذلك أشَدُّ علينا إنْ كنَّا مُؤمِنينَ[3].

٦- دَعوةُ الذِّميِّ أو المُعاهَدِ إلى دينِه، وترغيبُه المسلمينَ إليه، مِن أَوْلى الأشياءِ أن ينتقِضَ العهدُ بها؛ فإنَّه حِرابُ الله ورسولِه باللِّسانِ، وقد يكون أعظَمَ مِن الحِرابِ باليَدِ، كما أنَّ الدَّعوةَ إلى اللهِ ورَسولِه جهادٌ بالقَلبِ وباللِّسانِ، وقد يكون أفضَلَ من الجهادِ باليَدِ. ولَمَّا كانت الدَّعوةُ إلى الباطِلِ مُستلزِمةً- ولا بُدَّ- للطَّعنِ في الحَقِّ، كان دعاؤُهم إلى دينِهم، وتَرغيبُهم فيه طعنًا في دينِ الإسلامِ،

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣١١)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٣٤).

(٢) يُنظر: ((شرح العمدة - كتاب الصلاة)) لابن تيمية (ص: ٧٣).

(٣) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ١٣).

وقد قال تعالى: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ ولا ريب أنَّ الطَّعنَ في الدِّينِ أعظَمُ مِن الطَّعنِ بالرُّمحِ والسَّيفِ، فأَوْلى ما انتقَضَ به العَهدُ الطَّعنُ في الدينِ، ولو لم يكُن مَشروطًا عليهم؛ فالشَّرطُ ما زادَه إلَّا تأكيدًا وقُوَّةً[1].

٧- مَن كان مِن المؤمنينَ بأرضٍ هو فيها مُستضعَفٌ، أو في وقتٍ هو فيه مُستضعَفٌ؛ فليعمَلْ بآياتِ الصَّبرِ والصَّفحِ، وأمّا أهلُ القُوَّةِ فإنَّما يَعملونَ بآيةِ قِتالِ أئمَّةِ الكُفرِ: ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ الذين يطعَنونَ في الدِّينِ، وبآيةِ قِتالِ الذينَ أوتُوا الكتابَ حتى يعطُوا الجِزيةَ عن يدٍ وهم صاغِرونَ[2].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ استدَلَّ به مَن قال: إنَّ الذِّميَّ يُقتَلُ إذا طعنَ في الإسلامِ، سواءٌ شَرَطَ انتقاضَ العَهدِ به أم لا. واستدَلَّ من قال بقَبولِ تَوبتِه بقَولِه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾[3].

٩- قال الله تعالى: ﴿وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ مِن هاهنا أُخِذَ قَتلُ مَن سَبَّ الرَّسولَ، صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه، أو مَن طعَنَ في دينِ الإسلامِ، أو ذَكَرَه بتنَقُّصٍ[4].

١٠- قال تعالى: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ فسَمَّاهم أئمَّةَ الكُفرِ لِطعنِهم في الدِّينِ؛ فكُلُّ طاعِنٍ في الدِّينِ، فهو إمامٌ في الكُفرِ؛ وذلك لأنَّه علَّلَ ذلك بأنَّهم لا أيمانَ لهم، وذلك

---

(١) يُنظر: ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (٣/ ١٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٣٨)، وينظر أيضًا: ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٣٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٦).

يشمَلُ جَميعَ النَّاكِثينَ الطَّاعِنينَ، ولأنَّ النَّكثَ والطَّعنَ وصفٌ مُشتَقٌّ مُناسِبٌ لِوجوبِ القِتالِ، وقد رُتِّبَ عليه بحرفِ الفاءِ تَرتيبَ الجَزاءِ على شرطِه، فإذا طعَنَ الذِّمِّيُّ في الدِّينِ، فهو إمامٌ في الكُفرِ، فيجِبُ قَتْلُه؛ لِقَولِه تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ ولا يَمينَ له؛ لأنَّه عاهَدَنا على ألَّا يُظهِرَ عَيبَ الدِّينِ، وخالَفَ[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١ - قَولُه تعالى: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

- قولُهُ: ﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ الإضافةُ في ﴿سَبِيلِهِ﴾؛ للتَّشريفِ[2].

- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ مَفعولُ ﴿فَصَدُّوا﴾ مَحذوفٌ لِقَصدِ العُمومِ، أي: صَدُّوا كلَّ قاصِدٍ[3].

- قولُهُ: ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فيه الافتتاحُ بحَرْفِ التَّأكيدِ (إنَّ)؛ للاهْتِمامِ بهذا الذَّمِّ لهم، وعبَّر عن عَمَلِهم بـ﴿كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّه دَأْبٌ لهم، ومُتكرِّرٌ منهم[4].

٢ - قوله تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾

- في قولِه تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ تكرارٌ لِمَعْنى قولِه: ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾؛ حيث ذُكِرَ الأوَّلُ وجُعِلَ جزاءً للشَّرطِ ﴿وَإِنْ يَظْهَرُوا﴾، ثمَّ أُعيدَ ذلك تقبيحًا لهم فقال: ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَا

---

(١) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ١٧-١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٢٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾[١]. وفي تكرارِ ذلك بإبدالِ الضَّميرِ في قوله: ﴿فِيكُمْ﴾ بقولِه: ﴿فِي مُؤْمِنٍ﴾ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ إذ الأوَّلُ وقَعَ جوابًا لِقَولِه: ﴿وَإِنْ يَظْهَرُوا﴾، والثاني وقَعَ إخبارًا عن تَقبيحِ حالِهم[٢].

- قولُه: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ فيه قَصْرٌ؛ وهو إمَّا أنْ يكونَ للمُبالغةِ في اعتدائِهم؛ لأنَّه اعتداءٌ عَظيمٌ باطِنيٌّ على قومٍ حالَفوهم وعاهَدوهم، ولم يُلْحِقوا بهم ضُرًّا مع تَمكُّنهم منه، وإمَّا أن يَكونَ قَصْرَ قَلْبٍ، أي: هم المعتَدُونَ لا أنتُم؛ لأنَّهم بَدؤُوكم بنَقضِ العَهْدِ[٣].

- قولُه: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ عَطفٌ على جُملةِ: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ لِمُناسبةِ أنَّ إثباتَ الاعتداءِ العَظيمِ لهم، نَشَأ عن الحِقدِ- الشَّيءِ الذي أضمَرُوه للمُؤمِنينَ- لا لِشَيءٍ إلَّا لأنَّهم مُؤمِنونَ[٤].

٣- قَولُه تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

- فيه تَكرارُ قولِه: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ لاختلافِ جزاءِ الشَّرطِ؛ إذْ جزاءُ الشَّرطِ في الأوَّلِ تَخليةُ سبيلِهم في الدُّنيا، وهو قَولُه تعالى: ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾، وفي الثَّاني إثباتُ أُخُوَّتِهم لنا في الدِّينِ، وهو قَولُه تعالى: ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾، وهي ليستْ عينَ تَخليَتِهم، بل سَبَبُها[٥].

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٣٤).
(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٢٦-٢٢٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٢٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٣٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٢٢٦).

- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾.

- قَولُه: ﴿فَإِخْوَانُكُمْ﴾ خبرٌ لِمَحذوفٍ، أي: فَهُم إخوانُكم. وصِيغَ هذا الخَبَرُ بالجُملةِ الاسميَّةِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ إيمانَهم يقتَضي ثباتَ الأُخُوَّةِ ودوامَها، تنبيهًا على أنَّهم يَعودونَ كالمُؤمِنينَ السَّابقينَ مِن قَبلُ، في أصلِ الأُخُوَّةِ الدِّينيَّةِ[1].

- قولُهُ: ﴿وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ اعتراضٌ؛ للحَثِّ على التَّأمُّلِ في الأحكامِ المُندرِجةِ في تَضاعيفِها، والمحافظةِ عليها[2]؛ فهو اعتراضٌ وتذييلٌ أيضًا، وعُطِفَ هذا التَّذييلُ على جُملةِ: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾؛ لأنَّه به أَعْلَقُ؛ لأنَّهم إنْ تابوا فقد صاروا إخوانًا للمُسْلمين، فصاروا مِن قَومٍ يَعْلمونَ؛ إذ ساووا المُسلِمينَ في الاهتداءِ بالآياتِ المُفصَّلةِ[3].

٤- قوله تعالى: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ فيه التَّعبيرُ عن نَقْضِ العَهْدِ بنَكْثِ الأيمانِ؛ تَشنيعًا للنَّكْثِ[4].

- وزِيدَ قولُه: ﴿مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ زِيادةً في تَسجيلِ شناعةِ نَكْثِهم، بتذكيرِ أنَّه غَدْرٌ لعَهْدٍ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٢٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٤٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٢٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ١٢٩).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وقَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ ﴾ بعد قوله: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ مِن عَطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ فالطَّعنُ في الإسلامِ ضَربٌ مِن ضُروبِ نَكْثِ الأيمانِ، ونَقضِ السَّلْمِ والوَلاءِ، كالقِتالِ ومُظاهَرةِ الأعداءِ(١).

- قولُهُ: ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ فيه وَضْعُ المُظْهَرِ ﴿أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ مَوضِعَ الضَّميرِ- حيثُ لَم يَقُلْ: (فقاتِلوهم)-؛ لزيادةِ التَّشنيعِ عليهم ببُلوغِهم هذه المنزلةَ من الكُفْرِ، وللدَّلالةِ على أنَّهم صاروا بذلك ذَوي الرِّئاسةِ والتَّقدُّمِ في الكُفْرِ، أحقَّاءَ بالقَتْلِ. وعلى أنَّ المرادَ بالأئمَّةِ رؤساءُ المشركينَ؛ فالتَّخصيصُ إمَّا لأنَّ قَتْلَهم أهمُّ، وهُمْ به أحقُّ، أو للمَنْعِ من مُراقبتِهم(٢)، أو خَصَّ الأئمَّةَ بالذِّكرِ؛ لأنَّهم هم الذين يُحرِّضونَ الأتباعَ على البقاءِ على الكُفْرِ(٣).

- وجُملةُ: ﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ تَعليلٌ لقِتالِهم بأنَّهم اسْتَحقُّوه لأجْلِ اسْتِخفافهم بالأَيْمانِ التي حَلَفوها على السَّلْمِ، فغَدَروا(٤).

- ونَفْيُ الأَيْمانِ لهم: نفيٌ للماهيةِ الحقِّ لليَمينِ، وهي قَصْدُ تعظيمِه والوفاءِ به، فلمَّا لم يُوفُوا بأيمانِهم، نُزِّلتْ أيمانُهم مَنْزلةَ العَدَمِ؛ لفُقْدانِ أَخصِّ خواصِّها، وهو العملُ بما اقْتَضتْه(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٥١)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٣٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٢-١٦)

﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٥ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٦ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿يُخْزِهِمْ﴾: أي: يُذِلَّهم، والخِزْيُ: الهوانُ، وأصلُه: يدلُّ على الإبعادِ[١].

﴿وَلِيجَةً﴾: أي: بِطَانةً، دُخَلاءَ مِن المُشرِكينَ يُخالِطونَهم ويودُّونَهم. وكلُّ شَيءٍ أدخَلْتَه في شَيءٍ وليسَ منه، يُقالُ له: (وَليجةٌ)، وأصلُ (ولج): يدلُّ على دخولِ شَيءٍ[٢].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَوْله تعالى: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ﴾: اسم الجلالةِ مُبتدأٌ، وفي الخَبرِ وجهانِ؛ أحدُهما: أنَّه ﴿أَحَقُّ﴾ وعلى هذا فقَولُه: ﴿أَنْ تَخْشَوْهُ﴾ بدلُ اشتمالٍ مِن اسمِ الجلالةِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٧٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٢).

والمفضَّلُ عليه محذوفٌ، أي: فخَشيةُ اللهِ أحقُّ مِن خَشيتِهم. أو ﴿أَنْ تَخْشَوْهُ﴾ في محلِّ نصبٍ أو جَرٍّ على نزْعِ الخافِضِ، والتَّقديرُ: أحقُّ بأن تَخْشَوه. الثاني: أنَّ الخبَرَ جُملةُ ﴿أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ﴾ فـ﴿أَحَقُّ﴾ خبَرٌ مُقدَّمٌ. و﴿أَنْ تَخْشَوْهُ﴾ مبتدأٌ ثانٍ مُؤخَّرٌ، والجُملة خبَرُ اسمِ الجلالةِ، أي: فاللهُ خَشْيَتُه أحقُّ[1].

وجُملةُ ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ استئنافيَّةٌ لا محلَّ لها مِن الإعرابِ، وجوابُ ﴿إِنْ﴾ مَحذوفٌ دلَّ عليه ما قبلَه، أي: إنْ كُنتُم مُؤمِنينَ فاخْشَوُا اللهَ. وقيل غيرُ ذلك[2].

المعنى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ اللهُ عِبادَه المُؤمِنينَ قائلًا لهم: ألَا تُقاتِلونَ- أيُّها المؤمنونَ- المُشركينَ الذين نقَضُوا العَهدَ الذي بينكم وبينَهم، وعَزَموا بقُلوبِهم على إخراجِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن مكَّة، وهم بدَؤُوكم بنَقضِ العَهدِ الذي بينكم بقِتالِ حُلَفائِكم خُزاعةَ، أتخافونَهم؟! فاللهُ أحَقُّ أن تخافُوا منه إنْ كُنتم مُؤمِنينَ.

قاتِلُوهم- أيُّها المُؤمِنونَ- يُعَذِّبْهم اللهُ بأيديكم، ويُهِنْهم، ويَنصُرْكم عليهم، ويُداوِ اللهُ صُدورَ قَومٍ مُؤمنينَ، مما فيها من الألَمِ، ويُزِلِ الغَيظَ مِن قُلوبِهم، ويتوبُ سبحانه على مَن يَشاءُ مِن أولئك المُشركينَ، واللهُ عليمٌ حَكيمٌ.

أظَنَنتُم- أيُّها المُسلمونَ- أن يترُكَكم اللهُ دونَ أن يختبِرَكم بالجهادِ، فيعلَمَ الذين صَدَقوا في جهادِهم في سبيلِه، ولم يتَّخِذوا من دونِ اللهِ ولا رسولِه ولا المؤمنينَ بِطانةَ سُوءٍ مِن الكُفَّارِ، يُوالُونَهم ويُفشُونَ إليهم أسرارَ المُؤمِنينَ، واللهُ خَبيرٌ بما تَعملونَ.

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣٢٥)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٦٣٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٢٦).

(٢) يُنظر: ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (١٠/ ٢٩٤)، ((المجتبى من مشكل إعراب القرآن)) للخراط (٢/ ٣٨٧).

تَفسيرُ الآيات:

﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخْشَوْنَهُمْۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا قال تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾، أتبَعَه بذِكرِ السَّبَبِ الذي يبعَثُهم على مُقاتَلتِهم[1]، فقال تعالى:

﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ ﴾.

أي: ألَا تُقاتِلونَ- أيُّها المؤمنونَ- المُشرِكينَ الذين نقَضُوا العهدَ الذي بينَكم وبينهم[2]؟!

﴿وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ ﴾.

أي: وعَزَموا بقُلوبِهم على إخراجِ رَسولِ اللهِ مُحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن مكَّةَ[3].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٠٨).

قال الرازي: (نَكْثُهم العَهدَ: كُلُّ المُفَسِّرينَ حَمَلَه على نَقْضِ العَهدِ). ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٥٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٠٨، ٣٠٩).

وممَّن اختار أنَّهم همُّوا بإخراجِه مِن مكَّةَ قبل الهجرةِ: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ، والزمخشري، وابنُ كثيرٍ، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

وقال سبحانه: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد: ١٣].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [الممتحنة: ١].

﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

أي: وهَؤلاءِ المُشرِكونَ بَدَؤُوكم- أيُّها المُؤمِنونَ- بنَقضِ العَهدِ الذي بينكم، بقِتالِ حُلَفائِكم خُزاعةَ(١).

﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

أي: أتخافُونَ- أيُّها المُؤمِنونَ- على أنفُسِكم مِن هؤلاءِ المُشرِكينَ، فتَترُكوا قتالَهم؛ لِئلَّا ينالَكم منهم مَكروهٌ؟ فاللهُ أَوْلى أن تخافُوا مِن عُقوبتِه بتَركِكم جهادَ أولئكَ المُشرِكين، إن كُنتُم مُؤمِنينَ حقًّا(٢).

---

(١) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٣٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣١٠، ٣١١).
وممَّن اختار أنَّ المَقصودَ بذلك نقضُ المُشرِكينَ للعَهدِ بقتالِ خُزاعةَ حُلفاءِ المُسلمين: الواحدي، والقرطبي، والسعدي، وابن عاشور، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلف مجاهدٌ، وعكرمةُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ١٧٦٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦٨).
واختار ابنُ جرير أنَّ المراد: بدؤوكم بالقتالِ يومَ بَدرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦٧، ٣٦٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٣٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣١٢).
قال ابنُ عطيَّةَ: (قَولُه ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ كما تقولُ: افعَلْ كذا إن كنتَ رجلًا، أي: رجُلًا =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بكَّتَ اللهُ تعالى المُؤمِنينَ في التَّواني عن قتالِ المُشرِكين، وأقام الحُجَجَ البَيِّنةَ على وُجوبِ قِتالِهم، ودَحْضِ شُبهةِ المانِعِ منه- صَرَّحَ بالأمرِ القَطعيِّ به، مع الوعد بإظهارِ المُؤمِنينَ عليهم أكمَلَ الظُّهورِ وأتَمَّه، بما يُزيلُ خَشْيَتَهم منهم، بل يُوجِبُ إقدامَهم عليهم، ورغبَتَهم فيهم[1]، فقال تعالى:

﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾.

أي: قاتِلوا- أيُّها المُؤمِنونَ- هؤلاءِ المُشرِكينَ الذين نقَضُوا عهودَهم؛ فإنَّكم إن تُقاتِلوهم يَقتُلْهم اللهُ بأيديكم[2].

= كاملًا، فهذا معناه: إن كنتُم مُؤمِنينَ كامِلِي الإيمانِ؛ لأنَّ إيمانَهم قد كان استقَرَّ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣).

وقال الشنقيطي: (﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (إنْ) في قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ تُشكِلُ دائمًا على المتعلِّمينَ، وبعضِ العُلَماءِ، و (إنْ) هذه هي التي اختلَفَ فيها البصريُّونَ والكوفيُّونَ، وهي كثيرةٌ في القرآن، فالبصريونَ يقولون: إنَّ (إنْ) هذه صيغةُ شَرطٍ جِيءَ بها مُرادًا بها التَّهييجُ، وقُوَّةُ الحَملِ على الامتثالِ، وهو أسلوبٌ عربيٌّ مَعروفٌ؛ أنَّ العَرَبَ تنطِقُ بأداة الشَّرطِ، ولا تُريدُ به حقيقةَ تَعليقِ جزاءٍ على شرطٍ، وإنَّما تريدُ به التَّهييجَ والدَّعوةَ الصَّارمةَ إلى الامتثالِ... أمَّا الكوفيونَ فإنَّهم يقولون: إنَّ (إنْ) هذه بمعنى (إذْ) وأنَّها تعليليَّةٌ، ويقولون: «فَاللهُ أحَقُّ أن تخشَوْه إذْ كُنتُم مُؤمِنينَ» أي: لأجلِ كَونِكم كنتم مُؤمِنينَ؛ فذلك يستوجِبُ منكم الخَشيةَ). ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣١٢-٣١٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٩٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦٩، ٣٧١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٨٦)، ((الصارم =

﴿وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾.

أي: ويُذِلَّهم اللهُ ويُهِنْهُم بالأسرِ، ويَمنَحْكم النَّصرَ عليهم(١).

﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾.

أي: ويُداوِ اللهُ صُدورَ قَومٍ مُؤمنينَ، ظَلَمَهم المُشرِكون وقَهَروهم، فتنشَرِحْ صُدورُهم بالانتصارِ عليهم وقَتْلِهم، وأَسْرِهم، ويَزُلْ ما حصَلَ في قُلوبِهم من الألَمِ(٢).

﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٥)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا كان الشِّفاءُ في قَولِه تعالى: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ قد لا يُرادُ به

= المسلول)) لابن تيمية (ص: ١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣١٤).

قال الشنقيطي: (﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ هذا التَّعذيبُ الذي يُعَذِّبُهم اللهُ بأيديهم: هو القَتلُ بالضَّربِ الوَجيعِ، الذي يَصِلُ به صاحِبُه إلى النَّارِ). ((العذب النمير)) (٥/ ٣١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٣٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٣٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣١٤، ٣١٥).

قال أبو حيان: (جاء التَّركيبُ ﴿صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ لِيَشمَلَ المُخاطَبينَ وكُلَّ مُؤمِنٍ؛ لأنَّ ما يُصيبُ أهلَ الكُفرِ مِن العَذابِ والخِزيِ هو شِفاءٌ لِصَدرِ كُلِّ مُؤمِنٍ. وقيل: المرادُ قَومٌ مُعَيَّنونَ... قال مجاهِدٌ والسُّدِّي: هم خُزاعةُ. ووجهُ تَخصيصِهم أنَّهم هم الذين نُقِضَ فيهم العَهدُ ونالَتْهم الحَربُ، وكان يومَئِذٍ في خُزاعةَ مؤمنونَ كَثيرٌ). ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٨٢، ٣٨٣).

وقال الشنقيطي: (قال جماهيرُ مِن أهلِ التَّفسيرِ: إنَّ المُرادَ بالقَومِ المؤمنينَ أنَّهم خُزاعةُ؛ حيث تمالأَ عليهم البَكْرِيُّونَ وقُرَيشٌ، وقَتَلوهم في الحَرَمِ، واستنجَدُوا بالنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((العذب النمير)) (٥/ ٣١٥). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٨).

الكَمالُ؛ أتبَعَه تحقيقًا لِكَمالِه بقَولِه[١]:

﴿ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾.

أي: ويُزِلِ اللهُ الغَيظَ الكامِنَ في قُلوبِ المُؤمِنينَ بِسبَبِ ظُلمِ الكُفَّارِ وقَهْرِهم لهم[٢].

﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ﴾.

أي: ويتوبُ اللهُ على مَن يَشاءُ أن يتوبَ عليهم من أولئك المُشرِكينَ، بأن يُوفِّقَهم للدُّخولِ في الإسلامِ، ويَقبَلَ منهم التَّوبةَ مِن الكُفرِ والآثامِ[٣].

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

أي: واللهُ عليمٌ بكُلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك عِلمُه بما يُصلِحُ عِبادَه، وعِلمُه بمن يستحِقُّ منهم التَّوفيقَ للتَّوبةِ، ومَن يستحِقُّ منهم الخِذلانَ عنها، حكيمٌ في أفعالِه وأقوالِه وشَرْعِه، يضَعُ كُلَّ شَيءٍ في موضِعِه اللَّائِقِ به، ومن ذلك حِكمَتُه في تَصريفِ عِبادِه مِن حالٍ إلى حالٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٧١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٣٨).

قال القُرطبي: (قَولُه تعالى: ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ على مَنْ يَشَاءُ﴾ القراءةُ بالرَّفعِ على الاستئنافِ؛ لأنَّه ليس من جنسِ الأوَّلِ؛ ولهذا لم يقُلْ (وَيَتُبْ) بالجَزمِ؛ لأنَّ القِتالَ غَيرُ موجِبٍ لهم التَّوبةَ من اللهِ عَزَّ وجَلَّ، وهو مُوجِبٌ لهم العَذابَ والخِزيَ، وشِفاءَ صُدورِ المؤمنينَ، وذَهابَ غَيظِ قُلوبِهم. ونظيرُه: ﴿فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ [الشورى: ٢٤] تَمَّ الكَلامُ. ثمَّ قال: ﴿وَيَمْحُ اللهُ البَاطِلَ﴾). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٧١، ٣٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٣٨).

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

مَناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ الآياتِ المُتقَدِّمةَ كانت مُرغِّبةً في الجهادِ، والمقصودُ مِن هذه الآيةِ مَزيدُ بَيانٍ في التَّرغيبِ(١).

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ ﴾.

أي: أظَنَنْتُم- أيُّها المُسلِمونَ(٢)- أن يترُكَكم اللهُ دون أن يَختَبِرَكم بالجِهادِ، فيعلَمَ الصَّادِقينَ منكم الذين يُجاهِدونَ في سبيلِه، مِن الكاذِبينَ المُضَيِّعينَ ما أمَرَ به من جهادِ الكافرينَ؛ عِلمًا ظاهِرًا مَشهودًا يترتَّبُ عليه الثَّوابُ والعِقابُ(٣)؟

كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٧).

(٢) قال ابنُ عاشور: (الخِطابُ للمُسلِمينَ، على تفاوُتِ مَراتِبِهم في مُدَّةِ إسلامِهم، فشَمِلَ المُنافِقينَ؛ لأنَّهم أظهَروا الإسلامَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٣٧، ١٣٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣١٩، ٣٢٠).

قال الزجَّاج: (اللهُ جَلَّ وعَزَّ قد عَلِمَ قَبلَ أمْرِهم بالقِتالِ مَن يُقاتِلُ ممَّن لا يُقاتِلُ، ولكِنَّه كان يعلَمُ ذلك غيبًا، فأراد العِلمَ الذي يُجازي عليه؛ لأنَّه جَلَّ وعَزَّ إنَّما يُجازي على ما عَمِلوا). ((معاني القرآن)) (٢/ ٤٣٧). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣١).

وقال الشنقيطي: (قال البغوي رحمه الله في تفسيرِ هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ﴾ يعني: أحَسِبتُم أن يترُكَكم اللهُ ولم يَرَ اللهُ عَمَلَكم حتى يتبيَّنَ للنَّاسِ المُخلِصَ مِن غَيرِه. وعلى هذا التَّفسيرِ الذي فسَّرَها به، فالمعنى يُشبِهُ قَولَه: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: آية ١٠٥]). ((العذب النمير)) (٥/ ٣٢٠).

وقال سُبحانه: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١ - ٣].

وقال جلَّ جلاله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١].

﴿وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾.

أي: ولـمَّا يَعْلمِ الله الَّذين جاهدُوا مِنكم، والَّذين لم يتَّخِذوا مِن دُونِ اللهِ ولا رَسولِه ولا المُؤمِنينَ بِطانةَ سُوءٍ مِن الكُفَّارِ، يُوالُونَهم ويُفشُونَ إليهم أسرارَ المُؤمنينَ(١).

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ * وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥١ - ٥٣].

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

أي: واللهُ عَليمٌ بِجَميعِ أعمالِكم الخَفِيَّةِ- أيُّها المُسلِمونَ- فيُجازيكم عليها؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٢٢، ٣٢٣).

إنْ خَيرًا فخَيرٌ، وإنْ شَرًّا فشَرٌّ، ومن ذلك اتِّخاذُ بِطانةٍ مِن الكافِرينَ[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ دلَّت هذه الآيةُ على أنَّ المُؤمِنَ ينبغي أن يَخشى ربَّه، وألَّا يَخشَى أحدًا سِواه[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ دليلٌ على أنَّ المُؤمِنَ حقَّ الإيمانِ يكونُ أشجَعَ النَّاسِ، وأعلاهم هِمَّةً؛ لأنَّه لا يخشى إلَّا اللهَ عَزَّ وجَلَّ[٣].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ المُجاهِدُ قد يُجاهِدُ، ولا يكونُ مُخلِصًا، بل يكونُ مُنافقًا، باطِنُه خلافُ ظاهِرِه، وهو الذي يتَّخِذُ الوليجةَ مِن دونِ الله ورسولِه والمُؤمنينِ، فبيَّنَ تعالى في هذه الآيةِ أنَّه لا يترُكُهم إلَّا إذا أتَوْا بالجهادِ مع الإخلاصِ؛ خاليًا عن النِّفاقِ والرِّياءِ، والتودُّدِ إلى الكُفَّارِ، وإبطالِ ما يُخالِفُ طريقةَ الدِّينِ، والمقصودُ بيانُ أنَّه ليس الغَرضُ مِن إيجابِ القتالِ نَفسَ القِتالِ فقط، بل الغَرَضُ أن يُؤتَى به انقيادًا لأمرِ اللهِ عزَّ وجَلَّ، ولِحُكمِه وتكليفِه؛ لِيَظهَرَ به بذلُ النَّفسِ والمالِ في طلَبِ رِضوانِ الله تعالى، فحينئذٍ يحصُلُ به الانتفاعُ، وأمَّا الإقدامُ على القتالِ لِسائِرِ الأغراضِ، فذاك ممَّا لا يُفيدُ أصلًا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٨).

٤- شَرَع اللهُ الجِهادَ؛ لِيَحصُلَ به مقصودٌ أعظَمُ، وهو أن يتميَّزَ الصَّادِقونَ، الذين لا يتحَيَّزونَ إلَّا لِدينِ الله، من الكاذبينَ الذين يزعُمونَ الإيمانَ، وهم يتَّخِذونَ الولائجَ والأولياءَ مِن دونِ الله ورَسوله والمُؤمِنينَ؛ قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾[1]، كذلك جَرَت سنَّةُ اللهِ تعالى بالابتلاءِ؛ لينكشِفَ الخَبيءُ، وتتمَيَّزَ الصفوفُ، وتتمَحَّصَ القلوبُ، ولا يكون ذلك كما يكونُ بالشَّدائِدِ والتَّكاليفِ والمِحَن والابتلاءاتِ[2].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾، ولا وَليجةَ أعظَمُ ممَّن جعَلَ رَجُلًا بعَينِه مُختارًا على كلامِ اللهِ، وكَلامِ رَسولِه، وكلامِ سائِرِ الأمَّةِ، يُقَدِّمُه على ذلك كُلِّه، ويَعْرِضُ كتابَ اللهِ وسُنَّةَ رَسولِه وإجماعَ الأمَّةِ على قَولِه، فما وافَقَه منها قَبِلَه؛ لِمُوافَقتِه لِقَولِه، وما خالَفَه منها تلطَّفَ في ردِّه، وتطَلَّبَ له وُجوهَ الحِيَلِ، فإن لم تكُنْ هذه وليجةً، فلا نَدري ما الوليجةُ[3]؟!

٦- يجِبُ على الإنسانِ أن يُبالِغَ في أمرِ النيَّةِ ورعايةِ القَلبِ؛ قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: عالِمٌ بنيَّاتِهم وأغراضِهم، مُطَّلِعٌ عليها لا يخفى عليه منها شيءٌ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٣١).
(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٦١٣).
(٣) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٢/ ١٣٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٨).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ يدُلُّ على أنَّ قِتالَ النَّاكثينَ أَوْلى مِن قِتالِ غَيرِهم من الكُفَّارِ؛ لِيكونَ ذلك زَجرًا لِغَيرِهم[1].

٢- مُؤاخَذتُهم على مُجَرَّدِ الهَمِّ بإخراجِ الرَّسولِ في قَولِ الله تعالى: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ تدُلُّ على أنَّهم لم يُخرِجوه، وإلَّا لكان الأجدَرُ أن يَنعَى عليهم الإخراجَ لا الهَمَّ به[2]، وهذا على أحدِ أوجهِ التفسيرِ للآيةِ.

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ إنَّما قال: ﴿بَدَءُوكُمْ﴾ تنبيهًا على أنَّ البادِئَ أظلَمُ[3].

٤- إن قيل: أليسَ قال اللهُ تعالى في سورةِ الأنفالِ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣] فكيف قال تعالى هنا: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ فالجَوابُ: أنَّ المُرادَ مِن قَولِه: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ عذابُ الاستئصالِ، والمرادُ مِن قَولِه: ﴿يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ عذابُ القَتلِ والحَربِ. والفَرقُ بين البابَينِ أنَّ عَذابَ الاستئصالِ قد يتعَدَّى إلى غيرِ المُذنِبِ، وإن كان في حَقِّه سببًا لِمَزيدِ الثَّوابِ، أمَّا عذابُ القَتلِ فالظَّاهِرُ أنَّه يَبقَى مقصورًا على المُذنِبِ[4].

٥- في قوله تعالى: ﴿يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ إثباتُ تأثيرِ الأسبابِ؛ حيث

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٣٥)

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٣٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٥).

بيَّن اللهُ تعالى أنَّه هو المُعَذِّبُ؛ وأنَّ أيديَنا أسبابٌ وآلاتٌ وأوساطٌ وأدواتٌ في وصولِ العَذابِ إلى المُشرِكينَ هؤلاء[١].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ شِفاءَ الصُّدورِ مِن ألَمِ النَّكثِ والطَّعنِ، وذَهابَ الغَيظِ الحاصِلِ في صدورِ المُؤمِنينَ مِن ذلك؛ أمرٌ مَقصودٌ للشَّارعِ، مطلوبُ الحُصولِ، وأنَّ ذلك يحصُلُ إذا جاهَدُوا[٢]، فدلَّ على مَحبَّةِ اللهِ لعبادِه المُؤمِنينَ، واعتنائِه بأحوالِهم، حتى إنَّه جعَلَ مِن جُملةِ المقاصِدِ الشَّرعيَّةِ شِفاءَ ما في صُدورِهم، وذَهابَ غَيظِهم[٣].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ دالٌّ على المُعجزة؛ لأنَّه تعالى أخبَرَ عن حصولِ هذه الأحوالِ، وقد وقَعَت مُوافِقةً لهذه الأخبارِ، فيكونُ ذلك إخبارًا عن الغَيبِ، والإخبارُ عن الغَيبِ مُعجِزٌ[٤].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ يدلُّ على كَونِ الصَّحابةِ مُؤمِنينَ في عِلمِ الله تعالى إيمانًا حَقيقيًّا؛ لأنَّها تدُلُّ على أنَّ قُلوبَهم كانت مملوءةً من الغَضَبِ ومن الحميَّةِ؛ لأجلِ الدِّينِ، ومن الرَّغبةِ الشَّديدةِ في عُلُوِّ دِينِ الإسلامِ، وهذه الأحوالُ لا تحصُلُ إلَّا في قلوبِ المُؤمِنينَ[٥].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٣٩٠).
(٢) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ١٩، ٢٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٣١).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٦).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٩- ذكَرَ الله تعالى ما تسبَّبَ عن النَّصرِ مِن شفاءِ صُدورِ المُؤمنينَ، وإذهابِ غَيظِهم في قَولِه: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾؛ تتميمًا للنِّعَم، فذكَرَ ما تسبَّبَ عن النَّصرِ بالنِّسبةِ للكُفَّارِ، وذكَرَ ما تسبَّبَ للمُسلمينَ مِن الفَرَحِ والسُّرورِ بإدراكِ الثَّأرِ، ولم يذكُرْ ما نالوه من المغانِمِ والمطاعِمِ؛ إذ العَرَبُ قَومٌ جُبِلوا على الحميَّةِ والأنَفةِ، فرَغْبَتُهم في إدراكِ الثَّأرِ وقَتلِ الأعداءِ هي اللَّائقةُ بِطِباعِهم[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

- قولُه: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ دخَلتِ الهَمزةُ على (لا تُقاتِلُونَ) تَقريرًا بانْتِفاءِ المُقاتَلةِ، ومعناه: الحَضُّ عليها على سَبيلِ المُبالَغةِ[2].

- قولُهُ: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ اسْتِفهامٌ على مَعْنى التَّقريرِ والتَّوبيخِ؛ فهو تَقريرٌ للخَشيةِ منهم، وتَوبيخٌ عليها[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٨١).
وقال ابنُ عاشور: (ولفظُ (ألَا) يَحتمِل أنْ يكون مجموعَ حَرْفَينِ؛ هما: همزة الاستفهام، و(لا) النافية، ويَحتمِل أن يكون حرفًا واحدًا للتحضيضِ؛ فعلى الاحتمالِ الأوَّل يجوزُ أن يكون الاستفهامُ إنكاريًّا، على انتفاء مُقاتلة المشركين في المستقبل... فيكون دفعًا لأنْ يَتوهَّمَ المسلِمون حُرمةً لتلك العهود. ويجوز أن يكون الاستفهامُ تقريريًّا...؛ تقريرًا على النَّفي تنزيلًا لهم منزلةَ من ترَك القتال؛ فاستوجب طلبَ إقرارِه بتَرْكِه... وعلى الاحتمالِ الثاني أنْ يكون (ألَا) حرفًا واحدًا للتحضيض، فهو تحضيضٌ على القتال، وجَعَل في «المغني» هذه الآية مثالًا لهذا الاستعمالِ على طريقة المبالغةِ في التحذير). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٣٢) باختصار.

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٨٢).

٢- قَولُه تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾

- قولُه: ﴿قَاتِلُوهُمْ﴾ تجريدٌ للأمرِ بالقِتالِ بعدَ التَّوبيخِ على ترْكِهِ، ووَعْدٌ بنَصْرِهم، وبتَعذيبِ أعدائِهم وإخزائهم، وتَشجيعٌ لهم[١].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ يُنبِئُ عمَّا سيكونُ من بعضِ أَهْلِ مَكَّةَ، من التَّوبةِ المقبولةِ بحسَبِ مَشيئتِه تعالى المَبنيَّةِ على الحِكَمِ البالِغةِ[٢].

- قال تعالى هنا: ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، وقال فيما بعد: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٧] فاستَوَتِ الآيتانِ في إعلامِه تعالى نبيَّه والمُؤمِنينَ أنَّه يتوبُ على من يشاءُ، وفي خَتْمِ الآيتينِ بِصِفَتَينِ مِن صِفاتِه سُبحانه، ثم اختلفَتِ الصِّفَتانِ، فقيل في الأولى: ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، وفي الثَّانية: ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؛ وذلك لِمُناسَبةٍ حَسَنةٍ: أنَّ الآيةَ الأُولى أُعقِبَ بها ما تقَدَّمَها مُتَّصِلًا بها مِن الآيِ في كُفَّارِ مَكَّةَ، وفِعْلِهم مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابِه؛ مِن التَّضييقِ والإخراجِ، وبَدْئِهم بالقتالِ يومَ بَدرٍ، ونَقضِهم العهدَ في قصَّةِ خُزاعةَ في صُلحِ الحُديبيَةِ، فأمَرَ اللهُ تعالى بقِتالِهم وخِزْيِهم، والنَّصرِ عليهم، وشفاءِ صُدورِ مَن آمنَ مِن خُزاعةَ وغَيرِهم ممَّن آذَوْه، فقال تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٤٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ ثمَّ قال تعالى: ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ ثمَّ قال ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، أي: بما في القِتالِ، وفي طَيِّ ما جرى من ذلك كلِّه بتَقديرِه السَّابِقِ أوَّلًا؛ إذ لا تتحَرَّكُ ذرَّةٌ إلَّا بإذنِه وتقَدُّمِ عِلْمِه أوَّلًا، وما في ذلك من الحكمةِ، وخَتَم أفعالَهم السيِّئةَ بالأوبةِ والرُّجوعِ إليه سبحانَه بسابِقِ سَعادةٍ لِمَن شاهَدَها له منهم؛ فهذا وَجهُ النَّظمِ، والتَّناسُبُ فيه واضِحٌ.

وأمَّا الآيةُ الثَّانيةُ فسَبَبُها- والله أعلَمُ- ما جرى يومَ حُنَينٍ مِن تولِّي النَّاسِ مُدبِرينَ، حين ابتُلُوا بإعجابِهم بكَثرتِهم، فلم تُغنِ عنهم شيئًا، ولم يثبُتْ مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في ذلك اليومِ أحَدٌ؛ إذ لم يَبرَحْ عليه السَّلامُ مِن مكانِه، فلم يثبُتْ معه إلَّا القَليلُ مِن العَدَدِ القليلِ، فنادى العباسُ رضي الله عنه بآلِ الأنصارِ فاستجابَ ناسٌ، وأنزَلَ اللهُ سَكينتَه على رسولِه وعلى المُؤمنينَ، ومكَّنَ نبيَّه والمُسلِمينَ من أعدائِهم، فخُتِمَت هذه الآيُ بقَولِه تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؛ تأنيسًا لِمَن فَرَّ مِن المسلمينَ في ذلك اليومِ، وبِشارةً لهم بتوبةِ اللهِ عليهم، وأنَّ ما وقع منهم من الفِرارِ مَغفورٌ لهم؛ رحمةً مِن اللهِ سبحانه، فجاء كلُّ هذا على ما يناسِبُ، ولا يُلائِمُ خِلافُه(١).

- قولُه: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ تذييلٌ؛ لإفادةِ أنَّ الله يُعامِلُ النَّاسَ بما يَعْلَمُ مِن نيَّاتِهم، وأنَّه حَكيمٌ لا يأمُرُ إلَّا بما فيه تَحقيقُ الحِكْمةِ؛ فوَجَبَ على النَّاسِ امْتِثالُ أوامِرِه، وأنَّه يَقْبَلُ تَوبةَ مَن تاب إليه؛ تكثيرًا للصَّلاحِ(٢).

٤- قَولُه تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا﴾ (أَمْ) مُنْقَطِعةٌ؛ لإفادةِ الإضرابِ عن غَرضٍ

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٢٦-٢٢٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٣٧).

من الكلامِ للانْتِقال إلى غَرَضٍ آخَرَ، والكلامُ بَعْدَ (أَمْ) المُنْقطِعةِ له حُكْمُ الاسْتِفهامِ دائمًا؛ فقولُه: ﴿حَسِبْتُمْ﴾ في قوَّةِ (أَحَسِبْتُمْ)، والاسْتِفهامُ المُقدَّرُ إنكاريٌّ[١].

- وتَنكيرُ ﴿وَلِيجَةً﴾ في سِياقِ النَّفْيِ ﴿لَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ يَعُمُّ سائرَ أفرادِها[٢].

- وجملةُ: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ تَذييلٌ؛ لإنكارِ ذلك الحُسبانِ، أي: لا تَحسبوا ذلك مع عِلمِكم بأنَّ اللهَ خَبيرٌ بكلِّ ما تَعملونَه[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٣٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ١٣٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٧-١٩)

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ۚ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (١٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ۖ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (١٨) ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾: أي: سَقْيَ الحَجيجِ، و(سقاية) مصدرٌ مِن (سقى)، وأصلُ (سقي): إشرابُ الشيءِ الماءَ، وما أشبهَه[1].

﴿وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ﴾: أي: القِيامَ بِمَصالِحِه ومُعاهَدتَه. والعِمارةُ: نَقيضُ الخَرابِ، و(عمارة) مصدرُ (عمَر)، وأصلُ (عمر): يدلُّ على بقاءٍ، وامتدادِ زمانٍ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يُبَيِّنُ تعالى أنَّه لا ينبغي للمُشرِكينَ أن يَعمُرُوا مساجِدَ الله ببنائِها أو التعبُّدِ فيها، والحالُ أنَّهم شاهِدونَ على أنفُسِهم بالكُفرِ، أولئك بطَلَت أعمالُهم، وهم في نارِ جهنَّمَ، ماكثونَ فيها على الدَّوام.

وأخبَرَ تعالى أنَّ مساجِدَ اللهِ يعمُرُها مَن آمَنَ باللهِ وبالبَعثِ والقيامةِ، وأقام الصَّلاةَ المكتوبةَ بِحُدودِها، وأدَّى الزَّكاةَ المَفروضةَ إلى مُستحِقِّيها، ولم يخَفْ

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٩١)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٦٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٩١).

إلَّا اللهَ تعالى، فعسَى أولئك أن يكونُوا من المُهتَدينَ.

ثم يقولُ تعالى: أجعَلْتُم- أيُّها النَّاسُ- أصحابَ سِقايةِ الحجيجِ وعِمارةِ المَسجِدِ الحرامِ، كمَن آمَنَ باللهِ وباليوم الآخِرِ، وجاهدَ في سبيلِ الله، بل لا يَستوونَ عندَ اللهِ، واللهُ لا يهدي القَومَ الظَّالِمينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ۚ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (١٧)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه تعالى بدأ السُّورةَ بذِكرِ البراءةِ من الكُفَّارِ، وبالَغَ في إيجابِ ذلك، وذكرَ مِن أنواعِ فضائِحِهم وقبائِحِهم ما يُوجِبُ تلك البراءةَ، ثمَّ إنَّه تعالى حكى عنهم شُبَهًا احتجُّوا بها في أنَّ هذه البراءةَ غيرُ جائزةٍ، وأنَّه يجبُ أن تكونَ المُخالَطةُ والمُناصَرةُ حاصلةً؛ فأوَّلُها ما ذكَرَه في هذه الآيةِ، وذلك أنَّهم موصوفونَ بصِفاتٍ حَميدةٍ وخِصالٍ مَرضِيَّةٍ، وهي تُوجِبُ مُخالَطتَهم ومُعاوَنتَهم ومُناصَرتَهم، ومن جملةِ تلك الصِّفاتِ كَونُهم عامرينَ للمَسجِدِ الحَرامِ(١).

وأيضًا لَمَّا حَذَّرَهم اللهُ تعالى مِن اتِّخاذِ وليجةٍ مِن دُونِه، شرَعَ يُبيِّنُ أنَّ الوليجةَ التي يتَّخِذُها بعضُهم لا تصلُحُ للعاطفةِ بما اتَّصَفَت به من محاسِنِ الأعمالِ، ما لم تُوضَعْ تلك المحاسِنُ على الأساسِ الذي هو الإيمانُ الـمُبَيِّنُ بدَلائِلِه، فقال سائقًا له مَساقَ جَوابِ قائلٍ قال: إنَّ فيهم مِن أفعالِ الخَيرِ ما يدعو إلى الكَفِّ عنهم؛ من عمارةِ المسجِدِ الحرامِ وخِدمَتِه وتَعظيمِه(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٨٥).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٠٠).

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ﴾.

أي: ما ينبغي للمُشركينَ أن يَعمُروا مساجِدَ اللهِ ببنائِها وتزيينِها، والعبادةِ فيها، والحالُ أنَّهم شاهِدونَ على أنفُسِهم بالكُفرِ(١)؛ بما يأتُونَه من أقوالٍ وأفعالٍ كُفريَّةٍ، يُقِرُّونَ بها، ولا يُمكِنُهم إنكارُها(٢).

---

(١) قال الرازي: (أقرُّوا على أنفُسِهم بعبادةِ الأوثانِ وتكذيبِ القُرآنِ، وإنكارِ نُبوَّةِ مُحمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وكلُّ ذلك كُفرٌ، فمَن يَشهَدُ على نَفسِه بكُلِّ هذه الأشياءِ، فقد شَهِدَ على نَفسِه بما هو كُفرٌ في نفسِ الأمرِ، وليس المرادُ أنَّهم شَهِدُوا على أنفُسِهم بأنَّهم كافِرونَ). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩).

وقال ابنُ كثير: (وهم شاهدونَ على أنفسِهم بالكفرِ، أي: بحالِهم وقالِهم، كما قال السُّديُّ: لو سألتَ النصرانيَّ: ما دينُك؟ لقال: نصرانيٌّ، واليهوديَّ: ما دينُك؟ لقال: يهوديٌّ، والصابئَ، لقال: صابئٌ، والمشركَ، لقال: مشركٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٩).

وقال ابنُ عاشور: (وشَهادتُهم على أنفُسِهم بالكُفرِ حاصِلةٌ في كثيرٍ مِن أقوالِهم وأعمالِهم؛ بحيث لا يستطيعونَ إنكارَ ذلك، مثل قَولِهم في التَّلبيةِ: «لبَّيكَ لا شريكَ لك، إلَّا شريكًا هو لك، تَملِكُه وما مَلَك»، ومثل سُجُودِهم للأصنامِ، وطوافِهم بها، ووضْعِهم إيَّاها في جَوفِ الكَعبةِ وحَولَها وعلى سَطْحِها). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٧٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٢٨، ٣٢٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٥)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٨/ ٤٨٥)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٢٦، ٣٢٧).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ بِعِمارةِ المساجِدِ هنا: العبادةُ: ابنُ جرير، وابنُ تيميَّة، والسعدي، وابنُ عاشورٍ. إلَّا أنَّ ابنَ عاشورٍ يرى أنَّ المرادَ بـ﴿مَسَاجِدَ اللهِ﴾: مواضِعُ عبادتِه، والمعنيُّ بذلك: المسجِدُ الحرامُ وما يَتْبَعُه من المَسعَى وعَرَفةَ، والمشعَرِ الحرامِ والجَمَرات، والمَنْحَرِ من مِنًى. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٧٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٤٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٣٩-١٤٠).

قال ابنُ رجبٍ: (عِمارةُ المساجِدِ تكونُ بِمَعنيينِ:

أحدُهما: عِمارَتُها الحسيَّةُ؛ ببنائِها وإصلاحِها وترميمِها، وما أشبَهَ ذلك.

والثاني: عِمارتُها المعنويَّةُ؛ بالصَّلاةِ فيها، وذِكرِ اللهِ وتلاوةِ كِتابِه، ونَشْرِ العِلمِ الذي أنزَلَه على رسولِه، ونحوِ ذلك. =

﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾.

أي: أولئك المُشرِكونَ قد بَطَلَت أعمالُهم- ومنها عِمارةُ البَيتِ الحَرامِ- فلا يُؤجَرونَ عليها في الآخرةِ؛ بِسَبَبِ شِرْكِهم(١).

كما قال سُبحانه: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥-١٦].

وقال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

﴿وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ﴾.

أي: وأولئك المُشرِكونَ في نارِ جهنَّمَ، ماكِثونَ فيها على الدَّوامِ(٢).

= وقد فُسِّرَت الآيةُ بكُلٍّ واحدٍ مِن المعنيَينِ، وفُسِّرَت بهما جميعًا، والمعنى الثَّاني أخصُّ بها... واتَّفقوا على مَنْعِ الكُفَّارِ مِن إظهارِ دِينِهم في مساجِدِ المسلمينَ، لا نعلَمُ في ذلك خِلافًا. وهذا ممَّا يدُلُّ على اتِّفاقِ النَّاسِ على أنَّ العِمارةَ المَعنويَّةَ مُرادةٌ مِن الآيةِ). ((فتح الباري)) (٢/ ٤٨١-٤٨٣).

وقال الواحديُّ: (أكثرُ المفسِّرين حملوا العمارةَ ههنا على دخولِ المسجدِ الحرامِ والقعودِ فيه). ((البسيط)) (١٠/ ٨٣٢).

وقال الرازي: (عمارةُ المساجدِ قسمان: إمَّا بلزومِها، وكثرةِ إتيانِها يُقال: فلانٌ يعمرُ مجلسَ فلانٍ، إذا كثُر غشيانُه إيَّاه، وإمَّا بالعمارةِ المعروفةِ في البناءِ). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩).

وممن رجَّح أنَّ المرادَ بها: بناءُ المساجِدِ وتَرميمُها وتزيينُها: الشنقيطي. يُنظر: ((العذب النمير)) (٥/ ٣٢٧-٣٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٧٥)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٢٩٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٢٩).

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى عدَمَ استحقاقِ المُشرِكينَ لِعمارةِ مَساجِدِ اللهِ، أثبَتَها للمُسلِمينَ الكامِلينَ، وجَعَلَها مقصورةً عليهم بالفِعلِ لا بمجَرَّدِ الشَّأنِ والاستحقاقِ[١]، فقال تعالى:

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾.

أي: ما يَعمُرُ مَساجِدَ اللهِ حقًّا- بقَصْدِها وعبادةِ اللهِ تعالى وذِكْرِه فيها، وببنائِها وتَرميمِها والعنايةِ بها[٢]- إلَّا المُؤمِنُ باللهِ عزَّ وجلَّ، وبالبَعْثِ والقيامةِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٦-٣٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

وقال سُبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾ [البقرة: ١١٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٥٤).

قال ابنُ كثيرٍ: (ليس المرادُ مِن عِمارتِها زَخْرَفتَها وإقامةَ صُورتِها فقط، إنَّما عِمارتُها بذِكرِ اللهِ فيها، وإقامةِ شَرْعِه فيها، ورَفْعِها عن الدَّنَسِ والشِّركِ). ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٩٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٦/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٣١).

وعن عُثمانَ بنِ عَفَّانَ رَضِيَ الله عنه، قال: سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: ((مَن بنى مَسجِدًا يبتغي به وَجهَ اللهِ، بنى اللهُ له مِثلَه في الجنَّةِ))(١).

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: ((سبعةٌ يُظِلُّهم اللهُ يَومَ القيامةِ في ظِلِّه، يَومَ لا ظِلَّ إلَّا ظِلُّه)) وذَكَرَ منهم: ((ورجُلٌ قَلبُه مُعَلَّقٌ في المسجِدِ))(٢).

﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

أي: وأقام الصَّلاةَ المَكتوبةَ بِحُدودِها، وأدَّى الزَّكاةَ الواجبةَ عليه في مالِه إلى مُستحِقِّيها، ولم يَخَفْ إلَّا اللهَ تعالى وَحْدَه، فلم يترُكْ أمرَ اللهِ ونَهْيَه؛ لِخَشيةِ غَيرِه(٣).

﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٤٥٠)، ومسلم (٥٣٣).

(٢) رواه البخاري (٦٨٠٦) واللفظ له، ومسلم (١٠٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٧٦)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٢١).

قال الواحدي: (قولُه تعالى: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ قال الزجَّاجُ: تأويلُه: لم يَخَفْ في بابِ الدِّينِ إلَّا اللهَ جَلَّ وعزَّ، وقال أهلُ المعاني: يعني: لا يترُكُ هذه العباداتِ لِخَشيةِ أحدٍ، ولكنْ يخشى اللهَ فيُقيمُ ذلك، والخَشيةُ مِن غَيرِ اللهِ المنهيُّ عنها: أن يترُكَ أمْرَ اللهِ لِخَشيةِ غَيرِه، فأمَّا أن يخشى النَّاسَ خَشيةً لا تؤدِّيه إلى تَرْكِ أمرِ اللهِ، فليس بمنهيٍّ عنه). ((البسيط)) (١٠/ ٣٣٤). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٩٠).

وقال أبو حيان: (﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ قال ابنُ عطيةَ: يُريدُ خشيةَ التَّعظيمِ والعبادةِ والطَّاعةِ، ولا محالةَ أنَّ الإنسانَ يخشى غَيرَه، ويخشى المحاذيرَ الدُّنيويَّةَ، وينبغي أن يَخشَى في ذلك كلِّه قَضاءَ اللهِ وتَصريفَه. وقال الزَّمخشري: هي الخشيةُ والتقوى في أبوابِ الدِّينِ، وألَّا يختارَ على رِضا اللهِ رِضا غيرِه، وإذا اعترَضه أمرانِ أحدُهما حَقُّ الله تعالى، والآخَرُ حَقُّ نَفسِه؛ خاف اللهَ، وآثَرَ حَقَّ اللهِ على حقِّ نَفسِه. وقيل: كانوا يَخشَونَ الأصنامَ ويَرجُونَها، فأُريدَ نفيُ تلك الخشيةِ عنهم). ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٨٧). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٦).

أي: فعُمَّارُ المَساجِدِ المُؤمِنونَ بالله وباليومِ الآخِرِ، المقيمونَ الصَّلاةَ والمؤتونَ الزكاةَ، الذين يَخشَونَ اللهَ تعالى وَحدَه، هم مِن الذينَ هداهم اللهُ للتمَسُّك بالحَقِّ الـمُوصِلِ إلى الجنَّةِ[1].

﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا وقَعَ الكلامُ على أنَّ المُؤمِنينَ هم الأحِقَّاءُ بعِمارةِ المَسجِدِ الحرامِ مِن المُشرِكينَ؛ دلَّ ذلك الكلامُ على أنَّ المَسجِدَ الحَرامَ لا يحِقُّ لِغَيرِ المُسلِمِ أن يُباشِرَ فيه عملًا مِن الأعمالِ الخاصَّةِ به، فكان ذلك مَثارَ ظَنٍّ بأنَّ القِيامَ بِشَعائِرِ المسجِدِ الحرامِ مُساوٍ للقيامِ بأفضَلِ أعمالِ الإسلامِ[2].

﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٣٥)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٢٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٣٢).

جماهيرُ العُلَماءِ يقولون: «عسى» مِن اللهِ واجِبةٌ؛ لأنَّ اللهَ كريمٌ لا يُطمِعُ في شيءٍ إلَّا هو فاعِلُه؛ لِشِدَّةِ كَرَمِه- جَلَّ وعلا- وفَضْلِه. يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٣٢).

قال الواحدي: (وعسى مِن اللهِ واجبةٌ، ولكِنْ ذُكِرَ بِلَفظِ ﴿عسى﴾؛ ليكونُوا على رجاءٍ وطَمَعٍ وحَذَرٍ). ((البسيط)) (١٠/ ٣٣٥).

وقيل: هي بمعنى خَليقٌ، أي: فخليقٌ أن يكونُوا من المُهتَدينَ، وقيل: إنَّ الرَّجاءَ راجِعٌ إلى العِبادِ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٩٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٥٥)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٤٣).

أي: أجَعَلْتُم[١]- أيُّها النَّاسُ- أصحابَ[٢] سَقْيِ الحَجيجِ وعمارةِ المَسجِدِ الحرامِ[٣] المُشركينَ، كالمؤمنينَ باللهِ واليَومِ الآخِرِ، والمجاهدينَ في سبيلِ اللهِ[٤]؟!

عن النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كنتُ عند مِنبَرِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال رجلٌ: ما أُبالي ألَّا أعمَلَ عَمَلًا بعد الإسلامِ إلَّا أنْ أسقِيَ الحاجَّ، وقال آخَرُ: ما أُبالي ألَّا أعمَلَ عَمَلًا بعد الإسلامِ إلَّا أن أعمُرَ المَسجِدَ الحَرامَ، وقال آخَرُ: الجِهادُ في سبيلِ اللهِ أفضَلُ ممَّا قُلتُم، فزَجَرَهم عُمَرُ، وقال: لا تَرفَعوا أصواتَكم عند مِنبَرِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو

---

(١) قال الشِّنقيطي: (الظَّاهِرُ أنَّ (جَعَلَ) هنا هي التي بمعنى (اعتقَدَ)، وأنَّه أنكَرَ عليهم اعتِقادَهم تساوِيَ هذَينِ الأمرينِ، وهما بعيدٌ مِن المُساواة، بينهما بَونٌ عَظيمٌ، وبَونٌ شاسِعٌ. وكان بعضُهم يقولُ: لا يبعُدُ أن تكونَ هي التي بمعنى (صيَّر) أي: صيَّرتُم هذا كهذا، وادَّعَيتُم أنَّه مِثلُه). ((العذب النمير)) (٥/ ٣٣٧).

(٢) قال الشنقيطي: (﴿كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ لا بُدَّ أن يُقَدَّرَ مُضافٌ في أحدِ الأمرَينِ.
قال بَعضُ العُلماءِ: يُقَدَّرُ في الأوَّلِ، والمعنى: أجعَلْتُم أصحابَ سِقايةِ الحاجِّ، أو أهلَ سِقايةِ الحاجِّ وعِمارةِ المَسجِدِ الحرامِ كمَن آمَنَ، أي: كالذينَ آمنوا بالله؟
وقال بعضُ العُلَماءِ: يُقدَّرُ المضافُ في الثَّاني: أي: أجعلْتُم سقايةَ الحاجِّ وعِمارةَ المسجِدِ كعَمَلِ مَن آمَنَ باللهِ. والأمرانِ جائزانِ، وأظهَرُهما: تقديرُه في الأوَّلِ، والمعنى: أجعَلْتُم أهلَ سِقايةِ الحاجِّ وأصحابَ عِمارةِ المسجِدِ كالذين آمَنوا بالله، لا يَكونونَ مِثلَهم أبدًا). ((العذب النمير)) (٥/ ٣٤١).

(٣) قال ابنُ عاشور: (السِّقايةُ: صِيغةٌ للصِّناعة، أي: صناعة السَّقيِ، وهي السَّقيُ مِن ماءِ زَمزمَ، ولذلك أُضيفَت السِّقايةُ إلى الحاجِّ. وكذلك العمارةُ صِناعةُ التَّعميرِ، أي: القيام على تعميرِ شَيءٍ بالإصلاحِ والحراسةِ ونحو ذلك... وأضيفَتْ إلى المسجِدِ الحرامِ؛ لأنَّها عمَلٌ في ذاتِ المَسجِدِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨١)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٣٦، ٣٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٩١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٣٧، ٣٤١).
قال ابن جرير: (هذا توبيخٌ مِن اللهِ تعالى ذِكْرُه لِقَومٍ افتخَروا بالسِّقايةِ وسِدانةِ البَيتِ، فأعلَمَهم جلَّ ثَناؤُه أنَّ الفَخرَ في الإيمانِ باللهِ واليومِ الآخِرِ والجهادِ في سبيلِه، لا في الذي افتَخَروا به من السِّدانةِ والسِّقايةِ). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٧٧).

يَومُ الجُمُعةِ، ولكِنْ إذا صَلَّيْتُ الجُمُعةَ دخَلْتُ فاستفتَيْتُه فيما اختلَفْتُم فيه، فأنزَلَ اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية إلى آخِرِها))(١).

﴿لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ﴾.

أي: لا يجعَلُ اللهُ سُقاةَ الحاجِّ وعُمَّارَ المسجِدِ الحرامِ مِن الكُفَّارِ، في منزلةِ المُؤمنينَ باللهِ واليَومِ الآخِرِ، والمُجاهِدينَ في سبيلِ الله(٢).

كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

وقال سبحانه: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥-٣٦].

---

(١) رواه مسلم (١٨٧٩).

قال القرطبي: (هذا المَساقُ يقتضي أنَّها إنَّما نزَلَت عند اختلافِ المُسلِمينَ في الأفضَلِ مِن هذه الأعمالِ. وحينئذٍ لا يَليقُ أن يُقالَ لهم في آخِرِ الآيةِ: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ فتعيَّنَ الإشكالُ. وإزالَتُه بأن يُقالَ: إنَّ بعضَ الرُّواةِ تَسامَحَ في قَولِه: (فأنزَلَ اللهُ الآيةَ). وإنَّما قرأ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الآيةَ على عُمَرَ حينَ سألَه، فظَنَّ الرَّاوي أنَّها نزَلَت حينئذٍ. واستدَلَّ بها النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على أنَّ الجهادَ أفضَلُ ممَّا قال أولئك الذين سَمِعَهم عُمرُ، فاستفتى لهم فتلا عليه ما قد كان أُنزِلَ عليه، لا أنَّها نزَلَت في هؤلاءِ. والله أعلم). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٩٢)، ويُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٣٦٥).

وقال الشنقيطي عن كلامِ القرطبيِّ: (وكلامُه فيه أجوَدُ ما وقفْتُ عليه في إزالةِ إشكالِه). ((العذب النمير)) (٥/ ٣٣٦-٣٣٧).

وقال القاسمي: (قولُ النعمانِ (فأنزل الله) بمعنى أنَّ مثلَ هذا التحاورِ نزَل فيه فيصلٌ متقدِّمٌ، وهو هذه الآيةُ، لا بمعنى أنَّه كان سببًا لنزولِها... وهذا الاستعمالُ شائعٌ بينَ السلفِ، ومن لم يتفطَّنْ له تتناقض عندَه الرواياتُ، ويحار في المخرجِ، فافهمْ ذلك وتفطَّنْ له) ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢).

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا نفى اللهُ عزَّ وجلَّ المُساواةَ بين الفَريقينِ، أوضَحَ مَن الراجِحُ مِنهما، ولَمَّا أثبَتَ الهِدايةَ للمُؤمِنينَ بِقَولِه: ﴿فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾، نفاها عن المُشرِكينَ فقال[1]:

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

أي: واللهُ لا يوفِّقُ للتَّوبةِ، ولِفِعلِ الأعمالِ الصَّالحةِ، الكُفَّارَ والمُشرِكينَ، ومنهم أهلُ سِقايةِ الحاجِّ وعِمارةِ المَسجِدِ الحرامِ، مِن المُشرِكينَ الذين ظَلَموا بمُساواةِ أعمالِهم هذه بالإيمانِ باللهِ وباليومِ الآخِرِ والجهادِ في سبيلِ اللهِ، فوَضَعوا الأشياءَ في غيرِ مواضِعِها[2].

كما قال تعالى: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ في ضِمنِ هذا الخبَرِ أمرُ المؤمنينَ بعِمارةِ المَساجِدِ، ويتناوَلُ عِمارَتُها رَمَّ ما تهدَّمَ منها، وتنظيفَها، وتنويرَها، وتعظيمَها، واعتيادَها للعِبادةِ والذِّكرِ- ومِن الذِّكرِ دَرسُ العِلمِ، بل

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨١)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٥٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٤٢).

هو أجَلُّه- وصَونَها عمَّا لم تُبْنَ له[١].

٢- عُمَّارُ المَساجِدِ على الحقيقةِ، وأهلُها الذينَ هم أهلُها؛ موصوفونَ بالإيمانِ النَّافِعِ، وبالقيامِ بالأعمالِ الصَّالحةِ التي أمُّها الصَّلاةُ والزَّكاةُ، وبخشيةِ الله التي هي أصلُ كُلِّ خَيرٍ؛ يُبيِّنُ ذلك قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾[٢].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ فيه أنَّ أولئك الجامعينَ لهذه الخَمسِ مِن أركانِ الإيمانِ والإسلامِ- التي يلزَمُها سائِرُ أركانِها- هم الذين يرجُونَ بحَقٍّ، أو يُرجَى لهم بحسَبِ سُنَنِ اللهِ في أعمالِ البشَرِ، وتأثيرِها في إصلاحِهم؛ أن يكونوا من جماعةِ المُهتَدينَ إلى ما يُحِبُّ اللهُ ويرضى مِن عمارةِ مَساجِدِه حِسًّا ومعنًى، واستحقاقِ الجَزاءِ عليها بالجنَّةِ خالدين فيها، دونَ غَيرِهم من المُشرِكينَ الجامِعينَ لأضدادِها[٣].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ (عسى) مِن اللهِ تعالى: واجِبةٌ حيثما وقعَتْ في القُرآنِ، وفي ذلك قَطعُ أطماعِ المُشرِكينَ أن يكونوا مُهتَدينَ؛ إذ مَن جمَعَ هذه الخِصالَ جُعِلَ حالُه حالَ مَن تُرجَى له الهدايةُ، فكيف بمن هو عارٍ منها، وفي ذلك ترجيحُ الخَشيةِ على الرَّجاءِ، ورَفْضُ الاغترارِ بالأعمالِ الصَّالحةِ، فربَّما دخَلَها بعضُ المُفسِداتِ وصاحِبُها لا يشعُرُ بها[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٨٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٣١).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٩٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٨٧).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ دلَّت هذه الآيةُ على أنَّ الكافِرَ ممنوعٌ مِن عمارةِ مَسجدٍ مِن مساجِدِ المُسلمينَ، ولو أوصى بها لم تُقبَلْ وصيَّتُه، ويُمنَعُ عن دخولِ المَساجِدِ[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ يدلُّ على أنَّ عَمَلَ الكافِرِ مُحبَطٌ لا ثوابَ فيه[٢].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ احتُجَّ بهذه الآيةِ على أنَّ الفاسِقَ مِن أهلِ الصَّلاةِ لا يبقى مُخلَّدًا في النَّارِ مِن وَجهَينِ: أنَّ قَولَه: ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ يُفيدُ الحَصرَ، أي: هم فيها خالِدونَ لا غيرُهم، ولَمَّا كان هذا الكلامُ وارِدًا في حَقِّ الكُفَّارِ، ثبت أنَّ الخُلودَ لا يحصُلُ إلَّا للكافِرِ. والثاني: أنَّه تعالى جعَلَ الخُلودَ في النَّارِ جَزاءً للكُفَّارِ على كُفرِهم، فلو كان هذا الحُكمُ جَزاءً لِغَيرِ الكافِرِ، لَمَا صَحَّ تهديدُ الكافِرِ به[٣].

٤- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ دليلٌ على أنَّ الشَّهادةَ لعُمَّارِ المساجِدِ بالإيمانِ صحيحةٌ؛ لأنَّ اللهَ سُبحانه ربَطَه بها، وأخبَرَ عنه بمُلازَمتِها. وقد قال بعضُ السَّلَفِ: (إذا رأيتم الرَّجُلَ يعمُرُ المَسجِدَ، فحَسِّنُوا به الظَّنَّ)[٤].

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٠)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٩٠).

٥- قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ جرتِ العادةُ أنَّ اللَّهَ يذكرُ الإيمانَ باليومِ الآخِرِ مع الإيمانِ به؛ لأَنَّ الكُفرَ باليوم الآخِرِ سببٌ لكلِّ البَلايا، وأنواعِ الكُفرِ والجحودِ؛ لأنَّ مَطامعَ العُقلاءِ محصورةٌ في أمرينِ؛ هما: جلبُ النَّفعِ، ودفعُ الضرِّ، والذي لا يُصدِّقُ بيومِ القيامةِ لا يرغَبُ في خيرٍ في ذلك اليَومِ، ولا يخافُ من شَرٍّ في ذلك اليومِ، فلا يَنزَجِرُ عن شيءٍ، ولا يَرعَوي عن شيءٍ؛ ولذا كان التَّكذيبُ بالبعثِ من أشنعِ أنواعِ الكُفرِ باللهِ جلَّ وعلا(١).

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ اعتبارُ إقامةِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ في عِمارةِ المسجِدِ، كأنَّه يدلُّ على أنَّ المُرادَ مِن عِمارة المسجِدِ الحضورُ فيه؛ وذلك لأنَّ الإنسانَ إذا كان مُقيمًا للصَّلاةِ، فإنَّه يحضُرُ في المسجِدِ، فتحصُلُ عِمارةُ المسجِدِ به، وإذا كان مُؤتيًا للزَّكاةِ، فإنَّه يحضُرُ في المسجِدِ طوائفُ الفُقَراءِ والمساكينِ لِطَلَبِ أخذِ الزَّكاةِ، فتحصُلُ عِمارةُ المسجِدِ به. وإذا حَمَلْنا العِمارةَ على مصالِحِ البِناءِ: فإيتاءُ الزَّكاةِ مُعتبَرٌ في هذا البابِ أيضًا؛ لأنَّ إيتاءَ الزَّكاةِ واجِبٌ، وبناءَ المسجِدِ نافلةٌ، والإنسانُ ما لم يَفرُغْ عن الواجِبِ لا يَشتغِلُ بالنَّافلةِ، والظَّاهِرُ أنَّ الإنسانَ ما لم يكُن مؤدِّيًا للزَّكاةِ لم يشتغِلْ ببناءِ المَساجِدِ(٢).

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ ناسبَ ذِكرُ إيتاءِ الزَّكاةِ مع عمارةِ المَساجِدِ؛ لأنَّها لَمَّا كانت مَجمَعًا للنَّاسِ بانَ فيها أمْرُ الغَنيِّ والفقيرِ، وعُرِفَت أحوالُ مَن يؤدِّي الزَّكاةَ، ومَن يستحِقُّها(٣).

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٨٧).

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ﴾ فيه أنَّ الجهادَ والإيمانَ باللهِ أفضَلُ مِن سقايةِ الحاجِّ وعمارةِ المسجِدِ الحرامِ بدرجاتٍ كثيرةٍ؛ لأنَّ الإيمانَ أصلُ الدِّينِ، وبه تُقبَلُ الأعمالُ، وتزكو الخِصالُ، وأمَّا الجِهادُ في سبيلِ اللهِ فهو ذِروةُ سَنامِ الدِّينِ، الذي به يُحفَظُ الدِّينُ الإسلاميُّ ويتَّسِعُ، ويُنصَرُ الحقُّ، ويُخذَلُ الباطِلُ، وأمَّا عِمارةُ المسجِدِ الحرامِ وسِقايةُ الحاجِّ، فهي وإنْ كانت أعمالًا صالحةً، فهي مُتوقِّفةٌ على الإيمانِ، وليس فيها مِن المصالحِ ما في الإيمانِ والجهادِ؛ فلذلك قال: ﴿لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[(١)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾

- قولُه: ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ ابتداءُ ذمٍّ لهم، وجِيءَ باسمِ الإشارةِ ﴿أُولَئِكَ﴾ الذي فيه معنى البُعدِ؛ لأنَّهم قد تميَّزوا بوَصْفِ الشَّهادةِ على أنفُسِهم بالكُفرِ[(٢)].

- قولُهُ: ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ فيه إيرادُ الجُملةِ الاسميَّةِ؛ للمُبالَغةِ في الدَّلالةِ على الخُلودِ، والظَّرفُ ﴿وَفِي النَّارِ﴾ مُتعلِّقٌ بالخَبرِ ﴿خَالِدُونَ﴾، وقُدِّم عليه؛ للاهْتِمام به، ولمُراعاةِ الفاصِلَةِ[(٣)]، وليحصُل منه تعجيلُ المَساءةِ للكُفَّارِ إذا سَمِعوه[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٣١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٤١).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٥٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٤١).

٢- قَوْلُه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾

- وقولُه: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ...﴾ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ جُملةَ: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ لَمَّا اقْتَضتْ إقْصاءَ المشركينَ عن العبادةِ في المساجِدِ، كانتْ بحيثُ تُثيرُ سؤالًا في نُفوسِ السَّامعينَ أن يَتطلَّبوا مَن هم الأحقَّاءُ بأنْ يَعْمُروا المساجدَ، فكانتْ هذه الجُمْلةُ مُفيدةً في جوابِ هذا السَّائلِ(١).

- ومجيءُ صيغةِ القَصْرِ ﴿إِنَّمَا﴾ فيها مُؤذِنٌ بأنَّ المقصودَ إقصاءُ فِرَقٍ أُخْرى عن أنْ يَعْمُروا مَساجدَ اللهِ غيرِ المشركينَ الذين كان إقصاؤُهم بالصَّريحِ؛ فتعيَّن أنْ يكونَ المرادُ من الموصولِ وصِلتِه خُصوصَ المُسلمينَ؛ لأنَّ مجموعَ الصِّفاتِ المذكورةِ في الصِّلةِ لا يَثْبُتُ لغيرِهم(٢).

- قولُه: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ فيه قَصْرٌ إِضَافِيٌّ، وذلك باعتبارِ تعارُضِ خَشْيَتين، فإذا تَرَدَّدَ الحالُ بينَ خشْيَتِهم اللَّه وخشْيَتِهم غيرَه قَدَّموا خشيةَ اللَّه على خشيةِ غيرِه، كقولِه آنِفًا: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ﴾ [التَّوبَة: ١٣] وليس المرادُ مِن القصرِ أنَّهم لا يخافونَ شيئًا غيرَ اللَّه، فإنَّهم قد يَخافونَ الأسدَ، ويخافونَ العدُوَّ(٣).

- قولُه: ﴿فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ فيه تَبْعيدٌ للمُشركينَ عن مواقفِ الاهتداءِ، وحَسْمٌ لأطماعِهم من الانْتِفاعِ بأعمالِهم التي اسْتَعظموها، وافْتَخروا بها، وأمَّلوا عاقِبَتَها، بأنَّ الذين آمنوا وضَمُّوا إلى إيمانِهم العملَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٤١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ١٤٢).

بالشَّرائعِ مع اسْتِشعارِ الخشيةِ والتَّقوى؛ اهتداؤُهم دائرٌ بين (عسى) و(لعلَّ)؛ فما بالُ المشركينَ يَقْطَعون أنَّهم مُهتدونَ، ونائلونَ عند اللهِ الحُسْنى[١]؟!

- والتعبيرُ عنهم باسمِ الإشارةِ ﴿أُولَئِكَ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّهم اسْتَحقُّوا هذا الأملَ فيهم بسَببِ تلك الأعمالِ التي عُدِّتْ لهم[٢].

٣- قَولُه تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

- الاسْتِفهامُ في ﴿أَجَعَلْتُمْ﴾ للإنكارِ؛ وهو إنكارُ أن يُشبَّه المشرِكونَ، وأعمالُهم المُحبَطةُ، بالمؤمنِينَ، وأعمالِهم المُثْبَتةِ، وجَعَلَ تَسويتَهم ظُلمًا، بعدَ ظُلْمِهم بالكُفْرِ[٣].

- والخِطابُ في هذه الآيةِ إمَّا للمُشركينَ على طريقةِ الالتِفاتِ، وهو المتبادِرُ من تخصيصِ ذكرِ الإيمانِ بجانبِ المشبَّهِ به، وإمَّا لبعضِ المؤمنِينَ المؤْثِرين للسِّقاية والعِمارةِ ونحوِهما على الهِجرَةِ والجِهادِ ونظائرِهما، وهو المناسِبُ للاكتفاءِ في الردِّ عليهم ببيانِ عَدمِ مساواتِهم عند اللهِ للفريق الثاني، وبيانِ أعظميةِ درجتِهم عند الله تعالى على وجه يُشعر بعدم حِرمانِ الأوَّلين بالكُليَّةِ. أمَّا على الأوَّلِ فهو توبيخٌ للمشركين، ومدارُه على إنكار تشبيهِ أنفسِهم- مِن حيثُ اتصافُهم بوصفَيْهم المذكورين، مع قطعِ النظرِ عمَّا هُم عليهِ من الشركِ- بالمؤمنين، مِن حيث اتصافُهم بالإيمان والجهاد،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٥٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٤٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٥٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٧٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٤٣).

أو على إنكارِ تشبيهِ وصفيهم المذكورين في حدِّ ذاتِهما، مع الإغماضِ عن مقارنتِهما للشِّركِ بالإيمانِ والجهادِ، وأمَّا اعتبارُ مقارنتِهما له، كما قيل، فيأباه المقامُ، كيف لا وقد بيَّن آنفًا حبوطُ أعمالِهم بذلك الاعتبارِ بالمرة، وكونُها بمنزلة العدم، فتوبيخُهم بعد ذلك على تشبيهِهما بالإيمانِ والجهادِ، ثم رَدُّ ذلك بما يُشعر بعدم حِرمانِهم عن أصل الفضيلة بالكلية، كما أشير إليه، ممَّا لا يساعدُهُ النظمُ التنزيليُّ، ولو اعتُبر ذلك لما احتيج إلى تقريرِ إنكارِ التشبيهِ وتأكيدِه بشيء آخرَ؛ إذ لا شيءَ أظهرُ بطلانًا مِن تشبيهِ المعدومِ بالموجودِ(١).

- قولُه: ﴿كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ لم يُذْكَرِ الإيمانُ بالرَّسولِ؛ لأنَّ الإيمانَ باليومِ الآخِرِ إنَّما هو مُتلقَّفٌ مِن أخبارِ الرَّسولِ، فيَتضمَّن الإيمانَ بالرَّسولِ، أو لم يُذْكَرْ؛ لِمَا عُلِمَ وشُهِرَ مِن أنَّ الإيمانَ بالله تعالى قَرينتُه الإيمانُ بالرِّسولِ؛ لاشْتِمالِ كلمةِ الشَّهادةِ والأذانِ والإقامةِ وغيرِها عليهما، مُقترَنَيْنِ مُزْدَوجَيْنِ كأنَّهما شيءٌ واحدٌ، لا يَنْفَكُّ أَحدُهما عن صاحبِهِ؛ فانْطوى تحت ذِكْرِ الإيمانِ باللهِ تعالى الإيمانُ بالرِّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. وقيل: دلَّ عليه بِذِكْرِ إقامةِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ؛ إذ لا يُتلقَّى ذلك إلَّا مِنه(٢).

٤- قولُه تعالى: ﴿... وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال تعالى هنا في سُورةِ التَّوبة: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، بعد قوله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾، وورَد بعدَ هذا بآياتٍ: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ بعدَ قولِه: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ...﴾ الآيَةَ [التوبة: ٢٤]، وقال بعد ذلك في

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٥٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٨٧).

هذِه السُّورةِ أيضًا: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ بعد قوله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ...﴾ الآيَةَ [التوبة: ٣٧]، وفي ذِكْرِ المنافِقينَ مِن هذِه السُّورةِ قال: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٨٠]، فخُصِّصتْ بعضُ هذه الآياتِ بـ(الظَّالِمين) وبعضُها بـ(الفاسقين) وبعضُها بـ(الكافرين)؛ ووجْهُ هذِه المُناسَبةِ؛ أنَّ المراد بـ (الظَّالمين) في الآيةِ الأُولى مُشركو العربِ، الذين قاموا بسِقايةِ الحاجِّ، وأنفقوا على المسجد الحرام؛ فهُم لأنفُسِهم بالكُفرِ ظالِمون، وبعَمَلِهم- الذي يُؤمِّلون الانتفاعَ به مع مُضامَّةِ الكُفرِ- واضِعونَ الشَّيءَ في غيرِ موضعِه، فلمَّا فَعَل هؤلاءِ المشركون ذلك، وكان كلُّ مُشرِكٍ ظالِمًا، وكلُّ مَن وضَع شيئًا في غيرِ مَوضعِه يكونُ ظالِمًا؛ عبَّر عنهم بـ(الظَّالمين)؛ لانطِواءِ هذه الصِّفةِ على الكُفرِ، وعلى المعنَى الزَّائدِ بتَضييعِ المالِ في حالِ الشِّركِ.

وأمَّا الموضِع الثاني، وهو قولُه: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾؛ فإنَّه تحذيرٌ لِمَن قال فيهم مِن المُسلِمين: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [التوبة: ٢٤]؛ فعَرَّفهم أنَّ مَن آثَرَ مُراعاةَ هذِه الأبوابِ التي عَدَّها على طاعةِ اللهِ تعالى؛ فإنَّه بفِعلِه ذلك مِن جُملةِ الفاسِقين، وأنَّ حُكمَه حُكمُهم؛ فكان ذِكرُ (الفاسقين) أليقَ بهذا المَكانِ.

وأمَّا الموضِعُ الثَّالِث، وهو قولُه تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ فإنَّه بعدَ قولِه تعالى في وصْفِ الكُفَّار: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ﴾ [التوبة: ٣٧]، فأخْبَر الله تعالى أنَّ ذلك زيادةٌ في كُفرِهم، ثم عَقَّبه بوصْفِهم بأنَّه لا يَهدِيهم، فكان أحقُّ الأوصافِ في هذا

المكانِ لَفْظَةَ (الكافرين) التي اقتَضاها هذا المعنى والذِّكرُ المتقدِّمُ في مَكانَينِ من الآيةِ.

أمَّا الموضِعُ الرابع، وهو قولُ الله تعالى في ذِكرِ المنافقِينَ مِن هذِه السُّورةِ: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾، فقدْ قال تعالى قَبْلَه: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الآياتِ [التوبة: ٧٥]، فوُصِفوا بالتَّظاهُرِ بالإسلام، ثم خرَجوا عنه بشَنيعِ كُفرِهم، وقَبيحِ مُرتكَباتِهم، ووصَفَهم تعالى بأنَّهم ﴿يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، ثم قال: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾؛ فلخُروجِهم ومُفارقتِهم ما قدْ كانوا تَظاهَروا به مِن الإسلامِ، وُصِفوا بالفِسقِ الذي هو الخُروجُ والمفارقةُ، كما يُقالُ: فَسَقتِ الرُّطبةُ، إذا خرَجتْ مِن قِشرِها[1].

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٧٠٠-٧٠٣)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٢٧-٢٢٨).

الآيات (٢٠-٢٢)

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿مُقِيمٌ﴾: أي: دائِمٌ ثابتٌ مُستمِرٌّ، ويُعبَّر بالإقامةِ عن الدوامِ، وأصلُ (قوم): يدلُّ على انتصابٍ أو عَزمٍ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ تعالى أنَّ أصحابَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، الذين آمَنُوا وترَكُوا ديارَ الكُفرِ إلى ديارِ الإيمانِ بهجرَتِهم إلى المدينةِ، وجاهَدُوا بأموالِهم وأنفُسِهم؛ لِتَكونَ كَلِمةُ اللهِ هي العليا؛ هم أرفَعُ درجةً مِن سُقاةِ الحاجِّ وعُمَّارِ المسجِدِ الحرامِ مِن المُشرِكينَ، وأولئك هم الفائزونَ، يُبشِّرُهم ربُّهم جلَّ وعلا برحمةٍ عظيمةٍ، ورضًا منه، وجناتٍ لهم فيها نعيمٌ دائِمٌ لا يزولُ، ماكثينَ فيها على الدَّوامِ، إنَّ اللهَ عنده أجرٌ عَظيمٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لما حكَم الله تعالى بأنَّ الصنفينِ لا يستوون بقولِه: ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٤).

بيَّن ذلك وأوضَحه، فعدَّد الإيمانَ والهجرةَ والجهادَ، وحكَم أنَّ أهلَ هذه الخصالِ أعْظمُ دَرَجةً عندَ اللَّهِ مِن جميعِ الخلق، ثم حكَم لهم بالفوزِ برحمتِه ورضوانِه، مع تفصيلٍ للجهادِ المذكورِ في قولِه: ﴿وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ بأنَّه الجِهادُ بالأموالِ والأنفُسِ(١).

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ ﴾.

أي: أصحابُ مُحمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، الذين آمَنوا باللهِ تعالى، وبِكُلِّ ما يجِبُ عليهم الإيمانُ به، وهاجَرُوا مِن أوطانِهم ودِيارِهم إلى مَدينةِ رَسولِ اللهِ، وجاهَدوا لإعلاءِ كَلِمةِ اللهِ تعالى بأموالِهم وأنفُسِهم، أولئك أرفَعُ مَنزلةً، وأعلى مكانةً عِندَ اللهِ مِن سُقاةِ الحاجِّ، وعُمَّارِ المَسجِدِ الحَرامِ مِن المُشركينَ(٢).

كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٩٥-٩٦].

وقال سبحانه: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨٢)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٣٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٤٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٤٣).

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ الله عنه، قال: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لا تسُبُّوا أصحابي؛ فلو أنَّ أحَدَكم أنفَقَ مِثلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، ما بلغ مُدَّ أحَدِهم ولا نَصيفَه(١)))(٢).

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾.

أي: وأولئك- الذين آمَنوا وهاجَرُوا وجاهَدُوا في سبيلِ اللهِ- هم الذينَ يَظفَرونَ بِمَطلوبِهم بِدُخولِ الجنَّةِ، والنَّجاةِ مِن النَّارِ(٣).

كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقال سُبحانه: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠].

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ (٢١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لما قال الله تعالى: ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾، وقال: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾؛ أتبَعه ببيانِ هذه الدَّرَجةِ العَظيمةِ، وهذا الفَوزِ المُجمَلِ(٤)، فقال:

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾.

أي: يُعْلِمُ اللهُ الذين آمَنوا وهاجَروا وجاهَدوا في سبيلِ اللهِ، بأنَّ لهم رحمةً

---

(١) النَّصيفُ: أي: نِصفُ المُدِّ. والمعنى: لا ينالُ أحَدُكم بإنفاقِ مِثلِ أُحُدٍ ذَهبًا مِن الأجْرِ والفَضلِ، ما ينالُ أحدُهم بإنفاقِ مُدِّ طَعامٍ أو نِصفِه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٩/ ٣٨٧٥).

(٢) رواه البخاري (٣٦٧٣) واللفظ له، ومسلم (٢٥٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٣٩، ٣٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٤٩).

عظيمةً مِن ربِّهم، يزولُ بها عنهم الشرورُ، ويصلُ إليهم بها كلُّ خيرٍ، وأنَّه رَضِيَ عنهم رضًا كاملًا، فلا يسخطُ عليهم أبدًا(١).

كما قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٠ - ١٣].

وعن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ اللهَ يقولُ لأهلِ الجنَّةِ: يا أهلَ الجنَّةِ. فيقولون: لبَّيكَ رَبَّنا وسَعْدَيكَ، والخيرُ في يديكَ. فيقولُ: هل رَضِيتُم؟ فيقولونَ: وما لنا لا نَرضَى يا رَبِّ، وقد أعطيتَنا ما لم تُعطِ أحدًا مِن خَلْقِك؟! فيقولُ: ألَا أُعطِيكم أفضَلَ مِن ذلك؟ فيقولونَ: يا ربِّ، وأيُّ شَيءٍ أفضَلُ مِن ذلك؟! فيقولُ: أُحِلُّ عليكم رِضواني، فلا أسخَطُ عليكم بَعدَه أبدًا))(٢).

﴿وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨٢)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٣٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٤٩).

(٢) رواه البخاري (٧٥١٨)، ومسلم (٢٨٢٩).

أي: ويُبَشِّرُهم اللهُ أيضًا بجنَّاتٍ لهم فيها نعيمٌ دائِمٌ لا يَزولُ(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فصلت: ٨].

وقال سُبحانه: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾ [الطلاق: ١١].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ في الجنَّةِ مِئةَ درجةٍ، أعَدَّها اللهُ للمُجاهِدينَ في سبيلِه، كُلُّ دَرَجتَينِ ما بينهما كما بينَ السَّماءِ والأرضِ، فإذا سألتُمُ اللهَ فَسَلُوه الفِردَوسَ؛ فإنَّه أوسَطُ الجنَّةِ، وأعلى الجنَّةِ، وفَوقَه عَرشُ الرَّحمنِ، ومنه تفَجَّرُ أنهارُ الجنَّةِ))(٢).

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢)﴾.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾.

أي: ماكِثينَ في تلك الجَنَّاتِ بلا نهايةٍ(٣).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٧ - ١٠٨].

﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ عنده جزاءٌ وثوابٌ كَبيرٌ على الأعمالِ الصَّالحةِ، يمنَحُه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٥٣).

(٢) رواه البخاري (٧٤٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٥٤).

للمُؤمِنينَ في الآخرةِ(١).

كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

وقال سُبحانه: ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ * ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ * يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [الزخرف: ٦٨-٧٣].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ قال في وَصفِهم ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ مع أنَّه ليس للكُفَّارِ دَرَجةٌ؛ لِوجوهٍ:

الأول: أنَّ هذا ورَدَ على حسَبِ ما كانوا يُقَدِّرونَ لأنفُسِهم مِن الدَّرَجةِ والفَضيلةِ عند اللهِ.

الثاني: أن يكونَ المُرادُ أنَّ أولئك أعظَمُ دَرَجةً مِن كلِّ مَن لم يكُنْ مَوصوفًا بهذه الصِّفاتِ؛ تنبيهًا على أنَّهم لَمَّا كانوا أفضَلَ مِن المؤمنينَ الذين ما كانوا مَوصوفينَ بهذه الصِّفاتِ، فبِألَّا يُقاسُوا إلى الكُفَّارِ أَوْلى.

الثالثُ: أن يكونَ المُرادُ أنَّ المُؤمِنَ المُجاهِدَ المُهاجِرَ أفضَلُ ممَّن على السِّقايةِ والعِمارةِ، والمُرادُ منه ترجيحُ تلك الأعمالِ على هذه الأعمالِ، ولا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٥٤).

شَكَّ أنَّ السِّقايةَ والعِمارةَ مِن أعمالِ الخَيرِ، وإنَّما بطَلَ إيجابُهما للثَّوابِ في حقِّ الكُفَّارِ؛ لأنَّ قِيامَ الكُفرِ - الذي هو أعظَمُ الجِناياتِ - يمنَعُ ظُهورَ ذلك الأثَرِ(١).

٢- في قولِه تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ إلى قولِه سبحانه: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ رَدٌّ على المرجئةِ فيما يزعمون أنَّ المرءَ بكلمةِ الإخلاصِ وحدَها مستكملٌ الإيمانَ؛ ومَن كان مستكملَ الإيمانِ فهو في الجنةِ؛ فإنَّ اللهَ تعالى لم يشهدْ بالفوزِ بالجنةِ والرحمةِ والرضوانِ في هذه الآيةِ إلَّا بالهجرةِ والجهادِ بالأموالِ والأنفسِ(٢).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ﴾ لَمَّا كانت الأوصافُ التي تحَلَّوا بها، وصارَوا بها عَبيدَه حقيقةً، هي ثلاثةٌ: الإيمانُ، والهِجرةُ، والجِهادُ بالمالِ والنَّفسِ- قُوبِلوا في التَّبشيرِ بثَلاثةٍ: الرَّحمةِ، والرِّضوانِ، والجنَّاتِ. فبدَأَ بالرَّحمةِ؛ لأنَّها الوَصفُ الأعَمُّ النَّاشِئُ عنها تيسيرُ الإيمانِ لهم، وثَنَّى بالرِّضوانِ؛ لأنَّه الغايةُ مِن إحسانِ الرَّبِّ لِعَبدِه، وهو مُقابِلُ الجهادِ؛ إذ هو بَذْلُ النَّفسِ والمالِ، وقُدِّمَ على الجنَّاتِ؛ لأنَّ رِضا اللهِ عن العَبدِ أفضَلُ مِن إسكانِهم الجنَّةَ، وأتى ثالثًا بِقَولِه: ﴿وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ﴾، أي: دائِمٌ لا ينقطِعُ. وهذا مُقابِلٌ لِقَولِه: ﴿وَهَاجَرُوا﴾ لأنَّهم تركُوا أوطانَهم التي نَشَؤوا فيها، وكانوا فيها مُنعَّمِينَ، فآثَرُوا الهِجرةَ على دارِ الكُفرِ إلى مُستَقَرِّ الإيمانِ والرِّسالةِ، فقُوبِلوا على ذلك بالجَنَّاتِ ذواتِ النَّعيمِ الدَّائِمِ، فجاء التَّرتيبُ في أوصافِهم على حسَبِ الواقِعِ: الإيمانُ، ثمَّ الهِجرةُ، ثمَّ الجِهادُ. وجاء التَّرتيبُ في المُقابِلِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٤).
(٢) يُنظر: ((النُّكتُ الدالّة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٤٩٩).

على حسَبِ الأعَمِّ، ثمَّ الأشْرَفِ، ثمَّ التَّكميلِ[1].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ﴾ قَولُه: ﴿وَرِضْوَانٍ﴾ أي: نَوعٍ مِن الرِّضَا التَّامِّ الكامِلِ، الذي لا يَشُوبُه ولا يَعقُبُه سَخَطٌ؛ يدُلُّ على هذا المعنى زيادةُ لَفظِ (رِضوانٍ) في المبنى على لَفظِ (رِضا) مع تنكيرِه[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾

- قَولُ الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ المفضَّل عليه محذوفٌ؛ لظهورِه: أي أعظمُ درجةً عندَ الله مِن أصحابِ السِّقاية والعمارةِ الذين آمنوا ولم يُهاجروا، ولم يُجاهدوا الجهادَ الكثيرَ الذي جاهده المسلمونَ أيامَ بقاءِ أولئك في الكفرِ[3]. وقيل: لم يُعيِّنْ ذِكرَهم، فلم يقُلْ: (أعظَمُ درجةً مِن المشتَغِلينَ بالسِّقايةِ والعِمارةِ)؛ لأنَّه لو عيَّنَ ذِكرَهم لأوهَمَ أنَّ فَضيلتَهم إنَّما حصَلَت بالنِّسبةِ إليهم، ولَمَّا ترَكَ ذِكرَ المَرجوحِ، دلَّ ذلك على أنَّهم أفضَلُ مِن كلِّ مَن سِواهم على الإطلاقِ؛ لأنَّه لا يُعقَلُ حُصولُ سَعادةٍ وفَضيلةٍ للإنسانِ أعلى وأكمَلَ مِن هذه الصِّفاتِ[4].

- قولُه: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ جملةٌ مَعطوفةٌ على ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٨٩، ٣٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٣-١٤).

أي: أَعْظَمُ، وهم أصحابُ الفَوزِ، وتَعريفُ ﴿الْفَائِزُونَ﴾ باللَّامِ مُفيدٌ للقَصْرِ، وهو قَصْرٌ ادِّعائيٌّ؛ للمُبالَغةِ في عِظَمِ فوزِهم، حتى إنَّ فوزَ غيرِهم بالنِّسبةِ إلى فوزِهم يُعَدُّ كالمعدومِ(١).

- والإتيانُ باسمِ الإشارةِ (أُولئِكَ)؛ للتَّنبيهِ على أنَّهم اسْتَحقُّوا الفوزَ لأجْلِ تِلك الأوصافِ التي مَيَّزَتْهم، وهي: الإيمانُ، والهِجْرةُ، والجِهادُ بالأموالِ والأنْفُسِ(٢).

٢- قوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ﴾ فيه التَّعرُّضُ لعُنوانِ الربوبيَّة؛ تأكيدًا للمُبشَّرِ به، وتَربيةً له(٣)؛ فأُسْنِدَ التَّبشيرُ إلى ﴿رَبُّهُمْ﴾؛ لِمَا في ذلك من الإحسانِ إليهم بأنَّ مالِكَ أَمْرِهم، والنَّاظِرَ في مصالِحِهم هو الذي يُبشِّرُهم(٤).

- وإسنادُ التَّبشيرِ إلى اسمِ الجَلالةِ بِصيغةِ المُضارِعِ- المُفيدِ للتَّجدُّدِ- مُؤذِنٌ بتَعاقُبِ الخَيراتِ عليهم، وتَجدُّدِ إدخالِ السُّرورِ بذلك لهم؛ لأنَّ تجَدُّدَ التَّبشيرِ يُؤذِنُ بأنَّ المُبَشَّرَ به شَيءٌ لم يكُن معلومًا للمبشَّرِ، وإلَّا لكان الإخبارُ به تحصيلًا للحاصِلِ(٥).

- قولُه: ﴿بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ فيه تَنكيرُ الرَّحمةِ والرِّضوانِ؛ للتَّفخيمِ والتَّعظيمِ(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٤٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٥٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٨٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٤٩).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٩٠).

٣- قوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿خالِدِينَ فِيها أَبَدًا﴾ أكَّدَ الخُلُودَ بالتَّأبيدِ؛ لأنَّهُ قَدْ يُسْتَعْمَلُ للمُكْثِ الطَّويلِ[1].

- وقولُه: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ استئنافٌ وَقَعَ تعليلًا لِمَا سَبَقَ[2]، مع ما فيه من التَّأكيدِ بـ(إنَّ) واسميَّةِ الجُمْلةِ.

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٥٣).

الآيتان (٢٣-٢٤)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٤ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿وَعَشِيرَتُكُمۡ﴾: العَشِيرَةُ: أهلُ الرَّجلِ الذين يتكثَّر بهم، أو الجماعةُ التي ترجِعُ إلى عَقدٍ واحدٍ كعَقدِ العشرةِ فما زادَ، ومنه المعاشَرَةُ، وهي الاجتماعُ على الشَّيءِ، وأصلُ (عشر): يدلُّ على مداخلةٍ ومخالطةٍ(١).

﴿اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾: أي: اكتَسَبتُموها وحصَّلْتُموها، والاقترافُ: الاكْتِسابُ، حُسنًا كان أو سُوءًا، وهو في الإساءةِ أكثرُ استعمالًا، وأصلُ (الاقترافِ): اقتطاعُ الشيءِ مِن مكانِه إلى غيرِه، وأصلُ (قرف): يَدُلُّ عَلَى مُخالطةِ الشَّيءِ، والالتِباسِ به، وادِّراعِه، ومنه: اقْتَرفْتُ الشَّيءَ: اكْتَسَبْتُه، وكأنَّه لابَسَه وادَّرَعه(٢).

﴿كَسَادَهَا﴾: أي: فَوَاتَ وَقتِ رواجِها، والكَسادُ: خِلافُ النَّفاقِ ونقيضُه،

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨٤)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٢٤).

وأصلُ (كسد): يدلُّ على الشَّيءِ الدُّونِ لا يُرغَبُ فيه[1].

﴿فَتَرَبَّصُوا﴾: أي: انتَظِرُوا وتمهَّلُوا، والتَّربُّصُ: الانتِظارُ بالشَّيءِ، وأصلُ (ربص): يدلُّ على الانتظارِ[2].

المعنى الإجماليُّ:

ينهى اللهُ المُؤمِنينَ عن مُوالاةِ آبائِهم وإخوانِهم في النَّسَبِ إن اختارُوا الكُفرَ باللهِ، وآثَرُوه على الإيمانِ، وأخبَرَ أنَّه مَن يتوَلَّهم فأولئك هم الظَّالِمونَ.

وأمَرَ نَبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يقولَ لهم: إنْ كان آباؤُهم وأبناؤُهم وإخوانُهم وأزواجُهم وعمومُ أقارِبِهم، وأموالٌ اكتَسَبُوها، وتَعِبُوا في تحصيلِها، وتجارةٌ يَخافونَ إن هاجَرُوا أن تكسُدَ، وبيوتٌ يُحِبُّونَها، ولا يُريدونَ مُفارَقتَها؛ أحَبَّ إليهم مِن اللهِ ورَسولِه وجهادٍ لإعلاءِ كلمَتِه- فَلْيَنتَظِروا حتى يأتيَهم اللهُ بعُقوبةٍ عاجلةٍ أو آجِلةٍ، واللهُ لا يهدي القَومَ الفاسِقينَ.

تفسيرُ الآيتين:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِ﴾.

أي: يا أيُّها الذين آمَنوا، لا تتَّخِذوا آباءَكم وإخوانَكم في النَّسَبِ بِطانةً وأصدقاءَ، تُناصِرونَهم، وتُفشُونَ إليهم أسرارَ المُسلِمينَ، وتُؤثِرونَ المُكْثَ بينهم

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٨٠)، ((لسان العرب)) لابن منظور (٣/ ٣٨٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٥٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٣٨)، ((غريب القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ١٩٨).

على الهجرةِ إلى دارِ الإسلامِ، إن اختارُوا- على وجهِ الرِّضا والمحبَّةِ- الكُفرَ بالله، وآثَرُوه على الإيمانِ به سبُحانه[1].

﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

أي: ومَن يتَّخِذْ منكم- أيُّها المُؤمِنونَ- أقاربَه الكُفَّارَ بطانةً، يُحِبُّهم ويُناصِرُهم، ويُؤثِرُ المُقامَ بينهم على الهِجرةِ إلى دارِ الإسلامِ، فأولئك هم الذينَ عَصَوُا اللهَ، وخالَفُوا أمرَه، فوَضَعوا الوَلايةَ في غَيرِ مَوضِعِها، واتَّخذوا من يَضُرُّهم أولياءَ، وتَرَكوا ما ينفَعُهم مِن الهجرةِ والجِهادِ في سَبيلِ الله تعالى[2].

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كانتِ الأنفُسُ مُختلِفةَ الهِمَمِ، مُتبايِنةَ السَّجايا والشِّيَمِ، كان هذا غيرَ كافٍ في التَّهديدِ لِكُلِّها، فأتبَعَه تَهديدًا أشَدَّ منه بالنِّسبةِ إلى تلك النُّفوسِ، فقال مُنتَقِلًا من أسلوبِ الإقبالِ إلى مقامِ الإعراضِ المُؤذِنِ بزَواجِرِ الغَضَبِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٧)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٣٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٥٦).

قال ابنُ عطية: (ظاهرُ هذه المُخاطَبةِ أنَّها لِجَميعِ المُؤمِنينَ كافَّةً، وهي باقيةُ الحُكمِ إلى يومِ القِيامةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨٣، ٣٨٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٥٦، ٣٥٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٢١).

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ ﴾.

أي: قل- يا محمَّدُ- للمُتخَلِّفينَ عن الهِجرةِ إلى دارِ الإسلامِ: إن كان آباؤُكم وأبناؤُكم، وإخوانُكم في النَّسَبِ وزوجاتُكم، وعمومُ أقارِبِكم[1].

﴿ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ ﴾.

أي: وأموالٌ اكتسَبْتُموها، وتَعِبتُم في تَحصيلِها، وتجارةٌ تَخافونَ- إن هاجَرْتُم- عدَمَ بَيعِها ورواجِها، أو رُخصَ سِعرِها ونَقصَ أرباحِها، وبيوتٌ تُحِبُّونَ سُكْناها، فلا تُريدونَ تَرْكَها[2].

﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ ﴾.

أي: إن كانت تلك الأشياءُ أحبَّ إليكم مِن اللهِ ورَسولِه، وجهادٍ لإعلاءِ كَلِمتِه تعالى[3].

عن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه وجَدَ بهِنَّ حَلاوةَ الإيمانِ: مَن كان اللهُ ورَسولُه أحَبَّ إليه ممَّا سِواهما، وأنْ يُحِبَّ المرءَ لا يُحِبُّه إلَّا لله، وأن يَكرَهَ أن يعودَ في الكُفرِ بعد أن أنقَذَه اللهُ منه، كما يكرَهُ أن يُقذَفَ في النَّارِ))[4].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٥/ ٢٢)، ((تفسير الماوردي)) (٢/ ٣٤٩)، ((تفسير النسفي)) (١/ ٦٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨٤، ٣٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٦١).

(٤) رواه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣) واللفظ له.

وعنه أيضًا، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لا يُؤمِنُ أحَدُكم، حتى أكونَ أحَبَّ إليه مِن وَلَدِه ووالِدِه والنَّاسِ أجمَعينَ))[١].

وعن عبدِ اللهِ بنِ هِشامٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((كنَّا مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو آخِذٌ بيَدِ عُمَرَ بنِ الخطَّابِ، فقال له عُمَرُ: يا رَسولَ اللهِ، لأنت أحَبُّ إليَّ مِن كُلِّ شَيءٍ إلَّا مِن نفسي، فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لا والذي نفسي بيَدِه، حتَّى أكونَ أحَبَّ إليك مِن نَفسِك. فقال له عُمَرُ: فإنَّه الآنَ، واللهِ لأنتَ أحَبُّ إليَّ مِن نَفسي. فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: الآنَ يا عُمَرُ))[٢].

﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾.

أي: فانتَظِرُوا- أيُّها المُتخَلِّفونَ عن الهِجرةِ والجِهادِ- حتى يأتيَكم اللهُ بعُقوبةٍ عاجلةٍ أو آجلةٍ[٣].

عن أبي أُمامةَ رَضِيَ الله عنه، عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَن لم يَغْزُ أو يُجهِّزْ غازِيًا، أو يَخْلُفْ غازِيًا في أهلِه بخَيرٍ؛ أصابَه اللهُ سُبحانه بقارعةٍ قبلَ يَومِ القيامةِ))[٤].

---

(١) رواه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤) واللفظ له.

(٢) رواه البخاري (٦٦٣٢).

(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٤٣)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٦٣).

وقيل: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ أي: فتحِ مكةَ. ونسَبه الواحديُّ للأكثرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٨٧).

قال الشوكانيُّ: (وفيه بعدٌ؛ فقد رُوي أنَّ هذه السورةَ نزلتْ بعدَ الفتحِ). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٩٦)، ويُنظر ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥٤).

(٤) أخرجه أبو داود (٢٥٠٣)، وابن ماجة (٢٧٦٢) واللفظ له، والدارمي (٢٤٦٢)، وابن أبي عاصم في ((الجهاد)) (٩٩).

صحح إسناده النووي في ((رياض الصالحين)) (٤٣٧)، وحسن الحديث الألباني في ((صحيح أبي داود)) (٢٥٠٣).

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَن مات ولم يَغزُ، ولم يحدِّث به نفسَه، مات على شُعبةٍ من نِفاقٍ))(١).

وعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إذا تَبايَعتُم بالعِينةِ(٢)، وأخَذْتُم أذنابَ البَقَرِ(٣)، ورَضِيتُم بالزَّرعِ، وتَرَكْتُم الجِهادَ؛ سلَّطَ اللهُ عليكم ذُلًّا لا يَنزِعُه، حتى تَرجِعُوا إلى دِينِكم))(٤).

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

أي: واللهُ لا يوفِّقُ للخَيرِ الخارِجينَ عن طاعَتِه إلى مَعصِيَتِه، المُؤْثِرينَ على محبَّةِ الله تعالى شيئًا مِن تلك المذكوراتِ(٥).

---

(١) رواه مسلم (١٩١٠).

(٢) العِينَة: هي أن يبيعَ مِن الرَّجُل سلعةً بثَمَنٍ معلومٍ إلى أجَلٍ مُسمًّى، ثمَّ يَشتَريها منه نقدًا بأقَلَّ مِن الثَّمَنِ الذي باعها به. يُنظر: ((التنوير شرح الجامع الصغير)) للصنعاني (١/ ٦١٦).

(٣) أخَذْتُم أذنابَ البَقَرِ: كنايةٌ عن الاشتغالِ بالحَرْثِ. يُنظر: ((التيسير بشرح الجامع الصغير)) للمناوي (١/ ٨٤).

(٤) أخرجه أبو داود (٣٤٦٢) واللفظ له، وأحمد (٥٠٠٧)، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (١٢/ ٤٣٢) (١٣٥٨٣).

قال ابن القطان في ((الوهم والإيهام)) (٥/ ٧٧١): له طريق صحيح، وصحح إسناده ابن تيمية في ((بيان الدليل)) (١٠٩)، وقال ابن عبد الهادي في ((المحرر)) (٣١٥): رجال إسناده رجال الصحيح، وقال الشوكاني في ((نيل الأوطار)) (٥/ ٣١٨): له طرق يشد بعضها بعضا، وصححه الألباني في ((السلسلة الصحيحة)) (١١) بمجموع طرقه.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٤٣)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٦٣).

قال الشنقيطي: (مِثلُ هذه الآياتِ فيه سُؤالٌ مَعروفٌ للعُلَماء، كقَولِه تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾، ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ فاللهُ جلَّ وعلا نفى هدايتَه للفاسِقينَ، ونفى هدايتَه للظَّالِمينَ، مع أنَّا نُشاهِدُ بعضَ الفاسقينَ الظَّالِمينَ يهدِيه اللهُ، وكم من كافرٍ شَديدٍ في الكُفرِ، ظالمٍ فاسقٍ يهديه اللهُ! هذا وجهُ الإشكالِ.

وأجاب العُلَماءُ عن هذا بجَوابَينِ: =

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- الحَذرُ مِن مُوالاةِ مَن استحَبُّوا الكُفرَ على الإيمانِ، في ظاهِرِ أمْرِهم أو باطِنِه؛ يُرشِدُنا إلى ذلك قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾(١).

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ هكذا تتقطَّعُ أواصِرُ الدَّمِ والنَّسَبِ، إذا انقطَعَتْ آصِرةُ القَلبِ والعقيدةِ، وتَبطُلُ وَلايةُ القَرابةِ في الأسرةِ، إذا بطَلَت وَلايةُ القَرابةِ في اللهِ؛ فلِلَّه الوَلايةُ الأُولى، وفيها ترتبِطُ البَشَريَّةُ جميعًا، فإذا لم تكُنْ، فلا وَلايةَ بعد ذلك، والحَبلُ مَقطوعٌ، والعُروةُ مَنقوضةٌ(٢).

٣- قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّه إذا وقعَ التَّعارُضُ بين مصلحةٍ واحدةٍ مِن مصالحِ الدِّينِ

= أحدُهما: أنَّ قَولَه: ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ من العامِّ المخصوصِ، وأنَّ المُرادَ بها الذين سبَقَ في علمِ اللهِ أنَّهم لا يَهتَدونَ مِن الفَسَقةِ والظَّلَمةِ، الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧]

وقال بعضُ العُلَماءِ: لا يهديهم ما زالوا مُتَّصِفينَ بالظُّلمِ والفِسقِ، فإذا نَزَعوا عن ذلك برحمةِ اللهِ وهدايتِه، زال عنهم اسمُ الفِسقِ والظُّلمِ، فلا مانع إذَنْ مِن هُداهم. هكذا قالَه بعضُ العُلَماءِ. واللهُ تعالى أعلَمُ. ((العذب النمير)) (٥/ ٣٦٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥١).

(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٦١٥).

وبين جميعِ مُهِمَّاتِ الدُّنيا؛ وجب على المُسلِمِ تَرجيحُ الدِّينِ على الدُّنيا(١).

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ أعظَمُ دليلٍ على وُجوبِ محبَّةِ اللهِ ورَسولِه، وعلى تقديمِها على محبَّةِ كُلِّ شَيءٍ، وعلى الوعيدِ الشَّديدِ والمَقْتِ الأكيدِ، على من كان شَيءٌ مِن هذه المذكوراتِ أحَبَّ إليه مِن اللهِ ورَسولِه، وجهادٍ في سبيلِه، وعلامةُ ذلك أنَّه إذا عُرِضَ عليه أمرانِ؛ أحدُهما يُحبُّه اللهُ ورَسولُه، وليس لِنَفسِه فيه هوًى، والآخَرُ تُحبُّه نَفسُه وتَشتَهيه، ولكنه يُفَوِّتُ عليه محبوبًا لله ورَسولِه، أو يَنقُصُه؛ فإنَّه إن قدَّمَ ما تهواه نفسُه على ما يُحبُّه الله، دلَّ ذلك على أنَّه ظالِمٌ، تارِكٌ لِما يجِبُ عليه(٢).

٥- قال الله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آباءَكُمْ وَإِخْوانَكُمْ أَوْلِياءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * قُلْ إِنْ كانَ آباؤُكُمْ وَأَبْناؤُكُمْ وَإِخْوانُكُمْ وَأَزْواجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوالٌ اقْتَرَفْتُمُوها وَتِجارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسادَها وَمَساكِنُ تَرْضَوْنَها أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ﴾ ليس المطلوبُ أن ينقَطِعَ المُسلِمُ عن الأهلِ والعَشيرةِ، والزَّوجِ والوَلَدِ، والمالِ والعَمَلِ، والمَتاعِ واللَّذَّةِ، ولا أن يترَهْبَنَ ويزهَدَ في طيِّباتِ الحياةِ، كلَّا إنَّما تُريدُ هذه العَقيدةُ أن يَخلُصَ لها القَلبُ، ويَخلُصَ لها الحُبُّ، وأن تكونَ هي المُسيطِرةَ والحاكِمةَ، وهي المُحَرِّكةَ والدَّافِعةَ. فإذا تمَّ لها هذا، فلا حرَجَ عِندَئذٍ أن يَستمتِعَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٣٢).

المُسلِمُ بكُلِّ طَيِّباتِ الحياةِ، على أن يكونَ مُستعِدًّا لِنَبذِها كُلِّها في اللَّحظةِ التي تتعارَضُ مع مطالِبِ العَقيدةِ[1].

٦- قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ هذه آيةٌ شَديدةٌ لا ترى أشَدَّ منها، كأنَّها تنعى على النَّاسِ ما هم عليه مِن رَخاوةِ عَقدِ الدِّينِ، واضطرابِ حَبلِ اليَقينِ، فلْيُنصِفْ أورَعُ النَّاسِ وأتقاهم مِن نَفسِه؛ هل يجدُ عنده من التصَلُّبِ في ذاتِ اللهِ، والثَّباتِ على دينِ الله ما يَستحِبُّ له دينُه، على الآباءِ والأبناءِ والإخوانِ والعشائرِ والمالِ والمَساكِنِ وجميعِ حُظوظِ الدُّنيا، ويتجَرَّدُ منها لأجلِه، أم يَزوي اللهُ عنه أحقَرَ شَيءٍ منها لِمَصلحتِه، فلا يدري أيُّ طَرَفيه أطولُ؟ ويُغْويه الشَّيطانُ عن أجَلِّ حَظٍّ مِن حظوظِ الدِّينِ، فلا يُبالي، كأنَّما وقَعَ على أنفِه ذُبابٌ فطَيَّره[2]!

٧- قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾. فكلُّ من قدَّمَ طاعةَ أحدٍ مِن هؤلاءِ على طاعةِ اللهِ ورَسولِه، أو قَولَ أحدٍ منهم على قَولِ اللهِ ورَسولِه، أو مرضاةَ أحدٍ منهم على مَرضاةِ اللهِ ورَسولِه، أو خَوفَ أحدٍ منهم ورجاءَه والتوكُّلَ عليه، على خَوفِ اللهِ ورَجائِه والتوكُّلِ عليه، أو مُعاملةَ أحَدِهم على مُعامَلةِ الله- فهو ممَّن ليس اللهُ ورَسولُه أحَبَّ إليه ممَّا سِواهما، وإن قالَه بلِسانِه فهو كَذِبٌ منه،

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٦١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٥٧).

وإخبارٌ بخِلافِ ما هو عليه(١).

الفَوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ افتتَحَ الخِطابَ بـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إشعارًا بأنَّ ما سيُلقى إليهم مِن الوَصايا هو مِن مُقتَضياتِ الإيمانِ وشِعارِه(٢).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾ ذَكَرَ الآباءَ والإخوانَ؛ لأنَّهم أهلُ الرَّأيِ والمَشورةِ، ولم يذكُرِ الأبناءَ؛ لأنَّهم في الغالِبِ تبَعٌ لآبائِهم(٣).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لَمَّا كان الوالِدونَ هم الذينَ يُقاتِلونَ، ويَحتاجُونَ إلى المُوالاةِ والمُناصَرةِ، دونَ الوالِداتِ، اقتصَرَ على ذِكرِهم(٤).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ جَعَلَ التَّحذيرَ مِن أولئكَ بخصوصِ كَونِهم آباءً وإخوانًا؛ تنبيهًا على أقصى الجَدارةِ بالوَلايةِ، لِيُعلَمَ بفحوى الخِطابِ أنَّ مَن دونَهم أَوْلى بحُكمِ النَّهيِ(٥).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٢٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥١).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٩٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٢٠٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥١).

إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾ قولُه: ﴿إِنِ اسْتَحَبُّوا﴾ نبَّه بصيغةِ الاستفعالِ على أنَّ الإيمانَ لِكَثرةِ مَحاسِنِه، وظُهورِ دَلائِلِه، مَعشوقٌ بالطَّبعِ، فلا يتركُه أحَدٌ إلَّا بنوعِ مُعالجةٍ ومُكابرةٍ لِعَقلِه ومُجاهَدةٍ(١).

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ ذكَرَ تعالى الأمورَ الدَّاعيةَ إلى مُخالطةِ الكُفَّارِ، وهي أمورٌ أربعةٌ؛ أوَّلها: مُخالطةُ الأقارِبِ، وذكر منهم أربعةَ أصنافٍ على التَّفصيلِ، وهم: الآباءُ والأبناءُ والإخوانُ والأزواجُ، ثمَّ ذكَرَ البقيَّةَ بلفظٍ واحدٍ يتناوَلُ الكُلَّ، وهي لفظُ العَشيرةِ. وثانيها: المَيلُ إلى إمساكِ الأموالِ المُكتَسَبةِ. وثالثها: الرَّغبةُ في تحصيلِ الأموالِ بالتِّجارةِ. ورابعها: الرَّغبةُ في المساكِنِ. ولا شَكَّ أنَّ هذا التَّرتيبَ ترتيبٌ حَسَنٌ؛ فإنَّ أعظَمَ الأسبابِ الدَّاعيةِ إلى المُخالطةِ القَرابةُ، ثمَّ إنَّه يُتوصَّلُ بتلك المُخالَطةِ إلى إبقاءِ الأموالِ الحاصِلةِ، ثمَّ إنَّه يُتوصَّلُ بالمُخالطةِ إلى اكتسابِ الأموالِ التي هي غيرُ حاصلةٍ، وفي آخِرِ المراتِبِ الرَّغبةُ في البِناءِ في الأوطانِ، والدُّورِ التي بُنِيَت لأجلِ السُّكنى، فذكَرَ تعالى هذه الأشياءَ على هذا التَّرتيبِ الواجبِ(٢).

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٨).

ذكَرَ الأبناءَ هنا؛ لأنَّه ذكَرَ المحبَّةَ، وهم أعلَقُ بالنَّفسِ، بخلافِ الآيةِ قَبلَها فلم يُذكَروا؛ لأنَّ المَقصودَ منها الرَّأيُ والمَشورةُ[١].

٨- وجهُ الاقترانِ بين محبَّةِ اللهِ ومَحبَّةِ رَسولِه، في قَولِه تعالى: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أنَّه لا تتِمُّ محبَّةُ اللهِ إلَّا بمحَبَّةِ ما يُحِبُّه، وكراهةِ ما يكرَهُه، ولا طريقَ إلى مَعرفةِ ما يُحبُّه وما يَكرَهُه- تعالى- إلَّا مِن جهةِ نبيِّه المُبَلِّغِ عنه- صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- ما يُحبُّه وما يَكرَهُه، فصارت مَحبَّةُ اللهِ مُستلزِمةً لِمَحبَّةِ رَسولِه وتَصديقِه ومُتابَعتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٢].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا﴾ أخَّرَ هنا حبَّ الزوجيَّةِ عن حُبِّ البَنينَ؛ لأنَّ الكَلامَ في الحُبِّ المُعارِضِ لحُبِّ اللهِ ورَسولِه والجهادِ في سبيلِه، وما يُخشَى مِن حَملِه على مُوالاةِ أهلِ الكُفرِ في الحَربِ على المُؤمنينَ، وقلَّما تكونُ زَوجُ الرَّجُلِ مُعارِضةً له في دينِه، ووَلايةِ مَن يَدينُ للهِ بوَلايتِه، كما يُعارِضُه أبوه وابنُه وأخوه مِن أهلِ الحَربِ دونَ امرأتِه. وقدَّمَه على حُبِّ البَنينَ في قَولِه تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤]؛ لأنَّ الكلامَ في الآيةِ على حُبِّ الشَّهَواتِ، وهو أقوى الشَّهواتِ البَشَريَّةِ على الإطلاقِ[٣].

١٠- قال الله تعالى: ﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ خَصَّ الأموالَ المُقتَرَفةَ بالذِّكرِ؛ لأنَّها أرغَبُ عند أهلِها، وصاحِبُها أشَدُّ حِرصًا عليها ممَّن تأتيه الأموالُ مِن غَيرِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٩١).
(٢) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٣/ ٦١).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٢٠٦).

تَعَبٍ ولا كَدٍّ؛ فحُبُّ الأموالِ المُقتَرَفةِ- أي: المُكتَسَبةِ- أقوى في النَّفسِ مِن حُبِّ الأموالِ المَورُوثةِ؛ لأنَّ عَناءَ الإنسانِ في اقترافِها يجعَلُ لها في قَلبِه مِن القيمةِ والمَنزلةِ ما ليس لِمَا جاءَه عَفوًا، كما هو مشهورٌ بين النَّاسِ عِلمًا وعَمَلًا[1].

١١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ خَصَّ الجِهادَ بالذِّكرِ مِن عُمومِ ما يُحبُّه اللهُ منهم؛ تَنويهًا بشأنِه، ولأنَّ ما فيه من الخَطَرِ على النُّفوسِ، ومِن إنفاقِ الأموالِ، ومُفارَقةِ الإلْفِ، جعَلَه أقوى مَظِنَّةً للتقاعُسِ عنه[2].

١٢- دلَّ قولُه تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ على أنَّ مَحبَّةَ اللهِ تعالى فَرْضٌ على العِبادِ؛ لأنَّه سُبحانه توعَّدَ مَن قدَّمَ محبَّةَ غيرِه على مَحبَّتِه ومَحبَّةِ رَسولِه، والوعيدُ لا يقَعُ إلَّا على فَرْضٍ لازمٍ، وحَتمٍ واجِبٍ[3].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

- قولُه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ...﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ لافْتِتاحِ غرَضٍ آخَرَ، وهو تَقريعُ المنافقينَ ومَنْ يُواليهم[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٢٠٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥٣).
(٣) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٣/ ٢٩٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥٠).

- وصِيغةُ الحَصْرِ ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾؛ للمُبالَغةِ، أي: إنَّ ظُلْم غيرِهم كَلَا ظُلْمٍ بالنِّسبةِ لعَظَمةِ ظُلْمِهم(١).

- والإتيانُ باسمِ الإشارةِ ﴿فَأُولَئِكَ﴾ لزِيادةِ تمييزِ هؤلاءِ أو هؤلاءِ، وللتَّنبيهِ على أنَّ جَدارتَهم بالحُكمِ المذكورِ بَعْدَ الإشارةِ كانتْ لأجْلِ تِلك الصِّفاتِ، أي: اسْتِحبابِ الكُفْرِ على الإيمانِ(٢).

٢- قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾

- فيه تلوينٌ للخِطابِ، وأَمْرٌ له صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يُثبِّتَ المؤمنينَ، ويُقوِّيَ عَزائمَهم على الانْتِهاءِ عما نُهُوا عَنْه من موالاةِ الآباءِ والإخوانِ، ويُزهِّدَهم فيهم، وفيمَنْ يَجْري مَجْراهم من الأبناءِ والأزواجِ، ويَقْطَعَ علائِقَهم عن زخارفِ الدُّنيا وزينتِها، على وَجْهِ التَّوبيخِ والتَّرهيبِ(٣).

- وفيه تَرتيبٌ حَسَنٌ، حَيثُ قدَّم الآباءَ؛ لأنَّهم الذين يَجِبُ برُّهم وإكرامُهم وحُبُّهم، وثنَّى بالأبناءِ؛ لكونِهم أَعْلَقَ بالقُلوبِ، ولَمَّا ذَكَرَ الأصلَ والفَرْعَ ذكَر الحاشيةَ وهي الإخوانُ، ثُمَّ ذَكَرَ الأزواجَ، وهنَّ في المحبَّةِ والإيثارِ كالأبناءِ، ثُمَّ ذَكَر الأَبعدَ بَعدَ الأقربِ في القرابةِ، فقال: ﴿وَعَشِيرَتُكُمْ﴾(٤).

- وعطَفَ على حُبِّ اللهِ تعالى ورَسولِه الجهادَ في سبيلِه مُنكَّرًا، في قَولِه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ١٥٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٥٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٩١).

تعالى: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾؛ لأنَّه أظهَرُ آياتِهما، ونُكتةُ تَنكِيرِه وإبهامِه إفادةُ أنَّ كُلَّ نَوعٍ من أنواعِ الجِهادِ في سبيلِ اللهِ- قلَّ أو كَثُرَ- فإنَّ تارِكَه لأجلِ حُبِّ شَيءٍ مِن تلك الأصنافِ الثَّمانيةِ، وتَفضيلِها عليه؛ يستحِقُّ الوعيدَ الذي في الآيةِ(١).

- وقوله: ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ أمْرٌ مُتضمِّنٌ للتَّهديدِ والوعيدِ(٢) الشَّديدِ، ويؤكِّدُه إبهامُ الأمرِ، وعَدَمُ التَّصريحِ به؛ لتذهَبَ أنفُسُهم كلَّ مَذهَبٍ، وتتردَّدَ بين أنواعِ العُقوباتِ(٣).

- قولُه: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ تَذييلٌ، والواو اعتراضيَّةٌ، وهذا تهديدٌ بأنَّهم فَضَّلوا قَرابتَهم وأموالَهم على مَحبَّةِ اللهِ ورسولِه وعلى الجِهادِ؛ فقد تَحقَّقَ أنَّهم فاسِقون، واللهُ لا يَهْدي القومَ الفاسقينَ؛ فحَصَلَ بمَوقِعِ التَّذييلِ تَعريضٌ بهم(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٢١٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٩٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٩٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥٤).

الآيات (٢٥-٢٧)

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿رَحُبَتْ﴾: أي: اتَّسَعَت، وأصلُ (رحب): يدل على سَعَةٍ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: لقد نَصَرَكم اللهُ- أيُّها المُؤمِنونَ، أصحابَ رَسولِ اللهِ- على أعدائِكم الكُفَّارِ في غَزَواتٍ كَثيرةٍ، ونَصَرَكم أيضًا يوم حُنَينٍ حين أعجَبَتْكم كَثرَتُكم، فلم تُفِدْكم تلك الكَثرةُ شَيئًا، وضاقت عليكم الأرضُ على سَعَتِها؛ لِشِدَّةِ ما أصابَكم، ثم فرَرْتُم من الكُفَّارِ مُنهَزِمينَ.

ثمَّ أنزَلَ اللهُ ثَباتَه وطُمأنينَتَه على رَسولِه وعلى المُؤمِنينَ، وأنزَلَ جُنودًا مِنَ الملائكةِ لم تَرَوْها، وعذَّبَ اللهُ يومَ حُنَينٍ الذين كَفَروا، بأيدي المُؤمِنينَ، وذلك جزاءُ الكافِرينَ.

ثم يتوبُ اللهُ على من يشاءُ أن يتوبَ عليه مِنَ الكُفَّارِ، فيَهدِيه إلى الإسلامِ، واللهُ غَفورٌ رحيمٌ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٦، ١٤٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٥).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا تقَدَّمَ قَولُه: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٤] واستطرَدَ بعد ذلك بما استطرَدَ؛ ذَكَّرَهم تعالى نَصْرَه إيَّاهم في مَواطِنَ كَثيرةٍ[١].

وأيضًا لَمَّا تضَمَّنَتِ الآياتُ السَّابقةُ الحَثَّ على قِتالِ المُشرِكينَ ابتداءً مِن قَولِه تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، وكان التَّمهيدُ للإقدامِ على ذلك مُدَرَّجًا؛ بإبطالِ حُرمةِ عَهدِهم لِشِرْكِهم، وبإظهارِ أنَّهم مُضمِرونَ العَزمَ على الابتداءِ بِنَقضِ العُهودِ التي بينهم وبين المُسلِمينَ، لو قُدِّرَ لهم النَّصرُ على المسلمين، وهَمِّهم بإخراجِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، حتى إذا انتهى ذلك التَّمهيدُ المُدَرَّجُ إلى الحَثِّ على قتالِهم، وضَمانِ نَصرِ اللهِ المُسلِمينَ عليهم، وما اتَّصَل بذلك مِمَّا يُثيرُ حماسةَ المُسلِمينَ- جاء في هذه الآيةِ بِشَواهِدِ ما سبق مِن نَصرِ اللهِ المُسلِمينَ في مواطِنَ كَثيرةٍ، وتذكيرٍ بِمُقارنةِ التَّأييدِ الإلهيِّ لِحالةِ الامتثالِ لأوامِرِه، وأنَّ في غَزوةِ حُنَينٍ شَواهِدَ تَشهدُ للحالَينِ[٢].

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ﴾.

أي: لقد نصَرَكم اللهُ- أيُّها المُؤمِنونَ أصحابَ رَسولِ اللهِ- على أعدائِكم

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥٤).

الكُفَّارِ في غَزَواتٍ كثيرةٍ[(١)].

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾.

أي: ونَصَرَكم اللهُ أيضًا في غَزوةِ حُنَينٍ، حين أعجَبَتْكم كَثْرَتُكم، فلم تُفِدْكم تلك الكَثرةُ شَيئًا[(٢)].

﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾.

أي: وضاقَت عليكم الأرضُ مع سَعَتِها؛ لِشِدَّةِ ما أصابَكم[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥٥).
قال القاسمي: (﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ أي: في مَواقِفِ حروبٍ كَثيرةٍ، ووَقَعاتٍ شَهيرةٍ؛ كغزوةِ بدرٍ وقُرَيظةَ، والنَّضيرِ والحُدَيبيَةِ، وخَيبرَ وفَتحِ مكَّةَ. وكانت غَزَواتُ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلم- على ما ذُكِرَ في الصَّحيحينِ من حديثِ زيدِ بنِ أرقَمَ- تِسعَ عَشرةَ غَزوةً. زاد بُرَيدةُ في حديثٍ: قاتَلَ في ثمانٍ منهُنَّ، ويقال: إنَّ جَميعَ غَزَواتِه وسَراياه وبُعوثِه سبعونَ، وقيل: ثَمانونَ). ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٣٦٨). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٥٩)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٨)، ((منهاج السنة)) لابن تيمية (٤/ ٨١-٨٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨٦، ٣٨٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٤٤، ٣٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٦٥).
قال ابنُ جرير: (حُنينٌ: وادٍ بين مكَّةَ والطَّائِفِ). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨٦).
وقال ابن كثير: (كانت وقعةُ حُنينٍ بعدَ فَتحِ مكَّةَ في شوَّال سنةَ ثمانٍ مِن الهجرةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٨٩).
قال الواحدي: (ومعنى الآية: إنَّكم لشِدَّةِ ما لَحِقَكم من الخَوفِ، ضاقَت عليكم الأرضُ، فلم تَجِدوا فيها موضِعًا يصلُحُ لكم لِفِرارِكم عن عَدُوِّكم). ((البسيط)) (١٠/ ٣٤٧).
وقال السعدي: (﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ﴾ بما أصابَكم مِنَ الهَمِّ والغَمِّ حين انهَزَمْتم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢). =

﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾.

أي: ثمَّ فَرَرتُم مِن الكُفَّارِ مُنهَزِمينَ(١).

عن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا كان يومُ حُنَينٍ أقبَلَت هوازِنُ وغَطَفانُ وغَيرُهم بنَعَمِهم وذَرارِيِّهم، ومع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلم عَشرةُ آلافٍ، ومِنَ الطُّلَقاءِ، فأدبَرُوا عنه حتى بَقِيَ وَحدَه، فنادى يومَئذٍ نِداءَينِ، لم يَخلِطْ بينهما؛ التفَتَ عن يمينِه فقال: يا معشَرَ الأنصارِ. قالوا: لبَّيكَ يا رسولَ اللهِ، أبشِرْ نَحن معَك، ثمَّ التفَتَ عن يَسارِه فقال: يا مَعشَرَ الأنصارِ. قالوا: لبَّيكَ يا رسولَ اللهِ، أبشِرْ نَحنُ معك، وهو على بَغلةٍ بَيضاءَ، فنزَلَ فقال: أنا عَبدُ اللهِ ورَسولُه، فانهزَمَ المُشرِكونَ))(٢).

وعن العبَّاسِ بنِ عبدِ المطَّلِبِ رَضِيَ الله عنه، قال: ((شَهِدْتُ مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومَ حُنَينٍ، فلَزِمْتُ أنا وأبو سفيانَ بنُ الحارِثِ بنِ عبدِ المُطَّلِبِ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلم نُفارِقْه، ورسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على بغلةٍ له بيضاءَ، أهداها له فَروةُ ابنُ نُفاثةَ الجُذاميُّ، فلمَّا التقى المُسلِمونَ والكُفَّارُ ولَّى المُسلِمونَ مُدبِرينَ، فطَفِقَ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُركِضُ بَغلَتَه قِبَلَ الكُفَّارِ، قال عبَّاسٌ: وأنا آخِذٌ بلِجامِ بَغلةِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أكُفُّها؛ إرادةَ ألَّا تُسرِعَ، وأبو سُفيانَ آخِذٌ بركابِ رَسولِ

= وقال الشنقيطي: (والخائفُ يضيقُ عليه فضاءُ الأرضِ الواسعُ؛ لأن مَنِ اشتَدَّ خوفُه ضاقَتِ الأرضُ في عينِه، وإن كانت طويلةً عريضةً واسعةً). ((العذب النمير)) (٥/ ٣٨٩). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٠٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨٧)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢)، ((تفسير الشعراوي)) (٨/ ٥٠٠٣).

قال الشوكاني: (﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ أي: انهزَمْتُم حالَ كَونِكم مُدبِرينَ، أي: مُوَلِّينَ أدبارَكم، جاعلينَ لها إلى جِهةِ عَدُوِّكم). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٩٧).

(٢) رواه البخاري (٤٣٣٧) واللفظ له، ومسلم (١٠٥٩).

اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أيْ عبَّاسُ، نادِ أصحابَ السَّمُرةِ. فقال عبَّاس- وكان رَجُلًا صَيِّتًا-: فقُلتُ بأعلى صوتي: أين أصحابُ السَّمُرةِ؟ قال: فواللهِ، لكأنَّ عَطفَتَهم- حين سَمِعوا صوتي- عَطفةُ البَقَرِ على أولادِها، فقالوا: يا لبَّيكَ، يا لبَّيكَ، قال: فاقتَتَلوا والكُفَّارَ، والدَّعوةُ في الأنصارِ يقولون: يا مَعشرَ الأنصارِ، يا مَعشرَ الأنصارِ. قال: ثمَّ قَصُرَت الدَّعوةُ على بني الحارِثِ بنِ الخَزْرجِ، فقالوا: يا بَني الحارِثِ بنِ الخَزرجِ، يا بني الحارِثِ ابنِ الخزرجِ، فنظَرَ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو على بَغلَتِه كالمُتطاوِلِ عليها إلى قِتالِهم، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: هذا حينَ حِميَ الوَطيسُ. ثم أخذَ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حَصَياتٍ فرمى بهِنَّ وُجوهَ الكُفَّارِ، ثم قال: انهَزَموا وربِّ مُحمَّدٍ. قال: فذهَبْتُ أنظُرُ، فإذا القِتالُ على هَيئَتِه فيما أرى، قال: فواللهِ، ما هو إلَّا أن رماهم بحَصَياتِه، فما زِلْتُ أرى حَدَّهم كَليلًا، وأمْرَهم مُدبِرًا))[1].

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((افتَتَحْنا مكَّةَ، ثم إنَّا غَزَوْنا حُنَينًا، فجاء المُشركون بأحسَنِ صُفوفٍ رأيتُ، فصُفَّتِ الخَيلُ، ثم صُفَّتِ المُقاتِلة، ثم صُفَّتِ النِّساءُ مِن وراء ذلك، ثمَّ صُفَّتِ الغَنَمُ، ثم صُفَّتِ النَّعَمُ، ونحن بَشَرٌ كثيرٌ، وعلى مُجَنِّبةِ خَيلِنا خالدُ بنُ الوليد، فجَعَلَتْ خيلُنا تلوي خَلْفَ ظُهورِنا، فلم نلبَثْ أن انكشَفَت خَيلُنا، وفرَّتِ الأعرابُ ومَن نعلَمُ مِن النَّاسِ، فنادى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: يا لَلمُهاجِرينَ، يا لَلمُهاجِرينَ. ثم قال: يا لَلأنصارِ، يا لَلأنصارِ. قُلنا: لبَّيك يا رسولَ الله، قال: فتقَدَّمَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فَايْمُ اللهِ، ما أتَيناهم حتَّى هَزَمَهم اللهُ، فقَبَضْنا ذلك المالَ، ثم انطَلَقْنا إلى الطَّائِفِ فحاصَرْناهم أربعينَ ليلةً، ثم رَجَعْنا إلى مكَّةَ، فنَزَلْنا، فجعل رسولُ اللهِ

---

(١) رواه مسلم (١٧٧٥).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُعطي الرَّجُلَ المِئةَ مِن الإبِلِ))(١).

وعن أبي إسحاقَ، قال: ((قال رجلٌ للبَراءِ: يا أبا عُمارةَ، أفرَرْتم يومَ حُنَينٍ؟! قال: لا واللهِ، ما ولَّى رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولكِنَّه خرَجَ شُبَّانُ أصحابِه وأخِفَّاؤُهم حُسَّرًا، ليس عليهم سِلاحٌ أو كثيرُ سِلاحٍ، فلَقُوا قومًا رُماةً، لا يكادُ يَسقُطُ لهم سَهمٌ؛ جمْعَ هوازِنَ وبني نَصرٍ، فرَشَقوهم رشْقًا ما يكادُونَ يُخطِئونَ، فأقبَلُوا هناك إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ورسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على بَغلَتِه البَيضاءِ، وأبو سفيانَ بنُ الحارِثِ بنِ عبدِ المطَّلِبِ يقودُ به، فنزل فاستنصَرَ، وقال: أنا النبيُّ لا كَذِبْ، أنا ابنُ عبدِ المُطَّلِبْ))(٢).

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦ ﴾.

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾.

أي: ثمَّ بعد أن ولَّى المُسلِمونَ مُدبِرينَ يومَ حُنَينٍ، أنزَلَ اللهُ ثَباتَه وطُمأنينَتَه على رسولِه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وعلى أصحابِه المُؤمِنينَ، فأذهَبَ خَوفَهم(٣).

﴿وَأَنزَلَ جُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾.

---

(١) رواه مسلم (١٠٥٩).

(٢) رواه البخاري (٢٨٦٤)، ومسلم (١٧٧٦) واللفظ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٩٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٩٠).

قال الشنقيطي: (قال بعضُ العُلَماءِ: المُرادُ بالمُؤمِنينَ الذينَ أنزَلَ اللهُ سَكينتَه عليهم: مَن ثَبَتوا معه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وقال بعضُ العُلَماءِ: يدخُلُ فيهم الذينَ رَجَعوا بعد الفِرارِ والهَزيمةِ، وقاتلوا معه عَدُوَّه. والتَّحقيقُ: أنَّ اللهَ أنزَلَ سكينَتَه على الجَميعِ: الذين بَقُوا معه ولم يَفِرُّوا، والذين رَجَعوا إليه). ((العذب النمير)) (٥/ ٣٩٠).

أي: وأنزَلَ اللهُ يومَ حُنَينٍ جُنودًا مِن الملائِكةِ، لم تَرَوْها- أيُّها المُسلِمونَ- أنزَلَها اللهُ تعالى لِتَجْبينِ الكُفَّارِ، وتَقويةِ قُلوبِ المُؤمنينَ، وتَثبيتِهم، وتَبشيرِهم بالنَّصرِ(١).

﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

أي: وعذَّب اللهُ يومَ حُنَينٍ الكافرينَ، بأيدي المُؤمنينَ؛ بقَتلِهم وأسْرِهم، وأخْذِ أمْوالِهم، وسَبْيِ أهاليهم وذَراريِّهم(٢).

﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

أي: وذلك التَّعذيبُ الذي أصابَهم، هو جَزاءُ أهلِ الكُفرِ في الدُّنيا؛ بسبَبِ كُفرِهم(٣).

﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٧﴾.

﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٩٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢).

قال الرازي: (لا خلافَ أنَّ المُرادَ إنزالُ المَلائكةِ). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٢٠).

وقال القرطبي: (﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ وهم الملائكةُ؛ يُقَوُّونَ المُؤمِنينَ بما يُلقونَ في قُلوبِهم مِن الخواطِرِ والتَّثبيتِ، ويُضْعِفونَ الكافِرينَ بالتَّجبينِ لهم من حيثُ لا يَرَونَهم، ومن غيرِ قِتالٍ؛ لأنَّ الملائكةَ لم تُقاتِلْ إلَّا يومَ بَدرٍ). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٠١).

وقال الشنقيطي: (قد قَدَّمْنا في سورةِ الأنفالِ أنَّ أَظْهَرَ الأقوالِ أنَّ الملائكةَ قَاتَلَت يومَ بدرٍ، وأنَّها لم تُقَاتِلْ في غيرِها، بل تأتي لِتَجبينِ الكُفَّارِ، وتقويةِ قلوبِ المؤمنينَ ونُصرتِهم، هذا هو الظَّاهرُ). ((العذب النمير)) (٥/ ٣٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٩٥، ٣٩٦)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٩٦)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٢).

أي: ثمَّ يُوفِّقُ اللهُ للتَّوبةِ- مِن بعدِ تَعذيبِ الكافِرينَ في الدُّنيا- مَن يشاءُ أن يتوبَ عليه مِنهم، فيَهديه إلى الإسلامِ(١).

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: واللهُ غَفورٌ لِذُنوبِ التَّائبينَ إليه، فيستُرُها عليهم، ويتَجاوَزُ عن مؤاخَذتِهم بها، رَحيمٌ بهم فيُوفِّقُهم- سُبحانَه- للتَّوبةِ، ويَقبَلُها منهم، ولا يُعَذِّبُهم بَعدَها(٢).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ يَذكُرُ تعالى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٩٦)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٣٣)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٢٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٤٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٢٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥٨، ١٥٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٠١).
وقال ابنُ عاشور: (هذا إشارةٌ إلى إسلامِ هَوازِنَ بعد تلك الهزيمةِ؛ فإنَّهم جاؤوا رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مسلمينَ تائِبينَ، وسألُوه أن يرُدَّ إليهم سَبْيَهم وغنائِمَهم، فذلك أكبَرُ مِنَّةٍ في نَصرِ المُسلِمينَ؛ إذ أصبحَ الجُندُ العَدُوُّ لهم مُسلِمينَ معهم، لا يَخافونَهم بعد ذلك اليَومِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥٨-١٥٩).
قال ابنُ كثير: (قد تاب اللهُ على بقيَّةِ هوازِنَ، وأسلموا وقَدِموا عليه مُسلِمينَ، ولَحِقوه وقد قاربَ مكَّةَ عند الجِعْرَانةِ، وذلك بعد الوَقعةِ بقَريبٍ مِن عشرينَ يَومًا، فعند ذلك خَيَّرَهم بين سَبْيِهم وبين أموالِهم، فاختاروا سَبْيَهم، وكانوا ستَّةَ آلافِ أسيرٍ ما بين صبيٍّ وامرأةٍ، فردَّه عليهم، وقسَمَ أموالَهم بين الغانِمينَ، ونفَّلَ أناسًا مِن الطُّلَقاءِ؛ ليَتألَّفَ قُلوبَهم على الإسلامِ، فأعطاهم مئةً مئةً مِن الإبِلِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٠).
وقال الشنقيطي: (قال بعضُ العُلَماءِ: ﴿يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ يدخُلُ فيه المُنهَزِمونَ الذين انهَزَموا عن رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ مَن رجَعَ منهم وكَرَّ، ومَن لم يرجِعْ. قالوا: ويدخُلُ فيه الكافِرونَ الذين قال الله [فيهم]: ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ لأنَّ كَثيرًا منهم تابوا فتابَ الله عليهم... ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ على من يشاءُ أن يتوبَ عليه، وهذه يُفهَمُ منها أنَّه تعالى تاب على الذينَ انهَزموا وإن لم يُصَرِّحْ بها). ((العذب النمير)) (٥/ ٣٩٤، ٣٩٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٩٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٣).

للمُؤمنينَ فَضلَه عليهم، وإحسانَه لَدَيهم في نَصرِه إيَّاهم في مواطِنَ كَثيرةٍ مِن غَزَواتِهم مع رَسولِه، وأنَّ ذلك مِن عِندِه تعالى، وبتأييدِه وتَقديرِه، لا بعَدَدِهم ولا بعُدَدِهم، ونبَّهَهم على أنَّ النَّصرَ مِن عِندِه، سواءٌ قَلَّ الجَمعُ أو كَثُرَ(١).

٢- الإعجابُ سُمٌّ قاتِلٌ للأسبابِ، أدَّبَنا اللهُ سبحانه بذِكرِ سُوءِ أثَرِه؛ لِنَحذَرَه، فقال: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾(٢).

٣- إنَّ اللهَ إذا امتحَنَ عِبادَه بالغَلَبةِ والكَسرةِ والهَزيمةِ، ذَلُّوا وانكَسَروا وخَضَعوا، فاستوجَبُوا منه العِزَّ والنَّصرَ؛ فإنَّ خِلْعةَ النَّصرِ إنَّما تكونُ مع وِلايةِ الذُّلِّ والانكسارِ؛ قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ فهو سُبحانه إذا أراد أنْ يُعِزَّ عَبدَه ويَجبُرَه وينصُرَه، كَسَرَه أوَّلًا، ويكونُ جَبرُه له ونَصْرُه، على مقدارِ ذُلِّه وانكسارِه(٣).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾ دَلالةٌ على وقوعِ العُقوبةِ على الإعجابِ بالكَثرةِ(٤).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ تَخصيصُ يومِ حُنَينٍ بالذِّكرِ مِن بينِ أيَّامِ الحُروبِ؛ لأنَّ المُسلِمينَ انهَزموا في أثناءِ النَّصرِ، ثمَّ عاد إليهم النَّصرُ؛ فتخصيصُه بالذِّكرِ؛ لِما فيه مِن العِبرةِ بحُصولِ النَّصرِ عند امتثالِ أمرِ اللهِ ورسولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٢٥).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٢٤).
(٣) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ١٩٨).
(٤) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ١٧٩).

وحُصولِ الهَزيمةِ عند إيثارِ الحُظوظِ العاجلةِ على الامتثالِ[1].

٦- تَجَرُّدُ المُؤمِنينَ لله تعالى، وتَوثيقُ الصِّلةِ به؛ هي عُدَّةُ النَّصرِ التي لا تَخذُلُهم حين تَخذُلُهم الكَثرةُ في العَدَدِ والعَتادِ، وحين يَخذُلُهم المالُ والإخوانُ والأولادُ؛ يُبَيِّنُ ذلك قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾[2].

٧- قال اللهُ تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هذه الآياتُ تذكيرٌ للمُؤمِنينَ بأنَّ عِنايةَ اللهِ تعالى وتأييدَه لِرَسولِه وللمُؤمِنينَ بالقُوى المعنويَّةِ؛ أعظَمُ شأنًا، وأدنى إلى النَّصرِ مِنَ القُوَّةِ الماديَّةِ، كالكثرةِ العَدَديَّةِ وما يتعلَّقُ بها، وجُعِلَ هذا التَّذكيرُ تاليًا للنَّهيِ عن وَلايةِ آبائِهم وإخوانِهم مِن الكُفَّارِ، وللوعيدِ على إيثارِ حُبِّ القَرابةِ والزوجيَّةِ والعشيرةِ- ولو كانوا مُؤمِنينَ- والمالِ والسَّكَنِ، على حبِّ اللهِ ورَسولِه والجهادِ في سبيلِه؛ تفنيدًا لوَسوسةِ شياطينِ الجِنِّ والإنسِ- مِن المنافِقينَ ومَرْضى القُلوبِ- لهم، وإغرائِهم باستنكارِ عَوْدِ حالةِ الحَربِ مع المُشرِكين، وتنفيرِهم مِن قِتالِهم لِكَثرتِهم، ولقرابةِ بَعضِهم، ولِكَسادِ التِّجارةِ التي تكونُ معهم، وذلك بعدَ إقامةِ الدَّلائِلِ على كَونِ ذلك مِن الحَقِّ والعَدلِ، والمَصلحةِ العامَّةِ في الدِّينِ والدُّنيا[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٦١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٢١٧).

٨- قال اللهُ تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إنَّ الكثرةَ لَتكونُ أحيانًا سببًا في الهزيمةِ؛ لأنَّ بعضَ الدَّاخِلينَ فيها، التَّائهينَ في غِمارِها- ممَّن لم يُدرِكوا حقيقةَ العَقيدةِ التي يَنساقُونَ في تيَّارِها- تتزَلْزَلُ أقدامُهم، وترتَجِفُ في ساعةِ الشِّدَّةِ، فيُشيعونَ الاضطرابَ والهزيمةَ في الصُّفوفِ، فوق ما تَخدَعُ الكثرةُ أصحابَها، فتَجعَلُهم يتهاوَنونَ في تَوثيقِ صِلَتِهم باللهِ؛ انشغالًا بهذه الكَثرةِ الظَّاهِرةِ، عن اليَقَظةِ لِسِرِّ النَّصرِ في الحياةِ، لقد قامَتْ كُلُّ عقيدةٍ بالصَّفوةِ المُختارة، لا بالزَّبَدِ الذي يذهَبُ جُفاءً، ولا بالهَشيمِ الذي تَذْرُوه الرِّياحُ[١].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾ أسنَدَ سُبحانه الفِعلَ للجَمعِ؛ إشارةً إلى أنَّهم لعُلُوِّ مَقامِهم ينبغي ألَّا يكونَ منهم مَن يقولُ مثلَ ذلك[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ فيه تنبيهٌ على خَطئِهم في الأدبِ مع اللهِ، المناسِبِ لمَقامِهم، أي: ما كان يَنبغي لكم أن تَعتمِدوا على كَثرتِكم[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٦١٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥٥-١٥٦).

- قولُه: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ﴾ فيه تأكيدُ الكلامِ بـ﴿لَقَدْ﴾؛ لتَحقيقِ هذا النَّصرِ؛ لأنَّ القومَ كأنَّهم نَسُوه أو شَكُّوا فيه، فنُزِّلوا مَنْزلةَ مَنْ يَحتاجُ إلى تَأكيدِ الخَبَرِ(١).

- وأُسْنِدَ النَّصرُ إلى اللهِ تعالى بالصَّراحةِ في قولِه: ﴿نَصَرَكُمُ اللَّهُ﴾؛ لإظهارِ أنَّ إيثارَ مَحبَّةِ اللهِ، وإنْ كان يُفوِّتُ بعضَ حُظوظِ الدُّنيا، ففيه حَظُّ الآخِرةِ، وفيه حُظوظٌ أُخرى من الدُّنيا، وهي حُظوظُ النَّصْرِ بما فيه مِن تأييدِ الجامعةِ، ومن المغانِمِ، وحِمايةِ الأُمَّةِ مِن اعْتِداءِ أعدائِها، وذلك مِن فَضْلِ اللهِ عزَّ وجلَّ(٢).

٢- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ في تَعليقِ السَّكينةِ بإنزالِ اللهِ تعالى وإضافتِها إلى ضميرِه: تَنويهٌ بشأنِها وبَرَكتِها، وإشارةٌ إلى أنَّها سَكينةٌ خارقةٌ للعادةِ، ليستْ لها أسبابٌ ومُقدِّماتٌ ظاهرةٌ، وإنَّما حَصَلتْ بمَحْضِ تَقديرِ اللهِ وتكوينِه أُنُفًا؛ كَرامةً لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وإجابةً لِندائِه النَّاسَ؛ ولذلك قَدَّم ذِكرَ الرَّسولِ قَبْلَ ذِكْرِ المؤمنين(٣).

- قولُه: ﴿وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه إعادةُ حَرْفِ (على) بعدَ حَرْفِ العَطْفِ؛ للتَّنبيهِ على تَجديدِ تعليقِ الفِعْلِ بالمجرورِ الثَّاني؛ للإيماءِ إلى التَّفاوتِ بين السَّكينتينِ؛ فسكينةُ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ سَكينةُ اطمئنانٍ على المسلمينَ الذين معَه، وثِقةٍ بالنَّصرِ، وسكينةُ المؤمنين سَكينةُ ثباتٍ وشجاعةٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ١٥٨).

بَعْدَ الجَزَعِ والخوفِ[١].

٣- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

- قولُهُ: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ﴾ فيه التَّعبيرُ بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يَتُوبُ﴾ دونَ الفِعْلِ الماضي؛ للإشارةِ إلى إفادةِ تَجدُّدِ التَّوبةِ على كُلِّ مَن تابَ إلى اللهِ تعالى[٢].

- وقولُه: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ تَذييلٌ للكلامِ؛ لإفادةِ أنَّ المَغْفرةَ مِن شأنِهِ تعالى، وأنَّه رَحيمٌ بعبادِهِ إنْ أَنابوا إليه، وتَركوا الإشراكَ به[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ١٥٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيتان (٢٨-٢٩)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٢٨﴾ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿عَيْلَةً﴾: أي: فَقرًا وفاقةً؛ من: عال يَعيِلُ عَيلةً: إذا احتاجَ[1].

﴿يَدِينُونَ﴾: أي: يُسلِمُونَ، ويُطيعونَ؛ يقالُ: دان له يَدِينُ دِينًا: إذا انقادَ وطاعَ، وأصلُ (دين): يدلُّ على جنسٍ مِن الانقيادِ[2].

﴿الْجِزْيَةَ﴾: أي: الخراجَ المجعولَ على رأسِ الذِّميِّ، وتسميتُها بذلك للاجتزاءِ بها عن حَقْنِ دَمِهم، وأصلُ (جزي): يدلُّ على قيامِ الشَّيءِ مَقامَ غَيرِه ومُكافأتِه إيَّاه[3].

﴿صَاغِرُونَ﴾: أي: أذِلَّاءُ مَقهورونَ، وأصلُ (صغر): يدلُّ على قِلَّةٍ وحَقارةٍ[4].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٩٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٩٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩٠)، ((غريب =

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: يا أيُّها المُؤمنونَ، إنَّما المُشرِكونَ بَواطِنُهم نَجِسةٌ وخَبيثةٌ، فلا تُمَكِّنوهم مِن دُخولِ الحَرَمِ بعد هذا العامِ التَّاسِعِ للهِجرةِ، الذي نبَذْتُم فيه لِجَميعِ المُشرِكينَ عُهودَهم، وإن خِفْتُم فقرًا بسببِ مَنْعِكم المشركينَ من دُخولِه، فسوفَ يُغنيكم اللهُ من فَضلِه إنْ شاءَ؛ إنَّ اللهَ عليمٌ حكيمٌ.

قاتِلوا الذين لا يُؤمِنون باللهِ، ولا باليومِ الآخِرِ، ولا يُحَرِّمونَ ما حَرَّمَه اللهُ ورسولُه، ولا يَدِينونَ بالإسلامِ، مِن اليَهودِ والنَّصارى، حتى يدفَعُوا الجزيةَ بأَيْدِيهم وهم أذلَّةٌ مَقهورونَ.

تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٢٨ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّها رُجوعٌ إلى غَرَضِ إقصاءِ المُشرِكينَ عن المَسجِدِ الحرامِ، المُفادِ بقَولِه: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ جِيءَ به لتأكيدِ الأمرِ بإبعادِهم عن المسجِدِ الحَرامِ مع تَعليلِه بِعِلَّةٍ أخرى تقتضي إبعادَهم عنه: وهي أنَّهم نَجَسٌ، فقد علَّلَ فيما مضى بأنَّهم شاهِدونَ على أنفسِهم بالكُفرِ، فلَيسُوا أهلًا لِتَعميرِ المسجِدِ المبنيِّ للتَّوحيدِ، وعلَّلَ هنا بأنَّهم نَجَسٌ، فلا يَعْمُروا المسجِدَ لِطَهارَتِه[١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ ﴾.

= القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥٩).

أي: يا أيُّها المؤمنونَ، المُطَهَّرةُ بواطِنُهم بالإيمانِ، ما المُشرِكونَ بِجَميعِ مِلَلِهم وأديانِهم(١) إلَّا نَجِسةٌ وخَبيثةٌ بواطِنُهم؛ بالشِّركِ والكُفرِ بالرَّحمنِ(٢).

﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾.

أي: لِأنَّ المُشرِكينَ نَجَسٌ، فلا تُمَكِّنُوهم مِن دُخُولِ جميعِ الحَرَمِ، بعد هذا

(١) قال ابنُ القَيِّم: (للنَّاسِ قولانِ في دخولِ أهلِ الكتابِ في لفظ المُشرِكين: فابنُ عمر وغيرُه كانوا يقولون: هم من المُشركين. قال عبد الله بنُ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما: لا أعلَمُ شِركًا أعظَمَ مِن أن يقولَ: المسيحُ ابنُ اللهِ، وعُزَيرٌ ابنُ اللهِ. وقد قال تعالى فيهم: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

والثاني: لا يدخُلونَ في لَفظِ «المُشركينَ»؛ لأنَّ الله سبحانَه جعَلَهم غيرَهم في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [الحج: ١٧].

قال شَيخُنا: والتَّحقيقُ: أنَّ أصلَ دِينِهم دينُ التَّوحيدِ، فَلَيسُوا مِن المُشرِكينَ في الأصلِ، والشِّركُ طارِئٌ عليهم؛ فهم منهم باعتبارِ ما عَرَضَ لهم، لا باعتبارِ أصلِ الدِّينِ، فلو قُدِّرَ أنَّهم لم يدخُلوا في لفظِ الآيةِ دَخَلوا في عُمُومِها المعنويِّ؛ وهو كَونُهم نَجَسًا، والحُكمُ يَعُمُّ بِعُمومِ عِلَّتِه).

((أحكام أهل الذمة)) (١/ ٣٩٩-٤٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٩٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٤٨)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٣/ ١١٩)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٥٩)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٣٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٣).

وقال الشوكاني: (استَدَلَّ بالآيةِ من قال: بأنَّ المُشرِكَ نَجِسُ الذَّاتِ، كما ذهب إليه بعضُ الظَّاهريَّة والزيدية. ورُوِيَ عن الحسن البصري، وهو محكيٌّ عن ابنِ عبَّاسٍ. وذهب الجُمهورُ مِن السَّلَفِ والخَلَفِ- ومنهم أهلُ المذاهِبِ الأربعةِ- إلى أنَّ الكافِرَ ليس بنَجِسِ الذَّاتِ؛ لأنَّ اللهَ سُبحانه أحلَّ طَعامَهم، وثبت عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في ذلك مِن فِعْلِه وقَوْلِه ما يُفيدُ عَدمَ نَجاسةِ ذَواتِهم؛ فأكَلَ في آنِيَتِهم، وشَرِبَ منها، وتوضَّأ فيها، وأنزَلَهم في مَسجِدِه).

((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٩٩)، ويُنظر: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقصَّاب (١/ ٥٠٦).

وقال محمد رشيد رضا: (وقيل: المرادُ بنَجاسَتِهم تلبُّسُهم بها دائمًا؛ لِعَدَمِ تعبُّدِهم بالطَّهارةِ كالمُسلمين، وقولُ الجُمهورِ بأنَّ المرادَ النَّجاسةُ المَعنويَّةُ، أظهَرُ، والجَمعُ بين القولينِ أَوْلى؛ لأنَّه أعَمُّ). ((تفسير المنار)) (١٠/ ٢٤٣). ويُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (١/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣١).

العامِ التَّاسِعِ للهِجرةِ، الذي نبَذْتُم فيه لِجَميعِ المُشرِكينَ عُهودَهم(١).

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((بَعَثَني أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ في الحَجَّةِ التي أمَّرَه عليها رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قبل حَجَّةِ الوَداعِ، في رَهطٍ يُؤَذِّنونَ في النَّاسِ يومَ النَّحرِ: لا يَحُجُّ بعدَ العامِ مُشرِكٌ، ولا يَطوفُ بالبَيتِ عُرْيانٌ))(٢).

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾.

أي: وإنْ خِفتُم- أيُّها المُؤمِنونَ- فَقرًا بسبَبِ مَنْعِكم المُشرِكينَ مِن دُخولِ الحَرَمِ، وانقطاعِ التِّجارةِ التي بينكم وبينهم؛ فسوف يُغنِيكم اللهُ مِن رِزقِه(٣) إن شاءَ(٤).

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

أي: إنَّ الله عليمٌ بكلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك عِلمُه بما تُخفِيه صُدورُكم مِن خَوفِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٩٨، ٣٩٩)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٢٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ٢٠٧)، ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (١/ ٤٠١)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٥٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٩٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٠٥- ٤١٣).

قال الشِّنقيطي: (وعلى كُلِّ حالٍ، فالمشركونَ، كعَبَدةِ الأوثانِ؛ أجْمَعَ جميعُ العلماءِ على مَنْعِهم مِن دُخولِ المسجدِ، واختلفوا في الكتابيِّ وفي غيرِ المسجدِ من سائرِ الحَرَمِ، وقد بَيَّنَّا أنَّ الصَّوابَ- إن شاء الله- مَنْعُهم مِن ذلك كُلِّه). ((العذب النمير)) (٥/ ٤٠٩).

(٢) رواه البخاري (٣٦٩)، ومسلم (١٣٤٧) واللفظ له.

(٣) قال الشنقيطي: (قال بعضُ العلماءِ: أغْناهم مِن فَضلِه بما فَتَحَ من بابِ الجِزْيةِ. قالوا: والدَّليلُ عليه أنَّ الآيَةَ التي بعدَها آيةُ الجزيةِ، فأخَذَ المُسلمونَ الجزيةَ من الكفَّارِ، واستغنَى بها المسلمونَ. وقال بعضُ العلماءِ: أغْناهم بإنزالِ المطَرِ، وأخصَبَتِ الأرضُ، فأخصَبَتْ بلادُ اليَمَنِ، وأخصبَتَ تَبَالةُ وجُرَشُ، وجَلَبوا لهم مِن الطَّعامِ والوَدَكِ، وأسلَمَ قبائِلُ العَرَبِ في اليَمَنِ، وفي نجدٍ وفي غيره، فكانوا يحجُّونَ كُلَّ سَنةٍ ويأتونَهم بمثْلِ ما كانوا يأتونَهم به من الطَّعامِ والأموالِ، فأغناهم اللهُ بذلك). ((العذب النمير)) (٥/ ٤١٥-٤١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٩٩، ٤٠٠)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٤١)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٣).

العَيْلةِ، وعليمٌ بما يَصلُحُ لِعبادِه، فيَعلَمُ مَن يليقُ به الغِنى، ومَن لا يَليقُ به، حكيمٌ في شَرْعِه وفي تَدبيرِ شُؤونِ خَلْقِه، يضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به[1].

﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى حُكمَ المُشرِكينَ في إظهارِ البَراءةِ عن عَهدِهم، وفي إظهارِ البَراءةِ عنهم في أنفُسِهم، وفي وُجوبِ مُقاتَلتِهم، وفي تَبعيدِهم عن المسجِدِ الحرامِ، وأورَدَ الإشكالاتِ التي ذكَرُوها، وأجاب عنها بالجَواباتِ الصَّحيحةِ- ذكَرَ بعده حُكمَ أهلِ الكِتابِ[2].

وأيضًا لَمَّا كان قَولُه تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ﴾ مَوضِعَ تَعجُّبٍ، يكونُ سببًا لِأنْ يُقالَ: من أين يكونُ ذلك الغِنى؟ أجابَ بقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾؛ ففي ذلك غِنًى لا يُشْبِهُ ما كُنتُم فيه مِن قِتالِ بَعضِكم لِبَعضٍ؛ لِتَغنَمَ ما في يَدِه مِن ذلك المالِ الحَقيرِ، ولا ما كُنتُم تُعِدُّونَه غِنًى مِن المتاجِرِ التي لا يبلُغُ أكبَرُها وأصغَرُها ما أرشدناكم إليه، مع ما في ذلك مِنَ العِزِّ المُمَكِّنِ مِن الإصلاحِ والطَّاعةِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٢٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٣٤-٤٣٥).

﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾.

أي: قاتِلُوا- أيُّها المُؤمِنونَ- الكُفَّارَ الذين لا يُؤمِنونَ بالله إيمانًا صحيحًا، ولا يُؤمِنونَ بالبَعثِ يومَ القيامةِ، والجَنَّةِ والنَّارِ[١].

﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾.

أي: ولا يحرِّمون ما حرَّم اللهُ، وما حرَّم رسولُه، فلا يتَّبِعونَ شَريعَتَه[٢].

﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾.

أي: والكُفَّارُ الذين أمَرْناكم بقِتالِهم- أيُّها المُؤمِنونَ- مِن اليَهودِ والنَّصارى،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٠٦)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٤).

قال ابنُ كثير: (هذه الآيةُ الكريمةُ نَزَلَت أوَّلَ الأمرِ بقتالِ أهلِ الكِتابِ، بعد ما تمهَّدَتْ أمورُ المُشرِكين، ودخل النَّاسُ في دين الله أفواجًا، فلما استقامَت جزيرةُ العَرَبِ، أمر الله رسولَه بقتالِ أهلِ الكِتابَينِ: اليَهودِ والنصارى، وكان ذلك في سنةِ تِسعٍ؛ ولهذا تجهَّزَ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لِقِتالِ الرُّومِ، ودعا النَّاسَ إلى ذلك، وأظهَرَه لهم، وبعَثَ إلى أحياءِ العَرَبِ حولَ المدينةِ فنَدَبَهم، فأوعَبُوا معه، واجتمَعَ من المُقاتِلةِ نحوٌ مِن ثلاثينَ ألفًا، وتخلَّف بعضُ النَّاسِ مِن أهلِ المدينة ومَن حَولَها مِن المُنافِقينَ، وغَيرِهم، وكان ذلك في عام جَدْبٍ، ووقْتِ قَيظٍ وحَرٍّ، وخرج عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يريدُ الشَّامَ لِقِتالِ الرُّومِ، فبلَغَ تَبوكَ، فنزَلَ بها، وأقام على مائِها قريبًا مِن عِشرينَ يومًا، ثم استخار اللهَ في الرُّجوعِ، فرجَعَ عامَه ذلك؛ لِضِيقِ الحالِ، وضَعْفِ النَّاسِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤١٩).

قال الرازي: (قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ وفيه وجهان؛ الأول: أنَّهم لا يُحَرِّمونَ ما حُرِّمَ في القرآنِ وسُنَّةِ الرَّسولِ. والثاني: قال أبو روق: لا يعملونَ بما في التَّوراة والإنجيل، بل حَرَّفوهما، وأتَوْا بأحكامٍ كثيرةٍ مِن قِبَلِ أنفُسِهم). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٢٥).

وقال أبو السعود: (وقيل: المرادُ برسولِه: الرَّسولُ الذي يزعُمونَ اتِّباعَه، أي: يُخالِفونَ أصْلَ دِينِهم المنسوخِ اعتقادًا وعملًا). ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٥٨).

الذين آتَيْناهم التَّوراةَ والإنجيلَ، لا يدينونَ بالإسلام(١).

﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾.

أي: قاتِلوهم إلى أن يَقْبَلوا دفْعَ أموالِ الجِزْيةِ- التي تُؤخَذُ جزاءَ تركِ المسلمينَ قتالَهم، وإقامتِهم آمنينَ بينَ أظهرِ المسلمينَ، وذلك في حالِ كونِهم لم يُسلِموا- فيَبْذُلوها لكم بأيديهم، وهُم أذلَّاءُ مَقهورونَ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤١٩).
قال ابن تيمية: (دخَلَ في ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ جميعُ أهلِ الكِتابِ الذين بلَغَتْهم دعوتُه، ولم يُؤمِنوا به). ((الجواب الصحيح)) (٣/ ٦٤).
قال الشنقيطي: (وفي قولِه: ﴿دِينَ الْحَقِّ﴾ وجهانِ من التفسيرِ:
أحدُهما: أن (الحقَّ) هو ضِدُّ الباطلِ، وأنَّ دينَ الحقِّ من إضافةِ الموصوفِ إلى صفتِه. أي: الدينُ الذي هو الحقُّ الذي هو دينُ الإسلامِ. ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]. ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩].
الوجهُ الثاني: أن الحقَّ هو اللَّهُ، فالحقُّ من أسماءِ اللَّهِ. ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ أي: دين الله الذي شَرَعَهُ على لسانِ نَبيِّهِ محمدٍ صلى الله عليه وسلم). ((العذب النمير)) (٥/ ٤٢٠).
وقال ابنُ جريرٍ: (ولا يُطيعون الله طاعةَ الحقِّ. يعني أنَّهم لا يُطيعون طاعةَ أهلِ الإسلامِ). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٠٦، ٤٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٤).
وممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه تعالى: ﴿عَنْ يَدٍ﴾ هو أن يدفعوها بأيديهم، ولا يُقبل منهم إرسالُها: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٠٦-٤٠٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٤).
وممن اختار أنَّ المعنى: عن قهرٍ لهم وغلبةٍ: ابنُ كثيرٍ، والسمينُ الحلبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٣٧).
وممن اختار أنَّ المعنى: عن قدرةٍ وسعةٍ، فلا يُظلمون ويرهقون: محمد رشيد رضا. يُنظر: ((تفسير المنار)) (١٠/ ٢٥٥).
وقال الشنقيطي: (قولُه في هذه الآية الكريمة: ﴿عَنْ يَدٍ﴾ فيه أوجهٌ مِن التفسيرِ معروفةٌ عند =

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- الرِّزقُ ليس مقصورًا على بابٍ واحدٍ، ومحلٍّ واحدٍ، بل لا ينغلِقُ بابٌ إلَّا فُتِحَ غَيره أبوابٌ كثيرةٌ؛ فإنَّ فَضلَ اللهِ واسعٌ، وَجُودَه عَظيمٌ، خصوصًا لِمَن ترك شيئًا لِوَجهِه الكريم، فإنَّ اللهَ أكرمُ الأكرَمينَ؛ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً

= العُلماءِ لا يكذبُ بعضُها بعضًا؛ قال بعضُ العلماء: ﴿يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ﴾: أي: عن قهرٍ وتحت ذُلٍّ، وكلُّ ما أعطاه الإنسانُ مقهورًا ذليلًا تقول العربُ: أعطاه عن يدٍ. وقال بعض العلماء: يعطيه عن يدٍ، معناه: يسلِّمُه بيدِه ولا يرسِلُ به غيرَه، فالدافعُ واقِفٌ والآخِذُ جالِسٌ. وقال بعض العلماء: ﴿عَنْ يَدٍ﴾ أي: نقدًا مُتسَلَّمًا باليدِ لا نسيئةً. وقال بعض العلماء: ﴿عَنْ يَدٍ﴾ أي: عن اعترافِهم بنعمةِ المُسلمين عليهم؛ حيث قَبِلوا منهم العِوَضَ ولم يقتُلوهم) ((العذب النمير)) (٥/ ٤٢١). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٣).

وقد اتَّفق الفقهاءُ على أنَّ الجزيةَ تُقبلُ مِن أهلِ الكتابِ والمجوسِ، واختلفوا في المشركينَ وعبدةِ الأوثانِ، كما اختلفوا في أوصافِ أهلِ الكتابِ والمجوسِ الذين تُقبل منهم الجزيةُ. يُنظر: ((بداية المجتهد)) لابن رشد (٢/ ١٦٦)، ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (١٥/ ١٦٦).

وقال ابن القيم: (الجزيةُ تؤخَذُ من كلِّ كافرٍ... ولا يُقالُ: إنَّ القرآنَ يدُلُّ على اختصاصِها بأهلِ الكِتابِ؛ فإنَّ اللهَ سُبحانه أمَرَ بقِتالِ أهلِ الكتابِ، حتى يُعطُوا الجزيةَ، والنبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أمَرَ بقِتالِ المُشرِكينَ حتى يعطُوا الجزيةَ، فيُؤخَذُ مِن أهلِ الكِتابِ بالقُرآنِ، ومِن عُمومِ الكُفَّارِ بالسُّنَّةِ، وقد أخَذَها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم من المجوسِ، وهم عُبَّادُ النَّارِ، لا فَرْقَ بينهم وبين عَبَدةِ الأوثانِ، ولا يَصِحُّ أنَّهم من أهلِ الكِتابِ، ولا كان لهم كِتابٌ). ((أحكام أهل الذمة)) (١/ ٨٩).

وقال أيضًا: (قولُه تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ فلا يجوز الإمساكُ عن قتالِهم إلَّا إذا كانوا صاغرينَ حالَ إعطاءِ الجِزيةِ. والمرادُ بإعطاءِ الجِزيةِ من حينِ بَذْلِها أو التِزامِها إلى حينِ تَسليمِها وإقباضِها، فإنَّهم إذا بَذَلوا الجزيةَ شَرَعوا في الإعطاءِ، ووجَبَ الكَفُّ عنهم إلى أن نقبِضَها منهم، فمتى لم يلتَزِموها، أو التَزَموها وامتَنَعوا من تسليمِها، لم يكونوا مُعطِينَ لها، فليس المرادُ أن يكونوا صاغرينَ حال تناوُلِ الجِزيةِ منهم فقط، ويفارِقُهم الصَّغارُ فيما عدا هذا الوقتَ، هذا باطِلٌ قطعًا). ((أحكام أهل الذمة)) (٣/ ١٣٧٧).

فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ الرِّزقَ ليس بالاجتهادِ، وإنَّما هو مِن فَضلِ اللهِ، تولَّى قِسْمَتَه بين عبادِه، وذلك بيِّنٌ في قَولِه تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[٢] [الزخرف: ٣٢]، وهو أيضًا يفتحُ بابَ الرَّجاءِ مع التضرُّعِ إلى اللهِ في تَحقيقِ وَعْدِه؛ لأنَّه يفعلُ ما يَشاءُ[٣].

٣- قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ لكنَّ الموسمَ الاقتصاديَّ الذي ينتظرُه أهلُ مكةَ، والتجارةَ التي يعيشُ عليها معظمُ الظاهرين في الجزيرةِ، ورحلةَ الشتاءِ والصيفِ التي تكادُ تقومُ عليها الحياةُ، إنَّها كلَّها ستتعرضُ للضياعِ بمنعِ المشركينَ مِن الحجِّ، وبإعلانِ الجهادِ العامِّ على المشركينَ كافةً، نعم! ولكنَّها العقيدةُ، واللهُ يريدُ أن تخلصَ القلوبُ كلُّها للعقيدةِ! وبعدَ ذلك، فاللهُ هو المتكفلُ بأمرِ الرزقِ مِن وراءِ الأسبابِ المعهودةِ المألوفةِ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ﴾ وحينَ يشاءُ الله يستبدلُ أسبابًا بأسبابٍ، وحين يشاءُ يُغلقُ بابًا، ويفتحُ الأبوابَ[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ بيانُ أنَّه لا يجبُ الحَجُّ- الوجوبَ المقتضيَ للفِعلِ وصِحَّتِه- إلَّا على مسلمٍ؛ حيث نهى اللهُ تعالى المشركينَ أنْ يَقربوا المسجدَ الحرامَ، ومَنَعَهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٦١).

(٤) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٦١٨).

منه، فاستحال أنْ يُؤمَروا بحَجِّ البَيتِ[١]!!

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ فيه أنَّ الكافِرَ يُمنَعُ مِن دُخولِ الحَرَمِ؛ وأنَّه لا يُؤذَنُ له في دُخُولِه، لا لتِجارةٍ ولا لِغَيرِها، وإن كان لِمَصلحةٍ لنا[٢].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ المرادُ مِن المسجِدِ الحرام جَميعُ الحَرَمِ، والدَّليلُ عليه قَولُه تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾؛ وذلك لأنَّ مَوضِعَ التِّجاراتِ ليس هو عينَ المَسجِدِ، فلو كان المقصودُ من هذه الآيةِ المنعَ مِن المسجِدِ خاصَّةً، لَمَا خافوا بسبَبِ هذا المنعِ مِن العَيلَةِ، وإنَّما يخافونَ العَيلةَ إذا مُنِعوا مِن حُضورِ الأسواقِ والمَواسِمِ[٣]، وسمَّى الحَرَمَ كلَّه مسجدًا لمجاورتِه المسجدَ[٤].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ﴾ قَولُه: ﴿إِنْ شَاءَ﴾ تعليقٌ للإغناءِ بالمشيئةِ؛ ولسائلٍ أن يسأَلَ فَيقولَ: الغَرَضُ بهذا الخبرِ إزالةُ الخَوفِ بالعَيلةِ، وهذا الشَّرطُ يمنَعُ من إفادةِ هذا المقصودِ، فالجوابُ مِن وُجوهٍ:

الأوَّل: عَلَّقَ الإغناءَ بالمشيئةِ؛ لأنَّ الغِنى في الدُّنيا ليس من لوازِمِ الإيمانِ، ولا يدلُّ على محبَّةِ اللهِ؛ فلهذا علَّقَه اللهُ بالمشيئةِ، فإنَّ اللهَ يُعطي الدُّنيا مَن يُحِبُّ ومن لا يحِبُّ، ولا يعطي الإيمانَ والدِّينَ إلَّا مَن يُحِبُّ.

---

(١) يُنظر ((شرح العمدة - كتاب الحج)) لابن تيمية (١/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٢٢)، ويُنظر أيضًا: ((النُّكتُ الدّالّة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٥١٧).

(٤) يُنظر: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٥١٧).

الثاني: لأنَّ الإغناءَ يقَعُ في حقِّ بَعضٍ دُونَ بَعضٍ، فالله تعالى عَلِمَ أنَّ فيهم من لا يبلُغُ هذا الغِنى الموعودَ، وأيضا فالإغناءُ يقَعُ في وقتٍ دون وقتٍ.

الثالث: لإجراءِ الحُكمِ على الحِكمةِ، فإن اقتضَتِ الحِكمةُ والمصلحةُ إغناءَكم أغناكم.

الرابع: إعلامًا بأنَّ الرِّزقَ لا يأتي بحِيلةٍ ولا اجتهادٍ، وإنَّما هو فَضلُ اللهِ.

الخامس: لكي لا يحصُلَ الاعتمادُ على حصولِ هذا المطلوبِ، فيكونُ الإنسانُ أبدًا مُتضَرِّعًا إلى اللهِ تعالى في طلَبِ الخَيراتِ، ودَفْعِ الآفاتِ، ولتنقطِعَ الآمالُ إليه عَزَّ وجَلَّ.

السادس: أنَّ المقصودَ مِن ذِكرِ هذا الشَّرطِ تَعليمُ رِعايةِ الأدبِ، كما في قَولِه تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾[1] [الفتح: ٢٧].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ إخبارٌ عن غيبٍ في المُستقبَلِ، وقد وقع الأمرُ مُطابِقًا لذلك الخبرِ، فكان معجزةً[2].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ أصلٌ في قَبولِ الجزيةِ من أهلِ الكِتابِ[3].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ قَولُه: ﴿عَنْ يَدٍ﴾ استدَلَّ به مَن لم

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص:٣٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٢٣).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٣٩).

يُجزْ توكيلَ مُسلمٍ في دَفْعِ الجزيةِ، ولا أن يَضمَنَها عنه، ولا يُحيلَ بها عليه[١].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ قيل: المرادُ يدُ المؤدِّي، وعلى هذا استدَلَّ به من قال: تسقُطُ الجزيةُ بالموتِ والإسلامِ؛ لأنَّ الاستيفاءَ عن يَدِه[٢].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ استدَلَّ به من قال إنَّ الجزيةَ تؤخَذُ بإهانةٍ[٣].

١٠- قولُ الله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ استدَلَّ به من قال إنَّ أهلَ الذِّمَّةِ يُتركونَ في بلدِ الإسلامِ؛ لأنَّ مَفهومَها الكَفُّ عنهم عند أدائِها، ومن الكَفِّ ألَّا يُجْلَوْا[٤].

١١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾استدَلَّ به من قال: لا حَدَّ لأقَلِّ الجِزيةِ[٥].

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ استدَلَّ به من قال: إنَّ الجِزيةَ عِوَضٌ

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (١/ ٥٨٢).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٣٩-١٤٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص:١٤٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

حَقنِ الدَّمِ، لا أُجرةُ الدَّارِ(١).

١٣- في قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إلى قولِه سبحانه: ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ دلالةٌ على أنَّ نساءَهم وصبيانَهم لا جزيةَ عليهم؛ لأنَّهم لا يُقاتَلون، بل قد نُهِيَ عن قَتْلِهم(٢).

١٤- وُصِفَتِ النَّصارى في قَولِه تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ بأنَّهم لا يُؤمِنونَ باليومِ الآخِرِ، مع أنَّ النَّصارى يُقِرُّونَ بمَعادِ الأبدانِ! ووجهُ ذلك أنَّهم لا يُقِرُّون بما أخبَرَ اللهُ به من الأكلِ والشُّربِ واللِّباسِ والنِّكاحِ، والنَّعيم والعذابِ في الجنَّةِ والنَّارِ، بل غايةُ ما يُقِرُّونَ به من النَّعيم: السَّماعُ والشَّمُّ، ومنهم مُتفَلسِفةٌ يُنكِرونَ مَعادَ الأجسادِ(٣).

١٥- ليس المرادُ بالعطاءِ في قَولِه تعالى: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ العطاءَ الأوَّلَ وحْدَه، بل العطاءُ المستمِرُّ المتكرِّرُ كُلَّ عامٍ(٤).

١٦- دلَّ قولُه تعالى: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ على أنَّه لا يجوزُ الإمساكُ عن قتالِهم إلَّا إذا كانوا صاغِرينَ حالَ إعطائِهم الجزيةَ، ومِن المعلومِ أنَّ مَن أظهَرَ سَبَّ نبيِّنا في وجوهِنا، وشَتَمَ ربَّنا على رُؤوسِ الملإِ مِنَّا، وطعَنَ في دينِنا في مَجامِعِنا- فليس بصاغرٍ؛ لأنَّ الصاغِرَ: الذَّليلُ الحقيرُ، وهذا فِعلُ مُتعَزِّزٍ مُراغِمٍ، ففي هذه الحالِ يكونُ قتالُ هؤلاء مأمورًا به، ولا تنعقِدُ لهم

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٠).

(٢) يُنظر: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٥١٨).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٦٢١)، ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٤٥٨).

(٤) يُنظر ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (١/ ١٤٨).

ذمَّةٌ، ولو عُقِدَ لهم كان عقدًا فاسِدًا[١].

١٧- ليس المرادُ بالصَّغَار في قَولِه تعالى: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ أنْ يكونوا صاغرينَ حالَ تناوُلِ الجزيةِ منهم فقط؛ ويفارِقُهم الصَّغَارُ فيما عدا هذا الوقتَ، هذا باطِلٌ قطعًا، وإنَّما أنْ يلازِمَهم الصَّغَارُ والذُّلُّ في كامِلِ مدَّةِ أداءِ الجزيةِ[٢].

١٨- في قوله تعالى: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ دليلٌ على توهينِ قولِ مَن قال: إنَّ مَن أسلم مِن رجالهم - وقد مضى بعضُ السَّنَةِ - فعليه مِن الجزيةِ بقَدْر ما مضَى منها. لأنَّ اللهَ جلَّ جلالُه جَعَلَ الجزيةَ صَغَارًا؛ والصَّغَارُ لاحقٌ بالدافع وقتَ الدفعِ؛ لقوله: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾؛ وكيف يُلْزَمُ المسلمُ صَغَارَ الجزيةِ وقد أعَزَّهُ اللهُ بالإسلام؛ والإسلامُ يَجُبُّ ما قبْلَه[٣]؟!

بلاغةُ الآيتين:

١- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ للرُّجوعِ إلى غَرَضِ إقصاءِ المُشركينَ عن المسجدِ الحرامِ، المُفادِ بقولِه: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾؛ وجِيءَ به لتأكيدِ الأَمْرِ بإبعادِهم عن المسجدِ الحَرامِ، مع تَعليلِه بعِلَّةٍ أُخْرى تَقتضي إبعادَهم عنه، وهي: أنَّهم نَجَسٌ[٤].

- وقولُهُ: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ فيه حَصْرٌ، وصِيغةُ الحَصْرِ هذه لإفادةِ

(١) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ١١).
(٢) يُنظر ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (٣/ ١٣٧٧).
(٣) يُنظر: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٥١٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥٩).

نَفْي التَّردُّدِ في اعْتِبارِهم نَجَسًا؛ فهي للمُبالَغةِ في اتِّصافِهم بالنَّجاسةِ، حتَّى كأنَّهم لا وصْف لهم إلَّا النَّجَسيَّةَ[1].

- ووُصِفوا بالمصْدَرِ ﴿نَجَسٌ﴾ مُبالَغةً أيضًا، كأنَّهم عينُ النَّجاسةِ، أو هم ذَوُو نَجَسٍ[2].

- قولُه: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ فيه النَّهيُ عن القُرْبِ؛ للمُبالَغةِ، أو للمَنْعِ عن دُخولِ الحَرَمِ[3].

- قولُ الله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ جُعِلَ النَّهيُ على صورةِ نَهيِ المُشرِكينَ عن ذلك؛ مبالغةً في نهيِ المُؤمِنينَ حين جُعِلوا مُكَلَّفينَ بانكفافِ المُشرِكينَ عن الاقترابِ مِن المسجِدِ الحَرامِ[4].

- قولُهُ: ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ فيه إضافةُ (العامِ) إلى ضَميرِ (هُم)؛ لمزيدِ اخْتِصاصِهم بحُكمٍ هائلٍ في ذلك العامِ، ووصْفُ (العامِ) باسمِ الإشارةِ ﴿هَذَا﴾؛ لزيادةِ تمييزِه وبيانِه[5].

- وقولُه: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ تَعليلٌ لقولِه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾، أي: إنَّ اللهَ يُغْنيكم؛ لأنَّه يَعْلَمُ ما لكم مِن المنافعِ من وِفادةِ القبائلِ، فلمَّا مَنَعَكم مِن تمكينِهم من الحجِّ لم يَكُنْ تاركًا مَنْفعتَكم؛ فقَدَّرَ غِناكُم عنهم بوسائلَ أُخْرى عَلِمها، وأحْكَم تَدبيرَها[6].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٦٠-١٦١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ١٦٠).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ١٦١).

٢- قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ...﴾ هذه الجملةُ استئنافٌ ابتدائيٌّ، لا تَتفرَّعُ على التي قَبْلَها؛ فالكلامُ انْتِقالٌ من غَرَضِ نَبْذِ العَهْدِ مَع المشركينَ، وأحوالِ المُعامَلةِ بَينهم وبين المسلِمين، إلى غرَضِ المُعامَلةِ بين المسلمينَ وأَهْلِ الكِتابِ من اليهودِ والنَّصارى[(١)].

- وقولُهُ: ﴿عَنْ يَدٍ﴾ تأكيدٌ لمعنى ﴿يُعْطُوا﴾؛ للتَّنصيصِ على الإعطاءِ، و(عن) فيه للمُجاوَزةِ، أي: يَدْفُعوها بأيديهم، ولا يُقبَلُ منهم إرسالُها ولا الحوالةُ فيها، ومَحَلُّ المجرورِ الحالُ مِن الجِزيةِ، والمرادُ يَدُ المُعْطي، أي: يُعْطُوها غيرَ مُمتنِعينَ، ولا مُنازِعينَ في إعطائِها، وهذا كقولِ العَربِ: (أعْطَى بيدِه) إذا انْقادَ[(٢)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٦٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٦٦).

الآيتان (٣٠-٣١)

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٣٠) ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) ﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿يُضَاهِئُونَ﴾: أي: يُشابِهونَ، والمُضاهاةُ: مُعارَضةُ الفِعلِ بمِثْلِه، يقالُ: ضاهَيْتُه: إذا فعَلْتَ مثلَ فِعْلِه، وأَصْلُ (ضهي): يدلُّ على مُشابَهةِ شَيءٍ لِشَيءٍ(١).

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ اليهودَ قالوا: إنَّ عُزَيرًا هو ابنُ اللهِ، والنَّصارى قالوا: المسيحُ عيسى ابنُ مريمَ هو ابنُ اللهِ، ذلك قولُهم بألسِنَتِهم، يُشابِهونَ قَولَ الكُفَّارِ مِن الأُمَمِ قَبْلَهم، لَعَنَهم اللهُ، كيف يُصرَفونَ عَنِ الحَقِّ؟!

اتَّخَذوا عُلَماءَهم وعُبَّادَهم سادةً يُطيعُونَهم مِن دُونِ اللهِ، في تحليلِ الحَرامِ، وتحريمِ الحَلالِ، واتَّخَذَ النَّصارى المسيحَ عيسى ابنَ مريمَ إلهًا مِن دُونِ اللهِ، وما أُمِرُوا إلَّا لِيَعبُدوا إلهًا واحدًا، هو اللهُ، لا إلهَ إلَّا هو، تنزَّهَ وتقَدَّس عن شِرْكِهم.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٣٠) ﴾.

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٧٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٣).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا حكَمَ اللهُ تعالى في الآيةِ المُتقَدِّمةِ على اليهودِ والنَّصارى بأنَّهم لا يُؤمِنونَ بالله، شَرَحَ ذلك في هذه الآيةِ، وذلك بأنْ نقَلَ عنهم أنَّهم أثبَتُوا لله ابنًا، ومَن جَوَّزَ ذلك في حَقِّ الإلهِ، فهو في الحقيقةِ قد أنكَرَ الإلهَ، وأيضًا بيَّنَ تعالى أنَّهم بمنزلةِ المُشرِكينَ في الشِّركِ، وإن كانت طُرُقُ القَولِ بالشِّركِ مُختلفةً؛ إذ لا فَرقَ بين من يَعبُدُ الصَّنمَ، وبين من يعبُدُ المَسيحَ وغَيرَه؛ لأنَّه لا معنى للشِّركِ إلَّا أن يتَّخِذَ الإنسانُ مع اللهِ مَعبودًا، فإذا حصَلَ هذا المعنى، فقد حصَلَ الشِّركُ[1].

وأيضًا لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى بقِتالِ أهلِ الكِتابِ، ووصَفَهم بما هو السَّبَبُ الباعِثُ على ذلك؛ عطَفَ عليه بعضَ أقوالِهم المُبيحةِ لِقِتالِهم، المُوجِبةِ لِنَكالِهم[2].

﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ ﴾.

أي: وقالت اليهودُ[3]: عُزَيرٌ هو ابنُ اللهِ[4]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٢٧-٢٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٣٧).

(٣) قال ابنُ تيميةَ بعدَ أن ذكَر أنَّ جمهورَ اليهودِ لا يقولون ذلك: (وبالجملة إنَّ قائِلي ذلك من اليهودِ قَليلٌ، ولكِنَّ الخبَرَ عن الجِنسِ). ((درء تعارض العقل والنقل)) (٧/ ٨٨-٨٩).
وقال ابنُ الجوزي: (فإن قيل: إن كان قول بَعضِهم، فلِمَ أُضيفَ إلى جَميعِهم؟ فعنه جوابان: أحدهما: أنَّ إيقاعَ اسْمِ الجماعةِ على الواحِدِ مَعروفٌ في اللُّغةِ... والثاني: أنَّ مَن لم يَقُلْه، لم يُنكِرْه). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٥٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٦٨).
وقال الشوكانيُّ: (وظاهرُ قولِه: ﴿وقالت اليهود﴾ أنَّ هذه المقالةَ لجميعِهم). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٠٢)، ونسَبَ ابنُ الجوزيِّ لابنِ عباسٍ أنَّ الذين قالوا هذا هم جميعُ بني إسرائيلَ. ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٥١).
قال الشنقيطي: (ومما يَدُلُّ على أنَّ هذه المقالةَ صَدَرَتْ من اليهودِ أن هذا القرآنَ يُتْلَى من قديمِ الزمانِ من نزولِ هذه الآيةِ، ولم يُعْلَمْ أن يهوديًّا في زمانِها كَذَّبَ بذلك، وقال: ما قُلْنا هذا! مع مسارعتِهم إلى التكذيبِ). ((العذب النمير)) (٥/ ٤٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٥١)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ٨٨، ٨٩). =

﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾.

أي: وقالت النَّصارى: المسيحُ عيسى ابنُ مَريمَ، هو ابنُ اللهِ(١)!

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ [البقرة: ١١٦].

وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٢].

عن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إذا كان يومُ القيامةِ أذَّنَ مُؤذِّنٌ: لِيَتْبَعْ كُلُّ أمَّةٍ ما كانت تعبُدُ، فلا يبقى أحدٌ كان يعبُدُ غيرَ اللهِ- سُبحانه- من الأصنامِ والأنصابِ إلَّا يَتَساقَطونَ في النَّارِ، حتى إذا لم يبقَ إلَّا مَن كان يعبُدُ اللهَ مِن بَرٍّ وفاجرٍ وغُبَّرِ(٢) أهلِ الكِتابِ، فيُدعى اليَهودُ، فيقالُ لهم: ما كُنتُم تعبُدونَ؟ قالوا: كنَّا نعبُدُ عُزَيرَ ابنَ اللهِ، فيُقال: كذَبْتُم؛ ما اتَّخَذَ اللهُ مِن صاحبةٍ ولا وَلَدٍ، فماذا تَبْغُونَ؟ قالوا: عَطِشْنا يا رَبَّنا، فاسْقِنا، فيُشارُ إليهم: ألَا تَرِدُونَ(٣)؟ فيُحشَرونَ إلى النَّارِ كأنَّها سرابٌ، يَحطِمُ(٤) بعضُها بعضًا، فيتساقَطونَ في النَّارِ، ثم يُدعَى النَّصارى، فيُقالُ لهم: ما كُنتُم تَعبُدونَ؟ قالوا: كنَّا نعبُدُ المسيحَ ابنَ اللهِ، فيُقال لهم: كَذَبْتُم؛ ما اتَّخَذَ اللهُ مِن صاحبةٍ

= قيل: كان عزير نبيًّا مِن أنبياءِ بني إسرائيلَ. وقيل: كان حَبْرًا كبيرًا مِن أحبارِهم. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٥١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٦٧-١٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٣٨).

(٢) غُبَّرِ (بِضَمِّ الغَينِ وفتح الباء المُشَدَّدة) أي: بَقايَا. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ٢٦).

(٣) تَرِدُونَ: مِن الوُرودِ على الماءِ، أي: الوُصولِ إلى تَناوُلِه. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٣٣٢).

(٤) يَحطِمُ: أي: يَكسِرُ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٧/ ٨٢).

ولا وَلَدٍ، فيُقال لهم: ماذا تَبغُونَ؟ فيقولونَ: عَطِشْنا يا رَبَّنا، فاسْقِنا، قال: فيُشارُ إليهم: ألَا تَرِدُونَ؟ فيُحشَرونَ إلى جَهنَّمَ، كأنَّها سرابٌ، يَحطِمُ بعضُها بعضًا، فيتَساقَطونَ في النَّارِ))(١).

﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾.

أي: نِسبَةُ الوَلَدِ إلى اللهِ تعالى كَذِبًا وزورًا هو قولُ اليهودِ والنَّصارى بألسنتِهم، فلا مُستنَدَ لهم فيما ادَّعَوه(٢).

﴿يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾.

أي: يُشابِهُ قَولُ اليهودِ والنَّصارى في نِسبَتِهم الوَلَدَ إلى الله تعالى، قَولَ الكُفَّارِ مِن الأُمَمِ قَبلَهم في ذلك(٣).

---

(١) رواه البخاري (٤٥٨١)، ومسلم (١٨٣) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٧٨)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٤).

قال ابن عطية: (قوله: ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ يتضمَّنُ معنيَينِ: أحدهما: إلزامُهم المقالةَ، والتَّأكيدُ في ذلك، كما قال: ﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ٧٩]، وكقَولِه تعالى: ﴿وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨]، والمعنى الثاني في قوله: ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: هو ساذَجٌ لا حُجَّةَ عليه ولا بُرهانَ، غايةُ بَيانِه أنْ يُقالَ بالأفواهِ قَولًا مُجَرَّدًا نفْس دَعْوى). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٤). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للنحاس (٣/ ٢٠٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٧٨، ٣٧٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٠٢، ٤٠٣).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٦٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٣٨).

قال الرازي: (في تفسيرِ هذه الآيةِ وُجوهٌ: الأول: أنَّ المُرادَ أنَّ هذا القولَ مِن اليَهودِ والنَّصارى يُضاهي قَولَ المُشرِكينَ: الملائكةُ بناتُ اللهِ. الثاني: أنَّ الضَّميرَ للنَّصارى، أي: قولُهم: المسيحُ ابنُ اللهِ، يُضاهِي قولَ اليَهودِ: عُزَيرٌ ابنُ اللهِ؛ لأنَّهم أقدَمُ منهم. الثالث: أنَّ هذا القَولُ مِن النَّصارى يُضاهي قَولَ قُدَمائِهم، يعني: أنَّه كُفرٌ قَديمٌ، فهو غيرُ مُستَحدَثٍ). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٣٠). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٢/ ٣٥٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١١٨)، ((تفسير ابن جزي)) =

﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾.

أي: لعَنَ اللهُ اليهودَ والنَّصارى، كيف يُصرَفونَ عَنِ الحَقِّ، فيَضِلُّونَ عنه، ويَعْدِلونَ إلى الباطِلِ، ومِن أينَ يتطرَّقُ إليهم ذلك الصَّرْفُ بعد وضوحِ الدَّليلِ على أنَّ الله تعالى لم يتَّخِذْ وَلَدًا(1)؟!

كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ

= (١/ ٣٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٠٣).

وممَّن اختار أنَّ المُرادَ بـ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾: الكُفَّارُ مِن الأُمَمِ السَّابقة: ابن كثير، وابن عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: يُشابِه قَولُ اليَهودِ والنصارى في نِسبَتِهم الولدَ إلى اللهِ، قَولَ أسلافِهم الذين كَفَروا مِن قَبْلِهم. وهو قولُ ابن قتيبة، والزجاج. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٤٣).

وقيل: يُشابِهُ قَولُ اليهودِ والنَّصارى في نِسبَتِهم الولدَ إلى اللهِ، قَولَ مُشرِكي العَرَبِ الذين كفَروا مِن قَبْلِهم، إذ قالوا: الملائكةُ بناتُ الله. وهذا اختيارُ السعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٣٨).

وقيل: يشابِهُ قَولُ النَّصارى في نِسبَتِهم الولَدَ إلى اللهِ، قَولَ اليَهودِ الذين كَفَروا مِن قَبْلِهم. وهو اختيارُ ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤١٣، ٤١٤).

قال الشنقيطي: (وهذا كلُّه لا يُكذِبُ بَعضُه بعضًا). ((العذب النمير)) (٥/ ٤٣٨).

وقال ابنُ تيميَّةَ بعد أن ضعَّفَ القَولَ بأنَّهم قدماءُ الذين كَفَروا، أو مُشرِكو العَرَبِ: (فلعَلَّه الصابئونَ المُشرِكونَ الذين كانوا قبلَ موسى والمسيحِ بأرْضِ الشَّامِ ومِصرَ وغيرِها، الذين يجعلونَ الملائكةَ أولادًا له). ((مجموع الفتاوى)) (٢/ ٤٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤١٥، ٤١٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٨٢، ٣٨٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٦٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٣٩).

قال الواحدي: (قال ابن الأنباري: المُقاتَلةُ أصلُها مِن القَتلِ، فإذا أُخبِرَ عن اللهِ بها، كانت بمعنى اللَّعنةِ؛ لأنَّ مَن لَعَنَه اللهُ، فهو بمنزلةِ المَقتولِ الهالِكِ). ((الوسيط)) (٢/ ٤٩٠).

ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ * قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٢ - ٧٧].

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه تعالى وصَفَ اليَهودَ والنَّصارى بضَربٍ آخَرَ مِن الشِّرْكِ، بِقَولِه: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾[1].

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾.

أي: اتَّخذَ اليَهودُ عُلَماءَهم، واتَّخذ النَّصارى عُبَّادَهم، سادةً يُطيعونَهم مِن دُونِ اللهِ، في تحليلِ الحرامِ، وتَحريمِ الحَلالِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤١٦، ٤١٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٥، ٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٤٧).

قال الرازي: (حاصِلُ الكلامِ أنَّ تلك الربوبيَّةَ يحتملُ أن يكونَ المرادُ منها أنَّهم أطاعوهم فيما كانوا مُخالِفينَ فيه لِحُكم اللهِ، وأن يكونَ المرادُ منها أنَّهم قَبِلوا أنواعَ الكُفرِ، فكَفَروا باللهِ، =

﴿وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾.

أي: واتَّخَذَ النَّصارى المسيحَ عِيسى ابنَ مَريمَ إلهًا مِن دُونِ الله سُبحانَه[1]!

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾.

أي: وما أُمِرَ اليَهودُ والنَّصارى في كُتُبِهم إلَّا أن يعبُدوا ويُطيعُوا مَعبودًا واحدًا، وهو اللهُ المُستَحِقُّ للعبادةِ وَحْدَه، المُتَفَرِّدُ بالتَّشريعِ والتَّحليلِ والتَّحريمِ دونَ ما سِواه[2].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ * وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٤-٥].

﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: لا مُستَحِقَّ للعبادةِ إلَّا اللهُ وَحدَه[3].

﴿سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

أي: تَنَزَّه اللهُ وتقَدَّسَ أتمَّ تنزيهٍ، عن شِرْكِ المُشرِكينَ، وافتراءاتِ الكافِرينَ[4].

= فصار ذلك جاريًا مجرى أنَّهم اتَّخَذوهم أربابًا مِن دونِ اللهِ، ويحتملُ أنَّهم أثبَتُوا في حَقِّهم الحُلولَ والاتِّحادَ. وكُلُّ هذه الوجوهِ الأربعةِ مُشاهَدٌ وواقِعٌ في هذه الأمَّةِ). ((تفسير الرازي)) (٣١/١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٢١)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٥)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٣٩٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٦٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٢١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٢١)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن =

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

دلَّ قولُه تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ على أنَّ مَن أطاع أحدًا في دينٍ لم يأذَنِ اللهُ به- من تحليلٍ أو تحريمٍ، أو استحبابٍ أو إيجابٍ- فقد لَحِقَه من هذا الذمِّ نصيبٌ، ويلحق الذمُّ مَن تبيَّن له الحقُّ فترَكَه أو قصَّرَ في طلبه فلم يتبيَّنْ له، أو أعرضَ عن طلبه لهوىً أو كسلٍ ونحو ذلك[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ في هذا دليلٌ على أنَّ مَن أخبَرَ عن كُفرِ غَيرِه، الذي لا يجوزُ لأحدٍ أن يَبتدئَ به، لا حَرَجَ عليه؛ لأنَّه إنَّما ينطِقُ به على معنى الاستعظامِ له والرَّدِّ عليه، فلا يمنَعُ ذلك منه، ولو شاء ربُّنا ما تكَلَّمَ به أحدٌ، فإذا أمكَنَ مِن انطلاقِ الألسِنَةِ به، فقد أذِنَ في الإخبارِ عنه، على معنى إنكارِه بالقَلبِ واللِّسانِ، والرَّدِّ عليه بالحُجَّةِ والبُرهانِ[2].

٢- ذَكَرَ اللهُ تعالى اعتقادَ النَّصارى في عيسى على ثلاثةِ أشكالٍ؛ فمنها ما قال اللهُ تعالى عنهم: ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾، ومنها: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧]، ومنها: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، ولكنَّ هذه الاعتقاداتِ حقيقتُها اعتقادٌ واحدٌ عندَهم- لا أنَّها اعتقادُ كلِّ فِرْقةٍ على حِدَةٍ- فما ذَكَرَهُ اللهُ تعالى عنهم هو قولُ جملةِ النَّصارى؛ فإنَّهم يقولونَ: إنَّه اللهُ باعتبارٍ، وإنَّه ابنُ اللهِ

= عطية)) (٣/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٤٨).

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٢/ ٤٨٣).

باعتبارٍ آخَرَ، وإنَّه ثالثُ ثلاثةٍ باعتبارِ آخَرَ؛ حيث إنَّهم عَبَدُوا معه المسيحَ وأمَّه، فصار ثالثَ ثلاثةٍ- سُبحانه وتعالى عمَّا يُشرِكون(١).

٣- إنَّ اللهَ سُبحانه لم يذكُرْ قولًا مقرونًا بذِكرِ الأفواهِ والألسُنِ إلَّا وكان قولًا زُورًا، قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾، وقال تعالى أيضًا: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، وقال: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥]، وقال: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾(٢) [الفتح: ١١].

٤- في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ دلالةٌ على جوازِ تسميةِ الشيءِ باسمِ الشيءِ إذا جاوَره؛ لأنَّ القولَ - لا محالةَ - بالألسنةِ لا بالأفواهِ(٣).

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ الإشراكُ باللهِ في حُكْمِه، والإشراكُ به في عِبادَتِه كِلاهما بمعنًى واحدٍ، لا فَرْقَ بينهما البتَّةَ؛ فالذي يَتْبَعُ نظامًا غيرَ نِظامِ اللهِ، وتشريعًا غيرَ ما شَرَعه الله، وقانونًا مُخالِفًا لِشَرعِ اللهِ، مِن وَضْعِ البَشَرِ، مُعرِضًا عن نورِ السَّماءِ، الذي أنزَلَه اللهُ على لِسانِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، من كان يفعَلُ هذا هو ومَن يعبُدُ الصَّنَمَ ويَسجُدُ للوَثَنِ، لا فرق بينهما البتَّةَ بِوجهٍ مِن الوجوهِ، فهما واحِدٌ؛ فكِلاهما مُشرِكٌ بالله: هذا أشرَكَ به في عبادَتِه، وهذا أشرَكَ به في حُكمِه، والإشراكُ به في عِبادَتِه، والإشراكُ به في حُكمِه، كِلاهما سَواءٌ، وقد قال اللهُ جلَّ وعلا في الإشراكِ به في عِبادَتِه: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا

(١) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (١٠/ ٢٣٨)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٢/ ١٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١١٨).
(٣) يُنظر: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٥١٩).

يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠] وقال في الإشراكِ به في حُكْمِه أيضًا: ﴿لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦] وفي قراءةِ ابنِ عامرٍ مِن السَّبعةِ: (وَلَا تُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ بصيغةِ النَّهيِ المُطابِقةِ لِقَولِه: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]؛ فكِلاهما إشراكٌ باللهِ[١].

٦- مَن اعتقَدَ طاعةَ أحدٍ لِعَينِه أو لِصَفةٍ فيه، فأطاعه في خلافِ ما أمَرَ اللهُ، فهو من الذين ذُكِروا في قولِه تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أنَّهم كانوا يعتَقِدونَ وُجوبَ طاعةِ أحْبارِهم، فأخبَرَ اللهُ تعالى أنَّهم اتَّخَذوهم أربابًا[٢].

٧- هؤلاء الذينَ ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا﴾- حيث أطاعُوهم في تحليلِ ما حرَّم اللهُ وتحريمِ ما أحلَّ اللهُ- يكونونَ على وجهينِ:

أحدهما: أنْ يعلَمُوا أنَّهم بدَّلوا دينَ الله؛ فيتَّبِعونَهم على التَّبديلِ، فيعتقدونَ تحليلَ ما حرَّم اللهُ، وتحريمَ ما أحلَّ اللهُ؛ اتِّباعًا لرُؤسائِهم- مع عِلْمِهم أنَّهم خالفُوا دينَ الرُّسُلِ- فهذا كفرٌ، وقد جعَلَه اللهُ ورسولُه شِركًا، وإنْ لم يكونوا يُصَلُّونَ لهم، ويَسجُدونَ لهم.

والثاني: أنْ يكون اعتقادُهم وإيمانُهم بتحريمِ الحرامِ وتحليلِ الحلالِ ثابتًا، لكِنَّهم أطاعوهم في مَعصيةِ اللهِ- كما يفعلُ المسلمُ ما يفعلُه مِن المعاصي التي يَعتقِدُ أنَّها معاصٍ- فهؤلاء لهم حُكْمُ أمثالِهم من أهلِ الذُّنوبِ، كما ثبت في الصَّحيحِ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: ((إنَّما الطَّاعةُ في المعروفِ))[٣].

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٤١)، ويُنظر أيضًا: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٥٢١)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٦٤٢).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٨٧، ٣٨٨).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٧٠). =

٨- لم تُوصفِ النَّصارى باسم (المُشرِكينَ)- يعني: بأل التَّعريفِ- وإنما وُصِفت بعموم فِعْلِ الشِّركِ، كما في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ووجهُ ذلك: أنَّ أهلَ الكتابِ ليس في أصلِ دينِهم شِركٌ؛ فإنَّ اللهَ إنَّما بعثَ الرُّسُلَ بالتَّوحيدِ، فكلُّ مَن آمن بالرُّسُلِ والكُتُبِ، لم يكنْ في أصلِ دينِهم شِرْكٌ، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ ولكنَّ النَّصارى ابتَدَعوا الشِّركَ، وحيث ميَّزَهُم اللهُ عن المشركين، فعَطَفَ ذِكْرَهُم على ذِكْرِ المُشرِكينَ؛ فلِأَنَّ أصلَ دينِهم اتِّباعُ الكُتُبِ المُنزَّلةِ التي جاءت بالتَّوحيدِ لا بالشِّركِ، وفرْقٌ بين دَلالةِ اللَّفظِ مُفرَدًا ومَقرونًا، فإذا أُفْرِدَ ذِكْرُ المشركينَ دخلَ فيهم أهلُ الكتابِ، وإذا قُرِنُوا بأهلِ الكِتابِ لم يَدخُلوا فيهم[1].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فيه دَلالةٌ على إطلاقِ اسمِ الشِّركِ على اليَهودِ والنَّصارى[2].

بلاغةُ الآيتين:

١- قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾

- قولُه: ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ المقصودُ مِن الإشارةِ ﴿ذَلِكَ﴾ تَشهيرُ القولِ وتمييزُه؛ زِيادةً في تَشنيعِه عِندَ المسلمينَ[3].

- وقولُه: ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ حالٌ مِن القولِ، والمرادُ: أنَّه قولٌ لا يَعْدو الوجودَ

= والحديث أخرجه البخاري (٧١٤٥)، ومسلم (١٨٤٠) من حديث علي رضي الله عنه.

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن حيان)) (٥/ ٤٠٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٠٥-٤٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٦٨).

في اللِّسانِ، وليس له ما يُحقِّقُهُ في الواقِعِ، وهذا كِنايةٌ عن كوْنِهِ كاذبًا، وفي هذا أيضًا إلزامٌ لهم بهذا القولِ، وسَدٌّ لبابِ تَنصُّلِهم منه؛ إذ هو إقرارُهم بأفواهِهم، وصَريحُ كلامِهم[١].

- وجُملةُ: ﴿أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ مُستأنَفةٌ، والاسْتِفهام فيها مُستَعْمَل في التَّعجُّبِ من حالِهم في الاتِّباع الباطلِ، حتَّى شبَّهَ المكانَ الذي يُصرَفون إليه باعْتِقادِهم بمكانٍ مجهولٍ مِن شأنِه أنْ يُسأَلَ عنه باسمِ الاسْتِفهامِ عن المكانِ ﴿أَنَّى﴾[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

- قولُهُ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ...﴾ الجملةُ تَقريرٌ لمضمونِ جُمْلةِ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾؛ ليُبْنَى على التَّقريرِ زِيادةُ التَّشنيعِ بقولِه: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيتان (٣٢-٣٣)

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

مُشكِلُ الإعراب:

قَوْلُه تعالى: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ﴾

﴿أَن يُتِمَّ﴾: مَصدرٌ مُؤَوَّلٌ، وهو في محلِّ نَصبٍ، مَفعولٌ به، والاستثناءُ هنا مُفرَّغٌ- ناقِصٌ مَنفيٌّ- وإنما دَخَلَ الاستثناءُ المفرَّغُ مع الفِعلِ الْمُثْبَتِ ﴿يَأْبَى﴾- وشَرطُ الاستثناءِ المُفَرَّغِ أن يكونَ بعد نفيٍ أو شِبْهِهِ كالاستفهام[1]- لأنَّ ﴿يَأْبَى﴾ في معنى النَّفيِ؛ لأنَّه في معنى (لا يُرِيدُ)، والتَّقديرُ: ولا يُرِيدُ اللهُ إلَّا إتمامَ نُورِه. وقيل: إنَّ المُستثنى منه مَحذوفٌ، وهو مفعولُ ﴿يَأْبَى﴾، والتَّقديرُ: ويأبى اللهُ كُلَّ شيءٍ إلَّا إتمامَ نورِه، وعليه فـ﴿أَنْ يُتِمَّ﴾ في محلِّ نَصبٍ على الاستثناءِ[2].

---

(١) قال الشيخ خالد الأزهري: (ولا يتأتَّى التَّفريغُ في الإيجابِ؛ لأنَّه يؤدِّي إلى الاستبعادِ؛ لا نقولُ: رأيتُ إلَّا زيدًا؛ لأنَّه يلزَمُ منك أنَّك رأيتَ جَميعَ النَّاسِ إلَّا زيدًا، وذلك محالٌ عادةً). يُنظر: ((شرح التصريح)) (١/ ٥٤٠).
- ولكِنْ أحصى الدكتور: محمد عبد الخالق عضيمة آياتِ الاستثناءِ في القرآنِ الكَريمِ، فوجَدَ ثمانيَ عَشْرةَ آيةً، جاء فيها الاستثناءُ المُفَرَّغُ بعد الإيجابِ، وبعض هذه الآياتِ جاء الإثباتُ فيها مُؤَكَّدًا؛ ممَّا يُبعِدُ تأويلَ هذا الإثباتِ بنَفيٍ، مثلُ قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]. ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٣]. ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف: ٦٦]... ثمَّ قال: فإنَّنا لو سَلَكْنا هذا الطَّريقَ وسَوَّغْنا هذا التَّأويلَ، ما وَجَدْنا في لغةِ العَرَبِ إثباتًا يستعصي على تأويلِه بالنَّفيِ. يُنظر: ((دراسات لأسلوب القرآن الكريم)) (١/ ٧- ٢٦٦). ويُنظَرُ أيضًا: ((التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل)) لأبي حيان الأندلسي (٨/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣٢٧)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٦٤١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٤٠-٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٧٣).

المعنى الإجمالي:

يُخبِرُ تعالى أنَّ أهلَ الكِتابِ يُريدونَ أن يُبطِلوا دينَ اللهِ الإسلامَ، بما يَقولونَه بألسِنَتِهم مِن تكذيبٍ للحَقِّ، وافتراءاتٍ عليه، ولا يَرضى اللهُ إلَّا أن يُتِمَّ دِينَه ويُظهِرَه للنَّاسِ، ولو كَرِه الكافِرونَ، ويُخبِرُ تعالى أنَّه هو الذي أرسَلَ رَسولَه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالهُدى، وبِدِينِ الإسلامِ؛ لِيُظهِرَه على سائِرِ الأديانِ، ولو كَرِه المُشرِكونَ.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا وَهَّى اللهُ سُبحانَه أمْرَ أهلِ الكِتابِ مِن جِهةِ استنادِهم، زاد ذلك توهيةً مِن جِهةِ مُرادِهم؛ بالإعلامِ بأنَّهم بقِتالِهم لأهلِ الطَّاعةِ إنَّما يُقاتِلونَ اللهَ تعالى، وأنَّه لا يُنَفِّذُ غَرَضَهم، بل يريدُ غَيرَ ما يريدونَ، ومِن المُقَرَّرِ أنَّه لا يكونُ إلَّا ما يريدُ سُبحانه[1].

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾.

أي: يريدُ اليَهودُ والنَّصارى أن يُبطِلوا دينَ اللهِ الإسلامَ، بما يقولونَه بألسِنَتِهم مِن تكذيبٍ للحَقِّ، وافتراءاتٍ عليه[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٢١)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٨٨)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧١).

قال ابن كثير: (مَثَلُهم في ذلك كمَثَلِ مَن يريدُ أن يُطفِئَ شُعاعَ الشَّمسِ، أو نورَ القَمرِ بنَفْخِه! =

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٧، ٨].

﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ﴾.

أي: ولا يَرضى اللهُ إلَّا أن يُتِمَّ دينَه، ويُظهِرَه للنَّاس[١].

كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.

أي: ولو كَرِهَ الكُفَّارُ إتمامَ اللهِ دينَه، فإنَّه سيُتِمُّه لا محالةَ[٢].

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا حكى اللهَ تعالى عن الأعداءِ أنَّهم يُحاوِلونَ إطفاءَ نورِ الله، وبيَّنَ تعالى أنَّه يأبى ذلك، وأنَّه يُتِمُّ نورَه- بيَّنَ كيفيَّةَ ذلك الإتمامِ[٣]، وبيَّنَ النُّورَ المَذكورَ

= وهذا لا سبيلَ إليه، فكذلك ما أَرسَلَ اللهُ به رسولَه؛ لا بُدَّ أن يَتِمَّ ويَظهَرَ. ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٢١)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٤٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٣٢).

الذي قد تَكَفَّلَ بإتمامِه وحِفْظِه، فقال تعالى[١]:

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ ﴾.

أي: اللهُ وَحْدَه هو الذي بعَثَ رَسولَه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم بالعِلمِ النَّافِعِ المُشتَمِلِ على الإيمانِ الصَّحيحِ، ومعرفةِ الشَّرائعِ والأحكامِ، وبَعَثَه بدِينِ الإسلامِ المُشتَمِلِ على الأعمالِ الصَّالحةِ النَّافعةِ في الدُّنيا والآخرةِ[٢].

﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾.

أي: ليُعلِيَ اللهُ الإسلامَ بالغَلَبةِ والانتصارِ على أهلِ الأديانِ، ويُعلِيَه بالحُجَّةِ والبُرهانِ على سائرِ الأديانِ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٢٢)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٢/ ١١٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٦)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٣٣)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٣٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٥١).

قال الرازي: (لا دينَ بخلافِ الإسلامِ، إلَّا وقد قَهَرَهم المسلمونَ، وظَهَروا عليهم في بعضِ المواضِعِ، وإن لم يكُن كذلك في جميعِ مَواضِعِهم، فقَهَروا اليهودَ وأخرَجُوهم من بلادِ العَرَبِ، وغَلَبوا النَّصارى على بلادِ الشَّامِ وما والاها إلى ناحيةِ الرُّومِ والغَربِ، وغَلَبوا المجوسَ على مُلْكِهم، وغَلَبوا عُبَّادَ الأصنامِ على كثيرٍ مِن بلادِهم ممَّا يلي التُّركَ والهِندَ، وكذلك سائِرُ الأديانِ؛ فثبت أنَّ الذي أخبَرَ الله عنه في هذه الآيةِ قد وقع وحصَل، وكان ذلك إخبارًا عن الغَيبِ، فكان مُعجِزًا). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٣٣).

وقال ابن عاشور: (ظهورُ الإسلامِ على الدِّينِ كُلِّه حصَلَ في العالَمِ، باتِّباعِ أهلِ المِلَلِ إيَّاه في سائِرِ الأقطارِ، بالرَّغمِ على كراهِيَةِ أقوامِهم وعظماءِ مِلَلِهم ذلك، ومُقاوَمَتِهم إيَّاه بكلِّ حِيلةٍ، ومع ذلك فقد ظهَرَ وعلا، وبان فضلُه على الأديانِ التي جاوَرَها... ولا يلزَمُ مِن إظهارِه على الأديانِ أن تنقَرِضَ تلك الأديانُ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٣، ١٧٤). =

عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: سَمِعْتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((لا يذهَبُ اللَّيلُ والنَّهارُ حتى تُعبَدَ اللَّاتُ والعُزَّى. فقُلْتُ: يا رسولَ اللهِ، إن كنْتُ لَأظَنُّ حين أنزَلَ اللهُ: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ أنَّ ذلك تامًّا! قال: إنَّه سيكونُ من ذلك ما شاءَ اللهُ))(١).

وعن ثوبانَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ زَوَى ليَ الأرضَ(٢)، فرأَيتُ مَشارِقَها ومَغارِبَها، وإنَّ أُمَّتِي سيبلُغُ مُلْكُها ما زُوِيَ لي منها))(٣).

وعن خبَّابِ بن الأرَتِّ رَضِيَ الله عنه، قال: ((شَكَوْنا إلى رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو متوسِّدٌ بُردةً له في ظِلِّ الكَعبةِ، قُلنا له: ألَا تَستَنصِرُ لنا، ألَا تدعو اللهَ لنا؟ قال: كان الرَّجُلُ فيمن قبلَكم يُحفَرُ له في الأرضِ فيُجعَلُ فيه، فيُجاءُ بالمِنشارِ فيُوضَعُ على رأسِه، فيُشَقُّ باثنَتَينِ، وما يصدُّه ذلك عن دينِه، ويُمشَطُ بأمشاطِ الحَديدِ ما دونَ لَحمِه مِن عَظمٍ أو عصَبٍ، وما يصُدُّه ذلك عن دينِه، واللهِ لَيَتِمَّنَّ هذا الأمرُ، حتى يسيرَ الرَّاكِبُ مِن صَنعاءَ إلى حَضرمَوتَ، لا يخافُ إلَّا اللهَ، أو الذِّئبَ على غَنَمِه، ولكنَّكم تَستعجِلون))(٤).

= وقال الألباني: (تُبَشِّرُنا هذه الآيةُ الكَريمةُ بأنَّ المُستقبَلَ للإسلامِ، بسَيطَرتِه وظُهورِه وحُكْمِه على الأديانِ كلِّها، وقد يظُنُّ بعضُ النَّاسِ أنَّ ذلك قد تحقَّقَ في عهدِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وعهدِ الخُلَفاءِ الرَّاشِدينَ والملوكِ الصَّالحين، وليس كذلك، فالذي تحقَّقَ إنَّما هو جزءٌ مِن هذا الوَعدِ الصَّادِقِ). ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (١/ ٣١).

(١) رواه مسلم (٢٩٠٧).

(٢) زَوَى لي الأرضَ: أي: قَبَضَها وطَوَاها، وجَعَلَها مجموعةً كَهَيئةِ كَفٍّ في مِرآةٍ نَظَرِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٩/ ٣٦٧٦).

(٣) رواه مسلم (٢٨٨٩).

(٤) رواه البخاري (٣٦١٢).

وعن تميم الدَّاريِّ رَضِيَ الله عنه، قال: سمِعْتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((لَيَبلُغَنَّ هذا الأمرُ ما بلغَ اللَّيلُ والنَّهارُ، ولا يترُكُ اللهُ بَيتَ مَدَرٍ ولا وبَرٍ إلَّا أدخَلَه اللهُ هذا الدِّينَ، بعِزِّ عزيزٍ، أو بذُلِّ ذَليلٍ؛ عِزًّا يُعِزُّ اللهُ به الإسلامَ، وذُلًّا يُذِلُّ اللهُ به الكُفرَ))[1].

﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾.

أي: ولو كَرِهَ المشركونَ ظُهورَ الإسلامِ على جميعِ الأديانِ، فإنَّ اللهَ سيُظهِرُه[2].

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ بُشرى وتثبيتٌ لأهلِ الإسلامِ الدَّاعِينَ له العاملينَ به، أنَّ اللهَ سبحانَه قد تكَفَّلَ لهذا الأمرِ بالتَّمامِ والظُّهورِ على جميعِ الأديانِ، وأنَّه لا بُدَّ أنْ يكونوا على ثِقةٍ مِن هذا الوعدِ الذي لا بدَّ أنْ يُنجِزَه سبحانَه[3].

٢- بعثَ اللهُ تعالى مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ﴿بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ إلى النَّاسِ؛ فبالهدى يُعرَفُ الحقُّ، وبدينِ الحَقِّ يُقصَدُ الخيرُ ويُعمَلُ به، فلا بدَّ مِن عِلْمٍ بالحَقِّ، وقصْدٍ له، وقُدرةٍ عليه، والفتنةُ تضادُّ ذلك؛ فإنَّها تمنعُ معرفةَ الحَقِّ؛ لِمَا فيها من الشُّبُهاتِ التي تَلبِسُ الحقَّ بالباطِلِ، أو تمنَعُ قصدَ الحَقِّ؛ لِمَا فيها من

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٩٥٧)، والطحاوي في ((شرح مشكل الآثار)) (٦١٥٥)، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (٢/ ٥٨) (١٢٨٠)، والحاكم في ((المستدرك)) (٨٣٢٦).

قال الحاكم (٥/ ٦١٥): صحيح على شرط الشيخين، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٦/ ١٧): رجاله رجال الصحيح، وقال الألباني في ((تحذير الساجد)) (١٥٨): على شرط مسلم.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٤).

(٣) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٢٨٠).

الأهواءِ والشَّهواتِ، أو تمنعُ القُدرةَ على الخيرِ؛ لِمَا فيها من ظهورِ قُوَّةِ الشَّرِّ(١).

٣- الوَعدُ الحَقُّ مِن اللهِ، الدَّالُّ على سُنَّتِه التي لا تتبَدَّلُ: أنَّه مُتِمُّ نُورِه بإظهارِ دِينِه، ولو كَرِهَ الكافِرونَ، وهو وعدٌ تطمَئِنُّ له قلوبُ الذين آمَنوا، فيدفَعُهم هذا إلى المُضِيِّ في الطَّريقِ على المشَقَّةِ واللَّأواءِ في الطَّريقِ، وعلى الكَيدِ والحَربِ مِن الكافرينَ؛ قال الله تعالى: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾(٢).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- طبيعةُ الموقِفِ الدَّائِمِ لأهلِ الكِتابِ، مِن نُورِ اللهِ المتمَثِّلِ في دينِه الحَقِّ، الذي يهدِي النَّاسَ- أنَّهم مُحارِبونَ لِنُورِ اللهِ، سواءٌ بما يُطلِقونَه من أكاذيبَ ودسائِسَ وفِتَنٍ، أو بما يحَرِّضونَ به أتباعَهم وأشياعَهم على حَربِ هذا الدِّينِ وأهلِه؛ يُبَيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾(٣).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ بيانُ أنَّه لا هُدَى إلَّا فيما جاء به الرسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلا يَقبلُ اللهُ مِن أحدٍ دينًا يَدينُه به إلَّا أنْ يكونَ مُوافِقًا لدينِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقد نزَّه سبحانه وتعالى نفسَه عمَّا يَصِفُه به العبادُ إلَّا ما وصفَه به المُرسَلونَ، فقال تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠-١٨١] وسلَّمَ على المُرسَلينَ؛ لِسَلامةِ ما وصَفُوه به مِن النَّقائِصِ والعُيوبِ(٤).

٣- كثيرًا ما يجمَعُ سُبحانه بين هذينِ الأصلَينِ ﴿الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾؛ لأنَّ بهما تمامَ الدَّعوةِ، وظهورَ دِينِه على الدِّينِ كُلِّه(٥).

(١) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٤/ ٥٤٧).
(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٦٤٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (١/ ١٥٢).
(٥) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٤).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ كالبَيانِ لِقَولِه تعالى: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ﴾؛ ولذلك كَرَّرَ ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾، غيرَ أنَّه وضَعَ ﴿الْمُشْرِكُونَ﴾ مَوضِعَ ﴿الْكَافِرُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّهم ضَمُّوا الكُفرَ بالرَّسولِ إلى الشِّركِ باللهِ تعالى[1].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ لزيادةِ إثارةِ غَيظِ المُسلِمينَ على أَهْلِ الكتابِ، بكَشْفِ ما يُضمِرونَه للإسلامِ من المُمالاةِ، والتألُّبِ على مُناوأةِ الدِّينِ[2].

- وقد مَثَّلَ حالَهم في طَلَبِهم أنْ يُبطِلوا نُبوَّةَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالتكذيبِ، بحالِ مَن يُريدُ أنْ يَنْفُخَ في نُورٍ عَظيمٍ مُنبَثٍّ في الآفاقِ، يُريدُ اللهُ أنْ يَزيدَه ويُبلِغَه الغايةَ القُصْوى في الإشراقِ أو الإضاءةِ؛ ليُطْفِئَه بنَفخِه ويَطْمِسَه، ومِن كمالِ بلاغةِ هذا الكلامِ أنَّه صالحٌ لتَفكيكِ التَّشبيهِ؛ بأن يُشبَّهَ الإسلامُ وحْدَه بالنُّورِ، ويُشبَّهَ مُحاوِلُو إبطالِه بمُريدِي إطفاءِ النُّورِ، ويُشَبَّهُ الإرجافُ والتَّكذيبُ بالنَّفخِ، ومِن الرَّشاقةِ أنَّ آلةَ النَّفخِ وآلةَ التَّكذيبِ واحدةٌ، وهي الأفواهُ[3]، وهذا التَّمثيلُ له دَلالتانِ؛ الأُولى: قوَّةُ نورِ اللهِ، وظُهورُ أَمْرِه، حتَّى مَثَلَ أمامَهم نورًا حقيقيًّا، كنُورِ الشَّمْسِ. والثانيةُ: ضَعْفِ كَيدِ الكافرين؛ لأنَّ كُلَّ مُحاولاتِهم لم تَكَدْ تَعْدو النَّفْخَ بأفواهِهم، وما ذلك بمُحقِّقٍ لهم ما يُريدونَ[4].

- قولُه: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ في إضافةِ النُّورِ إلى اسمِ الجلالةِ

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٦٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧١).

(٤) يُنظر: ((خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية)) للمطعني (٢/ ٣٩٥-٣٩٦).

بقولِه: ﴿نُورَ اللَّهِ﴾: إشارةٌ إلى أنَّ مُحاولةَ إطفائِه عَبَثٌ، وأنَّ أصحابَ تِلك المحاولةِ لا يَبلُغون مُرادَهم(١).

- وقولُهُ: ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ تَعبيرٌ جميلٌ رشيقٌ؛ لأنَّ المعنى تمَّ بدُونِه؛ فجاءَ هو لإضافةِ ظِلالٍ رقيقةٍ على المعنى العامِّ، اكْتَسى بها جمالًا ورُواءً؛ فقد أفادتْ- أولًا- أنَّ كيدَهم للقرآنِ لم يَعْدُ كلماتٍ جوفاءَ اتَّهمُوه بها (أَساطيرُ الأوَّلين - رِئيٌّ من الجِنِّ- شِعْرٌ- لو نَشاءُ لقُلْنا مِثْلَ هذا)؛ هذه الكلماتُ لم يَكُنْ لها نصيبٌ من الوجودِ سِوى التلفُّظِ بها لم تتمكَّنْ حتَّى من قُلوبِ قائليها، وهذا يدُلُّ على ضَعْفِ كيدِهم، وهي تُفيدُ- ثانيًا- أنَّ النُّورَ كان ماثلًا أمامَهم حتَّى قَصَدوه قصدًا في مكانٍ وجِهةٍ، وهذا يدلُّ على ظُهورِ أَمْرِ اللهِ، وقوَّةِ انْتِصارِه، وهي تُفيد - ثالثًا - أنَّ هذا النُّورَ لم يَكُنْ لأيِّ عامِلٍ آخَرَ أنْ يُطْفِئه (ريحٌ شديدةٌ مثلًا، أو عاصِفةٌ مُدمِّرةٌ)؛ فهو قائمٌ رَغْمَ هذه التقلُّباتِ التي لا يَكادُ يَخْلو منها وَقتٌ؛ فكيف يَتسنَّى لهم أنْ يُطْفِئوه بأفواهِهم؟! إنَّه نُورٌ قويٌّ باهِرٌ، وسيَظَلُّ- هكذا- نُورًا باهرًا قويًّا، ولو كَرِهَ الكافرون(٢).

- ومِن محاسِنِ البيانِ أيضًا في قولِه تعالى: ﴿نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أنَّ فيه إضافتَينِ؛ إحْداهُما: إضافةُ النُّورِ إلى اللهِ تعالى: ﴿نُورَ اللَّهِ﴾، والمُرادُ به دِينُ الإسلامِ، والأُخْرى إضافةُ الأفواهِ، وهي الآلةُ المُستَعْملةُ للإطفاءِ إلى جماعةِ المُريدينَ لإطفاءِ النُّورِ: ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ وعند التَّأمُّلِ في الإضافةِ الأُوْلى: ﴿نُورَ اللَّهِ﴾ يتَّضِحُ أنَّ النُّورَ المُضافَ قَدْ اكْتَسَبَ قَدْرًا مِن خَصائصِ القوَّةِ والعَظَمةِ والشَّرَفِ والعُلوِّ والبَقاءِ من المضافِ إليه (الله)، ثم تأتي الإضافةُ الأُخْرى: ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ بإضافةِ الأفواهِ الضَّعيفةِ إلى نفَرٍ مِن البَشَرِ المخلوقينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٢).

(٢) يُنظر: ((خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية)) للمطعني (٢/ ٣٩٥-٣٩٦).

الضُّعفاءِ؛ فالمضافُ فيها- وهو كلمةُ: (أفواهِ)- على ما فيه من الضَّعْفِ العُضويِّ والعَضَليِّ يَزدادُ ضعفًا من خلال إضافتِه إلى الضَّميرِ المُتَّصِلِ (هُمْ) العائدِ إلى أولئك المخلوقينَ المهازيلِ، وهذا مِن عجيبِ البَيانِ؛ إذ يَجْمعُ أَمْرَينِ؛ أحدُهما: التَّهكُّمُ بإرادتِهم، وزعْمِهم أنَّه نورٌ ضعيفٌ يُمكِنُ أنْ يَنطفِئ بمجرَّد النَّفخِ، والآخَرُ: تَصغيرُ شأنِهم، وتَضعيفُ كيدِهم؛ فهم بالمقارنةِ مع قوَّةِ الخَالقِ العظيمِ ضُعفاءُ، مهما أُوتُوا مِن قوَّةٍ، ومَحْدُودون مهما اسْتَعْملوا من آلةٍ وأداةٍ؛ فكيف إذا كانتْ أداةُ الإطفاءِ أفواهَهم[١]؟

- وقولُه: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ﴾ فيه إظهارُ النُّورِ في مَقامِ الإضمارِ مُضافًا إلى ضَميرِهِ عزَّ وجلَّ؛ زيادةً في الاعتِناءِ بشأنِهِ، وتَشريفًا له على تشريفٍ، وإشعارًا بعِلَّةِ الحُكْمِ[٢].

- و(لو) في قولِهِ: ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ اتِّصاليَّةٌ، وهي تُفيدُ المبالغةَ بأنَّ ما بَعْدَها أجدرُ بانْتِفاءِ ما قَبْلَها لو كان مُنْتفيًا[٣].

٢- قَولُه تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾

- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ عبَّرَ عن الإسلامِ بالهُدى ودينِ الحَقِّ؛ تنويهًا بِفَضلِه، وتعريضًا بأنَّ ما هم عليه ليس بهُدًى ولا حقٍّ[٤].

- قولُهُ: ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ خُصَّ المشرِكون

(١) يُنظر: ((تأمّلات لُغوية في آيتين)) لخالد بن إبراهيم النملة (موقع البيان).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٦١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ١٧٣).

هنا بالذِّكْرِ؛ لأنَّ الكَراهةَ كراهةٌ مُختصَّةٌ بظهورِ دِينِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّ ظهورَ دينِ الإسلامِ أشدُّ حسرةً على المشركين مِن كلِّ أُمَّةٍ؛ لأنَّهم الذين ابتدءُوا بمعارضتِه وعداوتِه، ودَعَوا الأُمَمَ للتألُّبِ عليه، واستَنْصروا بهم، فلم يُغنوا عنهم شيئًا، ولأنَّ أتمَّ مظاهرِ انتصارِ الإسلامِ كان في جزيرة العربِ، وهي ديارُ المشركينَ، وخُصَّ الكافرون قَبْلُ ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾؛ لأنَّها كراهةُ إتمامِ نُورِ اللهِ في قَديمِ الدَّهْرِ، وباقِيه يَعُمُّ الكَفَرةَ من لَدُنْ خَلْقِ الدُّنيا إلى انْقِراضِها، ووَقعتِ الكراهةُ والإتمامُ مِرارًا كثيرةً[1].

- وفي هاتَينِ الآيتَينِ مُناسَباتٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال اللهُ تعالى هنا في سُورةِ التَّوبةِ: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾، بَينمَا قال عزَّ وجَلَّ في سُورةِ الصَّفِ: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف:٨-٩]؛ فقال تعالى في الآيةِ الأُولى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾، وقال في الثَّانية: ﴿لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾: فاختُصَّتِ الأُولى بـ (أَنْ)، والثانيةُ باللَّامِ دون (أَنْ)؛ ووجْهُ هذه المناسَبةِ: أنَّ الإرادةَ في الآيةِ الأُولى تَعلَّقَتْ بإطفاءِ نُورِ اللهِ بأفواهِهم، وإطفاءُ نورِ اللهِ إنَّما يكونُ بما حاوَلوا مِن دَفْعِ الحَقِّ بالباطِلِ؛ فالحقُّ يُسمَّى نُورًا؛ لأنَّ حُجَجَه وبَراهينَه تُضيءِ لطالبِه بها إليه، والباطِلُ هو قولُهم بأفواهِهم، وهو ما أخْبَرَ اللهُ تعالى به قبلُ عن اليهودِ والنَّصارَى بقولِه: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٤).

مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠]، أي: هو قولٌ لا حَقيقةَ له، ولا مَحصولَ، وبمِثلِه لا يُدفَعُ الحقُّ، وبالأفواهِ لا يُطفأُ هذا النورُ كما يُطفأُ السِّراجُ؛ لأنَّ هذا النُّورَ، وإنْ أَشْبَهَه في أنَّه يَهدِي، ويُبيِّن الحقَّ مِن الباطِلِ، فهو بخِلافِه في الامتِناعِ من الإطفاءِ كما يَتهيَّأ ذلك في السِّراجِ.

وأمَّا الآيةُ في سُورةِ الصَّفِّ، وتَعليقُ الإرادةِ فيها بالإطفاءِ مع زِيادةِ اللامِ، فعلى قولِ المحقِّقينَ مِن النَّحويِّين، فالفعلُ بعدَ هذه اللَّام مُعدًّى إلى مفعولٍ مَحذوفٍ، واللَّامُ الداخلةُ على الفِعلِ المنصوبِ تكونُ مُنبئةً على العِلَّةِ التي لها أُنشِئَ الفِعلُ، والمرادُ في الآيةِ على هذا التَّحقيقِ: يُريدون أنْ يكذبوا؛ ليُطْفِئوا نورَ اللهِ بأفواهِهم؛ لأنَّ قَبْلَها: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ﴾ [الصف: ٧]؛ فقوله: ﴿يُرِيدُونَ﴾ لم يُذْكَر فيه مفعولُ ما يُريدونَ؛ اعتمادًا على ما نَبَّه عليه بقولِه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾، فكأنَّه قِيل: يُريدونَ افتراءَ الكذبِ؛ ليُطْفِئوا نورَ الله؛ فلهذا خُصَّتِ الآيةُ الثانيةُ بدُخولِ اللَّامِ على (يُطْفِئوا)، ولَمَّا كان المرادُ في الآيةِ الأُولَى الإطفاءَ بالأفواهِ لِمَا دَلَّ عليه مُفتَتَحُ الآياتِ، وهو قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ [التوبة: ٣٠]، كانتِ الإرادةُ مُعدَّاةً إلى إطفاءِ نُورِ اللهِ تعالى بأفواهِهم، أي: يُريدونَ أنْ يَدْفعوا الحقَّ بالباطِلِ مِن أفواهِهم[١].

وأيضًا مِمَّا يُبيِّنُ تلك المناسباتِ ما يَلي:

أولًا: في الغاياتِ الظَّاهرةِ والمخفيَّةِ، حيثُ قال في التَّوبةِ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا﴾، وفي آيةِ الصَّفِّ قال: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا﴾، وقَبْلَ النَّظَرِ في دَلالاتِ

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٧٠٤-٧٠٩)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٣٦).

هذا الاختلافِ بين الآيتَينِ، والمعنى الذي يُضيفُه دُخولُ اللامِ في الثَّانيةِ؛ يُشارُ إلى مُقدِّمة نَحْويَّةٍ يسيرةٍ تُعينُ على فَهْم المعنى، وهي أنَّ الفِعْلَ المُضارِعَ ﴿يُطْفِئُوا﴾ في الآيتَينِ منصوبٌ بـ (أنْ) الظَّاهِرةِ في الأُولى، والمُضْمَرةِ في الثَّانيةِ، وتَقديرُ الثَّانيةِ: يُريدونَ لأنْ يُطفِئوا، و(أنْ) والفِعْلُ المضارِعُ بَعْدَها تؤوَّلُ بمَصْدرِ (إطفاء)، وعلى هذا يكونُ التَّقديرُ في آيةِ التَّوبةِ: (يُريدون إطفاءَ نَورِ اللهِ)، وفي آيةِ الصَّفِّ: (يُريدونِ لإطفاءِ نورِ اللهِ)، وهذه اللَّامُ هي لامُ التَّعليلِ، وفي هذا الاختِلافِ اللَّفظيِّ بين الآيتَينِ إشارةٌ إلى أنَّهم يُغايرونَ في إظهارِ غاياتِهم وأهدافِهم؛ ففي آيةِ التَّوبةِ: هم يُريدون إطفاءَ نُورِ اللهِ صَراحةً، وبصُورةٍ ظاهرةٍ ومباشِرةٍ؛ فالإطفاءُ (وهو المفعولُ به للفِعْلِ: يُريدونَ)، هو مُرادُهم عَلَنًا؛ فالغايةُ من إرادتِهم هنا ظاهرةٌ وصريحةٌ.

أمَّا آيةُ الصَّفِّ، وتَقديرُها: (يُريدونَ لإطفاءِ نُورِ اللهِ)؛ فالشَّيءُ المُرادُ فيها (وهو المفعولُ بِهِ للفِعْلِ: يُريدون) غيرُ مذكورٍ، أي: إنَّهم يُريدون مُراداتٍ مُخْتلِفةً يَجْعلونها وسائلَ مُوصِلةً في نهاياتِها إلى إطفاءِ نُورِ اللهِ؛ فهم لا يُظهِرون عَلَنًا أنَّهم يُريدونَ الإطفاءَ، وإنَّما يُريدونَ أنْ يَصِلوا إلى الإطفاءِ من خلالِ طُرُقٍ غير مُباشِرةٍ تُوصِلُ في زَعْمِهم وتَدْبيرِهم إليه؛ ولذلك يَظهرونَ في هذه الحالِ بعباءاتٍ مُختلِفةٍ، ويَدْعُمون البرامجَ والمشروعاتِ، ويَرْفعونَ شِعاراتٍ إصلاحيَّةً في ظاهِرِها، لكِنَّها تتغيَّا في حقيقتِها إطفاءَ نُورِ اللهِ، وما مِن شكٍّ في أنَّ خُطورةَ هؤلاء في الحالِ الثَّانيةِ، وهي حالُ الغاياتِ المخفيَّةِ؛ أشدُّ من خطورتِهم في الحالِ الأُولى التي يُصرِّحون فيها بمُراداتِهم، ويُعلِنونَ فيها غاياتِهم.

وقدِ اتَّفقتْ الآيتانِ في البَدْءِ بالفِعْلِ المُضارِعِ: ﴿يُرِيدُونَ﴾ الذي يَدُلُّ على الحدوثِ والتَّجدُّدِ في الحاضِرِ والمُستقْبَلِ، ولم يأتِ التعبيرُ بالفِعْلِ الماضي (أَرَادُوا) الذي يَدُلُّ في الأَصْلِ على انْقِضاءِ حُدوثِ الفِعْلِ في الزَّمنِ الماضي؛ فهم

يُريدونَ بصورةٍ مُتجدِّدةٍ ومُتكرِّرةٍ إطفاءَ نُورِ اللهِ مُنذُ ظهورِ ذلك النُّورِ إلى زمنِنا الحاضِرِ، وستتجدَّدُ معهم تلك الإرادةُ، وتَستمِرُّ ما بقي هذا النُّورُ الممتدُّ على مدَى الزَّمنِ المُتتابِعِ، وما بَقِيتْ فيهم قُوَّةٌ على النَّفْخِ؛ إنَّهم عَبْرَ التاريخِ لم يَقِفوا عند حدِّ انحرافِهم الشَّخصيِّ عن دِينِ الحَقِّ، واتِّباعِهم شهواتِهم، إنَّما هم كذلك يُعلِنونَ باستمرارِ الحربَ على دِينِ الحَقِّ، ويُريدونَ إطفاءَ نُورِ اللهِ في الأرضِ.

ثانيًا: في الموقِفِ الرَّبَّانيِّ؛ حيثُ جاءَ الموقِفُ الربانيُّ من تلك الإراداتِ والغاياتِ في الآيتينِ مُختلِفًا في المَبْنى؛ ليُعطيَ المُتأمِّلَ دَلالاتٍ إضافيَّةً في المعنى، تَتناسَبُ مع اختلافِ الدَّلالاتِ في الغاياتِ في الآيتينِ: ففي آيةِ التَّوبةِ يَقولُ اللهُ تعالى بجُملةٍ فِعليَّةٍ حاصِرةٍ: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ﴾، والإباءُ: هو الامْتِناعُ بقوَّةٍ؛ فاللهُ تعالى هنا يأبى كُلَّ شيءٍ إلَّا إتمامَ نُورِهِ، وفي التَّعبيرِ بالفِعْلِ (يَأْبى) من المُبالَغةِ والدَّلالةِ على الامْتِناعِ ما ليس في نَفْيِ الإرادةِ، لو كان التَّعبيرُ: (ولا يُريدُ اللهُ إلا أنْ يُتِمَّ نُورَهُ)؛ فهم يُريدونَ إطفاءَ النُّورِ، واللهُ الذي له جميعُ العَظَمةِ وكمالُ القُدْرةِ والعِزِّ ونفوذُ الكَلَمةِ يَأْبى إلَّا أن يُتِمَّ نُورَه، ثُم يُجدِّدون الإرادةَ، واللهُ يَأْبى ... وما تَزالُ إراداتُهم تَتجدَّد، ويتجدَّد معها إباءُ العظيمِ- جلَّ وعلَا- وامتناعُهُ من كلِّ شيءٍ إلَّا إتمام النُّورِ.

واسْتِعمالُ الجُملةِ الفِعْليَّةِ الحاصِرةِ بفِعْلِها المضارِعِ (يَأْبى) المُشعِرِ بقوَّةِ الامْتِناعِ؛ يَتناسَبُ مع الغايةِ الصَّريحةِ والجُرأةِ المُعلَنةِ التي ظَهَرتْ منهم في أوَّلِ الآيةِ: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾؛ فرايةُ الإطفاءِ لنُورِ اللهِ المُعلَنةُ بصراحةٍ وجُرأةٍ لا يُناسِبها إلَّا القوَّةُ في بيانِ الموقفِ الإلهيِّ.

أمَّا آيةُ الصَّفِّ التي جاءتْ إرادةُ الإطفاءِ فيها عَبْرَ الوسائلِ والأعوانِ والشِّعاراتِ الإصلاحيَّةِ: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ [الصف: ٨]؛ فيُناسِبُها أنْ تكونَ صياغةُ الموقفِ الإلهيِّ فيها من خِلالِ الجُمْلةِ الاسميَّةِ الحاليَّةِ: ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ

نُورِهِ﴾ [الصف: ٨]؛ التي تَدلُّ على الدَّوامِ والثُّبوتِ، أي: إنَّهم يُريدونَ أمورًا يُخادِعونَ فيها ويَكيدونَ؛ ليَصِلوا من خلالِها إلى إطفاءِ نُورِ اللهِ، فلربَّما شَعَروا بشَيءٍ من القُدْرةِ، ووَجَدوا من الأعوانِ مَنْ يَمُدُّهم بعَونِهِ بقصدٍ سيِّئٍ، أو بنيَّةٍ حَسَنةٍ، أو وَجَد بعضُ أَهْلِ الإيمانِ في نَفْسِهِ أنَّ الدِّينَ يَتضاءلُ، وأنَّ نُورَهُ آخِذٌ في الانحسارِ؛ فيأتي الموقِفُ الإلهيُّ الواعِدُ بدوامِ إتمامِ النُّورِ، وبخاصَّةٍ في الأحوالِ التي يُريدونَ فيها الإطفاءَ من خلالِ الدُّروبِ المُلتويةِ.

وإتمامُ النُّورِ الموعودُ به في الآيتينِ لا يَقْتصِرُ على مُجرَّدِ إشراقِه، بل الموقِفُ الإلهيُّ يَعِدُ بإكمالِه وإعلائِه، ويُبشِّرُ بتبليغِه غايتَه بنَشْرِه في الآفاقِ، وإظهارِهِ على الدِّينِ كُلِّهِ، حتى يَبْلُغَ ما بَلَغَ اللَّيلُ والنَّهارُ، وحتَّى لا يَبْقى بَيتُ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ إلَّا أَدْخَلَ اللهُ فيه هذا النُّورَ.

لقدِ اجْتَمعتْ في معاني هاتَينِ الآيتَينِ الصُّورُ التكامُليَّةُ التي تُظهِر بتفنُّنٍ حالَ دِينِ الحَقِّ، وإراداتِ أعدائِه وغاياتِهم ضِدَّهُ، والموقِفُ الرَّبَّانيُّ الذي يَختِمُ فيه المؤمنُ قراءتَهُ المُتدبِّرَةَ لهاتينِ الآيتينِ، لكنَّ البيانَ لم يَقِفْ عند هذا الحدِّ؛ إذ يتأكَّدُ المعنى من خلالِ الكلمةِ الختاميَّةِ الواردةِ بَعْدَ الآيتينِ في السُّورتين بلَفْظٍ واحدٍ: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩]؛ فهو سُبْحانه قد أَرْسَلَ رَسولَهُ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حاملًا لمنهجِ النُّورِ والهُدى ودِينِ الحَقِّ؛ ليُظْهِرَ رِسالتَهَ على جميعِ الرِّسالاتِ، ولم يُرْسِلْه لتَنْتصِرَ على رِسالتِهِ إراداتُ النَّافخينَ (١).

– ومِن المُناسَبةِ الحَسَنةِ أيضًا: أنَّ آيَةَ التَّوبةِ زادتْ على آيةِ الصَّفِّ عَشْرةَ أحرفٍ؛ ووجْهُ ذلك أنَّ زيادةَ آيةِ التَّوبةِ مُقابَلٌ بها ما ورَد من الطُّولِ في المحكيِّ في هذِه السُّورةِ مِن قولِ الطائفتَينِ مِن اليَهودِ والنَّصارَى؛ قال

(١) يُنظر: ((تأمّلات لُغوية في آيتين)) لخالد بن إبراهيم النملة (موقع البيان).

تعالى حاكيًا عنهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ...﴾ الآيةَ [التوبة: ٣٠]؛ فوقَع في المحكيِّ هنا طُولٌ اقتَضى ما بُني جوابًا عليه؛ ليتناسَبَ. وأمَّا آيةُ الصَّف فمُقابَلٌ بها قولُ عيسى عليه السَّلامُ لَمَّا قال لهم: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، ثم قال تَعالَى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الصف: ٦]، وإنَّما الجوابُ على المحكيِّ مِن قولِهم خاصَّةً، وهو قولهم: ﴿هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾، وليس هذا في الطُّولِ وعِدَّةِ الكَلِمِ المحكيِّ في سُورة بَراءة؛ فالواقعُ في سُورةِ بَراءة سِتُّ كَلِماتٍ، وفي الصَّفِّ ثلاثُ كَلِماتٍ، ثمَّ إنَّ الواقِعَ في سُورةِ بَراءة مقالُ طَائفتَينِ (اليهود والنَّصارى) مُفْصَحًا به، والواقِعَ في الصَّفِّ مقالةُ طَائفةٍ واحدةٍ، وهذا مُراعًى؛ فوَرَد كلٌّ مِن الآيتَينِ مُناسِبًا لِمَا اتَّصل به وعلى ما يَجِبُ في السُّورتَينِ[1].

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٢٨-٢٢٩).

الآيتان (٣٤-٣٥)

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ (٣٤) يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ (٣٥) ﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿يَكْنِزُونَ﴾: أي: يَجمَعونَ، والكَنْزُ: جعلُ المالِ بعضِه على بعضٍ وحفظُه. وكلُّ ما لم تؤدَّ زكاتُه فهو كنزٌ، وأَصلُ (كنز) يدلُّ على تجَمُّعٍ في الشَّيءِ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى: يا أيُّها الذين آمَنوا، إنَّ كَثيرًا مِن عُلَماءِ اليَهودِ، وعُبَّادِ النَّصارى، يتمَلَّكونَ أموالَ النَّاسِ بِغَيرِ حَقٍّ، ويُعْرِضونَ عن الحَقِّ، ويَصُدُّونَ النَّاسَ عنه، والذين يَجمَعونَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ، ولا يُخرِجونَ حُقوقَ الله منها، ولا يُنفِقونَ منها في سَبيلِ الله فبَشِّرْهم- يا مُحمَّدُ- بعذابٍ مُوجِعٍ، يومَ يُوقَدُ على كُنُوزِهم في نارِ جَهنَّمَ، فتُكوَى بها جِباهُهم، وجُنُوبهم وظُهورُهم، ويقالُ لهم توبيخًا وتهكُّمًا: هذا ما جَمَعْتُم لأنفُسِكم، فذُوقوا عذابَ ما كُنتُم تكنِزونَه.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٤).

أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ اللهُ جلَّ وعلا أنَّ اليهودَ والنَّصارى اتَّخذوا أحبارَهم ورُهبانَهم أربابًا؛ بيَّنَ أنَّ الرُّهبانَ والأحبارَ لا ينبغي اتِّخاذُهم أربابًا؛ لأنَّ أكثَرَهم فَجَرةٌ غيرُ مُستَقيمينَ[١].

وأيضًا لَمَّا وصَفَ اللهُ تعالى رؤساءَ اليهودِ والنَّصارى بالتكَبُّرِ والتَّجبُّرِ، وادِّعاءِ الرُّبوبيَّةِ والترفُّعِ على الخَلقِ؛ وصَفَهم في هذه الآيةِ بالطَّمَعِ والحِرصِ على أخذِ أموالِ النَّاسِ؛ تنبيهًا على أنَّ المَقصودَ مِن إظهارِ تلك الربوبيَّةِ والتجبُّرِ والفَخرِ، أخذُ أموالِ النَّاسِ بالباطِلِ[٢]، فقال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾.

أي: يا أيُّها المُؤمِنونَ، إنَّ كثيرًا[٣] مِن عُلَماءِ اليهودِ وعُبَّادِ النَّصارى، يتملَّكونَ أموالَ النَّاسِ بِغَيرِ حَقٍّ[٤]؛ فاحْذَروا التشبُّه بعُلَماءِ السُّوءِ، والعُبَّادِ الضالِّينَ، ولا

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٣٣-٣٤).

(٣) قال ابن عاشور: (أسنَدَ الحُكمَ إلى كثيرٍ منهم دونَ جمَيعِهم؛ لأنَّهم لم يَخْلُوا من وجودِ الصَّالحينَ فيهم، مثل عبدِ الله ابنِ سَلَام، ومُخَيريقٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٥).

(٤) قال ابن عاشور: (الباطِلُ يشملُ وجوهًا كثيرةً؛ منها: تغييرُ الأحكامِ الدِّينيةِ؛ لِمُوافَقةِ أهواءِ النَّاسِ. ومنها: القضاءُ بين النَّاسِ بغيرِ إعطاءِ صاحِبِ الحَقِّ حَقَّه المُعَيَّنَ له في الشَّريعةِ. ومنها: جَحْدُ الأماناتِ عن أربابِها أو عن ورَثَتِهم. ومنها: أكلُ أموالِ اليتامى وأموالِ الأوقافِ والصَّدَقاتِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٥). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٣٩، ٤٤٠).

تكونُوا مِثْلَهم[١].

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

أي: ويُعرِضُ أولئك الأحبارُ والرُّهبانُ عن اتِّباعِ الحَقِّ، ويَمنعونَ النَّاسَ عن الدُّخولِ في الإسلامِ[٢].

﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾؛ عطَف عليه قولَه هذا، والمناسبةُ بينَهما: أنَّ كلتا الجملتين تنبيهٌ على مساوي أقوامٍ يضعُهم الناسُ في مقاماتِ الرفعةِ والسؤددِ، وليسوا أهلًا لذلك، فمضمونُ الجملةِ الأُولَى بيانُ مساوي أقوامٍ رفَع الناسُ أقدارَهم لعلمِهم ودينِهم، وكانوا منطوينَ على خبائثَ خفيةٍ، ومضمونُ الجملةِ الثانيةِ بيانُ مساوي أقوامٍ رفعَهم الناسُ لأجلِ أموالِهم، فبيَّن الله أنَّ تلك الأموالَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٢٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٩٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٢٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٩٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٢٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ٤١)، (٢٨/ ٤٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٨).

قال ابنُ عاشور: (الصدُّ عن سبيلِ الله: الإعراضُ عن متابعةِ الدِّينِ الحَقِّ في خاصَّةِ النَّفسِ، وإغراءُ النَّاسِ بالإعراضِ عن ذلك، فيكون هذا بالنِّسبةِ لأحكامِ دينِهم؛ إذ يُغَيِّرونَ العمَلَ بها، ويُضَلِّلونَ العامَّةَ في حقيقَتِها، حتى يَعمَلوا بخلافِها، وهم يَحسَبونَ أنَّهم مُتَّبِعونَ لِدينِهم، ويكونُ ذلك أيضًا بالنِّسبةِ إلى دِينِ الإسلامِ؛ إذ يُنكِرونَ نُبوَّةَ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ويُعلِّمونَ أتباعَ مِلَّتِهم أنَّ الإسلامَ ليس بِدِينِ الحَقِّ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٥).

إذا لم تنفقْ في سبيلِ الله لا تُغني عنهم شيئًا مِن العذابِ[١]؛ فإنَّ الناسَ عالةٌ على العلماءِ، وعلى العبَّادِ، وعلى أربابِ الأموالِ، فإذا فسَدتْ أحوالُ هؤلاء فسَدتْ أحوالُ الناسِ[٢].

النَّاسِخُ والمَنسوخُ:

قيل: هذه الآيةُ مَنسوخةٌ بقَولِه تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾[٣] [التوبة:١٠٣].

عن خالدِ بنِ أسلمَ، قال: (خرَجْنا مع عبدِ الله بنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما، فقال أعرابيٌّ: أخبِرْني عن قَولِ الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قال ابنُ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما: مَن كَنَزَها فلم يُؤَدِّ زَكاتَها، فوَيلٌ له؛ إنَّما كان هذا قَبلَ أن تُنزَلَ الزَّكاةُ[٤]، فلما أُنزِلَت جعَلَها اللهُ طُهرًا للأموالِ)[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٨).

(٣) وهو قولُ ابنِ عُمَرَ، وعُمرَ بن عبد العزيز، وعِراكِ بنِ مالكٍ، وهبَةِ الله بن سلامة المُقري، وابن حزم، وابن البارزي، ومرعي الحنبلي. يُنظر: ((الناسخ والمنسوخ)) للمقري (ص: ٩٩)، ((الناسخ والمنسوخ)) لابن حزم (ص: ٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٨)، ((ناسخ القرآن العزيز ومنسوخه)) لابن البارزي (ص: ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٩)، ((قلائد المرجان في بيان الناسخ والمنسوخ في القرآن)) لمرعي الحنبلي (ص: ١١٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١١٧).

(٤) قال ابن حجر: (قولُه: «إنَّما كان هذا قبلَ أنْ تَنزِلَ الزَّكاةُ» هذا مُشْعِرٌ بأنَّ الوَعيدَ على الاكْتِنازِ، وهو حَبْسُ ما فَضَلَ عَنِ الحاجَةِ عَنِ المُواساةِ به كان في أوَّلِ الإسلامِ ثُمَّ نُسِخَ ذلك بفَرْضِ الزَّكاةِ، لَمَّا فَتَحَ اللَّهُ الفُتوحَ، وقُدِّرَتْ نُصُبُ الزَّكاةِ، فعلى هذا المُرادُ بنُزولِ الزَّكاةِ بيانُ نُصُبِها ومَقاديرِها، لا إنْزالُ أصْلِها، والله أعلم). ((فتح الباري)) (٣/ ٢٧٣).

(٥) رواه البخاري (١٤٠٤).

قال محمد رشيد رضا: (المرادُ: أنَّ هذا الحُكمَ- وهو وجوبُ إنفاقِ كُلِّ ما يملِكُ المؤمِنُ مِن النَّقدَينِ- كان في أوَّلِ الإسلامِ، وقَبلَ فَرْضِ الزَّكاةِ، وليس معناه أنَّ آيةَ براءة هذه نزلت قبل =

وقيل: الآيةُ مُحكَمةٌ، ولا نَسْخَ فيها(١).

﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾.

= إيجابِ الزَّكاةِ؛ لِما عليه الجمهورُ مِن أنَّ الزَّكاة فُرِضَت في السَّنَةِ الثانية من الهجرةِ، وبراءة نزَلَت سنةَ تِسعٍ). ((تفسير المنار)) (١٠/ ٣٥١).

(١) وهو قول جمهور المفسرين. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٩٥)، ((نواسخ القرآن)) لابن الجوزي (٢/ ٤٦٧-٤٦٨).

قال ابن الجوزي: (قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّه﴾ اختلف المفَسِّرون في هذه الآية على ثلاثةِ أقوال:... الثالث: أنها في المسلمينَ، قاله ابن عباس والسُّدِّي، وفي المراد بالإنفاقِ هاهنا قولان: أحدهما: إخراجُ الزكاةِ، وهذا مذهَبُ الجمهور، والآيةُ على هذا مُحكَمةٌ... والثاني: أن المرادَ بالإنفاقِ إخراجُ ما فضَلَ عن الحاجةِ، وقد زعم بعضُ نَقَلةِ التَّفسيرِ: أنَّه كان يجب عليهم إخراجُ ذلك في أوَّلِ الإسلامِ، ثم نُسِخَ بالزكاةِ، وفي هذا القَولِ بُعدٌ). ((نواسخ القرآن)) (٢/ ٤٦٧-٤٦٨).

وقال البغوي: (الآيةُ نزَلَت في مَنْعِ الزَّكاةِ، لا في جَمْعِ المالِ الحلالِ؛ قال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «نِعْمَ المالُ الصَّالِحُ، للرَّجُلِ الصَّالِحِ»). ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٤٣).

وقال ابن عاشور: (وجهُ مُناسَبةِ نُزولِ هذه الآيةِ في هذه السُّورةِ: أنَّ هذه السُّورةَ نَزَلت إثرَ غَزوةِ تَبوكَ، وكانت غزوةُ تَبوكَ في وقتِ عُسرةٍ، وكانت الحاجةُ إلى العُدَّةِ والظَّهرِ كثيرةً، كما أشارت إليه آيةُ: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢]، وقد ورد في السِّيرةِ أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حضَّ أهلَ الغِنى على النَّفَقةِ والحملانِ في سبيلِ اللهِ، وقد أنفق عثمانُ ابنُ عَفَّان ألفَ دينارٍ ذَهبًا على جيشِ غَزوةِ تَبوك، وحمَل كثيرٌ مِن أهل الغِنى، فالذين انكَمَشوا عن النَّفَقةِ هم الذين عَنَتْهم الآيةُ بـ ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّه﴾ ولا شَكَّ أنَّهم من المنافقين... والوعيدُ مَنوطٌ بالكَنزِ وعَدَمِ الإنفاقِ، فليس الكَنزُ وَحْدَه بمُتَوَعَّدٍ عليه، وليست الآيةُ في مَعرِضِ أحكامِ ادِّخارِ المال، وفي مَعرِضِ إيجابِ الإنفاقِ، ولا هي في تعيينِ سُبُلِ البِرِّ والمعروفِ التي يجِبُ الإخراجُ لأجْلِها من المالِ، ولا داعيَ إلى تأويلِ الكَنزِ بالمال الذي لم تؤَدَّ زَكاتُه حين وجوبِها، ولا إلى تأويلِ الإنفاقِ بأداءِ الزَّكاةِ الواجبة، ولا إلى تأويلِ سبيلِ الله بالصَّدَقاتِ الواجبة؛ لأنَّه ليس المرادُ باسمِ الموصولِ العمومَ، بل أُريدَ به العهدُ، فلا حاجة إلى ادِّعاءِ أنَّها نسَخَتْها آيةُ وُجوبِ الزكاة؛ فإنَّ وُجوبَ الزَّكاةِ سابِقٌ على وقتِ نُزولِ هذه الآيةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٦، ١٧٧).

أي: والذين يَجمَعونَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ بعضَها إلى بعضٍ، ويُمسِكُونَها، ولا يُخرِجونَ حقوقَ الله منها- مِن الزَّكاةِ والنَّفَقاتِ الواجِبةِ، وبَذْلِها في الجهادِ- فبَشِّرْهم يا مُحمَّدُ بعذابٍ مُوجِعٍ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٢٤، ٤٣٣، ٤٣٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣٩٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٦، ١٧٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٥٦).

قال الواحدي: (الأكثرونَ على أنَّ قَولَه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ...﴾ إلى آخره، مُستأنَفٌ نازِلٌ في هذه الأمَّةِ ... واختلفوا في المرادِ بهذا الكَنزِ، وتَركِ هذا الإنفاقِ؛ فالذي عليه الأكثرونَ- وهو الإجماعُ اليَومَ- أنَّ المُرادَ بهذا الكَنزِ: هو جَمعُ المالِ الذي لا تؤدَّى زكاتُه). ((البسيط)) (١٠/ ٣٩٣، ٣٩٥). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٢٤)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٣٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١١٨).

وقال القرطبي: (قال أبو ذَرٍّ وغيرُه: المرادُ بها: أهلُ الكتابِ وغَيرُهم مِن المسلمينَ، وهو الصَّحيحُ؛ لأنه لو أراد أهلَ الكِتابِ خاصَّةً، لقال: ويَكنِزونَ، بغيرِ ﴿وَالَّذِينَ﴾). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٢٣). ويُنظر: ((صحيح ابن خزيمة)) (٤/ ٩،١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٠٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٣٤٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١١٨).

وقال الشنقيطي: (كان أبو ذرٍّ رَضِيَ الله عنه عنده مذهَبٌ مَعروفٌ مُخالِفٌ لِجَميعِ أقوال الصَّحابةِ، يضيقُ في اقتناءِ المال، وكان رضي اللهُ عنه يقول: إنَّ الإنسانَ إذا ادَّخَرَ شيئًا زائدًا عن خَلَّتِه الضروريَّةِ، فهو كنزٌ يُكوى به وَجهُه وظَهرُه وجَنبُه، وكان يذكُرُ هذا للنَّاسِ؛ ومن أجلِ هذا أمَرَه عُثمانُ رَضِيَ الله عنه أيَّامَ خِلافتِه أن يخرُجَ إلى الربذةِ، وتوفِّي بها رضي الله عنه وأرضاه، وأبو ذَرٍّ معذورٌ؛ لأنه جاء النبيَّ في أوَّلِ الإسلامِ، وكان المسلمون في أوَّلِ الإسلامِ فُقَراءَ ليس عندهم شيءٌ، وكان التَّشديدُ في إمساكِ الذَّهَبِ والفضَّةِ في ذلك الوقتِ عَظيمًا، فسَمِعَ من النبيِّ شَيئًا ورجع إلى أهلِه بالباديةِ، ثم أنزل اللهُ فريضةَ الزَّكاةِ، وكثُرَ المال واتَّسعَ الأمر، وزال التَّشديدُ، ولم يَعلَمْ رَضِيَ الله عنه بشيءٍ من ذلك، فصار على التَّشديدِ الأوَّلِ؛ لأنَّه سَمِعَه من رسولِ الله، ولم يسمَعْ ما طرأ بعد ذلك). ((العذب النمير)) (٥/ ٤٥٤).

وقال سبحانه: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ * الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ * كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾ [الهمزة: ١- ٤].

وعن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((همُ الأخسَرونَ وربِّ الكعبةِ. فقلتُ: يا رسولَ الله، فِدَاك أبي وأمِّي، مَن هُم؟ قال: هم الأكثَرونَ أموالًا، إلَّا من قال هكذا وهكذا وهكذا- مِن بينِ يَدَيه ومِن خَلْفِه وعن يَمينِه وعن شِمالِه- وقليلٌ ما هم، ما مِن صاحِبِ إبلٍ ولا بقَرٍ ولا غَنَمٍ، لا يُؤَدِّي زكاتَها، إلَّا جاءت يومَ القيامةِ أعظَمَ ما كانت وأسْمَنَه، تنطَحُه بقُرونِها، وتَطَؤُه بأظلافِها، كلَّما نَفِدَت أُخْراها، عادت عليه أُولاها، حتى يُقضَى بين النَّاسِ))[١].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَن آتاه اللهُ مالًا فلم يؤَدِّ زكاتَه؛ مُثِّلَ له مالُه شُجاعًا أقرَعَ[٢] له زَبيبتانِ[٣]، يُطَوَّقُه يومَ القِيامةِ، يأخُذُ بلِهْزِمَتَيه- يعني بشِدْقَيه- يقولُ: أنا مالُك، أنا كَنْزُك. ثمَّ تلا هذه الآيةَ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾... إلى آخِرِ الآيةِ))[٤].

وعن أمِّ سَلَمةَ رَضِيَ الله عنها، قالت: ((كنتُ ألبَسُ أوْضاحًا[٥] مِن ذَهَبٍ، فقُلتُ: يا رسولَ الله، أكَنزٌ هو؟ فقال: ما بلَغَ أن تُؤدَّى زكاتُه فزُكِّيَ، فليس بكَنزٍ))[٦].

(١) رواه البخاري (٦٦٣٨)، ومسلم (٩٩٠) واللفظ له.

(٢) أقرع: أي الذي لا شَعْرَ على رأسِه؛ لِكَثرةِ سَمِّه، وطُولِ عُمُرِه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٤/ ١٢٦٧).

(٣) الزَّبيبةُ: نُكْتة سوداءُ فوقَ عينِ الحَيَّة وقيل غير ذلك. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٧٠٤).

(٤) رواه البخاري (٤٥٦٥).

(٥) أوْضاح: جمعُ وَضَحٍ: نوعٌ من الحَلْيِ، يُعمَلُ مِن الفِضَّةِ، سُمِّيَ به لبياضِه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٤/ ١٢٩٥).

(٦) رواه أبو داود (١٥٦٤)، والطبراني (٢٣/ ٢٨١) (٦١٣)، والحاكم (١/ ٥٤٧)، والبيهقي (٤/ ٨٣) (٧٤٨٥). =

وعن ثَوبانَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا نَزَلَ في الفِضَّةِ والذَّهَبِ ما نَزَلَ، قالوا: فأيَّ المالِ نتَّخِذُ؟ قال عُمَرُ: فأنا أعلَمُ لكم ذلك. فأوضَعَ على بَعيرِه، فأدرَكَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأنا في أثَرِه، فقال: يا رسولَ الله، أيَّ المالِ نَتَّخِذُ؟ فقال: ليتَّخِذْ أحدُكم قَلبًا شاكرًا، ولِسانًا ذاكرًا، وزوجةً مُؤمِنةً تُعِينُ أحَدَكم على أمْرِ الآخِرةِ))(1).

﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥) ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لما انتهى قَوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ على الإجمالِ والإبهامِ في العَذابِ؛ أخَذ في التَّفصيلِ بعد الإجمالِ(2)، فقال تعالى:

﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ﴾.

أي: يومَ(3) يُوقَدُ فيه على كُنوزِهم في نارِ جَهنَّمَ، فتُحرق بالذَّهَبِ والفِضَّةِ

= حسَّنه ابن الملقِّن في ((شرح البخاري)) (١٠/ ٤٣٩)، وحسن الألبانيُّ في ((ضعيف سنن أبي داود)) (١٥٦٤) المرفوع منه فقط، وحسَّن إسناده النوويُّ في ((المجموع)) (٦/ ١٣)، وصحَّحه ابن باز في ((مجموع الفتاوى)) (١٤/ ١٠٤).

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٩٤) بنحوه، وابن ماجه (١٨٥٦) واللفظ له، وأحمد (٢٢٤٣٧).
حسَّنه الترمذي، وصحَّحه الألباني في ((صحيح ابن ماجه)) (١٥١٧).

(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٦٤٦).

(٣) قال ابنُ جرير: (فاليومُ مِن صِلَةِ العذابِ الأليم، كأنَّه قِيل: يُبَشِّرُهم بعذابٍ أليمٍ يُعَذِّبُهم الله به في يومِ يُحْمَى عليها). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٣٦).
وقال القرطبيُّ: («يَوْمَ» ظرفٌ، والتَّقديرُ يُعذَّبونَ يومَ يُحْمَى. ولا يصحُّ أنْ يكونَ على تقديرِ: فبشِّرْهم يومَ يُحْمَى عليها؛ لأنَّ البشارةَ لا تكونُ حينَئِذٍ). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٢٩).

المَكنُوزةِ جِباهُهم وجُنوبُهم وظهورُهم(١).

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ما مِن صاحِبِ ذَهَبٍ ولا فِضَّةٍ، لا يؤدِّي منها حَقَّها، إلَّا إذا كان يومُ القِيامةِ، صُفِّحَت له صفائِحَ(٢) مِن نارٍ، فأُحمِيَ عليها في نارِ جَهنَّمَ، فيُكوى بها جَنْبُه وجَبِينُه وظَهرُه، كُلَّما بَرَدَت أُعِيدَت له، في يوم كان مِقدارُه خَمسينَ ألفَ سَنَةٍ، حتى يُقضَى بين العِبادِ، فيُرى سَبيلَه؛ إمَّا إلى الجَنَّةِ، وإمَّا إلى النَّارِ))(٣).

وعن أبي ذَرٍّ الغِفاريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (بَشِّرِ الكانِزينَ بِرَضْفٍ(٤) يُحْمَى عليه في نارِ جهنَّمَ، ثم يُوضَعُ على حَلَمةِ ثَدْيِ أحَدِهم حتى يَخرُجَ مِن نُغْضِ(٥)

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٣٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٠٢، ٤٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٦).

قال الواحدي: (قال المفسِّرون: من كان له مالٌ في الدُّنيا لم يؤدِّ زَكاتَه، أُحمِيَ دراهمُه ودنانيرُه في نارِ جهنَّم، وكُوِيَ بها في هذه المواضِعِ؛ لا يُوضَعُ دينارٌ مكانَ دِينارٍ، ولا دِرهَمٌ مكانَ دِرهَمٍ، ولكن يُوسَّعُ جِلْدُه، فيُوضَعُ بكُلِّ دِرهمٍ ودينارٍ كَيَّةٌ على جِلْدِه»، وهذا معنى قولِ ابنِ مَسعودٍ وابنِ عبَّاسٍ). ((البسيط)) (١٠/ ٤٠٣).

وقال ابن عاشور: (كيفيَّةُ إحضارِ تلك الدَّراهم والدَّنانيرِ لِتُحمى؛ مِن شُؤونِ الآخرةِ الخارِقةِ للعاداتِ المألوفةِ، فبقدرةِ الله تُحضَرُ تلك الدَّنانيرُ والدَّراهمُ أو أمثالُها، كما ورد في حديثِ مانِعِ الزكاةِ في المُوطَّأ والصَّحيحين أنَّه «يُمثَّلُ له مالُه شُجاعًا أقرَعَ يأخُذُ بِلِهزِمَتَيه، يقول: أنا مالُك، أنا كَنْزُك»، وبقدرة الله يُكوى المُمتَنِعون من إنفاقِها في سبيلِ الله، وإن كانت قد تَداوَلَ أعيانَها خَلْقٌ كَثيرٌ في الدُّنيا، بانتقالها من يدٍ إلى يدٍ، ومن بلدٍ إلى بلدٍ، ومن عصرٍ إلى عصرٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٩).

(٢) صُفِّحَت له صفائِحَ: تصفيحُ الشَّيءِ: جَعْلُه عَريضًا، والصفائح: جَمعُ صَفيحةٍ؛ مِن صَفَّحْتُ الشَّيءَ: إذا بسطْتَه. يُنظر: ((الميسر في شرح مصابيح السنة)) للتوربشتي (٢/ ٤٠٩)، ((نخب الأفكار في تنقيح مباني الأخبار في شرح معاني الآثار)) للعيني (٨/ ٧٩).

(٣) رواه مسلم (٩٨٧).

(٤) الرَّضْف: الحِجَارَةُ المُحْمَاةُ على النَّار. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٢٣١)، ((شرح النووي على مسلم)) (٧/ ٧٧).

(٥) النُّغْض: هو العَظمُ الرَّقيقُ على طَرَفِ الكَتِف. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٧/ ٧٨).

كَتِفِه، ويُوضَعُ على نُغْضِ كَتِفِه حتى يَخرُجَ مِن حَلَمةِ ثَدْيِه، يتزَلزَلُ[١]))[٢].

﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾.

أي: يُقالُ تَوبيخًا وتَهكُّمًا مِن الذينَ تُكوَى جِباهُهم وجُنوبُهم وظُهورُهم، بكُنوزِهم: هذا الذي تُكْوَونَ به في النَّارِ[٣] هو ما جَمَعْتُم في الدُّنيا لأنفُسِكم، دونَ أن تُؤَدُّوا حُقوقَ الله فيه، فاطعَمُوا عذابَ هذا الذي كُنتُم تكْنِزونَه[٤].

عن جابِرِ بنِ عبدِ الله رَضِيَ الله عنهما، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ما من صاحِبِ إبلٍ ولا بقَرٍ ولا غَنَمٍ، لا يؤدِّي حَقَّها، إلا أُقعِدَ لها يومَ القيامةِ بقَاعٍ قَرقَرٍ[٥] تطؤُه ذاتُ الظِّلْفِ بظِلْفِها[٦] وتنطَحُه ذاتُ القَرنِ بقَرنِها، ليس فيها يومَئذٍ جمَّاءُ[٧] ولا مَكسورةُ القَرْنِ. قلْنا: يا رسولَ الله، وما حَقُّها؟ قال: إطراقُ فَحْلِها[٨]، وإعارةُ دَلْوِها، ومَنيحَتُها[٩]، وحَلْبُها على الماءِ، وحَملٌ عليها في سبيلِ

---

(١) الزَّلْزَلَةُ في الأصْل: الحَرَكَةُ العظيمةُ والإزعاجُ الشديدُ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٣٠٨).
قال النوويُّ: (قولُه «يتزلزل» أي يتحرَّك. قال القاضي: قيل: معناه أنَّه بسببِ نضجِه يتحرَّك لكونِه يهتري، قال: والصوابُ أنَّ الحركةَ والتزلزلَ إنَّما هو للرضفِ، أي يتحرَّك من نغضِ كتفِه حتَّى يخرجَ مِن حلمةِ ثديِه) ((شرح النووي على مسلم)) (٧/ ٧٨).

(٢) رواه البخاري (١٤٠٧) واللفظ له، ومسلم (٩٩٢).

(٣) قال ابن عطية: (قوله: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ﴾ إشارةٌ إلى المالِ الذي كُوِيَ به، ويحتملُ أن تكونَ إلى الفِعلِ النَّازلِ بهم، أي: هذا جزاءُ ما كَنَزْتُم). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٣٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٠٤، ٤٠٥)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٨٠).

(٥) القَرقَر: هو المكانُ الواسِعُ المُستَوي. يُنظر: ((حاشية السيوطي على سنن النسائي)) (٥/ ١٣).

(٦) الظِّلْفُ: هو للبَقَرِ والغَنَم كالحافِرِ للفَرَس والبغلِ، والخُفُّ للبَعيرِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ١٥٩).

(٧) الجمَّاءُ: التي لا قَرْنَ لها. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٣٠٠).

(٨) إطراقُ فَحلِها: أي: إنزاؤُه. يقال: طرَقَ الفَحلُ النَّاقةَ: إذا نزا عليها. يُنظر: ((غريب الحديث)) لابن قتيبة (١/ ٤٢٠).

(٩) المنيحةُ: ناقةٌ أو بقَرةٌ أو شاةٌ يتفِعُ بلَبَنِها ووَبَرِها وصُوفِها وشَعرِها زمانًا ثم يردُّها. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٧/ ٧٢).

الله. ولا مِن صاحِبِ مالٍ لا يُؤَدِّي زكاتَه، إلَّا تَحوَّلَ يومَ القِيامةِ شُجاعًا أقرَعَ، يَتْبَعُ صاحِبَه حيثما ذهَبَ، وهو يفِرُّ منه، ويُقال: هذا مالُك الذي كنْتَ تَبخَلُ به، فإذا رأى أنَّه لا بُدَّ منه، أدخَلَ يدَه في فِيه، فجعَلَ يَقضَمُها[1] كما يَقْضَمُ الفَحلُ))[2].

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ...﴾ هذا تحذيرٌ مِن الله تعالى لعبادِه المؤمنينَ عن كثيرٍ مِن العُلَماءِ والعُبَّادِ، الذين يأكلونَ أموالَ النَّاسِ بغَيرِ حقٍّ، ويصُدُّونَ عن سَبيلِ الله؛ فإنَّهم إذا كانت لهم رواتِبُ مِن أموالِ النَّاسِ، أو بذَلَ النَّاسُ لهم من أموالِهم، فإنَّه لأجْلِ عِلْمِهم وعِبادَتِهم، ولأجْلِ هُداهم وهدايَتِهم، وهؤلاءِ يأخُذُونها، ويصُدُّونَ النَّاسَ عن سبيل الله، فيكونُ أخْذُهم لها على هذا الوَجه سُحتًا وظُلمًا؛ فإنَّ النَّاسَ ما بَذَلوا لهم مِن أموالِهم، إلَّا لِيَدُلُّوهم إلى الطَّريقِ المستقيم، ومِن أخْذِهم لأموالِ النَّاسِ بِغَيرِ حَقٍّ: أن يُعطُوهم لِيُفتُوهم، أو يَحكُموا لهم بِغَيرِ ما أنزَلَ اللهُ، فهؤلاءِ الأحبارُ والرُّهبانُ، لِيُحذَرْ منهم هاتانِ الحالتانِ: أخْذُهم لأموالِ النَّاسِ بغَيرِ حَقٍّ، وصَدُّهم النَّاسَ عن سَبيلِ الله[3].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ذكَرَ اللهُ هنا انحرافَ الإنسانِ في مالِه، وذلك بأحَدِ أمرَينِ: إمَّا أن يُنفِقَه في الباطِلِ الذي لا يُجدِي عليه

---

(١) يَقضَمُها: أي: يأكُلُها. يُنظر: ((إكمال المعلم بفوائد مسلم)) للقاضي عياض (٣/ ٥٠٠).

(٢) رواه مسلم (٩٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٥، ٣٣٦).

نَفعًا، بل لا يَنالُه منه إلَّا الضَّرَرُ المَحْضُ، وذلك كإخراجِ الأموالِ في المعاصِي والشَّهَواتِ، التي لا تُعِينُ على طاعةِ الله، وإخراجِها للصَّدِّ عن سبيلِ الله. وإمَّا أن يُمسِكَ مالَه عن إخراجِه في الواجِباتِ(١).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فيه تحذيرُ المُؤمِنينَ مِن حالِ الذين صار جَمْعُ الأموالِ، والافتِتانُ بِكَثرَتِها، وخَزْنُها في الصَّناديقِ، أعظَمَ هَمِّهم في الحياةِ(٢).

٤- قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ إنْ قيل: مَن لم يكْنِزْ ولم يُنفِقْ في سبيلِ الله، وأنفَقَ في المعاصي، هل يكونُ حُكمُه في الوعيدِ حُكمَ مَن كنَزَ ولم يُنفِقْ في سبيلِ الله؟

قيل له: إنَّ ذلك أشَدُّ؛ فإنَّ مَن بذَّرَ مالَه في المعاصِي، عصى من جِهَتينِ: بالإنفاقِ والتَّناوُلِ، كشِراءِ الخَمرِ وشُربِها. بل من جهاتٍ إذا كانت المعصيةُ ممَّا تتعَدَّى، كمن أعان على ظُلمِ مُسلمٍ؛ مِن قَتلِه أو أخْذِ مالِه، إلى غيرِ ذلك. والكانِزُ عصى من جِهَتينِ، وهما منعُ الزَّكاةِ، وحَبسُ المالِ لا غيرُ، وقد لا يُراعى حبسُ المالِ. واللهُ أعلمُ(٣).

٥- قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هذا يندرِجُ فيه مَن كنَزَ المالَ عن النَّفَقةِ الواجبةِ في سبيل الله. والجهادُ أحَقُّ الأعمالِ باسمِ سَبيلِ الله، سواءٌ كان مَلِكًا أو مُقَدَّمًا، أو غَنِيًّا أو غيرَ ذلك. وإذا دخَلَ في هذا ما كُنِزَ من المالِ المَورُوثِ والمكسوبِ، فما كُنِزَ مِن الأموالِ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٣٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٢٨).

المُشتَرَكةِ التي يستحِقُّها عمومُ الأمَّةِ- ومُستَحَقُّها: مصالِحُهم- أَوْلى وأَحْرى[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّه فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ذمٌّ ووعيدٌ لِمَن يمنعُ حقوقَ مالِه الواجبةَ، مِن الزَّكاةِ وصِلَةِ الرَّحِمِ، وقِرَى الضَّيفِ، والإنفاقِ في النَّوائِبِ[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ...﴾ حُجَّةٌ لِمَن قال: إنَّ الكُفَّارَ مُخاطَبونَ بفُروعِ الشَّريعةِ؛ وذلك على القولِ بأنَّ الآيةَ نزَلَت في أهلِ الكِتابِ[٣].

٨- من أحَبَّ شَيئًا وقَدَّمَه على طاعةِ الله، عُذِّبَ به؛ قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾؛ فهؤلاء لَمَّا كان جمعُ هذه الأموالِ آثَرَ عِندَهم مِن رِضا الله عنهم، عُذِّبوا بها[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إسنادُ هذه الجريمةِ المُزريةِ إلى الكَثيرينَ منهم دونَ جَميعِهم، مِن دقائِقِ تَحرِّي الحَقِّ في عباراتِ الكتابِ العَزيزِ؛ فهو لا يحكُمُ على الأمَّةِ الكبيرةِ بِفَسادِ جَميعِ أفرادِها، أو فِسْقِهم أو ظُلْمِهم، بل يُسنِدُ ذلك إلى الكثيرِ أو الأكثَرِ، أو يُطلِقُ اللَّفظَ العامَّ ثمَّ يستثني منه[٥].

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٤٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٣٣٦).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٣/ ٢٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٤١).

(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٣٤٤).

٢- قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إطلاقُ الأكلِ على أخذِ مالِ الغَيرِ، إطلاقٌ شائعٌ؛ قال تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا﴾[1] [الفجر: ١٩].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أفرَدَ الضَّميرَ في ﴿يُنْفِقُونَهَا﴾ مع تقدُّمِ اثنَينِ ﴿الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾؛ لِيدُلَّ على الأنواعِ الكثيرةِ، أي: يُنفِقونَ ما وجَبَ عليهم من هذه الأموالِ التي جَمَعوها من هَذينِ النَّوعَينِ مُجتَمِعَينِ أو مُنفَرِدَينِ. ولو ثَنَّى لأوهَمَ أنَّ اجتماعَهما شَرطٌ للتَّرهيبِ. وقيل: يجوزُ أن يعودَ الضَّميرُ إلى الفِضَّةِ؛ لأنَّ الذَّمَّ على كَنْزِها، والحاجةَ إليها- لِكَثرَتِها- أقَلُّ، فالذَّمُّ على كَنزِ الذَّهَبِ مِن بابِ الأَوْلى؛ لأنَّه أعلى منها وأعَزُّ. وقيل: الضَّميرُ يعودُ إلى المعنى دونَ اللَّفْظِ؛ لأنَّ المكنوزَ دراهمُ ودَنانيرُ، لأنَّ كُلَّ واحدٍ مِنْهما جُمْلَةٌ وافيةٌ، وعِدةٌ كثيرةٌ ودنانيرُ ودراهمُ؛ فهو كقولِه تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾[2].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: فأخبِرْهم على سبيلِ التهَكُّمِ؛ لأنَّ الذينَ يكنِزونَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ، إنَّما يكنِزونَهما ليتَوسَّلوا بهما إلى تحصيلِ الفَرَجِ يومَ الحاجةِ. فقيل: هذا هو الفَرَجُ[3].

٥- قولُه تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ قدَّمَ الجِباهَ ثمَّ الجُنُوبَ؛ لأنَّ مانعَ الصَّدَقةِ في الدُّنيا كان

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٦٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٤٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٣٨).

يَصرِفُ وَجْهَه أوَّلًا عن السَّائِلِ، ثم يَنُوءُ بِجانِبِه، ثمَّ يتولَّى بِظَهْرِه[١].

بلاغةُ الآيتينِ:

١- في قولِه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ افْتِتاحُ الجُمْلةِ بالنِّداءِ، واقْتِرانُها بحَرْفَي التَّأكيدِ (إنَّ، واللام)؛ للاهْتِمامِ بِمَضْمونِها، ورفْعِ احْتِمالِ المُبالغةِ فيه لغَرابتِه[٢].

- وقولُه: ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ فيه التَّعبيرُ بالأَكْلِ؛ بِناءً على أنَّهُ مُعْظَمُ الغَرَضِ مِنَ المالِ، وتَقْبيحًا لحالِهم، وتَنْفيرًا للسَّامِعينَ عنهم[٣].

- قولُه: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ على القول بأنَّ الاسمَ الموصولَ (الذين) عِبارةٌ عَنِ الكثيرِ مِنَ الأَحْبارِ والرُّهبانِ؛ فيَكونُ مبالغةً في الوَصْفِ بالحِرْصِ والضَّنِّ بهما بَعْدَ وَصْفِهِمْ بما سَبَقَ مِنْ أَخْذِ الرِّشا[٤].

- وعلى القولِ بأنَّ الموصولَ (الذين) عِبارةٌ عَنِ الكانزينَ مِنَ المُسلِمينَ؛ فيَكونُ قَرَنَ في النَّظْمِ بين الكانِزينَ مِنَ المُسلِمينَ ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾، وبَيْنَ المُرْتَشينَ مِنَ الأحبارِ والرُّهبانِ ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾؛ تَغليظًا ودَلالةً على أنَّهم سواءٌ في التَّبشيرِ بالعذابِ في قولِه: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[٥].

- وفيه تَخْصيصُ الذَّهبِ والفِضَّةِ بالذِّكْرِ مِنْ بين سائرِ الأموالِ؛ لأنَّهما قِيَمُ

---

(١) يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٦٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٦٢).

الأموالِ وأَثْمانُها وقانونُ التَّموُّلِ وأثمانُ الأشياءِ، وهما لا يُكْنَزانِ إلَّا عَنْ فَضْلةٍ عَنِ الحاجةِ وعن كَثْرةٍ، ومَنْ كَثُرَا عِنْدَهُ حتَّى يَكْنِزَهُما لَمْ يَعْدَمْ سائرَ أَجْناسِ المالِ؛ فكان ذِكْرُ كَنْزِهما دليلًا على ما سِواهما[1].

٢- ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾

- قولُه: ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى ...﴾ فيه إسْنادُ الفِعْلِ المبنيِّ للمَفْعولِ ﴿يُحْمَى﴾ إلى المَجْرورِ ﴿عليها﴾؛ لعَدَمِ تَعلُّقِ الغَرَضِ بذِكْرِ المفعولِ المَحْميِّ لظُهورِه؛ إذ هو النَّارُ التي تُحْمى؛ ولذَلِكَ لَمْ يُقْرَنْ بعلامةِ التَّأنيثِ، فكأنَّه قيل: يومَ يَحمِي الحامونَ عليها، وعُدِّي بـ(على)؛ لإفادةِ أنَّ الحَمْيَ تَمكَّنَ مِنَ الأموالِ بحيثُ تَكْتَسِبُ حرارةَ المَحميِّ كُلَّها، ثُمَّ أُكِّدَ مَعْنى التَّمكُّنِ بمعنى الظَّرفيَّةِ التي في قولِه: ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾؛ فصارتِ الأموالُ مَحميَّةً عليها النَّارُ، ومَوضوعةً في النَّارِ[2].

- قولُه: ﴿هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾ فيه تَوبيخٌ لهم؛ إذْ مَعْنى ﴿لِأَنْفُسِكُمْ﴾: لِتَنْتَفِعَ بِه أَنْفُسُكم وتَلْتَذَّ، فصار عذابًا لكم، وزيادةُ قولِه: ﴿لِأَنْفُسِكُمْ﴾؛ للتَّنديمِ والتَّغليظِ[3].

- وجُمْلةُ: ﴿فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ توبيخٌ وتنديمٌ، والفاءُ في ﴿فَذُوقُوا﴾ لتَفْريعِ مَضمونِ جُمْلةِ التَّوبيخِ على جُمْلةِ التَّنديمِ الأُوْلى

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٩).

﴿هَـٰذَا مَـا كَنَزْتُـمْ لِأَنفُسِـكُمْ﴾[١].

- وفي قولِه: ﴿فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ سُلوكُ مَسْلَكِ الإطنابِ بالتَّعدادِ في التَّعبيرِ عَنِ التَّعميمِ؛ لاسْتِحضارِ حالةِ ذَلِكَ العِقابِ الأليمِ؛ تهويلًا لشأنِه؛ فلذلك لم يَقُلْ: (فتُكْوى بها أجسادُهُمْ)[٢].

- قوله: ﴿مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ فيه التَّعبيرُ بالموصوليَّةِ ﴿مَا﴾؛ للتَّنبيه على غَلَطِهم فيما كَنَزوا؛ لقَصْدِ التَّنديمِ[٣]. وفيه إيجازٌ؛ حيثُ أُضْمِرَ القولُ في ﴿هَذَا مَا كَنَزْتُمْ﴾، أي: يُقالُ لهم وَقْتَ الكَيِّ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ١٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤١٣).

الآيتان (٣٦-٣٧)

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦) إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧)﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿عِدَّةَ﴾: أي: عَدَد، وأصل العدِّ: إِحْصاءُ الشيءِ[١].

﴿حُرُمٌ﴾: أي: مُحَرَّمةٌ، وأصلُ (حرم): يدلُّ على مَنعٍ وتَشديدٍ[٢].

﴿الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾: أي: الدينُ الصَّحيحُ المستقيمُ، والحِسابُ الصَّحيحُ، والعدَدُ المُستوي والمُستوفَى، وأصلُ (قوم): يدلُّ على مُراعاةِ الشَّيءِ وحِفظِه[٣].

﴿النَّسِيءُ﴾: أي: تَأْخيرُ تَحْريمِ المُحَرَّمِ، وأصلُ (نسأ): يدلُّ على تأخيرِ الشَّيءِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٠).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٢٤٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٩-٦٩١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٣٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٤٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٣، ٤٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٤).

﴿لِيُوَاطِئُوا﴾: أي: لِيُوافِقوا، والمُواطَأةُ: المُوافَقةُ، وأصلُه أن يطَأَ الرَّجُلُ برِجلِه مَوطِئَ صاحِبِه[1].

المَعْنَى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ عِدَّةَ الشُّهورِ عِنده- تعالى- اثنَا عشَرَ شَهرًا، في حكم الله وتقديره المسطَّر في اللوح المحفوظ منذُ خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ، منها أربَعةٌ يَحرُمُ فيها القتال وانتهاكُ المَحارِمِ أشَدَّ ممَّا يَحرُمُ في غَيرِها، ذلك الدِّينُ المُستَقيمُ، والحسابُ الصَّحيحُ، فلا تَظلِموا فيهنَّ أنفُسَكم بارتكابِكم السَّيِّئاتِ، وقاتِلوا المُشرِكينَ بأجمَعِكم، كما يُقاتِلونكم بأجمَعِهم، واعلَمُوا أنَّ اللهَ مع المتَّقِينَ.

ويُبيِّنُ اللهُ تعالى أنَّ تأخيرَ تَحريمِ الأشهُرِ الحُرُمِ، وتغييرَها عمَّا شَرَعه اللهُ تعالى، زيادةٌ في كُفرِ مُشرِكي قُريشٍ، وقد كانوا يُحِلُّونَ شَهرَ مُحَرَّمٍ عامًا، ويَستَبدِلونَ به صَفَرًا، فيَجعَلونَه مُحَرَّمًا، وفي العامِ الذي يليه يَعودونَ لِتَحريمِ مُحَرَّمٍ، يُضِلُّ اللهُ بذلك الكُفَّارَ؛ يُحِلُّونَ ذلك التَّأخيرَ والتَّغييرَ عامًا، ويُحَرِّمونَه عامًا؛ لِيُوافِقُوا بذلك عددَ الأشهُرِ التي حَرَّمها اللهُ كلَّ عامٍ؛ فهم في كلِّ عام لهم أربعةُ أشهُرٍ مُحَرَّمةٌ، كما حَرَّمَ اللهُ أربعةَ أشهُرٍ، لكِنَّهم يُؤَخِّرونَ ويُغَيِّرونَ الأشهُرَ، فيُحِلُّون ما حَرَّمَ اللهُ تعالى، حُسِّنَ لهم قَبيحُ أعمالِهم، واللهُ تعالى لا يُوَفِّقُ للحَقِّ المصِرِّين على كفرهم.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٠).

أَنفُسَكُمْۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةًۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ أنواعًا مِن قبائحِ أهلِ الشِّركِ وأهْلِ الكتابِ؛ ذكَرَ أيضًا نوعًا منه، وهو تغييرُ العَرَبِ أحكامَ الله تعالى؛ لأنَّه حَكَمَ في وقتٍ بحُكمٍ خاصٍّ، فإذا غيَّروا ذلك الوَقتَ، فقد غيَّروا حُكمَ الله(١).

وأيضًا فهذه الآيةُ والتي تَليها عَودٌ إلى الكلامِ في أحوالِ المُشرِكينَ، وما يُشرَعُ مِن مُعامَلَتِهم بعد الفَتحِ، وسُقوطِ عصبيَّةِ الشِّركِ، وكان الكلامُ في قتالِ أهلِ الكِتابِ، وما يجِبُ أن ينتهيَ به من إعطاءِ الجزيةِ مِن قَبيلِ الاستطرادِ، اقتضاه ما ذَكَرَ قبلَه من أحكامِ قِتالِ المُشرِكينَ ومُعامَلتِهم، وقد ختم الكلامَ في أهلِ الكتابِ ببيانِ حالِ كثيرٍ مِن رجالِ الدِّين الذين أفسدَتْ عليهم دينَهم المطامعُ الماليةُ، وإنذارِ مَن كانت هذه حالَهم بالعذابِ الشديدِ يومَ القيامةِ، وجعلِ هذا الإنذارِ موجهًا إلينا وإليهم جميعًا، ومِن ثَمَّ كان التناسبُ بينَ الكلامِ فيما يشترِكُ فيه المسلمون معَ أهلِ الكتابِ مِن الوعيدِ على أكلِ أموالِ الناسِ بالباطلِ، وكنزِ النَّقْدين، إلى ما يجبُ أن يخالفوا فيه المشركينَ مِن إبطالِ النسيءِ، ومِن أحكامِ القتالِ- تناسبًا ظاهرًا قويًّا(٢).

وأيضًا لَمَّا تقدَّمَ كَثيرٌ ممَّا ينبني على التَّاريخ: كالحجِّ في غير موضِعٍ، وإتمامِ عَهدِ مَن له مُدَّةٌ إلى مُدَّتِه، والزكاةِ، والجِزيةِ، وخُتِمَ ذلك بالكَنزِ الذي لا يُطلَقُ شَرعًا إلَّا على ما لم تؤدَّ زَكاتُه، وكان مُشرِكو العَرَبِ، الذين تقدَّمَ الأمرُ بالبراءةِ منهم، والتَّأذينِ بهذه الآياتِ يومَ الحَجِّ الأكبَرِ فيهم، قد أحدَثوا في الأشهُرِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٣٥٧).

بالنَّسِيءِ الذي أُمِروا أن يُنادُوا في الحَجِّ بإبطالِه، ما غَيَّرَ السِّنينَ عن مَوضُوعِها الذي وَضَعَها اللهُ عليه، فضاهَوْا به فِعلَ أهلِ الكتابِ بالتَّدَيُّنِ بتَحليلِ أكابِرِهم وتحريمِهم، كما ضاهَى أولئك قَولَ أهْلِ الشِّركِ في النبوَّةِ والأُبُوَّةِ[1]، قال تعالى:

﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾.

أي: إنَّ عددَ الشُّهورِ في حُكمِ الله وتَقديرِه، اثنا عشَرَ شَهرًا قَمَرِيًّا، مكتوبةٌ في اللَّوحِ المحفوظِ[2] مُنذُ خَلَقَ اللهُ السَّمواتِ والأرضَ[3].

كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥].

وعن أبي بَكْرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: ((إنَّ الزَّمانَ قد استدارَ كهَيئَتِه يومَ خَلَقَ اللهُ السَّمَواتِ والأرضَ؛ السَّنةُ اثنا عشَرَ شَهرًا، منها أربعةٌ حُرُمٌ، ثلاثةٌ متوالياتٌ: ذُو القَعدةِ، وذو الحِجَّةِ، والمُحَرَّمُ، ورجَبُ شَهرُ مُضَرَ، الذي بين جُمادى وشَعبانَ))[4].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٤٩).

(٢) قال الواحدي: (﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ قال الواقدي: يعني اللَّوحَ المَحفوظَ، وهو قولُ عامَّةِ أهلِ التَّأويلِ). ((البسيط)) (١٠/ ٤٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٤٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٠٧، ٤٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٣٢، ١٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٨٠).

قال ابن رجب: (فأخبَرَ سبحانه أنَّه منذُ خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ، وخلَقَ اللَّيلَ والنَّهارَ، يدورانِ في الفَلَكِ، وخلَقَ ما في السَّماء من الشَّمسِ والقَمَرِ والنُّجوم، وجعَلَ الشَّمسَ والقمَرَ يسبحانِ في الفَلَك، وينشأ منهما ظُلمةُ الليل وبياضُ النَّهارِ، فمِن حينئذٍ جعَلَ السنةَ اثنَي عشَرَ شَهرًا، بحسب الهلالِ، فالسَّنَةُ في الشَّرعِ مُقدَّرةٌ بِسَيرِ القَمرِ وطُلوعِه، لا بِسَيرِ الشَّمسِ وانتقالِها، كما يفعَلُه أهلُ الكتابِ). ((لطائف المعارف)) (ص: ١١٢). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٦).

(٤) رواه البخاري (٧٤٤٧)، ومسلم (١٦٧٩) واللفظ له. =

﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾.

أي: مِن هذه الشُّهورِ الاثنَي عشَرَ أربعةُ أشهُرٍ، يَحْرُم انتهاكُ المحارِمِ فيها[1]،

= قال ابن كثيرٍ: (قولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الحديثِ: ((إنَّ الزَّمانَ قد استدارَ كهَيئتِه يومَ خَلَقَ اللهُ السَّمَواتِ والأرضَ))، تقريرٌ منه- صلواتُ الله وسلامُه عليه- وتثبيتٌ للأمرِ على ما جعَلَه اللهُ تعالى في أوَّلِ الأمرِ، من غيرِ تَقديمٍ ولا تأخيرٍ، ولا زيادةٍ ولا نَقصٍ، ولا نَسيءٍ ولا تبديلٍ، كما قال في تحريمِ مكة: «إنَّ هذا البلَدَ حَرَّمه اللهُ يومَ خلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ؛ فهو حرامٌ بحُرمةِ الله إلى يومِ القيامة»، وهكذا قال هاهنا: «إنَّ الزَّمانَ قد استدارَ كهَيئَتِه يومَ خَلَقَ اللهُ السَّمواتِ والأرضَ» أي: الأمرُ اليومَ شَرعًا كما ابتدأ اللهُ ذلك في كتابِه يومَ خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ. وقد قال بعضُ المفسِّرين والمتكلِّمين على هذا الحديثِ: إن المرادَ بِقَولِه: «قد استدارَ كهَيئَتِه يومَ خَلَقَ اللهُ السَّمَواتِ والأرضَ» أنَّه اتَّفَقَ أنْ حَجَّ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في تلك السَّنةِ في ذي الحِجَّةِ، وأنَّ العَرَب قد كانت نَسَأتِ النَّسيءَ، يحجُّونَ في كثيرٍ من السنين، بل أكثَرِها، في غير ذي الحِجَّة!! وزعموا أنَّ حَجَّةَ الصِّدِّيقِ في سنةِ تِسعٍ كانت في ذي القَعدةِ! وفي هذا نَظَرٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٤٦). ويُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٩٣ - ٤٩٥).

(١) اختلف العلماءُ في تحريمِ القتالِ في الأشهرِ الحرمِ؛ فذهَب الجمهورُ إلى أنَّ تحريمَ القتالِ في الأشهرِ الحرمِ منسوخٌ بالأمرِ بقتالِ المشركين حيثما وُجِدوا، في قولِه تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾، وممن ذهَب إلى ذلك سعيدُ بنُ المسيبِ، وسليمانُ بنُ يَسارٍ، وقتادةُ، والزهريُّ، وعطاءٌ الخراسانيُّ، وسفيانُ الثوريُّ، وأبو عبيدٍ القاسمُ بنُ سلَّام، وابنُ جريرٍ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((الناسخ والمنسوخ)) للقاسم بن سلام (ص: ٢٠٦- ٢٠٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٣٤).

وذهَب آخرونَ إلى أنَّ تحريمَ القتالِ في الأشهرِ الحرمِ باقٍ، غيرُ منسوخٍ، وهو قولُ عطاءِ بنِ أبي رباحٍ، ورجَّحه ابنُ القيِّم، والشوكانيُّ، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((الناسخ والمنسوخ)) للقاسم بن سلام (١/ ٢٠٧)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٣٠٢، ٣٠٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٠٩، ٤١٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٨٢).

قال ابنُ كثيرٍ: (اختلف العُلَماءُ في تحريمِ ابتداءِ القِتالِ في الشَّهرِ الحرام: هل هو منسوخٌ أو مُحكَمٌ؟ على قولين: أحدُهما- وهو الأشهَرُ- أنَّه منسوخٌ؛ لأنَّه تعالى قال هاهنا: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾، وأمر بقِتالِ المشركين، وظاهرُ السِّياقِ مُشْعِرٌ بأنَّه أمَرَ بذلك أمرًا عامًّا، فلو كان مُحَرَّمًا في الشَّهرِ الحَرامِ، لأوشَكَ أن يُقَيِّدَه بانسلاخِها؛ ولأنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حاصَرَ أهلَ الطَّائِفِ في شَهرٍ حرامٍ- وهو ذو القَعدة- كما ثبت في الصَّحيحين: أنه خرج إلى هوازِنَ في شوَّال، فلما كسَرَهم واستفاءَ أموالَهم، ورجَعَ فَلُّهم، فلجَؤوا إلى الطَّائِفِ- عَمد إلى الطَّائِفِ فحاصَرَها أربعينَ يومًا، وانصرف ولم يفتَتِحْها، فثبت أنَّه حاصر في الشَّهرِ الحرامِ. =

أشَدَّ ممَّا يَحرُمُ في غيرِها، وهي: ذو القَعدةِ، وذو الحِجَّةِ، ومُحرَّمٌ، ورجَب[1].

﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾.

أي: هذا الذي أخبَرْتُكم به- مِن كَونِ الشُّهورِ اثنَي عَشَرَ شَهرًا، منها أربعةٌ

= والقَولُ الآخَر: أنَّ ابتداءَ القِتالِ في الشَّهرِ الحرامِ حَرامٌ، وأنَّه لم يُنسَخْ تَحريمُ الحرامِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٤٩).

وقال ابن القيم: (غَزوُ الطَّائِفِ كان من تمامِ غَزوةِ هَوازِنَ، وهم بدَؤُوا رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالقتالِ، ولَمَّا انهزموا دخَلَ مَلِكُهم- وهو مالك بن عوف النضري- مع ثقيفٍ في حِصنِ الطَّائِفِ، مُحاربينَ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فكان غَزوُهم من تمامِ الغَزوةِ التي شَرَعَ فيها، واللهُ أعلم. وقال الله تعالى في سورة المائدة، وهي من آخِرِ القُرآنِ نُزولًا، وليس فيها منسوخٌ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّه وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ﴾ [المائدة:٢]، وقال في سورة البقرة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيه قُلْ قِتَالٌ فِيه كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّه﴾ [البقرة: ٢١٧]، فهاتان آيتانِ مدنيَّتان بينهما في النُّزول نحوُ ثمانيةِ أعوام، وليس في كتابِ الله ولا سُنَّةِ رَسولِه ناسِخٌ لِحُكمِهما، ولا أجمَعَت الأمَّةُ على نَسْخِه، ومن استدَلَّ على نسخِه بقَولِه تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ [التوبة:٣٦] ونحوِها من العُموماتِ، فقد استدَلَّ على النَّسخِ بما لا يدُلُّ عليه). ((زاد المعاد)) (٣/ ٣٠٢، ٣٠٣).

ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٠٩، ٤١٠).

وقال الشنقيطي: (وَمِنْ أَصْرَحِ الأدلةِ في ذلك هو الحديثُ الذي أَشَرْنَا إليه؛ لأنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم خَطَبَ به يومَ النحرِ في حجةِ الوداعِ عامَ عَشْرٍ، ولم يَعِشْ بعد ذلك إلا نحوَ ثمانينَ يومًا، وقد صَرَّحَ فيه بأن ذلك الشهرَ حرامٌ، وذلك اليومَ حرامٌ، وذلك البلدَ حرامٌ، ولم يَأْتِ بعدَ ذلك شيءٌ يَنْسَخُ هذا التحريمَ الثابتَ عنه، صلواتُ اللَّهِ وسلامُه عليه). ((العذب النمير)) (٥/ ٤٨٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٤٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٣٣).

قال الواحدي: (﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ وهي: رجَب، وذو القَعدةِ، وذو الحِجَّةِ، والمُحَرَّم، في قولِ الجَميع). ((البسيط)) (١٠/ ٤٠٩).

وقال الشنقيطي: (فالتَّحقيقُ أنَّ هذه الصورةَ التي نزل بها القرآنُ، التي كان يفعَلُ لهم الكِنانيُّونَ: أنَّهم سنةً يُحَرِّمونَ صَفرًا، ويُحِلُّونَ المُحَرَّم مكانَه، وفي سنةٍ يُبقونَ الأمرَ على حالِه، فيُحِلُّونَ المُحَرَّمَ سَنةً، ويُحَرِّمونَه سنةً؛ لِيُواطِئوا بذلك- يُوافِقوا- عِدَّةَ ما حَرَّمَ الله، وهي أربعةُ أشهُرٍ مِن السَّنَةِ). ((العذب النمير)) (٥/ ٤٩٥).

حُرُمٌ- هو الدِّينُ المُستَقيمُ، والحِسابُ الصَّحيحُ(١).

﴿فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾.

أي: فلا تَظلِموا- أيُّها النَّاسُ- أنفُسَكم في هذه الأشهُرِ الأربعةِ الحُرُمِ(٢)، بارتكابِ السَّيِّئاتِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٤٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣١)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٨٥).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ بالدِّينِ القَيِّم هنا: الدِّينُ المُستقيمُ: ابن جرير، وابن عطيَّة، وابن جُزي، وابن عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن ذهب إلى أنَّ المراد: الحسابُ الصَّحيحُ المستقيمُ: مُقاتِل، وابنُ قتيبةَ، والواحديُّ، والسمعانيُّ، والبَغَويُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ١٦٩)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤١٠، ٤١١)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٣٠٨)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٣٤).

وجمعَ الشَّوكاني بين القولَين، فقال: (قولُه: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أي: كَونُ هذه الشهورِ كذلك، ومنها أربعةٌ حُرمٌ؛ هو الدِّينُ المستقيمُ، والحِسابُ الصَّحيحُ، والعدَدُ المُستوفى). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٠٩).

(٢) ذهَب جماعةٌ مِن أهلِ العلمِ إلى أنَّ معنى قولِه: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: بإيقَاعِ القتالِ فيها، والهتكِ لحرمتِها ولذا قالوا: إن تحريمَ القتالِ في الأشهرِ الحرُمِ ثابتٌ محكمٌ لم يُنسَخْ لهذه الآيةِ وغيرِها، وذهَب آخرونَ إلى أنَّ هذه الآيةَ على هذا التأويلِ منسوخةٌ بإباحةِ القتالِ في جميعِ الشهورِ، وذهب الجمهورُ إلى أنَّ الظلمَ هنا مؤوَّلٌ بارتكابِ المعاصي، وأنَّ حرمةَ المقاتلةِ في الأشهر الحرم منسوخةٌ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٣٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٠٩)، ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٢٨٣).

(٣) وهو قولُ جمهورِ المفسِّرين، منهم: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ، والرازي، وابنُ كثيرٍ، وابنُ عاشورٍ. ونسَبه الرازي للجمهورِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٤٣، ٤٤٤، ٤٤٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤١٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٦٢)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٨٥).

وممن قال بهذا القولِ مِن السَّلف: قتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٤٤).

قال القرطبي: (خصَّ اللهُ تعالى الأربعةَ الأشهُرَ الحُرُمَ بالذِّكرِ، ونهى عن الظُّلمِ فيها؛ تشريفًا لها، وإن كان منهيًّا عنه في كلِّ الزَّمانِ، كما قال تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧]، على هذا أكثرُ أهلِ التَّأويلِ، أي: لا تَظلِموا في الأربعةِ الأشهُرِ =

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢].

وعن جابِرِ بنِ عبدِ الله رَضِيَ الله عنهما، قال: ((لم يكُنْ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يغزُو في الشَّهرِ الحرامِ، إلَّا أن يُغزَى- أو يُغْزَوْا- فإذا حضَرَ ذاك، أقام حتى ينسلِخَ))[1].

﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾.

أي: وقاتِلوا- أيُّها المُسلِمونَ- المُشرِكينَ كلَّهم، وأنتم مجتَمِعونَ مُؤتَلِفونَ مُتَوافِقونَ جميعًا على قتالهم، بلا تفَرُّقٍ ولا تخاذُلٍ ولا تقاطُعٍ، كما يقاتِلُكم المُشرِكونَ مُجتَمِعينَ غيرَ مُتَفَرِّقينَ[2].

= أنفُسَكم). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٣٥). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٤٧).

وقيل: المعنى: فلا تَظلِموا أنفُسَكم بالمعاصي في جميعِ أشهُرِ السَّنَةِ، وممن اختاره ابنُ عطيَّةَ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاس. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٤٤).

وقال ابنُ عاشورٍ: (والأنفُسُ تَحتَمِلُ أنَّها أنفُسُ الظَّالِمينَ في قَولِه: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا﴾ أي: لا يظلِمْ كُلُّ واحدٍ نفسَه... ويجوز أن يكون الظُّلمُ بمعنى الاعتداءِ، ويكون المرادُ بالأنفُسِ أنفُسَ غيرِ الظَّالمينَ، وإضافتُها إلى ضميرِ المُخاطَبينَ للتَّنبيهِ على أنَّ الأمَّةَ كالنَّفسِ مِن الجَسَد). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٨٦).

(١) أخرجه القاسم بن سلام في ((الناسخ والمنسوخ)) (٣٨٩)، وأحمد (١٤٥٨٣)، والحارث بن أبي أسامة كما في ((بغية الباحث)) (٦٤٥)، والطحاوي في ((شرح مشكل الآثار)) (٤٨٧٩).

صحح إسناده ابن كثير في ((التفسير)) (١/ ٣٣٠)، وابن حجر في ((العجاب)) (١/ ٤٧٠)، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٦/ ٦٩): رجاله رجال الصحيح، وقال الوادعي في ((الصحيح المسند)) (٢٥٦): حسن على شرط مسلم.

(٢) ممَّن اختار هذا القول: ابنُ جريرٍ، وابنُ عطيةَ، والرازي، والشَّوكاني، ومحمد رشيد رضا. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٤٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣١)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٤٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤١٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٣٥٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والسُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ١٧٩٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٤٨). =

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾.

أي: واعلَمُوا- أيُّها المؤمِنونَ- أنَّكم إن قاتَلْتُم المُشرِكينَ كافَّةً، واتَّقيتُم اللهَ بفِعلِ أوامِرِه واجتنابِ نواهيه؛ فإنَّ اللهَ معكم بِعَونِه وتأييدِه، وينصُرُكم على أعدائِكم المُشرِكينَ(١).

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ

= قال ابن عطية: (قال بعضُ النَّاسِ: كان الفَرضُ بهذه الآيةِ قد توجَّهَ على الأعيانِ، ثم نُسِخَ ذلك بعدُ، وجُعِلَ فَرضَ كِفايةٍ. وهذا الذي قالوه لم يُعلَم قطُّ مِن شَرْعِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه ألزَمَ الأمَّةَ جَميعًا النَّفْرَ، وإنَّما معنى الآية: الحضُّ على قِتالِهم والتحَزُّبُ عليهم وجَمعُ الكَلِمةِ، ثم قيَّدَها بقَولِه: ﴿كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ﴾، فبِحَسَب قتالِهم واجتماعِهم لنا يكونُ فَرضُ اجتماعِنا لهم، وأمَّا الجِهادُ الذي يُنتَدَبُ إليه، فإنَّما هو فرضٌ على الكفايةِ؛ إذا قام به بعضُ الأمَّةِ سقَطَ عن الغَيرِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣١). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٦).

وقيل: المعنى: وقاتِلوا- أيُّها المُسلِمونَ- جميعَ المُشرِكينَ، كما أنَّهم يستحِلُّونَ قِتالَكم جميعًا، وممَّن اختار هذا القولَ: الواحديُّ، والسمعانيُّ، وابنُ تيميةَ، والسعديُّ، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٦٢)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٣٠٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٨٧).

قال ابنُ تيميَّةَ: (وقَولُه تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ أي: قاتِلوهم كلَّهم، لا تَدَعُوا مُشرِكًا حتى تُقاتِلوه، فإنَّها أُنزِلَت بعد نَبْذِ العُهودِ، ليس المرادُ: قاتِلوهم مُجتَمِعينَ، أو جميعُكم؛ فإنَّ هذا لا يجِبُ، بل يُقاتَلون بحسَبِ المَصلحةِ، والجهادُ فرضٌ على الكفايةِ، فإذا كانت فرائِضُ الأعيانِ لم يؤكِّدِ المأمورونَ فيها بـ ﴿كَافَّةً﴾، فكيفَ يؤكِّدُ بذلك في فُروضِ الكفايةِ؟! وإنما المقصودُ تعميمُ المقاتَلينَ). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٢٦٧).

وقال الواحدي: (يريدُ: قاتِلوهم كُلَّهم ولا تُحابوا بعضَهم بتَرْكِ القِتالِ؛ كما أنَّهم يستحِلُّونَ قِتالَ جَميعِكم، ويجوزُ أن يكونَ المعنى: قاتِلوهم بأجمَعِكم، مجتمعينَ على قتالِهم كما يفعلونَ هم. يريد: تعاوَنوا وتَناصَروا على ذلك ولا تَتَخاذَلوا، وكلا المعنيينِ يحتَمِلُه قوله: جميعًا). ((البسيط)) (١٠/ ٤١٥، ٤١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٤٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤١٧)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٦).

أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ الآيةَ السَّابِقةَ كالمُقَدِّمةِ إلى المقصودِ هنا، وهو إبطالُ النَّسيءِ وتَشنيعُه(١).

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾.

أي: إنَّما تأخيرُ تَحريمِ الأشهُرِ الأربعةِ الحُرُمِ، وتغييرُها عمَّا شَرَعَه اللهُ- بأن يكونَ شَهرُ مُحَرَّمٍ الحرامُ حلالًا، وشهرُ صَفَرٍ الحَلالُ حَرامًا(٢)- زيادةٌ في كُفرِ مُشرِكي العَرَبِ، الذين ابتَدَعوا هذا التَّأخيرَ(٣).

﴿يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٨٨).

(٢) قال الواحدي: (قال العُلماءُ وأهلُ التَّفسيرِ: إنَّ العَرَبَ كانت تحرِّمُ الشُّهورَ الأربعةَ، وكان ذلك ممَّا تمسَّكَت به مِن مِلَّةِ إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهما السَّلامُ، وكانت العربُ أصحابَ حُروبٍ وغاراتٍ، فشَقَّ عليهم أن يَمكُثُوا ثلاثةَ أشهُرٍ متواليةً لا يُغيرُونَ فيها... فكانوا يؤخِّرونَ تَحريمَ المُحَرَّمِ إلى صَفَرَ، فيُحَرِّمونَه، ويستَحِلُّونَ المُحَرَّمَ، وكانوا يمكُثون بذلك زمانًا يُحَرِّمونَ صَفَرَ وهم يُريدونَ به المُحَرَّمَ، ويقولون: هو أحَدُ الصَّفَرَينِ). ((البسيط)) (١٠/ ٤٢٠).

وقال ابن تيمية: (روى أحمدُ عن أبي وائلٍ، في قَولِه عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا﴾ الآية [التوبة: ٣٧]، قال: كان رجلٌ ينسَأُ النَّسيءَ مِن كِنانةَ، وكان يجعَلُ المُحَرَّم صَفَرًا يستحِلُّ فيه الغنائِمَ، فنزلت: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ [التوبة: ٣٧]. وهذا ممَّا أجمَعَ عليه أهلُ العِلمِ بالأخبارِ والتَّفسيرِ والحديثِ). ((شرح عمدة الفقه)) (٢/ ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٤٩، ٤٥٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤١٨، ٤٢٧)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٩١، ١٩٣).

قال القرطبي: (قوله تعالى: ﴿زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ بيانٌ لِما فَعَلَتْه العَرَبُ مِن جَمْعِها من أنواعِ الكُفرِ؛ فإنَّها... أنكَرَت البَعثَ فقالت: ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]. وأنكَرَت بَعثةَ الرُّسُلِ، فقالوا: ﴿أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ﴾ [القمر: ٢٤]. وزعَمَت أنَّ التَّحليلَ والتحريمَ إليها، فابتَدَعَتْه من ذاتِها مُقتَفيةً لِشَهواتِها، فأحَلَّت ما حَرَّمَ الله، ولا مُبدِّلَ لِكَلِماتِه، ولو كَرِهَ المُشرِكونَ). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٣٩).

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ثلاثُ قِراءاتٍ:

١- قراءةُ: ﴿يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بضَمِّ الياءِ وفتح الضادِ، على ما لم يُسَمَّ فاعِلُه، أي: أنَّ الكافرين يُضَلُّونَ(١).

٢- قراءةُ: ﴿يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بضَمِّ الياء وكسرِ الضاد، ومعناه أنَّ الكفَّارَ يُضِلُّونَ بالنَّسيءِ أتباعَهم في إحْلالِهم المحَرَّمَ مَرَّةً، وتحريمِهم إيَّاه أخرى. أو: يُضِلُّ اللهُ الذين كفروا(٢).

٣- قراءةُ: ﴿يَضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بفَتحِ الياءِ وكَسرِ الضَّادِ، والفِعلُ للكفَّارِ الضَّالِّينَ، فهم يَضِلُّونَ لا يهتَدونَ(٣).

﴿يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

أي: يُضَلُّ بتأخيرِ تَحريمِ الأشهُرِ الأربعةِ الحُرُمِ، الذينَ كفَروا(٤).

---

(١) وقرأ بها حمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ وحفص. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣١٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٤٧).

(٢) وقرأ بها يعقوبُ الحضرميُّ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤٥٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٤٧).

(٣) وقرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤٥٣)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣١٨).

(٤) قال الواحدي: (ومعناه: أنَّ كبَراءَهم يُضِلُّونَهم بحَمْلِهم على هذا التَّأخيرِ في الشُّهورِ، فأُسنِدَ الفِعلُ إلى المفعولِ، كقوله تعالى في هذه الآية: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ﴾ أي: زَيَّنَ لهم ذلك حامِلوهم وداعُوهم إليه). ((البسيط)) (١٠/ ٤٢٧)، ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٤٦).

﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾.

أي: يُحِلُّ الذينَ كَفَروا ذلك النَّسيءَ عامًا دونَ عامٍ، فيُحِلُّونَ شَهرَ مُحَرَّمٍ عامًا، ويُحَرِّمونَه في عامٍ آخَرَ، فإذا قاتلوا في المحرَّمِ أحلُّوه، وحرَّموا مكانَه صَفرًا، وإذا لم يُقاتِلوا فيه حرَّمُوه[1].

﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾.

أي: لِيُوافِقوا بتَحليلِهم شَهرَ مُحَرَّمٍ، وتَحريمِهم شَهرَ صَفَرٍ، عدَدَ الأشهُرِ الأربعةِ التي حَرَّمَها اللهُ كُلَّ عامٍ بلا زيادةٍ ولا نُقصانٍ في العَدَدِ، فيُحِلُّوا بتأخيرِ حُرمةِ شَهرِ مُحَرَّمٍ، ما حرَّمَه الله تعالى[2]!

﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ﴾.

أي: حُسِّنَ للمُشرِكينَ سيِّئُ أعمالِهم وقَبيحُها[3].

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾.

أي: واللهُ لا يوفِّقُ للحَقِّ المصرِّين على كفرهم، ويخذُلُهم عن الهُدى[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٥١)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٢٨، ٤٢٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٩٣ – ٤٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٥١، ٤٥٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٥١)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٩٦).

ذهب السعدي والشنقيطي إلى أنَّ المُزَيِّنَ لهم: هو الشَّيطانُ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٧)، ((العذب النمير)) (٥/ ٤٩٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلف الحسنُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ١٧٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٩٦، ٤٩٧). =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ * وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: ٧ - ١١].

الفَوائِد التربويَّة:

١- الحِرصُ على استعمالِ تَقوى الله في السِّرِّ والعَلَنِ، والقيامِ بطاعَتِه، خصوصًا عند قتالِ الكُفَّارِ؛ فإنَّه في هذه الحالِ ربَّما ترَكَ المؤمِنُ العمَلَ بالتَّقوى في معاملةِ الكُفَّارِ الأعداءِ المُحارِبينَ؛ يُرشِدُ إلى ذلك قولُه تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا

= قال الشوكاني: (لا يَهديهم هدايةً تُوصِلُهم إلى المطلوبِ، وأمَّا الهدايةُ بمعنى الدَّلالةِ على الحقِّ، والإرشادِ إليه؛ فقد نَصَبَها اللهُ سُبحانه لِجَميعِ عِبادِه). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤١١).
قال الشنقيطي: (﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ هذه الآيةُ وأمثالُها بالقرآنِ، فيها سؤالٌ مَعروفٌ، وإشكالٌ مشهورٌ، وهو أن يقول طالِبُ العلم: هذه الآيةُ وأمثالُها صرَّحَ الله فيها بأنَّه لا يهدي الكافرينَ، مع أنَّا نُشاهِدُ اللهَ يهدي كثيرًا من الكافرين، فاللهُ يهدي من يشاءُ مِن الكفَّار، ويُضِلُّ من يشاء، فما وجهُ تعميمِه في قوله تعالى: ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ هذا وجهُ السؤالِ، وللعلماءِ عنه جوابان معروفان:
أحدهما: أنَّ هذه الآيةَ الكريمةَ وأمثالَها في القرآنِ: مِن العامِّ المخصوصِ، أي: لا يهدي القومَ الكافرين الذين سبَقَ في عِلمِه عَدمُ هدايتِهم، وشقاؤُهم شقاءً أزليًّا، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧] وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ٧] ونحوِ ذلك من الآيات. وعلى أنَّ هذه الآيةَ الكريمةَ من العامِّ المخصوصِ بآياتٍ أُخَر، فلا إشكالَ.
وقال بعض العلماء: ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ ما دامُ اللهُ جلَّ وعلا مُريدًا منهم أن يكونوا كافرينَ، فإذا شاء اللهُ أن يهديَهم هداهم. وقال بعضُ العلماءِ: لا يهديهم ما داموا مُصِرِّينَ على كُفْرِهم). ((العذب النمير)) (٥/ ٤٩٦-٤٩٧).

الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾(١).

٢- قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ جُعِلَ النَّسيءُ زيادةً في الكُفرِ؛ لأنَّ الكافِرَ كلمَّا أحدَثَ مَعصيةً ازداد كُفرًا، فزادَتْهم رِجسًا إلى رِجْسِهم، كما أنَّ المؤمِنَ كلَّما أحدَثَ طاعةً ازدادَ إيمانًا؛ قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾(٢) [التوبة: ١٢٤].

٣- قال الله تعالى: ﴿لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ﴾ هذا يدلُّ على أنَّ مِن أسوَأِ الأعمالِ وأخبَثِها تحليلَ ما حَرَّمَه اللهُ، وتحريمَ ما أحَلَّ اللهُ(٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّه اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّه يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾. فإن قيل: أجزاءُ الزَّمانِ مُتشابِهةٌ في الحقيقةِ، فما السَّبَبُ في هذا التَّمييزِ؟ فالجوابُ: أنَّ هذا المعنى غيرُ مُستبعَدٍ في الشَّرائعِ؛ فإنَّ أمثِلتَه كثيرةٌ، ألا ترى أنَّه تعالى ميَّزَ البلدَ الحرامَ عن سائِرِ البلادِ بِمَزيدِ الحُرمةِ، ومَيَّزَ يومَ الجُمُعةِ عن سائِرِ أيَّامِ الأسبوعِ بمزيدِ الحُرمةِ، وميَّزَ يومَ عرفةَ عن سائِرِ الأيام بتلك العبادةِ المخصوصةِ، وميَّزَ شَهرَ رَمَضانَ عن سائِرِ الشُّهورِ بمَزيدِ حُرمةٍ، وهو وجوبُ الصَّومِ، وميَّزَ بعضَ ساعاتِ اليومِ بوجوبِ الصَّلاةِ فيها، وميَّزَ بعض اللَّيالي عن سائِرِها، وهي ليلةُ القَدْرِ، وميَّزَ بعضَ الأشخاصِ عن سائِرِ النَّاسِ بإعطاءِ خِلعةِ الرِّسالةِ، وإذا كانت هذه الأمثلةُ ظاهرةً مَشهورةً، فأيُّ استبعادٍ في

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٣٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٦١٢).
(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٩٦).

تخصيصِ بَعضِ الأشهُرِ بمزيدِ الحُرمةِ(١)؟!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّه اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّه يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ قال أهلُ المعاني: وفي جَعْلِ بعضِ الشُّهورِ أعظَمَ حُرمةً من بعضٍ، فوائِدُ من المصلحةِ في الكَفِّ عن الظُّلمِ فيها؛ لِعِظَمِ مَنزِلَتِها في حُكمِ خالِقِها، فربَّما أدَّى ذلك إلى تَركِ الظُّلمِ رأسًا؛ لانطفاءِ الثَّائرة في تلك المدَّةِ(٢).

٣- ضَبطُ التَّوقيتِ: مِن أصولِ إقامةِ نِظامِ الأمَّةِ، ودَفْعِ الفوضى عن أحوالِها؛ يُرشِدُ إلى ذلك قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّه اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّه يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾(٣).

٤- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّه اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّه...﴾، مِن أحكامِ كتابِ الله التشريعيةِ أنَّ كلَّ ما يتعلَّق بحسابِ الشهورِ والسِّنين، كالصيامِ والحجِّ وعدةِ المطلقاتِ والرضاعِ، فالمعتبرُ فيه الأشهرُ القمريةُ، ولهذا فسَّرَ النَّبيُّ عليه الصلاة والسلام الأربعةَ الحرمَ، بأنها: رجبُ مُضَرَ، وذو القعدةِ، وذو الحِجَّةِ، ومُحَرَّمٌ(٤)، وهذه الشهورُ القمريةُ هي أقدمُ أشهُرِ التوقيتِ في البشرِ وأضبطِها، ويمكنُ العلمُ بها بالرؤيةِ البصريةِ للأُميينَ، والمتعلِّمين في البدوِ والحضرِ على سواءٍ، ولَمَّا استعمرَ الكفارُ كثيرًا مِن البلادِ الإسلاميةِ حَوَّلُوا التاريخَ إلى تاريخِهم؛ استعبادًا واستذلالًا للشعوبِ(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٤١، ٤٢).
(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٠٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٨٠).
(٤) تقدَّم تخريجه من حديث أبي بكرةَ.
(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٣٥٧-٣٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٨٠-١٨١)، ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقم: ١٦٩).

٥- قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّه اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّه يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُم﴾ فيه أنَّ اللهَ تعالى وضَعَ هذه الأشهُرَ، وسَمَّاها ورَتَّبها على ما هي عليه، وأنزل ذلك على أنبيائِه، فيُستَدَلُّ به لِمَن قال: إنَّ اللُّغاتِ تَوقيفيَّةٌ(١).

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّه اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُم﴾ وجهُ تخصيصِ المعاصي في هذه الأشهُرِ بالنَّهي: أنَّ اللهَ جعَلَها مواقيتَ للعِبادةِ، فإنْ لم يكُنْ أحَدُ مُتَلَبِّسًا بالعبادةِ فيها، فليَكُنْ غيرَ مُتلَبِّسٍ بالمعاصي، وليس النَّهيُ عن المعاصي فيها بمقتَضٍ أنَّ المعاصِيَ في غيرِ هذه الأشهُرِ ليست منهيًّا عنها، بل المرادُ أنَّ المعصيةَ فيها أعظَمُ، وأنَّ العمَلَ الصَّالحَ فيها أكثَرُ أجرًا(٢).

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّه اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُم﴾ فيه ذِكرُ الأشهُرِ الحُرمِ، وتعظيمُ الظُّلم فيها زيادةً عليه في غَيرِها، ومن هنا شُرِعَ تَغليظُ الدِّيَةِ في القَتلِ فيها، على ما ذهب إليه بعضُ العُلماءِ(٣).

٨- قولُه تعالى: ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ يريد: اللَّوحَ المحفوظَ. وأعاده بعد أن قال: ﴿عِنْدَ اللَّه﴾؛ لأنَّ كثيرًا من الأشياءِ يُوصَفُ بأنَّه عند الله، ولا يُقالُ إنَّه مكتوبٌ في كتابِ الله، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾(٤).

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٨٦).
(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٣٢).

٩- قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّه اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّه يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ إنَّما قال: ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾؛ لِيُبيِّنَ أنَّ قضاءَه وقَدَرَه كان قبل ذلك، وأنَّه سبحانه وضَعَ هذه الشُّهورَ وسمَّاها بأسمائِها، على ما رتَّبها عليه يومَ خلَقَ السَّموات والأرضَ، وأنزل ذلك على أنبيائِه في كتُبه المُنَزَّلةِ، وهو معنى قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّه اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ وحُكمُها باقٍ على ما كانت عليه، لم يُزِلْها عن ترتيبِها تغييرُ المُشركين لأسمائها، وتقديمُ المُقدَّمِ في الاسمِ منها، والمقصودُ من ذلك اتِّباعُ أمرِ الله فيها، ورَفضُ ما كان عليه أهلُ الجاهليَّةِ مِن تأخيرِ أسماء الشُّهورِ وتقديمِها، وتعليقِ الأحكامِ على الأسماءِ التي رتَّبوها عليه؛ ولذلك قال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في خُطبتِه في حَجَّةِ الوداعِ: ((أيُّها النَّاسُ، إنَّ الزَّمانَ قد استدارَ كهيئَتِه يومَ خلَقَ اللهُ السَّمواتِ والأرضَ))[1]. وأنَّ الذي فعَلَ أهلُ الجاهليَّةِ مِن جَعْلِ المُحَرَّمِ صَفَرًا، وصَفرٍ مُحَرَّمًا؛ ليس يتغيَّرُ به ما وصَفَه الله تعالى[2].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّه اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّه يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أخبَرَ اللهُ تعالى أنَّ هذا هو الدِّينُ القَيِّمُ؛ ليُبيِّنَ أنَّ ما سواه من أمْرِ النَّسيءِ وغَيرِه مِن عاداتِ الأُمَمِ، ليس قَيِّمًا؛ لِمَا يَدخُلُه مِن الانحرافِ والاضطرابِ[3].

١١- دلَّ قولُه تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ أنَّ السَّيِّئةَ- وإنْ كانت لا تَتَضاعَفُ- إلَّا أنَّها قد تَعْظُمُ أحيانًا بشَرَفِ الزَّمانِ أو المكانِ[4].

١٢- قولُ الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا

(١) تقدم تخريجه.
(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٣٢، ١٣٣).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٥/ ١٤١).
(٤) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٣١٧).

أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ جملةُ ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ تأييدٌ وضَمانٌ بالنَّصرِ عند قِتالِهم المُشرِكينَ؛ لأنَّ المعيَّةَ هنا مَعيَّةُ تأييدٍ على العمَلِ، وليست معيَّةَ عِلمٍ؛ إذ لا تختَصُّ معيَّةُ العِلمِ بالمتَّقينَ(١).

١٣- قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ مِن سُورةِ براءةَ، مِن أصرَحِ النُّصوصِ القُرآنيَّةِ في أنَّ كُلَّ مَن اتَّبَع نِظامًا غيرَ نِظامِ الله، وتشريعًا غيرَ تَشريعِ الله، وقانونًا غيرَ قانونِ الله؛ أنَّه كافِرٌ بالله؛ إن كان يزعُمُ الإيمانَ فقد كفَرَ، وإن كان كافرًا، فقد ازداد كُفرًا جديدًا إلى كُفرِه الأوَّلِ(٢).

١٤- قال تعالى: ﴿يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا﴾، فعَبَّرَ عن الحولِ بلفْظٍ يدورُ على معنَى السَّعةِ فقال: ﴿عَامًا﴾؛ إشارةً إلى أنَّهم يَفعلونَه ولو لم يَضطرَّهم إلى ذلك جدبُ سَنةٍ ولا عَضُّ زمانٍ، بل بمُجرَّدِ التَّشهِّي؛ فإنَّهم ﴿يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا﴾ هكذا دائمًا كلَّما أرادوا، وليس المرادُ أنَّهم كلَّ سَنةٍ يَفعلون ذلك، مِن غيرِ إجلالٍ لسَنةٍ مِن السِّنينَ(٣).

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾

- في قولِهِ: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ﴾ افتِتاحُ الكلامِ بحَرْفِ التَّوكيدِ؛ للاهْتِمامِ بمضمونِه؛ لتَتوجَّهَ أَسْماعُ النَّاسِ وألبابُهم إلى وَعْيِه(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٨٨).
(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٨٣).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٥٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٨٠).

- وقولُه: ﴿الشُّهُورِ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيثُ عبَّر هنا بجَمْعِ الكَثْرةِ (الشُّهورِ)؛ وذلك لأنَّها كانتْ أَزْيدَ مِنْ عَشرةٍ، بخِلافِ قولِهِ في سُورةِ البَقرةِ: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾ [البقرة: ١٩٧]، حيثُ جاء بلَفْظِ جَمْعِ القِلَّةِ ﴿أَشْهُرٌ﴾ وهو مُناسِبٌ؛ لأنَّهُ أَشْهُرٌ قليلةٌ؛ فجاء كلٌّ على ما يُناسِبُهُ(١).

- قولُه: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ الإشارةُ بـ﴿ذَلِكَ﴾ الذي يَتضمَّنُ مَعْنى البُعْدِ، فيه تفخيمُ المُشارِ إليه، وهو الدِّينُ(٢).

- قوله: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ فيه تَخْصيصُ النَّهْي عن المَظالِمِ في الأَشْهُرِ الحُرُمِ؛ تَشريفًا لها، وتعظيمًا بالتَّخصيصِ بالذِّكْرِ، وإنْ كانتِ المظالِمُ مَنْهيًّا عَنْها في كُلِّ زمانٍ(٣).

- قولُه: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ احْتِراسٌ مِن ظَنِّ أنَّ النَّهيَ عن انْتِهاءِ الأَشْهُرِ الحُرُمِ يَقْتضي النَّهْيَ عن قِتالِ المشركينَ فيها إذا بَدؤوا بقِتالِ المُسلِمينَ، وبهذا يُؤذِنُ التَّشبيهُ التَّعليليُّ في قولِهِ: ﴿كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾؛ فيكونُ المَعْنى: فلا تَنْتَهِكوا حُرْمةَ الأَشْهُرِ الحُرُمِ بالمعاصي، أو باعْتِدائكُم على أعدائكُم؛ فإنْ هُمْ بادَؤوكُمْ بالقتالِ فقاتِلُوهم؛ فمقصودُ الكلامِ هو الأَمْرُ بقِتالِ المُشْرِكِينَ الذين يُقاتِلونَ المسلمينَ في الأَشْهُرِ الحُرُمِ، وتعليلُه بأنَّهُم يَسْتحِلُّونَ تلك الأَشْهُرَ في قِتالِهم المُسلِمينَ(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤١٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٦٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤١٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٨٧).

- قولُه: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ الجُمْلةُ بمَنْزِلةِ التَّذْييلِ لِمَا قَبْلَها؛ مِنْ أَجْلِ ما فيها مِن العُمومِ في المُتَّقينَ[١].

- وفيه وضْعُ الظاهِرِ مَوضِعَ المُضْمَرِ- حيثُ لَمْ يَقُلْ: (واعْلَموا أنَّ اللهَ مَعَكُم)-؛ مَدْحًا لهم بالتَّقوى، وحَثًّا للقاصِرينَ على القِتالِ، وإيذانًا بأنَّ مَعِيَّةَ اللهِ للمُتَّقينَ عليها المدارُ في النَّصْرِ، وقيل: هي بِشارةٌ وضَمانٌ لهم بالنُّصْرةِ؛ بسَببِ تَقْواهُمْ[٢]، وأيضًا أظْهرَ الوَصْفَ تَعليقًا للحُكمِ به، وتَعميمًا[٣].

٢- ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾

- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا﴾ استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عَنْ قولِه تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ ...﴾؛ لأنَّ ذلك كالمُقدِّمةِ إلى المقصودِ، وهو إبْطالُ النَّسيءِ وتَشْنيعُه[٤].

- وصِيغةُ القَصْرِ في قولِهِ: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ تَقْتضي أنَّهُ لا يَعْدُو كونَه مِنْ أَثَرِ الكُفْرِ لمَحبَّةِ الاعْتِداءِ والغاراتِ؛ فهو قَصْرٌ حقيقيٌّ، ويَلْزَمُ مِنْ كونِه زيادةً في الكُفْرِ: أنَّ الذين وَضَعوهُ ليسوا إلَّا كافرينَ وما هم بمُصْلِحينَ، وما الذين تابَعوهم إلَّا كافِرونُ كذلك، وما هم بمتَّقينَ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٦٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٨٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ١٩١).

- وجُمْلةُ: ﴿يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا﴾ بيانٌ لسَببِ كونِ النَّسيءِ ضَلالًا(١).

- واخْتيرَ التَّعبيرُ بالفِعْلِ المُضارِعِ في (يُضَلُّ- يُحلُّونَهُ- يُحرِّمونَهُ)؛ لدَلالتِهِ على التَّجدُّدِ والاسْتِمرارِ، أي: هم في ضلالٍ مُتجدِّدٍ مُسْتَمِرٍّ بتَجدُّدِ سَببِه(٢).

- قولُه: ﴿لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ فيه الإتيانُ بالموصولِ ﴿مَا﴾ دونَ أنْ يَقولَ مَثلًا: (لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ الشُّهورِ الحُرُمِ)؛ للإشارةِ إلى تَعليلِ عَمَلِهم في اعْتِقادِهِمْ بأنَّهم حافَظوا على عِدَّةِ الأشْهُرِ التي حرَّمها اللهُ تَعظيمًا؛ ففيه تَعريضٌ بالتَّهكُّمِ بهم(٣).

- وعطَف ﴿فَيُحِلُّوا﴾ عَلَى ﴿لِيُوَاطِئُوا﴾ تَنزيلًا للأمْرِ المترتِّبِ على العِلَّةِ مَنزلةَ المقصودِ مِن التَّعليلِ، وإنْ لم يَكُنْ قَصْدُ صاحبِه به التَّعليلَ، على طَريقةِ التَّهكُّمِ والتَّخطئةِ، مثلُ قَولِه تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾(٤) [القصص: ٨].

- وفي قولِه: ﴿فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ إظهارٌ في مقامِ الإضمارِ- حيثُ لم يَقُلْ: (فيُحِلُّوهُ)-؛ لزيادةِ التَّصريحِ بتَسجيلِ شَناعَةِ عَمَلِهِمْ(٥).

- وجُمْلةُ: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ﴾ مُسْتأنَفةٌ اسْتِئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ ما حُكِيَ مِن اضْطرابِ حالِهم يُثيرُ سؤالَ السائلينَ عن سببِ هذا الضِّغْثِ من الضَّلالِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ١٩٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الذي تَملَّؤوه؛ فقيل: لأنَّهم زُيِّنَ لهم سوءُ أعمالِهم[1].

- قولُه: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ فيه إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ - حيث لم يَقُل: -(واللهُ لا يَهديهم)-؛ لقَصدِ إفادةِ التَّعميمِ الذي يَشمَلُهم وغيرَهم، أي: هذا شأنُ اللهِ مع جَميعِ الكافِرينَ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ١٩٥).

الآيات (٣٨-٤٠)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا
أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ (٣٩) إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا
ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ
اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا
وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ
الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠)﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿انْفِرُوا﴾: أي: اخرُجُوا مِن مَنازِلكم إلى مَغْزاكم، والنَّفْرُ: مُفارقةُ مكانٍ إلى مكانٍ لأمْرٍ هاجَه على ذلك، وأَصلُ (نفر): يدلُّ على تجافٍ وتباعُدٍ(١).

﴿اثَّاقَلْتُمْ﴾: أي: تَثاقَلْتُم، وتَباطَأْتُم وتَكاسَلْتُم، وأصلُ (ثقل): ضِدُّ الخِفَّةِ(٢).

﴿مَتَاعُ﴾: أي: مُتْعة، وانْتِفاع، وأصلُ (متع): المنفعةُ، وامتدادُ مدَّةٍ في خيرٍ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٥٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٥٩)، ((الكليات)) للكفوي (١/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٧٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦٩).

﴿الْغَارِ﴾: نَقْبٌ في الجَبَلِ، وأصلُ (غور): يدلُّ على خُفوضٍ في الشَّيءِ، وانحطاطٍ وتَطامُنٍ[1].

المعنَى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: يا أيُّها الذين آمَنوا، ما بالُكم إذا دُعِيتُم إلى الجِهادِ في سبيلِ الله تكاسَلْتُم، ومِلْتُم لِلُزومِ مَساكِنِكم؟! أَرِضًا منكم بنَعيمِ الدُّنيا بَدَلًا من نعيمِ الجنَّةِ في الآخرةِ؟! فما متاعُ الحياةِ الدُّنيا مُقارنةً بنَعيمِ الآخرةِ إلَّا قَليلٌ، إن لم تُبادِرُوا للجِهادِ الذي دُعِيتُم إليه، يُعَذِّبْكم اللهُ عذابًا مُوجِعًا، ويستبدِلْ بكم قومًا آخَرينَ، إذا دُعُوا للجِهادِ أجابُوا، ولا تضُرُّوا اللهَ شَيئًا بعَدمِ تَلبِيَتِكم داعِيَ الجِهادِ، واللهُ على كلِّ شَيءٍ قَديرٌ.

وإنْ لم تنصُروا مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فسَينصُرُه اللهُ تعالى، كما نَصَرَه مِن قَبلُ حين اضطُرَّ إلى الخروجِ مِن مكَّة، والحالُ أنَّه أحدُ اثنَينِ فحَسْبُ، ليس معه إلَّا أبو بكرٍ رَضِيَ الله عنه، حين كانا في غارٍ في جبَلِ ثَورٍ للاختباءِ من كفَّارِ قُريشٍ، إذ يقولُ لأبي بكرٍ: لا تَحزَنْ؛ إنَّ اللهَ معنا، فأنزَلَ اللهُ سَكينَتَه على رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقَوَّاه بجُنودٍ مِن الملائكةِ لم تَرَوْها أنتم، وجَعَلَ اللهُ كَلِمةَ الكُفَّارِ هي السُّفلى، وكلِمةُ الله هي العليا، واللهُ عزيزٌ حَكيمٌ.

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾

﴿ثَانِيَ﴾: حالٌ مِن الهاءِ في ﴿أَخْرَجَهُ﴾، أي: أَحَدَ اثنَينِ. ﴿اثْنَيْنِ﴾ مُضافٌ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٧٤).

إليه مَجرورٌ، وعلامةُ جرِّه الياءُ؛ لأنَّه مُلحَقٌ بالمُثنَّى[1].

٢- قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾

﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ (الواو) استئنافيَّة. ﴿كَلِمَةُ﴾ مبتدأٌ مَرفوعٌ. ﴿هِيَ الْعُلْيَا﴾ جُملةٌ اسميَّةٌ في محلِّ رَفعِ خَبَرٌ لـ(كَلِمَةُ اللَّه)، ويجوزُ أن تكونَ ﴿هِيَ﴾ ضميرَ فَصلٍ، و﴿الْعُلْيَا﴾ هي الخَبَرُ. والجملةُ كُلُّها استئنافيَّةٌ، لا محَلَّ لها من الإعرابِ[2].

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا شرَحَ معايِبَ هؤلاءِ الكُفَّارِ وفَضائِحَهم، عاد إلى التَّرغيبِ في مُقاتَلَتِهم[3].

وأيضًا لَمَّا أوعَزَ اللهُ تعالى في أمرِ الجِهادِ، وأزاح جميعَ عِلَلِهم، وبَيَّنَ أنَّ حُسْنَه لا يختَصُّ به شَهرٌ دونَ شَهرٍ، وأنَّ بَعضَهم كان يُحِلُّ لهم ويُحَرِّمُ، فيتَّبِعونَه بما يؤدِّي إلى تحريمِ الشَّهرِ الحلالِ، وتحليلِ الشَّهرِ الحرامِ بالقتال فيه- عاتَبَهم

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣٢٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٦٤٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٥١)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (١٠/ ٣٤١)، ((المجتبى من مشكل إعراب القرآن)) للخراط (٢/ ٣٩٥).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣٢٩)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٦٤٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٥٢-٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٤٧).

اللهُ سبحانه على تخلُّفِهم عن رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، الآمِرِ لهم بالنَّفْرِ في غزوةِ تَبُوكَ عن أمْرِه سبحانَه، فقال تعالى[1]:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ﴾.

أي: ما الذي يَدعُوكم- أيُّها المُؤمِنونَ- إذا أُمِرْتُم بجهادِ الكُفَّارِ لإعلاءِ كَلِمةِ الله، إلى أن تَتَثاقلوا وتتَباطَؤوا وتتقاعَسُوا، وتَميلوا إلى لُزومِ أرضِكم ومَساكِنِكم[2]؟!

﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٥٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٣١، ٤٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٤)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٣)، ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٢٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٩٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٠٠، ٥٠١).

قال الواحدي: (أجمع المُفَسِّرونَ على أنَّ هذه الآيةَ حَثٌّ لِمَن تثاقَلَ عن غزوةِ تَبُوك، وذلك كان في زَمانِ عُسرةٍ مِن الناس، وجدْبٍ من البلادِ، وشدَّةٍ من الحَرِّ، حين أخرَفَت النَّخلُ، وطابَت الثِّمارُ، فعظُم ذلك على النَّاسِ، وشَقَّ عليهم الخروجُ إلى القتالِ، فأنزل اللهُ هذه الآيةَ). ((البسيط)) (١٠/ ٤٣٠). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٩٩).

وقال الرازي: (إنَّما استثقَلَ النَّاسُ ذلك لوجوهٍ: أحدها: شِدَّةُ الزَّمانِ في الصَّيفِ والقَحْطِ. وثانيها: بُعدُ المسافةِ، والحاجةُ إلى الاستعدادِ الكَثيرِ الزَّائدِ على ما جرَتْ به العادةُ في سائر الغَزَوات. وثالثها: إدراكُ الثِّمارِ بالمدينةِ في ذلك الوقتِ. ورابعها: شِدَّةُ الحَرِّ في ذلك الوقت. وخامسها: مهابةُ عَسكَرِ الرُّومِ. فهذه الجِهاتُ الكثيرةُ اجتمَعَت فاقتَضَت تثاقُلَ النَّاسِ عن ذلك الغَزوِ. والله أعلم). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٤٧).

وقال ابن عطية: (العِتابُ في هذه الآية هو للقَبائِلِ وللمؤمنينَ الذين كانوا بالمدينةِ، وخَصَّ الثلاثةَ: كعبَ بنَ مالكٍ، ومُرارةَ بن الرَّبيعِ، وهلالَ بنَ أُميَّةَ، بذلك التَّذنيبِ الشَّديدِ بحَسَب مكانِهم من الصُّحبةِ؛ إذ هم من أهلِ بَدرٍ، وممَّن يُقتَدى بهم، وكان تخلُّفُهم لِغَيرِ عِلَّةٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٤).

أي: ما لَكُم فَعَلْتُم ذلك- أيُّها المُؤمِنونَ- أَرِضًا منكم بنَعيمِ الحياةِ الدُّنيا وراحَتِها، بدَلًا مِن نعيمِ الجنَّةِ في الآخرةِ[1]؟!

﴿فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

أي: فما الذي يتمَتَّعُ به المتمَتِّعونَ في الحياةِ الدُّنيا- التي مالتْ بكم- مُقارنةً بما سيتمَتَّعُ به المُؤمِنونَ في الجنَّةِ؛ إلَّا يسيرٌ مَحدودٌ، ووقتُه قصيرٌ معدودٌ، فكيف تُقَدِّمونَ القَليلَ الزَّائِلَ على الكثيرِ الباقي؟! فاطلُبوا- أيُّها المؤمنونَ- نعيمَ الآخرةِ بطاعةِ رَبِّكم، والمُسارَعةِ إلى إجابةِ أمْرِه في النَّفيرِ؛ لِجِهادِ عَدُوِّه وعَدُوِّكم[2].

عن المُستَورِدِ بنِ شدَّادٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((سَمِعْتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: واللَّه ما الدُّنيا في الآخرةِ إلَّا مِثلُ ما يجعَلُ أحدُكم إصْبَعَه هذه في اليَمِّ، فلْينظُرْ بمَ تَرجِعُ؟))[3].

﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا رغَّبَهم في الآيةِ الأُولى في الجِهادِ بناءً على التَّرغيبِ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٥٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٦٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٣٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٠٧).

قال الرازي: (الدليلُ على أنَّ مَتاعَ الدُّنيا في الآخرةِ قَليلٌ: أنَّ لَذَّاتِ الدُّنيا خسيسةٌ في أنفُسِها، ومَشُوبةٌ بالآفاتِ والبليَّاتِ، ومُنقطعةٌ عن قريبٍ لا محالةَ، ومنافِعُ الآخرةِ شَريفةٌ عاليةٌ، خالصةٌ عن كلِّ الآفات، ودائمةٌ أبَديَّةٌ سرمديَّةٌ؛ وذلك يوجِبُ القَطعَ بأنَّ متاعَ الدُّنيا قليلٌ حَقيرٌ خَسيسٌ). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٤٧). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٧).

(٣) رواه مسلم (٢٨٥٨).

ثوابِ الآخرةِ؛ رغَّبَهم في هذه الآيةِ في الجهادِ بناءً على أنواعٍ أُخَرَ مِن الأمورِ المُقَوِّيةِ للدَّواعي، وهي ثلاثةُ أنواعٍ: قولُه تعالى: ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾. الثاني: قولُه: ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾. الثالث: قولُه: ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾[1].

وأيضًا فهذا وعيدٌ وتَهديدٌ عَقَّبَ به المَلامَ السَّابِقَ؛ لأنَّ اللَّومَ وقَعَ على تثاقُلٍ حصَلَ، ولَمَّا كان التَّثاقُلُ مُفْضِيًا إلى التخَلُّفِ عن القتالِ، صَرَّح بالوعيدِ والتَّهديدِ إن يعودُوا لِمثلِ ذلك التَّثاقُلِ[2]، فقال:

﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

أي: إنْ لم تُبادِروا- أيُّها المُؤمِنونَ- بالخُروجِ إلى الجهادِ بعد أن دُعِيتُم إليه، يُعَذِّبْكم اللهُ عَذابًا مُوجِعًا في الدُّنيا والآخرةِ[3].

عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((سَمِعتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: إذا تبايَعْتُم بالعِينةِ، وأخَذْتُم أذنابَ البَقَرِ، ورَضِيتُم بالزَّرعِ، وتَرَكتُم

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٦٠، ٤٦١)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٣٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٠٨، ٥٠٩).

قال ابنُ تيمية: (قد يكون العذابُ مِن عِندِه، وقد يكونُ بأيدي العِبادِ، فإذا ترك النَّاسُ الجِهادَ في سبيل الله، فقد يَبتَلِيهم بأن يُوقِعَ بينهم العداوةَ، حتى تقَعَ بينهم الفِتنةُ كما هو الواقِعُ؛ فإنَّ النَّاسَ إذا اشتَغَلوا بالجهادِ في سبيلِ الله، جمَعَ اللهُ قُلوبَهم وألَّف بينهم، وجعَلَ بأْسَهم على عَدُوِّ الله وعَدُوِّهم). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٤٤).

وقال السعدي: (عدمُ النَّفيرِ في حالِ الاستنفارِ مِن كبائِرِ الذُّنوبِ المُوجِبةِ لأشَدِّ العقابِ؛ لِمَا فيها من المضارِّ الشَّديدة، فإنَّ المُتخَلِّفَ قد عصى اللهَ تعالى، وارتكَبَ نَهْيَه، ولم يساعِدْ على نصرِ دِينِ الله، ولا ذَبَّ عن كتابِ الله وشَرْعِه، ولا أعان إخوانَه المُسلمينَ على عَدُوِّهم الذي يريدُ أن يستأصِلَهم، ويمحَقَ دينَهم، وربما اقتدى به غيرُه مِن ضُعَفاءِ الإيمانِ، بل ربما فَتَّ في أعضادِ مَنْ قاموا بجهادِ أعداءِ الله؛ فحقيقٌ بمَن هذا حالُه أن يتوعَّدَه اللهُ بالوعيدِ الشَّديدِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٧).

الجهادَ- سلَّطَ اللهُ عليكم ذُلًّا لا ينزِعُه، حتى ترجِعوا إلى دينِكم))[١].

﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾.

أي: ويَستَبدِلِ اللهُ سبحانه بكم قومًا آخَرينَ، أطوَعَ لله منكم، إذا استُنْفِروا إلى الجِهادِ أجابُوا، ونَصَروا دينَ الله عزَّ وجلَّ[٢].

كما قال سبحانه: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٤٦٢) واللفظ له، وأحمد (٥٠٠٧)، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (١٢/ ٤٣٢) (١٣٥٨٣).

قال ابنُ القطانِ في ((الوهم والإيهام)) (٥/ ٧٧١): له طريقٌ صحيحٌ، وصحَّح إسنادَه ابنُ تيمية في ((بيان الدليل)) (١٠٩)، وقال ابنُ عبد الهادي في ((المحرر)) (٣١٥): رجالُ إسنادِه رجالُ الصحيحِ، وصحَّحه الألباني في ((السلسلة الصحيحة)) (١١) بمجموعِ طرقِه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٤)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٣٦٠).

قال الرازي: (المرادُ تَنبيهُهم على أنَّه تعالى متكفِّلٌ بنصرِه على أعدائِه، فإنْ سارَعوا معه إلى الخُروجِ حَصَلت النُّصرةُ بهم، وإن تخَلَّفوا وقعَتِ النُّصرةُ بغَيرِهم، وحصل العُتبى لهم؛ لئلَّا يتوهَّموا أنَّ غَلَبَةَ أعداءِ الدينِ، وعِزَّ الإسلامِ، لا يحصُلُ إلَّا بهم... قال المحقِّقون: إنَّ هذه الآيةَ خِطابٌ لِمَن استنفَرَهم رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلم يَنفِروا). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٤٨). ويُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٣٦٨).

﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾.

أي: ولا تَضُرُّوا اللهَ سُبحانَه شَيئًا؛ فهو غَنيٌّ عنكم، وناصِرٌ دينَه، وإنَّما تَضرُّونَ أنفُسَكم، بتَرْكِكم الجهادَ في سَبيلِه عزَّ وجلَّ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وقال سبحانه: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: واللهُ قادِرٌ على فِعلِ كلِّ شيءٍ، لا يُعجِزُه شَيءٌ أراده سبحانَه، ومِن ذلك قُدرتُه على استبدال قومٍ آخرينَ بكم، وعلى نصرِ دينِه مِن دُونِكم(٢).

﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذا ذِكرُ طَريقٍ آخَرَ في ترغيبِهم في الجهادِ؛ وذلك لأنَّه تعالى ذَكَرَ في الآيةِ الأولى أنَّهم إن لم يَنفِروا باستنفارِه، ولم يشتَغِلوا بنُصرَتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٤)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٦١)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٤).

فإنَّ اللهَ ينصُرُه بدليلِ أنَّ اللهَ نَصَره وقَوَّاه حالَ ما لم يكُنْ معه إلَّا رَجُلٌ واحِدٌ، فهاهنا أَوْلى(١).

وأيضًا لَمَّا وصَفَ اللهُ تعالى نَفسَه الأقدَسَ بما هو له أهلٌ مِن شُمولِ القُدرةِ، وعَظيمِ البأسِ والقُوَّةِ؛ أتبع ذلك بدَليلٍ يتضَمَّنُ أنَّ المُستَنفِرَ لهم- وهو نبيُّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- غيرُ مُحتاجٍ إليهم، ولا مُتَوقِّفٍ نَصرُه عليهم، كما لم يَحتَجْ إليهم- بحِياطةِ القادِرِ له- فيما مضى من الهجرةِ التي ذَكَرَها، وأنَّ نَفْعَ ذلك إنما هو لهم، باستجلابِ ما وُعِدُوه، واستِدْفاعِ ما أُوعِدُوه في الدَّارَينِ، قال تعالى(٢):

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾.

أي: إن تَترُكوا- أيُّها المُؤمِنونَ- نُصرةَ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم(٣) على الكُفَّارِ، فسَينصُرُه اللهُ تعالى كما نَصَرَه مِن قَبلُ، حين اضطَرَّه كفَّارُ قُريشٍ إلى الخُروجِ مِن مكَّةَ(٤).

﴿ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٤٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٧٢).

(٣) ذكَرَ الألوسيُّ أنَّ الضَّميرَ في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾ يَرجِعُ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم اتِّفاقًا. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٢٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٦٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٣٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٥)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥١٣، ٥١٤).

قال القرطبي: (هو خرَجَ بنَفْسِه فارًّا، لكِنْ بإلجائِهم إلى ذلك حتى فعَلَه، فنسَبَ الفِعلَ إليهم، ورتَّبَ الحُكمَ فيه عليهم؛ فلهذا يُقتَلُ الـمُكرِه على القَتلِ، ويَضمَنُ المالَ الـمُتْلَفَ بالإكراه؛ لإلجائِه القاتِلَ والـمُتْلِفَ إلى القَتلِ والإتلافِ). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٤٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥١٤).

أي: نصَرَ اللهُ رسولَه محمَّدًا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، حين اضطُرَّ للخُروجِ مِن مكَّةَ، والحالُ أنَّه أحدُ اثنَينِ فحَسْبُ، ليس معه إلَّا أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه[1] حين كانا مُختَفِيَينِ من كفَّارِ قُريشٍ في غارٍ في جبَلِ ثَورٍ[2].

عن عائشةَ رَضِيَ الله عنها، قالت: قال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم للمُسلِمينَ: ((إنِّي أُريتُ دارَ هجْرَتِكم، ذاتَ نَخلٍ بين لابَتَينِ- وهما الحَرَّتانِ- فهاجر مَن هاجَرَ قِبَلَ المدينةِ، ورجَعَ عامَّةُ مَن كان هاجَرَ بأرضِ الحَبَشةِ إلى المدينةِ، وتجهَّزَ أبو بكرٍ قِبَلَ المدينةِ، فقال له رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: على رِسْلِكَ[3] فإنِّي أرجو أن يُؤذَنَ لي، فقال أبو بكرٍ: وهل ترجو ذلك بأبي أنتَ؟ قال: نعم، فحَبَس أبو بكرٍ نَفسَه على رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لِيصحَبَه، وعَلَف راحِلَتينِ- كانَتا عِندَه- وَرَقَ السَّمُرِ- وهو الخَبَطُ- أربعةَ أشهُرٍ. قالت عائشةُ: فبينما نحن يومًا جُلوسٌ في بيتِ أبي بكرٍ في نحرِ الظَّهيرةِ[4]، قال قائلٌ لأبي بكرٍ: هذا رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُتقنِّعًا، في ساعةٍ لم يكُن يأتينا فيها. فقال أبو بكرٍ: فِداءٌ له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه السَّاعةِ إلَّا أمرٌ! قالت: فجاء رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فاستأذَنَ، فأَذِنَ له فدخَلَ، فقال

---

(١) قال ابنُ عاشور: (الاثنانِ هما النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأبو بكرٍ، بتواتُرِ الخَبَرِ، وإجماعِ المُسلِمينَ كُلِّهم؛ ولِكَونِ الثَّاني معلومًا للسَّامعين كُلِّهم، لم يُحتَجْ إلى ذِكْرِه، وأيضًا لأنَّ المقصودَ تَعظيمُ هذا النَّصرِ مع قِلَّةِ العَدَدِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٦٣، ٤٦٤)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٢/ ١١٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٣٠).

قال ابن تيمية: (لا خلافَ بين أهلِ العِلمِ أنَّ الغارَ المذكورَ في القرآنِ، إنَّما هو غارٌ بجَبَلِ ثَورٍ، قريبٌ من مكَّةَ، معروفٌ عند أهلِ مَكَّةَ إلى اليومِ). ((اقتضاء الصراط المستقيم)) (٢/ ١٦٤). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٣٧).

(٣) على رِسْلِكَ: أي: على مَهلِكَ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٦/ ٢١٧).

(٤) نحرُ الظَّهيرةِ: وقتُ القائلةِ وشِدَّةِ الحَرِّ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٥).

النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لأبي بكرٍ: أَخرِجْ مَنْ عِندك. فقال أبو بكرٍ: إنَّما هم أهلُك، بأبي أنت يا رسولَ الله! قال: فإنِّي قد أُذِنَ لي في الخُروجِ. فقال أبو بكرٍ: الصَّحابةَ[١] بأبي أنت يا رسولَ الله. قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: نعم. قال أبو بكرٍ: فخُذ- بأبي أنت يا رسولَ الله- إحدى راحِلَتيَّ هاتينِ، قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: بالثَّمَنِ. قالت عائشةُ: فجَهَّزْناهما أَحَثَّ الجَهازِ[٢]، وصَنَعْنا لهما سُفرةً في جِرابٍ[٣]، فقطَعَت أسماءُ بنتُ أبي بكرٍ قِطعةً مِن نطاقِها[٤]، فربَطَت به على فَمِ الجِرابِ؛ فبذلك سُمِّيَت ذاتَ النِّطاقَينِ، قالت: ثم لَحِقَ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأبو بكرٍ بغارٍ في جبَلِ ثَورٍ، فَكَمِنا[٥] فيه ثلاثَ ليالٍ، يَبيتُ عندهما عبدُ الله بنُ أبي بكرٍ، وهو غلامٌ شابٌّ، ثَقِفٌ لَقِنٌ[٦] فيُدلِجُ[٧] مِن عِندِهما بسَحَرٍ، فيُصبِحُ مع قريشٍ بمكَّةَ كبائِتٍ، فلا يسمَعُ أمرًا يُكتادانِ به إلَّا وَعاه، حتى يأتِيَهما بخبرِ ذلك حينَ يَختلِطُ الظَّلامُ، ويرعى عليهما عامِرُ بن فُهَيرةَ- مولى أبي بكرٍ- مِنْحةً مِن غَنَمٍ[٨]، فيُريحُها[٩] عليهما حين تذهَبُ ساعةٌ مِن العِشاءِ، فيَبيتانِ في رِسْلٍ- وهو لبَنُ مِنحَتِهما ورَضيفِهما- حتى

---

(١) الصَّحابةَ: أي: أريدُ المُصاحَبةَ وأطلُبُها. يُنظر: ((الكواكب الدراري)) للكرماني (١٥/ ١١٧).

(٢) أَحَثَّ الجَهازِ: أي: أسرَعَه وأعجَلَه. يُنظر: ((طرح التثريب في شرح التقريب)) للعراقي (٧/ ٢٧٥).

(٣) سُفرةً في جِرابٍ: أي: زادًا في جِرابٍ؛ لأنَّ أصلَ السُّفرةِ في اللُّغةِ الزَّادُ الذي يُصنَعُ للمُسافِرِ، ثمَّ استُعمِلَ في وعاءِ الزَّادِ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٣٢).

(٤) النِّطاقُ: ما يُشَدُّ به الوسَطُ. يُنظر: ((التوضيح لشرح الجامع الصحيح)) لابن الملقن (٦/ ١١).

(٥) فكَمِنا: أي: اختَفَيا. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٧/ ٢٣٧).

(٦) ثَقِفٌ لَقِنٌ: الحاذِقُ السَّريعُ الفَهمِ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٧/ ٢٣٧).

(٧) يُدْلِجُ: أي يَخرُجُ بسَحَرٍ إلى مكَّةَ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٧/ ٢٣٧).

(٨) مِنْحة مِن غَنَم: شاةٌ يُعطيها الرَّجُلُ غَيرَه؛ ليحلِبَها ثمَّ يَرُدَّها إليه. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٨/ ٤٣٠).

(٩) فيُريحُها: أي: فيَرُدُّها إلى المَراحِ، وهو مأواها في الليلِ. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (٢١/ ٣١٠)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢٦٧).

ينعِقَ بها[١] عامرُ بن فُهَيرةَ بغَلَسٍ[٢] يفعَلُ ذلك في كلِّ ليلةٍ من تلك الليالي الثَّلاثِ، واستأجَرَ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأبو بكرٍ رَجُلًا من بني الدِّيلِ هاديًا خِرِّيتًا- والخِرِّيتُ الماهرُ بالهدايةِ- وهو على دينِ كُفَّارِ قُريشٍ، فأَمِناه فدَفَعا إليه راحِلَتَيهما، وواعَداه غارَ ثَورٍ بعد ثلاثِ لَيالٍ، براحِلَتَيهما صُبحَ ثلاثٍ، وانطلَقَ معهما عامِرُ بنُ فُهَيرةَ، والدَّليلُ، فأخَذَ بهم طريقَ السَّواحِلِ))[٣].

﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾.

أي: إذ يقولُ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لِصاحِبِه أبي بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: لا تحزَنْ- يا أبا بكرٍ- لأنَّ اللهَ مَعَنا بنَصْرِه وحِفْظِه، ولن يَصِلَ المشركونَ إلينا[٤].

عن أنسِ بنِ مالكٍ، أنَّ أبا بكرٍ الصِّديقَ رَضِيَ الله عنه حَدَّثَه، قال: ((نظَرْتُ إلى أقدامِ المُشركينَ على رُؤوسِنا ونحن في الغارِ، فقلتُ: يا رسولَ الله، لو أنَّ أحَدَهم نظَرَ إلى قَدَمَيه أبصَرَنا تحت قَدَمَيه! فقال: يا أبا بكرٍ، ما ظَنُّك باثنينِ اللهُ ثالِثُهما؟))[٥].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لو

---

(١) ينعق بها: أي: يصيح بغنمه. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٧/ ٢٣٧).

(٢) الغَلَسُ: هو ظَلامُ آخِرِ اللَّيلِ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٦/ ٢١٨).

(٣) رواه البخاري (٣٩٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٦٤)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٢/ ١١٩)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٥١)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٨/ ٣٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٣٠).

قال السمعاني: (﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ﴾ أي: لأبي بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه، باتِّفاقِ أهلِ العِلمِ). ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٣١١).

وقال السعدي: (أجمع المُسلِمونَ على أنَّه هو المرادُ بهذه الآيةِ الكريمة؛ ولهذا عَدُّوا مَن أنكَرَ صُحبةَ أبي بكرٍ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، كافِرًا؛ لأنَّه مُنكِرٌ للقُرآنِ الذي صَرَّحَ بها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٨). ويُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٣٠).

(٥) رواه البخاري (٤٦٦٣)، ومسلم (٢٣٨١) واللفظ له.

كُنتُ مُتَّخِذًا مِن أمَّتي خليلًا، لاتَّخَذتُ أبا بكرٍ، ولكِنْ أخي وصاحِبي))(١).

وعن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عليَّ في مالِه وصُحبَتِه أبو بكرٍ، ولو كنتُ مُتَّخِذًا خَليلًا، لاتَّخَذتُ أبا بكرٍ خَليلًا، ولكِنْ أُخُوَّةُ الإسلامِ، لا تَبقَيَنَّ في المسجِدِ خَوْخَةٌ (٢) إلَّا خَوخةُ أبي بكرٍ))(٣).

﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ﴾.

أي: فأنزَلَ اللهُ الطُّمأنينةَ والثَّباتَ على رسولِه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم(٤).

---

(١) رواه البخاري (٣٦٥٦) واللفظ له، ومسلم (٢٣٨٣).

(٢) الخَوخَةُ: البابُ الصَّغيرُ بين البَيتَينِ أو الدَّارينِ ونحوه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ١٥١).

(٣) رواه البخاري (٣٩٠٤)، ومسلم (٢٣٨٢) واللفظ له.

(٤) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ١٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٦)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٥)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٣١).

والقولُ بأنَّ الضَّميرَ في ﴿عَلَيۡهِ﴾ عائدٌ إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هو اختيارُ مقاتلِ بن سليمان، وابنِ جريرٍ، وابنِ عطيةَ، وابنِ جُزيٍّ، وابنِ كثيرٍ، والقاسميِّ، والسعدي، وابنِ عاشورٍ، والشنقيطي. وعزاه ابنُ عطيةَ إلى الجمهورِ. يُنظر: المصادر السابقة، و((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٦١).

وقيل: فأنزل اللهُ طُمأنينَتَه على أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ الله عنه. واختاره النحَّاس، والواحدي، وابن العربي، والرازي، والبيضاوي. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٦)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ١٨٠١)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٣/ ٢١٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٤٢)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٢/ ٥١٣)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٨١).

وممَّن قال مِن السلفِ أنَّ الضَّميرَ في عليه عائدٌ على أبي بكرٍ: عليُّ بنُ أبي طالبٍ، وابنُ عباسٍ، وحبيبُ بنُ أبي ثابتٍ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ١٨٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٦١).

وقيل: فأنزل الله طُمأنينَتَه على النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وعلى أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ. وهو قولُ =

﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾.

أي: وقَوَّى اللهُ رسولَه محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأعانَه بجُنودٍ مِنَ الملائكةِ، لم تَرَوْها أنتم[1].

﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ﴾.

أي: وجعَلَ اللهُ كَلِمةَ الكُفَّارِ- وهي الشِّركُ والكُفرُ- حقيرةً مَقهورةً، منحَطَّةً وساقطةً، فأذَلَّ اللهُ الشِّركَ وأهْلَه، وخَذَلهم ودَحَرَهم[2].

﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾.

أي: وكَلِمةُ الله- وهي كَلِمةُ التَّوحيدِ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، ودينُه الذي شَرَعه لعبادِه- هي الغالِبةُ المنصورةُ على الشِّركِ وأهْلِه[3].

= المُبَرِّد، واختاره ابنُ الأنباري. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٣٢).

قال ابنُ الجوزي: (قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُ﴾ أي: قوَّاه، يعني النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، بلا خلافٍ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٦١).

وقال الواحدي: (قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾، قال ابن عباس: يريد: وقَوَّاه بجنودٍ لم تَرَوْها، يريد: الملائكةَ، يَدعونَ اللهَ له، وقال الزجَّاج: أيَّدَه بملائكةٍ يَصرِفونَ وجوهَ الكُفَّارِ وأبصارَهم عن أن يَرَوه، وقال غيرُه: يعني ما كان من تقويةِ الملائكةِ لِقَلبِه بالبِشارةِ بالنَّصرِ مِن رَبِّه، ومن إلقاءِ اليأسِ في قُلوبِ المُشرِكينَ حتى انصَرَفوا خائبينَ، وهذه الأقوالُ على أنَّ هذا التأييدَ بالملائكةِ كان في الغارِ). ((البسيط)) (١٠/ ٤٤٢).

ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠٤، ٢٠٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٦٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٤٣)، ((تفسير النسفي)) (١/ ٦٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٦)، ((تفسير النسفي)) =

عن أبي موسى الأشعريِّ رضِيَ اللهُ عنه، قال: ((سُئِلَ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن الرَّجُلِ يُقاتِلُ شَجاعةً، ويُقاتِلُ حَمِيَّةً، ويُقاتِلُ رِياءً، أيُّ ذلك في سبيلِ الله؟ فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: مَن قاتَلَ لِتَكونَ كَلِمةُ الله هي العُليا، فهو في سبيلِ الله))(١).

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

واللهُ عَزيزٌ في انتقامِه وانتصارِه مِن الكُفَّارِ، لا يقهَرُه، ولا يَغلِبُه شَيءٌ، ولا يفوتُه أحَدٌ، قاهرٌ غالِبٌ، مَنيعُ الجَنابِ، لا يُضامُ مَن لاذ ببابِه، حكيمٌ في أقوالِه وأفعالِه، وفي تدبيرِه خَلْقَه، يضَعُ سُبحانَه الأشياءَ مواضِعَها اللَّائِقةَ بها، وقد يؤخِّرُ نَصرَ حِزبِه إلى وقتٍ آخَرَ(٢).

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- عاتَبَ اللهُ المُتخَلِّفينَ عن النَّفيرِ في سبيلِ الله، وهَدَّدَهم بعاقبةِ التَّثاقُلِ عن الجهادِ في سَبيلِ الله، فقال اللهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ إنَّها ثِقلَةُ الأرضِ، ومطامعُ الأرضِ، وتصوُّراتُ الأرضِ، ثِقلةُ الخَوفِ على الحياةِ، والخوفِ على المالِ، والخوفِ

= (١/ ٦٨١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٣٣).

وقال السعدي: (قوله ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ أي: كَلِماتُه القَدَريَّةُ وكَلِماتُه الدِّينيةُ؛ هي العاليةُ على كَلِمةِ غَيرِه، التي من جُملَتِها قَولُه تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]، ﴿وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣]، فدِينُ الله هو الظَّاهرُ العالي على سائِرِ الأديانِ، بالحُجَجِ الواضحةِ، والآياتِ الباهرةِ، والسُّلطانِ النَّاصِرِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٨).

(١) رواه البخاري (٢٨١٠)، ومسلم (١٩٠٤) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٦٢)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٣٣).

على اللَّذائذِ والمصالحِ والمَتاعِ، ثِقلةُ الدَّعةِ والرَّاحةِ والاستقرارِ، ثِقلةُ الذَّاتِ الفانيةِ، والأجلِ المحدودِ، والهَدَفِ القَريبِ، ثقلةُ اللَّحمِ والدَّمِ والتُّرابِ، والتَّعبيرُ يُلقي كلَّ هذه الظِّلالَ بجَرْسِ ألفاظِه: ﴿اثَّاقَلْتُمْ﴾ إنَّ النَّفْرةَ للجِهادِ في سبيلِ اللهِ انطلاقٌ مِن قَيدِ الأرضِ، وارتفاعٌ على ثِقلةِ اللَّحمِ والدَّمِ، وتحقيقٌ للمعنى العلويِّ في الإنسانِ، وتغليبٌ لعُنصرِ الشَّوقِ المجنَّح في كيانِه، على عنصُرِ القَيدِ والضَّرورةِ، وتطَلُّعٌ إلى الخلودِ الممتَدِّ، وخلاصٌ من الفَناءِ المَحدودِ[1].

٢- قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ على قَدْرِ رَغبةِ العَبدِ في الدُّنيا ورِضاه بها، يكونُ تَثاقُلُه عن طاعةِ الله، وطَلَبِ الآخرةِ[2].

٣- قال الله تعالى: ﴿أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ متاعُ الدُّنيا في جَنْبِ متاعِ الآخرةِ، قليلٌ حَقيرٌ، وسعادةُ الدُّنيا بالنِّسبةِ إلى سعادةِ الآخرةِ، كالقَطرةِ في البَحرِ، وتَرْكُ الخيرِ الكَثيرِ لأجلِ الشَّرِّ القليلِ، شَرٌّ عَظيمٌ، وهو جَهلٌ وسَفَهٌ[3].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ هذه الآيةُ فيها سِرٌّ عَظيمٌ يعلَمُ به الإنسانُ أنَّ كُلَّ ما يفعَلُه إنَّما أثَرُه راجِعٌ إلى نَفسِه، فإن كان شَرًّا فهو يجني شَرًّا على نَفسِه، وإن كان خَيرًا فهو يجلِبُ الخيرَ لِنَفسِه ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾[4].

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٦٥٥).

(٢) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٤٧)، ((تفسير ابن عادل)) (١٠/ ٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٧٠).

(٤) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٠٨).

٥- مَن كان اللهُ تعالى معه بعِزَّتِه التي لا تُغلَب، وقُدرَتِه التي لا تُقهَر، ورَحمَتِه التي قام ويقومُ بها كلُّ شَيءٍ- فهو حقيقٌ بألَّا يستسلِمَ لِحُزنٍ ولا خوفٍ؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾[١].

٦- قال تعالى: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ اللهُ جلَّ وعلا يَشرَعُ بأفعالِ رُسُلِه وأقوالِهم لِخَلقِه؛ فاللهُ جلَّ وعلا مع عظَمَتِه وجَلالِه وتَصريحِ النَّبيِّ بأنَّه معه، وأنَّ اللهَ أيَّدَه بجُنودِ الملائكةِ، مع هذا يدخُلُ في غارٍ في ظلمةِ اللَّيلِ، والغارُ فيه الحيَّاتُ وخَشاشُ الأرضِ؛ لِيَسُنَّ للنَّاسِ ويَشرَعَ لهم حَملَ أعباءِ تَبليغِ الرِّسالةِ والدَّعوة، وأن يتحَمَّلوا في شأنِ الدَّعوةِ إلى الله كُلَّ البَلايا والمشاقِّ، ويَستَهينوا فيها بكلِّ عَظيمٍ، هذا هو السِّرُّ في ذلك[٢].

٧- في قولِ الله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ﴾ أنَّ الحُزنَ قد يَعرِضُ لخَواصِّ عِبادِ الله الصِّدِّيقِينَ، ولا ينقصُهم إضافةُ الحزنِ إليهم، مع أنَّ الأَوْلى إذا نزَلَ بالعبدِ أن يَسعى في ذَهابِه عنه؛ فإنَّه مُضعِفٌ للقَلبِ، مُوهِنٌ للعَزيمةِ، ولم يكنْ حُزنُ الصِّدِّيقِ رَضِيَ الله عنه لشَكٍّ وحَيرةٍ، وإنَّما كان خوفًا على النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يَصِلَ إليه ضَرَرٌ[٣]. وقيل: ليس في نهيِ أبي بكرٍ عن الحُزنِ ما يدُلُّ على وجودِه، بل قد يُنهى عنه؛ لئلَّا يُوجَدَ إذا وُجِدَ مُقتَضيه، فالنَّهيُ عن الشَّيءِ لا يدُلُّ على وقوعِه، بل يدُلُّ على أنَّه ممنوعٌ منه؛ لئلَّا يقَعَ فيما بعدُ، كقولِه تعالى:

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٣٦٩).
(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٣٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٣٧).

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١]، فهذا لا يدُلُّ على أنَّه كان يُطيعُهم. فقَولُه ﴿لَا تَحْزَنْ﴾ لا يدُلُّ على أنَّ الصِّدِّيقَ كان قد حَزِنَ، لكنْ مِن المُمكِنِ في العَقلِ أنَّه يحزَنُ، فقد يُنهى عن ذلك؛ لئلَّا يفعَلَه[1].

٨- قَولُه تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ في الآيةِ فَضيلةُ السَّكينةِ، وأنَّها مِن تمامِ نِعمةِ الله على العَبدِ في أوقاتِ الشَّدائدِ والمخاوِفِ التي تَطيشُ بها الأفئدةُ، وهي تكونُ على حسَبِ مَعرفةِ العَبدِ برَبِّه، وثِقَتِه بوَعدِه الصَّادِقِ، وبحَسَبِ إيمانِه وشَجاعَتِه[2].

٩- كلُّ مَن وافَقَ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في أمرٍ خالفَ فيه غَيرَه؛ فهو من الذينَ اتَّبَعوه في ذلك؛ وله نصيبٌ مِن قَولِه تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾؛ فإنَّ المعيَّةَ الإلهيَّةَ المتضَمِّنةَ للنَّصرِ هي لِما جاء به إلى يومِ القِيامةِ[3].

١٠- قولُه تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ فيه أنَّه لا حُزنَ مع الله، وأنَّ مَن كان اللهُ معه، فما له وللحُزنِ؟ وإنَّما الحُزنُ كلُّ الحُزنِ لِمَن فاته اللهُ، فمن حصَلَ اللهُ له، فعلى أيِّ شَيءٍ يحزَنُ؟ ومن فاته اللهُ فبأيِّ شَيءٍ يفرَحُ[4]؟

١١- والمعيَّةُ في قَولِه تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ معيَّةٌ خاصَّةٌ، غيرُ قَولِه تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] فالمعيَّةُ الخاصَّةُ تقتضي حُسنَ الظَّنِّ بإجابَتِه سُبحانَه، ورِضاه وحِفْظَه وصِيانَتَه، وأمَّا المعيَّةُ العامَّةُ فتَقتَضي التَّحذيرَ مِن عِلمِه، واطِّلاعِه وقُدرَتِه، وبَطْشِه وانتِقامِه[5].

(١) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٨/ ٤٥٧، ٤٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٣٧).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٣٧).

(٤) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٨٠).

(٥) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٢/ ٣٣٣).

١٢- قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ هذانِ الاسمانِ مِن أسماءِ الله: (العَزيزُ الحكيمُ) المتضَمِّنانِ هاتَينِ الصِّفَتينِ مِن صِفاتِ الله، وهي عِزُّه وحِكمَتُه وحُكْمُه- هما أبلَغُ شَيءٍ في امتثالِ أمْرِه وطاعَتِه جَلَّ وعلا؛ لأنَّ عِزَّتَه- أي: غَلَبَتَه وقُوَّتَه وقَهْرَه وسُلطانَه- يجعَلُك أيُّها المِسكينُ، تخافُه وتخضَعُ لأمْرِه ونَهْيِه، وكونُه جلَّ وعلا حكيمًا لا يأمُرُك إلَّا بما فيه لك الخَيرُ، ولا ينهاك إلَّا عمَّا فيه لك الشَّرُّ؛ ذلك يقتضِي أيضًا أن تُطيعَه وتخضعَ لأمْرِه ونَهيِه(١).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ بُنِي (قيل) للمَفعولِ، والقائِلُ هو الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلم يُذكَرْ؛ إغلاظًا ومُخاشنةً لهم، وصَونًا لِذِكرِه؛ إذ أخلَدَ إلى الهُوَينا والدَّعةِ مَن أخلَدَ، وخالَفَ أمْرَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم(٢).

٢- قَولُه تعالى: ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ خِطابٌ لكلِّ قرْنٍ، وقد أخبَرَ فيه أنَّه مَن نَكَل عن الجهادِ المأمورِ به، نَزَعَ الأمرَ منه، وعذَّبَه، واستبدَلَ به مَن يقومُ بالجهادِ- وهذا هو الواقِعُ- وإنَّ هذا الدِّينَ لِمَن ذَبَّ عنه(٣).

٣- قولُ الله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ دلَّ على فضيلةِ أبي بكرٍ رَضِيَ الله عنه من وجوهٍ؛ منها: الأول: أنَّ الهجرةَ كانت بإذنِ الله تعالى، وكان في خِدمةِ رَسولِ الله صلَّى

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤١٩).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ٣٠١)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٥/ ٣٠٠).

اللهُ عليه وسلَّم جماعةٌ مِن المُخلِصينَ، وكانوا في النَّسَبِ إلى شجرةِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أقرَبَ من أبي بكرٍ؛ فتخصيصُ الله إيَّاه بهذا التَّشريفِ دلَّ على منصبٍ عالٍ له في الدِّينِ. الثاني: أنَّه تعالى سَمَّاه ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ فجُعِل ثانيَ مُحمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ حالَ كَونِهما في الغارِ، والعلماءُ أثبتوا أنَّه رَضِيَ الله عنه كان ثانيَ محمَّدٍ في أكثَرِ المناصِبِ الدينيَّةِ. الثالث: أنَّه تعالى وصَفَ أبا بكرٍ بكَونِه صاحِبًا للرَّسولِ، وذلك يدلُّ على كمالِ الفَضلِ. الرابع: قَولُه: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ ولا شَكَّ أنَّ المرادَ مِن هذه المعيَّةِ: المعيَّةُ بالحِفظِ والنُّصرةِ، والحِراسةِ والمَعونةِ، وبالجملةِ فالرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلام شَرَكَ بين نفسِه وبين أبي بكرٍ في هذه المعيَّةِ، وذلك منصِبٌ في غايةِ الشَّرفِ[1].

٤- قال الله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ...﴾ في هذه الآيةِ دَليلٌ على جوازِ الفِرارِ مِن خَوفِ العَدُوِّ، والاستخفاءِ في الغِيرانِ وغيرِها، وعدمِ الاستسلامِ المؤدِّي إلى الآلامِ والهُمومِ، وألَّا يُلقِيَ بيَدِه إلى العدُوِّ؛ توكُّلًا على الله، واستسلامًا له، ولو شاء ربُّكم لعَصَمه مع كَونِه معهم، ولكِنَّها سُنَّةُ الأنبياءِ، وسِيرةُ الأمَمِ، حَكَمَ اللهُ بها لتكونَ قُدوةً للخَلقِ، وأنمُوذجًا في الرِّفقِ، وعمَلًا بالأسبابِ، وهذا أدَلُّ دليلٍ على فسادِ مَن منعَ ذلك، وقال: من خافَ مع الله سِواه كان ذلك نقصًا في توكُّلِه، ولم يؤمِنْ بالقَدَرِ. وهذا كلُّه في معنى الآية، ولله الحَمدُ والهداية[2].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ إلى قَولِه: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ بيانُ أنَّ نَصْرَ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فَرْضٌ علينا؛ لأنَّه مِن التَّعزيرِ المَفروضِ؛ ولأنَّه مِن أعظَمِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٥٠-٥٢).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٢/ ٥١٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٤٥).

الجهادِ في سبيلِ الله؛ ولذلك قال سُبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّه كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّه﴾(١) [الصف: ١٤].

٦- قال الله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِه لَا تَحْزَنْ ..﴾ جعَلَ أبا بكرٍ في مقابلةِ الصَّحابةِ أجمَعَ، فقال: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَد نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ بِصَاحبه في الغار، بتأنيسِه له، وحَمْلِه على عُنُقِه، ووفائِه له بوقايتِه له بنفسِه، وبمواساتِه بمالِه، وبهذه الفضائِلِ استحَقَّ أن يقالَ فيه: ((لو كنتُ مُتَّخِذًا خَليلًا لاتَّخذْتُ أبا بكرٍ خَليلًا))(٢) وسبقت له بذلك كُلِّه الفضيلةُ على النَّاسِ(٣). قال سفيانُ بنُ عُيَينةَ: خرج أبو بكرٍ بهذه الآيةِ مِن المعاتَبةِ التي في قَولِه: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ﴾(٤). وقال الشَّعبي: عاتَبَ اللهُ عزَّ وجَلَّ أهلَ الأرضِ جميعًا في هذه الآيةِ غيرَ أبي بكرٍ الصِّديقِ رَضِيَ اللهُ عنه(٥).

٧- قال اللهُ تعالى: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ أبو بكرٍ الصِّديقُ رَضِيَ الله عنه هو الثَّاني في الإسلامِ، وفي بذْلِ النَّفسِ، وفي الزُّهدِ، وفي الصُّحبةِ، وفي الخِلافةِ، وفي العُمُرِ، وفي سبَبِ الموتِ؛ لأنَّ الرَّسولَ مات عن أثَرِ السُّمِّ، وأبو بكرٍ سُمَّ فمات(٦).

٨- قال بعضُ العُلَماءِ: في قَولِه تعالى: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ ما يدلُّ على أنَّ الخليفةَ بعد النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ الله

(١) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٢٠٩).
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٢/ ٥١٣، ٥١٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٤٩).
(٦) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٧٢).

عنه؛ لأنَّ الخليفةَ لا يكونُ أبدًا إلَّا ثانيًا[1].

٩- قولُه تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ﴾ لا يختَصُّ بمُصاحَبتِه في الغارِ، بل هو صاحِبُه المُطلَقُ الذي كَمُلَ في الصُّحبةِ كَمالًا لم يَشْرَكْه فيه غَيرُه، فصار مُختَصًّا بالأكمَلِيَّةِ مِن الصُّحبةِ[2].

١٠- وُحِّدَ الضميرُ في ﴿عَلَيْهِ﴾ مِن قَولِه تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾؛ لأنَّ نزولَ السَّكينةِ على أحَدِهما يستلزِمُ مُشاركةَ الآخَرِ له؛ إذ مُحَالٌ أن يَنزِلَ ذلك على الصَّاحِبِ دونَ المصحوبِ، أو على المصحوبِ دونَ الصَّاحِبِ المُلازِمِ، فلمَّا كان لا يحصُلُ ذلك إلَّا مع الآخَرِ وَحَّد الضميرَ، وأعاده إلى الرَّسولِ؛ فإنَّه هو المقصودُ، والصَّاحبُ تابعٌ له، ولو قيل: (فأنزل السَّكينةَ عليهما وأيَّدَهما)؛ لأوهَمَ أنَّ أبا بكرٍ شريكٌ في النبوَّةِ! كهارونَ مع موسى؛ حيث قال تعالى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾[3] [القصص: ٣٥].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾

- قولُه: ﴿مَا لَكُمْ إذا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ اسْتِفهامٌ مَعْناهُ الإنكارُ والتَّقريعُ؛ فإنَّه وإنْ كان في الظَّاهِرِ اسْتِفهامًا، إلَّا أنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٤٧، ١٤٨).
(٢) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٨/ ٤١٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ٤٩١).

المُرادَ منه المُبالغةُ في الإنكارِ(١).

- وقولُه: ﴿اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ...﴾ فيه تَمْثيلٌ لحالِ الكارِهينَ للغَزْوِ، المُتطلِّبينَ للعُذْرِ عَنِ الجِهادِ كسلًا وجُبْنًا، بحالِ مَنْ يُطْلَبُ منه النُّهوضُ والخُروجُ، فيُقابِلُ ذلك الطَّلَبَ بالالْتِصاقِ بالأرضِ، والتَّمكُّنِ مِنَ القُعودِ، فيَأبى النُّهوضَ فضلًا عن السَّيرِ(٢)، وعُدِّي التَّثاقُل بـ(إلى)؛ لأنَّه ضُمِّنَ معنى الميلِ والإخلادِ، كأنَّه تَثاقُلٌ يَطلُب فاعلُه الوصولَ إلى الأرضِ؛ للقُعودِ والسُّكونِ بها(٣).

- وفيه تعريضٌ بأنَّ بُطْأَهم ليس عن عَجزٍ، ولكنَّه عن تَعلُّقٍ بالإقامةِ في بلادِهم وأموالِهم(٤).

- قولُه: ﴿أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ هذا الاسْتِفهامُ فيه نوعٌ مِنَ الإنكارِ والتَّعجُّبِ؛ فهو اسْتِفهامٌ إنكاريٌّ تَعجُّبيٌّ(٥).

- واخْتيرَ فِعْلُ الرِّضا في قولِهِ: ﴿أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ دونَ نَحو: (آثرتُمْ) أو (فضَّلتُمْ)؛ مُبالغةً في الإنكارِ؛ لأنَّ فِعْلَ (رَضِي بكذا) يَدُلُّ على انْشِراحِ النَّفْسِ(٦).

- قولُه: ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ ترشيحُ الحياةِ الدُّنيا بما يؤذِنُ بنَفاستِها، ويَسْتدعي الرَّغبةَ فيها، وتَجْريدُ الآخِرةِ عَنْ مِثلِ ذلك،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٩٧-١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٩٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٩٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٩٨).

(٦) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

وتَخصيصُها بالذِّكرِ هنا- مبالغةٌ في بَيانِ حَقارةِ الدُّنيا ودَناءتِها، وعِظَمِ شأنِ الآخِرةِ وعُلوِّها[1].

- وفيه إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ- حيثُ قال: ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ولَمْ يَقُلْ: فما مَتاعُها-؛ لزِيادةِ التَّقريرِ[2].

٢- قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

- قولُه: ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ فيه وَصْفُهم بالمُغايرةِ لهم؛ لتَأكيدِ الوعيدِ، والتَّشديدِ في التَّهديدِ بالدَّلالةِ على المُغايرةِ الوَصْفيَّةِ[3].

- قولُه: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تذييلٌ للكلامِ؛ لأنَّهُ يُحقِّقُ مَضمونَ لَحاقِ الضُّرِّ بِهم؛ لأنَّهُ قَديرٌ عليهم في جُمْلةِ كُلِّ شَيءٍ، وعدَمُ لَحاقِ الضُّرِّ بِهِ؛ لأنَّهُ قَديرٌ على كُلِّ شيءٍ؛ فدَخلتِ الأشياءُ التي مِنْ شأنِها الضُّرُّ[4]؛ ففي خِتامِ الآيةِ بقولِهِ: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ مُناسَبةٌ حَسنةٌ؛ فإنَّه سُبْحانَه لَمَّا رَتَّبَ على انْتِفاءِ نَفْرِهم التَّعذيبَ والاسْتِبدالَ وانْتِفاءَ الضَّررِ، أَخْبَر تعالى أنَّه على كُلِّ شَيءٍ قديرٌ؛ مِنَ التَّعذيبِ والتغييرِ وغيرِ ذلك[5].

٣- قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٢٠).

عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

- قولُه تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ لقولِه: ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ لأنَّ نَفْيَ أنْ يكونَ قُعودُهُم عَنِ النَّفيرِ مُضِرًّا باللهِ ورسولِهِ، يُثيرُ في نَفْسِ السَّامِعِ سؤالًا عن حُصولِ النَّصْرِ بدونِ نَصيرٍ؛ فبيَّنَ بأنَّ اللهَ يَنْصُرُه، كما نَصَرَه حَينَ كان ثانيَ اثْنينِ لا جَيْشَ مَعَه؛ فالذي نَصَرَه حين كان ثانيَ اثْنينِ قديرٌ على نَصْرِهِ وهو في جيشٍ عظيمٍ، فتبيَّنَ أنَّ تَقديرَ قُعودِهِمْ عن النَّفيرِ لا يَضُرُّ اللهَ شيئًا(١).

- وفي قولِه: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ حُذِفَ الجزاءُ، وأقيمُ سببُه مَقامَه، والتَّقديرُ: إنْ لم تَنْصروه فسَيْنصرَهُ اللهُ الذي قد نَصَرَه في وقتِ ضرورةٍ أَشدَّ مِنْ هذه المرَّةِ، أو: إنْ لَمْ تَنْصروهُ فَقَدْ أَوْجَب له النُّصْرةَ حتَّى نَصَرَه في مِثْلِ ذلك الوَقْتِ، فلَنْ يَخذلَه في غيرِه(٢).

- وجُمْلةُ: ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ مُستأنَفةٌ بمنزلةِ التَّذييلِ للكلامِ؛ لأنَّه لَمَّا أَخْبرَ عَنْ كلمةِ الذين كَفَروا بأنَّها صارتْ سُفْلى، أفادَ أنَّ العَلاءَ انْحَصرَ في دِينِ اللهِ وشأنِه؛ فضَميرُ الفَصْلِ ﴿هِيَ﴾ مُفيدٌ للقَصْرِ؛ ولذلك لَمْ تُعْطَفْ ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ﴾ على ﴿كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ إذْ ليس المُقصودُ إفادةَ جعْلِ كَلِمةِ اللهِ عُلْيا؛ لِمَا يُشْعِرُ بِهِ الجَعْلُ مِنْ إحداثِ الحالةِ، بل المَقصودُ إفادةُ أنَّ العلاءَ ثابتٌ لها، ومَقْصورٌ عليها، وأنَّها في نَفْسِها كذلك لا يَتبدَّلُ شأنُها، ولا يَتغيَّرُ حالُها دونَ غيرِها مِنَ الكَلِمِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠٠-٢٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٦٦).

ولذلك وُسِّطَ ضميرُ الفصلِ؛ فكانتِ الجُملةُ كالتَّذييلِ لَجَعْلِ كلمةِ الذين كَفَروا سُفْلى(١).

- وقولُه: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ تذييلٌ لمضمونِ الجُمْلتينِ: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى﴾ ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾؛ لأنَّ العزيزَ لا يَغْلِبُه شيءٌ، والحكيمُ لا يَفوتُه مَقْصِدٌ؛ فلا جَرَمَ أنْ تَكونَ كلمتُه العُليا، وكَلِمةُ ضدِّهِ السُّفْلى(٢)، وناسَبَ هنا الوصْفُ بالعِزَّةِ الدَّالَّةِ على القَهْرِ والغَلَبَةِ، والحِكْمةِ الدَّالَّةِ على ما يَصْنَعُ مع أنبيائهِ وأوليائهِ، ومَنْ عاداهُم مِنْ إعزازِ دِينِه، وإخمادِ الكُفْرِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠٥). وهذا الوجهُ لا يَتأتَّى في قِراءة (وكَلِمَةَ اللهِ هِي العُلْيَا) بالنَّصب عطفًا على ﴿كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٢٢).

الآيات (٤١-٤٣)

﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾: أي: خَفَّتْ عليكم الحَركةُ أو ثَقُلَت، مُوسِرينَ أو مُعسِرينَ، شبابًا أو شُيوخًا، والخِفافُ جمعُ خفيفٍ. والثقالُ: جمعُ ثقيلٍ، والخَفيفُ: بإزاءِ الثَّقيلِ، وأصلُ (ثقل): ضِدُّ الخِفَّة[1].

﴿عَرَضًا قَرِيبًا﴾: أي: غَنيمةً حاضِرةً، سَهْلةَ التَّناوُلِ، والعَرَضُ: ما لا يكونُ له ثباتٌ، والعَرَضُ: طَمَعُ الدُّنيا، قليلًا كان أو كثيرًا، وسُمِّيَ به؛ لأنَّه يُعْرِضُ، أي: يُريكَ عُرضَه[2].

﴿سَفَرًا قَاصِدًا﴾: أي: مَوضعًا قريبًا سَهْلًا غيرَ شاقٍّ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٧٤، ٢٨٨)، ((لسان العرب)) لابن منظور (٩/ ٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٧٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٧٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٠)، ((غريب القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٧٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٩).

﴿الشُّقَّةُ﴾: أي: السَّفَرُ البَعيدُ المَسافةِ، والناحيةُ التي تلحَقُك المشَقَّةُ في الوصولِ إليها، وأصل (شقق): يدلُّ على انصداعٍ في الشَّيءِ(١).

المعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ المؤمنينَ أن يَخرُجوا لجِهادِ الكُفَّارِ مُسرِعينَ، سواءٌ كانوا خِفافًا أم ثِقالًا، وأن يُجاهدوا بأموالِهم وأنفُسِهم؛ لإعلاءِ كَلِمةِ الله تعالى؛ فإنَّ ذلك خيرٌ لهم إن كانوا يَعلَمونَ.

ثُمَّ يُخاطِبُ اللهُ نَبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قائلًا له: لو كان ما تدعُو إليه المُنافِقينَ المُتخَلِّفينَ عن غَزوِ الرُّومِ، غنيمةً حاضرةً سهلةَ التَّناوُلِ، وسَفَرًا سَهلًا لِمَوضعٍ قَريبٍ- لَخَرجوا معك، لكِنْ طالَتْ عليهم مسافةُ السَّفَرِ لِغَزوِ الرُّومِ، فتَرَكوا المَسيرَ معك لِشدَّةِ المشَقَّةِ، وسَيَحلِفونَ لك- يا محمَّدُ- كذبًا فيَقولون: والله لو استَطَعْنا الخُروجَ معكم لَخَرجْنا، يُهلِكونَ أنفُسَهم، واللهُ يعلَمُ أنَّهم كاذِبونَ.

عفا اللهُ عنك- يا مُحمَّدُ- على إذنِك لهؤلاءِ المُنافِقينَ حين استأذَنُوك للتخَلُّفِ عن الخُروجِ معك، لأيِّ شَيءٍ أذِنْتَ لهم؟ كان ينبغي ألَّا تأذَنَ لهم حتى تعلَمَ الصَّادِقينَ في أنَّ لهم عذرًا، وتَعلَمَ الكاذبينَ الذين لا عُذرَ لهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾.

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٠، ١٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٩).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا وبَّخ اللهُ تعالى المُؤمِنينَ على التَّثاقُلِ عَنِ النَّفْرِ لَمَّا استنفَرَهم الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتوعَّدَ تعالى مَن لا ينفِرُ مع الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- قفَّى عليه ببيانِ حُكمِ النَّفيرِ العامِّ، وأتبَعَه بهذا الأمرِ الجَزمِ، الذي يُوجِبُ القِتالَ على كلِّ فَردٍ مِن الأفرادِ بما استطاع، ولا يُعذَر فيه أحَدٌ بالتخَلُّفِ عن الإقدامِ، وتَركِ طاعةِ الإمامِ[1]، فقال تعالى:

﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾.

أي: اخرُجوا- أيُّها المُؤمِنونَ- إلى جهادِ الكُفَّارِ[2] مُسرِعينَ، سواءٌ خَفَّ عليكم الجِهادُ وسَهُلَ، أم ثقُلَ وصَعُبَ، سواءٌ كُنتُم شبابًا أم شُيوخًا، أغنياءَ أم فُقَراءَ، أقوياءَ أم ضُعَفاءَ، نَشيطينَ أم كُسالى، فارغينَ مِن الشُّغُلِ أم مَشغولينَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٢٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٣٩٧).

(٢) قال ابنُ كثيرٍ: (أمَرَ اللهُ تعالى بالنَّفيرِ العامِّ مع الرَّسولِ- صلواتُ الله وسلامُه عليه- عامَ غَزوةِ تبوكَ؛ لقتالِ أعداءِ الله من الرُّومِ الكَفَرةِ مِن أهلِ الكِتابِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٦). ويُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٧٤)، ((تفسير الماوردي)) (٢/ ٣٦٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٤٦، ٤٤٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٦٢)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠٦، ٢٠٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٣٤، ٥٣٥).
قال الجصَّاص: (معلومٌ في اعتقادِ جَميعِ المُسلِمينَ أنَّه إذا خاف أهلُ الثُّغورِ مِن العَدُوِّ، ولم تكن فيهم مقاوَمةٌ لهم، فخافوا على بلادِهم وأنفُسِهم وذراريِّهم: أنَّ الفَرضَ على كافَّةِ الأمَّةِ أن يَنفِرَ إليهم مَن يكُفُّ عاديَتَهم عن المسلمينَ، وهذا لا خِلافَ فيه بين الأمَّةِ؛ إذ ليس مِن قَولِ أحدٍ مِن المسلمينَ إباحةُ القُعودِ عنهم، حتى يستبيحوا دماءَ المُسلمين، وسَبْيَ ذراريِّهم). ((أحكام القرآن)) (٣/ ١٤٦-١٤٧).
وقال القرطبي: (إذا تعيَّنَ الجِهادُ بِغَلَبةِ العَدُوِّ على قُطرٍ مِن الأقطارِ... وجب على جميعِ أهلِ =

كما قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [التوبة: ٣٨].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إذا استُنفِرْتُم فانفِرُوا))[١].

﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

أي: ابذُلوا جُهدَكم واستَفرِغوا وُسْعَكم- أيُّها المؤمنونَ- في إنفاقِ أموالِكم في تجهيزِ الغُزاةِ، والإعدادِ للجِهادِ، وقتالِ الكُفَّارِ بأنفُسِكم؛ لإعلاءِ كَلِمةِ الله عزَّ وجلَّ[٢].

= تلك الدَّارِ أن ينفِروا ويَخرُجوا إليه خِفافًا وثِقالًا، شبابًا وشُيوخًا، كلٌّ على قَدرِ طاقَتِه، مَن كان له أبٌ بغَيرِ إذنِه، ومَن لا أبَ له، ولا يتخَلَّف أحدٌ يقدِرُ على الخروجِ، مِن مقاتِلٍ أو مُكثِّرٍ. فإنْ عجَزَ أهلُ تلك البَلدةِ عن القيامِ بعَدُوِّهم، كان على مَن قارَبَهم وجاوَرَهم أن يخرُجوا على حسَبِ ما لَزِمَ أهلَ تلك البلدةِ، حتى يعلَموا أنَّ فيهم طاقةً على القيامِ بهم ومُدافَعتِهم، وكذلك كُلُّ مَن عَلِمَ بِضَعفِهم عن عَدُوِّهم، وعَلِمَ أنَّه يُدرِكُهم ويُمكِنُه غِياثُهم، لَزِمَه أيضًا الخروجُ إليهم، فالمُسلِمونَ كُلُّهم يدٌ على مَن سواهم، حتى إذا قام بدَفعِ العَدُوِّ أهلُ النَّاحيةِ التي نزل العدوُّ عليها واحتَلَّ بها؛ سقَطَ الفَرضُ عن الآخرينَ، ولو قاربَ العدُوُّ دارَ الإسلامِ ولم يَدخُلوها، لَزِمَهم أيضًا الخروجُ إليه، حتى يَظهَرَ دِينُ الله، وتُحمى البَيضةُ، وتُحفَظَ الحَوزةُ، ويُخزى العَدُوُّ، ولا خلافَ في هذا). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٥١، ١٥٢).

(١) رواه البخاري (٣٠٧٧)، ومسلم (١٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٧٥)، ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٢٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠٧).

قال الجصاص: (أوجَبَ فَرضَ الجهادِ بالمالِ والنَّفسِ جَميعًا: فمَن كان له مالٌ وهو مريضٌ أو مُقعَدٌ، أو ضعيفٌ لا يصلُحُ للقتالِ؛ فعليه الجهادُ بمالِه بأن يُعطِيَه غَيرَه فيَغزوَ به، كما أنَّ مَن له قوَّةٌ وجَلَدٌ، وأمكنَه الجهادُ بنَفسِه؛ كان عليه الجهادُ بنَفسِه- وإن لم يكن ذا مالٍ ويَسارٍ- بعد أن يجِدَ ما يُبَلِّغُه، ومن قَوِيَ على القتالِ وله مالٌ؛ فعليه الجهادُ بالنَّفسِ والمال، ومن كان عاجزًا بنَفسِه مُعدِمًا؛ فعليه الجِهادُ بالنُّصحِ لله ولِرَسولِه، بقَولِه تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٩١]. ((أحكام القرآن)) (٣/ ١٥١). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٤٩)، ((الفتاوى =

عن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((جاهدُوا المُشركينَ بأموالِكم وأنفُسِكم وألسِنَتِكم))[1].

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

أي: أمْرُكم بالنَّفيرِ، وأمْرُكم بالجِهادِ بالأموالِ والأنفُسِ، فيه خيرٌ عظيمٌ لكم- أيُّها المُؤمِنونَ- في دُنياكم وآخِرَتِكم، وهو خيرٌ لكم مِن مَتاعِ الدُّنيا، إن كُنتُم تَعلَمونَ حقًّا شَرَفَ الجِهادِ، وفَضلَ المُجاهدينَ[2].

كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقال سبحانه: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٩٥-٩٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ

= الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ٥٣٧)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٦٤).

(١) أخرجه أبو داود (٢٥٠٤)، واللفظ له، والنسائي (٣٠٩٦)، وأحمد (١٣٦٣٨).
صححه ابن حزم في ((أصول الأحكام)) (١/ ٢٧)، وابن دقيق العيد في ((الاقتراح)) (١١٤)، وابن باز في ((مجموع الفتاوى)) (١٨/٤١٧)، والألباني في ((صحيح أبي داود)) (٢٥٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٧٥، ٤٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٧)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠٧، ٢٠٨).

أَلِيم * تُؤْمِنُونَ بِاللَّه وَرَسُولِه وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّه بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّه وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٠ - ١٣].

وعن عُبادةَ بنِ الصَّامِتِ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((جاهدُوا في سبيلِ الله؛ فإنَّ الجِهادَ في سبيلِ الله بابٌ مِن أبوابِ الجنَّةِ، يُنَجِّي اللهُ به مِنَ الهَمِّ والغَمِّ))(١).

وعن سهلِ بنِ سَعدٍ السَّاعديِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((رِباطُ يَومٍ في سبيلِ الله خَيرٌ مِن الدُّنيا وما عليها، وموضِعُ سَوطِ أحَدِكم من الجنَّةِ خَيرٌ مِن الدُّنيا وما عليها، والرَّوحةُ يَروحُها العَبدُ في سبيلِ اللهِ أو الغَدوةُ، خَيرٌ مِن الدُّنيا وما عليها))(٢).

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ما مِن أحَدٍ يَدخُلُ الجنَّةَ، يُحِبُّ أن يرجِعَ إلى الدُّنيا، وأنَّ له ما على الأرضِ مِن شَيءٍ، غيرُ الشَّهيدِ؛ فإنَّه يتمَنَّى أن يرجِعَ، فيُقتَلَ عَشرَ مَرَّاتٍ؛ لِمَا يَرى من الكَرامةِ))(٣).

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ

(١) أخرجه أحمد (٢٢٦٩٩)، وابن أبي عاصم في ((الجهاد)) (١/ ١٣٣)، والحاكم في ((المستدرك)) (٢٤٠٤).
صحَّح إسنادَه الحاكمُ، وقال ابنُ كثير في ((التفسير)) (٤/ ٥): حسنٌ عظيمٌ، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٥/ ٢٧٥): أحدُ أسانيدِ أحمدَ وغيره ثقاتٌ، وصحَّحه الألباني في ((السلسلة الصحيحة)) (١٩٤١): بمجموعِ طرقِه.
(٢) رواه البخاري (٢٨٩٢) واللفظ له، ومسلم (١٨٨١).
(٣) رواه البخاري (٢٨١٧)، ومسلم (١٨٧٧) واللفظ له.

وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بالغَ اللهُ تعالى في تَرغيبِهم في الجِهادِ في سبيلِ الله، وكان قد ذَكَرَ قَولَه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّه اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾؛ عاد إلى تقريرِ كَونِهم مُتَثاقِلينَ، وبيَّنَ أنَّ أقوامًا- مع كلِّ ما تقَدَّمَ مِن الوعيدِ، والحَثِّ على الجهادِ- تخلَّفوا في غَزوةِ تَبوكَ [1]، فقال تعالى:

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ﴾.

أي: لو كان- يا مُحمَّدُ- ما تدعُو إليه المُنافِقينَ المُتَخلِّفينَ عن غَزْوِ الرُّومِ، غنيمةً حاضِرةً سَهلةَ التَّناوُلِ، وسفَرًا سَهلًا لِمَوضعٍ قَريبٍ- لَخَرجوا معك؛ طمَعًا في متاعِ الحياةِ الدُّنيا[2].

﴿وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾.

أي: ولكنْ طالَتْ عليهم مَسافةُ السَّفرِ لِغَزوِ الرُّومِ، فتَركوا المَسيرَ معك؛ لشِدَّةِ المشَقَّةِ[3].

﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٥٠، ٤٥١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٥١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠٩).

قال القرطبي: (المرادُ بذلك كلِّه: غَزوةُ تَبُوك). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٥٤).

أي: وسيَحلِفُ لك- يا مُحمَّدُ- هؤلاءِ المُنافِقونَ، فيقولونَ كاذِبينَ: والله لو أطَقْنا الخُروجَ معكم في الغَزْوِ- بوجودِ المالِ والمراكِبِ، وقُوَّةِ البَدَنِ- لخَرَجْنا معكم لِقتالِ الرُّومِ(١).

﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾.

أي: يُوجِبُ المنافِقونَ لأنفُسِهم غضَبَ الله وعِقابَه؛ بسبَبِ نِفاقِهم، وحَلِفِهم بالله تعالى كاذِبينَ، وتخَلُّفِهم عن الجِهادِ(٢).

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

أي: واللهُ يعلَمُ أنَّ المُنافِقينَ- في اعتذارِهم عن القُعودِ، وحَلِفِهم- كاذِبونَ؛ لأنَّهم كانوا قادِرينَ على الخُروجِ لِلقتالِ، ولكِنَّهم قَعَدوا عنه؛ لِنِفاقِهم، وزُهدِهم في الخَيرِ(٣).

﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بكَّتَهم على وجهِ الإعراضِ؛ لأجلِ التخَلُّفِ والحَلِفِ عليه كاذِبًا؛ أقبَلَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٧٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠٩).

قال ابن تيميَّةَ: (هؤلاءِ هم المُنافِقونَ، بلا ريبٍ ولا خِلافٍ). ((الصارم المسلول)) (ص: ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٧٦، ٤٧٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٧٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٥٢، ٤٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٨)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٥٤).

إليه صلَّى الله عليه وسلَّم بالعتابِ في لذيذِ الخِطابِ على الاسترسالِ في اللِّينِ لهم والائتلافِ، وأخْذِ العَفوِ وتَرْكِ الخِلافِ إلى هذا الحَدِّ، فقال مُؤذِنًا بأنَّهم ما تخلَّفوا إلَّا بإذنِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، لأعذارٍ ادَّعَوها كاذبينَ فيها، كما كَذَبوا في هذا الحَلِف[(١)]:

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾.

أي: سامَحَك اللهُ وغَفَرَ لك- يا مُحمَّدُ- على إذْنِك لِهؤلاءِ المُنافِقينَ، الذين استَأذَنوك في التخَلُّفِ عن الخُروجِ معك، لأيِّ شَيءٍ أذِنْتَ للمُنافِقينَ أن يتخَلَّفوا عن المَسيرِ معك لِغَزوِ الرُّومِ[(٢)]؟!

﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾.

أي: كان ينبغي لك- يا مُحمَّدُ- عندما استأذَنَك المتخَلِّفونَ عن المَسيرِ معك لجِهادِ الرُّومِ، ألَّا تأذَنَ لأحدٍ منهم[(٣)] حتى تعلَمَ الصَّادِقينَ الذينَ لهم عُذرٌ في

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٧٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٥٤، ٤٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١٠).
قال الواحدي: (قال قتادةُ وعمرُو بنُ ميمون: «اثنان فعَلَهما رسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ولم يُؤمَرْ فيهما بشيءٍ: إذنُه للمُنافقين، وأخْذُه الفِداءَ مِن الأُسارى، فعاتبه الله كما تَسمَعونَ»... قال أهلُ المعاني: وهذا يدلُّ على أنَّه فعَلَ ما لم يؤذَنْ له فيه؛ لأنَّه لا يُقالُ: لِمَ فَعَلْتَ: فيما أُذِنَ له في فِعْلِه). ((البسيط)) (١٠/ ٤٥٥).
وقال ابنُ عاشور: (استأذَنَ فريقٌ مِن المنافقينَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أن يتخلَّفوا عن الغزوةِ؛ منهم عبدُ الله بنُ أُبَيِّ ابنُ سَلولَ، والجَدُّ بنُ قيس، ورفاعةُ بنُ التَّابوتِ، وكانوا تِسعةً وثلاثين، واعتذروا بأعذارٍ كاذبةٍ، وأذِنَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لِمَن استأذَنَه؛ حَملًا للنَّاسِ على الصِّدقِ؛ إذ كان ظاهرُ حالِهم الإيمانَ، وعِلمًا بأنَّ المُعتَذرينَ إذا أُلجِؤوا إلى الخُروجِ لا يُغْنونَ شَيئًا، كما قال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة: ٤٧]). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١٠).

(٣) قال الشنقيطي: (قولُه تعالى: ﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ هذه =

تخلُّفِهم، فتعذِرَهم، وتعلَمَ الكاذِبينَ الذين لا عُذرَ لهم، وإنما تخَلَّفوا نِفاقًا وشَكًّا في دينِ الله(١).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١ - قال الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ

= الآيةُ الكريمةُ تدُلُّ على أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم له الإذنُ لِمَن شاء، وقَولُه تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ يُوهِمُ خلافَ ذلك. والجوابُ ظاهِرٌ: وهو أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم له الإذنُ لِمَن شاء من أصحابِه الذين كانوا معه على أمرٍ جامعٍ، كصلاةِ جُمعةٍ أو عيدٍ أو جماعةٍ، أو اجتماعٍ في مشورةٍ، ونحوِ ذلك، كما بيَّنَه تعالى بقَولِه: ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ [النور: ٦٢] وأمَّا الإذنُ في خُصوصِ التخَلُّفِ عن الجهادِ، فهو الذي بيَّنَ اللهُ لرسولِه أنَّ الأَوْلى فيه ألَّا يُبادِرَ بالإذنِ، حتى يتبيَّنَ له الصَّادِقُ في عُذرِه من الكاذبِ، وذلك في قَولِه تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ فظهَرَ أنْ لا مُنافاةَ بين الآياتِ، والعِلمُ عند الله تعالى). ((دفع إيهام الاضطراب)) (ص: ١٧٠-١٧١).

(١) وهو قولُ ابنِ جريرٍ، والواحديِّ، والبغويِّ، والزمخشريِّ، والشوكانيِّ، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٧٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٥٥)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٥٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٨).

وقيل: إنَّ معنَى الآيةِ: أنَّه كانَ يَنْبغي لك- يا محمدُ- عندما استأذَنك المتخلِّفون عن المسيرِ معك لجهادِ الرُّوم أن لا تأذنَ لأحدٍ منهم؛ مِن أجلِ أن تعلمَ الصَّادقَ منهم مِن الكاذبِ، فإنَّ المُنافِقين كانوا مُصرِّين على القعودِ عن الغزوِ، سواء أذِنت لهم، أم لم تأذَنْ، وهو قولُ ابنِ عطية، وأبي حيان، وابنِ كثير، والقاسمي، ومحمد رشيد رضا، وابنِ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٩)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٢٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١٠).

قال أبو حيان: (قوله: ﴿الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ أي: في استئذانِك. وأنَّك لو لم تأذنْ لهم خرجوا معك. ﴿وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾: يريدُ في أنَّهم استأذنوك يُظهرون لك أنَّهم يقفون عندَ حدِّك وهم كذبةٌ، وقد عزَموا على العصيانِ أذِنت لهم أو لم تأذنْ). ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٢٧).

يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في هذا إشارةٌ إلى ذَمِّهم بِسُفولِ الهمَمِ، ودَناءَةِ الشِّيَم؛ بالعَجزِ والكَسَل، والنَّهَم والثِّقَل، وإلى أنَّ هذا الدِّينَ مَتينٌ، لا يحمِلُه إلَّا ماضي الهَمِّ، صادِقُ العَزمِ(١).

٢- حُبُّ المنافِعِ الماديَّةِ، والرَّغبةُ فيها، لاصِقٌ بِطَبعِ الإنسانِ، وناهيك بها إذا كانت سَهلةَ المأخَذِ، قَريبةَ المَنالِ، وكان الرَّاغِبُ فيها مِن غَيرِ المُوقنينَ بالآخِرةِ، وما فيها من الأجرِ العَظيمِ، قال الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾(٢)!

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ...﴾ فيه دلالةٌ على وجوبِ الاحترازِ عن العَجَلةِ، ووجوبِ التثبُّتِ والتأنِّي، وتَركِ الاغترارِ بظواهرِ الأمورِ، والمُبالغةِ في التفحُّصِ، حتى يُمكِنَه أن يعامِلَ كُلَّ فَريقٍ بما يستحِقُّه مِن التَّقريبِ أو الإبعادِ(٣).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ استدَلَّ بها من أوجَبَ النَّفيرَ على كلِّ أحدٍ، عند الحاجةِ وهُجومِ الكُفَّارِ(٤).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فيه دليلٌ على أنَّه كما يجِبُ الجِهادُ في النَّفسِ، يجِبُ الجهادُ في المال، حيث اقتضَتِ الحاجةُ ودَعَت لذلك(٥).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٨٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٠١).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٥٩).
(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٣٨).

٣- قال الله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قال أهلُ العِلمِ: هذا يدُلُّ على أنَّ المُوسِرَ يجِبُ عليه الجِهادُ بالمالِ، إذا عجَزَ عن الجهادِ ببَدَنِه؛ لِزَمانةٍ أو عِلَّةٍ، فوجوبُ الجِهادِ بالمالِ كوُجوبِ الجِهادِ بالبَدَنِ على الكفايةِ(١).

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قد أمَرَ اللهُ بكِلَا الأمرَينِ، فمن استطاعَهما معًا وجَبَا عليه، ومن لم يستَطِعْ إلَّا واحدًا منهما، وجَبَ عليه الذي استطاعَه منهما(٢).

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ اختيارُ فِعلِ (العلم) دون (الإيمان) مثلًا؛ للإشارةِ إلى أنَّ مِن هذا الخَيرِ ما يَخفى، فيَحتاجُ مُتطلِّبُ تَعيينِ شُعَبِه إلى إعمالِ النَّظَرِ، والعِلمِ(٣).

٦- الجِهادُ بالنَّفسِ في قَولِه تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يشمَلُ جِهادَ اللِّسانِ وجِهادَ اليَدِ، بل قد يكونُ جِهادُ اللِّسانِ أقوى منه، كما قال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((جاهِدُوا المُشرِكينَ بأيديكم وألسِنَتِكم وأموالِكم))(٤).

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٤٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٢٠٨).
(٤) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٢٠٦).
والحديث أخرجه أبو داود (٢٥٠٤)، والنسائي (٣٠٩٦) واللفظ له، وأحمد (١٢٢٦٨) من حديث أنس رضي الله عنه.
قال ابنُ حزمٍ في ((أصول الأحكام)) (١/ ٢٧): في غايةِ الصحةِ، وصحَّح إسنادَه النوويُّ في ((رياض الصالحين)) (٤٣٧)، وصحَّحه ابنُ دقيقِ العيد في ((الاقتراح)) (١١٤)، وقال ابنُ عبد الهادي في ((المحرر)) (٢٨٦): إسنادُه على رسم مسلمٍ، وقال الشوكانيُّ في ((نيل الأوطار)) (٨/ ٢٧): رجالُه رجالُ الصحيحِ، وصحَّحه ابنُ بازٍ في ((مجموع فتاواه)) (٤/ ٢٩٦)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (٣٠٩٦).

٧- قال الله تعالى: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ في هذه الآيةِ دَلالةٌ على أنَّ تعمُّدَ اليمينِ الفاجرةِ، يُفضي إلى الهَلاكِ[1].

٨- قولُ الله تعالى: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ أخبَرَ عنهم أنَّهم سيَحلِفونَ، وهذا إخبارٌ عن غَيبٍ يقَعُ في المستقبَلِ، والأمرُ لَمَّا وقع كما أخبَرَ، كان هذا إخبارًا عن الغَيبِ، فكان مُعجِزًا[2]، ودليلًا على نبوَّةِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فقد جاؤُوا فحَلَفوا كما أخبَرَ أنَّه سيكونُ منهم[3].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ قَولَه: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ إنَّما يتناوَلُ مَن كان قادِرًا متمَكِّنًا؛ إذ لو لم تكُنِ الاستطاعةُ مُعتبَرةً في ذلك التَّكليفِ، لَمَا أمكَنَهم جعلُ عَدمِ الاستطاعةِ عُذرًا في التخَلُّفِ[4].

١٠- قولُ الله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ استدَلَّ به من قال بجَوازِ الاجتهادِ له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّه لو أَذِنَ لهم عن وحيٍ، لم يُعاتَبْ، واستدَلَّ بها من قال: إنَّ اجتِهادَه قد يُخطِئُ، ولكِنْ يُنَبَّهُ عليه بسُرعةٍ[5].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ فيه تَخصيصُ الأموالِ والأَنفُسِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٥٧).
(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٥٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٠/ ٩٩).
(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٤٠).

بالذِّكْرِ؛ إذ ذلك وَصْفٌ لأَكْمَلِ ما يكونُ مِنَ الجِهادِ وأَنْفعِهِ عِنْدَ اللهِ، فحَضَّ على كَمالِ الأوصافِ، وقُدِّمتِ الأموالُ على الأنفسِ؛ إذ هي أولُ مَصرفٍ وَقْتَ التَّجهيزِ(١)، ولأنَّ الجهادَ بالأموالِ أقلُّ حضورًا بالذهنِ عندَ سماعِ الأمرِ بالجهاد، فكان ذكرُه أهمَّ بعدَ ذكرِ الجهادِ مجملًا(٢)، ولأنَّ الناسَ يُقاتلون دونَ أموالِهم؛ فإنَّ المجاهدَ بالمالِ قد أخرَج مالَه حقيقةً لله، والمجاهدُ بنفسِه لله يرجو النجاةَ، لا يُوافِقُ أنَّه يُقتلُ في الجهادِ؛ ولهذا أكثرُ القادرينَ على القتالِ يهونُ على أحدِهم أن يُقاتلَ، ولا يهونُ عليه إخراجُ مالِه(٣).

- قولُه: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فيه إبهامُ ﴿خَيْرٌ﴾ وتَنْكيرُه؛ لقَصْدِ تَوقُّعِ خيرِ الدُّنيا والآخِرةِ مِنْ شُعَبٍ كثيرةٍ(٤).

- واسْمُ الإشارةِ ﴿ذَلِكُمْ﴾ وما فيه مِنْ معنى البُعْدِ؛ للإيذانِ ببُعْدِ مَنْزلتِه في الشَّرَفِ(٥).

٢- قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾

- قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ﴾ اسْتِئنافٌ لابْتِداءِ الكلامِ على حالِ المُنافِقينَ وغزوةِ تَبوكَ، حين تَخلَّفوا واسْتأذَنَ كثيرٌ مِنْهُم في التَّخلُّفِ، واعْتَلُّوا بِعَلَلٍ كاذِبةٍ، وهو ناشئٌ عن قولِه: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٢٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠٧).
(٣) يُنظر: ((منهاج السنة)) لابن تيمية (٨/ ٢٣٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠٨-٢٠٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٦٧).

انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾(١).

- وفي قولِه: ﴿لَوْ كانَ عَرَضًا قَرِيبًا...﴾ فيه صَرْفٌ للخِطابِ عنهم، وتوجيهٌ له إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ تعديدًا لِما صدَر عنهم مِنَ الهَناتِ قولًا وفعلًا على طريقِ المُباثَّةِ- أي: الإظهارِ-، وبيانًا لِدَناءةِ هِممِهم، وسائرِ رَذائِلِهم(٢).

- قولُه: ﴿وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ فيه تَعديةُ الفِعل ﴿بَعُدتْ﴾ بحَرْفِ (عَلَى)؛ لتَضمُّنِه معنى (ثَقُلت)؛ ولذلك حَسُن الجمعُ بين فِعلِ بَعُدتْ وفاعِلِه (الشُّقَّة) مع تَقارُب معنييهما، فكأنَّه قيل: ولكن بَعُد منهم المكانُ؛ لأنَّه شُقَّةٌ، فثَقُل عليهم السَّفرُ؛ فجاءَ الكلامُ مُوجزًا(٣).

- قولُه: ﴿لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ في تَقييدِ الخُروجِ بالمَعيَّةِ إشعارٌ بأنَّ أَمْرَ الغَزْوِ لا يُهمُّهُم ابْتِداءً، وأنَّهم إنَّما يَخْرجونَ- لو خَرَجوا إجابةً لاسْتِنفارِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- خُروجَ النَّاصِرِ لغيرِه(٤).

٣- قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾

- قوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ في إلْقاءِ العِتابِ إليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بصِيغةِ الاسْتِفهامِ عَنِ العِلَّةِ: إيماءٌ إلى أنَّه ما أَذِنَ لهم إلَّا لسببٍ تأوَّلَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ورجا منه الصَّلاحَ على الجُمْلةِ، وهذا مِن صِيَغِ التَّلطُّفِ في اللَّومِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٦٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٢١٠).

- وفي تَصديرِ فاتحةِ الخِطابِ بِبشارةِ العفوِ دونَ ما يُوهِمُ العِتابَ: مُراعاةٌ لجانبِهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتعهدٌ له بحُسْنِ المفاوضةِ، ولُطْفِ المُراجَعةِ(١)، وأيضًا في افْتِتاحِ العِتابِ بالإعلامِ بالعفوِ إكرامٌ عظيمٌ، ولَطافةٌ شريفةٌ؛ حيثُ أخْبَرَه تعالى بالعَفوِ عنه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قَبْلَ أنْ يُباشِرَه بالعِتابِ، وفي هذا الافْتِتاحِ كِنايةٌ عَنْ خِفَّةِ مُوجِبِ العِتابِ؛ لأنَّهُ بمَنْزِلةِ أنْ يُقال: ما كان يَنْبغي(٢)، قال مُورِّق العجليُّ رضي الله عنه: سَمِعْتُم بمعاتبةٍ أحسَنَ من هذه، بدأ بالعَفوِ قبل المُعاتَبةِ، فقال: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾(٣).

- قولُه: ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ في زِيادةِ ﴿لَكَ﴾ بعد قولِه: ﴿يَتَبَيَّنَ﴾: زِيادةُ مُلاطفةٍ بأنَّ العِتابَ ما كان إلَّا عَن تَفريطٍ في شيءٍ يَعودُ نفعُه إليه(٤).

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ في تَغييرِ الأسلوبِ، حيثُ عبَّر عن الفريقِ الأوَّلِ بالموصول ﴿الَّذِينَ﴾ وصِلتُه فعلٌ دالٌّ على الحُدوثِ ﴿صَدَقُوا﴾، وعبَّر عن الفريقِ الثَّاني باسم الفاعلِ ﴿الْكَاذِبِينَ﴾ المفيدِ للدَّوامِ؛ وذلِك للإيذانِ بأنَّ ما ظَهَر مِن الأوَّلين صِدقٌ حادِثٌ في أمرٍ خاصٍّ، غيرُ مُصحِّحٍ لدُخولِهم في زُمرةِ الصادِقين، وأنَّ ما صدَر مِن الآخَرين وإنْ كان كَذِبًا حادثًا مُتعلِّقًا بأمرٍ خاصٍّ، لكنَّه أمرٌ جارٍ على عادتِهم المستمرَّةِ، ناشئٌ عن رُسوخِهم في الكذِب(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٦٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١٠).
(٣) يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٤/ ٢١٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١١).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٦٨).

- وفيه أيضًا إسْنادُ التَّبيُّنِ إلى الأوَّلينَ ﴿الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ وتَعليقُ العِلْمِ بالآخِرينَ ﴿الْكاذِبِينَ﴾- مع أنَّ مَدارَ الإسنادِ والتَّعلُّقِ أولًا وبالذَّاتِ هو وَصْفُ الصِّدْقِ والكَذِبِ-؛ لأنَّ المَقْصِدَ هو العِلْمُ بكِلَا الفريقَينِ باعْتِبارِ اتِّصافِهما بوَصْفَيْهما المَذكورينِ، ومُعامَلتِهما بحَسَبِ اسْتِحقاقِهما، لا العِلْمُ بوَصْفيهما بِذَاتَيْهما، أو باعْتِبارِ قيامِهما بمَوْصوفَيْهما[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٦٨- ٦٩).

الآيات (٤٤-٤٧)

﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَارْتَابَتْ﴾: أي: وشكَّت، والرَّيب: الشكُّ مع الخَوف، ومع تُهمَة المشكوكِ فيه، وتوهُّمُ أمْرٍ ما بالشَّيءِ(١).

﴿عُدَّةً﴾: أي: أُهبةَ السَّفَرِ، وما يُعَدُّ مِن مالٍ وسِلاحٍ؛ من الإعدادِ الذي هو تَهيئةُ الشَّيءِ(٢).

﴿انْبِعَاثَهُمْ﴾: أي: نُهوضَهم لِلْخُرُوجِ ومُضِيَّهم، وأصل (بعث): يدلُّ على إثارةِ الشَّيءِ، وتوجِيهِه(٣).

﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾: أي: ثقَّلَ عليهم الخروجَ، وحبَسَهم عنه؛ يُقالُ: ثبَّطَه المرضُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٦٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٢- ١٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٥٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٢).

وأثبَطَه: إذا حبَسَه ومنَعَه، ولم يكَدْ يُفارِقُه[١].

﴿خَبَالًا﴾: أي: فَسادًا وشرًّا، وأصلُ (خبل): يدلُّ على فَسادٍ[٢].

﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾: أي: سَعَوا، وأسرَعوا السَّيرَ وسْطَكم بالنَّميمةِ والفَسادِ؛ مِن الوَضعِ: وهو سُرعةُ السَّيرِ، والخِلالُ جَمعُ خَللٍ، وهو: الفُرجةُ بين الشَّيئَينِ[٣].

﴿يَبْغُونَكُمُ﴾: أي: يَطْلبونَ لكم ما تُفتَنون به، وأصلُ (بغى): يدلُّ على طلبِ الشيءِ[٤].

﴿الْفِتْنَةَ﴾: أي: الشِّرْكَ، والكفرَ، وتُطلَق أيضًا على الشَّرِّ والعذابِ، وهي في الأصلِ: الاختِبارُ، والابتلاءُ، والامتِحانُ، مأخوذةٌ مِن الفَتْنِ: وهو إدخالُ الذَّهبِ النَّارَ؛ لتظهَرَ جودتُه من رداءتِه[٥].

﴿سَمَّاعُونَ﴾: أي: مُطيعونَ، قابِلونَ لكَلامِهم، أو عُيونٌ يتجَسَّسونَ لهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٥)، ((غريب القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ٩١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٩، ١٨٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٣)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٦).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٦، ١٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢ - ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩، ١٣٩ - ١٤٠).

الأخبارَ، ويَنقِلونها إليهم، وأصل (سمع): يدلُّ على إيناسِ الشَّيءِ بالأُذُنِ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قائلًا له: لا يستأذِنُك- يا مُحمَّدُ- الذين يُؤمِنونَ بالله وباليومِ الآخِرِ، في تَركِ جِهادِ الكُفَّارِ بأموالِهم وأنفُسِهم، واللهُ عليمٌ بالمتَّقينَ. إنَّما يستأذِنُك في القُعودِ والتخَلُّفِ عن جِهادِ الكُفَّارِ بأعذارٍ كاذبةٍ، المُنافِقونَ الذين لا يُؤمِنونَ بالله ولا باليَومِ الآخِرِ، وقد امتلأتْ قُلوبُهم شَكًّا، فهم في شَكِّهم يتحَيَّرونَ ويتذبذَبونَ، ولو أرادوا الخُروجَ لاستعَدُّوا له بتَجهيزِ ما يلزَمُ ذلك، لكِنَّ اللهَ كَرِهَ انطِلاقَهم مع المؤمِنينَ، فكَسَّلَهم عنه، وقيل لهم: اقعُدُوا مع القاعدينَ.

لو خرَجوا فيكم- أيُّها المُؤمِنونَ- فلن يزيدُوكم بخُروجِهم إلَّا شرًّا وفَسادًا، وإيقاعَ الاضطرابِ بينكم، ولأَسْرَعوا المشيَ بينَكم بالنَّميمةِ والبَغضاءِ، وفيكم- أيُّها المؤمنونَ- مَن يسمَعُ كَلامَهم، فيقبَلُه ويستجيبُ له ويطيعُه، واللهُ عليمٌ بالظَّالمينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾.

أي: لا يَستأذِنُك- يا محمَّدُ- أصحابُك المؤمنونَ بالله، وبالبَعثِ، والجزاءِ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٠٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص:٢١٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص:١٨٢).

في الآخرةِ، في تَركِ جهادِ الكُفَّارِ بأموالِهم وأنفُسِهم، ولا يَطلُبونَ منك أن تأذَنَ لهم في الجِهادِ، بل يُبادِرونَ إليه؛ لشِدَّةِ رَغبَتِهم في الخَيرِ(١).

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ﴾.

أي: واللهُ ذو علم بهؤلاءِ المتَّقينَ، وبكُلِّ مَن يتَّقيه بامتثالِ أوامرِه، واجتنابِ نَواهيه، ومن ذلك المسارعةُ إلى جهادِ أعدائِه، وعَدمُ الاستئذانِ في تَرْكِه، وسيُجازيهم على تَقواهم له أعظَمَ الثَّوابِ(٢).

﴿ إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى بيَّنَ هنا أنَّ هذا الاستِئذانَ لا يَصدُرُ إلَّا عند عدَمِ الإيمانِ بالله واليَومِ الآخِرِ، ثمَّ لَمَّا كان عدَمُ الإيمانِ قد يكونُ بسبَبِ الشَّكِّ فيه، وقد يكونُ بسبَبِ الجَزمِ والقَطعِ بعَدَمِه- بيَّن تعالى أنَّ عدَمَ إيمانِ هؤلاءِ إنَّما كان بسبَبِ الشَّكِّ والرَّيبِ، فقال تعالى(٣):

﴿ إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾.

أي: إنَّما يستأذِنُك- يا مُحمَّدُ- في القُعودِ والتخَلُّفِ عن جهادِ الكُفَّارِ بأعذارٍ كاذبةٍ، المُنافِقونَ الذين لا يُؤمِنونَ بالله تعالى، ولا بالبَعثِ والجَزاءِ في الآخرةِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٨٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٣٨)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٣٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١١، ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٠)، ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣٠١)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٦٠).

فلا يَرغَبونَ فيما عندَ الله تعالى، ولا يَخافونَ عَذابَه[١].

﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾.

أي: وقد شكَّت قلوبُهم في صِحَّةِ الدِّينِ، وظُهورِ أمْرِه، فهم في شَكِّهم يتحَيَّرونَ، ويتَذَبذبونَ بين الإيمانِ والكُفرِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤٣].

وعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: ((مَثَلُ المُنافِقِ كمَثَلِ الشَّاةِ العائرةِ[٣] بين الغَنَمينِ؛ تَعيرُ[٤] إلى هذه مَرَّةً، وإلى هذه مَرَّةً))[٥].

﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ (٤٦)﴾.

﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً﴾.

أي: ولو أراد المُنافِقونَ الخُروجَ معك- يا مُحمَّدُ- في غزوةِ تَبُوكَ، لتأهَّبُوا للخُروجِ، بإعدادِ ما يَحتاجُونَه مِن لوازِمِ السَّفَرِ والقِتالِ، لكِنَّهم تَرَكوا الاستعدادَ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٤٠).
قال الواحدي: (أجمَعوا على أنَّ هذا الاستئذانَ في القُعودِ عن الجِهادِ، وإخبارٌ أنَّ مَن فعَلَ ذلك غَيرُ مؤمِنٍ بالله). ((البسيط)) (١٠/ ٤٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٤٠، ٥٤١).

(٣) الشَّاةُ العائِرةُ: أي: المتَرَدِّدةُ بين قَطيعَينِ، لا تدري أيَّهما تَتْبَعُ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٣٢٨).

(٤) تَعيرُ (بفتح التاء): أي: تتردَّدُ وتذهَبُ. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (١/ ١٣٠).

(٥) رواه مسلم (٢٧٨٤).

لِرَغبَتِهم في التخَلُّفِ عن الجِهادِ[١].

﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ﴾.

أي: ولكِنْ لم يُحِبَّ اللهُ تعالى انطلاقَ المُنافِقينَ معك- يا محمَّدُ- في تلك الغَزوةِ؛ لعِلْمِه أنَّ في خُروجِهم شرًّا وضررًا على المُؤمنينَ[٢].

﴿فَثَبَّطَهُمۡ﴾.

أي: فثقَّله عليهم، وكسَّلهم عنه[٣].

﴿وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾.

أي: وقيل[٤]: اقعُدُوا عن الجِهادِ مع الذينَ ليس من شَأنِهم النُّهوضُ والخُروجُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨١، ٤٨٢)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٦١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٥٦)، ((المستدرك على مجموع الفتاوى لابن تيمية)) (١/ ٧٨)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٠٢، ١٠٣)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ١٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٥٦)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٠١، ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٤٣).

قال السعدي: (﴿فَثَبَّطَهُمۡ﴾ قَدَرًا وقَضاءً، وإن كان قد أمَرَهم وحَثَّهم على الخُروجِ، وجعَلَهم مُقتَدرينَ عليه، ولكِنْ بحِكمَتِه ما أراد إعانَتَهم، بل خَذَلَهم وثَبَّطَهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٩).

(٤) وهذا القولُ قولٌ قدريٌّ كونيٌّ، وممَّن اختار ذلك: ابنُ القَيِّم، وابنُ كثيرٍ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١٥).

قال الشنقيطي: (﴿قِيلَ﴾ هنا: مَبنيٌّ للمَفعولِ حُذِفَ فاعِلُه، واختلَفَ العُلَماءُ في فاعِلِه =

للقِتالِ، كالضُّعَفاءِ والمَرضى، والصِّبيانِ وغَيرِهم[1].

﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لـمَّا ذكَر الله تعالى أنَّه كرِه خروجَهم، وثبَّطهم؛ أخبَر سبحانَه عن الحكمةِ التي تتعلَّقُ بالمؤمنين في تثبيطِ هؤلاءِ عنهم، وبيَّن لِمَ كرِه خروجَهم، فقال[2]:

﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾.

أي: لو خرَجَ هؤلاءِ المُنافِقونَ في جُملَتِكم- أيُّها المُؤمِنونَ- لِغَزوِ الرُّومِ، فلن يَزيدُوكم بخُروجِهم شيئًا سِوى الشرِّ والفَسادِ، وإيقاعِ الاضطرابِ بَينكم[3].

= المَحذوفِ، فقال بعضُ العلماء: قال بعضُهم لبعضٍ في سِرِّهم وباطِنِ أمْرِهم: ﴿اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ واستَأذِنُوه لِتَقعُدوا. وقال بعضُهم: أذِنَ لهم النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: ﴿اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ وعلى هذا القَولِ فـ ﴿اقْعُدُوا﴾ هو الإذنُ. وبعضُهم يقولُ: قَولُه: ﴿مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ أذِنَ لهم إذنًا صاحِبُه لا يرضى عنهم. والمرادُ بالقاعدينَ: الذين ليس مِن شَأنِهم الحُضور، كالصِّبيان والزَّمنَى والنِّساءِ، ونحوِ ذلك ممَّن ليس من شأنِه الخُروجُ للقِتالِ. وقال بعضُ العلماء: هو كونيٌّ قَدَريٌّ، اللهُ يقولُ للشَّيءِ: «كُنْ، فيكونُ» فقال: ﴿اقْعُدُوا﴾ فكان قُعودُهم، واختار هذا بعضُ العُلَماءِ). ((العذب النمير)) (٥/ ٥٤٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٥٦)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٦٦)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٦٤)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٦٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٢٩)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٤٣).

قال الشَّوكاني: (قيل: هذا الاستثناءُ مُنقَطِعٌ، أي: ما زادوكم قُوَّةً، ولكِنْ طَلَبوا الخَبالَ. وقيل: =

﴿ وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ ﴾.

أي: ولأَسْرَعوا سَيْرَهم في الدُّخولِ والمَشيِ بينكم بالنَّميمةِ، وإفسادِ ذاتِ بَينِكم؛ لِتَفريقِ كَلِمتِكم، وإلقاءِ الأراجيفِ، وبَثِّ الإشاعاتِ لِتَثبيطِكم[1].

﴿ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ﴾.

أي: وفيكم- أيُّها المُؤمِنونَ- مَن يَسمَعُ كَلامَ المُنافِقينَ، فيقبَلُه، ويستجيبُ لهم، ويُطيعُهم[2].

= المعنى: لا يزيدونَكم فيما تَرَدَّدونَ فيه من الرأيِ إلَّا خَبالًا، فيكون متَّصلًا. وقيل: هو استثناءٌ مِن أعَمِّ العامِّ، أي: ما زادوكم شيئًا إلَّا خبالًا، فيكون الاستثناءُ مِن قِسمِ المتَّصِلِ). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤١٨).

وقال الواحدي: (والمرادُ بالخَبالِ هاهنا: الاضطرابُ في الرأيِ، وذلك بتَزيينِ أمْرٍ لفَريقٍ، وتَقبيحِه عند فريقٍ؛ ليَختَلِفوا، فتفترِقَ كَلِمَتُهم ولا تنتَظِمَ، يقول: لو خَرَجوا لأفسَدُوا عليكم أمْرَكم). ((البسيط)) (١٠/ ٤٦٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٣- ٤٨٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٦٨، ٤٦٩، ٤٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٥٧)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٣٩)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٢/ ١٠٥) (٥/ ٢٦٢)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٤٤).

(٢) وهو قَولُ جُمهورِ المفَسِّرين، كما نسَبَه إليهم ابنُ عطيةَ، واختاره ابنُ تيميةَ، وابنُ القَيِّم، وابنُ كثيرٍ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٥/ ١٢٩)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٥/ ٢٦٢)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قتادةُ، وابنُ إسحاقَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٦٥).

قال الرازي: (لا يمتَنِعُ فيمَن قَرُبَ عَهدُه بالإسلامِ أن يُؤثِّرَ قَولُ المنافقينَ فيهم، ولا يمتَنِعُ كَونُ بَعضِ النَّاسِ مَجبولينَ على الجُبنِ والفَشَلِ، وضَعفِ القَلبِ؛ فيُؤثِّرُ قولُهم فيهم، ولا يمتَنِعُ أن يكونَ بعضُ المُسلِمينَ مِن أقارِبِ رُؤساءِ المُنافِقينَ، فيَنظرونَ إليهم بعَينِ الإجلالِ والتَّعظيمِ؛ فلهذا السَّبَبِ يُؤثِّرُ قَولُ هؤلاءِ الأكابِرِ من المنافقينَ فيهم). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٦٤). =

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

أي: واللهُ عزَّ وجلَّ ذو علم بأولئك المُنافِقينَ الظَّالِمينَ، وبمَن يقبَلُ كَلامَهم ويُطيعُهم، وبكُلِّ من يَظلِمُ نَفسَه ويَظلِمُ غَيرَه، بفِعْلِ ما ليس له فِعْلُه، لا يخفى عليه سُبحانَه شَيءٌ من ظواهِرِهم وبواطِنِهم، وسيُجازيهم على أعمالِهم[1].

كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٨].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- الذين يُؤمِنونَ بالله، ويعتَقِدونَ بيَومِ الجزاءِ؛ لا يَنتَظِرونَ أن يُؤذَنَ لهم في أداءِ فَريضةِ الجِهادِ، ولا يتلكَّؤونَ في تلبيةِ داعي النَّفرةِ في سبيلِ الله بالأموالِ والأرواحِ، بل يُسارِعونَ إليها خِفافًا وثقالًا، كما أمَرَهم اللهُ؛ طاعةً لأمْرِه، ويقينًا بلِقائِه، وثِقةً بِجَزائه، وابتغاءً لرِضاه، وإنَّهم ليتطَوَّعون تطوُّعًا، فلا يحتاجُونَ إلى من يَستحِثُّهم، فضلًا عن الإذنِ لهم؛ يُبيِّنُ ذلك قَولُ الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ

= وقيل: أي: وفيكم- أيُّها المؤمنونَ- جواسيسُ للمُنافقينَ، يَسْمعونَ لهم الأخبارَ، وينقلونَ إليهم أخبارَكم وأسرارَكم. وهو قولُ مقاتلِ بنِ سليمانَ، وابنِ جريرٍ، والواحدي، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ١٧٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٦، ٤٨٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٥٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: زيدُ بنُ أسلمَ، ومجاهدٌ، وابنُ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ١٨٠٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٦٥).

قال ابن عاشور: (﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ أي: في جماعةِ المُسلِمينَ، أي: مِن بينِ المُسلِمينَ سَمَّاعون لهم، فيجوزُ أن يكونَ هؤلاءِ السَّمَّاعونَ مُسلِمينَ يُصَدِّقونَ ما يسمعونَه مِن المنافقينَ، ويجوزُ أن يكونَ السَّمَّاعونَ مُنافِقينَ مَبثوثينَ بين المُسلِمينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤١)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٤٩).

قال أبو حيَّان: (﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ يعُمُّ كُلَّ ظالم. ومعنى ذلك: أنَّه يُجازيه على ظُلمِه. واندرَجَ فيه من يقبَلُ كَلامَ المُنافِقينَ، ومن يؤدِّي إليهم أخبارَ المُؤمِنينَ، ومن تخلَّفَ عن هذه الغَزاةِ مِن المنافقينَ). ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٣٠).

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾(١).

٢- مَن ليس لهم إيمانٌ تامٌّ، ولا يقينٌ صادِقٌ؛ تقِلُّ رغبتُهم في الخَيرِ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ لذا جبَنوا عن القتالِ، واحْتاجوا أن يَسْتأذِنوا في تَركِ القتالِ(٢).

٣- إنَّ الطَّريقَ إلى الله واضِحةٌ مُستقيمةٌ، فلا يتردَّدُ ويتلكَّأُ إلَّا الذي لا يَعرِفُ الطَّريقَ، أو الذي يَعرِفُها ويتنكَّبُها اتِّقاءً لِمَتاعِبِ الطَّريقِ؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾(٣).

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ الخَبالُ: هو الإفسادُ الذي يُوجِبُ اختلافَ الرَّأيِ، وهو من أعظمِ الأمورِ التي يجِبُ الاحترازُ عنها في الحُروبِ؛ لأنَّه عند حُصولِ الاختلافِ في الرَّأيِ يحصُلُ الانهزامُ والانكسارُ على أسهَلِ الوُجوه(٤).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ إشارةٌ إلى أنَّ ما يقومُ بالقَلبِ مِن تصديقٍ وحُبٍّ لله ورَسولِه وتعظيمٍ؛ لا بدَّ أنْ يظهرَ على الجوارِحِ- وكذلك بالعكسِ-؛ ولهذا يُستدَلُّ بانتفاءِ اللَّازمِ الظَّاهرِ على انتفاءِ الملزومِ الباطنِ، فإنَّ الإرادةَ التي في القَلبِ- مع القُدرةِ- تُوجِبُ فِعْلَ المرادِ؛ فالسفرُ في غزوةٍ بعيدةٍ لا يكون إلَّا بعُدَّةٍ(٥)!

٦- القُلوبُ الحائرةُ تَبُثُّ الخَوَرَ والضَّعفَ في الصُّفوفِ، والنُّفوسُ الخائنةُ خطَرٌ

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٦٦٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٨).
(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٦٦٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) ١٦/ ٦٤).
(٥) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٤٨٧).

على الجُيوشِ، قال الله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١ - قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّه وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ فشَهِدَ اللهُ على المنافِقينَ في هذه الآيةِ بأنَّهم لَيسُوا مؤمِنينَ، مع أنَّهم يُقِرُّونَ ظاهِرًا بالإيمانِ، ففيه ردٌّ على الكَرَّاميَّةِ في قَولِهم: الإيمانُ هو مُجرَّدُ الإقرارِ[٢].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّه وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ يدلُّ على أنَّ الشَّاكَّ المُرتابَ، غيرُ مُؤمِنٍ بالله تعالى[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ إخبارٌ مِن الله تعالى بأنَّ المؤمنَ لا يستأذِنُ الرسولَ في تَركِ الجهادِ، وإنَّما يستأذِنُه الذي لا يؤمِنُ، والتارِكُ مِن غيرِ استئذانٍ أَوْلى بهذا الوَصفِ[٤].

٤ - طبيعةُ الكافرينَ بالله واليومِ الآخِرِ تقتضي كراهَتَهم للجِهادِ؛ لأنَّهم يَرَونَ بذْلَ المالِ للجهادِ مَغْرَمًا، يُفَوِّتُ عليهم بعضَ منافِعِهم به، ولا يَرجُونَ عليه ثوابًا، كما يرجو المُؤمنون، ويَرَونَ الجهادَ بالنَّفسِ آلامًا ومتاعِبَ وتعَرُّضًا للقَتلِ، الذي ليس بعده حياةٌ عندهم؛ يُبيِّنُ ذلك قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٦٦٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٦٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٣٨).

يُؤْمِنُونَ بِاللَّه وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[1].

٥- عُدِّيَ التردُّدُ في قَولِه تعالى: ﴿فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ بأداةِ (في)؛ للدَّلالةِ على انغماسِ صاحِبِه في هذا الرَّيبِ[2].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّه وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾، إنَّما أضاف الشَّكَّ والارتيابَ إلى القَلبِ؛ لأنَّه محَلُّ المعرفةِ والإيمانِ، فإذا داخَلَه الشَّكُّ كان ذلك نِفاقًا[3].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ ختَمَ الآيةَ بِقَولِه: ﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ للتَّنبيه على ذَمِّهم، وإلحاقِهم بالنِّساءِ والصِّبيانِ والعاجِزينَ، الذينَ شأنُهم القُعودُ في البُيوتِ، وهم القاعِدونَ والخالِفونَ[4].

٨- قَولُه تعالى: ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ * لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ ثبَّطَ سُبحانه أعداءَه عن مُتابعةِ رَسولِه، واللَّحاقِ به؛ غَيرةً، فغار سُبحانَه على نَبيِّه وأصحابِه أن يَخرُجَ بينهم المُنافِقونَ فيَسعَوْا بينهم بالفِتنةِ، فثبَّطَهم وأقعَدَهم عنهم[5].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُم﴾ إن قيل: عَلِمَ اللهُ أنَّ المُنافِقينَ لو خرَجُوا مع المؤمنينَ للجِهادِ، ما زادُوهم إلَّا خَبالًا وفَسادًا، ولأَوضَعوا خِلالَهم، وأسْرَعوا في السَّعيِ بينهم

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٠٥).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٦١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٦٢).

(٥) يُنظر: ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٣٠٥).

بالنَّميمةِ، فكيف أمَرَهم بالخُروجِ مع المُؤمِنينَ؟! فالجوابُ: أنَّه إنَّما أمَرَهم بالخُروجِ مع المُؤمِنينَ؛ لإلزامِهم الحجَّةَ، ولإظهارِ نِفاقِهم[١].

١٠- عُدِّيَ السَّماعُ باللَّامِ في قَولِه تعالى: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾؛ لأنه مُضَمَّنٌ معنى القَبولِ والطَّاعةِ، كما في قَولِ المصلِّي: (سمِعَ اللهُ لِمَن حمِدَه) أي: استجابَ لِمَن حمِدَه، وكذلك ﴿سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ أي: مُطيعونَ لهم[٢] وهذا على أحدِ أوجُهِ التأويلِ للآيةِ.

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾

- قولُه: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا...﴾ فيه وَجْهٌ لَطيفٌ من البَلاغةِ، وإيضاحُه: أنَّ الاسْتِئذانَ يَسْتلزِمُ شَيئَينِ مُتضادَّينِ، ويجوزُ أنْ يُقالَ: اسْتأذَنتُ في كذا، واسْتأذنتُ في تَرْكِ كذا؛ فلمَّا كان شأنُ المؤمنينَ الرَّغبةَ في الجِهادِ كان المذكورُ مع اسْتئذانِ المؤمنِينَ في الآيةِ ﴿أَنْ يُجَاهِدُوا﴾ دونَ (ألَّا يُجاهدوا)؛ إذ لا يَليقُ بالمؤمنينَ الاسْتِئذانُ في تَرْكِ الجِهادِ؛ فإذا انتَفَى أنْ يَسْتأذنوا في أن يُجاهِدوا ثبَت أنهم يُجاهِدونَ دونَ اسْتِئذانٍ[٣].

- وفي قولِه: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا...﴾ تَنبيهٌ على أنَّه كان يَنبغي أن يُسْتَدلَّ باسْتِئذانِهم على حالِهم، ولا يُؤذَنَ لهم؛

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٥/ ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١١- ٢١٢). وقال: (وهذا مِن لطائفِ بلاغةِ هذه الآية التي لم يُعرِّجْ عليها المفسِّرون، وتكلَّفوا في إقامةِ نَظْمِ الآيةِ).

فالخُلَّصُ من المؤمنينَ يُبادِرونَ إلى الجِهادِ مِن غَيرِ تَوقُّفٍ على الإذنِ، فضلًا عن أنْ يَسْتأذِنوكَ في التَّخلُّفِ، وحيثُ اسْتأذَنَكَ هؤلاءِ في التخلُّف كان ذلك علامةً للتَّأني في أَمْرِهم، بل دليلًا على نِفاقِهم(١).

- وجُمْلَةُ: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ مُعترِضةٌ؛ لفائدةِ التَّنبيهِ على أنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ على أسرارِ المؤمنينَ؛ إذْ هُمُ المرادُ بالمُتَّقينَ(٢)، وفيه أيضًا شهادةٌ لهم بالانْتِظامِ في زُمرةِ المتَّقينَ، وعِدَةٌ لهم بأَجْزلِ الثَّوابِ، وتَقريرٌ لمضمونِ ما سَبَقَ، كأنَّهُ قيل: واللهُ عليمٌ بأنَّهُمْ كَذَلِكَ، وإشعارٌ بأنَّ ما صَدرَ عنهم مُعلَّلٌ بالتَّقوى(٣).

- وفي هذه الآيةُ تعييرٌ للمُنافِقينَ، وطَعْنٌ عليهم بيِّنٌ(٤).

٢- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ...﴾ مُستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا نَشَأ عن تَبرئةِ المؤمنينَ مِن أنْ يَسْتأذنوا في الجِهادِ، ببيانِ الذين شأنُهم الاسْتِئذانُ في هذا الشَّأنِ، وأنَّهم الذين لا يُؤمنونَ باللهِ واليومِ الآخِرِ في باطِنِ أمْرِهم؛ لأنَّ انْتِفاءَ إيمانِهم يَنْفي رَجاءَهم في ثوابِ الجِهادِ؛ فلذلك لا يُعرِّضونَ أَنْفُسَهم له(٥).

- وأفادتْ ﴿إِنَّمَا﴾ القَصْرَ، وصِيغةُ القَصْرِ هنا دَالَّةٌ باعْتِبارِ أَحَدِ مَفادَيْها على تأكيدِ جُمْلةِ ﴿إِنَّما يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾(٦)،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٦٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١٢).
(٦) وذلك لأنَّ القصرَ يُفيدُ مفادَ خَبرينِ بإثباتِ شيءٍ ونفيِ ضدِّه.

وقد كانتْ مُغْنيةً عَنِ الجملةِ المؤكَّدةِ، لولا أنَّ المُرادَ مِن تقديمِ تلك الجُمْلةِ التَّنويهُ بفَضيلةِ المؤمنينَ؛ فالكلامُ إطنابٌ لقَصْدِ التَّنويهِ، والتنويهُ مِن مَقاماتِ الإطنابِ[1].

- وأيضًا في قولِه: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ حَذْفُ مُتَعلِّقِ ﴿يَسْتَأْذِنُكَ﴾؛ لِظُهورِه ممَّا قَبْلَه ممَّا يُؤذِنُ به فِعْلُ الاسْتئذانِ في قولِهِ: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، والتَّقديرُ: (إنَّما يَسْتَأْذِنُكَ الذين لا يُؤمنونَ في ألَّا يُجاهِدوا)[2].

- وفي قولِه: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ تَخصيصُ الإيمانِ باللهِ واليومِ الآخِرِ بالذِّكْرِ في المَوْضِعينِ؛ للإيذانِ بأنَّ الباعِثَ على الجِهادِ ببَذْلِ النَّفْسِ والمالِ إنَّما هو الإيمانُ بِهِما[3].

- قولُه: ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فيه إيثارُ صِيغةِ الماضي؛ للدَّلالةِ على تَحقيقِ الرَّيبِ وتقرُّرِه[4].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾

- والأمرُ في قولِهِ: ﴿اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ أمرُ تَوبيخٍ، كقولِه تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠]، بقَرينةِ قولِهِ: ﴿مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾[5].

- وزيادةُ قولِهِ: ﴿مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ ذمٌّ لهم وتعجيزٌ، وإلحاقٌ بالنِّساءِ والصِّبيانِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٢٣٠).

والزَّمْنَى الذين شأنُهُم القُعودُ والجُثومُ في البُيوتِ، وهم القاعِدونَ والخالِفونَ والخوالِفُ(١).

٤- قوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ...﴾ اسْتِئنافٌ بَيانيٌّ لجُمْلةِ: ﴿كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾؛ لبَيانِ الحِكْمةِ مِنْ كراهيةِ اللهِ انْبِعاثَهم، وهي إرادةُ اللهِ سَلامةَ المُسلِمينَ مِن أضرارِ وُجودِ هؤلاءِ بينهم؛ لأنَّهم كانوا يُضمِرونَ المَكرَ للمُسلِمينَ فيَخرجون مُرْغَمِين(٢).

- قولُه: ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ فيه حذف المفعول، والتقدير: لأَوْضَعُوا رَكائِبَهم، والمُرادُ به المُبالغةُ في الإسراعِ بالنَّمائمِ؛ لأنَّ الرَّاكِبَ أسرعُ مِنَ الماشي(٣). وقيل: المعنى: أَوْقَعوا الإيضاعَ، وحُذِفَ المفعولُ إشارةً إلى أنَّ مُرادَهم الإيضاعُ نَفْسُه لا بَقيدِ دَابَّةٍ، وعبَّر بالإيضاعِ؛ لأنَّه للرَّاكبِ، وهو أَسْرعُ مِن الماشِي(٤).

- وهو تمثيلٌ لحالةِ المُنافِقين حِينَ يَبذُلون جُهدَهم لإيقاعِ التَّخاذُلِ والخوفِ بَينَ جَيشِ المُؤمنِين، وإلقاءِ الأخبارِ الكاذِبةِ عن قُوَّةِ العدوِّ، بحالِ مَن يُجهِد بَعيرَه بالسَّيرِ لإبلاغِ خَبرٍ مهمٍّ، واختير هنا ذِكرُ الإيضاعِ لعِزَّةِ هذا المعنى، ولِمَا فيه مِنَ الصَّلاحيةِ لتَفكيكِ الهيئةِ بأنْ يُشبَّه الفاتِنون بالرَّكْبِ، ووسائلِ الفِتنةِ بالرَّواحلِ، وفي ذكر ﴿خِلَالَكُمْ﴾ ما يَصلُح لتشبيهِ استقرائِهم

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٧٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧١).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٩١).

الجماعاتِ والأفرادَ بتَغلْغُلِ الرَّواحلِ في خِلالِ الطُّرُقِ والشِّعابِ[١].

- وجُملةُ: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ اعْتِراضٌ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ بَغْيَهُمُ الفِتْنَةَ أشدُّ خَطَرًا على المسلِمينَ؛ لأنَّ في المُسلمينَ فَريقًا تَنْطلي عليهم حِيلُهُم، وهؤلاءِ هم سُذَّجُ المُسلِمينَ الذين يَعْجبونَ مِنْ أخبارِهم ويَتأثَّرونَ، ولا يَبْلغونَ إلى تَمييزِ التَّمويهاتِ والمَكائِدِ عَنِ الصِّدْقِ والحَقِّ[٢].

- وجاءَ قولُه: ﴿سَمَّاعُونَ﴾ بصِيغةِ المُبالَغةِ (فعَّالونَ)؛ للدَّلالةِ على أنَّ اسْتِماعَهم تامٌّ، وهو الاسْتِماعُ الذي يُقارِنُه اعْتِقادُ ما يُسْمَعُ[٣].

- وجُملةُ: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ تَذييلٌ قُصِدَ مِنْه إعلامُ المسلمينَ بأنَّ اللهَ يَعْلَمُ أحوالَ المُنافِقينَ الظَّالمينَ؛ ليَكونوا مِنْهُمْ على حَذَرٍ، وليَتوسَّموا فيهم ما وَسَمَهُمُ القرآنُ به، ولِيَعْلموا أنَّ الاسْتِماعَ لَهُمْ هو ضَرْبٌ مِنَ الظُّلْمِ[٤].

- وفي قولِه: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ وَضَعَ المُظْهَرَ مَوضِعَ المُضْمَرِ- حيثُ لم يَقُلْ: (واللهُ عليمٌ بهم)-؛ للتَّسجيلِ عليهِمْ بالظُّلْمِ، والتَّشديدِ في الوَعيدِ، والإشعارِ بتَرتُّبِه على الظُّلْمِ، ولَعلَّه شامِلٌ للفَريقينِ: السَّمَّاعِينَ والقاعِدينَ[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١٦ - ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧١).

الآيات (٤٨-٥٢)

﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿قَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ﴾: أي: دَبَّروا لك الحِيَلَ والمكايِدَ، ودوَّروا الآراءَ في إبطالِ أمْرِك، وتَقليبُ الأمورِ: تَدبيرُها والنَّظرُ فيها، وأصلُ (قلب): يدلُّ على ردِّ شَيءٍ مِن جِهةٍ إلى جِهةٍ(١).

﴿تَرَبَّصُونَ﴾: أي: تَنتَظِرونَ، وأصل التَّربُّص: الانتِظارُ والتمَكُّثُ(٢).

﴿الْحُسْنَيَيْنِ﴾: أي: العاقِبَتينِ اللَّتَينِ كلٌّ منهما حَسَنٌ: النُّصرةُ أو الشَّهادةُ، وأصل (حسن) ضِدُّ القُبحِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨١، ٦٨٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٧٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٦٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٩٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١٢).

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ المُنافِقينَ طَلَبوا فِتنةَ المُسلِمينَ من قبلُ، وطَلَبوا الشَّرَّ لِرَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فصرَّفوا آراءَهم، وأعمَلُوا الحِيَلَ والمكايِدَ؛ ليُحَقِّقوا ذلك، إلى أن جاء نصرُ الله، وغلَبَ دينُه، وهم كارِهونَ حُصولَ ذلك.

ويُبيِّنُ تعالى أنَّ مِن المُنافِقينَ مَن يقولُ لمُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حين دعاهم لِغَزوِ الرُّومِ: ائذَنْ لي في التخَلُّفِ عن الخُروجِ، ولا تفتِنِّي برؤيةِ نِساءِ الرُّومِ؛ فإنِّي لا أصبِرُ عنهُنَّ إن رأيتُهنَّ.

ويُبيِّنُ تعالى أنَّهم قد وقعوا في الفِتنةِ العظيمةِ ببقائِهم في الكُفرِ، وإثمِ تَخلُّفِهم عن الجِهادِ، وبمَعصيَتِهم لرَسولِ الله، وإنَّ جَهنَّمَ لَمُحيطةٌ بالكافرينَ.

ويُبيِّنُ تعالى أنَّه إن غزا المؤمنون ونَصَرهم اللَّهُ على أعدائِهم، وغَنِموا، ونالهم خِصْبٌ في مَعايِشِهم؛ ساء ذلك المُنافِقينَ وحَزِنوا من أجلِه، وإن تصِبْهم مصيبةٌ بهزيمةٍ أو قتلٍ أو جِراحٍ يقولوا: قد احتَطْنا لأنفُسِنا، وأخَذْنا حِذْرَنا من قَبلُ، فسَلِمْنا؛ لِعَدمِ خُروجِنا معكم، وينصَرِفوا وهم فَرِحونَ، وأمَرَ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يقولَ لهم: لن يُصيبَنا إلَّا ما كتَبَ اللهُ لنا، هو سيِّدُنا وناصِرُنا، وعلى الله وَحدَه فلْيَعتَمِدِ المُؤمِنونَ، ويُفَوِّضوا أمورَهم إليه.

كما أمَرَه تعالى أن يقولَ لهم: هل تَنتَظِرونَ بنا إلَّا أن تُصيبَنا إحدى الحُسنَيَينِ: النَّصرُ أو الشَّهادةُ، ونحن ننتظِرُ أن يُصيبَكم اللهُ بعقوبةٍ مِن عِندِه أو بأيدينا، فانتَظِروا ونحنُ معكم مُنتَظِرونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ٤٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وللمسلمينَ أنَّه ثَبَّطَ المُنافقينَ عن الخُروجِ للجِهادِ، وبيَّن أنَّهم لو خَرَجوا فيهم ما زادُوهم إلَّا خَبالًا- بَيَّنَ أنَّ هذا الذي ينطوي عليه المُنافقونَ مِن الشرِّ، كان موجودًا فيهم قبلَ ذلك؛ قبل أن يَنزِلَ القرآنُ في شأنِهم، وأن تَطَّلِعُوا عليهم، فقال تعالى[1]:

﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ﴾.

أي: لقد طلَبَ المُنافِقونَ فِتنةَ المُسلِمينَ، بصَدِّهم عن الدِّينِ، وإفسادِ ما بينهم مِن قَبلِ غَزوةِ تبوكَ، كما فعَلُوا في غزوةِ أُحُدٍ وغَيرِها[2].

﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾.

أي: وطلَبَ المُنافِقونَ الشَّرَّ لك- يا مُحمَّدُ- فصرَّفوا آراءَهم، وأجالُوا أفكارَهم، وأدارُوا عُقولَهم، وأعمَلُوا الحِيَلَ والمكايِدَ، ساعِينَ بذلك لإفسادِ أمْرِك، وإنكارِ دِينِك، وصَدِّ النَّاسِ عن اتِّباعِك، وتخذيلِ أصحابِك عنك[3].

﴿حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ﴾.

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٧٥)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٣١٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤١)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٧٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٦٦)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٣١٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤١)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٣).

أي: سعى المُنافقونَ في ابتغاءِ الفِتنةِ، وتقليبِ الأمورِ، إلى أن جاء نَصرُ الله تعالى(١).

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩].

﴿وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾.

أي: وغلَبَ دينُ الله الذي أمَرَ بالدُّخولِ فيه- وهو الإسلامُ- وعلا وظهَرَ وانتصَرَ، والحالُ أنَّ المُنافِقينَ كارِهونَ لِظُهورِه، ويَسوؤُهم انتصارُه وعُلُوُّه(٢).

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤١٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٤).

قال ابنُ كثير: (لقد أعمَلوا فِكرَهم وأجالوا آراءَهم في كيدِك وكَيدِ أصحابِك، وخِذلانِ دِينِك وإخمالِه مُدَّةً طويلةً، وذلك أولَّ مَقدَمِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم المدينةَ، رَمَتْه العربُ عن قَوسٍ واحدةٍ، وحارَبَتْه يهودُ المدينة ومُنافِقوها، فلمَّا نصَرَه اللهُ يومَ بدرٍ وأعلى كَلِمَتَه، قال عبدُ الله بنُ أُبيٍّ وأصحابُه: هذا أمرٌ قد توجَّهَ. فدَخَلوا في الإسلامِ ظاهرًا، ثمَّ كُلَّما أعزَّ اللهُ الإسلامَ وأهلَه، غاظَهم ذلك وساءَهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٠- ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٨)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٤).

قال ابن عاشور: (والمرادُ بظُهورِ أمرِ اللهِ نصرُ المُسلِمينَ بفَتحِ مَكَّةَ، ودُخول النَّاسِ في الدِّينِ أفواجًا، وذلك يكرَهُه المُنافِقونَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢٠).

سبَبُ النُّزولِ:

عن جابِرِ بنِ عَبدِ الله رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((سمِعْتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ لجَدِّ بنِ قَيس: يا جَدُّ، هل لك في جِلادِ بني الأصفَرِ؟ قال جدٌّ: أوَ تأذَنُ لي يا رسولَ الله؛ فإنِّي رجُلٌ أحِبُّ النِّساءَ، وإنِّي أخشى إنْ أنا رأيتُ نِساءَ بَني الأصفَرِ أنْ أفتَتِنَ؟! فقال رَسولُ الله- وهو مُعرِضٌ عنه-: قد أذِنْتُ لك، فعند ذلك أنزَلَ اللهُ: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾))[1].

وعن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((لَمَّا أراد النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يَخرُجَ إلى غزوةِ تَبوكَ، قال للجَدِّ بنِ قَيسٍ: يا جَدُّ بنَ قَيسٍ، ما تقولُ في مُجاهَدةِ بني الأصفَرِ؟ قال: يا رسولَ الله، إنِّي امرُؤٌ صاحِبُ نِساءٍ، ومتى أرى نِساءَ بني الأصفَرِ أفتَتِنُ؛ فائذَنْ لي في الجُلوسِ، ولا تفتِنِّي! فأنزَلَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾))[2].

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾.

أي: ومِنَ المُنافِقينَ مَن يَقولُ لمُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حين دَعاهم إلى غَزوِ الرُّوم: ائذَنْ لي في القُعودِ عن الخُروجِ معك، ولا تَبتَلِني برؤيةِ نِساءِ الرُّومِ؛ فإنِّي إن رأيتُهنَّ لا أصبِرُ عَنهنَّ، فأقَعُ في الإثمِ بسبَبِ الخُروجِ معكم[3]!!

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في ((التفسير)) (٦/ ١٨٠٩).
وحسَّن إسنادَه الألباني في ((السلسلة الصحيحة)) (٦/ ١٢٢٥).

(٢) أخرجه الطبراني في ((المعجم الكبير)) (٢/ ٢٧٥) (٢١٥٤)، وأبو نعيم في ((معرفة الصحابة)) (١٧٢٠).
قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٧/ ٣٣): فيه يحيى الحمَّاني وهو ضعيفٌ، وقال الألباني في ((النصيحة)) (٢٥٨): له شاهدٌ مِن حديث جابرٍ، وآخرُ مِن مرسلِ مجاهدٍ بسندٍ صحيحٍ عنه.
قال الواحديُّ: (قال ابنُ عباسٍ والمفسِّرون كلُّهم: نزلتْ في جدِّ بنِ قيسٍ المنافقِ). ((البسيط)) (١٠/ ٤٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٩١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾.

أي: ألَا إنَّ المُنافِقينَ الذين اعتَذَروا عن الجِهادِ بسبَبِ خَوفِهم مِن الفِتنةِ بنِساءِ الرُّومِ، قد وقَعُوا في الفِتنةِ العَظيمةِ ببَقائِهم في الكُفرِ، وإثْمِهم بالتخَلُّفِ عن الجهادِ، ومَعصيةِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ(١).

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾.

أي: وإنَّ نارَ جَهنَّمَ ستُحيطُ بالكافِرينَ يَومَ القيامةِ، وتُحدِقُ بهم مِن كُلِّ جانِبٍ، فليس لهم عنها مفَرٌّ(٢).

كما قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ * يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٤-٥٥].

وقال سُبحانه: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩].

وقال جلَّ جلاله: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ * بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٩-٤٠].

= (٤/ ١٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٥).

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٥٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٢)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٩٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٨).

وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ * فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ [الهمزة: ٨-٩].

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذا نوعٌ آخَرُ مِن كَيدِ المُنافِقينَ، ومن خُبْثِ بَواطِنِهم[1].

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾.

أي: إن غَزَوْتُمْ وَنَصَرَكم اللَّهُ على أعدائِكم، وظَهَرْتُم عليهم وغَنِمْتُم، وتتابَعَ النَّاسُ في دُخولِ دينِكم، ونالكم خِصْبٌ فِي مَعايِشِكم؛ ساء ذلك المُنافِقينَ، وحَزِنوا من أجلِه[2].

﴿وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾.

أي: وإن تُصِبْكم مُصيبةٌ بهزيمةٍ أو قتلٍ أو جِراحٍ، يقُلِ المُنافِقونَ: قد احتَطْنا لأنفُسِنا، وأخَذْنا حِذْرَنا مِن قَبلِ أن يُصيبَكم هذا المَكروهُ، فسَلِمْنا لأنَّا لم نَخرُجْ معكم[3].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٩٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٨٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦١، ١٦٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٩).
قال محمد رشيد رضا: (المتبادِرُ أنَّ هذا إخبارٌ عن شأنِهم في ماضِيهم وحاضِرِهم ومُستَقبلِهم، والحَسَنةُ كلُّ ما يَحسُنُ وقعُه ويَسُرُّ، مِن غنيمةٍ ونُصرةٍ ونعمةٍ، أي: أنَّه يَسوؤُهم كلُّ ما يَسُرُّك، كما ساءَهم النَّصرُ في بَدرٍ وغيرِ بَدرٍ مِن الغَزَواتِ). ((تفسير المنار)) (١٠/ ٤١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٩٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٨٠)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٢١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤١٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٩).=

﴿وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾.

أي: وينصَرِفِ المُنافقونَ- إن أصابَتْكم مصيبةٌ-[(١)] وهم مَسرُورونَ بما أصابَكم، ومَسرُورونَ بسَلامَتِهم بتخلُّفِهم عنكم[(٢)].

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان قَولُهم: ﴿قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ متضَمِّنًا لِتوهُّمِ القدرةِ على الاحتراسِ مِن القَدَرِ؛ ومبيِّنًا أنَّهم يَفرَحونَ بمُصيبةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمسلمينَ، وبِعَدمِ مُشاركَتِهم لهم فيها، فقال تعالى رادًّا عليهم في ذلك[(٣)]، بعَدمِ اكتراثِ المُسلِمينَ بالمُصيبةِ، وانتفاءِ حُزْنِهم عليها؛ لأنَّهم يعلمونَ أنَّ ما أصابَهم ما كان إلَّا بتقديرِ الله لِمَصلحةِ المُسلِمين في ذلك، فهو نَفعٌ مَحضٌ[(٤)].

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾.

أي: قُلْ- يا محمَّدُ- للمُنافِقينَ الذين يَفرَحونَ بما يُصيبُكم مِن مَكروهٍ: لن

= قال ابن عطية: (قَولُه تعالى: ﴿إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ﴾ الآية، أخبرَ تعالى عن مُعتَقَدِهم وما هم عليه، و«الحسَنةُ» هنا بحسَبِ الغَزوةِ هي: الغنيمةُ والظَّفَر، و«المُصيبة» الهَزمُ والخَيبةُ، واللَّفظُ عامٌّ بعد ذلك في كلِّ محبوبٍ ومَكروهٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٢).

(١) قال الشنقيطي: (﴿وَيَتَوَلَّوْا﴾ عن دينِ الإسلامِ، ونُصرةِ رَسولِ الله، أو يتولَّى بعضُهم راجعًا إلى بعضٍ). ((العذب النمير)) (٥/ ٥٦٠). ويُنظَر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٩٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٨٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٩، ٥٦٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص:٣٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢٣).

يُصيبَنا إلَّا ما قدَّرَه اللهُ وكتَبَه لنا في اللَّوحِ المَحفوظِ(١).

كما قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣].

وقال سُبحانه: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [التغابن: ١١].

وعن صُهَيبٍ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((عَجَبًا لأمرِ المُؤمِنِ، إنَّ أمْرَه كُلَّه خَيرٌ، وليس ذاك لأحَدٍ إلَّا للمُؤمِنِ؛ إن أصابَتْه سرَّاءُ شكَرَ، فكان خَيرًا له، وإن أصابَتْه ضَرَّاءُ صَبَرَ، فكان خَيرًا له))(٢).

وعن عبدِ الله بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((سَمِعْتُ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: كتَبَ اللهُ مَقاديرَ الخَلائِقِ قَبلَ أن يَخلُقَ السَّمَواتِ والأرضَ بخَمسينَ ألفَ سنةٍ))(٣).

﴿هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾.

أي: اللهُ هو سَيِّدُنا وناصِرُنا(٤).

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

أي: وعلى الله وَحْدَه فلْيعتَمِدِ المؤمنونَ، ويُفَوِّضوا أمورَهم إليه(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٩٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٨٠، ٤٨١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٦٠).

(٢) رواه مسلم (٢٩٩٩).

(٣) رواه مسلم (٢٦٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٦٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٦٠)، ((العذب النمير)) =

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لما أجابَ تعالى عن فَرَحِ المُنافِقينَ بمصائِبِ المُؤمنِينَ؛ أجاب بجوابٍ ثانٍ، وذلك لأنَّ المُسلِمَ إذا ذهَبَ إلى الغَزوِ، فإن صار مَغلوبًا مقتولًا، فاز بالاسمِ الحَسَنِ في الدُّنيا، والثَّوابِ العظيمِ الذي أعَدَّه اللهُ للشُّهَداءِ في الآخرةِ، وإن صار غالبًا فاز في الدُّنيا بالمالِ الحلالِ والاسمِ الجَميلِ، وهي الرُّجوليَّةُ والشَّوكة والقُوَّة، وفي الآخرة: بالثَّوابِ العَظيمِ. وأمَّا المنافِقُ إذا قعد في بَيتِه، قعَد مذمومًا، مَنسوبًا إلى الجُبنِ والفَشَلِ، وضَعفِ القَلبِ، والقَناعةِ بالأمورِ الخَسيسةِ من الدُّنيا على وجهٍ يُشارِكُه فيها النِّسوانُ والصِّبيانُ، والعاجِزونَ مِن النِّساء، ثم يكونونَ أبدًا خائِفينَ على أنفُسِهم وأولادِهم وأموالِهم، وفي الآخِرةِ إن ماتوا فقد انتَقَلوا إلى العذابِ الدَّائمِ في القِيامةِ، وإن أَذِنَ اللهُ في قَتْلِهم وَقَعوا في القَتلِ والأسْرِ والنَّهبِ، وانتَقَلوا من الدُّنيا إلى عذابِ النَّارِ[1].

وأيضًا لَمَّا تضَمَّنَ ما سبقَ أنَّ سَرَّاءَ المؤمنينَ وضَرَّاءَهم لهم خَيرٌ؛ من حيثُ إنَّ الرِّضا بـمُرِّ القَضاءِ، مُوجِبٌ لإقبالِ القاضي على المقضِيِّ عليه بالرَّأفةِ والرَّحمةِ- صرَّحَ بذلك في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾ أي: وهي أن نُصيبَ أعداءَنا، فنظفَرَ ونغنَمَ ونُؤجَرَ، أو يُصيبُونا بقَتلٍ أو غيرِه، فنؤجَرَ، وكِلَا الأمرينِ حَسَنٌ[2].

= للشنقيطي (٥/ ٥٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٦٧-٦٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٤٩٧).

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ﴾.

أي: قلْ- يا مُحمَّدُ- للمُنافِقينَ الذين يَفرَحونَ بما يُصيبُكم مِن مكروهٍ: ما تنتَظِرونَ بنا إلَّا أن تُصيبَنا إحدى الخَلَّتينِ اللَّتين هما أحسَنُ مِن غَيرِهما: النَّصرُ أو الشَّهادةُ[١].

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((تضمَّنَ اللهُ لِمَن خرَجَ في سبيلِه، لا يُخرِجُه إلَّا جِهادًا[٢] في سبيلي، وإيمانًا بي، وتصديقًا بِرُسُلي، فهو عليَّ ضامِنٌ أن أُدخِلَه الجنَّةَ، أو أَرجِعَه إلى مَسكَنِه الذي خرَجَ منه، نائلًا ما نال من أجرٍ أو غنيمةٍ، والذي نفسُ مُحمَّدٍ بيَده، ما من كَلْمٍ يُكْلَمُ[٣] في سبيلِ الله، إلَّا جاء يومَ القِيامةِ كَهَيئَتِه حين كُلِمَ؛ لَونُه لَونُ دَمٍ، وريحُه مِسكٌ، والذي نفسُ مُحمَّدٍ بيَدِه، لولا أن يَشُقَّ على المُسلِمينَ ما قعَدْتُ خلافَ سَرِيَّةٍ تغزُو في سبيلِ الله أبدًا، ولكِنْ لا أجِدُ سَعةً فأحمِلَهم، ولا يَجِدونَ سَعةً، ويشُقُّ عليهم أن يتخَلَّفوا عني، والذي نفسُ مُحمَّدٍ بيَدِه، لَوَدِدْتُ أنِّي أغزو في سَبيلِ الله فأُقتَلُ، ثم أغزو فأُقتَلُ، ثمَّ أغزو فأُقتَلُ))[٤].

﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴾.

أي: ونحن ننتَظِرُ بكم- أيُّها المُنافِقونَ- أن يُصيبَكم اللهُ في الدُّنيا بعقوبةٍ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٦٣، ٥٦٤).
ونسب الواحدي إلى ابنِ عبَّاسٍ وجميعِ المفَسِّرينَ في: ﴿إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ أنَّ الأُولى منهما تعني الغنيمةَ والفَتحَ، والثانيةَ تعني الشَّهادةَ والمغفرةَ. يُنظر: ((البسيط)) (١٠/ ٤٨٣).
(٢) قال النَّووي: (هكذا هو في جميعِ النُّسَخِ (جِهادًا) بالنَّصبِ، وكذا قال بعده: (وَإيمانًا بي وتصديقًا) وهو منصوبٌ على أنَّه مفعولٌ له، وتقديرُه: لا يُخرِجُه المُخرِجُ ويُحَرِّكُه المحَرِّكُ إلا للجهادِ والإيمانِ والتصديق). ((شرح النووي على مسلم)) (١٣/ ٢٠).
(٣) الكَلْمُ: الجُرحُ. ويُكْلَمُ: أي: يُجرَحُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٣/ ٢١).
(٤) رواه مسلم (١٨٧٦).

عِندِه أو بعذابٍ بأيدينا، فيُسَلِّطَنا عليكم، فنَقتُلَكم، إن أظهَرْتم نِفاقَكم[1].

﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾.

أي: وإذا كان الأمرُ كذلك إذن فانتَظِروا، ونحن مَعكم مُنتَظِرونَ ما اللهُ فاعِلٌ بنا وبكم؛ فكلٌّ منا سيَصيرُ إلى ما يتربَّصُ به الآخَرُ إليه[2].

كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ [يونس: ١٠٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّ من عصى اللهَ لِغَرَضٍ ما، فإنَّه تعالى يُبطِلُ عليه ذلك الغَرَضَ، ألا ترى أنَّ القَومَ إنَّما اختاروا القُعودَ؛ لِئلَّا يقَعُوا في الفتنةِ، فالله تعالى بيَّنَ أنهم في عَينِ الفِتنةِ واقعونَ ساقِطونَ[3]؟!

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فيه تعليمٌ للمُسلِمينَ التخَلُّقَ بألَّا يَحزَنوا لِما يُصيبُهم؛ لِئلَّا يَهِنوا وتذهَبَ قُوَّتُهم، وأن يَرضَوْا بما قَدَّرَ اللهُ لهم، ويَرجُوا رِضا رَبِّهم؛ لأنَّهم واثِقونَ بأنَّ اللهَ يُريدُ نَصرَ دِينِه[4].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٩٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٨٥)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٥٧)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٣/ ١٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٩٦)، ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣٠٦)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٣٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤١٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢٣).

٣- أخبَرَ اللهُ تعالى عن نَفسِه في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا﴾ أنَّه هو سُبحانه وليُّ المؤمنينَ، فلا يقضي قضاءً لهم إلَّا كان خيرًا لهم، ومَن تولَّاه اللهُ لم يَخذُلْه، وإنَّما يتولَّى مَصالِحَه(١).

٤- إذا ترَكَ العِبادُ الذي أُمِرُوا به من الجهادِ في سَبيلِ الله، واشتَغَلوا عنه بما يصُدُّهم عنه مِن عمارةِ الدُّنيا، هلَكوا في دُنياهم بالذُّلِّ، وقَهرِ العَدُوِّ لهم، واستيلائِه على نُفوسِهم وذراريِّهم وأموالِهم، ورَدِّه لهم عن دِينِهم، وعَجْزِهم حينئذٍ عن العمَلِ بالدِّينِ، بل وعن عمارةِ الدُّنيا، وفُتورِ همَمِهم عن الدِّينِ، بل وفسادِ عَقائِدِهم فيه. قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧] وتَركُ الجهادِ يُوجِبُ الهلاكَ في الدُّنيا- كما يُشاهِدُه النَّاسُ- وأمَّا في الآخرةِ فلَهم عذابُ النَّارِ. وأمَّا المؤمِنُ المجاهِدُ، فهو كما قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ فأخبَرَ تعالى أنَّ المُؤمِنَ لا ينتَظِرُ إلَّا إحدى الحُسنَيَينِ: إمَّا النَّصرَ والظَّفَرَ، وإمَّا الشَّهادةَ والجنَّةَ، فالمؤمِنُ المجاهِدُ إن حَيِيَ حَيِيَ حياةً طيِّبةً، وإن قُتِلَ فما عند الله خَيرٌ للأبرارِ(٢).

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ مِن أعظَمِ الآياتِ التي تجعَلُ المُسلِمَ يَشتاقُ إلى الجهادِ غايةَ الاشتياقِ؛ لأنَّك لا تجِدُ في الدُّنيا رجلًا مآلُه إلى خيرٍ عَظيمٍ على كلِّ التَّقديراتِ إلَّا المجاهدَ في سبيلِ الله؛ لأنَّه إن مات نال أمنيَّةَ الدُّنيا والآخِرةِ، ونال الفوزَ والحياةَ الأبديَّةَ،

(١) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٣/ ١٤٦).
(٢) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٥/ ٣٢٧- ٣٢٨).

والكرامةَ التي لا نظيرَ لها، وإنْ نصَرَه اللهُ على عدُوِّه، فرجَعَ ظافِرًا غانِمًا فائِزًا؛ فهذا أيضًا حسَنٌ، وهذا لا يكونُ لأحَدٍ إلَّا للمجاهِدِ في سبيلِ الله، فمن تأمَّلَ معنى هذه الآيةِ الكريمةِ اشتاقَ لا محالةَ إلى الجهادِ في سَبيلِ الله تعالى(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ وُصِفَ أمرُ الله بالظُّهورِ؛ لأنَّه كان كالمَستورِ، أي: غلَبَ وعلا دينُ الله(٢).

٢- وقولُه: ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ فيه تَنْبيهٌ على أنَّهُ لا تأثيرَ لِمَكْرِهم وكَيدِهم، ومُبالغتِهم في إثارةِ الشَّرِّ؛ فإنَّهم مُذْ رَامُوا ذلك رَدَّه اللهُ في نَحْرِهم، وقَلَبَ مُرادَهُم، وأتَى بِضِدِّ مَقصودِهم؛ فكما كان ذَلِكَ في الماضي كذا يَكونُ في المُستقبَلِ(٣).

٣- قولُهُ تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي﴾ إلى قوله: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ استُدِلَّ به على جوازِ قَتلِ الزِّنديقِ والمُنافِقِ مِن غَيرِ استتابةٍ، وجهُ ذلك أنَّ معنى قَولِه: ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾- أي: بالقَتلِ- إن أظهَرْتُم ما في قُلوبِكم قتَلْناكم؛ وذلك لأنَّ العَذابَ على ما يُبطِنونَه مِن النِّفاقِ بأيدينا لا يكونُ إلَّا القَتلَ لِكُفرِهم، ولو كان المنافِقُ يَجِبُ قَبولُ ما يُظهِرُه من التوبةِ بعدما ظَهَرَ نفاقُه وزَندقَتُه، لم يمكِنْ أن نتربَّصَ بهم أن يُصيبَهم اللهُ تعالى بعذابٍ مِن عِندِه أو بأيدينا؛ لأنَّا كُلَّما أرَدْنا أن نعَذِّبَهم على ما أظهَروه أظهَرُوا التَّوبةَ(٤).

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٦٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٣١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((الصارم المسلول على شاتم الرسول)) لابن تيمية (ص: ٣٤٥).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ هذا وعيدٌ لهم على الفِتنةِ التي تَرَدَّوْا فيها، وُضِعَ فيه المُظهَرُ مَوضِعَ ضَميرِهم؛ للنَّصِّ على أنَّ عِقابَهم بإحاطةِ جَهنَّمَ بهم عقابٌ على الكُفرِ الذي حمَلَهم على ذلك الاعتذارِ، الذي هو ذنبٌ في نفسه كان أقصى عِقابِه مسَّ النَّارِ دونَ إحاطَتِها لو لم يكُن سَبَبُه الكفرَ، بتكذيبِ الرَّسولِ فيما جاء به مِن حُكمِ الجهادِ وثوابِه، والعِقابِ على تَرْكِه، أو الشَّكِّ في ذلك[1].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ دَلالةٌ على أنَّ ما يُصيبُ العبدَ في دُنياه- ممَّا يضُرُّه أو ينفَعُه- فكلُّه مُقَدَّرٌ عليه، ولا يصيبُ العبدَ إلَّا ما كُتِبَ له مِن مقاديرِ ذلك في الكتابِ السَّابِقِ، ولو اجتهَدَ على ذلك الخلقُ كلُّهم جميعًا[2].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ يفيدُ الحَصرَ، وهذا كالتَّنبيه على أنَّ حالَ المُنافِقينَ بالضِّدِّ من ذلك، وأنَّهم لا يتوكَّلونَ إلَّا على الأسبابِ الدُّنيويَّةِ، واللَّذَّاتِ العاجلةِ الفانيةِ[3].

٧- قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾. ولم تُذكَرْ هاتانِ العاقِبتانِ للمُنافقينَ بِصيغةِ الحَصرِ كعاقِبتَي المؤمنينَ؛ لجوازِ أن يَتوبوا عن نِفاقِهم، ويَصِحَّ إيمانُهم، وقد تاب بعضُهم، واعترَفوا بما كانوا عليه بعد ظُهورِ أمْرِهم[4].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ إثباتُ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤١٢).
(٢) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ٤٨٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٦٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤١٣).

تأثيرِ الأسبابِ؛ حيث بيَّن اللهُ تعالى أنَّ العذابَ قد يقَعُ بأيدي العِبادِ(١).

بلاغةُ الآيات:

١- قَولُه تعالى: ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ في هذه الآيةِ تَحقيرٌ لشَأْنِهم؛ وذلك أنَّه أخْبَرَ أنَّهم لَمَّا سَعَوا على الإسلامِ، أبْطَل اللهُ سَعْيَهم(٢).

- وجُملةُ: ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ﴾ تَعْليلٌ لقولِه: ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾؛ لأنَّها دَليلٌ على أنَّ ذلك دَيدنٌ لهم مِنْ قَبْلُ(٣).

٢- قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾

- قَولُه: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي﴾ عبَّر عن قولِه بالفعلِ المضارعِ؛ لاستحضارِ تلك الحالِ لِغَرابتِها، فإنَّ مِثْلَه في نفاقِه لا يخشَى على نَفْسِه إثْمَ الافتتانِ بالنِّساءِ؛ إذ لا يجِدُ مِن دِينِه مانعًا مِن التمتُّعِ بهنَّ وهو يحِبُّهنَّ، بل شأنُ ذلك أن يكونَ مُرَغِّبًا له في هذه الغَزوةِ(٤).

- قولُه: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ في الإتيانِ بأداةِ الاسْتِفتاحِ ﴿أَلَا﴾: تَنبيهٌ على ما بَعْدَها من عَجيبِ حالِهم؛ إذْ عامَلَهم اللهُ بنَقيضِ مَقْصودِهم؛ فهم احْتَرَزوا عن فِتْنةٍ فوَقَعوا في الفِتْنةِ(٥).

- والتَّعريفُ في ﴿الْفِتْنَةِ﴾ تَعْريفُ الجِنْسِ المؤذِنُ بكَمالِ المُعرَّفِ في

---

(١) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٣/ ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤١٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢١).

جِنْسِه، أي: في الفِتْنةِ العَظيمةِ سَقَطوا[١].

- وقَدَّمَ الظَّرفَ: ﴿فِي الْفِتْنَةِ﴾ على عامِلِه: ﴿سَقَطُوا﴾ للدَّلالةِ على الحَصرِ، يقولُ: ألَا فلْيَعْلموا أنَّهم سَقَطوا وتَرَدَّوا بهذا القَولِ في هاويةِ الفِتنةِ بأوسَعِ مَعناها، لا في شَيءٍ آخَرَ مِن شُبُهاتِها أو مُشابِهاتِها[٢].

- قولُه: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ فيه إيثارُ الجُمْلةِ الاسْميَّةِ؛ للدَّلالةِ على الثَّباتِ والاسْتِمرارِ[٣].

- في قولِه: ﴿لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ إيثارُ وضْعِ المُظْهَرِ مَوضِعَ المُضْمَرِ -حيثُ لم يَقُلْ: مُحيطةٌ بِهم-؛ للتَّسجيلِ عليهم بالكُفْرِ، والإشعارِ بأنَّهُ مُعظمُ أسبابِ الإحاطةِ المذكورةِ[٤].

٣- قوله تعالى: ﴿إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا...﴾ فيه إسنادُ المُساءةِ إلى الحَسَنةِ والمَسرَّةِ إلى أَنْفُسِهمْ، دونَ المصيبةِ بأنْ يُقالَ: (وإنْ تُصِبْكَ مُصيبةٌ تَسْرُرْهُمْ)؛ للإيذانِ باخْتِلافِ حالَيْهم حالَتَي عُروضِ المَساءةِ والمَسرَّةِ بأنَّهُمْ في الأُولى مُضطرُّونَ، وفي الثَّانيةِ مُخْتارونَ[٥].

- قولُه: ﴿وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ فيه تَمْثِيلٌ لِحالِهم في تَخلُّصِهم مِنَ المُصيبةِ، التي قَدْ كانتْ تَحِلُّ بهم لو خَرَجوا مع المُسْلِمينَ، بحالِ مَن أَشْرَفوا على خَطَرٍ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢١).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤١٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٧٣).

ثُمَّ سَلِموا منه، ورَجَعوا فَرِحينَ مَسْرورينَ بسَلامتِهم، وبإصابةِ أعدائهم(١).

– قولُه: ﴿وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ فيه إيثارُ الجُمْلةِ الاسْميَّةِ؛ للدَّلالةِ على دَوامِ السُّرورِ(٢).

٤- قوله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّه فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾

– قولُه: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ فيه تَعدِيةُ فِعْلِ ﴿كَتَبَ﴾ باللَّامِ ﴿لَنَا﴾؛ للإيذانِ بأنَّهُ كَتَبَ ذلك لنَفْعِهم؛ لأنَّهم يَعْلَمونَ أنَّ ما أَصابَهم ما كان إلَّا بتَقديرِ الله لِمَصلحةِ المُسلِمينَ في ذلك؛ فهو نَفْعٌ مَحْضٌ(٣). فقال: ﴿لَنَا﴾ دون (علينا)؛ تنبيهًا على أنَّ الذي يُصيبُنا، نَعُدُّه نِعمةً لا نِقمةً، كما دلَّ لذلك الآيةُ التي تليها: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾(٤). وهذه اللَّامُ في قولِه ﴿إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ أيضًا مفيدةٌ مَعْنى الاخْتِصاصِ، كأنَّه قيل: لنْ يُصيبَنا إلَّا ما اخْتَصَّنا اللهُ به مِنَ النُّصْرةِ عليكم أو الشَّهادةِ(٥).

– قولُه: ﴿وَعَلَى اللَّه فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فيه إظهارُ الاسْمِ الجليلِ ﴿اللَّه﴾ في مَقامِ الإضمارِ؛ لإظْهارِ التَّبرُّكِ والتَّلذُّذِ به(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ٥١٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٧٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٣).

وهذا الوَجْهُ على أنَّ جُملةَ ﴿وَعَلَى اللَّه فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ مِنْ تمامِ الكلامِ المأمورِ به في قولِه: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا...﴾، وأمَّا على القولِ بأنَّ الجُملةَ مَسوقةٌ مِن قِبلِه تعالى أمرًا للمُؤمنينَ بالتَّوكُّلِ إثرَ أمرِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بما ذُكِرَ؛ فليس فيها هذا الوَجْهُ.

- وفي قولِه: ﴿وَعَلَى اللَّه فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ قدَّم الظَّرْفَ ﴿وَعَلَى اللَّه﴾ على الفِعْلِ ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾؛ لإفادةِ القَصْرِ، وأَصْلُ الكلامِ في غَيرِ القُرآنِ: (ليتوكَّلِ المؤمنونَ على الله)(١).

٥- قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾

- قولُه: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ...﴾ الاسْتِفهامُ مُستَعمَلٌ في النَّفي بقَرينةِ الاسْتِثناءِ، ومَعْنى الكلامِ تَوبيخٌ لهم، وتَخطئةٌ لتَربُّصِهم؛ لأنَّهُمْ يَتربَّصونَ بالمُسلِمينَ أنْ يُقْتلوا، ويَغْفُلونَ عن احْتِمالِ أنْ يُنْصروا؛ فكان المَعْنى: لا تَتربَّصونَ بِنا إلَّا أنْ نُقْتَلَ أو نَغْلِبَ، وذلك إحْدى الحُسْنَيَيْنِ(٢).

- وجاءتْ جُملةُ: ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ﴾ اسْميَّةً- حيثُ لَمْ يَقُلْ (ونَتربَّصُ بِكُمْ)- بخِلافِ الجُمْلةِ الفِعليَّةِ المعطوفِ عليها ﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ﴾؛ لإفادةِ تَقويةِ التَّربُّصِ، وكِنايةً عن تَقويةِ حُصولِ المُتربِّصِ؛ لأنَّ تَقويةَ التَّربُّصِ تُفيدُ قوَّةَ الرَّجاءِ في حُصولِ المُتربِّصِ، فتُفيدُ قُوَّةَ حُصولِه، وهو المُكْنَى عنه(٣).

- قولُه: ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ أَمْرٌ يتضَّمنُ التَّهديدَ والوعيدَ(٤).

- وجُملةُ: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ تَهديدٌ للمُخاطبينَ، وفُصِلَتْ هذه الجُمْلةُ عَنِ التي قَبْلَها- أي: لَمْ تُعْطَفْ عليها-؛ لأنَّها كالعِلَّةِ للحَضِّ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٢٢٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٣٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢٥).

الآيتان (٥٣-٥٤)

﴿ قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾.

المعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ نَبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يقولَ للمُنافِقينَ إنَّهم سواءٌ أنفَقوا أموالَهم بِرضًا منهم أو بغيرِ رِضًا، فلن يُقبَلَ منهم إنفاقُهم؛ وذلك لأنَّهم كانوا قَومًا فاسِقينَ.

وما منَعَ قَبولَ نَفقاتِهم إلَّا كُفرُهم باللهِ وبِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وكَونُهم لا يأتونَ الصَّلاةَ إلَّا وهم مُتثاقِلونَ، ولا يُنفِقونَ شَيئًا في أوجُهِ الخَيرِ إلَّا وهم كارِهونَ.

تَفسيرُ الآيتَين:

﴿ قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى في الآيةِ الأُولَى أنَّ عاقِبةَ هؤلاءِ المُنافِقينَ، هي العذابُ في الدُّنيا وفي الآخرةِ؛ بيَّنَ أنَّهم، وإن أتَوْا بِشَيءٍ مِن أعمالِ البِرِّ، فإنَّهم لا ينتَفِعونَ به في الآخرةِ، والمقصودُ بيانُ أنَّ أسبابَ العَذابِ في الدُّنيا والآخرةِ مُجتَمِعةٌ في حَقِّهم، وأنَّ أسبابَ الرَّاحةِ والخَيرِ زائلةٌ عنهم في الدُّنيا وفي الآخرةِ[1].

﴿ قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ﴾.

أي: قُلْ- يا مُحمَّدُ- للمُنافِقينَ: سواءٌ عليكم أنفَقْتُم أموالَكم باختيارِكم أم

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٦٨).

بِغَيرِ رِضًا منكم؛ فإنَّ الله تعالى لن يتقَبَّلَ منكم نفَقاتِكم[١].

كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾.

أي: لا يتقبَّلُ اللهُ تعالى نفَقاتِكم- أيُّها المُنافِقونَ- لأنَّكم كُنتم قومًا كافرينَ، خارِجينَ عن طاعةِ ربِّ العالَمينَ[٢].

﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها عَطفٌ على جملةِ ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾؛ فهي بيانٌ للتَّعليلِ لِعَدمِ قَبولِ نَفَقاتِهم، بزيادةِ ذِكرِ سَبَبينِ آخَرينَ مانِعَينِ مِن قَبولِ أعمالِهم، هما مِن آثارِ الكُفرِ والفُسوقِ. وهما: أنَّهم لا يأتونَ الصَّلاةَ إلَّا وهم كُسالى، وأنَّهم لا يُنفِقونَ إلَّا وهم كارِهونَ[٣].

﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٩٨، ٤٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٩٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٢٢)، ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣٠٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢٧).

أي: وما منَعَ قَبولَ نَفَقاتِ المُنافِقينَ إلَّا كُفْرُهم باللهِ عزَّ وجلَّ، وبِرَسولِه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم(١).

﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾.

أي: ولا يأتي المُنافِقونَ الصَّلواتِ المفروضةَ إلَّا وهم مُتثاقِلونَ عنها، يُراؤونَ النَّاسَ بها(٢).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

وقال سبحانه: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ * الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٥-٤٦].

﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾.

أي: ولا يُنفِقُ المُنافِقونَ شَيئًا مِن أموالِهم في أوجُهِ الخَيرِ - رعايةً لِمَصالِحِهم الخاصَّةِ - إلَّا وهم كارِهونَ لهذا الإنفاقِ، ويَعُدُّونَه مَغرمًا لا مَغْنمًا(٣).

الفَوائِد التربويَّة:

١- رُوحُ الطَّاعاتِ الإتيانُ بها لِغَرَضِ العبوديَّةِ، والانقيادِ في الطَّاعةِ، فإن لم يُؤتَ بها لهذا الغَرَضِ، فلا فائدةَ فيها، بل ربَّما صارت وَبالًا على صاحِبِها؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٩٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٩٩)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٩٩، ٥٠٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٩٠)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٧٥).

يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾(١).

٢- ينبغي للعَبدِ ألَّا يأتيَ الصَّلاةَ إلَّا وهو نشيطُ البدَنِ والقَلبِ إليها، ولا يُنفِقَ إلَّا وهو مُنشَرِحُ الصَّدرِ ثابتُ القَلبِ، يرجو ذُخْرَها وثوابَها مِن اللهِ وَحْدَه، ولا يتشَبَّهُ بالمُنافِقينَ الذين قال اللهُ تعالى فيهم: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾(٢).

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ وما كان اللهُ لِيَقبَلَ هذه الحركاتِ الظَّاهِرةَ التي لا تَحدُو إليها عَقيدةٌ، ولا يُصاحِبُها شُعورٌ دافِعٌ؛ فالباعِثُ هو عُمدةُ العَمَلِ، والنيَّةُ هي مِقياسُه الصَّحيحُ(٣).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ هذا يُوجِبُ أن تكون النَّفسُ طيِّبةً عند أداءِ الزَّكاةِ والإنفاقِ في سبيلِ الله؛ لأنَّ اللهَ ذَمَّ المُنافِقينَ بكَراهَتِهم الإنفاقَ(٤).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ سمَّى الإلزامَ إكراهًا؛ لأنهم مُنافِقونَ، فكان إلزامُ الله ورسولِه إيَّاهم الإنفاقَ شاقًّا عليهم كالإكراهِ(٥).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ اختِيرَ وَصفُ (الفاسقين) دونَ (الكافرينَ)؛ لأنَّهم يُظهِرونَ الإسلامَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٧٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (٣٤٠).
(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٦٦٥).
(٤) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٩٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٦٩).

ويُبطِنونَ الكُفرَ، فكانوا كالمائِلينَ عن الإسلامِ إلى الكُفرِ[١].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ الكُفرُ وإن كان وَحدَه كافيًا في عدمِ القَبولِ، إلَّا أنَّ ذِكرَ هَذينِ السَّبَبينِ إشارةٌ إلى تمكُّنِ الكُفرِ مِن قُلوبِهم، وإلى مَذَمَّتِهم بالنِّفاقِ الدَّالِّ على الجُبنِ والتردُّدِ، فذِكرُ الكُفرِ بَيانٌ لذِكرِ الفُسوقِ، وذِكرُ التَّكاسُلِ عن الصَّلاةِ؛ لإظهارِ أنَّهم مُتهاوِنونَ بأعظَمِ عبادةٍ، فكيف يكونُ إنفاقُهم عن إخلاصٍ ورَغبةٍ؟ وذِكرُ الكراهيةِ في الإنفاقِ؛ لإظهارِ عَدَمِ الإخلاصِ في هذه الخَصلةِ المُتحَدَّثِ عنها[٢].

٤- في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ إلى قولِه سبحانه: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ دليلٌ على أنَّ الكافرَ لا يَصْعَدُ له عملٌ؛ ولا يُقْبَلُ منه خيرٌ يُثَابُ عليه في الآخرةِ[٣].

٥- استُدِلَّ بقولِه تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ على أنَّ الزكاةَ المأخوذةَ قهرًا من صاحِبِها لا تُجزِئُه في الباطِنِ؛ لِعَدمِ النيَّةِ مع القُدرةِ عليها، ولأنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يأخُذُها من المنافِقينَ بإعطائِهم إيَّاها؛ وقد صرَّح القرآنُ بنَفيِ قَبولِها؛ لأنَّهم يُنفِقونَ وهم كارِهونَ، فعُلِمَ أنَّ النَّفَقةَ- مع كراهةِ الإنفاقِ- لا تُقبلُ[٤].

٦- قولُه تعالى: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٢٢٧).
(٣) يُنظر: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٥٤١).
(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ٢٠).

إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ استدلَّ به على أنَّ المرتدَ لو أَخْرَجَ زكاةَ مالِه في الرِّدَّةِ، ثم راجع الإسلامَ؛ لوجبتْ عليه الإعادةُ، واستئنافُ ما دَفَعَ مرةً أخرى؛ لأنَّه دَفَعَه في حينٍ لم يُقْبَلْ منه، والزكاةُ أعظمُ النفقات(١).

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾

- قولُه: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ فيه نَظْمُ الكلامِ في سِلْكِ الأَمْرِ؛ للمُبالَغةِ في بَيانِ تَساوي الأَمْرينِ في عَدِمِ القَبولِ(٢).

- وقولُه: ﴿أَنْفِقُوا﴾ أَمْرٌ في مَعْنى الخَبَرِ، ومَعْناهُ: لَنْ يُتَقبَّلَ مِنْكُم، أَنْفقتُم طَوعًا أو كَرْهًا، وفيه تَهديدٌ وتوبيخٌ لَهم(٣).

- قولُه: ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ في مَوضِعِ العِلَّةِ لنَفْيِ التَّقبُّلِ، أي: تَعليلٌ لَرَدِّ إنفاقِهم(٤).

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ في هذه الآيةِ تَرْتيبٌ حَسَنٌ بَديعٌ، حيثُ ذَكَر السَّببَ الذي هو بمُفْردِه مانعٌ مِنْ قَبولِ نَفَقاتِهم، وهو الكفرُ، وأَتْبَعَه بما هو ناشِئٌ عَنِ الكُفْرِ، ومُسْتلزِمٌ له وهو دَليلٌ عليه، وذلك هو إتيانُ الصَّلاةِ وهم كُسالَى، وإيتاءُ النَّفَقةِ وهم كارِهونَ؛ فالكَسَلُ

(١) يُنظر: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٥٤١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٧٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢٦).

في الصَّلاةِ، وتَرْكُ النَّشاطِ إليها، وأخذِها بالإقبالِ- مِنْ ثَمراتِ الكُفْرِ[١].

- قولُه: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ فيه تَخصيصُ هَذينِ العَمَلينِ الجَليلينِ- وهُما الصَّلاةُ والنَّفَقةُ- بالذِّكْرِ مِنْ أعمالِ البِرِّ، والاكْتِفاءُ بهما، وإنْ كانوا أَفْسَدَ حالًا في سائرِ أعمالِ البِرِّ؛ لأنَّ الصَّلاةَ أَشْرَفُ الأعمالِ البَدنيَّةِ، والنَّفَقةَ في سَبيلِ اللهِ أَشْرفُ الأعمالِ الماليَّةِ، وهما الوصْفانِ المطلوبُ إظهارُهُما في الإسلامِ، ويُسْتدلُّ بهما على الإيمانِ، وتَعدادُ القَبائحِ يَزيدُ الموصوفَ بها ذَمًّا وتقبيحًا[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٣٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٥٥-٥٧)

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿وَتَزْهَقَ﴾: أي: تخرُجَ وتَهلِكَ، وزَهَقَتْ نفسُه: خرَجَت مِن الأسَفِ على الشَّيءِ، وأصلُ (زهق): يدلُّ على تقدُّمٍ ومُضِيٍّ وتَجاوُزٍ[(١)].

﴿يَفْرَقُونَ﴾: أي: يَخافونَ، والفَرَقُ: تَفَرُّقُ القَلبِ مِن الخَوفِ والفَزَعِ، وأصلُ (فرق): يدلُّ على تمييزٍ، وتزييلٍ بين شَيئَينِ[(٢)].

﴿مَلْجَأً﴾: أي: مَعقِلًا، وحِصنًا، واللَّجأُ والملْجأُ: المكانُ يُلتجأُ إليه[(٣)].

﴿مَغَارَاتٍ﴾: المغاراتُ: السَّراديبُ، وغِيرانُ الجِبالِ، واحِدُها مَغارةٌ: وهي الموضِعُ الذي يَغورُ فيه الإنسانُ، أي: يغيبُ ويَستَتِرُ، وأصلُ (غور): يدلُّ على خُفُوضٍ في الشَّيءِ، وانحطاطٍ وتطامُنٍ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٠).

(٣) يُنظر ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠٢، ٥٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٣٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٧)، =

﴿مُدَّخَلًا﴾: أي: سَرَبًا في الأرضِ يدخُلونَ فيه؛ مِن ادَّخَل يَدَّخِل: إذا اجتَهَدَ في دُخولِه، وأصلُ (دخل): يَدلُّ على وُلُوجٍ[1].

﴿يَجْمَحُونَ﴾: أي: يُسرِعونَ، ومنه قَولُهم: فَرَسٌ جَموحٌ: إذا ذهبَ في عَدْوِه، لم يَثْنِه شَيءٌ. وأصلُ (جمح): يدلُّ على ذَهابِ الشَّيءِ قُدُمًا بغلَبةٍ وقُوَّةٍ[2].

المَعنى الإجماليُّ:

ينهى اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُعجَبَ بأموالِ المُنافِقينَ وأولادِهم؛ فإنَّه تعالى إنَّما يريدُ أن يُعذِّبَهم بها في الحياةِ الدُّنيا، وأن تخرُجَ أرواحُهم، وهم مُستمِرُّونَ على كُفرِهم.

ويخبِرُ تعالى عن كذِبِهم وجبنِهم، وأنَّهم يحلِفونَ باللهِ للمؤمنينَ إنَّهم منهم، وهم لَيسوا في الحقيقةِ منهم، ولكِنَّهم قَومٌ يخافونَ مِن المؤمنينَ، فيَحلِفونَ لهم؛ لِيَأمَنوهم. ويخبِرُ أنَّهم لو يَجِدونَ مكانًا يتحَصَّنونَ فيه، أو كُهوفًا في الجِبالِ، أو نَفَقًا في الأرضِ؛ لَهَربوا إليها، وهم يُسرِعونَ في مَشيِهم؛ لشِدَّةِ كراهَتِهم للمؤمنينَ، ونُفورِهم منهم، وخوفًا مِن الخروجِ للجِهادِ معهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٦٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٧٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٠).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قطَعَ اللهُ تعالى في الآيةِ الأولى رجاءَ المُنافِقينَ عن جميعِ منافعِ الآخرةِ؛ بيَّنَ هنا أنَّ الأشياءَ التي يظُنُّونَها من بابِ المنافعِ في الدُّنيا، فإنَّه تعالى جعَلَها أسبابَ تَعذيبِهم في الدُّنيا، وأسبابَ اجتماعِ المِحَنِ والآفاتِ عليهم في الآخِرةِ[1].

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾.

أي: فلا تَستحسِنْ- يا مُحمَّدُ- أموالَ المُنافِقينَ ولا أولادَهم، ممَّا أنعَمْنا عليهم؛ استدراجًا لهم[2].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٣١].

وقال سبحانه: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦].

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

أي: إنَّما يريدُ اللهُ أن[3] يعذِّبَ المُنافِقينَ بأموالِهم وأولادِهم في

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٧٥، ٥٧٦).
قال الرازي: (هذا الخِطابُ وإن كان في الظَّاهر مختصًّا بالرَّسولِ عليه الصَّلاة والسَّلام، إلَّا أنَّ المرادَ منه كلُّ المؤمنين، أي: لا ينبغي أن تعجَبوا بأموالِ هؤلاء المنافِقينَ والكافرين، ولا بأولادِهم ولا بسائِرِ نِعَمِ الله عليهم). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٧١). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢٧).

(٣) قال الشنقيطي: (هذه اللامُ التي تأتي في القرآنِ وفي كلام العربِ بعد فعلِ الإرادة، اختلف العلماءُ في معناها، وأظهَرُ أقوالهم فيها قولان:
أحدهما: أنها لامٌ نادرةُ المعنى تأتي بمعنى (أن)، وأنَّها لامٌ مصدريةٌ، وإن لم يكن علماءُ العربيَّةِ عدُّوا حرفَ اللامِ من الموصولاتِ الحرفيَّةِ المصدريَّةِ، قالوا: فهذه اللامُ بمعنى (أن)، =

حياتِهم الدُّنيا(١).

عن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((من كانتِ الآخِرةُ هَمَّه، جعَلَ اللهُ غناه في قَلْبِه، وجمَعَ له شَمْلَه، وأتَتْه الدُّنيا وهي راغمةٌ، ومن كانت الدُّنيا همَّه، جعل اللهُ فَقْرَه بين عَينَيه(٢)، وفرَّق عليه شَملَه، ولم يأتِه مِن الدُّنيا إلَّا ما قُدِّرَ له))(٣).

﴿وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾.

أي: ويريدُ اللهُ أن تَخرُجَ أرواحُ المُنافِقينَ، وهم مُستمِرُّونَ على كُفرِهم باللهِ ورَسولِه، فيتَّصِلَ لهم عذابُ الآخرةِ الدَّائمُ، بعذابِهم في الدُّنيا(٤).

= والدليلُ على هذا القَولِ تعاقُبُ هذه اللامِ و (أنْ) في قَولِه تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٢] و ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ [الصف: ٨]، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ [التوبة: ٥٥] ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ في الآية الآتية. وعلى هذا القَولِ، فاللامُ المصدريَّةُ بمعنى (أن)، وهو قولٌ يقِلُّ مَن يقولُه مِن علماء العربيَّة.

القول الثاني: أنَّ المفعولَ مَحذوفٌ، واللامُ لامُ تَعليلٍ لِمَحذوفٍ، والمعنى على هذا القَولِ: إنَّما يريدُ اللهُ إعطاءَهم ومتاعَهم بها؛ لأجلِ أن يعَذِّبَهم بها في الحياةِ الدُّنيا). ((العذب النمير)) (٥/ ٥٧٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠١)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢٨، ٢٢٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٧٧).

قال الواحدي: (المعنى: ليُعَذِّبَهم بها، بأخْذِ الزكاةِ، والنَّفَقةِ في سبيلِ الله، والمصايبِ فيها، والتَّعَبِ في جمْعِها، والوَجَلِ في حِفْظِها). ((الوسيط)) (٢/ ٥٠٤). ويُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٣٦)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٧٢، ٧٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٧٨).

(٢) كنايةٌ عن كَونِه يَصيرُ مُستَحضِرًا له أبدًا، ومُشفِقًا من الوقوعِ فيه سرمدًا. يُنظر: ((فيض القدير)) للمناوي (١/ ٢٥٥).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤١٠٥)، والطيالسي في ((المسند)) (٦١٧)، وابن حبان في ((الصحيح)) (٦٨٠). جوَّد إسناده ابن مفلح في ((الآداب الشرعية)) (٣/ ٢٦٣)، والعراقي في ((تخريج الإحياء)) (٥/ ٨٨)، وصححه الألباني في ((صحيح ابن ماجه)) (٣٣٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٥)، ((تفسير القرطبي)) =

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ٥٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى كَونَ المُنافِقينَ مُستَجمِعينَ لكُلِّ مَضارِّ الدُّنيا والآخرةِ، خالِينَ عن جميعِ منافعِ الآخرةِ والدُّنيا- عاد إلى ذِكرِ فضائِحِهم وقبائِحِهم، ومنها إقدامُهم على الأيمانِ الكاذبةِ، فقال تعالى(١):

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾.

أي: ويَحلِفُ المنافِقونَ باللهِ يمينًا مُؤكَّدةً لكم- أيُّها المؤمنونَ- كَذِبًا: إنَّهم مُؤمِنونَ مِثلُكم، وليسوا- في الحقيقةِ- مِن أهلِ دِينِكم، بل هم كفَّارٌ، وأعداءٌ لكم(٢).

كما قال تعالى عن المُنافِقينَ: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة: ١٤].

وقال سُبحانه: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المُنافِقونَ: ١].

﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾.

أي: ولكنَّ المنافِقينَ يخافونَ منكم- أيُّها المؤمِنونَ- فيَحلِفونَ لكم إنَّهم

= (٨/ ١٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٧٨).

قال ابنُ عطية: (قولُه: ﴿وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ﴾ يحتملُ أن يريدَ: ويموتونَ على الكُفرِ، ويحتملُ أن يريدَ ﴿وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ﴾ من شدَّةِ التعذيبِ الذي ينالُهم). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٦٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٣٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٧٩).

مُؤمِنونَ؛ لِيَأمَنوكم[١].

﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى فَرَقَ المُنافِقينَ مِن المؤمنينَ، أخبَرَ بما هم عليه معهم، ممَّا يُوجِبُه الفَرَقُ، وهو: أنَّهم لو أمكَنَهم الهروبُ منهم لَهَربوا، ولكِنَّ صُحبَتَهم لهم، صُحبةُ اضطرارٍ لا اختيارٍ[٢].

﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ ﴾.

أي: لو يجِدُ المُنافِقونَ مَكانًا يتحصَّنونَ فيه، أو كُهوفًا في الجبالِ، أو نَفقًا في الأرضِ، يُتكَلَّفُ الدُّخولُ إليه بمشقَّةٍ- لذَهَبوا إليه[٣]؛ هربًا منكم أيُّها المؤمِنونَ[٤].

﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾.

أي: لو يَجِدُ المُنافِقونَ مكانًا يَلجؤونَ إليه، لَهُرِعوا إليه وهم يُسرِعونَ في مَشْيِهم؛ لِشِدَّةِ كراهَتِهم لكم، ونُفورِهم منكم، وخوفًا من الخُروجِ للجِهادِ معكم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٣٧).

(٣) قال الرازي: (المعنى: أنَّهم لو وَجَدوا مكانًا على أحدِ هذه الوجوه الثلاثةِ- مع أنها شَرُّ الأمكنةِ- لولَّوا إليه، أي: رَجَعوا إليه). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠٢، ٥٠٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٩٤)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٧٤، ٧٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٣٧، ٤٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٣١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٨٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٩٦)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٦٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) =

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- النَّظرُ إلى متاعِ الدُّنيا على وجهِ المحبَّةِ والتعظيمِ لها ولأهْلِها؛ منهيٌّ عنه، قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾، وأما النَّظرُ إلى المخلوقاتِ العُلويَّةِ والسُّفليَّةِ على وجهِ التفكُّرِ والاعتبارِ؛ فمأمورٌ به، مندوبٌ إليه[1].

٢- لا ينبغي العَجَبُ بأموالِ المُنافقينَ والكافرينَ، ولا بأولادِهم ولا بسائرِ نِعَمِ اللهِ عليهم؛ قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾[2].

٣- ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ في هذه الآيةِ دَلالةٌ على أنَّ اختلافَ الخُلُقِ مانعٌ من المُواصلةِ والمُوافَقةِ[3].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- النِّفاقُ جالِبٌ لجميعِ الآفاتِ في الدِّينِ والدُّنيا، ومُبْطِلٌ لجَميعِ الخَيراتِ في الدِّينِ والدُّنيا؛ فإنَّ الله تَعالى لَمَّا بيَّن قَبائحَ أفعالِهم، وفَضائحَ أعْمالِهم؛ بيَّن ما لهم في الآخِرةِ مِنَ العذابِ الشَّديدِ، وما لهم في الدُّنيا مِنْ وُجوهِ المِحْنةِ والبَليَّةِ، ثُمَّ بيَّن بَعْدَ ذلك أنَّ ما يَفْعلونَه مِنْ أعمالِ البِرِّ لا يَنْتفِعونَ بِهِ يومَ القِيامةِ البتَّةَ، ثم بَيَّن أنَّ ما يَظنُّونَ أنَّهُ مِنْ مَنافعِ الدُّنيا فهو في الحَقيقةِ سببٌ لعَذابِهم وبَلائِهم، وتَشديدِ المِحْنةِ عليهم، وجاء بيان ذلك مُرتَّبًا على أَحْسَنِ الوُجوهِ، ولا يُمْكِنُ تَرتيبُ الكلامِ على وَجْهٍ أَحْسَنَ مِن هذا[4].

= (١٠/ ٢٣١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٨٠).

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٧١).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ أي: كالفَرَسِ الجَموحِ، لا يردُّهم شَيءٌ، وهذا الوصفُ من أبلغِ مُبالغةِ القرآنِ في تصويرِ الحقائقِ التي لا تتجَلَّى للفَهمِ والعِبرةِ بدونِها، فتُصَوِّر شُخوصَهم وهم يَعْدُونَ بغير نظامٍ، يَلهثونَ كما تلهَثُ الكِلابُ، يتسابَقونَ إلى تلك الملاجِئِ مِن مغاراتٍ ومُدَّخَلات، فيتسَلَّقونَ إليها، أو يندَسُّون فيها، فكذلك كان تصَوُّرُهم عندما سَمِعوا الآيةَ في وَصْفِهم[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ فيه تقديمُ الأموالِ على الأولادِ؛ لأنَّها كانتْ أَعْلَقَ بقُلوبِهم، ونُفوسُهم أميلُ إليها؛ فإنَّهم كانوا يَقْتلونَ أولادَهم خَشيةَ ذَهابِ أموالِهم[2].

- قولُه تعالى: ﴿وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ﴾ معطوف على ﴿لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ والمعنى: ليعذِّبَهم بها في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ونبَّه على عَذابِ الآخِرةِ بعِلَّتِهِ، وهو زُهوقُ أَنْفُسِهم على الكُفْرِ؛ لأنَّ مَنْ مات كافرًا عُذِّبَ في الآخِرةِ لا محالةَ، وزُهوقُ النَّفْسِ هُنا كنايةٌ عَنِ الموتِ[3].

- وبناءُ قولِه: ﴿مُدَّخَلًا﴾ بِناءُ تأكيدٍ ومُبالَغةٍ؛ إذ أَصْلُه (مُدْتَخَل)، مُفْتَعَلٌ مِن (ادَّخَلَ)[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤١٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٣٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٤٣٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٤٣٨).

- والتَّعبيرُ بصِيغةِ المُضارعِ في قولِه: ﴿وَيَحْلِفُونَ﴾ وقولِه: ﴿يَفْرَقُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ، وأنَّ ذلك دَأْبُهم[1].

٢- قوله: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ اسْتِئنافٌ مُقرِّرٌ لمضمونِ ما سَبَقَ مِنْ أنَّهم ليسوا مِنَ المُسلِمينَ، وأنَّ التِجاءَهم إلى الانْتِماءِ إليهم إنَّما هو للتَّقيَّةِ اضْطرارًا[2].

- قولُه: ﴿لَوْ يَجِدُونَ﴾ فيه إيثارُ صِيغةِ الاسْتِقبالِ في الشَّرْطِ، وإنْ كان المعنى على المُضيِّ؛ لإفادةِ اسْتِمرارِ عَدَمِ الوِجدانِ؛ فإنَّ المُضارِعَ المَنفيَّ الواقِعَ مَوقِعَ الماضي ليس نَصًّا في إفادةِ انْتِفاءِ اسْتِمرارِ الفِعْلِ، كما هو الظَّاهرُ، بل قَدْ يُفيدُ اسْتِمرارَ انْتِفائهِ أيضًا حَسَبما يَقْتضيهِ المَقامُ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٣٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٥٨-٦٠)

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (٥٨) وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ (٥٩) إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠) ﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿يَلْمِزُكَ﴾: أي: يَعيبُك، ويطعَنُ عليك، وأصلُ (لمز): يدلُّ على العَيْبِ[١].

﴿الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾: قومٌ كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يتألَّفُهم على الإسلامِ بما يُعطيهم، وأصلُ (ألف): يدلُّ على انضمامِ الشَّيءِ إلى الشَّيءِ[٢].

﴿الْغَارِمِينَ﴾: أي: الذينَ لَزِمَهم الدَّينُ، فلا يَجدونَ القَضاءَ، والغُرْمُ: ما ينوبُ الإنسانَ في مالِه مِن ضَررٍ، لِغَيرِ جِنايةٍ منه، أو خِيانةٍ، وأصلُ (غرم): يدلُّ على المُلازَمةِ[٣].

﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾: أي: المُنقَطِع بالطَّريقِ يُريد بلدًا آخَرَ، وأصلُ (سبل): يدلُّ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٣١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٦).

على امتدادِ شَيءٍ[(١)].

المَعنى الإجماليُّ:

ومِن المُنافِقينَ مَن يَعيبُك- يا مُحمَّدُ- في قِسمَتِك لأموالِ الزَّكاةِ لِمُستَحقِّيها، فإنْ أُعطُوا منها مِقدارَ ما يُريدونَ، رَضُوا وسَكَتوا عنك، وإنْ لم يُعطَوا ما يُرضِيهم، غَضِبوا عليك وعابُوك، ولو أنَّهم رَضُوا بما أعطاهم اللهُ، وقَسَمَه لهم رَسُولُه، وقالوا: حَسْبُنا اللهُ، سيُعطينا اللهُ مِن فَضْلِه، وسيَقْسِمُ لنا رسولُه، إنَّا نرغَبُ إلى اللهَ وَحدَه في أن يُوسِّعَ علينا، ويُغنِيَنا من فَضْلِه- لكان خيرًا لهم في دينِهم ودُنياهم.

إنَّما أموالُ الزَّكاةِ مُستحَقَّةٌ للفُقَراءِ، والمساكينِ، والعاملينِ عليها- الذين يَجمَعونَها ويُوزِّعونَها على مُستَحقِّيها- ولِمَن يُرادُ تأليفُ قُلوبِهم على الإسلامِ، وفي عِتقِ الرَّقيقِ، والمدِينينَ، وفي الإنفاقِ لِنُصرةِ دِينِ اللهِ تعالى، وللمُسافِرِ المجتازِ مِن بلدٍ إلى بلدٍ، ليس معه ما يستعينُ به على سفرِه، فريضةً مِن اللهِ، واللهُ عليمٌ حكيمٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (٥٨) ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها شَرحٌ لِنَوعٍ آخَرَ مِن قبائحِ المُنافِقينَ وفَضائِحِهم، وهو طَعْنُهم في الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ بسبَبِ أخْذِ الصَّدَقاتِ مِن الأغنياءِ، ويقولونَ: إنَّه يُؤثِرُ بها مَن يَشاءُ مِن أقارِبِه وأهلِ مَودَّتِه، ويَنسُبونَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى أنَّه لا يُراعي العَدلَ[(٢)].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٧٥).

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾.

أي: ومِن المُنافِقينَ مَن يَعيبُك ويتَّهِمُك وينتقِدُكَ- يا محمَّدُ- طاعِنًا على قِسمَتِك، وتَوزيعِك أموالَ الزَّكاةِ على مُستحِقِّيها[1].

عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ الله عنه، قال: ((بَيْنا نحن عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو يقسِمُ قَسمًا، أتاه ذو الخُوَيصِرةِ، وهو رجلٌ مِن بني تميمٍ، فقال: يا رسولَ اللهِ، اعدِلْ، قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: وَيلَكَ! ومَن يَعدِلُ إنْ لم أعدِلْ؟! قد خِبْتَ وخسِرْتَ إنْ لم أعدِلْ، فقال عمرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ الله عنه: يا رسولَ اللهِ، ائذَنْ لي فيه أضرِبْ عُنُقَه، قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: دَعْه؛ فإنَّ له أصحابًا يَحقِرُ أحدُكم صَلاتَه مع صَلاتِهم، وصِيامَه مع صِيامِهم، يَقرَؤونَ القُرآنَ، لا يُجاوِزُ تَراقِيَهم[2]؛ يَمرُقونَ مِن الإسلامِ كما يَمرُقُ السَّهمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ[3]، يُنظَرُ إلى نَصْلِه[4]، فلا يوجَدُ فيه شيءٌ، ثم يُنظَرُ إلى رِصافِه[5] فلا يُوجَدُ فيه شيءٌ، ثمَّ يُنظَرُ إلى نَضِيِّه[6] فلا يوجَدُ فيه شيءٌ- وهو القِدْحُ- ثم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٥٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٦، ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٤)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٣٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٨٣).

(٢) التَّراقي: جمع تَرْقُوَة: وهي عظمٌ واصِلٌ ما بين ثغرةِ النَّحرِ والعاتِقِ. قيل المراد: لا يُرفَعُ إلى الله منه شيءٌ؛ لعِلمِه باعتقادِهم. يُنظر: ((مصابيح الجامع)) للدماميني (٧/ ٢٣٢).
وقيل: معناه أنَّ قومًا ليس حظُّهم مِن القرآنِ إلا مرورُه على اللسانِ فلا يجاوزُ تراقيَهم ليصلَ قلوبَهم، وليس ذلك هو المطلوبَ، بل المطلوب تعقلُه وتدبرُه بوقوعِه في القلبِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٦/ ١٠٥).
وقيل: لا يعملونَ بالقُرآنِ فلا يُثابونَ على قِراءته فلا يحصلُ لهم إلَّا سَرْدُه. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٢/ ٢٩٣). ويُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا علي القاري (٩/ ٣٧٩٧).

(٣) الرميَّة: ما يُرمى مِن الصَّيدِ. يُنظر: ((مصابيح الجامع)) للدماميني (٧/ ٢٣٢).

(٤) النَّصلُ: حديدةُ السَّهم. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٦/ ٥٨).

(٥) الرِّصافُ: هي العَقِبُ التي تكونُ فوقَ مَدخَلِ النَّصلِ في السَّهمِ. يُنظر: ((مصابيح الجامع)) للدماميني (٧/ ٢٣٢).

(٦) النَّضِيُّ: عودُ السَّهمِ قبل أن يُرَيَّش ويُنَصَّل، سُمِّيَ به لكثرة البَرْيِ والنَّحتِ، كأنَّه جُعل نِضْوًا، =

يُنظَرُ إلى قُذَذِه[1] فلا يُوجَدُ فيه شيءٌ، سَبَقَ الفَرْثَ والدَّمَ[2]، آيَتُهم رجلٌ أسوَدُ، إحدى عَضُدَيه مثلُ ثَدْيِ المرأةِ، أو مِثلُ البَضعةِ تَدَردَرُ[3]، يَخرجونَ على حينِ فُرقةٍ مِن النَّاسِ. قال أبو سعيدٍ: فأشهَدُ أنِّي سمِعْتُ هذا مِن رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأشهَدُ أنَّ عليَّ بنَ أبي طالبٍ رَضِيَ الله عنه قاتَلَهم وأنا معه، فأمر بذلك الرَّجُلِ، فالتُمِسَ فوُجِدَ، فأُتِيَ به حتى نَظَرْتُ إليه، على نَعْتِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الذي نَعَتَ!)[4].

= أي: هَرِيلًا. يُنظر: ((مصابيح الجامع)) للدماميني (٧/ ٢٣٢).

(١) قُذَذِه: جَمعُ قُذَّةٍ، وهي الرِّيشُ الذي على السَّهمِ. يُنظر: ((مصابيح الجامع)) للدماميني (٧/ ٢٣٣).

(٢) الفَرْثُ: ما يَجتَمِعُ في الكَرِشِ، أي: مرَّ سريعًا في الرَّمِيَّةِ وخرَجَ منها، لم يتعلَّقْ منها بشيءٍ مِن فَرْثِها ودَمِها؛ لِسُرعتِه، شَبَّه بذلك خُروجَهم من الدِّينِ، ولم يحصلوا منه على شَيءٍ ألبتَّةَ. يُنظر: ((مصابيح الجامع)) للدماميني (٧/ ٢٣٣).

(٣) تَدَردَرُ: أي: تتحَرَّكُ وتجيءُ وتذهَبُ. يُنظر: ((مصابيح الجامع)) للدماميني (٧/ ٢٣٣).

(٤) رواه البخاري (٦٩٣٣)، ومسلم (١٠٦٤) واللفظ له.

وفي رواية البخاري زيادة: (قال: فنَزَلَت فيه: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾).

قال ابن تيمية: (رواه البخاري وغيرُه من حديث مَعمَر عن الزهري، وأخرجاه في الصحيحين من وجوهٍ أخرى عن الزهري عن أبي سَلَمة والضحاك الهمداني عن أبي سعيد.. وذكرَ حديثَ الخوارج المشهورَ، ولم يذكرْ نزول الآية .. الذي في رواية معمر- أنَّ آية الصدقات نزلت في قصَّة ذي الخويصرة- ليس بجيدٍ، بل هو مُدْرَجٌ في الحديث من كلام الزُّهري أو كلام مَعمَر؛ لأن ذا الخويصرة إنما أنكرَ عليه قَسمَ الغنائم، وليست هي الصَّدَقات التي جعلها الله لثمانيةِ أصنافٍ، ولا الْتفاتَ إلى ما ذكَره بعضُ المفسِّرين من أنَّ الآية نزلت في قَسمِ غنائمِ حُنَينٍ، وإمَّا أن يكونَ المعترضُ في ذُهَيبةِ عليٍّ رضي الله عنه هو ذو الخويصرة أيضًا، وعلى هذا فتكونُ أحاديثُ أبي سعيد كلُّها في هذه القصَّة، لا في قَسمِ الغنائم، وتكونُ الآية قد نزلت في ذلك، أو يكون قد شهد القصَّتين معًا، والآيةُ نزلت في إحداهما). ((الصارم المسلول)) (ص: ٢٢٧، ٢٣١). ويُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٢١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٨١، ٥٨٢).

وقال ابنُ حجر: (لم أقِفْ على الزيادة إلَّا في رواية مَعمَر... وله شاهدٌ من حديث ابن مسعود قال: ((لَمَّا قَسَم رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم غنائم حُنَينٍ، سَمِعْتُ رجلًا يقول: إنَّ هذه القِسمةَ ما أُريدَ بها وجهُ الله! قال: فنَزَلَت: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾)). أخرجه ابن مردويه، وقد تقدَّم في غزوة حُنين بدون هذه الزيادة، ووقع في رواية عتبة بن وساج عن عبد الله بن عمر ما يؤيِّد هذه الزيادة: ((فجعل يقسِمُ بين أصحابه، ورجلٌ جالِسٌ فلم يُعطِه شيئًا، فقال: يا محمَّدُ، ما أراك تَعدِلُ!)) وفي رواية أبي الوَضِيِ عن أبي بَرْزةَ نحوُه، فدلَّ على أنَّ الحامِلَ =

﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا﴾.

أي: فإنْ أعْطَيتَ المُنافِقينَ - يا مُحمَّدُ - من الصَّدَقاتِ قَدْرَ ما يُريدونَ، رَضُوا وسَكَتوا عنك[1].

﴿وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾.

أي: وإنْ لم تُعطِ المُنافِقينَ - يا مُحمَّدُ - ما يُرضيهم مِن الصَّدَقاتِ، غَضِبوا عليك، وعابُوك[2]!

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ۝٥٩﴾.

= للقائل على ما قال من الكلام الجافي، وأقدَمَ عليه من الخطاب السيئ؛ كونُه لم يُعطَ من تلك العطيَّةِ، وأنَّه لو أعطِيَ لم يقُلْ شيئًا من ذلك). ((فتح الباري)) (١٢/ ٢٩٨).

وقال محمد رشيد رضا: (الآيةُ نصٌّ في قِسمةِ الصَّدَقاتِ، فجَعلُ الغنائمِ سَببًا لِنُزولِها، من جملةِ تساهُلِهم فيما يُسمُّونَه أسبابَ النُّزولِ). ((تفسير المنار)) (١٠/ ٤٢١).

وقال الشنقيطي: (ذكرَ كثيرٌ من أهل العلم أنَّ هذه الآيةَ نزلت في حرقوص بن زهير ذي الخُوَيصرة التميميِّ، رأسِ المنافقين. قالوا: وجَدَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقسِمُ مالًا، فقال: يا نبيَّ اللهِ، اعدِلْ؛ فإنَّك لم تعدِلْ - قبَّحه الله - وقصةُ ذي الخويصرة معروفةٌ ثابتة في الصَّحيح، ولكنَّ الذي يظهَرُ أنَّ هذه الآيةَ ليست نازلةً فيه، وإنْ زَعَمَ كثيرٌ مِن كُبَراء المفسِّرين أنَّها نازلة في ذي الخُوَيصرة، وإنَّما قلنا: إنَّ الأظهَرَ أنَّها نازلةٌ في غيره؛ لأنَّ المعروف أنَّ القِسمةَ التي قال فيها حرقوص بن زهير التميمي المعروف بذي الخُويصرة؛ أصلُ الخَوارج - قبَّحَه وقبَّحَهم اللهُ - أنَّ ذلك في قَسمِ النبيِّ لِغَنائمِ حُنَين، قال ذلك فيه، وهذه الآيةُ يصرِّحُ اللهُ فيها بأنَّهم لَمَزوه في قَسمِ الصَّدَقات - وهي الزَّكواتُ - والصَّدقاتُ غيرُ الغَنائم، فالأظهَرُ أنَّ الأصوبَ فيها هو ما قالَه ابنُ جُرَيج (رحمه الله) وغيرُه: أنَّها نزلت في رجلٍ مِن الأنصارِ مِن المنافقينَ حضر النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقسِمُ مالًا من الصَّدقاتِ، فقال: يا نبيَّ الله، اعدِلْ فإنَّك لم تعدِلْ - قبَّحَه الله - فنَزَلت هذه الآيةُ فيه). ((العذب النمير)) (٥/ ٥٨١-٥٨٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠٦)، ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣٠٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٢٤)، ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣٠٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٨٣).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخبَرَ الله تعالى عن حالِ المُنافِقينَ السَّيِّئ الدَّنيءِ، الذي لا يُجدِيهم في الدُّنيا، ويُهلِكُهم في الأُخرى- نَبَّهَهم على ما هو الأصلَحُ لهم؛ مِن الحالِ الشَّريفِ السَّنيِّ، فقال تعالى(١):

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾.

أي: ولو أنَّ أولئك المُنافِقينَ قَنَعوا بما أعْطاهم اللهُ، وقَسَمَه لهم رَسولُه(٢).

﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ ﴾.

أي: ولو أن المُنافِقين قالوا: كافِينا اللهُ وَحدَه(٣).

﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ ﴾.

أي: سيُعطينا اللهُ مِن فَضلِه العَظيمِ، وسيَقسِمُ لنا رسولُه الكريمُ(٤).

﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾.

أي: وقالوا: إنَّا نرغَبُ إلى اللهِ تعالى وَحدَه، ونتضَرَّعُ إليه دونَ مَن سِواه، أن

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٥٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٠١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٣٩)، ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٣٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٢٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٢٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٢١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٨٥).

قال محمد رشيد رضا: (﴿سَيُؤْتِينَا اللهُ مِنْ فَضْلِه ورَسُولُهُ﴾ أي: سيُعطينا اللهُ مِن فَضلِه في المستقبَلِ مِن الغنائِمِ والكَسبِ؛ لأنَّ فَضلَه دائِمٌ لا ينقطِعُ، ويُعطينا رسولُه ممَّا يَرِدُ عليه من الغنائِمِ والصَّدَقات زيادةً ممَّا أعطانا من قبلُ، لا يَبخَسُ أحدًا منَّا حقًّا يستحِقُّه في شَرعِ الله تعالى). ((تفسير المنار)) (١٠/ ٤٢١).

يُغنِيَنا مِن فَضْلِه، ويَرزُقَنا في الدُّنيا والآخرةِ، لو أنَّهم فعلوا ذلك لكان خيرًا لهم في دينِهم ودُنياهم[١].

عن أبي وائلٍ، عن عليِّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ الله عنه، أنَّ مُكاتَبًا جاءه، فقال: ((إنِّي قد عَجَزتُ عن مُكاتَبَتي فأعِنِّي، قال: ألَا أُعَلِّمُك كَلِماتٍ عَلَّمَنيهنَّ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، لو كان عليك مِثلُ جَبلِ صِيرٍ دَينًا، أدَّاه اللهُ عنك؟! قل: اللهُمَّ اكفِني بحلالِك عن حَرامِك، وأغنِني بفَضلِك عمَّن سِواك))[٢].

﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللَّهُ تَعالَى اعْتِراضَ المنافِقينَ الجهلَةِ على النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم، ولَمْزَهم إيَّاه في قَسْمِ الصَّدقاتِ، بَيَّنَ تعالَى أنَّه هو الَّذي قَسَمها وبيَّنَ حُكْمَها، وتَوَلَّى أمرَها بنَفْسِه، ولم يَكِلْ قَسْمَها إلى أحدٍ غيرِه، فجَزَّأَها لهؤلاء المذكورينَ[٣].

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ ﴾.

أي: إنَّما أموالُ الزَّكاةِ مُستحَقَّةٌ للفُقَراءِ وللمساكينِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠٨)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٥٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٧/ ٤٢٩)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٣٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٨٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٦٣)، وأحمد (١٣١٩)، والطبراني في ((الدعاء)) (١٠٤٢)، والحاكم في ((المستدرك)) (١٩٧٣).

قال الترمذيُّ في ((السنن))، وابنُ حجرٍ، كما في ((الفتوحات الربانية)) لابن علان (٤/ ٢٩): حسنٌ غريبٌ، وحسَّنه الألبانيُّ في ((صحيح الترمذي)) (٣٥٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٥)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠٩، ٥١٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٨٢)، ((تفسير =

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ليس المِسكينُ الذي يطوفُ على النَّاسِ تَرُدُّه اللُّقمةُ واللُّقمَتانِ، والتَّمرةُ والتَّمرتانِ، ولكِنِ المِسكينُ الذي لا يَجِدُ غِنًى يُغنيه، ولا يُفطَنُ به فيُتصَدَّقُ عليه، ولا يقومُ فيَسألُ النَّاسَ))[1].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لا تَحِلُّ الصَّدَقةُ لغَنيٍّ، ولا لذي مِرَّةٍ سَوِيٍّ))[2][3].

وعن عُبيدِ الله بن عَدِيِّ بنِ الخِيارِ، ((أنَّ رَجُلَينِ أخبَراه أنَّهما أتيَا النبيَّ صلَّى

= ابن عطية)) (٣/ ٤٨)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٣٥).
قال الرازي: (الآيةُ تدُلُّ على أنَّه لا حَقَّ في الصَّدَقاتِ لأحَدٍ إلَّا لهذه الأصنافِ الثَّمانيةِ، وذلك مُجمَعٌ عليه، وأيضًا فلفظةُ ﴿إِنَّمَا﴾ تفيدُ الحَصرَ). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٨٠). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٥٦٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٨٧).
قال الشنقيطي: (والعلماءُ مختلفونَ في الفقيرِ والمسكينِ أيُّهما أسوأُ حالًا؟ فذَهَبَ جماعةٌ من فقهاءِ الأمصارِ وأهلِ اللغةِ إلى أن الفقيرَ أسوأُ حالًا من المسكينِ، وهذا مذهبُ الشافعيِّ رحمه الله، وروايةٌ قويةٌ عن أحمدَ رحمه الله، وبه قال جماعةٌ من السلفِ، أنَّ الفقيرَ أحوجُ من المسكينِ. وقالت طائفةٌ: إنَّ المسكينَ أحوجُ من الفقيرِ، وهو مذهبُ مالكٍ وأصحابِه، ومذهبُ أبي حنيفةَ). ((العذب النمير)) (٥/ ٥٨٨). ويُنظر: ((الأموال)) لابن زنجويه (٣/ ١١٣٨)، ((الناسخ والمنسوخ)) للنحاس (ص: ٥١٠)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٣/ ٢٢١، ٢٢٢)، ((تفسير الماوردي)) (٢/ ٣٧٤، ٣٧٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٠٩)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٢/ ٥٢٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٦٩، ٢٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٣٥).

(١) رواه البخاري (١٤٧٩) واللفظ له، ومسلم (١٠٣٩).

(٢) لذي مِرَّةٍ سَوِيٍّ: هو القَويُّ صحيحُ الأعضاءِ، تامُّ الخِلقةِ. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (٢/ ٥١١).

(٣) أخرجه النسائي (٢٥٩٧)، وابن ماجه (١٨٣٩)، وأحمد (٩٠٦١)، وابن حبان (٣٢٩٠).
صحَّحه ابنُ كثير ((تفسير القرآن)) (٧/ ٤١٩)، وابنُ الملقنِ في ((البدر المنير)) (٧/ ٣٦٢)، والألبانيُّ في ((صحيح ابن ماجه)) (١٥٠١)، وحسَّن إسنادَه ابنُ حجرٍ في ((التلخيص الحبير)) (٣/ ١١٠٦).

اللهُ عليه وسلَّم يسألانِه مِن الصَّدقةِ، فقلَّبَ فيهما البَصَرَ، ورآهما جَلْدَينِ، فقال: إنْ شِئتُما أعطيتُكما، ولا حظَّ فيها لغَنيٍّ، ولا لِقَويٍّ مُكتَسِبٍ))[(١)].

﴿وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾.

أي: ولِلعامِلينَ على الزَّكاةِ، الذين يَجمَعونَها ممَن وجَبَت عليهم، ويُوزِّعونَها على مُستحِقِّيها[(٢)].

---

(١) أخرجه أبو داود (١٦٣٣)، والنسائي (٢٥٩٨)، وأحمد (١٧٩٧٢)، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٢٧٢٢).

قال الإمامُ أحمدُ كما في ((التلخيص الحبير)) لابن حجر (٣/ ١١٠٥): ما أجوَدَه مِن حديثٍ، وصحَّحه النووي في ((المجموع)) (٦/ ١٨٩)، وابنُ الملقنِ في ((البدر المنير)) (٧/ ٣٦١)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (١٦٣٣).

وقال ابنُ جرير: (المُكتَسِبُ المتَعَذِّرُ عليه الكَسبُ: حَلالٌ له الصَّدَقةُ إذا تعذَّر عليه الكَسبُ، وإن كان مِن صِفتِه أنَّه قادِرٌ على الكَسبِ إذا وَجَده). ((تهذيب الآثار)) (ص: ٤١٨).

وقال الخطابي: (فيه أنَّه لم يُعتبَرْ في منعِ الزَّكاةِ ظاهِرُ القوَّةِ والجَلَد، دون أن يُضمَّ إليه الكَسبُ؛ فقد يكون من النَّاسِ مَن يَرجِعُ إلى قُوَّةِ بَدَنِه، ويكون مع ذلك أخرَقَ اليَدِ لا يعتَمِل، فمن كان هذا سبيلَه لم يُمنَع من الصَّدَقةِ بدلالةِ الحَديثِ). ((معالم السنن)) (٢/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥١٦، ٥١٨)، ((أحكام القرآن)) للطحاوي (١/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٧)، ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣١١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٨٩).

قال ابن تيمية: (العامِلُ على الصَّدَقةِ الغَنِيُّ؛ له أن يأخُذَ بعِمالَتِه، باتِّفاقِ المُسلِمينَ). ((منهاج السنة النبوية)) (٦/ ٢٥١).

وقال ابن عاشور: (﴿وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾ معناه: العامِلونَ لأجلِها، أي: لأجْلِ الصَّدَقاتِ، فحَرفُ (على) للتَّعليلِ، كما في قوله تعالى: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٥]، أي: لأجْلِ هِدايَتِه إيَّاكم. ومعنى العَمَل: السَّعيُ والخِدمةُ)) (١٠/ ٢٣٥).

وقال السعدي: (العامِلونَ على الزكاة: وهم كلُّ مَن له عَمَلٌ وشُغُلٌ فيها: مِن حافظٍ لها، أو جابٍ لها مِن أهلِها، أو راعٍ، أو حامِلٍ لها، أو كاتبٍ، أو نحوِ ذلك، فيُعطَونَ لأجلِ عِمالَتِهم، وهي أجرةٌ لأعمالِهم فيها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤١).

وقال ابن جرير: (وأولى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ قَولُ من قال: يُعطَى العامِلُ عليها- على قَدرِ عِمالَتِه- أجرَ مِثلِه). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥١٨). =

﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾.

أي: ولِمَن يُرادُ تأليفُ قُلوبِهم على الإسلامِ(١).

عن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ الله عنه، قال: ((بَعث عليٌّ رَضِيَ الله عنه وهو باليمَنِ بذَهَبةٍ في تُربَتِها إلى رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقَسَمَها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بين أربعةِ نَفَرٍ: الأقرَعِ بنِ حابسٍ الحَنظليِّ، وعُيَينةَ بنِ بَدرٍ الفَزاريِّ، وعَلقمةَ بنِ عُلاثةَ العامريِّ، وزيدِ الخيرِ الطَّائيِّ، فغَضِبَت قريشٌ،

= وقال ابنُ العربي: (اختلفَ النَّاسُ في المقدارِ الذي يأخُذُه العامِلونَ مِن الصدقةِ... والصَّحيحُ الاجتهادُ في قَدْرِه؛ لأنَّ البيانَ في تعديدِ الأصنافِ إنَّما كان للمَحَلِّ لا للمُستَحَقِّ). ((أحكام القرآن)) (٢/ ٥٢٥).

وقال الشنقيطي: (وأظهرُ الأقوالِ: أنَّه لا يتقدَّرُ فيه شيءٌ مُعَيَّنٌ، إلَّا بِقَدرِ أُجرتِهم). ((العذب النمير)) (٥/ ٥٨٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥١٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٣٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٨٩).

قال ابن كثير: (وأمَّا المؤلَّفةُ قُلوبُهم فأقسامٌ: منهم من يُعطى لِيُسلِمَ، كما أعطى النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم صفوانَ بنَ أميَّةَ من غنائم حُنَين، وقد كان شَهِدَها مُشرِكًا. قال: فلم يزَلْ يُعطيني حتى صار أحبَّ النَّاسِ إليَّ بعد أن كان أبغَضَ النَّاسِ إليَّ... ومنهم من يُعطى لِيَحسُنَ إسلامُه، ويَثبُتَ قَلبُه، كما أعطى يومَ حنينٍ أيضًا جماعةً من صناديدِ الطُّلَقاء وأشرافِهم: مائةً مِن الإبلِ، مائةً مِن الإبلِ... ومنهم من يُعطى لِما يُرجى من إسلامِ نُظَرائه، ومنهم من يُعطى لِيَجبيَ الصَّدَقاتِ ممَّن يليه، أو لِيَدفَعَ عن حَوزةِ المُسلِمين الضَّررَ مِن أطرافِ البلادِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٧). ويُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٢٦، ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤١).

وقال ابن عاشور: (قال كثيرٌ مِن العُلَماءِ: هم باقون إذا وُجِدوا؛ فإنَّ الإمام ربَّما احتاج إلى أن يستألِفَ على الإسلامِ، وبه قال الزُّهري، وعمرُ بنُ عبد العزيز، والشافعيُّ، وأحمدُ بنُ حنبلٍ، واختاره عبدُ الوهابِ، وابنُ العربي، مِن المالكية. قال ابنُ العربي: الصَّحيحُ عندي أنَّه إن قَوِيَ الإسلامُ زالوا، وإن احتيجَ إليهم أُعطُوا. أي: فهو يرى بقاءَ هذا المَصرِفِ، ويرى أنَّ عدَمَ إعطائِهم في زمَنِ عُمَرَ؛ لأجلِ عِزَّةِ الإسلامِ، وهذا هو الذي صحَّحه المتأخِّرونَ، قال ابنُ الحاجبِ في «المختصر»: والصَّحيحُ بقاءُ حُكمِهم إن احتيجَ إليهم. وهذا الذي لا ينبغي تَقلُّدُ غَيرِه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٣٩). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٢٣)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٨٦).

فقالوا: أتُعطي صناديدَ نَجدٍ وتَدَعُنا؟! فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنِّي إنَّما فعَلْتُ ذلك؛ لِأَتَألَّفَهم))(١).

وعن أنسٍ رَضِيَ الله عنه، قال: قال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنِّي أُعطِي قُريشًا أتألَّفُهم؛ لأنَّهم حديثُ عَهدٍ بجاهليَّةٍ))(٢).

﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾.

أي: وفي عِتقِ الرَّقيقِ، فيُشترى العبيدُ والإماءُ مِن الزكاةِ ويُحرَّرونَ، ويُعانُ المُكاتَبونَ على أداءِ مالِ المُكاتَبةِ، ويُفتَدى الأَسرى(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور: ٣٣].

---

(١) رواه البخاري (٧٤٣٢)، ومسلم (١٠٦٤) واللفظ له.

(٢) رواه البخاري (٣١٤٦) واللفظ له، ومسلم (١٠٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٢٣- ٥٢٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥١٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٨٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٢٥، ٤٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٣٦، ٢٣٧).

ذهَب ابنُ تيميَّةَ إلى أنَّ هذا القَولَ هو أقوَى الأقوالِ، أي أنَّ سَهمَ ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ يدخُلُ فيه إعانةُ المُكاتَبينَ، وافتداءُ الأسرى وعِتقُ الرِّقابِ. واختاره السَّعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٢٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٣٦-٢٣٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلف: ابنُ عبَّاس، والحسنُ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٨)

وذهب ابنُ جرير إلى أنَّ المرادَ بالرِّقابِ هنا: المُكاتَبون، ونسَبَ ذلك إلى الجُمهورِ، وممَّن اختاره الواحدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٢٣- ٥٢٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٦٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلف مقاتلٌ، والحسنُ، والزُّهري، وعمرُ بنُ عبدِ العزيزِ، وسعيدُ بنُ جُبيرٍ، والنخعيُّ، وابنُ زيدٍ، ورُوي عن أبي موسَى الأشعريِّ نحوُه. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ١٨٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٨).

قال الشوكاني: (والأَوْلى حملُ ما في الآيةِ على القَولينِ جَميعًا؛ لِصِدقِ الرِّقابِ على شِراءِ العَبدِ وإعتاقِه، وعلى إعانةِ المُكاتَبِ على مالِ الكِتابةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٢٦).

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((من أعتَقَ رَقَبةً مُسلِمةً، أعتَقَ اللهُ بكُلِّ عُضوٍ منه عُضوًا مِن النَّارِ، حتى فَرْجَه بفَرْجِه))(١).

وعن البَراءِ بن عازبٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((جاء أعرابيٌّ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: يا رسولَ اللهِ، عَلِّمْني عمَلًا يُدخِلُني الجنَّةَ، فقال: لَئِن كنتَ أقصَرْتَ الخُطبةَ، لقد أعرَضْتَ المسألةَ! أعتِقِ النَّسَمةَ، وفُكَّ الرَّقبةَ، فقال: يا رسولَ اللهِ، أولَيسَتا بواحدةٍ؟! قال: لا؛ إنَّ عِتقَ النَّسَمةِ أن تَفَرَّدَ بعِتقِها، وفكَّ الرَّقبةِ أن تُعينَ في عِتقِها))(٢).

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ثلاثةٌ حقٌّ على الله عَونُهم: المجاهِدُ في سبيلِ اللهِ، والمُكاتَبُ الذي يُريدُ الأداءَ، والنَّاكِحُ الذي يريدُ العَفافَ))(٣).

﴿ وَٱلْغَـٰرِمِينَ ﴾.

أي: والمَدِينينَ الذين استَدانُوا في غيرِ مَعصيةٍ، وليس لديهم ما يُوَفُّونَ به دينَهم، أو تحمَّلوا مالًا للإصلاحِ بين النَّاس، فيُعطَونَ مِن الزَّكاةِ(٤).

---

(١) رواه البخاري (٦٧١٥) واللفظ له، ومسلم (١٥٠٩).

(٢) أخرجه أحمد (١٨٦٤٧)، والبخاري في ((الأدب المفرد)) (٦٩)، وابن حبان (٣٧٤)، والدارقطني (٢٠٥٥).

صححه ابن حجر في ((فتح الباري)) (٥/ ١٧٤)، والألباني في ((صحيح الموارد)) (١٠١٧)، والوادعي في ((الصحيح المسند)) (١٤١).

(٣) أخرجه الترمذي (١٦٥٥)، والنَّسائي (٣١٢٠)، وابن ماجه (٢٥١٨)، وأحمد (٧٤١٦)، وابن حبان (٤٠٣٠).

حسَّنه الترمذي، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (١٦٥٥)، وصحَّح إسناده أحمد شاكر في ((تحقيق المسند)) (١٣/ ١٤٩)، وجوَّد إسنادَه ابنُ باز في ((حاشية بلوغ المرام)) (٧٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٢٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٥٦)، ((أحكام القرآن)) للطحاوي (١/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٨٣)، =

عن قَبيصةَ بنِ مُخارِقٍ الهِلاليِّ رَضِيَ الله عنه، قال: ((تحمَّلْتُ حَمالةً[1]، فأتيتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أسألُه فيها، فقال: أقِمْ حتى تأتِيَنا الصَّدَقةُ، فنأمُرَ لك بها، قال: يا قَبيصةُ، إنَّ المسألةَ لا تَحِلُّ إلَّا لأحدِ ثلاثةٍ: رَجُلٍ تحمَّلَ حَمالةً، فحَلَّت له المسألةُ حتى يُصيبَها، ثم يُمسِك، ورجلٍ أصابَتْه جائِحةٌ[2] اجتاحَتْ مالَه، فحَلَّت له المسألةُ حتى يصيبَ قِوامًا مِن عَيشٍ- أو قال: سِدادًا مِن عَيشٍ[3]-، ورجُلٍ أصابَتْه فاقةٌ حتى يقومَ ثلاثةٌ مِن ذَوي الحِجَا مِن قَومِه: لقد أصابَتْ فلانًا فاقةٌ، فحَلَّت له المسألةُ حتى يصيبَ قِوامًا مِن عَيشٍ- أو قال: سِدادًا مِن عيشٍ- فما سواهُنَّ مِن المسألةِ يا قَبيصةُ، سُحتًا يأكُلُها صاحِبُها، سُحتًا))[4].

﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

أي: وفي النَّفَقةِ لنُصرةِ دِينِ اللهِ، فيُعطَى المُجاهِدونَ مِن الزَّكاةِ ما يُعينُهم على قِتالِ الكُفَّارِ[5].

= ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٣٧).

قال الطحاوي: (﴿وَالْغَارِمِينَ﴾ فهم المَدِينونَ، لا اختلافَ في ذلك بين أهلِ العِلمِ عَلِمْناه). ((أحكام القرآن)) (١/ ٣٦٧).

وقال القرطبي: (﴿وَالْغَارِمِينَ﴾ هم الذين رَكِبَهم الدَّينُ، ولا وفاءَ عِندَهم به، ولا خلافَ فيه. اللهمَّ إلَّا مَن ادَّان في سفاهةٍ، فإنَّه لا يُعطَى منها، ولا مِن غيرِها، إلَّا أن يتوبَ). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٨٣). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٢٧٤).

(١) الحمالةُ: أن يُصلِحَ الرجلُ بَين قومٍ قد اقتَتَلوا، وسُفِكَت بينهم دِمَاءٌ، وَيحْتَمِلُ دِيَاتِ المقتولينَ؛ رغبةً في سكونِ الفِتنةِ. يُنظر: ((كشف المُشكِل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (٤/ ٢٣٩).

(٢) آفةٌ وحادِثةٌ أهلَكَت مالَه. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (٢/ ٥١٢).

(٣) القِوامُ والسِّدادُ: بمعنًى واحدٍ، وهو ما يُغني مِن الشَّيءِ، وما تُسَدُّ به الحاجةُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٧/ ١٣٣).

(٤) رواه مسلم (١٠٤٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٢٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٥٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥١٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤١)، =

﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

أي: وللمُسافِرِ المجتازِ مِن بلدٍ إلى بلدٍ، ليس معه ما يستعينُ به على سفرِه، فيُعطَى مِن الزَّكاةِ ما يَستعينُ به على سَفَرِه(١).

كما قال تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦].

= ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٣٧، ٢٤٠).

قال الواحدي: (﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني: الغُزاةَ والمُرابِطينَ، عند عامَّةِ المفسِّرين). ((البسيط)) (١٠/ ٥١٥).

وقال ابن عاشور: (وسبيلُ اللهِ: الجِهادُ، أي: يُصرَفُ من أموال الصَّدَقاتِ ما تُقامُ به وسائِلُ الجِهادِ؛ من آلاتٍ وحراسة في الثغور، كل ذلك برًّا وبحرًا... الحقُّ أنَّ سبيل الله يشمَلُ شراءَ العُدَّةِ للجهاد من سلاحٍ، وخيلٍ، ومراكِبَ بحريةٍ، ونوتيةٍ، ومجانيقَ، وللحملانِ، ولبناءِ الحصون، وحَفْرِ الخنادق، وللجواسيسِ الذين يأتونَ بأخبارِ العدُوِّ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٣٧، ٢٤٠).

وذهب ابن تيمية وابن كثير إلى أنَّ الحَجَّ مِن سبيلِ اللهِ، فيدخُلُ في هذا السَّهمِ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (٢٨/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٩).

ومِن الفُقَهاءِ مَن أدخَلَ التفَرُّغَ لِطَلَبِ العِلمِ في سبيلِ الله. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٢٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٠).

قال الطحاوي: (هم الغائِبونَ عن أموالِهم، الذين لا يَصِلون إليها؛ لبُعدِ المسافة بينهم وبينها، حتى تلحَقَهم الحاجةُ إلى الصَّدَقةِ، فالصَّدَقةُ لهم حينئذٍ مُباحة، وهم في حكمِ الفُقَراء الذين لا أموالَ لهم، حتى يَصِلوا إلى أموالهم، وهذا ممَّا لا اختلافَ فيه بين أهلِ العِلمِ). ((أحكام القرآن)) (١/ ٣٧١).

وقال ابن عاشور: (وأمَّا ابنُ السبيلِ، فلم يُختَلَف في الغريبِ المحتاجِ في بلدِ غُربَتِه: أنَّه مُرادٌ، ولو وجَدَ مَن يُسلِفُه؛ إذ ليس يلزَمُه أن يُدخِلَ نَفسَه تحت مِنَّةٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٠).

وقال الشنقيطي: (أجمع العُلَماءُ على أنَّ ابنَ السَّبيلِ إذا كان مُسافِرًا في معصيةٍ، لا يجوزُ أن يُعطى مِن الزكاةِ شَيئًا؛ لأنَّه إعانةٌ له على مَعصيتِه، واللهُ يقول: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: آية ٢] وإن كان سَفَرُه في قُربةٍ، فلا خلافَ في أنَّه يُعطى. وإن كان في مُباحٍ فقد اختلف العُلَماءُ في ذلك، فقالوا: لا يُعطى؛ لأنَّ المُباحَ لا يَلزَم. وقال بعضُ العلماء: يُعطى؛ لأنَّ السَّفَر المباحَ فيه جميعُ التَّسهيلاتِ التي في السَّفَر الواجِب، فالسَّفَرُ المباحُ تَقصُرُ فيه الصلاةُ، ويُفطِرُ فيه المُسافِر، ويُفعَلُ فيه كلُّ الترخُّصاتِ، فكذلك يعانُ صاحِبُه عليه). ((العذب النمير)) (٥/ ٥٩٧).

﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

أي: فرَضَ اللهُ هذه الصَّدَقاتِ فريضةً على الأغنياءِ في أموالِهم، وقَسَمَها بنَفسِه لأهلِ تلك الأصنافِ، المُستَحِقِّينَ لها دونَ غَيرِهم[١].

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

أي: واللهُ عليمٌ بمصالِحِ خَلْقِه، لا يخفى عليه شَيءٌ من ظواهِرِ الأمورِ وبواطِنِها، حكيمٌ في قَولِه وفِعْلِه، وفي خَلْقِه وشَرْعِه، يضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به، ولا يَدخُلُ في تدبيرِه خَلَلٌ[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ الآيةُ تدلُّ على أنَّ مَن طلَبَ الدُّنيا وحدَها، آلَ أمْرُه في الدِّينِ إلى النِّفاقِ، وأمَّا من طلَبَ الدُّنيا بقَدرِ ما أَذِنَ اللهُ فيه، وكان غَرَضُه من الدُّنيا أن يتوسَّلَ إلى مصالِحِ الدِّينِ، فهذا هو الطَّريقُ الحَقُّ، والأصلُ في هذا البابِ أن يكونَ راضيًا بقَضاءِ اللهِ[٣].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ الآيتانِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٣٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٦٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٧١)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٧٦).

تَهديانِ المؤمِنَ إلى القناعةِ بكَسْبِه، وما ينالُه بحَقٍّ مِن صدَقةٍ ونَحوِها، ثمَّ بأنْ يُوَجِّهَ قلبَه إلى ربِّه، ولا يرغَبَ إلَّا إليه في شَيءٍ مِن رغائبِه التي وراءَ كَسْبِه وحُقوقِه الشَّرعيَّةِ، لا إلى الرَّسولِ، ولا إلى مَن دُونَه فضلًا وعَدلًا وقُربًا مِن اللهِ تعالى بالأَوْلى[1]!

٣- لا ينبغي للعَبدِ أن يكونَ رضاه وغَضَبُه، تابعًا لِهَوى نفسِه الدُّنيويِّ وغَرَضِه الفاسِدِ، بل الذي ينبغي أن يكونَ هواه تَبَعًا لِمرضاةِ رَبِّه؛ يُرشِدُ إلى ذلك قَولُ الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾[2].

٤- قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ فَرِضاهم لِغَيرِ اللهِ، وسَخَطُهم لغيرِ اللهِ، وهكذا حالُ مَن كان مُتعلِّقًا برئاسةٍ أو بصورةٍ ونحوِ ذلك مِن أهواءِ نَفسِه؛ إن حصَلَ له رَضِيَ، وإن لم يحصُلْ له سَخِطَ، فهذا عبدُ ما يَهواه مِن ذلك، وهو رقيقٌ له؛ إذِ الرِّقُّ والعُبوديَّةُ في الحقيقةِ، هو رِقُّ القَلبِ وعبوديَّتُه، فما استَرَقَّ القَلبَ واستعبَدَه، فهو عَبدُه[3].

٥- قَولُه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾ يتضمَّنُ الأمرَ بالرِّضا والتوكُّلِ، والرِّضا والتوكُّلُ يكتَنِفانِ المَقدورَ، فالتوكُّلُ قبل وقوعِه، والرِّضا بعد وُقوعِه[4].

٦- قال اللهُ تعالى: ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٢٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٠).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ١٨١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٣٧).

يَسْخَطُونَ﴾ بيَّنَ الله تعالى أنَّ سخَطَهم ورِضاهم مَنُوطانِ بمَصلَحتِهم الخاصَّةِ؛ إذا أُعطُوا شيئًا رَضُوا وفَرِحوا، وإذا لم يُعطَوْا شيئًا غَضِبوا وسَخِطوا، وهذه ليست حالةَ مَن يريدُ وَجهَ اللهِ، ولا المصلحةَ العامَّةَ(١).

٧- مِن أدَبِ النَّفسِ وأدَبِ اللِّسانِ، وأدَبِ الإيمانِ: الرِّضا بقِسمةِ اللهِ ورَسولِه، رِضا التَّسليم والاقتناعِ، لا رِضا القَهرِ والغَلَبِ، والاكتفاءُ باللهِ- واللهُ كافٍ عَبدَه- والرَّجاءُ في فَضلِ اللهِ ورسولِه، والرَّغبةُ في اللهِ خالصةً مِن كُلِّ كَسْبٍ ماديٍّ، ومن كلِّ طَمعٍ دُنيويٍّ، ذلك أدَبُ الإيمانِ الصَّحيحِ الذي ينضَحُ به قَلبُ المؤمِنِ، وإن كانت لا تَعرِفُه قلوبُ المُنافِقينَ، الذين لم تخالِطْ بشاشةُ الإيمانِ أرواحَهم، ولم يُشرِقْ في قلوبِهم نورُ اليَقينِ؛ نَستفيدُ ذلك من قَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ قال أهل المعاني: إنَّ هذه الآيةَ تدلُّ على رَكاكةِ أخلاقِ المُنافقينَ ودَناءةِ طِباعِهم؛ وذلك لأنَّه لشدَّةِ شَرَهِهم إلى أخْذِ الصَّدَقاتِ عابُوا رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ونَسَبوه إلى الجَورِ في القِسمةِ، مع أنَّه كان أبعَدَ خَلقِ اللهِ تعالى عن المَيلِ إلى الدُّنيا(٣).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ عبَّرَ عن رضاهم بصيغةِ الماضي؛ للدَّلالةِ

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٨٣).
(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٦٦٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٦٢٣).

على أنَّه كان يكونُ لأجلِ العطاءِ في وَقتِه وينقضي، فلا يَعُدُّونَه نعمةً، يتمنَّونَ دوامَ الإسلامِ لِدَوامِها(١).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ دلالةٌ على أنَّ كلَّ مَن لَمَزَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، كان من المُنافِقينَ؛ لأنَّ (مَنْ) اسمٌ مَوصولٌ، وهو من صِيَغِ العُموم، والآيةُ وإنْ كانت نزَلَت بسببِ لَمْزِ قوم؛ فحكمُها عامٌّ كسائرِ الآياتِ اللَّواتي نزلْنَ على أسباب، فهي تعُمُّ الشَّخصَ الذي نزَلَت بسبَبِه، وتعُمُّ مَن كان حالُه كحالِه، وإذا كان اللَّفظُ أعمَّ مِن السبَّبِ، فالجمهورُ على أنَّه يجِبُ الأخذُ بعمومِ القَولِ، ما لم يقُمْ دليلٌ يُوجِبُ القصرَ على السببِ، ويُقال ذلك أيضًا في قولِه تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ...﴾ فـ (الَّذِينَ) اسمٌ موصولٌ، وهو مِن صيغِ العمومِ(٢).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ دلَّت (إذا) الفُجائيَّةُ على أنَّ سَخَطَهم أمرٌ يفاجِئُ العاقِلَ حين يَشهَدُه؛ لأنَّه يكونُ في غيرِ مَظِنَّةِ سَخَطٍ، وشأنُ الأمورِ المُفاجِئةِ أن تكونَ غريبةً في بابِها(٣).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ بيانُ أنَّ اللهَ وحدَه هو الكافي؛ حيث جعل اللهُ تعالى الإيتاءَ لله ولِرَسولِه؛ وأمَّا الحَسْبُ فله وَحْدَه، فلم يقُلْ: (وقالوا حسبُنا اللهُ ورسولُه) بل جعلَه خالصَ حقِّه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ ولم يقُلْ: (إلى اللهِ راغبونَ وإلى رَسولِه)، بل جعَلَ الرَّغبةَ إليه وحدَه(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٢١).
(٢) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٣٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٣٢).
(٤) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٣٨).

٦- جعَلَ اللهُ تعالى في الآيةِ الكريمةِ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ الإيتاءَ أيضًا للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّ الرَّسولَ هو الواسِطةُ بيننا وبينَ اللهِ في تبليغِ أمْرِه ونَهْيِه، وتحليلِه وتَحريمِه، ووعدِه ووعيدِه؛ فالحلالُ ما حلَّله اللهُ ورسولُه، والحرامُ ما حرَّمه اللهُ ورسولُه، والدِّينُ ما شرعَه اللهُ ورسولُه[1].

٧- كان سُفيانُ بنُ عُيَينةَ يَقولُ في قَولِه عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ [الأنفال: ٤١]: (نسَبَ المغنَمَ إلى نفسِه تعالى؛ لأنَّه أشرَفُ الكَسْبِ، ولم يَقُلْ ذلك في الصَّدَقةِ، فقال: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾، ولم يَقُل: لِلَّه وللفقراءِ؛ لأنَّها أوساخُ النَّاسِ، واكتسابُها مَكروهٌ إلَّا للمُضطَرِّ إليها)[2].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ﴾ لعلَّ السَّبَبَ في وقوعِ هذه الآيةِ في تضاعيفِ ذِكرِ المُنافِقينَ ومَكائِدِهم؛ أنَّه دلَّ بِكَونِ هذه الأوصافِ مَصارِفَ الصَّدَقاتِ خاصَّةً دونَ غَيرِهم، على أنَّهم لَيسُوا منهم؛ حَسْمًا لأطماعِهم، وأنَّهم بُعَداءُ عنها وعن مصارِفِها، فما لهم ولها، وما سَلَّطَهم على الكلامِ لها ولِمَن قاسَمَها[3]؟!

٩- قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ﴾ التَّرتيبُ في هذه الأصنافِ؛ لبيانِ الأحَقِّ فالأحَقِّ للصَّدَقاتِ، على

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٧/ ٤٢٩).
(٢) يُنظر: ((شرح السنة)) للبغوي (٦/ ٣٤١).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٤٥-٤٤٦).

القاعدةِ الغالبةِ عند فُصَحاءِ العَرَبِ في تقديمِ الأهَمِّ فالأهَمِّ، على ما دُونَه في الموضوعِ، وإن كانَت الواوُ لا تفيدُ التَّرتيبَ في معطوفاتِها؛ فالفُقَراءُ والمساكينُ أحَقُّ مِن غَيرِهم بهذه الصَّدَقاتِ؛ لأنَّهم المقصودونَ بها أوَّلًا وبالذَّاتِ، بدليلِ: ((تؤخَذُ من أغنيائِهم فتُرَدُّ في فُقَرائِهم))[1]، ويليهم العامِلونَ عليها؛ لأنَّهم هم الذين يقومونَ بجَمعِها وحِفْظِها، ويَليهم المؤلَّفةُ قُلوبُهم عند الحاجةِ إليهم، وهم يُعطَونَ مِن الغنائِمِ أيضًا، فالحاجةُ إليهم عارِضةٌ، لا كالعاملينَ على الصَّدَقاتِ، ويليهم مصلحةُ فَكِّ الرِّقابِ والعِتقِ، وهي مِن المصالحِ الاجتماعيَّةِ الكماليَّةِ لا الضَّروريَّةِ؛ فإنَّ تأخيرَها لا يُرهِقُ مُعْوِزًا كالفَقيرِ، ولا يُضَيِّعُ مصلحةً تشتَدُّ الحاجةُ إليها، كتأليفِ القُلوبِ، ويليها مُساعَدةُ الغارمِ على الخُروجِ مِن غُرمِه؛ فهو دونَ مُساعَدةِ الرَّقيقِ على الخُروجِ مِن رِقِّه، ويليهم المصلحةُ العامَّةُ المعَبَّرُ عنها بسبيلِ اللهِ[2]، فهي من قبيلِ العامِّ الذي يُرادُ به ما وراءَ ذلك الخاصِّ ممَّا قَبلَها، الذي تكثُرُ الحاجةُ إليه، وأمَّا ابنُ السَّبيلِ فهو دونَ جَميعِ ما قَبلَه؛ لِنُدرةِ وُجودِه[3].

١٠- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ﴾ إنَّما قَدَّمَ الفُقَراءَ هاهنا؛ لأنَّهم أحوَجُ مِن البقيَّةِ على المشهورِ، لِشدَّةِ فاقَتِهم وحاجَتِهم[4].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٧)، ومسلم (١٩) واللفظ له، من حديث معاذ رضي الله عنه.
(٢) وذلك بناءً على رأيه في المرادِ بقولِه تعالى: ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، فقد قال: (والتحقيقُ: أنَّ (سبيل الله) هنا: مصالحُ المسلمينَ العامةُ، التي بها قوامُ أمرِ الدينِ والدولةِ دونَ الأفرادِ). ((تفسير المنار)) (١٠/ ٤٣٥). وقد تقدَّمت الإشارةُ إلى الخلافِ في معناها.
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٣٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٥).

١١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ﴾ فيه بيانُ مَصرِفِ الزَّكاةِ، وأنَّها لهذه الثَّمانيةِ، لا يستحِقُّها غيرُهم[1].

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ﴾ استدَلَّ بعمومِه مَن جَوَّزَ نقْلَ الصَّدَقةِ[2].

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ﴾ دلَّ على أنَّ هذه الزكاةَ يتولَّى أخْذَها وتَفرِقَتَها الإمامُ، ومَن يلي مِن قِبَلِه، والدَّليلُ عليه أنَّ الله تعالى جعَلَ للعاملينَ سَهمًا فيها، وذلك يدلُّ على أنَّه لا بدَّ في أداء هذه الزَّكواتِ مِن عامِلٍ، والعامِلُ هو الذي نصَبَه الإمامُ لأخذِ الزَّكواتِ، فدلَّ هذا النصُّ على أنَّ الإمامَ هو الذي يأخُذُ هذه الزَّكواتِ[3].

١٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾ يدلُّ على مسألةٍ بَديعةٍ، وهي أنَّ ما كان مِن فُروضِ الكفاياتِ، فالقائِمُ به يجوزُ له أخذُ الأُجرةِ عليه[4]، فيجوزُ أخْذُ الأجرةِ لكُلِّ مَن اشتغَلَ بشيءٍ مِن أعمالِ المُسلِمينَ، وأيضًا جوازُ أخْذِ القُضاةِ الرِّزقَ[5].

١٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ استدَلَّ بعمومِه مَن قال: يُعطَونَ مع الغِنى، ومَن قال: يُصرَفُ منه في كلِّ ما يتعلَّقُ بالجهادِ؛ مِن مُصالحةِ عَدُوٍّ، وبناءِ حِصنٍ،

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٨٨).
(٤) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٢/ ٥٢٤).
(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٤٢).

وحَفرِ خَندقٍ، واتِّخاذِ سلاحٍ وعُدَدٍ، وإعطاءِ جواسيسَ لنا، ولو كانوا نَصارى[١].

١٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ استدَلَّ بعُمومِه من قال: يُعطى، وإن كان له مالٌ ببَلَدِه[٢].

١٧- استُدلَّ بقولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ على أنَّ هذه الأصنافَ مواضعُ للصدقاتِ؛ لا أنَّهم مشتركونَ فيها؛ حتى يكونَ توزيعُها على جميعِهم فرضًا لا يُجْزِئُ غيرُه، ألَا تراه سبحانه يقولُ: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فغَيَّرَ لفظَ النسقِ والعطفِ على لامِ (الفقراء)؛ وليس يُعْرَفُ في معنى الاشتراكِ أنْ يقالَ: (هذا لفلانٍ وفلانٍ، وفي كذا). ومما يزيدُه تأكيدًا قولُه: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ فأخبر أنَّ هؤلاء اللَّامِزينَ ليسوا موضعًا للصدقةِ؛ ولكنَّ مواضعَها كذا وكذا- واللهُ أعلم- فقال: إنَّما الصدقاتُ هذه مواضعُها[٣].

١٨- الزكاةُ لها مكانُها في شريعةِ اللهِ، ومكانُها في النِّظامِ الإسلاميِّ؛ فهي ليست تطوُّعًا ولا تفضُّلًا ممَّن فُرِضَت عليهم- فهي فريضةٌ مُحتَّمةٌ- ولا مِنحةً ولا جُزافًا مِن القاسِمِ المُوَزِّعِ، فهي فريضةٌ معلومةٌ، إنَّها إحدى فرائِضِ الإسلامِ، تَجمَعُها الدَّولةُ المُسلِمةُ بنظامٍ مُعَيَّنٍ؛ لتُؤَدِّيَ بها خدمةً اجتماعيَّةً محدَّدةً، وهي ليست إحسانًا من المُعطِي، وليسَت شِحاذةً مِن الآخِذِ؛ يُبيِّنُ

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٤٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٤٢).
(٣) يُنظر: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٥٤٣).

ذلك قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(١).

بلاغةُ الآيات:

١ - قَولُه تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ فيه مَجيءُ جوابِ هَذينِ الشَّرطينِ على أَحْسَنِ الوُجوهِ؛ لأنَّ الأوَّلَ لا يَلْزَمُ أنْ يُقارِنَه ولا أنْ يَعْتَقِبَه، بَل قد يُجوزُ أنْ يتأخَّرَ، نَحْوَ: إنْ أَسْلَمتَ دَخْلتَ الجَنَّةَ، فإنَّما يَقْتَضِي مُطْلَقَ التَّرتُّبِ، وأمَّا جوابُ الشَّرطِ الثَّاني فجاء بـ(إذا) الفُجَائيَّةِ، وأنَّه إذا لم يُعْطَوا فاجأَ سَخَطُهم، ولم يُمْكِنْ تَأَخُّرُه؛ لِما جُبِلوا عليه من مَحبَّةِ الدُّنيا، والشَّرَهِ في تَحْصيلِها(٢).

٢ - قَولُه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾

- في قولِهِ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ تَرْتيبٌ حَسَنٌ، حيثُ أَتَى أوَّلًا بمَقامِ الرِّضا بقولِه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾، والرِّضا فِعْلٌ قلبيٌّ يَصْدُرُ عَمَّنْ عَلِمَ أنَّه تعالى مُنَزَّهٌ عَنِ العَتَبِ والخَطأِ، عليمٌ بالعواقبِ؛ فكلُّ قضائِهِ صوابٌ وحقٌّ، لا اعْتِراضَ عليهِ، ثُمَّ ثَنَّى بإظهارِ آثارِ الوَصْفِ القَلْبيِّ، وهو الإقرارُ باللِّسانِ، بقولِهِ: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٦٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٣٩).

فحَسْبُنا ما رَضِيَ بِه، ثُمَّ أتَى ثالثًا بأنَّه تعالى - ما داموا في الحياةِ الدُّنيا - مادٌّ لهم بنِعَمِه وإحسانِه، بقولِه: ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾ فهو إخبارٌ حَسَنٌ؛ إذْ ما مِنْ مؤمنٍ إلَّا ونِعَمُ اللهِ مُترادِفةٌ عليه حالًا ومآلًا، إمَّا في الدُّنيا، وإمَّا في الآخِرةِ، ثُمَّ أتى رَابعًا بالجُمْلةِ المُقتضيةِ الالتِجاءَ إلى اللهِ لا إلى غيرِه، والرَّغبةَ إليه، بقولِه: ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ فلا يُطْلَبُ بالإيمانِ أَخْذُ الأموالِ، والرِّئاسةُ في الدُّنيا، ولَمَّا كانتِ الجُملتانِ مُتغايرتَينِ - وهما ما تَضمَّنَ الرِّضا بالقلبِ، وما تَضمَّن الإقرارَ باللِّسانِ - تَعاطَفَتا، ولَمَّا كانتِ الجُمْلتانِ الأخيرتانِ مِنْ آثارِ قَولِهم: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾، لَمْ تَتعاطَفا؛ إذْ هُما كالشَّرحِ لقولِهم: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾، فلا تَغايُرَ بينهما[1].

- وجُمْلةُ: ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ تعليليَّةٌ لِما قَبْلَها، أي: لأنَّنا راغبونَ فَضْلَه، وتَقديمُ المجرورِ ﴿إِلَى اللَّهِ﴾؛ لإفادةِ القَصْرِ، أي: إلى اللهِ راغِبونَ لا إلى غيرِه[2].

٣- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَساكِينِ ...﴾ اعْتِراضٌ بين جُمْلةِ: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ وجُمْلَةِ: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾، وهو اسْتِطرادٌ نَشَأَ عَنْ ذِكْرِ اللَّمْزِ في الصَّدقاتِ أُدْمِجَ فيه تَبيينُ مَصارِفِ الصَّدقاتِ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٤٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٣٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- والمقصودُ مِنْ أداةِ الحَصْرِ ﴿إِنَّمَا﴾ أنْ ليس شيءٌ مِنَ الصَّدقاتِ بمُسْتَحَقٍّ للذين لَمَزوا في الصَّدقاتِ، وحَصْرُ الصَّدقاتِ في كونِها مُسْتحقَّةً للأصنافِ المذكورةِ في هذه الآيةِ؛ فهو قَصْرٌ إضافيٌّ، أي: الصَّدقاتُ لهؤلاء لا لكم[1].

- وفي هذه الآيةِ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيثُ أضاف فيها الصَّدقاتِ إلى الأصنافِ الأربعةِ الأُولى بلامِ المِلْكِ، فقال: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾، وأضافَها إلى الأربعةِ الأخيرةِ بـ «في» الظَّرفيةِ، فقال: ﴿وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾؛ لأنَّ الأصنافَ الأربعةَ الأوائلَ يَأخُذونَ ما يُدفَعُ إليهم مِلكًا، فكان دُخولُ اللَّامِ لائقًا بهم، وأمَّا الأربعةُ الأواخرُ فلا يَمْلِكونَ ما يُصْرَفُ نَحوَهم، بلْ ولا يُصْرَفُ إليهم، ولكِنْ في مصالِحَ تتعلَّقُ بهم؛ فالمالُ الذي يُصْرَفُ في الرِّقابِ إنَّما يَتناوَلُه السَّادةُ المُكاتَبونَ والبائعونَ، فليس نَصيبُهم مصروفًا إلى أيديهم حتَّى يُعبَّرَ عَنْ ذلك باللَّامِ المُشْعِرةِ بتَملُّكِهم لِما يُصْرَفُ نَحْوهم، وإنَّما هم مَحالُّ لهذا الصَّرْفِ والمَصْلحةِ المُتعلِّقةِ به، وكذلك الغارِمونَ إنَّما يُصْرَفُ نَصيبُهم لأربابِ دُيونِهم؛ تَخليصًا لذِمَمِهم لا لَهم، وأمَّا سبيلُ اللهِ فواضِحٌ فيه ذلك، وأمَّا ابنُ السبيلِ فكأنَّه كان مُنْدرِجًا في سبيلِ اللهِ؛ وإنَّما أُفْرِدَ بالذِّكْرِ تنبيهًا على خُصوصيَّتِهِ، مَعَ أنَّه مُجرَّدٌ مِنَ الحَرْفينِ جَميعًا، وعَطْفُه على المَجْرورِ باللَّامِ مُمْكِنٌ، ولكِنَّهُ على القريبِ منه أَقْربُ[2].

وقيل: عُدِلَ عنِ اللَّامِ إلى (في) في الأربعةِ الأخيرةِ؛ للإيذانِ بأنَّهُمْ أَرْسَخُ في استِحقاقِ التَّصدُّقِ عليهم ممَّنْ سَبَقَ ذِكْرُه؛ لأنَّ (في) للوِعاءِ، فنبَّهَ على أنَّهُمْ أحِقَّاءُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٨٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((حاشية تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٨٣)، ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٥/ ٣٥٣)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١٨/ ٣٤).

بأنْ تُوضَعَ فيهم الصَّدقاتُ، ويُجْعلوا مَظِنَّةً لها ومَصبًّا؛ وذلك لِما في فَكِّ الرِّقابِ مِنَ الكتابةِ أو الرِّقِّ أو الأَسْرِ، وفي فَكِّ الغارمينَ مِنَ الغُرْمِ مِنَ التَّخليصِ والإنقاذِ، وتَكريرُ (في) في قولِه: ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ فيه فَضْلُ تَرجيحٍ لهذَينِ على الرِّقابِ والغارمينَ، وللإيذانِ بزيادةِ فَضْلِهما في الاسْتِحقاقِ[1].

- واختيارُ حَرفِ (على) في قَولِه تعالى: ﴿وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾ لِما يُشعِرُ به أصلُ معناه مِن التمكُّنِ، أي: العاملينَ لأجْلِها عملًا قويًّا؛ لأنَّ السُّعاةَ يتجَشَّمونَ مَشقَّةً وعمَلًا عظيمًا، ولعلَّ الإشعارَ بذلك لِقَصدِ الإيماءِ إلى أنَّ عِلَّةَ استحقاقِهم مُركَّبةٌ من أمرينِ: كَونِ عَمَلِهم لفائدةِ الصَّدقةِ، وكونِه شاقًّا[2].

(١) يُنظَر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٦).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٣٥).

الآيات (٦١-٦٣)

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْيُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿هُوَ أُذُنٌ﴾: أي: يقبَلُ كُلَّ ما قيلَ له، ويسمعُ مِن كلِّ أحدٍ[١].

﴿يُحَادِدِ﴾: أَي: يُخالِفْ ويحارِبْ ويُعادِ؛ يُقالُ: حادَّ فُلانٌ فُلانًا، أي: صار في حَدٍّ غَيرِ حَدِّه، وأصلُ (حدد): يدلُّ على طَرَفِ الشَّيءِ؛ وذلك لأنَّ المُحادَّ يكون فِي حَدٍّ، وَاللهُ ورَسولُه فِي حَدٍّ[٢].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ مِن المُنافِقينَ طائفةً يُؤذونَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ويقولونَ عنه: هو أُذُنٌ سامِعةٌ لكل ما يُقال له ويُصدِّقه، فأمَرَ اللهُ نبيَّه محمَّدًا

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٣٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٦).
قال السمين الحلبي في قولِه: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾: (فيه تأويلان أحدُهما: أنه سُمِّي بالجارحةِ؛ لأنَّها آلةُ السماعِ، وهي معظمُ ما يُقْصد منه. وقيل: المرادُ بالأُذنِ هنا الجارحةُ، وحينئذٍ تكونُ على حَذْفِ مضافٍ، أي: ذُو أُذُنٍ. والثاني: أنَّ الأُذنَ وصفٌ على فُعُل كأُنُف، يقال: أَذِن يَأْذَن فهو أُذُن). ((الدر المصون)) (٦/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٩٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٦).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يقولَ لهم: إنَّه أذنُ خَيرٍ لهم؛ يؤمِنُ باللهِ تعالى وَحْدَه، ويصَدِّقُ المؤمنينَ فيما يُخبِرونَه به، لا أهلَ النِّفاقِ والكُفرِ، وهو صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رحمةٌ للمُؤمِنينَ الصَّادقينَ منهم، وأمَّا الذينَ يُؤذونَ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلهم عذابٌ مُوجِعٌ مُؤلِمٌ.

ويُخبِرُ تعالى أنَّ المُنافِقينَ يَحلِفونَ باللهِ للذينَ آمنوا، يبتغونَ رِضاهم، وبيَّنَ أنَّ اللهَ ورَسولَه أحَقُّ بالإرضاءِ مِن المؤمنينَ، إن كانوا حقًّا مُؤمنينَ كما يدَّعونَ.

ألم يعلَمْ هؤلاء المُنافِقونَ أنَّه مَن يخالِفِ اللهَ ورسولَه ويُعادِهما ويُحارِبْهما؛ فأنَّ له نارَ جهنَّمَ ماكثًا فيها أبدًا، ذلك هو الهوانُ والذلُّ الكبيرُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذا نوعٌ آخَرُ مِن جَهالاتِ المُنافِقينَ، وهو أنَّهم كانوا يقولونَ في رسولِ اللهِ: إنَّه أُذُنٌ، على وجهِ الطَّعنِ والذَّمِّ[١].

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾.

أي: ومِن المُنافِقينَ جماعةٌ يؤذونَ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ويَعيبونَه ويقولونَ عنه: هو أُذُنٌ سامعةٌ؛ فمن قال له شيئًا صَدَّقَه، ومن حدَّثَه فينا صدَّقَه، فإذا جِئْنا وحَلَفْنا له بالكَذِبِ مُعتَذرينَ عمَّا بلَغَه منا، صَدَّقَنا[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٣٤، ٥٣٥، ٥٣٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٢١)، =

﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾.

أي: قُل- يا مُحمَّدُ- لهؤلاءِ المُنافِقينَ: النبيُّ مُصغٍ للخَيرِ، لا مستمعٌ للشَّرِّ، وإن سَمِعَ ما يبلُغُه عنكم لم يؤاخِذْكم به؛ لِسَعةِ صَدرِه، ويسمَعُ مَعاذيرَكم، ويقبَلُها منكم؛ لِحُسنِ خُلُقِه[1].

﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: والنبيُّ يؤمِنُ بالله تعالى وَحْدَه وبما أوحى إليه- ومِن ذلك ما أمَرَه به من العَفوِ عن النَّاسِ، وأمرِهم بالمعروفِ، والإعراضِ عن الجاهِلينَ مِنهم- وهو

= ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٢)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٩٢)، ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤١، ٢٤٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٩٩).

ذهب بعض المفسِّرينَ إلى أنَّ قولَه تعالى: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ تفسيرٌ لِقَولِه: ﴿يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾. وممَّن اختار هذا القولَ: الرازي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩٠).

وذهب بعضُهم إلى أنَّ ﴿يُؤْذُونَ﴾ لفظٌ يعمُّ جميعَ ما كانوا يفعلونَه ويقولونَه في جهةِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم من الأذى، وخصَّ بعد ذلك مِن أذاهم: قَولَهم ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾. وممَّن اختار ذلك: ابنُ عطية. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٢).

قال ابن عطية: (رُوِيَ عن الحسن البصري ومجاهِدٍ: أنَّهما تأوَّلَا أنَّهم أرادوا بقولِهم: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ أي: يسمَعُ منا معاذيرَنا وتَنَصُّلَنا، ويقبَلُه، أي: فنحن لا نبالي مِن أذاه، ولا الوقوعِ فيه؛ إذ هو سمَّاعٌ لكُلِّ ما يقال من اعتذارٍ ونحوِه، فهذا تنقُّصٌ بقلَّةِ الحَزامةِ، والانخداعِ، وروي عن ابن عبَّاسٍ وجماعةٍ معه: أنَّهم أرادوا بقولهم ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ أي: يسمَعُ كُلَّ ما يُنقَل إليه عنا، ويُصغِي إليه ويَقبَلُه، فهذا تشَكٍّ منه، ووصْفٌ بأنَّه يَسوغُ عنده الأباطيلُ والنَّمائِمُ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٢).

وممن اختار قولَ الحسنِ ومجاهدٍ: القرطبيُّ، والسعديُّ، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي (٨/ ١٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٩٩).

وممن اختار قول ابن عبَّاسٍ: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٣٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٢٣، ٥٢٦، ٥٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٢، ٢٤٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٩٩).

يُصدِّقُ المؤمنينَ فيما يُخبِرونَه به، لا أهْلَ النِّفاقِ والكُفرِ بالله تعالى(١).

﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾.

أي: والنَّبيُّ رحمةٌ للمُؤمِنينَ منكم، الصَّادقينَ في إيمانِهم؛ لأنَّه سبَبُ إيمانِهم وهِدايَتِهم إلى ما فيه سَعادتُهم في دنياهم وآخِرتِهم(٢).

كما قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥].

وعن سَهلِ بنِ حُنَيفٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يأتي ضُعَفاءَ المُسلِمينَ، ويَزورُهم، ويعودُ مَرضاهم، ويَشهَدُ جَنائِزَهم))(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٣٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٢٤، ٥٢٦، ٥٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٣٨)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٦٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٣، ٢٤٤).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في ((المصنف)) (١١٩٤٤)، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (٦/ ٨٤) (٥٥٨٦)، والحاكم في ((المستدرك)) (٣٧٣٥)، ورواه الطحاوي في ((شرح معاني الآثار)) بنحوه مختصرًا.
صحَّح إسنادَه الحاكمُ، والبوصيري في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٥/ ٤٩٥)، والعيني في =

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((اللهمَّ إنَّما أنا بشَرٌ، فأيُّما رجُلٍ مِن المُسلِمينَ سَبَبتُه، أو لَعَنتُه، أو جَلَدْتُه، فاجعَلْها له زكاةً ورَحمةً))(١).

وفي روايةٍ ((اللهُمَّ إنَّما محمَّدٌ بَشَرٌ، يغضَبُ كما يغضَبُ البشَرُ، وإنِّي قد اتَّخَذتُ عندك عهدًا لن تُخلِفَنيه؛ فأيُّما مُؤمِنٍ آذيتُه، أو سبَبتُه، أو جَلَدتُه، فاجعَلْها له كفَّارةً، وقُربةً تُقَرِّبُه بها إليك يومَ القيامةِ))(٢).

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

أي: والذين يُؤذونَ رَسولَ اللهِ مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأقوالِهم أو أفعالِهم؛ لهم عذابٌ مُوجِعٌ في الدُّنيا والآخرةِ(٣).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧].

﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذا نوعٌ آخَرُ مِن قبائحِ أفعالِ المُنافِقينَ، وهو: إقدامُهم على اليَمينِ الكاذبةِ،

= ((نخب الأفكار)) (٧/ ٣٣٥)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٤٨٧٧).

(١) أخرجه مسلم (٢٦٠١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٤).

قال السعدي: (ومِن العَذابِ الأليمِ: أنَّه يتحتَّمُ قتلُ مُؤذِيه وشاتِمِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٢).

فهم يؤذونَ النبيَّ، ويُسيئونَ القَولَ فيه، ثمَّ يَحلِفونَ لكم[١].

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾.

أي: يحلِفُ المُنافِقونَ باللهِ لكم كَذِبًا- أيُّها المؤمِنونَ- فيتبَرَّؤونَ مِن أذاهم لِرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ويؤكِّدونَ لكم أنَّهم على دِينِكم؛ يبتغونَ بذلك رِضاكم[٢].

عن سعيدِ بنِ جُبَيرٍ، أنَّ ابنَ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما حدَّثَه، قال: ((كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، في ظِلِّ حُجرةٍ مِن حُجَرِه، وعنده نَفَرٌ من المُسلِمينَ، قد كاد يَقلِصُ[٣] عنهم الظِّلُّ، قال: فقال: إنَّه سيأتيكم إنسانٌ ينظُرُ إليكم بعَينَي شَيطانٍ، فإذا أتاكم فلا تُكَلِّموه، قال: فجاء رجلٌ أزرَقُ، فدعاه رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فكلَّمه، قال: علامَ تَشتِمُني أنت وفلانٌ وفلانٌ- نفَرٌ دَعاهم بأسمائِهم؟ قال: فذهَبَ الرَّجُلُ فدعاهم، فحَلَفوا باللهِ واعتَذَروا إليه، قال: فأنزَلَ اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ...﴾ الآية))[٤].

﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾.

أي: واللهُ ورسولُه أحقُّ بالإرضاءِ منكم- أيُّها المؤمِنونَ- إن كان هؤلاءِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٣٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٢٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٣)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٤، ٢٤٥).

(٣) يَقلِصُ: أي: ينقَبِضُ. يُنظر: ((التنوير شرح الجامع الصغير)) للصنعاني(٢/ ١٨١).

(٤) أخرجه أحمد (٢٤٠٧)، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (١٢/ ٧) (١٢٣٠٧)، والحاكم في ((المستدرك)) (٣٧٩٥)، والبيهقي في ((دلائل النبوة)) (٥/ ٢٨٣).

صحَّح إسناده ابن تيمية في ((الصارم المسلول)) (٢/ ٤٨)، والبوصيري في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٦/ ٢٨٤)، وأحمد شاكر في ((التعليق على المسند)) (٥/ ٩٥)، وجوَّد إسناده الزيلعي في ((تخريج الكشاف)) (٣/ ٤٣٢)، وابن كثير في ((التفسير)) (٨/ ٧٨).

المُنافِقونَ مُؤمِنينَ باللهِ ورَسولِه حقًّا كما يدَّعونَ[١].

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (٦٣)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ تعالى أنَّ حَلِفَ المُنافِقينَ إنَّما هو لِكَراهةِ الخِزيِ عند المُؤمِنينَ، وبيَّن مَن هو الأحَقُّ بأن يُرضُوه؛ أقام الدَّليلَ على ذلك في استفهامِ إنكارٍ وتَوبيخٍ، مُبيِّنًا أنَّهم فرُّوا من خزيٍ مُنقَضٍ، فسَقَطوا في خِزيٍ دائمٍ، فقال تعالى[٢]:

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا﴾.

أي: ألم يعلَمِ المُنافقونَ أنَّه مَن يُخالِفِ اللهَ ورَسولَه، ويُعادِهما ويُحارِبْهما؛ فأنَّ له نارَ جهنَّمَ في الآخرةِ، ماكِثًا فيها أبدًا إلى غيرِ نِهايةٍ[٣]؟!

﴿ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾.

أي: دخولُ نارِ جَهنَّمَ والخلودُ فيها، هو الهوانُ والذُّلُّ الكَبيرُ[٤].

كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ [آل عمران: ١٩٢].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [المجادلة: ٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٥١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٩٤)، ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٠٦، ٦٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٠٧).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ [المجادلة: ٢٠].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

المؤمِنُ لا يُقدِّمُ شَيئًا على رِضا ربِّه، ورِضا رَسولِه؛ نَستفيدُ ذلك مِن قَولِه تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- جَرَت العادةُ باستقراءِ القُرآنِ أنَّه إذا كان الإيمانُ باللهِ عدَّاه بالباءِ، كأن يَقولَ: ﴿آمَنُوا بِاللَّهِ﴾ [النساء: ١٥٢]، ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٤]؛ لأنَّه من باب الإقرارِ به تعالى، وإذا كان الإيمانُ معناه تصديقُ مَخلوقٍ، فإنَّه يُعَدِّيه باللامِ دائمًا؛ ولذا قال تعالى هنا: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ معناه: ويُصَدِّقُ المُؤمنينَ. ولا يكادُ هذا التَّصديقُ المتعَلِّقُ بالآدميِّينَ يُوجَدُ في القرآنِ إلَّا مَجرورًا باللَّامِ، كقوله تعالى: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾ [العنكبوت: ٢٦]، ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا﴾(٢) [يوسف:١٧].

٢- قد يُشكِلُ على بعضِهم قَولُ الله تعالى هنا: ﴿وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ فقيَّد كَونَه رَحمةً للذين آمنوا، وفي سورةِ الأنبياءِ قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] فلم يقَيِّدْ كونَه رحمةً بالإيمان، بل قال لجميعِ العالَمينَ، والجوابُ عن ذلك: أنَّ اللهَ جلَّ وعلا أرسَلَه صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه؛ رحمةً لجميعِ الخلائِقِ، إلَّا أنَّ بَعضَهم قَبِلَ مِن الله التفَضُّلَ بتلك الرَّحمةِ فحازها، فخصَّ في قَولِه: ﴿وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وبعضُهم لم يقبَلْها ولم يَحُزْها،

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٢٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٠٠).

ولا ينافي ذلك أنَّ الله أعطاه تلك الرَّحمةَ، إلَّا أنَّه لم يقبَلْها ولم يَحُزْها[1].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ تضمَّنَ قَبولَ يَمينِ الحالِفِ، وإن لم يَلزَمِ المحلوفَ له الرِّضا، واليمينُ حقٌّ للمُدَّعي[2].

٤- مِن عادةِ المُنافِقينَ، والكاذبينَ مِن عُصاةِ المُؤمنينَ وغَيرِهم، أن يُكثِروا الحَلِفَ لِيُصَدَّقوا؛ لأنَّهم لعِلْمِهم بكَذِبِهم يظنُّونَ أو يَعلَمونَ أنَّهم مُتَّهَمونَ في أقوالِهم وأعمالِهم، فيَحلِفونَ لإزالةِ التُّهمةِ، وهذا معلومٌ في كلِّ زَمانٍ؛ قال الله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾[3].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ تضمَّنَ أن يكونَ اليمينُ باللهِ عزَّ وجلَّ[4].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ فيه دَلالةٌ على أنَّ رضا اللهِ لا يحصُلُ بإظهارِ الإيمانِ، ما لم يقتَرِنْ به التَّصديقُ بالقَلبِ والأعمال، فيَبطُلُ بذلك قولُ الكرَّاميَّةِ الذين يزعُمونَ أنَّ الإيمانَ ليس إلَّا القَولَ باللِّسانِ[5].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ حسُنَ قَولُه: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ لأنَّه طال مُكثُ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم معهم، وكثُرَت نهاياتُه للتَّحذيرِ عن معصيةِ

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٠٠-٦٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٩٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩٢).

الله والتَّرغيبِ في طاعتِه، وقد قال أهلُ المعاني: قول: (ألم تعلَمْ) خطابٌ لِمَن حاول الإنسانُ تعليمَه مُدَّةً، وبالغَ في ذلك التعليم، ثمَّ إنَّه لم يعلَمْ، فيقالُ له: ألم تعلَمْ بعد هذه السَّاعاتِ الطويلةِ والمدَّةِ المَديدةِ(١)؟!

٨- أذى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُحادَّةٌ لله ولِرَسوله؛ لأنَّه قال هذه الآيةَ عَقِبَ قَولِه تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ ثم قال: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ * أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فلو لم يكونوا بهذا الأذى مُحادِّينَ، لم يَحسُنْ أن يُوعَدوا بأنَّ للمُحادِّ نارَ جهنَّمَ(٢).

٩- في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾ وكذا قَولُه تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَه﴾ بيانُ تلازُمِ الحَقَّيْن: حقِّ اللهِ وحقِّ رسولِه؛ وأنَّ جهةَ حُرمةِ اللهِ تعالى وحُرمةِ رسولِه جهةٌ واحدةٌ، فمَن آذى الرسولَ فقد آذى اللهَ، ومَن أطاعَه فقد أطاعَ اللهَ؛ لأنَّ الأمَّةَ لا يَصِلونَ ما بينهم وبين ربِّهم إلَّا بواسطةِ الرَّسولِ، ليس لأحدٍ منهم طريقٌ غيرُه، ولا سبَبٌ سواه، وقد أقامه اللهُ مقامَ نفسِه في أمْرِه ونهيِه، وإخبارِه وبيانِه، فلا يجوزُ أنْ يُفرَّقَ بين الله ورسولِه في شيءٍ من هذه الأمورِ(٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩٢).
(٢) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٢١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤١).

- قولُه: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾ التَّعبيرُ بالنبيِّ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لأنَّ قَبْلَه ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾، فكان مُقْتضى الظاهِرِ أنْ يُقالَ: (ومِنْهُمْ الذين يُؤذونَكَ)، فعُدِلَ عَنِ الإضمارِ إلى إظهارِ وَصْفِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ للإيذانِ بشَناعةِ قولِهِمْ، ولزِيادةِ تَنْزيهِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالثَّناءِ عليه بوَصْفِ النُّبوةِ، بحيثُ لا تُحْكَى مَقالتُهم فيه إلَّا بَعْدَ تقديمِ ما يُشيرُ إلى تَنْزيهِه، والتَّعريضِ بجُرْمِهم فيما قالوه[1].

- قولُه: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ مِنْ صِيغِ التَّشبيهِ البَليغِ، يَعْنونَ: أنَّهُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كالأُذُنِ في تلقِّي المسموعاتِ لا يَرُدُّ مِنْها شيئًا، وهو كِنايةٌ عَنْ تصديقِهِ بكُلِّ ما يَسْمَعُ مِنْ دونِ تَميزٍ بين المقبولِ والمردودِ[2].

- وفي تَسمِيَتِهم إيَّاه- صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- بالجارِحةِ ﴿أُذُنٌ﴾: مُبالغةٌ، كأنَّه مِن فَرطِ استماعِه، صار جُملَتُه آلةً للسَّماعِ،كما يُسمَّى الجاسوسُ عَينًا[3].

- قولُه: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ﴾ فيه دَلالةٌ على المُبالَغةِ في الجَودةِ والصَّلاحِ، كأنَّهُ قيل: نَعَمْ هو أُذُنٌ، ولكِنْ نِعْمَ الأذُنُ، وهو مِن قَبيلِ قَولِهم: رَجُلُ صِدْقٍ[4].

- وأيضًا قولُه: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ﴾ مِن بابِ أُسلوبِ الحَكيمِ[5]؛ فهو في أوَّلِه يُوافِقُهم على قَولِهم: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾، ثمَّ يُتبِعُه ما يَنقُضُه عليهم حتَّى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٦٢٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٧).
(٥) أسلوب الحكيم: هو تَلقِّي المُخاطَبِ بغيرِ ما يَترقَّبُ؛ بحمْلِ كلامِه على غيرِ مُرادِه؛ تنبيهًا على أنَّه هو الأولَى بالقَصدِ، وكذلك أيضًا تلقِّي السائلِ بغيرِ ما يَتطلَّبُ؛ تنبيهًا على ما هو الأولى بحالِه وبالسؤالِ عنه، وهو مِن خلافِ مُقتضَى الظَّاهِرِ.
يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٢٧)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٤/ ٤٢ - ٤٣)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد الخطيب (ص: ١٣٢).

يُنقَضَ على رؤوسِهم، مِن قَبيلِ القَولِ بِموجَبِ العِلَّةِ[١]، فلا شيءَ أبلَغُ مِن الرَّدِّ عليهم بهذا الوَجهِ؛ لأنَّه في الأوَّلِ إطماعٌ لهم بالموافَقةِ، ثمَّ كَرَّ على طَمَعِهم بالحَسمِ، وأعقَبَهم في تنقُّصِه باليأسِ منه[٢].

- قولُه: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيثُ عُدِّي فِعْلُ الإيمانِ إلى اللهِ تعالى بالباءِ، وإلى المؤمنينَ باللَّامِ؛ وذلك لأنَّهُ قُصِدَ التَّصديقُ والإقرارُ باللهِ الذي هو نَقيضُ الكُفْرِ فعُدِّي بالباءِ ﴿بِاللَّهِ﴾، وقُصِدَ الاسْتِماعُ للمؤمنينَ، وأنْ يُسَلِّمَ لهم ما يقولونَ ويُصدِّقَه؛ لكونِهم صادقينَ عِنده، فعُدِّي باللَّامِ ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٣].

- وقولُه: ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه تَخصيصُ المؤمنينَ بالذِّكرِ- وإنْ كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رَحْمةً للعالَمينَ-؛ لأنَّ ما حَصَل لهم بالإيمانِ بسَببِ الرَّسولِ لم يَحصُلْ لغيرِهم، وخُصُّوا هنا بالذِّكرِ وإنْ كانوا قد دَخَلوا في العالَمينَ؛ لحصولِ مَزيَّتِهم[٤].

- قولُه: ﴿وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ عَطفٌ على ﴿أُذُنُ خَيْرٍ﴾، أي: وهو

---

(١) القول بمُوجَب- بفتح الجيم- العلة: هو تسليمُ مقتضَى الدليلِ، مع بقاءِ النزاعِ، بأن يظهرَ عدمُ استلزامِه الدليلَ لمحلِّ النزاعِ، أو: هو تسليمُ ما جعَله المستدلُّ موجبًا لعلتِه، مع استبقاءِ الخلافِ، أو: هو تسليمُ كونِ الوصفِ علةً، وبيانُ أنَّ معلولها غير ما ادعاه المعلل.
يُنظر: ((أصول الشاشي)) (ص: ٣٤٦)، ((الإيضاح لقوانين الاصطلاح في الجدل والمناظرة)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٥)، ((الفروق)) للقرافي (٤/ ٨٨)، ((تقريب الوصول إلي علم الأصول)) لابن جزي الغرناطي (ص: ١٨٩)، ((كشف الأسرار شرح أصول البزدوي)) لعلاء الدين البخاري الحنفي (٤/ ١٠٣ - ١٠٤)، ((البحر المحيط في أصول الفقه)) للزركشي (٧/ ٣٧٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٤٦-٤٤٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٨٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٤٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٤٩).

رَحْمةٌ، بطريقِ إطلاقِ المصدرِ على الفاعِلِ؛ للمُبالَغةِ[1].

- قولُه: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ اعْتِراضٌ مسوقٌ مِنْ قِبَلِه عزَّ وجلَّ على نَهْجِ الوعيدِ غيرُ داخلٍ تَحْتَ الخِطابِ، وفي تكريرِ الإسنادِ بإثباتِ العذابِ الأليمِ لهم، ثُمَّ جَعْلِ الجُملةِ خبرًا للموصولِ، ما لا يَخفَى مِنَ المُبالَغةِ[2].

- وفي قولِه: ﴿رَسُولَ اللَّهِ﴾ إيرادُهُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعُنوانِ الرِّسالةِ مُضافًا إلى الاسْمِ الجليلِ؛ لغايةِ التَّعظيمِ، والتَّنبيهِ على أنْ أَذِيَّتَهُ راجعةٌ إلى جَنابِه عزَّ وجلَّ، مُوجِبةٌ لِكَمالِ السَّخَطِ والغَضَبِ[3]، وأيضًا أبْرَز اسْمَ الرَّسولِ ولم يأتِ به ضميرًا على نَسَقِ ﴿يُؤْمِنُ﴾ بلَفْظِ الرَّسولِ؛ تَعظيمًا لشَأنِه، وجَمْعًا له في الآيةِ بينَ الرُّتبتَينِ العَظيمتينِ مِنَ النُّبوَّةِ والرِّسالةِ، وإضافتُه إليه زيادةٌ في تشريفِه[4].

٢- قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾

- قولُه تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ فيه عدولٌ عن أسلوبِ الحِكايةِ عنهم، بكَلِمةِ ﴿وَمِنْهُمْ﴾؛ لأنَّ ما حُكِيَ هنا حالٌ مِن أحوالِ جَميعِهم[5].

- قولُه: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾ فيه إفرادُ الضَّميرِ في ﴿يُرْضُوهُ﴾ مَعَ أنَّ المذكورَ رِضا اللهِ تعالى ورِضا رَسولِهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّه لا تَفاوُتَ بين رِضا اللهِ ورِضا رسولِهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فكانَا في حُكْمِ مُرْضًى

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٤٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٤).

واحدٍ، فإرضاءُ الله إرضاءٌ للرسولِ، وإرضاءُ الرسولِ إرضاءٌ لله تعالى؛ قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، فلمَّا تلازما صارا كأنهما شيءٌ واحدٌ، أو للإيذانِ بأنَّ رِضاهُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُنْدرِجٌ تَحتَ رِضاهُ سُبْحانَه، وذَهَب غيرُ واحدٍ من علماءِ العربيةِ وعلماءِ التفسيرِ إلى أن رجوعَ الضميرِ على أحدِ المتعاطفينِ اكتفاءً به؛ لأنَّ الآخَرَ مفهومٌ منه، أسلوبٌ عربيٌّ معروفٌ، كثيرٌ في القرآنِ العظيمِ، وفي كلامِ العربِ(١).

- قولُه: ﴿إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ فيه حَذْفُ الجوابِ؛ تعويلًا على دَلالةِ ما سَبَقَ عليه، والتَّقديرُ: إنْ كانوا مُؤمنينَ فلْيُرْضوا اللهَ ورسولَه بما ذُكِرَ؛ فإنَّهما أَحَقُّ بالإرضاءِ(٢).

٣- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾

- قولُه: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ هذه الجُملةُ تَتنزَّلُ مِنْ جُملةِ ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾ مَنْزِلةَ التَّعليلِ؛ لأنَّ العاقِلَ لا يَرْضَى لنَفْسِه عملًا يَؤولُ به إلى مِثْلِ هذا العذابِ، فلا يُقدِمُ على ذلك إلَّا مَنْ لا يَعْلَمُ أنَّ مَنْ يُحادِدِ اللهَ ورَسولَه يَصِرْ إلى هذا المصيرِ السَّيِّئِ(٣).

- والاسْتِفهامُ في ﴿أَلَمْ..﴾ مُسْتَعْمَلٌ في الإنكارِ والتَّوبيخِ والتَّشنيعِ؛ لأنَّ عَدَمَ عِلْمِهم بذلك مُحقَّقٌ بضَرورةِ أنَّهم كافِرونَ بالرَّسولِ، وبأنَّ رِضا اللهِ عِنْدَ رِضاه، ولكِنْ لَمَّا كان عَدَمُ عِلْمِهم بذلك غريبًا- لوجودِ الدَّلائلِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٦).

المُقْتضيةِ أَنَّهُ ممَّا يَحِقُّ أنْ يَعْلموهُ- كان حالُ عَدَمِ العِلْمِ به حالًا مُنْكرًا[١].

- وقولُه: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ...﴾ ﴿... فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ فيه تَكريرٌ لـ(أنَّ)؛ للتَّأكيدِ، حيثُ أُعيدتْ (أنَّ) في الجوابِ لتَوكيدِ (أنَّ) المذكورةِ قَبْلَ الشَّرطِ تَوكيدًا لفظيًّا، فإنَّها لَمَّا دَخَلتْ على ضَميرِ الشَّأنِ وكانتْ جُمْلةُ الشَّرطِ وجوابِهِ تفسيرًا لضميرِ الشَّأنِ، كان حُكْمُ (أنَّ) ساريًا في الجُمْلتينِ، بحيثُ لو لَمْ تُذْكَرْ في الجوابِ لعُلِمَ أنَّ فيه مَعْناها، فلَمَّا ذُكِرتْ كان ذِكْرُها توكيدًا لها[٢].

- والهاء في (أنَّه) ضميرُ الأمرِ والشَّأنِ، والمعنى: أنَّ الأمرَ والشَّأنَ كذا وكذا. والفائدةُ في هذا الضَّميرِ هو أنَّه لو ذُكِرَ بعد كلمة (أنَّ) ذلك المبتدأ والخبَر، لم يكن له كثيرُ وَقْعٍ، فأمَّا إذا قلتَ: الأمرُ والشأنُ كذا وكذا، أوجبَ مَزيدِ تَعظيمٍ وتهويلٍ لذلك الكلامِ[٣]. وفيه وجهٌ آخر: أنَّه لَمَّا كان ذِكْرُ الشَّيءِ مُبهمًا ثمَّ مُفَسَّرًا أضخَمَ، أضمَرَ للشَّأنِ، فقال: ﴿أَنَّهُ﴾ أي الشَّأن العَظيم ﴿مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ﴾[٤].

- وجُملةُ: ﴿ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ تَذييلٌ لِما سَبَقَ؛ فالخزيُ: الذُّلُّ والهوانُ المُقارِنُ للفَضيحةِ والنَّدامةِ، وهي ثَمراتُ نِفاقِهم حيثُ يُفْتَضَحونَ على رُؤوسِ الأشهادِ بظُهورِها ولُحوقِ العذابِ الخالدِ بهم، والإشارةُ بـ﴿ذَلِكَ﴾ إلى ما ذُكِرَ مِنَ العذابِ الخالدِ بذلك؛ إيذانًا ببُعدِ دَرجتِه في الهولِ والفَظاعةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٥١٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٩).

الآيات (٦٤-٦٦)

﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿نَخُوضُ﴾: أي: نَلهُو بالحديثِ، وأصلُ الخوضِ: هو الشُّروعُ في الماءِ والمرورُ فيه، وتخاوَضُوا في الحَديثِ والأمرِ، أي: تَفاوَضُوا، وتداخَلَ كلامُهم، ويُستعملُ الخوضُ في كلِّ دخولٍ فيه تلويثٌ وأذًى، وأكثرُ ما ورَدَ الخوضُ في القرآنِ فيما يُذَمُّ الشُّروعُ فيه، وأصل (خوض): توسُّطُ شيءٍ، ودخولٌ[1].

﴿مُجْرِمِينَ﴾: أي: مُذنبين أو كافِرينَ، والجُرمُ بالضَّمِّ: لا يُطلقُ إلَّا على الذَّنبِ الغليظِ، وأصل الجَرْم: القطعُ، والجَرْم: قطع الثَّمرةِ عن الشَّجرِ[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالَى: يَخشَى المُنافِقونَ أنْ يُنَزِّلَ اللهُ في شَأنِهم سورةً تُخبرُهم بما يُخفونَه في قُلوبِهم من الكُفرِ والنِّفاقِ، ثم يأمرُ نبيَّه أن يقولَ لهم: استَمِرُّوا على ما أنتم عليه منَ الاستهزاءِ؛ إنَّ اللهَ مُظهِرٌ ما تَخشَونَ ظُهورَه.

ولَئِن سألتَ المُنافِقينَ- يا مُحمَّدُ- عمَّا قالوا من الطَّعنِ في أصحابِك

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٧، ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٩٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١).

ودينِك، ليقولُنَّ: إنَّما كنَّا ندخُلُ في الباطِلِ، ونلعَبُ بذلك الحديثِ، ولم نقصِدْ به الطَّعنَ في الإسلامِ والمُسلِمينَ، قل لهم- يا مُحمَّدُ-: أبالله سُبحانه وآياتِه ورَسولِه كُنتُم تستخِفُّون وتَسخَرونَ؟! لا تعتَذِروا- أيُّها المُنافِقونَ- قد كَفَرتُم بعد أنْ كُنتُم مُؤمِنينَ، إنْ نَعْفُ عن جماعةٍ منكم لِحُسنِ تَوبتِهم، نُعَذِّبْ جماعةً أُخرَى منهم؛ لأنَّهم كانوا مُجرِمينَ.

تَفسيرُ الآيات:

﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾.

أي: يَخشى المُنافِقونَ أن يُنزِّلَ الله عزَّ وجلَّ في شأنِهم سُورةً تُخبِرُهم بما يُخفونَه في قُلوبِهم، مِن الكُفرِ والنِّفاقِ[1] فيَعلَم المؤمنونَ أسرارَهم[2].

﴿ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾.

أي: قُل- يا مُحمَّدُ- للمُنافِقينَ: استمِرُّوا على ما أنتم عليه مِن الاستهزاءِ؛ إنَّ

---

(١) قال القرطبي: (كان مِن المنافقينَ من يتردَّدُ، ولا يقطَعُ بتكذيبِ محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ولا بِصِدقِه. وكان فيهم من يَعرِفُ صِدقَه، ويُعانِدُ). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٩٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٧، ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٤١)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٨٦)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩٣)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٤٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦١٢، ٦١٣).

قال الزمخشري: (الضَّميرُ في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ و﴿تُنَبِّئُهُمْ﴾ للمؤمنينَ. وفي ﴿قُلُوبِهِمْ﴾: للمُنافقين، وصحَّ ذلك؛ لأنَّ المعنى يقودُ إليه. ويجوز أن تكونَ الضَّمائِرُ للمُنافقينَ؛ لأنَّ السورةَ إذا نزلت في معناهم، فهي نازلة عليهم). ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٨٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٨)، والثاني أولَى؛ لأنَّ القاعدةَ أنَّ الضمائرَ إذا تعاقبتْ فالأصلُ أن يتحدَ مرجعُها. يُنظر ((قواعد التفسير)) لخالد السبت (١/ ٤٠٤).

اللهَ مُظهِرٌ للمُؤمنينَ - بما يُنَزِّلُ من القُرآنِ - ما تَخشَونَ ظُهورَه[1].

كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ * وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ * وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٢٩-٣١].

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((قال رجلٌ في غزوةِ تَبوكَ في مجلسٍ يومًا: ما رأيتُ مِثلَ قُرَّائِنا هؤلاء، لا أرغَبَ بُطونًا، ولا أكذَبَ ألسِنةً، ولا أجبَنَ عند اللِّقاءِ! فقال رجلٌ في المجلِسِ: كذَبْتَ، ولكنَّك مُنافِقٌ، لأُخبِرَنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فبلغ ذلك النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ونزل القرآنُ، قال عبدُ الله: فأنا رأيتُه مُتعلِّقًا بِحَقَبِ ناقةِ[2] رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تَنكُبُه الحِجارةُ[3]، وهو يقولُ: يا رسولَ اللهِ، إنَّما كنَّا نخوضُ ونَلعَبُ، ورسولُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٤٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٣٣)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٩٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧١)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦١٣).
قال أبو حيان: (وفعَلَ ذلك تعالى في هذه السُّورةِ، فهي تُسمَّى الفاضحةَ؛ لأنَّها فضحَت المنافقينَ). ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٥٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٢).

(٢) الحَقَبُ: حَبلٌ يُشَدُّ به رحْلُ البَعيرِ إلى بطنِه؛ كي لا يتقَدَّمَ إلى كاهِلِه. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ١٤٣).

(٣) تَنكُبُه الحِجارةُ: أي: تُميلُه. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٣١٩).

الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾))(١).

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾.

أي: ولَئِن سألتَ المُنافقينَ- يا مُحمَّدُ- عمَّا قالوه في خَلَواتِهم من الطَّعنِ في أصحابِك ودينِك، ليَقولُنَّ لك: إنَّما كنَّا ندخُلُ في الباطِلِ، ونلعَبُ بذلك الحديثِ، ولم نقصِدْ به الطَّعنَ في المسلمينَ والإسلامِ(٢).

﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾.

أي: قُل- يا مُحمَّدُ- للمُنافقين: أباللهِ سُبحانه وآياتِ كِتابه ورَسولِه مُحمَّدٍ، كنتُم تستخِفُّونَ وتَسخَرونَ؟! كيف تُقدِمونَ على إيقاعِ ذلك(٣)؟!

﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كشَفَ اللهُ أمْرَ استهزائِهم، أردَفَه بإظهارِ قِلَّةِ جدوى اعتذارِهم؛ إذ قد تلبَّسوا بما هو أشنَعُ وأكبَرُ ممَّا اعتَذَروا عنه، وهو الْتباسُهم بالكُفرِ بعد إظهارِ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في ((التفسير)) (٦/ ١٨٣٠)، وابن جرير في ((تفسيره)) (١١/ ٥٤٤).
صحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٣٤)، وقال الوادعي في ((صحيح أسباب النزول)) (١٢٢): رجاله رجال الصحيح إلا هشام بن سعد؛ فلم يُخرج له مسلمٌ إلَّا في الشَّواهد، وله شاهد بسندٍ حسَنٍ.
وقال الشنقيطي: (نزلَتْ هذه الآيةُ في غزوةِ تَبوكَ، بإطباقِ المفسِّرينَ، في قومٍ استهزَؤوا باللهِ وآياتِه ورَسولِه). ((العذب النمير)) (٥/ ٦١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٤٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٤٢)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩٥)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٣٨٠)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٤٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦١٥).

الإيمانِ، فإنَّ الله لَمَّا أظهر نِفاقَهم، كان ما يصدُرُ عنهم من الاستهزاءِ أهوَنَ[(١)].

﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾.

أي: قُل- يا مُحمَّدُ- للمُنافقينَ: لا تَذكُروا أعذارًا؛ فإنَّها لن تنفَعَكم[(٢)].

﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾.

أي: قد أظهرتُم الكفرَ باستهزائِكم بدينِ الله بعدَ أن كنتُم تُظهرونَ الإيمانَ[(٣)].

وقيل: المعنى: قد كفَرْتُم باستهزائِكم باللهِ وآياتِه ورسولِه، بعد أنْ كنتُم مُؤمنينَ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٤٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٨٦)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٩٨).

(٣) وممَّن اختار هذا القول: الزجَّاج، والسمعانيُّ، وأبو حيَّان، والشوكاني، والقاسمي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٥٩)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٣٢٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٥٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٣٠)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٢).

قال ابن عاشور: (والمرادُ بإسنادِ الإيمانِ إليهم: إظهارُ الإيمانِ، وإلَّا فهم لم يُؤمِنوا إيمانًا صادقًا. والمرادُ بإيمانهم: إظهارُهم الإيمانَ، لا وقوعُ حقيقتِه، وقد أنبأ عن ذلك إضافةُ الإيمانِ إلى ضَميرِهم دونَ تَعريفِ الإيمانِ باللام المفيدةِ للحَقيقةِ، أي بعد إيمانٍ هو مِن شَأنِكم، وهذا تعريضٌ بأنَّه الإيمانُ الصُّوريُّ غيرُ الحَقِّ، ونظيرُه قَولُه تعالى الآتي: ﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٤] وهذا من لطائفِ القُرآنِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٢).

(٤) وممَّن اختار هذا القولَ: ابنُ جريرٍ، وابنُ تيميةَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٤٦)، ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٢٢٠، ٢٧٢، ٢٧٣).

قال ابن تيمية: (وقَولُ من يقول عن مِثل هذه الآياتِ: إنَّهم كفَروا بعد إيمانِهم بلسانِهم مع كُفرِهم أوَّلًا بقُلوبهم، لا يصِحُّ؛ لأنَّ الإيمانَ باللِّسانِ مع كُفرِ القلبِ، قد قارَنَه الكفرُ، فلا يقالُ: قد كفرْتُم بعد إيمانِكم؛ فإنَّهم لم يزالوا كافرينَ في نفسِ الأمرِ، وإن أُريدَ أنَّكم أظهَرْتم الكُفرَ بعد إظهارِكم الإيمانَ، فهم لم يُظهِروا للنَّاسِ إلَّا لخواصِّهم، وهم مع خواصِّهم ما زالوا هكذا؛ بل لَمَّا نافقوا وحَذِروا أن تُنزَّلَ سورةٌ تُبيِّنُ ما في قلوبهم من النِّفاقِ وتكلَّموا بالاستهزاءِ، صاروا كافرينَ بعد إيمانِهم، ولا يدلُّ اللفظُ على أنَّهم ما زالوا مُنافقينَ... فبيَّنَ أنَّ الاستهزاءَ بالله وآياتِه ورسولِه، كُفرٌ يَكفُرُ به صاحبُه بعد إيمانِه، فدلَّ على أنَّه كان عندهم إيمانٌ ضعيفٌ). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٢٧٢-٢٧٣).

﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾.

أي: إن نعفُ عن جماعةٍ منكم لِتَوبتِهم الصَّادقةِ، نُعذِّبْ جماعةً أخرى منهم؛ بسببِ أنَّهم كانوا مُقيمين على كفرِهم، مُصِرِّينَ على نفاقِهم، وطَعْنِهم في رَسولِ اللَّه صلَّى الله عليه وسَلَّم مِن غيرِ توبةٍ[1].

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ * وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ مَن أسَرَّ سريرةً- خُصوصًا السَّريرةَ التي يَمكُرُ فيها بدينِ اللهِ تعالى، ويَستهزئُ به وبآياتِه ورسولِه- فإنَّ الله تعالى يُظهِرُها ويفضَحُ صاحِبَها، ويُعاقِبُه أشَدَّ العقوبةِ[2].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ﴾ دلَّت الآيةُ على أنَّ الاستهزاءَ بالدِّينِ- كيف كان- كُفرٌ باللهِ؛ وذلك لأنَّ الاستهزاءَ يدُلُّ على الاستخفافِ، والعُمدةُ الكُبرى في الإيمانِ تَعظيمُ اللهِ تعالى بأقصى الإمكانِ، والجمعُ بينهما مُحالٌ[3].

٣- التوبةُ مَقبولةٌ مِن كلِّ ذَنبٍ، وإن كان عظيمًا؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦١٧، ٦١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (١/ ٣٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (١/ ٣٤٢).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ إن قيل: المُنافِقُ كافِرٌ، فكيف يَحذَرُ نُزولَ الوَحيِ على الرَّسولِ؟ فالجوابُ أنَّ في ذلك وجوهًا:

الأول: أنَّ القَومَ وإن كانوا كافرينَ بِدينِ الرَّسولِ، إلَّا أنَّهم شاهَدُوا أنَّ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كان يُخبِرُهم بما يُضمِرونَه ويَكتمونَه؛ فلهذه التَّجربةِ وقَعَ الحَذَرُ والخَوفُ في قلوبِهم.

الثاني: أنَّهم كانوا يَعرفونَ كَونَه رَسولًا صادقًا مِن عند الله تعالى، إلَّا أنَّهم كفَروا به؛ حسَدًا وعِنادًا.

الثالث: أنَّهم كانوا شاكِّينَ في صِحَّةِ نبوَّتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وما كانوا قاطعينَ بفَسادِها. والشاكُّ خائِفٌ؛ فلهذا السَّبَبِ خافوا أن يُنزَّلَ عليه في أمْرِهم ما يفضَحُهم.

الرابع: هذا حذَرٌ أظهَرَه المُنافِقونَ على وجهِ الاستهزاءِ، حين رأَوُا الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يذكُرُ كُلَّ شَيءٍ، ويُخبِرُ أنَّه عن الوَحيِ، وكان المُنافِقونَ يُكَذِّبونَ بذلك فيما بينهم، فأخبَرَ اللهُ رسولَه بذلك، وأمَرَه أن يُعلِمَهم أنَّه يُظهِرُ سِرَّهم الذي حَذِروا ظُهورَه، وفي قوله: ﴿اسْتَهْزِئُوا﴾ دَلالةٌ عليه.

الخامس: معنى الحَذَرِ الأمرُ بالحَذَرِ، أي: لِيحذَرِ المُنافِقونَ ذلك(١).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ إن قيل: كيف قال ﴿عَلَيْهِمْ﴾، مع أنَّ إنزالَ السُّورةِ إنَّما هو على النبيِّ، لا عليهم؟ فالجوابُ: أنَّ (على) هنا بمعنى (في)، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩٣).

مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، أو أنَّ الإنزالَ هنا بمعنى القراءةِ عليهم[١].

٣- إن قيل في قَولِه تعالى: ﴿تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾: إنَّ هذا تحصيلُ الحاصِلِ؛ لأنهم عالِمون به. قيل: تنبِّئُهم بأسرارِهم وما كتَموه، شائعةً ذائعةً، وتفضَحُهم بظهورِ ما اعتَقَدوا أنَّه لا يَعرِفُه غيرُهم[٢].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّما كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ فيه دلالةٌ على أنَّ اللَّاعِبَ والجادَّ سواءٌ في إظهارِ كَلِمةِ الكُفرِ، وأنَّ الاستهزاءَ بآياتِ اللهِ كُفرٌ[٣].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ يدلُّ على أنَّ كَلِمةَ (إنما) تفيدُ الحَصرَ؛ إذ لو لم يكُنْ ذلك، لم يلزَمْ مِن كونِهم لاعبينَ ألَّا يكونوا مُستَهزِئينَ، فحينئذٍ لا يتِمُّ هذا العُذرُ[٤].

٦- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ يدلُّ على بُطلانِ قَولِ مَن يَقولُ: الكُفرُ لا يدخُلُ إلَّا في أفعالِ القُلوبِ[٥].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ يدلُّ على

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٣٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٤-٢٣٥).
(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (١٤٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩٤).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٩٥)، وينظر أيضًا: ((التوسط والاقتصاد في أن الكفر يكون بالقول أو الفعل أو الاعتقاد)) لعلوي السقاف (ص: ١٢).

أنَّ قَولَهم الذي صدَر منهم، كُفرٌ في الحقيقةِ، وإن كانوا مُنافِقينَ مِن قَبلُ، وأنَّ الكُفرَ يُمكِنُ أن يتجَدَّدَ مِن الكافرِ حالًا فحالًا(١).

٨- قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ لا يخلو أن يكونَ ما قالوه من ذلك جِدًّا أو هَزْلًا، وهو كيفما كان، كُفرٌ؛ فإنَّ الهَزْلَ بالكُفرِ كُفرٌ، لا خُلفَ فيه بين الأمَّةِ؛ لأنَّ أصلَ الدِّينِ مبنيٌّ على تعظيمِ اللهِ وتعظيمِ دينِه ورُسُلِه، والاستهزاءُ بِشَيءٍ من ذلك مُنافٍ لهذا الأصلِ، ومُناقِضٌ له أشَدَّ المناقَضةِ(٢).

٩- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ يدلُّ على أنَّ الاستهزاءَ باللهِ كُفرٌ، وبالرَّسولِ أيضًا كُفرٌ؛ وذلك من جهةِ أنَّ الاستهزاءَ باللهِ وَحدَه كُفرٌ بالضَّرورةِ، فلم يكُن ذِكرُ الآياتِ والرَّسولِ شَرطًا، فعُلِمَ أنَّ الاستهزاءَ بالرَّسولِ كُفرٌ، وإلَّا لم يكُن لذِكْرِه فائِدةٌ، وكذلك الآياتُ، وأيضًا مِن جِهةِ أنَّ الاستهزاءَ بهذه الأمورِ مُتلازِمٌ(٣).

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ إن قيل: ظاهِرُ هذا أنَّهم كانوا مُؤمِنينَ فكفروا بهذا الاستهزاءِ الذي سَمَّوه خوضًا ولَعِبًا، وظاهِرُ السياقِ أنَّ الكُفرَ الذي يُسِرُّونَه، هو سبَبُ الاستهزاءِ الذي يُعلِنونَه. قيل: كِلاهما حقٌّ، ولكُلٍّ منهما وجهٌ؛ فالأولُ: بيانٌ لحُكمِ الشَّرعِ، وهو أنَّهم كانوا مؤمنينَ حُكمًا، فإنَّهم ادَّعَوا الإيمانَ، فجَرَت عليهم أحكامُ الإسلامِ، وهي إنَّما تُبنى على الظَّواهِرِ، والاستهزاءُ بما ذُكِرَ عمَلٌ ظاهِرٌ، يقطَعُ الإسلامَ ويَقتضي الكُفرَ، فبه صاروا كافرينَ حُكمًا، بعد أن كانوا مُؤمنينَ حُكمًا. والثاني: وهو ما دلَّ عليه السِّياقُ، هو الواقِعُ بالفِعلِ(٤) وذلك على أحدِ وجْهَي التأويلِ للآيةِ.

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩٦).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٢/ ٥٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٢).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٥٧).

١١- دلَّ قولُه تعالى: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ في حقِّ المُستَهزِئينَ: أنَّهم كفَّارٌ بالقَولِ، مع أنَّهم لم يعتَقِدوا صِحَّتَه، وهذا بابٌ واسعٌ، وفِقهُه: أنَّ التَّصديقَ بالقَلبِ يَمنعُ إرادةَ التكلُّمِ، وإرادةَ فِعْلٍ فيه استهانةٌ واستخفافٌ بالله سُبحانه وتعالى، كما أنَّه يُوجِبُ المحبَّةَ والتَّعظيمَ(١).

١٢- قال الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ الآيةُ نَصٌّ صريحٌ في أنَّ الخَوضَ في كتابِ اللهِ وفي رسولِه، وفي صفاتِ اللهِ تعالى ووَعْدِه ووَعيدِه، وجَعْلها موضوعًا للَّعِبِ والهُزُؤِ؛ كلُّ ذلك مِن الكُفرِ الحقيقيِّ الذي يَخرُجُ به المُسلِمُ مِن المِلَّة، وتَجري عليه به أحكامُ الرِّدَّةِ، إلَّا أن يتوبَ ويُجدِّدَ إسلامَه(٢).

١٣- إذا تكلَّمَ المَرءُ بكَلِمةِ الكُفرِ طَوعًا، فقد شرَحَ بها صدرًا وهي كُفرٌ، وقد دلَّ على ذلك قولُه تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ * وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ فقد أخبَرَ أنَّهم كفروا بعد إيمانِهم مع قولِهم: إنَّا تكلَّمْنا بالكفرِ مِن غَيرِ اعتقادٍ له، بل كنَّا نَخوضُ ونَلعَبُ، وبيَّنَ أنَّ الاستهزاءَ بآياتِ اللهِ كُفرٌ، ولا يكون هذا إلَّا ممَّن شرَحَ صَدرَه بهذا الكلامِ، ولو كان الإيمانُ في قَلبِه، منَعَه أن يتكَلَّمَ بهذا الكلامِ(٣).

١٤- قال الله تعالى: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ فكيف حكَمَ

(١) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٥٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٥٧).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٢٠).

عليهم بالكُفرِ، ومع ذلك لم يُقِم عليهم الحَدَّ؟!

والجوابُ: لأنَّه كان في تَرْكِ قَتلِهم في حياةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مَصلحةٌ تتضَمَّنُ تأليفَ القلوبِ على رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وجَمْعَ كلمةِ النَّاسِ عليه، وكان في قَتْلِهم تنفيرٌ، والإسلامُ بعدُ في غُربةٍ، ورسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أحرَصُ شَيءٍ على تأليفِ النَّاسِ، وأترَكُ شَيءٍ لِما يُنفِّرُهم عن الدُّخولِ في طاعَتِه، وهذا أمرٌ كان يختَصُّ بحالِ حياتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[١]، وقيل غيرُ ذلك[٢].

١٥- قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ فاعتَرَفوا واعتَذَروا؛ ولهذا قيل: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ فدلَّ على أنَّهم لم يكونوا عند أنفُسِهم قد أتَوْا كُفرًا، بل ظَنُّوا أنَّ ذلك ليس بكُفرٍ، فبيَّنَ أنَّ الاستهزاءَ باللهِ وآياتِه ورسولِه، كُفرٌ يَكفُرُ به صاحِبُه بعد إيمانِه، فدلَّ على أنَّه كان عندهم إيمانٌ ضَعيفٌ، ففعلوا هذا المحرَّمَ الذي عَرَفوا أنَّه مُحرَّمٌ، ولكِنْ لم يظنُّوه كُفرًا، وكان كُفرًا كفروا به، فإنَّهم لم يعتَقِدوا جوازَه[٣]، وذلك على أحدِ وجهي التأويلِ للآيةِ.

١٦- دلَّ قولُه تعالى: ﴿إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾ على أنَّ الكافرَ بعد إيمانِه قد يُعفَى عنه وقد يُعذَّبُ، وإنَّما يُعفى عنه إذا تاب، فعُلِمَ أنَّ توبتَه مَقبولةٌ[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي

---

(١) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٤٩٧).

(٢) يُنظر: ((المحلى بالآثار)) لابن حزم (١٢/ ١٣٦)، ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٣٣، ٣٥٦).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٧٣).

(٤) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٣١٦).

قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾

- قولُه: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ﴾ فيه التَّعبيرُ بصِيغةِ المُضارِعِ ﴿يَحْذَرُ﴾؛ لِمَا تُشْعِرُ به مِنِ استِحضارِ الحالةِ[1].

- وقولُه: ﴿أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ﴾ التَّعبيرُ بالتَّنبئةِ فيه مُبالَغةٌ في كونِ السُّورةِ مُشْتَمِلةً على أسرارِهم، كأنَّها تَعْلَمُ مِنْ أحوالِهم الباطنةِ ما لا يَعْلمونَه، فتُنَبِّئُهم بها، وتَنْعَى عليهم قبائحَهم[2].

- قولُه: ﴿قُلِ اسْتَهْزِئُوا﴾ الأمرُ بالاسْتِهزاءِ أمْرُ تَهديدٍ ووعيدٍ[3].

- قولُه: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ فيه العُدولُ إلى التَّعبيرِ بالموصولِ ﴿مَا تَحْذَرونَ﴾ دونَ أنْ يُقالَ مَثلًا: (إنَّ اللهَ مُخرِجٌ سُورةً تُنبِّئُكُمْ بما في قلوبِكُمْ)؛ لأنَّ الأهمَّ مِنْ تَهديدِهم هو إظهارُ سَرائِرِهم لا إنزالُ السُّورةِ؛ فذِكْرُ الصِّلَةِ وافٍ بالأمرينِ: إظهارُ سرائِرِهم، وكونُه في سُورةٍ تَنْزِلُ، وهو أنْكَى لهم، ففيه إيجازٌ بديعٌ[4]. مَعَ ما فيه مِنَ التَّأكيدِ بـ(إنَّ) واسْميَّةِ الجُملةِ.

٢- قولُه تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ فيه قَصْرٌ بـ﴿إِنَّمَا﴾، وهو هنا للتَّعيينِ، أي: ما تَحدَّثْنا إلَّا في خَوضٍ ولَعِبٍ دونَ ما ظَنَنتَهُ بِنا مِنَ الطَّعْنِ والأذى[5].

- قولُه: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ الاسْتِفهامُ فيه إنكاريٌّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤٩).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٢٥٠).

توبيخيٌّ، وهو تَقريرٌ على اسْتِهزائِهم، وضَمَّنَه الوَعيدَ، ولم يَعْبأْ باعْتِذارِهم؛ لأنَّهم كانوا كاذبينَ فيه، فجُعِلوا كأنَّهم مُعْترِفونَ باسْتِهزائهم، وبأنَّه مَوجودٌ مِنهم، حتَّى وُبِّخوا بإخطائِهم مَوضِعَ الاسْتِهزاءِ، حيثُ جُعِلَ المُستَهزَأُ به يلي حَرْفَ التَّقريرِ، وذلك إنَّما يَستقيمُ بَعْدَ وقوعِ الاسْتِهزاءِ(١).

- وتقديمُ المعمولِ ﴿أَبِاللَّهِ﴾ على فِعْلِه العاملِ فيهِ ﴿تَسْتَهْزِؤُونَ﴾؛ لقَصْدِ قَصْرِ التَّعيينِ؛ لأنَّهم لَمَّا أتوا في اعْتِذارِهِمْ ﴿إِنَّما كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ بصيغةِ قَصْرِ تَعيينٍ، جِيءَ في الرَّدِّ عليهم بصِيغةِ قَصْرِ تَعيينٍ؛ لإبطالِ مُغالَطتِهِمْ في الجوابِ، فأَعلَمَهم بأنَّ لَعِبَهم الذي اعْتَرَفوا به ما كان إلَّا اسْتِهزاءً باللهِ وآياتِهِ ورَسولِهِ، لا بغيرِ أولئك(٢).

٣- قوله تعالى: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾

- وقولُه: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾ فيه تَوكيدٌ لمضمونِ جُمْلةِ: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾، مع زيادةِ ارْتِقاءٍ في التَّوبيخِ، وارْتِقاءٍ في مَثالِبِهم بأنَّهم تَلبَّسوا بما هو أشدُّ، وهو الكُفْرُ؛ فلذلك فُصِلتِ الجُمْلةُ عن التي قَبْلَها، أي: لم تُعْطَفْ عليها(٣).

- قولُه: ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ﴾ تَعليلٌ لقولِه: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾ وهو نهيٌ مُسْتَعْمَلٌ في التَّسويةِ وعدمِ الجَدْوى(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٢٥٢).

الآيات (٦٧-٧٠)

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾

غريبُ الكَلمات:

﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾: أي: يُمسِكونَها عن الصَّدَقةِ والخَيرِ، وأصلُ (قبض): يدلُّ على شيءٍ مأخوذٍ، وتجمُّعٍ في شَيءٍ[١].

﴿بِخَلَاقِهِمْ﴾: أي: بنَصيبِهم في الدُّنيا، والخَلاقُ: النَّصيبُ والحظُّ من الخَيرِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٠، ٥٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٨).

﴿وَخُضْتُمْ﴾: أي: دَخَلْتُم في الباطِلِ[1].

﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾: أي: مَدائِنِ قَومِ لُوطٍ؛ ائتَفَكَت بهم، أي: انقَلَبَت، وأصلُ (أفك): يدلُّ على قلبِ الشَّيءِ، وصَرفِه عن جِهَتِه[2].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ المُنافِقينَ والمُنافِقاتِ هم صِنفٌ واحِدٌ مُتشابِهونَ في كُفرِهم ونِفاقِهم؛ يأمرونَ بالمُنكَرِ، وينهَوْنَ عن المعروفِ، ويُمسِكونَ أيديَهم عن إخراجِ ما يجِبُ عليهم من النَّفَقات، نَسُوا ذِكرَ اللهِ، فترَكَ هدايتَهم ورَحمتَهم، وأهمَلَهم وتخلَّى عنهم، ويترُكُهم مخلَّدينَ في عذابِ جهنَّمَ في الآخرةِ، إنَّ المُنافقينَ هم الفاسِقونَ.

وعَدَ اللهُ المُنافِقينَ والمُنافِقاتِ والكُفَّارَ نارَ جهنَّمَ، ماكثينَ فيها أبدًا، هي كافيةٌ لِعقابِهم، وأبعَدَهم اللهُ مِن رَحمتِه، ولهم عذابٌ دائِمٌ غيرُ مُنقطِعٍ.

ثمَّ وجَّه تعالى الخِطابَ للمُنافِقينَ والكُفَّارِ، فقال لهم: أنتم تعمَلونَ مثلَ أعمالِ مَن قَبلَكم مِن الأمَمِ، الذين كانوا أقوَى مِنكم، وأكثَرَ أموالًا وأولادًا منكم، فتمتَّعوا بنَصيبِهم المقَدَّرِ من الدُّنيا، مُؤْثِرينَ له على نعيمِ الآخرةِ، فتمَتَّعتُم أنتم بنَصيبِكم من الدُّنيا، وأعرَضْتُم عن الآخرةِ، كما فعَلَ الذين كَفَروا من قَبلِكم، وخُضتُم في الذي خاضُوا فيه، أولئك بطَلَت أعمالُهم في الدُّنيا والآخرةِ، وأولئك هم الخاسِرونَ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٧، ١٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٢).

ألَمْ يأتِ هؤلاءِ المُنافِقينَ والكُفَّارَ خَبَرُ إهلاكِ اللهِ الأمَمَ الماضيةَ؛ قوم نوحٍ وعادٍ، وثمودَ، وقَومِ صالحٍ، وأهلِ مَدينَ، وقَومِ لوطٍ الذين انقلبت بهم أرضُهم، فصار أعلاها أسفلَها، جاءتهم رسُلُهم بالمُعجِزاتِ الواضِحةِ، فكَذَّبوا الرُّسُلَ فأهلَكَهم اللهُ، فما كان اللهُ ليَظلِمَهم، ولكِنَّهم كانوا يَظلِمونَ أنفُسَهم بالكُفرِ والعِصيانِ وتكذيبِ الرُّسُلِ، فاستحقُّوا العُقوبةَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها شَرحٌ لِنَوعٍ آخَرَ مِن أنواعِ فضائِحِ المنافقين وقبائِحِهم، والمقصودُ بيانُ أنَّ إناثَهم كذُكورِهم في تلك الأعمالِ المُنكَرةِ والأفعالِ الخَبيثةِ(١).

وأيضًا فهذه الآيةُ احتراسٌ عن أن يظُنَّ المنافِقونَ أنَّ العَفوَ المفروضَ لطائفةٍ منهم، هو عفوٌ يَنالُ فريقًا منهم باقينَ على نفاقِهم؛ فعَقَّبَ ذلك ببيانِ أنَّ النِّفاقَ حالةٌ واحدةٌ، وأنَّ أصحابَه سواءٌ؛ ليُعلَمَ بذلك أنَّ افتراقَ أحوالِهم بين عَفوٍ وعذابٍ، لا يكونُ إلَّا إذا اختلَفَت أحوالُهم بالإيمانِ، والبقاءِ على النِّفاقِ(٢).

﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾.

أي: المُنافِقونَ والمُنافِقات، الذين يُظهِرونَ للمُسلِمينَ الإيمانَ بألسِنَتِهم، ويُبطِنونَ الكُفرَ في قلوبِهم؛ هم صِنفٌ واحدٌ مُتشابِهونَ في كُفرِهم ونِفاقِهم،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٣).

وأخلاقِهم وأغراضِهم، وبعضُهم أولياءُ بعضٍ[١].

﴿ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ ﴾.

أي: المُنافِقونَ والمُنافِقاتُ يأمرونَ بما يُبغِضُه اللهُ ويُنكِرُه؛ من الكُفرِ والمعاصي، ويَنهونَ عن المعروفِ الذي يحِبُّه الله ويأمُرُ به؛ من الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ[٢].

﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾.

أي: ويُمسِكُ المُنافِقونَ والمُنافِقاتُ أيديَهم عن إخراجِ زكاةِ أموالِهم، وعن كلِّ ما وجَبَ عليهم من النَّفَقاتِ، ومن ذلك الإنفاقُ في الجِهادِ[٣].

﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾.

أي: نَسِيَ المُنافِقونَ ذِكرَ اللهِ وترَكوا طاعَتَه، فترَكَ اللهُ هدايتَهم ورَحمَتَهم، وأهمَلَهم وتخلَّى عنهم، ويترُكُهم مخلَّدينَ في عذابِ جهنَّمَ في الآخرةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٤٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٩٩)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٣، ٢٥٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٤٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٦)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ١٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٤٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٦)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٩٩)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ١٠٦ - ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٢١).

قال ابنُ تيمية: (﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ قال مجاهد: «يقبِضُونَها عن الإنفاقِ في سبيلِ الله». وقال قتادة: «يقبضون أيديَهم عن كلِّ خيرٍ» فمجاهدٌ أشار إلى النَّفعِ بالمالِ، وقتادةُ أشار إلى النَّفعِ بالمالِ والبَدَن). ((اقتضاء الصراط المستقيم)) (١/ ١٠٦-١٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٦)، ((تفسير القرطبي)) =

كما قال تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [الجاثية: ٣٤].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩].

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

أي: إنَّ المُنافِقين هم الخارِجونَ عن طاعةِ اللهِ، والإيمانِ به سُبحانَه[1].

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى في المُنافِقين والمُنافِقاتِ أنَّه نَسِيَهم، أي: جازاهم على تَرْكِهم التمسُّكَ بطاعةِ اللهِ؛ أكَّدَ هذا الوعيدَ، وضَمَّ المُنافِقين إلى الكُفَّارِ فيه، فقال تعالى[2]:

= (٨/ ١٩٩)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ١٠٨)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٢، ١٧٣)، ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ١٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٣).

قال ابن القيم: (أي: تَرَكوا طاعةَ الله والإيمانَ بما جاء به رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فتَرَكهم اللهُ مِن رحمَتِه، وهذا لا خلافَ فيه، ولا يجهَلُه من له أقَلُّ علمٍ بتأويلِ القُرآنِ). ((الصلاة)) (ص: ٧٧).

وقال القرطبي: (قال قتادة: ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ أي: من الخَيرِ، فأمَّا مِن الشَّرِّ، فلم يَنْسَهم). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٩٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٤٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٤٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩٨).

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

أي: وعَدَ اللهُ المُنافِقينَ والمُنافِقاتِ وجميعَ الكُفَّارِ أنْ يُدخِلَهم نارَ جهنَّمَ، ماكثينَ فيها أبدًا(١).

﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾.

أي: نارُ جهنَّمَ كافيةٌ لعقابِ المُنافِقينَ والمُنافِقاتِ والكُفَّارِ؛ جزاءً على نفاقِهم وكُفرِهم(٢).

﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾.

أي: وأبعَدَ اللهُ المُنافِقينَ والكُفَّارَ، وطَرَدَهم مِن رَحمتِه(٣).

كما قال تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا * مَلْعُونِينَ﴾ [الأحزاب: ٦٠-٦١].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٤-٦٥].

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٤٣، ٥٤٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٢٥).
قال الزجاج: (أي كفايةُ ذُنُوبِهم، كما تقول: عذَّبْتُك حسبَ فِعْلِك، وحَسْبُ فُلانٍ ما نَزَل به، أي: ذلك على قَدْر فِعلِه). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٢/ ٤٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٢٥).

أي: ولأهلِ النِّفاقِ والكُفرِ عذابٌ دائِمٌ لا ينقطِعُ[1].

﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان حالُ المُنافِقينَ في الإقبالِ على العاجلةِ؛ لِكَونِها حاصلةً، والإعراضِ عن العاقِبةِ؛ لأنَّها غائبةٌ- مُشابِهًا لحالِ من كان قَبْلَهم من الأُمَمِ الخاليةِ، والقُرونِ الماضيةِ؛ بيَّنَ لهم ذلك، وختَمَ ببيانِ سُوءِ أحوالِهم وقُبحِ مآلِهم، بتلاشي أعمالِهم، فقال تعالى[2]:

﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾.

أي: فعَلْتُم - أيُّها المُنافِقونَ والكفَّارُ- كفعلِ الذين مِنْ قبلِكم، فسَينزِلُ بكم مِن العُقوباتِ مثلُ ما نزَلَ بهم، وقد كانُوا أقوى منكم، وأكثرَ منكم أموالًا وأولادًا[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٢٦).

قال ابن تيمية: (قيل: إنَّ قَولَه تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ إشارةٌ إلى ما هو لازِمٌ لهم في الدُّنيا والآخرة من الآلامِ النَّفسية: غَمًّا وحُزنًا، وقسوةً وظُلمةَ قلبٍ، وجَهلًا؛ فإنَّ للكُفرِ والمعاصي من الآلامِ العاجِلةِ الدَّائمة ما اللهُ به عليمٌ؛ ولهذا تجِدُ غالِبَ هؤلاء لا يُطَيِّبونَ عَيشَهم إلَّا بما يُزيلُ العَقلَ، ويُلهي القَلبَ؛ من تناوُلِ مُسكِرٍ، أو رؤيةِ مُلْهٍ، أو سَماعِ مُطرِبٍ، ونحوِ ذلك). ((اقتضاء الصراط المستقيم)) (١/ ١١٠).

وقال الألوسي: (قيل: إنَّ الأوَّلَ عذابُ الآخرةِ، وهذا عذابُ ما يقاسونَه في الدُّنيا؛ مِن التَّعَبِ، والخَوفِ من الفضيحةِ والقَتلِ، ونَحوِه). ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣٢٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٥٢٢).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٢٧). =

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم: ٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [غافر: ٢١-٢٢].

﴿فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ﴾.

= وفي الآيةِ أوجهٌ أخرى. قال ابنُ القيِّم: (اختُلِفَ في محلِّ هذه الكافِ وما يتعلَّقُ بها، فقيل: هو رفعٌ، خبرُ مبتدأٍ مَحذوفٍ، أي: أنتم كالذين مِن قَبْلِكم. وقيل: نصبٌ بفِعلٍ مَحذوفٍ، تقديرُه: فعَلْتُم كفِعلِ الذين مِن قَبْلِكم، والتشبيهُ على هذينِ القَولينِ في أعمالِ الذين مِن قَبلُ. وقيل: إنَّ التَّشبيهَ في العذابِ، ثم قيل: العاملُ مَحذوفٌ، أي: لعَنَهم وعذَّبَهم كما لعنَ الذينَ مِن قَبلُ، وقيل: بل العامِلُ ما تقدَّمَ، أي: وعدَ الله المُنافِقينَ كوَعدِ الذين مِن قَبلِكم، ولعَنَهم كلَعْنِهم، ولهم عذابٌ مُقيمٌ كالعذابِ الذي لهم). ((إعلام الموقعين)) (١/ ١٠٤، ١٠٥). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩٨)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ١١٢، ١١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٣٢، ٤٣٣).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (وإذا عرَفْتَ أنَّ مِن النَّاسِ مَن يجعَلُ التَّشبيهَ في العمل، ومنهم من يجعَلُ التَّشبيهَ في العذابِ، فالقولان متلازِمانِ؛ إذ المُشابهةُ في الموجِبِ تقتضي المُشابهةَ في الموجَبِ، وبالعكسِ، فلا خلافَ معنويٌّ بين القولينِ. وكذلك ما ذكرناه من اختلافِ النَّحويينَ في وجوبٍ في الحذفِ وعَدَمِه، إنما هو اختلافٌ في تعليلاتٍ ومآخِذَ، لا تقتضي اختلافًا لا في إعرابٍ، ولا في معنًى؛ فإذن: الأحسَنُ أن تتعلَّق الكافُ بمجموعِ ما تقدَّمَ: مِن العَمَلِ والجزاءِ، فيكونُ التَّشبيهُ فيهما لفظًا. وعلى القولينِ الأوَّلَينِ: يكون قد دلَّ على أحَدِهما لفظًا، وعلى الآخَرِ لُزومًا). ((اقتضاء الصراط المستقيم)) (١/ ١١٣).

وقيل: المعنى: أباللهِ وآياتِ كِتابِه ورَسولِه كنتُم تستَهزِئونَ كالذينَ مِن قَبْلِكم، من الأمَمِ الذين فَعَلوا فِعْلَكم، فأهلَكَهم اللهُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٠).

أي: فتمتَّع كُفَّارُ الأمَمِ الماضيةِ بنَصيبِهم المقدَّرِ لهم من الدُّنيا وشَهَواتِها، مُؤثِرينَ له على نَعيمِ الآخرةِ، فتمتَّعتُم- أيُّها المُنافِقونَ والكفَّارُ- بنَصيبِكم من شَهَواتِ الدُّنيا، وأعرَضْتُم عن الآخِرةِ كذلك، كما تمتَّعَ الكُفَّارُ الذين مِن قَبلِكم بنَصِيبِهم(١).

﴿وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْ﴾.

مُناسَبَتُها لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ تعالى مُشابهةَ هؤلاءِ المُنافِقينَ لأولئك المتقَدِّمينَ في طلَبِ الدُّنيا، وفي الإعراضِ عن طلَبِ الآخرةِ؛ بيَّنَ حُصولَ المُشابَهةِ بين الفَريقَينِ، في تكذيبِ الأنبياءِ، وفي المَكرِ والخديعةِ والغَدرِ بهم، فقال تعالى(٢):

﴿وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْ﴾.

أي: وخضتُم- أيُّها المُنافِقونَ والكُفَّارُ- في الكُفرِ والكَذِبِ، والباطِلِ والشُّبُهاتِ، والاستهزاءِ باللهِ وآياتِه ورَسولِه؛ مثلَ الخَوضِ الذي خاضَتْه الأمَمُ قَبلَكم(٣).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾.

أي: أولئك الذين تمتَّعوا بشَهَواتِ الدُّنيا، وخاضوا في الباطِلِ؛ بطَلَت

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥١)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٤٥)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ١٢١، ١٢٢)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٢٨، ٦٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٠١)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ١١٨)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٠٥، ١٠٦)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٩).

قال ابن عاشور: (فأنتم وهم سَواءٌ، فيُوشِكُ أن يحيقَ بكم ما حاق بهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٩).

أعمالُهم في الدُّنيا والآخرةِ، فلا يَقبَلُها اللهُ تعالى منهم، ولا يُثيبُهم عليها[١].

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾.

أي: وأولئك هم المَغبونونَ بحِرمانِ الخَيرِ العاجِلِ والآجِلِ، وحُصولِ العِقابِ في الدُّنيا والآخرةِ[٢].

﴿أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَقَوۡمِ إِبۡرَٰهِيمَ وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٧٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا شَبَّه اللهُ تعالى المُنافِقينَ بالكُفَّارِ المتقَدِّمينَ، في الرَّغبةِ في الدُّنيا، وتكذيبِ الأنبياءِ، وكان لفظُ ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ فيه إبهامٌ- نَصَّ على طوائِفَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٧)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ١١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٩، ٢٦٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٣٢).

وحبوطُ الأعمالِ معناه: ذهابُها، وعدمُ الاستفادةِ منها، فأمَّا في الآخرةِ فظاهرٌ، وأمَّا في الدنيا فحبوطُها ألَّا تُقبلَ منهم، فهم لا ينتفعونَ بها، ولا يستفيدون منها، فصاروا كأنَّهم لم يعملوها. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (١/ ٤٢٤) ((تفسير ابن عثيمين - سورة آل عمران)) (١/ ١٤٢). وينظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٣٢).

وقال ابنُ عطية: (قَولُه ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ معناه: إذا كان في المُنافِقينَ ما يُصيبُهم في الدُّنيا مِن المَقْتِ مِن المؤمنينَ، وفسادِ أعمالِهم عليهم، وفي الآخرةِ بألَّا تنفَعَ، ولا يقَعَ عليها جزاءٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٧).

وقال ابنُ عاشور: (المرادُ بأعمالهم: ما كانوا يَعمَلونَه، ويَكدَحونَ فيه: مِن معالجةِ الأموالِ والعِيالِ، والانكبابِ عليهما، ومعنى حَبَطِها في الدُّنيا: استئصالُها، وإتلافُها بحلولِ مُختَلِفِ العذابِ بأولئك الأمَمِ، وفي الآخرةِ: بعَدَمِ تَعويضِها لهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٩-٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٧٦)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٣٣).

بأعيانِها سِتَّةٍ؛ لأنَّهم كان عندهم شَيءٌ مِن أنبائِهم، وكانت بلادُهم قريبةً مِن بلادِ العَربِ، وكانوا أكثَرَ الأمَمِ عَددًا، وأنبياؤُهم أعظَمَ الأنبياءِ(١).

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾.

أي: ألَمْ يَسمَعِ المُنافِقونَ والكُفَّارُ خَبَرَ إهلاكِنا الأمَمَ الكافِرةَ الماضيةَ(٢)؟!

ثمَّ بيَّن جلَّ ثناؤُه مَنْ أولئك الأمَمُ(٣)، فقال:

﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ﴾.

أي: قَومِ نُوحٍ، وعادٍ- قَومِ هُودٍ- وثمودَ- قَومِ صالحٍ- وقَومِ إبراهيمَ، وأهلِ مَدينَ- قَومِ شُعيبٍ- وأهلِ قُرى قَومِ لوطٍ، التي انقلَبَت بهم فصار أعلاها أسفَلَها(٤)؟!

﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾.

أي: جاءَت تلك الأمَمَ رسُلُ اللهِ بالمُعجِزاتِ الواضِحاتِ، فكذَّبوا الرُّسُلَ، فأهلَكَهم اللهُ(٥).

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [إبراهيم: ٩].

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٣، ٥٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٤٦، ٥٤٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٤، ٥٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٨)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٣).

وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق: ١٢ - ١٤].

﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

أي: فما كان اللهُ ليظلِمَ تلك الأممَ المكَذِّبةَ، بإهلاكِهم قبلَ إقامةِ الحُجَّةِ عليهم، ولكِن كانوا يظلِمونَ أنفُسَهم، بالكُفرِ باللهِ وعِصيانِه، وتكذيبِ رُسُلِه، فاستحَقُّوا عِقابَه(١).

كما قال سُبحانه: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣١].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ لأنَّهم اشتَرَكوا في النِّفاق، فاشتَرَكوا في تولِّي بَعضِهم بعضًا، وفي هذا قَطعٌ للمُؤمِنينَ مِن وَلايتِهم(٢).

٢- قَولُه تعالى: ﴿فَاسْتَمْتَعْتُمْ﴾ و﴿وَخُضْتُمْ﴾ خبرٌ عن وقوعِ ذلك في الماضي، وهو ذَمٌّ لِمن يفعَلُه، إلى يومِ القيامةِ، كسائرِ ما أخبَرَ اللهُ به عن الكفَّار والمُنافِقين، عند مبعَثِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فإنَّه ذَمٌّ لِمَن حالُه كحالِهم، إلى يومِ القيامةِ، فيكونُ كُلُّ مَن حصل منه هذا الاستمتاعُ والخَوضُ مُخاطَبًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٤٣).

بِقَولِه: ﴿فَاسْتَمْتَعْتُمْ﴾ و﴿وَخُضْتُمْ﴾[(١)].

٣- قال الله تعالى: ﴿فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ فَسادُ الدِّينِ إمَّا أن يقَعَ بالاعتقادِ الباطِلِ والتكَلُّمِ به، وهو (الخَوض)، أو يقَعَ في العمَلِ بخلافِ الحَقِّ والصَّوابِ، وهو (الاستمتاعُ بالخَلاقِ). فالأوَّلُ البِدَعُ، والثاني اتِّباعُ الهوى، وهذان هما أصلُ كُلِّ شَرٍّ وفِتنةٍ وبلاءٍ، وبهما كُذِّبَت الرُّسُلُ، وعُصِيَ الرَّبُّ، ودُخِلَت النَّارُ، وحَلَّت العُقوباتُ، فالأوَّلُ مِن جهةِ الشُّبُهات، والثاني من جهةِ الشَّهواتِ؛ ولهذا كان السَّلَفُ يقولونَ: احذَروا من النَّاسِ صِنفَينِ: صاحِبَ هَوًى، فِتنَتُه هَواه، وصاحِبَ دُنيا، أعجَبَتْه دُنياه، وكانوا يقولونَ: احذَروا فتنةَ العالِمِ الفاجِرِ، والعابِدِ الجاهِلِ؛ فإنَّ فِتنَتَهما فتنةٌ لكُلِّ مفتونٍ، فهذا يُشبِهُ المغضوبَ عليهم، الذين يعلمونَ الحَقَّ ويَعملونَ بخلافِه، وهذا يُشبِهُ الضَّالِّينَ الذين يعملونَ بغيرِ عِلمٍ، فقولُه تعالى: ﴿فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ﴾ إشارةٌ إلى اتِّباعِ الشَّهواتِ، وهو داءُ العُصاةِ، وقَولُه: ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ إشارةٌ إلى الشُّبُهاتِ، وهو داءُ الْمُبتَدعةِ، وأهلِ الأهواءِ والخُصُوماتِ، وكثيرًا ما يجتمعانِ، فقَلَّ مَن تجِدُه فاسِدَ الاعتقادِ، إلَّا وفَسادُ اعتقادِه يظهَرُ في عَمَلِه، والمقصودُ أنَّ الله أخبَرَ أنَّ في هذه الأمَّةِ مَن يستمتِعُ بخَلاقِه، كما استمتَعَ الذين مِن قَبلِه بخَلاقِهم، ويخوضُ كَخَوضِهم، وأنَّهم لهم من الذَّمِّ والوعيدِ كما للَّذين مِن قَبلِهم[(٢)].

٤- عاقب اللهُ سبحانه مَن نَسِيَه عُقوبَتينِ: إحداهما: أنَّه سُبحانه يَنساه، كما في قولِه تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾، والثَّانية: أنَّه يُنسيه نفسَه، كما في قولِه

---

(١) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ١٢١، ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ١١٨، ١١٩)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٠٦).

تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩]، ونسيانُه سبحانَه للعبدِ: إهمالُه، وتركُه، وتخلِّيه عنه، وأمَّا إنساؤُه نفسَه، فهو: إنساؤُه لِحُظوظِها العاليةِ، وأسبابِ سعادتِها وفلاحِها وما تَكْمُلُ به؛ فلا يسعَى إليها، وكذا نسيانُ عُيوبِ نَفسِه ونَقصِها وآفاتِها، فلا يخطُرُ ببالِه إزالتُها، وأيضًا يُنسيه أمراضَ نفسِه وقلبِه وآلامَها، فلا يخطُرُ بِقَلبِه مُداواتُها، ولا السعيُ في إزالةِ عِلَلِها وأمراضِها التي تَؤُولُ بها إلى الفَسادِ والهلاكِ، فهو مريضٌ مُثخَنٌ بالمَرَض، ومَرَضُه مُترامٍ به إلى التَّلَفِ، ولا يشعرُ بمَرضِه، ولا يخطرُ ببالِه مُداواتُه(١).

٥- قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ النَّفسُ المُنحرفةُ تُبطِرُها القوَّةُ، فلا تذكُر، وتُعميها النِّعمةُ فلا تنظُر، وما تنفَعُها عِظاتُ الماضي، وإنَّ كثيرًا ممَّن يَبتَليهم اللهُ بالقوَّةِ وبالنِّعمةِ، لَتَغشى أبصارَهم وبصائِرَهم غِشاوةٌ، فلا يُبصِرونَ مَصارعَ الأقوياءِ قَبلَهم، ولا يستشعِرونَ مَصيرَ البُغاة الطُّغاةِ مِن الغابرينَ، عندئذٍ تحِقُّ عليهم كلمةُ اللهِ، وعندئذٍ تَجري فيهم سُنَّةُ الله، وعندئذٍ يأخُذُهم اللهُ أخْذَ عَزيزٍ مُقتَدرٍ، وهم في نَعمائِهم يتقَلَّبونَ، وبقُوَّتِهم يتَخايلونَ، واللهُ مِن ورائِهم مُحيطٌ، إنَّها الغفلةُ والعَمى والجَهالةُ، نراها تُصاحِبُ القُوَّةَ والنِّعمةَ والرَّخاءَ، نراها في كلِّ زَمانٍ وفي كلِّ مكانٍ، إلَّا مَن رَحِمَ اللهُ مِن عبادِه المُخلصينَ(٢).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ وصَفَ اللهُ سُبحانَه المُنافِقينَ بأنَّ بَعضَهم مِن بَعضٍ، وقال في المؤمنينَ: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٣٤٩)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٠٣).
(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٦٧٤).

وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]؛ وذلك لأنَّ المُنافِقينَ تشابهَت قلوبُهم وأعمالُهم، وهم مع ذلك ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ [الحشر: ١٤] فليست قلوبُهم مُتوادَّةً مُتوالِيةً، إلَّا ما دام الغَرَضُ الذي يَؤُمُّونَه مُشترَكًا بينهم، ثم يتخَلَّى بعضُهم عن بعض، بخلافِ المؤمِن، فإنَّه يُحِبُّ المؤمِنَ وينصُرُه بظَهرِ الغيبِ، وإن تناءَت بهم الدِّيارُ، وتباعَدَ الزَّمانُ[1]، ودلَّ قولُه: ﴿بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ على أنَّ نِفاقَ الأتباعِ كالأمرِ المتفرِّعِ على نفاقِ الأسلافِ، والأمرُ في نفسِه كذلك؛ لأنَّ نِفاقَ الأتباعِ وكُفرَهم حصَلَ بسبَبِ التَّقليدِ لأولئك الأكابِرِ، وبسببِ مُقتضى الهَوى والطَّبيعةِ والعادةِ، أمَّا المُوافَقةُ الحاصِلةُ بين المؤمنينَ، فإنَّما حصَلَت لا بسبَبِ المَيلِ والعادةِ، بل بسببِ المُشاركةِ في الاستدلالِ والتَّوفيقِ والهِدايةِ، اللُّحمةُ الجامعةُ بينهم هي ولايةُ الإسلامِ، فهم فيها على السَّواءِ، ليس واحدٌ منهم مقلِّدًا للآخَرِ ولا تابعًا له على غيرِ بَصيرةٍ؛ لِما في معنى الولايةِ مِن الإشعارِ بالإخلاصِ والتَّناصُرِ، بخلافِ المُنافِقينَ، فكأنَّ بَعضَهم ناشئٌ مِن بعضٍ في مَذامِّهم؛ فلهذا السَّبَبِ قال تعالى في المُنافقين: ﴿بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ وقال في المؤمنين: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾[2].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ اقتصَرَ مِن مُنكَراتِ المُنافِقينَ الفعليَّةِ على هذا؛ لأنَّه شَرُّها وأضَرُّها، وأقواها دَلالةً على النِّفاقِ[3].

٣- قال الله تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ المُنافِقونَ والمُنافِقاتُ من طينةٍ واحدةٍ، وطبيعةٍ واحدةٍ، المُنافِقونَ في كلِّ زَمانٍ وفي كلِّ مكانٍ، تختلِفُ أفعالُهم وأقوالُهم، ولكنَّها ترجِعُ

---

(١) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٦٠).

إلى طبعٍ واحدٍ، وتنبُعُ مِن مَعِينٍ واحدٍ: سُوءِ الطَّويَّةِ، ولُؤمِ السَّريرةِ، والغَمزِ والدَّسِّ، والضَّعفِ عن المواجَهةِ، والجُبنِ عن المصارحةِ، تلك سِماتُهم الأصيلةُ، أمَّا سلوكُهم فهو الأمرُ بالمُنكَرِ، والنَّهيُ عن المعروفِ، والبُخلُ بالمالِ إلَّا أن يَبذُلوه رِئاءَ النَّاسِ، وهم حين يأمُرونَ بالمُنكَرِ، وينهونَ عن المَعروفِ، يَستخِفُّونَ بهما، ويفعَلونَ ذلك دسًّا وهَمسًا، وغَمزًا ولَمزًا؛ لأنَّهم لا يجرُؤونَ على الجَهرِ إلَّا حين يأمَنونَ[1].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ أخَّرَ ذِكرَ الكُفَّارِ في مقامِ الوعيدِ؛ للإيذانِ بأنَّ الْمُنافِقينَ- وإن أظهَروا الإيمانَ وعَمِلوا أعمالَ الإسلامِ- شَرٌّ مِن الكفَّارِ الصُّرَحاءِ، ولا سيَّما المتديِّنونَ منهم بأديانٍ باطلةٍ مِن الأصلِ، أو مُحرَّفةٍ ومَنسوخةٍ كأهلِ الكِتابِ[2].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ تَوبيخٌ مِن اللهِ لِمَن تشَبَّه بأهلِ الشَّرِّ- مِثل أهلِ الكُفرِ والفُسوقِ والعِصيانِ- في شيءٍ مِن قبائِحِهم[3].

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ لعلَّه خَصَّ هؤلاءِ بالذِّكرِ مِن بينِ بقيَّةِ الأمَمِ؛ لِمَا عند العَرَبِ مِن أخبارِهم، وقُربِ ديارِهم مِن ديارِهم، مع أنَّهم كانوا أكثَرَ الأمَم عددًا، وأنبياؤُهم أعظَمَ الأنبياءِ[4].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٦٧٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٦١).
(٣) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٢٤٩).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٥٤١).

وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

- قولُه: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ زِيدَ في هذه الآيةِ ذِكْرُ المُنافقاتِ؛ وذلك للتَّنصيصِ على تَسويةِ الأحكامِ لجَميعِ المُتَّصفينَ بالنِّفاقِ ذُكورِهم وإناثِهم؛ كيلا يَخْطُرَ بالبالِ أنَّ العفوَ يُصادِفُ نِساءَهم، وأنَّ المؤاخذةَ خاصَّةٌ بذُكرانِهم؛ ليَعلَمَ النَّاسُ أنَّ لنِساءِ المُنافِقينَ حَظًّا مِنْ مُشاركةِ رِجالِهِنَّ في النِّفاقِ فيَحذَروهنَّ[1]، والتَّعرضُ لأحوالِ الإناثِ أيضًا؛ للإيذانِ بكمالِ عراقتِهم في الكُفرِ والنِّفاقِ[2].

- قولُه: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ على القَولِ بأنَّه اسْتِئنافٌ، فهو مُقرِّرٌ لمَضمونِ ما سَبَق، ومُفْصِحٌ عن مُضادَّةِ حالِهم لحالِ المؤمنينَ[3].

- قولُه: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ قَبْضُ اليدِ كِنايةٌ عَنِ البُخْلِ والشُّحِّ، والأصْلُ في هذه الكِنايةِ أنَّ المُعطي يَمُدُّ يدَهُ، ويَبْسُطُها بالعَطاءِ، فقيل لِمَنْ مَنَعَ وبَخِلَ: قد قَبَضَ يَدَه[4].

- قولُه: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾، أي: تَرَكُوهُ حين تَركوا نبيَّهُ وشِرْعتَه، فتَرَكَهم حين لم يَهْدِهم، ولا كَفاهم عذابَ النَّارِ؛ ففيهِ التَّعبيرُ عَنِ التَّرْكِ بالنِّسيانِ؛ وإنَّما يُعبِّرُ بالنِّسيانِ عَنِ التَّركِ مُبالغةً؛ إذ أبلَغُ وجوهِ التَّرْكِ الوَجْهُ الذي يَقْتَرِنُ به نِسيانٌ، أو مُبالَغةً في أنَّه لا يَخْطُرُ ذلك ببالٍ[5].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٨٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٥٥).

- قولُه: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ فيه إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ- حيثُ لم يَقُلْ: (إنَّهم)-؛ لزِيادةِ تَقريرِهم في الذِّهْنِ لهذا الحُكْمِ، ولِتكونَ الجُمْلةُ مُسْتَقِلَّةً حتَّى تكونَ كالمَثَلِ[1].

- وقولُه: ﴿هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ صِيغةُ قَصْرٍ، أي: هم الكامِلونَ في الفِسْقِ، وهو قَصْرٌ ادِّعائيٌّ للمُبالَغةِ؛ لأنَّهُمْ لَمَّا بَلَغوا النِّهايةَ في الفُسوقِ جُعِلَ غيرُهم كمَنْ ليس بفاسِقٍ[2]، فحَصَرَ الفِسقَ فيهم؛ لأنَّ فِسقَهم أعظَمُ مِن فِسقِ غَيرِهم؛ بدليلِ أنَّ عَذابَهم أشَدُّ مِن عذابِ غَيرِهم، وأنَّ المُؤمِنينَ قد ابتُلُوا بهم؛ إذ كانوا بين أظهُرِهم، والاحترازُ منهم شديدٌ[3].

٢- قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾

- جُمْلةُ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ اسْتِئنافٌ بيانيٌّ ناشِئٌ عَنْ قولِه: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، أو مُبيِّنةٌ لجُملةِ ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾؛ لأنَّ الخُلودَ في جَهنَّمَ واللَّعنَ بَيانٌ للمرادِ مِنْ نِسيانِ اللهِ إيَّاهم[4].

- وفي قولِهِ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ- حيثُ لم يَقُلْ: (وَعَدَهُمُ اللهُ)-؛ لتقريرِ المحكومِ عليه في ذِهْنِ السَّامِعِ حتَّى يتمكَّنَ اتِّصافُهم بالحُكْمِ. وزيادةُ ذِكْرِ الكُفَّارِ هنا؛ للدَّلالةِ على أنَّ المُنافِقين ليسوا بأهونَ حالًا مِنَ المشركينَ؛ إذْ قَدْ جَمَعَ الكُفْرُ الفريقَينِ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٤٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٥).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٢٥٦).

- وعبَّر بصيغةِ الماضي ﴿وَعَدَ﴾؛ للإخبارِ عَنْ وعيدٍ تَقدَّمَ، وَعَدَهُ اللهُ المُنافِقينَ والمُنافِقاتِ تذكيرًا بِهِ؛ لزيادةِ تَحقيقِهِ، أو لصَوغِ الوعيدِ في الصِّيغةِ التي تَنشأُ بِها العُقودُ، مِثْلَ: (بِعْتُ ووَهَبْتُ)؛ إشعارًا بأنَّهُ وعيدٌ لا يتخلَّفُ مِثْلَ العَقْدِ والالْتِزامِ[١].

- قوله: ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ فيه مُبالَغةٌ في عِظَمِ عذابِها، وأنَّهُ لا شيءَ أبْلَغَ مِنه، وأنَّهُ بحيثُ لا يُزادُ عليه[٢].

- قولُه: ﴿وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ فيه إظهارُ الاسْمِ الجليلِ (الله)؛ للإيذانِ بشِدَّةِ السَّخَطِ عليهم[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً﴾ فيه الْتِفاتٌ عن ضمائرِ الغَيبةِ الرَّاجِعةِ إلى المُنافِقينَ، إلى خِطابِهم؛ لقَصْدِ التَّقريعِ والتَّهديدِ بالمَوعظةِ، والتَّذكيرِ عَنِ الغُرورِ بما هم فيه مِنْ نِعْمةِ الإمهالِ بأنَّ آخِرَ ذلك حَبطُ الأعمالِ في الدُّنيا والآخِرةِ، وأنْ يَحِقَّ عليهم الخُسرانُ[٤].

- وقولُه: ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾ تَفْسيرٌ وبيانٌ لِشَبَهِهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٦).

بهم، وتمثيلٌ لحالِهم بحالِهم(١).

- قولُه: ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ فيه مِنْ محاسِنِ البلاغةِ: أنَّه لَمَّا ذَكَرَ تَشبيهَهم بمَنْ قَبْلَهم، وذَكَر ما كانوا فيه مِنَ شِدَّةِ القُوَّةِ، وكَثْرةِ الأولادِ، واسْتِمتاعِهم بما قُدِّرَ لهم مِنَ الأنصباءِ، أي: الحُظوظِ، شَبَّهَ اسْتِمتاعَ المُنافِقينَ باسْتِمتاعِ الذين مِنْ قَبْلِهم، وأبْرَزَهم بالاسمِ الظَّاهِرِ فقال: ﴿كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ﴾، ولَمْ يَكُنِ التَّركيبُ (كما اسْتَمْتَعوا بخلاقِهِمْ)، فأوْقَع الظَّاهِرَ مَوقِعَ المُضْمَرِ؛ ليَدُلَّ بذلك على التَّحقيرِ لهم؛ لأنَّهُ كما يَدُلُّ بإعادةِ الظاهِرِ مَكانَ المُضْمَرِ على التَّفخيمِ والتَّعظيمِ، كذلك يَدلُّ بإعادتِهِ على التَّحقيرِ والتَّصغيرِ لشأنِ المذكورِ؛ كما في قولِهِ: ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾(٢) [مريم: ٤٤].

- قولُه: ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ﴾ في صِيغةِ الاسْتِفعالِ ﴿فَاسْتَمْتَعُوا﴾ ما ليس في صِيغةِ التَّفعُّلِ (تَمتَّعوا) مِنَ الاسْتِزادةِ والاسْتِدامةِ في التَّمتُّعِ؛ فالسِّينُ والتَّاءُ فيه للمُبالَغةِ في قُوَّةِ التَّمتُّعِ(٣).

- وقولُه: ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ﴾ فيه التَّكريرُ في تَرديدِ فِعْلِ الاسْتِمتاعِ؛ ذلك أنَّهُ شَبَّهَ حالَهم بحالِ الأوَّلينَ؛ ففي التَّكريرِ تأكيدٌ ومُبالَغةٌ في ذَمِّ المُخاطَبينَ، وتَقبيحُ حالِهم، واسْتِهجانُ أَمْرِهم(٤).

- قولُه: ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٨٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٥٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٨٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ١٣٠).

فيه إعادةُ اسْمِ الإشارةِ ﴿أُولَئِكَ﴾؛ للاهْتِمامِ بتَمييزِ المُتحَدَّثِ عنهم؛ لزيادةِ تَقريرِ أحوالِهم في ذِهْنِ السَّامِعِ[1]، وللإشعارِ بعِلِّيَّةِ الأوصافِ المُشارِ إليها للحُبوطِ والخُسْرانِ[2].

– وفي الالتفاتِ إلى مَقامِ الخِطابِ في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ إشارةٌ إلى تحذيرِ كُلِّ سامِعٍ عَن مِثلِ هذه المقالةِ[3].

٤- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

– قولُه: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ...﴾ اسْتِفهامٌ للتَّقريرِ والتَّحذيرِ[4].

– قولُه: ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ اسْتئنافٌ بيانيٌّ نَشَأ عَنْ قولِه: ﴿نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، أي: أتَتْهُم رُسُلُهم بدَلائلِ الصِّدقِ والحَقِّ[5].

– قولُه: ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ فيه حذْفٌ بَيْنَ قولِه: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ وقولِه: ﴿فَمَا كَانَ﴾، والتَّقديرُ: فكذَّبوا فأهْلَكَهمُ اللهُ ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾[6]؛ فتَفريعُ ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ على قوله: ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ إيجازُ حذْفٍ بديعٌ؛ لأنَّ مَجيءَ الرُّسلِ بالبيِّناتِ يَقتضي تصديقًا وتكذيبًا، فلمَّا فرَّعَ عليه أنَّهم ظَلموا أنفُسَهم، عُلِمَ أنَّهم كذَّبوا الرُّسُلَ، وأنَّ اللهَ جازاهم على هذا بأنْ عاقَبَهم عِقابًا لو كان لغيرِ جُرمٍ لشابَهَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٩).
(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٨٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٦٣٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦٠).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٥٩).

الظُّلمَ؛ فجُعِلَ مِن مجموعِ نفْيِ ظُلمِ الله إيَّاهم، ومِن إثباتِ ظُلمِهم أنفُسَهم، مَعرفةُ أنَّهم كذَّبوا الرُّسُلَ وعانَدوهم، وحَلَّ بهم ما هو معلومٌ مِن مُشاهدةِ دِيارِهم، وتَناقُلِ أخبارِهم[1].

- والتعبيرُ بقولِه: ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ فيه مُبالَغةٌ في تَنزيهِ اللهِ سُبْحانَه عن الظُّلْمِ، أي: ما صَحَّ وما اسْتقامَ له أنْ يَظْلِمَهم، ولكِنَّهم ظَلَموا أنْفُسَهم[2].

- قولُه: ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ فيه الجَمعُ بينَ صِيغَتِي الماضي والمُسْتقبلِ؛ للدَّلالةِ على اسْتِمرارِ ظُلْمِهم، حيثُ لم يَزالوا يُعَرِّضونَها للعقابِ بالكُفْرِ والتَّكذيبِ[3].

- وفيه تقديمُ المفعولِ ﴿أَنْفُسَهُمْ﴾ على الفِعْلِ ﴿يَظْلِمُونَ﴾؛ للاهْتِمامِ به، مع مُراعاةِ الفاصِلةِ[4].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيتان (٧١-٧٢)

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢) ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿عَدْنٍ﴾: أي: إقامَةٍ وخُلدٍ، واستقرارٍ وثباتٍ، يُقال: عَدَن بالمكانِ، يَعْدِنُ عَدْنًا، إذا لَزِمه، ولم يبْرَح منه، وأصلُ (عدن): يدلُّ على الإقامةِ(١).

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ المُؤمنينَ والمؤمناتِ بَعضُهم أنصارُ بَعضٍ؛ يأمرونَ بالمعروفِ، وينهَونَ عن المُنكَرِ، ويؤدُّونَ الصَّلاةَ المفروضةَ كما يجِبُ، ويُعطونَ الزَّكاةَ لِمُستحقِّيها، ويُطيعونَ اللهَ ورسولَه، أولئك سيرحَمُهم الله تعالى؛ إنَّ اللهَ عزيزٌ حَكيمٌ.

ويخبِرُ تعالى أنَّه وَعَدَهم جناتٍ تَجري من تحتِ أشجارِها الأنهارُ، ماكثِينَ فيها أبدًا، ووَعَدَهم أن يُسكِنَهم منازِلَ حَسَنةً، لا عيبَ فيها، في جناتِ إقامةٍ دائمةٍ، لا يُخرجونَ منها، ورِضوانٌ منه تعالى عن المؤمنينِ والمؤمِناتِ أعظَمُ مِن نعيمِ الجنَّةِ، ذلك الذي وعَدَ اللهُ به المؤمنينَ والمؤمناتِ هو الفَوزُ العظيمُ.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٢)، ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ١٩٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٧).

عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا وصَفَ الله تعالى المُنافقين بالأعمالِ الفاسِدة، والأفعالِ الخَبيثةِ، ثمَّ ذكَرَ عَقيبَه أنواعَ الوَعيدِ في حقِّهم في الدُّنيا والآخرةِ؛ ذكَرَ بعدَه- في هذه الآيةِ- كَونَ المُؤمنينَ مَوصوفينَ بصِفاتِ الخَيرِ، وأعمالِ البِرِّ، على ضِدِّ صِفاتِ المُنافِقينَ[1].

وأيضًا لَمَّا بيَّنَ سبحانَه أنَّ المُنافِقينَ بَعضُهم من بعضٍ، وما توعَّدَهم به وما استَتبَعَه مِن تهديدِهم بإهلاكِ مَن شابَهوه، وختَمَ بما سبَّبَ هلاكَهم من إصرارِهم وعدَمِ اعتبارِهم- عطَفَ ببيانِ حالِ المؤمنينَ؛ ترغيبًا في التوبةِ، طَمَعًا في مِثلِ حالِهم[2]، فقال:

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾.

أي: وأمَّا المؤمِنونَ والمؤمناتُ فبَعضُهم أنصارُ بعضٍ، متحابُّونَ في اللهِ، مُتعاطِفونَ، غيرُ مُتفرِّقينَ[3].

عن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((المؤمِنُ للمُؤمِنِ كالبُنيانِ؛ يشُدُّ بعضُه بعضًا))[4].

وعن النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٠٠).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٥٤٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٠٣)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٢/ ٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٤).
(٤) رواه البخاري (٢٤٤٦) ومسلم (٢٥٨٥).

وسلَّم: ((مثَلُ المؤمنينَ في توادِّهم وتراحُمِهم وتعاطُفِهم، مَثَلُ الجَسَدِ؛ إذا اشتكى منه عُضوٌ تداعى له سائِرُ الجسَدِ بالسَّهَرِ والحُمَّى))(١).

ثمَّ بيَّن أوصافَهم الحميدةَ، كما بيَّن أوصافَ مَن قبلَهم مِن المنافقينَ، فقال(٢):

﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾.

أي: المؤمنونَ والمؤمِناتُ يأمُرونَ النَّاسَ بكُلِّ خَيرٍ يُحبُّه اللهُ، مِن الإيمانِ والعَملِ الصَّالحِ، ويَنهونَهم عن كلِّ شَرٍّ يُبغِضُه اللهُ، مِن الكُفرِ والشِّركِ والمعاصي(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وقال سبحانه: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].

﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾.

أي: ويؤدُّونَ الصَّلواتِ المفروضةَ بِشُروطِها وأركانِها وواجباتِها، ويُعطونَ زكاةَ أموالِهم لِمُستحِقِّيها(٤).

---

(١) رواه مسلم (٢٥٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٦)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٠٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١٦٢) و (١٠/ ٢٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٠٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٦٨).

اختيارُ ابنِ جرير أنَّ المرادَ الصَّلاةُ المفروضةُ والزكاةُ المفروضةُ. ونقَل عن ابنِ عباسٍ في قولِه تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ أنَّها الصلواتُ الخمسُ. ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٧). قال =

﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾.

أي: ويُلازِمونَ طاعةَ اللهِ تعالى فيما أمَرَهم به أو نهاهم عنه، ويُلازِمونَ طاعةَ رَسولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ فيما أمَرَهم به، أو نهاهم عنه[١].

﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾.

أي: هؤلاءِ الذينَ هذه صفتُهم سيرحَمُهم اللهُ في الدُّنيا والآخرةِ[٢].

﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى ذو عزَّةٍ، فمن أطاعه أعَزَّه، ومن عَصاه وكفَرَ به فإنَّه ينتقِمُ منه، لا يمنَعُه منه مانعٌ، ولا ينصُرُه منه ناصِرٌ، فهو قَوِيٌّ قاهِرٌ، حكيمٌ في انتقامِه منهم، وفي جميعِ ما يفعَلُه، فيضَعُ كُلَّ شَيءٍ في موضِعِه اللَّائقِ به[٣].

= القرطبيُّ - بعدَ ذكرِ قولِ ابنِ عبَّاسٍ السابقِ - قال: (وبحسبِ هذا تكونُ الزكاةُ هنا المفروضةَ). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٠٣).

وذهب ابنُ عطيَّةَ إلى أنَّ المدحَ بالنوافل أبلغُ، قال: (إذ مَن يقيمُ النَّوافِلَ أحرى بإقامةِ الفَرضِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٨).

واختار محمد رشيد رضا أنَّ المرادَ الفرائضُ والنوافلُ، فقال: (﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي: يؤدُّونَ الصلاةَ المفروضةَ، وما شاؤوا من التطوُّعِ، على أقومِ وجهٍ وأكمَلِه في شروطِها وأركانِها وآدابِها، ولا سيَّما الخشوعُ لله تعالى، وكثرةُ ذِكْرِه فيها، وما يُوجِبُه الإيمانُ مِن حضورِ القَلبِ في مُناجاتِه، ويُعطونَ الزَّكاةَ المفروضةَ عليهم لِمَن فُرِضَت لهم في الآيةِ الستين من هذه السورة، وما وُفِّقُوا له من التطوُّعِ). ((تفسير المنار)) (١٠/ ٤٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٣٤)، ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣٢٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٦، ٥٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٣٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٤).

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى الوَعدَ في الآيةِ الأُولَى على سبيلِ الإجمالِ؛ ذكَرَه في هذه الآيةِ على سبيلِ التَّفصيلِ؛ وذلك لأنَّه تعالى وعَدَ بالرَّحمةِ، ثمَّ بيَّن في هذه الآيةِ أنَّ تلك الرحمةَ هي هذه الأشياءُ(١).

وأيضًا لَمَّا أعقَبَ المُنافِقينَ بذِكرِ ما وعَدَهم به من نارِ جهنَّمَ، أعقَبَ المؤمنينَ بذِكرِ ما وعَدَهم به من نعيمِ الجِنانِ(٢).

وأيضًا لما ذكَرَ الله تعالى كَونَ المُؤمِنينَ مَوصوفينَ بصِفاتِ الخَيرِ، وأعمالِ البِرِّ؛ ذكَرَ بَعدَه أنواعَ ما أعَدَّ الله لهم من الثَّوابِ الدَّائمِ، والنَّعيمِ المُقيمِ(٣).

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾.

أي: وعَدَ اللهُ المُؤمِنينَ والمؤمِناتِ بَساتينَ تجري من تحتِ أشجارِها أنهارُ الجنَّةِ، ماكثينَ فيها أبدًا(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٧)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٠١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٤).

قال الرازي: (قولُه: ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ والأقرَبُ أن يقال: إنه تعالى أراد بها البساتينَ التي يتناولُها المناظِرُ؛ لأنه تعالى قال بعده: ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ والمعطوفُ يجب أن يكون مُغايِرًا للمعطوفِ عليه، فتكون مساكِنُهم في جنَّاتِ عَدْنٍ، =

كما قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧].

﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾.

أي: ووعَد اللهُ المؤمنينَ والمؤمِناتِ أن يُسْكِنَهم منازِلَ حَسَنةً، لا عَيبَ فيها[1]، مبنيَّةً في بساتينِ إقامةٍ دائمةٍ، لا يُخرَجونَ منها[2].

عن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((جنَّتانِ مِن فِضَّةٍ آنيتُهما وما فيهما، وجنَّتانِ مِن ذَهَبٍ آنيتُهما وما فيهما، وما بين القَومِ وبين أن ينظُروا إلى ربِّهم إلَّا رِداءُ الكِبرِ على وَجهِه، في جنَّةِ عَدْنٍ))[3].

وعن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم

= ومناظِرُهم الجنَّاتِ التي هي البَساتينُ، فتكون فائدةُ وصفِها بأنَّها عَدنٌ، أنَّها تجري مجرى الدَّارِ التي يسكُنُها الإنسانُ، وأمَّا الجنَّات الآخِرةُ فهي جاريةٌ مجرى البساتينِ التي قد يذهبُ الإنسانُ إليها؛ لأجل التنزُّه، وملاقاةِ الأحبابِ). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٠١).

(١) قال ابن كثير: (حَسَنةُ البِناءِ، طَيِّبةُ القَرارِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٥).

وقال السعدي: (قد زُخرِفَت وحُسِّنَت وأُعِدَّت لعبادِ الله المتَّقين، قد طاب مرآها، وطاب مَنزِلُها ومَقيلُها، وجَمَعَت من آلاتِ المساكِنِ العالية ما لا يتمنَّى فَوقَه المتمَنُّون، حتى إنَّ الله تعالى قد أعدَّ لهم غُرفًا في غايةِ الصَّفاءِ والحُسنِ، يُرى ظاهِرُها من باطِنِها، وباطِنُها مِن ظاهِرِها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٤).

وقال ابن عاشور: (﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾، أي: ليس فيها شيءٌ مِن خَبَثِ المساكِنِ، مِن الأوساخِ وآثارِ علاجِ الطَّبخِ ونَحوِه، نظيرُ قَولِه: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥]). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٧، ٥٥٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٠٤)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦٤).

(٣) رواه البخاري (٧٤٤٤)، ومسلم (١٨٠).

قال: ((إنَّ للمُؤمِنِ في الجنَّةِ لَخَيمةً مِن لؤلؤةٍ واحدةٍ مُجَوَّفةٍ، طُولها سِتُّون مِيلًا، للمُؤمِنِ فيها أهلُونَ، يطوفُ عليهم المؤمِنُ، فلا يرى بعضُهم بعضًا))[1].

﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾.

أي: ورضا الله تعالى عن المؤمِنينَ والمؤمناتِ أعظمُ وأفضَلُ ممَّا هم فيه مِن نَعيمِ الجنَّةِ[2].

عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ اللهَ يقولُ لأهلِ الجنَّةِ: يا أهلَ الجنَّةِ، فيقولون: لبَّيك ربنا وسَعدَيك، والخَيرُ في يَدَيك، فيقولُ: هل رَضِيتُم؟ فيقولونَ: وما لنا لا نرضَى يا رَبِّ، وقد أعطَيتَنا ما لم تُعطِ أحدًا مِن خَلْقِك؟! فيقولُ: ألَا أعطِيكم أفضَلَ مِن ذلك؟ فيقولونَ: يا ربِّ، وأيُّ شَيءٍ أفضَلُ من ذلك؟! فيقولُ: أُحِلُّ عليكم رِضواني، فلا أسخَطُ عليكم بعده أبدًا))[3].

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رضِيَ الله عنهما، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إذا دخلَ أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ، يقولُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ: هل تَشتَهونَ شَيئًا فأزيدَكم؟ فيقولونَ: ربَّنا، وما فوقَ ما أعطيتَنا؟! يقول: رِضواني أكبَرُ))[4].

---

(١) رواه البخاري (٣٢٤٣) ومسلم (٢٨٣٨)، واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٦٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٥١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٠٤)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦٥).

(٣) رواه البخاري (٧٥١٨)، ومسلم (٢٨٢٩).

(٤) أخرجه ابن حبان (٧٤٣٩)، والطبراني في ((الأوسط)) (٩٠٢٥)، والحاكم في ((المستدرك)) (٢٧٦).

قال ابنُ كثيرٍ في ((البداية والنهاية)) (٢/ ٢٩٨): على شرطِ البخاري، وصحَّحه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٥٢٤).

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

أي: ما وعدَ اللهُ تعالى به المؤمنينَ والمُؤمِناتِ مِن النَّعيم والرِّضوانِ في الآخرةِ، هو النَّجاةُ العظيمةُ، والظَّفَر الكبيرُ الذي لا أكبَرَ ولا أعظَمَ منه(١).

كما قال تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الحديد: ١٢].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ * جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة: ٧-٨].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- دلَّ قولُه تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أنَّ المؤمنَ يحبُّ المؤمنَ، وينصُرُه بظَهرِ الغَيبِ، وإنْ تناءَت بهم الدِّيارُ، وتباعدَ الزَّمانُ(٢).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ هذه الأمورُ الخَمسةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٦٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ١٠٥).

بها يتميَّزُ المؤمِنُ مِن المنافِقِ، فالمنافِقُ- على ما وصَفَه اللهُ تعالى في الآيةِ المتقَدِّمة- يأمرُ بالمنكَرِ، وينهى عن المعروفِ، والمؤمِنُ بالضِّدِّ منه. والمنافِقُ لا يقومُ إلى الصَّلاةِ إلَّا مع نوعٍ مِن الكسَلِ، والمؤمِنُ بالضِّدِّ منه. والمنافِقُ يبخَلُ بالزكاة وسائرِ الواجباتِ، والمؤمنونَ يُؤتونَ الزَّكاةَ. والمنافِقُ إذا أمَرَه الله ورسولُه بالمسارعةِ إلى الجهادِ، فإنَّه يتخلَّفُ بنَفسِه، ويثبِّطُ غيرَه، والمؤمنونَ بالضِّدِّ منهم[1].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ إنَّ طبيعةَ المؤمِنِ هي طبيعةُ الأمَّةِ المؤمنةِ، طبيعةُ الوَحدةِ وطبيعةُ التَّكافُلِ، وطبيعةُ التَّضامُنِ، ولكنَّه التضامُنُ في تحقيقِ الخَيرِ ودَفعِ الشَّرِّ. ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وتحقيقُ الخيرِ ودَفعُ الشَّرِّ يحتاجُ إلى الوَلايةِ والتَّضامُنِ والتَّعاونِ، ومن هنا تقِفُ الأمَّةُ المؤمِنةُ صفًّا واحدًا، لا تدخُلُ بينها عوامِلُ الفُرقةِ، وحيثما وُجِدَت الفُرقةُ في الجماعةِ المؤمنة، فثَمَّةَ- ولا بُدَّ- عُنصرٌ غريبٌ عن طبيعتِها، وعن عَقيدتِها، هو الذي يدخُلُ بالفُرقةِ[2].

٤- في قولِه تعالى: ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ دلالةٌ على أنَّ دخولَ المؤمنين الجنةَ إنَّما هو برحمتِه سبحانه لا بأعمالِهم؛ لأنَّه- تبارك وتعالى- بعدَ ما وصفَهم به مِن كثرةِ الأعمالِ، وَعَدَهم الرحمةَ قبلَ الجنةِ، حتى يكونَ دخولُهم إيَّاها برحمتِه لا بأعمالِهم؛ إذْ أعمالُهم لو قِيْسَتْ ببعضِ النِّعَمِ لاستفرغَتْها؛ فلا يحصلُ لهم إلَّا رحمتُه، فلمَّا تغمدتْهم وأدخلَتْهم دارَ كرامتِه؛ عَطَفَ عليهم بفضلٍ جديدٍ، ونعمةٍ مثناةٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٠٠-١٠١).

(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٦٧٥).

(٣) يُنظر: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٥٤٨).

٥- اللهُ تعالى جعلَ الأمرَ بالمعروفِ والنَّهيَ عن المُنكَرِ، فَرْقَ ما بين المؤمِنينَ والمُنافِقينَ؛ لأنَّه قال: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ [التوبة: ٦٧] وقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ فثَبَت بذلك أنَّ أخَصَّ أوصافِ المُؤمِنينَ وأقواها دَلالةً على صِحَّةِ عَقْدِهم، وسلامةِ سَريرتِهم، هو الأمرُ بالمعروفِ، والنَّهيُ عن المُنكَر، وهاتان الصِّفتانِ هما سِياجُ حِفظِ الفَضائِلِ، ومَنعِ فشُوِّ الرذائِلِ، وقد فضَّلَ الله تعالى بهما أمَّةَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على سائرِ الأمَمِ في قَولِه تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾(١) [آل عمران: ١١٠].

٦- قال الله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ هؤلاء الآمِرونَ بالمَعروفِ، والنَّاهونَ عن المُنكَرِ أطبَّاءُ الأديانِ، الذين تشفَى بهم القلوبُ المريضةُ، وتهتدي بهم القُلوبُ الضالَّةُ، وتَرشُدُ بهم القلوبُ الغاويةُ، وتستقيمُ بهم القُلوبُ الزائغةُ، وهم أعلامُ الهدى ومصابيحُ الدُّجى(٢).

٧- قال الله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ مَنْ كان مُؤْمِنًا وجَبَتْ مُوالاتُه مِن أيِّ صِنْفٍ كان، ومَنْ كان كافِرًا وَجَبَتْ مُعاداتُه مِن أيِّ صِنْفٍ كان، ومَن كان فيه إيمانٌ وفيه فجورٌ، أُعطِيَ مِن المُوالاةِ بحسَبِ إيمانِه، ومِن البُغضِ بحسَبِ فُجورِه(٣).

---

(١) يُنظر: ((شعب الإيمان)) للبيهقي (١٠/ ٥٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٦٧).
(٢) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٥/ ٢٣٧).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٢٢٨).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ في هذه الآيةِ دليلٌ على أنَّ وظيفةَ الأمرِ بالمعروفِ، والنَّهيِ عن المُنكَرِ ليست خاصةً بالرِّجالِ، بل حتى النِّساءُ عليهنَّ أن يأمُرنَ بالمعروفِ، ويَنهَينَ عن المُنكَر، ليس في مجامعِ الرِّجالِ، وفي أسواقِ الرِّجالِ، لكنْ في حقولِ النِّساءِ، ومُجتَمَعاتِ النِّساءِ[1].

٢- قَولُه تبارك وتعالى: ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: في سائرِ الأمورِ، في مُقابلةِ وَصْفِ المنافقينَ بكَمالِ الفِسقِ، والخُروجِ عن الطَّاعةِ[2].

٣- لا يُشرَعُ اجتماعُ طائفةٍ وتحزُّبُهم على التَّناصُرِ المُطلَق، بحيث ينصُرُ بعضُهم بعضًا في الحقِّ والباطلِ، بل الواجبُ على كلِّ أحدٍ اتِّباعُ كتابِ الله وسُنَّةِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمؤمنونَ إخوةٌ يجبُ موالاةُ بعضِهم بعضًا وتناصرُهم، وتعاونُهم على البرِّ والتَّقوى، قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾[3].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ الآيةُ نَصٌّ في مساواةِ النِّساءِ للرِّجالِ في نعيمِ الآخرةِ كُلِّه حتى أعلاه، بالتَّبَعِ؛ لِمُساهَمتِهنَّ لهم في التَّكليفِ وولايةِ الإيمان، إلَّا ما خَصَّهنَّ الشَّرعُ به لِضَعفِهنَّ، وانفِرادِهنَّ بوظائِفِهنَّ الخاصَّةِ بهنَّ؛ إذ حَطَّ عنهنَّ وُجوبَ القتالِ، والصَّلاةَ والصِّيامَ في

(١) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٢/ ٤١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣٢٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٦٩).

(٣) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (١/ ١٩١).

بعضِ الأحوالِ، وهذا من المعلومِ بالضَّرورةِ مِن أحكامِ الإسلامِ، وإنْ جَهِلَه أو تجاهَلَه أعداؤُه الطَّغام(١).

٥- رِضا اللهِ عن العبدِ أكبَرُ مِن الجنَّةِ وما فيها؛ لأنَّ الرِّضا صفةُ اللهِ، والجنَّةُ خَلْقُه؛ قال الله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ بعد قولِه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ وهذا الرِّضا جزاءٌ على رِضاهم عنه في الدُّنيا، ولَمَّا كان هذا الجزاءُ أفضَلَ الجزاءِ، كان سبَبُه أفضَلَ الأعمالِ(٢).

٦- قال الله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ قولُه: ﴿أَكْبَرُ﴾ تفضيلٌ لم يُذكَرْ معه المفضَّلُ عليه؛ لظهورِه مِن المقامِ، أي: أكبَرُ مِن الجنَّاتِ؛ لأنَّ رِضوانَ الله أصلٌ لجميعِ الخَيراتِ، وفيه دليلٌ على أنَّ السَّعاداتِ الرُّوحانيَّةَ أعلى وأشرَفُ مِن الجُسْمانيَّة(٣).

بلاغةُ الآيتَين:

١- قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ عَبَّر عَنْ نِسبةِ المؤمنينَ بعْضِهم إلى بعضٍ بالوَلايةِ، وعن نِسْبةِ المُنافِقينَ بـ﴿مِنْ﴾ الاتِّصاليَّةِ؛ للإيذانِ بأنَّ نِسْبةَ هؤلاءِ -أي: المُؤمِنينَ- بطَريقِ القَرابةِ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٦٩).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٢٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦٥).

الدِّينيَّةِ، المبنيَّةِ على المُعاقَدةِ، المُسْتتبِعَةِ للآثارِ مِنَ المعونةِ والنُّصْرةِ وغيرِ ذلك، وأنَّ نِسْبةَ أولئكَ -أي: المُنافِقينَ- بمُقْتضَى الطَّبيعةِ والعادةِ[١]؛ فقولُه في المُؤمنِينَ: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ مُقابِلُ قولِه في الْمُنَافِقِينَ: ﴿بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾، وعَبَّرَ في جانِبِ المؤمنينَ والمؤمناتِ بأنَّهُمْ أولياءُ بَعْضٍ؛ للإشارةِ إلى أنَّ اللُّحْمةَ الجامعةَ بَيْنَهُمْ هي وَلايةُ الإسلامِ؛ فهم فيها على السَّواءِ، ليس واحدٌ مِنْهم مُقلِّدًا للآخَرِ، ولا تابعًا له على غيرِ بصيرةٍ؛ لِما في مَعْنى الوَلايةِ مِنَ الإشعارِ بالإخلاصِ والتَّناصُرِ، بخِلافِ المنافقينَ، فكأنَّ بَعْضَهم ناشئٌ مِنْ بَعْضٍ في مَذامِّهم[٢].

- قولُه: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ لَمَّا وَصَفَ المؤمنينَ بقولِه: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ ذَكَرَ بَعْدَه ما يجري كالتَّفسيرِ والشَّرْحِ له، وهي الخَمسةُ التي يُميَّزُ بها المؤمِنُ على المنافِقِ؛ فالمُنافِقُ يَأْمُرُ بالمُنْكَرِ، ويَنْهَى عَنِ المعروفِ، ولا يَقومُ إلى الصَّلاةِ إلَّا وهو كَسْلانُ، ويَبْخَلُ بالزَّكاةِ، ويَتخلَّفُ بنَفْسِهِ عَنِ الجِهادِ، وإذا أمَرَه اللهُ تَثبَّطَ وثَبَّطَ غيرَه، والمؤمنُ بضِدِّ ذلك كُلِّه[٣].

- وزِيدَ في وَصْفِ المؤمنينَ هُنا: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ تَنويهًا بأنَّ الصَّلاةَ هي أعظمُ المعروفِ[٤]، ومُقابلةً لِمَا سَبَقَ مِنْ قولِهِ تَعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾[٥].

- قال اللهُ تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ خصَّصَ إقامةَ الصَّلاةِ وإيتاءَ الزَّكاةِ بالذِّكرِ مِن جملةِ العباداتِ؛ لِكَونِهما الرُّكنَينِ العَظيمَينِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٥٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٢).

فيما يتعلَّقُ بالأبدانِ والأموالِ[١].

- قولُه: ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ فيه الإتيانُ بالسِّينِ التي تَدُلُّ على اسْتِقبالِ الفِعْلِ؛ لأنَّ الرَّحْمةَ هنا عِبارةٌ عمَّا يَترتَّبُ على تِلْكَ الأعمالِ الصَّالِحةِ مِنَ الثَّوابِ والعِقابِ في الآخِرةِ[٢]، وهذه السِّينُ تفيدُ تأكيدَ حُصولِ الرَّحمةِ في المُسْتَقْبَلِ؛ فحَرْفُ الاسْتِقبالِ يُفيدُ مَعَ المُضارِعِ ما تُفيدُ (قَدْ) مَعَ الماضي[٣].

- واسْمُ الإشارةِ ﴿أُولَئِكَ﴾ للدَّلالةِ على أنَّ ما سَيَرِدُ بَعْدَ اسْمِ الإشارةِ صاروا أَحْرياءَ به مِنْ أَجْلِ الأوصافِ المذكورةِ قَبْلَ اسْمِ الإشارةِ[٤].

- وجُملةُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ تعليلٌ لجُمْلةِ: ﴿سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾، أي: إنَّهُ تعالى لِعزَّتِهِ يَنْفَعُ أولياءَه، وإنَّهُ لِحَكْمتِه يَضَعُ الجزاءَ لِمُسْتَحِقِّه[٥]. وقيل: هي تَعليلٌ للوَعْدِ اللَّاحِقِ ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ...﴾[٦].

وقيل: لأنَّه لا يرحمُ إلا مَن ليس فوقَه أحدُ يردُّ عليه حُكمَه، وهو العزيزُ؛ لأنَّ العزيزَ في صفاتِ الله هو الغالبُ، ووصف بالحكيم أيضًا؛ لأنَّ الحكيمَ مَن يضعُ الشيءَ في محلِّه، فالله تعالى كذلك، إلَّا أنَّه قد يُخفي وجهَ الحكمةِ في بعضِ أفعالِه، فيتوهمُ الضعفاءُ أنَّه خارجٌ عن الحكمةِ، فكان في الوصفِ بالحكيمِ احتراسٌ حسنٌ[٧].

(١) يُنظر: ((فتح القدير)) للشوكاني (٢/ ٤٣٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٦٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٣).
(٧) يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (١/ ٨٩ - ٩٠)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٥٢).

وقيل: ختَم الآيةَ بوصفِ العزةِ والحكمةِ؛ ليناسبَ افتتاحَها بالموالاةِ، وتعقيبَها بآيةِ الجهادِ(١).

وقيل: إنَّ قولَه: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ يوجبُ المبالغةَ في الترغيبِ والترهيبِ؛ لأنَّه عزيزٌ لا يمنعُ مِن مرادِه في عبادِه مِن رحمةٍ أو عقوبةٍ، وحكيمٌ يدبرُ أمرَ عبادِه على ما يقتضيه العدلُ والصوابُ(٢).

ولولا أنَّ الوعدَ هنا للمُقابلةِ بالوعيدِ الَّذي قبلَه، لكانَ المناسِبُ أنْ يُقالَ: (إنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)(٣).

٢- قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

- قولُه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ تَفصيلٌ لآثارِ رَحْمتِهِ الأخرويَّةِ إِثْرَ ذِكْرِ رَحْمتِهِ الدُّنيويَّةِ، وفيه إظهارٌ في مَوقِعِ الإضمارِ- حيثُ لم يَقُلْ: وَعَدَهم اللهُ-؛ لزِيادةِ التَّقريرِ، والإشعارِ بعِلِّيَّةِ وَصْفِ الإيمانِ لحُصولِ ما تَعلَّقَ به الوَعْدُ، وعَدَمُ التَّعرُّضِ لذِكْرِ ما مَرَّ مِن الأمرِ بالمعروفِ وغيرِ ذلك؛ للإيذانِ بأنَّهُ مِنْ لوازِمِه ومُسْتَتْبعاتِه(٤).

- قولُه: ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ..... ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ فيه تفصيلٌ للوعدِ الإجماليِّ الذي في قولِه: ﴿سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾؛ تَنْبيهًا على أنَّ تِلْكَ الرَّحْمةَ هي هذه الأشياءُ(٥).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٥٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٦٠).

- قولُه: ﴿وَرِضْوانٌ﴾ مُنكَّرٌ للتَّنويعِ، يَدُلُّ على جِنْسِ الرِّضوانِ، وإنَّما لَمْ يُقْرَنْ بلامِ تَعريفِ الجِنْسِ؛ ليُتوسَّلَ بالتَّنكيرِ إلى الإشعارِ بالتَّعظيمِ؛ فإنَّ رِضوانَ اللهِ تعالى عظيمٌ[1]، وتأمَّلْ كيف جاء بالرِّضوانِ مُبتدأً مُنكَّرًا في سِياقِ الإثباتِ، مُخبَرًا عنه بأنَّه أكبَرُ مِن كُلِّ ما وُعِدوا به فأيُّ شَيءٍ كان مِن رضاه عن عَبدِه، وأيسَرُ شَيءٍ مِن رضوانِه؛ أكبَرُ مِن الجنَّاتِ وما فيها مِن المساكِنِ الطَّيِّبةِ وما حَوَتْه[2]، وعَدَمُ نَظْمِه في سِلكِ الوَعْدِ مع عِزَّتِه في نَفْسِه؛ لأنَّه مُتحقِّقٌ في ضِمْنِ كُلِّ موعودٍ، ولأنَّه مُسْتَمِرٌّ في الدَّارينِ[3].

- قولُه: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ فيه التعبيرُ باسْمِ الإشارةِ ﴿ذَلِكَ﴾ وما فيه مِنْ معنى البُعْدِ؛ للإيذانِ ببُعْدِ دَرَجتِه في العِظَمِ والفخامةِ[4].

- وفيه التأكيدُ بضميرِ الفَصلِ ﴿هُوَ﴾ وبالجملةِ الاسميَّةِ، والوصفِ بـ ﴿العَظِيمُ﴾ المفيدِ للأهميَّة، وكذلك أُتِي بضمير الفصل ﴿هُوَ﴾ لتخصيصِ الفوزِ بالفضلِ المشارِ إليه، وهو قصرٌ لإفادةِ معنى الكمالِ، كأنَّه لا فوزَ غَيرُه[5]، ودخولُ ضميرِ الفصلِ ﴿هُوَ﴾ أيضًا فيه تَنْبيهٌ على عِظَمِ شَأْنِ الْمَذْكُورِ[6].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦٤).
(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٧٩)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٦٦)، ((تفسير ابن عادل)) (١٠/ ١٤٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٤٠) و(٢٥/ ٣٢٠).
(٦) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٣٣).

الآيتان (٧٢-٧٤)

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ﴾

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَاغْلُظْ﴾: أي: اشْدُدْ، وأصلُ (غلظ): يدلُّ على ضِدِّ الرِّقَّةِ(١).

﴿ومَأْوَاهُمُ﴾: أي: ومصيرُهم، ومثواهم ومقامُهم، ومسكنُهم ومكثُهم، أو مرجعُهم الذي يَعُودون إليه، والمَأْوى: مَكَانُ كلِّ شَيْءٍ ومرجعُه الَّذي يعودُ إليه ليلًا أو نهارًا؛ يُقال: أَوَى إلى كذا، أي: انضمَّ إليه، وأصْلُه: التَّجمُّع(٢).

﴿نَقَمُوا﴾: أي: كَرِهوا وأنكَروا، وأصلُ (نقم): يدلُّ على إنكارِ شَيْءٍ وعَيبِه(٣).

المَعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يجاهِدَ الكفَّارَ والمُنافِقينَ، وأن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٩، ٤٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٤، ٤٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٢، ٢٢٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٢، ٩١٦).

يَشدُدَ عليهم بالقَولِ والفِعلِ، ومصيرُهم في الآخرةِ نارُ جهنَّم، وبِئس المكانُ الذي صاروا إليه.

ويخبِرُ تعالى أنَّ المُنافِقينَ يَحلِفونَ باللهِ كَذِبًا على أنَّهم لم يتفوَّهوا بكلمةِ الكُفرِ، ولم يَقولوها، ولقد قالوها، وكَفَروا بعد إسلامِهم، وهمُّوا بما لم يستطيعوا الوصولَ إليه، وما عابُوا وما أنكَروا إلَّا أنْ أغناهم اللهُ ورسولُه مِن فَضلِه، فإن يتوبوا من نفاقِهم وكُفرِهم، يكُن ذلك خيرًا لهم، وإن يُعرِضوا عن الإيمانِ والتَّوبةِ يُعذِّبْهم اللهُ عذابًا مُوجِعًا في الدُّنيا والآخرةِ، وما لهم من وليٍّ يُحصِّلُ لهم الخيرَ، ولا نصيرٍ يدفَعُ عنهم الشرَّ.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ثبَتَت مُوالاةُ المُؤمِنينَ ومُقاطَعتُهم للمُنافِقينَ والكافرينَ، وكان ما مضى من التَّرغيبِ والتَّرهيبِ كافيًا في الإنابةِ، وكان مَن لم يرجِعْ بذلك عظيمَ الطُّغيانِ، غَريقًا في الكُفرانِ- أتبَعَ ذلك الأمرَ بجِهادِهم بما يليقُ بعِنادِهم[١].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾.

أي: يا أيُّها النبيُّ جاهِدِ الكُفَّارَ المُحاربينَ، بالسِّلاحِ، وجاهِدْ غيرَ المحاربينَ منهم بالحُجَّةِ، وجاهِدِ المنافقينَ بالسِّلاحِ إنْ أظهَروا نفاقَهم، وبالحُجَّةِ لِرَدِّ شُبُهاتِهم، وبإقامةِ الحُدودِ على من يقَعُ فيها منهم[٢].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٥٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٦٦، ٥٦٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٦١)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٥٩)، ((تفسير الرازي)) =

كما قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ [الأنفال: ٦٥].

وقال عز وجل: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢].

وقال تبارك وتعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا * مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠-٦١].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((ما مِن نبيٍّ بعَثَه اللهُ في أمَّةٍ قبلي إلَّا كان له مِن أمَّتِه حواريُّونَ[(١)]

= (١٦/ ١٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٠٤)، ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٣٤٧، ٣٤٨)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٧٨)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٥٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢١٢).

قال القرطبي: (الخطابُ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتدخُلُ فيه أمَّتُه مِن بَعدِه). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٠٤).

وقال محمد رشيد رضا: (اتَّفَق علماءُ الملَّةِ على أنَّ المُنافقين يُعامَلونَ بأحكامِ الشَّريعةِ كالمُسلمين الصَّادقين، فلا يُقاتَلون إلَّا إذا أظهروا الكُفرَ البَواحَ بالرِّدَّةِ، أو بَغَوا على جماعةِ المُسلِمين بالقوَّةِ، أو امتنَعَ بعضُ طوائِفِهم من إقامةِ شَعائِرِ الإسلامِ وأركانِه). ((تفسير المنار)) (١٠/ ٤٧٣، ٤٧٤).

وقال الرازي: (الجهادُ عبارةٌ عن بذلِ الجُهد، وليس في اللَّفظِ ما يدلُّ على أنَّ ذلك الجهادَ بالسَّيف أو باللِّسانِ أو بطريقٍ آخَرَ، فنقول: إنَّ الآيَةَ تدُلُّ على وجوبِ الجهادِ مع الفريقينِ، فأمَّا كيفيَّةُ تلك المجاهدةِ فلفظُ الآيةِ لا يدلُّ عليها، بل إنما يُعرَفُ من دليلٍ آخَرَ، وإذا ثبت هذا فنقولُ: دلَّت الدَّلائلُ المنفصلةُ على أنَّ المجاهدةَ مع الكفَّارِ يجب أن تكونَ بالسَّيفِ، ومع المنافقينَ بإظهارِ الحجَّةِ تارةً، وبِتَركِ الرِّفقِ ثانيًا، وبالانتهارِ ثالثًا). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٠٣).

(١) الحواريُّونَ: الخواصُّ الأصفِياءُ. وَقيل: هم النَّاصِرونَ. يُنظر: ((كشف المشكل من حديث =

وأصحابٌ، يأخُذونَ بسُنَّتِه، ويَقتَدونَ بأمْرِه، ثمَّ إنَّها تَخلُفُ مِن بعدِهم خُلوفٌ[1]، يقولونَ ما لا يَفعلونَ، ويَفعلونَ ما لا يُؤمَرونَ، فمن جاهَدَهم بيَدِه فهو مؤمِنٌ، ومن جاهَدَهم بلسانِه فهو مؤمِنٌ، ومن جاهَدَهم بقَلبِه فهو مُؤمِنٌ، وليس وراءَ ذلك من الإيمانِ حَبَّةُ خَردلٍ))[2].

﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾.

أي: واشدُدْ- يا محمَّدُ- بالقَولِ والفِعلِ على الكفَّارِ والمُنافِقينَ[3].

كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾ [محمد: ٤].

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ يهوديًّا رضَّ[4] رأسَ جاريةٍ بين حَجَرينِ، فقيل لها: مَن فعلَ بك هذا؟ أفلانٌ أو فلانٌ، حتى سُمِّيَ اليهوديُّ، فأُتيَ به النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلم يزَلْ به حتى أقَرَّ به، فرَضَّ رأسَه بالحِجارةِ))[5].

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قَدِمَ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليه

= الصحيحين)) لابن الجوزي (١/ ٣٢٠).

(١) الخُلُوفُ: الخالِفونَ بعد السَّالِفينَ. يُنظر: ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (١/ ٣٢٠).

قال النوويُّ: (أمَّا الخُلوفُ فبضمِّ الخاءِ، وهو جمعُ «خلْف» بإسكانِ اللام، وهو الخالفُ بشرٍّ، وأمَّا بفتحِ اللام فهو الخالفُ بخيرٍ، هذا هو الأشهرُ) ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ٢٨).

(٢) رواه مسلم (٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٦٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٠)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٥٦).

قال محمد رشيد رضا: (الغِلظةُ في اللغة: الخُشونةُ والشِّدَّةُ، ومعاملةُ العدُوِّ المحارِب بهما، مِن وَضعِ الشَّيءِ في موضِعِه، ومعامَلتُه باللِّينِ والرَّحمةِ وضعٌ لهما في غيرِ مَوضِعِهما). ((تفسير المنار)) (١٠/ ٤٧٤).

(٤) الرَّضُّ: الكَسرُ والدَّقُّ. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (٤/ ١٩٥).

(٥) رواه البخاري (٦٨٧٦) واللفظ له، ومسلم (١٦٧٢).

وسلَّم نفَرٌ مِن عُكْلٍ، فأسلَموا، فاجتَوَوُا المدينةَ[1]، فأمَرَهم أن يأتوا إبِلَ الصَّدَقةِ، فيَشرَبوا مِن أبوالِها وألبانِها، ففَعَلوا فصَحُّوا، فارتَدُّوا وقَتَلوا رُعاتَها، واسْتاقُوا الإبِلَ، فبعَثَ في آثارِهم، فأُتِيَ بهم، فقطَعَ أيديَهم وأرجُلَهم، وسَمَلَ أعيُنَهم[2]، ثمَّ لم يَحسِمْهم[3] حتى ماتوا))[4].

﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

مناسبتُها لما قبلَها:

لَمَّا ذكر اللهُ تعالى عذابَهم في الدُّنيا بالجهادِ والغِلظةِ؛ ذكَرَ عذابَهم في الآخرةِ، فقال[5]:

﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

أي: ومَقَرُّ الكفَّارِ والمُنافِقينَ في الآخرةِ نارُ جهنَّمَ لا يَخرُجونَ منها، وبِئسَ المكانُ الذي صاروا إليه[6].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦].

---

(١) اجتَوَوا المَدينةَ: كَرِهوا المُقامَ بها؛ لِضَجَرٍ ونَوعٍ مِن سَقَمٍ. وأصلُه مِن الجَوى، وهو داءٌ يُصيبُ الجَوفَ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ١٣١).

(٢) سَمَلَ أَعيُنَهم: أي: فقَأَها وأذهَبَ ما فيها. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (٢٣/ ٢٨٥).

(٣) ولم يَحسِمْهم: أي: ولم يَكْوِهم. والحسم: كيُّ العِرقِ بالنَّارِ؛ لينقَطِعَ الدَّمُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١١/ ١٥٦).

(٤) رواه البخاري (٦٨٠٢) واللفظ له، ومسلم (١٦٧١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣٢٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٧٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٦٨)، ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣٢٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٤).

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٧٤) ﴾.

مُناسبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذه الآيةَ بيانٌ للسَّبَبِ المقتَضي لجهادِ المُنافِقينَ كالكُفَّار، وهو أنَّهم أظهَروا الكُفرَ بالقَولِ، وهمُّوا بشَرٍّ ما يُغري به مِن الفِعلِ، وهو الفَتكُ برَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[1].

وأيضًا لَمَّا كان معظَمُ ما أُخِذَ على المُنافِقينَ هو كَلِماتٍ دالَّةً على الطَّعنِ في الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ونحو ذلك من دلائِلِ الكُفرِ، وكانوا إذا نُقِلَ ذلك عنهم تنصَّلوا منه بالأيمانِ الكاذبةِ- عُقِّبَت آيةُ الأمرِ بجِهادِهم بالتَّنبيهِ على أنَّ ما يتنَصَّلونَ به تَنصُّلٌ كاذِبٌ، وأنْ لا ثِقةَ بحَلِفِهم، وعلى إثباتِ أنَّهم قالوا ما هو صريحٌ في كُفرِهم[2].

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ ﴾.

أي: يحلِفُ المنافِقونَ بالله كَذِبًا على أنَّهم لم يتفوَّهوا بكَلِمةِ الكُفرِ، كسَبِّ النبيِّ، والطَّعنِ في الدِّينِ، ولقَدْ نطَقوا بكلمةِ الكُفرِ التي يُنكِرونَ قَولَها[3].

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٧٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦٨).
(٣) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥١٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٧٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٣٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦٨).

وسلَّم في ظِلِّ حُجرةٍ مِن حُجَرِه وعنده نفَرٌ من المسلمين، قد كاد يَقلِصُ عنهم الظِّلُّ، فقال: إنَّه سيأتيكم إنسانٌ ينظُرُ إليكم بعَيْنَي شَيطانٍ، فإذا أتاكم فلا تكلِّموه، فجاء رجلٌ أزرَقُ، فدعاه رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فكلَّمه، قال: علامَ تَشتِمني أنت وفلانٌ وفلانٌ- نفَرٌ دعاهم بأسمائِهم- قال: فذهَبَ الرَّجُلُ فدعاهم فحَلَفوا بالله واعتَذَروا إليه، قال: فأنزَلَ اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨]))(١).

﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾.

أي: وأظهَرَ المُنافِقونَ كُفرَهم بما قالوه من الكُفرِ، بعد أن كانوا يُظهِرونَ الإسلامَ(٢).

﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾.

أي: وهمَّ المُنافِقونَ أن يفعلوا من الشَّرِّ والفَتْكِ برَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه

(١) تقدَّم تخريجه.

(٢) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٠٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٧٢، ٢٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦٩).

قال ابن تيمية: (هذا الإسلامُ قد يكونُ مِن جِنسِ إسلامِ الأعرابِ، فيكونُ قَولُه: ﴿بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ و﴿بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ سواءً، وقد يكونون ما زالوا مُنافِقينَ، فلم يكنْ لهم حالٌ كان معهم فيها من الإيمانِ شَيءٌ؛ لِكَونِهم أظهَروا الكُفرَ والرِّدَّةَ؛ ولهذا دعاهم إلى التوبةِ، فقال: ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا...﴾). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٢٧٢-٢٧٣).

وقيل: والمرادُ بإسنادِ الإسلامِ إليهم: إظهارُ الإسلام، لا وقوعُ حَقيقَتِه، فهم لم يُسلموا إسلامًا صادِقًا. وقد أنبأَ عَن ذلك إضافةُ الإسلامِ إلى ضميرِهم دونَ تعريفِ الإسلامِ باللَّامِ المفيدةِ للحقيقةِ، أي بعدَ إسلامٍ هو مِن شأنِكم، وهذا تعريضٌ بأنَّه الإسلام الصُّوريُّ غيرُ الحقِّ ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٦] وهذا مِن لطائفِ القرآن. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥٢).

وسلَّم حين رجَعَ مِن غزوةِ تَبوكَ، ما لم يستطيعوا الوصولَ إليه؛ إذ عصَمَه اللهُ تعالى منهم[1].

﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ﴾.

أي: والحالُ أنَّ المُنافِقينَ ما عابُوا وما أنكَرُوا إلَّا ما هو جديرٌ حقًّا بالمَدحِ والشُّكرِ والثَّناءِ، وهو إغناءُ اللهِ لهم مِن فَضلِه بسبَبِ رَسولِه، وبركةِ رسالَتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بعد أن كانوا فُقَراءَ[2]!

عن عبدِ اللهِ بنِ زَيدِ بنِ عاصمٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((لَمَّا أفاء اللهُ على رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومَ حُنَينٍ، قسَمَ في النَّاسِ؛ في المؤلَّفةِ قُلوبُهم، ولم يُعطِ الأنصارَ شَيئًا، فكأنَّهم وجَدوا إذ لم يُصِبْهم ما أصابَ النَّاس، فخَطَبَهم فقال: يا معشَرَ الأنصارِ، ألَمْ أجِدْكم ضُلَّالًا فهداكم اللهُ بي، وكُنتُم متفرِّقينَ فألَّفَكم اللهُ بي، وعالةً فأغناكم اللهُ بي؟!))[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٧٠، ٣٧١)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٠٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٧٣)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٤٧٧، ٤٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٨٢)، ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣٢٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٧٠).
قال ابن تيمية: (﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ وهو يدلُّ على أنَّهم سَعَوا في ذلك فلم يَصِلوا إلى مَقصودِهم؛ فإنَّه لم يقُل: هَمُّوا بما لم يفعَلوا، لكِنْ ﴿بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ فصدَرَ منهم قولٌ وفِعلٌ). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٦٢)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٧١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٤).
قال ابن عاشور: (إنَّما أغناهم اللهُ ورسولُه بما جلَبَه حلولُ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بينهم من أسبابِ الرِّزقِ، بكثرةِ عَمَلِ المهاجرينَ، وبوَفرةِ الغنائِمِ في الغَزَواتِ، وبالأمنِ الذي أدخَلَه الإسلامُ فيهم؛ إذ جعل المؤمنينَ إخوةً، فانتفَتِ الضَّغائِنُ بينهم والثَّاراتُ، وقد كان الأوسُ والخزرجُ قبل الإسلام أعداءً، وكانت بينهم حروبٌ تفانَوا فيها قُبَيلَ الهجرةِ، وهي حُروبُ بُعاثٍ. والفَضلُ: الزِّيادةُ في البَذلِ والسَّخاء). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٧٠).

(٣) رواه البخاري (٤٣٣٠) واللفظ له، ومسلم (١٠٦١).

﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾.

أي: فإن يتُبِ المُنافِقونَ مِن نِفاقِهم وكُفرِهم، يكُنْ رُجوعُهم إلى الحَقِّ خَيرًا لهم في دينِهم ودُنياهم وآخِرتِهم[١].

كما قال تعالى: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ [محمد: ٢١].

﴿وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾.

أي: وإن يُعرِضِ المُنافِقونَ عن الإيمانِ والتَّوبةِ، ويستَمِرُّوا على النِّفاقِ؛ يعذِّبْهم اللهُ عذابًا مُؤلِمًا في الدُّنيا- بالهَمِّ والحُزنِ والخِزيِ، وبالقَتلِ إن أظهَروا نِفاقَهم- ويُعَذِّبْهم في الآخرةِ بعذابِ النَّارِ[٢].

﴿وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾.

أي: وما للمُنافِقينَ في الأرضِ كُلِّها أيُّ وليٍّ يتولَّاهم، ويُحصِّلُ لهم الخيرَ، ولا أيُّ نَصيرٍ ينصُرُهم ويدفَعُ عنهم الشَّرَّ[٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- كلُّ من وُقِفَ منه على فسادٍ في العقائِدِ، فحُكمُه أن يُجاهَدَ بالحُجَّةِ، ويُستعمَلَ معه الغِلَظُ ما أمكَنَ؛ نَستفيدُ ذلك مِن قَولِ الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٧٥)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٣٧)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٥).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٦٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٥٧)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٧١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٠٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٨٣)، ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣٢٩)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٨٣)، ((تفسير المنار)) محمد رشيد رضا (١٠/ ٤٨٠، ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٥).

جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾[١] [التوبة: ٧٣].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ فالحجَّةُ على المنافِقِ جِهادٌ لهم، وعلى هذا، فالاحتجاجُ على المُنافِقينَ والمُلحِدينَ، والرَّادِّينَ للكِتابِ والسنَّةِ، والمُخالفينَ لهما؛ من الجِهادِ[٢].

٣- قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ جِهادُ المنافقينَ أصعَبُ مِن جهادِ الكفَّارِ، وهو جهادُ خواصِّ الأمَّةِ، ووَرَثةِ الرُّسُلِ، والقائمونَ به أفرادٌ في العالَم، والمُشاركونَ فيه والمُعاونون عليه، وإن كانوا هم الأقلِّينَ عددًا، فهم الأعظَمونَ عند اللهِ قَدْرًا[٣].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ هذه الغِلْظةُ الإراديَّةُ (أي غيرُ الطَّبيعيَّةِ) تربيةٌ للمُنافِقينَ وعقوبةٌ، يُرجى أن تكونَ سببًا لهدايةِ مَن لم يُطبَعِ الكُفرُ على قَلبِه، وتُحِطُّ به خطايا نفاقِه[٤].

٥- التوبةُ أصلٌ لسَعادةِ الدُّنيا والآخرةِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ﴾[٥].

٦- بابُ التوبةِ مَفتوحٌ على مِصراعَيه، فمن شاء لنَفسِه الخيرَ، فلْيَدلِفْ إلى البابِ المَفتوحِ، ومن أراد أن يَمضِيَ في طريقِه الأعوجِ، فالعاقبةُ كذلك معروفةٌ: العذابُ الأليمُ في الدُّنيا والآخرةِ، وانعدامُ النَّاصرِ والمُعينِ في هذه الأرضِ؛ قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٦٤).
(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٥٢).
(٣) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٧٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٤).

الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[١] [التوبة: ٧٤].

٧- مَن خذَلَه اللهُ تعالى وآذَنَه بحَربٍ منه، لا يَقدِر أحَدٌ أن يُجيرَه منه؛ يُبيِّنُ ذلك قَولُه تعالى: ﴿وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ قرَنَ المُنافقينَ هنا بالكُفَّار؛ تنبيهًا على أنَّ سبَبَ الأمرِ بجِهادِ الكُفَّارِ قد تحقَّقَ في المُنافِقينَ، فجِهادُهم كجِهادِ الكفَّارِ[٣].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ استدَلَّ به من قال بقَتلِ المُنافِقينَ[٤].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ أي: ما وقَعَ منهم قَولٌ، فقصَرَ الفِعلَ تَعميمًا للمَفعولِ؛ إعلامًا بأنَّهم مهما عُنِّفُوا على قولٍ كائنًا ما كان، بادَرُوا إلى الحَلِف على نَفيِه كذِبًا؛ لأنَّهم مَرَدوا على النِّفاقِ، فتطَبَّعوا بأعلى الكَذِبِ[٥].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ فيه أنَّ الاستهزاءَ بآياتِ اللهِ كُفرٌ[٦].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٦٧٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٨٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦٥).
(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٣).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٥٤٧).
(٦) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٣).

بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّ التكفيرَ يقَعُ بما يدُلُّ على الكُفرِ مِن قائِلِه أو فاعِلِه، دَلالةً بيِّنةً، وإنْ لم يكُن أعلَنَ الكُفرَ[1].

٦- قَولُه تعالى: ﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ فقال: ﴿بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ ولم يقُل: (بعد إيمانهم) لأنَّ ذلك لم يتجاوَزْ ألسِنَتَهم[2].

٧- قيل للبَجليِّ[3]: أتجِدُ في كتابِ اللهِ تعالى (اتَّقِ شَرَّ مَن أحسَنْتَ إليه؟) قال نعم: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾[4].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ عُطِفَ الرَّسولُ على اسمِ الجلالةِ في فِعلِ الإغناءِ؛ لأنَّه السَّببُ الظَّاهِرُ المُباشِرُ[5].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ فيه دليلٌ على قَبولِ تَوبةِ الزِّنديقِ المُسِرِّ للكُفرِ المُظهِرِ للإيمانِ[6]، وقَبولِ تَوبةِ مَن كفَرَ بعد إسلامِه[7].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٠).

(٣) هو الحسينُ بنُ الفضلِ بن عميرٍ، أبو عليٍّ البجلي النيسابوري، إمامٌ لغويٌّ، مفسِّر محدِّثٌ، تُوفِّي سنة (٢٨٢هـ). يُنظر: ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي (١٣/ ٤١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٠٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٧٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٦٦)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٣).

(٧) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٣١٧)، ويُنظر أيضًا: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٥٤٩).

- قولُه: ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ جُمْلةٌ مُسْتأنَفةٌ لبيانِ آجِلِ أَمْرِهم إِثْرَ بيانِ عاجِلِه[١].

- وقولُه: ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ تذييلٌ لِمَا قَبْلَه[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ اسْتِئنافٌ لبيانِ ما صَدَرَ عنهم مِنَ الجرائمِ المُوجِبةِ لِمَّا مَرَّ مِنَ الأمرِ بالجِهادِ والغِلْظةِ عليهم، ودُخولِ جَهنَّمَ[٣].

- وإيثارُ صيغةِ الاسْتِقبالِ ﴿يَحْلِفُونَ﴾؛ لاسْتِحضارِ الصُّورةِ، أو للدَّلالةِ على تكريرِ الحَلِفَ، وإيثارُ صِيغةِ الجَمْعِ في ﴿قَالُوا﴾ مَعَ أنَّ القائلَ هو بعضُهم؛ للإيذانِ بأنَّ بَقِيَّتَهم بِرِضاهُم صَارُوا بمَنْزلةِ القائلِ[٤].

- وأَكَّدَ صُدورَ كَلِمةِ الكُفْرِ منهم بصِيغةِ القَسَمِ ﴿وَلَقَدْ قَالُوا﴾ في مُقابَلةِ تأكيدِهم نَفْيَ صُدورِها؛ ليكونَ تَكذيبُ قولِهم مُساويًا لقولِهم في التَّأكيدِ[٥].

- قولُه: ﴿إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ اسْتِثناءٌ تَهكُّميٌّ، وهو مِنْ تأكيدِ الشَّيءِ بما يُشْبِهُ ضِدَّهُ، ونُكْتَتُه أنَّ المُتكلِّمَ يَظْهَرُ كأنَّه يَبْحَثُ عَنْ شيءٍ يَنْقُضُ حُكْمَه الخَبَرِيَّ ونَحْوَه، فيَذْكُرُ شيئًا هو مِنْ مؤكِّدات الحُكْمِ؛ للإشارةِ إلى أنَّه اسْتَقصى فلم يَجِدْ ما يَنْقُضُه[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦٨).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٢٧٠).

- قولُه: ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ ...﴾ فيه مجيءُ الفِعْلِ ﴿يَكُ﴾ في جَوابِ الشَّرطِ دَونَ أنْ يُقالَ: (فإنْ يَتوبوا فهو خَيرٌ لَهُمْ)؛ لتأكيدِ وقوعِ الخيرِ عِنْدَ التَّوبةِ، والإيماءِ إلى أنَّه لا يَحْصُلُ الخيرُ إلَّا عِنْدَ التَّوبةِ؛ لأنَّ فِعْلَ التَّكوينِ مُؤْذِنٌ بذلك[1].

- وقَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ خصَّصَ الأرضَ بالذِّكرِ، مع أنَّهم لا وليَّ لهم في الأرضِ ولا في السَّماءِ، ولا في الدُّنيا ولا في الآخرةِ؛ لأنَّهم لَمَّا كانوا لا يعتَقِدونَ الوحدانيَّةَ، ولا يصَدِّقونَ بالآخرةِ، كان اعتقادُهم وجودَ الوَليِّ والنَّصيرِ مقصورًا على الدُّنيا، فعبَّرَ عنها بـ ﴿فِي الْأَرْضِ﴾، أو أراد بالأرضِ أرضَ الدُّنيا والآخرةِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٧١).
(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٣٦-٢٣٧).

الآيات (٧٥-٧٨)

﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿فَأَعْقَبَهُمْ﴾: أي: أورثَهم، وأصلُ (عقب): يدلُّ على تأخيرِ شيءٍ، وإتيانِه بعدَ غيرِه[١].

﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾: أي: حَديثَهم بينهم، وأصلُ (نجو): يدلُّ على سَترٍ وإخفاءٍ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يخبِرُ تعالى أنَّ مِن المُنافِقينَ مَن عاهد اللهَ لَئِن رزَقَهم مِن فَضلِه لَيُخرِجَنَّ الصَّدقةَ، ولَيكونَنَّ من الصَّالحينَ الذين يؤدُّونَ حَقَّ اللهِ وحَقَّ عِبادِه، فلمَّا رزَقَهم اللهُ مِن فَضلِه بَخِلوا به، وتوَلَّوا عن طاعةِ اللهِ تعالى، والوفاءِ بعَهدِه، مُعرِضينَ ومُنصَرفينَ عن ذلك، فجعل اللهُ عاقبةَ ذلك نِفاقًا في قلوبِهم، يستمِرُّ معهم إلى يومِ يُتوَفَّونَ ويَلقَونَ اللهَ؛ بسبَبِ إخلافِهم اللهَ ما وَعَدوه، وبسببِ كَذِبِهم في كلامِهم.

ألم يعلَمْ هؤلاءِ المُنافِقونَ أنَّ الله يعلمُ ما يُخفونَه وما يتَناجَونَ به، وأنَّه تعالى

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٦، ٥٧٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٢- ٧٩٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٧).

علَّامٌ لِجَميعِ ما غابَ عن حواسِّ خَلْقِه.

تَفسيرُ الآيات:

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ختم الله تعالى الآية السابقة بأنَّه أغناهم من فضلِه؛ أتبَعَها بإقامةِ الدَّليلِ عليها، وعلى أنَّهم يَقبِضونَ أيديَهم، وعلى اجترائِهم على أقبَحِ الكَذِبِ، فقال تعالى[1]:

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾.

أي: ومِن المُنافِقينَ من أعطى اللهَ عَهدًا بقَولِه: واللهِ لَئِن رَزَقَنا اللهُ مِن فَضلِه، لَنُخرِجَنَّ الصَّدَقةَ ممَّا أعطانا[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٥٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٧٦، ٥٧٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٦٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٥٨)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٨٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٣٨)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٧٢).

قال الشوكاني: (ومعنى: ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ لَنُخرِجُ الصَّدقةَ، وهي أعَمُّ من المفروضةِ وغيرِها). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٣٨).

ما ورد في أنَّ ثعلبةَ بنَ حاطبٍ هو سببُ نزولِ هذه الآياتِ، لا يصحُّ؛ ضعَّفه ابنُ حزم في ((المحلى)) (١١/ ٢٠٧)، والقرطبي في ((تفسيره)) (١٠/ ٣٠٦)، والذهبي في ((تجريد أسماء الصحابة)) (١/ ٦٦)، وأحمد شاكر في تحقيق ((تفسير الطبري)) (١٤/ ٣٧١)، والألباني في ((سلسلة الأحاديث الضعيفة)) (١٦٠٧)، وضعَّف إسنادَه البيهقي في ((دلائل النبوة)) (٥/ ٢٩٠)، والزيلعي في ((تخريج الكشاف)) (٢/ ٨٥)، والعراقي في ((تخريج الإحياء)) (٣/ ٣٣٤)، والهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٧/ ٣٤)، وابن حجر في ((الكافي الشاف)) (١٣٢)، والسيوطي في ((لباب النقول)) (١٥٧).

﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾.

أي: ولَنكونَنَّ - إن بسَطَ اللهُ علينا الرِّزقَ - من جملةِ الصَّالحينَ الذين يؤدُّونَ حَقَّ اللهِ وحَقَّ عبادِه[1].

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ﴾.

أي: فلمَّا رزَقَهم اللهُ وأعطاهم مِن فَضلِه بَخِلوا بما آتاهم، فلم يُنْفِقوا منه في حقِّ الله، ولم يتصدَّقوا بشيءٍ منه، كما حلَفوا[2].

﴿وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾.

أي: وأدبَرُوا عن طاعةِ اللهِ تعالى والوفاءِ بِعَهدِه، مُعرِضينَ ومُنصَرفينَ عن ذلك[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٧٧)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٠٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٣٨)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٥٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٨١، ٤٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٩٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٧٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٣٨)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٥٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٥).
وقال القرطبي: (﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ أي: عن الإسلامِ، أي: مُظهِرونَ للإعراضِ عنه). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢١٢).
وقال النسفي: (﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ مُصِرُّونَ على الإعراض). ((تفسير النسفي)) (١/ ٦٩٦).
وقال الشوكاني: (﴿وَتَوَلَّوْا﴾ أي: أعرَضوا عن طاعةِ الله، وإخراجِ صَدَقاتِ ما أعطاهم اللهُ مِن فَضلِه، والحالُ أنَّهم مُعرِضونَ في جميعِ الأوقات، قبل أن يُعطيَهم اللهُ ما أعطاهم من الرِّزقِ وبعدَه). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٣٨).
وقال محمد رشيد رضا: (ولم يكُن تولِّيهم هذا أمرًا عارضًا شَغَلَهم عنه شاغِلٌ يزولُ بزوالِه، بل تولَّوا وهم مُعرِضونَ بكُلِّ قواهم، عن الصَّدقةِ والعمَلِ الصَّالح، فكان الإعراضُ صِفةً =

﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ ﴾.

أي: فجعل اللهُ عاقبةَ أمرِهِم نِفاقًا كائنًا في قلوبِهم، متمكِّنًا منها، مستمرًّا فيها إلى يومِ يلقون الله تعالى، بموتِهم، وخروجِهم مِن الدُّنيا[1].

﴿ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾.

أي: فجعل اللهُ في قلوبِهم النِّفاقَ، وحَرَمَهم التوبةَ منه؛ بسبَبِ إخلافِهم ما عاهدوا اللهَ عليه، مِن الصَّدَقةِ والصَّلاحِ؛ ولأنَّهم كانوا يَكذِبونَ في كلامِهم وعهدهم[2].

= راسخةً فيهم، حاكمةً عليهم، بحيث إذا ذُكِّروا بما يجِبُ عليهم، لا يذكُرونَ، وإذا دُعُوا إليه لا يستجيبونَ). ((تفسير المنار)) (١٠/ ٤٨٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٧٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٦٤)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٧٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٨٣)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٩٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٣٨)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٧٢).

وقيل: الضميرُ في قولِه: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ﴾ يرجعُ إلى البخلِ، فالمعنى: أعقبهم بخلُهم بما نذروا نفاقًا. يُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٢٨٣).

قال ابن عاشور: (مَعنى ﴿إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ إلى يوم الحَشرِ؛ لأنَّه يومُ لِقاءِ اللهِ للحِسابِ، أو إلى يومِ الموتِ؛ لأنَّ الموتَ لِقاءُ الله، كما في الحديث: «من أحبَّ لقاءَ اللهِ، أحَبَّ اللهُ لقاءَه»). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٧٣).

وقيل: ﴿إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ أي: يلقون عملَهم، أي جزاءَه، وهو يوم القيامةِ. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٧٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٦٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٦٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٨٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٨٢).

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((آيةُ المُنافِقِ ثَلاثٌ: إذا حدَّثَ كَذَب، وإذا وعَدَ أخلَفَ، وإذا اؤتُمِنَ خان))(١).

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أربَعٌ مَن كُنَّ فيه كان مُنافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خَصلةٌ منهنَّ كانت فيه خَصلةٌ مِن النِّفاقِ حتى يدَعَها: إذا اؤتُمِنَ خان، وإذا حدَّثَ كَذَب، وإذا عاهَد غَدَر، وإذا خاصَم فَجَر))(٢).

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت المُعاهَدةُ سَبَبًا للإغناءِ في الظَّاهِرِ، وكان ذلك ربَّما كان مَظِنَّةً لأنْ يتوهَّمَ مَن لا عِلمَ له أنَّ ذلك لخفاءِ أمرِ البَواطِنِ عليه سُبحانه، وكان الحُكمُ هنا وارِدًا على القَلبِ بالنِّفاقِ الذي هو أقبَحُ الأخلاقِ، مع عدمِ القُدرةِ لِصاحِبِه على التخلُّصِ منه، كان ذلك أدَلَّ دَليلٍ على أنَّه تعالى أعلَمُ بما في كلِّ قَلبٍ مِن صاحِبِ ذلك القَلبِ، فعَقَّبَ ذلك بالإنكارِ على مَن لا يعلَمُ ذلك، والتَّوبيخِ له والتَّقريعِ، فقال تعالى(٣):

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ ﴾.

أي: ألم يعلَمِ المُنافِقونَ الذين يُبطِنونَ الكُفرَ، ويُظهِرونَ الإسلامَ، أنَّ اللهَ يعلَمُ ما يُخفونَه مِن الكُفرِ والنِّفاقِ، ويَعلَمُ ما يتناجَونَ به فيما بينهم مِن الطَّعنِ

(١) رواه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩).
(٢) رواه البخاري (٣٤) واللفظ له، ومسلم (٥٨).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٥٥٤).

في الإسلامِ والمُسلِمينَ، وسيُجازيهم على أعمالِهم[1]؟!

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾.

أي: ألم يعلَمِ المُنافِقونَ أنَّ اللهَ يعلَمُ جَميعَ ما غاب عن حواسِّ خَلْقِه، لا يخفى عليه شَيءٌ مِن المغيَّباتِ[2]؟!

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ ظاهِرُ هذه الآيةِ يدُلُّ على أن نَقضَ العَهدِ، وخُلفَ الوَعدِ يُورِثانِ النِّفاقَ، فيجِبُ على المُسلمِ أن يُبالِغَ في الاحترازِ عنهما، فإذا عاهدَ اللهَ في أمرٍ، فليجتَهِدْ في الوَفاءِ به[3].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ فيه دَلالةٌ على وُجوبِ الحَذَرِ مِن إحداثِ الأفعالِ الذَّميمةِ؛ فإنَّها تُفسِدُ الأخلاقَ الصَّالحةَ، ويزدادُ الفَسادُ تمكُّنًا مِن النَّفسِ بطبيعةِ التولُّدِ الذي هو ناموسُ الوُجودِ[4].

٣- قال الله تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ هذا بيانٌ عما يُوجِبُه الكَذِبُ مع إخلافِ الوعدِ مِن النِّفاقِ، فمن أخلَفَ في المواثيقِ مع اللهِ، فقد تعرَّضَ للنِّفاقِ، وكان

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٨٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٣٩)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٨٧، ٥٨٨)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٨٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٧٣).

جزاؤُه مِن اللهِ إفسادَ قلْبِه بما يُكسِبُه النِّفاقَ[١].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أعاد اللَّامَ الواقعةَ في جوابِ القَسَمِ في (لنكُونَنَّ)؛ لتأكيدِ العَزمِ على الاستعانةِ، والتوسُّلِ بفَضلِ المالِ إلى الاستقامةِ على منهجِ الصَّلاحِ، بما هو وراءَ الصَّدَقاتِ، التي عقَدُوا العَهدَ والقَسَمَ عليها[٢].

٢- دلَّ قولُه تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ على صِحَّةِ تَعليقِ النَّذرِ بالمِلْكِ، مِثلُ قَولِ القائلِ: إنْ رزَقَني اللهُ مالًا فلِلَّه عليَّ أنْ أتصدَّقَ به أو بشيءٍ منه، فهذا يصِحُّ اتِّفاقًا[٣].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ فيه أنَّ إخلافَ الوَعدِ والكَذِبَ، مِن خِصالِ النِّفاقِ، فيكونُ الوفاءُ والصِّدقُ مِن شُعَبِ الإيمانِ[٤].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ فيه المعاقبةُ على الذَّنبِ بما هو أشَدُّ منه[٥].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٦٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٨٢).
(٣) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ٤٩٥).
(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٢)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٣).

وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ استدلَّ به قومٌ على أنَّ مَن حلَفَ إن فعَلَ كذا، فللَّهِ عليَّ كذا، أنَّه يلزَمُه[1].

٦- قولُه تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ النِّفاقُ إذا كان في القَلبِ، فهو الكُفرُ، فأمَّا إذا كان في الأعمالِ فهو معصيةٌ، قال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((أربعٌ مَن كُنَّ فيه كان منافِقًا خالصًا، ومَن كانت فيه خصلةٌ منهنَّ كانت فيه خَصْلَةٌ مِنَ النِّفاقِ حتَّى يَدَعَها إذا اؤْتُمِنَ خانَ، وإذا حَدَّث كَذَب، وإذا عاهدَ غَدَرَ، وإذا خاصَم فَجَرَ))[2].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ عُطِفَت النَّجوى على السِّرِّ مع أنَّه أعَمُّ منها؛ ليُنبِّئَهم باطِّلاعِه على ما يتناجَونَ به من الكيدِ والطَّعنِ[3].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ عبَّرَ عَنْ كَذِبِهِم بصيغةِ ﴿كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ لدَلالةِ ﴿كَانَ﴾ على أنَّ الكَذِبَ كائنٌ فيهم، ومُتمكِّنٌ منهم، ودَلالةِ المُضارِعِ ﴿يَكْذِبونَ﴾ على تكرُّرِهِ وتَجدُّدِه[4]، واستمرارِه؛ لأنَّ ذلك شأنُهم

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢١٢).
والحديثُ أخرجه البخاري (٣٤)، واللفظ له، ومسلم (٥٨) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٧٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٢٧٣).

الدَّائِمُ، الذي هو أخَصُّ لوازمِ النِّفاقِ، بينما عبَّرَ عن إخلافِهم الوعدَ بالفِعلِ الماضي، فقال: ﴿بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾؛ لأنَّه في حادثةٍ وَقَعَت[١].

٢- **قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ اسْتِفهامٌ تَضمَّنَ التَّوبيخَ والتَّقريعَ والتَّهديدَ**[٢].

- وإظهارُ اسْمِ الجلالةِ ﴿اللَّهَ﴾ في الموقِعينِ؛ لإلقاءِ الرَّوعةِ، وتَربيةِ المهابةِ[٣].

- وفي إيرادِ العِلْمِ المُتعلِّقِ بسِرِّهم ونجواهُم بصِيغةِ الفِعْلِ ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ الدَّالِ على الحُدوثِ والتَّجدُّدِ، والعِلْمِ المُتعلِّقِ بالغُيوبِ الكثيرةِ الدَّائمةِ بصِيغةِ الاسْمِ ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ الدَّالِ على الدَّوامِ والمُبالَغةِ: فخامةٌ وجَزالةٌ لا تَخْفى[٤].

- وتَقديمُ السِّرِّ على النَّجوى؛ لأنَّ العِلمَ به أعظَمُ في الشَّاهِدِ مِنَ العِلمِ بها، مع ما في تَقديمِه وتعليقِ العِلمِ به مِن تعجيلِ إدخالِ الرَّوعةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٨٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣٣٤).

الآيتان (٧٩-٨٠)

﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ
وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ
(٧٩) ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ
لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ (٨٠) ﴾

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿جُهْدَهُمْ﴾: أي: طاقَتَهم ووُسعَهم، وأصلُ (جهد): يدلُّ على مَشقَّةٍ[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

﴿الَّذِينَ﴾: اسمٌ مَوصولٌ مَبنيٌّ في محلِّ رفعِ مُبتدأٍ، ﴿فِي الصَّدَقَاتِ﴾ جارٌّ ومجرورٌ متعلِّقٌ بـ﴿يَلْمِزُونَ﴾، ﴿وَالَّذِينَ﴾ في محلِّ نصبٍ عطفًا على ﴿الْمُطَّوِّعِينَ﴾[2]، أي: يلمِزونَ المطَّوِّعينَ، ويَلمِزونَ الذين لا يَجِدونَ، وجملةُ ﴿فَيَسْخَرُونَ﴾ معطوفةٌ على جملةِ ﴿يَلْمِزُونَ﴾، وجُملة: ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ في محلِّ رفْعٍ خبرُ المُبتدأِ ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾، وقيلَ غيرُ ذلك[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٧).

(٢) وليس في محلِّ جرٍّ عطفًا على ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ كما يُتوهَّمُ؛ لأنه يُفهِمُ أنَّ الذين لا يَجِدونَ ليسُوا مُؤمِنينَ؛ لأنَّ أصلَ العطفِ الدَّلالةُ على المغايرةِ. يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٨٩).

(٣) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٦٥٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٨٨-٩٠)، ((الجدول في إعراب القرآن)) (١٠/ ٤٠١).

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ المُنافِقينَ الذين يَعيبونَ المُتطَوِّعينَ مِن المؤمنينَ الأغنياءِ، ويَعيبونَ الفُقَراءَ الذين لا يجِدونَ إلَّا شيئًا يسيرًا بحسَبِ طاقَتِهم يتصَدَّقونَ به، فيَسخَرونَ منهم- أنَّه سُبحانه سَخِرَ منهم مقابلَ ذلك، ولهم عذابٌ مُوجِعٌ في نارِ جَهنَّمَ.

ثمَّ يُخاطِبُ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قائلًا له: استغفِرْ لهم- يا مُحمَّدُ- أوْ لا تستغفِرْ لهم، فلن يَغفِرَ اللهُ لهم، حتى وإن استغفَرْتَ لهم سبعينَ مرَّةً، فلن يغفِرَ اللهُ لهم؛ ذلك بسبَبِ كُفرِهم باللهِ ورَسولِه، واللهُ لا يهدي القَومَ الفاسِقينَ.

تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أخبَرَ الله تعالى أنَّه لم يكْفِ المُنافقينَ كُفرانُ نِعمةِ الغنى من غيرِ مُعاهدةٍ، حتى ارتكَبوا الكُفرانَ بمَنعِ الواجِبِ مع المعاهَدةِ؛ أخبَرَ أنَّه لم يَكفِهم أيضًا ذلك، حتى تعَدَّوه إلى عيبِ الكُرَماءِ الباذِلينَ بصِفةِ حُبِّهم لرَبِّهم ما لم يُوجِبْه عليهم[1]، فقال تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾.

سبَبُ النُّزولِ:

﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾.

عن أبي مَسعودٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((لَمَّا أُمِرْنا بالصَّدقةِ كنَّا نتحامَلُ، فجاء

(١) ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٥٥٥).

أبو عَقيلٍ بنِصفِ صاعٍ، وجاء إنسانٌ بأكثَرَ منه، فقال المُنافِقونَ: إنَّ اللهَ لَغنِيٌّ عن صدقةِ هذا، وما فعَلَ هذا الآخَرُ إلَّا رِئاءً، فنزلت: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُم ...﴾ الآية))(١).

وعن كعبِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه- في حديثِ الثَّلاثةِ الذين خُلِّفوا- قال: ((بينما رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على ذلك، رأى رجلًا مُبَيِّضًا(٢)، يزولُ به السَّرابُ(٣)، فقال: كنْ أبا خيثمةَ، فإذا هو أبو خيثمةَ الأنصاريُّ، وهو الذي تصَدَّقَ بصاعِ التَّمرِ حين لَمَزه المُنافِقونَ))(٤).

﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾.

أي: المُنافِقونَ الذين يَعيبونَ المُتطوِّعينَ مِن المؤمِنينَ الأغنياءِ في صَدَقاتِهم الكبيرةِ، فيَزعُمونَ أنَّهم يُراؤونَ بها(٥).

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ﴾.

أي: ويَعيبونَ أيضًا المتطَوِّعينَ مِن المُؤمِنينَ الفُقَراءِ، الذين لا يجِدونَ ما يتصدَّقونَ به إلَّا شيئًا يَسيرًا بِقَدرِ طاقَتِهم، فيَستَهزِئُون بهم(٦).

﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٤٦٦٨) واللفظ له، ومسلم (١٠١٨).

(٢) مُبَيِّضًا: أي: عليه ثِيابٌ بِيضٌ. يُنظر: ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (٢/ ١٢٥).

(٣) يَزولُ به السَّرابُ: أي: يتحَرَّكُ ويَنهَضُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٩٠).

(٤) رواه مسلم (٢٧٦٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٨٨، ٥٩٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٨٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٦٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٣)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٦١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٧٥).

أي: سَخِرَ اللهُ مِن هؤلاء المُنافِقينَ، في مُقابِلِ سُخرِيَتِهم من المؤمِنينَ(١).

كما قال تعالى عن المُنافقينَ: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٤-١٥].

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أي: وللمُنافِقينَ يومَ القِيامةِ عَذابٌ مُؤلِمٌ في نارِ جهنَّمَ(٢).

﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٨٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٣٩)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٦١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٨٧).
قال ابن تيمية: (وكذلك ما ادَّعوا أنَّه مجازٌ في القرآنِ كلَفظِ «المكر» و «الاستهزاء» و «السُّخرية» المضافِ إلى الله، وزَعَموا أنَّه مُسمًّى باسمِ ما يقابِلُه على طريقِ المجازِ، وليس كذلك، بل مُسمَّياتُ هذه الأسماءِ إذا فُعِلَت بمن لا يستحِقُّ العقوبةَ كانت ظُلمًا له، وأمَّا إذا فُعِلَت بمن فعَلَها بالمجنيِّ عليه عقوبةً له بمِثلِ فِعلِه، كانت عدلًا، كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف: ٧٦]، فكاد له كما كادت إخوتُه، لَمَّا قال له أبوه: ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥، ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠]، ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ [النمل: ٥١]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾؛ ولهذا كان الاستهزاءُ بهم فِعلًا يستحِقُّ هذا الاسمَ .. وعن مقاتِلٍ: إذا ضُرِبَ بينهم وبين المؤمنينَ بسُورٍ له بابٌ، باطِنُه فيه الرَّحمةُ، وظاهِرُه مِن قِبَلِه العذابُ، فيَبقَونَ في الظُّلمةِ، فيُقال لهم: ارجِعوا وراءَكم فالتمِسوا نورًا. وقال بعضُهم: استهزاؤُه: استدراجُه لهم. وقيل: إيقاعُ استهزائِهم وردُّ خداعِهم ومكرِهم عليهم. وقيل: إنَّه يُظهِرُ لهم في الدُّنيا خلافَ ما أبطنَ في الآخرةِ. وقيل: هو تجهيلُهم وتخطِئَتُهم فيما فعلوه؛ وهذا كلُّه حَقٌّ، وهو استهزاءٌ بهم حقيقةً). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ١١١، ١١٢). ويُنظر: ((صفاتُ الله عزَّ وجلَّ الواردةُ في الكتابِ والسنَّة)) لعَلَوي السَّقَّاف (ص: ٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٨٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٧٦).

لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾.

أي: سواءٌ طلَبْتَ- يا مُحمَّدُ- لهؤلاءِ المُنافِقينَ المغفِرةَ، أو لم تطلُبْها لهم، فلَن يغفِرَ اللهُ لهم(١).

عن ابنِ عبَّاسٍ، عن عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ الله عنهم، أنَّه قال: ((لَمَّا مات عبدُ اللهِ بنُ أُبيٍّ ابنُ سَلولَ، دُعِيَ له رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ليُصلِّيَ عليه، فلمَّا قام رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وثَبْتُ إليه، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، أتصلِّي على ابنِ أُبيٍّ، وقد قال يومَ كذا وكذا: كذا وكذا؟! أُعدِّدُ عليه قَولَه، فتبسَّمَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقال: أخِّرْ عني يا عُمَرُ، فلمَّا أكثَرْتُ عليه، قال: إنِّي خُيِّرتُ فاختَرْتُ، لو أعلَمُ أنِّي إن زِدتُ على السَّبعينَ يُغفَرْ له، لَزِدْتُ عليها، قال: فصلَّى عليه رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ثمَّ انصَرَف، فلم يمكُثْ إلَّا يسيرًا، حتى نزَلَت الآيتانِ مِن براءةَ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٩٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٧٦).

قال ابن جرير: (هذا كلامٌ خرج مخرَجَ الأمرِ وتأويلُه الخبَرُ، ومعناه: إنِ استَغفَرْتَ لهم- يا محمَّدُ- أو لم تستغفِرْ لهم؛ فلن يغفِرَ اللهُ لهم). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٩٨).

وقال ابن عاشور: (الذي يظهرُ لي أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لَمَّا أُوحِيَ إليه بآيةِ سُورةِ المُنافقين، وفيها أنَّ استغفارَه وعَدَمَه سواءٌ في حَقِّهم؛ تأوَّلَ ذلك على الاستغفارِ غيرِ المؤكَّدِ، وبحَثَه رحمَتُه بالنَّاسِ، وحِرصُه على هداهم، وتكَدُّرُه من اعتراضِهم عن الإيمانِ، أن يستغفِرَ للمُنافقينَ استغفارًا مُكَرَّرًا مُؤكَّدًا؛ عسى أن يغفِرَ اللهُ لهم، ويزولَ عنهم غضبُه تعالى، فيَهديَهم إلى الإيمانِ الحَقِّ، بما أنَّ مُخالَطتَهم لأحوالِ الإيمانِ- ولو في ظاهِرِ الحالِ- قد تجرُّ إلى تعلُّقِ هَدْيِه بقلوبِهم بأقَلِّ سَبَبٍ، فيكونُ نزولُ هذه الآيةِ تأييسًا مِن رضا اللهِ عنهم، أي: عن البقيَّةِ الباقيةِ منهم، تأييسًا لهم ولِمَن كان على شاكِلَتِهم ممَّن اطَّلَعَ على دخائِلِهم، فاغتَبَطَ بحالِهم؛ بأنَّهم انتَفَعوا بصحبةِ المُسلِمينَ والكُفَّار، فالآيةُ تأييسٌ مِن غَيرِ تَعيينٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٧٧).

أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨٤] قال: فعَجِبْتُ بعدُ مِن جُرأتي على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومَئذٍ، واللهُ ورسولُه أعلَمُ))(١).

﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾.

أي: إنْ تسألِ اللهَ المَغفِرةَ- يا مُحمَّدُ- لذنوبِ هؤلاءِ المُنافِقينَ سَبعينَ مَرَّةً، فلَن يستُرَها اللهُ عليهم، ولن يتجاوَزَ عن مؤاخَذتِهم بها(٢).

كما قال تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [المنافقون: ٦].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

أي: عدمُ مَغفرةِ اللهِ ذنوبَ المُنافِقينَ، بسبَبِ كُفرِهم باللهِ سُبحانه وتعالى وبرَسولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ(٣).

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

أي: واللهُ لا يُوفِّقُ للإيمانِ به وبرَسولِه القَومَ الخارِجينَ عن طاعتِه، المُؤثِرينَ

---

(١) رواه البخاري (١٣٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٩٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٧٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٨٨)، ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٧٨).

قال الرازي: (العلَّةُ التي لأجلِها لا ينفَعُهم استغفارُ الرَّسولِ وإن بلغ سبعينَ مَرَّةً؛ كُفرُهم وفِسقُهم، وهذا المعنى قائمٌ في الزيادةِ على السَّبعينَ، فصار هذا التَّعليلُ شاهدًا بأنَّ المرادَ إزالةُ الطَّمعِ في أن ينفَعَهم استغفارُ الرَّسولِ عليه السَّلامُ، مع إصرارِهم على الكُفرِ). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٩٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٦).

للكُفرِ به، المصرِّينَ على فِسْقِهم(١).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مَن أطاعَ اللهَ وتطَوَّعَ بخَصلةٍ مِن خِصالِ الخَيرِ؛ فإنَّ الذي ينبغي هو إعانتُه، وتنشيطُه على عَملِه، وهؤلاء قصَدوا تثبيطَهم بما قالوا فيهم، وعابُوهم عليه(٢).

٢- قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في هذه الآيةِ دَلالةٌ على أنَّ لَمْزَ المؤمِنِ والسُّخريةَ منه، مِن الكبائِرِ؛ لِما يَعقُبُهما من الوَعيدِ(٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- النكتةُ في عَطْفِ الخاصِّ، وهو قَولُه تعالى: ﴿الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ على العامِّ، وهو قَولُه تعالى: ﴿الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هي: التَّنويهُ بهذا الخاصِّ؛ لأنَّ السُّخريةَ مِن المُقِلِّ أشدُّ مِن المُكْثِرِ غالبًا(٤).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ جاحِدَ نبوَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، يُطلَقُ عليه كافرٌ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٩٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٧٠).

(٤) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٣٣٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٧٩).

٣- الكافِرُ لا ينفَعُه الاستغفارُ ولا العمَلُ ما دام كافرًا؛ يُبيِّنُ ذلك قَولُ الله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾(١).

٤- قوله تعالى: ﴿سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ غيرُ مُرادٍ به المقدارُ من العَدَدِ، بل هذا الاسمُ مِن أسماءِ العَدَد التي تُستعمَلُ في معنى الكَثرةِ(٢).

٥- في قولِه تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ دلالةٌ على أنَّ الاستغفارَ للناس نافعُهم ولاحِقٌ بهم؛ لأنَّ الذي حالَ بينَ أهلِ هذه الآيةِ وبينَ استغفارِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم لهم هو كُفْرُهم لا غيرُه(٣).

٦- جَرَت سنَّةُ الله تعالى في الرَّاسِخينَ في فُسوقِهم وتمرُّدِهم- المُصِرِّينَ على نِفاقِهم، الذين أحاطت بهم خطاياهم- أن يَفقِدوا الاستعدادَ للتَّوبةِ والإيمانِ، فلا يهتَدونَ إليهما سبيلًا؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾(٤).

بلاغةُ الآيتين:

١- قَولُه تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

- اخْتيرَ المضارعُ في قولِه: ﴿يَلْمِزُونَ﴾، وقولِه: ﴿فَيَسْخَرُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على تَكرُّر هذا منهم(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٤٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٧٨).
(٣) يُنظر: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٥٦٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٨٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٧٥).

- قولُه: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إيرادُ الجُمْلةِ اسْميَّةً؛ للدَّلالةِ على الاسْتِمرارِ، وتَنوينُ العذابِ وصِفتِه ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ للتَّهويلِ والتَّفخيمِ[1].

٢- قوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾

- قولُه: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ الأَمْرُ فيه مُبالَغةٌ في الإياسِ[2]، وتصويرُهُ بصورةِ الأَمْرِ للمُبالَغةِ في بيانِ اسْتِوائِهما، كأنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أُمِرَ بامْتِحانِ الحالِ بأنْ يَسْتغفِرَ تارةً، ويَتْرُكَ أُخْرى؛ ليَظْهَرَ له جليةُ الأَمْرِ، كما في قولِه تعالى: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ﴾[3] [التوبة: ٥٣].

- وقولُه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾ بيانٌ للعِلَّةِ التي لأجْلِها لا يَنْفَعُهم اسْتِغفارُ الرَّسولِ لهم، وإنْ بَلَغَ سَبْعينَ مَرَّةً، وهي كُفْرُهم وفِسْقُهم[4].

- قولُه: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ تَذييلٌ مُؤكِّدٌ لِما قَبْلَهُ مِنَ الحُكْمِ؛ فإنَّ مَغْفرةَ الكافِرِ إنَّما هي بالإقلاعِ عَنِ الكُفْرِ، والإقبالِ إلى الحَقِّ، والمُنْهمِكُ فيه المطبوعُ عليه بمَعْزِلٍ مِن ذلك[5].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٧١).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٧٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٧).

الآيتان (٨١-٨٢)

﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿الْمُخَلَّفُونَ﴾: أي: الذين تخلَّفوا عن غزوةِ تبوكَ، وأصلُ (خلف): يدلُّ على مجيءِ شَيءٍ بعد شيءٍ، وقيامِه مَقامَه [١].

﴿خِلَافَ﴾: أي: بعدَ، أو مُخالِفينَ [٢].

المَعنى الإجماليُّ:

يخبِرُ اللهُ تعالى أنَّ المنافقينَ الذين ترَكَهم اللهُ، ولم يوفِّقْهم للجهادِ، فَرِحوا بقُعودِهم بعد خروجِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى تَبوكَ، مُخالفينَ أمْرَه بالنُّهوضِ للجِهادِ، وكَرِهوا أن يُجاهِدوا الكفَّارَ بأموالِهم وأنفُسِهم؛ لنُصرةِ دينِ اللهِ، وإعلاءِ كَلِمتِه، وقال بعضُهم لبعضٍ: لا تخرُجوا مع المُسلمينَ إلى تَبوكَ لِغَزوِ الرُّومِ في شدَّةِ الحَرِّ، فأمر اللهُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يقولَ لهم: إنَّ نارَ جهنَّمَ أشَدُّ حرًّا، لو كان يفهمونَ عن اللهِ، ويعقلونَ كَلامَه.

فلْيَضحكِ المُنافقونَ قليلًا في هذه الدُّنيا الزَّائلةِ، ولْيَبكوا في الآخرةِ الأبديَّةِ كثيرًا في نار جهنَّمَ؛ جزاءً من اللهِ بسبَبِ ما كانوا يعملونَه في الدُّنيا، من الكُفرِ والنِّفاقِ والمعاصي.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢١٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٧).

تَفسيرُ الآيتين:

﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى ما ظهَرَ مِن النِّفاقِ والهُزءِ من الذين خَرَجوا معه إلى غزوةِ تَبوكَ مِن المُنافقين؛ ذكرَ حالَ المُنافِقينَ الذين لم يَخرُجوا معه، وتخلَّفوا عن الجهادِ، واعتَذَروا بأعذارٍ وعِلَلٍ كاذبةٍ، حتى أذِنَ لهم، فكشفَ اللهُ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن أحوالِهم، وأعلَمَه بسوءِ فِعالِهم[1].

وأيضًا لَمَّا علَّلَ سُبحانَه عدَمَ المَغفِرةِ للمُنافِقينَ بفِسقِه؛ علَّلَ رُسوخَهم في الفِسقِ[2].

وأيضًا مُناسبةُ وُقوعِها في هذا الموضِعِ أنَّ فَرَحَ المنافقينَ بتخَلُّفِهم قد قوِيَ لَمَّا استغفَرَ لهم النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وظنُّوا أنَّهم استغفَلوه فقَضَوا مَأرَبَهم، ثمَّ حَصَّلوا الاستغفارَ؛ ظنًّا منهم أنَّ مُعاملةَ اللهِ إيَّاهم تجري على ظواهِرِ الأمورِ[3].

﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾.

أي: فَرِحَ المُنافِقونَ- الذين تَرَكَهم اللهُ، ولم يُوفِّقْهم للجهادِ- بقُعودِهم بعد خروجِ رَسولِ اللهِ إلى تَبوكَ؛ مخالفةً منهم لأمْرِه بالنُّهوضِ للجِهادِ[4].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٧٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٥٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٠٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٧٤ - ٥٧٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٥، ٦٦)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) =

﴿وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

أي: وكَرِهَ هؤلاءِ المُنافِقونَ أن يجاهِدوا الكفَّارَ ببَذلِ أموالِهم، وغَزْوِهم بأنفُسِهم لنُصرةِ دِينِ اللهِ سبحانَه، وإعلاءِ كَلِمتِه تعالى[1].

﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ﴾.

أي: وقال المُنافِقونَ بعضُهم لبعضٍ: لا تَخرجُوا مع المسلمينَ إلى تبوكَ؛ لِغَزوِ الرُّومِ في وَقتِ شدَّةِ الحرِّ[2].

﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾.

أي: قلْ- يا محمَّدُ- للمُنافِقينَ الذين يتعلَّلونَ عن الجهادِ بسبَبِ شِدَّةِ الحَرِّ: نارُ جهنَّمَ التي يدخُلُها في الآخرةِ مَن خالف أمْرَ اللهِ، وعَصى رسولَ اللهِ- أشَدُّ حرارةً مِن حَرِّ الدُّنيا الذي لا تريدونَ النَّفرَ فيه، فاتَّقوها بالجهادِ[3].

= (٢/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٤١، ٤٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٠).

قال القرطبي: (المخَلَّفُ: المَتروكُ، أي: خلَّفَهم اللهُ وثبَّطَهم، أو خلَّفهم رسولُ الله والمؤمنونَ لَمَّا عَلِموا تثاقُلَهم عن الجهادِ: قولان، وكان هذا في غزوةِ تَبوكَ). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٠٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٥)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨١).

قال ابنُ جرير: (كَرِه هؤلاءِ المخلَّفونَ أن يغزُوا الكفَّارَ بأموالِهم وأنفُسِهم في سبيلِ الله...؛ ميلًا إلى الدَّعةِ والخَفضِ، وإيثارًا للرَّاحةِ على التعبِ والمشقَّة، وشُحًّا بالمالِ أن يُنفِقوه في طاعةِ اللهِ). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٠٣).

وقال الرازي: (كَرِهَ الخُروجَ إلى الغزوِ؛ لأنَّه تعريضٌ للمالِ والنَّفسِ للقَتلِ والإهدارِ). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٠٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٧٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٠٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢١٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٨٩، ١٩١).

وقال ابن تيمية: (عاب اللهُ عزَّ وجلَّ المُنافقين الذين يتعلَّلون بالعوائِقِ، كالحرِّ والبرد. فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ =

﴿لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾.

أي: لو كان هؤلاء المُنافقون يفهمونَ عن اللهِ تعالى، ويعقِلونَ كَلامَه، لَنَفَرُوا مَعَ الرَّسُولِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فِي الْحَرِّ؛ لِيَتَّقوا به حَرَّ جهنَّمَ، الَّذي هو أضعافُ أضعافِ هذا، ولما فرُّوا مِن المشقةِ الخفيفةِ المنقضيةِ، إلى المشقَّةِ الشديدةِ الدائمةِ(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((نارُكم هذه التي يوقِدُ ابنُ آدمَ- جُزءٌ مِن سبعينَ جُزءًا مِن حَرِّ جهنَّمَ، قالوا: واللهِ إن كانت لَكافيةً يا رسولَ اللهِ! قال: فإنَّها فُضِّلَت عليها بِتسعةٍ وسِتِّينَ جُزءًا، كلُّها مثلُ حَرِّها))(٢).

وعن النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: سمعتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّ أهونَ أهلِ النَّارِ عذابًا يومَ القيامةِ لَرَجلٌ تُوضَعُ في أخمَصِ(٣) قَدَميه جَمرتانِ، يغلي مِنهما دماغُه))(٤).

= ﴿وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ وهكذا الذين يقولونَ: لا تنفِروا في البَردِ، فيقال: نارُ جهنَّمَ أشَدُّ بردًا، كما أخرجاه في الصَّحيحينِ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: ((اشتكَتِ النَّارُ إلى ربِّها، فقالت: ربِّي أكلَ بَعضي بعضًا، فأذِنَ لها بنفَسَينِ: نفسٍ في الشِّتاءِ، ونَفَسٍ في الصَّيفِ؛ فأشَدُّ ما تجِدونَ مِن الحرِّ والبَردِ، فهو من زَمهريرِ جهنَّمَ))). ((مجموع الفتاوى)) (٢٨/ ٤١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٨٩، ١٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٦).

قال ابن جرير: (ولكنَّهم لا يفقهونَ عن الله، فهم يحذَرونَ مِن الحرِّ أقلَّه مَكروهًا وأخفَّه أذًى، ويوافِقونَ أشدَّه مَكروهًا وأعظَمَه على من يَصلاه بلاءً). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٠٣).

(٢) رواه البخاري (٣٢٦٥)، ومسلم (٢٨٤٣) واللفظ له.

(٣) الأخمَصُ: باطِنُ القَدَمينِ الذي لا يَصِلُ إلى الأرضِ عند المَشيِ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٩/ ٣٢٣).

(٤) رواه البخاري (٦٥٦١)، ومسلم (٢١٣) واللفظ له.

وعن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إنَّ أدنى أهلِ النَّارِ عذابًا، ينتعِلُ بنَعلَينِ مِن نارٍ، يغلي دماغُه من حرارةِ نَعلَيه))(١).

ثُمَّ قال اللَّهُ جلَّ جلالُه، مُتوَعِّدًا لهؤلاءِ المنافِقينَ على صَنيعِهم هذا(٢):

﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا ﴾.

أي: فلْيضحَكِ المُنافِقونَ قليلًا في هذه الدُّنيا الزَّائلةِ، ولْيَبكوا في الآخرةِ الأبديَّةِ كَثيرًا، في نارِ جهنَّمَ(٣).

﴿ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾.

أي: فسَيبكي المُنافِقونَ كثيرًا في الآخرةِ؛ جزاءً مِن اللهِ لهم بسبَبِ ما كانوا يعمَلونَه في الدُّنيا من الكُفرِ والنِّفاقِ والمعاصي(٤).

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ إشارةٌ إلى أنَّه ينبغي لِمَن لا يصبِرُ على حرِّ الشَّمسِ في الدُّنيا أنْ يجتَنِبَ من الأعمالِ ما يَستوجِبُ به صاحبُه دُخولَ النَّارِ؛ فإنَّه لا قوَّةَ لأحدٍ عليها ولا صبْرَ(٥).

---

(١) رواه مسلم (٢١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٠٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٦).

قال الرازي: (معنى الآية: أنَّهم وإن فَرِحوا وضَحِكوا في كلِّ عُمرِهم فهذا قليلٌ؛ لأنَّ الدُّنيا بأسرِها قليلةٌ، وأمَّا حَزَنُهم وبكاؤُهم في الآخرةِ فكثيرٌ؛ لأنَّه عقابٌ دائمٌ لا ينقطِعُ، والمنقطِعُ بالنسبةِ إلى الدائمِ قَليلٌ). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٠٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٨٥)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٢).

(٥) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٣٢١).

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ قولُه: ﴿الْمُخَلَّفُونَ﴾ لفظٌ يقتضي تحقيرَهم، وأنَّهم الذين أبعَدَهم اللهُ مِن رِضاه، وهذا أمكَنُ في هذا مِن أن يُقالَ (المتخَلِّفون)، ولم يفرَحْ إلَّا مُنافِقٌ، فخرج من ذلك الثلاثةُ الذين خُلِّفوا، وتاب اللهُ عليهم، وأصحابُ العُذرِ[(١)].

٢- قال الله تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ ذِكرُ فَرَحِهم دَلالةٌ على نفاقِهم؛ لأنَّهم لو كانوا مؤمنينَ لكان التخلُّفُ نَكدًا عليهم ونَغصًا، كما وقعَ للثَّلاثةِ الذين خُلِّفوا فتاب اللهُ عليهم[(٢)].

٣- مِن نُكتةِ اختيارِ لَفْظِ ﴿خِلَافَ﴾ دُونَ (خَلْفَ)- معَ أنَّ (خِلاف) لغةٌ في خَلْف- أنَّه يُشيرُ إلى أنَّ قُعودَهم كان مُخالفةً لإرادةِ رَسولِ اللهِ، حين استنفَرَ النَّاسَ كُلَّهم للغَزوِ[(٣)].

٤- قال الله تعالى: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ المؤمِنُ يَدفَعُ- بِصَبرِه على الحرِّ والبَردِ في سَبيلِ اللهِ- حرَّ جهنَّمَ وبَردَها؛ والمنافِقُ يفِرُّ مِن حرِّ الدُّنيا وبَرْدِها، حتى يقعَ في حرِّ جهنَّمَ وزَمهريرِها[(٤)].

بلاغةُ الآيتَين:

١- قَولُه تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ..﴾ هذه الآيةُ تَقْتضي التَّوبيخَ والوعيدَ، ولَفْظةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤١٩).

﴿الْمُخَلَّفُونَ﴾ تَقْتضي الذَّمَ والتَّحقيرَ(١)، وهذا فيه اسْتِجهالٌ لهم؛ لأنَّ مَنْ تَصوَّنَ مِنْ مَشقَّةِ ساعةٍ، فوَقَعَ بذَلِكَ التَّصونِ في مَشقَّةِ الأَبَدِ، كان أَجْهلَ مِنْ كُلِّ جاهلٍ(٢)، فأظهَرَ الوصفَ بالتخَلُّفِ ﴿الْمُخَلَّفُونَ﴾ موضِعَ الضَّميرِ (فَرِحوا)؛ زيادةً في تهجينِ ما رَضُوا به لأنفُسِهم(٣).

– وقال: ﴿وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا﴾، ولم يَقُلْ: (وكَرِهوا أنْ يَخْرجوا إلى الغزوِ)؛ إيذانًا بأنَّ الجِهادَ في سَبيلِ اللهِ- مَعْ كونِهِ مِنْ أَجَلِّ الرَّغائبِ، وأَشْرفِ المطالِبِ التي يَجِبُ أنْ يَتنافَسَ فيها المتنافِسونَ- قد كَرِهوهُ، كما فَرِحوا بأقبحِ القبائحِ، الذي هو القُعودُ خِلافَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم(٤).

– وفي قولِه: (فَرِحَ وكَرِهوا) مُقابَلةٌ مَعنويَّةٌ؛ لأنَّ الفَرَحَ مِن ثَمَراتِ المَحبَّةِ(٥).

– والفَرَحُ بالإقامةِ يدُلُّ على كراهةِ الذَّهابِ؛ إلَّا أنه تعالى أعاده للتأكيدِ(٦).

– وفي قولِه: ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ تنويهٌ بالمؤمنينَ، وبتحمُّلِهم المشاقَّ العظيمةَ لوَجْهِ اللهِ تعالى، وبما فَعَلوا مِنْ بَذْلِ أموالِهم وأرواحِهم في سَبيلِ اللهِ تعالى، وإيثارِهم ذلك على الدَّعةِ والخَفْضِ(٧).

– قولُه: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ خَبَرٌ مُسْتَعملٌ في التَّذكيرِ بما هو مَعْلومٌ- لأنَّ كونَ نارِ جَهنَّمَ أشدَّ حرًّا مِنْ حَرِّ القيظِ أَمْرٌ مَعلومٌ، لا يتعلَّقُ الغرضُ بالإخبارِ عنه-؛ تعريضًا بتجهيلِهم؛ لأنَّهم حَذِروا مِنْ حَرٍّ قليلٍ، وأَقْحَموا

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٧٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٩٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٧٥).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٥٦١).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٧٤).
(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١٣).
(٧) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٩٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٧٤).

أَنْفُسَهم فيما يَصيرُ بِهم إلى حَرٍّ أَشَدَّ، فيكونُ هذا التَّذكيرُ كِنايةً عَنْ كونِهم واقعينَ في نارِ جَهنَّمَ؛ لأَجْلِ قُعودِهم عَنِ الغزوِ في الحَرِّ[١].

- وجُمْلةُ: ﴿لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ تَتميمٌ للتَّجهيلِ والتَّذكيرِ، أي: يُقالُ لهم ذلك لو كانوا يَفْقهونَ الذِّكرى، ولكِنَّهُمْ لا يَفْقهونَ، فلا تُجْدي فيهم الذِّكرى والموعظةُ[٢]، وهذه الجملةُ أيضًا اعْتِراضٌ تذييليٌّ مِنْ جِهتِه سُبْحانَه وتعالى غيرُ داخلٍ تَحْتَ القولِ المأمورِ بِه، وهو مُؤكِّدٌ لِمَضمونِه[٣]، ولَفْتُ الكلامِ إلى الغَيبةِ يدُلُّ على أنَّ أعظَمَ المُرادِ بهذا الوَعظِ ضُعَفاءُ المُؤمنينَ؛ لئلَّا يتشبَّهوا بهم طَمعًا في الحِلمِ[٤].

٢- قوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ إخبارٌ عمَّا يؤولُ إليهِ حالُهم في الدُّنيا والآخِرةِ، أي: فسَيَضْحكونَ قليلًا، ويبكونَ كثيرًا؛ إلَّا أنَّه أَخْرَجَه على صِيغةِ الأَمْرِ؛ للدَّلالةِ على أنَّه حَتْمٌ واجِبٌ، لا يكونُ غيرُه، وعلى تَحتُّمِ وقوعِ المُخبَرِ به؛ فإنَّ أَمْرَ الآمرِ المُطاعِ ممَّا لا يَكادُ يتخلَّفُ عنه المأمورُ[٥].

- ويَجوزُ أن يكونَ (الضَّحِك) كنايةً عَنِ الفَرَحِ، و(البُكاء) كِنايةً عَنِ الغَمِّ[٦].

- قولُه: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ فيه الجَمْعُ بين صِيغتَي الماضي والمُسْتقبَلِ ﴿كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على الاسْتِمرارِ التَّجدُّدي ما داموا في الدُّنيا[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٨).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٥٦٢-٥٦٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٩٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٩).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٨٣-٨٥)

﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿الْخَالِفِينَ﴾: المتخلِّفين[1] بعدَ القومِ، أو المتخلِّفينَ لعذرٍ، كالنساءِ والأطفالِ والعَجزةِ وأهلِ الأعذارِ، والخالفُ: المتأخِّر لنقصانٍ أو قصورٍ، ومَن يَخْلُف الرجلَ في مالِه وبيتِه، وقيل: الخالفُ: الفاسدُ، مِن: خَلَف، أي: فَسَد[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى لنبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنْ ردَّك اللهُ تعالى مِن غَزوةِ تَبوكَ إلى جماعةٍ مِن هؤلاء المُنافِقينَ الذين تخَلَّفوا عنك في المدينةِ بلا عُذرٍ، فاستأذَنوك للخُروجِ معك للجِهادِ في غزوةٍ أخرى؛ فقل لهم: لن تخرُجوا معيَ أبدًا، ولن تقاتِلوا معيَ عدُوًّا؛ وذلك لأنَّكم رَضِيتُم بالتخَلُّفِ عن الجهادِ، حين دُعيتُم أوَّلَ مَرَّةٍ للخُروجِ مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى تَبوكَ، فاقعُدوا مع المتخَلِّفينَ عن الجهادِ.

(١) قال الألوسي: (وتفسيرُ الخالفِ بالمتخلِّفِ هو المأثورُ عن أكثرِ المفسِّرين السَّلفِ). ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣٤١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٩٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٧).

ثم ينهَى اللهُ نبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يصلِّيَ على أيٍّ أحدٍ مِن هؤلاء المُنافِقينَ إذا مات، أو يقِفَ على قَبرِه، لأنَّهم كَفَروا باللهِ ورَسولِه، وماتوا وهم فاسِقونَ.

وينهاه أيضًا عن أن يستحسِنَ أموالَهم وأولادَهم، فيغتَرَّ بها؛ فاللهُ تعالى إنَّما يريدُ أن يعذِّبَهم بها في الدُّنيا، وأن تَخرُجَ أرواحُهم وهم مستمِرُّون على كُفرِهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ (٨٣) ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ الله تعالى مَخازِيَ المُنافِقينَ، وسُوءَ طَريقَتِهم؛ بيَّنَ أنَّ الصَّلاحَ في ألَّا يستصحِبَهم في غزَواتِه؛ لأنَّ خُروجَهم معه يُوجِبُ أنواعًا من الفسادِ[1].

وأيضًا لما قال الله تعالى: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ...﴾ فُرِّع على الغضبِ عليهم وتهديدِهم عقابٌ آخرُ لهم، بإبعادِهم عن مشاركةِ المسلمين في غزواتِهم[2].

وأيضًا لَمَّا كان المسرورُ بشيءٍ، الكارِهُ لضِدِّه، النَّاهي عنه؛ لا يفعَلُ الضِّدَّ إلَّا تكلُّفًا، ولا قَلْبَ له إليه، وكان هذا الدِّينُ مَبنيًّا على العِزَّةِ والغِنى؛ أتبَعَ ذلك بقَولِه مُسبِّبًا عن فَرَحِهم بالتخَلُّفِ[3]:

﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ ﴾.

أي: فإن أرجَعَك اللهُ وردَّك- يا مُحمَّدُ- من غزوةِ تَبوكَ، إلى جماعةٍ من

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٢).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٥٦٤).

هؤلاءِ المُنافِقينَ- الذين تخلَّفوا عنك في المدينةِ بغَيرِ عُذرٍ، وفَرِحوا بذلك- فاستأذَنوك للخُروجِ معك للجِهادِ في غزوةٍ أُخرَى[1].

﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا﴾.

أي: فقُل- يا مُحمَّدُ- عقوبةً لهم: لن تَصحبوني أبدًا في أيِّ سَفرٍ؛ للجِهادِ، ولا لغَيرِه، كالنُّسُك، ولن تُقاتِلوا معيَ عدُوًّا من الأعداءِ أبدًا[2].

كما قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ [الفتح: ١٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٠٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٢، ٢٨٣).
قال ابن عاشور: (المرادُ بالطَّائفةِ هنا جماعةٌ من المخَلَّفينَ، دلَّ عليها قَولُه: ﴿فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ أي: إلى طائفةٍ منهم يبتغونَ الخُروجَ للغَزوِ، فيجوزُ أن تكونَ هذه الطائفةُ من المُنافقين أرادوا الخروجَ للغَزوِ؛ طمعًا في الغنيمةِ أو نحو ذلك. ويجوز أن تكونَ طائفةٌ مِن المخلَّفينَ تابوا وأسلموا، فاستأذنوا للخُروجِ للغَزْوِ. وعلى الوجهينِ يحتملُ أنَّ مَنْعَهم مِن الخروجِ للخَوفِ مِن غَدرِهم إن كانوا مُنافقينَ، أو لمجرَّد التأديبِ لهم إن كانوا قد تابُوا وآمنوا). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٠٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٧٩)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٤٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٦).
قال محمد رشيد رضا: (﴿وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ مِنَ الأعداء بِصفةٍ ما، لا بالخروجِ والسَّفَرِ إليهم، ولا بغيرِ ذلك؛ كأن يُهاجِموا المؤمنينَ في عاصِمَتِهم، كما فعلوا يومَ الأحزابِ مَثَلًا، فكلٌّ مِن الخروجِ المُطلَقِ الذي حُذِفَ مُتعَلَّقُه، والقتالِ الذي ذُكِرَ مُتعَلَّقُه، نكرةٌ منفيَّةٌ عامةٌ، فيَصْدُقانِ بكلِّ خُروجٍ، وكلِّ قتالٍ لعدوٍّ في أي مكانٍ، وقد يكون كلٌّ منهما بدونِ الآخَرِ، فبينهما عمومٌ وخصوص مُطلَق، وقد غفَل عن هذا مَن غفَل من المفسِّرين، فزعموا أنَّ الثانيَ تأكيدٌ للأوَّلِ). ((تفسير المنار)) (١٠/ ٤٩٣).

﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

أي: وذلك لأنَّكم رَضِيتُم - أيُّها المُنافِقونَ - بالتخلُّفِ عن الجهادِ، حين دُعيتُم أوَّلَ مرَّةٍ للخروجِ مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى تَبوكَ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾.

أي: فاقعُدوا - أيُّها المنافقونَ - مع المتخَلِّفينَ عن الجهادِ، من الأشرارِ الفاسدينَ الذين تخلَّفوا بغيرِ عُذرٍ، ومن المَعذُورينَ مِن المَرضى والضُّعَفاءِ، والنِّساءِ والصِّبيانِ(٢).

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ الله تعالى أَمَرَ رَسولَه بأن يسعى في تخذيلِ المُنافِقينَ، وإهانَتِهم وإذلالِهم، فالذي سبق ذِكرُه في الآيةِ الأولى - وهو مَنْعُهم من الخروجِ معه إلى الغَزَواتِ -

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٠٨)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٠٨ - ٦١٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٨٢)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٧٦)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١٤، ١١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٩٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٤٢، ٤٤٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٩٣).
قال ابنُ جريرٍ: (أُريدَ به: فاقعُدوا معَ مرضَى الرِّجالِ وأهلِ زَمانَتِهم والضُّعفاءِ مِنهم والنِّساءِ... ولو وُجِّه معنَى ذلك إلى: فاقعُدوا معَ أهلِ الفسادِ، من قولِهم: خَلَفَ الرِّجالُ عن أهلِه يَخْلُفُ خُلُوفًا، إذا فَسَد، ومِن قولِهم: هو خَلَفُ سُوءٍ، كان مذهبًا). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٠٩ - ٦١٠).

سببٌ قويٌّ من أسبابِ إذلالِهم وإهانتِهم، وهذا الذي ذكَرَه في هذه الآيةِ- وهو مَنعُ الرَّسولِ من أن يصلِّيَ على من مات منهم- سببٌ آخَرُ قويٌّ في إذلالِهم وتَخذيلِهم(١).

وأيضًا لَمَّا انقضى الكلامُ على الاستغفارِ للمُنافقينَ، النَّاشئِ عن الاعتذارِ والحَلِف الكاذِبَينِ، وكان الإعلامُ بأنَّ اللهَ لا يغفِرُ لهم، مَشُوبًا بصورةِ التَّخييرِ في الاستغفارِ لهم، وكان ذلك يُبقي شيئًا مِن طَمَعِهم في الانتفاعِ بالاستغفارِ؛ لأنَّهم يحسَبونَ المعامَلةَ الرَّبانيَّةَ تجري على ظواهِرِ الأعمالِ والألفاظِ- تهيَّأ الحالُ للتَّصريحِ بالنَّهيِ عن الاستغفارِ لهم، والصَّلاةِ على موتاهم(٢)، فقال تعالى:

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا ﴾.

سبَبُ النُّزولِ:

عن ابنِ عبَّاسٍ، عن عُمرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ الله عنهم، أنَّه قال: ((لَمَّا مات عبدُ الله بنُ أُبَيٍّ ابنُ سلولَ، دُعِيَ له رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ليُصَلِّيَ عليه، فلمَّا قام رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وثَبْتُ إليه، فقلتُ: يا رسولَ الله، أتُصلِّي على ابنِ أُبيٍّ، وقد قال يومَ كذا وكذا: كذا وكذا؟! أعَدِّدُ عليه قَولَه، فتبسَّمَ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقال: أخِّرْ عنِّي يا عُمرُ، فلمَّا أكثَرْتُ عليه، قال: إنِّي خُيِّرتُ فاختَرتُ، لو أعلَمُ أنِّي إن زدْتُ على السَّبعينَ يُغفَرْ له لَزِدْتُ عليها. قال: فصلَّى عليه رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ثم انصرَفَ، فلم يمكُثْ إلَّا يسيرًا، حتى نزَلَت الآيتانِ مِن براءةَ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٤).

قال: فعَجِبْتُ بعدُ مِن جُرأتي على رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومَئذٍ، واللهُ ورسولُه أعلَمُ))(١).

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾.

أي: ولا تُصَلِّ- يا مُحمَّدُ- على أحدٍ من هؤلاءِ المُنافِقينَ إذا مات، أبدًا(٢).

عن أبي قَتادةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كان رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا دُعِيَ لِجنازةٍ سأل عنها، فإن أُثنِيَ عليها خيرًا، قام فصلَّى عليها، وإن أُثنِيَ عليها غيرَ ذلك، قال لأهلِها: شأنَكم بها، ولم يُصَلِّ عليها))(٣).

﴿ وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓ ﴾.

أي: ولا تَقُم- يا مُحمَّدُ- على قبرِ أحدٍ مِن هؤلاء المُنافِقينَ؛ لِتَولِّي دَفنِه، والاستغفارِ والدُّعاءِ له(٤).

---

(١) تقدَّم تخريجُه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٤).

قال ابن جرير: (يقولُ جلَّ ثناؤه لنبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ولا تُصَلِّ- يا محمَّدُ- على أحدٍ مات من هؤلاء المنافقينَ الذين تخلَّفوا عن الخُروجِ معك أبدًا). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦١٠).

وقال ابن كثير: (هذا حكمٌ عامٌّ في كلِّ مَن عُرِفَ نِفاقُه، وإن كان سببُ نزولِ الآيةِ في عبدِ الله بنِ أُبيِّ ابنِ سلولَ؛ رأسِ المنافقينَ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٩٣). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٤/ ٢٨٥، ٢٨٧).

(٣) أخرجه أحمد (٢٢٥٥٥)، والطيالسي (٦٢٩)، وابن حبان (٣٠٥٧)، والحاكم في ((المستدرك)) (١٣٤٨).

قال المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (٤/ ٢٦٥)، والهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٣/ ٦): رجالُه رجالُ الصحيح، وقال ابنُ حجرٍ، كما في ((الفتوحات الربانية)) لابن علان (٤/ ٢١٠): صحيحٌ غريبٌ، وصحَّحه الألباني في ((صحيح الترغيب)) (٣٥١٧)، والوادعي في ((الفتاوى الحديثية)) (١/ ٤٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦١٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٨٤)، ((تفسير =

﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

أي: لا تُصَلِّ على المُنافقينَ إذا ماتوا، ولا تقُمْ على قُبورِهم؛ لأنَّهم كَفروا باللهِ سُبحانه، وكَفَروا برَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم(١).

﴿وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

أي: وماتوا وهم خارِجونَ عن الإيمانِ، وطاعةِ الرَّحمنِ(٢).

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٨٥)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى ما يدلُّ على شَقاوةِ المُنافقين في الحياةِ الآخرةِ، كان ذلك قد يُثيرُ في نفوسِ النَّاسِ أنَّ المنافقين حصَّلوا سعادةَ الحياةِ الدُّنيا، بكثرةِ الأموالِ والأولادِ، وخَسِروا الآخرةَ. وربَّما كان في ذلك حَيرةٌ لبعضِ المُسلمين أن يقولوا: كيف منَّ الله عليهم بالأموالِ والأولادِ، وهم أعداؤه وبُغَضاءُ نبيِّه. وربَّما كان في ذلك أيضًا مَسلاةٌ لهم بين المُسلمين، فأعلَمَ اللهُ المُسلِمينَ أنَّ تلك الأموالَ والأولادَ- وإن كانت في صورةِ النِّعمةِ- فهي لهم نِقمةٌ وعذابٌ، وأنَّ اللهَ عذَّبهم بها في الدُّنيا(٣)، فقال تعالى:

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ﴾.

=ابن كثير)) (٤/ ١٩٢، ١٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦١٠)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٦).

أي: ولا تَستحسِنْ - يا مُحمَّدُ - أموالَ المُنافِقينَ وأولادَهم، ممَّا أنعَمْنا عليهم؛ استدراجًا لهم(١).

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنۡيَا﴾.

أي: إنَّما يريدُ اللهُ أن يعذِّبَ المُنافقينَ بأموالِهم وأولادِهم في حياتِهم الدُّنيا، بالهُمومِ والغُمومِ، بأخذِ الزَّكاةِ منهم، وبما أُلزِموا بالإنفاقِ فيه، وبما يعتري أموالَهم وأولادَهم من مصائِبَ وتعبٍ في جمعِ الأموالِ، ووَجَلٍ في حِفظِها، وخوفٍ مِن زَوالِها، وغَيرِ ذلك(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٣١].

وقال سبحانه: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون:٥٥-٥٦].

وعن زيدِ بنِ ثابتٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَن كانت الدُّنيا همَّه، فرَّقَ اللهُ عليه أمْرَه، وجعَلَ فَقرَه بين عينَيه، ولم يأتِه مِن الدُّنيا إلَّا ما كُتِبَ له، ومَن كانت الآخرةُ نيَّتَه، جمَعَ اللهُ له أمْرَه، وجعَل غِناه في قَلبِه، وأتَتْه الدُّنيا وهي راغمةٌ))(٣).

---

(١) تقدم نظيرها في الآية (٥٥) من هذه السورة.
قال ابن عطية: (الخطابُ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمرادُ أمَّتُه؛ إذ هو - بإجماعٍ - ممَّن لا تفتِنُه زخارِفُ الدُّنيا، ويحتمل أن يكونَ معنى الآية: ولا تُعجِبْك أيُّها الإنسانُ، والمرادُ الجِنسُ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦١٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٠٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (٤/ ٣٠٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٧).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤١٠٥)، والطيالسي في ((المسند)) (٦١٧)، وابن حبان في ((الصحيح)) (٦٨٠). =

﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

أي: ويريدُ اللهُ أن تَخرُجَ أرواحُ المُنافِقينَ مِن أجسادِهم، وهم مُقيمونَ على كُفرِهم[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- إنَّ الدَّعَواتِ في حاجةٍ إلى طبائِعَ صُلبةٍ مُستقيمةٍ، ثابتةٍ مُصَمِّمةٍ، تصمُدُ في الكِفاحِ الطَّويلِ الشَّاقِّ. والصَّفُّ الذي يتخلَّلُه الضِّعافُ المُستَرخونَ لا يَصمُدُ؛ لأنَّهم يَخذُلونَه في ساعةِ الشِّدَّةِ، فيُشيعونَ فيه الخِذلانَ والضَّعفَ والاضطرابَ، فالذين يَضعُفونَ ويتخَلَّفونَ يجِبُ نَبذُهم بعيدًا عن الصَّفِّ؛ وقايةً له من التخلخُلِ والهزيمةِ. والتَّسامُحُ مع الذين يتخلَّفونَ عن الصَّفِّ في ساعةِ الشدَّةِ، ثم يعودونَ إليه في ساعةِ الرَّخاءِ؛ جِنايةٌ على الصفِّ كُلِّه، وعلى الدَّعوةِ التي يُكافِحُ في سبيلِها كِفاحَه المريرَ؛ قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾[2].

٢- قال الله تعالى: ﴿فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ لا خِزيَ أعظَمُ مِن أن يكونَ إنسانٌ قد رفَضَه الشَّرعُ وردَّه، كالجَمَلِ الأجرَبِ[3].

٣- قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ

= قال ابنُ عبدِ البرِّ في ((التمهيد)) (٢١/ ٢٧٦): ثابتٌ، وجوَّد إسنادَه العراقي في ((تخريج الإحياء)) (٥/ ٨٨)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح ابن ماجه)) (٣٣٢٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦١٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٧).

قال ابن كثير: (ليكونَ ذلك أنكى لهم وأشَدَّ لعذابِهم، عياذًا باللهِ من ذلك، وهذا يكونُ مِن باب الاستدراجِ لهم فيما هم فيه). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٦٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٦).

فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّ الرجُلَ إذا ظهَرَ له من بعضِ مُتعلِّقيه مَكرٌ وخِداعٌ وكيدٌ، ورآه مُشَدِّدًا فيه مُبالغًا في تقريرِ مُوجِباتِه، فإنَّه يجِبُ عليه أن يقطَعَ العُلقةَ بينه وبينه، وأن يحتَرِزَ عن مُصاحَبتِه[1].

٤- ينبغي الحذرُ مِن أمرينِ لهما عواقِبُ سُوءٍ:

أحدُهما: ردُّ الحَقِّ؛ لِمُخالفَتِه هواك؛ فإنَّك تُعاقَبُ بتَقليبِ القَلبِ، ورَدِّ ما يَرِدُ عليك مِن الحَقِّ رأسًا، ولا تَقبَلُه إلَّا إذا برَزَ في قالبِ هواك؛ قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠] فعاقَبَهم على ردِّ الحَقِّ أوَّلَ مَرَّةٍ بأنْ قَلَّبَ أفئِدَتَهم وأبصارَهم بعد ذلك.

والثاني: التَّهاونُ بالأمرِ إذا حضر وَقتُه؛ فإنَّك إن تهاونْتَ به ثبَّطَك الله وأقعَدَك عن مراضيه وأوامرِه؛ عقوبةً لك، قال تعالى: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ فمن سَلِمَ مِن هاتَينِ الآفتَينِ والبليَّتَينِ العظيمَتينِ، فلْيَهْنِه السَّلامةُ[2].

٥- المُتثاقِلُ المتخَلِّفُ عن المأمورِ به عند انتهازِ الفُرصةِ، لا يُوفَّقُ له بعدَ ذلك، ويُحالُ بينه وبينه؛ يُبيِّنُ ذلك قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾[3].

٦- إنَّ مِن جزاءِ السَّيِّئةِ السَّيِّئةَ بعدَها، كما أنَّ مِن ثوابِ الحسنةِ الحسنةَ بعدَها؛ لذا عَلَّلَ قولَه لهم: ﴿لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١٥).
(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ١٨٠، ١٨١).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٤٦).

بقولِه: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، وهذا كقولِه تعالَى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾(١) [الأنعام: ١١٠].

٧- إنَّ طُلَّابَ الدُّنيا ومُحِبِّيها ومُؤثِريها على الآخرةِ، يُعَذَّبونَ بها، فهم مُعذَّبونَ بالحِرصِ على تحصيلِها، والتَّعَبِ العظيمِ في جَمعِها، ومُقاساةِ أنواعِ المَشاقِّ في ذلك، فلا تجِدُ أتعَبَ ممَّن الدُّنيا أكبَرُ هَمِّه، وهو حريصٌ بجُهدِه على تحصيلِها، وهذا هو معنى تعذيبِهم بها، ومِن أبلَغِ العذابِ في الدُّنيا: تَشتيتُ الشَّملِ، وتفرُّقُ القُلوبِ، وكونُ الفَقرِ نُصبَ عَينَيِ العَبدِ لا يُفارِقُه، ولولا سَكرةُ عُشَّاقِ الدُّنيا بحُبِّها، لاستَغاثوا مِن هذا العذابِ! فمُحِبُّ الدُّنيا لا ينفَكُّ مِن ثلاثٍ: همٌّ لازمٌ، وتعَبٌ دائمٌ، وحَسرةٌ لا تنقضي. قال تعالى: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا﴾(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ هذه الآيةُ دَليلٌ على أنَّ مَن ظهَرَ منه نِفاقٌ وتَخذيلٌ، لا يجوزُ للإمامِ أن يستصحِبَه في الغَزوِ؛ اقتداءً برَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما أمَرَه اللهُ به، مِن مُباعَدتِهم عن الجَماعةِ التي تَصحَبُ في السَّفرِ، وتَنصُرُ على العَدُوِّ، مِن أهلِ الطَّاعةِ(٣).

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فِعلُ: ﴿رَضِيتُمْ﴾ يدلُّ على أنَّ ما ارتكَبوه من القُعودِ عمَلٌ مِن شأنِه أن يأباه النَّاسُ حتى أُطلِقَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٣٦).

(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢١٨).

على ارتكابِه فِعلُ (رَضِيَ) المُشعِرُ بالمحاولة والمُراوضة؛ جُعِلوا كالذي يحاوِلُ نَفسَه على عمَلٍ، وتأبى حتى يُرضِيَها، كَقولِه تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾(١) [التوبة: ٣٨].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُم مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ فيه تحريمُ الصَّلاةِ على الكافِرِ، والوقوفِ على قَبرِه، والدُّعاءِ له، والاستغفارِ(٢).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُم مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ فيه دليلٌ على مشروعيَّةِ الصَّلاةِ على المؤمنينَ، والوقوفِ عند قُبورِهم للدُّعاءِ لهم؛ فإنَّ تَقييدَ النَّهيِ بالمنافقينَ يدُلُّ على أنَّه قد كان مُتقرِّرًا في المؤمِنينَ(٣).

٥- قولُه تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُم مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ دليلٌ على انتفاعِ المقبورِ بوقوفِ مَن يقفُ عنده مِن الدَّاعينَ؛ إذْ كلُّ ما مُنِعَ منه رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم في هذه الآيةِ هي عقوبةٌ للمقبورِ لا محالةَ(٤).

٦- مَن كان مُظهِرًا للإسلامِ؛ فإنَّه تجري عليه أحكامُ الإسلامِ الظَّاهرةُ: مِن المُناكَحة والمُوارَثةِ، وتغسيلِه والصَّلاةِ عليه، ودَفنِه في مقابرِ المُسلمين ونحوِ ذلك؛ لكِن مَن عُلِمَ منه النِّفاقُ والزَّندقةُ، فإنَّه لا يجوزُ لِمَن عَلِمَ ذلك منه الصَّلاةُ عليه، وإن كان مُظهِرًا للإسلامِ؛ فإنَّ اللهَ نهى نبيَّه عن الصَّلاةِ على المُنافِقينَ. فقال: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُم مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٣).
(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٤٧)، ويُنظر أيضًا: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٥٦٤).
(٤) يُنظر: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٥٦٥).

وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ فكُلُّ مَن لم يُعلَمْ منه النِّفاقُ وهو مُسلِمٌ، يجوزُ الاستغفارُ له والصَّلاةُ عليه، بل يُشرَعُ ذلك ويُؤمَرُ به، كما قال تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾[(١)].

٧- قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ استدلَّ به على أنَّ الإمامَ إذا حضرَ جنازةً؛ فهو المُقَدَّمُ عليها في الصلاةِ دونَ الأولياءِ، كما تكونُ في سائرِ الصلاةِ؛ إذ لو كان الأولياءُ أحقَّ منه- كما يزعم مَن يقولُ: إنَّ الصلاةَ على الميتِ مِن الأمورِ الخاصةِ؛ فيتقدمُ الوليُّ عليه- كان النهيُ واقعًا على مَنْعِ وَلِيِّ عبدِ الله بنِ أُبَيٍّ ابنِ سلولَ، النازلِ فيه هذه الآيةُ، مِن الصلاةِ عليه، لا على النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم الذي هو الإمامُ[(٢)].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ لَمَّا ذكَرَ في تعليلِ هذا النهيِ كَونَه كافرًا، وصَفَه بعد ذلك بكونِه فاسقًا- مع أنَّ الفِسقَ أدنى حالًا مِن الكُفرِ- لأنَّ الكافِرَ قد يكونُ عَدلًا في دينِه، وقد يكونُ فاسقًا في دينِه خَبيثًا مَمقوتًا عند قَومِه، والكَذِبُ والنِّفاقُ والخِداعُ والمكرُ والكَيدُ، أمرٌ مُستقبَحٌ في جميعِ الأديانِ، فالمُنافِقونَ لَمَّا كانوا موصوفينَ بهذه الصِّفاتِ، وصَفَهم اللهُ تعالى بالفِسقِ بعد أن وصَفَهم بالكُفرِ؛ تَنبيهًا على أنَّ طريقةَ النِّفاقِ طَريقةٌ مَذمومةٌ عند كلِّ أهلِ العالَم[(٣)].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ تقدَّمَ نظيرُه في السورةِ، وأعيدَ هنا؛ لأنَّ أشدَّ الأشياءِ جَذبًا للقلوبِ، وجَلبًا للخواطِرِ إلى الاشتغالِ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٤/ ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٥٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١٦).

بالدُّنيا، هو الاشتغالُ بالأموالِ والأولادِ، وما كان كذلك يجِبُ التحذيرُ عنه مرَّةً بعد أخرى[١].

وقيل: وجهُ تكريرِها تأكيدُ هذا المعنى وإيضاحُه؛ لأنَّ النَّاسَ كانوا يُفتَنونَ بصلاحِ حالِ المُنافقينَ في دنياهم[٢].

وقيل: أُعيدَ ذلك؛ لأنَّ تجدُّدَ النُّزولِ له شأنٌ في تقريرِ ما نزَلَ له وتأكيدِه، وإرادة أن يكونَ على بالٍ مِن المخاطَبِ لا ينساه ولا يسهو عنه، وأن يعتقِدَ أنَّ العمَلَ به مهِمٌّ يفتقِرُ إلى فضلِ عنايةٍ به، لا سيَّما إذا تراخى ما بين النُّزولين. فأشبه الشَّيءَ الذي أهَمَّ صاحِبَه، فهو يرجِعُ إليه في أثناءِ حَديثِه، ويتخلَّصُ إليه. وإنَّما أعيدَ هذا المعنى لِقوَّتِه فيما يجِبُ أن يَحذَر منه[٣].

وقيل: ظاهِرُه أنَّه تكريرٌ، وليس بتكريرٍ؛ لأنَّ الآيتينِ في فَريقينِ مِن المنافقينَ، ولو كان تكريرًا لكان مع تباعُدِ الآيتينِ لِفائدةِ التَّأكيدِ والتَّذكيرِ[٤].

وقيل: أراد بالأُولى لا تُعَظِّمْهم في حالِ حياتهم بسبَبِ كَثرةِ المالِ والولَدِ، وبالثانيةِ لا تُعَظِّمهم بعد وفاتِهم لمانعِ الكُفرِ والنِّفاقِ[٥].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٧٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ﴾ فيه دُخولُ (إنْ) هنا- وهي للمُمكِنِ وقوعُه غالبًا-؛ إشارةً إلى أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يعلمُ بمُسْتقبلاتِ أَمْرِهِ مِنْ أَجَلٍ وغيرِهِ إلَّا أنْ يُعْلِمَه اللهُ[1].

- قولُه: ﴿فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ فيه مِن مَحاسِنِ البَلاغةِ: الانْتِقالُ بالنَّفيِ مِنَ الشَّاقِّ عليهم- وهو الخروجُ إلى الغُزاةِ- إلى الأشقِّ، وهو قِتالُ العَدوِّ؛ لأنَّه عُظمُ الجِهادِ، وثمرةُ الخروجِ، ومَوضِعُ بارقةِ السُّيوفِ التي تحتها الجَنَّةُ، ثُمَّ عَلَّلَ انْتِفاءَ الخروجِ والقِتالِ بكونِهِم رَضُوا بالقُعودِ أوَّلَ مَرَّةٍ، ورِضاهم ناشئٌ عن نِفاقِهم وكُفْرِهم وخِداعِهم، وعصيانِهم أمْرَ اللهِ في قولِهِ: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾، وقالوا هم: ﴿لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾؛ فعلَّلَ بالمُسبَّبِ، وهو الرِّضا النَّاشئُ عَنِ السَّببِ، وهو النِّفاقُ[2].

- وقَولُ الله تعالى: ﴿وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ إخبارٌ بمعنى النَّهيِ؛ للمُبالغةِ[3].

- وجُمْلةُ: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ مُستأنَفةٌ؛ للتَّعدادِ عليهم والتَّوبيخِ، أي: إنَّكُمْ تُحِبُّونَ القُعودَ، وتَرْضونَ به، فقد زِدْتُكم منه[4].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾

- قولُه: ﴿مَاتَ...﴾ و﴿وَمَاتُوا﴾ ماضٍ بمَعْنى المُسْتقبلِ؛ وإنَّما قيل: (مَاتَ)، و(ماتوا) بلَفْظِ الماضي- والمَعْنى على الاسْتِقبالِ- على تقديرِ الكونِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٧٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٤٧٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٦٣٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٣).

والوجودِ؛ لأنَّه كائنٌ موجودٌ لا محالةَ؛ فموتُهم غيرُ مَوجودٍ في حالِ التَّكلُّمِ ولا قَبْلَه، وإنَّما جِيءَ بصيغةِ الماضي؛ تَنْبيهًا على تَحقُّقِ وقوعِ الموتِ لا مَحالةَ(١).

- وجُمْلةُ: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ تعليلٌ للمَنْعِ مِنَ الصَّلاةِ والاسْتِغفارِ لهم، والقيامِ بما يَقْتضي الامْتِناعَ مِنْ ذلك، وهو الكُفْرُ والموافاةُ عليه(٢)؛ فهي تعليليَّةٌ للنَّهي ﴿وَلَا تُصَلِّ...﴾؛ ولِذَلِكَ لَمْ تُعْطَفْ، وقد أَغْنى وجودُ (إنَّ) في أوَّلِها عنْ فاءِ التَّفريعِ(٣).

٣- قولُه تعالى: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ﴾ تكريرٌ لِما سَبَقَ، وتقريرٌ لِمَضْمونِهِ بالإخبارِ بوقوعِه(٤).

- وفيه تَقديمُ الأموالِ على الأولادِ، مَعَ كونِهِمْ أَعزَّ مِنْها؛ إمَّا لعُمومِ مَسيسِ الحاجةِ إليها بحَسَبِ الذَّاتِ وبحَسَبِ الأفرادِ والأوقاتِ؛ فإنَّها ممَّا لا بُدَّ منه لكُلِّ أَحَدٍ مِنَ الآباءِ والأمهاتِ والأولادِ في كُلِّ وقتٍ وحينٍ، حتَّى إنَّ مَنْ له أولادٌ ولا مالَ لَهُ، فهو وأولادُهُ في ضيقٍ ونَكالٍ، وأمَّا الأولادُ فإنَّما يَرْغَبُ فيهم مَنْ بَلَغَ مَبلَغَ الأُبوَّة(٥)، وقيل: لأنَّها أقدَمُ في الوجودِ منهم(٦).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣٤٣).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال تعالى هنا: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾، وقال تعالى قَبْلَ ذلك في السُّورةِ نَفْسِها: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾، فهناك تَشابُهٌ واختِلافٌ بين ألفاظِ الآيتينِ، وذلك على النحوِ الآتي:

١- بَدأتِ الآيةُ الأُولى بالفاءِ والثَّانيةِ بالواوِ؛ لأنَّ الآيةَ الثَّانيةَ مَعطوفةٌ على ما قَبْلَها؛ فسِياقُ الآياتِ السَّابقةِ يَقْتضي العَطْفَ، فهو نَهْيٌ عُطِفَ على ﴿وَلَا تُصَلِّ﴾، ﴿وَلَا تَقُمْ﴾، ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ﴾ فناسبتِ الواو، أمَّا الآيةُ الأُولى فالفاءُ للاسْتِئنافِ، وليس هناك عَطفٌ، وقيل: مُناسَبةُ الفاءِ أنَّهُ عَقِبَ قولِه: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾، أي: للإنفاقِ، فهم مُعجَبونَ بَكْثرةِ الأموالِ والأولادِ؛ فنَهاه عَنِ الإعجابِ بفاءِ التَّعقيبِ.

٢- الآيةُ الأولى ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ...﴾ وردتْ في سِياقِ الإنفاقِ، أي: إنفاق الأموالِ، ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ﴾، ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾، ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ﴾، ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ﴾؛ فالكلامُ كلُّهُ- إذنْ- في الإنفاقِ في الآياتِ التي قَبْلها وبَعْدَها، أمَّا الآيةُ الثَّانيةُ فسِياقُ الآياتِ قَبْلَها وبَعْدَها في الجِهادِ، وليس الإنفاق، فلمَّا كان السِّياقُ في الأموالِ أَضافَ ﴿لَا﴾، وفَصَلَ الأولادَ والأموالَ للتَّوكيدِ، وقيل: ذِكْرُ ﴿لَا﴾ مُشْعِرٌ بالنَّهي عَنِ الإعجابِ بكلِّ واحدٍ واحدٍ على انْفِرادٍ، ويتضمَّنُ ذلك النَّهيَ عَنِ المجموعِ، ولم تذكرْ في الثانيةِ؛ فكان نهيًا عن إعجابِ المَجموعِ، ويَتضمَّنُ ذلك النَّهيَ عَنِ الإعجابِ بكلِّ واحدٍ واحدٍ، فدلَّتِ الآيتانِ بمَنْطوقِهما ومَفهومِهما على النَّهيِ عن الإعجابِ بالأموالِ والأولادِ مُجْتمعين ومُنْفرِدين.

٣- ﴿لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ زِيادةُ اللَّام في الآيةِ الأُوْلى زيادةٌ في التَّوكيدِ؛ لأنَّ السِّياقَ في الأموالِ والإنفاقِ، وكما أَكَّدَ بـ(لا) أَكَّدَ باللَّام بمعنى (إنَّما يُريدُ اللهُ أنْ يُعَذِّبَهم)؛ فزيادةُ اللَّامِ قِياسيَّةٌ للتَّوكيدِ (تؤكِّدُ معنى الإرادةِ)، فلمَّا كانوا مُتعلِّقينَ بالمالِ تعلُّقًا شديدًا أَكَّدَ باللَّامِ ﴿لِيُعذِّبَهُمْ بها﴾، فكان التَّعذيبُ أشدَّ، وقيل: أَتى باللَّامِ المُشْعِرةِ بالتَّعليلِ، ومفعولُ ﴿يُرِيدُ﴾ محذوفٌ، أي: إنَّما يُريدُ اللهُ ابْتِلاءَهم بالأموالِ والأولادِ لِتَعذيبِهم، وأتى بـ(أَنْ)؛ لأنَّ مَصَبَّ الإرادةِ هو التَّعذيبُ، أي: (إنَّما يُريدُ اللهُ تعذيبَهم)؛ فَقَدِ اخْتَلَفَ مُتعلِّقُ الفِعْلِ في الآيتينِ، هذا الظَّاهِرُ، وإنْ كان يَحْتَمِلُ زيادةَ اللَّامِ، والتَّعليل بـ(أَنْ).

٤- وذَكَرَ (الحياةَ الدُّنيا) في الآيةِ الأُولى و(الدُّنيا) في الآيةِ الثَّانيةِ: فأمَّا الآيةُ الأولى فهي في سياقِ الأموالِ، والأموالُ عِنْدَ النَّاسِ هي مَبْعثُ الرَّفاهيةِ والحياةِ والسَّعادةِ، والمالُ هو عَصَبُ الحياةِ، أمَّا الآيةُ الثَّانيةُ فهي في الجِهادِ، وهو مَظِنَّةُ مُفارَقةِ الحياةِ في القِتالِ، فاقْتَضى السِّياقُ ذِكْرَ (الحياةِ) في الآيةِ الأُوْلى، وحَذْفَها في الآيةِ الثَّانيةِ ، وقيل: أَثْبَتَ (في الحياةِ) على الأصلِ، وحُذِفتْ هنا تنبيهًا على خِسَّةِ الدُّنيا، وأنَّها لا تَستحِقُّ أنْ تُسمَّى حياةً، ولا سيَّما حين تَقدَّمَها ذِكْرُ موتِ المنافقينَ، فنَاسَبَ ألَّا تُسمَّى حياةً[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٧٨، ٤٧٩)، ((لمسات بيانية في نصوص من التنزيل)) للسامرائي (ص: ٥٠٩).

الآيات (٨٦-٨٩)

﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿أُولُو الطَّوْلِ﴾: أي: ذَوو الغِنى والسَّعةِ، وأصلُ (طول): يدُلُّ على فَضْلٍ، وامْتِدادٍ في الشَّيءِ(١).

﴿الْخَوَالِفِ﴾: أي: النِّساءِ، وأصلُ (خلف): يدلُّ على مجيءِ شَيءٍ بعد شيءٍ، وقيامِه مَقامَه(٢).

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى لنبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: وإذا أُنزِلَت سورةٌ مِن القُرآنِ فيها الأمرُ بالإيمانِ باللهِ، والجهادِ مع رَسولِه، استأذَنَك في التخلُّفِ عن الجهادِ أصحابُ الأموالِ مِن المُنافِقينَ، وقالوا: دَعْنا نكُنْ مع القاعدينَ، رَضُوا أن يكونوا في منازِلِهم مع النِّساءِ، وختم اللهُ على قلوبِهم، فهم لا يَفهَمونَ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٣٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٧).

(٢) ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٢٨).

لكن إنْ تخلَّفَ هؤلاء المُنافِقونَ عن الجهادِ فلا ضيرَ؛ لأنَّه قد نهض إليه مَن هو خيرٌ منهم؛ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابُه، فقد جاهدوا بأموالِهم وأنفُسِهم، وأولئك لهم النِّعَمُ الكثيرةُ في الدُّنيا والآخرةِ، وأولئك هم الذين ظَفِروا بما طَلَبوا مِن النَّعيمِ، أعدَّ اللهُ لهم بساتينَ تجري من تحتِ أشجارِها ومَبانيها الأنهارُ، ماكثينَ فيها أبدًا، ذلك الفوزُ العظيمُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

مَناسبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لما بيَّنَ اللهَ تعالى في الآياتِ المتقَدِّمةِ أنَّ المُنافِقينَ احتالوا في رُخصةِ التخَلُّفِ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والقعودِ عن الغَزوِ؛ زادَ في هذه الآيةِ دقيقةً أُخرَى، وهي أنَّه متى نزَلَت آيةٌ مُشتَمِلةٌ على الأمرِ بالإيمانِ، وعلى الأمرِ بالجهادِ مع الرَّسولِ، استأذَنَ أولو الثَّروةِ والقُدرةِ منهم في التخلُّفِ عن الغَزوِ، وقالوا لرَسولِ اللهِ: ﴿ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ أي: مع الضُّعفاءِ مِن النَّاسِ، والسَّاكِنينَ في البلَدِ[1].

﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ ﴾.

أي: وإذا أُنزِلَت عليك- يا محمَّدُ- سورةٌ من القرآنِ، فيها أمرُ النَّاسِ بالإيمانِ باللهِ، وجِهادِ الكُفَّارِ مع رسولِ اللهِ؛ استأذَنَك في التخَلُّفِ عن الجهادِ أصحابُ الغِنى والأموالِ مِن المُنافِقينَ[2]!

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦١٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٨٥)، ((تفسير ابن =

﴿وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾.

أي: وقال لك المُنافِقونَ- يا مُحمَّدُ: اترُكْنا نكُنْ مع القاعدينَ في بُيوتِهم؛ مِنَ الضُّعَفاءِ والمَرضى والعاجزينَ عن الجِهادِ(١).

﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ ﴾.

أي: رَضِيَ المُنافقونَ المُستأذِنونَ في التخَلُّفِ عن الجهادِ أن يكونوا في مَنازِلِهم مع النِّساءِ(٢)!

﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾.

أي: وختَمَ اللهُ على قلوبِ المُنافِقينَ بسبَبِ تَخلُّفِهم عن الجهادِ بلا عُذرٍ، فهم لا يَفهَمونَ مواعِظَ اللهِ، وأنَّ الجِهادَ خَيرٌ لهم في الدُّنيا والآخرةِ(٣).

= عطية)) (٣/ ٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٢٣)، ((حاشية الخفاجي على تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٨).

قال القاسمي: (إنَّما خَصَّ ذوي الطَّولِ؛ لأنَّهم المذمومونَ، وهم مَن له قدرةٌ ماليَّةٌ، ويُعلَمُ منه البدنيَّةُ أيضًا بالقياسِ). ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٧٤).

وقال محمد رشيد رضا: (المراد بهم هنا أولو المقدِرةِ على الجهادِ المفروضِ، بأموالِهم وأنفُسِهم). ((تفسير المنار)) (١٠/ ٥٠٢).

وقال ابنُ عاشورٍ: (الطَّولُ: السَّعةُ في المالِ... والاقتصارُ على الطَّولِ يدُلُّ على أنَّ أُولي الطَّولِ مُرادٌ بهم مَن له قدرةٌ على الجِهادِ بصِحَّةِ البَدَن، فبوجودِ الطَّولِ انتفى عُذرُهم؛ إذ مَن لم يكُنْ قادِرًا ببَدَنِه، لا يُنظَرُ إلى كَونِه ذا طَولٍ، كما يدلُّ عليه قَولُه بعدُ ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦١٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦١٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٨٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٨)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦١٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) =

كما قال اللهُ تعالَى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣].

وقال سبحانه: ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧].

﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (٨٨)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ الله تعالى لَمَّا شرحَ حالَ المُنافقينَ في الفِرارِ عن الجِهادِ؛ بيَّنَ أنَّ حالَ الرَّسولِ والذين آمَنوا معه بالضِّدِّ منه؛ حيث بذَلُوا المالَ والنَّفسَ في طلَبِ رِضوانِ اللهِ، والتقرُّبِ إليه(١).

﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾.

أي: لكنْ الرَّسولُ محمدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأصحابُه الذين آمَنوا معه، قد جاهَدوا الكُفَّارَ ببَذلِ أموالِهم وقاتَلوهم بأنفُسِهم، فهم ليسُوا كالمُنافِقينَ المتخَلِّفينَ، فلئن تخَلَّفَ هؤلاء المنافِقونَ عن الجهادِ، فلا ضَيرَ؛ لأنَّه قد نهضَ إليه مَن هو خيرٌ منهم(٢).

كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤٤].

= (٤/ ١٩٧)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦١٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٩)، ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣٤٤)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٧).

قال ابن عطية: (الأكثَرُ في (لكِنْ) أن تجيء بعد نفيٍ، وهو هاهنا في المعنى، وذلك أنَّ الآيةَ السَّالفةَ معناها أنَّ المُنافِقينَ لم يجاهِدوا، فحَسُنَ بعدَها ﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا﴾). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٩).

وقال سبحانه: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ﴾.

أي: والرَّسولُ والذين آمَنوا معه، وجاهَدوا بأموالِهم وأنفُسِهم؛ لهم النِّعَمُ الكثيرةُ الحَسَنةُ في الدُّنيا والآخرةِ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

وقال سُبحانه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٠-١٣].

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦١٨، ٦١٩)، ((الهداية)) لمكي بن أبي طالب (٤/ ٣٠٩٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٩)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٩٧)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٧)، (تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٩١).

أي: وأولئكَ هم الذينَ ظَفِروا بما طَلَبوا منَ النَّعيم[1].

﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ ﴾.

﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾.

أي: هيَّأَ اللهُ لِرَسولِه وللمُؤمِنينَ معه بساتينَ تجري مِنْ تَحتِ أشجارِها ومَبانيها الأنهارُ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾.

أي: لابثِينَ فيها، لا يَموتونَ، ولا يُخرَجونَ منها أبدًا[3].

﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾.

أي: دُخولُ الجنَّاتِ التي أعدَّها اللهُ للرَّسولِ وللمُؤمِنينَ معه، هو النَّجاةُ العظيمةُ، والظَّفَرُ الكبيرُ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦١٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٩)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٥٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٧).
قال القنوجي: (وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) المرادُ بهم هنا الفائزونَ بالمطلوبِ. ((فتح البيان)) (٥/ ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦١٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦١٩)، ((الهداية)) لمكي (٤/ ٣٠٩٣)، ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦١٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٤٥)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٧٥).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ قدَّمَ الأمرَ بالإيمانِ على الأمرِ بالجِهادِ؛ لأنَّ الجِهادَ بغَيرِ الإيمانِ لا يُفيدُ شَيئًا[١].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ في تخصيصِ ﴿أُولُو الطَّوْلِ﴾ بالذكرِ وجهانِ: الأوَّل: أنَّ الذمَّ لهم ألزمُ؛ لأجلِ كونِهم قادرينَ على السَّفرِ والجهادِ. والثَّاني: أنَّه تعالى ذكَرَ أولي الطَّولِ؛ لأنَّ مَن لا مالَ له ولا قُدرةَ على السَّفَرِ، لا يحتاجُ إلى الاستئذانِ؛ لأنَّه مَعذورٌ[٢].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ عطفَ ﴿وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ على ﴿اسْتَأْذَنَكَ﴾ لِمَا بينَهما من المغايرةِ في الجملةِ، بزيادةٍ في المعطوفِ؛ لأنَّ الاستئذانَ مُجمَلٌ، وقولَهم المحكيَّ فيه بيانُ ما استأذَنوا فيه، وهو القُعودُ، وفي نَظْمِه إيذانٌ بتَلفيقِ مَعذِرتِهم، وأنَّ الحقيقةَ هي رغبتُهم في القُعودِ؛ ولذلك حُكِيَ قَولُهم بأن ابتُدِئَ بـ ﴿ذَرْنَا﴾ المقتضي الرَّغبةَ في تَرْكِهم بالمدينةِ، وبأن يكونوا تبَعًا للقاعِدينَ الذين فيهم العُجَّزُ والضُّعَفاءُ والجُبَناءُ؛ لِما تُؤذِنُ به كَلمةُ (مع) من الإلحاقِ والتَّبَعيَّةِ[٣].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ اختيارُ فِعل ﴿رَضُوا﴾

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٦٤٠).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٨٥)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٩).

إشعارٌ بأنَّ ما تلبَّسوا به من الحالِ، مِن شأنِه أن يتردَّدَ العاقِلُ في قَبولِه[1].

٥- في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ * رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ دليلٌ على جُبنِ المُنافِقينَ وضُعَفاءِ الإيمانِ، ورضاهم لأنفُسِهم بالذُّلِّ والهَوانِ[2]، فلو فَقِه المنافِقونَ حَقيقةَ الفِقهِ، لم يَرضَوا لأنفُسِهم بالحالِ التي تحُطُّهم عن منازِلِ الرِّجالِ، ولم يَرضَوا أن يكونوا مع النِّساءِ المتخَلِّفاتِ عن الجهادِ[3].

٦- في قولِه تعالى: ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ دليلٌ على أنَّ النساءَ لا جهادَ عليهنَّ، وإنْ أَطَقْنَه؛ لأنَّه سبحانه قد ذَكَرَ الخوالفَ مرَّتين في الآيةِ الأُولَى والثانية ولم يخرجهنَّ، إنَّما أَخرجَ مَن تَشَبَّه في التخلفِ عنه بمَن لا جهادَ عليه؛ ورضِي الكينونةَ معه عمَّا هو مندوبٌ إليه[4].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾، قوله: ﴿مَعَهُ﴾ في موضعِ الحالِ من (الذينَ) لتدُلَّ على أنَّهم أتباعٌ له في كلِّ حالٍ، وفي كلِّ أمرٍ، فإيمانُهم معه؛ لأنَّهم آمنوا به عندَ دَعوتِه إيَّاهم، وجهادُهم بأموالِهم وأنفُسِهم معه، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الخَيراتِ المبثوثةَ لهم في الدُّنيا والآخرةِ تابعةٌ لِخَيراتِه ومَقاماتِه[5].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٥٠٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٤٧).
(٤) يُنظر: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٥٦٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٩١).

وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ لَمَّا كان السِّياقُ لبُخلِ المنافقينَ بالنَّفسِ والمالِ، ولِسَلبِ النَّفعِ مِن أموالِهم وأولادِهم، اقتصَرَ في مدحِ أوليائِه على الجهادِ بالنَّفسِ والمالِ، ولم يَذكُرِ السَّبيلَ(١).

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ قَولُه: ﴿الْخَيْرَاتُ﴾ تعريضٌ بذوي الأموالِ مِن المُنافِقينَ؛ لأنَّ الخيرَ يُطلَقُ على المالِ، وتَحليتُه بـ (أل) تدلُّ على استغراقِه لجَميعِ منافِعِ الدَّارينِ(٢).

١٠- قال الله تعالى: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الإعدادُ: التَّهيئةُ، وفيه إشعارٌ بالعِنايةِ(٣).

١١- في قولِه تعالى: ﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ إلى قولِه سبحانه: ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ شاهدٌ لكل مَن حَضَرَ مع رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم غزوةَ تبوكَ مِن أصحابِه بالجنةِ، فكلُّ مَن شَهِدَ غزوةَ تبوكَ مِن أصحابِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم فهو معه في الجنةِ على ما كان فيه بشهادةِ هذه الآيةِ له، وهي حقٌّ(٤).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾

- قولُه: ﴿اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ فيه الْتِفاتٌ؛ إذْ هو خُروجٌ مِنْ لَفْظِ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٥٧١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٩١).
(٤) يُنظر: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٥٦٧).

الغَيبةِ- وهو قولُه: ﴿رَسُولِهِ﴾- إلى ضَميرِ الخِطابِ في ﴿اسْتَأْذَنَكَ﴾، فلو جاءَ على الأصلِ لقِيلَ: استأذَنَه(١).

- وقولُه: ﴿وَقَالُوا﴾ عَطْفٌ تفسيريٌّ لـ﴿اسْتَأْذَنَكَ﴾، وهو مُغْنٍ عَنْ ذِكْرِ ما اسْتأذَنوا فيه- يعني القُعودَ(٢).

٢- قوله تعالى: ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾

- قولُه: ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ...﴾ اسْتِئنافٌ؛ لبيانِ سُوءِ صَنيعِهم، وعَدَمِ امْتِثالِهم لِكِلا الأمرينِ، وإنْ لم يَردُّوا الأوَّلَ صريحًا(٣).

- وفيه تَهجينٌ لهم، ومبالَغةٌ في الذَّمِّ؛ لأنَّ كونَهم رَضُوا بأنْ يَكونوا قاعِدينَ مَعَ النِّساءِ في المدينةِ أبْلغُ ذَمٍّ لهم وتَهجينٍ؛ لأنَّهم نَزَّلوا أنفُسَهم مَنْزِلةَ النِّساءِ العَجَزةِ اللَّواتي لا مُدافعةَ عندَهنَّ(٤).

٣- قوله تعالى: ﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

- قولُه: ﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جاهَدُوا﴾ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ فيه تَعريضٌ بأنَّ الذين لَمْ يُجاهِدوا دونَ عُذْرٍ ليسوا بمُؤمنينَ(٥).

- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ عُطِفَت جملةُ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٧٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٧٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٩٠).

﴿وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾ على جملةِ ﴿جَاهَدُوا﴾ ولم تُفصَل - مع جوازِ الفَصلِ - ليدُلَّ بالعطفِ على أنَّها خبرٌ عن (الذين آمنوا)، أي: على أنَّها مِن أوصافِهم وأحوالِهم؛ لأنَّ تلك أدلُّ على تمكُّنِ مَضمونِها فيهم مِن أن يُؤتى بها مُستأنفةً، كأنَّها إخبارٌ مُستأنَفٌ[1].

- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الإتيانُ باسمِ الإشارةِ؛ لإفادةِ أنَّ استحقاقَهم الخَيراتِ والفَلاحَ، كان لأجل جهادِهم[2].

- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ في التعبيرِ بأداةِ البُعدِ إشارةٌ إلى عُلوِّ مَقامِ أوليائِه، وبُعدِ مَنالِه إلَّا بفَضلٍ منه تعالى[3].

- قوله: ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فيه تَكريرُ اسْمِ الإشارةِ ﴿وَأُولَئِكَ﴾؛ للتَّنويهِ لشأنِهِمْ، ولِرَفعِ مَكانِهم[4].

٤- قَولُه تعالى: {أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} اسْتِئنافٌ بيانيٌّ لجوابِ سؤالٍ يَنشأُ عَنِ الإخبارِ بـ ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٩١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٥٧١).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩١).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٩١).

الآيات (٩٠-٩٣)

﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ
سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى
ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ
مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ
أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ
مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ
يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ
قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

غريبُ الكَلماتِ:

﴿ الْمُعَذِّرُونَ ﴾: أي: المُعتَذِرونَ الَّذين لَهُم عُذرٌ، وَقد يكون المعَذِّرُ غيرَ مُحِقٍّ، فالمعنى المقصِّرونَ بِغَيْرِ عُذرٍ. والعُذْرُ: تحرِّي الإنسانِ ما يمحو به ذُنوبَه(١).

﴿ الْأَعْرَابِ ﴾: أي: سُكَّانِ الباديةِ، وأصلُ (عرب): يدلُّ على الإبانةِ والإفصاحِ(٢).

﴿ حَرَجٌ ﴾: أي: إثمٌ، والحرَجُ كذلك: الشكُّ والضِّيقُ، وأصلُ الحَرَجِ: تجمُّعُ الشَّيءِ وضِيقُه(٣).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٤٤).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٩٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٤١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٧).

﴿تَفِيضُ﴾: أي: تَسيلُ، وفَيضُ العَينِ مِن الدَّمعِ: امتلاؤُها منه، ثمَّ سَيلانُه منها كفَيضِ النَّهرِ من الماءِ، وفيضِ الإناءِ، وأصلُ (فيض): يدلُّ على جَرَيانِ الشَّيءِ بِسُهولةٍ(١).

﴿السَّبِيلُ﴾: أي: العقوبةُ والمأثَمُ، ويُستعمَلُ السَّبيلُ لكُلِّ ما يُتوصَّلُ به إلى شيءٍ، خيرًا كان أو شرًّا، وأصلُ (سبل): يدلُّ على امتدادِ شَيءٍ(٢).

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ المُعتَذرينَ مِن الأعرابِ أتَوا إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ ليأذَنَ لهم في التخلُّفِ عن الجهادِ، وقعدَ عن المجيءِ للاعتذارِ المُنافِقونَ الذين كَذَبُوا اللهَ ورَسولَه، وأخبَرَ أنَّه سيُصيبُ الكافرينَ مِن الأعرابِ عَذابٌ مُؤلِمٌ مُوجِعٌ.

ثم ذكَر الله تعالى الأعذارَ المقبولةَ في التخلُّفِ عن الجهادِ، فقال: ليس هناك إثمٌ في التخلُّفِ عن الجهادِ مِن قِبَلِ الضُّعَفاءِ والمَرضى، والذين لا يجِدونَ مالًا يتجهَّزونَ به، إذا كانوا ناصحينَ لله ورسولِه، ما على المُحسنينَ مِن طريقٍ لِمُؤاخَذتِهم وعُقوبتِهم، واللهُ غفورٌ رحيم. ولا عقوبةَ أيضًا على الذين إذا أتَوْك- يا مُحمَّدُ- يطلبونَ منك ما يركبونَ عليه للغَزوِ معك، قلتَ لهم مُعتذرًا: لا أجِدُ ما تَركبونَ عليه، فانصَرَفوا مِن عِندِك، وهم يَبكونَ مِن الحَزَنِ على عدَمِ تَوفُّرِ ما يتجَهَّزونَ به للجِهادِ.

ثم بيَّن تعالى أحكامَ أصحابِ الأعذارِ الكاذبةِ، فقال: إنَّما العقوبةُ والمؤاخذةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٦٠١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٣٠).

على المنافقينَ الذين يَستأذِنونَك في التخلُّفِ عن الجهادِ وهم أغنياءُ، رضُوا بأن يكونُوا في بيوتِهم مع النِّساءِ، وختَمَ اللهُ على قلوبِهم، فهم لا يَعلَمونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا شرَحَ الله تعالى أحوالَ المُنافِقينَ الذين كانوا في المدينةِ؛ ابتدأ في هذه الآيةِ بشَرحِ أحوالِ المنافقينَ مِن الأعرابِ[1].

وأيضًا لَمَّا ختَمَ قَصصَ أهلِ المَدَرِ بذَمِّ أُولي الطَّولِ منهم بتخلُّفِهم، وكان ذمُّهم إنَّما هو لِكَونِهم قادرينَ على الخروجِ في ذلك الوَجهِ، وقدَّمَهم لِكَثرةِ سمَاعِهم للحِكمةِ، وكان أهلُ الوَبَرِ أقدَرَ النَّاسِ على السَّفَرِ؛ لأنَّ مبنى أمرِهم على الحَلِّ والارتحالِ، فهم أجدَرُ بالذمِّ؛ لأنَّهم في غايةِ الاستعدادِ لذلك- تلاهم بهم، فقال تعالى[2]:

﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿الْمُعْذِرُونَ﴾ بسكونِ العينِ وتخفيفِ الذالِ، بمعنى: الذينَ جاؤوا بعُذرٍ صحيحٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٥٧٢).

(٣) قرأ بها يعقوبُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٨٠).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٨٨)، ((معاني القراءات)) للأزهري =

٢- قراءةُ ﴿الْمُعَذِّرُونَ﴾ بفتحِ العينِ وتشديدِ الذالِ، أي: المُعتذرونَ، قيل: بمعنى اعتذروا بحقٍّ، فتكونُ بمعنَى القراءةِ الأُولَى، وقيل: المعنى: المقصِّرون الذين أوْهَموا أنَّ لهم عذرًا، ولا عُذرَ لهم(١).

﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾.

أي: وأتى المُعتَذِرونَ مِن سكَّانِ البوادي التي حولَ المدينةِ إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ ليأذَنَ لهم في التخلُّفِ عن الجِهادِ(٢).

= (١/ ٤٦٠)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٩، ٧٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٨٨).

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٨٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٨٩ - ٥٩١)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤٦٠)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٦٩، ٧٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٩٢).
قال محمد رشيد رضا: (والحكمةُ في القِراءَتين على اختلافِ معاني الصِّيغَتينِ بيانُ اختلافِ أحوالِ أولئك الأعرابِ في أعذارِهم؛ فمنهم مَن له عُذرٌ صَحيحٌ هو موقِنٌ به، ومن له عُذرٌ صوريٌّ لا حقيقيٌّ، وهو يُوهِمُ أنَّه حقيقيٌّ، عالِمًا بأنَّه مخادعٌ، ومنهم من له عُذرٌ ضَعيفٌ هو في شَكٍّ منه، إن نُوقِشَ فيه عجزَ عن إثباتِه، ومنهم مَن لا عُذرَ له في الواقِعِ، فهو كاذبٌ في انتحالِه، وهذا من إيجازِ القُرآنِ العَجيبِ، بالإتيانِ بلَفظٍ مُفرَدٍ يتناوَلُ هذه الأقسامَ كُلَّها، مبهمةً إلَّا عند أهلِها؛ للحِكمةِ الآتيةِ المُقتَضيةِ لإبهامِها). ((تفسير المنار)) (١٠/ ٥٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦١٩، ٦٢٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٨٩، ٥٩٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٩٣).
قيل: المرادُ بالمعذِّرين هنا: الذين اعتَذَروا بأعذارٍ صادقةٍ وصَحيحةٍ، وممَّن اختار ذلك: الرازي، وابنُ كثيرٍ، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٩٧-١٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٩٢).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلف: ابنُ عبَّاس والسُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ١٨٦٠).
وقيل: المرادُ بهم: الذين اعتَذَروا بأعذارٍ كاذبةٍ، وممَّن اختار ذلك: ابنُ جريرٍ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٧).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلف: قتادةُ، ومجاهدٌ، والحسنُ، وأبو إسحاقَ. يُنظر: ((تفسير =

﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

أي: وقعَدَ عن المجيءِ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم للاعتذارِ إليه عن الجهادِ معه، الأعرابُ المُنافِقونَ الذين كَذَبوا اللهَ ورَسولَه في دَعواهم الإيمانَ المُقتضيَ للخُروجِ للجِهادِ[١].

﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أي: سيصيبُ الكافرينَ مِن الأعرابِ[٢] عذابٌ مُؤلِمٌ[٣].

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا

= ابن أبي حاتم)) (٦/ ١٨٦٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢١).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٩٣).

(٢) قال القاسمي: (الضميرُ في ﴿مِنْهُمْ﴾ إمَّا للأعرابِ مطلقًا، فالذين كفروا منافِقوهم، أو أعَمُّ، وإمَّا للمُعَذِّرينَ؛ فإنَّ منهم من اعتذرَ لكسَلِه، لا لكُفرٍ، وجُوِّز أن يكون المعنيَّ بالذين كَفَروا منهم، المُصِرُّونَ على الكُفرِ). ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٧٦).

وقال محمد رشيد رضا: (الظَّاهِرُ المختار أنَّ هذا الوعيدَ يعودُ على ما قبله من الفريقينِ، عامًّا في المكَذِّبين، وخاصًّا ببعض المعَذِّرينَ، كما هو المتبادِرُ مِن قوله تعالى: ﴿مِنْهُمْ﴾ أي: الأعراب الذين اعتذر بعضُهم، وقعد بعضٌ؛ فإنَّ الذين كَذَّبوا اللهَ ورَسولَه كُلُّهم كفَّارٌ، وأمَّا المُعتَذِرونَ فمنهم الصَّادقُ في عُذرِه والكاذِبُ فيه؛ لِمَرضٍ في قلبه، أو لتكذيبِه لله ورَسولِه، وكلٌّ منهم يعرِفُ نَفسَه فيحاسِبُها إذا وجد الوعيدَ موضعًا للعِبرةِ منها، ولو جعل التبعيضَ لهم وحدَهم لظَلَّ القاعدونَ الكاذِبونَ بغَيرِ وعيدٍ، وهم شَرٌّ مِن شَرِّهم، فلا يصِحُّ التبعيضُ فيهم وَحدَهم، ومن ثَمَّ اقتضى التحقيقُ أن يُوجَّهَ الوعيدُ إلى الذين كَفَروا منهم؛ لكُفرِهم لا لاعتذارِهم، وإلى الذين قَعَدوا لكُفرِهم لا لقُعودِهم، بل للكَذِبِ الذي كان سببَه، وهو عينُ الكفرِ). ((تفسير المنار)) (١٠/ ٥٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦١٩، ٦٢٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٧).

قال ابن عطية: (توعَّدَ في آخِرِ الآيةِ الكافِرينَ بـ ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فيحتمِلُ أن يريدَ في الدُّنيا بالقَتلِ والأسرِ، ويحتمل أن يريدَ في الآخرةِ بالنَّارِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٠).

يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ الله تعالى حالَ مَن تخلَّفَ عن الجهادِ مع القُدرةِ عليه؛ ذكَرَ حالَ مَن له عُذرٌ في تَركِه[1]، فقال تعالى:

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾.

أي: ليس على ضُعَفاءِ الأبدانِ، العاجِزينَ عن الخُروجِ للقِتالِ، ولا على المرضى الذين لا يَقدِرونَ على الجهادِ، ولا على الفُقَراءِ الذين لا يجِدونَ مالًا يتجهَّزونَ به- إثمٌ في تخلُّفِهم عن الجِهادِ[2].

كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [الفتح: ١٧].

﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

أي: إذا أخلَصوا إيمانَهم وأعمالَهم وقَصدَهم وحُبَّهم في حال قُعودِهم، وبَذَلوا جُهدَهم في نُصرةِ الإسلامِ، ونَفْعِ المُسلِمينَ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٩٣)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٢٦، ٢٢٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٩٨)، ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣٤٥)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٧٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٥٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٨).

عن تميم الدَّاريِّ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((الدِّينُ النَّصيحةُ. قلنا: لِمَن؟ قال: لِلَّهِ ولِكتابِه ولِرَسولِه ولأئمَّةِ المُسلِمينَ وعامَّتِهم))(١).

﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾.

أي: ليس على المُحسِنينَ الذين نصَحوا للَّه ورَسولِه من طريقٍ إلى مؤاخَذتِهم وعُقوبتِهم(٢).

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: والله ساتِرٌ ذُنوبَ المُحسِنينَ، ومُتجاوِزٌ عن مؤاخَذتِهم بها، رحيمٌ بهم فلا يعاقِبُهم عليها، بل يُثيبُهم ثوابَ القادِرينَ العامِلينَ(٣).

﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى الضُّعَفاءَ والمرضى والفُقَراءَ، وبيَّنَ أنَّه يجوزُ لهم التخلُّفُ عن الجِهادِ، بشَرطِ أن يكونوا ناصِحينَ لله ورسولِه، وبيَّنَ كونَهم مُحسِنينَ، وأنَّه ليس لأحدٍ عليهم سبيلٌ- ذكَرَ قِسمًا آخرَ مِن المعذورينَ، فقال(٤):

---

(١) رواه مسلم (٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٢٧)، ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣٤٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٥٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٩٤).
قال ابن الجوزي: (لأنَّ المحسِنَ قد سدَّ بإحسانِه بابَ العِقابِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٥٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٢٢).

﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾.

أي: ولا عقوبةَ على الذين إذا أتَوْكَ- يا مُحمَّدُ- يسألونَك ما يَركَبونَ عليه في غزوةِ تَبوكَ، قلتَ لهم مُعتذرًا: لا أجِدُ ما تركبونَ عليه، فانصرفوا مِن عِندِك، وهم يبكونَ مِن الحَزَنِ على عدَمِ توفُّرِ ما يتجهَّزونَ به للجِهادِ(١).

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٩٣)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ كُلَّ أولئك ما عليهم مِن سَبيلٍ، بَقِيَ بيانُ مَن عليهم السَّبيلُ في تلك الحالِ، فذَكَرَهم(٢)، فقال:

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾.

أي: إنَّما العُقوبةُ- يا مُحمَّدُ- على المُنافِقينَ الذين يَستأذِنونَك في التخَلُّفِ عن الجهادِ، وهم أغنياءُ قادِرونَ على الخُروجِ معك للقِتالِ(٣).

﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾.

أي: رَضِيَ المُنافِقونَ الذين يستأذِنونَك في التخَلُّفِ عن الجهادِ، بالقُعودِ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٤٧)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٧٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٥٠٨، ٥٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٨).

قال ابن تيمية: (هذه الآيةُ نزلت بالإجماعِ في غَزوةِ تَبوكَ). ((مجموع الفتاوى)) (٢٩/ ٣٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٥٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٨).

بيوتِهم مع النِّساءِ اللاتي لا يجِبُ عليهنَّ الجِهادُ(١).

﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أي: وختَمَ اللهُ على قلوبِ المُنافِقينَ عُقوبةً لهم، فهم لا يَعلمونَ سُوءَ عاقِبةِ تخلُّفِهم عن الجهادِ عاجلًا وآجلًا، ولا ما يفوتُهم بذلك مِن مَصالحِ الدُّنيا والآخرةِ(٢).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- إذا أحسَنَ العَبدُ فيما يَقدِرُ عليه، سقَطَ عنه ما لا يقدِرُ عليه؛ نَستفيدُ ذلك مِن قَولِ اللهِ تعالى: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾(٣).

٢- قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ قال بعضُ العُلَماءِ: هذا -واللهِ- بُكاءُ الرِّجالِ؛ بكَوا على فَقْدِهم رواحِلَ يُحمَلونَ عليها إلى الموتِ، في مواطِنَ تُراقُ فيها الدِّماءُ في سبيلِ اللهِ، وتُنزَعُ فيها رؤوسُ الرِّجالِ عن كواهِلِها بالسُّيوفِ، فأمَّا من بكى على فَقْدِ حظِّه من الدُّنيا وشَهواتِه العاجلةِ، فذلك شبيهٌ ببُكاءِ الأطفالِ والنِّساءِ على فَقْدِ حُظوظِهم العاجلةِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢٧، ٦٢٨)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٧٩)، ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢٨)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٢٣)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٤٧).

وينبغي التنبيهُ هنا على أن مَن تبرَّع بالقيامِ بعملٍ فلا يحلُّ له أن يخلَّ به، ويفرطَ فيما أُسنِد إليه؛ بحجةِ أنَّه متبرعٌ، وأنَّه (ما على المحسنين من سبيل)، فهذا وضعٌ للآيةِ في غيرِ موضعِها؛ لأنَّ الواجبَ أن يلتزمَ بما التزمَ بالقيامِ به، وأن يقومَ به على وجهِ الكمالِ.

(٤) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٢٤٣).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ﴾ فيه رفعُ الجِهادِ عن الضَّعيفِ والمريضِ، ومَن لا يجِدُ نَفقةً ولا أُهبةً للجِهادِ، ولا مَحمَلًا[1].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ في الآيةِ دَلالةٌ على أنَّ النُّصحَ في الدِّينِ واجبٌ، وأنَّه يدخُلُ في ذلك الأمرُ بالمعروفِ، والنَّهيُ عن المُنكَرِ، والشَّهاداتُ والأحكامُ، والفَتاوى وبيانُ الأدلَّةِ[2].

٣- قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ هذه الآيةُ أصلٌ في سُقوطِ التَّكليفِ عن العاجزِ، فكُلُّ من عجَزَ عن شيءٍ سَقَط عنه، فتارةً إلى بدَلٍ هو فِعلٌ، وتارةً إلى بدَلٍ هو غُرمٌ، ولا فَرقَ بين العَجزِ من جهةِ القُوَّةِ، أو العَجزِ مِن جهةِ المالِ[3].

٤- قال الله تعالى: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ هذه الآيةُ أصلٌ في رَفعِ العِقابِ عن كلِّ مُحسنٍ[4].

٥- فائدةُ قَولِه: ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ بعدما ذكَرَ عُذرَهم: أنَّ المَعذورَ يكونُ على قِسمينِ: أحدُهما فريقٌ منهم يغتَنِمونَ عُذرَهم، فهؤلاء ليسوا ممَّن نصحَ للَّهِ ورَسولِه، وفريقٌ يتمَنَّونَ أنْ لم يكُنْ لهم عذرٌ فيتمَكَّنوا من الجهادِ،

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٧٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٢٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ٢٢٧).

فهؤلاء هم الذينَ نَصَحوا لله ورسولِه[١].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ يُستدَلُّ به على أنَّ مَن أحسَنَ على غيرِه، في نفسِه أو في مالِه، ونحو ذلك، ثمَّ ترتَّبَ على إحسانِه نَقصٌ أو تلَفٌ، أنَّه غيرُ ضامنٍ؛ لأنَّه مُحسِنٌ، ولا سبيلَ على المُحسنينَ، كما أنَّه يدُلُّ على أنَّ غيرَ المُحسِنِ- وهو المُسيءُ- كالمُفَرِّط، أنَّ عليه الضَّمانَ[٢].

٧- قال اللهُ تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قَولُه: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ كُلَّ أحدٍ عاجِزٌ محتاجٌ للمغفرةِ والرَّحمةِ؛ إذ الإنسانُ لا يخلو من تفريطٍ ما، فلا يقالُ: إنَّه نفى عنهم الإثمَ أوَّلًا، فما الاحتياجُ إلى المغفرةِ المقتضيةِ للذَّنبِ؟ فإن أُريدَ ما تقدَّمَ مِن ذُنوبِهم دخلوا بذلك الاعتبارِ في المُسيءِ[٣].

٨- دلَّ قَولُه تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ على أنَّ العادِمَ للنَّفَقةِ، الطَّالِبَ للإعانةِ، إذا لم تحصُلْ له، فلا حرَجَ عليه. وفيه إشارةٌ إلى أنَّ المعونةَ إذا بُذِلَت له من الإمامِ، لَزِمَه الخروجُ[٤].

٩- دلَّ قولُه تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على أنَّ العاجزَ بمالِه لا يُعْذَرُ حتى يبذُلَ جُهدَه، ويتحقَّقَ عَجزُه؛ فإنَّ اللهَ سُبحانه إنَّما نفى الحرجَ عن هؤلاءِ العاجِزينَ بعد أنْ أتَوْا رسولَ الله

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٩٣- ٥٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٥/ ٣٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٧٨).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ليحمِلَهم[١].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ هذه قصَّةُ البكَّائينَ صَرَّحَ بها-وإن كانوا داخلينَ في ﴿الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ﴾- إظهارًا لِشَرفِهم وتقريرًا؛ لأنَّ النَّاصِحَ- وإن اجتهَدَ- لا غنى له عن العَفوِ؛ حيثُ بيَّنَ أنَّهم- مع اجتهادِهم في تحصيلِ الأسبابِ، وتحسُّرِهم عند فَواتِها بما أفاض أعيُنَهم- ممَّن لا سبيلَ عليه، أو ممَّن لا حرَجَ عليه، المَغفورِ له[٢].

١١- قال اللهُ تعالى: ﴿تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا﴾ دلَّت الآيةُ على جوازِ البُكاءِ، وإظهارِ الحُزنِ على فواتِ الطَّاعةِ، وإن كان معذورًا[٣].

١٢- دلَّ قولُه تعالى: ﴿تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ على قُوَّةِ رغبةِ الصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ عنهم، في الأعمالِ الصَّالحةِ المُوجِبةِ للدَّرَجاتِ العُلا، والنَّعيمِ المُقيمِ؛ وأنَّهم كانوا يَحزَنونَ على العَجزِ عن شَيءٍ مِن الطَّاعاتِ ممَّا يَقْدِرُ عليه غيرُهم[٤].

١٣- قولُه تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ لم يُمدَحوا على نَفسِ الحزنِ، وإنَّما مُدِحوا على ما دلَّ عليه الحزنُ مِن قُوَّةِ إيمانِهم؛ حيث تخلَّفوا عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لِعَجزِهم عن النَّفقةِ، ففيه تعريضٌ بالمُنافِقينَ الذين لم يَحزَنوا على تخلُّفِهم، بل غَبَطوا نفوسَهم به[٥].

(١) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٤٨٩).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٥٧٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٧٨).
(٤) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٥/ ٢٤١).
(٥) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٥٠١).

١٤- في قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ دليلٌ على أنَّ تمنِّي المالِ ليُطاعَ اللهُ فيه، والحزنَ على فواتِه طاعةٌ، وهو رَدٌّ على مَن يزعمُ مِن متنطعي المتصوفة أنَّ عَدَمَ المالِ أربحُ للمرءِ مِن وجودِه - وإنْ كان ناويًا طاعة اللهِ فيه- للمخاطرةِ دونَ القيامِ بالطاعةِ، وأداءِ حقِّ اللهِ فيه[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

- قوله: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ فيه مِن لَطائِفِ بَلاغةِ القرآنِ: اختيارُ صِيغةِ (المُعذِّرين)؛ لتشمَلَ الذين صَدَقوا في العُذرِ، والذين كَذَبوا فيه[2].

- وجملةُ: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مُستأنَفة لابتداءِ وعيدٍ، وتَنكيرُ ﴿عَذَابٌ﴾؛ للتَّهويلِ[3].

٢- قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ...﴾ اسْتِئنافٌ بيانيٌّ لجوابِ سؤالٍ مُقدَّرٍ يَنْشأُ عَنْ تهويلِ القُعودِ عَنِ الغزوِ، وما تَوجَّهَ إلى المُخلَّفينَ مِنَ الوعيدِ[4].

- قوله: ﴿وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ..﴾ فيه إعادةُ حَرْفِ

(١) يُنظر: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٥٦٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٩٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٢٩٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٢٩٤).

النَّفْيِ ﴿لَا﴾ في عَطْفِ الضُّعفاءِ والمَرْضى؛ لتوكيدِ نَفْيِ المؤاخذةِ عَنْ كُلِّ فريقٍ بخُصوصِهِ(١).

– قولُه: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ اسْتِئنافٌ مُقرِّرٌ لمضمونِ ما سَبَقَ، أي: ليس عليهم جُناحٌ، ولا إلى مُعاتَبتِهم سبيلٌ، وهذه الجُمْلةُ واقعةٌ مَوقِعَ التَّعليلِ لنَفْيِ الحَرَجِ عنهم، والمعنى: ليس على الضُّعفاءِ، ولا على مَنْ عُطِفَ عليهم حَرَجٌ إذا نَصَحوا للهِ ورَسولِهِ؛ لأنَّهم مُحْسنونَ، غيرُ مُسيئينَ(٢).

– ووُضِعَ ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ مَوضِعَ الضَّميرِ؛ للدَّلالةِ على انْتِظامِهم بنُصْحِهم للهِ ورسولِهِ في زُمرةِ المُحْسنينَ، أو ليكونَ تعليلًا لنَفْيِ الحَرَجِ عنهم، أي: ما على جِنْسِ المُحْسنينَ مِنْ سبيلٍ، وهم مِن جُمْلتِهم(٣).

– و(مِن) في قولِه: ﴿مِنْ سَبِيلٍ﴾ صِلةٌ للتَّأكيدِ، وهي مؤكِّدةٌ لشُمولِ النَّفيِ لكُلِّ سبيلٍ(٤).

– قولُه: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ تذييلٌ مؤيِّدٌ لِمَضمونِ ما ذُكِرَ، وهو يُشيرُ إلى أنَّ بهم حاجةً إلى المغفرةِ، وإنْ كان تَخلُّفُهم بعُذْرٍ(٥).

٣- قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٩٤).

قال محمد رشيد رضا: (الجملةُ تتضمَّنُ تعليلَ رفعِ الحَرَجِ عنهم بما ينتظِمونَ به في سِلكِ المُحسِنينَ، فيكونُ رفعُه عنهم مَقرونًا بالدَّليلِ، فكلُّ ناصحٍ لله ورسولِه مُحسِنٌ، ولا سبيلَ إلى مُؤاخَذةِ المُحسِنِ، وإيقاعِه في الحَرَجِ، وهذه المبالغةُ في أعلى مكانةٍ مِن أساليبِ البلاغةِ). ((تفسير المنار)) (١٠/ ٥٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٩٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٢).

- قوله: ﴿قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ في إيثارِ التعبيرِ بـ ﴿لَا أَجِدُ﴾ على (لَيْسَ عِنْدي): تَلطيفٌ للكَلامِ، وتَطييبٌ لقُلوبِ السَّائلينَ؛ كأنَّهُ صلَّى الله عليه وسلَّم يَطْلُبُ ما يَسألونَهُ على الاسْتِمرارِ فلا يَجِدُه[١].

- و(مِنْ) في قولِه: ﴿وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ للبيانِ، وهي مَعَ المجرورِ في مَحلِّ النَّصْبِ على التَّمييزِ، والتَّقديرُ: تَفيضُ دَمْعًا، وهو أَبْلَغُ مِنْ (يَفيضُ دَمْعُها)؛ لأنَّ العَينَ جُعِلتَ كأنَّ كُلَّها دَمْعٌ فائضٌ[٢].

٤- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ﴾ صِيغةُ قَصرٍ، والقَصْرُ فيه إضافيٌّ بالنِّسبةِ للأصنافِ الذين نُفِي أنْ يكونَ عليهم سَبيلٌ، وفي هذا الحَصْرِ تأكيدٌ للنَّفي السَّابقِ، أي: لا سَبيلَ عِقابٍ إلَّا على الذين يَسْتأذنونَكَ وهم أغنياءُ[٣].

- وقولُه: ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ اسْتِئنافٌ تعليليٌّ لِما سَبَق، وهو اسْتِئنافٌ قُصِدَ منه التَّعجيبُ مِنْ دَناءةِ نُفوسِهم، وقِلَّةِ رُجْلَتِهم؛ بأنَّهم رَضُوا لأَنْفُسِهم بأنْ يَكونوا تَبَعًا للنِّساءِ، كأنَّهُ قيل: ما بالُهم اسْتأذَنوا وهم أغنياءُ؟! فقيل: رَضُوا بالدَّناءةِ والضَّعةِ، والانْتِظامِ في جُملةِ الخَوالفِ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨٩).

الآيات (٩٤-٩٦)

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦)﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿انْقَلَبْتُمْ﴾: أي: رَجعْتُم، وأصلُ (قلب): يدلُّ على ردِّ الشَّيءِ مِن جِهةٍ إلى جِهةٍ[1].

﴿رِجْسٌ﴾: أي: نجسٌ، والرجسُ كذلك: القذرُ والمنتنُ، وأصلُ (رجس): يدلُّ على اختلاطٍ[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ اللهُ تعالى المؤمِنينَ قائلًا لهم: إنَّ المُنافِقينَ المُتخلِّفينَ عن الجهادِ بلا عُذرٍ، سيعتَذِرونَ إليكم إذا رَجَعْتُم إليهم مِن سفَرِكم وجهادِكم، فقلُ لهم يا مُحمَّدُ: لا تعتَذِروا، لن نُصَدِّقَكم؛ قد أعلَمَنا اللهُ بأسرارِكم، وعَرَفْنا كذِبَكم في اعتذارِكم، وسيرى اللهُ عمَلَكم ورسولُه، ثمَّ تُرجَعونَ بعد مَوتِكم إلى عالِمِ كُلِّ سِرٍّ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٩).

وعلانيةٍ، وظاهرٍ وباطنٍ، فيُخبِرُكم بما كُنتم تَعمَلونَه في الدُّنيا، ويُجازيكم عليه.

سيَحلِفونَ لكم باللهِ إذا رجَعْتُم إليهم من غزوةِ تَبوكَ: إنَّهم لم يستَطيعوا الخروجَ معكم؛ لكي تُعرِضوا عنهم؛ فلا توبِّخوهم على قعودِهم ولا تعاتبوهم، فأعْرِضوا عنهم؛ احتقارًا وإهانةً لهم؛ لأنَّهم نَجَسٌ وقَذَرٌ، ومَصيرُهم في الآخرةِ نارُ جهنَّمَ؛ بسبَبِ ما كسَبوا.

يحلِفُ لكم هؤلاءِ المُنافِقونَ لِترضَوا عنهم، فإن تَرضَوا عنهم، فلا ينفَعُهم رِضاكم، ولا ينبغي أن يكونَ منكم رضًا عنهم؛ فإنَّ اللهَ لا يَرضى عن القَومِ الفاسِقينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٩٤﴾.

﴿يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ﴾.

أي: يَعتَذِرُ إليكم المُنافِقونَ المتخَلِّفونَ عن الجِهادِ بلا عُذرٍ، إذا رَجَعْتُم- أيُّها المؤمِنونَ- إليهم من سَفَرِكم وجِهادِكم(١).

﴿قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ﴾.

أي: قلْ لهم- يا مُحمَّدُ-: لا تعتَذِروا إلينا؛ إذ لن نصَدِّقَكم في اعتذارِكم الكاذِبِ(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٨).

﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾.

أي: قد أخبَرَنا اللهُ بأسرارِكم- أيُّها المنافِقونَ- وعَلِمْنا كذِبَكم في اعتذارِكم(١).

﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾.

أي: وسيرى اللهُ ورَسولُه أعمالَكم- أيُّها المنافِقونَ- في الدُّنيا، ويَظهَرُ صِدقُكم أو كذِبُكم في التَّوبةِ مِن النِّفاقِ(٢).

﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

أي: ثمَّ تُرجَعونَ- أيُّها المُنافِقونَ- بعد مَوتِكم إلى اللهِ الذي يعلَمُ كُلَّ سِرٍّ وعلانيةٍ، وظاهرٍ وباطنٍ، فيُخبِرُكم بما كنتُم تَعملونَه في الدُّنيا مِن خَيرٍ أو شَرٍّ، ويُجازيكم عليه(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢٨)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٢/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٧).

قال محمد رشيد رضا: (ولم يقُل: «نبَّأني» وهو صلَّى اللهُ عليه وسلَّم المنبَّأُ من اللهِ وَحدَه؛ لأنَّ المرادَ أنَّه أمَرَه أن ينبِّئَ بذلك أصحابَه، ولم يكن هذا النبأُ خاصًّا به، واعتذارُهم للجميع يقتضي أن يعلَموا أنَّ الجميعَ عالِمونَ بما فضَحَهم الله به، وإن كان المبَلِّغُ لهم هو الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، بما له من الرِّياسة، وما لِخَبَره من الثقةِ التي لا يشُكُّ فيها أحَدٌ، والتأثيرِ الذي يُحسَبُ له كلُّ حِسابٍ. فهو من قَبيلِ التبليغاتِ الرَّسميةِ العُليا الصادرةِ عن الملوكِ والسَّلاطينِ، دَعْ كونَه أسمى وأعلى؛ لأنَّه نبأُ الرَّسولِ المعصومِ عن اللهِ عَزَّ وجَلَّ). ((تفسير المنار)) (١١/ ٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢٨)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٧).

قال ابنُ عاشور: (جملة: ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ عطفٌ على جملةِ ﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾، أي: لا فائدةَ في اعتذارِكم، فإن خَشِيتُم المؤاخذةَ، فاعملوا الخيرَ للمُستقبَلِ، فسَيَرى اللهُ عَمَلَكم ورسولُه إن أحسَنتُم، فالمقصودُ فَتحُ بابِ التوبةِ لهم، والتنبيهُ إلى المَكِنة من استدراكِ أمرِهم. وفي ذلك تهديدٌ بالوعيدِ إن لم يتوبُوا). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢٨، ٦٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٧)، ((تفسير =

﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا حكى اللهُ تعالى عن المنافِقينَ في الآيةِ الأولى أنَّهم يعتَذِرونَ؛ ذكَرَ في هذه الآيةِ أنَّهم كانوا يؤكِّدونَ تلك الأعذارَ بالأيمانِ الكاذبةِ(١)، فقال تعالى:

﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ﴾.

أي: سيحلِفُ المُنافِقونَ المتخَلِّفونَ، باللَّهِ لكم- أيُّها المؤمنونَ- إذا رجَعْتُم إليهم مِن غزوةِ تبوكَ: إنَّهم ما استطاعُوا الخروجَ مَعَكم للجهادِ؛ لِتترُكوا تأنيبَهم ومعاتَبتَهم(٢).

﴿ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ﴾.

أي: فاترُكوا- أيُّها المؤمنونَ- تأنيبَهم ولَومَهم؛ احتقارًا وإهانةً لهم؛ لا مسامحةً وعفوًا، لأنَّهم نجَسٌ وقذَرٌ، خَبيثةٌ بَواطِنُهم، وقبيحةٌ أعمالُهم(٣).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨].

﴿ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾.

= ابن كثير)) (٤/ ٢٠١)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٨).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٣٠، ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٣١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٩، ١٠).

أي: ومصيرُ المُنافِقينَ في الآخرةِ نارُ جهنَّمَ؛ مجازاةً لهم بسببِ ذُنوبِهم التي كانوا يَعمَلونَها في الدُّنيا[1].

عن كعبِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((واللهِ ما أنعَمَ اللهُ عليَّ مِن نِعمةٍ قطُّ، بعد إذ هدَاني اللهُ للإسلام، أعظَمَ في نفسِي مِن صِدقِي رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ألَّا أكونَ كَذَبتُه فأَهلِكَ كما هلَكَ الذين كذَبوا، إنَّ الله قال للذينَ كَذَبوا- حين أنزَلَ الوَحيَ- شرَّ ما قال لأحدٍ: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾))[2].

﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى في الآيةِ السَّابقةِ أنَّهم يحلِفونَ باللهِ؛ لِيُعرِضَ المسلِمونَ عن إيذائِهم- بيَّنَ أيضًا هنا أنَّهم يحلِفونَ لِيَرضى المسلِمونَ عنهم، ثمَّ إنَّه تعالى نهى المُسلِمينَ عن أن يَرضَوا عنهم[3]، فقال:

﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾.

أي: يحلِفُ هؤلاءِ المُنافِقونَ لكم- أيُّها المؤمِنونَ- بالكَذِبِ؛ مِن أجلِ أن ترضَوا عنهم، فتَستَديموا مُعاملَتَهم السَّابقةَ، كأنَّهم لم يُذنِبوا[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠).

(٢) رواه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٣١)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٨١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٨).

﴿فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾.

أي: فإنْ تَرضَوا- أيُّها المؤمِنونَ- عن المُنافِقينَ، فَرِضاكم عنهم لا ينفعُهم، ولا ينبغي لكم أن ترضَوا عنهم؛ فإنَّ اللهَ لا يرضَى عن القومِ الخارجينَ عن طاعَتِه(١).

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- وراءَ حُبِّ الدَّعَةِ، وإيثارِ السَّلامةِ، سُقوطُ الهمَّةِ، وذِلَّةُ النَّفسِ، وانحناءُ الهامةِ، والتهرُّبُ من المواجهةِ والمصارحةِ؛ يقولُ تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٢).

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ﴾ مِن الفِقهِ في الآيةِ أنَّ مِن آدابِ الإسلامِ تحاميَ كلِّ ذَنبٍ أو تقصيرٍ يحتاجُ فاعِلُه إلى الاعتذارِ(٣).

٣- العمَلُ هو ميزانُ الصِّدقِ مِن الكَذِبِ، وأمَّا مجرَّدُ الأقوالِ، فلا دلالةَ فيها على شيءٍ مِن ذلك، قال الله تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾(٤).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٣١)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٨).
وقال محمد رشيد رضا: (مُقتضاه أنَّه إذا فُرِضَ أنَّ بعضَ المؤمنينَ رَضِيَ عنهم وآمَنَ لهم باعتذارِهم بعد النَّهيِ عنه، كان فاسقًا مِثلَهم، محرومًا مِن رضائِه تعالى). ((تفسير المنار)) (١١/ ٥).
(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٦٩٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٤٨).

الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إرشادٌ إلى أنَّه لا ينبغي لأحدٍ أنْ يزكِّيَ عملَه، وإنَّما يُفوِّضُه إلى اللهِ سُبحانَه وتعالى(١).

٥- في قَولِ الله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ ذكَرَ العِلَّةَ في وجوبِ الإعراضِ عنهم، فقال: ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ والمعنى: أنَّ خُبثَ باطِنِهم رِجسٌ رُوحانيٌّ، فكما يجِبُ الاحترازُ عن الأرجاسِ الجُسمانيَّة، فوجوبُ الاحترازِ عن الأرجاسِ الرُّوحانيَّةِ أَولى؛ خَوفًا من سَرَيانِها إلى الإنسانِ، وحَذرًا مِن أن يميلَ طَبعُ الإنسانِ إلى تلك الأعمالِ(٢).

٦- قال الله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ فإن رَضِيَ المسلِمونَ عنهم وأعرضوا عن لَوْمِهم؛ فإنَّ اللهَ لا يرضى عن المُنافِقينَ، وهذا تحذيرٌ للمُسلِمينَ من الرِّضا عن المُنافِقينَ بطريقِ الكِنايةِ؛ إذ قد عَلِمَ المُسلِمونَ أنَّ ما لا يُرضي اللهَ، لا يكونُ للمُسلِمينَ أن يرضَوا به(٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قولِه تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ حجةٌ في تَرْكِ قَبولِ الاعتذارِ ممَّن يُعْرَفُ كَذِبُهُ، بأيِّ وجهٍ عُرِفَ منه؛ بعد أنْ يكونَ يقينًا(٤).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيه إثباتُ

---

(١) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/ ٥٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠).

(٤) يُنظر: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٥٦٩).

الأفعالِ الاختياريَّةِ لله، الواقعةِ بمشيئتِه تعالى وقُدرَتِه[1].

٣- لم يُذكرِ المُؤمِنونَ في قَولِه تعالى: ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ لأنَّ هذا خِطابٌ للمُنافِقينَ؛ وهم لم يَكونوا يُطْلِعونَ المؤمِنينَ على ما في بُطونِهم[2].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ فيه إثباتُ الرِّضا لله عن المُحسِنينَ، والغضَبِ والسَّخَطِ على الفاسقينَ[3].

٥- في قولِه تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ دليلٌ على أنَّ مَن لم يُقْبَلْ عُذْرُه مِن الكذَّابين بغيرِ يمينٍ؛ فحَلَفَ قُبِلَ منه؛ لأنَّ اللهَ تبارك وتعالى لم يأمرْ بردِّ اليمينِ عليهم، كما أَمَرَ بردِّ الاعتذارِ، حيث قال سبحانه: ﴿قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ﴾، فإنَّما أخْبَرَ سبحانَه عن نفسِه بأنَّه لا يرضَى عنهم- وإنْ رضِي عنهم المحلوفُ له- ويؤيدُ هذا المعنَى حديثُ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((مَن حَلَفَ بالله فلْيَصْدُقْ، ومَن حُلِفَ له بالله فلْيَرْضَ، ومَن لم يَرْضَ بالله فليس مِن الله))[4]، فالمُتَعَذَّرُ إليه ينبغي له أنْ يَقْبَلَ يمينَ المعتذرِ على الظاهرِ؛ ويَكِلَ سريرتَه إلى الله تعالى[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٤٨).

(٢) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٨٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٨).

(٤) أخرجه ابن ماجه (٢١٠١)، والبيهقي (٢١٢٤٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
قال البيهقي: له متابعةٌ، وجوَّد إسنادَه وقوَّاه ابنُ كثيرٍ في ((إرشاد الفقيه)) (٢/ ٤١٣)، وصحَّح إسنادَه، ووثَّق رجالَه البوصيري في ((مصباح الزجاجة)) (١/ ٣٦٠)، وحسَّن إسنادَه ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (١١/ ٥٤٤)، وذكر الشوكاني في ((نيل الأوطار)) (٩/ ٢٢٤) أنَّ فيه محمدَ بنَ إسماعيل ثقةٌ، وبقيةُ إسنادِه رجالُ الصحيح، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٢١٠١).

(٥) يُنظر: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٥٧٠).

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيه إيماءةٌ مَقصودةٌ؛ فهم يَعلمونَ ما كانوا يعملونَ، ولكِنَّ اللهَ تعالى أعلَمُ منهم بها حتى لَيُنَبِّئُهم هو بها! وكم من دافعٍ خَفيٍّ للعَمَلِ يخفى حتى على صاحِبِه وهو يفعَلُه، واللهُ أعلمُ به منه! وكم من نتيجةٍ لهذا العمَلِ لا يدري صاحِبُه وقوعَها، والله يعلَمُها دونَ صاحِبِها، والمقصودُ هو نتيجةُ الإنباءِ، وهي الحِسابُ والجزاءُ الحَقُّ على الأعمالِ، ولكنَّ هذه النتيجةَ لا يُنَصُّ عليها، إنَّما يُنصُّ على الإنباءِ ذاتِه؛ لِمُناسبةِ هذه الإيماءةِ في هذا السِّياقِ(١).

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ لم يُذكَرِ المحلوفُ عليه؛ للدَّلالةِ على شُمولِه لكُلِّ ما يُعتَذرُ عنه(٢).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ دَلالةٌ على أنَّ أحكامَ الإسلامِ تجري على الظَّاهِرِ؛ فلم يَجعَلِ اللهُ تعالى لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنْ يقضِيَ عليهم في الدُّنيا بخلافِ ما أظهَروا، وقد جعلَ اللهُ حُكْمَه عليهم على سرائِرِهم، فأعلَمَ نبيَّه أنَّهم في الدَّركِ الأسفَلِ مِن النَّارِ، وجعَلَ حُكْمَ نبيِّه عليهم في الدُّنيا على علانِيَتِهم، بإظهارِ التَّوبةِ وما قامَتْ عليه بيِّنَةٌ من المسلِمينَ، وبما أقرُّوا بقَولِه، وبما جَحَدوا به(٣).

٩- المنافقونَ هم أخبثُ بني آدَمَ وأقذَرُهم وأرذَلُهم؛ فقد قال تعالى واصفًا لهم: ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ والرِّجسُ مِن كُلِّ جِنسٍ أخبَثُه وأقذرُه(٤).

١٠- قال الله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ هذه الآيةُ وما قَبْلَها دليلٌ على أنَّ المنافِقينَ

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٦٩٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٤).
(٣) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٣/ ٨٣).
(٤) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤٠٥).

تُحقَنُ دِماؤُهم؛ بسبَبِ الشَّهادَتينِ، ولا تجوزُ مُوالاتُهم والرِّضا عنهم(١).

١١- قَولُه تعالى: ﴿فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ شرطٌ يتضَمَّنُ النَّهيَ عن الرِّضا عنهم، وحُكمُ هذه الآيةِ يستمِرُّ في كلِّ مَغموصٍ عليه ببدعةٍ ونَحوِها، فإنَّ المؤمِنَ ينبغي أن يُبغِضَه، ولا يرضَى عنه لسبَبٍ مِن أسبابِ الدُّنيا(٢).

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ إرشادٌ إلى أنَّ رِضا المُسلِمينَ عن القَومِ الفاسِقينَ، ليس مِمَّا يُحبُّه اللهُ ويَرضاه، وهو سُبحانَه لا يرضَى عنهم(٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ استِئْنافٌ لِبَيانِ ما يتَصدَّرون له عِندَ القُفولِ إليهم(٤).

- قولُه: ﴿قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا﴾ تَخصيصُ هذا الخِطابِ برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعدَ تَعميمِه فيما سبَقَ لأصحابِه أيضًا؛ لأنَّ الجوابَ وظيفتُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأمَّا اعتِذارُهم فكان شامِلًا للمُسلمين شُمولَ الرُّجوعِ لهم(٥).

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٣).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٧٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ﴾ استِئْنافٌ تعليليٌّ للنَّهيِ: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾، مبنيٌّ على سؤالٍ نشَأ مِن قِبَلِهم، مُتفرِّعٍ على ادِّعاءِ الصِّدقِ في الاعتِذارِ، كأنَّهم قالوا: لِمَ لا نَعتَذِرُ؟ فقيل: لأنَّا لا نُصدِّقُكم أبدًا[1]؛ فالجُملةُ علَّةٌ للنَّهيِ عَنِ الاعتِذارِ؛ لأنَّ غرَضَ المعتَذِرِ أن يُصدَّقَ فيما يَعتَذِرُ به، فإذا علِم أنَّه لا يُصدَّقُ، ترَكَ الاعتذارَ[2].

- قولُه: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ جمَعَ ضميرَ المتكلِّمِ في ﴿نُؤْمِنَ- نَبَّأَنَا﴾؛ للمُبالَغةِ في حَسْمِ أطماعِهِم مِن التَّصديقِ رأسًا؛ ببَيانِ عدَمِ رَواجِ اعتِذارِهم عندَ أحَدٍ مِن المؤمِنين أصلًا[3].

- قولُه: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ تعليلٌ لنفيِ تَصْديقِهم، أي: قد نبَّأنا اللهُ مِن أخبارِكم بما يَقْتَضي تكذيبَكم[4]، وهذه الجُملَةُ علَّةٌ لانتِفاءِ تَصْديقِهم؛ لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ إذا أوحَى إلى رسولِه الإعلامَ بأخبارِهم، وما في ضَمائرِهم مِن الشَّرِّ والفسادِ، لم يَستَقِمْ معَ ذلك تَصديقُهم في مَعاذيرِهم[5].

- قولُه: ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ تقديمُ مَفعولِ الرُّؤيةِ ﴿عَمَلَكُمْ﴾ على ﴿ورَسُولُهُ﴾ المعطوفِ على الفاعِلِ ﴿اللَّهُ﴾؛ للإيذانِ باختلافِ حالِ الرُّؤيتَينِ وتَفاوُتِهما، وللإشعارِ بأنَّ مَدارَ الوعيدِ هو عِلمُه عزَّ وجلَّ بأعمالِهم[6].

- قولُه: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ فيه وَضْعُ المُظهَرِ ﴿عَالِمِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٤٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٨٩).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٣).

الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ مَوضِعَ المُضمَرِ- حيثُ لم يَقُلْ: (إليه)- لِتَشديدِ الوَعيدِ؛ فإنَّ عِلمَه سُبحانَه وتَعالى بجَميعِ أعمالِهم الظَّاهرةِ والباطنةِ، وإحاطتَه بأحوالِهم البارزةِ والكامِنةِ ممَّا يوجِبُ الزَّجرَ العَظيمَ(١)، ففي الإظهارِ تنبيهٌ على أنَّه لا يَعزُبُ عنه شيءٌ مِن أعمالِهم، زيادةً في التَّرغيبِ والتَّرهيبِ؛ ليعلَموا أنَّه لا يخفى على اللهِ شَيءٌ(٢).

٢- قولُه تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

- قولُه: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ...﴾ الجُملةُ مُستأنَفةٌ ابتِدائيَّةٌ، تَعْدادٌ لأحوالِهم، ومَعناها ناشئٌ عن مضمونِ جُملةِ ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ﴾؛ تنبيهًا على أنَّهم لا يَرْعَوُون عَن الكذبِ، ومُخادَعةِ المسلِمين(٣).

- قولُه: ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ تعليلٌ للأمرِ بالإعراضِ، ووُقوعُ (إنَّ) في أوَّلِها مُؤْذِنٌ بمَعنى التَّعليلِ(٤)؛ فالجُملةُ تَعليلٌ لِتَرْكِ مُعاتبَتِهم، يَعْني: أنَّ المُعاتَبةَ لا تَنفَعُ فيهم ولا تُصلحُهم، إنَّما يُعاتَبُ الأديمُ ذو البَشَرةِ(٥)، والمؤمنُ يُوبَّخُ على زَلَّةٍ تَفرُطُ منه؛ ليُطهِّرَه التوبيخُ بالحملِ على التَّوبةِ والاستغفارِ، وأمَّا هؤلاء فأرجاسٌ لا سبيلَ إلى تَطهيرِهم(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٩).

(٥) أي: إنَّمَا يُعَاتب من فيه رَجاءٌ ومُستعتَبٌ، ويُراجَع من تصلُحُ مُرَاجعَتُه، والمعاتبةُ: المعاودةُ، وبَشَرةُ الأديمِ: ظاهرُه الذي عليه الشَّعَر، أي أنَّ ما يُعادُ إلى الدباغِ مِن الأديمِ ما سلِمت بشرتُه. يُنظر: ((جمهرة الأمثال)) للعسكري (١/ ٦٩)، ((مجمع الأمثال)) للميداني (١/ ٤٠)، ((المعجم الوسيط (١/ ٥٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٠٢).

- والإعراضُ في قَوله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ إعراضُ إهانةٍ واحتقارٍ، لا إعراضُ صَفحٍ وإعذارٍ، وهذا التعبيرُ مِن أسلوبِ الحَكيم: وهو قَبولُ ما يَبغونَ من الإعراضِ عنهم، ولكِنْ على غيرِ الوَجهِ الذي يرجونَه منه، بل على ضِدِّه[1].

٣- قولُه تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ فيه احتراسٌ؛ لئلَّا يَتوهَّمَ مُتوهِّمٌ أنَّ رِضا المؤمنين يَقتضِي رِضَا الله عنهم[2].

- قوله: ﴿فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ على القولِ بأنَّ المرادَ به النهيُ؛ فيكون فيه نهيُ المُخاطَبينَ عن الرِّضا عنهم، والاغترارِ بمعاذيرِهم الكاذبةِ على أبلغِ وجهٍ وآكدِه؛ فإنَّ الرِّضا عمَّن لا يَرضَى عنه الله تعالى ممَّا لا يَكادُ يصدُرُ عن المؤمنِ[3]؛ فأبرز النَّهيَ عن الرِّضا في صورةٍ شَرطيَّةٍ، لأنَّ الرِّضا مِن الأمورِ القَلبيَّةِ التي تَخفَى، وخرَج مخرجَ المتردِّدِ فيه، وجُعِلَ جوابُه انتفاءَ رضا الله عنهم؛ فصار رضا المؤمنين عنهم أبعدَ شيءٍ في الوقوعِ؛ لأنَّه معلومٌ منهم أنَّهم لا يَرْضَونَ عمَّن لا يَرضَى اللهُ عنهم[4]، وهو أيضًا تحذيرٌ للمُسلِمينَ مِن الرِّضا عن المُنافِقين بطريقِ الكنايةِ؛ إذ قد علم المسلمون أنَّ ما لا يُرضِي اللهَ لا يكونُ للمُسلِمينَ أن يَرْضَوْا به[5].

- قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ فيه وضْعُ المُظهَرِ ﴿عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ مَوضِعَ ضَميرِهم (عنهم)؛ فعدَل عن الإتيانِ بضَميرِ (هم)

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٠٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٤- ٩٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٩١).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠).

إلى التَّعبيرِ بصِفتِهم؛ للتسجيل عليهم بالخُروجِ عن الطاعةِ، المُستوجِبِ لِمَا حلَّ بهم مِن السُّخطِ، وللإيذانِ بشُمولِ الحُكمِ لِمَن شارَكهم في ذلك الفسق؛ ففيه دَلالةٌ على ذَمِّهم، وتَعليلِ عَدمِ الرِّضا عنهم؛ فاشتملَ الكلامُ على خبَرٍ وعلى دَليلِه؛ فأفاد مَفادَ كلامَينِ؛ إذ التقديرُ: (فإنْ تَرْضَوا عنهم فإنَّ الله لا يَرضَى عنهم؛ لأنَّ الله لا يَرضَى عن القومِ الفاسِقين)[١]، وأيضًا ليدُلَّ ذلك على أنَّ بابَ التوبةِ مَفتوحٌ، وأنَّهم مهما تابوا هم أو غيرُهم، فإنَّ الله يتوبُ عليهم، ويرضَى عنهم، وأمَّا ما داموا فاسِقينَ، فإنَّ اللهَ لا يرضَى عليهم، لوجودِ المانِعِ مِن رضاه، وهو خروجُهم عمَّا رَضِيَه اللهُ لهم من الإيمانِ والطَّاعةِ، إلى ما يُغضِبُه من الشِّرك، والنِّفاقِ، والمعاصي[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (٣٤٨).

الآيتان (٩٧-٩٨)

﴿ ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٩٨﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿مَغْرَمًا﴾: أي: غُرمًا وخُسرانًا، وأصلُ (غرم): يدلُّ على مُلازمةٍ[1].

﴿وَيَتَرَبَّصُ﴾: أي: ينتَظِرُ، وأصلُ التربُّصِ: الانتظارُ والتمَكُّثُ[2].

﴿الدَّوَائِرَ﴾: أي: دوائِرَ الزَّمانِ بالمَكروهِ. ودوائِرُ الزَّمانِ: صُروفُه التي تأتي مرَّةً بخيرٍ ومرَّةً بشَرٍّ. والدائرةُ تكونُ في المَكروهِ، وأصلُ (دور): يدلُّ على إحداقِ الشَّيءِ بالشَّيءِ مِن حوالَيه[3].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ الأعرابَ أشَدُّ كُفرًا باللهِ، وأشَدُّ نِفاقًا مِن كُفَّارِ ومُنافِقي أهلِ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٥).
قال الواحدي: (معنى الغُرمِ: لُزومُ نائبةٍ في المالِ، مِن غيرِ جِنايةٍ، فيثقُلُ ذلك على الإنسانِ). ((البسيط)) (١١/ ١٥).
وقال ابن عطية: (أصلُ «المَغرَم» الدَّيْنُ، ومنه تعوَّذَ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن المَغرَمِ والمَأثَم، ولكنْ كثُرَ استعمالُ المَغرَمِ فيما يؤدِّيه الإنسانُ، ممَّا لا يلزَمُه بحَقٍّ، وفي اللَّفظِ معنى اللُّزومِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٣٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٨).

الحضَرِ، وأَولى وأحرى ألَّا يَعلَموا الحلالَ والحَرامَ، والشَّرائِعَ التي أنزَلَها اللهُ على رَسولِه مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، واللهُ عليمٌ حَكيمٌ.

ويُخبِرُ أنَّ مِن الأعرابِ مَن يحتَسِبُ ما يُنفِقُه في الخيرِ غُرمًا وخَسارةً، فيُنفِقُ وهو كارِهٌ، لا يرجو ثوابًا عندَ الله تعالى، ويترَبَّصُ بالمُسلِمينَ المصائِبَ، واختلالَ الأمورِ، وغَلَبَةَ الأعداءِ عليهم، جعَلَ اللهُ عليهم وَحْدَهم المصائِبَ التي تَسوؤُهم، وتُفسِدُ أمورَهم، واللهُ سَميعٌ عَليمٌ.

تَفسيرُ الآيتَين:

﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٧) ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ عَزَّ وجَلَّ أحوالَ المُنافِقينَ بالمدينةِ؛ ذكَرَ مَن كان خارجًا منها، ونائيًا عنها مِن الأعرابِ[١].

وأيضًا لَمَّا رتَّبَ اللهُ سُبحانه الاستئذانَ في القُعودِ، والرِّضا بما فيه من الدَّناءةِ، على عدَمِ الفِقهِ تارةً، والعِلمِ أُخرَى، وختَمَ بصِنفِ الأعرابِ؛ بيَّنَ أنَّ الأعرابَ أَوْلَى بذلك؛ لِكَونِهم أعرَقَ في هذا الوصفِ، وأجرأَ على الفِسقِ؛ لبُعدِهم عن مَعدِنِ العِلمِ، وصَرفِهم أفكارَهم في غير ذلك مِن أنواعِ المَخازي لتحصيلِ المالِ، الذي كلَّما داروا عليه طار عنهم فأبعَدَ، فهم لا يزالونَ في همِّه، قد شغَلَهم ذلك عن كُلِّ هَمٍّ، وهم يحسَبونَ أنَّهم يُحسِنونَ صُنعًا[٢].

﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٣١)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ٤١٦).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٤).

أي: سُكَّانُ البوادي[(١)] أَشَدُّ كُفرًا باللهِ، وأَشَدُّ نِفاقًا، مِن كفَّارِ ومُنافقي أهلِ الحضَرِ في المُدنِ والقُرى[(٢)].

﴿ وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ﴾.

أي: والأعرابُ أَوْلى وأحرَى بألَّا يَعلَموا الحلالَ والحرامَ، والشَّرائعَ التي أنزَلَها اللهُ على رَسولِه محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[(٣)].

---

(١) قال ابن تيمية: (لفظُ: (الأعرابِ) هو في الأصلِ: اسمٌ لِبَاديةِ العَرَبِ؛ فإنَّ كُلَّ أمَّةٍ لها حاضرةٌ وباديةٌ، فباديةُ العَربِ: الأعرابُ). ((اقتضاء الصراط المستقيم)) (١/ ٤١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٣٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٣١)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ٤١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١١).

قال ابن جرير: (وإنَّما وصَفَهم جلَّ ثناؤه بذلك؛ لِجَفائِهم، وقسوةِ قُلوبِهم، وقلَّةِ مُشاهَدتِهم لأهلِ الخَيرِ؛ فهم لذلك أقسَى قلوبًا، وأقَلُّ عِلمًا بحقوقِ اللهِ). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٣٢).

وقال الواحدي: (قال أبو إسحاقَ: كُفرُهم أَشَدُّ؛ لأنَّهم أقسَى وأجفَى مِن أهلِ المَدَرِ، وهم أيضًا أبعَدُ عن سَماعِ التَّنزيلِ، وإنذارِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمعنى: أشدُّ كفرًا مِن أهلِ الحَضَرِ؛ لجَفاءِ صُدورِهم ونُبُوِّ طِباعِهم). ((البسيط)) (١١/ ١٣).

وقال ابنُ عطيةَ: (هذه الآيةُ إنَّما نزَلَت في مُنافِقينَ كانوا في البوادي، ولا محالةَ أنَّ خَوفَهم هناك أقلُّ مِن خوفِ مُنافقي المدينةِ، فألسِنَتُهم لذلك مُطلَقةٌ، ونِفاقُهم أنجَمُ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٣).

وقال ابن عاشور: (﴿أَشَدُّ﴾ و﴿أَجْدَرُ﴾ اسمَا تفضيلٍ، ولم يُذكَرْ معهما ما يدُلُّ على مُفضَّلٍ عليه، فيجوزُ أن يكونَا على ظاهِرِهما، فيكون المفضَّلُ عليه أهلَ الحضَرِ، أي: كفَّار ومُنافِقي المدينةِ. وهذا هو الذي تواطأ عليه جميعُ المفسِّرينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٣٣)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ٤١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١١، ١٢).

قال ابن عاشور: (إنَّما كانوا أجدَرَ بعَدمِ العِلمِ بالشَّريعةِ؛ لأنَّهم يَبعُدونَ عن مجالِسِ التَّذكيرِ ومنازِلِ الوَحيِ، ولقلَّةِ مُخالَطتِهم أهلَ العِلمِ، مِن أصحابِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٢).

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

أي: واللهُ عليمٌ بخَلقِه، لا يخفى عليه شيءٌ مِن أحوالِهم، فيعلَمُ مُنافِقَهم وكافِرَهم، ويَعلَمُ مَن يستحِقُّ أن يُعلِّمَه منهم العِلمَ والإيمانَ، ممَّن لا يستحِقُّ، كأولئك الأعرابِ، حكيمٌ في تدبيرِ خَلْقِه ومُجازاتِهم، فيضَعُ كُلَّ شَيءٍ في موضِعِه اللَّائِقِ به(١).

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ أنَّ الأعرابَ أَولى بعَدَمِ الفِقهِ والعلمِ؛ لِكَونِهم أعرَقَ في هذا الوَصفِ، وأجرأَ على الفِسقِ، فلمَّا أثبت هذا الوصفَ لهم؛ بيَّنَ أنَّ أفرادَه انقسَمُوا إلى مَن ثبَت على ما هو الأليقُ بحالِهم، وقِسمٌ نزَعَ إلى ما هو الأليقُ بأهلِ المَدَرِ، كما انقسَمَ أهلُ المَدَرِ إلى مثلِ ذلك، وبدأ بالخبيثِ؛ لأنَّه الأصلُ فيهم(٢).

وأيضا فبعد الوَصفِ الرَّئيسِ العامِّ للأعرابِ، يجيءُ التَّصنيفُ حسَبَما أحدثَ الإيمانُ في النُّفوسِ من تعديلاتٍ، وما أنشَأَه كذلك من فروقٍ بين القُلوبِ التي خالطَتْها بشاشَتُه، والقلوبِ التي بَقِيَت على ما فيها من كفرٍ ونِفاقٍ؛ ممَّا يمثِّلُ الواقعَ في المجتَمَعِ المسلمِ حِينذاك، وربَّما عجَّلَ بذِكرِ المُنافِقينَ مِن الأعرابِ قبل المُؤمِنينَ منهم، إلحاقًا لهم بمُنافِقي المدينةِ الذين كان يتحَدَّثُ عنهم في المقطَعِ السَّالفِ كُلِّه، وليتَّصِلَ جَوُّ الحديثِ عن المُنافِقينَ مِن هؤلاءِ ومِن هؤلاءِ(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٥٠، ٤٥١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٤).

(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٧٠٠).

﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا ﴾.

أي: ومِن سُكَّانِ البوادي من يَعُدُّ ما يُنفِقُه في الخيرِ غُرمًا ونَقصًا وخَسارةً، فيُنفِقُ ما يُنفِقُ مُكرَهًا لا يرجو ثوابَه عند اللهِ تعالى[(١)].

﴿ وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ ﴾.

أي: ومِن الأعرابِ مَن ينتَظِرُ أن تحُلَّ بكم- أيُّها المُسلِمونَ- المصائِبَ، واختلالَ الأمورِ، وغَلَبةَ الأعداءِ عليكم[(٢)].

﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ﴾.

أي: جعَلَ اللهُ على الأعرابِ المُنافِقينَ- وَحْدَهم- المصائِبَ التي تَسوؤُهم، وتُفسِدُ أمورَهم، لا عليكم أيُّها المؤمِنونَ[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٣٣)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٣٣)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٥، ١٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣).

قال ابن عاشور: (المعنى أنَّهم ينتظرونَ ضَعْفَكم وهزيمَتَكم، أو يَنتَظِرونَ وفاةَ نَبِيِّكم، فيُظهِرونَ ما هو كامِنٌ فيهم من الكُفرِ. وقد أنبأ اللهُ بحالِهم التي ظهَرَت عَقِبَ وفاةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهم أهلُ الرِّدَّةِ من العَرَبِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٤).

(٣)يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٣٣)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣).

قال محمد رشيد رضا: (﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ دعاءٌ عليهم بما يتربَّصونَه بالمؤمنينَ، أو خبرٌ بحقيقةِ حالِهم معهم، ومآلُ الاحتمالينِ واحِدٌ؛ لأنَّ الخَبَرَ في كلامِه تعالى حقٌّ، ومَضمونَه كمضمونِ الدُّعاءِ واقِعٌ ما له من دافِعٍ، والدعاءُ منه عزَّ وجَلَّ يرادُ به مآلُه، وهو وقوعُ السَّوءِ عليهم وإحاطَتُه بهم). ((تفسير المنار)) (١١/ ٩).

الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: واللهُ سَميعٌ لأقوالِ عِبادِه من الأعرابِ المُنافِقينَ وغَيرِهم، عليمٌ ببواطِنِهم، عليمٌ بتَدبيرِهم، وبمن يستحِقُّ منهم النَّصرَ، ومَن يستحِقُّ الخِذلانَ(١).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فضيلةُ العِلمِ، وأنَّ فاقِدَه أقربُ إلى الشرِّ ممَّن يَعرِفُه؛ لأنَّ اللهَ ذَمَّ الأعرابَ، وأخبَرَ أنَّهم أشَدُّ كُفرًا ونِفاقًا، وذكَرَ السَّبَبَ الموجِبَ لذلك، وأنَّهم أجدَرُ ألَّا يَعلَموا حدودَ ما أنزَلَ اللهُ على رسولِه(٢).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أنَّ العِلمَ النَّافعَ الذي هو أنفَعُ العلومِ، معرفةُ حُدودِ ما أنزَلَ الله على رسولِه، من أصولِ الدِّينِ وفُروعِه؛ كمَعرفةِ حُدودِ الإيمانِ والإسلامِ والإحسانِ، والتَّقوى والفَلاحِ، والطَّاعةِ والبِرِّ، والصِّلةِ والإحسانِ، والكُفرِ والنِّفاقِ، والفُسوقِ والعِصيانِ، والزِّنا والخَمرِ والرِّبا، ونحو ذلك؛ فإنَّ في معرفتِها يتمَكَّنُ مِن فِعْلِها- إن كانت مأمورًا بها- أو تَرْكِها- إن كانت محظورةً- ومِن الأمرِ بها، أو النَّهيِ عنها(٣).

٣- لَمَّا ذكر اللهُ المُنافِقينَ الذين استأذَنوه في التخلُّفِ عن الجهادِ في غزوةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٤٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

تَبوكَ، وذَمَّهم، وهؤلاء كانوا من أهلِ المَدينةِ؛ قال سبحانه: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾؛ فإنَّ الخَيرَ كُلَّه- أصلَه وفَصْلَه- مُنحصِرٌ في العلمِ والإيمانِ كما قال سبحانه: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١] وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ﴾ [الروم: ٥٦] وضِدُّ الإيمانِ: إمَّا الكُفرُ الظَّاهِرُ، أو النِّفاقُ الباطِنُ، ونقيضُ العِلمِ: عَدَمُه[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ أنَّ الكُفرَ والنِّفاقَ يَزيدُ وينقُصُ، ويَغلُظُ ويخِفُّ بحسَبِ الأحوالِ[2].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ إن كان اللهُ تعالى قد وصفَ العرَبَ بالجهلِ في القرآنِ، بقَولِه تعالى: ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ فكيف يصيرُ الاحتجاجُ بألفاظِهم وأشعارِهم على كتابِ اللهِ تعالى وسنَّةِ رَسولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؟ فالجواب: هذا وصفٌ مِن اللهِ تعالى لهم بالجَهلِ في أحكامِ القُرآنِ لا في ألفاظِه، ونحن لا نحتَجُّ بلُغَتِهم في بيانِ الأحكامِ، بل نحتَجُّ بلُغَتِهم في بيانِ مَعاني الألفاظِ؛ لأنَّ القُرآنَ والسنَّةَ جاءا بلُغَتِهم[3].

٣- قال الله تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ لَمَّا كانت الغِلظةُ والجَفاءُ في أهلِ البوادي، لم يبعَثِ اللهُ منهم رسولًا، وإنما كانت البَعثةُ مِن أهلِ القُرى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ

(١) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ٤١٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٩).
(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٤٠).

قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾[١].

٤- في قَولِه تعالى عن الأعرابِ: ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ مدحٌ للحافِظينَ لِحُدودِ الله، وذَمٌّ لِمَن لا يعرفُ حدَّ الحَلالِ منَ الحَرامِ[٢].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾ هؤلاء وإن كانوا من جملةِ مُنافقي الأعرابِ، فتخصيصُهم بالتَّقسيمِ هنا منظورٌ فيه إلى ما اختُصُّوا به من أحوالِ النِّفاقِ؛ لأنَّ التَّقاسيمَ في المقاماتِ الخِطابيَّةِ والمجادلاتِ، تعتمِدُ اختلافًا ما في أحوالِ المُقَسَّم، ولا يُعبأُ فيها بدخولِ القسمِ في قَسيمِه[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ استِئنافٌ ابتِدائيٌّ رجَع به الكلامُ إلى أحوالِ (المُعذِّرين مِن الأعرابِ)، و(الَّذين كذَبوا اللهَ ورسولَه مِنهم)، وما بينَ ذلك استِطرادٌ دَعا إليه قَرْنُ الَّذين كذَبوا اللهَ ورسولَه في الذِّكرِ معَ الأعرابِ، فلمَّا تَقضَّى الكلامُ على أولئك تخلَّص إلى بقيَّةِ أحوالِ الأعرابِ؛ وللتَّنبيهِ على اتِّصالِ الغرَضَينِ وقعَ تَقديمُ المسنَدِ إليه، وهو لفظُ ﴿الْأَعْرَابُ﴾؛ للاهتِمامِ به مِن هذه الجِهَةِ، ومِن وراءِ ذلك تنبيهُ المسلِمين لأحوالِ الأعرابِ؛ لأنَّهم لِبُعدِهم عَن الاحتِكاكِ بهم، والمُخالَطةِ معَهم قد تَخْفَى عليهم أحوالُهم، ويَظُنُّون بجَميعِهم خيرًا[٤].

- وإنَّما أعادَ هذه الأحكامَ؛ لأنَّ المقصودَ مِنها مُخاطَبةُ مُنافِقي الأعرابِ؛ ولهذا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٢).
(٢) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ١٦١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ١٠- ١١).

السَّببِ بيَّن أنَّ كُفرَهم ونِفاقَهم أشدُّ، وجَهْلَهم بحُدودِ ما أنزَل اللهُ أكمَلُ(١).

- ولفظةُ ﴿الْأَعْرَابُ﴾ لفظةٌ عامَّةٌ، ومَعْناها الخُصوصُ، وهم جَمعٌ مُعيَّنون مِن مُنافِقي الأعرابِ، كانوا يُوالون مُنافِقي المدينةِ، فانصرَف هذا اللَّفظُ إليهم، وهذا مَعلومٌ بالوُجودِ، وكيف كان الأمرُ، وهو مِن بابِ وصْفِ الجِنْسِ بأحَدِ أفرادِه أو بَعضِهم؛ كما في قولِه تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧]؛ إذ ليس كلُّهم كما ذُكِر(٢).

- وجملةُ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ تَذْييلٌ لهذا الإفصاحِ عَن دَخيلَةِ الأعرابِ وخُلقِهم، أي: عليمٌ بِهم وبِغَيرِهم، وحَكيمٌ في تَمييزِ مَراتبِهم(٣).

٢- قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

- قوله: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ ﴿السَّوْءِ﴾ بالفَتحِ مصدرٌ، وأُضيفَ إلى الدَّائرةِ- الَّتي هي في الأصلِ مصدرٌ أو اسمُ فاعلٍ، مِن دارَ يَدورُ، وسُمِّي به عاقبةُ الزَّمانِ (أي: حادثته) للمُبالَغةِ؛ مِثلُ: رَجُلُ صِدْقٍ(٤). وقيلَ: معنى الدَّائرةِ يَقتَضي مَعنى السَّوْءِ؛ وإنَّما هي إضافةُ بيانٍ وتأكيدٍ، كما قالوا: شَمسُ النَّهارِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٣)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٢٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٤/ ١٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٩٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٤)، وينظر أيضا: ((فتح البيان)) للقنوجي (١٣/ ٩١).

الآيتان (٩٩-١٠٠)

﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾: أي: دعاءَ الرَّسولِ واستغفارَه، وأصلُ (صلى): يدلُّ على الدُّعاءِ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يُبَيِّنُ تعالى أنَّ مِن الأعرابِ مَن يؤمِنُ باللهِ تعالى وبيَومِ القيامةِ، ويحتَسِبُ ما يُنفِقُه في الخيرِ عند اللهِ، يرجو به القُربَ منه عزَّ وجلَّ، ويبتغي دعاءَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عند أخْذِ الصَّدَقةِ منه، ألَا إنَّ دُعاءَ الرَّسولِ قُربةٌ عَظيمةٌ لهم، تُقَرِّبُهم إلى ربِّهم، سيُدخِلُهم ربُّهم في رَحمتِه؛ إنَّه غَفورٌ رَحيمٌ.

ثُمَّ أخبَرَ الله تعالى أنَّ أصحابَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، الذين سبَقوا بالإيمانِ مِن المُهاجِرينَ والأنصارِ، والتَّابعينَ لهم الذين سَلَكوا طريقَهم المُستقيمَ في الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ؛ رَضِيَ الله عنهم، ورَضُوا عنه، وأعَدَّ لهم جنَّاتٍ تَجري من تحتِ أشجارِها ومبانيها الأنهارُ، لابثينَ فيها على الدَّوامِ، ذلك هو الفَوزُ العظيمُ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١، ١٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٠٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٥)، ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٥٠).

تَفسيرُ الآيتين:

﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى أنَّه حصَلَ في الأعرابِ مَن يتَّخِذُ إنفاقَه في سبيلِ اللهِ مَغرمًا؛ بيَّنَ أيضًا أنَّ فيهم قومًا مُؤمنينَ صالِحينَ مُجاهِدينَ، يتَّخِذُونَ إنفاقَهم في سبيلِ اللهِ مَغنمًا[١]، فقال:

﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾.

أي: ومِن سُكَّانِ البوادي مَن يُؤمِنُ باللهِ تعالى، وبِيَومِ القيامةِ وما فيه من الثَّوابِ والعِقابِ[٢].

﴿ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ ﴾.

أي: ويحتَسِبُ ما يُنفِقُه في الخيرِ عندَ اللهِ، يرجو به القُرْبَ منه سُبحانَه وتعالى[٣].

﴿ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ﴾.

أي: ويبتغي الأعرابُ المؤمِنونَ بنَفَقاتِهم أيضًا دعاءَ الرَّسولِ لهم عند أخْذِه صَدَقاتِهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٣٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٥١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٣٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٣٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٤)، ((تفسير القرطبي)) =

كما قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣].

وعن عبدِ اللهِ بنِ أبي أوفى رَضِيَ الله عنهما، قال: ((كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا أتاه قومٌ بصَدَقتِهم قال: اللهُمَّ صَلِّ على آلِ فُلانٍ، فأتاه أبي بصَدَقتِه، فقال: اللهمَّ صَلِّ على آلِ أبي أوفى))[١].

﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾.

أي: ألا إنَّ صلواتِ الرَّسولِ[٢] قُربةٌ عظيمةٌ لهم، تقرِّبُهم إلى الله تعالى[٣].

= (٨/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥).

قال ابنُ عطيةَ: (الصَّلاةُ في هذه الآيةِ: الدُّعاءُ إجماعًا). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٤).

(١) رواه البخاري (١٤٩٧) واللفظ له، ومسلم (١٠٧٨).

(٢) وهو اختيار ابنِ جريرٍ، والواحديِّ، والسعديِّ، أنَّ الضَّميرَ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّهَا﴾ يعودُ على صلواتِ الرَّسولِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٣٦)، ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٥١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٩).

وممَّن اختار عودَه على النَّفَقات: القرطبيُّ، والشوكاني، والقاسمي، ومحمد رشيد رضا، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٣٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٥١)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٤٨٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٦).

وقيل المعنى: أنَّها شهادةٌ مِن الله للمتصدقِ بصحةِ ما اعتقد- مِن كونِ نفقتِه قرباتٍ وصلواتٍ- وتصديقٌ لرجائِه. وممَّن اختار هذا القول: الزمخشريُّ، والرازيُّ، وأبو حيَّان. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٠٤)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٢٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٩٣).

قال ابنُ كثيرٍ: (هم الذين يتخذونَ ما ينفقونَ في سبيلِ الله قربةً يتقربون بها عندَ الله، ويبتغونَ بذلك دعاءَ الرسولِ لهم، ﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ﴾ أي: ألَا إنَّ ذلك حاصلٌ لهم). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٣٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٩).

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: أنا عند ظَنِّ عبدي بي، وأنا معه حين يذكُرُني، إن ذَكَرني في نفسِه، ذكَرْتُه في نفسي، وإن ذكَرَني في ملأٍ، ذكرتُه في ملأٍ هم خَيرٌ منهم، وإن تقرَّبَ منِّي شِبرًا، تقرَّبتُ إليه ذِراعًا، وإن تقرَّبَ إليَّ ذِراعًا، تقرَّبتُ منه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيتُه هَرولةً))(١).

﴿سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾.

أي: سيُدخِلُ اللهُ هؤلاء الأعرابَ المؤمنينَ في جملةِ عِبادِه المرحومينَ أصحابِ الجنَّةِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠].

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ غفورٌ لذُنوبِهم فيَستُرُها لهم، ويتجاوَزُ عن مؤاخَذتِهم بها، رحيمٌ بهم في الدُّنيا والآخرةِ، فلا يعذِّبُهم، بل يُفيضُ عليهم نِعَمَه، ويوفِّقُهم للخيرِ، ويُثيبُهم عليه(٣).

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠)﴾.

---

(١) رواه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٣٦)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٦).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى فضائِلَ الأعرابِ الذين يتَّخِذونَ ما يُنفِقونَ قُرباتٍ عند اللهِ وصَلَواتِ الرَّسولِ، وما أعَدَّ لهم مِن الثَّوابِ؛ بيَّنَ أنَّ فوقَ مَنزلتِهم منازِلَ أعلى وأعظَمَ منها، وهي منازِلُ السَّابقينَ الأوَّلينَ(١)، فعقَّبَ بذِكرِ القُدوةِ الصَّالحةِ والمَثَلِ الكاملِ في الإيمانِ والفَضائِلِ، والنُّصرةِ في سَبيلِ اللهِ؛ لِيَحتَذيَ متطلِّبُ الصَّلاحِ حَذْوَهم، ولئلَّا يخلوَ تقسيمُ القبائِلِ السَّاكنةِ بالمَدينةِ وحَوالَيها وبَواديها، عن ذِكرِ أفضَلِ الأقسامِ تَنويهًا به، وبهذا تمَّ استقراءُ الفِرَقِ وأحوالِها(٢).

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾.

أي: وأصحابُ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الذين سَبَقوا المُسلِمينَ أوَّلًا إلى الإيمانِ، مِن الذين تركوا قومَهم، وفارَقُوا أوطانَهم، ومِن أهلِ المدينةِ الذين نَصَروا الرَّسولَ على الكافرينَ، وآوَوْا أصحابَه المهاجِرينَ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٣٧)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٧).

قال ابنُ عطيةَ: (لو قال قائلٌ: إنَّ السَّابقينَ الأوَّلينَ هم جميعُ مَن هاجرَ إلى أن انقطَعَت الهجرةُ، لكان قولًا يقتضيه اللَّفظُ، وتكونُ ﴿مِنْ﴾ لِبيانِ الجِنسِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٥).

وقال الرازي: (كلمة (مِن) في قولِه: ﴿مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ ليست للتبعيضِ، بل للتَّبيينِ، أي: والسَّابقون الأولونَ الموصوفونَ بوَصفِ كَونِهم مهاجرينَ وأنصارًا، كما في قولِه تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠] وكثيرٌ من النَّاسِ ذهبوا إلى هذا القَولِ). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٢٩).

وعلى هذا فالمدحُ الحاصلُ في هذه الآيةِ يتناولُ جميعَ الصحابة؛ لأنَّ جملةَ الصحابةِ موصوفونَ بكونِهم سابقينَ أوَّلينَ بالنسبةِ إلى سائرِ المسلمينَ. يُنظر: المصدر السابق.

وقيل: إنَّ (مِن) تبعيضيةٌ، وعلى ذلك يكونُ معنَى قولِه: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ﴾ أي: الذين اتبعوا =

كما قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٨-٩].

وعن غَيلانَ بنِ جَريرٍ، قال: قلتُ لأنَسِ بنِ مالكٍ: (أرأيتَ اسمَ الأنصارِ، كُنتُم تُسَمَّونَ به أم سمَّاكم اللهُ؟ قال: بل سَمَّانا اللهُ عَزَّ وجَلَّ)[(١)].

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٍ﴾.

أي: والتَّابعونَ للسَّابِقينَ مِن المهاجِرينَ والأنصارِ، الذين سَلَكوا طريقَهم المستقيمَ في الإيمانِ، والعمَلِ الصَّالحِ[(٢)].

= السَّابقين الأوَّلين مِن المهاجرينَ والأنصارِ، وهم المتأخرونَ عنهم مِن الصحابةِ فمَن بعدَهم إلى يومِ القيامةِ، وقد اختلفوا في السابقينَ الأوَّلين مِن المهاجرينَ والأنصارِ، مَن هم؟ وما هي المدةُ التي عندَها ينتهي وصفُ السَّابقين مِن المهاجرينَ والأنصارِ معًا. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٢٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٧).

وقال القرطبي: (اتَّفقوا على أنَّ مَن هاجَر قبلَ تحويلِ القِبلةِ، فهو من المهاجِرينَ الأوَّلينَ مِن غَيرِ خِلافٍ بينهم). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٣٦).

وقال ابن تيمية: (والسَّابقون الأوَّلونَ أفضَلُ مِن الذين أنفَقوا من بعدِ الفَتحِ وقاتلوا، وهم- على أصَحِّ القولَينِ- الذين بايَعوا تحت الشَّجرةِ عام الحُدَيبيةِ، وقيل: من صلى إلى القِبلَتينِ، وليس بشيءٍ). ((منهاج السنة النبوية)) (٤/ ٣٩٧).

(١) رواه البخاري (٣٧٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٣٧، ٦٤٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٨).

قال البغوي: (﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ قيل: بقيَّةُ المهاجرينَ والأنصارِ سوى السَّابقينَ الأوَّلين. وقيل: هم الذين سَلَكوا سبيلَهم في الإيمانِ والهِجرةِ أو النُّصرةِ إلى يومِ القيامةِ. =

كما قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾.

أي: رَضِيَ اللهُ عن الصَّحابةِ السَّابقينَ، والتَّابعينَ لهم بإحسانٍ، لِمَا أطاعُوه، ورَضُوا هم عن اللهِ؛ لما أنعَمَ عليهم في الدُّنيا، وأثابَهم في الآخرةِ[1].

كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾.

أي: وهيَّأ اللهُ تعالى لأصحابِ النبيِّ والتَّابعينَ لهم بإحسانٍ، جَنَّاتٍ في الدَّارِ الآخرةِ تجري تحت أشجارِها وغُرَفِها وقصورِها الأنهارُ[2].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا﴾.

أي: لابثينَ فيها على الدَّوامِ بلا انتهاءٍ، فلا يموتونَ فيها، ولا عنها ينتَقِلونَ[3].

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

= وقال عطاءٌ: هم الذين يذكُرونَ المُهاجِرينَ والأنصارَ بالترحُّمِ والدُّعاءِ. ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٨٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٤٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٥)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٥٣)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٠).

أي: دُخولُ الجنَّةِ والخلودُ فيها أعظَمُ فَوزٍ يحصُلُ به كلُّ مرغوبٍ، ويَندفِعُ به كلُّ مَحذورٍ(١).

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ ينبغي للمؤمنِ أن يؤدِّيَ ما عليه من الحُقوقِ، مُنشرِحَ الصَّدرِ، مطمَئِنَّ النَّفسِ، ويحرِصَ أن تكونَ مَغنَمًا، لا مَغرمًا(٢).

٢- في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾ مع قوله سبحانه: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ﴾ حجةٌ في إبطالِ أعمالِ الرياءِ، وإحباطِ أَجْرِ النفقةِ إذا لم تُحْتَسَبْ، وفيه الحَثُّ على استشعارِ الاحتسابِ فيها، واتِّخاذِها قُرْبَةً(٣).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ إرشادٌ كريمٌ إلى أنَّه لا يُكتَفى بمجَرَّدِ الدَّعوَى في اتِّباعِ الصَّحابةِ الكِرامِ، وإنَّما لا بدَّ أنْ يكونَ المتَّبِعُ مُحسِنًا بأداءِ الفَرائِضِ، واجتنابِ المَحارِمِ؛ لئلَّا يقَعَ الاغترارُ بمجَرَّدِ الموافَقةِ بالقَولِ(٤).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ إرشادٌ كريمٌ إلى أنْ يُحسِنَ المُتَّبِعُ لهم القولَ فيهم، ولا يقدَحَ فيهم، وقد اشتَرَط اللهُ ذلك؛ لعِلْمِه بأنَّه سيكون

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٧)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٤٩).

(٣) يُنظر: ((النُّكتُ الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٥٧١).

(٤) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/ ٩٦).

أقوامٌ ينالونَ منهم، وهذا مِثلُ قَولِه تعالى بعد أنْ ذكَرَ المُهاجِرينَ والأنصارَ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[1] [الحشر: ١٠].

الفَوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- لا بدَّ في جميعِ الطَّاعاتِ مِن تقدُّمِ الإيمانِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ﴾[2].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ في هذه الآيةِ دَليلٌ على أنَّ الأعرابَ كأهلِ الحاضِرةِ؛ منهم الممدوحُ، ومنهم المذمومُ، فلم يذُمَّهم اللهُ على مجرَّدِ تَعرُّبِهم وباديَتِهم، إنَّما ذَمَّهم على تَرْكِ أوامِرِ الله، وأنَّهم في مَظِنَّةِ ذلك[3].

٣- قوله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ﴾ جُمِعَ قُرُبات باعتبارِ تعدُّدِ الإنفاقِ، فكُلُّ إنفاقٍ هو قُربةٌ عند الله؛ لأنَّه يُوجِبُ زيادةَ القُرْبِ[4].

٤- قوله تعالى: ﴿وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ جُمِعَت كلمةُ (صلوات)؛ لأنَّ كلَّ إنفاقٍ يقَدِّمونَه إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يدعو لهم بسبَبِه دعوةً، فبتكَرُّرِ الإنفاقِ تتكرَّرُ الصَّلاةُ[5].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ

---

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/ ٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ فيه تفضيلُ السَّابقِ إلى الإسلامِ والهِجرةِ، وأنَّ السَّابقينَ مِن الصَّحابةِ أفضَلُ ممَّن تلاهم[1].

٦- قال الله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أخبَرَ اللهُ العظيمُ أنَّه قد رَضِيَ عن السَّابقينَ الأوَّلينَ مِن المهاجِرينَ والأنصارِ والذين اتَّبعوهم بإحسانٍ، فيا ويلَ مَن أبغَضَهم أو سبَّهم، أو أبغَضَ أو سَبَّ بَعضَهم!

ولا سيَّما سيِّدُ الصَّحابةِ بعد الرَّسولِ وخَيرُهم وأفضَلُهم، الصِّدِّيقُ الأكبَرُ، والخليفةُ الأعظَمُ أبو بكرِ بنُ أبي قُحافةَ، رَضِيَ اللهُ عنه وأَرضاه؛ فإنَّ الطَّائفةَ المَخذولةَ مِن الرَّافضةِ يعادُونَ أفضَلَ الصَّحابةِ، ويُبغِضُونَهم ويَسُبُّونَهم، عياذًا باللهِ من ذلك. وهذا يدلُّ على أنَّ عُقولَهم مَعكوسةٌ، وقلوبَهم مَنكوسةٌ، فأين هؤلاء من الإيمانِ بالقُرآنِ، إذ يسُبُّونَ مَن رَضِيَ اللهُ عنهم؟! وأمَّا أهلُ السنَّةِ فإنَّهم يترَضَّونَ عَمَّن رَضِيَ الله عنه، ويَسبُّونَ مَن سَبَّه اللهُ ورَسولُه، ويُوالونَ مَن يوالي اللهَ، ويُعادونَ مَن يُعادي اللهَ، وهم مُتَّبِعونَ لا مُبتدِعونَ، ويقتَدونَ ولا يَبتَدُونَ؛ ولهذا هم حِزبُ اللهِ المُفلِحونَ، وعِبادُه المؤمِنونَ[2].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ يدخُلُ في هذا اللَّفظِ التَّابِعونَ، وسائِرُ الأمَّةِ، لكِنْ بِشَرطِ الإحسانِ[3].

٨- دلَّ قولُه تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٥).

اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ على وجوبِ اتِّباعِ الصَّحابةِ الكِرام، ووجهُ الدَّلالةِ أنَّ اللهَ تعالى أثنى على مَن اتَّبَعَهم، فإذا قالوا قولًا فاتَّبَعَهم متَّبِعٌ عليه قبل أنْ يَعرِفَ صِحَّتَه، فهو متَّبِعٌ لهم، فيجِبُ أنْ يكون محمودًا على ذلك، وأنْ يستحِقَّ الرِّضوانَ(١).

٩- اقتضى قولُه تعالى: ﴿اتَّبَعُوهُمْ﴾ الثناءَ على مَن يتَّبِعُ كلَّ واحدٍ منهم؛ لأنَّه حُكْمٌ عُلِّقَ عليهم، فقد تناولَهم مجتَمِعينَ ومُنفَرِدينَ، والأصلُ في الأحكامِ المعَلَّقةِ بأسماءٍ عامَّةٍ ثُبوتُها لكُلِّ فردٍ مِن تلك المسَمَّياتِ(٢).

١٠- اللهُ سُبحانه رَضِيَ عن الصَّحابةِ السَّابقِينَ رِضًا مُطلقًا، بقَولِه تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ فَرَضِيَ عن السَّابقينَ مِن غَيرِ اشتراطِ إحسانٍ، ولم يرضَ عن التَّابعينَ إلَّا أن يتَّبِعوهم بإحسانٍ وقال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾(٣) [الفتح: ١٨].

١١- دلَّ قولُه تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أنَّهم مِن أهلِ الثَّوابِ في الآخرةِ؛ وأنَّهم يموتونَ على الإيمانِ الذي به يستحِقُّونَ ذلك، فالرِّضا مِن اللهِ صِفةٌ أَزَلِيَّةٌ؛ فلا يرضى إلَّا عن عبدٍ عَلِمَ أنَّه يُوافِقُه على مُوجِبات الرِّضا، ومَن رَضِيَ اللهُ عنه لم يسخَطْ عليه أبدًا(٤).

١٢- كلُّ مَن أخبَرَ اللهُ أنَّه رَضِيَ عنه؛ فإنَّه مِن أهلِ الجنَّةِ- وإنْ كان رِضاه عنه بعد إيمانِه وعملِه الصَّالحِ- فإنه يَذْكُرُ ذلك في مَعْرِضِ الثَّناءِ عليه والمَدحِ له،

---

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٥٧٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فلو علِمَ أنَّه يَتعقَّبُ ذلك ما يُسخِطُ الرَّبَّ، لم يكن مِن أهلِ ذلك[1].

بلاغةُ الآيتين:

١- قولُه تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فيه مناسَبةٌ حسَنةٌ؛ فإنَّه لَمَّا ذكَر تعالى مَن يتَّخِذُ ما يُنفِقُ مَغرَمًا في قولِه: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا﴾- ذَكَر مُقابِلَه، وهو مَن يتَّخِذُ ما يُنفِقُ مَغنَمًا: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ﴾، وذَكَر هنا الأصلَ الَّذي يترَتَّبُ عليه إنفاقُ المالِ في القُرباتِ، وهو الإيمانُ باللهِ واليومِ الآخِرِ؛ ﴿مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾؛ إذ جَزاءُ ما يُنفِقُ إنَّما يَظهَرُ ثوابُه الدَّائمُ في الآخِرَةِ، وفي قصَّةِ أولئك اكتَفى بذِكْرِ نَتيجةِ الكُفرِ، وعدَمِ الإيمانِ، وهو اتِّخاذُه ما يُنفِقُ مَغرَمًا، وتَربُّصُه بالمؤمِنينَ الدَّوائرَ، فقال: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾[2].

- قولُه: ﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ﴾ في استِئْنافِ هذه الجُملةِ، وتَصديرِها بحَرفَيِ التَّنبيهِ والتَّحقيقِ (ألَا، إنَّ)، المُؤْذِنَينِ بثَباتِ الأمرِ وتمكُّنِه: شهادةٌ مِن اللهِ بصِحَّةِ ما اعتَقَده مِن إنفاقِه، فهي مُستَأنَفةٌ مَسوقةٌ مَساقَ البِشارةِ لهم بقَبولِ ما رَجَوه، ومِثلُه قولُه: ﴿سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ وما في السِّينِ مِن تَحقيقِ الوَعدِ[3].

- وقولُه: ﴿سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ أيضًا جملةٌ واقِعةٌ مَوقِعَ البيانِ لجُملَةِ ﴿إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ﴾؛ لأنَّ القُربةَ عِندَ اللهِ هي الدَّرَجاتُ العُلا

---

(١) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٥٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٠٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٩٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ١٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٦).

ورِضْوانُه، وذلك مِن الرَّحمةِ(١).

- وقَولُ اللهِ تعالى: ﴿سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ هذا أبلَغُ مِن مِثلِ ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم برحمة منه﴾ [التوبة: ٢١]، فإنَّ معنَى إدخالِهم فيها أن يكونوا مَغْمورين فيها، وتكونَ هي محيطةً بهم، شاملةً لهم(٢).

٢- قولُه تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

- في هذه الآيةِ مُناسَبةٌ حسَنةٌ، فإنَّه تَعالى لَمَّا بَيَّن فَضائِلَ الأعرابِ المؤمِنين المتصَدِّقين، وما أعَدَّ لهم مِن النَّعيمِ، بيَّن حالَ هؤلاءِ السَّابِقين وما أعَدَّ لهم، وشَتَّانَ ما بينَ الإعدادَينِ والثَّناءَينِ؛ فهُناك قال: ﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ﴾، وهنا: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾، وهناك: ﴿سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾، وهنا: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ﴾، وهناك ختَم: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، وهنا: ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾(٣).

- وفيه تَقديمُ ﴿الْمُهَاجِرِينَ﴾؛ لفَضلِهم وشرَفِهم(٤).

- وجملة: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ خبَرٌ عَن ﴿السَّابِقُونَ﴾، وتَقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ﴾ على خبَرِه الفِعليِّ ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾؛ لقَصدِ التَّقوِّي والتَّأكيدِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ١١).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٩٤- ٤٩٥).
(٤) يُنظر: ((البرهان)) للزركشي (٣/ ٢٥٥- ٢٥٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٨).

- قولُه: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ﴾ فيه مناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث خالَفَت هذه الآيةُ أخَواتِها؛ إذ لم تُذكَرْ فيها (مِنْ) معَ (تَحْتَهَا)- في غالِبِ المَصاحِفِ، وفي رِوايةِ جُمهورِ القُرَّاءِ- فكانَت خاليةً مِن التَّأكيدِ؛ إذ ليسَ لِحَرفِ (مِن) مَعنًى معَ أسماءِ الظُّروفِ إلَّا التَّأكيدُ، ويَكونُ خُلُوُّ الجملةِ مِن التَّأكيدِ؛ لِحُصولِ ما يُغْني عنه مِن إفادةِ التَّقوِّي بتَقديمِ المسنَدِ إليه على الخَبَرِ الفِعليِّ، ومِن فِعْلِ (أَعَدَّ) المُؤْذِنِ بكَمالِ العِنايةِ، فلا يَكونُ المعَدُّ إلَّا أكمَلَ نَوعِه[1].

- قولُه: ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ في التَّعبيرِ باسْمِ الإشارةِ وما فيه مِن مَعنى البُعدِ: بيانٌ لِبُعدِ مَنزلتِهم في مَراتِبِ الفضلِ، وعِظَمِ الدَّرجةِ مِن مُؤمني الأعرابِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٧).

الآيتان (١٠١-١٠٢)

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى
النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ
(١٠١) وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ
عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٠٢) ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾: أي: عَتَوا فيه ومَرِنوا عليه، وأصلُ (مرد): يدلُّ على تجريدِ الشَّيءِ مِن قِشرِه، أو ما يعلوه مِن شَعْرِه[١].

﴿خَلَطُوا﴾: أي: تعاطَوْا هذا مرَّةً وذاك مرَّةً، وأصلُ الخَلطِ: الجَمعُ بين أجزاءِ الشَّيئينِ[٢].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى: إنَّ مِن سكانِ البوادي الذين حولَكم- أيُّها المسلمونَ- مُنافقينَ، ومن أهلِ المدينةِ النبويَّةِ منافِقونَ تَمَرَّنوا على النِّفاقِ حتى أصبَحَ سَجِيَّةً لهم، واستمَرُّوا عليه ولم يتوبوا، لا تعلَمُهم يا محمَّدُ، نحن نعلَمُهم، سنعَذِّبُهم مرَّتينِ: في الدُّنيا وفي القَبرِ، ثم يُرَدُّونَ إلى عذابٍ عَظيمٍ في نارِ جهنَّمَ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٨).
قال الرازي: (وأصلُ المُرودِ الملاسةُ، ومنه صَرحٌ مُمَرَّدٌ، وغلامٌ أمْرَدُ، والمرداءُ: الرَّملة التي لا تُنبِتُ شيئًا، كأنَّ من لم يقبَلْ قَولَ غَيرِه ولم يَلتفِتْ إليه، بقِيَ كما كان على صِفتِه الأصليَّةِ، مِن غيرِ حدوثِ تَغيُّرٍ فيه البتَّةَ، وذلك هو الملاسةُ، إذا عرفتَ أصلَ اللَّفظِ فنقولُ: قَولُه تعالى: ﴿مَرَدُوا على النِّفَاقِ﴾ أي: ثَبَتوا واستَمَرُّوا فيه، ولم يتوبوا عنه). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٣٠).
(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٣).

وقومٌ آخرونَ أقرُّوا بذُنوبِهم، جمعوا عملًا صالحًا وعملًا سيِّئًا، لعلَّ اللهَ أن يقبَلَ تَوبتَهم؛ إنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ.

تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا استوفى الأقسامَ الأربعةَ: قِسمَي الحضَرِ وقِسمَي البَدوِ، ثمَّ خلَطَ بين قِسمَينِ منهم تشريفًا للسَّابقِ، وتَرغيبًا للَّاحقِ؛ خلط بين الجميعِ على وجهٍ آخرَ، ثم ذكرَ منهم فِرَقًا؛ منهم مَن نجَزَ الحكم بجزائِه بإصرارٍ أو مَتابٍ. ومنهم من أخَّرَ أمْرَه إلى يومِ الحسابِ، وابتدأ الأقسامَ بالمستورين الذين لا يعلمُهم النبيُّ صلى الله عليه وسلم؛ ليَعلمَ أهلُ ذلك القِسمِ أنَّه- سُبحانه- عالمٌ بالخفايا، فلا يزالوا أذلَّاءَ؛ خَوفًا ممَّا هدَّدَهم به(١).

وأيضًا بعدَ أن بيَّنَ تعالى حالَ كَمَلةِ المؤمنينَ كُلِّهم؛ قفَّى عليه بذِكرِ مَرَدةِ المُنافِقينَ مِن أهلِ البَدوِ والحَضَر، وعطَفَهم عليهم من بابِ عَطفِ الضِّدِّ على الضِّدِّ(٢).

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ﴾

أي: ومِن سكَّانِ البوادي الذين حولَ مَدينَتِكم- أيُّها المسلمونَ- مُنافِقونَ(٣).

﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٤٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٤).

أي: ومِن أهلِ المدينةِ النَّبويَّةِ(١) مُنافقونَ تمرَّنوا على النِّفاقِ، حتى أصبح سجيَّةً لهم مِن غيرِ تكلُّفٍ، ومَهَروا في إتقانِه، فلا يَشعُرُ به الآخرونَ، واستمرُّوا عليه، ولم يَتوبوا(٢).

﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾.

أي: لا تعلَمُ- يا مُحمَّدُ- نفاقَ هؤلاءِ المَرَدةِ مِن المُنافِقينَ، ولكِنْ نحن نعلَمُهم(٣).

﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾.

أي: سنعذِّبُ هؤلاء الذين مَرَدوا على النِّفاقِ، في الدُّنيا وفي القَبرِ(٤).

---

(١) قال ابن تيمية: (فجميعُ الأبنِيَةِ تدخلُ في مسمَّى المدينةِ، وما خرَجَ عن أهلِها، فهو من الأعرابِ أهلِ العَمودِ). ((مجموع الفتاوى)) (٢٤/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٤٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٥، ٧٦)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٣١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٠٥، ٣٠٦)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٣١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٤١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٥٣)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٤٤).

وممَّن اختار أنَّ المراد بـ ﴿مَّرَّتَيْنِ﴾: العذابُ في الدُّنيا، والعذابُ في القبر: ابنُ جريرٍ، وابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٤٤، ٦٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٥).

وممَّن ذهَب مِن السَّلفِ إلى أنَّ العذابَ الأوَّل في الدُّنيا، والثاني في القبرِ: ابنُ عبَّاس ومجاهدٌ ومقاتلُ بنُ سليمانَ، مع اختلافِهم في صورةِ عذابِ الدُّنيا؛ فقال ابنُ عبَّاسٍ: هو فضيحتُهم بالنفاقِ، وفي روايةٍ: إقامةُ الحدودِ عليهم، وقال مجاهدٌ: الجوعُ، وقال مقاتلٌ: عندَ الموتِ، تضربُ الملائكةُ وجوهَهم وأدبارَهم. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٩٢).

قال الثعالبي: (وأكثرُ النَّاسِ أنَّ العذابَ المتوسِّطَ هو عذابُ القبرِ). ((تفسير الثعالبي)) (٣/ ٢٠٩).

وقيل: المراد بالمرَّتين: تكثيرُ تَعذيبِهم وتكرُّرُه في الدُّنيا مرَّةً بعد مرَّةٍ. وممن اختار ذلك: =

﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾.

أي: ثم يُرَدُّ هؤلاء المُنافِقونَ بعد تعذيبِهم مرَّتينِ، إلى عذابٍ عظيمٍ في نارِ جَهنَّمَ(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾[النساء: ١٤٥].

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٠٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن تعالَى حالَ المنافقينَ المتخَلِّفينَ عنِ الغَزاةِ؛ رغبةً عنها، وتكذيبًا وشَكًّا؛ شَرَع في بيانِ حالِ المذنِبينَ الَّذينَ تأخَّروا عنِ الجهادِ كَسَلًا وميلًا إلى الرَّاحَةِ، معَ إيمانِهم وتصديقِهم بالحَقِّ(٢)، فقال تعالى:

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾.

أي: وقومٌ آخَرونَ أقَرُّوا بذُنوبِهم بتخَلُّفِهم عن الجهادِ مع رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في غزوةِ تَبوكَ، جَمَعوا عملًا صالحًا بالتَّوبةِ وغَيرِها من الطَّاعاتِ، وعملًا سَيِّئًا بالتخَلُّفِ عن الجهادِ وغيرِ ذلك من المعاصي والسَّيِّئاتِ(٣).

= الشوكانيُّ، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ١٦).

قال ابنُ عطيةَ: (لا خلافَ بين المتأوِّلينَ أنَّ العذابَ العظيمَ الذي يُردُّونَ إليه، هو عذابُ الآخرةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٦).

(٢) ينظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٥٠، ٦٥٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٩٤)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٥٤)، =

عن سَمُرةَ بنِ جُندَبٍ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لنا: ((أتاني الليلةَ آتيانِ فابتَعَثاني، فانتهَينا إلى مدينةٍ مَبنيَّةٍ بلَبِنِ ذَهَبٍ، ولَبِنِ فِضَّةٍ، فتلقَّانا رجالٌ شَطرٌ مِن خَلْقِهم كأحسَنِ ما أنت راءٍ، وشطرٌ كأقبَحِ ما أنت راءٍ، قالا لهم: اذهَبُوا فقَعُوا في ذلك النَّهرِ، فوَقَعوا فيه، ثمَّ رَجَعوا إلينا، قد ذهَبَ ذلك السُّوءُ عنهم، فصاروا في أحسَنِ صُورةٍ، قالا لي: هذه جَنَّةُ عَدْنٍ، وهذاك مَنزِلُك، قالا: أمَّا القَومُ الذين كانوا شَطرٌ منهم حَسَنٌ، وشَطرٌ منهم قَبيحٌ، فإنَّهم خَلَطوا عملًا صالحًا وآخَرَ سَيِّئًا، تجاوَزَ اللهُ عنهم))[1].

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ﴾.

أي: سيقبلُ اللهُ توبةَ أولئك الذين اعتَرَفوا بذُنوبِهم[2].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

أي: إنَّ اللهَ غَفورٌ يَستُرُ ذُنوبَ مَن تابَ إليه، ويتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها، رحيمٌ بهم، فلا يُعَذِّبُهم بها[3].

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا

= ((تفسير الألوسي)) (٦/ ١٢-١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢١).

قال القرطبي: (يحتملُ أنَّهم كانوا مُنافِقينَ وما مَرَدوا على النِّفاقِ، ويحتمل أنَّهم كانوا مؤمنينَ). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٤١، ٢٤٢). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٣٢).

(١) رواه البخاري (٤٦٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢).

قال الواحديُّ: (قولُه تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾، قال ابنُ عباسٍ والمفسِّرونَ: «عسى» مِن اللهِ واجبٌ؛ لأنَّه قال: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ [المائدة: ٥٢] ففعَل ذلك، وكذلك تابَ على هؤلاءِ). ((البسيط)) (١١/ ٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٠).

فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [غافر: ٧-٩].

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ استُدِلَّ بالآيةِ على أنَّه لا ينبغي الإقدامُ على دعوى معرفةِ الأمورِ الخَفيَّةِ من أعمالِ القَلبِ ونَحوِها[1].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ هذه الآيةُ دلَّت على أن المُخَلِّطَ الذي خلطَ الأعمالَ الصَّالحةَ بالأعمالِ السَّيِّئةِ؛ من التجرُّؤِ على بعضِ المُحَرَّمات، والتقصيرِ في بعضِ الواجباتِ، مع الاعترافِ بذلك والنَّدَمِ، والرَّجاءِ بأن يغفِرَ اللهُ له- أنَّه تحت الخَوفِ والرَّجاءِ، وهو إلى السَّلامةِ أقرَبُ، وأمَّا المخَلِّطُ الذي لم يَعتَرِف ويَندَمْ على ما مضى منه، بل لا يزالُ مُصرًّا على الذُّنوبِ، فإنَّه يُخافُ عليه أشَدَّ الخَوفِ[2].

٣- عن أبي عُثمانَ النَّهديِ قال: ما في القرآنِ آيةٌ أرجى عندي لهذه الأمَّةِ من قَولِه تعالى: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا...﴾[3].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا...﴾ هذه الآيةُ عامَّةٌ في كلِّ المُذنِبينَ الخاطئينَ المُخلِصينَ المُتَلوِّثينَ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٦/ ١٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٠).
(٣) يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٤/ ٢٧٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٦).

٥- قال الله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ مُجرَّدُ الاعترافِ بالذَّنبِ لا يكونُ تَوبةً، فأمَّا إذا اقتَرَن به النَّدمُ على الماضي، والعزمُ على ترْكِه في المستقبَلِ، وكان هذا النَّدمُ والتَّوبةُ لأجلِ كَونِه مَنهيًّا عنه مِن قِبَلِ الله تعالى؛ كان هذا المجموعُ تَوبةً، فقَولُه تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ يقتضي أنَّ هذه التَّوبةَ إنَّما تحصُلُ في المستقبَلِ. وقَولُه: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ دلَّ على أنَّ ذلك الاعترافَ حصل في الماضي، وذلك يدلُّ على أنَّ ذلك الاعترافَ ما كان نَفسَ التَّوبةِ، بل كان مُقدِّمةً للتَّوبةِ، وأنَّ التَّوبةَ إنَّما تحصُلُ بَعدَها(١).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ بيانُ أنَّ اعترافَ المُذنِبِ بذَنبِه مع النَّدَمِ عليه، هي توبةٌ مقبولةٌ؛ فإنَّ (عسى) من اللهِ واجِبةٌ(٢)؛ لأنَّها إطماعٌ، ومَن أكرمُ مِن الله حتَّى يحقِّقَ ما أطمَعَ فيه عبدَه ؟!!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ...﴾ العِبرةُ في هذا السِّياقِ أنَّ هؤلاءِ المُنافِقينَ فَريقانِ: فَريقٌ عُرِفوا بأقوالٍ قالوها، وأعمالٍ عَمِلوها، وفريقٌ مَرَدوا على النِّفاقِ وحَذِقوه، حتى صار أملَسَ ناعِمًا لا يكادُ يَشعُرُ أحَدٌ بِشَيءٍ يَستَنكِرُه منه، فيظهَر عليه، وكلٌّ من الفريقينِ يُوجَدُ في كلِّ عَصرٍ(٣).

٢- دلَّ قولُه تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٣٢- ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٩٩)، ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٥٦)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ٤١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ١٦، ١٧)

مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ أنَّه لم يكُنْ مِن المُهاجِرينَ مَن نافقَ، وإنَّما كان النِّفاقُ في قبائِلِ الأنصارِ، لَمَّا ظَهرَ الإسلامُ بالمدينةِ، ودخل فيه مِن قبائِلِ الأَوْسِ والخزرَجِ، ولَمَّا صار للمُسلِمينَ دارٌ يمتَنِعونَ بها ويُقاتِلون، دَخلَ في الإسلامِ مِن أهلِ المدينةِ وممَّنْ حولَهم مِن الأعرابِ مَن دَخلَ- خوفًا وتقيَّةً- وكانوا مُنافِقينَ[1].

٣- دلَّ قولُه تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ مع قَولِه تعالى: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ على أنَّ مَن لم يعترِفْ بذَنْبِه مِن هؤلاءِ، كان مِن المُنافِقينَ[2].

٤- قَولُه تعالى: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ لا ينافي قَولَه تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]؛ لأنَّ هذا من باب التوسُّمِ فيهم بصِفاتٍ يُعرَفونَ بها، لا أنَّه يَعرِفُ جميعَ مَن عِندَه مِن أهلِ النِّفاقِ والرَّيبِ على التَّعيينِ[3]، وقيل: لا تَنافيَ؛ لأن آيةَ النَّفيِ نزلت قبل آيةِ الإثباتِ[4].

٥- لَمَّا كشفَ اللهُ المُنافِقينَ بسورةِ براءة بقَولِه: ﴿وَمِنْهُم﴾ ﴿وَمِنْهُم﴾ صار يُعرفُ نفاقُ ناسٍ منهم لم يكن يُعرفُ نفاقُهم قبل ذلك، كما قال تعالى: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾، فإنَّ اللهَ وصَفهم بصفاتٍ علِمَها الناسُ منهم؛ وما كان الناسُ يجزمون بأنها مستلزمةٌ لنفاقهم- وإنْ كان بعضُهم يظنُّ ذلك وبعضُهم يعْلَمُه- فلم يكنْ نفاقُهم معلومًا عند الجماعة؛ بخلافِ حالِهم لمّا نزل القرآنُ[5].

---

(١) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٧/ ٤٧٦).

(٢) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٣٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٤).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٤٠-٢٤١).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢١٤).

٦- قولُه تعالى: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ فيه دليلٌ على الردِّ على مَن يزعمُ الكشفَ والاطلاعَ على المغيَّباتِ بمجردِ صفاءِ القلبِ، وتجرُّدِ النَّفسِ عن الشواغلِ، وبعضُهم يتساهلونَ في هذا البابِ جدًّا[(١)].

٧- استُدِلَّ بِقَولِه تعالى: ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ على إثباتِ عَذابِ القَبرِ؛ حيث كان العذابُ الأولُ عذابًا في الدُّنيا، والثَّاني عذابًا في القَبرِ[(٢)].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿عَسَى﴾ منه سُبحانه وتعالى واجبةٌ؛ لأنَّ هذا دأْبُ الملوكِ، ولعلَّ التَّعبيرَ بها يفيدُ- مع الإيذانِ بأنَّه لا يجبُ عليه لأحدٍ شَيءٌ[(٣)]، وأنَّ كُلَّ إحسانٍ يَفعَلُه، فإنَّما هو على سبيلِ الفَضلِ- إشارةً إلى أنَّهم صاروا كغَيرِهم مِن خُلَّصِ المؤمنينَ غَيرِ المعصومينَ في مُواقعةِ التَّقصيرِ، وتَوقُّعِ الرحمةِ مِن اللهِ بالرُّجوعِ بهم إلى المُراقبةِ، فكما أنَّ أولئك مَعدودونَ في حِزبِ الله مع هذا التَّقصيرِ المرجُوِّ له العَفوُ، فكذلك هؤلاءِ[(٤)].

٩- من كان مؤمِنًا وعَمِلَ عَملًا صالحًا لوَجهِ الله تعالى، فإنَّ الله لا يَظلِمُه، بل يُثيبُه عليه، وأمَّا ما يفعَلُه مِن المُحَرَّمِ اليسيرِ، فيستَحِقُّ عليه العُقوبةَ، ويُرجى له من اللهِ التَّوبةُ، كما قال الله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ وإن مات ولم يَتُبْ، فهذا أَمْرُه إلى الله، هو أعلَمُ بمقدارِ حَسَناتِه وسَيِّئاتِه، لا يُشهَدُ له بجنَّةٍ ولا نارٍ، بخلافِ الخوارجِ والمُعتَزلةِ، فإنَّهم يقولونَ: إنَّ مَن فعَلَ كبيرةً أحبطَت جميعَ حَسَناتِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٦/ ١٢).

(٢) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٣/ ٢٣٣).

(٣) لكن لله تعالى أن يوجبَ على نفسِه ما شاء، وله أن يحرِّمَ على نفسِه ما شاء. يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (ص ٤٠٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١١).

وأهلُ السُّنَّةِ والجماعة لا يقولونَ بهذا الإحباطِ، بل أهلُ الكبائرِ معهم حسَناتٌ وسيِّئاتٌ، وأمرُهم إلى اللهِ تعالى[1].

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾

- قوله: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ﴾ فيه تقديمُ المجرورِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّه خبرٌ، لا نَعتٌ. و(مِن) في قَولِه: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ﴾ للتَّبعيضِ، و(مِن) في قولِه: ﴿مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ لبيَانِ (مَن) المَوصولةِ[2].

- قولُه: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ في تعليقِ نفْيِ العِلمِ بهم معَ أنَّه مُتعلِّقٌ بحالِهم- مبالَغةٌ في ذلك، وإيماءٌ إلى أنَّ ما هُم فيهِ مِن صِفَةِ النِّفاقِ لِعَراقتِهم ورُسوخِهم فيها صارَت بمَنزِلَةِ ذاتيَّاتِهم أو مُشخَّصاتِهم؛ بحيث لا يُعَدُّ مَن لا يَعرِفهم بتِلك الصِّفَةِ عالِمًا بهم[3].

- قولُه: ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ جملةٌ مستأنَفةٌ، والخبرُ مُستعمَلٌ في الوعيدِ؛ ففيه تهديدٌ، ورَتَّب عليه قَولِه: ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾[4].

فـ﴿سَنُعَذِّبُهُم﴾ وعيدٌ لهم، وتحقيقٌ لعَذابِهم حسَبَما عَلِم اللهُ فيهم مِن مُوجِباتِه، والسِّينُ للتَّأكيدِ[5].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٦٦١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩٨).

- وأيضًا قولُه: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ استِئنافٌ بيانيٌّ للجَوابِ عن سؤالٍ يُثيرُه قولُه: ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾، وهو أن يَسأَلَ سائلٌ عَن أثَرِ كَونِ اللهِ تَعالى يَعلَمُهم، فأَعْلَم أنَّه سيُعذِّبُهم على نِفاقِهم، ولا يُفْلِتُهم منه عدَمُ عِلمِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بهم(١).

- وفي تغييرِ السبكِ مِن نونِ العظمةِ في قولِه: ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ﴾ إلى ما لم يسمَّ فاعلُه في قولِه ﴿يُرَدُّونَ﴾؛ لأنَّ في بنائِه لما لم يُسمَّ فاعلُه مِن التعظيمِ ما فيه، فيناسبُ العذابَ العظيمَ(٢).

٢- قولُه تعالى: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ...﴾ فيه ما يُعرَفُ في البلاغةِ بالحَذفِ المقابليِّ (الاحتِباكِ)، وهو: أن يَجتَمِعَ في الكلامِ مُتَقابِلان، فيُحذَفَ مِن واحِدٍ مِنهُما مُقابِلُه؛ لدَلالةِ الآخَرِ عليه، فأَصلُ الكلامِ: «خَلَطوا عمَلًا صالِحًا بسَيِّئٍ، وآخَرَ سيِّئًا بصالِحٍ»؛ لأنَّ الخلْطَ يَسْتَدعي مَخلوطًا ومَخلوطًا به، أي: تارةً أطاعوا وخلَطوا الطَّاعةَ بمَعصيةٍ، وتارةً عصَوْا وتدارَكوا المعصيةَ بالتَّوبةِ(٣)، وهو من ألطَفِ شاهِدٍ لنوعِ الاحتباكِ، ولعلَّ التعبيرَ بما أفهَمَ ذلك إشارةٌ إلى تَساوي العَمَلينِ، وأنَّه ليس أحَدُهما بأولَى مِن الآخَرِ أن يكونَ أصلًا(٤).

- قولُه: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ عبَّر بفِعْلِ الرَّجاءِ (عَسَى)، وهي مِن كلامِ اللهِ تعالى المخاطَبِ به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فهي كنايةٌ عن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٦/ ١٢).
(٣) يُنظر: ((البرهان)) للزركشي (٣/ ١٢٩- ١٣١).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٠).

وُقوعِ المرجُوِّ، وأنَّ اللهَ قد تاب علَيهم، ولكِنَّ ذِكْرَ فِعْلِ الرَّجاءِ يَستَتبِعُ مَعنى اختِيارِ المتكلِّمِ في وُقوعِ الشَّيءِ وعدَمِ وُقوعِه، وإنَّما جاء بلَفظِ (عسى)؛ ليَكونَ المؤمِنُ على وجَلٍ؛ إذ لَفظةُ (عسى) طمَعٌ وإشفاقٌ، فأُبرِزَتِ التَّوبةُ في صورتِه[١]؛ لِيَأمُلوا ولا يتَّكِلوا[٢].

- وأيضًا في قولِه: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ عبَّر بقولِه تعالى: ﴿أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ معَ أنَّه لم تُذكَرَ توبتُهم؛ لأنَّه إذا ذُكِر اعتِرافُهم بذُنوبِهم، وهو دليلٌ على التَّوبةِ، فقد ذُكِرَت توبتُهم[٣]، فالاعترافُ بالذَّنبِ كنايةٌ عن التَّوبةِ منه؛ لأنَّ الإقرارَ بالذَّنبِ الفائتِ إنَّما يَكونُ عِندَ النَّدمِ والعزمِ على عدَمِ العَودِ إليه، ولا يُتَصوَّرُ فيه الإقلاعُ الَّذي هو مِن أركانِ التَّوبةِ؛ لأنَّه ذنبٌ مَضى، ولكن يُشترَطُ فيه العزمُ على أنْ لا يَعودَ[٤].

- وجملةُ ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ تذييلٌ مُناسِبٌ للمَقامِ، حيث ختَم ذلك بما دلَّ على قَبولِ التَّوبةِ، وذلك صفةُ الغُفرانِ والرَّحمةِ[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢).
(٢) يُنظر: ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (١/ ٦١٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٠٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢١).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢).

الآيتان (١٠٣-١٠٤)

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَتُزَكِّيهِمْ﴾: أي: تُطَهِّرُهم، وتُنَمِّيهم وتَرفعُهم، وأصلُ (زكو): يدلُّ على نماءٍ وزيادةٍ[1].

﴿وَصَلِّ﴾: أي: استَغفِرْ وادعُ لهم[2].

﴿سَكَنٌ﴾: أي: تثبيتٌ لهم، وطُمأنينةٌ وسكونٌ، وأصلُ (سكن): يدلُّ على خِلافِ الاضطرابِ والحَرَكةِ[3].

المَعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ الله نبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يأخُذَ مِن أموالِ المُسلِمينَ صَدَقةً يُطَهِّرُهم بها مِن دَنَس ذُنوبِهم، ويُزَكِّيهم بها، كما أمَرَه بالدُّعاءِ لهم عند أخذِ الصَّدَقاتِ؛ لأنَّ دُعاءَه لهم طُمأنينةٌ، وراحةٌ لِقُلوبِهم، واللهُ سَميعٌ عَليمٌ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٠، ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١، ١٩٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٨).

ألم يَعلَموا أنَّ الله وَحْدَه هو مَن يَقبَلُ التَّوبةَ مِن التَّائبينَ، ويقبَلُ صَدَقاتِ عِبادِه، وأنَّه هو التَّوابُ الرَّحيمُ.

تَفسيرُ الآيتَين:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّهم لَمَّا أظهَروا التَّوبةَ والنَّدامةَ، عن تخلُّفِهم عن غزوةِ تَبوكَ، وهم أقَرُّوا بأنَّ السَّبَبَ الموجِبَ لذلك التخَلُّفِ حُبُّهم للأموالِ، وشِدَّةُ حِرصِهم على صَونِها عن الإنفاقِ، فكأنَّه قيل لهم: إنَّما يظهرُ صِحَّةُ قَولِكم في ادِّعاءِ هذه التَّوبةِ والنَّدامةِ، لو أخرَجتُم الزَّكاةَ الواجِبةَ، ولم تُضايِقوا فيها؛ لأنَّ الدَّعوى لا تتقَرَّرُ إلَّا بالمعنى، وعند الامتحانِ يُكرَمُ الرَّجُلُ أو يهانُ؛ فإن أدَّوا تلك الزَّكَواتِ عن طِيبةِ النَّفسِ، ظهَرَ كَونُهم صادقينَ في تلك التَّوبةِ والإنابةِ، وإلَّا فهم كاذِبونَ مُزَوِّرونَ بهذا الطَّريقِ(١).

وأيضًا لَمَّا كان مِن شَرطِ التَّوبةِ تَدارُكُ ما يمكِنُ تَدارُكُه ممَّا فات، وكان التخلُّفُ عن الغَزوِ مُشتَمِلًا على أمرينِ، هما: عدمُ المُشاركةِ في الجهادِ، وعَدَمُ إنفاقِ المالِ في الجهادِ؛ جاء في هذه الآيةِ إرشادٌ لِطَريقِ تَدارُكِهم ما يمكِنُ تَدارُكُه ممَّا فات، وهو: نفعُ المُسلِمينَ بالمالِ(٢).

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢).

أي: خُذ- يا محمَّدُ- من أموالِ المُسلِمينَ[١] صَدقةً[٢] تُطَهِّرُهم[٣] مِن دَنَسِ ذُنوبِهم[٤].

عن جابرِ بنِ عبدِ الله رَضِيَ الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((والصَّدَقةُ تُطفِئُ الخَطيئةَ كما يُطفِئُ الماءُ النَّارَ))[٥].

﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾.

---

(١) ذهَب بعضُ المفسِّرينَ إلى أن الضَّميرَ في قولِه: ﴿أَمْوَالِهِمْ﴾ يعودُ إلى الذين اعترَفوا بذنوبِهم، فتابوا منها. وممن اختار ذلك: ابنُ جريرٍ، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ ابنُ عبَّاسٍ، وزيدُ بنُ أسلَمَ، وسعيدُ بنُ جبيرٍ، وقتادةُ، والضحَّاك، وابنُ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٥٩).
وذهب بعضُهم إلى أنَّ المرادَ العمومُ، وممَّن اختار ذلك: ابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٥٤).
(٢) قيل: المرادُ بها: الزَّكاةُ المفروضةُ، وممَّن اختار ذلك: السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٠).
وأكثرُ الفقهاءِ استدلُّوا بهذه الآيةِ في إيجابِ الزَّكوات. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٣٤).
(٣) قال القرطبي: (﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ حالَينِ للمُخاطَبِ، التقديرُ: خُذْها مُطَهِّرًا لهم ومُزَكِّيًا لهم بها. ويجوزُ أن يجعَلَهما صِفَتينِ للصَّدقة، أي صدقةً مُطَهِّرةً لهم مُزَكِّيةً، ويكون فاعِلُ ﴿تُزَكِّيهِمْ﴾ المُخاطَب، ويعودُ الضَّميرُ الذي في ﴿بِهَا﴾ على الموصوفِ المُنكَّرِ). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٤٩).
وقال ابنُ عاشور: (التاءُ في ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ تحتمِلُ أن تكونَ تاء الخطابِ؛ نَظَرًا لِقَولِه: ﴿خُذْ﴾، وأن تكونَ تاء الغائبةِ عائدةً إلى الصَّدقةِ. وأيًّا ما كان، فالآية دالَّةٌ على أنَّ الصَّدَقةَ تُطَهِّرُ وتزَكِّي). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢).
(٥) أخرجه أحمد (١٥٢٨٤)، وأبو يعلى في ((المسند)) (١٩٩٩)، وابن حبان في ((الصحيح)) (١٧٢٣)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٥٣٧٧).
صحَّح إسنادَه المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (٢/ ٥٨)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح الترغيب)) (٨٦٦)، وحسَّنه الوادعي في ((صحيح دلائل النبوة)) (٥٦٤).

أي: وتُنَمِّي أموالَهم، وتزيدُ في أخلاقِهم الحسَنةِ، وأعمالِهم الصَّالحةِ، وفي ثوابِهم الدُّنيويِّ والأُخرويِّ[1].

﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾.

أي: وادْعُ- يا مُحمَّدُ- للمُسلِمينَ عند أخْذِك صَدَقاتِهم؛ لأنَّ دُعاءَك لهم طُمأنينةٌ، وراحةٌ لقُلوبِهم[2].

عن عبدِ اللهِ بنِ أبي أوفى رَضِيَ الله عنهما، قال: ((كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا أتاه قومٌ بصَدَقتِهم قال: اللَّهُمَّ صَلِّ عليهم، فأتاه أبي أبو أوفى بصَدَقتِه، فقال: اللهُمَّ صَلِّ على آلِ أبي أوفى[3]))[4].

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: واللهُ سَميعٌ لأقوالِ عبادِه، مُجيبٌ لِدُعائِهم- ومن ذلك سماعُه دُعاءَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- عليمٌ بنيَّاتِهم وأحوالِهم، ويُجازيهم بحسَبِ أعمالِهم[5].

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٥٩، ٦٦٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٥٩)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٣).

(٣) اللهُمَّ صَلِّ على آلِ أبي أوفَى: أي: اغفِرْ لهم وارحمْهم. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٣/ ٧٩).

(٤) رواه البخاري (١٤٩٧)، ومسلم (١٠٧٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٥٩)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٨)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٣).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا حكى اللهُ تعالى عن القوم الذينَ تقَدَّمَ ذِكرُهم أنَّهم تابوا عن ذُنوبِهم، وأنَّهم تصَدَّقوا، وهناك لم يُذكَرْ إلَّا قولُه: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ وما كان ذلك صريحًا في قَبولِ التَّوبةِ؛ ذكَرَ في هذه الآيةِ أنَّه يقبَلُ التَّوبةَ، وأنَّه يأخُذُ الصَّدَقاتِ، والمقصودُ ترغيبُ مَن لم يتُبْ في التوبةِ، وترغيبُ كلِّ العُصاةِ في الطاعةِ[1].

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾.

أي: ألَم يَعلَمُوا[2] أنَّ اللهَ وَحْدَه هو الذي يقبَلُ التَّوبةَ من التَّائبينَ، ويقبَلُ الصَّدَقاتِ مِن عبادِه إذا كانت طيِّبةً خالصةً للهِ ربِّ العالَمينَ[3]؟

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أيُّها النَّاسُ، إنَّ الله طيِّبٌ لا يقبَلُ إلَّا طَيِّبًا، وإنَّ اللهَ أمَرَ المؤمنينَ بما أمَرَ به المُرسَلينَ، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢] ثمَّ ذكَرَ الرَّجُلَ يُطيلُ السَّفَرَ أشعَثَ أغبَرَ، يمُدُّ يَدَيه إلى السَّماءِ: يا ربِّ، يا ربِّ، ومَطعَمُه حَرامٌ، ومَشرَبُه حرامٌ، ومَلبَسُه حَرامٌ، وغُذِيَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٣٩).

(٢) قال محمد رشيد رضا: (أي: ألم يعلَمْ أولئك التائبونَ من ذَنبِهم أنَّ الله هو الذي يقبلُ توبةَ التَّائبينَ مِن عبادِه، ولم يجعَلْ ذلك لرسولِه، بَلْهَ مَن دونه مِن خَلقِه، فالاستفهامُ لتقريرِ ما دلَّ عليه القرآنُ، وكونه هو الذي حمَلَهم على التَّوبةِ- أو ألَمْ يعلَمِ المؤمنون كافَّةً هذا، وهو مقتضى الإيمانِ ومُوجِبُه؟ والاستفهامُ على هذا تحضيضٌ على هذا العِلمِ وما يستلزِمُه من التَّوبة. وقبولُ التوبةِ عنهم. قيل: إنَّه بمعنى قَبولِها منهم، نحو: لا صدقةَ إلَّا عن غنًى ومِن غِنًى، وقيل: إنَّ القبولَ هنا قد تضمَّنَ معنى التجاوُزِ والصَّفحِ، أي: هو الذي يقبَلُها منهم متجاوِزًا عن ذنوبِهم عَفوًا عنها، وهذا أبلَغُ). ((تفسير المنار)) (١١/ ٢٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٦٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥١).

بالحرامِ، فأنَّى يُستجابُ لذلك؟!))[(١)].

وعن أبي هريرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ما تصدَّقَ أحدٌ بصدقةٍ من طيِّبٍ- ولا يقبلُ اللهُ إلَّا الطَّيِّبَ- إلَّا أخَذَها الرَّحمنُ بيَمينِه، وإن كانت تَمرةً، فتَربُو في كفِّ الرَّحمنِ حتى تكونَ أعظمَ من الجبلِ، كما يُربِّي أحدُكم فَلُوَّه[(٢)] أو فصيلَه[(٣)]))[(٤)].

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

أي: وأيضًا ألم يعلموا أنَّ الله كثيرُ التَّوبةِ عن عبادِه، ويعفو عمَّن تاب إليه، ولو تكرَّرَ منه الذَّنبُ مِرارًا، واسعُ الرَّحمةِ بالتَّائبينَ، فلا يُعاقِبُهم بل يُثيبُهم[(٥)].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِ الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ أنَّ العَبدَ لا يُمكِنُه أن يتطهَّرَ ويتزكَّى حتى يُخرِجَ زكاةَ مالِه، وأنَّه لا يُكَفِّرُها شيءٌ سوى أدائِها؛ لأنَّ الزكاةَ والتطهيرَ متوقِّفٌ على إخراجِها[(٦)].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ يُؤخَذُ من المعنى أنَّه ينبغي إدخالُ السُّرورِ على المؤمِنِ بالكلامِ اللَّيِّنِ، والدُّعاءِ له، ونحو

(١) رواه مسلم (١٠١٥).
(٢) الفَلُوُّ: المُهرُ، وهو الصَّغيرُ من أولادِ الفَرَسِ، سُمِّيَ بذلك؛ لأنَّه فُصِلَ وعُزِلَ عن أمه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٧/ ٩٩).
(٣) الفَصيلُ: ولَدُ النَّاقةِ إذا فُصِلَ مِن إرضاعِ أمِّه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٧/ ٩٩).
(٤) رواه البخاري (١٤١٠)، ومسلم (١٠١٤) واللفظ له.
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٠٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٥٥)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ١٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥١).
(٦) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٠).

ذلك ممَّا يكونُ فيه طُمأنينةٌ وسكونٌ لِقَلبِه مشروعٌ(١).

٣- قال الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ يُؤخَذُ من المعنى أنَّه ينبغي تنشيطُ مَن أنفقَ نفقةً، وعَمِلَ عملًا صالحًا، بالدُّعاءِ له والثَّناءِ ونحوِ ذلك(٢).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ فيه دَلالةٌ على وجوبِ الزَّكاةِ في جميعِ الأموالِ، وهذا إذا كانت للتِّجارةِ ظاهرةً، فإنَّها أموالٌ تُنمَّى ويُكتسَبُ بها، فمِنَ العَدلِ أن يُواسى منها الفُقراءُ، بأداءِ ما أوجَبَ الله فيها من الزَّكاةِ، وما عدا أموالَ التِّجارةِ، فإن كان المالُ يُنمَّى، كالحُبوب، والثِّمار، والماشية المُتَّخَذة للنَّماءِ والدَّرِّ والنَّسل، فإنها تجِبُ فيها الزكاةُ، وإلَّا لم تجِبْ فيها؛ لأنَّها إذا كانت للقِنيةِ، لم تكُن بمنزلةِ الأموالِ التي يتَّخِذُها الإنسانُ في العادةِ مالًا يُتموَّلُ، ويُطلَبُ منه المقاصِدُ الماليَّةُ، وإنَّما صُرِفَ عن الماليَّةِ بالقِنيةِ ونَحوِها(٣).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ يُستدَلُّ به في وجوبِ الزَّكاةِ في الماشيةِ والثِّمارِ؛ لأنَّها أكثَرُ أموالِ الصَّحابةِ إذ ذاك(٤).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ يدلُّ على أنَّ القَدرَ المأخوذَ بعضُ تلك الأموالِ لا كُلُّها؛ إذ مقدارُ ذلك البعضِ غيرُ مذكورٍ هاهنا بصريحِ اللَّفظِ، بل المذكورُ هاهنا قولُه: ﴿صَدَقَةً﴾، ومعلومٌ أنَّه ليس المرادُ منه التَّنكيرَ حتى يكفِيَ أخْذُ أيِّ جزءٍ كان، وإن كان في غايةِ القِلَّةِ، مثل الحبَّةِ الواحدة

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٤).

مِن الحِنطةِ، أو الجزءِ الحَقيرِ مِن الذَّهَب، فوجبَ أن يكونَ المرادُ منه صدَقةً مَعلومةَ الصِّفةِ والكيفيَّةِ والكمِّيَّةِ عندَهم، حتى يكونَ قَولُه: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ أمرًا بأخذِ تلك الصَّدَقةِ المعلومةِ، فحينئذٍ يزولُ الإجمالُ، ومعلومٌ أنَّ تلك الصَّدَقةَ ليست إلَّا الصَّدَقاتِ التي وصَفَها رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وبيَّنَ كَيفيَّتَها، فكان قَولُه تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ أمرًا بأن يأخُذَ تلك الأشياءَ المخصوصةَ والأعيانَ المخصوصةَ، وظاهِرُ الآيةِ للوُجوبِ[1].

٤- ظاهِرُ عُمومِ قَولِ الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ يوجِبُ الزكاةَ في مالِ المَديونِ، وفي مالِ الضِّمانِ[2].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ فيه دليلٌ على أنَّ الإمامَ هو الذي يتولَّى أخذَ الصَّدَقاتِ وينظُرُ فيها[3].

٦- قال الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾ إنَّما حسُنَ جعْلُ الصَّدَقةِ مُطهِّرةً؛ لِما جاء أنَّ الصَّدَقةَ أوساخُ النَّاسِ، فإذا أُخِذَت الصَّدَقةُ فقد اندَفَعَت تلك الأوساخُ، فكان اندفاعُها جاريًا مَجرى التَّطهيرِ، والله أعلم[4].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ فيه استحبابُ الدُّعاءِ مِن الإمامِ أو نائبِه لِمَن أدَّى زكاتَه بالبَرَكةِ، وأنَّ ذلك ينبغي أن يكونَ جهرًا، بحيث يسمَعُه المتصَدِّقُ فيسكُنُ إليه[5].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾ دليلٌ على أنَّ عمَلَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٣٤- ١٣٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ١٣٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٤٩٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٣٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٥٠).

الحسَناتِ يُطَهِّرُ النفسَ ويزكِّيها من الذُّنوبِ السَّالفةِ[1].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ دليلٌ على أنَّ الصَّدَقةَ تُوجِبُ الطَّهارةَ من الذُّنوبِ، وتُوجِبُ الزكاةَ، التي هي العمَلُ الصالحُ[2].

١٠- التَّطهيرُ من الذَّنبِ يكونُ إمَّا بألَّا يفعلَه العبدُ، وإمَّا بأنْ يتوبَ منه، كما في قَولِه تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾[3].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ في التَّعبيرِ بأخذِ اللهِ تعالى بعدَ قَولِه للنبيِّ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ تشريفٌ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ بكونِه تعالى هو الذي يأخُذُ ما أمَرَه بأخْذِه[4]، كما أنَّ في إسنادِ الأخذِ إليه سُبحانه بعد أمْرِه لِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأخْذِها، تشريفًا عظيمًا لهذه الطَّاعةِ، ولِمَن فعَلَها[5].

١٢- قال الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾، في قولِه: ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ إشارةٌ إلى مقامِ التَّخليةِ عن السَّيِّئاتِ، وقولُه: ﴿وَتُزَكِّيهِمْ﴾ إشارةٌ إلى مقامِ التَّحليةِ بالفضائِلِ والحَسَناتِ، ولا جرَمَ أنَّ التَّخليةَ مُقَدَّمةٌ على التَّحليةِ[6].

١٣- دلَّ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ أنَّ المُؤمِنَ ينتَفِعُ بما ليس مِن سَعْيِه- كما قد ثبَتَ بالنُّصوصِ المُتواتِرةِ وإجماعِ سَلَفِ الأمَّةِ- كدُعاءِ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٦٣٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٣٨٧).
(٣) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٧/ ٨٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٥٥).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢).

المُصَلِّينَ للمَيِّتِ، ولِمَن زاروا قبرَه مِن المُؤمِنينَ(١).

١٤- قَولُ الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ نزَّلَ جميعَهم منزلةَ مَن لا يعلَمُ قَبولَ التَّوبةِ؛ لأنَّ حالَهم حالُ مَن لا يعلَمُ ذلك، سواءٌ في ذلك مَن يعلَمُ قَبولَها، ومن لا يعلَمُ حَقيقةً، وكان الكلامُ أيضًا مَسوقًا للتَّحضيضِ(٢).

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ تعليلٌ للأمرِ بالصَّلاةِ علَيهم بأنَّ دُعاءَه سكَنٌ لهم، أي: سبَبُ سكَنٍ لهم، أي: خيرٍ(٣)، مع ما فيه مِن التَّأكيدِ بـ(إنَّ) واسميَّةِ الجُملةِ.

٢- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

- قولُه: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن التَّعليلِ بقولِه: ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لهم﴾؛ لأنَّه يُثيرُ سؤالَ مَن يَسأَلُ عَن مُوجِبِ اضطِرابِ نُفوسِهم بعدَ أن تابوا، فيَكونُ الاستِفْهامُ تقريرًا مَشوبًا بتَعْجيبٍ مِن تَردُّدِهم في قَبولِ توبتِهم، والمقصودُ منه التَّذكيرُ بأمرٍ معلومٍ؛ لأنَّهم جرَوْا على حالِ نِسْيانِه، ويَكونُ ضميرُ ﴿يَعْلَمُوا﴾ عائدًا

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٤٩٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٢٣).

إلى الَّذين اعتَرَفوا بذُنوبِهم[١].

- قولُه: ﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾، ﴿هُوَ﴾ للتَّخصيصِ والتَّأكيدِ أنَّ اللهَ تعالى مِن شأنِه قَبولُ توبةِ التَّائبين، ومعنى التَّخصيصِ في ﴿هُوَ﴾ أنَّ ذلك ليس إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وإنَّما اللهُ سُبحانَه هو الَّذي يَقبَلُ التَّوبةَ ويَرُدُّها، فاقصِدوه بها، ووَجِّهوها إليه[٢].

- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ هذه الجملةُ الاسميَّةُ المؤكَّدةُ بـ(أنَّ) وبضميرِ الفَصلِ (هو)، الدَّالَّة على الحصرِ، وما فيها من صيغةِ المبالغةِ بمعنى الكثرةِ مِن التَّوبةِ، ومُبالغةِ الصِّفةِ الرَّاسخة من الرَّحمةِ؛ تفيدُ أعظَمَ البُشرى للتَّائِبينَ، وأبلغَ التَّرغيبِ في التَّوبة للمُذنِبينَ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٧٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٧).

الآيتان (١٠٥-١٠٦)

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥) وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠٦)﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿مُرْجَوْنَ﴾: أي: مُؤَخَّرونَ، وأصلُ (رجأ): يدلُّ على التَّأخيرِ[١].

المعنى الإجماليُّ:

يقول اللهُ تعالى لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: قلْ- يا محمدُ-: اعمَلُوا؛ فإنَّ اللهَ سَيَرى أعمالَكم كُلَّها، فيُجازيكم عليها، ويرى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمؤمنونَ ما يُطلِعُهم اللهُ عليه منها، فيَشهَدونَ عليكم بالخَيرِ أو الشَّرِّ، وسَتُرجَعونَ يومَ القيامةِ إلى الله الذي يعلَمُ الغَيبَ والشَّهادةَ، فيُخبِرُكم بما كُنتم تَعملونَ.

ثمَّ بيَّنَ تعالى أنَّ مِن المتخَلِّفينَ عن غزوةِ تَبوكَ قَومًا آخرينَ مُؤخَّرٌ حُكمُهم إلى أن يقضِيَ اللهُ تعالى فيهم بما شاء؛ إمَّا أن يُعَذِّبَهم أو أنْ يتوبَ عليهم، والله عليمٌ حَكيمٌ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ﴾ الذي هو في قُوَّةِ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٥).

إخبارِهم بأنَّ اللهَ يقبَلُ التَّوبةَ، وكانت التَّوبةُ تَرفَعُ المؤاخذةَ بما مضى؛ أُمِروا بالعمَلِ عَقِبَ الإعلامِ بِقَبولِ تَوبتِهم؛ لأنَّهم لَمَّا قُبِلَت توبتُهم، كان حقًّا عليهم أن يَدُلُّوا على صِدقِ تَوبتِهم، وفَرطِ رَغبتِهم في الارتقاءِ إلى مراتِبِ الكمالِ؛ حتى يَلحَقوا بالذينَ سَبقوهم، وذلك بالزيادةِ مِن الأعمالِ الصَّالحةِ؛ لجَبرِ ما فات من الأوقاتِ التي كانت حقيقةً بأن تُعمَرَ بالحَسَناتِ، فعُمِرَت بالسَّيِّئاتِ، فقال تعالى[1]:

﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾.

أي: وقُل- يا مُحمَّدُ-: اعمَلوا[2]؛ فسيَرَى اللهُ أعمالَكم كُلَّها؛ ظاهِرَها وخَفِيَّها، فيُجازيكم عليها، ويرى رسولُ اللهِ والمؤمِنونَ ما يُطلِعُهم اللهُ عليه منها، فيَشهَدونَ عليكم بالخَيرِ أو الشَّرِّ[3].

عن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((مَرُّوا بجِنازةٍ، فأثنَوْا عليها خيرًا، فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: وَجَبَت، ثمَّ مَرُّوا بأخرى، فأثنَوا عليها شَرًّا،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥).

(٢) اختلف المفسِّرون فيمنْ توجَّه إليه الأمرُ هاهنا، فقيل: هو للذينَ اعتَذَروا من المتخَلِّفينَ وتابوا. وممَّن اختار ذلك: ابنُ جريرٍ، وأبو حيانَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٠١).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ ابنُ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٩٦).
وقيل: هو للذينَ اعتَذَروا ولم يتوبوا. وممَّن اختار ذلك: ابنُ عطيةَ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٠).
وقيل: الخِطابُ عامٌّ. وممَّن اختار ذلك: الواحديُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((الوجيز)) (ص: ٤٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٥٢).
قال ابنُ عاشور: (حُذِفَ مفعولُ (اعملوا)؛ لأجلِ التَّعويلِ على القرينةِ، ولأنَّ الأمرَ مِن اللهِ لا يكونُ بعَمَلٍ غيرِ صالحٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٠)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥).

فقال: وَجَبَت، فقال عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه: ما وجَبَت؟! قال: هذا أثنَيتُم عليه خيرًا، فوجَبَت له الجنَّةُ، وهذا أثنَيتُم عليه شرًّا، فوجبَتْ له النَّارُ؛ أنتم شُهداءُ اللهِ في الأرضِ))(١).

﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾.

أي: وقُلْ- يا محمَّدُ-: وستُرجَعون يوم القيامةِ إلى الله الذي يعلَمُ ما غاب وما يُشاهَدُ، فيَعلمُ سرائِرَكم وعلانِيَتكم، لا يخفَى عليه شيءٌ من أمورِكم(٢).

كما قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢].

﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

أي: فيُخبِرُكم اللهُ يومَئذٍ بما كُنتم تعملونَه في الدُّنيا من خيرٍ أو شرٍّ، ويُجازيكم عليه(٣).

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الزمر: ٧].

وقال سُبحانه: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

---

(١) رواه البخاري (١٣٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٠)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٠)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥١).

﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذا فريقٌ آخَرُ عُطِفَ خَبَرُه على خبَرِ الفِرَقِ الآخَرِينَ، والمرادُ بهؤلاءِ مَن بَقِيَ من المخَلَّفينَ لم يتُبِ اللهُ عليه، وكان أمْرُهم موقوفًا إلى أن يقضِيَ اللهُ بما يشاءُ (١).

﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾.

أي: ومِنَ المتخَلِّفينَ عن غزوةِ تَبوكَ قومٌ آخَرونَ مُؤخَّرٌ حُكمُهم إلى أن يقضِيَ اللهُ فيهم بما شاء؛ إمَّا أن يُعَذِّبَهم بذُنوبِهم، وإمَّا أن يوفِّقَهم للتَّوبةِ فيتوبَ عليهم (٢).

﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٦٨، ٦٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٦، ٢٨).
قال الرازي: (اعلَمْ أنَّه تعالى قسَّم المتخلِّفينَ عن الجهادِ ثلاثةَ أقسامٍ: القسم الأول: المُنافِقونَ الذين مَرَدوا على النِّفاق. القسم الثاني: التَّائبون وهم المُرادون بقوله: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ وبيَّن تعالى أنَّه قَبِلَ تَوبَتَهم. والقسم الثالث: الذين بَقُوا موقوفينَ وهم المذكورونَ في هذه الآيةِ، والفَرْقُ بين القِسمِ الثاني وبين هذا الثَّالث، أنَّ أولئك سارَعوا إلى التوبةِ، وهؤلاء لم يسارِعوا إليها). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٤٤).
وقال الواحدي: (قال ابنُ عبَّاسٍ وعامَّةُ المفسِّرينَ: نزلت هذه الآيةُ في ثلاثةِ نَفَر: كعبِ بنِ مالكٍ من بني سَلِمةَ، وهلالِ ابن أميَّة الواقفيِّ، ومُرارةَ بنِ الرَّبيعِ الزَّبيديِّ، كانوا تخلَّفوا عن غزوةِ تَبوكَ وكانوا مياسيرَ، ثم لم يتَّسِعْ لهم العذرُ كما اتَّسَع للآخرينَ الذين ذُكِروا قبل هذا، ولم يبالِغوا في التنصُّلِ والاعتذارِ كما فعل الآخَرون، ولم يُوثِقوا أنفُسَهم بالسَّواري، فوقف رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أمْرَهم، ونهى النَّاسَ عن مكالَمتِهم ومُخالَطتِهم، حتى نزلَ قَولُه تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ [التوبة: ١١٨] الآيات، بعد خمسينَ ليلةً). ((البسيط)) (١١/ ٤٢). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٠).

أي: واللهُ عليمٌ بكلِّ شَيءٍ، ومن ذلك عِلمُه بأحوالِ هذا الفَريقِ ونيَّاتِه، وبما يستحِقُّونَه مِن عُقوبةٍ أو عفْوٍ، حكيمٌ في حُكمِه فيهم، وفي جميعِ أقوالِه وأفعالِه، فيَضَع كلَّ شَيءٍ في مَوضعِه اللَّائقِ به(١).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- محَكُّ الصِّدقِ في التوبةِ هو العمَلُ الظاهِرُ؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ بعدَ قَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ فالنَّدَمُ والتَّوبةُ ليسا نهايةَ المطافِ، ولكنَّه العمَلُ الذي يعقُبُ النَّدمَ والتَّوبةَ، فيُصدِّقُ أو يكَذِّب تلك المشاعِرَ النَّفسيَّة ويُعمِّقُها، أو يكتَسِحُها بعد أن تكونَ(٢).

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ ترغيبٌ عظيمٌ للمُطيعينَ، وترهيبٌ عَظيمٌ للمُذنِبينَ، فكأنَّه تعالى قال: اجتَهِدوا في المستقبَلِ؛ فإنَّ لِعَمَلِكم في الدُّنيا حُكمًا، وفي الآخرةِ حُكمًا؛ أمَّا حُكمُه في الدُّنيا فهو أنَّه يراه اللهُ، ويراه الرَّسولُ، ويراه المُسلِمونَ، فإنْ كان طاعةً حصَلَ منه الثَّناءُ العَظيمُ، والثَّوابُ العظيمُ في الدُّنيا والآخرةِ، وإن كان معصيةً حصَلَ منه الذَّمُّ العظيمُ في الدُّنيا، والعقابُ الشَّديدُ في الآخرة، فثبَت أنَّ هذه اللَّفظةَ الواحدةَ جامعةٌ لِجَميعِ ما يَحتاجُ المرءُ إليه في دينِه ودُنياه، ومَعاشِه ومَعادِه(٣).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ فيه تحذيرٌ مِن التَّقصيرِ، أو مِن ارتكابِ المعاصي؛ لأنَّ كَونَ عَمَلِهم بمرأًى من اللهِ، ممَّا يبعَثُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٧٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٤٣)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥١).

(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٧٠٨-١٧٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٤٢).

على جَعْلِه يُرضِي اللهَ تعالى[١].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- الرؤيةُ المذكورةُ في قَولِه تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ المقصودُ منها هنا: لازِمُها، وهو إحصاءُ ذلك العمَلِ، والجزاءُ عليه بالثَّوابِ والعِقابِ[٢].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ يدلُّ على كونِه تعالى رائيًا للمرئيَّاتِ؛ لأنَّ الرُّؤيةَ المُعدَّاةَ إلى مفعولٍ واحدٍ، هي الإبصارُ، والمُعدَّاةَ إلى مفعولينِ هي العِلمُ[٣]، فالرؤيةُ صفةٌ ذاتيةٌ ثابتةٌ لله عَزَّ وجَلَّ، وليس رؤيةُ اللهِ تعالى أعمالَ بني آدَمَ كرؤيةِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمؤمنيَن، وإن كان اسمُ الرُّؤيةِ يقَعُ على الجميعِ[٤].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ إن قيل: ما الفائدةُ في ذِكرِ الرَّسولِ والمؤمنينَ بعد ذِكرِ اللهِ في أنَّهم يَرَونَ أعمالَ هؤلاء التَّائبينَ؟ قيل: فيه وجوهٌ:

الوجه الأول: أنَّ أجدَرَ ما يدعو المرءَ إلى العمَلِ الصَّالحِ ما يحصُلُ له من المَدحِ والتَّعظيمِ والعِزِّ الذي يلحَقُه عند ذلك، فإذا عَلِمَ أنَّه إذا فعَلَ ذلك الفِعلَ عَظَّمَه الرَّسولُ والمؤمنونَ، عَظُمَ فَرَحُه بذلك، وقَوِيَت رَغبتُه فيه، وممَّا يُنبِّه على هذه الدقيقةِ أنَّه ذكَرَ رُؤيةَ الله تعالى أوَّلًا، ثم ذكَرَ عَقيبَها رؤيةَ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ والمُؤمنين، فكأنَّه قيل: إن كنتَ من المُحقِّينَ المُحَقِّقينَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥).
(٢) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٣/ ١٦٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٤٢).
(٤) يُنظر: ((صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة)) لعلوي السقاف (ص: ١٨٤، ١٨٥).

في عبوديَّةِ الحَقِّ، فاعمَلِ الأعمالَ الصَّالحةَ لله تعالى، وإن كنتَ من الضُّعَفاءِ المَشغولين بثناءِ الخَلْقِ، فاعمَلِ الأعمالَ الصَّالحةَ لِتَفوزَ بثَناءِ الخَلقِ، وهو الرَّسولُ والمؤمنونَ.

الوجه الثاني: أنَّ المؤمنينَ شُهَداءُ الله يومَ القيامةِ، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] والرَّسولُ شهيدُ الأمَّةِ، كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] فثَبَت أنَّ الرَّسولَ والمُؤمنينَ شُهداءُ اللهِ يومَ القيامةِ، والشَّهادةُ لا تصِحُّ إلَّا بعد الرُّؤيةِ، فذكَرَ اللهُ أنَّ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ والمؤمنينَ يَرَونَ أعمالَهم، والمقصودُ التَّنبيهُ على أنَّهم يَشهَدونَ يومَ القيامةِ عند حضورِ الأوَّلِينَ والآخِرينَ، بأنَّهم أهلُ الصِّدقِ والسَّدادِ، والعَفافِ والرَّشادِ[1].

الوجه الثالث: أنَّ عَطفَ ﴿وَرَسُولُهُ﴾ على اسمِ الجلالة؛ لأنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ هو المبلِّغُ عن الله، وهو الذي يتولَّى مُعامَلَتَهم على حَسَبِ أعمالِهم، وعَطْفَ ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ لأنَّ الذين تابُوا قد رَجَعوا إلى جماعةِ الصَّحابةِ، فإنْ عَمِلوا مِثلَهم كانوا بمحَلِّ الكرامةِ منهم، وإلَّا كانوا ملحوظينَ مِنهم بعَينِ الغَضَبِ والإنكارِ، وذلك ممَّا يَحذَرُه كلُّ أحدٍ هو مِن قَومٍ يَرمُقونَه شَزْرًا، ويَرونَه قد جاء نُكْرًا[2].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ يَهدينا إلى أنَّ مَرضاةَ جماعةِ المُؤمنينَ القائمينَ بحُقوقِ الإيمانِ، المقرَّرةِ صِفاتُهم في القرآنِ، تلي مرضاةَ اللهِ ورسولِه، وأنَّهم لا يَجتَمِعونَ على ضلالةٍ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٤٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥-٢٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٨).

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ إن قيل: إنَّ كلمةَ (إمَّا) للشَّكِّ، واللهُ تعالى مُنَزَّهٌ عنه؟ فجوابُه: أنَّ المرادَ منه: لِيَكنْ أمرُهم على الخوفِ والرَّجاءِ، فجعَلَ أناسٌ يقولون: هَلَكوا إذْ لم يُنْزِلِ اللهُ تعالى لهم عُذرًا. وآخَرونَ يَقولونَ: عسى اللهُ أن يغفِرَ لهم[1]. فحِكمةُ إبهامِ أمْرِ هؤلاءِ عليهم: إثارةُ الهَمِّ والخَوفِ في قلوبِهم؛ لتصِحَّ تَوبَتُهم، وحكمةُ إبهامِه على الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمؤمنينَ: تَرْكُهم مُكالَمتَهم ومُخالَطتَهم؛ تربيةً للفَريقينِ على ما يجِبُ في أمثالِهم مِن الذينَ يُؤثِرونَ الرَّاحةَ، ونِعمةَ العَيشِ على طاعةِ اللهِ ورَسولِه، والجهادِ في سبيلِه[2].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ قَدَّمَ قَولَه: ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ﴾ تخويفًا لهم، حملًا على المبادرةِ إلى التَّوبةِ، وتَصفِيَتِها والإخلاصِ فيها، وحَثًّا على أن يكونَ الخَوفُ- ما دام الإنسانُ صَحيحًا- أغلَبَ، وثَنَّى بِقَولِه: ﴿وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: إن تابُوا؛ ترجيةً لهم وترقيقًا لِقُلوبِهم بالتَّذكيرِ بِمَنزِلِ الأُنسِ الذي أخرَجُوا أنفُسَهم منه، ومَنَعُوها مِن حُلولِه[3].

بلاغة الآيتين:

١- قولُه تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا﴾ صيغةُ أمرٍ، ضمَّنَها الوعيدَ[4].

- قولُه: ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ خبرٌ فيه وعيدٌ لهم، وتحذيرٌ مِن عاقبةِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٤٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٠).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٤-١٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٠١).

الإصرارِ، والذُّهولِ عن التَّوبةِ[١]، أو هو تأكيدٌ للتَّرغيبِ والتَّرهيبِ، والسِّينُ للتَّأكيدِ[٢]، فتَفْريعُ ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ زيادةٌ في التَّحضيضِ[٣].

- قولُه: ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ فيه وضعُ الظَّاهرِ مَوضِعَ المضمَرِ- حيثُ لم يَقُلْ: (وستُرَدُّون إليه)- لتَهويلِ الأمرِ، وتَربيَةِ المهابةِ[٤].

٢- قوله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ تذييلٌ مناسبٌ لإبهامِ أمرِهم على النَّاسِ، أي: واللهُ عَليمٌ بما يَليقُ بهِم مِن الأمرَينِ، مُحكِمٌ تَقديرَه حينَ تتَعلَّقُ به إرادتُه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/٣٠٨).
وهذا على القولِ بأنَّ هذا الخطابَ لغيرِ التائبينَ.
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/١٠٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/١٠٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٨).

الآيات (١٠٧-١١٠)

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠)﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿ضِرَارًا﴾: أي: مُضارَّةً، وأصلُ (ضرر): خِلافُ النَّفعِ[(١)].

﴿وَإِرْصَادًا﴾: أي: ترقُّبًا بالعَداوةِ. ويُقَال أرصدتُ له الشَّيْء، إذا جعلتَه له عدَّةً. والرَّصَدُ: الاستعداد للترقُّبِ، وأصلُ (رصد): يدلُّ على التهيُّؤِ لرِقْبةِ شَيءٍ على مَسلَكِه[(٢)].

﴿أُسِّسَ﴾: أي: ابتُدِئ أساسُه، وأصلُ (أس): يدلُّ على الأصلِ والشَّيءِ الوطيدِ الثَّابتِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص ١٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٠٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥).

﴿شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾: الشَّفَا: الحرفُ والحَدُّ، ويُضربُ به المثلُ في القربِ مِن الهلاكِ، والجُرُفُ والجُرْفُ: المكان الَّذى يأكله الماءُ فيجْرُفُه أى: يذهبُ به، وما ينجَرِفُ بالسُّيولِ مِن الأودِيَةِ، وأصلُه مِن الجرفِ والاجْتِرافِ، وهو اقتلاعُ الشَّيءِ مِن أصلِه، والهار: الساقِط، يقال: هارَ البناءُ، وتَهَوَّرَ: إذا سقط، وانْهارَ[1].

﴿رِيبَةً﴾: أي: شكًّا ونِفاقًا، وأصلُ (ريب): يدلُّ على شَكٍّ[2].

﴿تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾: أي: تتصَدَّعَ قُلوبُهم فيَموتوا، وأصلُ (قطع): يدلُّ على صَرمٍ وإبانةِ شَيءٍ مِن شَيءٍ[3].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تعالى عن فريقٍ آخر من المُنافِقينَ بَنَوا مسجِدًا في المدينةِ مُضارَّةً للمُؤمنِينَ، ولِمَسجِدِهم الذي يجتَمِعونَ فيه، وكُفرًا باللهِ عَزَّ وجَلَّ، وتَفريقًا بين جماعةِ المُسلِمينَ، وإعدادًا وانتظارًا لِمَجيءِ مَن حاربَ اللهَ ورسولَه مِن قَبلِ بناءِ المَسجِدِ، وقد بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّهم مع هذه المقاصِدِ الخَبيثةِ سَيَحلِفونَ لكم- أيُّها المُؤمِنونَ- أنَّهم ما أرادوا مِن بنائِه إلَّا الحُسنى، واللهُ يشهَدُ إنَّهم لكاذِبونَ.

ثم نهى اللهُ نَبيَّه أن يُصلِّيَ في مسجِدِ المُنافِقينَ في أيِّ وقتٍ مِن الأوقاتِ، وبيَّنَ أنَّ المسجِدَ الذي أُسِّسَ على تقوى اللهِ مِن أوَّلِ يَومٍ بُنِيَ فيه- أَولى بأنْ يُصَلِّيَ فيه النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فإنَّ فيه رِجالًا يحِبُّونَ أن يتطَهَّروا من

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٧).

النَّجاساتِ والذُّنوبِ، واللهُ يحِبُّ المُتطَهِّرينَ.

ثمَّ بيَّن تعالى أنه لا يستوي مَن أسَّسَ بُنيانَه على تقوى مِن الله تعالى، ومَن أسَّسَ بُنيانَه على طَرَفِ حُفرةٍ يُوشِكُ أن تنهارَ بما بُنِيَ عليها، فانهارَت الحُفرةُ بالبُنيانِ والباني في نارِ جهنَّمَ، واللهُ لا يهدي القَومَ الظَّالِمينَ.

وأخبَرَ تعالى أنَّه لا يزالُ مَسجِدُ الضِّرارِ الذي بناه المُنافِقونَ يُورِثُهم شَكًّا ونِفاقًا في قُلوبِهم إلى أن تتصَدَّعَ قُلوبُهم فيموتوا على ذلك، واللهُ عليمٌ حَكيمٌ.

تفسيرُ الآيات:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧)﴾.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ الله تعالى لَمَّا ذكَرَ طرائِقَ ذَميمةً لأصنافِ المُنافِقينَ أقوالًا وأفعالًا؛ ذكَرَ أنَّ منهم من بالغَ في الشَّرِّ حتى ابتَنى مَجمعًا للمُنافِقينَ، يُدبِّرونَ فيه ما شاؤوا من الشَّرِّ، وسَمَّوه مَسجِدًا[1]، فقال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا﴾

أي: ومِنهم- أي المُنافِقينَ- الذين بَنَوا مَسجِدًا في المدينةِ؛ مُضارَّةً للمُؤمنينَ ولِمَسجِدِهم الذي يجتَمِعونَ فيه، وكُفرًا باللهِ عزَّ وجلَّ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٧٢، ٦٧٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥١)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٤٣).=

﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: وبَنى المُنافِقونَ مَسجِدَهم؛ لأجلِ التَّفريقِ بين جماعةِ المُؤمنينَ، فيصلِّي بعضُهم في مسجِد، وبَعضُهم في مسجِد آخر، فيتفرَّقوا ويختَلِفوا بسبب ذلك(١).

﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ﴾.

أي: وبَنَوه كذلك إعدادًا وانتظارًا وترقُّبًا لمَجيءِ مَن حاربَ اللهَ ورسولَه مِن قَبلِ بِناءِ هذا المسجِدِ(٢).

﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

أي: وسيَحلِفُ لكم المُنافقونَ الذين بَنَوا مسجِدَ الضِّرارِ أنَّهم ما أرادوا ببِنائِه إلَّا الخَيرَ للمُسلمينَ والرِّفقَ بهم؛ إحسانًا إلى الضُّعَفاءِ والعاجِزينَ منهم، بجَعْلِهم

= قال الواحدي: (﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ معطوفٌ على ما قَبْلَه مِن قَولِه: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ [التوبة: ١٠١] ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا﴾ [التوبة: ١٠٢] ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ﴾ [التوبة: ١٠٦] أي: ومِنهم آخَرونُ). يُنظَر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٤٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٧٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥١).

قال ابن عطية: (قَولُه ﴿بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يريدُ: بين الجماعةِ التي كانت تصلِّي في مسجِدِ قُباءٍ؛ فإنَّ مَن جاوَرَ مَسجِدَهم كانوا يَصرِفونَه إليه، وذلك داعيةٌ إلى صَرْفِه عن الإيمانِ، وقيل: أراد بقَولِه ﴿بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ جماعةَ مسجِدِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهذا بحَسَبِ الخِلافِ في المسجِدِ المؤسَّسِ على التَّقوى). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٧٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٤٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٠٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٥٨، ٤٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٠).

قال محمد رشيد رضا: (اتَّفَق المفسِّرونَ على أنَّ الذي أغراهم ببناءِ هذا المسجِدِ لهذا الغَرَضِ رجلٌ مِن الخزرَجِ، يُعرَفُ بأبي عامرٍ الرَّاهب، وَعَدَهم بأنْ سيأتيهم بجيشٍ مِن الرُّومِ لقتالِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابِه). ((تفسير المنار)) (١١/ ٣٢).

مسجِدَ الضِّرارِ أقرَبَ إليهم مِن غَيرِه[١].

﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾.

أي: واللهُ يَشهَدُ إنَّ المُنافِقينَ لكاذِبونَ في حَلِفِهم ذلك، وإنَّما بَنَوه ضِرارًا، وكُفرًا باللهِ، وتفريقًا بين المُؤمِنينَ، وإرصادًا لِمَن حارَبَ اللهَ ورسولَه[٢].

﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) ﴾.

﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾.

أي: لا تُصَلِّ- يا مُحمَّدُ- في مسجِدِ المُنافِقينَ ما عِشْتَ أبدًا[٣].

﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾.

أي: لَمسجِدٌ أُسِّسَ بنيانُه على تقوى اللهِ مِن أوَّلِ يَوم ابتدَأَ بانُوه في تأسيسِه- وهو مسجِدُ قُباءٍ، ومِثلُه بل أولَى منه في الحُكمِ المَسجِدُ النَّبويُّ- أَولى بأن تقومَ فيه- يا مُحمَّدُ- للصَّلاةِ والعبادةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٧٥)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٤٧، ٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٨١)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٢).
قال ابن كثير: (قولُه: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ نهيٌ من الله لرَسولِه، صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه، والأمَّةُ تَبَعٌ له في ذلك، عن أن يقومَ فيه، أي: يصلِّيَ فيه أبدًا). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٨١، ٦٨٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٥٩، ٢٦١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٤٦٨، ٤٦٩) و(٢٧/ ٤٠٦)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٣٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٢ - ٢١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٥٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٢)،=

عن أبي سعيدٍ الخدريِّ رضي الله عنه، قال: ((دَخَلْتُ على رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في بيتِ بعضِ نسائِه، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، أَيُّ المسجدَيْنِ الَّذي

= ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٢).

واختلف المفسِّرونَ في تحديدِ المرادِ بالمسجِدِ الذي أُسِّسَ على التَّقوى، فقيل: هو مسجِدُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وممَّن اختارَ ذلك: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٨٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٨١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ عمرُ بنُ الخطَّاب، وابنُ عمرَ، وزيدُ بنُ ثابتٍ، وأبو سعيدٍ الخدريُّ، وسعيدُ بنُ المسيِّبِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٦).

وقيل: هو مسجِدُ قُباءٍ، وممن اختار ذلك: القرطبيُّ، وابنُ تيميةَ، وابنُ القيِّم، وابنُ كثيرٍ، والشوكانيُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٥٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٤٦٨) (٢٧/ ٤٠٦)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٣٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ ابنُ عبَّاسٍ، وعطيةُ العوفيُّ، وابنُ بريدةَ، وابنُ زيدٍ، وعروةُ بنُ الزُّبيرِ، وسعيدُ بنُ جبيرٍ، وقتادةُ، وعروةُ، وأبو سلمةَ بنُ عبدِ الرحمنِ، والضحَّاكُ، ومقاتلٌ، والشعبيُّ، والحسنُ البصريُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٨٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٤).

قال ابنُ حجرٍ: (الجمهورُ على أنَّ المرادَ به مسجدُ قُباءَ، هذا هو ظاهرُ الآيةِ... والحقُّ أنَّ كُلًّا منهما أُسِّس على التَّقوَى، وقولهُ تعالَى في بقيَّةِ الآية: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾ يُؤيِّدُ كونَ المرادِ مسجدَ قُباءَ). ((فتح الباري)) (٧/ ٢٤٥).

قال ابن كثير: (ورد في الحديثِ الصَّحيحِ: أنَّ مَسجِدَ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الذي هو في جَوفِ المدينةِ، هو المسجِدُ الذي أسِّسَ على التقوَى. وهذا صحيحٌ. ولا منافاةَ بين الآية وبينَ هذا؛ لأنَّه إذا كان مسجِدُ قُباءٍ قد أُسِّسَ على التَّقوى من أوَّلِ يومٍ، فمسجِدُ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بطريقِ الأَولى والأحرى). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٤).

وذهب محمد رشيد رضا إلى أنَّ لفظَ الآيةِ لا يمنَعُ من إرادةِ كُلٍّ مِن المسجِدَينِ. يُنظر: ((تفسير المنار)) (١١/ ٣٤).

ويرى ابنُ تيميَّةَ أنَّ الآيةَ وإن كانت قد نزلت بسببِ مَسجِدِ قُباءٍ، إلَّا أنَّ الحُكمَ يتَناوَلُه ويتناوَلُ ما هو أحقُّ منه بذلك، وهو مسجِدُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ويتناوَلُ كُلَّ مَسجِدٍ أُسِّسَ على التقوى، بخلافِ مَساجِدِ الضِّرارِ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ٤٦٩)، ((منهاج السنة النبوية)) (٧/ ٧٤)، وممَّن اختار ذلك: ابنُ عاشور في ((تفسيره)) (١١/ ٣٢).

أُسِّسَ على التَّقوَى؟ قال: فأخَذَ كَفًّا مِن حَصْباءَ، فضَرَب به الأرضَ، ثُمَّ قال: هو مَسجِدُكم هذا. لِمسجدِ المدينةِ))[١].

عن أبي سعيدٍ أيضًا قال: ((امترَى رجلٌ مِن بني خدرةَ، ورجلٌ مِن بني عمرِو بنِ عوفٍ في المسجدِ الذي أُسِّس على التقوَى، فقال الخدريُّ: هو مسجدُ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وقال الآخرُ: هو مسجدُ قباء، فأتيا رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم في ذلك، فقال هو هذا- يعني مسجدَه- وفي ذلك خيرٌ كثيرٌ))[٢].

﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾.

أي: في مسجدِ قُباءٍ رِجالٌ من أصحابِ مُحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم يُحبُّونَ أن يتطهَّروا مِن النَّجاساتِ ومِنَ الذُّنوبِ[٣].

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾.

أي: واللهُ يُحبُّ المتطَهِّرينَ المُبالِغينَ في الطَّهارةِ مِن النَّجاساتِ، ومِنَ الذُّنوبِ والسَّيِّئاتِ[٤].

---

(١) أخرجه مسلم (١٣٩٨).
والمَزِيَّة الَّتي اقتضَتْ تَعْيينَ مسجدِه دُونَ مسجدِ قُباءَ لِما اتُّفِقَ مِن طولِ إقامَتِه صلَّى اللَّه عليه وسلَّم بمسجدِ المدينةِ، بخلافِ مسجدِ قُباء، فما أقامَ به إلَّا أيَّامًا قَلائِل، وأيضًا لرفعِ تَوَهُّمِ أنَّ ذلك خاصٌّ بمسجدِ قُباء. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٧/ ٢٤٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٢٣) واللفظ له، والنسائي (٦٩٧)، وأحمد (١١١٧٨).
قال الترمذي: حسنٌ صحيحٌ، وصحَّحه الطبري في ((التفسير)) (٧/ ١/ ٣٩)، وقال ابنُ عبد البر في ((الاستذكار)) (٣١٩): ثابتٌ، وصحَّحه ابنُ دقيق العيد في ((الاقتراح)) (١٢٣)، والألباني في ((صحيح النسائي)) (٦٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٨٨)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٦١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٤، ٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٨٨، ٦٩٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٥١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٢).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[البقرة: ٢٢٢].

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذا بيانٌ مُستأنَفٌ للفَرقِ بين أهلِ المَسجِدَينِ في مقاصِدِهما منهما: أهلِ مسجِدِ الضِّرارِ الذينَ زادوا به رِجسًا إلى رِجسِهم، وأهلِ مَسجِدِ التَّقوى، وهم الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأنصارُه الذين يحبُّونَ أكمَلَ الطَّهارةِ لِظاهِرِهم وباطِنِهم، فاستفادوا بذلك محبَّةَ الله لهم(١).

وأيضا هي تفريعٌ على قَولِه تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾؛ لزيادةِ بَيانِ أحقيَّةِ المسجِدِ المؤسَّسِ على التَّقوى بالصَّلاةِ فيه، وبيانِ أنَّ تَفضيلَ ذلك المسجِدِ في أنَّه حقيقٌ بالصَّلاةِ فيه تفضيلٌ مَسلوبُ المُشاركةِ؛ لأنَّ مَسجِدَ الضِّرارِ ليس حقيقًا بالصَّلاةِ فيه بعدَ النَّهيِ؛ لأنَّ صَلاةَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لو وقعَتْ لأكسَبَت مقصِدَ واضِعيه رَواجًا بين الأمَّةِ، وهو غَرَضُهم: التَّفريقُ بين جماعاتِ المُسلِمين(٢).

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ ﴾.

أي: أيُّ البانِينَ خَيرٌ؛ مَن أسَّسَ بناءَ مَسجِدٍ مُتَّقِيًا لله، مُخلِصًا له، طالبًا رِضاه، أم مَن أسَّسَ بناءَ مَسجِدٍ بنفاقٍ وكُفرٍ وضلالٍ، فهو كمَن يبني بناءً على طَرَفِ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٣).

حُفرةٍ يُوشِكُ أن تنهارَ بما بُنِيَ عليها[١]؟!

عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: ((صلاةٌ في مسجِدي هذا أفضَلُ مِن ألفِ صَلاةٍ فيما سِواه، إلَّا المسجِدَ الحَرامَ))[٢].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لا تشُدُّوا الرِّحالَ إلَّا إلى ثلاثةِ مَساجِدَ: مسجدي هذا، والمسجِدِ الحَرامِ، والمسجِدِ الأقصى))[٣].

وعن سَهلِ بنِ حُنَيفٍ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((من تطَهَّرَ في بيتِه، ثمَّ أتى مسجِدَ قُباءٍ، فصلَّى فيه صلاةً؛ كان له كأجرِ عُمرةٍ))[٤].

﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾.

أي: فانهار الجُرُفُ بالبُنيانِ والباني جميعًا في نارِ جهنَّمَ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٩٥، ٦٩٦)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٤/ ٢٢٢، ٢٢٣)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٥)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٢).
قال ابن عطية: (وأمَّا البُنيانُ الذي أُسِّسَ على شفا جُرُفٍ هارٍ، فهو مسجِدُ الضِّرارِ بإجماعٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٤).

(٢) رواه مسلم (١٣٩٥).

(٣) رواه البخاري (١٩٩٥)، ومسلم (٨٢٧) واللفظ له.

(٤) أخرجه النسائي (٦٩٩)، وابن ماجه (١٤١٢)، وأحمد (١٥٩٨١).
صحَّحه ابنُ تيميةَ في ((الإخنائية)) (١٤٣)، والألباني في ((إصلاح المساجد)) (١٩٨)، وصحَّح إسنادَه العراقي في ((تخريج الإحياء)) (١/ ٣٤٧)، وقال ابنُ باز، كما في ((الفوائد العلمية من الدروس البازية)) (٥/ ١٢٦): جيدٌ حسنُ الإسناد.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٩٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٧٠)، ((تفسير الماوردي)) (٢/ ٤٠٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٥٧، ٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٦٥).

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: واللهُ لا يوفِّقُ هؤلاءِ الذين بَنَوا مسجِدَ الضِّرارِ، ولا يُوفِّقُ غيرَهم ممَّن يظلِمُ نفسَه بالكُفرِ والنِّفاقِ، لا يوفِّقُهم لِما فيه مصالِحُ دِينِهم ودُنياهم وآخِرتِهم، ما داموا مُقيمينَ على ظُلمِهم[1].

كما قال تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٨٦].

﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوْاْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾.

﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوْاْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

أي: لا يزالُ مَسجِدُ الضِّرارِ الذي بناه المُنافِقونَ يُورِثُهم نِفاقًا في قلوبِهم، وشَكًّا في الإسلامِ[2].

﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾.

أي: حتَّى تتصَدَّعَ قُلوبُهم فيَموتوا على شَكِّهم ونِفاقِهم[3].

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٠٣، ١٠٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٩٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٧٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٥٩، ٦٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٦)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٩٨)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٦٠، ٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٠٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٦٠)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٦).

أي: واللهُ عليمٌ بكلِّ شيءٍ، ومِن ذلك عِلمُه بأحوالِ المُنافِقينَ، فيعلَمُ ما في قُلوبِهم، وما تصيرُ إليه أمورُهم في الدُّنيا والآخرةِ، حكيمٌ يضَعُ كلَّ شَيءٍ في موضِعِه اللَّائقِ به، ومِن ذلك حِكمَتُه في الحُكمِ على أولئك المُنافِقينَ ومُجازاتِهم[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- المَعصيةُ تؤثِّرُ في البِقاعِ، وكذلك الطَّاعةُ تؤثِّرُ في الأماكِنِ؛ نستفيدُ ذلك مِن قَولِ الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ فقد أثَّرت معصيةُ المُنافِقينَ في مسجِدِ الضِّرارِ، ونُهِيَ عن القيامِ فيه، وأثَّرت الطَّاعةُ في مسجِدِ قُباء، حتى قال الله فيه: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾[٢].

٢- كلُّ حالةٍ يحصُلُ بها التَّفريقُ بين المُؤمِنينَ، فإنَّها من المعاصي التي يتعيَّنُ تَركُها وإزالتُها، كما أنَّ كُلَّ حالةٍ يحصُلُ بها جمعُ المُؤمِنينَ وائتِلافُهم، يتعَيَّنُ اتِّباعُها والأمرُ بها والحثُّ عليها؛ نستفيدُ ذلك مِن قَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ فعلَّلَ اللهُ اتِّخاذَهم لمسجِدِ الضِّرارِ بهذا المقصِدِ المُوجِبِ للنَّهيِ عنه، كما يوجِبُ ذلك الكُفرُ والمُحاربةُ للَّه ورَسولِه[٣].

٣- العَملُ- وإن كان فاضِلًا- تُغيِّرُه النيَّةُ الفاسِدةُ، فينقلِبُ منهيًّا عنه؛ نستفيدُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٩٨)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٥١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ذلك من قولِ الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ فقَلَبَت نيَّةُ أصحابِ مَسجِدِ الضِّرارِ عمَلَهم إلى هذه الحالِ[1].

٤- مِن أعظَمِ خِصالِ النِّفاقِ العَمَليِّ: أن يعمَلَ الإنسانُ عمَلًا، ويُظهِرُ أنَّه قصَدَ به الخيرَ، وإنَّما عَمِلَه ليتوصَّلَ به إلى غرَضٍ له سيِّئٍ، فيتِمُّ له ذلك، ويتوصَّلُ بهذه الخديعةِ إلى غَرَضِه، ويفرَحُ بمَكرِه وخِداعِه، وحَمْدِ النَّاسِ له على ما أظهَرَه، وتوصَّلَ به إلى غرَضِه السيِّئِ الذي أبطَنَه، وهذا قد حكاه اللهُ في القرآنِ عن المنافقينَ، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[2].

٥- قَولُه تعالى: ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يدلُّ على أنَّ المقصِدَ الأكبَرَ والغرَضَ الأظهَرَ مِن وضْعِ الجماعةِ: تأليفُ القُلوبِ والكَلِمةِ على الطَّاعةِ، وعقدُ الذِّمامِ والحُرمةِ بفِعلِ الدِّيانةِ حتى يقَعَ الأُنسُ بالمُخالطةِ، وتصفوَ القُلوبُ مِن وَضَرِ الأحقادِ[3].

٦- الطَّاعةُ لا تكونُ طاعةً إلَّا عند الرَّهبةِ والرَّغبةِ؛ نَستفيدُ ذلك مِن قَولِ اللهِ تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ﴾ أي: للخَوفِ مِن عقابِ اللهِ، والرَّغبةِ في ثوابِه[4].

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥١).
(٢) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٤٩٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٥٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٤٨).

٧- العملُ المبنيُّ على الإخلاصِ والمُتابَعةِ، هو العمَلُ المؤسَّسُ على التَّقوى، الموصِلُ عامِلَه إلى جنَّاتِ النَّعيمِ، والعمَلُ المبنيُّ على سوءِ القَصدِ وعلى البِدَعِ والضَّلالِ، هو العمَلُ المؤسَّسُ على شَفا جُرُفٍ هارٍ، فانهار به في نارِ جهنَّمَ؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾(١).

٨- قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ في هذه الآيةِ دليلٌ على أنَّ كُلَّ شَيءٍ ابتُدِئَ بنيَّةِ تَقوى اللهِ تعالى والقَصدِ لِوَجهِه الكريمِ، فهو الذي يَبقى ويسعَدُ به صاحِبُه، ويصعَدُ إلى اللهِ ويُرفَعُ إليه(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ فيه أنَّ اتِّخاذَ المسجِدِ الذي يُقصَدُ به الضِّرارُ لِمَسجِدٍ آخَرَ بِقُربِه- مُحَرَّمٌ، ويجِبُ هدمُ مَسجِدِ الضِّرارِ، الذي اطُّلِعَ على مقصودِ أصحابِه(٣).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ فيه النَّهيُ عن الصَّلاةِ في أماكِنِ المَعصيةِ، والبعدُ عنها، وعن قُربِها(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٥١).
(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٦٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٥١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٣- كلُّ عمَلٍ فيه مُضارَّةٌ لِمُسلمٍ، أو فيه معصيةٌ لله، أو فيه تفريقٌ بين المُؤمِنينَ، أو فيه مُعاونةٌ لِمَن عادى اللهَ ورَسولَه؛ فإنَّه مُحرَّمٌ مَمنوعٌ منه، وعَكسُه بعَكسِه؛ نستفيدُ ذلك مِن قَولِ الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾[1].

٤- قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ يَدخُلُ في معنى مسجدِ الضِّرارِ: مَن بنى أبنيَةً يُضاهي بها مساجدَ المُسلِمينَ لِغَيرِ العباداتِ المَشروعةِ؛ مِن المَشاهِدِ وغَيرِها، لا سيَّما إذا كان فيها مِن الضِّرارِ والكُفرِ والتَّفريقِ بين المُؤمِنينَ، والإرصادِ لأهلِ النِّفاقِ والبِدَعِ المُحَادِّينَ للَّه ورَسولِه- ما يَقْوَى بها شَبَهُها[2].

٥- حرَقَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مسجِدَ الضِّرارِ، وأمَرَ بهَدمِه، وهو مسجِدٌ يُصَلَّى فيه، ويُذكَرَ اسمُ الله فيه؛ لَمَّا كان بناؤُه ضِرارًا، وتفريقًا بين المُؤمِنينَ، ومأوًى للمُنافِقينَ، وكلُّ مكانٍ هذا شأنُه فواجِبٌ على الإمامِ تَعطيلُه؛ إمَّا بهَدمٍ وتَحريقٍ، وإمَّا بتَغييرِ صُورتِه، وإخراجِه عمَّا وُضِعَ له، وإذا كان هذا شأنَ مَسجِدِ الضِّرارِ، فمَشاهِدُ الشِّركِ- التي تدعو سَدَنَتُها إلى اتِّخاذِ مَن فيها أندادًا مِن دُونِ اللهِ- أحقُّ بالهَدمِ وأوجَبُ، وكذلك مَحالُّ المعاصي والفُسوقِ، كالحاناتِ وبيوتِ الخمَّارينَ وأربابِ المُنكَراتِ[3].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى﴾ يتناوَلُ مَسجِدَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ومسجِدَ قُباءٍ، ويتناوَلُ كُلَّ مَسجِدٍ أُسِّسَ على التَّقوى بخلافِ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٥١).
(٢) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (٢/ ٣٤١).
(٣) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٥٠٠).

مَساجِدِ الضِّرارِ؛ ولهذا كان السَّلَفُ يكرهونَ الصَّلاةَ فيما يُشبِهُ ذلك، ويَرَونَ العَتيقَ أفضَلَ مِن الجَديدِ؛ لأنَّ العتيقَ أبعَدُ عن أن يكونَ بُنِيَ ضِرارًا من الجديدِ الذي يُخافُ ذلك فيه، وعتقُ المسجِدِ ممَّا يُحمَدُ به؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ وقال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ فإنَّ قِدَمَه يقتضي كثرةَ العبادةِ فيه أيضًا[1].

٧- قَولُه تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ دليلٌ على استحبابِ الصَّلاةِ في المساجِدِ القَديمةِ المؤسَّسةِ مِن أوَّلِ بنائِها على عبادةِ اللهِ وَحدَه لا شريكَ له، وعلى استحبابِ الصَّلاةِ مع جماعةِ الصَّالِحينَ، والعبادِ العاملينَ المُحافِظينَ على إسباغِ الوُضوءِ، والتنَزُّه عن مُلابَسةِ القاذُوراتِ[2].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ مِن جليلِ المَنازِعِ من هذه الآيةِ ما فيها من حُجَّةٍ لصِحَّةِ آراءِ أصحابِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ إذ جَعَلوا العامَ الذي كان فيه يومُ الهِجرةِ مبدأَ التَّاريخِ في الإسلامِ. حينما شاوَر عمرُ الصحابةَ في التاريخِ، فاتَّفق رأيُهم أن يكونَ التاريخُ مِن عامِ الهجرةِ؛ لأنَّه الوقتُ الذي عزَّ فيه الإسلامُ، وأمِن فيه النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فوافَق هذا ظاهرَ التنزيلِ[3].

٩- قال تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ أُطلِقَت المحبَّةُ في قَولِه: ﴿يُحِبُّونَ﴾ كنايةً عن عمَلِ الشَّيءِ المَحبوبِ؛ لأنَّ الذي يُحِبُّ شيئًا مُمكِنًا يعمَلُه لا محالةَ، فقَصَدَ التَّنويهَ بهم بأنَّهم يتطَهَّرونَ؛ تَقَرُّبًا إلى اللهِ بالطَّهارةِ، وإرضاءً

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٤٦٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٢).

لِمَحبَّةِ نُفوسِهم إيَّاها، بحيث صارت الطَّهارةُ خُلُقًا لهم، فلو لم تَجِبْ عليهم لفَعَلوها مِن تِلقاءِ أنفُسِهم[١].

١٠- قال ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ حاصِلُ الكلامِ أنَّ أحَدَ البناءَينِ قَصَدَ بانيه ببنائِه تَقوى اللهِ ورِضوانَه، والبناءُ الثَّاني قصَدَ بانيه ببنائِه المعصيةَ والكُفرَ، فكان البِناءُ الأوَّلُ شَريفًا واجِبَ الإبقاءِ، وكان الثَّاني خسيسًا واجِبَ الهَدمِ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾

- قوله: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ فيه نهيٌ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وللمُؤمنينَ بالتَّبَعِ، مؤكَّدٌ بلفظِ الأبَدِ الذي يستغرِقُ الزَّمَنَ المُستقبَلَ[٣].

- قولُه: ﴿أَحَقُّ﴾ اسمُ تفضيلٍ، ولكنَّه هنا غيرُ مُرادٍ منه المفاضَلةُ؛ لأنَّ النَّهيَ عَن صلاتِه في مَسجِدِ الضِّرارِ أزال كونَه حَقيقًا بصَلاتِه فيه أصلًا، ونُكْتةُ الإتيانِ باسْمِ التَّفضيلِ أنَّه تَهكُّم على المنافِقين بمُجاراتِهم ظاهِرًا في دَعوتِهمُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم للصَّلاةِ فيه، بأنَّه- وإن كان حَقيقًا بصَلاتِه بمسجِدٍ أُسِّس على التَّقْوى- أحقُّ منه، فيُعرَفُ مِن وصفِه بأنَّه أُسِّس على التَّقْوى أنَّ هذا أُسِّس على ضِدِّها[٤]، وقيل: إنما قال: ﴿أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ مع أنَّه لا يجوزُ قِيامُه في الآخَرِ؟ لأنَّ المعنى أنَّه لو كان ذلك جائزًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣١).

لكان هذا أَولى؛ للسَّبَبِ المذكورِ[١].

- قولُه: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ جملةٌ مُستأنَفةٌ مبيِّنةٌ لأحقِّيَّتِه بقِيامِه صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم فيه؛ مِن جهةِ الحالِ، بعدَ بَيانِ أحقِّيَّتِه به مِن حيثُ المحَلُّ[٢].

- وأيضًا في قولِه: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ ثناءٌ على مُؤمِني الأنصارِ الذين يُصلُّونَ بمسجدِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم وبمَسجدِ قُباءٍ، وفيه تعريضٌ بأنَّ أهلَ مسجِدِ الضِّرارِ ليسوا كذلك[٣].

- قولُه: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ تذييلٌ مُناسِبٌ للمَقامِ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ نُفوسَهم وافقَت خُلقًا يُحِبُّه اللهُ تعالى، وكَفى بذلك تنويهًا بزَكاءِ أنفُسِهم[٤].

٢- قولُه تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ...﴾ تفريعٌ على قولِه: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِن أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾؛ لزِيادةِ بَيانِ أحقِّيَّةِ المسجِدِ المؤسَّسِ على التَّقوى بالصَّلاةِ فيه[٥].

- قولُه: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ تذييلٌ، وهو عامٌّ يَشمَلُ هؤلاءِ الظَّالِمين الَّذين بنَوْا مسجِدَ الضِّرارِ وغيرَهم[٦]؛ قيل: وفيه طعنٌ على هؤلاءِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٤٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٠٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٣٣).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٣٥).

المنافِقين وإشارةٌ إليهم، والمعنى: لا يَهْديهم مِن حيثُ هُم الظَّالمون، أو يَكونُ المرادُ الخُصوصَ فيمَن يُوافي على ظُلمِه[1].

٣- قولُه تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿لا يَزالُ بُنْيانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا﴾ فيه وصفُ البُنيانِ بالموصولِ الَّذي صِلَتُه فِعْلُه ﴿الَّذِي بَنَوْا﴾؛ للإيذانِ بكيفيَّةِ بِنائِهم له وتَأسيسِه على أوهَنِ قاعدةٍ، وأوهى أساسٍ، وللإشعارِ بعِلَّةِ الحُكمِ، أي: لا يَزالُ مَسجِدُهم ذلك مَبنيًّا ومَهْدومًا[2]. وأيضًا في ذِكْر قولِه: ﴿الَّذِي بَنَوْا﴾ بعدَ ﴿بُنْيانُهُمُ﴾ تأكيدٌ وتصريحٌ بأمرِ المسجِدِ، ورفعٌ للإشكالِ[3].

- وجُعِلَ نفسُ ذلك البُنيانِ رِيبةً؛ لِكَونِه سببًا للرِّيبةِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٤٩).

الآيتان (١١١-١١٢)

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿السَّائِحُونَ﴾: أي: الصَّائمونَ، وأصلُ السَّائِحِ: الذَّاهِبُ في الأرضِ[١].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه اشتَرَى من المؤمنينَ أنفُسَهم وأموالَهم، وجعَلَ ثَمنَ ذلك أن تكونَ لهم الجنَّةُ، يُقاتِلونَ لإعلاءِ كَلِمةِ اللهِ تعالى، وسواءٌ يَقتُلونَ الكُفَّارَ أو يقتُلُهم

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٧).

قال الأزهري: (وقِيل للصَّائِم: سائحٌ؛ لأنَّ الذي يسيحُ مُتَعبِّدًا يذهبُ في الأرضِ لا زادَ معه، فحينَ يَجِدُ الزَّادَ يَطعَمُ، والصائمُ لا يَطعَم أيْضًا، فلشَبهِه به سُمِّي سائحًا). ((تهذيب اللغة)) (٥/ ١١٣).

وقال الرَّازي بعد أنْ ذكَرَ الوجهَ الأوَّلَ في تسميةِ الصَّائم سائحًا- ونقَلَه عن الأزهري- قال: (الثاني: أنَّ أصلَ السياحةِ الاستمرارُ على الذَّهابِ في الأرضِ، كالماءِ الذي يسيحُ، والصَّائمُ يستمِرُّ على فعلِ الطَّاعةِ، وترْكِ المُشتَهى، وهو الأكلُ والشُّرب والوِقاعُ، وعندي فيه وجهٌ آخرُ: وهو أنَّ الإنسانَ إذا امتنَعَ مِن الأكلِ والشُّربِ والوِقاعِ، وسَدَّ على نفسِه أبوابَ الشَّهواتِ؛ انفتَحَت عليه أبوابُ الحكمةِ، وتجَلَّت له أنوارُ عالَم الجلالِ... فيصيرُ مِن السَّائحينَ في عالَمِ جلالِ اللهِ، المُتَنقلينَ مِن مقامٍ إلى مقامٍ، ومن درجةٍ إلى درجةٍ، فيحصلُ له سياحةٌ في عالَم الرُّوحانيَّاتِ). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٥٤).

الكُفَّارُ، فقد وجَبَت لهم الجنَّةُ، وعدًا عليه حقًّا ثابتًا في التَّوراة والإنجيلِ والقرآنِ، ولا أحَدَ أحسَنُ وفاءً بعَهدِه مِن اللهِ تعالى، ثم أمَرَ سُبحانَه المؤمنينَ المجاهدينَ أن يَفرَحوا بهذا البَيعِ الذي بايَعوا به اللهَ تعالى، وذلك هو الفَوزُ العظيمُ.

ثمَّ وصَف الله تعالى المؤمنينَ الذينَ اشتَرَى منهم أنفُسَهم وأموالَهم، فأخبَرَ أنَّهم هم التَّائبون، العابِدونَ، الذين يحمَدونَ اللهَ في جميعِ الأحوالِ، الصَّائمونَ، المصَلُّونَ، الآمِرونَ بالمعروفِ والنَّاهونَ عن المُنكَر، والعامِلونَ بأمرِ اللهِ ونَهيِه، الذين لا يُضَيِّعونَ شَيئًا من أحكامِ شَريعتِه، وبَعدَها أمَرَ اللهُ نَبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يبشِّرَ المؤمنينَ بكُلِّ خَيرٍ في الدُّنيا والآخرةِ.

تَفسيرُ الآيتَين:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا شرَعَ اللهُ تعالى في شَرحِ فضائحِ المُنافِقينَ وقبائحِهم؛ لسَبَبِ تخلُّفِهم عن غزوةِ تَبوكَ، فلمَّا تمَّم ذلك الشَّرحَ والبيانَ، وذكَرَ أقسامَهم، وفرَّعَ على كلِّ قِسمٍ ما كان لائقًا به- عاد إلى بيانِ فضيلةِ الجِهادِ وحَقيقَتِه[1].

وأيضًا أنَّه لَمَّا تقَدَّمَ الإنكارُ على المُتثاقلينَ عن النَّفْرِ في سبيلِ اللهِ، في قَولِه تعالى: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، ثمَّ الحَزمُ بالجِهادِ بالنَّفسِ والمالِ،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٥٠).

في قَولِه تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾- ذكَرَ فضيلةَ الجهادِ وحَقيقَتَه[١].

وأيضًا فهذه الآيةُ والتي بعدَها في بيانِ حالِ المُؤمِنينَ حَقَّ الإيمانِ، البالغينَ فيه ما هو غايةٌ له مِن الكَمالِ؛ وُضِعَتا بعد بيانِ حالِ المُنافِقينَ، وأصناف المُؤمنين المقصِّرين، ومنهما تُعرَفُ جميعُ درجاتِ المُسلِمينَ، ولا سيَّما المتخلِّفين عن الجهادِ في سبيلِ اللهِ[٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ اشتَرَى من المؤمنينَ أنفُسَهم لِيُقاتِلوا بها الكُفَّار، واشتَرَى أموالَهم لِيَبذُلوها في جهادِهم، وجعَلَ ثَمنَ تَقديمِهم أنفُسَهم وأموالَهم في سبيلِ اللهِ، أن تكونَ لهم الجنَّةُ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

﴿يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾.

أي: يُقاتِلُ المؤمنونَ لإعلاءِ كَلِمةِ اللهِ، ونُصرةِ دينِه، فإمَّا أن يَقتُلوا الكُفَّارَ، أو يَقتُلَهم الكُفَّارُ، فسواءٌ قَتَلوا أو قُتِلوا فقد وجَبَت لهم الجنَّةُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٦٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٧).

قال ابن عاشور: (المرادُ بالمؤمنينَ في الأظهَرِ أن يكونَ مُؤمِني هذه الأمَّة. وهو المناسِبُ لِقَولِه بعدُ: ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٥/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٩). =

﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾.

أي: وعدًا على اللهِ ثابتًا مَكتوبًا في التَّوراةِ التي أنزَلَها على موسى، والإنجيلِ الذي أنزَلَه على عيسى، والقُرآنِ الذي أنزَلَه على مُحمَّدٍ- عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ- أنَّه سيُوفِّي المُجاهدينَ في سبيلِه ما وعَدَهم به، فيُدخِلُهم جنَّتَه(١).

﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾.

أي: لا أحدَ أحسنُ وفاءً بما عاهَدَ عليه مِن اللهِ؛ فإنَّه صادِقٌ لا يُخلِفُ الميعادَ(٢).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢].

﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾.

أي: فأظهِرُوا السُّرورَ- أيُّها المُؤمِنونَ المُجاهِدونَ- وافرَحوا بهذا البَيعِ الذي بايَعتُم به اللهَ(٣).

= قال محمد رشيد رضا: (قَولُه: ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ بيانٌ لصفةِ تسليمِ المَبيعِ). ((تفسير المنار)) (١١/ ٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٦٦)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٥٢،١٥١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٣).

﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

أي: وهذا البَيعُ هو النَّجاةُ العظيمةُ، والظَّفَرُ الكبيرُ الذي لا أعظَمَ منه؛ فالجِهادُ سببٌ لِمَغفرةِ الذُّنوبِ والسَّيِّئاتِ، ورَفعِ الدَّرَجاتِ، ودُخولِ الجنَّاتِ[١].

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الصف: ١٠ - ١٢].

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تعالى في الآيةِ السَّابقةِ أنَّه اشتَرَى من المُؤمِنينَ أنفُسَهم وأموالَهم بأنَّ لهم الجنَّةَ؛ بيَّنَ في هذه الآيةِ أنَّ أولئك المُؤمِنينَ هم المَوصوفونَ بهذه الصِّفاتِ الجَميلةِ والخِلالِ الجَليلةِ[٢]، فقال تعالى:

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾.

أي: الذين اشتَرَى اللهُ منهم أنفُسَهم وأموالَهم، هم الرَّاجِعونَ مِن مَعصيةِ اللهِ إلى طاعَتِه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٦٩)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٩)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٧)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٢/ ١٣٦)، ((تفسير ابن =

﴿ٱلْعَـٰبِدُونَ﴾.

أي: الذين ذَلُّوا لِلَّه وأطاعوه؛ محبةً له، واجتَهَدوا في عبادَتِه وَحْدَه[1].

﴿ٱلْحَـٰمِدُونَ﴾.

أي: الذينَ يَحمَدونَ اللهَ في جميعِ أحوالِهم[2].

﴿ٱلسَّـٰٓئِحُونَ﴾.

أي: الصَّائِمونَ[3].

= عطية)) (٣/ ٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٩)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٦٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ١٥٢، ١٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٩)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٤١).

(٣) ممن اختار هذا المعنى: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ، وابنُ عطيةَ، وابنُ كثيرٍ، والشوكاني ونَسَبه لجمهورِ المفسِّرين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٦٩ - ٧١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٩، ٢٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٦٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: أبو هريرةَ، وابنُ عبَّاسٍ، وعائشةُ، وعبدُ الله بنُ مسعودٍ، وسعيدُ بنُ جبيرٍ، ومجاهدٌ، والحسنُ، وعطاءٌ، والضحَّاكُ، وقتادةُ، والربيع بن أنس وغيرُهم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١١)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ١٨٨٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٠٣).

وقيل: السَّائحونَ هم المُسافِرونَ في القُرُبات؛ كالسَّفَر للجهادِ، والحجِّ والعمرة، وطلَبِ العِلم، وصِلَةِ الأرحامِ. وممَّن اختار هذا القولَ: القاسمي، ومحمد رشيد رضا، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٥١١ - ٥١٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٤١).

قال عِكْرمةُ في تفسير ﴿السَّائِحُونَ﴾: طلبةُ العلمِ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ١٨٨٩) =

﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾.

أي: المُصَلُّونَ الرَّاكِعونَ والسَّاجِدونَ في صَلَواتِهم المكتوبةِ والمَندوبةِ[1].

﴿ٱلْأَمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾.

أي: الذينَ يأمُرونَ النَّاسَ بكُلِّ ما أمَرَ اللهُ ورسولُه به، من الإيمانِ باللهِ وطاعتِه وطاعةِ رَسولِه، ويَنهَونَهم عن كلِّ ما نهى اللهُ ورسولُه عنه، مثل الشِّركِ باللهِ ومَعصيتِه ومَعصيةِ رَسولِه[2].

= قال ابنُ عاشور: (السَّائحون: مُشتَقٌّ من السياحةِ. وهي السَّيرُ في الأرض. والمرادُ به سيرٌ خاصٌّ محمودٌ شَرعًا. وهو السَّفرُ الذي فيه قُربةٌ لله وامتثالٌ لأمره، مِثلُ سَفَرِ الهجرة من دارِ الكُفرِ أو السَّفَر للحجِّ، أو السَّفَر للجهاد. وحملُه هنا على السَّفرِ للجِهادِ أنسَبُ بالمقامِ، وأشمَلُ للمؤمنينَ المأمورينَ بالجهادِ، بخلاف الهجرةِ والحَجِّ). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٤١).

وقيل: السَّائحون بقُلوبِهم في ذكرِ الله ومحبَّتِه، والإنابةِ إليه والشَّوقِ إلى لقائِه، وإنَّه يترتَّبُ عليها كلُّ ما ذُكِرَ من الأعمالِ الصَّالحة. وممَّن اختار هذا القولَ: ابن القيم. يُنظر: ((حادي الأرواح)) (ص: ٨٥).

قال ابنُ القَيِّم: (فُسِّرَت السِّياحةُ بالصِّيام وفُسِّرَت بالسَّفَرِ في طلَبِ العِلمِ، وفُسِّرَت بالجهادِ، وفُسِّرَت بدوامِ الطَّاعة، والتَّحقيقُ فيها أنَّها سياحةُ القَلبِ في ذكْرِ اللهِ ومَحبَّتِه، والإنابةِ إليه والشَّوقِ إلى لقائِه، ويترتَّبُ عليها كلُّ ما ذُكِرَ من الأفعالِ). ((حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح)) (ص: ٨٥).

وقال القرطبي: (قيل: هم الجائلونَ بأفكارِهم في توحيدِ رَبِّهم ومَلَكوتِه وما خلَقَ مِن العِبَرِ والعلاماتِ الدَّالَّة على توحيدِه وتعظيمِه، حكاه النقاش... قلت: لفظ «س ي ح» يدلُّ على صحَّة هذه الأقوال؛ فإنَّ السياحةَ أصلُها الذَّهابُ على وجهِ الأرضِ كما يسيحُ الماءُ، فالصَّائمُ مستمِرٌّ على الطاعةِ في تَرْكِ ما يترُكُه من الطَّعامِ وغيرِه، فهو بمنزلة السَّائح، والمتفكِّرون تجولُ قلوبُهم فيما ذَكَروا). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٥، ١٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٣).

﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾.

أي: والعامِلونَ بأمرِ اللهِ ونَهيِه، الذينَ لا يُضَيِّعونَ شَيئًا من أحكامِ شَريعتِه(١).

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: وبَشِّرْ- يا مُحمَّدُ- جميعَ المُؤمِنينَ، بكُلِّ خَيرٍ في الدُّنيا والآخرةِ(٢).

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ الجماعةُ المُؤمِنةُ التي بايَعَها اللهُ على الجنَّةِ، واشتَرَى منها الأنفُسَ والأموالَ، حياتُها ليست لَهوًا ولَعِبًا، وليسَتِ الحياةُ عندهم أكلًا- كما تأكُلُ الأنعامُ- ومتاعًا، وليست الحياةُ سلامةً ذَليلةً، وراحةً بليدةً، إنَّما الحياةُ كِفاحٌ في سبيلِ الحَقِّ، وجهادٌ في سبيلِ الخَيرِ، وانتصارٌ لإعلاءِ كَلِمةِ اللهِ، أو استشهادٌ كذلك في سبيلِ اللهِ، ثمَّ الجنَّة والرِّضوان(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٣/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٣).

قال ابنُ جريرٍ: (وأمَّا قَولُه: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فإنَّه يعني: وبَشِّرِ المُصَدِّقينَ بما وَعَدَهم اللهُ إذا هم وَفوا اللهَ بعَهدِه، أنَّه مُوفٍ لهم بما وَعَدَهم من إدخالِهم الجنَّةَ). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨).

وقال ابنُ عطيةَ: (﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قيل: هو لفظٌ عامٌّ أُمِرَ به النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم، أن يُبَشِّرَ أمَّتَه جميعًا بالخيرِ مِن اللهِ. وقيل: بل هذه الألفاظُ خاصَّةٌ لِمَن لم يغزُ، أي: لَمَّا تقدَّمَ في الآيةِ وعدُ المجاهدينَ وفَضْلُهم، أُمِرَ أن يُبَشِّرَ سائرَ النَّاسِ ممَّن لم يغزُ، بأنَّ الإيمانَ مُخلِّصٌ مِن النَّارِ، والحمدُ لله ربِّ العالَمينَ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٠).

(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٧٢٠).

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ العجَبُ ممَّن يدَّعونَ الإيمانَ وهم ينكُثونَ بيعةَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، فهم لا يبذُلونَ أنفُسَهم ولا شيئًا مِن أموالِهم في سبيلِ اللهِ، وإنَّما يَطلُبونَ الجنَّةَ بغَيرِ ثَمَنِها، كما يَطلُبونَ سَعادةَ الدُّنيا وسيادَتَها مِن غيرِ طَريقِها، ولا طريقَ لها إلَّا الجِهادُ بالمالِ والنَّفسِ، والقرآنُ حُجَّةٌ عليهم، وهو حُجَّةُ اللهِ البالغةُ، التي لا يَدحَضُها شيءٌ، وهي تَدحَضُ كُلَّ شَيءٍ(١).

٣- باع المَغبونونَ مَنازِلَهم من الجنةِ بأبخَسِ الحَظِّ، وأنقَصِ الثَّمَنِ، وباع المُوفَّقونَ نُفوسَهم وأموالَهم مِنَ اللهِ، وجَعَلوها ثمَنًا للجَنَّةِ، فرَبِحَت تِجارتُهم، ونالوا الفوزَ العَظيمَ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾(٢).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هذه أوصافُ الكَمَلةِ من المُؤمِنينَ، ذكَرَها اللهُ تعالى؛ لِيَستبِقَ إلى التحلِّي بها عِبادُه، ولِيَكونوا على أوفَى دَرَجاتِ الكَمالِ(٣).

٥- قول الله تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه أنَّ مِن شُعَبِ الإيمانِ: التوبةَ والعبادةَ، وحَمدَ اللهِ على كلِّ حالٍ، والسياحةَ والصَّلاةَ، والأمرَ بالمعروفِ والنَّهيَ عن المُنكَرِ، وحِفظَ حُدودِ اللهِ، باتِّباعِ أوامِرِه واجتنابِ نواهِيه(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٤١، ٤٢).
(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥١٠).
(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٤-١٤٥).

٦- قال تعالى: ﴿التَّائِبُونَ﴾ والتَّوبة إنَّما تحصُلُ عند حصولِ أمورٍ أربعةٍ:

أولها: احتراقُ القلبِ في الحالِ على صُدورِ تلك المعصيةِ عنه.

وثانيها: ندَمُه على ما مضى.

وثالثها: عَزْمُه على التَّركِ في المُستقبَلِ.

ورابعُها: أن يكونَ الحامِلُ له على هذه الأمورِ الثَّلاثة طلبَ رِضوانِ اللهِ تعالى وعبوديَّتِه؛ فإن كان غَرَضُه منها دَفْعَ مَذَمَّةِ النَّاسِ، وتحصيلَ مَدْحِهم أو سائِرَ الأغراضِ؛ فهو ليس من التَّائبينَ[1].

٧- الجهادُ في سبيلِ اللهِ ليس مُجرَّدَ اندفاعةٍ إلى القتالِ، إنَّما هو قِمَّةٌ تقومُ على قاعدةٍ مِن الإيمانِ المتمَثِّلِ في مشاعِرَ وشعائِرَ وأخلاقٍ وأعمالٍ، والمؤمنونَ الذين عقَدَ اللهُ معهم البَيعةَ، والذين تتمَثَّلُ فيهم حقيقةُ الإيمانِ، هم قومٌ تتمَثَّلُ فيهم صِفاتٌ إيمانيَّةٌ أصيلةٌ: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾[2].

٨- مِن صِفاتِ جماعةِ المُؤمِنينَ ومُمَيِّزاتِهم: توبةٌ تَرُدُّ العبدَ إلى اللهِ، وتكُفُّه عن الذَّنبِ، وتدفَعُه إلى العملِ الصَّالحِ. وعبادةٌ تَصِلُه باللهِ، وتَجعَلُ اللهَ مَعبودَه وغايتَه ووِجهتَه. وحمدٌ للَّه على السَّرَّاءِ والضَّراءِ؛ نتيجةَ الاستسلامِ الكامِلِ لله، والثِّقةِ المُطلَقة برَحمتِه وعَدْلِه. وصَومٌ للهِ تعالى. وأمرٌ بالمعروفِ ونهيٌ عن المُنكَرِ، يتجاوَزُ صلاحَ الذَّاتِ إلى إصلاحِ العبادِ والحياةِ. وحِفظٌ لحُدودِ اللهِ يَرُدُّ عنها العادِينَ والمضَيِّعينَ، ويصونُها من التهجُّمِ والانتهاكِ. قال الله تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٧١٩).

بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ عبَّر بالشراءِ مع أنَّ ما في الكونِ ملكٌ له وحدَه؛ وإنَّما يشتري المشتري ما لا يملكُ؛ لِحُسنِ التلطُّفِ في الدُّعاءِ إلى الطَّاعةِ(٢).

٢- الجهادُ مَقصودُه أن تكونَ كَلِمةُ اللهِ هي العُليا، وأن يكونَ الدِّينُ كُلُّه لله؛ فمقصودُه إقامةُ دينِ الله لا استيفاءُ الرَّجُلِ حَظَّه؛ ولهذا كان ما يُصابُ به المجاهِدُ في نفسِه ومالِه أجرُه فيه على اللهِ؛ فإنَّ الله اشتَرى من المؤمنينَ أنفُسَهم وأموالَهم بأنَّ لهم الجنَّةَ؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ حتى إنَّ الكُفَّارَ إذا أسلَموا أو عاهَدوا لم يَضمَنوا ما أتلَفوه للمُسلِمينَ مِن الدِّماءِ والأموالِ، بل لو أسلَموا وبأيديهم ما غَنِموه من أموالِ المُسلِمينَ، كان مِلكًا لهم عند جُمهورِ العُلَماءِ، كمالكٍ وأبي حنيفةَ وأحمدَ، وهو الذي مضَتْ به سنَّةُ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وسُنَّةُ خُلَفائه الرَّاشِدينَ(٣).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ في لفظةِ ﴿اشْتَرَى﴾ لطيفةٌ، وهي: رغبةُ المُشتَري فيما اشتَراه، واغتباطُه به، ولم يأتِ التَّركيبُ: (إن المؤمنينَ باعوا)(٤).

٤- قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٧٢٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٥٠).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ١٧٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٠٩).

الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ إذا أردْتَ أن تعرِفَ مِقدارَ الصَّفَقةِ، فانظُر إلى المشتري من هو: وهو اللهُ جلَّ جَلالُه، وإلى العِوَض: وهو أكبَرُ الأعواضِ وأجَلُّها: جنَّاتُ النَّعيمِ، وإلى الثَّمَنِ المبذولِ فيها: وهو النَّفسُ، والمالُ الذي هو أحبُّ الأشياءِ للإنسان، وإلى مَن جرى على يَدَيه عقدُ هذا التَّبايع: وهو أشرَفُ الرُّسُل، وبأيِّ كتابٍ رُقِمَ: وهي كُتُبُ اللهِ الكِبارُ المنَزَّلةُ على أفضَلِ الخَلقِ(١).

٥- في قولِه تعالى: ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ قرأ الجُمهورُ بتَقديمِ (يَقْتُلُونَ) المبنيِّ للفاعلِ، وحمزةُ والكِسائيُّ بتقديمِ المبني للمَفعولِ، فدلَّت القراءتانِ على أنَّ الواقِعَ هو أن يُقتَلَ بَعضُهم ويَسلَمَ بَعضٌ، وأنَّه لا فَرْقَ بين القاتِلِ والمقتولِ في الفَضلِ، والمثوبةُ عند اللهِ عَزَّ وجلَّ؛ إذ كلٌّ منهما في سبيلِه، لا حُبًّا في سَفْكِ الدِّماءِ، ولا رغبةً في اغتنامِ الأموالِ، ولا توسُّلًا إلى ظُلمِ العباد، كما يفعَلُ عُبَّادُ الدُّنيا من الملوكِ، ورُؤساءِ الأجنادِ(٢).

٦- قولُه تعالى: ﴿فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ يدلُّ أنَّ أهلَ كُلِّ مِلَّةٍ أُمِروا بالقِتالِ، وأُوعِدوا عليه الجنَّةَ- إذ هو سنةٌ إلهيةٌ للتمكينِ لدينِ الله، والذودِ عنه- وقد بَقِيَ في التوراةِ والإنجيلِ الموجُودَينِ- على تحريفِهما- ما يُشيرُ إلى الجهادِ والحَثِّ عليه(٣).

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٩، ٤٠).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٢/ ٤٧١)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٥١٠).

وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ في خَتمِ الآيتَينِ بالبِشارةِ- تارةً من الخالقِ، وتارةً مِن أكمَلِ الخلائقِ- أعظَمُ مَزيَّةٍ للمُؤمنينَ، وفي جَعْلِ الأُولَى مِن اللهِ أعظمُ تَرغيبٍ في الجهادِ، وأعلى حَثٍّ على خَوضِ غَمَراتِ الجِلادِ[1].

٨- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ في ابتداءِ الآيتَينِ بالوَصفِ المُشعِرِ بالرُّسوخِ في الإيمانِ ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وخَتْمِهما بمِثْلِه ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ هذه مائدةٌ لا يجلِسُ عليها طُفَيليٌّ، وأنَّ مَن عدا الرَّاسخينَ، في دَرَجةِ الإهمالِ؛ لا كلامَ معهم، ولا التفاتَ بوجهٍ إليهم[2].

٩- دلَّ قولُه تعالى: ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾ أنَّ مَن سعَى في طاعةِ اللَّهِ، فقد باع نفسَه لله، وأعتقَها مِن عذابِه[3].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ خُصَّت تلك الخِلالُ التِّسْعُ بالذِّكرِ؛ لأنَّها هي التي تُمثِّلُ في

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٢٨).

نفسِ القارئِ أكمَلَ ما يكونُ المؤمِنُ به مُحافِظًا على حدودِ اللهِ تعالى[(١)].

١١- ذكَرَ اللهُ تعالى خِصالَ التَّائِبِ في آخِرِ سُورةِ براءة، فقال: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ﴾ فلا بُدَّ للتَّائِبِ مِن العبادةِ والاشتغالِ بالعَمَلِ للآخرة، وإلَّا فالنَّفسُ همَّامةٌ مُتَحرِّكةٌ، إنْ لم تشغَلْها بالحَقِّ، وإلَّا شَغَلتْك بالباطِلِ، فلا بُدَّ للتَّائِبِ مِن أن يبَدِّلَ تلك الأوقاتِ التي مَرَّت له في المعاصي بأوقاتِ الطَّاعاتِ، وأنْ يتدارَكَ ما فرَطَ فيها، وأن يبَدِّلَ تلك الخُطُواتِ بخُطواتٍ إلى الخَيرِ، ويحفظَ لَحَظاتِه وخُطُواتِه، ولَفَظاتِه وخَطَراتِه[(٢)].

١٢- لَمَّا قال تعالى في الآيةِ المتقَدِّمةِ: ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾ ثمَّ ذكَرَ هذه الصِّفاتِ التِّسعةَ؛ ذكر عَقيبَها قَولَه: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ تنبيهًا على أنَّ البِشارةَ المذكورةَ في قَولِه: ﴿فَاسْتَبْشِرُوا﴾ لم تتناوَلْ إلَّا المؤمنينَ الموصوفينَ بهذه الصِّفاتِ[(٣)].

١٣- ذكَر الله تعالى في هذه الآيةِ ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ...﴾ تسعةَ أوصافٍ للمؤمنينَ؛ الستةُ الأُولَى منها تتعلَّق بمعاملةِ الخالقِ، والوصفانِ السابعُ والثامنُ يتعلَّقانِ بمعاملةِ المخلوقِ، والوصفُ التاسعُ يعمُّ القَبيلينِ[(٤)].

بلاغةُ الآيتَين:

١- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٩/ ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٥٦).

(٤) يُنظر: ((حاشية الجمل على الجلالين)) (٢/ ٣٣٦).

- قولُه: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ...﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ للتَّنويهِ بأهلِ غزوةِ تَبوكَ، وهم جيشُ العُسْرةِ، وافتُتِحَت الجملةُ بحَرفِ التَّوكيدِ (إنَّ)؛ للاهتِمامِ بالخبَرِ[١].

- وفيه تمثيلُ اللهِ إثابتَهم بالجنَّةِ على بَذْلِهم أنفُسَهم وأموالَهم في سَبيلِه بالشَّرْوى[٢].

- وفي قولِه: ﴿أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ قدَّم الأنفُسَ على الأموالِ؛ ابتِداءً بالأشرَفِ وبِما لا عِوَضَ له إذا فُقِد[٣].

- وأيضًا قولُه تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيثُ قَدَّمَ هنا الأنفسَ على الأموالِ، وفي غيرِه مِن آياتِ الجِهادِ حيثُما وقَعَ في القرآنِ قَدَّمَ الأموالَ على الأنفسِ، كقولِه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٢]، وقوله: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٤١]، وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ١٥]، وقوله: ﴿وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ [الصف: ١١]؛ وذلك لأنَّ تقديمَ الأنفسِ هنا في سُورةِ التوبةِ هو الأَوْلى؛ لأنَّها هي المُشتراةُ في الحقيقةِ، وهي مَوردُ العقدِ، وهي السِّلعةُ التي استلَمها ربُّها، وطلَب شِراءَها لنَفْسِه سبحانَه، وجعَل ثمَنَ هذا العقدِ رِضاه وجَنَّتَه؛ فكانتْ هي المقصودَ بعقدِ الشِّراءِ، والأموالُ تبَعٌ لها؛ فإذا مَلَكها مُشتريها مَلَك مالَها؛ فإنَّ العبدَ وما يَملِكُه لسيِّدِه، والمالكُ الحقُّ إذا مَلَك النَّفْسَ ملَكَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٠٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٠٩).

أموالَها ومُتعلَّقاتِها؛ فحَسُنَ تقديمُ النَّفْسِ على المالِ في هذِه الآيةِ حُسنًا لا مَزيدَ عليه. وأمَّا تقديمُ الأموالِ على الأنفسِ في آياتِ الجِهادِ الأخرى؛ فقيل: إنَّه للإشارةِ إلى وجوبِ الجهادِ بالمالِ كما يجبُ بالنَّفسِ؛ فإذا دَهَم العدوُّ وجَبَ على القادرِ الخروجُ بنَفْسِه، فإنْ كان عاجزًا وجَبَ عليه الجهادُ بمالِه إنْ كان له مالٌ؛ فتقديمُ المالِ في الذِّكرِ مُشعرٌ بإنكارِ وهْمِ مَن يَتوهَّم أنَّ العاجزَ بنفْسِه إذا كان قادرًا على أن يغزوَ بمالِه لا يجِبُ عليه شيءٌ، بل قد يُقال: إنَّ وجوبَ الجهادِ بالمالِ أعظمُ وأقْوَى مِن وُجوبِه بالنَّفْسِ؛ وعلى هذا فتظهرُ الفائدةُ في تقديمِ المالِ في الذِّكر على الأنفسِ. وعلى تقديرِ عَدمِ وجوبِ الجهادِ بالمالِ؛ ففي تقديمِ المالِ على النَّفسِ في تِلكَ الآياتِ فائدةٌ أخرى، وهي: أنَّ المالَ محبوبُ النفْسِ ومَعشوقُها التي تَبذُلُ ذاتَها في تَحصيلِه، وتَرتكِبُ الأخطارَ، وتَتعرَّضُ للموتِ في طلبِه، وهذا يدلُّ على أنَّه هو محبوبُها ومعشوقُها؛ فندَب اللهُ تعالى مُحبِّيه المجاهِدينَ في سبيلِه إلى بذْلِ مَعشوقِهم ومحبوبِهم في مَرضاتِه؛ فإنَّ المقصودَ أنْ يكونَ اللهُ هو أحَبَّ شيءٍ إليهم، ولا يكونَ في الوجودِ شيءٌ أحبَّ إليهم منه، فإذا بذَلوا مَحبوبَهم في حُبِّه نقَلَهم إلى مَرتبةٍ أخرى أكملَ منها، وهي بذْلُ نُفوسِهم له، فهذا غايةُ الحُبِّ؛ فإنَّ الإنسانَ لا شيءَ أحبُّ إليه مِن نفْسِه، فإذا أحَبَّ شيئًا بذَل له محبوبَه مِن نفْسِه ومالِه، فإذا آل الأمرُ إلى بذْلِ نفْسِه ضَنَّ بنَفْسِه، وآثَرَها على محبوبِه؛ هذا هو الغالبُ وهو مُقتضَى الطَّبيعةِ، واللهُ تعالى لم يَرْضَ مِن مُحبِّيه إلَّا أنْ يَبذُلوا له نُفوسَهم بعدَ أنْ بذَلوا له مَحبوباتِهم، وأيضًا فبَذْلُ النفسِ آخِرُ المراتبِ؛ فإنَّ العبدَ يَبذُلُ مالَه أولًا؛ يَقِي به نفْسَه، فإذا لم يَبْقَ له مالُه بذَلَ نفْسَه؛ فكان تقديمُ المالِ على النَّفسِ في الجِهادِ مُطابِقًا للواقِع(١).

- قولُه: ﴿بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ مُبالَغةٌ في تقريرِ وُصولِ الثَّمَنِ إليهم، واختصاصِه

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٧٧ - ٧٩).

بهم، كأنَّه قيل: بالجنَّةِ الثَّابتةِ لهم، المختصَّةِ بهم[١]، وقيل: اللامُ في ﴿لَهُمُ﴾ للمِلْك[٢] والاستحقاقِ، والمجرورُ مَصدرٌ، والتقديرُ: بتحقيقِ تَملُّكِهم الجنَّةَ، وإنَّما لم يَقُل (بالجنَّة)؛ لأنَّ الثَّمنَ لَمَّا كان آجِلًا، كان هذا البيعُ مِن جِنسِ السَّلَم[٣].

- قولُه: ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ مُستأنَفةٌ استِئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ اشتِراءَ الأنفُسِ والأموالِ لِغَرابتِه في الظَّاهِرِ، يُثيرُ سؤالَ مَن يَقولُ: كيفَ يَبذُلون أنفُسَهم وأموالَهم؟ فكان جوابُه: ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾[٤].

- قولُه: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ﴾ تذييلٌ؛ فإنَّ الكلامَ قد تمَّ وكَمَل قبلَ ذلك، ثمَّ أتَت جُملةُ التَّذييلِ؛ لِتُحقِّقَ ما قبلَها وتُؤكِّدَه[٥].

- قولُه: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ الاستفهامُ فيه إنكاريٌّ بتَنزيلِ السَّامعِ مَنزِلةَ مَن يَجعَلُ هذا الوعدَ مُحتمِلًا للوفاءِ وعدَمِه، كغالِبِ الوُعودِ، فيُقالُ: ومَن أوفى بعَهدِه مِن اللهِ؟! إنكارًا عليه، وهو استفهامٌ على جِهةِ التَّقريرِ، أي: لا أحَدَ أوفَى بعَهدِه مِن اللهِ تعالى[٦]، وهذه الجملةُ اعتراضٌ مُقرِّرٌ لِمَضمونِ ما قَبلَه مِن حقِّيَّةِ الوعدِ على نَهجِ المبالَغةِ في كونِه سبحانَه أوفَى بالعهدِ مِن كلِّ وافٍ[٧].

- وفي قولِه: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ زيادةُ تأكيدٍ، فإنَّه لَمَّا أكَّد الوعدَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٠٥).
(٢) ومنع بعضُهم كونَ اللامِ للملكِ. يُنظر: ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٦٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ١٨٠).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٩).
(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٠٥).

بقولِه: ﴿عَلَيْهِ حَقًّا﴾ أبرَزَه هنا في صورةِ (العهدِ) الَّذي هو آكَدُ وأوثَقُ مِن الوعدِ؛ إذ الوعدُ في غيرِ حقِّ اللهِ تعالى جائزٌ إخلافُه، والعهدُ لا يَجوزُ إلَّا الوفاءُ به؛ إذْ هو آكَدُ مِن الوعدِ[1].

- قولُه: ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾ في قولِه: ﴿فَاسْتَبْشِرُوا﴾ فيه التفاتٌ إلى الخِطابِ؛ تَشْريفًا لهم على تَشريفٍ، وزيادةً لسُرورِهم على سرورٍ[2].

- وقولُه: ﴿بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾ فيه إضافةُ البيعِ إلى ضَميرِهم؛ إظهارًا لاغتِباطِهم به، وفي وَصْفِه بالموصولِ وصِلَتِه: ﴿الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾: تأكيدٌ لمَعنى ﴿بِبَيْعِكُمْ﴾؛ فهو وصْفٌ على سَبيلِ التَّوكيدِ، وتأكيدٌ لفظيٌّ بلَفظٍ مُرادِفٍ[3].

٢- قوله تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ فيه مناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث ذكَر حَرْفَ العطفِ هنا دون ما قَبْلَه: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ... الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾؛ لِتَبايُنِ ما بينَ الوَصفَينِ، فالأمرُ مُبايِنٌ للنَّهيِ؛ إذِ الأمرُ طلَبُ فِعْلٍ، والنَّهيُ تركُ فعلٍ؛ لذا حَسُن العطفُ بالواوِ هنا[4].

- وجاء ترتيبُ هذه الصِّفاتِ في غايةٍ مِن الحُسنِ؛ إذ بدَأ أوَّلًا بما يخُصُّ الإنسانَ، مُرتَّبةً على ما سعَى، فقال: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾، ثمَّ بما يتَعدَّى مِن هذه الأوصافِ مِن الإنسانِ إلى غَيرِه، وهو الأمرُ بالمعروفِ، والنَّهيُ عن المنكَرِ، فقال: ﴿الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥١٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٠٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٤٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥١١).

وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾، ثمَّ بما شَمِل ما يخُصُّه في نفسِه وما يتَعدَّى إلى غيرِه، وهو الحِفظُ لحُدودِ اللهِ، فقال: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾[1].

- قولُه: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه وضعُ ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ موضِعَ ضميرِ الموصوفينَ بتِلك الفضائلِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ إيمانَهم دَعاهم إلى ذلك، وأنَّ المؤمِنَ الكاملَ مَن كان كذلك[2].

- وحذَف المبشَّرَ به؛ للتَّعظيمِ، كأنَّه قيل: وبَشِّرْهم بما يَجِلُّ عن إحاطةِ الأفهامِ، وتعبيرِ الكلامِ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

الآيات (١١٢-١١٦)

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿لَأَوَّٰهٌ﴾: أي: كثيرُ التَّوجُّعِ شَفَقًا وفَرَقًا، كثيرُ التضرُّعِ والدُّعاءِ لله، وكلُّ كلامٍ يدُلُّ على حُزنٍ يُقالُ له: التَّأَوُّه (١).

﴿حَلِيمٌ﴾: أي: بَطيءُ الغَضَبِ، يَصبِرُ على الأذى. والحِلمُ: الأناةُ والسُّكونُ مع القُدرةِ والقُوَّةِ، وأصلُ (حلم): يدلُّ على تَرْكِ العَجَلةِ(٢).

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: ما كان ينبغي للنَّبيِّ والمؤمنينَ أن يستغفِروا للمُشرِكينَ، ولو كانوا مِن أقارِبِهم، مِن بعدِ ما تبيَّنَ لهم أنَّهم أهلُ النَّارِ المُخَلَّدونَ فيها، إن ماتوا على كُفْرِهم.

وبيَّنَ تعالى أنَّ استِغفارَ إبراهيمَ لأبيه إنَّما كان بسبَبِ وَعْدِه له بذلك، فلمَّا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٧٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٠٤).

اتَّضَح لإبراهيمَ أنَّ أباه عدُوٌّ لله، تبَرَّأ منه، وترَكَ الاستغفارَ له؛ إنَّ إبراهيمَ لكثيرُ التضرُّعِ والدُّعاءِ لله؛ خوفًا وحَزنًا، ذو رحمةٍ بهم، وصفحٍ عما يصدرُ منهم إليه.

ثم أخبَرَ تعالى أنَّه ما كان لِيُضِلَّ قَومًا بعد هدايتِه لهم إلى الإيمانِ، حتى يُبيِّنَ لهم ما يجِبُ عليهم تَركُه؛ إنَّه بكلِّ شَيءٍ عَليمٌ.

ويُخبِرُ تعالى أنَّ له وَحْدَه مُلكَ السَّمواتِ والأرضِ، يُحيي ويُميتُ، وأنه ليس للنَّاسِ مِن أحدٍ ينفَعُهم غيرُه سبحانَه، ولا أحَد ينصُرُهم سواه.

تَفسيرُ الآيات:

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى مِن أوَّلِ هذه السُّورةِ إلى هذا المَوضِع وُجوبَ إظهارِ البَراءةِ عن الكُفَّار والمُنافِقينَ مِن جَميعِ الوُجوهِ؛ بَيَّنَ في هذه الآيةِ أنَّه تجِبُ البراءةُ عن أمواتِهم، وإن كانوا في غايةِ القُربِ مِن الإنسانِ كالأبِ والأمِّ، كما أوجبَت البراءةَ عن أحيائِهم، والمقصودُ منه بيانُ وجوبِ مُقاطَعتِهم على أقصى الغاياتِ، والمنعِ مِن مُواصَلتِهم بسببٍ مِن الأسبابِ[1].

وأيضًا لَمَّا كَثُرَت في هذه السُّورةِ الأوامِرُ بالبراءةِ مِن أحياءِ المُشركينَ، وجاء الأمرُ أيضًا بالبراءةِ من أمواتِ المُنافِقينَ بالنَّهيِ عن الدُّعاءِ لهم؛ جاءت هذه الآيةُ مُشيرةً إلى البراءةِ مِن كُلِّ مُشرِكٍ، فوقَعَ التَّصريحُ بعدها بما أشارَت إليه[2].

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٩).

عن سعيدِ بنِ المُسيِّب، عن أبيه، قال: ((لَمَّا حَضَرت أبا طالبٍ الوفاةُ جاءه رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فوجَدَ عنده أبا جهلٍ، وعبدَ اللهِ بنَ أبي أميَّةَ بن المُغيرةِ، فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: يا عَمِّ، قلْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، كَلِمةً أشهَدُ لك بها عند اللهِ، فقال أبو جهلٍ، وعبدُ اللهِ بنُ أبي أميَّةَ: يا أبا طالبٍ، أترغَبُ عن ملَّةِ عبد المطَّلِب؟! فلم يزَلْ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَعرِضُها عليه، ويُعيدُ له تلك المقالةَ، حتى قال أبو طالبٍ آخِرَ ما كلَّمَهم: هو على مِلَّةِ عبد المطَّلِب، وأبى أن يقولَ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أمَا واللهِ لأستَغفِرَنَّ لك ما لم أُنهَ عنك، فأنزل اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾، وأنزل اللهُ تعالى في أبي طالبٍ، فقال لِرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾))(١) [القصص: ٥٦].

(١) رواه البخاري (٣٨٨٤)، ومسلم (٢٤) واللفظ له.
قال الواحدي: (قال عامَّةُ المفسِّرين: إنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم عرَضَ على عمِّه أبي طالبٍ الإسلامَ عند وفاتِه، وذكَرَ له وجوبَ حَقِّه عليه، وقال: ((أعنِّي على نفسِك بكلمةٍ أشفَعُ لك بها عندَ الله يومَ القيامة))، فأبى أبو طالبٍ، فقال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلم: ((لأستغفِرَنَّ لك حتى أُنهى عن ذلك)) فاستغفَرَ له بعدما مات، فاستغفَرَ المُسلِمونَ لآبائهم وذوي قَراباتِهم، فنزلت هذه الآيةُ... واستبعَدَه الحسين بن الفضل؛ لأنَّ هذه السورةَ مِن آخِرِ القُرآنِ نُزولًا، ووفاةُ أبي طالبٍ كانت بمكَّةَ في عنفوانِ الإسلامِ، والله أعلم). ((البسيط)) (١١/ ٧٣).
وقال الرازي: (هذا الاستبعادُ عندي مُستبعَدٌ، فأيُّ بأسٍ أن يقالَ: إنَّ النبيَّ عليه الصلاةُ والسَّلامُ بَقِيَ يستغفِرُ لأبي طالبٍ من ذلك الوقتِ إلى وقتِ نُزولِ هذه الآية؟! فإنَّ التَّشديدَ مع الكفَّارِ إنَّما ظهر في هذه السُّورة، فلعلَّ المؤمنينَ كان يجوزُ لهم أن يستغفِروا لأبوَيهم مِن الكافرينَ، وكان النبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أيضًا يفعَلُ ذلك، ثمَّ عند نزولِ هذه السُّورةِ مَنَعَهم اللهُ منه، فهذا غيرُ مُستبعَدٍ في الجملة). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٥٧).
وقال ابنُ حجر: (قولُه: فنزلَت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾، ونزلت: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، أمَّا نزولُ هذه الآيةِ الثَّانية فواضِحٌ في قصة أبي طالبٍ، وأمَّا نزولُ التي قبلها ففيه =

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾.

أي: ما ينبغي للنبيِّ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمُؤمِنينَ أن يسألوا اللهَ المَغفِرةَ للَّذينَ يَعبُدونَ معه غيرَه[١].

﴿وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ ﴾.

أي: ولو كانوا مِن أقارِبِهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وعَن أبي هريرةَ رضي الله عنه، قَالَ: ((زارَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ قبرَ أُمِّه، فبَكَى وأبكَى مَن حولَه، فقالَ: اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي في أنْ أستغْفِرَ لها فلم يُؤْذَنْ لي، واستأذنْتُه في أنْ أزورَ قبرَها فأُذِنَ لي، فَزُوروا القبورَ فإنَّها تُذَكِّرُ الموتَ))[٣].

= نظرٌ، ويظهَرُ أنَّ المرادَ أنَّ الآيةَ المتعلِّقةَ بالاستغفارِ نزلت بعد أبي طالبٍ بمدَّةٍ، وهي عامَّةٌ في حقِّه وفي حقِّ غَيرِه، ويوضِّحُ ذلك ما سيأتي في التَّفسيرِ بلفظِ: فأنزل اللهُ بعد ذلك: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية، وأنزل في أبي طالبٍ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، ولأحمد من طريقِ أبي حازم عن أبي هريرةَ في قصَّة أبي طالبٍ قال: فأنزل الله ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾). ((فتح الباري)) (٧/ ١٩٥).

وقال القاسمي: (ساق المفسِّرون هاهنا رواياتٍ عديدةً في نزولِ الآيةِ، ولَمَّا رآها بعضُهم مُتنافيةً حاول الجمعَ بينها بتعدُّدِ النُّزول، ولا تنافيَ؛ لِمَا قدَّمناه من أنَّ قولَهم: نزلت في كذا. قد يرادُ به: أنَّ حكمَ الآيةِ يشمَلُ ما وقَعَ مِن كذا، بمعنى: أنَّ نزولَها يتناولُه. وقد يرادُ به: أنَّ كذا كان سببًا لنزولِها، وما هنا من الأوَّلِ، ونظائرُه كثيرةٌ في التنزيلِ). ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٥١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩، ٢٨)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٧٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٤٥).

(٣) أخرجه مسلم (٩٧٦).

﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

أي: مِن بعدِ ما تبيَّن لمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم وللمُؤمنينَ أنَّ المُشرِكينَ هم أهلُ النَّارِ الخالِدونَ فيها؛ بمَوتِهم على الكُفرِ(١).

﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ المقصودَ ألَّا يتوهَّمَ إنسانٌ أنَّه تعالى منَعَ مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن بَعضِ ما أذِنَ لإبراهيمَ فيه(٢)؛ فقد بيَّنَ تعالى أنَّ هذا الحُكمَ- وهو إيجابِ الانقطاعِ عن الكُفَّارِ أحيائِهم وأمواتِهم- غَيرُ مُختَصٍّ بدِينِ مُحمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، بل المبالغةُ في تقريرِ وُجوبِ الانقطاعِ كانت مشروعةً أيضًا في دِينِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، فتكونُ المبالغةُ في تقريرِ وُجوبِ المُقاطعةِ والمُباينةِ مِن الكفَّارِ أقوى(٣).

﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾.

أي: وما وقعَ استغفارُ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لأبيه، إلَّا بِسبَبِ وَعدِه له بأنَّه سيستغفِرُ له(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩، ٢٦، ٢٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٧٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩، ٢٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩١)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٦٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٢٨).

قال ابن عطية: (المعنى: لا حُجَّةَ- أيُّها المؤمنونَ- في استغفارِ إبراهيمَ الخليلِ لأبيه؛ فإنَّ ذلك لم يكُنْ إلَّا عن مَوعدةٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩١).

كما قال تعالى حاكيًا عن إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قولَه: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١].

وقال سُبحانه عن إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا * قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٦-٤٧].

وقال عزَّ وجَلَّ حاكيًا عن إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قولَه: ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٦].

وقال تبارك وتعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الممتحنة: ٤].

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾.

أي: فلمَّا عَلِمَ إبراهيمُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنَّ أباه عدوٌّ لله، تبرَّأ منه، وترَكَ الاستغفارَ له[1].

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾.

أي: إنَّ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لكثيرُ التضرُّعِ والدُّعاءِ لله؛ خوفًا وحَزَنًا،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩، ٣٣)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٣٤)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٥١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٣).
قال الرازي: (اختلفوا في السَّبَب الذي به تبيَّنَ لإبراهيمَ أنَّ أباه عدوٌّ لله. فقال بعضُهم: بالإصرارِ والموتِ. وقال بعضُهم: بالإصرارِ وحده. وقال آخرون: لا يَبعُد أنَّ الله تعالى عرَّفَه ذلك بالوحي، وعند ذلك تبرَّأ منه. فكأنَّه تعالى يقول: لَمَّا تبيَّنَ لإبراهيمَ أنَّ أباه عدوٌّ لله تبرَّأ منه، فكونوا كذلك؛ لأنِّي أمرْتُكم بمتابعةِ إبراهيمَ في قولِه: ﴿وَاتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [النساء: ١٢٥]. ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٥٩)، ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٤٦).

صابرٌ على أذى النَّاسِ له، ذو رحمةٍ بهم، وصفحٍ عما يصدرُ منهم إليه[1].

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ * إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ * يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود: ٧٤ - ٧٦].

وقال سبحانه: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا * قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا * وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤٦ - ٤٨].

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا منَعَ اللهُ تعالى المُؤمِنينَ من أن يستَغفِروا للمُشرِكينَ، والمُسلِمونَ كانوا قد استغفَروا للمُشرِكينَ قبلَ نُزولِ هذه الآيةِ، فإنَّهم قبلَ نُزولِ هذه الآيةِ كانوا يستغفِرونَ لآبائِهم وأُمَّهاتِهم وسائرِ أقربائِهم ممَّن مات على الكُفرِ، فلمَّا نزَلَت هذه الآيةُ خافوا بسبَبِ ما صدَرَ عنهم قبل ذلك من الاستغفارِ للمُشرِكينَ.

وأيضًا فإنَّ أقوامًا مِن المُسلِمينَ الذين استغفَروا للمُشرِكينَ، كانوا قد ماتوا قبلَ نُزولِ هذه الآيةِ، فوقَعَ الخوفُ عليهم في قلوبِ المُسلِمينَ أنَّه كيف يكونُ حالُهم، فأزال اللهُ تعالى ذلك الخَوفَ عنهم بهذه الآيةِ، وبيَّنَ أنَّه تعالى لا يؤاخِذُهم بعمَلٍ إلَّا بعد أن يُبيِّنَ لهم أنَّه يجِبُ عليهم أن يتَّقوه ويَحترِزوا عنه[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤، ٤٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٧٣، ٤٧٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٢)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٦٠).

وأيضًا لَمَّا بيَّنَ الله تعالى أنَّه لا يُستغفَرُ لِلمشركينَ ولو كانوا أُولي قربَى، فمُنِعَ رسولُ اللَّه صلَّى الله عليه وسلَّم مِن الاستغفارِ لعَمِّه أبي طالِبٍ، ومُنِعَ إبراهيمُ مِنَ الاستغفارِ لأبيه، وكذلك مُنِعَ المسلمونَ مِنَ الاستغفارِ للمشركينَ أقرباءَ وغيرَ أقْرِباءَ، فكأنَّه قِيل: لا تَعْجَبْ لتبايُنِ هؤلاءِ، فإضلالُ هؤلاءِ لم يكُنْ إلَّا بعدَ أنْ أرشدَهم اللَّهُ إلى طريقِ الحقِّ بما ركَز فيهم مِن حُجَجِ العقولِ الَّتي أغْفَلوها، وتبيينِ ما يتَّقُونَ بطريقِ الوحيِ، فتظافَرتْ عليهم الحُجَجُ العقليَّةُ والسمعيَّةُ، ومعَ ذلك لم يُؤْمِنوا ولم يَتَّبِعوا ما جاءتِ الرُّسلُ به عن اللَّه تعالَى، ولذلك خَتَمها بقولِه: ﴿أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، فيُضلُّ مَن يشاءُ، ويختصُّ بالهدايةِ مَن يشاءُ[1].

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾.

أي: وليس مِن سُنَّةِ اللهِ في خَلْقِه، ولا مِن حِكمَتِه وعَدْلِه أن يُضِلَّ قومًا بعد هِدايَتِه لهم إلى الإيمانِ، حتى يبيِّنَ لهم ما يجبُ عليهم تَركُه، فإذا بيَّنَ لهم ولم يتَّقوا استحَقُّوا إضلالَه لهم، وعقابَه عليهم[2].

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

وقال سُبحانه: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [فصلت: ١٧-١٨].

﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥١٥-٥١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٢٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٦٩)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٥١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٤٧).

أي: إنَّ الله عليمٌ بجميعِ الأشياءِ، لا يخفى عليه شيءٌ في الأرضِ ولا في السَّماءِ[١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿١١٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى بالبَراءةِ مِن الكفَّارِ؛ بيَّنَ أنَّه له مُلكُ السَّمَواتِ والأرضِ، فإذا كان هو ناصِرًا لكم، فهم لا يَقدِرونَ على إضرارِكم[٢].

وأيضًا فإنَّه حينَ أمرَهم بالبراءةِ مِن المشركينَ، فإنَّه لا يمكنُهم الاختلاطُ بآبائِهم وأولادِهم وإخوانِهم؛ لأنَّه ربَّما كان الكثيرُ منهم كافرينَ، فقد يتطرقُ إلى نفوسِهم ما يصيرونَ إليه مِن نقصٍ وحاجةٍ إلى المعينِ والناصرِ، والمرادُ أنَّكم إن صِرْتُم مَحرومينَ عن مُعاوَنتِهم ومُناصَرتِهم، فالإلهُ الذي هو المالِكُ للسَّمَواتِ والأرضِ، والمُحْيي والمُميتُ؛ ناصِرُكم، فلا يضُرُّكم أن يَنقَطِعوا عنكم[٣].

وأيضًا فإنَّ الله تعالى لَمَّا أمَرَ بهذه التَّكاليفِ الشَّاقَّةِ، كأنَّه قال: وجَبَ عليكم أن تَنقادوا لحُكمي وتكليفي؛ لِكَوني إلهَكم، ولِكَونِكم عبيدًا لي[٤].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ تعالى عِلْمَه بكُلِّ شَيءٍ، فهو يعلَمُ ما يَصلُحُ لكُلِّ أحَدٍ، وما

---

(١) يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤١٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٦٩)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٥٢)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٥١٧).

قال القاسمي: (قولُه تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ تعليلٌ لِما سبَقَ، أي: إنَّه تعالى عليمٌ بجميعِ الأشياءِ التي من جُملَتِها حاجَتُهم إلى بيانِ قُبحِ ما لا يستقِلُّ العَقلُ بمَعرفتِه، فبيَّنَ لهم ذلك، كما فعلَ هنا). ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٥١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٦١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

هُيِّئَ له في سابِقِ الأزَلِ؛ ذكَرَ ما دَلَّ على القُدرةِ الباهرةِ مِن أنَّه له ملكُ السَّمَواتِ والأرضِ، فيتصَرَّفُ في عبادِه بما شاء، ثمَّ ذكَرَ مِن أعظَمِ تَصَرُّفاتِه الإحياءَ والإماتةَ، أي: الإيجادَ والإعدامَ(١).

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾.

أي: إنَّ اللهَ وَحْدَه له سُلطانُ السَّمواتِ والأرضِ، لا شَريكَ له في خَلْقِه ولا تَدبيرِه ولا تشريعِه(٢).

﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ ﴾.

أي: اللهُ وَحْدَه يُحيي مَن يشاءُ، ويُميتُ مَن يَشاءُ(٣).

كما قال سبُحانَه: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحديد: ٢].

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾.

أي: وما لكم- أيُّها النَّاسُ- من أحدٍ غيرِ اللهِ ينفَعُكم، وما لكم من أحدٍ سواه ينصُرُكم، ويدفَعُ عنكم ما يضُرُّكم(٤).

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- العقيدةُ هي العُروةُ الكُبرى التي تلتَقي فيها سائِرُ الأواصِرِ البَشَريَّةِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٦٩، ٤٧٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٤).

والعَلاقاتِ الإنسانيَّة، فإذا انبَتَّتْ وَشيجةُ العقيدةِ، انبتَّتِ الأواصِرُ الأُخرَى مِن جُذورِها، فلا لِقاءَ بعد ذلك في نسَبٍ، ولا لقاءَ بعد ذلك في صِهرٍ، ولا لقاءَ بعد ذلك في قومٍ، ولا لقاءَ بعد ذلك في أرضٍ، فإمَّا إيمانٌ باللهِ، فالوشيجةُ الكبرى موصولةٌ، والوشائجُ الأخرى كلُّها تنبُعُ منها وتلتقي بها، أو لا إيمانَ، فلا صِلةَ إذَنْ يُمكِنُ أن تقومَ بين إنسانٍ وإنسانٍ؛ قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾(١).

٢- قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ فيه مدحُ الحِلمِ والتَّأويه(٢).

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ فالأموالُ والأنفُسُ، والسَّمواتُ والأرض، والحياةُ والموتُ، والوَلاية والنُّصرةُ؛ كلُّها بيَدِ اللهِ دون مَن سواه، وفي الصِّلةِ باللهِ وَحْدَه كفايةٌ وغَناءٌ(٣).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى﴾ فيه تحريمُ الدُّعاءِ للكُفَّارِ بالمغفرةِ أحياءً وأمواتًا(٤)، وكذلك وصفُهم بذلك، كقَولِهم: المغفورُ له، المرحومُ فلانٌ(٥).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى﴾ هذه الآيةُ تضمَّنَت قَطعَ مُوالاةِ الكُفَّارِ حَيِّهم ومَيِّتِهم؛

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٧٢١).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٥).

(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٧٢٢).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٤٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٤٦، ٤٧).

فإنَّ الله لم يجعَلْ للمُؤمنينَ أن يستَغفِروا للمُشركينَ، فطَلَبُ الغُفرانِ للمُشرِك ممَّا لا يجوزُ[١].

٣- دلَّ قولُه تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ على أنَّ استغفارَ الإنسانِ لِغَيرِه، لا ينفَعُه إلَّا مع الإيمانِ[٢].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ هذا التعبيرُ نفيٌ بمعنى النَّهيِ، ويُسمَّى نفيَ الشَّأنِ، وهو أبلَغُ في نفيِ الشَّيءِ نَفسِه؛ لأنَّه نَفيٌ مُعَلَّلٌ بالسَّبَب المُقتَضي له[٣].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ قولُه ﴿تَبَرَّأَ﴾ صيغةُ (تفعَّلَ) تفيدُ أنَّه أكرَهَ نَفسَه عليه السَّلامُ على البراءةِ، ثمَّ علَّلَ تعالى ما أفهَمَتْه صيغةُ التفعُّل من المعالجةِ بقَولِه: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ﴾ أي: شديدُ الرِّقَّةِ الموجِبةِ للتأوُّه من خوفِ اللهِ، ومِن الشَّفَقةِ على العِبادِ[٤].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ إنَّما وصَفَه تعالى بهَذَينِ الوَصفَينِ في هذا المقامِ؛ لأنَّه مَن كان كذلك، فإنَّه تَعظُمُ رِقَّتُه على أبيه وأولادِه؛ فبَيَّنَ تعالى أنَّه مع هذه العادةِ تبَرَّأَ من أبيه، وغلُظَ قلبُه عليه، لَمَّا ظَهرَ له إصرارُه على الكُفرِ، فأنتم بهذا المعنى أَولى، كذلك وصفُه أيضًا بأنَّه حليمٌ؛ لأنَّ أحدَ أسبابِ الحِلمِ رِقَّةُ القلبِ، وشِدَّةُ العَطفِ، لأنَّ المرءَ إذا كان حالُه هكذا اشتَدَّ حِلمُه عند الغضَبِ[٥].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٧٣).
(٢) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٦/ ٢٧٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٤٦).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣١).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٦٠).

مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ هذه الآيةُ تقرِّرُ أنَّه لا عُقوبةَ بغيرِ نَصٍّ، ولا جريمةَ بغيرِ بَيانٍ سابقٍ على الفِعلِ(١).

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يدلُّ على بُطلانِ قَولِ بَعضِ المُبتَدعةِ بالمؤاخَذةِ على ما يجِبُ بحُكمِ العَقلِ، كالصِّدقِ والأمانةِ. نعَمْ، إنَّ حُسنَه يُعلَمُ بالعَقلِ، ولكِنَّ التَّكليفَ الذي يُبنى عليه جزاءُ الآخرةِ لا يصِحُّ إلَّا بالشَّرعِ، كما تدلُّ عليه الآيةُ(٢).

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ يُؤخَذُ منه أنَّ أحكامَ الإسلامِ العامَّةَ التي عليها مدارُ الجزاءِ في الآخرةِ، ويكَلَّفُ العَملَ بها كُلُّ مَن بلَغَتْه- إن كانت من الأحكامِ الشَّخصيَّةِ التي خوطِبَ بها أفرادُ الأمَّةِ كُلُّهم، ويُنَفِّذُها أئمَّتُها وأمراؤُها فيها- هي ما كانت قطعيَّةَ الدَّلالةِ ببَيانٍ مِن اللهِ تعالى ورَسولِه، لا حُجَّةَ معه لأحدٍ في تَرْكِه، وأنَّ ما عداها مَنوطٌ بالاجتهادِ، فمن ظهَرَ له مِن نَصٍّ ظَنِّيِّ الدَّلالةِ حُكمٌ، واعتقَدَ أنَّه مُرادُ اللهِ مِن الآيةِ، وجَبَ عليه اتِّباعُه، ومَن لا فَلا(٣).

١٠- قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ في هذا أدَلُّ دليلٍ على أنَّ المعاصيَ إذا ارتُكِبَت وانتُهِكَ حِجابُها، كانت سببًا إلى الضَّلالةِ والرَّدى، وسُلَّمًا إلى تَرْكِ الرَّشادِ والهُدى(٤).

١١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ يعني أنَّ الله تعالى إذا مَنَّ على قومٍ بالهدايةِ، وأمَرَهم

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٧٢١).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٥١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٥٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٧٧).

بسُلوكِ الصِّراطِ المُستَقيمِ؛ فإنَّه تعالى يتَمِّمُ عليهم إحسانَه، ويبَيِّنُ لهم جميعَ ما يحتاجونَ إليه، وتدعو إليه ضَرورتُهم، فلا يترُكُهم ضالِّينَ، جاهلينَ بأمورِ دينِهم، ففي هذا دليلٌ على كمالِ رَحمتِه، وأنَّ شَريعتَه وافيةٌ بجَميعِ ما يحتاجُه العِبادُ، في أصولِ الدِّينِ وفُروعِه(١).

١٢- في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ حجةٌ على المعتزلةِ واضحةٌ؛ إذ قد جَمَعَ سبحانه بينَ الإضلالِ والهدَى منه؛ ولزومِ الحُجَّةِ للمُضَلِّينَ أو المهدِيِّينَ في آيةٍ واحدةٍ متصلةِ المعاني بعضِها ببعضٍ(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾

- قولُه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى﴾ جاءَت صيغةُ النَّهيِ عنِ الاستغفارِ للمُشرِكين بطريقِ نفيِ الكونِ؛ مُبالَغةً في التَّنزُّهِ عن هذا الاستغفارِ، وزيادةُ ﴿وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى﴾؛ للمُبالَغةِ أيضًا في استِقْصاءِ أقرَبِ الأحوالِ إلى المعذرةِ(٣)، فدلَّتِ الآيةُ على المبالَغةِ في إظهارِ البَراءَةِ عَن المشرِكينَ والمنافِقين، والمنعِ مِن مُواصَلتِهم ولو كانوا في غايةِ القُربِ(٤).

٢- قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٤).
(٢) يُنظر: ((النُّكت الدالة على البيان)) للقصَّاب (١/ ٥٧٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٤٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥١٢، ٥١٣).

فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ جملةٌ مستأنَفةٌ مَسوقَةٌ لِتَقريرِ ما سبَق، ودَفْعِ ما يتَراءى بِحسَبِ الظَّاهِرِ مِن المُخالَفةِ(١).

- قولُه: ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ؛ فإنَّه لَمَّا كان استِغْفارُ إبراهيمَ لأبيهِ بصَددِ أن يُقتدَى به، بيَّن العِلَّةَ في استِغْفارِ إبراهيمَ لأبيه، وذكَر أنَّه حينَ اتَّضحَت له عَداوتُه للهِ ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾(٢).

- قولُه: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ الجملةُ استِئنافٌ لبيانِ ما كان يَدعُو إبراهيمَ عليهِ السَّلامُ إلى ما صدَر عنه مِن الاستغفارِ، وما حمَله على الاستِغْفارِ لأبيه معَ شَكاسَتِه عليه(٣).

- وأيضًا في قولِه: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ تأكيدٌ لوُجوبِ الاجتِنابِ عنه بعدَ التَّبيُّنِ بأنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ تبَرَّأ مِن أبيه بعدَ التَّبيُّنِ وهو في كَمالِ رِقَّةِ القلبِ والحِلْمِ، فلا بُدَّ أن يَكونَ غيرُه أكثرَ مِنه اجتِنابًا وتبَرُّؤًا، والأوَّاهُ: كثيرُ التَّأوُّهِ، وهو كِنايةٌ عن كَمالِ الرَّأفةِ، ورِقَّةِ القلبِ(٤).

٣- قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ الله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ تذييلٌ مناسِبٌ للجُملةِ السَّابقةِ، ووُقوعُ ﴿إِنَّ﴾ في أوَّلِها يُفيدُ مَعْنى التَّفريعِ والتَّعليلِ لِمَضمونِ الجُملةِ السَّابقةِ، وهو أنَّ اللهَ لا يُضِلُّ قومًا بعدَ أن هَداهم حتَّى يُبيِّنَ لهم الحَقَّ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٠٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥١٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٠٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٠٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٤٨).

٤- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ تذييلٌ ثانٍ في قوَّةِ التَّأكيدِ لِقَولِه: ﴿إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، ولذلك فُصِلَ بدون عَطفٍ؛ لأنَّ ثُبوتَ مُلكِ السَّمواتِ والأرضِ للهِ تعالى يَقْتضي أن يَكونَ عَليمًا بكلِّ شيءٍ؛ لأنَّ تَخلُّفَ العِلمِ عن التَّعلُّقِ ببَعضِ المتَملَّكاتِ يُفْضي إلى إضاعةِ شُؤونها؛ فافتِتاحُ الجُملةِ بـ(إنَّ) معَ عدَمِ الشَّكِّ في مَضمونِ الخبَرِ يُعَيِّنُ أنَّ (إنَّ) لِمُجرَّدِ الاهتِمامِ، فتَكونُ مُفيدةً مَعْنى التَّفريعِ بالفاءِ والتَّعليلِ[1].

- قولُه: ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ فيه زيادةُ جُملتَي: ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾؛ لِتَصويرِ مَعْنى المُلْكِ في أتَمِّ مَظاهِرِه المَحسوسةِ للنَّاسِ، المُسَلَّمِ بينَهم أنَّ ذلك مِن تصرُّفِ اللهِ تَعالى لا يَستطيع أحَدٌ دَفْعَ ذلك ولا تأخيرَه، وعَطْفُ جملةِ: ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ لتأييدِ المسلِمين بأنَّهم مَنصورونَ في سائرِ الأحوالِ؛ لأنَّ اللهَ وَليُّهم فهو نَصيرٌ لهم، ولإعلامِهم بأنَّهم لا يَخشَوْن الكفَّارَ؛ لأنَّ الكافِرين لا مَولَى لهم؛ لأنَّ اللهَ غاضِبٌ عليهِم، فهو لا يَنصُرُهم، وذلك مُناسِبٌ لغرَضِ الكَلامِ المتعلِّقِ باستِغْفارِهم للمُشرِكين بأنَّه لا يُفيدُهم[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٤٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١١٧-١١٩)

﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ
فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ
عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا
ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ
مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (١١٨) يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ (١١٩)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَزِيغُ﴾: أي: تَعدِلُ وتَميلُ عن الحَقِّ، وأصلُ (زيغ): يدلُّ على مَيلِ الشَّيءِ عن الاستقامةِ[١].

﴿رَءُوفٌ﴾: أي: شديدُ الرَّحمةِ، أو ذو رحمةٍ واسعةٍ، وأصلُ (رأف): يدلُّ على رِقَّةٍ ورَحمةٍ[٢].

﴿رَحُبَتْ﴾: أي: اتَّسَعَت، وأصلُ (رحب): يدلُّ على سَعةٍ[٣].

﴿مَلْجَأَ﴾: أي: حِرْزَ أو مَعْقِلَ، أو نَجاة، وأصلُ (لجأ): يدلُّ على المكانِ يُلتَجأُ إليه[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٩٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠٢، ٥٠٤)، =

المعنى الإجماليُّ:

يخبِرُ تعالى أنَّه تاب على النبيِّ والمُهاجِرينَ والأنصارِ، الذين أطاعوه بالخُروجِ معه في غَزوةِ تَبوكَ في حرٍّ شَديدٍ، وطولِ سَفَرٍ، وضِيقٍ في الزَّادِ والماءِ والرَّاحِلةِ، لقد تاب عليهم مِن بَعدِ ما أوشَكَت قلوبُ بعضِ أولئك الصَّحابةِ أن تميلَ عنِ الحَقِّ، ثم تاب عليهم؛ إنَّه بهم رؤوفٌ رحيمٌ، وبيَّنَ تعالى أنَّه تاب أيضًا على أصحابِ النبيِّ الثَّلاثةِ الذين أخَّرَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الحُكمَ في أمْرِهم إلى أن يَحكُمَ اللهُ تعالى فيهم، حتى إذا ضاقَتِ الأرضُ عليهم مع سَعَتِها، وضاقت عليهم أنفُسُهم؛ بسَبَبِ ما أصابَهم مِن الهَمِّ والكَربِ والحَزَنِ، وأيقَنوا أنَّه لا مَلجأَ مِن اللهِ إلَّا إليه، ثم تاب عليهم سبحانَه وتعالى لِيَتوبوا؛ إنَّه هو التَّوَّابُ الرَّحيمُ، ثمَّ أمر اللهُ الذين آمَنوا أن يتَّقوه ويكونوا مع الصَّادِقينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا تقَدَّمَ الكلامُ في أحوالِ المُنافِقينَ مِن تَخَلُّفِهم عن غزوةِ تَبوكَ، واستطرَدَ إلى تقسيمِ المُنافِقينَ إلى أعرابٍ وغَيرِهم، وذكَرَ ما فعلوا مِن مَسجِدِ الضِّرارِ، وذكَرَ مُبايعةَ المؤمنينَ اللهَ في الجِهادِ وأثنَى عليهم، وأنَّه ينبغي أن يُباينوا المُشرِكينَ، حتى الذين ماتوا منهم بتَرْكِ الاستغفارِ لهم- عاد إلى ذِكْرِ ما بَقِيَ مِن أحوالِ غَزوةِ تَبوكَ [1]، فهذه الآياتُ تَتِمَّةُ ما تقَدَّمَ مِن موضوعِ تَوبةِ المتخَلِّفينَ

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٣٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٠).
(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥١٦).

عن غزوةِ تَبُوكَ، أُخِّرَت على سُنَّةِ القرآنِ في تفريقِ الآياتِ في الموضوعِ الواحِدِ؛ لأنَّه أدنى ألَّا يَسأَمَ التَّالي لها في الصَّلاةِ وغَيرِها، وأقوى في تجديدِ الذِّكرى، والتأثيرِ في النَّفسِ(١).

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ﴾.

أي: لقد رزَق الله الإنابةَ إلى أمرِه وطاعتِه، نبيَّه محمَّدًا، وأصحابَه الذينَ هاجَروا مِن دِيارِهم، وأهلَ المدينةِ النبويَّةِ، الذين نَصَروا دينَ اللهِ، وناصَروا مَن هاجَرَ إليهم، وتجاوَز عنهم، وغفَر لهم(٢).

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٩)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٠).

قال ابنُ عطيَّةَ: (التَّوبةُ مِن الله: رجوعُه بعَبْدِه من حالةٍ إلى أرفَعَ منها، فقد تكونُ في الأكثَرِ رُجوعًا مِن حالةِ طاعةٍ إلى أكمَلَ منها، وهذه توبتُه في هذه الآيةِ على النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لأنَّه رجع به من حالَةٍ قبل تحصيلِ الغَزوةِ وأَجْرِها وتحمُّلِ مَشَاقِّها إلى حالَةٍ بعد ذلك أكمَلَ منها، وأمَّا توبتُه على المُهاجِرينَ والأنصارِ، فحالُها معرَّضةٌ لأنْ تكونَ مِن تَقصيرٍ إلى طاعةٍ وَجِدٍّ في الغَزوِ ونُصرةِ الدِّينِ، وأمَّا توبتُه على الفَريقِ الذي كاد أن يزيغَ، فرجوعٌ من حالةٍ مَحطوطةٍ إلى حالِ غُفرانٍ ورِضًا). ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥١٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٢).

وقال القرطبي: (اختلَفَ العُلَماءُ في هذه التَّوبةِ التي تابها اللهُ على النبيِّ والمُهاجِرينَ والأنصارِ على أقوالٍ: فقال ابنُ عبَّاسٍ: كانت التوبةُ على النبيِّ؛ لأجل إذْنِه للمُنافِقينَ في القعودِ. دليلُه قَولُه تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣]. وعلى المؤمنينَ مِن مَيلِ قُلوبِ بَعضِهم إلى التخَلُّفِ عنه. وقيل: توبةُ اللهِ عليهم استِنقاذُهم مِن شِدَّةِ العُسرةِ. وقيل: خَلاصُهم مِن نكايةِ العَدُوِّ، وعبَّرَ عن ذلك بالتَّوبةِ وإن خرَجَ عن عُرفِها؛ لوجودِ معنى التوبةِ فيه، وهو الرُّجوعُ إلى الحالةِ الأولى. وقال أهلُ المعاني: إنَّما ذُكِرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في التوبةِ؛ لأنَّه لَمَّا كان سبَبَ توبَتِهم ذُكِرَ معهم، كقوله تعالى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ٤١]. ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٧٨).

ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٦١، ١٦٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٥١).

أي: الذين أطاعوا نبيَّه بالخُروجِ معه في غزوةِ تَبُوكَ في وقتِ العُسرةِ؛ بسَبَبِ شِدَّةِ الحَرِّ، وطُولِ السَّفَرِ، وقِلَّةِ الرَّاحلةِ والماءِ، والطَّعامِ والنَّفَقةِ[(١)].

عن عبدِ اللهِ بنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، أنَّه قيل لعُمَرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه في شَأنِ العُسرةِ، فقال عمر: ((خَرَجْنا مع رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى تَبُوكَ في قَيظٍ شَديدٍ، فنَزَلْنا مَنزِلًا أصابَنا فيه عطَشٌ، حتى ظَنَنَّا أنَّ رِقابَنا ستنقَطِعُ، حتى إن كان الرَّجُلُ لَيَذهَبُ يلتَمِسُ الماءَ فلا يرجِعُ حتى يظُنَّ أنَّ رَقَبتَه ستنقَطِعُ، حتى إنَّ الرَّجُلَ لَينحَرُ بَعيرَه فيعصِرُ فَرْثَه فيَشرَبُه، ويَجعَلُ ما بَقِيَ على كَبِدِه؛ فقال أبو بكرٍ: يا رسولَ اللهِ، إنَّ الله قد عَوَّدَك في الدُّعاءِ خيرًا، فادعُ لنا. قال: تحِبُّ ذلك؟ قال: نعم. فرَفَعَ يدَيه، فلم يَرجِعْهما حتى قالتِ السَّماءُ، فأظَلَّتْ ثم سَكَبَت، فمَلَؤوا ما معهم، ثم رَجَعْنا ننظُرُ فلم نَجِدْها جاوَزَتِ العَسكَرَ))[(٢)]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٩)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٧٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٨١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٢، ٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٢٨، ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٠).

قال الواحدي: (قولُه تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾، قال أبو إسحاق: معناه في وقتِ العُسرةِ؛ لأنَّ السَّاعةَ تقَعُ على كلِّ الزَّمانِ، فهي عبارةٌ عن جميعِ وَقتِ تلك الغَزوةِ، وهذا معنى قولِ الكلبي: «في حينِ العُسرةِ». وقال غيره: يريدُ أشَدَّ السَّاعاتِ التي مَرَّت بهم في تلك الغزوةِ، وهي السَّاعةُ التي كادت قلوبُهم تزيغُ فيها، والعُسرةُ: تعَذُّرُ الأمرِ وصُعوبتُه). ((البسيط)) (١١/ ٨١).

(٢) أخرجه البزار (٢١٤)، وابن خزيمة (١٠١)، وابن حبان (١٣٨٣)، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٣٢٩٢).

قال الضياء المقدسي في ((السنن والأحكام)) (١/ ٢٣٢): إسناده على شرط الصحيح، وحسَّنه وقوَّاه الذهبي في ((تاريخ الإسلام)) (٢/ ٦٣٥)، وجوَّد إسناده وقوَّاه ابنُ كثير في ((البداية والنهاية)) (٦/ ٩٦)، وقال ابنُ الملقِّن في ((شرح البخاري)) (٤/ ٤٥٣): إسنادُه على شرطِ الصحيح كما قال الضياء، ووثَّق رجالَه الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٦/ ١٩٧)، وقال الألباني في ((فقه السيرة)) (٤٠٧): حسنٌ أو صحيحٌ.

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ﴾.

أي: تاب اللهُ على النبيِّ وأصحابِه الذين اتَّبَعوه في غزوةِ تَبُوكَ، من بعد ما أوشَكَت قلوبُ بعضِ الصَّحابةِ أن تميلَ عَنِ الحَقِّ، فيَشُكُّوا ويَرتابوا؛ بسبَبِ المشَقَّةِ الشَّديدةِ التي نالَتْهم في تلك الغَزوةِ[1].

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ﴾.

أي: ثمَّ رزق اللهُ الصَّحابةَ- الذين كادَتْ قُلوبُهم أن تزيغَ- الإنابةَ إلى ربِّهم، والرجوعَ إلى الثباتِ على دينِه[2].

﴿إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾.

أي: تاب اللهُ على الفريقِ الذين كادَتْ قُلوبُهم أن تزيغَ عنِ الحَقِّ؛ لأنَّ اللهَ بصَحابةِ نَبيِّه رؤوفٌ رحيمٌ، ومن رأفَتِه ورَحمَتِه بهم أنَّه لا يريدُ إهلاكَهم، بل رزَقَهم التَّوبةَ وعافاهم مِن زَيغِ القُلوبِ وثَبَّتَهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٩)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٧٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٨٢)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٨٠، ٢٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٠).

وممن اختار هذا المعنى المذكور: ابنُ جريرٍ، وابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٢٩).

وقيل: المرادُ: مِن بَعدِ ما كادوا يَرجِعونَ مِن غَزوتِهم؛ للشِّدَّةِ، وليس المرادُ الزَّيغَ عن الإيمانِ. وممَّن اختار ذلك: الزجاج. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) (٢/ ٤٧٤).

وقيل: المرادُ: مِن بَعدِ أن خامَرَ فريقًا منهم خاطرُ التَّثاقُلِ والقُعودِ والمعصيةِ، بحيث يُشبِهونَ المُنافِقينَ، وذلك قبل الخروجِ للغَزوِ. وممن اختار ذلك: ابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٩، ٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥١).

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا صَرَّحَ تعالى بالتَّوبةِ على مَن قارب الزَّيغَ، وخَلَطَ معهم أهلَ الثَّباتِ؛ إشارةً إلى أنَّ كُلَّ أحدٍ فَقيرٌ إلى الغنيِّ الكبيرِ، ولِيَكونَ اقترانُهم بأهلِ المعالي، وجعلُهم في حَيِّزِهم تشريفًا لهم وتأنيسًا؛ لئلَّا يشتدَّ إنكارُهم- أتبَعَه التَّوبةَ على مَن وقَعَ منه الزَّيغُ، فقال غيرَ مصَرِّحٍ بالزَّيغِ تعليمًا للأدبِ، وجَبرًا للخواطِرِ المُنكَسِرةِ[1]:

سببُ النُّزولِ:

عن كَعبِ بنِ مالكٍ رَضِيَ الله عنه، يحَدِّثُ حَديثَه حين تخلَّفَ عن رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في غزوةِ تَبُوكَ، قال كعبُ بنُ مالكٍ: ((لمْ أتخلَّفْ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في غزوةٍ غزاها قطُّ، إلَّا في غزوةِ تبوكَ، غيرَ أنِّي قد تخلَّفتُ في غزوةِ بدرٍ، ولم يعاتِبْ أحدًا تخلَّفَ عنه، إنَّما خرج رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمُسلِمونَ، يريدون عِيرَ قريشٍ، حتى جمَع اللهُ بينهم وبينَ عدوِّهم على غيرِ مِيعادٍ، ولقد شهدتُ مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ليلةَ العَقَبةِ حين تواثَقْنا على الإسلامِ، وما أُحِبُّ أنَّ لي بها مَشهدَ بدرٍ، وإن كانت بدرٌ أذكَرَ في النَّاسِ مِنها، وكان مِن خَبَري حين تخلَّفتُ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في غزوةِ تبوكَ أنِّي لم أكُنْ قَطُّ أقْوى، ولا أيسَرَ منِّي حين تخلَّفتُ عنه في تلك الغزوةِ؛ واللهِ ما جمعتُ قبلَها راحلتَين قطُّ، حتى جمعتُهما في تلك

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٨).

الغزوةِ، فغزاها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في حرٍّ شديدٍ، واستقبَلَ سفرًا بعيدًا ومَفازًا[١]، واستقبل عدوًّا كثيرًا، فجَلَا للمُسلِمينَ أمرَهم؛ ليتأهَّبوا أُهبَةَ غَزوِهم، فأخبَرَهم بوجهِهم الذي يريدُ، والمُسلِمونَ مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كثيرٌ، ولا يَجمَعُهم كتابٌ حافظٌ- يريد بذلك الدِّيوانَ- قال كعبٌ: فقلَّ رجلٌ يريدُ أن يتغيَّبَ يَظُنُّ أنَّ ذلك سيَخفى له، ما لم يَنزِلْ فيه وحيٌ من اللهِ عزَّ وجلَّ، وغزا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ تلك الغزوةَ حين طابتِ الثِّمارُ والظِّلالُ، فأنا إليها أصعَرُ[٢]، فتجهَّز رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمُسلِمونَ معه، وطفِقتُ أغدو لكي أتجهَّزَ معهم، فأرجِعُ ولم أقضِ شيئًا، وأقولُ في نفسي: أنا قادرٌ على ذلك إذا أردتُ، فلم يزلْ ذلك يتمادَى بي حتى استمرَّ بالنَّاسِ الجِدُّ، فأصبح رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ غاديًا والمُسلِمونَ معه، ولم أقضِ من جَهازي شيئًا، ثمَّ غدوتُ فرجعتُ ولم أقضِ شيئًا، فلم يزلْ ذلك يتمادَى بي حتى أسرعوا، وتفارَطَ الغَزْوُ[٣]، فهمَمْتُ أن أرتحلَ فأُدرِكَهم، فيا ليتني فعلتُ! ثم لم يُقَدَّرْ ذلك لي، فطفقتُ إذا خرجتُ في النَّاسِ بعدَ خروجِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، يَحزُنُني أنِّي لا أرى لي أُسوةً إلَّا رجلًا مغموصًا عليه[٤] في النِّفاقِ، أو رجلًا ممَّن عذَر اللهُ من الضُّعفاءِ، ولم يَذكُرْني رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حتى بلغَ تَبوكَ، فقال وهو جالسٌ في القومِ بتَبوكَ: ما فعل كعبُ بنُ مالكٍ؟ قال رجلٌ من بَني سَلِمةَ: يا رسولَ اللهِ، حبَسه بُرْدَاه، والنَّظَرُ في عِطْفَيه[٥]، فقال

(١) مَفازًا: أي: بَرِّيَّةً طويلةً قليلةَ الماءِ، يُخافُ فيها الهلاكُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٨٨).

(٢) أصعَرُ: أي: أَميلُ. يُنظر: ((إكمال المعلم بفوائد مسلم)) للقاضي عياض (٨/ ٢٧٥).

(٣) تفارَطَ الغَزْوُ: أي: فات وسبَقَ. ((شرح القسطلاني)) (٦/ ٤٥٣).

(٤) مغموصًا عليه: أي: مُتَّهمًا مُستحقَرًا. يُنظر: ((إكمال المعلم بفوائد مسلم)) للقاضي عياض (٨/ ٢٧٥)

(٥) عِطفَيه: أي: جانِبَيه، وهو إشارةٌ إلى إعجابِه بنَفسِه ولِباسِه. ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٨٩).

له معاذُ بنُ جبلٍ: بئسَ ما قلتَ، واللهِ يا رسولَ اللهِ، ما علِمْنا عليه إلَّا خَيرًا. فسَكَتَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فبينما هو على ذلك رأى رجلًا مُبَيِّضًا[١] يزولُ به السَّرابُ[٢]، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: كُن أبا خَيثمةَ، فإذا هو أبو خيثمةَ الأنصاريُّ، وهو الذي تصدَّق بصاعِ التَّمرِ حين لَمَزَه المُنافِقونَ. فقال كعبُ بنُ مالكٍ: فلمَّا بلَغَني أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قد توجَّه قافِلًا من تبوكَ، حَضَرني بثِّي[٣]، فطَفِقْتُ أتذكَّرُ الكذبَ، وأقولُ: بم أَخرجُ من سخَطِه غَدًا؟ وأستعينُ على ذلك كلَّ ذي رأيٍ من أهلي، فلمَّا قيل لي: إنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قد أظلَّ قادمًا، زاح عني الباطلُ، حتى عرفتُ أنِّي لن أنجوَ منه بشيءٍ أبدًا، فأجمعتُ صِدْقَه، وصبَّحَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قادمًا، وكان إذا قدِم مِن سَفَرٍ بدأَ بالمَسجِدِ، فركع فيه ركعتَينِ، ثمَّ جلَسَ للنَّاسِ، فلما فعل ذلك جاءَه المُخلَّفونَ، فطَفِقوا يَعتَذِرونَ إليه ويحلِفون له، وكانوا بِضعةً وثمانينَ رَجُلًا، فقَبِل منهم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ علانِيَتَهم، وبايعَهم، واستغفَرَ لهم، ووكَل سرائرَهم إلى اللهِ، حتى جئتُ، فلمَّا سَلَّمتُ تبسَّمَ تبسُّمَ المُغضَبِ، ثم قال: تعالَ، فجِئْتُ أمشي حتى جلَسْتُ بين يدَيه. فقال لي: ما خلَّفَك؟ ألم تكُنْ قد ابتَعْتَ ظهرَك؟ قال: قلتُ: يا رَسولَ اللهِ، إنِّي- واللهِ- لو جلستُ عند غيرِك مِن أهلِ الدُّنيا، لرأيتُ أنِّي سأخرُجُ مِن سَخَطِه بعُذرٍ، ولقد أُعطِيتُ جَدَلًا، ولَكنِّي- واللهِ- لَقَد عَلِمْتُ لئن حدَّثْتُك اليومَ حديثَ كَذِبٍ ترضَى به عني، لَيُوشِكَنَّ اللهُ أن يُسخِطَك عليَّ، ولَئِنْ حدَّثْتُك حديثَ صدقٍ تجِدُ عليَّ فيه، إنِّي لأرجو فيه عُقبَى اللهِ[٤]، واللهِ ما كان لي عُذرٌ. واللهِ ما

---

(١) مُبَيِّضًا: أي: عليه ثِيابٌ بِيضٌ. يُنظر: ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (٢/ ١٢٥).

(٢) يَزولُ به السَّرابُ: أي: يتحَرَّكُ ويَنهَضُ. والسَّرابُ: هو ما يظهَرُ للإنسانِ في الهواجِرِ في البراري، كأنَّه ماءٌ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٩٠).

(٣) البثُّ: أشَدُّ الحُزنِ. يُنظر: ((إكمال المعلم بفوائد مسلم)) للقاضي عياض (٨/ ٢٧٦).

(٤) عُقبى اللهِ: أي: أن يُعقِبَني خيرًا، وأن يُثيبَني عليه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٩١).

كنتُ قطُّ أقوى ولا أيسرَ مني حين تخلَّفتُ عنك. قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أمَّا هذا فقَد صَدَق، فقُمْ حتى يقضيَ اللهُ فيك، فقُمْتُ وثار رجالٌ من بني سَلِمةَ فاتَّبَعوني، فقالوا لي: واللهِ ما علِمْناك أذنبتَ ذنبًا قبلَ هذا. لقد عَجَزتَ في ألَّا تكونَ اعتذرتَ إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بما اعتذر به إليه المُخلَّفونَ؛ فقد كان كافِيَك ذنبَك استغفارُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لك. قال: فواللهِ ما زالوا يُؤنِّبونَني حتى أردتُ أن أرجِعَ إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فأُكذِّبَ نفسي. قال: ثمَّ قلتُ لهم: هل لقِيَ هذا معي من أحدٍ؟ قالوا: نعم، لَقِيه معك رَجُلانِ قالا مثلَ ما قلتَ. فقيل لهما مثلُ ما قيل لك. قال: قلتُ: مَن هما؟ قالوا: مُرارةُ بنُ ربيعةَ العامريُّ، وهلالُ بنُ أميَّةَ الواقِفيُّ. قال: فذكروا لي رجلَينِ صالِحَينِ قد شَهِدا بدرًا فيهما أُسْوةٌ. قال فمضيتُ حين ذَكَروهما لي. قال: ونهَى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ المُسلِمينَ عن كلامِنا أيُّها الثلاثةُ، مِن بينِ مَن تخلَّف عنه. قال: فاجتنَبَنا النَّاسُ، وقال: تغيَّروا لنا حتى تنكَّرَتْ لي في نَفسي الأرضُ؛ فما هي بالأرضِ التي أعرِفُ، فلَبِثْنا على ذلك خمسينَ ليلةً، فأمَّا صاحباي فاستكانا وقَعَدا في بُيوتِهما يَبكِيانِ، وأمَّا أنا فكنتُ أشَبَّ القَومِ وأجلدَهم، فكُنتُ أخرُجُ فأَشهَدُ الصَّلاةَ، وأطوفُ في الأسواقِ، ولا يكلِّمني أحدٌ، وآتي رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فأسَلِّمُ عليه وهو في مجلسِه بعد الصَّلاةِ، فأقولُ في نفسي: هل حرَّكَ شفتَيه بردِّ السلامِ أم لا؟ ثم أصلِّي قريبًا منه، وأُسارِقُه النَّظرَ، فإذا أقبلتُ على صلاتي نظَرَ إليَّ، وإذا التفتُّ نَحوَه أعرَضَ عنِّي، حتى إذا طال ذلك عليَّ مِن جَفوةِ المُسلِمينَ، مَشيتُ حتى تسوَّرتُ جِدارَ حائطِ أبي قتادةَ، وهو ابنُ عمِّي، وأحَبُّ النَّاسِ إليَّ، فسَلَّمتُ عليه، فواللهِ ما ردَّ عليَّ السلامَ، فقلتُ له: يا أبا قتادةَ، أَنشُدُك باللهِ، هل تعلمَنَّ أنِّي أُحِبُّ اللهَ ورسولَه؟ قال: فسَكَتَ. فعُدتُ فناشَدْتُه فسَكَتَ. فعُدْتُ فناشَدْتُه. فقال: اللهُ ورسولُه أعلمُ. ففاضَتْ عينايَ، وتولَّيتُ حتى تسوَّرتُ الجدارَ، فبَيْنا أنا أمشِي في سوقِ

المدينة، إذا نَبَطِيٌّ(١) مِن نَبَطِ أهلِ الشَّام، ممَّن قَدِمَ بالطعامِ يبيعُه بالمَدينةِ، يقول: مَن يدلُّ على كعبِ بنِ مالكٍ؟ قال: فطفِق النَّاسُ يُشيرونَ له إليَّ. حتى جاءني فدفَعَ إليَّ كتابًا من ملِك غسَّانَ، وكنتُ كاتبًا فقرأتُه، فإذا فيه: أمَّا بعدُ؛ فإنَّه قد بلَغَنا أنَّ صاحبَك قد جفَاك، ولم يَجعَلْك اللهُ بدارِ هوانٍ ولا مَضْيَعةٍ، فالحَقْ بنا نُواسِكَ. قال: فقلتُ حين قرأتُها: وهذه أيضًا من البلاءِ، فتيامَمتُ(٢) بها التَّنُّورَ فسجَرتُه بها(٣)، حتى إذا مَضَت أربعونَ مِن الخَمسينَ واستلبَثَ الوحيُ(٤)، إذا رسولُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يأتيني، فقال: إنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يأمُرُك أن تعتزلَ امرأتَك. قال: فقُلتُ: أُطلِّقُها أم ماذا أفعَلُ؟ قال: لا، بل اعتَزِلْها فلا تقرَبَنَّها. قال: فأرسَلَ إلى صاحِبَيَّ بمثلِ ذلك. قال: فقلتُ لامرأتي: الْحَقي بأهلِك فكوني عِندَهم حتى يقضِيَ اللهُ في هذا الأمرِ. قال: فجاءت امرأةُ هلالِ بنِ أميَّةَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقالت له: يا رسولَ اللهِ، إنَّ هلالَ بنَ أميَّةَ شيخٌ ضائعٌ، ليس له خادِمٌ، فهل تكرَهُ أن أخدمَه؟ قال: لا، ولكِنْ لا يَقربَنَّكِ، فقالت: إنَّه- واللهِ- ما به حركةٌ إلى شَيءٍ، وواللهِ ما زال يبكي منذ كان مِن أمرِه ما كان إلى يومِه هذا. قال: فقال لي بعضُ أهلي: لو استأذنتَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في امرأتِك؟ فقد أذِن لامرأةِ هلالِ بنِ أميَّةَ أن تخدمَه. قال: فقلتُ: لا أستأذنُ فيها رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وما يُدريني ماذا يقولُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذا استأذنتُه فيها، وأنا رجلٌ شابٌّ. قال: فلبِثْتُ بذلك عشرَ ليالٍ، فكَملَ لنا خمسونَ ليلةً مِن حينِ نُهِيَ عن كلامِنا. قال: ثمَّ صلَّيتُ صلاةَ الفَجرِ صباحَ خَمسينَ ليلةً على ظهرِ بيتٍ مِن بيوتِنا، فبَيْنا أنا جالسٌ على الحالِ التي ذكَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ مِنَّا؛ قد ضاقَت عليَّ نَفسِي، وضاقَتْ

---

(١) النَّبَطُ والأنباطُ: فلاَّحو العَجَمِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٩٣).

(٢) تَيامَمْتُ: أي: قَصَدتُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٩٤).

(٣) سَجَرْتُه بها: أي: أوقَدْتُه. يُنظر: ((مصابيح الجامع)) للدماميني (٨/ ١٣١).

(٤) واستلبثَ الوَحيُ: أي: أبطأَ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٩٤).

عليَّ الأرضُ بما رَحُبَت- سَمِعْتُ صوتَ صارخٍ أَوفَى على سَلْعٍ[١] يقولُ بأعلى صوتِه: يا كعبُ بنَ مالكٍ أبشِرْ! قال فخَرَرْتُ ساجدًا، وعرفتُ أنْ قد جاء فَرَجٌ. قال: فآذَنَ[٢] رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الناسَ بتوبةِ اللهِ علينا، حين صلَّى صلاةَ الفجرِ، فذهَبَ الناسُ يبَشِّرونَنا، فذَهَبَ قِبَلَ صاحِبَيَّ مُبشِّرون، ورَكَضَ رجلٌ إليَّ فَرسًا، وسعى ساعٍ مِن أسلمَ قِبَلي، وأوفى الجبلَ، فكان الصوتُ أسرعَ من الفَرَسِ، فلمَّا جاءني الذي سمعتُ صوتَه يُبشِّرُني، فنزعتُ له ثوبَيَّ فكَسوتُهما إيَّاه ببشارتِه، واللهِ ما أملِك غيرَهما يومَئذٍ، واستَعَرْتُ ثوبَين فلَبِسْتُهما، فانطلقتُ أتأمَّمُ[٣] رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، يتلقَّاني الناسُ فوجًا فوجًا، يُهنِّئونَني بالتوبةِ، ويقولون: لِتَهنِئْكَ[٤] توبةُ اللهِ عليك، حتى دخلتُ المسجدَ، فإذا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ جالسٌ في المسجدِ، وحولَه الناسُ، فقام طلحةُ بنُ عُبيدِ اللهِ يُهروِلُ حتى صافحَني وهنَّأني، واللهِ ما قام رجلٌ من المهاجرينَ غَيرُه. قال: فكان كعبٌ لا ينساها لطلحةَ. قال كعبٌ: فلما سلَّمتُ على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال، وهو يبرُقُ وَجهُه من السُّرورِ ويقول: أبشِرْ بخيرِ يومٍ مرَّ عليك منذُ ولَدَتْك أمُّك. قال: فقلتُ: أمِن عِندِك يا رسولَ اللهِ، أم مِن عندِ اللهِ؟ فقال: لا، بل مِن عندِ اللهِ، وكان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذا سُرَّ استنارَ وجهُه، كأنَّ وجهَه قِطعةُ قمَرٍ. قال: وكنَّا نَعرِفُ ذلك. قال: فلمَّا جلستُ بين يدَيه، قلتُ: يا رسولَ اللهِ، إنَّ من توبتي أن أنخلِعَ من مالي صدقةً إلى اللهِ وإلى رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ:

---

(١) أَوْفَى عَلَى سَلعٍ: أي: صَعِدَه وارتفَعَ عليه. وسَلْعٌ: جبَلٌ بالمدينةِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٩٥).

(٢) آذَنَ: أي: أعلَمَ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٩٥).

(٣) أَتَأَمَّمُ: أي: أَقْصِدُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٩٦).

(٤) لِتَهنِئْكَ: كلمةٌ تُقال عند التهنئةِ، من هنَّأه بالأمرِ والولايةِ تَهْنِئَةً وتَهْنِيئًا، وهَنَأَه هَنْأً إذا قال له: لِيَهْنِئْكَ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (١/ ٢٨٧).

أمسِكْ بعضَ مالِك؛ فهو خيرٌ لك. قال: فقلتُ: فإني أُمسِكُ سَهمي الذي بخَيبرَ. قال: وقلتُ: يا رسولَ اللهِ، إنَّ اللهَ إنَّما أنجاني بالصِّدقِ، وإنَّ مِن تَوبتي ألَّا أُحدِّثَ إلَّا صِدْقًا ما بقِيتُ. قال: فواللهِ ما علمتُ أنَّ أحدًا من المسلمينَ أبلاه اللهُ[1] في صدقِ الحديثِ منذ ذكرتُ ذلك لِرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى يومي هذا، أحسنَ ممَّا أبلاني اللهُ به. واللهِ ما تعمَّدتُ كَذبةً منذُ قلتُ ذلك لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظَني اللهُ فيما بقِيَ، فأنزل الله عزَّ وجَلَّ: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٨-١١٩]. قال كعب: واللهِ ما أنعَمَ اللهُ عليَّ من نعمةٍ قطُّ- بعد إذ هداني اللهُ للإسلام- أعظَمَ في نفسي مِن صِدقي رسولَ الله صلى الله عليه وسلَّم، ألَّا أكونَ كَذَبتُه فأهلِكَ كما هلك الذين كَذَبوا، إنَّ الله قال للذينَ كَذَبوا- حين أنزل الوَحْي- شَرَّ ما قال لأحدٍ، وقال الله: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٥-٩٦]، قال كعبٌ: كنا خُلِّفنا- أيُّها الثَّلاثةُ- عن أمْرِ أولئك الذينَ قَبِل منهم رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حين حَلَفوا له، فبايَعَهم واستغفَرَ لهم، وأرجأَ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أمْرَنا حتى قضَى اللهُ فيه، فبذلك قال اللهُ عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ

(١) أبلاه اللهُ: أي: أنعَمَ عليه. والبلاءُ والإبلاءُ يكونُ في الخيرِ والشَّرِّ، لكنْ إذا أُطلِقَ كان للشَّرِّ غالبًا، فإذا أريد الخيرُ قُيِّدَ كما قيَّدَه هنا، فقال: (أحسن مما أبلاني). يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٩٧).

خُلِّفُوا﴾ [التوبة: ١١٨]، وليس الذي ذكَرَ اللهُ ممَّا خُلِّفْنا، تَخَلُّفَنا عن الغَزْوِ، وإنَّما هو تخليفُه إيَّانا، وإرجاؤُه أمْرَنا، عمَّنْ حلَفَ له واعتذَرَ إليه فقَبِلَ منه))(١).

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾.

أي: وتاب اللهُ على أصحابِ النبيِّ الثَّلاثةِ الذين أخَّرَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ الحُكمَ في أمْرِهم إلى أن يَحكُمَ اللهُ تعالى فيهم، ويبُتَّ في شأنِهم(٢).

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾.

أي: حتى إذا ضاقَتِ الأرضُ على هؤلاء الثلاثةِ مع سَعَتِها، وذلك أنَّهم أُمِروا باعتزالِ أزواجِهم، ومُنِع المسلمون مِن معاملتِهم وكلامِهم، مع إعراضِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم عنهم(٣).

﴿وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾.

أي: وضاقَتْ عليهم أنفُسُهم؛ بسبَبِ الهَمِّ والكَربِ والحُزنِ الذي أصابَهم(٤).

﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٣، ٥٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٨٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٤)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٥١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥١، ٥٢).

(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٨٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٠٨) ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥١، ٥٢).
وقال ابنُ جرير: (﴿حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ يقول: بسعتِها غمًّا وندمًا على تخلفِهم عن الجهادِ مع رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤).
وقال ابنُ عطيةَ: (وإنَّما ضاقتْ عليهم الأرضُ عن تخليفِهم عن قبولِ العذرِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٣).

أي: وأيقَنوا أنَّه لا شَيءَ لهم يَرجِعونَ إليه؛ لِيَسلَموا مِن عَذابِ اللهِ وسَخَطِه، ويرتَفِع عنهم الكَربُ والبَلاءُ، إلَّا اللهُ وَحْدَه دُونَ مَن سِواه[1].

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟﴾.

أي: ثمَّ وفَّقَ اللهُ الأصحابَ الثَّلاثةَ للتَّوبةِ؛ لِتَقَعَ منهم فيَرجِعُوا إلى اللهِ، ويَستَقيموا على طاعَتِه[2].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

أي: إنَّ اللهُ هو كثيرُ قَبولِ التَّوبةِ، فيُوفِّقُ مَن يشاء مِن عِباده للتَّوبةِ، ويَقبَلُها منهم، واسِعُ الرَّحمةِ، ومِن رَحمتِه ألَّا يُعاقِبَ التَّائبينَ بعد تَوبتِهم[3].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

هذا الأمرُ بالكَونِ مع أهلِ الصِّدقِ حَسُنَ بعد قصَّةِ الثَّلاثةِ حين نفَعَهم الصِّدقُ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٨٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٠١)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٠٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٧١)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٥٢٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٣).
قال محمد رشيد رضا: (﴿وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ واعتَقَدوا أنَّه لا ملجأً لهم مِن سَخَطِ الله يلجَؤونَ إليه إلَّا إليه تعالى، بأن يتوبوا إليه ويَستَغفِروه، ويَرجوا رَحمَتَه؛ فإنَّ الرَّسولَ البَرَّ الرَّؤوفَ الرَّحيمَ بأصحابِه، ما عاد ينظُرُ إليهم ولا يكَلِّمُهم، حتى يطلُبوا دُعاءَه واستغفارَه). ((تفسير المنار)) (١١/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٨٦)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤١٩)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٥٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٣، ٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٧١)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٤٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٤).

وذهَبَ بهم عن منازِلِ المُنافِقينَ، فجاء هذا الأمرُ اعتراضًا في أثناءِ الكلامِ؛ إذ عنَّ في القِصَّةِ ما يجب التنبيهُ على امتثالِه[1].

وأيضًا أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا حكَمَ بِقَبولِ تَوبةِ الثَّلاثةِ؛ ذكَرَ ما يكونُ كالزَّاجِرِ عَن فِعلِ ما مضَى، وهو التخَلُّفُ عن رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الجِهادِ[2].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾.

أي: يا أيُّها المُؤمِنونَ اتَّقُوا اللهَ، بامتثالِ أوامِرِه، واجتنابِ نواهِيه[3].

﴿ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾.

أي: وكونوا- أيُّها المُؤمِنونَ- مع الصَّادقينَ في إيمانِهم وأقوالِهم وأفعالِهم، لا تتخَلَّفوا عن صُحبَتِهم، واتَّبِعوا سبيلَهم، والزَموا الصِّدقَ؛ لِتكونوا معهم في الآخرةِ[4].

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((عليكم بالصِّدقِ؛ فإنَّ الصِّدقَ يَهدي إلى البِرِّ، وإنَّ البِرَّ يهدي إلى الجنَّةِ، وما يزالُ الرَّجُلُ يَصدُقُ، ويتحَرَّى الصِّدقَ حتى يُكتَبَ عند اللهِ صِدِّيقًا، وإيَّاكم والكَذِبَ؛ فإنَّ الكَذِبَ يَهدي إلى الفُجورِ، وإنَّ الفُجورَ يَهدي إلى النَّارِ، وما يزالُ الرَّجُلُ يَكذِبُ ويتحَرَّى الكَذِبَ حتى يُكتَبَ عند اللهِ كذَّابًا))[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٠١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٧٥)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٤، ٩٥)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٨٨، ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٥).

(٥) رواه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧) واللفظ له.

وعن حُذيفةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّها سَتَكونُ أُمَراءُ يَكذِبونَ ويَظلِمونَ، فمن صدَّقَهم بكَذِبِهم، وأعانهم على ظُلمِهم، فليس منِّي ولستُ منه، ولا يَرِدُ عليَّ الحوضَ، ومَن لم يُصَدِّقْهم بكَذِبِهم، ولم يُعِنْهم على ظُلْمِهم، فهو منِّي وأنا منه، وسَيَرِدُ عليَّ الحوضَ))(١).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ هو بَعثٌ للمُؤمِنينَ على التَّوبةِ، وأنَّه ما من مؤمِنٍ إلَّا وهو مُحتاجٌ إلى التَّوبةِ والاستغفارِ، حتى النبيُّ والمهاجرون والأنصارُ، وإبانةٌ لِفَضلِ التَّوبةِ ومِقدارِها عند الله، وأنَّ صِفةَ التَّوابينَ الأوَّابينَ صِفةُ الأنبياءِ(٢).

٢- قولُه تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ هذا مِن أعظَمِ ما يُعَرِّفُ العَبدَ قَدْرَ التَّوبةِ وفَضْلها عند اللهِ، وأنَّها غايةُ كَمالِ المؤمِنِ؛ فإنَّه سُبحانه أعطاهم هذا الكَمالَ بعد آخِرِ الغَزَواتِ بعد أن قَضَوا نَحْبَهم، وبَذَلوا نفوسَهم وأموالَهم وديارَهم لله، وكان غايةَ أمْرِهم أن تابَ عليهم؛ ولهذا جعل النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومَ توبةِ كَعبٍ رَضِيَ اللهُ عنه خيرَ يَومٍ مَرَّ عليه منذ ولَدَتْه أمُّه إلى ذلك اليومِ، ولا يَعرِفُ هذا حَقَّ مَعرِفَتِه إلَّا

(١) أخرجه أحمد (٢٣٣٠٨)، والبزار (٢٨٣٤).
قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٥/ ٢٥١): رجالُه رجالُ الصحيحِ، وصحَّحه ابنُ حجرٍ في ((الأمالي المطلقة)) (٢١٦)، وجوَّد إسنادَه الألباني في ((تخريج كتاب السنة)) (٧٥٩).
وأخرجه من طريقٍ آخر البزار (٢٨٣٢)، والطبراني (٣/ ١٦٨) (٣٠٢٠).
قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٥/ ٢٥١) في إسنادِ البزارِ: رجالُه رجالُ الصحيحِ.
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣١٦).

مَن عرَفَ اللهَ، وعرَفَ حُقوقَه عليه، وعرَفَ ما ينبغي له من عبوديَّتِه، وعرف نفسَه وصِفاتِها وأفعالَها، وأنَّ الذي قام به من العبوديَّةِ بالنِّسبةِ إلى حَقِّ رَبِّه عليه كقَطرةٍ في بَحرٍ، هذا إذا سَلِمَ مِن الآفاتِ الظَّاهرة والباطنةِ، فسُبحان مَن لا يسَعُ عبادَه غيرُ عَفْوِه ومَغفِرتِه وتَغَمُّدِه لهم بمَغفِرتِه ورَحمتِه، وليس إلَّا ذلك أو الهَلاك، فإنْ وضَعَ عليهم عَدْلَه فعَذَّبَ أهلَ سَمواتِه وأرضِه، عذَّبَهم وهو غيرُ ظالمٍ لهم، وإنْ رَحِمَهم فرَحْمَتُه خيرٌ لهم من أعمالِهم، ولا يُنجي أحدًا منهم عمَلُه[1].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ فيه التَّنبيهُ على لُطفِ اللهِ بعِبادِه، وتَثبيتِهم في إيمانِهم عند الشَّدائِدِ، والنَّوازِلِ المُزعِجةِ[2]، فسُنَّةُ الحقِّ مع أوليائه إذا أشْرَفوا على العَطَب، ووطَّنوا أنفُسَهم على الهلاكِ، أمطَرَ عليهم سحائِبَ الجُودِ، فأحيا قُلوبَهم[3].

٤- العبادةُ الشَّاقَّةُ على النَّفسِ، لها فضلٌ ومَزيَّةٌ ليست لِغَيرِها، وكلَّما عَظُمَت المشقَّةُ، عَظُمَ الأجرُ؛ نستفيدُ ذلك من قَولِ اللهِ تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾[4].

٥- توبةُ الله على عَبدِه بحَسَبِ نَدَمِه وأسَفِه الشَّديدِ، وأنَّ مَن لا يُبالي بالذَّنبِ، ولا يُحرَجُ إذا فعَلَه، فإنَّ تَوبتَه مَدخولةٌ، وإن زَعَم أنَّها مقبولةٌ؛ يُرشِدُ إلى ذلك قَولُ الله تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ

---

(١) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٥١٧ - ٥١٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٥٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٨١).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٥٤).

الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾(١).

٦- علامةُ الخَيرِ، وزَوالِ الشِّدَّةِ: إذا تعلَّقَ القَلبُ باللهِ تعالى تعلُّقًا تامًّا، وانقطَعَ عن المَخلوقينَ؛ يُرشِدُ إلى ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾(٢).

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ دالٌّ على فَضلِ الصِّدقِ، وكمالِ دَرَجتِه(٣).

٨- قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ حَقٌّ مَن فَهِمَ عن الله وعَقَلَ عنه، أن يُلازِمَ الصِّدقَ في الأقوالِ، والإخلاصَ في الأعمالِ، والصَّفاءَ في الأحوالِ، فمَن كان كذلك لَحِقَ بالأبرارِ، ووصَلَ إلى رِضا الغفَّارِ(٤).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ذَكَرَ التوبةَ في أوَّلِ الآيةِ وفي آخِرِها، فما الفائدةُ في التَّكرارِ؟

قيل: فيه وجوه:

الوجه الأول: أنَّه تاب عليهم أوَّلًا بتوفيقِهم للتَّوبةِ، فلمَّا تابوا تاب عليهم ثانيًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٨٩).

بِقَبولِها منهم، وهو الذي وفَّقَهم لفِعْلِها، وتفضَّل عليهم بقَبولِها[1]، فتوبةُ العَبدِ إلى اللهِ مَحفوفةٌ بتَوبةٍ مِن اللهِ عليه قَبْلَها، وتوبةٍ منه بَعْدَها، فتَوبتُه بين تَوبتَينِ مِن رَبِّه؛ سابقةٍ ولاحقةٍ، فإنَّه تاب عليه أوَّلًا إذْنًا وتوفيقًا وإلهامًا، فتاب العبدُ، فتاب اللهُ عليه ثانيًا قبولًا وإثابةً[2].

الوجه الثاني: أنَّه تعالى ابتدأ بذِكرِ التَّوبةِ قَبلَ ذِكرِ الذَّنبِ؛ تَطييبًا لِقُلوبِهم، ثمَّ ذكَرَ الذَّنبَ، ثمَّ أردَفَه مرَّةً أخرى بذِكرِ التَّوبةِ، والمقصودُ منه تعظيمُ شأنِهم.

الوجه الثالث: أنَّه إذا قيل: عفا السُّلطانُ عن فلانٍ، ثم عفا عنه، دلَّ ذلك على أنَّ ذلك العفوَ عَفوٌ مُتأكِّدٌ، بلغ الغايةَ القُصوى في الكَمالِ والقُوَّةِ.

الوجه الرابع: أنَّه قال: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ وهذا الترتيبُ يدلُّ على أنَّ المرادَ أنَّه تعالى تاب عليهم مِن الوَساوِسِ التي كانت تقَعُ في قلوبِهم في ساعةِ العُسرةِ، ثم إنَّه تعالى زاد عليه فقال: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ﴾ فهذه الزيادةُ أفادت حصولَ وَساوِسَ قَويَّةٍ، فلا جرَمَ أتبَعَها تعالى بذِكرِ التَّوبةِ مرَّةً أخرى؛ لئلَّا يبقى في خاطِرِ أحَدِهم شَكٌّ في كَونِهم مُؤاخَذينَ بتلك الوساوِسِ[3].

٢- قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ الأنبياءُ صَلَواتُ الله وسلامُه عليهم معصومونَ مِن الإقرارِ على الذُّنوبِ كبارِها وصِغارِها، ومع هذا جاء الإخبارُ عنهم من اللهِ تعالى بالتَّوبةِ، وهم بما أخبَرَ الله به عنهم من التَّوبةِ، يرفَعُ دَرجاتِهم، ويُعَظِّم حسناتِهم، فإنَّ اللهَ يحِبُّ التَّوَّابينَ، ويحِبُّ المتطَهِّرينَ، وليست التوبةُ نَقصًا، بل هي من أفضَلِ الكمالاتِ، وهي

(١) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٥١٨).
(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣١٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٦٣).

واجبةٌ على جميعِ الخَلقِ كما قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا * لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ فغايةُ كُلِّ مُؤمنٍ هي التوبةُ، ثمَّ التَّوبةُ تتنَوَّعُ، كما يقال: حَسَناتُ الأبرارِ سَيِّئاتُ المقَرَّبينَ[١]، واللهُ تعالى قد أخبَرَ عن عامَّةِ الأنبياءِ بالتَّوبةِ والاستغفارِ؛ عن آدَمَ ونوحٍ، وإبراهيمَ وموسى وغَيرِهم[٢].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ كان جيشُ العُسرةِ من المهاجِرينَ والأنصارِ ومِن غَيرِهم مِن القَبائِلِ التي حَولَ المَدينةِ ومَكَّةَ، ولكنَّهم خُصُّوا بالثَّناءِ؛ لأنَّهم لم يتردَّدوا ولم يَتَثاقلوا، ولا شَحُّوا بأموالِهم، فكانوا أُسوةً لِمَن ائتَسى بهم مِن غَيرِهم من القَبائِلِ[٣].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ سمَّاها (ساعة) تهوينًا لأوقاتِ الكُروبِ، وتشجيعًا على مُواقعةِ المَكارِه؛ فإنَّ أمَدَها يسيرٌ، وأجْرَها عظيمٌ خَطيرٌ[٤].

٥- قال تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ إنما عَظُمَ ذَنْبُهم، واستحَقُّوا عليه ذلك؛ لأنَّ الشَّرعَ يَطلُبُهم مِن الجِدِّ فيه بحسَبِ مَنازِلِهم منه وتَقَدُّمِهم فيه؛ إذ هم أُسوةٌ

---

(١) قال ابنُ تيمية: (هذا اللَّفظُ ليس محفوظًا عمَّن قَوْلُه حجَّةٌ؛ لا عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم ولا عن أحدٍ من سلفِ الأمةِ وأئمتِها، وإنَّما هو كَلامٌ، وله معنًى صحيحٌ، وقد يُحملُ على معنًى فاسدٍ). ثم ذكَر تفصيلَ ذلك. يُنظر: ((جامع الرسائل لابن تيمية)) (١/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٠).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٦).

وحُجَّةٌ للمُنافقين والطَّاعنينَ، إذ كان كعبٌ من أهلِ العَقَبةِ، وصاحباه من أهلِ بَدرٍ، وهذا يقتضي أنَّ الرَّجُلَ العالِمَ والمُقتَدَى به، أقَلُّ عُذرًا في السُّقوطِ مِن سِواه[١].

٦- معنى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ أي: لطَفَ لهم في التَّوبةِ ووفَّقَهم لها، وهذا دليلٌ على أنَّه ما لم يُرِدِ اللهُ تعالى توبةَ العبدِ ولم يُوَفِّقْه لها، لا يُمكِنُه ذلك[٢]، فالله تعالى أخبرَ أنَّ توبتَه عليهم سبقَت توبتَهم، وأنَّها هي التي جعَلَتْهم تائبينَ، فكانت سببًا مُقتضيًا لِتَوبتِهم، فدلَّ على أنَّهم ما تابوا حتى تاب اللهُ تعالى عليهم، والحُكمُ ينتفي لانتفاءِ عِلَّتِه[٣].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ مِن لُطفِ اللهِ بالثَّلاثةِ أنْ وَسَمَهم بوَسْمٍ ليس بعارٍ عليهم، فقال: ﴿خُلِّفُوا﴾ إشارةً إلى أنَّ المُؤمِنينَ خَلَّفوهم، أو خُلِّفوا عمَّنْ بَتَّ في قَبولِ عُذرِهم، أو في رَدِّه، وأنَّهم لم يكُن تَخلُّفُهم رَغبةً عن الخَيرِ؛ ولهذا لم يقُلْ: (تَخَلَّفوا)[٤].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ ذِكرُ ﴿الرَّحِيمُ﴾ عَقِبَ ذِكرِ ﴿التَّوَّابُ﴾ يدلُّ على أنَّ قَبولَ التَّوبةِ؛ لِمَحضِ الرَّحمةِ والكَرَمِ[٥].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٤).
(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٨٦).
(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣١٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٠/ ٢٣٤).

أي: في كلِّ أمرٍ يُطلَبُ منهم، ولعلَّه أخرَجَ الأمرَ مَخرَجَ العُمومِ؛ لِيشملَ كُلَّ مُؤمِنٍ، فمن كان مُقصِّرًا كانت آمرةً له باللَّحاقِ، ومن كان مُسابِقًا كانت حاثَّةً له على حِفظِ مَقامِ الاسْتِباقِ(١).

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ لعَلَّه عَبَّرَ بـ ﴿مَعَ﴾ ليشمَلَ أدنى الدَّرَجاتِ، وهو الكَونُ بالجُثَثِ(٢).

١١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ أمرَ المؤمنينَ بالكَونِ مع الصَّادقينَ، ومتى وجبَ الكَونُ مع الصَّادقينَ، فلا بدَّ مِن وجودِ الصَّادقينَ في كُلِّ وقتٍ، وذلك يمنَعُ من إطباقِ الكُلِّ على الباطِلِ، ومتى امتنع إطباقُ الكُلِّ على الباطِلِ، وجب إذا أطبَقوا على شَيءٍ أن يكونوا مُحِقِّينَ، فهذا يدلُّ على أنَّ إجماعَ الأمَّةِ حُجَّةٌ(٣).

١٢- قَولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ قال غيرُ واحدٍ مِن السَّلَفِ: هم أصحابُ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولا ريبَ أنَّهم أئمَّةُ الصَّادِقينَ، وكُلُّ صادِقٍ بَعدَهم، فبهم يأتَمُّ في صِدْقِه، بل حَقيقةُ صِدقِه اتِّباعُه لهم، وكونُه معهم، ومعلومٌ أنَّ مَن خالَفَهم في شيءٍ- وإن وافَقَهم في غيرِه- لم يكن معهم فيما خالَفَهم فيه، وحينئذٍ فيَصْدُقُ عليه أنَّه ليس معهم، فتَنتفي عنه المعيَّةُ المُطلَقةُ، وإن ثبَتَ له قِسطٌ مِن المعيَّةِ فيما وافَقَهم فيه، فلا يَصدُقُ عليه أنَّه معهم بهذا القِسطِ(٤).

١٣- استُدلَّ بقولِه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ على خلافةِ أبي بكرٍ رضي الله عنه؛ فقَدْ بيَّن الله تعالى في سورةِ الحشرِ مَن

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٤١-٤٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٤٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٦٦).
(٤) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/ ١٠١).

الصادِقونَ، وأنَّهم المهاجرون، بقولِه: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ﴾ إلى قولِه: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨] فأمر الذين تبوَّؤا الدَّارَ والإيمانَ أنْ يكونُوا معهم، أي: تَبَعًا لهم، فحصَلَتْ الخلافَةُ في الصادِقِينَ بهذه الآيةِ، فاستَحَقُّوها بهذا الاسم، ولم يَكُنْ في الصادِقِينَ مَن سمَّاه اللهُ الصِّدِّيقَ إلَّا أبو بكرٍ، فكانت له خَاصَّةً، ثُمَّ لِلصَّادِقينَ بعدَه[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ، وفي افتِتاحِ الآيةِ بحَرفِ التَّحقيقِ ﴿لَقَدْ﴾ تَأكيدٌ لِمَضمونِها المتقرِّرِ فيما مَضى مِن الزَّمانِ[2].

- قولُه: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ فيه ضمٌّ ذِكْرِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم إلى ذِكْرِهم؛ تَنبيهًا على عِظَمِ مَراتِبِهم في قَبولِ التَّوبةِ[3]، وتَقديمُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم في تعلُّقِ فِعْلِ التَّوبةِ بالغزاةِ؛ للتَّنويهِ بشَأنِ هذه التَّوبةِ، وإتيانِها على جَميعِ الذُّنوبِ؛ إذ قد عَلِم المسلِمون كُلُّهم أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم قد غفَرَ اللهُ ما تقَدَّمَ مِن ذَنبِه وما تأخَّر[4].

- قولُه: ﴿وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ...﴾ فيه وصفُ المهاجِرين والأنصارِ بـ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾؛ للإيماءِ إلى أنَّ لِصِلَةِ الموصولِ تَسبُّبًا في هذه المغفرةِ[5].

---

(١) يُنظر: ((الروض الأنف)) للسهيلي (٦/ ٨٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٤٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥١٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٤٩).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٥٠).

- قولُه: ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ تعليلٌ لِما قَبلَها[١].

٢- قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

- قولُه: ﴿حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ مثَلٌ للحَيرةِ في أمرِهم، كأنَّهم لا يَجِدون فيها مَكانًا يَقرُّون فيه قَلقًا وجزَعًا ممَّا هم فيه[٢].

- وفيه ترتيبٌ حسَنٌ؛ حيثُ ذكَر أوَّلًا ضِيقَ الأرضِ عليهم، وهو كِنايةٌ عَن استيحاشِهم، ونَبْوَةِ النَّاسِ عَن كَلامِهم، وثانيًا ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ وهو كِنايةٌ عن تَواتُرِ الهمِّ والغمِّ على قُلوبِهم، حتَّى لم يَكُنْ فيها شيءٌ مِن الانشِراحِ والاتِّساعِ، فذَكَر أوَّلًا ضِيقَ المحَلِّ، ثمَّ ثانيًا ضِيقَ الحالِ فيه[٣].

- قولُه: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ فيه تكريرٌ للتَّأكيدِ، وتنبيهٌ على أنَّه يُتابُ عليهم؛ مِن أجلِ ما كابَدوا مِن العُسْرةِ[٤].

- وأيضًا في قولِه: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ مِن مَحاسِنِ البلاغةِ، وإعجازِ النَّظْمِ القرآنيِّ: أنَّه لَمَّا كان هذا القولُ في تَعْديدِ نِعَمِه بدَأ في تَرتيبِه بالجِهَةِ الَّتي هي عَنِ اللهِ تعالى؛ لِيَكونَ ذلك مُنبِّهًا على تلَقِّي النِّعْمةِ مِن عِندِه لا ربَّ غَيرُه، ولو كان القولُ في تَعديدِ ذَنبٍ لَكانَ الابتِداءُ بالجِهَةِ الَّتي هي عَن المذنِبِ، كما قال تَعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥١).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣١٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٢٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٠٩).

المَعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ تعالى أنَّه ما كان ينبغي لأهلِ المَدينةِ ومَن حولَهم مِن سُكَّانِ الباديةِ أن يتخَلَّفوا عن الخُروجِ مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في غزوةِ تَبوكَ، ولا يترَفَّعوا بأنفُسِهم عن نَفسِه، ويَرضَوا لأنفُسِهم بالرَّاحةِ، وهو في تعَبٍ ومشقَّةٍ، ما كان ينبغي لهم ذلك؛ لأنَّه لا يُصيبُهم مِن عَطَشٍ ولا تعبٍ ولا مجاعةٍ شَديدةٍ في سبيلِ اللهِ، ولا يَطَؤونَ أرضًا يُغضِبُ الكُفَّارَ وَطؤُهم إيَّاها، ولا يُصيبونَ مِن عَدُوِّهم شيئًا مِن قَتلٍ أو هزيمةٍ ونحوِها، إلَّا كَتَبَ اللهُ لهم بذلك عمَلًا صالحًا؛ إنَّ اللهَ لا يضيعُ أجْرَ المُحسِنينَ.

ولا يُنفِقونَ نَفَقةً صَغيرةً ولا كبيرةً، ولا يقطعونَ في غَزوِهم واديًا، إلَّا كُتِبَ لهم ثوابُ ذلك؛ ليجزيَهم الله عليه، كأحسنِ ما يجزيهم على أحسنِ أعمالِهم التي كانوا يعملونها.

تَفسيرُ الآيتَين:

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى بِقَولِه: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ بوجوبِ الكونِ في مُوافَقةِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في جميعِ الغَزَواتِ والمَشاهِدِ، أكَّدَ ذلك، فنهَى

في هذه الآيةِ عن التخَلُّفِ عنه[١].

وأيضًا لَمَّا أمَرَ المُؤمِنينَ بتَقوى اللهِ، وأمَرَ بكَينونَتِهم مع الصَّادِقينَ، وأفضَلُ الصَّادِقينَ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ثمَّ المُهاجِرونَ والأنصارُ؛ اقتضى ذلك مُوافَقةَ الرَّسولِ وصُحبَتَه أنَّى توجَّهَ مِن الغَزَواتِ والمَشاهِدِ، فعُوتِبَ العِتابَ الشَّديدَ مَن تخلَّفَ عن الرَّسولِ في غَزوةٍ، واقتضى ذلك الأمرَ لِصُحبَتِه، وبذلَ النُّفوسِ دُونَه[٢].

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ ﴾.

أي: ما كان ينبغي للمُسلِمينَ مِن سُكَّانِ مَدينةِ النبيِّ ومَن حولَهم مِن سُكَّانِ البوادي أنْ يتخَلَّفوا عن الخُروجِ مع رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في غَزوةِ تَبوكَ[٣].

﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ﴾.

أي: وما كان ينبغي لهم أن يترَفَّعوا بأنفُسِهم عن نَفسِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، في صُحبَتِه في الجِهادِ، ويَرضَوا لأنفُسِهم بالرَّاحةِ، والنبيُّ صلَّى اللهُ عليه

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٧١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٥)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٥).
قال ابن الجوزي: (ذهب طائفةٌ من المفَسِّرينَ إلى أنَّ هذه الآيَةَ اقتضَتْ أنَّه لا يجوزُ لأحدٍ أن يتخَلَّفَ عن رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهذا كان في أوَّلِ الأمْرِ، ثمَّ نُسِخَ ذلك بقولِه: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ [التوبة: ١٢٢]، قال أبو سليمان الدمشقي: لكلِّ آيةٍ وَجْهُها، وليس للنَّسخِ على إحدى الآيتَينِ طَريقٌ. وهذا هو الصَّحيحُ). ((نواسخ القرآن)) (٢/ ٤٧٥). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٧٣)، ((الناسخ والمنسوخ)) للنحاس (ص: ٥٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٩٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٦١).

وسلَّم في تعَبٍ ومَشقَّةٍ[١]!

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ﴾.

أي: ما كان ينبغي لهم ذلك؛ لأنَّه لا يصيبُهم في الجهادِ مِن عَطَشٍ ولا تَعَبٍ[٢].

﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

أي: ولا يُصيبُهم مِن مجاعةٍ شَديدةٍ في جهادِهم لإعلاءِ كَلِمةِ الله[٣].

﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾.

أي: ولا تَصِلُ أقدامُهم إلى أرضٍ يغضَبُ الكفَّارُ مِن وُصولِهم إليها[٤].

﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾.

أي: ولا يُصيبونَ من الكفَّارِ مِن شَيءٍ قليلٍ أو كثيرٍ؛ من قتلٍ أو جراحٍ أو أسْرٍ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٧١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٦).
قال ابنُ عاشورٍ: (أُريدَ برَغبتِهم عن نَفْسِه محَبَّتُهم أنفُسَهم، وحِرصُهم على سلامتِها، دون الحِرصِ على سلامةِ نَفسِ الرَّسولِ، فكأنَّهم رَغِبوا عن نفسِه؛ إذ لم يخرُجوا معه مُلابِسينَ لأنفُسِهم، أي: محتفظينَ بها؛ لأنَّهم بمقدارِ مَن يتخلَّف منهم يزدادُ تعَرُّضُ نَفسِ الرَّسولِ مِن التَّلَفِ قُربًا، فتخَلُّفُ واحدٍ منهم عن الخروجِ معه عَونٌ على تقريبِ نَفسِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن التَّلَف). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٧١)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٧١)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٧١)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٩٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٣٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٦).

أو غنيمةٍ أو هزيمةٍ[1].

﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ﴾.

أي: إلَّا كتَبَ اللهُ لهم بهذه الأعمالِ أعمالًا صالحةً[2] وثوابًا جزيلًا[3].

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((الخيلُ ثلاثةٌ: هي لرَجُلٍ وِزرٌ، وهي لِرَجُلٍ سِترٌ، وهي لرجُلٍ أجْرٌ، فأمَّا التي هي له وِزرٌ، فرَجُلٌ ربَطَها رياءً وفَخرًا ونِواءً[4] على أهلِ الإسلامِ، فهي له وِزرٌ، وأمَّا التي هي له سِترٌ، فرجلٌ رَبَطَها في سبيلِ اللهِ، ثمَّ لم ينسَ حَقَّ اللهِ في ظُهورِها ولا رِقابِها، فهي له سِترٌ، وأمَّا التي هي له أجرٌ، فرَجُلٌ ربَطَها في سبيلِ اللهِ لأهلِ الإسلامِ، في مَرجٍ وَرَوضةٍ[5]، فما أكَلَتْ من ذلك المَرجِ أو الرَّوضةِ مِن شَيءٍ إلَّا كُتِبَ له عددَ ما أكَلَت حَسَناتٌ، وكُتِبَ له عددَ أرواثِها وأبوالِها حَسَناتٌ، ولا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٧١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٦)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٥).

(٢) قال ابن عاشور: (معنى: ﴿كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ أن يُكتَبَ لهم بكلِّ شَيءٍ مِن أنواعِ تلك الأعمالِ عمَلٌ صالِحٌ، أي: جعَلَ اللهُ كُلَّ عمَلٍ من تلك الأعمالِ عمَلًا صالحًا، وإن لم يَقصِدْ به عامِلوه تقرُّبًا إلى الله؛ فإنَّ تلك الأعمالَ تَصدُرُ عن أصحابِها وهم ذاهِلونَ في غالبِ الأزمانِ أو جميعِها عن الغايةِ منها، فليست لهم نيَّاتٌ بالتقَرُّبِ بها إلى الله، ولكِنَّ اللهَ تعالى بفَضْلِه جعَلَها لهم قُرُباتٍ باعتبارِ شَرَفِ الغايةِ منها، وذلك بأنْ جعَلَ لهم عليها ثوابًا، كما جعل للأعمالِ المقصودِ بها القُربةُ). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٧١)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٥).

(٤) نِوَاءً: أي: مُناوأةً ومُعاداةً. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٧/ ٦٦).

(٥) في مَرْجٍ: أي: مَرعًى، وهو الأرضُ الواسعةُ ذاتُ النَّباتِ الكثيرِ، (ورَوْضةٍ) عطفُ تفسيرٍ، أو الرَّوضةُ أخصُّ مِن المَرعَى. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٤/ ١٢٦٥).

تَقطَعُ طِوَلَها[(١)]، فاستَنَّتْ شَرَفًا أو شَرَفينِ[(٢)]، إلَّا كتَبَ اللهُ له عدَدَ آثارِها وأرْواثِها حَسَناتٍ، ولا مَرَّ بها صاحِبُها على نهرٍ فشَرِبَت منه، ولا يريدُ أن يسقِيَها، إلَّا كتَبَ اللهُ له عدَدَ ما شَرِبَت حسناتٍ))[(٣)].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

أي: يُؤتَونَ تلك الأجورَ؛ لأنَّهم مُحسِنونَ، واللهُ لا يترُكُ إثابةَ مُحسِنٍ في عبادةِ اللهِ، مُحسِنٍ إلى عبادِ اللهِ[(٤)].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

وقال سُبحانه: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦].

﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّها عَطفٌ على جُملةِ ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ وهو انتقالٌ مِن عِدادِ الكُلَفِ التي تَصدُرُ عنهم بلا قَصدٍ، في سبيلِ اللهِ، إلى بعضِ الكُلَفِ التي لا تخلو عن استشعارِ

---

(١) طِوَلَها: أي: حَبلَها الطَّويلَ الذي شُدَّ أحَدُ طَرَفيه في يَدِ الفَرَسِ، والآخَرُ في وَتِدٍ أو غيرِه؛ لِتَدورَ فيه وترعى من جوانِبِها، ولا تذهبَ لِوَجهِها. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للمُلا الهروي (٤/ ١٢٦٦).

(٢) استَنَّت: أي: جَرَت. وشَرَفًا: أي: شَوطًا أو مَوضِعًا عاليًا مِن الأرضِ. يُنظر: ((إكمال المعلم بفوائد مسلم)) للقاضي عياض (٣/ ٤٩٢)، ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٤/ ١٢٦٦).

(٣) رواه البخاري (٢٨٦٠)، ومسلم (٩٨٧) واللفظ له.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١١١)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٥٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٥).

مَن تحُلُّ بهم بأنَّهم لَقُوها في سبيلِ اللهِ، فالنَّفقةُ في سبيلِ اللهِ لا تكونُ إلَّا عن قَصدٍ، يتذكَّرُ به المُنفِقُ أنَّه يسعى إلى ما هو وسيلةٌ لِنَصرِ الدِّينِ[١].

﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾.

أي: ولا يُنفِقُ الغازونَ في سبيلِ اللهِ نَفقةً صَغيرةً ولا نَفَقةً كَبيرةً، ولا يُجاوِزونَ في غَزْوِهم واديًا ذاهِبينَ أو راجعينَ، إلَّا كُتِبَ لهم ثوابُ ذلك[٢].

عن عبدِ الرَّحمنِ بنِ جَبرٍ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((ما اغبَرَّت قدَمَا عبدٍ في سبيلِ الله فتمَسَّه النَّارُ))[٣].

﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

أي: كُتِب لهم ثوابُ عملِهم ذلك؛ ليَجْزيَهم الله عليه، كأحْسنِ ما يَجزيهم على أحسنِ أعمالِهم التي كانوا يعملونها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٧-٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٧٥)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٣٤، ٢٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٨).

(٣) رواه البخاري (٢٨١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٧٥).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٠١)، ((تفسير النسفي)) (١/ ٧١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٧٣)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٥٢٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٦٢).

قال الواحدي: (قال أكثر المفسِّرينَ: هذه الآيةُ خاصَّةٌ في صُحبةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والخروجِ معه، وقال الأوزاعي، وابنُ المبارك: هي لآخِرِ هذه الأمَّةِ وأوَّلِها). ((البسيط)) (١١/ ٩٢).

قال الرازي: (قال: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وفيه وجهان:

الأول: أنَّ الأحسَنَ مِن صِفةِ فِعْلِهم، وفيها الواجِبُ والمندوبُ والمباحُ، واللهُ تعالى يَجزِيهم على الأحسَنِ، وهو الواجِبُ والمندوبُ، دون المُباحِ.

والثاني: أنَّ الأحسَنَ صِفةٌ للجَزاءِ، أي: يَجزيهم جزاءً هو أحسَنُ مِن أعمالِهم وأجَلُّ وأفضَلُ، وهو الثَّوابُ). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٧٠). =

كما قال سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ دلَّتْ هذه الآيةُ على أنَّ مَن قصَدَ طاعةَ اللهِ، كان قيامُه وقُعودُه ومِشيتُه وحَرَكتُه وسُكونُه، كلُّها حَسَناتٍ مكتوبةً عند الله، وكذا القَولُ في طَرَفِ المَعصيةِ، فما أعظَمَ بَرَكةَ الطاعةِ، وما أعظَمَ شُؤمَ المَعصيةِ[1]!

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ فيه أشَدُّ تَرغيبٍ وتَشويقٍ

= وقال محمد رشيد رضا: (النَّصُّ على جزائِهم أحسَنَ ما كانوا يعملونَ، لا ينافي جزاءَهم بما دونَه، وقد قال آنفًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾) وهو فيه، وإنَّما المرادُ النصُّ على أنَّ هذا العمَلَ أحسَنُ أعمالِهم أو مِن أحسَنِها؛ لأنَّه جمَعَ بين الجهادِ بالمالِ، والجِهادِ بالنَّفسِ، وما قَبلَه من الثَّاني فقط، والجزاءُ على الأحسَنِ يكونُ أحسَنَ منه، على قاعدةِ ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ [النمل: ٨٩] وبيانُ ذلك بقاعدةِ ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] وقال بعضُهم: إنَّ معنى الجملةِ أنَّه تعالى يَجزيهم بكُلِّ عمَلٍ ممَّا ذُكِرَ أحسَنَ جَزاءٍ على أعمالِهم الحَسَنةِ، أي: في غيرِ الجهاد بالمالِ والنَّفسِ، بأن تكونَ النَّفقةُ الصغيرةُ فيه كالنَّفَقةِ الكبيرةِ في غيره مِن المبرَّاتِ، والمشَقَّةُ القليلةُ فيه كالمشَقَّةِ الكثيرةِ فيما عداه من الأعمالِ الصَّالحاتِ). ((تفسير المنار)) (١١/ ٦٢).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٦٩).

للنُّفوسِ إلى الخُروجِ إلى الجهادِ في سَبيلِ الله، والاحتساب لِمَا يُصيبُهم فيه من المشَقَّاتِ، وأنَّ ذلك لهم رفعةُ دَرَجاتٍ، وأنَّ الآثارَ المترتِّبَةَ على عملِ العبدِ، له فيها أجرٌ كبيرٌ(١).

٣- النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أَولَى بالمُؤمِنينَ مِن أنفُسِهم، فعلى كلِّ مُسلِم أن يَفدِيَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بنَفسِه، ويُقَدِّمَه عليها؛ يُرشِدُ إلى ذلك قَولُ الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾(٢).

الفَوائِدُ العِلْمِيَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ أُمِروا بأن يَصحَبوه على البأساءِ والضَّرَّاءِ، وأن يُكابِدوا معه الأهوالَ برَغبةٍ ونَشاطٍ واغتِباطٍ، وأن يُلقُّوا أنفُسَهم من الشَّدائِد ما تَلقاه نَفسُه، عِلمًا بأنَّها أعزُّ نَفسٍ عندَ اللهِ وأكرَمُها عليه، فإذا تعَرَّضَت مع كرامَتِها وعِزَّتِها للخَوضِ في شِدَّةٍ وهَولٍ، وجَبَ على سائِرِ الأنفُسِ أن تتهافَتَ فيما تعَرَّضَت له، ولا يكترِثَ لها أصحابُها ولا يُقيموا لها وزنًا، وتكون أخَفَّ شَيءٍ عليهم وأهوَنَه، فضلًا عن أن يَربَؤوا بأنفُسِهم عن مُتابَعتِها ومُصاحَبتِها، ويَضِنُّوا بها على ما سَمَحَ بنَفسِه عليه (٣)، ففي قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ دَلالةٌ على أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أولى بالمُؤمِنينَ مِن أنفُسِهم، ومِن حقِّه أنَّه يجبُ أنْ يُؤثِرَه العطشانُ بالماءِ، والجائعُ بالطَّعامِ، وأنَّه يجبُ أنْ يُوقَى بالأنفُسِ والأموالِ، وعُلِمَ بهذا أنَّ رغبةَ الإنسانِ بنَفْسِه أنْ يُصيبَه ما يُصيبُ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٢١).

رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن المشقَّةِ معه- حَرامٌ[١].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ لعلَّه قلَّلَهم بصيغةِ القِلَّةِ[٢] بالنِّسبةِ إلى من أيَّدَه به صلَّى اللهُ عليه وسلَّم من جُنودِه[٣].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ لَمَّا كان العطَشُ أشَقَّ الأشياءِ المُؤذيةِ للمُسافِرِ بكَثرةِ الحَرَكةِ، وإزعاجِ النَّفسِ -وخصوصًا في شِدَّةِ الحَرِّ كغزوة تَبوكَ- بُدِئَ به أوَّلًا، وثنَّى بالنَّصَبِ وهو التَّعَبُ؛ لأنَّه الكَلالُ الذي يلحَقُ المُسافِرَ، والإعياءُ النَّاشِئُ عن العطَشِ والسَّيرِ، وأتى ثالثًا بالجُوعِ؛ لأنَّه حالةٌ يُمكِنُ الصَّبرُ عليها الأوقاتَ العديدةَ، بخلافِ العطَشِ والنَّصَبِ المُفضِيَينِ إلى الخلودِ والانقطاعِ عَنِ السَّفرِ، فكان الإخبارُ بما يَعرِضُ للمُسافِرِ أوَّلًا فثانيًا فثالثًا[٤].

٤- كلُّ ما يُؤلِمُ النُّفوسَ، ويَشُقُّ عليها، فإنَّه كفَّارةٌ للذُّنوبِ، وإنْ لم يكُنْ للإنسانِ فيه صُنعٌ ولا تسَبُّبٌ، كالمَرَضِ وغيرِه، كما دلَّت النُّصوصُ الكثيرةُ على ذلك، وأمَّا إن كان ناشِئًا عن فِعْلٍ هو طاعةٌ لله، فإنَّه يُكتَبُ لصاحِبِه به أجرٌ، وتُرفَعُ به دَرَجات، كالألَمِ الحاصِلِ للمُجاهِدِ في سبيلِ الله تعالى؛ قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ

---

(١) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٤٢١).

(٢) جمعُ القِلَّة: ما وُضِعَ للعددِ القليلِ، وهو مِن الثَّلاثةِ إلى العَشرةِ، كأحمالٍ. ولجموع القِلَّة أربعةُ أوزانٍ، هي: أفعُل (كأنفُس)، وأفعال (كأجداد)، وأفعِلَة (كأعمدة)، وفِعْلَة (كفِتْيَة). يُنظر: ((جامع الدروس العربية)) للدماميني (٢/ ٢٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٢٣).

مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾[١].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ استدَلَّ به من قال: إنَّ الفارِسَ يستحِقُّ سَهمَ الفَرَسِ بدُخولِ أرضِ الحَربِ، لا بالحيازةِ؛ لأنَّ وَطءَ دِيارِهم يُدخِلُ عليهم الذُّلَّ[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ مُغايظةَ الكُفَّارِ غايةٌ مَحبوبةٌ للرَّبِّ مَطلوبةٌ له[٣].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ لَمَّا كان ربَّما تعنَّتَ مُتعَنِّتٌ فجعَلَ ذِكرَ (الصغيرة) قيدًا، قال: ﴿وَلَا كَبِيرَةً﴾ إعلامًا بأنَّه مُعتَدٌّ به؛ لئَلَّا يُترَكَ[٤].

٨- قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ ولم يقُل هاهنا «به» لأنَّ هذه أفعالٌ صادرةٌ عنهم[٥].

٩- قَولُه تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ هذا يدُلُّ على أنَّ الجِهادَ مِن أحسَنِ أعمالِ العِبادِ[٦]. وذلك على أحدِ وجهي تأويلِ الآيةِ.

بلاغةُ الآيتَين:

١- قولُه تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا

---

(١) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٤/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٤٥).

(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٢٤١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٤٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٣٥).

(٦) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٩٢).

نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾

- قولُه: ﴿مَا كانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا...﴾ الآيَةَ، استِئنافٌ ابتِدائيٌّ، وفيه تَعريضٌ بالَّذين تَخلَّفوا مِن أهلِ المدينةِ ومِن الأعرابِ[١].

- وصِيغةُ ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ خبرٌ مستعمَلٌ في إنشاءِ الأمرِ على طَريقِ المبالَغةِ؛ إذ جعَل التَّخلُّفَ ليس مِمَّا ثبَت لهم؛ فهُم بُرآءُ مِنه، فيَثبُتُ لهم ضِدُّه، وهو الخروجُ معَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم إذا غزَا[٢].

- وخصَّ أهلَ المدينةِ ومَن حولَهم مِن الأعرابِ بالذِّكرِ معَ أنَّ كلَّ النَّاسِ في ذلك سواءٌ؛ لِقُربِهم مِنه، وأنَّه لا يَخْفى علَيهم خُروجُه[٣].

- قولُه: ﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ نهيٌ بليغٌ، معَ تقبيحٍ لأمرِهم، وتوبيخٍ لهم علَيه، وتهييجٍ لِمُتابعتِه بأنَفةٍ وحَميَّةٍ[٤].

- والباءُ في قولِه: ﴿بِأَنْفُسِهِمْ﴾ للمُلابَسةِ، حيثُ نزلَ الضَّنُّ بالأنفُسِ والحذَرُ مِن هَلاكِها بالتَّلبُّسِ بها في شدَّةِ التَّمكُّنِ؛ فاستُعمِلَ له حرفُ باءِ الملابَسةِ، وهذه ملابَسةٌ خاصَّةٌ، وإن كانَت النُّفوسُ في كلِّ حالٍ مُتلَبِّسًا بها، وهذا تركيبٌ بديعُ الإيجازِ، بالغُ الإعجازِ[٥].

- قولُه: ﴿وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٢٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٦).

لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾، بَدَأ في هاتَين الجملتَين بالأسبَقِ وهو الوَطْءُ، ثُمَّ ثَنَّى بالنَّيل مِن العدوِّ، وجاء العمومُ في ﴿الْكُفَّارَ﴾ بالألفِ واللَّامِ، وفي ﴿مِنْ عَدُوٍّ﴾؛ لِكَونِه نكرة في سياقِ النَّفيِ، وبُدِئ أوَّلًا في قولِه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بما يَخُصُّ المسافِرَ في الجهادِ في نفسِه، ثمَّ ثانيًا بما يترتَّبُ على تَحمُّلِ تلك المشاقِّ مِن غيظِ الكفَّارِ، والنَّيلِ مِن العدوِّ(١).

- وقولُه: ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا﴾ فيه تنكيرُ ﴿نَيْلًا﴾؛ لِيَعُمَّ القليلَ والكثيرَ ممَّا يَسوؤُهم؛ قتلًا وأسرًا وغنيمةً وهزيمةً(٢).

- قولُه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ تعليلٌ لـ﴿كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾، وتنبيهٌ على أنَّ الجهادَ إحسانٌ(٣)، وقولُه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ تذييلٌ دلَّ على أنَّهم كانوا بتِلكَ الأعمالِ مُحسِنين، فدخَلوا في عُمومِ قضيَّةِ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ بوجهِ الإيجازِ(٤).

- وفيه وضعُ المُظهَرِ موضِعَ المُضمَرِ - حيثُ لم يَقُلْ: (لا يُضِيعُ أجْرَهم)- لِمَدْحِهم، والشَّهادةِ عليهم بالانتِظامِ في زُمرةِ المُحسِنين، وأنَّ أعمالَهم مِن قَبيلِ الإحسانِ(٥).

٢- قولُه تعالى: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٢٣- ٥٢٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٥٢٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٠١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١١١).

لَهُمْ﴾ فيه إطنابٌ في عدِّ مَناقِبِهم في الغَزوِ؛ لِتَصويرِ ما بذَلوه في سَبيلِ اللهِ، والنَّفقةُ الكبيرةُ أدخَلُ في القَصْدِ؛ فلِذلك نبَّه عليها وعلى النَّفقةِ الصَّغيرةِ؛ لِيُعْلِمَ بذِكْرِ الكَبيرةِ حُكْمَ النَّفقةِ الصَّغيرةِ؛ لأنَّ العِلَّةَ في الكبيرةِ أظهَرُ[1]، وإنَّما قدَّم الصَّغيرةَ على سَبيلِ الاهتِمامِ، وإذا كتَب أجْرَ الصَّغيرةِ فأَحْرى أجرُ الكبيرةِ[2].

– قولُه: ﴿وَلَا كَبِيرَةً﴾ فيه تَوسيطُ (لَا)؛ للتَّنصيصِ على استِبْدادِ كُلٍّ مِنهما بالكَتْبِ والجَزاءِ، لا لِتَأكيدِ النَّفيِ كما في قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾[3].

– قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ الوادي: هو مَسيلُ الماءِ في مُنفَرَجاتِ الجِبالِ وأغوارِ الآكامِ، خَصَّه بالذِّكرِ؛ لِمَا فيه من المشَقَّةِ[4].

– قولُه: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ في ذِكْرِ ﴿كَانُوا﴾ والإتيانِ بخبَرِها مُضارِعًا ﴿يَعْمَلُونَ﴾: إفادةُ أنَّ مِثْلَ هذا العمَلِ كان دَيدَنَهم[5].

– وفي هذه الآيةِ: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال في الآيةِ السَّابقةِ: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾، وقال بعدَها في هذه الآيةِ: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ بدونِ (عَمَلٌ صَالِحٌ)؛ وذلك لأنَّ ما في الآيةِ الأولى مُشتمِلٌ على ما هو مِن عَمَلِهم، وهو قولُه: ﴿وَلَا يَطَؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ...﴾، وعلى ما ليس مِن عَمَلِهم، وهو قولُه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ...﴾؛ فتفَضَّل اللهُ بإجرائِه مُجْرى عمَلِهم في الثَّوابِ؛ فناسبَ ذلك

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٦)، ((تفسير أبي حيان))(٥/ ٥٢٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١١١).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٦١).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٨).

زيادةُ قولِه ﴿بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾؛ ولهذا عمَّ عَقِبَه في قولِه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾. وأمَّا ما ذُكِرَ في الآيةِ الثَّانيةِ هنا، فهو مُختَصٌّ بما هو مِن عملِهم، وهو قولُه: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً...﴾؛ ليُكتَبَ لهم ذلك بعَينِه؛ ولهذا خَصَّهم عَقِبه في قولِه: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[(١)]، فالفَرقُ بينهما: أنَّ الأوَّلَ ليس مِن فِعْلِهم، وإنَّما تولَّدَ عنه، فكُتِبَ لهم به عمَلٌ صالِحٌ، والثَّاني نفسُ أعمالِهم، فكُتِبَ لهم[(٢)].

- وأيضًا تأخَّرت هاتانِ الجُملَتانِ: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾، وقُدِّمَت تلك الجُمَلُ السَّابقةُ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾؛ لأنَّها أشَقُّ على النَّفسِ، وأنْكى في العدوِّ، وهاتانِ أهوَنُ؛ لأنَّهما في الأموالِ وقَطْعِ الأرضِ إلى العدُوِّ، سواءٌ حصَل غيظُ الكفَّارِ والنَّيلُ مِن العدوِّ أوْ لَم يَحصُلا، فهذا أعَمُّ وتلك أخَصُّ، وكان تعليلُ تلك آكَدَ؛ إذ جاء بالجُملةِ الاسميَّةِ المؤكَّدةِ بـ(إنَّ)، وذكَر فيه الأجْرَ ولفْظَ (الْمُحْسِنِينَ)؛ تنبيهًا على أنَّهم حازوا رُتَبَ الإحسانِ الَّتي هي أعلى رُتَبِ المؤمِنين، وفي هاتَينِ الجُملَتَينِ أتَى بلامِ العِلَّةِ، وهي مُتعلِّقةٌ بـ(كُتِبَ)، والتَّقديرُ: أحسَنُ جَزاءِ الَّذي كانوا يَعمَلون؛ لأنَّ عمَلَهم له جزاءٌ حسَنٌ، وله جزاءٌ أحسَنُ، وهنا الجزاءُ أحسنُ جزاءٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٢٤١- ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٢٠٥)، ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٥٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٢٤).

الآيتان (١٢٢-١٢٣)

﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لِيَنْفِرُوا﴾: أي: لِيَخْرُجوا إلى الغزوِ، والنَّفْر: الانزعاجُ عن الشيءِ، وإلى الشيءِ، كالفَزَعِ إلى الشيءِ وعن الشيءِ، وأصلُ (نفر): يدلُّ على تجافٍ وتباعدٍ(١).

﴿يَلُونَكُمْ﴾: أي: يَقرُبونَ منكم، وأصلُ (ولي): يدُلُّ على قُربٍ(٢).

المَعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ تعالى أنَّه لا ينبغي لجَميعِ المُؤمِنينَ أن يَنفِروا كلُّهم للجهادِ في وقتٍ واحدٍ، فهلَّا نفَرَ من كلِّ فِرقةٍ جماعةٌ منهم للقِتالِ؛ ليتسَنَّى لجملةِ المُؤمِنينَ تعَلُّمُ دِين اللهِ، ببقاءِ طائفةٍ أخرى منهم لهذا الغَرَضِ، ولِيُنذِرَ الذين قعَدوا للتفَقُّه النَّافرينَ للجهادِ إذا رَجَعوا إليهم؛ لعلَّهم يَحذَرونَ غضَبَ اللهِ وعَذابَه.

ثمَّ يأمُرُ اللهُ الذين آمنوا أن يُقاتِلوا الكفَّارَ القَريبينَ مِن دِيارِهم، وأنْ يَجِدَ الكُفَّارُ منهم غِلظةً عند قِتالِهم، وأن يتيقَّنوا أنَّ الله مع المتَّقينَ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٥٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص ٤٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٣٧).

لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذه الآيةَ مِن تَتِمَّةِ أحكامِ الجهادِ بالقِتالِ، مع زيادةِ حُكمِ طَلَبِ العِلمِ، والتفَقُّهِ في الدِّينِ، وهو آلةُ الجهادِ بالحُجَّةِ والبُرهانِ، الذي عليه مدارُ الدَّعوةِ إلى الإيمانِ، وإقامة دعائِمِ الإسلامِ، وإنَّما جِهادُ السَّيفِ حمايةٌ وسِياجٌ[1].

وأيضًا لَمَّا كان غالِبُ ما تقدَّمَ مِن هذه السُّورةِ تَحريضًا على الجِهادِ، وتنديدًا على المقَصِّرينَ في شأنِه، وانتهى الكلامُ قبل هذا بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ...﴾؛ فلا جرَمَ كانت قوَّةُ الكلامِ مُؤذِنَةً بوُجوبِ تمحُّضِ المسلمينَ للغَزوِ. وإذ قد كان مِن مَقاصِدِ الإسلامِ بَثُّ علومِه وآدابِه بين الأمَّةِ، وتكوينُ جَماعاتٍ قائمةٍ بعِلمِ الدِّينِ وتَثقيفِ أذهانِ المُسلِمينَ؛ كي تصلُحَ سِياسةُ الأمَّةِ على ما قصَدَه الدِّينُ منها؛ من أجلِ ذلك عقَّبَ التَّحريضَ على الجِهادِ بما يبيِّنُ أنْ ليس من المَصلحةِ تمَحُّضُ المُسلِمينَ كُلِّهم لأن يكونوا غُزاةً أو جُندًا، وأنْ ليس حظُّ القائِمِ بواجِبِ التَّعليمِ دونَ حَظِّ الغازي في سبيلِ اللهِ؛ من حيثُ إنَّ كِليهما يقومُ بعمَلٍ لتأييدِ الدِّينِ، فهذا يؤيِّدُه بتوسُّعِ سُلطانِه، وتكثيرِ أتباعِه، والآخَرُ يؤيِّدُه بتثبيتِ ذلك السُّلطانِ، وإعدادِه لأنْ يَصْدُرَ عنه ما يضمَنُ انتظامَ أمْرِه، وطولَ دَوامِه[2].

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾.

أي: وما ينبغي للمُؤمِنينَ أن ينفِروا كلُّهم في وقتٍ واحدٍ للجهادِ في سَبيلِ اللهِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٨-٥٩).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٢/ ٤٧٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٨٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣١١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾.

أي: فهلَّا نفرَ مِن كُلِّ قَبيلةٍ أو أهلِ مَدينةٍ، جمَاعةٌ مِن المُسلِمينَ للقِتالِ، تحصُلُ بهم الكفايةُ؛ ليتأتَّى لجُملةِ المُؤمنينَ القاعدينَ تعلُّمُ دِينِ اللهِ، والتفقهُ فيه(1).

= (٤/ ٢٣٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٥).
قال أبو عُبيد القاسم بن سلام في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً...﴾: (فلولا هذه الآيةُ، لكان الجِهادُ حَتمًا واجبًا على كلِّ مُؤمِنٍ في خاصَّةِ نَفسِه ومالِه، كسائِرِ الفَرائِضِ، ولكِنَّ هذه الآيةَ جعَلَت للنَّاسِ الرُّخصةَ في قيامِ بَعضِهم بذلك عن بَعضٍ). ((الناسخ والمنسوخ)) (١/ ٢٠٦).

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٢/ ٤٧٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٩٤، ٢٩٥)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٥٢٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٦٢، ٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٥).
وممَّن اختار هذا المعنَى المذكورَ: الواحديُّ، والقرطبيُّ، وابن القيم- وعزاه للأكثرينَ- ومحمد رشيد رضا، والسعدي. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٩٥)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٨٩)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٥٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٦٣-٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٥).
وممن قال بهذا القول مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ- في روايةٍ عنه- وابنُ زيدٍ، وقتادةُ، والضحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٧٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣١١).
قال الواحدي: (قال المفسِّرون: إذا رجعتِ السَّرايا، وقد نزَل بعدَهم قرآنٌ، وتعلَّمه القاعدونَ، قالوا لهم إذا رجَعوا: إنَّ الله تعالى قد أنزلَ بعدَكم على نبيِّكم قرآنًا، وقد تعلَّمناه. فتتعلَّمُ السَّرايا ما أنزَل الله على نبيِّهم بعدَهم، فذلك قولُه: ﴿وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ أي: وليعلِّموهم بالقرآنِ ويخوِّفوهم به، ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ ولا يَعملونَ بخلافِه). ((البسيط)) (١١/ ٩٥).
قال محمد رشيد رضا: (إنَّ اعتبارَ طائفةِ السَّريَّةِ بما قدْ يحصلُ لها مِنَ النَّصرِ - وهو غيرُ مضمونٍ ولا مُطَّرِدٍ- لا يُسَمَّي تَفَقُّهًا في الدِّينِ وإنْ كان يدخلُ في عمومِ معنَى الفقهِ، فإنَّ التَّفَقُّه هو: التَّعَلُّمُ الَّذي يكونُ بالتَّكلُّفِ وَالتَّدرُّجِ والمُتبادرِ مِنَ الدِّينِ عِلْمُه، ولا يَصِحُّ هذا المعنَى في ذلك العهدِ إلَّا في الَّذينَ يقَوْنَ معَ النَّبيِّ - صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم - فيَزْدادونَ كلَّ يومٍ علمًا وفقهًا بنزولِ القرآنِ) ((تفسير المنار)) (١١/ ٦٤).
واختار ابنُ جريرٍ أنَّ المعنى: (ليتفقَّهَ الطائفةُ النافرةُ بما تُعاينُ مِن نصرِ الله أهلَ دينِه، وأصحابَ رسولِه على أهلِ عداوتِه والكفرِ به، فيفقهُ بذلك مِن معاينتِه حقيقةَ علمِ أمرِ الإسلامِ، وظهورِه =

﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

أي: ولِيُعلِّمَ القاعدون قومَهم الذين نفَروا إلى الغزوِ، إذا رجَعوا إليهم، ويُخوِّفوهم ويَعِظوهم؛ رجاءَ أنْ يحذَروا عاقبةَ عصيانِ الله، وألَّا يعملوا بخلافِ ما تعلَّموه(١).

= على الأديانِ مَن لم يكنْ فقهَه). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٨٢)، قال ابن الجوزي: (وهو أشبهُ بظاهرِ الآيةِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣١١).

وممن قال بذلك مِن السَّلف: الحسنُ البصريُّ. ينظر ((تفسير ابن جرير)) الموضع السابق.

قال سيد قطب: (الذي يستقيمُ عِندَنا في تفسيرِ الآيةِ: أنَّ المُؤمنينَ لا ينفِرونَ كافَّةً. ولكِنْ تنفِرُ مِن كُلِّ فِرقةٍ منهم طائفةٌ- على التناوُبِ بين مَن يَنفِرونَ ومَن يَبقَون- لتتفقَّهَ هذه الطائفةُ في الدِّينِ بالنَّفيرِ والخُروجِ والجِهادِ والحَركةِ بهذه العقيدةِ، وتُنذِرَ الباقينَ مِن قَومِها إذا رجَعَت إليهم، بما رأتْه وما فَقِهَتْه من هذا الدِّينِ في أثناءِ الجِهادِ والحَرَكة... فالذين يخرُجونَ للجِهادِ به هم أولى النَّاسِ بفِقهِه بما يتكشَّفُ لهم من أسرارِه ومَعانيه، وبما يتجلَّى لهم مِن آياتِه وتطبيقاتِه العَمَليَّة في أثناءِ الحَرَكة به، أمَّا الذين يقعُدونَ فهم الذين يحتاجونَ أن يتلَقَّوا ممَّن تحَرَّكوا؛ لأنَّهم لم يشاهِدوا ما شاهدَ الذين خَرَجوا ولا فَقِهوا فِقهَهم، ولا وَصَلوا من أسرارِ هذا الدِّينِ إلى ما وصَلَ إليه المتحَرِّكونَ، وبخاصَّةٍ إذا كان الخروجُ مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والخروجُ بصفةٍ عامَّةٍ أدنى إلى الفَهمِ والتفَقُّه). ((في ظلال القرآن)) (٣/ ١٧٣٤-١٧٣٥).

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٩٥)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٧٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٦٢).

قال ابن القيِّم: (وقد اختُلِفَ في الآيةِ، فقيل: المعنى أنَّ المؤمنينَ لم يكونوا لِيَنفِروا كلُّهم للتفقُّهِ والتعَلُّم، بل ينبغي أن ينفِرَ مِن كلِّ فِرقةٍ منهم طائفةٌ، تتفَقَّه تلك الطائفةُ ثم ترجِعُ تُعَلِّمُ القاعدينَ، فيكونُ النَّفيرُ على هذا نفيرَ تعَلُّم، والطائفةُ تُقال على الواحِدِ فما زاد، قالوا: فهو دليلٌ على قَبولِ خَبَرِ الواحِدِ، وعلى هذا حَمَلَها الشافعيُّ وجماعةٌ. وقالت طائفةٌ أخرى: المعنى: وما كان المُؤمِنونَ لِيَنفِروا إلى الجهادِ كُلُّهم، بل ينبغي أن تنفِرَ طائفةٌ للجهادِ، وفِرقةٌ تقعُدُ تتفَقَّه في الدِّينِ، فإذا جاءت الطَّائفةُ التي نفَرَت، فقَّهَتْها القاعدة، وعَلَّمَتْها ما أُنزِلَ من الدِّينِ والحلالِ والحرام، وعلى هذا فيكونُ قولُه: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا﴾، ﴿وَلِيُنْذِرُوا﴾ للفِرقةِ التي نفَرَت منها طائفةٌ، وهذا قولُ الأكثرينَ، وعلى هذا فالنَّفيرُ نفيرُ جِهادٍ على أصلِه؛ فإنه حيث استُعمِلَ إنَّما يُفهَم منه الجهادُ، قال الله تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ وقال النبيُّ: «لا هجرةَ بعد الفتحِ، ولكنْ جهادٌ ونيَّةٌ، وإذا استُنفِرْتُم فانفِروا»، وهذا هو المعروفُ مِن هذه اللَّفظةِ). ((مفتاح دار السعادة)) (١/ ٥٦).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

هذا إرشادٌ آخَرُ، بعدما أرشَدَ تعالى إلى التَّدبيرِ فيمن يُباشِرُ القِتالَ، أرشَدَهم إلى أنَّهم يَبدَؤونَ بالأقرَبِ فالأقرَبِ مِن الكفَّارِ، والغِلظةِ عليهم، والشِّدَّةِ في القِتالِ، والشَّجاعةِ والثَّباتِ(١).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنونَ، ابدَؤوا في الغَزوِ بقِتالِ الكُفَّارِ القَريبينَ مِن ديارِكم(٢).

﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾.

أي: ولْيَجِدِ الكُفَّارُ المُحارِبونَ لكم- أيُّها المُؤمِنونَ- شِدَّةً وخُشونةً منكم عندَ قِتالِهم(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٨٥، ٨٦)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٣٧، ٢٣٨)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٥٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٦).
قال ابن كثير: (أمَرَ اللهُ تعالى المؤمِنينَ أن يُقاتِلوا الكُفَّارَ أوَّلًا فأوَّلًا، الأقرَبَ فالأقرَبَ إلى حوزةِ الإسلامِ؛ ولهذا بدأ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بقتالِ المُشرِكينَ في جزيرةِ العَرَبِ، فلمَّا فرَغَ منهم وفتحَ الله عليه مكَّةَ والمدينةَ، والطَّائِفَ واليَمَنَ واليَمامة، وهجَر وخيبَرَ وحَضْرَموت، وغيرَ ذلك من أقاليمِ جَزيرةِ العَرَبِ، ودخل الناسُ من سائِرِ أحياء العَرَبِ في دين اللهِ أفواجًا- شرَعَ في قتالِ أهلِ الكِتابِ، فتجهَّزَ لغَزوِ الرُّومِ الذين هم أقرَبُ النَّاسِ إلى جزيرة العرب، وأولى النَّاسِ بالدَّعوةِ إلى الإسلام؛ لِكَونِهم أهلَ الكِتابِ، فبلغ تبوكَ، ثم رجَعَ لأجلِ جَهدِ النَّاسِ، وجَدْبِ البلادِ، وضِيقِ الحالِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٣٧- ٢٣٨). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٨٥-٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٨٨)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٩٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٦٣).

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣].

وقال سبحانه: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾.

أي: وأيقِنُوا- أيُّها المُؤمِنونَ- أنَّ اللهَ معكم بالنَّصرِ على أعدائِكم إن اتَّقيتُموه، بامتثالِ أوامِرِه واجتنابِ نواهيه، ومن ذلك تَقواه في جِهادِكم(١).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ فيه فضيلةُ العِلمِ، وخصوصًا الفِقهَ في الدِّينِ، وأنَّه أهَمُّ الأمورِ(٢).

٢- مَن تعَلَّمَ عِلمًا، فعليه نَشرُه وبثُّه في العبادِ، ونصيحتُهم فيه؛ يُرشِدُ إلى ذلك قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٨٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٨)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٣٩)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٥٣١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٦).

قال محمد رشيد رضا: (﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ له، في مُراعاةِ أحكامِه وسُنَنِه، بالمعونةِ والنَّصرِ، وأهمُّها ما يجِبُ اتِّقاؤُه في الحَربِ؛ من التقصيرِ في أسبابِ النَّصرِ والغَلَبِ، التي بيَّنَها في كتابِه، والتي تُعرَف بالعِلمِ والتَّجارِبِ؛ كإعدادِ ما يُستطاعُ مِن قوَّةٍ، والصَّبرِ والثَّباتِ، والطَّاعةِ والنِّظامِ، وتَرْكِ التَّنازُعِ والاختلافِ، وكثرةِ ذِكرِ الله، والتوكُّلِ عليه فيما وراء الأسبابِ). ((تفسير المنار)) (١١/ ٦٦).

وقال السعدي: (﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: ولْيكُنْ لَدَيكم علمٌ أنَّ المَعونةَ مِن اللهِ تَنزِلُ بحسَبِ التَّقوى). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٥٥).

طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[1].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ دلَّت الآيةُ على أنَّه يجبُ أن يكونَ المقصودُ مِن التفقُّهِ والتعَلُّم دَعوةَ الخَلقِ إلى الحَقِّ، وإرشادَهم إلى الدِّينِ القَويمِ والصِّراطِ المُستقيم، فكُلُّ مَن تَفَقَّه وتعَلَّم لهذا الغرَضِ، كان على المنهَجِ القَويم، والصِّراطِ المُستَقيم، ومَن عدَلَ عنه، وطلَبَ الدُّنيا بالدِّينِ، كان من الأخسَرينَ أعمالًا، الذين ضلَّ سعيُهم في الحياةِ الدُّنيا، وهم يحسَبونَ أنَّهم يُحسِنونَ صُنعًا[2].

٤- قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ الآيةُ تدُلُّ على وُجوبِ تعميمِ العِلمِ، والتفَقُّهِ في الدِّينِ، والاستعدادِ لِتَعليمِه في مواطِنِ الإقامةِ، وتفقيهِ النَّاسِ فيه على الوجهِ الذي يَصلُحُ به حالُهم، ويكونونَ به هُداةً لِغَيرِهم، وأنَّ المتخَصِّصينَ لهذا التفَقُّه بهذه النيَّة، لا يقِلُّونَ في الدَّرَجةِ عند الله عن المُجاهِدينَ بالمالِ والنَّفسِ؛ لإعلاءِ كَلِمةِ الله، والدِّفاعِ عن المِلَّةِ والأُمَّة[3].

٥- قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ المؤمِنُ الكامِلُ هو الذي يكونُ رَفيقًا لأخيه المؤمِن، غليظًا على عَدُوِّه الكافِرِ، كما قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٥٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٧٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٦٣).

رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[١] [الفتح: ٢٩].

٦- قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ فيه حَضُّ اللهِ تعالى على التَّقْوى الَّتي هي مِلاكُ الدِّين والدُّنيا، وبها يُلْقى العدوُّ، وقد قال بعضُ الصَّحابةِ: إنَّما تُقاتِلون النَّاسَ بأعمالِكم. وأهلُها هم المُجِدُّون في طرُقِ الحقِّ، فوعَد تعالى أنَّه معَ أهلِ التَّقْوى ومَن كان اللهُ معَه فلَن يُغلَبَ[٢].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ حجةٌ في أنَّ النفيرَ والنفقةَ فرضانِ على الكفايةِ[٣].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ التفقُّهَ والتَّذكيرَ مِن فُروضِ الكفايةِ، وأنَّه ينبغي أن يكونَ غرَضُ المتكَلِّمِ فيه أن يستقيمَ ويُقيمَ، لا الترفُّعَ على النَّاسِ، وصَرْفَ وجوهِهم إليه، والتبَسُّطَ في البلادِ[٤].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ هذه الآيةُ أصلٌ في وجوبِ طَلَبِ العِلمِ[٥].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ لَمَّا كان مصيرُ الفِقهِ سَجِيَّةً، لا يحصُلُ إلَّا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٧- ٩٨).

(٣) يُنظر: ((النُّكت الدالة على البيان)) للقصَّاب (١/ ٥٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٦٥٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٦١).

بمُزاولةِ ما يُبلِّغُ إلى ذلك، كانت صيغةُ التفعُّلِ المُؤذِنةُ بالتكلُّفِ مُتعَيِّنةً لأن يكونَ المرادُ بها تكلُّفَ حُصولِ الفِقهِ، أي: الفَهمِ في الدينِ، وفي هذا إيماءٌ إلى أنَّ فَهمَ الدِّينِ أمرٌ دَقيقُ المَسلَكِ لا يحصُلُ بسُهولةٍ (١).

٥- دلَّ قولُه تعالى: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ على أنَّ الفِقهَ في الدِّينِ هو فَهمُ معاني الأمرِ والنَّهيِ؛ لِيَستبصِرَ الإنسانُ في دينِه؛ حيثُ قَرَنَ اللهُ تعالى الإنذارَ بالفِقهِ؛ فدلَّ على أنَّ الفِقهَ ما وَزَعَ عن مُحَرَّمٍ، أو دعا إلى واجبٍ، وخوَّفَ النفوسَ مُواقعةَ المحظورِ، لا ما هَوَّنَ عليها استحلالَ المحارمِ بأدنى الحِيَلِ (٢).

٦- اشتملتِ الآيةُ الكريمة: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ على بيانِ حُكمِ النَّافرينَ والقاعِدينَ، وعلى بيانِ اشتِراكِهم في الجِهادِ والعِلمِ؛ فالنَّافِرونَ أهلُ الجِهاد، والقاعِدونَ أهلُ التفَقُّهِ، والدِّينُ إنَّما يتِمُّ بالجِهادِ والعِلمِ، فإذا اشتغَلَت طائفةٌ بالجِهادِ وطائفةٌ بالتفَقُّه في الدِّينِ، ثمَّ يعَلِّم أهلُ الفِقهِ المُجاهدينَ إذا رجعوا إليهم، حصَلَت المصلحةُ بالعِلمِ والجِهادِ (٣).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ إن قيل: كان الظَّاهِرُ في الآيةِ (ليتفقَّهوا في الدِّين ولِيُعَلِّموا قومَهم إذا رجعوا إليهم؛ لعلَّهم يَفقَهونَ) فلِمَ وُضِعَ مَوضِعَ (التَّعليم) الإنذارُ، وموضِعَ (يفقهون) يَحذَرونَ؟ يجاب: بأنَّ ذلك آذَنُ بالغَرَضِ منه، وهو اكتسابُ خَشيةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٦/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٨٩).

اللهِ، والحذَرُ مِن بأسِه[١].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ هذه الآيةُ حُجَّةٌ قويَّةٌ تدلُّ على أنَّ خَبَرَ الواحِدِ حُجَّةٌ، فكلُّ ثلاثةٍ فِرقةٌ، وقد أوجَبَ الله تعالى أن يخرُجَ مِن كلِّ فِرقةٍ طائفةٌ، والخارِجُ من الثَّلاثةِ يكونُ اثنين أو واحدًا، فوجب أن يكونَ الطَّائفةُ إمَّا اثنينِ وإمَّا واحدًا، ثمَّ إنه تعالى أوجَبَ العمَلَ بأخبارِهم؛ لأنَّ قَولَه: ﴿وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾ عبارةٌ عن إخبارِهم، وقَولَه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ إيجابٌ على قَومِهم أن يَعمَلوا بإخبارِهم، وذلك يقتضي أن يكونَ خَبَرُ الواحِدِ أو الاثنينِ حُجَّةً في الشَّرعِ[٢].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ الإنذارُ هو المَوعِظةُ، وإنَّما اقتصَرَ عليه؛ لأنَّه أهَمُّ، لأنَّ التَّخليةَ مُقَدَّمةٌ على التَّحليةِ، ولأنَّه ما مِن إرشادٍ إلى الخَيرِ إلَّا وهو يشتَمِلُ على إنذارٍ مِن ضِدِّه[٣].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ فيه جوازُ التَّقليدِ في الفِقهِ للعامِّيِّ[٤].

١١- قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٥٢٩-٥٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٧١-١٧٢)، ويُنظر أيضًا: ((النُّكت الدالة على البيان)) للقصَّاب (١/ ٥٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٦٢).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٥).

هذه الآيةِ دَليلٌ وإرشادٌ، وتَنبيهٌ لطيفٌ لفائدةٍ مُهِمَّةٍ، وهي: أنَّ المُسلِمينَ ينبغي لهم أن يُعِدُّوا لكلِّ مَصلحةٍ مِن مَصالِحِهم العامَّةِ مَن يقومُ بها، ويوفِّرُ وَقتَه عليها، ويجتَهِدُ فيها، ولا يلتَفِتُ إلى غيرِها؛ لِتَقومَ مَصالِحُهم، وتتِمَّ مَنافِعُهم، ولتكونَ وِجهةُ جَميعِهم ونهايةُ ما يقصِدونَ، قَصدًا واحدًا، وهو قيامُ مَصلحةِ دينِهم ودُنياهم، ولو تفرَّقَت الطُّرُق، وتعدَّدَت المشارِبُ، فالأعمالُ مُتباينةٌ، والقَصدُ واحِدٌ، وهذه مِن الحِكمةِ العامَّةِ النَّافعةِ في جميعِ الأمور[1].

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ فيه أنَّه يجِبُ الابتداءُ في القتالِ بالأقرَبِ إلى بلَدِ المُقاتِلينَ[2].

١٣- قال اللهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ إنَّ الابتداءَ بالغَزوِ مِن المواضِعِ القريبةِ أَوْلى لوجوهٍ:

الأول: أنَّ مُقابلةَ الكُلِّ دَفعةً واحدةً مُتعَذِّرةٌ، ولَمَّا تساوى الكُلُّ في وجوبِ القِتالِ، لِما فيهم من الكُفرِ والمحاربةِ، وامتنَعَ الجَمْعُ؛ وجَبَ التَّرجيحُ، والقُربُ مُرجِّحٌ ظاهِرٌ كما في الدَّعوةِ، وكما في سائِرِ المُهِمَّاتِ، ألا ترى أنَّ في الأمرِ بالمعروفِ، والنَّهيِ عنِ المُنكَرِ، الابتداء بالحاضِرِ أَوْلى مِن الذَّهابِ إلى البلادِ البَعيدةِ؛ لهذا المُهِمِّ، فوجب الابتداءُ بالأقرَبِ.

الثاني: أنَّ الابتداءَ بالأقرَبِ أَوْلى؛ لأنَّ النَّفَقاتِ فيه أقَلُّ، والحاجةَ إلى الدَّوابِّ والآلاتِ والأدواتِ أقَلُّ.

الثالث: أنَّ الفِرقةَ المُجاهِدةَ إذا تجاوَزوا مِن الأقرَبِ إلى الأبعَدِ، فقد عَرَّضوا الذراريَّ للفِتنةِ.

الرابع: أنَّ المُجاوِرينَ لدار الإسلامِ إمَّا أن يكونوا أقوياءَ أو ضُعَفاءَ؛ فإن كانوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٦).

أقوياءَ كان تعرُّضُهم لدارِ الإسلامِ أشَدَّ وأكثَرَ مِن تعَرُّضِ الكفَّارِ المُتباعِدينَ، والشَّرُّ الأقوى الأكثَرُ أَوْلى بالدَّفعِ، وإن كانوا ضُعَفاءَ كان استيلاءُ المُسلِمينَ عليهم أسهَلَ، وحصولُ عِزِّ الإسلامِ لسبَبِ انكسارِهم أقرَبَ وأيسَرَ، فكان الابتداءُ بهم أَوْلَى.

الخامس: أنَّ وُقوفَ الإنسانِ على حالِ مَن يَقرُبُ منه أسهَلُ مِن وُقوفِه على حالِ مَن يَبعُدُ منه، وإذا كان كذلك كان اقتدارُ المُسلِمينَ على مُقاتَلةِ الأقرَبينَ أسهَلَ؛ لِعِلمِهم بكيفيَّةِ أحوالِهم، وبمقاديرِ أسلِحَتِهم، وعدَدِ عَساكِرِهم.

السادس: أنَّ دارَ الإسلامِ واسِعةٌ، فإذا اشتغَلَ أهلُ كُلِّ بلَدٍ بقتالِ مَن يَقرُبُ منهم من الكُفَّارِ، كانت المُؤنةُ أسهَلَ، وحصولُ المقصودِ أيسَرَ(١).

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ تنبيهٌ على أنَّه لا يجوزُ الاقتصارُ على الغِلظةِ البتَّةَ؛ فإنه يُنفِّرُ ويوجِبُ تفَرُّقَ القَومِ، فقوله: ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ يدلُّ على تقليلِ الغِلظةِ، كأنَّه قيل: لا بدَّ أن يكونوا بحيث لو فتَّشوا على أخلاقِكم وطبائِعِكم، لوَجَدوا فيكم غِلظةً، وهذا الكلامُ إنَّما يصِحُّ فيمن أكثَرُ أحوالِه الرَّحمةُ والرَّأفةُ، ومع ذلك فلا يخلو عن نَوعِ غِلظةٍ، فالأمرُ في هذا البابِ لا يكونُ مُطَّردًا، بل قد يُحتاجُ تارةً إلى الرِّفقِ واللُّطفِ، وأخرى إلى العُنفِ(٢).

١٥- قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ مِن وراءِ صَريحِ هذا الكلامِ تَعريضٌ بالتَّهديدِ للمُنافِقينَ؛ إذ قد ظُهِرَ على كُفرِهم، وهم أشَدُّ قُربًا من المُؤمِنينَ في المدينة، وفي هذا السِّياقِ جاء قَولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٦٤).

١٦- قَولُ الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ تنكيرُ (غِلْظة) في الآيةِ يدُلُّ على أنَّ لِأُولي الأمرِ أن يحَدِّدوها في كلِّ زَمَنٍ وكلِّ حالٍ، بما يتَّفِقُ مع المَصلَحةِ(١).

١٧- قَولُ الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ في توجيهِ الخِطابِ للذينَ آمَنوا دونَ النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إيماءٌ إلى أنَّه لا يغزو بعد ذلك، وأنَّ أجَلَه الشَّريفَ قد اقترَب، ولعلَّ في قولِه تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ إيماءً إلى التَّسليةِ على فَقدِ نَبيِّهم عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وأنَّ اللهَ معهم(٢).

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ الإتيانُ بصِيغةِ لامِ الجُحودِ تأكيدٌ للنَّفيِ، وهو خبَرٌ مستعمَلٌ في النَّهيِ؛ فتأكيدُه يُفيدُ تأكيدَ النَّهيِ، أي: كونَه نهيًا جازِمًا يَقْتَضي التَّحريمَ(٣).

- ومِن مَحاسِن هذا البيانِ أنْ قابَل صيغةَ التَّحريضِ على الغَزوِ بمِثْلِها في التَّحريضِ على العِلمِ؛ إذ افتُتِحَت صيغةُ تحريضِ الغزوِ بصيغةِ الجُحودِ في قولِه: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ...﴾، وافتُتِحَت صيغةُ التَّحريضِ على العِلْمِ والتَّفقُّهِ بمِثلِ ذلك في قولِه: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٥٩).

- قولُه: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾، أي: لِيَجعَلوا غايةَ سَعيِهم، ومُعظَمَ غرَضِهم مِن الفَقاهَةِ إرشادَ القَومِ وإنذارَهم، وتخصيصُه بالذِّكْرِ؛ لأنَّه أهَمُّ(١).

٢- قولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ فيه مبالَغةٌ في الأمرِ بالشِّدَّةِ؛ لأنَّه أمرٌ لهم بأن يَجِدَ الكفَّارُ فيهم الشِّدَّةَ، وذلك الوجدانُ لا يتحقَّقُ إلَّا إذا كانت الغلظةُ بحيثُ تظهرُ، وتنالُ العدوَّ فيُحِسُّ بها(٢).

- قولُه: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ فيه وضعُ الظَّاهرِ موضِعَ الضَّميرِ؛ للتَّنصيصِ على أنَّ الإيمانَ والقتالَ على الوجهِ المذكورِ مِن بابِ التَّقوى، والشَّهادةِ بكَونِهم مِن زُمرةِ المتَّقين(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٠٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٦٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١١٢).

الآيات (١٢٤-١٢٧)

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه إذا ما أنزَلَ سُورةً مِن القُرآنِ على نبيِّه مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فمِنَ المُنافِقينَ مَن يَقولُ لِغَيرِه؛ احتقارًا لِمَا أنزَلَ اللهُ: أيُّكم زادَتْه هذه السُّورةُ إيمانًا، ويبَيِّنُ تعالى أنَّ المُؤمِنينَ زادَتْهم السُّورةُ إيمانًا إلى إيمانِهم، وهم يَستَبشِرونَ، وأمَّا الذين في قُلوبِهم شَكٌّ ونِفاقٌ، فزادَتْهم كُفرًا وشَكًّا إلى كُفرِهم وشَكِّهم، وماتوا وهم كافِرونَ.

أَوَلا يرى المُنافِقونَ أنَّهم يُختَبَرونَ في كلِّ عامٍ مرَّةً أو مرَّتينِ، ثم لا يتوبونَ، ولا هم يتَّعِظونَ؟!

ويُخبِرُ تعالى أنَّه إذا أَنزَلَ سورةً من القُرآنِ، فيها فَضْحُ أسرارِ المُنافِقينَ، نظر بعضُهم إلى بعضٍ، وقالوا: هل يَراكم أحَدٌ ينقُلُ كَلامَكم إلى محمَّدٍ، فيَطَّلِع على أسرارِنا؟! ثم انصَرَفوا عن الإيمانِ والعمَلِ بما سَمِعوا في السُّورةِ، ولم يَهتَدُوا مع إخبارِ القُرآنِ بأسرارِهم، صرَفَ اللهُ قُلوبَهم؛ بسببِ أنَّهم قومٌ لا يَفهَمونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗا﴾.

أي: وإذا أنزَلَ اللهُ سُورةً مِن القُرآنِ على نبيِّه مُحَمَّدٍ، فمِنَ المُنافِقينَ مَن يقولُ لِغَيرِه[١]؛ احتقارًا لِمَا أنزَلَ اللهُ: أيُّكم زادَتْه هذه السُّورةُ إيمانًا باللهِ وبآياتِه[٢]؟!

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾.

أي: فأمَّا المُؤمِنونَ فزادَتْهم السُّورةُ- التي أنزَلَها اللهُ- إيمانًا إلى إيمانِهم[٣] وهم فَرِحونَ بفَضْلِ اللهِ، وما أنزَلَ عليهم في القُرآنِ مِن الهُدى والرَّحمةِ، والوَعدِ بالخَيرِ في الدُّنيا والآخرةِ[٤].

---

(١) قال ابن عطية: (﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا﴾: يَحتَمِل أن يكونَ لِمُنافِقينَ مِثلِهم، ويَحتَمِل أن يكونَ لِقَومٍ مِن قراباتِهم من المُؤمِنينَ، يَستنيمونَ إليهم، ويَثِقونَ بِسَترِهم عليهم، ويَطمَعونَ في رَدِّهم إلى النِّفاقِ، ومعنى ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا﴾ الاستخفافُ والتَّحقيرُ لِشَأنِ السُّورةِ، كما تقولُ: أيُّ غَريبٍ في هذا، أو أيُّ دَليلٍ؟!). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٨).

وقال الرازي: (اعلَمْ أنَّه تعالى لَمَّا ذكَرَ مخازيَ المُنافِقينَ وذكَرَ أعمالَهم القبيحةَ، فقال: وإذا ما أُنزِلَت سورةٌ، فمِن المُنافِقينَ مَن يقول: أيُّكم زادَتْه هذه إيمانًا؟ واختلفوا فقال بعضهم: يقولُ بعضُ المُنافِقينَ لبعضٍ، ومقصودُهم تَثبيتُهم قومَهم على النِّفاقِ. وقال آخرون: بل يقولونَه لأقوامٍ مِن المُسلِمينَ، وغَرَضُهم صَرْفُهم عن الإيمانِ. وقال آخرون: بل ذَكَروه على وجهِ الهُزءِ. والكلُّ مُحتَمَلٌ، ولا يُمكِنُ حَملُه على الكُلِّ؛ لأنَّ حِكايةَ الحالِ لا تُفيدُ العُمومَ). ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٨٨)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٩٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٨)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٦).

قال الواحدي: (﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ﴾ يعني: من المُنافِقين. قاله جميعُ أهلِ التَّفسيرِ). ((البسيط)) (١١/ ٩٨).

(٣) قال ابن تيمية: (هذه «الزِّيادةُ» ليست مجرَّدَ التَّصديقِ بأنَّ الله أنزَلَها، بل زادَتْهم إيمانًا بحسَبِ مقتضاها؛ فإنْ كانت أمرًا بالجهادِ أو غيرِه، ازدادوا رغبةً، وإن كانت نَهيًا عن شيءٍ، انتَهَوا عنه، فكَرِهوه؛ ولهذا قال: ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ والاستبشارُ غَيرُ مُجَرَّدِ التَّصديقِ). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٢٢٨).

وقال السعدي: (قال تعالى مُبَيِّنًا الحالَ الواقعةَ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ بالعِلمِ بها وفَهْمِها، واعتقادِها والعمَلِ بها، والرَّغبةِ في فِعلِ الخَيرِ، والانكفافِ عن فِعلِ الشَّرِّ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٨٨، ٨٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٢٨) و(١٠/ ٦٤٨)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٢٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٧٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٦).

﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ﴾.

أي: أوَلا يرى المُنافِقونَ أنَّ اللهَ يَختَبِرُهم في بعضِ الأعوامِ مرَّةً، وفي بعض الأعوامِ مرَّتَينِ[1]؟!

﴿ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾.

= ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٩٠)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٧٨)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٩١)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٠).

اختَلف أهلُ التأويلِ في معنَى الفتنةِ التي ذكَر الله أنَّ هؤلاءِ المنافقينَ يُفتنونَ بها، فقيل: هي اختبارُ الله إيَّاهم بالقحطِ والشِّدَّةِ. وقيل: هي اختبارُهم بالغزوِ والجهادِ. وقيل: هي اختبارُهم بما يُشيع المشركون مِن الأكاذيبِ على رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم وأصحابِه. وقيل غير ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٩١)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٧٦).

قال ابنُ جريرٍ بعدَ أن ذكَر هذه الأقوالَ: (وأَولَى الأقوالِ في ذلك بالصحَّةِ أن يُقالَ: إنَّ اللهَ عجَّبَ عِبادَه المؤمِنينَ مِن هؤلاءِ المُنافِقينَ، ووبَّخ المُنافِقين في أنفُسِهم بقِلَّةِ تذَكُّرِهم، وسُوءِ تنبُّههم لِمَواعِظِ اللهِ التي يَعِظُهم بها، وجائزٌ أن تكونَ تلك المواعِظُ الشَّدائِدَ التي يُنزِلُها بهم من الجُوعِ والقَحطِ، وجائزٌ أن تكونَ ما يُريهم مِن نُصرةِ رَسولِه على أهلِ الكُفرِ به، ويَرزُقُه من إظهارِ كَلِمتِه على كَلِمتِهم، وجائزٌ أن تكونَ ما يظهَرُ للمُسلِمينَ مِن نِفاقِهم، وخُبثِ سَرائِرِهم؛ بركونِهم إلى ما يَسمعونَ مِن أراجيفِ المُشرِكينَ بِرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابِه، ولا خبَرَ يُوجِبُ صِحَّةَ بعضٍ ذلك دونَ بَعضٍ، مِن الوَجهِ الذي يجِبُ التَّسليمُ له، ولا قولَ في ذلك أولَى بالصَّوابِ مِن التَّسليمِ لِظاهِرِ قَولِ اللهِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٩٣). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣١٢).

وقال ابن عاشور: (الفتنةُ: اختلالُ نِظامِ الحالةِ المُعتادة للنَّاسِ واضطرابُ أمرِهم، مثل الأمراضِ المُنتَشرةِ، والتَّقاتُلِ، واستمرار الخَوفِ... فمعنى أنَّهم يُفتَنونَ أنَّ اللهَ يُسَلِّطُ عليهم المصائِبَ والمضارَّ، تنالُ جَماعتَهم ممَّا لا يُعتادُ تَكَرُّرُ أمثالِه في حياة الأمَمِ، بحيث يدُلُّ تكرُّرُ ذلك على أنَّه مرادٌ منه إيقاظُ اللهِ النَّاسَ إلى سوءِ سِيرَتِهم في جانبِ الله تعالى؛ بعَدَمِ اهتدائِهم إلى الإقلاعِ عمَّا هم فيه مِن العِنادِ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فإنَّهم لو رُزِقوا التَّوفيقَ لأفاقوا مِن غَفلَتِهم، فعَلِموا أنَّ ما يحُلُّ بهم كلَّ عام، ما طرأ عليهم إلَّا مِن وَقتِ تلبُّسِهم بالنِّفاقِ، ولا شَكَّ أنَّ الفِتنةَ التي أشارت إليها الآيةُ كانت خاصَّةً بأهلِ النِّفاقِ مِن أمراضٍ تحُلُّ بهم، أو متالِفَ تُصيبُ أموالَهم، أو جوائِحَ تصيبُ ثِمارَهم، أو نقصٍ مِن أنفُسِهم ومواليدِهم، فإذا حصَلَ شَيئانِ مِن ذلك في السَّنةِ كانت الفِتنةُ مرَّتينِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٦٧).

أي: ثمَّ لا يتوبونَ عن ذُنوبِهم رغمَ البلاءِ الذي يُصيبُهم اللهُ به في كلِّ عامٍ، ولا هم يتَّعِظونَ فيَرجِعونَ إلى الله[1]!!

كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦].

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ۝١٢٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ هذا نوعٌ آخَرُ مِن مخازي المُنافِقينَ، وهو أنَّه كُلَّما نزَلَت سورةٌ مُشتَمِلةٌ على ذِكرِ المُنافِقينَ، وشَرْحِ فَضائِحِهم، وسَمِعوها- تأذَّوا مِن سَماعِها، ونظَرَ بَعضُهم إلى بعضٍ نظَرًا مَخصوصًا دالًّا على الطَّعنِ في تلك السُّورةِ، والاستهزاءِ بها، وتحقيرِ شَأنِها[2].

وأيضا فإنَّ الله تعالى لَمَّا ذكَرَ ما يَحدُثُ مِن المُنافِقينَ مِن القَولِ استهزاءً؛ أتبَعَه- تأكيدًا لزيادةِ كُفرِهم، وتوضيحًا لِتَصويرِه- ما يحدُثُ مِن فِعلِهم استهزاءً مِن الإيمانِ، والتَّغامُزِ بالعُيونِ[3].

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾.

أي: وإذا أنزَلَ اللهُ سُورةً مِن القُرآنِ فيها فضحُ أسرارِ المُنافِقينَ، نظَرَ بَعضُهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٧٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٥٤).

إلى بعضٍ وقالوا خُفيةً أو بالإشارةِ المُفهِمةِ[(١)]: هل يراكم أحَدٌ إذا خلوتُم، ودبَّرتُم أُمورَكم، فينقُلُ كَلامَكم إلى محمَّدٍ، ويُطلِعُه على أسرارِنا[(٢)]؟!

﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ﴾.

أي: ثمَّ انصرَفَ المُنافِقونَ عن الاهتداء بما سَمِعوا في السُّورةِ التي أنزَلَها اللهُ على رسولِه، ولم يَهتَدوا مع إخبارِ القُرآنِ بأسرارِهم[(٣)].

وقيل: المعنى: ثم انصرَف المنافقونَ مِن عندِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم[(٤)].

﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠).

قال الواحدي: (﴿نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ فيه إضمار أي: نظر بعضُهم إلى بعضٍ وقال: هل يَراكم مِن أحَدٍ. وقال الأخفَشُ: معنى ﴿نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ قال بعضُهم لِبَعضٍ؛ لأنَّ نظَرَهم في هذا المَكانِ كان قولًا، فعلى هذا لا يَحتاجُ إلى إضمارٍ؛ لأنَّ نظَرَهم قام مقامَ قَولِهم: ﴿هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ في المفهومِ، وذلك أنَّه لَمَّا جَرَت عادتُهم بأنَّهم إذا نظَرَ بَعضُهم إلى بعضٍ أرادوا هذا المعنى، صار كأنَّهم تلفَّظوا به. وقولُه تعالى: ﴿هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ إنْ أضمَرْنا القولَ في الآيةِ كان هذا ملفوظًا به، وإن جعَلْنا النَّظَرَ بمعنى القَولِ، لم يكُنْ ملفوظًا به، وعُرِفَ ذلك بدَلالةِ الحالِ). ((البسيط)) (١١/ ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٩٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٩٩، ٣٠٠).

وممَّن اختار هذا القولَ: ابنُ عطيةَ، والقرطبي. يُنظر: المصدرَيْن السابقَيْن.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٦).

وممَّن اختار هذا المعنى: ابنُ جريرٍ، والسعدي. يُنظر: المصدران السابقان.

قال الزجاج: (أي يفْعَلون ذلك وينصرفونَ، فجائزٌ أن يكونَ ينصرفونَ عن المكانِ الذي استحقوا فيه، وجائزٌ أن يكونَ ينصرفون عن العملِ بشيءٍ مما يستمعونَ) ((معاني القرآن وإعرابه)) (٢/ ٤٧٧).

وقال النحاس: (يجوزُ أن يكونَ المعنى: ثمَّ انصرفوا مِن موضعِهم، ويجوزُ أن يكونَ المعنى: ثم انصرفوا عن الإيمانِ) ((معاني القرآن)) (٣/ ٢٦٩).

أي: صرَفَ اللهُ قُلوبَ المُنافِقين عن الانتفاعِ بتلك السُّورةِ، وصَرَفَهم عن الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ، وخَذَلَهم وأضلَّهم؛ بسبَبِ أنَّهم قومٌ لا يَفهَمونَ كِتابَ اللهِ، ويتكبَّرونَ عن سَماعِ آياتِه والعمَلِ بها(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢-٢٣].

وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المُنافِقون: ٧].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- ينبغي للمُؤمِنِ أن يتفقَّدَ إيمانَه ويتعاهَدَه، فيُجَدِّدَه وينَمِّيَه؛ ليكونَ دائمًا في صعودٍ؛ فالإيمانُ يَزيدُ ويَنقُصُ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾(٢).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ يدلُّ على أنَّ الرُّوحَ لها مَرَضٌ، فمَرَضُها الكُفرُ والأخلاقُ الذَّميمةُ، وصِحَّتُها الإيمانُ والعِلمُ والأخلاقُ الفاضِلةُ(٣).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ الآيةُ ذامَّةٌ لهم على عدَمِ التَّوبةِ بإصابةِ المصائِبِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٩٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٧٧)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٠٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٠)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤١)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٥٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٧٥).

لعَدَمِ تذَكُّرِ أنَّه سبحانه ما أصابَهم بها إلَّا بذُنوبِهم[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ هذه الآيةُ مِن أكبَرِ الدَّلائِلِ على أنَّ الإيمانَ يَزيدُ ويَنقُصُ، كما هو مذهَبُ أكثَرِ السَّلَفِ والخَلَفِ مِن أئمَّةِ العُلَماءِ، بل قد حكى الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ[٢]، فالآيةُ حجةٌ على المرجئةِ فيما ينكرونَه مِن زيادةِ الإيمان ونقصِه، وهذا نَصُّ القرآنِ ينطقُ بزيادتِه[٣].

٢- الفرَحُ باللهِ وبِرَسولِه، وبالإيمانِ وبالسنَّةِ، وبالعِلم وبالقُرآنِ: من أعلى مَقاماتِ العارِفينَ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾، وقال: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد: ٣٦] فالفرَحُ بالعِلمِ والإيمانِ والسنَّةِ، دليلٌ على تعظيمِه عند صاحِبِه، ومحَبَّتِه له، وإيثارِه له على غَيرِه، فإنَّ فرَحَ العَبدِ بالشَّيءِ عند حصولِه له: على قَدْرِ مَحَبَّتِه له، ورَغبتِه فيه. فمَن ليس له رغبةٌ في الشَّيءِ لا يُفرِحُه حُصولُه له، ولا يَحزُنُه فَواتُه؛ فالفَرَحُ تابعٌ للمحبَّةِ والرَّغبةِ[٤].

٣- دلَّ قولُه تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ على أنَّ الهُدى تخلَّفَ عنهم؛ لأنَّ المحَلَّ الذي سيتأثَّرُ به غيرُ قابلٍ له- وهو القَلبُ- فمَرَضُ قُلوبِهم كان هو المانعَ مِن الهُدى[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((النُّكت الدالة على البيان)) للقصَّاب (١/ ٥٨٣).

(٤) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ١٥٠).

(٥) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٧١).

بلاغة الآيات:

١- قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ...﴾ هذه الآيةُ زِيدَت فيها (مَا) عَقِبَ (إِذَا)؛ للتَّأكيدِ، أي: لِتأكيدِ مَعْنى (إذا) وهو الشَّرطُ؛ لأنَّ هذا الخبَرَ لِغَرابتِه كان خَليقًا بالتَّأكيدِ، ولأنَّ المنافِقين يُنكِرون صُدورَه مِنهم[1].

- قولُه: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا﴾ الاستفهامُ في قولِهم: ﴿أَيُّكُمْ﴾ قالوه إنكارًا واستهزاءً بالمؤمنين، واعتقادِهم زيادةَ الإيمانِ بزيادةِ العِلمِ الحاصِلِ بالوحيِ والعَملِ به؛ فتتَضَمنُ مَعنى إنكارِ أن يَكونَ نُزولُ سُوَرِ القرآنِ يَزيدُ سامِعيها إيمانًا؛ توَهُّمًا مِنهم بأنَّ ما لا يَزيدُهم إيمانًا لا يَزيدُ غيرَهم إيمانًا يَقيسون على أحوالِ قُلوبِهم[2].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا...﴾؛ للتَّفريعِ على حِكايةِ استِفْهامِهم بِحَملِه على ظاهِرِ حالِه، وصَرفِه عن مَقصِدِهم مِنه. وتلك طريقةُ الأسلوبِ الحكيمِ، وهو: تلَقِّي المخاطَبِ بغَيرِ ما يترَقَّبُ؛ بحَمْلِ كلامِه على خِلافِ مُرادِه لِنُكتةٍ، وهي هنا إبطالُ ما قصَدوه مِن نَفيِ أن تَكونَ السُّورةُ تَزيدُ أحَدًا إيمانًا قياسًا على أحوالِ قُلوبِهم؛ فأُجيبَ استِفْهامُهم بهَذا التَّفصيلِ المتفرِّعِ عليه، فأثبَت أنَّ للسُّورةِ زيادةً في إيمانِ بعضِ النَّاسِ، وأكثرَ مِن الزِّيادةِ، وهو حُصولُ البِشْرِ لهم، وارتُقِيَ في الجوابِ عن مَقصِدِهم مِن الإنكارِ بأنَّ السُّورةَ ليسَت منفيًّا عنها زيادةٌ في إيمانِ بعضِ النَّاسِ فقط، بل الأمرُ أشدُّ؛ إذ هي زائدةٌ في كُفرِهم، فالقِسمُ الأوَّلُ المؤمِنون: زادَتْهم إيمانًا، وأكسَبَتْهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٦٥).

بُشْرى، فحَصَل مِن السُّورةِ لهم نَفْعانِ عَظيمانِ، والقِسْمُ الثَّاني الَّذين في قُلوبِهم مَرَضٌ: زادَتْهم رِجْسًا إلى رِجْسِهم، وماتوا وهم كافِرون[1].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ في جانبِ المنافِقين، قُوبِلَ به قولُه: ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ في جانبِ المؤمِنين؛ تَحسينًا بالازدِواجِ، بحيثُ كانَت للسُّورةِ فائِدَتانِ للمُؤمِنين، ومُصيبَتان على المنافِقين؛ فجعَل موتَهم على الكُفرِ- المتسبِّبَ على زيادةِ السُّورةِ في كُفرِهم- بمَنزلةِ مصيبةٍ أخرى غيرِ الأولى، وإن كانَت في الحقيقةِ زيادةً في المصيبةِ الأولى[2].

٣- قولُه تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ...﴾ فيه تَقديمُ همزةِ الاستِفْهامِ على حرْفِ العطفِ؛ على طريقةِ تَصْديرِ أدَواتِ الاستِفْهامِ، والتَّصديرُ للتَّنبيهِ على أنَّ الجملةَ في غرَضِ الاستِفْهامِ، والاستفهامُ هنا إنكارٌ وتعجُّبٌ؛ لعدَمِ رُؤيتِهم فِتنَتَهم، فلا تَعقُبُها توبتُهم، ولا تُذكِّرُهم أمرَ ربِّهم، والغرَضُ مِن هذا الإنكارِ هو الاستدلالُ على ازدِياد كُفرِ المنافِقين، وتَمكُّنِه كلَّما نزَلَت سُورةٌ مِن القرآنِ بإيرادِ دليلٍ واضحٍ يَنزِلُ مَنزِلةَ المحسوسِ المرئيِّ؛ حتَّى يتوجَّهَ الإنكارُ على مَن لا يَراه[3].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٦٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٦٧).

أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾

- قولُه: ﴿هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ بيانٌ لجملةِ: ﴿نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾؛ لأنَّ النَّظرَ تَفاهَموا به فيما هو سرٌّ بينَهم؛ فلمَّا كان النَّظرُ نظرَ تَفاهُمٍ صحَّ بيانُ جُملتِه بما يدُلُّ على الاستِفْهامِ التَّعجُّبيِّ، ففي هذا النَّظْمِ إيجازُ حذفٍ بديعٌ دلَّت عليه القرينةُ، والتَّقديرُ: وإذا ما أُنزِلَت سورةٌ فيها فَضيحةُ أمْرِهم، نظَر بعضُهم إلى بعضٍ بخائنَةِ الأعيُنِ، مُستَفهِمين مُتعجِّبين مِن اطِّلاعِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم على أسرارِهم، أي: هل يَراكم مِن أحدٍ إذا خلَوتُم، ودبَّرتُم أمورَكم؛ لأنَّهم بكُفرِهم لا يَعتقِدون أنَّ اللهَ أَطْلَعَ نبيَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ على دَخيلةِ أمرِهم(١).

- قولُه: ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ مُستأنَفٌ استِئنافًا بيانيًّا(٢)، وصيغتُه خبرٌ، غرَضُه الدُّعاءُ عليهم بِصَرفِ قُلوبِهم عمَّا في قلوبِ أهلِ الإيمانِ(٣).

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ حُسْنُ ترتيبٍ، حيث ذكَر أوَّلًا ما يَحدُثُ عنهم مِن القولِ على سَبيلِ الاستِهْزاءِ، ثمَّ ذكَر ثانيًا ما يَصدُرُ مِنهم مِن الفعلِ على سَبيلِ الاستِهزاءِ وهو الإيماءُ والتَّغامُزُ بالعُيونِ إنكارًا للوحيِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٣١).

الآيتان (١٢٨-١٢٩)

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿عَزِيزٌ﴾: أي: شديدٌ أو صَعْبٌ، وأصلُ (عز): يدلُّ على شِدَّةٍ وقُوَّةٍ[(١)].

﴿ما عَنِتُّمْ﴾: أي: ما شَقَّ عليكم وآذاكم، والعَنَتُ: لِقاءُ الشِّدَّةِ؛ من قولهم: عَنِتَ فُلانٌ: إذا وقَعَ في أمرٍ يُخافُ منه التَّلَفُ، وأصلُ (عنت): يدلُّ على مشقَّةٍ[(٢)].

﴿تَوَلَّوْا﴾: أي: أعرَضوا؛ فالتولي إذا وُصِلَ بـ (عن) لفظًا، أو تقديرًا- كما هنا- اقتضَى معنَى الإعراضِ، وتَركِ القُربِ[(٣)].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى مُخاطِبًا العَرَبَ: قد جاءَكم رسولٌ- هو محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- مِنكم، يَشُقُّ عليه ما يشُقُّ عليكم ويُؤذِيكم، حريصٌ على هِدايتِكم، وإيصالِ الخَيرِ لكم، بالمُؤمِنينَ رؤوفٌ رَحيمٌ.

ثمَّ وجَّه الخِطابَ إلى رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قائلًا له: فإنْ أعرَضوا عن الإيمانِ بك وطاعَتِك، فقُلْ: يَكفيني اللهُ ما أهمَّني، لا معبودَ بحَقٍّ إلَّا هو،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٧٢٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٧١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٩).

(٣) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٨).

عليه وَحْدَه اعتَمَدْتُ، وفوَّضتُ جميعَ أموري، وهو رَبُّ العرشِ العَظيمِ.

تَفسيرُ الآيتَين:

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ (١٢٩)﴾.

مُناسَبةُ خَتمِ سُورةِ التَّوبةِ بهاتَينِ الآيتَينِ:

لَمَّا أمَرَ تعالى رسولَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أن يبَلِّغَ في هذه السُّورةِ إلى الخَلقِ تكاليفَ شاقَّةً شديدةً صَعبةً، يَعسُرُ تَحمُّلُها إلَّا لِمَن خَصَّه الله تعالى بوجوهِ التَّوفيقِ والكرامة- ختَمَ السُّورةَ بما يُوجِبُ سُهولةَ تحَمُّلِ تلك التكاليفِ، وهو أنَّ هذا الرَّسولَ منكم؛ فكُلُّ ما يحصُلُ له من العِزِّ والشَّرَفِ في الدُّنيا، فهو عائدٌ إليكم، وأيضًا فإنَّه بحالٍ يَشُقُّ عليه ضَرَرُكم، وتَعظُمُ رَغبتُه في إيصالِ خَيرِ الدُّنيا والآخرةِ إليكم؛ فهو كالطَّبيبِ المُشفِقِ، والأبِ الرَّحيمِ في حَقِّكم، والطبيبُ المُشفِقُ ربَّما أقدَمَ على عِلاجاتٍ صَعبةٍ يَعسُرُ تَحمُّلُها، والأبُ الرَّحيمُ ربَّما أقدَمَ على تأديباتٍ شاقَّةٍ، إلَّا أنَّه لَمَّا عُرِفَ أنَّ الطَّبيبَ حاذِقٌ، وأنَّ الأبَ مُشفِقٌ؛ صارت تلك المُعالجاتُ المُؤلِمةُ مُتحَمَّلةً، وصارت تلك التَّأديباتُ جاريةً مَجرى الإحسانِ، فكذا هاهنا؛ لَمَّا عَرَفتُم أنَّه رسولٌ حَقٌّ مِن عندِ الله، فاقبَلوا منه هذه التَّكاليفَ الشَّاقَّةَ؛ لتفوزوا بكلِّ خَيرٍ، ثمَّ قال للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: فإنْ لم يَقبَلوها بل أعرَضوا عنها وتوَلَّوا، فاترُكْهم ولا تلتَفِتْ إليهم، وعَوِّلْ على اللهِ، وارجِعْ في جميعِ أمورِك إلى الله، فجاءت هذه الخاتمة في غايةِ الحُسنِ ونِهايةِ الكَمالِ[1].

وأيضًا ففيهما تذكيرُهم بالمِنَّةِ ببَعثةِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والتَّنويهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٧٧).

بصِفاتِه الجامعةِ للكَمالِ، ومِن أخَصِّها حِرصُه على هداهم، ورَغبتُه في إيمانِهم، ودُخولِهم في جامعةِ الإسلامِ؛ ليكونَ رَؤوفًا رحيمًا بهم، ليعلَموا أنَّ ما لَقِيَه المُعرِضونَ عن الإسلامِ مِن الإغلاظِ عليهم بالقَولِ والفِعلِ، ما هو إلَّا استصلاحٌ لحالِهم، وهذا مِن مَظاهِرِ الرَّحمةِ التي جعَلَها اللهُ تعالى مُقارِنةً لِبَعثةِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بِقَولِه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ بحيث جاء في هاتينِ الآيتَينِ بما شأنُه أن يُزيلَ الحَرَجَ من قلوبِ الفِرَقِ التي نزَلَت فيهم آياتُ الشِّدَّةِ، وعُومِلوا بالغِلظةِ؛ تَعقيبًا للشِّدَّةِ بالرِّفقِ، ولِلْغِلظةِ بالرَّحمةِ، وكذلك عادةُ القرآن. فقد انفتَحَ بهاتينِ الآيتَينِ بابُ حَظيرةِ الإيمانِ والتَّوبةِ؛ لِيَدخُلَها مَن وفَّقَه اللهُ إليها[1].

فائدة:

عن زيدِ بنِ ثابتٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((أرسلَ إليَّ أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: إنَّك كنتَ تكتُبُ الوحيَ لِرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فاتَّبِعِ القُرآنَ، فتتَبَّعتُ حتى وجدْتُ آخِرَ سورةِ التَّوبةِ آيتَينِ مع أبي خُزَيمةَ الأنصاريِّ، لم أجِدْهما مع أحَدٍ غَيرِه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾))[2].

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٧٠).

(٢) رواه البخاري (٤٩٨٩).

قال محمد رشيد رضا: (المرادُ أنَّه لم يَجِدْهما مَكتوبَتَينِ عندما جمَعَ المكتوبَ في الرِّقاعِ والأكتافِ والعُسُبِ في هذه السُّورةِ، إلَّا عند خُزيمةَ، وفي روايةٍ في البخاري وغيره: عند أبي خزيمةَ، وهي أرجَحُ). ((تفسير المنار)) (١١/ ٧٤). ويُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٩/ ١٥).

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾.

أي: لقد أرسَلَ اللهُ إليكم- أيُّها العرَبُ- مُحمَّدًا رَسولَ اللهِ، عربيًّا منكم، تَعرِفونَ لُغَتَه ونَسَبَه فيكم، وحالَه ونُصحَه لكم(١).

كما قال تعالى حاكيًا دُعاءَ نَبيِّه إبراهيمَ: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

وعن واثِلةَ بنِ الأسقَعِ رَضِيَ الله عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّ اللهَ اصطَفَى كِنانةَ مِن ولَدِ إسماعيلَ، واصطفى قُرَيشًا مِن كِنانةَ، واصطفى مِن قُرَيشٍ بَني هاشِمٍ، واصطفاني مِن بني هاشِمٍ))(٢).

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾.

أي: يَشُقُّ على رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم دخولُ المشقَّةِ عليكم، ولحوقُ الضررِ والأذى بكم(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٩٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٠)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٨/ ٤٧٠)، ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٥٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٦).
قال ابنُ عطية: (قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ مُخاطَبةٌ للعَرَبِ، في قولِ الجُمهورِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٠). ويُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٧١).

(٢) رواه مسلم (٢٢٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٩٦)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٠٦)، ((تفسير الرازي)) =

عن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ الله عنهما، ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تلا قَولَ اللهِ عزَّ وجَلَّ في إبراهيمَ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، وقال عيسى عليه السَّلامُ: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، فرفَعَ يَدَيه وقال: اللهُمَّ أُمَّتي أُمَّتي، وبكى، فقال اللهُ عزَّ وجَلَّ: يا جِبريلُ اذهَبْ إلى محمَّدٍ- وربُّك أعلَمُ- فسَلْه: ما يُبكيك؟! فأتاه جبريلُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فسأله، فأخبَرَه رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بما قال- وهو أعلمُ- فقال الله: يا جِبريلُ، اذهَبْ إلى محمَّدٍ، فقل: إنَّا سنُرضيك في أمَّتِك، ولا نَسوءُك))(١).

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ الدِّينَ يُسرٌ، ولن يُشادَّ الدِّينَ أحَدٌ إلَّا غلَبَه، فسَدِّدوا وقارِبوا، وأبشِروا، واستَعِينوا بالغُدوةِ والرَّوحةِ(٢)، وشَيءٍ مِن الدُّلْجةِ(٣)))(٤).

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾.

أي: حريصٌ على هِدايتِكم، وإيصالِ الخَيرِ لكم في دُنياكم وآخِرَتِكم(٥).

عن أبي ذَرٍّ رَضِيَ الله عنه، قال: ((تَركَنا رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وما

= (١٦/ ١٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٦).

(١) رواه مسلم (٢٠٢).

(٢) الغُدْوَة: أولُ النَّهارِ، والرَّوْحَة: آخِرُه. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمُظْهِري (٢/ ٢٨٠).

(٣) الدُّلْجَة: أي: السَّيرُ في آخِرِ اللَّيلِ. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمُظْهِري (٢/ ٢٨٠)

(٤) رواه البخاري (٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٩٦)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٠٦، ١٠٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٠)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٧١، ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٦).

طائرٌ يقَلِّبُ جناحَيه في الهواءِ، إلَّا وهو يُذكِّرُنا منه عِلْمًا، قال: فقال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ما بَقِيَ شيءٌ يُقَرِّبُ منَ الجنَّةِ، ويُباعِدُ مِن النَّارِ، إلَّا وقد بُيِّنَ لكم))[١].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّما مَثَلي ومَثَلُ أمَّتي، كمَثَلِ رَجُلٍ استوقَدَ نارًا، فجعَلَتِ الدَّوابُّ والفَراشُ يَقَعْنَ فيه، فأنا آخِذٌ بحُجَزِكم[٢] وأنتم تَقَحَّمونَ[٣] فيه))[٤].

وعن العِرباضِ بنِ سارِيةَ رَضِيَ الله عنه، قال: ((وعَظَنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مَوعِظةً ذرَفَت منها العُيونُ، ووَجِلَت منها القُلوبُ، فقُلنا: يا رسولَ اللهِ، إنَّ هذه لَمَوعِظةُ مُوَدِّعٍ، فماذا تعهَدُ إلينا؟ قال: قد ترَكْتُكم على البَيضاءِ ليلُها كنهارِها، لا يَزيغُ عنها بعدي إلَّا هالِكٌ))[٥].

﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: هو شَديدُ الرقَّةِ والرِّفقِ والشَّفَقةِ بالمؤمنينَ، شديدُ الرَّحمةِ بهم[٦].

---

(١) أخرجه الطبراني (٢/ ١٥٥) (١٦٤٧)، وأخرج ابن حبان (٦٥) أولَه فقط بنحوه.
قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٨/ ٢٦٦): رجاله رجالُ الصَّحيحِ، غيرَ محمَّدِ بن عبد الله بن يزيد المُقرئ، وهو ثقة، وصحح إسناده ووثق رجالَه الألباني في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (١٨٠٣).

(٢) الحُجَزُ: جمعُ حُجزةٍ، وهي مَعقِدُ الإزارِ والسَّراويل. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ٥٠).

(٣) تَقَحَّمونَ: أي: تَرمونَ أنفُسَكم في النَّارِ بِفِعلِ المعاصي. يُنظر: ((شرح المصابيح)) لابن الملك (١/ ١٥٥).

(٤) رواه البخاري (٦٤٨٣)، ومسلم (٢٢٨٤) واللفظ له.

(٥) أخرجه ابن ماجه (٤٣)، وأحمد (١٧١٨٢).
حسَّن إسنادَه المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (١/ ٦٨)، وقال الشوكاني في ((الفتح الرباني)) (٥/ ٢٢٢٩): ثابتٌ، ورجالُه رجالُ الصحيحِ، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٤٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٩٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١١٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٧٣).

كما قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال سُبحانه: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

وعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((كنَّا نُبايعُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على السَّمعِ والطَّاعةِ، يقول لنا: فيما استطعْتَ))(١).

وعن عبدِ اللهِ بنِ أبي أوفى رضي الله عنه، قال: ((كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يأنَفُ أو لا يستكبِرُ أن يمشِيَ مع الأرملةِ والمِسكينِ، فيقضِيَ له حاجَتَه))(٢).

وعن أنسٍ رَضِيَ الله عنه، ((أنَّ أعرابيًّا بال في المسجِدِ، فقام إليه بعضُ القَومِ، فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: دَعُوه ولا تُزرِمُوه قال: فلمَّا فرغَ دعا بدَلوٍ مِن ماءٍ، فصَبَّه عليه))(٣).

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ١٢٩﴾.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

---

(١) رواه مسلم (١٨٦٧).

وأخرج البخاري (٧٢٠٤)، ومسلم (٥٦) قريبًا منه من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في ((العلل الكبير)) (٦٧٠) واللفظ له، والنسائي (١٤١٤)، والدارمي (٧٤)، وابن حبان (٦٤٢٤).

حسَّنه البخاري كما في ((العلل الكبير)) للترمذي (٣٦٠)، وصحح إسناده العراقي في ((تخريج الإحياء)) (٢/ ٢٤٣)، وابن باز في ((حاشية بلوغ المرام)) (٣٠٣)، وصححه الألباني في ((صحيح سنن النسائي)) (١٤١٤).

(٣) رواه البخاري (٦٠٢٥)، ومسلم (٢٨٤)، واللفظ له.

أي: فإنْ أعرَضَ الكفَّارُ والمُشرِكونَ عن الإيمانِ بك وطاعَتِك- يا مُحمَّدُ- فقل: يكفيني اللهُ جميعَ ما أهمَّني، وهو ناصري على عدُوِّي، لا معبودَ بحقٍّ إلَّا هو، وَحْدَه لا شريكَ له(١).

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

أي: على اللهِ وَحْدَه اعتمَدْتُ، وإليه استنَدْتُ، وفوَّضتُ جميعَ أموري، واللهُ هو مالِكُ العَرشِ العظيمِ وخالقُه، ومالكُ وخالقُ جميعِ ما دونَه مِن المخلوقاتِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، ((أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يقولُ عند الكَربِ: لا إلهَ إلَّا اللهُ العظيمُ الحليمُ، لا إلهَ إلَّا اللهُ ربُّ العَرشِ العظيمِ، لا إلهَ إلَّا اللهُ ربُّ السَّمواتِ وربُّ الأرضِ، وربُّ العَرشِ الكريمِ))(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٠٠)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٣/ ٢٧١)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٠٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٠)، ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٣)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٥٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٠٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٧٣).

قال ابنُ جرير: (وإنَّما عَنَى بوصْفِه جلَّ ثناؤُه نفسَه بأنَّه رَبُّ العرشِ العظيمِ، الخبرَ عَن جميعِ ما دُونَه أنَّهم عبيدُه وفي مُلْكِه وسلطانِه؛ لأنَّ العرشَ العظيمَ إنَّما يكونُ للملوكِ، فوصَفَ نَفْسَه بأنَّه ذو العرشِ دُونَ سائرِ خَلْقِه، وأنَّه الملكُ العظيمُ دُونَ غيره، وأنَّ مَن دونَه في سلطانِه ومُلْكِه، جارٍ عليه حكمُه وقضاؤُه). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٠٠).

قال السعدي: (﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ الذي هو أعظمُ المخلوقاتِ، وإذا كان ربَّ العرشِ العظيمِ، الذي وسِع المخلوقاتِ، كان ربًّا لما دونَه مِن بابِ أولَى وأحرَى). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٧).

(٣) أخرجه البخاري (٦٣٤٦)، ومسلم (٢٧٣٠).

وعن أبي الدَّرداءِ رَضِيَ الله عنه، قال: ((من قال إذا أصبحَ وإذا أمسى حسبيَ اللهُ لا إلهَ إلَّا هو، عليه توكلتُ وهو ربُّ العَرشِ العظيمِ- سبعَ مرَّاتٍ- كفاه اللهُ ما أهمَّه))[1].

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ فيه أنَّ إلى اللهِ تعالَى تنتهي القوةُ والملكُ والعظمةُ والجاهُ، وهو حسبُ مَن لاذَ به، وحسبُ مَن والاه، فختامُ سورةِ القتالِ والجهادِ أن الارتكانَ إلى اللهِ وَحْدَه، والاعتمادَ على اللهِ وَحْدَه، واستمدادَ القوَّةِ من اللهِ وَحْدَه[2].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ يُفيدُ التَّنويهَ بهذه الكَلِمة المُباركَة؛ لأنَّه أمَرَ بأن يقولَ هذه الكَلِمةَ بعَينِها، ولم يُؤمَر بمجَرَّدِ التوكُّلِ، ولا أُخبِرَ بأنَّ اللهَ حَسْبُه مجَرَّدَ إخبارٍ، كما في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾[3] [الأنفال: ٦٢].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ فيه إيماءٌ إلى اقترابِ أجَلِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّ التَّذكيرَ بِقَولِه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ يؤذِنُ بأنَّ هذا المجيءَ-

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٨١)، وابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (٣٦/ ١٥٠).
قال الشوكاني في ((تحفة الذاكرين)) (١٢٠): مدركُ بنُ سعدٍ لا بأسَ به، وقال ابن باز في ((مجموع الفتاوى)) (٩/٢٩٤): موقوفٌ إسنادُه جيدٌ، وقال الألباني في ((سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة)) (١١ / ٤٥٠): إسنادُ الموقوفِ رجالُه ثقاتٌ.

(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٧٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٧٤).

الذي مضى عليه زمَنٌ طَويلٌ- يُوشِكُ أن ينقضِيَ، لأنَّ لكُلِّ واردٍ قُفولًا، ولكلِّ طالعٍ أُفولًا[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ كَونُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن أنفُسِهم، هي صِفةٌ مُؤَثِّرةٌ في التبليغِ والفَهمِ عنه والتأنُّسِ به، والخِطابُ للعَرَبِ، ففي هذه الصِّفةِ التَّنبيهُ على شَرَفِهم، والتَّحريضُ على اتِّباعِه[٢]. وذلك على أحدِ الوجهينِ في تأويلِ الآيةِ.

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَاعَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ لم يقُل: (جاءَكم رسولٌ منكم)؛ لأنَّ الأُولى أشَدُّ حَساسيةً، وأعمَقُ صِلَةً، وأدَلُّ على نوعِ الوَشيجةِ التي تربطُهم به، فهو بَضعةٌ مِن أنفُسِهم، تتَّصِلُ بهم صِلةَ النَّفسِ بالنَّفسِ، وهي أعمَقُ وأحسُّ[٣].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ يُومِئُ إلى أنَّ شَرْعَ اللهِ تعالى جاء مناسِبًا لخَلْقِه، فانتفى عنه الحرَجُ والعُسر[٤].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَاعَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ في هاتين الآيتَينِ إشعارٌ بالإيداعِ والإعذارِ للنَّاسِ، وتنبيهٌ إلى المبادرةِ باغتنامِ وجودِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٣٢).

(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٧٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٧٢).

بين أظهُرِهم؛ ليتشَرَّفوا بالإيمانِ به وهم يشاهِدونَه، ويقتَبِسونَ مِن أنوارِ هَدْيِه؛ لأنَّ الاهتداءَ بمُشاهَدتِه والتلقِّي منه، أرجى لحصولِ كَمالِ الإيمانِ، والانتفاعِ بقَليلٍ مِن الزَّمانِ؛ لتحصيل وافِرِ الخَيرِ الذي لا يحصُلُ مِثلُه في أضعافِ ذلك الزَّمانِ(١).

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ...﴾ فيه الافتِتاحُ بحَرفَيِ التَّأكيدِ، وهُما اللَّامُ و(قد)، معَ كَوْنِ مَضمونِها ممَّا لا يتَطرَّقُ إليه الإنكارُ؛ لِقَصدِ الاهتِمامِ بهذه الجُملةِ لأهمِّيَّةِ الغرَضِ الَّذي سِيقَتْ لأجلِه، ولأنَّ فيما تضمَّنَته ما يُنكِرُه المنافِقون وهو كونُه رسولًا مِن اللهِ، ولأنَّ في هذا التَّأكيدِ ما يَجعَلُ المخاطَبين به مُنَزَّلِينَ مَنزِلَةَ المنكِرين لِمَجيئِه؛ مِن حيثُ إنَّهم لم يَنفَعوا أنفُسَهم بهذا المَجيءِ، وفيه أيضًا تعريضٌ بتَحريضِهم على اتِّباعِه، وتَرْكِ مُناوَأتِه، وأنَّ الأجدَرَ بهِم الافتخارُ به، والالتفافُ حولَه(٢).

- وفي العُدولِ عن الإتيانِ بلفظِ (العَنَتِ)- الَّذي هو المصدَرُ الصَّريحُ- إلى الإتيانِ بالفعلِ مع (ما) المصدريَّةِ السَّابِكةِ للمَصدَرِ: ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾: نُكتةٌ، وهي إفادةُ أنَّه قد عَزَّ عليه عنَتُهم الحاصِلُ في الزَّمنِ الذي مضَى، وذلك بما لَقُوه مِن قتلِ قومِهم، ومِن الأَسْرِ في الغزَواتِ، ومِن قَوارِعِ الوَعيدِ والتَّهديدِ في القرآنِ، فلو أُتِي بالمصدرِ لم يَكُنْ مُشيرًا إلى عنَتٍ معيَّنٍ ولا إلى عنَتٍ وقَع؛ فالمصدَرُ لا زمانَ له، ولكنَّ مَجيءَ المصدَرِ مُنسبِكًا مِن الفعلِ الماضي يَجعَلُه مَصدرًا مُقيَّدًا بالحُصولِ في الماضي؛ لِتكونَ هذه الآيةُ تنبيهًا على أنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٧٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٧١).

ما لَقُوه مِن الشِّدَّةِ إنَّما هو لاستِصْلاحِ حالِهم؛ لعَلَّهم يَخفِضُون بعدَها مِن غُلَوائِهم، ويَرْعَوُون عن غيِّهم، ويَشعُرون بصَلاحِ أمرِهم(١).

- وفي قَوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ وصفُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بستَّةِ أوصافٍ، ولَمَّا كانت الرسالةُ أشرَفَها بُدِئَ بذِكْرِها(٢).

- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ فيه سؤالٌ: أنَّه لَمَّا قال: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ فهذا النَّسَقُ يُوجِبُ أن يقال: (رؤوفٌ رحيمٌ بالمُؤمنين)، فلِمَ تُرِكَ هذا النَّسَقُ، وقال: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾؟

والجوابُ: أنَّ قَولَه: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ يفيدُ الحَصرَ، بمعنى أنَّه لا رأفةَ ولا رحمةَ له إلَّا بالمُؤمنينَ، فأمَّا الكافِرونَ فليس له عليهم رأفةٌ ورَحمةٌ، وهذا كالمتَمِّمِ لِقَدْرِ ما وردَ في هذه السُّورةِ مِن التَّغليظِ، كأنَّه يقولُ: إنِّي وإن بالغتُ في هذه السُّورةِ في التَّغليظِ، إلَّا أنَّ ذلك التَّغليظَ على الكافرينَ والمُنافِقينَ، وأمَّا رحمتي ورأفَتي فمخصوصةٌ بالمُؤمنينَ فقط(٣).

- وفي قول الله تعالى: ﴿رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ قدَّمَ الأبلغَ منهما، وهي الرَّأفةُ التي هي عبارةٌ عن شِدَّةِ الرَّحمةِ؛ مُحافظةً على الفواصِلِ(٤)، كما أنَّ تقديمَ الرؤوفِ على الرَّحيم هو الواجِبُ، كأنَّه قال: رؤوفٌ بضُعفاءِ المُؤمنينَ، وأُولي القُربى منهم، ورحيمٌ بهم كلِّهم(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٧٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٣٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٦/ ١٧٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١١٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٧٢).

٢- قولُه تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾

- الفاءُ في قولِه: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ للتَّفريعِ على إرسالِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم صاحِبِ هذه الصِّفاتِ إليهم؛ فإنَّ صِفاتِه المذكورةَ تَقتَضي مِن كلِّ ذي عقلٍ سليمٍ مِن العربِ الإيمانَ به، واتِّباعَه؛ لأنَّه مِن أنفُسِهم، ومُحِبٌّ لخَيرِهم، رؤوفٌ رحيمٌ بمَن يتَّبِعُه مِنهم، فتَفرَّع عليه أنَّهم مَحْقوقون بالإيمانِ به؛ فإن آمَنوا فذاك، وإن لم يُؤمِنوا فإنَّ اللهَ حَسيبُه وكافيه(١).

- وبعدَ التَّفريعِ الْتفَت الكلامُ مِن خطابِ العرَبِ إلى خِطابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم بما كان مُقتَضى الظَّاهِرِ أن يُخاطَبوا هم به؛ اعتِمادًا على قَرينةِ حرفِ التَّفريعِ؛ فقيل له: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾، والتَّقديرُ: فإن تولَّيتُم عنه فحَسبُه اللهُ، وقُل: حَسْبي اللهُ؛ فجِيءَ بهذا النَّظْمِ البديعِ الإيجازِ معَ ما فيه مِن بَراعةِ الإيماءِ إلى عدَمِ تأهُّلِهم لخِطابِ اللهِ على تَقْديرِ حالةِ تولِّيهم(٢).

- وقولُه: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ استئنافٌ مُقرِّرٌ لِمَضمونِ ما قبلَه(٣).

- قولُه: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ﴾ فيه تخصيصُ العَرْشِ بالذِّكرِ؛ لأنَّه أعظمُ المخلوقاتِ(٤).

تمَّ بحمدِ الله المجلدُ الثامنُ

ويليه المجلدُ التاسعُ، وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ يونسَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٧٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١١٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٥٣٤).

الفهرس

الفهرس

سورةُ التَّوبةِ ٧
أسماءُ السُّورةِ........................ ٧
فَضلُ السُّورةِ وخَصائِصُها ٨
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ٨
مَقاصِدُ السُّورةِ.................... ٩
مَوضوعاتُ السُّورةِ ٩
الآيتان (١ - ٢) ١٢
غَريبُ الكَلِماتِ.................... ١٢
المعنى الإجماليُّ.................... ١٢
تَفسيرُ الآيتَينِ........................ ١٢
الفوائِدُ التَّربويَّةُ..................... ١٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٤
بلاغةُ الآيَتَينِ ١٦
الآيتان (٣ - ٤) ١٨
غَريبُ الكَلِماتِ..................... ١٨
مُشكِلُ الإعرابِ ١٨
المعنى الإجماليُّ..................... ١٩
تَفسيرُ الآيتَينِ........................ ١٩
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ..................... ٢٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٣
بلاغةُ الآيتينِ.......................... ٢٥
الآيتانِ (٥ - ٦) ٢٧
غريبُ الكلِماتِ...................... ٢٧
المَعنى الإجماليُّ...................... ٢٨
تَفسيرُ الآيتَينِ......................... ٢٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٤
بلاغةُ الآيتينِ ٣٨
الآيتان (٧ - ٨) ٤١
غَريبُ الكَلِماتِ..................... ٤١
المعنى الإجماليُّ...................... ٤١
تَفسيرُ الآيتينِ......................... ٤٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ..................... ٤٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٧
بلاغَةُ الآيتينِ ٤٨
الآيات (٩ - ١٢) ٥١
غَريبُ الكَلِماتِ..................... ٥١
المعنى الإجماليُّ...................... ٥١
تَفسيرُ الآياتِ ٥٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ..................... ٥٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٥٩
بلاغَةُ الآياتِ........................ ٦٢
الآيات (١٣-١٦)..................... ٦٦
غَريبُ الكَلِماتِ..................... ٦٦
مُشكِلُ الإعرابِ ٦٦
المَعنى الإجماليُّ...................... ٦٧
تَفسيرُ الآياتِ ٦٨

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ.................. ٧٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٧٧
بلاغةُ الآياتِ.................. ٧٩
الآيات (١٧-١٩).................. ٨٣
غَريبُ الكَلِماتِ.................. ٨٣
المعنى الإجماليُّ.................. ٨٣
تَفسيرُ الآياتِ ٨٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ.................. ٩٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٩٤
بلاغةُ الآياتِ.................. ٩٦
الآيات (٢٠-٢٢).................. ١٠٢
غَريبُ الكَلِماتِ.................. ١٠٢
المعنى الإجماليُّ.................. ١٠٢
تَفسيرُ الآياتِ ١٠٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٠٧
بلاغةُ الآياتِ.................. ١٠٩
الآيتان (٢٣-٢٤).................. ١١٢
غَريبُ الكَلِماتِ.................. ١١٢
المَعنى الإجماليُّ.................. ١١٣
تَفسيرُ الآيتَينِ.................. ١١٣
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ.................. ١١٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٢١
بلاغةُ الآيتَينِ.................. ١٢٤
الآيات (٢٥-٢٧).................. ١٢٧
غَريبُ الكَلِماتِ.................. ١٢٧
المَعنى الإجماليُّ.................. ١٢٧
تَفسيرُ الآياتِ ١٢٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ.................. ١٣٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٣٧
بلاغةُ الآياتِ.................. ١٣٧
الآيتان (٢٨-٢٩).................. ١٤٠
غريبُ الكَلِماتِ.................. ١٤٠
المَعنى الإجماليُّ.................. ١٤١
تَفسيرُ الآيتَينِ.................. ١٤١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ.................. ١٤٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٤٨
بلاغةُ الآيتَينِ.................. ١٥٣
الآيتان (٣٠-٣١).................. ١٥٦
غريبُ الكلماتِ.................. ١٥٦
المَعنى الإجماليُّ.................. ١٥٦
تَفسيرُ الآيتَينِ.................. ١٥٦
الفَوائِدُ التربويَّةُ.................. ١٦٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٦٣
بلاغةُ الآيتَينِ.................. ١٦٦
الآيتان (٣٢-٣٣).................. ١٦٨
مُشكِلُ الإعرابِ ١٦٨
المَعنى الإجماليُّ.................. ١٦٩
تَفسيرُ الآيتَينِ.................. ١٦٩

الفَوائِدُ التربويَّةُ ١٧٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٧٤
بلاغةُ الآيتَينِ ١٧٥
الآيتان (٣٤-٣٥) ١٨٤
غريبُ الكَلِماتِ ١٨٤
المَعنى الإجماليُّ ١٨٤
تَفسيرُ الآيتينِ ١٨٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ١٩٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٩٦
بلاغةُ الآيتينِ ١٩٨
الآيتان (٣٦-٣٧) ٢٠١
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٠١
المَعْنَى الإجماليُّ ٢٠٢
تَفسيرُ الآيتَينِ ٢٠٢
الفَوائِد التربويَّة ٢١٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢١٤
بلاغةُ الآيتَينِ ٢١٨
الآيات (٣٨-٤٠) ٢٢٣
غريبُ الكَلِماتِ ٢٢٣
المعنَى الإجماليُّ ٢٢٤
مُشكِلُ الإعرابِ ٢٢٤
تَفسيرُ الآياتِ ٢٢٥
الفَوائِدُ التَّربويَّة ٢٣٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٤١
بلاغةُ الآياتِ ٢٤٤
الآيات (٤١-٤٣) ٢٤٩
غريبُ الكَلِماتِ ٢٤٩
المَعنَى الإجماليُّ ٢٥٠
تَفسيرُ الآياتِ ٢٥٠
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٢٥٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٥٩
بلاغةُ الآياتِ ٢٦١
الآيات (٤٤-٤٧) ٢٦٦
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٦٦
المَعنى الإجماليُّ ٢٦٨
تَفسيرُ الآياتِ ٢٦٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٢٧٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٧٦
بلاغةُ الآياتِ ٢٧٨
الآيات (٤٨-٥٢) ٢٨٣
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٨٣
المَعنى الإجماليُّ ٢٨٤
تَفسيرُ الآياتِ ٢٨٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٢٩٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٩٦
بلاغةُ الآياتِ ٢٩٨
الآيتان (٥٣-٥٤) ٣٠٢
المَعنى الإجماليُّ ٣٠٢

تَفسيرُ الآيتَينِ ٣٠٢
الفَوائِد التربويَّة ٣٠٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٠٥
بلاغةُ الآيتينِ ٣٠٧
الآيات (٥٥-٥٧) ٣٠٩
المَعنى الإجماليُّ ٣١٠
تَفسيرُ الآياتِ ٣١٠
الفَوائِدُ التَّربويَّة ٣١٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣١٥
بلاغةُ الآياتِ ٣١٦
الآيات (٥٨-٦٠) ٣١٨
غَريبُ الكَلِماتِ ٣١٨
المَعنى الإجماليُّ ٣١٩
تَفسيرُ الآياتِ ٣١٩
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٣٣٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٣٤
بلاغةُ الآياتِ ٣٤٠
الآيات (٦١-٦٣) ٣٤٤
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٤٤
المَعنى الإجماليُّ ٣٤٤
تَفسيرُ الآياتِ ٣٤٥
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٣٥١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٥١
بلاغةُ الآياتِ ٣٥٣
الآيات (٦٤-٦٦) ٣٥٩
غريبُ الكلماتِ ٣٥٩
المَعنى الإجماليُّ ٣٥٩
تَفسيرُ الآياتِ ٣٦٠
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٣٦٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٦٥
بلاغةُ الآياتِ ٣٦٩
الآيات (٦٧-٧٠) ٣٧٢
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٧٢
المَعنى الإجماليُّ ٣٧٣
تَفسيرُ الآياتِ ٣٧٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٣٨٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٨٥
بلاغةُ الآياتِ ٣٨٧
الآيتان (٧١-٧٢) ٣٩٤
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٩٤
المَعنى الإجماليُّ ٣٩٤
تَفسيرُ الآيتينِ ٣٩٤
الفَوائِدُ التَّربويَّة ٤٠١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٠٤
بلاغةُ الآيتَين ٤٠٥
الآيتان (٧٣-٧٤) ٤١٠
غَريبُ الكَلِماتِ ٤١٠
المَعنى الإجماليُّ ٤١٠

تَفسيرُ الآيتين.................. ٤١١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ.................. ٤١٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٢٠
بلاغةُ الآيتَينِ.................. ٤٢١
الآيات (٧٥-٧٨).................. ٤٢٤
غريبُ الكلِماتِ.................. ٤٢٤
المَعنى الإجماليُّ.................. ٤٢٤
تَفسيرُ الآياتِ.................. ٤٢٥
الفَوائِدُ التربويَّةُ.................. ٤٢٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٣٠
بلاغةُ الآياتِ.................. ٤٣١
الآيتان (٧٩-٨٠).................. ٤٣٣
غَريبُ الكَلِماتِ.................. ٤٣٣
مُشكِلُ الإعرابِ.................. ٤٣٣
المَعنى الإجماليُّ.................. ٤٣٤
تَفسيرُ الآيتينِ.................. ٤٣٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ.................. ٤٣٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٣٩
بلاغةُ الآيتينِ.................. ٤٤٠
الآيتان (٨١-٨٢).................. ٤٤٢
غَريبُ الكَلِماتِ.................. ٤٤٢
المَعنى الإجماليُّ.................. ٤٤٢
تَفسيرُ الآيتين.................. ٤٤٣
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ.................. ٤٤٦
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٤٧
بلاغةُ الآيَتَينِ.................. ٤٤٧
الآيات (٨٣-٨٥).................. ٤٥٠
غَريبُ الكَلِماتِ.................. ٤٥٠
المَعنى الإجماليُّ.................. ٤٥٠
تَفسيرُ الآياتِ.................. ٤٥١
الفَوائِدُ التَّربويَّة.................. ٤٥٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٦٠
بلاغةُ الآياتِ.................. ٤٦٣
الآيات (٨٦-٨٩).................. ٤٦٨
غريبُ الكَلِماتِ.................. ٤٦٨
المَعنى الإجماليُّ.................. ٤٦٨
تَفسيرُ الآياتِ.................. ٤٦٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٧٤
بلاغةُ الآياتِ.................. ٤٧٦
الآيات (٩٠-٩٣).................. ٤٧٩
غَريبُ الكَلِماتِ.................. ٤٧٩
المَعنى الإجماليُّ.................. ٤٨٠
تَفسيرُ الآياتِ.................. ٤٨١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ.................. ٤٨٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٨٨
بلاغةُ الآياتِ.................. ٤٩١
الآيات (٩٤-٩٦).................. ٤٩٤
غَريبُ الكَلِماتِ.................. ٤٩٤

المَعنى الإجماليُّ ٤٩٤
تَفسيرُ الآياتِ ٤٩٥
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٤٩٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٥٠٠
بلاغةُ الآياتِ ٥٠٣
الآيتان (٩٧-٩٨) ٥٠٨
غَريبُ الكَلِماتِ ٥٠٨
المَعنى الإجماليُّ ٥٠٨
تَفسيرُ الآيتَينِ ٥٠٩
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٥١٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٥١٤
بلاغةُ الآياتِ ٥١٥
الآيتان (٩٩-١٠٠) ٥١٧
غَريبُ الكَلِماتِ ٥١٧
المَعنى الإجماليُّ ٥١٧
تَفسيرُ الآيتينِ ٥١٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٥٢٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٥٢٥
بلاغةُ الآيتينِ ٥٢٨
الآيتان (١٠١-١٠٢) ٥٣١
غَريبُ الكَلِماتِ ٥٣١
المَعنى الإجماليُّ ٥٣١
تَفسيرُ الآيتينِ ٥٣٢
الفَوائِدُ التربويَّةُ ٥٣٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٥٣٧
بلاغةُ الآيتينِ ٥٤٠
الآيتان (١٠٣-١٠٤) ٥٤٣
غَريبُ الكَلِماتِ ٥٤٣
المَعنى الإجماليُّ ٥٤٣
تَفسيرُ الآيتَينِ ٥٤٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٥٤٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٥٤٩
بلاغةُ الآيتَينِ ٥٥٢
الآيتان (١٠٥-١٠٦) ٥٥٤
غَريبُ الكَلِماتِ ٥٥٤
المَعنى الإجماليُّ ٥٥٤
تَفسيرُ الآيتَينِ ٥٥٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٥٥٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٥٥٩
بلاغةُ الآيتينِ ٥٦١
الآيات (١٠٧-١١٠) ٥٦٣
غَريبُ الكَلِماتِ ٥٦٣
المَعنى الإجماليُّ ٥٦٤
تَفسيرُ الآياتِ ٥٦٥
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٥٧٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٥٧٥
بلاغةُ الآياتِ ٥٧٨
الآيتان (١١١-١١٢) ٥٨١

غَريبُ الكَلِماتِ................ ٥٨١
المَعنى الإجماليُّ................. ٥٨١
تَفسيرُ الآيتَينِ.................. ٥٨٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ................ ٥٨٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٥٩١
بلاغةُ الآيتَينِ ٥٩٤
الآيات (١١٣-١١٦) ٦٠٠
غريبُ الكَلِماتِ................ ٦٠٠
المَعنى الإجماليُّ................. ٦٠٠
تَفسيرُ الآياتِ ٦٠١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ................ ٦٠٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٦١٠
بلاغةُ الآياتِ................... ٦١٣
الآيات (١١٧-١١٩) ٦١٦
غَريبُ الكَلِماتِ................ ٦١٦
المَعنى الإجماليُّ................. ٦١٧
تَفسيرُ الآياتِ ٦١٧
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ................ ٦٣١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٦٣٣
بلاغةُ الآياتِ................... ٦٣٨
الآيتان (١٢٠-١٢١) ٦٤١
غَريبُ الكَلِماتِ................ ٦٤١
المَعنى الإجماليُّ................. ٦٤٢
تَفسيرُ الآيتَينِ.................. ٦٤٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ................ ٦٤٨
الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٦٤٩
بلاغةُ الآيتَينِ.................. ٦٥١
الآيتان (١٢٢-١٢٣) ٦٥٦
غَريبُ الكَلِماتِ................ ٦٥٦
المَعنى الإجماليُّ................. ٦٥٦
تَفسيرُ الآيتَينِ.................. ٦٥٦
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ................ ٦٦١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٦٦٣
بلاغةُ الآيتَينِ.................. ٦٦٨
الآيات (١٢٤-١٢٧) ٦٧٠
المَعنى الإجماليُّ................. ٦٧٠
تَفسيرُ الآياتِ ٦٧٠
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ................ ٦٧٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ ٦٧٨
بلاغةُ الآياتِ................... ٦٧٩
الآيتان (١٢٨-١٢٩) ٦٨٢
غريبُ الكَلِماتِ................ ٦٨٢
المَعنى الإجماليُّ................. ٦٨٢
تَفسيرُ الآيتَينِ.................. ٦٨٣
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ................ ٦٩٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٦٩٠
بلاغةُ الآيتَينِ.................. ٦٩٢
الفهرس ٦٩٧

التفسير المحرر

للقرآن الكريم

سورة يونس

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر بطنطا

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد التاسع

الدرر السنية
www.dorar.net

التفسير المحرر

للقرآن الكريم

٩

ⓒ مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٣٨هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
مؤسسة الدرر السنية – القسم العلمي
التفسير المحرر – سورة يونس – المجلد التاسع/ مؤسسة الدرر السنية –
القسم العلمي – الظهران، ١٤٣٨هـ
٤٣٢ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم
ردمك: ٤-٤٣-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨
١- القرآن – تفسير ٢- القرآن سورة يونس – تفسير أ- العنوان
ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٣٨/١٥٦٤

رقم الإيداع: ٤-٤٣-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨
ردمك: ١٤٣٨/١٥٦٤

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م

الدرر السنية
www.dorar.net
مؤسسة الدرر السنية – المملكة العربية السعودية
ص. ب ٣٩٣٦٤ الظهران ٣١٩٤٢ – جوال: ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠
ت: ٠١٣٨٦٨٠١٢٣/فاكس: ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨ – بريد إلكتروني nashr@dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسِيرُ
سُورَةِ يُونُس

سُورةُ يُونُس

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بِسُورةِ يُونُس[(١)].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ يُونُسَ مَكِّيَّةٌ[(٢)]، ونقَلَ غَيرُ واحدٍ الإجماعَ على ذلك[(٣)].

---

(١) سُمِّيَت بذلك لِذِكْرِها قِصَّةَ يُونُسَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مع قَومِه في قَولِه تعالى: ﴿فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ [يونس: ٩٨] يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٣٨)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣).

قال ابنُ عاشورٍ: (والأظهرُ عندي أنَّها أُضيفَتْ إلى يونسَ تميزًا لها عن أخواتِها الأربعِ المفتتحةِ بـ «الر»، ولذلك أُضيفَتْ كلُّ واحدةٍ مِنها إلى نَبيٍّ أوْ قومِ نَبيٍّ عوضًا عن أنْ يُقالَ: «الر» الأُولَى و«الر» الثَّانيةُ). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٧٧).

وقد وردتْ آثارٌ فيها تسميتُها بذلك: منها ما أخرَجه النحاسُ في ((الناسخ والمنسوخ)) (ص: ٥٢٩)، وأبو الشيخ وابنُ مردويه- كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٤/ ٣٣٩)- عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: (نزَلَت سورةُ يُونُسَ بمكَّةَ).

ومنها ما أخرجه ابنُ أبي شيبةَ في ((المصنف)) (٣٥٦٦) عَنِ الأحنفِ قالَ: (صليتُ خلفَ عمرَ الغداةَ، فقرأ بيونسَ، وهودٍ، ونحوِهما).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ١٠٢)، ((الهداية)) لمكي القيسي (٥/ ٣٢٠٥)، ((جمال القراء)) للسخاوي (١/ ١٢١)، وممَّا يدُلُّ على كَونِها مكيَّةً ما اشتمَلَت عليه من موضوعات تَميَّزَت بها السُّوَرُ المكيَّةُ؛ مِن تقريرٍ للعَقيدةِ والرِّسالةِ، والنبواتِ، وأخبارِ الأُمَمِ الماضيةِ.

وقيل: إنَّها مكيَّةٌ إلَّا ثلاثَ آياتٍ، مِن قَولِه تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٩٤] إلى آخر الآياتِ الثلاث، فمَدَنيَّةٌ، وقيل: مكيَّةٌ إلَّا قَولَه تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ...﴾ [يونس: ٤٠] مع الثلاثِ السَّابقة، فمدنيَّةٌ، وقيل: نزل مِن أوَّلِها نحوٌ مِن أربعينَ آيةً بمكَّةَ، وباقيها بالمدينةِ.

ينظر ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٣٦٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١١٧)،((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٢٦))، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٢).

(٣) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك الفيروزابادي، والبقاعي، ومحمد رشيد رضا. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٣٨)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ١٦٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ١١٦).

مقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ سُورةِ يُونُس:

١- تقريرُ أصولِ العقيدةِ، وإثباتُ التوحيدِ والرسالةِ والبعثِ(١).

٢- دفعُ شُبَهِ المشركينَ(٢).

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ الموضوعاتِ التي اشتَمَلت عليها السُّورةُ:

١- إثباتُ رسالةِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم.

٢- إثباتُ انفرادِ الله تعالَى بالإلهيةِ.

٣- إثباتُ الحشرِ والجزاءِ، والتَّذكيرُ بِمَصيرِ الخَلائِقِ إليه، وانقسامِ البَشَرِ إلى مُؤمنينَ وكُفَّارٍ، وجزاء كُلٍّ منهم.

٤- توضيحُ عقائِدِ المُشركينَ، وموقفِهم من القُرآنِ، مع ذكرِ شُبهِهم والردِّ عليها، وإثباتُ أنَّ القُرآنَ كَلامُ اللهِ.

٥- التذكيرُ بما حلَّ بأهلِ القرونِ الماضيةِ لمَّا أشركوا وكذَّبوا الرسلَ.

٦- الاعتبارُ بما خلَق الله للناسِ مِن القدرةِ على السيرِ في البرِّ والبحرِ، وما في أحوالِ السيرِ في البحرِ من الألطافِ.

٧- ضربُ المَثَل للدُّنيا وبَهجَتِها، وسرعة زوالِها.

٨- ذِكرُ اختلافِ أحوالِ المُؤمنين والكافرينَ في الآخرةِ، وتبرُّؤ الآلهةِ الباطلةِ مِن عَبَدتِها، وإبطال إلهيَّةِ غَيرِ الله تعالى.

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ١١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ١١٦)، ((الوسيط)) لطنطاوي (٧/ ١١).

٩- إثباتُ أنَّ القرآنَ منزَّلٌ من عندِ الله، وأنَّ الدلائلَ على بطلانِ أن يكونَ مفترًى واضحةٌ، وتحدِّي المشركين بأن يأتوا بسورةٍ مثلِه.

١٠- إثباتُ عُمومِ العِلمِ لله تعالى، وذِكرُ آثارِ القُدرةِ الإلهيَّةِ الباهِرةِ.

١١- تَبشيرُ أولياءِ الله في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخرةِ، وتمييزُهم عن غيرِهم، وتَسليةُ الرَّسولِ عَمَّا يقولُه الكافِرونَ.

١٢- الأمرُ بإظهارِ السُّرورِ والفَرَحِ بالإسلامِ والقُرآنِ.

١٣- تَسليةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بذِكرِ شَيءٍ مِن قِصَّةِ نوح عليه السلام، وقِصَّةِ موسى عليه السلام، وبني إسرائيلَ مع قومِ فِرعونَ، ونجاةِ قَومِ يُونُسَ بإخلاصِ الإيمانِ في وقت اليَأسِ.

١٤- تأكيدُ نبوَّةِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وأَمرُه بالصبرِ على جفاءِ المشركين وأذاهم.

الآيتان (١-٢)

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ٢﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾: أي: تَقدِمةَ خَيرٍ مِن الأعمالِ الصَّالحةِ. وكلُّ سَابقٍ فِي خيرٍ أَو شَرٍّ، فهو عند العَربِ قَدَمٌ. وأصلُ (قدم): يدلُّ على سَبْقٍ، والصِّدقُ يُعبَّرُ به عن كلِّ فعلٍ فاضلٍ ظاهرًا وباطنًا، وكلُّ شيءٍ أُضيفَ إليه فهو ممدوحٌ، وأصلُ (صدق): يدلُّ على قُوَّةٍ في الشَّيءِ قولًا وغيرَه[١].

المَعنى الإجماليُّ:

افتَتَحَ اللهُ هذهِ السورةَ العظيمةَ بالحروفِ المقطَّعةِ؛ لبيانِ إعجازِ القُرآنِ، فمع أنَّه مُركَّبٌ مِن هذه الحُروفِ العربيَّةِ التي يتكلَّمون بها، إلَّا أنَّهم عاجزونَ عن مُعارَضتِه بالإتيانِ بِشَيءٍ مِن مِثلِه، ثمَّ بَيَّنَ تعالى أنَّ تلك الآياتِ الرَّفيعةَ الشَّأنِ، هي آياتُ القُرآنِ الحكيمِ.

ثمَّ قال تعالى: كيف يتعَجَّبُ الكفَّارُ مِن قُريشٍ والعَرَبِ مِن إيحاءِ اللَّهِ إلى رجُلٍ مِن البشَرِ، أنْ يُنذِرَ جَميعَ النَّاسِ عِقابَ اللهِ على الكُفرِ والمَعصيةِ، ويُبشِّرَ المُؤمِنينَ بأنَّ لهم أجرًا حَسنًا؛ بما قَدَّموا من أعمالٍ صالحةٍ، فتعَجَّبَ الكُفَّارُ مِن هذا الرَّسولِ، فقالوا: إنَّه لَساحِرٌ ظاهِرُ السِّحرِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٠٢).

تَفسيرُ الآيتَين:

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ١﴾.

﴿الٓر﴾.

هذه الحروفُ المقطَّعةُ التي افتُتِحَت بها هذه السُّورةُ وغَيرُها، تأتي لبيانِ إعجازِ القرآنِ؛ حيث تُظهِرُ عجْزَ الخَلْقِ عن مُعارَضتِه بمِثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ من هذه الحُروفِ العربيَّةِ التي يتحدَّثونَ بها[1].

﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾.

أي: تلك الآيات الرَّفيعة الشَّأن[2] هي آياتُ القرآنِ المحكَم، المشتملِ على الحكمةِ والأحكامِ[3]، قد أحكَم الله ألفاظَه ومعانيَه، وجعَله حاكمًا بينَ عبادِه؛ يبيِّنُ لهم الحقَّ مِن الباطل، والصَّواب من الخطأ، والحلالَ مِن الحرامِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (١/ ٢٥، ٢٦)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٠٣، ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٧٨، ٨١).

(٢) قال الرازي: (قوله: ﴿تِلْكَ﴾ يحتملُ أن يكونَ إشارةً إلى ما في هذه السورةِ مِن الآياتِ، ويحتملُ أن يكونَ إشارةً إلى ما تقدَّم هذه السورةَ مِن آياتِ القرآنِ). ((تفسير الرازي)) (١٧/ ١٨٣).
وقال ابنُ عاشور: (المختارُ في الحروفِ المقطَّعة في فواتحِ السورِ أن المقصودَ مِن تعدادِها التحدِّي بالإعجازِ، فهي بمنزلةِ التهجِّي للمتعلِّم. فيصحُّ أن يجعلَ (الر) في محلِّ ابتداءٍ، ويكون اسمُ الإشارةِ خبرًا عنه. والمعنى: تلك الحروفُ آياتُ الكتابِ الحكيمِ، أي: مِن جنسِها حروفُ الكتابِ الحكيمِ، أي: جميعُ تراكيبِه مِن جنسِ تلك الحروفِ. والمقصودُ تسجيلُ عجزِهم عن معارضتِه بأنَّ آياتِ الكتابِ الحكيم كلَّها مِن جنسِ حروفِ كلامِهم، فما لكم لا تستطيعونَ معارضتَها بمثلِها إن كنتُم تكذبونَ بأنَّ الكتابَ منزَّلٌ مِن عندِ الله؟! فلولا أنَّه مِن عندِ الله لكان اختصاصُه بهذا النظمِ المعجزِ دونَ كلامِهم محالًا؛ إذ هو مركبٌ مِن حروفِ كلامِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٨١-٨٢).

(٣) قال الواحدي: (﴿الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ القرآنُ في قولِ أكثرِ المفسِّرينَ). ((البسيط)) (١١/ ١١٦).

(٤) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١١٦)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ١٨٣ - ١٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٠٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ١١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٧)، =

كما قال تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

وقال سبحانه: ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ (٢)﴾.

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾.

أي: كيف يتعَجَّبُ كفَّارُ قُرَيشٍ وكُفَّارُ العَرَبِ(١) من إيحائِنا القرآنَ إلى رجلٍ من البَشَرِ(٢)، يُنذِرُ جَميعَ النَّاسِ عِقابَ اللهِ، على الكُفرِ به ومَعصِيَتِه(٣)؟!

= ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٨٢).

(١) قال محمد رشيد رضا: (المرادُ بالنَّاسِ كُفَّارُ مَكَّةَ ومَن تَبِعَهم في إنكارِ نبُوَّةِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلم). ((تفسير المنار)) (١١/ ١١٨).

وقال ابنُ عاشورٍ: (أُطلِقَ النَّاسُ على طائفةٍ مِن البشَرِ، والمرادُ المُشرِكونَ مِن أهلِ مكَّةَ؛ لأنَّهم المقصودُ مِن هذا الكلامِ. وهذا الإطلاقُ مِثلُ ما في قوله: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾... والنَّاسُ الثاني يعُمُّ جَميعَ البشَرِ الذين يُمكِنُ إنذارُهم، فهو عمومٌ عُرفيٌّ؛ ولِكَونِ المرادِ بالنَّاسِ ثانيًا غيرَ المُرادِ به أوَّلُ، ذُكِرَ بلَفْظِه الظَّاهِرِ دون أن يقالَ: أن أنذِرْهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٨٤).

(٢) قال الرازي: (هذا التَّعجُّبُ يحتمِلُ وَجهين: أحدُهما: أن يتعَجَّبوا من أن يَجعَلَ اللهُ بشَرًا رسولاً، كما حكى عن الكُفَّارِ أنَّهم قالوا: ﴿أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤]. والثاني: ألَّا يتعَجَّبوا من ذلك، بل يتعَجَّبوا من تخصيصِ محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالوحيِ والنبوَّةِ، مع كونِه فَقيرًا يَتيمًا، فهذا بيانُ أنَّ الكفَّارَ تعَجَّبوا من ذلك، وأمَّا بيانُ أنَّ الله تعالى أنكَر عليهم هذا التعجُّبَ، فهو قَولُه في هذه الآيةِ: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ﴾؛ فإنَّ قَولَه: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ لفظُه لفظُ الاستفهامِ، ومعناه الإنكارُ). ((تفسير الرازي)) (١٧/ ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٠٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٥)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٥٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا =

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾.

أي: وكيف عَجِبَ الكُفَّارُ مِن إيحائِنا إلى بَشَرٍ منهم، أن يبشِّرَ المُؤمِنينَ بأنَّه سبقَت لهم مِن الله السَّعادةُ في اللَّوحِ المحفوظِ بما قَدَّموا من أعمالٍ صالحةٍ، وإيمانٍ بمحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، الذي أرشَدَهم إلى ذلك الخَيرِ الذي ينالون به الجنَّةَ(١)؟!

﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾.

القراءاتُ التي لها أثرٌ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿لَسَاحِرٌ﴾ يقصِدُ الكافرونَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم(٢).

٢- قراءةُ ﴿لَسِحْرٌ﴾ يَعْنون القُرآنَ الكريمَ(٣).

= (١١/ ١١٨، ١١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٨٤).

قال ابن تيمية: (قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ أولَم يعلَموا أنَّ إرسالَ رسولٍ مِن البشَرِ يُبَلِّغُهم رسالاتِ رَبِّهم، ويهديهم إلى صراطٍ مُستقيمٍ، أبلَغُ في قدرةِ الرَّبِّ، ورَحمتِه بعبادِه، وإحسانِه إليهم، وأعظَمُ إثباتًا للكمالِ مِن كَونِ ذلك [غيرَ] ممكِنٍ له، ومِن امتناعِه عن فِعْلِه). ((درء تعارض العقل والنقل)) (١٠/ ٢٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١١١، ١١٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٣)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٠١)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٦)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٨٤).

قال ابنُ القيِّم: (وفسَّر قومٌ ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ بالجنةِ، وفسَّر بالأعمالِ التي تُنالُ بها الجنةُ، وفُسِّر بالسابقةِ التي سبقَت لهم مِن الله، وفسِّر بالرسولِ الذي على يدِه وهدايتِه نالوا ذلك، والتحقيقُ أنَّ الجميعَ حقٌّ؛ فإنَّهم سبقَت لهم مِن الله الحسنَى بتلك السابقةِ، أي: بالأسبابِ التي قدَّرها لهم على يدِ رسولِه، وادَّخر لهم جزاءَها يومَ لقائِه). ((حادي الأرواح)) (ص: ١٠١).

(٢) قرأ بها عاصمٌ، وحمزةُ، والكسائيُّ، وابنُ كثيرٍ، وخلفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٥٦). ويُنظر لمعنَى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٧٩)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٤/ ٢٥١، ٢٥٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٨٦).

(٣) قرأ بها الباقونَ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٥٦).

=

﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾.

أي: مع أنَّا بعَثْنا إليهم رسولًا منهم، رجلًا مِن جنسِهم، بشيرًا ونذيرًا[1]، قال الكافرون: إنَّ هذا الرَّجُلَ لَساحِرٌ ظاهِرُ السِّحرِ، يسحَرُ النَّاسَ بالقُرآنِ الذي جاء به[2].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قال الله تعالى: ﴿أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قدَّمَ الإنذارَ على التَّبشيرِ؛ لأنَّ التَّخليةَ مُقَدَّمةٌ على التَّحليةِ، وإزالةَ ما لا ينبغي مُقَدَّمٌ في الرُّتبةِ على فِعلِ ما ينبغي[3].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لَمَّا كان الإنذارُ عامًّا، كان متعَلَّقُه- وهو الناس- عامًّا، والبِشارةُ خاصَّةً، فكان متعَلَّقُها خاصًّا، وهو (الذينَ آمنوا)[4].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ عبَّرَ عن كُفَّارِ مَكَّةَ ومَن تَبِعَهم بالنَّاسِ؛ لأنَّ هذه الشُّبهةَ على الرِّسالةِ، قد

= ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٧٩)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٤/ ٢٥١، ٢٥٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٨٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٦).

قال ابن جرير: (وفي الكلامِ مَحذوفٌ، استُغنِيَ بدَلالةِ ما ذُكِرَ عما تُرِكَ ذِكرُه، وهو: فلمَّا بشَّرَهم وأنذَرَهم وتلا عليهم الوحيَ، قال الكافرونَ: إنَّ هذا الذي جاءَنا به لَسِحرٌ مُبينٌ). ((تفسير ابن جرير)) ١٢/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ١٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٩).

سبَقَتْهم إليها أقوامُ الأنبياءِ قَبلَ نَبيِّنا محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم(١).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ بيانُ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُنذِرٌ لجنسِ النَّاسِ، وأنَّه مِن جِنْسِ النَّاسِ، وأنَّه لا يختصُّ به العرَبُ دونَ غَيرِهم، وإنْ كانوا هم أوَّلَ مَن أُرْسِلَ إليهم وبِلسانِهم(٢).

٤- ذكَرَ اللهُ تعالى في كتابِه خمسةَ أشياءَ مُضافةً إلى الصِّدقِ، وهي: قدَمُ الصِّدقِ، كما هنا في سورة يونسَ، ومُدخَلُ الصِّدقِ، ومُخرَجُ الصِّدقِ، كما في سورةِ الإسراءِ (الآية: ٨٠)، ولسانُ الصِّدقِ، كما في سورة الشُّعَراء (الآية: ٨٤)، ومَقعَدُ الصِّدقِ، كما في سورة القمر (الآية: ٥٥)، وحقيقةُ الصِّدقِ في هذه الأشياءِ: هو الحقُّ الثَّابتُ، المتَّصِلُ باللهِ، المُوصِلُ إلى اللهِ- وهو ما كان به وله، من الأقوالِ والأعمالِ- وجزاءُ ذلك في الدُّنيا والآخرةِ(٣).

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾ يُشيرُ إلى إثباتِ رِسالتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فإنَّ قَولَهم: إنَّ القرآنَ سِحرٌ جاء به ساحِرٌ، يتضَمَّنُ اعترافَهم بأنَّهما فوقَ المعهودِ والمعلومِ للبَشَرِ في عالَمِ الأسبابِ المَقدورةِ لهم(٤).

بلاغةُ الآيتين:

١- قولُه تعالى: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾

- قولُه: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ في اختيارِ وصْفِ ﴿الْحَكِيمِ﴾ هنا مِن بينِ أوصافِ الكَمالِ الثَّابتةِ للقُرآنِ؛ لأنَّ لهذا الوَصفِ مَزيدَ اختِصاصٍ بمَقامِ إظهارِ الإعجازِ مِن جهةِ المعنى بعدَ إظهارِ الإعجازِ مِن جهةِ اللَّفظِ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٦٧٩).

(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٢٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ١١٩).

قوله: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾ [يونس: ٨٨]، فكان ذلك حسْبُ ما دَعاه إلى ذِكْرِ إغراقِ فِرْعونَ وملَئِه، وطمَعِه في الإيمانِ حينَ أدرَكه الغرَقُ، فقال: ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ [يونس: ٩٠]، فلم ينفَعْه ذلك لِفَواتِ وقتِه، فاقتصَر أيضًا على هذا القَدْرِ مِن قصَّةِ موسى عليه السَّلامُ؛ لِما تقَدَّم مِن مُناسَبةِ هذه السُّورةِ.

وسورةُ لُقمانَ ورَد فيها قولُه تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾، إلى قولِه: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ﴾ [لقمان: ١٠، ١١]، وبعد ذلك قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]، وقولُه: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ...﴾ الآيةَ [لقمان: ٣٤]، وفي هذه السُّورةِ أيضًا ما مُنِح لقمانُ مِن الحِكْمةِ، وما انطوَت عليه قصَّتُه مِن حِكمةٍ، وما صدَر عنه في وصيَّتِه، ولم تَخرُجْ آيُ هذه السُّورةِ عن هذا، فهذا وجهُ وصفِ الكتابِ في هاتَين السُّورتَين بالحكيم.

وأمَّا سورةُ يوسُفَ عليه السَّلامُ فلم تَنطَوِ على غيرِ قصَّتِه، وبسْطِ التَّعريفِ بقَضيَّتِه، وبيانِ ما جرَى له مع أبيه؛ مِن فِراقِه، وامتِحانِه بإلقائِه في الجُبِّ، والبيعِ والتَّعرُّضِ له بالفِتْنةِ، وتَخلُّصِه بسابقِ اصطِفائِه ممَّا كِيدَ له به، وابتلائِه بالسِّجنِ، ثمَّ لِقائِه بأخيه، واجتماعِ شَملِه بأبيه عليهما السَّلامُ وإخوتِه، ولم تَخرُجْ آيةٌ مِن آيِ هذه السُّورةِ عن هذا مِن بَسْطِ هذه القصَّةِ، فلهذا أتبعَ الكتابَ بالوصفِ بالمبينِ[(١)].

٢- قولُه تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾

- قولُه: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ الهمزةُ في ﴿أَكَانَ﴾ لإنكارِ التَّعجُّبِ والتَّعجيبِ

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٣٧-٢٣٨).

منه[1]، وفائدةُ إدخالِ الاستفهام المستعمَلِ في الإنكارِ على (كَانَ) دونَ أن يُقالَ: (أَعَجِبَ النَّاسُ): الدَّلالةُ على التَّعجُّبِ مِن تعَجُّبِهم المرادِ به إحالةُ الوحيِ إلى بشَرٍ[2].

– وقولُه: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ فيه مناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قالَ: ﴿لِلنَّاسِ﴾ باللَّامِ ولَم يَقُلْ: (أكان عِندَ النَّاسِ عجَبًا)؛ لأنَّ معنى ﴿لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ أنَّهم جعَلوه لهم أُعْجوبةً يتَعجَّبون مِنها، ونصَبوه عَلمًا لهم يُوجِّهون نَحوَه استِهْزاءَهم وإنكارَهم، وليس في (عِندَ النَّاسِ) هذا المعنى[3].

– وقولُه أيضًا: ﴿لِلنَّاسِ﴾ مُتعلِّقٌ بـ(كَانَ)؛ لزِيادةِ الدَّلالةِ على استِقْرارِ هذا التَّعجُّبِ فيهم؛ لأنَّ أصلَ اللَّامِ أن تُفيدَ المِلْكَ، وتستعملُ أيضًا في التَّمكُّنِ، أي: لِتَمكُّنِ الكونِ عجَبًا مِن نُفوسِهم[4].

– وفيه كذلك تقديمُ خبَرِ (كان) وهو قولُه: ﴿عَجَبًا﴾ على اسمِها وهو قولُه: ﴿أَنْ أَوْحَيْنَا﴾؛ للاهتِمامِ به؛ لكَونِه مَدارَ الإنكارِ والتَّعجُّبِ، وتشويقًا إلى المؤخَّرِ[5].

– وَجِيءَ في ﴿أَنْ أَوْحَيْنَا﴾ بـ(أَنْ) والفِعلِ، دون المصدَرِ الصَّريحِ وهو (وَحْيُنا)؛ لِيُتوسَّلَ إلى ما يُفيدُه الفعلُ مِن التَّجدُّدِ، وصيغةُ المُضِيِّ مِن الاستقرارِ؛ تحقيقًا لوُقوعِ الوحيِ المتعجَّبِ منه وتجَدُّدِه، وذلك ما يَزيدُهم كمَدًا[6].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٨٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٨٣).

- وفي قولِه: ﴿أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾: حُذِفَ المنذَرُ به؛ للتَّهويلِ، ولأنَّه يُعلَمُ حاصِلُه مِن مُقابَلتِه بقولِه: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ﴾[1].

- قولُه: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ﴾، أي: سابقةٌ ومنزِلةٌ رفيعةٌ؛ سُمِّيَت قَدَمًا لأنَّ السَّبقَ بِها، كما سُمِّيَت النِّعمةُ يَدًا؛ لأنَّها تُعطَى باليَدِ، وإضافةُ (قَدَمَ) إلى (صِدْقٍ)؛ لِتَحقُّقِها، والتَّنبيهِ على أنَّهم إنَّما يَنالونها بصِدْقِ القولِ والنِّيَّةِ، ودَلالةً على زيادةِ فضلٍ، وأنَّه مِن السَّوابقِ العظيمةِ[2].

- قولُه: ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ﴾ ترَكَ العاطِفَ فلَم يَقُلْ: (وقال)؛ لِجَرَيانِه مَجْرى البَيانِ لِجُملةِ: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا ...﴾، أو لكونِه استئنافًا مَبنيًّا على السُّؤالِ؛ كأنَّه قيل: ماذا صنَعوا بعدَ التَّعجُّبِ؛ هل بَقُوا على التَّردُّدِ والاستِبْعادِ أو قطَعوا فيه بشيءٍ؟ فقيل: قال الكافِرون؛ على طريقةِ التَّأكيدِ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٢٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١١٧)، ويُنظر أيضًا: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٢١١).

الآيتان (٣-٤)

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿شَفِيعٍ﴾: أي: ناصرٍ ومُعينٍ؛ يقال: شفَع لفلانٍ: إذا جاء مُلتَمِسًا مطلبَه، ومعينًا له، والشَّفْعُ: ضمُّ الشيءِ إلى مثلِه، وأصلُ (شفع): يدلُّ على مُقارنةِ الشَّيئَينِ[1].

﴿حَمِيمٍ﴾: الحميمُ: الماءُ الشَّديدُ الحرارةِ، وأصل (حمم): يدلُّ على الحرَارةِ، وعلى معانٍ أخرى متفاوتةٍ[2].

المَعنى الإجماليُّ:

إنَّ ربَّكم- أيُّها النَّاسُ- هو الله الذي خلقَ السَّمواتِ والأرضَ في سِتَّةِ أيَّامٍ، ثمَّ علا وارتفَعَ على عَرْشِه، يُدَبِّرُ أمورَ جَميعِ الخَلائِقِ، ولا أحَدَ يَشفَعُ عِندَه يومَ القيامةِ إلَّا مِن بعدِ أن يأذَنَ له سُبحانَه بذلك، ذلكم هو اللَّهُ ربُّكم فاعبُدوه وَحْدَه، أفلا تذَكَّرونَ.

إليه وَحْدَه مَرجِعُكم جميعًا يومَ تَخرُجونَ مِن قُبورِكم أحياءً يومَ القيامةِ، وَعَدَكم اللهُ وَعدًا حَقًّا لا يُخلَفُ، إنَّه يبدأُ إنشاءَ الخَلْقِ ثمَّ يُعيدُه بعد مَوتِه، يومَ القيامةِ؛

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٤، ٤٤٨).

ليُثِيبَ المُؤمِنينَ الذين عَمِلوا الصَّالِحاتِ بالعَدلِ، والذين كَفَروا لهم شَرابٌ من ماءٍ حارٍّ، قد بلَغَت حرارتُه الغايةَ، ولهم عذابٌ مُوجِعٌ؛ بسبَبِ كُفرِهم في الدُّنيا.

تَفسيرُ الآيتَين:

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣) ﴾.

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾.

أي: إنَّ مالِكَكم- أيُّها النَّاسُ- وخالقَكم، ومدبِّرَ شُؤونِكم، هو المُستحِقُّ للعبادةِ وَحْدَه؛ الذي خلَقَ السَّمواتِ السَّبعَ، والأَرَضينَ السَّبعَ في ستَّة أيَّامٍ(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقال سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [السجدة: ٤].

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾.

أي: ثمَّ علا اللهُ وارتفَعَ على عَرشِه المُحيطِ بجَميعِ خَلْقِه(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٧).

قال ابن عطيَّةَ: (قَولُه ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ قيل: هي من أيَّامِ الآخرةِ، وقال الجمهور- وهو الصواب- بل من أيَّامِ الدنيا. قال القاضي أبو محمد: وذلك في التقديرِ؛ لأنَّ الشَّمسَ وجَرْيَها لم يتقَدَّمْ حِينَئِذٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١١٣)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٧).

﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾.

أي: يُدبِّر أمورَ جَميعِ خَلْقِه وشُؤونَهم[١].

كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [السجدة: ٤، ٥].

﴿ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ﴾.

أي: لا يَشفَعُ عندَ الله أيُّ شافعٍ يومَ القِيامةِ إلَّا مِن بَعدِ أن يأذَنَ اللهُ بذلك[٢].

كما قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١١٣، ١١٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١١٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٧).

قال الزَّجَّاج: (قولُه: ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ ولم يجْرِ للشَّفيعِ ذِكرٌ قبلَ هذا، ولكِنَّ الذين خُوطِبوا كانوا يقولونَ: إنَّ الأصنامَ شُفَعاؤُنا عند الله، فالذِّكرُ جرى بعدُ في الشُّفَعاءِ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٣/ ٦).

وقال ابنُ عطيةَ: (قَولُه: ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ ردٌّ على العَرَبِ في اعتقادِها أنَّ الأصنامَ تَشفَعُ لها). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٤).

بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦].

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾.

أي: ذلكم الذي هذا شأنُه، وهذه صفتُه، وفعَلَ تلك الأشياءَ العظيمةَ، هو المستَحِقُّ لإفرادِ العبادةِ له دونَ مَن سِواه، وهو مالِكُكم وخالِقُكم ومُدَبِّرُ أمورِكم- أيُّها النَّاسُ- فاعبُدوه وَحْدَه، ولا تَعبُدوا غَيرَه[1].

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

أي: أفلا تتَّعِظونَ- أيُّها النَّاسُ- بتلك الآياتِ والبَراهينِ، وتتذكَّرون أنَّ اللهَ هو المتفَرِّدُ بالخَلقِ، فتَعبُدونَه وَحْدَه، وتَترُكونَ عبادةَ غَيرِه مِن مَخلوقاتِه[2]؟!

كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣١- ٣٢].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤ - ٨٩].

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١١٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٧).

أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّ اللَّهَ تعالى لَمَّا ذَكَرَ الدَّلائِلَ الدَّالَّةَ على إثباتِ المبدأِ، أردَفَه بما يدُلُّ على صِحَّةِ القَولِ بالمَعادِ(١).

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ تعالى حُكْمَه القَدَريَّ، وهو التَّدبيرُ العامُّ، وحُكمَه الدينيَّ وهو شَرعُه، الذي مضمونُه ومقصودُه عبادَتُه وَحْدَه لا شريكَ له- ذكَرَ الحُكمَ الجَزائيَّ، وهو مُجازاتُه على الأعمالِ بعد الموتِ(٢)، فقال تعالى:

﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا﴾.

أي: إلى اللهِ وَحْدَه مَرجِعُكم جميعًا- أيُّها النَّاسُ- يوم تَخرُجونَ مِن قُبورِكم أحياءً يومَ القِيامةِ(٣).

﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾.

أي: يَعِدُكم اللهُ- أيُّها النَّاسُ- وعدًا صِدقًا لا يُخلَفُ: أنَّه سيبعَثُكم مِن قُبورِكم أحياءً(٤).

﴿إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١١٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٤)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١١٥)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٨).

قال ابن عاشور: (وانتصَبَ ﴿وَعْدَ اللهِ﴾ على المفعوليةِ المطلقةِ... ويقدَّر له عاملٌ محذوفٌ... والتقديرُ: وعَدكم اللهُ وعدًا حقًّا). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٩٠).

أي: إنَّ اللهَ يبدأُ إنشاءَ الخَلْقِ، وإيجادَه مِن العَدَمِ، ثُمَّ يعيدُه بعدَ مَوتِه، ويُحييه يومَ القيامةِ كما بدأه أوَّلَ مرَّةٍ[١].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [يونس: ٣٤].

وقال سبحانَه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [العنكبوت: ١٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الروم: ١١].

﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾.

مناسبتُها لما قبلَها:

لَمَّا كان الكلامُ في سِياقِ البَعثِ، قَدَّمَ أهلَ الجَزاءِ، وبدأ بأشرافِهم، فقال[٢]:

﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾.

أي: يُحيي اللهُ الخَلقَ بعدَ مَوتِه، يومَ القِيامةِ؛ لِيُثيبَ المُؤمِنينَ الذين عَمِلوا ما أمَرَهم اللهُ به، وترَكوا ما نهاهم عنه، بالعَدلِ، وهو مجازاتُهم على الحَسَنِ مِن أعمالِهم، الحَسَنَ من الثوابِ في الآخرةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١١٥)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٢٢)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤١٠)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٢٨)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١١٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٨).

قال ابنُ جرير: (يقول: لِيَجزيَهم على الحَسَنِ مِن أعمالِهم التي عَمِلوها في الدُّنيا، الحسَنَ مِن الثَّوابِ، والصَّالِحَ مِن الجَزاءِ في الآخرةِ، وذلك هو القِسطُ، والقِسطُ: العَدلُ والإنصافُ). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١١٧).

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

أي: وللكفَّارِ في الآخرةِ ماءٌ قد أُغلِيَ، وبلَغَت حرارتُه الغايةَ، ولهم أيضًا عذابٌ مُوجِعٌ؛ وذلك كلُّه بسبَبِ كُفرِهم في الدُّنيا[1].

كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

وقال سبحانه: ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ * هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ * وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ [ص: ٥٥ - ٥٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا * جَزَاءً وِفَاقًا * إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا * وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا﴾ [النبأ: ٢٤ - ٢٨].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ لَمَّا بَيَّنَ تعالى هذه الدَّلائِلَ، وشَرَحَ هذه الأحوالَ؛ ختَمَها بِقَولِه: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ مُبَيِّنًا بذلك أنَّ العبادةَ لا تصلُحُ إلَّا له، ومنبِّهًا على أنَّه سُبحانَه هو المستَحِقُّ لِجَميعِ العباداتِ؛ لأجلِ أنَّه هو المُنعِمُ بِجَميعِ النِّعَمِ التي ذكَرَها ووصَفَها[2].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فيه حَضٌّ على التدبُّرِ والتفكُّرِ في الدَّلائِلِ الدَّالَّةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١١٧، ١١٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ١٩٣).

على رُبُوبيَّتِه تعالى، وإمحاضِ العِبادةِ له[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ لو شاء تعالى لخَلَقَهما في لَمحةٍ، ولكِنْ لحِكمةٍ بالغةٍ عَدَلَ عن ذلك، وخَلَقَهما في ستَّةِ أيَّامٍ، وتخصيصُ ذلك بالعدَدِ المعَيَّنِ، أمْرٌ قد استأثَرَ بعِلمِ ما يَستَدعيه علَّامُ الغُيوبِ- جَلَّت قُدرَتُه ودَقَّت حِكمَتُه[٢]، وقيل في حكمةِ خلقِهما في ستةِ أيَّامٍ: لتعليمِ خَلْقِه التأنِّي[٣]. وقيل: لِتُشاهِدَ الملائكةُ الخَلقَ شَيئًا بعد شيءٍ، فيعتَبِروه ويُدرِكُوه. وقيل: لأنَّ تصريفَ الخَلقِ حالًا بعد حالٍ أحكَمُ، وأبعَدُ مِن شُبهةِ الاتِّفاقِ[٤].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ناسبَ ذِكرُ الشَّفاعةِ- التي تكونُ في القيامةِ- بعد ذِكرِ المَبدأِ؛ ليجمَعَ بين الطَّرفينِ: الابتداءِ والانتهاءِ[٥].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أُفرِدت الأرضُ، ولم تُجمَعْ- بخلافِ السمواتِ- لِثِقَلِ جَمْعِها وهو (أَرَضُونَ)، وأمَّا السَّمَوات فذُكِرَتْ بصيغَةِ الجمعِ؛ لأنَّه أُريدَ العددُ، فأُتِيَ بِصِيغَةِ الجمعِ الدَّالَّةِ عَلَى سَعَةِ العظمةِ والكثرةِ، وإذا أُريدَ الجهةُ أُتِيَ فيها بصيغةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٣).

(٤) يُنظر: ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (١/ ٦٢٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٢).

الإفرادِ(١)، وقيل: إيثارُ صِيغةِ الجَمعِ في السَّمواتِ؛ لِما هو المشهورُ مِن الإيذانِ بأنَّها أجرامٌ مُختَلِفةُ الطِّباعِ، مُتَبايِنةُ الآثارِ والأحكامِ(٢).

٤- التدبيرُ يُضاف إلى اللهِ تارةً؛ وإلى الملائكةِ تارةً؛ فيُضافُ إلى الله تعالى أمرًا وإذنًا ومشيئةً، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُم اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾، ويُضافُ إلى الملائكةِ تارةً أخرى؛ لِكَونِهم هم المُباشِرينَ والمُمتَثلينَ للتَّدبيرِ؛ قال تعالى: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥]، وهذا كما أضاف التوفِّيَ إليهم تارةً، كقَولِه تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١] وإليه تارةً، كقَولِه تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ﴾(٣) [الزمر: ٤٢].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ فيه إثباتُ الشَّفاعةِ لِمَن أَذِنَ له(٤).

٦- إنَّ شَفاعةَ المَخلوقِ عند المَخلوقِ تكونُ بإعانةِ الشَّافعِ للمَشفوعِ له، بغيرِ إذْنِ المَشفوعِ عِندَه، بل يشفَعُ إمَّا لحاجةِ المَشفوعِ عنده إليه، وإما لِخَوفِه منه، فيحتاجُ أنْ يقبلَ شفاعتَه، واللهُ تعالى غنيٌّ عن العالَمينَ، وهو وَحْدَه سبحانَه يُدَبِّرُ العالَمينَ كلَّهم؛ فإنَّه ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾، فهو الذي يأذَنُ للشَّفيعِ في الشَّفاعة، وهو يقبلُ شفاعتَه، كما يُلْهِمُ الداعيَ الدُّعاءَ، ثمَّ يُجيبُ دعاءَه، فالأمرُ كلُّه له(٥).

٧- قال الله تعالى: ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾، والشَّفاعةُ بإذنِه ليست

(١) يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٢/ ٣٥٥)، ويُنظر أيضًا: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١١٨).

(٣) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٤).

(٥) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (٢/ ٣٦٢).

شفاعةً مِن دُونِه، ولا الشَّافِعُ شَفيعٌ مِن دونِه، بل شفيعٌ بإذْنِه، والفرقُ بين الشَّفيعَينِ هو كالفَرقِ بين الشَّريكِ والعبدِ المأمورِ، فالشَّفاعةُ التي أبطَلَها اللهُ: شفاعةُ الشَّريكِ؛ فإنَّه لا شريكَ له، والتي أثبَتَها: شفاعةُ العبدِ المأمورِ، الذي لا يشفَعُ ولا يتقَدَّمُ بين يدَي مالكِه، حتى يأذَنَ له، ويقولَ: اشفَعْ في فُلانٍ؛ ولهذا كان أسعَدَ النَّاسِ بشَفاعةِ سَيِّدِ الشُّفَعاءِ يومَ القيامةِ أهلُ التَّوحيدِ، الذين جرَّدُوا التَّوحيدَ، وخَلَّصوه مِن تعَلُّقاتِ الشِّركِ وشَوائبِه، وهم الذين ارتَضى اللهُ سبحانه[1].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ يدُلُّ على أنَّه تعالى يعيدُ جَميعَ المَخلوقاتِ، وإعادتُها لا يُمكِنُ إلَّا بعد إعدامِها، وإلَّا لَزِمَ إيجادُ الموجودِ، وهو مُحالٌ، ونظيرُه قَولُه تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] فحكَمَ بأنَّ الإعادةَ تكونُ مِثلَ الابتداءِ[2].

٩- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ ردٌّ على المُشركينَ الذين أنكَروا البَعثَ، فاحتَجَّ الله عليهم بالنَّشأةِ الأولَى، فالقادِرُ على ابتداءِ الخَلقِ قادِرٌ على إعادتِه، والذي يرى ابتداءَه بالخَلقِ، ثمَّ يُنكِرُ إعادتَه للخَلقِ، فهو فاقِدُ العَقلِ مُنكِرٌ لأحَدِ المِثلَينِ، مع إثباتِ ما هو أَولى منه، فهذا دليلٌ عَقليٌّ واضحٌ على المَعادِ[3].

١٠- في قولِه تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ لم يُعيِّنِ الله تعالى ثوابَ المؤمنينَ وجزاءَهم؛ لأنَّه تعالَى يتولَّى إثابةَ المؤمنينَ بما يليقُ بلطفِه وكرمِه[4].

---

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٠/ ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٠٥).

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ إنَّما خَصَّ بالقِسطِ جزاءَ المُؤمِنينَ، مع أنَّ الجَزاءَ كُلَّه عَدلٌ، بل ربَّما كانت الزيادةُ في ثَوابِ المُؤمِنينَ فَضلًا زائدًا على العَدلِ؛ وذلك لتأنيسِ المُؤمِنينَ وإكرامِهم بأنَّ جَزاءَهم قد استحَقُّوه بما عَمِلوا[1]، وأيضًا لأنَّه لو جمع اللهُ الصِّنفَينِ بالقِسطِ، لم يتبَيَّنْ ما يقَعُ بالكافرينَ مِن العذابِ الأليمِ، ففَصَلَهم من المُؤمِنينَ؛ ليُبَيِّنَ ما يجزيهم به ممَّا هو عدلٌ غيرُ جَورٍ، فلهذا خصَّ المُؤمنينَ بالقِسطِ، وأفرد الكافرينَ بخَبرٍ يرجِعُ إلى تأويلِه بزيادةٍ في الإبانةِ والفائدةِ[2].

١٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مِن عَطفِ العامِّ على الخاصِّ ﴿شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾، ونكتةُ هذا الخاصِّ أنَّ العرَبَ الذين خُوطِبوا به أوَّلًا ونزَلَ بلُغَتِهم، يَشعُرونَ بما لا يَشعُرُ غَيرُهم من الوَعيدِ بِشُربِ الماءِ الحَميمِ، والحِرمانِ مِن الماءِ البارِدِ[3].

بلاغةُ الآيتين:

١- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾

- في قولِه: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ إيثارُ صيغةِ المضارِعِ؛ للدَّلالةِ على تَجدُّدِ التَّدبيرِ واستمرارِه[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٩٢).
(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٢٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٤٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١١٨).

- قولُه: ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ نفيٌ للشَّفاعةِ الَّتي هي مِن غيرِ إذنِه على أبلَغِ الوُجوهِ؛ فإنَّ نفيَ جميعِ أفرادِ الشَّفيعِ بـ(مِن) الاستِغْراقيَّةِ يَستَلزِمُ نفْيَ الشَّفاعةِ على أتَمِّ الوجوهِ(١).

- وفي زيادةِ قولِه: ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ احْتِراسٌ؛ لإثباتِ شَفاعةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم وغيرِه بإذنِ اللهِ(٢).

- والإتيانُ باسْمِ الإشارةِ في صَدْرِ قولِه: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾؛ لِتَمييزِه أكمَلَ تمييزٍ؛ لأنَّهم امتَرَوْا في صِفةِ الإلهيَّةِ، وضَلُّوا فيها ضلالًا مُبينًا، فكانوا أَحْرِيَاءَ بالإيقاظِ بطَريقِ اسْمِ الإشارةِ(٣).

- قولُه: ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ هذا الأمرُ مُفرَّعٌ على كونِه ربَّهم، والمفرَّعُ هو المقصودُ مِن الجملةِ، وما قَبلَه مُؤكِّدٌ لجملةِ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ﴾ تأكيدًا بِفَذْلَكةٍ(٤) وتحصيلٍ، والتَّقديرُ: (إنَّ ربَّكم اللهُ...) إلى قولِه: ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾، كقولِه: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨]؛ إذ وقَع قولُه: ﴿فَبِذَلِكَ﴾ تأكيدًا لجُملةِ ﴿بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾، وأوقَع بعدَه الفرْعَ وهو ﴿فَلْيَفْرَحُوا﴾، والتَّقديرُ: قُل بفضلِ اللهِ وبرَحمتِه فلْيَفرَحوا بذَلك(٥).

- قولُه: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾: جملةٌ ابتدائيَّةٌ للتَّقْريعِ، وهو غرَضٌ جديدٌ؛ فلِذَلِك

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١١٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٨٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) الفَذْلكة: كلمةٌ منحوتةٌ، كالبَسملةِ والحوقلةِ مِن قولِهم: (فذَلَك كذا)، أي: ذَكَر مُجمَل ما فُصِّل أولًا وخلاصته. وقد يُراد بالفذلكة النتيجة لِمَا سبَق من الكلام، والتفريع عليه، ومنها فذلكة الحساب، أي: مُجمَل تفاصيله، وإنهاؤه، والفراغ منه، كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ بعد قوله: ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾[البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨ - ٦٣٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٨٩).

لم تُعطَفْ؛ فالاستفهامُ إنكارٌ لانتِفاءِ تذكُّرِهم؛ إذ أشرَكوا معَه غيرَه، ولم يتَذكَّروا في أنَّه المنفرِدُ بخَلْقِ العوالِمِ، وبمِلْكِها وبتَدبيرِ أحوالِها(١).

٢- قولُه تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾

- وقولُه: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ فيه ذِكرُ ما يَقتَضي التَّذكيرَ، وهو كونُ مَرجِعِ الجميعِ إليه، وأكَّد هذا الإخبارَ بأنَّه وعدُ اللهِ الَّذي لا شكَّ في صِدْقِه، ثمَّ استأنَف الإخبارَ بقَولِه: ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾، وهو استئنافٌ مَعناه التَّعليلُ بابتِداءِ الخَلْقِ وإعادَتِه، وأنَّ الغرَضَ ومُقتَضى الحِكمةِ بذَلك هو جَزاءُ المكلَّفينَ على أعمالِهم(٢).

- وقولُه: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ فيه تقديمُ المجرورِ ﴿إِلَيْهِ﴾؛ لإفادَةِ القَصْرِ، أي: إلَيْه لا إلى غَيرِه(٣).

- وفيه مناسَبةٌ حسنةٌ، حيث قال هنا: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾، وقال أيضًا في سورةِ المائدة: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٤٨، ١٠٥]، بينما في سُورةِ هود قال: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ [هود: ٤]، ولم يَقُلْ: (جَميعًا)؛ وذلك لأنَّ ما في سورةِ يونُسَ والمائدةِ خِطابٌ للمؤمِنينَ والكافِرين جميعًا؛ يدُلُّ عليه قولُه بعدَه في سورةِ هودٍ: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ الآيةَ [يونس: ٤]، وقولُه بعدَه في سورةِ المائدةِ: ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨]، وأمَّا ما في هودٍ فهو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٨٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٢٨)،((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٩٠).

خِطابٌ للكفَّارِ فقط؛ يدُلُّ عليه: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾(١) [هود: ٣].

- قولُه: ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾: وموقعُ (إنَّ) تأكيدُ الخبرِ؛ نظَرًا لإنكارِهِمُ البَعثَ، فحصَل التَّأكيدُ مِن قولِه: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أمَّا كَوْنُه بدَأ الخلْقَ فلا يُنكِرونه(٢).

- وجملةُ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ استِئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّه لَمَّا ورَد ذِكْرُ جَزاءِ المؤمِنين على أنَّه العِلَّةُ لِرُجوعِ الجَميعِ إلَيه، ولَم يَذكُرْ في العِلَّةِ ما هو جَزاءُ الجميعِ؛ لا جَرَمَ يتَشوَّفُ السَّامعُ إلى معرفةِ جزاءِ الكافرين؛ فجاء الاستِئنافُ للإعلامِ بذلك، ونُكتةُ تَغييرِ الأسلوبِ- حيث لم يَعطِفْ جَزاءَ الكافِرين على جَزاءِ المؤمِنين فيُقالَ: (ويَجْزِيَ الَّذين كفَروا بعَذابٍ...)- الإشارةُ إلى الاهتمامِ بجَزاءِ المؤمِنين الصَّالِحين، وأنَّه الذي يُبادَرُ بالإعلامِ به، وأنَّ جزاءَ الكافِرين جديرٌ بالإعراضِ عَن ذِكْرِه لولا سؤالُ السَّامِعين(٣).

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٣٨-١٣٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٩١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٩٣).

الآيتان (٥-٦)

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ۝٦ ﴾.

المَعنى الإجماليُّ:

اللهُ الذي جعل الشَّمسَ مُضيئةً في النَّهارِ، وصيَّرَ القَمَرَ مُنيرًا في اللَّيلِ، وقَدَّرَ سَيرَه في منازِلَ؛ لِتَعلَموا- أيُّها النَّاسُ- عدَدَ السِّنينَ، وتَعلَموا حِسابَ اللَّيالي والشُّهورِ، لم يخلُقِ اللهُ ذلك إلَّا بالحَقِّ، يُبيِّنُ اللهُ الحُجَجَ والأدلَّةَ والبَراهينَ لِقَومٍ يَعلَمونَ.

إنَّ في تعاقُبِ اللَّيلِ والنَّهارِ، وفي كلِّ ما خلَقَ اللهُ في السَّمواتِ والأرضِ، لَأدِلَّةً واضِحةً على الخالِقِ جلَّ وعلا، وعلى ثُبوتِ المَرجِعِ إليه يومَ القيامةِ، لِقَومٍ يتَّقونَ غضبَ الله وعقابَه.

تَفسيرُ الآيتَين:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا قَرَّرَ اللهُ تعالى ربوبيَّتَه وإلهيَّتَه؛ ذكَرَ الأدلَّةَ العقليَّةَ الأفقيَّةَ الدَّالَّةَ على ذلك، وعلى كمالِه في أسمائِه وصِفاتِه؛ مِن الشَّمسِ والقَمَرِ، والسَّمَواتِ والأرضِ، وجَميعِ ما خلَقَ فيهما مِن سائِرِ أصنافِ المَخلوقاتِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٥٨)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٠٧)، ((تفسير =

فهذا استدلالٌ آخَرُ على انفرادِه تعالى بالتصَرُّفِ في المَخلوقاتِ، وهذا لونٌ آخَرُ مِن الاستدلالِ على الإلهيَّةِ، مَمزوجٌ بالامتنانِ على المحَجوجينَ به(١).

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾.

أي: اللهُ هو الَّذي صيَّرَ الشَّمسَ مُضيئةً إضاءةً ساطِعةً قَويَّةً في النَّهارِ، وصيَّرَ القمَرَ مُنيرًا في اللَّيلِ(٢).

كما قال سُبحانه: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا * وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا * وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [النبأ: ١١ - ١٣].

﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ ﴾.

أي: وقدَّر اللهُ وقضى مَسيرَ القَمَرِ في منازِلَ، يَنْزِلُ في كلِّ يومٍ وليلةٍ مَنزِلًا منها، وهيَّأ ذلك في كلِّ شَهرٍ(٣).

= أبي حيان)) (٦/ ١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١١٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١١٨)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٢٥، ١٢٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٨٣، ٤٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٩٥).

قال البغوي: (مَنازِلُ القَمَرِ ثمانيةٌ وعِشرونَ مَنزِلًا... وهذه المنازِلُ مَقسومةٌ على البُروجِ، وهي اثنا عشر بُرجًا... فلكُلِّ بُرجٍ مَنزِلانِ وثُلُثُ مَنزِلٍ، فينزِلُ القَمَرُ كُلَّ ليلةٍ مَنزِلًا منها، ويستَتِرُ ليلتينِ إن كان الشَّهرُ ثلاثينَ، وإنْ كان الشَّهرُ تِسعًا وعشرينَ، فليلة واحدة، فيكونُ انقضاءُ الشَّهرِ =

كما قال تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩].

﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾.

أي: قدَّرَ اللهُ القَمَرَ مَنازِلَ؛ لِتَعرِفوا- أيُّها النَّاسُ- عدَدَ السَّنواتِ، وتَعرِفوا حسابَ اللَّيالي والشُّهورِ، فتَنتَفِعوا بذلك في أمورِ دِينِكم ودُنياكم[1].

﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾.

أي: لم يخلُقِ اللهُ الشَّمسَ والقَمَرَ ومَنازِلَه، إلَّا لحكمةٍ عظيمةٍ تدلُّ على وحدانيَّتِه وعظمةِ صِفاتِه، ولم يخلُقْ ذلك عَبَثًا وباطِلًا[2].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ [الأنبياء: ١٦].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

أي: يُبيِّنُ اللهُ الحُجَجَ والأدلَّةَ الباهرةَ[3] لقومٍ يَعلَمونَ- إذا تدبَّروها- وَحدانيَّةَ اللهِ تعالى وقُدرَتَه، وآثارَ إحسانِه، ويستدِلُّونَ بها على شُؤونِ وصِفاتِ مُبدِعِها سُبحانه[4].

= بنُزولِ تلك المنازِلِ، ويكونُ مقامُ الشَّمسِ في كلِّ مَنزلةٍ ثلاثةَ عَشَرَ يَومًا وثُلُثَ يومٍ، فيكون انقضاءُ السَّنةِ مِن انقضائِها. ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤١٠-٤١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١١٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٥٨-٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١١٩)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٢٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٨).

(٣) قال الشوكاني: (المرادُ بالآياتِ: التكوينيَّةُ أو التَّنزيليةُ، أو مجموعُهما، وتدخُلُ هذه الآياتُ التَّكوينيَّةُ المذكورةُ هنا دُخولًا أوَّليًّا في ذلك). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١١٩)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٢٧)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٦، ٩٧].

وقال سبحانه: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨].

﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ۝٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا استدَلَّ اللهُ تعالى على إثباتِ الإلهيَّةِ والتَّوحيدِ بقَولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وثانيًا بأحوالِ الشَّمسِ والقَمَرِ؛ استدَلَّ ثالثًا بقَولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي: بالمجيءِ والذَّهابِ، والزِّيادةِ والنُّقصانِ، ورابعًا بقَولِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ مِن ملائكةٍ وشَمسٍ وقَمَرٍ ونجومٍ وغيرِ ذلك[1].

فهذا استدلالٌ آخَرُ على انفرادِ الله تعالى بالخَلقِ والتَّقديرِ، وهو استدلالٌ بأحوالِ الضَّوءِ والظُّلمةِ، وتعاقُبِ اللَّيلِ والنَّهارِ، وفي ذلك عِبرةٌ عَظيمةٌ، وهو بما فيه مِن عَطفِ قَولِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أعَمُّ مِن الدَّليلِ الأوَّلِ؛ لِشُمولِه ما هو أكثَرُ مِن خَلْقِ الشَّمسِ والقَمَرِ، ومِن خَلْقِ اللَّيلِ والنَّهارِ، ومِن كُلِّ ما في الأرضِ والسَّماءِ، مِمَّا تبلُغُ إليه مَعرِفةُ النَّاسِ في مُختَلِفِ العُصورِ، وعلى تفاوُتِ مَقاديرِ الاستدلالِ مِن عُقولِهم[2].

= عطية)) (٣/ ١٠٦)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٨٤)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٩٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٩٧).

﴿ إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾.

أي: إنَّ في تعاقُبِ اللَّيلِ والنَّهارِ، وخَلْفِ أحدِهما الآخَرَ، وفي كلِّ ما خلَقَ اللهُ في السَّمواتِ والأرضِ، لَأدلَّةً واضحةً على خالِقِها، وعلى ثُبوتِ المَعادِ إليه يومَ القيامةِ، لقومٍ يتَّقونَ غَضَبَ اللهِ وعِقابَه، فيَصرِفونَ العبادةَ له وَحْدَه لا شَريكَ له، ويَمتَثِلونَ أوامِرَه، ويَجتَنِبونَ نواهِيَه، لا يحمِلُهم هواهم على خِلافِ ما وضَحَ لهم من الحَقِّ[1].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وقال سُبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٣ - ٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٢٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٦)، ((منهاج السنة)) لابن تيمية (٥/ ٥٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٨٤)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٩٧).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١ - قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ في هذه الآياتِ الحَثُّ والتَّرغيبُ على التفكُّرِ في مخلوقاتِ الله، والنَّظرِ فيها بعَينِ الاعتبارِ؛ فإنَّ بذلك تنفتحُ البَصيرةُ، ويزدادُ الإيمانُ والعَقلُ، وتَقوَى القريحةُ، وفي إهمالِ ذلك تهاونٌ بما أمَرَ اللهُ به، وإغلاقٌ لزيادةِ الإيمانِ، وجمودٌ للذِّهنِ والقريحةِ[1].

٢ - قَولُ الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فيه تنويهٌ بفَضلِ العِلمِ، وكونِ الإسلام دِينًا عِلميًّا لا تقليديًّا؛ ولذلك قَفَّى على هذه الآياتِ السَّماويَّةِ في الشَّمسِ والقَمَرِ بآيةٍ مذكِّرةٍ بسائِرِ الآياتِ السَّماويَّةِ والأرضيَّةِ، فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١ - قَولُ الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ هذه الآيةُ أصلٌ في علمِ المواقيتِ والحسابِ ومنازِلِ القمرِ والتاريخِ[3].

٢ - سَمَّى سُبحانه الشَّمسَ سِراجًا وضياءً؛ لأنَّ فيها مع الإنارةِ والإشراقِ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٧).

تَسخينًا وإحراقًا، فهي بالنَّارِ أشبَهُ، بخلافِ القَمَرِ؛ فإنَّه ليس فيه مع الإنارةِ تَسخينٌ، فلِهذا قال: ﴿جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾[1].

٣- قال تعالى: ﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ﴾ وقال أيضًا: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩] فخَصَّ القَمَرَ بذِكرِ تَقديرِ المَنازِلِ دونَ الشَّمسِ، وإنْ كانَت مُقَدَّرةَ المَنازِلِ؛ لظُهورِ ذلك للحِسِّ في القَمرِ، وظهورِ تَفاوُتِ نُورِه بالزِّيادةِ والنُّقصانِ في كلِّ مَنزِلٍ؛ ولذلك كان الحِسابُ القَمَريُّ أشهَرَ وأعرَفَ عند الأُمَمِ، وأبعَدَ مِن الغَلَطِ، وأصَحَّ للضَّبطِ مِن الحِسابِ الشَّمسيِّ، ويَشتَرِكُ فيه النَّاسُ دون الحِسابِ الشَّمسيِّ؛ ولهذا قال تعالى في القَمَرِ: ﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ ولم يقُل ذلك في الشَّمسِ؛ ولهذا كانت أشهُرُ الحَجِّ والصَّومِ، والأعيادُ ومواسِمُ الإسلامِ، إنَّما هي على حِسابِ القَمَرِ وسَيرِه ونُزولِه في مَنازِلِه، لا على حسابِ الشَّمسِ وسَيرِها؛ حِكمةً مِن اللهِ ورَحمةً وحِفظًا لدِينِه، لاشتراكِ النَّاسِ في هذا الحِسابِ، وتعَذُّرِ الغلَطِ والخطأِ فيه، فلا يدخُلُ في الدِّينِ مِن الاختلافِ والتَّخليطِ ما دخلَ في دينِ أهلِ الكتابِ[2].

٤- قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ...﴾ في هذه الآيةِ إشارةٌ إلى أنَّ مَعرفةَ ضَبطِ التَّاريخِ نِعمةٌ أنعَمَ الله بها على البَشَرِ[3].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

(١) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٤/ ٣٦٨).
(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ١٩٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٩٦).

- قولُه: ﴿جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً﴾، أي: ذاتَ ضياءٍ، أو مُضيئةً، أو نَفْسَ الضِّياءِ، وفيه مُبالَغةٌ، ﴿وَالْقَمَرَ نُورًا﴾، أي: ذا نورٍ، أو مُنوَّرًا، أو نفسَ النُّورِ، وفيه مُبالغةٌ[1].

- ولَمَّا كانَت الشَّمسُ أعظَمَ جِرْمًا خُصَّتْ بالضِّياءِ؛ لأنَّه هو الَّذي له سُطوعٌ ولَمَعانٌ، وهو أعظَمُ مِن النُّورِ[2]؛ لِقُوَّتِه وكَمالِه، وخُصَّ القمَرُ بالنُّورِ؛ لأنَّه أضعَفُ مِن ذلك الضِّياءِ[3].

- قولُه: ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ جملةٌ مُستأنَفةٌ ابتدائيَّةٌ، مَسوقةٌ للامتِنانِ بالنِّعمةِ، ولِتَسجيلِ المؤاخَذةِ على الَّذينَ لم يَهتَدوا بهذه الدَّلائلِ إلى ما تَحتَوي عليه مِن البيانِ، والإتيانُ بالفِعلِ المضارِعِ ﴿يُفَصِّلُ﴾؛ لإفادةِ التَّكْرارِ[4].

- في قولِه: ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ خُصَّ مَن يَعلَمُ بتَفصيلِ الآياتِ لهم، مع أنَّه تعالى فَصَّل الآياتِ للجُهَلاءِ أيضًا؛ لأنَّ انتِفاعَهم بالتَّفصيلِ أكثرُ؛ فهُم الَّذين يَنتَفِعون بتَفصيلِ الآياتِ، ويتَدبَّرون بها في الاستِدْلالِ، والنَّظرِ الصَّحيحِ[5].

٢- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ...﴾ فِيه تأكيدُ هذا الاستدلالِ بحَرفِ ﴿إِنَّ﴾؛ لأجلِ تَنزيلِ المخاطَبين به الَّذين لم يَهتَدوا بتِلْك الدَّلائلِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((بيان المعاني)) للعاني (٣/ ٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٩٦- ٩٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٢٤٣).

إلى التَّوحيدِ مَنزِلةَ مَن يُنكِرُ أنَّ في ذلك آياتٍ على الوَحدانيَّةِ، بعَدمِ جَرْيِهم على مُوجِبِ العلمِ[1].

– قولُه: ﴿لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ خَصَّ المتَّقينَ؛ لأنَّهم الَّذين يحذرون من الوُقوعِ في شَيءٍ مِمَّا يخالِفُ مُرادَ الله سُبحانه، ويَخافون العَواقِبَ، فيَحمِلُهم الخوفُ على التدَبُّرِ والنَّظَرِ[2]، وفيه مُناسَبُة حسَنةٌ، حيث جُعِلَت الآياتُ هنا لقومٍ يتَّقون؛ لأنَّ السِّياقَ تعريضٌ بالمشرِكين الَّذين لم يهتَدوا بالآياتِ؛ لِيَعلَموا أنَّ بُعْدَهم عن التَّقوى هو سببُ حِرمانِهم مِن الانتِفاعِ بالآياتِ، وأنَّ نَفْعَها حاصِلٌ للَّذين يتَّقون، أي: يَحذَرون الضَّلالَ؛ فالمتَّقون هم المتَّصِفون باتِّقاءِ ما يوقِعُ في الخُسْرانِ، فيَبعَثُهم على تَطلُّبِ أسبابِ النَّجاحِ، فيتَوجَّهُ الفِكْرُ إلى النَّظرِ والاستِدْلالِ بالدَّلائلِ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٢٩)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٩٨).

الآيات (٧-١٠)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۝٨ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾: أي: سَكَنوا إليها، والطُّمأنينةُ والاطمِئنانُ: السُّكونُ بعد الانزِعاجِ(١).

﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا﴾: أي: دُعاؤُهم وقولُهم وكلامُهم؛ فالدَّعوى تُطلَقُ على: الادِّعاءِ والدُّعاءِ والقَولِ كذلك، وأصلُ (دعو): أنْ يُمِيلَ الشَّخصُ الشَّيءَ إليه بصَوتٍ وكَلامٍ يكونُ منه(٢).

المَعنى الإجماليُّ:

يبيِّنُ تعالى أنَّ الذينَ لا يتوقَّعونَ لِقاءَه يومَ القيامةِ، ورَضُوا بالحياةِ الدُّنيا بدلًا مِن الآخرةِ وسَكَنوا إليها، والذين هم عن آياتِه مُعرِضونَ؛ أولئك مَقَرُّهم ومَسكَنُهم النَّارُ في الآخرةِ؛ بسبَبِ ما كانوا يكسِبونَه من الكُفرِ والمعاصي.

والذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ يَهديهم اللهُ ويُرشِدُهم في الآخرةِ إلى

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٧٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٤٧، ٤٥٣).

جنَّاته؛ بسبَبِ إيمانِهم، تجري مِن تحتِهم الأنهارُ في جنَّاتِ النَّعيمِ، دُعاؤُهم في الجنَّةِ أن يقولوا: سُبحانَك يا أللهُ، وتَحيَّةُ بعضِهم لبعضٍ فيها: سلامٌ، وخاتِمةُ دُعائِهم أن يقولوا: الحمدُ للَّهِ رَبِّ العالَمينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ (٧)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أقام اللهُ تعالى الدَّلائِلَ القاهِرةَ على صِحَّةِ القَولِ بإثباتِ الإلهِ الرَّحيمِ الحكيمِ، وعلى صِحَّةِ القَولِ بالمَعادِ والحَشرِ والنَّشرِ؛ شَرَعَ بعْدَه في شرحِ أحوالِ مَن يَكفُرُ بها، وفي شَرحِ أحوالِ مَن يُؤمِنُ بها، فأمَّا شَرحُ أحوالِ الكافرينَ، فهو المذكورُ في هذه الآيةِ[1].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾.

أي: إنَّ الَّذين لا يتوقَّعونَ لِقاءَنا يومَ القيامةِ، فلا يَخافونَ مِن لِقاءِ اللَّهِ، ولا يَطمَعونَ فيه، ولا يَخافونَ مِن عِقابِه، ولا يَطمَعونَ في ثوابِه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٢١)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٢٧، ١٢٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٦، ١٠٧)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢١١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٩)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ١٨٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٨٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٩٩).

قال الشوكاني: (ومعنى الرجاءِ هنا: الخوفُ... وقيل: يَرجُون: يَطمَعون... فالمعنى على الأوَّلِ: لا يخافونَ عقابًا، وعلى الثاني: لا يطمعونَ في ثوابٍ، إذا لم يكن المرادُ باللِّقاءِ حَقيقتَه، فإن كان المرادُ به حقيقتَه كان المعنى: لا يخافونَ رُؤيَتَنا، أو لا يَطمعونَ في رُؤيَتِنا. وقيل: المرادُ بالرَّجاءِ هنا: التوقُّعُ، فيدخُلُ تحته الخوفُ والطَّمَعُ، فيكون المعنى: لا يرجونَ لِقاءَنا: لا =

﴿وَرَضُوا بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾.

أي: ورضُوا بالحياةِ الدُّنيا بدلًا من الآخرةِ، وفرحوا بها وركَنوا وسَكَنوا إليها[1].

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾.

أي: والذين هم[2] عن آياتِنا الكونيَّةِ والتَّنزيليَّةِ مُعرِضونَ، لا يتفكَّرونَ فيها، ولا يَعتَبِرونَ بها[3].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾.

= يتوقَّعونَ لِقاءَنا، فهم لا يخافونَه، ولا يطمعونَ فيه). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٨٥).

وقال محمد رشيد رضا: (فسَّرَ بعضُ المحَقِّقينَ الرجاءَ هنا بمجَرَّدِ التوقُّعِ الذي يشملُ ما يسُرُّ وما يسوءُ. واللِّقاء: الاستِقبال والمُواجَهة. والمعنى: إنَّ الذين لا يتوقَّعونَ لِقاءَنا في الآخرةِ للحِسابِ، وما يتلوه مِن الجزاءِ على الأعمالِ؛ لإنكارِهم البعثَ. ويلزَمُه أنَّهم لا يؤمِّلونَ لِقاءَه الخاصَّ بالمتَّقينَ في دارِ الكرامةِ، وخصَّه بَعضُهم بلقاءِ الرُّؤيةِ). ((تفسير المنار)) (١١/ ٢٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٢١)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٢٨، ١٢٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٧)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢١٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٨٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٩٩).

(٢) قال ابن عطية: (قَولُه: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ يحتَمِلُ أن يكونَ ابتداءَ إشارةٍ إلى فرقةٍ أخرى مِن الكُفَّارِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٨٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠٠).

قال ابن عاشور: (المراد بالغفلة: إهمالُ النَّظرِ في الآيات أصلًا، بقرينة المقامِ والسِّياقِ، وبما تومئُ إليه الصِّلةُ بالجملة الاسمية ﴿هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ الدالَّة على الدوامِ، وبتقديم المجرورِ في قولِه: ﴿عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ مِن كَونِ غَفلَتِهم غفلةً عن آياتِ الله خاصَّةً دون غيرها من الأشياءِ، فليسوا من أهل الغفلةِ عنها؛ ممَّا يدُلُّ مجموعُه على أنَّ غَفلتَهم عن آياتِ اللهِ دأبٌ لهم وسجيَّةٌ، وأنهم يتعمَّدونَها، فتؤُولُ إلى معنى الإعراضِ عن آياتِ اللهِ، وإباءِ النَّظرِ فيها عنادًا ومكابرةً، وليس المرادُ مَن تَعرِضُ له الغفلةُ عن بعض الآياتِ في بعض الأوقاتِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠٠).

أي: أولئك الذين تلك صِفاتُهم، مَقَرُّهم ومَسكَنُهم في الآخرةِ: النَّارُ؛ بسبَبِ ما كانوا يكسِبونَه في الدُّنيا مِنَ الكُفرِ والشِّركِ والمعاصي(١).

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لمَّا شَرَح الله تعالَى أحوالَ المنكرينَ والجاحدينَ في الآيةِ المتقدِّمةِ؛ ذكَر في هذه الآيةِ أحوالَ المؤمنينَ، فذكَر صفاتِهم أولًا، ثمَّ ذكَر ما لهم مِن الأحوالِ السَّنيَّةِ والدَّرجاتِ الرَّفيعةِ ثانيًا(٢).

فمناسبةُ ذكرِ هذه الآيةِ مقابلةُ أحوالِ الذينَ يكَذِّبونَ بلِقاءِ اللهِ بأضدادِها؛ تنويهًا بأهلِها وإغاظةً للكافرينَ(٣).

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡ ﴾.

أي: إنَّ الذين آمَنوا بكُلِّ ما وجَبَ عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحاتِ؛ يَزيدُهم ربُّهم في الدُّنيا هدًى إلى هداهم، ويُرشِدُهم في الآخرةِ إلى جنَّاتِه، وذلك بِسَببِ إيمانِهم(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٢٣)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٢٩، ١٣٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ١٧٤، ١٧٥)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٨).

كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦].

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

أي: تَجري مِن تحتِ هؤلاءِ- الذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ- الأنهارُ، فتَجْري مِن تحتِ غُرَفِهم ومقاعِدِهم وسُرُرِهم في بساتينِ النَّعيم(١).

﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٠)﴾.

﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾.

أي: دُعاءُ المُؤمِنينَ في الجنَّةِ أن يقولوا: سُبحانَك اللَّهُم، أي: ننزِّهُك يا ألله تنزيهًا مِن كلِّ عيبٍ ونَقصٍ(٢).

عن جابرِ بنِ عَبدِ اللهِ رَضِيَ الله عنهما، قال: سمعتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٢٥)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٣٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٨٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٢٦، ١٢٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٣)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٤١٧، ٤١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٩).

قال الرازي: (المرادُ اشتِغالُ أهلِ الجنَّةِ بتَقديسِ اللهِ سُبحانَه وتَمجيدِه والثَّناءِ عليه؛ لأجلِ أنَّ سَعادَتَهم في هذا الذِّكرِ، وابتهاجَهم به وسُرورَهم به، وكمالَ حالِهم لا يَحصُلُ إلَّا منه). ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢١٦).

وسلَّم يقولُ: ((إنَّ أهلَ الجنَّةِ يأكلونُ فيها ويَشرَبونَ، ولا يَتفِلونَ ولا يَبولونَ، ولا يتغوَّطونَ ولا يَمتَخِطونَ. قالوا: فما بالُ الطَّعامِ؟! قال: جُشاءٌ ورَشحٌ كرَشحِ المِسكِ، يُلهَمونَ التَّسبيحَ والتَّحميدَ، كما تُلهَمونَ النَّفَسَ))(١).

﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾.

أي: وتحيَّةُ المؤمنينَ في الجنَّةِ: دعاءُ بَعضِهم لِبَعضٍ بالسَّلامةِ مِن كُلِّ سُوءٍ(٢).

﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

أي: وخاتِمةُ دُعائِهم أن يقولوا: الحمدُ لِلَّهِ رَبِّ العالَمينَ، أي: جميعُ المحامِدِ مُستَحَقَّةٌ لله تعالى ربِّ العالمينَ؛ فهو وَحدَه الموصوفُ بالكَمالِ، مع محبَّتِه وتعظيمِه عزَّ وجلَّ(٣).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا

(١) رواه مسلم (٢٨٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٢٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٧، ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٩).
وقال الواحدي: (قوله: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ يحيي بعضُهم بعضًا بالسلامِ، وتحيةُ الملائكةِ إيَّاهم، وتحيةُ الله سلامٌ). ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٥٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٢٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٠، ٢٥١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٥٣).
قال ابنُ كثير: (جاءَ في الحديثِ: «إنَّ أهلَ الجنةِ يُلْهَمونَ التَّسبيحَ والتَّحميدَ كما يُلْهَمونَ النَّفَسَ» وإنَّما يكونُ ذلك كذلك؛ لِمَا يَرَونَ مِن تضاعُفِ نِعَمِ اللهِ عليهم، فتُكَرَّرُ وتُعادُ وتُزادُ، فليس لها انقضاءٌ ولا أمَدٌ، فلا إلهَ إلَّا هو، ولا ربَّ سواه). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥١).
وقال ابن عاشور: (معنى آخِرِ دَعواهم: أنَّهم يَختِمونَ به دُعاءَهم، فهم يكَرِّرونَ: سُبحانَك اللهُمَّ، فإذا أرادوا الانتقالَ إلى حالةٍ أخرى مِن أحوالِ النَّعيمِ، نَهَوْا دعاءَهم بجملةِ: الحمدُ لِلَّهِ رَبِّ العالَمينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠٤).

يَكْسِبُونَ﴾ في الآيةِ إشارةٌ إلى أنَّ البهجةَ بالحياةِ الدُّنيا والرِّضا بها، يكونُ مِقدارُ التوغُّلِ فيهما بمِقدارِ ما يَصرِفُ عن الاستعدادِ إلى الحياةِ الآخرةِ، وليس ذلك بمُقتضِ الإعراضَ عن الحياةِ الدُّنيا؛ فإنَّ اللهَ أنعَمَ على عبادِه بنِعَم كثيرةٍ فيها، وجَبَ الاعترافُ بفَضْلِه بها، وشُكْرُه عليها، والتعَرُّفُ بها إلى مراتِبَ أعلى، هي مراتبُ حياةٍ أخرى، والتزوُّد لها[1].

٢- قال تعالى: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ جُعِلَ الإيمانُ وَحْدَه سببَ الهدايةِ؛ لأنَّه هو الباعِثُ النَّفسيُّ لها[2].

الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ في هذه اللَّفظةِ رَدٌّ على الجَبريَّةِ[3]، فقد أَثْبَتَ الله تعالى للعبادِ كَسْبًا، والكَسْبُ: هو الفعلُ الَّذي يعودُ على فاعلِه منه نفعٌ أو ضَرَرٌ، فالعبادَ فاعِلونَ لأفعالِهم حقيقَةً، ويَسْتَوْجِبونَ عليها المدحَ والذَّمَّ[4].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ الباءُ في قَولِه: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ مُشعِرٌ بأنَّ الأعمالَ السَّابِقةَ هي المؤثِّرةُ في حُصولِ هذا العذابِ، ونظيرُه قَولُه تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾[5] [الحج: ١٠].

٣- قال الله تعالى: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ أضافها اللهُ إلى النَّعيمِ؛ لاشتمالِها على النَّعيمِ التَّامِّ؛ نعيمِ القَلبِ: بالفَرَحِ والسُّرورِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٩٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٥٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٧).
(٤) يُنظر: ((شرح العقيدة الطحاوية)) لابن أبي العز (٢/ ٦٤١، ٦٥٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢١٢).

والبهجةِ والحُبورِ، ورؤيةِ الرَّحمنِ وسَماعِ كَلامِه، والاغتباطِ برِضاه وقُربِه، ولقاءِ الأحبَّةِ والإخوانِ، والتمتُّعِ بالاجتماعِ بهم، وسَماعِ الأصواتِ المُطرِباتِ، والنَّغَماتِ المُشجِياتِ، والمَناظِرِ المُفرِحات، ونعيمِ البَدَنِ: بأنواعِ المآكِلِ والمَشارِبِ والمناكِحِ، ونحوِ ذلك ممَّا لا تَعلَمُه النُّفوسُ، ولا خطَرَ ببالِ أحدٍ، أو قدَرَ أن يَصِفَه الواصِفونَ[1].

٤- قولُه تعالى: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ و﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فيه أنَّ التَّسبيحَ والحَمدَ قد يُسمَّى دُعاءً، وكذلك التهليلُ، فعن ابنِ عبَّاسٍ: ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يقولُ عند الكَربِ: لا إلهَ إلَّا اللهُ العظيمُ الحَليمُ، لا إلهَ إلَّا اللهُ رَبُّ العَرشِ العَظيمِ، لا إلهَ إلَّا اللهُ ربُّ السَّمَواتِ، ورَبُّ الأرضِ، ورَبُّ العَرشِ الكَريمِ))[2]، وكان السَّلَفُ يُسَمُّونَه دعاءَ الكَربِ، وعن سعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((دعوةُ ذي النُّونِ إذ دعا بها في بطنِ الحُوتِ: لا إلهَ إلَّا أنت سُبحانَك إنِّي كنتُ مِن الظَّالِمينَ؛ فإنَّه لن يدعُوَ بها مُسلِمٌ في شَيءٍ إلَّا استُجيبَ له))[3].

٥- وَجهُ ذِكرِ: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ في عدَدِ أحوالِهم أنَّها تدُلُّ على أنَّ ما هُم فيه مِن النَّعيمِ هو غاياتُ الرَّاغِبينَ بحيثُ إن أرادوا أن يَنعَموا بمقامِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٨).

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٤٦)، ومسلم (٢٧٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٤).

والحديث أخرجه الترمذي (٣٥٠٥)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١٠٤٩٢) واللفظ له، وأحمد (١٤٦٢).

قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (١٠/ ١٦١): رجال أحمد رجال الصحيح غير إبراهيم بن محمد بن سعد بن أبي وقاص وهو ثقة، وحسنه ابن حجر كما في ((الفتوحات الربانية)) لابن علان (٤/ ١١)، وصحح إسناده أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٣/ ٣٦)، وصححه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٥٠٥).

دُعاءِ ربِّهم، الَّذي هو مَقامُ القُربِ لم يَجِدوا أنفُسَهم مُشتاقِين لشيءٍ يَسألونه، فاعتَاضوا عَن السُّؤالِ بالثَّناءِ على ربِّهم، فأُلهِموا إلى الْتِزامِ التَّسبيحِ؛ لأنَّه أدَلُّ لفظٍ على التَّمْجيدِ والتَّنزيهِ، فهو جامِعٌ للعِبارةِ عَن الكمالاتِ[١].

٦- يُستحَبُّ للدَّاعي أن يقولَ في آخرِ دُعائِه (الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ)، كما قال الله تعالى عن أهلِ الجنَّةِ: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٢].

٧- قولُه: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هذا فيه دلالةٌ على أنَّ اللَّهَ تعالَى هو المحمودُ أبدًا، المعبودُ على طولِ المَدَى؛ ولهذا حَمِد نفسَه عندَ ابتداءِ خَلْقِه واستمرارِه، وفي ابتداءِ كتابِه، وعندَ ابتداءِ تنزيلِه، حيثُ يقولُ تعالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الْكَهْف: ١]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١] إلى غيرِ ذلك مِن الأحوالِ الَّتي يطولُ بسطُها[٣]، ويختِمُ الأمورَ بالحَمدِ، كقَولِه تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزُّمَر: ٧٥]، ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الأنعام: ٤٥]، وهو سبحانه ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[٤][القَصص: ٧٠].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٤)، ((الأذكار)) للنووي (ص: ١١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٠).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٣٤).

استِئْنافُ وعيدٍ للَّذين لم يُؤمِنوا بالبَعثِ، ولا فكَّروا في الحياةِ الآخِرَةِ، ولم يَنظُروا في الآياتِ، نشَأ عَن الاستدلالِ على ما كفَروا به مِن ذلك؛ جَمعًا بينَ الاستِدلالِ المناسبِ لأهلِ العقولِ، وبينَ الوعيدِ المناسِبِ للمُعرِضين عن الحقِّ. ولِوُقوعِ هذه الجملةِ مَوقِعَ الوعيدِ الصَّالحِ لأَنْ يَعلَمَه النَّاسُ كلُّهم مُؤمِنُهم وكافِرُهم؛ عدَل فيها عن طريقةِ الخطابِ بالضَّميرِ إلى طريقةِ الإظهارِ، وجيءَ بالموصولةِ ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ...﴾؛ للإيماءِ إلى أنَّ الصِّلَةَ عِلَّةٌ في حُصولِ الخبَرِ[١].

- وفي الكلامِ مَحذوفٌ، والتَّقديرُ: ورَضُوا بالحياةِ الدُّنيا مِن الآخرةِ، كقولِه: ﴿أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾[٢] [التوبة: ٣٨].

- وفيه اختيارُ صيغةِ الماضي (رَضُوا- اطْمَأَنُّوا)؛ للدَّلالةِ على التَّحقُّقِ والتَّقرُّرِ، كما أنَّ اختيارَ صِيغةِ المستقبَلِ ﴿لَا يَرْجُونَ﴾؛ للإيذانِ باستِمْرارِ عدَمِ الرَّجاءِ[٣].

- قولُه: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث أُعيد الموصولُ؛ للاهتِمامِ بالصِّلةِ، والإيماءِ إلى أنَّها وحْدَها كافيةٌ في استِحْقاقِ ما سَيُذكَر بعدَها مِن الخبَرِ، وإنَّما لم يُعِدِ الموصولَ في قولِه: ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؛ لأنَّ الرِّضا بالحياةِ الدُّنيا مِن تَكْملةِ مَعْنى الصِّلةِ الَّتي في قولِه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾[٤].

٢- **قولُه تعالى: ﴿أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾** فيه الإتيانُ باسْمِ الإشارةِ ﴿أُولَئِكَ﴾؛ لِزيادَةِ إحصاءِ صِفاتِهم في أذهانِ السَّامِعين، ولِمَا يُؤْذِنُ به

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٩٨- ٩٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٢٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠٠).

مَجيءُ اسْمِ الإشارةِ مُبتَدَأً عَقِبَ أوصافِهم مِن التَّنبيهِ على أنَّ المشارَ إليه جديرٌ بالخبَرِ مِن أجلِ تلك الأوصافِ[1].

- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ في تَسميةِ دارِ العذابِ (مأوًى) معنًى دقيقٌ في البلاغةِ، يُشعِرُ بأنَّ أولئك المُطمئِنِّينَ بالشَّهواتِ، والغافلينَ عن الآياتِ؛ ليس لهم مصيرٌ يَلجَؤونَ إليه بعد هَولِ الحِسابِ، إلَّا جَهنَّمُ دارُ العذابِ، فوَيلٌ لِمَن كانت هذه الدَّارُ له كالمَلجأِ والمَوئِلِ؛ إذ لا مأوًى له يلجأُ إليه بَعدَها[2].

- قولُه: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ فيه الإتيانُ بـ(ما)؛ للإيماءِ إلى عِلَّةِ الحُكمِ، أي: إنَّ مَكْسوبَهم سببٌ في مَصيرِهم إلى النَّارِ، فأفاد تأكيدَ السَّببيَّةِ المفادَةِ بالباءِ، والإتيانُ بـ(كان)؛ للدَّلالةِ على أنَّ هذا المكسوبَ دَيدَنُهم[3].

- ومَجيءُ قولِه: ﴿يَكْسِبُونَ﴾ بصيغةِ المضارعِ؛ للدَّلالةِ على أنَّهم لم يَزالوا مُستمِرِّين على ذلك ماضِيَ زَمانِهم ومُستَقبَلَه؛ ففيه دَلالةٌ على التَّكريرِ، فيَكونُ دَيدَنُهم تَكْريرَ ذلك الَّذي كَسَبوه[4].

٣- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ ...﴾ جملةٌ مستأنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا؛ لِتَكونَ أحوالُ المؤمنين مُستقِلَّةً بالذِّكْرِ غيرَ تابعةٍ في اللَّفظِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠٠).

لأحوالِ الكافِرين، وهذا مِن طُرقِ الاهتِمامِ بالخبَرِ(١).

- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ وصَفَهم أوَّلًا بالإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ بصيغةِ الماضي؛ لبيانِ صِنفِهم وفريقِهم المُقابِلِ للفَريقِ الذي ذُكِرَ قبلَهم، وأخبَرَ عن هدايتِه لهم بصيغةِ المضارعِ ﴿يَهْدِيهِمْ﴾ الدالَّةِ على الاستمرارِ والتجَدُّدِ(٢).

- وفي قولِه: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ﴾ أُوثِرَ الالتِفاتُ؛ تَشْريفًا لهم بإضافةِ الرَّبِّ، وإشعارًا بعِلَّةِ الهدايةِ(٣)، وفي العُدولِ عَنِ اسمِ الجلالةِ العَلَمِ- حيثُ لم يَقُلْ: (يَهْديهم اللهُ)- إلى وصفِ الرُّبوبيَّةِ مُضافًا إلى ضَميرِ الَّذين آمَنوا ﴿رَبُّهُمْ﴾: تنويهٌ بشأنِ المؤمنينَ وشأنِ هِدايتِهم، بأنها ناتجةٌ عن كونِه سبحانَه مولى لأوليائِه؛ فشَأْنُها أن تكونَ عطيَّةً كاملةً مَشُوبةً برحمةٍ وكرامةٍ(٤).

٤- **قولُه تعالى: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** الاقتِصارُ على كَونِ دَعْواهُم فيها كَلِمةَ ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ يُشعِرُ بأنَّهم لا دَعْوى لهم في الجنَّةِ غيرَ ذلك القولِ؛ لأنَّ الاقتِصارَ في مَقامِ البيانِ يُشعِرُ بالقَصْرِ- وإن لم يَكُنْ هو مِن طُرقِ القَصْرِ، لكنَّه يُستَفادُ مِن المقامِ- ولكنَّ قولَه: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يُفيدُ أنَّ هذا التَّحميدَ مِن دَعْواهم؛ فتَحَصَّل مِن ذلك أنَّ لهم دَعْوى وخاتِمةَ دَعْوى(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ١٠٣).

الآيتان (١١-١٢)

﴿ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿طُغْيَانِهِمْ﴾: أي: عُتُوِّهِمْ وتكبُّرِهم. وأصلُ الطُّغيانِ: مُجاوزةُ الحدِّ[1].

﴿يَعْمَهُونَ﴾: أي: يتردَّدونَ ويتحيَّرونَ. وأصلُ (عمه): يدلُّ على حَيرةٍ، وقِلَّةِ اهتداءٍ[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ اللهُ تعالى أنَّه لو يعَجِّلُ للنَّاسِ الشَّرَّ كاستِعجالِهم بالخَيرِ، لَهَلكوا، ويَترُكُ اللهُ الذينَ لا يَرجُونَ لِقاءَه في الآخرةِ في ضَلالِهم متحَيِّرينَ مُتردِّدينَ.

وإذا مَسَّ الإنسانَ الضُّرُّ دعا ربَّه عَزَّ وجَلَّ، في جميعِ أحوالِه: مُضطجِعًا على جَنْبِه أو قاعدًا أو قائِمًا، فلمَّا كشَفَ اللهُ عنه ضُرَّه، استمَرَّ على ما كان عليه مِنَ الكُفرِ أو المعاصي، ونَسِيَ أو تناسى ما كان عليه مِن الشِّدَّةِ، ولم يشكُرِ اللهَ الذي فرَّجَ عنه، وكأنَّه لم يَدْعُه إلى رَفْعِ ما أصابَه، كذلك زُيِّنَ للكافرين المُجاوِزينَ الحَدَّ في الكُفرِ والعِصيانِ ما كانوا يَعملونَ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١)، ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١)، ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٣٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٢).

تفسيرُ الآيتَين:

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا وصَفَ الكُفَّارَ بأنَّهم لا يرجُونَ لِقاءَ اللهِ، ورَضُوا بالحياةِ الدُّنيا واطمَأنُّوا بها، وكانوا عن آياتِ الله غافلينَ - بَيَّنَ أنَّ مِن غَفلَتِهم أنَّ الرَّسولَ متى أنذَرَهم استعجَلوا العذابَ؛ جهلًا منهم وسَفَهًا(١).

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ الله عَجَبَ النَّاسِ مِن إيحائِه تعالى إلى رَجُلٍ منهم، وكان فيما أُوحِيَ إليه الإنذارُ والتَّبشيرُ، وكانوا يستهزئونَ بذلك، ولا يعتَقِدونَ حُلولَ ما أنذَروه بهم، ثمَّ استطرَدَ مِن ذلك إلى وحدانيَّتِه تعالى، وذِكْرِ إيجادِه العالَمَ، ثم إلى تقسيمِ النَّاسِ إلى مؤمِنٍ وكافرٍ، وذِكْرِ منازِلِ الفريقينِ - رجع إلى أنَّ ذلك المُنذَرَ به الذي طلَبوا وقوعَه عَجَلًا، لو وقَعَ لَهَلكوا، فلم يكُن في إهلاكِهم رجاءُ إيمانِ بَعضِهم، وإخراجُ مُؤمِنٍ مِن صُلبِهم، بل اقتضَتْ حِكمتُه ألَّا يُعجِّلَ لهم ما طَلَبوه؛ لِمَا ترتَّبَ على ذلك(٢).

وأيضًا هذه الجُملةَ مَعطوفةٌ على جملةِ ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ الآية، فحيث ذَكَرَ عذابَهم الذي هم آيِلونَ إليه، ناسَبَ أن يبيِّنَ لهم سبَبَ تأخيرِ العذابِ عنهم في الدُّنيا؛ لتُكشَفَ شُبهةُ غُرورِهم، ولِيَعلَمَ الذين آمنوا حكمةً مِن حِكَمِ تصَرُّفِ اللهِ في هذا الكَونِ(٣).

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠٦).

أي: ولو يُعجِّلُ الله للنَّاسِ الشرَّ إذا دَعَوْا به، كاستعجالِهم بالخيرِ(١)، لهلَكوا(٢).

عن جابرِ بنِ عَبدِ اللهِ، رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لا تَدْعُوا على أنفُسِكم، ولا تَدْعُوا على أولادِكم، ولا تَدعُوا على أمْوالِكم؛ لا تُوافِقوا مِن اللهِ ساعةً يُسألُ فيها عطاءً، فيستجيبَ لكم))(٣).

﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

أي: فنَترُكُ الذين لا يُؤمِنونَ بِلقائِنا، فلا يخافونَ عِقابَنا، ولا يَطمَعونَ في

---

(١) ذهب بعض المفسِّرين إلى أنَّ قولَه تعالى: ﴿اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ﴾ يعني تعجيلَ اللهِ الخيرَ لهم. أي: ولو يعجِّلُ الله للنَّاسِ إجابةَ دُعائِهم فيما فيه عليهم مضَرَّةٌ، كتعجيلِه لهم الإجابةَ في الخيرِ إذا دَعَوه به. وممن اختار ذلك: ابنُ جريرٍ، وابنُ كثيرٍ، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٩).

وجعل بعضُ المفَسِّرينَ الاستعجالَ مِن فِعلِ العبادِ، كما قال تعال: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]. ومنهم: ابنُ قتيبةَ، والواحديُّ، والبغويُّ، وابنُ عطيةَ. يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٦)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٣٤)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤١٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٥، ٢٢٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٣٣-١٣٦)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤١٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٩).

قال الواحدي: (قولُه تعالى: ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾، قال عامة المفَسِّرين: أي: لَماتوا وهلكوا جميعًا وفُرِغَ مِن هلاكهم، وقال أبو عبيدةَ: لفُرِغَ عن أجَلِهم، والتقدير: لفُرِغَ مِن أجلهم ومدَّتِهم المضروبةِ للحياة، فإذا انتهت مدَّتُهم المضروبةُ للحياة هلكوا، ومعنى الفراغِ مِن المدة: انقضاؤها، والشَّيءُ إذا انقضى فُرِغَ منه). ((البسيط)) (١١/ ١٣٦).

وقال ابنُ جُزي: (نزلت الآيةُ- عندَ قومٍ- في دعاءِ الإنسانِ على نفسِه ومالِه وولده، وقيل: نزلَتْ في الذينَ قالوا: ﴿إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٥٣).

وقال ابنُ عطيةَ: (حُذف بعدَ ذلك مِن القولِ جملةٌ يتضمَّنُها الظاهرُ، تقديرُها: «ولا يفعلُ ذلك، ولكن يذرُ الذين لا يَرجون...» فاقتضَب القولَ، وتوصَّل إلى هذا المعنَى بقولِه: ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقاءَنا﴾ فتأملْ هذا التقديرَ تجِدْه صحيحًا). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٨).

(٣) أخرجه مسلم (٣٠٠٩).

ثَوابِنا، نَترُكُهم في تَمَرُّدِهم مُتَرَدِّدينَ مُتَحَيِّرينَ، لا يَهتَدونَ إلى الحَقِّ(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ [النمل: ٤]

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى حكى عن الكافرينَ أنَّهم يَستعجِلونَ في نزولِ العَذابِ، ثمَّ بيَّنَ في هذه الآيةِ أنَّهم كاذِبونَ في ذلك الطَّلَبِ والاستعجالِ؛ لأنَّه لو نزَلَ بالإنسانِ أدنى شَيءٍ يَكرَهُه ويُؤذيه، فإنَّه يتضَرَّعُ إلى اللهِ تعالى في إزالَتِه عنه، وفي دَفْعِه عنه، وذلك يدُلُّ على أنَّه ليس صادِقًا في هذا الطَّلَبِ(٢).

وأيضًا لَمَّا استدعَى الكافِرونَ حُلولَ الشَّرِّ بهم، وأنَّه تعالى لا يفعَلُ ذلك بطَلَبِهم، بل يترُكُ مَن لا يرجو لقاءَه يَعمَهُ في طُغيانِه؛ بَيَّنَ شِدَّةَ افتقارِ النَّاسِ إليه، واضطرارَهم إلى استمطارِ إحسانِه؛ مُسيئِهم ومُحسِنِهم، وأنَّ مَن لا يرجو لِقاءَه مُضطَرٌّ إليه حالةَ مَسِّ الضُّرِّ له، فكُلٌّ يلجأُ إليه حينَئِذٍ، ويُفرِدُه بأنَّه القادِرُ على كَشفِ الضُّرِّ(٣).

وأيضًا فإنَّ هذه الآيةَ عَطفٌ على جُملةِ ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ﴾؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٣٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٠).

لأنَّ الغَرَضَ الأهَمَّ مِن كِلتَيهما، هو الاعتبارُ بذَميم أحوالِ المُشركينَ؛ تَفظيعًا لحالِهم، وتحذيرًا مِن الوقوعِ في أمثالِها، بقرينةِ تَنهيةِ هذه الآيةِ بجُملةِ: ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فلمَّا بَيَّنَ في الآية السَّابقةِ وَجْهَ تأخيرِ عَذابِ الاستئصالِ عنهم، وإرجاءِ جَزائِهم إلى الآخرةِ، بَيَّنَ في هذه الآيةِ حالَهم عِندَما يَمَسُّهم شيءٌ من الضُّرِّ، وعِندَما يُكشَفُ الضُّرُّ عنهم[1].

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾.

أي: وإذا أصابَ الإنسانَ الشِّدَّةُ والكَربُ اجتهَدَ في دعائِنا في جميعِ أحوالِه؛ مُضطَجِعًا على جَنْبِه، أو قاعدًا، أو قائمًا[2].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: ٣٢].

وقال سُبحانه: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١].

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾.

أي: فلمَّا فَرَّجْنا عن الإنسانِ المُضطَرِّ، واستجَبْنا دُعاءَه، استمَرَّ على ما كان عليه مِن الكُفرِ أو المعاصي، ونَسِيَ أو تناسى ما كان فيه مِن الشِّدَّةِ، ولم يتَّعِظْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١١٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٥٢).

قال السعدي: (هذا إخبارٌ عن طبيعةِ الإنسانِ مِن حيث هو). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٩).

قال ابن عطية: (الضُّرُّ لَفظٌ لِجَميعِ الأمراضِ والرَّزايا في النَّفسِ والمالِ والأحبَّةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٩). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ١٠٥).

بذلك، ولم يَشكُرِ، كأنَّه لم يَدْعُنا إلى رَفعِ ما أصابَه(١)!

كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥-٦٦].

وقال سُبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٨].

﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

أي: كما زُيِّنَ للإنسانِ الدُّعاءُ عند البَلاءِ، والإعراضُ عند الرَّخاءِ، واستمرارُه على ما كان عليه مِن كُفرانٍ بعد كَشْفِ ضُرِّه، كذلك زُيِّنَ للكافرين المُجاوِزينَ الحَدَّ في الكُفرِ والعِصيانِ ما كانوا يَعملونَه من ذلك(٢).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٣٢، ١٣٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٣٣)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٣٩، ١٤٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣١٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١١٢).

قال الشوكاني: (والتزيينُ هو إمَّا مِن جهةِ الله تعالى على طريقةِ [التخليةِ] وعدمِ اللطفِ بهم، أو مِن طريقِ الشيطانِ بالوسوسةِ، أو مِن طريقِ النفسِ الأمَّارة بالسوءِ). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٨٨).

وقال ابنُ عطيةَ: (ولفظةُ التَّزيينِ قد جاءت في القرآنِ بهذينِ المَعنَيينِ: مِن فِعلِ الله تعالى، ومرَّةً مِن فِعلِ الشَّياطينِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٩).

كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. المَقصودُ مِن هذه الآيةِ بيانُ أنَّ الإنسانَ قَليلُ الصَّبرِ عندَ نُزولِ البَلاءِ، قليلُ الشُّكرِ عندَ وِجدانِ النَّعماءِ والآلاءِ؛ فإذا مَسَّه الضُّرُّ أقبَلَ على التضَرُّعِ والدُّعاءِ، مُضطَجِعًا أو قائمًا أو قاعِدًا، مجتَهِدًا في ذلك الدُّعاءِ، طالبًا مِن اللهِ تعالى إزالةَ تلك المِحنةِ، وتبديلَها بالنِّعمةِ والمِنحةِ، فإذا كشَفَ تعالى عنه ذلك بالعافيةِ، أعرَضَ عن الشُّكرِ، ولم يتذَكَّرْ ذلك الضُّرَّ، ولم يَعرِفْ قَدْرَ الإنعامِ، وصار بمنزلةِ مَن لم يَدْعُ اللهَ تعالى لِكَشفِ ضُرِّه، وذلك يدُلُّ على ضَعفِ طبيعةِ الإنسانِ، وشِدَّةِ استيلاءِ الغَفلةِ والشَّهوةِ عليه، وإنَّما ذكَرَ الله تعالى ذلك؛ تنبيهًا على أنَّ هذه الطريقةَ مَذمومةٌ، بل الواجِبُ على الإنسانِ العاقِلِ أن يكونَ صابرًا عند نزولِ البَلاءِ، شاكِرًا عند الفَوزِ بالنَّعماءِ، ومِن شَأنِه أن يكونَ كَثيرَ الدُّعاءِ والتضَرُّعِ في أوقاتِ الرَّاحةِ والرَّفاهيةِ؛ حتى يكونَ مُجابَ الدَّعوةِ في وقتِ المِحنةِ[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ هو إجمالٌ يُنبِئُ بأنَّ الله جعَلَ نِظامَ هذا العالَمِ على الرِّفقِ بالمخلوقاتِ، واستبقاءِ الأنواعِ إلى آجالٍ أرادَها، وجعَلَ لهذا البَقاءِ وَسائِلَ الإمدادِ بالنِّعَمِ التي بها دوامُ الحياةِ، فالخيراتُ المُفاضةُ على المخلوقاتِ في هذا العالَمِ كثيرةٌ، والشُّرورُ العارِضةُ نادرةٌ، ومُعظَمُها مُسبَّبٌ عن أسبابٍ مَجعولةٍ في نظامِ الكَونِ وتصَرُّفاتِ أهلِه، ومنها ما يأتي على خِلافِ العادةِ عند محَلِّ آجالِه التي قَدَّرَها

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٢٠).

وقال ابنُ عطيةَ: (قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ...﴾ الآية، هذه الآيةُ أيضًا عِتابٌ على سوءِ الخُلُقِ من بعضِ النَّاسِ، ومُضَمَّنُه النَّهيُ عن مِثلِ هذا، والأمرُ بالتَّسليمِ إلى الله تعالى والضَّراعةِ إليه في كلِّ حالٍ، والعِلمُ بأنَّ الخَيرَ والشَّرَّ منه، لا رَبَّ غَيرُه). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٩).

الله تعالى بِقَولِه تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ [يونس: ٤٩]، وقولِه تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾(١) [الرعد: ٣٨].

٢- في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ﴾ جاء (الضرُّ) بالألف واللام؛ لأنَّه إشارةٌ إلى ما تقدَّمَ من الشَّرِّ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ﴾؛ فإنَّ الضُّرَّ والشَّرَّ واحِدٌ(٢).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ فائدةُ ذِكرِ هذه الأحوالِ أنَّ المضرورَ لا يزالُ داعيًا، لا يفتُرُ عن الدُّعاءِ، إلى أن يزولَ عنه الضُّرُّ، سواءٌ كان مُضطَجِعًا أو قاعدًا أو قائمًا(٣).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قد أُسنِدَ التَّزيينُ هنا إلى المَفعولِ؛ لأنَّه المقصودُ بالعِبرةِ دونَ فاعِلِه(٤).

بلاغةُ الآيتين:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ﴾ فيه وَضْعُ ﴿اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ﴾ موضِعَ (تَعْجيلِه لهم الخَيرَ)- لأنَّ أصلَه: (ولو يُعجِّلُ اللهُ للنَّاسِ الشَّرَّ تَعْجيلَه لهم الخيرَ)-؛ إشعارًا بسُرعةِ إجابَتِه لهم، وإسعافِه بطَلِبَتِهم، حتَّى كأنَّ استِعْجالَهم بالخَيرِ تعجيلٌ لهم(٥) وذلك على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٥٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٣١- ٣٣٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٩). =

أحدِ أوجهِ التأويلِ.

٢- قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ﴾ وصفٌ للمُستقبَلِ، وقوله: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا﴾ للماضي؛ للدَّلالةِ على أنَّه هكذا كان فيما مَضَى، وهكذا يَكونُ في المستقبَلِ؛ فدَلَّ ما في الآيةِ مِن الفعلِ المستقبَلِ على ما فيه مِن المعنى المستقبَلِ، وما فيها مِن الفِعْلِ الماضي على ما فيه مِن المعنى الماضي[1].

- وزيادةُ قولِه: ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾؛ لِقَصْدِ تعميمِ الأحوالِ وتَكْميلِها؛ لأنَّ المقامَ مَقامُ الإطنابِ لِزيادَةِ تمثيلِ الأحوالِ، أي: دَعانا في سائرِ الأحوالِ لا يُلْهيه عَن دُعائِنا شيءٌ[2].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ؛ حيث ابتَدَأ بالحالةِ الشَّاقَّةِ ﴿دَعَانَا لِجَنْبِهِ﴾، وهي اضطِجاعُه وعَجْزُه عن النُّهوضِ، وهي أعظَمُ في الدُّعاءِ وآكَدُ، ثُمَّ بما يَليها، وهي حالةُ القُعودِ: ﴿أَوْ قَاعِدًا﴾، وهي حالَةُ العَجزِ عن القيامِ، ثمَّ بما يَليها وهي حالةُ القيامِ: ﴿أَوْ قَائِمًا﴾، وهي حالةُ العَجزِ عَن المشيِ، فتَراه يَضْطَرِبُ

= وقيل: حقيقةُ قَولِك: عَجَّلتُ فُلانًا: طلبتُ عَجَلتَه، وكذلك عجلْتُ الأمرَ: إذا أتيتَ به عاجِلًا، كأنَّك طلبتَ فيه العَجَلةَ، والاستعجالُ أشهَرُ وأظهَرُ في هذا المعنى، وعلى هذا الوجهِ يَصيرُ معنى الآية: لو أراد اللهُ عَجَلةَ الشَّرِّ للنَّاسِ- كما أرادوا عجَلَةَ الخَيرِ لهم- لَقُضِيَ إليهم أجَلُهم، وعلى هذا التقدير: فلا حاجةَ إلى العدولِ عن ظاهِرِ الآية. وقيل: إنَّ كُلَّ مَن عَجَّل شيئًا فقد طلب تعجيلَه، وإذا كان كذلك، فكلُّ من كان مُعَجِّلًا كان مُستعجِلًا، فيصير التقديرُ: ولو استعجل اللهُ للنَّاسِ الشَّرَّ استعجالَهم بالخيرِ. إلَّا أنَّه تعالى وصف نفسَه بتكوينِ العَجَلةِ ووصَفَهم بطَلَبِها؛ لأنَّ اللائِقَ به تعالى هو التكوينُ، واللائقَ بهم هو الطَّلَبُ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢١٨-٢١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠٩).

ولا يَنهَضُ للمَشيِ كحالَةِ الشَّيخِ الهَرِمِ[١]، وذلك على أحدِ أوجهِ التأويلِ.

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ تذييلٌ يَعُمُّ ما تقَدَّم وغيرَه، والإشارةُ إلى التَّزيينِ المستَفادِ هنا، وهو تزيينُ إعراضِهم عن دُعاءِ اللهِ في حالةِ الرَّخاءِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١١٢).

الآيتان (١٣-١٤)

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤) ﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿الْقُرُونَ﴾: جمعُ قَرْنٍ، والقرنُ: القومُ أو الأُمَّةُ مِنَ النَّاسِ المقترنونَ في زمنٍ واحدٍ، غَيْر مُقَدَّرٍ بمدةٍ مُعَيَّنةٍ، وقيل: مدَّة القرنِ مئةُ سنةٍ، وقيل: ثمانونَ، وقيل: ثلاثون، وقيل غيرُ ذلك، وهو مأخوذٌ مِن الاقترانِ، وهو اجتماعُ شيئين، أو أشياءَ في معنًى مِن المعاني، وأصلُ (قرن): يدلُّ على جمعِ شيءٍ إلى شيءٍ[1].

﴿خَلَائِفَ﴾: أي: سُكَّانًا يخلُفُ بَعضُكم بعضًا، وأصلُ (خلف): أن يَجيءَ شَيءٌ بعدَ شَيءٍ يقومُ مَقامَه[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ اللهُ تعالى المُشركينَ أنَّه قد أهلَكَ الأمم مِن قَبْلِهم لَمَّا ظَلَموا بإشراكِهم باللهِ، وتكذيبِهم رُسُلَه، وأتتْ تلك الأمَمَ الماضيةَ رُسُلُ اللهِ إليهم بالمُعجِزاتِ والبَراهينِ الواضِحاتِ، فما كانوا ليُؤمنوا؛ لأنَّ اللهَ طَبَع على قُلوبِهم؛ لِشِدَّةِ كُفرِهم، ومُعانَدتِهم للحَقِّ، كذلك يَجزي الله القَومَ المُجرِمينَ.

ثم جَعَلَهم خلائِفَ في الأرضِ من بعدِ أولئك الأمَمِ التي أهلَكَها اللهُ، ليَنظُرَ كيف يَعملونَ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٠)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٢/ ٤٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦، ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٢٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٤٧٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٠).

تَفسيرُ الآيتَين:

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّه عاد الخِطابُ إلى المُشرِكينَ عَودًا على بَدْئِه، في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ...﴾ إلى قَولِه ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [يونس: ٣- ٥] بمناسبةِ التَّماثُلِ بينهم وبين الأُمَمِ قَبْلَهم في الغُرورِ بتَأخيرِ العَذابِ عنهم، حتى حَلَّ بهم الهلاكُ فجأةً، وهذه الآيةُ تَهديدٌ ومَوعظةٌ بما حلَّ بأمثالِهم(١).

وأيضًا لَمَّا كان مَحَطُّ نظَرِ الكافرينَ الدُّنيا، وكان ما سبَقَ صَريحًا في الإمهالِ للظَّالمينَ، والإحسانِ إلى المُجرمينَ؛ أتبَعَه بقَولِه تعالى مُهَدِّدًا لهم، رادعًا عمَّا هم فيه(٢):

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ﴾.

أي: ولقد أهلَكْنا بالاستئصالِ الأممَ الماضيةَ التي كانت قَبْلَكم- أيُّها المُشرِكونَ(٣)- لَمَّا أشرَكَ أهلُها باللهِ، وكَذَّبوا رُسُلَه، وخالفوا أمْرَه ونَهْيَه(٤).

كما قال سُبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٨٥).

(٣) ممَّن نَصَّ على أنَّ المُرادَ بالمُخاطَبينَ هنا: أهلُ مكَّةَ: مقاتِلُ بنُ سليمانَ، والقرطبيُّ. وذكر ابنُ جريرٍ أنَّهم المُشرِكونَ برَبِّهم. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١١٣).

مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة: ٢٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ [ق: ٣٦].

﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾.

أي: وأتت الأممَ الماضيةَ رُسُلُ اللهِ بالمُعجِزاتِ والبَراهينِ الواضِحةِ التي تدُلُّ على صِدقِهم(١).

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠].

﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾.

أي: فلم يكُن أهلُ القُرونِ الماضيةِ لِيُؤمِنوا برُسُلِ اللهِ الذين جاؤوهم بالمُعجِزاتِ؛ لأنَّ اللهَ طبَعَ على قُلوبِهم لشِدَّةِ كُفرِهم، ومُعانَدتِهم للحَقِّ(٢).

كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠١].

وقال سُبحانه: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ [يونس: ٧٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٣٣، ١٣٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٣٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ١٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٠٧).

﴿ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾.

أي: كما أهلَكْنا أهلَ القُرونِ الماضيةِ مِن قَبلِكم- أيُّها المُشرِكونَ- بسبَبِ شِرْكِهم، كذلك نُهلِكُكم إذا لم تَتوبوا وتُؤمِنوا باللهِ ورُسُلِه، ونُهلِكُ كُلَّ مُشرِكٍ وكافرٍ كذلك(١).

كما قال سبحانه: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ * كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ [المرسلات: ١٦-١٨].

﴿ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّ هذا الخِطابَ مَعطوفٌ على الذي قَبلَه، أي: ثمَّ جَعلْناكم خلائفَ في الأرضِ مِن بَعدِ أولئك الأقوامِ كُلِّهم بما آتيناكم في هذا الدِّينِ مِن أسبابِ المُلكِ والحُكمِ، وقَدَّرناه لكم باتِّباعِه، إذ كان الرَّسولُ الذي به جاءَكم هو خاتَمَ النَّبيِّينَ، فلا يُوجَدُ بعد أمَّتِه أمَّةٌ أخرى لنبيٍّ آخَرَ، فاللهُ يُبشِّرُ قومَ مُحمَّدٍ وأمَّةَ مُحمَّدٍ بأنَّها ستَخلُفُهم في الأرضِ، إذا آمَنت به، واتَّبعَت النُّورَ الذي أُنزِلَ معه(٢).

وأيضًا لَمَّا صَرَّحَ تعالى بأنَّ الجزاءَ المذكورَ عامٌّ لكُلِّ مُجرمٍ، أتبَعَه قولَه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ﴾ أي: أيُّها المُرسَلُ إليهم أشرَفُ رُسُلِنا ﴿خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ فيتعَلَّقُ نظَرُنا بأعمالِكم موجودةً؛ تخويفًا للمُخاطَبينَ مِن أن يُجرِموا فيُصيبَهم ما أصابَ مَن قبْلَهم(٣).

﴿ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٣٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٤١)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٠٧)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١١٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٥٩).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٨٦).

أي: ثمَّ جَعَلْناكم(١) سكَّانًا في الأرضِ، تكونون فيها مِن بَعدِ الأمَمِ الماضيةِ التي أهلَكْناها(٢).

﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

أي: استَخلَفْناكم بَعْدَهم؛ لِنَنظُرَ أيَّ عَمَلٍ تَعملونَ من أعمالِ الخَيرِ أو الشَّرِّ، فنُجازيكم عليه(٣).

عن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ الدُّنيا حُلوةٌ خَضِرةٌ(٤)، وإنَّ اللهَ مُستَخلِفُكم فيها، فينظُرُ كيف تَعمَلونَ))(٥).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- سبَبُ هلاكِ الأُمَمِ السَّابقةِ وُقوعُ الظُّلمِ مِنهم؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾(٦).

(١) قال الخازن: (الخطابُ لأهلِ مَكَّةَ الذين أُرسِلَ فيهم رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمعنى: ثمَّ جَعَلْناكم- أيُّها النَّاسُ- خُلَفاءَ في الأرضِ مِن بَعدِ القُرونِ الماضيةِ الذين أهلَكْناهم). ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٣٢).

وقال ابنُ عاشور: (المرادُ بـ(الأرض) بلادُ العَرَب، فالتعريفُ فيه للعَهدِ؛ لأنَّ المُخاطَبينَ خَلَفوا عادًا وثَمودَ وطَسمًا وجَدِيسًا وجُرْهُمًا في منازِلِهم على الجملةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٨)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٢٧)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٣٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٠٧)، ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٨/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٨٩)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٧٨)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١١).

(٤) حُلْوَة خَضِرة: أي: غضَّةٌ ناعِمةٌ طيِّبةٌ، مُزَيَّنةٌ في عيونِكم وقلوبِكم، وإنَّما وصَفها بالخَضِرَة؛ لأنَّ العربَ تُسمِّي الشَّيءَ النَّاعمَ خَضِرًا، أو لتشَبُّهِها بالخُضْرواتِ في سرعةِ زَوالِها. يُنظر: ((المعلم بفوائد مسلم)) للمازري (٢/ ٣٣) ((مرقاة المفاتيح)) للمُلا الهروي (٥/ ٢٠٤٤).

(٥) رواه مسلم (٢٧٤٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٥٨).

٢- قولُه تعالى: ﴿لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ مِن أدلَّةِ إثباتِ الصِّفاتِ الاختياريَّةِ لِلَّهِ تعالى؛ ففيه إثباتُ صِفةِ النَّظَرِ، فإنَّ اللامَ هنا هي لامُ (كي)، وهي تقتضي أنَّ ما بَعدَها متأخِّرٌ عن المعلولِ، فنَظَرُه لـ ﴿كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ هو بعدَ جعْلِهم خلائفَ[1].

بلاغةُ الآيتين:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ فيه توكيدُ التَّهديدِ والوَعيدِ؛ حيثُ أُكِّدَت الجُملةُ بلامِ القسَمِ و(قد) الَّتي للتَّحقيقِ[2].

- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ الخِطابُ لأمَّةِ الدَّعوةِ المُحمَّديةِ، وُجِّهَ أوَّلًا وبالذَّاتِ إلى قَومِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأهلِ وَطَنِه مكَّةَ؛ إذ أُنزِلَت السُّورةُ فيها، فهو التفاتٌ يُفيدُ مَزيدَ التَّنبيهِ، وتوجيهَ أذهانِ المُخاطَبينَ لِمَوضوعِه[3].

- قولُه: ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ اللَّامُ لِتَأكيدِ النَّفيِ، أي: وما صَحَّ وما استقام لهم أن يُؤمِنوا؛ لِفَسادِ استِعْدادِهم، وخِذْلانِ اللهِ تعالى إيَّاهم. أو: ما كانوا يُؤمِنون حقًّا، تأكيدًا لِنَفيِ إيمانِهم[4].

- قولُه: ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ على القولِ بأنَّ الضَّميرَ عائدٌ على أهلِ مكَّةَ، فيَكونُ الْتِفاتًا؛ لأنَّه خرَجَ مِن ضميرِ الخطابِ إلى ضَميرِ الغيبةِ، ويَكونُ مُتَّسِقًا معَ قولِه: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾[5].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٣٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٢).

- وفيه مناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال هنا: ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾، بالواوِ تَبعًا لها في قولِه: ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾، وقال في موضعٍ آخَرَ مِن سورةِ يونُسَ: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ﴾ [يونس: ٧٤]، وكذلك في سورةِ الأعرافِ: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ [الأعراف: ١٠١] بالفاءِ للتَّعقيبِ، على أصلِها[1].

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٤٣).

الآيات (١٥-١٧)

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾.

المعنى الإجماليُّ:

يبيِّنُ تعالى أنَّه إذا قُرِئَ على المُشركينَ آياتُ القُرآنِ واضحاتٍ، دالَّاتٍ على الحَقِّ، قال المُشرِكونَ- الذين يكذِّبونَ بالبَعثِ- لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أحضِرْ قُرآنًا آخَرَ ليس فيه ما نكْرَه، أو غيِّرْه بنَفسِك على الوَجهِ الذي نحِبُّ، فأمَرَ اللهُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُجيبَهم قائلًا: لا يحِقُّ لي أن أغيِّرَه مِن قِبَلِ نَفسي، ما أتَّبِعُ إلَّا ما يوحيهُ اللَّهُ إليَّ؛ إني أخافُ إن عصيتُ ربِّي عذابَ يومٍ عَظيمٍ، وهو يومُ القيامةِ.

وأمَرَه أيضًا أن يقولَ لهم: لو شاءَ اللهُ ما تَلَوتُ عليكم القُرآنَ، ولا أعلَمَكم اللهُ به؛ فقد أقمْتُ فيكم- يا أهلَ مكَّةَ- حِينًا طويلًا قبلَ أن يُوحَى إليَّ هذا القُرآنُ، أفلا تَعقِلونَ؟!

فلا أحَدَ أظلَمُ ممَّن تقوَّلَ على اللهِ الكَذِبَ، أو كذَّبَ بآياتِه؛ إنَّه لا يُفلِحُ المُجرِمونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ

أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بُدِئَت السُّورةُ بالكتابِ الحكيمِ (القُرآن)، وإنكارِ المُشرِكينَ للوَحيِ بشُبهتِهم المعروفةِ، وسِيقَت بَعدَها الآياتُ في إقامةِ الحُجَجِ عليهم؛ مِن خَلقِ العالَمِ عُلْويِّه وسُفليِّه، ومِن طبيعةِ الإنسانِ وتاريخِه، متضمِّنةً لإثباتِ أهَمِّ أركانِ الدِّينِ، وهو الوحيُ والتَّوحيدُ والبَعثُ- جاءت هذه الآياتُ الثَّلاثُ بعد ذلك في شأنِ الكتابِ نَفسِه، وتفنيدِ ما اقتَرَحه المُشرِكونَ على الرَّسولِ فيه، وحُجَّتِه البالغةِ عليهم، في كونِه وَحيًا مِن اللهِ تعالى[(١)].

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾.

أي: وإذا قُرِئَ على مُشرِكي قُرَيشٍ آياتُ القُرآنِ واضحاتٍ دالَّاتٍ على الحَقِّ، قال الذين يكَذِّبونَ بالبَعثِ، ولا يخافونَ عِقابَنا، ولا يَطمعونَ في ثَوابِنا: أحضِرْ- يا محمَّدُ- قُرآنًا آخَرَ ليس فيه ما نَكْرَهُ مِن التَّوحيدِ، والنَّهيِ عن الشِّركِ، وعَيبِ آلهتِنا، وذِكرِ البَعثِ والنُّشورِ، أو غيِّرْ هذا القُرآنَ بنَفسِك على الوَجهِ الذي نُحِبُّ[(٢)].

﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ﴾.

أي: قُلْ- يا مُحمَّدُ- لهؤلاءِ الكُفَّارِ: لا يحقُّ لي أن أُغيِّرَ القُرآنَ بمَحضِ رأيي، ومُقتضَى اجتهادِي، بِغَيرِ وَحْيٍ مِن اللَّهِ؛ فليس لي مِن الأمرِ شَيءٌ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٦٠-٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٣٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ١١)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٤٣، ١٤٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٠)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٣٦)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٤٤)، ((تفسير =

﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾.

أي: قُلْ- يا مُحمَّدُ- لهؤلاءِ الكُفَّارِ: إنَّما أنا عبدٌ مأمورٌ، ليس لي إلَّا أن أتَّبِعَ ما يُوحيه اللَّهُ إليَّ ويأمُرُني به، مِن غَيرِ زيادةٍ ولا نُقصانٍ، ولا تبديلٍ ولا تَحريفٍ(١).

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

أي: إنِّي أخشى- إن خالَفْتُ أمْرَ اللهِ، وبدَّلْتُ شَيئًا مِن كِتابِه- عذابَ يومِ القيامةِ العظيمِ الأهوالِ(٢).

كما قال تعالى عن يوم القِيامةِ: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١-٢].

﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّ الكافرينَ التَمَسوا مِنَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ذلك الالتِماسَ المذكورَ في الآيةِ السَّابقةِ؛ لأجلِ أنَّهم اتَّهَموه بأنَّه هو الذي يأتي بهذا الكِتابِ مِن عندِ نَفسِه، على سبيلِ الاختلاقِ والافتِعالِ، لا على سَبيلِ كَونِه وَحيًا من عندِ الله تعالى؛ فلهذا المعنى احتَجَّ النبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ على فَسادِ هذا الوَهمِ بما

= البيضاوي)) (٣/ ١٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٣)، ((تفسير المنار)) (١١/ ٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٩)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٩٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٦٢).

ذكَرَه اللهُ تعالى في هذه الآية[١].

﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ ﴾.

أي: قُلْ- يا محمَّدُ- لهؤلاءِ الكُفَّارِ: لو أراد اللَّهُ ما تَلَوتُ عليكم القُرآنَ؛ فاللهُ وَحْدَه هو الذي أنزَلَه عليَّ، وأمَرَني بِتِلاوَتِه عليكم، فهو ليس من قِبَلي، ولا أقدِرُ على ذلك، ولا أقدِرُ على الإتيانِ بقرآنٍ غيرِه[٢].

﴿ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ﴾.

أي: ولو أراد اللهُ لَمَا أعلَمَكم بالقرآنِ، ولا أخبَرَكم به، لكِنَّه أدْراكم به بعد أنْ لم تكونوا كذلك، فلو كان كَذِبًا وافتراءً كما تقولونَ، لأمكَنَ لِغَيري أن يَتلوَه عليكم، وتَدرونَ به مِن جِهَتِه؛ لأنَّ الكَذِبَ لا يَعجِزُ عنه البشَرُ، وأنتم لم تَدْروا بهذا مِن قَبْلُ، ولم تَسمَعوه مِن بشَرٍ غيري[٣].

﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

أي: فقد أقمْتُ فيكم- يا أهلَ مَكَّةَ- حينًا طويلًا مِن عُمُري- أربعينَ سنةً- قبلَ أن يُوحَى إليَّ هذا القرآنُ، ما جرَّبتُم عليَّ كذبًا قطُّ، تَعرِفونَ صدقي وأمانتي، وأنِّي لستُ ممَّن يقرأُ أو يكتبُ، ثمَّ جِئتُكم بالقُرآنِ، أفلا تَعقِلونَ بذلك أنَّه وحيٌ مِن عندِ الله تعالى[٤]؟!

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٢٥-٢٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٣٧)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٠)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٨٧، ١٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٩٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٣٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٠)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٠)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٨٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٩٠).

(٤) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٤٧، ١٤٨)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٢٥، ٢٢٦)، =

كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ * أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٩-٧٠].

وعن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما: ((أنَّ أبا سُفيانَ أخبَرَه أنَّ قَيصَرَ سأَلَه عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: هل كُنتُم تتَّهِمونَه بالكَذِب قبلَ أن يقولَ ما قال؟ قلتُ: لا...)) وذكر الحَديثَ بطولِه، وفيه: ((قال: سألتُك هل كُنتُم تتَّهِمونَه بالكَذِب قبلَ أن يقولَ ما قال؟ فذَكَرْتَ أنْ لا، فقد أعرِفُ أنَّه لم يكُنْ لِيَذَرَ الكَذِبَ على النَّاسِ ويكذِبَ على اللهِ!))(١).

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (١٧)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

هذه الآيةُ تَتِمَّةُ الرَّدِّ على اقتراحِ المُشرِكينَ؛ فإنَّه رَدَّ عليهم أوَّلًا ببيانِ حَقيقةِ الأمرِ الواقِعِ، وهو أنَّ تبديلَ القُرآنِ ليس مِن شَأنِ الرَّسولِ في نَفسِه، ولا ممَّا أَذِنَ اللهُ له به، بل يُعاقِبُه عليه أشَدَّ العِقابِ في الآخرةِ إنْ فُرِضَ وُقوعُه منه؛ لأنَّه كلامُه الخاصُّ به. وثانيًا: بإقامةِ الحُجَّةِ العَقليَّةِ على أنَّه كلامُ الله، وأنَّه ليس في استطاعتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الإتيانُ بمِثلِه، ثمَّ عَزَّز هاتينِ الحُجَّتَينِ بثالثةٍ أدبيَّةٍ، وهي: أنَّ شَرَّ أنواعِ الظُّلمِ والإجرامِ في البَشَرِ شيئان؛ أحدُهما: افتراءُ الكَذِبِ على اللهِ، وهو ما اقتَرَحوه عليه بجُحودِهم، وثانيهما: التَّكذيبُ بآياتِ

= ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢١)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٨٨)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٤٧١، ٤٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٥٣).

(١) رواه البخاري (٧) ومسلم (١٧٧٣).

اللهِ، وهو ما اجترَحوه بإجرامِهم[١].

وأيضًا فإنَّ الكافرينَ التَمَسوا مِن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قُرآنًا يَذكُرُه مِن عندِ نَفْسِه، ونَسَبوه إلى أنَّه إنَّما يأتي بهذا القُرآنِ مِن عِندِ نَفسِه، ثمَّ إنَّه أقام البُرهانَ القاهِرَ الظَّاهِرَ على أنَّ ذلك باطِلٌ، وأنَّ هذا القُرآنَ ليس إلَّا بِوَحيِ اللهِ تعالى وتَنزيلِه، فعندَ ذلك قال[٢]:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾.

أي: فلا أحَدَ أشَدُّ كَذِبًا، وأوضَعُ لِقَولِه في غيرِ مَوضِعِه ممَّن تقوَّلَ الكَذِبَ على اللهِ سُبحانه- كمَن زعَمَ أنَّ اللهَ أوحَى إليه- أو كذَّبَ بآياتِ كِتابِه فلم يُصَدِّقْها[٣].

﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾.

أي: إنَّه لا يفوزُ الكافرونَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤١)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٤٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٩١).
قال ابن عاشور: (الظُّلم هنا: بمعنى الاعتداءِ، وإنَّما كان أحدُ الأمرَينِ أشَدَّ الظُّلمِ؛ لأنَّه اعتداءٌ على الخالِقِ بالكَذِبِ عليه وبتكذيبِ آياتِه). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٢٤).
وهذه الآيةُ قيل: إنَّها مِن جُملةِ رَدِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على المُشرِكينَ، لَمَّا طلَبوا منه أن يأتيَ بقُرآنٍ غَيرِ هذا القرآنِ، أو يُبَدِّلَه. وممَّن اختار ذلك: ابنُ جرير، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤١)، ((الوجيز)) (ص: ٤٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٩٢).
قال الشَّوكاني: (﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ تعليلٌ لِكَونِه لا أظلَمَ ممَّن افترَى على اللهِ كَذِبًا أو كذَّبَ بآياتِه، أي: لا يظفَرونَ بمَطلوبٍ، ولا يَفوزونَ بِخَيرٍ، والضميرُ في ﴿إِنَّهُ﴾ للشَّأنِ: أي: إنَّ الشَّأنَ هذا). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٩٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هذا جوابٌ حَسَنٌ؛ فإنَّه لَمَّا كان أحدُ المَطلوبَينِ التَّبديلَ، بدأ به في الجوابِ، ثُمَّ أُتبِعَ بأمرٍ عامٍّ يشمَلُ انتفاءَ التَّبديلِ وغيرِه، ثمَّ أتى بالسَّبَبِ الحامِلِ على ذلك، وهو الخوفُ، وعَلَّقَه بمُطلَقِ العِصيانِ، فبأدنَى عصيانٍ ترتَّبَ الخَوفُ[1].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هم طَلَبوا مِن رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أحدَ أمرَينِ على البَدَلِ: فالأوَّلُ: أن يأتيَهم بقرآنٍ غيرِ هذا القُرآنِ. والثاني: أن يُبدِّلَ هذا القُرآنَ، وفيه إشكالٌ؛ لأنَّه إذا بدَّلَ هذا القرآنَ بغَيرِه، فقد أتى بقرآنٍ غيرِ هذا القُرآنِ، وإذا كان كذلك، كان كلٌّ واحدٍ منهما شيئًا واحدًا، وإذا ثبت أنَّ كُلَّ واحدٍ مِن هذينِ الأمرينِ هو نفسُ الآخَرِ، كان إلقاءُ اللَّفظِ على التَّرديدِ والتَّخييرِ فيه باطلًا.

والجواب: أنَّ أحَدَ الأمرينِ غيرُ الآخَرِ؛ فالإتيانُ بكتابٍ آخَرَ لا على ترتيبِ هذا القرآنِ، ولا على نَظمِه، يكونُ إتيانًا بقُرآنٍ آخَرَ، وأمَّا إذا أتى بهذا القُرآنِ، إلَّا أنَّه وضع مكانَ ذَمٍّ بعضَ الأشياءِ مَدحَها، ومكانَ آيةِ رحمةٍ آيةَ عَذابٍ، كان هذا تبديلًا، أو يقالُ: الإتيانُ بقُرآنٍ غَيرِ هذا، هو أن يأتيَهم بكتابٍ آخَرَ سِوى هذا الكِتابِ، مع كَونِ هذا الكتابِ باقيًا بحالِه، والتَّبديلُ هو أن يغيِّرَ هذا الكتابَ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٢٤).

٣- إذا قيلَ: هم طَلَبوا مِن رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أحدَ أمرَينِ: إمَّا أن يأتيَهم بقُرآنٍ غيرِ هذا القُرآنِ، أو أن يبَدِّلَ هذا القرآنَ، ومع ذلك اكتفَى في الجوابِ على نَفيِ أحدِ القِسمَينِ وهو قولُه: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ...﴾[1]. فيُقال: الجوابُ المذكورُ عن أحَدِ القِسمَينِ هو عَينُ الجوابِ عن القِسمِ الثَّاني، وإذا كان كذلك وقَعَ الاكتفاءُ بذِكرِ أحَدِهما عن ذِكرِ الثَّاني[2]. وقيل: نفَى عن نَفسِه أحَدَ القِسمَينِ، وهو التَّبديلُ؛ لأنَّه الذي يُمكِنُه- لو كان ذلك جائزًا- بخِلافِ القِسمِ الآخَرِ، وهو الإتيانُ بقرآنٍ آخَرَ؛ فإنَّ ذلك ليس في وُسعِه، ولا يقدِرُ عليه. وقيل: إنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم نفَى عن نَفسِه أسهَلَ القِسمَينِ؛ ليكونَ دليلًا على نَفيِ أصعَبِهما بالطَّريقِ الأَوْلى، وهذا منه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن بابِ مُجاراةِ السُّفهاءِ؛ إذ لا يَصدُرُ مِثلُ هذا الاقتراحِ عن العُقَلاءِ بعد أنْ أمَرَه اللهُ سُبحانَه بذلك[3].

٤- قال الله تعالَى عن المشركينَ: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ وقولُهم هذا يحتَمِلُ أن يكونَ جِدًّا، ويحتَمِلُ أن يُريدوا به الاستهزاءَ، وعلى الاحتمالينِ فقد أمرَ اللهُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأن يُجيبَهم بما يَقلَعُ شُبهَتَهم مِن نُفوسِهم إن كانوا جادِّينَ، أو مِن نُفوسِ مَن يَسمَعونَهم مِن دَهْمائِهم فيَحسَبون كلامَهم جِدًّا، فيتَرقَّبون تبديلَ القُرآنِ، فقال تعالى له: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا

---

(١) لكن قال محمد رشيد رضا: (لَكِنَّه الجوابَ عنِ الشِّقِّ الأوَّلِ مفصولاً لأهمِّيَّتِه بقولِه: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: ولو شاء ألَّا يُدرِيَكم ويُعْلِمَكم به بإرسالي إليكم، لَمَا أرسَلَني، ولَمَا أدراكم به، ولكِنَّه شاء أن يَمُنَّ عليكم بهذا العِلمِ الأعلى؛ لِتَدرُوه فتَهتَدوا به، وتكونوا بهدايتِه خلائِفَ الأرضِ، وقد عُلِمَ أنَّ هذا إنَّما يكونُ به لا بقُرآنٍ آخَرَ... ومِن الغَريبِ أن ترى أساطينَ المُفَسِّرينَ لم يَفهَموا من الآيةِ أنَّ فيها جوابًا عن الشِّقِّ الأوَّلِ مِن اقتراحِ المُشرِكينَ، وهو الإتيانُ بقُرآنٍ آخَرَ، وقد هدانا اللهُ تعالى إليه مع بُرهانِه بفَضلِه، وكم تَرَكَ الأوَّلُ للآخِرِ!). ((تفسير المنار)) (١١/ ٢٦٢، ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٨٩).

يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾(١).

٥- قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ يُفهَمُ مِن قَولِه تعالى: ﴿مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ أنَّ اللهَ تعالى يُبدِّلُ منه ما شاء بما شاء، وصَرَّحَ بهذا المفهومِ في مواضِعَ أُخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ [النحل: ١٠١]، وقولِه تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]، وقولِه تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى * إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾(٢) [الأعلى: ٦- ٧].

٦- في قوله: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ دلَّ سياقُ الكلامِ على أنَّ الإتيانَ بقرآنٍ آخرَ غيرِ هذا، بمعنَى إبطالِ هذا القرآنِ، وتعويضِه بغيرِه، وأنَّ تبديلَه بمعنَى تغييرِ معاني وحقائقِ ما اشْتَملَ عليه ممتنِعٌ، ولذلك لم يُلَقَّنِ الرسولُ صلَّى الله عليه وسَلَّم أنْ يقولَ هنا: إلَّا ما شاءَ اللَّه، أوْ نحو ذلك(٣).

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ لَمَّا كان هذا الكتابُ العَظيمُ قد جاء على يَدِ مَن لم يتعَلَّمْ، ولم يُتلمذْ، ولم يطالِعْ كِتابًا، ولم يمارِسْ مُجادلةً، عُلِمَ بالضَّرورةِ أنَّه لا يكونُ إلَّا على سبيلِ الوَحيِ والتَّنزيلِ، وإنكارُ العُلومِ الضَّروريةِ يَقدَحُ في صِحَّةِ العَقلِ، فلِهذا السَّبَبِ قال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾(٤).

٨- قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١١٧).
(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٥٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١١٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٢٦).

قولُه تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ المقصودُ منه نفيُ الكَذِبِ عن نَفسِه، وقَولُه تعالى: ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ المقصودُ منه إلحاقُ الوَعيدِ الشَّديدِ بهم؛ حيث أنكَروا دَلائِلَ اللهِ، وكَذَّبوا بآياتِ الله تعالى[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾

- قولُه: ﴿وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ﴾ فيه الْتِفاتٌ مِن خِطابِهم إلى الغيبةِ؛ إعراضًا عنهُم، وتَوجيهًا الخطابَ إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم بتَعْديدِ جِناياتِهم المضادَّةِ لما أُريدَ مِنهم بالاستِخْلافِ مِن تكذيبِ الرَّسولِ والكفرِ بالآياتِ البيِّناتِ[2]، ويظهَرُ في هذه الآيةِ أنَّ نُكتةَ حكايةِ هذا الاقتراحِ السَّخيفِ بِأسلوبِ الإخبارِ عن قَومٍ غائبينَ إفادةُ أمرَينِ؛ أحدُهما: إظهارُ الإعراضِ عنهم كأنَّهم غيرُ حاضرينَ؛ لأنَّهم لا يستحِقُّونَ الخِطابَ به مِنَ الله تعالى. ثانيهما: تلقينُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الجوابَ عنه بما ترى مِن العبارةِ البليغةِ التَّأثيرِ[3].

- قولُه: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ فيه تقديمُ الظَّرفِ ﴿وَإِذَا تُتْلَى...﴾ على عامِلِه، وهو قولُه: ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾؛ للاهتِمام بذِكْرِ ذلك الوقتِ الَّذي تُتلى فيه الآياتُ عليهم، فيَقولون فيه هذا القولَ؛ تعجُّبًا مِن كَلامِهم، ووَهنِ أحلامِهم[4].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٢٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٢٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٦١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١١٧).

- والتَّعبيرُ بالفِعلِ المضارِعِ ﴿تُتْلَى﴾؛ للدَّلالةِ على التَّكرُّرِ والتَّجدُّدِ، أي: ذلك قولُهم كُلَّما تُتلى علَيهم الآياتُ[1]، وبُني للمَفعولِ؛ إيذانًا بتكذيبِهم عند تلاوةِ أيِّ تالٍ كان[2].

- قولُه: ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ فيه وضعُ الموصولِ موضِعَ الضَّميرِ- حيث لم يَقُلْ: (قَالُوا)- إشعارًا بعِلِّيَّةِ ما في حَيِّزِ الصِّلةِ؛ للعَظيمةِ المَحكيَّةِ عَنهم، وأنَّهم إنَّما اجتَرَؤوا عليها لِعدَمِ خوفِهم مِن عِقابِه تَعالى يومَ اللِّقاءِ؛ لإنكارِهم له، ولِما هو مِن مَباديه مِن البَعثِ[3].

- قولُه: ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ لَمَّا كان لاقتِراحِهم مَعنًى صريحٌ، وهو الإتيانُ بقُرآنٍ آخَرَ، أو تبديلُ آياتِ القرآنِ الموجودِ، ومعنًى التزاميٌّ كنائيٌّ، وهو أنَّه غيرُ مُنزَّلٍ مِن عِندِ اللهِ، وأنَّ الَّذي جاء به غيرُ مُرسَلٍ مِن اللهِ؛ كان الجوابُ عن قولِهم جَوابَين، أحَدُهما: ما لَقَّنه اللهُ بقولِه: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾، وهو جوابٌ عن صريحِ اقتراحِهم، وثانيهما: ما لقَّنه بقولِه: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ﴾ وهو جوابٌ عن لازِمِ كلامِهم، وقد جاء الجوابُ عن اقتراحِهم كَلامًا جامِعًا؛ قضاءً لِحَقِّ الإيجازِ البديعِ، وجاءَ بأبلَغِ صِيَغِ النَّفيِ، وهو: ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ﴾، أي: ما يَكونُ التَّبديلُ مِلكًا بيَدي[4].

- وجملةُ ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ في موضِعِ التَّعليلِ لِجُملةِ ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾؛ ولذلك فُصِلَت عنها- أي: لم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١١٧).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٨٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٢٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١١٧-١١٨).

تُعطَفْ- واقتَرَنَت بحَرفِ (إنَّ)؛ للاهتمامِ، و(إنَّ) تُؤْذِنُ بالتَّعليلِ(١).

- قولُه: ﴿إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ فيه التَّعرُّضُ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ، مَعَ الإضافةِ إلى ضَميرِه صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم؛ لِتَهويلِ أمرِ العِصْيانِ، وإظهارِ كَمالِ نَزاهتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عنه(٢).

- قولُه: ﴿يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فيه إيرادُ اليومِ بالتَّنوينِ التَّفخيميِّ، ووصفُه بالعِظَمِ؛ لِتَهويلِ ما فيه مِن العذابِ وتَفظيعِه(٣).

٢- قولُه تعالى: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فيه مُبالَغةٌ في التَّبرِئةِ ممَّا طلَبوا منه، أي: إنَّ تِلاوتَه عليهم هذا القرآنَ إنَّما هو بمَشيئةِ اللهِ تَعالى، وإحداثِه أمرًا عجيبًا خارِجًا عن العاداتِ(٤).

- ومفعولُ ﴿شَاءَ﴾ محذوفٌ، أي: (قُل لو شاء اللهُ أنْ لا أَتلُوَه...)، وجاء جوابُ (لو) على الفصيحِ مِن عدمِ إتيانِ اللَّامِ؛ لِكَونِه مَنفيًّا بما(٥).

٣- قولُه تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾

- قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ، وتقريرٌ، أي: لا أحَدَ أظلَمَ مِمَّن افْتَرى على اللهِ كَذِبًا، أو ممَّن كَذَّب بآياتِه بعدَ بَيانِها(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٢٤).

- قولُه: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ تذييلٌ، وموقِعُه يقتَضي شُمولَ عُمومِه للمَذكورين في الكَلامِ المذيَّلِ، فيَقْتَضي أنَّ أولئك مُجرِمون، وأنَّهم لا يُفلِحون[1].

- وقولُه أيضًا: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ فيه تأكيدُ الجملةِ بحَرفِ التَّأكيدِ (إنَّ)؛ وذلك نَظرًا إلى شُمولِ عُمومِ المُجرِمين للمُخاطَبين؛ لأنَّهم يُنكِرون أن يَكونوا مِن المجرِمين. وفيه افتِتاحُ الجملةِ بضَميرِ الشَّأنِ ﴿إِنَّهُ﴾؛ لِقَصدِ الاهتِمامِ بمَضمونِها[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٢٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٨-٢٠)

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ المُشرِكينَ يعبدونَ مِن دونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهم ولا ينفَعُهم، ويقولونَ إنَّ هؤلاءِ الذين نَعبُدُهم يَشفَعونَ لنا عندَ الله، وأمَرَ اللهُ نَبيَّه مُحمَّدًا أن يقولَ لهم: أتُخبِرونَ الله بما ليس موجودًا في السَّمواتِ ولا في الأرضِ، تَنَزَّه الله وتقَدَّسَ عمَّا يُشرِكونَ.

ويبيِّنُ تعالى أنَّ النَّاسَ كانوا مُجتَمِعينَ على دينِ التَّوحيدِ، فاختلفوا في دينِهم، وأشرَكوا بالله، ولولا أنَّه سبَقَ مِن اللهِ أنَّه يُمهِلُ المُشرِكينَ والعُصاةَ، ويؤخِّرُ جزاءَهم إلى يومِ القيامةِ؛ لحكَمَ سبحانه بينَ مَن اختلَفوا في الدُّنيا، فيُنَجِّي أهلَ التَّوحيدِ، ويعجِّلُ بعقوبةِ المُشرِكينَ.

ويخبِرُ تعالى أنَّ المُشرِكينَ يقولون: هلَّا أُنزِلَ على محمَّدٍ مُعجِزةٌ مِن رَبِّه ممَّا نقتَرِحُ عليه؛ حتى نعلَمَ أنَّه رسولٌ مِن عندِ الله حقًّا، وأمَرَ نَبيَّه أن يقولَ لهم: إنَّما إنزالُ الآياتِ مِن الغَيبِ الذي لا يعلَمُه إلَّا اللهُ، ولا يقدِرُ على إنزالِه إلَّا هو، فإن شاءَ أنزَلَها، وإن شاءَ لم يُنزِلْها، فانتظِروا حُكمَ اللهِ فينا بعقوبةِ المُبطِلِ مِنَّا، ونصرِ المُحِقِّ، إنَّا معكم مُنتَظِرونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّ الكافرينَ إنَّما التَمَسوا من الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قرآنًا غيرَ هذا القرآنِ، أو تبديلَ هذا القُرآنِ؛ لأنَّ هذا القُرآنَ مُشتَمِلٌ على شَتمِ الأصنامِ التي جَعَلوها آلهةً لأنفُسِهم؛ فلهذا السَّبَبِ ذكَرَ اللهُ تعالى في هذا الموضِعِ ما يدُلُّ على قُبحِ عبادةِ الأصنامِ؛ لِيُبيِّنَ أنَّ تَحقيرَها والاستخفافَ بها أمرٌ حَقٌّ، وطريقٌ مُتيَقَّنٌ[1].

وأيضًا فهذه الآيةَ عَطفٌ على قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ [يونس: ١٥] عطْفَ القِصَّةِ على القِصَّةِ، فهذه قِصَّةٌ أخرى مِن قَصَصِ أحوالِ كُفرِهم، أن قالوا: ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا﴾ [يونس: ١٥] حين تُتلى عليهم آياتُ القرآنِ، ومِن كُفرِهم أنَّهم يعبدونَ الأصنامَ، ويقولون: ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ والمناسبةُ بين القِصَّتَينِ أنَّ في كِلتَيهما كُفرًا أظهَرُوه في صورةِ السُّخريةِ والاستهزاءِ، وإيهامِ أنَّ العُذرَ لهم في الاسترسالِ على الكُفرِ[2].

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾.

أي: ويَعبُدُ المُشركونَ مِن دُونِ الله آلهةً مِن الأصنامِ وغَيرِها، لا تَضُرُّهم إن تركوا عِبادتَها، ولا تنفَعُهم في الدُّنيا ولا في الآخرةِ إنْ عَبَدوها[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٢)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ١١)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١١)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [النحل: ٧٣].

وقال سُبحانه: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦].

﴿وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَٰؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾.

أي: ويقولُ المُشرِكونَ: هؤلاء الذين نعبُدُهم يَشفَعونَ لنا عند الله[١].

﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: قُل- يا مُحمَّدُ- لهؤلاءِ المُشرِكينَ: أتُخبِرونَ اللهَ بما لا يقعُ، ولا يَكونُ أبدًا في السَّمواتِ ولا في الأرضِ، وهو أنَّ له شركاءَ يشفعون لكم عندَ الله، وقد أخبركم بأنَّه ليس له شريكٌ، أفتخبرونَه بأمرٍ خفِي عليه، وعلِمْتوه[٢]؟

ثمَّ نزَّه نفسه عمَّا افتروه، فقال[٣]:

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

= كثير)) (٤/ ٣٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٠).

قال الواحدي: (﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾، قال أهلُ المعاني: توهَّموا أنَّ عِبادَتَها أشَدُّ في تعظيمِ اللهِ مِن قَصْدِه بالعبادةِ، فعَبَدوها وأحَلُّوها محَلَّ الشَّافِعِ عندَ اللهِ). ((البسيط)) (١١/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٢، ١٤٣)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٣/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٢)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٣٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٩٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٠).

(٣) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٩٢).

أي: تقدَّس اللهُ وتنزَّهَ عن أن يكونَ له شريكٌ(١).

﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّ اللَّهَ تعالى لَمَّا أقام الدَّلالةَ القاهرةَ على فسادِ القَولِ بعبادةِ الأصنام؛ بَيَّنَ السَّببَ في كيفيَّةِ حُدوثِ هذا المذهَبِ الفاسِدِ، والمقالةِ الباطلةِ(٢).

وأيضا لَمَّا بَيَّنَ تعالى شَرَّهم بعبادةِ غَيرِه، وختَمَ بتَنزيهِه وكَمالِه؛ بَيَّنَ أنَّ هذا الدِّينَ الباطِلَ حادِثٌ، وبيَّنَ نزاهَتَه وكمالَه ببيانِ أنَّ النَّاسَ كانوا أوَّلًا مُجتَمِعينَ على طاعَتِه، ثمَّ خالَفوا أمْرَه فلم يَقطَعْ إحسانَه إليهم، بل استمَرَّ في إمهالِهم مع تمادِيهم في سوءِ أعمالِهم، على ما سبَقَ في عِلمِه، ومضى به قَضاؤُه(٣).

﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ﴾.

أي: وما كان النَّاسُ إلَّا مُجتَمِعينَ على توحيدِ اللهِ، فاختَلَفوا في دينِهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٣)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٩٢).

قال محمد رشيد رضا: (تقدَّمَ في هذا السِّياقِ من أوَّلِ السُّورةِ إلى هنا أنَّ أهلَ مكَّةَ لم يكن دأبُهم في تكذيبِهم للوحيِ المُحمَّديِّ إلَّا كدأبِ مَن قَبلَهم من الأقوامِ الذين كذَّبوا رُسُلَهم، ولم يكونوا في استعجالِ نَبيِّهم العذابَ إلَّا كالذين استعجَلوا رسُلَهم العذابَ أيضًا، وتقَدَّمَ فيه بيانُ بعضِ طِباعِ البَشَرِ- ولا سيَّما الكفَّارُ- في الرُّعونةِ والعَجلةِ، وفي الضَّراعةِ إلى الله، والإخلاصِ له عند الشِّدَّةِ، ونسيانِه عند الرخاءِ، وفي الإشراكِ باللهِ بدعوى أنَّ لهم شُفَعاءَ عند الله يَدفَعونَ عنهم الضُّرَّ، ويَجلِبونَ لهم النَّفعَ بوجاهتِهم عنده، ثم جاءت هذه الآيةُ في بيانِ ما كان عليه النَّاسُ مِن الوَحدةِ، وما صاروا عليه مِن الاختلافِ والفُرقةِ، فالتَّناسُبُ بينها وبين ما قبلها في غايةِ القُوَّةِ). ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٦٨).

وأشرَكوا بالله(١).

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

أي: ولولا أنَّه سبَقَ مِن اللهِ أنَّه يُمهِلُ المُشرِكينَ والعُصاةَ، ويؤخِّرُ جزاءَهم إلى يوم القيامةِ؛ لحَكَم في الدُّنيا بين المُختَلِفينَ، فيُنَجِّي أهلَ التَّوحيدِ، ويعجِّلُ عُقوبَتَه على المُشرِكينَ، وينزِلُ بهم عذابَه(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨- ١١٩].

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى * فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ [طه: ١٢٩- ١٣٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ١٤].

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّ هذه الآيةَ عَطفٌ على جُملةِ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٣)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٣/ ٢٨٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٥٠)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٥/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٣)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٥٢، ١٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٢، ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٢٩).

يَنْفَعُهُمْ﴾ [يونس: ١٨]، فبعد أنْ ذكَرَ افتراءَهم في جانِبِ الإلهيَّةِ، نفى بُهتانَهم في جانِبِ النبوَّةِ(١).

﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾.

أي: ويقولُ مُشركو قُرَيشٍ: هلَّا أَنزلَ اللهُ على محمَّدٍ مُعجِزةً مِمَّا نقترِحُ عليه؛ حتَّى نعلَمَ أنَّه رسولٌ مِن عندِ الله حقًّا(٢)؟

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا * وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٨٩ - ٩٣].

وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴾ [الفرقان: ٧-٨].

﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ ﴾.

أي: فقُل- يا مُحمَّدُ- لهؤلاءِ المُشركينَ: إنزالُ الآياتِ مِن الغَيبِ الذي لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ، ولا يَقدِرُ أن يُنزِلَ آيةً إلَّا اللهُ، فإن شاء أنزَلَها، وإن شاء لم يُنزِلْها(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٢٩، ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٥٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣١). =

كما قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩].

وقال سُبحانه: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٠- ٥١].

﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾.

أي: قُلْ لهم- يا مُحَمَّدُ: فانتَظِروا حُكمَ اللهِ فينا، بعقوبةِ المُبطِلِ مِنَّا، ونَصرِ المُحِقِّ، إنِّي معكم ممَّن ينتَظِرُ ذلك[1].

كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ * ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٢-١٠٣].

= قال الواحدي: (قوله تعالى: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ قال المفسرون: يعني: قُل لهم: إنَّ قَولَكم: هلَّا أُنزِلَ عليه آيةٌ؛ غَيبٌ، وإنَّما الغَيبُ لله، لا يعلَمُ أحَدٌ لمَ لمْ يفعَلْ ذلك، وهل يفعَلُه أم لا، وإنْ فعَلَه متى يفعَلُ؟ وهذا على التسليمِ أنَّه مما لا يَعلَمُه العبادُ، فيجبُ أن يوكَلَ إلى علَّامِ الغُيوبِ). ((البسيط)) (١١/ ١٥٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦١).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: انتَظِروا قضاءَ الله بيننا: ابنُ جرير، وابنُ عطيةَ، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦١).

وقيل المراد: انتَظِروا نزولَ آيةٍ ممَّا اقترَحتُموه. وممَّن اختار ذلك: الواحديُّ، والزمخشريُّ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٥٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٣٧).

قال ابنُ عاشورٍ: (وجملة: ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ تفريعٌ على جملة: ﴿إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ أي: ليس دأبي ودأبُكم إلَّا انتظارَ ما يأتي به اللهُ إن شاء، كقولِ نوحٍ لِقَومِه: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [هود: ٣٣]، وهذا تعريضٌ بالتَّهديدِ لهم أنَّ ما يأتي به اللهُ لا يترَقَّبونَ منه إلَّا شَرًّا لهم، كقولِه تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾[الأنعام: ٨]). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣١).

وقال سبحانه: ﴿قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى﴾ [طه: ١٣٥].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ * فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾ [السجدة: ٢٨-٣٠].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- أساسُ عَقيدةِ الشِّركِ أنَّ جَميعَ ما يَطلُبونَه مِن اللهِ لا بُدَّ أن يكونَ بوَساطةِ المقَرَّبينَ عنده؛ لأنَّهم لا يُمكِنُهم القُربُ مِن اللهِ والحُظوةُ عنده بأنفُسِهم؛ لأنَّها مُدَنَّسةٌ بالمعاصي، بخلافِ دِينِ التَّوحيدِ، فإنَّه يُوجِبُ على العاصي أن يتوَجَّهَ إلى اللهِ وَحْدَه، تائبًا إليه، طالبًا مَغفِرتَه ورَحمتَه؛ يُبيِّنُ ذلك قَولُ الله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾[1].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ يتضَمَّنُ الوعيدَ على اختلافِ النَّاسِ المُفضي إلى الشِّقاقِ والعُدوانِ، ولا سيَّما الاختلافُ في كتابِ اللهِ الذي أنزَلَه لإزالةِ الشِّقاقِ بحُكمِه، وإدالةِ الوَحدةِ والوِفاقِ منه[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ هذه غايةُ الجَهالةِ منهم؛ حيث يَنتَظِرونَ الشَّفاعةَ في المآلِ، ممَّن لا يُوجَدُ منه نَفعٌ ولا ضَرٌّ في الحالِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٢).

٢- كان المُشرِكونَ مُعترِفينَ بأنَّ آلهتَهم لم تُشارِك اللهَ في خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ، ولا خلْقِ شيءٍ؛ وإنَّما كانوا يتَّخِذونَهم شُفَعاءَ ووسائِطَ، كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾(١).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ لَمَّا كان السِّياقُ للتَّهديدِ والتَّخويفِ، قدَّمَ (الضَّرَّ) فقال: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾، وتنبيهًا لهم على أنَّهم مَغمورونَ في نِعَمِه التي لا قُدرةَ لِغَيرِه على مَنعِ شَيءٍ منها، فعليهم أن يُقَيِّدوها بالشُّكرِ(٢).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فيه أنَّ مِن الشِّركِ اتِّخاذَ الوُسَطاءِ عند الله، وأنَّه عَينُ الشِّركِ(٣).

٥- المُشرِكُ يقصِدُ فيما يُشرِكُ به أنْ يشفعَ له، أو يتقرَّبَ بعِبادَتِه له إلى اللهِ، أو هو يُحبُّه كما يحبُّ اللهَ، والمُشرِكونَ بأصحابِ القُبورِ تُوجَدُ فيهم الأنواعُ الثَّلاثةُ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾(٤) [البقرة: ١٦٥].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٦٧).

(٤) يُنظر: ((الإخنائية)) لابن تيمية (ص: ١٦٦).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ دلالةٌ على أنَّ كلَّ مَن يملكُ الضَّرَّ والنَّفعَ؛ فإنَّه هو المعبودُ حقًّا؛ فالمعبودُ لا بدَّ أنْ يكونَ مالِكًا للنَّفعِ والضَّرَرِ؛ ولهذا أنكَرَ اللهُ تعالى على مَن عَبَدَ مِن دُونِه ما لا يَملِكُ ضَرًّا ولا نفعًا، وذلك كثيرٌ في القُرآنِ[1].

٧- في قَولِ اللهِ تعالى هنا أيضًا: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ نفى عن الأصنام الضُّرَّ والنَّفعَ، وأثبَتَهما لها في قَولِه تعالى في سورةِ الحَجِّ: ﴿يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ [الحج: ١٣]؛ فنَفيُهما عنها باعتبارِ الذَّاتِ، وإثباتُهما لها باعتبارِ السَّبَبِ[2].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أنَّ اللهَ يَعلمُ الأشياءَ على ما هي عليه؛ وما لم يكُنْ مَوجودًا لا يَعلَمُه مَوجودًا، ولا يكون نفيُ هذا العِلمِ نقصًا، بل هو مِن تمامِ كَمالِه تعالى؛ لأنَّه يقتضي أنْ يعلمَ الأشياءَ على ما هي عليه[3].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ يَستَدِلُّ به من قال: إنَّ الأصلَ في النَّاسِ الإيمانُ حتى كفَروا[4].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ إخبارٌ بأنَّ الحَقَّ واحِدٌ، وأنَّ ذلك الاختلافَ مَذمومٌ[5].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ فيه أنَّ مِن أصولِ الدِّينِ أنَّ

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٢).
(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٤٤-٢٤٥).
(٣) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ١١).
(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٢٩).

شُؤونَ الرَّبِّ، وسائِرَ ما في عالَمِ الغَيبِ، تَوقيفيٌّ لا يُعلَمُ إلَّا بخَبَرِ الوَحيِ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ هذا إخبارٌ على سَبيلِ التَّجهيلِ والتَّحقيرِ للكُفَّارِ ولِمَعبوداتِهم، وللتَّنبيهِ على أنَّهم عبَدوا مَن لا يَستحِقُّ العبادةَ[٢].

- واختيارُ صيغةِ المضارعِ في قولِه: ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾ و﴿وَيَقُولُونَ﴾؛ لاستِحْضارِ الحالةِ العَجيبةِ مِن استمرارِهم على عِبادتها- أي: عبَدوا الأصنامَ ويَعبُدونها-، فجاء بالمضارعِ الدَّالِّ على أنَّهم على الشِّركِ في المستقبَلِ، كما كانوا عليه في الماضي؛ تَعجُّبًا مِن تَصميمِهم على ضَلالِهم[٣].

- وفيه مناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال هنا: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾، بينما قال في سورة الفرقان: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ [الفرقان: ٥٥] فقدَّم: ﴿يَضُرُّهُمْ﴾ على ﴿يَنْفَعُهُمْ﴾ في آيةِ يونُسَ، وقدَّم ﴿يَنْفَعُهُمْ﴾ على ﴿يَضُرُّهُمْ﴾ في آيةِ الفرقانِ؛ قيل: ووجهُ ذلك أنَّه إنَّما قدَّم: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾ على ﴿لَا يَنْفَعُهُمْ﴾ في الآيةِ الأولى في سورةِ يونُسَ؛ لأنَّ العبادةَ تُقامُ للمَعبودِ خوفًا مِن العقابِ أوَّلًا، ثمَّ رجاءً للثَّوابِ ثانيًا، وقد تقدَّم في هذا المكانِ ما أوجَبَ تقديمَ ﴿مَا لَا

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٦- ٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٢٥).

يَضُرُّهُمْ﴾ على ﴿وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ في الآيةِ الأولى، وهو قولُه: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ١٥]، فكأنَّه قال: ويَعبُدون مِن دونِ اللهِ ما لا يَخافون ضَررًا في مَعصيتِه، ولا يَرجون نفعًا في طاعتِه، فتقدَّم ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾ على ﴿وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ في هذا المكانِ لهذا المعنى، ولهذا اللَّفظِ المتقدِّمِ.

وأمَّا سورةُ الفرقانِ فقد تقدَّمَت فيها آياتٌ قُدِّم فيها الأفضلُ على الأدْوَنِ، كقولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [الفرقان: ٥٣]، وكقولِه بعدَه: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٤]، وصِلَةُ النَّسَبِ أفضَلُ مِن صِلَةِ المصاهَرةِ، كما أنَّ العذْبَ مِن الماءِ أفضلُ مِن المِلحِ، ثمَّ قال بعدَه: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ [الفرقان: ٥٥]؛ فقدَّم الأفضلَ على الأدْوَنِ لهذا المعنى، وللبناءِ على ما تقدَّم مِن الآياتِ، فجاء في كلِّ موضعٍ ما يُناسِبُ السِّياقَ، وصحَّ المعنى الذي اعتَمَد عليه[1]. وقيل: وجهُ ذلك أنَّ الموجِبَ لتأخيرِ ﴿وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ في سورةِ يونُسَ ما وصَل به مِن قولِهم: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، فكأنَّه قيل: ويَعبُدون مِن دونِ اللهِ ما لا يَضُرُّهم ولا ينفَعُهم، ويَزعُمون أنَّ ذلك يَنفَعُهم؛ فلم يَكُنْ لِيُناسِبَ لو قيل: (ويَعبُدون مِن دونِ اللهِ ما لا يَنفَعُهم ولا يضُرُّهم، ويقولون: هؤلاء شُفعاؤُنا عندَ اللهِ)- تَناسُبَ الواردِ مِن متَّصِلِ قولِه: ﴿وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ بقولِه: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾؛ فلمَّا كان الاتِّصالُ فيما ذُكِر أنسَبَ، ورَدَت الآيةُ بحسَبِ ذلك. أمَّا آيةُ الفرقانِ فإنَّ قبْلَها ذِكْرَ دَلائِلَ وشَواهِدَ مِن مَصنوعاتِه تعالى، يَهْتدي المعتبِرُ بالنَّظرِ فيها، تُخلِّصُه مِن ورَطاتِ الشُّكوكِ، ويَستقيمُ له دينُه، وذلك أعظمُ النَّفعِ وأجَلُّه، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٧٣٣-٧٣٥).

تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ [الفرقان: ٤٥]، إلى قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٤]، فلمَّا تقدَّم التَّنبيهُ بهذه الآياتِ الواضحاتِ الموقظاتِ مِن سِنَاتِ الغَفلاتِ، والمحصِّلاتِ أعظَمَ النَّفعِ في امتِثالِ الواجباتِ، والنَّجاةِ مِن الضَّلالاتِ؛ ناسبَها تقديمُ ما قُدِّم في الآيةِ مِن قولِه: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ [الفرقان: ٥٥]، وصار الكلامُ بقوَّتِه مجاوبًا لقولِه: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧]؛ فورَد كلٌّ على ما يُناسِبُه(١).

- قولُه: ﴿أَتُنَبِّئُونَ﴾ استفهامٌ على سبيلِ التَّهكُّم والتَّوبيخِ بما ادَّعَوه مِن المُحالِ، الَّذي هو شَفاعةُ الأصنامِ، وإعلامٌ بأنَّ الَّذي أنبَؤوا به باطلٌ، غيرُ مُنطَوٍ تحتَ الصِّحَّةِ(٢).

- وأيضًا في قولِه: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أتَى بالمضارِعِ، ولم يَقُلْ: (عمَّا أشرَكوا)؛ للدَّلالةِ على استِمْرارِ حالِهم(٣).

٢- قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ جاء بصيغةِ القَصرِ: (ما... إلَّا)؛ للمُبالَغةِ في تأكيدِ الخبَرِ؛ لأنَّه خبرٌ مهمٌّ عجيبٌ؛ إذِ القصرُ تأكيدٌ على تأكيدٍ؛ باعتِبارِ اشتِمالِه على صيغَتَيْ إثباتٍ للمُثبَتِ، ونفيٍ عمَّا عَداه، فهو أقوى مِن تأكيدِ ردِّ الإنكارِ؛ ولذلك يُؤْذِنُ بردِّ إنكارٍ شديدٍ(٤).

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٢٧).

- وحسَّنَ القَصْرَ هنا وُقوعُه عَقِبَ الجدالِ معَ الَّذين غيَّروا الدِّينَ الحقَّ، وروَّجوا نِحْلتَهم بالمَعاذيرِ الباطلةِ؛ كقولِهم: ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، بخِلافِ آيةِ سورةِ البقرَةِ: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [البقرة: ٢١٣]؛ فإنَّها وقَعَت في سياقِ المجادلةِ مع أهلِ الكتابِ؛ لقولِه: ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ [البقرة: ٢١١]، وأهلُ الكتابِ لا يُنكِرون أنَّ النَّاسَ كانوا أمَّةً واحدةً؛ فآيةُ سورةِ يونُسَ تُشيرُ إلى الوَحْدةِ الاعتِقاديَّةِ؛ ولذلك عبَّر عَنِ التَّفرُّقِ الطَّارئِ عليها باعتِبارِ الاختِلافِ المُشعِرِ بالمَذمَّةِ، والمعقَّبِ بالتَّخويفِ في قولِه: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ...﴾، وآيةُ سورةِ البقَرةِ تُشيرُ إلى الوَحْدةِ الشَّرعيَّةِ الَّتي تَجمَعُها الحنيفيَّةُ الفِطريَّةُ؛ ولذلك عبَّر عن التَّفرُّقِ الَّذي طرَأ عليها بقولِه: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾، ثمَّ جاء ذِكْرُ الاختِلافِ عرَضًا عَقِب ذلك بقولِه: ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وأُريدَ به الاختِلافُ بينَ أتباعِ الشَّرائعِ؛ لقولِه: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ﴾[١] [البقرة: ٢١٣].

- قولُه: ﴿فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيه تقديمُ المجرورِ؛ للرِّعايةِ على الفاصِلةِ[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ فيه التَّعبيرُ بصيغةِ المُضارِعِ (يَقُولُونَ)؛ لاستِحْضارِ صورةِ مَقالَتِهم الشَّنعاءِ، والدَّلالةِ على الاستِمْرارِ[٣].

- قولُه: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ فيه الإتيانُ بصيغةِ القَصْرِ؛ للرَّدِّ عليهم في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣٣).

اعتِقادِهم أنَّ في إمكانِ الرَّسولِ الحقِّ أن يَأتِيَ بما يَسألُه قومُه مِن الخوارقِ، فجَعَلوا عدَمَ وُقوعِ مُقترَحِهم عَلامةً على أنَّه ليس برَسولٍ مِن اللهِ؛ فلذلك رَدَّ عليهم بصِيغَةِ القَصرِ الدَّالَّةِ على أنَّ الرَّسولَ ليس له تَصرُّفٌ في إيقاعِ ما سأَلوه؛ لِيَعلَموا أنَّهم يَرمُون بسُؤالِهم إلى الجَراءةِ على اللهِ تعالى بالإفحامِ[١].

- وجملةُ: ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ تفريعٌ على جملةِ: ﴿إِنَّما الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾، أي: ليس دَأْبي ودَأْبكم إلَّا انتِظارُ ما يَأتي بِه اللهُ إن شاءَ، وهذا تعريضٌ بالتَّهديدِ لهم أنَّ ما يأتي به اللهُ لا يترَقَّبون مِنه إلَّا شرًّا لهم[٢]، فقولُه: ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ وعيدٌ، وقد صدَّقه اللهُ تعالى بنُصرتِه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٩).

الآيات (٢١-٢٣)

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ضَرَّآءَ﴾: أي: مرَضًا وضُرًّا، والضَّرَّاءُ كذلك: سوءُ الحالِ، والفقرُ والقحطُ، والضرُّ: خلافُ النَّفْعِ[1].

﴿مَكْرٌ﴾: أي: استِهزاءٌ وتَكذيبٌ، والمكرُ: صَرفُ الغَيرِ عمَّا يَقصِدُه بحيلةٍ، فسمَّى استهزاءَهم وتكذيبَهم مكرًا؛ لاحتيالِهم لدفعِ آياتِ الله بكلِّ سبيلٍ، وأصلُ (مكر): يدلُّ على احتيالٍ وخِداعٍ[2].

﴿الْفُلْكِ﴾: أي: السُّفنِ، وواحده وجمْعه بلفظٍ واحد، وأصلُ (الفلك): الاستدارةُ في الشَّيءِ، ولعلَّ السُّفن سُمِّيت فُلكًا؛ لأنَّها تُدارُ في الماءِ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣ / ٣٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٣- ٥٠٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤٥)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٣)، =

﴿عَاصِفٌ﴾: أي: شَديدةُ الهُبوبِ. وأصلُ (عصف): يدلُّ على خِفَّةٍ وسُرعةٍ[١].

﴿أُحِيطَ بِهِمْ﴾: أي: هلَكوا، وأصلُ هذا أنَّ العدوَّ إذا أحاطَ ببلدٍ، فقد دنَا أهلُه مِن الهلَكَةِ، وأصلُ (حوط): الشيءُ يطيفُ بالشيءِ[٢].

﴿مَتَاعَ﴾: المتاع: المَنفعةُ، وكلُّ ما حَصَل التمتُّع والانتفاعُ به على وجهٍ ما، أو ما يُنتفعُ به انتفاعًا قليلًا غيرَ باقٍ، بل يَنقضي عن قَريبٍ، وأصل (متع): يدلُّ على مَنفعةٍ، وامتدادِ مُدَّةٍ في خيرٍ[٣].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾

﴿مَتَاعَ﴾: منصوبٌ على المَصدرِ، أي: تتمتَّعونَ متاعَ الحياةِ الدُّنيا، أو منصوبٌ على الحالِ، أي: متمتِّعينَ. أو على أنَّه مَفعولٌ لأجلِه، أي: لأجلِ مَتاعٍ. وعلى ذلك فـ﴿عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ متعَلِّقٌ بمحذوفٍ خَبَرُ ﴿بَغْيُكُمْ﴾، وقيل: الخبَرُ مَحذوفٌ تَقديرُه: مذمومٌ، ونحوُ هذا.

وقُرِئ ﴿مَتَاعُ﴾ بالرَّفعِ، وفي رفْعه أوجُهٌ؛ أحدُها: أنَّه خبرُ ﴿بَغْيُكُمْ﴾ وعلى هذا فقَولُه: ﴿عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ متعلِّقٌ بـ﴿بَغْيُكُمْ﴾؛ لأنَّه مصدرٌ. الثاني: أن يكونَ ﴿عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ خبَرًا لـ﴿بَغْيُكُمْ﴾، و﴿مَتَاعُ﴾ خبرًا ثانيًا. الثالث: أن يكونَ

= ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٢٨)، ((غريب القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ٩٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٥٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠٤).

خبرَ مبتدأٍ محذوفٍ، أي: هو متاعُ الحياةِ الدُّنيا[1].

المعنَى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه إذا أذاقَ المُشرِكينَ رَحمةً بعد أن أصابَهم البَلاءُ، سَعَوا بكلِّ حيلةٍ بالباطِلِ؛ لإبطالِ الحَقِّ وتكذيبِه، ومقابِلَ هذا المَكرِ أمَرَ نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يقولَ لهم: إنَّ اللهَ أعجَلُ منكم مكرًا؛ إنَّ رُسُلَه يكتبونَ ما تَمكرونَ.

هو سُبحانه وتعالى الذي يُسَيِّرُكم في البَرِّ والبَحرِ، حتَّى إذا كُنتُم في السُّفُنِ، وجَرَت بكم بريحٍ طَيِّبةٍ، وفَرِحَ ركَّابُ السَّفينةِ بها، جاءَتْها ريحٌ شَديدةُ الهُبوبِ، وجاء ركابَ السَّفينةِ الموجُ مِن كُلِّ جَوانبِ السَّفينةِ، وأيقَنوا أنَّ الهلاكَ قد أحاط بهم، وأنَّهم سيَغرَقونَ- دَعَوُا اللهَ مُخلِصينَ له الدِّينَ لَئِن أنجاهم من هذه الشِّدَّةِ ليَكونُنَّ مِن الشَّاكرينَ.

فلمَّا أنجاهم أخلَفوا اللهَ ما وعدوه، فبَغَوا في الأرضِ بإشراكِهم باللهِ، وإفسادِهم في الأرضِ بالكُفرِ والظُّلمِ والمعاصي، يا أيُّها النَّاسُ إنَّما وبالُ بَغيِكم عائِدٌ على أنفُسِكم، تتمتعون به مدة حياتكم القصيرة، ثمَّ إلى الله مَرجِعُكم يومَ القيامةِ، فيُخبِرُكم بما كُنتُم تعملونَ في الدُّنيا مِن خَيرٍ أو شَرٍّ، ويُجازيكم به.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ٢١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ الكافرينَ لَمَّا طَلَبوا من رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم آيةً أخرى سوى القُرآنِ، وأجابَهم بما في قَولِه: ﴿إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ [يونس: ٢٠] ذكَرَ جوابًا آخرَ،

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣٤١-٣٤٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٦٧٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ١٧٤-١٧٥).

وهو المذكورُ في هذه الآيةِ، وهو أنَّه تعالى بيَّنَ في هذه الآيةِ أنَّ عادةَ هؤلاءِ الأقوامِ المَكرُ واللَّجاجُ، والعِنادُ وعدمُ الإنصافِ، وإذا كانوا كذلك فبتقديرِ أن يُعطَوا ما سألوه من إنزالِ مُعجِزاتٍ أخرى، فإنَّهم لا يؤمنونَ، بل يَبقَونَ على كُفرِهم وجَهلِهم[1].

وأيضًا لَمَّا حكى اللهُ تعالى تمَرُّدَ المُشرِكينَ، وذكر قَولَه: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ وذلك على سبيلِ التعنُّتِ؛ أخبَرَ أنَّ هؤلاء إنَّما يصيرونَ لهذه المقالاتِ عندما يكونونَ في رخاءٍ مِن العَيشِ، وخُلُوِّ بالٍ، وأنَّهم في ذلك لاهون ببَطَرِهم، وازدهائِهم بالنِّعمةِ والدَّعَة، وأنَّ إحسانَ اللهِ تعالى قابَلوه بما لا يجوزُ من ابتغاءِ المَكرِ لآياتِه، وتفَنَّنوا في التكذيبِ بوعيدِ اللهِ أفانينَ الاستهزاءِ، وكان خليقًا بهم أن يكونوا أوَّلَ مَن صدَّقَ بآياتِه[2].

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا﴾.

أي: وإذا فرَّجنا عن المُشرِكينَ ورَحِمناهم، من بعدِ بَلاءٍ أصابَهم، سَعَوا بكلِّ حيلةٍ بالباطِلِ؛ لإبطالِ آياتِنا[3] وردِّها وتكذيبِها[4]!

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣٢).

(٣) ذهب بعضُ المُفَسِّرينَ إلى أنَّ المُرادَ بالآيات هنا: الآياتُ الكونيَّةُ، وممَّن اختار ذلك: محمد رشيد رضا. يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٧٣-٢٧٤).
قال الرازي: (فقوله: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً﴾ المرادُ منه تلك الأمطارُ النَّافعةُ. وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ﴾ المرادُ منه ذلك القَحطُ الشَّديدُ. وقوله: ﴿إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ المرادُ منه إضافتُهم تلك المنافِعَ الجليلةَ إلى الأنواءِ والكواكِبِ، أو إلى الأصنامِ). ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٣١).
وذهب آخرونَ إلى أنَّها آياتُ القُرآنِ الكريمِ. وممن اختار ذلك: الواحدي، وابن عاشور. يُنظر: ((الوسيط)) (٢/ ٥٤٢) للواحدي، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٤، ١٤٥)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٥٥)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ﴾ [يونس: ١٢].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٣-٣٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٨].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ * وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥٠-٥١].

وعن زيدِ بنِ خالدٍ الجُهَني رَضِيَ الله عنه، قال: ((صلَّى بنا رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم صلاةَ الصُّبحِ بالحُدَيبية في إثْرِ السَّماءِ[1] كانت من اللَّيلِ، فلما انصرَفَ أقبَلَ على النَّاسِ فقال: هل تَدرونَ ماذا قال ربُّكم؟ قالوا: اللهُ ورَسولُه أعلَمُ، قال: قال: أصبحَ مِن عبادي مؤمِنٌ بي وكافِرٌ، فأمَّا من قال: مُطِرْنا بفَضلِ اللهِ ورَحمتِه، فذلك مُؤمِنٌ بي، كافِرٌ بالكوكَبِ، وأمَّا من قال: مُطِرْنا بنَوءِ كذا

= البيضاوي)) (٣/ ١٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣٣).

(١) أي: بعد نُزولِ المَطَرِ، وأصلُ السماءِ: كلُّ ما ارتفَع فأظلَّ وعلا، فالسحابُ يُسمَّى سماءً، وسُمِّي المطرُ بذلك؛ لمجيءِ السحابِ به. يُنظر: ((إكمال المعلم)) للقاضي عياض (١/ ٣٣٠)، ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (٥/ ٩٩).

وكذا[١]، فذلك كافِرٌ بي، مُؤمِنٌ بالكوكبِ))[٢].

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت جملةُ ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ دالَّةً على إسراعِ الكافرينَ بالمَكرِ مِن ثلاثةِ أوجُهٍ: التعبيرُ بالذَّوقِ الذي هو أوَّلُ المُخالطةِ، ولفظُ (مِن) التي هي للابتداءِ، و(إذا) الفجائيَّة، كان كأنَّه قيل: أسرَعوا جُهدَهم في المَكرِ، فقيل[٣]:

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ﴾.

أي: قُل- يا مُحمَّدُ- لهؤلاء المُشرِكينَ: اللهُ أعجَلُ مَكرًا بكم- باستدراجِكم وتعجيلِ عُقوبتِكم- مِن مَكرِكم في آياتِه[٤].

قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣].

﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾.

أي: إنَّ المَلائكةَ الحَفَظةَ يَكتُبونَ مَكْرَكم في آياتي- أيُّها المُشرِكونَ- ويُحصُون أعمالَكم؛ للحِسابِ عليها في الآخرةِ[٥].

---

(١) النَّوءُ: الكَوكَبُ؛ ولذلك سَمَّوا مَنازِلَ القَمَرِ الأنواءَ. يُنظر: ((أعلام الحديث)) للخطابي (١/ ٥٥٣).

(٢) رواه البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١) واللفظ له.

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٥)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٧٤، ٢٧٥).

قال أبو حيان: (والرُّسلُ هنا الحفظةُ بلا خلافٍ). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣١).

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ - ١٢].

وقال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠].

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا قال: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ كان هذا الكلامُ كلامًا كُلِّيًّا لا ينكَشِفُ معناه تمامَ الانكشافِ إلَّا بذِكرِ مِثالٍ كاملٍ، فذكرَ اللهُ تعالى لِنَقلِ الإنسانِ مِن الضُّرِّ الشَّديدِ إلى الرَّحمةِ مِثالًا، ولِمَكرِ الإنسانِ مِثالًا؛ حتى تكونَ هذه الآيةُ كالمُفَسِّرةِ للآيةِ التي قَبلَها[١].

وأيضًا لَمَّا قال الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ أخذ سبحانَه يبيِّنُ ما يتَّضِحُ به أسرعيَّةُ مَكرِه، في مثالٍ دالٍّ على نَقْلِه سبحانَه لِعبادِه مِن الضُّرِّ إلى النِّعمةِ، ومِن سُرعةِ تَقَلُّبِهم[٢].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ تعالى القاعدةَ العامَّةَ في أحوالِ النَّاسِ عند إصابةِ الرَّحمةِ لهم بعد الضَّرَّاءِ، واليُسرِ بعد العُسرِ؛ ذكَرَ حالةً تؤيِّدُ ذلك، وهي حالُهم في البَحرِ عند اشتدادِه، والخوفِ مِن عَواقِبِه، فقال تعالى[٣]:

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٣٢).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٩٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦١).

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١ - قراءةُ ﴿يَنْشُرُكُمْ﴾ مِن النَّشرِ، أي: يبثُّكم[1]

٢ - قراءةُ ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾ مِنَ التَّسييرِ، أي: يَحمِلُكم في البَرِّ والبَحرِ[2].

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾.

أي: اللهُ هو الذي يُسَيِّرُكم في البَرِّ؛ بإقدارِه لكم على المَشيِ على أقدامِكم، وبما سَخَّرَه لكم من الدوابِّ وغَيرِها، ويُسَيِّرُكم في البَحرِ في السُّفُنِ التي يَسَّرَ لكم صُنعَها[3].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾.

أي: حتى إذا[4] كُنتم في السُّفُنِ، وجَرَت بكم؛ بسَبَبِ ريحٍ لَيِّنةِ الهُبوبِ، مُوافِقةٍ

(١) قرأ بها ابن عامر، وأبو جعفر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٨٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٤١)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٤/ ٢٦٥)، ((حجة القراءات)) (ص: ٣٢٩) لابن زنجلة.

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٨٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٤١)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٤/ ٢٦٥)، ((حجة القراءات)) (ص: ٣٢٩) لابن زنجلة.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٦)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٩٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦١).

(٤) قال الزمخشري: (إن قلتَ: كيف جعَلَ الكَونَ في الفُلكِ غايةً للتَّسييرِ في البحرِ، والتَّسييرُ في البحر إنَّما هو بالكَونِ في الفُلكِ؟ قلتُ: لم يُجعَلِ الكونُ في الفلك غايةً للتَّسييرِ في البحر، ولكِنْ مَضمون الجملة الشَّرطية الواقعة بعد ﴿حَتَّىٰٓ﴾ بما في حَيِّزها، كأنَّه قيل: يسَيِّرُكم حتى إذا وقعَتْ هذه الحادثةُ، وكان كيت وكيت؛ مِن مجيءِ الرِّيحِ العاصِفِ، وتَراكُمِ الأمواجِ، =

لِرَغبتِكم، وفَرِحَ رُكَّابُ السَّفينةِ بتلك الرِّيحِ، واطمأنُّوا بها، فبينما هم كذلك إذ جاءت السَّفينةَ ريحٌ شديدةُ الهُبوبِ(١).

﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾.

أي: وجاء ركابَ السَّفينةِ مَوجُ البَحرِ مِن كُلِّ جانبٍ مِن جوانِبِ السَّفينةِ(٢).

﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾.

أي: وأيقَنُوا أنَّ الهَلاكَ قد أحاط بهم، وأنهم سيَغرَقونَ في البَحرِ الهائِجِ(٣).

﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾.

أي: دَعُوا اللهَ وَحْدَه أن يُنجِيَهم مِن الكَربِ، وأخلصوا له الدُّعاءَ دون آلهتِهم(٤).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧].

= والظنِّ للهَلاكِ، والدُّعاءِ بالإنجاءِ. فإن قلتَ: ما جوابُ ﴿إِذَا﴾؟ قلتُ: ﴿جَاءَتْهَا﴾. فإن قلتَ: فـ «دَعَوا»؟ قلتُ: بدَلٌ مِن «ظَنُّوا»، لأنَّ دعاءَهم من لوازمِ ظَنِّهم الهلاكَ، فهو مُلتَبِسٌ به). ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٩)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٩٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٥/ ١٢٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٤٣)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٣٧٥)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤١٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٦، ١٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٩)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣٨).

﴿ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾.

أي: وقالوا: واللهِ لَئِنْ أنجيتَنا- يا ربَّنا- من هذه الشِّدَّةِ، لنكونَنَّ مِن الشَّاكرينَ لنِعَمِك، المُطيعينَ أمْرَك، ولا نُشرِكُ بك شيئًا في عبادَتِك(١).

عن سعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رضي الله عنه، قال: ((لَمَّا كان يومُ فَتحِ مَكَّةَ أمَّنَ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ النَّاسَ، إلَّا أربعةَ نَفَرٍ وامرأتينِ، وقال: اقتُلوهم، وإن وَجَدتُموهم متعَلِّقينَ بأستارِ الكَعبةِ: عِكرمةُ بنُ أبي جَهلٍ، وعبدُ الله بنُ خطَلٍ، ومقيسُ بنُ صُبابةَ، وعبدُ اللهِ بنُ سعدِ بن أبي السَّرحِ... وأمَّا عِكرمةُ فرَكِبَ البَحرَ، فأصابتهم عاصِفٌ، فقال أصحابُ السَّفينةِ: أخلِصوا؛ فإنَّ آلهَتَكم لا تُغني عنكم شيئًا هاهنا. فقال عكرمةُ: واللهِ لَئِنْ لم ينجِّني من البَحرِ إلَّا الإخلاصُ، لا يَنجِّيني في البَرِّ غَيرُه، اللهمَّ إنَّ لك عليَّ عَهدًا، إن أنت عافيتَني ممَّا أنا فيه، أنْ آتيَ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، حتى أضَعَ يَدي في يَدِه، فلأَجِدَنَّه عَفُوًّا كريمًا، فجاء فأسلَمَ))(٢).

﴿ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣) ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا حكى اللهُ تعالى عن الكافرينَ هذا التضَرُّعَ الكامِلَ عند البَليَّةِ؛ بيَّنَ أنَّهم

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦١).

(٢) أخرجه النسائي (٤٠٦٧) واللفظ له، والبزار (١١٥١)، وأبو يعلى (٧٥٧).

صحَّح إسنادَه ابنُ القيِّم في ((زاد المعاد)) (٣/ ١١٠)، وصحَّحه ابنُ الملقنِ في ((البدر المنير)) (٩/ ١٥٣)، ووثَّق رجالَه الهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٦/ ١٧١)، والبوصيري في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٥/ ٢٤٥)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن النسائي)) (٤٠٦٧).

بعدَ الخلاصِ مِن تلك البَليَّةِ والمِحنةِ أقدَموا في الحالِ على البَغيِ في الأرضِ بِغَيرِ الحَقِّ(١).

﴿ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ ﴾.

أي: فلمَّا أنقَذَ اللهُ رُكَّابَ السَّفينةِ أخلَفوا اللهَ ما وَعَدوه، فأشرَكوا به، وأفسَدوا في الأرضِ بالكُفرِ والظُّلمِ والمعاصي(٢)!

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ ﴾.

أي: يا أيُّها النَّاسُ إنَّما وَبالُ بَغيِكم هذا عائدٌ على أنفُسِكم في الدُّنيا والآخِرةِ، ولن تَضُرُّوا اللهَ شيئًا(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣].

وعن أبي بَكرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ما مِن ذَنبٍ أجدَرُ أن يُعَجِّلَ اللهُ لِصاحِبِه العُقوبةَ في الدُّنيا مع ما يَدَّخِرُ له في الآخرةِ، مِن البَغيِ وقَطيعةِ الرَّحِم))(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٨)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٩)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ١١٥).

(٤) أخرجه أبو داود (٤٩٠٢)، والترمذي (٢٥١١)، وابن ماجه (٤٢١١) واللفظ له، وأحمد (٢٠٤١٤).
قال الترمذيُّ: حسنٌ صحيحٌ، وصحَّحه ابنُ بازٍ في ((مجموع الفتاوى)) (٢٣/ ٢٣١)، والألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٤٢١١).

﴿مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾.

أي: تتمتَّعونَ به مُدَّةَ حَياتِكم القصيرةِ الفانيةِ[1].

﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

أي: ثمَّ إلينا يكونُ مَصيرُكم بعد مَوتِكم، فنُخبِرُكم يومَ القيامةِ بما كُنتُم تعملونَ في الدُّنيا، ونجازيكم عليه[2].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ تضمَّنَتِ الآيةُ البَيانَ عَمَّا توجِبُه بديهةُ العَقلِ مِن الفَزَعِ عند الشِّدَّةِ إلى واهِبِ السَّلامةِ، ومُسبِغِ النِّعمةِ، في كَشفِ تلك البَليَّةِ[3].

٢- البَغيُ يُجازَى أصحابُه عليه في الدُّنيا والآخرةِ؛ نَستفيدُ ذلك مِن قَولِ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٩)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦١).

قال الرازي: (والإنباءُ هو الإخبارُ، وهو في هذا الموضعِ وعيدٌ بالعذابِ، كقولِ الرجلِ لغيرِه: سأخبرُك بما فعلتَ). ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٩٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٨٠).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ سمَّى تكذيبَهم بآياتِ اللهِ (مكرًا)؛ لأنَّ المكرَ عِبارةٌ عن صَرفِ الشَّيءِ عن وَجهِه الظَّاهِرِ بطريقِ الحِيلةِ، وهؤلاء يحتالونَ لِدَفعِ آياتِ اللهِ بكُلِّ ما يَقدِرونَ عليه؛ مِن إلقاءِ شُبهةٍ، أو تخليطٍ في مناظرةٍ، أو غيرِ ذلك من الأمورِ الفاسدةِ(١).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ تضمَّنَت الآيةُ البَيانَ عَمَّا يُوجِبُه حالُ الجاهِلِ مِن تَضييعِ حَقِّ النِّعمةِ والمَكرِ فيها، وإن جَلَّتْ مَنزِلتُها، وأتتْ على فاقةٍ إليها، وشِدَّةِ حاجةٍ إلى نُزولِها، مع الوعيدِ بعائدِ الوَبالِ على الماكرِ فيها(٢).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ فيه جوازُ رُكوبِ البَحرِ مُطلقًا في الغَزوِ، وفي غيرِ الغَزوِ(٣).

٤- قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ في هذا دَليلٌ على أنَّ المُضطرَّ يُجابُ دُعاؤه وإن كان كافرًا؛ لانقطاعِ الأسبابِ، ورُجوعِه إلى الواحِدِ رَبِّ الأربابِ(٤).

٥- قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٣٢).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٩٧).
(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٥).

الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ الاعترافُ باللهِ مَركوزٌ في طبائعِ العالَم، وهم مَجبولونَ على أنَّه المتصَرِّفُ في الأشياءِ، فإذا حقَّت الحقائقُ رَجَعوا إليه كُلُّهم؛ مُؤمِنُهم وكافِرُهم[1]؛ فقد جُبِلوا على الرُّجوعِ إليه في الشَّدائِدِ[2].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ لَمَّا كان الخَوفُ في البَحرِ أغلَبَ على الإنسانِ منه في البَرِّ؛ وقع المِثالُ به لذلك المَعنى الكُليِّ؛ مِن التجاءِ العَبدِ لِربِّه تعالى حالةَ الشِّدَّةِ، والإهمالِ لجانبِه حالةَ الرَّخاءِ[3].

٧- ذُكِرتِ الرياحُ في القُرآنِ جَمعًا ومُفردةً، فحيث كانت في سياقِ الرَّحمةِ أتت مجموعةً، وحيثُ وقعتْ في سياقِ العَذابِ أتت مُفردةً، وسِرُّ ذلك أنَّ رياحَ الرَّحمةِ مُختلفةُ الصِّفاتِ والمهابِّ والمَنافعِ، وأمَّا في العذابِ فإنَّها تأتي مِن وجهٍ واحدٍ وصِمَام واحدٍ لا يقومُ لها شيءٌ، ولا يعارِضُها غيرُها حتى تنتهيَ إلى حيث أُمِرَتْ، ولهذا وصفَ سُبحانه الريحَ التي أرسلَها على عادٍ بأنَّها عقيمٌ، فقال سُبحانه: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١] وهي التي لا تُلقِحُ[4]، ولا خيرَ فيها، إلَّا أنَّ هذا لم يَطَّرِدْ هنا في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ حيث جاءت بالإفرادِ، ووُصِفَت بأنها

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٣).

(٤) أي: لا تُلقِحُ شَجرًا، ولا تُنشِئُ سَحابًا، ولا تَحمِلُ مطرًا، إنَّما هي ريحُ الإهلاكِ. يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١/ ١٨٩)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٢/ ٤١٣).

طَيِّبةٌ! ووجهُ ذلك: أنَّ تمامَ الرَّحمةِ هنا إنَّما تحصُلُ بوَحدةِ الرِّيحِ لا باختلافِها، بخلافِ المقصودِ منها في البَرِّ؛ فإنَّ السفينةَ لا تسيرُ إلَّا بريحٍ واحدةٍ مِن وجهٍ واحدٍ تُسَيِّرُها، فإذا اختَلَفَت عليها الرِّياحُ وتصادَمَتْ وتقابَلَتْ، فهو سببُ الهلاكِ، فالمطلوبُ هنا ريحٌ واحدةٌ لا رياحٌ، وأكَّدَ هذا المعنى بوصفِها بالطَّيِّبةِ؛ دفعًا لتوهُّم أنْ تكون ريحًا عاصفةً؛ بل هي ممَّا يُفرحُ بها لِطِيبِها(١).

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ فيه بَيانُ أنَّ هؤلاءِ المُشرِكينَ كانوا لا يَلتَفِتونَ إلى أصنامِهم في هذه الحالةِ وما يُشابِهُها، والعجب مِن طوائِفَ يَعتَقِدونَ في الأمواتِ!! فإذا عَرَضَت لهم في البَحرِ مثلُ هذه الحالةِ دَعَوا الأمواتَ، ولم يُخلِصُوا الدُّعاءَ لله كما فعَلَه المُشركونَ، فلينظُر المرء إلى ما فعَلَت تلك الاعتقاداتُ الشَّيطانيَّةُ، وأين وصل بها أهلُها، وإلى أينَ رمى بهم الشَّيطانُ، وكيف اقتادَهم وتسَلَّطَ عليهم؟! حتى انقادوا له انقيادًا ما كان يَطمَعُ في مِثلِه ولا في بَعضِه عُبَّاد الأوثانِ(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾

- ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ...﴾ فيه إسنادُ المِساسِ إلى الضَّرَّاءِ بعدَ إسنادِ الإذاقةِ إلى ضَميرِ الجَلالةِ، وهذا مِن الآدابِ القُرآنيَّةِ؛ كما في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[الشعراء: ٨٠] ونَظائرِه(٣).

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١١٨)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٠١).
(٢) يُنظر: ((فتح القدير)) للشوكاني (٢/ ٤٩٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣٣).

- وجاء الكلامُ على طَريقةِ الحِكايةِ عن حالِهم، والمُلْقَى إليه الكلامُ هو النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمؤمنون، وفيه تعريضٌ بتَذْكيرِ الكُفَّارِ بحالِ حُلولِ المصائبِ بِهم؛ لعلَّهم يتَذكَّرون، فيُعِدُّوا عُدَّةَ الخوفِ مِن حُلولِ النِّقْمةِ الَّتي أنذَرَهم بها في قولِه: ﴿فَانْتَظِرُوا﴾[(١)].

- قولُه: ﴿إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ فيه تنكيرُ ﴿مَكْرٌ﴾؛ للتَّفخيمِ[(٢)].

- قولُه: ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ فيه مناسَبةٌ حسَنةٌ؛ فإنَّه قال: ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾، فجاءَت أفعَلُ التَّفضيلِ؛ لأنَّ جُملةَ ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ قبْلَها تتَضمَّنُ سُرعةَ المَكْرِ مِنهم؛ لأنَّ هذه الجملةَ دليلٌ على سُرعةِ تَقلُّبِ ابنِ آدَمَ مِن حالةِ الخيرِ إلى حالةِ الشَّرِّ، وذلك بلَفْظِ ﴿أَذَقْنَا﴾، كأنَّه قيلَ: أوَّلَ ذَوْقِه الرَّحمةَ قبلَ أن يُداوِمَ استِطْعامَها مَكروهٌ، وبلفظِ ﴿مِنْ﴾ المُشْعِرِ بابتِداءِ الغايةِ، أي: يُنشِئُ المَكْرَ إثْرَ كَشْفِ الضَّرَّاءِ لا يُمهِلُ ذلك، وبلَفظِ (إذا) الفُجائيَّةِ الواقعةِ جوابًا لـ(إذا) الشَّرطيَّةِ، أي: في وقتِ إذاقةِ الرَّحمةِ، كأنَّه قال: وإذا رَحِمْناهم مِن بعدِ ضرَّاءَ فاجَؤوا وُقوعَ المكرِ مِنهم، وسارَعوا إليه قبل أن يَغسِلوا رُؤوسَهم مِن مَسِّ الضَّرَّاءِ، ولم يتَلبَّثوا ريثَما يُسيغُون غُصَّتَهم[(٣)].

- وجملةُ: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ استِئنافُ خِطابٍ للمُشركينَ مُباشَرةً؛ تَهديدًا مِن اللهِ؛ فلِذَلِك فُصِلَت ولم تُعطَفْ على الَّتي قبلَها؛ لاختِلافِ المُخاطَبِ، وتأكيدُ الجملةِ بـ﴿إِنَّ﴾؛ لِكَونِ المخاطَبين يَعتقِدون خِلافَ ذلك؛ إذْ كانوا يَحسَبون أنَّهم يَمكُرون بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٣٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٠- ٣١).

وأنَّ مَكْرَهم يتَمشَّى عليه ولا يَشعُرُ به، فأعلَمَهم اللهُ بأنَّ الملائِكةَ الموكَّلين بإحصاءِ الأعمالِ يَكتُبون ذلك[١]. وهذه الجملةُ أيضًا تَعليلٌ مِن جِهتِه تعالى لأسرَعيَّةِ مَكرِه سبحانه، وفيه مِن المبالَغةِ ما لا يوصَفُ، وصيغةُ الاستقبالِ في (يَكْتُبون- تَمكُرون)؛ للدَّلالةِ على الاستِمرارِ التَّجدُّديِّ[٢]، والتَّكرُّرِ، أي: تتَكرَّرُ كِتابتُهم كلَّما يتَكرَّرُ مَكرُهم[٣].

- وفي قولِه: ﴿تَمْكُرُونَ﴾- بالتَّاءِ على الخِطابِ- مُبالَغةٌ لهم في الإعلامِ بحالِ مَكرِهم[٤].

- وفي قولِه: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ الْتِفَاتٌ- حيث لم يَقُلْ: (إنَّ رُسلَه)- فهو تلوينٌ للخِطابِ بصَرفِه عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إليهم؛ للتَّشديدِ في التَّوبيخِ[٥].

٢- قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾

- في قولِه: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾ التفاتٌ، حيث عدَل عن الخِطابِ إلى الغيبةِ؛ للمُبالغةِ، كأنَّه تذكِرةٌ لغَيرِهم؛ لِيتعجَّبَ مِن حالِهم ويُنكِرَ عليهم[٦]، ومِن بديعِ الأسلوبِ في الآيةِ: أنَّها لَمَّا كانت بصَددِ ذِكْرِ النِّعمةِ جاءَت بضَمائرِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣١).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣١)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣٣).
(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٣٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٠٩).

الخِطابِ الصَّالحةِ لِجَميعِ السَّامِعين، فلمَّا تَهيَّأت للانتِقالِ إلى ذِكْرِ الضَّرَّاءِ وقَع الانتِقالُ مِن ضَمائرِ الخِطابِ إلى ضَميرِ الغيبةِ؛ لِتَلوينِ الأسلوبِ بما يُخلِّصُه إلى الإفضاءِ إلى ما يَخُصُّ المشركين، فقال: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾ على طريقةِ الالتِفاتِ، أي: وجرَيْن بكُم، وهكذا أُجرِيَت الضَّمائرُ جامعةً للفريقَين، إلى أن قال: ﴿فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾؛ فإنَّ هذا ليس مِن شِيَم المؤمنين، فتَمحَّضَ ضميرُ الغيبةِ هذا للمُشركين، فقد أخرَج مِن الخبَرِ مَن عَدا الَّذين يَبغُون في الأرضِ بغيرِ الحقِّ؛ تعويلًا على القَرينةِ؛ لأنَّ الَّذين يَبغون في الأرضِ بغيرِ الحقِّ لا يَشمَلُ المسلِمين[١].

- وأيضًا ابتُدِئ الإتيانُ بضَميرِ الغيبةِ مِن آخِرِ ذكرِ النِّعمةِ عندَ قولِه: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾؛ للتَّصريحِ بأنَّ النِّعمةَ شَمِلَتهم، وللإشارةِ إلى أنَّ مَجيءَ العاصفةِ فجأةً في حالِ الفرَحِ مُرادٌ مِنه ابتِلاؤُهم وتخويفُهم؛ فهو تمهيدٌ لقولِه: ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾[٢].

- قولُه: ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ فيه تأكيدُ وَعْدِهم بالشُّكرِ بثَلاثِ مُؤكِّداتٍ: لامِ تَوطِئةِ القَسَمِ، ونونِ التَّوكيدِ، والتَّعبيرِ بصيغةِ ﴿مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ وهو أبلَغُ مِن (لنَكونَنَّ شاكِرين)؛ لِما يُفيدُه مِن كَونِهم مِن هذه الزُّمرةِ الَّتي دَيدَنُها الشُّكرُ[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ١٣٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ١٣٨).

- قولُه: ﴿فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أتى بـ (إذا) الفُجائيَّةِ في جوابِ (لَمَّا)؛ للدَّلالةِ على تَعجيلِهم بالبَغيِ في الأرضِ عَقِبَ النَّجاةِ[1].

- وزيادةُ ﴿فِي الْأَرْضِ﴾؛ للدَّلالةِ على شُمولِ بَغيِهم لأقطارِها، وصيغةُ المضارِعِ ﴿يَبْغُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ[2].

- وقولُه: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ قيدٌ كاشفٌ لِمَعنى البغيِ؛ إذ البغيُ لا يَكونُ بحقٍّ، فهو كالتَّقييدِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾[3] [القصص: ٥٠].

- قولُه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ توجيهٌ للخِطابِ إلى أولئك الباغينَ؛ للتَّشديدِ في التَّهديدِ، والمبالَغةِ في الوَعيدِ[4]. وافتُتِح الخِطابُ بـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾؛ لاستِصْغاءِ أسماعِهم، والمقصودُ مِن هذا تَحذيرُ المشركين ثمَّ تَهديدُهم[5].

قولُه: ﴿إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ﴾ في قَصْرِ البَغيِ على كونِه مُضِرًّا بهم- كما هو مُفادُ حرفِ الاستِعْلاءِ (على)- تنبيهٌ على حَقيقةٍ واقعيَّةٍ وموعظةٍ لهم؛ لِيَعلَموا أنَّ التَّحذيرَ مِن الشِّركِ والتَّهديدَ عليه لِرَعْيِ صَلاحِهم، لا لأنَّهم يَضُرُّونه سُبحانَه[6].

- قولُه: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ...﴾ فيه تقديم الجارِّ والمجرورِ؛ للدَّلالةِ على الثَّباتِ والقَصْرِ[7]، وإفادةِ الاختِصاصِ، أي: تُرجَعون إلينا لا إلى غيرِنا؛ تَنزيلًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣٩).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣٦).

للمُخاطَبين منزلةَ مَن يظُنُّ أنَّه يُرجَعُ إلى غيرِ اللهِ؛ لأنَّ حالَهم في التَّكذيبِ بآياتِه، والإعراضِ عن عِبادتِه إلى عبادةِ الأصنامِ كحالِ مَن يظُنُّ أنَّه يُحشَرُ إلى الأصنامِ، وإن كان المشرِكون يُنكِرون البَعثَ مِن أصلِه[١].

- وعُطِفَت هذه الجملةُ بـ (ثُمَّ)؛ لإفادةِ التَّراخي الرُّتبيِّ؛ لأنَّ مضمونَ هذه الجملةِ أصرَحُ تَهديدًا مِن مَضمونِ جُملةِ: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾[٢].

- قولُه: ﴿فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيه تفريعُ ﴿فَنُنَبِّئُكُمْ﴾ على جملةِ: ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ تفريعَ وعيدٍ على تهديدٍ، والإنباءُ هنا كنايةٌ عَن الجزاءِ؛ لأنَّ الإنباءَ يَستلزِمُ العِلمَ بأعمالِهم السَّيِّئةِ، والقادِرُ إذا عَلِم بسوءِ صَنيعِ عَبدِه لا يَمنَعُه مِن عقابِه مانِعٌ، وفي ذِكْرِ ﴿كُنْتُمْ﴾ والفِعْلِ المضارِعِ ﴿تَعْمَلُونَ﴾ دَلالةٌ على تكرُّرِ عمَلِهم، وتَمكُّنِه مِنهم[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيتان (٢٤-٢٥)

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿زُخْرُفَهَا﴾: أي: حُسنَها وبَهاءَها، وزينَتَها بالنَّباتِ، وأصلُ الزخرف: الذَّهَبُ والزِّينةُ المُزَوَّقةُ[١].

﴿حَصِيدًا﴾: أي: محصودةً، ومقطوعةً مِن أصولِها. وأصلُ (حصد): يدلُّ على قَطعِ الشَّيءِ[٢].

﴿لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾: أي: لم تكُنْ عامِرةً، مِن: غَنِيَ في المكانِ: إذا أقامَ فيه وعَمَّره، ومِنه المَغاني: المَنازِلُ التي يَعمُرُها النَّاسُ. وأصلُ (غني): يدلُّ على الكِفايةِ[٣].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ مَثَلَ زينةِ الحياةِ الدُّنيا، في سُرعةِ زَوالِها، كمَثَلِ مَطَرٍ أنزَلَه اللهُ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٥٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٨).

مِن السَّماءِ إلى الأرضِ، فنبَتَ به أنواعٌ مِن نباتِ الأرضِ، اختلط بعضُها ببعضٍ، ممَّا يأكُلُه النَّاسُ والأنعامُ، حتى إذا ظهر حُسنُ الأرضِ بألوانِ النَّباتِ المُختَلِفةِ، وتزَيَّنَت بأنواعِ الحُبوبِ والثِّمارِ، والأزهارِ المتعَدِّدةِ الألوانِ والأشكالِ، وأيقنَ أهلُها أنَّهم قادِرونَ على حَصدِ زَرْعِها، وقَطْفِ ثِمارِها؛ أتاها قضاءُ اللهِ بإهلاكِ نَباتِها، فصَيَّرَ تعالى النَّباتَ مَقلوعًا هالِكًا، كأنْ لم يكُنْ قائمًا على ظَهرِ الأرضِ مِن قَبلُ، كذلك يُفصِّلُ اللهُ الآياتِ لِقَومٍ يتفكَّرونَ.

ويُبيِّنُ تعالى أنَّه يدعو عِبادَه لِدُخولِ جَنَّتِه، السَّالِمةِ مِن جميعِ الآفاتِ، ويُرشِدُ ويُوفِّقُ من يشاءُ مِن عِبادِه لسُلوكِ الطَّريقِ المُستقيمِ، المُوصِلِ إلى الجنَّةِ، وهو الإسلامُ.

تَفسيرُ الآيتَين:

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ الله تعالى لَمَّا قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وكان سبَبُ ما ذُكِرَ مِن البَغيِ هو الإفراطَ في حبِّ التمتُّعِ بما في الدُّنيا من الزِّينةِ واللَّذَّاتِ؛ ضرَبَ مثلًا بَليغًا عَجيبًا للحياةِ الدُّنيا، يُذَكِّرُ من يبغي فيها على سُرعةِ زَوالِها وانقضائِها، ويَصرِفُ العاقِلَ عن الغُرورِ بها، ويهديه إلى القَصدِ والاعتدالِ فيها، واجتنابِ التوسُّلِ إليها بالبَغيِ والظُّلمِ، وحُبِّ العُلُوِّ والفَسادِ في الأرضِ، وأنَّها بحالِ ما تُعِزُّ وتُسِرُّ، تَضمَحِلُّ ويَؤُولُ أمرُها إلى الفَناءِ(١).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٨٤).

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

أي: إنَّما مَثَلُ زِينةِ الحياةِ الدُّنيا في سُرعةِ زَوالِها، كمَثَلِ مَطرٍ أنزلناه من السَّماءِ إلى الأرضِ(١).

﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ﴾.

أي: فنَبَتَ بذلك المطَرِ أنواعٌ مِن نَباتِ الأرضِ مُتداخِلٌ بعضُها في بعضٍ(٢) ممَّا يأكُلُه النَّاسُ من الحُبوبِ والثِّمارِ والبُقولِ، وممَّا تأكُلُه الأنعامُ مِن الكَلأِ والعُشبِ(٣).

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ﴾.

أي: حتَّى إذا ظهَرَ حُسنُ الأرضِ بألوانِ النَّباتِ المُختَلفةِ، وتزيَّنَت بأنواعِ الحُبوبِ والثِّمارِ والأزهارِ المتعدِّدةِ الأشكالِ والألوانِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٥٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٦٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٠).

(٢) ممَّن اختار هذا المعنى لقوله تعالى: ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٥٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٦٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٥٠)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ١٩٤١).

قال الشوكاني: (والباءُ في: ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ للسببيةِ، أي: فاختلَط بسببِه نباتُ الأرضِ، بأن اشتَبَك بعضُه ببعضٍ حتى بلَغ إلى حدِّ الكمالِ). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٩٧).

وقيل: المرادُ: امتزجَ الماءُ بالنَّباتِ لِسَرَيانِه فيه. وممَّن اختار هذا المعنَى: القاسمي، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٥٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٥٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦١).

كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

وقال سُبحانه: ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ *وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ [ق: ٧ - ١٠].

﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾.

أي: وأيقَنَ أهلُ الأرضِ- الذين زَرَعوها وغَرَسوها- أنَّهم قادِرونَ على حَصدِ زَرعِها، وقَطْفِ ثِمارِها[1].

﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾.

أي: جاء الأرضَ قضاؤُنا بإهلاكِ نَباتِها فجأةً؛ إمَّا ليلًا أو نهارًا، فصيَّرْنا النَّباتَ مَقلوعًا هالِكًا، كأنْ لم يكُنْ قائمًا على ظَهرِ الأرضِ يُزَيِّنُها بجمالِه مِن قَبلُ[2]!

كما قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ [الكهف: ٤٥].

﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

أي: كما بيَّنَّا لكم- أيُّها النَّاسُ- مَثَلَ الدُّنيا بهذا المِثالِ، وعرَّفناكم أمْرَها؛ نُبَيِّنُ ونُوضِّحُ- بمِثلِ ذلك التَّفصيلِ البديعِ- الآياتِ لقومٍ يتفكَّرونَ ويعتبرونَ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٥٠)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٣٧، ٢٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٧، ٣٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٥٠، ١٥١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٤، ١١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٨٤، ٢٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٤٢، ١٤٤).

فلا يغترُّونَ بالدُّنيا الفانيةِ[١].

كما قال سُبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[الزمر: ٢١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٢٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى الدُّنيا، وسُرعةَ عَطَبِها وزَوالِها، ونَفَّرَ عن المَيلِ إليها بالمَثَلِ السَّابقِ؛ رغَّبَ في الآخرةِ، ودعا إلى الجنَّةِ[٢]، فقال:

﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾.

أي: واللهُ يدعو عِبادَه إلى دُخولِ جَنَّتِه السَّالِمةِ مِن جميعِ الآفاتِ، فاطلُبوها بِطاعَتِه، ولا تطلُبوا الدُّنيا وزينَتَها؛ فإنَّها مليئةٌ بالآفاتِ والنَّكَباتِ، ومصيرُها إلى زوالٍ وفَناءٍ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٥١)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٦٦، ١٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٥)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٢). =

عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((جاءتْ ملائكةٌ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو نائِمٌ، فقال بعضُهم: إنَّه نائمٌ، وقال بعضُهم: إنَّ العَينَ نائِمةٌ، والقلبَ يَقظانُ، فقالوا: إنَّ لِصاحِبِكم هذا مَثَلًا، فاضربوا له مَثَلًا، فقال بعضُهم: إنَّه نائِمٌ، وقال بعضُهم: إنَّ العَينَ نائمةٌ، والقَلبَ يَقظانُ، فقالوا: مَثَلُه كمَثَلِ رَجُلٍ بنى دارًا، وجعل فيها مأدُبةً[1]، وبعثَ داعيًا، فمن أجابَ الدَّاعيَ دخل الدَّارَ، وأكلَ مِن المَأدُبةِ، ومَن لم يُجِبِ الدَّاعيَ لم يدخُلِ الدَّارَ، ولم يأكلْ من المأدُبة، فقالوا: أوِّلُوها له يَفْقَهْها، فقال بعضُهم: إنَّه نائمٌ، وقال بعضُهم: إنَّ العَينَ نائمةٌ، والقَلبَ يَقظانُ، فقالوا: فالدَّارُ الجنَّةُ، والدَّاعي مُحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فمن أطاع محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقد أطاعَ الله، ومَن عصى محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقد عصى اللهَ، ومُحمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم فَرْقٌ[2] بين النَّاسِ))[3].

﴿وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

أي: واللهُ يُرشِدُ ويوفِّقُ مَن يَشاءُ مِن عِبادِه إلى الإسلامِ، وهو الطَّريقُ المُستَقيمُ المُوصِلُ مَن سلَكَه إلى الجنَّةِ[4].

= قال الخازن: (قال قتادة: اللهُ هو السَّلامُ ودارُه الجنَّةُ، فعلى هذا، السَّلامُ اسمٌ مِن أسماءِ الله عزَّ وجَلَّ، ومعناه: أنَّه سبحانه وتعالى سَلِمَ مِن جميعِ النَّقائِصِ والعُيوبِ والفناء... وقيل: إنَّه سبحانه وتعالى يُوصَفُ بالسَّلام؛ لأنَّ الخَلقَ سَلِموا مِن ظُلمِه. وقيل: إنَّه تعالى يُوصَفُ بالسَّلامِ، بمعنى: ذي السَّلامِ، أي: لا يقدِرُ على تخليصِ العاجِزينَ مِن المكارِهِ والآفاتِ إلَّا هو. وقيل: دارُ السَّلامِ اسمٌ للجنَّةِ، وهو جمعُ سلامةٍ. والمعنى: أنَّ مَن دخَلَها فقد سَلِم من جميعِ الآفات، كالمَوتِ والمَرَض والمصائبِ، والحُزنِ والغَمِّ والتَّعَب والنَّكَد. وقيل: سُمِّيَت الجنَّةُ دارَ السَّلامِ؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى يُسلِّمُ على أهلِها، أو تُسلِّمُ الملائكةُ عليهم). ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٣٨). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٦٧، ١٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣٧، ١٣٨).

(١) المَأدُبة: الطعامُ يُصنَعُ، ويُدعا إليه الناسُ. يُنظر: ((مصابيح الجامع)) للدماميني (١٠/ ١٥٣).

(٢) فَرْقٌ: أي: فارِقٌ بين النَّاجي والهالِك مِن النَّاسِ. يُنظر: ((مصابيح الجامع)) للدماميني (١٠/ ١٥٤).

(٣) رواه البخاري (٧٢٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٥٣)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٣٧٨)، ((تفسير المنار)) =

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قَولُه تعالى: ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾ هذه هي الدُّنيا التي يَستَغرِقُ فيها بعضُ النَّاسِ، ويضَيِّعونَ الآخرةَ كُلَّها لِيَنالوا منها بعضَ المَتاعِ، هذه هي، لا أمْنَ فيها ولا اطمِئنانَ، ولا ثباتَ فيها ولا استِقرارَ، ولا يملِكُ النَّاسُ مِن أمْرِها شيئًا إلَّا بمِقدارٍ[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ شَبَّه الحياةَ الدُّنيا بماءِ السَّماءِ دونَ ماءِ الأرضِ؛ لأنَّ ماءَ السَّماءِ- وهو المطَرُ- لا تأثيرَ لِكَسبِ العَبدِ فيه بزيادةٍ أو نقصٍ، أو لأنَّه يستوي فيه جميعُ الخلائِقِ، بخلافِ ماءِ الأرضِ، فكان تشبيهُ الحياةِ به أنسَبَ[2].

٢- الأمرُ المذكورُ في قَولِه تعالى: ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا﴾ هو الأمْرُ الكونيُّ، ويقابلُه: الأمْرُ الدينيُّ، كما في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[3] [النحل: ٩٠].

٣- الإرادةُ نوعان: إرادةٌ كونيَّةٌ قَدَريَّةٌ، وهي المشيئةُ، ولا مُلازمةَ بينها وبين المحبَّةِ والرِّضا، بل يدخُلُ فيها الكُفرُ والإيمانُ، والطَّاعاتُ والعِصيانُ، والمَرضِيُّ

= لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٨٦، ٢٨٧).

قال السعدي: (خَصَّ بالهدايةِ مَن شاء استخلاصَه واصطفاءَه، فهذا فَضلُه وإحسانُه، واللهُ يختَصُّ برَحمتِه من يشاءُ، وذلك عَدلُه وحِكمتُه، وليس لأحدٍ عليه حُجَّةٌ بعد البيانِ والرُّسُلِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٢).

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٧٧٥).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٤٥-٢٤٦).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٢٦٧).

والمحبوبُ والمكروهُ وضِدُّه، وإرادةٌ دينيَّةٌ شَرعيَّةٌ مختَصَّةٌ بمراضي اللهِ ومَحابِّه، وعلى مقتضاها أمَرَ عِبادَه ونهاهم، وتجتَمِعُ الإرادةُ الكونيَّةُ والشَّرعيَّةُ في حَقِّ المُؤمِنِ الطائعِ، وتنفَرِدُ الكونيَّةُ في حقِّ الفاجِرِ العاصي؛ فالله سبحانه دعا عبادَه عامَّةً إلى مرضاتِه، وهدى لإجابتِه من شاء منهم، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ فعمَّمَ سُبحانه الدَّعوةَ، وخَصَّ الهدايةَ بمَن شاء[1].

٤- قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ أي: يدعو النَّاسَ جميعًا إلى دارِ السَّلامةِ عن كُلِّ مَكروهٍ وآفةٍ، وهي الجنَّةُ، وإنَّما ذُكِرَت بهذا الاسمِ لذِكْرِ الدُّنيا بما يُقابِلُه مِن كَونِها مَعرِضًا للآفاتِ[2].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ عَمَّ سبحانَه وتعالى بالدَّعوةِ أوَّلًا؛ إظهارًا للحُجَّةِ، وخَصَّ بالهدايةِ ثانيًا؛ استغناءً عن خَلْقِه، وإظهارًا للقُدرةِ، لأنَّ الحُكمَ له في خَلْقِه[3]، وقيل أيضًا: عَمَّ بالدَّعوةِ إلى دارِ السَّلامِ، وخَصَّ بالهدايةِ مَن يشاءُ، فذاك عَدلُه، وهذا فَضلُه[4].

٦- قال اللهُ تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ هذه الآيةُ بَيِّنةُ الحُجَّةِ في الرَّدِّ على القَدَريَّةِ؛ لأنَّهم قالوا: هَدى اللهُ الخَلقَ كُلَّهم إلى صراطٍ مُستقيم، واللهُ قال: ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ فردُّوا على اللهِ نُصوصَ القُرآنِ[5].

---

(١) يُنظر: ((أعلام السنة المنشورة)) للحكمي (ص: ٨٨)، وينظر أيضًا: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣٧-١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٩)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ١٥).

(٤) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١١٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٩).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ حثٌّ مِن الله تعالى لعبادِه على إجابةِ هذه الدَّعوةِ، والمبادرةِ إليها، والمُسارعةِ في الإجابةِ[(١)].

بلاغةُ الآيتين:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ...﴾ فيه تشبيهٌ، وهو مِن التَّشبيهِ المركَّبِ؛ شُبِّهَت حالُ الدُّنيا في سُرعةِ تَقَضِّيها، وانقِراضِ نَعيمِها بعدَ الإقبالِ، بحالِ نَباتِ الأرضِ في جَفافِه وذَهابِه حُطامًا بعدَما الْتَفَّ وتَكاثَفَ، وزيَّن الأرضَ بخُضرتِه ورَفيفِه[(٢)]، وهذه الآيةُ تتنزَّلُ مَنزلةَ البيانِ لقَولِه: ﴿مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ المؤذِنةِ بأنَّ تَمتُّعَهم بالدُّنيا ما هو إلَّا لمدَّةٍ قصيرةٍ، فبيَّنَت هذه الآيةُ أنَّ التَّمتُّعَ صائرٌ إلى زَوالٍ، وأطنَبَت فشبَّهَت هيئةَ التَّمتُّعِ بالدُّنيا لأصحابِها بهيئةِ الزَّرعِ في نَضارتِه، ثمَّ في مَصيرِه إلى الحَصْدِ[(٣)].

وفي هذه الآيةِ عَشْرُ جُمَلٍ وقَع التَّركيبُ مِن مَجموعِها، بحيث لو سقَط مِنها شيءٌ اختَلَّ التَّشبيهُ، قيل: وجهُ تشبيهِ الدُّنيا بالماءِ أمْرانِ؛ أحَدُهما: أنَّ الماءَ إذا أخَذتَ مِنه فوقَ حاجَتِك تضَرَّرتَ، وإن أخذتَ قدْرَ الحاجةِ انتفعتَ به، فكَذلك الدُّنيا. والثَّاني: أنَّ الماءَ إذا طبَّقتَ عليه كفَّك لِتَحفَظَه لم يَحصُلْ فيه شيءٌ

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٧٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٦).
والرَّفيفُ: النَّباتُ الذي يهتزُّ خُضرةً وتَلألُؤًا مِن نضارتِه. يُنظر: ((العين)) للخليل (٨/ ٢٥٥)، ((جمهرة اللغة)) لابن دريد (١/ ١٢٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٤١).

فكذلك الدُّنيا(١).

- وصيغةُ القَصرِ ﴿إِنَّمَا﴾ هنا لِتَأكيدِ المقصودِ مِن التَّشبيهِ، وهو سُرعةُ الانقِضاءِ، ولِتَنزيلِ السَّامِعين مَنزلةَ مَن يَحسَبُ دَوامَ بهجةِ الحياةِ الدُّنيا؛ لأنَّ حالَهم في الانكِبابِ على نَعيمِ الدُّنيا كحالِ مَن يَحسَبُ دَوامَه، ويُنكِرُ أن يَكونَ له انقِضاءٌ سريعٌ ومُفاجئٌ، والمعنى: قَصرُ حالةِ الحياةِ الدُّنيا على مُشابهةِ حالةِ النَّباتِ الموصوفِ؛ فالقصرُ قَصْرُ قَلبٍ، بُنِيَ على تنزيلِ المُخاطَبينَ منزلةَ مَن يَعتقِدُ عَكسَ تِلك الحالةِ؛ شُبِّهتْ حالةُ الحياةِ في سُرعةِ تَقضِّيها، وزوالِ نَعيمِها بعدَ البهجةِ به، وتَزايُدِ نَضارتِها بحالِ نباتِ الأرضِ في ذَهابِه حُطامًا، ومَصيرِه حَصيدًا، ومِن بديعِ هذا التَّشبيهِ: تَضمُّنُه لتشبيهاتٍ مُفرَّقةٍ من أطوارِ الحالينِ المتشابهَينِ بحيثُ يَصلُحُ كلُّ جزءٍ مِن هذا التشبيهِ المركَّبِ لتشبيهِ جُزءٍ مِن الحالينِ المتشابِهينِ؛ ولذلك أَطْنَبَ وصْفَ الحالينِ مِن ابتدائِه(٢).

- قولُه: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ...﴾ كلامٌ فصيحٌ بديعُ اللَّفظِ، حيث جُعِلَت الأرضُ آخِذةً زُخرُفَها على التَّمثيلِ بالعَروسِ، إذا أَخَذَت الثِّيابَ الفاخِرةَ مِن كلِّ لونٍ، فاكْتَسَتها وتزَيَّنَت بغيرِها مِن ألوانِ الزِّيَنِ(٣).

- قولُه: ﴿كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾ فيه مُبالَغةٌ في التَّلَفِ والهلاكِ، حتَّى كأنَّها لم تُوجَدْ قَبلُ، ولم يَقُمْ بالأرضِ بهجةٌ خَضِرةٌ نضِرةٌ تَسُرُّ أهلَها(٤).

- قولُه: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ تذييلٌ جامعٌ؛ أي مِثْلَ هذا التَّفصيلِ نُفصِّلُ، أي: نُبيِّنُ الدَّلالاتِ كلَّها الدَّالَّةَ على عُمومِ العلمِ والقدرةِ،

---

(١) يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٤/ ١٥٣٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٤١)، ويُنظَر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٤٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٠٦١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٩).

وإتقانِ الصُّنعِ[١]، وفيه تعريضٌ بأنَّ الذين لم ينتَفِعوا بالآياتِ، ليسوا مِن أهلِ التفَكُّرِ، ولا كان تفصيلُ الآياتِ لأجْلِهم[٢].

- وفي قولِه: ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ خَصَّ (الْمُتَفَكِّرِينَ) بالذِّكرِ؛ تَشريفًا للمنزلةِ، ولِيَقعَ التَّسابُقُ إلى هذه الرُّتبةِ[٣]، ولأنَّهم هم المنتَفِعون بتَفصيلِ الآياتِ[٤].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

- قولُه: ﴿دَارِ السَّلَامِ﴾ فيه إضافةُ الدَّارِ إلى اسمِه سُبحانَه؛ تَعظيمًا وتَشريفًا لها[٥]، وذلك على أحدِ أوجهِ التأويلِ.

- وفي قولِه: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ مناسَبةٌ حسَنةٌ؛ فإنَّه لَمَّا كان الدُّعاءُ عامًّا لم يتَقيَّدْ بالمشيئةِ، ولَمَّا كانت الهدايةُ خاصَّةً تقيَّدَت بالمشيئةِ، فقال: ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾[٦].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١١٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٠).

الآيتان (٢٦-٢٧)

﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦) وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧) ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَلَا يَرْهَقُ﴾: أي: لا يَغشَى، ولا يَعلُو، وأصلُ (رهق): غِشْيانُ الشَّيءِ الشَّيءَ(١).

﴿قَتَرٌ﴾: أي: غبارٌ وكآبةٌ، وأصلُ (قتر): يدلُّ على تجميعٍ وتَضييقٍ(٢).

﴿ذِلَّةٌ﴾: أي: صَغارٌ، وأصْلُ الذُّلِّ: الخُضُوعُ والاستكانةُ(٣).

المعنَى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ تعالى أنَّ الَّذينَ أحسَنوا في الدُّنيا لهم الجنَّةُ في الآخرةِ، وزيادةٌ على ذلك، ومِن الزيادةِ- بل أعظمُها- النَّظَرُ إلى وَجهِ اللهِ الكريمِ، ولا يغشَى وُجوهَهم غُبارٌ ولا هَوانٌ ولا صَغارٌ، أولئك أصحابُ الجنَّةِ هم فيها ماكِثونَ أبدًا.

والذين عمِلوا السَّيِّئاتِ فعَصَوا وكفَروا بالله ورسولِه، فلهم جزاءٌ يسوؤُهم بحسبِ ما عمِلوا مِن السيئاتِ، دونَ زيادةٍ، ويغشاهم هَوانٌ وذُلٌّ وخِزيٌ، ليس

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٦٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٣٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٨).

لهم مِن اللهِ مِن مانعٍ يمنَعُ عنهم سَخَطَه وعذابَه، كأنَّما أُلبِسَت وجوهُهم- مِن شِدَّةِ سَوادِها- أجزاءً مِن اللَّيلِ في حالِ ظُلمَتِه، أولئك أصحابُ النَّارِ هم فيها ماكِثونَ أبدًا.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا دعا اللهُ تعالى عِبادَه إلى دارِ السَّلامِ؛ ذكَرَ السَّعاداتِ التي تحصُلُ لهم فيها(١).

وأيضًا لَمَّا أفهم خَتمُ الآيةِ بقَولِه: ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أنَّ مِن النَّاسِ مَن يهديه، ومنهم مَن يُضِلُّه، وأنَّ الكُلَّ فاعلونَ لِما يَشاءُ، كان موضِعَ أن يُقالَ: هل هم واحِدٌ في جزائِه، كما هم واحِدٌ في الانقيادِ لِمُرادِه؟ فقيل: لا، بل هم فَريقانِ، فذَكَرَهما(٢).

وأيضًا أنَّه لَمَّا دعا تعالى إلى دارِ السَّلامِ، كأنَّ النُّفوسَ تَشَوَّقَت إلى الأعمالِ المُوجِبةِ لها المُوصِلةِ إليها، فأخبَرَ عنها بقَولِه تعالى(٣):

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ﴾.

أي: للَّذين أحسَنوا في الدُّنيا بالإيمانِ، وأحسَنوا في طاعةِ الرَّحمنِ؛ امتثالًا لأمرِه، واجتنابًا لِنَهيِه، على وَجهِ المُراقَبةِ له سُبحانه، وأحسَنوا إلى عبادِ اللهِ تعالى؛ هؤلاء لهم الجنَّةُ، ولهم زيادةٌ على ذلك، وأعظمُ أنواعِها النَّظَرُ إلى وجهِ الله عزَّ وجلَّ(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٤٠).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٠٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٦٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٥٦، ١٦٤)، ، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٧٠)، =

كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

وقال سبحانه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

وعن صُهَيب رَضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إذا دخَلَ أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ، يَقولُ اللهُ تبارك وتعالى: تُريدونَ شَيئًا أزيدُكم؟ فيقولون: ألم تُبَيِّضْ وُجوهَنا؟! ألم تُدخِلْنا الجنَّةَ، وتُنْجِنا من النَّارِ؟! قال: فيَكشِفُ الحِجابَ، فما أُعطُوا شَيئًا أحَبَّ إليهم مِن النَّظَرِ إلى رَبِّهم عزَّ وجَلَّ، ثمَّ تلا هذه الآيةَ:

= ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤١٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٥، ١١٦)،، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٠)، ((تفسير آيات أشكلت)) لابن تيمية (١/ ٣٩٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٣)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٢).

الجمهورُ على أنَّ ﴿الْحُسْنَى﴾ الجنَّةُ، و(الزيادة) هي النَّظَرُ إلى وجهِ الله عزَّ وجلَّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٥).

وذهب بعضُ المفَسِّرينَ- كابن جرير، وابن كثير- إلى أنَّ المرادَ بالزيادةِ ما هو أعم من النَّظَرِ إلى وجهِ الله تعالى. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٢).

قال ابنُ جريرٍ: (ومِن الزيادةِ على إدخالِهم الجنةَ أن يكرمَهم بالنظرِ إليه، وأن يُعطيَهم غُرفًا مِن لآلئ، وأن يزيدَهم غفرانًا ورضوانًا؛ كلُّ ذلك مِن زياداتِ عطاءِ الله إيَّاهم على الحسنَى التي جعَلها الله لأهلِ جناتِه، وعمَّ ربُّنا جلَّ ثناؤُه بقولِه: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ الزياداتِ على الحسنَى، فلم يخصصْ منها شيئًا دونَ شيءٍ، وغيرُ مستنكَرٍ مِن فضلِ الله أن يجمعَ ذلك لهم، بل ذلك كلُّه مجموعٌ لهم إن شاء الله. فأولَى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ أن يعمَّ كما عمَّه عزَّ ذكرُه). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٦٤).

وقال ابنُ كثيرٍ: (وقولُه: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ هي تضعيفُ ثوابِ الأعمالِ بالحسنةِ عشرَ أمثالِها إلى سبعِمائةِ ضِعْفٍ، وزيادةٌ على ذلك أيضًا ويشملُ ما يُعْطيهم اللَّهُ في الجِنانِ مِنَ القُصورِ والحُورِ والرِّضا عنهم، وما أخفاه لهم مِن قُرَّةِ أعْيُنٍ، وأفضلُ مِنْ ذلك وأعلاهُ النظرُ إلى وجهِه الكريمِ، فإنَّه زيادةٌ أعظمُ مِنْ جميعِ مَا أُعْطُوه، لا يَسْتَحِقُّونَها بعَمَلِهم، بلْ بفَضْلِه ورَحْمَتِه). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٢).

وقال ابنُ القيمِ: (ولما عطَف سبحانَه الزيادةَ على الحسنَى التي هي الجنةُ، دلَّ على أنَّها أمرٌ آخرُ مِن وراءِ الجنةِ، وقدرٌ زائدٌ عليها، ومَن فسَّر الزيادةَ بالمغفرةِ والرضوانِ فهو مِن لوازمِ رؤيةِ الربِّ تبارَك وتعالَى). ((حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح)) (ص: ٢٩١).

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾))[١].

﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا شرَحَ اللهُ تعالى ما يحصُلُ لأهلِ الجنَّةِ مِن السَّعاداتِ، شرَحَ بعد ذلك الآفاتِ التي صانَهم اللهُ بفَضلِه عنها، فقال تعالى[٢]:

﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾.

أي: ولا يَغشى وجوهَ أهلِ الجنَّة غُبارٌ ولا كآبةٌ، ولا هوانٌ أو صَغَارٌ[٣].

كما قال تعالى: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١].

وقال سبحانه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨-٣٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤].

﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

أي: أولئك- الذين أحسَنوا- أهلُ الجنَّةِ، هم فيها ماكِثونَ أبدًا[٤].

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧)﴾.

---

(١) رواه مسلم (١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٦٥)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٦٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٩٩)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٨٧).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخبَر تعالَى عن حالِ السُّعداءِ؛ عَطَف بذكرِ حالِ الأشقياءِ، فذَكَر عدلَه تعالى فيهم، وأنَّه يُجازيهم على السَّيِّئةِ بمثلِها، لا يزيدُهم على ذلك(١).

وأيضًا فإنَّ اللهَ تعالى كما شرحَ حالَ المُسلِمينَ في الآيةِ المتقَدِّمةِ، شَرحَ حال مَن أقدَمَ على السيِّئاتِ في هذه الآيةِ(٢)، فقال:

﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا ﴾.

أي: والَّذين عمِلوا السيِّئاتِ(٣) في الدُّنيا، فعَصَوا وكفَروا بالله ورسولِه، فلهم جزاءٌ يسوؤُهم بحسبِ ما عمِلوا مِن السيئاتِ، دونَ زيادةٍ على ما يستحقُّونَ(٤).

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

﴿ وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٤٢).
(٣) قيل: تعمُّ السيئات هاهنا الكفرَ والمعاصي، وممن قال بذلك: ابنُ جرير، وابنُ عطيةَ، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٦٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٦)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٢).
وقيل: المرادُ بها: الشركُ. وممن قال بذلك: الواحديُّ، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((الوجيز)) (ص: ٤٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٤٨). وهذا القولُ مرويٌّ عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٢٧).
وقيل: المرادُ بها المعاصي. وممَّن قال بذلك: القرطبي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٦٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٩٩)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٢).

أي: ويَغشاهم هوانٌ وخِزيٌ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٢، ٤٣].

﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾.

أي: ما لهم مِن اللهِ مِن مانعٍ يمنَعُ عنهم سَخَطَه وعذابَه(٢).

كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٤].

وقال سُبحانه: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ [غافر: ٣٣].

﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا﴾.

أي: كأنَّما أُلبِسَت وجوهُهُم- مِن شِدَّةِ سَوادِها- أجزاءً مِن اللَّيلِ في حالِ ظُلمَتِه(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٦٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٢).

قال السعدي: (﴿وَتَرْهَقُهُمْ﴾ أي: تَغشاهم ﴿ذِلَّةٌ﴾ في قلوبِهم، وخَوفٌ مِن عذابِ اللهِ، لا يدفَعُه عنهم دافِعٌ، ولا يَعصِمُهم منه عاصِمٌ، وتسري تلك الذِّلَّةُ الباطنةُ إلى ظاهِرِهم، فتكونُ سَوادًا في الوُجوهِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٦٦)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٦٨)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٧٧ - ١٧٩)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠].

وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾.

أي: أولئك- الموصوفونَ بهذه الصفاتِ الذميمةِ- أهلُ النَّارِ، هم فيها ماكِثونَ أبدًا[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

لا عاصِمَ مِن اللهِ لا في الدُّنيا ولا في الآخرةِ؛ فإنَّ قضاءَه مُحيطٌ بجَميعِ الكائِناتِ، وقدَرَه نافِذٌ في كلِّ المُحدَثاتِ، إلَّا أنَّ الغالِبَ على الطِّباعِ العاصيةِ، أنَّهم في الحياةِ العاجلةِ مُشتَغِلونَ بأعمالِهم ومُراداتِهم، أمَّا بعد الموتِ فكُلُّ أحدٍ يُقِرُّ بأنَّه ليس له مِن اللهِ مِن عاصمٍ، قال تعالى: ﴿مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

في قَولِه تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ مُناسبةٌ بينَ الإحسانِ، وبينَ النَّظَرِ إلى وجهِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ووجهُ ذلك أنَّ الإحسانَ هو أنْ يَعبُدَ المؤمِنُ ربَّه في الدُّنيا على وَجهِ الحُضورِ والمُراقبةِ، كأنَّه يراهُ بقَلبِه، وينظرُ إليه في حالِ عبادَتِه، فكان جزاءُ ذلك النَّظَرَ إلى اللهِ عِيانًا في الآخرةِ، وعكسُ هذا ما أخبَرَ

= الرازي)) (١٧/ ٢٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٤)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٩٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٤٢).

اللهُ تعالى به عن جزاءِ الكفَّارِ في الآخرةِ: ﴿إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، وجَعَلَ ذلك جزاءً لحالِهم في الدُّنيا، وهو تَراكُمُ الرَّانِ على قُلوبِهم؛ حتى حُجِبَتْ عن مَعرفتِه، ومُراقَبتِه في الدُّنيا، فكان جزاؤُهم على ذلك أنْ حُجِبُوا عن رؤيَتِه في الآخرةِ[١].

بلاغةُ الآيتين:

١- قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ جملةٌ مُستأنَفةٌ؛ لبيانِ أَمْنِهم مِن المكارِه، بَعدَ بَيانِ فوزِهم بالمطالِبِ بقولِه: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾، وإنَّما ذَكرَ أمْنَهم مِن المكارِهِ- مع أنَّ فَوْزَهم بالمطالِبِ يَقتضِيه-؛ تَذكيرًا بما يُنقِذُهم اللهُ تعالى مِنه برحمتِه[٢].

- وفيه تقديمُ المفعولِ: ﴿وُجُوهَهُمْ﴾، على الفاعلِ: ﴿قَتَرٌ﴾؛ للاهتمامِ ببيانِ أنَّ المَصونَ مِن الرَّهَقِ أشرفُ أعضائِهم، وللتَّشويقِ إلى المؤخَّرِ؛ فإنَّ ما حقُّه التَّقديمُ إذا أُخِّر تَبْقَى النَّفسُ مُترقِّبةً لوُرودِه، فعند ورودِه عليها يتَمكَّنُ عندَها فضْلَ تمكُّنٍ، ولأنَّ في الفاعلِ ضربَ تَفْصيلٍ[٣].

- وكَنَى بالوجهِ عن جملةِ الجسَدِ؛ لكونِ الوجهِ أشرَفَه، ولِظُهورِ أثرِ السُّرورِ والحزنِ فيه[٤]، والمرادُ: لا ينالُهم مكروهٌ، بوجهٍ مِن الوجوهِ؛ لأنَّ المكروهَ إذا وقَع بالإنسانِ، تبيَّن ذلك في وجهِه، وتغيَّر وتكدَّر[٥].

---

(١) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٢).

- وفيه تعريضٌ بالَّذين لم يَهدِهِمُ اللهُ إلى صراطٍ مستقيم، وهم الَّذين كسَبوا السَّيِّئاتِ؛ تعجيلًا للمَساءةِ إليهم بطريقِ التَّعريضِ قبلَ التَّصريحِ، الذي يأتي في قولِه: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ إلى قولِه: ﴿مُظْلِمًا﴾(١) [يونس: ٢٧].

- وجملةُ: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ نتيجةٌ للمقدِّمةِ؛ فبَيْنَها وبينَ التي قبلَها كمالُ الاتِّصالِ؛ ولذلك فُصِلَت عنها، ولم تُعطَفْ(٢).

- واسمُ الإشارةِ ﴿أُولَئِكَ﴾ فيه تَنبيهٌ على أنَّهم استَحقُّوا الخلودَ لأجلِ إحسانِهم، وما فيه مِن معنى البُعدِ؛ للإيذانِ بعُلوِّ دَرجتِهم، وسُموِّ طبَقتِهم(٣).

٢- قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِها وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ عطفٌ على جملةِ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾، وعبَّر في جانبِ المسيئين بفِعلِ ﴿كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ﴾، دونَ فِعْل (أَساؤوا) كما عبَّر في جانبِ الَّذين أحسَنوا؛ للإشارةِ إلى أنَّ إساءتَهم مِن فِعْلِهم وسعيِهم؛ فما ظلَمَهم اللهُ ولكنْ أنفسَهم يَظلِمون(٤).

- وفيه تغييرُ السَّبْكِ حيثُ لم يَقُل: (ولِلَّذين كسَبوا السَّيِّئاتِ السُّوأى)، في مقابلةِ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى﴾؛ لمُراعاةِ ما بينَ الفريقينِ مِن كمالِ التَّنائي والتَّبايُن، وإيرادُ (الكَسْبِ)؛ للإيذانِ بأنَّ ذلك إنَّما هو لسوءِ صَنيعِهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤ / ١٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٤٧).

وبسبب جِنايتِهم على أنفُسِهم[١].

– وأيضًا قوله: ﴿أَحْسَنُوا﴾، و﴿كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّ المؤمِنَ لَمَّا خُلِقَ على الفِطرةِ واصَلَها بالإحسانِ، وعلى أنَّ الكافِرَ لَمَّا خُلِقَ على الفطرةِ انتقَلَ عنها، وكسَبَ السَّيِّئاتِ، فجَعلَ ذلك مُحسِنًا، وهذا كاسِبًا للسيِّئاتِ؛ ليدُلَّ على أنَّ المؤمِنَ سلك ما يَنبغي، وهذا سلَك ما لا يَنبغي[٢].

– قولُه: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ فيه إسنادُ الرَّهَقِ إلى أنفُسِهم دون وُجوهِهم؛ للإيذانِ بأنَّها محيطةٌ بهم غاشيةٌ لهم جميعًا، وتنكيرُ ﴿ذِلَّةٌ﴾ للتَّفخيمِ[٣].

– قولُه: ﴿مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾: نفْيُ العاصِمِ فيه مُبالغةٌ ظاهرةٌ في نفْيِ العِصمةِ من الله تعالى[٤].

– في قولِه: ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ مبالغةٌ في سَوادِ الوُجوهِ، ولَمَّا كانت ظُلمةُ اللَّيلِ نهايةً في السَّوادِ شبَّه سَوادَ وُجوهِهم بقِطَعٍ مِن اللَّيلِ حالَ اشتدادِ ظُلمتِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٧).

الآيات (٢٨-٣٠)

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓا إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿فَزَيَّلْنَا﴾: أي: فَرَّقْنا. وأصلُ التزايُل: التبايُن[١].

﴿تَبْلُو﴾: أي: تَختَبِرُ وتَعلَمُ. وأصلُ (بلو): يدلُّ على اختبارٍ[٢].

﴿أَسْلَفَتْ﴾: أي: قَدَّمَت وعَمِلَت، وأصلُ (سلف): يدلُّ على تقدُّمٍ وسَبْقٍ[٣].

مُشكِلُ الإعراب:

قَولُه تعالى: ﴿مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾

﴿مَكَانَكُمْ﴾ اسمُ فِعلِ أمرٍ، مبنيٌّ على الفَتحِ، لا محَلَّ له من الإعرابِ، بمعنى: اثبُتوا، منقولٌ عن الظَّرفِ، والفاعِلُ ضَميرٌ مُستَتِرٌ وُجوبًا، تقديرُه (أنتم)، و﴿أَنتُمْ﴾ ضميرٌ مبنيٌّ في محلِّ رفعٍ توكيدٌ للضَّميرِ المُستَترِ في اسمِ الفِعلِ،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣٢٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٤).
قال أبو حيان: (تختبرُ ما أسلفَتْ من العملِ، فتعرفُ كيف هو أقبيحٌ أم حسنٌ، أنافعٌ أم ضارٌّ، أمقبولٌ أم مردودٌ؟ كما يتعرَّفُ الرجلُ الشَّيءَ باختبارِه). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٤).

﴿وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾ معطوفٌ على الضَّميرِ المُستَترِ، مرفوعٌ. وقيل: ﴿مَكَانَكُمْ﴾ مفعولٌ به منصوبٌ لفِعلٍ محذوفٍ، تَقديرُه (الزموا)(١).

المَعنى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ اللهُ تعالى نبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قائلًا له: واذكرْ- يا مُحمَّدُ- يومَ نَجمَعُ الخَلقَ جميعًا لِمَوقفِ الحساب يومَ القيامةِ، ثمَّ نقولُ للذينَ أشرَكوا: الزَمُوا مَكانَكم أنتم ومَن زَعَمتُم أنَّهم شُرَكاءُ لله في العبادةِ، وفرَّقْنا بين المُشرِكينَ وشُرَكائِهم، وقال لهم شُركاؤهم الذين كانوا يعبدونَهم مِن دُونِ اللهِ: ما كُنتم تَعبُدونَنا في الحقيقةِ، بل كُنتُم تعبدونَ أهواءَكم وشَياطينَكم الذين أمَرُوكم بعبادَتِنا، فحَسْبُنا اللهُ شاهِدًا بيننا وبينكم؛ فهو سبحانَه وتعالى قد عَلِمَ أنَّا لم نأمُرْكم بعِبادَتِنا، ولم نكُن نَشعُرُ بعِبادتِكم لنا.

في ذلك المَوقِفِ في أرضِ المَحشَرِ يومَ القيامةِ تعلَمُ كُلُّ نَفسٍ ما قَدَّمَت من خيرٍ أو شَرٍّ، وتَجِدُه مكتوبًا لِتُحاسَبَ عليه، ورُدَّ المُشرِكونَ إلى اللهِ رَبِّهم الحَقِّ؛ لِيُجازيَهم بالعدلِ، وزال عنهم ما كانوا يختَلِقونَه من الكَذِبِ على اللهِ تعالى.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ في الآيتينِ السَّابِقَتينِ ما يختَصُّ به كلُّ فريقٍ مِن الفَريقَينِ مِن الجَزاءِ وسِماتِه، (الذين أحْسَنوا والذين كسَبوا السَّيِّئاتِ)؛ جاءت هذه الآيةُ بإجمالِ حالةٍ جامعةٍ للفَريقَينِ، ثمَّ بتَفصيلِ حالةٍ يَمتازُ بها المُشرِكونَ؛ لِيَحصُلَ بذلك

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٦٧٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ١٨٩)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (١١/ ١١٤).

ذِكرُ فَظيعٍ مِن أحوالِ الذين بَلَغوا الغايةَ في كَسبِ السَّيِّئاتِ، وهي سَيِّئةُ الإشراكِ الذي هو أكبَرُ الكبائرِ، وبذلك حصَلَت المُناسَبةُ مع الجُملةِ التي قَبلَها المُقتَضيةِ عَطْفَها عليها(١).

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾.

أي: واذكُرْ- يا مُحَمَّدُ- يومَ نَجمَعُ جَميعَ الخَلقِ لِمَوقِفِ الحسابِ يومَ القيامةِ؛ الإنسَ والجِنَّ، والمُؤمِنينَ والكافِرينَ، والعابدينَ والمَعبودينَ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ﴾.

أي: ثمَّ نقولُ للمُشرِكينَ: الزَموا مكانَكم، وقِفوا في مَوضِعِكم، أنتم والذين زَعَمتُم أنَّهم شركاءُ لله في عبادتِه(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٢٢].

﴿ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾.

أي: ففَرَّقْنا بين المُشرِكينَ العابدينَ، ومَعبُوديهم مِن دونِ اللهِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٧)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥٠، ١٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٨٢، ١٨٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٧)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٣)، =

كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦- ١٦٧].

وقال سُبحانه: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾ [الكهف: ٥٢].

﴿وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾.

أي: وقال المعبودونَ للمُشرِكينَ الذين عَبَدوهم: ما كُنتُم تعبدونَنا في الحقيقةِ، بل كُنتم تعبدونَ أهواءَكم وشَياطينَكم الذين أمَروكم بعبادَتِنا(١).

= ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧١)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٣٨٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤١٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٤٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٠٠)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ١٠١ - ١٠٣)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥١، ١٥٢).

قال البيضاوي: (قيل: يُنطِقُ الله الأصنامَ، فتشافِهُهم بذلك مكانَ الشفاعةِ التي يتوقَّعون منها. وقيل: المرادُ بالشركاءِ الملائكةُ والمسيحُ. وقيل: الشياطينُ). ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١١١). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٣).

وممن ذهب إلى أن المراد بالشركاء هنا: الأصنام: البغوي، وابن عطية، والخازن، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤١٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٧)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥١- ١٥٢).

وقيل: المرادُ بهم الملائكةُ، وممَّن ذهَب إلى ذلك: القرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٣).

وقيل: المرادُ بالشُّركاءِ: جميعُ ما عُبِد مِن دونِ الله تعالى مِن ذَوي العقولِ وغيرِهم. وممَّن قال بذلك: الألوسي. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٦/ ١٠٣).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [النحل: ٨٦].

وقال سُبحانه: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا * فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ﴾ [الفرقان: ١٧-١٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الروم: ١٢-١٣].

وقال جلَّ جلاله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠-٤١].

﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ ٢٩﴾.

أي: قال المَعبودونَ للذين عَبَدوهم: فحَسْبُنا اللهُ شاهدًا بيننا وبينكم، أيُّها المُشرِكونَ؛ فإنَّه قد عَلِمَ أنَّكم عَبَدتُمونا من غيرِ أن نأمُرَكم، ومِن دونِ أن نَشعُرَ بعِبادتِكم لنا[1].

كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤].

وقال سُبحانه: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٣).

يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥-٦].

﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠)﴾.

﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿تَتْلُو﴾ مِن التِّلاوةِ، أي: تقرأُ كُلُّ نَفسٍ أعمالَها مِن كِتابِها يومَ القيامةِ، وقيل: المعنى: تَتبَعُ كُلُّ نَفسٍ ما قدَّمَتْ مِن خَيرٍ أو شَرٍّ(١).

٢- قِراءةُ ﴿تَبْلُو﴾، أي: تَخْبُرُ، فالمعنى: تَعلَمُ كُلُّ نَفسٍ ما قدَّمَت مِن خَيرٍ أو شَرٍّ(٢).

﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾.

أي: في ذلك المَقامِ في أرضِ المَحشَرِ يومَ القيامةِ تَعلَمُ كلُّ نفسٍ ما قدَّمَت مِن خَيرٍ أو شَرٍّ، وتَجِدُه مكتوبًا لِتُحاسَبَ عليه(٣).

---

(١) قرأ بها حمزةُ، والكِسائيُّ، وخلفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٨٣).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٤، ١٧٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ١٧)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٤٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٥، ٢٦٦).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٨٣).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٤، ١٧٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ١٧)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٤٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٣)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٣/ ٢٩١)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٨٤)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥٣).

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

وقال سُبحانه: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣- ١٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾.

أي: ورُجِعَ هؤلاء المُشركونَ إلى اللهِ الذي هو ربُّهم ومالِكُهم، والمتولِّي أمرَهم، الحَقُّ لا شكَّ فيه، دُونَ مَا اتَّخذُوا مِنْ دُونِهِ مِن آلهةٍ[1].

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج: ٦٢].

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾.

أي: وزال عن المُشركينَ وبطَلَ ما كانوا يختَلِقونَه مِن الكَذِبِ على اللهِ، بدعواهم أنَّ له شُركاءَ يَنفَعونَ مَن عَبَدَهم، ويَدفَعونَ عنه الضُّرَّ، ويُقَرِّبونَه إلى اللهِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٥)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٨٥)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٥)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٨٦)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ * وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [النحل: ٨٦-٨٧].

وقال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ * وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [القصص: ٧٤-٧٥].

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ العبادةَ المَشوبةَ لا اعتدادَ بها، وأنَّ مَن استحَقَّ العبادةَ استحَقَّ الإخلاصَ فيها، وأنْ لا يُشرَكَ به أحدٌ[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ مِن نُكَتِ ذِكرِ حَشرِ الجَميعِ هنا: التَّنبيهُ على أنَّ فظيعَ حالِ المُشرِكينَ، وافتِضاحَهم، يكون بمرأى ومَسمَعٍ من المؤمِنينَ، فتكونُ السَّلامةُ من تلك الحالةِ زيادةً في النِّعمةِ على المُسلِمينَ، وتقويةً في النِّكايةِ للمُشرِكينَ[2].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾

= القرطبي)) (٨/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥٤).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥٠).

كَلِمةُ ﴿فَزَيَّلْنَا﴾ جاءت على لفظِ المُضيِّ بعدَ قَولِه: ﴿ثُمَّ نَقُولُ﴾ وهو مُنتظَرٌ في المُستقبَلِ، والسَّببُ فيه أنَّ الذي حكَمَ اللهُ فيه بأن سيكونُ، صار كالكائنِ الرَّاهِنِ الآن(١).

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾ إنَّما أضاف الشُّرَكاءَ إليهم لوجوهٍ:

منها: أنَّه يكفي في الإضافةِ أدنَى تعلُّقٍ، فلمَّا كان الكفارُ هم الذين أثْبَتوا هذه الشركةَ؛ لا جرمَ حسنتْ إضافةُ الشركاءِ إليهم(٢)؛ تهكمًا مِن جهةٍ، وإشارةً إلى أنَّهم مِن صنعِهم هم، ولم يكونوا يومًا شركاءَ لله(٣).

وقيل: إنَّه تعالى لما خاطَب العابِدينَ والمعبودينَ بقولِه: ﴿مَكَانَكُمْ﴾ صاروا شركاءَ في هذا الخطابِ(٤).

٤- إن قيل: كيف قال: ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ وقد أخبَرَ تعالى بـ ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: ١١]، فالجوابُ: لا تناقُضَ بينهما، فالإخبارُ بأنَّه مولاهم؛ ذلك لأنَّه تعالى مَولى عبادِه جَميعًا، على معنى: أنَّه ربُّهم ومالِكُ أمْرِهم، والمتصَرِّفُ فيهم بما شاء، وهو مَولاهم جميعًا في الرِّزقِ وإدرارِ النِّعَم، وأمَّا النَّفيُ فهو على معنى وِلايةِ المحبَّةِ والتَّوفيقِ والنَّصرِ، فهو مَولى المُؤمِنينَ خاصَّةً، وليس للكافرينَ نصيبٌ فيها(٥).

٥- اللهُ سبحانه يَقرِنُ في كتابِه بين الشِّركِ والكَذِب، كما يَقرِنُ بين الصِّدقِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٤٤)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٧٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٤٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٩)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٨٩).

والإخلاص، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾، وقال تعالى عن الخليل: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾[1] [الصافات: ٨٥ - ٨٦].

بلاغة الآيات:

١ - قولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا...﴾ كلامٌ مستأنَفٌ، مَسُوقٌ لبيانِ بعضٍ آخرَ مِن أحوالِهم الفظيعةِ، وتأخيرُه في الذِّكرِ مع تقدُّمِه في الوجودِ على بعضِ أحوالِهم المحكيَّةِ سابقًا؛ للإيذانِ باستقلالِ كلٍّ مِن السَّابقِ واللَّاحقِ بالاعتبارِ[2].

- وقولُه: ﴿فَزَيَّلْنَا﴾، الفاءُ للدَّلالةِ على وقوعِ التَّزْييلِ ومَباديه عَقِيبَ الخِطابِ مِن غيرِ مُهلةٍ، وإيثارُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي؛ للدَّلالةِ على التَّحقُّقِ الموروثِ؛ لزيادةِ التَّوبيخِ والتَّحسيرِ[3].

- وقال: ﴿فَزَيَّلْنَا﴾، ولم يَقُلْ: (فَزِلْنا بينَهم)؛ إرادةَ تكثيرِ الفعلِ، وتكريرِه[4].

٢ - قولُه تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾، تذييلٌ وفَذْلَكةٌ للجُمَلِ السَّابقةِ، مِن قولِه: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس: ٢٥] إلى هنا[5].

---

(١) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (٢/ ٢٧٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥ / ٧٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥٣).

- وقدَّم الظَّرفَ ﴿هُنَالِكَ﴾؛ للاهتمامِ به؛ لأنَّه الغرضُ الأهَمُّ مِن الكلامِ؛ لعِظَمِ ما يقَعُ فيه[1].

- وقولُه: ﴿تَبْلُو﴾ أي: تَختبِرُ، وهو هنا كنايةٌ عن التَّحقُّقِ وعِلمِ اليقينِ[2].

- وفي قولِه: ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾، جُعل الضَّميرُ في ﴿رُدُّوا﴾ للنُّفوسِ المدلولِ عليها بـ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ على أنَّه معطوفٌ على ﴿تَبْلُو﴾، وعُدِل إلى الماضي؛ للدَّلالةِ على التَّحقُّقِ والتَّقرُّرِ، وإيثارُ صيغةِ الجمعِ؛ للإيذانِ بأنَّ ردَّهم إلى اللهِ يكونُ على طريقةِ الاجتماعِ، لا يُلائِمُه التَّعرُّضُ لوصفِ الحقِّيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾؛ فإنه للتَّعريضِ بالمردودينَ؛ فقولُه عز وجل: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ ممَّا لا مجالَ فيه للتَّدارُكِ قطعًا؛ فإنَّ ما فيه من الضَّمائرِ الثَّلاثةِ للمُشرِكين، فيَلزَمُ التَّفكيكُ حتمًا، وتخصيصُ ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ بالنُّفوسِ المشرِكةِ مع عُمومِ البلوى للكلِّ يأباه مَقامُ تَهويلِ المقامِ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٤١).

الآيات (٣١-٣٣)

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿حَقَّتْ﴾: أي: وجَبَتْ وثبَتَتْ؛ يُقال مِنه: حقَّ على فُلانٍ كذا، يَحِقُّ عليه: إذا ثبَت ذلك عليه ووجَبَ، وأصلُ (حقَّ): يدلُّ على إحكامِ الشَّيءِ وصِحَّتِه[(١)].

المَعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يسألَ المُشرِكينَ: مَن الذي يرزُقُكم من السَّماءِ والأرضِ، أمْ مَن يملِكُ السَّمعَ والأبصارَ، ومن يُخرِجُ الشَّيءَ الحيَّ من الشيءِ الميِّتِ بقُدرتِه العظيمةِ، ويُخرِجُ الشَّيءَ الميِّتَ من الشَّيءِ الحيِّ، ومن يدبِّرُ أمرَ جَميعِ الخلائقِ، ويتصَرَّفُ في السَّماءِ والأرضِ بما شاء، فسيقولُ المُشرِكونَ: اللهُ وَحدَه من يفعَلُ ذلك، فقُل لهم يا محمَّدُ: أفلا تتَّقونَه، وتخافونَ عِقابَه؟!

فذلكم اللهُ الذي يفعَلُ كُلَّ ذلك، هو المستحِقُّ للعبادةِ وَحدَه، وهو ربُّكم الحقُّ الذي لا شَكَّ فيه، فأيُّ شَيءٍ غيرِ الحَقِّ إلا الضَّلالُ، فأنَّى تُصرفونَ؟!

ثم بيَّنَ تعالى أنَّه كما صُرِفَ المُشرِكونَ عن الحقِّ، واستَمَرُّوا على شِركِهم، كذلك حقَّت كلمةُ اللهِ على الذين فَسَقوا أنَّهم لا يُؤمِنونَ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٩٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١١).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى فضائِحَ عَبَدةِ الأوثانِ؛ أتبَعَها بذِكرِ الدَّلائِلِ على فسادِ مَذهَبِهم بما يوبِّخُهم، ويَحُجُّهم بما لا يُمكِنُ إلَّا الاعترافُ به من حالِ رِزقِهم وحواسِّهم، وإظهارِ القُدرةِ الباهِرةِ في الموتِ والحياةِ(١).

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: قُل- يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: مَن الذي يرزُقُكم من السَّماءِ مياهَ الأمطارِ، ويَرزُقُكم من الأرضِ أنواعًا من الحبوبِ والثِّمارِ والبُقولِ والمعادِنِ(٢)؟!

كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٣٢].

وقال سبحانه: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤ - ٣٢].

﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٨٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٠٤)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ١٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٣).

أي: أم مَن الذي يملِكُ سَمعَكم وأبصارَكم، ولو شاء لسَلَبَكم إيَّاها[1]؟!

كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: ٢٣].

وقال سُبحانه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: ٤٦].

﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾.

أي: ومَنْ يُخرِجُ الشَّيءَ الحَيَّ مِن الشَّيءِ الميِّتِ بقُدرتِه العظيمةِ، فيُخرِجُ الإنسانَ الحيَّ والأنعامَ والبهائمَ الأحياءَ من النُّطَف الميِّتةِ، ويُخرِجُ الزَّرعَ من الحَبَّةِ، والنَّخلةَ من النَّواةِ، والدَّجاجةَ مِن البيضةِ، والمؤمنَ من الكافِرِ، إلى غيرِ ذلك[2]؟!

﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾.

أي: ومَنْ يُخرِجُ الشَّيءَ الميِّتَ مِن الشَّيءِ الحَيِّ بقُدرتِه العظيمةِ، فيُخرِجُ النُّطفةَ الميِّتةَ مِن الإنسانِ الحيِّ والأنعامِ والبهائمِ الأحياءِ، ويُخرِجُ الحَبَّةَ من الزَّرعِ، والنَّواةَ من النَّخلةِ، والبيضةَ من الدَّجاجةِ، والكافرَ من المؤمنِ، إلى غيرِ ذلك[3]؟!

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [الأنعام: ٩٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٣).

﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ﴾.

أي: ومَنْ يُقدِّر أمرَ جَميعِ الخلائِقِ، ويتصَرَّفُ في السَّماءِ والأرضِ بما يشاء[١]؟!

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [السجدة: ٥].

﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾.

أي: فسيقولُ المُشرِكونَ: الله وَحدَه هو الذي يرزُقُنا من السَّماءِ والأرضِ، ويَملِكُ السَّمعَ والأبصارَ، ويُخرِجُ الحَيَّ من الميِّتِ، ويُخرِجُ الميِّتَ مِن الحيِّ، ويُدَبِّرُ الأمرَ[٢].

﴿فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

أي: فقُل- يا مُحمَّدُ- لهؤلاء المُشرِكينَ: أفلا تَتَّقونَ الله، وتخافونَ عِقابَه على إصرارِكم على الشِّركِ، فتُخلِصون له العبادةَ؟! فأنتم مُقِرُّونَ أنَّه خالِقُكم ورازِقُكم، ومدبِّرُ أمورِكم[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٦، ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٨)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥٧).

كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٦ - ٨٧].

﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾.

أي: فهذا الذي يفعَلُ هذه الأفعالَ؛ فيرزُقُكم من السَّماءِ والأرضِ، ويَملِكُ السَّمعَ والأبصارَ، ويُخرِجُ الحَيَّ مِنَ الميِّتِ، ويُخرِجُ الميِّتَ مِن الحَيِّ، ويُدَبِّرُ الأمرَ؛ هو المستَحِقُّ للعبادةِ وَحْدَه دونَ ما سواه، وهو ربُّكم الحَقُّ الذي لا شَكَّ فيه(١).

كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، ((أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يقولُ إذا قام إلى الصلاةِ مِن جَوفِ اللَّيلِ: اللهمَّ لك الحمدُ، أنت نورُ السَّموات والأرضِ، ولك الحَمدُ، أنت قَيَّامُ السَّمواتِ والأرضِ، ولك الحمدُ، أنت ربُّ السَّمواتِ والأرضِ ومَن فيهنَّ، أنت الحقُّ، ووَعدُك الحَقُّ، وقَولُك الحَقُّ، ولِقاؤك حَقٌّ، والجنَّةُ حَقٌّ، والنَّارُ حَقٌّ، والسَّاعةُ حَقٌّ، اللهمَّ لك أسلمتُ، وبك آمنتُ، وعليك توكَّلتُ، وإليك أنبْتُ، وبك خاصَمتُ، وإليك حاكَمتُ، فاغفِرْ لي ما قدَّمتُ وأخَّرتُ، وأسرَرتُ وأعلَنتُ، أنت إلهي، لا إلهَ إلَّا أنت))(٢).

﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾.

أي: فأيُّ شَيءٍ غيرِ الحقِّ إلَّا الضَّلالُ؟! فلا واسطةَ بين الحَقِّ والباطِلِ، فمن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٧)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٣).

(٢) رواه البخاري (١١٢٠)، ومسلم (٧٦٩) واللفظ له.

عبدَ غَيرَ اللهِ المستَحِقِّ وَحدَه للعبادةِ، فقد ضلَّ(١).

﴿ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾.

أي: فكيف يَقَعُ صَرفُكم بعدَ وضوحِ الحقِّ، فتَعدِلونَ عن عبادةِ اللهِ إلى عبادةِ ما سواه، وأنتم تعلمونَ أنَّ اللهَ وَحْدَه هو المتفرِّدُ بالخَلقِ والتَّدبيرِ(٢)؟!

﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

أي: كما صُرِفَ المُشرِكونَ عَنِ الحقِّ، واستمرُّوا على شِركِهم، كذلك وجب قضاءُ اللهِ وحُكمُه السَّابِقُ الصادر عن عِلمِه، على الذين خَرَجوا عن الحقِّ إلى الباطِلِ، بأنَّهم لا يُؤمنونَ، وأنَّهم مُعَذَّبونَ(٣).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

وقال سبحانه: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٥، ٣٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٧)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٥، ٣٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٧)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٩٠ - ١٩٢)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٠٤، ٥٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٧).

وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قولِه: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ لم يقتصِرْ برزقِ الناسِ على جهةٍ واحدةٍ؛ ليُفيضَ عليهم نعمتَه، ويوسِّعَ رحمتَه(١).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ يدلُّ على أنَّ المُخاطَبينَ بهذا الكلام كانوا يَعرِفونَ اللهَ تعالى، ويُقِرُّونَ به، وهم الذين قالوا في عبادَتِهم للأصنامِ: (إنَّها تقَرِّبُنا إلى الله زُلفى، وإنَّهم شفعاؤنا عند الله)، وكانوا يعلمونَ أنَّ هذه الأصنامَ لا تنفَعُ ولا تضُرُّ(٢).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ فيه تقريرُ أنَّ التَّوحيدَ لا يصِحُّ مع الفَصلِ بين الربوبيَّةِ والألوهيَّة، كما كانوا يفعلونَ، فيقِرُّونَ بتوحيدِ الرُّبوبيَّةِ دونَ توحيدِ الألوهيَّةِ(٣).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ بيانُ أنَّ المُشركينَ لم يكونوا يُسَوُّونَ بين آلِهَتِهم وبين اللهِ في كُلِّ شَيءٍ، بل كانوا يؤمِنونَ بأنَّ اللهَ هو الخالِقُ المالِكُ لهم، وهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢ / ٣٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧ / ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١ / ٢٩٣).

مخلوقونَ مَملوكونَ له، ولكنْ كانوا يُسَوُّونَ بينه وبينها في المحبَّةِ والتَّعظيمِ، والدُّعاءِ والعبادةِ والنَّذرِ لها، ونحوِ ذلكِ مما يُخَصُّ به الرَّبُّ سُبحانَه(١).

٥- التَّدبيرُ يُضافُ إلى اللهِ تارةً؛ وإلى الملائكةِ تارةً، فيُضافُ إلى الله تعالى أمرًا وإذنًا ومَشيئةً، كقولِه تعالى عن نَفسِه: ﴿وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾، ويُضافُ إلى الملائكةِ تارةً أخرى؛ لِكَونِهم هم المباشِرينَ والمُمتَثلينَ للتَّدبيرِ، قال تعالى: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥]، وهذا كما أضاف التوفِّيَ إليهم تارةً، كقوله تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١]؛ وإليه تارةً، كقوله تعالى: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ﴾(٢) [الزمر: ٤٢].

٦- قول الله تعالى: ﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ عبَّرَ عن الباطِلِ بالضَّلالِ؛ لأنَّ الضَّلالَ أشنَعُ أنواعِ الباطلِ(٣).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ بيانُ أنَّ مَن عَبَدَ غيرَ اللهِ، فما عَبَدَ إلَّا الضلالَ المحضَ، والباطلَ البَحتَ(٤)، فاللهُ تعالى هو الإلهُ الذي يُعبَدُ بحَقٍّ، وعبادَتُه وَحْدَه هي الهُدى، فما سواها من عبادةِ الشُّركاءِ والوُسَطاءِ ضَلالٌ، فكُلُّ مَن يَعبُدُ غيرَه معه، فهو مُشرِكٌ مُبطِلٌ ضالٌّ(٥).

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ فيه مِن قواعِدِ العقائِدِ الدينيَّةِ، وأصولِ التَّشريعِ والعِلمِ، أنَّ الحَقَّ والباطِلَ ضِدَّانِ لا يَجتَمِعانِ، وأنَّ الهُدى والضَّلالَ ضِدَّانِ لا يجتَمِعانِ،

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ١٨).
(٢) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٣٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥٩).
(٤) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣٤٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٩٣).

ولهذا الأصلِ فروعٌ كثيرةٌ في الدِّينِ والعِلمِ العَقليِّ[١].

٩- الكلامُ المذكورُ في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ هو الكلامُ الكونيُّ، ويقابلُه: الكلامُ الدينيُّ- وهو الذي يأمُرُ به وينهى- كما في قولِه تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾[٢] [التوبة: ٦].

بلاغةُ الآيات:

١- قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾

- قولُه تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ﴾ استفهامٌ تقريريٌّ، وجاء الاستدلالُ بطريقِ الاستفهامِ والجوابِ؛ لأنَّ ذلك في صورةِ الحوارِ، فيكون الدَّليلُ الحاصلُ به أوقَعَ في نُفوسِ السَّامِعين[٣].

- وفي قولِه تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ مُناسَبةٌ حسنةٌ، حيثُ قال اللهُ تعالى هنا: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ.... فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾، وفي سورةِ سبأٍ قال: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾ [سبأ: ٢٤]، فأفرَد لفْظَ السَّماءِ في الأولى، وجمَعه في الثَّانيةِ مع اتِّحادِ المعنى، والتَّساوي في ألفاظِ الآيتَينِ غير ما ذُكِر، وقال في يونُسَ: ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ وقال في سبأٍ ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ ووجهُ ذلك: أنَّ الآياتِ التي في يونُسَ سِيقَت مَساقِ الاحتجاجِ عليهم بما أقَرُّوا به ولم يُمكِنْهم

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٩٣-٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥٥).

إنكارُه، مِن كَونِ الرَّبِّ تعالى هو رازِقَهم ومالِكَ أسماعِهم وأبصارِهم ومُدَبِّرَ أمورِهم وغيرِها، ومُخرِجَ الحَيِّ مِن المَيِّتِ، والمَيِّتِ مِن الحيِّ، فلمَّا كانوا مقِرِّينَ بهذا كُلِّه، حَسُنَ الاحتجاجُ به عليهم أنَّ فاعِلَ هذا هو اللهُ الذي لا إلهَ غَيرُه، فكيف يعبُدونَ معه غيرَه، ويجعلونَ له شُرَكاءَ لا يَملِكونَ شَيئًا من هذا، ولا يستطيعونَ فِعلَ شَيءٍ منه؟! ولهذا قال- بعد أن ذكَرَ ذلك مِن شأنِه تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ أي: لا بُدَّ أنَّهم يُقِرُّونَ بذلك ولا يَجحَدونَه، فلا بدَّ أن يكونَ المذكورُ ممَّا يُقِرُّونَ به، والمُخاطَبونَ المحتَجُّ عليهم بهذه الآيةِ إنَّما كانوا مُقِرِّينَ بنُزولِ الرِّزقِ مِن قِبَلِ هذه السَّماءِ التي يشاهِدونَها بالحِسِّ، ولم يكونوا مقِرِّينَ ولا عالِمينَ بنُزولِ الرِّزقِ مِن سَماءٍ إلى سماءٍ حتى تنتهيَ إليهم، ولم يصِلْ عِلمُهم إلى هذا، فأُفرِدَ لفظُ السَّماءِ هنا؛ فإنَّه لا يمكِنُهم إنكارُ مَجيءِ الرِّزقِ منها، لا سيَّما والرِّزقُ هاهنا إن كان هو المطرَ، فمجيئُه من السَّماءِ التي هي السَّحابُ؛ فإنَّه يُسمَّى سَماءً لعُلُوِّه، فلمَّا انتظَمَ هذا بذِكرِ الاحتجاجِ عليهم، لم يصلُحْ فيه إلَّا إفرادُ السَّماءِ؛ لأنَّهم لا يُقِرُّونَ بما ينزِلُ من فوقِ ذلك من الأرزاقِ العظيمةِ للقُلوبِ والأرواحِ، ولا بُدَّ من الوحيِ الذي به الحياةُ الحقيقيَّةُ الأبديَّةُ، وهو أَولى باسمِ الرِّزقِ مِن المطَرِ الذي به الحياةُ الفانيةُ المنقَضِيةُ، فما يَنزِلُ من فوقِ ذلك مِن الوحيِ والرَّحمةِ والألطافِ والمواردِ الربَّانيَّة والتنَزُّلاتِ الإلهيَّة، وما به قِوامُ العالَمِ العُلويِّ والسُّفليِّ- مِن أعظَمِ أنواعِ الرِّزقِ، ولكِنَّ القَومَ لم يكونوا مقِرِّينَ به فخُوطِبوا بما هو أقرَبُ الأشياءِ إليهم، بحيث لا يُمكِنُهم إنكارُه.

وأمَّا الآيةُ التي في سورة سبأ فلم يَنتَظِمْ بها ذِكرُ إقرارِهم بما يَنزِلُ مِن السَّمواتِ؛ ولهذا أمَرَ رسولَه بأن يتولَّى الجوابَ فيها، ولم يذكُرْ عنهم أنَّهم المُجيبونَ المُقِرُّونَ، فقال: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾

ولم يقُل: (سَيقُولونَ اللهُ) فأمرَ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُجيبَ بأنَّ ذلك هو اللهُ وَحدَه الذي يُنزِلُ رِزقَه على اختلافِ أنواعِه ومنافِعِه من السَّمواتِ السَّبعِ، وأمَّا الأرضُ فلم يَدْعُ السِّياقُ إلى جَمعِها في واحدةٍ مِن الاثنتَينِ؛ إذ يُقِرُّ به كُلُّ أحدٍ؛ مُؤمِنٍ وكافرٍ، وبَرٍّ وفاجرٍ[١].

وقيل: إنَّ الإفرادَ الوارِدَ في آيةِ يونُسَ مُحصِّلٌ للمعنى مع الإيجازِ، وأمَّا الواردُ في سورةِ سبأٍ على الجمعِ فرُوعِيَ فيه ما تقَدَّم مِن قولِه تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢]، والمرادُ بذلك: نَفْيُ الشُّرَكاءِ له تعالى، ثمَّ عاد الكلام إلى ذلك أيضًا، فقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ على الجمعِ مُناسَبةً؛ إذِ الآيةُ قبلَ هذه في قضيَّةٍ واحدةٍ، وهي نفيُ الشُّركاءِ والأندادِ، فجاءت على ما يُناسِبُ الَّتي قبلَها[٢].

– قولُه تعالى: ﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ فيه إفرادُ السَّمعِ؛ لأنَّه مصدَرٌ فهو دالٌّ على الجنسِ الموجودِ في جميعِ حواسِّ النَّاسِ، وأمَّا الأبصارُ فجيءَ به جمعًا؛ لأنَّه اسمٌ، فهو ليس نصًّا في إفادةِ العمومِ؛ لاحتمالِ توَهُّمِ بصَرٍ مخصوصٍ، فكان الجمعُ أدَلَّ على قصدِ العمومِ، وأنفى لاحتمالِ العهدِ[٣].

وقيل: وحَّدَ السَّمعَ؛ لأنَّ إدراكَه لِجنسٍ واحدٍ هو الأصواتُ، وجمع البَصرَ لِتَعدُّدِ أجناسِ المُبصَراتِ[٤]، وأفرَد البصرَ في سورةِ الإسراءِ، في قولِه: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾[الإسراء: ٣٦]؛ لأنَّ

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١١٧).
(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٤٠-٢٤١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٩١).

المرادَ الواحدُ لكلِّ مخاطَبٍ بقولِه: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾(١) [الإسراء: ٣٦].

- وخَصَّ هاتين الحاسَّتينِ بالذِّكرِ ﴿السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾؛ لأنَّ عليهما مدارَ الحياةِ الحيوانيَّة، وكمالَ البَشَريَّة، وتحصيلَ العلومِ الأوَّلية(٢). وفيه وجهٌ آخرُ: أنَّه خَصَّهما بالذِّكرِ مِن بابِ التَّنبيهِ على المفضولِ بالفاضِلِ، ولكمالِ شَرَفِهما ونَفْعِهما(٣)، ولما فيهما مِن الصنعةِ العجيبةِ، والقدرةِ الباهرةِ العظيمةِ(٤).

- قولُه: ﴿وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾: فيه الإتيانُ بالعُمومِ بعدَ الخُصوص(٥)، فلَمَّا ذكَرَ تعالى التَّفصيلَ في قوله: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾؛ ذكَرَ بعده كلامًا كليًّا، وهو قولُه: ﴿وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾؛ وذلك لأنَّ أقسامَ تَدبيرِ اللهِ تعالى في العالَمِ العُلويِّ، وفي العالَمِ السُّفليِّ، وفي عالَمَي الأرواحِ والأجسادِ، أمورٌ لا نهايةَ لها، وذِكرُ كُلِّها كالمتعَذِّر، فلمَّا ذكَرَ بعضَ تلك التفاصيلِ؛ لا جرَمَ عَقَّبها بالكلامِ الكُليِّ؛ لِيدُلَّ على الباقي(٦)، وإيثارُ صيغةِ المضارِعِ؛ للدَّلالةِ على تَجدُّدِ التَّدبيرِ واستمرارِه(٧).

٢- قولُه تعالى: ﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٩١).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٦٣)، وينظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٠٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢ / ٣٤٥).
(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٤٧).
(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤ / ١١٨).

- قولُه: ﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ﴾ فَذْلَكةٌ لِما تقدَّم، أي: ذلكم الذي اعترَفتُم باتِّصافِه بالنُّعوتِ المذكورةِ هو اللهُ، واسمُ الإشارةِ عائدٌ إلى اسمِ الجلالةِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ المشارَ إليه جَديرٌ بالحُكمِ الَّذي سيُذكَرُ بعدَ اسْمِ الإشارةِ، من أجْلِ الأوصافِ المتقدِّمةِ على اسمِ الإشارةِ، وهي كونُه الرَّازِقَ، الواهبَ الإدراكِ، الخالِقَ، المدبِّرَ؛ لأنَّ اسْمَ الإشارةِ قد جمَعها[1].

- قولُه: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ الاستفهامُ هنا إنكاريٌّ في معنى النَّفيِ، أي: إنكارُ الواقعِ ونَفيُه واستبعادُه؛ ولذلك وقَع بعدَه الاستثناءُ في قولِه: ﴿إِلَّا الضَّلَالُ﴾؛ فلذلك دخلَت (إلَّا)، وصَحِبَه التَّقريرُ والتَّوبيخُ، والتَّقديرُ: ليس بَعْدَ الحقِّ إلَّا الضَّلالُ، فمَن تَخطَّى الحقَّ الَّذي هو عبادةُ اللهِ تعالى وقَعَ في الضَّلالِ، وفيه مِن المبالَغةِ ما ليس في توجيهِ الإنكارِ إلى نفْسِ الفِعلِ؛ لأنَّ كلَّ موجودٍ لا بدَّ مِن أن يَكونَ وُجودُه على حالٍ مِن الأحوالِ قَطعًا، فإذا انتَفى جميعُ أحوالِ وُجودِه، فقد انتَفى وجودُه، والضَّلالُ هو الباطلُ الضَّائعُ المضمَحِلُّ؛ وإنَّما سُمِّي بالمصدَرِ مُبالَغةً، كأنَّه نفْسُ الضَّلالِ والضَّياعِ[2].

- وقولُه: ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ، بمعنى إنكارِ الواقعِ واستبعادِه، والتَّعجُّبِ منه[3].

- وفي إيثارِ صيغةِ المبنيِّ للمفعولِ ﴿تُصْرَفُونَ﴾ إيذانٌ بأنَّ الانصرافَ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٤٢).

قال الألوسي: (الإنكارُ والتعجبُ متوجِّهانِ في الحقيقةِ إلى منشأِ الصرفِ، وإلَّا فنفسُ الصرفِ منه تعالى، على ما هو الحقُّ، فلا معنًى لإنكارِه، والتعجُّبِ منه مع كونِه فعلَه جلَّ شأنُه، وإنَّما لم يُسنِدِ الفعلَ إلى الفاعلِ؛ لعدمِ تعلُّقِ غرضٍ به). ((تفسير الألوسي)) (٦/ ١٠٥، ١٠٦).

الحقِّ إلى الضَّلالِ ممَّا لا يَصدُرُ عن العاقلِ بإرادتِه، وإنَّما يقَعُ عندَ وُقوعِه مِن جهةِ صارفٍ خارجيٍّ(١).

- قولُه: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ تذييلٌ للتَّعجُّبِ مِن استِمْرارِهم على الكفرِ بعدَما ظهَر لهم مِن الحُجَجِ والآياتِ، وتَأْييسٌ مِن إيمانِهم، بإفادةِ أنَّ انتِفاءَ الإيمانِ عنهم بتقديرٍ مِن اللهِ تعالى عليهم؛ فقد ظهَر وُقوعُ ما قدَّره مِن كلمتِه في الأزَلِ(٢).

- وفي قولِه تعالى: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال اللهُ تعالى هنا: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، بينَما قال في سورةِ غافرٍ: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر: ٦]، ففي الأولى قال: ﴿كَذَلِكَ﴾، وفي سورةِ غافرٍ قال: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ بالواوِ، وقال في الأولى: ﴿عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا﴾، وفي الثَّانيةِ: ﴿عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وقال في الأولى: ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وفي الثَّانيةِ: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾؛ ووجهُ تركِ الواوِ في هذا الموضعِ ﴿كَذَلِكَ﴾ وإثباتِها في سورةِ غافرٍ ﴿وَكَذَلِكَ﴾: أنَّ القصَّةَ بعد ﴿كَذَلِكَ﴾ هي الَّتي قبْلَها؛ فهي مرتبطةٌ بها بعَودِها إليها، وبكافِ التَّشبيهِ؛ فاستغنَت بهذين الرَّابِطَينِ عن حرفِ العطفِ، وهؤلاء الَّذين حقَّت عليهم كلمةُ اللهِ أنَّهم لا يُؤمنون، هم الَّذين خُوطبوا بقولِه: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، وليس كذلك ما في سورةِ غافرٍ؛ لأنَّه وإن تَعلَّق به بكافِ التَّشبيهِ فإنَّه يَنقطِعُ عنه بأنَّ المذكورين بعدَ ﴿كَذَلِكَ﴾ غيرُ المذكورين قبلَها؛ فقولُه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥٩).

وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ﴾ [غافر: ٥] خبرٌ عن الَّذين كانوا قبلَ النَّبيِّ، وما بعدَه مِن قولِه: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ إنَّما هو وعيدٌ لِمَن هو في عصرِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ فلمَّا انقطَع ما بعدَ (كَذَٰلِكَ) عمَّا قبلَها احتاج إلى الواوِ، وما في سورةِ يونُسَ لَمَّا لم ينقَطِعْ ما بعدَها عمَّا قبلَها، لم يحتَجْ إليها.

ووجهُ اختصاصِ ما في سورةِ يونُس بقولِه: ﴿عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا﴾، واختصاصُ ما في سورةِ غافر بقولِه: ﴿عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ فلأنَّ الأوَّلَ في ذِكرِ قومٍ أخبَر عنهم بقولِه: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ٣١]، فأخَذ إقرارَهم بأنَّ اللهَ تعالى هو الَّذي يَرزُقُهم مِن مطرِ السَّماءِ، ونباتِ الأرضِ، وهو الَّذي يَملِكُ أسماعَهم وأبصارَهم، وهو الَّذي يُخرِجُ الحيَّ مِن الميِّتِ، وأنَّه هو الَّذي يُدبِّرُ أمورَ الخلقِ مِن ابتداءِ أحوالِهم إلى انتهائِها، وكانوا ممَّن أخبَر اللهُ تعالى عنهم بقولِه: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، فبايَنوا بإثباتِ الخالقِ وما زعَموه مِن معرفةِ الخالقِ، وقد أنكَروه وجحَدوا بآياتِه، وفسَقوا- بأنْ عبَدوا معه غيرَه ولم يُثبِتوا النَّبيَّ ونُبوَّتَه- الفسْقَ الَّذي هو كفرٌ، لا يَنفَعُ معه الإقرارُ الأوَّلُ، فقال تعالى: ﴿هَؤُلَاءِ﴾ الَّذين أَقَرُّوا بالخالقِ وصفاتِ فِعلِه، ثمَّ خرَجوا عمَّا دخَلوا فيه بإنكارِ نُبوَّةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وبعبادةِ آلهةٍ مع اللهِ تعالى، كان ذلك فسقًا؛ لخُروجِهم عن حُكمِ مَن يُقِرُّ بما أَقَرُّوا به، والفسقُ فسقان: كفرٌ، وفسقٌ ليس بكفرٍ؛ فأخبَر عن هؤلاء بـ ﴿الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ في سورةِ يونُسَ لذلك.

وأمَّا في سورةِ غافرٍ فإنَّه لم يتَقدَّمْه مثلُ ما تقدَّم هنا، بل قال تعالى قبلَه: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ * كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ [غافر: ٤-٥]؛ فأخبَر عن الكفَّارِ الَّذين في عصرِه

بأنَّهم كفَروا بمُجادَلتِهم في آياتِ اللهِ، فشبَّههم بالقومِ الَّذين مضَوْا قبلَهم؛ حيث قال: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾، ثمَّ قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾، فلمَّا أراد الَّذين قدَّم ذِكرَهم مِن أوَّلِ القصَّةِ، كان وصفُهم بما وصَفَهم به قبلُ مِن الكفرِ أولى وأدَلَّ على أنَّ المعنَيَين بوجوبِ النَّارِ لهم.

ووجهُ مُناسبةِ قولِه تعالى هنا في سورةِ يونُسَ: ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وقولُه في سورةِ غافرٍ: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر: ٦]: أنَّه تعالى أراد أن يُبيِّنَ في سورةِ يونُسَ أنَّهم- وإن أقَرُّوا باللهِ تعالى، وأثبَتوه خالِقًا قادِرًا- غيرُ مؤمنين، وما داموا يَعبُدون غيرَه لا يُؤمِنون؛ فالقصدُ إلى إبطالِ ما بذَلوه بألسِنَتِهم من الإقرارِ بخالقِهم، والمرادُ في آيةِ غافرٍ توَعُّدُهم على كُفرِهم بالنَّارِ؛ إذ لم يتقدَّمْ ذِكرُ إقرارٍ يُشبِهُ إقرارَ المؤمنين، فيَبطُلُ بتَركِهم سائرَ ما أمر اللهُ تعالى به؛ فجاء كلٌّ على ما يُناسِبُ السِّياقَ(١).

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٧٣٦-٧٤١)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٤١-٢٤٢).

الآيات (٣٤-٣٦)

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

غريب الكلمات:

﴿تُؤْفَكُونَ﴾: أي: تُصرَفون عن الحقِّ، وتُصَدُّون عن الصوابِ، وتَعْدلونَ، يُقالُ: أفَكَ الرجلُ عن كذا: إذا عدَل عنه، والإفْكُ: كلُّ مصروفٍ عن وجهه الذي يحقُّ أن يكونَ عليه، وأصلُ (أفك): قلبُ الشيءِ، وصرفُه عن جهتِه[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ نَبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يقولَ للمُشرِكينَ: هل مِن آلهتِكم- الذين زعَمتُم أنَّهم شُرَكاءُ لله في العبادةِ- مَن يَبتَدِئُ خلقَ أيِّ شَيءٍ، ثمَّ إذا مات يُعيدُه مَرَّةً أُخرَى؟ ثم يأمرُه أن يجيبَهم قائلًا: اللهُ وَحدَه يبدأُ الخَلقَ ثُمَّ يعيدُه، فكيف تُصرَفونَ عن اتِّباعِ الحقِّ إلى الباطلِ؟!

ويأمُرُه تعالى أن يقولَ لهم: هل من آلهتِكم- الذين زعمتُم أنَّهم شُرَكاءُ للهِ في العبادةِ- مَن يهدي إلى الحَقِّ، وأن يجيبَهم بقولِه: اللهُ وَحدَه مَن يَهدِي إلى الحَقِّ، آللَّهُ الذي يهدي إلى الحَقِّ أحَقُّ أن يُطاعَ، أم شُرَكاؤُهم الذين لا يَهتَدونَ، ولا يَهدُونَ إلَّا أن يهدِيَهم غيرُهم؟! فما لكم- أيُّها المُشرِكونَ- كيف تحكمونَ؟

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٥).

ويُبَيِّنُ الله تعالى أنَّه ما يتَّبعُ أكثرُ هؤلاء المُشرِكينَ في إشراكِهم باللهِ تعالى إلَّا مُجَرَّدَ ظَنٍّ ضعيفٍ، مِن غَيرِ يَقينٍ، وهو لا يُغني من اليقينِ شَيئًا، إنَّ اللهَ عليمٌ بما يَفعلونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا استفْهَم الكافرينَ عن أشياءَ مِن صِفاتِ اللهِ تعالى واعتَرَفوا بها، ثمَّ أنكَرَ عليهم صَرْفَهم عن الحَقِّ وعبادةِ اللهِ، استَفْهَم عن شيءٍ هو سبَبُ العبادةِ، وهو إبداءُ الخَلقِ، وهم يُسَلِّمونَ ذلك: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ ثمَّ أعاد الخَلقَ وهم مُنكِرونَ ذلك، لكِنَّه عَطَفَه على ما يُسَلِّمونَه؛ لِيُعلَمَ أنَّهما سواءٌ بالنِّسبةِ إلى قُدرةِ الله تعالى، وأنَّ ذلك لِوضوحِه وقيامِ بُرهانِه، قُرِنَ بما يُسلِّمونَه؛ إذْ لا يدفَعُه إلَّا مكابِرٌ، إذ هو من الواضحاتِ التي لا يختَلِفُ في إمكانِها العُقَلاءُ[1].

وأيضًا بعدَ أن أقام عليهم الدليلَ على انفرادِ الله تعالى بالرزقِ، وخلقِ الحواسِّ، وخلقِ الأجناسِ، وتدبيرِ جميعِ الأمورِ، وأنَّه المستحقُّ للإلهيةِ بسببِ ذلك الانفرادِ؛ بيَّن هنا أنَّ آلهتَهم مسلوبةٌ مِن صفاتِ الكمالِ، وأنَّ اللهَ متَّصفٌ بها، فقال تعالى[2]:

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٦٠).

أي: قُلْ- يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: هل من آلهَتِكم- التي زَعَمتُم أنَّها شُرَكاءُ لله في العبادةِ- مَن يبتدِئُ خَلقَ أيِّ شَيءٍ مِن العَدَمِ، ثمَّ إذا مات يُعيدُه إلى الحياةِ مَرَّةً أخرى[١]؟!

﴿قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾.

أي: قُل- يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: اللهُ وَحدَه هو الذي يَبتَدِئُ خَلقَ كُلِّ شَيءٍ مِن العدَمِ، ثمَّ يُعيدُه بعد مَوتِه متى شاء مِن غَيرِ مُعاوِنٍ ولا شريكٍ[٢].

كما قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [يونس: ٤].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ٢٠].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾.

أي: فكيف تُصرَفونَ وتُقلَبونَ عن اتِّباعِ الحَقِّ إلى الباطِلِ[٣]؟!

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٧، ١٧٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بَيَّنَ عَجزَ أصنامِ الكافرينَ عن الإبداءِ والإعادةِ- اللَّذينِ هما من أقوى أسبابِ القُدرةِ، وأعظَمِ دَلائِلِ الألوهيَّةِ- بَيَّنَ عَجزَهم عن هذا النَّوعِ مِن صفاتِ الإلهِ، وهو الهِدايةُ إلى الحَقِّ، وإلى مناهِجِ الصَّوابِ[1].

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ﴾.

أي: قُلْ- يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: هل مِنْ آلهتِكم مَنْ يُرشِدُ الضَّالَّ، ويُوفِّقُه إلى مَعرفةِ الحَقِّ واتِّباعِه[2]؟!

﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ﴾.

مناسبتُها لما قبلَها:

لَمَّا كان الكافِرونَ مُعتقدينَ أنَّ شُركاءَهم تهدي إلى الحَقِّ، ولا يُسَلِّمونَ حَصرَ الهدايةِ لله تعالى، أمَرَ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأن يبادِرَ بالجوابِ، فقال[3]:

﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ﴾.

أي: قُلْ- يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: اللهُ وَحدَه هو الذي يُرشِدُ ويُوفِّقُ مَن يَشاءُ إلى مَعرفةِ الحَقِّ واتِّباعِه[4].

كما قال تعالى: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٥-٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٨، ١٧٩)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٩٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٨، ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٩)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ١٩)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٩٢، ١٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤).

وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وعن عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه، عن رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ((أنَّه كان إذا قام إلى الصَّلاةِ قال: وجَّهتُ وجهيَ للَّذي فطر السَّمواتِ والأرضَ حَنيفًا، وما أنا من المُشرِكينَ، إنَّ صلاتي ونسكي ومحيايَ ومماتي للَّه رَبِّ العالمينَ، لا شريكَ له، وبذلك أُمِرتُ وأنا من المُسلِمينَ، اللهمَّ أنت المَلِكُ لا إله إلا أنت، أنت ربِّي، وأنا عبدُك، ظلمتُ نفسي، واعترَفتُ بذنبي، فاغفِرْ لي ذنوبي جميعًا؛ إنَّه لا يغفِرُ الذُّنوبَ إلا أنت، واهدِني لأحسَنِ الأخلاقِ لا يهدي لأحسَنِها إلَّا أنت، واصرِفْ عني سَيِّئَها لا يَصرِفُ عني سَيِّئَها إلا أنت...))(١).

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رضي الله عنهما، أنَّه سَمِعَ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّ قُلوبَ بني آدَمَ كُلَّها بين إصبَعَينِ مِن أصابعِ الرَّحمنِ كقلبٍ واحدٍ، يُصَرِّفُه حيث يشاءُ. ثم قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: اللهمَّ مُصَرِّفَ القُلوبِ، صَرِّفْ قلوبَنا على طاعَتِك))(٢).

﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾.

أي: آللهُ الذي يهدي إلى الحَقِّ أحقُّ أن يُطاعَ ويُعبَدَ، أم شُركاؤُهم الذين لا يَهتَدونَ بأنفُسِهم، ولا يَهدُونَ مَن يَعبُدُهم، إلَّا أن يهدِيَهم غيرُهم(٣)؟!

---

(١) رواه مسلم (٧٧١).

(٢) رواه مسلم (٢٦٥٤).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (١/ ٤٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٩، ١٨٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤١)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (١/ ١٣٨، ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤).

و﴿يَهِدِّي﴾- بفتحِ الياءِ وكسرِ الهاءِ وتشديدِ الدالِ المكسورةِ، على قراءةِ حفصٍ، ويَعْقُوبَ الحضرميِّ- أصلُه (يهتدي)، فأُدْغِمت التاءُ في الدالِ، وكُسِرت الهاءُ؛ لالتقاء الساكنين. يُنظر: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٤٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٣١).

﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾.

أي: فما بالُكم- أيُّها المُشرِكونَ- تَعبُدونَ المخلوقَ العاجِزَ، وتترُكونَ عبادةَ الخالقِ الذي يَهدِيكم؟! كيف تحكمونَ بالباطلِ فتُساوونَ بين الله وبين خَلْقِه في العبادةِ[1]؟!

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بَعدَ أن أمَرَ اللهُ رَسولَه بأن يَحُجَّهم فيما جَعلوهم آلهةً، وهي لا تَصَرُّفَ ولا تدبيرَ ولا هدايةَ لها؛ أعقب ذلك بأنَّ عِبادتَهم إيَّاها اتِّباعٌ لظَنٍّ باطلٍ[2].

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾.

أي: وما يتَّبِعُ أكثَرُ هؤلاء المُشرِكينَ في إشراكِهم باللهِ إلَّا مُجرَّدَ ظَنٍّ ضعيفٍ واهٍ، من غيرِ يقينٍ ولا دليلٍ على صِحَّةِ إشراكِهم بالله عزَّ وجلَّ[3].

﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾.

أي: إنَّ الظَّنَّ لا يُوصِلُ إلى الحَقِّ، ولا يُنتفَعُ به في شيءٍ يَحتاجُ إلى اليقينِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨١)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨١)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٩٣)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٥٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٠٦)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤)، ((تفسير ابن =

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴾.

أي: إنَّ اللهَ ذو علمٍ بما يفعَلُ المُشرِكونَ، وسيُجازيهم على ذلك(١).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

ينبغي أن يكونَ غَرَضُ المُسلِمِ مِن حياتِه تزكيةَ نَفسِه، وتكميلَها باتِّباعِ الحَقِّ في كلِّ اعتقادٍ، والهدى- وهو الصَّلاحُ- في كُلِّ عَملٍ، وبناؤُهما على أساسِ العِلمِ دونَ الظَّنِّ وما دونَه من الخَرْصِ والوَهمِ؛ يُرشِدُ إلى ذلك قولُ الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ الفائدةُ في ذِكرِ هذه الحُجَّةِ على سبيلِ السُّؤالِ والاستفهامِ؛ أنَّ الكلامَ إذا كان ظاهِرًا جَليًّا، ثمَّ ذُكِرَ على سبيلِ الاستفهامِ، وتَفويضِ الجوابِ إلى المَسؤولِ، كان ذلك أبلَغَ وأوقَعَ

= عاشور)) (١١/ ١٦٦).

قال الخازن: (﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ يعني: أنَّ الشَّكَّ لا يُغني عن اليقينِ شَيئًا، ولا يقومُ مقامَه، وقيل في الآية: إنَّ قَولَهم: إنَّ الأصنامَ آلهةٌ، وإنَّها تشفَعُ لهم ظنٌّ منهم لم يَرِدْ به كتابٌ، ولا يَعني أنَّها لا تدفَعُ عنهم من عذابِ اللهِ شيئًا). ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٤٣).

ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٩٣).

في القَلبِ[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ هم لا يَقدِرونَ على دعوى ذلك لِمَعبوداتِهم، وفي ذلك الحُجَّةُ القاطعةُ والدَّلالةُ الواضِحةُ على أنَّهم في دعواهم أنَّها أربابٌ، وشُرَكاءُ لله في العبادةِ- كاذِبونَ مُفتَرونَ، وهذا توقيفٌ على قصورِ الأصنامِ وعَجزِها، وتنبيهٌ على قدرةِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُمْ مَّن يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ الآية، احتجاجٌ على الكفَّارِ، فإنْ قِيل: كيفَ يحتجُّ عليهم بإعادةِ الخلقِ، وهم لا يعترفون بها؟ فالجوابُ: أنَّهم معترفونَ أنَّ شركاءَهم لا يقدرونَ على الابتداءِ ولا على الإعادةِ، وفي ذلك إبطالٌ لربوبيتِهم، وأيضًا فوُضِعتِ الإعادةُ موضعَ المتفقِ عليه؛ لظهورِ برهانِها[٣].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ فيه سؤال: لِمَ أمَرَ رَسولَه بأن يَعتَرِفَ بذلك، والإلزامُ إنَّما يحصُلُ لو اعتَرَف الخَصمُ به؟ والجوابُ: ذكر العُلَماءُ لذلك عِدَّةَ أوجُهٍ:

الوجه الأول: أنَّ الدَّليلَ لَمَّا كان ظاهرًا جَليًّا، فإذا أُوردَ على الخَصمِ في مَعرِضِ الاستفهامِ- ثمَّ إنَّه بنَفسِه يقولُ الأمرَ كذلك- كان هذا تنبيهًا على أنَّ هذا الكلامَ بلغ في الوضوحِ إلى حيثُ لا حاجةَ فيه إلى إقرارِ الخَصمِ به، وأنَّه سواءٌ أقَرَّ أو أنكرَ، فالأمرُ مُتقَرِّرٌ ظاهِرٌ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٤٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٥٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٤٨-٢٤٩).

الوجه الثاني: أنَّه لَمَّا كان الكافِرونَ لِمُكابَرتِهم لا يُقِرُّونَ بذلك، أمَرَ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُجيبَ، فقال: ﴿قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾[1].

الوجه الثالث: أنَّه لَمَّا كان هذا السُّؤالُ ممَّا لا يُجيبونَ عنه، كما أجابوا عن أسئلةِ الخِطابِ الأوَّلِ؛ لإنكارِهم البَعثَ والمَعادَ، لا لاعتقادِهم أنَّ شُرَكاءَهم تفعَلُ ذلك- لقَّنَ اللهُ رَسولَه الجوابَ: ﴿قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾[2].

٥- قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ بيَّنَ سبحانَه بما هو مُستَقِرٌّ في الفِطَرِ أنَّ الذي يهدي إلى الحَقِّ أحقُّ بالاتِّباعِ ممَّن لا يهتَدي إلَّا أنْ يهديَه غيرُه؛ فلَزِمَ أنْ يكونَ الهادِي بنَفسِه هو الكامِلَ، دون الذي لا يهتدي إلَّا بغَيرِه، وإذا كان لا بُدَّ مِن وجودِ الهادي لِغَيرِ المُهتَدي بنَفسِه، فهو الأكمَلُ[3].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى﴾ بيانُ أنَّ الذي يَهدي إلى الحَقِّ مُطلقًا هو اللهُ، والذي لا يَهدِي إلَّا أن يُهدَى صفةُ كلِّ مخلوقٍ؛ لا يُهدَى إلَّا أنْ يَهدِيَه اللهُ تعالى، وهذا هو المقصودُ بالآيةِ، وهي أنَّ عبادةَ اللهِ أَولى مِن عبادةِ خلْقِه[4].

٧- الظنُّ لا يُرادُ به في الكِتابِ والسُّنَّةِ الاعتقادُ الرَّاجِحُ، كما هو في اصطلاحِ طائفةٍ مِن أهلِ الكلامِ في العِلمِ، ويسمُّونَ الاعتقادَ المرجوحَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٩٥).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٨٢).
(٤) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٦/ ٤٧٥).

وهمًا، بل قد قال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إيَّاكم والظَّنَّ؛ فإنَّ الظنَّ أكذَبُ الحديثِ))[١]، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾، فالاعتقادُ المرجوحُ هو ظنٌّ، وهو وهْمٌ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾

- قولُه: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ...﴾ استِئنافٌ على طريقةِ التَّكريرِ لقولِه قبْلَه: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾؛ لأنَّ هذا مقامُ تَقريرِ وتعديدِ الاستدلالِ، وهو مِن دَواعي التَّكريرِ[٣]، وإنَّما لم يُعطَفْ على ما قَبْلَه؛ إيذانًا باستقلالِه في إثباتِ المطلوبِ[٤].

- والاستفهامُ في ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ...﴾ إنكارٌ، وتقريرٌ بإنكارِ ذلك، وللتَّبكيتِ والإلزامِ؛ إذ ليس المتكلِّمُ بطالبٍ للجوابِ، ولا يسَعُهم إلَّا الاعترافُ بذلك؛ فهو في مَعنى نفيِ أن يكونَ مِن آلِهَتِهم مَن يَبدَأُ الخلقَ ثُمَّ يُعيدُه[٥].

- قولُه: ﴿قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ فيه إعادةُ الجملةِ في الجوابِ بتَمامِها غيرَ مَحذوفةِ الخبَرِ، كما في الجوابِ السَّابقِ؛ لِمَزيدِ التَّأكيدِ والتَّحقيقِ، حيث أُبرِزَ الجوابُ في جُملةٍ مُبتدَأةٍ مُصرَّحٍ بخبَرِها؛ فعاد

(١) رواه البخاري (٥١٤٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٧٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٦٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٤٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٦١).

الخبرُ فيها مُطابِقًا لخبرِ اسمِ الاستفهامِ، وذلك تأكيدٌ وتثبيتٌ[١].

- قوله: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ ذِكْرُ إعادةِ الخَلْقِ في الموضعَينِ، مع أنَّهم لا يَعترِفون بها نوعٌ مِن الإدماجِ في الحِجاجِ[٢]، وهو فنٌّ بديعٌ[٣].

٢- قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾

- قولُه: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ...﴾ تكريرٌ آخرُ بَعْدَ قولِه: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾، ومجموعُ الجُملتَينِ مفيدٌ قَصْرَ صفةِ الهدايةِ إلى الحقِّ على اللهِ تعالى، دونَ آلِهتِهم، وهو قصرُ إفرادٍ[٤]، وهو احتِجاجٌ آخرُ على ما ذُكِر؛ جيءَ به إلزامًا لهم بعدَ إلزامٍ، وإفحامًا إثرَ إفحامٍ، وفَصْلُه عمَّا قَبْلَه وعدمُ عَطفِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٤٣).

(٢) الإدماجُ: لُغةً: هو الإدخالُ واللَّفُّ؛ يُقال: أدْمَجَ الشَّيءَ في ثوبٍ، إذا لَفَّه فيه، وأدْمَجْتُ متاعي، إذا أدخلتَه في ثوبٍ أو حقيبةٍ أو نحوِها. واصطلاحًا: هو تَضمُّن كلامٍ سِيقَ لمعنًى- مَدحًا كان أو غيرَه- مَعنًى آخَرَ، كإدْخالِ فِكْرةٍ في فكرةٍ، أو غَرضٍ بلاغيٍّ في غَرضٍ آخَرَ، أو وَجْهٍ من وُجُوه البدِيعِ في وجهٍ منه آخَرَ، بأسلوبٍ مِن الكلامِ لا يَظهرُ منه إلَّا إحدَى الفِكرتينِ، أو أحدُ الغرَضينِ، أو أحدُ الوجْهَينِ؛ فإذا تأمَّل المتفكِّرُ ظهَر له المُدْمَجُ، وسَرَّه هذا الإدماجُ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ﴾ فأُدْمِجَ غَرَضٌ في غَرضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تفردُه تعالى بوصفِ الحمدِ، وأُدمِج فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٠٥)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حبنكة الميداني (٢/ ٤٢٧)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٦١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ١٦١-١٦٢).

عليه؛ للدَّلالةِ على استقلالِه(١).

- وقولُه: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ...﴾ تفريعُ استفهامٍ تقريريٍّ على ما أفادَتْه الجملَتان السَّابِقَتان مِن قَصْرِ الهدايةِ إلى الحقِّ على اللهِ تعالى دونَ آلِهَتِهم(٢)، وهذا الاستفهامُ للإلزامِ(٣).

- قولُه: ﴿أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى﴾ فيه مِن المبالغةِ ما لا يَخفى، وإنَّما نفى عنه الاهتِداءَ مع أنَّ المفهومَ ممَّا سبَق نفيُ الهدايةِ؛ لأنَّ نفْيَها مُستتبعٌ لنفيِه غالبًا؛ فإنَّ مَن اهتَدى إلى الحقِّ لا يَخْلو عن هدايةِ غيرِه في الجملةِ(٤).

- قولُه: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ الاستفهامُ في ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ للإنكارِ التَّوبيخيِّ، وفيه تعجُّبٌ مِن حالِهم(٥).

- وجملةُ ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ استفهامٌ يتَنزَّلُ مَنزِلةَ البيانِ لِما في جملةِ: ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ مِن الإجمالِ؛ ولذلك فُصِلَت عنها، أي: لم تُعطَفْ، فهو مِثلُه استفهامٌ تعجُّبيٌّ من حُكمِهم الضَّالِّ إذ حَكَموا بإلهيَّةِ مَن لا يَهتَدي، فهو تعجُّبٌ على تعجُّبٍ(٦).

- ومِن محاسِنِ البلاغةِ في هذه الآيةِ: الجمْعُ بين تَعديةِ الفِعل (يهدي) بالحرفَين، وبين ترْكِ التَّعديةِ وهو حذفُ المتعلِّقِ الدَّالِّ على العمومِ؛ ففِعلُ الهُدَى يتعدَّى بنفسِه، وبـ (اللَّام)، وبـ(إلى)، وكلٌّ مِنها وقَع في

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٤٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٦٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٤٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ١٤٣-١٤٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٤٤).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٦٤).

مَوقِعِه الَّذي تَقتَضيه البلاغةُ؛ أمَّا الأوَّلُ ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾؛ فقد عدَّاه بإلى في حيِّزِ الاستفهامِ الإنكاريِّ؛ للإيذانِ بأنَّه لا أحَدَ مِن هؤلاءِ الشُّركاءِ المتَّخَذين بالباطلِ يدُلُّ النَّاسَ على الطَّريقِ الَّذي يَنتَهي سالِكُه إلى الحقِّ مِن علمٍ وعملٍ وهو التَّشريعُ؛ فهو يَنفي المقدِّماتِ ونَتائِجَها، والأسبابَ ومُسبَّباتِها، ولو عدَّاه بنَفسِه لَمَا أفاد إلَّا إنكارَ هدايةِ الإيصالِ إلى الحقِّ بالفعلِ، دون هدايةِ التَّشريعِ الموصلةِ إليه، ولو عدَّاه باللَّامِ لكان بمعنى تَعديَتِه بنفسِه إن كانت اللَّامُ للتَّقويةِ أو لإنكارِ هدايةٍ يُقصَدُ بها الحقُّ إن كانت للتَّعليلِ، والأوَّلُ أعَمُّ وأبلَغُ كما هو ظاهرٌ. وأمَّا الثَّاني ﴿قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ وهو تَعدِيَتُه باللَّامِ فهو يَستلزِمُ الأوَّلَ، وعلى جوازِ استِعْمالِ اللَّامِ بمَعنَيَيْها، يكونُ مَعناه: قُلِ اللهُ يَهْدي لِما هو الحقُّ؛ لأجْلِ أن يَكونَ المهتدون به على الحقِّ. وأمَّا الثَّالثُ- أي حَذْفُ المتعلِّقِ-: فهو في الشِّقِّ الثَّاني مِن قولِه: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى﴾، ومعناه مع ما قَبْلَه نصًّا واقتِضاءً: أفمَن يَهْدي إلى الحقِّ ويَهْدي له ويَهْديه- وهو اللهُ تعالى- أحَقُّ أن يُتَّبَعَ فيما يَشرَعُه، أم مَن لا يَهْدي غيرَه ولا هو يَهْتدي بنفسِه- ممَّن عُبِد مَن دونَه- إلَّا أن يَهدِيَه غيرُه، أي: اللهُ تعالى؛ إذ لا هادِيَ غيرُه؟ وهذا استِثْناءٌ مُفرَّغٌ مِن أعمِّ الأحوالِ؛ لأنَّ مَن نفَى عَنهم الهدايةَ ممَّن اتُّخِذوا شُركاءَ للهِ تعالى يَشمَلُ المسيحَ عيسى ابنَ مريمَ وعُزيرًا والملائكةَ عليهم السَّلامُ، وهؤلاء كانوا يَهْدون إلى الحقِّ بهدايةِ اللهِ ووَحْيِه كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء: ٧٣]، وقيل: الاستثناءُ مُنقَطِعٌ، فمعنى ﴿إِلَّا أَنْ يُهْدَى﴾: لكنَّه يَحتاجُ أن يُهْدى(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٩٦-٢٩٧).

٣- قولُه تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ فيه تخصيصُ هذا الاتِّباعِ بأكثَرِهم مع مُشاركةِ المعانِدين لهم في ذلك؛ للتَّلويحِ بما سيَكونُ مِن بَعضِهم مِن اتِّباعِ الحقِّ والتَّوبةِ[1]، وقِيلَ: المرادُ بأكثَرِهم جَمِيعُهم[2].

- وتنكيرُ ﴿ظَنًّا﴾ للتَّحقيرِ، أي: ظنًّا واهيًا، ودلَّت صيغةُ القَصرِ (ما... إلَّا) على أنَّهم ليسوا في عَقائدِهم المنافيةِ للتَّوحيدِ على شيءٍ من الحقِّ؛ ردًّا على اعتِقادِهم أنَّهم على الحقِّ[3].

- وجملةُ ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ تعليلٌ لما دلَّ عليه القَصْرُ مِن كونِهم ليسوا على شيءٍ من الحقِّ؛ فكيف يَزعُمون أنَّهم على الحقِّ[4]؟!

- وجُملةُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ استئنافٌ للتَّهديدِ بالوَعيدِ[5].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٦٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٣٧-٤٠)

﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ
وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟
بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟
بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ
وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿تَأْوِيلُهُ﴾: أي: عاقِبتُه، وما يَؤُولُ إليه، ووقوعُ ما أخبَر به، وأصلُ (أول) هنا: يدُلُّ على انتِهاءِ الأمرِ[1].

﴿عَاقِبَةُ﴾: عاقبةُ كلِّ شيءٍ: آخِرُه، أو: ما يُؤدِّي إليه السببُ المتقدِّمُ، والعاقبةُ تختصُّ بالثوابِ إذا أُطْلِقتْ، وقد تُستعمَلُ في العقوبةِ إذا أُضيفَتْ، وأصلُ (عقب): تأخيرُ شيءٍ، وإتيانُه بعدَ غيرِه[2].

مُشكِلُ الإعراب:

قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾

﴿أَنْ يُفْتَرَى﴾: مَصدرٌ مُؤوَّلٌ في محَلِّ نَصبٍ، خَبرُ كان، أي: وما كان هذا القُرآنُ افتِراءً، والمَصدرُ هنا بمعنى المَفعولِ، أي: مُفتَرًى. ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ﴾:

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٩).

﴿تصديقَ﴾ منصوبٌ، خبَرُ (كان) المحذوفةِ هي واسمُها، والتقديرُ: ولكِنْ كان تَصديقَ، أو منصوبٌ على أنَّه مفعولٌ مِن أجلِه لفِعل مقدَّر، أي: وما كان هذا القرآنُ أن يُفتَرَى، ولكن أُنزِلَ للتَّصديقِ، والجُملةُ معطوفةٌ بـ (الواو) على ما قَبْلَها[1].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ تعالى أنَّه لا يُمكِنُ أن يكونَ هذا القرآنُ مَكذوبًا، يأتي به أحَدٌ غيرُ اللهِ تعالى، ولكِنْ أنزَلَه اللهُ مُصَدِّقًا للكتُبِ السَّابقةِ المُنَزَّلةِ على أنبيائِه، وتِبيانًا لِمَا كتَبَه اللهُ على هذه الأمَّةِ مِن الفرائِضِ والأحكامِ، والعقائِدِ والأخبارِ، لا شَكَّ في أنَّه مِن رَبِّ العالَمينَ.

أم يقولُ المُشرِكونَ: اختلقَ مُحمَّدٌ القُرآنَ، فأمرَ اللهُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يقولَ لهم: إنْ كنتُ قد افترَيتُه- كما تزعمونَ- فأْتُوا بسُورةٍ واحدةٍ مِثلِ القُرآنِ؛ فأنتم عَرَبٌ مِثلي، وادعُوا مَن قَدَرتُم أن تَدْعُوه؛ لِيُعينَكم على المجيءِ بسُورةٍ مِثلِ سُوَرِ القرآنِ، إنْ كُنتُم صادقينَ في دعواكم أنِّي افترَيتُه.

بل كذَّبَ المُشرِكونَ بالقُرآنِ الذي لم يُحيطُوا بعِلمِ ما فيه، وقبل أن يقَعَ ما أخبَرَ اللهُ تعالى أنَّه آتيهم، مِن العُقوبةِ التي توعَّدَهم اللهُ بها على تكذيبِهم بالقُرآنِ، كذلك كذَّبَ اللهَ مَن قَبلَهم، فانظُرْ- يا مُحمَّدُ- كيف كانت نهايةُ المُكَذِّبينَ بآياتِ اللهِ مِن الأُمَمِ الماضيةِ.

ثمَّ بيَّنَ تعالى أنَّ مِن المُشرِكينَ مَن سيُؤمِنُ بالقُرآنِ، ويتوبُ مِن الكُفرِ، ومنهم من

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣٤٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٦٧٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٢٠١-٢٠٢).
قال ابنُ هشامٍ: (ما بعد (لكن) ليس معطوفًا بها؛ لدُخولِ الواو عليها، ولا بالواوِ؛ لأنَّه مُثبَتٌ وما قبلها منفيٌّ، ولا يُعطَفُ بالواو مُفرَدٌ على مُفرَدٍ إلَّا وهو شريكُه في النَّفيِ والإثباتِ، فإذا قُدِّرَ ما بعد الواوِ جُملةً صحَّ تَخالُفُهما، كما تقولُ: ما قام زيدٌ وقام عمرٌو). يُنظر: ((مغني اللبيب)) (ص: ٧٩٠).

لا يؤمِنُ به، وسيبقَى على كُفرِه حتى يموتَ، وربُّك- يا مُحمَّدُ- أعلَمُ بالمُفسِدينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَمَا كَانَ هَذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لما فرَغ سبحانَه مِن دلائلِ التوحيدِ وحُجَجِه؛ شرَع في تثبيتِ أمرِ النبوَّةِ(١).

وأيضًا لَمَّا تقدَّم قولُهم: ﴿اثْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ وكان مِن قَوْلِهم: (إنَّه افْتَراه)؛ قال تعالَى(٢):

﴿ وَمَا كَانَ هَذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾.

أي: ما يَنْبغي لهذا القرآنِ أن يختلِقَه أحدٌ مِن الخلقِ على الله، ولا يمكنُ أن يكونَ إلَّا مِن عندِ اللَّهِ(٣).

﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾.

أي: ولكِنْ أنزَلَه الله مُصَدِّقًا للكتُبِ السَّابقةِ التي أنزَلَها على أنبيائِه(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨١، ١٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٩٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٩٩، ٢٠٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٦٩).

قال السَّعدي: (أنزَلَه ﴿تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مِن كُتُبِ اللهِ السَّماويَّةِ، بأنْ وافقَها، وصَدَّقَها بما شَهِدَت به، وبشَّرَت بنزولِه، فوقع كما أخبرَت). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤). =

كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ﴾.

أي: وتبيانًا لِما كتَبَه اللهُ على أُمَّةِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن الفرائِضِ والأحكامِ، والعقائِدِ والأخبارِ[1].

كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

وقال سبحانه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

أي: لا شكَّ في أنَّ القُرآنَ مِن عندِ اللهِ رَبِّ العالَمينَ[2] وليس كلامَ غيرِه[3].

= وقال ابنُ عاشور: (﴿وَتَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ كونُه مُصَدِّقًا للكتُبِ السَّالفةِ، أي، مُبيِّنًا للصادقِ منها، ومُميِّزًا له عمَّا زِيدَ فيها، وأُسيءَ مِن تأويلِها، كما قال تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾... وأيضًا هو مُصَدَّقٌ (بفتح الدال) بشَهادةِ الكتُبِ السَّالفةِ فيما أخذَتْ مِن العَهدِ على أصحابِها أن يؤمِنوا بالرَّسولِ الذي يجيءُ مُصَدِّقًا وخاتَمًا، فالوصفُ بالمَصدرِ صالحٌ للأمرينِ؛ لأنَّ المَصدرَ يقتَضي فاعلًا ومفعولًا). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤).

وممَّن اختار هذا المعنى: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ، وابنُ كثيرٍ، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المرادُ أنَّ القُرآنَ مُبيِّنٌ لِما جاء في الكتُبِ السَّابقةِ. وممَّن اختار هذا المعنى: القرطبيُّ، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٦٩).

(٢) قال السعدي: (تنزيلٌ ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الذي ربَّى جميعَ الخَلقِ بنِعَمِه، ومِن أعظَمِ أنواعِ تَربيتِه أنْ أنزَلَ عليهم هذا الكتابَ الذي فيه مصالِحُهم الدينيَّةُ والدُّنيويَّةُ، المُشتمِلَ على مكارِمِ الأخلاقِ ومحاسِنِ الأعمالِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢].

وقال سُبحانه: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [السجدة: ٢].

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا نفى اللهُ تعالى أن يكونَ القُرآنُ مُفترًى، بل جاء مُصَدِّقًا لِما بين يَدَيه من الكُتُبِ، وبيانًا لِما فيها؛ ذكَرَ هنا أعظَمَ دَليلٍ على أنَّه مِن عندِ الله، وأقام البرهانَ القاطعَ على ذلك ، وهو الإعجازُ الذي اشتمَلَ عليه، فتحدَّى جميعَ الخلقِ بسورةٍ واحدةٍ مثلِه، فأبطلَ بذلك دعواهم افتراءَه[1].

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾.

أي: أم[2] يقولُ المُشرِكونَ المُكَذِّبونَ: اختلَقَ مُحمَّدٌ القُرآنَ مِن نَفسِه، وكذَبَ على اللهِ[3]؟!

﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ ﴾.

أي: قُلْ- يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: إنْ كنتُ قد افترَيتُ هذا القُرآنَ- كما

= كثير)) (٤/ ٢٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٥٦).

(٢) اختُلِف في المرادِ بـ (أم) فقِيل: هي المتضمنةُ معنَى (بل)، والهمزةِ، أي: بل أيقولونَ. وقيل: (أم) هذه بمنزلةِ همزةِ الاستفهامِ، وقيل: (أم) هي المعادلةُ للهمزةِ، وحُذِفت الجملةُ قبلَها، والتقديرُ: أيُقِرُّون به أم يقولون: افتراه. وقِيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير أبي حيان) (٦/ ٥٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٢)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢١)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤).

تَزعُمونَ- فأنتم عرَبٌ مِثلي، فأْتُوا بسُورةٍ واحدةٍ مِن جنسِ القُرآنِ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤].

﴿وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾.

أي: وادْعُوا- أيُّها المُشرِكونَ- مَن قَدَرتُم أن تَدْعُوه مِن شُرَكائِكم وأوليائِكم؛ لِيُعينوكم على المجيءِ بسُورةٍ واحدةٍ مِثلِ سُوَرِ القُرآنِ، إن كُنتُم صادِقينَ في زَعمِكم أنِّي افتريتُ القُرآنَ(٢).

كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى مجموعَ الدَّلائِلِ التي في إثباتِ أنَّ القُرآنَ مُعجِزٌ، ذكَرَ السَّبَبَ الذي لأجْلِه كذَّبُوا القُرآنَ(٣).

وأيضًا لَمَّا أقام اللهُ تعالى الدَّليلَ على أنَّ القُرآنَ كلامُه، وكان الدَّليلُ إنَّما مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٢، ١٨٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤).
قال ابنُ عطيةَ: (الضَّميرُ عائِدٌ على القُرآنِ المتقَدِّمِ الذِّكرِ، كأنَّه قال: فأْتُوا بسورةٍ مِثلِ القُرآنِ، أي: في معانيه وألفاظِه). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٣، ١٨٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٧٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٥٥).

شَأنِه أن يُقامَ على مَن عَرَض له غَلَطٌ أو شُبهةٌ، وكان قَولُ الكافرينَ ﴿افْتَرَاهُ﴾ لا عن شُبهةٍ، وإنَّما هو مجَرَّدُ عِنادٍ- نبَّه سُبحانه على ذلك، وعلى أنَّه إنَّما أقام الدَّليلَ لإظهارِ عِنادِهم، لا لأنَّ عِندَهم شُبهةً في كونِه حَقًّا، بالإضرابِ عَن قَولِهم(١)، فقال تعالى:

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾.

أي: بل كذَّب المُشرِكونَ بالقُرآنِ الذي لم يُحيطوا بعِلمِ ما فيه مِنَ الحَقِّ، ولم يَفهَموه(٢).

كما قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٨٤].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: ١١].

﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾.

أي: ولَمْ يأتِهم بعدُ حَقيقةُ ما وُعِدوا في الكِتابِ، بما يَؤُولُ إليه أمْرُهم مِن العُقوبةِ، ونزولِ العذابِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٠٢، ٢٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٢٨٢، ٢٨٣، ٣١٣) و (١٧/ ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٧٢، ١٧٣).

قال القرطبي: (قولُه: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ أي: ولم يأتِهم حقيقةُ عاقبةِ التَّكذيبِ مِن نُزولِ العذابِ بهم. أو كذَّبوا بما في القُرآنِ مِن ذِكرِ البَعثِ والجنَّةِ والنَّارِ، ولم يأتِهم تأويلُه، أي: حقيقةُ ما وُعِدوا في الكتابِ. قاله الضحَّاكُ). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٥).

قال ابنُ عاشورٍ: (والتَّأويلُ الَّذي في هذه الآيةِ يَحتَمِلُ المعنيينِ ولعلَّ كِلَيْهما مرادٌ، أي لَمَّا يأتِهم تأويلُ مَا يدَّعونَ أنَّهم لم يفهموه مِن معاني القرآنِ؛ لعدمِ اعتيادِهم بمعرفةِ أمثالِها، مثلَ حكمةِ =

كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٣].

﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾.

أي: كما كذَّب المُشرِكونَ بالحَقِّ، كذلك كذَّبَ المُشرِكونَ مِن الأُمَم الماضيةِ بالحَقِّ الذي جاءَهم مِن اللهِ تعالى(١).

كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ * ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [فاطر: ٢٥ - ٢٦].

﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: فانظُرْ- يا مُحمَّدُ- كيف كانت نهايةُ المكذِّبينَ بآياتِ اللهِ مِن الأُمَمِ الماضيةِ؛ أهلَكْناهم، وسنُهلِكُ كذلك الظَّالِمينَ المكَذِّبينَ مِن هذه الأمَّةِ، فلا تحسبَنَّهم يُفلِتونَ منَّا(٢).

= التَّشريعِ، ووقوعِ البعثِ، وتفضيلِ ضعفاءِ المؤمنينَ على صناديدِ الكافرينَ، وتنزيلِ القرآنِ مُنَجَّمًا، ونحوِ ذلك. فهم كانوا يعتبرونَ الأمورَ بما ألِفوه في المحسوساتِ، وكانوا يقيسون الغائِبَ على الشَّاهِدِ، فكذَّبوا بذلك وأمثالِه قبلَ أن يأتِيَهم تأويلُه. ولو آمنوا ولازموا النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم لعَلِموها واحدةً بعدَ واحدةٍ. وأيضًا لَمَّا يَأْتِهم تأويلُ ما حَسِبُوا عدمَ التَّعجيلِ به دليلًا على الكذبِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٧٢، ١٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٧٣، ١٧٤).
وممن صرَّح بأنَّ الخطابَ للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ابنُ جريرٍ وابنُ عاشورٍ.
قال الخازن: (وقيل: يحتمِلُ أن يكونَ الخِطابُ لكُلِّ فَرِدٍ مِن النَّاسِ، والمعنى: فانظُرْ- أيُّها الإنسانُ- كيف كان عاقِبةُ مَن ظَلَمَ، فاحذَرْ أن تفعَلَ مِثلَ فِعلِه). ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٤٤).

كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ [محمد: ١٠].

وقال سُبحانه: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ * كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٦ - ١٩].

﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ الله تعالى تكذيبَ مُشركي قُريشٍ، كان ذلك ربَّما أيأسَ مِن إذعانِهم وتَصديقِهم، وآذَنَ باستئصالِهم لِتكمُلَ المُشابهةُ للأوَّلينَ، وكان صلَّى اللهُ عليه وسلَّم شديدَ الشَّفَقةِ عليهم، والحِرصِ على إيمانِهم، فأتبَعَه تعالى بقَولِه هذا؛ بيانًا لأنَّ عِلمَه بانقسامِهم أوجَبَ عدَمَ استئصالِهم[1].

وأيضًا لَمَّا بيَّنَ تعالى في الآياتِ السَّابقةِ حالَ مُشركي قُريشٍ في اتِّهامِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بافتراءِ القُرآنِ، وبتكذيبِهم بوَعيدِه لهم؛ بَيَّنَ في هاتينِ الآيتينِ أقسامَ هؤلاءِ القَومِ في تكذيبِهم ومُستقبَلِ أمْرِهم، أو حالِهم ومُستقبَلِهم في الإيمانِ، وفي عَمَلِ المكذِّبينَ بمُقتَضى تكذيبِهم، وعَمَلِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بمُقتَضى رسالتِه إلى أنْ يأتيَ أمرُ اللهِ فيهم[2].

﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾.

أي: ومِنَ المُشركينَ مَن سَيُؤمِنُ بالقُرآنِ، ويتوبُ مِن الكُفرِ، ومِنهم مَن لا يُؤمِنُ بالقُرآنِ أبدًا، ويستمِرُّ على كُفرِه حتى يموتَ[3].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٢٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣١٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٠٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٠). =

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

أي: وربُّك- يا مُحمَّدُ- أعلَمُ بالمكذِّبينَ، ومَن يبقَى منهم مُصِرًّا على الكُفرِ، فيُجازيهم بأعمالِهم(١).

كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ [آل عمران: ٦٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ في هذا دليلٌ على التثبُّتِ في الأمورِ، وأنَّه لا ينبغي للإنسانِ أن يُبادِرَ بقَبولِ شَيءٍ أو رَدِّه، قبل أن يحيطَ به عِلمًا(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: ما كان لِأنْ يُفتَرى، يقولُ: ما كان لِيُفعَلَ هذا، فلم ينفِ مُجَرَّدَ فِعلِه، بل نفى احتمالَ فِعلِه، وأخبَرَ بأنَّ مِثلَ هذا لا يقَعُ، بل يمتَنِعُ وقوعُه، فيكونُ المعنى: ما يُمكِنُ، ولا يحتَملُ، ولا يجوزُ أن يُفتَرى هذا القُرآنُ مِن دُونِ اللهِ؛ فإنَّ الذي يفتَريه مِن دونِ اللهِ مَخلوقٌ، والمخلوقُ لا يقدِرُ على ذلك(٣).

= وممن قال بهذا القول المذكور: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ، وأبو حيانَ، وابنُ كثيرٍ. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل المراد: ومِنَ المُشرِكينَ مَن يُصدِّقُ بأنَّ القُرآنَ حَقٌّ، ولكِنَّه يجحَدُ به عنادًا واستكبارًا، ومِنَ المُشرِكينَ مَن لا يُصدِّقُ بالقُرآنِ أصلًا، وممن اختار هذا القول: النَّحاسُ، والشوكانيُّ، والقاسميُّ، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للنحاس (٣/ ٢٩٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٠٨)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٧٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٤)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٦٤).

(٣) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٥/ ٤٢٥).

٢- قال الله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ ففَرَّقَ بين الإحاطةِ بعِلمِه وبين إتيانِ تأويلِه، فتبيَّنَ أنَّه يُمكِنُ أن يُحيطَ أهلُ العِلمِ والإيمانِ بعِلمِه، ولَمَّا يأتِهم تأويلُه، وأنَّ الإحاطةَ بعِلمِ القُرآنِ ليست إتيانَ تأويلِه؛ فإنَّ الإحاطةَ بعِلمِه معرفةُ معاني الكلامِ على التَّمامِ، وإتيانَ التَّأويلِ نَفسُ وُقوعِ المُخبَرِ به[1].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ ذمٌّ لِمَن كذَّبَ بما لم يُحِطْ بعِلْمِه، فما قاله النَّاسُ من الأقوالِ المُختَلِفةِ في تفسيرِ القُرآنِ وتأويلِه، ليس لأحدٍ أنْ يُصَدِّقَ بقَولٍ دونَ قولٍ بلا عِلمٍ، ولا يُكذِّبَ بشيءٍ منها إلَّا أنْ يحيطَ بعِلمِه، وهذا لا يُمكِنُ إلَّا إذا عَرفَ الحقَّ الذي أُريدَ بالآيةِ، فيَعلَم أنَّ ما سواه باطلٌ، فيُكَذِّب بالباطِلِ الذي أحاط بعِلمِه، وأمَّا إذا لم يَعرِفْ مَعناها، ولم يُحِطْ بشَيءٍ منها عِلمًا؛ فلا يجوزُ له التكذيبُ بشَيءٍ منها[2].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ مَن جَهِلَ شيئًا عاداه[3].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ﴾ فيه تفريقُ كَلِمةِ الكُفَّارِ، وأنَّهم لَيسُوا مُستَوِينَ في اعتقاداتِهم، بل هم مُضطَرِبونَ، وإن شَمِلَهم التَّكذيبُ والكُفرُ[4]، وذلك على أحد وجْهَي تأويلِ الآيةِ.

٦- في قَولِه تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ إخبارٌ أنَّ مَن قَبْلَ المكَذِّبينَ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٤٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٦٢).

أصلٌ يُعتبَرُ به، والفرعُ نفوسُهم، فإذا ساوَوهم في المَعنى ساوَوهم في العاقِبةِ[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى﴾ يفيدُ المبالغةَ في نفْيِ أن يكونَ القرآنُ مُفترًى مِن غيرِ اللهِ، أي: مَنسوبًا إلى اللهِ كَذبًا وهو آتٍ مِن غيرِه، فإنَّ قولَه: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى﴾ أبلَغُ مِن أن يُقالَ: (ما هو بِمُفترًى)؛ لما يَدُلُّ عليه فِعلُ الكَونِ مِن الوجودِ، أي: ما وُجِدَ أن يُفتَرى، أي: وجودُه مُنافٍ لافتِرائِه؛ فدَلالةُ ذاتِه كافيةٌ في أنَّه غيرُ مفترًى[2].

- قولُه: ﴿هذَا الْقُرْآنُ﴾ الإشارةُ بـ﴿هَذَا﴾ فيها تفخيمُ المشارِ إليه وتَعظيمُه، وكونُه جامِعًا للأوصافِ الَّتي يَستحيلُ وُجودُها فيه أن يَكونَ مُفترًى[3].

- قولُه: ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ﴾، لَمَّا نَفى عن القرآنِ الافتراءَ أخبَر عنه بأنَّه تصديقٌ وتفصيلٌ، فجَرَت أخبارُه كلُّها بالمصدَرِ؛ تَنْويهًا ببلوغِه الغايةَ في هذه المعاني حتَّى اتَّحد بأجناسِها[4].

٢- قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

- قولُه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾، (أم) للإضرابِ الانتقاليِّ مِن النَّفيِ في ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى﴾ إلى الاستفهامِ الإنكاريِّ التَّعجُّبيِّ، وهو ارتقاءٌ

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٧).

(٤) يُنظر: . ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٦٩).

بإبطالِ دَعْواهم أن يَكونَ القُرآنُ مُفتَرًى مِن دونِ اللهِ، والاستفهامُ مقدَّرٌ، والمعنى: بل أيَقولون: افْتَراه بعدَما تبيَّن لهم مِن الدَّلائلِ على صِدْقِه وبَراءتِه مِن الافتراءِ، وهذا الاستفهامُ تقريرٌ لإلزامِ الحُجَّةِ عليهم، أو إنكارٌ لقولِهم واستِبْعادٌ(١)، وهذا على أحدِ أوجهِ تأويلِ (أم).

- ومِن بَديعِ الأسلوبِ وبَليغِ الكلامِ: أنْ قَدَّمَ وصْفَ القرآنِ بما يَقْتَضي بُعْدَه عن الافتراءِ في قولِه: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى﴾ وبما فيه مِن أجَلِّ صِفاتِ الكتُبِ، وبِتَشريفِ نِسْبتِه إلى اللهِ تعالى، ثمَّ أعقَب ذلك بالاستِفْهامِ في قولِه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ عن دَعْوى المشرِكين افتراءَ؛ لِيَتلقَّى السَّامعُ هذه الدَّعوى بمَزيدِ الاشمئزازِ والتَّعجُّبِ مِن حَماقةِ أصحابِها؛ فلذلك جُعِلَت دَعْواهم افتِراءَه في حيِّزِ الاستفهامِ الإنكاريِّ التَّعجُّبيِّ(٢).

٣- قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ (بل) إضرابٌ انتقاليٌّ لبيانِ كُنْهِ تَكْذيبِهم، وأنَّ حالَهم في المبادَرةِ بالتَّكذيبِ قبْلَ التَّأمُّلِ أعجَبُ مِن أصلِ التَّكذيبِ؛ إذ إنَّهم بادَروا إلى تَكْذيبِه دونَ نظَرٍ في أدلَّةِ صِحَّتِه التي أشار إليها قولُه: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾(٣).

- وعبَّر بقولِه: ﴿بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ دونَ أن يُقالَ: (بل كذَّبوا به مِن غيرِ أن يُحيطوا بعِلمِه)، أو نحوُ ذلك؛ للإيذانِ بكمالِ جَهلِهم به، وأنَّهم لم يَعلَموه

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ١٧١).

إلَّا بعُنوانِ عدمِ العلمِ به، وبأنَّ تكذيبَهم به إنَّما هو بسبَبِ عدمِ عِلْمِهم به؛ لأنَّ إدارةَ الحكمِ على الموصولِ (ما) مُشعِرةٌ بعِلِّيَّةِ مَا في حيِّزِ الصِّلةِ له[1].

- وفيه نفيُ إتيانِ التَّأويلِ بكلمةِ (لَمَّا) الدَّالَّةِ على التَّوقُّعِ بعدَ نفيِ الإحاطةِ بعِلمِه بكلمةِ (لم)؛ لتأكيدِ الذَّمِّ، وتَشديدِ التَّشنيعِ؛ فإنَّ الشَّناعةَ في تكذيبِ الشَّيءِ قبْلَ عِلمِه المتوقَّعِ إتيانُه، أفحَشُ منها في تَكذيبِه قبلَ علمِه مُطلقًا[2].

- قولُه: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ التَّكذيبَ عادةُ المعانِدين الكافرين؛ لِيَعلَمَ المشرِكون أنَّهم مُماثِلون للأُممِ الَّتي كذَّبَت الرُّسلَ فيَعتبِروا بذلك، وتعريضٌ بالنِّذارةِ لهم بحُلولِ العذابِ بهم، كما حلَّ بأولئك الأممِ الَّتي عرَفَ السَّامِعونَ مَصيرَها وشاهَدوا دِيارَها، وتسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّه ما لَقِي مِن قومِه إلَّا مِثلَ ما لَقِيَ الرُّسلُ السَّابقون مِن أقوامِهم[3].

- قولُه: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ فيه وضعُ المُظهَرِ ﴿عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ موضِعَ المُضمَرِ (عاقِبتُهم)؛ للإيذانِ بكونِ التَّكذيبِ ظُلمًا، أو بعِلِّيَّتِه لإصابةِ ما أصابهم مِن سوءِ العاقبةِ، وبدُخولِ هؤلاء الظَّالِمين في زُمرَتِهم جُرمًا ووَعيدًا دُخولًا أوَّليًّا[4].

٤- قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ﴾، في اختيارِ صيغةِ المُضارِعِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٤٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ١٤٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٧٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٤٧).

﴿يُؤْمِنُ﴾ دلالةٌ على استمرارِ الإيمانِ به مِن بَعضِهم معَ المعانَدةِ، واستمرارِ عدمِ الإيمانِ به مِن بعضِهم أيضًا[١]، وذلك على أحدِ وجهي تأويلِ الآيةِ.

- وجملةُ: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ مُعترِضةٌ في آخِرِ الكلامِ، وهي تعريضٌ بالوعيدِ والإنذارِ[٢]، وفي تعلُّقِ العلمِ بالمفسِدين وَحْدَهم: تهديدٌ عظيمٌ لهم[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٦٢).

الآيات (٤١-٤٤)

﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى لنبيِّه مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: وإن كذَّبَك المُشرِكونَ، ولم يُؤمِنوا بما جِئتَهم به من الحَقِّ، فقل لهم: لي عَمَلي ولكم عمَلُكم، لا تُؤاخَذونَ بما أعمَلُ، ولا أُؤاخَذُ بما تَعمَلونه.

ويخبرُ نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّ مِن الكُفَّارِ مَن يستَمِعُ إلى تلاوتِك- يا مُحمَّدُ- للقُرآنِ، وإلى حديثِك، وقلوبُهم غافلةٌ لا ينتَفِعونَ بما سَمِعوه من ذلك، أفأنت تستطيعُ أن تُسمِعَ الصُّمَّ، خصوصًا إذا كانوا لا عَقلَ لهم، وأنَّ منهم من ينظُرُ إليك- يا مُحمَّدُ- أفأنت تُرشِدُ العُميَ، ولو كانوا مع ذلك بدونِ بَصيرةٍ.

إنَّ اللهَ لا يَظلِمُ أحدًا من النَّاسِ شَيئًا، ولكنَّ النَّاسَ هم الذين يَظلِمونَ أنفُسَهم بكُفرِهم ومَعاصيهم، فيَستَحِقُّونَ عِقابَه عَزَّ وجلَّ، ولا يضرُّونَه شيئًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ﴾.

أي: وإنْ كذَّبَك- يا مُحمَّدُ- المُشرِكونَ، ولم يُؤمِنوا بما جئتَهم به من الحَقِّ، فقل

لهم: لي عمَلي الذي سيُجازيني اللهُ به، ولكم عمَلُكم الذي سيُجازيكم اللهُ عليه[1].

كما قال سبحانه: ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ [البقرة: ١٣٩].

﴿أَنتُمْ بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

أي: وقُلْ- يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: لا تُؤاخَذونَ بِجَريرةِ أعمالي، ولا أُؤاخَذُ بجَريرةِ أعمالِكم[2].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١ - ٦].

وقال سُبحانه: ﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٢٥].

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أنبأَ اللهُ رَسولَه بأنَّ مِن قَومِه مَن لا يؤمِنُ بهذا القُرآنِ حالًا ولا استِقبالًا؛ إذ لا ينفَعُهم البيانُ مهما يكُنْ ناصِعًا، ولا ينفَعُهم البُرهانُ وإن كان قاطِعًا، وأنَّ الذي عليه في المُصِرِّينَ على تكذيبِه منهم بعدما جاءَهم به مِن الآياتِ التي دمَغَتْهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٠٨).

بالحُجَجِ البيِّناتِ، أن يتبَرَّأَ منهم، وينتظِرَ أمرَ اللهِ فيهم- كان مِن شأنِ هذا النَّبأِ أن يُثيرَ عَجَبَه؛ لِغَرابتِه في نفسِه، وأن يسوءَه؛ لِما يشيرُ إليه مِن انتقامِ الله منهم؛ بَيَّنَ له مَثَلَ الذين فَقَدوا الاستعدادَ للإيمانِ، وعَلَّمَه ما لم يكُن يَعلَمُه مِن سُنَّةِ الله تعالى فيهم، وكَونِ مُصيبتِهم من أنفسِهم، فلا حولَ له ولا قُوَّةَ على هدايتِهم(١).

وأيضًا لَمَّا سبَقَ تَقسيمُ المُشركينَ بالنِّسبةِ إلى اعتقادِهم في الأصنامِ إلى مَن يَتَّبِعُ الظَّنَّ، ومَن يُوقِنُ بأنَّ الأصنامَ لا شيءَ، وتقسيمُهم بالنِّسبةِ لتصديقِ القُرآنِ إلى قِسمَينِ: من يؤمِنُ بصِدقِه ومَن لا يؤمِنُ بصِدقِه؛ كمَّلَ في هذه الآيةِ تَقسيمَهم بالنِّسبةِ للتلقِّي مِن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى قِسمَينِ: قسمٌ يَحضُرونَ مَجلِسَه، ويستمعونَ إلى كلامِه، وقِسمٌ لا يحضُرونَ مَجلِسَه وإنَّما يتوسَّمونَه، وينظُرونَ سَمتَه، وفي كلا الحالينِ مَسلكٌ عَظيمٌ إلى الهُدى لو كانوا مهتدينَ(٢).

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾.

أي: ومِن الكُفَّارِ مَن يستَمِعُ إلى تلاوتِك للقرآنِ وحديثِك- يا مُحمَّدُ- وقلوبُهم غافلةٌ، لا ينتَفِعونَ بسَماعِهم ذلك(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: ٢٥].

وقال سُبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٥).

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

أي: أفأنت- يا مُحمَّدُ- تستطيعُ أن تُسمعَ الصُّمَّ، وخصوصًا إذا كانوا مع صَمَمِهم جُهَّالًا، لا عَقلَ لهم[1]؟! فكذلك لا تقدِرُ على جَعلِ الكُفَّارِ ينتَفِعونَ بالسَّماعِ منك[2].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢١ - ٢٣].

وقال سُبحانه: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ [النمل: ٨٠].

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى أنَّ طَريقًا عظيمًا من طُرُقِ العِلمِ قد انسَدَّ على المُشرِكينَ،

---

(١) قال أبو حيانَ: (حَريٌّ بمن عَدِمَ السَّمعَ والعَقلَ ألَّا يكونَ له إدراكٌ لشيءٍ البتَّةَ، بخلاف أنْ لو كان الأصَمُّ عاقلًا؛ فإنَّه بِعَقلِه يهتدي إلى أشياءَ). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٦٣).
وقال ابنُ عاشورٍ: (أي: ولو انضَمَّ إلى صمَمِهم عدَمُ عُقولِهم؛ فإنَّ الأصَمَّ العاقِلَ ربَّما تفرَّسَ في مُخاطِبِه، واستدَلَّ بملامِحِه). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٧٩). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٩٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٦)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٥).

وهو طريقُ المَسموعاتِ المُتعَلِّقةِ بالخَيرِ، ذكَرَ انسدادَ الطَّريقِ الثَّاني، وهو: طريقُ النَّظَرِ، فقال تعالى[1]:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾.

أي: ومِن الكُفَّارِ مَن ينظُرُ إليك- يا مُحمَّدُ- ولا ينتَفِعونَ بذلك النَّظَرِ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا * إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤١- ٤٢].

﴿أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾.

أي: أفأنتَ- يا مُحمَّدُ- تستطيعُ أن تُرشِدَ العُمْيَ الذين لا بَصرَ لهم ينتَفِعونَ به، وخصوصًا إذا انضَمَّ إلى ذلك فقدُ البَصيرةِ[3]؟! فكذلك لا تَقدِرُ على هدايةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٠، ٢٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٥).

قال ابن كثير: (أي: ينظُرونَ إليك، وإلى ما أعطاك اللهُ؛ مِن التُّؤَدةِ، والسَّمتِ الحَسَنِ، والخُلُقِ العَظيمِ، والدَّلالةِ الظَّاهرةِ على نُبُوَّتِك لأولي البصائِرِ والنُّهَى، وهؤلاءِ يَنظُرونَ كما يَنظُرُ غَيرُهم، ولا يحصُلُ لهم من الهدايةِ شَيءٌ ممَّا يحصُلُ لِغَيرِهم). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٠-٢٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٦٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٤٩)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢٨)، ((تفسير المنار)) (١١/ ٣١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٧٩).

قال الزمخشري: (أتحسَبُ أنَّك تقدِرُ على هدايةِ العُميِ، ولو انضَمَّ إلى العمَى- وهو فَقدُ البَصَرِ- فقدُ البصيرةِ؛ لأنَّ الأعمى الذي له في قَلبِه بصيرةٌ، قد يَحدِسُ ويتظَنَّنُ، وأمَّا العَمى مع الحُمقِ، فجَهدُ البَلاءِ). ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٤٩).

وقال ابنُ عاشور: (وأما معنى: لا يُبصِرونَ، فإنَّهم لا بصيرةَ لهم يتبصَّرونَ بها. وهو الذي فسَّرَ به «الكشَّاف» وهو الوجهُ؛ إذ بدونِه يكون معنى: لا يُبصِرونَ مُساويًا لمعنى العَمَى، فلا تقَعُ المبالغةُ بـ(لو) الوصليَّةِ مَوقِعَها، إذ يصيرُ: أفأنت تهدي العُميَ ولو كانوا عُميًا. ومقتضى كلام «الكشَّاف» أنه يقال: أبصَرَ: إذا استعمَلَ بصيرتَه، وهي التفكيرُ والاعتبارُ بحقائقِ الأشياءِ، =

الكُفَّارِ الذين عَمِيَت قلوبُهم عن رؤيةِ الحَقِّ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وقال سُبحانه: ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾ [النمل: ٨١].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ الله تعالى في الآيتَينِ السَّابِقَتينِ فَريقَينِ، ووصَفَهما بالشِّقْوةِ؛ يَنظُرونَ ويَسمَعونَ، ولا يَعقِلونَ ولا يُؤمِنونَ؛ وذلك للقَضاءِ السَّابقِ عليهم- أخبَرَ اللهُ في هذه الآيةِ أنَّ تَقديرَ الشِّقْوةِ عليهم ما كان ظُلمًا منه؛ وذلك لكمالِ عدلِه؛ حيثُ يضعُ الأمورَ في مواضعِها، ويوقعُها في مواقعِها عن علمٍ بمن يستحقُّ الهدَى أو الضلالةَ والعمَى، وإذا كَسَبوا المعاصيَ فقد ظَلَموا أنفُسَهم؛ لأنَّ الفِعلَ مَنسوبٌ إليهم، وإن كان القضاءُ لله تعالى[(٢)].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا ﴾.

أي: إنَّ اللهَ لا يفعلُ بخلقِه ما لا يستحقُّون منه؛ فلا يسلبُ أحدًا الإيمانَ، ولا يصرفُه عن الهدَى إلَّا إذا استحقَّ ذلك؛ لكمالِ علمِه سبحانَه وحكمتِه وعدلِه، وأيضًا فهو لا يعُاقِبُ مَن لم يستوجِبِ العقابَ، ولا يزيدُ في سَيِّئاتِ المُسيئينَ،

= وكلام «الأساس» يحومُ حَولَه، وأيًّا ما كان فالمرادُ بقَولِه: لا يُبصِرونَ، معنى التأمُّلِ، أي: ولو انضَمَّ إلى عمَى العُمْيِ عدَمُ التَّفكيرِ، كما هو حال هؤلاء الذين ينظُرونَ إليك). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٦)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٠٩).

ولا يَنقُصُ مِن حَسَناتِ المُحسِنينَ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

وعن أبي ذرٍّ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما روى عن اللهِ تبارك وتعالى، أنَّه قال: ((يا عبادِي، إنِّي حرَّمتُ الظُّلمَ على نَفسِي، وجَعَلتُه بينكم مُحرَّمًا، فلا تَظالَموا))[2].

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾.

أي: ولكنَّ النَّاسَ هم الذينَ يَظلِمونَ أنفُسَهم، ويضُرُّونَها بكُفرِهم باللهِ ومَعصيتِه، فيستَحِقُّونَ عقابَه، ولا يضرُّونَ اللهَ شَيئًا[3].

كما قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الإيمانَ والتوفيقَ به تعالى لا بِغَيرِه، وفي ذلك تسليةٌ مِن اللهِ عَزَّ وجَلَّ لنبيِّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[4].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٨٠).

(٢) رواه مسلم (٢٥٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٠/ ٣٣٨).

لَا يَعْقِلُونَ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ المرادُ مِن الآيتَينِ: أنَّ هدايةَ الدِّينِ كهدايةِ الحِسِّ، ولا تكونُ إلَّا للمُستعِدِّ لها بهدايةِ العَقلِ، وأنَّ هدايةَ العَقلِ لا تحصُلُ إلَّا بتوجُّهِ النَّفسِ، وصِحَّةِ القَصدِ، وهذا الصِّنفُ مِن الكُفَّارِ قد انصَرَفت أنفُسُهم عن استعمالِ عُقولِهم في الدَّلائلِ البَصَريَّةِ والسَّمعيةِ؛ لإدراكِ مَطلَبٍ مِن المطالِبِ ممَّا وراءَ شهواتِهم وتقاليدِهم، وليس المرادُ أنهم فقَدوا نعمةَ العَقلِ الغَريزيِّ، ولا نعمةَ الحواسِّ، بل استعمالَها النَّافعَ[1].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فيه أنَّ اللهَ لا يؤاخِذُ أحدًا مِن النَّاسِ بعَمَلِ الآخَرِ[2].

٢- النَّظَرُ إلى حالةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهديِه وأخلاقِه، وأعمالِه وما يدعو إليه؛ مِن أعظَمِ الأدلَّةِ على صِدقِه وصِحَّةِ ما جاء به، ويكفي البَصيرَ عَن غيرِه من الأدلَّةِ؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾[3].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ إيئاسُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم من إسماعِ هؤلاء الصُّمِّ، وهدايةِ هؤلاء العُميِ، وقفَّى على ذلك بقَولِه تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ فأمثالُ هذه الآياتِ تَحثُو التُّرابَ في فِي مَن يزعُمُ أنَّ الآيةَ تدُلُّ على الجَبرِ، وعَدَمِ اختيارِ العبدِ في كُفرِه وإيمانِه[4].

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٣١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٥٢٢).

٤- قولُه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ذِكْرُ هذا عَقِبَ ما تَقَدَّم مِن عدمِ الاهتداءِ بالأسماعِ والأبصارِ؛ لبيانِ أَنَّ ذلك لم يَكُنْ لأجلِ نَقْصٍ فيما خَلَقَه اللَّهُ لهم مِنَ السَّمْعِ والعقلِ والبصرِ والبصيرةِ، بل لأجلِ ما صارَ في طبائِعِهم مِنَ التَّعَصُّبِ والمُكابرةِ للحقِّ، والمجادلةِ بالباطلِ، والإصرارِ على الكفرِ، فهم الَّذين ظَلموا أنفسَهم بذلك، ولم يَظْلِمْهم اللَّهُ شيئًا مِن الأشياءِ، بل خَلَقَهم، وجعلَ لهم مِنَ المشاعرِ ما يُدركونَ به أكملَ إدراكٍ، وركَّبَ فيهم مِن الحواسِّ ما يَصِلونَ به إلى ما يريدونَ، ووَفَّرَ مَصالحَهم الدُّنيويَّةَ عليهم، وخلَّى بينَهم وبينَ مصالِحِهم الدِّينيَّةِ، فعلَى نفسِها بَراقِشُ[1] تَجْني[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ فيه معنى الحصرِ بتَقْديمِ المعمولِ ﴿لِي﴾ ﴿وَلَكُمْ﴾، وبالتَّعبيرِ بالإضافةِ بـ﴿عَمَلِي﴾ و﴿عَمَلُكُمْ﴾[3].

- وقولُه: ﴿أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بيانٌ لجملةِ: ﴿لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾؛ ولذلك فُصِلَت، أي: لم تُعطَفْ على الَّتي قبلَها[4]، وهي أيضًا تأكيدٌ لِمَا أفادَتْه لامُ الاختصاصِ مِن عدَمِ تعدِّي جَزاءِ

(١) بَراقِشُ: اسْمُ كَلبةٍ نَبَحَت جَيشًا كانوا قصَدُوا أهلَها، فخفيَ عليهم مكانُهم، فلمَّا نَبَحَتْهم عَرَفوهم فعَطَفوا عليهم فاجتاحُوهم، فذهَبَت مثَلًا، ويُضرَبُ هذا المثَلُ للرجُلِ يرجِعُ إصلاحُه بإفسادٍ، ويُوافيه الشَّرُّ مِن نَفسِه. يُنظر: ((جمهرة الأمثال)) للعسكري (٢/ ٥٢)، ((لسان العرب)) لابن منظور (٦/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٧٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

العمَلِ إلى غيرِ عامِلِه[(١)].

- وقولُه: ﴿أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فيه العُدولُ عن الإتيانِ بالعملِ مَصدَرًا، كما أُتي به في قولِه: ﴿لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ إلى الإتيانِ به فِعْلًا صِلَةً لِـ(ما) الموصولةِ؛ للدَّلالةِ على البراءةِ مِن كلِّ عملٍ يَحدُثُ في الحالِ والاستقبالِ[(٢)].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث بدَأ في المأمورِ بقولِه: ﴿لِي عَمَلِي﴾؛ لأنَّه آكَدُ في الانتفاءِ مِنهم، وبَدَأ في البراءةِ بقولِه: ﴿أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ﴾؛ لأنَّ هذه الجملةَ جاءت كالتَّوكيدِ والتَّتميمِ لِما قبْلَها؛ فناسَب أن تَلِيَ قولَه: ﴿وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾، ولِمُراعاةِ الفواصلِ؛ إذ لو تَقدَّم ذِكْرُ براءةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم كما تقدَّم ذِكْرُ ﴿لِي عَمَلِي﴾ لم تقَعِ الجملةُ فاصلةً؛ إذ كان يكونُ التَّركيبُ: (وأنتم بَريئون ممَّا أعمَلُ)[(٣)].

٢- قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ وقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ جيءَ بالفعلِ المضارِعِ ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ ﴿يَنْظُرُ﴾ دونَ اسمِ الفاعلِ (مُستَمِعون- ناظِرٌ)؛ للدَّلالةِ على تَكرُّرِ الاستماعِ والنَّظرِ[(٤)].

- قولُه: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ جمَع الضَّميرَ الرَّاجعَ إلى كلمةِ (مَنْ) مع الاستماعِ؛ رعايةً لجانبِ المعنى، وأفرَدَه

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٤٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٧٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٦٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٧٧).

مع النَّظَرِ؛ مُحافَظةً على ظاهِرِ اللَّفظِ، ولعلَّ ذلك للإيماءِ إلى كَثرةِ المستَمِعين بِناءً على عدمِ توقُّفِ الاستماعِ على ما يتَوقَّفُ عليه النَّظرُ مِن المقابلةِ، وانتفاءِ الحجابِ والظُّلمةِ[1]، وقيل: لعلَّ اختلافَ الصِّيغتين للمُناسَبةِ مع مادَّةِ فِعْلَيْ (يَسْتَمِعُ) و(يَنْظُرُ)؛ ففِعلُ (يَنظُر) لا تُلائِمُه صيغةُ الجمعِ؛ لأنَّ حُروفَه أثقَلُ مِن حروفِ (يَستمِعُ)؛ فيكونُ العدولُ استِقْصاءً لِمُقتَضى الفصاحةِ[2].

- قولُه: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ وقولُه: ﴿أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾ استِفْهامان مُستعمَلان في التَّعجُّبِ مِن حالِهم؛ إذ يَستمِعون إلى دعوةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ولا يَعقِلونها، وإذ يَنظُرون أعمالَه وسيرتَه ولا يَهتَدون بها، فليس في هذين الاستِفْهامَين معنى الإنكارِ على مُحاولة النَّبيِّ إبلاغَهم وهدْيَهم؛ لأنَّ المقامَ يَنْبو عن ذلك[3]، وفي هذا مبالغةٌ عظيمةٌ في انتفاءِ قَبولِ ما يُلْقى إلى هؤلاء؛ إذ جمَعوا بين الصَّممِ وانتفاءِ العقلِ، وبين العمَى وفَقْدِ البصيرةِ[4].

- وفي الاستِفْهامَين تقديمُ المسنَدِ إليه (أنتَ) على الخبَرِ الفِعْليِّ بقولِه: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ﴾ وقولِه: ﴿أَفَأَنْتَ تَهْدِي﴾ دون أن يُقالَ: (أَتُسمِعُ الصُّمَّ) و(تَهْدي العُمْي)؛ فكان هذا الاستفهامُ التَّعجُّبيُّ فيهما مُؤكَّدًا مُقوًّى[5].

- و(لو) في قولِه: ﴿وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ وقولِه: ﴿وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ وَصْليَّةٌ دالَّةٌ على المبالغةِ في الأحوالِ، وهي الَّتي يكونُ الَّذي بعدَها أقصى ما يَعْلَقُ به الغَرَضُ[6]، وجوابُ (لو) في الجُملتَين محذوفٌ؛ لِدَلالةِ قولِه تعالى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٨٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ١٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٦٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٧٨).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

﴿تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ و﴿تَهْدِي الْعُمْيَ﴾ عليه، وكلٌّ منهما مَعطوفةٌ على جُملةٍ مقدَّرةٍ مقابِلةٍ لها في الفَحْوى، أي: أفأنتَ تُسمِعُ الصُّمَّ لو كانوا يَعقِلون، ولو كانوا لا يَعقِلون، أفأنتَ تَهدي العُميَ لو كانوا يُبصِرون، ولو كانوا لا يُبصِرون؟! أي: على كلِّ حالٍ مفروضٍ، وقد حُذِفَت الأولى في البابِ حذفًا مُطَّرِدًا؛ لِدَلالةِ الثَّانيةِ عليها دلالةً واضحةً؛ فإنَّ الشَّيءَ إذا تحقَّق عند تحقُّقِ المانعِ، أو المانعِ القويِّ فلأَنْ يَتحقَّقَ عند عدَمِه، أو عند تحقُّقِ المانعِ الضَّعيفِ أولَى، وعلى هذه النُّكْتةِ يدورُ ما في (لو) و(أنْ) الوَصليَّتين مِن التَّأكيدِ[1].

٣- قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ تذييلٌ، وشَمِل عمومَ النَّاسِ المشرِكين الَّذين يَستمِعون ولا يَهْتَدون، ويَنظُرون ولا يَعتبِرون، والمقصودُ مِن هذا التَّذييلِ: التَّعريضُ بالوعيدِ بأنْ سيَنالُهم ما نال جَميعَ الَّذين ظلَموا أنفُسَهم بتكذيبِ رُسلِ اللهِ[2].

- وقولُه: ﴿وَلَكِنَّ النَّاسَ...﴾ فيه وضْعُ الظَّاهِرِ مَوضِعَ الضَّميرِ- إذ قال: ﴿وَلَكِنَّ النَّاسَ﴾ ولم يقُل: (ولكِنَّهم)-؛ لزيادةِ تعيينٍ وتقريرٍ[3]، ففيه إشارةٌ إلى أنَّ هذا الظُّلمَ خاصٌّ بهم دونَ سائِرِ أنواعِ الحَيوانِ؛ فإنَّها لا تعدو في استعمالِ مَشاعِرِها وقُواها ما خُلِقَت لأجلِه مِن حِفظِ حياتِها الشَّخصيَّةِ والنَّوعيَّةِ، وأمَّا النَّاسُ فقد يستَعمِلونَها فيما يَضُرُّهم في حياتِهم الحيوانيَّةِ الدُّنيويَّةِ، وفي حياتِهم الرُّوحيَّةِ الأُخرويَّةِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٤٨- ١٤٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٨٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٤٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣١٦).

- وقولُه: ﴿أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ فيه تقديمُ المفعولِ ﴿أَنْفُسَهُمْ﴾ على عامِلِه ﴿يَظْلِمُونَ﴾؛ لإفادةِ تَغْليطِهِم بأنَّهم ما جَنَوْا بكُفْرِهم إلَّا على أنفُسِهم، وما ظلَموا اللهَ ولا رُسلَه، فما أضَرُّوا بعمَلِهم إلَّا أنفُسَهم[١].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٨٠).

الآيات (٤٥-٤٧)

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

المَعنى الإجماليُّ:

يَقولُ تعالى: ويومَ يَجمَعُ اللهُ الكافرينَ في موقِفِ الحِسابِ، كأنَّهم لم يَمكُثوا في الدُّنيا إلَّا ساعةً مِن نهارٍ، يتعارَفُ النَّاسُ بينهم يومَ القيامةِ، كما كانوا يتعارَفونَ في الدُّنيا، قد خَسِرَ ثوابَ اللهِ وجَنَّتَه الذين كذَّبوا بلِقاءِ اللهِ، وما كانوا مُهتَدينَ.

وإمَّا نُرِيَنَّكَ - يا مُحمَّدُ - عُقوبةَ الكُفَّارِ في حياتِك بأن نُعَجِّلَها لهم، أو نُميتَك قبل أن نُريَك ذلك؛ فإلينا مَرجِعُهم ومَصيرُهم، ثمَّ اللهُ شاهِدٌ على ما كانوا يَفعَلونَه في الدُّنيا، وسيُجازيهم به.

ثمَّ يبَيِّنُ تعالى أنَّ لكُلِّ أمَّةٍ رَسولًا مِن اللهِ، يدعوهم إلى الإيمانِ وعِبادةِ اللهِ وَحدَه، فإذا جاء الأمةَ رَسولُهم يومَ القيامةِ لِيَشهَدَ عليهم، حكَمَ اللهُ بينهم بالعَدلِ، وهو غيرُ ظالمٍ لهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا وصَفَ الكُفَّارَ بقِلَّةِ الإصغاءِ، وتَرْكِ التَّدبُّرِ؛ أتبَعَه بالوعيدِ لهم[1].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٥٩).

وأيضًا لَمَّا كان في سابقِ الآياتِ ما ذُكِرَ مِن أفانينِ جِدالِهم في أباطيلِهم وضَلالِهم، وكان فِعلُ ذلك- ممَّن لا يرى حَشرًا ولا جزاءً، ولا نعيمًا وراء نعيم هذه الدَّارِ- فِعلَ فارغِ السِّرِّ، مُستطيلٍ للزَّمانِ، آمِنٍ مِن نوازلِ الحَدَثانِ- حَسُنَ تَعقيبُه بأنَّهم يَرَونَ يومَ الحَشرِ مِن الأهوالِ ما يَستَقصِرونَ معه مُدَّةَ لُبثِهم في الدُّنيا، فقد خَسِروا إذَن دُنياهم بالنِّزاعِ، وآخِرتَهم بالعذابِ الذي لا يُستطاعُ، وليس له انقِطاعٌ(١).

وأيضًا لمَّا جاء فيما مضَى ذكرُ يومِ الحشرِ، إذ هو حينُ افتضاحِ ضلالِ المشركينَ ببراءةِ شركائِهم منهم- أتبعَ ذلك بالتقريعِ على عبادتِهم الأصنامَ، مع وضوحِ براهينِ الوحدانيةِ للهِ تعالى، وإذ كان القرآنُ قد أبلغهم ما كان يعصمُهم مِن ذلك الموقفِ الذَّليلِ لو اهْتَدَوا به، أتْبَع ذلك بالتنويهِ بالقرآنِ، وإثباتِ أنَّه خارجٌ عن طوقِ البشرِ، وتسفيهِ الذين كذَّبوه، وتفنَّنوا في الإعراضِ عنه، واستوفَى الغرض حقَّه، عاد الكلامُ إلى ذِكرِ يومِ الحشرِ مرةً أُخرَى؛ إذ هو حينُ خيبةِ أولئك الذين كذَّبوا بالبعثِ، وهم الذين أشْرَكوا، وظهَر افتضاحُ شركِهم في يومِ الحشرِ، فكان مثلَ ردِّ العجزِ على الصدرِ(٢).

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾.

أي: ويومَ(٣) يَجمَعُ اللهُ الكافرينَ في موقِفِ الحِسابِ، فيَستقِلُّون حِينذاك مُدَّةَ مُكثِهم في الدُّنيا، كأنَّهم لم يَعيشوا فيها إلَّا ساعةً مِن نَهارٍ(٤)!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٨١).

(٣) قال ابنُ عطيةَ: ﴿وَيَوْمَ﴾ ظرفٌ، ونصبُه يصحُّ بفعلٍ مضمَرٍ، تقديرُه: «واذكرْ يومَ»، ويصحُّ أن ينتصبَ بالفعلِ الذي يتضمَّنُه قولُه: ﴿كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ﴾، ويصحُّ نصبُه بـ﴿يَتَعَارَفُونَ﴾. ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٢، ١٢٣)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ * قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٢-١١٤].

وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا * يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: ١٠٢-١٠٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٥-٥٦].

وقال سُبحانه: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٤٦].

= الرازي)) (١٧/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٥٧).
وممَّن اختار هذا المعنى المذكورَ: ابنُ كثيرٍ، والشوكانيُّ، ومحمد رشيد رضا، والسعدي، والشِّنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥١٠)، ((تفسير المنار)) (١١/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٥)، ((أضواء البيان)) (٢/ ١٥٧).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ مقاتلٌ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٣٣).
وقيل: المعنى: كأنَّهم لم يَمكثوا في قُبورِهم بين مَوتِهم وحَشْرِهم إلَّا ساعةً مِن نهارٍ. وممن اختار هذا القولَ: ابنُ الأنباريِّ، والسمعانيُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢١١)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٣٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٧).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٣٣).
قال الشوكاني: (المرادُ باللُّبثِ: هو اللُّبثُ في الدُّنيا، وقيل: في القُبورِ، استَقَلُّوا المدَّةَ الطَّويلةَ؛ إمَّا لأنَّهم ضيَّعوا أعمارَهم في الدُّنيا، فجعلوا وجودَها كالعَدَم، أو استقصَروها للدَّهَش والحَيرةِ، أو لِطُولِ وُقوفِهم في المَحشَرِ، أو لِشِدَّةِ ما هم فيه من العذابِ، نسوا لذاتِ الدُّنيا، وكأنَّها لم تكُن). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥١٠). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٣٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١١٤).

﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾.

أي: يَعرِفُ النَّاسُ بَعضُهم بعضًا يومَ القيامةِ، كما كانوا في الدُّنيا يَعرِفونَ بَعضَهم(١).

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

أي: قد خَسِرَ ثوابَ اللهِ وجَنَّتَه الجاحِدونَ لِلِقاءِ اللهِ، يومَ القيامةِ، فاستحَقُّوا دخولَ النَّارِ، وما كانوا موفَّقينَ للحَقِّ بتكذيبِهم بالبَعثِ بعدَ المَوتِ(٢).

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ (٤٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذه الآيةَ تتمَّةُ الرَّدِّ على المُشرِكينَ في تكذيبِ ما لم يُحيطوا بعِلمِه، ولَمَّا يأتِهم تأويلُه، مِن العقابِ الذي سبَقَ ذِكرُه(٣).

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٧، ٣٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧١، ٢٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٥).

قال الزجاج: (وفي معرفةِ بَعضِهم بعضًا، وعِلمِ بَعضِهم بإضلالِ بَعضٍ، التوبيخُ لهم، وإثباتُ الحجَّةِ عليهم). ((معاني القرآن)) (٣/ ٢٢).

قال ابنُ عطيةَ: (وأما قوله: ﴿يَتَعَارَفُونَ﴾ فيحتملُ أن يكونَ معادلة لقولِه: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ كأنَّه أخبَر أنَّهم يومَ الحشرِ يَتعارَفونَ، وهذا التعارفُ على جهةِ التلاومِ والخزيِ مِن بعضِهم لبعضٍ، ويحتملُ أن يكونَ في موضعِ الحالِ مِن الضميرِ في ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾، ويكونُ معنى التعارفِ كالذي قبلَه، ويحتملُ أن يكونَ حالًا مِن الضميرِ في ﴿يَلْبَثُوا﴾، ويكونُ التعارفُ في الدُّنيا، ويجيءُ معنى الآيةِ: ويومَ نحشرُهم للقيامةِ فتنقطعُ المعرفةُ بينَهم والأسبابُ، ويصيرُ تعارفُهم في الدُّنيا كساعةٍ مِن النَّهارِ لا قدرَ لها). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٧)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢١٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣١٩).

أي: وإمَّا نُعجِّلْ عُقوبةَ الكُفَّارِ في حياتِك- يا مُحمَّدُ- فتَراها[١]، أو نُمِتْك قبل أن نُرِيَك ذلك فيهم؛ فمَصيرُهم إلينا بكلِّ حالٍ[٢].

﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾.

أي: ثمَّ اللهُ شاهدٌ على ما كانوا يفعَلونَه في الدُّنيا، وسيُجازيهم به[٣].

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٤٧)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بيَّنَ حالَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في قَومِه؛ بيَّنَ حالَ الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ مع أقوامِهم؛ تسليةً له، وتطمينًا لِقَلبِه[٤].

وأيضًا لَمَّا كان في الآيةِ السَّابقةِ التَّهديدُ بالعذابِ- إمَّا في الدُّنيا أو في الآخرةِ-

(١) قال الشوكاني: (وقد أراه اللهُ سُبحانه قَتْلَهم وأسْرَهم، وذُلَّهم وذَهابَ عِزِّهم، وانكسارَ سَورةِ كِبرِهم؛ بما أصابهم به في يومِ بَدرٍ وما بعدَه مِن المواطِنِ، فلله الحَمدُ). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٨، ٣٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٨٤).
وممَّن اختار المعنَى المذكورَ، على اعتبارِ أنَّ قَولَه تعالى: ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ جوابٌ للشَّرطِ ﴿إِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾، وما عُطِفَ عليه ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾: ابنُ جرير، وابنُ عطيةَ، والقرطبي، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٨٤).
وقال الزمخشري: (﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ جوابُ ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾، وجوابُ ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ محذوفٌ، كأنَّه قيل: وإمَّا نُرينَّك بعضَ الذي نَعِدُهم في الدُّنيا فذاك، أو نتوفَّينَّك قبلَ أن نُرِيَكه فنحن نُرِيكه في الآخرةِ). ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٨)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢١٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٦٧).

غيرَ مُعَيَّنٍ له صلَّى الله عليه وسلَّم واحدةٌ منهما- أتبَعَها بما هو صالحٌ للأمرَينِ بالنِّسبةِ إلى كلِّ رَسولٍ؛ إشارةً إلى أنَّ أحوالَ الأُمَمِ على غيرِ نِظامٍ؛ فلذلك لم يَجزِمْ بتعيينِ واحدةٍ مِن الدارَينِ للجَزاءِ، وجعل الأمرَ مَنوطًا بالقِسطِ[1].

وأيضًا فإنَّها بمنزلةِ السَّبَبِ لِمَضمونِ الجملةِ التي قبلَها؛ فقد بيَّنتْ أنَّ مَجيءَ الرَّسولِ للأمَّةِ هو مُنتهى الإمهالِ، وأنَّ الأمَّةَ إن كذَّبَت رسولَها استحقَّت العقابَ على ذلك، فهذا إعلامٌ بأنَّ تكذيبَهم الرَّسولَ هو الذي يجُرُّ عليهم الوعيدَ بالعقابِ[2].

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾.

أي: ولكلِّ أمَّةٍ من الأُمَمِ الماضيةِ رَسولٌ أرسَلَه اللهُ إليهم، يدعوهم إلى الإيمانِ، وعبادةِ اللهِ وَحْدَه[3].

﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

أي: فإذا أتَى الأمةَ رسولُهم يومَ القيامةِ؛ لِيَشهَدَ عليهم، حَكَم اللهُ بينهم بالعَدلِ، وهو غيرُ ظالمٍ لهم[4].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥١١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٨، ١٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٢)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣٠).

وممَّن اختار هذا المعنَى المذكورَ: ابنُ جريرٍ، والقرطبيُّ، وابنُ كثيرٍ، والقاسميُّ. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٩).

وقيل: فإذا أتَى الأمةَ رسولُهم في الدُّنيا فكذَّبوه، حَكَم الله بين الرُّسُلِ وأتباعِهم وبين المكَذِّبينَ بالعَدلِ، فأنجَى عبادَه المؤمنينَ، وعذَّب الكافرينَ في الدُّنيا بعذابِ الاستئصالِ، وهو غيرُ ظالمٍ لهم، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

وممَّن اختار هذا المعنى: أبو السعودِ، والشوكانيُّ، والسعديُّ، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير أبي =

كما قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٦٩].

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ تنبيهٌ على قِصَرِ الأمَلِ، وهو العِلمُ بقُرْبِ الرَّحيلِ، وسرعةِ انقضاءِ مدةِ الحياةِ، وهو مِن أنفعِ الأمورِ للقَلبِ؛ فإنه يبعَثُه على مبادرةِ طَيِّ صحائِفِ الأعمالِ، ويثيرُ ساكِنَ عَزَماتِه إلى دارِ البقاءِ، ويَحُثُّه على قضاءِ جَهازِ سَفَرِه، وتدارُكِ الفارِط، ويُزَهِّدُه في الدنيا، ويرَغِّبُه في الآخرة، فيقومُ بقَلبِه- إذا داومَ مُطالعةَ قِصَرِ الأمَلِ- شاهِدٌ من شواهِد اليَقينِ، يُريهِ فَناءَ الدُّنيا، وسُرعةَ انقضائِها، وقلَّةَ ما بَقِيَ منها، وأنَّها قد ترحَّلَت مُدبِرةً، وأنَّها لم يبقَ مِنها إلَّا كما بَقِيَ مِن يومٍ صارت شَمسُه على رؤوسِ الجبالِ، ويُريه بقاءَ الآخرةِ ودوامَها، وأنَّها قد ترحَّلَت مُقبِلةً، وقد جاء أشراطُها وعلاماتُها، وأنَّه مِن لقائِها كمُسافرٍ خرج صاحِبُه يتلقَّاه، فكلٌّ منهما يسيرُ إلى الآخَرِ، فيُوشِكُ أن يلتَقيا سريعًا[1].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ * وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ نقِفُ من هاتينِ الآيتَينِ أمامَ حَقيقةِ الألوهيَّةِ وحقيقةِ العبوديَّةِ- التي يرتكِزُ عليها التصوُّرُ الإسلاميُّ كلُّه- وعنايةِ المَنهَجِ القرآنيِّ بتَوضيحِها وتقريرِها في كُلِّ مُناسَبةٍ، وفي صُوَرٍ شتَّى مُتنوِّعة،

= السعود)) (٤/ ١٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٨٧).

وممَّن قال بهذا القولِ من السَّلفِ: الحسنُ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٣٣).

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٤٨).

إنَّه يُقالُ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنَّ أمرَ هذه العقيدةِ، وأمرَ القومِ الذينَ يُخاطَبونَ بها، كلُّه لله، وأنْ ليس لك من الأمرِ شَيءٌ، وقد ينقضي أجَلُك كلُّه ولا ترى نهايةَ القومِ الذين يكَذِّبونَك ويُعانِدونَك ويُؤذونَك، فليس حتمًا على اللهِ أن يُريَك عاقِبتَهم، وما يُنزِلُه بهم من جزاءٍ، هذا له وَحدَه سُبحانَه، أمَّا أنت- وكلُّ رَسولٍ- فعليك البَلاغُ، ثمَّ يمضي الرَّسولُ، ويدَعُ الأمرَ كُلَّه لله؛ ذلك كي يعلَمَ العَبيدُ مجالَهم، وكي لا يستعجِلَ الدُّعاةُ قَضاءَ الله مهما طال عليهم في الدَّعوةِ، ومهما تعَرَّضوا فيها للعَذابِ(١).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فيه تحذيرٌ مِن مُشاقَّةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم(٢).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ يدلُّ على أنَّه تعالى يُري رَسولَه أنواعًا مِن ذُلِّ الكافرينَ وخِزيِهم في الدُّنيا، وسيَزيدُ عليه بعد وفاتِه، ولا شكَّ أنَّه حصل الكثيرُ منه في زمانِ حياةِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وحصل الكثيرُ أيضًا بعد وفاتِه، والذي سيحصُلُ يومَ القيامةِ أكثَرُ، وهو تنبيهٌ على أنَّ عاقِبةَ المُحِقِّينَ مَحمودةٌ، وعاقبةَ المُذنِبينَ مَذمومةٌ(٣).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ جاء الكلامُ على طريقةِ إبهامِ الحاصِلِ مِن الحالَينِ؛ لإيقاعِ النَّاسِ بين الخَوفِ والرَّجاءِ، وإن كان المخاطَبُ به النبيَّ

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٧٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٦١).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[١].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ رتَّبَ شَهادتَه تعالى على فِعلِهم، على رجوعِهم إليه في القيامةِ، مع أنَّه شهيدٌ عليهم في الدُّنيا أيضًا؛ لأنَّ المرادَ بما ذُكِرَ نَتيجتُه، وهو العذابُ والجزاءُ، كأنَّه قال: ثمَّ اللهُ مُعاقِبٌ، أو مُجازٍ على ما يَفعَلونَ[٢].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّ كُلَّ جماعةٍ ممَّن تقدَّمَ، قد بَعثَ الله إليهم رسولًا، وأنَّ اللهَ تعالى ما أهمَلَ أمَّةً مِن الأمَمِ قَطُّ، ويتأكَّدُ هذا بقَولِه تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

فإنْ قيل: كيف يصِحُّ هذا مع أحوالِ الفَترةِ، ومع قَولِه سُبحانه: ﴿لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾ [يس:٦]؟ فالجواب: أنَّ الآيَةَ لا تُوجِبُ أن يكونَ الرَّسولُ حاضرًا مع القَومِ، لأنَّ تقدُّمَ الرَّسولِ لا يمنَعُ مِن كَونِه رسولًا إليهم، كما لا يَمنَعُ تَقَدُّمُ رسولِنا من كونِه مَبعوثًا إلينا إلى آخرِ الأبدِ، وتُحمَلُ الفَترةُ على ضَعفِ دَعوةِ الأنبياءِ، ووُقوعِ مُوجِباتِ التَّخليطِ فيها[٣].

وقيل: آباءُ القومِ الَّذين لم يُنْذَروا ليسوا أُمَّةً مستقلَّةً حتَّى يرِدَ الإشكالُ في عدمِ إنذارِهم، معَ قولِه: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ بل هم بعضُ أُمَّةٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٤٧).

وقال العكبري: (﴿ثُمَّ﴾ هاهنا غيرُ مُقْتَضِيَةٍ ترتيبًا في المعنَى، وإنَّما رَتَّبَتِ الأخبارَ بعضَها على بعضٍ، كقولِك: زيدٌ عالمٌ، ثُمَّ هو كريمٌ). ((التبيان في إعراب القرآن)) (٢/ ٦٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٦١).

(٤) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٢٦).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾

- قولُه: ﴿كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنَ النَّهارِ﴾ فيه تخصيصُ السَّاعةِ بالنَّهارِ؛ لأنَّ ساعاتِه أعرَفُ حالًا مِن ساعاتِ اللَّيلِ(١)، فكأنَّ هؤلاءِ يتحَقَّقونَ قِلَّةَ ما لَبِثوا؛ إذْ كلُّ أمَدٍ طَويلٍ إذا انقضى، فهو واليَسيرُ سَواءٌ(٢).

- وقولُه: ﴿قَدْ خَسِرَ الذين كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ استئنافٌ فيه معنى التَّعجُّبِ، كأنَّه قيل: ما أخْسَرَهم(٣)!

- وفيه إظهارٌ في موضعِ الإضمارِ، والتَّعبيرُ عنهم بالموصولِ ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا﴾ مع كَونِ المقامِ مَقامَ إضمارٍ- حيث لم يَقُل: خَسِروا-؛ لِذَمِّهم بما في حيِّزِ الصِّلةِ، والإشعارِ بعِلِّيَّتِه لِما أصابَهم؛ فنبَّه على العِلَّةِ الموجبةِ للخُسرانِ، وهو التَّكذيبُ بلقاءِ اللهِ(٤).

٢- قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ فيه العدولُ إلى صيغةِ الاستقبالِ ﴿نَعِدُهُمْ﴾؛ لاستحضارِ الصُّورةِ، أو للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ، أي: نَعِدُهم وعدًا مُتجدِّدًا حسَبما تَقْتَضيه الحِكمةُ مِن إنذارٍ غِبَّ إنذارٍ، وفي

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٥٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٦٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٥٠).

تخصيصِ البعضِ بالذِّكرِ رمزٌ إلى العِدَةِ بإراءةِ بعضِ الموعودِ[١].

– وجملةُ: ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ اسميَّةٌ تُفيدُ الدَّوامَ والثَّباتَ، وتقديمُ المجرورِ ﴿فَإِلَيْنَا﴾ على عامِلِه، وهو ﴿مَرْجِعُهُمْ﴾؛ للاهتمامِ[٢].

– وقوله: ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ حرفُ ﴿ثُمَّ﴾ للتراخي الرتبي (أي: كون الجملةِ المعطوفةِ بها أعلَى رتبةً مِن المعطوفةِ عليها)؛ فإنَّ جملةَ: ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ لاشتمالِها على التعريضِ بالجزاءِ على سوءِ أفعالِهم كانت أهمَّ مرتبةً في الغرضِ، وهو غرضُ الإخبارِ بأنَّ مرجعَهم إلى اللهِ؛ لأنَّ إرجاعَهم إلى الله مجملٌ، واطلاعَه على أفعالِهم المكنى به عن مؤاخذتِهم بها هو تفصيلٌ للوعيدِ المجملِ، والتفصيلُ أهمُّ مِن الإجمالِ، وقد حصَل بالإجمالِ ثم بتفصيلِه تمامُ تقريرِ الغرضِ المسوقِ له الكلامُ، وتأكيدُ الوعيدِ[٣]، وقيل: جاء بـ(ثم) الدالةِ على التبعيدِ، مع كونِ الله سبحانَه شهيدًا على ما يفعلونَه في الدارين؛ للدلالةِ على أنَّ المرادَ بهذه الأفعالِ ما يترتَّب عليها مِن الجزاءِ، أو ما يحصلُ مِن إنطاقِ الجوارحِ بالشهادةِ عليهم يومَ القيامةِ، فجعَل ذلك بمنزلةِ شهادةِ اللهِ عليهم[٤].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال تعالى هنا: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، وقال فيما بعدُ مِن هذه السُّورةِ: ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥٤]، وقال في سورةِ الزُّمَرِ: ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٨٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير القنوجي)) (٦/ ٧٢).

وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٦٩]، وفي آخِرِ السُّورةِ: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥]؛ فورَد في الموضِعَين من سورةِ يونُسَ ﴿بِالْقِسْطِ﴾، وفي الموضِعَين مِن سورةِ الزُّمرِ ﴿بِالْحَقِّ﴾؛ وذلك لأنَّ القِسْطَ يُرادُ به العدلُ، والتَّسويةُ في الحكم، فمَظِنَّةُ وُرودِه حيث يُرادُ مُوازَنةُ الجزاءِ بالأعمالِ مِن غيرِ زيادةٍ، والحقُّ: الصِّدقُ، فوُرودُه حيث يُرادُ تَصديقُ وعيدٍ، أو إخبارٌ متقدِّمٌ، وإنَّ اللهَ سبحانه وعَد المؤمِنين بزيادةِ الأُجورِ والإحسانِ بما يَفوتُ الغاياتِ، ويَفوقُ الحصرَ، ولم يَجعَلْ جَزاءَهم على أعمالِهم الدِّينيَّةِ وِفاقًا لأعمالِهم في مَقاديرِ الجزاءِ، بل قال تعالى: ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٥٨]، وقال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، ومنه جعَل الحسَنةَ بعَشْرِ أمثالِها؛ ولَمَّا كان الواردُ في آيتَي الزُّمرِ مُنزَّلًا على الحُكم حقًّا بين النَّبيِّين والشُّهداءِ والملائكةِ قال تعالى: ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم﴾ [الزمر: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم﴾ [الزمر: ٧٥]، والضميرُ في الأولى إمَّا أن يَكونَ للنَّبيِّين والشُّهداءِ، وهؤلاء ممَّن يُضاعَفُ أُجورُهم؛ فجيءَ بقولِه: ﴿بِالْحَقِّ﴾ [الزمر: ٦٩]؛ تصديقًا لما وُعِدوا مِن الزِّيادةِ، وليس مَوضعَ وُرودِ القِسطِ، وإمَّا أن يكونَ للخَلقِ كافَّةً- وفيهم المؤمِنُ والكافرُ-؛ فورَد قولُه: ﴿بِالْحَقِّ﴾ [الزمر: ٦٩]؛ تصديقًا لِما ورَد في حقِّ الفريقَين: مِن الزِّيادةِ في أجْرِ المؤمنِ، والعدلِ في حقِّ الكافرِ، فلا يُظلَمُ مِثقالَ ذرَّةٍ، وإنَّما جَزاؤُه وِفاقُ عمَلِه، ولا يَصِحُّ هذا إنْ لو قيل: (وقُضي بينَهم بالقسطِ)، وعلى هذا ما ورَد في الآيةِ الأخيرةِ مِن فُروقٍ.

وأمَّا آيَتا يُونُسَ فقد تقدَّم الأولَى مِنهما آياتٌ في تأنيسِ نبيِّنا صلَّى الله عليه وسلَّم، وتعنيفِ كفَّارِ قُريشٍ ووَعيدِهم، وتَسْليتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في

إبراهيمَ؛ فختامُ الآياتِ قَبْلَها بقولِه: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ [يونس: ٤٦]، ثمَّ قال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾ [يونس: ٤٧]، أي: حضَرهم في القيامةِ وقد كذَّبوه في الدُّنيا قُضي بينَهم وبينَه، فنَجا المصدِّقُ، وهلَك المكذِّبُ، ولما لم يَقصِدْ هنا تفضيلَ أحوالِ المصدِّقين، بل لَحَظَ الطَّرَفين من التَّصديقِ والتَّكذيبِ، كان موضعُ التَّعبيرِ بـ(القِسْطِ) الَّذي هو العدلُ بينَ المصدِّقِ والمكذِّبِ، وبناءُ الآياتِ على إرغامِ المكذِّبين، ولا يُناسِبُ هذا إلَّا ذِكْرُ العدلِ بحسَبِ ما بُنِيَت عليه الآياتُ قبلَه، وأمَّا قولُه في الآيةِ بعدُ: ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾، فمُسِرُّو نَدامتِهم هم المكذِّبون، وهم المشاهِدون العذابَ، والضَّميرُ في قولِه: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ عائدٌ عليهم؛ فليس موضعَ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿بِالْحَقِّ﴾؛ فوضَح وُرودُ كلٍّ مِن هذه الآياتِ على ما يُناسِبُ ويُلائِمُ[1].

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٤٤-٢٤٦).

الآيات (٤٨-٥٣)

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا
نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ
﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾
أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟
ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ
أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿بَيَاتًا﴾: أي: ليلًا، وَقتَ اشتِغالِهم بالنَّومِ، وأصلُ (بيت): يدلُّ على مأوى الإنسانِ باللَّيلِ[1].

﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ﴾: أي: يَستخبِرونَك، والنبأُ: خبرٌ له شأنٌ عظيمٌ. وأصلُ (نبأ): يدلُّ على الإتيانِ من مكانٍ إلى مكانٍ[2].

﴿إِي﴾: أي: نَعَم، وهي كلمةٌ موضوعةٌ لتحقيقِ كلامٍ مُتقدِّمٍ[3].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ المُشرِكينَ يقولونَ مُخاطبينَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ومَن

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣١).

اتَّبعه: متى سيأتي عذابُ اللهِ الذي تَعِدونَنا به إن كُنتم صادقينَ؟

فأمَرَ اللهُ نبيَّه محمَّدًا أن يُجيبَهم: أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يَقدِرُ على ضَرِّ نَفسِه ولا نَفْعِها، إلَّا ما شاء اللهُ أن يَملِكَه ويقدِرَ عليه، وليس ممَّا يقدِرُ عليه أن يأتيَهم بما سألوا من العذابِ، لكلِّ قَومٍ وقتٌ مُحَدَّدٌ قَدَّرَه اللهُ لانقضاءِ مُدَّتِهم، فإذا جاء ذلك الوقتُ فلا يُؤَخَّرونَ عنه ساعةً، ولا يتقَدَّمُ أجَلُهم عنه، وأمَرَه أن يقولَ لهم: أخبِروني إن أتاكم عذابُ اللهِ ليلًا أو نهارًا، ماذا يستعجِلُ المجرمونَ مِن العذابِ سِوى الشَّرِّ الذي لا يستطيعونَ اجتنابَه؟! أثُمَّ إذا وقع العذابُ بكم آمَنتُم، حين لا ينفَعُكم الإيمانُ، آلآنَ تؤمِنونَ وقد كنتم تستعجِلونَه مُكَذِّبينَ به؟!

ثُمَّ يُبَيِّنُ تعالى أنَّه يُقالُ يومَ القيامةِ للَّذين ظَلَموا أنفُسَهم: ذوقوا العذابَ الدَّائِمَ، فهل يَجزيكم اللهُ إلَّا بما كُنتم تَعمَلونه في الدُّنيا.

ثُمَّ يقولُ اللهُ لنبيِّه: يستخبِرُك المُشرِكونَ قائلينَ: أحقٌّ ما تَعِدُنا به؟ قل لهم: نعَم وربِّي، إنَّه لحَقٌّ لا شَكَّ فيه، وما أنتم بمعجِزينَ اللهِ، بل هو قادِرٌ عليكم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

عَطفٌ على جُملةِ ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ [يونس: ٤٦] والمناسَبةُ أنَّه لَمَّا بَيَّنَت الآيةُ السَّالفةُ أنَّ تعجيلَ الوعيدِ في الدُّنيا للمُشرِكينَ وتأخيرَه سواءٌ عند الله تعالى؛ إذ الوعيدُ الأتَمُّ هو وعيدُ الآخرةِ- أُتبِعَت بهذه الآيةِ حكايةً لتهكُّمِهم على تأخيرِ الوَعيدِ(١).

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٨٨).

أي: ويقولُ المُشرِكونَ: متى سيأتينا عذابُ اللهِ إن كُنتُم- أيُّها الرَّسولُ ومَن اتَّبَعَك- صادقينَ فيما تَعِدونَنا به مِن العَذابِ[1]؟!

﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٤٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أمَرَ اللهُ تعالى النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأن يُجيبَ عن شُبهةِ تأخُّرِ الوعيدِ بجوابٍ يحسِمُ المادَّةَ، وهو قولُه: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ والمرادُ أنَّ إنزالَ العذابِ على الأعداءِ، وإظهارَ النُّصرةِ للأولياءِ، لا يَقدِرُ عليه أحَدٌ إلَّا اللهُ سُبحانه، وأنَّه تعالى ما عَيَّنَ لذلك الوعدِ والوعيدِ وقتًا مُعَيَّنًا[2].

وأيضًا لَمَّا تضَمَّنَ قَولُهم: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ استعجالَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بما يتوعَّدُهم به، أمَرَه بأن يتبَرَّأَ من القدرةِ على شيءٍ لم يُقْدِرْه اللهُ عليه[3].

﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾.

أي: قُلْ لهم- يا مُحمَّدُ-: لا أقدِرُ على ضَرِّ نَفسي ولا نَفْعِها في ديني ولا دُنياي، إلَّا ما شاء اللهُ أن أملِكَه وأقدِرَ عليه، ولستُ قادرًا على الإتيانِ بما

---

(١) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٠٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٨٩).

قيل: المرادُ بالوَعدِ: قيامُ السَّاعةِ. وممَّن اختار ذلك: ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٩).

وقيل: الوعدُ المذكورُ هو ما هُدِّدوا به من عذابِ الدُّنيا. وممَّن اختار ذلك: ابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٨٩).

وممَّن قال بنحو هذا القولِ مِن السَّلفِ ابنُ عبَّاس. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٣٤).

تسألونَني عنه مِن العذابِ[١].

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾.

أي: لكلِّ قومٍ وقتٌ محددٌ قدَّره اللهُ لانقضاءِ مُدَّتِهم[٢].

﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

أي: إذا جاء وقتُ انقضاءِ أجَلِ كلِّ أمةٍ، فلا يُؤخَّرونَ عن ذلك الوَقتِ الذي قدَّرَه اللهُ لهلاكِهم ساعةً، ولا يتقدَّم أجَلُهم عنه[٣].

كما قال تعالى: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ [الحجر: ٥].

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (٥٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا كان جُلُّ قَصدِ المُشرِكينَ بِقَولِهم السَّابِقِ: الاستهزاءَ، وكان وقوعُه أمرًا مُمكِنًا، وكان مِن شأنِ العاقِلِ أن يَبعُدَ عن كلِّ خَطَرٍ ممكِنٍ- أمَرَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بجوابٍ آخَرَ[٤].

وأيضًا فإنَّ هذا جوابٌ ثانٍ عَن قَولِهم: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ باعتبارِ ما يتضَمَّنُه قَولُهم مِن الوَعدِ بأنَّهم يُؤمِنونَ إذا حَقَّ الوَعدُ الذي توعَّدَهم به، وهذا الجوابُ إبداءٌ لخَلَلِ كَلامِهم واضطرابِ استهزائِهم، وقع هذا الأمرُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٩، ١٩٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٣٦-١٣٧).

بأن يُجيبَهم هذا الجوابَ بعد أن أُمِرَ بأن يجيبَهم بِقَولِه: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ وهذا الجوابُ واقعٌ موقعَ التَّسليمِ الجَدَليِّ بعد أن يُجابَ المُخطئُ بالإبطالِ[1].

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا﴾.

أي: قُلْ- يا محمَّدُ- للمُشرِكينَ: أخبِروني إن أتاكم عذابُ اللهِ ليلًا، وقتَ نَومِكم، أو نهارًا، وقتَ اشتغالِكم بمَعاشِكم[2].

﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

أي: أيَّ شيءٍ[3] يَستعجِلُ المُشرِكونَ مِن العذابِ إلا الشَّرَّ الذي لا يستطيعونَ دَفْعَه عن أنفُسِهم[4]؟

﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥١٣).

(٣) على اعتبارِ أنَّ (ما) و(ذا) اسمًا واحدًا، في موضع نصب، ويجوز أن يكون (ما) استفهامًا، و(ذا) بمعنى (الذي)، ويكون المعنى: ما الذي يستعجل منه المجرمون؟ كقولك: أيُّ شيء الذي يستعجل منه المجرمون؟ يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٢١، ٢٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩٣).

قال ابنُ عطيَّةَ: (الضميرُ في ﴿مِنْهُ﴾ يحتملُ أن يعودَ على اللهِ عزَّ وجَلَّ، ويحتملُ أن يعودَ على العَذابِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٤). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥٠).

قال القرطبي: (أي: إنْ أتاكم العذابُ، فما نَفْعُكم فيه؟! ولا يَنفَعُكم الإيمانُ حِينئِذٍ). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥٠).

أي: أإذا نزَلَ عذابُ اللهِ بكم- أيُّها المُشرِكونَ- آمَنتُم به[١] حين لا ينفَعُكم الإيمانُ[٢]؟!

قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤-٨٥].

﴿ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾.

أي: آلآنَ تُؤمِنونَ- أيُّها المُشرِكونَ- بعد أن وقَعَ بكم العذابُ، وقد كنتُم قبل مَجيئِه تَستعجِلونَه مُكَذِّبينَ به[٣]؟

كما قال تعالى عن فِرعونَ لَمَّا أدرَكَه الغَرَقُ: ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩٠-٩١].

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾.

أي: ثمَّ يُقالُ يومَ القيامةِ للَّذين ظَلَموا أنفُسَهم بالكُفرِ بالله: تجرَّعوا العَذابَ

---

(١) قيل: المرادُ آمَنتُم بالله، وممَّن اختار ذلك: البغويُّ، وابنُ كثيرٍ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٦).
وقيل: المرادُ آمَنتُم بالعذابِ. وممَّن اختار ذلك: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٠)، ((البسيط)) للواحدي(١١/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٢٢)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩٤).

الدَّائمَ الذي لا ينقَطِعُ[١].

﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

أي: يُقالُ للذينَ ظَلَموا: هل يُجازيكم اللهُ إلَّا بما كُنتُم تعملونَ في الدُّنيا من الكُفرِ والتَّكذيبِ والمعاصي[٢]؟

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ * اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٣ - ١٦].

وقال سُبحانه: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِلطَّاغِينَ مَآبًا * لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا * لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا * جَزَاءً وِفَاقًا * إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا * وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا * وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا * فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٢١ - ٣٠].

﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥٣)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لما أخبَرَ عن الكفارِ بقولِه: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨]، وأجابَ عنه؛ حكَى عنهم أنَّهم رجَعوا إلى الرسولِ مرةً أخرَى في عينِ هذه الواقعةِ، وسألوه عن ذلك السُّؤالِ مرةً أُخرَى[٣].

وأيضًا فإنَّ هذا حِكايةُ فَنٍّ مِن أفانينِ تكذيبِ المُشرِكينَ، فمَرَّةً يتظاهرونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٦٤).

باستبطاءِ الوَعدِ استخفافًا به، ومَرَّةً يُقبِلونَ على الرَّسولِ في صورةِ المُستَفهِمِ الطَّالِبِ، فيسألونَه: أهذا العذابُ الخالِدُ- أي: عذابُ الآخرةِ- حَقٌّ؟! فالجملةُ مَعطوفةٌ على جملةِ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾[1] [يونس: ٤٨].

﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ﴾.

أي: ويَستخبِرُك المُشرِكونَ- يا محمَّدُ- فيقولونَ لك: أحقٌّ ما تَعِدُنا به[2]؟

﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾.

أي: قُلْ لهم- يا محمَّدُ-: نَعَمْ، وأُقسِمُ بربِّي إنَّ ما وعَدْتُكم به لَحَقٌّ واقعٌ، لا شكَّ فيه، وما أنتم بفائِتي اللهِ؛ فهو قادرٌ عليكم[3].

الفَوائدُ التربويَّةُ:

في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أعظَمُ واعظٍ، وأبلَغُ زاجرٍ لِمَن صار ديدَنُه وهِجِّيراه المُناداةَ لرسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والاستغاثةَ به عندَ نُزولِ النَّوازِلِ التي لا يَقدِرُ على دَفْعِها إلَّا اللهُ سبحانه، وكذلك مَن صار يطلُبُ مِن الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما لا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٦).

ممَّن اختار أنَّ الضميرَ ﴿هو﴾ يعودُ على البعثِ وقيامِ السَّاعةِ: ابنُ كثيرٍ، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المرادُ به العذابُ الأُخرويُّ. وممن اختار ذلك: ابنُ جريرٍ، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩٥).

وقيل: المرادُ به العذابُ الدُّنيويُّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٦٤).

وقال القُرطبي: (قولُه تعالى: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ﴾ أي: يَستَخبرونَك- يا مُحمَّدُ- عن العذابِ وقيامِ السَّاعةِ). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٦).

يقدِرُ على تحصيلِه إلَّا اللهُ سُبحانَه، فإنَّ هذا مقامُ رَبِّ العالمينَ الذي خلقَ الأنبياءَ والصَّالحين وجميعَ المخلوقينَ، ورزَقهم، وأحياهم ويُميتُهم، فكيف يُطلَبُ من نبيٍّ من الأنبياءِ، أو مَلَكٍ من الملائكةِ، أو صالحٍ مِن الصالحينَ ما هو عاجزٌ عنه، غيرُ قادرٍ عليه، ويُترَكُ الطَّلَبُ لِرَبِّ الأربابِ، القادرِ على كلِّ شَيءٍ، الخالق الرزاق، المعطي المانعُ؟! وحَسبُك بما في هذه الآيةِ مَوعظةً؛ فإنَّ هذا سَيِّدُ ولَدِ آدَمَ، وخاتَمُ الرُّسُلِ، يأمُرُه اللهُ بأن يقولَ لعبادِه: لا أملِكُ لِنَفسي ضَرًّا ولا نفعًا، فكيف يملِكُه لِغَيرِه، وكيف يملِكُه غيرُه- مَن رُتبَتُه دون رُتبَتِه، ومَنزِلَتُه لا تبلُغُ إلى مَنزِلتِه- لنفسِه، فضلًا عن أن يَملِكَه لِغَيرِه، فيا عجبًا لِقَومٍ يعكُفونَ على قبورِ الأمواتِ، الذين قد صاروا تحت أطباقِ الثَّرى، ويطلُبونَ منهم من الحوائجِ ما لا يقدِرُ عليه إلَّا اللهُ عزَّ وجَلَّ! كيف لا يتيقَّظونَ لِما وقَعوا فيه مِن الشِّركِ، ولا يتنَبَّهونَ لِما حَلَّ بهم من المُخالفةِ لِمَعنى: لا إلهَ إلَّا اللهُ، ومَدلولِ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[1]؟!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ يدلُّ على أنَّ أحدًا لا يموتُ إلَّا بانقضاءِ أجَلِه، وكذلك المقتولُ لا يُقتَلُ إلَّا على هذا الوجهِ[2].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ أمَرَ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُجيبَهم بهذا القَسَمِ، والفائدةُ فيه أمورٌ:

أحدها: أن يَستَميلَهم النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ويتكَلَّمَ معهم بالكلامِ

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٦٢)، ويُنظر أيضًا: ((شرح العقيدة الطحاوية)) لابن أبي العز (١/١٢٧).

المُعتادِ، ومن الظَّاهِرِ أنَّ مَن أخبَرَ عن شيءٍ وأكَّدَه بالقَسَمِ، فقد أخرَجَه عن الهَزْلِ، وأدخَلَه في بابِ الجِدِّ. وثانيها: أنَّ النَّاسَ طَبَقاتٌ؛ فمِنهم مَن لا يُقِرُّ بالشَّيءِ إلَّا بالبُرهانِ الحَقيقيِّ، ومنهم من لا ينتَفِعُ بالبُرهانِ الحَقيقيِّ، بل ينتَفِعُ بالأشياءِ الإقناعيَّةِ نحو القَسَمِ[1].

٣- كثرةُ الحَلِفِ مكروهٌ، ولكنْ قد يُستحَبُّ إذا كان فيه مصلحةٌ شرعيَّةٌ، كما أمَرَ اللهُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾، ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن: ٧]، ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾[2] [سبأ: ٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيه حكايةُ قولِهم بصيغةِ المضارعِ (يَقولون)؛ لِقَصدِ استِحْضارِ الحالةِ، وللدَّلالةِ على تكرُّرِ صُدورِه مِنهم، والسُّؤالُ مُستعمَلٌ في الاستِبْطاءِ، وهو كِنايةٌ عن عدَمِ اكْتِراثِهم به، وأنَّهم لا يَأْبهون به؛ لِيَنتقِلَ مِن ذلك إلى أنَّهم مُكذِّبون بحُصولِه بطريقِ الإيماءِ بقَرينةِ قولِهم: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وهُم يُريدون أنَّنا لا نُصدِّقُك حتَّى نرى ما وعَدتَنا؛ كنايةً عن اعتِقادِهم عدَمَ حُلولِه، وأنَّهم لا يُصدِّقون به[3].

٢- قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾

- قولُه: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾: فيه تقديمُ الضَّرِّ؛ لأنَّ مَساقَ النَّظْمِ لإظهارِ العَجْزِ عنه، وأمَّا ذِكْرُ النَّفعِ فلِتَوسيعِ الدَّائرةِ تَكمِلةً للعَجزِ، وما

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٦٤).
(٢) يُنظر: ((مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية)) للبعلي (ص: ٥٤٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٨٩).

وقَع في سورةِ الأعرافِ مِن تقديمِ النَّفعِ في قوله: ﴿قُل لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ١٨٨]؛ للإشعارِ بأهمِّيَّتِه والمقامُ مَقامُه[١].

وقيل: قَدَّمَ ذِكرَ الضَّرِّ هنا، وإن كان مأمورًا أن يتحَدَّثَ عن نَفسِه؛ لأنَّهم هم يَستعجِلونَ الضَّرَّ، فمن بابِ التَّناسُقِ قدَّمَ ذِكرَ الضَّرِ، أمَّا في موضعٍ آخَرَ في سورةِ الأعرافِ، فقَدَّمَ النَّفعَ في مثل هذا التَّعبيرِ؛ لأنَّه الأنسَبُ أن يطلُبَه لِنَفسِه، وهو يقولُ: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾[٢] [الأعراف: ١٨٨].

- قولُه: ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ فيه إظهارُ ﴿أَجَلُهُمْ﴾ في موقعِ الإضمارِ؛ فعلى القولِ بأنَّ الضَّميرَ في ﴿أَجَلُهُمْ﴾ جُعِل للأُمَمِ المدلولِ عليها بـ (كلِّ أمَّةٍ)؛ فإظهارُ (الأجَلِ) مُضافًا إليه؛ لإفادةِ المعنى المقصودِ الَّذي هو بُلوغُ كلِّ أمَّةٍ أجَلَها الخاصَّ بها، فالإظهارُ في موقعِ الإضمارِ؛ لزيادةِ التَّقريرِ، والإضافةُ إلى الضَّميرِ؛ لإفادةِ كَمالِ التَّعيينِ، أي: إذا جاءَها أجَلُها الخاصُّ بها[٣].

- قولُه: ﴿فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قدَّم بيانَ انتفاءِ الاستِئخارِ على بيانِ انتفاءِ الاستقدامِ؛ لأنَّ المقصودَ الأهَمَّ بيانُ عدَمِ خَلاصِهم مِن العذابِ ولو ساعةً، وذلك بالتَّأخُّرِ، بخِلافِ ما في قولِه تعالى: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ [الحجر: ٥، والمؤمنون:٤٣]، حيث تقدَّم (السَّبقُ) في الذِّكرِ؛ لأنَّ المرادَ بيانُ سِرِّ تأخيرِ عَذابِهم مع استحقاقِهم له حسَبما يُنبِئُ عنه قولُه تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣]؛ فالأهَمُّ إذ ذاك بيانُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤ / ١٥١).

(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٧٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤ / ١٥٢).

انتفاءِ السَّبْقِ(١).

٣- قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾

- أمَرَ تعالى النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بجوابٍ آخَرَ بعدَ الجوابِ في الآيةِ المتقدِّمةِ، في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾، حذَف مِن هذا الجوابِ الآخرِ واوَ العطفِ؛ لئلا يُظنَّ أنَّه لا يكفي في كونِه جوابًا إلا بضمِّه إلى ما عُطِف عليه(٢).

- قال: ﴿بَيَاتًا﴾ ولم يَقُل: (لَيْلًا) مع أنَّه أكثَرُ استعمالًا، وأظهَرُ مطابقةً مع النَّهارِ؛ لأنَّ المعهودَ في الاستعمالِ عندَ ذِكرِ الإهلاكِ والتَّهديدِ ذِكرُ البَياتِ، وإنْ قُرِنَ به النَّهارُ(٣).

- لَمَّا كان أخذُ اللَّيلِ أنكى وأسرَعَ، قَدَّمَه فقال: ﴿بَيَاتًا﴾ أي: في اللَّيلِ بَغتةً وأنتم نائِمونَ(٤).

- لَمَّا كان الظَّفَرُ ليلًا لا يستلزِمُ الظَّفَرَ نهارًا مُجاهرةً، قال: ﴿أَوْ نَهَارًا﴾ أي: مُكاشَفةً، وأنتم مُستَيقِظونَ(٥).

- قولُه: ﴿مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ يحتمِلُ أن تكونَ جملةُ الاستفهامِ جاءت على سبيلِ التَّلطُّفِ بهم، والتَّنبيهِ لهم على أنَّ العذابَ لا ينبَغي أن يُستعجَلَ، ويجوزُ أن تكونَ الجملةُ جاءَت على سبيلِ التَّعجُّبِ والتَّهويلِ للعذابِ، أي: أيَّ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٥٢).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٣٦-١٣٧).
(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٤٨).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٣٦).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

شيءٍ شديدٍ تَستعجِلون مِنه، أي: ما أشدَّ وأهوَلَ ما تستَعجِلون مِن العذابِ[١]!
ويحتملُ أنَّ الاستفهامَ مُستعمَلٌ في الإنكارِ عَليهم، وفي التَّعجُّبِ مِن تَعجُّلِهم العذابَ بنِيَّةِ أنَّهم يُؤمِنون به عندَ نُزولِه[٢].

- وقولُه أيضًا: ﴿مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ فيه إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ، حيث لم يَقُلْ: (ماذا يَستعجِلون منه)؛ لِقَصدِ التَّسجيلِ عليهم بالإجرامِ، وللتَّنبيهِ على خطَئِهم في استعجالِ الوعيدِ؛ لأنَّه يأتي عليهم بالإهلاكِ فيَصيرون إلى الآخرةِ[٣]، فإنَّهم لِجُرمِهم ينبغي أن يَفزَعوا من مجيءِ الوَعيدِ لا أن يَستعجِلوا[٤].

٤- قوله تعالى: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ﴾ استفهامٌ مستعمَلٌ في الإنكارِ بمعنى التَّغليطِ، وإفسادِ رأيِهم؛ فإنَّهم وعَدوا بالإيمانِ عند نزولِ العذابِ؛ استِهْزاءً مِنهم، فوقَع الجوابُ بمُجاراةِ ظاهرِ حالِهم، وبيانِ أخطائِهم[٥].

- قولُه: ﴿آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ الاستفهامُ في ﴿آلْآنَ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ عن حصولِ إيمانِهم عند حُلولِ ما توَعَّدهم؛ فعبَّر عن وقتِ وُقوعِه باسمِ الزَّمانِ الحاضرِ، وهو (الآنَ)؛ حكايةً لِلِسانِ حالِ مُنكِرٍ عليهم في ذلك الوقتِ؛ استحضَر حالَ حُلولِ الوعدِ، كأنَّه حاضرٌ في زمنِ التَّكلُّمِ، وهذا الاستحضارُ مِن تخييلِ الحالةِ المستقبَلةِ واقعةً[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٦٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ١٩٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٢٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩٤).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ يُفيدُ تَشديدَ التَّوبيخِ والتَّقريعِ، وزيادةَ التَّنديمِ والتَّحسيرِ؛ وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿بِهِ﴾ على الفعلِ ﴿تَسْتَعْجِلُونَ﴾؛ للاهتمامِ بالوعدِ الَّذي كذَّبوا به، ولِمُراعاةِ الفواصلِ(١).

٥- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

- في الإتيانِ بـ (ثُمَّ) إشارةٌ إلى تراخي ذلك عن الإهلاكِ في الدُّنيا بالمُكثِ في البَرزخِ، أو إلى أنَّ عَذابَه أدنى مِن عذابِ يَومِ الدِّينِ(٢).

- قولُه: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ فيه استعمالُ صِيغةِ المُضيِّ ﴿قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ في معنى المستقبَلِ؛ تَنبيهًا على تحقيقِ وُقوعِه، مِثلُ ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ﴾(٣) [النحل: ١].

- وقولُه: ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ فيه إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ- حيث لم يَقُلْ: (قيل لهم)- فوضَع الموصولَ موضِعَ الضَّميرِ؛ لِتَسجيلِ وصفِ الظُّلمِ عليهم، أي: لِذَمِّهم بما في حيِّزِ الصِّلةِ، وللإشعارِ بعِلِّيَّتِه لإصابةِ ما أصابَهم(٤).

- وقولُه: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ الاستفهامُ إنكاريٌّ بمعنى النَّفيِ؛ ولذلك جاء بعدَه الاستثناءُ ﴿إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾، وفيه توبيخٌ لهم، وتوضيحُ أنَّ الجزاءَ هو على كَسْبِ العبدِ(٥).

- قَولُ الله تعالى: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾ بناه للمَفعولِ؛ لأنَّ المُخيفَ مُطلَقُ الجَزاءِ(٦).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩٤).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٣٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩٥).
(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٣٨).

٦- قولُه تعالى: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾

- الاستِفْهامُ في قولِه: ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ استفهامٌ على جهةِ الإنكارِ والاستهزاءِ[1].

- وقولُه أيضًا: ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ فيه تقديمُ الخبرِ (حقٌّ) على المبتدَأِ ﴿هُوَ﴾؛ للاهتمامِ به[2].

- قولُه: ﴿قُلْ إِيْ وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ فيه زيادةُ توكيدٍ بإظهارِ الجملةِ الَّتي كانَت تُضمَرُ بعدَ قولِه: ﴿إِيْ وَرَبِّي﴾، وهي مَسوقةٌ مُؤكَّدةٌ بـ(إنَّ) واللَّامِ؛ مُبالَغةً في التَّوكيدِ في الجوابِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٧١).

الآيات (٥٤-٥٦)

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٥٤) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٥) هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٦)﴾.

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ تعالى أنَّه لو كان لكُلِّ نَفسٍ كفَرَت باللهِ أو أشركَت به جميعُ ما في الأرضِ، لبَذَلَتْه يومَ القيامةِ- لو كان يُقبَلُ منها- لِتَفتديَ به من عذابِ اللهِ تعالى، وأخفى الكُفَّارُ الحَسرةَ والتأسُّفَ على كُفرِهم حين رأَوا عذابَ اللهِ تعالى يومَ القيامةِ، وتيقَّنوا أنَّه واقعٌ بهم، وقضى اللهُ بينهم بالعَدلِ، وهو غيرُ ظالمٍ لهم.

ألَا إنَّ لله وَحدَه كلَّ ما في السَّمواتِ والأرضِ، ألا إنَّ وَعدَه تعالى حقٌّ لا محالةَ، ولكِنَّ أكثَرَ أولئك المُشرِكينَ لا يَعلَمونَ.

هو سبحانَه وَحْدَه يُحيي ويُميتُ، وإليه وَحْدَه- أيُّها النَّاسُ- مَرجِعُكم ومَصيرُكم بعد مَوتِكم، فيُجازيكم يومَ القيامةِ بأعمالِكم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٥٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى العذابَ، وأقسَمَ على حقيقَتِه، وأنَّ المُشرِكينَ لا يُفلِتونَ منه؛ ذكَرَ بعضَ أحوالِ الظَّالِمينَ في الآخرةِ[1]، فقال:

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٧٢).

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ﴾.

أي: ولو أنَّ لكُلِّ نَفسٍ كفَرَت باللهِ، جميعَ ما في الأرضِ، لبَذَلَت ذلك يومَ القيامةِ- لو كان يُقبَلُ منها- لتفتَدِيَ به من عذابِ اللهِ[1].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٩١].

﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾.

أي: وأخفَى الكُفَّارُ[2] الحَسرةَ والتأسُّفَ على كُفرِهم حين رأَوْا عذابَ اللهِ يومَ القيامةِ، واستيقَنوا أنَّه واقعٌ بهم[3].

﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

أي: وقضَى اللهُ بينَ الكُفَّارِ بالعَدلِ، وهو غيرُ ظالمٍ لهم[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٦).

(٢) ذهب عامَّةُ المُفَسِّرينَ إلى أنَّ المُرادَ بالكُفَّارِ هنا رُؤساؤُهم، فأخفَوا النَّدامةَ مِن أتباعِهم الذين أضَلُّوهم. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٢٤).

وذهب ابنُ عطيَّةَ إلى أنَّه عامٌّ في جميعِهم. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٢٧)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩٨).

قيل: المراد: وقضى اللهُ يومئذٍ بين الأتباعِ والرُّؤساءِ منهم بالعَدلِ. وممَّن ذهَب إلى ذلك: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥٢).

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى قال قبلَ هذه الآيةِ: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ﴾ [يونس: ٥٤]، فلا جرَمَ قال في هذه الآيةِ: ليس للظالمِ شَيءٌ يَفتَدي به؛ فإنَّ كلَّ الأشياءِ مِلكُ اللهِ تعالى ومُلكُه(١).

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: ألَا(٢) إنَّ لِلَّهِ وَحْدَه جميعَ ما في السَّمواتِ والأرضِ، فلا مانعَ يَمنَعُه من إنفاذِ حُكمِه(٣).

﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أي: ألا إنَّ وعدَ اللهِ(٤) حقٌّ لا محالةَ، ولكنَّ أكثَرَ أولئك المُشرِكينَ لا يعلمونَ

وقيل: معنى: قُضِيَ بينهم: قُضِيَ فيهم، أي: قضِيَ على كلٍّ واحدٍ منهم بما يستحِقُّه بالعدل، وليس المعنى أنَّه قُضِيَ بين كلٍّ واحدٍ وآخرَ. وممَّن ذهَب إلى ذلك: ابنُ عاشورٍ، فقال: (لأنَّ القَضاءَ هنا ليس قضاءَ نزاعٍ، ولكنَّه قَضاءُ زَجرٍ وتأنيبٍ؛ إذ ليس الكلامُ هنا إلَّا على المُشرِكينَ، وهم صِنفٌ واحد، بخلافِ قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ [يونس: ٤٧] فإنَّ ذلك قضاءٌ بين المُرسَلِ إليهم وبين الرُّسُلِ، كما قال تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ * فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾[الأعراف: ٦ - ٧]). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩٨).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٦٦).

(٢) قال القرطبي: (﴿أَلَآ﴾ كلمةُ تَنبيهٍ للسَّامِعِ، تُزادُ في أوَّلِ الكلامِ، أي: انتَبِهوا لِما أقولُ لكم). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٦).

(٤) قيل: المرادُ به: عذابُه للمُشرِكينَ. وممن اختار ذلك: ابنُ جريرٍ، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩٩). =

ذلك، فهم به يُكذِّبونَ[1].

﴿ هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

﴿ هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ﴾.

أي: اللهُ وَحدَه هو المتصَرِّفُ بالإحياءِ والإماتةِ، فلا يتعذَّرُ عليه إحياءُ المُشرِكينَ وغَيرِهم، ولا إماتَتُهم إذا أراد ذلك[2].

﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾.

أي: وإلى اللهِ وَحْدَه مَصيرُكم- أيُّها النَّاسُ- بعد مَوتِكم، فيُجازيكم يومَ القيامةِ بأعمالِكم[3].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

النفعُ والضرُّ، والثوابُ والعقابُ يكون على الأعمالِ الصالحةِ والسيئةِ، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ﴾، فـ ﴿لَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ بالكفرِ والمعاصي جميعَ ﴿مَا فِي الأَرْضِ﴾ مِن ذهبٍ وفضةٍ وغيرهما، لتفتديَ به مِن عذابِ اللهِ يومَ القيامةِ ﴿لافْتَدَتْ بِهِ﴾ ولما نفَعها ذلك[4].

= وقيل: المرادُ به: البَعثُ وقيامُ السَّاعةِ. وممن اختار ذلك: ابنُ كثيرٍ، ومحمد رشيد رضا. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٦٦).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ﴾ ذكَرَ ﴿لِكُلِّ نَفْسٍ﴾ دون أن يُقالَ (ولو أنَّ لكم ما في الأرضِ لافتَدَيتُم به)؛ لأنَّ المعنى أنَّ هذا العذابَ لا تتحَمَّلُه أيَّةُ نَفسٍ على تفاوُتِ الأنفُسِ في احتمالِ الآلامِ(١).

٢- قال تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ وإنَّما يقَعُ هذا الكِتمانُ منهم قبلَ إحراقِ النَّارِ لهم، فإذا أحرَقَتْهم النَّارُ ألهَـتْهم عن هذا التصَنُّعِ لِمَن كان يَتبَعُهم في الدُّنيا؛ يدلُّ على هذا قَولُه تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا...﴾ الآيات [المؤمنون: ١٠٦]، فهم في هذه الحالِ لا يكتُمونَ نَدَمَهم(٢).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ صَدَّرَ الجملةَ بحَرفِ التَّنبيهِ (ألا) الذي يُفتَتَحُ به الكلامُ؛ لِتَنبيهِ الغافلينَ عن هذه الحَقيقةِ، وإن كانوا يعرفونَها؛ لكثرةِ ذُهولِ النَّاسِ عن تذكُّرِ أمثالِها(٣).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيه تقييدُ نَفيِ العِلمِ بالأكثَرِ؛ إشارةً إلى أنَّ منهم مَن يعلَمُ ذلك، ولكِنَّه يجحَدُه مكابرةً(٤).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٢٥) ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٠٠).

ويحتملُ أن يكونَ ذكَر الأكثرَ، والمرادُ به الجميعُ؛ لأن عُظْمَ الشيءِ يقومُ مقامَ جميعِه، فذِكرُ الأكثرِ كذِكرِ الجميعِ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ١٦٤).

- قولُه: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ﴾، فيه تقديمُ خبرِ (أنَّ) ﴿لِكُلِّ نَفْسٍ﴾ على الاسمِ ﴿ما﴾؛ للاهتمامِ بما فيه مِن العمومِ؛ بحيث يَنُصُّ على أنَّه لا تَسلَمُ نفسٌ مِن ذلك[1].

- وقولُه: ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ فيه التَّعبيرُ عن الإسرارِ المستقبَليِّ بلفظِ الماضي ﴿وَأَسَرُّوا﴾؛ تَنبيهًا على تحقيقِ وُقوعِه حتَّى كأنَّه قد مضَى، والمعنى: وسيُسِرُّون النَّدامةَ قطعًا، وكذلك قولُه: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾[2].

- والعدولُ إلى صيغةِ الجمعِ ﴿وَأَسَرُّوا﴾ مع تحقُّقِ العمومِ في صورةِ الإفرادِ أيضًا (وأسَرَّت)؛ لإفادةِ تَهويلِ الخَطْبِ بكَونِ الإسرارِ بطريقِ المعيَّةِ والاجتماعِ، ولم يُراعَ ذلك فيما سبَق لتحقيقِ ما يُتوخَّى مِن فرضِ كَونِ جميعِ ما في الأرضِ لكلِّ واحدةٍ من النُّفوسِ[3].

٢- قَولُه تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ تذييلُ إنهاءٍ للكلامِ المتعلِّقِ بصدقِ الرَّسولِ والقرآنِ وما جاء به مِن الوعيدِ، وتَرقُّبِ يومِ البعثِ ويومِ نُزولِ العذابِ بالمشركين، وقد اشتَمل هذا التَّذييلُ على مُجمَلِ تفصيلِ ذلك الغرَضِ، وعلى تعليلِه بأنَّ مَن هذه شُؤونُه لا يَعجِزُ عن تَحقيقِ ما أخبَر بوُقوعِه، وافتُتِح هذا التَّذييلُ بحَرفِ التَّنبيهِ ﴿أَلَا﴾، وأُعيدَ فيه حرفُ التَّنبيهِ للتأكيدِ على استِماعِه، وللتَّنبيهِ على أنَّه كلامٌ جامعٌ هو مُحصِّلةُ الغرَضِ الَّذي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ١٩٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٥٤).

سَمِعوا تَفصيلَه آنِفًا[١]، وقيل: أعاد حرفَ التنبيهِ (ألا) تأكيدًا لتمييزه تعالى بهذا التنبيهِ عما سبَقه؛ لأنَّه المقصودُ هنا بذاتِه، وإنَّما ذكر قبلَه للاستدلالِ عليه، أي كلُّ ما وعَد به على لسانِ رسلِه حقٌّ واقعٌ، لا ريبَ فيه؛ لأنَّه وعدُ المالكِ القادرِ على إنجازِ ما وعَد، لا يعجزُه منه شيءٌ[٢].

– وفيه تأكيدُ الخبرِ بحرفِ (إنَّ)؛ للرَّدِّ على المشركين؛ لأنَّهم لَمَّا جعَلوا للهِ شُرَكاءَ فقد جعَلوها غيرَ مَملوكةٍ للهِ، وكذلك أكَّد بحرفِ التَّوكيدِ (إنَّ) بعدَ حرفِ التَّنبيهِ (ألَا) في الموضِعَين؛ للاهتمامِ به، ولِرَدِّ إنكارِ مُنكِري بعضِه والَّذين هم بمَنزِلةِ المنكِرين بعضَه الآخَرَ[٣].

– وفي قولِه: ﴿إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تقديمُ خبَرِ إنَّ ﴿لِلَّهِ﴾ على اسمِها ﴿مَا﴾؛ للاهتمامِ باسمِه تعالى، ولإفادةِ القَصْرِ؛ لِرَدِّ اعتقادِهم الشَّرِكةَ[٤].

– وفي قولِه تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال اللهُ تعالى هنا: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ثم قال بعدَ عشرِ آياتٍ مِن الآيةِ المذكورةِ: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ﴾ [يونس: ٦٦]، ثم قال بعدَ ذلك: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾ [يونس: ٦٨]، فقال في الآيةِ الأولى: ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، وفي الثَّانيةِ: ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩٨- ١٩٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٢٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فِي الْأَرْضِ﴾؛ وذلك لأنَّ الأُولى جاءَت بعدَ قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ﴾ [يونس: ٥٤]، فكان المعنى: أنَّ النَّفْسَ الظَّالمةَ إذا رأَتْ عذابَ اللهِ تعالى لو مَلَكَت جميعَ ما في الأرضِ لبذَلَته في فداءِ نفسِها، وهي تَحرِصُ على اليَسيرِ مِن حُطامِها في ظُلمِ أهلِها؛ فكرَّر على ذلك بقولِه: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: إنَّ النَّفسَ الظَّالمةَ لا تَملِكُ ما في الأرضِ فتَفتَدي به، ولو ملَكَتْه لَما قُبِلَ في فِدائِها، وكيف يكونُ لها ذلك، واللهُ تعالى مالِكُ ما في السَّمواتِ والأرضِ، وليس للعبدِ ذلك، ولا مَحِلُّه هنالك؟! فناسَب لهذا المكان: (ما).

وأمَّا الموضعُ الَّذي ذُكِر فيه (مَن) فلم يَصِحَّ فيها غيرُها؛ لأنَّ قبْلَه: ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٦٥- ٦٦]، والمعنى: لا يَحزُنْك ما يتوعَّدُك به الكفَّارُ مِن القتلِ وأنواعِ المكروهِ؛ فإنَّ العزَّةَ للهِ تعالى، لا يَمنَحُ الكفَّارَ قُدرةً على ما يُريدونه مِنك، بل يُعطيك القدرةَ عليهم، والغلَبةَ لهم، فإنَّه يَملِكُ مَن في السَّمواتِ ومَن في الأرضِ، ولا قوَّةَ لهم إلَّا به، ولا قُدرةَ لهم إلَّا مِن عِندِه، فاقتضى هذا المكانُ (مَن)[1].

والسَّببُ في إعادةِ (مَن) في قولِه: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٦٦]، وتَرْكِ إعادةِ (ما) في الآيةِ الأولى ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ٥٥]، فلَم يَقُلْ: (وما في الأرضِ): أنَّ المقصودَ بالذِّكرِ أنَّه قادرٌ على أن يَكفِيَ نَبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أمْرَه مِمَّن في الأرضِ

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٧٤٣-٧٤٥)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١٤١)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٤٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٤٨).

مِن الكفَّارِ الَّذين بُعِث إليهم، وخوَّفوه أذاهم؛ فقرَن إلى ذِكْرِهم ذِكْرَ مَن في السَّمواتِ، وهم أكبرُ شأنًا وأعظَمُ أمرًا؛ فإذا مُلِكوا كان مَن دونهم أدْوَنَ؛ فإعادةُ (مَن) مع ذِكرِ الأرضِ؛ للتَّوكيدِ الَّذي اقتَضاه القَصدُ إلى ذِكْرِهم. وأمَّا حذفُ (ما) في الآيةِ الأولى عندَ ذِكْرِ الأرضِ؛ فلأنَّ ذِكرَها قد تَقدَّم، وهو: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٥٤]، فلمَّا قال: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، كان ما في ذِكْرِ الأرضِ هناك، ورُجوعُ هذا إلى ذلك المعنى مِثلُ ذِكْرِه في هذا الموضِعِ، فأغْنَى ذلك عن التَّكريرِ(١).

- ووجهُ تَكْرارِ (ما) في قولِه: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾ [يونس: ٦٨]، وحَذْفِها من الآيةِ الأولى: أنَّ قَبْلَه: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٦٨]، فنزَّه نفْسَه تعالى عن الولَدِ، وأخبرَ أنَّه غنيٌّ عمَّا يُجلَبُ باتِّخاذِه، ويُستفادُ بمَكانِه، إذ كان مالِكًا لكلِّ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ، فكان الموضعُ موضعَ توكيدٍ؛ فكأنَّه قال: (إذا كان له كلُّ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ، فلِماذا يتَّخِذُ الولَدَ؟)، فإعادةُ (ما) في هذا المكانِ؛ لهذا الضَّربِ من التَّوكيدِ، أي: هو غنيٌّ لا يَحتاجُ إلى ولَدٍ يُعينُه على شيءٍ ممَّا في السَّمواتِ، وهو مالِكٌ له كلِّه، ولا إلى أن يُعينَه على شيءٍ ممَّا في الأرضِ، وهو مالِكٌ له بأَسْرِه، فلمَّا تأكَّد الكلامُ في مثلِ هذا المكانِ جاءت (ما) مُعادَةً لهذا الشَّأنِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٧٤٥)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١٤١)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٤٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٧٤٦-٧٤٧)، ((أسرار التكرار في =

- وفي قولِه تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ إظهارُ اسمِ الجلالةِ دونَ الإتيانِ بضَميرِه؛ لِتَفخيمِ شأنِ الوعدِ، والإشعارِ بعِلَّةِ الحُكمِ[١]، ولِتَكونَ الجملةُ مُستقلَّةً؛ لِتَجريَ مَجْرى المثَلِ، والكلامِ الجامعِ[٢].

= القرآن)) للكرماني (ص:١٤١)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٤٣-٢٤٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩٩).

الآيتان (٥٧-٥٨)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ (٥٧) قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ (٥٨)﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَوْعِظَةٌ﴾: الوعظُ: تخويفٌ، أو: زجْرٌ مُقترِنٌ بتَخويفٍ، وتذكيرٌ بالخيرِ وما يَرِقُّ له القلبُ[١].

المَعنى الإجماليُّ:

يُوجِّهُ الله سُبحانَه نداءً إلى النَّاسِ كافَّةً، فيقولُ: يا أيُّها النَّاسُ، قد أتاكم من ربِّكم قرآنٌ يأمُرُكم ويزجُرُكم، ويرَقِّقُ قُلوبَكم، وهو دواءٌ للقلوبِ مِن الشَّهواتِ والشُّبُهاتِ، ورُشدٌ لِمن اتَّبَعه مِن الخَلقِ، فيُنجيه مِن الهلاكِ، وهو رحمةٌ يحصُلُ به الخيرُ والإحسانُ والثَّوابُ للمُؤمِنينَ، ثمَّ أمر رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يقولَ: افرَحوا بالإيمانِ والقُرآنِ، لا بمتاعِ الدُّنيا، وأموالِها الزَّائلةِ؛ فذلك خيرٌ ممَّا يجمَعُه النَّاسُ مِن حُطامِها الفاني.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ (٥٧)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ الأدلَّةَ على الألوهيَّةِ والوحدانيَّةِ والقدرةِ؛ ذكَرَ الدلائِلَ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٠).

الدالَّةَ على صحَّةِ النبوَّةِ، والطَّريقَ المؤدِّيَ إليها وهو القُرآنُ، والمتَّصِفُ بهذه الأوصافِ الشَّريفةِ هو القُرآنُ(١).

وأيضًا لَمَّا بيَّنَ الله تعالى أنَّ الرَّسولَ حَقٌّ وصِدقٌ بظهورِ المُعجِزاتِ على يَدَيه، في قَولِه: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [يونس: ٣٧]، إلى قَولِه: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨] وصَفَ القرآنَ هنا بصفاتٍ أربعٍ: أوَّلُها: كونُه مَوعِظةً. وثانيها: كونُه شِفاءً لِما في الصُّدورِ. وثالثُها: كونُه هدًى. ورابعُها: كونُه رحمةً للعالَمينَ(٢).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾.

أي: يا أيُّها النَّاسُ، قد أتاكم قرآنٌ يأمُرُكم ويزجُرُكم، ويرقِّقُ قُلوبَكم، وتَصلُحُ به أحوالُكم، مُنزَّلٌ مِن عندِ ربِّكم(٣).

﴿وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾.

أي: ودواءٌ للقُلوبِ مِن الشَّهَواتِ والشُّبُهاتِ، يشفي من الجَهلِ والشَّكِّ، والنِّفاقِ والغَيِّ(٤).

كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقال سُبحانه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٧٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٠/ ٣٥٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٣)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٣)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥٣)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ١٥، ٤٤ - ٤٦)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ٣٢٢، ٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٧).

وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: وبيانٌ للحَلالِ مِن الحرامِ، ودليلٌ على الطَّاعةِ والمعصيةِ، ورشدٌ لمن اتَّبَعه، وهو رحمةٌ يحصلُ به الخَيرُ والإحسانُ والثوابُ للمُؤمِنينَ[١].

كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

وقال سُبحانه: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّه يتفرَّعُ على كونِ القُرآنِ هُدًى ورحمةً للمُؤمِنينَ تَنبيهُهم إلى أنَّ ذلك فضلٌ مِن اللهِ عليهم ورحمةٌ بهم، يحِقُّ لهم أن يَفرَحوا بهما، وأن يَقْدُروا قَدْرَ نِعمَتِهما، وأن يعلَموا أنَّها نِعمةٌ تَفوقُ نعمةَ المالِ التي حُرِمَ منها أكثَرُ المؤمنينَ، ومُنِحَها أكثَرُ المُشرِكينَ[٢].

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾.

أي: قُلْ- يا مُحمَّدُ[٣]-: بالإسلامِ والقرآنِ فلْيَفرَحوا، لا بمتاعِ الدُّنيا الفانيةِ، وأموالِها الزَّائلةِ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٣، ١٩٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٠٣).

(٣) قيل: المرادُ: قُلْ للمُشرِكينَ. وممَّن اختار ذلك: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٤، ١٩٨).

وقيل: المرادُ: قُلْ لجَميعِ النَّاسِ. وممَّن اختار ذلك: ابنُ عطيةَ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٤، ١٩٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٤٩)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٣١). =

﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

أي: الإسلامُ والقُرآنُ خَيرٌ مما يجمَعُ النَّاسُ في الدُّنيا مِن مَتاعٍ وأموالٍ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾. قَولُه: ﴿وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾ أي: دواءٌ للقُلوبِ مِن داءِ الجَهلِ والشبهات والشهوات وغيرها؛ لأنَّ داءَ الجهلِ أضرُّ للقلبِ مِن المَرَضِ للبَدَن، وأمراضُ القلبِ هي الأخلاقُ الذَّميمةُ، والعقائدُ الفاسدةُ، والجَهالاتُ المُهلِكةُ، والقرآنُ مُزيلٌ لهذه الأمراضِ كُلِّها؛ لأنَّ فيه المواعِظَ والزَّواجِرَ، والتخويفَ، والتَّرغيبَ والتَّرهيبَ، والتَّحذيرَ والتَّذكيرَ، فهو

= قال الواحدي: (قال ابنُ عباسٍ، ومجاهدٌ، والحسنُ، وقتادةُ: فضلُ الله الإسلامُ، ورحمتُه القرآنُ. وهذا قولُ عامةِ المفسِّرين). ((الوسيط)) (٢/ ٥٥١).

قال ابنُ القَيِّم: (قال أبو سعيدٍ الخُدريُّ: فضلُ الله: القرآنُ، ورحمتُه: أنْ جَعَلكم مِن أهلِه، وقال هلالُ بنُ يساف: بالإسلامِ الذي هداكم إليه، وبالقرآنِ الذي علَّمَكم إيَّاه، هو خيرٌ مما تَجمَعون: من الذَّهَبِ والفِضَّة، وكذلك قال ابنُ عبَّاس والحَسَن وقتادة: فَضْلُه: الإسلامُ، ورحمتُه: القرآنُ، وقالت طائفةٌ من السَّلَف: فَضْلُه: القرآنُ، ورَحمتُه: الإسلامُ.

والتحقيقُ: أنَّ كُلًّا منهما فيه الوَصفانِ؛ الفَضلُ والرحمةُ، وهما الأمرانِ اللَّذانِ امتَنَّ الله بهما على رسولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى: ٥٢]). ((إغاثة اللهفان)) (١/ ٣١).

وقال ابن عاشور: (لم يختلف المفسِّرون في أنَّ القرآنَ مرادٌ مِن فَضلِ اللهِ ورَحمتِه). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٠٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٤، ١٩٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٠٥).

قال ابنُ عاشورٍ: (ضَميرُ ﴿يَجْمَعُونَ﴾ عائدٌ إلى النَّاسِ في قولِه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ﴾ [يونس: ٥٧] بقرينةِ السِّياقِ، وليس عائدًا إلى ما عاد إليه ضميرُ ﴿فَلْيَفْرَحُوا﴾؛ فإنَّ القَرائنَ تصرِفُ الضَّمائِرَ المُتشابِهةَ إلى مصارِفِها). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٠٥).

الشِّفاءُ لهذه الأمراضِ القَلبيَّةِ[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ إذا حصل الهُدى، وحَلَّت الرَّحمةُ النَّاشِئةُ عنه، حصلتِ السَّعادةُ والفلاحُ، والرِّبحُ والنَّجاحُ، والفَرَح والسُّرورُ؛ ولذلك أمَرَ تعالى بالفَرَح بذلك، فقال: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾[٢].

٣- قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ إذا حَصَلَت اللَّذَّاتُ الرُّوحانيَّةُ، فإنَّه يجِبُ على العاقِلِ ألَّا يفرَحَ بها من حيثُ هي هي، بل يجِبُ أن يفرَحَ بها من حيثُ إنَّها مِن اللهِ تعالى، وبفضلِ اللهِ وبِرحمتِه[٣].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ فيه كراهةُ تأسفِ القارئ والعالمِ على ضيقِ حالِه في الدُّنيا، واستحبابُ تذكرِه أنَّ ما أُوتي أفضلُ مما أُوتي أصحابُ الأموالِ[٤].

٥- نِعمةُ الدِّينِ المتَّصِلةُ بسَعادةِ الدَّارَينِ، لا نسبةَ بينها وبين جميعِ ما في الدُّنيا، ممَّا هو مُضمَحِلٌّ زائلٌ عن قَريبٍ، قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ مِن مَتاعِ الدُّنيا ولذَّاتِها[٥].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ إنَّما أمَرَ اللهُ تعالى بالفَرَح بفَضلِه ورَحمتِه؛ لأنَّ ذلك ممَّا يُوجِبُ انبساطَ النَّفسِ

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٢٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٦٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٧٠).
(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٦٦).

ونَشاطَها، وشُكرَها لله تعالى وقوَّتَها، وشِدَّةَ الرَّغبةِ في العِلمِ والإيمانِ الدَّاعي للازدياد منهما، وهذا فَرَحٌ مَحمودٌ، بخلافِ الفَرَح بشهواتِ الدُّنيا ولذَّاتِها، أو الفَرَح بالباطلِ؛ فإنَّ هذا مذمومٌ(١).

٧- الفَرحُ في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ هو فرحُ القَلبِ، وهو مِن الإيمانِ، ويثابُ عليه العبدُ، فإنَّ فَرَحَه به يدلُّ على رِضاه به، بل هو فَوقَ الرِّضا؛ لأنَّه يكونُ على قَدْرِ محبَّتِه، فإنَّ الفَرحَ إنَّما يكونُ بالظَّفَر بالمحبوبِ، وعلى قَدْرِ محبَّتِه يفرحُ بحُصولِه له، فالفرَحُ باللهِ وأسمائِه وصِفاتِه، ورَسولِه وسُنَّتِه وكلامِه، محضُ الإيمانِ وصَفوتُه ولُبُّه، وله عبوديَّةٌ عجيبةٌ، وأثَرُ القَلبِ لا يعبِّرُ عنه، فابتهاجُ القَلبِ وسُرورُه وفَرَحُه باللهِ وأسمائِه وصِفاتِه، وكلامِه ورَسولِه ولقائِه؛ أفضَلُ ما يُعطاه، بل هو أجَلُّ عطاياه، والفَرَحُ في الآخرةِ باللهِ ولقائِه بحَسَبِ الفَرَحِ به ومحبَّتِه في الدُّنيا، فالفَرَحُ بالوصولِ إلى المحبوبِ يكونُ على حسَبِ قُوَّةِ المحبَّةِ وضَعفِها، فهذا شأنُ فَرَحِ القَلبِ(٢).

٨- قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ فبهذا الفَضلِ الذي آتاه اللهُ عِبادَه، وبهذه الرَّحمةِ التي أفاضَها عليهم من الإيمانِ، فبذلك وَحدَه فلْيَفرَحوا؛ فهذا هو الذي يستحِقُّ الفَرَحَ، لا المالُ ولا أعراضُ هذه الحياةِ، إنَّ ذلك هو الفرَحُ العُلويُّ الذي يُطلِقُ النَّفسَ مِن عِقالِ المَطامِعِ الأرضيَّةِ، والأعراضِ الزَّائلةِ، فيَجعَلُ هذه الأعراضَ خادِمةً للحياةِ لا مَخدومةً، ويَجعَلُ الإنسانَ فوقَها وهو يستمتِعُ بها، لا عبدًا خاضِعًا لها، والإسلامُ لا يُحقِّرُ أعراضَ الحياةِ الدُّنيا ليَهجُرَها النَّاسُ ويَزهَدوا فيها، إنما هو يَزِنُها بوَزنِها؛ ليَستمتِعَ بها النَّاسُ وهم أحرارُ الإرادةِ، طُلَقاءُ اليدِ، مَطمَحُهم أعلَى

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٦٦).
(٢) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ٢٤٨).

مِن هذه الأعراضِ، وآفاقُهم أسمَى مِن دنيا الأرضِ، الإيمانُ عندهم هو النِّعمةُ، وتأديةُ مُقتَضياتِ الإيمانِ هي الهدَفُ، والدُّنيا بعد ذلك مملوكةٌ لهم، لا سُلطانَ لها عليهم(١).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ المرادُ بما جاءَهم وبَلَغَهم هو ما أُنزِلَ من القرآنِ، وقُرِئَ عليهم، وقد عبَّرَ عنه بأربعِ صِفاتٍ هي أصولُ كَمالِه وخَصائِصِه وهي: أنَّه مَوعِظةٌ، وأنَّه شِفاءٌ لِما في الصُّدورِ، وأنَّه هُدًى، وأنَّه رَحمةٌ للمُؤمِنينَ(٢).

٢- قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فالقُرآنُ شِفاءٌ لِما في الصُّدورِ مِن مَرَضِ الجهلِ والغَيِّ؛ فإنَّ الجَهلَ مَرَضٌ شفاؤه العِلمُ والهُدى، والغَيَّ مَرَضٌ شِفاؤُه الرُّشدُ(٣).

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ جعَلَه تبارك وتعالى رحمةً للمُؤمنينَ به دونَ الكافرينَ به؛ لأنَّ مَن كفَرَ به فهو عليه عَمًى، وفي الآخرةِ جزاؤُه على الكُفرِ به الخلودُ في لظَى(٤).

٤- قال تعالى: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الهدُى أجلُّ الوسائِلِ، والرَّحمةُ أكمَلُ المقاصِدِ والرَّغائِبِ(٥).

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ دخولُ

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٧٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٧).

الباءِ على كلٍّ مِن الفَضلِ والرَّحمةِ هنا يدلُّ على استقلالِ كلٍّ منهما بالفَرَحِ به[١].

٦- شَرَعَ اللهُ لهذه الأُمَّةِ الفرحَ والسرورَ بتمامِ نِعمَتِه وكمالِ رَحمَتِه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾[٢].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ لا تَنافي بين الأمرِ بالفَرَحِ هنا، وبين النَّهيِ عنه في قَولِه تعالى: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص:٧٦] لاختلافِ المتعَلَّقِ، فالمأمورُ به هنا الفَرَحُ بفَضلِ اللهِ وبرَحمتِه، والمنهيُّ هناك الفَرَحُ بجَمعِ الأموالِ لرئاسةِ الدُّنيا، وإرادةِ العُلُوِّ بها، والفَسادِ والأشَرِ[٣].

بَلاغةُ الآيتين:

١- قَولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

- قولُه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ فيه الْتِفاتٌ، ورجوعٌ إلى استِمالَتِهم نحوَ الحقِّ، واستنزالِهم إلى قَبولِه واتِّباعِه، بعدَ تحذيرِهم مِن غَوائلِ الضَّلالِ بما تُليَ عليهم مِن القوارِعِ النَّاعيةِ عليهم سوءَ عاقبتِهم، وإيذانٌ بأنَّ جميعَ ذلك مَسوقٌ لِمَصالِحِهم ومَنافِعِهم[٤].

- وافتِتاحُ الكلامِ بـ ﴿قَدْ﴾؛ لِتأكيدِه؛ لأنَّ في المُخاطَبين كثيرًا ممَّن يُنكِرُ هذه الأوصافَ للقرآنِ[٥].

- قولُه: ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ فيه التَّعرُّضُ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ، وهو حَسنُ الموقِعِ هنا؛

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٣٣).
(٢) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ١٦٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٧٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٥٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٠١).

ففيه تنبيهٌ على أنَّها بالغةٌ غايةَ كَمالِ أمثالِها[١]، وتذكيرٌ بما يَزيدُها تعظيمًا، وتبيينٌ لوجوبِ الاتِّعاظِ بها إيمانًا وتسليمًا؛ لأنَّها مِن مالكِ أمرِ النَّاسِ، ومُرَبِّيهم بفَضلِه ورَحمتِه، وعِلمِه وحِكمتِه[٢].

- وقَولُه تعالى: ﴿وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾ خُصَّ الصَّدرُ بالذِّكرِ؛ لأنَّه مَوضِعُ القَلبِ وغيرِه، وهو أعزُّ مَوضعٍ في الإنسانِ لِمكانِ القَلبِ[٣].

- وفيه تنكيرُ كلٍّ مِن ﴿مَوْعِظَةٌ﴾ ﴿وَشِفَاءٌ﴾ ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾؛ للتَّفخيمِ[٤].

٢- قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾

- قولُه: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ فيه تلوينٌ للخِطابِ، وتوجيهٌ له إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ ليَأمرَ النَّاسَ بأن يَغتنِموا ما في القرآنِ العظيمِ مِن الفضلِ والرَّحمةِ[٥].

- وأيضًا في قولِه: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ فيه حذْفُ أحَدِ الفِعلَين؛ لِدَلالةِ المذكورِ عليه؛ إذ أصلُ الكلامِ: (بِفَضلِ اللهِ وبِرَحمتِه فَلْيَفرَحوا، فبذلك فَليَفرحوا)، والتَّكريرُ للتَّأكيدِ والتَّقريرِ[٦].

- وأخَّرَ الأمرَ، وقدَّمَ عليه متعَلَّقَه؛ لإفادةِ الاختصاصِ؛ فإنَّ أصلَ المعنى بدونِهما: (قُل لِيَفرَحوا بفضلِ الله وبِرَحمتِه)، كأنَّه قال: (إنْ كان في الدنيا

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٠١).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٢٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٢٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٥٥).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ١٥٦).
(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٧٥).

شيءٌ يستَحِقُّ أن يُفرَحَ به، فهو فضلُ اللهِ ورَحمتُه)[١].

- والإشارةُ في قولِه: ﴿فَبِذَلِكَ﴾ للمذكورِ، وهو مجموعُ الفضلِ والرَّحمةِ، واخْتِير للتَّعبيرِ عنه اسمُ الإشارةِ (ذَلِكَ)؛ لِما فيه مِن الدَّلالةِ على التَّنويهِ والتَّعظيمِ، مع زيادةِ التَّمييزِ والاختصارِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٠٤).

الآيتان (٥٩-٦٠)

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

المَعنَى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ تعالى رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يقولَ للمُشركينَ: أخبِروني عن هذا الرِّزقِ الذي خلَقَه اللهُ لكم، فأحللتُم بعضَ ذلك لأنفُسِكم، وحرَّمتُم بَعضَه، قلْ لهم: هل اللهُ أباح لكم تحليلَ ما أحلَلْتُم، وتحريمَ ما حرَّمتُم، أم أنَّكم تَختَلِقونَ عليه الكَذِبَ؟!

ثمَّ توعَّدَهم سبحانَه بسوءِ المَصيرِ على جُرأتِهم وكَذِبِهم، فقال: وما يظُنُّ هؤلاءِ الذينَ يتخرَّصونَ على اللهِ الكَذِبَ، أنَّ اللهَ فاعِلٌ بهم يومَ القيامةِ بكَذِبِهم وفِريَتِهم عليه؟! أيحسَبونَ أنَّه سيترُكُهم بدونِ عِقابٍ؟ كلَّا، إنَّ عقابَهم لَشديدٌ بسبب افترائِهم عليه الكَذِبَ، إنَّ اللهَ لذو فَضلٍ على خَلْقِه بنِعَمِه الكثيرةِ، والتي منها تسخيرُه نِعَمَ الدُّنيا لهم، وإمهالُه العاصينَ وعدمُ مُعاجَلتِهم بالعقوبةِ، ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَشكرونَ اللهَ على تفضُّلِه عليهم بذلك.

تَفسيرُ الآيتَين:

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ النبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ الدَّلائِلَ الكثيرةَ على صِحَّةِ نُبُوَّةِ نَفسِه، وبيَّنَ فسادَ سؤالاتِهم وشُبُهاتِهم في إنكارِها- أتبَعَ ذلك ببيانِ فَسادِ طَريقتِهم في شرائِعِهم

وأحكامِهم، وبيَّنَ أنَّ التَّميزَ بين هذه الأشياءِ بالحِلِّ والحُرمةِ- مع أنَّه لم يشهَدْ بذلك لا عَقلٌ ولا نَقلٌ- طريقٌ باطِلٌ، ومَنهجٌ فاسِدٌ، والمقصودُ إبطالُ مذاهِبِ القومِ في أديانِهم وفي أحكامِهم، وأنَّهم ليسُوا على شيءٍ في بابٍ مِن الأبوابِ[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ تعالى قولَه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [يونس: ٥٧]، وكان المرادُ بذلك كتابَ اللهِ المُشتَمِلَ على التَّحليلِ والتَّحريمِ- بَيَّنَ فسادَ شَرائِعِهم وأحكامِهم من الحلالِ والحرامِ مِن غَيرِ مُستنَدٍ في ذلك إلى وَحيٍ[2].

وأيضًا فهذا الكلامُ وقَع عقبَ ما تقدَّم مِن تكذيبِهم بالقرآنِ، وادعائِهم أنَّه مفترى، وأنَّه ليس بحقٍّ، ثم إبطالِ أن يكونَ القرآنُ مفترًى على الله؛ لأنَّه اشتَمل على تفصيلِ الشريعةِ، وتصديقِ الكتبِ السالفةِ، ولأنَّه أعجزَ مكذِّبيه عن معارضتِه، فلما استوفَى ذلك بأوضحِ حجَّةٍ، وبانَتْ لقاصدِ الاهتداءِ المحجةُ، لا جرَمَ دالت النوبةُ إلى إظهارِ خَطلِ عقولِهم، واختلالِ تكذيبِهم[3].

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا ﴾.

أي: قُلْ- يا مُحمَّدُ- للمُشركينَ: أخبِروني عن الرِّزقِ الذي خَلقَه اللهُ لكم، فجعَلْتُم بعضَه حرامًا عليكم، وبعضَه حلالًا لكم[4].

﴿ قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٠٧-٢٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٠١)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٣٥، ٢٣٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٧).

ومعنى إنزالِ الرزق: كونُه مقدَّرًا في السماءِ، محصَّلٌ هو أو ما يتوقَّفُ عليه وجودًا أو بقاءً بأسبابٍ سَماويَّةٍ، كالمطرِ الذي ينزِلُ من جهةِ العلوِّ. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٥٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٠٩).

أي: قُلْ- يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: آللَّهُ أذِنَ لكم بأن تُحَرِّموا ما حرَّمتُم، وتُحِلُّوا ما أحلَلْتُم، أم أنَّكم تكذِبونَ على اللهِ في ذلك(١)؟!

كما قال سُبحانه: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٢١].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].

وقال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٣٨-١٣٩].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٠١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٢٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٧).
قال أبو حيان: (والظَّاهرُ أنَّ «أم» مُتَّصلةٌ، والمعنَى: أخْبِروني آللَّهُ أذِنَ لكم في التَّحليلِ والتحريمِ، فأنتم تفعلونَ ذلك بإذنِه، أم تكذبونَ على اللَّه في نسبةِ ذلك إليه؟ فنبَّه بتوقيفِهم على أحدِ القسمينِ، وهم لا يمكنُهم ادِّعاءُ إذنِ اللَّه في ذلك فثبَت افتراؤُهم. وقال الزمخشري: ويجوزُ أن تكونَ الهمزةُ للإنكارِ، و(أم) منقطعةٌ بمعنى (بل) أتفترونَ على الله تقريرًا للافتراءِ. انتهَى). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٧٧)، ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٥٤).

﴿ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا كان قد مضَى من أدلَّةِ المعادِ ما صَيَّره كالشَّمسِ، وكان افتراؤُهم قد ثبت بعَدَمِ قُدرتِهم على مُستنَدٍ بإذنِ اللهِ لهم في ذلك؛ قال مشيرًا إلى أنَّ القيامةَ ممَّا هو معلومٌ لا يَسوغُ إنكارُه(١):

﴿ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾.

أي: وما ظَنُّ الذين يتقوَّلونَ على اللهِ الكَذِبَ أن يَحُلَّ بهم يومَ القيامةِ مِن النَّكالِ؟ أيحسَبونَ أنَّ اللهَ لا يُعاقِبُهم به(٢)؟!

كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ﴾.

أي: إنَّ اللهَ لَصاحِبُ تفضُّلٍ على النَّاسِ بنِعَمِه الكثيرةِ؛ ومنها: ما سخَّره لهم من نِعَمِ الدُّنيا وأباحه لهم، ومنها إمهالُ العاصِينَ، وعَدَمُ معاجَلتِهم بالعقوبةِ، ولكِنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَشكُرونَ اللهَ على ما تفضَّلَ به مِن نِعَمٍ، بل يستعينون بها على مَعصِيتِه، ويحرِّمون بَعضَها(٣).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٠٣)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٧).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ فيه إنكارٌ على من حَرَّمَ ما أحَلَّ الله، أو أحَلَّ ما حرَّمَ، بمجَرَّدِ الآراءِ والأهواءِ التي لا مُستَنَدَ لها، ولا دليلَ عليها(١)، وكفَى بهذه الآيةِ زاجرةً زجْرًا بليغًا عن التَّجوُّزِ فيما يُسأَلُ عنه مِن الأحكامِ، وباعثًا على وُجوبِ الاحتياطِ فيه(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا﴾ عبَّرَ عن الخَلْقِ بالإنزالِ؛ تنبيهًا على أنَّه شَيءٌ لا يُمكِنُ للمُشرِكينَ ادِّعاؤه لأصنامِهم؛ لنزولِ أسبابِه من موضِعٍ لا تعلُّقَ لهم به بوجهٍ(٣).

٢- الأصلُ في العباداتِ التَّوقيفُ، فلا يُشرَعُ منها إلَّا ما شَرَعه اللهُ تعالى، وإلَّا دخَلْنا في معنى قَولِه تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]. والعاداتُ الأصلُ فيها العفوُ، فلا يُحظَرُ منها إلَّا ما حَرَّمَه، وإلَّا دَخَلْنا في معنى قَولِه تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا﴾(٤).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٥٤).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٤٨).
(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٩/ ١٧).

وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ فيه أنَّ كُلَّ ما خلقَه اللهُ تعالى للنَّاسِ، وسَخَّرَه من سائِرِ مَنافِعِ الكونِ، الأصلُ فيه الإباحةُ كالرِّزقِ، ويؤخَذُ من هذه الآيةِ بالفحوَى، وبناءِ المِنَّةِ فيه على كَونِه منه تعالى(١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُم مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُم مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ ذَمٌّ لمَن دانَ بغير شرعِ اللهِ سبحانه(٢).

٥- الإذنُ المذكورُ في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُم مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُم مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ هو إذْنٌ شرعيٌّ- وهو ما يأمرُ به سبحانَه ويَرضاه- وأمَّا الإذنُ الكَونيُّ، فهو كقولِه تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢] أي: بمَشيئَتِه وقدَرِه(٣).

٦- إنَّ المشركين قد ارتكبوا في دينِهم بما يلزمُهم منه مماثلةُ الحالةِ التي أنكروها، فإنَّهم قد وضعوا دينًا، فجعلوا بعضَ أرزاقِهم حلالًا لهم، وبعضَها حرامًا عليهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُم مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُم مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ فإن كان ذلك حقًّا بزعمِهم، فمَن الذي أبلَغهم تلك الشرائعَ عن الله، ولماذا تقبَّلوها عمَّن شرَعها لهم، ولم يكذِّبوه، وهم لا يستطيعون أن يلتزموا ذلك، وإن كان ذلك مِن تلقاءِ أنفسِهم فقد افتروا على الله، فلزِمهم ما ألصقوه بالنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم فعلق بهم، وبرأ الله منه رسولَه، فهذا الاستدلالُ مِن الطريقِ المسمَّى بالقلبِ(٤)

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٤/ ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٨٢).

(٤) المعارضةُ على سبيلِ القلبِ: هي معارضةُ دليلِ المعللِ بعينِ دليلِه، وإيضاحُه أن يقولَ له: دليلُك هذا ينتجُ نقيضَ دعواك، فهو حجةٌ عليك لا لك، وسُمِّيت معارضةً بالقلبِ؛ لأنَّه =

في علمِ الجدلِ(١).

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ هذه الآيةُ وإن كانت في صُورةِ الاستعلامِ، إلَّا أنَّ المرادَ منها تعظيمُ وعيدِ مَن يَفتَري عليه تعالى(٢).

٨- قولُ الله تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فيه سؤالٌ: أنَّ هذا تهديدٌ، فكيف ناسَبَه قَولُه بعدُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾؟ الجواب: هو مُناسِبٌ لأنَّ مَعناه: إنَّ الله لذو فَضلٍ على النَّاسِ؛ حيث أنعمَ عليهم بالعَقلِ، وإرسالِ الرُّسُلِ، وتأخيرِ العذابِ، وفتحِ بابِ التَّوبةِ، أي: كيف تَفتَرونَ على اللهِ الكَذِبَ مع تضافُرِ نِعَمِه عليكم(٣)؟!

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾

- قولُه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾، الاستفهامُ في ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ و﴿آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ تقريريٌّ، باعتبارِ إلزامِهم بأحَدِ الأمْرَينِ؛ إمَّا أن يكونَ اللهُ أَذِن لهم، أو أنْ يَكونوا مُفتَرين على اللهِ، وقد شِيبَ التَّقريرُ في ذلك بالإنكارِ(٤).

- و﴿قُلْ﴾ الثَّاني تأكيدٌ لـ﴿قُلْ﴾ الأوَّلِ، وهو معترِضٌ بينَ جملةِ الاستفهامِ

= قلَب عليه دليلَه بعينِه حجةً عليه لا له. يُنظر: ((آداب البحث والمناظرة)) للشنقيطي (ص: ٧٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٤٩-٢٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٠٨).

الأولى وجملةِ الاستفهامِ الثَّانيةِ؛ لزيادةِ إشرافِ الأسماعِ عليه[١].

- قولُه: ﴿أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ و(أَمْ) متَّصِلةٌ، والاستفهامُ للتَّقريرِ والتَّبكيتِ؛ لتَحقُّقِ العلمِ بالشِّقِّ الأخيرِ قطعًا، كأنَّه قيل: أم لم يَأذَنْ لكم، بل تَفترَون عليه سُبحانه؛ ويجوزُ أن يكون الاستفهام للإنكارِ، و﴿أَمْ﴾ منقطِعةٌ، بمعنى: بَلْ أتَفْتَرون على اللهِ؛ تقريرًا للافتراءِ[٢].

- وفيه: إظهارُ الاسمِ الجليلِ، وتقديمُه على الفعلِ ﴿تَفْتَرُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على كمالِ قُبحِ افترائِهم، وتأكيدًا للتَّبكيتِ إثْرَ تأكيدٍ، مع مُراعاةِ الفَواصلِ[٣].

- واختيارُ الاستدلالِ عليهم بشيءٍ مِن تشريعِهم في خصوصِ أرزاقِهم في قولِه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا...﴾ يزيدُ هذا الاستدلالَ مناسبةً بآخرِ الكلامِ الذي قبلَه؛ ليظهرَ ما فيه مِن حسنِ التخلُّصِ إليه، وذلك أنَّ آخرَ الكلامِ المتقدِّم جملةُ ﴿هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾، أي: مِن أموالِهم، وتلك الأموالُ هي التي رزَقهم الله إيَّاها، فجعَلوا منها حلالًا، ومنها حرامًا، وكفَروا نعمةَ اللهِ؛ إذ حرَّموا على أنفسِهم مِن طيِّباتِ ما أعطاهم ربُّهم، وحسبُهم بذلك شناعةً بهم ملصقةٌ، وأبوابًا مِن الخيرِ في وجوهِهم مغلقةٌ[٤].

٢- قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ (ما) للاستفهامِ، وهذا

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٠٧-٢٠٨).

الاستفهامُ مُستعمَلٌ هنا في التَّعجُّبِ مِن حالِهم، والمقصودُ به: التَّعريضُ بالمشرِكين؛ لِيَستَفيقوا مِن غَفلتِهم، ويُحاسِبوا أنفُسَهم(١).

- وأبْهَمَ الأمرَ، أي: لم يُوضِّحْ جَزاءَهم، على سبيلِ التَّهديدِ والإيعادِ يومَ يكونُ الجزاءُ بالإحسانِ والإساءةِ(٢).

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ العدولُ عن مُقتَضى الظَّاهرِ إلى الإتيانِ بالموصولِ بالصِّلةِ المختصَّةِ بهم: ﴿الَّذِينَ يَفْتَرُونَ...﴾ - إذْ كان مُقتَضى الظَّاهرِ أن يُؤتى بضَميرِ (هُم) مُضافًا إليه الظَّنُّ، إمَّا ضميرَ خطابٍ أو غَيبةٍ، فيُقالَ: (وما ظَنُّكم) أو (وما ظنُّهم)؛ للتَّنبيهِ على أنَّ التَّرديدَ بين أن يَكونَ اللهُ أَذِنَ لهم فيما حرَّموه، وبين أن يَكونوا مُفتَرين عليه قد انحصَر في القسمِ الثَّاني، وهو كونُهم مُفتَرين؛ إذ لا مَساغَ لهم في ادِّعاءِ أنَّه أَذِنَ لهم، فإذا تعيَّنَ أنَّهم مُفتَرون، فقد صار الافتراءُ حالَهم المختصَّ بهم، وفي الموصولِ إيذانٌ بعِلَّةِ التَّعجُّبِ مِن ظنِّهم بأنفُسِهم يومَ القيامةِ(٣).

- قولُه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ تذييلٌ للكلامِ المفتتَحِ بقولِه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧]، وفيه قطعٌ لِعُذرِ المشركين، وتَسجيلٌ عليهم بالتَّمرُّدِ بأنَّ اللهَ تفضَّل عليهم بالرِّزقِ والموعظةِ والإرشادِ، فقابَلوا ذلك بالكفرِ دون الشُّكرِ، وجعَلوا رِزقَهم أنَّهم يُكذِّبون، في حينِ قابَله المؤمِنون بالفرَحِ والشُّكرِ فانتفَعوا به في الدُّنيا والآخرةِ(٤)، مع ما فيه من التَّأكيدِ بـ(إنَّ) واللَّامِ واسْميَّةِ الجملةِ.

- وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢١٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٢١١).

مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال اللهُ تعالى هنا: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾، وكذلك في سورةِ النَّملِ قال: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [النمل: ٧٣]، وأمَّا في البقرةِ ويوسُفَ وغافرٍ، فقال: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣، يوسف: ٣٨، غافر: ٦١]، ووجهُ ذلك: أنَّ في سورةِ يونُسَ تقدَّم قولُه: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥٥] فوافَقه، وفي غيرِها جاء بلفظِ الصَّريحِ[1]، وأيضًا لأنَّ آيةَ غافرٍ لَمَّا تقدَّمها قولُه تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧]، ومقصودُ هذه الآيةِ تحريكُ الخلقِ للاعتبارِ، والتَّذكيرُ بما نصَب سبحانه مِن الدَّلائلِ والآياتِ؛ فاقتَضى ذلك تَكْرارَ الظَّاهرِ، كما في آيةِ التَّذكيرِ والتَّنبيهِ، ثمَّ جيءَ بعدَ هذا بقولِه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾؛ فنُوسِبَ بينَ هذا وبينَ ما تقدَّم؛ لِتَجيءَ هذه الآياتُ على مِنهاجٍ واحدٍ مِن التَّذكيرِ، فاقتضَتِ الثَّانيةُ تَكْريرَ الظَّاهرِ. وأمَّا آيةُ يونُسَ فإنَّما تقدَّمها تأنيسٌ بقولِه تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا...﴾ الآيةَ [يونس: ٥٨]، ثمَّ رجَع الكلامُ إلى تعنيفِ الكُفَّارِ في تَحْكيمِهم، فقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩]، ثمَّ قال: ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾، ولم يتَقدَّمْ تَكريرٌ يُطلَبُ بمُناسَبةٍ؛ فلِذلك ورَد الكلامُ على ما هو الأصلُ مِن الإتيانِ بالضَّميرِ؛ لِيَحصُلَ به ربطُ الكلامِ، فجاء كلٌّ مِن الموضِعَينِ على ما يَقتَضيه ما قَبلَه؛ رَعيًا لِتَناسُبِ الكلامِ[2].

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١٤١).
(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٤٦).

الآيات (٦١-٦٤)

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تُفِيضُونَ﴾: أي: تأخُذونَ فيه، وتَخوضونَ، وأصلُ (فيض): يدلُّ على جَرَيانِ الشَّيءِ بسُهولةٍ[1].

﴿يَعْزُبُ﴾: أي: يَبعُدُ ويَغيبُ، وأصلُ (عزب): يدلُّ على تباعُدٍ وتنَحٍّ[2].

﴿مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾: أي: زنةِ نملةٍ صغيرةٍ، يقالُ: هذا على مثقالِ هذا أي: على وزنِ هذا، وأصلُ (ثقل): ضدُّ الخفةِ، والذَّرَّةُ هي أصغرُ النَّملِ، وتُطلقُ كذلك على ما لا وزنَ لها، وما يرفعُه الريحُ مِن الترابِ، وأجزاءِ الهواءِ في الكوةِ[3]، وأصلُ (ذَرَّ): يَدُلُّ على لَطافَةٍ وانتشارٍ[4].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١١٨/٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٧، ٣٥٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠٨/١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣١٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٢).

(٣) الكوةُ- بفتحِ الكافِ وضمِّها- : الخرقُ في الحائطِ ونحوِه. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٣٩/ ٤٢٥).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٥)، =

مشكلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾

﴿مِنْ مِثْقَالِ﴾: فاعلٌ لـ ﴿يَعْزُبُ﴾ مرفوعٌ محلًّا، مجرورٌ لَفظًا، و (مِنْ) حرفُ صِلةٍ، ﴿وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ﴾ (ولا): الواوُ عاطفةٌ. (لا) زائدةٌ؛ لتأكيدِ النفيِ. (أصغَرَ وأكبرَ) مجروراِن عطفًا على لفظِ ﴿مِثْقَالِ﴾، أو على ﴿ذَرَّةٍ﴾، وجرُّهما بالفتحةِ نيابةً عن الكسرةِ؛ لأنَّهما ممنوعانِ مِن الصَّرفِ؛ للوَصفيَّةِ ووَزنِ الفِعلِ. و﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾: أي: إلَّا هو في كتابٍ، والاستثناءُ مُنقطِعٌ. وقيل: (لا) فيهما نافيةٌ للجنسِ و (أصغر) و(أكبر) اسماها، فهما مَبْنيانِ على الفتحِ. ويوقَفُ على ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ ومَا بعْدهَا مُسْتَأْنف ليس معطوفًا على ما قبلَه. و﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ (إلَّا) أداةُ حصرٍ، و (فِي كِتَابٍ) متعلِّقٌ بمحذوفٍ خبر (لا) النافيةِ للجنسِ.

وقُرِئ: ﴿وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ﴾ بالرفع فيهما عطفًا على محلِّ ﴿مِثْقَالِ﴾؛ لأنَّه في موضعِ رفعٍ بـ ﴿يَعْزُبُ﴾. أو هو مبتدأٌ، و (في كتاب) متعلقٌ بمحذوفٍ خبرٌ له[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: وما تكونُ- يا مُحمَّدُ- في أيِّ عملٍ من الأعمالِ، وما تتلو من سورةٍ من القُرآنِ، ولا تعملونَ- أيُّها النَّاسُ- عملًا مِن خَيرٍ أو شَرٍّ، صغيرًا أو كبيرًا، إلَّا واللهُ مطَّلِعٌ عليكم، حين تأخُذونَ فيه وتَعمَلونَه، فنَحفَظُه عليكم

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٨٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦٧)، ، ((تاج العروس)) للزبيدي (٢٨/ ١٥٧).

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣٤٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٦٧٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٢٣٠)، ((مغني اللبيب)) لابن هشام (ص: ٣١٧).

ونَجزيكم به، وما يغيبُ عن ربِّك- يا مُحمَّدُ- مِن زِنةِ نَملةٍ صَغيرةٍ في الأرضِ ولا في السَّماءِ، ولا أصغَرِ الأشياءِ ولا أكبَرِها، إلَّا وهو في لوحٍ مَحفوظٍ مكتوبٌ فيه كلُّ شَيءٍ، ألَا إنَّ مَن تولَّاهم اللهُ تعالى بنَصرِه ومحَبَّتِه ورعايتِه، لا خوفٌ عليهم ممَّا يَستَقبِلونَه، ولا هم يَحزنونَ على ما فاتهم، وهؤلاء الأولياءُ هم الذين آمنوا بما وجبَ عليهم الإيمانُ به، وكانوا يتَّقونَ اللهَ بامتثالِ أوامِرِه، واجتنابِ نواهيه، فلهؤلاءِ الأولياءِ البُشرى مِن اللهِ في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخرةِ بما يَسُرُّهم، لا تغييرَ لِقَولِ اللهِ، ولا خُلْفَ لوَعدِه، ذلك هو الفوزُ العظيمُ.

تَفسيرُ الآيات:

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أطال اللهُ تعالى الكلامَ في أمرِ الرَّسولِ، بإيرادِ الدَّلائلِ على فسادِ مذاهِبِ الكفَّارِ، وفي أمْرِه بإيرادِ الجَوابِ عن شُبُهاتِهم، وفي أمرِه بتحَمُّلِ أذاهم، وبالرِّفقِ معهم- ذكَرَ هذا الكلامَ ليحصُلَ به تمامُ السَّلوةِ والسُّرورِ للمُطيعينَ، وتمامُ الخوفِ والفَزَعِ للمُذنبينَ، وهو كونُه سُبحانَه عالِمًا بعمَلِ كُلِّ واحدٍ، وبما في قَلْبِه من الدَّواعي والصَّوارف؛ فإنَّ الإنسانَ ربَّما أظهَرَ مِن نفسِه نُسُكًا وطاعةً، وزُهدًا وتقوى، ويكونُ باطِنُه مملوءًا من الخَبَث، وربما كان بالعَكسِ مِن ذلك، فإذا كان الحَقُّ سُبحانَه عالِمًا بما في البواطِنِ، كان ذلك من أعظَمِ أنواعِ السُّرورِ للمُطيعينَ، ومن أعظَمِ أنواعِ التَّهديدِ للمُذنِبينَ(١).

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ الله تعالى جُملةً مِن أحوالِ الكُفَّارِ ومذاهِبِهم، والرَّدَّ عليهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٧٢).

ومحاورةَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لهم، وذكَرَ فَضْلَه تعالى على النَّاسِ، وأنَّ أكثَرَهم لا يشكُرُه على فَضلِه- ذكَرَ تعالى اطِّلاعَه على أحوالِهم وحالِ الرَّسولِ معهم في مجاهَدتِه لهم، وتلاوةِ القرآنِ عليهم، وأنَّه تعالى عالمٌ بجميعِ أعمالِهم، واستطرَدَ من ذلك إلى ذِكرِ أولياءِ الله تعالى، ليُظهِرَ التفاوتَ بين الفريقينِ؛ فريقِ الشَّيطانِ وفَريقِ الرَّحمنِ(١).

وأيضًا لَمَّا ذكَّرَ اللهُ تعالى عبادَه بفَضلِه، وما يجِبُ عليهم مِن شُكرِه، وبكونِ أكثَرِهم لا يَشكرونَه كما يجِبُ عليهم- عطفَ على ذلك تذكيرَه لهم بإحاطةِ عِلمِه بشُؤونِهم وأعمالِهم كُلِّها؛ صغيرِها وكبيرِها، جليلِها وحقيرِها، وبكُلِّ ما في العوالِمِ عُلويِّها وسُفليِّها؛ ليحاسِبُوا أنفُسَهم على تقصيرِهم في ذِكْرِه وشُكرِه وعبادتِه(٢).

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾.

أي: وما تكونُ- يا محمَّدُ(٣)- في أيِّ عملٍ من الأعمالِ، وما تتلو من سورةٍ مِن القرآنِ، ولا تعملونَ- أيُّها النَّاسُ- مِن عَمَلٍ صغيرٍ أو كبيرٍ، من خيرٍ أو شَرٍّ، إلَّا واللهُ مطَّلِعٌ عليكم حين تأخذونَ فيه، وتَقومونَ به(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٣٨).

(٣) قال الواحدي: (الخطابُ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأُمَّتُه داخلونَ في هذا الخطابِ؛ لأنَّ خِطابَ الرَّئيسِ خطابٌ له ولأتباعِه، يدلُّ على هذا قَولُه: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾. ((الوسيط)) (٢/ ٥٥٢).

وممَّن ذهَب إلى ذلك: ابنُ عطيةَ والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢١١-٢١٣). =

﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾.

أي: وما يغيبُ عن ربِّك- يا مُحمَّدُ- وزنُ نَملةٍ صَغيرةٍ في الأرضِ ولا في السَّماءِ، ولا أصغَرَ مِن ذلك ولا أكبَرَ، فلا يخفَى عليه سبحانَه أصغرُ الأشياءِ، وإنْ خفَّ في الوزنِ كلَّ الخِفَّةِ، ولا أكبرُها وإنْ عَظُمَ وثَقُل وزنُه، وكلُّ ذلك في لوحٍ مَحفوظٍ، مكتوبٍ فيه كلُّ شَيءٍ[1].

كما قال الله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ

= اختلف المفسِّرون في الضَّميرِ في ﴿مِنْهُ﴾ إلى ماذا يعودُ؟ فقيل: يعودُ إلى القرآن. وممن ذهب إلى ذلك: ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٠٤).

وقيل: يعودُ إلى الشَّأنِ. وممَّن ذهب إلى ذلك: الزَّجَّاج، وابن عطية. يُنظر: ((معاني القرآن)) (٣/ ٢٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٧).

وقيل: يعودُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ. وممَّن ذهب إلى ذلك: الواحدي. يُنظر: ((الوسيط)) (٢/ ٥٥٢).

قال الخازن: (اختلَفوا في الضَّميرِ في ﴿مِنْهُ﴾ إلى ماذا يعودُ؟ فقيل: يعودُ إلى الشأنِ؛ إذ تلاوةُ القرآنِ شأنٌ مِن شؤونِ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، بل هو أعظَمُ شُؤونِه، فعلى هذا يكونُ داخلًا تحت قولِه تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ إلَّا أنَّه سبحانه وتعالى خصَّه بالذِّكرِ لِشَرَفِه وعلوِّ مَرتبتِه. وقيل: إنَّه راجعٌ إلى القرآنِ؛ لأنَّه قد تقدَّمَ ذِكرُه في قولِه سُبحانه وتعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾ [يونس: ٥٨]، فعلى هذا يكونُ المعنى: وما تتلو من القرآنِ مِن قرآنٍ، يعني: من سورةٍ وشَيءٍ منه؛ لأنَّ لفظَ القُرآنِ يُطلَقُ على جميعِه وعلى بَعضِه. وقيل: الضَّميرُ في ﴿مِنْهُ﴾ راجعٌ إلى اللهِ تعالى، والمعنى: وما تتلو من اللهِ مِن قُرآنٍ نازلٍ عليك). ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٤٩).

ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٣٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٠٧، ٢٠٨)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٧، ١٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥٦، ٣٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢١٤-٢١٥).

قال ابنُ عاشورٍ: (والمرادُ بالأرضِ والسماءِ هنا العالمُ السفليُّ والعالمُ العلويُّ، والمقصودُ تعميمُ الجهاتِ والأبعادِ بأخصرِ عبارةٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢١٤).

وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقال سُبحانه: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لمَّا بيَّن سبحانه إحاطتَه بجميعِ الأشياءِ، وكان في ذلك تقويةٌ لقلوبِ المطيعين، وكسرٌ لقلوبِ العاصينَ؛ ذكَر حالَ المطيعينَ[1]، فقال:

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

أي: ألَا إنَّ مَن تولَّاهم اللهُ تعالى بنَصرِه ومحبَّتِه ورعايتِه، لا خوفٌ عليهم ممَّا يستقبِلونَه، ولا هم يَحزَنونَ على ما مَضَى[2].

ثمَّ ذكَر وصفَهم، فقال:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

أي: هم الذين آمَنوا بما وجبَ عليهم الإيمانُ به، وصدَّقوا إيمانَهم بلزومِ تقوى اللهِ، بفِعلِ أوامِرِه، واجتنابِ نَواهيه[3].

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢١٧، ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢١٨).

﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾.

﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ﴾.

أي: لأولياءِ الله البُشرى من اللهِ في الحياةِ الدُّنيا- ومن ذلك ما وُعِدوا به من الخَيرِ في القرآنِ والسُّنَّةِ، ومن البشاراتِ الرُّؤيا الصَّالحةُ، والثَّناءُ الحَسَنُ- ولهم البُشرى في الآخرةِ بدُخولِ الجنَّةِ(١).

كما قال تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التوبة: ٢١-٢٢].

وقال سُبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣٠-٣١].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ * لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١ - ١٠٣].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الحديد: ١٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢١٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٨)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ١٥١، ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢١٩).

قال ابن عطية: (أمَّا بُشرى الآخرةِ، فهي بالجنَّةِ. قولًا واحدًا). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٩).

وعن البراءِ بنِ عازبٍ رضي الله عنه، قال: قال النبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ العبدَ المؤمنَ إذا كان في انقطاعٍ من الدنيا، وإقبالٍ مِن الآخرةِ، نزَل إليه ملائكةٌ مِن السماءِ بيضُ الوجوهِ، كأنَّ وجوهَهم الشمسُ، معهم كفنٌ مِن أكفانِ الجنةِ، وحنوطٌ[1] مِن حنوطِ الجنةِ، حتى يجلسوا منه مدَّ البصرِ، ثم يجيءُ ملكُ الموت عليه السَّلام حتى يجلسَ عندَ رأسِه، فيقول: أيَّتُها النفسُ الطيبةُ، اخرُجي إلى مغفرةٍ مِن الله ورضوانٍ، فتخرج تسيلُ كما تسيلُ القطرةُ من فِي السِّقاء، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدَعوها في يدِه طرفةَ عينٍ حتى يأخذوها، فيجعلوها في ذلك الكفنِ، وفي ذلك الحنوطِ، ويخرج منها كأطيبِ نفحةِ[2] مسكٍ وُجِدت على وجهِ الأرضِ، فيصعدون بها، فلا يمرُّون - يعني بها - على ملإٍ من الملائكةِ إلا قالوا: ما هذا الروحُ الطيبُ؟! فيقولون: فلانُ بنُ فلانٍ، بأحسنِ أسمائِه التي كانوا يسمُّونه بها في الدُّنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماءِ الدنيا، فيستفتحون له، فيُفتح لهم، فيشيِّعُه من كلِّ سماءٍ مقرَّبوها إلى السماءِ التي تليها، حتى يُنتهَى به إلى السماءِ السابعةِ، فيقول الله عزَّ وجلَّ: اكتبوا كتابَ عبدي في عِلِّيين[3]، وأعيدوه إلى الأرضِ، فإنِّي منها خلقتُهم، وفيها أُعيدُهم، ومنها أُخرجُهم تارةً أخرَى، فتُعاد روحُه في جسدِه، فيأتيه ملَكانِ، فيُجلسانِه، فيقولانِ له: مَن ربُّك؟ فيقول: ربِّي الله، فيقولان له: ما دينُك؟ فيقول: ديني الإسلامُ، فيقولان له: ما هذا الرجلُ الذي بُعِث فيكم؟ فيقول: هو رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فيقولان له: وما علمُك؟ فيقولُ: قرأتُ كتابَ الله، فآمنتُ به، وصدَّقت، فينادي منادٍ في السماءِ: أن صدَق عبدي، فأفرِشوه مِن الجنة، وألْبِسوه مِن الجنةِ، وافتحوا له بابًا إلى

---

(١) الحَنوطُ: ما يُخلَطُ مِن الطِّيبِ لأكفانِ الموتى وأجسادِهم. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٣/ ١١٧٦).

(٢) النَّفحةُ: المرَّةُ مِن نَفحِ الطِّيبِ، أي: رائحتِه. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٥).

(٣) عِلِّيِّينَ: هو دِيوانُ المُقَرَّبينَ. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٦).

الجنةِ، فيأتيه من رَوْحها[١]، وطِيبها، ويُفسحُ له في قبرِه مدَّ بصرِه، ويأتيه رجلٌ حسنُ الوجهِ، حسنُ الثيابِ، طيِّبُ الرِّيحِ، فيقول: أبْشِرْ بالذي يَسرُّك، هذا يومُك الذي كنتَ تُوعَدُ، فيقولُ له: مَن أنت؟ فوجهُك الوجهُ يجيءُ بالخيرِ، فيقولُ: أنا عملُك الصالحُ، فيقول: ربِّ أقمِ الساعةَ حتى أرجعَ إلى أهلِي ومالِي))[٢].

وعن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللهِ عنه، قال: ((قيل لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أرأيتَ الرَّجُلَ يعمَلُ العمَلَ مِن الخَيرِ، ويَحمَدُه النَّاسُ عليه؟ قال: تلك عاجِلُ بُشرى المؤمِنِ))[٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لم يَبْقَ من النُّبُوَّةِ إلا المُبَشِّراتُ، قالوا: وما المُبَشِّراتُ؟ قال: الرؤيا الصالحةُ))[٤].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أيها الناسُ، إنه لم يبقَ من مبشراتِ النبوةِ إلا الرؤيا الصالحةُ، يراها المسلمُ، أو تُرى له))[٥].

﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾.

لا خُلْفَ لوعدِ الله؛ فما وعَد الله فهو حقٌّ، لا يمكنُ تغييرُه ولا تبديلُه، وهو كائنٌ لا محالةَ[٦].

(١) مِن رَوْحِها- بفتح الراء- : أي: مِن نَسيمِها. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٧).

(٢) أخرجه أحمد (١٨٥٣٤)، والطيالسي (٧٨٩)، والحاكم (١٠٧).

صحَّح إسناده الطبري في ((مسند عمر)) (٢/ ٤٩٤)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (١/ ٣٠٠)، وقال ابنُ منده في ((الإيمان)) (٣٩٨): إسنادُه متَّصلٌ مشهورٌ ثابتٌ على رسمِ الجماعةِ، وحسَّنه المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (٤/ ٢٨٠).

(٣) رواه مسلم (٢٦٤٢).

(٤) رواه البخاري (٦٩٩٠).

(٥) رواه مسلم (٤٧٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٩)، ((تفسير القرطبي)) =

كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [الأنعام: ١١٥].

وقال سُبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩].

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

أي: ما يُبشَّرُ به أولياءُ اللهِ هو الظَّفَرُ العَظيمُ بكلِّ مَحبوبٍ، والنجاةُ الكبيرةُ مِن كُلِّ مَحذورٍ[1].

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- مما يُوجبُ خشيةَ اللهِ تعالى في السِّرِّ والعَلانيةِ ضرورةُ مُراقبتِه تعالى؛ والعلمُ بأنَّه شاهِدٌ ورقيبٌ على قلوبِ عبادِه وأعمالِهم، وأنَّه مع عبادِه حيث كانوا، كما دلَّ القرآنُ على ذلك في مواضِعَ، منها قولُه تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾[2].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ الإفاضةُ في العمَلِ أخَصُّ مِن إتيانِه مُطلقًا، وحِكمةُ تَخصيصِها بالذِّكرِ دونَ اللَّفظِ الأعمِّ منها، هي أنَّ ما يُفيضُ فيه الإنسانُ مهتَمًّا به مندفِعًا فيه، جديرٌ بألَّا يَنسى أو يَغفُل عن مراقبةِ رَبِّه فيه، واطِّلاعِه عليه؛ فاللَّفظُ يذَكِّره به تذكيرًا منبِّهًا مُؤثِّرًا، وكذلك لفظُ (يَعزُب) الدالُّ على الخفاءِ والبُعدِ معًا، فكأنَّه يقولُ: إنَّ ما شأنُه أن يَبعُدَ ويَخفى عليكم مِن أعمالِكم لا يغيبُ

= (٨/ ٣٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ١٦٤).

عن عِلمِ رَبِّكم؛ فإنَّه لا يَعزُبُ عنه مِن مثقالِ ذَرَّةٍ[١].

٣- أولياءُ اللهِ هم الذين جَمَعوا بين الإيمانِ الصَّحيحِ ومَلَكةِ التقوى له عزَّ وجلَّ، وما تقتضيه مِن عمَلٍ، فظاهِرُ الآيةِ أنَّ مَن آمَن واتَّقى، فهو داخِلٌ في أولياءِ اللهِ، وهذا هو الذي تقتضيه الشَّريعةُ في الوليِّ، فكلُّ من كان مؤمنًا تقيًّا كان لِلَّه وليًّا، وقد ضَمِنَ اللهُ تعالى لأوليائِه ألَّا يحصُلَ لهم ما يخافونَه، وألَّا يحُلَّ بهم ما يَحزُنُهم، قال الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ التعبيرُ في خطابِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالشَّأنِ- وهو الأمرُ العظيمُ أو ذو البالِ- يدلُّ على أنَّ جَميعَ أمورِه وأعمالِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كانت عظيمةً، حتى العاداتِ منها؛ لأنَّه كان قُدوةً صالحةً فيها كلِّها[٣].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ إن قيل: كيف جُمِعَ الضَّميرُ، مع أنَّه أُفرِدَ قبلُ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ﴾ والخطابُ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؟

الجواب: جُمِعَ ليدُلَّ على أنَّ الأُمَّةَ داخِلونَ مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما خوطِبَ به قبلُ[٤]، أو جُمِعَ تعظيمًا للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ٢٢٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٣٩).

(٤) والقاعدةُ أنَّ الخطاباتِ الموجهةَ إلى النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، تشملُ الأُمَّةَ إلا لدليلٍ. يُنظر: ((قواعد التفسير)) لخالد السبت (٢/ ٥٧٨).

(٥) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٥٠).

٣- قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ الذرُّ: صغارُ النملِ، جعَلها الله مثالًا؛ إذ لا يُعرفُ في الحيوانِ المتغذِّي المتناسلِ المشهورِ النوعِ والموضعِ أصغرُ منه(١).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ إنَّما قُيِّد بقَولِه تعالى: ﴿فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ تقريبًا لعُقولِ العامَّةِ(٢)، فعبَّر بالأرضِ والسماءِ مع أنَّه سبحانَه لا يغيبُ عنه شيءٌ، لا فيهما، ولا فيما هو خارجٌ عنهما؛ لأنَّ الناسَ لا يشاهدونَ سواهما، وسوَى ما فيهما مِن المخلوقاتِ(٣).

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ فيه إشارةٌ إلى ما في الوجودِ مِن أشياءَ لا تُدرِكُها الأبصارُ، وقد رُئيَ كثيرٌ منها في هذا العَصرِ بالآلاتِ التي تكبِّرُ المرئيَّاتِ أضعافًا كثيرةً، ولم يكُنْ هذا ممَّا يَخطُرُ في البالِ في عصرِ التَّنزيلِ، فهو من دقائقِ تَعبيرِ القُرآنِ، التي تَظهَرُ حِكمتُها للنَّاسِ آنًا بعد آنٍ(٤).

٦- من ظنَّ أنَّ أحدًا مِن الذين لا يؤدُّونَ الواجباتِ، ولا يترُكونَ المُحَرَّماتِ- سواءٌ كان عاقلًا، أو مجنونًا، أو مُولَهًا أو مُتَوَلِّهًا- فمن اعتقَدَ أنَّ أحدًا مِن هؤلاءِ، مِن أولياءِ اللهِ المُتَّقينَ، وحِزبِه المُفلِحينَ، وعبادِه الصَّالحينَ، وجُندِه الغالبينَ، السَّابقينَ المُقَرَّبينَ والمُقتَصدينَ، الذين يرفَعُ الله درجاتِهم بالعِلمِ والإيمانِ، مع كونِه لا يؤدِّي الواجباتِ، ولا يترُكُ المُحَرَّماتِ- كان المُعتَقِدُ لولايةِ مِثلِ هذا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٢٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥١٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٤٠).

كافرًا مرتدًّا عن دينِ الإسلامِ، غيرَ شاهدٍ أنَّ مُحمَّدًا رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، بل هو مكَذِّبٌ لمُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما شَهِدَ به؛ لأنَّ محمَّدًا أخبَرَ عن الله أنَّ أولياءَ اللهِ هم المُتَّقونَ المؤمنونَ؛ قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[1].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فيه أنَّ أهلَ الثَّوابِ لا يحصُلُ لهم خوفٌ في مَحفِلِ القيامةِ، كما قال تعالى أيضًا: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾[2] [الأنبياء: ١٠٣].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ هذه البُشرى مُبيَّنةٌ في مواضِعَ مِن كتابِ الله تعالى، وقد يُرادُ بها متعَلَّقُها الذي يبشَّرونَ به، ولم يُذكَرْ هنا؛ ليشمَلَ كلَّ ما بُشِّروا به في كتابِ الله تعالى، وعلى لسانِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأمَّا البُشرَى في الحياةِ الدُّنيا فأهمُّها البِشارةُ بالنَّصرِ، وبحُسنِ العاقِبةِ في كلِّ أمرٍ، وباستخلافِهم في الأرضِ ما أقاموا شَرعَ اللهِ وسُنَنَه، ونَصَروا دينَه، وأعلَوْا كَلِمتَه، وأمَّا في الآخرةِ فمِن أكمَلِها وأجمَعِها لمعاني الآيةِ لأكمَلِهم قولُه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾[3] [فصلت: ٣٠ - ٣٢].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٤٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٤٢).

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ اشتمَلَ على النجاةِ مِن كلِّ محذورٍ، والظَّفَرِ بكلِّ مَطلوبٍ مَحبوبٍ، وحُصِرَ الفَوزُ فيه؛ لأنَّه لا فوزَ لِغَيرِ أهلِ الإيمان والتَّقوى[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَما تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَما تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَما يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ﴾: على القولِ بأنَّ الضَّميرَ في ﴿مِنْهُ﴾ عائدٌ على شأنٍ، و﴿مِنْ قُرْآنٍ﴾ تفسيرٌ للضَّميرِ؛ فيكون خُصَّ ﴿مِنْ قُرْآنٍ﴾ مِن العمومِ؛ لأنَّ القرآنَ هو أعظَمُ شُؤونِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وتنبيهًا على علُوِّ مَرتبتِه، وعلى القولِ بأنَّه يعودُ على التَّنزيلِ، وفُسِّر بالقرآنِ لأنَّ كلَّ جزءٍ منه قرآنٌ، فيكونُ أُضمِرَ قبلَ الذِّكرِ على سَبيلِ التَّفخيمِ له[٢].

- قولُه: ﴿وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ فيه تعميمٌ للخطابِ بعدَ تخصيصِه بمَن هو رأسُهم؛ ولذلك ذُكِر حيث خصَّ ما فيه فخامةٌ، وذُكر حيث عمَّ ما يتناوَلُ الجليلَ والحقيرَ[٣].

- قولُه: ﴿مِنْ عَمَلٍ﴾ مفعولُ ﴿تَعْمَلُونَ﴾، فهو مَصدرٌ بمعنى المفعولِ، وأُدخِلَت عليه (مِن)؛ لإفادة التَّعميمِ؛ لِيَشمَلَ العملَ الجليلَ والحقيرَ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٥٤)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٧٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٧٨-٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١١٦-١١٧).

والخيرَ والشَّرَّ[(١)]، فدخولُ ﴿مِنْ﴾ التبعيضيَّةِ على النكرةِ المنفيةِ يؤكِّدُ هذا العُمومَ[(٢)].

- قولُه: ﴿وَما يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ﴾ فيه مُواجَهةُ اللهِ تعالى بالخطابِ لرسولِ اللهِ وحدَه؛ تَشريفًا له وتَعظيمًا[(٣)].

- و(مِنْ) في قولِه: ﴿مِنْ مِثْقالِ ذَرَّةٍ﴾؛ لِتَأكيدِ عُمومِ النَّفيِ الَّذي في ﴿وَمَا يَعْزُبُ﴾[(٤)].

- قولُه: ﴿وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ﴾ ناسبَ تقديمُ ﴿وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾؛ لأنَّه ذكَر تعالى أنَّه لا يَغيبُ عن عِلمِه أدقُّ الأشياءِ الَّتي نُشاهِدُها، وهي الذَّرَّةُ، ثمَّ أتى بقولِه: ﴿وَلَا أَكْبَرَ﴾ على سبيلِ إحاطةِ عِلمِه بجَميعِ الأشياءِ؛ فمَن عَلِم أدقَّ الأشياءِ وأخفاها كان عِلمُه مُتعلِّقًا بأكبَرِ الأشياءِ وأظهَرِها[(٥)]، ولأنَّ ذكرَ الأصغرِ هو الأهَمُّ في سياقِ العِلمِ بالخفيِّ، وعَطفَ عليه الأكبَرَ؛ لإفادةِ كونِ الأكبَرِ لا يكبُرُ عليه سُبحانه، كما أنَّ الأصغرَ لا يَعزُبُ عنه[(٦)].

- وفي قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ مناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال اللهُ تعالى هنا: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾، وقال في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢١٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٣٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٧٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢١٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٧٩).
(٦) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٤٠).

سورةِ سبأٍ: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: ٣]، وقال فيما بعدُ: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبأ:٢٢]؛ فقدَّم الأرضَ على السَّماءِ في سورةِ يونُسَ، وعكَس ذلك في الموضِعَين من سورةِ سبأٍ؛ ووجهُ ذلك: أنَّ آيةَ يونُسَ مقصودٌ فيها من تأكيدِ الاستيفاءِ والاستغراقِ ما لم يُقصَدْ في الأُخرَيَين، وإن كان العمومُ مُرادًا في الجميعِ، إلَّا أنَّ آيةَ يونُسَ قضَت بزيادةِ التَّأكيدِ؛ ولذلك تَكرَّرَت فيها معَ ما قبلَها (ما) النَّافيةُ المتلقَّى بها القَسَمُ في قولِه: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ [يونس: ٦١]، فقوَّى بذلك قصْدَ تأكيدِ الاستغراقِ، وتَضمينِ الكلامِ معنى القَسَمِ؛ فقال تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ بزيادةِ (مِن) في الفاعلِ، وهي مقتَضِيةٌ معنى الاستغراقِ في مثلِ هذا. ثمَّ إنَّه قد تَقدَّم قبلَ هذه الآيةِ قولُه تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾؛ فدخولُ (مِن) في المفعولِ في الموضِعَين مِن قولِه: ﴿وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾- حيث زِيدَت في المفعولِ، وهو اسمٌ نَكِرةٌ، وارِدٌ في سياقِ النَّفيِ- وذلك محصِّلٌ للاستغراقِ، ثمَّ حُمِل عليه قولُه تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾؛ فناسبَ هذا تقديمَ ذِكرِ الأرضِ على السَّماءِ؛ لأنَّ السَّماءَ مَصعَدُ الأمرِ ومحَلُّ العُلوِّ ومسكَنُ الملائكةِ، وهي مُشاهَدةٌ لهم ومُستقبَلُ الدَّاعين، منها يُنزَّلُ الأمرُ ورِزقُ العبادِ، وفيها الخزَنةُ مِن الملائكةِ، وإليها يُصعَدُ بأرواحِ المؤمِنين ويَعرُجُ الملائكةُ السَّيَّاحون في الأرضِ المسؤولون

عن أفعالِ العبادِ، فكان العِلمُ بما فيها أجلى وأظهرَ، وكان العلمُ بما في الأرضِ أخفى، وهذا بالنَّظرِ إلينا وبحسَبِ مُتعارَفِ أحوالِنا، وإلَّا فعِلمُ اللهِ سبحانه بما في الأرضِ وما في السَّماءِ سواءٌ، كما أنَّ عِلمَه بالسِّرِّ والجهرِ مُستوٍ: ﴿سَوَاءٌ مِنكُم مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ [الرعد: ١٠]، ولكنَّا إنَّما خُوطِبْنا على أحوالِنا وبما نَتَعاهَدُه ونَتَعارَفُه مِن المعاني والصِّفاتِ؛ ولذلك ورَد في القرآنِ التَّعجُّبُ والدُّعاءُ والتَّرجِّي وغيرُ ذلك، فخُوطِبَ العبادُ بما يتَعارَفون عليه ويَألَفونه فيما بينَهم؛ فلمَّا كانت الأرضُ بالنِّسبةِ إلى اسْمِها- فيما ذكَرْنا- كان أمرُها أخفى، وكان أمرُ السَّماءِ أوضَحَ وأقرَبَ من حيثُ ما ذكَرْنا، خُوطِب الخلقُ على ذلك، فقُدِّم ذِكرُ ما هو عِندَنا كافَّةً أخفى، فقيل عند قصدِ المبالَغةِ في تأكيدِ الاستغراقِ والقسَمِ على ذلك: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾[1] [يونس: ٦١].

وقيل: إنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَر في هذه الآيةِ شَهادتَه على أحوالِ أهلِ الأرضِ وأعمالِهم، ثمَّ وصَل بذلك قولَه: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾ [يونس: ٦١]، ناسَب أن تُقدَّمَ الأرضُ على السَّماءِ في هذا الموضعِ[2].

وقيل: إنَّ تقديمَ الأرضِ هنا؛ لأنَّ ما فيها أعلَقُ بالغرَضِ الَّذي فيه الكلامُ، وهو أعمالُ النَّاسِ فقد قال: ﴿وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾؛ فإنَّهم مِن أهلِ الأرضِ، بخلافِ ما في سورةِ سبأٍ: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٣]؛ فإنَّه لَمَّا كان المقامُ لذِكْرِ عِلمِ الغيبِ، والغيبُ ما غاب عن النَّاسِ، ومُعظمُه في السَّماءِ لاءَم ذلك أنْ قُدِّمَت السَّماءُ على الأرضِ[3]، فاقتضَى حسنُ النظمِ تقديمُها مرتبةً في الذكرِ مع المخاطبينَ الذين هم أهلُها، بخلافِ

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٤٦-٢٤٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٧٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢١٤).

الآيةِ التي في سبأ، فإنَّها منتظمةٌ بقولِه ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ﴾[١]. وقيل: إنَّه قدَّم ذِكْرَ الأرضِ؛ لأنَّ الكلامَ مع أهلِها، وأخَّره في آيةِ سبأٍ وقدَّم السَّماءَ؛ لأنَّها في سِياقِ ثَنائِه تعالى على نفسِه ووَصْفِه بإحاطةِ عِلمِه؛ فناسَب تقديمُ السَّماءِ لأنَّها أعظَم، فإنَّ فيها مِن الشُّموسِ وعَوالِمِها ما يَبعُدُ بعضُه عن بعضٍ مَسافةَ أُلوفٍ[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فيه افتتاحُ الكلامِ بأداةِ التَّنبيهِ ﴿أَلَا﴾؛ للإيماءِ إلى أهميَّةِ شأنِه؛ ولذلك أُكِّدت الجملةُ بـ ﴿إِنَّ﴾ بعدَ أداةِ التَّنبيهِ؛ فصُدِّرَتِ الجملةُ بحَرْفَيِ التَّنبيهِ (أَلَا)، والتَّحقيقِ (إنَّ)؛ لزيادةِ تقريرِ مَضْمونِها[٣].

- قولُه: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فيه تَقْديمُ المُسنَدِ إليه ﴿هُمْ﴾ على الخبَرِ الفِعْليِّ ﴿يَحْزَنُونَ﴾؛ لِتَقويةِ الحُكْمِ الحاصلِ بالخبرِ الفعليِّ، أي: لا يَحصُلُ لهم خوفٌ متمكِّنٌ ثابتٌ يَبقَى فيهم، ولا يَجِدون تَخلُّصًا منه[٤].

٣- قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ فيه التَّعبيرُ بصيغةِ الماضي ﴿وَكَانُوا﴾، وهو يَدُلُّ على أنَّ التَّقْوى مُلازِمةٌ لهم، وجاء بِصيغةِ المضارعِ قولُه: ﴿يَتَّقُونَ﴾، وهو يَدُلُّ على أنَّها مُتجدِّدةٌ منهم؛ ففي قولِه: ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ إشعارٌ بمُصاحبَتِهم للتَّقوى مُدَّةَ حياتِهم؛ فحالُهم في المستقبَلِ كحالِهم في الماضي[٥].

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٦٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٣٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢١٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢١٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢١٨).

٤- قوله تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

- قولُه: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ جملةٌ مُستأنَفةٌ استِئْنافًا بيانيًّا، كأنَّه قيل: هل لهم وراءَ ذلك مِن نِعمةٍ وكَرامةٍ؟ فقيل: لهم ما يَسُرُّهم في الدَّارَين[1].

- وفيه إيثارُ الإبهامِ والإجمالِ في البُشْرى؛ للإيذانِ بكونِه وراءَ البيانِ والتَّفصيلِ[2].

- وجملةُ: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ مُؤَكِّدةٌ لجملةِ: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى﴾ ومُقرِّرةٌ لِمَضمونِها؛ فلذلك فُصِلَت- أي: لم تُعطَفْ بالواوِ[3].

- واختيارُ اسمِ الإشارةِ ﴿ذَلِكَ﴾؛ لأنَّه أجمَعُ لِمَا ذُكِر، وفيه كمالُ تمييزٍ له؛ لزيادةِ تقريرِ مَعناه، وذُكِر ضميرُ الفصلِ ﴿هُوَ﴾ بعدَ اسمِ الإشارةِ ﴿ذَلِكَ﴾؛ لزيادةِ التَّأكيدِ، ولإفادةِ القصرِ، أي: هو الفوزُ العظيمُ لا غيرُه ممَّا يتقلَّبُ فيه المشرِكون في الحياةِ الدُّنيا مِن رزقٍ ومَنَعةٍ وقوَّةٍ[4].

- قولُه: ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ فيه تفسيرٌ لِما أُبهِم فيما سبَق، وهذه الجملةُ والَّتي قَبلَها اعتراضٌ؛ لِتَحقيقِ المبشَّرِ به، وتعظيمِ شأنِه، أو هذه تَذْييلٌ، والسَّابقةُ اعتِراضٌ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٦٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٦٠).

الآيتان (٦٥-٦٦)

﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿يَخْرُصُونَ﴾: أي: يَحْدِسُون ويحزُرونَ، أو يكذِبونَ، لأَنَّ الكاذبَ لا يتحرَّى في الأمورِ، بل يُخمِّنُ ويحزُر، ولا يتحرَّى الحقائقَ، وكلُّ قولٍ عن ظنٍّ وتخمينٍ، يُقال له: خرصٌ، سواءٌ كان ذلك مطابقًا للشيءِ أو مخالفًا له، وأصلُ الخرصِ: حَزْرُ الشَّيءِ[(١)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَوْلُه تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ﴾

﴿وَمَا يَتَّبِعُ﴾: في (ما) وجهان؛ الأول: أن تكونَ نافيةً، و﴿شُرَكَاءَ﴾ مفعولُ ﴿يَتَّبِعُ﴾، ومفعولُ ﴿يَدْعون﴾ محذوفٌ لفَهْمِ المعنى، والتَّقديرُ: وما يتَّبِعُ الذين يَدْعُون مِنْ دون اللهِ آلهةً شُرَكاءَ، ومعنى: وما يتَّبِعونَ شُرَكاء، أي: وما يتَّبِعونَ حقيقةَ الشُّرَكاءِ، وإن كانوا يسمُّونَها شُرَكاءَ. الثاني: أن تكونَ استفهاميَّةً في محلِّ نصبٍ، مفعولٌ مقدَّم لـ﴿يَتَّبِعُ﴾، أي: وأيَّ شيءٍ يتَّبعونَ؟ و﴿شُرَكَاءَ﴾ على هذا مفعولٌ به لـ﴿يَدْعُونَ﴾، وقيل غيرُ ذلك[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٨، ١٩٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٨، ٢٣١، ٣٧٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٥٧)، (تفسير أبي حيان)) (٦/ ٨٤)، ((الدر المصون)) =

المعنَى الإجماليُّ:

يخاطِبُ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مسلِّيًا له عمَّا لَقِيَه من أعدائِه مِن أذًى، فيقولُ له: ولا يَحزُنْك قَولُ المُشرِكينَ، كافترائِهم على اللهِ وتكذيبِهم لك، واستهزائِهم بالحَقِّ؛ لأنَّ اللهَ هو المنفَرِدُ بجميعِ العِزَّةِ في الدُّنيا والآخرةِ، فهو مانِعُك من أذى المُشرِكينَ، وهو السَّميعُ العليمُ.

ويبيِّنُ تعالى أنَّه له كلُّ مَن في السَّمَواتِ ومَن في الأرضِ؛ وأيَّ شيءٍ يتَّبِعُ مَن يدعو غيرَ اللهِ من الشُّرَكاءِ؟ ما يتَّبِعونَ إلَّا الظَّنَّ بلا دليلٍ، وإنْ هم إلَّا يكذِبونَ فيما ينسُبونَه إلى اللهِ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٥) ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا حكَى عن الكفَّارِ شُبهاتِهم المتقَدِّمةَ، وأجاب عنها؛ عدلوا إلى طريقٍ آخَرَ، وهو أنَّهم هدَّدوه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وخوَّفوه بأنَّهم أصحابُ أموالٍ وأتباعٍ، فنسعَى في قَهرِك وفي إبطالِ أمْرِك، فأجاب تعالى عن هذا الطَّريقِ[1].

وأيضًا فإنَّه بعد أن بيَّن اللهُ تعالى لِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حالَ أوليائِه وصِفتَهم وما بشَّرَهم به في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخرةِ، وكونَه لا تبديلَ لِكلماتِه فيما بشَّرَهم ووعَدَهم، كما أنَّه لا تبديلَ لها فيما أَوعَدَ به أعداءَه المُشرِكينَ، وكان هذا يتضَمَّنُ الوعدَ بنَصرِه ونَصرِ مَن آمن له- وهم أولياءُ اللهِ وأنصارُ دينِه- على ضَعفِهم وفَقرِهم، وكانت العِزَّةُ- أي: القوَّةُ والغَلَبةُ- في مكَّةَ لا تزالُ للمُشرِكينَ

= للسمين الحلبي (٦/ ٢٣٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٠/ ٣٦٨).

بكَثرتِهم، وكانوا لغُرورِهم بكَثرتِهم وثَروتِهم يُكَذِّبونَ بوَعدِ الله، وكان ذلك يَحزُنُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- قال تعالى مسلِّيًا له ومؤكِّدًا وَعدَه له ولأوليائِه، ووعيدَه لأعدائِهم وأعدائِه(١):

﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾.

أي: ولا يُحْزِنْك- يا مُحمَّدُ- قَولُ المُشركينَ، كافترائِهم على اللهِ، وتكذيبِهم لك، واستهزائِهم بالحَقِّ(٢).

﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾.

أي: فإنَّ اللهَ هو المُنفَرِدُ بجميعِ العِزَّةِ في الدُّنيا والآخرةِ، فله وَحْدَه القوَّةُ الكامِلةُ، والقُدرةُ التامَّةُ، والغَلَبةُ الشَّامِلةُ، فهو ناصِرُك ومُعينُك، ومانِعُك مِن أذى المُشرِكينَ- يا مُحمَّدُ- وهو القادِرُ على عقابِهم، والانتقامِ منهم، حتى تصيرَ أعَزَّ منهم(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٢٦)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٥١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٨).

قال ابنُ عاشورٍ: (وَصِيغَةُ ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ﴾ خطابٌ للنَّبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وظاهِرُ صِيغَتِه أنَّه نهيٌ عن أنْ يُحْزِنَ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم كلامُ المشركينَ، معَ أنَّ شأنَ النَّهيِ أنْ يَتَوجَّه الخطابُ به إلى مَن فعَل الفعلَ المنهيَّ عنه، ولكنَّ المقصودَ من مثلِ هذا التَّركيبِ نهيُ النَّبي- عليه الصَّلاةُ والسَّلام- عن أنْ يتأثَّر بما شأنُه أنْ يُحزِنَ النَّاسَ من أقوالِهم، فلمَّا وجَّه الخطابَ إليه بالنَّهيِ عن عملٍ هو مِن عملِ غيرِه تعيَّنَ أنَّ المرادَ بذلك الكنايةُ عن نهيِه هو عن حصولِ ذلك الحزنِ في نفسِه بأنْ يصرفَ عن نفسِه أسبابَه وملزوماتِه، فيؤول إلى معنًى لا تترُكْ أقوالَهم تُحْزِنك). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢١).

والوقفُ يكون على كلمةِ ﴿قَوْلُهُمْ﴾، والابتداءُ يكونُ بقولِه: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾؛ لكي لا يُتوهَّمَ أنَّ جملةَ ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ مِن قولِهم. يُنظر: ((إيضاح الوقف والابتداء)) للأنباري (٢/ ٧٠٧)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (١/ ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٢٦)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٢)، ((تفسير =

﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

أي: وهو- سُبحانَه- السَّميعُ لأقوالِ عِبادِه، العليمُ بأحوالِهم، ومن ذلك سَماعُه لأقوالِ المُشرِكينَ، وعِلمُه بأعمالِهم، وما في قُلوبِهم، فيُجازيهم بذلك، ويدفَعُ عنك أذاهم- يا مُحمَّدُ- فاكتفِ بعِلمِ اللهِ وكفايتِه عزَّ وجلَّ[١].

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّ العِزَّةَ له، وهي القَهرُ والغَلَبةُ- ذكَرَ ما يُناسِبُ القَهرَ، وهو كَونُ المخلوقاتِ مِلكًا له تعالى[٢]، فقال:

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: ألا إنَّ لله كلَّ مَن في السَّمواتِ وكُلَّ مَن في الأرضِ، فهم مِلكُه، يتصَرَّفُ فيهم كيف يشاءُ، وهو المستَحِقُّ وَحدَه للعبادةِ[٣].

﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ﴾.

أي: وأيَّ شيءٍ يتَّبِعُ هؤلاء الذين يقولونَ: إنَّ لله شُرَكاءَ[٤]؟!

= السعدي)) (ص: ٣٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٢٦)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٢٧)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٠)، ((تفسير آيات =

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾.

أي: ما يتَّبِعُ المُشرِكونَ في دَعواهم الشُّرَكاءَ لله إلَّا مُجَرَّدَ الظَّنِّ بلا دليلٍ، وما هم إلَّا يتقوَّلونَ الكَذِبَ على اللهِ ظنًّا بلا عِلمٍ(١).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ اللامُ في قَولِه: ﴿لِلَّهِ﴾ للمِلكِ، وقد أفاد جعلُ جِنسِ العزَّةِ مِلكًا للهِ أنَّ جميعَ أنواعِها ثابتٌ لله(٢)؛ فالغَلَبةُ والقُوَّةُ والمَنَعةُ لله جميعُها لا يَملِكُ أحَدٌ مِن دُونِه شَيئًا منها، فهو يَهَبُها لِمَن يشاءُ، ويَحرِمُها مَن يشاءُ، وليسَت للكَثرةِ دائمًا كما يدَّعونَ؛ فكم مِن فئةٍ قليلةٍ غَلَبَت فئةً كثيرةً بإذنِ الله، وقد وعدَ بها رسُلَه والذينَ آمَنوا بهم واتَّبعوهم من أوليائِه، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]، و﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]، و﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، فعِزَّتُه تعالى ذاتيَّةٌ له، وعِزَّةُ رَسولِه والمُؤمِنينَ به ومنه عزَّ وجَلَّ، كما قال تعالى:

= أشكلت على كثير من العلماء)) لابن تيمية (١/ ١٤٤- ١٤٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٧٦).

وممن ذهب إلى أنَّ (ما) هنا استفهاميةٌ: ابنُ جرير، ومال إليه ابنُ عطيةَ، واختاره ابنُ تيميةَ. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: إنَّ (ما) نافيةٌ، ومعنَى الآيةِ على ذلك: ما يتَّبعونَ في الحقيقةِ شركاءَ للهِ؛ فإنَّه ليس لله شريكٌ، وإنَّما يتَّبعونَ الظنَّ، وممن ذهب إلى أنَّ (ما) نافيةٌ: الواحدي، وابنُ الجوزي، والقرطبي، ومحمد رشيد رضا، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٥٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٢٧)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢٣).

﴿وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾[1] [آل عمران: ٢٦].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ عبَّرَ بـ (مَن) التي للعُقَلاءِ، والمرادُ كلُّ ما في الكونِ؛ لأنَّ السِّياقَ لِنَفيِ العِزَّةِ عن غَيرِه، والعقلاءُ بها أجدَرُ، فنفيُها عنهم نفيٌ عن غيرِهم بطريقِ الأَوْلى، ثم غُلِّبوا لشَرَفِهم على غيرِهم[2].

وقيل: خص العُقَلاءَ المميِّزين، وهم الملائكةُ والثَّقلان في قوله: ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾؛ لِيُؤذِنَ أنَّ هؤلاء إذا كانوا له وفي مُلكِه فهُم عَبيدٌ كُلُّهم، وهو سبحانه وتعالى ربُّهم، ولا يَصلُحُ أحدٌ مِنهم للرُّبوبيَّةِ، ولا أن يكونَ شَريكًا له فيها، فما وَراءهم ممَّا لا يُعقَلُ أحَقُّ أن لا يكونَ له نِدًّا وشَريكًا، ولِيَدُلَّ على أنَّ مَن اتَّخَذ غيرَه ربًّا مِن ملَكٍ أو إنسيٍّ، فضلًا عن صنمٍ أو غيرِ ذلك، فهو مُبطِلٌ[3].

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

- قولُه: ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ﴾ على القولِ بأنَّ المرادَ بقولِهم بعضُ أفرادِه، وهو التَّكذيبُ والتَّهديدُ، وما يتَشاوَرون به في أمرِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فيكونُ مِن إطلاقِ العامِّ المرادِ به الخاصُّ[4].

- قولُه: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ استئنافٌ بمعنى التَّعليلِ، كأنَّه قيل: ما لي لا أحزَنُ؟ فقيل: إنَّ العزَّةَ للهِ جميعًا؛ تعليلًا لِدَفعِ الحزنِ عنه؛ ولذلك فُصِلَتْ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٧٠).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٥٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٨٣- ٨٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٨٢- ٨٣).

عن جملةِ النَّهي: ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ﴾ ولم تُعطَفْ عليها[١].

- وقولُه: ﴿جَمِيعًا﴾ حالٌ مِن ﴿الْعِزَّةُ﴾ مؤكِّدةٌ لمضمونِ الجملةِ قبْلَها، المفيدِ لاختصاصِه تعالى بجميعِ جنسِ العزَّةِ؛ لِدَفعِ احتمالِ إرادةِ المبالَغةِ في مِلْكِ ذلك الجنسِ[٢].

- وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ مناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال اللهُ تعالى هنا: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يونس: ٦٥]، وقال في سورةِ (المنافقون): ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]؛ لأنَّ المرادَ في سورةِ يونُسَ: العِزَّةُ الخاصَّةُ باللهِ، وهي: عِزَّةُ الإلهيَّةِ، والخَلْقِ والإماتةِ، والإحياءِ والبقاءِ الدَّائمِ، وشِبْهِها، وفي سورةِ (المنافقون) العزَّةُ المشترَكةُ، وهي في حقِّ اللهِ تعالى: القدرةُ والغَلَبةُ، وفي حقِّ رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: عُلُوُّ كَلمتِه، وإظهارُ دينِه، وفي حقِّ المؤمنين: نَصرُهم على الأعداءِ[٣]. وفيه وجهٌ آخَرُ: وهو أنَّ السِّياقَ في يونُسَ سياقُ حمايةِ اللهِ لأوليائِه، فيُفرِدُه بالعِزَّةِ جميعًا- وهي أصلًا للهِ وحدَه، والرَّسولُ والمؤمِنون يَستمِدُّونها منه-؛ لِيُجرِّدَ منها النَّاسَ جميعًا، ومُشرِكو قُريشٍ العُتاةُ داخِلون في النَّاسِ[٤]، فلا مضادَّةَ بينَ قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، وقَولِه: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]؛ لأنَّ عِزَّةَ الرَّسولِ والمؤمنينَ كُلَّها باللهِ، فهي لله[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢١-٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٥١).

(٤) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٨٠٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٧٩)، ويُنظر أيضًا: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥٩).

٢- قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ فيه افتتاحُ الجملةِ بحرفِ التَّنبيهِ ﴿أَلَا﴾، والمقصودُ منه إظهارُ أهمِّيَّةِ العلمِ بمَضمونِها وتَحقيقِه؛ ولذلك عُقِّب بحرفِ التَّأكيدِ ﴿إِنَّ﴾، وزِيدَ ذلك تأكيدًا بتقديمِ الخبَرِ ﴿لِلَّهِ﴾ على الاسمِ ﴿مَنْ﴾ وباجتلابِ لامِ المِلْكِ في ﴿لِلَّهِ﴾[1].

- وابتدأ بالسَّموات؛ لأنَّ مِلكَها يدُلُّ على مِلكِ الأرضِ بطَريقِ الأَولى[2]، وأيضا لعظَمِها، ولأنَّها أشرفُ مِن الأرضِ وأعلَى[3].

- قولُه: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ﴾ على القولِ بأنَّ ﴿مَا يَتَّبِعُ﴾ في مَعْنى الاستفهامِ- أيْ: وأيَّ شيءٍ يتَّبِعون، فـ﴿مَا﴾ استفهامٌ بمعنى الإنكارِ والتَّوبيخِ، فتكونُ اسمًا في موضعِ نصبٍ بـ﴿يَتَّبِعُ﴾، كأنَّه قيل: وأيَّ شيءٍ يتَّبِعُ الَّذين تَدْعونهم شُركاءَ مِن الملائكةِ والنَّبيِّين؛ تقريرًا لكونِهم مُتَّبِعين للهِ تعالى مُطيعين له، وتَوبيخًا لهم على عدَمِ اقتدائِهم بهم في ذلك[4].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((كشف المعاني)) لابن جماعة (ص: ٢٠١)، ((تفسير العثيمين: الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٥٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٢٣٦).

الآيات (٦٧-٧٠)

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿سُلْطَانٍ﴾: أي: حُجَّة، وأصْلُ السُّلطانِ: القوَّةُ والقهرُ، من التَّسلُّط؛ ولذلك سُمِّي السُّلطانُ سُلطانًا(١).

﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾: أي: تهدءُوا فيه مِن التصرُّفِ والحركةِ، وتستقرُّوا لراحةِ أبدانِكم، والسُّكونُ: ثبوتُ الشيءِ بعدَ تحرُّكٍ، وأصلُ (سَكَنَ): يَدُلُّ على خِلافِ الاضْطِرابِ والحركةِ(٢).

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ اللهُ تعالى النَّاسَ مبينًا بعضَ مظاهرِ نِعمِه عليهم، فيقولُ: إنَّه وَحْدَه الذي خلَقَ لهم اللَّيلَ؛ لأجلِ أن يَهدَؤوا ويَستَريحوا فيه مِن العَناءِ والتَّعَب، وجعَلَ لهم النَّهارَ مُضيئًا؛ لِيَسعَوْا لطَلَبِ رزقِهم، وقَضاءِ حَوائِجِهم، إنَّ في ذلك لدَلالاتٍ للَّذينَ يَسمَعونَ آياتِ اللهِ، ويَعتَبِرونَ بها.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٧، ٤٢٠، ٧٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٢٧) (١٨/ ٣٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٧).

ثمَّ بيَّنَ تعالى أنَّ مُشركي العرَبِ زَعَموا أنَّ لله ولدًا، تنزَّه سُبحانَه عن ذلك، هو الغنيُّ عن الزَّوجةِ والوَلَدِ، وعن جميعِ خَلْقِه، له جميعُ ما في السَّمَواتِ وما في الأرضِ، فكيف يكونُ له ولَدٌ ممَّن خلَقَ، وكلُّ شَيءٍ مملوكٌ له؟ وليس عند هؤلاء المُشركينَ دليلٌ على أنَّ الله اتَّخذَ ولدًا مِن خَلْقِه، أيقولونَ على الله ما لا يعلمونَ حَقيقتَه وصِحَّتَه؟

ثمَّ وجَّه سُبحانه الخطابَ إلى نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: قلْ- يا محمَّدُ-: إنَّ الذينَ يَختَلِقونَ على الله الكَذِبَ لا يَفوزونَ في الدُّنيا ولا في الآخرةِ، لهم في الدُّنيا متاعٌ قليلٌ، ثمَّ إلينا مَصيرُهم، ثمَّ نُذيقُهم في النَّارِ العذابَ المُوجِعَ؛ بسبَبِ كُفرِهم بالله.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها استدلالٌ على مَضمونِ ما قَبلَها مِن نَفيِ وُجودِ شُرَكاءَ له في الخلقِ والتَّقديرِ، ولا بالشَّفاعةِ عنده في التصَرُّفِ والتَّدبيرِ؛ فهو الذي جعلَ لكم الوقتَ قِسمَينِ بمقتضى عِلمِه ومَشيئتِه بدونِ مُساعدٍ ولا شفيعٍ، بل بمَحضِ الحِكمةِ البالغةِ والرَّحمةِ الشَّاملةِ؛ أحدُهما: اللَّيلُ، جعَلَه مُظلِمًا لأجلِ أن تسكُنوا فيه بعد طولِ الحَرَكةِ والتقلُّبِ في الأرضِ، تستريحونَ مِن التَّعَبِ في طلَبِ الرِّزقِ، وثانيهما: النَّهارُ، جعَلَه مُضيئًا ذا إبصارٍ لتَنتَشِروا في الأرضِ، وتقوموا بجميعِ أعمالِ العُمرانِ والكَسبِ[1].

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٧١).

أي: اللهُ وَحْدَه هو الذي خلَقَ لكم - أيُّها النَّاسُ - اللَّيلَ؛ لأجل أن تَهدَؤوا عن الحَرَكةِ، وتستريحوا فيه مِن العَناءِ والتَّعَب، وجعل لكم النَّهارَ مُضيئًا تُبصِرونَ فيه لِمَعاشِكم، وقضاءِ حوائِجِكم[1].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾.

أي: إنَّ في اختلافِ حالِ اللَّيلِ والنَّهارِ بالظُّلمةِ والضِّياءِ، واختلافِ حالِ أهلِهما فيهما بالسُّكونِ والحَرَكةِ، لدَلالاتٍ للَّذينَ يَسمَعونَ آياتِ الله ويَعُونَها، فيَقبلونَها، ويعتَبِرونَ بها على عَظَمتِه وعِلمِه، وقُدرتِه ورَحمتِه، وحِكمَتِه واستحقاقِه وَحْدَه للعبادةِ[2].

كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٥- ٦].

وقال سُبحانه: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النمل: ٨٦].

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨)﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٢٧، ٢٢٨)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٥٤، ٢٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٢٨)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٥٥، ٢٥٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦١)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٠٣، ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢٧، ٢٢٨).

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾.

أي: قال مُشرِكو العَرَبِ: الملائكةُ بناتُ اللهِ[(١)]!!

﴿سُبْحَانَهُ﴾.

أي: تنزَّه اللهُ عن أن يكونَ له ولَدٌ[(٢)].

﴿هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

أي: اللهُ هو الغنيُّ عن الزَّوجةِ والوَلَدِ، وعن جميعِ خَلْقِه، له جميعُ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ، خَلقًا ومُلكًا وتصرُّفًا، فكيف يَحتاجُ إلى شيءٍ مِن خَلْقِه، وكيف يتَّخِذُ منهم ولدًا[(٣)]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٥٦)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٢٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢٩).
وممن اختار أنَّ الضميرَ في ﴿قَالُوا﴾: عائدٌ على المشركينَ الذين قالوا: الملائكةُ بناتُ الله: ابنُ جريرٍ، والواحدي، والبغوي وابنُ عطيةَ، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: المصادر السابقة.
قال ابنُ عطيةَ: (الضَّميرُ في ﴿قَالُوا﴾ للكفَّارِ العَرَب، وذلك قولُ طائفةٍ منهم: الملائكةُ بناتُ الله، والآيةُ بعدُ تعُمُّ كُلَّ مَن قال نحو هذا القَولِ، كالنصارى ومن يُمكِنُ أن يعتَقِدَ ذلك مِن الكَفَرةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣١).
ومِن المفسِّرين مَن جعَل الضميرَ في ﴿قَالُوا﴾ عائدًا على مَن نسَب إلى الله الولدَ، ممن قال: الملائكةُ بناتُ الله، أو عزيرٌ ابنُ الله، أو المسيحُ ابنُ الله. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٨٥)، ((تفسير المنار)) (١١/ ٣٧٢).
وقال الرازي: (ويحتمِلُ أن يكونَ قد كان فيهم قومٌ مِن النَّصارَى قالوا ذلك). ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٨٠).
لكن قال ابنُ عاشورٍ بعدَ أن بيَّن أنَّ الضميرَ في ﴿قَالُوا﴾ يعودُ إلى الذين يَدْعون مَن دونِ الله شركاءَ، قال: (وليسَ المرادُ مِن الضميرِ غيرَهم مِن النَّصارى؛ لأنَّ السورةَ مكيةٌ، والقرآنُ المكيُّ لم يتصدَّ لإبطالِ زيغِ عقائدِ أهلِ الكتابِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣١)، ((تفسير القرطبي)) =

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٥].

﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بِهَٰذَآ ﴾.

أي: ليس عندكم- أيُّها المشركون- دليلٌ وحجَّةٌ على أنَّ الله اتَّخذ ولدًا مِن خَلْقِه(١).

﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

أي: أتقولونَ- أيُّها المُشرِكونَ- على اللهِ قولًا لا تَعلَمونَ حَقيقتَه وصِحَّتَه، فتنسُبونَ إليه الولَد جهلًا منكم بغيرِ دَليلٍ(٢)؟!

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ الله تعالى لَمَّا بيَّنَ بالدَّليلِ القاهرِ أنَّ إثباتَ الوَلَدِ لله تعالى قولٌ باطِلٌ، ثم بيَّنَ أنَّه ليس لهذا القائلِ دَليلٌ على صِحَّةِ قَولِه، فقد ظهَرَ أنَّ ذلك المذهَبَ افتراءٌ على الله، ونِسْبَة ما لا يليقُ به إليه؛ فبيَّنَ أنَّ مَن هذا حالُه، فإنَّه لا يُفلِحُ البتَّةَ(٣).

= (٨/ ٣٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦١)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٢/ ١٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦١)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٨٢).

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾.

أي: قُلْ- يا مُحمَّدُ-: إنَّ الذين يَكذِبونَ على اللهِ فيَنسُبونَ إليه الولدَ، لا يفوزونَ، ولا يَنجُونَ، ولا يأمنونَ في الدُّنيا ولا في الآخرةِ[1].

﴿ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

﴿ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾.

أي: لهم مَتاعٌ قليلٌ في الدُّنيا يتمَتَّعونَ به إلى انقضاءِ آجالِهم، ثمَّ إلينا مَصيرُهم بعد مَوتِهم[2].

﴿ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾.

أي: ثمَّ نُذيقُهم في النَّارِ العذابَ الغليظَ المُوجِعَ؛ بسبَبِ كُفرِهم باللهِ في الدُّنيا[3].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ مِن لطائفِ المُناسَبة أنَّ النورَ الذي هو كيفيَّةُ زَمَنِ النَّهارِ، شيءٌ وُجوديٌّ، فكان زمانُه حقيقًا بأن يُوصَفَ بأوصافِ العُقَلاءِ، بخلافِ اللَّيلِ؛ فإنَّ ظُلمَتَه عَدَميَّةٌ، فاقتُصِرَ في العبرةِ به على ذِكرِ الفائدةِ الحاصلةِ فيه، وهي أن يسكُنوا فيه[4].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٣)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٥٧)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٢٨)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦١)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢٧).

٢- إن قيل: إنَّ قَولَ الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ يدلُّ على أنَّه تعالى ما خلَقَ اللَّيلَ إلَّا لهذا الوجهِ، وقولَه: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ يدلُّ على أنَّه تعالى أراد بتخليقِ اللَّيلِ والنَّهارِ أنواعًا كثيرةً مِن الدلائلِ، فالجوابُ: أنَّ قَولَه تعالى: ﴿لِتَسْكُنُوا﴾ لا يدلُّ على أنَّه لا حِكمةَ فيه إلَّا ذلك، بل ذلك يقتضي حصولَ تلك الحكمةِ، أمَّا قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ فالمرادُ: يتدبَّرونَ ما يَسمَعونَ ويَعتَبِرونَ به[1].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ يدلُّ على أنَّ صِفةَ العبوديَّةِ تُنافي صِفةَ البُنُوَّةِ، ويؤخَذُ مِن هذا أنَّ الوَلَدَ لا يُستَرَقُّ لأبيه ولا لأُمِّه؛ ولذلك يُعتَقُ الولدُ على مَن يَملِكُه مِن أبٍ أو أمٍّ وإنْ عَلَيا[2].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ في هذه الآيةِ سَمَّى اللهُ تعالى الحُجَّةَ العِلميَّةَ سُلطانًا؛ لأنَّها تُوجِبُ تسَلُّطَ صاحِبِها واقتدارَه، فله بها سُلطانٌ على الجاهلينَ، بل سُلطانُ العِلمِ أعظَمُ مِن سُلطانِ اليَدِ، ولهذا ينقادُ النَّاسُ للحُجَّة ما لا ينقادونَ لليَدِ؛ فإنَّ الحُجَّةَ تنقاد لها القلوبُ، وأمَّا اليدُ فإنَّما ينقادُ لها البدنُ، فالحجَّةُ تأسِرُ القلبَ وتقودُه، وتُذِلُّ المُخالِفَ، وإن أظهَرَ العِنادَ والمكابرةَ، فقَلبُه خاضِعٌ لها ذليلٌ، مقهورٌ تحت سُلطانِها، بل سلطانُ الجاهِ إن لم يكُن معه عِلمٌ يُساسُ به فهو بمَنزلةِ سُلطانِ السِّباعِ والأُسودِ ونحوِها، قُدرة بلا عِلمٍ ولا رحمةٍ، بخلافِ سُلطانِ الحُجَّة، فإنَّه قُدرةٌ بعِلمٍ ورحمةٍ وحِكمةٍ، ومَن لم يكن له اقتدارٌ في عِلمِه، فهو إمَّا لِضَعفِ حُجَّتِه وسُلطانِه، وإمَّا لِقَهرِ سُلطانِ اليَدِ والسَّيفِ له، وإلَّا فالحُجَّةُ ناصرةٌ نَفسَها،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٨٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٣١).

ظاهِرةٌ على الباطِلِ، قاهِرةٌ له[١].

٥- قال الله تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ لما نفَى البُرهانَ عنهم جعَلَهم غيرَ عالِمينَ، فدلَّ على أنَّ كُلَّ مَقالةٍ لا دليلَ عليها ولا برهان، فهي جَهالةٌ، وليسَتْ مِن العلمِ في شيءٍ[٢].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ لا يختَصُّ هذا الوعيدُ بالصورةِ المذكورةِ، بل كلُّ من قال في ذاتِ اللهِ تعالى وفي صفاتِه قَولًا بغيرِ عِلمٍ وبِغَيرِ حُجَّةٍ بيِّنةٍ؛ كان داخلًا في هذا الوعيدِ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾

- قولُه: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾: فيه طريقٌ مِن طُرقِ القَصرِ، وهو تعريفُ المسنَدِ والمسنَدِ إليه ﴿هُوَ الَّذِي﴾، وهو هنا قصرٌ حقيقيٌّ[٤].

- وذكَر عِلَّةَ خلقِ اللَّيلِ فقال: ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾، وحذَفها من النَّهارِ، وذكَر وصْفَ النَّهارِ ﴿مُبْصِرًا﴾ وحذَفه مِن اللَّيلِ، وكلٌّ مِن المحذوفِ يدُلُّ على مُقابِلِه، والتَّقديرُ: جعَل اللَّيلَ مُظلِمًا؛ لِتَسكُنوا فيه، والنَّهارَ مُبصِرًا؛ لِتتحرَّكوا فيه في مَكاسِبِكم وما تَحتاجون إليه بالحرَكةِ، وهو مِن بابِ الاحتباكِ؛ حيث حَذَفَ مِن كُلٍّ مِن آيَتَي اللَّيلِ والنَّهارِ ما أثبَتَ مُقابِلَه في الأُخرَى، والعَكس[٥].

---

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٦٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٨٤، ٨٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٧٢).

- قولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ ما في اسمِ الإشارةِ ﴿ذَلِكَ﴾ مِن معنى البُعدِ؛ للإيذانِ ببُعدِ مَنزلةِ المشارِ إليه، وعُلوِّ رُتبتِه(١).

- وقولُه: ﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ فيه تخصيصُ الآياتِ بالَّذي يَسمَعون معَ أنَّها منصوبةٌ لِمَصلحةِ الكلِّ؛ لأنَّهم المنتَفِعون بها(٢)، وفي وَصْفِ القومِ بأنَّهم يَسمَعون إشارةٌ إلى أنَّ تلك الآياتِ والدَّلائلَ تَنهَضُ دَلالتُها للعُقولِ بالتَّأمُّلِ فيها، وأنَّ توجُّهَ التَّفكيرِ إلى دَلائلِها غيرُ مُحتاجٍ إلَّا إلى التَّنبيهِ عليها، ولَفْتِه إليها، والوصفُ بالسَّمعِ تعريضٌ بأنَّ الَّذين لم يَهتَدوا بها، ولا تَفطَّنُوا لِدَلالتِها بمَنزِلةِ الصُّمِّ، كقولِه تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾(٣) [الزخرف: ٤٠].

٢- قوله: ﴿قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَما فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بِهذا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيهٌ وتقديسٌ له عمَّا نَسَبوا إليه، وتعجُّبٌ مِن كَلمَتِهم الحمقاءِ(٤).

- قولُه: ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ علَّةٌ لِنَفيِ الولَدِ؛ لأنَّ ما يُطلَبُ به الولَدُ مَن يَلِدُ، وما يَطلُبُه له السَّببُ في كلِّه الحاجةُ، فمَنِ الحاجةُ منتفِيَةٌ عنه كان الولَدُ عنه مُنتفِيًا(٥).

- وجملةُ: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ مُقرِّرةٌ لوصفِ الغِنى بأنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٦٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٨٥).

ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ مِلكُه[١].

- ولَمَّا كان سياقُ الاستدلالِ يَقتَضي التَّأكيدَ، أعاد (ما) فقال: ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾[٢].

- قولُه: ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾ فيه الْتِفاتٌ مِن الغيبةِ إلى الخطابِ؛ لِمَزيدِ المبالَغةِ في الإلزامِ والإفحامِ[٣].

- و﴿مِنْ﴾ في قولِه: ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾؛ لتأكيدِ النَّفيِ بالاستغراقِ، أي: استغراقِ نفيِ جميعِ أنواعِ الحجَّةِ قَوِيِّها وضَعيفِها، عَقْلِيِّها وشَرعيِّها[٤].

- وقولُه: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ استفهامٌ مستعمَلٌ في التَّوبيخِ والتَّقريعِ على جَهلِهم واختلافِهم[٥].

٣- قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾

- قولُه: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ فيه تلوينٌ للخِطابِ، وتوجيهٌ له إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لِيُبيِّنَ لهم سوءَ مَغبَّتِهم، ووَخامةَ عاقِبَتِهم[٦].

٤- قوله تعالى: ﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾

- قولُه: ﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ القضاءَ عليه بعدَمِ الفلاحِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٣١).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٥٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٦٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٣١).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٦٣).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤ / ١٦٣).

يتَوجَّه عليه أن يَسأَلَ سائلٌ: كيف نَراهم في عِزَّةٍ وقُدرةٍ على أذى المسلِمين، وصدِّ النَّاسِ عن اتِّباعِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم؟! فهو جوابٌ على تقديرِ سؤالٍ، أنَّ قائلًا قال: كيف لا يُفلِحون وهم في الدُّنيا مُفلِحون بأنواعٍ ممَّا يتَلذَّذون به؟! فيُجابُ السَّائلُ بأنَّ ذلك تَمتيعٌ في الدُّنيا لا يُعبأُ به، أو لهم مَتاعٌ في الدُّنيا زائلٌ لا بقاءَ له، ثمَّ يَلْقَون الشَّقاءَ المؤبَّدَ في الآخرةِ، وإنَّما عدَمُ الفلاحِ مَظهَرُه الآخرةُ[١].

- ومادَّةُ (متع) مُؤذِنةٌ بأنَّه غيرُ دائمٍ، وتنكيرُه مؤذِنٌ بتقليلِه، وتقييدُه بأنَّه ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ مؤكِّدٌ للزَّوالِ وللتَّقليلِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٣٣).

الآيات (٧١-٧٣)

﴿ ۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿كَبُرَ﴾: أي: شَقَّ، وعَظُمَ وصَعُبَ. وأصلُ (كبر): يدلُّ على خِلافِ الصِّغَر[١].

﴿مَقَامِي﴾: أي: لُبثي وطولُ مُكثي بينَ أظهرِكم، وقيل: المرادُ بالمَقامِ القيامُ؛ أي: قيامي لوعظِكم؛ لأنَّ الواعظَ يقومُ حالَ وعظِه، والمَقامُ يكونُ مصدرًا، واسمَ مكانِ القيامِ، وزمانِه، وأصلُ (قوم): يدلُّ على انْتِصابٍ أو عَزْمٍ[٢].

﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ﴾: أي: فأعِدُّوا أمْرَكم، واعْزِموا على ما تُقْدِمون عليه في أمري، يُقالُ: أَجْمَعْتُ على كذا، بمعنَى: عَزَمْتُ عليه، وأَجْمَعْتُ كذا: أكثرُ ما يُقالُ فيما يكونُ جمعًا يُتوصَّلُ إليه بالفكرةِ، وأصل (جمع): يَدُلُّ عَلَى تَضامِّ الشَّيْءِ[٣].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠١).

﴿غُمَّةً﴾: أي: مُلتَبِسًا مُشكِلًا مُبهَمًا. وأصلُ (غم): يدُلُّ على تَغطيةٍ وإطباقٍ(١).

﴿اقْضُوا إِلَيَّ﴾: أي: أمضُوا إليَّ ما في أنفُسِكم وافرُغُوا منه. وأصلُ (قضي): يدلُّ على إنفاذِ أمرٍ لجِهَتِه(٢).

﴿تُنْظِرُونِ﴾: أي: تؤخِّرونِ، وأصلُ (نظر): يدلُّ على انتظارٍ(٣).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾

﴿وَشُرَكَاءَكُمْ﴾: مَنصوبٌ عطفًا على ﴿أَمْرَكم﴾ بتقديرِ حذفِ مُضافٍ، أي: وأمْرَ شركائِكم، وإنَّما قُدِّر مضافٌ محذوفٌ؛ لأنَّ الأكثَرَ أنَّ فِعلَ (أَجْمع) يُستعمَلُ في المعاني، و (جَمَع) يُستعمَلُ في الأعيانِ، فيُقال: أجمعَ أمْرَه، وجَمَع شُركاءَه. وقيل: إنَّه منصوبٌ بإضمارِ فعلٍ لائقٍ، أي: واجْمَعوا أو ادْعُوا شُركاءَكم. وقيل: إنَّه مفعولٌ معه، والواوُ هنا واو المعيَّةِ(٤).

المَعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يتلوَ على كفَّارِ مَكَّةَ خبَرَ نُوحٍ عليه السَّلامُ مع قومِه حين قال لهم: إنْ كان عَظُمَ عليكم وُجودي بين أظهُرِكم،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٧٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٩٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٥).

(٣) ينظر ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣١).

(٤) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣٤٩-٣٥٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٦٨٠-٦٨١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٢٤٠-٢٤٢)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٦٩).

وتذكيري إيَّاكم بحُجَجِ اللهِ وبراهينِه، فعلى اللهِ توكَّلتُ، فأعِدُّوا أمْرَكم، وادعُوا شُرَكاءَكم لإعانتِكم، ثمَّ لا تجعَلوا أمْرَكم عليكم مُستَتِرًا مُشكِلًا، ثمَّ أَمضُوا إليَّ ما في أنفُسِكم، ولا تُمهِلوني، فإن أعرَضتُم عن دَعوتي، فإنَّني لم أسأَلْكم عليها أجرًا؛ لأنَّ ثوابي عند ربِّي وأجري عليه سُبحانَه، وأُمِرتُ أن أكونَ مِن المُسلِمينَ.

ثمَّ أخبَرَ تعالى أنَّ نوحًا كذَّبَه قومُه، فنجَّاه اللهُ هو ومَن معه في السَّفينةِ، وجعَلَهم يَخْلُفونَ المكَذِّبينَ في الأرضِ، وأغرقَ الذين جَحَدوا حُجَجَه، ثمَّ أمرَ الله تعالى نبيَّه مُحمَّدًا أن يتأمَّلَ كيف كان عاقبةُ القَومِ الذين أنذَرَهم رسولُهم عذابَ اللهِ وبأسَه؟

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةً ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ (٧١) ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ سُبحانَه وتعالى الدَّلائِلَ على وحدانيَّتِه، وذكَرَ ما جرى بين الرَّسولِ والكفَّارِ؛ ذكَرَ قَصصًا مِن قَصَصِ الأنبياءِ، وما جرَى لهم مع قَومِهم من الخِلافِ؛ وذلك تسليةٌ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولِيَتأسَّى بمَن قَبلَه من الأنبياءِ، فيَخِفَّ عليه ما يلقَى مِن التَّكذيبِ، وقِلَّةِ الأتباعِ، ولِيَعلَمَ المتلوُّ عليهم هذا القَصَصُ عاقبةَ مَن كذَّبَ الأنبياءَ، وما منح اللهُ نبيَّه مِن العلمِ بهذا القَصَصِ، وهو لم يُطالِعْ كتابًا، ولا صَحِبَ عالِمًا، وأنَّها طِبقُ ما أخبَرَ به، فدلَّ ذلك على أنَّ اللهَ أوحاه إليه، وأعلَمَه به، وأنَّه نبيٌّ لا شَكَّ فيه[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٨٦).

وأيضًا فهي انتقالٌ مِن مُقارعةِ المُشرِكينَ بالحُجَج السَّاطعةِ على بُطلانِ دينِهم، وبالدَّلائِلِ الواضحةِ على تفنيدِ أكاذيبِهم وتكذيبِهم، وما تخلَّلَ ذلك مِن الموعظةِ والوعيدِ بالعذابِ العاجِلِ والآجِلِ، إلى التَّعريضِ لهم بذِكرِ ما حَلَّ بالأُمَمِ المُماثلةِ أحوالُها لأحوالِهم؛ استِقصاءً لطرائِقِ الحِجاجِ على أصحابِ اللَّجاجِ، ففي ذِكرِ عاقِبةِ قَومِ نُوحٍ عليه السَّلامُ تعريضٌ للمُشرِكينَ بأنَّ عاقِبتَهم كعاقبةِ أولئك، أو أنَّهم إنَّما يُمتَّعونَ قليلًا، ثم يُؤخَذونَ أخذةً رابيةً، كما مُتِّعَ قَومُ نوحٍ زمنًا طويلًا، ثمَّ لم يُفلِتوا من العذابِ في الدُّنيا، فذكَرَ قِصَّةَ نُوحٍ مع قومِه عِظةً للمُشرِكينَ، ومُلقيًا بالوَجَلِ والذُّعرِ في قلوبهم، وفي ذلك تأنيسٌ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم وللمُسلمينَ بأنَّهم أُسوةٌ بالأنبياءِ والصَّالحينَ مِن أقوامِهم(١).

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ﴾.

أي: واقرأْ- يا مُحمَّدُ- على قَومِك المُشرِكينَ خَبَرَ نوحٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مع قَومِه الذينَ كذَّبوه فأهلَكَهم اللهُ؛ لِيَحذَرَ قومُك من أن يُصيبَهم اللهُ بعِقابِه(٢).

﴿إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ﴾.

أي: حين قال لِقَومِه: يا قومي، إن كان عَظُم وثقُلَ عليكم لُبثي بين أظهُرِكم، وشَقَّ عليكم وَعظي إيَّاكم بالدَّلائِلِ والبراهينِ الإلهيَّةِ، فعَزَمتُم على أن تنالوني بسوءٍ- فَعَلى اللهِ اعتمَدْتُ؛ فهو مَن ينصُرُني، ويمنَعُ أذاكم عني(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٣٤-٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٩).

كما قال تعالى: ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ * قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ * فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦ - ١١٨].

﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾.

أي: فأعِدُّوا أمْرَكم، واعزِموا جميعًا على إيذائي، وادعُوا مَن تدعونَ مِن دونِ اللهِ لإعانتِكم[(١)].

﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾.

أي: ثمَّ لا يكُنْ أمرُكم خفيًّا مُشكِلًا، فيه لبسٌ عليكم[(٢)].

﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾.

أي: ثمَّ أَمضُوا ما تحدِّثونَ أنفسَكم به فيَّ، وأنفِذوا قضاءَكم نَحوي، وافرُغُوا مِن أمري، ولا تُمهِلوني[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣١، ٢٣٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٣٨، ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٩).

قال القرطبي: (أي: لِيَكنْ أمرُكم ظاهرًا مُنكَشِفًا، تتمَكَّنونَ فيه ممَّا شِئتُم، لا كمَن يخفَى أمرُه، فلا يقدِرُ على ما يُريدُ). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٣).

وقال ابنُ كثير: (أي: ولا تجعَلوا أمرَكم عليكم مُلتَبِسًا، بل افصِلوا حالَكم معي). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٣).

وقال محمد رشيد رضا: (أي: خفيًّا فيه شيءٌ مِن الحَيرةِ أو اللَّبسِ الذي يقتضي الترَدُّدَ في الإنفاذِ بعد العزمِ والإجماعِ، بل كونوا على عِلمٍ وبصيرةٍ فيه؛ لكيلا تتحَوَّلوا عنه بظهورِ الخطأِ أو الترَدُّدِ في كونِه هو الصَّوابَ). ((تفسير المنار)) (١١/ ٣٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٣)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٩).

﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ﴾.

أي: قال نوحٌ لِقَومِه: فإن أعرَضْتُم- يا قومِ- عن دَعوتي لكم إلى توحيدِ اللهِ وطاعتِه، فإنِّي لم أسألْكم على دَعوتي مالًا، حتى تُعرِضوا عن الحَقِّ(١).

﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ﴾.

أي: ما ثَوابي على دَعوتِكم إلى الحَقِّ إلَّا على اللهِ الذي أرسَلَني إليكم، ولا أريدُ ثوابًا مِن غيرِه(٢).

﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾.

أي: وأمَرَني اللهُ أن أكونَ مِن المُستَسلمينَ له، الموحِّدينَ المُنقادينَ له بالطَّاعةِ، وأنا مُمتَثِلٌ ما أمَرَني به(٣).

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا حكى الكَلِماتِ التي جَرَت بينَ نوحٍ وأولئك الكُفَّار، ذكَرَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٥، ٢٣٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٣، ٢٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٤١، ٢٤٢).

ما إليه رجعَتْ عاقِبةُ تلك الواقِعةِ، أمَّا في حقِّ نوحٍ وأصحابِه فأمرانِ؛ أحدُهما: أنَّه تعالى نجَّاهم مِن الكُفَّارِ. الثاني: أنَّه جعَلَهم خلائِفَ بمعنى أنَّهم يَخلُفونَ مَن هلك بالغَرَق، وأمَّا في حَقِّ الكُفَّار فهو أنَّه تعالى أغرَقَهم وأهلَكَهم(١).

﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ﴾.

أي: فكذَّب نوحًا قومُه، فنجَّيناه مِن الغَرَق هو ومَن معه على دينِه، ممَّن حُمِلَ معه في السَّفينةِ(٢).

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾.

أي: وجَعَلْنا مَن نجَّينا في السَّفينةِ مع نوحٍ خلائِفَ في الأرضِ، يخلُفُ بَعضُهم بعضًا بعد إغراقِ قَومِ نُوحٍ(٣).

﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾.

أي: وأغرَقْنا بالطُّوفانِ قَومَ نوحٍ؛ لأنهم كذَّبوا برسالةِ نوحٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ(٤).

كما قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٤)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٥٠).
قال ابن عطية: (الفُلْك: السَّفينةُ، والمفسِّرونَ وأهلُ الآثارِ مُجمِعونَ على أنَّ سَفينةَ نُوحٍ كانت واحدةً). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٣).
وكلمة (فُلْك) تُستعمَلُ للواحِدِ وللجمعِ. يُنظر: المصدر السابق، و((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٦)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٢٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٧٨).

وقال سُبحانه: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ﴾ [الفرقان: ٣٧].

﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾.

أي: فانظُرْ- يا محمَّدُ- كيف كان آخِرُ أمرِ القَومِ الذين أنذَرَهم نوحٌ عِقابَنا على شِرْكِهم باللهِ وتكذيبِهم لِرَسولِه؛ أعقَبَهم ذلك أنَّا أهلَكْناهم[1].

كما قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ أصحابُ الدَّعوةِ إلى اللهِ لهم أُسوةٌ حسَنةٌ في رسلِ اللهِ، وإنَّه لَيَنبغي لهم أن تمتَلِئَ قلوبُهم بالثِّقةِ حتى تَفيضَ، وإنَّ لهم أن يتوكَّلوا على الله وَحْدَه في وجهِ الطَّاغوتِ أيًّا كان! ولن يضُرَّهم الطاغوتُ إلَّا أذًى؛ ابتلاءً من اللهِ، لا عجزًا منه سُبحانه عن نُصرةِ أوليائِه، ولا تَركًا لهم لِيُسلِمَهم إلى أعدائِه، ولكِنَّه الابتلاءُ الذي يمَحِّصُ القلوبَ والصُّفوفَ، ثم تعود الكَرَّةُ للمؤمنينَ، ويحِقُّ وعدُ اللهِ لهم بالنَّصرِ والتَّمكينِ[2].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، أي: ما أنصَحُكم إلَّا لوجهِ اللهِ تعالى،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٤).

قال ابن عطية: (قوله: ﴿فَانْظُرْ﴾ مخاطبةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُشارِكُه في معناها جميعُ الخَلقِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٨١١).

لا لغَرَضٍ من أغراضِ الدُّنيا، وهكذا ينبغي لكلِّ مَن ينفَعُ النَّاسَ بعِلمٍ أو إرشادٍ إلى طريقِ الله تعالى[1]. فالآية فيها إشارةٌ إلى أنَّه ما أخَذَ منهم مالًا على دَعوتِهم إلى دِينِ اللهِ تعالى، ومتى كان الإنسانُ فارغًا مِن الطَّمَعِ كان قَولُه أقوَى تأثيرًا في القَلبِ[2]، ففي الآيةِ بيانٌ عن إخلاصِ الدُّعاةِ إلى اللهِ جلَّ وعَزَّ، مِن تَرْكِ الأجرِ؛ لتتوَفَّرَ الدَّواعي إلى الحَقِّ، وذلك أنَّ النَّاصِحَ إذا طلَبَ على نُصحِه أجرًا ربَّما كان ذلك سببًا لامتناعِ النَّاسِ عن القَبولِ منه والإقبالِ عليه، وإذا لم يَطلُبِ الأجرَ كان ذلك أدعى إلى قَبولِ قَولِه[3].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ هذا مِن أقوى آياتِ النبوَّةِ؛ أن يقولَ النبيُّ لِقَومِه، وهم متعاوِنونَ عليه: افعلوا بي ما شِئتُم[4].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ ..﴾ هذا وإن كان خبرًا مِن اللهِ تعالى عن نوحٍ، فإنَّه حَثٌّ مِن الله لنبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على التأسِّي به، وتعريفٌ منه سبيلَ الرَّشادِ فيما قلَّدَه من الرِّسالةِ، والبلاغِ عنه[5].

٣- في قولِه تعالى: ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ بيانُ أنَّ تَوَكُّلَ نوحٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ على اللهِ يَدفعُ عنه شرَّ أعدائِه، فقَولُ نوحٍ: ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ لولا

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٣٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٨٥).
(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٧١، ٢٧٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٢٧١).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٥).

أنَّ تَحقيقَه هذه الكَلِمةَ- وهو توكُّلُه على اللهِ- يَدفَعُ ما تحدَّاهم به، ودعاهم إليه تعجيزًا لهم من مناجَزَتِه، لكان قد طلَبَ منهم أن يُهلِكوه، وهذا لا يجوزُ، وهذا طلَبُ تعجيزٍ لهم، فدلَّ على أنَّه بتوكُّلِه على اللهِ يُعجِزُهم عمَّا تحدَّاهم به[1].

٤- قال الله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ...﴾، ومعنى ﴿كَبُرَ عَلَيْكُمْ﴾: ثَقُل عليكم، وشقَّ عليكم، وعَظُمَ أمرُه عندَكم، وسبَبُ هذا الثِّقلِ أمرانِ: أحدهما: أنَّه عليه السَّلامُ مكَثَ فيهم ألفَ سَنَةٍ إلَّا خمسينَ عامًا. والثاني: أنَّ أولئك الكُفَّارَ كانوا قد ألِفُوا تلك المذاهِبَ الفاسِدةَ والطَّرائِقَ الباطلةَ، والغالِبُ أنَّ مَن ألِفَ طريقةً في الدِّينِ، فإنَّه يَثقُلُ عليه أن يُدعى إلى خلافِها، ويُذكرَ له ركاكتُها، فإن اقتَرَنَ بذلك طولُ مُدَّةِ الدعاءِ، كان أثقَلَ، وأشَدَّ كراهيةً، فإن اقتَرَن به إيرادُ الدلائِلِ القاهرةِ على فسادِ تلك المذاهبِ، كانت النُّفرةُ أشَدَّ، فهذا هو السَّبَبُ في حصولِ ذلك الثِّقلِ[2].

٥- بيَّنَ نُوحٌ عليه السَّلامُ أنَّه لا يَخافُ من قومِه بوجهٍ مِن الوجوهِ؛ وذلك لأنَّ الخَوفَ إنَّما يحصُلُ بأحدِ شَيئينِ؛ إمَّا بإيصالِ الشَّرِّ أو بقَطعِ المنافِعِ، فبيَّنَ أنَّه لا يخافُ شَرَّهم بقوله: ﴿إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾، وبيَّن أنَّه لا يخافُ أن يقطَعوا عنه خيرًا؛ لأنَّه ما أخَذ منهم شيئًا، وذلك في قولِه: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾[3].

٦- في قَولِه تعالى عن نوحٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ

---

(١) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٢٨٥).

الْمُسْلِمِينَ﴾ بيانُ أنَّ الإسلامَ هو دينُ الرُّسُلِ كلِّهم؛ أوَّلِهم وآخرِهم، وأنَّهم كلَّهم بُعِثوا بالإسلام(١).

٧- قولُه: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ فيه توعُّدٌ للكفَّارِ بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وضربُ مثالٍ لهم في أنَّهم بحالِ هؤلاء مِن التَّكذيبِ، فسيكونُ حالُهم كحالِهم في التَّعذيبِ(٢).

٨- قولُه: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ تعظيمٌ لما جَرى عليهم، وتحذيرٌ لِمَن أنذَرَهم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن مِثلِه، وتسليةٌ له(٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾

- في افتتاحِ خطابِ نوحٍ عليه السَّلامُ لقومِه بقولِه: ﴿يَا قَوْمِ﴾ إيذانٌ بأهمِّيَّةِ ما سيُلْقيه إليهم؛ لأنَّ النِّداءَ طلَبُ الإقبالِ، واختيارُ التَّعبيرِ عنهم بوصفِ كونِهم قَوْمَه تَحْبيبٌ لهم في نفسِه؛ لِيَأْخُذوا قولَه مأخَذَ قولِ النَّاصحِ المتطلِّبِ الخيرَ لهم؛ لأنَّ المرءَ لا يُريدُ لقومِه إلَّا خيرًا(٤).

- قَولُ الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ...﴾ خَصَّ بالذِّكرِ مِن أحوالِه فيهم تذكيرَه إيَّاهم بآياتِ اللهِ؛ لأنَّ ذلك من أهَمِّ شُؤونِه مع قَومِه، فعَطْفُه مِن عَطفِ الخاصِّ على العامِّ(٥).

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٧/ ١٤٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٨٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٨٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٣٦).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٢٣٧).

- قولُه: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾: صيغةُ الأمرِ في قولِه: ﴿فَأَجْمِعُوا﴾ مُستعمَلةٌ في التَّسويةِ، أي: إنَّ عَزْمَهم لا يَضيره بحيث هو يُغْريهم بأخذِ الأُهْبَةِ التَّامَّةِ لِمُقاوَمتِه، وزاد ذِكْرَ شُركائِهم؛ لِلدَّلالةِ على أنَّه لا يَخْشاها؛ لأنَّها في اعتِقادِهم أشدُّ بَطشًا مِن القومِ، وذلك تَهكُّمٌ بهم(١).

- قولُه: ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ فيه إظهارُ الأمرِ في موقعِ الإضمارِ؛ لزيادةِ تقريرٍ يَقتَضيها مقامُ الأمرِ بالإظهارِ، الَّذي يَستلزِمُه النَّهيُ عن التَّستُّرِ والإسرارِ(٢).

٢- قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ فيه تعميمٌ لنفيِ تَطلُّبِه أجرًا على دَعوتِهم، سواءٌ مِنهم أو مِن غيرِهم؛ فالقَصرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ (إنْ... إلَّا) حقيقيٌّ، وبه يَحصُلُ تأكيدُ جملةِ: ﴿فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ مع زيادةِ التَّعميمِ(٣).

٣- قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ فيه تقديمُ ذِكرِ إنجائِه قبل ذِكرِ الإغراقِ الَّذي وقَع الإنجاءُ منه؛ للإشارةِ إلى أنَّ إنجاءَه أهمُّ عندَ اللهِ تعالى مِن إغراقِ مُكذِّبيه، ولإظهارِ كمالِ العنايةِ بشأنِ المقدَّمِ، ولتعجيلِ المَسرَّةِ للمُسلِمين السَّامعين

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٥٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٤١).

لهذه القصَّةِ، وللإيذانِ بسَبقِ الرَّحمةِ على الغضَبِ[1]، وأيضًا لأنَّه هو الأهَمُّ في سياقِ صِدقِ الوعدِ والوعيدِ مِن وَجهينِ؛ أوَّلُهما: تقديمُ مِصداقِ الوعدِ لِتَسليةِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وتسريةِ حُزنِه على قومِه، وثانيهما: كونُه هو الأظهَرَ في الحُجَّةِ على أنَّهما- أي: الوعدَ والوعيدَ- مِن الله تعالى القادرِ على إيقاعِهما، على خلافِ ما يعتَقِدُ المُشرِكونَ المكَذِّبون، المَغرورون بكَثرتِهم وقلَّةِ أتباعِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وخلافِ الأصلِ المعهودِ في المصائبِ العامَّةِ في العادةِ، وهو أنَّها تُصيبُ الصَّالحَ والطَّالِحَ على سواءٍ، فلا تمييزَ فيها ولا استثناءَ، ولكنَّه هو الذي جَرَت به سنَّةُ الله تعالى في مُكَذِّبي الرُّسُل مِن بَعدِ نوحٍ، فكان آيةً لهم، فلولا أنَّ الأمرَ بيَدِ اللهِ على وَفقِ وَعدِه ووعيدِه، لَما هلَكَ الألوفُ الكثيرونَ، ونجا أفرادٌ قليلون لهم صِفةٌ خاصَّةٌ أخرَجَهم منهم تصديقًا لخبَرِ رسولِهم، وما سِيقَ هذا النبأُ هنا إلَّا لتقريرِ هذا المَعنى[2].

- وتعريفُ قومِ نوحٍ بطريقِ الموصوليَّةِ في قولِه: ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾؛ للإيماءِ إلى سبَبِ تَعذيبِهم بالغرَقِ، وأنَّه التَّكذيبُ بآياتِ اللهِ؛ إنذارًا للمُشرِكين مِن العرَبِ؛ ولذلك ذُيِّل بقولِه: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾، أي: المنذَرين بالعذابِ، المكذِّبين بالإنذارِ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٦٥- ١٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٤٣).

الآيات (٧٤-٧٨)

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَمَلَإِي۟هِۦ﴾: الملأ: أشرافُ النَّاسِ ووجُوهُهم، أو الجماعةُ يجتمعونَ على رأيٍ، فيملؤونَ العيونَ منظرًا، والنفوسَ بهاءً وجلالًا، ويُقالُ: فلانٌ ملءُ العيونِ، أي: معظَّمٌ عندَ مَن رآه، وقيل: وُصِفوا بذلك؛ لأنَّهم يتمالئونَ، أي: يتظاهرونَ عليه، وأصلُ (ملأ): يدلُّ على المساواةِ، والكمالِ في الشيءِ[1].

﴿لِتَلْفِتَنَا﴾: أي: لتَصْرِفَنا، والالتفاتُ: الانصرافُ عمَّا كنتَ مُقبِلًا عليه، وأصلُ (لفت): يدلُّ على اللَّيِّ، وصَرفِ الشَّيءِ عن جِهتِه المُستقيمةِ[2].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه بعثَ بعد نوحٍ رُسُلًا إلى قَومِهم بالمُعجِزاتِ والبَراهينِ التي تدُلُّ على صِحَّةِ رسالتِهم، فما كان هؤلاء المُشرِكونَ لِيُؤمِنوا؛ بسبَبِ تكذيبِهم إيَّاهم أوَّلَ ما أُرسِلوا إليهم. وكما ختم اللهُ على قُلوبِ هؤلاء الأقوامِ فلم يُؤمِنوا،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٣٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤٦)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٧).

كذلك يختِمُ على قلوبِ المُعتَدينَ، ثمَّ بعث اللهُ مِن بعد أولئك الرُّسُلِ موسى وهارونَ عليهما السَّلامُ إلى فرعونَ وأشرافِ قَومِه بالمُعجزاتِ الدَّالَّةِ على صِدقِهما، فاستكبَروا عن قَبولِ الحَقِّ، وكانوا قومًا مُجرمينَ.

فلما أتى فرعونَ وقومَه الحقُّ الذي جاء به موسى، قالوا: إنَّ الذي جاء به موسى مِن الآياتِ إنما هو سِحرٌ ظاهِرٌ، فقال لهم موسى مُنكرًا عليهم: أتقولونَ للحَقِّ لَمَّا جاءَكم إنَّه سِحرٌ مُبينٌ؟! أسِحرٌ هذا الحَقُّ الذي تُبصِرونَه؟! ولا يفوزُ السَّاحِرونَ في الدُّنيا ولا في الآخرةِ، فقال فرعونُ وملَؤه لموسى: أجِئتَنا لِتَصرِفَنا عمَّا وَجَدْنا عليه آباءَنا من عبادةِ غَيرِ الله، وتكونَ لكما أنت وهارونَ العظَمةُ والسُّلطانُ في أرضِ مِصرَ؟ وما نحنُ لكما بمُؤمِنينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى بيَّنَ في هذه الآيةِ عِبرةً أُخرَى مِن عِبَرِ مُكَذِّبي الرُّسُلِ، وسُنَّةً مِن سُنَنِه فيهم؛ تكملةً لِما بَيَّنَه في حالِ قَومِ نُوحٍ مع رسولِهم، عسَى أن يعتبِرَ بها أهلُ مَكَّة، فيَعلموا كيف يتَّقونَ عاقِبةَ المكَذِّبينَ مِن قَومِ نُوحٍ وغَيرِهم، فإنَّ كُلَّ سوءٍ وضُرٍّ عُلِمَ سَبَبُه، أمكن اتِّقاؤُه باتِّقاءِ سَبَبِه، إذا كان من عمَلِ النَّاسِ الاختياريِّ، كالكُفرِ والاعتداءِ والظُّلمِ[1].

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾.

أي: ثمَّ أرسَلْنا من بعدِ نوحٍ رُسُلًا إلى قَومِهم، فجاؤوهم بالمُعجزاتِ،

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٧٨).

والبَراهينِ الواضحةِ الدالَّةِ على صِدقِهم[1].

﴿ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ ﴾.

أي: فما كان المُشرِكونَ لِيُؤمِنوا بما جاءتهم به رسُلُهم؛ بسبَبِ تكذيبِهم بالحَقِّ حين جاءَهم أوَّلَ مرَّةٍ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

﴿ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾.

أي: كما خَتَمْنا على قلوبِ السَّابِقينَ فلم يُؤمِنوا، نختِمُ أيضًا على قلوبِ المُجاوِزينَ الحَدَّ بالشِّركِ، وتكذيبِ الرُّسُلِ، فلا يؤمِنون؛ عقوبةً لهم[3].

كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٧)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٠)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٣)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣١).

وقيل: فما كانوا ليُؤْمنوا عندَ إرسالِ الرُّسلِ بما كذَّبوا به يومَ أخذِ ميثاقِهم حينَ أخرَجهم مِن صُلبِ آدمَ، فآمنوا كرهًا حيثُ أقرُّوا بالألسنِ، وأضمَروا التكذيبَ، قاله ابنُ عباسٍ، والسديُّ.

وقيل: فما كانوا لو ردَدْناهم إلى الدُّنيا بعدَ موتِهم ليُؤمِنوا بما كذَّبوا به مِن قبلِ هلاكِهم، وهو قولُ مجاهدٍ.

وقيل: الضميرُ في (كانُوا)، (لِيُؤْمِنُوا) (كَذَّبُوا) يعودُ إلى قومِ الرُّسلِ على معنَى أنَّهم بادروا رسلَهم بالتكذيبِ كلَّما جاء رسولٌ، ثم لجُّوا في الكفرِ، وتمادَوْا، فلم يَكونوا لِيُؤْمِنوا بما سبَق به تكذيبُهم، وقيل غير ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٧)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٣، ١٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٤، ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٤٥).

بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠١].

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٧٥) ﴾.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ ﴾.

أي: ثمَّ أرسَلْنا من بعد الأنبياءِ الذين جاؤوا بعدَ نوحٍ، موسى وهارونَ إلى فِرعونَ والأشرافِ مِن قَومِه بمُعجِزاتِنا الواضحةِ، فكذَّبوا بها، واستكبَروا عن اتِّباعِ الحَقِّ(١).

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٣].

﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾.

أي: وكان فِرعونُ وقَومُه أصحابَ ذُنوبٍ كبيرةٍ وآثامٍ عظيمةٍ؛ ولذلك استكبَروا عن اتِّباعِ الحَقِّ(٢).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

وقال سُبحانه: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤].

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ (٧٦) ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٤٨).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى باستكبارِ آلِ فِرعونَ؛ بيَّنَ أنَّه تسبَّبَ عنه طعنُهم في معجزاتِه مِن غَيرِ تأمُّلٍ، بل بغايةِ المُبادَرةِ والإسراعِ بما أشعَرَت به الفاءُ والسِّياقُ(١).

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾.

أي: فلمَّا جاءَتْهم المُعجزاتُ الواضحةُ التي أيَّدنا بها موسى، قالوا: إنَّ هذا الَّذي جاء به موسى لَسِحْرٌ ظاهِرٌ(٢)!!

كما قال تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ * فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٢- ١٤].

وقال سُبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٣-٢٤].

﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾.

أي: قال موسى لهم مُنكِرًا عليهم ومُوبِّخًا لهم: أتقولونَ عن المُعجزاتِ التي جِئتُكم بها: إنَّها سِحرٌ مُبينٌ؟! أسِحرٌ هذا الحَقُّ الذي تُبصِرونَه(٣)؟!

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٨، ٢٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧١).

﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾.

أي: ولا ينجو السَّاحِرونَ، ولا يفوزونَ في الدُّنيا ولا في الآخرةِ[1].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه: ٦٩].

﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾.

أي: قالوا: أجِئتَنا- يا موسى- لِتصرِفَنا بسِحرِك عن دينِنا الذي وَجَدْنا عليه آباءَنا مِن قبلِ مجيئِك، وتأمُرَنا أن نَعبُدَ اللهَ وحده، ونتركَ عبادةَ آلهتِنا[2]؟!

﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: ولتكونَ لكما عَظمةُ المُلكِ، وعِزُّ السُّلطانِ في أرضِ مِصرَ[3]؟

﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: وقالوا تكبُّرًا وعنادًا: وما نحنُ لكما- يا موسى وهارونُ- بمصدِّقينَ ومُقِرِّينَ بأنَّكما رسولانِ مِن عندِ اللهِ[4].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٩)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٧٦)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٤٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧١).

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ * وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٢-١٣٥].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ نُوحًا أوَّلُ الرُّسُلِ(١).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ قال: ﴿مِنْ عِنْدِنَا﴾ بهذا التَّحديدِ؛ ليُصَوِّرَ شناعةَ الجريمةِ فيما قالوه عن هذا الحَقِّ الصَّادِرِ مِن عندِ اللهِ(٢).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ فيه تَنبيهٌ على فَسادِ السِّحرِ، وسُوءِ عاقِبةِ مُعالِجيه(٣).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا﴾ فيه سؤالٌ: أنَّه كيف قال موسى إنَّهم قالوا: أسِحرٌ هذا، بطريقِ الاستفهامِ، مع أنَّهم إنَّما قالوه بطريقِ الإخبارِ المؤكَّدِ في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٤٤).

وقد ورَد ذلك صريحًا، كما في حديثِ الشفاعةِ، وفيه: ((ائتُوا نوحًا؛ فإنَّه أوَّلُ رسولٍ بعثَه الله إلى أهلِ الأرضِ)). أخرجه البخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٣) مِن حديثِ أنسٍ رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٨١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥٠).

الجوابُ: أنَّ فيه إضمارًا تقديرُه: أتقولونَ للحَقِّ لَمَّا جاءَكم: إنَّ هذا لَسِحرٌ مُبينٌ؟ ثمَّ قال لهم: أسِحرٌ هذا؟! إنكارًا لِما قالوه، فالاستفهامُ للإنكارِ، مِن قَولِ موسى لا مِن قَولِهم[1].

٥- قولُه: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ إنَّما أعْلَمَ أنَّ السَّاحِرَ لا يُفلِحُ، أي: لو كان ساحِرًا لَما شَنَّع حالَ السَّاحِرين، إذ صاحِبُ الصِّناعةِ لا يَحقِرُ صِناعتَه؛ لأنَّه لو رآها مُحقَّرةً لَما الْتَزَمَها[2].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ لَمَّا كان موسى عليه السَّلامُ هو الأصلَ في الرِّسالةِ، وكان أخوه له تبعًا، وحَّدوا الضميرَ فقالوا: ﴿أَجِئْتَنَا﴾[3].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ حكى عن فِرعونَ وقَومِه أنَّهم لم يَقبَلوا دعوةَ موسى عليه السَّلامُ، وعَلَّلوا عدمَ القَبولِ بأمرَينِ؛ الأول: قَولُه: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ وفيه إشارةٌ إلى التمَسُّكِ بالتَّقليدِ. والثاني: قولُه: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ﴾ وفيه إشارةٌ إلى الحِرصِ على طلبِ الدُّنيا والجِدِّ في بقاءِ الرِّياسةِ[4].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٥١-٢٥٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥٠).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٧٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٨٧).

- ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ﴾: فيه تنكيرُ ﴿رُسُلًا﴾؛ للتَّفخيمِ ذاتًا ووَصفًا، أي: رُسلًا كِرامًا ذَوِي عددٍ كثيرٍ[1].

- قولُه: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾: فيه التَّعبيرُ عن النَّفيِ بصيغةِ لامِ الجُحودِ؛ مُبالَغةً في انْتِفاءِ الإيمانِ عنهم بأقْصى أحوالِ الانتفاءِ؛ فمَجيءُ النَّفيِ بلامِ الجُحودِ يَدُلُّ على أنَّ إيمانَهم في حيِّزِ الاستحالةِ والامتناعِ[2].

٢- قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ فيه تخصيصُ فِرْعونَ ومَلَئِه بالذِّكرِ مع عُمومِ رسالةِ موسى عليه السَّلامُ لقَومِه كافَّةً- حيث كانوا جَميعًا مأمورين بعبادةِ ربِّ العالَمين عزَّ سُلطانُه، وتَرْكِ العَظيمةِ الشَّنعاءِ الَّتي كانَ يدَّعِيها الطَّاغيةُ، ويَقبَلُها منهُ فئتُه الباغيةُ- لأصالتِهم في تدبيرِ الأمورِ، واتِّباعِ غيرِهم لهم في الوُرودِ والصُّدورِ[3].

- قولُه: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ السِّينُ والتَّاءُ للمُبالَغةِ في التَّكبُّرِ[4].

- وقولُه: ﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ اعتراضٌ مقرِّرٌ لمضمونِ ما قَبلَه، أي: كانوا معتادين لارتكاب الذنوبِ العظامِ؛ فإنَّ الإجرامَ مؤذنٌ بعِظَمِ الذنبِ[5].

٣- قَوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٦٧).

- قولُه: ﴿قَالَ مُوسَى﴾ استِئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ تَنْساقُ إليه الأذهانُ، كأنَّه قيل: فماذا قال لهم مُوسى حينَئذٍ؟ فقيل: قال: ﴿أَتَقُولُونَ...﴾[(١)].

- قولُه: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ، ومفعولُ ﴿أَتَقُولُونَ﴾ محذوفٌ؛ لدَلالةِ الكلامِ عليه، وهو: ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾[(٢)].

- ولَمَّا كان تكريرُهم لذلك القَولِ أجدَرَ بالإنكارِ، عبَّر بالمضارعِ ﴿أَتَقُولُونَ﴾ الدَّالِّ على أنَّهم كَرَّروه؛ لِيَنسخوا ما ثبتَ في قلوبِ النَّاسِ مِن عَظَمتِه[(٣)].

- وجملةُ: ﴿أَسِحْرٌ هَذَا﴾ مُستأنَفةٌ للتَّوبيخِ والإنكارِ؛ أنكَر موسى عليهم وصْفَهم الآياتِ الحقَّ بأنَّها سِحرٌ، والإشارةُ بـ ﴿هَذَا﴾ تُفيدُ التَّعريضَ بجَهْلِهم، وفسادِ قولِهم، بأنَّ الإشارةَ إلى تلك الآياتِ كافيةٌ في ظُهورِ حَقيقتِها، وأنَّها ليسَتْ مِن السِّحرِ في شيءٍ[(٤)].

٤- قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾

- قولُه: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾: الاستِفْهامُ في قولِه: ﴿أَجِئْتَنَا﴾ إنكاريٌّ؛ بنَوْا إنكارَهم على تَخطئةِ موسى فيما جاء به[(٥)].

- واخْتِير التَّعبيرُ بـ ﴿وَجَدْنَا﴾؛ لِما فيه مِن الإشارةِ إلى أنَّهم نشَؤوا عليها وعقَلوها، وذلك ممَّا يُكسِبُهم تَعلُّقًا بها، وأنَّها كانت أحوالَ آبائِهم، وذلك ممَّا يَزيدُهم تَعلُّقًا بها تبعًا لِمَحبَّةِ آبائِهم؛ لأنَّ مَحبَّةَ الشَّيءِ تَقْتَضي محبَّةَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٦٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥٠).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٧١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥٠).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٢٥١).

أحوالِه ومُلابَساتِه[1].

- وجملةُ: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ عطفٌ على جملةِ: ﴿أَجِئْتَنَا﴾، وهي في قوَّةِ النَّتيجةِ لِتلك الجُملةِ بما مَعها مِن العلَّةِ، أي: لَمَّا تبيَّن مَقصَدُكما، فما نحن لَكُما بمُؤمِنين[2].

- قولُه: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ فيه تقديمُ ﴿لَكُمَا﴾ على مُتعلَّقِه ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾؛ لأنَّ المخاطَبَينِ هما الأهمُّ مِن جملةِ النَّفيِ؛ لأنَّ انتِفاءَ إيمانِهم في زَعمِهم كان لأجلِ موسى وهارونَ؛ إذ توَهَّموهما مُتطَلِّبَي نفْعٍ لأنفُسِهما[3].

- وصِيغَتْ جُملةُ: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ اسميَّةً دونَ أن يَقولوا: (وما نُؤمِنُ لكُما)؛ لإفادةِ الثَّباتِ والدَّوامِ، وأنَّ انتفاءَ إيمانِهم بهِما مُتقرِّرٌ مُتمكِّنٌ، لا طَماعِيَةَ لأحدٍ في ضِدِّه[4].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٢٥٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٧٩-٨٢)

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ فِرعونَ قال لِقَومِه بعد أن رأى مِن موسى الإصرارَ على دَعوتِه ودَعوةِ قَومِه إلى عبادةِ اللهِ وَحدَه: جِيئوني بكلِّ ساحرٍ مُتقِنٍ للسِّحرِ، فلمَّا جاء السَّحرةُ فِرعونَ قال لهم موسى: ألقُوا على الأرضِ ما معكم مِن حِبالِكم وعِصيِّكم، فلمَّا ألقَوا حِبالَهم وعِصيَّهم قال لهم موسى: إنَّ الذي جِئتُم به وألقَيتُموه هو السِّحرُ، إنَّ اللهَ سيُذْهِبُه؛ إنَّ اللهَ لا يُصلِحُ عَمَلَ مَن سعى في الأرضِ بالفَسادِ، ويُثبِّتُ اللهُ الحَقَّ الذي جِئتُكم به مِن عِندِه فيُعليه على باطِلِكم، بكَلِماتِه وأمْرِه، ولو كَرِه المُجرِمون.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ادَّعى فِرعونُ ومَلَؤُه أنَّ ما جاء به موسى عليه السَّلامُ هو سِحرٌ؛ أخَذوا في مُعارضتِه بأنواعٍ مِن السِّحرِ، لِيَظهَرَ لسائرِ النَّاسِ أنَّ ما أتَى به من بابِ السِّحرِ[1].

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٩٢).

أي: وقال فِرعونُ لِقَومِه: أحضِروا إليَّ مِن المدائِنِ كلَّ ساحرٍ ماهرٍ بالسِّحرِ[1].

كما قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [الأعراف: ١٠٩-١١٢].

﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (٨٠)﴾.

أي: فلمَّا جاء السَّحرةُ قال لهم موسى: اطرَحوا على الأرضِ ما تريدون طرحَه، مما مَعَكم من الحِبالِ والعِصِيِّ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ * قَالَ أَلْقُوا﴾ [الأعراف: ١١٣-١١٦].

وقال سُبحانه: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى * قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ [طه: ٦٥-٦٦].

﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ ۖ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١)﴾.

﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿آلسِّحْرُ﴾ بالمَدِّ والهَمزِ، على أنَّ الاستفهامَ مِن موسى للسَّحَرةِ عما جاؤوا به، أسِحرٌ هو أم غيرُه؟ فهو استفهامٌ على جهةِ التَّوبيخِ؛ لأنَّهم قد

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٤١)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٤١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٧).

عَلِموا أنَّه سِحرٌ[(١)].

٢- قِراءةُ ﴿السِّحْرُ﴾ بألف وصلٍ مِن غَيرِ مَدٍّ ولا همزٍ، على وجهِ الخَبَرِ مِن موسى أنَّ الذي جاء به سَحَرةُ فِرعونَ هو السِّحرُ، لا ما جاء به موسى[(٢)].

﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾.

أي: فلمَّا ألقَى السَّحرةُ حِبالَهم وعِصيَّهم، وسَحَروا أعيُنَ النَّاسِ، قال موسى للسَّحَرةِ: الذي جِئتُم به هو السِّحرُ، وليس ما جئتُكم به ممَّا أسمَيتُموه سِحرًا[(٣)].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾.

أي: إنَّ اللهَ سيُذهِبُ سِحرَكم، ويُظهِرُ بُطلانَه للنَّاسِ بما يُظهِرُه على يَدي من المعجزةِ[(٤)].

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ * وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١٦-١١٩].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

---

(١) قرأ بها أبو عمرٍو، وأبو جعفرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (١/ ٣٧٨).
ويُنظر لمعنَى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٨٣)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٣٥)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٧٩).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (١/ ٣٧٨).
ويُنظر لمعنَى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٤٢)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٨٣)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٢١)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٤٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥٦).

أي: إنَّ اللهَ لا يُصلِحُ أعمالَ الذين يَسعَونَ في أرضِ اللهِ بما يَكرَهُه كالسَّحَرةِ، فلا يُتِمُّها لهم فينتَفِعونَ بها، ولا يثيبُهم عليها(١).

﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾.

أي: ويُثبِّتُ اللهُ الحَقَّ الذي جاء مِن عندِه، ويُوضِّحُه ويُظهِرُه على مَن خالَفَه، بكَلِماتِه الكونيَّةِ، وكَلِماتِه التنزيليَّةِ التي يُوحيها إلى رسلِه، ومِنها الإخبارُ بإظهارِ الحقِّ وإعزازِه(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٧-٨].

﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٤٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥٧).
قال ابنُ عطيةَ: (قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ يصِحُّ أن يكونَ مِن كلامِ موسى عليه السَّلامُ، ويصِحُّ أن يكونَ ابتداءَ خَبَرٍ من اللهِ تعالى). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٦).
وقال ابنُ عاشورٍ: (إنما كان السحرةُ مفسدينَ؛ لأنَّ قصدَهم تضليلُ عقولِ الناسِ؛ ليكونوا مسخَّرين لهم، ولا يعلموا أسبابَ الأشياءِ، فيبقوا آلةً فيما تأمرُهم السحرةُ، ولا يهتدوا إلى إصلاحِ أنفسِهم سبيلًا، أمَّا السحرةُ الذين خاطَبهم موسَى عليه السلام فإفسادُهم أظهرُ؛ لأنَّهم يُحاوِلونَ إبطالَ دَعوةِ الحَقِّ والدِّينِ القَويمِ، وتَرويجَ الشِّركِ والضَّلالاتِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٤٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٢٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٨٢).
قال ابن عطيَّةَ: (قَولُه: ﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ يحتملُ أن يكونَ مِن كلامِ موسى عليه السَّلامُ، ويحتملُ أن يكونَ مِن إخبارِ الله عزَّ وجَلَّ، وكونُ ذلك كلِّه من كلامِ موسى أقرَبُ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٦).

أي: يُحِقُّ اللهُ الحَقَّ وإن كَرِه العُصاةُ الآثمونَ ذلك[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ هكذا كلُّ مُفسدٍ عَمِلَ عملًا، واحتال كَيدًا، أو أتى بمكرٍ، فإنَّ عمَلَه سيَبطُلُ ويضمَحِلُّ، وإن حصَلَ لعَمَلِه رَوَجانٌ في وقتٍ ما، فإنَّ مآلَه الاضمحلالُ والمَحْقُ، وأمَّا المُصلِحونَ الذين قَصْدُهم بأعمالِهم وَجهُ الله تعالى- وهي أعمالٌ ووسائِلُ نافعةٌ، مأمورٌ بها- فإنَّ اللهَ يُصلِحُ أعمالَهم ويُرَقِّيها، ويُنَمِّيها على الدَّوامِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾، فأمَرهم موسَى عليه السلامُ بالإلقاءِ؛ لأنَّه عَلِم أنَّهم لا بدَّ أن يُلقوا تلك الحبالَ والعصيَّ، وإنَّما وقَع التخييرُ في التقديمِ والتأخيرِ، فأذِن لهم في التقديمِ؛ لتظهرَ معجزتُه أيضًا بغلَبِهم؛ لأنَّه لو ألقَى أوَّلًا لم يكنْ له غلَبٌ وظهورٌ عليهم، فلهذا المعنَى أمَرهم بالإلقاءِ أولًا[٣]، وهو بمنزلةِ تَقريرِ شُبهةِ المُلحِدِ ممَّن يتَصدَّى لإبطالِها بعد تقريرِها[٤].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ إطلاقُ الإلقاءِ على عمَلِ السِّحرِ؛ لأنَّ أكثَرَ تصاريفِ السَّحَرةِ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٢/ ٢٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥٥).

أعمالِهم السِّحريةِ يكونُ برَمْيِ أشياءَ إلى الأرضِ[1].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ * فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ طُويَ ذِكرُ صورةِ سِحرِهم في هذه الآيةِ؛ لأنَّ الغرضَ مِن العبرةِ في هذه الآيةِ وَصفُ إصرارِ فِرعونَ ومَلَئِه على الإعراضِ عن الدعوةِ، وما لَقِيَه المُستَضعَفونَ الذين آمَنوا بموسى عليه السَّلامُ مِن اعتلاءِ فِرعونَ عليهم، وكيف نصَرَ اللهُ رَسولَه والمُستَضعفَينَ معه، وكيف كانت لهم العاقِبةُ الحُسنى، ولِمَن كفروا عاقبةُ السَّوءِ، ليكونوا مثلًا للمُكَذِّبينَ بمُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ ولذلك لم يُعرِّجْ بالذِّكرِ إلَّا على مقالةِ موسى عليه السَّلامُ حين رأى سِحرَهم، الدَّالَّةِ على يقينِه برَبِّه ووَعدِه، وبأنَّ العاقِبةَ للحَقِّ، وذلك أهَمُّ في هذا المقامِ مِن ذِكرِ اندحاضِ سِحرِهم تجاهَ مُعجزةِ موسى عليه السَّلامُ؛ ولأجلِ هذا لم يذكُرْ مَفعولَ ﴿أَلْقَوْا﴾ لتنزيلِ فِعلِ ﴿أَلْقَوْا﴾ منزلةَ اللَّازمِ؛ لِعَدمِ تعَلُّقِ الغَرَضِ ببيانِ مَفعولِه[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ﴾ عطفٌ على مُقدَّرٍ يَستَدعيهِ المقامُ قد حُذِفَ؛ إيذانًا بسُرعةِ امتثالِهم لأمرِ فرعونَ، كما هو شأنُ الفاءِ الفصيحةِ في كلِّ مَقامٍ، والتَّقديرُ: فأتَوْا به، فلَمَّا جاؤوا ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى...﴾[3].

- قولُه: ﴿أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ فيه استعمالُ فعلِ الأمرِ ﴿أَلْقُوا﴾ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٢٥٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٦٩).

التَّسويةِ المرادِ منها الاختيارُ، وإظهارُ قِلَّةِ الاكتراثِ بأحَدِ الأمْرَين؛ وفيه استِطالةٌ عليهم، وعدَمُ مُبالاةٍ بهم[1].

- وفي إبهامِ: ﴿مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ تخسيسٌ له وتقليلٌ، وإعلامٌ أنَّه لا شيءَ يُلتَفَتُ إليه[2].

٢- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ جملةٌ معترِضةٌ، وهي تعليلٌ لِمَضمونِ جُملةِ ﴿إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ﴾، وتذييلٌ للكلامِ بما فيه نفيُ الإصلاحِ، وإضافةُ ﴿عَمَلَ﴾ إلى ﴿الْمُفْسِدِينَ﴾ يُؤْذِنُ بأنَّه عملٌ فاسدٌ[3].

- وفيه وضْعُ المظهَرِ ﴿عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ موضِعَ المضمَرِ- حيث لم يَقُلْ: إنَّ اللهَ لا يُصلِحُ عمَلَكم- للتَّسجيلِ عليهم بالإفسادِ، والإشعارِ بعلَّةِ الحكمِ[4].

٣- قوله تعالى: ﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ﴾ فيه إظهارُ اسمِ الجلالةِ في هذه الجملةِ، مع أنَّ مُقتَضى الظَّاهرِ الإضمارُ؛ لِقَصدِ تربيةِ المهابةِ في نُفوسِهم[5].

- وقولُه: ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ المرادُ (بالمجرمين) فِرعونُ ومَلَؤُه؛ فعَدَل عن ضميرِ الخِطابِ إلى الاسمِ الظَّاهرِ؛ لِما فيه مِن وَصفِهم بالإجرامِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٩٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥٧).

تَعريضًا بهم، وإنَّما لم يُخاطِبْهم بصفةِ الإجرامِ بأن يَقولَ: (وإنْ كَرِهتُم أيُّها المُجرِمون) عُدولًا عن مُواجَهتِهم بالذَّمِّ، وُقوفًا عندَ أمرِ اللهِ تعالى؛ إذ قال له: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا﴾[1] [طه: ٤٤]، وذلك على القولِ بأنَّه مِن كلامِ موسَى عليه السلامُ.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/٢٥٨).

الآيات (٨٢-٨٦)

﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿ذُرِّيَّةٌ﴾: الذُّرِّيَّةُ: الأولادُ وأولادُ الأولادِ، فهي اسمٌ يَجمعُ نَسلَ الإنسانِ مِن ذَكَرٍ وأُنثى، قيل: أصلُها مِن ذرَأ، أي: خلَق؛ لأنَّها خلقُ الله، وحُذِفت الهمزةُ منها، وقيل: أصلُها مِن الذَّرِّ، بمعنَى التَّفريقِ؛ لأنَّ اللَّه تعالى ذَرَّهم في الأرضِ[1].

﴿يَفْتِنَهُمْ﴾: أي: يَقتُلَهم ويُعَذِّبَهم، وأصلُ (فتن): يدُلُّ على ابتلاءٍ واختبارٍ[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه لم يُؤمِنْ لِموسى عليه السَّلامُ- مع ما أتى به مِن الحُجَجِ والأدِلَّةِ على صِدقِه- إلَّا عدَدٌ قليلٌ مِن شَبابِ قَومِه من بني إسرائيلَ، وهم خائفونَ مِن فرعونَ وأشرافِ قَومِهم أن يَفتِنوهم بالعذابِ، فيصدُّوهم عن دينِهم، وإنَّ فِرعونَ لَجبَّارٌ مُستكبِرٌ في الأرضِ، وإنَّه لَمِن المُتَجاوزينَ الحَدَّ في الكفرِ والفَسادِ، وقال موسى لِقَومِه- تَطمينًا لقلوبهم-: يا قَومي، إن كُنتم آمَنتُم باللهِ، فثِقوا به، وسلِّموا لأمْرِه إن كُنتم مُذعِنينَ له بالطَّاعة، فقالوا: على اللهِ وَحْدَه لا شريكَ له اعتَمَدْنا، وإليه فوَّضْنا أمْرَنا. ربَّنا لا تُظْهِرْهم علينا فيَروا أنَّهم خيرٌ منا فيزدادوا طغيانًا،

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٧)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ١٥٧، ٣٩٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢-٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٦).

ويقولوا: لو كانوا على حقٍّ ما سُلِّطنا عليهم، فيُفتنوا بذلك، ويَصُدَّهم عن الإقرارِ بالحَقِّ واتِّباعِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا حكى سُبحانَه أنَّ موسى عليه السَّلامُ أبان ما أبان مِن بُطلانِ السِّحرِ، وكونِه إفسادًا، فثَبَت ما أتَى به لِمُخالفَتِه له؛ أخبَرَ تعالى- تسليةً للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وقَطمًا عن طلَبِ الإجابةِ للمُقتَرَحاتِ- أنَّه ما تسبَّبَ عن ذلك في أوَّلِ الأمرِ عَقِبَ إبطالِ سِحرِهم مِن غيرِ مُهلةٍ، إلَّا إيمانُ ناسٍ ضُعفاءَ، غيرِ كثيرٍ[1].

وأيضًا فإنَّ هذه الآيةَ تَفريعٌ على ما تقَدَّمَ مِن المحاورةِ، أي: فتفَرَّعَ على ذلك أنَّ فِرعونَ ومَلأَه لم يُؤمِنوا بموسى[2].

﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ ﴾.

أي: فلم يصدِّقْ بموسى في أوَّلِ دَعوتِه، ويُقِرَّ له بالنبوَّةِ إلَّا قَليلٌ مِن أولادِ قَومِه بني إسرائيلَ[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٤٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٨٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٥٢٩)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ١٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥٨ - ٢٦٠).

وممَّن ذهَب إلى أنَّ المرادَ بـ ﴿ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ﴾: أبناءُ قَومِ موسى من بني إسرائيلَ: ابنُ جريرٍ، والشوكانيُّ، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٤٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٢٩-٥٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥٩). =

﴿عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ﴾.

أي: آمَنوا وهم خائفونَ مِن فِرعونَ ومِن أشرافِ قَومِهم- الذين كانوا على مِثلِ ما كان عليه فرعونُ- أن يَصرِفَهم فِرعونُ عن اتِّباعِ الحَقِّ، بمِحنةٍ وبليَّةٍ يُوقِعُها عليهم(١).

ثم بيَّن أسبابَ خوفِهم منه بقولِه:

﴿وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾.

أي: وإنَّ فِرعونَ لجبَّارٌ، متكبِّرٌ على الحَقِّ والخَلْقِ في أرضِ مِصرَ، وإنَّه لَمِنَ المجاوزِينَ الحدَّ في الكُفرِ والقَتلِ والبَغيِ(٢).

= وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهدٌ، والأعمشُ، يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٧).

وقيل المراد: شبابٌ مِن قَومِ فِرعونَ، وممن ذهَب إلى ذلك: ابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٧-٢٨٨).

وممَّن قال بهذا القولِ من السلفِ: ابنُ عباسٍ في الروايةِ الثانيةِ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٧).

قال ابن عاشور: (المعنى: أنَّهم آمنوا عند ظهورِ مُعجزتِه، أي أعلنوا الإيمانَ به في ذلك الموطنِ؛ لأن الإيمانَ لا يُعرَف إلَّا بإظهاره، ولا فائدة منه إلا ذلك الإظهارُ، أي: من الحاضرين في ذلك المشهدِ من بني إسرائيل، فإنَّ عادةَ هذه المجامعِ أن يغشاها الشبابُ واليافعون، فعبَّرَ عنهم بالذرية، أي: الأبناء، كما يقال: الغِلمان، فيكونون قد آمنوا من تلقاءِ أنفسهم، وكلُّ هذا لا يقتضي أن بقيَّةَ قَومِه كفروا به؛ إذ يحتملُ أن يكونوا آمنوا به بعد ذلك لَمَّا بلغَتْهم دعوتُه؛ لأنَّه يكونُ قد ابتدأ بدعوةِ فِرعونَ مبادرةً لامتثالِ الأمرِ مِن الله بقولِه: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ [طه: ٤٣] فيكونُ المأمورُ به ابتداءً هو دعوةُ فرعونَ، وتخليصُ بني إسرائيل من الأَسْرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥٩-٢٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٤٨، ٢٤٩)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٥٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٧٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٦٠، ٢٦١).

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَرَ الله تعالى خَوفهم وعُذرَهم؛ أتبَعَه ما يُوجِبُ طُمَأنينَتَهم، وهو التوكُّلُ على اللهِ الذي مَن راقَبَه تلاشى عنده كلُّ عَظيمٍ(١).

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

أي: وقال موسى لِقَومِه بني إسرائيلَ: يا قومِ، إن كُنتم آمَنتُم باللهِ حقًّا فاعتَمِدوا عليه وَحْدَه في نَصْرِكم، ودَفْعِ الضُّرِّ عنكم، وبه ثِقوا، ولأمْرِه سَلِّموا، إن كنتم مُذعِنينَ له بالطَّاعةِ(٢).

﴿ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

﴿ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾.

أي: فقال بنو إسرائيلَ: على اللهِ وَحْدَه اعتَمَدْنا، وإليه فوَّضْنا أمْرَنا(٣).

﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

أي: قال قَومُ موسى عليه السَّلامُ: ربَّنا؛ لا تُظفِر الكافرينَ بنا، وتُسَلِّطْهم علينا، فيَعتَقِدوا أنَّ غَلَبتَهم علينا لم تقَعْ إلَّا لأنَّهم على الحَقِّ، ونحن على الباطِلِ، فيُفتَنوا بذلك، ويُعرِضوا عن الإقرارِ بالحَقِّ واتِّباعِه(٤).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٥٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٣١)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٥٠، ٢٥٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٨، ٢٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٦٣، ٢٦٤). =

أو: ربَّنا؛ لا تُسَلِّطْهم علينا فيَفْتنونا عن دينِنا[١].

﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

أي: وخلِّصْنا- يا رَبَّنا- برَحمتِك مِن بَطشِ وسُلطانِ قَومِ فِرعونَ الكافرينَ[٢].

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ

= وممن اختار هذا المعنى المذكور للفتنة هنا: الزجاج، وابن جرير، والواحدي والبغوي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٥٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٠٦)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٣١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: مجاهدٌ- في إحدى الروايتين عنه- وأبو مجلزٍ، وأبو الضُّحَى. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ١٩٧٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٥١، ٢٥٢).

قال ابنُ عاشورٍ: (ووصَفوا الكفَّارَ بالظَّالمينَ لأنَّ الشِّركَ ظلمٌ، ولأنَّه يشعرُ بأنَّهم تَلبَّسوا بأنواعِ الظُّلمِ: ظلمِ أنفسِهم، وظلمِ الخلائقِ) ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٦٤).

قال ابنُ عطيةَ: (فهذا الدعاءُ على هذا التأويلِ يتضمَّنُ دفعَ فصلينِ؛ أحدُهما: القتلُ والبلاءُ الذي توقَّعه المؤمنونَ، والآخرُ: ظهورُ الشركِ باعتقادِ أهلِه أنَّهم أهلُ الحقِّ، وفي ذلك فسادُ الأرضِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٩٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٢٢)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٣٣)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٥٥).

وممن اختار المعنَى المذكورَ: أبو حيانَ، والبيضاوي، والشربيني، والقاسمي، تُنظر: المصادر السابقة.

وممن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ في الروايةِ الثانيةِ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ١٩٧٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٥٢ (.

قال محمد رشيد رضا: (ولفظُ (فتنة) هنا يحتملُ معنَى (الفاتن) و(المفتون)، فكأنَّهم قالوا: ربَّنا لا تُسلِّطْهم علينا فيفتنونا، ولا تفتنَّا بهم فنتولَّى عن اتباعِ نبيِّنا، أو نضعف فيه؛ فرارًا مِن شدةِ ظلمِهم لنا، ولا تفتنْهم بنا فيزدادوا كفرًا وعنادًا وظلمًا بظهورِهم علينا، ويظنُّوا أنَّهم على الحقِّ، وأنَّنا على الباطلِ). ((تفسير المنار)) (١١/ ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٥٤)، ((البسيط)) الواحدي (١١/ ٢٨٧، ٢٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٦٤).

قال الواحدي: (﴿وَنَجِّنَا...﴾ الآية، وذلك أنَّهم كانوا يستعبِدونَهم، ويأخذونَهم بالأعمالِ الشَّاقَّةِ، والمِهَنِ الخَسيسةِ). ((البسيط)) (١١/ ٢٨٧-٢٨٨).

فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾ الحِكمةُ- واللهُ أعلَمُ- مِن كونِه ما آمَنَ لموسى إلَّا ذرِّيَّةٌ مِن قَومِه: أنَّ الذريَّةَ والشَّبابَ أقبَلُ للحَقِّ، وأسرَعُ له انقيادًا، بخلافِ الشُّيوخِ ونَحوِهم ممَّن تربَّى على الكُفرِ؛ فإنَّهم- بسبَبِ ما مكَثَ في قلوبِهم من العقائِدِ الفاسِدةِ- أبعَدُ مِن الحَقِّ مِن غَيرِهم[1].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ فالتوكُّلُ على اللهِ دَلالةُ الإيمانِ ومُقتَضاه، وعُنصرُ القُوَّةِ الذي يضافُ إلى رصيدِ القِلَّةِ الضعيفةِ أمام الجَبَروتِ الطَّاغي، فإذا هي أقوى وأثبَتُ، وقد ذكَرَ لهم موسى الإيمانَ والإسلامَ، وجعل التوكُّلَ على اللهِ مُقتضى هذا وذاك؛ مُقتضى الاعتقادِ في الله، ومُقتَضى إسلامِ النَّفسِ له خالصةً، والعملِ بما يريدُ، واستجاب المؤمنونَ لهُتافِ الإيمانِ على لسانِ نبيِّهم: ﴿فَقَالُوا: عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾[2].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ في تقديمِ التوكُّلِ على الدُّعاءِ تَنبيهٌ على أنَّ الدَّاعيَ ينبغي أن يتوكَّلَ أولًا؛ لِتُجابَ دَعوتُه[3].

٤- قال الله تعالى: ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ دُعاؤُهم اللهَ ألَّا يجعَلَهم فتنةً للقَومِ الظَّالِمينَ، وأن يُنجِيَهم برَحمتِه مِن القومِ الكافرينَ، لا ينافي الاتِّكالَ على اللهِ والتقَوِّيَ به، بل هو أدَلُّ على التوجُّهِ بالاتِّكالِ والاعتمادِ إلى الله، والمؤمِنُ لا يتمَنَّى البلاءَ، ولكِنْ يَثبُتُ عند اللِّقاءِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧١).

(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٨١٥)، ويُنظر أيضًا: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٣٣).

(٤) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٨١٦).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١ - قَولُ الله تعالى: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ﴾ فيه مَسْلاةٌ للرَّسولِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم بقِلَّةِ مَن آمَن لموسَى، ومَن استَجاب له، معَ ظهورِ ذلك المعجِزِ الباهِرِ، ولم يُؤمِنْ له إلَّا ذُرِّيَّةٌ مِن قومِه(١).

٢ - في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ بيانُ أنَّ مُسمَّى الإسلامِ غيرُ مُسمَّى الإيمانِ؛ لأنَّه لو كان مُسمَّاهما واحدًا لكان هذا تكريرًا(٢).

٣ - قولُه: ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ فيه إثارةُ صِدْقِ إيمانِهم، وإلهابُ قُلوبِهم بجَعلِ إيمانِهم مُعلَّقًا بالشَّرطِ مُحتمِلِ الوقوعِ، حيث تَخوَّفوا مِن فِرعَونَ أن يَفتِنَهم، فأرادوا أن يَكتُموا إيمانَهم تَقيَّةً مِن فرعونَ ومَلَئِهم، وإنَّما جعَل عدَمَ اكتِراثِهم ببَطْشِ فِرعونَ علامةً على إيمانِهم؛ لأنَّ الدَّعوةَ في أوَّلِ أمرِها لا تتَقوَّمُ إلَّا بإظهارِ مُتَّبِعيها جَماعتَهم، فلا تُغتفَرُ فيها التَّقيَّةُ حينَئذٍ(٣).

٤ - قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أرضِ مِصرَ، التي هي بكثرةِ ما فيها من المرافِقِ كأنَّها جميعُ الأرضِ(٤).

٥ - قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ إذا ضُمَّت هذه الآيةُ إلى قَولِه تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر: ٤٣] كان قياسًا صريحًا قطعيًّا أنَّ فِرعونَ مِن أصحابِ النَّارِ؛ تكذيبًا لأهلِ الوَحدةِ في قَولِهم: إنَّه آمَنَ، لِيُهَوِّنوا المعاصيَ عند النَّاسِ، فيَحُلُّوا بذلك عقائِدَ أهلِ الدِّينِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٦/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٣٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٦٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٧٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)). =

٦- في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وصَفوا الكفَّارَ بالظَّالمينَ؛ لأنَّ الشِّركَ ظلمٌ، ولأنَّه يشعرُ بأنَّهم تَلبَّسوا بأنواعِ الظُّلمِ: ظلمِ أنفسِهم، وظلمِ الخلائقِ(١).

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ زيادةُ ﴿بِرَحْمَتِكَ﴾ للتبَرُّؤِ من الإدلالِ بإيمانِهم؛ لأنَّ المِنَّةَ لله عليهم(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى﴾ معطوفٌ على مقدَّرٍ يَستدعيهِ المقامُ قد حُذِف، أي: فألقَى عَصاهُ فَإِذَا هِي تَلقَفُ ما يَأفِكون... إلخ، ولم يُذكَرْ؛ لِدَلالةِ المقامِ عليه، وإيثارًا للإيجازِ، وإيذانًا بأنَّ قولَه تعالى: ﴿إِنَّ الله سَيُبْطِلُهُ﴾ ممَّا لا يَحتَمِلُ الخُلفَ أصلًا، وعطفُه على ذلك بالفاءِ مع كونِه عَدمًا مستمرًّا مِن قَبيلِ ما في قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٧]، وما في قولِك: وعَظْتُه فلم يتَّعِظْ، والسِّرُّ في ذلك: أنَّ الإتيانَ بالشَّيءِ بعدَ وُرودِ ما يوجِبُ الإقلاعَ عنه، وإن كان استمرارًا عليه، لكنَّه بحسَبِ العُنوانِ فِعلٌ جديدٌ، وصُنعٌ حادثٌ(٣).

- قولُه: ﴿عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾ فيه مناسبةٌ حسنةٌ، حيث جاء هنا

= قال ابنُ تيميةَ: (كفرُ فرعونَ، وموتُه كافرًا، وكونُه مِن أهلِ النَّارِ هو ممَّا عُلِم بالاضطرارِ مِن دينِ المسلمينَ، بل ومِن دينِ اليهودِ والنَّصارى؛ فإنَّ أهلَ الملَلِ الثَّلاثةِ متفقونَ على أنَّه مِن أعظمِ الخلقِ كفرًا). ((جامع الرسائل لابن تيمية)) (١/ ٢٠٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٠).

بضميرِ الجمعِ ﴿وَمَلَئِهِمْ﴾؛ لِعَودِه إلى الذُّرِّيَّةِ، أو القومِ، لتَقدُّمِهما عليه(١)، بخِلافِ بقيَّةِ الآياتِ ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ [الأعراف: ١٠٣، يونس: ٧٥، هود: ٩٧، المؤمنون: ٤٦، القصص: ٣٢، الزخرف: ٤٦]؛ فإنَّه بضميرِ المفرَدِ؛ لعَوْدِه إلى فِرعونَ(٢).

– قَولُه تعالى: ﴿عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾، وحَّد الضميرَ في قوله: ﴿يَفْتِنَهُمْ﴾ ولم يجمَعْه؛ لأنَّه لَمَّا كان إنكارُ الملأِ إنَّما هو بسبَبِ فِرعونَ أن يَسلُبَهم رئاستَهم، انحصَرَ الخَوفُ في فِرعونَ، فأشارَ إلى ذلك بوَحدةِ الضَّميرِ، فقال: ﴿أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾(٣)، وأيضًا فإسنادُ الفعلِ إلى فرعونَ خاصَّةً؛ لأنه الآمِرُ بالتعذيبِ(٤).

– قولُه: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ﴾ جملةٌ في موضِعِ الحالِ، وهي تُفيد معنى التَّعليلِ لِخَوفِهم مِن فِرعونَ(٥).

– وتأكيدُ الخبَرِ بـ(إنَّ)؛ للاهتمامِ بتَحقيقِ بَطشِ فرعونَ(٦).

– وقَولُه: ﴿لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ أبلغُ في وصفِه بالإسرافِ مِن أن يُقالَ: وإنَّه لمسرفٌ، والتَّعريفُ في المُسرفينَ تعريفُ الجنسِ، فالإخبارُ عن فرعونَ بأنَّه مِنَ المُسرفينَ يفيدُ أنَّه واحدٌ مِنَ الفئةِ الَّتي تُعْرَفُ عندَ النَّاسِ بفئةِ المُسرفينَ، فيُفيدُ أنَّه مسرفٌ، فهو مِنْ قبيلِ الكنايةِ الَّتي هي إثباتُ الشَّيءِ بإثباتِ مَلزومِه، وهي أبلغُ مِنَ التَّصريحِ(٧).

---

(١) وذكَر القرطبيُّ أوجهًا أخرَى، يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٦٠).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٢٦١).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٢٦١) و: (٧/ ٢٦٣).

٢- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾

- في قولِه: ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا﴾ قُدِّم المجرورُ ﴿فَعَلَيْهِ﴾ على مُتعلَّقِه ﴿تَوَكَّلُوا﴾؛ لإفادةِ القصرِ، وهو قصرٌ إضافيٌّ[1]،كأنَّه عليه السَّلامُ أمَرَهم بالتوكُّلِ عليه، ونهاهم عن التوكُّلِ على الغَيرِ[2].

٣- قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ فيه تقديمُ ما كان عِندَهم أهمَّ، وهو سلامةُ دينِهم لهم، فسألوا اللهَ تعالى ألَّا يُفتَنوا عن دينِهم، وتأخيرُ سلامةِ أنفُسِهم، فسألوه أن يُخلِّصوا مِن الكفَّارِ؛ إذ الاهتمامُ بمَصالِحِ الدِّينِ آكَدُ مِن الاهتمامِ بمَصالحِ الأبدانِ[3]. وذلك على أحدِ أوجهِ التأويلِ.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٦٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٩٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٩٦).

الآيات (٨٧-٨٩)

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٨٧ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝٨٨ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨٩ ﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿تَبَوَّآ﴾: أي: اتَّخِذا، وأصلُ (بوأ): يدُلُّ على رجوعٍ إلى الشَّيءِ[١].

﴿قِبْلَةً﴾: أي: مَساجِدَ، وأصلُ (قبل): يدلُّ على مواجهةِ الشَّيءِ للشَّيءِ[٢].

﴿زِينَةً﴾: الزِّينةُ: اسمٌ لكلِّ ما يُتَزَيَّنُ به: مِن مَلْبوسٍ ومركوبٍ وحِلْيَةٍ وفِراشٍ وسِلاحٍ، والزَّينُ نَقيضُ الشَّينِ، يُقال: زانَه كذا، وزَيَّنه: إذا أظْهَر حُسنَه؛ إمَّا بالفِعلِ، أو بالقَولِ، وأصلُ (زين) يدلُّ على حُسنِ الشَّيءِ وتَحسينِه[٣].

﴿اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾: أي: أهلِكْها، وأذهِبْ آثارَها. وأصلُ (طمس): يدلُّ على مَحوِ الشَّيءِ، ومَسحِه[٤].

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣١٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٥١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٨- ٣٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٣٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩٣).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٤)، ((غريب القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ٩٤).

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه أوحَى إلى موسَى وأخيه هارونَ أن يتَّخِذا لقومِهما بيوتًا في مِصرَ، تكونُ مساكِنَ لهم، وأن يجعَلوا بُيوتَهم مساجِدَ يُصلُّونَ فيها، وأن يؤدُّوا الصَّلاةَ المفروضةَ في أوقاتِها، وأن يبشِّرَ موسى المؤمنينَ بالنَّصرِ والثَّوابِ منه سبحانه وتعالى.

وقال موسى: ربَّنا إنَّك أعطيتَ فِرعونَ وأشرافَ قَومِه زينةً مِن متاعِ الدُّنيا؛ استدراجًا منك لِتَفتِنَهم فيَضِلُّوا ويُضِلُّوا غيرَهم؛ عقوبةً منك لهم، ربَّنا فأهلِكْ أموالَهم، فلا ينتَفِعوا بها، واختِمْ على قلوبِهم حتى لا تنشَرِحَ للإيمانِ، فلا يؤمِنوا حتى يَرَوا العذابَ الشَّديدَ المُوجِعَ، فلا ينفَعُهم إيمانُهم حينئذٍ. قال الله تعالى لهما: قد أجيبَت دَعوتُكما في فرعونَ ومَلَئِه وأموالِهم، فاستَقيما على دينِكما، واستَمِرَّا على دعوتِكما فرعونَ وقَومَه إلى توحيدِ اللهِ وطاعتِه، ولا تَسلُكا طريقَ مَن لا يعلَمُ حقيقةَ وعيدي، وأنِّي لا أخلِفُ الميعادَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أجابوه إلى إظهارِ الاعتمادِ عليه سُبحانَه، وفوَّضوا الأمورَ إليه؛ أتبَعَه ما يزيدُهم طُمأنينةً مِن التوطُّنِ في أرضِ العَدُوِّ؛ إشارةً إلى عدَمِ المبالاةِ به[1].

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ﴾.

أي: وأوحَينا إلى موسى وأخيه هارونَ أن اتَّخِذا لِقَومِكما بني إسرائيلَ في

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٧٨).

أرضِ مِصرَ مساكِنَ[١].

﴿وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ﴾.

أي: واجعَلوا مَساكِنَكم مساجِدَ تصلُّونَ فيها[٢].

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

أي: وأدُّوا ما أمَرَكم اللهُ به من الصَّلَواتِ بحُدودِها في أوقاتِها[٣].

﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

أي: وبَشِّر- يا موسى- المؤمنينَ بالنَّصرِ والثَّوابِ[٤].

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٨٨﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٢).
قال ابن عاشور: (معنى تبَوُّؤِ البيوتِ لِقَومِهما أن يأمُرا قومَهما باتخاذِ البُيوتِ على الوصفِ الذي يأمُرانِهم به، وإذ قد كان لبني إسرائيلَ ديارٌ في مصرَ مِن قَبلُ- إذ لا يكونونَ قاطنينَ مِصرَ بدون مساكِنَ-.. لا جرم أن تكونَ البيوتُ المأمورُ بتبَوُّئِها غيرَ البُيوتِ التي كانوا ساكِنيها... فالذي يظهَرُ أنَّ هذه البيوتَ خِيامٌ أو أخصاصٌ أمَرَهم الله باتِّخاذِها تهيئةً للارتحالِ، وهي غيرُ ديارِهم التي كانوا يسكُنونَها). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٥٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٠٦)، ((تفسير الزمخشري)) (١٢/ ٢٥٤)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٢).
وممن اختار هذا المعنى المذكور: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ، والزمخشريُّ، والقاسميُّ، والسعدي.
يُنظر: المصادر السابقة.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٧٣)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٢).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ختَمَ الآيةَ السابقةَ ببِشارةِ المؤمنينَ، وكان هلاكُ المُشانِئِ مِن أعظَمِ البَشائِرِ، وكان ضلالُ فِرعونَ وقَومِه بالزِّينةِ والمالِ إضلالًا لِغَيرِهم، سأل موسى عليه السَّلامُ إزالةَ ذلك كلِّه؛ للرَّاحةِ مِن شرِّه[١].

وأيضًا فإنَّ موسى عليه السَّلامُ لَمَّا بالغَ في إظهارِ المُعجِزاتِ الظَّاهرةِ القاهرةِ، ورأى القومَ مُصرِّينَ على الجُحودِ والعِنادِ والإنكارِ، أخذ يدعو عليهم، ومن حَقِّ مَن يدعو على الغيرِ أن يذكُرَ أوَّلًا سبَبَ إقدامِه على تلك الجرائِمِ، وكان جُرمُهم هو أنَّهم لأجلِ حُبِّهم الدُّنيا ترَكوا الدِّينَ؛ فلهذا السَّبَبِ قال موسى عليه السَّلامُ[٢]، فيما يحكيه الله عنه:

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾.

أي: وقال موسى: يا رَبَّنا إنَّك أعطيتَ فِرعونَ وأشرافَ قَومِه زينةً يتزَيَّنونَ بها، كالأثاثِ، وأنواعِ الحُلِيِّ، والثِّيابِ، والبيوتِ، والمَراكِبِ، وأعطيتَهم أموالًا كثيرةً في هذه الحياةِ الدُّنيا[٣].

﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١ - قراءةُ ﴿لِيُضِلُّوا﴾ بمعنى: ليُضِلُّوا النَّاسَ عن سبيلِك، ويَصُدُّوهم عن دينِك[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٢).

(٤) قرأ بها عاصمٌ وحمزةُ والكسائيُّ وخَلَف. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٦٢). =

٢- قراءةُ ﴿لِيَضِلُّوا﴾ بمعنى: لِيَضِلُّوا هم أنفُسُهم عن سبيلِك[1].

﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ﴾.

أي: قال موسى: يا ربَّنا إنَّك أعطيتَهم الزِّينةَ والأموالَ استدراجًا منك؛ كي تفتِنَهم فيَضِلُّوا ويُضِلُّوا غيرَهم عن اتِّباعِ دينِك؛ عقوبةً منك لهم[2].

﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا تقَدَّم ذِكرُ الأموالِ- وهي أعَزُّ ما ادُّخِر- دعا بالطُّموسِ عليها[3].

﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾.

= ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٦١)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٨٣)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٣٥).

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٦٢).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٦١)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٨٣)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٠).

ذهب بعض المفسِّرين إلى أنَّ اللام في قوله تعالى: ﴿لِيُضِلُّوا﴾ هي لامُ كي (لام التعليل)، وممن اختار ذلك: ابنُ جريرٍ، وابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٠).

قال ابن كثير: (﴿رَبَّنَا لِيَضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكِ﴾- بفتح الياء- أي: أعطيتَهم ذلك وأنت تعلَمُ أنَّهم لا يؤمِنونَ بما أرسلتَني به إليهم؛ استدراجًا منك لهم، كما قال تعالى: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾. وقرأ آخرون: ﴿لِيُضِلُّوا﴾ بضم الياء، أي: ليفتَتِنَ بما أعطيتَهم من شئتَ مِن خَلقِك، ليظُنَّ مَن أغويتَه أنَّك إنما أعطيتَ هؤلاءِ هذا؛ لحُبِّك إيَّاهم واعتنائِك بهم). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٠).

وذهَب بعضُهم إلى أنَّها لامُ العاقبةِ والصيرورةِ. وممن اختار ذلك: القرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٩٩).

أي: يا ربَّنا أتْلِفْ أموالَ فِرعونَ ومَلَئِه، فلا ينتَفِعوا بها[١].

﴿وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾.

أي: واطبَعْ- يا ربَّنا- على قلوبِهم بالكُفرِ، واجعَلْها قاسيةً[٢].

﴿فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾.

أي: فلا يُؤمِنوا بالحَقِّ حتى يُعايِنوا العذابَ المُوجِعَ الذي يَهلِكونَ به، فلا ينفعُهم إيمانُهم حينئذٍ[٣].

﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ٨٩﴾.

﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا﴾.

أي: قال الله: قد أجبتُ دَعوتَكما- يا موسى وهارونُ- على فِرعونَ ومَلَئِه[٤].

﴿فَٱسۡتَقِيمَا﴾.

أي: فاستَقِيما واثْبُتا على دينِكما، واستمِرَّا على دعوةِ فِرعونَ وقومِه إلى الحَقِّ إلى أن يأتيَهم العذابُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٦٣)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٦٧)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٣٢)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٣٣)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ١٦٢).
ذهب ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما إلى أنَّ العذابَ الأليمَ هنا: هو الغَرَقُ، وبه قال الواحديُّ.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٧٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٧٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٣٢)، ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٢٠٨)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٧٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن =

﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

أي: ولا تسلُكا طريقَ الذين يَجهَلونَ أنَّ اللهَ لا يُخلِفُ الميعادَ، فيَستعجِلونَ وعيدَه وقضاءَه، فعذابي واقعٌ بفِرعونَ وقَومِه[1].

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قدَّم بين يدَي الدُّعاءِ ما آتاهم اللهُ مِن النِّعمةِ في الدُّنيا، وكان اللائقُ أن يكونَ ذلك سببًا للإيمانِ به ولِشُكرِ نِعَمِه، فجَعَلوا ذلك سببًا لِجُحودِه ولكُفرِ نِعَمِه[2].

٢- وجودُ النِّعمةِ في أيدي المُفسِدينَ يُزعزِعُ كثيرًا من القلوبِ التي لا يبلغُ مِن يَقينِها باللهِ أن تُدرِكَ أنَّ هذه النِّعمةَ ابتلاءٌ واختبارٌ، وأنَّها كذلك ليست شيئًا ذا قيمةٍ إلى جانبِ فَضلِ الله في الدُّنيا والآخرةِ، وذلك مِن الأسبابِ التي ينشأُ عنها الضلالُ؛ قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ﴾[3].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ استشكلَ بعضُ النَّاسِ هذه الآيةَ،

= عطية)) (٣/ ١٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٧٣)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٠١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٩٩).

(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٨١٧).

فقال: كيف دعا عليهم، وحُكمُ الرُّسُلِ استدعاءُ إيمانِ قَومِهم؟ فالجوابُ: أنَّه لا يجوزُ أن يدعوَ نبيٌّ على قَومِه إلَّا بإذنٍ مِن اللهِ، وإعلامٍ أنَّه ليس فيهم من يؤمِنُ، ولا يخرجُ مِن أصلابِهم مَن يُؤمِنُ، دليلُه قَولُه تعالى لنوحٍ عليه السَّلامُ: ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ [هود: ٣٦] وعند ذلك قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾(١) [نوح: ٢٦].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ دليلٌ على جوازِ الدُّعاءِ على الظَّالمِ المعَيَّنِ بما يَستلزِمُ النَّقصَ في دينِه، وليس هو مِن طلَبِ وقوعِ المَعصيةِ، ولكِنْ مِن حيثُ إنَّه يؤدِّي إلى نِكايةِ الظَّالمِ وعُقوبتِه(٢).

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ الشَّدُّ على القَلبِ: هو الصَّدُّ والمَنعُ، وهذا الشدُّ والتقسيةُ مِن كمالِ عَدْلِ الربِّ سُبحانه في أعدائِه؛ حيث جعَلَه عقوبةً لهم على كُفرِهم وإعراضِهم- وهذا كعُقوبتِه لهم بالمصائِبِ- ولهذا كان محمودًا عليه، فهو حسَنٌ منه سُبحانه، وأقبحُ شيءٍ منهم؛ فإنَّه عَدْلٌ منه وحِكمةٌ، وهو ظُلْمٌ منهم وسَفَهٌ، فالقضاءُ والقَدَرُ فِعلُ عادلٍ حكيمٍ غَنيٍّ عليمٍ، يضعُ الخَيرَ والشَّرَّ في أليقِ المواضِعِ بهما(٣).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا﴾ دليلٌ على أنَّ اللهَ يفعَلُ ذلك بمن يَشاءُ، ولولا ذلك ما حسُنَ مِن موسى هذا السُّؤالُ(٤).

٥- قال الله تعالى: ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ جعلَ رُؤيةَ العَذابِ نهايةً وغايةً، وذلك لعِلمِه مِن قِبَلِ اللهِ أنَّ الذي يؤمن عند رؤيةِ العَذابِ

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٧٥).
(٢) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٢/ ٢٤١).
(٣) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٧).
(٤) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٥٧).

لا ينفعُه إيمانُه في ذلك الوقتِ، ولا يُخرِجُه مِن كُفرِه، ثم أجاب اللهُ هذه الدَّعوةَ في فرعونَ نَفسِه[١].

٦- في قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾ بعد قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ دلالةٌ على أنَّ فِرعونَ مات كافِرًا؛ لأنَّ اللهَ استجابَ دعوةَ موسى وهارون أنَّ فِرعونَ ومَلأَه لا يُؤمِنونَ حتى يَرَوا العذابَ الأليمَ[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾ إن قال قائِلٌ: كيف نُسِبَت الإجابةُ إلى اثنين، والدُّعاءُ إنَّما كان من واحدٍ؟ قيل: إنَّ الداعيَ وإن كان واحدًا، فإنَّ الثانيَ كان مؤمِّنًا وهو هارونُ؛ فلذلك نُسِبَت الإجابةُ إليهما، لأنَّ المؤمِّنَ داعٍ[٣]، وقيل: إنَّما أُضيفَت الدَّعوةُ إلى ضميرِ التَّثنيةِ المخاطَبِ به موسى وهارونُ- وإن كانَت الدَّعوةُ إنَّما حُكِيَت عن موسى عليه السَّلامُ وحْدَه-؛ لأنَّ موسى عليه السَّلامُ دعا لِما كان هارونُ مُواطِئًا له، وقائِلًا بمِثلِه؛ لأنَّ دعوتَهما واحدةٌ[٤].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾ بناه للمَفعولِ، والبناءُ للمَفعولِ أدَلُّ على القُدرةِ وأوقعُ في النَّفسِ، من جهةِ الدَّلالةِ على الفاعِلِ بالاستدلالِ[٥].

بلاغة الآيات:

١- قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٢٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٧٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٣/ ١١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٧٢).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٨٢).

- قولُه: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه تنويعُ الخطابِ، حيث ثَنَّى أوَّلًا، ثمَّ جمَع، ثمَّ وحَّدَ آخِرًا؛ فخُوطِبَ موسى وهارونُ عليهما السَّلامُ أن يتبَوَّآ لقومِهما بُيوتًا، ويَختاراها للعِبادةِ، وذلك ممَّا يفوَّضُ إلى الأنبياءِ، ثمَّ سيقَ الخطابُ عامًّا لهما ولِقَومِهما باتِّخاذِ المساجدِ والصَّلاةِ فيها؛ لأنَّ ذلك واجبٌ على الجمهورِ، ثمَّ خُصَّ موسى عليه السَّلامُ بالبِشارةِ الَّتي هي الغرَضِ؛ تعظيمًا لها وللمُبشَّرِ بها(١).

- وعَطفُ جملةِ: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ على ما قبلَها يؤذِنُ بأنَّ ما أُمِروا به مِن اتِّخاذِ البيوتِ، أمْرٌ بحالةٍ مُشعِرةٍ بتَرقُّبِ أخطارٍ وتَخوُّفٍ؛ فإنَّهم قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً...﴾؛ فأمر موسى أن يُبشِّرَهم بحُسنِ العاقبةِ، وأنَّهم مَنصورون على عَدوِّهم، وناجون منه(٢).

٢- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾

- في قولِه: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوالًا﴾ توطِئةٌ للدُّعاءِ عليهم؛ فليس المقصودُ به حَقيقةَ الإخبارِ؛ ضرورةَ أنَّ موسى يوقِنُ أنَّ اللهَ يَعلَمُ ذلك، فتَعيَّن أنَّ الخبرَ مُستعمَلٌ في التَّمهيدِ لطَلَبِ سَلْبِ النِّعمةِ عَنهم في قولِهم: ﴿لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ﴾، ثمَّ الانتقالِ إلى الدُّعاءِ بسَلبِ ما أُوتوه(٣).

- واقترانُ الخبرِ بحَرفِ (إنَّ) في قولِه: ﴿إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ...﴾ مقصودٌ به

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٢٦٨).

الاهتمامُ بهذا المعنى الَّذي استُعمِل فيه الخبرُ؛ إذ ليس المقامُ مَقامَ دَفعِ تردُّدٍ، أو دفعِ إنكارٍ[1].

- وعلى القولِ بأنَّ اللَّامَ في ﴿لِيُضِلُّوا﴾ للعِلَّةِ- لأنَّ إيتاءَ النِّعَمِ على الكُفرِ استِدْراجٌ، وتثبيتٌ على الضَّلالِ، ولأنَّهم لَمَّا جعَلوها ذَريعةً إلى الضَّلالِ فكأنَّهم أُوتوها ليُضِلُّوا- فيَكونُ ﴿رَبَّنَا﴾ تكريرًا للأوَّلِ؛ تأكيدًا أو تنبيهًا على أنَّ المقصودَ عرضُ ضلالِهم وكُفرانِهم؛ تَقْدِمةً لقولِه تعالى: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾، ففيه إعادةُ النِّداءِ ﴿رَبَّنَا﴾ بينَ الجملةِ المعَلَّلةِ ﴿إِنَّكَ آتَيْتَ...﴾ والجملةِ المعلِّلةِ ﴿لِيُضِلُّوا﴾؛ لِتأكيدِ التَّذلُّلِ والتَّعرُّضِ للإجابةِ، ولإظهارِ التَّبرُّؤِ مِن قصدِ الاعتراضِ، وتوكيدًا للدُّعاءِ والاستغاثةِ[2].

- وأُعيد النِّداءُ ثالِثَ مرَّةٍ في قولِهم: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾؛ لِزيادةِ تأكيدِ التَّوجُّهِ والتَّضرُّعِ[3].

- وتعدِيَةُ ﴿اطْمِسْ﴾ بـ(عَلَى)؛ لإرادةِ تَمكُّنِ الفعلِ مِن المفعولِ، أو لِتَضمينِ الطَّمسِ مَعْنى الاعتلاءِ بآلةِ المحوِ والإزالةِ؛ فطَمْسُ الأموالِ إتلافُها وإهلاكُها[4].

٣- قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾ فيه افتتاحُ الجملةِ بـ(قد)، والفعلُ الماضي ﴿أُجِيبَتْ﴾ يُفيدُ تَحقيقَ الحصولِ في المستقبَلِ؛ فشُبِّه بالمضيِّ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٧٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٢٧٢).

الآيات (٩٠-٩٢)

﴿ ۞ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩٠ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٩١ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ٩٢ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿بَغْيًا﴾: أي: ظلمًا، مصدرُ بَغَى يَبْغي إذا ظلَم، أو: هو طلبُ الاستعلاءِ بغيرِ حقٍّ، وأصلُ البغي: الفسادُ، وتجاوزُ الحدِّ، يقال: بَغَى الجرحُ: إذا ترامَى إلى فسادٍ[1].

﴿وَعَدْوًا﴾: أي: اعتداءً، وأصلُ (عدو): يدُلُّ على تجاوُزٍ في الشَّيءِ، وتقَدُّمٍ لِما ينبغي أن يُقتصَرَ عليه[2].

المَعنَى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: وقطَعْنا ببني إسرائيلَ البَحرَ حتى جاوَزوه، فتَبِعَهم فرعونُ وجُنودُه ظلمًا وعُدوانًا، فسَلَكوا البحرَ وراءَهم، حتى إذا أحاط بفرعونَ الغَرَقُ قال: آمنتُ أنَّه لا إلهَ إلَّا الذي آمنتْ به بنو إسرائيلَ، وأنا من الموحِّدينَ المُستَسلِمينَ بالانقيادِ والطَّاعة، فقال اللهُ له: آلآنَ تؤمِنُ يا فرعونُ، وقد نزل بك الموتُ، تقرُّ لله بالعبوديَّةِ، وقد عصيتَه قبلَ نُزولِ عَذابِه بك، وكنتَ مِن المفسدينَ الصَّادِّينَ عن سبيلِه؟! فاليومَ نجعَلُك على مرتفَعٍ مِن الأرضِ بجَسَدِك، ينظُرُ إليك مَن

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (١/ ٢٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١)، ((البسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٠٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٧٧).

كذَّب بهلاكِك؛ لتكونَ لِمَن بَعدَك من النَّاسِ عِبرةً يَعتَبِرونَ بك؛ فإنَّ كثيرًا مِن النَّاسِ عن حُجَجِنا وأدلَّتِنا لَغافِلونَ، لا يتفَكَّرونَ فيها ولا يعتَبِرونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أمَر بالتأنِّي الذي هو نتيجةُ العلمِ، عطَف على ذلك الإخبارَ بالاستجابةِ[١]، فقال تعالى:

﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾.

أي: وقَطَعنا ببني إسرائيلَ البَحرَ عندما خرجوا من مِصرَ مع نبيِّهم موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[٢].

﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًا﴾.

أي: فتَبِعَ بني إسرائيلَ فرعونُ وجنودُه؛ استعلاءً عليهم واعتداءً[٣].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٧٣، ٢٧٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٠١، ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٧٤).

قال ابن عاشور: (إنَّما كان اتِّباعُه إيَّاهم ظُلْمًا وعُدوانًا؛ إذ ليس له فيه شائِبةُ حَقٍّ؛ لأنَّ بني إسرائيلَ أرادوا مفارقةَ بلادِ فرعونَ، وليست مُفارَقةُ أحدٍ بلَدَه محظورةً، إن لم يكن لأحدٍ عليه حقٌّ في البقاء... فلمَّا رام فرعونُ منعَ بني إسرائيلَ مِن الخُروجِ، وشَدَّ لِلَّحاقِ بهم لِرَدِّهم كُرهًا؛ كان =

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾.

أي: حتى إذا أحاط الغَرَقُ بفِرعونَ قال عند الموتِ: أقررتُ بأنَّه لا إلهَ إلَّا اللهُ الذي آمَنَ به قومُ موسى، وأنا من الموحِّدينَ لله، المُستَسلِمينَ المُنقادينَ له بالطَّاعةِ(١).

﴿ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾ ﴾.

أي: قال اللهُ لِفَرعونَ: آلآنَ تتوبُ، وتؤمِنُ باللهِ، وتستسلِمُ له بعد فواتِ الأوانِ، وقد عصيتَه قبلَ نزولِ عذابِه، وكنتَ مِن المُفسِدينَ في الأرضِ الذين ظَلَموا العبادَ، وأضَلُّوهم، وصَدُّوهم عن سبيلِ الله(٢)؟!

﴿ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾.

﴿ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾.

أي: قال اللهُ لِفَرعونَ: فاليومَ نجعَلُ جَسَدَك وما تقلَّدتَه مِن دروعِ الحربِ بعدَ غَرَقِك، على مكانٍ مرتَفِعٍ مِن الأرضِ، فيَتَبيَّن للنَّاسِ هلاكُك(٣).

= في ذلك ظالِمًا مُعتَديًا؛ لأنه يبتغي بذلك إكراهَهم على البقاءِ، ولأنَّ غَرَضَه من ذلك تسخيرُهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٧٤، ٢٧٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٧٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٠٢، ٣٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٧٧، ٣٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٧٨، ٢٧٩)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٧٩)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٠٦، ٣٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٧٨).
قال السعدي: (قال المفسرون: إنَّ بني إسرائيلَ لِمَا في قلوبِهم من الرُّعبِ العَظيمِ مِن =

﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾.

أي: لِتَكونَ- يا فرعونُ- لِمَن بَعدَك من النَّاسِ عِبرةً بعد إيقانِهم بهلاكِك وقدرةِ الله على كلِّ ذلك، فيَنزَجِروا عن الكُفرِ باللهِ ومَعصيتِه، ويَرَوا عاقِبةَ الطُّغيانِ، ويخافوا غضَبَ اللهِ[1].

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾.

أي: وإنَّ كثيرًا مِن النَّاسِ مُعرِضونَ عن تأمُّلِ آياتِنا، وعن التفكُّرِ فيها، والاعتبارِ بها[2].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- التَّوبةُ بعد المُعاينةِ لا تنفَعُ؛ قال الله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[3]؛ إذ إنَّ إيمانَ فِرعونَ في تلك اللَّحظةِ كان إيمانًا مُشاهَدًا غيرَ نافعٍ، فالإيمانُ الذي ينفَعُ إنَّما هو الإيمانُ بالغَيبِ[4].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي

= فِرعونَ، كأنَّهم لم يصَدِّقوا بإغراقِه، وشَكُّوا في ذلك، فأمر اللهُ البَحرَ أن يُلقِيَه على نَجوةٍ مُرتَفعةٍ ببَدَنِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٧٩)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٤)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٧٢).

آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ الآيةُ تفيدُ أنَّه لم يَسَعْه إلَّا الإيمانُ باللهِ؛ لأنَّه قَهَرتْه أدلَّةُ الإيمانِ، وهذه مُستفادةٌ مِن رَبطِ جُملة إيمانِه بالظَّرفِ في قوله: ﴿إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ﴾ وهذه مَنقبةٌ للإيمانِ، وأنَّ الحَقَّ يَغلِبُ الباطِلَ في النِّهايةِ[1].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ فيه ذمٌّ للغَفلةِ وعدمِ التفكُّرِ في أسبابِ الحَوادِثِ وعَواقِبِها، واستبانةِ سُنَنِ الله فيها للاعتبارِ والاتِّعاظِ بها[2].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ جملةُ: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ تذييلٌ لِمَوعظةِ المُشرِكينَ، والمرادُ منه: دَفعُ توهُّمِ النَّقصِ عن آياتِ اللهِ عندما يُحرَمُ كَثيرٌ مِن النَّاسِ الاهتداءَ بها، فهي في ذاتِها دلائِلُ هُدًى سواءٌ انتفَعَ بها بعضُ النَّاسِ أم لم ينتَفِعوا، فالتَّقصيرُ منهم[3].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾ لهذا الإسنادِ في قوله: ﴿جَاوَزْنَا﴾ دَلالتُه، أي: بقِيادتِنا وهدايتِنا ورعايتِنا[4].

٢- قولُه: ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ...﴾ الإدراكُ: اللَّحاقُ وانتهاءُ السَّيرِ، وهذا التَّعبيرُ يُؤْذِنُ بأنَّ الغرَقَ دَنا مِنه تَدريجيًّا بهَولِ البحرِ ومُصارَعتِه الموجَ، وهو يَأمُلُ النَّجاةَ منه، وأنَّه لم يُظهِرِ الإيمانَ حتَّى أَيِسَ مِن النَّجاةِ، وأيقَنَ بالموتِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٨٠).

(٤) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٨١٨).

وذلك لِتَصلُّبِه في الكفرِ[١].

٣- قولُه: ﴿قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ لم يَقُلْ فرعونُ كما قاله السَّحرةُ: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ بل عبَّر عنه تعالى بالموصولِ، وجعَل صِلتَه إيمانَ بَني إسرائيلَ به تعالى؛ للإشعارِ برُجوعِه عن الاستعصاءِ، وباتِّباعِه لِمَن كان يَستتبِعُهم؛ طمعًا في القَبولِ، والانتظامِ معَهم في زُمرةِ النَّجاةِ[٢]؛ وقد كرَّر المخذولُ المعنى الواحدَ ثلاثَ مرَّاتٍ في ثلاثِ عباراتٍ؛ حِرصًا على القَبولِ، ثمَّ لم يُقبَلْ منه حيث أخطَأ وقْتَه، وقاله حين لم يبقَ له اختيارٌ قطُّ، وكانت المرَّةُ الواحدةُ كافيةً في حالِ الاختيارِ، وعِندَ بقاءِ التَّكليفِ[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ردٌّ على مَن زعم إيمانَ فِرعونَ؛ وذلك لأنَّ الاستفهامَ هنا هو استِفهامُ إنكارٍ وذَمٍّ، ولو كان إيمانُه صَحيحًا مقبولًا عند الغَرَق، لَمَا قيلَ له ذلك[٤].

٥- قوله: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ في تعليلِ تنجيَتِه بما ذُكِر إيذانٌ بأنَّها ليسَت لإعزازِه أو لفائدةٍ أُخرَى عائدةٍ إليه، بل لِكَمالِ الاستهانةِ به، وتَفْضيحِه على رُؤوسِ الأشهادِ، وزيادةِ تفظيعِ حالِه؛ كمن يُقتَلُ ثمَّ يُجرُّ جسَدُه في الأسواقِ، أو يُدارُ برأسِه في البلادِ[٥].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ ردٌّ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٧٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤ / ١٧٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢ / ٣٦٧).
(٤) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٢٠٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤ / ١٧٤).

مَن زعم إيمانَ فرعونَ؛ لأنَّ اللهَ تعالى جعَلَه عبرةً وعلامةً لِمَن يكونُ بعده مِن الأمَمِ؛ ليَنظُروا عاقِبةَ مَن كفَرَ باللهِ تعالى؛ ولهذا ذَكَرَ اللهُ تعالى الاعتبارَ بقصَّةِ فِرعونَ وقَومِه في غيرِ موضِعٍ[1].

بلاغة الآيات:

١- قوله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾

- قوله: ﴿وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فيه إيثارُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ؛ لادِّعاءِ الدَّوامِ والاستمرارِ[2].

٢- قوله تعالى: ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾

- قولُه: ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾: الاستفهامُ إنكاريٌّ، والإنكارُ مُؤذِنٌ بأنَّ الوقتَ الَّذي عُلِّق به الإنكارُ ليس وقتًا يَنفَعُ فيه الإيمانُ؛ لأنَّ الاستِفْهامَ الإنكاريَّ في قوَّةِ النَّفيِ[3].

- وجملةُ: ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ حالٌ مِن فاعلِ الفعلِ المقدَّرِ؛ جيءَ به لِتَشديدِ التَّوبيخِ والتَّقريعِ على تأخيرِ الإيمانِ إلى هذا الآنِ[4]، وهي مؤكِّدةٌ لِمَا في الاستفهامِ ﴿آلْآنَ﴾ مِن معنى الإنكارِ؛ فإنَّ إيمانَه في ذلك الحينِ مُنكَرٌ، ويَزيدُه نُكْرًا أنَّ صاحِبَه كان عاصيًا للهِ، ومفسِدًا للدِّينِ الَّذي أرسَلَه اللهُ إليه، ومُفسِدًا في الأرضِ بالجَورِ والظُّلمِ، والتَّمويهِ بالسِّحرِ[5].

---

(١) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٢٠٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٧٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٧٨).

٣- قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ اعتِراضٌ تذييليٌّ، جيءَ به عندَ الحكايةِ؛ تَقريرًا لِفَحوَى الكلامِ المحكيِّ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٤).

الآيات (٩٣-٩٥)

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾: أي: مَنزِلًا مَحمودًا مُختارًا، وأصل (بوأ): يدلُّ على الرُّجوعِ إلى شَيءٍ(١).

﴿الْمُمْتَرِينَ﴾: أي: المتردِّدينَ، من المِريةِ: وهي التردُّدُ في الأمرِ، وهي أخصُّ من الشَّكِّ(٢).

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى عمَّا أنعَمَ به على بني إسرائيلَ مِن النِّعَم قائلًا: ولقد أنزَلْنا بني إسرائيلَ مَنازِلَ صالحةً محمودةً، ورَزَقناهم الرِّزقَ الحَلالَ الطَّيِّبَ مِن خيراتِ الأرضِ المُبارَكةِ، فما اختَلَفوا في تصديقِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأنَّه نبيٌّ حَقٌّ مَبعوثٌ، حتى جاءَهم القُرآنُ والبيانُ بأنَّه رسولُ اللهِ صِدقٌ، ودينَه حَقٌّ، إنَّ رَبَّك- أيُّها الرَّسولُ- يقضي بينهم يومَ القيامةِ، ويَفْصِلُ فيما كانوا يختَلِفونَ فيه

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٧).

مِن أمرِك، فيُدخِلُ المكَذِّبينَ النَّارَ، والمؤمنينَ الجنَّةَ، فإن كنتَ -أيُّها الرَّسولُ- في ريبٍ مِن حقيقةِ ما أخبَرناك به فاسألِ الذينَ يَقرؤونَ الكتابَ مِن قبلِك، من أهلِ التَّوراةِ والإنجيلِ؛ فإنَّ ذلك ثابتٌ في كتُبِهم، لقد جاءك الحَقُّ اليقينُ مِن رَبِّك بأنَّك رسولُ الله، وأنَّ هؤلاءِ اليَهودَ والنَّصارى يعلمونَ صِحَّةَ ذلك، ويَجِدونَ صِفتَك في كُتُبِهم، ولكِنَّهم يُنكِرونَ ذلك مع عِلمِهم به، فلا تكونَنَّ من الشاكِّينَ في صِحَّةِ ذلك، ولا تكونَنَّ مِن الذينَ كذَّبوا بآياتِ القُرآنِ، فتكونَ مِن الخاسرينَ الذين سخِطَ اللهُ عليهم ونالوا عقابَه.

تَفسيرُ الآيات:

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لمَّا ذكَر تعالى ما جرَى لفرعونَ وأتباعِه مِن الهلاكِ؛ ذكَر ما أحسنَ به لبني إسرائيلَ، وما امتنَّ به عليهم(١)، وكيف كانت عاقبتُهم الحسنَى؛ ليظهرَ الفرقُ بينَ مصيرَيْ فريقينِ جاءَهم رسولٌ، فآمنَ به فريقٌ، وكفَر به فريقٌ، ليكونَ ذلك ترغيبًا للمشركينَ في الإيمانِ، وبشارةً للمؤمنينَ مِن أهل مكةَ(٢).

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾.

أي: ولقد أنزَلْنا وأسكنَّا بني إسرائيلَ مَنازِلَ حَسَنةً محمودةً مُختارةً(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٨٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣١٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨١)، ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٣/ ٢٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٨١، ٢٨٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٦١). =

كما قال الله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَر أنَّه بوَّأهم مُبوَّأَ صِدقٍ؛ ذكَر امتِنانَه عليهم بما رزَقهم مِن الطَّيباتِ[١].

﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾.

أي: ورزَقْنا بني إسرائيلَ مِن الرِّزقِ الحلالِ الطَّيِّبِ النَّافِعِ، من الأطعِمةِ والأشرِبةِ وغَيرِها[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧].

وقال سُبحانه: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠].

﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾.

أي: فما اختلَفَ بنو إسرائيلَ في الإقرار بنبوَّة محمَّدٍ صلى الله عليه وسلَّم

= والمرادُ ببني إسرائيلَ أصحابُ موسَى عليه السلامُ، وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٤٩).

وقال ابنُ جرير في قولِه: ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾: (قيل: عنَى بذلك الشَّامَ وبيتَ المَقدِس. وقيل: عنَى به الشَّامَ ومِصرَ). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٨٤).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٣).

وبمبعثِه، حتَّى جاءَهم ما كانوا به عالِمينَ، فبُعِثَ صلَّى الله عليه وسلَّم بنعتِه وصفتِه، وجاءَهم القُرآنُ، فاختَلفوا حينئذٍ، فآمن بعضُهم بنبوَّتِه، وكفر بها بعضُهم، ولم يكنْ ينبغي لهم ذلك(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٦ - ١٨].

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

أي: إنَّ ربَّك- يا مُحمَّدُ- يحكُمُ بين المُختَلِفينَ فيك مِن بني إسرائيلَ يومَ القيامةِ فيما كانوا فيه يختَلِفونَ مِن أمرِك، فيُدخِلُ المؤمنينَ بك الجنَّةَ، ويُدخِلُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٨٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨١).

ومِمن قال بأنَّ المرادَ بقولِه: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا﴾- على التفسير المذكور- هم اليهودُ المعاصرونَ لمحمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم، ممن كانوا في زمانه: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: المصادر السابقة.

قال الرازي عن هذا القول: (فهذا قال به قومٌ عظيمٌ مِن المفسِّرينَ). ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٩٩). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٣٧).

وقيل: معنَى الآيةِ: فما اختَلف اليهودُ في أمرِ دينِهم، وتشعَّبوا فيه شعبًا بعدَ ما كانوا على طريقةٍ واحدةٍ غيرِ مختلفةٍ، حتى جاءَهم العلمُ؛ بقراءتِهم التوراةَ، وعلمِهم بأحكامِها.

ومِمن اختار هذا المعنى: الزمخشري، والشوكاني، والقاسمي، ومحمد رشيد رضا.

يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٦٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٣٧)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٦١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٩١).

قال ابنُ كثير: (وقولُه: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أي: ما اختلفوا في شيءٍ مِن المسائلِ إلَّا مِن بعدِ ما جاءَهم العلمُ، أي: ولم يكنْ لهم أن يختلفوا، وقد بيَّن الله لهم، وأزال عنهم اللبسَ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٥).

المكذِّبينَ بك النَّارَ[١].

﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ٩٤ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكرَ مِن قبلُ اختلافَ أهلِ الكتابِ عندما جاءَهم العِلمُ؛ أوردَ على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في هذه الآيةِ ما يُقَوِّي قلبَه في صِحَّةِ القُرآنِ والنبُوَّةِ[٢].

وأيضًا فإنَّ هذه الآيةَ تَفريعٌ على سياقِ القِصَصِ التي جعَلَها اللهُ مَثلًا لأهلِ مَكَّةَ، وعِظةً بما حَلَّ بأمثالِهم، فانتقل بهذا التَّفريعِ من أسلوبٍ إلى أسلوبٍ كِلاهما تعريضٌ بالمُكَذِّبينَ، فالأسلوبُ السَّابِقُ تعريضٌ بالتَّحذيرِ مِن أن يحُلَّ بهم ما حَلَّ بالأممِ المماثلةِ لهم، وهذا الأسلوبُ الموالي تعريضٌ لهم بشَهادةِ أهلِ الكتابِ على تلك الحَوادِثِ، وما في الكُتُبِ السَّابقةِ مِن الإنباءِ برِسالةِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم[٣].

﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَ ﴾.

أي: فإنْ كنتَ- يا محمَّدُ- في شكٍّ من حقيقةِ ما أخبَرْناك في القرآنِ مِن أنَّ بني إسرائيلَ لم يختَلِفوا في أمرِك إلَّا مِن بعدِ مَجيئِك- لأنَّهم يَجدونَك مكتوبًا عندهم، ويَعرِفونك بصِفاتِك الواردةِ في كُتُبِهم- فاسألْ أهلَ الكِتابِ الذين يقرؤونَ التوراةَ والإنجيلَ مِن قبلِك؛ فإنَّهم يَعلَمونَ صحَّةَ ذلك[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٨٥، ٢٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٨٥، ٢٨٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٤٣)، ((مجموع =

كما قال تعالى: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٤٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ * أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٦-١٩٧].

= الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٣٢٥)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٢/ ٣٥٧، ٣٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٦).

قال ابنُ عطيةَ: (وقولُه: ﴿مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ يريدُ به من أنَّ بني إسرائيلَ لم يختلفوا في أمرِه إلَّا مِن بعدِ مجيئِه، وهذا قولُ أهلِ التأويلِ قاطبةً. وهذا هو الذي يُشبه أن تُرتجَى إزالةُ الشكِّ فيه مِن قِبَلِ أهلِ الكتابِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٤٣).

قال ابنُ القيِّم: (أشكلتْ هذه الآيةُ على كثيرٍ مِن النَّاس.. وليس في الآيةِ ما يدلُّ على وقوعِ الشكِّ، ولا السؤالِ أصلًا، فإنَّ الشرطَ لا يدلُّ على وقوعِ المشروطِ، بل ولا على إمكانِه، كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وقولِه: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٢]، وقوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، ونظائره، فرسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يشكَّ ولم يسألْ، .. فإنْ قيل: فإذا لم يكنْ واقعًا ولا ممكنًا فما مقصودُ الخطابِ والمرادُ به؟! قيل: المقصودُ به إقامةُ الحجةِ على منكري النبَّواتِ والتوحيدِ، وأنَّهم مقرُّونَ بذلك، لا يجحدونَه ولا ينكرونَه، وأنَّ الله سبحانه أرسَل إليهم رسلَه، وأنزَل عليهم كتبَه بذلك، وأرسَل ملائكتَه إلى أنبيائِه بوحيه وكلامِه، فمن شكَّ في ذلك فليسألْ أهلَ الكتابِ، فأخرَج هذا المعنَى في أوجزِ عبارةٍ، وأدلِّها على المقصودِ، بأن جعَل الخطابَ لرسولِه الذي لم يشكَّ قطُّ، ولم يسألْ قط، ولا عرَض له ما يقتضي ذلك، وأنت إذا تأمَّلتَ هذا الخطابَ بدا لك على صفحاتِه: مَن شكَّ فليسألْ، فرسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يشكَّ ولم يسألْ). ((أحكام أهل الذمة)) (١/ ٩٩ - ١٠٥). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣١٤، ٣١٦)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٠٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٣).

وقيل: هذا خطابٌ للرسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمرادُ به غيرُه على عادةِ العربِ، فإنَّهم يُخاطبونَ الرَّجلَ، ويُريدونَ به غيرَه، أو يكونُ الخطابُ شاملًا للخلقِ، والمعنى: فإنْ كنتُم في شكٍّ فاسألوا، والدليلُ علي ذلك قولُه في آخرِ السورةِ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ﴾ الآيةَ [يونس: ١٠٤]، فأعْلَم الله أنَّ نبيَّه ليس في شكٍّ، وأمَره أن يتلوَ عليهم ذلك. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣١٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٥٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٣٢٥).

وقال جلَّ جلالُه: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٢-٥٣].

وقال تبارك وتعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٠].

﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾.

أي: أُقسِمُ إنَّه قد جاءك- يا محمَّدُ- الحَقُّ اليقينُ مِن ربِّك بأنَّك رسولُ اللهِ، وأنَّ الذين أُوتوا الكتابَ مِن قَبلِك يَعلَمونَ ذلك، فلا تكونَنَّ مِن الشاكِّينَ في صِحَّةِ ذلك، واستمِرَّ على ما أنت عليه من اليَقينِ(١).

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾.

أي: ولا تكونَنَّ- يا محمَّدُ- من المكذِّبينَ بآياتِ القُرآنِ، فتكونَ من الخاسرينَ أنفُسَهم بدخولِ النَّارِ، المُضيِّعينَ سعادةَ الدُّنيا والآخرةِ، فاثبُتْ على ما أنت عليه من التَّصديقِ بالقُرآنِ(٢).

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾. هذا هو الداءُ الذي يعرِضُ لأهلِ الدِّينِ الصحيحِ، وهو: أنَّ الشيطانَ إذا أعجَزوه أن يُطيعوه في تركِ الدينِ بالكُلِّيةِ، سعَى في التحريشِ بينَهم، وإلقاءِ العداوةِ والبغضاءِ، فحصَل مِن الاختلافِ ما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٨٩)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٤).

هو موجبُ ذلك، ثم حصَل مِن تضليلِ بعضِهم لبعضٍ، وعداوةِ بعضِهم لبعضٍ، ما هو قرةُ عينِ اللعينِ، وإلَّا فإذا كان ربُّهم واحدًا، ورسولُهم واحدًا، ودينُهم واحدًا، ومَصالِحُهم العامةُ متفقةً، فلأيِّ شيءٍ يختلفونَ اختلافًا يفرِّقُ شملَهم، ويشتتُ أمرَهم، ويحلُّ رابطتَهم ونظامَهم، فيفوتُ مِن مصالِحِهم الدينيةِ والدنيويةِ ما يفوتُ، ويموتُ مِن دينِهم بسببِ ذلك ما يموتُ[1]؟!

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ جملةُ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ تذييلٌ وتوعُّدٌ، والمقصودُ منه: أنَّ أولئك قومٌ مَضَوا بما عَمِلوا وأنَّ أمرَهم إلى ربِّهم، كقولِه تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ [البقرة: ١٣٤] وفيه إيماءٌ إلى أنَّ على الحاضرينَ اليومَ أن يفكِّروا في وسائلِ الخلاصِ مِن الضَّلالِ، والوقوعِ في المؤاخَذةِ يومَ القيامةِ[2].

٣- قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّ من خالجَتْه شبهةٌ في الدِّينِ، ينبغي أن يسارِعَ إلى حَلِّها بالرُّجوعِ إلى أهلِ العِلمِ[3]، فالمنهجُ الذي يضَعُه الله لهذه الأمَّةِ فيما لا تستوثِقُ منه: أن تسألَ أهلَ الذِّكرِ، ولو كان من أخصِّ خصائصِ العقيدةِ[4].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يشُكَّ ولم يَسألْ، ولكنْ هذا حُكمٌ مُعَلَّقٌ بشَرطٍ؛ والمُعلَّقُ بالشَّرطِ يعدَمُ عند عَدَمِه، وفي ذلك سَعَةٌ لِمَن شكَّ،

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٧٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٨٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٣٨).
(٤) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٨٢٠).

أو أراد أنْ يحتَجَّ، أو يزدادَ يقينًا[١].

٢- قول الله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ الفائدةُ في إنزالِ هذه الآيةِ على الرسولِ: أنَّ تكثيرَ الدلائلِ وتقويتَها مما يزيدُ في قوةِ اليقينِ، وطمأنينةِ النفسِ، وسكونِ الصدرِ، ولهذا السببِ أكثَر الله في كتابه مِن تقريرِ دلائلِ التوحيدِ والنُّبوةِ[٢].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ فيه سؤالٌ: أنَّ كثيرًا من أهلِ الكتابِ من اليهودِ والنَّصارى- بل ربما كان أكثَرُهم ومعظَمُهم- كذَّبوا رسولَ اللهِ وعانَدوه، ورَدُّوا عليه دَعوتَه. واللهُ تعالى أمر رسولَه أن يستشهِدَ بهم، وجعَلَ شهادتَهم حُجَّةً لِما جاء به، وبرهانًا على صِدقِه، فكيف يكونُ ذلك؟ الجوابُ من عدَّةِ أوجهٍ؛ منها: أنَّ الشَّهادةَ إذا أضيفَت إلى طائفةٍ، أو أهلِ مَذهبٍ أو بلدٍ، ونحوِهم، فإنَّها إنما تتناولُ العُدولَ الصادقينَ منهم. وأمَّا مَن عداهم، فلو كانوا أكثَرَ مِن غيرهم فلا عِبرةَ بهم؛ لأن الشَّهادةَ مَبنيَّةٌ على العدالةِ والصِّدقِ، وقد حصل ذلك بإيمانِ كثيرٍ مِن أحبارِهم الربَّانيِّين، كعبدِ اللهِ بنِ سَلامٍ وأصحابِه، وكثيرٍ ممَّن أسلم في وقتِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وخُلَفائِه ومَن بعده، وكعبِ الأحبارِ وغيرِهما. ومنها: أنَّ شَهادةَ أهلِ الكِتابِ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مبنيَّةٌ على كتابِهم التَّوراةِ الذي ينتسبونَ إليه، فإذا كان موجودًا في التوراةِ ما يوافِقُ القرآنَ ويُصَدِّقُه، ويشهَدُ له بالصحَّة؛ فلو اتَّفَقوا من أوَّلِهم لآخرِهم على إنكارِ ذلك، لم يقدَحْ بما جاء به الرَّسولُ. ومنها: أنَّ الله تعالى أمَرَ رسولَه أن يستشهِدَ بأهلِ الكتابِ على صحَّةِ ما جاءه، وأظهَرَ ذلك، وأعلَنَه على رؤوسِ الأشهادِ، ومن المعلومِ أنَّ كثيرًا منهم مِن أحرصِ النَّاسِ على إبطالِ دَعوةِ الرَّسولِ محمَّدٍ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٠٠).

صلَّى الله عليه وسلَّم، فلو كان عندهم ما يرُدُّ ما ذكَرَه اللهُ، لأبدَوْه وأظهَروه وبيَّنوه، فلمَّا لم يكنْ شَيءٌ من ذلك، كان عدَمُ رَدِّ المُعادي، وإقرارُ المُستجيبِ، مِن أدَلِّ الأدلَّةِ على صِحَّةِ هذا القرآنِ وصِدقِه. ومنها: أنَّه ليس أكثَرُ أهلِ الكتابِ رَدَّ دعوةَ الرَّسولِ، بل أكثَرُهم استجاب لها، وانقاد طَوعًا واختيارًا؛ فإنَّ الرَّسولَ بُعِث وأكثَرُ أهل الأرضِ المتَديِّنينَ أهلُ كتابٍ، فلم يمكُثْ دينُه مُدَّةً غيرَ كثيرةٍ، حتى انقاد للإسلامِ أكثَرُ أهلِ الشَّامِ ومصرَ والعراقِ، وما جاورَها من البلدانِ التي هي مقَرُّ دينِ أهلِ الكتابِ، ولم يبقَ إلَّا أهلُ الرِّياساتِ الذين آثَروا رياساتِهم على الحَقِّ، ومَن تَبِعَهم من العوامِّ الجَهَلةِ، ومَن تديَّنَ بدينِهم اسمًا لا معنًى، كالإفرنجِ الذين حقيقةُ أمرِهم أنَّهم دهريَّةٌ مُنحَلُّونَ عن جميعِ أديانِ الرُّسُلِ، وإنَّما انتَسَبوا للدِّينِ المَسيحيِّ؛ ترويجًا لمُلكِهم، وتمويهًا لباطِلِهم، كما يَعرِفُ ذلك مَن عرَفَ أحوالَهم البيِّنَةَ الظَّاهرةَ[1].

بلاغةُ الآيات:

١ - قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ؛ سِيقَ لِبَيانِ النِّعَمِ الفائضةِ عليهم إثْرَ نعمةِ الإنجاءِ على وجهِ الإجمالِ، وإخلالِهم بشُكرِها، وأداءِ حقوقِها[2].

- وقولُه: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا﴾ تفريعٌ على ﴿بَوَّأْنَا﴾ وما عُطِف عليه، وهو تفريعُ ثناءٍ عليهم بأنَّهم شكَروا تِلك النِّعمَةَ، ولم يَكفُروها كما كفَرها المشرِكون الَّذين بوَّأهم اللهُ حرَمًا آمِنًا تُجبَى إليه ثمراتُ كلِّ شيءٍ، فجعَلوا للهِ شُركاءَ،

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٧٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٤).

ثمَّ كفَروا بالرَّسولِ المرسَلِ إليهم؛ فوقَع في الكلامِ إيجازُ حذفٍ، والتَّقديرُ: فشَكَروا النِّعمَةَ، واتَّبَعوا وصايا الأنبياءِ، وما خالَفوا ذلك إلَّا مِن بعدِ ما جاءَهم العلمُ(١).

- قولُ اللهِ تعالى هنا: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ٩٣]، وفي سورةِ الجاثيةِ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الجاثية: ١٦-١٧]، ووجهُ هذا الاختلافِ الواردِ في هاتَين السُّورتَين، وزيادةِ ما ورَدَ في سورةِ الجاثيةِ مِن الألفاظِ، مع اتِّحادِ المعنى المقصودِ في الموضِعَينِ مِن مَنحِهم واختلافِهم:

أنَّ آيةَ يونُسَ تقدَّم قبلَها دُعاءُ موسى عليه السَّلامُ على فِرعونَ ومَلَئِه بقولِه: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾ [يونس: ٨٨]، فأجاب سبحانه دُعاءَ نبيِّه، وطمَس على أموالِ آلِ فِرْعونِ ومَلَئِه، وأغرَقه وآلَه، ونجَّى بَني إسرائيلَ مِن الغرَقِ، وقطَع دابِرَ عدوِّهم، وأورَث بني إسرائيلَ أرْضَهم وديارَهم، يتبَوَّؤون منها حيث شاؤوا، فقال سبحانه مُعرِّفًا نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ [يونس: ٩٣]؛ فبعد تَمكُّنِ أمرِهم، واستِحْكامِ حالِهم، واستقرارِ أمرِ دينِهم بما شاهَدوه مِن الآياتِ، وعَظيمِ البَراهينِ المعْقِبَةِ لِمَن شاهَدَها اليقينَ، اختَلفوا جَرْيًا على ما سبَق لهم ولغيرِهم ممَّن أشار إليه قولُه تعالى في أوَّلِ هذه السُّورةِ: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٨٢).

فَاخْتَلَفُوا﴾ [يونس:١٩]، ويُناسِبُ هذا كلَّه تَناسُبًا لا تَوقُّف في وُضوحِه، ولم يَتقدَّمْ في سورةِ يونُسَ ما يَستدعي مِن حالِهم أكثرَ مِن هذا.

أمَّا آيةُ الجاثيةِ فتَقدَّمَ قبلَها بَسطُ الدَّلائلِ والبَراهينِ مِن لَدُنْ قولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣]، إلى ما تَبِع هذا مِن التَّنبيهِ بخَلقِها، وما بثَّ سبحانه فيهما مِن أصنافِ المخلوقاتِ، واختلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ وتَعاقُبِهما، وإنزالِ الرِّزقِ مِن السَّماءِ، وإحياءِ الأرضِ بعدَ مَوتِها، بما يَنزِلُ مِن الرِّزقِ إليها، وتَصريفِ الرِّياحِ، ثمَّ ذكَر سبحانه أنَّ هذه الآياتِ إنَّما يَعتبِرُ بها، ويَهتَدي بأنوارِها مَن منَحه اللهُ تعالى العقْلَ، وهَداه إلى الاعتبارِ، فقال: ﴿آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية: ٥]، ولم يَرِدْ ذِكرُ هذه الجملةِ للاعتبارِ بها في موضعٍ مِن كتابِ اللهِ تعالى أوعَبَ مِنها في هذه السُّورةِ وفي سورةِ البقرةِ، وهي هناك أوعَبُ لذِكْرِ الفُلكِ، وجَرْيِها في مَنافعِ العبادِ، وتسخيرِ السَّحابِ بينَ السَّماءِ والأرضِ، وذِكْرِ تَصريفِ الرِّياحِ، وقد أعقَب ذِكْرَ هذه الآياتِ في الموضِعَين بقولِه في سورةِ البقرةِ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة:١٦٥]، إشارةً إلى كُفَّارِ العرَبِ، وسوءِ مُرتَكَبِهم، وتَعاميهم عن الاعتبارِ والاستدلالِ مع وُضوحِ الأمرِ؛ إذ لا يَقبَلُ العقلُ تَكوُّنَ هذه المخلوقاتِ العِظامِ بأنفُسِها، ولا أنَّ بعضَها أوجَد بعضًا؛ لِتَساويها فيما قام مِن دلائلِ الحدوثِ، فلا بدَّ مِن خالقٍ مُريدٍ مختارٍ قادرٍ منزَّهٍ عن شُبَهِ هذه الجملةِ، وإلَّا لافتقَرَ إلى موجِدٍ آخرَ، وذلك يؤدِّي إلى التَّسلسُلِ، وهو مُحالٌ عقلًا، والاثنينيَّةُ ممتنعةٌ عقلًا: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، فتعيَّن توحيدُ الحقِّ، وأنَّه ليس كمِثْلِه شيءٌ.

ولَمَّا كان الاستدلالُ بهذه الجُمَلِ المفصَّلةِ أوضحَ شيءٍ؛ أتبعَها سبحانه

بقولِه: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦]، ولكونِه أبسَطَ ما ذُكِّر به مَن خوطِب بالقرآنِ، ثمَّ لم يُجدِ ذلك في حقِّ مَن سبَق له الشَّقاءُ منهم إلَّا المنافَرةَ والمخالفةَ؛ أُعقِبَت بذِكرِ مَن ترادَفَت وتوالَت عليه الآياتُ، وكثُرَت في حقِّه الشَّواهدُ، ثمَّ لم يُعقِبْه ذلك إلَّا الاختلافَ والعدولَ عن سُلوكِ المنهجِ الواضحِ، وهم الممتَحَنون بالاختلافِ مِن بني إسرائيلَ، ولَمَّا لم يَكُنْ تَقدَّم آيةَ سورةِ يونُسَ مِن الدَّلالاتِ مثلُ ما بُسِط في سورةِ الجاثيةِ مِن الاعتبارِ لِما يُناسِبُه الواقعُ في الجاثيةِ مِن الإطنابِ، فنُوسِب الإيجازُ بالإيجازِ، والإطنابُ بالإطنابِ، وجاء كلٌّ على ما يُناسِبُ، مع اتِّحادِ المقصودِ في السُّورتَين(١).

٢- قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾

- قولُه: ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ جملةٌ مُستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا، وقُرِنَت الجملةُ بحَرفَيِ التَّأكيدِ، وهُما: لامُ القسَمِ و(قد)؛ لِدَفعِ إنكارِ المُعَرَّضِ بهم(٢).

- قولُه: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ يجوزُ أن يَكونَ هذا النَّهيُ على طريقةِ التَّهْييجِ والإلهابِ، كقَولِه: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ﴾، ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ﴾، ولزيادةِ التَّثبيتِ والعِصمةِ(٣).

٣- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ هذا النَّهيُ مِن بابِ التَّهْييجِ والإلهابِ، والمرادُ به: إعلامُ أنَّ التَّكذيبَ مِن القُبحِ والمحذوريَّةِ

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٤٨-٢٥٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٨٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٧٠).

بحيث يَنبَغي أن يُنْهَى عنه مَن لا يُتصوَّرُ إمكانُ صُدورِه عنه؛ فكيف بِمَن يُمكِنُ اتِّصافُه به، وفيه قطعٌ لأطماعِ الكفَرةِ(١)؟!

- وفيه تأكيدُ الفعلِ المنهيِّ عنه ﴿تَكُونَنَّ﴾ بنونِ التَّوكيدِ؛ للمُبالَغةِ في النَّهيِ عنه؛ اعتِناءً بالتَّبرُّؤِ مِن الشِّركِ(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٠٤).

الآيات (٩٦-١٠٠)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ
كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ
إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ
حِينٖ ﴿٩٨﴾ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ
حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَجۡعَلُ
ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿الرِّجْسَ﴾: أي: العذابَ، ويُطلَقُ أيضًا على: القذرِ المنتنِ، وأصلُ (رجس): يَدُلُّ على اختِلاطٍ(١).

المعنَى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ اللهُ نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم قائلًا له: إنَّ الذين وجَبَت عليهم كَلِمةُ ربِّك - أيُّها الرَّسولُ- بمَوتِهم على الكُفرِ وطَردِهم مِن رَحمتِه وعذابِه لهم، لا يؤمنونَ إيمانًا ينفَعُهم قبل مَوتِهم، ولو جاءتْهم كلُّ مَوعظةٍ وعِبرةٍ، حتى يُعاينوا العذابَ المُوجِعَ، فحينئذٍ يُؤمِنونَ، ولا ينفَعُهم إيمانُهم، وما آمَنَ أهلُ قريةٍ مِن القُرى الهالكةِ في وقتٍ ينفَعُهم إيمانُهم فيه، إلَّا قَومَ النَّبيِّ يُونُسَ عليه الصَّلاة والسَّلامُ، فإنَّهم لـمَّا أيقَنوا أنَّ العذابَ نازِلٌ بهم تابوا إلى الله تعالى توبةً

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٢، ١٥٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٩).

نَصوحًا، فكشفَ اللهُ عنهم عذابَ الخِزيِ بعد أن رأَوا بعضَ الآياتِ الدالةِ على نزولِه، وتَرَكهم في الدُّنيا يَستمتِعونَ إلى وقتِ انتهاءِ آجالِهم، ولو شاء ربُّك- أيُّها الرَّسولُ- الإيمانَ لأهلِ الأرضِ كُلِّهم، لآمَنوا جميعًا بما جئتَهم به، ولكِنْ له تعالى حكمةٌ في ذلك؛ فإنَّه يهدي من يشاءُ، ويُضِلُّ من يشاء وَفْقَ حِكمتِه، وليس في استطاعتِك أن تُكرِهَ النَّاسَ على الإيمانِ، وما ينبغي أن تُؤمِنَ نفسٌ إلَّا بمشيئةِ الله وقضائِه وقدرِه، فلا تُجهِدْ نفسَك في ذلك؛ فإنَّ أمرَهم إلى اللهِ، ويجعَلُ اللهُ غَضَبَه وعذابَه على الذينَ لا يَعقِلونَ أمْرَه ونَهيَه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٩٦ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا كان ما مضَى من الآياتِ وما كان مِن طرازِها، قاضيًا بأنَّه لا تُغني الآياتُ عن المُشرِكينَ- صرَّح به هنا بقَولِه[1]:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾.

أي: إنَّ الذين وجبَت عليهم كَلِمةُ رَبِّك- يا مُحمَّدُ- بأنَّهم يصيرونَ إلى ما قدَّرَه اللهُ لهم مِن الاستمرارِ على الكُفرِ والموتِ عليه؛ لا يُؤمِنونَ إيمانًا ينفَعُهم قبل مَوتِهم[2].

﴿ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٩٧ ﴾.

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٨٧).

أي: ولو جاءتْهم كلُّ آيةٍ مِن الآياتِ الكونيَّةِ المُعجِزة الخارقةِ، والآياتِ الشَّرعيَّةِ المُنزَّلةِ كالقُرآنِ، فإنَّهم لا يُؤمِنونَ حتى يُعايِنوا العذابَ المُوجِعَ فيُؤمِنوا، وحينئذٍ لا ينفَعُهم الإيمانُ(١).

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بيَّنَ مِن قَبلُ أنَّ ﴿الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾؛ أتبعَه بهذه الآيةِ؛ لأنَّها دالَّةٌ على أنَّ قومَ يُونُسَ آمَنوا بعد كُفرِهم، وانتَفَعوا بذلك الإيمانِ، وذلك يدُلُّ على أنَّ الكُفَّارَ فَريقانِ؛ منهم من حُكِمَ عليه بخاتمةِ الكُفرِ، ومنهم من حُكِمَ عليه بخاتمةِ الإيمانِ، وكُلُّ ما قضَى اللهُ به فهو واقعٌ(٢).

وأيضًا فهذه الآيةُ والآيتانِ بعدَها تفريعٌ على الآياتِ السابقةِ، وتكميلٌ لها في بيانِ سُنَّةِ اللهِ في الأمَمِ مع رُسُلِهم، وفي خَلْقِ البَشَرِ مُستعِدِّينَ للأمورِ المتضادَّةِ من الإيمانِ والكُفرِ، وفي تعلُّقِ مَشيئةِ اللهِ وحِكمتِه بأفعالِه وأفعالِ عِبادِه، ووقوعِها على وَفْقِهما(٣).

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٩٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣١٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٨٧، ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٠٣-٣٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٩٣).

أي: ما آمَنَ أهلُ قريةٍ مِن القُرى الهالكةِ في وقتٍ ينفَعُهم إيمانُهم فيه، إلَّا قَومَ النَّبيِّ يُونُسَ عليه الصَّلاة والسَّلامُ، آمَنوا كُلُّهم في وقتٍ يَنفَعُهم فيه الإيمانُ، حين رأَوا آيةً تدُلُّ على العذابِ قبل نُزولِه بهم[1].

﴿لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

أي: لَمَّا آمَنوا رَفَعْنا عنهم عذابَ الذُّلِّ الذي وعدَهم به نبيُّهم في الحياةِ الدُّنيا- وكان قد قرُبَ نُزولُه بهم- وترَكْناهم يستَمتِعونَ في الدُّنيا إلى آخِرِ أعمارِهم المكتوبةِ[2].

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٨٩).

وممن ذهَب إلى المعنَى المذكورِ، وهو أنَّهم رأَوا علاماتٍ دالةً على العذابِ دونَ العذابِ عينِه، فآمنوا فتاب الله عليهم: الزجاجُ، والواحدي، وابنُ عطيةَ، والرازي، والقرطبي، وابن تيمية، وابنُ كثيرٍ، والشوكاني، والقاسمي، ومحمد رشيد رضا، وابنُ عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٠٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٤٤)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٤- ٣٨٥)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (ص: ٣٦٤- المجموعة الثامنة)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٣٩)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٦٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٨٩).

وقيل: إنَّ قَومَ يُونُسَ خُصُّوا من بين الأمَمِ بأنْ تِيبَ عليهم لما آمنوا بعدَ مُعاينةِ العَذابِ، وممَّن ذهب إلى ذلك: ابنُ جرير، والواحدي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٩١)، ((الوسيط)) (٢/ ٥٦٠)، ((الوجيز)) (ص: ٥٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٤).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عبَّاس، وسعيدُ بنُ جبيرٍ، وقتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ١٣٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٠٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٤٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٥١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٩٤).

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان ما مضَى ربَّما أوجبَ اعتقادَ أنَّ إيمانَ مِثلِ أولئك مُحالٌ، جاءت هذه الآيةُ في مَقامِ الاحتراسِ منه مع البيانِ؛ لأنَّ حِرصَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على إيمانِهم لا ينفعُ، ومبالغتَه في إزالةِ الشُّبُهاتِ وتقريرِ الدَّلائِلِ لا تفيدُ إلَّا بمَشيئةِ الله تعالى لِتَوفيقِهم وهدايتِهم، ولو كان ذلك وَحْدَه كافيًا لآمنوا بهذه السُّورةِ؛ فإنَّها أزالت شُبُهاتِهم، وبَيَّنَت ضلالاتِهم، وحقَّقَت بقصَّتَي نوحٍ وموسى عليهما السَّلامُ ضَعْفَهم، ووَهَنَ مُدافعاتِهم[1].

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾.

أي: ولو شاء ربُّك- يا محمَّدُ- لألهَمَ كلَّ من في الأرضِ الإيمانَ فآمنوا باللهِ، وبما جِئتَ به، لكنَّه لم يشَأْ ذلك؛ لِمُخالفتِه مقتضَى حِكمتِه سُبحانَه[2].

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨- ١١٩].

وقال سُبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥].

﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾.

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٨)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٤).

أي: أفأنت- يا مُحمَّدُ- تُلزِمُ النَّاسَ، وتضطرُّهم إلى الإيمانِ، حتى يكونوا مُؤمنينَ بما جئتَهم به؟ ليس ذلك إليك، ولا قُدرةَ لك عليه، بل اللهُ تعالى هو من يَهدي ويُضِلُّ مَن يشاءُ مِن عِبادِه، لا بإكراهِك لهم على ذلك(١).

كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وقال سُبحانه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨].

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذه الآيةَ عَطفٌ على جملةِ: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ﴾ لتقريرِ مَضمونِها؛ لأنَّ مَضمونَها إنكارُ أن يَقدِرَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم على إلجاءِ النَّاسِ إلى الإيمانِ؛ لأنَّ اللهَ هو الذي يَقدِرُ على ذلك(٢).

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٩٤).

أي: وما ينبغي لنفسٍ أن تؤمِنَ وتهتديَ إلَّا بقضاءِ اللهِ وقَدَرِه ومَشيئتِه، فلا تُجهِدَنَّ نفسَك- يا مُحمَّدُ- في طلَبِ هُداها، وبلِّغْها وعيدَ اللهِ، ثمَّ خَلِّها؛ فإنَّ هُداها بيَدِ خالِقِها، ولا تكفي دعوتُك في حصولِ الإيمانِ حتى يأذَنَ اللهُ لِمَن دَعَوتَه أن يؤمِنَ[1].

﴿ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾.

أي: ويجعَلُ اللهُ غضَبَه وعذابَه على الذينَ لا يَعقِلونَ آياتِه، وحُجَجَه، ومواعِظَه، وأوامِرَه ونواهِيَه[2].

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- الدَّليلُ لا يهدي إلَّا بإعانةِ الله تعالى، وإذا لم تحصُلْ تلك الإعانةُ ضاعت تلك الدَّلائِلُ؛ نستفيد ذلك مِن قَولِ الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾[3].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فيه أنَّ النَّفسَ لا تصِلُ إلى الإيمانِ إلَّا إذا سارت وَفْقَ إذنِ اللهِ وسُنَّتِه في الوصولِ إليه من طريقِه المَرسومِ بالسُّنَّةِ العامَّةِ. وعندئذٍ يَهديها الله تعالى، ويقَعُ لها الإيمانُ بإذنِه، ويدلُّ على هذا عَقِبُ الآيةِ: ﴿ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾، فالذين عطَّلوا عقولَهم عن التدبُّرِ، هؤلاء ينالُهم ذلك الرجسُ بسببِ تعطيلِهم لمداركِهم عن التعقُّلِ والتدبُّرِ، وانتهاؤُهم بهذا إلى التكذيبِ والكفرانِ، ويزيدُ الأمرَ إيضاحًا بأنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٩٩، ٣٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٦)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٢٥، ٣٢٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٣٨).

الآياتِ والنذرَ لا تُغني عن الذين لا يُؤمنون؛ لأنَّهم لا يتدبَّرونها، وهي معروضةٌ أمامَهم في السمواتِ والأرضِ: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾(١) [يونس: ١٠١].

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ فيه سؤالٌ: أنَّ الله تعالى حكى عن فِرعونَ أنَّه تاب في آخِرِ الأمرِ ولم يَقبَلْ توبتَه، وحكى عن قومِ يُونُسَ أنَّهم تابوا وقَبِلَ توبتَهم فما الفَرقُ؟ والجوابُ: أنَّ فِرعونَ إنَّما تاب بعد أن شاهدَ العذابَ، وأمَّا قومُ يُونُسَ فإنَّهم تابوا قبل ذلك، فإنَّهم لَمَّا ظَهَرت لهم أماراتٌ دلَّت على قُربِ العَذابِ تابوا قبل أن يُشاهِدوه(٢).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فيه ردٌّ على القَدَريَّةِ(٣).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ دلالةٌ على أنَّ مُجرَّدَ الدَّعوةِ لا تكفي في حصولِ الإيمانِ، حتى يأذَنَ اللهُ لِمَن دُعِيَ أن يؤمِنَ(٤).

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٨٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٩).

(٤) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٦٠).

٤- الإذنُ في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ إذنٌ قَدَريٌّ- أي: قضاؤُه وقَدَرُه - لا مجرَّد أمْرِه وشَرْعِه[1].

٥- الجَعْلُ المذكورُ في قولِه تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ هو جَعْلٌ كونيٌّ، ويُقابِلُه: الجعلُ الدينيُّ، كما في قَولِه تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ [المائدة: ١٠٣] أي: ما شَرَعَ ذلك ولا أَمَرَ به، وإلَّا فهو مخلوقٌ له، واقعٌ بقدَرِه ومَشيئتِه[2].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ القريةُ: القَومُ، والتَّسميةُ هكذا إيذانٌ بأنَّ الرِّسالاتِ كانت في قُرى الحَضَر، ولم تكن في محلَّاتِ البَدوِ[3].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ أبهَمَ ﴿حِينٍ﴾؛ لأنَّه مختلِفٌ باختلافِ آجالِ آحادِهم[4].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ فائدةُ ذِكرِ ﴿جَمِيعًا﴾ بعدَ ﴿كُلُّهُمْ﴾، مع أنَّ كُلًّا منهما يفيدُ الإحاطةَ والشُّمولَ، هي الدَّلالةُ على وجودِ الإيمانِ منهم بصفةِ الاجتماعِ الذي لا يدُلُّ عليه ﴿كُلُّهُمْ﴾ كقولك: جاء القومُ جمَيعًا، أي: مجتَمِعينَ، ونظيرُه قَولُه تعالى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾[5].

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٦٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٨٢).
(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٨٢١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٩١).
(٥) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٥٤-٢٥٥).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾

- قولُه: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ...﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ؛ لتقريرِ ما سبَق مِن استِحالةِ إيمانِ مَن حقَّت عليهم كلمتُه تعالى؛ لِسُوءِ اختِيارِهم مع تَمكُّنِهم مِن التَّدارُكِ[١]، و(لولا) حرفٌ يَرِدُ لِمَعانٍ مِنها التَّوبيخُ، وهو هنا مُستعمَلٌ في لازمِ التَّوبيخِ، كِنايةً عن التَّغليطِ؛ لأنَّ أهْلَ القُرى قد انقَضَوْا، وذلك أنَّ أصلَ معنى (لولا) التَّحضيضُ، وهو طلبُ الفعلِ بحَثٍّ، فإذا دخلَت على فعلٍ قد فات وقوعُه كانت مُستعمَلةً في التَّغليطِ، والتَّنديمِ، والتَّوبيخِ على تَفْويتِه، ويكونُ ما بَعدَها في هذا الاستعمالِ فِعْلَ مُضيٍّ؛ فهي هنا مُستعمَلةٌ في لازمِ التَّوبيخِ، كنايةً عن التَّغليطِ[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا...﴾ فيه حذفُ مفعولِ المشيئةِ؛ لِوُجودِ ما يَقْتَضيه مِن وقوعِها شرطًا، وكونِ مَفعولِها مضمونَ الجزاءِ، وألَّا يكونَ في تَعلُّقِها به غرابةٌ، والتَّقديرُ: لو شاء سبحانه إيمانَ مَن في الأرضِ مِن الثَّقلَين لآمَن[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤ / ١٧٧).

- وفيه التَّأكيدُ بـ﴿كُلُّهُمْ﴾؛ للتَّنصيصِ على العمومِ المستفادِ مِن ﴿مَنْ﴾ الموصولةِ؛ فإنَّها للعُمومِ، والتَّأكيدُ بـ﴿جَمِيعًا﴾؛ لزِيادةِ رَفْعِ احتِمالِ العُمومِ العُرفيِّ دونَ الحقيقيِّ(١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٩٢).

الآيات (١٠١-١٠٣)

﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ١٠١ فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ١٠٢ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠٣ ﴾.

المَعنَى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: قُل- يأيُّها الرَّسولُ- للمُشرِكينَ الذين يسألونَك الآياتِ: تفَكَّروا، واعتَبِروا بما في السَّمَواتِ والأرضِ مِن آياتِ اللهِ البَيِّناتِ؛ فإنَّها تُغنيكم عن طَلَبِ الآياتِ، والآياتُ والعِبَرُ والرُّسُلُ المُنذِرةُ عبادَ اللهِ عقابَه، لا تنفَعُ قَومًا لا يُؤمِنونَ بشَيءٍ من ذلك؛ لإعراضِهم وعنادِهم، فهل ينتظِرُ هؤلاء إلَّا أن يحُلَّ عليهم عذابُ اللهِ مِثلَ أسلافِهم المُكَذِّبينَ الذين مَضَوا قَبلَهم؟ قل لهم- أيُّها الرَّسولُ-: فانتَظِروا عقابَ اللهِ، إنِّي معكم مِن المُنتَظِرينَ عِقابَكم، ثمَّ نُنَجِّي رسُلَنا والذين آمَنوا معهم، وكما نجَّينا أولئك الرُّسُلَ والمؤمنينَ بهم، ننجِّيك- أيُّها الرَّسولُ- ومَن آمن بك؛ تفضُّلًا منَّا ورحمةً.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ١٠١ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى في الآياتِ السَّالفةِ أنَّ الإيمانَ لا يحصُلُ إلَّا بتَخليقِ الله تعالى ومَشيئتِه؛ أمَرَ بالنَّظَرِ والاستدلالِ في الدَّلائلِ حتى لا يُتوهَّمَ أنَّ الحقَّ هو الجَبرُ المَحضُ[١].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٠٦).

وأيضًا لما تقرَّر ما مضَى مِن النَّهيِ عن الإصغاءِ إليهم في طلبِ الآياتِ، وختَم بتعليقِ الأمرِ بمجرَّد المشيئةِ، كان كأنَّه قِيل: فماذا يُقال لهم إذا طلَبوا[(١)].

﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾.

أي: قُلْ- يا مُحَمَّدُ- للمُشركينَ الذين يسألونَك الآياتِ: انظُروا ماذا في السَّمواتِ مِن الشَّمسِ والقَمَرِ والنُّجومِ والسَّحابِ، وفي الأرضِ مِن الجِبالِ والبِحارِ، والأنهارِ والأشجارِ، والثِّمارِ والدوابِّ وغيرِ ذلك من المخلوقاتِ الصَّغيرةِ والكبيرةِ، فتفَكَّروا فيها واعتَبِروا؛ فإنَّها دالَّةٌ على وحدانيَّةِ اللهِ في ربوبيَّته وألوهيَّتِه، وعلى كمالِ قُدرتِه وعظيمِ صِفاتِه، فتُغنيكم عن طلَبِ الآياتِ[(٢)].

﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾.

أي: وما تنفَعُ[(٣)] الآياتُ السَّماويةُ والأرضيَّةُ، والرسلُ المُنذِرةُ[(٤)] قومًا سبَقَ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٠، ٣٠١)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٢٧، ٣٢٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٥).

(٣) قال الواحدي: (يجوزُ أن تكونَ (ما) نفيًا بمعنى: ما تغني عنهم شيئًا بدَفعِ الضَّررِ، واجتلابِ النَّفعِ، كقولِك: ما يُغني عنك المالُ إذا لم تُنفِقْ، ويجوز أن يكون استفهامًا كقولِك: أيَّ شيءٍ يُغني عنهم؟). ((البسيط)) (١١/ ٣٢٩).

ومِمن اختار أنَّ (ما): نافيةٌ: الواحديُّ، والقرطبي، وأبو حيان. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٦١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١١٠).

ومِمن اختار أنَّ (ما) استفهاميةٌ: ابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٩).

(٤) قال أبو حيان: (﴿ٱلنُّذُرُ﴾ جمعُ نَذيرٍ، إمَّا مَصدرٌ، فمعناه: الإنذارات، وإمَّا بمعنى مُنذِر، فمعناه: المُنذِرونَ والرُّسُل). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١١٠).

ومِمن قال: إنَّ المراد بـ﴿ٱلنُّذُرُ﴾: الرسلُ: ابنُ جريرٍ، وابنُ كثيرٍ، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٦).

ومِمن قال: إنَّ المرادَ بها الإنذاراتُ: ابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٩٦-٢٩٧).

في علمِ اللهِ أنَّهم لا يُؤمِنونَ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ [القمر: ٥].

وقال سُبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ۝١٠٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لمَّا كان ما في السمواتِ والأرضِ مِن الآياتِ في غايةِ الدلالةِ؛ نبَّه سبحانَه على أنَّ التوقفَ عن الإيمانِ بعدَ التنبيهِ على كيفيةِ الاستدلالِ معاندةٌ، فقال: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، فكان ذلك سببًا لتهديدِهم بقولِه(٢):

﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

أي: فهل ينتَظِرُ هؤلاءِ المُشركونَ المكَذِّبونَ لك- يا مُحمَّدُ- من النِّقمةِ والعذابِ، إلَّا مِثلَ وقائعِ اللهِ تعالى في الأممِ الماضيةِ مِن قَبلِهم، المكَذِّبةِ لِرُسُلِهم(٣)؟

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠١)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١١٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٤١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٩٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠١)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٣٠)، ((تفسير =

﴿قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾.

أي: قُل- يا مُحمَّدُ- لهم: فانتَظِروا عذابَ اللهِ، إنِّي معكم من المُنتَظرينَ ما يحُلُّ بكم مِن العذابِ والهلاكِ الذي وعَدَكم اللهُ[1].

﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أُمِرَ الرَّسولُ في الآيةِ السَّابقةِ أن يُوافِقَ الكُفَّارَ في انتظارِ العَذابِ؛ ذكَرَ التَّفصيلَ، فقال: العذابُ لا يَنزِلُ إلَّا على الكُفَّارِ، وأمَّا الرَّسولُ وأتباعُه فهم أهلُ النَّجاةِ[2].

﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

أي: ثم نُنجِّي رسُلَنا والمُؤمِنينَ بهم مِن عَذابِنا الواقِعِ على قَومِهم[3].

﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: كما أنجَينا الرُّسُلَ السَّابقينَ والمؤمنينَ بهم حين نزولِ العَذابِ، كذلك نفعَلُ بك- يا مُحمَّدُ- وبالمُؤمِنينَ بك، فنُنَجِّيكم جميعًا، حقًّا ووعدًا أوجَبْناه علينا لا نُخلِفُه[4].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج: ٣٨].

= القرطبي)) (٨/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٦)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٢، ٣٠٣)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٣١، ٣٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٣)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٩).

وقال سُبحانه: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أمَرَ تعالى بالفِكرِ فيما أودَعَه تعالى في السَّمَواتِ والأرضِ؛ إذ السَّبيلُ إلى مَعرِفتِه تعالى هو بالتفَكُّرِ في آياتِه ومخلوقاتِه[1].

٢- قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا مِن دَفْعِه سبحانَه عن المُؤمِنينَ؛ فإنَّ اللهَ يُدافِعُ عن الذين آمنوا، فإنَّه بحسَبِ ما مع العبدِ مِن الإيمانِ تحصُلُ له النَّجاةُ مِن المكارِه[2]، فمدارُ النَّجاةِ هو الإيمانُ[3].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ عمَّم ما في السَّمواتِ والأرضِ؛ لتتوجَّهَ كُلُّ نَفسٍ إلى ما هو أقرَبُ إليها، وأيسَرُ استدلالًا عليه لَدَيها[4].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أشار بأداةِ التَّراخي ﴿ثُمَّ﴾ إلى طولِ زَمانِ الابتلاءِ، وعظيمِ رُتبةِ التَّنجيةِ[5].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه سؤالٌ: أنَّ قَولَه ﴿حَقًّا﴾ يقتضي الوجوبَ، واللهُ تعالى لا يجِبُ عليه شيءٌ! الجوابُ: أنَّ ذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٠٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٧٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤ / ١٧٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٩٥).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢١٣).

حقٌّ بحَسَبِ الوَعدِ والحُكم، لا أنَّه حَقٌّ بحسَبِ الاستحقاقِ[١]؛ فالله سبحانه أحَقَّه على نفسِه بحُكمِ إحسانِه وفَضلِه ووَعدِه، لا هم أحَقُّوه عليه كالحَقِّ الذي لإنسانٍ على مَن له عنده يَدٌ، وكقوله أيضًا: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ﴾ استفهامٌ فيه تقريرٌ وتَوعُّدٌ، وحضٌّ على الإيمانِ[٣].

- قولُه: ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ وقَع الاستفهامُ بـ (هَلْ) لإفادَتِها تَحقيقَ السُّؤالِ، وهو باعتبارِ تحقيقِ المسؤولِ عنه، وأنَّه جديرٌ بالجوابِ بالتَّحقيقِ، وهو استفهامٌ تَهكُّميٌّ إنكاريٌّ، نُزِّلوا مَنزِلةَ مَن يَنتظِرون شَيئًا يَأتيهم لِيُؤمِنوا، وليس ثَمَّةَ شيءٌ يَصلُحُ لأنْ يَنتَظِروه إلَّا أن يَنتظِروا حُلولَ مِثلِ أيَّامِ الَّذين خلَوا مِن قَبلِهم الَّتي هلَكوا فيها، وضُمِّن الاستفهامُ مَعْنى النَّفيِ، والتَّقديرُ: فهل ينتَظِرون شيئًا؟ ما ينتَظِرون إلَّا مِثلَ أيَّامِ الَّذين خَلَوا مِن قبلِهم[٤].

- وقولُه: ﴿قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ ﴿قُلْ﴾ أمرٌ مُرادٌ منه التَّهديدُ، أي: انتَظِروا ما يَحِلُّ بكُم كما حَلَّ بمَن قَبلَكم مِن مُكذِّبي الرُّسُلِ[٥].

- وجملةُ: ﴿قُلْ فَانْتَظِرُوا﴾ مُفرَّعةٌ على جملةِ: ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((الرد على البكري)) لابن تيمية (١/ ٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٩٧- ٢٩٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١١٠).

وفُصِلَ بينَ المفرَّعِ والمفرَّعِ عليه بـ﴿قُلْ﴾؛ لزيادةِ الاهتمامِ، ولِيَنتقِلَ مِن مُخاطَبةِ اللهِ رسولَه صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم إلى مُخاطَبةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم قومَه، وبهذا النَّسْجِ حصَل إيجازٌ بديعٌ؛ لأنَّه بالتَّفريعِ اعتُبِر ناشِئًا عن كلامِ اللهِ تعالى، فكأنَّ اللهَ بلَّغه النَّبيَّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم، ثمَّ أمَرَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم بأن يُبلِّغَه قومَه؛ فليس له فيه إلَّا التَّبليغُ، وهو يَتضمَّنُ وعْدَ اللهِ نبيَّه بأنَّه يَرى ما يَنتظِرُهم مِن العذابِ؛ فهو وعيدٌ، وهو يَتضمَّنُ النَّصرَ عليهم[1].

- وجملةُ: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن جملةِ: ﴿فَانْتَظِرُوا﴾؛ لأنَّها تُثيرُ سُؤالَ سائلٍ يَقولُ: ها نحن أولاءِ نَنتظِرُ، وأنت ماذا تَفعَلُ؟ وهذا مُستعمَلٌ كنايةً عن تَرقُّبِه النَّصرَ؛ إذ لا يُظَنُّ به أنَّه يَنتظِرُ سوءًا؛ فتَعيَّن أنَّه يَنتظِرُ مِن ذلك ضِدَّ ما يَحصُلُ لهم، فالمعيَّةُ في أصلِ الانتظارِ، لا في الحاصلِ بالانتظارِ[2].

٢- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾

- قولُه: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾ معطوفٌ على كلامٍ محذوفٍ، يَدُلُّ عليه قولُه: ﴿إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، كأنَّه قيل: نُهلِكُ الأُممَ ثمَّ نُنجِّي رُسلَنا، على حكايةِ الأحوالِ الماضيةِ[3]، وهذا التَّعبيرُ مِن أعجبِ إيجازِ القُرآنِ المُعجزِ الذي انفرَدَ به في العَطفِ على محذوفٍ، وهو ذِكرُ شَيءٍ يدُلُّ دلالةً واضحةً على أمرٍ عامٍّ: كسُنَّةٍ اجتماعيَّةٍ تُستنبَطُ مِن قِصَّةٍ أو قِصَص واقعةٍ، ثم يأتي بجملةٍ مَعطوفةٍ لا يَصِحُّ عَطفُها على ما قَبلَها من الجُمَل،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٢٩٨-٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٧٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٨).

فيتبادَرُ إلى الذِّهنِ وُجوبُ عَطفِها على ذلك الأمرِ العامِّ، بحرفِ العطفِ المُناسِب للمَقامِ، بحيث يُستَغنى به عن ذِكرِه، وتقديرُه هنا: تلك سُنَّتُنا في رسُلِنا مع قومِهم: يُبَلِّغونَهم الدَّعوةَ، ويُقيمونَ عليهم الحُجَّةَ، ويُنذِرونَهم سوءَ عاقبةِ الكُفرِ والتَّكذيبِ، فيؤمِنُ بعضٌ، ويُصِرُّ الآخرونَ، فنُهلِكُ المكَذِّبينَ، ثمَّ نُنَجِّي رسُلَنا والذين آمَنوا بهم، ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾(١).

- وفي صيغةِ الاستقبالِ ﴿نُنَجِّي﴾ لحكايةِ الأحوالِ الماضيةِ: تهويلٌ لأمرِها باستحضارِ صُوَرِها(٢).

- وقولُه: ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ تذييلٌ لما قبلَه مقرِّرٌ لمضمونِه، والمرادُ بالمؤمنين إمَّا الجنسُ المتناوِلُ للرُّسلِ عليهم السَّلامُ والأتباعِ، وإمَّا الأتباعُ فقط ولم يَذكُرْ إنجاءَ الرُّسلِ؛ إيذانًا بعدَمِ الحاجةِ إليه(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٧٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٨).

الآيات (١٠٤-١٠٩)

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿حَنِيفًا﴾: أي: مُقبلًا على اللهِ، مُعرضًا عما سِواه، وقيل: مائلًا عن الشركِ والدِّينِ الباطلِ إلى التوحيدِ، والدِّينِ الحقِّ المستقيمِ، وأصلُ الحنفِ: الميلُ عن الشيءِ بالإقبالِ على آخرَ، فالحنفُ ميلٌ عن الضلالةِ إلى الاستقامةِ، وأصلُه ميلٌ في إبهامَيِ القدمينِ، كل واحدةٍ على صاحبتِها[١]، وقيل: حنيفًا، أي: مسلمًا مستقيمًا[٢].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ٣١٩)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (١/ ٢٦٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٩).

(٢) وذلك بناءً على قولِ مَن قال: إنَّ الحنيفَ هو المستقيمُ مِن كلِّ شيءٍ. والحنفَ الاستقامةُ، وجعلوا الرَّجلَ الَّذي تُقبلُ إحدَى قَدَميه على الأُخرى، إنَّما قِيل له: أحنفُ، على جهة التفاؤلِ، كما قِيل للمَهْلكةِ مِن البلادِ: المفازَةُ، بمعنَى الفوزِ بالنَّجاةِ منها والسَّلامةِ؛ وكما قِيل لِلَّديغِ: السَّليمُ؛ تفاؤلًا له بالسَّلامةِ مِن الهلاكِ، وما أشبهَ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٩١)، ((تفسير الماوردي)) (٢/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٤٦).

﴿بِوَكِيلٍ﴾: الوكيلُ: المانعُ والحافظُ والكفيلُ، ووكيلُ الرجلِ في مالِه هو الذي كفَلَه له، وقام به، والتوكُّلُ يُقال على وجهينِ، يُقال: توكَّلتُ لفلانٍ بمعنى: توليتُ له، ويُقال: وكلتُه فتوكَّل لي، وتوكلتُ عليه بمعنَى: اعتمدتُه، وأصلُ (وكل): يدلُّ على اعتمادِ غيرِك في أمرِك(١).

المَعنَى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالَى: قُل- يا مُحمَّدُ- لهؤلاء النَّاسِ: إن كُنتُم في شَكٍّ مِن صِحَّةِ ديني الذي دَعَوتُكم إليه، وهو الإسلامُ، فإنِّي لا أعبدُ في حالٍ مِن الأحوالِ أحدًا من الذين تَعبدونَهم ممَّا اتَّخَذتُم مِن الأصنامِ والأوثانِ، ولكِنْ أعبدُ اللهَ وَحْدَه الذي يُميتُكم، وأمرني الله عزَّ وجلَّ أن أكونَ مِن المؤمنينَ. وأَمَرني بقولِه: أَقِمْ- أيُّها الرَّسولُ- نَفسَك على دينِ الإسلامِ مُستقيمًا عليه، غيرَ مائلٍ عنه، ولا تكونَنَّ ممَّن يُشرِكُ في عبادةِ رَبِّه الآلهةَ والأندادَ، فتكونَ مِن الهالكينَ، ولا تعبُدْ مِن دونِ الله شيئًا من الأوثانِ والأصنامِ وغيرِها؛ لأنَّها لا تنفَعُ ولا تضُرُّ، فإن فعَلْتَ ذلك وعبَدْتَها مِن دونِ اللهِ، فإنَّك إذًا من الظَّالِمينَ لأنفُسِهم بالشِّركِ، وإن يُصِبْك اللهُ- أيُّها الرَّسولُ- بشدَّةٍ أو بلاءٍ، فلا كاشِفَ لذلك إلَّا هو جلَّ وعلا، وإن يُرِدْك برَخاءٍ أو نعمةٍ، فلا يمنَعُه عنك أحدٌ، يصيبُ اللهُ عزَّ وجلَّ بالسَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ مَن يشاءُ مِن عبادِه، وهو الغَفورُ لذنوبِ مَن تاب، الرَّحيمُ بمن آمنَ به وأطاعه، وقل- أيُّها الرَّسولُ- للنَّاسِ: قد جاءكم القرآنُ الذي فيه بيانُ هِدايتِكم، فمَن اهتدى بهذا القرآنِ، فإنَّما ثَمرةُ عَمَلِه راجعةٌ إليه، ومَن انحرَفَ عن القرآنِ، وأصرَّ على الضَّلالِ، فإنَّما ضلالُه وضرَرُه على نفسِه، وما أنا بمسلَّطٍ عليكم

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨، ٣١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٦).

حتى تكونوا مؤمنينَ، ولا بحفيظٍ عليكم حتى أحفظَ أعمالَكم وأحاسِبَكم عليها، واتَّبِع وحيَ اللهِ الذي يُوحيه إليك، فاعمَلْ به، واصبِرْ على طاعةِ الله تعالى، وعلى أذى مَن آذاك في تبليغِ رِسالتِه، حتى يقضيَ اللهُ بينك وبينهم، وهو عزَّ وجَلَّ خيرُ الحاكِمينَ؛ فإنَّ حُكمَه مُشتَمِلٌ على العَدلِ التَّامِّ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى الدَّلائِلَ على أقصى الغاياتِ، وأبلَغِ النِّهاياتِ، أمرَ رَسولَه بإظهارِ دِينِه، وبإظهارِ المُبايَنةِ عن المُشرِكينَ؛ لكي تزولَ الشُّكوكُ والشُّبُهاتُ في أمرِه، وتخرُجَ عبادةُ اللهِ مِن طريقةِ السِّرِّ إلى الإظهارِ(١).

وأيضًا لَمَّا تقَدَّمَ الفِطامُ عن الميلِ لِمن يطلُبُ الآياتِ، وكان طلَبُهم لها إنَّما هو على وجهِ الشَّكِّ، وإن لم يكُن على ذلك الوجهِ، فإنَّه فِعلُ الشَّاكِّ غالبًا، وتقَدَّمَت أجوبةٌ لهم، وخُتِمَ ذلك بتَهديدِهم وبشارةِ المُؤمِنينَ المُوجبة لثباتِهم- ناسَبَه كلَّ المُناسَبةِ أن أُتبِعَ الأمرُ بجوابٍ آخَرَ دالٍّ على ثباتِه صلَّى الله عليه وسلَّم، وأنَّه مُظهِرٌ دِينَه، رَضِيَ مَن رَضِيَ، وسَخِطَ مَن سَخِطَ(٢).

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢١٥).

أي: قُلْ - يا مُحمَّدُ -: يا أيُّها النَّاسُ[(١)]، إن كُنتُم في شَكٍّ مِن صِحَّةِ دِينِ الإسلامِ الذي أدعوكم إليه، فإنِّي لا أعبدُ الذين تَعبُدونَ مِن دونِ اللهِ، مِن الأصنامِ والأوثانِ وغَيرِها من المخلوقاتِ التي لا تستحِقُّ العبادةَ[(٢)].

﴿وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾.

أي: ولكنْ أعبدُ اللهَ الذي يُميتُكم ويَقبِضُ أرواحَكم، ثمَّ يَبعَثُكم وإليه مَرجِعُكم؛ لِيُجازيَكم بأعمالِكم، فهو وَحْدَه المُستحِقُّ للعبادةِ[(٣)].

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: وأمَرَني اللهُ أن أكونَ مِن جملةِ المُؤمِنينَ المصدِّقينَ بما أوحَى إليَّ، الموعودينَ بالنَّجاةِ مِن العذابِ، والنصرِ على أعدائهم وأعدائِه[(٤)].

---

(١) ذهَب ابنُ جريرٍ إلى أنَّ المرادَ بالنَّاس هنا: مُشرِكو قريش. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٣).
وذهب ابن عطيَّة إلى أنَّها مُخاطَبةٌ عامَّةٌ للنَّاسِ أجمعينَ إلى يوم القيامةِ، يدخلُ تحتَها كلُّ مَن اتَّصَف بالشَّكِّ في دينِ الإسلامِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٩، ٣٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٥).
قال ابن جرير: (وهذا تعريضٌ ولَحنٌ مِن الكلامِ لَطيفٌ، وإنَّما معنى الكلامِ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي﴾ لا ينبغي لكم أن تشُكُّوا فيه، وإنَّما ينبغي لكم أن تشُكُّوا في الذي أنتم عليه من عبادةِ الأصنامِ التي لا تعقِلُ شيئًا، ولا تضُرُّ ولا تنفَعُ، فأمَّا ديني فلا ينبغي لكم أن تَشُكُّوا فيه؛ لأني أعبدُ اللهَ الذي يقبِضُ الخَلقَ فيُميتُهم إذا شاء، وينفَعُهم ويضُرُّهم إذا شاء؛ وذلك أنَّ عبادةَ من كان كذلك لا يستَنكِرُها ذو فطرةٍ صَحيحةٍ، وأمَّا عبادةُ الأوثانِ فيُنكِرُها كلُّ ذي لُبٍّ وعَقلٍ صَحيحٍ). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٣-٣٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٤٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٩٩).

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١-١٦٣].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٩١].

﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾.

أي: وأمَرَني اللهُ بِقَولِه: أقِمْ نفسَك على دينِ الإسلامِ، واستَقِمْ عليه مُخلِصًا لله وَحدَه، مائلًا عن كلِّ دينٍ سواه[١].

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

أي: ولا تكونَنَّ- يا محمَّدُ- من المُشرِكينَ في عبادةِ اللهِ، لا في حالِهم ولا عقائِدِهم، ولا أعمالِهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥-٦٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٧، ٣٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٠)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٥).

﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا نهى النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن الشِّركِ، أكَّدَه بما هو كالتَّعليلِ له بقَولِه[1]:

﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾.

أي: ولا تَعبُدْ- يا مُحمَّدُ- مِن دونِ اللهِ مِن الأصنامِ وغَيرِها ما لا ينفَعُك إن عبَدْتَه، ولا يضُرُّك إن عصَيتَه[2].

﴿ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

أي: فإنْ عَبَدتَ غَيرَ اللهِ، فإنَّك- يا محمَّدُ- من الظَّالِمينَ لأنفُسِهم بالشِّركِ، الواضعينَ العبادةَ في غيرِ مَوضِعِها[3].

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن الله تعالى في الآيةِ الأولى في صفةِ الأصنامِ أنَّها لا تضُرُّ ولا تنفَعُ؛ بيَّن في هذه الآيةِ أنَّها لا تَقدِرُ أيضًا على دَفعِ الضَّرَرِ الواصلِ مِن الغَيرِ، وعلى

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٥).

الخيرِ الواصلِ مِن الغَيرِ[١]، وذكَر أنَّ الحَولَ والقُوَّةَ والنَّفعَ والضُّرَّ، ليس ذلك إلَّا لله، وأنَّه تعالى هو المُنفَرِدُ بذلك[٢].

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: وإن يُصِبْك اللهُ- يا مُحمَّدُ- بشدَّةٍ وبلاءٍ- كمَرَضٍ أو فقرٍ- فلا يَكشِفُه عنك ويَرفَعُه إلَّا اللهُ وَحدَه المُستَحِقُّ للعبادةِ[٣].

كما قال سُبحانه: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ [الزمر: ٣٨].

﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾.

أي: وإنْ يُرِدِ اللهُ لك الخيرَ- يا محمَّدُ- فلا أحدَ مِن الخَلقِ يَقدِرُ على ردِّ فَضلِه وإحسانِه[٤].

كما قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((كنتُ خَلفَ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومًا، فقال: يا غُلامُ، إنِّي أعَلِّمُك كَلِماتٍ: احفَظِ اللهَ يَحفَظْك، احفَظِ اللهَ تَجِدْه تُجاهَك، إذا سألْتَ فاسألِ اللهَ، وإذا استعَنْتَ فاستعِنْ بالله، واعلَمْ أنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٨)، ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٥/ ٢٣٦)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٥).

الأُمَّةَ لو اجتمَعَت على أن ينفَعوك بشَيءٍ، لم ينفَعوك إلَّا بشَيءٍ قد كتَبَه الله لك، ولو اجتَمَعوا على أن يضُرُّوك بشَيءٍ، لم يضُرُّوك إلَّا بشيءٍ قد كتَبَه اللهُ عليك، رُفِعَت الأقلامُ، وجَفَّت الصُّحُف))[1].

﴿ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ ﴾.

أي: يُصيبُ اللهُ بالضُّرِّ والخيرِ من يَشاءُ مِن عبادِه[2].

﴿ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

أي: وهو الغَفورُ لذُنوبِ عِبادِه التَّائبين، الرَّحيمُ بالمؤمنينَ[3].

﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ١٠٨ ﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد (٢٦٦٩)، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٥٤١٧).
صحَّحه الترمذيُّ، وحسَّنه ابنُ رجبٍ في ((جامع العلوم والحكم)) (١/ ٤٥٩)، وابنُ حجرٍ في ((موافقة الخبر الخبر)) (١/ ٣٢٧)، وصحَّح إسناده أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٤/ ٢٣٣)، وصحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح الترمذي)) (٢٥١٦)، وابنُ بازٍ في ((مجموع فتاوى ابن باز)) (١/ ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٨)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٦٨).
وممن ذهب إلى أنَّ الضميرَ في (به) يعودُ إلى الضرِّ والخيرِ: ابنُ جريرٍ والقرطبي والخازنُ. يُنظر: ((المصادر السابقة)).
وممن ذهَب إلى أنَّه يعودُ إلى الخيرِ: الشوكاني، ومحمد رشيد رضا، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٤٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٤٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ١٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٨).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كَثُرَت في هذه السُّورةِ الأوامِرُ والنَّواهي والأجوبةُ بسبَبِ ما يقتَرِحونَه على وجهِ التعَنُّت، وخُتِمَ بأنَّ من دعا غيرَه كان راسخًا في الظُّلمِ، لا مُجيرَ له منه؛ ختَم ذلك بجوابٍ مُعلِمٍ بأنَّ فائدةَ الطَّاعةِ ليست راجعةً إلَّا إليهم، وضرَرَ النُّفورِ ليس عائدًا إلَّا عليهم(١).

وأيضًا فإنَّه لَمَّا قرَّرَ تعالى الدَّلائِلَ المذكورةَ في التوحيدِ والنبوَّةِ والمعادِ، وزَيَّنَ أمرَ هذه السُّورةِ بهذه البياناتِ الدَّالَّةِ على كونِه تعالى مُبتَدئًا بالخَلقِ والإبداعِ، والتَّكوينِ والاختراعِ- ختَمَها بهذه الخاتمةِ الشَّريفةِ العاليةِ؛ لئلَّا يبقى لأحدٍ عُذرٌ(٢).

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾.

أي: قُل- يا محمَّدُ- لجميعِ النَّاسِ: يا أيُّها النَّاسُ، قد أتاكم الحَقُّ المبينُ الذي لا مِريةَ فيه ولا شَكَّ، وهو القُرآنُ الذي نزَلَ مِن عند رَبِّكم، فيه بيانُ دِينِكم، وصَلاحُ أحوالِكم(٣).

﴿ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٠٨).

قال ابن عاشور: (الخطابُ لجَميعِ النَّاسِ مِن مؤمنٍ وكافرٍ، والمقصودُ منه ابتداءً المُشرِكون؛ ولذلك أطيلَ الكلامُ في شأنِهم، وقد ذُكِرَ معهم من اهتدى تشريفًا لهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٠٨).

أي: فمَن اهتَدى بهذا القرآنِ واتَّبَعه، فإنَّما ينفَعُ نَفسَه(١).

﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾.

أي: ومن ضلَّ عن القرآنِ فخالفَ طريقَ الحَقِّ، فإنَّما يضرُّ نفسَه(٢).

﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾.

أي: وقُلْ- يا محمَّدُ- للنَّاسِ: وما أنا بمسَلَّطٍ عليكم، وقاهرٍ لكم حتى تُؤمِنوا، ولا بحفيظٍ عليكم حتى أحفظَ أعمالَكم وأحاسِبَكم عليها(٣).

كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام: ١٠٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ [الزمر: ٤١].

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان أكثَرُ ما ذُكِرَ وعظًا لهم وتذكيرًا؛ ختَمَه الله تعالى بأمرِه صلَّى اللهُ عليه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٥، ٣٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٩)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٠٩).

وسلَّم بما يفعَلُه في خاصَّةِ نَفسِه، أجابوا أو لم يُجيبوا[١]، فقال تعالى:

﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾.

أي: واتَّبعْ - يا محمَّدُ - ما أوحَى اللهُ إليك من القرآنِ، فصدِّقْ بأخبارِه، واعمَلْ بأحكامِه[٢].

﴿وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ﴾.

أي: واصبِرْ على التمسُّكِ بما يُوحَى إليك، وعلى أذى المُشرِكينَ، حتَّى يقضيَ اللهُ بينك وبينهم[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ * فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٨-٧٩].

﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾.

أي: واللهُ خيرُ الحاكِمينَ بالعدْلِ بين المُتَخاصِمينَ، فسيَحكُمُ بينك - يا محمَّدُ - وبين مَن خالَفوك[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٦٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣١٠).

قال السعدي: (وقد امتثَلَ صلَّى الله عليه وسلَّم أمرَ رَبِّه، وثبَتَ على الصِّراطِ المُستقيمِ، حتى =

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١ - قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ فلا أحدَ ولا شيءَ يَرُدُّ فَضلَه تعالى الذي تتعَلَّقُ به إرادتُه، فما شاء كان حتمًا، فلا ينبغي لأحدٍ أن يرجوَ الخَيرَ والنَّفعَ إلَّا مِن فَضلِه، ولا أن يخاف رَدَّ ما يريدُه له من أحدٍ غَيرِه[1].

٢ - قال الله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ أعلَمَت هذه الآيةُ أنَّ من اتَّبَعَ الوَحيَ ابتُلِيَ بما ينبغي الصَّبرُ عليه، وأفهَمَت أنَّ من كان له أشدَّ اتباعًا، كان أشَدَّ بلاءً[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١ - قَولُ الله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ﴾ فيه سؤالٌ: كيف قال ﴿فِي شَكٍّ﴾ وهم كفَّارٌ يَعتَقِدونَ بُطلانَ ما جاء به؟

الجوابُ: أنَّه كان فيهم شاكُّونَ، أو أنَّهم لَمَّا رأَوُا الآياتِ اضطَرَبوا، وشَكُّوا في أمرِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[3].

٢ - قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه سؤالٌ: ما الحكمةُ في ذِكرِ المَعبودِ الحَقِّ في هذا المقامِ بهذه الصِّفةِ، وهي قولُه: ﴿الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾؟ **الجواب** مِن وجوهٍ:

= أظهَرَ الله دينَه على سائرِ الأديانِ، ونصَرَه على أعدائِه بالسَّيفِ والسِّنانِ، بعدما نصَرَه اللهُ عليهم، بالحجَّة والبُرهان). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٥).

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٤٠١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٤٠).

الأول: أنَّه إنَّما خُصَّ التَّوفِّي هاهنا بالذِّكرِ دونَ الإحياءِ؛ لأنَّه يتضَمَّنُ تهديدًا لهم؛ لأنَّ وفاةَ المُشرِكينَ ميعادُ عذابِهم(١).

الثاني: لِمَا فيها مِن الدَّلالةِ على كمالِ التَّصرُّفِ في المخلوقِ؛ فإنَّ المشرِكين لم يَبلُغْ بهم الإشراكُ إلى ادِّعاءِ أنَّ الأصنامَ تُحْيي وتُميتُ(٢).

الثالث: يحتملُ أن يكونَ المرادُ: أنِّي أعبُدُ اللهَ الذي خلَقَكم أوَّلًا ثم يتوفَّاكم ثانيًا، ثمَّ يُعيدكم ثالثًا، فاكتفى بذِكرِ التوفِّي منها؛ لِكَونِه منبِّهًا على البَواقي.

الرابع: أنَّ الموتَ أشَدُّ الأشياءِ مَهابةً، فخُصَّ هذا الوصفُ بالذِّكرِ في هذا المقامِ؛ لِيَكونَ أقوى في الزَّجرِ والرَّدعِ.

الخامس: أنَّهم لَمَّا استعجَلوا نزولَ العذابِ قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ * ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ فهذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّه تعالى يُهلِكُ أولئك الكُفَّارَ، ويُبقي المؤمنينَ، ويُقَوِّي دولتَهم، فلمَّا كان قريبَ العَهدِ بذِكرِ هذا الكلامِ؛ لا جرَمَ قال هاهنا: ﴿وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾ وهو إشارةٌ إلى ما قَرَّره وبَيَّنَه في تلك الآيةِ، كأنَّه يقولُ: أعبدُ ذلك الذي وعَدَني بإهلاكِهم وبإبقائي(٣).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ اختيرَ في الآيةِ الثَّانيةِ صِيغةُ الطَّلَبِ وفيما قَبلَه الخَبَر؛ ذلك بأنَّ الخَبَر هو المناسِبُ لعلاقةِ هذا الأمرِ بالماضي، وهو أن يكونَ مِن جماعةِ المؤمنينَ المَوعودينَ بما تقَدَّمَ من

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٠٨).

سنَّةِ الله في النبيِّينَ، والطَّلَبُ هو المناسِبُ لعَلاقتِه هو وما عُطِفَ عليه مِن النَّهيِ بالحالِ والاستقبالِ، من دعوةِ هذا الدِّينِ المُوجَّهةِ إلى أهلِ مَكَّةَ وسائرِ النَّاسِ(١).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ تحوَّلَ السِّياقُ من الحكايةِ إلى الأمرِ المُباشِر، كأنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يتلقَّاه في مَشهَدٍ حاضرٍ للجَميعِ، وهذا أقوى وأعمَقُ تأثيرًا(٢).

٥- قَولُه تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ نهيٌ عن الإشراكِ على التَّصريحِ؛ لتأكيدِ التَّحذيرِ والذَّمِّ لأهلِه؛ لأنَّه إذا قيل: لا تكُنْ منهم، اقتضى أنَّهم على نهايةِ الخِزيِ والمَقتِ(٣).

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ المقصودُ مِن هذا الفَرضِ: تنبيهُ النَّاسِ على فظاعةِ عِظَمِ هذا الفِعلِ، حتى لو فعَلَه أشرفُ المَخلوقينَ، لكان من الظَّالِمينَ(٤).

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ فيه سؤالٌ: لمَ ذُكِرَ المَسُّ في أحَدِهما، والإرادةُ في الثَّاني؟

الجوابُ: أنَّ للعُلَماءِ وجوهًا في تعليلِ ذلك:

الوجه الأول: أنَّه لَمَّا كان الضرُّ أمرًا وجوديًّا، لا جرمَ قال فيه: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ ولَمَّا كان الخيرُ قد يكونُ وجوديًّا، وقد يكون عَدميًّا؛ لا جرَمَ لم يُذكَرْ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٩٩).

(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٨٢٥).

(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٠٥).

لفظُ الإمساسِ فيه، بل قال: ﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾[(١)].

الوجه الثاني: كأنَّه أراد أن يَذكُرَ الأمرينِ جَميعًا: الإرادةَ والإصابةَ في كلٍّ واحدٍ مِن الضُرِّ والخَيرِ، وأنَّه لا رادَّ لِما يُرِيدُه منهما، ولا مُزيلَ لِما يُصيبُ به منهما، فأوجز الكلامَ بأن ذكَرَ المسَّ وهو الإصابةُ في أحَدِهما، والإرادةَ في الآخرِ؛ ليدُلَّ بما ذُكِرَ على ما تُرِكَ، على أنَّه قد ذكَرَ الإصابةَ بالخَيرِ في قَولِه تعالى: ﴿يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾[(٢)].

الوجه الثالث: أنَّه عبَّرَ بالمسِّ في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ لأنَّه أخوَفُ.

الوجه الرابع: أنَّه عبَّرَ بالإرادةِ في الخيرِ، وبالمسِّ في الضُّرِّ؛ تنبيهًا على أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مرادٌ بالخَيرِ بالذَّاتِ، وبالضُّرِّ بالعَرَضِ تطييبًا لقَلبِه[(٣)].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ دالٌّ على أنَّ الضُّرَّ والخيرَ واقعانِ بقُدرةِ الله تعالى وبقَضائِه، فيدخلُ فيه الكفرُ والإيمانُ والطاعةُ والعِصيانُ، والسُّرورُ والآفاتُ، والخيراتُ والآلامُ، واللَّذَّاتُ والرَّاحاتُ والجِراحاتُ، فبيَّن سُبحانه وتعالى أنَّه إن قضى لأحدٍ شرًّا، فلا كاشِفَ له إلَّا هو، وإن قضى لأحدٍ خَيرًا فلا رادَّ لِفَضلِه البتَّةَ[(٤)].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ فيه دَقيقةٌ، وهي أنَّه تعالى رجَّحَ جانِبَ الخَيرِ على جانِبِ الشَّرِّ، وذلك من أوجهٍ، منها:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٧٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢١٨-٢١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣١٠).

الأول: أنَّه تعالى لَمَّا ذكر إمساسَ الضُّرِّ، بيَّنَ أنَّه لا كاشِفَ له إلَّا هو، وذلك يدُلُّ على أنَّه تعالى يُزيلُ المَضارَّ؛ لأنَّ الاستثناءَ مِن النَّفيِ إثباتٌ، ولَمَّا ذكَرَ الخَيرَ لم يَقُلْ بأنَّه يَدفَعُه بل قال إنَّه: ﴿لَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾، وذلك يدلُّ على أنَّ الخيرَ مَطلوبٌ بالذَّاتِ، وأنَّ الشَّرَّ مطلوبٌ بالعَرضِ.

الثاني: أنَّه قال: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وهذا أيضًا يدُلُّ على قوَّةِ جانبِ الرَّحمةِ(١).

١٠- التقديمُ في اللفظِ يدلُّ على زيادةِ العنايةِ، فقولُه: ﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ يدلُّ على أنَّ المقصودَ هو الإنسانُ، وسائرُ الخيراتِ مخلوقةٌ لأجلِه، فهذه الدقيقةُ لا تُستفادُ إلا مِن هذا التركيبِ(٢).

١١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ سمَّى الخيرَ فَضلًا؛ إشعارًا بأنَّ الخُيورَ من الله تعالى، هي صادرةٌ على سبيلِ الفَضلِ والإحسانِ والتفَضُّلِ(٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: **﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾**

- قولُه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ فيه إيثارُ الخطابِ باسْمِ الجنسِ مُصدَّرًا بحرفِ التَّنبيهِ؛ تَعميمًا للتَّبليغِ، وإظهارًا لكمالِ العنايةِ بشأنِ ما بُلِّغ إليهم(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣١٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١١٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٩).

– قولُه: ﴿فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾، فيه الجمعُ بينَ نفيِ أن يَعبُدَ الأصنامَ وبين إثباتِ أنَّه يَعبُدُ اللهَ، وهو يقومُ مَقامَ صيغةِ القصرِ لو قال: فلا أَعبُدُ إلَّا اللهَ؛ ووجهُ العدولِ عن صيغةِ القصرِ: أنَّ شأنَها أن يُطْوَى فيها الطَّرَفُ المنفيُّ للاستغناءِ عنه بالطَّرَفِ المثبَتِ؛ لأنَّه المقصودُ، وذلك حين يكونُ الغرضُ الأصليُّ هو طرَفَ الإثباتِ، فأمَّا إذا كان طرَفُ النَّفيِ هو الأهمَّ كما هنا، وهو إبطالُ عبادةِ الأصنامِ أوَّلًا؛ عَدَل عن صيغةِ القصرِ إلى ذِكْرِ صيغتَيْ نفيٍ وإثباتٍ؛ فهو إطنابٌ اقتَضاه المقامُ(١).

– وعُومِلَت الأصنامُ مُعاملةَ العُقلاءِ، فأُطلِقَ عليها اسمُ الموصولِ ﴿الَّذِينَ﴾ الَّذي لجماعةِ العقلاءِ؛ مُجاراةً لِما يَعتقِدونه فيها مِن العقلِ والتَّدبيرِ(٢).

– وتقديمُ تركِ عبادةِ الغيرِ على عبادته تعالى في قولِه: ﴿فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ﴾؛ لتقدُّمِ التخليةِ على التحليةِ، كما في كلمةِ التَّوحيدِ، وللإيذانِ بالمخالفةِ مِن أوَّلِ الأمرِ(٣).

– قولُه تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه جعلُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم مِن جملةِ المؤمنين؛ تشريفًا لهذا الجمعِ، وتنويهًا به(٤).

– وفي قولِه تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ مناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال اللهُ تعالى هنا: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وقال في سورةِ النَّملِ: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٩١]، فاختُصَّ هذا المكانُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٠١-٣٠٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٣٠١).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٠٢).

بـ(المؤمنين)، واختُصَّ آخِرُ سورةِ النَّملِ بـ(المسلمين)؛ ووجهُ ذلك: أنَّ قبل هذه الآيةِ في سورةِ يونسَ قولَه تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣]، فقال بعدَه: وأُمِرتُ أن أكونَ مِنهم. وأمَّا في سورةِ النَّملِ فإنَّ قبلَ هذه الآيةِ مِنها: ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [النمل: ٨١]، فكأنَّه قال: وأُمِرتُ أن أكونَ ممَّن إذا سَمِع بآياتِه آمَن بها، وكان مِن المسلِمين الَّذين مُدِحوا بأنَّ النَّبيَّ يُسمِعُهم؛ إذْ يَنتفِعون بما يَسمَعونه منه، فلمَّا تقاربَتِ اللَّفظَتان وكانَتا تُستعمَلان لمعنًى واحدٍ، حُمِلَت كلُّ واحدةٍ مِنهما على اللَّفظِ الَّذي تَقدَّمها ولاءَمها[1].

وأيضًا لأنَّ آيةَ سورةِ يونسَ قد ورَد قبلَها قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [يونس: ٩٩، ١٠٠]، وبعدَ هذا: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، وبعدَ هذا: ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣]، وبعدَ هذا الآيةُ المذكورةُ مِن قولِه: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٤]، وتناسُبُ هذا كلِّه ظاهرٌ، ثمَّ إنَّ ما تقدَّم قبلَ آيةِ يونُسَ مِن تكْرارِ اسمِ الإيمانِ لم يَكُنْ لِيُلائِمَه إطلاقُ اسمِ الإسلامِ؛ لأنَّ رُتبةَ الإيمانِ فوق رُتبةِ الإسلامِ، ومَقامَه أعلى، وهذا على إطلاقِ كلِّ واحدٍ مِن الاسمَينِ على مُسمَّاه لغةً، وعلى رَعْيِ التَّفصيلِ، فكأنْ يكونَ عَكْسَ التَّرقِّي إلى الأعلى أبدًا، فلا يُمكِنُ في آيةِ يونُسَ إلَّا ما ورَدَت عليه.

أمَّا آيةُ النَّملِ فإنَّ قبْلَها قولَه: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٧٤٨-٧٤٩)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٤٢-١٤٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٥٥) .

حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٩١]، وقولُه: ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ يقتضي تسليمَ كلِّ شيءٍ له، والتَّبرِّيَ مِن توهُّم شَريكٍ أو نظير؛ فناسبَ هذا قولَه: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٩١]، وجاء كلٌّ على ما يَجِبُ(١).

٢- قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ اللَّامُ في ﴿لِلدِّينِ﴾ للعلَّةِ، أي: لأجلِ الدِّينِ، وهو كنايةٌ عن توجيهِ نفْسِه بأَسْرِها لأجلِ ما أمَره اللهُ به مِن التَّبليغِ، وإرشادِ الأمَّةِ وإصلاحِها(٢).

- قولُه: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ نهيٌ مؤكَّدٌ لمعنى الأمرِ الَّذي قَبْلَه ﴿أَقِمْ﴾، وتأكيدُ الفعلِ المنهيِّ عنه بنونِ التَّوكيدِ؛ للمُبالَغةِ في النَّهيِ عنه؛ اعتِناءً بالتَّبرُّؤِ مِن الشِّركِ(٣).

٣- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾

- قوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ تأكيدٌ للنَّهيِ المذكورِ: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، وتفصيلٌ لما أُجمِلَ فيه؛ إظهارًا لكمالِ العنايةِ بالأمرِ، وكشفًا عن وجهِ بُطلانِ ما عليه المشركون(٤).

- قولُه: ﴿فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ تفريعٌ على النَّهيَينِ: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّه لا مَعذِرَةَ لِمَن يَأتي ما نُهي عنه بعدَ أن أُكِّد نهيُه، وبُيِّنَت عِلَّته،

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٥٠-٢٥١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٠٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٠٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٩ - ١٨٠).

فمَن فعَله فقد ظلَم نفسَه، واعتَدى على حقِّ ربِّه[١].

- قولُه: ﴿فَإِنْ فَعَلْتَ﴾ مَعْناه: فإنْ دعَوتَ مِن دونِ اللهِ ما لا ينفَعُك ولا يضُرُّك؛ فكنَى بالفِعلِ عن الدُّعاءِ إيجازًا، وتنويهًا لشأنِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتنبيهًا على رِفْعةِ مَكانِه مِن أن يُنسَبَ إليه عبادةُ غيرِ اللهِ سبحانه، ولو في ضِمْنِ الجملةِ الشَّرطيَّةِ[٢].

- وفي قولِه: ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أكَّد الكَونَ مِنَ الظَّالِمين بـ(إنَّ)؛ لِزيادةِ التَّحذيرِ، وأُتِي بـ﴿إِذًا﴾؛ للإشارةِ إلى سؤالٍ مقدَّرٍ؛ كأنَّ سائلًا سأَل: فإن فعَلتُ فماذا يكونُ[٣]؟

٤- قولُه تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾

- مِن المناسبةِ الحسنةِ: أنَّه أتَى في الضُّرِّ بلَفظِ المسِّ، فقال: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ...﴾، وفي الخيرِ بلَفظِ الإرادةِ: ﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾، وطابَق بينَ الضُّرِّ والخيرِ مُطابَقةً معنويَّةً لا لفظيَّةً؛ لأنَّ مُقابِلَ الضُّرِّ النَّفْعَ، ومُقابِلَ الخيرِ الشَّرَّ؛ فجاءَت لفظةُ الضُّرِّ ألْطَفَ وأخَصَّ مِن لفظةِ الشَّرِّ، وجاءت لفظةُ الخيرِ أتَمَّ مِن لفظةِ النَّفعِ، ولفظةُ المسِّ أوجَزُ مِن لفظِ الإرادةِ، وأكثرُ تَنصيصًا على الإصابةِ، وأنسَبُ لقولِه: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾، ولفظةُ الإرادةِ أدَلُّ على الحصولِ في وقتِ الخطابِ وفي غيرِه، وأنسَبُ لِلَفظِ الخيرِ، وإن كان المسُّ والإرادةُ مَعناهما الإصابةَ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٠٤- ٣٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١١٣).

- وأيضًا جاء جوابُ: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ﴾ بنفيٍ عامٍّ وإيجابٍ: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾، وجاء جوابُ: ﴿وَإِنْ يُرِدْكَ﴾ بنفيٍ عامٍّ: ﴿فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾؛ لأنَّ ما أراده لا يَرُدُّه رادٌّ لا هو ولا غيرُه؛ فلذلك لم يَجِئِ التَّركيبُ: فلا رادَّ له إلَّا هو، والمسُّ مِن حيث هو فِعلٌ صفةُ فعلٍ يوقِعُه ويَرفَعُه بخِلافِ الإرادةِ؛ فإنَّها صفةُ ذاتٍ(١).

- قولُه: ﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾، الفضلُ: هو الخيرُ، وأوقَع الاسْمَ الظَّاهِرَ ﴿لِفَضْلِهِ﴾ موقِعَ الضَّميرِ- فلم يَقُلْ: فلا رادَّ له-؛ للدَّلالةِ على أنَّ الخيرَ الواصِلَ إلى النَّاسِ فضلٌ مِن اللهِ لا استِحْقاقَ لهم فيه؛ لأنَّهم عَبيدٌ له يُصيبُهم بما يَشاءُ(٢).

- وقولُه: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ تذييلٌ لقولِه تعالى: ﴿يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ مقرِّرٌ لمضمونِه، والكلُّ- أي قولُه: ﴿يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾- تذييلٌ للشَّرطيَّةِ الأخيرةِ: ﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾، محقِّقٌ لمضمونِها(٣).

- ولَمَّا تقدَّم قولُه: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾، فأخَّر الضُّرَّ؛ ناسَب أن تكونَ البَداءةُ بجُملةِ الشَّرطِ المتعلِّقةِ بالضُّرِّ، وأيضًا فإنَّه لَمَّا كان الكُفَّارُ يُتوقَّعُ منهم الضُّرُّ للمُؤمنين، والنَّفعُ لا يُرجَى مِنهُم، كان تقديمُ جملةِ الضُّرِّ آكَدَ في الإخبارِ، فبُدِئ بها(٤).

٥- قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١١٣، ١١٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٠٦)، ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢١٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤ / ١٨٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١١٣).

فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾

- قولُه: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، فيه اختيارُ وصفِ الرَّبِّ المضافِ إلى ضميرِ النَّاسِ على اسمِ الجلالةِ؛ حيث قال: ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾، ولم يَقُلْ: (مِنَ اللهِ)؛ للتَّنبيهِ على أنَّه إرشادٌ مِن الَّذي يُحِبُّ صَلاحَ عِبادِه، ويَدْعوهم إلى ما فيه نَفعُهم شأنُ مَن يَرُبُّ، أي: يَسُوس ويُدبِّرُ(١).

- وفي وصْفِ الحقِّ بـ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾: تنويهٌ بأنَّه حقٌّ مُبينٌ، لا يَخلِطُه باطلٌ ولا رَيبٌ؛ فهو معصومٌ مِن ذلك(٢).

- وقولُه: ﴿فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ تفريعٌ على جملةِ: ﴿قَدْ جَاءَكُمُ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ مَجيءَ الحقِّ الواضِحِ يتَرتَّبُ عليه أنَّ اتِّباعَه غُنْمٌ لِمُتَّبِعِه، وليس مَزِيَّةً له على اللهِ؛ لِيُتوَصَّلَ مِن ذلك إلى أنَّ المعرِضَ عنه قد ظلَم نفْسَه، ورتَّب عليها تَبِعَةَ الإعراضِ(٣).

- قولُه: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ فيه الإتيانُ بالجملةِ الاسميَّةِ المنفيَّةِ؛ للدَّلالةِ على دَوامِ انتِفاءِ ذلك الحُكمِ، وثَباتِه في سائرِ الأحوالِ(٤).

- وفي قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ مناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث عبَّر هنا بقولِه: ﴿فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾، وقال في آخِرِ سورةِ النَّملِ: ﴿فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ [النمل: ٩٢]؛ ففي الأولى قال: ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾، وفي الثَّانيةِ: ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾؛ وهذا لأنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٣٠٩).

الآيَةَ الأولى في سورةِ يونسَ لَمَّا قال فيها: ﴿فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾، أي: منفعةُ اهتدائِه له، وهي دوامُ النِّعمةِ، والخلودُ في الجنَّةِ- اقتضَى هذا في الضَّلالِ ضدَّه، فقال: ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾، أي: ضررُ ضلالِه عليه، وهو دوامُ العقابِ بأليمِ العذابِ، ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾، ولا يَلزَمُني أن أَقِيَكم ما لا تَقُونه أنفُسَكم، كالوكيلِ الَّذي يَلزَمُه حفظُ ما وُكِّل به ممَّا يَضُرُّه.

وأمَّا في الآيةِ الثَّانيةِ في آخرِ سورةِ النَّملِ فإنَّه عدَل بها عِندَ ذِكرِ الضَّلالِ عمَّا حُمِلَت عليه في الآيةِ التي في آخرِ سورةِ يونسَ؛ لِتُحمَلَ على الفواصلِ التي قَبلَها، وهي مختومةٌ بالواوِ والنُّونِ، أو الياءِ والنونِ، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ [النمل: ٩٢]، أي: ممَّن يُعلِمُكم ما يَلزَمُكم أن تَحْذَروه، ويُخوِّفُكم ما يَجِب عليكم أن تَجتنِبوه؛ فاشتمَل هذا على معنى: ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾؛ لأنَّ في قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾، أي: لستُ ممَّن يُكرِهُ على ما يَحْميكم مِن النَّارِ، ويَقيكم حرَّ العقابِ، كالوكيلِ الَّذي يُحامي على ما وُكِّل به أن يَنالَه ضررٌ، مثل: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾؛ فجاء على لفظِ: ﴿إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾؛ لتكونَ الفاصلةُ مُشاكِلةً للفواصلِ الَّتي قبلَها، مع تأديةِ مِثلِ المعنى الذي أدَّته الآيةُ التي شابَهَتْها(١).

- قولُه: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ﴾ فيه التَّعبيرُ بالمضارِعِ ﴿يُوحَى﴾ على نَهْجِ التَّجدُّدِ والاستمرارِ من الحقِّ المذكورِ المتأكِّدِ يومًا فيومًا، وفي التَّعبيرِ عن بُلوغِه إليهم بالمجيءِ ﴿قَدْ جَاءَكُمُ﴾، وإليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالوحيِ ﴿يُوحَى إِلَيْكَ﴾: تنبيهٌ على ما بين المرتبتَينِ مِن التَّنائي(٢).

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٧٥٠-٧٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٨١).

- قولُه: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ ثناءٌ وتذييلٌ؛ لِما فيه مِن العمومِ، أي: وهو خيرُ الحاكِمين بينَ كلِّ خَصمَين في هذه القضيَّةِ وفي غيرِها، والتَّعريفُ في الحاكِمين للاستِغْراقِ بقَرينةِ التَّذييلِ[1].

تمَّ بحمدِ اللهِ المجلدُ التَّاسعُ

ويَليهِ المجلدُ العاشرُ، وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ هودٍ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣١٠).

الفهرس

الفهرس

سُورةُ يُونُس ٧
أسماءُ السُّورةِ........................ ٧
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ٧
مقاصِدُ السُّورةِ........................ ٨
مَوضوعاتُ السُّورةِ ٨
الآيتان (١-٢) ١٠
غَريبُ الكَلِماتِ........................ ١٠
المَعنى الإجماليُّ........................ ١٠
تَفسيرُ الآيتَينِ........................ ١١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ........................ ١٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٤
بلاغةُ الآيتين........................ ١٥
الآيتان (٣-٤) ٢٠
غَريبُ الكَلِماتِ........................ ٢٠
المَعنى الإجماليُّ........................ ٢٠
تَفسيرُ الآيتَينِ........................ ٢١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ........................ ٢٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٧
بلاغةُ الآيتين........................ ٣٠
الآيتان (٥-٦) ٣٤
المَعنى الإجماليُّ........................ ٣٤
تَفسيرُ الآيتَينِ........................ ٣٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ........................ ٣٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٩
بلاغةُ الآيتَينِ........................ ٤٠
الآيات (٧-١٠) ٤٣
غَريبُ الكَلِماتِ........................ ٤٣
المَعنى الإجماليُّ........................ ٤٣
تَفسيرُ الآياتِ ٤٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ........................ ٤٨
الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٩
بلاغةُ الآياتِ........................ ٥١
الآيتان (١١-١٢) ٥٥
غَريبُ الكَلِماتِ........................ ٥٥
المَعنى الإجماليُّ........................ ٥٥
تفسيرُ الآيتَينِ........................ ٥٦
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ........................ ٦٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٦١
بلاغةُ الآيتينِ........................ ٦٢
الآيتان (١٣-١٤) ٦٥
غَريبُ الكَلِماتِ........................ ٦٥
المَعنى الإجماليُّ........................ ٦٥
تَفسيرُ الآيتَينِ........................ ٦٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٦٩
بلاغةُ الآيتينِ........................ ٧٠
الآيات (١٥-١٧)........................ ٧٢

المَعنى الإجماليُّ ٧٢
تَفسيرُ الآياتِ ٧٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٧٨
بلاغةُ الآياتِ........................ ٨١
الآيات (١٨-٢٠)........................ ٨٥
المَعنى الإجماليُّ........................ ٨٥
تَفسيرُ الآياتِ ٨٦
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ........................ ٩٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٩٢
بلاغةُ الآياتِ........................ ٩٥
الآيات (٢١-٢٣)........................ ١٠٠
غَريبُ الكَلِماتِ........................ ١٠٠
مُشكِلُ الإعرابِ ١٠١
المعنَى الإجماليُّ........................ ١٠٢
تَفسيرُ الآياتِ ١٠٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ........................ ١١١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١١٢
بلاغةُ الآياتِ........................ ١١٤
الآيتان (٢٤-٢٥) ١٢٠
غَريبُ الكَلِماتِ........................ ١٢٠
المَعنى الإجماليُّ........................ ١٢٠
تَفسيرُ الآيتَين........................ ١٢١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ........................ ١٢٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٢٦
بلاغةُ الآيتينِ........................ ١٢٨
الآيتان (٢٦-٢٧) ١٣١
غَريبُ الكَلِماتِ........................ ١٣١
المعنَى الإجماليُّ........................ ١٣١
تَفسيرُ الآيتَين........................ ١٣٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ........................ ١٣٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٣٧
بلاغةُ الآيتينِ........................ ١٣٨
الآيات (٢٨-٣٠)........................ ١٤١
غريبُ الكَلِماتِ........................ ١٤١
مُشكِلُ الإعرابِ ١٤١
المَعنى الإجماليُّ........................ ١٤٢
تَفسيرُ الآياتِ ١٤٢
الفَوائِدُ التربويَّةُ........................ ١٤٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٤٨
بلاغةُ الآياتِ........................ ١٥٠
الآيات (٣١-٣٣)........................ ١٥٢
غريبُ الكلماتِ........................ ١٥٢
المَعنى الإجماليُّ........................ ١٥٢
تَفسيرُ الآياتِ ١٥٣
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٥٨
بلاغةُ الآياتِ........................ ١٦٠
الآيات (٣٤-٣٦)........................ ١٦٨
غريب الكلماتِ........................ ١٦٨

المَعنَى الإجماليُّ.......... ١٦٨
تَفسيرُ الآياتِ ١٦٩
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ.......... ١٧٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٧٤
بلاغةُ الآياتِ.......... ١٧٧
الآيات (٣٧-٤٠).......... ١٨٢
غَريبُ الكَلِماتِ.......... ١٨٢
مُشكِلُ الإعرابِ ١٨٢
المَعنَى الإجماليُّ.......... ١٨٣
تَفسيرُ الآياتِ ١٨٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ.......... ١٩١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٩١
بلاغةُ الآياتِ.......... ١٩٣
الآيات (٤١-٤٤).......... ١٩٧
المَعنَى الإجماليُّ.......... ١٩٧
تَفسيرُ الآياتِ ١٩٧
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ.......... ٢٠٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٠٤
بلاغةُ الآياتِ.......... ٢٠٥
الآيات (٤٥-٤٧).......... ٢١٠
المَعنَى الإجماليُّ.......... ٢١٠
تَفسيرُ الآياتِ ٢١٠
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ.......... ٢١٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢١٧
بلاغةُ الآياتِ.......... ٢١٩
الآيات (٤٨-٥٣).......... ٢٢٣
غريبُ الكَلِماتِ.......... ٢٢٣
المَعنَى الإجماليُّ.......... ٢٢٣
تَفسيرُ الآياتِ ٢٢٤
الفَوائِدُ التربويَّةُ.......... ٢٣٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٣١
بلاغةُ الآياتِ.......... ٢٣٢
الآيات (٥٤-٥٦).......... ٢٣٨
المَعنَى الإجماليُّ.......... ٢٣٨
تَفسيرُ الآياتِ ٢٣٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ.......... ٢٤١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٤٢
بلاغةُ الآياتِ.......... ٢٤٢
الآيتان (٥٧-٥٨).......... ٢٤٨
غريبُ الكَلِماتِ.......... ٢٤٨
المَعنَى الإجماليُّ.......... ٢٤٨
تَفسيرُ الآيتَينِ.......... ٢٤٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ.......... ٢٥١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٥٤
بَلاغةُ الآيتَينِ.......... ٢٥٥
الآيتان (٥٩-٦٠).......... ٢٥٨
المَعنَى الإجماليُّ.......... ٢٥٨
تَفسيرُ الآيتَينِ.......... ٢٥٨

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ.................. ٢٦٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٦٢
بلاغةُ الآيتينِ.................. ٢٦٤
الآيات (٦١-٦٤).................. ٢٦٨
غَريبُ الكَلِماتِ.................. ٢٦٨
مشكلُ الإعرابِ ٢٦٩
المَعنَى الإجماليُّ.................. ٢٦٩
تَفسيرُ الآياتِ ٢٧٠
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ.................. ٢٧٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٧٨
بلاغةُ الآياتِ.................. ٢٨١
الآيتان (٦٥-٦٦) ٢٨٧
غَريبُ الكَلِماتِ.................. ٢٨٧
مُشكِلُ الإعرابِ ٢٨٧
المعنَى الإجماليُّ.................. ٢٨٨
تَفسيرُ الآيتَينِ.................. ٢٨٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ.................. ٢٩١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٩٢
بلاغةُ الآيتينِ.................. ٢٩٢
الآيات (٦٧-٧٠).................. ٢٩٥
غَريبُ الكَلِماتِ.................. ٢٩٥
المَعنَى الإجماليُّ.................. ٢٩٥
تَفسيرُ الآياتِ ٢٩٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٠٠
بلاغةُ الآياتِ.................. ٣٠٢
الآيات (٧١-٧٣).................. ٣٠٦
غَريبُ الكَلِماتِ.................. ٣٠٦
مُشكِلُ الإعرابِ ٣٠٧
المَعنَى الإجماليُّ.................. ٣٠٧
تَفسيرُ الآياتِ ٣٠٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ.................. ٣١٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣١٤
بلاغةُ الآياتِ.................. ٣١٦
الآيات (٧٤-٧٨).................. ٣١٩
غَريبُ الكَلِماتِ.................. ٣١٩
المَعنَى الإجماليُّ.................. ٣١٩
تَفسيرُ الآياتِ ٣٢٠
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٢٥
بلاغةُ الآياتِ.................. ٣٢٦
الآيات (٧٩-٨٢).................. ٣٣٠
المَعنَى الإجماليُّ.................. ٣٣٠
تَفسيرُ الآياتِ ٣٣٠
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ.................. ٣٣٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٣٤
بلاغةُ الآياتِ.................. ٣٣٥
الآيات (٨٣-٨٦).................. ٣٣٨
غَريبُ الكَلِماتِ.................. ٣٣٨
المَعنَى الإجماليُّ.................. ٣٣٨

تَفسيرُ الآياتِ ٣٣٩
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ.............. ٣٤٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٤٤
بلاغةُ الآياتِ.................. ٣٤٥
الآيات (٨٧-٨٩)................ ٣٤٨
غريبُ الكلِماتِ................ ٣٤٨
المَعنَى الإجماليُّ................ ٣٤٩
تَفسيرُ الآياتِ ٣٤٩
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ................ ٣٥٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٥٤
بلاغةُ الآياتِ.................. ٣٥٦
الآيات (٩٠-٩٢)................ ٣٥٩
غريبُ الكَلِماتِ................ ٣٥٩
المَعنَى الإجماليُّ................ ٣٥٩
تَفسيرُ الآياتِ ٣٦٠
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ................ ٣٦٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٦٣
بلاغةُ الآياتِ.................. ٣٦٥
الآيات (٩٣-٩٥)................ ٣٦٧
غَريبُ الكَلِماتِ................ ٣٦٧
المَعنَى الإجماليُّ................ ٣٦٧
تَفسيرُ الآياتِ ٣٦٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ................ ٣٧٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٧٤
بلاغةُ الآياتِ.................. ٣٧٦
الآيات (٩٦-١٠٠) ٣٨١
غريبُ الكلِماتِ................ ٣٨١
المَعنَى الإجماليُّ................ ٣٨١
تَفسيرُ الآياتِ ٣٨٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ................ ٣٨٧
الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٨٨
بلاغةُ الآياتِ.................. ٣٩٠
الآيات (١٠١-١٠٣) ٣٩٢
المَعنَى الإجماليُّ................ ٣٩٢
تَفسيرُ الآياتِ ٣٩٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ................ ٣٩٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٩٦
بلاغةُ الآياتِ.................. ٣٩٧
الآيات (١٠٤-١٠٩) ٤٠٠
غَريبُ الكَلِماتِ................ ٤٠٠
المَعنَى الإجماليُّ................ ٤٠١
تَفسيرُ الآياتِ ٤٠٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ................ ٤١١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٤١١
بلاغةُ الآياتِ.................. ٤١٥
الفهرس ٤٢٧

التفسير المحرر للقرآن الكريم

سورة هود

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر سابقا

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد العاشر

الدرر السنية
www.dorar.net

التفسير المحرر

للقرآن الكريم

١٠

ⓒ مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٣٨هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مؤسسة الدرر السنية – القسم العلمي

التفسير المحرر – سورة هود – المجلد العاشر / مؤسسة الدرر السنية – القسم العلمي – الظهران، ١٤٣٨هـ

٤٣٢ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٥-٤٦-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن سورة يونس – تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٣٨/٤٧٧٣

رقم الإيداع: ١٤٣٨/٤٧٧٣

ردمك: ٥-٤٦-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م

الدرر السنية
www.dorar.net

مؤسسة الدرر السنية - المملكة العربية السعودية
ص. ب ٣٩٣٦٤ الظهران ٣١٩٤٢ - جوال: ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠
ت: ٠١٣٨٦٨٠١٢٣/فاكس: ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨ - بريد إلكتروني nashr@dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسِيرُ

سُورَةِ هُودٍ

❋

❋

❋

سورة هود

أسماءُ السورة:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسورةِ (هود)[1]، ولم يُعرَفْ لها اسمٌ سِواه.

فعن عُقبةَ بنِ عامرٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قلتُ: يا رَسولَ الله، أَقرِئْني سورةَ هودٍ، وسورةَ يوسفَ... الحديثَ))[2].

بيانُ المكيِّ والمدنيِّ:

سورةُ هودٍ مكِّيَّةٌ[3]، وحُكي الإجماعُ على ذلك[4].

مقاصدُ السورة:

مِن أهمِّ مَقاصدِ سورةِ هودٍ:

١- بيانُ مَنهجِ الرُّسُلِ عليهم السَّلامُ في مُواجهةِ المُكَذِّبينَ[5].

(١) سُمِّيتْ هذه السورةُ باسم نبيِّ الله هودٍ عليه السَّلامُ؛ لتكَرُّرِ اسمِه فيها خمسَ مرَّاتٍ، ولأنَّ ما حُكي عنه فيها أطولُ مما حُكِيَ عنه في غيرِها، ولأنَّ عادًا وُصِفوا فيها بأنَّهم قومُ هودٍ في قولِه: ﴿أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾، وأيضًا لتَمييزِها مِن بينِ السُّوَرِ ذواتِ الافتتاحِ بـ (الر). يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٤٦)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣١١).

(٢) أخرجه النَّسائيُّ (٩٥٣) وأحمد (١٧٤١٨) وابنُ حِبَّان (١٨٤٢) والحاكِمُ (٣٩٨٨).
صحَّح إسنادَه الحاكمُ (٣٩٨٨)، وجوَّد إسنادَه ابنُ مفلح في ((الآداب الشرعية)) (٣/ ٢٣٢)، وصحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (٥٤٥٤).

(٣) وقيل: مكيةٌ إلَّا قولَه تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ...﴾ إلى آخرِ الآية؛ فإنَّها مدنيةٌ. وقيل: مكيةٌ إلا الآياتِ (١٢) و (١٧) و(١١٤) فمدنيةٌ.
يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٤١١)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٥٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٤٨).

(٤) ممَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: الفيروزابادي، والبقاعيُّ، ومحمد رشيد رضا. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٤٦)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ١٧٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٣).

(٥) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٤/ ١٨٤١).

٢- تثبيتُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وتَسليتُه[١].

موضوعاتُ السورة:

من أهمِّ الموضوعاتِ التي اشتملَتْ عليها سورةُ هودٍ:

١- التَّنويهُ بشأنِ القُرآنِ، وإقامةُ الأدلَّةِ على أنَّه مِن عندِ اللَّهِ.

٢- بيانُ أنَّ اللَّهَ سُبحانَه مُطَّلِعٌ على سَرائرِ الخَلقِ وضَمائرِهم، وأنَّه ضَمِنَ الأرزاقَ للمَخلوقاتِ.

٣- إثباتُ البَعثِ والجزاءِ.

٤- بيانُ أحوالِ النَّاسِ في الشِّدَّةِ والرَّخاءِ.

٥- تثبيتُ النبيِّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، وتَسليتُه عمَّا يقولُه المُشركونَ وما يَقترحونَه مِن آياتٍ.

٦- بيانُ حالِ فريقِ الكافرينَ، وفريقِ المؤمنينَ، وضربُ المَثَلِ لهما.

٧- ذِكرُ بَعضِ قَصصِ الأنبياءِ، وتفصيلُ بعضِ أحداثِها، وما جرَى لهم مع أقوامِهم، ومِن ذلك قِصَّةُ نوحٍ، وهودٍ، وصالحٍ، وإبراهيمَ، ولوطٍ، وشعيبٍ، وموسَى- عليهم صَلَواتُ اللَّهِ وسَلامُه.

٨- الإرشادُ إلى ما يُوجِبُ السَّعادةَ؛ كالاستقامةِ على الدِّينِ، وعَدَمِ الرُّكونِ إلى الظَّالمينَ، وإقامةِ الصَّلاةِ.

٩- بيانُ الفائدةِ مِنَ القَصَصِ، وذكْرِ أنباءِ الرُّسُلِ؛ مِن تثبيتِ قلبِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

١٠- خُتِمت السورةُ بالأمرِ بالتوكُّلِ على اللهِ في كلِّ حالٍ.

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٤/ ١٨٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣١٣).

الآيات (١-٥)

﴿ الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ
إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ٢ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ
أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ
٣ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٤ أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ
مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ
ٱلصُّدُورِ ٥ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فُصِّلَتْ﴾: أي: بُيِّنَتْ، وأصلُ (فصل): يدلُّ على تَمييزِ الشَّيءِ مِن الشَّيءِ، وإبانتِه عنه[1].

﴿لَدُنْ﴾: أي: عندَ، أو لدَى، لكن (لدن) أخصُّ مِن (عند)[2].

﴿يَثْنُونَ﴾: أي: يَطوونَ ويُخفونَ[3].

﴿يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾: أي: يَستَتِرونَ بها، ويُغَطُّونَ رُؤوسَهم، وأصلُ (غشي): يدلُّ على تَغطيةِ شيءٍ بشَيءٍ[4].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٠٥)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٤٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٠٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص:٧٣٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٨١)، ((الكليات)) للكفوي (١/ ٨٠١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣١٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٧).

المعنَى الإجماليُّ:

افتتَحَ اللهُ هذه السورةَ العظيمةَ بالحُروفِ المُقطَّعةِ؛ لبيانِ إعجازِ القُرآنِ، إذ إنَّها تشيرُ إلى الحالةِ التي كان عليها العربُ مِن العجزِ عن مُعارضتِه بالإتيانِ بِشيءٍ مِن مثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ من هذه الحروفِ العربيَّةِ التي يتحدَّثونَ بها، ثمَّ بيَّنَ تعالى أنَّ هذا الكتابَ الذي أنزَلَه على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أُحكِمَت آياتُه، فلا خَللَ فيها ولا باطِلَ، ثم بُيِّنَت بالأمرِ والنَّهيِ والأخبارِ الصادقةِ مِن عندِ اللهِ، الحكيم بتدبيرِ الأمورِ، الخبيرِ بما تؤولُ إليه عواقِبُها، وكان ذلك لأجلِ أن لا تعبُدوا إلَّا اللهَ وَحدَه لا شريكَ له، ثمَّ أمر اللهُ تعالى رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يقولَ للنَّاسِ: إنَّني لكم نذيرٌ مِن عندِ اللهِ أُنذِرُكم عقابَه، وبشيرٌ أُبشِّرُكم بثوابِه، واسألوه أن يغفِرَ لكم ذنوبَكم، ثمَّ ارجِعوا إليه نادمينَ، يُمَتِّعْكم في دُنياكم متاعًا حسنًا بالحياةِ الطيِّبةِ فيها إلى أن يحينَ أجَلُكم، ويُعطِ كلَّ ذي فضلٍ مِن قولٍ أو عمَلٍ جزاءَ فَضلِه كاملًا لا نقصَ فيه، وإن تُعرِضوا عمَّا أدعوكم إليه؛ فإنِّي أخشَى عليكم عذابَ يومٍ شَديدٍ، وهو يومُ القيامةِ، إلى اللهِ رُجوعُكم بعد موتِكم فاحذَروا عقابَه، وهو سُبحانه قادِرٌ على بَعثِكم وحَشرِكم وجَزائِكم، ألا إنَّ هؤلاء المُشركينَ يُضمِرونَ في صدورِهم الكُفرَ؛ ظنًّا منهم أنَّه يخفَى على الله ما تُضمِرُه نفوسُهم، ألا يَعلمونَ حينَ يُغطُّونَ أجسادَهم بثيابِهم أنَّ اللهَ لا يخفى عليه سِرُّهم وعلانيتُهم؟ إنَّه عليمٌ بكُلِّ ما تُكِنُّه صُدورُهم من النيَّاتِ والضَّمائرِ والسَّرائرِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾.

﴿الٓر﴾.

تقدَّمَ الكلامُ عن هذه الحروفِ المقطَّعةِ في تفسيرِ أوَّلِ سورةِ البَقَرةِ(١).

﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾.

أي: هذا القُرآنُ أتقَنَ اللهُ آياتِه فلا خللَ فيها ولا باطِلَ ولا تَناقُضَ، ثمَّ بُيِّنَتْ بالأخبارِ الصَّادقةِ، والأحكامِ العادلةِ مِن أوامِرَ ونواهٍ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥].

وقال سُبحانه: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٤-١١٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الكهف: ٥٤].

﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾.

أي: أُحكِمَت آياتُ القرآنِ ثمَّ فُصِّلَت من عند حكيمٍ في تدبيرِ الأشياءِ وتقديرِها، فيضعُ كُلَّ شيءٍ في مَوضِعِه اللَّائقِ به، خبيرٍ مُطَّلِعٍ على الظَّواهِرِ

(١) يُنظر ما تقدَّم مِن هذا التفسير (١/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٨، ٣١٠)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٣/ ٣٢٧، ٣٢٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢، ٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٠٦)، ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٨/ ٣٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٦).

والبواطِنِ، وعواقبِ الأمورِ وأحوالِ عبادِه وما يُصلِحُهم(١).

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ۝٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذا تفسيرٌ أو بيانٌ لأوَّلِ ما أُحكِمَت وفُصِّلَت به وله الآياتُ، وهو أن تَجعلوا عبادتَكم له وَحْدَه، لا تُشرِكوا به شيئًا(٢).

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

أي: أُحكِمَت آياتُ القُرآنِ ثم فُصِّلَت؛ لئلَّا تَعبُدوا- أيُّها النَّاسُ- إلَّا اللهَ وَحدَه، ولا تُشرِكوا به شيئًا(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣١١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٧).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٦٨، ١٦٩).

وممَّن اختار المعنى المذكورَ: الزجاج، وابنُ كثير، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

قال القرطبي: (قوله تعالى ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ قال الكسائي والفراء: أي: بألَّا، أي أُحكمتْ ثم فُصِّلت بألَّا تعبدوا إلا الله). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣).

وممَّن اختار هذا المعنى: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣١٢).

قال النحاسُ: (يجوزُ أن يكونَ المعنى بأن لا تعبدوا إلا الله، ويجوزُ أن يكونَ المعنى لئلَّا تعبدوا، ويجوزُ أن يكونَ المعنى أُمِرتم أن لا تَعْبدوا إلا الله). ((معاني القرآن)) (٣/ ٣٢٨).

﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾.

أي: قُلْ- يا مُحمَّدُ- للنَّاسِ: إنَّني لكم من عندِ اللهِ نذيرٌ؛ أُخَوِّفُكم عقابَه في الدُّنيا والآخرةِ، إن كَفَرتُم به وعَصَيْتُموه، وبشيرٌ؛ أُبَشِّرُكم بثوابِ اللهِ في الدُّنيا والآخرةِ، إن آمَنتُم به وأطعتُموه(١).

كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨].

﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها عطفٌ على جملةِ ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ وهو تفسيرٌ ثانٍ يَرجِعُ إلى ما في الجُملةِ الأُولَى مِن لفظِ التَّفصيلِ، فهذا ابتداءُ التَّفصيلِ؛ لأنَّه بيانٌ وإرشادٌ لوسائلِ نَبذِ عبادةِ ما عدا اللهَ تعالى، ودلائِلُ على ذلك وأمثالٌ ونُذُرٌ(٢).

﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾.

أي: وأنِ استَغفِروا ربَّكم- أيُّها النَّاسُ- فاطلُبوا منه سَترَ ذُنوبِكم، والتَّجاوُزَ عن مؤاخَذتِكم بها، ثمَّ توبوا إليه فيما تَستَقبِلونه من أعمارِكم، بالرُّجوعِ إلى عبادتِه وَحْدَه، وطاعتِه، وتَرْكِ مَعصِيتِه(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣١٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣١٢، ٣١٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣١٤، ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٦).

عن الأغرِّ المُزَنيِّ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يا أيُّها النَّاسُ توبوا إلى اللهِ؛ فإنِّي أتوبُ في اليومِ إليه مئةَ مَرَّةٍ))(١).

وعن شَدَّادِ بنِ أوسٍ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((سَيِّدُ الاستغفارِ أن تقولَ: اللهمَّ أنت ربِّي لا إلهَ إلَّا أنت، خَلقتَني وأنا عبدُك، وأنا على عَهدِك ووَعدِك ما استطعْتُ، أعوذُ بك مِن شَرِّ ما صنَعتُ، أبوءُ لك بنِعمَتِك عليَّ، وأبوءُ لك بذَنبي، فاغفِرْ لي؛ فإنَّه لا يَغفِرُ الذُّنوبَ إلَّا أنت، قال: مَن قالها مِن النَّهارِ مُوقِنًا بها، فمات مِن يَومِه قبل أن يُمسيَ، فهو من أهلِ الجنَّةِ، ومن قالَها من اللَّيلِ وهو موقِنٌ بها، فمات قبل أن يُصبِحَ، فهو من أهلِ الجنَّةِ))(٢).

﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

أي: فإنَّكم إن استَغفَرتُم ربَّكم ثمَّ تُبتُم إليه، يُمتِّعْكم في الدُّنيا بسَعةِ الرِّزقِ ورَغَدِ العَيشِ، وحصولِ العافيةِ إلى حُضورِ أجَلِكم(٣).

كما قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠].

وقال سُبحانه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ [الزمر: ١٠].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٢).

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣١٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٧٠).

﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾.

أي: ويُعطِ كلَّ ذي إحسانٍ وبرٍّ- بقولِه أو بفعلِه، أو قُوَّتِه أو مالِه، أو غيرِ ذلك- أجْرَه وثوابَه[١].

كما قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الشورى: ٢٣].

﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا انقضى التَّبشيرُ مجزومًا به، أتبَعَه التَّحذيرَ مخوفًا منه؛ لطفًا بالعبادِ، فقال تعالى[٢]:

﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٦).
قال الشوكاني: (قوله: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ أي: يُعطِ كلَّ ذي فضلٍ في الطَّاعةِ والعَمَلِ فَضلَه: أي: جزاءَ فَضلِه؛ إمَّا في الدُّنيا، أو في الآخرةِ، أو فيهما جميعًا، والضميرُ في ﴿فَضْلَهُ﴾ راجعٌ إلى كلِّ ذي فَضلٍ، وقيل: راجعٌ إلى اللهِ سبحانه، على معنى: أنَّ الله يعطي كلَّ مَن فَضَلتْ حَسَناتُه فَضْلَه الذي يتفَضَّلُ به على عبادِه). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٤٦).
ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٥٧).
وقال الواحديُّ: (وقال ابنُ عباس، وابنُ مسعودٍ، والكلبيُّ: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ﴾ كلَّ مَن فضَلت حسناتُه على سيئاتِه ﴿فَضْلَهُ﴾ يعني الجنةَ، وهي فضلُ الله، والكنايةُ في ﴿فَضْلَهُ﴾ على هذا تعودُ إلى الله تعالى ذكرُه. وهذا القولُ أحسنُ الأقوالِ وعليه المفسِّرون). ((البسيط)) (١١/ ٣٤٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٢٨).

أي: وإن تُعرِضوا عمَّا دَعَوتُكم إليه، من إخلاصِ العِبادةِ لله تعالى وَحدَه، والاستغفارِ والتَّوبةِ إليه؛ فإنِّي أخاف عليكم عذابَ يومٍ كَبيرٍ شأنُه، عظيمٍ هولُه(١).

﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا خوَّفَ تعالى المُنذَرينَ باليوم الكبيرِ، كانوا كأنَّهم قالوا: ما هذا اليومُ؟ فكان الجوابُ: يومَ يُرجعونَ إليه(٢).

﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾.

أي: إلى اللهِ وَحْدَه مَصيرُكم بعدَ مَوتِكم، فيُجازيكم بأعمالِكم، فاحذَروه(٣).

كما قال تعالى: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥].

﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: واللهُ على كلِّ شَيءٍ قادِرٌ، فلا يُعجِزُه بعثُ عبادِه بعدَ مَوتِهم، ومُجازاتُهم على أعمالِهم(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣١٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٦).

قال القرطبي: (﴿تَوَلَّوْا﴾ يجوزُ أن يكونَ ماضيًا، ويكونَ المعنى: وإنْ تَوَلَّوا فقُلْ لهم: إني أخافُ عليكم. ويجوزُ أن يكونَ مُستَقبلًا حُذِفَت منه إحدى التَّاءين، والمعنى: قل لهم: إن تَتَوَلَّوا فإنِّي أخافُ عليكم). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣١٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٦).

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ يعني: عن عبادتِه وطاعتِه ﴿فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾؛ بيَّن بعده أنَّ التَّولِّيَ عن ذلك باطنًا كالتَّولِّي عنه ظاهِرًا[1].

وأيضًا لَمَّا قال: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن عبادةِ اللهِ وطاعتِه؛ بيَّن بَعده صِفةَ ذلك التولِّي[2]، وكيف يتلقَّى فريقٌ منهم تلك الآياتِ التي أُحكمتْ، ثم فصِّلتْ مِن لدنْ حكيمٍ خبيرٍ، عندما يقدمُها لهم النذيرُ البشيرُ، وصوَّر الوضعَ الحسيَّ الذي يتخذونَه، والحركةَ الماديةَ المصاحبةَ له، وهي إحناءُ رؤوسِهم، وثني صدورِهم للتخفِّي، وكشَف عن العبثِ في تلك المحاولةِ، وبيَّن أن علمَ الله يتابعُهم في أخفَى أوضاعِهم[3].

وأيضًا فهذا الكلامَ قد نشأ عن قَولِه تعالى: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ لِمُناسبةِ أنَّ المرجوعَ إليه لَمَّا كان مَوصوفًا بتمامِ القُدرةِ على كلِّ شَيءٍ، هو أيضًا مَوصوفٌ بإحاطةِ عِلمِه بكُلِّ شَيءٍ؛ للتَّلازُمِ بين تمامِ القُدرةِ وتمامِ العِلمِ[4].

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ﴾.

أي: ألا إنَّ المُشركينَ يَعطِفونَ صُدورَهم ويَطوونَها على الشِّركِ والشَّكِّ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣١٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٠/ ٤٣٤).
(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٤/ ١٨٥٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٢٠).

في الحَقِّ، وعداوةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمؤمنينَ، يَظُنُّونَ- جَهلًا منهم باللهِ- أنَّ ثَنيَ صُدورِهم يَحجُبُ عن علمِ اللهِ ما يُخفونَه فيها(١)!

﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

أي: ألا إنَّ اللهَ- حين يتغطَّى المُشرِكونَ بثيابِهم- يَعلَمُ ما يُسرُّونَه وما يُعلِنونَه، من الأقوالِ والأفعالِ، لا يخفَى عليه شيءٌ مِن سرائرِ عبادِه وعلانيتِهم(٢).

﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

أي: إنَّ اللهَ عليمٌ بما تُخفي صدورُ عِبادِه، من العقائدِ والإراداتِ، والأفكارِ والوساوسِ مِن خيرٍ وشَرٍّ(٣).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣١٧، ٣٢٢)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٥).
قال ابن الجوزي: (قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ في سبب نزولها خمسة أقوال:... والثاني: أنَّها نزلت في ناسٍ كانوا يَسْتحيون أن يُفضوا إلى السماءِ في الخلاءِ ومجامعةِ النساءِ، فنزلتْ فيهم هذه الآيةُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٥٧).
وقال ابنُ كثير: (قال ابنُ عبَّاس: كانوا يكرهون أن يَستقبِلوا السماءَ بفروجِهم، وحالَ وقاعِهم، فأنزل الله هذه الآيةَ. رواه البخاريُّ [٤٦٨٢] مِن حديثِ ابنِ جريجٍ، عن محمدِ بنِ عبَّاد بنِ جعفرٍ؛ أنَّ ابنَ عباسٍ قرأ: «أَلَا إِنَّهُمْ تَثْنَوْنِي [أي: تستترُ] صُدُورُهُمْ»، فقلتُ: يا أبا عباسٍ، ما «تَثْنَوْنِي صُدُورُهمْ؟» قال: الرجلُ كان يجامعُ امرأتَه فيَستَحيي، أو يتخلَّى فيَستَحيي فنزلَتْ: «أَلَا إنَّهم تَثْنَوْنِي صُدُورُهُمْ». وفي لفظٍ آخرَ له [٤٦٨١]: قال ابنُ عباسٍ: أناسٌ كانوا يَستحيون أن يتخلَّوا، فيُفْضوا إلى السماءِ، وأن يجامعوا نساءَهم فيُفضوا إلى السماءِ، فنزَل ذلك فيهم). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٦).

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ أشارت الآيةُ إلى أنَّ الاستغفارَ والتَّوبةَ سببُ السَّعةِ، وأنَّ الإعراضَ سببُ الضِّيقِ، وقولُه: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ إشارةٌ إلى ثوابِ الآخرةِ، فالتَّوبةُ سببُ طِيبِ العَيشِ في الدُّنيا والآخرةِ[1].

٢- قال الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ * وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ كان مَضمونُ الرِّسالةِ أو مضمونُ آياتِ الكِتابِ المُحكَمةِ المُفَصَّلةِ- بعد توحيدِ العبادةِ لله، وإثباتِ الرِّسالةِ مِن عِندِه- الدَّعوةَ إلى الاستغفارِ من الشِّركِ، والتَّوبةِ، وهما بدءُ الطَّريقِ للعَمَلِ الصَّالحِ، والعملُ الصَّالحُ ليس مجَرَّد طِيبةٍ في النَّفسِ، وشعائِرَ مَفروضةٍ تُقامُ، إنَّما هو الإصلاحُ في الأرضِ بكُلِّ معاني الإصلاحِ، والجزاءُ المَشروطُ: ﴿يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾[2].

٣- قال الله تعالى: ﴿يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ سمَّى منافِعَ الدُّنيا بالمتاعِ؛ لأجلِ التَّنبيهِ على حَقارتِها وقِلَّتِها، ونبَّهَ على كونِها مُنقَضيةً بِقَولِه تعالى: ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ فصارت هذه الآيةُ دالَّةً على كَونِها حقيرةً خَسيسةً مُنقَضيةً[3]، ووصفُ المتاعِ بالحسَنِ إنَّما هو لطِيبِ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٤/ ١٨٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣١٦).

عَيشِ المؤمِنِ برَجائِه في اللهِ عزَّ وجلَّ، وفي ثَوابِه وفرَحِه بالتَّقرُّبِ إليه بِمَفروضاتِه، والسُّرورِ بمَواعيدِه، والكافِرُ ليس في شيءٍ مِن هذا[١].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ فيه إعلامٌ بتَفاوُتِ الدَّرَجاتِ في الآخرةِ، وترغيبٌ في العَمَلِ لها[٢].

٥- مِن المؤَثِّراتِ التي ترتجِفُ لها القلوبُ ما يُصَوِّرُه السِّياقُ من شهود الله سُبحانه واطِّلاعِه على ما يُخفي البَشَرُ مِن ذواتِ الصُّدورِ، بينما هم غارُّونَ لا يَستَشعِرونَ شهوده سبحانه، ولا عِلمَه المحيطَ، ولا يُحسُّونَ قَهرَه للخلائقِ وإحاطتَه بها جميعًا، وهم- الذين يُكَذِّبونَ- في قَبضتِه كسائِرِ الخلائقِ مِن حيثُ لا يَشعرونَ: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- دلَّ قولُه تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ على أنَّ القرآنَ كلامُ الله مُنَزَّلٌ غيرُ مخلوقٍ، منه بَدأ، فلم يبتدئْ مِن غيره مِن الموجوداتِ، وإليه يعودُ[٤].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ بناه للمَفعولِ؛ بيانًا لأنَّ إحكامَه أمرٌ قد فُرِغَ منه على أيسَرِ وَجهٍ عنده سبحانه، وأُتقِنَ إتقانًا لا مزيدَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (٢/ ٦٥١).

(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٤/ ١٨٤٨).

(٤) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ١٦٢).

عليه[١].

٣- العُمرُ يطولُ، والرِّزقُ يُبسَطُ بالتَّوبةِ، والاستغفارِ، والعَمَلِ الصَّالحِ؛ قال تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾، وَقَالَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((من أحبَّ أن يُبسَطَ له في رِزقِه، ويُنسأَ له في أثرِه[٢]؛ فَلْيَصِلْ رَحِمَه))[٣].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ فيه عُطِف الأمرُ بالتوبةِ على الاستغفارِ بحرفِ التراخي (ثمَّ)، وذلك لأنَّ مرتبةَ العَمَلِ متأخِّرةٌ عن مرتبةِ القَولِ؛ فكم من مستغفِرٍ، وهو مصِرٌّ على الذَّنبِ[٤]، فالتَّائِبُ يستغفِرُ أوَّلًا، ثمَّ يتوبُ ويتجرَّدُ من ذلك الذَّنبِ المُستغفَرِ منه[٥]، وأيضًا فإنَّه أشار بأداة التَّراخي إلى علوِّ رُتبةِ التَّوبةِ، وأنْ لا سبيلَ إلى طلَبِ الغُفرانِ إلَّا بها[٦].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ فيه سؤالٌ: أنَّنا نجدُ من لم يستغفِرِ اللهَ ولم يتُب يُمَتِّعه الله متاعًا حَسنًا إلى أجَلِه، أي: يَرزُقه ويوسِّع عليه، أو يُعمِّره، فما فائدةُ التقييدِ بالاستغفارِ والتَّوبةِ؟

الجواب: أنَّ المتاعَ الحَسَن- المقيَّد بالاستغفارِ والتَّوبةِ- هو الحياةُ في

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٢٥).
(٢) يُنسَأَ له في أثَرِه: أي: يُؤَخَّرَ له في أجَلِه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٦/ ١١٤).
(٣) يُنظر: ((مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية)) للبعلي (ص: ٢٤٩).
والحديثُ أخرجه البخاريُّ (٥٩٨٦)، ومسلم (٢٥٥٧) من حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه.
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٠/ ٤٣١).
(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٢٧).

الطاعةِ والقَناعةِ، ولا يكونانِ إلَّا للمُستغفِرِ التَّائبِ[١]، وإذا شاهَدْنا كثيرًا مِن الطيبينَ الصالحينَ، المستغفرينَ التائبينَ، مضيقًا عليهم في الرزقِ؛ فلنعلَمْ أنَّهم يُمتَّعونَ متاعًا حسنًا، حتَّى لو ضُيِّق عليهم في الرِّزقِ، فطمأنينةُ القلبِ إلى العاقبةِ، والاتصالُ باللهِ، والرجاءُ في نصرِه وفي إحسانِه وفضلِه؛ عوضٌ عن كثيرٍ، ومتاعٌ حسنٌ للإنسانِ الذي يرتفعُ درجةً عن الحسِّ الماديِّ الغليظِ[٢].

٦- قول الله تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا﴾ لَمَّا كان التَّمتيعُ- وهو المتاعُ البالغُ فيه حتى لا يكونَ فيه كدَرٌ- لا يكونُ إلَّا في الجنَّة، جعل المصدرَ ﴿مَتَاعًا﴾ ووَضَعَ موضِعَ (تَمتيعًا) هذا المصدرَ، ووَصفَه بِقَولِه: ﴿حَسَنًا﴾؛ ليدُلَّ على أنَّه أنهى ما يليقُ بهذه الدَّارِ[٣].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ في التَّعبيرِ عن العملِ بالفَضلِ إشارةٌ إلى أنَّه لم يقَعِ التكليفُ إلَّا بما في الوُسعِ؛ لأنَّ الفَضلَ في الأصلِ ما فضَلَ عن الإنسانِ من كريمِ الشَّمائلِ[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾

- قولُه: ﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ فيه طِباقٌ حَسَنٌ؛ لأنَّ معنى ﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾: أحكَمَها

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٥٧).
(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٤/ ١٨٥٤).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٢٧-٢٢٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٢٩).

حكيمٌ، وفصَّلَها- أي: بيَّنَها وشرَحها- خبيرٌ عالِمٌ بكَيفيَّاتِ الأمورِ، ولَفظةُ ﴿ثُمَّ﴾ جاءت لِتَرتيبِ الأخبارِ، لا لِتَرتيبِ الوقوعِ في الزَّمانِ[١].

- وفي بناءِ ﴿أُحْكِمَتْ﴾ و﴿وَفُصِّلَتْ﴾ للمفعولِ، ثمَّ إيرادِ الفاعلِ بعنوانِ الحِكمةِ البالغةِ والإحاطةِ بجَلائِلِها ودَقائِقِها مُنكَّرًا بالتَّنكيرِ التَّفخيميِّ ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾، ورَبطِهما به لا على النَّهجِ المعهودِ في إسنادِ الأفاعيلِ إلى فَواعِلِها، مع رِعايةِ حُسنِ الطِّباقِ- مِن الجَزالةِ، والدَّلالةِ على فَخامتِهما، وكونِهما على أكمَلِ ما يكونُ، ما لا يُكتَنَهُ كُنهُه[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾

- جُملةُ: ﴿إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ مُعترِضةٌ بينَ جُملةِ ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ وَجُمْلَةِ ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾، وهو اعتراضٌ للتَّحذيرِ مِن مُخالَفةِ النَّهيِ، والتَّحريضِ على امتِثالِه[٣].

- ولَمَّا كان إرسالُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رحمةً للعالَمينَ، قدَّمَ ضَميرَهم، فقال: ﴿لَكُمْ مِنْهُ﴾ أي: خاصَّةً[٤].

- قولُه: ﴿نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ فيه تقديمُ النَّذيرِ؛ لأنَّ الخطابَ وُجِّه أوَّلًا إلى المشركينَ[٥]، ولأنَّ التخويفَ أهمُّ إذ يحصُلُ به الانزجارُ[٦].

٣- قوله تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٧٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣١٦).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٢٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٢٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٢٨١).

أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾

– في قولِه: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ تقدَّم أمْرانِ بينَهما تراخٍ، ورُتِّب عليهما جَوابان بينَهما تَراخٍ؛ ترتَّب على الاستغفارِ التَّمتيعُ المتاعَ الحسَنَ في الدُّنيا، كما قال: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ الآياتِ [نوح: ١٠-١١]، وتَرتَّب على التَّوبةِ إيتاءُ الفضلِ في الآخِرةِ، وناسَب كلُّ جوابٍ لِما وقَع جوابًا له؛ لأنَّ الاستغفارَ مِن الذَّنبِ أوَّلُ حالِ الرَّاجعِ إلى اللهِ، فناسَب أن يُرتَّبَ عليه حالُ الدُّنيا، والتَّوبةُ هي المنجِّيةُ من النَّارِ، والَّتي تُدخِلُ الجنَّةَ، فناسَبَ أن يُرتَّب عليها حالُ الآخِرةِ[1].

– قولُه: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ فيه تأكيدُ جملةِ الجزاءِ: ﴿فَإِنِّي أَخَافُ﴾ بـ (إنَّ)، وبكونِ المسنَدِ إليه فيها (الضَّميرِ) اسمًا مُخبَرًا عنه بالجُملةِ الفِعليَّةِ ﴿أَخَافُ﴾؛ لِقَصدِ شدَّةِ تأكيدِ تَوقُّعِ العذابِ[2].

– قولُه: ﴿يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ فيه تنكيرُ (يومٍ)؛ للتَّهويلِ؛ لِتَذهَبَ نفوسُهم إلى الاحتمالِ الممكِنِ أن يَكونَ يومًا في الدُّنيا أو في الآخِرَةِ؛ لأنَّهم كانوا يُنكِرون الحشرَ، فتَخْويفُهم بعذابِ الدُّنيا أوقَعُ في نُفوسِهم، ووَصفُه بالكبيرِ؛ لزِيادةِ تَهويلِه[3].

– وقَدَّم بِشارةَ المُؤمِنينَ، وأخَّرَ إنذارَ الكافرينَ المُصرِّينَ؛ تأليفًا لهم، لأنَّ تواليَ الإنذارِ مُنفِّرٌ من الاستماعِ، مُغرٍ بالتَّولِّي والإعراضِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣١٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٩).

٤- قوله تعالى: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

- قولُه: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، جملةٌ في موضعِ التَّعليلِ للخَوفِ عليهم؛ فلذلك فُصِلَت، أي: لم تُعطَفْ بالواوِ على الَّتي قبلَها[1].

وتضَمَّنَت هذه الجملةُ تهديدًا عظيمًا، حيثُ صرَّح بالبعثِ، وذكَر أنَّ قُدرتَه عامَّةٌ لجميعِ ما يَشاءُ- ومِن ذلك البعثُ- فهو لا يُعجِزُه ما شاء مِن عَذابِهم[2].

- وفي قولِه: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ تقديمُ المجرورِ ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ على عامِلِه: ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾؛ للاهتمامِ والتَّقوِّي، وليس المرادُ منه الحَصْرَ؛ إذ هم لا يَحسَبون أنَّهم مُرجَعون بعدَ الموتِ، فضلًا عن أن يَرجِعوا إلى غيرِه[3].

- قولُه: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تقريرٌ لِما سلَف مِن كِبَرِ اليومِ، وتعليلٌ للخوفِ[4].

٥- قولُه تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

- قولُه: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾، فيه افتِتاحُ الكلامِ بحَرفِ التَّنبيهِ: ﴿أَلَا﴾؛ للاهتمامِ بمَضمونِه؛ لِغَرابةِ أمْرِهم المحكيِّ، وللعنايةِ بتَعليمِ إحاطةِ عِلمِ اللهِ تعالى[5]، وإشعارًا بأنَّ ما يَعقُبها مِن هَناتِهم[6] أمرٌ يَجِبُ أن يُفهَمَ، ويُتعجَّبَ منه؛ لأنه لَمَّا أُلقِيَ إليهم فحْوَى الكِتابِ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣١٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٢١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣١٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٨٤- ١٨٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٢٠).
(٦) هَنَات: أي: خِصالُ سُوءٍ. يُنظر: ((أساس البلاغة)) للزمخشري (٢/ ٣٨١)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٥/ ٣٦٦).

لِسانِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وسِيق إليهم ما يَنبغي أن يُساقَ من التَّرغيب والتَّرهيبِ، وقَعَ في ذِهنِ السَّامعِ أنَّهم بعدَ سماعِهم مِثلَ هذا المقالِ الذي تخِرُّ له صُمُّ الجبالِ؛ هل قابَلُوه بالإقبالِ أم تَمادَوْا فيما كانُوا عليهِ من الإعراضِ والضلالِ؛ فقيل لذلك: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ مُصدَّرًا بكلمة التَّنبيهِ[١]؛ ليتأمَّلَ السَّامعُ حالَ المشركينَ، وصِفتَهم عندَ تبليغِهم الدَّعوةَ، وإقامة الحجَّة، ويتصوَّرَها في صِفتِها الغَريبةِ الدَّالَّةِ على أعراضِ الحَيرةِ والعَجزِ، ومنتهى الجَهلِ[٢].

- وأيضًا في قولِه: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ...﴾ تمثيلٌ لحالةِ إضمارِهم العداوَةَ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في نُفوسِهم، وتمويهُ ذلك عليه وعلى المؤمِنين به بحالِ مَن يَثْني صَدرَه لِيُخفِيَه، ومَن يَستَغْشي ثوبَه على ما يُريد أن يَستُرَه به[٣]. وذلك على أحدِ أوجُهِ تأويلِ الآيةِ.

- قولُه: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ فيه تقديمُ السِّرِّ على العلَنِ؛ نعيًا عليهم مِن أوَّلِ الأمرِ ما صنَعوا، وإيذانًا بافتِضاحِهم ووقوعِ ما يَحذَرونه، وتحقيقًا للمُساواةِ بين العِلْمَين على أبلَغِ وجهٍ؛ فكأنَّ عِلمَه بما يُسِرُّونه أقدَمُ منه بما يُعلِنونه[٤].

- قولُه: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ تعليلٌ لما سبَق، وتقريرٌ له، وفي صِيغةِ الفَعيلِ ﴿عَلِيمٌ﴾، وتَحْليةِ ﴿الصُّدُورِ﴾ بلامِ الاستغراقِ، والتَّعبيرِ عن الضَّمائرِ بعنوانِ صاحِبيَّتِها- فالضمائرُ لا تكادُ تفارِقُ الصدورَ بل تلازِمُها وتصاحِبُها-:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٨٤- ١٨٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٢٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٨٦).

مِنَ البراعةِ ما لا يَصِفُه الواصِفون، كأنَّه قيلَ: إنَّه مبالِغٌ في الإحاطةِ بمُضمَراتِ جميعِ النَّاسِ، وأسرارِهم الخفيةِ المستكنَّةِ في صُدورِهم، بحيثُ لا تُفارِقُها أصلًا؛ فكيف يَخْفى عليه ما يُسِرُّون وما يُعلِنونَ[1]؟!

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٨٦) و (٢/ ١٠٢).

الآيتان (٦-٧)

﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُسْتَقَرَّهَا﴾: أي: مأواها الذي تأوي إليه ليلًا أو نهارًا، وأصلُ (قرر): يدلُّ على تمكُّنٍ[1].

﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾: أي: الموضِعَ الذي يُودِعُها، إمَّا بِمَوتِها فيه، أو دَفنِها، وأصلُ (ودع): يدُلُّ على تَركٍ وتخليةٍ[2].

المعنَى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى أنَّه ما من حيٍّ يدِبُّ على الأرضِ إلَّا على الله تعالى غِذاؤُه ومَعاشُه، فضلًا منه سبحانه، وكَرمًا، ويعلَمُ مكان استقرارِ كلِّ دابَّةٍ، والموضِعَ الذي تموتُ فيه، كلُّ ذلك مكتوبٌ في كتابٍ عندَ الله مُبينٍ عن جميعِ ذلك، ثمَّ يخبرُ سُبحانه أنَّه هو الذي خلقَ السَّمَواتِ والأرضَ في ستَّةِ أيَّام، وكان عرشُه على الماءِ قبل ذلك؛ لِيَختبرَ النَّاسَ أيُّهم أحسَنُ له طاعةً وعَملًا. وخاطَب نبيَّه قائلًا له: ولَئِن قلتَ- أيُّها الرَّسولُ- لهؤلاءِ المُشركينَ: إنَّكم مبعوثونَ أحياءً بعدَ مَوتِكم، لَسارعوا إلى التَّكذيبِ، وقالوا: ما هذا القرآنُ الذي تَتلوه علينا إلَّا سِحرٌ بيِّنٌ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٢٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٢٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٨).

تَفسيرُ الآيتَين:

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ في الآيةِ الأولى أنَّه يَعلَمُ ما يُسِرُّونَ وما يُعلِنونَ، أردَفَه بما يدُلُّ على كونِه تعالى عالِمًا بجميعِ المعلوماتِ، فبيَّن أنَّ رِزقَ كُلِّ حَيوانٍ إنَّما يَصِلُ إليه مِنَ الله تعالى، فلو لم يكُنْ عالِمًا بجميعِ المعلوماتِ لَما حصَلَت هذه الـمُهِمَّات[1].

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾.

أي: وما مِن دابةٍ تدبُّ على الأرض- مِن آدميٍّ، أو حيوانٍ؛ بريٍّ أو بحريٍّ، أو طائرٍ أو زاحفٍ، أو كبيرٍ أو صغيرٍ- إلَّا وقد تكفَّل اللهُ بقُوتِها وغِذائِها[2].

كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٦٠].

﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾.

أي: ويَعلَمُ اللهُ مَأوى كُلِّ دابَّةٍ في اللَّيلِ أو في النَّهارِ، ويَعلَمُ المَوضِعَ الذي

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٥١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٧).

قال الرازي في قوله: ﴿دَابَّةٍ﴾: (المرادُ بهذا اللفظِ في هذه الآيةِ الموضوعُ الأصليُّ اللغويُّ، فيدخلُ فيه جميعُ الحيواناتِ، وهذا متفقٌ عليه بينَ المفسِّرين). ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣١٨).

تموتُ فيه أو تُدفَنُ(١).

﴿كُلٌّ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾.

أي: كلُّ الدوابِّ مُثبَتٌ تفاصيلُ أحوالِها- في أرزاقِها ومستَقَرِّها ومُستودَعِها- في اللَّوحِ المَحفوظِ المُظهرِ لكلِّ ما قدَّره اللهُ لجَميعِ الخَلقِ بالتَّفصيلِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٨).

وهذا المعنى المذكور للمستقرِّ والمستودَعِ هو اختيارُ الفرَّاءِ، وابنِ جريرٍ، والقرطبي. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وأبو صالحٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٢٥)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٤/ ٤٠٢).

وقيل: مستقرُّها: منتهَى سيرِها في الأرضِ، ومستودُعها ما تأوي إليه مِن أوكارِها. وممن اختار هذا المعنى: ابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٥).

وقيل: مستقرُّ هذه الدوابِّ هو: المكانُ الذي تُقيم فيه وتستقرُّ، وتأوي إليه، ومستودعُها: المكانُ الذي تنتقلُ إليه في ذهابِها ومجيئِها، وعوارضِ أحوالِها. وممَّن قال بذلك: السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٧).

وقيل: مستقرُّها في الرحمِ، ومستودعُها في الصلبِ. وممن رُوِي عنه القولُ بذلك: مجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٧).

قال ابنُ جرير: (وهذا إخبارٌ منَ اللهِ جلَّ ثناؤه الذين كانوا يَثنونَ صُدورَهم ليَستَخفوا منه: أنَّه قد عَلِمَ الأشياءَ كُلَّها، وأثبَتَها في كتابٍ عِندَه قبل أن يخلُقَها ويُوجِدَها؛ يقولُ لهم تعالى ذِكرُه: فمن كان قد عَلِمَ ذلك منهم قبل أن يُوجِدَهم، فكيف يخفى عليه ما تنطوي عليه نفوسُهم إذا ثَنَوا به صدورَهم واستغشَوا عليه ثيابهم؟!). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٢٨).

وقال سُبحانه: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [النمل: ٧٥].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: سمعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((كتبَ اللهُ مَقاديرَ الخلائقِ قبلَ أن يخلُقَ السَّمواتِ والأرضَ بخَمسينَ ألفَ سنةٍ))(١).

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ الله تعالى لَمَّا أثبت بالدَّليلِ المتقَدِّمِ كَونَه عالِمًا بالمعلوماتِ؛ أثبَتَ بهذا الدَّليلِ كونَه تعالى قادرًا على كلِّ المَقدوراتِ(٢).

وأيضًا لَمَّا كان خلقُ ما منه الرِّزقُ أعظمَ مِن خَلقِ الرِّزقِ وتوزيعِه في شمولِ العِلمِ والقدرةِ معًا؛ تلاه بقَولِه تعالى(٣):

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣١٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٣٨).

أي: واللهُ هو الذي خلق السَّمواتِ السَّبعَ والأرضَ في ستَّةِ أيامٍ(١).

﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾.

أي: وكان عَرشُ اللهِ على الماءِ قبل أن يخلُقَ السَّمواتِ والأرضَ(٢).

عن عِمرانَ بنِ حُصَينٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((دخلتُ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وعقَلتُ ناقتي بالبابِ، فأتاه ناسٌ مِن بني تميمٍ، فقال: اقبَلوا البُشرى يا بني تميمٍ، قالوا: قد بشَّرْتَنا فأعْطِنا- مرَّتينِ- ثمَّ دخل عليه ناسٌ مِن أهلِ اليَمَنِ، فقال: اقبَلوا البُشرى يا أهلَ اليَمَنِ إذ لم يَقبَلْها بنو تميمٍ، قالوا: قد قَبِلْنا يا رسولَ اللهِ، قالوا: جِئناك نسألُك عن هذا الأمرِ؟ قال: كان اللهُ ولم يكنْ شَيءٌ غيرُه، وكان عرشُه على الماءِ، وكتب في الذِّكرِ كلَّ شَيءٍ، وخلَقَ السَّمواتِ والأرضَ))(٣).

وعن عبدِ الله بنِ عمرِو بنِ العاصِ رضي الله عنهما، قال: سمعتُ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم يقولُ: ((كتَبَ الله مقاديرَ الخلائقِ قبلَ أن يخلقَ السمواتِ والأرضَ بخمسينَ ألفَ سنةٍ، قال: وعرشُه على الماءِ))(٤).

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

أي: خلقَ اللهُ السَّمواتِ والأرضَ، وخَلقَكم- أيُّها النَّاسُ- ليَختبِرَكم، فينظُرَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٧).

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذِكرُه: الله الذي إليه مَرجِعُكم أيُّها النَّاسُ جميعًا ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ يقول: أفيَعجزُ مَن خلقَ ذلك من غيرِ شَيءٍ أن يُعيدَكم أحياءً بعد أن يُميتَكم؟). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٦)، ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٢٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٤٧).

(٣) أخرجه البخاري (٣١٩١).

(٤) أخرجه مسلم (٢٦٥٣).

أيُّكم أحسَنُ طاعةً للهِ بالإخلاصِ له، واتِّباعِ شَريعتِه[١].

كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

مناسبتُها لما قبلَها:

ولما كان الابتلاءُ يتضمَّنُ حديثَ البعثِ؛ أتبَع ذلك بذكرِه[٢].

القراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التفسيرِ:

في قوله تعالى: ﴿سِحْرٌ﴾ قراءتان:

١- قراءةُ ﴿سَاحِرٌ﴾ على أنَّ مرادَهم بذلك: محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم[٣].

٢- قراءةُ ﴿سِحْرٌ﴾ على أنَّ مرادَهم بذلك: القرآنُ الكريمُ[٤].

﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

أي: ولَئِنْ قُلتَ- يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: إنَّ اللهَ سَيبعَثُكم يومَ القيامةِ أحياءً بعد مَوتِكم، فتَلَوتَ عليهم القرآنَ بذلك؛ لَيقولُنَّ تكذيبًا وعنادًا: ما هذا القرآنُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٣٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٧، ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٧).
(٢) يُنظر: ((فتح البيان)) للقنوجي (٦/ ١٤٥).
(٣) قرأ بها: حمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٥٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٣٦).
(٤) قرأ بها: الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٥٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٣٦).

الذي تَتلوه علينا إلَّا سِحرٌ واضِحٌ، يَظهَرُ لِمَن يستمِعُه أنَّه سِحرٌ[١]!!

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ ثمَّ بيَّن الحكمةَ، فقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، وقال تعالى في أولِ سورةِ الكهفِ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ ثمَّ بيَّن الحكمةَ، فقال: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]، وقال في أولِ سورةِ الملك: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾، ثمَّ بيَّن الحكمةَ، فقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] ولم يقُلْ: أكثرُ عملًا، فإذا عَرَف العبدُ أنَّه خُلِق لأجلِ أن يُختبَرَ في إحسانِ العملِ كان حريصًا على الحالةِ التي ينجحُ بها في هذا الاختبارِ؛ لأنَّ اختبارَ ربِّ العالمينَ يومَ القيامةِ مَنْ لم ينجَحْ فيه جُرَّ إلى النَّارِ، فعدمُ النجاحِ فيه مهلكةٌ[٢]، ففي ذلك الحثُّ على محاسنِ الأعمالِ، والترقِّي دائمًا في مراتبِ الكمالِ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٣٥، ٣٣٦)، ((أضواء القرآن)) للشنقيطي (٧/ ٢١٤).
وممَّن اختار عودَ اسمِ الإشارةِ في قَولِه تعالى: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ﴾ على القرآنِ: ابن جرير، والشنقيطي. يُنظر: المصدران السابقان.
وبعضُ المفسِّرينَ جعل اسمَ الإشارةِ عائدًا على القَولِ بالبعثِ بعد الموتِ عُمومًا دون تَخصيصِ ذلك بآياتِ القُرآنِ، ومنهم: القرطبي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٩).
وقال ابن عاشور: (وَقَرَأَ حَمْزَةُ، وَالْكِسَائِيُّ، وَخَلَفٌ: ﴿إِلَّا سَاحِرٌ﴾ فالإشارةُ بقولِه هذا إلى الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم المفهومِ مِن ضميرِ ﴿قُلْتَ﴾ أي: أنَّه يقولُ كلامًا يَسْحَرُنا بذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٩).
قال ابنُ كثيرٍ: (وقولُهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي: يقولونَ كفرًا وعنادًا: ما نصدِّقُك على وقوعِ البعثِ، وما يَذكرُ ذلك إلا مَن سَحرتَه، فهو يتَّبِعُك على ما تقولُ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٨).
(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٠٠).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٤٠).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ مِن حِكمةِ خَلقِ الأرضِ صدورَ الأعمالِ الفاضلةِ مِن أشرَفِ المخلوقاتِ فيها، ثمَّ إنَّ ذلك يقتضي الجزاءَ على الأعمالِ؛ إكمالًا لمُقتضى الحِكمةِ؛ ولذلك أُعقِبَت بقَولِه تعالى: ﴿وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ﴾[١].

٣- قال تعالى ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ قال الفضيلُ بنُ عياضٍ: أخلصُه وأصوبُه. والخالصُ أن يكونَ لله، والصوابُ أن يكونَ على السنةِ، وهما أصلانِ عظيمانِ: أحدُهما: أن لا نعبدَ إلا الله، والثاني: أن لا نعبدَه إلا بما شرَع، لا نعبدُه بعبادةٍ مبتدعةٍ، وهذان الأصلانِ هما تحقيقُ شهادةِ أن لا إلهَ إلا الله، وأنَّ محمدًا رسولُ الله[٢].

٤- قال تعالى ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ والعملُ الأحسنُ هو الأخلصُ والأصوبُ، وهو الموافقُ لمرضاتِه ومحبتِه، دونَ الأكثرِ الخالي مِن ذلك، فهو سبحانَه وتعالى يحبُّ أن يتعبدَ له بالأرضَى له، وإن كان قليلًا دونَ الأكثرِ الذي لا يُرضيه، والأكثرِ الذي غيرُه أرضَى له منه، ولهذا يكونُ العملانِ في الصورةِ واحدًا، وبينَهما في الفضلِ، بل بينَ قليلِ أحدِهما وكثيرِ الآخرِ في الفضلِ أعظمُ مما بينَ السماءِ والأرضِ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾لم يقُل (على الأرضِ)، مع أنَّه أنسَبُ بتَفسيرِ الدابَّةِ لغةً- لأنَّها ما يدِبُّ على الأرضِ-

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٨).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٣٣٣).
(٣) يُنظر: ((المنار المنيف)) لابن القيم (ص: ٣١).

لأنَّ (في) أعمُّ مِن (على)؛ لأنَّها تتناوَلُ من الدوابِّ ما على ظَهرِ الأرضِ، وما في بَطنِها[١].

٢- الرِّزقُ مَقسومٌ لكلِّ أحَدٍ مِن بَرٍّ وفاجرٍ، ومؤمنٍ وكافرٍ؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ هذا مع ضَعفِ كَثيرٍ مِن الدوابِّ، وعَجزِها عن السَّعيِ في طلَبِ الرِّزقِ؛ قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ [العنكبوت: ٦٠] فما دام العبدُ حيًّا، فرِزقُه على اللهِ، وقد يُيَسِّرُه الله له بكَسبٍ وبِغَيرِ كَسبٍ[٢].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ ظاهِرٌ في الوجوبِ، بينما رِزقُ اللهِ لكُلِّ ما دبَّ على الأرضِ هو تفَضُّلٌ، وللعُلماءِ في التَّوفيقِ بين ذلك وجوهٌ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّه لَمَّا ضَمِنَ تعالى أن يتفضَّلَ به عليهم، أبرَزَه في حيِّزِ الوُجوبِ[٣]. فكأنَّه لضمانتِه، وعدمِ تخلُّفِه كأنَّه واجِبٌ عليه.

الوجه الثاني: أنَّ المرادَ بالوجوبِ هنا وجوبُ اختيارٍ، لا وجوبُ إلزامٍ، كقولِ الإنسانِ لصاحِبِه: حقُّك واجِبٌ عليَّ.

الوجه الثالث: أنَّ (على) بمعنى (مِن)، كما في قَولِه تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾[٤] [المطففين: ٢].

٤- قولُ الله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ رُدَّ به على المُعتزلةِ في قولِهم: (إنَّ الحرامَ ليس برزقٍ)؛ لأنَّه يلزمُ عليه أنَّ من تغذَّى

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٥٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٢٤).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٥٨-٢٥٩).

طولَ عُمُرِه بالحرامِ لم يرزُقْه اللهُ، وهو خلافُ ما في الآيةِ؛ لأنَّه تعالى لا يترُكُ ما أخبَرَ بأنَّه عليه[1].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فيه سؤالٌ: كيف قيل: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ وأعمالُ المؤمنينَ هي التي تتفاوتُ إلى حسَنٍ وأحسَنَ، فأمَّا أعمالُ المؤمنينَ والكافرينَ فتفاوُتُها إلى حَسَنٍ وقبيحٍ؟

الجوابُ: أنَّ الذين هم أحسَنُ عملًا هم المتَّقونَ، وهم الذين استبَقوا إلى تحصيلِ ما هو مقصودُ اللهِ مِن عبادِه، فخَصَّهم بالذِّكرِ، واطَّرَح ذِكرَ مَن وراءَهم؛ تشريفًا لهم، وتنبيهًا على مكانِهم منه، وليكون ذلك تيقُّظًا للسَّامعينَ، وتَرغيبًا في حيازةِ فَضلِهم[2]، وأيضًا للتَّحريضِ على أحاسِنِ المَحاسنِ[3].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ فيه أنَّ العَرشَ ذاتٌ مَخلوقةٌ فوق السَّمَواتِ، وذلك يقتضي أنَّ العَرشَ مخلوقٌ قبل السَّمَواتِ والأرضِ، وكذلك الماءُ[4] فالله تعالى أخبَر أنَّ عرشَه كان على الماءِ قبلَ خلقِ السمواتِ والأرضِ، وثَبَت ذلك في ((صحيحِ البخاريِّ))[5] عن عِمرانَ بنِ حُصينٍ، عن النَّبيِّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم قال: ((كان

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥٠).
وينقسمُ الرزقُ إلى قسمينِ: عامٌّ وخاصٌّ، فالعامُّ: كلُّ ما ينتفعُ به البدنُ، سواءٌ كان حلالًا أو حرامًا، وسواءٌ كان المرزوقُ مسلمًا أو كافرًا، أمَّا الرزقُ الخاصُّ، فهو ما يقومُ به الدينُ مِن العلمِ النافعِ، والعملِ الصالحِ، والرزقِ الحلالِ المعينِ على طاعةِ الله. يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ١٦٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٢٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٢٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٧).
(٥) ((صحيح البخاري)) (٧٤١٨).

اللَّهُ ولا شيءَ غيرُه، وكان عرشُه على الماءِ، وكَتَب في الذِّكرِ كلَّ شيءٍ، ثُمَّ خَلَق السَّمواتِ والأرضَ))(١).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ دلالةٌ على أنَّ اللهَ تعالى خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ لِيبتليَ عبادَه بأمْرِه ونَهيِه، وهذا مِن الحَقِّ الذي خلَقَ به خلْقَه(٢).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ قال أهل المعاني: وفي وقوفِ العَرشِ على الماءِ- والماءُ غيرُ قرارٍ- أعظَمُ الاعتبارِ لأهلِ الأفكارِ(٣).

بلاغةُ الآيتين:

١- قولُه: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ فيه زيادةُ قولِه: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ تأكيدًا لمعنَى ﴿دَابَّةٍ﴾؛ للتَّنصيصِ على أنَّ العُمومَ مُستَعملٌ في حقيقتِه(٤).

- وتقديمُ ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ قبْلَ ﴿رِزْقُهَا﴾؛ لإفادةِ القَصْرِ؛ أي: على اللهِ لا على

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ١٤٥).
قال ابنُ حجر: (وقد وقَع... بلفظِ: «كان عرشُه على الماءِ، ثمَّ خلَق القلمَ، فقال: اكتبْ ما هو كائنٌ ثم خلَق السمواتِ والأرضَ وما فيهنَّ»، فصرَّح بترتيبِ المخلوقاتِ بعدَ الماءِ والعرشِ... ولم يقعْ بلفظِ: «ثم» إلَّا في ذكرِ خلقِ السمواتِ والأرضِ، وقد روَى مسلمٌ مِن حديثِ عبدِ الله بنِ عمرٍو مرفوعًا: «أنَّ الله قدَّر مقاديرَ الخلائقِ قبلَ أن يخلقَ السمواتِ والأرضَ بخمسينَ ألفَ سنةٍ، وكان عرشُه على الماءِ»، وهذا الحديثُ يؤيدُ روايةَ مَن روَى: «ثمَّ خلَق السمواتِ والأرضَ» باللفظِ الدالِّ على الترتيبِ). ((فتح الباري)) (٦/ ٢٨٩).
(٢) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٥).
(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٥٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٥).

غيرِه، وأيضًا التَّركيبُ ﴿عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ يُفيدُ معنى أنَّ اللهَ تكفَّل برِزْقِها ولم يُهْمِلْه[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾

- قَولُ الله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: أنَّ الحِكمةَ في خَلقِ ذلك أنَّه يَخْتَبِركم، ودلَّ على شِدَّةِ الاهتمامِ بذلك بسَوقِه مَساقَ الاستفهامِ في قَولِه: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[٢].

- قولُه: ﴿وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا..﴾ فيه تأكيدُ الجملةِ باللَّام الموطِّئةِ للقَسَمِ في ﴿وَلَئِنْ﴾ وما يَتْبَعُه مِن نونِ التوَّكيدِ في ﴿لَيَقُولَنَّ﴾؛ لِتَنزيلِ السَّامعِ مَنزِلةَ المتردِّدِ في صُدورِ هذا القولِ مِنهم؛ لغَرابةِ صُدورِه مِن العاقلِ؛ فيكونُ التَّأكيدُ القويُّ والتَّنزيلُ مُستعمَلًا في التَّعجُّبِ مِن حالِ الَّذين كفَروا أن يُحيلوا إعادةَ الخلقَ، وقد شاهَدوا آثارَ بدْءِ الخلقِ، وهو أعظَمُ وأبدَعُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٥-٦)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري- مع الحاشية)) (٢/ ٣٧٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٩).

الآيات (٨-١١)

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ۚ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿أُمَّةٍ﴾: الأُمَّةُ: الحينُ والزمانُ[١].

﴿يَحْبِسُهُ﴾: أي: يَمنَعُه أو يؤخِّرُه، وأصلُ (حبس): يدلُّ على المَنعِ[٢].

﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾: أي: نزل بهم وأصابَهم، وأصلُ (حيق): يدلُّ على نزولِ الشَّيءِ بالشَّيءِ[٣].

المعنَى الإجماليُّ:

يُقسِمُ الله تعالى قائلًا: ولئن أخَّرْنا عن هؤلاء المُشرِكينَ العذابَ إلى أجَلٍ معلومٍ فاستبطَؤوه، ليقولُنَّ استهزاءً وتكذيبًا: أيُّ شيءٍ يمنَعُ هذا العذابَ مِن الوقوعِ إن كان حقًّا؟ ألا يومَ يأتيهم ذلك العذابُ لا يستطيعُ أن يَصرِفَه عنهم صارِفٌ، ولا يَدفَعَه دافِعٌ، وأحاط بهم مِن كُلِّ جانبٍ العذابُ الذي كانوا يَستَهزِئونَ به قبلَ وقوعِه بهم، ولَئِن أعطَينا الإنسانَ مِنَّا نِعمةً مِن صِحَّةٍ وأمنٍ وغَيرِهما، ثمَّ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الطبري)) (١٢/ ٣٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٦).

سَلَبْناها منه؛ إنَّه لَشديدُ اليأسِ مِن رَحمةِ الله، جَحودٌ بالنِّعَمِ التي أنعَمَ اللهُ بها عليه، ولَئِن بسَطْنا للإنسانِ في دُنياه، ووسَّعْنا عليه في رِزقِه بعد ضِيقٍ مِن العَيشِ، ليقولَنَّ عند ذلك: ذهب الضِّيقُ عني، وزالت الشَّدائِدُ، إنَّه لشديدُ الفَرحِ بالنِّعَمِ، مُبالِغٌ في الفَخرِ والتَّعالي على النَّاسِ بها، لكنِ الذين صبَروا وعَمِلوا الصَّالحاتِ شُكرًا لله على نِعَمِه، هؤلاء لهم مغفرةٌ لذُنوبِهم، وأجرٌ كبيرٌ في الآخرةِ.

تَفسيرُ الآيات:

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا كان ما تقدَّم عن المُشركينَ مِن الأفعالِ، ومضَى مِن الأقوالِ مَظِنَّةً لمُعاجلتِهم بالأخذِ، وكان الواقعُ أنَّه تعالى يعامِلُهم بالإمهالِ فَضلًا منه وكَرَمًا- حكَى مقالتَهم في مُقابَلةِ رَحمتِه تعالى لهم(١).

وأيضًا فمُناسبةُ هذه الآيةِ لِما قَبلَها: أنَّ في كِلتَيهما وَصْفَ فَنٍّ مِن أفانينِ عِنادِ المُشرِكينَ وتهَكُّمِهم بالدَّعوةِ الإسلاميَّةِ؛ فإذا خبَّرهم الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالبَعثِ، وأنَّ شِركَهم سبَبٌ لتَعذيبِهم، جعلوا كلامَه سِحرًا، وإذا أنذَرَهم بعقوبةِ العَذابِ على الإشراكِ، استعَجلوه، فإذا تأخَّر عنهم إلى أجَلٍ اقتَضَتْه الحِكمةُ الرَّبانيَّةُ، استفهَموا عن سبَبِ حَبسِه عنهم استِفهامَ تهكُّمٍ؛ ظنًّا أنَّ تأخُّرَه عَجزٌ(٢).

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ﴾.

أي: ولَئِنْ أخَّرْنا عن هؤلاءِ المُشرِكينَ- يا مُحمَّدُ- العذابَ إلى مُدَّةٍ معلومةٍ،

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٤١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٠).

فلم نُعجِّلْه لهم؛ لَيقولُنَّ تكذيبًا واستهزاءً: أيُّ شيءٍ يحبِسُ عنَّا نزولَ العذابِ[١]؟!

﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾.

أي: ألَا يومَ يأتيهم ذلك العذابُ- الذي كذَّبوا به- لا يَرُدُّه شَيءٌ، فلا يَصرِفُه عنهم صارِفٌ، ولا يدفَعُه عنهم دافعٌ[٢].

﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

أي: ونزل بالمُشرِكينَ وأحاط بهم العذابُ الذي كانوا يستهزِئونَ به، ويَستعجِلونَه[٣].

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ هذا وما بَعدَه بيانٌ لحالِ الإنسانِ في اختبارِ اللهِ له في قَولِه تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[٤] [هود: ٧].

وأيضًا فإنَّ هذه الآيةَ عَطفٌ على جملةِ ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾؛ فإنَّه لَمَّا ذكرَ تعالى عن المُشرِكينَ أنَّ ما هم فيه متاعٌ إلى أجَلٍ مَعلوم عنده، وأنَّهم بَطِروا نعمةَ التَّمتيعِ، فسَخِروا بتأخيرِ العذابِ، فبَيَّنَت هذه الآيةُ أنَّ أهلَ الضَّلالةِ راسِخونَ في ذلك؛ لأنَّهم لا يفكِّرونَ في غيرِ اللَّذَّاتِ الدُّنيويَّةِ، فتجري انفعالاتُهم على حسَبِ ذلك دونَ رجاءٍ لتغيُّرِ الحالِ، ولا يتفكَّرونَ في أسبابِ النَّعيمِ والبُؤسِ، وتصَرُّفاتِ خالقِ النَّاسِ، ومُقَدِّرِ أحوالِهم، ولا يتَّعِظونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٣٦، ٣٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩، ١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٤).

بتقَلُّباتِ أحوالِ الأمَمِ، فشأنُ أهلِ الضَّلالةِ أنَّهم إن حلَّت بهم الضَّراءُ بعد النِّعمةِ ملَكَهم اليأسُ مِن الخيرِ، ونَسُوا النِّعمةَ فجَحَدوها وكَفَروا مُنعِمَها، فإنَّ تأخيرَ العذابِ رَحمةٌ، وإتيانَ العذابِ نَزعٌ لتلك الرَّحمةِ(١).

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (٩)﴾.

أي: ولَئِن أعطَينا الإنسانَ(٢) منَّا نِعمةً- كالعافيةِ وسَعةِ الرِّزقِ وطِيبِ العَيشِ- فوجدَ لذَّتَها، ثمَّ سَلَبْناها منه؛ يظلُّ شديدَ اليأسِ مِن حصولِ الخَيرِ له في المُستقبَلِ، جَحُودًا نِعَمَ اللهِ عليه، قَلِيلَ الشُّكرِ لربِّه(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم: ٣٦].

وقال سُبحانه: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ [الشورى: ٤٨].

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ هذه الجُملةَ تَتميمٌ للتي قَبلَها؛ لأنَّها حكَت حالةً ضِدَّ الحالةِ في التي قَبلَها(٤).

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٢).

(٢) المرادُ بالإنسانِ هنا جنسُ الإنسانِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٢٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١)، ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (٢/ ٣٥٨)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٢/ ١٢٠-١٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣).

أي: ولَئِن أذَقْنا الإنسانَ نِعمةً بعدَ ضيقٍ كان فيه، ليقولَنَّ غِرَّةً باللهِ عزَّ وجلَّ، وجرأةً عليه، وجهلًا بإنعامِه: ذهبَ الضِّيقُ والشِّدَّةُ والمكروهُ عنِّي، ولن يُصيبَني بعد ذلك سوءٌ[1]!!

كما قال الله سبحانَه: ﴿لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ * وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٤٩-٥١].

﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾.

أي: إنَّه لشديدُ الفرحِ بنِعَمِ اللهِ عليه، فخورٌ على غيرِه بها، ولا يشكُرُ اللهَ عليها، وينسى تقلُّباتِ أحوالِ الدُّنيا ونكَدَها، وينسى طلَبَ النَّعيمِ الباقي، والسُّرورِ الدَّائمِ في الآخرةِ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا﴾ [الروم: ٣٦].

وقال سُبحانه: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾ [الشورى: ٤٨].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ١١﴾.

أي: إلَّا[3] الذين صَبَروا عند الضَّرَّاءِ، ونزولِ الشدائدِ والمكارِه، وعَمِلوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٤١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١)، ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (٢/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٨).

(٣) الاستثناءُ في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ استثناءٌ متصلٌ، وقيل: منقطعٌ. وهذا بناءً على =

الصَّالحاتِ فِي السرَّاءِ، وحلولِ الرَّخاءِ والعافيةِ؛ شكرًا لله على نعمائِه، أولئك لهم مَغفِرةٌ من اللهِ لِذُنوبِهم، ولهم جزاءٌ عظيمٌ[١].

كما قال سُبحانه: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣].

وعن أبي سعيدٍ الخُدريِّ، وأبي هريرةَ رَضِيَ الله عنهما، عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((ما يُصيبُ المُسلِمَ مِن نَصَبٍ ولا وَصَبٍ[٢]، ولا هَمٍّ ولا حَزَنٍ، ولا أذًى ولا غَمٍّ، حتى الشَّوكةُ يُشاكُها، إلَّا كفَّرَ اللهُ بها مِن خَطاياه))[٣].

وعن صُهَيبٍ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((عجبًا لأمرِ المُؤمِنِ، إنَّ أمْرَه كُلَّه خَيرٌ، وليس ذاك لأحدٍ إلَّا للمؤمِنِ؛ إن أصابَته سرَّاءُ شكَرَ فكان خيرًا له، وإن أصابَته ضرَّاءُ صبَرَ فكان خيرًا له))[٤].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ لفظُ الإذاقةِ والذَّوقِ يفيدُ أقَلَّ ما يوجَدُ به الطَّعمُ، فكان المرادُ أنَّ الإنسانَ بوِجدانِ أقَلِّ القليلِ مِن الخيراتِ العاجلةِ يقَعُ في التمَرُّدِ والطُّغيانِ، وبإدراكِ أقَلِّ القليلِ مِن المِحنةِ والبَليَّةِ يقَعُ في اليأسِ والقُنوطِ والكُفرانِ، فالدُّنيا

= كونِ المرادِ بالإنسانِ في قولِه: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ الإنسانَ الكافرَ، أو إنسانًا معينًا. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٩).

(٢) الوصَبُ: الألمُ اللازِمُ، والسَّقَمُ الدَّائِمُ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٣/ ١١٢٨).

(٣) أخرجه البخاري (٥٦٤١) واللفظ له، ومسلم (٢٥٧٣).

(٤) أخرجه مسلم (٢٩٩٩).

في نَفسِها قليلةٌ، والحاصِلُ منها للإنسانِ الواحدِ قَليلٌ، والإذاقةُ من ذلك المقدارِ خَيرٌ قليلٌ، ثمَّ إنَّه في سرعةِ الزَّوالِ يُشبِهُ أحلامَ النَّائمينَ، وخَيالاتِ المُوَسوِسينَ، فهذه الإذاقةُ مِن قليلٍ، ومع ذلك فإنَّ الإنسانَ لا طاقةَ له بتحَمُّلِها، ولا صَبرَ له على الإتيانِ بالطَّريقِ الحَسَنِ معها(١).

٢- قال الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ بيَّن سُبحانه وتعالى في هذه الآيةِ أنَّ أحوالَ الدُّنيا غيرُ باقيةٍ، بل هي أبدًا في التغَيُّرِ والزَّوالِ والتحوُّلِ والانتقالِ؛ فإنَّ الإنسانَ إمَّا أن يتحوَّلَ مِن النِّعمةِ إلى المِحنة، ومن اللَّذَّاتِ إلى الآفاتِ كالقِسمِ الأوَّلِ، وإمَّا أن يكونَ بالعَكسِ مِن ذلك، وهو أن ينتَقِلَ مِن المكروهِ إلى المَحبوبِ كالقِسمِ الثَّاني(٢).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- اليومُ قد يعبَّرُ به عن الوقتِ قَلَّ أو كثُرَ، كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ والمرادُ: وقتُ مَجيءِ العذابِ، وقد يكونُ ليلًا ويكون نهارًا، وقد يستمِرُّ وقد لا يستَمِرُّ(٣).

٢- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ لم يُسنِدِ (المسَّ) إليه سبحانَه، كما فعل في (النَّعماءِ)؛ تعليمًا للأدبِ(٤). وفيه وجهٌ آخَرُ: أنَّ في اختلافِ الفِعلينِ- وهما أذقناه ومَسَّتْه- من حيث الإسنادُ إليه تعالى في الأوَّلِ، وإلى الضَّرَّاء في الثَّاني؛ نكتةً: وهي أنَّ النِّعمةَ صادرةٌ مِن اللهِ تعالى تفضُّلًا منه، وأمَّا الضَّررُ فالسَّببُ فيه هو العبدُ باجتلابِه إيَّاه

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٢٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٤٧).
(٣) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٨٣)، ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ٥٢٠).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٤٣).

بالمعاصي غالبًا، ولا ينافي ذلك قولَه تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨]؛ فإنَّ الكُلَّ منه إيجادًا، غيرَ أنَّ الحَسَنةَ إحسانٌ وامتحانٌ، والسَّيِّئةَ مُجازاةٌ وانتقامٌ(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾

- قولُه: ﴿مَا يَحْبِسُهُ﴾ استفهامٌ، غرَضُهم منه إنكارُ المجيءِ والحبْسِ رأسًا، لا الاعترافُ به والاستفسارُ عن حابِسِه؛ كأنَّهم يَقولونَه بطريقِ الاستعجالِ استِهْزاءً(٢).

- قولُه: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ واقعٌ موقِعَ الجوابِ عن كلامِهم؛ إذ يَقولون: ما يَحبِسُ عنَّا العذابَ؟ فلذلك فُصِلَتْ- لم تُعطَف- كما تُفصَلُ المحاوَرةُ، وفيه تهديدٌ وتخويفٌ بأنَّه لا يُصرَفُ عنهم، ولكنَّه مؤخَّرٌ(٣).

- وافتُتِح الكلامُ بحرفِ التَّنبيهِ ﴿أَلَا﴾؛ للاهتمامِ بالخبَرِ؛ لتحقيقِه، وإدخالِ الرَّوعِ في ضَمائرِهم(٤).

- وتقديمُ الظَّرفِ ﴿يَوْمَ﴾؛ للإيماءِ بأنَّ إتيانَ العذابِ لا شكَّ فيه حتَّى إنَّه يوقَّتُ بوقتٍ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٤٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٨٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ فيه التَّعبيرُ بالماضي ﴿وَحَاقَ﴾، والمعنى: (ويَحيقُ بهم)، إلَّا أنَّه جاء على عادةِ اللهِ في أخبارِه؛ لأنَّها في تَحقُّقِها وتَيقُّنِها بمنزلةِ الكائنةِ الموجودةِ، وفي ذلك مِن الفَخامةِ والدَّلالةِ على عُلوِّ شأنِ المخبِرِ، وتقريرِ وقوعِ المخبَرِ به ما لا يَخْفى[1].

- وفي قولِه: ﴿بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ قدَّمَ الظَّرفَ (به)؛ إشارةً إلى شدَّةِ إقبالِهم على الهُزءِ به، حتى كأنَّهم لا يَهزؤونَ بغَيرِه[2].

- وفيه الإتيانُ بالموصولِ ﴿مَا كَانُوا به يَسْتَهْزِئُونَ﴾ في مَوضِعِ الضَّميرِ؛ للإيماءِ إلى أنَّ استِهْزاءَهم كان مِن أسبابِ غضَبِ اللهِ عليهم، وتَقْديرِه إحاطةَ العذابِ بهم؛ بحيثُ لا يَجِدون منه مَخلَصًا[3]، والمرادُ بقولِه: ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ العذابُ الَّذي كانوا به يَستعجِلون، وإنَّما وضَعَ ﴿يَسْتَهْزِئُونَ﴾ موضِعَ (يَستعجِلون)؛ لأنَّ استِعْجالَهم كان على جِهَةِ الاستهزاءِ[4].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾

- فيه تأكيدُ الجملةِ باللَّامِ الموطِّئةِ للقَسَمِ في ﴿وَلَئِنْ﴾ وبـ (إنَّ) واللَّامِ في جُملةِ جوابِ القَسَمِ ﴿إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ﴾؛ لقصْدِ تحقيقِ مَضمونِها، وأنَّه حقيقةٌ ثابتةٌ، لا مُبالَغةَ فيها ولا تَغليبَ[5].

- واخْتِيرَتْ مادَّةُ الإذاقةِ في ﴿أَذَقْنَا﴾؛ لِمَا تُشعِرُ به من إدراكِ أمرٍ محبوبٍ؛

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٨٩).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٤١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١١).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٨١).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣).

لأنَّ المرْءَ لا يَذوقُ إلَّا ما يَشتَهيه[١]، ومادَّةُ النَّزْعِ في ﴿نَزَعْنَاهَا﴾؛ للإشعارِ بشِدَّةِ تَعلُّقِ الإنسانِ بها وحِرْصِه عليها[٢].

- ولَمَّا كانت النِّعمُ عَواريَّ مِن اللهِ يمنَحُها مَن شاء مِن عِبادِه، قدَّمَ الصِّلةَ دليلًا على العاريَّةِ، فقال: ﴿مِنَّا رَحْمَةً﴾[٣].

- وفي قولِه: ﴿إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ النَّزْعَ إنَّما كان بسَببِ كُفْرانِهم بما كانوا يتقلَّبون فيه مِن نِعَمِ اللهِ عزَّ وجلَّ[٤].

٣- قولُه: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾

- قولُه: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾ فيه مناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ عبَّر عن مُلابَسةِ الرَّحمةِ والنَّعماءِ بالذَّوقِ ﴿أَذَقْنَاهُ﴾ المؤذِنِ بلَذَّتِهما، وكَونِهما مِمَّا يُرغَبُ فيه، وعن مُلابَسةِ الضَّرَّاءِ بالمَسِّ ﴿مَسَّتْهُ﴾ المشعِرِ بكونِها في أدنى ما يُطلَقُ عليه اسْمُ الملاقاةِ مِن مَراتِبِها[٥]؛ فاختيارُ فعلِ المسِّ في ﴿مَسَّتْهُ﴾ فيه إيماءٌ إلى أنَّ إصابةَ الضَّرَّاءِ أخَفُّ مِن إصابةِ النَّعْماءِ، وأنَّ لُطْفَ اللهِ شاملٌ لعبادِه في كلِّ حالٍ[٦].

- وجعَل جوابَ القسَمِ (القَوْلَ) في ﴿لَيَقُولَنَّ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّه تبَجُّحٌ وتَفاخُرٌ؛ فالخبَرُ في قولِه: ﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ مُستعمَلٌ في الازْدِهاءِ والإعجابِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٩٠).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٤٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٩٠).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٤).

وذلك هو مُقتَضى زيادةِ ﴿عَنِّي﴾ مُتعلِّقًا بـ ﴿ذَهَبَ﴾؛ للإشارةِ إلى اعْتِقادِ كلِّ واحدٍ أنَّه حَقيقٌ بأن تَذهَبَ عنه السَّيِّئاتُ غُرورًا منه بنَفسِه، كما في قولِه: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾[1] [فصلت: ٥٠].

- وجملةُ ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ للتَّعجُّبِ مِن حالِه، و﴿فَرِحٌ﴾ و﴿فَخُورٌ﴾ مِن أوزانِ المبالَغةِ، أي: لَشَديدُ الفرَحِ، شَديدُ الفَخرِ[2].

- وفيه مناسَبةٌ حسنةٌ، حيث قال اللهُ تعالى هنا في سورةِ هودٍ: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ١٠]، وقال في سورةِ فُصِّلَت: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ [فصلت: ٥٠]؛ ففيه زيادةُ (مِنَّا) وزيادةُ (مِن) في سورةِ فُصِّلَت عمَّا في سورةِ هودٍ؛ ووجهُ ذلك أنَّه لم يَرِد في هودٍ ما يَستَدعي تلك الزِّيادةَ، وأمَّا سورةُ فُصِّلَت فتقدَّم فيها قولُه: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي﴾ [فصلت: ٤٧]؛ قَطعًا بهم، وتَنبيهًا على سوءِ مُرتَكَبِهم، وقد عايَنوا الحقَّ، وضلَّ عنهم ما كانوا يَدَّعون مِن قَبلُ مِن شُركاءِ اللهِ سبحانه، وأيقَنوا وعَلِموا أنَّه لا مَحيصَ لهم ولا مَفرَّ؛ فلمَّا تَقدَّم ذِكْرُ الشُّرَكاءِ قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا﴾ [فصلت: ٥٠]، فنَبَّه تعالى بقولِه: ﴿مِنَّا﴾ على أنْ لا شَريكَ له، ولا مُعطِيَ غيرُه، وأنَّه لا يأتي العبدَ شيءٌ مِن أحَدٍ سِواه سُبحانه. ولَمَّا لم يتَقدَّمْ في سورةِ هودٍ ذِكرٌ لذلك لم يَرِد فيها التَّنبيهُ بقولِه: ﴿مِنَّا﴾. وأمَّا زيادةُ: (مِن) في قولِه: ﴿مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾ [فصلت: ٥٠]؛ فمُناسِبٌ لإطنابِ هذا الغرَضِ في هذه السُّورةِ؛ فناسَب ذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الزِّيادةَ، ولإيجازِ هذا القصدِ في سورةِ هودٍ ناسَبَه سُقوطُ (مِن)؛ فجاء كلٌّ على ما يُناسِبُ[1].

وفيه وجهٌ آخَرُ: أنَّه في سورةِ فُصِّلَت بيَّن تعالى جِهةَ الرَّحمةِ، بقولِه: ﴿لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ [فصلت: ٤٩]؛ فناسَب ذِكْرُ ﴿مِنَّا﴾، وحَذَفَه هنا اكتفاءً بقولِه قبلُ: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ [هود: ٩]، وزاد (مِن) في سورةِ فُصِّلَت؛ لأنَّه لَمَّا حدَّ الرَّحمةَ وجِهَتَها حدَّ الظَّرْفَ بعْدَها؛ لِيَتَشاكَلا في التَّحديدِ، وهنا لَمَّا لم يَذكُرِ الأوَّلَ، لم يَذكُرِ الثَّانيَ لِيَتَشاكَلا[2].

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٥٣).
(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٥٩-٢٦٠).

الآيات (١٢-١٤)

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

المعنى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ اللهُ تعالى رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قائلًا له: فلعلَّك- أيُّها الرَّسولُ- تاركٌ بعضَ ما يُوحَى إليك ممَّا أنزَلَه اللهُ عليك، وأمَرَك بتبليغِه، وضائقٌ به صَدرُك؛ خَشيةَ أن يطلُبوا منك بعضَ المَطالبِ على وجهِ التَّعنُّتِ، كأنْ يقولوا: لولا أُنزِلَ عليه مالٌ كثيرٌ، أو جاء معه ملَكٌ يصَدِّقُه في رسالتِه، فبَلِّغْهم ما أوحيتُه إليك؛ فإنَّه ليس عليك إلَّا الإنذارُ بما أُوحيَ إليك، واللهُ على كلِّ شَيءٍ حَفيظٌ، يدَبِّرُ جميعَ شُؤونِ خَلقِه. بل أيقولُ هؤلاء المُشركونَ: إنَّ مُحمدًا قد افترى هذا القُرآنَ؟ قلْ لهم: إن كان الأمرُ كما تَزعمونَ، فأْتُوا بعَشرِ سُوَرٍ مِثلِه مُفتَرَياتٍ، وادعُوا من استطعتُم مِن جميعِ خَلقِ الله؛ لِيُساعِدوكم على الإتيانِ بهذه السُّوَرِ العَشرِ، إنْ كنتُم صادقينَ في دَعواكم. فإن لم يَأتوا بمُعارضةِ ما دَعَوْتُموهم إليه، فأيقِنوا أنَّما أُنْزِلَ على مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن عندِ الله، مشتملًا على عِلْمه، ومُتَضَمِّنًا أمرَه ونَهْيَه، وأيقِنوا أنْ لا إلهَ يُعبَدُ بحَقٍّ إلَّا اللهُ، فهل أنتم- بعد قيامِ هذه الحُجَّةِ عليكم- مُسلِمونَ مُنقادونَ لله ورَسولِه؟

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ هذا تفريعٌ على قَولِه تعالى: ﴿وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ﴾ إلى قَولِه ﴿يَسْتَهْزِئُونَ﴾ مِن ذِكرِ تكذيبِهم وعِنادِهم، ويشيرُ هذا التَّفريعُ إلى أنَّ مَضمونَ الكلامِ المفرَّعِ عليه سببٌ لِتَوجيهِ هذا التوقُّعِ؛ لأنَّ مِن شأنِ المفرَّعِ عليه اليأسُ من ارعوائِهم لتكَرُّرِ التَّكذيبِ والاستهزاءِ يأسًا قد يبعَثُ على تَركِ دُعائِهم[1].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا استثنى اللهُ تعالى مِن الجارينَ مع الطَّبعِ، الطَّائشينَ في الهَوى، مَن تحلَّى برَزانةِ الصَّبرِ النَّاشئِ عن وَقارِ العِلمِ، المُثمرِ لصالحِ العمَلِ، وكان صلَّى الله عليه وسلم رأسَ الصَّابرينَ، وكان ما مضى مِن أقوالِهم وأفعالِهم ربَّما كان مَظِنَّةً لرَجائِهم تَرْكَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعضَ ما يُوحى إليه؛ مِن عَيبِ آلهتِهم، وتضليلِ آبائِهم، وتسفيهِ أحلامِهم، وغيرِ ذلك ممَّا يشُقُّ عليهم؛ طمعًا في إقبالِهم أو خوفًا من إدبارِهم- قال تعالى مسبِّبًا عن ذلك، ناهيًا في صيغةِ الخَبرِ[2]:

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ﴾.

أي: فلعلَّك- يا مُحمَّدُ- تاركٌ تبليغَ قَومِك بعضَ ما أوحَى اللهُ إليك مِن القُرآنِ، وضائِقٌ صَدرُك بما أمَرَك اللهُ أن تبَلِّغَهم؛ كراهةَ أن يقولَ المُشركونَ: لولا أنزَلَ اللهُ عليه كنزًا، أو جاء معه ملَكٌ؛ لنؤمِنَ بأنَّه رَسولُ الله، فاصبِرْ على تكذيبِهم، واستمِرَّ في دَعوتِهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٥-١٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٤٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٨).

قال الشوكاني: (قيل: وهذا الكلامُ خارجٌ مخرجَ الاستفهام، أي: هل أنت تاركٌ؟ وقيل: هو في معنى النَّفيِ مع الاستبعادِ أي: لا يكونُ منك ذلك، بل تُبَلِّغُهم جميعَ ما أنزلَ الله عليك، أحَبُّوا =

كما قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٢].

وقال سُبحانه: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: ٩٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧].

وقال جلَّ جلاله: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا * وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٣-٧٤].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٣].

وقال عزَّ من قائل: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا * انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٧-٩].

وقال سبحانه: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠].

= ذلك أم كَرِهوه، شاؤوا أم أبَوا). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٥١). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٢).

﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ﴾.

أي: إنَّما أنت- يا محمَّدُ- نذيرٌ لقَومِك تُنذِرُهم عِقابي، وليس عليك أن تأتيَهم بما يقترِحونَه مِن الآياتِ(١).

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾.

أي: واللهُ على كُلِّ شَيءٍ قيِّمٌ، بيَدِه تدبيرُ الأمورِ، وهو حافِظٌ يحفَظُ أعمالَ عبادِه، ويُجازيهم بها(٢).

كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢].

﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ القَومَ لَمَّا طَلَبوا من النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم المُعجِزَ؛ قال: مُعجزي هذا القُرآنُ، ولَمَّا حصل المُعجِزُ الواحِدُ، كان طلَبُ الزيادةِ بَغيًا وجهلًا، ثم قرَّرَ كَونَه مُعجِزًا بأنْ تحدَّاهم بالمُعارَضةِ(٣).

﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾.

أي: بل أيقولُ المُشرِكونَ: افترى محمَّدٌ القُرآنَ، وليس هو مِن عندِ اللهِ(٤)؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٩). =

﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ﴾.

أي: قل لهم- يا مُحمَّدُ-: فإن كنتُ افتريتُ القُرآنَ كما تَزعُمونَ، فأْتُوا أنتم بعَشرِ سُوَرٍ مِثلِه مُختَلَقاتٍ مِن عندِ أنفُسِكم(١).

﴿وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾.

أي: وادعُوا- أيُّها المُشرِكونَ- مَنْ تستَطيعونَ دَعوتَه، من الإنسِ والجِنِّ، وآلهتِكم المزعومةِ؛ ليُعينَكم على اختلاقِ عَشرِ سُوَرٍ مِن القُرآنِ، إن كنتُم صادقينَ في أنِّي افتريتُ هذا القُرآنَ(٢).

﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم

= قال ابن جرير: (يقولُ تعالى ذِكرُه لنَبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: كفاك حجَّةً على حقيقةِ ما أتيتَهم به ودلالةً على صحَّةِ نبوَّتِك، هذا القرآنُ من سائرِ الآياتِ غَيرِه؛ إذ كانت الآياتُ إنَّما تكونُ لِمَن أعطِيَها دلالةً على صِدقِه، لعَجزِ جميعِ الخَلقِ عن أن يأتوا بمِثلِها، وهذا القرآنُ جميعُ الخَلقِ عَجَزةٌ عن أن يأتوا بمِثلِه). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٤٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٨).

قال ابن عاشور: (قال ابنُ عباسٍ وجمهورُ المفسرين: كان التحدِّي أوَّلَ الأمرِ بأن يأتوا بعشرِ سُور مثلِ القرآنِ، وهو ما وقَع في سورةِ هودٍ، ثم نُسِخ بأن يأتوا بسورةٍ واحدةٍ، كما وقَع في سورةِ البقرةِ، وسورة يونس. فتخطَّى أصحابُ هذا القولِ إلى أن قالوا: إنَّ سورةَ هودٍ نزلَت قبلَ سورةِ يونسَ، وهو الذي يُعتمدُ عليه.

وقال المبردُ: تحدَّاهم أولًا بسورةٍ ثم تحدَّاهم هنا بعشرِ سورٍ؛ لأنَّهم قد وُسِّع عليهم هنا بالاكتفاءِ بسورٍ مفترياتٍ، فلمَّا وُسِّع عليهم في صفتِها أكثر عليهم عددُها، وما وقَع مِن التحدِّي بسورةٍ اعتُبر فيه مماثلتُها لسورِ القرآنِ في كمالِ المعاني، وليس بالقويِّ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٠).

وذهَب محمد رشيد رضا إلى أنَّ جميعَ آياتِ التحدِّي لم يكنْ مراعًى بها الترتيبُ التاريخيُّ في مخاطبةِ المشركينَ- كما ذهَب جمهورُ المفسِّرين- بل ذُكر كلٌّ منها بمناسبةِ سياقِ سورتِه. يُنظر: ((تفسير المنار)) (١٢/ ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٢)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٨).

مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا كان أدنَى دَرَجاتِ الافتراءِ إتيانَ الإنسانِ بكلامِ غَيرِه من غيرِ عِلمِه، وكان عَجزُهم عن المُعارَضةِ دليلًا قاطعًا على أنَّهم لم يَصِلوا إلى شيءٍ مِن كَلامِه تعالى بغيرِ عِلمِه، ولا وجَدوا مُكافِئًا له يأتيهم بمِثلِه- ثبت قطعًا أنَّ هذا القرآنَ غيرُ مُفترًى، فقال تعالى مُخاطِبًا للجميعِ إشارةً إلى وضوحِ الأمرِ- لا سيَّما في الافتراءِ عند كلِّ أحدٍ- وأنَّ المُشرِكينَ قد وصَلوا من ذلِّ التَّبكيتِ بالتَّحدِّي مَرَّةً بعد مَرَّة، وزورِهم لأنفُسِهم في ذلك المضمارِ كَرَّةً في إثرِ كَرَّة، إلى حدٍّ مِن العَجزِ لا يَقدِرونَ معه على النُّطقِ في ذلك ببِنتِ شَفةٍ[1]، قال:

﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: فإن لم يَأتوا بمُعارضةِ ما دَعَوْتُموهم إليه[2] فاعْلَموا وأيقِنوا أنَّما أُنْزِلَ على مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن عندِ الله، مشتملًا على عِلْمه، ومُتَضَمِّنًا أمرَه وَنَهْيَه، واعلَموا أنَّه لا معبودَ بحقٍّ إلَّا اللهُ وَحدَه[3].

كما قال تعالى: ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٤٩-٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٨).

قال الواحدي: (هذا الذي ذكرنا مِن أن قولَه: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ خطابٌ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابِه، مذهبُ المفسِّرين وأصحابِ المعاني). ((البسيط)) (١١/ ٣٦٥).

وقيل: الخطابُ فيه للمشركين؛ أي: فإن لم يستجيبوا لكم مَن تدعونهم إلى المعاونةِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٤٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥١٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٤٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٤٦٤، ٤٦٥)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٤٣٦، ٤٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٨).

يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦].

﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

أي: فهل أنتم- أيُّها المُشرِكونَ- مُستَسلِمونَ لله بالتَّوحيدِ، مُنقادونَ له بالطَّاعةِ، بعد ثُبوتِ الحُجَّةِ عليكم بعَجزِكم عن الإتيانِ بمِثلِ هذا القرآنِ، وتحَقُّقِكم أنَّه مِن عندِ الله(١)؟

كما قال الله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٨].

الفَوائِد التربويَّة:

قال الله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ في هذه الآياتِ إرشادٌ إلى أنَّه لا ينبغي للدَّاعي إلى اللهِ أن يَصُدَّه اعتراضُ المُعترِضينَ، ولا قَدحُ القادحينَ- خصوصًا إذا كان القَدحُ لا مُستنَدَ له، ولا يَقدَحُ فيما دعا إليه- وأنَّه لا يَضيقُ صَدرُه، بل يطمئِنُّ بذلك، ماضيًا على أمرِه، مُقبِلًا على شأنِه، وأنَّه لا يجِبُ إجابةُ اقتراحاتِ المُقتَرِحينَ للأدلَّةِ التي يختارونَها؛ بل يكفي إقامةُ الدَّليلِ السَّالمِ عن المُعارِضِ، على جميعِ المَسائلِ والمَطالبِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٢).

قال الواحدي: (﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ استفهامٌ معناه الأمرُ، كقَولِه: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾). ((الوجيز)) (ص: ٥١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٨).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ﴾ لَمَّا كان المُوحَى به قد صار معلومًا لهم- وإن نازعوا فيه- بنى للمَفعولِ قَولَه: ﴿يُوحَى إِلَيْكَ﴾(١).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ﴾ بَنَوه للمَفعولِ؛ لأنَّ المَقصودَ مُطلَقُ حُصولِه(٢).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ إلى قَولِه: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ دلالةٌ على ثبوتِ الرِّسالةِ والقُرآنِ والتَّوحيدِ، ووجهُ ذلك: أنَّه لَمَّا تحدَّاهم سُبحانه بالإتيانِ بعَشرِ سُوَرٍ مِثلِه مُفتَرياتٍ- هم وجميعَ مَن يستطيعونَ مِن دونِه- فكان في مضمونِ تحدِّيه أنَّ هذا لا يقْدِرُ أحدٌ على الإتيانِ بمِثلِه مِن دونِ اللهِ، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ وحينئذٍ فَعُلِمَ أنَّ ذلك مِن خصائصِ مَن أرسلَه اللهُ، وما كان مختصًّا بنوعٍ فهو دليلٌ عليه؛ فإنَّه مُستلزِمٌ له، وكلُّ مَلزومٍ دليلٌ على لازِمِه- كآياتِ الأنبياء كلِّها؛ فإنَّها مختصَّةٌ بجِنسِهم- وهذا القرآنُ مختصٌّ بجنسِهم، ومِن بينِ الجنسِ خاتَمُهم ،لا يمكِنُ أن يأتيَ به غيرُه، وكان ذلك برهانًا بَيِّنًا على أنَّ اللهَ أنزله؛ وأنَّه نَزلَ بعِلمِ اللهِ، فهو الذي أخبرَ بخبَرِه، وأمرَ بما أمرَ به، كما قال سُبحانه: ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء: ١٦٦]، وثبوتُ الرسالةِ ملزومٌ لثبوتِ التَّوحيدِ؛ وأنَّه لا إلهَ إلَّا اللهُ، مِن جهة أنَّ الرسولَ أخبرَ بذلك، ومِن جهةِ أنَّه لا يقدِرُ أحدٌ على الإتيانِ بهذا القرآنِ إلَّا اللهُ، فإنَّ مِن العِلمِ ما لا يعلَمُه إلَّا اللهُ(٣).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٠٦).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ لم يُكَلِّفْهم نَفْسَ الإحداثِ، بل طالَبَهم بالإتيانِ بمِثلِه، إمَّا إحداثًا، وإمَّا تبليغًا عن اللهِ أو عن مخلوقٍ. والإتيانُ بالشَّيءِ: جَلبُه، سواءٌ كان بالاسترفادِ مِن الغَيرِ أم بالاختراعِ مِن الجالبِ، وهذا توسِعةٌ عليهم في التَّحدِّي؛ ليُظْهِرَ عجزَهم مِن جميعِ الجِهاتِ[1].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وَصفٌ لـ﴿مَنِ اسْتَطَعْتُمْ﴾ ونكتةُ ذِكرِ هذا الوَصفِ: التَّذكيرُ بأنَّهم أنكَروا أن يكونَ مِن عندِ اللهِ، فلمَّا عمَّم لهم في الاستعانةِ بمَن استطاعوا، أكَّدَ أنَّهم دونَ اللهِ تعالى، فإن عَجَزوا عن الإتيانِ بعَشرِ سُورٍ مِثلِه- مع تمكُّنِهم من الاستعانةِ بكُلِّ مَن عدا اللهَ- تبيَّن أنَّ هذا القرآنَ مِن عندِ الله تعالى[2].

٦- قول الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ فيه أنَّ هذا القُرآنَ مُعجِزٌ بنَفسِه، لا يَقدِرُ أحدٌ مِن البَشَرِ أن يأتيَ بمِثلِه، ولا بعَشرِ سُوَرٍ مِن مِثلِه، بل ولا بسُورةٍ مِن مِثلِه؛ لأنَّ الأعداءَ البُلَغاءَ الفُصَحاءَ تحدَّاهم اللهُ بذلك، فلم يُعارِضوه؛ لعِلمِهم أنَّهم لا قُدرةَ فيهم على ذلك[3].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾.

- قولُه تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ﴾، التَّوقُّعُ المستَفادُ مِن

(١) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ١٠٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٠-٢١).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٧٨).

(لعلَّ) مُستعمَلٌ في تحذيرِ مَن شأنُه التَّبليغُ، وعلى القول بتَقديرِ استِفْهام حُذِفَت أداتُه، والتَّقديرُ: أَلَعلَّك تارِكٌ؟! فيكونُ الاستفهامُ مُستعمَلًا في النَّفْيِ للتَّحذيرِ[(١)].

- قولُه: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ...﴾ فيه اختيارُ التَّعبيرِ بـ ﴿ضَائِقٌ﴾ بدلَ (ضيِّقٌ)؛ لِمُوافَقةِ قولِه قبلَه: ﴿تَارِكٌ﴾، ولِيَدُلَّ على أنَّه ضِيقٌ عارِضٌ لا ثابتٌ؛ لأنَّه صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم كان أوْسَعَ النَّاسِ صدرًا، ونظيرُه قولُ القائِلِ: زيدٌ سائدٌ وجائدٌ، يُريدُ به أنَّه حَدَثَ فيه السِّيادةُ والجودُ، فإنْ أُرِيدَ وصْفُه بثُبوتِهما، قيل: زيدٌ سيِّدٌ وجَوَادٌ[(٢)].

- قولُه: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾ في موقِعِ العِلَّةِ للتَّحذيرِ مِن ترْكِه بعْضَ ما يُوحى إليه، وضِيقِ صَدْرِه مِن مَقالَتِهم؛ فكأنَّه قيل: لا تَترُكْ إبلاغَهم بعْضَ ما يُوحَى إليك، ولا يَضِقْ صدْرُك مِن مَقالِهم؛ لأنَّك نذيرٌ، لا وكيلٌ على تَحصيلِ إيمانِهم؛ حتَّى يترتَّبَ على يَأسِك مِن إيمانِهم ترْكُ دعوتِهم[(٣)].

- والقَصْرُ فيه بـ﴿إِنَّمَا﴾ قصرٌ إضافيٌّ؛ أي: أنتَ نذيرٌ، لا موكَّلٌ بإيقاعِ الإيمانِ في قُلوبِهم؛ إذْ ليس ذلك إليكَ بل هو للَّه[(٤)].

- واقتصَرَ على النِّذارةِ؛ لأنَّ المقامَ يقتضيها؛ من أجلِ أنَّهم أهلٌ لها[(٥)].

- وجملةُ ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ تذييلٌ لقولِه: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ﴾، وهي مَعطوفةٌ على جملةِ ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾؛ لِما اقتَضاه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٨٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٢٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٢٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٤٧).

القَصرُ مِن إبطالِ أن يَكونَ وَكيلًا على إلجائِهم للإيمانِ، ومِمَّا شَمِلَه عُمومُ ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ أنَّ اللهَ وكيلٌ على قلوبِ المكذِّبين، وهم المقصودُ، وإنَّما جاء الكلامُ بصِيغةِ العُمومِ؛ لِيَكونَ تَذييلًا، وإتيانًا للغرَضِ بما هو كالدَّليلِ(١).

- ولَمَّا كان السِّياقُ لإحاطتِه سُبحانه، قدَّمَ قولَه: ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾(٢).

٢- قولُه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

- قولُه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ الاستفهامُ إنكاريٌّ للتَّوبيخِ والإنكارِ والتَّعجُّبِ، والتَّقديرُ: بل أيَقولون: افتَراه؟! والإضرابُ بقولِه: ﴿أَمْ﴾ إضرابٌ انتِقاليٌّ في قُوَّةِ الاستئنافِ الابتدائيِّ، فلِلجُملَةِ حُكمُ الاستئنافِ، والمناسَبةُ ظاهرةٌ؛ لأنَّ الكلامَ في إبطالِ مَزاعِمِ المشرِكين- فإنَّهم قالوا: هذا كلامٌ مُفترًى- وقَرْعِهم بالحُجَّةِ(٣).

- قولُه: ﴿بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾، ﴿مِثْلِهِ﴾ أي: أمثالِه، وعُبِّر بالمُفردِ إمَّا باعتبارِ مُماثَلةِ كلِّ واحدٍ منها، أو لأنَّ المطابقةَ ليسَت بشَرطٍ حتَّى يُوصَفَ المثنَّى بالمفرَدِ، كما في قولِه تعالى: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾، أو للإيماءِ إلى أنَّ وجهَ الشَّبَهِ ومَدارَ المماثلةِ في الجميعِ شيءٌ واحدٌ؛ هو البلاغةُ المؤدِّيةُ إلى مَرتَبةِ الإعجازِ، فكأنَّ الجميعَ واحدٌ(٤).

- وقولُه: ﴿مُفْتَرَيَاتٍ﴾ صِفةٌ أُخرَى لـ﴿سُوَرٍ﴾، وأُخِّرَت عن وصْفِها بالمماثَلةِ لِما يُوحَى؛ لأنَّ المماثلةَ هي الصِّفةُ المقصودةُ بالتَّكليفِ؛ إذْ بها يَظهَرُ عجزُهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٩١).

وقُعودُهم عن المعارَضةِ، وأمَّا وصفُ الافتراءِ فلا يتعلَّقُ به غرَضٌ يَدورُ عليه شيءٌ في مَقامِ التَّحدِّي، وإنَّما ذُكِر على نَهْجِ المُساهَلةِ، وإرخاءِ العِنانِ، ولأنَّه لو عُكِس التَّرتيبُ لرُبَّما تُوُهِّم أنَّ المرادَ هو المماثلةُ في الافتراءِ(١).

- وجوابُ الشَّرطِ في قولِه: ﴿إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ مَحذوفٌ؛ لدَلالةِ المذكورِ عليه، وهو قولُه: ﴿فَأْتوا بعَشْرِ سُوَرٍ﴾، ووجهُ الملازَمةِ بينَ الشَّرطِ وجَزائِه أنَّه إذا كان الافتراءُ يأتي بهذا القرآنِ؛ فما لكم لا تَفترَون أنتم مِثلَه، فتَنهَضَ حُجَّتُكم(٢)؟!

٣- قولُه تعالى: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ تفريعٌ على ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ﴾، والاستجابةُ: الإجابةُ، والسِّينُ والتَّاءُ فيه للتَّأكيدِ(٣).

- قولُه: ﴿لَكُمْ فَاعْلَمُوا﴾ فيه جمعُ الخطابِ بعدَ إفرادِه في قولِه: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ مَعْناه: فإنْ لَم يَستَجيبوا لك وللمُؤمنين؛ لأنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم والمؤمنين كانوا يَتَحدَّوْنهم(٤)، أو لأنَّهم أتباعٌ له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الأمْرِ بالتَّحدِّي، وفيه تنبيهٌ لطيفٌ على أنَّ حقَّهم أنْ لا يَنفكُّوا عنه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ويُناصِبوا معه لِمُعارَضةِ المعارِضينَ كما كان يَفعَلونه في الجِهادِ، وإرشادٌ إلى أنَّ ذلك ممَّا

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٩١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢١).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٨٣).

يُفيدُ الرُّسوخَ في الإيمانِ، والطُّمأنينةَ في الإيقانِ، ولذلك رُتِّب عليه قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿فَاعْلَمُوا...﴾[(١)].

- وعلى القول بأنَّ المعنى: فإن لم تستَجِبْ لكم آلهتُكم، وسائرُ مَنْ إليهم تَجْأَرون في مُهِمَّاتِكم ومُلِمَّاتِكم إلى المعاوَنةِ والمظاهَرَةِ؛ فاعلَموا أنَّ ذلك خارِجٌ عن دائرةِ قُدْرةِ البشَرِ، وأنَّه مُنزَّلٌ مِن خالِقِ القُوى والقُدَرِ؛ فيكونُ إيرادُ كَلِمةِ الشَّكِّ حينَئذٍ مع الجزْمِ بعدَمِ الاستجابةِ من جِهَةِ آلهتِكم تهكُّمًا بهم، وتَسجيلًا عليهم بكمالِ سَخافةِ العقلِ[(٢)].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال هنا: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا﴾ بحَذفِ النُّونِ والجَمعِ، وأمَّا في سورةِ القَصصِ فقال: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ﴾ [القصص: ٥٠] على الواحِدِ؛ ووجهُ جمعِ الخِطابِ هاهنا وتوحيدِه في القَصَصِ: أنَّ ما في هذه السُّورةِ خِطابٌ للرَّسولِ وللمؤمنِينَ، ويجوز أنْ يكون الجمعُ لتَعظيمِ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم. وقيل: لأنَّه خِطابٌ للكفَّارِ، والفعلَ يَعودُ لـ ﴿مَنِ اسْتَطَعْتُمْ﴾- على أحد أوجه التفسير- وأمَّا ما في القَصصِ فهو خِطابٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والفِعلُ للكفَّارِ[(٣)].

- والفاءُ في ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ للتَّفريعِ على ﴿فَاعْلَمُوا﴾، والاستفهامُ مُستعمَلٌ في الحثِّ على الفعلِ وعدَمِ تأخيرِه، والمعنى: فهل تُسْلِمون بعدَ تَحقُّقِكم أنَّ هذا القرآنَ مِن عندِ اللهِ[(٤)]؟ وقيل: قَولُ الله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٩٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١١٠٤)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١٤٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٢).

مُسْلِمُونَ﴾ أي: أسلِموا، وفي مثلِ هذا الاستفهامِ إيجابٌ بليغٌ؛ لِما فيه مِن معنى الطَّلَبِ، والتنبيهِ على قيامِ المُوجِبِ، وزوالِ العُذرِ[١].

- وجِيءَ بالجملةِ الاسميَّةِ ﴿أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ الدَّالةِ على دَوامِ الفعلِ وثَباتِه؛ لِتأكيدِ الطَّلَبِ لهذا الوصفِ؛ فإنَّ الجملةَ الاسميَّةَ أدَلُّ على حُصولِ المطلوبِ وثُبوتِه، وهو أدَلُّ على طلَبِه، ولَم يَقُلْ: (فهَل تُسلِمون)؛ لأنَّ حالةَ عدَمِ الاستجابةِ تُكسِبُ اليقينَ بصِحَّةِ الإسلامِ، فتَقْتَضي تَمكُّنَه مِن النُّفوسِ، وذلك التَّمكُّنُ تَدُلُّ عليه الجملةُ الاسميَّةُ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٤٩).

(٢) يُنظر: ((البرهان)) للزركشي (٤/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٢).

الآيات (١٥-١٧)

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ﴾: أي: نُوصِلْها إليهم وافيةً كاملةً، وأصلُ (وفي): يدلُّ على إكمالٍ وإتمامٍ[1].

﴿يُبْخَسُونَ﴾: أي: يُنقصونَ، والبخسُ: نقصُ الشيءِ على سبيلِ الظُّلم، وأصلُ (بخس): النَّقصُ[2].

﴿مِرْيَةٍ﴾: أي: شكٍّ، وقيل: المريةُ: الترَدُّدُ في الأمرِ، وهو أخصُّ مِن الشكِّ[3].

المعنَى الإجماليُّ:

يُبَيِّنُ سُبحانه سوءَ مَصيرِ الذين لا يُريدونَ بأقوالِهم وأعمالِهم وجهَ اللهِ تعالى،

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٨)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٤٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٥٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٨).

فيقولُ: من كان يُريدُ بعَمَلِه الحياةَ الدُّنيا ومُتَعَها، نُعطِهم ما قُسِمَ لهم مِن ثوابِ أعمالِهم في الحياةِ الدُّنيا، كاملًا غيرَ مَنقوصٍ، أولئك ليس لهم في الآخرةِ إلَّا نارُ جهنَّمَ، يُقاسونَ حَرَّها، وذهَب عنهم نَفْعُ ما عَمِلوه، وباطلٌ ما كانوا يعملون مِن الخيرِ؛ لأنَّه لم يكُن لِوَجهِ الله.

ثم يقولُ تعالى: أفمَن كان على بينةٍ مِن رَبِّه، ويَتْبَعُه شاهِدٌ آخَرُ مِن اللهِ، يوافِقُ هذه البينةَ ويَتْبَعُها- وهو القُرآن- وشاهِدٌ آخَرُ مِن قَبلِ القرآنِ، وهو التَّوراةُ- الكتابُ الذي أُنزِلَ على موسى إمامًا ورحمةً لِمَن آمن به- كمن كان همُّه الحياةَ الفانيةَ بزينتِها؟ أولئك يصدِّقونَ بهذا القُرآنِ، ويَعمَلونَ بأحكامِه، ومَن يكفُرْ بهذا القرآنِ مِن الذين تحزَّبوا على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فجزاؤه النَّارُ يَرِدُها لا محالةَ، فلا تكُنْ- أيُّها الرَّسولُ- في شَكٍّ مِن أمرِ القُرآنِ، وكَونِه مِن عندِ الله تعالى بعد ما شَهِدَت بذلك الأدلَّةُ والحُجَجُ، واعلَمْ أنَّ هذا القرآنَ هو الحَقُّ مِن ربِّك، ولكِنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يُؤمنونَ بأنَّه حَقٌّ مِن عندِ الله؛ عنادًا واستكبارًا.

تَفسيرُ الآيات:

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان ما سبق فيه مِن الحَثِّ على الثَّباتِ على الإسلامِ والدُّخولِ فيه، والوعيدِ على التقاعُسِ عنه ما مِن حَقِّ السَّامعِ أن يُبادِرَ إليه، وكان حقُّ المُسلِمِ الإعراضَ عن الدُّنيا؛ لسُوءِ عاقِبتِها، وكان أعظَمُ الموانعِ للمُشرِكينَ مِن التَّصديقِ استيلاءَ أحوالِ الدُّنيا عليهم، ولذلك تعنَّتوا بالكَنزِ- أشار هنا إلى عواقبِ ذلك[1].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٥١).

وأيضًا فإنَّه بعدَ أن قامت الحُجَّةُ القَطعيَّةُ على إعجازِ القُرآنِ، وحقِّيَّةِ دعوةِ الإسلامِ، بما يقطَعُ ألسِنةَ المُفتَرينَ، ويُبطِلُ مَعاذيرَهم؛ بيَّن لهم في هذه الآيةِ والتي تليها الصَّارِفَ النَّفسيَّ لهم عنه، وكونَه شَرًّا لهم لا خيرًا، وهو أنَّه لا حَظَّ لهم من حياتِهم إلَّا شَهواتُ الدُّنيا وزينتُها، والإسلامُ يَدعوهم إلى إيثارِ الآخرةِ على الأُولَى(١).

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾.

أي: من كان يَقصِدُ بسَعيِه وأعمالِه الصَّالحةِ الحياةَ الدُّنيا وزِينَتَها، نُعطِه ثوابَ أعمالِه فيها كامِلًا، كسَعةِ الرِّزقِ، ودَفعِ المَكارِه وغيرِ ذلك(٢).

كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨].

وقال سُبحانه: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٤١).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٤٦)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٧٦)، ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٦٣، ١٦٤)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٨٢).
ذهَب بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ هذه الآيةَ خاصَّةٌ بالكُفَّارِ الذين يريدونَ بأعمالِهم الدُّنيا وزينَتَها، وممَّن اختار ذلك: ابنُ عطيةَ، وابنُ جزيٍّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٥٦)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٨).
وممن قال به مِن السلفِ: قتادةُ والضحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٥٦).
وقيل: الآيةُ عامَّةٌ في كلِّ مَن ينوي بعَمَلِه غيرَ الله تعالى، سواء كان معه أصلُ إيمانٍ أو لم يكُن. قاله مجاهد وميمون بن مهران، وإليه ذهب معاوية وقال ابنُ الجوزي: (وهو قولُ الأكثرينَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٦٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٤).

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ لا يَظلِمُ مُؤمِنًا حَسَنةً؛ يُعطَى بها في الدُّنيا، ويُجزَى بها في الآخرةِ، وأمَّا الكافِرُ فيُطعَمُ بحَسَناتِ ما عَمِلَ بها لله في الدُّنيا، حتى إذا أفضَى إلى الآخرةِ لم تكُن له حَسَنةٌ يُجزى بها))(١).

وعن أبي هريرة رضي اللهُ عنه، أنَّ رسول اللهِ صلى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ أولَ الناسِ يُقضى(٢) يومَ القيامَةِ عليه، رجُلٌ استُشهِد، فأتى به فعرَّفه نِعَمَه فعرَفها، قال: فما عمِلتَ فيها؟ قال: قاتَلتُ فِيكَ حتى استُشهِدتُ، قال: كذَبتَ، ولكنَّكَ قاتَلتَ لِأَنْ يُقالَ: جَريءٌ. فقد قيل، ثم أمَر به فسُحِب على وجهِه حتى أُلقِيَ في النارِ. ورجُلٌ تعلَّم العِلمَ وعلَّمه، وقرَأ القرآنَ، فأُتِي به، فعرَّفه نِعَمَه فعرَفها، قال: فما عمِلتَ فيها؟ قال: تعلَّمتُ العِلمَ وعلَّمتُه، وقرَأتُ فيكَ القرآنَ، قال: كذَبتَ، ولكنَّكَ تعلَّمتَ العِلمَ لِيُقالَ: عالِمٌ، وقرَأتَ القُرآنَ لِيُقالَ: هو قارِئٌ، فقد قيل، ثم أمَر به فسُحِبَ على وجهِه حتى أُلقِي في النارِ. ورجُلٌ وسَّع اللهُ عليه، وأعطاه مِن أصنافِ المالِ كلِّه، فأتَى به فعرَّفه نِعَمَه فعرَفها، قال: فما عمِلتَ فيها؟ قال: ما ترَكتُ مِن سبيلٍ تُحِبُّ أنْ يُنفَقَ فيها إلَّا أنفَقتُ فيها لكَ، قال: كذَبتَ، ولكنَّكَ فعَلتَ لِيُقالَ هو جَوَادٌ، فقد قيل، ثم أمَر به فسُحِب على وجهِه، ثم أُلقِي في النارِ))(٣).

﴿ وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾.

أي: ولا يَنقُصُهم اللهُ ثوابَ أعمالِهم الصَّالحةِ في الدُّنيا(٤).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٠٨).

(٢) يُقضَى: أي: يُحاسَبُ، ويُسألُ عن أفعالِه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (١/ ٢٨٨).

(٣) أخرجه مسلم (١٩٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٤٦)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٤٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٥٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٩).

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٦ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى حال من يريدُ الحياةَ الدُّنيا في الدُّنيا؛ بيَّنَ حالَهم في الأُخرَى[١]، فقال:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ﴾.

أي: أولئك الذين يُريدونَ بأعمالِهم الصَّالحةِ الحياةَ الدُّنيا وزِينتَها، لا يكونُ لهم في الآخرةِ إلَّا النَّارُ، فيصلَونَها[٢].

عن أُبيِّ بنِ كعبٍ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((بشِّرْ هذه الأُمَّةَ بالسَّناءِ[٣] والرِّفعةِ، والدِّينِ والنَّصرِ، والتَّمكينِ في الأرضِ، فمَن

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٩٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٥٤).

قال الشوكاني: (الإشارةُ إلى المُريدينَ المذكورينَ، ولا بدَّ مِن تقييدِ هذا بأنَّهم لم يُريدوا الآخرةَ بشَيءٍ من الأعمالِ المعتَدِّ بها المُوجِبةِ للجَزاءِ الحسَنِ في الدار الآخرةِ، أو تكونُ الآيةُ خاصَّةً بالكفَّارِ). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٥٤).

قال ابنُ القيم بعد أن ذكَر أنَّ هذه الآيةَ أشكَل فهمُها على كثيرٍ مِن الناسِ، وذكَر الخلافَ في معناها، قال: (والآيةُ بحمدِ الله لا إشكالَ فيها، والله سبحانه ذكر جزاءَ من يريدُ بعَمَله الحياةَ الدُّنيا وزينتها- وهو النَّارُ- وأخبَرَ بحُبوطِ عَمَله وبُطلانِه، فإذا أُحبِط ما ينجو به وبطل، لم يبقَ معه ما يُنجيه، فإن كان معه إيمانٌ لم يُرِدْ به الدُّنيا وزينتَها، بل أراد اللهَ به والدارَ الآخرةَ، لم يدخُل هذا الإيمانُ في العمل الذي حَبِطَ وبطل، وأنجاه إيمانُه من الخلودِ في النار، وإن دخلها بحُبوطِ عَمَلِه الذي به النَّجاةُ المُطلقةُ، والإيمانُ إيمانان: إيمانٌ يمنع من دخول النَّارِ، وهو الإيمانُ الباعِثُ على أن تكونَ الأعمالُ لله، يُبتغى بها وجهُه وثوابُه، وإيمانٌ يمنع الخلودَ في النارِ، وإن كان مع المرائي شيءٌ منه، وإلَّا كان من أهلِ الخلودِ، فالآية لها حُكم نظائرِها من آياتِ الوعيدِ، والله الموفِّق). ((عدة الصابرين)) (ص: ١٦٥- ١٦٦).

(٣) بالسَّناءِ:أي: بارتِفاعِ المَنزلةِ والقَدْرِ عند الله تعالى. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٤١٤).

عَمِلَ منهم عمَلَ الآخرةِ للدُّنيا، لم يكُن له في الآخرةِ نَصيبٌ))[١].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((من تعلَّم عِلمًا ممَّا يُبتَغى به وجهُ الله، لا يتعلَّمُه إلَّا ليُصيبَ به عرَضًا[٢] من الدُّنيا؛ لم يجِدْ عَرْفَ الجنَّةِ يومَ القيامةِ)) يعني: رِيحَها[٣].

﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾.

أي: وذهبَ وبطَلَ ما عَمِلوا من الأعمالِ الصَّالحةِ في الدُّنيا، فلا يُثابون عليها في الآخرةِ[٤].

﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

أي: وباطلٌ ما كانوا يعملونَه مِن الخيرِ لغَيرِ اللهِ، فلا ينفَعُهم عندَ الله[٥].

عن عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ الله عنه، قال: سمعتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّما الأعمالُ بالنيَّةِ، وإنَّما لامرئٍ ما نوى، فمن كانت هِجرتُه إلى اللهِ ورَسولِه فهِجرتُه إلى الله ورسولِه، ومن كانت هِجرتُه لدنيا يصيبُها أو امرأةٍ

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٢٢٠) واللفظ له، وابن حبان (٤٠٥)، والحاكم (٧٨٦٢).
قال الهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (١٠/ ٢٢٣): رجالُه رجالُ الصحيحِ، ووثَّق رواته البوصيريُّ في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٧/ ٣٤٨)، وصححه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٢٨٢٥).

(٢) كَنَفَه: أي: حِفْظَه وسِتْرَه. يُنظر: ((شرح البخاري)) للقسطلاني (٤/ ٢٥٤).

(٣) أخرجه أبو داود (٣٦٦٤)، وابن ماجه (٢٥٢)، وأحمد (٨٤٥٧).
صحَّح إسنادَه النوويُّ في ((المجموع)) (١/ ٢٣)، وابنُ تيمية في ((شرح حديثِ جبريلَ)) (٥٨٥)، والذهبيُّ في ((الكبائر)) (٢٨٤)، وجوَّد إسنادَه العراقيُّ في ((تخريج الإحياء)) (١/ ٨٩)، وصحَّح إسناده الهيتميُّ المكي في ((الزواجر)) (١/ ٤١)، وأحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (١٦/ ١٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٥٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٥٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٦٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٦٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٥٤).

يتزَوَّجُها فهِجرتُه إلى ما هاجرَ إليه))(١).

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

تعَلُّقُ هذه الآيةِ بما قَبلَها ظاهِرٌ، فالتَّقديرُ: أفمَن كان على بيِّنةٍ مِن ربِّه، كمَن يريدُ الحياةَ الدُّنيا وزينَتَها وليس لهم في الآخرةِ إلَّا النَّارُ، إلَّا أنَّه حُذِف الجوابُ لِظُهورِه(٢).

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ تعالى حالَ من يريدُ الحياةَ الدُّنيا، ذكَرَ حالَ مَن يريدُ وَجهَ اللهِ تعالى بأعمالِه الصَّالحةِ(٣).

وأيضًا لَمَّا اتَّضَحت الحُجَجُ، وانتهَضَت الدَّلائلُ، كان ذلك موضِعَ الإنكارِ على مَن يُسَوِّي بينَ المُهتَدي والمُعتَدي(٤).

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾.

أي: أفمَن(٥) كان على بيِّنةٍ(٦) مِن رَبِّه، ويَتبَعُه شاهِدٌ آخَرُ مِن اللهِ يوافِقُ هذه

---

(١) أخرجه البخاري (١) ومسلم (١٩٠٧)، واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٣٤).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٥٢).

(٥) قال ابنُ تيمية: (أمَّا مَن قال: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾: إنَّه محمدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم- كما قاله طائفةٌ مِن السلفِ- فقد يريدون بذلك التمثيلَ لا التخصيص؛ فإنَّ المفسرينَ كثيرًا ما يريدونَ ذلك، ومحمدٌ هو أولُ مَن كان على بينةٍ مِن ربِّه، وتلاه شاهدٌ منه، وكذلك الأنبياءُ، وهو أفضلُهم وإمامُهم، والمؤمنونَ تبعٌ له، وبه صاروا على بينةٍ مِن ربِّهم). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٨١).

(٦) قيل: المرادُ بها: الفطرةُ على التوحيدِ. وممن قال بذلك: ابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١١). =

البينةَ ويَتْبَعُها، وهو القرآنُ الذي شَهِدَ اللهُ فيه بِمِثْلِ ما عليه المؤمِنُ من بيِّنةٍ(١).

= وقيل: المرادُ بها: القرآنُ. وممن قال بذلك: ابنُ القيم، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((مدارج السالكين)) (٣/ ٤٣٥)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٩).
وقيل: المرادُ بالبينةِ: هدَى الإيمانِ، والبصيرةُ في الدينِ، والعلمُ النافع. وهذا محصلةُ ما قاله ابنُ تيميةَ عن البينةِ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (١٣/ ٦٩) و (١٥/ ٦٢، ٧١، ٧٨).

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٦٩) و (١٥/ ٦٤ - ٦٨، ٧١)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٤٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١١).
وممن ذهب إلى هذا المعنى المذكورِ مِن أنَّ المرادَ بالشاهدِ: هو القرآنُ: ابنُ تيميةَ، وابنُ القيِّم، وابنُ كثير. يُنظر: المصادر السابقة.
ومِن المفسِّرين مَن جعَل الشاهدَ هو جبريلَ عليه السلامُ. ومنهم: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٦٢).
ومنهم مَن جعَل الشاهدَ هو الفطرةُ المستقيمةُ. وممَّن ذهب إلى ذلك: السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٩).
وقيل: الشاهدُ هو القرآنُ يشهدُ بكونِه مِن عندِ الله تعالى. وممن قال بذلك: القاسمي. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٨٣).
ومثله قولُ ابن القيم حيث قال: (القرآنُ العظيمُ قد اجتَمع فيه ما لم يجتمعْ في غيرِه، فإنَّه هو الدعوةُ والحجةُ، وهو الدليلُ والمدلولُ عليه، وهو الشاهدُ والمشهودُ له، وهو الحكمُ والدليلُ، وهو الدعوَى والبينةُ، قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ أي: مِن ربِّه، وهو القرآنُ). ((مدارج السالكين)) (٣/ ٤٣٥).
قال الواحدي: (قوله: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ [هود: ١٧] يعني النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في قولِ عامةِ المفسِّرين، قال ابنُ عبَّاس: يريدُ على يقينٍ وبيانٍ. ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ [هود: ١٧] وهو جبريلُ عليه السلامُ في قولِ أكثرِ المفسِّرين، قال ابنُ قتيبةَ: والشاهدُ مِن الله لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كِتابُ مُوسَى. يعني: التوراةَ، يتلوه أيضًا في التصديقِ؛ لأنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بشَّر به موسى في التوراةِ). ((الوسيط)) (٢/ ٥٦٨).
وقال ابنُ كثير: (وقولُه: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ أي: وجاءَه شاهدٌ مِن الله، وهو ما أوحاه إلى الأنبياءِ مِن الشرائعِ المطهرةِ المكملةِ المعظَّمةِ، المختتمةِ بشريعةِ محمَّد، صلواتُ الله وسلامُه عليه وعليهم أجمعين. ولهذا قال ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وعكرمةُ، وأبو العاليةِ، والضحَّاكُ، وإبراهيمُ النخعيُّ، والسُّديُّ، وغيرُ واحد في قولِه تعالى: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾: إنَّه جبريلُ عليه السلامُ. وعن عليٍّ، والحسنِ، وقتادةَ: هو محمدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم. وكلاهما قريبٌ في المعنى؛ لأنَّ كلًّا من جبريلَ ومحمدٍ صلواتُ الله عليهما، بلَّغ رسالةَ الله تعالى، فجبريلُ إلى محمدٍ، ومحمدٌ إلى الأمةِ. وقيل: هو عليٌّ. وهو ضعيفٌ لا يثبتُ له قائلٌ، والأوَّل والثاني =

﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةً ﴾.

أي: وشاهدٌ آخَرُ مِن قَبلِ القُرآنِ، وهو التَّوراةُ التي أنزَلَها اللهُ على نبيِّه موسى إمامًا لبني إسرائيلَ؛ يَأْتَمُّونَ بها ويَتَّبِعونها، ورحمةً مِن الله بهم[1].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾.

أي: أولئك الذين على بيِّنةٍ من ربِّهم يُؤمِنونَ بالقُرآنِ حقًّا[2].

كما قال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [الأنعام: ٩٢].

﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥ﴾.

أي: ومَن يكفُرْ بالقُرآنِ مِن أهلِ المِلَلِ كُلِّها، فالنَّارُ مَوعِدُه يومَ القيامةِ، فيكونُ مِن أهلِها[3].

= هو الحقُّ؛ وذلك أنَّ المؤمن عنده مِن الفطرة ما يشهدُ للشريعةِ مِن حيثُ الجملةُ، والتفاصيلُ تؤخذُ مِن الشريعةِ، والفطرةُ تصدِّقُها وتؤمنُ بها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾، وهو القرآنُ، بلَّغه جبريلُ إلى النبيِّ محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، وبلَّغه النبيُّ محمدٌ إلى أمتِه). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٦١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٩).

قال ابنُ جرير: (وفي الكلام مَحذوفٌ قد تُرِكَ ذِكرُه؛ اكتفاءً بدَلالةِ ما ذُكِرَ عليه منه، وهو: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ كمَن هو في الضَّلالةِ مُتَرَدِّدٌ، لا يهتدي لرُشدٍ، ولا يعرِفُ حَقًّا مِن باطلٍ، ولا يطلبُ بعَمَلِه إلَّا الحياةَ الدُّنيا وزينتَها؟). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٦٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٦٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٧٥، ٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٩).

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: ((والذي نفسُ محمَّدٍ بيَدِه، لا يسمَعُ بي أحدٌ مِن هذه الأمَّةِ يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ، ثمَّ يموتُ ولم يؤمِنْ بالذي أُرسِلتُ به، إلَّا كان من أصحابِ النَّارِ))[(١)].

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾.

أي: فلا تكنْ في شكٍّ- يا محمَّدُ- مِن أنَّ القرآنَ مُنزَّلٌ مِن عندِ اللهِ، وأنَّ مَن كذَّب به فالنَّارُ مَوعِدُه[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿الم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [السجدة: ١-٢].

﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾.

أي: إنَّ القرآنَ الذي أنزَلْناه إليك- يا محمَّدُ- حقٌّ من عندِ رَبِّك، لا شكَّ في ذلك[(٣)].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

أي: ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يُؤمِنونَ بأنَّ القُرآنَ حقٌّ مِن عندِ اللهِ، إمَّا جهلًا وتقليدًا للمَتبوعينَ، وإمَّا عِنادًا واستكبارًا[(٤)].

---

(١) أخرجه مسلم (١٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٥٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٤٥).

قال ابنُ قتيبة: (الخطابُ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمرادُ غَيرُه). ((تأويل مشكل القرآن)) (ص: ٢٢٧).

وقال القرطبي: (والخِطابُ للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، والمرادُ جميعُ المُكلَّفين). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٩٥)، ((تفسير المنار)) =

كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

وقال سُبحانَه: ﴿المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الرعد: ١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ مَن كانتِ الدُّنيا مُرادَه ولها يَعمَلُ، وهي غايةُ كَدْحِه؛ لم يكنْ له في الآخرةِ نَصيبٌ، ومَن كانتِ الآخرةُ مرادَه ولها عمَلُه، وهي غايةُ سَعيِه؛ فهي له[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الناويَ الجازِمَ، الآتيَ بما يُمكِنُه؛ فإنَّه بمنزلةِ الفاعلِ التَّامِّ، وقد دلَّ قولُه: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾، وقولُه: ﴿وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ على أنَّه كان لهم أعمالٌ بطلتْ، وعُوقِبوا على أعمالٍ أُخرَى عمِلوها، وأنَّ الإرادةَ هنا مستلزمةٌ للعملِ[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- لما كان الذي يمنعُ الإنسانَ مِن اتباعِ الرسولِ شيئانِ: إمَّا الجهلُ، وإمَّا فسادُ القصدِ؛ ذكَر ما يزيلُ الجهلَ، وهو الآياتُ الدالةُ على صدقِه، بقولِه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ...﴾ ثمَّ ذكَر أهلَ فسادِ القصدِ بقولِه:

= لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٩).

(١) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٧٤٤).

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ...﴾ فهؤلاء أهلُ فسادِ القصدِ، فهذان الأمرانِ هما المانعانِ للخلقِ مِن اتباعِ هذا الرسولِ(١).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ قال بعضُ العُلَماءِ: معنى هذه الآيةِ قَولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((إنَّما الأعمالُ بالنيَّاتِ))(٢)، وفيها دلالةٌ على أنَّ مَن صام في رمضانَ لا عن رمضانَ، لا يقَعُ عن رَمَضانَ، وعلى أنَّ من توضَّأَ للتبَرُّدِ والتنظُّفِ، لا يقَعُ قُربةً عن جهةِ الصَّلاةِ، وهكذا كلُّ ما كان في معناه(٣).

٣- قولُه تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ ﴿بَيِّنَةٍ﴾ أي: هُدَى الإيمانِ، ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ أي: القرآنُ شاهدٌ مِن الله يُوافِقُ الإيمانَ ويتبعُه؛ لذا قال: (يَتْلُوهُ)؛ لأنَّ الإيمانَ هو المقصودُ؛ لأنَّه إنَّما يُراد بإنزالِ القرآنِ الإيمانُ وزيادتُه، ولهذا كان الإيمانُ بدونِ قراءةِ القرآنِ ينفعُ صاحبَه، ويدخلُ به الجنةَ، والقرآنُ بلا إيمانٍ لا ينفعُ في الآخرةِ، بل صاحبُه منافقٌ(٤).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ لَمَّا كان كتابُ موسى سببًا للرَّحمةِ، أطلَق اسمَ الرَّحمةِ عليه إطلاقًا لاسمِ المُسبَّبِ على السَّببِ(٥).

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ قال بعضُ العُلَماءِ: لَمَّا دلَّت الآيةُ على أنَّ من يكفُر به كانت النَّارُ مَوعِدَه، دلَّ على أنَّ مَن لا

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٩٣).
(٢) أخرجه البخاري (١) واللفظ له، ومسلم (١٩٠٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٤).
(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٧١).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٣٠).

يكفُر به كانت الجنَّةُ مَوعِدَه(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾

- قوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ فيه إدخالُ (كان) عليه؛ للدَّلالةِ على استِمْرارِها منهم بحيثُ لا يَكادون يُريدون الآخِرةَ أصلًا(٢)، وفِعلُ الشَّرطِ في المَقامِ الخِطابيِّ يُفيدُ اقتِصارَ الفاعِلِ على ذلك الفِعْلِ، فالمعنى: مَن كان يُريدُ الحياةَ الدُّنْيا فقَط؛ بقرينةِ قولِه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾؛ إذْ حصَر أمْرَهم في استحقاقِ النَّارِ، وهو مَعْنى الخلودِ(٣)، وهذا على أحدِ القولينِ في الآيةِ.

- قولُه تعالى: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ فيه إطلاقُ الأعمالِ في ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ وإرادةُ ثَمراتِها؛ فالمعنى: نُوصِلُ إليهم ثَمراتِ أعمالِهم في الحياةِ الدُّنيا كامِلةً(٤).

- ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ فيه التَّعبيرُ عن النَّقصِ بالبَخْسِ- حيث قال: ﴿لَا يُبْخَسُونَ﴾ بدَلَ (لا يُنقَصون)- وإنَّما عبَّر عن ذلك بالبَخْسِ الَّذي هو نَقْصُ الحقِّ، مع أنَّه ليس لهم شائِبةُ حقٍّ فيما أُوتوه، كما عبَّر عن إعطائِه بالتَّوْفيَةِ الَّتي هي إعطاءُ الحقوقِ، مع أنَّ أعمالَهم بمَعزِلٍ عن كونِها مُستوجِبةً لذلك؛ بِناءً للأمرِ على ظاهرِ الحالِ، ومُحافَظةً على صُوَرِ الأعمالِ، ومُبالَغةً

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٥٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٩٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٩٣).

في نفْيِ النَّقْصِ؛ كأنَّ ذلك نقصٌ لحُقوقِهم، فلا يَدخُلُ تحتَ الوُقوعِ والصُّدورِ عن الكريمِ أصلًا[١].

- وكرَّرَ لفظَ (فيها) للتَّأكيدِ والإعلامِ بأنَّ الآخرةَ ليست كالدُّنيا في وفاءِ كَيلِ الجزاءِ وفي بَخسِه؛ فإنَّه فيها مَنوطٌ بأمرينِ: كسبُ الإنسانِ، ونِظامُ الأقدارِ، وقد يتعارضانِ، وأمَّا جزاءُ الآخرةِ فهو بفِعلِ اللهِ تعالى مباشرةً: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[٢] [الكهف: ٤٩].

٢- قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

- جملةُ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ مُستأنَفةٌ، ولكنَّ اسْمَ الإشارةِ ﴿أُولَئِكَ﴾ يَربِطُ بينَ الجُملتَينِ، وأُتي باسْمِ الإشارةِ؛ لِتَمييزِهم بتلك الصِّفاتِ المذكورةِ قبْلَ اسْمِ الإشارةِ. وأيضًا في اسْمِ الإشارةِ ﴿أُولَئِكَ﴾ تنبيهٌ على أنَّ المشارَ إليه استَحقَّ ما يُذكَرُ بعدَه مِن الحُكْمِ، مِن أجْلِ الصِّفاتِ الَّتي ذُكِرت قبلَ اسْمِ الإشارةِ[٣].

- وأيضًا في قولِه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ التَّعبيرُ باسْمِ الإشارةِ ﴿أُولَئِكَ﴾، وما فيه مِن مَعنى البُعدِ؛ للإيذانِ ببُعْدِ مَنزِلَتِهم في سوءِ الحالِ، أي: أولئك المُريدون للحياةِ الدُّنيا وزينَتِها المُوَفَّوْن فيها ثَمراتِ أعمالِهم مِن غَيرِ بَخْسٍ[٤].

- وفي زِيادةِ (كان) في الثاني ﴿وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ دونَ الأوَّلِ ﴿وَحَبِطَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٩٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٤١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٤، ٢٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٩٣).

﴿مَا صَنَعُوا﴾ إيماءٌ إلى أنَّ صُدورَ أعمالِ البرِّ منهم وإنْ كان لغَرَضٍ فاسدٍ، ليس في الاستمرارِ والدَّوامِ كصُدورِ الأعمالِ التي هي مِن مُقدِّماتِ مَطالبِهم الدَّنيَّة[(١)].

٣- **قوله: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾**

- قولُه: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ فيه إيرادُ الفاءِ بعدَ الهمزةِ في ﴿أَفَمَنْ﴾؛ لإنكارِ تَرتُّبِ توهُّمِ المماثَلةِ على ما ذُكِرَ مِن صِفاتِهم وعُدِّدِ مِن هَنَاتِهم؛ كأنَّه قيل: أَبَعْدَ ظُهورِ حالِهم في الدُّنيا والآخِرَةِ كما وُصِف يُتَوهَّمُ المماثَلةُ بينَهم وبينَ مَن كان على أحسَنِ ما يكونُ في العاجلِ والآجلِ[(٢)]؟!

- قولُه: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى﴾ فيه تخصيصُ التَّوراةِ بالذِّكْرِ؛ قيل: وذلك لأنَّ المِلَّتَين (اليَهودَ والنَّصارى) مُجتمِعتانِ على أنَّها مِن عندِ اللهِ، والإنجيلُ يُخالِفُ فيه اليهودُ؛ فكان الاستِشهادُ بما تقومُ به الحُجَّةُ على الفَريقين أَوْلى[(٣)]، وأيضًا لأنَّ التوراةَ هي الأصلُ، والإنجيلُ تبعٌ لها في كثيرٍ مِن الأحكامِ، وإن كان مغايرًا لبعضِها[(٤)].

- وذكرُ اسمِ الإشارةِ في قوله: ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ يُشبِهُ ذكرَ ضَميرِ الفصلِ، وفيه تَنبيهٌ على أنَّ ما بعدَه من الخبرِ مُسبَّبٌ على ما قبل اسمِ الإشارةِ من الأوصافِ، وهي كونُهم على بيِّنةٍ مِن ربِّهم مُعضَّدةٍ بشواهدَ من الإنجيلِ والتوراةِ[(٥)].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٩٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٣٥).
(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٤٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٨).

- قولُه: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ تفريعٌ على جُملةِ: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾، والخطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم، والنَّهيُ مُستعمَلٌ كنايةً تَعريضيَّةً بالكافِرين بالقُرآنِ؛ لأنَّ النَّهيَ يَقْتَضي فَسادَ المنهيِّ عنه ونَقْصَه، فمِن لَوازِمِه ذَمُّ المتلبِّسِ بالمنهيِّ عنه، ولَمَّا كان المخاطَبُ غيرَ مَظِنَّةٍ للتَّلبُّسِ بالمنهيِّ عنه فيُطلَبَ مِنه تَرْكُه، ويَكونُ النَّهيُ طلَبَ تَحصيلِ الحاصلِ، تَعيَّنَ أن يَكونَ النَّهيُ غيرَ مُرادٍ به الكَفُّ والإقلاعُ عن المنهيِّ عنه، فيكونُ مُستعمَلًا في لازِمِ ذلك بقرينةِ المَقامِ[1].

- قولُه: ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ مُستأنَفٌ تأكيدًا لِما دَلَّت عليه جُملةُ ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾، مِن أنَّه لِوُضوحِ حَقيقتِه لا يَنبَغي أن يُمتَرى في صِدْقِه، وحَرفُ التَّأكيدِ يقومُ مقامَ الأمرِ باعتقادِ حَقيَّتِه؛ لِمَا يَدُلُّ عليه التَّأكيدُ مِن الاهتمامِ[2].

- وفي قولِه: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾، اخْتيرَ النَّهيُ عن المِرْيَةِ دونَ النَّهيِ عن اعتِقادِ أنَّه كذِبٌ، كما هو حالُ المشركين؛ لأنَّ النَّهيَ عنِ الامْتِراءِ فيه يقتَضي النَّهيَ عن الجزْمِ بالكذِبِ بالأَوْلى، وفيه تعريضٌ بأنَّ ما فيه المشركون مِن اليقينِ بكَذِبِ القرآنِ أشَدُّ ذمًّا وشَناعةً[3].

- وتعريفُ ﴿الْحَقُّ﴾؛ لإفادةِ قَصْرِ جِنْسِ الحقِّ على القرآنِ، وهو قَصرُ مُبالَغةٍ لكمالِ جِنسِ الحقِّ فيه، حتَّى كأنَّه لا يوجَدُ حقٌّ غيرُه، مثلَ قولِك: حاتِمٌ الجَوادُ[4].

- وقولُه: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ استدراكٌ ناشئٌ على حُكمِ الحصْرِ؛ فإنَّ الحصْرَ يَقتَضي أن يُؤمِنَ به كلُّ مَن بلَغَه، ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يؤمنون،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٣٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٣١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وحذَف مُتعلَّقَ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾؛ لأنَّ المرادَ انتفاءُ حقيقةِ الإيمانِ عنهم في كلِّ ما طُلِب الإيمانُ به مِن الحقِّ[١].

- قولُه تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: ١٧]، فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال في آخرِ هذه السُّورةِ- بعدَ قولِه: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨]-: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ [هود: ١٠٩]، وقال في سورةِ السَّجدةِ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ﴾ [السجدة: ٢٣]، بإثباتِ نونِ (تَكُنْ)، وحذْفِها في آيتَيْ سورةِ هودٍ، ومناسَبةُ هذا الاختلافِ: أنَّ العرَبَ تصرَّفَت في (يَكونُ) عِندَ دُخولِ الجازِمِ عليها تَصرُّفًا لم تَفعَلْه في نَظائِرِها وما يُشبِهُها، فيَكونُ الوجهُ في (يكونُ) عندَ دخولِ الجازِمِ عليها تَسْكينَ النُّونِ؛ فتُحذَفُ الواوُ عندَ الْتِقاءِ السَّاكِنَينِ كما ورَد في سورةِ السَّجدةِ، إلَّا أنَّ حذْفَ النُّونِ في (يكونُ) مِن فَصيحِ كَلامِهم ما لم تَكُنْ مُتحرِّكةً، فإن كانت مُتحرِّكةً لم تُحذَفْ لِقُوَّتِها بالحرَكةِ، وإن كانت عارِضةً كقولِه تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البينة: ١]، ولا تُحذَفُ هذه إلَّا في الشِّعرِ؛ فورَد في سورةِ هودٍ على ما اعتَمَدوه مِن تخفيفِ هذا اللَّفظِ؛ لِيُناسِبَ بذلك إيجازَ الكلامِ المتعلِّقِ بقولِه: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾ [هود: ١٧]، والمتَّصِلِ به تَمامُه تمامُ مَعنى المقصودِ، وذلك قولُه: ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وكذلك قولُه في آخرِ السُّورةِ: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾ [هود: ١٠٩] إلى قولِه: ﴿غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ [هود: ١٠٩]. وورَد في سورةِ السَّجدةِ على أصْلِ الكلمةِ قبلَ حذْفِها، فقيل: ﴿فَلَا تَكُنْ﴾؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٣١).

لِيَجري ذلك مع ما ورَد في هذه السُّورةِ مِن طولِ الكلامِ المتعلِّقِ بقولِه: ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ﴾ [السجدة: ٢٣]؛ فنُوسِبَ الإيجازُ بالإيجازِ والطُّولُ بالطُّولِ[1].

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٥٣-٢٥٤).

الآيات (١٨-٢٤)

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ
وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ
(١٨) ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ (١٩)
أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَۘ
يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ (٢٠)
أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ (٢١) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ
فِي ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ (٢٢) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ
إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٢٣) ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ
كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٤) ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَصُدُّونَ﴾: أي: يُعرِضون وينصرِفون، أو يصرفون غيرَهم، والصدودُ والصَّدُّ قد يكونُ انصرافًا عن الشَّيء وامتناعًا؛ إذا كان لازمًا غير مُتعدٍّ، وقد يكونُ صرفًا ومنعًا؛ إذا كان مُتعدِّيًا بمعنى يصدُّون غيرَهم، وأصلُ (صدد): إعراضٌ وعدولٌ[١].

﴿عِوَجًا﴾: أي: زيغًا وتحريفًا وضلالًا، واعوجاجًا في الدِّين، وأصل (عوج): الميلُ في الشيءِ[٢].

﴿لا جَرَمَ﴾: أي: حقًّا، وأصلُ (جرم): قطع[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ١٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨ب/ ١٣٩).

(٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٧٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٩٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٤)، ((غريب =

﴿وَأَخْبَتُوا﴾: أي: تواضَعوا، وخَضَعوا، والإخباتُ: التواضُعُ واللِّينُ، وأصلُ (خبت): يدلُّ على خُشوعٍ[1].

مُشكِلُ الإعراب:

قوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾

﴿لَا جَرَمَ﴾: كلمةُ جزمٍ ويقينٍ جَرَت مجرى المَثَل. وفي هذا التَّركيبِ أقوالٌ: أحدها: أنَّ ﴿لَا جَرَمَ﴾ بمعنى (لا بُدَّ ولا محالةَ)، فـ (لا) نافيةٌ للجِنسِ، و(جَرَم) اسمُها مبنيٌّ على الفَتحِ في محلِّ نَصبٍ، والمصدرُ المؤوَّلُ من أنَّ ومعمولَيها في محلِّ جَرٍّ بحَرفِ جَرٍّ محذوفٍ، فيصيرُ المعنى: لا بدَّ مِن خُسرانِهم ولا محالةَ فيه. الثاني: أنَّ ﴿لَا جَرَمَ﴾ كلمةٌ واحِدةٌ مركَّبةٌ تركيبَ خَمسةَ عشَرَ، وبعد التَّركيبِ صار معناها معنى فعلٍ، وهو (حَقَّ)، والمصدرُ المؤوَّلُ من أنَّ ومعمولَيها فاعِلٌ لمَجموعِ ﴿لَا جَرَمَ﴾ لتأويله بالفعلِ (حقَّ)، وقيل: مُؤَوَّلٌ بمصدرٍ قائمٍ مقامَه، وهو (حَقًّا) فيصيرُ المعنى: حَقَّ ووجَبَ خُسرانُهم. الثالث: أنَّ (لا) نافيةٌ لكلامٍ سابقٍ مُقَدَّرٍ، والوقفُ على (لا) تامٌّ، ثم قال: (جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ)، أي: حَقَّ ووجب خُسرانُهم، وعليه فالمصدرُ المؤَوَّلُ مِن أنَّ ومَعمولَيها في محلِّ رَفعٍ فاعِلٌ لـ﴿جَرَمَ﴾. وقيل غيرُ ذلك[2].

= القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٤٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٠).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦١).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣٥٧-٣٥٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٦٩٣)، ((شرح الرضي على الكافية)) (٤/ ٣٤٧)، ((الجنى الداني في حروف المعاني)) للمرادي (ص: ٤١٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٣٠٣)، ((مغني اللبيب)) لابن هشام (ص: ٣١٤)، ((ارتشاف الضرب)) لأبي حيان الأندلسي (٣/ ١٢٦١)، =

المَعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ تعالى أنَّه لا أحدَ أظلَمُ ممَّن اختلقَ على اللهِ كذبًا، وأنَّ أولئك سيُعرَضونَ على ربِّهم يومَ القيامةِ؛ ليُحاسِبَهم على أعمالِهم، ويقولُ الأشهادُ مِن الملائكةِ والنبيِّينَ والمُؤمِنينَ: هؤلاء الذين كَذَبوا على ربِّهم في الدُّنيا، ألا لعنةُ اللهِ على هؤلاء الظَّالِمينَ الذين يَمنَعونَ النَّاسَ عن دينِ الله، ويُريدونَ أن يكونَ مائلًا، وهم كافرونَ بالآخرةِ، لا يُؤمِنونَ ببعثٍ ولا جزاءٍ. أولئك الكافرونَ لم يكونوا لِيَفوتوا اللهَ في الدُّنيا هَرَبًا، وما كان لهم مِن أنصارٍ يَمنَعونَهم مِن عِقابِه، يُضاعَفُ لهم العذابُ في جهنَّمَ؛ فقد كانوا لا يَستطيعونَ أن يسمَعوا القرآنَ سَماعَ مُنتَفِعٍ، أو يُبصِروا آياتِ اللهِ في هذا الكونِ إبصارَ مُهتَدٍ. أولئك الذين خَسِروا أنفُسَهم بافترائِهم على اللهِ، وذهب عنهم ما كانوا يفترونَ مِن الآلهةِ التي يدَّعونَ أنَّها تشفَعُ لهم. حقًّا أنَّهم في الآخرةِ أخسَرُ النَّاسِ صَفقةً؛ لأنَّهم استبدلوا الدَّرَكاتِ بالدَّرَجاتِ، فكانوا في جهنَّم، وذلك هو الخُسرانُ المُبينُ.

إنَّ الذين آمنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحةَ، وخَضَعوا لله وخَشَعوا، أولئك هم أهلُ الجنَّة، لا يموتونَ فيها، ولا يُخرجونَ منها أبدًا.

ثمَّ ضرَب الله مَثلًا لفريقِ الكافرينَ ولفريقِ المؤمنينَ، فقال: مثَلُ فريقَي الكُفرِ والإيمانِ كمَثَلِ الأعمى الذي لا يرى، والأصَمِّ الذي لا يسمَعُ، والبصيرِ والسَّميعِ: ففريقُ الكُفرِ لا يُبصِرُ الحَقَّ فيَتَّبِعَه، ولا يسمَعُ داعيَ اللهِ فيهتديَ به، أمَّا فريقُ الإيمانِ فقد أبصر الحَقَّ، وسَمِعَ داعيَ اللهِ فأجابه، هل يستوي هذان الفَريقانِ؟ أفلا تَعتَبِرونَ وتتفكَّرونَ؟

= ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٣٨).

تَفسيرُ الآيات:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ الكُفَّارَ كانت لهم عاداتٌ كثيرةٌ، وطُرُقٌ مُختَلِفةٌ، فمنها شِدَّةُ حِرصِهم على الدُّنيا، ورغبتُهم في تَحصيلِها، وقد أبطلَ اللهُ هذه الطَّريقةَ بقَولِه تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا...﴾ [هود: ١٥]، ومنها أنَّهم كانوا يُنكِرونَ نبُوَّةَ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، ويَقدَحونَ في مُعجِزاتِه، وقد أبطلَ اللهُ تعالى ذلك بِقَولِه تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ...﴾ [هود: ١٧]، ومنها أنَّهم كانوا يَزعُمونَ في الأصنامِ أنَّها شُفَعاؤهم عند الله، وقد أبطل اللهُ تعالى ذلك بهذه الآيةِ؛ وذلك لأنَّ هذا الكلامَ افتراءٌ على اللهِ تعالى، فلمَّا بيَّنَ وعيدَ المُفتَرينَ على الله، فقد دخل فيه هذا الكلامُ[(١)].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا سبق قَولُهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ ذكَرَ أنَّه لا أحدَ أظلَمُ ممَّن افترى على اللهِ كَذِبًا، وهم المُفتَرون الذين نَسَبوا إلى اللهِ الولَدَ، واتَّخذوا معه آلهةً، وحَرَّموا وحَلَّلوا من غيرِ شَرعِ اللهِ[(٢)].

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾.

أي: لا أحدَ أظلَمُ ممَّن اختلقَ على اللهِ الكَذِبَ، كمن زعم أنَّ لله ولدًا، أو شريكًا في العبادةِ أو التَّشريعِ، أو نسَبَ القُرآنَ لِغَيرِ اللهِ، أو ادَّعى النبُوَّةَ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٣١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٣٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٣٢).

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وقال سُبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الصف: ٧].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾.

أي: أولئك- الذين يَفتَرونَ على اللهِ الكَذِبَ- يُعرَضونَ يومَ القيامةِ على اللهِ، فيُحاسِبُهم على أعمالِهم، ويُجازيهم بظُلمِهم(١).

﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾.

أي: ويقولُ الملائكةُ والأنبياءُ والمُؤمنونَ يومَ القيامةِ: هؤلاء الذين كَذَبوا في الدُّنيا على ربِّهم(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٦٦)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٩).

وممن اختار أنَّ الأشهادَ هم الملائكةُ والأنبياءُ والمؤمنونَ: الواحديُّ، ومحمد رشيد رضا. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥١٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٤٧).

وقيل: الأشهادُ هم الملائكةُ والأنبياءُ. وممن قال بذلك: ابنُ جريرٍ، والزمخشري. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٦٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٨٥).

وقيل: هم الملائكةُ والأنبياءُ والجوارحُ. وممن قال بذلك: القاسمي. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٨٤).

وقيل: هم الأنبياءُ والمؤمنون. وممن ذهب إلى ذلك: الزجاجُ. يُنظر: ((معاني القرآن)) (٣/ ٤٤).

وقيل: هم الملائكةُ. وممن اختار ذلك: ابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٣٣).

وقال أبو حيان: (الأشهادُ الملائكةُ الذين يحفظونَ عليهم أعمالَهم في الدُّنيا، أو الأنبياءُ، أو هما والمؤمنون، أو ما يشهدُ عليهم مِن أعضائِهم). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٣٦).

وقال ابنُ كثيرٍ: (يبينُ تعالى حالَ المفترين عليه وفضيحتَهم في الدارِ الآخرةِ على رؤوسِ =

عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما، قال: سمعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((يُدنَى المؤمِنُ يومَ القيامةِ مِن رَبِّه عزَّ وجلَّ، حتى يضعَ عليه كنَفَه[1]، فيقَرِّرُه بذُنوبه، فيقولُ: هل تَعرِفُ؟ فيقولُ: أي ربِّ، أعرِفُ. قال: فإنِّي قد سَترتُها عليك في الدُّنيا، وإنِّي أغفِرُها لك اليومَ، فيُعطَى صحيفةَ حَسَناتِه، وأمَّا الكُفَّارُ والمُنافِقونَ فيُنادَى بهم على رؤوسِ الخلائقِ: هؤلاء الذين كَذَبوا على اللهِ))[2].

﴿ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

أي: ألا سخَطُ اللهِ الدَّائمُ وإبعادُه مِن رَحمتِه، على المُعتَدينَ الذين وَضَعوا العبادةَ في غيرِ مَوضِعِها[3].

﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ١٩ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ الكافرينَ كما ظَلَموا أنفُسَهم بالتزامِ الكُفرِ والضَّلالِ، فقد أضافوا إليه المَنعَ مِن الدِّينِ الحَقِّ، وإلقاءَ الشُّبُهاتِ، وتعويجَ الدَّلائلِ المُستَقيمةِ[4].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا ذكَر تعالى الظَّالمين، وصَفَ ظُلمَهم، فقال[5]:

﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا ﴾.

أي: الذين يَردُّونَ النَّاسَ عن دينِ اللهِ، ويمنعونَهم مِن الدخولِ فيه، ويُريدونَ

= الخلائقِ؛ مِن الملائكةِ، والرسلِ، والأنبياءِ، وسائرِ البشرِ والجانِّ. ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٣).

(١) كَنَفَه: أي: حِفْظَه وسِتْرَه. يُنظر: ((شرح البخاري)) للقسطلاني (٤/ ٢٥٤).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٨٥) ومسلم (٢٧٦٨)، واللفظ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٠/ ٤٥٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٧٩).

أن يكونَ دينُ اللهِ مائلًا زائغًا عن الحَقِّ، ويُنفِّرونَ النَّاسَ عنه، ويُزيِّنون لهم الباطِلَ[١].

﴿وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

أي: والحالُ أنَّهم مكذبونَ بيَومِ القِيامةِ، منكرونَ لوقوعِه، لا يُؤمنون بالبَعثِ بعد الموتِ[٢].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا هدَّد تعالى الكافرينَ بأمورِ الآخرةِ، أشار إلى بيانِ قُدرتِه على ذلك في الدَّارينِ[٣].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: أولئك الكُفَّارُ لا يُعجِزونَ اللهَ في الأرضِ بالهَرَبِ إن أراد عذابَهم في الدُّنيا؛ فهم في مُلكِه، وتحتَ قَهرِه وتَصَرُّفه[٤].

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾.

أي: ولم يكُنْ لهم- إذا جاءهم العذابُ- أنصارٌ مِن دونِ اللهِ ينصُرونَهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٩).

وذكَر القرطبيُّ والسعدي أنَّهم يصدُّون أنفسَهم عن سبيلِ الله، ويصدون غيرَهم عنها.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٥٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٩).

ويَدفَعونَ عنهم عذابَه[١].

﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾.

أي: يُزادُ في عذابِهم، ويُغلَّظُ عليهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

وقال سُبحانه: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾.

أي: ما كانوا يستطيعونَ سَماعَ الحَقِّ سَماعَ انتفاعٍ به، ولا يُبصِرونَه إبصارَ مُهتَدٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٧٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٣٥، ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٧٠، ٣٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٩، ٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٧٥).
قال ابنُ كثيرٍ: (أي: يُضاعَفُ عليهم العذابُ، وذلك لأنَّ الله تعالى جعَل لهم سمعًا، وأبصارًا، وأفئدةً، فما أغْنَى عنهم سمعُهم، ولا أبصارُهم، ولا أفئدتُهم مِن شيءٍ، بل كانوا صمًّا عن سماعِ الحقِّ، عُميًا عن اتِّباعِه). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٤).
وفي قولِه تعالى: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾ أوجهٌ:
منها: أنَّ عدمَ الاستطاعةِ المذكور في الآية إنَّما هو لاشتغالِهم بالكفرِ الذي كانوا عليه مقيمينَ عن استعمالِ جوارِحِهم في طاعةِ الله تعالى. وممَّن اختاره: ابنُ جريرٍ في ((تفسيره)) (١٢/ ٣٧١).
ومنها: أنَّ عدمَ الاستطاعةِ المذكورَ في الآيةِ إنَّما هو للختمِ الذي ختَم الله على قلوبِهم وأسماعِهم، والغشاوةِ التي جعَل على أبصارِهم. وممَّن اختاره: الشنقيطي في ((أضواء البيان)) (٢/ ١٧٥).
ومنها: أنَّ المعنى: ما كانوا يستطيعونَ السَّمعَ، أي: لشدةِ كراهيتِهم لكلامِ الرسلِ، على عادةِ =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٦ – ٧].

وقال سُبحانه: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يونس: ٤٢ – ٤٣].

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٢١ ﴾.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ﴾.

أي: هؤلاء- الذين تلك صفاتُهم- همُ الذينَ أضاعوا حظَّ أنفُسِهم من الثَّوابِ، وأهلَكوها بالعَذابِ[1].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴾.

أي: اضمحلَّ دينُهم الذي كانوا يَدعونَ إليه، وبطَل كَذِبُهم وفريتُهم على الله بادِّعائِهم له شُركاءَ، وذَهَبتْ عنهم آلهتُهم التي عبَدوها مِن دونِ الله، ولم تُغنِ

= العربِ في قولِهم: لا أستطيعُ أن أسمعَ كذا: إذا كان شديدَ الكراهيةِ والبغضِ له، وممَّن اختاره: الزجاجُ، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٩).

وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٥٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٧٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٩).

عنهم شيئًا[١].

كما قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١-٨٢].

وقال سُبحانه: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦].

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: حقًّا وصِدقًا أنَّهم يومَ القيامةِ هم أخسَرُ النَّاسِ؛ لاستبدالِهم دَركاتِ النَّارِ بمنازِلِ الجنَّةِ[٢].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى حالَ الأشقياءِ، ثنَّى بذِكرِ السُّعَداءِ، فقال تعالى[٣]:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾.

أي: إنَّ الذين آمَنوا بما وجَب عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحاتِ- فأتَوا بالطَّاعاتِ، وترَكوا المُنكَراتِ- وتواضَعوا لله وخَشَعوا واطمأنُّوا إليه[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٧٣، ٣٧٥)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٥، ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٠).

كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ * الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [الحج: ٣٤-٣٥].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

أي: أولئك أهلُ الجنَّةِ، هم فيها لابِثونَ أبدًا، لا يُخرَجونَ منها ولا يموتونَ(١).

﴿مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه بعدَ أن تبيَّنَ الاختلافُ بينَ حالِ المُشرِكينَ المُفتَرينَ على اللهِ كَذِبًا، وبين حالِ الذين آمنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ في منازِلِ الآخرةِ؛ أعقبَ ببيانِ التَّنظيرِ بين حالَيِ الفَريقَينِ: المُشرِكينَ والمؤمنينَ، بطريقةِ تَمثيلِ ما تستحِقُّه مِن ذَمٍّ ومدحٍ(٢).

﴿مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾.

أي: مثَلُ الكافرينَ والمؤمنينَ كمَن لا يرى ولا يسمَعُ، ومَن يرَى ويسمَعُ؛ فالكافِرُ لا يرى الحقَّ فيهتديَ به، ولا يسمَعُ الحقَّ سماعًا ينتَفِعُ به، والمؤمِنُ يرى الحقَّ ويتَّبِعُه، ويَسمَعُه، وينتَفِعُ به(٣).

﴿هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٧٦، ٣٧٧)، ((الأمثال في القرآن)) لابن القيم (ص: ١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٤٢).

أي: هل يستوي هذان الفَريقانِ عندكم، أيُّها النَّاسُ؟! فكذلك الكافِرُ والمؤمِنُ، لا يستويان عند اللهِ، أفلا تَعتَبِرونَ وتتفكَّرونَ في حالِ الكافرينَ والمؤمنينَ، فتترُكوا الكُفرَ والعِصيانَ، وتُؤمِنوا باللهِ وتَعمَلوا الصَّالحاتِ(١)؟

كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ * وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ [فاطر: ١٩-٢٢].

وقال سُبحانه: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥-٣٦].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، قَولُه تعالى: ﴿وَأَخْبَتُوا﴾ فيه إشارةٌ إلى أعمالِ القُلوبِ، وهي الخُشوعُ والخضوعُ لله تعالى، وأنَّ هذه الأعمالَ الصَّالحةَ لا تنفَعُ في الآخرةِ إلَّا بحُصولِ أعمالِ القَلبِ، وهي الخُشوعُ والخُضوعُ(٢).

٢- قال الله تعالى: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ عدَمُ هذه الاستطاعةِ كان بتَفريطِه وعُدوانِه، ومَن كان تَركُه للمأمورِ بذَنبٍ منه، أو صَيرورتُه إلى المحظورِ بذَنبٍ منه؛ لم يكُن ذلك مانعًا مِن ذَمِّه وعقابِه(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٥٢).

(٣) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٢٤٦).

٣- قال الله تعالى: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ وعدمُ الاستطاعةِ هنا- على أحدِ الأوجهِ- إنَّما هو للختمِ على قلوبِهم وأسماعِهم، والغشاوةِ التي جُعِلت على أبصارِهم، وذلك الخَتمُ والأكِنَّةُ على القلوبِ جزاءٌ مِن اللهِ تعالى لهم على مبادَرتِهم إلى الكُفرِ، وتكذيبِ الرُّسُلِ باختيارِهم ومَشيئتِهم، كما دلَّت عليه آياتٌ كثيرةٌ، كقولِه تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥]، وقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقولِه تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]، وقولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٥]، وقولِه تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:١١٠]، إلى غيرِ ذلك من الآياتِ(١).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ جاء ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ليُنَبِّهَ على أنَّه يمكِنُ زوالُ هذا العمَى وهذا الصَّمَم، فيجبُ على العاقِلِ أن يتذكَّرَ ما هو فيه، ويسعَى في هدايةِ نَفسِه(٢).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فيه دَلالةٌ على أنَّ الافتراءَ على اللهِ تعالى أعظَمُ أنواعِ الظُّلمِ(٣).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٧٥-١٧٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٣٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٣١).

عَلَى رَبِّهِمْ﴾ خَصَّهم بهذا العَرضِ - وإن كان العَرضُ عامًّا في كلِّ العِبادِ - لأنَّهم يُعرَضونَ فيُفتَضَحونَ بأنْ يقولَ الأشهادُ عند عَرضِهم: ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ فيلحَقُهم مِن الخزيِ والنَّكالِ ما لا مَزيدَ عليه(١).

٣- قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ....﴾ هذه الآياتُ، وإن كانت في حَقِّ المُشرِكينَ والكُفَّارِ، فإنَّها مُتَناوِلةٌ لِمَن كذَبَ على اللهِ في توحيدِه ودينِه وأسمائِه وصِفاتِه وأفعالِه، ولا تتناوَلُ المُخطِئَ المأجورَ إذا بذَلَ جُهدَه، واستفرغَ وُسعَه في إصابةِ حُكمِ اللهِ وشَرعِه؛ فإنَّ هذا هو الذي فرَضَه اللهُ عليه، فلا يتناوَلُ المطيعَ للهِ وإن أخطأ(٢).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ الفائِدةُ في إخبارِ الأشهادِ بما اللهُ يَعلَمُه: تعظيمُ الأمرِ على المشهودِ عليه، وحَسمُ طَمَعِه مِن أن يَجِدَ سبيلًا إلى التخلُّصِ، بمُجاحَدةٍ أو مُدافعةٍ، وقيل: هو توبيخٌ لهم مِن الشُّهَداءِ، وهَتكُ سِترِهم، وإظهارُ فَضيحتِهم(٣).

٥- الكَذِبُ على الله أشدُّ مِن الكَذِبِ على المَخلوقينَ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾(٤).

٦- أهلُ العِلمِ يَختارونَ فيمن عُرِفَ بالظُّلمِ ونَحوِه مع أنَّه مُسلِمٌ له أعمالٌ صالحةٌ في الظَّاهِرِ- كالحجَّاجِ بنِ يوسفَ وأمثالِه - أنَّهم لا يَلعَنونَ أحدًا منهم بعَينِه، بل يقولونَ كما قال الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ فيَلعنونَ مَن لعَنَه اللهُ ورسولُه عامًّا، ولا يلعنونَ المعَيَّنَ، فقد ثبَت: ((أنَّ رَجُلًا كان

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٠/ ٤٥٩).
(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/ ١٣٣).
(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٧٩- ٣٨٠).
(٤) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٢/ ٤٢٨).

يُدعَى حمارًا، وكان يشرَبُ الخمرَ، وكان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يجلِدُه، فأُتِيَ به مرَّةً فلَعَنَه رجلٌ، فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لا تلعَنْه؛ فإنَّه يحِبُّ اللهَ ورَسولَه))[1]؛ وذلك لأنَّ اللَّعنةَ مِن بابِ الوعيدِ، والوعيدُ العامُّ لا يُقطَعُ به للشَّخصِ المُعَيَّنِ؛ لأحدِ الأسبابِ المذكورةِ: من توبةٍ، أو حسَناتٍ ماحيةٍ، أو مصائِبَ مُكَفِّرةٍ، أو شفاعةٍ مَقبولةٍ، وغيرِ ذلك[2].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ الأرضُ: الدُّنيا، وفائدةُ ذِكرِها أنَّهم لا ملجأَ لهم مِن اللهِ لو أراد الانتقامَ منهم، فلا يجِدونَ مَوضِعًا من الأرضِ يَستَعصِمونَ به، فهذا نفيٌ للملاجئِ والمعاقِلِ التي يستعصِمُ فيها الهارِبُ[3].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ذكَرَ المؤمنينَ، ووصَفَهم بالإيمانِ، والعَمَلِ الصَّالحِ، والإخباتِ إلى ربِّهم، فوصَفَهم بعبوديَّةِ الظَّاهِرِ والباطِنِ[4].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾

- جملةُ ﴿أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ﴾ مُستأنَفةٌ، وتصديرُها باسمِ الإشارةِ ﴿أُولَئِكَ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّهم أَحْرياءُ بما سَيَرِدُ بعدَ اسْمِ الإشارةِ مِن الخبَرِ؛ بسبَبِ ما قبْلَ اسْمِ الإشارةِ مِن الوصفِ[5]، وفيه أيضًا أنَّ عَرْضَهم على ربِّهم

(١) أخرجه البخاري (٦٧٨٠) بنحوه.

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٧/ ٤٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٣٥).

(٤) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١١٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٣٢-٣٣).

عرضُ زجرٍ وانتقامٍ؛ وذلك لِمَا يُؤْذِنُ به اسْمُ الإشارةِ مِن مَعنى تعليلِ ما قَبْلَه فيما بعدَه[١].

- وقولُه: ﴿هَؤُلَاءِ﴾ فيه إشارةٌ إلى تَحقيرِهم وإصغارِهم بسوءِ مُرتكَبِهم[٢].

- قولُه: ﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ في الإتيانِ بالموصولِ ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ في الخبَرِ عنهم: إيماءٌ إلى سبَبيَّةِ ذلك الوصفِ الَّذي في الصِّلَةِ- وهو الكَذِبُ على ربِّهم- فيما يَرِدُ عليهم من الحُكمِ، وهو ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[٣].

- قولُه: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ فيه الافتتاحُ بحرفِ التَّنبيهِ ﴿أَلَا﴾؛ وذلك مُناسَبةٌ لِمَقامِ التَّشهيرِ، والخبرُ هنا مُستعمَلٌ في الدُّعاءِ؛ خِزيًا وتَحقيرًا لهم[٤].

٢- قولُه تعالى: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾

- فيه مُناسَبةٌ حسنةٌ، حيثُ اختُصَّتْ هذه الآيةُ على نَظيرَتِها في الأعرافِ، وهي قولُه: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٥]- بزيادَةِ (هُمْ) في قولِه: ﴿هُمْ كَافِرُونَ﴾، وهو توكيدٌ يُفيدُ تَقوِّيَ الحُكْمِ؛ لأنَّ المقامَ هنا مقامُ تسجيلِ إنكارِهم البَعْثَ وتَقريرِه؛ إشعارًا بما يَترقَّبُهم مِن العقابِ المناسِبِ؛ فحُكي به مِن كَلامِ الأشهادِ ما يُناسِبُ هذا، وما في سورةِ الأعرافِ حكايةٌ لِمَا قيل في شأنِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٣٢-٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٣٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٣٣).

قوم أُدخِلوا النَّارَ، وظهَر عِقابُهم، فلا غرَضَ لحِكايةِ ما فيه تأكيدٌ مِن كلام الأشهادِ، وكِلا المَقالَين واقعٌ؛ وإنَّما يَحكي البليغُ فيما يَحْكيه ما له مُناسَبةٌ لِمَقام الحِكايةِ(١).

٣- قولُه تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ استِئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن الاقتِصارِ في تَهْديدِهم على وصْفِ بعضِ عِقابِهم في الآخِرَةِ؛ فإنَّ ذلك يُثيرُ في نَفْسِ السَّامعِ أن يَسألَ: هل هم سالِمون مِن عذابِ الدُّنيا؟ فأُجيبَ بأنَّهم لم يَكونوا مُعجِزين في الدُّنيا، أي: لا يَخرُجون عن مَقدِرةِ اللهِ على تَعذيبِهم في الدُّنيا إذا اقتَضَتْ حِكمتُه تَعجيلَ عَذابِهم(٢).

- وإعادةُ الإشارةِ إليهم بقولِه: ﴿أُولَئِكَ﴾ بعدَ أن أُشيرَ إليهم بقولِه: ﴿أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ﴾ [هود: ١٨]؛ لتقريرِ فائدةِ اسمِ الإشارةِ السَّابقِ(٣).

- وقولُه: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾ كنايةٌ عن عدَمِ قَبولِهم للحَقِّ، ونفيُ الاستطاعةِ أعرَقُ في العَيبِ، وأدَلُّ على النَّقصِ، وأنكى مِن نفيِ السَّمعِ؛ لأنَّهم قد يَحمِلونَه على الإجابةِ(٤).

- قولُه: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ فيه تشبيهٌ تمثيليٌّ؛ لأنَّه تشبيهُ مركَّبٍ بمركَّبٍ، شبَّهَهم في فرْطِ تَصامِّهم عن استماعِ الحقِّ، ونُبُوِّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٣٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٣٣).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٥٨).

أسماعِهم عنه بمَن لا يَستَطيعُ السَّمعَ، وفي إعراضِهم عن نُذُرِ الآياتِ بأنَّ أبصارَهم لم تَنفَعْهم، فكأنَّهم لم يُبصِروا[(١)].

- ولمَّا كان قُبحُ حالِهم في عدم إذعانِهم للقرآن الذي طريقُ تلقِّيه السمعُ أشدَّ منه في عدمِ قَبولِهم لسائرِ الآياتِ المنوطةِ بالإبصارِ؛ بالغَ في نفْيِ الأولِ عنهم حيثُ نفَى عنهم الاستطاعةَ، واكتفَى في الثاني بنَفْيِ الإبصارِ[(٢)]. وقيل: لأنَّ الإبصارَ المنفيَّ هو النظرُ في المصنوعاتِ الدالةِ على الوحدانيةِ، أي: ما كانوا يُوجِّهون أنظارَهم إلى المصنوعاتِ توجيهَ تأملٍ واعتبارٍ، ولذلك لم يقلْ هنا: (وما كانوا يَسْتطيعونَ أن يُبْصِروا)؛ لأنَّهم كانوا يُبصرونَها، ولكنَّ مجرَّدَ الإبصارِ غيرُ كافٍ في حُصولِ الاستِدْلالِ حتَّى يُضَمَّ إليه عمَلُ الفِكْرِ، بخلافِ السَّمعِ في قولِه: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾[(٣)].

- والإتيانُ بأفعالِ الكَوْنِ في هذه الجُمَلِ أربعَ مرَّاتٍ ابتداءً مِن قولِه: ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ﴾ إلى قولِه: ﴿وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾؛ لإفادةِ ما يَدُلُّ عليه فعلُ الكَونِ مِن تَمكُّنِ الحدَثِ المخبَرِ به؛ فقولُه: ﴿لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ﴾ آكَدُ مِن: (لا يُعجِزون)، وكذلك أخَواتُه[(٤)].

٤- قولُه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾

- قولُه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ استِئْنافٌ، واسمُ الإشارةِ ﴿أُولَئِكَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- مع الحاشية)) (٢/ ٣٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٣٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ٣٣١- ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) ٤/ ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٣٦-٣٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٣٧).

هنا تأكيدٌ ثانٍ لاسمِ الإشارةِ في قولِه: ﴿أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ﴾(١) [هود: ١٨].

- قولُه تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ فيه إسنادُ الضَّلالِ إلى الأصنامِ؛ تَهكُّمًا على أصحابِها، حيث شُبِّهَت أصنامُهم بمن سلَك طَريقًا لِيَلحَقَ بمَن استَنْجَد به، فضَلَّ في طَريقِه(٢).

٥- قولُه: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ جملةٌ مُستأنَفةٌ، وهي فَذْلَكةٌ(٣) ونَتيجةٌ للجُمَلِ المتقدِّمةِ مِن قولِه: ﴿أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ﴾؛ لأنَّ ما جُمِع لهم مِن الزَّجِّ للعُقوبةِ، ومِن افتِضاحِ أمْرِهم، ومِن إعراضِهم عَن استِماعِ النُّذُرِ، وعن النَّظَرِ في دَلائلِ الوحدانيَّةِ يُوجِبُ اليَقينَ بأنَّهم الأخسَرون في الآخِرةِ(٤).

- والضَّميرُ في ﴿هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ ضميرُ فصْلٍ يُفيدُ القَصْرَ، وهو قصرٌ ادِّعائيٌّ(٥)؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٣٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) الفَذْلَكة: كلمةٌ منحوتةٌ كالبَسملةِ والحوقلةِ، من قولهم: (فذَلِك كذا)، ومعناها: ذكرُ مُجمَل ما فُصِّل أولًا وخلاصته. وقد يُراد بالفذلكة النتيجة لِمَا سبَق من الكلام، والتفريع عليه، ومنها فذلكة الحساب، أي: مُجمَل تفاصيله، وإنهاؤه، والفراغ منه، كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ بعدَ قوله: ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨ - ٦٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٣٨).

(٥) القصر في اصطلاح البلاغيين: هو تخصيصُ شيءٍ بشيءٍ وحصرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأولُ: مقصورًا، والثاني: مقصورًا عليه، مثل: إنما زيدٌ قائمٌ، و: ما ضربتُ إلَّا زيدًا. وينقسمُ إلى قصرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادعائيٍّ، وقَصْرِ قَلْبٍ: فالحقيقي: هو أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ والواقعِ، بألَّا يتعدَّاه إلى غيره أصلًا، مِثل: لا إله إلا الله، حيثُ قُصِر وصفُ الإلَهيَّة الحقِّ على موصوفٍ هو الله وحده، وهذا مِن قصرِ الصِّفة على الموصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. والادِّعائي: ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مبنيًّا على الادِّعاء والمبالغةِ، بتنزيلِ غيرِ المذكورِ منزلةَ العدمِ، وقصرِ الشيءِ على المذكورِ وحْدَه. يُنظر: ((مفتاح =

لأنَّهم بلَغوا الحَدَّ الأقصى في الخَسارةِ، فكأنَّهم انفَردوا بالأخسَريَّةِ[1].

- وفيه مناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال اللهُ تعالى هنا: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ [هود: ٢٢]، وقال في سورةِ النَّحلِ: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [النحل: ١٠٩]؛ فخَصَّ سورةَ هودٍ بـ(الأَخْسَرون)، وسورةَ النَّحلِ بـ(الخاسِرون)، ووجهُ هذا الاختلافِ: أنَّ الآيةَ الَّتي في سورةِ هودٍ قد تَقدَّمَها قولُه: ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠]، وإنَّما قال: ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾؛ لأنَّه خبَرٌ عن قومٍ أخبَرَ عنهم بالفِعلِ الَّذي استَحَقُّوا به مُضاعَفةَ العذابِ في قولِه تعالى: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [هود: ١٩]، فإذا صُدُّوا هم عن الدِّينِ صُدودًا، وصَدُّوا غيرَهم عنه صَدًّا استحَقُّوا مُضاعَفةَ العذابِ؛ لأنَّهم ضَلُّوا وأضَلُّوا، فهذا لـ(الأَخْسرون) دونَ (الخاسِرون) مِن طريقِ المعنى، وهاهنا ما يُضامُّه من طريقِ اللَّفظِ، وهو أنَّ ما قبْلَه مِن الفَواصِلِ ﴿يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠]، ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [هود: ٢١]؛ فاجتِماعُ المعنى والتَّوفِقَةِ بينَ الفواصِلِ أوْجَبَا اختِيارَ (الأَخْسَرون) في هذا الموضِعِ على (الخاسِرون). وأمَّا في سورةِ النَّحْلِ فإنَّ الآيةَ لم يُخبِرْ فيها عن الكفَّارِ بأنَّهم معَ ضَلالِهم أضَلُّوا مَن سِواهم، وإنَّما قال فيهم: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [النحل: ١٠٧]، فلم يَذكُرْ ما يُوجِبُ مُضاعَفةَ العذابِ، ثمَّ كانت الفَواصِلُ

= العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨)، و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجرجاني (١/ ١٧٥-١٧٦)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧ - ١٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٣٩).

الَّتي حُمِلَت هذه عليها وزانَ (الكافِرينَ) و(الغافِلينَ)؛ فاقتَضى هذانِ الشَّيئانِ أن يُقالَ: ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾، كما اقْتَضى السَّبَبانِ في الأُولَى المخالِفانِ للسَّببَينِ هُنا أنْ قال: ﴿الْأَخْسَرُونَ﴾[1].

وفيه وجهٌ آخَرُ: وهو أنَّ آيةَ هودٍ تقدَّمَها ما يُفهِمُ المفاضَلةَ؛ فقولُه تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ...﴾ الآيةَ [هود: ١٧]، يُفهَمُ مِنه: أفَمَن كان على بيِّنةٍ مِن ربِّه كمَن كفَر وجحَد وكذَّب الرُّسلَ؟ ثمَّ أتبَعَ هذا بقولِه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [هود: ١٨]؛ فهذا صَريحُ مُفاضَلةٍ، ثمَّ استَمرَّتِ الآياتُ في وصْفِ مَن ذُكِر، واستَمرَّ ذِكرُهم إلى قولِه: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾؛ فناسَب لَفظُ (الأَخسَرون) بصيغةِ التَّفْضيلِ، ولو ورَد هنا ﴿الْخَاسِرُونَ﴾ مَكانَ ﴿الْأَخْسَرونَ﴾ لتَنافَى النَّظْمُ، وتَبايَنَ السِّياقُ ولم يتَناسَبْ. وأمَّا آيةُ النَّحلِ فلم يقَعْ قَبْلَها (أفعَلُ) الَّتي للمُفاضَلةِ والتَّفاوُتِ، ولا ما يُفهِمُهما، وإنَّما قَبْلَها: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النحل: ١٠٤-١٠٥]، وبعدَ هذا: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [النحل: ١٠٧]، وبعدَ هذا: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [النحل: ١٠٨]؛ فجاءت هذه الفَواصِلُ مُتَّفِقةً في اسْمِ الفاعِلِ المجموعِ جمْعَ السَّلامةِ، إلى أن خَتَم وصْفَهم وما قصَد مِن ذِكْرِهم بقولِه: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [النحل: ١٠٩]؛ فتناسبَت الآيُ في السِّياقِ والفَواصلِ، وخُتِمَت بمِثلِ ما به بُدِئَت، ولم يَكُن ليناسِبَ ما ورَد هنا لفْظُ المفاضلةِ؛ إذ ليس في الكلامِ ما يَستَدْعي ذلك لا مِن لَفْظِه ولا مَعناه[2].

٦- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٧٥٣-٧٥٥)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٤٣-١٤٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٥٤-٢٥٥).

أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ جملةٌ مُستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ النُّفوسَ تَشرئبُّ عندَ سماعِ حُكمِ الشَّيءِ إلى معرفةِ حُكمِ ضِدِّه، وجملةُ ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ مُستأنَفةٌ لبيانِ ما قبلَها؛ فمَنزلتُها منزلةُ عطفِ البيانِ، ولا تُعرَبُ في موضعِ خبَرٍ ثانٍ عن اسْمِ الإشارةِ ﴿أُولَئِكَ﴾[(١)].

- تعديةُ (الخَبْتِ)- وهو التَّواضُعُ- بـ (إلى) في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ تَضمينٌ لمعنى الطُّمأنينةِ والإنابةِ والسُّكونِ إلى اللهِ عزَّ وجَلَّ[(٢)].

٧- قولُه تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾

- الجملةُ فَذلكةٌ لما تقدَّم مِن بيانِ الاختلافِ بينَ حالِ المشركينَ والمؤمنينَ في منازلِ الآخرةِ، وتحصيلٌ له، وللتَّحذيرِ مِن مُواقعةِ سَبَبِه[(٣)].

- فيه تشبيهٌ؛ حيثُ شبَّه حالَ الفَريقَين- المشركين والمؤمِنين- بحالِ الأعمى الأصمِّ مِن جهةٍ، وحالِ البصيرِ السَّميعِ من الجهةِ الأخرى؛ فَشَبَّه حالَ فريقِ الكفَّارِ في عدَمِ الانتفاعِ بالنَّظرِ في دلائلِ وَحْدانيَّةِ اللهِ الواضحةِ مِن مَخلوقاتِه بحالِ الأعمى، وشَبَّههم في عدَمِ الانتفاعِ بأدلَّةِ القرآنِ بحالِ مَن هو أصَمٌّ، وشبَّه حالَ فَريقِ المؤمِنين في ضدِّ ذلك بحالِ مَن كان سَليمَ البصَرِ، سَليمَ السَّمعِ؛ فهو في هُدًى ويقينٍ مِن مُدرَكاتِه، وترتيبُ الحالَين المشبَّهِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٣٩- ٤٠).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٤٠).

بهما في الذِّكْرِ على ترتيبِ ذِكْرِ الفَريقين فيما تقدَّم- يُنبِئُ بالمرادِ من كلِّ فريقٍ على طَريقةِ النَّشرِ المرتَّبِ[١]، فشبَّه فريقَ الكافرين بالأعمَى والأصَمِّ، وفريقَ المؤمِنين بالبصيرِ والسَّميعِ، وهو مِن اللَّفِّ والطِّباقِ، ومِن بابِ تَشْبيهِ اثنَينِ باثنَين؛ فقُوبِلَ الأعمى بالبصيرِ وهو طباقٌ، وقوبِلَ الأصَمُّ بالسَّميعِ وهو طِباقٌ أيضًا، والعَمى والصَّمَمُ آفَتان تَمنَعانِ مِن البصَرِ والسَّمعِ، وليسَتا بضِدَّين؛ لأنَّه لا تَعاقُبَ بينَهما، ويحتملُ أن يَكونَ مِن تشبيهِ واحدٍ بوصفَيْهِ بواحدٍ بوصْفَيه، فيكونَ مِن عطْفِ الصِّفاتِ، ولم يَجِئِ التَّركيبُ: (كالأَعْمى والبصيرِ، والأصَمِّ والسَّميعِ)، فيكونُ مُقابَلةً في لفظِ الأعمَى وضدِّه، وفي لفظةِ الأصَمِّ وضدِّه؛ لأنَّه تعالى لَمَّا ذكَر انْسِدادَ العينِ؛ أتْبَعَه بانسدادِ السَّمعِ، ولَمَّا ذكَرَ انفِتاحَ البصَرِ أتْبعَه بانفِتاحِ السَّمعِ؛ وذلك هو الأسلوبُ في المقابَلةِ، والأتَمُّ في الإعجازِ[٢].

- وجملةُ ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ واقعةٌ مَوقعَ البيانِ للغرَضِ مِن التَّشبيهِ،

---

(١) اللَّف والنَّشر إمَّا مُرتَّب، وإمَّا غيرُ مُرتَّب؛ فاللَّف والنشرُ المُرتَّب، هو أن يأتي النشر على وفق ترتيب اللَّف؛ فيُؤتَى بما يُقابِلُ الأشياءَ المذكورةَ، ويُضافُ إلى كلٍّ ما يلِيقُ به على الترتيب، كقوله تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣]؛ حيث جاء اللَّفُّ بعبارة ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾، وجاء النَّشرُ وَفقَ توزيعٍ مُرتَّب؛ فقوله: ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ يتعلَّقُ باللَّيل، وقوله: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ يتعلَّقُ بالنَّهار.
وغيرُ المرتَّب: هو أن يأتيَ النشرُ على غَيرِ ترتيبِ اللَّفِّ؛ مثالُه قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ [الضحى: ٦ - ٨]، فهذه الجُمَلُ لفٌّ مُفَصَّل، وجاء بعدَها نَشْرٌ غيرُ مُرتَّب؛ فجملة: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ ملائمة للجملة الأُولى ومتعلِّقةٌ بها. وجُملَةُ: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الثالثة ومُتعلِّقةٌ بها. وجُملةُ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الثانيةِ ومتعلِّقةٌ بها.
يُنظر: ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٣٣٠- ٣٣١)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣- ٤٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٣٨- ١٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٤٢-٤١).

وهو نفْيُ استِواءِ حالِهما، والاستِفْهامُ فيها إنكاريٌّ[١].

- وجملةُ: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فيها استفهامٌ غرَضُه إنكارُ انتِفاءِ تَذكُّرِهم، واستِمْرارِهم في ضَلالِهم[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٢٥-٣١)

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا
ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن
قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا
بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ
أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا
وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ
أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾
وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى
خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ
لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَرَاذِلُنَا﴾: أي: سَفِلَتُنا وأخِسَّاؤُنا، والرَّذلُ: المرغوبُ عنه لرَداءتِه، والدُّونُ مِن كلِّ شَيءٍ في مَنظَرِه وحالاتِه[١].

﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾: أي: في ظاهِرِ الرَّأيِ والنَّظَرِ؛ مِن قَولِهم: بدا الشَّيءُ يَبدو: إذا ظهَرَ، وأصلُ (بدو): يدلُّ على ظُهورِ الشَّيءِ[٢].

﴿فَعُمِّيَتْ﴾: أي: أُخفِيَت، وأصلُ (عمي): يدلُّ على سَترٍ وتَغطيةٍ[٣].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٣)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٩٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦١)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٤/ ٦٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩٧)، ((مقاييس =

﴿تَزْدَرِي﴾: أي: تحتَقِر وتَعيبُ، وأصلُ (زري): يدلُّ على احتقارِ الشَّيءِ، والتَّهاوُنِ به[١].

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾

﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ بادِيَ: ظرفُ زَمانٍ منَصوبٌ، والعامِلُ فيه ﴿اتَّبَعَكَ﴾ أي: اتَّبعوك في أوَّلِ الرأيِ، أو فيما ظهَرَ منه مِن غَيرِ أن يَبحَثوا. أو العاملُ فيه ﴿أَرَاذِلُنَا﴾ أي: هم أراذِلُنا بظاهِرِ الرَّأيِ نَعلَمُ ذلك. وإضافةُ (بادي) إلى (الرأي) مِن إضافةِ الصِّفةِ إلى الموصوفِ، أي: في الرأيِ البادي. وقيل: ﴿بَادِيَ﴾ حالٌ مِن مفعولِ «اتَّبَعَكَ»، أي: اتَّبعوك وأنت مكشوفُ الرأيِ، لا حصافةَ لك. وقيل غير ذلك[٢].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾

﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ جملةٌ لا محلَّ لها من الإعرابِ، معطوفةٌ على قولِه: ﴿وَلَا أَقُولُ﴾، كأنَّه أخبَرَ عن نفسِه بهذه الجُمَلِ، وليس معطوفًا على قَولِه: ﴿عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾؛ لأنَّه يؤدِّي إلى أن يصيرَ التَّقديرُ: ولا أقولُ لكم لا أَعْلَمُ الغيبَ، فيَفسُد المعنى[٣].

= اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٣٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦١).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦١).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٦٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٦٩٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٣١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٤٩).

(٣) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٣١٨)، ((المجتبى من مشكل إعراب القرآن)) للخراط (١/ ٢٦٩).

المَعنى الإجماليّ:

يُقسِمُ تعالى أنَّه أرسلَ نوحًا إلى قومِه، فقال لهم: إنِّي نذيرٌ لكم مِن عذابِ الله، مُبيِّنٌ ما أُرسلتُ به إليكم مِن أمرِ اللهِ ونَهيِه، بألَّا تعبدُوا إلَّا اللهَ، إنِّي أخافُ عليكم- إن لم تُفرِدوا اللهَ وحْدَه بالعبادةِ- عذابَ يوم مُوجِعٍ، فقال رؤساءُ الكُفرِ مِن قَومِه: ما نراك- يا نوحُ- إلَّا بشرًا مِثلَنا، ولستَ بمَلَكٍ، فكيف أُوحِيَ إليك مِن دُونِنا؟! وما نراك اتَّبَعَك إلَّا الذين هم أسافِلُنا، وإنَّما اتَّبعوك مِن غيرِ تفَكُّرٍ ولا رويَّةٍ، وما نرَى لكم مِن شَرَفٍ ومزيَّةٍ علينا حينَ دخَلتُم في دينِكم، فنَتَّبِعَكم، بل نعتَقِدُ أنَّكم كاذبونَ فيما تدَّعونَ، قال نوحٌ: يا قومي أرأيتُم إن كنتُ على حُجَّةٍ ظاهرةٍ مِن ربِّي فيما جئتُكم به، وآتاني رحمةً مِن عندِه- وهي النبوَّةُ والرِّسالةُ- فأخفاها عليكم عقابًا لكم، أنُلزِمُكم إيَّاها بالإكراهِ، وأنتم جاحِدونَ بها؟ لا نفعَلُ ذلك، ولكِنْ نَكِلُ أمرَكم إلى اللهِ حتى يقضيَ في أمرِكم ما يشاءُ.

قال نوحٌ عليه السَّلامُ لِقَومِه: يا قومِ لا أسألُكم على دَعوتِكم لتوحيدِ اللهِ مالًا، ولكِن ثوابُ نُصحي لكم على اللهِ وَحدَه، وليس مِن شأني أن أطرُدَ المُؤمِنينَ؛ فإنَّهم مُلاقو ربِّهم يومَ القيامةِ، ولكِنِّي أراكم قومًا تَجهَلونَ؛ إذ تأمرونَني بطَردِ أولياءِ اللهِ، وإبعادِهم عنِّي، ويا قومِ مَن يمنَعُني مِن عِقابِ الله إن عاقَبَني على طَردي المؤمنينَ؟ أفلا تتدبَّرونَ الأمورَ فتَنتَهوا عن جهلِكم وضَلالِكم؟ ولا أقولُ لكم: إنِّي أملِكُ التصرُّفَ في خزائنِ اللهِ، ولا أدَّعي علمَ الغَيبِ، ولستُ بمَلَكٍ مِن الملائكةِ، ولا أقولُ لهؤلاء الذين تحتَقِرونَ مِن ضُعَفاءِ المؤمنينَ لن يؤتِيَهم اللهُ ثوابًا على إيمانِهم؛ فاللهُ وَحدَه أعلَمُ بما في قلوبِهم، ولئن فعلتُ ذلك إنِّي إذًا لَمِنَ الظَّالمينَ لأنفُسِهم ولغَيرِهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه قد جَرَت العادةُ بأنَّ اللهَ تعالى إذا أوردَ على الكافِرِ أنواعَ الدَّلائلِ أتبَعَها بالقَصَصِ؛ ليصيرَ ذِكرُها مُؤَكِّدًا لتلك الدَّلائلِ، وفي هذه السُّورةِ ذَكَرَ أنواعًا مِن القَصَصِ؛ القِصَّةُ الأولى قِصَّةُ نوحٍ عليه السَّلامُ(١).

وأيضًا فإنَّ هذا انتِقالٌ مِن إنذارِ المُشرِكينَ ووَصفِ أحوالِهم وما ناسبَ ذلك، إلى مَوعِظتِهم بما أصاب المكَذِّبينَ قبلَهم من المصائبِ، وفي ذلك تسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بما لاقاه الرُّسُلُ عليهم السَّلامُ قَبلَه مِن أقوامِهم(٢).

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ ﴾.

أي: ولقد بعَثْنا نبيَّنا نوحًا إلى قَومِه المُشرِكينَ، فقال لهم: إنِّي نذيرٌ لكم، أُخوِّفكم عذابَ اللهِ إن عبدتُم غيرَه، وأُبيِّنُ لكم ما أرسَلَني اللهُ به مِن أمرِه ونَهيِه(٣).

﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾.

أي: أرسَلْناه إلى قَومِه بأنْ لا تعبُدوا إلَّا اللهَ وَحْدَه(٤).

﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾.

أي: إنِّي أخافُ عليكم - يا قَومِ - إن لم توحدوا اللهَ، وتَتركوا عِبادةَ الأصنامِ -

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٣٥-٣٣٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٤٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٠).
ومن المفسرين من جعل كلمة ﴿مُبِينٌ﴾ وصفًا للنذارة. يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٤٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٠).

أن يُعَذِّبَكم عذابًا مُؤلِمًا مُوجِعًا يومَ القيامةِ[١].

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا حكى عن نوحٍ عليه السَّلامُ أنَّه دعا قَومَه إلى عبادةِ الله تعالى؛ حكَى عنهم أنَّهم طَعَنوا في نبوَّتِه بثلاثةِ أنواعٍ مِن الشُّبُهاتِ[٢].

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾.

أي: فقال الأشرافُ والكُبَراءُ الكافرونَ مِن قَومِ نُوحٍ: ما نراك- يا نوحُ- إلَّا آدميًّا مِثلَنا، ولستَ مِن الملائكةِ، فكيف يُرسِلُك اللهُ مِن دُوننا[٣]؟!

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٣-٢٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤].

﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٣٦)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٧٩)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٠).

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١ - قراءةُ ﴿بَادِئَ﴾ بهَمزةٍ في آخِرِه، أي: ابتداءَ الرَّأيِ، والمعنى: اتَّبَعوك ابتداءَ الرَّأيِ مِن غيرِ أن يتدَبَّروا ما قُلتَ، ولم يتفَكَّروا فيه، ولو تفَكَّروا وتدَبَّروا لم يتَّبِعوك[1].

٢ - قراءةُ ﴿بَادِيَ﴾ بغيرِ همزٍ. مِن: بدا يبدو: إذا ظهَرَ، والمعنى: لم يتَّبِعْك إلَّا الذين هم أراذِلُنا فيما يظهرُ لنا ولا يخفَى على أحدٍ. وقيل: المعنى: اتَّبَعوك في الظَّاهِرِ وباطِنُهم على خلافِ ذلك، أي: أنَّهم أظهَروا الإسلامَ، وأبطَنوا الكُفرَ. وقيل: المعنى: اتَّبَعوك في ظاهِرِ الرَّأيِ، ولم يتدَبَّروا ما قلتَ، ولم يتفَكَّروا فيه، فتكونُ بمعنى القراءةِ الأولى[2].

﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ﴾.

أي: قال الكُبَراءُ مِن قَومِ نُوحٍ: وما نراك اتَّبَعَك على دينِك إلَّا الضُّعَفاءُ الذين هم سَفِلَتُنا فيما يظهَرُ لنا ولِغَيرِنا[3].

---

(١) قرأ بها أبو عمرٍو البصريُّ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (١/ ٤٠٧).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٤/ ٣١٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٣٨).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (١/ ٤٠٧).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٠)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٣/ ٣٤١، ٣٤٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٩٤)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٤/ ٣١٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٣٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٤).

(٣) هذا المعنى هو اختيارُ ابنِ جريرٍ في تفسير ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٩٤).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وعطاءٌ، ومقاتلٌ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ٢٠٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٦٨).
وقيل: المعنى: وإنَّما اتَّبَعوك في ظاهِرِ الرَّأيِ، ولم يُفَكِّروا فيما دَعَوتَهم إليه، ولو تفَكَّروا =

كما قال تعالى: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ * قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ * وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ * إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الشعراء: ١١١-١١٥].

وعن أبي سُفيانَ بنِ حَربٍ رَضِيَ الله عنه، في حديثِ هِرقلَ الطَّويلِ، عندَما سأله عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وفيه: (قال: وسألتُك عن أتباعِه: أضُعفاؤُهم أم أشرافُهم؟ فقُلتَ: بل ضُعَفاؤُهم، وهم أتباعُ الرُّسُلِ)[١].

﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾.

أي: قال الكُبَراءُ مِن قَومِ نُوحٍ له ولأتباعِه المُؤمِنينَ: وما نرى أنَّه حصل لكم شَرَفٌ ومزيَّةٌ علينا حين دخَلتُم في دينِكم هذا، فتَستحقُّوا اتباعَنا لكم[٢].

﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾.

أي: بل نظُنُّكم[٣] كاذبينَ فيما تدَّعونَه[٤].

= لم يتَّبِعوك. وهو اختيار ابن كثير والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٠).

(١) أخرجه البخاري (٧) ومسلم (١٧٧٣)، واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٠، ٣٨١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٦٤)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٠١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٠).

(٣) قال ابنُ عاشور: (هذا الظنُّ الذي زعموه مستندٌ إلى الدليلِ المحسوسِ في اعتقادهم، واستُعمل الظنُّ هنا في العلم، كقولِه: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦]، وهو إطلاقٌ شائعٌ في الكلام). ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٤٩). ويُنظر: ((العين)) للخليل بن أحمد (٨/ ١٥٢)، ((المخصص)) لابن سيده (٤/ ١٧٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٣٩، ٥٤٠)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٥٥، ١٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٦٠).

اختلف المفسِّرون في تحديدِ المُخاطَب بذلك، فبعضُهم يرى أنَّ المُخاطَب هو نوحٌ عليه السَّلامُ وحده. وممَّن اختار ذلك: ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) ١٢/ ٣٨١). =

﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ٢٨ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها جوابٌ عن شُبهةِ قَومِ نُوحٍ الأولى، والمعنى: أنَّ حُصولَ المُساواة في البَشَريَّةِ لا يمنَعُ مِن حُصولِ المُفارَقةِ في صِفةِ النبوَّةِ والرِّسالةِ، وذكَرَ الطَّريقَ الدَّالَّ على إمكانِه، وهو كونُه على بيِّنةٍ مِن ربِّه[1].

﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي ﴾.

أي: قال نوحٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لِقَومِه: يا قومِ أخبِروني إن كنتُ على يقينٍ وعلمٍ مِن اللهِ، وبُرهانٍ على صحَّةِ نبوَّتي[2]، وبما يجِبُ عليَّ من إخلاصِ العبادةِ له وَحْدَه سُبحانَه[3].

﴿ وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿فَعُمِّيَتْ﴾ بضَمِّ العينِ وتشديدِ الميم بالبناءِ للمَفعولِ، بمعنى: أُخفِيَت، أي: أخفاها اللهُ عليكم وخَذَلكم؛ عقوبةً لكم[4].

= وذهب بعضُهم إلى أنَّ المخاطَبَ نُوحٌ ومن آمن مِن قَومِه. وممَّن اختار ذلك: الواحدي، والقرطبي، وهو ظاهِرُ اختيار ابن كثير، وجعله ابن عطيةَ احتمالًا. يُنظر: ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٥٧١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٦٤).
وقيل: يجوزُ أن يكونَ هذا خطابًا للأراذلِ وحدَهم. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٠/ ٤٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨١).

(٤) قرأ بها حمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ وحفص عن عاصمٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٨٨). =

٢- قراءةُ ﴿فَعَمِيَتْ﴾ بفَتحِ العَينِ وتخفيفِ الميمِ، بمعنى: فعَمِيَت عليكم، فلم تهتَدوا إليها[١].

﴿وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ﴾.

أي: ورَزَقني اللهُ النبوَّةَ، فخَفِيَت عليكم، ومنَعَكم اللهُ معرفةَ الحَقِّ عقوبةً لكم، فلم تهتَدوا إلى اتِّباعي[٢].

﴿أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾.

أي: أنغصِبُكم، ونُكرِهُكم على التَّصديقِ بها واتِّباعِها، والحالُ أنَّكم تكرهونَها، وتنفِرونَ منها[٣]؟!

﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ٢٩﴾.

= ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٢)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٨٦)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٣٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٣١٣).

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٨٨).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٢)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٨٦)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨١، ٣٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٧١)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٣١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٧٧، ١٧٨).
قال القُرطبي: (﴿أَنُلۡزِمُكُمُوهَا﴾ قيل: شهادة أنْ لَا إلهَ إلَّا اللهُ. وقيل: الهاءُ ترجِعُ إلى الرَّحمة. وقيل: إلى البيِّنة، أي أنُلزِمُكم قَبولَها، وأُوجِبُها عليكم؟!). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٥).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذا هو الجوابُ عن الشُّبهةِ الثَّانيةِ، وهي قَولُهم: لا يَتَّبِعُك إلَّا الأراذِلُ مِن النَّاسِ، وتقريرُ ذلك من وجوهٍ:

الوجه الأول: أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قال: أنا لا أطلبُ على تبليغِ دَعوةِ الرِّسالةِ مالًا حتى يتفاوتَ الحالُ بسبَبِ كَونِ المُستَجيبِ فقيرًا أو غنيًّا، وإنَّما أَجْري على هذه الطَّاعةِ الشَّاقَّةِ على ربِّ العالَمينَ، وإذا كان الأمرُ كذلك فسواءٌ كانوا فُقَراءَ أو أغنياءَ، لم يتفاوتِ الحالُ في ذلك.

الوجه الثاني: كأنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قال لهم: إنَّكم لَمَّا نَظَرتُم إلى ظواهِرِ الأمورِ وَجَدتُموني فقيرًا، وظَنَنتُم أنِّي إنما اشتغلتُ بهذه الحِرفةِ؛ لأتوسَّلَ بها إلى أخذِ أموالِكم، وهذا الظنُّ منكم خطأٌ؛ فإنِّي لا أسأَلُكم على تبليغِ الرِّسالةِ أجرًا؛ إنْ أجريَ إلَّا على ربِّ العالَمينَ، فلا تَحرِموا أنفُسَكم من سعادةِ الدِّينِ؛ بسببِ هذا الظَّنِّ الفاسدِ.

الوجه الثالث: أنَّهم قالوا: ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ إلى قَولِهم: ﴿وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ فهو عليه السَّلامُ بيَّنَ أنَّ اللهَ تعالى أعطاه أنواعًا كثيرةً توجِبُ فَضلَه عليهم؛ ولذلك لم يسْعَ في طلَبِ الدُّنيا، وإنَّما يسعى في طلَبِ الدِّينِ، والإعراضُ عن الدُّنيا من أُمَّهاتِ الفضائِلِ باتِّفاقِ الكُلِّ، فلعلَّ المرادَ تقريرُ حُصولِ الفَضيلةِ مِن هذا الوَجهِ[1].

﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾.

أي: ويا قَومِ لا أطلُبُ منكم مالًا أجرةً لي على تبليغي رسالةَ اللهِ، ما أجري على نَصيحَتي ودَعوتي لكم إلَّا على اللهِ الذي أرسَلَني، فهو الذي يُثيبُني[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٤٠٣)، ((تفسير =

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

أي: وما أنا بمُقْصٍ الضُّعَفاءَ المُؤمنينَ مِن قُربي وجواري؛ لاحتقارِكم لهم[1].

كما قال الله تعالى لمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم ناهيًا إيَّاه أن يطرُدَ جماعةً من ضُعَفاءِ المؤمنينَ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢].

﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾.

أي: إنَّ هؤلاء المُؤمِنينَ الضُّعَفاءَ صائِرونَ إلى اللهِ يومَ القيامةِ، فيسألُهم عن أعمالِهم، لا عن شَرَفِهم وحسَبِهم، ويُثيبُهم عليها، ويُجازي مَن ظَلَمَهم[2].

﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾.

أي: ولكِنِّي أراكم قومًا تجهلونَ كُلَّ ما تنبغي مَعرِفتُه؛ ومن ذلك عَظَمةُ اللهِ وتَوحيدُه، ومَنزلةُ المؤمنينَ عِندَه، فمِن جَهْلِكم سألتُموني طَردَهم، وهم خيرٌ منكم[3].

﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣٠﴾.

﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡ﴾.

= القرطبي)) (٩/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٤٨)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٦)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٤٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٠٢)، ((نفسبر السعدي)) (ص: ٣٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٥٦).

أي: قال نوح عليه الصَّلاة والسَّلام: ويا قَومِ مَن يمنَعُني مِن عذابِ اللهِ إن طَردتُ المؤمنينَ فعاقَبَني(١)؟

﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾.

أي: أفلا تتَفَكَّرونَ وتتَّعظونَ، فتَنزَجِروا عمَّا تقولونَ، وتَنتَهوا عن جَهلِكم وضَلالِكم(٢)؟!

﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣١ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذا تفصيلٌ لِما رَدَّ به نوحٌ عليه السَّلامُ مقالةَ قَومِه إجمالًا؛ فهم استدَلُّوا على نفيِ نُبوَّته بأنَّهم لم يَرَوا له فضلًا عليهم، فجاء هو في جوابِهم بالقَولِ بالمُوجِبِ(٣) أنَّه لم يدَّعِ فَضلًا غيرَ الوحيِ إليه(٤).

﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ ﴾.

أي: ولا أقولُ لكم: عندي خزائِنُ رِزقِ اللهِ، أتصرَّفُ فيها بالإعطاءِ والمَنعِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٦)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٤٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٦١).

(٣) القولُ بالموجِبِ هو عبارةٌ عن تسليم مقتضَى ما جعَله المستدلُّ دليلًا لحكمٍ، مع بقاءِ الخلافِ بينَهما فيه، وذلك بأن يتخيَّلَ أنَّ ما ذكَره مِن النصِّ أو القياسِ مستلزمٌ لحكمِ المسألةِ المتنازَعِ فيها، مِن أنَّه غيرُ مستلزمٍ له، فلا ينقطعُ النزاعُ بتسليمِه. يُنظر: ((نهاية السول شرح منهاج الوصول)) (ص: ٣٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٥٧).

فأدعوكم إلى اتِّباعي عليها(١).

﴿ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ ﴾.

أي: ولا أدَّعي أنِّي أعلَمُ ما غاب وخَفِيَ من السَّرائِرِ، وغير ذلك ممَّا لا يعلَمُه إلَّا اللهُ وَحْدَه(٢).

﴿ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ ﴾.

أي: ولا أقولُ لكم: إنِّي مَلَكٌ مِن الملائكةِ، بل أنا بشَرٌ مِثلُكم أبلِّغُكم ما أرسَلَني اللهُ به(٣).

﴿ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ﴾.

أي: ولا أقولُ عن المؤمنينَ الذين تحتَقِرُهم أعيُنُكم: لن يُعطِيَهم اللهُ أجورَهم وثوابَهم على إيمانِهم(٤).

﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ ﴾.

أي: اللهُ أعلَمُ بما في قلوبِ أولئك المُؤمِنينَ مِن اعتقاداتٍ ونيَّاتٍ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٦)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٨).

قال البغوي: (﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ هذا جوابُ قَولِهم: ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾). ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٤٦). وكذا قال ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٧)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ١٦١، ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٨)، =

﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: إنِّي - إن ادَّعيتُ أنَّ اللهَ لن يؤتيَ المؤمنينَ خَيرًا، وحكمتُ بأنَّهم يُظهِرونَ غيرَ ما يُبطِنونَ في نفوسِهم وطَرَدتُهم - لَمِنَ المُعتَدينَ ما أمَرَهم اللهُ به، القائلينَ ما لا عِلمَ لهم به، الفاعلينَ ما ليس لهم فِعلُه[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١ - قَولُ الله تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ قَولُهم هذا قَولُ مَن يعرِفُ الحَقَّ بالرِّجالِ، ولا يَعرِفُ الرِّجالَ بالحَقِّ؛ وذلك أنَّه يستدِلُّ على كونِ الشَّيءِ حَقًّا بعَظَمةِ مُتَّبِعه في الدُّنيا، وعلى كونِه باطلًا بحَقارتِه فيها[2].

٢ - قَولُ الله تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ هؤلاء الملأُ يقيسونَ الأمورَ قياسًا خاطئًا؛ قياسَ الفَضلِ بالمالِ، والفَهمِ بالجاهِ، والمَعرفةِ بالسُّلطانِ؛ فذو المالِ أفضَلُ، وذو الجاهِ أفهَمُ، وذو السُّلطانِ أعرَفُ، وهذه المفاهيمُ وتلك القِيَمُ هي التي تسودُ دائمًا حين تغيبُ

= ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨١).

قال ابنُ القيم: (والذي يظهرُ مِن الآيةِ: أنَّ الله يعلمُ ما في أنفسِهم، إذ أهَّلهم لقبولِ دينِه وتوحيدِه، وتصديقِ رسلِه، واللهُ سبحانَه وتعالَى عليمٌ حكيمٌ، يضعُ العطاءَ في مواضعِه... فإنَّهم أنكروا أن يكونَ الله سبحانَه أهَّلهم للهدَى والحقِّ، وحرَمه رؤساءَ الكفارِ وأهلَ العزةِ والثروةِ منهم، كأنَّهم استدلُّوا بعطاءِ الدُّنيا على عطاءِ الآخرةِ، فأخبَرَ الله سبحانه أنَّه أعلمُ بمَن يؤهِّلُه لذلك). ((مدارج السالكين)) (٣/ ١٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٧٠).

عَقيدةُ التَّوحيدِ وتَضعُفُ آثارُها، وهي انتكاسةٌ للبَشَريَّةِ مِن غيرِ شَكٍّ؛ لأنَّها تصَغِّرُ من القِيَمِ التي بها صار الإنسانُ إنسانًا، واستحَقَّ الخِلافةَ في الأرضِ، وتلقَّى الرِّسالةَ مِن السَّماءِ، وتَرجِعُ به إلى قِيَمٍ أقرَبَ إلى الحيوانيَّةِ العَضليَّةِ[١].

٣- قولُهم: ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ ليس بمذمةٍ ولا عيبٍ؛ لأنَّ الحقَّ إذا وضَح لا يبقَى للتروِّي ولا للفكرِ مجالٌ- وهذا على أحدِ القولين في التفسيرِ- بل لا بدَّ مِن اتباعِ الحقِّ- والحالة هذه- لكلِّ ذي زكاءٍ وذكاءٍ، ولا يفكِّر وينزوي هاهنا إلا عييٌّ أو غبيٌّ، والرسلُ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، إنما جاءوا بأمرٍ جليٍّ واضحٍ[٢].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ فيه تقريرٌ لمبدأِ الاختيارِ في العقيدةِ، والاقتناعِ بالنَّظرِ والتدَبُّرِ، لا بالقَهرِ والسُّلطانِ والاستعلاءِ[٣].

٥- إنَّ العَقلُ والشَّرعُ تطابقا على أنَّه لا بُدَّ مِن تعظيمِ المؤمِنِ البَرِّ التقيِّ، وإهانةِ الفاجرِ الكافرِ، فلو عُكِسَت القضيةُ، فقُرِّبَ الكافِرُ الفاجرُ على سبيلِ التَّعظيمِ، وطُرِدَ المؤمِنُ التَّقيُّ على سبيلِ الإهانةِ، كان ذلك على ضِدِّ أمرِ الله تعالى، وعلى عَكسِ حُكمِه مِن إيصالِ الثَّوابِ إلى المحقِّين، والعِقابِ إلى المُبطِلينَ، قال تعالى حكايةً عن نوحٍ عليه السلامُ: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ * وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[٤].

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٤/ ١٨٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٤/ ١٨٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٤٠).

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ يُعطي أصحابَ الدَّعوةِ أُنْمُوذَجًا للدَّاعيةِ، ودرسًا في مواجهةِ أصحابِ السُّلطانِ بالحَقِّ المجَرَّدِ، دون استرضاءٍ لتصوُّراتِهم، ودون مُمالأةٍ لهم، مع المودَّةِ التي لا تنحني معها الرُّؤوسُ[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- ذكَر اللهُ سبحانَه قصصَ الأنبياءِ عليهم السَّلام للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم تنبيهًا له على ملازمةِ الصبرِ على أذَى الكفارِ إلى أن يكفيَه الله أمرَهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إلى قَوْمِهِ...﴾[2].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ بادرَ الملأُ- أي: الأشرافُ والزُّعَماءُ الذين كَفَروا مِن قَومِه- إلى الجوابِ؛ ليكونَ الدَّهْماءُ تَبعًا لهم كعادَتِهم، واقتَرَن جوابُهم هنا بـ (الفاء)؛ لأنَّه هو الأصلُ في الرَّدِّ السَّريعِ[3].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ﴾ كرَّرَ نوحٌ عليه السَّلامُ هذه اللَّفظةَ كُلَّ قليلٍ؛ تذكيرًا لهم أنَّه منهم؛ لِتُعَطِّفَهم الأرحامُ، وتَرُدَّهم القَراباتُ عن حَسَدِه أو اتِّهامِه، إلى قَبولِ ما يُلقي إليهم مِن الكلامِ[4].

٤- عُطِفَت جُملةُ ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ على جملةِ ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا﴾؛ لأنَّ مَضمونَها كالنَّتيجةِ لِمَضمونِ المَعطوفِ عليها، لأنَّ نَفيَ طَمَعِه في المُخاطَبينَ يَقتَضي أنَّه لا يُؤذي أتباعَه لأجلِ إرضاءِ هؤلاءِ[5].

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٤/ ١٨٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٥٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٧٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٥٥).

٥- صِفاتُ الكَمالِ تَرجِعُ إلى ثلاثةٍ: العلمِ والقُدرةِ والغِنَى، وهذه الثَّلاثةُ لا تَصلحُ على وجهِ الكَمالِ إلَّا لله وَحدَه؛ فإنَّه الذي أحاط بكُلِّ شَيءٍ عِلمًا، وهو على كلِّ شَيءٍ قَديرٌ، وهو غنيٌّ عن العالَمين، وقد أُمِرَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يبرأَ مِن دعوى هذه الثَّلاثةِ بقَولِه: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ [الأنعام: ٥٠]، وكذلك قال نوحٌ عليه السَّلامُ: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ فهذا أوَّلُ أولي العَزمِ وأوَّلُ رَسولٍ بَعَثَه الله تعالى إلى أهلِ الأرضِ، وهذا خاتَمُ الرُّسُلِ وخاتَمُ أولي العَزمِ، كِلاهما يتبَرَّأُ من ذلك(١).

٦- دلَّ قولُه تعالى: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ على أنَّه ليس مِن شَرْطِ الرَّسولِ أن يَعلمَ كلَّ ما يكونُ(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾

- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ فيه تأكيدُ الجملَةِ بلامِ القسَمِ و(قَدْ)؛ لأنَّ المخاطَبين لَمَّا غفَلوا عَن الحذَرِ ممَّا بِقَومِ نوحٍ مَع مُماثَلةِ حالِهم؛ نُزِّلوا مَنزلةَ المنكِرِ لوقوعِ رِسالتِه(٣).

- قولُه: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ اقتَصر على النذارةِ دونَ البشارةِ؛ لأنَّ دعوتَه كانت لمجردِ الإنذارِ، أو لكونِهم لم يعمَلوا بما بشَّرهم به(٤).

٢- قولُه تعالى: ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٣١٢).
(٢) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٣/ ١٥٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٤٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٥٩).

- جملةُ ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ تَعليليَّةٌ لِمُوجِبِ النَّهيِ المستَفادِ مِن ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾، والمعنى: نَهيتُكم عن عبادةِ غيرِ اللهِ؛ لأنِّي أخافُ عليكم، وفيها تَحقيقٌ لِمَعنى الإنذارِ(١).

- وقولُه: ﴿عَذابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ فيه وصفُ اليومِ بالأليمِ؛ لِوُقوعِ الألَمِ فيه، وهو أبلَغُ مِن أن يُوصَفَ العذابُ بالأليمِ(٢).

٣- قولُه تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ فيه عطْفُ قولِ الملأِ مِن قومِه بالفاءِ على فِعْلِ ﴿أَرْسَلْنَا﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّهم بادَروه بالتَّكذيبِ والمُجادَلةِ الباطلةِ لَمَّا قال لهم: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ...﴾ [هود: ٢٥] إلى آخِرِه، ولَم تَقَعْ حِكايةُ ابتداءِ مُحاوَرتِهم إيَّاه بـ (قال) مجرَّدًا عن الفاءِ، كما وقَع في سورةِ الأعرافِ؛ لأنَّ ابتداءَ مُحاوَرتِه إيَّاهم هنا لم يقَعْ بلَفظِ القولِ؛ فلم يَحْكِ جَوابَهم بطَريقةِ المُحاوَراتِ بخِلافِ آيةِ الأعرافِ(٣).

- قولُه: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ فيه تعريضٌ مِنهم بأنَّهم أحَقُّ منه بالنُّبوَّةِ، وأنَّ اللهَ لو أراد أن يَجعَلَها في أحَدٍ مِن البشَرِ لجعَلَها فيهم(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٠٠)، ((فتح القدير)) للشوكاني (٢/ ٥٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٧٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٨٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٨٨).

- وقولُه: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ مُبالَغةٌ في الإخبارِ، وكأنَّه مُؤْذِنٌ بتَأكيدِ حَصْرِ مَن اتَّبَعه، وأنَّهم هم الأراذِلُ لم يَشرَكْهم شَريفٌ في ذلك[١]، وعُبِّر عنهم بالموصولِ والصِّلةِ ﴿الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ دونَ أن يُقالَ: (إلَّا أراذِلُنا)؛ لحِكايةِ أنَّ في كلامِ الَّذين كفَروا إيماءً إلى شُهرَةِ أتباعِ نوحٍ عليه السَّلامُ بينَ قومِهم بوصفِ الرَّذالةِ والحَقارةِ، وكان أتباعُ نوحٍ عليه السَّلامُ مِن ضُعفاءِ القومِ، ولكنَّهم مِن أَزْكياءِ النُّفوسِ ممَّن سبَق لهم الهُدى[٢].

- وقولُهم: ﴿وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ فيه جمعُ الضَّميرِ في ﴿لَكُمْ﴾؛ لأنَّهم لَمَّا وصَفوا كلَّ فَريقٍ مِن التَّابعِ والمتبوعِ بما يَنْفي سِيادةَ المَتْبوعِ، وتَزْكيةَ التَّابعِ- جمَعوا الوَصْفَ الشَّاملَ لهما، وهو المقصودُ مِن الوَصْفَينِ المفرَّقَين، فنَفَوْا أن يَكونَ لنوحٍ عليه السَّلامُ وأتباعِه فضلٌ على الَّذين لم يُؤمِنوا به حتَّى يكونَ نوحٌ عليه السَّلامُ سيِّدًا لهم، ويَكونَ أتباعُه مُفضَّلين بسِيادةِ مَتْبوعِهم[٣].

٤- قولُه تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾

- فُصِلَت جملةُ ﴿قَالَ يَا قَوْمِ﴾ عن الَّتي قبْلَها- أي: لم تُعطَفْ عليها- على طريقةِ حِكايةِ الأقوالِ في المحاوَراتِ، كما في قولِه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]؛ فلمَّا وقَعَت هذه الجملةُ مُقابِلًا لكَلامٍ مَحْكيٍّ يُقالُ، فُصِلَت

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٤٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٤٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٤٩).

الجملةُ ولم تُعطَفْ، بخلافِ ما تقدَّم آنِفًا في قولِه: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾[1] [هود: ٢٧].

- قولُه: ﴿قالَ يَا قَوْمِ﴾ فيه افتِتاحُ مُراجَعتِه عليه السَّلامُ بالنِّداءِ؛ لِطلَبِ إقبالِ أَذْهانِهم لوَعْيِ كلامِه، واختيارِ استِحْضارِهم بعُنوانِ قومِه؛ لاستِنْزالِ طائرِ نُفورِهم؛ تَذكيرًا لهم بأنَّه مِنهم فلا يُريدُ لهم إلَّا خيرًا[2].

- قولُه: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ استِفهامٌ تقريريٌّ، وهو بمعنى: أَخبِروني[3].

- قولُه: ﴿عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ فيه اختيارُ وَصْفِ الرَّبِّ دونَ اسْمِ الجَلالةِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ إعطاءَه البيِّنةَ والرَّحمةَ فضلٌ مِن اللهِ، أراد به إظْهارَ رِفْقِه، وعِنايَتِه به[4].

- قولُه: ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ فيه عطفُ فِعْلِ (عُمِّيَت) بفاءِ التَّعقيبِ؛ إيماءً إلى عدَمِ الفترةِ بينَ إيتائِه البيِّنةَ والرَّحمةَ وبينَ خَفائِها عليهم، وهو تعريضٌ لهم بأنَّهم بادَروا بالإنكارِ قبلَ التَّأمُّلِ[5].

- عُدِّي فِعلُ (عُمِّيَت) بحرفِ (عَلى)؛ لِتَضْمينِه مَعنى: الخَفاءِ[6].

- ومِن بَديعِ هذا الاستِعْمالِ هنا أنَّ فيه طِباقًا؛ لِمُقابَلةِ قولِهم في مُجادَلتِهم: ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا﴾ ﴿وَما نَرَاكَ اتَّبَعَكَ﴾ ﴿وَما نَرَى لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ﴾، فقابَل نوحٌ عليه السَّلامُ كَلامَهم مُقابَلةً بالمعنى واللَّفظِ؛ إذ جعَل عدَمَ رُؤيتِهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٥٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٥١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٥٢).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٥١).

مِن قَبيلِ العَمى[(١)].

- قولُه: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾، الاستِفْهامُ إنكاريٌّ، أي: ما كان لنا ذلك؛ لأنَّ اللهَ لم يَأمُرْه بإكْراهِهم إعراضًا عن العنايةِ بهم، فتُرِك أمْرُهم إلى اللهِ، وذلك أشَدُّ في تَوقُّعِ العقابِ العظيمِ[(٢)].

- وفي قولِه: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾، جيءَ بضَميرِ المتكلِّمِ المشارِكِ هنا، فلم يَقُلْ: (أأُلْزِمُكُموها)؛ للإشارةِ إلى أنَّ الإلزامَ لو فُرِض وُقوعُه لكان له أعوانٌ عليه وهم أتباعُه؛ فأراد ألَّا يُهمِلَ ذِكْرَ أتباعِه، وأنَّهم أنصارٌ له، لو شاء أن يُهيِبَ بهم، والقَصْدُ مِن ذلك التَّنويهُ بشَأنِهم في مُقابَلةِ تَحقيرِ الآخَرين إيَّاهم[(٣)].

- وتَقْديمُ المجرورِ ﴿لَهَا﴾ على ﴿كَارِهُونَ﴾؛ لرِعايةِ الفاصِلَةِ مع الاهتمامِ بشَأنِها، والمقصودُ مِن كَلامِه بَعْثُهم على إعادةِ التَّأمُّلِ في الآياتِ، وتَخفيضِ نُفوسِهم، واستِنْزالِهم إلى الإنصافِ، وليس المقصودُ مَعذِرَتَهم بما صنَعوا، ولا العُدولَ عن تَكْريرِ دَعوَتِهم[(٤)].

- والتعبيرُ في قَولِ الله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ بالجُملةِ الاسميَّةِ واسمِ الفاعلِ إشارةٌ إلى أنَّ أفعالَهم أفعالُ مَن كراهتُه لها ثابِتةٌ مُستحكمةٌ[(٥)].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال اللهُ تعالى هنا في قصَّةِ نوحٍ عليه السَّلامُ: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ﴾ [هود: ٢٨]، وقال في قصَّةِ صالحٍ عليه السَّلامُ في هذه السُّورةِ: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٥٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٥٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٥٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٥٣).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٧٣-٢٧٤).

أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ [هود: ٦٣]؛ فتَساوَيا في اللَّفْظَين، واختَلفا في تقديمِ المفعولِ الثَّاني في الآيةِ الأولى على الجارِّ والمجرورِ، حيث قال: ﴿وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ﴾، وتأخيرِه عَنهما في الآيةِ الثَّانيةِ حيث قال: ﴿وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾؛ ووجهُ ذلك: أنَّ قومَ صالحٍ عليه السَّلامُ بالَغوا في إساءةِ الجوابِ حينَ قالوا: ﴿يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ [هود: ٦٢]، فرَمَوا مَقامَه النَّبويَّ بِحَطِّ مَرتَبتِه عنهم، فلمَّا بالَغوا في إساءةِ الجوابِ ردَّ عليهم عليه السَّلامُ ردًّا لِمَقالِهم الشَّنيعِ بقولِه: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ فخاطَبهم على ما يَجْري في مُناظَرةِ مَن فَرَض ما لا يَعتَقِدُه المناظِرُ على حسَبِ نُطقِه، ولكنَّه يَستنزِلُ بذلك مُناظِرَه؛ لِيُقيمَ الحُجَّةَ عليه، فيَقولُ: هَبْ كذا على ما تَقولُه، فعلى هذا جَرى قولُ النَّبيِّ الكريمِ: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾، أي: كيف ترَون إنْ كنتُ على واضحةٍ وعلى يقينٍ مِن ربِّي، وآتاني مِنه رحمةً فعَصَيتُه بمُوافَقتِكم، فإن فعَلتُ ذلك فمَن يَنصُرُني ويَمنَعُني مِن عَذابِه، وأكَّد بتَقدُّمِ المجرورِ في قولِه: ﴿وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾؛ لِمَا يُحْرِزُ تَقديمُه مِن التَّأكُّدِ، ويَعيه مَفهومُه مِن أنَّ الرَّحمةَ مِنه سُبحانه لا يُشرَكُ فيها غيرُه، فهو مخصوصٌ لا يَحصُلُ مع تأخيرِه، فلمَّا بالَغُوا في قُبْحِ الجوابِ بالَغ عليه السَّلامُ في ردِّ مَقالِهم؛ فقَدَّم المجرورَ لتأكيدِ أنَّ الرَّحمةَ مِن عندِ اللهِ تعالى: ﴿وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾. ولَمَّا لم يَكُنْ في مُراجَعةِ قوم نوحٍ مثلُ هذا في شَناعةِ الجوابِ؛ لأنَّ أقصى المفهومِ مِن قولِهم: ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾، إلحاقُه بهم، ومُماثلتُه إيَّاهم، وكلُّهم يقولُ: لو كُنتَ رسولًا لكنتَ مِن الملائكةِ ولم تَكُنْ لِتُماثِلَنا، فلم يَكُنْ في قولِ هؤلاء ما في قولِ قومِ صالحٍ، فجرَى جَوابُه عليه السَّلامُ على نِسْبةِ ذلك، فقال: ﴿وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ﴾، فأتى بالمجرورِ

مؤخَّرًا في مَحلِّه على ما يَجِبُ، حيث لا يُقصَدُ في إحرازِ المفهومِ ما قُصِد في الآيةِ الأخرى؛ فورَد كلٌّ على ما يُلائِمُ(١).

- وأيضًا مِن حُسْنِ المناسَبةِ قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ﴾، وبعدَه: ﴿وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾[هود: ٢٣]، وبعدَهما: ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ [هود:٨٨]، فقال في الأَوَّلَيْن ﴿وَآتَانِي﴾، وفي الثَّالثِ: ﴿وَرَزَقَنِي﴾؛ ووجهُ ذلك: أنَّ الثَّالثَ تَقدَّمه ذِكرُ الأموالِ، وتأخَّر عنه قولُه: ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾، وهُما خاصَّان؛ فناسَبَهما قولُه: ﴿وَرَزَقَنِي﴾، بخِلافِ الأوَّلَين؛ فإنَّه تَقدَّمَهما أمورٌ عامَّةٌ، فناسَبها قولُه: ﴿وَآتَانِي﴾(٢).

- وأيضًا ناسبَ قولُه تعالى هنا: ﴿وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ﴾، وبعدَه: ﴿وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ [هود: ٢٣]، وبعدَهما: ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ [هود: ٨٨]؛ لأنَّ ﴿عِنْدِهِ﴾ وإن كان ظرفًا فهو اسمٌ، فذَكَر الأُولى بالتَّصريحِ والثَّانيةَ والثَّالثةَ بالكنايةِ؛ لِتَقدُّمِ ذِكْرِه، فلمَّا كَنَى عنه قدَّمَه؛ لأنَّ الكنايةَ يتقدَّمُ عليها الظَّاهرُ نحوُ: ضرَب زيدٌ عَمْرًا، فإنْ كَنَيتَ عن عَمْرٍو قدَّمته، نحوُ: عَمرٌو ضرَب زيدًا، وكذلك: زيدٌ أعطاني دِرْهَمًا مِن مالِه، فإن كنَيْتَ عن المالِ قلتَ: المالُ زيدٌ أَعْطاني منه دِرهَمًا(٣).

٥- قولُه تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا﴾ في إعادةِ الخِطابِ بـ﴿يَا قَوْمِ﴾ تأكيدٌ لِمَا في الخطابِ به أوَّلَ مرَّةٍ مِن المعاني، وعُطِف النِّداءُ بالواوِ- مع أنَّ

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٥٥-٢٥٦).
(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٦٣).
(٣) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٤٤).

المخاطَبَ به واحدٌ، وشأنُ عطفِ النِّداءِ أن يَكونَ عندَ اختلافِ المنادَى، فأمَّا إذا اتَّحد المنادى فالشَّأنُ عدَمُ العطفِ، فتَعيَّن هنا أن يَكونَ العطفُ مِن مَقولِ نوحٍ عليه السَّلامُ لا مِن حكايةِ اللهِ عنه، ويجوزُ أن يَكونَ تَنبيهًا على اتِّصالِ النِّداءاتِ بعضِها ببعضٍ، وأنَّ أحَدَها لا يُغْني عن الآخَرِ، ولا يكونُ ذلك مِن قَبيلِ الوصْلِ؛ لأنَّ النِّداءَ افتِتاحُ كلامٍ، فجُملتُه ابتدائيَّةٌ، وعَطفُها إذا عُطِفَت مجرَّدُ عطفٍ لفظيٍّ، ويجوز أيضًا أن يكونَ ذلك تَفنُّنًا عربيًّا في الكلامِ عندَ تكرُّرِ النِّداءِ؛ استِحْسانًا للمُخالَفةِ بينَ التَّأكيدِ والمؤكَّدِ[1].

- جملةُ ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ احتِراسٌ؛ لأنَّه لَمَّا نفى أن يَسألَهم مالًا، والمالُ أجرٌ، نشَأ توهُّمٌ أنَّه لا يَسأَلُ جَزاءً على الدَّعوةِ؛ فجاء بجملةِ: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ احْتِرَاسًا[2].

- وفيه المُخالَفةُ بينَ العِبارتَينِ في قولِه: ﴿مَالًا﴾ و﴿أَجْرِيَ﴾؛ لإفادةِ أنَّه لا يَسْأَلُ مِن اللهِ مالًا، ولكنَّه يَسأَلُ ثَوابًا[3].

- قولُه: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فيه التَّعبيرُ عن أَتْباعِه بطريقِ الموصوليَّةِ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ لِمَا يُؤْذِنُ به الموصولُ مِن تغليظِ قومِه في تعريضِهم له بأن يَطرُدَهم بما أنَّهم لا يُجالِسون أمثالَهم؛ إيذانًا بأنَّ إيمانَهم يوجِبُ تَفضيلَهم على غيرِهم الَّذين لم يُؤمِنوا به، والرَّغبةَ فيهم؛ فكيف يَطرُدُهم؟! وفيه أيضًا إبطالٌ لِما اقتَضاه قولُهم: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود: ٢٧] مِن التَّعريضِ بأنَّهم لا يُماثِلونهم في مُتابَعتِه[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٥٣- ٥٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٥٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وجملةُ: ﴿إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ﴾ في مَوضِعِ التَّعليلِ لِنَفْيِ أن يَطرُدَهم؛ بأنَّهم صائِرُون إلى اللهِ في الآخِرةِ، فمُحاسِبٌ مَن يَطرُدُهم[1]، وتأكيدُ الخبَرِ بـ (إنَّ) لِرَدِّ إنكارِ قومِه البَعْثَ، أو للاهتمامِ بذلك اللِّقاءِ، وقد زِيدَ هذا التَّأكيدُ تأكيدًا بجُملَةِ ﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾[2].

- قولُه: ﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ استدراكٌ، وموقِعُ هذا الاستدراكِ هو أنَّ مضمونَ الجُملةِ ضِدُّ مَضمونِ التي قبلَها، وهي جملةُ ﴿إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾، أي: لا ريبَ في ذلك، ولكنَّكم تَجهلونَ فتَحسَبونَهم لا حُضرةَ لهم، وأنْ لا تَبِعةَ في طَرْدِهم[3].

- وزيادةُ لفظةِ ﴿قَوْمًا﴾ في قولِه: ﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ جَهْلَهم صفةٌ لازمةٌ لهم؛ كأنَّها مِن مُقوِّماتِ قَوميَّتِهم، وحذَفَ مفعولَ ﴿تَجْهَلُونَ﴾؛ للعِلْمِ به، أي: تَجهَلون ذلك[4].

- وفي تَعبيرِه بـ ﴿تَجْهَلُونَ﴾ دون (جاهلينَ) إشارةٌ إلى أنَّ الجَهلَ مُتجَدِّدٌ لهم، وهو غيرُ عادتِهم؛ استعطافًا لهم إلى الحِلمِ[5].

- وفيه مناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال اللهُ تعالى هنا في قصَّةِ نوحٍ: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [هود: ٢٩]، وقاله بعدُ- حِكايةً عن هودٍ- بلفظِ: ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [هود: ٥١]؛ وذلك لأنَّه

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٥٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٥٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٧٥).

في قصَّةِ نوحٍ وقَعَ بعدَها ﴿خَزَائِنُ﴾ ولفظُ المالِ بالخزائنِ أَلْيَقُ[١]، أو يكونُ هذا الاختلافُ توسِعةً في التَّعبيرِ عن المرادِ بمُتساوِيَيْن[٢].

- ومِن حُسْنِ المناسَبةِ كذلك قولُه أيضًا هنا: ﴿وَيَا قَوْمِ﴾ بالواوِ، وفي الثَّانيةِ: ﴿يَا قَوْمِ﴾ [هود: ٥١] بدُونِها؛ وذلك لطولِ الكلامِ الواقعِ بين النِّداءَينِ في قصَّةِ نوحٍ، وقِصَرِ ما بينَهما في قصَّةِ هودٍ، فناسَب ذِكْرُ الواوِ في الأوَّلِ؛ لِتَوصيلِ ما بَعدَها بما قبلَها[٣].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ إضافةُ خَزائِنَ إلى اللهِ لاختِصاصِ اللهِ بها[٤].

- قولُه: ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ فيه إعادةُ فِعلِ القولِ؛ لأنَّه نفيٌ لِشُبهةِ قولِهم: ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾، وإبطالُ دَعْوى أُخرَى ألصَقُوها به، وتأكيدُه بـ (إنَّ) لأنَّه قولٌ لا يَقولُه قائلُه إلَّا مؤكَّدًا؛ لشِدَّةِ إنكارِه لو ادَّعاه مُدَّعٍ؛ فلمَّا نَفاه نفَى صيغةَ إثباتِه[٥].

- قولُه: ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾ إبطالٌ لقولِهم: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ بطريقةِ التَّغليطِ؛ لأنَّهم

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٤٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٦٣-٢٦٤).
(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٦٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٥٧).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٥٨).

جعَلوا ضعْفَهم وفَقْرَهم سببًا لانتِفاءِ فَضْلِهم، فأبطَلَه بأنَّ ضعْفَهم ليس بحائِلٍ بينَهم وبينَ الخيرِ مِن اللهِ؛ إذْ لا ارتِبَاطَ بينَ الضَّعفِ في الأمورِ الدُّنيَويَّةِ مِن فقرٍ وقلَّةٍ، وبينَ الحرمانِ مِن نَوالِ الكمالاتِ النَّفْسانيَّةِ والدِّينيَّةِ[1].

- وقولُه: ﴿لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾ فيه الإتيانُ بحرفِ النَّفي ﴿لَنْ﴾ الدَّالِّ على تأكيدِ نفْيِ الفعلِ في المستقبَلِ؛ تَعْريضًا بقومِه؛ لأنَّهم جعَلوا ضعْفَ أتباعِ نوحٍ عليه السَّلامُ وفَقْرَهم دليلًا على انتِفاءِ الخيرِ عنهم؛ فاقتَضى دَوامَ ذلك ما داموا ضُعَفاءَ فُقراءَ، فلِسانُ حالِهم يقولُ: لن يَنالوا خيرًا، فكان ردُّه عليهم بأنَّه لا يَقولُ: ﴿لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾[2].

- وجملةُ ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ تعليلٌ لنَفْيِ أن يَقولَ: ﴿لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾؛ ولذلك فُصِلَت عن الجُملةِ قبْلَها، ولم تُعطَفْ عليها[3].

- وجملةُ ﴿إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ تعليلٌ ثانٍ لِنَفيِ أن يقولَ: ﴿لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾، وقد أكَّدها بثلاثِ مؤكِّداتٍ: (إنَّ)، ولامِ الابتِداءِ، وحَرْفِ الجزاءِ ﴿إِذًا﴾؛ تحقيقًا لِظُلمِ الَّذين رمَوُا المؤمِنين بالرَّذالةِ، وسَلَبوا الفضْلَ عنهم؛ لأنَّه أرادَ التَّعريضَ بقومِه في ذلك، وقولُه: ﴿لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أبلَغُ في إثباتِ الظُّلمِ مِن: (إنِّي ظالمٌ)[4].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٥٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٥٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٣٢-٣٥)

﴿ قَالُواْ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يُغْوِيَكُمْ﴾: أي: يُضِلَّكم، وقيل: يُهْلِكَكم؛ لأنَّ الإضلالَ يُفْضي إلى الهلاكِ، وأصلُ (غوي): يدُلُّ على خِلافِ الرُّشدِ، وإظلامِ الأمرِ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ الله تعالى عن قومِ نُوحٍ أنَّهم قالوا له: يا نوحُ قد حاجَجْتَنا فأكثَرتَ مُحاجَّتَنا، فأْتِنا بما تَعِدُنا مِن العذابِ إن كنتَ مِن الصَّادقينَ في دعواك، فقال لهم نوحٌ: إنَّ اللهَ وَحدَه هو الذي يأتيكم بالعذابِ إن شاء، ولَستُم بفائِتيه إذا أراد أن يعَذِّبَكم؛ لأنَّه سُبحانَه لا يُعجِزُه شَيءٌ في الأرضِ ولا في السَّماءِ، ولا ينفَعُكم نُصحي واجتهادي في دَعوتِكم للإيمانِ، إن كان اللهُ يريدُ أن يُضِلَّكم، هو سبحانَه مالِكُكم، وإليه تُرجَعونَ في الآخرةِ للحِسابِ والجزاءِ.

بل أيقولُ مُشرِكو قَومِك- يا مُحمَّدُ: إنَّك اختلقتَ القُرآنَ، واختلقتَ قِصَّةَ نُوحٍ مِن تِلقاءِ نَفسِك؟! قلْ لهم: إن كنتُ قد افتريتُ ذلك على اللهِ، فعليَّ وحدي إثمُ ذلك، وإذا كنتُ صادقًا فأنتم المُجرِمونَ الآثِمونَ، وأنا بريءٌ مِن كُفرِكم وتكذيبِكم وإجرامِكم.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٩٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٨).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لما كان الملأُ مِن قومِ نوحٍ قد يَئِسوا من مناهَضةِ الحُجَّةِ بالحُجَّةِ، فإذا هم على عادةِ طبقَتِهم، قد أخذَتْهم العِزَّةُ بالإثمِ، واستكبَروا أن تغلِبَهم الحُجَّةُ، وأن يُذعِنوا للبُرهانِ العَقليِّ والفِطريِّ- فإذا هم يَترُكونَ الجدَلَ إلى التحدِّي[١].

﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا ﴾.

أي: قال المُشرِكونَ مِن قَومِ نوحٍ: يا نوحُ، قد حاجَجتَنا وخاصَمتَنا، فأكثَرْتَ محاجَّتَنا وخُصومَتَنا، وبالغْتَ فيها[٢].

﴿ فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾.

أي: فعجِّلْ لنا- يا نوحُ- الذي تَعِدُنا به من العَذابِ، إن كنتَ من الصَّادقينَ في أقوالِك ودعواك أنَّك رسولُ اللهِ حقًّا[٣].

﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ ﴾.

أي: قال نوحٌ لِقَومِه: إنَّما يأتيكم بالعَذابِ ويُعجِّلُه لكم اللهُ وَحْدَه، إن أراد

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٤/ ١٨٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨١).

أن يُهلِكَكم(١).

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾.

أي: ولستُم بفائتينَ اللهَ بالهَرَبِ من عقابه، ولا قدرةَ لكم على دَفعِ عَذابِه(٢).

﴿وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٣٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ نوحٌ عليه السَّلامُ أنَّهم إنَّما هم في قَبضتِه تعالى؛ زاد في بيانِ عَظَمتِه، وأنَّ إرادتَه تضمحِلُّ معها كلُّ إرادةٍ، في سياقٍ دالٍّ على أنَّه بذلك ناصِحٌ لهم، وأنَّ نُصحَه خاصٌّ بهم(٣).

﴿وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡ﴾.

أي: ولا ينفَعُكم ما أبذُلُه لكم مِن نُصحٍ إن كان اللهُ يشاءُ أن يُضِلَّكم ويَخذُلَكم، ويُوقِعَ الغَوايةَ في قلوبِكم(٤).

﴿هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٦٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٧٩).

(٤) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٧١، ٥٧٢)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٨)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٣/ ١٦)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٧٠)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨١).

قال السمعاني في قوله: ﴿يغويكم﴾: (أكثرُ المفسِّرينَ على أنَّ مَعْناه: يُضِلَّكم). ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٤٢٦).

أي: الله هو ربُّكم المتصَرِّفُ في أمورِكم بما يشاءُ، فإليه وحده الهدايةُ والغَوايةُ، وإليه وَحدَه تصيرونَ بعد هلاكِكم، فيُجازيكم على أعمالِكم[1].

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها جُملةٌ مُعتَرِضةٌ بينَ جملةِ أجزاءِ القِصَّةِ، وليست مِن القِصَّةِ، ومناسَبةُ هذا الاعتراضِ أنَّ تفاصيلَ القِصَّةِ التي لا يَعلَمُها المُخاطَبونَ تفاصيلُ عَجيبةٌ تدعو المُنكِرينَ إلى أن يتذكَّروا إنكارَهم، ويُعيدوا ذِكرَه. وكونُ ذلك مطابقًا لِما حصلَ في زَمَنِ نوحٍ عليه السَّلامُ، وشاهِدةً به كُتُبُ بني إسرائيلَ، يدُلُّ على صِدقِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّ عِلمَه بذلك مع أميَّتِه وبُعدِ قَومِه عن أهلِ الكِتابِ، آيةٌ على أنَّه وَحيٌ مِن اللهِ لا يأتيه الباطِلُ مِن بين يَدَيه ولا مِن خَلْفِه[2].

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾.

أي: أم يقولُ مُشرِكو قَومِك- يا مُحمَّدُ: اختلقَ محمَّدٌ هذا القُرآنَ، واختلق قِصَّةَ نوحٍ مِن تِلقاءِ نَفسِه[3]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٦٣-٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٩)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٦٣-٦٤).

وممن اختار المعنَى المذكورَ؛ أنَّ الضميرَ في ﴿يَقُولُونَ﴾ لكُفَّارِ قُريشٍ، وفي ﴿افْتَرَاهُ﴾ لمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ابنُ جريرٍ، وابنُ جُزي، ونَسَبَه لجميعِ المفسِّرين، وابنُ كثيرٍ، وابنُ عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.

واختار أنَّها حِكايةٌ عن نوحٍ وما قاله لِقَومِه: القرطبيُّ، وأبو حيان، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٤٨)، ((تفسير الشوكاني) (٢/ ٥٦٤)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٦٧).
=

﴿ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾.

أي: قل- يا مُحمَّدُ- للمُشركينَ: إن اختلقتُ القُرآنَ وافتعلتُه- كما تَزعمونَ- فعلَيَّ وحدي إثمي في كَذِبي على اللهِ، وأنا بريءٌ ممَّا تُذنِبونَ مِن الكُفرِ والكَذِب على اللهِ، والتَّكذيبِ بالحَقِّ(١).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾ دَلالةٌ على المُجادلةِ المَشروعةِ- وقد تجبُ وقد تُستحَبُّ- وأمَّا المذمومةُ شَرعًا فهي: الجَدلُ بالباطِلِ، والجدلُ بغيرِ عِلمٍ، والجدلُ في الحقِّ بعد ما تبيَّن(٢).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ سَمَّوه (وَعْدًا) سُخريةً به، أي: أنَّ هذا الذي جعلْتَه وعيدًا هو عندنا وعدٌ حسَنٌ سارٌّ، باعتبارِ أنَّا نحِبُّ حُلولَه، فالمعنى: أنَّك لستَ قادرًا على ذلك، ولا أنت صادِقٌ فيه، فإن كان حقًّا فائتِنا به(٣).

= قال السعدي: (﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ هذا الضميرُ محتملٌ أن يعودَ إلى نوح، كما كان السياقُ في قصتِه مع قومِه، وأنَّ المعنى: أنَّ قومَه يقولونَ: افترَى على الله كذبًا، وكذَّب بالوحي الذي يزعمُ أنَّه مِن الله، وأنَّ الله أمَره أن يقولَ: ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾ أي: كلٌّ عليه وزرُه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾.
ويحتمِلُ أن يكونَ عائدًا إلى النبيِّ محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، وتكونَ هذه الآيةُ معترضةً، في أثناءِ قصةِ نوحٍ وقومِه؛ لأنَّها مِن الأمورِ التي لا يعلمُها إلَّا الأنبياءُ، فلمَّا شرَع الله في قصِّها على رسولِه، وكانت مِن جملةِ الآياتِ الدالةِ على صدقِه ورسالتِه، ذكرَ تكذيبَ قومِه له مع البيانِ التامِّ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٧٨).

٢- قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ دلَّت هذه الآيةُ على أنَّ الإغواءَ بإرادةِ الله، وهي بذلك تدُلُّ على بُطلانِ مَذهَبِ المُعتَزِلةِ والقَدَريَّةِ ومَن وافَقَهما؛ إذ زعموا أنَّ الله تعالى لا يُريدُ أن يَعصيَ العاصي، ولا يكفُرَ الكافِرُ، ولا يغويَ الغاوي، فرَدَّ الله عليهم بقَولِه تعالى: ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾، فأضاف إغواءَهم إلى اللهِ سبحانه وتعالى؛ إذ هو الهادي والمُضِلُّ، سبحانه عمَّا يقولُ الجاحِدونَ والظَّالِمونَ عُلُوًّا كبيرًا[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ بيانُ نوعِ الإرادةِ الكونيَّةِ- وهي الإرادةُ المُستَلزِمةُ لوقوعِ المُرادِ- ويُقابِلُها الإرادةُ الدينيَّةُ الشَّرعيَّةُ- وهي محبَّةُ المرادِ ورِضاه، ومحبَّةُ أهلِه والرِّضا عنهم، وجزاؤُهم بالحُسنى- كقَولِه تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾[٢] [البقرة: ١٨٥].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾

- قولُهم: ﴿فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾ خبَرٌ مستعمَلٌ في التَّذمُّرِ والتَّضجيرِ والتَّأييسِ مِن الاقتناعِ[٣].

٢- قولُه تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّما يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شاءَ﴾ فيه قَصْرُ قَلْبٍ[٤]، بِناءً على ظاهِرِ

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٨).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ١٨٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٦٠).
(٤) قصر القلب: هو أنْ يَقلِبَ المتكلمُ فيه حُكمَ السامع، كقولك: ما شاعرٌ إلَّا زيدٌ، لمن يعتقد أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معينةٍ أو طرفٍ معينٍ، لكنَّه يقول: ما زيدٌ هناك بشاعر. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٨٨).

طلَبِهم؛ حَملًا لِكلامِهم على ظاهِرِه، على طَريقةِ مُجاراةِ الخَصْمِ في المناظَرةِ، وإلَّا فإنَّهم جازِمون بتَعذُّرِ أن يأتِيَهم بما وعَدهم؛ لأنَّهم يَحسَبونه كاذِبًا، وهم جازِمون بأنَّ اللهَ لم يَتوعَّدْهم، ولعلَّهم كانوا لا يُؤمِنون بوجودِ اللهِ[١].

- وقولُه: ﴿إِنْ شَاءَ﴾ احتراسٌ راجِعٌ إلى حَملِ العذابِ على عذابِ الدُّنيا[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ﴾ فيه تعريضٌ بتَحْميقِهم، وتسفيهِ آرائِهم؛ حيث كَرِهوا النُّصْحَ الَّذي هو نفْعٌ لهم[٣].

- وجملةُ ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ابتدائيَّةٌ لِتَعليمِهم أنَّ اللهَ ربُّهم؛ إن كانوا لا يُؤمِنون بوجودِ اللهِ، أو لِتَذكيرِهم بذلك إن كانوا يُؤمِنون بوجودِه، ويُشرِكون معه وَدًّا وسُواعًا ويَغُوثَ ويَعُوقَ ونَسْرًا[٤].

- وتَقديمُ الجارِّ والمجرورِ في ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؛ للاهتمامِ، ولرِعايةِ الفاصلةِ[٥].

٤- قولُه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾

- لفظةُ ﴿أَمْ﴾ هنا للإضرابِ للانتقالِ مِن غرَضٍ إلى غرضٍ، والاستفهامُ الذي يُؤْذِنُ به حرفُ ﴿أَمْ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ، وموقعُ الإنكارِ بديعٌ؛ لِتَضمُّنِه الحُجَّةَ عليهم[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٦١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٦٣).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٦٤).

- قولُه: ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي﴾ فيه تقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَيَّ﴾، وهو مُؤذِنٌ بالقَصْرِ، أي: إجرامي عليَّ لا علَيكم؛ فلماذا تُكثِرون ادِّعاءَ الافتِراءِ كأنَّكم ستُؤاخَذون بتَبِعَتِه؟! وهذا جارٍ على طريقةِ الاستِدْراجِ لهم، والكلامِ المنصِفِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٦٤).

الآيات (٣٦-٣٩)

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا
كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟
إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ
قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ
عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾: أي: لا تَحزَن، مِن البُؤسِ: وهو الضُّرُّ والشِّدَّةُ[١].

﴿وَوَحْيِنَا﴾: أي: أمرِنا وتعليمِنا، والوحيُ: الإشارةُ، وأيضًا: الكتابُ والرسالةُ، وكلُّ ما ألقيتَه إلى غيرِك حتى علِمه فهو وحيٌ كيف كان، وأصلُ (وحي): يدلُّ على إلقاءِ علمٍ في إخفاءٍ[٢].

﴿مُقِيمٌ﴾: أي: دائمٌ سرمديٌّ أبديٌّ، وأصلُ (قوم): انْتِصابٌ أو عَزْمٌ[٣].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تعالى أنَّه أوحَى إلى نوحٍ عليه السَّلامُ أنَّه لن يؤمِنَ باللهِ مِن قومِك إلا مَن قد آمنَ مِن قبلُ، فلا تَحزَنْ على ما كانوا يفعلونَ، واصنَعِ السفينةَ بمرأًى منَّا وبأمْرِنا لك تحتَ حِفظنا وكِلاءَتِنا، ولا تطلُبْ مني العفوَ عن هؤلاء الذين

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٩٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ١٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص٨٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٤٩).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٤).

ظَلَموا أنفُسَهم من قومِك بكُفرِهم؛ فإنَّهم مُغرَقون بالطُّوفانِ.

ثمَّ أخبَر تعالى أنَّ نوحًا عليه السلامُ شرع يَصنَعُ السفينةَ كما أُمِر، وكلَّما مرَّ عليه جماعةٌ مِن كُبَراءِ قَومِه سَخِروا منه، قال لهم نوحٌ رادًّا عليهم: إن تسخَروا منَّا اليومَ لجَهلِكم بصِدقِ وعدِ اللهِ، فإنَّا نسخَرُ منكم كما تسخرونَ منَّا، فسوف تعلمون مَن الذي يأتيه في الدُّنيا عذابُ اللهِ الذي يُهينُه، ويَنزِلُ به في الآخرةِ عذابٌ دائمٌ لا انقِطاعَ له؟

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾.

أي: وأوحَى اللهُ إلى نبيِّه نوحٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنَّه لن يؤمِنَ باللهِ ويتَّبِعَك من قومِك إلَّا مَن سبق أن آمَن مِن قَبلُ[1].

﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾.

أي: فلا تَحزَنْ- يا نوحُ- بما كان يفعَلُ قَومُك من الكُفرِ والتكذيبِ، ولا يُهمَّنَّك أمرُهم؛ فإنِّي مُهلِكُهم[2].

﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان نهيُه تعالى نوحًا عليه السَّلامُ عن الابتئاسِ بفِعلِهم- مع شِدَّةِ جُرمِهم-

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٦٥).

مؤذِنًا بأنَّ الله ينتَصِرُ له؛ أعقبَه بالأمرِ بصُنعِ الفُلكِ؛ لتهيئةِ نجاتِه، ونجاةِ مَن قد آمنَ به من العذابِ الذي قدَّرَه الله لِقَومِه[1].

﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾.

أي: واصنَعِ السَّفينةَ بمرأى منَّا، وتحت حِفْظنا، وبتعليمِنا لك كيفيَّةَ صِناعتِها[2].

﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾

أي: ولا تسألْني- يا نوحُ- العفوَ عن قَومِك المُشرِكينَ الذين ظَلَموا أنفُسَهم بالكفرِ؛ إنَّهم محكومٌ عليهم بالغَرَقِ بالطوفانِ، فلا سبيلَ إلى طلَبِ الشفاعةِ لهم[3].

﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ﴾.

أي: وطَفِقَ نوحٌ يصنَعُ السَّفينةَ، وكلَّما مرَّ عليه جماعةٌ من كُبَراءِ قَومِه المشركينَ ورأَوْا ما يصنَعُ هَزِئوا منه[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٢٨١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣١٩)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢).

قال القرطبي: (في سُخرِيَتِهم منه قولان: أحدُهما: أنَّهم كانوا يرَونَه يبني سفينتَه في البَرِّ فيسخرون به ويستهزِئونَ، ويقولون: يا نوحُ، صِرتَ بعد النبوَّةِ نجَّارًا. الثاني: لَمَّا رأوه يبني السفينةَ ولم يشاهِدوا قبلها سفينةً بُنِيَت، قالوا: يا نوحُ، ما تصنعُ؟ قال: أبني بيتًا يمشي على الماءِ، فعَجِبوا من قولِه، وسَخِروا منه). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٢-٣٣).

﴿قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾.

أي: قال نوحٌ لِقَومِه: إن تستَهزِئوا بنا عند بناءِ السَّفينةِ، فإنَّا نستهزِئُ بكم كما تستَهزِئونَ بنا(١).

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾.

أي: قال نوحٌ مهدِّدًا قومَه: فسوف تعلمونَ إذا نزل بكم عِقابُ اللهِ مَن يأتيه(٢) عذابٌ يُهينُه في الدُّنيا(٣).

﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٩٣)، ((تفسير الماوردي)) (٢/ ٤٧١)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٧٣)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٤٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٣٤).

اختار ابنُ جرير أنَّ المرادَ نهزأُ منكم في الآخرةِ كما تهزؤون منا في الدُّنيا. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٩٣).

واختار ابن عطيةَ أنَّ المرادَ نسخَرُ منكم الآن لغفلَتِكم عما سيحُلُّ بكم من العذابِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٧٠).

واختيارُ القرطبيِّ: نسخَرُ منكم غدًا عند الغَرَق. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٣).

واختيارُ البيضاوي: إذا أخذَكم الغرَقُ في الدنيا والحَرَقُ في الآخرة. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٣٤).

(٢) (من) في قوله: ﴿مَنْ يَأْتِيهِ﴾ فيها وجهان: أحدُهما: أن يكونَ بمعنى (الذي)، والثاني: أن يكونَ استفهامًا بمعنى (أي)، كأنَّه قيل: فسوف تعلمون أيُّنا يأتيه عذابٌ... يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٩٣، ٤٠١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٠).

قال ابن عطية: (العذابُ المُخزي هو الغَرَقُ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٧٠).

أي: ومَن يَنزِلُ به في الآخرةِ عذابٌ دائِمٌ لا ينقَطِعُ(١).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قال الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ في إسنادِ (العِلمِ) إلى ضَميرِ المخاطَبين دونَ الضَّميرِ المشارِكِ- بأن يُقالَ: (فسوف نَعلَمُ)- إيماءٌ إلى أنَّ المخاطَبين هم الأحَقُّ بعِلْمِ ذلك، وهذا يُفيدُ أدَبًا شَريفًا بأنَّ الواثِقَ بأنَّه على الحَقِّ لا يُزَعزِعُ ثِقتَه مُقابَلةُ السُّفهاءِ أعمالَه النَّافعةَ بالسُّخريةِ، وأنَّ عليه وعلى أتباعِه أن يَسْخَروا مِن السَّاخِرين(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ يدلُّ على إثباتِ القضاءِ والقَدَرِ؛ لأنَّه تعالى أخبَرَ بأنَّهم لا يؤمنونَ بعدَ ذلك(٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾، الهاءُ في ﴿أَنَّهُ﴾ ضميرُ الشَّأنِ، وهو دالٌّ على أنَّ الجُملةَ بعدَه أمْرُها خطيرٌ؛ لأنَّها تأييسٌ له مِن إيمانِ بقيَّةِ قومِه، وذلك شديدٌ عليه؛ ولذلك عُقِّب بتَسْليتِه بجملةِ ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾؛ فالفاءُ لِتَفريعِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٠١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٠/ ٤٨١).

التَّسليةِ على الخبَرِ المحزِنِ[١].

- قولُه: ﴿مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ فيه تأكيدُ الفعلِ بـ﴿قَدْ﴾؛ للتَّنصيصِ على أنَّ المرادَ مَن حصَل مِنهم الإيمانُ يَقينًا دونَ الَّذين تردَّدوا[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾

- قوله: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ جملةُ ﴿إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ تعليليَّةٌ للنَّهيِ في ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي﴾؛ عَلَّل منْعَ مُخاطَبتِه بأنَّه حكَم عليهم بالغرَقِ في قولِه: ﴿إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾، وفيها إخبارٌ بما سيَقَعُ، وبيانٌ لِسَببِ الأمرِ بصُنعِ الفُلكِ[٣].

- وقوله: ﴿إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ فيه مجيءُ الخبرِ إنكاريًّا مؤكَّدًا بـ (إنَّ) تأكيدًا للكلام، وتنزيلًا للسَّامعِ مَنزلةَ المتردِّد؛ لأنَّه للنَّفسِ اليقْظَى مَظِنَّةُ التردُّدِ في حُكمِ الخَبرِ ومَؤونةِ الطَّلبِ له؛ فقال أولًا: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، أي: لا تَدْعُني يا نوحُ في استدفاعِ العذابِ عنهم، ثم قال: ﴿إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾؛ لأنَّ الكلامَ مَظِنَّةُ أنْ يَتردَّدَ نوحٌ بأنَّه هلْ يُصيبُهم بأسٌ، بل بأنَّهم هل هم مُغرَقون بملاحظةِ ما تَقدَّم من قولِه: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ﴾؛ فأوردَ الخبرَ مؤكَّدًا، فقال: إنَّهم محكومٌ عليهم بالإغراقِ[٤].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٦٧).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ٣٥٣).

فيه التَّعبيرُ عن صُنعِه الفُلْكَ بصيغةِ المضارِعِ في ﴿وَيَصْنَعُ﴾؛ وذلك لاستِحْضارِ الحالةِ؛ لِتَخْييلِ السَّامعِ أنَّ نوحًا عليه السَّلامُ بصَدَدِ العمَلِ(١).

- وجَمْعُ الضَّميرِ في قولِه: ﴿مِنَّا﴾ يُشيرُ إلى أنَّهم يَسْخَرون مِنه في عمَلِ السَّفينةِ، ومِن الَّذين آمَنوا به؛ إذ كانوا حوْلَه واثِقين بأنَّه يَعمَلُ عَملًا عَظيمًا، وكذلك جمعُه في قولِه: ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ﴾(٢).

- قولُه: ﴿كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ فيه تشبيهٌ، ووجهُه أنَّه تشبيهٌ في السَّببِ الباعِثِ على السُّخريةِ، وإن كان بينَ السَّببَينِ بَوْنٌ، ويجوزُ أن تكونَ كافُ التَّشبيهِ مُفيدةً معنى التَّعليلِ كالَّتي في قولِه تعالى: ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨]؛ فيُفيدُ التَّفاوُتَ بينَ السُّخريَتينِ؛ لأنَّ السُّخريَةَ المعلَّلَةَ أحَقُّ مِن الأُخرَى؛ فالكُفَّارُ سَخِروا مِن نوحٍ عليه السَّلامُ لِعَملٍ يَجهَلون غايتَه، ونوحٌ عليه السَّلامُ وأتباعُه سَخِروا مِن الكفَّارِ؛ لعِلْمِهم بأنَّهم جاهِلون في غُرورٍ(٣).

٤- قولُه تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ تفريعٌ على جملةِ ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ﴾، أي: سيَظهَرُ مَن هو الأحَقُّ بأن يُسخَرَ منه(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٦٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٦٩).

الآيات (٤٠-٤٤)

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ
وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ
ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ
فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا
تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ
ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴿٤٣﴾
وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى
ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿التَّنُّورُ﴾: هو الكانونُ (الموْقِدُ) الذي يُخبَزُ فيه[1].

﴿مَجْرَاهَا﴾: أي: مَسيرُها، وأصلُ (جري): يدلُّ على انسياحِ شَيءٍ[2].

﴿وَمُرْسَاهَا﴾: أي: رُسُوُّها، وانتهاءُ سَيرِها، وأصلُ (رسو): يدلُّ على ثباتٍ[3].

﴿مَعْزِلٍ﴾: أي: مكانٍ مُنقَطِعٍ، وأصلُ (عزل): يدلُّ على تَنحيةٍ وإمالةٍ[4].

﴿سَآوِي﴾: أي: أَرجِعُ وألجأُ، وأصلُ (أوى): يدلُّ على تَجمُّعٍ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٠١)، ((لسان العرب)) لابن منظور (٤/ ٩٥)، ((تاج العروس)) للزبيدي (١٠/ ٢٩٤) (٣٦/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٤٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٩٤)، ((تاج العروس)) للزبيدي (١٩/ ٤٥٩).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٠٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٢).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٣)، ((تفسير =

﴿أَقْلِعِي﴾: أي: أمسِكي عن المَطَر، وأصلُ (قلع): يدلُّ على انتزاعِ شَيءٍ مِن شَيءٍ[١].

﴿وَغِيضَ الْمَاءُ﴾: أي: غارَ في الأرضِ ونضَبَ، وأصلُ (غيض): يدلُّ على نُقصانٍ في شَيءٍ وقِلَّةٍ[٢].

﴿الْجُودِيِّ﴾: هو اسمُ جَبَلٍ[٣].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قولُه تعالى: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾

﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ في هذا الاستثناءِ وَجهانِ؛ أحدهما: أنَّه مُنقَطِعٌ، و﴿مَنْ رَحِمَ﴾ بمعنى (المرحوم)، أي: لكِنْ مَن رَحِمَه اللهُ مَعصومٌ. وعليه فـ﴿مَنْ﴾ في مَحلِّ نصبٍ على الاستِثناءِ المُنقَطِع. الثاني: أنَّه استِثناءٌ متَّصِلٌ، و﴿مَن رَحِم﴾ بمعنى (الرَّاحِم)، وهو اللهُ تعالى، أي: لا عاصِمَ إلَّا الرَّاحِمُ؛ فـ﴿مَنْ﴾ في مَوضِع رفعٍ على البدَلِ من محلِّ ﴿عَاصِمَ﴾. وقيل: إنَّ ﴿عَاصِمَ﴾ بمعنى (معصوم)، أي: لا معصومَ إلَّا المرحومُ. والاستثناءُ متَّصِلٌ أيضًا. وخبرُ ﴿لا﴾ محذوفٌ تقديرُه (مانِعٌ)، وكلٌّ مِن ﴿الْيَوْمَ﴾ و﴿مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ متعلِّقٌ بالخبرِ المحذوفِ، والتَّقديرُ: لا عاصِمَ مانِعٌ اليومَ مِن أَمرِ اللهِ[٤].

= القرطبي)) (٩/ ٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤١٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤١٩، ٤٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٢).

(٤) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣٦٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري =

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: حتى إذا جاء أمرُنا بإهلاكِ قومِ نوحٍ، كما وَعدْنا نوحًا بذلك، ونبَعَ الماءُ بقُوَّةٍ مِن التَّنُّورِ- وهو المكانُ الذي يُخبَزُ فيه- علامةً على مجيءِ العَذابِ؛ قُلنا لنوحٍ: احمِلْ في السَّفينةِ مِن كُلِّ نَوعٍ مِن أنواعِ المَخلوقاتِ ذكرًا وأُنثى، واحمِلْ فيها أهلَ بَيتِك إلَّا مَن سبَق عليهم القَولُ بالعذابِ، واحمِلْ فيها مَن آمن معك مِن قَومِك، وما آمن معه إلَّا قليلٌ.

وقال نوحٌ لِمن آمن معه: اركبُوا في السَّفينةِ، باسمِ اللهِ يكونُ جَريُها على وجهِ الماءِ، وباسمِ اللهِ يكونُ مُنتهَى سَيرِها ورُسُوُّها، إنَّ ربِّي لَغفورٌ رحيمٌ.

ثمَّ وصَف الله تعالى جريانَ السفينةِ، فقال: وهي تجري بهم في موجٍ يعلو ويرتَفِعُ حتى يصيرَ كالجبالِ، ونادى نوحٌ ابنَه- وكان في ناحيةٍ بعيدةٍ عن السفينةِ- فقال له: يا بُنَيَّ اركبْ معنا في السَّفينةِ، ولا تكُنْ مع الكافرينَ باللهِ فتَغرقَ.

فقال له ابنُه: سألجأُ إلى جبلٍ أتحصَّنُ به من الماءِ، فيَمنَعُني من الغَرَقِ، فأجابه نوحٌ: لا مانِعَ اليومَ مِن أمرِ اللهِ وقَضائِه الذي قد نزل بالخَلقِ من الغَرَقِ والهلاكِ إلَّا الرَّاحِمُ، وهو اللهُ تعالى، وحال الموجُ المُرتَفِعُ بين نوحٍ وابنِه، فكان من المُغرَقينَ الهالكينَ، وقال اللهُ للأرضِ- بعد هلاكِ قَومِ نُوحٍ: يا أرضُ اشرَبي ماءَكِ، ويا سَماءُ أمسِكي عن المَطَرِ، وغار الماءُ ونَضَب، وقُضِيَ أمرُ اللهِ بهَلاكِ قَومِ نُوحٍ، ونجاةِ المؤمنينَ، ورَسَت السَّفينةُ على جَبَلِ الجُوديِّ، وقيل: هلاكًا وبُعدًا للقَومِ الظَّالمينَ.

= (٢/ ٧٠٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٥٨-١٥٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٣٣٢-٣٣٣).

تَفسيرُ الآيات:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ٤٠ ﴾.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ﴾.

أي: حتى إذا جاء أمرُ الله بعذابِ قَومِ نوحٍ وهلاكِهم بالطوفانِ، ونبَعَ الماءُ بشِدَّةٍ مِن الموضعِ الذي يُخبزُ فيه؛ علامةً على مجيءِ العذابِ(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٠١، ٤٠٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٧٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٢٠)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٤٧).

والمعنى المذكورُ للتنورِ هو اختيارُ ابنِ جرير، والواحديِّ، والرازي. يُنظر: المصادر السابقة، وقد نسَبه غيرُ واحدٍ إلى أكثرِ المفسرينَ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٤٢٨)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٤٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٧٠).

قال الطبري: (أولَى هذه الأقوالِ عندَنا بتأويلِ قولِه: ﴿التَّنُّورُ﴾ قولُ من قال: هو التَّنُّورُ الَّذي يُخبَزُ فيه؛ لأنَّ ذلك هو المعروفُ من كلام العربِ، وكلامُ اللَّهِ لا يُوَجَّه إلَّا إلى الأغلبِ الأشهرِ مِنْ معانيه عندَ العربِ إلَّا أنْ تقومَ حُجَّةٌ على شيءٍ منه بخلافِ ذلك فيسَلَّمُ لها. وذلك أنَّه جلَّ ثناؤُه إنَّما خاطَبَهم بما خاطَبَهم به لإفهامِهم معنَى ما خاطَبَهم به). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٠٦).

وممن قال به من السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه، والحسنُ، ومجاهدٌ، وقتادةُ- في رواية معمرٍ عنه- ومقاتلٌ. يُنظر: ((تفسير عبد الرزاق)) (٢/ ٤١٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٠٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٧٣)، ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٢٨٢).

وقيل: التنورُ: وجهُ الأرضِ. وممن قال به من السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه، وعليٌّ، وعكرمةُ، والزهريُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٠١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٧٣).

قال ابنُ كثير: (وأما قولُه: ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ فعن ابن عباس: التنورُ: وجهُ الأرضِ، أي: صارتِ الأرضُ عيونًا تفورُ، حتى فار الماءُ مِن التنانيرِ التي هي مكانُ النارِ، صارت تفورُ ماءً، وهذا قولُ جمهورِ السلفِ وعلماءِ الخلفِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٠). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢).

وقيل في المرادِ بالتنورِ غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٧١).

﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾.

أي: قُلنا لنوحٍ عليه الصلاةُ والسَّلامُ حين جاء موعِدُ هلاكِ قَومِه: احمِلْ في السَّفينةِ مِن كُلِّ صنفٍ من أصنافِ المخلوقاتِ ذكَرًا وأنثى(١).

﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾.

أي: واحمِلْ أيضًا في السفينةِ أهلَ بَيتِك إلَّا من قدَّر اللهُ هلاكَه لكُفرِه(٢).

كما قال تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٧].

﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾.

أي: واحملْ في السفينةِ أيضًا مَن آمنَ بالله واتَّبَعَك(٣).

﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

وما آمنَ مع نوحٍ عليه السلامُ إلَّا نفرٌ قليلٌ مِن قَومِه(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢).
قال القرطبي: (﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ يعني ذكرًا وأنثى؛ لبقاءِ أصلِ النَّسلِ بعد الطوفانِ). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤١٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤١٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢).
قال ابن جرير: (الصوابُ مِن القَولِ في ذلك أن يقالَ كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ يصِفُهم بأنَّهم كانوا قليلًا، ولم يحدِّدْ عددُهم بمقدارٍ ولا خبرٍ عن رسولِ الله صلَّى الله =

﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (٤١)﴾.

﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾.

أي: وقال نوحٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لِمَن معه: اركَبوا في السفينةِ باسمِ الله يكونُ مسيرُها السَّريعُ على وجهِ الماءِ، وباسمِ اللهِ يكونُ مُنتَهى سيرِها ورسوُّها على الشَّاطئِ، فهي تجري وتقِفُ بتسخيرِ اللهِ وأمْرِه[1].

﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: إنَّ ربِّي لَساترٌ ذنوبَ من تاب إليه من أصحابِ السَّفينةِ وغَيرِهم، مُتجاوِزٌ عن مؤاخَذتِهم بها، رحيمٌ بهم حيث نجَّاهم من عذابِه، ومِن القومِ الظَّالمينَ[2].

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (٤٢)﴾.

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾.

أي: والسَّفينةُ تجري بنوحٍ ومَن رَكِبَ معه بإذنِ اللهِ وحِفظِه في أمواجٍ مُرتَفعةٍ كالجبالِ[3].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١].

= عليه وسلَّم صحيح، فلا ينبغي أن يُتجاوَزَ في ذلك حَدُّ الله؛ إذ لم يكُن لمبلَغِ عدَدِ ذلك حدٌّ من كتابِ اللهِ أو أثرٌ عن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤١٣، ٤١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٧٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤١٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤١٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢).

وقال سُبحانه: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ * وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٣ - ١٥].

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

أي: ونادى نوحٌ ابنَه الكافِرَ(١) وكان في ناحيةٍ بعيدةٍ عن السَّفينةِ قائلًا له: يا بُنَيَّ اركَبْ معنا السفينةَ، ولا تكنْ مع الكافرينَ فتَغرَقَ مِثلَهم(٢).

﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾.

أي: قال ابنُ نوحٍ عليه السلامُ: سألجأُ إلى جبلٍ عالٍ أتحصَّنُ به، يمنَعُني من الماءِ، فلا أغرَقُ(٣).

﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾.

أي: قال نوحٌ لابنِه: لا مانعَ اليومَ مِن عذابِ اللهِ إلَّا الرَّاحِمُ، وهو اللهُ الذي يرحَمُ من يشاءُ فيُنَجِّيه من الغَرَقِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤١٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٢١)، ((تفسير السعديّ)) (ص: ٣٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤١٧)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٥٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤١٧، ٤١٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٩، ٤٠)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢). =

﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾.

أي: وحال بين نوحٍ وابنِه موجُ الماءِ، فكان ممَّن أهلَكَهم الله بالغَرَقِ من قومِ نوحٍ الكافرينَ(١).

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٤٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذكرَ الله تعالى وقوعَ الغَرَقِ الموعودِ به على وجهِ الإيجازِ؛ انتقل الكلامُ إلى انتهاءِ الطُّوفانِ(٢).

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي﴾.

أي: وأمَرَ الله الأرضَ بعد غَرَقِ قَومِ نُوحٍ: أنْ يا أرضُ تشرَّبي الماءَ الذي على وَجهِك، ويا سَماءُ أمسِكي عن الإمطارِ(٣).

﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾.

أي: نقصَ الماءُ الذي على الأرضِ حتى نضبَ، وفُرِغ من هلاكِ قَومِ نُوحٍ

= قال البيضاوي: (﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ إلَّا الرَّاحِمُ، وهو الله تعالى... وقيل: الاستثناء منقطعٌ أي: لكِنْ مَن رَحِمَه الله يعصِمُه). ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٣٦). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٣)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤١٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢).

الكافرينَ، وإنجاءِ المؤمنينَ[١].

﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾.

أي: ورَسَت السفينةُ، واستقرَّت بمن فيها على جبلِ الجُوديِّ[٢].

﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: وقيل[٣]: بُعدًا وسُحقًا مِن رحمةِ اللهِ لِلقومِ الكافرينَ[٤].

الفَوائدُ التربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الإنسانَ لا ينبغي أن يَشرعَ في أمرٍ من الأمورِ إلَّا ويكونُ في وقتِ الشُّروعِ فيه ذاكِرًا لاسمِ الله تعالى بالأذكارِ المشروعة؛ حتى يكون- ببَرَكةِ ذلك الذِّكرِ- سببًا لتمام ذلك المقصودِ[٥].

٢- الواجِبُ ربطُ الهِمَّة، وتعليقُ القلبِ بفَضلِ الله تعالى، والبراءةُ عن الحَولِ والقوَّةِ، وقطعُ النَّظَرِ عن الأسبابِ، يُرشِدُ إلى ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَقَالَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤١٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤١٩)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢).
قال البغوي: (هو جبلٌ بأرضِ الجزيرة بقُرب المَوصِل). ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٥١).
وكذا قال عددٌ من المفسرين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢).

(٣) قال أبو حيَّان: (الظاهر أنَّ قَولَه: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا﴾ مِن قول الله تعالى كالأفعالِ السابقة، وبني الجميعُ للمفعولِ للعلم بالفاعل، وقيل: من قولِ نوحٍ والمؤمنين، قيل: ويحتملُ أن يكون من قولِ الملائكة). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٤٩).

ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾[١].

٣- قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ ولم يقلْ: (معَ المغرقينَ) إشارةً إلى أنَّ مَن له عقلٌ وهمَّةٌ ينبغي أن يكونَ تحفُّظُه على صونِ دينِه آكدَ مِن تحفظِه على صونِ نفسِه؛ لأنَّ حفظَ الأديانِ آكدُ مِن حفظِ النُّفوسِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ احتُجَّ به في إثباتِ القَضاءِ اللازمِ والقدَرِ الواجبِ؛ لأنَّ قَولَه تعالى: ﴿سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ مُشعِرٌ بأنَّ كلَّ من سبق عليه القَولُ، فإنَّه لا يتغيَّرُ عن حالِه[٣].

٢- قولُه: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ اعتبارُ المعيَّةِ في إيمانِهم للإيماءِ إلى المعيَّةِ في مَقرِّ الأمانِ والنَّجاةِ[٤].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ في هذه الآيةِ دليلٌ على ذِكرِ البسملةِ عند ابتداءِ كُلِّ فِعلٍ[٥].

٤- كلُّ مَقامٍ يُقصَدُ فيه التيمُّنُ والانتسابُ إلى الربِّ الواحدِ يُعدَّى فيه الفعلُ إلى لفظِ اسمِ الله، كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾، وكذلك المقامُ الذي يُقصَدُ فيه ذِكرُ اسمِ الله تعالى، كقولِه تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ أي: قل: سُبحانَ الله، وكلُّ مَقامٍ يُقصَدُ فيه طلبُ التَّيسيرِ والعَونِ مِن الله تعالى يعَدَّى الفعلُ المسؤولُ إلى عَلَمِ الذَّاتِ باعتبارِ ما

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٤٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (٢/ ٣٥٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٤٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٠٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٧).

له من صفاتِ الخَلقِ والتَّكوينِ، كما في قولِه تعالى: ﴿فَاسْجُدْ لَهُ﴾ [الإنسان: ٢٦] وقولِه في الحديث: ((اللهمَّ بك أصبحنا وبك أمسينا))(١) أي: بقُدرتِك ومَشيئتِك، وكذلك المقامُ الذي يُقصَدُ فيه توجُّهُ الفعلِ إلى اللهِ تعالى، كقولِه تعالى: ﴿فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ﴾ أي: نَزِّهْ ذاتَه وحقيقتَه عن النقائصِ(٢).

٥- حيلولةُ الموجِ بينَ نوحٍ عليه السلامُ وابنِه في آخِرِ المُحاوَرةِ يُشيرُ إلى سُرعةِ فيَضانِ الماءِ في حينِ المُحاوَلةِ، قال تعالى: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾(٣).

٦- قال الله تعالى: ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ يُقالُ: أكرمَ الله ثلاثةَ جبالٍ بثلاثةِ نَفَرٍ: الجُوديَّ بنوحٍ، وطورَ سيناءَ بموسى، وحِراءَ بمحمَّدٍ صلواتُ الله وسلامُه عليهم أجمعينَ(٤).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾

- قولُه: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ فيه إيجازٌ بديعٌ؛ فـ(حتَّى) غايةٌ لـ ﴿يَصْنَعُ الْفُلْكَ﴾ [هود: ٣٨]، أي: يَصنَعُه إلى زمَنِ مَجيءِ أمْرِنا، فـ(إذا)

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٦٨) واللفظ له، والترمذي (٣٣٩١)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١٠٣٩٩)، وابن ماجه (٣٨٦٨) باختلاف يسير، وأحمد (٨٦٤٩) أوله.
حسَّنه الترمذيُّ، وأخرجه ابنُ حبان في ((صحيحه)) (٩٦٤)، وصحَّح إسنادَه النوويُّ في ((الأذكار)) (١٠٧)، وصحَّحه ابن دقيق في ((الاقتراح)) (١١٨)، وابن القيم في ((زاد المعاد)) (٢/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٤٢).

ظرفٌ مضمَّنٌ معنى الشَّرطِ؛ ولذلك جيءَ له بجوابٍ، وهو جملةُ ﴿قُلْنَا احْمِلْ﴾، وإضافةُ الأمرِ إلى (نَا العَظَمةِ) في ﴿أَمْرُنَا﴾؛ لِتَهويلِه بأنَّه فوقَ ما يَعرِفون[1].

- قولُه: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ فيه مُناسَبةٌ حسنةٌ، حيث جيءَ بـ(على)؛ لكونِ السَّابِقِ ضارًّا لهم، بينَما جيءَ باللَّامِ فيما هو نافِعٌ لهم مِن قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٧١]، وقولِه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾[2] [الأنبياء: ١٠١]. ويُمكن أنْ يكونَ فيها معنى العُلوِّ؛ وذلك أنَّ المقضيَّ نازلٌ بِهم لا مَناصَ لهم منه.

- وجملةُ ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ اعتراضٌ لِتكميلِ الفائدةِ مِن القصَّةِ في قلَّةِ الصَّالِحين[3].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا﴾ (في) للتَّأكيدِ كقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣] وفائدةُ (في) أنَّهم أُمِروا أن يكونوا في جَوفِها لا على ظَهرِها[4]، وقيل: تعدِيَةُ فِعْلِ اركَبوا بـ(في)؛ جَرْيًا على الفَصيحِ؛ فإنَّه يُقالُ: رَكِبَ الدَّابَّةَ إذا عَلاها، وأمَّا رُكوبُ الفُلْكِ فيُعَدَّى بـ(في) لأنَّه جُلوسٌ واستقرارٌ؛ فلا يُقالُ: رَكِبَ السَّفينةَ، فأرادوا التَّفرقةَ بينَ الرُّكوبِ الحقيقيِّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٦٩-٧٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٠٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٧٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٦).
وأُمِروا بذلك- واللهُ أعلمُ- حتى لا تفجعَهم رؤيةُ الموجِ وشِدَّةُ اندفاعِه، حيث كان موجًا هائلًا كالجبالِ.

والرُّكوبِ المشابِهِ له، وهي تفرِقةٌ حسَنةٌ[1].

- وجملةُ ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ تَعليليَّةٌ للأمرِ بالرُّكوبِ المقيَّدِ بالملابَسةِ لذَكْرِ اسْمِ اللهِ تعالى، ففي التَّعليلِ بالمغفرةِ والرَّحمةِ رمزٌ إلى أنَّ اللهَ وعَدَه بنَجاتِهم؛ وذلك مِن غُفرانِه ورَحمتِه، وأكِّد بـ (إنَّ) ولامِ الابتداءِ تَحقيقًا لأتباعِه بأنَّ اللهَ رَحِمَهم بالإنجاءِ مِن الغرَقِ[2].

- وفيه مناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال اللهُ تعالى هنا: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾، وفي سورةِ المؤمنونَ قال: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٧]، فقال في سورةِ (هودٍ): ﴿قُلْنَا احْمِلْ﴾، وفي سورة (المؤمنونَ): ﴿فَاسْلُكْ﴾؛ ووجهُ ذلك الاختلافِ:

أنَّ آيةَ سورةِ (هُودٍ) حَكَتْ ما خاطَبه اللَّهُ به عندَ حدوثِ الطُّوفانِ وذلك وقتٌ ضَيِّقٌ، فأُمِرَ بأنْ يَحمِلَ في السَّفينةِ مَنْ أراد اللَّهُ إبقاءَهم، فأُسنِدَ الحملُ إلى نوحٍ تمثيلًا للإسراعِ بإركابِ ما عُيِّن له في السَّفِينَةِ حتَّى كأنَّ حالَه في إدخالِه إيَّاهم حالُ مَنْ يحملُ شيئًا لِيضعَه في مَوضعٍ، وآيَةُ سورةِ (المؤمنون) حَكَتْ ما خاطَبه اللَّهُ به مِن قبلِ حُدوثِ الطُّوفانِ إنباءً بما يفعلُه عندَ حُدوثِ الطُّوفانِ، فأمَره بأنَّه حينئذٍ يُدْخِلُ في السَّفِينَةِ مَنْ عَيَّنَ اللَّهُ إدخالَهم، معَ ما في ذلك مِنَ التَّفَنُّنِ في حكايةِ القِصَّةِ[3].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٤٦)، ويُنظر أيضًا: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٥٦-٢٥٧).

فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ جملةٌ مُعترِضةٌ، دعا إلى اعتِراضِها هنا ذِكرُ (مَجْرَاهَا)؛ إتمامًا للفائدةِ، ووَصْفًا لعِظَمِ اليومِ، وعجيبِ صُنعِ اللهِ تعالى في تَيْسيرِ نَجاتِهم، وقدَّم المسنَدَ إليه (هِيَ) على الخبَرِ الفعليِّ (تَجْري)؛ لِتَقوِّي الحكْمِ وتَحقيقِه[1].

- قولُه: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ فيه عُدولٌ عن الفعلِ الماضي إلى المضارِعِ في ﴿تَجْرِي﴾؛ لاستِحْضارِ الحالةِ[2]، وقولُه: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ﴾ اتَّصَل بمحذوفٍ دلَّ عليه الأمرُ بالرُّكوبِ ﴿ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ﴾، أي: فرَكِبوا فيها مُسمِّين، وهي تَجري مُلتبسةً لهم، كأنَّه قيل: فرَكِبوا فيها يَقولون: بِسْمِ اللهِ، ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ﴾، أي: تَجْري وهم فيها في موجٍ كالجبالِ[3].

- وقولُه: ﴿فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ فيه تشبيهُ موجِ الطُّوفانِ بالجبالِ؛ شَبَّه كلَّ موجةٍ منه بالجبَلِ في تَراكُمِها وارتِفاعِها وضَخامتِها[4].

- وقولُه عليه السَّلامُ: ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا﴾ عبَّر بـ(بُنَيَّ) وهو تصغيرُ (ابنٍ) مُضافًا إلى ياءِ المتكلِّمِ، وتصغيرُه هنا تصغيرُ شفَقةٍ؛ بحيث يُجعَلُ كالصَّغيرِ في كونِه مَحَلَّ الرَّحمةِ والشَّفقةِ[5].

- وجُمْلَةُ ﴿ارْكَبْ مَعَنَا﴾ فيها كِنايةٌ عن دَعوَتِه ابْنَه إلى الإيمانِ بطَريقةِ العَرْضِ والتَّحذيرِ[6].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٧٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٠٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٧٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٧٦).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وجملةُ ﴿وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ معطوفةٌ على جملةِ ﴿ارْكَبْ مَعَنَا﴾؛ لإعلامِه بأنَّ إعراضَه عن الرُّكوبِ يَجعَلُه في صفِّ الكفَّارِ؛ إذ لا يَكونُ إعراضُه عن الرُّكوبِ إلَّا أثرًا لِتكذيبِه بوُقوعِ الطُّوفانِ(١).

٤- قولُه تعالى: ﴿قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾

- وجملةُ ﴿يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ يحتملُ أن تكونَ صِفةً لـ(جَبَلٍ)، أي: جبَلٍ عالٍ، ويحتمِلُ أن تكونَ استِئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّه استَشعَر أنَّ نوحًا عليه السَّلامُ يَسأَلُ: لماذا يَأْوِي إلى جبَلٍ؟ حيث ظنَّ ابنُ نوحٍ أنَّ أرفَعَ الجبالِ لا يَبلُغُه الماءُ، وأنَّ أباه ما أراد إلَّا بُلوغَ الماءِ إلى غالِبِ المرتفَعاتِ دونَ الجبالِ الشَّامخاتِ؛ ولذلك أجابه نوحٌ عليه السَّلامُ بأنَّه لا عاصِمَ اليومَ مِن أمرِ اللهِ- وهو الطُّوفانُ- إلَّا مَن رَحِم(٢).

- قولُه: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾، أي: (لا عَاصِمَ... إلَّا اللهُ)، وإنَّما قيلَ: ﴿إِلَّا مَن رَحِمَ﴾؛ تفخيمًا لشأنِه الجَليلِ سبحانه وتعالى بالإبهامِ ثمَّ التَّفسيرِ، وبالإجمالِ ثمَّ التَّفصيلِ، وإشعارًا بعِلِّيَّة رَحْمتِه في ذلك بمُوجِبِ سَبْقِها على غضَبِه(٣).

- قولُه: ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ فيه إيجازٌ بديعٌ، حيث أفاد أنَّه غَرِق، وغَرِق معَه مَن توَعَّده بالغرَقِ(٤)، وفي إيرادِ الفِعْلِ (كَان) دونَ (صارَ) مبالَغةٌ في كَونِه منهم(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٧٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٧٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢١١).

٥- قولُه تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾

- هذه الآيةُ بلَغَت مِن أسرارِ الإعجازِ غايتَها، وحَوَتْ مِن بَدائعِ الفرائدِ نِهايَتَها، واشتَمَلَت على وُجوهٍ كثيرةٍ مِن جوانبِ البلاغةِ، والفصاحةِ المعنويَّةِ، والفَصاحةِ اللَّفظيَّةِ، وقد اهتمَّ عُلماءُ البيانِ لإيضاحِ نُخَبٍ مِن لَطائفِها؛ فهي نَظْمٌ للمَعاني لطيفٌ، وتأديةٌ لها مُلخَّصةٌ مُبينةٌ، لا تَعقيدَ يُعْثِرُ الفِكرَ في طلَبِ المرادِ، ولا الْتِواءَ يُشِيكُ الطَّريقَ إلى المُرْتادِ، بل إذا جرَّبتَ نفْسَك عندَ استِماعِها، وجَدْتَ ألْفاظَها تُسابِقُ مَعانيَها، ومَعانِيَها تُسابِقُ ألْفاظَها؛ فما مِن لفظةٍ في تركيبِ الآيةِ ونَظْمِها تَسبِقُ إلى أُذنِك، إلَّا ومَعْناها أسبَقُ إلى قَلبِك.

وأمَّا النَّظرُ فيها مِن جانبِ الفصاحةِ اللَّفظيَّةِ: فألفاظُها على ما نَرى عربيَّةٌ، مُستعمَلةٌ جاريةٌ على قَوانينِ اللُّغةِ، سَليمةٌ مِن التَّنافُرِ، بعيدةٌ عن البَشاعةِ، عَذْبةٌ سَلِسةٌ، كلٌّ مِنها كالماءِ في السَّلاسةِ، وكالعسَلِ في الحلاوةِ، وكالنَّسيمِ في الرِّقَّةِ.

ومن حيثُ البلاغةُ والمناسبةُ، فقد اخْتير (يا) دونَ سائرِ أخَواتِها؛ لِكَونِها أكثَرَ في الاستِعْمالِ وأنَّها دالَّةٌ على بُعْدِ المنادَى الذي يَستَدعيه مَقامُ إظهارِ العظَمةِ، وهو تَبْعيدُ المنادى المؤْذِنُ بالتَّهاوُنِ به، واخْتِيرَ ﴿ابْلَعِي﴾ على (ابتَلِعي)؛ لكونِه أخْصَرَ، ولِمَجيءِ حظِّ التَّجانُسِ بينَه وبينَ ﴿أَقْلِعِي﴾ أوفَرَ، وقيل: ﴿مَاءَكِ﴾ بالإفرادِ دونَ الجمْعِ لِمَا كان في الجمْعِ مِن صورةِ الاستِكْثارِ المتأتِّي عنها مَقامُ إظهارِ الكبرياءِ والجبَروتِ، وإنَّما لم يَقُلِ: (ابْلَعي) فقَط بدونِ المفعولِ؛ حتَّى لا يَستَلزِمَ تَرْكُه ما ليسَ بمُرادٍ مِن تعميمِ الابتلاعِ للجِبالِ والتِّلالِ والبحارِ وساكناتِ الماءِ بأسْرِهنَّ؛ نظَرًا إلى مَقامِ وُرودِ الأمرِ الَّذي هو مَقامُ عظَمةٍ وكِبْرياءٍ، ثمَّ لَمَّا تبيَّن المرادُ اختَصَر الكلامَ فقال: ﴿أَقْلِعِي﴾ فقط؛ احترازًا عن الحَشْوِ المستغنَى

عنه، وهو الوجهُ في أنَّه لم يَقُلْ: (قيلَ يا أرضُ ابلَعي ماءَكِ فبَلَعَت، ويا سماءُ أقلِعي فأقلَعَت)، وقيل: ﴿الْمَاءُ﴾، دون أن يُقالَ: (ماءُ طُوفانِ السَّماءِ)، وكذا قيل: ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ دونَ أن يُقالَ: (أمرُ نوحٍ)؛ لقصْدِ الاختِصارِ، والاستِغْناءِ بحَرْفِ التَّعريفِ عن ذلك. ولم يَقُلْ: (سُوِّيَتْ على الجوديِّ) على نحوِ: (قيلَ) و(غِيضَ) و(قُضِي) في البناءِ للمفعولِ؛ اعتِبارًا لبِناءِ الفِعلِ للفاعلِ معَ السَّفينةِ في قولِه: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ﴾، مع قصْدِ الاختصارِ في اللَّفظِ، ثمَّ قيل: ﴿بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ دونَ أن يُقالَ: لِيَبْعُدِ القومُ؛ طلَبًا للتَّأكيدِ معَ الاختصارِ، وهو نزولُ ﴿بُعْدًا﴾ مَنزِلةَ (لِيَبعُدوا بُعدًا)، مع فائدةٍ أُخرى، وهي استِعمالُ اللَّامِ مع ﴿بُعْدًا﴾ الدَّالِّ على معنى أنَّ البُعدَ يَحِقُّ لهم، ثمَّ أطلَقَ الظُّلمَ؛ لِيَتناوَلَ كلَّ نوعٍ حتَّى يَدخُلَ فيه ظُلمُهم أنفُسَهم؛ لزِيادةِ التَّنبيهِ على فَظاعةِ سوءِ اختِيارِهم في تكذيبِ الرُّسلِ.

ومن حيث التَّرتيبُ؛ فقد قدَّم أمْرَ الأرضِ على أمرِ السَّماءِ، وابتُدِئَ به لابتِداءِ الطُّوفانِ مِنها، وبِنُزولِها لذلك في القصَّةِ مَنزِلةَ الأصلِ، والأصلُ بالتَّقديمِ أولَى، ثمَّ أتبَعَها قولَه: ﴿وَغِيضَ الْمَاءُ﴾؛ لاتِّصالِه بقِصَّةِ الماءِ، وأخْذِه بحُجْزَتِها. ألَا تَرى أصْلَ الكلامِ: (قيلَ: يا أرضُ ابلَعي ماءَكِ، فبَلَعَت ماءَها، ويا سماءُ أقلِعي عن إرسالِ الماءِ، فأقلَعَت عن إرسالِه، وغِيضَ الماءُ النَّازلُ مِن السَّماءِ، فغاضَ)، ثمَّ أتبَعَه ما هو مقصودٌ مِن القصَّةِ، وهو قولُه: ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾، أي: أُنجِزَ الموعودُ مِن إهلاكِ الكفَرةِ، وإنجاءِ نوحٍ ومَن معَه في السَّفينةِ، ثمَّ أتبَعَه حديثَ السَّفينةِ، وهو قولُه: ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾، ثمَّ خُتِمَت القصَّةُ بما خُتِمَت[1].

وجاء بِناءُ الأفعالِ ﴿وَقِيلَ﴾ ﴿وَغِيضَ﴾ ﴿وَقُضِيَ﴾ ﴿وَقِيلَ﴾ للمَفعولِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٩٧- ٣٩٨)، ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤١٧)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٩٧- ١٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٨٠- ٨٣).

وهو أبلَغُ في التَّعظيمِ والجبَروتِ، وأخْصَرُ، وأيضًا في مَجيءِ أخبارِه تعالى على الفعلِ المبنيِّ للمفعولِ: دَلالةٌ على الجلالِ والكبرياءِ، وأنَّ تلك الأمورَ العِظامَ لا تَكونُ إلَّا بفِعْلِ فاعلٍ قادرٍ، وتكوينِ مُكوِّنٍ قاهرٍ، وأنَّ فاعِلَها فاعلٌ واحدٌ لا يُشارَكُ في أفعالِه سبحانه؛ فلا يَذهَبُ الوَهْمُ إلى أن يَقولَ غيرُه: يا أرضُ ابلَعي ماءَكِ، ويا سَماءُ أقلِعي، ولا أن يَقضِيَ ذلك الأمْرَ الهائلَ غيرُه، ولا أن تَستوِيَ السَّفينةُ على مَتْنِ الجوديِّ، وتستقِرَّ عليه إلَّا بتَسْويتِه وإقرارِه[1].

- وفي قولِه: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ﴾ تقديمُ الأمرِ بالبلعِ؛ لأنَّه السَّببُ الأعظمُ لِغَيضِ الماءِ[2].

- قولُه: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ فيه كِنايةٌ عن تَحْقيرِهم وكَراهيَتِهم؛ فالبُعْدُ كنايةٌ عَن التَّحقيرِ بِلازِمِ كراهيَةِ الشَّيءِ؛ فلذلك يُقالُ: بَعُدَ أو نحوُه لِمَن فُقِد، إذا كان مَكْروهًا كما هنا[3].

- والتَّعرُّضُ لوَصفِ الظُّلمِ ﴿لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾؛ للإشعارِ بعِلِّيَّتِه للهلاكِ، ولِتَذكيرِه ما سبَقَ مِن قولِه تعالى: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٦٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٧٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٧٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢١١).

الآيات (٤٥-٤٩)

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

المعنى الإجماليُّ:

يخبرُ الله تعالى أنَّ نوحًا عليه السَّلامُ ناداه، فقال: ربِّ إنَّك وعَدْتني أن تُنجِّيَني وأهلي من الغرَقِ والهلاكِ، وإنَّ ابني هذا من أهلي، وإنَّ وَعدَك الحَقُّ الذي لا خُلْفَ فيه، وأنت أحكَمُ الحاكمينَ وأعدَلُهم.

قال الله: يا نوحُ إنَّ ابنَك الذي هلك ليس مِن أهلِك الذين وَعَدتُك أن أُنجيَهم؛ لأنَّه صاحبُ عملٍ غيرِ صالحٍ وهو الكفرُ، وإنِّي أنهاك أن تسألَني أمرًا لا عِلمَ لك به، إنِّي أعِظُك أنْ تكونَ مِن الجاهلينَ في مسألتِك إيَّاي عن ذلك.

قال نوحٌ: يا رَبِّ إنِّي أعتَصِمُ وأستجيرُ بك أن أسألَك ما ليس لي به عِلمٌ، وإنْ لم تغفِرْ لي ذنبي، وترحَمْني برَحمتِك، أكنْ مِن الهالكينَ. قال الله: يا نوحُ اهبِطْ مِن السَّفينةِ إلى الأرضِ بأمنٍ وسَلامةٍ منَّا وبركاتٍ عليك وعلى أممٍ مِن ذُرِّيَّةِ المؤمنينَ الذين معك في السَّفينةِ، ومنهم أمَمٌ وجَماعاتٌ مِن أهلِ الشَّقاءِ سنُمَتِّعُهم في الحياةِ الدُّنيا إلى أن يبلُغوا آجالَهم، ثمَّ ينالُهم منَّا العذابُ المُوجِعُ يومَ القيامةِ.

تلك القِصَّةُ التي قصَصْناها عليك- يا مُحمَّدُ- عن نوحٍ وقَومِه، هي من أخبارِ

الغَيبِ السَّابقةِ، نوحيها إليك، ما كنتَ تَعلَمُها أنت ولا قَومُك مِن قبلِ هذا البَيانِ، فاصبِرْ على تكذيبِ قَومِك وإيذائِهم لك، كما صبَرَ الأنبياءُ مِن قَبلُ؛ إنَّ العاقِبةَ الطَّيِّبةَ في الدُّنيا والآخرةِ للمُتَّقينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ (٤٥) ﴾.

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ ﴾.

أي: ونادى نوحٌ ربَّه فقال: يا ربِّ، إنَّ ابني من أهلي الذين وعدْتَني أن تنجِّيَهم من الغَرَقِ، وإنَّ وَعْدَك الصِّدقُ الذي لا يُخلَفُ(١).

﴿ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٧).

قال ابن تيمية: (وكان ابنُه قد سبق عليه القولُ، ولم يكن نوحٌ يعلمُ ذلك؛ فلذلك قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ ظانًّا أنَّه دخل في جملةِ مَن وُعِد بنجاتِهم). ((منهاج السنة النبوية)) (٤/ ٣٤٨-٣٤٩).

وقال الشوكاني: (فإن قيل: كيف طلب نوحٌ عليه السلامُ إنجازَ ما وعده اللهُ بقوله: ﴿وَأَهْلَكَ﴾ [هود: ٤٠] وهو المستثنى منه، وترَكَ ما يفيده الاستثناءُ، وهو ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾؟! فيجاب: بأنه لم يعلم إذ ذاك أنَّه ممَّن سبق عليه القول، فإنه كان يظنُّه من المؤمنين). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٧٠). وذهب ابنُ عطيةَ والشنقيطي أيضًا إلى أنَّ نوحًا عليه السلامُ ظنَّ أنَّ ابنَه مؤمنٌ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٧٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٣٣).

قال ابن جزي: (﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ﴾ يحتمِلُ أن يكونَ هذا النداءُ قبلَ الغرقِ، فيكون العطفُ مِن غيرِ ترتيبٍ، أو يكونَ بعدَه). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٧١).

وقال ابنُ عطية في قوله: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ﴾: (هذه جملةٌ معطوفةٌ على التي قبلَها دونَ ترتيبٍ، وذلك أنَّ هذه القصةَ كانت في أوَّلِ ما ركِب نوحٌ في السفينةِ، ويظهرُ مِن كلام الطبريِّ أنَّ ذلك كان بعدَ غرقِ الابنِ، وهو محتملٌ، والأوَّلُ أليَقُ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٧٦).

أي: وأنت- يا ربِّ- أعدَلُ الحاكمينَ، لا ظُلمَ في حُكمِك، ولا خطأَ[1].

﴿ قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ (٤٦) ﴾.

﴿ قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَ ﴾.

أي: قال الله: يا نوحُ، إنَّ ابنَك ليس مِن أهلِك المؤمنينَ[2] الذين أمرتُك بحَملِهم، ووعَدتُك بأن أنجِّيَهم[3].

﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ ﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

في قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ قراءتان:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٢٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٢٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٧٠).

قال محمد رشيد رضا: (حُكمُه تعالى يُطلَقُ على ما يَشرَعُه من الأحكام، وعلى ما ينفِّذُه في عباده من جزاءٍ على الأعمال). ((تفسير المنار)) (١٢/ ٧٠).

(٢) قال ابنُ كَثير: (وقد نَصَّ غيرُ واحدٍ مِن الأئمَّةِ على تَخطِئةِ مَن ذهَب في تفسيرِ هذا إلى أنَّه ليس بابنِه، وإنَّما كان ابنَ زَنْيَة، وقال ابنُ عبَّاس، وغيرُ واحدٍ مِن السَّلف: ما زنَت امرأةُ نَبيٍّ قَطُّ. قال: وقوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: ٤٦] أي: الَّذين وَعدتُك نَجاتَهم. وقولُ ابنِ عبَّاسٍ في هذا: هو الحَقُّ الذي لا مَحيدَ عنه، فإنَّ الله سُبحانه أغْيَرُ مِن أن يُمَكِّنَ امرأةَ نَبيٍّ مِن الفاحشةِ؛ ولهذا غَضِبَ اللهُ على الَّذين رَمَوْا أُمَّ المؤمنين عائشةَ بنتَ الصِّدِّيق زوجَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأنكَر على المؤمنين الَّذين تكلَّموا بهذا وأشاعوه ... قال ابنُ عُيينةَ: وأخبرني عمَّارٌ الدُّهْنِيُّ: أنَّه سأل سعيدَ ابنَ جُبيرٍ عن ذلك، فقال: كان ابنَ نُوح، إنَّ الله لا يَكذِب! قال تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾ [هود: ٤٢] قال: وقال بعضُ العُلماءِ: ما فَجَرَتْ امرأةُ نَبيٍّ قَطُّ. وكذا رُوِي عن مُجاهدٍ أيضًا، وعِكرمةَ، والضَّحَّاكِ، ومَيمونِ بنِ مِهرانَ، وثابتِ ابنِ الحَجَّاج، وهو اختيارُ أبي جَعفرِ بنِ جَرير، وهو الصَّوابُ الذي لا شَكَّ فيه). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٦).

(٣) يُنظر: ((أحكام القرآن للشافعي)) جمع البيهقي (١/ ٧٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٢٥، ٤٣٣)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٢٢، ٢٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٥، ٣٢٦).

١- قراءةُ ﴿عَمِلَ غَيْرَ﴾ بجَعلِ (عَمِلَ) فعلًا ماضيًا، والفاعلُ ضميرٌ مُستترٌ عائدٌ على ابنِ نوحٍ، والتقدير: إنه عَمِلَ عملًا غيرَ صالحٍ، مِن الكفرِ والتَّكذيبِ[١].

٢- قراءةُ ﴿عَمَلٌ غَيْرُ﴾ بجَعْلِ (عَمَلٌ) اسمًا، فالتقديرُ: إنَّ ابنَك ذو عملٍ غيرِ صالحٍ، وقيل معناه: إنَّ سؤالَك إيَّاي أن أنجيَ كافرًا ليس مِن أهلِك عملٌ غيرُ صالحٍ، وقيل غيرُ ذلك[٢].

﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾.

أي: إنَّ ابنَك يا نوحُ ليسَ مِن أهلِك؛ لأنَّه صاحبُ عملٍ غيرِ صالحٍ، وهو الكفرُ باللهِ تعالى؛ فلم يستحقَّ لذلك النجاةَ مِن الهلاكِ[٣].

---

(١) قرأ بها الكسائي ويعقوب. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٨٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٨٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٤١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٤٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٣٣٦).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٨٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٨٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٤١)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٥٣١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٤٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٧٠)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٠٢)، ((تفسير المنار)) لرضا (١٢/ ٧٠- ٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٨٦).
وممن ذهب إلى هذا المعنى المذكور: القرطبي، والشوكاني، والقاسمي، ومحمد رشيد رضا، وابن عاشور. يُنظر: المصادر السابقة. وأيضًا ذهب إليه السمعاني في ((تفسيره)) (٢/ ٤٣٣) ونَسَبه الواحديُّ إلى أبي إسحاقَ الزجاج، وأبي بكرِ بنِ الأنباري، وأبي عليٍّ الفارسي. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٤٣٧)، ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٥٥)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٨٧).
وعلى هذا القولِ الضميرُ في قوله: ﴿إِنَّهُ﴾ يعود على ابنِ نوحٍ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٧٨)، ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٥٧).
وقيل: المراد: إنَّ سُؤالَك إيَّاي أن أُنجيَ ابنَك الكافِرَ مِن الهلاكِ عَملٌ غيرُ صالحٍ. وممن ذهب إلى هذا المعنى: ابن جرير، والواحدي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٣٦)، =

﴿ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾.

أي: إنِّي يا نوحُ قد أخبَرتُك عن سؤالِك سببَ إهلاكي ابنَك، فلا تسألْني بعدَها عن أسبابِ أفعالي التي لا عِلمَ لك بها، ولا تطلُبْ مني شيئًا لا تعلمُ جوازَ مسألتِه، ولا تعلمُ يقينًا أنَّ حصولَه خيرٌ وموافِقٌ للحِكمةِ(١).

﴿ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾.

أي: إني أحذِّرُك - يا نوحُ - من السُّؤالِ عمَّا لا تعلمُ؛ لئلَّا تكونَ من الجاهلينَ(٢).

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

= ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢).
وعلى هذا القولِ تكون الهاءُ في قولِه: ﴿إِنَّهُ﴾ راجعةً على السؤالِ؛ لأنه قد تقدَّم دليلُ السؤالِ في قولِه: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٧٨)، ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٥٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٣٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٧٦)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢١٢، ٢١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢).
قال ابنُ عاشور: (إن كان نوحٌ عليه السلام لم يسبِقْ له وحيٌ من الله بأنَّ الله لا يغفِرُ للمشركينَ في الآخرةِ، كان نهيُه عن أن يسألَ ما ليس له به علمٌ نهيَ تنزيهٍ لأمثاله؛ لأنَّ درجة النبوَّة تقتضي ألَّا يُقدِمَ على سؤال ربه سؤالًا لا يعلمُ إجابته،... وإن كان قد أوحي إليه بذلك من قبلُ، كما دلَّ عليه قوله: ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ وكان سؤالُه المغفرةَ لابنه طلبًا تخصيصَه من العموم، كان نهيُه نهيَ لوم وعتاب؛ حيث لم يتبيَّنْ من ربِّه جوازَ ذلك. وكان قولُه: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ محتمِلًا لظاهره، ومحتمِلًا لأن يكونَ كنايةً عن العلم بضِدِّه، أي: فلا تسألْني ما علمتَ أنه لا يقعُ، ثم إن كان قولُ نوح عليه السلام: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ إلى آخره تعريضًا بالمسؤول، كان النهيُ في قوله: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ نهيًا عن الإلحاحِ أو العودِ إلى سؤالِه، وإن كان قولُ نوح عليه السلامُ مجرَّدَ تمهيدٍ للسؤال لاختبار حالِ إقبال الله على سؤالِه، كان قوله تعالى: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ﴾ نهيًا عن الإفضاء بالسؤالِ الذي مهَّدَ له بكلامه، والمقصودُ من النهي تنزيهُه عن تعريض سؤالِه للردِّ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٤٨)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٢).

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ﴾.

أي: قال نوحٌ: يا ربِّ، إني أستجيرُ بك أن أسألَك بعد الآن ما لا عِلمَ لي بصِحَّتِه[١].

﴿وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾.

أي: وإنْ لم تغفِرْ لي - يا ربِّ - ما وقع مني من السؤالِ عمَّا لا أعلمُ، وترحمْني بقبولِ توبتي؛ أكنْ من الخاسرينَ أنفُسَهم وأعمالَهم[٢].

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ (٤٨)﴾.

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا﴾.

أي: قيل[٣] عند استقرارِ السَّفينةِ على جبلِ الجُوديِّ: يا نوحُ، انزِلْ من السَّفينةِ إلى الأرضِ بسلامةٍ وأمنٍ منَّا لك ولأتباعِك المؤمنينَ[٤].

﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَ﴾.

أي: وبركاتٍ ثابتةٍ عليك، وعلى أُمَمٍ كثيرةٍ ستأتي من ذريَّةِ المؤمنينَ الذين معك في السَّفينة[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٣٧)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٦٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٤٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٧١).

(٣) قال القرطبي: (قالت له الملائكةُ، أو قال الله تعالى له). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٣٧، ٤٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٤٨)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٩٠). =

كما قال تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ٣].

وقال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ٧٧-٧٩].

ثُمَّ أخبر الله تعالى نوحًا عمَّا هو فاعلٌ بأهلِ الشقاءِ مِن ذرِّيتِه، فقال له[1]:

﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أي: وأُمَمٌ كثيرةٌ سنُمَتِّعُهم في الدُّنيا، ثم نُذيقُهم منا في الآخرةِ عذابًا مُؤلِمًا مُوجِعًا[2].

﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩)﴾.

﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾.

أي: تلك- قصَّة نوحٍ- من أخبار الغيوبِ السَّابقةِ، نوحيها إليك- يا محمَّدُ- لتَعلَمَها[3].

﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا﴾.

أي: ما كنتَ تعلمُ قِصَّةَ نوحٍ، ولا يعلَمُها أيُّ أحدٍ من قومِك من قبلِ هذا القرآنِ[4].

= قال السعدي: (﴿وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ من الآدميِّينَ وغيرِهم من الأزواجِ التي حمَلَها معه، فبارك اللهُ في الجميعِ، حتى ملَؤوا أقطارَ الأرضِ ونواحيَها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤١)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٣).

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

أي: فاصبِرْ- يا محمَّدُ- على الدَّعوةِ إلى اللهِ، وتبليغِ رسالتِه، وتحمَّلْ تكذيبَ قَومِك المشركينَ وأذاهم، كما صبر نوحٌ على قومِه؛ إنَّ العاقِبةَ المحمودةَ في الدُّنيا والآخرةِ للذينَ يتَّقونَ الله تعالى، فامتثَلوا أوامِرَه، واجتَنَبوا نواهِيَه[1].

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُه تعالى: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ يدلُّ على أنَّ الاتِّفاقَ في الدينِ أقوَى مِن النَّسَبِ[2]. فقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ أي: في الدينِ والحرمةِ لا في النسبِ، ولهذا قِيل: أُخوَّةُ الدِّينِ أثبتُ مِن أُخوَّةِ النَّسبِ؛ فإنَّ أُخوةَ النسبِ تنقطعُ بمخالفةِ الدِّينِ، وأُخوةُ الدينِ لا تنقطعُ بمخالفةِ النسبِ[3].

٢- الأهلُ عندَ الله وفي دينِه وميزانِه ليسوا قرابةَ الدَّمِ، إنَّما هم قرابةُ العقيدةِ؛ قال الله تعالى: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾[4]، فالكفرُ يقطعُ الموالاةَ بين المؤمنينَ والكافرين، كما نقولُ: إنَّ أبا لهبٍ ليس مِن آلِ محمَّدٍ ولا مِن أهلِ بيتِه- وإنْ كان مِن أقاربِه- فلا يدخلُ في قولِنا: (اللهمَ صلِّ على محمَّدٍ وعلى آلِ محمَّدٍ)[5].

٣- إنَّ الإيمانَ والصَّلاحَ لا علاقةَ له بالوِراثةِ والأنسابِ، وقد يختلِفُ باختلافِ استعدادِ الأفرادِ، وما يحيطُ بهم من الأسبابِ، وما يكونونَ عليه من الآراءِ والأعمالِ؛ يبيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤١، ٤٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٣).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٢٢).

(٤) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٤/ ١٨٧٩).

(٥) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٤/ ٣٤٩).

عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾[(١)].

٤- إنَّ الله تعالى يَجزي النَّاسَ في الدُّنيا والآخرةِ بإيمانهم وأعمالِهم لا بأنسابِهم، ولا يُحابي أحدًا منهم لأجلِ آبائِه وأجدادِه الصالحينَ، وإن كانوا من الأنبياءِ المُرسَلين؛ قال الله تعالى: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[(٢)].

٥- قال الله تعالى: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ هذا النهيُ يدلُّ على أنَّه يُشتَرَطُ في الدُّعاءِ أن يكونَ بما هو جائزٌ في شرعِ الله وسُنَنِه في خَلقِه، فلا يجوزُ سؤالُ ما هو محرَّمٌ، وما هو مخالِفٌ لسُنَنِ الله القطعيَّةِ بما يقتضي تبديلَها، أو تحويلَها، وقلبَ نظامِ الكونِ لأجلِ الدَّاعي[(٣)].

٦- قال الله تعالى: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ في هذه الآيةِ تَسليةٌ للخَلقِ في فسادِ أبنائِهم، وإن كانوا صالحينَ[(٤)].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ فيه أنَّ حقيقةَ التَّوبةِ تقتضي أمرين: أحدهما في المستقبلِ، وهو العزمُ على التَّركِ، وإليه الإشارةُ بقولِه: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾، والثاني في الماضي، وهو النَّدمُ على ما

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٧٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٧٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٧١).
(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٤٧).

مضى، وإليه الإشارةُ بقوله: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(١).

٨- قال الله تعالى: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لَمَّا ذكر تعالى أحوالَ المؤمنينَ، لم يذكُرِ البتَّةَ أنَّه يُعطيهم الدُّنيا أم لا، ولَمَّا ذكر أحوالَ الكافرينَ ذكَرَ أنَّه يُعطيهم الدنيا، وهذا تنبيهٌ عظيمٌ على خساسةِ الدُّنيا، وخساسةِ السَّعادات الجُسمانيَّة، والترغيب في المقامات الرُّوحانيَّة(٢).

٩- قال الله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّ الصَّبرَ عاقبتُه النَّصرُ والظَّفَرُ، والفرَحُ والسُّرورُ(٣).

١٠- سنَّةُ اللهِ في رُسُلِه وأقوامِهم أن تكونَ العاقبةُ بالفوزِ والنَّجاةِ للمُتَّقينَ؛ قال الله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾(٤).

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- لما نهَى الله تعالى نوحًا عليه السلام عن سؤالِه، حكَى عنه أنَّه قال: ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، والمعنى أنَّه تعالى لما قال له: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ فقال عندَ ذلك: قبلتُ يا ربِّ هذا التكليفَ، ولا أعودُ إليه، إلَّا أنِّي لا أقدرُ على الاحترازِ منه إلا بإعانتِك وهدايتِك، فلهذا بدأ أولًا بقولِه: ﴿إِنِّي أَعُوذُ﴾(٥).

٢- في قولِ الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ نسبَ نوحٌ النَّقصَ والذَّنبَ إلى

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٥٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٣٦١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٧٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٥٩).

نفسِه؛ تأدُّبًا مع ربِّه تعالى لَمَّا قال: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي﴾، أي: ما فرطَ من سؤالي، ﴿وَتَرْحَمْنِي﴾ بفَضلِك[١].

٣- في قوله تعالى: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ مَن لم يتفضَّلِ اللهُ عليه بمغفرةِ ذُنوبِه؛ أوبقَتْه خطاياه في الآخرةِ[٢].

٤- في قولِه تعالى: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ دلالةٌ على أنَّ السؤالَ والطلبَ قد يكون بصيغةِ الشَّرطِ[٣].

٥- إنَّ الطَّالبَ السائلَ تارةً يَسألُ بصيغةِ الطَّلبِ، وتارةً يَسألُ بصيغةِ الخبَرِ؛ إمَّا بوصفِ حالِه، وإمَّا بوصفِ حالِ المسؤولِ، وإمَّا بوصفِ الحالَينِ، وقولُ نوحٍ عليه السلامُ: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ليس صيغةَ طلَبٍ، وإنما هو إخبارٌ عن الله أنَّه إنْ لم يَغْفِرْ له ويرحمْه خَسِرَ، ولكنَّ هذا الخبَرَ يتضمَّنُ سؤالَ المغفرةِ، كما في قَوْلِ يونسَ عليه السلامُ: ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، فإنَّه اعترافٌ بالذَّنبِ، وهو يَتَضَمَّنُ طلبَ المغفرةِ[٤].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ استُدِلَّ به على أنَّ الابنَ مِن الأهلِ، فمَنْ وصَّى لأهلِه دخَل ابنُه في الوصيَّةِ هو ومن يضُمُّه منزِلُه مِن عيالِه[٥].

٧- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٦٣).
(٢) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٣٨).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١٧٥).
(٤) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ٢٢٣).
(٥) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ١٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٤٧)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٥٠).

﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ يشيرُ إلى اجتهادِ الأنبياءِ، وجوازِ الخطأِ فيه[1]. وأنَّ أحدَهم لو سَأل دُعاءً لا يَصلحُ له لا يُقَرُّ عليه؛ فإنَّهم مَعصومونَ أنْ يُقَرُّوا على ذلك[2].

٨- في قولِه تعالى: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إلى قولِه تعالى: ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ دلالةٌ على أنَّ العاقبةَ للمتَّقينَ، وأنَّ غيرَ المتَّقينَ لهم العاجلةُ دون العاقبةِ، وأنَّ العاقبةَ- وإنْ كانت في الآخرة- فتكونُ في الدُّنيا أيضًا[3].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ خبَرٌ مُستعمَلٌ في الاعتذارِ والتَّمهيدِ؛ لأنَّه يُريدُ أن يَسألَ سُؤالًا لا يَدْري قَبولَه، ولكنَّه اقتَحمه لأنَّ المسؤولَ له مِن أهلِه، فله عُذرُ الشَّفقةِ عليه، وتأكيدُ الخبَرِ بـ (إنَّ)؛ للاهتمامِ به، وكذلك جُملَةُ: ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ خبَرٌ مُستعمَلٌ في لازِمِ الفائدةِ، وهو: أنَّه يَعلَمُ أنَّ وعْدَ اللهِ حقٌّ[4].

- وفيه مناسبةٌ حسنةٌ، حيث قال اللهُ تعالى هنا: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ﴾ بالفاءِ في ﴿فَقَالَ رَبِّ﴾، وقال في سورةِ مريمَ في قصَّةِ زَكريَّا: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا * قَالَ رَبِّ﴾ [مريم: ٣، ٤] بلا فاءٍ، ووجهُ ذلك: أنَّه أريدَ بالنِّداءِ هنا في سورةِ هودٍ إرادتُه؛ فهي سببٌ له؛ فناسَبَتِ الفاءُ الدَّالَّةُ على

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٦٩).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ١٣١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٦٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٨٤).

السَّببيَّةِ، وهناك لم يُرِدْ ذلك؛ فناسَب ترْكُ الفاءِ[(١)]؛ فجملةُ ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ بيانٌ للنِّداءِ، ومُقتَضى الظَّاهرِ ألَّا تُعطَفَ بفاءِ التَّفريعِ كما لم يُعطَفِ البيانُ في قولِه تعالى: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ [مريم: ٣، ٤]، وخولِفَ ذلك هنا؛ ووجْهُ اقترانِه بالفاءِ أنَّ فِعلَ ﴿نَادَى﴾ مُستعمَلٌ في إرادةِ النِّداءِ، أي: مِثْلُ فِعْلِ ﴿قُمْتُمْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة: ٦] الآيةَ، وذلك إخراجٌ للكَلامِ على خِلافِ مُقتضَى الظَّاهرِ؛ فإنَّ وُجودَ الفاءِ في الجملةِ الَّتي هي بيانٌ للنِّداءِ قرينةٌ على أنَّ فِعْلَ ﴿نَادَى﴾ مُستَعارٌ لمعنى إرادةِ النِّداءِ، أي: أراد نِداءَ ربِّه فأعقَبَ إرادتَه بإصدارِ النِّداءِ، وهذا إشارةٌ إلى أنَّه أراد النِّداءَ فتردَّد في الإقدامِ عليه؛ لِمَا عَلِم مِن قولِه تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ [هود: ٤٠]؛ فلم يَطُلْ تردُّدُه لَمَّا غلَبَتْه الشَّفَقةُ على ابنِه، فأقدَم على نداءِ ربِّه؛ ولذلك قدَّم الاعتِذارَ بقولِه: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾[(٢)].

٢- قولُه تعالى: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾

- قولُه عليه السَّلامُ: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ فيه تَعْريضٌ بالمطلوبِ؛ لأنَّه لم يَذكُرْه، بل اقتصَر على هذه الجُمَلِ الثَّلاثِ في مَقامِ الدُّعاءِ، وذلك ضَرْبٌ مِن ضُروبِ التَّأدُّبِ، والتَّردُّدِ في الإقدامِ على المسؤولِ؛ استِغْناءً بعِلْمِ المسؤولِ، كأنَّه يَقولُ: أسأَلُك أم أترُكُ[(٣)].

- قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ فيه نَفْيُ أن يَكونَ ابنُه مِن أهلِ دينِه،

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٦٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٨٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٨٥).

وتأكيدُه بـ (إنَّ) لِتَحقيقِه؛ إعلامًا بأنَّ قَرابةَ الدِّينِ بالنِّسبةِ لأهلِ الإيمانِ هي القَرابةُ[(١)].

- وجملةُ ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ تعليلٌ لِمَضمونِ جملةِ ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾[(٢)].

- و﴿عَمَلٌ﴾ مصدرٌ أُخبِرَ به للمُبالَغةِ؛ حيث جَعَل ابنَه نَفْسَ العمَلِ؛ مبالغةً في ذَمِّه[(٣)].

- وإيثارُ ﴿غَيْرُ صَالِحٍ﴾ على (فاسِدٌ)؛ إمَّا لأنَّ الفاسِدَ ربَّما يُطلَقُ على ما فسَدَ ومِن شَأنِه الصَّلاحُ؛ فلا يَكونُ نَصًّا فيما هو مِن قَبيلِ الفاسِدِ المَحْضِ، كالقَتلِ والْمَظالِمِ، وإمَّا للتَّلويحِ بأنَّ نجاةَ مَن نَجا إنَّما هي لِصَلاحِه[(٤)].

- وفي قوله: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ على القول بأنَّ هذا النِّداءِ كان قبلَ غرقِ ابنِه؛ فيكون أُخِّرَ عن حِكايةِ الأمرِ الوارِدِ على الأرضِ والسَّماءِ، وما يَتْلوه مِن زَوالِ الطُّوفانِ، وقَضاءِ الأمْرِ، واستِواءِ الفُلْك على الجُوديِّ، والدُّعاءِ بالهَلاكِ على الظَّالِمين، مع أنَّ حقَّه أن يُذْكَرَ عَقِيبَ قوله تعالى: ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ حسَبَما وقَع في الخارِجِ؛ إذ حينَئذٍ يُتصوَّرُ الدُّعاءُ بالإنجاءِ لا بَعْدَ العلمِ بالهلاكِ، ووجهُ هذا التَّأخيرِ: أنَّ ذِكْرَ هذا النِّداءِ مُستَدْعٍ لذِكْرِ الجوابِ المستدعي لذِكْرِ ما مرَّ مِن تَوبتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ المؤدِّي ذِكْرُها إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٨٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٨٦).

(٣) يُنظر: ((البحر المحيط)) (٦/ ١٦٠-١٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢١٢).

ذِكْرِ قَبولِها في ضِمْنِ الأمرِ الوارِدِ بنُزولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن الفُلْكِ بالسَّلامِ والبَرَكاتِ الفائضةِ عليه وعلى المؤمنين، وهذه المعاني آخِذٌ بعضُها بحُجْزةِ بعضٍ بحيثُ لا يَكادُ يُفرَّقُ الآياتُ الكريمةُ المنطويَةُ عليها بعضُها مِن بَعضٍ، وأنَّ ذلك إنَّما يَتِمُّ بتَمامِ القِصَّةِ، وذلك إنَّما يكونُ بتمامِ الطُّوفانِ؛ فاقتَضى الحالُ ذِكرَ تمامِها قبلَ هذا النِّداءِ؛ ولهذه النُّكتةِ ازدادَ حُسْنُ موقعِ الإيجازِ البليغِ.

وفيه فائدةٌ أخرى: وهي التَّصريحُ بهَلاكِ ابْنِه الكافرِ مِن أوَّلِ الأمرِ، ولو ذُكِر النِّداءُ الثَّاني عَقيبَ قولِه تعالى: ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ لَرُبَّما تُوُهِّم مِن أوَّلِ الأمرِ إلى أن يَرِدَ قولُه: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أنَّه يَنْجو بدُعائِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ فنُصَّ على هَلاكِه مِن أوَّلِ الأمرِ، ثمَّ ذُكِرَ الأمرُ الوارِدُ على الأرضِ والسَّماءِ مِن الغَيْضِ والإقلاعِ، وبيَّنَ بُلوغَ أمرِ اللهِ مَحلَّه، وجريانَ قَضائِه ونُفوذَ حُكمِه عليهم بهَلاكِ مَن هلَك ونَجاةِ مَن نجا بتَمامِ ذلك الطُّوفانِ، واستواءِ الفُلْكِ على الجوديِّ؛ فقُصَّتِ القِصَّةُ إلى هذه المرتَبةِ وبُيِّن ذلك أيَّ بيانٍ، ثمَّ تعرَّضَ لِمَا وقعَ في تَضاعيفِ ذلكَ ممَّا جَرى بينَ نوحٍ عليه السَّلامُ وبينَ ربِّ العِزَّةِ جلَّتْ حِكمَتُه، فذَكَر بعدَ توبَتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قَبولَها بقَولِه: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ...﴾[1].

٣- قولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ فيه حُسنُ تَرتيبٍ، حيث قدَّم طلَبَ المغفرةِ ابتداءً؛ لأنَّ التَّخْليَةَ مُقدَّمةٌ على التَّحْليةِ، ثمَّ أعقَبَها

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢١٣).

بطلَبِ الرَّحمةِ؛ لأنَّه إذا كان بمَحَلِّ الرِّضا مِن اللهِ كان أهلًا للرَّحمةِ[1].

٤- قوله تعالى: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

- فُصِلَتِ الجُملَةُ ولم تُعطَفْ؛ لِوُقوعِها في سِياقِ المُحاوَرةِ بينَ نوحٍ عليه السَّلامُ وربِّه؛ فإنَّ نوحًا عليه السَّلامُ لَمَّا أجابَ بقَولِه: ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ إلى آخِرِه [هود: ٤٧] خاطَبَه ربُّه إتمامًا للمُحاوَرةِ بما يُسَكِّنُ جَأْشَه، وكان مُقتَضى الظَّاهِرِ أن يَقولَ: (قال: يا نوحُ اهبِطْ)، ولكنَّه عدَل عنه إلى بناءِ الفِعْلِ للنَّائبِ؛ لِيَجيءَ على وَتيرةِ حِكايةِ أجزاءِ القِصَّةِ المتقدِّمةِ مِن قولِه: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي﴾... ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤]؛ فحصَل بذلك البِناءِ قَضاءُ حَقِّ الإشارةِ إلى جُزءِ القِصَّةِ، كما حصَل بالفَصْلِ قَضاءُ حقِّ الإشارةِ إلى أنَّ ذلك القَوْلَ جزءُ المحاوَرةِ[2].

- وقولُه هنا: ﴿اهْبِطْ بِسَلَامٍ﴾ نَظيرُ قولِه: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ﴾ [الحجر: ٤٦]؛ فإنَّ السَّلامَ ظاهِرٌ في التَّحيَّةِ لِتَقييدِه بـ(آمِنِينَ)، ولو كان السَّلامُ مُرادًا به السَّلامةُ لكان التَّقييدُ بـ(آمِنِينَ) توكيدًا وهو خِلافُ الأصلِ، و﴿مِنَّا﴾ تأكيدٌ لتوجيهِ السَّلامِ إليه؛ لأنَّ (مِن) ابتِدائيَّةٌ، فالمعنى: بسَلامٍ ناشِئٍ مِن عِندِنا، كقَولِه: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨]. وذلك كثيرٌ في كَلامِهم، وهذا التَّأكيدُ يُرادُ به زيادةُ الصِّلةِ والإكرامِ؛ فهو أشَدُّ مُبالَغةً مِن الَّذي لا تُذكَرُ معَه (مِن)[3].

- وتنكيرُ (أُمَمٍ) في قولِه: ﴿وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ﴾؛ لأنَّه لم يُقصَدْ به التَّعميمُ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٨٩).

تَمهيدًا لقولِه: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾(١).

- وجُملةُ ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ...﴾ إلخ، عطفٌ على جُملةِ ﴿اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا﴾ إلى آخِرِها، وهي استِئْنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّها تَبيينٌ لِمَا أفادَه التَّنكيرُ في قولِه: ﴿وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ﴾ مِن الاحتِرازِ عن أُممٍ آخَرينَ(٢).

- وفي ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ حُذِفُ الخبرِ، أي: ومنهم؛ لدَلالةِ ما سبق عليه، والتقديرُ: (وممَّن معَك أُممٌ سنُمتِّعهم)؛ وإنَّما حذف لأنَّ قوله: ﴿مِمَّنْ مَعَكَ﴾ يدلُّ عليه، والمعنى: أنَّ السَّلامَ منَّا والبركاتِ عليك وعلى أُممٍ مؤمنين يَنشؤُون ممَّن معك؛ فإنَّ إيرادَ الأممِ المبارَكِ عليهم المتَشعِّبةِ منهم نكِرةً يَدُلُّ على أنَّ بعضَ مَنْ يتشعَّبُ منهم لَيْسوا على صِفَتِهم، أي: ليس جَميعُ مَن تشعَّب منهم مُسلِمًا ومُبارَكًا عليه، بل مِنهم أُممٌ مُمتَّعون في الدُّنيا، مُعذَّبون في الآخرةِ، وعلى هذا لا يَكونُ الكائِنون معَ نوحٍ عليه السَّلامُ مُسلَّمًا ومُبارَكًا عليهم صَريحًا، وإنَّما يُفهَمُ ذلك مِن كَونِهم مع نُوحٍ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، ومِن كونِ ذُرِّيَّاتِهم كذلك، بدَلالةِ النَّصِّ، ويَجوزُ أن تَكونَ (مِن) بَيانيَّةً، أي: وعلى أُمَمٍ هم الَّذين معَك، وإنَّما سُمُّوا أممًا؛ لأنَّهم أممٌ مُتحزِّبةٌ، وجماعاتٌ مُتفرِّقةٌ، أو لأنَّ جميعَ الأممِ إنَّما تشعَّبَت منهم؛ فحينَئذٍ يكونُ المرادُ بالأممِ المشارِ إليهم في قولِه تعالى: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ بعضَ الأممِ المتشعِّبةِ منهم، وهي الأممُ الكافرةُ المتناسِلةُ منهم إلى يومِ القيامةِ، ويَبْقى أمرُ الأممِ المؤمنةِ النَّاشئةِ مِنهم مُبهَمًا، غيرَ مُتعرَّضٍ له، ولا مَدلولٍ عليه مع ذلك؛ ففي دَلالةِ المذكورِ على خبَرِه المحذوفِ خَفاءٌ؛ لأنَّ (مِن) المذكورةَ بيانيَّةٌ، والمحذوفةَ تبعيضيَّةٌ أو ابتدائيَّةٌ(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢١٥).

- قولُه: ﴿وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فيه تنبيهٌ على الإيمانِ بأنَّ المتَّصِفين به مِن اللهِ عليهم سلامٌ وبركةٌ، وعلى الكفرِ بأنَّ المتَّصِفين به يُمَتَّعون في الدُّنيا، ثمَّ يُعذَّبون في الآخرةِ، وذلك مِن بابِ الكِنايةِ، كقَولِهم: فُلانٌ طَويلُ النِّجادِ، كَثيرُ الرَّمادِ[1].

٥- قولُه تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾

- قولُه: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ إلى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ استِئنافٌ أُرِيدَ به الامتنانُ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والموعظةُ والتَّسليةُ؛ فالامتِنانُ من قولِه: ﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا﴾، والموعظةُ مِن قولِه: ﴿فَاصْبِرْ﴾، والتَّسليةُ مِن قولِه: ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[2].

- وقولُه: ﴿تِلْكَ﴾ إشارةٌ إلى ما قُصَّ مِن قِصَّةِ نوحٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ إمَّا لكونِها بتَقَضِّيها في حُكْمِ البعيدِ، أو الدَّلالةِ على بُعْدِ مَنزِلَتِها[3].

- قولُه: ﴿نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ فيه التَّعبيرُ بصيغةِ المضارِعِ ﴿نُوحِيهَا﴾؛ لاستحضارِ الصُّورةِ، أو هو حالٌ مِنْ أَنباءِ الغيبِ، أي: مُوحاةً إليك[4].

- قولُه: ﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾ في ذِكْرِ جَهْلِهم تنبيهٌ على أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لَم يتعلَّمْه إذ لم يُخالِطْ غيرَهم، وأنَّهم مع كثرَتِهم لَمَّا لم يَعلَموه؛ فكيف بواحدٍ منهم[5]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٦٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٩٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢١٥).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٩٣).

- وعَطْفُ ﴿وَلَا قَوْمُكَ﴾ من التَّرقِّي؛ لأنَّ في قومِه مَن خالَطَ أهْلَ الكتابِ، ومَن كان يَقرَأُ ويَكتُبُ، ولا يَعلَمُ أحَدٌ مِنهم كثيرًا مِمَّا أوحيَ إليه مِن هذه القصَّةِ(١).

- قولُه: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فيه تفريعُ أمرِ الرَّسولِ بالصَّبرِ على هذه القصَّةِ، ووجهُه أنَّ فيها قياسَ حالِه معَ قومِه على حالِ نوحٍ عليه السَّلامُ معَ قومِه؛ فكما صبَرَ نوحٌ عليه السَّلامُ؛ فكانت العاقبةُ له، كذلك تكونُ العاقبةُ لك على قومِك(٢).

- وجملةُ ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ عِلَّةٌ للصَّبرِ المأمورِ به؛ أي: اصبِرْ؛ لأنَّ داعِيَ الصَّبرِ قائمٌ، وهو أنَّ العاقِبةَ الحَسَنةَ تَكونُ للمُتَّقين، فستَكونُ لك وللمُؤمنين معَك(٣).

- واللَّامُ في ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ للاختصاصِ والمِلْكِ؛ فيَقْتَضي مِلْكَ المتَّقينَ لجِنْسِ العاقبةِ الحسَنةِ، فهي ثابتةٌ لهم، لا تَفوتُهم، وهي مُنتَفِيَةٌ عن أضدادِهم(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٩٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٥٠-٦٠)

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ
إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠) يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى
الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥١) وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ
السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ
(٥٢) قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ
لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ
وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ
(٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ
صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦) فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا
غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٥٧) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا
وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨) وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا
بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا
لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠) ﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿مُفْتَرُونَ﴾: أي: كاذِبونَ، والافتِراءُ: اختِلاقُ الكَذِبِ، وأصلُه مِن: (فَرْيِ الأديم)، وهو: قَطْعُهُ، فقيل للكَذِبِ: افتراءٌ؛ لأنَّ الكاذِبَ يقطَعُ به على التَّقديرِ، مِن غيرِ تحقيقٍ(١).

﴿فَطَرَنِي﴾: أي: خَلَقني، وأصلُ (فطر): يدلُّ على الشَّقِّ، فكُلُّ من أظهَرَ أمرًا

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٥/ ٤٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٢٠).

اختَرَعه على غيرِ مِثالٍ، يُقال: قد فطَرَه[1].

﴿مِدْرَارًا﴾: أي: مُتتابعًا غزيرًا، وأصلُ (درر): يدلُّ على تولُّدِ شَيءٍ عن شيءٍ[2].

﴿اعْتَرَاكَ﴾: أي: أصابَك، أو ألَمَّ بك، وأصلُ (عرو): يدلُّ على ثَباتٍ ومُلازمةٍ وغِشيانٍ[3].

﴿بِنَاصِيَتِهَا﴾: النَّاصِيةُ: شَعرُ مُقَدَّمِ الرَّأسِ، وأصلُ (نصو): يدُلُّ على عُلُوٍّ، وسُمِّيَت النَّاصِيةُ؛ لارتفاعِ مَنبَتِها[4].

المعنَى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه أرسَلَ إلى عادٍ أخاهم هودًا، فقال لهم: يا قومِ اعبُدوا اللهَ وَحدَه، ليس لكم مِن إلهٍ يستحِقُّ العبادةَ غيرُه جلَّ وعلا، فأخلِصوا له العبادةَ، فما أنتم إلَّا كاذِبونَ في إشراكِكم باللهِ، ويا قومِ لا أسألُكم على ما أدعوكم إليه- مِن إخلاصِ العِبادةِ لله، وتَركِ عبادةِ الأوثانِ- أجرًا، ما أجري على دَعوتي لكم إلَّا على اللهِ الذي خلَقَني، أفلا تَعقِلونَ فتُمَيِّزوا بين الحَقِّ والباطلِ؟! ويا قوم اطلُبوا مَغفِرةَ الله، ثمَّ تُوبوا إليه مِن ذُنوبِكم؛ يُرسِلِ المطَرَ عليكم مُتتابعًا كثيرًا، فتَكثُرْ خَيراتُكم، ويَزِدْكم قُوَّةً إلى قُوَّتكم، بكَثرةِ ذُرِّيَّاتِكم، وتتابُعِ النِّعَمِ عليكم، ولا تُعرِضوا عمَّا دعَوتُكم إليه، مُصِرِّينَ على إجرامِكم.

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٢٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٥٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٣)، ((تحفة الأريب)) لأبي حيان الأندلسي (ص: ٣٠٤).

قالوا: يا هودُ ما جِئتَنا بحُجَّةٍ واضحةٍ على صِحَّةِ ما تَدعونا إليه، وما نحن بتاركي آلهَتِنا مِن أجلِ قَولِك، وما نحن بمصَدِّقينَ لك فيما تدَّعيه، ما نقولُ إلَّا أنَّ بعضَ آلهتِنا أصابك بجُنونٍ؛ بسبَبِ نَهيِك عن عبادتِها. قال لهم: إني أُشهِدُ اللهَ على ما أقولُ، واشهَدوا أنَّني بريءٌ ممَّا تُشرِكونَ مِن دونِ اللهِ؛ من الأندادِ والأصنامِ، فاجتَهِدوا أنتم ومَن زعَمتُم من آلهتِكم في إلحاقِ الضَّرَرِ بي، ثمَّ لا تؤخِّروا ذلك طرفةَ عَينٍ؛ إنِّي توكَّلتُ على اللهِ ربِّي وربِّكم، مالكِ كُلِّ شَيءٍ، والمتصَرِّفِ فيه، فلا يصيبُني شيءٌ إلَّا بأمرِه تعالى، وهو القادِرُ على كلِّ شَيءٍ، فليس من شيءٍ يدِبُّ على هذه الأرضِ إلَّا واللهُ مالِكُه، وهو في سُلطانِه وتصَرُّفِه، إنَّ رَبِّي عَدلٌ في قَضائِه وشَرعِه وأمرِه، يُجازي المحسِنَ بإحسانِه، والمُسيءَ بإساءتِه، فإن تُعرِضوا عمَّا أدعوكم إليه مِن توحيدِ اللهِ، وإخلاصِ العبادةِ له؛ فقد أبلغتُكم رسالةَ رَبِّي إليكم، وقامت عليكم الحُجَّةُ، وحيث لم تُؤمِنوا بالله فسيُهلِكُكم، ويأتي بقومٍ آخرينَ يَخلُفونكم في ديارِكم وأموالِكم، ويُخلِصونَ لله العبادةَ، ولا تَضُرُّونَه شيئًا؛ إنَّ ربِّي على كلِّ شَيءٍ حفيظٌ، فهو الذي يحفَظُني من أن تنالوني بسُوءٍ.

ولَمَّا جاء أمرُنا بعذابِ قَومِ هودٍ؛ نجَّينا هُودًا والمؤمنينَ بفَضلٍ منَّا عليهم ورحمةٍ، ونجَّيناهم من عذابٍ شديدٍ؛ عذابِ يومِ القيامةِ، وتلك عادٌ كَفَروا بآياتِ اللهِ، وعصَوا رسُلَه، وأطاعوا أمرَ كُلِّ مُستكبرٍ على اللهِ، لا يقبَلُ الحَقَّ ولا يُذعِنُ له، وأُتبِعوا في هذه الدُّنيا لعنةً مِن اللهِ، وسَخَطًا منه يومَ القيامةِ، ألا إنَّ عادًا جَحَدوا ربَّهم، ألا بُعْدًا وهَلاكًا لعادٍ قَومِ هُودٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾.

أي: وأرسَلْنا إلى قبيلةِ عادٍ أخاهم في النَّسَبِ هودًا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[1].

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾.

أي: قال لهم: يا قومِ اعبُدوا اللهَ وَحدَه، ليس لكم معبودٌ يستحِقُّ العبادةَ غيرُ اللهِ، فلا تُشرِكوا به شيئًا[2].

﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾.

أي: ما أنتم في عبادتِكم غيرَ اللهِ إلَّا كاذِبونَ على اللهِ[3].

﴿ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥١) ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه بعدما أوضحَ لهم وجوبَ عبادةِ اللهِ، وفسادَ عبادةِ ما سواه؛ ذكَرَ عدمَ المانعِ لهم من الانقيادِ، فقال: ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي: غرامةً مِن أموالِكم، على ما دعوتُكم إليه، فتقولوا: هذا يريدُ أن يأخذَ أموالَنا[4].

﴿ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ﴾.

أي: يا قَومِ لا أطلبُ منكم أُجرةً على تبليغي رسالةَ اللهِ، ما ثوابي على دعوتي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٨٣).

لكم إلَّا على اللهِ الذي خلقَني[1].

﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

أي: أفلا تعقِلونَ أنِّي أدعوكم لمصلَحتِكم في الدُّنيا والآخرةِ مِن غيرِ أُجرةٍ؟! فلو كنتُ أبتغي بدعوتِكم إلى اللهِ غيرَ النَّصيحةِ لكم، لطلبتُ منكم أجرًا على ذلك[2].

﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ٥٢ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ هذا هو النَّوعُ الثَّاني من التَّكاليفِ التي ذكَرَها هودٌ عليه السَّلامُ لِقومِه؛ وذلك لأنَّه في المقامِ الأوَّلِ دعاهم إلى التَّوحيدِ، وفي هذا المقامِ دعاهم إلى الاستغفارِ ثمَّ إلى التوبةِ[3].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا دعا هودٌ قَومَه مُشيرًا إلى ترهيبِهم مستدِلًّا على الصِّدقِ بنفي الغَرَضِ؛ رغَّبَهم في إدامةِ الخوفِ ممَّا مضى[4].

﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ﴾.

أي: ويا قومِ اطلُبوا من رَبِّكم سَترَ ذُنوبِكم الماضيةِ، والتَّجاوُزَ عن المؤاخَذةِ بها، ثمَّ توبوا إليه فيما تستقبِلونَه، وذلك بالتَّوبةِ النَّصوحِ، والرُّجوعِ إلى عبادتِه وَحدَه وطاعتِه؛ فإنَّكم إن فعلتُم ذلك يُرسِلِ المطرَ عليكم كثيرًا مُتتابعًا، فتُخصِب

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤٣)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٦٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٠٧).

الأرضُ، ويكثُر خَيرُها[(١)].

كما حكى الله تعالى عن نوحٍ عليه السَّلامُ أنَّه قال: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠ - ١٣].

﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾.

أي: ويَزِدْكم اللهُ- إن استغفَرتُم وتُبتُم- شِدَّةً مُضافةً إلى شِدَّتِكم، وأموالًا وأولادًا[(٢)].

﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾.

أي: ولا تُعرِضوا عمَّا أدعوكم إليه من توحيدِ اللهِ وعبادتِه، وتُصِرُّوا على الكُفرِ والعِصيانِ[(٣)].

﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣)﴾.

﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾.

أي: قال قومُ هودٍ: يا هودُ، ما أتيتَنا ببُرهانٍ وحُجَّةٍ واضحةٍ تشهَدُ على صِحَّةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤٣، ٤٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٣).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٣).
قال الواحدي: (﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ فُسِّرَت القوةُ هاهنا بالمالِ والولد والشِّدةِ، وكلُّ هذا ممَّا يقوى به الإنسانُ). ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٥٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٣).

ما تدعونا إليه[١]!

﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾.

أي: وما نحنُ- يا هودُ- بتاركي عبادةِ آلهَتِنا بمُجَرَّدِ نَهيِك لنا عن عبادتِهم، دونَ بُرهانٍ على صحَّةِ ما تقولُ[٢].

﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: وما نحنُ لك بما تدَّعي من النبوَّةِ والرِّسالةِ بمُصَدِّقينَ[٣] ومقرِّين ومنقادين ومُذْعِنين.

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾.

أي: ما نقولُ إلَّا أصابَك بعضُ أصنامِنا بجُنونٍ؛ بسبَبِ نهيِك عن عبادتِها، وذمِّك لها[٤].

﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ﴾.

أي: قال هودٌ لهم: إنِّي أُشهِدُ اللهَ على نفسي، وأُشهِدُكم أنِّي بَريءٌ مِن عبادتِكم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢٩، ٣٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٤).

للأصنامِ مِن دونِ اللهِ تعالى[١].

﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾.

مُناسَبتُها لما قَبلَها:

لَمَّا كانت البراءةُ من الشُّرَكاءِ تقتضي اعتقادَ عَجزِها عن إلحاقِ إضرارٍ به؛ فرَّع على البراءةِ هذه الجملةَ[٢]، فقال:

﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾.

أي: فاحْتالوا أنتم وجميعُ آلهتِكم لتضرُّوني، ثمَّ لا تُمهِلوني، ولا تؤخِّروا ذلك[٣].

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾.

أي: إنِّي اعتمدتُ على اللهِ مالكي ومالِكِكم، ومدبِّرِ أمورِ خَلقِه؛ ليمنَعَني منكم، فلا تصيبوني بسُوءٍ[٤].

﴿مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾.

أي: ما من شيءٍ يدِبُّ على الأرضِ إلَّا وهو في قبضةِ اللهِ، وتحت قَهرِه وسُلطانِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٤).

يُصرِّفُه كيف يشاءُ، ويمنَعُه ممَّا يشاءُ، فلا تَصِلونَ إلى إلحاقِ الضَّررِ بي(١).

عن أبي هريرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: ((كان رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يأمُرُنا إذا أخذْنا مضجَعَنا أن نقول: اللهمَّ رَبَّ السَّمواتِ، وربَّ الأرضِ، وربَّ العرشِ العظيم، ربَّنا وربَّ كُلِّ شيءٍ، فالقَ الحَبِّ والنَّوى، ومُنزِلَ التَّوراةِ والإنجيلِ والفُرقانِ، أعوذُ بك من شَرِّ كُلِّ شَيءٍ أنت آخِذٌ بناصيتِه، اللهمَّ أنت الأوَّلُ فليس قبلَك شيءٌ، وأنت الآخِرُ فليس بعدك شيءٌ، وأنت الظَّاهِرُ فليس فوقَك شيءٌ، وأنت الباطِنُ فليس دونك شيءٌ، اقضِ عنَّا الدَّينَ، وأغنِنا مِن الفَقرِ))(٢).

﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

أي: إنَّ ربِّي على طريقِ الحَقِّ والعَدلِ لا يظلِمُ أحدًا، ولا تخرجُ أقوالُه وأفعالُه عن الصَّوابِ والحِكمةِ في شَرعِه وقضائِه(٣).

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ (٥٧)﴾.

مُناسبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا استوفَى تشييدَه أمْرَه، وهدمَ قَولِهم؛ أخَذ يحَذِّرُهم، فقال(٤):

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ﴾.

أي: فإن تُعرِضُوا عمَّا أدعوكم إليه من عبادةِ اللهِ وحدَه، فقد قامت عليكم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٠).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ١٧٧)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٢٥، ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٤).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣١٢).

الحُجَّةُ بإبلاغي إيَّاكم رسالةَ اللهِ، ولم تبقَ عليَّ تَبِعَةٌ من شأنِكم[١].

﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا﴾.

أي: ويَستبدِلُ ربِّي قومًا غيرَكم يُطيعونَه ويعبُدونَه وَحدَه بعد أن يُهلِكَكم، ولا تضُرُّونَ اللهَ شيئًا بكُفرِكم[٢].

﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾.

أي: إنَّ ربِّي ذو حِفظٍ لكُلِّ شَيءٍ، حافِظٌ لأقوالِ عبادِه وأفعالِهم، ويجزيهم عليها، ويحفَظُني من أن تنالوني بسوءٍ[٣].

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨)﴾.

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾.

أي: ولَمَّا أتَى عذابُنا، وأهلكْنا جميعَ الكافرينَ، نجَّيْنا هودًا والمؤمنينَ معه برَحمتِنا، وبفضلٍ منَّا عليهم[٤].

عن أبي هريرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لن يُدخِلَ أحدًا منكم عملُه الجنَّةَ، قالوا: ولا أنتَ يا رسولَ اللهِ؟! قال: ولا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٤).

وذهب ابن جرير إلى أنَّ المرادَ بقولِه تعالى: ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا﴾: ولا تقدِرونَ له على ضُرٍّ إذا أراد إهلاكَكم أو أهلَكَكم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٤).

أنا، إلَّا أن يتغمَّدَني اللهُ منه بفضلٍ ورحمةٍ))[١].

﴿ وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾.

أي: ونجَّينا المؤمنينَ من عذابِ يومِ القيامةِ[٢].

﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) ﴾.

﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ ﴾.

أي: وتلك عادٌ- الذين أوقعَ اللهُ بهم ما أوقعَ- كذَّبوا بالمُعجزاتِ التي أيَّد اللهُ بها الرسُلَ، وأنكَروا ما أنزل اللهُ عليهم من الحُجَجِ والبراهينِ، وعَصَوا رسُلَ اللهِ بعصيانِهم لرَسولِهم هودٍ عليه وعليهم السَّلامُ[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٦٣) ومسلم (٢٨١٦)، واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥١)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٤٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥٤).
وممَّن ذهَب إلى أنَّ المرادَ بـ ﴿عذابٍ غليظٍ﴾: عذابُ يوم القيامة: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: المصادر السابقة.
قال الواحدي: (وقوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾... قال بعضُهم: يعني عذابَ القيامةِ، وهذا أحسنُ؛ لأنَّ الإنجاءَ مِن عذابِ الدُّنيا قد سبَق، كما نجَّيناهم في الدنيا مِن العذابِ، كذلك نجَّيناهم في الآخرةِ مِن العذابِ). ((البسيط)) (١١/ ٤٥٢).
وقيل: المرادُ: النجاةُ مِن عذابِ عادٍ. وممن قال بذلك: البغويُّ، والسعدي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٤).
وقال ابنُ جزي: (﴿وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ يحتملُ أن يريدَ به عذابَ الآخرةِ، ولذلك عطَفه على النجاةِ الأولَى التي أراد بها النجاةَ مِن الريحِ، ويحتملُ أن يريدَ بالثاني أيضًا الريحَ، وكرَّره إعلامًا بأنَّه عذابٌ غليظٌ). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٧٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٤).
قال القرطبي: (﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ يعني هودًا وحدَه؛ لأنَّه لم يُرسلْ إليهم من الرُّسُلِ سواه... وإنما جُمِعَ هاهنا؛ لأنَّ من كذَّب رسولًا واحدًا فقد كفر بجميعِ الرُّسُلِ. وقيل: عصَوا هودًا =

﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

أي: واتَّبعوا كلَّ متكبِّرٍ مِن كبَرائِهم ورؤسائِهم، متسَلِّطٍ على الخلقِ، طاغيةٍ معاندٍ، لا يقبَلُ الحَقَّ(١).

﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكر أوصافَ قَومِ عادٍ، ذكر بعد ذلك أحوالَهم(٢)، فقال تعالى:

﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

أي: وألحقَ اللهُ بقومِ هودٍ في هذه الدُّنيا لعنةً مِنه ومِن المؤمنينَ، وتلحَقُهم لعنةٌ أُخرَى يومَ القيامةِ(٣).

﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾.

أي: ألا إنَّ عادًا كفروا بربِّهم الذي خلَقَهم ورزَقَهم وربَّاهم، وعَصَوه(٤).

= والرسُلَ قبله، وكانوا بحيث لو أُرسِلَ إليهم ألفُ رَسولٍ لجَحَدوا الكلَّ). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٦٦)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥٤)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٠٧).

﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾.

أي: ألا أبعَدَ اللهُ عادًا قومَ هودٍ عن كلِّ خَيرٍ[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- خاطَب نوحٌ عليه السلامُ قومَه قائلًا: ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ خاطبَهم بذلك إزالةً للتُّهمةِ، وتمحيضًا للنَّصيحةِ؛ فإنَّها لا تَنجَعُ ما دامت مَشوبةً بالمطامعِ[2].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ إنَّ الإنسانَ لَيُدهَشُ لرَجُلٍ فَردٍ يُواجِهُ قومًا غِلاظًا شِدادًا حَمقى، يُدهَشُ لرجُلٍ يواجِهُ هؤلاء القومَ الواثقينَ بآلهتِهم المُفتَراةِ هذه الثِّقةَ، فيُسَفِّهُ عقيدتَهم ويُقَرِّعُهم عليها ويؤنِّبُهم، ثمَّ يُهَيِّج ضراوتَهم بالتحدِّي؛ لا يطلُبُ مُهلةً ليستعِدَّ استعدادَهم، ولا يَدَعُهم يتريَّثونَ، فيَكسر غَضبَهم. إنَّ الإنسانَ لَيُدهَشُ لرجلٍ فَردٍ يقتحِمُ هذا الاقتحامَ على قومٍ غِلاظٍ شِدادٍ، ولكنَّ الدَّهشةَ تزولُ عندما يتدبَّرُ العوامِلَ والأسبابَ، إنَّه الإيمانُ والثِّقةُ والاطمِئنانُ؛ الإيمانُ باللهِ، والثِّقةُ بوَعدِه، والاطمئنانُ إلى نَصرِه، الإيمانُ الذي يخالِطُ القلبَ، فإذا وعدُ اللهِ بالنَّصرِ حقيقةٌ مَلموسةٌ في هذا القَلبِ لا يشُكُّ فيها لحظةً؛ لأنَّها مِلءُ يَدَيه، ومِلءُ قَلبِه الذي بين جَنبَيه، وليست وعدًا للمُستقبلِ في ضميرِ الغَيبِ، إنَّما هي حاضِرٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٣).

واقعٌ تتملَّاه العينُ والقَلبُ[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ دلالةٌ مِن كلامِ المرسَلينَ أنَّه بتوكُّلِهم على اللهِ يُدفَعُ شرُّ عدوِّهم عنهم[٢].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال تعالى: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أرسلَ اللهُ إليهم ﴿أخاهم﴾ في النَّسَبِ ﴿هوداً﴾ ليتَمَكَّنوا من الأخذِ عنه، والعلم بصِدقِه[٣].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ فيه سؤالٌ: وصفَ تعالى هودًا بأنَّه أخوهم، ومعلومٌ أنَّ تلك الأخوَّةَ ما كانت في الدِّينِ، وإنَّما كانت في النَّسَبِ، وقد قال تعالى في ابنِ نوحٍ: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾، فبيَّن أنَّ قَرابةَ النَّسَبِ لا تُفيدُ إذا لم تحصُلْ قَرابةُ الدِّينِ، وهاهنا أثبتَ هذه الأُخُوَّةَ مع الاختلافِ في الدِّينِ، فما الفرقُ بينهما؟

الجواب: أنَّ المرادَ مِن هذا الكلامِ استمالةُ قَومِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّ قَومَه كانوا يستبعِدونَ في محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- مع أنَّه واحِدٌ من قبيلتِهم- أن يكونَ رسولًا إليهم من عندِ الله، فذكرَ الله تعالى أنَّ هودًا كان واحدًا مِن عاد؛ لإزالةِ هذا الاستبعاد[٤].

٣- دلَّ قولُه تعالى: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ على أنَّ هؤلاء المعبودينَ مِن دونِ اللهِ إنَّما هم

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٤/ ١٨٩٨).
(٢) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٩٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٦٢)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٣).

آلهةٌ في نفوسِ المُشرِكينَ، ليسوا آلهةً في نفسِ الأمرِ؛ ولهذا كان ما في قلوبِهم مِن الشِّركِ إفكًا[(١)].

٤- دلَّ قولُه تعالى: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ على أنَّ الأفعالَ قَبْلَ الرِّسالةِ منها الحسَنُ ومنها القبيحُ، إلَّا أنَّهم لا يستَحِقُّونَ العذابَ إلَّا بعد مجيءِ الرَّسولِ إليهم، فقد جعل هودٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قومَه مُفتَرينَ قبلَ أن يحكُمَ بحُكمٍ يُخالِفونَه؛ لِكونِهم جعلوا مع الله إلهًا آخرَ[(٢)].

٥- في قَولِه تعالى عن هودٍ: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ بيانُ أنَّ عبادةَ اللهِ وحدَه هي أوَّلُ الواجباتِ، وهي مِفتاحُ دعوةِ المُرسَلينَ كلِّهم[(٣)].

٦- قولُ الله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ هذا غايةُ ما يُرادُ مِن السَّعاداتِ الدنيوية: كثرةُ النعمِ، وكمالُ القوةِ للاستمتاعِ بها؛ فقولُه تعالى: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ إشارةٌ إلى تكثيرِ النِّعَمِ؛ لأنَّ مادةَ حُصولِ النِّعَمِ هي الأمطارُ المُوافِقة، وقولُه: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ إشارةٌ إلى كمالِ حالِ القُوى التي بها يمكِنُ الانتفاعُ بتلك النِّعمةِ[(٤)].

٧- (ثمَّ) في قولِه: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ للتَّرتيبِ الرُّتْبيِّ؛ لأنَّ الدَّوامَ على الإقلاعِ أهَمُّ مِن طلَبِ العفْوِ عمَّا سلَف[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٣/ ٢٨٠).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ٣٧).
(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٥٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٦٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٩٦).

٨- كثيرًا ما يُقرن الاستغفارُ بذكر التوبةِ، كما في قولِه تعالى: ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾، فيكونُ الاستغفارُ حينئذٍ عبارةً عن طلبِ المغفرةِ باللسانِ، والتوبةُ عبارةٌ عن الإقلاعِ عن الذنوبِ بالقلوبِ والجوارحِ[1].

٩- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ يقتضي أنَّه- سُبحانَه- لا يقولُ إلَّا الحقَّ، ولا يأمرُ إلَّا بالعدلِ، ولا يفعلُ إلَّا ما هو مصلحةٌ ورحمةٌ وحكمةٌ وعَدْلٌ؛ فهو على الحقِّ في أقوالِه وأفعالِه، فلا يقضي على العبدِ بما يكونُ ظالِمًا له به، ولا يأخذُه بغير ذنبِه، ولا يَنقُصُه مِن حسناتِه شيئًا، ولا يَحمِلُ عليه مِن سيِّئاتِ غَيرِه- التي لم يعملْها ولم يتسبَّبْ إليها- شيئًا، ولا يؤاخِذُ أحدًا بذنبِ غيرِه، ولا يفعلُ قطُّ ما لا يُحمَدُ عليه، ويُثنَى به عليه، ويكونُ له فيه العواقبُ الحميدةُ والغاياتُ المطلوبةُ؛ فإنَّ كونَه على صراطٍ مُستقيمٍ يأبى ذلك كلَّه[2].

١٠- قولُه تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾ فيه تأنيثُ اسمِ الإشارةِ ﴿تِلْكَ﴾ على تأويلِ الأُمَّةِ، أو أنَّث اسمَ الإشارةِ باعتبارِ القَبيلةِ، أو لأنَّ الإشارةَ إلى قُبورِهم وآثارِهم[3].

١١- دلَّ قولُه تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ على إطلاقِ مَعصيةِ الرُّسُلِ عُمومًا على مَن عصى نبيَّه، فأطلقَ معصيتَهم للرُّسُلِ- بأنَّهم عصَوا هودًا- مَعصيةَ تكذيبٍ لجنسِ الرُّسُلِ، فكانت المعصيةُ لجنسِ الرُّسُلِ كمعصيةِ مَن قال: ﴿فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الملك: ٩]، وكمعصيةِ مَن كذَّبَ وتوَلَّى في قولِه تعالى: ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى* الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾[4] [الليل: ١٥- ١٦].

(١) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٤٠٧).
(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٢٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٠٥).
(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٥٩).

١٢- قولُ الله تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ فيه الردُّ على الذين يصَوِّبونَ جميعَ المِلَلِ- وخَصُّوا عادًا هذه؛ لكونِها أغناهم بأن قالوا: إنَّهم من المقرَّبينَ إلى اللهِ، وإنَّهم بعينِ الرِّضا منه- وهم أتباعُ ابنِ عرَبي الكافرِ العنيدِ، أهلُ الاتِّحادِ، المُجاهِرونَ بعَظيمِ الإلحادِ، المستخِفُّونَ برَبِّ العبادِ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾

- قولُه تعالى: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ فيه تقديمُ المجرورِ ﴿وَإِلَى عَادٍ﴾ على المنصوبِ ﴿أَخَاهُمْ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ العطْفَ مِن عَطْفِ المفرَداتِ لا مِن عطْفِ الجُمَلِ؛ لأنَّ الجارَّ لا بدَّ له مِن متعلَّقٍ، وقضاءً لحقِّ الإيجازِ؛ لِيَحضُرَ ذِكرُ عادٍ مرَّتَينِ بلَفْظِه ثمَّ بضَميرِه[٢].

- قولُه: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ فيه افتِتاحُ دَعوتِه بنِداءِ قومِه؛ لاستِرْعاءِ أَسْماعِهم؛ إشارةً إلى أهمِّيَّةِ ما سيُلْقي إليهم، ووَجْهُ التَّصريحِ بفِعْلِ القولِ؛ لأنَّ فِعْلَ ﴿أَرْسَلْنَا﴾ محذوفٌ؛ فلو بُيِّنَ بجملةِ ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا﴾ دون (قال) كما بُيِّنَ في قولِه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [هود: ٢٥]، لكان بَيانًا لمعدومٍ، وهو غيرُ جَلِيٍّ[٣].

- قولُه: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ استِئْنافٌ يَجْري مَجْرى البيانِ للعِبادةِ المأمورِ بها، والتَّعليلِ للأمْرِ بها، كأنَّه قيل: خُصُّوه بالعبادةِ وَلا تُشْرِكوا بِه شَيئًا؛ إذْ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٩٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ليس لكم مِن إلهٍ سِواه[١].

- وجملةُ: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ بيانٌ لِجُملَةِ ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، وفيها توبيخٌ وإنكارٌ لهم[٢].

٢- قولُه: ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

- جملةُ ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ فيه إعادةُ النِّداءِ في أثناءِ الكلامِ، والتَّكريرُ للأهَمِّيَّةِ، ويُقصَدُ به تَهْويلُ الأمْرِ، واستِرْعاءُ السَّمْعِ اهتِمامًا بما يَستَسمِعونَه، والنِّداءُ هو الرَّابطُ بين الجُملتَينِ[٣].

- قولُه: ﴿إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فيه التَّعبيرُ بالموصولِ وصِلَتِه ﴿الَّذِي فَطَرَنِي﴾ دونَ الاسْمِ العلَمِ (فَاطِرٌ)؛ لزيادةِ تحقيقِ أنَّه لا يَسأَلُهم على الإرشادِ أجْرًا بأنَّه يَعلَمُ أنَّ الَّذي خلَقَه يَسوقُ إليه رِزقَه؛ لأنَّ إظْهارَ المتكلِّمِ عِلْمَه بالأسبابِ يُكْسِبُ كلامَه على المسبَّباتِ قوَّةً وتحقيقًا[٤].

- قولُه: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ عن عدَمِ تَعقُّلِهم، أي: تأمُّلِهم في دَلالةِ حالِه على صِدْقِه فيما يُبلِّغُ، ونُصْحِه لهم فيما يَأمُرُهم[٥].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٩٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وهذا الوجهُ هو على أنَّ هذه الجملةَ كان قالها مع الجُملةِ التي قبلها، وإنْ كانت مقولةً في وقتٍ غيرِ الذي قِيلتْ فيه الجملةُ الأُولَى؛ فليس فيه هذا الوجهُ.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٩٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿يَزِدْكُمْ﴾، وإنَّما عُدِّي بـ (إلى) لِتَضمينِه مَعْنى يَضُمُّ، وهذا وعْدٌ لهم بصَلاحِ الحالِ في الدُّنيا، وعُطِفَ عليه ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾؛ تحذيرًا مِن الرُّجوعِ إلى الشِّركِ[١].

٤- قولُه تعالى: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾

- قولُه: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ فيه افتِتاحُ كَلامِهم بالنِّداءِ، وهو يُشيرُ إلى الاهتمامِ بما سيَقولونَه، وأنَّه جديرٌ بأن يُتَنبَّهَ له؛ لأنَّهم نَزَّلوه مَنزِلةَ البعيدِ لِغَفلتِه فنادَوْه؛ فهو مُستعمَلٌ في معناه الكِنائيِّ[٢].

- قولُهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ﴾، ﴿عَنْ قَوْلِكَ﴾ للتَّعليلِ كقولِه تعالى: ﴿إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾، فتَتعلَّقُ ﴿بِتَارِكِي﴾، كأنَّه قيل: لِقَولِك[٣].

- قولُه: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أفادت الجملةُ الاسميةُ وزيادةُ الباءِ وتقديمُ المسندِ إليه المفيدِ للتقوِّي أنَّهم لا يُرجَى منهم الإيمانُ بأيِّ وجهٍ[٤].

٥- قولُه تعالى: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾

- ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ استِئْنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ قولَهم: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ مِن شأنِه أن يُثيرَ للسَّامعِ ومَن معَه في أنفُسِهم أن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٢٨٠).

يَقولوا: إن لم تُؤمِنوا بما جاء به أنَّه مِن عندِ اللهِ؛ فماذا تَعُدُّون دَعوتَه فيكم؟[١]، وقد جعَلوا ذلك مِن فِعْلِ بعضِ الآلهةِ؛ تهديدًا للنَّاسِ بأنَّه لو تَصدَّى له جميعُ الآلهةِ لَدَكُّوه دَكًّا[٢].

- والتَّنكيرُ في (سُوءٍ) للتَّقليلِ؛ كأنَّهم لم يُبالِغوا في السُّوءِ، كما يُنْبِئُ عنه نِسبةُ ذلك إلى بعضِ آلِهتِهم دونَ كُلِّها[٣].

- قولُه: ﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ جملةُ ﴿أُشْهِدُ اللَّهَ﴾ إنشاءٌ لإشهادِ اللهِ بصيغةِ الإخبارِ؛ لأنَّ كلَّ إنشاءٍ لا يَظهَرُ أثَرُه في الخَلْقِ مِن شأنِه أن يقَعَ بصيغةِ الخبَرِ؛ لِمَا في الخبَرِ مِن قصْدِ إعلامِ السَّامعِ بما يُضمِرُه المتكلِّمُ، وقال: ﴿أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا﴾، ولم يَقُل: (وأُشْهِدُكم) لِيَكون مُوازِنًا له وبمعناه؛ لأنَّ إشهادَه اللهَ على البراءةِ مِن الشِّركِ صحيحٌ ثابتٌ، وأمَّا إشهادُهم فما هو إلَّا تَهاوُنٌ بدِينِهم، ودَلالةٌ على قِلَّةِ المبالاةِ بهم؛ ولذلك عَدَل به عن لَفْظِ الأوَّلِ؛ لاختِلافِ ما بَينَهما، وجِيءَ به على لفْظِ الأمْرِ؛ تَهكُّمًا بهم واستِهانةً بحالِهم؛ هذا مِن جِهَةٍ، ومِن جِهةٍ ثانيةٍ: عدَل إلى صيغةِ الأمرِ ﴿وَاشْهَدُوا﴾ عن صيغةِ الخبَرِ؛ للتَّمييزِ بينَ خِطابِه اللهَ تعالى وخِطابِه إيَّاهم؛ بأن يُعبِّرَ عن خِطابِ اللهِ تعالى بصيغةِ الخبَرِ الَّتي هي أجَلُّ وأشرَفُ وأوقَرُ للمُخاطَبِ مِن صِيغةِ الأمرِ[٤].

٦- قولُه تعالى: ﴿مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٩٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٠٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٦٨)، ((الجدول في إعراب القرآن الكريم)) لمحمود صافي (١٢/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٩٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ٣٨٢).

- الفاءُ في ﴿فَكِيدُونِي﴾؛ لِتَفْريعِ الأمْرِ على زَعْمِهم في قدرةِ آلهتِهم على ما قالوا، وعلى البراءةِ كِلَيهما[١]، والأمرُ بـ (كِيدُونِي) مُستعمَلٌ في الإباحةِ؛ كِنايةً عن التَّعجيزِ بالنِّسبةِ للأصنامِ وبالنِّسبةِ لقومِه، وجَعَل الخطابَ لقومِه؛ لِئَلَّا يكونَ خِطابُه لِمَا لا يَعقِلُ ولا يَسمَعُ، فأمَر قومَه بأن يَكيدوه، وأدخَلَ في ضَميرِ الكائِدين أصنامَهم؛ مُجاراةً لاعتِقادِهم، واستِقْصاءً لِتَعجيزِهم.

و(ثُمَّ) في ﴿ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ﴾ للتَّراخي الرُّتْبيِّ؛ تَحدَّاهم بأن يَكيدوه، ثُمَّ ارتَقى في رُتبَةِ التَّعجيزِ والاحتقارِ، فنَهاهم عن التَّأخيرِ بكَيدِهم إيَّاه، وذلك نِهايةُ الاستِخْفافِ بأصنامِهم وبهم، وكنايةٌ عن كَونِهم لا يَصِلون إلى ذلك[٢].

٧- **قولُه تعالى: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾**

- قولُه: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ تعليلٌ لمضمونِ ﴿فَكِيدُونِي﴾، وهو للتَّعجيزِ والاحتقارِ[٣]، وإنَّما جِيءَ بلفظِ الماضي ﴿تَوَكَّلْتُ﴾؛ لِكَونِه أدَلَّ على الإنشاءِ المناسِبِ للمقامِ[٤].

- قولُه: ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ الأخْذُ بالنَّاصيةِ هنا تَمثيلٌ للتَّمكُّنِ، تَشْبيهًا بهيئةِ إمساكِ الإنسانِ من ناصيتِه حيث يَكونُ رأسُه بيَدِ آخِذِه فلا يَستَطيعُ إفلاتًا، وإنَّما كان تَمثيلًا؛ لأنَّ دَوابَّ كثيرةً لا نَواصِيَ لها، فلا يَلتَئِمُ الأخْذُ بالنَّاصيةِ مع عُمومِ ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ﴾، ولكنَّه لَمَّا صار مثَلًا صار بِمَنزلةِ: ما مِن دابَّةٍ إلَّا هو مُتصرِّفٌ فيها، ومِن بَديعِ هذا المثَلِ أنَّه

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢١٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٠٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢١٨).

أشَدُّ اختِصاصًا بالنَّوعِ المقصودِ مِن بينِ عُمومِ الدَّوابِّ، وهو نوعُ الإنسانِ، والمقصودُ مِن ذلك أنَّه المالِكُ القاهِرُ لِجَميعِ ما يَدِبُّ على الأرضِ؛ فكونُه مالِكًا للكُلِّ يَقتَضي ألَّا يَفوتَه أحَدٌ منهم، وكونُه قاهِرًا لهم يَقتَضي ألَّا يُعجِزَه أحَدٌ منهم[1].

- قولُه: ﴿آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ فيه تخصيصُ النَّاصيةِ بالذِّكرِ؛ لأنَّ العرَبَ إذا وصَفَتْ إنسانًا بالذِّلَّةِ والخُضوعِ قالت: ما ناصِيَةُ فُلانٍ إلَّا بيَدِ فُلانٍ، أي: إنَّه مُطيعٌ له، يصرِفُه كيف يَشاءُ[2].

- وجملةُ ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ تعليلٌ لِجُملةِ ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ﴾، أي: توكَّلتُ عليه؛ لأنَّه أهلٌ لِتَوكُّلي عليه، لأنَّه متَّصِفٌ بإجراءِ أفعالِه على طريقِ العَدْلِ والتَّأييدِ لرُسلِه[3].

٨- قولُه تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾

- قولُه: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾ جُعل جوابُ شرطِ التَّولِّي قولَه: ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ﴾، مع أنَّ الإبلاغَ سابقٌ على التَّولِّي المجعولِ شَرطًا؛ لأنَّ المقصودَ بهذا الجوابِ هو لازمُ ذلك الإبلاغِ، وهو انتِفاءُ تَبِعَةِ تَولِّيهم عنه، وبَراءتُه مِن جُرْمِهم؛ لأنَّه أدَّى ما وجَب عليه مِن الإبلاغِ[4].

- و﴿شَيْئًا﴾ مَصدرٌ مؤكِّدٌ للفعلِ ﴿تَضُرُّونَهُ﴾ المنفيِّ، وتنكيرُه للتَّقليلِ، والمقصودُ مِن التَّأكيدِ: التَّنصيصُ على العُمومِ بنَفْيِ الضُّرِّ؛ لأنَّه نَكِرةٌ في حيِّزِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٠٠-١٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٦٨- ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٠١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٠٢).

النَّفْيِ، أي: فاللهُ يُلْحِقُ بكم الاستِئْصالَ، وهو أعظَمُ الضَّرِّ، ولا تَضُرُّونه أقلَّ ضُرٍّ[١].

- وجملةُ ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ تعليلٌ لِجُملةِ ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا﴾؛ فموقِعُ (إنَّ) فيها موقِعُ فاءِ التَّفريعِ[٢].

- ولما كان الأهمُّ في هذا السياقِ بيانَ استعلائِه تعالى وقدرتِه، قدَّم قولَه: ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾[٣].

٩- قولُه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾

- قولُه: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ الأمرُ هنا كِنايةٌ عن العذابِ، أو عن القضاءِ بهَلاكِهم[٤].

- وفي قولِه: ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ تكرَّرَت التَّنْجيَةُ على سَبيلِ التَّوكيدِ، ولِقَلَقِ (مِنْ) في قولِه: ﴿مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ لوْ لاصَقَتْ (مِنَّا) في ﴿بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾- حيثُ يكون: (بِرَحْمَةٍ مِنَّا مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ)-؛ فأُعيدَت التَّنجيةُ، وهي التَّنجيةُ الأُولى؛ فمَعْنى التَّكريرِ أنَّه سبحانه ذكَر أوَّلًا أنَّه حينَ أهْلَك عدُوَّهم نَجَّاهم، ثمَّ قال: ﴿وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾، على معنى: وكانتِ التَّنْجيةُ مِن عذابٍ غليظٍ. أو تكونُ هذه التَّنْجيةُ هي مِن عذابِ الآخرةِ، ولا عذابَ أغلَظُ منه؛ فأُعيدَتْ لأجلِ اختِلافِ مُتَعلَّقَيها[٥].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال تعالى هنا في قصَّةِ هودٍ: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٠٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣١٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٧٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٠٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٧٠).

نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾، وقال في قصَّةِ شُعيبٍ عليه السَّلامُ: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ [هود: ٩٤]؛ فعُطِفَت (لَمَّا) على ما قَبْلَها بواوِ العَطْفِ في هذَينِ الموضِعَين، وخالَفت قصَّةُ صالحٍ وقصَّةُ لوطٍ عليهما السَّلامُ في الحرفِ المعطوفِ به هذه الجملةُ المصدَّرةُ بحرفِ الوجوبِ؛ فقيل في قصَّةِ صالحٍ عليه السَّلامُ: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ [هود: ٦٦]، وفي قصَّةِ لوطٍ عليه السَّلامُ: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [هود: ٨٢]، بعَطْفِ لَمَّا على ما قَبْلَها مِن هاتَين الآيتَين بفاءِ التَّعقيبِ، ووجْهُ ذلك: أنَّ العذابَ في قصَّةِ هودٍ وشُعيبٍ تأخَّر عن وقْتِ الوعيدِ، فإنَّ في قصَّةِ هودٍ ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [هود: ٥٧]، وفي قصَّةِ شُعيبٍ ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [هود: ٩٣]، والتَّخويفُ قارَنَه التَّسويفُ، فجاء بالواوِ. وفي قصَّةِ صالحٍ ولوطٍ وقَع العذابُ عَقِيبَ الوعيدِ؛ فإنَّ في قصَّةِ صالحٍ ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥]، وفي قصَّةِ لوطٍ ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١]؛ فجاء الفاءُ للتَّعجيلِ والتَّعقيبِ[(١)].

وفيه وجهٌ آخَرَ: أنَّ آيَتَيْ صالِحٍ ولوطٍ ورَد فيهما ما يَقتَضي مَعْناه أن يَربِطَ بالفاءِ المقتَضِيَةِ التَّعقيبَ، أمَّا قصَّةُ صالِحٍ مِنهُما فتَقَدَّمَها قولُه تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥]، فكأنْ قد قيل: فلمَّا انقَضَتْ، فالموضوعُ للفاءِ لمقصودِ التَّعقيبِ، ومِثلُ هذا مِن غيرِ فَرْقٍ قولُه تعالى في قصَّةِ لوطٍ عليه السَّلامُ: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ [هود: ٨١]، ولا شَكَّ أنَّ المعنى يَستَدْعي تَقْديرَ (فلَمَّا أصبَح)؛ تَحقيقًا لصِدْقِ الوعيدِ، وإعقابًا لا يَتحصَّلُ بغيرِ الفاءِ؛ فهذا يوجِبُ خُصوصَ الفاءِ بهَذَينِ الموضِعَينِ. وأمَّا قصَّةُ هودٍ عليه

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٤٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٦٧).

السَّلامُ، فلم يَرِدْ فيها ما يَسْتَدعي تَعْقيبًا، بل قَبْلَها ما يَقتَضي أن يُنَسَّقَ ما بعدَه عليه بواوِ العطفِ، وذلك قولُه تعالى مُخبِرًا عن قومِ هودٍ: ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا﴾ [هود: ٥٧]، ثمَّ قال: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ [هود: ٥٨]، فعطَف هذه الجُمَلَ بَعْضَها على بعضٍ بما يُعْطي ذلك، ويُناسِبُ العطفُ بالواوِ، وعلى هذا ورَدَت آيةُ شُعَيبٍ عليه السَّلامُ؛ فورَد قبْلَها: ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ [هود: ٩٣]، ثمَّ بعْدَ ذلك: ﴿وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود: ٩٣]، وليس هذا ما يَقْتَضي تَعقيبًا، بل بابُه حَمْلُ الآياتِ بعضِها على بعضٍ بحَرْفِ التَّشْريكِ وهو الواوُ؛ فجاء كلٌّ على ما يُناسِبُ[1].

١٠- قولُه تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾

- جملةُ ﴿جَحَدُوا﴾ وما بعْدَها تمهيدٌ للمَعطوفِ، وهو ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [هود: ٦٠]؛ لزيادةِ تَسْجيلِ التَّمهيدِ بالأَجْرامِ السَّابقةِ، وهو الَّذي اقتَضاه اسمُ الإشارةِ؛ لأنَّ جميعَ ذلك مِن أسبابِ جَمْعِ العَذابَينِ لهم[2].

- وجمَعَ الرُّسُلَ في قولِه: ﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾، وإنَّما عَصَوْا رَسولًا واحدًا، وهو هودٌ عليه السَّلامُ؛ لأنَّ المرادَ ذِكْرُ إجرامِهم؛ فناسَب أن يُناطَ الجُرْمُ بعِصْيانِ جِنْسِ الرُّسلِ؛ لأنَّ تَكْذيبَهم هودًا لم يَكُنْ خاصًّا بشَخْصِه؛ لأنَّهم قالوا له: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ﴾؛ فكلُّ رسولٍ جاء بأمرِ ترْكِ

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٥٧-٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٠٥).

عبادةِ الأصنامِ فهُم مُكذِّبون به. ومِثلُه قولُه تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾[1] [الشعراء: ١٢٣].

١١- قولُه تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾

- قولُه: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾، أي: أصابتهم إصابةً عاجِلةً دونَ تأخيرٍ كما يُتْبَعُ الماشي بمَن يَلْحَقُه، وعُبِّر عن ذلك بالتَّبعيَّةِ للمُبالَغةِ؛ فكأنَّها لا تُفارِقُهم وإن ذهَبوا كلَّ مذهَبٍ، بل تَدورُ معَهم حيثُما داروا، مع ما في ذلك مِن المشارَكةِ ومِن مُماثَلةِ العقابِ للجُرْمِ؛ لأنَّهم اتَّبَعوا الملعونينَ فأُتْبِعُوا باللَّعنةِ؛ جَزاءً لِصَنيعِهم جَزاءً وِفاقًا[2].

- وبُني فِعْلُ (أُتْبِعُوا) للمفعولِ؛ إذ لا غرَضَ في بيانِ الفاعلِ، ولم يُسنَدِ الفعلُ إلى اللَّعنةِ؛ لِيَدُلَّ على أنَّ إتْباعَها لهم كان بأمرِ فاعلٍ؛ للإشعارِ بأنَّها تَبِعَتْهم عِقابًا مِن اللهِ لا مُجرَّدَ مُصادَفةٍ[3].

- وفي قولِه: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ قَرَنَ ﴿الدُّنْيَا﴾ باسْمِ الإشارةِ ﴿هَذِهِ﴾؛ لِقَصْدِ تَهْوينِ أمْرِها بالنِّسبةِ إلى لَعْنةِ الآخِرةِ[4].

- قولُه: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، أي: أُتبِعوا يومَ القيامةِ أيضًا لعنةً، وحُذِفَت لِدَلالةِ الأُولى عليها، وللإيذانِ بكَوْنِ كلٍّ مِن اللَّعنتَين نوعًا برأسِه، لم تُجمَعا في قَرَنٍ واحدٍ؛ بأن يُقالَ: (وأُتبِعوا في هذه الدُّنيا ويومَ القيامةِ لَعنةً)، كما في قولِه تعالى: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [الأعراف: ١٥٦]؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٠٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

إيذانًا باختِلافِ نوعَيِ الحسَنَتين؛ فإنَّ المرادَ بالحسنَةِ الدُّنيَويَّةِ نحْوُ الصِّحَّةِ والكَفافِ والتَّوفيقِ للخيرِ، وبالحسنَةِ الأُخرَويَّةِ الثَّوابُ والرَّحمةُ[1].

- وجملةُ ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ مُستأنَفةٌ ابتدائيَّةٌ، افتُتِحَت بحرفِ التَّنبيهِ ﴿أَلَا﴾؛ لِتَهويلِ الخبَرِ، وأُكِّدَت بحرفِ (إنَّ)؛ لإفادةِ التَّعليلِ بجُملَةِ ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾؛ تعريضًا بالمشرِكين؛ لِيَعتَبِروا بما أصاب عادًا[2].

- ونبَّه على علَّةِ إتْباعِ اللَّعنةِ لهم في الدَّارَين بأنَّهم ﴿كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾؛ فالكفرُ هو الموجِبُ للَّعنةِ[3].

- قولُه: ﴿أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ جملةٌ ابتدائيَّةٌ؛ لإنشاءِ ذمٍّ لهم[4].

- وأيضًا في قولِه: ﴿أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ تكريرُ حرْفِ التَّنبيهِ ﴿أَلَا﴾ وإعادةُ (عَادٍ) في الدُّعاءِ عليهم؛ تَهْويلًا لأمرِهم، وتَفْظيعًا له، وبَعْثًا على الاعتِبارِ بهم، والحذَرِ مِن مِثلِ حالِهم، والحثِّ على الاعتبارِ بقِصَّتِهم[5].

- و﴿قَوْمِ هُودٍ﴾ عطفُ بيانٍ لـ(عَادٍ)، وفائدةُ هذا البيانِ- مع أنَّ البيانَ حاصِلٌ بدونِه-: أنْ يُوسَموا بهذه الدَّعْوةِ وَسْمًا، وتُجعَلَ فيهم أمرًا مُحقَّقًا لا شُبهَةَ فيه بوَجْهٍ مِن الوجوهِ، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ له أثرًا في الذَّمِّ بإعراضِهم عن طاعةِ رسولِهم، والإيماءُ إلى أنَّ استِحْقاقَهم للبُعْدِ بسببِ ما جرَى بينَهم وبينَ هودٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وهم قومُه؛ فيكونُ تَعريضًا بالمشرِكين من العرَبِ[6].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٠٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٢٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٧١)، ((تفسير أبي =

- وفيه مُناسَبةٌ حسنةٌ، حيثُ قال تعالى هنا في قصَّةِ سورةِ (هودٍ) عليه السَّلامُ وذِكْرِ قومِه: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٦٠]، وقال في قصَّةِ موسى عليه السَّلامُ في هذه السُّورةِ، وإرسالِه إلى فرعونَ ومَلَئِه: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ [هود: ٩٩]؛ فحَذَف (الدُّنيا) مِن الآيةِ الثَّانيةِ، وأثبَتَها في الأولى، ووجهُ ذلك: أنَّ قِصَّةَ هودٍ عليه السَّلامُ في هذه السُّورةِ أكثَرُ استيفاءً مِن قِصَّةِ موسى عليه السَّلامُ بكَثيرٍ؛ فناسَب الطُّولُ الطُّولَ، والإيجازُ الإيجازَ، ولا يَليقُ العَكْسُ؛ فالوارِدُ عليه كلٌّ مِن الآيتَينِ لا يَحسُنُ خِلافُه ولا يُناسِبُ(١).

وقيل: وجهُ ذلك أنَّ الأُولى أتى فيها بالموصوفِ والصِّفةِ جَميعًا، وهو الأصلُ الأوَّلُ، ثمَّ اكتَفى بالصِّفةِ عن الموصوفِ بعْدَه؛ لقيامِ الدَّلالةِ على الموصوفِ، فيَجوزُ لذلك حَذْفُه، وإقامةُ الصِّفةِ مَقامَه، ولَمَّا جاءَتِ الآيتان في سورةٍ واحدةٍ وُفِّيَت الأُولى ما هو بها أَوْلى مِن الإجراءِ على الأصلِ، والإتيانِ بالموصوفِ والوصفِ، فقال تعالى: ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾، واكتَفى في الثَّانيةِ لَمَّا قامَتِ الدَّلالةُ على الموصوفِ بالصِّفةِ وحْدَها، فقال: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً﴾؛ فورَد الأوَّلُ على الأصلِ مِن الجمْعِ بينَ التَّابعِ نَعْتًا أو عَطْفَ بيانٍ وبينَ مَتْبوعِه، وجاء في قصَّةِ موسى عليه السَّلامُ: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً﴾ على حَذْفِ الوصفِ؛ للاكتفاءِ باسْمِ الإشارةِ، وكلٌّ فَصيحٌ، فجيءَ بما هو في الأصلِ أوَّلًا، ثمَّ جيءَ ثانيًا بما هو ثانٍ عنه على ما يَنبَغي، ولا يَحسُنُ العكسُ؛ لأنَّ ذلك شِبْهُ التَّفسيرِ، وبابُه أن يتقدَّمَ(٢).

= السعود)) (٤/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٠٧).

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٥٧-٢٥٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٧٥٩)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١٤٥)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٥٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٦٨).

الآيات (٦١-٦٨)

﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ
أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾
قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى
شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى
وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾
وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا
بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ
ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ
ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ
إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فيها﴾: أي: جعَلَكم عُمَّارَها، وأصلُ (عمر): يدُلُّ على بقاءٍ، وامتدادِ زَمانٍ(١).

﴿فَعَقَرُوهَا﴾: أي: فنَحَروها، وأصلُ (عقر): يدلُّ على جَرْحٍ(٢).

﴿الصَّيْحَةُ﴾: المرَّةُ من الصَّوتِ الشَّديدِ، وهي صاعِقةُ العذابِ، وأصلُ (صيح):

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٨٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٩٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦٢).

يدلُّ على الصَّوتِ العالي[١].

﴿جَاثِمِينَ﴾: أي: خامِدينَ، لاصقينَ بالأرضِ على رُكَبِهم ووُجوهِهم، وأصلُ (جثم): يدُلُّ على تجمُّعِ شَيءٍ[٢].

﴿يَغْنَوْا﴾: أي: يَعيشوا، أو يُقيموا، وغَنِيَ القومُ في دارِهم: أقاموا، كأنَّهم استغنَوْا بها، وأَصْلُ (غني): يدُلُّ على الكِفايةِ، والاسْتغناءِ عن الغَيرِ[٣].

﴿مَرْجُوًّا﴾: أي: نُؤَمِّلُ فيك أن تكونَ لنا سَيِّدًا، وأصلُ (رجا): يدُلُّ على الأمَلِ[٤].

﴿مُرِيبٍ﴾: أي: مُوقِعٍ للتُّهمةِ، والريبةُ: التهمةُ، وهي ظَنُّ السوءِ، فهي قسمٌ مِن الشكِّ، والريبةُ: قَلَقُ النَّفسِ، وانتفاءُ الطُّمأْنينةِ، وأصلُ (ريب): يدُلُّ على شَكٍّ[٥].

﴿تَخْسِيرٍ﴾: أي: نقصانٍ، أو: هلكةٍ، أو: تضليلٍ وإبعادٍ مِن الخيرِ، وأصل (خسر): يَدُلُّ عَلَى النَّقْصِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٠)، ((تفسير المنار)) لرشيد رضا (١٢/ ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٦٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٧).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٨٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٣).

(٥) يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٥/ ١٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٣٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٨٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٧٦)، ((مفردات القرآن)) للفراهي (ص: ٣٥٨).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٢)، =

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تعالى أنَّه أرسلَ إلى ثمودَ أخاهم صالحًا، فقال لهم: يا قومِ اعبُدوا اللهَ وَحدَه، ليس لكم من إلهٍ يستحِقُّ العبادةَ غيرُه جلَّ وعلا، فأخلِصوا له العبادةَ، هو الذي بدأ خَلقَكم من الأرضِ بخَلقِ أبيكم آدمَ منها، وجعَلَكم عُمَّارًا لها، فاسألوه أن يغفِرَ لكم ذُنوبَكم، وارجِعوا إليه بالتَّوبةِ النَّصوحِ؛ إنَّ ربي قريبٌ لِمَن أخلصَ، ورَغِبَ إليه في التَّوبةِ، مُجيبٌ له إذا دعاه.

فقال قومُ صالحٍ له: لقد كنَّا نرجو أن تكونَ فينا صاحبَ مكانةٍ، سيِّدًا مُطاعًا قبل هذا القَولِ الذي قُلتَه لنا، أتَنهانا أن نعبُدَ الآلهةَ التي كان يعبُدُها آباؤنا؟ وإنَّنا لفي شكٍّ مُريبٍ مِن دعوتِك لنا إلى عبادةِ اللهِ وَحدَه، فقال لهم: يا قومِ أخبِروني إن كنتُ على برهانٍ مِن اللهِ، وآتاني منه النبوَّةَ والحِكمةَ؛ فمَن الذي يدفَعُ عني عِقابَ اللهِ تعالى لو استجبتُ لكم وعصيتُه؛ فلم أبلِّغِ الرِّسالةَ، وأنصحْ لكم؟ فما تزيدونَني غيرَ تَضليلٍ، وإبعادٍ عن الخيرِ، ويا قومِ هذه ناقةُ اللهِ جعَلَها لكم حُجَّةً وعلامةً تدُلُّ على صِدقي فيما أدعوكم إليه، فاترُكوها تأكُلْ في أرضِ اللهِ؛ فليس عليكم رِزقُها، ولا تمَسُّوها بسُوءٍ من عَقرٍ أو غيرِه؛ فإنَّكم إن فعلتُم ذلك يأخُذْكم من اللهِ عذابٌ قريبٌ مِن وَقتِ إيذائِكم للنَّاقة، فكذَّبوه ونَحَروا النَّاقةَ، فقال لهم صالحٌ: استمتِعوا بحياتِكم في بلَدِكم ثلاثةَ أيَّامٍ؛ فإنَّ العذابَ نازِلٌ بكم بعدَها، وذلك وَعْدٌ مِن الله غيرُ مَكذوبٍ، لا بدَّ مِن وقوعِه.

فلمَّا جاء أمرُنا بهلاكِ ثمودَ نَجَّينا صالحًا والذين آمَنوا معه من الهلاكِ برَحمةٍ مِنَّا، ونجَّيناهم مِن هوانِ ذلك اليوم وذِلَّتِه، إنَّ رَبَّك - يا مُحمَّدُ - هو القَويُّ العزيزُ، وأخذَتِ الصَّيحةُ القويَّةُ ثمودَ الظَّالمينَ، فأصبحوا في ديارِهم موتى ساقطينَ

= ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٠).

على وُجوهِهم، كأنَّهم في سرعةِ زَوالِهم وفنائِهم لم يَعيشوا فيها، ألا إنَّ ثَمودَ كفروا بربهم وجَحَدوا بآياتِه وحُجَجِه، ألا بُعْدًا لثمودَ وطردًا لهم مِن رَحمةِ اللهِ.

تَفسيرُ الآيات:

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (٦١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا انقَضَت قِصَّةُ عادٍ على ما أراد سُبحانه، أتبَعَها قِصَّةَ من كانوا عَقِبَهم في الزَّمَنِ، ومِثلَهم في سُكنَى أرضِ العَرَبِ، وعبادةِ الأوثانِ[1].

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾.

أي: وأرسَلْنا إلى قبيلةِ ثَمودَ أخاهم في النَّسَبِ صالِحًا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[2].

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾.

أي: قال لهم: يا قومِ اعبُدوا اللهَ وَحدَه، ليس لكم معبودٌ يستَحِقُّ العبادةَ غيرُ اللهِ، فلا تُشرِكوا به شيئًا[3].

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾.

أي: اللهُ هو الذي ابتدأَ خَلْقَكم من الأرضِ بخَلقِ أبيكم آدَمَ منها، وجعَلَكم

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣١٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٤).
قال ابن كثير: (كانوا يسكُنونَ مدائِنَ الحِجرِ بين تبوكَ والمدينةِ، وكانوا بعد عادٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٢، ٤٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٤).

تسكُنونَها وتَعمُرونَها وتستغِلُّون خيراتِها(١).

﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾.

أي: فاطلُبوا من اللهِ سَترَ ذُنوبِكم الماضِيةِ، والتَّجاوُزَ عن مؤاخَذتِكم بها، ثمَّ توبوا إلى اللهِ توبةً نَصوحًا فيما تستَقبِلونَه، بالرُّجوعِ إلى عبادتِه وَحدَه وطاعتِه(٢).

﴿إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾.

أي: إنَّ رَبِّي قريبٌ ممَّن أطاعَه مخلِصًا له، وتابَ إليه، مُجيبٌ له إذا دعاه(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾.

أي: قال قومُ صالحٍ عليه السلامُ له: يا صالِحُ قد كنَّا نرجو فيك الخيرَ، وكَمالَ العقلِ، ونُؤمِّلُ أن تكونَ فينا سيِّدًا قبل هذا القولِ الذي تدَّعي فيه النبُوَّةَ، وتَدعُونا إلى تَركِ عِبادةِ غيرِ الله(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٠٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٤٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣١، ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١١٠).

﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾.

أي: أتنهانا- يا صالِحُ- أن نعبُدَ الأصنامَ التي كان يعبُدُها أسلافُنا[١]؟!

﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾.

أي: وإنَّنا لفي شكٍّ كبيرٍ مِن صِحَّةِ ما تدعُونا إليه مِن توحيدِ اللهِ، شَكًّا يُوجِب تُهمَتَك[٢].

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ (٦٣)﴾.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً﴾.

أي: قال صالحُ عليه الصلاةُ والسلامُ: يا قومِ أخبِروني إن كنتُ على بُرهانٍ من اللهِ قد عَلِمتُه وأيقَنتُه، ورَزَقني مِن عندِه النبوَّةَ والرِّسالةَ رَحمةً للخلقِ[٣].

﴿فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾.

أي: فمَن يمنَعُني من عذابِ اللهِ إنْ عصيتُه، فترَكتُ دَعْوتَكم للحقِّ، وعبادةِ اللهِ وَحدَه، بعد أنْ أنعَمَ عليَّ بالنُّبوَّةِ[٤]؟!

﴿فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٢).

أي: لو تابعتُكم فترَكتُ تبليغَكم رِسالةَ اللهِ وعبادتَه وَحدَه، فلن تَزيدوني غيرَ الخَسارةِ والضَّرَرِ والتَّضليلِ، والإبعادِ مِن الخَيرِ[1].

﴿ وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ﴿٦٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ العادةَ فيمن يدَّعي النبوَّةَ عند قوم يَعبُدونَ الأصنامَ أن يبتدئَ بالدَّعوةِ إلى عبادةِ اللهِ، ثمَّ يُتبِعَه بدَعوَى النبوَّةِ، لا بدَّ أن يَطلُبوا منه المعجزةَ، وأمرُ صالحٍ عليه السَّلامُ هكذا كان[2].

﴿ وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗ ﴾.

أي: ويا قَومِ هذه ناقةُ اللهِ حُجَّةٌ وعلامةٌ ودَلالةٌ لكم على صِدقِ نبوَّتي، وصِحَّةِ ما أدعوكم إليه[3].

﴿ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِ ﴾.

أي: فاترُكوا هذه النَّاقةَ تأكُلْ ممَّا شاءت في أرضِ اللهِ؛ فليس عليكم رِزقُها ولا مُؤنَتُها[4].

﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٨٣)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٥)، ((السراج المنير)) للشربيني (٢/ ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٥).

أي: ولا تَنالوا النَّاقةَ بشَيءٍ مِن الأذى- مِن عَقرٍ أو غيرِه- فيُصيبَكم كلَّكم عذابٌ قريبُ النُّزولِ، عَاجِلٌ لَا يَتَأَخَّرُ عن إيذائِكم للنَّاقةِ(١).

﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) ﴾.

﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ﴾.

أي: فقتل الكُفَّارُ النَّاقةَ، فقال لهم نبيُّهم صالحٌ: استمتِعوا بالحياةِ والعَيشِ في دارِكم(٢) ثلاثةَ أيَّام قبل نزولِ العذابِ بكم(٣).

﴿ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾.

أي: نُزولُ العَذابِ بكم بعدَ ثلاثةِ أيَّامٍ وعدٌ صادِقٌ، لا بدَّ مِن وُقوعِه(٤).

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) ﴾.

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ﴾.

أي: فلمَّا جاء عذابُنا نجَّينا صالحًا والمؤمنينَ معه بنعمةٍ وفَضلٍ منَّا عليهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٢٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ١٠٣).

(٢) قيل: المرادُ: في دارِ الدُّنيا. وممن اختاره: ابنُ جريرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٦).
وقيل: المرادُ: في بلَدِكم. وممن اختاره: الواحديُّ، والقرطبيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١١٣).
وقيل: في منازِلكم. وممن اختاره: الشوكاني. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٦٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٥)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٤/ ١٩٠٨).

ونجَّيناهم من هوانِ ذلك اليومِ وذُلِّ عذابِه الذي أصاب الكافرينَ(١).

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ﴾.

أي: إنَّ رَبَّك- يا مُحمَّدُ- هو القويُّ في بَطشِه، القادِرُ على إنجاءِ المُؤمِنينَ، وإهلاكِ الكافرينَ، العزيزُ القاهِرُ الذي لا يَغلِبُه شَيءٌ(٢).

﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ٦٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه بيَّن تعالى إيقاعَه بأعدائِه بعد إنجائِه لأوليائِه، فقال(٣):

﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾.

أي: وأصاب الذين ظَلموا أنفُسَهم بالكُفرِ، وعَقرِ النَّاقةِ، الصيحةُ العَظيمةُ(٤).

﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾.

أي: فصار الكُفَّارُ في ديارِهم ساقطينَ على ركبِهم ووُجوهِهم، موتَى خامِدينَ(٥).

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ٦٨﴾.

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٧)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٦٤)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٦٤)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٤٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٤٢)، (٩/ ٦٢).

أي: كأنَّ الكفَّارَ لَمَّا جاءهم العذابُ لم يعيشُوا في ديارِهم، ولم يتمتَّعوا فيها(١).

ثمَّ نبَّه على ما استحَقُّوا به ذلك بقَولِه(٢):

﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ﴾.

أي: ألَا إنَّ ثمودَ- قومَ صالحٍ- كفروا بربِّهم، وجَحَدوا وحدانيتَه، وكَفَروا بآياتِه(٣).

﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾.

أي: ألا أبعدَ اللهُ ثمودَ عن كلِّ خَيرٍ وأهلَكَهم(٤).

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ يدُلُّ على أنَّ اللهَ يُريدُ عِمارةَ الأرضِ، لا التخلِّيَ والتبتُّلَ(٥).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ دَلالةٌ على أنَّ قُربَه سُبحانه مَقرونٌ بالتَّوبةِ والاستغفارِ، وأراد به: قريبٌ مُجيبٌ لاستغفارِ المُستَغفرينَ التَّائبينَ إليه، وقد قُرِنَ القريبُ بالمُجيبِ؛ ومعلومٌ أنَّه لا يُقالُ: إنه مُجيبٌ لكلِّ موجودٍ، وإنَّما الإجابةُ لِمَن سألَه ودعاه؛ فكذلك قُربُه سُبحانه وتعالى(٦)، فهو سبحانه قريبٌ ممَّن دعاه دعاءَ مَسألةٍ، أو دعاءَ عبادةٍ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١١٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٦٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ١٦٠)، ((السراج المنير)) للشربيني (٢/ ٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٥٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ١٠٠).

(٥) يُنظر: ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (٢/ ٦٦٧).

(٦) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٤٩٣).

يُجيبُه بإعطائِه سُؤلَه، وقَبولِ عِبادتِه، وإثابتِه عليها أجلَّ الثَّوابِ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قربُ الله تعالى نوعانِ: عامٌّ، وخاصٌّ، فالقربُ العامُّ: قربُه بعلمِه مِن جميعِ الخلقِ، والقربُ الخاصُّ: قربُه مِن عابديه، وسائليه، ومحبِّيه، وهو المذكورُ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾، وفي قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾ وهذا النوعُ قربٌ يقتضي إلطافَه تعالى، وإجابتَه لدعواتِهم، وتحقيقَه لمراداتِهم، ولهذا يقرنُ باسمِه (القريبِ) اسمَه (المجيبَ)[٢].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ نُسِبَ إلى جميعِهم- وإن كان العاقِرُ واحدًا- لأنَّه كان برِضًا منهم وتَمالُؤٍ[٣].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ عبَّر عن الحياةِ بالتمتعِ؛ لأنَّ التمتُّع لا يحصُلُ إلَّا للحَيِّ، فالحيُّ يكونُ متمتعًا بالحواسِّ[٤].

٤- قولُ الله تعالى: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ استُدِلَّ به في إمهالِ الخَصمِ ونَحوِه ثلاثةً، وفيه دليلٌ على أنَّ للثَّلاثةِ نَظرًا في الشَّرعِ؛ ولهذا شُرِعَت في الخِيارِ ونَحوِه[٥].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ بيَّن أنَّ إحسانَه سُبحانَه لا يكونُ إلَّا فَضلًا منه[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٧٩)، ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٦٩).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥١).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٢٣).

٦- قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ مُتعلِّقُ ﴿نَجَّيْنَا﴾ مَحذوفٌ، وعُطِف ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ على مُتعلِّقِ ﴿نَجَّيْنَا﴾ المحذوفِ، أي: نجَّينا صالِحًا عليه السَّلامُ ومَن معَه مِن عذابِ الاستئصالِ، ومِن الخِزْيِ المكيَّفِ به العذابُ؛ فإنَّ العذابَ يكونُ على كَيفيَّاتٍ، بعضُها أخزَى مِن بعضٍ؛ فالمقصودُ مِن العطفِ عطفُ مِنَّةٍ على مِنَّةٍ، لا عطْفُ إنجاءٍ على إنجاءٍ؛ ولذلك عطَفَ المتعلِّقَ، ولم يَعطِفِ الفِعلَ(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾

- قولُه: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ في موضِعِ التَّعليلِ للأمْرِ بعبادةِ اللهِ، ونَفْيِ إلهيَّةِ غيرِه في قولِه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، وكأنَّهم كانوا مِثْلَ مُشركي قُريشٍ، لا يَدَّعُون لأصنامِهم خَلْقًا ولا رِزْقًا؛ فلذلك كانت الحُجَّةُ عليهم ناهِضةً واضحةً(٢).

- وَفَرَّعَ على التَّذْكيرِ بهذه النِّعَمِ أَمْرَهم باستغفارِه وَالتَّوْبَةِ إليه، أَيْ طَلَبِ مغْفرَة إجرامِهم، والإقلاعِ عمَّا لا يرضاه مِنَ الشِّركِ والفسادِ. ومِن تفنُّنِ الأسلوبِ أنْ جُعلت هذه النعم علةً لأمرِهم بعبادةِ اللَّهِ وَحْدَه بطريقِ جملةِ التَّعليلِ، وَجُعِلَتْ عِلَّةً أيضًا للأمرِ بالاستغفارِ والتَّوبةِ بطريقِ التَّفْريعِ(٣).

- وجعَلَ الخبَرينِ عن الضَّميرِ ﴿هُوَ﴾ فِعْلَين (أَنْشَأَكُمْ- اسْتَعْمَرَكُمْ)؛ لإفادةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١١٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٠٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٠٨).

القَصْرِ، أي: لم يُنشِئْكم مِن الأرضِ إلَّا هو، ولـم يَستعمِرْكم فيها غيرُه[١].

- قولُه: ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، كأنَّهم استَعظَموا أن يَكونَ جُرْمُهم ممَّا يَقبَلُ الاستغفارَ عنه، فأُجيبوا بأنَّ اللهَ قريبٌ مُجيبٌ، وبذلك ظهَر أنَّ الجملةَ ليسَت بتَعليلٍ، وحرفُ (إنَّ) فيها للتَّأكيدِ؛ تَنْزيلًا لهم في تَعْظيمِ جُرمِهم منزِلةَ مَن يَشُكُّ في قَبولِ استغفارِه[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾

- قولُه: ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ فيه افتتاحُ الكلامِ بالنِّداءِ؛ لِقَصْدِ التَّوبيخِ، وهو مُستَفادٌ مِن قولِهم: ﴿قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾؛ فإنَّه تَعريضٌ بخَيبةِ رَجائِهم فيه؛ فهو تَعْنيفٌ، وحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿مَرْجُوًّا﴾ لِدَلالةِ فِعْلِ الرَّجاءِ على أنَّه ترقُّبُ الخيرِ، أي: مرجُوًّا للخيرِ[٣].

- وجملةُ ﴿أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ بيانٌ لجُملَةِ ﴿قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا﴾ باعتِبارِ دَلالتِها على التَّعنيفِ، والاستفهامُ فيها: للإنكارِ والتَّوبيخِ[٤].

- قولُهم: ﴿أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ فيه العُدولُ إلى صيغةِ المضارِعِ ﴿يَعْبُدُ﴾ لِحكايةِ الحالِ الماضيةِ، كأنَّ آباءَهم مَوجودُونَ؛ فلا تُمكِنُ مُخالفتُهم؛ إجلالًا لهم[٥].

- وفي قولِهم: ﴿مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ عَبَّروا عن أصنامِهم بالموصولِ ﴿مَا﴾؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١١٠).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٢١).

لِمَا في الصِّلَةِ ﴿يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ مِن الدَّلالةِ على استِحْقاقِ تلك الأصنامِ أن يَعبُدوها في زَعْمِهم اقتِداءً بآبائِهم؛ لأنَّهم أُسْوةٌ لهم، وذلك مِمَّا يَزيدُ الإنكارَ اتِّجاهًا في اعتِقادِهم(١).

- وجملةُ ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ﴾ تُفيدُ شَكَّهم في صِدْقِ أنَّه مُرسَلٌ إليهم، ولتأكيد ذلك زِيدَ حرف التَّأكيدِ (إنَّ) مع إثباتِ نونِ (إنَّ) مع نونِ ضَميرِ الجمعِ؛ زِيادةَ إظهارٍ لحَرْفِ التَّوكيدِ(٢).

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال تعالى هنا في قِصَّةِ صالِحٍ عليه السَّلامُ: ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾، وقال في سورةِ (إبراهيمَ) عليه السَّلامُ: ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [إبراهيم: ٩]. فقال في الأُولى: ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ﴾ على الأصلِ، و﴿مِمَّا تَدْعُونَا﴾ بنونٍ واحدةٍ، وقال في الثَّانيةِ: ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ﴾ على التَّخفيفِ، بحذفِ إحدى النُّوناتِ وهي المتوسِّطةُ، ثمَّ جاء بعْدَه: ﴿تَدْعُونَنَا﴾ بنونَينِ؛ ووجهُ ذلك: أنَّ ﴿تَدْعُونَا﴾ في الأولى و﴿تَدْعُونَنَا﴾ في الثَّانيةِ لا يَصِحُّ مَكانَهما غيرُهما؛ فلا يَجوزُ في الأولى إلَّا (نونٌ) واحدةٌ ولا يَجوزُ في الثَّانيةِ إلَّا (نونانِ) اثنَتانِ؛ لأنَّ الأولى خِطابٌ لصالِحٍ عليه السَّلامُ، و(النُّونُ) مع (الألِفِ) ضَميرُ المتكلِّمِ، و(تَدْعو) فِعْلٌ واحدٌ، لا (نونَ) فيه، وليس كذلك ﴿تَدْعُونَنَا﴾ الثَّانيةُ؛ لأنَّه خطابٌ للرُّسلِ وهم جَماعةٌ، ولا يُقالُ لهم في حالِ الجمعِ إلَّا ﴿تَدْعُونَنَا﴾ عِندَ الرَّفْعِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١١٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٧٦٠-٧٦٣)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١٤٦)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٥٩).

٣- قولُه تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾

- قولُه: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي...﴾ جوابٌ عن كَلامِهم؛ فلِذلك لَم تُعطَفْ جملةُ ﴿قَالَ﴾، وهو الشَّأنُ في حكايةِ المُحاوَراتِ، وابتداءُ الجوابِ بالنِّداءِ ﴿يَا قَوْمِ﴾؛ لِقَصدِ التَّنبيهِ إلى ما سيَقولُه اهتِمامًا بشأنِه[١].

- وفي قولِه: ﴿إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ صَدَّر كلامَه بالحرْفِ المفيدِ للشَّكِّ ﴿إِنْ﴾ مع أنَّ هذه الأمورَ محقَّقةُ الوُقوعِ؛ اعتبارًا لحالِ المخاطَبين، ورِعايةً لِحُسنِ المحاوَرةِ؛ لاستِنْزالِهم عن المُكابَرةِ[٢]، فخِطابُ المُخالِفِ على هذا الوَجهِ أقرَبُ إلى القَبولِ[٣].

- قولُه: ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ﴾ فيه العدولُ إلى الإظهارِ في موضِعِ الإضمارِ - حيث لَم يَقُلْ: (فمَنْ يَنصُرُني مِنه)-؛ لِزيادةِ التَّهويلِ، والفاءُ لِترتيبِ إنكارِ النُّصرةِ على ما سبَق مِن إيتاءِ النُّبوَّةِ، وكونِه على بَيِّنَةٍ مِن رَبِّه على تقديرِ العِصْيانِ[٤].

- وفي قولِه: ﴿وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ مُناسَبةٌ حسنةٌ، حيث قدَّم الجارَّ والمجرورَ ﴿مِنْهُ﴾ على المفعولِ ﴿رَحْمَةً﴾ هنا، بينَما تأخَّر ﴿مِنْ عِنْدِهِ﴾ عن ﴿رَحْمَةً﴾ في قصَّةِ نوحٍ السَّابقةِ، ووجهُ ذلك: أنَّ ذلك معَ ما فيه مِن التَّفنُّنِ بعدَمِ الْتِزامِ طريقةٍ واحدةٍ في إعادةِ الكلامِ المتماثِلِ، هو أيضًا أسعَدُ بالبيانِ في وُضوحِ الدَّلالةِ، ودَفْعِ اللَّبْسِ؛ فلمَّا كان مجرورُ (مِن) الابتدائيَّةِ ظرْفًا وهو (عِنْدَ)

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١١١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٢١).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٦٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٢١).

كان صَريحًا في وصْفِ الرَّحمةِ بصِفَةٍ تَدُلُّ على الاعتناءِ الرَّبَّانيِّ بها وبمَن أُوتيَها، ولَمَّا كان المجرورُ هنا ضميرَ الجلالةِ كان الأحسَنُ أن يقَعَ عَقِبَ فِعْلَ ﴿آتَانِي﴾ لِيَكونَ تَقْييدُ الإيتاءِ بأنَّه مِن اللهِ مُشيرًا إلى إيتاءٍ خاصٍّ ذي عِنايةٍ بالمؤتَى؛ إذ لولا ذلك لكان كونُه مِن اللهِ تَحصيلًا لِما أُفيدَ مِن إسنادِ الإيتاءِ إليه؛ فتَعيَّن أن يَكونَ المرادُ إيتاءً خاصًّا، ولو أُوقِعَ مِنه عَقِبَ ﴿رَحْمَةً﴾ لتَوهَّم السَّامِعُ أنَّ ذلك عِوَضٌ عن الإضافةِ، أي: عن أن يُقالَ: وآتاني رَحمتَه، كقولِه: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا﴾ [مريم: ٢١]، أي: ورَحمتَنا لهم، أي: لِنَعِظَهم ونَرحَمَهم[١].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾

- قولُه: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾ الإضافةُ في ﴿نَاقَةُ اللَّهِ﴾ للتَّشريفِ، والتَّنبيهِ على أنَّها مُفارِقةٌ لِسائرِ ما يُجانِسُها من حيثُ الخِلْقةُ، ومِن حيثُ الطبعُ[٢].

- قولُه: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ فيه المبالغةُ في النَّهيِ عن التَّعرُّضِ لها بما يَضُرُّها؛ حيث نَهى عن المسِّ الَّذي هو مِن مَبادِئِ الإصابةِ، ونَكَّر السُّوءَ؛ أي: لا تَضْرِبوها ولا تَطرُدوها، ولا تَقْرَبوها بشَيءٍ مِن السُّوءِ، فَضلًا عن عَقْرِها وقَتْلِها[٣].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ﴾

- قولُه: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ فيه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

التَّعبيرُ عن ثَمودَ بـ ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾؛ للإيماءِ بالموصولِ إلى عِلَّةِ تَرتُّبِ الحُكم، أي: لِظُلمِهم، وهو ظلمُ الشِّركِ، وفيه تعريضٌ بمُشرِكي أهْلِ مكَّةَ بالتَّحذيرِ مِن أن يُصيبَهم مِثلُ ما أصاب أولئك؛ لأنَّهم ظالِمون أيضًا(١).

- وقولُه: ﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودَ﴾ وُضِعَ موضِعَ الضَّميرِ لزيادةِ البيانِ(٢).

- قولُه: ﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ﴾ فيه التَّصريحُ بكُفْرِهم مع كَونِه مَعلومًا ممَّا سبَق مِن أحوالِهم؛ تَقْبيحًا لحالِهم، وتَعليلًا لاستِحْقاقِهم بالدُّعاءِ عليهم بالبُعْدِ والهلاكِ(٣).

- وفيه مناسَبةٌ حسنةٌ، حيث قال تعالى هنا في قصَّةِ صالِحٍ عليه السَّلامُ: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾، وقال في هذه السُّورةِ في قصَّةِ شُعيبٍ عليه السَّلامُ: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [هود: ٩٤]؛ فاختَلَف الفِعْلان في اتِّصالِ عَلامةِ التَّأنيثِ بأحَدِهما، وسُقوطِها مِن الآخَرِ، مع أنَّ الفاعِلَ في الموضِعَين شيءٌ واحدٌ، وهو ﴿الصَّيْحَةُ﴾ مع أنَّ الحاجزَ بين الفعلِ والفاعلِ في المكانَينِ حاجزٌ واحدٌ، وهو ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، وهذا إذا جاء في كلامِ العرَبِ سَهُلَ الكلامُ فيه؛ لأنَّه يُقالُ: حُمِل على المعنى، والصَّيحةُ بمعنى الصِّياحِ، إلَّا أنَّ تَخْصيصَ قصَّةِ شُعيبٍ بـ ﴿أَخَذَتِ﴾ إنَّما هو لفائدةٍ ليستْ في قِصَّةِ صالحٍ عليه السَّلامُ، وهي: أنَّ اللهَ تعالى أخبَرَ عن العذابِ الَّذي أهلَكَ به قومَ شُعيبٍ عليه السَّلامُ بثلاثةِ ألفاظٍ: منها (الرَّجْفةُ) في سورةِ الأعرافِ في قولِه: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

لَخَاسِرُونَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ [الأعراف: ٩٠ - ٩٢]، وذكَر ذلك قبْلَه في مكانٍ آخَرَ، ومنها (الصَّيحةُ) في سورةِ (هودٍ) في قولِه تعالى: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [هود: ٩٤]، ومنها (الظُّلَّةُ) في سورةِ الشُّعراءِ في قولِه تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ [الشعراء: ١٨٩]؛ فلمَّا اجتمَعَتْ ثلاثةُ أشياءَ مُؤنَّثةِ الألفاظِ في العبارةِ عن العَذابِ الَّذي أُهلِكوا به، غُلِّب التَّأنيثُ في هذا المكانِ على المكانِ الَّذي لم تتَوالَ فيه هذه المؤنَّثاتُ؛ فلذلك جاء في قِصَّةِ شُعَيب: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾[1] [هود: ٩٤]. وقيل: وجهُ ذلك أنَّ التَّذكيرَ والتَّأنيثَ حَسَنانِ، لكنَّ التَّذكيرَ أخَفُّ في ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ بحذْفِ حرفٍ منه، وفي الأُخرَى ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [هود: ٩٤]، حيث وافَقَ ما بَعْدَها، وهو ﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾[2] [هود: ٩٥].

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٧٦٤-٧٦٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (٢٦٨-٢٦٩).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١٤٦).

الآيات (٦٩-٧٦)

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ
بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ
قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا
بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي
شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۖ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ
عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ۚ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ
يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۖ
إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿حَنِيذٍ﴾: أي: مَشويٌّ، وأصلُ (حنذ): يدلُّ على إنضاجِ شَيءٍ(١).

﴿نَكِرَهُمْ﴾: أي: أنكَرَهم، وأصلُ (نكر): يدُلُّ على خِلافِ المَعرفةِ(٢).

﴿بَعْلِي﴾: بَعْلُ المرأةِ زَوجُها(٣).

﴿الرَّوْعُ﴾: أي: الفَزَعُ والخَوفُ، وأصلُ (روع): يدلُّ على فَزَعٍ(٤).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٦٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٠).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٠).

﴿أَوَّاهٌ﴾: أي: كثيرُ التضرُّعِ والتأوُّهِ شَفَقًا وفَرَقًا، وأصلُها يدُلُّ على التحَزُّنِ[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قولُه تعالى: ﴿قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾

﴿سَلَامًا﴾: مفعولٌ به منصوبٌ بـ﴿قَالُوا﴾، أو مفعولٌ مُطلَقٌ لفِعلٍ مَحذوفٍ تقديرُه: نُسَلِّمُ، وذلك الفِعلُ في محلِّ نصبٍ بالقَوْلِ، تقديرُه: قالوا: نُسَلِّمُ سلامًا. ﴿سَلَامٌ﴾: مبتدأٌ وخبَرُه محذوفٌ، أي: سلامٌ عليكم. أو خبَرُ مبتدأٍ مَحذوفٍ، أي: أمري أو قَولي سلامٌ.

﴿أَنْ جَاءَ﴾: في محلِّ نَصبٍ أو جرٌّ على نَزعِ الخافِضِ، تقديرُه: فما تأخَّرَ إبراهيمُ عن أن جاء. وقيل: في مَحَلِّ رفعِ فاعِلُ ﴿لَبِثَ﴾ والتَّقديرُ: فما لَبِثَ مجيئُه، أي: ما أبطأَ ولا تأخَّرَ مجيئُه بعِجلٍ[2].

المعنَى الإجماليُّ:

يُخبرُ اللهُ تعالى أنَّه قد جاءت الملائكةُ إبراهيمَ يُبَشِّرونَه هو وزوجَه سارَةَ بإسحاقَ، ويعقوبَ مِن بَعدِه، قالوا: سلامًا، فقال ردًّا على تحيَّتِهم: سلامٌ، فذهبَ سريعًا، وجاءَهم بعِجلٍ مَشويٍّ ليأكلوا منه، فلمَّا رأى إبراهيمُ عليه السَّلامُ أيديَهم لا تَصِلُ إلى العِجلِ الذي أتاهم به، ولا يأكلونَ منه، أنكرَ ذلك منهم، وأحسَّ في نفسِه خيفةً وأضمَرَها، فقالت الملائكةُ لَمَّا رأت ما بإبراهيمَ مِن الخَوفِ: لا تَخَفْ؛ إنَّا ملائكةُ رَبِّك أُرسِلْنا إلى قومِ لُوطٍ لإهلاكِهم، وامرأةُ إبراهيمَ سارَّةُ كانت قائمةً مِن وراءِ السِّترِ تَسمعُ الكلامَ، فضَحِكَت تعجُّبًا ممَّا سَمِعَت، فبَشَّرْناها على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢، ٤٩٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠١)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٣/ ٤٧٢).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣٦٨- ٣٦٩)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٧٠٥-٧٠٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٣٥١-٣٥٣).

ألسنةِ الملائكةِ بأنَّها ستلِدُ مِن زوجِها إبراهيمَ ولدًا يُسمَّى إسحاقَ، وسيعيشُ ولَدُها، وسيكونُ لها بعد إسحاقَ حفيدٌ منه، وهو يعقوبُ، عليهم السَّلامُ.

قالت سارَةُ لَمَّا بُشِّرَت بإسحاقَ مُتعجِّبةً: يا ويلتا، كيف يكونُ لي ولدٌ وأنا عجوزٌ، وهذا زوجي في حالِ الشَّيخوخةِ والكِبَرِ؟! إنَّ إنجابَ الولَدِ مِن مِثلي ومِثلِ زَوجي مع كِبَرِ السِّنِّ لَشيءٌ عجيبٌ، فقالت الرسُلُ لها: أتعجَبينَ مِن أمرِ الله وقضائِه؟ رحمةُ اللهِ وبَركاتُه عليكم معشرَ أهلِ بيتِ النُّبوَّةِ؛ إنَّه سبحانه وتعالى حميدُ الصِّفاتِ والأفعالِ، ذو مَجدٍ وعظمةٍ فيها. فلمَّا ذهب عن إبراهيمَ الخَوفُ، وجاءته البُشرى بإسحاقَ ويعقوبَ؛ أخذ يجادِلُ رُسُلَنا فيما أرسَلْناهم به من عقابِ قَومِ لوطٍ وإهلاكِهم؛ إنَّ إبراهيمَ كثيرُ الحِلمِ لا يحِبُّ المُعاجَلة بالعِقابِ، كثيرُ التضَرُّعِ إلى اللهِ والدُّعاءِ له، رجَّاعٌ إلى اللهِ في أمورِه كُلِّها. فقالت الملائكةُ لإبراهيمَ عليه السَّلامُ: يا إبراهيمُ أعرِضْ عن هذا الجِدالِ في أمرِ قَومِ لوطٍ، والتِماسِ الرَّحمةِ لهم؛ فإنه قد حَقَّ عليهم العذابُ، وجاء أمرُ رَبِّك الذي قدَّرَه عليهم بهلاكِهم، وإنَّهم نازِلٌ بهم عذابٌ مِن اللهِ، غيرُ مصروفٍ عنهم ولا مَدفوعٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا انقَضَت القِصَّةُ السَّابقةُ على هذا الوجهِ الرَّائعِ، أتبعَها قصةَ لوطٍ عليه السَّلامُ؛ إذ كانت أشهرَ الوقائعِ بعدَها، وقَدَّمَ عليها ما يتعلَّقُ بها مِن أمرِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ وذِكرِ بُشْراه؛ لِما في ذلك كلِّه مِن التَّنبيهِ لِمن تعنَّتَ بطَلبِ إنزالِ الملائكةِ في قَولِهم: ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ [هود:١٢]، هذا مع ما في ذلك مِن مُناسبةِ أمرِ هذا الولَدِ لأمرِ النَّاقةِ، في تكوينِ كُلٍّ منهما بخارِقٍ للعادةِ؛ إشارةً إلى

تمامِ القُدرةِ وكَمالِ العِلمِ المبنيِّ عليه أمرُ السُّورةِ في إحكامِ الكِتابِ وتَفصيلِه، وتَناسُبِ جِدالَي نوحٍ وإبراهيمَ عليهما السَّلامُ؛ فكلٌّ منهما كان مُشفِقًا على الكافرينَ، يرجو نجاتَهم من العذابِ(١).

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى ﴾.

أي: ولقد جاءت رسُلُنا مِن الملائكةِ نبيَّنا إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالبِشارةِ بالولَدِ(٢).

﴿ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ ﴾.

أي: سلَّمَ الملائكةُ على إبراهيمَ سَلامًا، فقال إبراهيمُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لهم: سلامٌ عليكم(٣).

كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٤- ٢٥].

﴿ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾.

أي: فما تأخَّرَ إبراهيمُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عن المجيءِ مِن بَيتِه بعِجلٍ مَشويٍّ لضُيوفِه(٤).

كما قال تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٢٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٦٥، ٤٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١١٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٨٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٦٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٢، ٣٣٣).

تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٦- ٢٧].

﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ ﴾.

﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾.

أي: فلمَّا رأى إبراهيمُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أيديَ ضُيوفِه لا تصِلُ إلى العِجلِ المشويِّ الذي أتاهم به، أنكرَهم، وأضمرَ في نَفسِه خوفًا منهم[1].

﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾.

أي: قالت الملائكةُ لإبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: لا تخَفْ منَّا؛ فإنَّا ملائِكةٌ أرسَلَنا اللهُ إلى قومِ لوطٍ لإهلاكِهم بالعذابِ[2].

كما قال تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨].

﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ ﴾.

﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ ﴾.

أي: وامرأةُ إبراهيمَ قائمةٌ[3] فضَحِكَت[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٧٠، ٤٧٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٤٧١، ٤٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٧٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٦).

(٣) قال ابن جرير: (﴿قَائِمَةٌ﴾ قيل: كانت قائمةً من وراءِ السِّترِ تستمعُ كلامَ الرسُلِ، وكلامَ إبراهيمَ عليه السَّلام. وقيل: كانت قائمةً تخدُم الرسُلَ، وإبراهيمُ جالسٌ مع الرُّسُل). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٧٢، ٤٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٣، ٣٣٤)، =

﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾.

أي: فبشَّرنا امرأةَ إبراهيمَ بإسحاقَ ابنًا لها، ووَهْبنا لها مِن بعدِ إسحاقَ يعقوبَ ابنًا لابنِها[1].

﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢)﴾.

﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾.

أي: قالت امرأةُ إبراهيمَ متعَجِّبةً: يا ويلتَى[2] أيكونُ لي ولدٌ، وأنا عجوزٌ لا يلِدُ مثلي، وهذا زوجي إبراهيمُ شَيخًا كبيرًا، لا يُولَدُ لِمثلِه[3]؟!

كما قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ * قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: ٢٩- ٣٠].

= ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٦).

قيل: ضَحِكَت تعجُّبًا من غَفلةِ قَومِ لُوطٍ عمَّا قد أحاط بهم من عذابِ الله. وممَّن اختار ذلك: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٧٨).

وممن قال بهذا القول من السلف قتادة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٧٤).

وقيل: ضَحِكَت استبشارًا بهلاكِ قومِ لوطٍ؛ لكثرة فسادِهم، وغِلَظِ كُفرِهم وعنادِهم. وممَّن اختار ذلك: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٣). وقيل غير ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٨٦، ٣٨٧).

وقال ابنُ جزي: (واختلفوا مِن أيِّ شيءٍ ضحِكت، فقيل: سرورًا بالولدِ الذي بُشِّرت به، ففي الكلام على هذا تقديمٌ وتأخيرٌ، وقيل: سرورًا بالأمنِ بعدَ الخوفِ، وقيل: سرورًا بهلاكِ قومِ لوطٍ). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٧٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٧٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٤).

(٢) قال ابنُ جرير: (هي كلِمةٌ تقولُها العربُ عندَ التعجُّبِ مِن الشيءِ، والاستنكارِ للشَّيءِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٨٣ – ٤٨٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٨٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ١٠٧).

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾.

أي: قالت امرأةُ إبراهيمَ: إنَّ ولادتي وأنا وزوجي على السِّنِّ التي نحن بها، لشيءٌ غريبٌ، لم تجرِ به العادةُ[1]!

﴿ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴿٧٣﴾ ﴾.

﴿ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ ﴾.

أي: قالت الملائكةُ لها: أتعجَبينَ مِن شَيءٍ قضاه الله بمشيئَتِه وقُدرتِه[2]؟!

﴿ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ ﴾.

أي: رَحمةُ اللهِ وإحسانه وخَيراتُه النَّاميةُ المُتكاثِرةُ عليكم يا أهلَ بيتِ إبراهيمَ عليه السلامُ[3].

﴿ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴾.

أي: إنَّ اللهَ محمودٌ في جميعِ صِفاتِه وأفعالِه وأقوالِه، ذو عَظَمةٍ وسَعةٍ في صفاتِ كمالِه[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧٠)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٨٥)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٦).
قال ابن عطية: (يحتمِلُ اللَّفظُ أن يكونَ دُعاءً، وأن يكونَ إخبارًا، وكونُه إخبارًا أشرفُ؛ لأنَّ ذلك يقتضي حصولَ الرَّحمةِ والبَرَكةِ لهم، وكونُه دعاءً إنَّما يقتضي أنَّه أمرٌ يُترَجَّى، ولم يتحَصَّلْ بعدُ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧١)، ((تفسير ابن كثير)) =

عن أبي حُمَيدٍ السَّاعديِّ رَضِيَ الله عنه، أنَّهم قالوا: ((يا رسولَ اللهِ كيف نصلِّي عليك؟ فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: قولوا: اللهمَّ صلِّ على محمَّدٍ وأزواجِه وذرِّيَّتِه، كما صلَّيتَ على آلِ إبراهيمَ، وبارِكْ على محمَّدٍ وأزواجِه وذرِّيَّتِه، كما باركتَ على آلِ إبراهيمَ؛ إنَّك حميدٌ مَجيدٌ))(١).

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ ﴾.

أي: فلمَّا زال عن إبراهيمَ الخَوفُ مِن رُسُلِنا حين لم يأكُلوا، وجاءَتْه البُشرى منهم بإسحاقَ فطابت نفسُه، وأعلَموه بهلاكِ قَومِ لوطٍ- أخذ يحاجِجُ الملائكةَ في إهلاكِ قَومِ لوطٍ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ * قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣١- ٣٢].

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ ﴾.

أي: إنَّ إبراهيمَ لبطيءُ الغضَبِ، واسعُ الصَّدرِ، متذلِّلٌ إلى ربِّه، كثيرُ التضَرُّعِ

= (٤/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٦).

(١) أخرجه البخاري (٣٣٦٩)، واللفظ له، ومسلم (٤٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٨٦، ٤٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٦).

قال الواحدي: (معنى ﴿يُجَادِلُنَا﴾ يجادِلُ رسُلَنا من الملائكةِ، في قولِ جميع المفسرين). ((البسيط)) (١١/ ٤٩٠).

وقال القرطبي: (﴿يُجَادِلُنَا﴾ أي: يجادِلُ رُسُلَنا، وأضافه إلى نفسِه تعالى؛ لأنَّهم نزلوا بأمرِه). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧٢).

وقال الشنقيطي: (حاصِلُ جِدالِه لهم أنَّه يقولُ: إن أهلكتُم القريةَ وفيها أحدٌ من المؤمنينَ، أهلكتُم ذلك المؤمِنَ بغير ذنبٍ، فأجابوه عن هذا بقولِهم: نحن أعلمُ بمَن فيها). ((أضواء البيان)) (٢/ ١٨٧).

إليه بالدُّعاءِ، رجَّاعٌ إلى اللهِ بطاعتِه ومَعرفتِه ومحبَّتِه، ورجَّاعٌ في جميعِ أمورِه إلى اللهِ(١).

﴿ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ﴿٧٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا كان أكثَرُ مُجادَلةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ لِما عِندَه من الشَّفَقةِ على عبادِ اللهِ؛ لِما له مِن هذه الصِّفاتِ الجليلةِ- أعلَمَه اللهُ أنَّ الأمرَ قد حُسِم؛ بقَولِه حكايةً على لسانِ الرُّسُلِ(٢):

﴿ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآ ﴾.

أي: قالت الملائِكةُ لإبراهيمَ: يا إبراهيمُ، اترُكِ الجِدالَ في أمرِ قَومِ لوطٍ(٣).

﴿إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَ ﴾.

أي: إنَّه قد أتى أمرُ رَبِّك بهلاكِ قَومِ لوطٍ، فلا فائدةَ في جِدالِك عنهم(٤).

﴿ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ﴾.

أي: وإنَّ قومَ لوطٍ نازِلٌ بهم عذابٌ غيرُ مَدفوعٍ عنهم، ولا مَصروفٍ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٤، ٤٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٣٣-٣٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٩٤)، ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧٣).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ فيه مشروعيَّةُ الضِّيافةِ والمبادرة إليها، واستحبابُ مبادرةِ الضَّيفِ بالأكلِ منها(١). وفيه تَقديمُ ما يتيسَّرُ من الموجودِ في الحالِ، ثمَّ يُتبِعُه بغَيرِه إن كان له جِدَةٌ، ولا يتكلَّفُ ما يضُرُّ به(٢).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾ وقَولِه تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ دَلالةٌ على استحبابِ بِشارةِ مَن وُلِدَ له وَلَدٌ، وتهنئتِه(٣).

٣- قولُ الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾ فيه أنَّ السَّلامَ قبلَ الكلامِ(٤).

٤- قولُ الله تعالى: ﴿قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾ فيه مشروعيَّةُ السَّلامِ، وأنَّه لم يزَلْ مِن ملَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ(٥).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾ يدلُّ على أنَّ تحيَّةَ الملائكةِ (السلام)، كتحيَّةِ بني آدمَ(٦).

٢- قولُ الله تعالى: ﴿قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾ فيه أنَّ ردَّ السلامِ واجبٌ، وبدأه سنةٌ، وذلك لأنَّ التعبيرَ بالمصدرِ مرفوعًا هو سبيلُ الواجباتِ، والتعبيرُ به

---

(١) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص:١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٠/ ٥٢٣).

(٣) يُنظر: ((تحفة المودود)) لابن القيم (ص: ٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥١).

منصوبًا هو سبيلُ المندوباتِ؛ فالجملةُ الاسميةُ أثبتُ وآكدُ مِن الجملةِ الفعليةِ[1].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ﴾ إنَّما بَشَّروها دونَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ لأنَّ المرأةَ أعجَلُ فَرَحًا بالولَدِ، ولأنَّ إبراهيمَ قد بشَّروه وأمَّنوه مِن خوفِه، فأتبَعوا بِشارتَه ببشارتِها. وفيه وجه آخر: أنَّها خُصَّت بالبِشارةِ؛ حيث لم يكنْ لها ولَدٌ، وكان لإبراهيمَ عليه السَّلامُ ولَدُه إسماعيلُ[2].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ﴾ يدلُّ على أنَّ إسماعيلَ هو الذَّبيحُ؛ لأنَّ سارَةَ حين أخدَمَها المَلِكُ الجبَّارُ هاجَرَ أُمَّ إسماعيلَ كانت شابَّةً جميلةً، فاتَّخذَ إبراهيمُ هاجرَ سُرِّيَّةً، فغارت منها سارَةُ، فخرج بها وبابنِها إسماعيلَ مِن الشَّامِ إلى مكَّةَ، ثمَّ كانت البِشارةُ بإسحاقَ وسارَةُ عجوزٌ[3].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ قد يُستدَلُّ به على جوازِ مُراجعةِ[4] المرأةِ[5].

٦- في قولِه تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ دلالةٌ على أنَّ الذَّبيحَ ليس هو إسحاقَ، فكيف يأمرُ بعد ذلك بذَبحِه؛ والبشارةُ بيعقوبَ تقتضي أنَّ إسحاقَ يعيشُ ويُولدُ له يعقوبُ[6].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ١٥١)، ((الإتقان)) للسيوطي (٢/ ٣٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٨٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ١٨٢-١٨٣).

(٤) والمراجعةُ هنا بمعنى رَدِّ القَولِ ومُعاوَدتِه والمُناظَرةِ فيه. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٩/ ٢٨٢)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ١١٩).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥١).

(٦) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٣٣٥).

٧- في قولِه تعالى: ﴿رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ دلالةٌ على أنَّ الرجُلَ يدخُلُ في أهلِ بيتِه، كما دخل إبراهيمُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في قولِ الملائكةِ: ﴿رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾[1].

٨- قَوله تعالى: ﴿رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ يُستدلُّ به على جوازِ الدُّعاءِ بالرَّحمةِ للنبيِّ[2].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ خِطابُ الملائكةِ إيَّاها بقَولِهم: ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ دليلٌ على اندراجِ الزَّوجةِ في أهلِ البَيتِ[3]؛ لأنَّ الملائكةَ خاطبوا سارَةَ بأهلِ البيتِ، وسَمَّوها أهلَ بيتِ إبراهيم، وفي هذا دليلٌ على أنَّ أزواجَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن أهلِ بيتِه؛ تكذيبًا لِمن أنكرَ ذلك، فعائِشةُ رَضِيَ اللهُ عنها وغيرُها مِن جملةِ أهلِ بيتِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ممَّن قال اللهُ فيهم: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[4].

بلاغةُ الآياتِ:

١ - قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾ فيه تأكيدُ الخبَرِ بحَرْفِ (قَدْ)؛ للاهتِمام به[5].

- وقُدِّمَت قِصَّةُ إبراهيمَ؛ لأنَّ الغرَضَ مِن هذه القِصَّةِ الموعظةُ بمَصيرِ قومِ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ٢٨٢).
(٢) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٥/ ١٧٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٨٤-١٨٥).
(٤) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٤٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧١).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١١٥).

لوطٍ؛ إذ عصَوْا رسولَ ربِّهم، فحَلَّ بهم العذابُ، ولم تُغْنِ عنهم مُجادَلةُ إبراهيمَ، وللتَّنويهِ بمَقامِه عِندَ ربِّه على وجْهِ الإدماجِ؛ ولذلك غيَّر أسلوبَ الحكايةِ في القَصصِ الَّتي قَبْلَها والَّتي بعدَها نحوُ ﴿وَإِلَى عَادٍ...﴾[1] [هود: ٥٠].

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾، أسنَد إليهم مُطلَقَ المَجيءِ بالبُشْرى دونَ الإرسالِ؛ لأنَّهم لم يَكونوا مُرسَلين إليه عليه السَّلامُ، بل إلى قومِ لوطٍ؛ لقولِه تعالى: ﴿إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾، وإنَّما جاؤوه لِداعيةِ البُشْرى[2].

- وجملةُ ﴿قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾ في موضعِ البَيانِ للبُشْرى؛ لأنَّ قولَهم ذلك مَبدَأُ البُشْرى، وإنَّ ما اعترَض بينَها حكايةُ أحوالٍ، وقد انتَهى إليها في قولِه: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ﴾ إلى قولِه: ﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾[3].

- والمخالَفةُ بينَ (سلامًا، وسلامٌ) في قولِه: ﴿قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ ردَّ السَّلامَ بعبارةٍ أحسَنَ مِن عبارةِ الرُّسلِ؛ زِيادةً في الإكرامِ؛ وذلك لأنَّ ﴿سَلَامًا﴾ الَّتي هي مِن قولِ الملائكةِ: مفعولٌ مُطلَقٌ وقَع بدَلًا مِن الفِعْلِ، والتَّقديرُ: سلَّمْنا سَلامًا؛ فجُملَتُه فِعليَّةٌ، و﴿سَلَامٌ﴾ الَّتي هي مِن قولِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ: خبَرٌ لِمُبتدَأٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: أَمْري سَلامٌ، فجملتُه اسميَّةٌ، ورَفْعُ المصدَرِ أبلَغُ مِن نَصْبِه؛ فهو أدَلُّ على الدَّوامِ والثَّباتِ؛ لِكَونِ جُملَتِه اسميَّةً؛ للدَّلالةِ على ثَباتِ السَّلامِ، كأنَّه قصَد أنْ يُحيِّيَهم بأحسَنَ مِمَّا حيَّوْه به؛ أخذًا بأدَبِ اللهِ تعالى، وهذا أيضًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١١٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٢٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١١٦).

مِن إكْرامِه لهم؛ فحيَّا الخليلُ بأحسَنَ ممَّا حُيِّي به؛ نظَرًا إلى الأدَبِ الإلهيِّ الَّذي عَلَّمَه اللهُ عزَّ وجلَّ لنا في القرآنِ بقولِه: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾[1] [النساء: ٨٦]، وقَولُه: ﴿سَلَامٌ﴾ أكملُ من قولِه: (السلام)؛ لأنَّ التنكيرَ يفيدُ الكمالَ والمبالغةَ والتَّمامَ[2].

وهناك وجهٌ آخرُ وهو: أنَّ النُّكتةُ في نَصْبِ سلامِ الملائكةِ، ورَفْعِ سلامِ إبراهيمَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أنَّ قولَه تعالى عن الملائكة: ﴿سَلَامًا﴾ لم يُقصدْ به حكايةُ سلامِ الملائكة! وإنما هو مفعولُ القولِ المفردِ، كأنه قيل: قالوا قولًا سلامًا؛ وقالوا سدادًا وصوابًا ونحو ذلك؛ فإنَّ القولَ إنما تُحكى به الجملُ، وأمَّا المُفردُ فلا يكون محكيًّا به، بل منصوبًا به انتصابَ المفعول به، وسُمِّيَ القولُ سلامًا؛ لأنَّه يؤدِّي معنى السلامِ ويتضمَّنُه، مِن رَفْعِ الوَحْشَةِ، وحصولِ الاستئناسِ، وأمَّا سلامُ إبراهيم صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فأتى به على لفْظِه مرفوعًا بالابتداءِ، مَحْكِيًّا بالقول، ولولا قَصْدُ الحكايةِ لقال: (سلامًا) بالنصب؛ لأنَّ ما بعدَ القولِ إذا كان مرفوعًا فعلى الحكايةِ ليس إلَّا، فحصَل مِن الفَرْقِ بين الكلامينِ في حكايةِ سلامِ إبراهيم ورفْعِهِ؛ ونَصْبِ سلامِ الملائكةِ: إشارةٌ إلى معنىً لطيفٍ جدًّا، وهو أنَّ قولَه (سلامٌ عليكم) هو مِن دين الإسلامِ المُتلقَّى عن إمامِ الحنفاءِ وأبي الأنبياءِ؛ وأنَّه مِن مِلَّةِ إبراهيمَ التي أَمَرَ اللهُ بها وباتِّبَاعِها، فحكَى لنا قولَه؛ ليَحْصُلَ الاقتداءُ به، والاتِّبَاعُ له، ولم يحكِ قولَ أضيافِه، وإنما أخْبَرَ به على الجملةِ دونَ التفصيلِ[3].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَمَا لَبِثَ﴾ للدَّلالةِ على التَّعقيبِ؛ إسراعًا في إكرام

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٨٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١١٦- ١١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٩).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٥٨).

الضَّيفِ؛ ظنَّهم إبراهيمُ عليه السَّلامُ ناسًا، فبادَرَ إلى قِرَاهم[(١)].

٢- قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾

- قولُه: ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ فيه تأخيرُ المفعولِ الصَّريحِ ﴿خِيفَةً﴾ عن الجارِّ والمجرورِ ﴿مِنْهُمْ﴾؛ لأنَّ المرادَ الإخبارُ بأنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أوجَسَ مِن جِهَتِهم شيئًا هو الخِيفةُ، لا أنَّه أوجَسَ الخِيفةَ مِن جِهَتِهم، لا مِن جهةِ غيرِهم؛ وتأخيرُ ما حَقُّه التَّقديمُ يوجِبُ تَرقُّبَ النَّفسِ إليه، فيتَمَكَّنُ عِندَ وُرودِه عليها فَضْلَ تمَكُّنٍ[(٢)].

- وجُملةُ ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ جاءتْ مفصولةً عمَّا قبلَها، أي: لم تُعطَفْ عليها؛ لأنَّها أشبَهَتِ الجوابَ؛ لأنَّه لَمَّا أوجَس مِنهم خِيفةً ظهَر أثَرُها على مَلامِحِه، فكان ظهورُ أثَرِها بمنزلةِ قولِه: (إنِّي خِفتُ مِنكم)؛ ولذلك أجابوا ما في نفْسِه بقولِهم: ﴿لَا تَخَفْ﴾، فحُكي ذلك عنهم بالطَّريقةِ الَّتي تُحْكَى بها المحاوَراتُ، أو هو جوابُ كلامٍ مقدَّرٍ دلَّ عليه قولُه: ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾، أي: وقال لهم: إنِّي خفتُ منكم، كما حُكي في سورةِ الحِجْرِ: ﴿قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾ [الحجر: ٥٢]، ومِن شأنِ النَّاسِ إذا امتَنَع أحَدٌ مِن قَبولِ طَعامِهم أن يَقولوا له: لعلَّك غادِرٌ أو عدُوٌّ، وقد كانوا يَقولون للوافِدِ: أحَرْبٌ أم سِلْمٌ[(٣)].

- وقولُهم: ﴿إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾ استئنافٌ مبيِّنٌ لسبَبِ مَجيئِهم[(٤)]،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٢٤- ٢٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١١٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿أُرْسِلْنَا﴾ إيجازًا؛ لِظُهورِه مِن هذه القصَّةِ وغيرِها، وعبَّر عن الأقوامِ المرادِ عَذابُهم بطَريقِ الإضافةِ ﴿قَوْمِ لُوطٍ﴾؛ إذ لم يَكُنْ لأولئك الأقوامِ اسمٌ يَجمَعُهم، ولا يَرجِعون إلى نسَبٍ، بل كانوا خَليطًا مِن فَصائِلَ عُرِفوا بأسماءِ قُراهم(١).

٣- قوله تعالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾

- جملةُ ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ﴾ تفريعٌ على جملةِ ﴿فَضَحِكَتْ﴾ باعتبارِ المعطوفِ، وهو ﴿وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾؛ لأنَّها ما ضَحِكَت إلَّا بَعْدَ أنْ بَشَّرَها الملائكةُ بابنٍ- وذلك على أحدِ الأقوالِ- فلمَّا تعجَّبَت مِن ذلك بشَّروها بابنِ الابنِ؛ زيادةً في البُشْرى، والتَّعجُّبُ بأن يُولَدَ لها ابنٌ ويَعيشَ، وتَعيشَ هي حتَّى يُولَدَ لابْنِها ابنٌ، وذلك أدخَلُ في العجَبِ(٢).

- وقد اختُصِرَت هذه القِصَّةُ هنا اختِصارًا بَديعًا؛ لِوُقوعِها في خلالِ الحوارِ بينَ الرُّسلِ وإبراهيمَ عليه السَّلامُ، وحكايةُ ذلك الحِوارِ اقتَضَتْ إتمامَه بحكايةِ قولِهم: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٠]، وأمَّا البُشْرى فقد حصَلَت قبلَ أن يُخبِروه بأنَّهم أُرسِلوا إلى قومِ لوطٍ، كما في آيةِ سورةِ الذَّارياتِ: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨]؛ فلمَّا اقتَضى ترتيبُ المحاوَرةِ تقديمَ جملةِ ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾؛ حُكِيَت قصَّةُ البُشْرى وما تَبِعَها مِن المحاوَرةِ بطريقةِ الحالِ؛ لأنَّ الحالَ تَصلُحُ للقَبْليَّةِ وللمقارَنةِ وللبَعْديَّةِ، وهي الحالُ المقدَّرةُ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١١٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٤- قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾

- قولُه: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ الاستِفْهامُ في ﴿أَأَلِدُ﴾ مستعمَلٌ في التَّعجُّبِ[1].

- وكِلْتا الجُملتَين: ﴿وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ وقعَتْ حالًا مِن الضَّميرِ في ﴿أَأَلِدُ﴾؛ لِتَقريرِ ما فيه مِن الاستِبْعادِ وتَعليلِه، أي: أَأَلِدُ وكِلانا على حالةٍ مُنافِيَةٍ لذلك؟! وإنَّما قَدَّمَت بيانَ حالِها على بيانِ حالِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لأنَّ مُبايَنةَ حالِها لِمَا ذُكِرَ مِن الولادةِ أكثرُ؛ إذ رُبَّما يُولَدُ للشُّيوخِ مِن الشَّوابِّ، أمَّا العَجائزُ داؤُهن عَقامٌ، ولأنَّ البِشارةَ مُتوجِّهةٌ إليها صَريحًا، ولأنَّ العكْسَ في البيانِ ربَّما يُوهِمُ مِن أوَّلِ الأمرِ نِسبةَ المانِعِ من الولادةِ إلى جانبِ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وفيه ما لا يَخفَى مِن المحذورِ، واقتِصارُها الاستبعادَ على ولادتِها مِن غيرِ تَعرُّضٍ لحالِ النَّافلةِ؛ لأنَّها المستبعَدُ، وأمَّا ولادةُ ولَدِها فلا يتَعلَّقُ بها استِبعادٌ[2].

- قولُها: ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ جملةٌ مؤكِّدةٌ لِصيغةِ التَّعجُّبِ؛ فلذلك فُصِلَت عن الَّتي قبْلَها- أي: لم تُعطَفْ عليها- لكمالِ الاتِّصالِ[3]، وهذه الجملةُ أيضًا لِتَعليلِ الاستبعادِ بطريقِ الاستِئْنافِ التَّحقيقيِّ، ومَقصِدُها استعظامُ نِعمةِ اللهِ تعالى عليها في ضِمْنِ الاستعجابِ العاديِّ، لا استِبْعادُ ذلك بالنِّسبةِ إلى قُدرتِه سبحانه وتعالى[4].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٢٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٢٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٢١).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٢٦).

٥- قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ عُلِّل به إنكارُ التَّعجُّبِ، كأنَّه قيل: إيَّاكِ والتَّعجُّبَ؛ فإنَّ أمثالَ هذه الرَّحمةِ والبرَكةِ مُتكاثِرةٌ مِن اللهِ عليكم[1].

- والاستفهامُ في ﴿أَتَعْجَبِينَ﴾ استفهامُ إنكارٍ لعَجَبِها[2].

- وجُمْلَةُ ﴿رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ تعليلٌ لإنكارِ تعجُّبِها؛ لأنَّ الإنكارَ في قوَّةِ النَّفيِ، فصار المعنى: لا عجَبَ مِن أمْرِ اللهِ؛ لأنَّ إعطاءَكِ الوَلَدَ رَحمةٌ مِن اللهِ وبرَكةٌ، فلا عجَبَ في تَعلُّقِ قُدرةِ اللهِ بها، وأنتم أهلٌ لتِلكَ الرَّحمةِ والبَرَكةِ، فلا عجَبَ في وُقوعِها عندَكم[3].

- وتعريفُ ﴿الْبَيْتِ﴾ تعريفُ حُضورٍ، وهو البيتُ الحاضِرُ بينَهم الَّذي جَرى فيه هذا التَّحاوُرُ، أي: بَيْتُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، والمعنى: أهلَ هذا البيتِ[4].

- وفيه صرْفُ الخطابِ مِن صيغةِ الواحدةِ: ﴿أَتَعْجَبِينَ﴾ إلى جمْعِ المذكَّرِ: ﴿عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾؛ لِتَعميمِ حُكمِه لإبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أيضًا؛ لِيَكونَ جَوابُهم لها جَوابًا له أيضًا إنْ خطَر ببَالِه مِثلُ ما خطَر ببالِها[5].

- وجملةُ ﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ تَعليلٌ لِتَوجُّهِ رحمتِه وبرَكاتِه إليهم؛ بأنَّ اللهَ يَحمَدُ مَن يُطيعُه، وبأنَّه مَجيدٌ، أي: عَظيمُ الشَّأنِ، لا حَدَّ لنِعَمِه، فلا يَعظُمُ عليه أن يُعطِيَها ولَدًا، وفي اختيارِ وصْفِ الحميدِ مِن بينِ الأسماءِ الحُسنى

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٢٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٢٦).

كِنايةٌ عن رِضا اللهِ تعالى على إبراهيمَ عليه السَّلامُ وأهلِه[1].

٦- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾

- قولُه: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ﴾ الفاءُ لِرَبْطِ بعضِ أحوالِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ ببعضٍ، إثْرَ انفِصالِها بما ليس بأجنَبيٍّ مِن كلِّ وجهٍ، بل له مَدْخلٌ تامٌّ في السِّباقِ والسِّياقِ[2].

- وفي قولِه: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ﴾ تأخيرُ الفاعلِ ﴿الرَّوْعُ﴾ عن الجارِّ والمجرورِ ﴿عَنْ إِبْرَاهِيمَ﴾؛ لأنَّه مَصَبُّ الفائدةِ؛ فإنَّ بِتَأخيرِ ما حَقُّه التَّقديمُ تَبقى النَّفسُ مُنتظِرةً إلى وُرودِه، فيَتمكَّنُ فيها عِندَ وُرودِه إليها فضْلَ تَمكُّنٍ[3].

- والتَّعريفُ في ﴿الرَّوْعُ﴾ وفي ﴿الْبُشْرَى﴾ تعريفُ العهْدِ الذِّكْريِّ، وهما المذكورانِ آنفًا[4].

- وقولُه: ﴿يُجَادِلُنَا﴾ هو جوابُ ﴿فَلَمَّا﴾، وصِيغَ بصيغةِ المضارِعِ؛ لاستحضارِ الحالةِ العجيبةِ[5].

- قولُه: ﴿لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ (الأوَّاهُ) فيه كنايةٌ عن شِدَّةِ اهتمامِه عليه السَّلامُ بهُمومِ النَّاسِ، وأصلُه الَّذي يُكثِرُ التَّأوُّهَ[6].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٢٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٢٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٢٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٢٣).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٢٣).

٧- قوله: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾

- جملةُ ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ مَقولُ مَحذوفٍ دلَّ عليه المقامُ، وهو مِن بَديعِ الإيجازِ، وهو وَحيٌ مِن اللهِ إلى إبراهيمَ عليه السَّلامُ، أو جوابُ الملائكةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ فإذا كان مِن كلامِ اللهِ فقولُه: ﴿أَمْرُ رَبِّكَ﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لإدخالِ الرَّوْعِ في ضميرِ السَّامعِ[١].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٢٤).

الآيات (٧٧-٨٣)

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠) قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (٨٢) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣)﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿سِيءَ بِهِمْ﴾: أي: ساءَه مَجيئُهم، مِن السُّوءِ: وهو كُلُّ ما يَغُمُّ الإنسانَ مِن الأمورِ الدُّنيويَّةِ والأُخرويَّةِ(١).

﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾: ذَرعُ الإنسانِ: مُنتهى طاقتِه التي يحمِلُها بمشَقَّةٍ. يُقالُ: ضاق بهذا الأمرِ ذَرعًا: إذا تكلَّفَ أكثَرَ ممَّا يُطيقُ فعجَزَ، وأصلُ (ذرع): يدُلُّ على امتدادٍ، وتحَرُّكٍ إلى قُدُمٍ(٢).

﴿عَصِيبٌ﴾: أي: شَديدٌ شَرُّه، عظيمٌ بلاؤه، كأنه قد عُصِب به الشرُّ والبلاءُ، أي: شُدَّ به، مأخوذٌ مِن العصابةِ التي تُشدُّ بها الرأسُ، وأصلُ (عصب): يدلُّ على

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٤٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ١١١).

ربطِ شَيءٍ بشيءٍ[١].

﴿يُهْرَعُونَ﴾: أي: يُسرِعونَ، وأصلُ (هرع): يدلُّ على حركةٍ واضطرابٍ[٢].

﴿رُكْنٍ﴾: أي: عشيرةٍ، ورُكْنُ الشَّيءِ: جانِبُه الأقوى، وأصلُ (ركن): يدلُّ على قوَّةٍ[٣].

﴿بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾: أي: ببقيَّةٍ تبقَى مِن آخِرِه، أو بقِطعةٍ منه، وأصلُ (قطع): يدلُّ على صَرمٍ، وإبانةِ شَيءٍ مِن شَيءٍ[٤].

﴿سِجِّيلٍ﴾: أي: طينٍ مُتحَجِّرٍ، وقيل: أصلُها فارسيٌّ (سَنكِ وكِل) أي: الحَجَر والطِّين[٥].

﴿مَنْضُودٍ﴾: مَوضوعٍ بعضُه على بعضٍ، أو مُتَتابعٍ، وأصلُ (نضد): يدُلُّ على ضَمِّ شَيءٍ إلى شيءٍ في اتِّساقٍ وجَمعٍ[٦].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٩٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٨)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٩٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٠٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٣٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧٩).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢٠)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٢٩/ ١٧٩).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٥)، =

﴿مُسَوَّمَةً﴾: أي: مُعَلَّمةً؛ من السِّيماءِ: أي: العلَامةِ(١).

المعنَى الإجماليُّ:

تُبيِّنُ لنا الآياتُ حالَ لوطٍ عليه السَّلامُ لَمَّا جاءته الملائكةُ؛ أنَّه ساءه مجيئُهم واغتمَّ لذلك؛ خوفًا عليهم مِن قَومِه، وقال: هذا يومُ بلاءٍ وشِدَّةٍ، وأنَّ قومَه جاؤوه يُسرِعونَ المشيَ إليه لطلَبِ الفاحشةِ، وكانوا مِن قبلِ مجيئِهم يأتونَ الرِّجالَ شَهوةً مِن دونِ النِّساءِ، فقال لوطٌ لهم: هؤلاءِ نِساءُ أُمَّتي تَزَوَّجوهنَّ؛ فهنَّ أطهَرُ لكم ممَّا تُريدونَ، فاخشَوُا اللهَ واحذَروا عقابَه، ولا تفضَحوني بالاعتداءِ على ضيفي، أليس منكم رجلٌ ذو رَشَدٍ ينهى من أراد ركوبَ الفاحشةِ، فيَحولُ بينهم وبين ذلك؟ فقالوا له: لقد علمتَ من قبلُ أنَّه ليس لنا في النِّساءِ مِن حاجةٍ أو رغبةٍ، وإنَّك لَتعلَمُ ما نريدُ، فقال لهم حين أبَوا إلَّا فعلَ الفاحشةِ: لو أنَّ لي بكم قوَّةً وأنصارًا معي، أو أركَنُ إلى عشيرةٍ تمنَعُني منكم!

قالت الملائكةُ: يا لوطُ إنَّا رسُلُ ربِّك أرسَلَنا لإهلاكِ قَومِك، وإنَّهم لن يصِلوا إليك، فاخرُجْ أنت وأهلُك ببقيَّةٍ من اللَّيلِ، ولا يلتَفِتْ منكم أحدٌ وراءَه إلَّا امرأتَك فلا تخرج معكم؛ لأنه سيُصيبُها ما أصاب قومَك من الهلاكِ، إنَّ مَوعِدَ هلاكِهم الصُّبحُ، وهو موعِدٌ قريبُ الحُلولِ. فلمَّا جاء أمرُنا بهلاكِ قَومِ لوطٍ جعَلْنا عاليَ قراهم- التي كانوا يعيشونَ فيها- سافِلَها، فقَلَبْناها، وأمطَرْنا عليهم حجارةً مِن طينٍ متصَلِّبٍ، قد صُفَّ بعضُه إلى بعضٍ، مُعلَّمةً عند اللهِ بعلامةٍ مَعروفةٍ لا تُشاكِلُ حِجارةَ الأرضِ، وما هذه الحِجارةُ- التي أمطَرَها اللهُ

= ((غريب القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ٩٦).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٣٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨١).

على قَومِ لوطٍ- مِن الظالمين ببعيدٍ أن يُمْطَروا بمِثلِها.

مُشكِلُ الإعرابِ:

قولُه تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾

﴿إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾ قُرِئَ ﴿امْرَأَتَكَ﴾ بالنَّصبِ والرَّفعِ؛ أمَّا النَّصبُ: فعلى أنَّه مُستثنًى متَّصِلٌ مِن (أهلك) في قَولِه: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾، والمعنى: لا تَسْرِ بها. وجُملةُ ﴿وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ مُعترِضةٌ بين المُستثنَى والمُستثنَى منه. وأمَّا الرَّفعُ: فعلى أنَّ (امْرَأَتُكَ) بدلٌ مِن ﴿أَحَدٌ﴾ الواقعُ في سياقِ النَّهيِ ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ﴾، وهو في معنى النَّفيِ. وقيل: إنَّ الاستثناءَ على كِلتا القِراءتَين مُنقَطِعٌ مِن جُملةِ الأمرِ ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾، بدَليلِ سُقوطِ جُملةِ النَّهيِ ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ في قِراءةِ ابنِ مَسعودٍ، ويكونُ النَّصبُ فيها على الاستثناءِ المُنقَطِعِ، والرَّفعُ على أنَّ (امْرَأَتُكَ) مبتدأٌ، و﴿إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾ جملةُ الخَبَرِ، وجملةُ المبتدأِ وخبَرِه في محلِّ نَصبٍ على الاستثناءِ المُنقَطِعِ، ويقوِّي كونَ الاستثناءِ مُنقَطِعًا أنَّ مثلَ هذه الآيةِ جاءت في سورةِ الحِجرِ، وليس فيها استثناءٌ البتَّةَ؛ قال تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ [الحجر: ٦٥]. وقيل غيرُ ذلك[(١)].

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾.

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣٧١- ٣٧٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٣٦٥-٣٦٩)، ((مغني اللبيب)) لابن هشام (ص: ٧٧٩-٧٨٠)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٦٥-٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٠٦).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا انقضى أمرُ إنبائِهم ببِشارةِ الأولياءِ، وهلاكِ الأعداءِ، وعُلِمَ من ذلك أنَّهم لا ينزِلونَ إلَّا للأمورِ الهائلةِ، والأحوالِ المُعجِبةِ؛ أخذَ يقُصُّ أمرَهم مع لوطٍ عليه السَّلامُ[(١)].

﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾.

أي: ولَمَّا جاءت الملائكةُ نبيَّنا لوطًا عليه السَّلامُ- ولم يعلَمْ أنَّهم ملائِكةٌ- ساءه مجيئُهم، وضاقتْ نفسُه غَمًّا بحُضورِهم؛ خوفًا عليهم مِن قَومِه[(٢)].

﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ﴾.

أي: وقال لوطٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لَمَّا عَلِمَ أنَّه سيحتاجُ إلى مُدافعةِ قَومِه عن أضيافِه: هذا يومٌ شديدٌ شَرُّه، عظيمُ البَلاءِ[(٣)].

﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ٧٨﴾.

﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ﴾.

أي: وجاء لوطًا قومُه يُسرِعونَ إليه[(٤)]!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٩٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٩٤)، ((الهداية)) لمكي (٥/ ٣٤٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٨٨).

كما قال تعالى: ﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ * قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ * وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾ [الحجر: ٦٧ - ٦٩].

﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾.

أي: ومن قبلِ مجيءِ الرُّسُلِ[١] إلى لوطٍ كانوا على عادتِهم يأتونَ الرِّجالَ في أدبارِهم، فجاؤوا إلى الأضيافِ لذلك[٢].

﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾.

أي: قال لوطٌ مُدافِعًا عن أضيافِه: يا قومِ هؤلاء نِساءُ أُمَّتي فانكِحوهنَّ؛ فهذا أطهَرُ لكم مِن إتيانِ الذُّكورِ[٣].

---

(١) قال ابن جرير: (من قبلِ مجيئِهم إلى لوطٍ كانوا يأتونَ الرجال في أدبارهم). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٠٢).

وقال القرطبي: (أي ومِن قبلِ مجيءِ الرُّسُلِ. وقيل: من قبلِ لوطٍ). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٠٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٧)، ((تفسير المنار)) (١٢/ ١١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٢٧).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ بقولِه ﴿بَنَاتِي﴾: نساءُ أمَّتِه عليه السَّلام: ابنُ جريرٍ، وابنُ كثيرٍ، ومحمد رشيد رضا، وابنُ عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.

قال القرطبي: (وقالت فِرقةٌ- منهم مجاهدٌ وسعيدُ بنُ جبيرٍ- أشار بقوله: ﴿بَنَاتِي﴾ إلى النِّساءِ جُملةً؛ إذ نبيُّ القومِ أبٌ لهم، ويُقَوِّي هذا أنَّ في قراءةِ ابنِ مسعودٍ ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾[الأحزاب: ٦] «وَهُوَ أَبٌ لَهُمْ»). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧٦).

قال الشنقيطي: (وبهذا القولِ قال كثيرٌ من العلماء.

وهذا القَولُ تُقَرِّبُه قرينةٌ وتُبعِدُه أخرى؛ أمَّا القرينةُ التي تقَرِّبُه فهي: أنَّ بناتِ لوطٍ لا تَسَعُ جَميعَ رِجالِ قَومِه كما هو ظاهِرٌ، فإذا زوَّجَهنَّ لرجالٍ بقَدرِ عَدَدِهنَّ بَقِيَ عامَّةُ رجالِ قَومِه لا أزواجَ لهم، فيتعَيَّن أنَّ المرادَ عمومُ نِساءِ قَومِه، ويدُلُّ للعُمومِ قَولُه: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ [الشعراء: ١٦٥، ١٦٦]، وقَولُه: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ [النمل: ٥٥]، ونحوُ ذلك من الآيات. =

كما قال تعالى حاكيًا قولَ لوطٍ لِقَومِه: ﴿قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الحجر: ٧١].

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾.

أي: فاخشَوُا اللهَ، واحذَروا عقابَه، ولا تُذِلُّوني وتُهينوني بانتهاكِ حُرمةِ ضُيوفي بِفِعلِ الفاحشةِ بهم(١).

= وأمَّا القرينةُ التي تُبعِدُه: فهي أنَّ النبيَّ ليس أبًا للكافراتِ، بل أبُوَّةُ الأنبياءِ الدينيَّةُ للمؤمنينَ دون الكافرينَ، كما يدُلُّ عليه قولُه: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية، وقد صرَّح تعالى في «الذاريات»: بأنَّ قَومَ لوطٍ ليس فيهم مُسلِمٌ إلَّا أهلَ بَيتٍ واحدٍ، وهم أهلُ بيتِ لوط، وذلك في قَولِه: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٦]. ((أضواء البيان)) (٢/ ١٩٠).

وقيل: المرادُ بِبَناتِه عليه السَّلامُ هنا: بناتُه مِن صُلبِه. أي: عَرَضَ على قَومِه أن يتزوَّجوهنَّ. وممَّن قال بذلك: البغوي، وابنُ عطيةَ، وابنُ القيم. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٥٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٩٤)، ((الجواب الكافي)) (ص: ١٧٢).

وقال ابن الجوزي: (فإن قيل: كيف عرَضَ تزويجَ المُؤمِناتِ على الكافرين؟ فعنه جوابان: أحدهما: أنَّه قد كان يجوزُ ذلك في شريعته، وكان جائزًا في صدرِ الإسلامِ حتى نُسِخَ. قاله الحسن. والثاني: أنَّه عَرَض ذلك عليهم بشَرطِ إسلامِهم. قاله الزجَّاج، ويؤكِّدُه أنَّ عَرْضَهنَّ عليهم موقوفٌ على عَقدِ النكاحِ، فجاز أن يَقِفَ على شرطٍ آخَرَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٩٠).

وقال القاسمي: (ظاهِرٌ أنَّه عليه السَّلامُ كان واثِقًا بأنَّ قَومَه لا يُؤثِرونَهنَّ بوَجهٍ ما، مهما أطرى وأطنَبَ، وشَوَّق ورَغَّب، فكان إظهارُه وقايةَ ضِيفانِه وفداءَهم بهنَّ- مع وثوقِه المذكورِ وجَزْمِه- مُبالغةً في الاعتناءِ بحمايتِهم، وقيامًا بالواجِبِ في مثلِ هذا الخَطبِ الفادحِ الفاضِحِ، الذي يَدوم عارُه وشَنارُه، من الدفاع عنهم بأقصى ما يمكِنُ؛ لكيلا يُنسَبَ إلى قصورٍ، ولِيُعلَمَ أنْ لا غايةَ وراء هذا لِمَن لا رُكْنَ له مِن عَشيرةٍ أو قبيلةٍ، فذلك غايةُ الغاياتِ في حَيطتِهم ووقايتِهم. وفي قَولِه: ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ مِن التَّشويقِ، على مرأًى مِن ضِيفانِه ومَسمَعٍ، ما فيه مِن زيادةِ الكَرَمِ والإكرامِ، ورعايةِ الذِّمامِ. وبالجُملةِ فهو ترغيبٌ بمُحالِ الوقوعِ باطنًا، وإعذارٌ لِنُزلائِه ظاهِرًا. والله أعلم). ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٨٨).

﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾.

أي: أليسَ منكُم رجلٌ ذو رَشَدٍ وخيرٍ، فينهاكم عن طلَبِ الفاحِشةِ بضُيوفي[1]؟!

﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩)﴾.

أي: قالوا له: لقد علمتَ- يا لوطُ- ما لنا في النِّساءِ مِن حاجةٍ أو رغبةٍ[2] وإنَّك لتعلَمُ أنَّنا نريدُ الرِّجالَ دون النِّساءِ[3].

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠)﴾.

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾.

أي: قال لوطٌ لَمَّا رأى إصرارَ قَومِه على طلَبِ الفاحشةِ مِن ضُيوفِه، وعَجَزَ عن ردِّهم: ليتَ لي أنصارًا وأعوانًا يُعينونَني على رَدِّكم[4].

﴿أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٦).

(٢) قال ابنُ الجوزي: (قولُه تعالى: ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ فيه قولان: أحدُهما: ما لنا فيهنَّ حاجةٌ، قاله أبو صالحٍ عن ابنِ عباسٍ. والثاني: لسنَ لنا بأزواجٍ فنستحقهنَّ، قاله ابنُ إسحاقَ وابنُ قتيبةَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٩٠).

وممَّن قال بالأوَّل من المفسِّرين: ابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٨).

وممَّن قال بالثَّاني: ابنُ جريرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٠٧).

ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٨٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ١١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣٠).

وقال البغوي: (أراد قُوَّةَ البدَنِ، أو القوَّةَ بالأتباعِ). ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٥٩). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٩١)، ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٨٠).

أي: أو ألجأُ وأنضَمُّ إلى عشيرةٍ تمنَعُني وتعصِمُني منكم، فأحولُ بينكم وبين ما تريدونَ مِن ضيوفي(١).

عن أبي هريرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يَرحَمُ الله لوطًا؛ لقد كان يأوي إلى رُكنٍ شَديدٍ))(٢).

﴿ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﴿٨١﴾ ﴾.

﴿ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَ ﴾.

أي: قالت الملائكةُ للوطٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لَمَّا اشتدَّ به الكَربُ: إنَّا ملائكةُ رَبِّك، أرسَلَنا لإهلاكِ قَومِك؛ فلن يَصِلوا إليك بمكروهٍ، فاطمئِنَّ وهوِّنْ على نفسِك(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٣-٣٤].

وقال سُبحانه: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: ٣٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٤٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٨٣، ٥٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣٠).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٧٢) ومسلم (١٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥١٤)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣٠).

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ ﴾.

أي: فاخرُجْ أنت وأهلُك مِن أرضِ قَومِك بعد مُضيِّ وقتٍ مِن اللَّيلِ(١).

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ * قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ * قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ * وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ [الحجر: ٦١-٦٥].

﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿امْرَأَتَكَ﴾ قراءتانِ:

١- ﴿امْرَأَتُكَ﴾ بضمِّ التاءِ، قيل: الاستثناءُ منقطعٌ مِن جُملةِ الأمرِ ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾، و﴿امْرَأَتُكَ﴾ مبتدأٌ خبرُه ﴿إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾، وقيل: معنى: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتُكَ﴾ أي: لا يتخلَّفْ منكم أحدٌ إلا امرأتُك، وقيل غيرُ ذلك(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥١٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧٩، ٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣٠).
قال الشنقيطي: (﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾ ذكرَ تعالى في هذه الآيةِ الكريمة: أنَّه أمر نبيَّه لوطًا أن يسريَ بأهلِه بقِطعٍ من اللَّيلِ، ولم يبيِّنْ هنا هل هو من آخرِ اللَّيلِ، أو وسَطِه أو أوَّلِه، ولكنَّه بيَّن في «القمر» أنَّ ذلك من آخرِ اللَّيلِ وقتَ السَّحَرِ، وذلك في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ [القمر: ٣٤]، ولم يبيِّنْ هنا أنَّه أمَرَه أن يكونَ مِن ورائِهم وهم أمامَه، ولكنَّه بيَّن ذلك في «الحِجر» بقوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ [الحجر: ٦٥]). ((أضواء البيان)) (٢/ ١٩٠-١٩١).

(٢) قرأ بهذه القراءةِ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٩٠)، ((حجة =

٢- ﴿امْرَأَتَكَ﴾ بفتحِ التاءِ، أي: فأسْرِ بأهلِك إلَّا امرأتَك، على أن لوطًا أُمِر أن يسريَ بأهلِه سوَى زوجتِه، فإنَّه نُهِي أن يسريَ بها[1].

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾.

أي: ولا ينظُرْ أحدٌ منكم وراءَه، واستَمِرُّوا ذاهبينَ، إلَّا امرأتَك، فلا تُخرِجْها معكم[2].

﴿إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾.

أي: إنَّه مُصيبٌ امرأتَك- يا لوطُ- العذابُ الذي أصاب قومَك[3].

كما قال تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾[النمل: ٥٧].

= القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٤٧-٣٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٤٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٣٦٥)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٦٥)، ((مغني اللبيب)) لابن هشام (ص: ٥٥٨).

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٩٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥١٤-٥١٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٤٨).
قال الشنقيطي بعدَ أن ذكَر أنَّه على قراءةِ الجمهورِ (بالنصب) فهو لم يَسْرِ بها، وأنَّ ظاهرَ القراءةِ الثانيةِ (بالرفع)- على أحدِ الأوجهِ-: أنَّه أسرَى بها والتفتَتْ فهلَكتْ، قال: (الظاهِرُ أنَّ وجهَ الجمعِ بين القراءتينِ المذكورتينِ أنَّ السِّرَّ في أمرِ لوطٍ بأن يسريَ بأهله هو النَّجاةُ من العذابِ الواقعِ صُبحًا بقومِ لوط، وامرأةُ لوطٍ مُصيبها ذلك العذابُ الذي أصاب قومَها لا محالة، فنتيجةُ إسراءِ لوطٍ بأهلِه لَم تدخُلْ فيها امرأتُه على كلا القولينِ، وما لا فائدةَ فيه كالعدم، فيستوي معنى أنَّه تركها، ولم يَسْرِ بها أصلًا، وأنَّه أسرى بها وهَلَكت مع الهالكينَ. فمعنى القولينِ راجعٌ إلى أنَّها هالكة، وليس لها نفعٌ في إسراءِ لوطٍ بأهلِه، فلا فرقَ بين كونها بَقِيَت معهم، أو خَرَجَت وأصابَها ما أصابهم. فإذا كان الإسراءُ مع لوطٍ لم يُنجِها من العذابِ، فهي ومَن لم يسْرِ معه سواءٌ، والعلم عند الله تعالى). ((أضواء البيان)) (٢/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥١٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥١٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٦).

﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

أي: إنَّ مَوعِدَ إهلاكِ قَومِك- يا لوطُ- الصُّبحُ بعد انقضاءِ هذه اللَّيلةِ، أليس وقتُ الصبحِ بقريبٍ لنُزولِ العذابِ بهم[1]؟!

كما قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٦٦].

وقد بيَّن الله تعالى أنَّ صبيحةَ العذابِ وقَعتْ عليهم وقتَ الإشراقِ، وهو وقتُ طلوعِ الشمسِ[2]، وذلك في قولِه: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ [الحجر: ٧٣].

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾.

أي: فلمَّا جاء أمرُنا بهلاكِ قومِ لُوطٍ، جَعَلْنا عاليَ قراهم أسفَلَها[3].

كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤].

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾.

أي: وأرسَلْنا على قرى قَومِ لوطٍ حِجارةً مِن طينٍ، شديدِ القوةِ، قد ضُمَّ بعضُه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥١٥)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٥٠٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٨٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٩٢).

قال القاسمي: (أي: مَوعِدُهم بالهلاكِ الصُّبحُ، والجملةُ كالتعليلِ للأمرِ بالإسراءِ، أو جوابٌ لاستعجالِ لوطٍ واستبطائِه العذابَ، أو ذُكِرت ليتعجَّلَ في السَّيرِ؛ فإنَّ قُربَ الصُّبحِ داعٍ إلى الإسراعِ في الإسراءِ، للتَّباعُدِ عن موقعِ العذابِ). ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣٤).

إلى بعضٍ، فصار حجارةً[١].

كما قال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [النمل: ٥٨].

﴿ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾.

﴿ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ﴾.

أي: حجارةً مُعلَّمةً عند اللهِ بعلاماتٍ[٢].

﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾.

أي: وما هذه الحِجارةُ- التي أُمطِرَت على قومِ لوطٍ- ببعيدةٍ مِن الظالمين الفاعلينَ مثلَ فِعلِهم[٣]؛ فلْيَحذَروا أن يُصيبَهم ما أصابَهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٢٥، ٥٢٨، ٥٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٥١٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٨٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٠).

قال القرطبي: (﴿مُسَوَّمَةً﴾ أي معلمةً، من السيما وهي العلامةُ، أي كان عليها أمثالُ الخواتيم. وقيل: مكتوبٌ على كلِّ حجرٍ اسمُ مَن رُمي به، وكانت لا تشاكلُ حجارةَ الأرضِ). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٨٣).

(٣) وممن اختار هذا المعنى المذكور: السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٩٣).

وقيل: المرادُ بقولِه: ﴿الظَّالِمِينَ﴾ مُشركو قُريشٍ، وممن اختار هذا: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٣١).

وممن رُوي عنه هذا القولُ من السلفِ: مجاهدٌ، وقتادةُ، والسديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ٢٠٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٣٢)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٤/ ٤٦٥).

وقيل: المرادُ بقولِه: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ قومُ لوطٍ، والمعنى: أنَّ الحجارةَ لم تكنْ لتخطئَ قومَ لوطٍ، وضعَّفه الشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٨٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٩٣).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُه تعالى: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ تضمَّن البيانَ عمَّا يُوجِبُه حالُ المؤمنِ إذا رأى مُنكَرًا لا يقدِرُ على إزالتِه؛ أنَّه يتحَسَّرُ على فَقدِ قوة أو مُعينٍ على دَفعِه؛ لحرصِه على طاعةِ ربِّه، وجَزَعِه مِن مَعصيتِه[١].

٢- في قولِه تعالى: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ فيه أنَّ المؤمنَ إذا رأَى منكَرًا لا يقدِرُ على إزالته أنْ عليه أن يُنكِرَ بلسانه ثم بقلبه إذا لم يُطِقِ الدفعَ[٢].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ * مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ التَّعبيرُ بصفةِ ﴿الظَّالِمِينَ﴾ وكون العقوبةِ آيةً مُرادةً لا مُصادفةً؛ يجعَلُ العبارةَ عِبرةً لكُلِّ الأقوامِ الظَّالمةِ في كلِّ زمانٍ، وإن كان العذابُ يختَلِفُ باختلافِ الأحوالِ مِن أنواعِ الظُّلمِ وكَثرتِه وعُمومِه وما دونَهما[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ﴾ أي: حصَلَت له المَساءةُ بسببِ مجيئِهم إلى قريتِه؛ لِما يعلَمُ مِن لُؤمِ أهلِها، والتَّعبيرُ عن هذا المعنى بالمبنيِّ للمفعولِ أوقَعُ في النَّفسِ وأرشَقُ[٤].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ سؤالٌ: وهو أن يقالَ: إنَّ قولَه ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ من باب أفعل التَّفضيلِ، فيقتضي أن يكونَ الذي يطلبونَه من الرِّجالِ

---

(١) يُنظر: ((شرح صحيح البخاري)) لابن بطال (١٠/ ٢٩٤) (١٣/ ٢٢٧).
(٢) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/ ٢٢٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ١١٤).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٣٨).

طاهرًا، ومعلومٌ أنَّه مُحرَّمٌ فاسِدٌ نَجِسٌ، لا طهارةَ فيه البتَّةَ، فكيف قال: ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾؟!

والجوابُ: أنَّ صيغةَ التفضيلِ قد تُطلق في القرآنِ واللغةِ مرادًا بها الاتصافُ، لا تفضيلُ شيءٍ على شيءٍ[1]، وأيضًا فهذا جارٍ مجرى قولِه تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ [الصافات: ٦٢]، ومعلومٌ أنَّ شَجرةَ الزَّقُّومِ لا خيرَ فيها، وكقولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لَمَّا قيل يومَ أُحُدٍ: اعلُ هُبَلُ، قال: ((اللهُ أعلى وأجَلُّ))[2]؛ إذ لا مماثلةَ بين اللهِ- عزَّ وجلَّ- والصَّنمِ، وإنَّما هو كلامٌ خرجَ مَخرجَ المقابلةِ[3].

٣- قولُه: ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾، أي: لا تَجعَلوني مَخْزيًّا عِندَ ضَيْفي؛ إذ يَلحَقُهم أذًى في ضِيافَتي؛ لأنَّ الضِّيافةَ جِوارٌ عندَ ربِّ المنزِلِ، فإذا لَحِقَت الضَّيفَ إهانةٌ كانت عارًا على ربِّ المنزِلِ[4].

٤- قال الله تعالى: ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ يحتمل أن سِرَّ النَّهيِ عن الالتفاتِ- إذا كان بمعنى النَّظَرِ إلى وراءٍ- هو أن يجِدُّوا في السَّيرِ؛ فإنَّ من يلتَفِتُ إلى ورائِه لا يخلو عن أدنى وَقفةٍ، أو ألَّا يَرَوا ما ينزِلُ بقَومِهم من العذابِ فيَرِقُّوا لهم[5]، ويحتملُ أنَّ سببَ النَّهيِ عن الالْتِفاتِ التَّقصِّي في تحقيقِ معنى الهجرةِ غضَبًا لِحُرماتِ اللهِ، بحيث يَقطَعُ التَّعلُّقَ بالوطَنِ، ولو تَعلُّقَ الرُّؤيةِ، وكان تَعْيينُ اللَّيلِ

(١) يُنظر: ((قواعد التفسير)) لخالد السبت (١/ ٢٥٨).
(٢) أخرجه البخاري (٣٠٣٩) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما.
(٣) يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٩٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٢٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٣٠٦).

للخُروجِ؛ كَيْلا يُلاقِيَ مُمانَعةً مِن قومِه أو مِن زَوْجِه فيَشُقَّ عليه دِفاعُهم(١).

٥- قولُ الله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾ فيه أنَّ المرأةَ والأولادَ مِن الأهلِ(٢).

٦- قولُ الله تعالى: ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ ابتدأ الملائكةُ خِطابَهم لوطًا عليه السَّلامُ بالتَّعريفِ بأنفُسِهم؛ لتعجيلِ الطُّمأنينةِ إلى نفسِه، لأنَّه إذا علِمَ أنَّهم ملائِكةٌ علِمَ أنَّهم ما نزلوا إلَّا لإظهارِ الحَقِّ(٣).

٧- صرَف اللهُ الكفَّارَ عن لُوطٍ عليه السَّلامُ، فرَجَعوا مِن حيثُ أتَوْا، ولو أزال عَنِ الملائكةِ التَّشكُّلَ بالأجسادِ البشَريَّةِ فأخفاهم عن عُيونِ الكُفَّارِ لحَسِبوا أنَّ لوطًا عليه السَّلامُ أخْفاهم، فكانوا يُؤْذون لوطًا عليه السَّلامُ؛ ولذلك قال له الملائكةُ: ﴿لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾، ولم يَقولوا: لن يَنالوا؛ لأنَّ ذلك معلومٌ؛ فإنَّهم لَمَّا أعلَموا لوطًا عليه السَّلامُ بأنَّهم ملائكةٌ ما كان يَشُكُّ في أنَّ الكفَّارَ لا يَنالونَهم، ولكنَّه يَخْشى سَوْرتَهم أن يتَّهِموه بأنَّه أخْفاهم(٤).

٨- في قولِه تعالى: ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ...﴾ في هذه القِصَّةِ إثباتُ الملائكةِ، وأنَّهم أحياءٌ، ناطِقونَ، مُنفَصِلونَ عن الآدميِّينَ، يخاطِبونَهم ويرونَهم في صورِ الآدميِّينَ أحيانًا- الأنبياءُ وغيرُ الأنبياءِ- كما رأتْهم سارَةُ امرأةُ الخليلِ عليه السَّلامُ، وكما كان الصَّحابةُ يَرَون جبريلَ إذا جاء، لَمَّا جاء في صورةِ أعرابيٍّ(٥)، وتارةً في صورةِ دِحيةَ الكَلبيِّ(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣٢).
(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر ما أخرجه البخاري (٤٧٧٧)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٦) يُنظر: ((الصفدية)) لابن تيمية (١/ ١٩٦).

٩- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ لعلَّ جَعْلَ الصُّبحِ ميقاتًا لهلاكِهم؛ لِكونِ النُّفوسِ فيه أسكنَ وأودعَ، والرَّاحةُ فيه أجمَعُ[1]، فيَكونُ حُلولُ العذابِ حينَئذٍ أفظَعَ، ولأنَّه أنسَبُ بكَوْنِ ذلك عِبرةً للنَّاظِرين[2].

١٠- لما قلَب قومُ لوطٍ الأوضاعَ بإتيانِ الذُّكورِ دونَ الإناثِ؛ كان جزاؤُهم مِن جنسِ عملِهم، فقلَب الله عليهم قُراهم، قال الله تعالى: ﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾[3].

١١- قولُ الله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً﴾ استدلَّ به من قال بِرَجمِ الفاعلِ والمفعولِ به في اللُّواطِ أُحصِنا أو لا[4].

١٢- قولُ الله تعالى: ﴿مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ﴾ عبَّرَ بالرَّبِّ إشارةً إلى كثرةِ إحسانِه إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأنَّه إنَّما أمَرَه بالإنذارِ رحمةً لأمَّتِه التي جعَلَها خيرَ الأُمَمِ، وسيجعَلُها أكثَرَ الأمَمِ، ولا يُهلِكُها كما أهلَكَهم[5].

١٣- في قولِه: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ جُرِّد (بَعيد) عن تاءِ التَّأنيثِ مع كونِه خبَرًا عن الحجارةِ، وهي مؤنَّثٌ لفْظًا، ومع كونِ (بَعيد) هنا بمَعْنى (فاعِلٍ) لا بمَعْنى (مفعولٍ)؛ فالشَّأنُ أن يُطابِقَ موصوفَه في تأنيثِه، ولكنَّ العرَبَ قد يُجْرون (فَعيلًا) الَّذي بمَعْنى (فاعِل) مَجْرى الَّذي بمَعْنى (مفعولٍ) إذا جَرى

= ويُنظر ما أخرجه البخاري (٣٦٣٤)، ومسلم (٢٤٥١) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما.

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٩١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٣٠).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٨/ ٢٥٩).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥١).

قال الشنقيطي: (وحجةُ مَن قال: إنَّ قتلَه بالرجم هو ... روايةُ سعيدِ بنِ جُبيرٍ، ومجاهدٍ، عن ابنِ عباسٍ: أنَّه يُرجَم، وما ذكَره البيهقيُّ، وغيرُه عن عليٍّ أنَّه رجَم لوطيًّا، ويُستأنسُ لذلك بأنَّ الله رمَى أهلَ تلك الفاحشةِ بحجارةِ السجيلِ). ((أضواء البيان)) (٢/ ١٩٥).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٤٦).

على مؤنَّثٍ غيرِ حقيقيٍّ التَّأنيثِ زيادةً في التَّخفيفِ، كقولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، وقولِه: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]. وقيل: إنَّ (بَعِيد) صفةٌ لِمَحذوفٍ، أي: بِمَكانٍ بعيدٍ، أو بشيءٍ بعيدٍ(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾

- قولُه: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ فيه حذفُ ما دَلَّ عليه المقامُ إيجازًا قرآنيًّا بديعًا، والتَّقديرُ: ففارَقوا إبراهيمَ، وذهَبوا إلى لوطٍ عليهما السَّلامُ، فلمَّا جاؤوا لوطًا... إلخ(٢).

- ومِن بَديعِ تَرتيبِ هذه الجُمَلِ أنَّها جاءتْ على تَرتيبِ حُصولِها في الوجودِ؛ فإنَّ أوَّلَ ما يَسبِقُ إلى نَفْسِ الكارِهِ للأمْرِ أن يُساءَ به، ويَتَطَلَّبَ المخلَصَ من هذا الأمْرِ؛ وذلك قولُه: ﴿سِيءَ بِهِمْ﴾، فإذا عَلِم أنَّه لا مَخلَصَ مِنه ضاق به ذَرْعًا، وذلك قولُه: ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾، ثمَّ يُصدِرُ- تعبيرًا عن المعاني، وترتيبًا عنه- كلامًا يُريحُ به نفْسَه، وذلك قولُه عليه السَّلامُ: ﴿هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾(٣).

- قولُه: ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ كنايةٌ عن شدَّةِ الانقِباضِ؛ للعجْزِ عن مُدافَعةِ المكروهِ والاحتيالِ فيه(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣٤- ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٢٨).

- وفيه مناسَبةٌ حسنةٌ، حيث قال تعالى هنا في سورةِ (هودٍ): ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾، وفي سورةِ (العنكبوتِ) قال: ﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾ [العنكبوت: ٣٣]، فورَدَت آيةُ (العنكبوتِ) بزيادةِ (أنْ) بعد (لَمَّا) بخِلافِ آيةِ هودٍ، ووجهُ ذلك: أنَّ (أنْ) هذه الخفيفةَ كثيرًا ما تُزادُ، وزيادتُها على ضَرْبَين؛ بقياسٍ، وغيرِ قياسٍ؛ فأمَّا الَّتي تُزادُ بقياسٍ فبعدَ (لَمَّا)، ولَمَّا ورَد في آيةِ (هودٍ) قولُه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾، ثمَّ ورَد هذا اللَّفظُ بجُملَتِه في سورةِ (العَنكَبوتِ) مُتكرِّرًا بعَينِه، ورَد أوَّلًا بغيرِ (أنْ) على الأصلِ، وورَد ثانيًا بزيادةِ (أنْ) على الثَّاني؛ لِيَحصُلَ التَّوارُدُ بينَ ما يَرفَعُ تَثاقُلَ اللَّفْظِ المذكورِ مع تَباعُدِ ما بينَ الآيتَينِ؛ وذلك لأنَّه لَمَّا كان اللَّفظُ هو اللَّفظَ، وكان زيادةُ (أنْ) وعدَمُ زيادتِها هنا هيِّنًا فصيحًا جيء بالجائزَين معًا، وتأخَّرَت الزِّيادةُ؛ إذ هي غيرُ الأصلِ إلى المتأخِّرِ من الآيتَينِ[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾

- قولُه: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ فيه إسنادُ الفِعلِ إلى القَبيلةِ إذْ فعَله بعضُها؛ إذ التَّقديرُ: جاءه بعضُ قومِه، وإنَّما أُسنِد المجيءُ إلى القومِ؛ لأنَّ مِثلَ ذلك المجيءِ دَأْبُهم وقد تَمالَؤوا على مِثلِه، فإذا جاء بعضُهم فسَيَعقُبُه مَجيءُ بعضٍ آخَرَ في وقتٍ آخَرَ[٢].

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٦١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٢٦).

- قولُه: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ جملةُ ﴿قَالَ يَا قَوْمِ...﴾ مُستأنَفةٌ استِئنافًا بيانيًّا ناشئًا عن جملةِ ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ﴾؛ إذ قد عَلِم السَّامعُ غرَضَهم مِن مَجيئِهم، فهو بحيث يَسأَلُ عمَّا تلقَّاهم به(١).

- وفي افتِتاحِ الكَلامِ بالنِّداءِ وبأنَّهم قومُه بقولِه: ﴿يَا قَوْمِ﴾ ترقيقٌ لنُفوسِهم عليه؛ لأنَّه يَعلَمُ تَصلُّبَهم في عادَتِهم الفَظيعةِ(٢).

- قولُه: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ الإشارةُ بـ ﴿هَؤُلَاءِ﴾ مُستعمَلةٌ في العرْضِ، و﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ تعليلٌ للعَرْضِ، و﴿هَؤُلَاءِ﴾ إشارةٌ إلى جمعٍ؛ إذ بُيِّن بقولِه: ﴿بَنَاتِي﴾، وإطلاقُ البناتِ هنا؛ قيل: هو مِن قَبيلِ التَّشبيهِ البليغِ- لِمَا رُوِي أنَّه لم يَكُنْ له إلَّا ابنَتان- أي: هؤلاءِ نِساؤُهنَّ كبَناتي، وأرادَ نِساءً مِن قومِه بعدَدِ القومِ الَّذين جاؤوا يُهْرَعون إليه فإنَّ قومَه الَّذين حضَروا عِندَه كثيرون، فيكونُ المعنى: هؤلاءِ النِّساءُ فتَزوَّجوهنَّ(٣).

- واسمُ التَّفضيلِ ﴿أَطْهَرُ﴾ مسلوبُ المفاضَلةِ؛ قُصِد به قوَّةُ الطَّهارةِ(٤).

- قولُه: ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ الاستفهامُ في ﴿أَلَيْسَ...﴾ للإنكارِ والتَّوبيخِ؛ لأنَّ إهانةَ الضَّيفِ مَسبَّةٌ لا يَفعَلُها إلَّا أهلُ السَّفاهةِ، وقولُه: ﴿مِنْكُمْ﴾ بمَعنى بَعْضِكم؛ أنكَر عليهم تَمالُؤَهم على الباطِلِ، وانعِدامَ رجُلٍ رَشيدٍ مِن بَينِهم، وهذا إغراءٌ لهم على التَّعقُّلِ؛ لِيَظهَرَ فيهم مَن يَتفطَّنُ إلى فَسادِ ما هم فيه فيَنْهاهم، فإنَّ ظُهورَ الرَّشيدِ في الفئةِ الضَّالَّةِ يَفتَحُ بابَ الرَّشادِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٢٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٢٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

لهم، وبالعَكْسِ تَمالُؤهم على الباطلِ يَزيدُهم ضَراوةً به(١).

٣- قولُه تعالى: ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾

- جملةُ ﴿قَالُوا...﴾ فُصِلَت عن الَّتي قبْلَها، ولم تُعْطَفْ علَيها؛ لِوُقوعِها موقعَ المحاوَرةِ مع لوطٍ عليه السَّلامُ(٢).

- وجملةُ: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ...﴾ تأكيدٌ لكونِه يَعلَمُ؛ بتَنْزيلِه مَنزِلةَ مَن يُنكِرُ أنَّه يَعلَمُ؛ لأنَّ حالَه في عرْضِه بَناتِه عليهم كحالِ مَن لا يَعلَمُ خُلقَهم، وكذلك التَّوكيدُ في ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾(٣).

٤- قولُه تعالى: ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾

- وجملةُ ﴿لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ مُبيِّنةٌ لإجمالِ جملةِ ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾؛ فلذلك فُصِلَت فلم تُعطَفْ على الَّتي قَبْلَها؛ لأنَّها بمَنزِلَةِ عطْفِ البيانِ، وهي موضِّحةٌ للَّتي قبْلَها؛ لأنَّهم إذا كانوا رسُلَ اللهِ لم يَصِلوا إليه، ولم يَقْدِروا على ضَررِه، وجيءَ بحرْفِ تأكيدِ النَّفْيِ (لَن)؛ للدَّلالةِ على أنَّهم خاطَبوه بما يُزيلُ الشَّكَّ مِن نفْسِه(٤).

- قولُه: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ الفاءُ لِترتيبِ الأمْرِ بالإسراءِ على الإخبارِ برسالَتِهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤١٥، ٤١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣١- ١٣٢).

المؤْذِنَة بوُرودِ الأمرِ والنَّهْيِ مِن جَنابه عزَّ وجلَّ إليه عليه السَّلامُ[1]، وتَفْريعُ الأمْرِ بالسُّرَى على جُملةِ ﴿لَن يَصِلُوٓا إِلَيۡكَ﴾؛ لِمَا في حرْفِ (لَن) مِن ضَمانِ سَلامتِه في المستقبَلِ؛ فلمَّا رأى ابتِداءَ سَلامتِه منهم بانصِرافِهم؛ حَسُن أن يُبيَّنَ له وجْهَ سَلامتِه في المستقبَلِ منهم باستِئْصالِهم وبِنَجاتِه، فذلك موقِعُ فاءِ التَّفريعِ[2].

- جملةُ ﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ ناشِئٌ عن الاستثناءِ مِن الكلامِ المقدَّرِ، وفيه استِعْمالُ فِعْلِ المضِيِّ ﴿مَآ أَصَابَهُمۡ﴾ في مَعْنى الحالِ، ومُقتَضى الظَّاهِرِ أن يُقالَ: (ما يُصيبُهم)؛ فاستِعْمالُ فِعلِ المُضِيِّ لِتَقريبِ زمَنِ الماضي مِن الحالِ، أو في مَعْنى الاستقبالِ؛ تَنْبيهًا على تَحقُّقِ وُقوعِه، نحوُ قولِه تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾[3] [النحل: ١].

- وأيضًا في جُملَةِ ﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡ﴾ تَفْخيمُ شأنِ ما أصابَهم؛ إذِ الضَّميرُ في ﴿إِنَّهُۥ﴾ للشَّأنِ، وقولُه تعالى: ﴿مُصِيبُهَا﴾ خبرٌ، وقولُه: ﴿مَآ أَصَابَهُمۡ﴾ مُبتدَأٌ، والجملةُ خبَرٌ لـ(إنَّ) الَّذي اسمُه ضميرُ الشَّأنِ[4].

- وجملةُ ﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُ﴾ مُستأنَفةٌ ابتدائيَّةٌ، قُطِعَت عن الَّتي قبْلَها- أي: فُصِلَت ولم تُعْطَفْ عليها-؛ اهتِمامًا وتَهويلًا[5].

- قولُه: ﴿أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾ جملةُ استِئْنافٍ بيانيٍّ؛ صدَر مِن الملائكةِ جَوابًا عن سُؤالٍ يَجيشُ في نفْسِه مِن استِبْطاءِ نُزولِ العذابِ، والاستفهامُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٢٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٣٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٣٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣١).

في قولِه: ﴿أَلَيْسَ﴾ تقريريٌّ؛ ولذلك يقَعُ في مِثلِه التَّقريرُ على النَّفيِ إرخاءً للعِنانِ مع المخاطَبِ المقرَّرِ؛ ليَعرِفَ خطَأَه[١].

– وأيضًا هذه الجملةُ ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ فيها إرسالُ المثَلِ أو التَّمثيلِ، وهو فَنٌّ يُمكِنُ تَعريفُه بأن يَكونَ ما يُخرِجُه المتكلِّمُ سارِيًا مَسيرَ الأمثالِ السَّائرةِ[٢].

– وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال تعالى هنا في سورةِ (هودٍ): ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾، وقال في سورةِ (الحِجرِ): ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ [الحجر: ٦٥]؛ فاستَثْنى في سورةِ (هودٍ) مِن قولِه تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ قولَه: ﴿إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾، ولم يَستَثنِ ذلك في سورةِ (الحِجرِ)، ووجهُ هذه المناسَبةِ: أنَّ الاستِثْناءَ في سورةِ (الحِجْرِ) أغْنى منه قولُه تعالى فيما حَكى عن الرُّسلِ: ﴿إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ * إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [الحجر: ٥٨ - ٦٠]، فهذا الاستثناءُ الَّذي لم يقَعْ مِثلُه في سورةِ (هودٍ) أغنى عن الاستثناءِ في قولِه: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾[٣].

– ومِن المناسبةِ أيضًا، أنَّه قال في سورةِ الحجرِ: ﴿وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ﴾ [الحجر: ٦٥]، وترَكه هنا في سُورةِ هودٍ، ووجهُ ذلك: أنَّه لَمَّا اقتَصَّ في هذه السُّورةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣٣-١٣٤).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ٤١١).

(٣) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٧٧٠-٧٧١)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١٤٧-١٤٨)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٦٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٦٩).

بعضَ ما اقتَصَّ في الأُخرَى؛ فذَكَر أنَّ الرُّسُلَ قالوا له: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾، والمعنى: لن يَصِلوا إليك وإلى المؤمنين مِن أهلِك، قيَّد ذلك في قولِه: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾ بأنْ أمَروه بإخراجِ أهلِه مِن بينِ أظهُرِهم ليلًا مِن غيرِ أن يُعرِّجَ أحدٌ منهم على شيءٍ خلْفَه يَعُوقُه عن المضيِّ إلى حيث ما أُمِر به، ولَمَّا قال في سورةِ الحجرِ: ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾ [الحجر: ٥٩-٦٠] إخبارًا عن الرُّسلِ أنَّهم خاطَبوا إبراهيمَ عليه السَّلامُ به، ثمَّ أخبَر عن مُخاطَبتِهم لوطًا في هذه السُّورةِ بما يُضاهي قولَهم لإبراهيمَ عليه السَّلامُ، حيث أردَفوا قولَهم له: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ بقولِهم: ﴿وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ﴾ [الحجر: ٦٥]؛ لأنَّه إذا ساقَهم وكان مِن وَرائِهم، كان تحقيقًا لِخبَرِهم أنَّهم مُنجُّوهم أجمَعين، فزِيدَ: ﴿وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ﴾؛ لِتُجاوِبَ مُخاطبتُهم له مُخاطبَتَهم لإبراهيمَ عليه السَّلامُ بسببِه[1].

- وأيضًا قال في سورةِ (الحِجرِ): ﴿وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ [الحجر: ٦٥]، ولم يَذكُرْه في سورةِ (هودٍ)؛ وذلك أنَّ قولَه في سورةِ (الحِجْرِ): ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ [الحجر: ٦٥] زيادةُ إخبارٍ بما ليس في سورةِ هودٍ، وقد تأخَّرَت سورةُ الحجرِ عنها؛ فوَفَّت بما لم يُذكَرْ في سورةِ هودٍ[2].

٥- قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ﴾

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٧٧١-٧٧٢)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٦٢).

- قولُه: ﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا﴾ فيه الاقتِصارُ على ذِكْرِ جَعْلِ العالي سافِلًا، حيث جُعل عالِيها مَفعولًا أوَّلَ للجَعْلِ، وسافِلُها مَفعولًا ثانيًا له، وإنْ تَحقَّق القلبُ بالعَكْسِ أيضًا؛ لأنَّه أَدخَلُ في الإهانةِ، وأيضًا لِتَهويلِ الأمرِ، وتفظيعِ الخَطْبِ؛ لأنَّ جَعْلَ عالِيها- الَّذي هو مَقارُّهم ومَساكِنُهم- سَافِلَها أشَدُّ عليهم وأشَقُّ مِن جَعْلِ سافِلِها عالِيَها، وإن كان مُستلزِمًا له(١).

- وفي قولِه: ﴿جَعَلْنَا﴾ و﴿وَأَمْطَرْنَا﴾ إسنادُ الجَعْلِ والإمطارِ إلى ضَميرِه سبحانه باعتبارِ أنَّه المسبِّبُ لِتَفخيمِ الأمرِ، وتَهويلِ الخطْبِ(٢).

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال تعالى هنا في سورةِ (هودٍ): ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ﴾، وفي سورةِ (الحِجْرِ) قال: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤]؛ ففي الأُولَى: ﴿وَأَمْطَرْنا عَلَيْهَا﴾، والضَّميرُ للقريةِ، والمرادُ أهلُها، وفي الثَّانيةِ: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾، والضَّميرُ لِقَومِ لوطٍ، فاختَلَف الضَّميرُ مع اتِّحادِ المقصودِ، ووجهُ ذلك: أنَّ كُلًّا مِن الموضوعَين مُراعًى فيه مُناسَبةُ ما تَقدَّمَه؛ فلمَّا تقدَّم آيةَ (الحِجْرِ) قولُه تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾ [الحجر: ٥٨]، فذكَر قومَ لوطٍ موصوفِين بالإجرامِ الموجِبِ لِهَلاكِهم، فرُوعِيَ هذا المتقدِّمُ، فقيل: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحجر: ٧٤]، ونَظيرُ هذا قولُه تعالى في سورةِ (الذَّارياتِ): ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾ [الذاريات: ٣٢- ٣٣]، فقيل: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ لَمَّا تَقدَّم قولُه: ﴿إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾، وأمَّا آيةُ (هودٍ) فلم يتَقدَّمْ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٣٠).

فيها مثلُ هذا، فاكتَفى بضَميرِ القَريةِ، فقيل: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [هود: ٨٢]، وأغنى ذلك عن ذِكْرِ المهلَكين؛ إذ هم المقصودون بالعذابِ؛ فورَد كلٌّ على ما يُناسِبُ[1].

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٦٢-٢٦٣).

الآيات (٨٤-٨٦)

﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَبْخَسُوا﴾: أي: تَنْقُصُوا، وتَظْلِموا، والبَخْسُ: نقص الشيء على سبيل الظلم، وأصلُ (بخس): نقص[1].

﴿تَعْثَوْا﴾: العثوُّ أشدُّ الفَسادِ، وأصلُ (عثي): يدُلُّ على فَسادٍ[2].

﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ﴾: أي: ما يُبقيه اللهُ لكم، وأصلُ (بقي): يدلُّ على دَوامٍ[3].

المعنَى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تعالى أنَّه أرسلَ إلى مَدْينَ أخاهم في النَّسَبِ شُعَيبًا، فقال: يا قومِ اعبُدوا اللهَ وَحدَه، ليس لكم مِن إلهٍ يستحِقُّ العبادةَ غيرُه جلَّ وعلا، فأخلِصوا له العبادةَ، ولا تنقُصوا النَّاسَ حُقوقَهم في مَكاييلِهم ومَوازينِهم، إنِّي أراكم

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٩٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص:٧٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٨٦).

في سَعَةِ عَيشٍ، وإنِّي أخاف عليكم- بسبَبِ شِركِكم، وإنقاصِكم المكيالَ والميزانَ- عذابَ يومٍ يُحيطُ بكم، ويا قومِ أتِمُّوا المكيالَ والميزانَ بالعَدلِ، ولا تَنقُصوا النَّاسَ حَقَّهم، ولا تَسيروا في الأرضِ تَعملونَ فيها بمعاصي اللهِ ونَشرِ الفَسادِ، إنَّ ما يبقَى لكم بعدَ إيفاءِ الكَيلِ والميزانِ مِن الرِّبحِ الحلالِ خيرٌ لكم ممَّا تأخذونَه بالتَّطفيفِ ونَحوِه من الكَسبِ الحَرامِ، إن كُنتُم تؤمِنونَ باللهِ حَقًّا، فامتَثِلوا أمْرَه، وما أنا عليكم برقيبٍ أُحصي عليكم أعمالَكم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا انتَهَت قصَّةُ لوطٍ عليه السَّلامُ مُعلِمةً لِما قام به مِن أمرِ اللهِ غيرَ وانٍ فيه لرغبةٍ ولا رهبةٍ، وبما في إنزالِ الملائكةِ مِن الخطَرِ- أُتبِعت أقربَ القصَصِ الشَّهيرةِ إليها في الزَّمَن[1].

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾.

أي: وأرسَلْنا إلى أهلِ مَدينَ أخاهم في النَّسَبِ شُعَيبًا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[2].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٣٨)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٥١٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٧).

قال ابنُ كثيرٍ: (هم قبيلةٌ من العَرَب، كانوا يسكنونَ بين الحِجازِ والشَّامِ، قريبًا من بلاد مَعان، في بلدٍ يُعرَف بهم، يقال لها «مَدْيَن»). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٢).

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾.

أي: قال: يا قومِ اعبُدوا اللهَ وَحدَه لا شريكَ له، ليس لكم معبودٌ يستحِقُّ العبادةَ غيرُه[1].

﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا دعا إلى العدلِ فيما بينَهم وبينَ الله، دعاهم إلى العدلِ فيما بينَهم وبينَ عَبيدِه في أقبَحِ ما كانوا قد اتَّخَذوه بعدَ الشِّركِ دَيدنًا، فقال[2]:

﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾.

أي: ولا تنقُصوا النَّاسَ حُقوقَهم في الكَيلِ والوَزنِ لهم[3].

﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾.

أي: إنِّي أراكم في سَعةٍ مِن الرِّزقِ، وكثرةِ نِعَمٍ، وخَيرٍ في معيشتِكم، فاشكُروا الله على ذلك[4].

﴿وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾.

أي: وإنِّي أخافُ عليكم- بسبَبِ شِركِكم، وبَخسِكم حقوقَ النَّاسِ- أن يَنزِلَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٨٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٣٧١)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٣١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٣٩)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٥٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٧).

بكم عذابُ يومٍ يحيطُ بكم، فلا يُفلِتُ منه أحدٌ(١).

﴿ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان عدمُ النَّقصِ قد يُفهَمُ منه التَّقريبُ، أتبَعَه بما ينفي هذا الاحتمالَ، وللتَّنبيهِ على أنَّه لا يكفي الكفُّ عن تعمُّدِ التَّطفيفِ، بل يلزمُ السَّعيُ في الإيفاءِ، ولو بزيادةٍ لا يتأتَّى بدونِها(٢).

﴿ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِ ﴾.

أي: ويا قومِ أتمُّوا للنَّاسِ حُقوقَهم في الكَيلِ والوَزنِ لهم بالعَدلِ، مِن غيرِ نَقصٍ(٣).

﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ ﴾.

أي: ولا تَنقُصوا النَّاسَ مِن حُقوقِهم شَيئًا(٤).

﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٥٢١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٧).

قال الواحدي: (والمحيطُ مِن صفةِ اليومِ في الظَّاهر، وهو في المعنى من صفةِ العذابِ؛ وذلك أنَّ يومَ العذابِ إذا أحاط بهم فقد أحاط بهم العذابُ). ((البسيط)) (١١/ ٥٢١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٧).

(٤) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

أي: ولا تَسيروا في الأرضِ بمَعصيةِ اللهِ، والإضرارِ بالخَلقِ[١].

﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

أي: قال شُعَيبٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لِقَومِه: ما يُبقيه اللهُ لكم بعد أن تُوَفُّوا النَّاسَ حُقوقَهم خيرٌ لكم من الحرامِ الذي تَجمَعونَه بظُلمِ النَّاسِ، شريطةَ أن تكونوا مؤمنينَ بما جئتُكم به[٢].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠].

﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾.

أي: وما أنا برقيبٍ عليكم عند كيلِكم ووَزنِكم، وليس عليَّ حفظُ أعمالِكم، وإنَّما عليَّ إبلاغُكم رسالةَ اللهِ[٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- الأنبياءُ عليهم السَّلامُ يَشرَعونَ في أوَّلِ الأمرِ بالدَّعوةِ إلى التوحيدِ؛ فلهذا قال شعيبٌ عليه السَّلامُ: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ ثمَّ إنَّهم بعد

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٤٤).

قال القرطبي: (شَرطَ هذا؛ لأنَّهم إنما يعرفونَ صِحَّةَ هذا إن كانوا مؤمنينَ. وقيل: يحتملُ أنَّهم كانوا يعترفونَ بأنَّ الله خالقُهم، فخاطبهم بهذا). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٧).

الدَّعوةِ إلى التَّوحيدِ، يَشرَعونَ في الأهمِّ ثمَّ الأهمِّ، ولَمَّا كان المعتادُ مِن أهلِ مَدْيَنَ البَخسَ في المكيالِ والميزانِ، دعاهم إلى تركِ هذه العادةِ في قولِه: ﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾[1].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ * وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ سلكَ شعيبٌ عليه السَّلامُ في نهيِهم عن الفَسادِ مَسلَكَ التدرُّجِ، وهذا من أساليبِ الحِكمةِ في تهيئةِ النُّفوسِ بقَبولِ الإرشادِ والكَمالِ، فابتدأ بنَهيِهم عن نوعٍ مِن الفسادِ فاشٍ فيهم، وهو التَّطفيفُ، ثمَّ ارتقَى فنهاهم عن جِنسِ ذلك النَّوعِ، وهو: أكلُ أموالِ النَّاسِ، ثمَّ ارتقَى فنهاهم عن الجِنسِ الأعلى للفَسادِ الشَّاملِ لجميعِ أنواعِ المفاسدِ، وهو: الإفسادُ في الأرضِ كُلِّه[2].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ﴾ أي: فلا تَسَبَّبوا إلى زوالِه بفِعلِكم، ففيه أنَّ الجزاءَ مِن جنسِ العمَلِ، فمَن بخَسَ أموالَ النَّاسِ، يريدُ زيادةَ مالِه؛ عوقِبَ بنقيضِ ذلك، وكان سببًا لزوالِ الخيرِ الذي عندَه مِن الرِّزقِ[3].

٤- قولُ الله تعالى: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ فيه أنَّ على العبدِ أن يقنَعَ بما آتاه اللهُ، ويقنعَ بالحلالِ عن الحرامِ، وبالمكاسبِ المُباحةِ عن المكاسبِ المحرَّمةِ، وأنَّ ذلك خيرٌ له؛ ففي ذلك من

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٨٨).

البَرَكةِ، وزيادةِ الرِّزقِ ما ليس في التكالُبِ على الأسبابِ المحرَّمةِ مِنَ المَحْقِ، وضِدِّ البَرَكةِ(١).

٥- قولُ الله تعالى: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فيه أنَّ القناعةَ بالحلالِ عن الحرامِ، وبالمكاسبِ المباحةِ عن المكاسبِ المحرمةِ مِن لوازمِ الإيمانِ وآثارِه؛ فإنَّه رتَّبَ العملَ به على وجودِ الإيمانِ، فدَلَّ على أنَّه إذا لم يوجَدِ العمَلُ، فالإيمانُ ناقِصٌ أو معدومٌ(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ دعاءُ شُعَيبٍ إلى عبادةِ اللهِ يقتضي أنَّهم كانوا يعبُدونَ الأوثانَ، وذلك بيِّنٌ مِن قَولِهم فيما بعدُ، وكُفرُهم هو الذي استوجَبوا به العذابَ لا معاصيهم؛ فإنَّ الله لم يعذِّبْ قطُّ أُمَّةً (عذابَ استئصالٍ عامٍّ) إلَّا بالكُفرِ، فإن انضافَت إلى ذلك معصيةٌ كانت تابعةً(٣).

٢- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ هذا النَّهيُ يتضمَّنُ الأمرَ بالإيفاءِ، وصرَّحَ به بعدُ في قولِه: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ وهو يتضمَّنُ النَّهيَ عن النَّقصِ، ففي ذلك تأكيدٌ على الحَثِّ على عدمِ البَخسِ، وعلى الحثِّ على العدلِ(٤).

٣- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ فيه أنَّ نَقصَ المكاييلِ والموازينِ مِن كبائرِ الذُّنوبِ، وتُخشَى العقوبةُ العاجلةُ على مَن تعاطَى ذلك،

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٨٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٩٩).
(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٦٩).

وأنَّ ذلك مِن سَرِقةِ أموالِ النَّاسِ، وإذا كانت سَرِقتُهم في المكاييلِ والموازينِ مُوجِبةً للوعيدِ، فسَرِقتُهم على وجهِ القَهرِ والغَلَبةِ مِن بابِ أَولَى وأحرَى(١).

٤- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ فيه أنَّ الكفَّارَ كما يُعاقَبونَ ويُخاطَبونَ بأصلِ الإسلامِ، فكذلك بشَرائِعِه وفروعِه؛ لأنَّ شُعَيبًا عليه السَّلامُ دعا قومَه إلى التَّوحيدِ، وإلى إيفاءِ المكيالِ والميزانِ، وجعلَ الوعيدَ مُرَتَّبًا على مجموعِ ذلك(٢).

٥- في قولِه تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ بيَّن أنَّ ما فعلوه كان بَخسًا للنَّاسِ أشياءَهم؛ وأنَّهم كانوا عاثِينَ في الأرضِ مُفسِدينَ قبل أن ينهاهم، بخلافِ قولِ «المُجْبِرةِ» أنَّ ظُلمَهم ما كان سيِّئةً إلَّا لَمَّا نهاهم، وأنه قَبلَ النَّهيِ كان بمنزلةِ سائرِ الأفعالِ مِن الأكلِ والشُّربِ وغيرِ ذلك، كما يقولونَ في سائرِ ما نهت عنه الرسُلِ مِن الشِّركِ والظُّلمِ والفواحشِ(٣).

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ قيَّدَه بقَصدِ الإفسادِ؛ لأنَّ بعضَ ما هو إفسادٌ في الظَّاهرِ قد يرادُ به الإصلاحُ، أو دَفعُ أخفِّ الضَّرَرينِ، كالذي يقعُ في الحربِ مِن قَطعِ الأشجارِ، أو فَتحِ سُدودِ الأنهارِ، أو إحراقِ بعضِ الأشياءِ بالنَّارِ، ومنه خَرقُ الخَضِر للسَّفينةِ التي كانت لمساكينَ يعمَلونَ في البَحرِ؛ لِمنعِ المَلِك الظَّالمِ الذي وراءَهم(٤).

٧- قولُ الله تعالى: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ لفظُ ﴿بَقِيَّتُ﴾ كلمةٌ جامعةٌ لمعانٍ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٦٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ١١٧).

في كلامِ العرَبِ، منها: الدَّوامُ، ومُؤذِنةٌ بضِدِّه وهو: الزَّوالُ، فأفادت أنَّ ما يقتَرِفونَه متاعٌ زائِلٌ، وما يَدعوهم إليه حظٌّ باقٍ غيرُ زائلٍ، وبقاؤُه دُنيويٌّ وأخرويٌّ(١).

بلاغة الآيات:

١- قوله تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾

- قولُه: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا﴾ استِئنافٌ وقَع جَوابًا عن سؤالٍ نشَأ عن صدرِ الكلامِ، فكأنَّه قيل: فماذا قال لهم؟ فقيل: قال كما قال مَنْ قبلَه مِن الرُّسلِ عليهم السَّلامُ: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾(٢).

- قولُه: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ تحقيقٌ للتَّوحيدِ، وتعليلٌ للأمرِ به(٣).

- قال تعالى: ﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ...﴾، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ فقدَّمَ النَّهيَ على الأمرِ؛ لأنَّ دفْعَ المفاسِدِ آكَدُ مِن جلْبِ المصالحِ(٤).

- قولُه: ﴿إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ﴾: جملةٌ تعليليَّةٌ للنَّهيِ عن نقْصِ المكيالِ والميزانِ، أي: إنَّكم في غِنًى عن هذا التَّطفيفِ بما أُوتيتُم مِن النِّعمةِ والثَّروةِ، وهذا التَّعليلُ يَقْتَضي قُبحَ ما يَرتكِبونه مِن التَّطفيفِ في نظَرِ أَهْلِ المُروءةِ، ويَقطَعُ مِنهم العُذرَ في ارتِكابِه، وهذا حَثٌّ على وسيلةِ بَقاءِ النِّعمةِ(٥)؛ ونبَّه بقولِه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٢٦٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣٣- ١٣٤).

﴿بِخَيْرٍ﴾ على العلَّةِ المقتضِيَةِ للوفاءِ لا للنَّقصِ[١].

- قولُه: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ فيه وصْفُ اليومِ بالإحاطةِ، وهو أبلَغُ مِن وصْفِ العذابِ به؛ لأنَّ اليومَ زَمانٌ يَشتمِلُ على الحوادثِ، فإذا أحاط بعَذابِه فقد اجتمَع للمُعذَّبِ ما اشتمَل عليه منه، كما إذا أحاط بنَعيمِه[٢]، وفيه أيضًا ارتِقاءٌ في تعليلِ النَّهيِ بأنَّه يَخافُ عليهم عَذابًا يَحِلُّ بهم؛ إمَّا يومَ القيامةِ وإمَّا في الدُّنيا، ولِصُلوحيَّتِه للأمْرَينِ أجمَلَه بقولِه: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾، وهذا تحذيرٌ مِن عَواقِبِ كُفْرانِ النِّعمةِ، وعِصْيانِ واهِبِها[٣].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ فيه إعادةُ النِّداءِ في جُملةِ ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ﴾؛ لزِيادةِ الاهتمامِ بالجُمْلةِ، والتَّنبيهِ لِمَضمونِها، وهو الأمرُ بإيفاءِ المكيالِ والميزانِ[٤].

- قولُه: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ فيه تصريحٌ بالأمرِ بالإيفاءِ بعدَ النَّهيِ عن ضِدِّه، وهو قولُه: ﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾؛ مبالَغةً وتنبيهًا على أنَّه لا يَكْفيهم الكفُّ عن تَعمُّدِهم التَّطفيفَ، بل يَلزَمُهم السَّعيُ في الإيفاءِ؛ فهذا الأمرُ تأكيدٌ للنَّهيِ عن نَقصِهما، والشَّيءُ يُؤكَّدُ بنفيِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ضدِّه؛ لزيادةِ التَّرغيبِ في الإيفاءِ بطلَبِ حُصولِه بعدَ النَّهيِ عن ضدِّه، كقولِه تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾[1] [طه: ٧٩].

- وعبَّر بقولِه: ﴿بِالْقِسْطِ﴾؛ لِيَكونَ الإيفاءُ على جِهَةِ العدلِ والتَّسويةِ وهو الواجبُ؛ لأنَّ ما جاوزَ العدلَ فضلٌ، وأمرٌ مندوبٌ إليه[2].

- قولُه: ﴿مُفْسِدِينَ﴾ حالٌ مُؤكِّدةٌ لِعامِلِها ﴿تَعْثَوْا﴾؛ مُبالَغةً في النَّهيِ عن الفسادِ[3].

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ حصَل النَّهيُ عن الأعَمِّ بعدَ النَّهيِ عن العامِّ، وبه حصَلَت خَمسةُ مُؤكِّداتٍ: أوَّلُها: الأمرُ بعدَ النَّهيِ عن الفسادِ الخاصِّ، ثانيها: التَّعميمُ بعدَ التَّخصيصِ، ثالِثُها: زيادةُ التَّعميمِ، رابعًا: تأكيدُ التَّعميمِ الأعَمِّ بتعميمِ المكانِ، خامِسُها: تأكيدُه بالمؤكِّدِ اللَّفظيِّ[4].

٣- قوله تعالى: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾

- قولُه: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾، أي: افْعَلوا ذلك باختيارِكم؛ لأنَّه لِصَلاحِكم، ولَسْتُ مُكْرِهَكم على فِعْلِه، والمقصودُ من ذلك استِنْزالُ طائرِهم لئلَّا يَشمئِزُّوا مِن الأمرِ، وهذا استقصاءٌ في التَّرغيبِ، وحُسْنِ الجدالِ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣٧- ١٣٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٣٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٤١).

- قولُه: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فيه إضافةُ ﴿بَقِيَّتُ﴾ إلى اسْمِ الجلالةِ على المعاني كلِّها جَمْعًا وتفريقًا، إضافةَ تَشريفٍ وتيَمُّنٍ، وهي إضافةٌ على معنى اللَّامِ؛ لأنَّ البقيَّةَ مِن فضْلِه أو ممَّا أمَر به(١).

- وفي قولِه: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ جاء باسْمِ الفاعلِ ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ الَّذي هو حقيقةٌ في الاتِّصافِ بالفعلِ في زَمانِ الحالِ؛ تقريبًا لإيمانِهم بإظهارِ الحِرْصِ على حُصولِه في الحالِ، واستعجالًا بإيمانِهم؛ لِئَلَّا يَفْجَأَهمُ العذابُ فيَفُوتَ التَّدارُكُ(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٤١).

الآيات (٨٧-٩٠)

﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨) وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ (٨٩) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠) ﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿يَجْرِمَنَّكُمْ﴾: يَحمِلنَّكم أو يُكسِبنَّكم، وأصلُ (جرم): يدلُّ على قَطعٍ(١).

﴿شِقَاقِي﴾: أي: عداوتي، أو مُخالفتي، وأصلُ (شقق): يدُلُّ على انصداعٍ في الشَّيءِ(٢).

مُشكِلُ الإعراب:

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾

﴿أَنْ نَفْعَلَ﴾: مصدرٌ مُؤوَّلٌ في محلِّ نَصبٍ عطفًا على (ما) في ﴿مَا يَعْبُدُ﴾، والتَّقديرُ: أصلاتُك تأمُرُك أن نترُكَ ما يعبُدُ آباؤُنا، أو أن نترُكَ أن نفعَلَ في أموالِنا

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٩٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٠).

ما نشاءُ، وليس بمعطوفٍ على ﴿أَنْ نَتْرُكَ﴾؛ إذ ليس المعنى: أصلاتُك تأمُرُك أن نفعَلَ في أموالِنا ما نشاءُ[1].

المعنى الإجماليُّ:

تُبَيِّنُ الآياتُ ما ردَّ به قومُ شُعَيبٍ عليه، فقالوا له: يا شُعَيبُ أهذه الصَّلاةُ التي تُداوِمُ عليها تأمُرُك بأن نترُكَ ما يعبُدُ آباؤنا من الأصنامِ والأوثانِ، أو أن نترُكَ التصَرُّفَ في كَسبِ أموالِنا بما نستطيعُ مِن احتيالٍ ومكرٍ؟ وقالوا- استهزاءً به-: إنَّك لأنت الحليمُ الرَّشيدُ، فقال لهم: يا قومِ أرأيتُم إن كنتُ على طريقٍ واضحٍ مِن ربِّي فيما أدعوكم إليه مِن إخلاصِ العِبادةِ له، وفيما أنهاكم عنه مِن ظُلمِ النَّاسِ، ورزَقَني منه رِزقًا واسِعًا حلالًا طَيِّبًا، أفأضِلُّ كما ضَلَلتُم؟ وما أريدُ أن أخالِفَكم فأرتكِبَ أمرًا نهيتُكم عنه، وما أريدُ فيما آمُرُكم به وأنهاكم عنه إلَّا إصلاحَكم قَدْرَ طاقتي واستطاعَتي، وما توفيقي- في إصابةِ الحَقِّ، ومحاولةِ إصلاحِكم- إلَّا باللهِ، على اللهِ وَحْدَه توكَّلتُ، وإليه أرجِعُ بالتَّوبةِ والإنابةِ، ويا قومِ لا تحمِلَنَّكم عداوتي وبُغضي ومُخالفتي في ديني على العنادِ والإصرارِ على ما أنتم عليه من الكُفرِ باللهِ، فيُصيبَكم مثلُ ما أصاب قومَ نوحٍ أو قومَ هودٍ أو قومَ صالحٍ مِن الهلاكِ، وما قومُ لوطٍ- الذين حلَّ بهم العذابُ- ببَعيدٍ منكم لا في الدَّارِ ولا في الزَّمانِ، واطلُبوا من ربِّكم المغفرةَ لذُنوبِكم، ثمَّ ارجِعوا إلى طاعتِه واستمِرُّوا عليها؛ إنَّ ربِّي رحيمٌ كثيرُ المودَّةِ والمحبَّةِ لِمَن تاب إليه وأناب.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧)﴾.

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣٧٢)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٧١١-٧١٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٣٧٢-٣٧٣).

﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ ﴾.

أي: قال قومُ شُعَيبٍ مُستهزئينَ بنبيِّهم: يا شُعيبُ، أصلاتُك[١] تأمُرُك أن نترُكَ ما يعبُدُ آباؤُنا من الأوثانِ والأصنام[٢]؟!

﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾.

أي: أو تأمُرُك صلاتُك أن نترُكَ فِعلَ ما نريدُ في أموالِنا من التَّطفيفِ في الكَيلِ والميزانِ[٣]؟!

﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾.

أي: قال قومُ شُعَيبٍ مُستهزئينَ بنبيِّهم: إنَّك- يا شُعَيبُ- لأنت الحليمُ الرَّشيدُ[٤] في أمرِك لنا بتَركِ عبادةِ الأصنامِ، وتَركِ بَخسِ النَّاسِ، يعنونَ بذلك وصفَه عليه السَّلامُ بالسَّفَهِ والجَهلِ[٥]!

---

(١) ممن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿أَصَلَاتُكَ﴾: الصلواتُ المعروفةُ: الزمخشريُّ والقرطبيُّ والسعدي وابن عاشور، وهو قولُ الحسنِ، وجعَل ابنُ عطيةَ هذا القولَ- وكذلك القولُ بأنَّها (الدعوات)- أقربَ الأقوال. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤١٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٨٧)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٠٠).

وقيل: إنَّ المرادَ بها: دينُه، قاله عطاءٌ. وقيل: قراءتُه، قاله الأعمش. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤٤)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٦٢)، ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٨٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٣٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٣).

(٤) قال ابن عاشور: (والحليمُ: ذو الحِلْمِ، أي: العقلِ، والرَّشيدُ: الحسنُ التَّدبيرِ في المالِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٤٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤٤، ٥٤٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٤٢). =

﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا اتَّهَمَ قومُ شُعَيبٍ عليه السَّلامُ شُعَيبًا بأنه يأمرهم بالقطيعةِ لآبائهم واتهموه بالسَّفَهِ، وعَنوا بقولِهم: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ نسبتَه إلى السفهِ والغيِّ على طريقِ التهكم؛ شرعَ في إبطالِ ما قالوا، ونَفيِ التُّهمةِ فيه(١).

﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗا ﴾.

أي: قال شُعَيبٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: يا قومِ أخبِروني إن كنتُ على يقينٍ وعلمٍ مِن الله فيما أمَرَني أن أدعوَكم إليه من توحيدِه، وفيما أنهاكم عنه مِن ظُلمِ

= قيل: المرادُ بقولهم: (الحليم الرشيد): (السفيه الجاهل)، فوصفوه بالحلم والرشدِ على سبيلِ التهكُّم والاستهزاءِ به. وممن قال بذلك: ابنُ جرير والواحديُّ، والزمخشري، والشوكانيُّ، ومحمد رشيد رضا، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٣٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٨٨- ٥٨٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ١١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٤٢).

وممن قال ذلك من السلف: ابنُ عباسٍ، وقتادةُ، وميمونُ بنُ مهران، وابنُ جريج، وابنُ أسلمَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٤).

وقيل: إنَّه عليه السلامُ كان مشهورًا عندَهم بأنَّه حليمٌ رشيدٌ، فلمَّا أمَرهم بمفارقةِ طريقتِهم قالوا له: إنَّك لأنت الحليمُ الرشيدُ، المعروفُ الطريقةِ في هذا الباب، فكيف تنهانا عن دينٍ ألفيناه مِن آبائِنا وأسلافِنا، فما تأمرُ به لا يطابقُ حالَك، وما شُهِرت به. والمقصودُ استبعادُ مثلِ هذا العملِ ممن كان موصوفًا بالحلمِ والرشدِ. وممن اختار هذا المعنى: الرازي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٨٧)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٢٥).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٥٧).

النَّاسِ، وأعطاني اللهُ مِن فَضلِه مالًا حلالًا طيِّبًا، أفأتَّبِعُ الضَّلالَ، وأضِلُّ كما ضَلَلتُم[١]؟

﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُ﴾.

أي: وما أريدُ أن أنهاكم عن شيءٍ ثمَّ أفعلَ خِلافَه[٢].

عن أسامةَ بنِ زَيدٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: سمعتُ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((يُؤتَى بالرَّجُلِ يومَ القيامةِ فيُلقى في النَّارِ، فتندلِقُ أقتابُ بَطنِه[٣]، فيدورُ بها كما يدورُ الحِمارُ بالرَّحى، فيَجتَمِعُ إليه أهلُ النَّارِ، فيقولونَ: يا فلانُ، ما لك؟! ألم تكُن تأمُرُ بالمعروفِ وتنهى عن المُنكَرِ؟! فيقولُ: بلى، قد كنتُ آمُرُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٣٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٧).
ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه تعالى: ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾: المالُ الحلالُ الطَّيِّبُ: ابنُ جرير، والواحدي- ونسَبه لأكثرِ المفسِّرينَ- والسعدي.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٣٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٥٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٧).
وممَّن قال بهذا القولِ من السلفِ: ابنُ عباسٍ، والضحَّاك. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ٢٠٧٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٩٧)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٤/ ٤٦٧).
وممَّن اختار أنها النبُوَّة: الزمخشري وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٤٣).
وقال ابن كثير: (قيل: أراد النبوَّة. وقيل: أراد الرِّزقَ الحلالَ، ويحتمِلُ الأمرينِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٤).
وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٥٢٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٩٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٤٣).
قال ابن عاشور: (معنى ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُم عَنْهُ﴾ عند جميع المفسِّرينَ من التابعينَ فمَن بَعدَهم: ما أريدُ ممَّا نهيتُكم عنه أن أمنَعَكم أفعالًا وأنا أفعَلُها، أي: لَم أكنْ لأنهاكم عن شيءٍ وأنا أفعَلُه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٤٣).
(٣) فتندلِقُ أقتابُ بطنِه: أي تخرجُ أمعاؤُه. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١١٧).

بالمعروفِ ولا آتيه، وأنهى عن المُنكَرِ وآتيه))[١].

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾.

أي: ما أُريدُ بنصيحتي لكم إلَّا إصلاحَ أمورِكم وأحوالِكم، ونَفْعَكم في دُنياكم وآخِرتكم بقَدرِ جُهدِي[٢].

﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا كان الكلامُ السَّابِقُ فيه نوعُ تَزكيةٍ للنَّفسِ، دفَعَ هذا بقولِه[٣]:

﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾.

أي: وما إصابتي الحَقَّ فيما أريدُه، وتيسُّرُ الخيرِ لي، إلَّا بإعانةِ اللهِ وَحدَه[٤].

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

أي: على اللهِ اعتمَدتُ، وفوَّضتُ إليه جميعَ أموري، وإليه وَحْدَه أرجِعُ بالتَّوبةِ والطَّاعةِ والدُّعاءِ[٥].

﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٧) ومسلم (٢٩٨٩)، واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٢٠، ٤٢١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤٩)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ١٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٧).

مُناسبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا بيَّن شُعَيبٌ عليه السَّلامُ لِقَومِه عُذرَه بما انتَفَت به تُهمتُه، أتبَعَه بما يدُلُّهم على أنَّ الحَقَّ وضَحَ لهم وضوحًا لم يبقَ معه إلَّا المُعاندةُ، فحَذَّرَهم عواقِبَها، وذكَّرَهم أمرَ مَن ارتكَبَها(١).

﴿ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖ ﴾.

أي: قال شُعيبٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لِقَومِه: ويا قومِ لا تحمِلَنَّكم مُخالفتي في ديني، وبُغضُكم لي، على الإصرارِ على الكُفرِ، وظُلمِ النَّاسِ، فيُصيبَكم مِن عذابِ اللهِ مثلُ ما أصاب قومَ نُوحٍ مِن الغرَقِ، أو قومَ هُودٍ مِن الرِّيحِ، أو قومَ صالحٍ مِن الرَّجفةِ(٢).

﴿وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴾.

أي: وما قومُ لوطٍ ببعيدٍ مِنكم، بل هم قريبٌ مِن ديارِكم، وأهلَكَهم اللهُ في زمانٍ قريبٍ مِن زمانِكم، فاعتَبِروا بهم(٣).

﴿ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ٩٠ ﴾.

مُناسبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا رهَّبَ شُعَيبٌ عليه السَّلامُ قومَه، أتبَعَه التَّرغيبَ في سياقٍ مُؤذِنٍ بأنَّهم

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٦٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٥٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٦). قال ابن كثير: (قيل: المرادُ في الزَّمان... وقيل: في المكانِ، ويحتملُ الأمران). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٦).

إن لم يبادِروا إلى المَتاب، بادَرَهم بالعذاب[١].

﴿ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ﴾.

أي: واستَغفِروا ربَّكم- يا قومِ- فاطلُبوا منه سَترَ ذُنوبِكم السَّالفةِ مِن الكُفرِ وظُلمِ النَّاسِ، والتَّجاوُزَ عن مؤاخَذتِكم بذلك، ثم توبُوا إلى ربِّكم فيما تَستَقبِلونَه؛ بالتَّوبةِ النَّصوحِ، والرُّجوعِ إلى طاعتِه، وامتثالِ أمرِه، وتَركِ مَعصيتِه[٢].

﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾.

أي: إنَّ ربِّي رحيمٌ بمن رجع إليه، محِبٌّ لعبادِه المُنيبينَ التَّائبينَ[٣].

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ نبَّهَت هذه الأجوبةُ الثَّلاثةُ على أنَّ العاقِلَ يجِبُ أن يُراعيَ في كلِّ ما يأتي ويذَرُ أحدَ حُقوقٍ ثلاثةٍ؛ أهمُّها وأعلاها: حقُّ اللهِ، وثانيها: حقُّ النَّفسِ، وثالثُها: حقُّ العبادِ، على وجهِ الإخلاصِ في الكُلِّ[٤].

٢- في قولِه تعالى: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الواعظَ إذا أراد أن يُقبَلَ منه الأمرُ والنَّهيُ، فلا بدَّ له إذا أَمَرَ بشيءٍ أن يكونَ أوَّلَ الفاعلينَ له المُؤتَمِرينَ به، وإذا نهى عن شيءٍ أن يكونَ أوَّلَ المُنتهينَ عنه؛ لأنَّ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٥٢)، ((النبوات)) لابن تيمية (١/ ٣٦٢ - ٣٦٤)، ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٨).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٥٩).

النُّفوسَ مَجبولةٌ على عدمِ الانتفاعِ بكلامِ مَن لا يعملُ بعلمِه، ولا يَنتَفِعُ به(١).

٣- قولُ الله تعالى: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ فيه ما يدُلُّ على أنَّ المُنتَقدينَ قِسمانِ: قِسمٌ ينتَقِدُ الشَّيءَ، ويقِفُ عند حدِّ النَّقدِ دون ارتقاءٍ إلى بيانِ ما يُصلِحُ المَنقودَ، وقِسمٌ ينتقِدُ ليبيِّنَ وجهَ الخطأ، ثم يُعقِبُه ببيان ما يُصلِحُ خَطأَه(٢).

٤- قولُ الله تعالى: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ هذه الصيغةُ تفيدُ الحصرَ، فلا ينبغي للإنسانِ أن يتوكَّلَ على أحدٍ إلَّا على الله تعالى(٣).

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ النَّدمَ على فِعلِ الفَسادِ والظُّلمِ- بالتَّوبةِ واستغفارِ الرَّبِّ تعالى- من أسبابِ خيرِ الدُّنيا والآخرةِ(٤).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ بيانُ أنَّ وُدَّه سُبحانه هو لِمَن تابَ إليه وأنابَ، فلا يَستوحِش أهلُ الذُّنوبِ، ويَنفِرونَ منه؛ فإنَّه ودودٌ رحيمٌ بالمؤمنينَ، يحبُّ التَّوابين ويحِبُّ المتطهِّرينَ(٥).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ﴾ سمَّوه باسمِه جفاءً وغِلظةً(٦).

٢- قولُ الله تعالى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٨٩)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ١٢١).

(٥) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (١/ ٣٦٩).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٥٦).

لَمَّا كانت الصلاةُ أخَصَّ أعمالِه المُخالفةِ لمُعتادِهم، جعلوها المُشيرةَ عليه بما بلَّغَه إليهم من أمورٍ مُخالِفةٍ لمُعتادِهم(١).

٣- قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ المقصودُ: بيانُ أنَّه مأمورٌ بذلك أمرًا يعُمُّ الأُمَّةَ وإيَّاه، وذلك شأنُ الشَّرائعِ، فخِطابُ الأمَّةِ يشمَلُ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ما لم يدُلَّ دليلٌ على تخصيصِه بخلافِ ذلك، ففي هذا إظهارُ أنَّ ما نهاهم عنه ينهى أيضًا نفسَه عنه(٢).

٤- في قولِه تعالى: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ دلالةٌ على أنَّه يُشترطُ فيمَن يَختارُ الإمامُ لمنصبِ الحِسْبَةِ(٣) أنْ يكونَ مُخلِصًا متجرِّدًا للنُّصحِ، فلا تكونُ له مصلحةٌ شخصيَّةٌ فيما يأمرُ أو يَنهى عنه، وإنَّما تكونُ غايتُه الإصلاحَ(٤).

٥- جَمَعَ قولُه تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ بين الأصلينِ: التوكُّلِ (وهو الوسيلةُ)، وبين الإنابةِ (وهي الغايةُ)؛ فإنَّ العبدَ لا بُدَّ له مِن غايةٍ مطلوبةٍ، ووسيلةٍ مُوصلةٍ إلى تلك الغايةِ، فأشرفُ غاياتِه التي لا غايةَ له أَجَلُّ منها: عبادةُ ربِّه والإنابةُ إليه، وأعظمُ وسائلِه التي لا وسيلةَ له غيرُها البتَّةَ: التوكُّلُ على اللهِ والاستعانةُ به(٥)، وهذان الأصلانِ يجمعانِ الدِّينَ كلَّه(٦).

٦- في قولِه تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ إثباتُ الصِّفاتِ الاختياريَّةِ لله تعالى، ووجهُ ذلك: أنَّ اللهَ تعالى يحِبُّ أصحابَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٤١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٤٤).

(٣) الحِسْبَة: منصبٌ كان يَتولَّاه في الدُّوَلِ الإسلامية رَئيسٌ يُشرِفُ على الشؤونِ العامَّة؛ مِن مراقبةِ الأسعارِ ورعايةِ الآدابِ. يُنظر: ((المعجم الوسيط)) (١/ ١٧١).

(٤) يُنظر: ((الحسبة)) لابن تيمية (ص: ٧٨).

(٥) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٥٦).

(٦) يُنظر: ((التحفة العراقية)) لابن تيمية (ص: ٤٣).

هذه الأعمالِ، فهو يحبُّ التَّوابينَ، وإنَّما يكونون توَّابينَ بعد الذَّنبِ، ففي هذه الحالِ يحبُّهم[1].

٧- في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ بعد قولِه: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ بيانُ مودَّتِه سُبحانه للمُذنِبِ إذا تاب إليه[2].

٨- قال شعيبٌ عليه السَّلامُ: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ ما ألطَفَ اقترانَ اسمِ الودودِ بالرَّحيمِ وبالغفورِ؛ فإنَّ الرجُلَ قد يغفِرُ لِمَن أساء إليه ولا يحِبُّه، وكذلك قد يرحَمُ من لا يحِبُّ، والرَّبُّ تعالى يغفِرُ لعبدِه إذا تاب إليه، ويرحَمُه ويحِبُّه مع ذلك؛ فإنَّه يحِبُّ التوَّابينَ، وإذا تاب إليه عبدُه أحبَّه، ولو كان منه ما كان[3].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾

- جملةُ: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ فيه وصْفُهم لِشُعيبٍ عليه السَّلامُ بالوَصْفَين على طريقةِ التَّهكُّمِ، وإنَّما أرادوا بذلك وصْفَه بضِدَّيْهما[4].

- وقد جاءت الجملةُ مؤكَّدةً بحرفِ (إنَّ)- في: ﴿إِنَّكَ﴾- ولامِ القسَمِ، وبصيغةِ القَصْرِ في جُملةِ: ﴿لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾، وهي تعريفُ الجُزأَين (أنتَ- الحليمُ)؛ فاشتمَلَت على أربعةِ مؤكِّداتٍ[5].

- وفي جملة ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ ما يُعرَفُ بالتمكينِ أو ائتلافِ

(١) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (١/ ٣٥٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٦٩).
(٣) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٩٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٣٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٤٢).

الفاصلةِ، ويُسمِّيه بعضُهم المُلاءَمَة(١)؛ وذلك أنَّه لَمَّا تقدَّم في الآية ذِكرُ العبادةِ، وتلاه ذِكرُ التصرُّفِ في الأموالِ في قولِه: ﴿قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء﴾؛ اقتضَى ذلك ذِكرَ الحِلمِ والرُّشدِ على الترتيبِ؛ لأنَّ الحِلمَ العقلُ الذي يَصِحُّ به تكليفُ العباداتِ ويَحضُّ عليها، والرشدَ حُسنُ التصرُّفِ في الأموالِ؛ فكان آخِرُ الآيةِ مُناسِبًا لأوَّلِها مُناسَبةً معنويَّةً(٢).

٢- قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾

- قولُه: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي...﴾ فيه مُراجعةٌ لطيفةٌ، واستِنْزالٌ حسَنٌ، واستِدْعاءٌ رقيقٌ، وهو ما يُسمَّى باستِدْراجِ المخاطَبِ؛ للبُلوغِ إلى الغرَضِ(٣).

- وحُذِف جوابُ ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ ولَم يُثبَتْ كما أُثبِتَ في قصَّةِ نوحٍ ولوطٍ؛ لأنَّ إثباتَه في القِصَّتَين دلَّ على مَكانِه، ومعنى الكلامِ يُنادي عليه(٤).

- قولُه: ﴿إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ فيه إيرادُ حرْفِ الشَّرطِ ﴿إِنْ﴾ مع جَزْمِ شُعَيبٍ عليه السَّلامُ بكَونِه على ما هو عليه مِن البيِّناتِ والحُجَجِ؛ لاعتبارِ حالِ

---

(١) التمكينُ: هو أن يُمَهِّد قبلَ الفاصلةِ تمهيدٌ تأتي به الفاصلةُ مُمَكَّنةً في مكانها، مُستقرَّةً في قرارِها، مُطمئِنَّةً في موضعها، غيرَ نافرةٍ ولا قَلِقَةٍ، مُتعلِّقًا معناها بمعنى الكلام كلِّه تَعلُّقًا تامًّا، بحيثُ لو طُرِحتْ لاختلَّ المعنى، واضطرَب الفَهمُ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (١/ ٧٩)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (١/ ٨٠)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٩٨).

المخاطَبين ومُراعاةِ حُسنِ المحاورةِ معَهم[١].

- قولُه: ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ على القول بأنَّ المرادَ بالرِّزقِ الحسَنِ هنا هو نِعمةُ النُّبوَّة؛ ففيه تعبيرُ شُعيبٍ عليه السَّلامُ عَن النُّبوَّةِ بالرِّزقِ؛ على وجْهِ التشبيهِ مُشاكَلةً لقولِهم: ﴿أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾؛ لأنَّ الأموالَ أرزاقٌ[٢].

- قولُه: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ بيانٌ لقولِه: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾؛ لأنَّ انتِفاءَ إرادةِ المخالَفةِ إلى ما نَهاهم عنه مُجمَلٌ فيما يُريدُ إثباتَه مِن أضدادِ المنفيِّ، فبيَّنه بأنَّ الضِّدَّ المرادَ إثباتُه هو: الإصلاحُ في جميعِ أوقاتِ استِطاعتِه بتَحْصيلِ الإصلاحِ؛ فالقَصْرُ قَصرُ قَلبٍ[٣]، وأفادَت صيغةُ القصرِ (إنْ... إلَّا) تأكيدَ ذلك؛ لأنَّ القَصْرَ قد كان يَحصُلُ بمجرَّدِ الاقتصارِ على النَّفيِ والإثباتِ، نحوُ أن يَقولَ: (ما أريدُ أن أُخالِفَكم، أُريدُ الإصلاحَ)[٤].

- قولُه: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ فيه إيثارُ صيغةِ الاستقبالِ ﴿أُنِيبُ﴾ على الماضي الأنسَبِ للتَّقرُّرِ والتَّحقُّقِ كما في ﴿تَوَكَّلْتُ﴾؛ لاستحضارِ الصُّورةِ والدَّلالةِ على الاستمرارِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٤٢).

(٣) القصر - في اصطلاح البلاغيين -: هو تخصيص شيء بشيء وحصره فيه، ويُسمَّى الأمر الأول: مقصورًا، والثاني: مقصورًا عليه، مثل: إنما زيد قائم، و: ما ضربت إلَّا زيدًا. وقصر القلب: أن يقلب المتكلم فيه حُكم السامع، كقولك: ما شاعرٌ إلَّا زيدٌ، لمن يعتقد أنَّ شاعرًا في قبيلة معينة أو طرف معين، لكنَّه يقول: ما زيدٌ هناك بشاعر. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨)، و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجرجاني (١/ ١٧٥-١٧٦)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧ - ١٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٣٤).

- وقولُه تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ يفيدُ الحصرَ، فيدُلُّ على أنَّه لا مآبَ للخَلقِ إلَّا إلى اللهِ تعالى[1].

٣- قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ جملةٌ تعليليَّةٌ للأمرِ بالاستغفارِ والتَّوبةِ[2].

- ولفظةُ: ﴿وَدُودٌ﴾ بناءُ مُبالَغةٍ مِن وَدَّ الشَّيءَ، أي: أحَبَّه وآثَرَه[3].

- وقولُه: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾، و﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ فيه تَفنُّنٌ في إضافةِ الرَّبِّ إلى ضميرِ نفسِه مرَّةً، وإلى ضميرِ قومِه أخرى؛ لِتَذكيرِهم بأنَّه ربُّهم؛ كَيْلا يَستمِرُّوا على الإعراضِ، ولِلتَّشرُّفِ بانتِسابِه إلى مَخلوقيَّتِه[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٧٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٤٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٠٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٤٧).

الآيات (٩١-٩٥)

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٩١) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢) وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (٩٥)﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿مَكَانَتِكُمْ﴾: أي: طَريقتِكم التي أنتم عليها، تقولُ للرَّجُلِ إذا أمَرْتَه أن يَثبُتَ على حالِه: على مكانَتِك، أي: اثبُتْ على ما أنت عليه[1] .

﴿نَفْقَهُ﴾: أي: نفهمُ، ويقال: فقهتُ الكلام إذا فهمتَه حقَّ فهمِه، والفقهُ: هو التوصلُ إلى علمِ غائبٍ بعلمٍ شاهدٍ، وأصلُ (فقه): يدلُّ على إدراكِ الشيءِ، والعلمِ به[2].

﴿رَهْطُكَ﴾: أي: عشيرتُك وقومُك، وأصلُ (رهط): يدلُّ على تجمُّعٍ في النَّاسِ وغيرِهم[3].

﴿لَرَجَمْنَاكَ﴾: أي: لقتلناك رميًا بالحجارةِ، أو لَسَبَبْناك، وأصلُ (رجم): رميٌ

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢٩٣)، ((البسيط)) للواحدي (٨/ ٤٥٠).
(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩١).

بالحجارةِ(١).

﴿ظِهْرِيًّا﴾: الظِّهْرِيُّ: كلُّ شَيءٍ تجعَلُه بظَهرٍ، أي: تَنساه، كأنَّك قد جعلتَه خلفَ ظَهرِك؛ إعراضًا عنه وتركًا له، وأصلُ (ظهر): يدلُّ على قوَّةٍ وبُروزٍ(٢).

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى عن قومِ شُعَيبٍ أنَّهم قالوا له: يا شُعَيبُ لا نفهم كثيرًا ممَّا تقولُ، وإنَّا لَنراك فينا ضعيفًا، ولولا مُراعاةُ عَشيرتِك- الذين هم من أهلِ مِلَّتِنا- لرجمناك، وليس لك قَدْرٌ أو مكانةٌ في نفوسِنا. قال: يا قومِ أعشيرتي أعَزُّ وأكرَمُ عليكم من اللهِ؟ وجعلتُموه خلفَ ظُهورِكم، لا تأتَمِرونَ بأمرِه، ولا تنتَهونَ بنهيِه، إنَّ ربِّي بما تَعملونَ مُحيطٌ، لا يخفى عليه من أعمالِكم مِثقالُ ذَرَّةٍ، وسيُجازيكم عليها.

ويا قومِ اعمَلوا على طريقتِكم وحالتِكم، إنِّي عاملٌ مُثابِرٌ على طريقتي ودِيني، سوف تعلمونَ مَن مِنَّا يأتيه عذابٌ يذلُّه، ومَن منَّا كاذبٌ في قولِه، أنا أم أنتم؟ وانتَظِروا ما سيَحُلُّ بكم، إنِّي معكم من المُنتَظِرينَ، ولَمَّا جاء أمرُنا بإهلاكِ قَومِ شُعَيبٍ نجَّينا رسولَنا شُعيبًا والذين آمنوا معه برحمةٍ منَّا، وأخذتِ الذين ظلَموا الصَّيحةُ من السَّماءِ فأهلكَتْهم، فأصبحوا في ديارِهم باركينَ على رُكَبِهم، مُنكبِّينَ على وُجوهِهم؛ ميِّتينَ، لا حِرَاكَ بهم، كأنْ لم يُقيموا في ديارِهم وقتًا من الأوقاتِ، ألا بُعدًا لـمَدينَ- إذ أهلَكها اللهُ وأخزاها- كما بَعِدَت قبلَهم ثمودُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٠).

رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٖ ﴿٩١﴾﴾.

مُناسبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا رأى قومُ شُعَيبٍ عليه السَّلامُ أنَّه لا يَنزِعُ عنهم، ولم يَقدِروا لكلامِه على جوابٍ؛ أيأسُوه من الرُّجوعِ إليه بأن أنزَلوا أنفُسَهم- عنادًا في الفَهمِ لهذا الكلامِ الواضِحِ جِدًّا- إلى عِدادِ البهائمِ، وهَدَّدوه[1].

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ﴾.

أي: قال قومُ شُعَيبٍ: يا شُعَيبُ لا نفهَمُ كثيرًا ممَّا تَعِظُنا وتُخبِرُنا به[2].

﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ﴾.

أي: وإنَّا لنراك فينا ضعيفًا، لا قُوَّةَ لك تقدِرُ بها على أنْ تمنعَ نفسَكَ مِنَّا[3].

﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ﴾.

أي: ولولا معَزَّتُنا لِعَشيرتك وجماعتِك- الذين هم على دينِنا- لرجمناك[4].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٦).

قال القرطبي: (﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾ أي: ما نفهمُ؛ لأنَّك تحمِلُنا على أمورٍ غائبةٍ مِن البعث والنُّشورِ، وتَعِظُنا بما لا عهدَ لنا بمِثلِه. وقيل: قالوا ذلك إعراضًا عن سماعِه، واحتقارًا لكلامِه). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٩٠)، ((تفسير المنار)) (١٢/ ١٢٢)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٢٧).

قيل في معنَى ﴿ضَعِيفًا﴾ أي: ليس لك جندٌ وأعوانٌ تقدرُ بها على مخالفتِنا، وقيل: المعنى: لست من الكبارِ والرؤساءِ، وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٨). =

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾.

أي: وما أنت علينا بكَريم، ولا مَعَزَّةَ لك عندنا ولا قَدْرَ، ولا نُبالي بإذلالِك[1].

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ٩٢﴾.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

أي: قال شعيبٌ لقومِه: يا قومِ أعشيرتي أعظَمُ مِن اللهِ في قُلوبِكم وأعَزُّ عليكم منه، فتركتُم رجمي لأجلِ عَشيرتي وليس لله عزَّ وجلَّ[2]؟!

﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّا﴾.

أي: وجعلتُم اللهَ خلفَ ظُهورِكم مُستخِفِّينَ به، لا تخافونَ منه، ولا تُطيعونَه، ولا تعَظِّمونَه[3]!

﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾.

= قيل: معنى ﴿لرجمناك﴾: لقتلناك رجمًا بالحجارةِ. وممَّن اختار هذا المعنى: القرطبي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩١).

وقيل المراد: لسَبَبْناك. وممَّن اختار هذا المعنى: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٥٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٨).

قال الواحدي: (وجميعُ أهلِ المعاني قالوا: الكِنايةُ في قولِه: ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ﴾ تعودُ إلى أمرِ اللهِ، وما جاءَهم به شُعَيبٌ مِن الله تعالى، وهو في الظَّاهِر يعودُ على اسمِ اللهِ تعالى، ولكنَّه يُعرَفُ بالمعنى: أنَّ المرادَ منه الأمرُ، كما تقولُ العرَبُ: جعلتَني خَلْفَ ظَهرِك ودَبْرَ أُذُنِك؛ يريدونَ: جعلتَ أمري وحاجَتي وكَلامي). ((البسيط)) (١١/ ٥٣٧).

أي: إنَّ ربِّي مُحيطٌ عِلمًا بجميعِ أعمالِكم، وسيُجازيكم عليها(١).

﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ﴿٩٣﴾ ﴾.

مُناسبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا يئِسَ نبيُّ الله شُعيبٌ مِن استجابةِ قَومِه له، وأعيَوه، وعجَزَ عنهم، قال(٢):

﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ ﴾.

أي: ويا قومِ، اعمَلوا على حالِكم وطريقتِكم التي أنتم عليها، إنِّي عامِلٌ على طريقتي وديني(٣).

كما قال سُبحانَه لنبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٤].

وقال تبارك وتعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١ - ٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٨).

(٢) ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٨).

﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ﴾.

أي: سوفَ تعلمونَ مَن يأتيه عذابٌ من اللهِ يُذِلُّه، ومَن هو كاذِبٌ منا، أنا أم أنتم[1]؟

﴿وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾.

أي: وانتَظِروا نزولَ العذابِ، إنِّي معكم مُنتَظِرٌ نُزولَه بكم[2].

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾.

أي: ولَمَّا أتى عذابُنا نجَّينا شُعَيبًا والمؤمنينَ معه بفَضلٍ منَّا عليهم[3].

﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾.

أي: وأصابت الصَّيحةُ الذين ظَلَموا أنفُسَهم بالكُفرِ، فصاروا في مَنازِلِهم لاصقينَ بالأرضِ على رُكَبِهم، ومُنكَبِّينَ على وُجوهِهم صَرْعى، خامِدينَ لا حياةَ فيهم[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٧)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٥٩)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٥٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٨).

قال ابن عطية: (قوله: ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ إمَّا أن يُقصَدَ الإخبارُ عن الرحمةِ التي لحِقَت شُعيبًا لنبوَّتِه وحُسنِ عَمَلِه وعمَلِ متَّبِعيه، وإمَّا أن يُقصَدَ أنَّ التَّنجيةَ لم تكنْ إلَّا بمجرَّدِ رحمةٍ، لا بعمَلٍ من أعمالِهم). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٧).

كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٩١].

وقال سُبحانه: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩].

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾.

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾.

أي: كأنَّ قومَ شُعَيبٍ لَمَّا جاءهم العذابُ لم يعيشُوا في ديارِهم، ولم يتمتَّعوا فيها(١).

﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾.

أي: ألا أبعدَ اللهُ مَدْيَنَ مِن رحمتِه، كما بَعِدَت مِن قَبلِهم ثمودُ(٢).

كما قال تعالى عن ثمود: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ * وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ *كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ﴾ [هود: ٦٦ - ٦٨].

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١ - المؤمِنُ لا يعتَزُّ إلَّا بربِّه، ولا يرضى أن تكونَ له عَصَبةٌ تُخشى ولا يُخشى ربُّه، فعَصبيَّةُ المُسلِم ليست لرَهطِه وقَومِه، إنَّما هي لربِّه ودِينِه؛ يُرشِدُ إلى ذلك قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٦١)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٨).

ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾(١)، لكنَّ المُتَمسِّكَ بدينِه قد يعينُه اللهُ، ويُعِزُّه بنُصرةِ قريبِه الكافرِ، كما بيَّن اللَّهُ تعالى بقولِه حكايةً عن قَومِ شُعَيبٍ ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ فمنَعه اللَّهُ مِن الكُفَّارِ، وأعزَّ جانبَه بسَببِ العواطفِ العَصَبيَّةِ، والأواصِرِ النَّسبيَّةِ مِن قومِه الذين هم كُفَّارٌ(٢).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ فيه أنَّه تعالى إنَّما خَلَّصَه من ذلك العذابِ لِمَحضِ رحمتِه؛ تنبيهًا على أنَّ كُلَّ ما يصِلُ إلى العبدِ، فليس إلَّا بفَضلِ اللهِ ورَحمتِه(٣).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾، وقولُه تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ [فصلت: ٥] من يتدَبَّرْ ما ذكَرَه اللهُ عن أعداءِ الرُّسُلِ مِن نفيِ فِقهِهم وتكذيبِهم، يجِدْ بعضَ ذلك فيمن أعرَضَ عن ذِكرِ اللهِ وعن تدبُّرِ كتابِه، واتَّبَع ما تتلوه الشَّياطينُ، وما تُوحيه إلى أوليائِها(٤).

٢- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ فيه أنَّ اللهَ يَدفَعُ عن المؤمنينَ بأسبابٍ كثيرةٍ قد يعلمونَ بعضَها، وقد لا يعلمونَ شَيئًا منها، وربَّما دفع عنهم بسبَبِ قَبيلتِهم أو أهلِ وَطنِهم الكُفَّارِ، وأنَّ هذه الرَّوابِطَ التي يحصُلُ بها الدَّفعُ عن الإسلامِ والمُسلمينَ لا بأسَ بالسَّعيِ فيها، بل ربَّما تعيَّنَ ذلك؛ لأنَّ الإصلاحَ مَطلوبٌ على حسَبِ القُدرةِ والإمكانِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٤/ ١٩٢٣).
(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٩٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٩٣).
(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢١٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٨٨).

٣- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ الرَّجمُ: القتلُ بالحجارةِ رَميًا- على أحدِ وجْهَي التفسيرِ- وهو قِتلةُ حَقارةٍ وخِزيٍ، وفيه دَلالةٌ على أنَّ حُكمَ من يخلعُ دينَه الرَّجمُ في عوائِدِهم[١].

٤- قال الله تعالى: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ ذكرَ هاهنا أنَّه أتَتهم صيحةٌ، وفي الأعرافِ رَجفةٌ، وفي الشُّعَراءِ عذابُ يومِ الظُّلَّة، وهم أمَّةٌ واحدةٌ[٢]، اجتمع عليهم يومَ عذابِهم هذه النِّقَمُ كُلُّها، وإنَّما ذُكِرَ في كلِّ سياقٍ ما يُناسِبُه، ففي الأعرافِ لَمَّا قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا﴾ [الأعراف:٨٨] ناسبَ أن يُذكَرَ هناك الرَّجفةُ، فرجَفَت بهم الأرضُ التي ظَلَموا بها، وأرادوا إخراجَ نبيِّهم منها، وهاهنا لَمَّا أساؤوا الأدبَ في مقالتِهم على نبيِّهم ناسب ذِكر الصَّيحةِ التي أسكَتَتْهم وأخمَدَتهم، وفي الشُّعَراءِ لَمَّا قالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧] قال: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٥٠).

(٢) قال الشنقيطي: (والعلماءُ مختلفونَ: هل أصحابُ الأيكةِ هم مَدْيَنُ أنفسُهم، فيكون شعيبٌ أُرْسِلَ إلى أُمَّةٍ واحدةٍ، أو مدينُ أمةٌ، وأصحابُ الأيكةِ أمةٌ أخرى، فيكون شعيبٌ قد أُرْسِلَ إلى أُمَّتَيْنِ؟ هذا خلافٌ معروفٌ بَيْنَ العلماءِ، وأكثرُ أهلِ العلمِ على أنهم أمةٌ واحدةٌ، كانوا يعبدونَ أيكةً، أي: شجرًا مُلْتَفًّا، وأن اللَّهَ سماهم مرةً بنسبهم «مدين» ومرةً أضافهم إلى الأيكةِ التي يعبدونَها. وجزمَ بصحةِ هذا ابنُ كثيرٍ في تاريخِه وتفسيرِه، وَمِمَّنِ اشتهر عنه أنهم أُمَّتَانِ قتادةُ وجماعةٌ، وهو خلافٌ معروفٌ.
والذين قالوا: إنهما أُمَّتَانِ قالوا: في «مدين» قال: إنَّه أخوهم حيث قال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ [الأعراف: آية ٨٥] أما أصحابُ الأيكةِ فلم يَقُلْ: إنَّه أخوهم، بل قال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ [الشعراء: الآيتانِ ١٧٦، ١٧٧] ولم يقلْ: أخوهم شعيبٌ.
وأُجيب عن هذا بأنَّه لَمَّا ذَكَر مَدينَ ذَكَر الجدَّ الذي يشملُ القبيلةَ، ومِنْ جُملتِها شعيبٌ، ذكر أنه أخوهم من النسبِ. أما قولُه: ﴿أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ فمعناه: أنَّهم يعبدونها، ولَمَّا ذَكَرهم في مقامِ الشركِ وعبادةِ غيرِ اللَّهِ لم يُدْخِلْ معهم شعيبًا في ذلك وهم أمةٌ واحدةٌ. هكذا قاله بعضُهم، واللَّهُ أعلمُ). ((العذب النمير)) (٣/ ٥٧٢).

يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩] وهذا من الأسرارِ الغريبةِ الدَّقيقةِ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾

- قولُه: ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ فيه تأكيدُهم للكلامِ بـ(إنَّ) ولامِ الابتداءِ؛ مُبالَغةً في تنزيلِه مَنزِلةَ مَن يَجهَلُ أنَّهم يَعلَمون ذلك فيه، أو مَن يُنكِرُ ذلك[٢].

- وجملةُ ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ مؤكِّدةٌ لمضمونِ قولِه: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾؛ لأنَّه إذا انتفى كونُه قويًّا في نُفوسِهم، تَعيَّن أنَّ كَفَّهم عن رَجْمِه -مع استِحْقاقِه إيَّاه في اعتقادِهم- ما كان إلَّا لأجلِ إكرامِهم رَهْطَه، لا للخوفِ منهم، وعُطِفَت هذه الجملةُ على الَّتي قبْلَها -مع أنَّ حقَّ الجملَةِ المؤكِّدةِ أنْ تُفصَلَ ولا تُعطَفَ- لأنَّها مع إفادتِها تأكيدَ مضمونِ الَّتي قبْلَها أفادَت أيضًا حُكمًا يَخُصُّ المخاطَبَ؛ فكانت بهذا الاعتبارِ جَديرةً بأن تُعطَفَ على الجُمَلِ المفيدةِ أحوالَه مِثلُ جملةِ ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾ والجُمَلِ بَعدَها[٣].

٢- قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾

- الاستفهامُ في قولِه: ﴿أَرَهْطِي﴾ إنكاريٌّ؛ أي: اللهُ أعَزُّ مِن رَهْطي، وهو كنايةٌ عن اعتِزازِه باللهِ لا برَهْطِه، فلا يَريبُه عدَمُ عِزَّةِ رَهْطِه عليهم، وهذا تهديدٌ لهم بأنَّ اللهَ ناصِرُه؛ لأنَّه أرسَلَه فعِزَّتُه بعِزَّةِ مُرْسِلِه[٤]، وإنَّما أنكر

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٤٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٥٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

عليهم أعَزِّيَّةِ رهطِه منه تعالى مع أنَّ ما أثبَتوه إنَّما هو مُطْلَقُ عزَّةِ رهطِه، لا أعَزِّيَّتُهم منه عزَّ وجلَّ، مع الاشتِراك في أصلِ العزَّة؛ لِتَثنيةِ التَّقريعِ، وتكْريرِ التَّوبيخِ؛ حيث أنكَر عليهم أوَّلًا تَرجيحَ جَنْبةِ الرَّهطِ على جَنْبةِ اللهِ تعالى، وثانيًا بنَفْيِ العِزَّةِ بالمرَّة[1].

- قولُه: ﴿ظِهْرِيًّا﴾ فيه كِنايةٌ عن النِّسيانِ؛ لأنَّ الشَّيءَ الموضوعَ بالوَراءِ يُنْسى؛ لقِلَّةِ مُشاهَدتِه؛ فهو يُشبِهُ الشَّيءَ المجعولَ خَلْفَ الظَّهرِ في ذلك[2].

- قولُه: ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ استئنافٌ، أو تعليلٌ لِمَفهومِ جُملةِ ﴿أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ الَّذي هو تَوكُّلُه عليه واستِنْصارُه به، وفيه تعريضٌ بالتَّهديدِ[3].

٣- قوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾

- قوله: ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ ذَكَر عمَلَهم على مكانتِهم وعمَلَه على مكانتِه، ثم أتْبعه ذِكرَ عاقبةِ العاملينَ منه ومنهم، وكان الظاهرُ أنْ يقولَ: (مَن يأتيه عذابٌ يُخزيه ومَن هو صادقٌ)؛ حتَّى يَنصرِفَ ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ إلى الجاحِدين، و(مَن هو صادقٌ) إلى النبيِّ المبعوثِ إليهم؛ ولكنَّهم لَمَّا كانوا يَدْعُونه كاذبًا، قال: ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ يعني: في زعْمِكم ودَعواكم؛ تَجهيلًا لهم. وقيل: إنَّ الكَلامينِ ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ جميعًا لهم؛ فالأوَّل مُضمَّنٌ ذِكرَ جُرمِهم الذي يُجازون به، وهو

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٣٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٥١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٥١-١٥٢).

الكذبُ، ويكون مِن بابِ عَطف الصِّفةِ على الصِّفةِ، والموصوفُ واحدٌ، كما تقولُ لِمَن تُهدِّدُه: ستَعلمُ مَن يُهانُ ومَن يُعاقَبُ، والمخاطَبُ هو المقصودُ في الكلامَينِ؛ فإذا ثبَت صَرْفُ الكلامينِ إليهم كان فيه دَلالةٌ على ذِكرِ عاقبتِه هو؛ لأنَّ أحدَ الفريقين إذا كان مُبطِلًا فالآخَرُ هو المحقُّ قطعًا؛ فذِكرُه لإحْدى العاقبتَينِ صريحًا يُفهِمُ ذِكرَ الأخرى تَعريضًا، والتعريضُ في كثيرٍ مِن مواضعِه أبلغُ وأوقعُ من التصريحِ، وهذا مِنه، ويَدُلُّ على أنَّ الكَلامَين لهما أنَّ عاقِبةَ أمْرِ شُعيبٍ لم تُذكَرْ؛ استِغْناءً عنها بذِكْرِ عاقِبتِهم، وكذلك قولُه في سورةِ الأنعامِ: ﴿قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ﴾؛ فذكَر هناك أيضًا إحْدى العاقِبَتَين؛ لأنَّ المرادَ بهذه العاقبةِ عاقبةُ الخيرِ، ومَتى أُطلِقَت فلا يُعْنى إلَّا ذلك، كقولِه: ﴿وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ واستَغْنى عن ذِكْرِ مُقابِلَتِها، وهنا في آيةِ هودٍ فقد ذكَر عاقبتَهم، وهي ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾، واستَغْنى بها عن عاقِبتِه، فلْيُتأمَّلْ هذا؛ فإنَّه تُحفةٌ لِمَن همُّه نَظمُ دُررِ الكِتابِ العزيزِ، وضَمِّ بعضِها إلى بَعضٍ[1].

- والأمرُ في ﴿اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ﴾ للتَّهديدِ[2].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا في سورةِ (هودٍ): ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾، وقال في (الأنعام): ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ [الأنعام: ١٣٥]، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ [هود: ٣٩]، وكذلك

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- الحاشية)) (٢/ ٤٢٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ٤٢١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٥٢).

في سورةِ (الزُّمرِ) في قولِه: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ [الزمر: ٣٩- ٤٠]؛ فأُفرِدَت آيةُ (هودٍ) هذه بمَجيءِ حرْفِ التَّسويفِ (سوف) بلا فاءِ التَّعقيبِ، بخلافِ الأُخرَيَينِ مع اتِّفاقِ الآياتِ الثَّلاثِ في التَّهديدِ، وحرْفِ التَّسويفِ، ووجهُ ذلك: أن قولَه: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُوْنَ﴾ بالفاءِ حيثُ وقَع، وفي هودٍ: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُوْنَ﴾ بغيرِ فاءٍ؛ لأنَّه تقدَّم في هذه السورةِ وغيرِها ﴿قُلْ﴾ فأمَرهم أمرَ وعيدٍ بقولِه: ﴿اعْمَلُوا﴾ أي: اعملوا فستجزَونَ، فوقَع جوابًا بالأمرِ قبْلَه، ولم يكُنْ في (هودٍ) (قل) فصار استئنافًا؛ لأنَّه لم يتقدَّمْه أمرٌ. وقيل: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُوْنَ﴾ في سورةِ (هودٍ) صفةٌ لـ ﴿عَامِلٌ﴾، أي: إنِّي عاملٌ سوفَ تعلمون، فحَذَف الفاءَ[(١)].

وقيل: لم يُقرَنْ حرفُ (سَوف) في قولِه: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ في هذه الآيةِ بالفاءِ، وقُرِن في آيةِ سورةِ (الأنعامِ) بالفاءِ مِن قولِه تعالى: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٥]؛ لأنَّ جُملةَ ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ هنا جُعِلَت مُستأنَفةً استئنافًا بيانيًّا؛ إذ لَمَّا فاتَحهم بالتَّهديدِ كان ذلك يُنشِئُ سُؤالًا في نُفوسِهم عمَّا ينشَأُ على هذا التَّهديدِ، فيُجابُ بالتَّهديدِ بـ ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾؛ ولكونِه كذلك كان مُساويًا للتَّفريعِ بالفاءِ الواقعِ في آيةِ (الأنعامِ) في المآلِ، ولكنَّه أبلَغُ في الدَّلالةِ على نَشْأةِ مَضمونِ الجملَةِ المستأنَفةِ عن مضمونِ الَّتي قبْلَها؛ ففي خِطابِ شُعيبٍ عليه السَّلامُ قومَه مِن الشِّدَّةِ ما ليس في الخِطابِ المأمورِ به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في سورةِ (الأنعامِ)؛ جَريًا على ما أرسَل اللهُ به رَسولَه محمَّدًا صلَّى اللهُ

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ١٧٧)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ١٩٨). ويُنظر أيضًا: ((درة التنزيل)) للإسكافي (٢/ ٥٥١- ٥٥٤)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ١٧١- ١٧٢).

عليه وسلَّم مِن اللِّينِ لهم: ﴿فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وكذلك التَّفاوُتُ بين مَعمولَيْ ﴿تَعلَمُونَ﴾؛ فهو هنا غَليظٌ شديدٌ: ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كاذِبٌ﴾، وهو هنالِك ليِّنٌ: ﴿مَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ﴾(١).

- وأيضًا مِن الفَرْقِ بينَ إدخالِ الفاءِ ونَزْعِها في ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: أنَّ إدخالَ الفاءِ وصْلٌ ظاهِرٌ بحَرْفٍ موضوعٍ للوَصْلِ، ونَزْعَها وصْلٌ خفيٌّ تقديريٌّ بالاستِئْنافِ الَّذي هو جَوابٌ لسُؤالٍ مقدَّرٍ، فيَجعَلُه جوابًا عن سُؤالٍ مُقدَّرٍ، والتَّقديرُ: أنَّه لَمَّا قال: ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ﴾، فكأنَّهم قالوا: فماذا يَكونُ إذا عَمِلنا نحنُ على مَكانتِنا وعَمِلتَ أنت؟ فقال: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾؛ فوصَل تارةً بالفاءِ وتارةً بالاستئنافِ؛ للتَّفنُّنِ في البلاغةِ، كما هو عادةُ البُلَغاءِ، وأقوى الوَصْلَين وأبلَغُهما الاستئنافُ، وهو بابٌ مِن أبوابِ عِلمِ البيانِ، تتَكاثَرُ مَحاسِنُه؛ فظهَر أنَّ حذْفَ حرْفِ الفاءِ هاهنا أكمَلُ في بابِ الفظاعةِ والتَّهويلِ(٢).

- قولُه: ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ فيه وصْفُ العذابِ بالإخزاءِ؛ تَعْريضًا بما أَوعَدوا شُعيبًا عليه السَّلامُ به مِن الرَّجْمِ؛ فإنَّه مع كونِه عَذابًا فيه خِزْيٌ ظاهِرٌ، حيث لا يكون إلَّا بجنايةٍ عَظيمةٍ تُوجِبُه(٣).

- قولُه: ﴿وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾: في زيادةِ ﴿مَعَكُمْ﴾ إظهارٌ مِنه عليه السَّلامُ لكَمالِ الوُثوقِ بأمرِه(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٥٢-١٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٢٤)، ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٩٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٣٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- ولفظةُ: ﴿رَقِيبٌ﴾ على وَزْنِ فَعيلٍ؛ للمُبالَغةِ(١).

٤- قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ فيه مناسَبةٌ حسنةٌ، حيث ساق قصَّةَ عادٍ وقصَّةَ مَدْيَنَ بالواوِ، وساقَ الوُسْطَيَين (قِصَّتَيْ صالحٍ ولوطٍ) بالفاءِ؛ لأنَّ الوُسْطَيَين وقَعَتا بعد ذِكْرِ الوعدِ، وذلك قولُه: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾، وقولُه: ﴿ذلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾؛ فجيءَ بالفاءِ الَّذي هو للتَّسْبيبِ، كما تقولُ: وعَدتُه، فلمَّا جاء الميعادُ كان كَيْتَ وكَيْتَ، وأمَّا الأُخْرَيانِ فلَم تَقَعا بتِلك المثابةِ، وإنَّما وقَعَتا مُبتدَأَتَين؛ إذْ لم يَسبِقْه ذِكْرُ وعدٍ يَجْري مَجْرى السَّببِ له؛ فكان حقُّهما أن تُعطَفا بحرفِ الجمعِ على ما قَبْلَهما، كما تُعطَفُ قصَّةٌ على قصَّةٍ(٢).

- قولُه: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ فيه وضعُ الظَّاهرِ ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ مَوضِعَ المضمَرِ- حيث لم يَقُلْ: (وأخَذَتْهم)-؛ تسجيلًا عليهم بالظُّلمِ، وإشعارًا بأنَّ ما أخَذَهم إنَّما أخَذَهم بسَببِ ظُلمِهِمُ الَّذي فُصِّل فيما سبَق(٣).

٥- قولُه تعالى: ﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾

- قولُه: ﴿أَلَّا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ فيه العُدُولُ عن الإضمارِ إلى الإظهارِ؛ لِيكونَ أدَلَّ على طُغْيانِهم الَّذي أدَّاهم إلى هذه المرتَبةِ، ولِيَكونَ أنْسَبَ بمَنْ شُبِّهَ هَلاكُهم بهَلاكِهم وهم ثَمودُ، وإنَّما شُبِّه هَلاكُهم بهَلاكِهم؛

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٢٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٣٧).

لأنَّهما أُهلِكَتا بنَوعٍ من العذابِ، وهو الصَّيحةُ[١].

- قولُه: ﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ فيه تَشبيهُ (البعد) الَّذي هو انقِراضُ مَدْيَنَ بانقراضِ ثَمودَ، ووَجهُ الشَّبَهِ التَّماثُلُ في سبَبِ عِقابِهم بالاستئصالِ، وهو عَذابُ الصَّيحةِ، ويجوزُ أن يكونَ المقصودُ من التَّشبيهِ الاستِطْرادَ بذَمِّ ثَمودَ؛ لأنَّهم كانوا أشَدَّ جُرأَةً في مُناوَأَةِ رُسلِ اللهِ تعالى، فلمَّا تَهيَّأ المقامُ لاختِتامِ الكلامِ في قَصصِ الأممِ البائدةِ؛ ناسَب أن يُعادَ ذِكرُ أشَدِّها كُفرًا وعِنادًا، فشُبِّه هُلْكُ مَدْيَنَ بهُلْكِهم[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٥٤).

الآيات (٩٦-٩٩)

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿سُلْطَانٍ﴾: أي: حُجَّة، وأصْلُ السُّلطانِ: القوَّةُ والقهرُ، من التَّسلُّط؛ ولذلك سُمِّي السُّلطانُ سُلطانًا(١).

﴿الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾: أي: المَدخَلُ المَدخولُ، وأصلُ (ورد): يدلُّ على المُوافاةِ إلى الشَّيءِ(٢).

﴿الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾: أي: العطاءُ المُعطَى، والعونُ المُعانُ، وأصلُ (رفد): يدلُّ على مُعاونةٍ ومُظاهرةٍ بالعَطاءِ وغيرِه(٣).

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ الله تعالى أنَّه قد أرسَلَ مُوسى بحُجَجٍ مِن عندِه سُبحانَه، ومُعجزةٍ باهرةٍ ظاهرةٍ، دالَّةٍ على صِدقِه ونبُوَّتِه، إلى فِرعَونَ وأتباعِه وأشرافِ قَومِه، فاتَّبَعوا طريقةَ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٧، ٤٢٠، ٧٢٤).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٥٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٢). ((غريب القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ٩٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٢١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٣).

فِرعَونَ، وما هو عليه مِن الكُفرِ، وتَرَكوا الإيمانَ بما جاءهم به موسى، وما طريقُ فِرعونَ وما هو عليه بسديدٍ ولا حميدِ العاقبةِ، ولا يدعو إلى خيرٍ، يَتقَدَّمُ فِرعونُ قَومَه يومَ القيامةِ حتى يُدخِلَهم النَّارَ، فكما كان قُدوتَهم في الضَّلالِ والكُفرِ في الدُّنيا، فكذلك هو قُدوتُهم وإمامُهم في النَّارِ، وقَبُحَ المَدخلُ الذي يدخُلونَه! وأتبَعَهم اللهُ في هذه الدُّنيا طردًا وبُعدًا عن الرَّحمةِ، وكذلك يومَ القيامةِ، وبِئسَ العطاءُ المُعطَى؛ حيث ترادَف عليهم لعنةٌ في الدُّنيا، ولعنةٌ في الآخرةِ.

تَفسيرُ الآيات:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ ﴾.

أي: ولقد أرسَلْنا نبيَّنا موسى بمُعجِزاتِنا الدَّالةِ على صِدقِه- كالعصا، واليدِ ونحوِهما من الآياتِ- وبحُجَّةٍ ظاهرةٍ؛ ليؤمِنوا بالله وحدَه[1].

﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ ﴾.

﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ﴾.

أي: أرسَلْناه إلى فِرعونَ وأشرافِ قَومِه، فاتَّبعوا مَنهجَ فِرعونَ وطَريقتَه في الغَيِّ والضَّلالِ، وكفَروا باللهِ ورَسولِه[2].

﴿ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾.

أي: وما مَنهَجُ فِرعونَ بصوابٍ يهدي النَّاسَ إلى الهُدى والخيرِ والصَّلاحِ، وإنَّما هو جَهلٌ وضَلالٌ، وكُفرٌ وعِنادٌ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٦١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾.

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾.

أي: يتقدَّمُ فِرعونُ قَومَه يومَ القيامةِ، فيَمضي بهم إلى النَّارِ فيَدخُلونَها معه[1].

﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾.

أي: وبئسَ المَدخَلُ الذي يدخُلونَه[2].

﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾.

﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾.

أي: وأتبَعَهم اللهُ في هذه الدُّنيا- مع غَرقِهم في البحرِ- لعنةً، ويومَ القيامةِ يُلعَنونَ لَعنةً أخرى[3].

﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾.

أي: بئسَ ما اجتَمع لهم، وترادَف عليهم؛ حيث ترافَدَت عليهم لعنتانِ مِن اللهِ؛ لعنةُ الدُّنيا، ولَعنةُ الآخرةِ[4].

= (٤/ ٣٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٥٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٦٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٥٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٦٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٩).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ العِبرةُ في هذه الآياتِ: أنَّه لا يزالُ يوجَدُ في البشَرِ فَراعنةٌ يَغوونَ النَّاسَ ويستخِفُّونَهم ويَستعبِدونَهم، فيُطيعونَهم، ويَذِلُّونَ لهم ذُلَّ العبدِ لسَيِّده، والحيوانِ لمالِكِه، ولم يَستفيدوا شيئًا من هدايةِ القرآنِ ورُشدِه، وتجهيلِه لقومِ فِرعونَ في اتِّباعِ أمْرِه، مع وَصفِه بقَولِه تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ وبيانِ أنَّه كان سببًا لإتْباعِهم لعنةً في الدُّنيا ولعنةً يومَ القيامةِ، وأنَّه سيقودُهم في الآخرةِ إلى النَّارِ، كما قادهم في الدُّنيا إلى الغَيِّ والفَسادِ، ومنهم من يدَّعونَ الإسلامَ، ولم يفقَهوا قولَ الله تعالى لرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في آيةِ مُبايعةِ النِّساءِ: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ [الممتحنة: ١٢]، وقولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لا طاعةَ في معصيةِ اللهِ، إنَّما الطاعةُ في المعروفِ))[١].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ...﴾ تضمَّنَ تقريرَ مبدأٍ رئيسيٍّ مِن مبادئِ الإسلامِ: مبدأِ التَّبِعةِ الفَرديَّةِ التي لا يُسقِطُها اتِّباعُ الرُّؤَساءِ والكُبَراءِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قولِه تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ فرعونَ مات كافرًا، ووجهُ ذلك: إخبارُه سبحانَه عن فرعونَ أنَّه يَقدُمُ قومَه- ولم يقُلْ: يَسوقُهم- وأنَّه أورَدَهم النَّارَ، ومعلومٌ أنَّ المتقدِّمَ إذا أَوردَ المتأخِّرينَ النَّارَ،

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ١٢٦).

والحديث أخرجه البخاري (٧٢٥٧)، ومسلم (١٨٤٠) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٤/ ١٩٢٤).

كان هو أوَّلَ مَن يَرِدُها، وإلَّا لم يكُنْ قادِمًا، بل كان سائِقًا؛ يوضِّحُ ذلك أنَّه قال سُبحانَه: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ فعُلِمَ أنَّه وهُم يَردونَ النَّارَ؛ وأنَّهم جميعًا ملعونونَ في الدُّنيا والآخرةِ(١).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً﴾ لَمَّا كان فِرعونُ مَوصوفًا بعِظَمِ الحالِ وكَثرةِ الجُنودِ والأموالِ، وضَخامةِ المَملكةِ؛ حقَّرَ تعالى دُنياه بتَحقيرِ جميعِ الدُّنيا التي هي منها، بإسقاطِها في الذِّكرِ؛ اكتفاءً بالإشارةِ إليها(٢).

بلاغةُ الآيات:

١- قولُه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ﴾ فيه تأكيدُ الخبَرِ بـ (قَدْ)(٣).

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال في سورةِ (غافرٍ): ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٣- ٢٤]، وقال في سورةِ (الزُّخرُفِ): ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزخرف: ٤٦]، وقال في سورةِ (المؤمِنون): ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ * فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٥ - ٤٧]، وفي سورةِ (الأعرافِ): ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الأعراف: ١٠٣]، وفي سورةِ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٥٥).

(يونُسَ): ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ [يونس: ٧٥]؛ فورَد في سورةِ (هودٍ) وفي سورةِ (المؤمنون) وسورةِ (غافرٍ) زيادةُ قولِه: ﴿وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾، ولم تَرِدْ هذه الزِّيادةُ في السُّوَرِ الثَّلاثِ الأُخَرِ، وورَد في سُورةِ (يونُسَ) وسورةِ (المؤمنون) ذِكْرُ تأييدِ موسى بأخيه هارونَ عليهما السَّلامُ، ولم يَرِدْ ذلك في غيرِهما، وانفرَدَت سورةُ (المؤمنون) بالجَمْعِ بينَ تأييدِه عليه السَّلامُ بأخيه وسُلطانٍ مُبينٍ، ووجهُ ذلك: أنَّه حيث يُذكَرُ سُوءُ ردِّ المرسَلِ إليهم، وقُبْحُ جَوابِهم، يُقابَلُ أبدًا بتأييدِه بأخيه أو تَعضيدِه بالآياتِ؛ ممَّا يَقتَضي القَهْرَ والإرغامَ، وهو المعبَّرُ عنه بـ (السُّلطانِ المبينِ)؛ فيَكونُ ذلك مُقابَلةً لِشَنيعِ مُجاوَبتِهم وسوءِ رَدِّهم بالجملةِ، فإذا اجتمَع إفصاحُهم بالتَّكذيبِ واستكبارُهم، جَمَع في التَّهديدِ المتقدِّمِ بينَ التَّأييدِ بهارونَ وسلطانٍ مبينٍ، وحيث يُصرِّحُ بالتَّكذيبِ أو ما يُعْطيه بَيانًا كقولِه في سورةِ هودٍ: ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ يُقدَّمُ ذلك التَّأييدُ بـ (السُّلطانِ المبينِ)، وحيثُ تُذكَرُ صِفَتانِ مُحتوِيتَانِ على تكذيبٍ مِن غيرِ إفصاحٍ، يُقدَّمُ ذِكْرُ التَّأييدِ بهارونَ عليه السَّلامُ، وما كان دونَ ما ذُكِر لم يُذكَرْ هارونُ ولا السُّلطانُ المبينُ. أمَّا حيثُ لم يَرِدْ ذِكرُ السُّلطانِ، فنَجِدُ جَوابَهم في ذلك دونَ ما تقدَّم مِن التَّشديدِ، كقَولِهم في سورةِ الأعرافِ: ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الأعراف: ١٠٣]، وقولِه في سورةِ (الزُّخرُفِ): ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ [الزخرف: ٤٧]؛ فليس موقِعُ جَوابِهم في هاتَين السُّورتَينِ كمَوقِعِ ما تَقدَّم في الآيتينِ؛ فنُوسِبَ بينَ طرَفَيِ الادِّعاءِ والجوابِ(١).

وفيه وجهٌ آخرُ: أنَّه لَمَّا قال في سُورةِ (هود): ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٦٣-٢٦٤).

وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾، وقال في سورةِ غافرٍ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٣-٢٤]، وقال في سورةِ (الزخرف): ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزخرف: ٤٦]، جاء في الآيتَينِ المتقدِّمَتين مع ذِكْرِ السُّلطانِ المبينِ، ولم يَجِئْ في الآيةِ الأخيرةِ إلَّا الآياتُ وحْدَها؛ لأنَّ الآياتِ هي الأَماراتُ الَّتي يُكتَفى بها في صِدْقِ الرُّسلِ عليهم السَّلامُ، وبها تَقومُ الحُجَّةُ على مَن تُبعَثُ إليهم، والسُّلطانُ المبينُ هو الحُجَجُ القاهرةُ التي تَقهَرُ القومَ، كأنواعِ العذابِ الَّتي أُنزِلَت على قومِ موسى عليه السَّلامُ وكانت عندَ قولِه؛ فلمَّا كان القصدُ في الآيتَينِ المتقدِّمتَين ذِكْرَ جُملَةِ أمْرِهم إلى مُنتَهى حالِهم مِن هلاكِ الأبدِ، انطَوَتْ تلك الجملةُ على جَميعِ ما احتَجَّ به عليهم إلى أنْ زال التَّكليفُ عنهم، وأخبَرَ عن مُستقَرِّهم مِن العقابِ الدَّائمِ عليهم؛ فذكَر في الآيتَين جَميعَ ما احتجَّ به عليهم مِن الآياتِ الَّتي سَخِروا بها عندَ رؤيتِها، والآياتِ الَّتي فَزِعوا إلى مَسألتِه عندَ مُشاهَدتِها في كَشْفِها. وأمَّا الآيةُ الثَّالثةُ الَّتي اقتصَر فيها على ذِكْرِ (آيَاتِنَا) دونَ (السُّلْطَانِ الْمُبِينِ) وهي قولُه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ [الزخرف: ٤٦- ٤٧]، فلم يَكُنِ القَصدُ إلى ذِكْرِ جُملَةٍ ممَّا عُومِلوا به في الدُّنيا وانتهائِه بهم إلى عذابِ الأخرى، بل كان بعدَه: ﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٤٨]؛ فاقتَصَّ ما عُومِلوا به حالًا بعدَ حالٍ إلى أن أُهلِكوا في الدُّنيا، حيث قال: ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ * فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٥- ٥٦].

٢- قولُه تعالى: ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾

- عقَّب ذِكْرَ إرسالِ موسى عليه السَّلامُ بذِكْرِ اتِّباعِ الملَأِ أمْرَ فِرعونَ؛ لأنَّ اتِّباعَهم أمْرَ فِرعَونَ حصَل بأثَرِ الإرسالِ؛ ففُهِم منه أنَّ فِرعونَ أمَرَهم بتَكْذيبِ تلك الرِّسالةِ(١).

- قولُه: ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ فيه تَخصيصُ مَلأِ فِرعونَ بالذِّكرِ، مع عُمومِ رِسالةِ مُوسَى عليه السَّلامِ لقَومِه كافَّةً؛ لأصالةِ هؤلاءِ الملأِ في الرأيِ، وتَدبيرِ الأمورِ واتِّباعِ غيرِهم لهم في الوُرودِ والصُّدورِ(٢).

- واقتُصِرَ هنا على ذِكْرِ شَأنِ ملأِ فِرعونَ- حيثُ قال: ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ...﴾- ولم يُصرِّحْ بكُفرِ فِرْعونَ بآياتِ اللهِ تعالى، وانهماكِه فيما كان عليه مِن الضَّلالِ والإضلالِ؛ للإيذانِ بوُضوحِ حالِه؛ فكأنَّ كُفرَه وأمْرَ ملَئِه بذلك أمرٌ محقَّقُ الوُجودِ غيرُ مُحتاجٍ إلى الذِّكرِ صَريحًا، وإنَّما المحتاجُ إلى ذلك شأنُ مَلئِه المتردِّدين بينَ هادٍ إلى الحقِّ وداعٍ إلى الضَّلالِ، فنَعى عليهم سوءَ اختيارِهم(٣).

- وفي قولِه: ﴿فَاتَّبَعُوا﴾ إيرادُ الفاءِ في اتِّباعِهم المترتِّبِ على أمرِ فِرعونَ المبنيِّ على كفرِه المسبوقِ بتَبليغِ الرِّسالةِ؛ للإشعارِ بمُفاجأَتِهم في الاتِّباعِ، ومُسارَعةِ فِرعونَ إلى الكُفرِ وأمْرِهم به؛ فكأنَّ ذلك كلَّه لم يتَراخَ عن الإرسالِ والتَّبليغِ، بل وقَع جميعُ ذلك في وقتٍ واحدٍ، فوقَع إثرَ ذلك اتِّباعُهم(٤).

- قولُه: ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ فيه إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ- حيث لم يَقُلْ: و(أَمْرُه)- فأظهَر اسْمَ فِرعونَ في المرَّةِ الثَّانيةِ والمرَّةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٥٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٣٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الثَّالثةِ دونَ الضَّميرِ؛ للتَّشهيرِ بهم، والإعلانِ بذَمِّه، وهو انتفاءُ الرُّشدِ عن أمرِه، ولزيادةِ تَقْبيحِ حالِ المتَّبِعين؛ فإنَّ فرعونَ عَلَمٌ في الفسادِ والإفسادِ، والضَّلالِ والإضلالِ؛ فاتِّباعُه لِفَرْطِ الجَهالةِ، وعدَمِ الاستبصارِ[1].

- قولُه: ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ فيه إجراءُ وصْفِ (رَشِيدٍ) مُبالَغةً في اشتمالِ الأمرِ على ما يَقتَضي انتفاءَ الرُّشدِ؛ فكأنَّ الأمرَ هو الموصوفُ بعدَمِ الرُّشدِ، وعَدَلَ عن وصْفِ أمرِه بالسَّفيهِ إلى نَفْيِ الرُّشدِ عنه؛ تَجهيلًا للَّذين اتَّبَعوا أمرَه؛ لأنَّ شأنَ العُقلاءِ أن يَتطلَّبوا الاقتداءَ بما فيه صلاحٌ، وأنَّهم اتَّبَعوا ما ليس فيه أَمارةٌ على سَدادِه واستحقاقِه لأن يُتَّبَعَ، فماذا غرَّهم باتِّباعِه[2]؟!

٣- قولُه تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾

- قولُه: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ فيه تهَكُّمٌ؛ حيث عبَّر بالإيرادِ عن التَّقدُّمِ بالنَّاسِ إلى العذابِ، وهو تَهكُّمٌ؛ لأنَّ الإيرادَ يَكونُ لأجلِ الانتفاعِ بالسَّقْيِ، وأمَّا التَّقدُّمُ بقومِه إلى النَّارِ؛ فهو ضدُّ ذلك[3].

- وجاء ﴿فَأَوْرَدَهُمْ﴾ بصيغةِ الماضي؛ للتَّنبيهِ على تَحْقيقِ وُقوعِ ذلك الإيرادِ، وإلَّا فقَرينةُ قولِه: ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ تَدُلُّ على أنَّه لم يقَعْ في الماضي[4].

- وقولُه أيضًا: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ فيه تشبيهٌ لِفرعونَ بالفارطِ الَّذي يتَقدَّمُ الواردةَ إلى الماءِ، وتَشبيهُ أتباعِه بالواردةِ، وتشبيهُ النَّارِ بالماءِ الَّذي يَردونه[5].

٤- قوله تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٥٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٥٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٥٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٥٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٣٩).

- قولُه: ﴿بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ جملةٌ مُستأنَفةٌ لإنشاءِ ذَمِّ اللَّعنةِ[(١)].

- وأيضًا في قولِه: ﴿بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ حَذْفُ المخصوصِ بالذَّمِّ، وهو إيجازٌ؛ لِيَكونَ الذَّمُّ متوجِّهًا لإحدى اللَّعنتَينِ لا على التَّعْيينِ؛ لأنَّ كِلتَيهِما بَئِيسٌ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٠٠ - ١٠٨)

﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ (١٠٠) وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ (١٠١) وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ (١٠٣) وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ (١٠٤) يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ (١٠٥) فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ (١٠٨) ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿وَحَصِيدٌ﴾: خَرابٌ قد مُحِيَ أثَرُه، وأصلُ (حصد): يدلُّ على قَطعِ شَيءٍ(١).

﴿تَتْبِيبٍ﴾: أي: تَخسيرٍ وهلاكٍ، وأصلُ (تبب): يدلُّ على خُسرانٍ(٢).

﴿زَفِيرٌ﴾: الزَّفيرُ: إخراجُ النَّفَسِ بقُوَّةٍ وشِدَّةٍ مِن الهَمِّ والكَربِ، وهو بمَنزلةِ ابتداءِ صَوتِ الحِمارِ بالنَّهيقِ، وأصلُ (زفر): يدلُّ على صَوتٍ(٣).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧١)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٥٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٦٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٥٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٠)، ((الكليات)) =

﴿وَشَهِيقٌ﴾: الشَّهيقُ: النَّشيجُ في البُكاءِ، إذا اشتَدَّ تَرَدُّدُه في الصَّدرِ، وارتفَعَ به الصَّوتُ، وهو بمنزلةِ آخرِ صَوتِ الحِمارِ، وأصلُ (شهق): يدُلُّ على عُلُوٍّ[١].

﴿مَجْذُوذٍ﴾: أي: مَقطوعٍ، وأصلُ (جذذ): يدلُّ على قَطعٍ[٢].

المعنَى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ الله تعالى نبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قائلًا له: ذلك الذي ذكَرْناه لك- يا محمَّدُ- مِن أخبارِ القُرى التي أهلَكْنا أهلَها نُخبِرُك به، ومِن تلك القُرى ما له آثارٌ باقيةٌ، ومنها ما قد مُحِيَت آثارُه، فلم يَبقَ منه شيءٌ، وما كان إهلاكُهم بغيرِ سَبَبٍ وذنبٍ يستَحِقُّونَه، ولكِنْ ظَلَموا أنفُسَهم بشِرْكِهم، وإفسادِهم في الأرضِ، فما نفَعَتْهم آلهتُهم- التي كانوا يدعُونَها، ويطلُبونَ منها أن تدفَعَ عنهم الضُّرَّ- لـمَّا جاء أمرُ رَبِّك بعَذابِهم، وما زادَتْهم آلهتُهم غيرَ تدميرٍ وإهلاكٍ وخُسرانٍ، وكما أخذتُ أهلَ القُرى الظَّالمةِ بالعذابِ؛ لِمُخالفتِهم أمري وتكذيبِهم برُسلي، آخُذُ غيرَهم مِن أهلِ القُرى إذا ظلَموا أنفُسَهم بالكُفرِ والمعاصي، إنَّ أخْذَ اللهِ للظَّالِمينَ لأليمٌ مُوجِعٌ شَديدٌ، إنَّ في أخْذِنا لأهلِ القُرى السَّابقةِ الظَّالِمةِ لَعِبرةً وعِظةً لِمَن خاف عقابَ اللهِ وعذابَه في الآخرةِ، ذلك اليومُ الذي يُجمَعُ له النَّاسُ جميعًا للمُحاسَبةِ والجَزاءِ، ويشهَدُه الخلائِقُ كُلُّهم، وما نُؤَخِّرُ يومَ القيامةِ عنكم إلَّا لانتهاءِ مُدَّةٍ معدودةٍ في عِلمِنا، لا تزيدُ ولا تَنقُصُ عن تَقديرِنا لها بحِكمَتِنا.

يوم يأتي يومُ القيامةِ لا تتكَلَّمُ نَفسٌ إلَّا بإذنِ رَبِّها؛ فمنهم شقيٌّ مستَحِقٌّ

= للكفوي (ص: ٤٩٠)، ((تفسير الألوسي)) (٤/ ١٨٨).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٢٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٥٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٨)، ((تفسير المنار)) لرشيد رضا (١٢/ ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٠٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٠٣).

للعذابِ، وسعيدٌ مُتفضَّلٌ عليه بالنَّعيمِ؛ فأمَّا الذين شَقُوا فالنَّارُ مُستَقَرُّهم، لهم فيها- مِن شِدَّةِ ما هم فيه مِن العذابِ- زفيرٌ وشَهيقٌ، وهما أشنَعُ الأصواتِ وأقبَحُها، ماكثينَ في النَّارِ أبدًا ما دامَتِ السَّمَواتُ والأرضُ، فلا ينقَطِعُ عذابُهم ولا ينتهي، إلَّا ما شاء ربُّك من إخراجِ عُصاةِ الموحِّدينَ بعدَ مُدَّةٍ مِن مُكثِهم في النَّارِ، إنَّ رَبَّك- أيُّها الرَّسولُ- فعَّالٌ لِما يريدُ، وأمَّا الذين رزَقَهم اللهُ السَّعادةَ فيدخُلونَ الجنَّةَ خالدينَ فيها ما دامَتِ السَّمواتُ والأرضُ، إلَّا الفريقَ الذي شاء اللهُ تأخيرَه، وهم عُصاةُ الموَحِّدينَ؛ فإنَّهم يَبقَونَ في النَّارِ مدَّةً مِن الزَّمَنِ، ثمَّ يخرُجونَ منها إلى الجنَّةِ بمشيئةِ اللهِ ورَحمتِه، ويُعطي ربُّك هؤلاءِ السُّعَداءَ في الجنَّةِ عطاءً غيرَ مَقطوعٍ عنهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ١٠٠ ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَ ﴾.

أي: ذلك الذي قصَصْناه عليك- يا محمَّدُ- في هذه السُّورةِ مِن أخبارِ القُرى التي أهلَكْنا أهلَها نُخبِرُك به؛ لتُنذِرَ به النَّاسَ، ويكونَ آيةً على رسالتِك، وموعظةً وذِكرى للمُؤمنينَ[1].

﴿ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ﴾.

أي: مِن تلك القرى التي قَصَصْنا عليك قُرًى عامرٌ بُنيانُها، ومنها خَرابٌ قد تهدَّمَ بُنيانُها[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٩).

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ ﴾.

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾.

أي: وما ظَلَمْنا أهلَ تلك القرى حينَ أهلَكْناهم، ولكنْ ظَلَموا أنفُسَهم بالكُفرِ والمعاصي فاستحَقُّوا العِقابَ(١).

﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾.

أي: فما نفعَتْهم آلهتُهم التي كانوا يعبُدونَها من دونِ اللهِ، ولم تدفَعْ عنهم شيئًا لَمَّا أتاهم عذابُ الله(٢).

﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾.

أي: وما زادت هذه الآلهةُ عابِدِيها غيرَ تخسيرٍ وإهلاكٍ وتدميرٍ، عندَما جاءَ أمرُ اللهِ بعقابِهم(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٦٨، ٥٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٩).

قال ابن الجوزي: (فإن قيل: الآلهةُ جَمادٌ، فكيف قال: ﴿زَادُوهُمْ﴾؟! فعنه جوابان: أحدهما: وما زادتهم عبادتُها. والثاني: أنَّها في القيامة تكونُ عونًا عليهم فتزيدُهم شَرًّا). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٠٠).

وقال ابن عطية: (صورةُ زيادة الأصنام التتبيبَ إنَّما يُتصَوَّر: إمَّا بأنَّ تألُّهَها والثِّقةَ بها والتعَبَ في عبادتِها، شغَلَت نُفوسَهم وصَرفَتْها عن النظَرِ في الشَّرعِ وعاقَتْها، فلَحِقَ عن ذلك عنَتٌ =

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في كتابِه بما فعلَ بأُممِ من تقَدَّمَ مِن الأنبياءِ- لَمَّا خالفوا الرُّسُلَ وردُّوا عليهم- مِن عذابِ الاستئصالِ، وبيَّنَ أنَّهم ظَلَموا أنفُسَهم فحَلَّ بهم العذابُ في الدُّنيا- بيَّن بَعدَه أنَّ عذابَه ليس بمقتَصِرٍ على من تقدَّمَ، بل الحالُ في أخذِ كُلِّ الظالمينَ يكونُ كذلك[1].

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾.

أي: وكما أهلَكَ ربُّك- يا محمَّدُ- أهلَ القُرى التي قصَصْنا عليك، كذلك نُهلِكُ أمثالَهم مِن الظَّالمينَ لأنفُسِهم بالكُفرِ والمعاصي[2].

عن أبي موسى رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ لَيُملِي للظَّالم، حتى إذا أخَذَه لم يُفلِتْه، ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾))[3].

﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

أي: إنَّ إهلاكَ اللهِ وعِقابَه للظَّالمينَ مُوجِعٌ، شديدُ الإيلامِ[4].

= وخُسرانٌ، وإمَّا بأنَّ عذابَهم على الكُفرِ يزادُ إليه عذابٌ على مجرَّدِ عبادةِ الأوثانِ. ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٠٦).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٧١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤٩).

(٣) أخرجه البخاري (٤٦٨٦) واللفظ له، ومسلم (٢٥٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٧١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٤٨).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ (١٠٣)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا كان ممَّا جَرَّ هذه القِصَص وهذه المواعِظَ تكذيبُ الكافرينَ لِما يُوعَدونَ مِن العذابِ النَّاشئِ عن إنكارِ البَعثِ المذكورِ في قَولِه تعالى: ﴿وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ﴾؛ أشار تعالى إلى تحقُّقِ أمرِ الآخرةِ، وأنَّه ممَّا ينبغي الاهتمامُ به؛ إعلامًا بأنَّه لا فرقَ بينه وبين ما تحقَّقَ إيقاعُه من عذابِ هذه الأمَم في القُدرةِ عليه، بقولِه مؤكِّدًا لأجلِ جُحودِهم أن يكونَ في شيءٍ ممَّا مضى دلالةٌ عليه بوجهٍ مِن الوجوهِ(١).

وأيضًا فهي بَيانٌ للتَّعريضِ وتَصريحٌ بعد تلويحٍ، والمعنى: وكذلك أخذُ ربِّك فاحذَرُوه، واحذَرُوا ما هو أشدُّ منه، وهو عذابُ الآخرةِ(٢).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾.

أي: إنَّ في إهلاكِ اللهِ للظَّالمينَ لَعِبرةً وعِظةً لِمَن يخافُ عذابَ اللهِ في الآخرةِ(٣).

﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ﴾.

أي: هذا اليومُ- يومُ القيامةِ- يَجمَعُ اللهُ فيه كُلَّ النَّاسِ أوَّلَهم وآخِرَهم؛

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٧٤-٣٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩٦)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٥٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٩).

ليُجازيَهم فيه بأعمالِهم(١).

﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾.

أي: وهو يومٌ يشهَدُه جميعُ الخلائقِ؛ مِن الملائكةِ والإنسِ، والجنِّ والطَّيرِ، والوُحوشِ والدوابِّ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وقال سُبحانه: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٣ - ٩٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥].

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾.

أي: وما نؤخِّرُ مجيءَ يومِ القيامةِ إلَّا لوقتٍ مُحدَّدٍ معدودٍ عندَ الله، لا يُزادُ فيه ولا يُنقَصُ منه(٣).

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩-٥٠].

﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٠).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ جُملةَ ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾ تفصيلٌ لِمَدلولِ جُملةِ ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣]، وبيَّنَت عظَمةَ ذلك اليومِ في الشَّرِّ والخيرِ تبعًا لذلك التَّفصيلِ. فالقصدُ الأوَّلُ من هذه الجملةِ هو قولُه تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ وما بعدَه، وأمَّا ما قَبلَه فتمهيدٌ له أفصحَ عن عظَمةِ ذلك اليومِ[١].

﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾.

أي: حينَ يأتي يومُ القيامةِ لا تتكلَّمُ أيُّ نَفْسٍ إلَّا إذا أَذِنَ اللهُ لها بذلك[٢].

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨].

وعن أبي هريرةَ رَضِيَ الله عنه في حديثِ الشَّفاعةِ الطَّويلِ: أنَّ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ولا يتكَلَّمُ يومَئذٍ إلَّا الرُّسُلُ، ودعوى الرُّسُلِ يومَئذٍ: اللهُمَّ سلِّمْ سلِّمْ))[٣].

﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾.

أي: فمِنَ النَّاسِ أشقياءُ يومئذٍ، وهم الكافرونَ، وسُعَداءُ، وهم المُؤمِنونَ المُتَّقون[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٧٥، ٥٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٦٣).

(٣) أخرجه البخاري (٧٤٣٧) ومسلم (١٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٠).

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾.

أي: فأمَّا الذين حصَلَت لهم الشَّقاوةُ، فهم مُنغَمِسونَ في عذابِ النَّارِ، لهم فيها زفيرٌ قبيحٌ يخرجُ مِن حُلوقِهم، وشَهيقٌ شديدٌ في صُدورِهم؛ مِن شِدَّةِ العذابِ الذي هم فيه(١).

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ﴾.

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾.

أي: لابثينَ في النَّارِ أبدًا(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٧٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٠).

(٢) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٩٩)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٣٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٠).
قال ابنُ الجوزي في قولِه: ﴿ما دامَتِ السَّمواتُ وَالأَرْضُ﴾: (فيه قولان: أحدُهما: أنَّها السَّمواتُ المعروفة عندنا، والأرضُ المعروفة. قال ابن قتيبة، وابن الأنباري: للعربِ في معنى الأبدِ ألفاظٌ؛ تقول: لا أفعل ذلك ما اختلف الليلُ والنَّهار، وما دامت السَّموات والأرض... في أشباه لهذا كثيرةٍ؛ ظنًّا منهم أنَّ هذه الأشياءَ لا تتغيَّرُ، فخاطبَهم الله بما يستعمِلونَ في كلامِهم. والثاني: أنَّها سمواتُ الجنَّة والنارِ وأرضُهما). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٠١). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥١)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٣٣٦).
وقال ابن تيميَّة: (قال طوائفُ من العُلَماءِ: إنَّ قولَه: ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ أراد بها سماءَ الجنَّة وأرضَ الجنَّة كما ثبت في الصَّحيحينِ عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه قال: «إذا سألتُم اللهَ الجنَّةَ فاسألوه الفِردوسَ؛ فإنَّه أعلى الجنةِ، وأوسَطُ الجنَّة، وسَقفُه عرشُ الرَّحمنِ»، وقال بعض العلماءِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] هي أرضُ الجنة. وعلى هذا فلا مُنافاة بين انطواءِ هذه السَّماء وبقاءِ السَّماءِ التي هي سقفُ الجنَّة؛ إذ كلُّ ما علا فإنَّه يسمَّى في اللغة سماءً، كما يُسمَّى السحابُ سماءً، والسَّقفُ سماءً، وأيضًا فإنَّ السَّمواتِ وإن طُويَت وكانت كالمُهلِ واستحالَت عن صورتِها؛ فإنَّ ذلك لا يوجِبُ عدَمَها وفسادَها، بل أصلُها باقٍ بتحويلِها من حالٍ إلى حالٍ، =

﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾.

أي: إلَّا من[1] شاء ربُّك- يا محمَّدُ- أن يُخرِجَهم من النَّارِ مِن عُصاةِ الموحِّدينَ، فيُدخِلَهم الجنَّةَ برَحمتِه[2].

= كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨] وإذا بُدِّلَت فإنَّه لا يزالُ سماءٌ دائمةٌ وأرضٌ دائمة. والله أعلم). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ١٠٩-١١٠).

(١) ومعنى ﴿مَا شَآءَ﴾: (من شاء)؛ لأنَّه لما كان هؤلاء صنفًا ساغَتْ في العبارةِ عنهم ﴿مَا﴾، وإطلاقُ ﴿مَا﴾ وإرادةُ (من) نظيرُه في القرآنِ: ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٤٥)، ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٨٣)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٤٦٠).

وممَّن ذهب إلى هذا القولِ المُختارِ في معنى الاستثناءِ المذكور: ابنُ جرير، والسمعانيُّ، ونسبه ابنُ كثير إلى كثيرٍ مِن العلماءِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٨٣)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥١، ٣٥٢).

وممن قال بهذا القولِ من السلفِ: ابنُ عباس، وأبو سنان، والضحاكُ بنُ مزاحم، وخالدُ بنُ معدان، والحسنُ البصري. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٧٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٠٢).

وقيل المعنى: إلَّا المدَّةَ التي شاء الله أن لا يكونوا فيها، وذلك قبل دخولِها، فالاستثناءُ على هذا راجعٌ إلى ما قبل دخولِها، فهم خالدون فيها جميعَ الأزمانِ، سوى الزَّمَن الذي قبل الدُّخولِ فيها. وممَّن اختار هذا القول: السعدي، ونسبه إلى جمهورِ المفَسِّرين. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٠).

وذهب القاسمي إلى أنَّ الاستثناءَ بالمشيئةِ قد استُعمِلَ في أسلوبِ القُرآنِ للدَّلالةِ على الثبوتِ والاستمرارِ، والنُّكتةُ في الاستثناءِ بيانُ أنَّ هذه الأمورَ الثَّابتةَ الدائمة إنَّما كانت كذلك بمشيئةِ الله تعالى لا بطبيعتِها في نفسِها، ولو شاء تعالى أن يغيِّرَها لفعل. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٣٢).

قال ابن القيم: (الذي دلَّ عليه القُرآنُ أنَّ الكُفَّارَ خالدونَ في النَّارِ أبدًا، وأنَّهم غير خارجينَ منها، وأنَّه لا يُفَتَّرُ عنهم عذابُها وأنَّهم لا يموتونَ فيها، وأنَّ عذابَهم فيها مقيمٌ، وأنَّه غرامٌ لازِمٌ لهم، وهذا كلُّه ممَّا لا نزاع فيه بين الصَّحابة والتابعين وأئمَّة المُسلِمينَ). ((حادي الأرواح)) (ص: ٣٦٣). وممَّن ذكر الإجماعَ على هذه المسألةِ: القرطبي، والألوسي. يُنظر: ((التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة)) (ص: ٩٢٠)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٣٤٠).

كما قال تعالى: ﴿النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

وفي حديثِ الشَّفاعةِ الطَّويلِ عن أنسٍ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ثمَّ أعودُ الرَّابعةَ فأحمَدُه بتلك المحامِدِ، ثمَّ أخِرُّ له ساجدًا، فيُقال: يا محمَّدُ، ارفَعْ رأسَك، وقُل يُسمَعْ، وسَلْ تُعطَه، واشفَعْ تُشَفَّعْ، فأقولُ: يا ربِّ، ائذَنْ لي فيمن قال: لا إلهَ إلَّا اللهُ، فيقول: وعِزَّتي وجلالي، وكبريائي وعظَمتي لأُخرِجَنَّ منها من قال: لا إلهَ إلَّا اللهُ))[1].

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يَخرُجُ من النَّارِ مَن قال: لا إلهَ إلَّا اللهُ، وفي قَلبِه وزنُ شعيرةٍ مِن خَيرٍ، ويخرجُ من النَّارِ من قال: لا إلهَ إلَّا الله، وفي قلبِه وزنُ بُرَّةٍ مِن خيرٍ، ويخرجُ مِن النَّارِ من قال: لا إلهَ إلَّا الله، وفي قلبه وزن ذَرَّةٍ من خيرٍ))[2].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللّهُ عنه، أنَّ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يُدخِلُ اللهُ أهلَ الجَنَّةِ الجنَّةَ، يُدخِلُ مَن يشاءُ برَحمَتِه، ويُدخِلُ أهلَ النَّارِ النَّارَ، ثمَّ يقولُ: انظُروا مَن وجدْتُم في قلبِه مِثقالَ حبَّةٍ مِن خردلٍ مِن إيمانٍ فأخرِجوه، فيخرجونَ منها حُمَمًا[3] قد امْتَحَشُوا[4]، فيُلقَونَ في نَهرِ الحياةِ أو الحَيا، فيَنبُتونَ فيه كما تَنبُتُ الحِبَّةُ[5] إلى جانبِ السَّيلِ، ألم تَروها كيف تَخرُجُ صَفراءَ مُلتَويةً؟!))[6].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥١٠) واللفظ له، ومسلم (١٩٣).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤) واللفظ له، ومسلم (١٩٣).

(٣) الحممُ: الفحمُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ٣٦).

(٤) امتَحَشوا: أي: احترَقوا. يُنظر ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ٣٠٢).

(٥) الحِبَّةُ (بالكسر): بُزورُ البُقولِ وحَبُّ الرَّياحين. وقيل: هو نبتٌ صغيرٌ يَنبُتُ في الحَشيشِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٣٢٦).

(٦) أخرجه البخاري (٢٢) ومسلم (١٨٤)، واللفظ له.

وعن عمرانَ بنِ حصينٍ رضي الله عنهما، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يَخرجُ قومٌ مِن النارِ بشفاعةِ محمدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيدخلونَ الجنةَ، يُسمَّون الجهنَّميينَ))(١).

﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾.

أي: إنَّ ربَّك- يا محمَّدُ- لا يمنَعُه مانِعٌ مِن فِعلِ ما يُريدُه، بحسَبِ ما تقتَضيه حِكمتُه سُبحانه(٢).

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (١٠٨)﴾.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾.

أي: وأمَّا الذين رزَقَهم اللهُ السَّعادةَ برَحمتِه، فهم في الجنَّةِ لابثينَ فيها أبدًا(٣).

﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾.

أي: إلَّا من شاء ربُّك- يا مُحمَّدُ- أن يُدخِلَهم النَّارَ مِن عُصاةِ الموحِّدينَ، ثمَّ يُخرِجهم إلى الجنَّةِ برَحمتِه(٤).

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٠).

(٣) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٨٤، ٥٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٨٨)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٤٦٠).

وممَّن ذهب إلى هذا القولِ المختارِ في معنى الاستثناءِ المذكور: ابن جرير، والسمعاني. يُنظر: المصدران السابقان، و((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٦٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عبَّاس، والضحَّاك، ومقاتلٌ، وخالدُ بنُ مهران، والحسنُ البصري. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ٢٠٨٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٨٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٢). =

﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾.

أي: عطاءً مِن اللهِ لأهلِ الجنَّةِ مُستمِرًّا غيرَ مَقطوعٍ عنهم(١).

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ هذا الخبَرُ مِن الله تعالى ذِكرُه، وإن كان خبرًا عمَّن مضى من الأمَم قبلَنا، فإنَّه وعيدٌ مِن الله جلَّ ثناؤُه لنا- أيَّتُها الأمَّةُ- أنَّا إن سلَكْنا سبيلَ الأمَم قَبْلَنا في الخلافِ عليه وعلى رَسولِه، سلَكَ بنا سبيلَهم في العُقوبةِ، وإعلامٌ منه لنا أنَّه تعالى لا يظلِمُ أحدًا مِن خَلْقِه، وأنَّ العِبادَ هم الذين يظلِمونَ أنفُسَهم(٢).

٢- قولُ الله تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ وهكذا كلُّ من التجأ إلى غيرِ اللهِ، لم ينفَعْه ذلك عند نزولِ الشَّدائدِ(٣).

٣- قولُ الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ بيَّنَ أنَّ عذابَه تعالى ليس بمقتَصِرٍ على من تقَدَّمَ، بل الحالُ في أخذِ كلِّ الظالمينَ يكونُ كذلك، والآيةُ تدُلُّ على أنَّ من أقدَمَ على ظُلمٍ فإنَّه يجِبُ

= وقال ابن كثير: (معنى الاستثناءِ هاهنا: أنَّ دوامَهم فيما هم فيه من النَّعيم ليس أمرًا واجبًا بذاتِه، بل هو موكولٌ إلى مشيئةِ الله تعالى، فله المنَّةُ عليهم دائمًا؛ ولهذا يُلهَمونَ التَّسبيحَ والتَّحميدَ، كما يُلهَمونَ النَّفَس). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٢).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: أبو سنان. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ٢٠٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٧٠-٥٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٨٩).

عليه أن يتدارَكَ ذلك بالتَّوبةِ والإنابةِ؛ لئلَّا يقعَ في الأخذِ الذي وصفَه الله تعالى بأنَّه أليمٌ شَديدٌ(١).

٤- قال الله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ * وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ علَّقَ السِّياقُ هذا الاستمرارَ بمشيئةِ اللهِ تعالى في كلتا الحالتين، وكلُّ قرارٍ وكُلُّ سُنَّةٍ مُعَلَّقةٌ بمشيئةِ اللهِ في النِّهايةِ(٢).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ عُومِلَ ﴿زَادُوهُمْ﴾ مُعاملةَ العُقلاءِ في الإسنادِ إلى واوِ الضَّميرِ الذي هو لِمَن يعقِلُ؛ لأنَّهم نزَّلوهم منزلةَ العُقَلاءِ في اعتقادِهم أنَّها تنفَعُ، وعبادتِهم إيَّاهم(٣).

٢- قولُ الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ هذه آيةُ وعيدٍ تعُمُّ قُرى المؤمنينَ؛ فإنَّ (ظَالِمة) أعَمُّ مِن (كافرة)، وقد يمُهِلُ الله تعالى بعضَ الكَفَرةِ، وأمَّا الظَّلَمةُ في الغالبِ فمُعاجَلونَ(٤). وقوله: ﴿إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ فيه تحذيرٌ عظيمٌ عن الظلمِ كفرًا كان أو غيرَه، لغيرِه أو لنفسِه، ولكلِّ أهلِ قريةٍ ظالمةٍ(٥).

٣- لَمَّا ذكر سُبحانَه عقوباتِ الأُمَمِ المكَذِّبينَ للرسُلِ وما حَلَّ بهم في الدُّنيا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٩٦).
(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٤/ ١٩٢٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٠٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٠٦).
(٥) يُنظر: ((شرح البخاري)) للقسطلاني (٧/ ١٧٢).

من الخِزيِ، قال بعد ذلك: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ فأخبَرَ أَنَّ عُقوباتِه للمُكذِّبينَ عِبرةٌ لِمَن خاف عذابَ الآخرةِ، وأمَّا من لا يؤمِنُ بها ولا يخافُ عذابَها، فلا يكونُ ذلك عبرةً وآيةً في حَقِّه؛ إذا سَمِعَ ذلك قال: لم يزَلْ في الدَّهرِ الخَيرُ والشَّرُّ، والنَّعيمُ والبُؤسُ، والسَّعادةُ والشَّقاوةُ، وربما أحال ذلك على أسبابٍ فلَكيَّةٍ وقُوًى نفسانيَّةٍ(١).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ أشار إلى يُسرِ البَعثِ وسُهولتِه عليه وأنَّه أمرٌ ثابِتٌ لا بدَّ منه، باسمِ المفعولِ، مِن قَولِه: ﴿مَجْمُوعٌ لَهُ﴾(٢).

٥- قولُ الله تعالى: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ فيه سُؤالٌ: كيف الجمعُ بين هذه الآيةِ وبين سائِرِ الآياتِ التي تُوهِمُ كونَها مُناقِضةً لهذه الآيةِ؛ منها قولُه تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ [النحل: ١١١]، ومنها أنَّهم يَكذِبونَ ويَحلِفونَ بالله عليه، وهو قولُه تعالى: ﴿قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، ومنها قولُه تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ [الصافات:٤٢]، ومنها قولُه تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥-٣٦].

والجوابُ من أوجهٍ:

الأولُ: أنَّه حيث ورد المنعُ مِن الكلامِ، فهو محمولٌ على الجواباتِ الصَّحيحةِ.

الثاني: أنَّ ذلك اليومَ يومٌ طويلٌ وله مواقِفُ؛ ففي بعضِها يُجادِلونَ عن أنفُسِهم، وفي بعضِها يكُفُّونَ عن الكلامِ، وفي بعضِها يُؤذَنُ لهم فيتكَلَّمون، وفي

(١) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٣١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٧٥).

بعضِها يُختَمُ على أفواهِهم، وتتكَلَّمُ أيديهم، وتشهَدُ أرجُلُهم[١].

الثالثُ: أنَّهم لا ينطقونَ بما لهم فيه فائدةٌ، وما لا فائدةَ فيه كالعدمِ.

الرابعُ: أنَّهم بعدَ أن يقولَ الله لهم: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾[المؤمنون: ١٠٨] ينقطعُ نطقُهم، ولم يبقَ إلَّا الزَّفيرُ والشهيقُ[٢].

٦- قول الله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ هذا الاستِثناءُ يُفيدُ إخراجَ أهلِ التَّوحيدِ مِن النَّارِ؛ لأنَّ قَولَه تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ﴾ يفيدُ أنَّ جُملةَ الأشقياءِ مَحكومٌ عليهم بهذا الحُكمِ، ثمَّ قَوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ يُوجِبُ ألَّا يبقى ذلك الحُكمُ على ذلك المَجموعِ، ويكفي في زوالِ حُكمِ الخُلودِ عن المَجموعِ زوالُه عن بعضِهم، فوجبَ ألَّا يبقى حُكمُ الخلودِ لبَعضِ الأشقياءِ، ولَمَّا ثَبَت أنَّ الخُلودَ واجِبٌ للكُفَّارِ، وجَبَ أن يُقالَ: الذين زال حُكمُ الخُلودِ عنهم هم الفُسَّاقُ من أهلِ الصَّلاةِ[٣].

٧- قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ ثمَّ عقَّبَ ذلك بقَولِه تعالى: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ أي: غير مقطوعٍ؛ لئلَّا يتوهَّمَ مُتَوهِّمٌ بعد ذِكرِه المَشيئةَ أنَّ ثَمَّ انقطاعًا، أو لبسًا، أو شيئًا، بل ختَمَ له بالدَّوامِ وعدمِ الانقطاعِ، كما بيَّنَ هنا أنَّ عذابَ أهلِ النَّارِ في النَّارِ دائمًا مردودٌ إلى مشيئتِه، وأنَّه بعَدلِه وحِكمتِه عذَّبَهم؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ كما قال تعالى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٩٨).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٢٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٠٣). ويُنظر أيضًا: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٩٣).

[الأنبياء:٢٣]، وهنا طَيَّبَ القُلوبَ وثَبَّتَ المقصودَ بقَولِه تعالى: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[1].

٨- في قولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ دلالةٌ على أبديَّةِ الجنَّةِ؛ وأنَّها لا تفنى ولا تَبيدُ[2].

٩- دلَّ الاستثناءُ في قَولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ على خُلُودِ السُّعَدَاءِ في الجنَّةِ كلَّ وقتٍ؛ إلَّا وقتًا يشاءُ اللهُ ألَّا يكونوا فيها، وذلك يتناولُ وَقتَ كونِهم في الدُّنيا، وفي البَرزَخِ، وفي موقفِ يومِ القيامةِ، وعلى الصِّراطِ، وكَونِ بعضِهم في النَّارِ مُدَّةً[3]. هذا على أحدِ أوجهِ تأويلِ الآيةِ.

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾

- جملةُ ﴿نَقُصُّهُ عَلَيْكَ﴾ حالٌ مِن اسْمِ الإشارةِ ﴿ذَلِكَ﴾، وعبَّر بالمضارعِ ﴿نَقُصُّهُ﴾ مع أنَّ القَصصَ مَضى؛ لاستِحْضارِ حالةِ هذا القَصصِ البليغِ[4].

- قولُه: ﴿مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ فيه تَشبيهٌ بليغٌ؛ فالقائمُ: الزَّرعُ المستقِلُّ على سُوقِه. والحَصيدُ: الزَّرعُ المحصودُ، وكِلاهما مُشبَّهٌ به للباقي مِن القرى والعافي. والمرادُ بالقائمِ ما كان مِن القرى الَّتي قصَّها اللهُ في القرآنِ قُرًى قائمًا بعضُها كآثارِ بلَدِ فِرعونَ، وقُرى بائدةً مِثلَ دِيارِ عادٍ، وقُرى قومِ لوطٍ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٢).
(٢) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٣٤٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٤٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٥٨).

والمقصودُ مِن هذه الجملةِ الاعتبارُ[1].

- قولُه: ﴿وَحَصِيدٌ﴾ جعَل حَصْدَ الزَّرعِ كنايةً عن الفَناءِ[2].

٢- قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾

- قولُه: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ﴾ تفريعٌ على قولِه: ﴿وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾؛ ووجهُ ذلك التَّفريعِ: أنَّ ظُلمَهم أنفُسَهم مَظهَرُه في عِبادتِهم الأصنامَ، والغرضُ مِن هذا التَّفريعِ التَّعريضُ بتَحذيرِ المشرِكين مِن العرَبِ من الاعتمادِ على نَفعِ الأصنامِ[3].

- وأُوثِرَت صيغةُ المضارِعِ في قولِه: ﴿يَدْعُونَ﴾؛ حِكايةً للحالِ الماضيَةِ، أو دَلالةً على استمرارِ عِبادتِهم لها[4].

٣- قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾

- قولُه: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ تذييلٌ فيه تعريضٌ بتهديدِ مُشرِكي العرَبِ مِن أهلِ مكَّةَ وغيرِها[5].

- قولُه: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ﴾ فيه تشبيهٌ في الكيفيَّةِ والعاقبةِ؛ إذِ الإشارةُ بـ ﴿كَذَلِكَ﴾ إلى استِئْصالِ تلك القُرى، وهو ما يدُلُّ عليه قولُه: ﴿أَخْذُ رَبِّكَ﴾، والتَّقديرُ: وكذلك الأخذِ الَّذي أخَذْنا به تلك القُرى أخْذُ ربِّك إذا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٥٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٠٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٥٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٤٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٦٠).

أَخَذَ القُرى[١].

- وقولُه: ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ قولُه: ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ حالٌ مِن القُرى، وهي في الحقيقةِ لأهلِها، لكنَّها لَمَّا أُقيمَت مَقامَهم في الأَخْذِ أُجرِيَتِ الحالُ عليها، وفائدتُها: الإشعارُ بأنَّهم إنَّما أُخِذوا بظُلمِهم؛ لِيَكونَ ذلك عِبْرةً لكلِّ ظالمٍ[٢].

- وقولُه: ﴿إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ في موضِعِ البيانِ لِمَضمونِ قولِه: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ﴾، وفيها إشارةٌ إلى وجْهِ الشَّبهِ[٣]، وفيه ما لا يَخفْى مِن التَّهديدِ والتَّحذيرِ[٤].

٤- قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾

- قولُه: ﴿ذَلِكَ﴾ إشارةً إلى يومِ القيامةِ؛ لأنَّ عذابَ الآخِرةِ دَلَّ عليه؛ وتذكيرُ اسْمِ الإشارةِ مُراعاةً لِمَعنى الآخِرةِ[٥].

- وأوثِرَ اسْمُ المفعولِ ﴿مَجْمُوعٌ﴾ على فِعْلِه (يُجْمَعُ)؛ لِما في اسْمِ المفعولِ مِن دَلالةٍ على ثَباتِ مَعنى الجمْعِ لليومِ، وأنَّه يومٌ لا بدَّ مِن أن يَكونَ ميعادًا مَضروبًا لجَمْعِ النَّاسِ له، وأنَّه الموصوفُ بذلك صِفةً لازِمةً، وهو أثبَتُ أيضًا لإسنادِ الجمعِ إلى النَّاسِ، وأنَّهم لا يَنفكُّون منه[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٦٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٤٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٦٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٤٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٦١).
(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٢٧- ٤٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٠٩).

- وعَطفُ جُملةِ ﴿وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ على جُملَةِ ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ له النَّاسُ﴾؛ لزِيادةِ التَّهويلِ لليَومِ بأنَّه يُشهَدُ، وطُوِيَ ذِكْرُ الفاعِلِ- فلم يُقَلْ: (يَشْهَدُه الشَّاهِدون)-؛ إذ ليس القَصْدُ إلى شاهِدِين مُعيَّنين[١].

- قولُه: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ﴾ مُعترِضٌ بينَ قولِه: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ﴾ وبينَ قولِه: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾، والمقصودُ بالاعتراضِ الرَّدُّ على المنكِرين للبعثِ[٢].

٥- قولُه تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾

- قوله: ﴿نَفْسٌ﴾ يَعمُّ جميعَ النُّفوسِ؛ لوقوعِه في سِياقِ النَّفيِ مع كونِه نَكِرةً؛ فشَمِلَ النُّفوسَ البرَّةَ والفاجِرةَ، وشمِلَ كلامَ الشافعِ وكلامَ المجادِلِ عن نفْسِه، وقد فُصِّلَ عُمومُ النفوسِ باختلافِ أحوالِها، وهذا التَّفصيلُ مُفيدٌ تَفصيلَ النَّاسِ في قوله: ﴿مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ﴾، ولكنَّه جاء على هذا النَّسْجِ لأجلِ ما تَخلَّل ذلك مِن شِبْهِ الاعتراضِ بقولِه: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ﴾ [هود: ١٠٤]، إلى قولِه: ﴿بِإِذْنِهِ﴾، وذلك نسيجٌ بديعٌ[٣].

- وقولُه: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ فيه تقديمُ الشَّقيِّ على السَّعيدِ؛ لأنَّ المقامَ مَقامُ تحذيرٍ وإنذارٍ[٤]، وقد جاء نَظْمُ الكلامِ على تَقديمٍ وتأخيرٍ اقتَضاه وضْعُ الاستطرادِ بتَعظيمِ هَولِ اليومِ في موضِعِ الكلامِ المتَّصِلِ؛ لأنَّه أسعَدُ بتَناسُبِ أغراضِ الكلامِ، والظُّروفُ صالِحةٌ لاتِّصالِ الكلامِ كصَلاحيةِ الحروفِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٦١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٦٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٦٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٤١).

العاطفةِ وأدواتِ الشَّرطِ[١].

- قولُه: ﴿وَسَعِيدٌ﴾، أي: (ومِنْهم سَعيدٌ)؛ حُذِف الخبَرُ؛ لِدَلالة الأوَّلِ عليه[٢].

٦- قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾

خَصَّ بالذِّكرِ مِن أحوالِهم في جَهنَّمَ الزَّفيرَ والشَّهيقَ؛ تَنفيرًا مِن أسبابِ المصيرِ إلى النَّارِ؛ لِما في ذِكْرِ هاتَينِ الحالَتَينِ مِن التَّشويهِ بهم؛ وذلك أخوَفُ لهم مِن الألَمِ[٣].

٧- قولُه تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾

- في قولِه: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ * فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا...﴾ الآيات: ما يُعرَفُ بالجمعِ مع التفريقِ والتقسيمِ؛ فالجمعُ في قولِه: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾؛ لأنَّها مُتعدِّدةٌ معنًى؛ إذ النَّكرةُ في سِياقِ النفيِ تعمُّ، والتفريقُ في قولِه: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾، والتقسيمُ في قولِه: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا﴾ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا﴾[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٦٥).

(٤) يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٣١٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ٤٣٠).

الآيات (١٠٩-١١٥)

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُۚ
وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ
فِيهِۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾
وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ
أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ
ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ
﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ
ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿وَزُلَفًا﴾: الزُّلَفُ: السَّاعاتُ القَريبُ بَعضُها مِن بَعضٍ، مِن أزلَفَه: إذا قَرَّبَه؛ لأنَّ كُلَّ ساعةٍ منها تَقرُبُ مِن الأخرى، وأصل (زلف): يَدُلُّ على انْدِفاعٍ، وتَقَدُّمٍ في قُرْبٍ إلى شيءٍ[1].

﴿تَرْكَنُوا﴾: أي: تَميلُوا أو: تَطمئِنُّوا، وتَسْكُنوا[2].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

﴿كُلًّا﴾ اسم إنَّ منصوبٌ، و﴿لَمَّا﴾ حرفُ نَفيٍ وجَزمٍ، حُذِفَ فِعلُه المجزومُ

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢١)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١١٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٩٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٨).

به، والتقديرُ: لَمَّا يُوَفَّوْا أعمالَهم(١)، ودلَّ على المحذوفِ قَولُه: ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾، والجملةُ مِن (لَمَّا) ومدخولِها المحذوفِ (يُوَفَّوْا أعمالَهم) في محلِّ رفعٍ خبرُ إنَّ، وجملة: ﴿لَيُوَفِّيَنَّهمْ رَبُّكَ ...﴾ لا محلَّ لها مِن الإعرابِ، جوابُ قَسَمٍ مقدَّرٍ، والقسَمُ وجوابُه كلامٌ مُستأنَفٌ. وقيل غيرُ ذلك(٢).

المعنَى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: فلا تكُنْ- يا محمَّدُ- في شَكٍّ مِن بُطلانِ ما يعبُدُ هؤلاء المُشرِكونَ مِن قَومِك؛ ما يعبُدونَ مِن الأوثانِ إلَّا مِثلَ ما يعبُدُ آباؤهم مِن قبلُ، وإنَّا لمُوفُّوهم ما وعَدْناهم تامًّا غيرَ مَنقوصٍ، ولقد آتَينا موسى التَّوراةَ، فاختلفَ فيها قومُه؛ فآمَنَ بها جماعةٌ وكفرَ بها آخرونَ، كما فعل قومُك بالقُرآنِ، ولولا كَلِمةٌ سبَقَت من ربِّك بأنَّه لا يُعجِّلُ لخَلْقِه العذابَ، لحلَّ بهم في دُنياهم قضاءُ اللهِ بإهلاكِ المكَذِّبينَ، ونجاةِ المُؤمنينَ، وإنَّ أهلَ الكتاب لفي شَكٍّ مِن كتابِهم، موقِعٍ في الريبةِ والتهمةِ، وإنَّ كُلَّ أولئك الأقوامِ المُختَلفينَ الذين ذكَرْنا لك أخبارَهم، ليُوفِّيَنَّهم ربُّك جزاءَ أعمالِهم يومَ القيامةِ؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا

(١) هذا رأيُ ابنِ هشام في ((المغني))، وقدَّره ابن الحاجب في ((أماليه)): لَمَّا يُهمَلوا، أو لَمَّا يُترَكوا؛ لِما تقدَّمَ من الدَّلالةِ عليه مِنْ تفصيل المجموعبن لقَوله ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥]، ثم ذكرَ الأشقياءَ والسُّعَداءَ ومجازاتَهم، ثم بَيَّن ذلك بقوله: ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾، وقد ردَّ ابن هشام هذا التقديرَ بقوله: (إنَّ منفيَّ «لَمَّا» متوقَّعُ الثبوتِ، والإهمالُ غيرُ متوقَّعِ الثُّبوت). ويُنظر: ((أمالي ابن الحاجب)) (١/ ١٦٤)، ((مغني اللبيب)) لابن هشام (١/ ٣٧١).
أمَّا أبو حيَّان فقد قدَّر الفعل بقوله: (وإنَّ كلًّا لَمَّا يُنقَصْ من جزاءِ عَمَلِه؛ لأنَّ جواب القسَم في قوله تعالى: ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ يدلُّ عليه).اهـ. هذا وحذفُ منفيِّ (لَمَّا) وارد في لسان العرب؛ يقولون: قاربتُ المدينةَ ولَمَّا.. أي: ولَمَّا أدخُلْها. وثمَّةَ أقوالٌ كثيرة في تأويل (لَمَّا) المشدَّدةِ، وكلُّها تخريجاتٌ ضعيفةٌ جدًّا يُنَزَّه القرآنُ عنها، كما قال أبو حيان. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢١٨)، ويُنظر: ((الجدول في إعراب القرآن)) لصافي (١٢/ ٣٦١)، ((النحو الوافي)) لعباس حسن (١/ ٦٧٧).
(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٤١٠).

فشَرٌّ، إنَّ رَبَّك بما يعملونَ خَبيرٌ.

ثمَّ يأمرُ الله تعالى رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم وأتباعَه بالاستقامةِ والثباتِ على هذا الدينِ، فيقولُ: فاستقِمْ- أيُّها النبيُّ- كما أمَرَك ربُّك، أنت ومن تاب معك، ولا تتَجاوَزوا ما حدَّه اللهُ لكم؛ إنَّ ربَّكم بما تَعمَلونَ مِن الأعمالِ كلِّها بصيرٌ، لا يخفى عليه شيءٌ منها، وسيُجازيكم عليها، ولا تَميلوا إلى هؤلاء الظَّلَمةِ فتُصيبَكم النَّارُ، وما لكم مِن دونِ اللهِ مِن ناصرٍ ينصُرُكم، ويتولَّى أمورَكم، وأدِّ الصَّلاةَ- أيُّها النبيُّ- على أتمِّ وجهٍ طَرَفَي النَّهارِ في الصَّباحِ والمساءِ، وفي ساعاتٍ مِن اللَّيلِ؛ إنَّ فِعْلَ الخيراتِ يكفِّرُ الذُّنوبَ السَّالفةَ، ويمحو آثارَها، ذلك الذي تقدَّم- ممَّا أمَرَكم اللهُ به ونهاكم عنه- مَوعِظةٌ لِمَن اتَّعظَ بها وتذكَّرَ، واصبِرْ- أيُّها النبيُّ- على ما أمَرَكَ اللهُ به وعلى ما تَلْقَى مِن الأذَى مِن مُشركي قومِك؛ فإنَّ اللهَ لا يُضيعُ ثوابَ المُحسنينَ في أعمالِهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ (١٠٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ قَصَصَ عبَدةِ الأوثانِ مِن الأمَمِ السَّالِفةِ، وأتبعَ ذلك بذِكرِ أحوالِ الأشقياءِ والسُّعَداءِ؛ شرحَ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أحوالَ الكُفَّارِ مِن قَومِه، وأنَّهم متَّبِعو آبائِهم، كحالِ من تقدَّمَ مِن الأمَمِ في اتِّباعِ آبائِهم في الضَّلالِ[1].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بوقوعِ القَضاءِ بتَمييزِ النَّاسِ في اليومِ المَشهودِ، كان ذلك كافيًا في الثَّباتِ على أمرِ اللهِ، والمضيِّ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢١٥).

لإنفاذِ جميعِ ما أُرسِلَ به- وإن شقَّ- اعتمادًا على النُّصرةِ في ذلك اليومِ بحضرةِ تلك الجُموعِ، فكان ذلك سببًا للنَّهيِ عن القلَقِ في شيءٍ مِن الأشياءِ، وإن جَلَّ وقعُه وتعاظَمَ خَطبُه[١].

وأيضًا فهذه الآيةُ تفريعٌ على القصَصِ الماضيةِ؛ فإنَّها تُكسِبُ سامِعَها يقينًا بباطلِ ما عليه عبَدةُ الأصنامِ، وبخَيبةِ ما أمَّلوه فيهم من الشَّفاعةِ في الدُّنيا، وأنَّ سابِقَ شَقائِهم في الدُّنيا بعذابِ الاستِئصالِ يؤذِنُ بسوءِ حالِهم في الآخرةِ؛ ففرَّعَ على ذلك نهيَ السَّامعِ أن يشُكَّ في سوءِ الشِّركِ وفَسادِه[٢].

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾.

أي: فلا تكُنْ- يا مُحمَّدُ- في شكٍّ ممَّا يعبُدُ مُشرِكو قومِك من الأصنامِ أنَّه باطلٌ، وضلالٌ، وشركٌ باللهِ تعالى[٣].

﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾.

أي: ما يعبُدُ هؤلاء المُشرِكونَ إلَّا كعبادةِ آبائِهم مِن قبلُ، فهم يقلِّدونَهم بلا حجَّةٍ[٤].

﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٠).
قال ابن عطية: (لفظُ الخِطابِ للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، والمعنى له ولأمَّتِه، ولم يقَعْ لأحدٍ شَكٌّ فيقَعَ عنه نهيٌ، ولكن من فصاحةِ القَولِ في بيانِ ضلالةِ الكَفَرةِ إخراجُه في هذه العبارةِ، أي: حالُهم أوضَحُ مِن أن يُمترى فيها). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٠٩). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٩٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٦٨).

أي: وإنَّا سنُوفِّي هؤلاء المُشركينَ حظَّهم ممَّا كُتِبَ لهم مِن الخيرِ في الدُّنيا، وحَظَّهم من العذابِ في الآخرةِ كاملًا بلا نقصٍ[1].

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (١١٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ الله تعالى في الآيةِ الأولى إصرارَ كفَّارِ مكَّةَ على إنكارِ التَّوحيدِ؛ بيَّن أيضًا إصرارَهم على إنكارِ نبوَّةِ النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وتكذيبَهم بكتابِه، وبيَّن تعالى أنَّ هؤلاء الكُفَّارَ كانوا على هذه السِّيرةِ الفاسدةِ مع كلِّ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ، وضرب لذلك مثلًا، وهو: أنَّه لَمَّا أنزل التَّوراةَ على موسى عليه السَّلامُ اختلفوا فيه، فقَبِلَه بعضُهم، وأنكَره آخرون، وذلك يدلُّ على أنَّ عادةَ الخَلقِ هكذا[2].

وأيضًا لما ذكَّر اللهُ قومَ خاتَمِ النبيِّينَ وأمَّتَه أوَّلًا بالأقوامِ الذين غلَبَ عليهم الكُفرُ والجُحودُ، فلم يؤمِنْ إلَّا قليلٌ منهم، فوفَّاهم اللهُ جزاءَ أعمالِهم في الدُّنيا، وسيُوَفِّيهم إيَّاها في الآخرةِ- ذكَّرَهم في هاتينِ الآيتينِ بقَومِ موسى الذين آتاهم الكِتابَ فاختَلَفوا فيه، وكلِمَته في تأخيرِ جزائِهم إلى الآخرةِ؛ لأنَّهم لم يستحِقُّوا عذابَ الاستئصالِ في الدُّنيا، وأنَّ مَثَلَ الذين يختَلِفون من أمَّتِه في الكتابِ كمَثَلِ هؤلاء[3].

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾.

أي: ولقد آتَينا موسَى التَّوراةَ، فاختَلَف قومُ موسى فيها، فآمنَ بها بعضُهم،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٩١)، ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٠٤-٤٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ١٣٤).

ولم يؤمِنْ بها بعضٌ آخَرون[١] فلا تحزَنْ- يا محمَّدُ- من تكذيبِ مُشركي قومِك بما آتيناك من القُرآنِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الجاثية: ١٦، ١٧].

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾.

أي: ولولا كَلِمةٌ سبقَت من ربِّك- يا محمَّدُ- بتأخيرِهم، وعدمِ معاجلتِهم بالعذابِ، لأهلَكَهم في الحالِ، وميَّز بين أهلِ الحَقِّ بنَجاتِهم، وأهلِ الباطلِ بهلاكِهم[٣].

---

(١) قال محمد رشيد رضا: (أي: فاختلف فيه قومُه من بعدِه بغيًا بينهم، وتنازُعًا على الرِّياسةِ، فكانوا شِيَعًا، كلُّ شِيعةٍ تنتَحِلُ مذهبًا، وتُعادي من يخالِفُها فيه، وإنَّما أوتوا الكتابَ لجَمعِ الكَلِمةِ). ((تفسير المنار)) (١٢/ ١٣٤، ١٣٥). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٠).
وقال ابن عاشور: (معنى الاختلافِ فيه: اختلافُ أهلِ التَّوراةِ في تقريرِ بعضِها، وإبطالِ بعضٍ، وفي إظهارِ بعضِها، وإخفاءِ بعضٍ، مثل حُكم الرَّجم، وفي تأويلِ البَعضِ على هواهم، وفي إلحاقِ أشياءَ بالكتابِ على أنَّها منه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٦٩، ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٩٢)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٩٢)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٦٧)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٣٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٧٠ - ١٧٢).
قال ابن عطية: (قولُه تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ...﴾ إلى آخرِ الآية، يحتمِلُ أن يريدَ به أمَّةَ موسى، ويحتملُ أن يريدَ به مُعاصري محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ. وأن يعُمَّهم اللَّفظُ أحسَنُ عندي، ويؤكِّدُ ذلك قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلًّا﴾). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢١٠).
قال ابنُ كثير: (ويحتملُ أن يكونَ المرادُ بالكلمةِ: أنَّه لا يعذِّبُ أحدًا إلَّا بعدَ قيامِ الحُجَّةِ عليه، وإرسالِ الرَّسولِ إليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]؛ فإنَّه قد قال في الآيةِ الأخرى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى * =

كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا﴾ [الكهف: ٥٨].

وقال سُبحانه: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ [فاطر: ٤٥].

﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾.

أي: وإنَّ المتسبينَ إلى كتابِ موسَى عليه السلامُ لفي شكٍّ مِن أمرِ كتابه التوراةِ، مُوقعٍ فِي الريبةِ والتهمةِ، فلا يَدرونَ أحقٌّ هو أمْ باطِلٌ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا

= فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ [طه: ١٢٩، ١٣٠]. ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٩٣) (١٣/ ٦٠٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ١٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٠).

وممن اختار أنَّ الضمير في قولِه: ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ يعودُ على أهلِ الكتابِ: ابنُ جريرٍ، ومحمد رشيد رضا، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

قال القرطبي: (﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ إن حُمِلتْ على قومِ موسَى، أي: لفي شكٍّ مِن كتابِ موسَى، فهم في شكٍّ مِن القرآنِ). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٠٤).

قال السعدي: (وإذا كانتْ هذه حالَهم، معَ كتابِهم، فمعَ القرآنِ الذي أوحاه الله إليك، غيرُ مستغربٍ مِن طائفة اليهودِ، أن لا يؤمنُوا به، وأن يكونُوا في شكٍّ منه مريبٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٠).

وممن اختار أنَّ الضميرَ يعودُ على كفارِ مكةَ: الرازي، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ كثيرٍ، واختيارُ القاسمي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٤)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٣٣).

وقال الشوكاني: (﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ أي: من القرآنِ، إن حُمِل على قوم محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أو مِن التوراةِ إن حُمِل على قومِ موسى عليه السَّلامُ). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٩٩).

كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ [الشورى: ١٤].

﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١١) ﴾.

﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ﴾.

أي: وإنَّ كلَّ المُختَلِفينَ ليُوفيَنَّهم ربُّك- يا محمَّدُ- جزاءَ أعمالِهم يومَ القيامةِ، فيُجازي كلَّ إنسانٍ بما يستحِقُّه[1].

﴿ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾.

أي: إنَّ اللهَ عليمٌ بأعمالِهم كُلِّها، لا يخفَى عليه شيءٌ منها[2].

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢) ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أخبَرَ تعالى بعدمِ استقامةِ أهلِ الكِتابِ، التي أوجَبَت اختلافَهم وافتراقَهم، أمر نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ومَن معه مِن المؤمنينَ أن يستَقيموا كما أُمِروا، فيَسلُكوا ما شرَعَه اللهُ مِن الشَّرائع، ويعتَقِدوا ما أخبَرَ الله به من العقائدِ الصَّحيحةِ، ولا يَزيغوا عن ذلك يَمنةً ولا يَسرةً، ويَدوموا على ذلك، ولا يطغَوا بأن يتجاوَزوا ما حَدَّه اللهُ لهم من الاستقامةِ[3].

وأيضًا فإنَّه ترتَّبَ على التَّسليةِ التي تضَمَّنَها قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾ [هود:١١٠] وعلى التَّثبيتِ المُفادِ بقَولِه تعالى: ﴿فَلَا

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٠٤)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٤)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٣٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩١).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٠).

تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾ [هود: ١٠٩] الحَضُّ على الدَّوامِ على التمَسُّكِ بالإسلامِ على وجهٍ قويمٍ، وعبَّرَ عن ذلك بالاستقامةِ(١).

وأيضًا فسياقُ هذه الآيةِ والتي تليها تفصيلٌ للأوامرِ والنَّواهي التي هي ثمرةُ الاعتبارِ بما كان مِن سيرةِ الأُمَم مع الرُّسُلِ؛ مَن جَحَدوا فأُهلِكوا، ومن آمَنوا ثم اختَلَفوا وتفرَّقوا، فمن جمع بين هذا الأمرِ والنَّهيِ كَمَلَ إيمانُه، وما بعدهما تفصيلٌ لهما(٢).

﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾.

أي: فاثبُتْ- يا محمَّدُ- على الدِّينِ الذي أمَرَك الله به أنت ومَن اتَّبَعك من المؤمنينَ الذين رجَعوا معك إلى طاعةِ اللهِ(٣).

كما قال تعالى: ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦].

وعن سُفيانَ بنِ عبدِ الله الثَّقَفيِّ رَضِيَ الله عنه، قال: ((قلتُ: يا رسولَ اللهِ، قلْ لي في الإسلامِ قولًا، لا أسألُ عنه أحدًا بَعدَك، قال: قل: آمنتُ باللهِ، فاستَقِمْ))(٤).

﴿وَلَا تَطْغَوْاْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٧٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ١٣٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩١).
قال ابنُ رجب: (الاستقامةُ: هي سُلوكُ الصِّراطِ المستقيم، وهو الدينُ القيِّمُ مِن غيرِ تعريجٍ عنه يَمنةً ولا يَسرةً، ويشملُ ذلك فعلَ الطاعاتِ كلِّها؛ الظاهرةِ والباطنةِ، وترْكَ المنهيَّاتِ كلِّها كذلك). ((جامع العلوم والحكم)) (١/ ٥١٠).
(٤) أخرجه مسلم (٣٨).

أي: ولا تَتَجاوَزوا ما حدَّه اللهُ لكم من الاستقامةِ إلى ما نهاكم عنه(١).

﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾.

أي: إنَّ اللهَ بما تَعملونَ - أيُّها النَّاسُ - بصيرٌ، لا يخفَى عليه شيءٌ مِن أعمالِكم؛ خيرِها وشَرِّها، وسيُجازيكم عليها(٢).

﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ١١٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنه بعدَ أن نهاهم عن الطُّغيانِ الذي يشملُ أصولَ المفاسدِ، وكان هذا النهيُ جامعًا لأحوالِ مصادرِ الفسادِ مِن نفسِ المفسدِ، وبقِي ما يُخشَى عليه مِن عدوَى فسادِ خليطِه؛ لذا نهاهم عن التَّقارُبِ مِن الظالمينَ(٣)، فقال:

﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾.

أي: ولا تَميلوا - أيُّها النَّاسُ - إلى الظَّلَمةِ؛ فإنكم إن مِلتُم إليهم، ووافقتُموهم على أفعالِهم ورضيتُم بها، وداهنتُموهم؛ تُصِبْكم(٤) النارُ(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٧٧-١٧٨).

(٤) قال ابن عاشور في قوله: ﴿فَتَمَسَّكُمُ﴾: (والمسُّ: مستعملٌ في الإصابةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٧٨).

(٥) يُنظر: ((الوجيز)) (ص: ٥٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩١).
قال القُرطبي: (قولُه تعالى: ﴿إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ قيل: أهلُ الشِّركِ. وقيل: عامَّةٌ فيهم وفي العُصاة، على نحوِ قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا...﴾ الآية [الأنعام: ٦٨] =

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾.

أي: ولا تَجدونَ- إن رَكَنتُم إلى الظَّلَمةِ- أعوانًا مِن دونِ اللهِ يَنفعونكم، ولا تَجدونَ مَن يُخلِّصُكم مِن عذابِه(١).

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ (١١٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذا أمرٌ بأعظَمِ العباداتِ وبأعظَمِ الأخلاقِ، اللَّذَينِ يُستَعانُ بهما على ما قَبلَهما؛ من الأمرِ بالاستقامةِ، والنَّهيِ عن الطُّغيانِ، والرُّكونِ إلى أولي الظُّلمِ؛ ولذلك عُطِفا عليهما(٢).

سببُ النُّزُولِ:

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ الله عنه: ((أنَّ رجُلًا أصاب من امرأةٍ قُبلةً، فأتى رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فذكَرَ ذلك له، فأُنزِلَت عليه: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾، قال الرَّجُل: ألي هذه؟ قال: لِمَن عَمِلَ بها مِن أُمَّتي))(٣).

وعن أبي اليَسَرِ كعبِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ الله عنه، قال: ((أتَتْني امرأةٌ تبتاعُ تمرًا،

= وهذا هو الصَّحيحُ في معنى الآيةِ. ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٩٩)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٥٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ١٥٤).

(٣) أخرجه البخاري (٥٢٦) واللفظ له، ومسلم (٢٧٦٣).

قال ابنُ تيمية: (قولُه: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ وغير ذلك مِن الآياتِ التي نزلَتْ بمكةَ ثمَّ جرَى بالمدينةِ سببٌ يقتضي الخطابَ، فأُنزِلَت مرة ثانية). ((مجموع الفتاوى)) (٢٨/ ٣١٤-٣١٥).

فقُلتُ: إنَّ في البيتِ تَمرًا أطيَبَ منه، فدخَلَت معي في البيتِ، فأهويتُ إليها فقبَّلتُها، فأتيتُ أبا بكرٍ فذكَرتُ ذلك له، قال: استُرْ على نفسِك وتُبْ، ولا تخبِرْ أحدًا، فلم أصبِرْ، فأتيتُ عُمرَ فذكَرتُ ذلك له، فقال: استُرْ على نفسِك وتُبْ، ولا تخبِرْ أحدًا، فلم أصبِرْ، فأتيتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فذكَرتُ ذلك له، فقال: أخلَّفتَ غازيًا في سبيلِ اللهِ في أهلِه بمِثلِ هذا؟! حتى تمنَّى أنَّه لم يكُنْ أسلَمَ إلَّا تلك السَّاعةَ، حتى ظَنَّ أنَّه من أهلِ النَّارِ، قال: وأطرَقَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم طويلًا حتى أوحى اللهُ إليه: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ قال أبو اليَسَر: فأتيتُه فقَرَأها عليَّ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال أصحابُه: يا رسولَ اللهِ، ألِهذا خاصَّةً أم للنَّاسِ عامَّةً؟ قال: بل للنَّاسِ عامَّةً))[1].

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾.

أي: وأقمِ الصلاةَ المفروضةَ، في أوَّلِ النهارِ وآخرِه، وهي صلاةُ الفجرِ والظهرِ والعصرِ[2].

---

(١) أخرجه الترمذي (٣١١٥) واللفظ له، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (٧٣٢٧)، والبزار (٢٣٠٠).
قال الترمذيُّ: حسنٌ صحيحٌ، وقال الزيلعي في ((تخريج الكشاف)) (٢/ ١٥٣): أصلُ الحديثِ في الصحيحين، وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣١١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢١٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٤/ ٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩١)، ويُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٣/ ١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٧٩).
وممَّن اختار هذا المعنى المذكورَ في المرادِ بالصَّلواتِ طَرَفَي النهار: الزجاجُ، والزمخشري، وابنُ عطية، وابنُ تيمية، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٨٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢١٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٤/ ٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٨٠).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: مجاهدٌ، ومحمدُ بن كعب القرظيُّ، وهو رواية عن الحسن البصري، ورواية عن الضحاك. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ٢٠٩١)، ((تفسير ابن =

﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾.

أي: وأقِمِ الصلاةَ أيضًا في ساعاتٍ مِن الليلِ، وهي صلاةُ المغربِ والعشاءِ[1].

= جرير)) (١٢/ ٦٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٤).

وقيل: المرادُ: صلاةُ الفجرِ والمغربِ. وممن قال بذلك: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٠٥)، ((الوجيز)) (ص: ٥٣٦).

وقيل: المرادُ: صلاةُ الفجرِ والعصرِ، وممن اختار ذلك: الرازي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٠٨).

قال ابن جرير: (اختلف أهلُ التَّأويلِ في التي عُنِيَت بهذه الآيةِ مِن صلواتِ العَشيِّ بعد إجماعِ جميعِهم على أنَّ التي عُنِيَت من صلاةِ الغداةِ: الفَجر). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٠١-٦٠٢).

وقال ابنُ عاشور: (انتقَل مِن خطابِ المؤمنين إلى خطابِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهذا الخطابُ يتناولُ جميعَ الأمةِ بقرينةِ أنَّ المأمورَ به مِن الواجباتِ على جميعِ المسلمينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢١٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٤/ ٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩١)، ويُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٣/ ١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٧٩).

وممَّن اختار هذا المعنى المذكور في المرادِ بـ﴿زُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ﴾: الزجاج، والزمخشري، وابن عطية، وابن تيمية، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٨٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢١٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٤/ ٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٨٠).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عبَّاس في روايةٍ عنه، والحسنُ البصري في روايةٍ عنه، ومجاهدٌ في روايةٍ عنه، وقتادةُ، ومحمدُ بنُ كعبٍ القرظي، والضحَّاك، ومقاتلٌ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ٢٠٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٠٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٥).

قال السعدي: (﴿وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ﴾ ويدخلُ في ذلك صلاةُ المغربِ والعشاءِ، ويتناولُ ذلك قيامَ الليلِ؛ فإنها مما تزلفُ العبدَ، وتقرِّبُه إلى اللهِ تعالى). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩١).

وقيل: المرادُ: صلاةُ العشاءِ. وممن اختار ذلك: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٠٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٣٦).

وقيل: المرادُ: صلاةُ المغربِ والعشاءِ والوترِ. وممن اختار ذلك الرازي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٠٨).

﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾.

أي: إنَّ الأعمالَ الصَّالحةَ مِن الصَّلاةِ وغَيرِها تُكفِّرُ صغائِرَ الذُّنوبِ(١).

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّه سَمِعَ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقول: ((أرأيتُم لو أنَّ نهرًا ببابِ أحَدِكم يغتَسِلُ منه كلَّ يومٍ خَمسَ مرَّاتٍ، هل يبقى مِن دَرَنِه(٢) شيءٌ؟ قالوا: لا يبقى مِن دَرَنِه شيءٌ، قال: فذلك مَثَلُ الصَّلواتِ الخَمسِ؛ يمحو اللهُ بهنَّ الخَطايا))(٣).

وعنه أيضًا رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يقولُ: ((الصَّلواتُ الخمسُ، والجُمُعةُ إلى الجُمُعةِ، ورمضانُ إلى رَمضانَ؛ مكَفِّراتٌ ما بينهُنَّ إذا اجتَنَبَ الكبائِرَ))(٤).

﴿ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾.

أي: ذلك- الذي تقدَّمَ ممَّا أمَرَكم اللهُ به ونهاكم عنه- تذكِرةٌ وعِظةٌ للمتَّعِظينَ الذين يذكُرونَ اللهَ، ويذكُرونَ وَعْدَه ووعيدَه، فيَرجونَ ثوابَه ويخافون عِقابَه(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٥٥).

وذهب بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ المراد بالحَسَنات هنا الصلواتُ الخَمسُ، وهو من بابِ التفسيرِ بالمثالِ، ومن هؤلاء: ابن جرير، ونسبه ابن عطية والقرطبي إلى جمهورِ المفسِّرينَ مِن الصَّحابة والتَّابعين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦١٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢١٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، وابنُ مسعودٍ، وسلمانُ، وكعبٌ، وسعيدُ بنُ المسيبِ، ومحمدُ بنُ كعب القرظيُّ، ومجاهدٌ في روايةٍ عنه، والحسنُ البصري، والضحَّاك، ومسروقٌ، ومقاتلُ بنُ سليمانَ، ومقاتلُ بنُ حيانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل)) (٢/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ٢٠٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦١٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٠٦).

(٢) الدَّرَنُ: الوسَخُ. يُنظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١٣/ ١٥٣).

(٣) أخرجه البخاري (٥٢٨) ومسلم (٦٦٧)، واللفظ له.

(٤) أخرجه مسلم (٦٦٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٢/ ٥٠٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٦٠٣)، ((تفسير السعدي)) =

﴿وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

مُناسَبةُ وقوعِ الأمرِ بالصَّبرِ عَقِبَ الأمرِ بالاستقامةِ والنَّهيِ عن الرُّكونِ إلى الذين ظَلَموا: أنَّ المأموراتِ لا تخلو عن مشَقَّةٍ عَظيمةٍ، ومُخالَفةٍ لِهَوى كثيرٍ مِنَ النُّفوسِ، فناسب أن يكونَ الأمرُ بالصَّبرِ بعد ذلك؛ ليكونَ الصَّبرُ على الجميعِ، كلٌّ بما يناسِبُه[1].

﴿وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾.

أي: واحبِسْ نفسَك على طاعةِ اللهِ، وتَرْكِ مَعصيتِه، وتحمُّلِ أذى الكفَّارِ؛ فإنَّ اللهَ لا يُضيعُ ثوابَ المُطيعينَ لله، ويُعطيهم ثوابَهم كاملًا غيرَ مَنقوصٍ[2].

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ يدُلُّ على وجوبِ اتِّباعِ النُّصوصِ في الأمورِ الدِّينيَّةِ[3].

= (ص: ٣٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٨١). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦١٧)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ٢٠٩٣).

وممَّن قال بعودِ الإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى ما تقدَّم مِن الأمرِ بالاستقامةِ وما بعدَها: الرازي، والشوكاني، ومال إليه السعدي، واختاره ابنُ عاشورٍ، ونَسَبه الخازنُ إلى جمهورِ المفسرينَ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٠٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٦٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٨١)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٥٠٧).

وقيل: الإشارةُ تعودُ إلى القرآنِ. وممن قال بذلك: الواحديُّ، والقرطبي. يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١٣).

وقيل: تعودُ إلى الصلواتِ. وممن قال بذلك: ابنُ عطيةَ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢١٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ١٣٧).

٢- قولُه: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ أفاد قولُه: ﴿فَاسْتَقِمْ﴾ الدَّوامَ على العمَلِ بتعاليمِ الإسلامِ دوامًا جِماعُه الاستقامةُ عليه، والحذَرُ مِن تغييرِه[١].

٣- النَّهيُ الذي أعقب الأمرَ بالاستقامةِ في قولِه تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا﴾ لم يكن نهيًا عن القُصورِ والتَّقصيرِ، إنَّما كان نهيًا عن الطُّغيانِ والمُجاوزة؛ وذلك أنَّ الأمرَ بالاستقامةِ وما يَتبَعُه في الضَّميرِ مِن يقَظةٍ وتحَرُّجٍ، قد ينتهي إلى الغُلُوِّ والمُبالغةِ التي تُحوِّلُ هذا الدِّينَ مِن يُسرٍ إلى عُسرٍ، واللهُ يريدُ دينَه كما أنزَلَه، ويريدُ الاستقامةَ على ما أمَرَ، دون إفراطٍ ولا غلُوٍّ، فالإفراطُ والغلوُّ يُخرِجانِ هذا الدِّينَ عن طبيعتِه، كالتَّفريطِ والتَّقصيرِ. وهي الْتفاتةٌ ذاتُ قيمةٍ كبيرةٍ؛ لإمساكِ النُّفوسِ على الصِّراطِ، بلا انحرافٍ إلى الغلوِّ أو الإهمالِ على السَّواءِ[٢].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ فيه التَّحذيرُ مِن الرُّكونِ إلى كلِّ ظالمٍ، والمرادُ بالرُّكونِ: المَيلُ والانضمامُ إليه بظُلمِه، وموافقتُه على ذلك، والرِّضا بما هو عليه من الظُّلم، وإذا كان هذا الوعيدُ في الرُّكونِ إلى الظَّلَمةِ، فكيف حالُ الظَّلَمةِ أنفُسِهم[٣]؟! فهذه الآيةُ مِن أشدِّ الآياتِ النازلةِ في زجرِ الظلمةِ وردعِهم[٤].

٥- قَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ فيه دليلٌ على المنعِ من مصادقةِ المشركين، وموالاةِ الظالمينَ، والميلِ إليهم بالمحبةِ والسُّكونِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٧٥).
(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٤/ ١٩٣١).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٠).
(٤) يُنظر: ((رموز الكنوز)) للرسعني (٣/ ٢٥١).
(٥) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٥٧٨).

٦- قولُ الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ المقصودُ أن تكونَ الصَّلاةُ أوَّلَ أعمالِ المُسلِمِ إذا أصبحَ- وهي صلاةُ الصُّبحِ- وآخِرَ أعمالِه إذا أمسى- وهي صلاةُ العِشاءِ- لتكونَ السَّيِّئاتُ الحاصِلةُ فيما بين ذلك ممحُوَّةً بالحَسَناتِ الحافَّةِ بها[١].

٧- إقامةُ الصَّلواتِ المَفروضاتِ على وجهِها يُوجِبُ مُباعدةَ الذُّنوبِ، ويُوجِبُ أيضًا إنقاءَها وتطهيرَها؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾[٢].

٨- قال الله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ بل يتقبَّلُ اللهُ عنهم أحسَنَ الذي عَمِلوا، ويجزيهم أجرَهم بأحسَنِ ما كانوا يعمَلونَ، وفي هذا ترغيبٌ عظيمٌ لِلُزومِ الصَّبرِ، بتشويقِ النَّفسِ الضَّعيفةِ إلى ثوابِ اللهِ كلَّما وَنَت وفتَرَت[٣].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ لَمَّا كانت التَّوفيةُ قد تُطلَقُ على مجرَّدِ الإعطاءِ، وقد يكون ذلك على التَّقريبِ؛ نفَى هذا الاحتمالَ بقولِه تعالى: ﴿غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾[٤].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ في التَّعبيرِ توكيداتٌ مُنَوَّعةٌ؛ حتى لا يشُكَّ أحَدٌ في الجزاءِ والوَفاءِ مِن جرَّاءِ الإنظارِ والتَّأجيلِ، وحتى لا يشُكَّ أحدٌ في أنَّ ما عليه القومُ هو الباطِلُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٧٩).
(٢) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٤/ ٣٤٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٩١).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٨٧).

الذي لا شَكَّ في بُطلانِه، وأنَّه الشِّركُ الذي زاوَلَه مِن قبلُ كُلُّ المُشركينَ[١].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ لَمَّا كان من المقطوعِ به أنَّ الآمِرَ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مَن له الأمرُ كُلُّه، بُني للمفعولِ قَولُه: ﴿كَمَا أُمِرْتَ﴾[٢].

٤- قولُ الله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ هذه الآيةُ أصلٌ عَظيمٌ في الشَّريعةِ؛ وذلك لأنَّ القرآنَ لَمَّا ورد بالأمرِ بأعمالِ الوُضوءِ مُرتَّبةً في اللَّفظِ، وجب اعتبارُ التَّرتيبِ فيها؛ لِقَولِه تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾، ولَمَّا ورد الأمرُ في الزَّكاةِ بأداءِ الإبِلِ مِن الإبلِ، والبقَرِ مِن البقَرِ؛ وجبَ اعتبارُها، وكذا القولُ في كلِّ ما ورد أمرُ الله تعالى به[٣].

٥- جَمَع قولُه تعالى: ﴿وَلا تَطْغَوْا﴾ وقولُه: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أصلَيِ الدِّينِ، وهما: الإيمانُ والعملُ الصَّالحُ، وقال الحسنُ: (جَعَلَ اللَّهُ الدِّين بَين لائين ﴿وَلا تَطْغَوْا﴾، ﴿وَلَا تَرْكَنُوا﴾)[٤].

٦- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ استدَلَّ به من مَنَع الاستِعانةَ بالكفَّارِ في الحربِ، ومَنع استِعمالَهم في مصالحِ المُسلمينَ[٥].

٧- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ هذه الآيةُ أصلٌ في سَدِّ ذرائعِ الفسادِ المحَقَّقةِ أو المَظنونةِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٤/ ١٩٣٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٧٨).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٧٨).

٨- لَمَّا كان الرُّكونُ إلى الظَّالِمِ -وهو الميلُ إليه، والاعتِمادُ عليه- دونَ مُشارَكتِه في الظُّلمِ؛ أخبر أنَّ العِقابَ عليه دونَ العقابِ على الظُّلم، فأتى بلفظِ (المسِّ) الَّذي هو دونَ الإحراقِ والاصطِلاءِ، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾، وإنْ كان المسُّ قد يُطلقُ ويُرادُ به الإشعارُ بالعذابِ(١).

٩- قولُ الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ﴾ لَمَّا أمر تعالى بالاستقامةِ، أردَفَه بالأمرِ بالصَّلاةِ، وذلك يدُلُّ على أنَّ أعظمَ العِباداتِ- بعد الإيمانِ بالله- الصَّلاةُ(٢).

١٠- تكفيرُ الصَّغائرِ يقَعُ بشَيئَينِ: أحدهما: الحسَناتُ الماحيةُ، والثاني: اجتِنابُ الكبائرِ. وقد نصَّ عليها سبحانَه وتعالى في كتابِه، فقال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾(٣) [النساء: ٣١].

١١- قولُ الله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أتى بعد أن أمَرَ بالصَّبرِ بلفظٍ عامٍّ، وهو ﴿أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾؛ ليندرِجَ فيه كلُّ من أحسَنَ بسائرِ خِصالِ الإحسانِ ممَّا يحتاجُ إلى الصَّبرِ فيه، وما قد لا يحتاجُ، كطَبعِ مَن خُلِقَ كريمًا، فلا يتكَلَّفُ الإحسانَ؛ إذ هو مركوزٌ في طبعِه(٤).

١٢- قولُ الله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾، أي: أجرَ أعمالِهم، عدلَ عن الضَّميرِ؛ ليكونَ كالبُرهانِ على المقصودِ، ودليلًا على أنَّ

(١) يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٣٧٩)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٥/ ١٧٤٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٠٧).
(٣) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣٨٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٢٤).

الصَّلاةَ والصَّبرَ إحسانٌ، وإيماءً بأنَّه لا يُعتَدُّ بهما دونَ الإخلاصِ[(١)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾

- قوله: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾ الفاءُ لترتيبِ النَّهْيِ على ما قُصَّ من القصصِ، وبُيِّن في تَضاعيفِها مِن العَواقبِ الدُّنيَويَّةِ والأُخرَويَّةِ[(٢)].

- جُمْلَةُ ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَما يَعْبُدُ آباؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ مُستأنَفةٌ؛ تعليلًا لانتفاءِ الشَّكِّ في عاقبةِ أمرِهم في الدُّنيا[(٣)].

- وعبَّر عن عبادةِ الآباءِ بالمضارعِ ﴿يَعْبُدُ﴾؛ للدَّلالةِ على استمرارِهم على تلك العبادةِ؛ أي: إلَّا كما اعتاد آباؤُهم عبادتَهم، والقرينةُ على المُضِيِّ قولُه: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾[(٤)].

- وقولُه: ﴿لَمُوَفُّوهُمْ﴾ و﴿نَصِيبَهُمْ﴾ وارِدٌ على سبيلِ التَّهكُّمِ؛ كأنَّ لهم عَطاءً يَسألونه فوُفُّوه[(٥)].

- قولُه: ﴿غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ وقَع حالًا مؤكِّدةً مِن النَّصيبِ؛ لتحقيقِ التَّوفيةِ؛ زيادةً في التَّهكُّمِ، لأنَّ مِن إكرامِ الموعودِ بالعطاءِ أن يُؤكَّدَ له الوعدُ، ويُسمَّى ذلك بالبشارةِ، والمرادُ نَصيبُهم مِن عذابِ الآخرةِ، ومِن فَوائدِه أيضًا: دفْعُ

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٨٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٤٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٦٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٦٨).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٦٩).

تَوهُّمِ التَّجوُّزِ وجَعلُها مُقيدةً له؛ لِدَفعِ احتِمالِ كَونِه مَنقوصًا في حَدِّ نفسِه، مبنيٌّ على الذُّهولِ عن كَونِ العامِلِ هو التَّوفيةَ[1].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾ اعتِراضٌ لِتَثبيتِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتَسْليَتِه بأنَّ أَهْلَ الكتابِ- وهُم أحسَنُ حالًا مِن أهلِ الشِّركِ- قد أُوتوا الكتابَ فاختَلفوا فيه، وهم أهلُ مِلَّةٍ واحدةٍ؛ فلا تأْسَ مِن اختِلافِ قومِك عليك[2].

- قولُه: ﴿فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾ هذا الاختلافُ بأنواعِه وأحوالِه يَرجِعُ إلى الاختلافِ في شيءٍ مِن الكتابِ، فجُمِعَت هذه المعاني جَمعًا بديعًا في تعديَةِ الاختلافِ بحَرْفِ (في)، وهي كالمُلابَسةِ، أي: فاختُلِف اختِلافًا يُلابِسُه، أي: يُلابِسُ الكتابَ[3].

- وبُني فعلُ (اختُلِف) للمجهولِ؛ إذ لا غرَضَ إلَّا في ذِكْرِ الفعلِ لا في فاعِلِه؛ لأنَّ الغرَضَ لم يَكُنْ مُتعلِّقًا ببيانِ المختلِفين ولا بذَمِّهم، بل كان للتَّحذيرِ مِن الوقوعِ في مثلِه[4].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ تَضمَّنَت هذه الآيةُ عِدَّةَ توكيداتٍ: التَّوكيدَ بـ (إنَّ)، وبـ (كلٍّ)، وباللَّامِ في الخبَرِ وبالقَسَمِ، وبـ (ما) إذا كانت زائدةً، وبنونِ التَّوكيدِ وباللَّامِ قبْلَها؛ وذلك مُبالَغةً

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٧٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

في وعْدِ الطَّائعِ ووعيدِ العاصي، وأردَفَ ذلك بالجملةِ المؤكِّدةِ، وهي: ﴿إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، وهذا الوصفُ يَقتَضي عِلمَ ما خَفي[١].

- قولُه: ﴿إِنَّهُ بِما يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ استِئنافٌ وتعليلٌ للتَّوفيَةِ؛ لأنَّ إحاطةَ العلمِ بأعمالِهم مع إرادةِ جَزائِهم تُوجِبُ أن يَكونَ الجزاءُ مُطابِقًا للعمَلِ تمامَ المطابَقةِ؛ وذلك محقِّقُ التَّوفيةِ[٢].

٤- قولُه: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

- في قولِه: ﴿فَاسْتَقِمْ﴾ توجيهُ الأمرِ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ تَنويهًا بشأنِه؛ لِيَبنِيَ عليه قولَه: ﴿كَمَا أُمِرْتَ﴾؛ فيُشيرَ إلى أنَّه المتلقِّي للأوامرِ الشَّرعيَّةِ ابتِداءً، وهذا تنويهٌ له بمقامِ رسالتِه، ثمَّ أعلَم بخِطابِ أمَّتِه بذلك بقولِه: ﴿وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾[٣].

- قولُه: ﴿كَمَا أُمِرْتَ﴾ فيه تشبيهُ الاستقامةِ المأمورِ بها بما أُمِر به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لِكَونِ الاستقامةِ مُماثِلةً لسائرِ ما أُمِر به، وهو تشبيهُ المجمَلِ بالمفصَّلِ في تفصيلِه بأن يَكونَ طِبْقَه، ويَؤُولُ هذا المعنى إلى أن تَكونَ الكافُ في مَعْنى (عَلى)، كما يُقالُ: كُن كَما أنت، أي: لا تَتغيَّرْ، ولْتُشْبِهْ أحوالُك المستقبَلةُ حالَتَك هذه[٤].

- قولُه: ﴿إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ في معنى التَّعليلِ للأمْرِ والنَّهيِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٦٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٧٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٧٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٥١).

- وفي قولِه تعالى هنا: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ * وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ مُناسَبةٌ حسنةٌ، حيث قال في مثلِ هذا السِّياقِ مِن سورةِ (الشُّورى): ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ * فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ [الشورى: ١٤- ١٥]؛ ووجهُ ذلك: أنَّه في سورةِ (هودٍ) اكتَفى بالأمرِ بالاستقامةِ على الجادَّةِ، والنَّهيِ عن الطُّغيانِ، ومنه البغيُ الَّذي يورِثُ الاختلافَ؛ لأنَّ المقامَ مَقامُ العِبْرةِ العامَّةِ بقَصصِ الرُّسلِ كافَّةً، لا بحالِ قومِ موسى ومَن أورِثوا الكتابَ خاصَّةً، وأمَّا في سورةِ الشُّورى فأمَرَه أن يَدْعوَ إلى الدِّينِ الذي كان عليه الرُّسلُ في عُصورِهم، قبلَ الاختلافِ فيه الَّذي ابتُدِع مِن بَعدِهم، وأن يَستَقيمَ عليه كما أمَرَه اللهُ، وأن يُخاطِبَ أهلَ الكتابِ بما يَتبرَّأُ به مِن الاختلافِ، ومِن إثارتِه بحُججِ الجدالِ؛ فهذا فرقُ ما بين المقامَين في هذه الآياتِ المتشابِهة[1].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، قال: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا﴾؛ والرُّكونُ هو الْمَيلُ اليَسيرُ، وقال: ﴿إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، أي: إلى الَّذين وُجِد منهم الظُّلمُ، ولم يَقُلْ: (إلى الظَّالِمين)، وهو أبلَغُ؛ فقد حُكي عن بعضِ السَّلفِ:

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ١٣٧).

أَنَّه صلَّى خلْفَ الإمامِ فقرَأ بهذه الآيةِ فغُشي عليه، فلمَّا أفاق قيل له، فقال: هذا فيمَن ركَن إلى مَن ظلَم؛ فكيف بالظَّالم[١]؟!

- لفظةُ: ﴿فَتَمَسَّكُمْ﴾ المسُّ كنايةٌ عن الإصابة[٢].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾

- جملةُ ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ مَسوقةٌ مَساقَ التَّعليلِ للأمرِ بإقامةِ الصَّلواتِ، وتأكيدُ الجملةِ بحَرفِ (إنَّ)؛ للاهتمامِ وتحقيقِ الخبَرِ، و(إنَّ) فيه مُفيدةٌ معنى التَّعليلِ والتَّفريعِ، وهذا التَّعليلُ مُؤْذِنٌ بأنَّ اللهَ جعَل الحسَناتِ يُذْهِبْن السَّيِّئاتِ، والتَّعليلُ مُشعِرٌ بعُمومِ أصحابِ الحسَناتِ؛ لأنَّ الشَّأنَ أن تكونَ العِلَّةُ أعَمَّ مِن المعلولِ مع ما يَقتَضيه تعريفُ الجمعِ باللَّامِ مِن العمومِ[٣].

- وخَصَّ الذَّاكرينَ بالذِّكرِ؛ لأنَّهم المُنتَفِعونَ بالذِّكرى[٤].

٧- قولُه تعالى: ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فيه الرجوعُ إلى التَّذكيرِ بالصَّبرِ بعدَما جاء بما هو خاتِمةٌ للتَّذكيرِ، وهذا الرجوعُ لِفَضلِ خُصوصيَّةٍ ومَزيَّةٍ، وتَنبيهٌ على مَكانِ الصَّبرِ ومَحلِّه، كأنَّه قال: (وعَليك بما هو أهَمُّ ممَّا ذُكِّرتَ به، وأحَقُّ بالتَّوصيَةِ، وهو الصَّبرُ على امتِثالِ ما أُمِرتَ به والانتهاءُ عما نُهيتَ عنه)؛ فلا يَتِمُّ شيءٌ منه إلَّا به[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١١٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٦٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٢١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٨٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٤٣٦).

- قولُه: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ حرفُ التَّأكيدِ (إنَّ) مَجلوبٌ للاهتمامِ بالخبَرِ، وسُمِّي الثَّوابُ أجْرًا؛ لوُقوعِه جَزاءً على الأعمالِ ومَوعودًا به؛ فأشبَهَ الأجرَ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٨٢).

الآيات (١١٦-١١٩)

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿أُولُو بَقِيَّةٍ﴾: أي: ذوو فَضلٍ ودينٍ وعِلمٍ، وسُمِّي الفضلُ (بقيةً)؛ لأنَّ الرجلَ يَستَبقي مِمَّا يُخرِجُه أجوَدَه وأفضَلَه، فصار لفظُ (البقيَّةِ) مثلًا في الجَودةِ والفَضلِ، وأصلُ (بقي): يدلُّ على الدَّوامِ(١).

﴿أُتْرِفُوا﴾: أي: أُعطوا من الأموالِ ونُعِّموا؛ مِن التَّرَف: وهو السَّعةُ والنَّعيمُ(٢).

المعنَى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالَى: فهلَّا وُجِدَ مِن القُرونِ الماضيةِ بقايا مِن أهلِ الخيرِ والصَّلاحِ، ينهونَ أهلَ الكُفرِ عن كُفرِهم، وعن الفَسادِ في الأرضِ، لم يُوجَدْ من أولئك الأقوامِ إلَّا قليلٌ ممَّن آمنَ، فنجَّاهم الله بسبَبِ ذلك مِن عذابِه حين أخذ الظَّالمينَ، واتَّبع عامَّتُهم- من الذين ظَلَموا أنفُسَهم- ما مُتِّعوا فيه مِن لَذَّاتِ الدُّنيا ونعيمِها،

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٨٥).

وكانوا مُجرمينَ ظالمينَ باتِّباعِهم ما تنَعَّموا فيه، فحقَّ عليهم العذابُ.

وما كان ربُّك- يا مُحمَّدُ- لِيُهلِكَ قريةً مِن القرى وأهلُها مُصلِحونَ في الأرضِ، مُجتَنِبونَ للفَسادِ والظُّلمِ، ولو شاء ربُّك لجعل النَّاسَ كُلَّهم جماعةً واحدةً على دينٍ واحدٍ، وهو دينُ الإسلامِ، ولكنَّه سُبحانَه لم يشأْ ذلك، فلا يزالُ النَّاسُ مُختلفينَ في أديانِهم، إلَّا مَن رَحِمَ ربُّك فآمَنوا به واتَّبَعوا رُسُلَه، فإنَّهم لا يختَلِفونَ في توحيدِ اللهِ وما جاءت به الرُّسُلُ مِن عندِ الله، وقد اقتَضَت حِكمتُه سُبحانه وتعالى أنَّه خَلقَهم مُختَلفينَ: فريقٌ شَقيٌّ وفريقٌ سعيدٌ، وكلٌّ ميسَّرٌ لِما خُلِق له، وبهذا يتحقَّقُ وعدُ رَبِّك في قضائِه وقَدَرِه: أنَّه سُبحانَه سيملأُ جهنَّمَ مِن الجِنِّ والإنسِ الذين اتَّبَعوا إبليسَ وجُندَه ولم يَهتَدوا للإيمانِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى أنَّ الأممَ المتقَدِّمينَ حَلَّ بهم عذابُ الاستِئصالِ؛ بيَّنَ أنَّ السَّببَ فيه أمرانِ: السَّببُ الأوَّل: أنَّه ما كان فيهم قومٌ ينهَونَ عن الفَسادِ في الأرضِ، والسَّببُ الثَّاني: قولُه: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ تعالى إهلاكَ الأُممِ المكَذِّبةِ للرُّسُلِ، وأنَّ أكثَرَهم مُنحَرِفونَ، حتى أهلَ الكُتُبِ الإلهيَّة، وذلك كلُّه يقضي على الأديانِ بالذَّهابِ والاضمحلالِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤٠٩).

ذكَرَ أنَّه لو لا أنَّه جعلَ في القُرونِ الماضيةِ بقايا من أهلِ الخَيرِ يَدعُونَ إلى الهُدى، ويَنهَونَ عن الفَسادِ والرَّدَى، فحصل مِن نَفْعِهم ما بقِيَت به الأديانُ، ولكنَّهم قليلون جِدًّا، وغايةُ الأمرِ أنَّهم نَجَوا باتِّباعِهم المُرسَلين، وقيامِهم بما قاموا به مِن دينِهم، وبكونِ حُجَّةِ الله أجراها على أيديهم[1].

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: فهلَّا وُجِدَ من أهلِ القُرونِ الماضيةِ- الذين أهلَكْناهم بذُنوبِهم ممَّن قصَصْتُ عليك يا محمَّدُ نبأهم في هذه السُّورةِ- بقايا مِن أصحابِ العُقولِ والإيمانِ والخَيرِ، يَنهَونَ النَّاسَ عن الفَسادِ في الأرضِ بالكُفرِ والمعاصي[2].

﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾.

أي: لكن قليلًا مِن أولئك كانوا يَنهَونَ عن الفَسادِ في الأرضِ، وهم أتباعُ الرُّسُلِ الذين أنجاهم اللهُ تعالى من الهَلاكِ[3].

﴿ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ ﴾.

أي: واتَّبَعَ الذين ظَلَموا أنفُسَهم من الأمَمِ الماضيةِ ما نُعِّموا فيه من لذَّاتِ الدُّنيا، وانشغلوا به، وآثَروه على الآخرةِ[4].

﴿ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسر السعدي)) (ص:٣٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٢٧، ٦٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٣١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ١٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١٣).

أي: وكان الظَّالِمونَ المُترَفونَ مُجرِمينَ باكتسابِ الكُفرِ والمعاصي، فاستحَقُّوا عِقابَ اللهِ[1].

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا لاح بما مضَى أنَّ العِبرةَ في الإهلاكِ والإنجاءِ للأكثَرِ؛ قرَّرَه وأكَّدَه وبيَّنَه[2].

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

أي: وما كان ربُّك- يا محمَّدُ- ليُهلكَ أهل القرى بظلم منه لهم، والحالُ أنَّ أهلَها مُصلِحونَ في أعمالِهم؛ فاللهُ تعالى لم يُهلِكْ قَريةً إلَّا وهي ظالِمةٌ لنَفسِها[3].

كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣١].

وقال سُبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٣١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٦٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٤٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٣١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٨٦، ١٨٧).
قال ابن جرير: (وقد قيل: معنى ذلك: لم يكن ليُهلِكَهم بشِركِهم بالله، وذلك قولُه: ﴿بِظُلْمٍ﴾، يعني: بشِركٍ، وأهلُها مُصلحون فيما بينهم لا يتظالَمون، ولكنَّهم يتعاطَونَ الحَقَّ بينهم، وإن كانوا مُشركين، وإنَّما يُهلِكُهم إذا تظالَموا). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٣١). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١٤).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩].

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا كان النَّعيُ على الأمَمِ الذين لم يقعْ فيهم من يَنهَونَ عن الفَسادِ، فاتَّبَعوا الإجرامَ، وكان الإخبارُ عن إهلاكِهم بأنَّه ليس ظُلمًا مِن اللهِ، وأنَّهم لو كانوا مُصلِحينَ لَما أُهلِكوا، لَمَّا كان ذلك كلُّه قد يثيرُ توَهُّمَ أنَّ تعاصيَ الأمَمِ عمَّا أراد اللهُ منهم خروجٌ عن قبضةِ القُدرةِ الإلهيَّةِ؛ أعقَبَ ذلك بما يرفَعُ هذا التوهُّمَ بأنَّ اللهَ قادِرٌ أن يجعَلَهم أمَّةً واحدةً متَّفِقةً على الحَقِّ، مُستمِرَّةً عليه كما أمَرَهم أن يكونوا[1].

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾.

أي: ولو شاء ربُّك- يا محمَّدُ- لجعل جميعَ النَّاسِ على ملَّةٍ واحدةٍ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥].

وقال سُبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٦١).

﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾.

أي: ولا يزالُ النَّاسُ مُختَلفينَ في أديانِهم ومذاهِبِهم وآرائِهم[١].

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أشعَرَ الاختلافُ بأنَّه اختلافٌ في الدِّينِ، وأنَّ معناه العدولُ عن الحَقِّ إلى الباطلِ- لأنَّ الحَقَّ لا يقبَلُ التعدُّدَ والاختلافَ- عقَّبَ عمومَ ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ باستثناءِ مَن ثَبَتوا على الدِّينِ الحَقِّ ولم يُخالِفوه، بقَولِه تعالى[٢]:

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾.

أي: إلَّا مَن رَحِمَهم اللهُ، فهداهم إلى الإيمانِ به، واتِّباعِ رُسُلِه؛ فإنَّهم لا يختَلِفونَ فيما جاءهم مِن عندِ ربِّهم[٣].

عن عوفِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((افتَرَقت اليهودُ على إحدى وسبعينَ فِرقةً؛ فواحدةٌ في الجنَّةِ، وسبعونَ في النَّارِ، وافترَقت النَّصارى على ثِنتَينِ وسبعين فِرقةً؛ فإحدى وسبعونَ في النَّارِ، وواحِدةٌ في الجنَّةِ، والذي نفسُ محمَّدٍ بيَدِه لتفتَرِقَنَّ أمَّتي على ثلاثٍ وسبعينَ فِرقةً؛ واحدةٌ في الجنَّةِ، وثِنتانِ وسَبعون في النَّارِ، قيل: يا رسولَ اللهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٣٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٢).

من هم؟ قال: الجماعةُ))(١).

﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾.

أي: وللاختلافِ بالشَّقاءِ والسَّعادةِ خَلَقَهم، فخلَقَ قومًا للاختلافِ والشَّقاءِ، وقَومًا للرَّحمةِ والسَّعادةِ، وذلك بحسَبِ ما تقتَضيه حِكمتُه عزَّ وجلَّ(٢).

كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢].

وعن ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه، قال: ((حدَّثنا رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو الصَّادِقُ المصدوقُ: إنَّ أحَدَكم يُجْمَعُ خَلْقُه في بطنِ أُمِّه أربعينَ يومًا، ثُمَّ يكونُ في ذلك عَلَقَةً مثلَ ذلك، ثُمَّ يكونُ في ذلك مُضغةً مثلَ ذلك، ثُمَّ يُرسَلُ الملَكُ فينفخُ فيه الرُّوحَ، ويُؤْمَرُ بأربعِ كلماتٍ: بكَتْبِ رِزْقِه، وأجَلِه، وعملِه، وشقِيٌّ أو سعيدٌ))(٣).

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

أي: وتمَّ أمرُ اللهِ ونفَذَ قضاؤُه بما سبقَ في عِلمه ليَمْلأنَّ جهنَّم ممَّن يستحِقُّها

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٩٩٢)، وابن أبي عاصم في ((السنة)) (٦٣)، والطبراني (١٨/ ٧٠) (١٢٩).
قال ابن كثير في ((البداية والنهاية)) (١٩/ ٣٦): إسنادُه لا بأسَ به، وجوَّد إسنادَه العراقي في ((الباعث على الخلاص)) (١٧)، ووثَّق رجالَه السخاوي في ((الأجوبة المرضية)) (٢/ ٥٧١)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٣٩٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٤٠، ٦٤١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٢٣٦) و(٨/ ١٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٧)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٢٠).
وممن اختار هذا المعنى المذكور: ابنُ جريرٍ، والقرطبيُّ، وابنُ تيميةَ، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.
وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، والحسنُ، وعطاءٌ، ومالكُ بنُ أنسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٣٧-٦٣٩).

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٠٨) مسلم (٢٦٤٣).

من الجِنِّ والإنسِ أجمعينَ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

وقال سُبحانه مخاطبًا إبليسَ: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٤-٨٥].

وعن أبي هريرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((احتجَّت النَّارُ والجنَّةُ، فقالت هذه: يَدخُلُني الجبَّارون والمتكَبِّرون، وقالت هذه: يَدخُلُني الضُّعَفاءُ والمساكينُ، فقال الله عزَّ وجلَّ لهذه: أنتِ عذابي أُعَذِّبُ بكِ من أشاء- وربَّما قال: أصيبُ بكِ من أشاء- وقال لهذه: أنتِ رحمتي أرحَمُ بكِ من أشاء، ولكلٍّ واحدةٍ منكما مِلؤُها))(٢).

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ فيه تنبيهٌ لهذه الأمَّةِ، وحَضٌّ لها على تغييرِ المُنكَر(٣)، وأن يكون فيهم بقايا مُصلِحون لِما أفسَدَ النَّاسُ، قائِمونَ بدِينِ اللهِ؛ يدعونَ من ضلَّ إلى الهُدى، ويَصبِرون منهم على الأذى، ويُبَصِّرونَهم مِن العَمى(٤).

٢- أصحابُ الدَّعوةِ إلى ربوبيَّةِ اللهِ وحدَه، وتطهيرِ الأرضِ مِن الفَسادِ الذي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٦٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٦٠٦).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٤٩) ومسلم (٢٨٤٦)، واللفظ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٩١).

يُصيبُها بالدَّينونةِ لغَيرِه، هم صِمامُ الأمانِ للأُمَم والشُّعوب، إنَّهم لا يؤدُّونَ واجِبَهم لربِّهم ولدينِهم فحسْبُ، إنَّما هم يَحُولونَ بهذا دون أُمَمِهم وغضَبِ اللهِ، واستحقاقِ النَّكالِ والضَّياعِ؛ قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ * وَما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُها مُصْلِحُونَ﴾[1].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ فيه أنَّه تعالى لا يُهلِكُ أهلَ القُرى بمجَرَّدِ كَونِهم مُشرِكينَ، إذا كانوا مُصلِحينَ في المُعاملاتِ فيما بينهم، بل إنَّما يُنزِلُ ذلك العذابَ إذا أساؤوا في المُعاملات وسَعَوا في الإيذاءِ والظُّلمِ[2]، وذلك على أحدِ أوجهِ تأويلِ الآيةِ.

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ الاختلافُ المذمومُ المحَذَّرُ منه هو الاختلافُ في أصولِ الدِّينِ الذي يترتَّبُ عليه اعتبارُ المخالفِ خارجًا عن الدِّينِ، وإن كان يزعُمُ أنَّه مِن متَّبِعيه، فإذا طرأ هذا الاختلافُ وجبَ على الأمَّةِ قَصمُه، وبَذلُ الوُسعِ في إزالتِه مِن بينهم بكُلِّ وسيلةٍ مِن وسائلِ الحَقِّ والعدلِ، بالإرشادِ والمُجادَلة الحَسَنة والمُناظَرة، فإنْ لم يَنجَعْ ذلك فبالقِتالِ، كما فعل أبو بكرٍ رَضِيَ الله عنه في قتالِ العَرَبِ الذين جَحَدوا وجوبَ الزَّكاةِ، وكما فعل عليٌّ رَضِيَ الله عنه في قِتالِ الحَرُوريَّة الذين كفَّروا المُسلمينَ، وهذه الآيةُ تحذيرٌ شديدٌ من ذلك الاختلافِ[3].

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٤/ ١٩٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٤١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٨٩).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ في تعقيبِ هذه الآيةِ لآيةِ الصَّبرِ إشارةٌ إلى أنَّ الصَّبرَ على الأمرِ بالمَعروفِ والنَّهيِ عن المُنكَر، في الذِّروةِ العُليا[1].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ في هذا تنويهٌ بأصحابِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فإنَّهم أولو بقيَّةٍ مِن قُريشٍ، يَدعونَهم إلى الإيمانِ حتى آمنَ كُلُّهم، وأولو بقيَّةٍ بين غيرِهم من الأُمَم الذين اختَلَطوا بهم، يدعونَهم إلى الإيمانِ والاستقامةِ بعد الدُّخولِ فيه، ويُعَلِّمونَ الدِّينَ، كما قال تعالى فيهم: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾[2] [آل عمران: ١١٠].

٣- الاختلافُ في كتابِ الله على وجهينِ:

أحدُهما: أن يكونَ كلُّه مذمومًا، كقولِه: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦].

والثاني: أن يكونَ بعضُهم على الحقِّ، وبعضُهم على الباطلِ، كقولِه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. لكن إذا أُطلِق الاختلافُ، فالجميعُ مذمومٌ، ومِن ذلك قوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ...﴾[3].

٤- إن قيل: ظاهرُ قوله تعالَى: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ يتعارضُ مَعَ قولِه تعالَى:

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٩٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٨٤).
(٣) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٥/ ٢٥٨).

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

فالجوابُ عن هذا: أنَّ الإرادةَ في قوله:﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ إرادةٌ كونيةٌ قدريةٌ، والإرادةُ في قوله:﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ إرادةٌ شرعيةٌ دينيةٌ، فبيَّن في قولِه :﴿ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، وقوله :﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾؛ أنَّه أراد بإرادتِه الكونيةِ القدريةِ صيرورةَ قومٍ إلى السعادةِ، وآخرين إلى الشقاوةِ، وبيَّن بقولِه :﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ أنه يريدُ العبادةَ بإرادتِه الشرعيةِ الدينيةِ مِن الجنِّ والإنسِ، فيوفِّق مَن شاء بإرادتِه الكونيةِ فيعبده، ويخذلُ مَن شاء فيمتنع مِن العبادةِ، وقيل غيرُ ذلك[1] .

٥- لا تجدُ اتِّفاقًا وائتلافًا إلَّا بسبَبِ اتِّباعِ آثارِ الأنبياءِ مِن القُرآنِ والحَديثِ، وما يَتبعُ ذلك، ولا تجدُ افتراقًا واختلافًا إلَّا عند مَن ترَكَ ذلك، وقدَّمَ غَيرَه عليه؛ قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ فأخبَرَ أنَّ أهلَ الرَّحمةِ لا يَختَلِفونَ، وأهلُ الرَّحمةِ هم أتباعُ الأنبياءِ قولًا وفِعلًا، وهم أهلُ القرآنِ والحديثِ مِن هذه الأمَّةِ، فمَن خالَفَهم في شيءٍ فاته مِن الرَّحمةِ بقَدرِ ذلك[2].

٦- أهلُ الإشراكِ مُتفرِّقون، وأهلُ الإخلاصِ متَّفِقونَ؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ فأهلُ الرَّحمةِ مُتَّفِقونَ مُجتَمِعونَ، والمُشرِكونَ فَرَّقوا دينَهم، وكانوا شِيَعًا[3].

٧- قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ قال قتادةُ: (أهلُ رَحمةِ اللهِ أهلُ الجَماعةِ، وإن تفَرَّقت ديارُهم وأبدانُهم، وأهلُ مَعصيتِه

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٢١).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٥٢).

(٣) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (٢/ ٣٨٠).

أهلُ فُرقةٍ، وإن اجتَمَعت دِيارُهم وأبدانُهم)[١].

٨- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ فيه ردٌّ على القَدَريَّةِ[٢].

٩- قولُ الله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ صريحٌ بأنَّ اللهَ تعالى خلقَ أقوامًا للجنَّةِ والرَّحمةِ، فهداهم ووفَّقَهم لأعمالِ أهلِ الجنَّةِ، وخلقَ أقوامًا للضَّلالةِ والنَّار، فخَذَلهم ومنَعَهم من الهدايةِ[٣].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ بيانُ الكلامِ الكونيِّ، ويُقابِلُه الكلامُ الدينيُّ، كقولِه تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾[٤] [التوبة: ٦].

١١- اتَّفقَ العُلَماءُ على أنَّ كفَّارَ الجِنِّ يَدخُلونَ النَّارَ، كما أخبَرَ الله بذلك في قولِه تعالى: ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[٥].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ﴾ فيه الإتيانُ بفاءِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٦٢).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٨٦).

(٤) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٨٢).

(٥) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ١٠٠٩).

التَّفريعِ؛ لأنَّه في موقعِ التَّفصيلِ والتَّعليلِ لِجُملةِ ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢] وما عُطِف عليها، كأنَّه قيل: (وإنَّ كُلًّا لَمَّا ليُوفِّيَنَّهم ربُّك أعمالَهم؛ فلَولا كان مِنهم بَقيَّةٌ ينهَوْن عن الفسادِ في الأرضِ...) إلى آخرِه، أي: فاحْذَروا أن تكونوا كما كانوا، فيُصيبَكم ما أصابَهم، وكُونوا مُستقيمين ولا تَطْغَوا، ولا تَرْكَنوا إلى الظَّالِمين، وأقيموا الصَّلاةَ، فغيَّر نَظْمَ الكلامِ إلى هذا الأسلوبِ الَّذي في الآيةِ؛ لِتَفنُّنِ فَوائدِه ودَقائقِه، واستقلالِ أغراضِه، مع كونِها آيِلَةً إلى غرَضٍ يَعُمُّها، وهذا مِن أبدَعِ أساليبِ الإعجازِ الَّذي هو كَرَدِّ العجُزِ على الصَّدرِ مِن غيرِ تكلُّفٍ، ولا ظُهورِ قَصدٍ(١).

- وفيه إطلاقُ البقيَّةِ على الفضلِ؛ وهي كنايةٌ غَلَبَت فسارَت مَسْرى الأمثالِ؛ لأنَّ شأنَ الشَّيءِ النَّفيسِ أنَّ صاحِبَه لا يُفرِّطُ فيه(٢).

٢- قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾

- صيغةُ ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ﴾ تَدُلُّ على قوَّةِ انتفاءِ الفعلِ؛ وأصلُ هذا التَّركيبِ في الكلامِ: ما كان فُلانٌ فاعِلًا كذا، فلمَّا أُريدَتِ المبالغةُ في النَّفيِ عُدِل عن نفْيِ الفعلِ إلى نفْيِ المصدَرِ الدَّالِّ على الجنسِ، وجُعِل نفْيُ الجنسِ عن الشَّخصِ بواسِطَةِ نَفْيِ الاستحقاقِ؛ فصار التَّركيبُ: ما كان له أن يَفعَلَ(٣).

- واللَّامُ في قولِه: ﴿لِيُهْلِكَ﴾ لِتأكيدِ النَّفيِ(٤)، وهي لامُ الجُحودِ؛ لِقَصدِ المبالَغةِ في النَّفيِ، بحيث يُنفَى أن يَكونَ وُجودُ المسنَدِ إليه مَجعولًا لأجْلِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٨٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٨٦) و(٣/ ٢٩٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١١٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٤٧).

فِعْلِ كذا، أي: فهو بَريءٌ منه بالأصلِ؛ ولذلك سُمِّيَت جُحودًا(١).

- وتَنكيرُ ﴿بِظُلْمٍ﴾؛ للتَّفخيم، والإيذانِ بأنَّ إهلاكَ المصلِحين ظُلمٌ عظيمٌ، والمرادُ: تنزيهُ اللهِ تعالى عن ذلك بالكُلِّيَّةِ بتَصْويرِه بصورةِ ما يَستَحيلُ صُدورُه عنه تعالى(٢).

- وفيه مناسبةٌ حسنةٌ، حيث قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾، وفي سورةِ (القَصص) قال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩]، فقال في أُولَى الآيتَين: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ﴾، وفي الثَّانيةِ: ﴿وَمَا كُنَّا﴾؛ ووجهُ ذلك: أنَّ آيةَ (هودٍ): ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ﴾ بإضافةِ اسْمِ الرَّبِّ جلَّ وتعالى إلى ضميرِ نَبيِّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم المخاطَبِ بهذه؛ مُلاطَفةً له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتأنيسًا له ولأُمَّتِه، وإشعارًا بعظيمِ حَظْوَتِه ومَنزلتِه لدَيه سبحانَه، ثمَّ أتبَع تعالى هذا بقولِه: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩]؛ فأخبَر تعالى أنَّه ما أهلَكَهم إلَّا بعدَ استِحْقاقِ جَميعِهم العذابَ وتَساويهم في الظُّلم، وقيل في هذه الآيةِ الأخيرةِ: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى﴾؛ لئلَّا يتَكرَّرَ اللَّفظُ بعينِه مع الاتِّصالِ والقربِ وليس مِن مَواضِعِه(٣).

- ومِن المناسَبةِ أيضًا قولُه هنا في سورةِ (هودٍ): ﴿لِيُهْلِكَ الْقُرَى﴾، وقال في سورةِ (القَصص): ﴿مُهْلِكَ الْقُرَى﴾، و﴿مُهْلِكِي الْقُرَى﴾ [القصص: ٥٩]؛ فاختصَّتِ الآيةُ الَّتي في سورةِ (هودٍ) بلَفظِ الفعلِ في خبَرِ كان،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٦٤-٢٦٥).

والأُخرَيانِ بالاسْمِ وهو (مُهْلِكَ)؛ ووجهُ ذلك: أنَّ اللَّامَ في قولِه ﴿لِيُهْلِكَ﴾ تُسمَّى لامَ الجُحودِ، ولا تَخلو منه، فالمعنى: لم يَكُنْ فيما مضى يقَعُ منِّي هذا الفعلُ، ولا يقَعُ فيما يُستقبَلُ ولا في الحالِ، وإذا كان كذلك وكان هذا نهايةَ ما يُخاطِبُ به العرَبُ في نفْيِ الفعلِ، وامتِناعِ وُقوعِه، خصَّه اللهُ تعالى بالمكانِ الَّذي لا يقَعُ ذلك مِنه أبدًا، ولم يقَعْ منه قَطُّ، وهو أنَّه لم يَكُنْ فيما مَضى يُهلِكُ القرى ظالِمًا لها مع صلاحِ أهلِها، ولا يَفعَلُه، ولا يَليقُ بعَدلِه، وهو مُنزَّهٌ عنه تعالى اللهُ عن ذلك.

وأمَّا قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩]، فإنَّه لم يَكُنْ فيها صريحُ ظُلمٍ يُنسَبُ إليه، ولم يَكُنْ مَلفوظًا به، فيُؤتى باللَّفظِ الأبلَغِ في نفْيِه، كما كان في قولِه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ﴾، فإنَّه أبلَغُ في الانتفاءِ مِن الظُّلمِ[1].

وفيه وجهٌ آخَرُ: أنَّه جيءَ بالفعلِ في قولِه: ﴿لِيُهْلِكَ﴾ إشارةً إلى التَّكرُّرِ بحسَبِ ما يَكونُ منهم؛ فلو كان في كلِّ أمَّةٍ وقَرْنٍ بعدَ قرنٍ مَن يَنهى عن الفسادِ والظُّلمِ، لَمَا أخَذ بِذَوي الظُّلمِ منهم، ولكان تعالى يَدْفَعُ بعضَهم عن بعضٍ، ولكنْ تكرَّرَ الفسادُ وعَمَّ كلَّ قرنٍ، فتكرَّر عليهم الجزاءُ والأخذُ، فأشار الفعلُ إلى التَّكرُّرِ، ولم يَكُنِ الاسمُ لِيُعطِيَ ذلك، وهذا كقَولِه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ [الملك: ١٩]، ولَم يَقُلْ: (وقَابِضاتٍ)؛ لِمَا قصَده مِن مَعنى التَّكرُّرِ، وأمَّا قولُه في سورةِ (القصصِ): ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا﴾ [القصص: ٥٩]؛ فإنَّه تَقدَّم هذا في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٧٨٣-٧٨٩)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٤٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٧٢).

وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٥١]، أي: أَتْبَعْنا وواليْنا التَّذكارَ، ويَشهَدُ له قولُه تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، فلمَّا أعلَم سبحانه تَتابُعَ التَّذكارِ وتَعاقُبَ الإنظارِ، قال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا﴾ [القصص: ٥٩]، وناسب هذا ذِكْرَ اسْمِ الفاعلِ؛ لأنَّه قصَد ذِكْرَ الاتِّصافِ بهذا، ولم يَقصِدِ التَّكرُّرَ، ولم يَكُنْ حاصِلَه[١].

- ومن المناسَبةِ الحسَنةِ كذلك: قولُه أيضًا في الأولى: ﴿مُصْلِحُونَ﴾ وفي الثَّانيةِ: ﴿حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا﴾، وفي الثَّالثةِ: ﴿إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾؛ لأنَّ آيَةَ هودٍ تَقدَّمَها قولُه تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ [هود: ١١٦]، أي: فهَلَّا كان منهم خِيارٌ يَنهَوْن عن الفسادِ والظُّلمِ؛ فلو كان منهم ذلك لَمَا هلَكوا، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧]، أي: ما كان لِيَفعَلَ بهم ذلك وإنْ وقَع منهم ظُلمٌ، إذا كان فيهم مُغيِّرٌ للظُّلمِ وناهٍ عن الفسادِ، ولكنَّهم كانوا كما أخبَر تعالى عن المعتَدِين مِن بَني إسرائيلَ في قولِه تعالى عنهم: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾[٢] [المائدة: ٧٩].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾

- في قولِه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ حُذِفَ مفعولُ فِعْلِ المشيئةِ؛ لأنَّ المرادَ منه ما يُساوي مَضمونَ جَوابِ الشَّرطِ؛ فحُذِف إيجازًا،

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٦٤-٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والتَّقديرُ: ولو شاء ربُّك أن يَجعَل النَّاسَ أمَّةً واحدةً لجعَلهم كذلك[١].

٤- قولُه تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾

- قَولُ الله تعالى: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ﴾ أي: قَبيلِ الجِنِّ، قيل: قدَّمَهم لأنَّهم أصلٌ في الشَّرِّ، ثمَّ عَمَّ فقال: ﴿وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[٢]، ويحتمِلُ أنَّه قدَّمهم لسبقِهم في الخلقِ.

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١٢/ ١٨٨).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٤٠٣).

الآيات (١٢٠-١٢٣)

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: ونَقصُّ عليك- أيُّها النَّبيُّ- من أخبارِ الرُّسُلِ- الذين كانوا قَبلَك- كلَّ ما تحتاجُ إليه ممَّا يُقوِّي قَلبَك للقيامِ بأعباءِ الرِّسالةِ، وقد جاءك في هذه السُّورةِ وما اشتَمَلت عليه من أخبارٍ بيانُ الحقِّ الذي أنت عليه، ومَوعِظةٌ مِن اللهِ- يتَّعظ بها المؤمنون إذا سَمِعوا فيها ما نزَل بالأُمَم مِن العذابِ- وتذكيرٌ للمؤمنينَ، وقُلْ- يا محمَّدُ- للكافرينَ الذين لا يُقِرُّونَ بوحدانيَّةِ اللهِ: اعمَلوا ما أنتم عامِلونَ، على حالتِكم وطريقَتِكم في مقاومةِ الدَّعوةِ، وإيذاءِ الرَّسولِ والمُستَجيبينَ له، فإنَّا عامِلونَ على مكانَتِنا وطريقَتِنا مِن الثَّباتِ على دينِنا، وتَنفيذِ أمرِ اللهِ، وانتَظِروا عاقِبةَ أمرِنا؛ فإنَّا مُنتَظِرونَ عاقِبةَ أمرِكم، ولله سُبحانَه وتعالى عِلمُ كُلِّ ما غاب في السَّمواتِ والأرضِ، وإليه يُرجَعُ الأمرُ كلُّه يومَ القيامةِ، فاعبُدْه- أيُّها النبيُّ- وفوِّضْ أمرَك إليه، وما ربُّك بغافِلٍ عمَّا تعملونَ مِن الخيرِ والشَّرِّ، وسيُجازي كُلًّا بعَمَلِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ الله تعالى في هذه السُّورةِ مِن أخبارِ الأنبياءِ ما ذكَرَ؛ ذكَرَ الحِكمةَ في ذِكرِ ذلك[(١)]، فقال:

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾.

أي: ونَقُصُّ عليك- يا مُحمَّدُ- كلَّ ما تحتاجُ إلى مَعرفتِه مِن أخبارِ الرُّسُلِ المتقَدِّمينَ؛ ما نُثَبِّتُ به قَلبَك، فتزدادُ إيمانًا ويقينًا وصبرًا على تكذيبِ قَومِك، كما صبَرَ المُرسَلونَ مِن قَبلِك[(٢)].

﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ ﴾.

أي: وجاءك- يا مُحمَّدُ- في هذه السُّورةِ الحَقُّ الذي لا شَكَّ فيه[(٣)].

﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

أي: وجاءَك في هذه السورةِ أيضًا مَوعِظةٌ مِن اللهِ يتَّعظ بها المؤمنون إذا سَمِعوا فيها ما نزَل بالأُمَم مِن العذابِ، ويَحترِزونَ عمَّا أهلكها، فتلينُ قلوبُهم لسلوكِ الحقِّ- وتذكيرٌ للمؤمنينَ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٤٢)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٢).

(٤) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٥٩٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤١٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢١٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٦٠٦)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٩٣).

وممن قال بأنَّ الموعظةَ والذكرى كلاهما للمؤمنينَ: الواحدي وابنُ الجوزي، وابنُ عطية، =

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

وقال سُبحانه: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (١٢١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بالغَ تعالى في الإعذارِ والإنذارِ، والتَّرغيبِ والتَّرهيبِ؛ أتبَعَ ذلك بالتَّهديدِ والوَعيدِ[1].

وأيضًا فإنَّها عَطفٌ على جُملةِ ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾ [هود: ١٢٠]؛ لأنَّها لَمَّا اشتَمَلت على أنَّ في هذه القِصَّةِ ذِكرى للمُؤمنين؛ أُمِرَ بأن يُخاطِبَ الذين لا يُؤمِنونَ بما فيها خطابَ الآيسِ مِن انتفاعِهم بالذِّكرى، الذي لا يعبأُ بإعراضِهم، ولا يصُدُّه عن دَعوتِه إلى الحَقِّ تألُّبُهم على باطِلِهم، ومقاومتُهم الحَقَّ[2].

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (١٢١)﴾.

أي: وقُلْ- يا محمَّدُ- للذين لا يُقرُّونَ بتوحيدِ اللهِ، ولا يصدِّقونَك: اعمَلوا على طَريقتِكم وحالتِكم التي أنتم عليها، متمَكِّنينَ مِن العمَلِ الذي تعملونَه، إنَّا مُستَمِرُّونَ على العمَلِ بمَنهجِنا الذي أمَرَنا اللهُ به[3].

= والقرطبي، وأبو حيان، والشوكاني، والقاسمي، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.
وقال ابن جرير: (وجاءَك موعظةٌ تَعِظُ الجاهلينَ بالله). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٤٧).
وقال ابنُ كثير: (وموعظةٌ يرتَدِعُ بها الكافرونَ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٦٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٠/ ٦٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٢).

﴿ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ١٢٢ ﴾.

أي: وانتَظِروا ما يحُلُّ بنا من رحمةِ اللهِ، إنَّا مُنتَظِرونَ ما وعدَنا اللهُ مِن عُقوبتِكم ونَصْرِنا عليكم[1].

كما قال تعالى حكايةً عن شُعَيب عليه السَّلامُ: ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود: ٩٣].

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ١٢٣ ﴾.

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: ولله مُلكُ كُلِّ ما غاب عن عبادِه في السَّموات والأرضِ، وهو العالمُ بكُلِّ ما فيهما من الخَفايا والغُيوبِ[2].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [فاطر: ٣٨].

وقال سُبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحجرات: ١٨].

﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٤٨)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٢).

أي: وإلى الله وَحْدَه مَرجِعُ كُلِّ عاملٍ وعَمَلِه، فيُجازيهم يومَ القيامةِ على جميعِ أعمالِهم[1].

كما قال تعالى: ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣].

﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾.

أي: فاعبُدِ اللهَ وَحدَه- يا محمَّدُ- وفوِّضْ إليه جميعَ أمورِك، واستَعِنْ به[2].

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

أي: وما ربُّك- يا محمَّدُ- بغافلٍ عمَّا تَعملونَ مِن خَيرٍ أو شَرٍّ، وسيُجازي كلَّ واحدٍ بعَمَلِه[3].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١ - قولُه تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه أنَّ سَماع أخبارِ الأخيارِ فيه تقويةٌ للعزائمِ، وإعانةٌ على اتِّباعِ تلك الآثارِ؛ فإنَّ النفوسَ تأنسُ بالاقتداءِ، وتنشطُ على الأعمالِ، وتريدُ المنافسةَ لغيرِها، ويتأيَّد الحقُّ بذكرِ شواهدِه، وكثرةِ مَن قام به[4].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩٢).

(٤) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٤٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص:٣٩٢).

تضمَّنَت الآيةُ الاعتبارَ مِن قَصَصِ الرُّسُل، بما فيها مِن حُسنِ صَبرِهم على أُمَمِهم، واجتهادِهم على دُعائِهم إلى عبادةِ الله بالحَقِّ، وتذكير الخيرِ والشَّرِّ، وما يدعو إليه كلٌّ منهما مِن عاقبةِ النَّفعِ والضُّرِّ؛ للثَّباتِ على ذلك جميعِه اقتداءً بهم(١).

٣- قولُ الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ اشتَمل على خمسِ جُملٍ: الجملةُ الأولى: دلَّت على أنَّ عِلمَه محيطٌ بجميعِ الكائناتِ؛ كُلِيِّها وجُزئيِّها، حاضِرِها وغائِبِها؛ لأنَّه إذا أحاط عِلمُه بما غاب فهو بما حضر مُحيطٌ؛ إذ عِلمُه تعالى لا يتفاوَتُ. والجُملةُ الثانية: دلَّت على القُدرةِ النَّافذة والمَشيئة. والجملة الثالثة: دلَّت على الأمرِ بإفرادِ مَن هذه صِفاتُه، بالعبادةِ الجسَديَّة والقَلبيَّة، والجملة الرابعة: دلَّت على الأمرِ بالتوكُّلِ. والجملة الخامسة: تضمَّنَت التنبيهَ على المجازاة، فلا يُضيعُ طاعةَ مُطيعٍ، ولا يُهمِلُ حالَ متمَرِّدٍ(٢).

٤- قال الله تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ التوكُّلُ لا يصِحُّ بغير العبادةِ، والأخذِ بالأسبابِ المُستطاعةِ، وإنَّما يكونُ بدونِهما من التمنِّي الكاذبِ، والآمالِ الخادعةِ، كما أنَّ العِبادةَ- وهي ما يُرادُ به وَجهُ اللهِ مِن كُلِّ عَملٍ- لا تَكمُلُ إلَّا بالتوكُّلِ الذي يَكمُلُ به التَّوحيدُ(٣)، فصلاحُ العبدِ وسعادتُه في تحقيقِ معنى قولِه تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقد جمَع الله سبحانه بين هذين الأصلين في مواضعَ من كتابِه، كقوله عن نبيِّه شعيبٍ: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨] وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٤٠٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٣٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٢/ ١٦٣).

الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحمدِهِ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وقوله: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً رَبُّ المشْرِقِ والمغْرِبِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾ [المزمل: ٨-٩]، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠]، وقوله عن الحنفاءِ أتباعِ إبراهيمَ عليه السلام: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤] فهذه سبعةُ مواضعَ تنتظمُ هذين الأصلين الجامعين لمعنيي التوحيدِ، اللذين لا سعادةَ للعبدِ بدونهما البتةَ(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾ ذكَرَ العُلَماءُ في تخصيصِ هذه السورةِ بوَصفِها بالحَقِّ- والقرآنُ كُلُّه حقٌّ- أوجُهًا:

الوجهُ الأولُ: أنَّ ذلك يتضمَّنُ معنى الوعيدِ للكَفَرةِ والتَّنبيهِ للنَّاظر، أي: جاءك في هذه السُّورةِ الحَقُّ الذي أصاب الأُمَم الظَّالمة، وهذا كما يُقالُ عند الشَّدائدِ: جاء الحقُّ، وإن كان الحقُّ يأتي في غيرِ شَديدةٍ وغيرِ ما وجهٍ، ولا تستَعملُ في ذلك جاء الحقُّ(٢).

الوجهُ الثاني: خصَّ هذه السُّورةَ؛ لأنَّ فيها أخبارَ الأنبياءِ والجنَّةِ والنَّارِ.

الوجهُ الثالثُ: خصَّها بالذِّكرِ تأكيدًا، وإن كان الحقُّ في كلِّ القُرآنِ، وهذا تشريفٌ لهذه السورة؛ لأنَّ غيرَها من السُّوَرِ قد جاء فيها الحقُّ والموعِظةُ والذِّكرى(٣).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ

---

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١٦).

* وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ في أمرِ اللهِ رَسولَه بأن يقولَ ذلك على لسانِ المُؤمنين شهادةٌ مِن اللهِ بصِدقِ إيمانِهم، وفيه التَّفويضُ إلى رأسِ الأمَّةِ بأن يقطعَ أمرًا عن أُمَّتِه؛ ثِقةً بأنَّهم لا يردُّونَ فِعلَه[1].

٣- ختم اللهُ سورةَ هودٍ بقولِه تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ﴾ إلى آخِرِها، كما افتتَحها بقولِه تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ فذَكَرَ التوحيدَ والإيمانَ بالرُّسُلِ، وهذا فيه بيانُ دينِ اللهِ في الأوَّلين والآخِرينَ[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ﴾ تذييلٌ وحَوْصَلةٌ لِمَا تقَدَّم مِن أنباءِ القُرى وأنباءِ الرُّسلِ[3].

- و﴿كُلًّا﴾ منصوبٌ على المفعوليَّةِ للفِعْلِ ﴿نَقُصُّ﴾، وتَقديمُه على فِعلِه؛ للاهتمامِ، ولِمَا فيه مِن الإبهامِ؛ لِيَأتِيَ بَيانُه بعدَه فيَكونَ أرسَخَ في ذِهْنِ السَّامعِ[4].

- قولُه: ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ بيانٌ لـ ﴿كُلًّا﴾ أو بدَلٌ منه، وفائدتُه: التَّنبيهُ على المقصودِ مِن الاقتِصاصِ، وهو زِيادةُ يَقينِه، وطُمأنينَةُ قَلْبِه، وثَباتُ نَفْسِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٩١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

على أداءِ الرِّسالةِ، واحتِمالِ أذى الكفَّارِ[١].

- قولُه: ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾ فيه تقديمُ الظَّرفِ ﴿فِي هَذِهِ﴾ على الفاعلِ ﴿الْحَقُّ﴾؛ لأنَّ المقصودَ بَيانُ مَنافعِ السُّورةِ أو الأنباءِ المقصوصةِ فيها، واشتِمالِها على ما ذُكِر مِن المنافعِ المفصَّلةِ، لا بَيانُ كَوْنِ ذلك فيها لا في غَيرِها، ولأنَّ عِندَ تَأخيرِ ما حَقُّه التَّقديمُ تَبقى النَّفسُ مُترقِّبةً له؛ فيتَمكَّنُ فيها عندَ الوُرود فضْلَ تَمكُّنٍ، ولأنَّ في المؤخَّرِ نَوعَ طُولٍ يُخِلُّ تَقديمُه بتَجاوُبِ أطرافِ النَّظْمِ الكريمِ[٢].

- قولُه: ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى﴾ فيه تنكيرُ الموعظةِ والذِّكْرى؛ للتَّعظيمِ[٣].

- قوله: ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ خَصَّ المؤمنينَ؛ لكونِهم المتأهِّلينَ للاتعاظِ والتذكُّرِ، وهم المتَّعِظونَ إذا سَمِعوا قَصَص الأنبياءِ[٤].

- قولُه: ﴿اعْمَلُوا﴾ صيغةُ أمرٍ، ومعناه: التَّهديدُ والوعيدُ[٥].

- قولُه: ﴿وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ أمرٌ فيه تهديدٌ ووَعيدٌ[٦]، مع ما في تأكيدِ الكلامِ بـ (إنَّ) واسميَّةِ الجُمْلةِ.

٢- قولُه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٦٠٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٢٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٩٤).

- قولُه: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ كلامٌ جامعٌ، وهو تذييلٌ للسُّورةِ مُؤْذِنٌ بخِتامِها، فهو مِن بَراعةِ المَقطَعِ[1].

- وتقديمُ المجرورَينِ في قولِه: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ﴾ لإفادةِ الاختصاصِ، وهو تَعريضٌ بفَسادِ آراءِ الَّذين عبَدوا غيرَه؛ لأنَّ مَن لم يَكُنْ كذلك لا يَستحِقُّ أن يُعبَدَ، ومَن كان كذلك كان حَقيقًا بأن يُفْرَدَ بالعبادةِ[2].

- والتَّعريفُ في ﴿الْأَمْرُ﴾ تعريفُ الجنسِ فيَعُمُّ الأمورَ، وتأكيدُ ﴿الْأَمْرُ﴾ بـ﴿كُلُّهُ﴾ للتَّنصيصِ على العُمومِ[3].

- قولُه: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ في تأخيرِ الأمْرِ بالتَّوكُّلِ عن الأمرِ بالعبادةِ: إشعارٌ بأنَّه لا يَنفَعُ دُونَها[4].

- وخصَّ التوكل بالذكر وهو الاسْتِعانَة وهِي من عبَادَة الله؛ ليقصدها المتعبد بخصوصها، فإنَّها هِيَ العونُ على سَائرِ أنواعِ العبادَةِ؛ إِذْ هو سبحانَه لا يُعبدُ إلَّا بمعونتِه[5].

- قولُه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ تَذييلٌ لِمَا تَقدَّم؛ فإنَّ عدَمَ غَفلَتِه عن أيِّ عمَلٍ تَعني أنَّه يُعْطي كلَّ عامِلٍ جَزاءَ عمَلِه؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٩٥-١٩٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٢/ ١٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٤٩).

(٥) يُنظر: ((العبودية)) لابن تيمية (ص: ٧٥).

فشَرٌّ؛ ولذلك عُلِّق وصْفُ الغافِلِ بالعمَلِ، ولم يُعلَّقْ بالذَّواتِ نَحْوُ: (بغافِلٍ عَنكُم)؛ إيماءً إلى أنَّ على العمَلِ جزاءً[1].

تمَّ بحمدِ اللهِ المجلدُ العاشرُ
ويَليهِ المجلدُ الحادي عشرَ
وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ يوسفَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٩٦).

الفهرس

الفهرس

سورة هود ٧
أسماءُ السورةِ ٧
بيانُ المكيِّ والمدنيِّ ٧
مقاصدُ السورةِ ٧
موضوعاتُ السورةِ ٨
الآيات (١-٥) ٩
غَريبُ الكَلِماتِ ٩
المعنَى الإجماليُّ ١٠
تَفسيرُ الآياتِ ١٠
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ١٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٠
بلاغةُ الآياتِ ٢٢
الآيتان (٦-٧) ٢٨
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٨
المعنَى الإجماليُّ ٢٨
تَفسيرُ الآيتَينِ ٢٩
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٣٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٥
بلاغةُ الآيتينِ ٣٨

الآيات (٨-١١) ٤٠
غريبُ الكَلِماتِ ٤٠
المعنَى الإجماليُّ ٤٠
تَفسيرُ الآياتِ ٤١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٤٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٦
بلاغةُ الآياتِ ٤٧
الآيات (١٢-١٤) ٥٢
المعنَى الإجماليُّ ٥٢
تَفسيرُ الآياتِ ٥٢
الفَوائِد التربويَّة ٥٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٥٩
بلاغةُ الآياتِ ٦٠
الآيات (١٥-١٧) ٦٦
غَريبُ الكَلِماتِ ٦٦
المعنَى الإجماليُّ ٦٦
تَفسيرُ الآياتِ ٦٧
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٧٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٧٦
بلاغةُ الآياتِ ٧٨

الآيات (١٨-٢٤) ٨٤
غَريبُ الكَلِماتِ ٨٤
مُشكِلُ الإعرابِ ٨٥
المَعنى الإجماليُّ ٨٦
تَفسيرُ الآياتِ ٨٧
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٩٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٩٦
بلاغةُ الآياتِ ٩٨
الآيات (٢٥-٣١) ١٠٨
غريبُ الكَلِماتِ ١٠٨
مُشكِلُ الإعرابِ ١٠٩
المَعنى الإجماليُّ ١١٠
تَفسيرُ الآياتِ ١١٠
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ١٢١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٢٣
بلاغةُ الآياتِ ١٢٤
الآيات (٣٢-٣٥) ١٣٥
غَريبُ الكَلِماتِ ١٣٥
المَعنى الإجماليُّ ١٣٥
تَفسيرُ الآياتِ ١٣٦

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ١٣٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٣٩
بلاغةُ الآياتِ ١٤٠
الآيات (٣٦-٣٩) ١٤٣
غَريبُ الكَلِماتِ ١٤٣
المَعنى الإجماليُّ ١٤٣
تَفسيرُ الآياتِ ١٤٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ١٤٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٤٧
بلاغةُ الآياتِ ١٤٧
الآيات (٤٠-٤٤) ١٥٠
غريبُ الكَلِماتِ ١٥٠
مُشكِلُ الإعرابِ ١٥١
المَعنى الإجماليُّ ١٥٢
تَفسيرُ الآياتِ ١٥٣
الفَوائِدُ التربويَّةُ ١٥٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٥٩
بلاغةُ الآياتِ ١٦٠
الآيات (٤٥-٤٩) ١٦٨
المعنَى الإجماليُّ ١٦٨

تَفسيرُ الآياتِ ١٦٩
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ١٧٥
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١٧٧
بلاغةُ الآياتِ ١٧٩
الآيات (٥٠-٦٠) ١٨٧
غريبُ الكَلِماتِ ١٨٧
المعنَى الإجماليُّ ١٨٨
تَفسيرُ الآياتِ ١٨٩
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ١٩٩
الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٠٠
بلاغةُ الآياتِ ٢٠٣
الآيات (٦١-٦٨) ٢١٥
غريبُ الكَلِماتِ ٢١٥
المعنَى الإجماليُّ ٢١٧
تَفسيرُ الآياتِ ٢١٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٢٢٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٢٥
بلاغةُ الآياتِ ٢٢٦
الآيات (٦٩-٧٦) ٢٣٣
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٣٣

مُشكِلُ الإعرابِ ٢٣٤
المعنَى الإجماليُّ ٢٣٤
تَفسيرُ الآياتِ ٢٣٥
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٢٤٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٤٢
بلاغةُ الآياتِ ٢٤٤
الآيات (٧٧-٨٣) ٢٥٣
غريبُ الكَلِماتِ ٢٥٣
المعنَى الإجماليُّ ٢٥٥
مُشكِلُ الإعرابِ ٢٥٦
تَفسيرُ الآياتِ ٢٥٦
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٢٦٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٦٦
بلاغةُ الآياتِ ٢٧٠
الآيات (٨٤-٨٦) ٢٧٩
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٧٩
المعنَى الإجماليُّ ٢٧٩
تَفسيرُ الآياتِ ٢٨٠
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٢٨٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٨٥

بلاغةُ الآياتِ ٢٨٧
الآيات (٨٧-٩٠) ٢٩١
غريبُ الكَلِماتِ ٢٩١
مُشكِلُ الإعرابِ ٢٩١
المعنَى الإجماليُّ ٢٩٢
تَفسيرُ الآياتِ ٢٩٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٢٩٨
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٩٩
بلاغةُ الآياتِ ٣٠١
الآيات (٩١-٩٥) ٣٠٥
غريبُ الكَلِماتِ ٣٠٥
المعنى الإجماليُّ ٣٠٦
تَفسيرُ الآياتِ ٣٠٦
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٣١١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣١٢
بلاغةُ الآياتِ ٣١٤
الآيات (٩٦-٩٩) ٣٢١
غريبُ الكَلِماتِ ٣٢١
المعنى الإجماليُّ ٣٢١
تَفسيرُ الآياتِ ٣٢٢

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٣٢٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٢٤
بلاغةُ الآياتِ ٣٢٥
الآيات (١٠٠ - ١٠٨) ٣٣١
غَريبُ الكَلِماتِ ٣٣١
المعنَى الإجماليُّ ٣٣٢
تَفسيرُ الآياتِ ٣٣٣
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٣٤٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٤٤
بلاغةُ الآياتِ ٣٤٧
الآيات (١٠٩-١١٥) ٣٥٢
غَريبُ الكلِماتِ ٣٥٢
مُشكِلُ الإعرابِ ٣٥٢
المعنَى الإجماليُّ ٣٥٣
تَفسيرُ الآياتِ ٣٥٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٣٦٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٦٨
بلاغةُ الآياتِ ٣٧١
الآيات (١١٦-١١٩) ٣٧٧
غريبُ الكَلِماتِ ٣٧٧

المعنَى الإجماليُّ ٣٧٧
تَفسيرُ الآياتِ ٣٧٨
الفَوائِدُ التَّربويَّة ٣٨٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٨٦
بلاغةُ الآياتِ ٣٨٨
الآيات (١٢٠-١٢٣) ٣٩٤
المعنَى الإجماليُّ ٣٩٤
تَفسيرُ الآياتِ ٣٩٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ٣٩٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٤٠٠
بلاغةُ الآياتِ ٤٠١